مجلة الرسالة

أصدرها
أحمد حسن الزيات باشا
(المتوفى: 1388هـ)

عدد الأعداد: 1025 عددا
(على مدار 21 عاما)

العدد 1 - بتاريخ: 15 - 01 - 1933
الرسالة
وأخيراً تغلب العزم المصمم على التردد الخوار فصدرت الرسالة: وما سلط على . . .
نفوسنا هذا التردد إلا نُذُر تشاع وأمثال تروى. . وكلها تصور الصحافة الأدبية في مصر
سبيلا ضلت صواها وكثرت صرعاها فلم يوفِ أحد منها على الغاية، والعلة أن السياسة
طغت على الفن الرفيع، والأزمة مكنت للأدب الرخيص، والأمةمن خداع الباطل في
لَبْس من الأمر لا تَمَّيز ما تأخذ مما تدع! فلما تناصرت على هذه الوساوس حجج
العقل، ونوازع الواجب، وعِدَات الأمل، أُصبحت الأسباب التي كانت تدفع إلى النكول
بواعث على الإقدام وحوافز للعمل، لأن غاية (الرسالة) أن تقاوم طغيان السياسة
بصقل الطبع، وبهْرجَ الأدب بتثقيف الذوق، وحيرة الأمة بتوضيح الطريق.
أجل هذه غاية الرسالة! وما يَصْدِفنا عن سبيلها ما نتوقع من صعاب وأذى، فإن أكثر
الناهضين بها قد طووا مراحل الشباب على منصة التعليم، فلا يعيبهم أن يُخلقوا بُرْد
الكهولة على مكتب الصحافة، والعملان في الطبيعة والتبعة سواء، ومن قضى ربيع
الحياة في مجادب ذلك، لا يشق عليه أن يقضي خريفها في مجاهل هذا!
أما مبدأ الرسالة فربط القديم بالحديث، ووصل الشرق بالغرب. فبربطها القديم
بالحديث تضع الأساس لمن هار بناؤه على الرمل، وتقيم الدَّرَج لمن استحال رقيه
بالطفور! وبوصلها الشرق بالغرب تساعد على وجدان الحلقة التي ينشدها صديقنا
الأستاذ أحمد أمين في مقاله القيمبهذا العدد. والرسالة تستغفر الله مما يخامرها من
زهو الواثق حينما تَعِد وتتعهد. فإن اعتمادها على الأدباء البارعين والكتاب النابهين في
مصر والشرق العربي، واعتصامها بخلصانها الأدنين من أعضاء لجنة التأليف والترجمة
والنشر، وهم صفوة من خرَّجت مصر الحديثة في مناحي الثقافة، إذا اجتمعا في نفسها
مع ما انطوت عليه من صدق العزم وقوة الإيمان أحدثا هذه الثقة التي تِشيع في
الحديث عن غير قصد.
على أن للرسالة من روح الشباب سندا له خطره وأثرهُ، فإنهم أحرص الناس على أن
يكون لثقافتهم الصحيحة مظهر صحيح. وما دامت وجهة الرسالة الأحياء والتجديد،
وطبيعة الشباب الحيوية والتجدد، فلا بد أن يتوافيا على مشروع واحد!
فإلى أبناء النيل وبَردى والرافدين نتقدم بهذه الرسالة، راجين أن تضطلع بحظها من
الجهد المشترك في تقوية النهضة الفكرية، وتوثيق الروابط الأدبية، وتوحيد الثقافة
العربية، وهي
على خير ما يكون المخلص من شدة الثقة بالمستقبل.
وقوة الرجاء بالله.
أحمد حسن الزيات

حوادث وأحاديث
أحمد حسن الزيات

شوقي وحافظ
تصدر الرسالة والأسى لا يزال يرمض القلوب على حافظ وشوقي. ولئن رمت المنون لسانيهما الذليقين بالصمت الأبدي، فقد تركت حظيهما يتنازعان الذكر على ألسن الناس. وكان حظ شوقي في مماته كما كان في حياته شديد السطوع قوي البهر فكسف حظ أخيه! وكاد حافظ البائس يضيع في شوقي المجدود كما ضاع موت المنفلوطي في موت سعد!
كان لشوقي المأتم الحافل، والتأبين الفخم، والوفود تترى، والحفلات تقام، والمراثي تفيض بها الصحف، والحكومة تطبع كل ذلك بالطابع الرسمي، فتزيده أبهة وروعة! وكان لحافظ المأتم المتواضع، والجنازة الصامتة، والتأبين الموعود، وأصدقاء خلص يئنون في كل حين أنة، ثم يتركونها تتلاشى كما يتلاشى الرجع البعيد!!
الزعامة والشعر
خلا ميدان الشعر فجأة من قائديه العظيمين فحدث في صفوف الشعراء اضطراب وفوضى! وقام في (السقيفة) المقلدون والمجددون يقولون: منا أمير ومنكم أمير! وهناك أرسل الدكتور طه حسين حُكمه المعروف فزاد الخلاف شدة والجدال حدة! قضى للعراق بإمارة الشعر التقليدي. فغضبت مصر! وكان الأستاذ الهراوي أشد المصريين حنقاً وأعنفهم خصومة. فهو يقول في إستنكار وأنفة. إنه بايع الشاعرين، مبايعة علي للشيخين! ثم ينشد في ذلك أبياتاً فيها معارضة وفيها شدة وفيها جمال، وينتهي إلى أن هذا الحُكم قد أخزى مصر وقضى على نهضة الشعر!! ثم يعود فيستطرد إلى لوم الناقدين والمجددين، وينعى على وزارة المعارف إنصرافِها عن تعضيد الشعر، ويقترح عليها، والله أن تنشئ في ديوانها قلماً يسمى قلم الشُعراء تحمل عنهم فيه أكلاف العيش، وتغلق عليهم باب الغرفة، ثم تقول لهم: قولوا شعراً! ونسي صديقنا الهراوي أن يطلب إلى الوزارة أن تزود كل شاعر بسبحة يعد عليها أبيات الشعر، كما يعد صوفيو التكية كلمات الذكر!!
أما شعراء الشباب الذين لا يجرون على أسلوب الهراوي والزين والكاشف ومحرم ونسيم؛ فهم راضون ببراءة مصر من معرة التقليد ماضون كل المضي إلى التفوق والتميز من طريق الإنتاج والتنافس.
وسورية؟
وسورية التي تجعل من خمائلها ورباها وادي عبقر، وتدل بشعرائها المجددين في الوطن والمهجر، لا يرضيها أن تمر الزعامة بأراضيها إلى العراق دون أن تحيّ أو تلتفت على الأقل! فلقد هبت (العاصفة) تدافع رأي الدكتور في حدة وعنف، وتقول مع السيد نجار: ما للدكتور يرسل الزعامة إلى العراق في طيارة، وكان يكفيه أن يرسلها إلى صاحبها مطران في سيارة.؟
والعراق؟
والعراق هل اغتبط بهذه الزعامة؟ أما الرصافي فيرجو أن يكون خليفة لشوقي وحافظ ثم يسعه ما وسعهما من حُكم التاريخ وتقدير النقد. وأما الزهاوي فأنا اعلم إنه يؤثر أن يكون في ساقة المجددين على أن يكون في طليعة المقلدين. والظاهر أن شعراء العراق قد سرهم هذا التفضيل على علاته، ولكن ساءهم أن يوجه إلى شاعرين معينين. فقد نشر (أديب متقاعد) في جريدة الأخبار البغدادية فصلاً قيماً ينكر فيه استعمال الإمارة والدولة في لغة الشعر ويتساءل عمن جاد على شعراء مصر بهذه الألقاب، ويلاحظ بالحق حرص المصريين على الألقاب وزهد العراقيين بها. ويشكر للدكتور طه ترجيحه العراق على أية حال، ولكنه ينكر رأيه في تعيين جهة الزعامة، (لأنه رأي فرد بعيد عن العراق فلا يصح الاستناد إليه في حكم من الأحكام).
ثم تعصف النخوة في رأس الشاعر الشَاب محمد مهدي الجواهري فيرسل إضبارة كبيرة من شعره إلى الدكتور طه وكأنه يقول له: لو كنت قرأت هذا الشعر لما وجهت الزعامة إلى غير هذا الشاعر!
وإذن؟!
وإذن نستميح صديقنا الدكتور أن يدعها الآن فوضى حتى تسفر جهود الشباب عن عبقرية هذا الزعيم!. .

مصر في دورة الفلك
للدكتور محمد عوض محمد
الأستاذ بمدرسة التجارة العليا
على الرغم مني أعود إلى التفكير فيك، وعبثاً أحاول أن أصرف فكري إلى حديث غير حديثك، وذكر غير ذكرك. .
ولماذا أصرف فكري عنك؟
ألأني آلم إذ أفكر فيما تعانين، وما قد عانيت على مر السنين؟ ألم تعد في النفس بقية من الشجاعة؛ فأقابل بها الحقيقة؛ وإن كان أعذب ما فيها علقماً مريرا؟ .
ألعلي أخشى أن أدمنت التفكير فيك، أن أكون أبداً مقطب الجبين، سجين الكآبة، ثائر الفؤاد؛ لا أستقر على قرار، ولا أعرف للحياة لذة: فلا يبسم لي ثغر، ولا تقر لي عين؟
لماذا أصرف الفكر عنك؟
ألأني رويت من نميرك، وغذيت من ثراك، ونشقت من نسيمك، ورتعت في رياضك، وأظلني دوحك، وأطربني شدو غناء أطيارك. وهداني بدرك المنير إلى سر الجمال، وسماؤك الصافية إلى وحي الخيال، ونجومك اللامعة إلى جلال الكون، وشمسك المشرقة إلى قدرة الخالق؟
مع هذا أحاول أن أصرف فكري عنك؟ فأي عقوق هذا العقوق؟ وأي جحود هذا الجحود؟
أي مصر؟
لقد كنت من قبل عظيمة جليلة. كنت من قبل ورأسك يسامي النجم. وقد ترامت على أقدامكِ الأمم؛ لتقتبس منك النور؛ وتلتمس منك الهداية. لقد كنت وفي كفك الهائلة صولجان من الذهب ذو كرة مشرقة لامعة. يوم أن كانت الشعوب الأولى في ظلامها الحالك؛ مالها موئل غيرك؛ يوم لا نور إلا نورك؛ ولا هدى إلا هديك.
كانت في كفك كنوز الحضارة؛ وكنت تنثرينها بسخاء؛ للقريب والبعيد. فباتوا وهم أغنياء بما التقطوا من خيراتك، وما اقتبسوا من هباتك.
ثم حالت الحال، فأمسيت وقد تحطم الصولجان، وكسر الجناح وانتُهِك الحمى! وذُلَ الأنف العزيز وانسَكَبَ الدمع العصي!!
فماذا دها الكون؟ وأي إصبع قد أدارت الفلك تلك الدورة الهائلة، حتى قلبته رأساً على عقب؟
يقولون إنك قد عقمت!. .
عقمت فأصبحت لا تلدين الأحرار، ولم يعد ثراك ينبت الأبطال! أجل يزعمون أن تُربَتكِ لم تعد تخرج إلا الزعانف والقزم: الذين همهم من العيش شهواتهم. ويعيشون فوق ثراك كالحشرات الطفيلية، يستمرئون خيره، ويحتسون رحيقه، ثم لا يخطر لهم أن يذودوا عن حوض رواهم، وموئل آواهم، ودوحة أظلهم فرعها وغذاهم ثمرها. . ما هم بالرجال ولا بأشباههم، ولا يجري في عروقهم دمٌ، بل جبن مذل. وخنوع مهين!
يقولون هذا كله عن بنيك يا مصر. فيا ليتهم كذبوا فيما أدعوه ويا ليت بنيك ينهضون لتكذيبهم!
أي مصر!
يقولون أن العام ربيع بعده صيف، يتلوهما خريف وشتاء. فهل مضى ربيعان وبان؟
أكتب لك الشتاء الأبدي والزمهرير السرمدي؟
إن كان هذا حكم الدهر فما أجوره! إن كان هذا حكم القضاء فما أقساه!
حلقة مفقودة
للأستاذ احمد أمين
الأستاذ بكلية الآداب بالجامعة المصرية
في مصر حلقة مفقودة لا نكاد نشعر بوجودها في البيئات العلمية مع أنها ركن من أقوى الأركان التي نبني عليها نهضتنا. وفقدانها سبب من أسباب فقرنا في الإنتاج القيم والغذاء الصالح.
تلك الحلقة هي طائفة من العلماء جمعوا بين الثقافة العربية الإسلامية العميقة وبين الثقافة الأوربية العلمية الدقيقة، وهؤلاء يعوزنا الكثير منهم؛ ولا يتسنى لنا أن ننهض إلا بهم، ولا نسلك الطريق إلا على ضوئهم.

إن أكثر من عندنا قومتثقفوا ثقافة عربية إسلامية بحتة وهم جاهلون كل الجهل بما يجري في العصر الحديث من آراء ونظريات في العلم والأدب والفلسفة لا يسمعون بكانت وبرجسون، ولا بأدباء أوربا وشعرائها، ولا بعلمائها وأبحاثهم. اللهم إلا أسماء تذكر في المجلات والجرائد والكتب الخفيفة لا تغني فتيلا ولا تستوجب علما. وطائفة أخرى تثقفت ثقافة أجنبية بحتة يعرفون آخر ما وصلت إليه نظريات العلم في الطبيعة والكيمياء والرياضة ويتتبعون تطورات الأدب الأوربي الحديث وما أنتج من كتب وروايات وأشعار، ويعلمون نشوء الآراء الفلسفية وارتقاءها إلى عصرنا، ولكنهم يجهلون الثقافة العربية الإسلامية كل الجهل. فان حدثتهم عن جرير والفرزدق والأخطل أشاحوا بوجوههم واعرضوا عنك كأنك تتكلم في عالم غير عالمنا؛ وان ذكرت الكندي والفارابي وابن سينا قالوا أن هي إلا أسماء سميتموها ما لنا بها من علم، وماذا نحصل من هؤلاء إلا على جمل غامضة ومعان عميقة لا تفيد علما ولا تبعث حياة.

وبالأمس كنت أتحدث مع طائفة من المتعلمين عن البيروني العالم الإسلامي الرياضي المتوفي سنة 440 هـ وما كشف من نظريات رياضية وفلكية وان المستشرق الألماني سخاو يقرر أنه أكبر عقلية عرفها التاريخ في كل عصوره. وأنه يدعو إلى تأليف جمعية لتمجيده وإحياء ذكره تسمى جمعية البيروني. فحدثني أكثرهم انه لم يسمع بهذا الاسم ولم يصادفه في جميع قراءاته وهو يعرف عن ديكارت وبيكون وهيوم وجون ستوارت مل كثيرا، ولكنه لا يعرف شيئا عن فلاسفة الإسلام. ومثل ذلك قل في الأدب العربي والأوربي والعلم العربي والأوربي كل ثقافته العربية في كتاب القواعد وأدب اللغة للمدارس الثانوية أن كان قد بقي منها شيء في ذاكرته.

هاتان الطائفتان عندنا، يمثل الأولى خريجو الأزهر ودار العلوم ومدرسة القضاء، ويمثل الأخرى نوابغ خريجي المدارس العصرية والبعثات الأوربية. أما الذين حذقوا العربية والعلوم الإسلامية ونالوا حظا وافرا من الثقافة الأجنبية فأولئك هم الحلقة المفقودة في مصر، وفقدانها سبب الركود في الحياة العقلية والأدبية.

ذلك أن الأولين إذا أنتجوا فعيب إنتاجهم أنهم لم يستطيعوا أن يفهموا روح العصر ولا لغة العصر ولا أسلوب العصر، وإنما التزموا التعبير القديم في الكتابة، والنمط القديم في التأليف، وتحجرت أمثلتهم ومل الناس بلاغتهم، وعمادها رأيت أسدا في الحمام وعضت على العناب بالبرد، وعشرة أمثلة من هذا الطراز. ومل الناس نحوهم ومداره ضرب زيد عمرا ورأيت زيدا حسنا وجهه، وسئم الناس منطقهم، وكله الإنسان حيوان وكل حيوان يموت فالإنسان يموت وهذا حجر وكل حجر جماد فهذا جماد. ضجوا بالشكوى لأن الناس لا يسمعون منهم، وضج الناس بالشكوى لأنهم لا يأتون بجديد ولا يضعون القديم في شكل جذاب، ولا يلمسون الحياة التي يحيونها ولا البيئة التي يعيشون فيها فانصرفوا عن الناس وانصرف الناس عنهم ورضوا أن يعيشوا في جوهم الخاص ورضى الناس منهم بذلك وسلكوا سبيلا غير سبيلهم واتبعوا دليلا غير دليلهم.

وأما الآخرون فضعفت ثقافتهم العربية الإسلامية، فلما أرادوا أن يخرجوا شيئا لقومهم أمتهم أعجزهم الأسلوب والروح الإسلامي. فلم يستطيعوا التأليف ولا الترجمة وحاولوا ذلك مرارا فلم يفهم الناس منهم ما يريدون وسبوا القراء ورموهم بالضعف والانحطاط، وسبهم القراء ورموهم بالعي وانهم لا يفهمون ما يكتبون فعاشوا في أنفسهم ولأنفسهم ورضوا من الغنيمة بالإياب.

كان من نتيجة ذلك أن الأدب العربي الإسلامي والعلم العربي الإسلامي والفلسفة العربية الإسلامية على غناها ظلت دفينة لا ينتفع بها، تنتظر جيلا جديدا يسيغها ويهضمها ويبرزها في شكل تألفه الناس، وأن الأدب الغربي والعلم الغربي والفلسفة الغربية حرم منها أكثر الشرقيين ولم يصل إليهم إلا نوع خفيف ينشر في المجلات والجرائد وأمثالها يقرؤها الناس ليطردوا بها الضجر أو يستعطفوا بها النوم، فأما أدب غزير وعلم عميق وكتب محترمة ومجلات قيمة فقليل نادر.

والذي جر إلى فقدان هذه الحلقة أن التعليم عندنا سار في خطين متوازيين لم يلتقيا، فالتعليم العربي الإسلامي سار في خط، والتعليم المدني الحديث سار في خط آخر، ولم تكن هناك محاولات جدية لتلاقي الخطين أو ربط بعضهما ببعض.

لا أمل في إصلاح هذه الحال إلا بالعمل على إيجاد الحلقة المفقودة وهي تذوق

الثقافتين، والاغتراف من المنهلين، وإخراج أدب وعلم وفلسفة غذيت بما للعرب والإسلام من ثقافة، ولقحت بما للأوربيين من ثقافة ومنهج، فيها اللغة العربية قوية رصينة وروح الإسلام قوية متينة. وفيها ما للأوربيين من عرض للمسائل جذاب ونهج في الكتابة رشيق وفيها مقارنة شهية بين ما أنتجه الأولون والآخرون. لو تم ذلك لرأيت التاريخ الإسلامي يعرض على القراء في شكل محبوب يقرئونه ويستسيغونه، ورأيت الأدب العربي يقدم إلى الجمهور في ثوبه الجديد فيألفونه ويحبونه ورأيت الفلسفة الإسلامية يغاص عليها غوصاً عميقاً ثم تخرج من أصدافها وتجلى للقراء درة لامعة.

هذا هو السبب في نجاح رفاعة باشا ومدرسته فأنتجت إنتاجا غذى عصرهم بل كان فوق كفايتهم؛ فقد أرسل رفاعة إلى فرنسا بعد أن درس في الأزهر وتعمق في العربية والعلوم الإسلامية فلما حصل على الثقافة الفرنسية وضع يده على المنبعين فأخرج هو ومدرسته للناس ما استساغوه وأحبوه ونهضوا به ولم يكن كذلك من لحق بهم وخلف من بعدهم.

وقد كان إخواننا الهنود أسبق منا إلى إيجاد هذه الحلقة والانتفاع بها. أخرجوا التاريخ الإسلامي في ثوب جديد على نمط ما يكتب الغربيون ولكن بروح إسلامي وكتبوا في الدين الإسلامي والفقه الإسلامي بلغة العصر وروح العصر ونظام العصر كما فعل السيد أمير علي والسيد محمد إقبال فقد تضلع هذان العالمان الجليلان من الثقافة الإسلامية والأوربية؛ وأشرب قلباهما حب الإسلام فأخرجا كتباً يقرؤها الشباب المثقف فيحبها ويحب موضوعها ويستزيد منها، ويقرؤها الشباب المتعلم المتخصص في الطبيعة والكيمياء فيجدها تتمشى مع العلم الذي ثقفه والنهج الذي ألفه. وتقرأ للسيد محمد إقبال فتجده يعرض لفلسفة (كانت) فإذا هو فيها دارس عميق والغزالي فإذا هو باحث خبير فيما يكتُب ويعرض لشعراء الألمان كجوته فيحلله تحليلا يدعو إلى الإعجاب ويتكلم في المعتزلة والصوفية فإذا هو قد تغلغل في أعماقهم واستبطن دخائلهم ثم عرض تعاليمهم كما يعرض الأوربي فلسفة قومه شيقة عذبة لذيذة.

ولكن الهنود يعرضون وآسفاه ذلك باللغة الإنجليزية فلا يغذون جمهورنا ولا يسدون حاجة العالم العربي إنما يتغذى الشرق بهذا يوم توجد هذه الحلقة المفقودة في العالم العربي كمصر والشام فيحيي آثار الأولين بأسلوب الآخرين، ويوم يكسر هذا الحاجز الذي يحجز بين علم الشرق وعلم الغرب، ويوم يلوى الخطان المتوازيان فيلتقيان.

أثر الثقافة العربية في العلم والعالم

بقلم احمد حسن الزيات

- 1 -

الشعوب كالأفراد، فيها من يولدون على حكم الطبيعة، ويعيشون على هامش الحياة، ثم يغوصون في ظلال العدم، لا ينعم بهم وجود، ولا يغنم منهم إنسان، ولا يعبأ بهم تاريخ. وفيها من يقبلون إقبال الربيع ينضرون الحياة بالجمال، ويمرعون الأرض بالخصب، ويفيضون على الدنيا سلاما ووئاما وغبطة! أولئك الذين يصطفيهم الله من خلقه لإعلاء حقه، فيودعهم سره ويحملهم رسالته فيعيشون لأجلها، ثم يموتون في سبيلها، بعد أن يخلدوا في صدر الزمان وعلى وجه الأرض آثار جهادهم في الله، وجهودهم للناس، وفضلهم على المجتمع. وهؤلاء هم أدلاء ركب الحياة، وحمال ألوية الخليقة، يقلون قلة الصفوة، ويبطئون إبطاء الخير، ولكن آثارهم تشغل ذهن العالم. وأخبارهم تملأ سمع الزمن!!.

هذا التاريخ على طوله وفضوله لم يسجل من الأمم التي بلغت رسالات الله بالخير والجمال والحق إلا أربعا: العبران في الدين والسلم، واليونان في الفن والعلم، والرومان في النظام والحكم، والعرب في كل أولئك جميعا!

فقرة أقولها وأنا أعلم أن الشك فيها سيحك الآن في (والعرب في كل أولئك جميعا) بعض الصدور. لأن ما أقرته التعاليم المريضة في الأذهان من أن اليونان والرومان هم مصادر الثقافة العالمية، وأن العرب أعجز بفطرتهم عن العلم، وأبعد بطبيعتهم عن التمدن، يجعل هذه القضية على إطلاقها سخيفة!

لقد أن للنظر الصحيح أن يرى، وللعقل المجرد أن يحكم!. أما الأحكام التي صدرت عن موتوري الشعوب وتجار العقائد وورّاث الأحقاد فلا وزن لها في نظر المنطق ولا شأن

لها في رأي العلم.
كان العرب في الشرق فاتحين وحاكمين فلا بدع أن تعصف ثورة العصبية، وتقوم دعوة الشعوبية، وتظهر فكرة الإسماعيلية والإسحاقية. ويبقى من آثار ذلك ما نشاهده اليوم وقبل اليوم في سياسة الترك والفرس من ازورار عن العربية واضطغان على العروبة.
وكان العرب في الغرب فوق ذلك شرقيين ومسلمين فلم يكن بد من تصادم العقائد وتعارض
الطبائع وتحكم الجهالة. فتنشأ محاكم التحقيق، وتصدر عقوبة التحريق والتمزيق، ويشاب التعليم بالتضليل والتلفيق. ويبقى من آثار ذلك أن تظل كنيسة الحمراء تقرع نواقيسها أربعاً وعشرين ساعة قرعاً متداركا في ثاني يناير من كل عام ابتهاجا بجلاء العرب عن الأندلس! فكيف يرجى من هؤلاء وأولئك الإقرار بفضل العرب على الثقافة.
والاعتراف بجميلهم على الحضارة. وفي النفوس من غلبة الفاتح وترا، ومن عظمة الحاكم حقدا، ومن دين المجاهد إحنة، ومن سلطان الدخيل نفور؟ والنهضة الحديثة لم تستطع بفلسفة ديكارت وحرية الفكر ونزاهة التعليم أن تصفي العقول من شوائب هذه المذهبية القديمة، فلا يزال نفر من العلماء يكابدون ازدواج الشخصية فيهم. فهم يجمعون في أهاب واحد بين رجلين مختلفين: حديث يتأثر بالدراسة الشخصية والبيئة الخلقية والفكرية. وقديم يتكون على بطئ من تراث الأجداد ومخلفات القرون. وهذا الرجل العتيق هو الذي يتكلم في أكثر الناس، فيملي عليهم الآراء، ويلبس عليهم وجوه الحق. فإذا تنبه الرجل الحديث وتكلم وقع صاحبهما في التناقض وتعسف من جرائهما في الحكم. وأصدق الأمثلة على هذا الصنف من الباحثين العالم المؤرخ (ارنست رنان) خالق فكرة السامية والآرية، وأعدى الكتّاب للأمة العربية. فان ازدواج الشخصية فيه جعل آراءه في العرب متناقضة يدفع آخرها أولها. له محاضرة معروفة عن الإسلام ألقاها في السربون؛ وقد جهد أن يدلل فيها على وضاعة شأن العرب في التاريخ وقلة غنائهم عن العلم؛ ولكن الرجلين القديم والحديث كانا يتعاوران الكلام على لسانه فينقض أحدهما ما أبرمه الآخر. فبينما هو يقول مثلا: (أن العلوم والآداب والحضارة مدينة بازدهارها وانتشارها للعرب وحدهم طوال ستة قرون؛ وان التعصب الديني لم يعرفه المسلمون إلا بعد أن دالت دولة العرب وخلفهم على ولاية الإسلام الترك والمغول) إذا به يقول بعد ذلك: (أن الإسلام كان لا ينفك مضطهدا الفلسفة والعلم وانه جعل من دون الحرية الفكرية سدا في كل بلد احتله). ثم يعود فيفيض القول في فضل العرب على القرون الوسطى وفيما كانت عليه إسبانيا من الرخاء والارتقاء في عهدهم. فإذا فرغ من ذلك سارع الرجل القديم فيه إلى القول بأن الذين نهضوا بالعلم من المسلمين لم يكونوا من العرب وإنما كانوا من سمرقند وقرطبة واشبيلية؛ وأنساه شيطانه أن هذه البلاد عربية وأن الدم العربي والعلم العربي قد تغلغلا في أصولها منذ طويل؛ وأن
تقسيم العرب إلى عرب وعرابوفون سلاح لا تفلت منه أمته نفسها إذا حلل هذا التحليل نسبها وأدبها. ثم تنتهي المعركة بين الرجلين في (رينان) بقوله في صراحة مفاجئة: (ما دخلت مسجداً قط إلا تملكني انفعال شديد هو لو أفصحت عنه نوع من الأسف على أني لم أكن مسلما!).
على أن هناك فريقا من صفوة العلماء الأوربيين تحرروا من حكم الهوى، وتحللوا من قيد الغرض، فأقروا الحق في نصابه، وأرجعوا الفضل إلى أهله سنجعلهم شهودنا في إثبات ما نقول. فأن أشد ما شهد امرؤ على نفسه واقرب الآراء إلى الحق رأي الفرد في جنسه.
كان العالم شرقه وغربه في أوائل القرن السابع للميلاد قد استحال كونه إلى فساد. فحضارته تتحطم بالترف والرخاوة. وسياسته تتحكم بالغلول والأثرة؛ وأخلاقه تتفكك بالسرف والشهوة، وعقائده تتنزى بالجدل والتعصب ودماؤه تهدر بين الروم والفرس لغير غرض أسمى ولا مبدأ مقدس. وكانت شعوبه منذ طويل قد فقدت مثلها العليا فهي تعيش عيش الهمل السوائم: فلا عظمة روما تحفز الرومان، ولا مجد السلف يهز الفرس، ولا سمو الغاية يسدد وثبة البربر.
على هذه الحال خرجت أمة العرب برسالتها الدينية والخلقية إلى هذا العالم المنقض والهيكل البالي فجددت أخلاقه على الرجولة؛ وطبعت عقيدته على التسامح، ورفعت

مجتمعه على المحبة؛ وصمدت للجهاد والفتح في سبيل هذا المثل الأعلى لا تطمح من دونه إلى سلطان ولا تطمع من ورائه في غرض حتى أنشأت فيما دون القرنين ملكا طبق الأرض. وحضارة هذبت العالم وثقافة حررت العقل ولم يكن ذلك مستطاعا لغير الأمم الموهوبة التي هيأها الانتخاب الطبيعي لتبليغ رسالة أو تجديد دعوة أو تحقيق (اديال وكأين من أمة قوضت سلطان أمة أو أمم. ولكنها لم تعد ما يفعل منسر من اللصوص سطا على قافلة أو قطيع من الوحوش عدا على قرية، فالشعوب الجرمانية والهونية والسلافية تعاقبت غاراتها على الرومان في الشرق والغرب فاجتاحوا ملكهم؛ والقبائل التركية والمغولية قد دهموا العرب فثلوا عرشهم. ولكن شعباً من هذه الشعوب لم يصغ قلبه للمدنية؛ ولم يجد فتحه على الإنسانية فظلوا بعداء عن الحضارة غرباء عن العلم الا ما كان من ترويجهم بعد لحضارة المغلوب وثقافته.

أماالقبائل العربية فلم يكادوا يضعون عن كواهلهم عتاد الحرب وينفضون عن وجوههم غبار الصحراء؛ حتى صعدوا في مراقي الحضارة بسرعتهم في طريق الفتوح. واستطاعوا أن يرفعوا على أنقاض اليونان والرومان والفرس حضارة ثابتة الأصول باسقة الفروع لا يظهر في عناصرها المختلفة الا روح الإسلام وفكر العرب، ثم كانت من القوة بحيث طاولت الدهر، وصاولت المغير، وأخضعت لسلطانها حضارات لم تخضع لفاتح من قبل. وسخرت لدعايتها خصوماً لم يتحرروا من آثارها بعد.

ولو رحنا نتلمس أسرار هذه القوة وأسباب تلك العظمة وجدناها أولاً في الهام الطبع وسلامة الفطرة وجاذبية المثل الأعلى وثانيا في القابلية الطبيعية لفقه الحضارة، وهي صفة لا تكتسب عفو الحاضر ولا طوع التقليد. وإنما تتأصل في الشعب بتقادم عهده في الثقافة وطول رياضته على التمدن. فالعرب لم يكونوا جميعا كما يصورهم الأدب القديم جفاة الطباع بداة الاجتماع. وإنما كان منهم في اليمن والحجاز والشام والعراق متحضرون لابسوا أرقى أمم العالم بالتجارة منذ ألفي سنة، وكان لهم قبل الإسلام ثقافة أدبية ومدنية لغوية لم يكن من المعقول أن تظهرا في التاريخ فجأة. فان تطور الأفراد والشعوب والأنظمة والعقائد تدريجي بطيء لا يبلغ كماله الا حالا على حال ودرجة بعد درجة. والحق أن الأخبار والآثار والعقل تتناصر كلها على إثبات حضارة عربية في المدن الجاهلية. وإذا كان بدو الجزيرة هم الذين أنتجوا الشعر وفتحوا الفتوح فان حضر الحجاز هم الذين حكموا الناس ونشروا المعرفة وأقاموا الحضارة.

في تعدد الأوضاع البلبلة والضياع

للأستاذ عبد القادر المغربي

عضو المجمع العلمي العربي بدمشق

الأستاذ الشيخ عبد القادر المغربي علم من أعلام الأدب وعضو نابه من أعضاء المجمع العلمي العربي وقلم بارع من أقلام مجلته الزاهرة. وله بمصر وصحافتها صلة قديمة. فلقد تولى التحرير بجريدة المؤيد حينا من الدهر كانت مقالاته في النقد والاجتماع موضع الإعجاب من صفوة الشباب وناشئة الكتاب لطرافة أسلوبها وحرية تفكيرها. وقد ثقف اللغة الفرنسية في عهد الكهولة فاستمد منها في جهاده الأدبي قوة عظيمة. ولا يزال الأستاذ بجلد الشبيبة وحكمة الشيخوخة يزاول التعليم في كلية الآداب بدمشق والتحرير بمجلة المجمع وقد تفضل أيضاً فمنح بعض هذا الجهد القيم (مجلة الرسالة).

أعرض على حضرات قراء هذه (الرسالة) مثالا واحداً من أمثلة الحيرة التي تعتري النقلة والمترجمين عندما يريدون وضع كلمة جديدة أو نقل كلمة أعجمية إلى لغتنا العربية ولا سيما إذا كانت من مصطلحات العلوم الفلسفية أو النفسية أو الاجتماعية.

كثيرا ما تتردد في كتابات المشتغلين بالفلسفة الحديثة كلمتا ويريدون بكلمة التفكير في الأمور من حيث مظاهرها الخارجية ومن دون أن يكون للانفعالات النفسية تأثير فيها.

فيريدون بها التفكير في الأمور لا من حيث مظاهرها الخارجية بل من حيث وقعها في نفس المفكر وتأثيرها في شعوره الباطني.

هذا ما يمكن أن يقال في تفسير الكلمتين تفسيراً إجماليا. ولما أراد كتاب العرب أن يضعوا لهما كلمتين عربيتين اختلفوا في الوضع أو الاختيار اختلافا كبيرا.

وربما كان أسبق هؤلاء الواضعين كتاب الأتراك. فقالوا في ترجمة وهو ما نفكر به باطنيا (لاهوتي) وفي ترجمة وهو ما نفكر به خارجيا (ناسوتي).

وقام من الأتراك العثمانيين كاتب المعي هو بابان زاده أحمد نعيم فاستحسن أن يقال مكان لاهوتي (أنفسي) ومكان ناسوتي (آفاقي) نسبة إلى كلمتي (الأنفس والآفاق) ناظراً في ذلك إلى الآية القرآنية الكريمة (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق).

أما كتاب العرب في مصر فربما كان نجاري بك رحمه الله هو أول من أعلن ترجمة هاتين الكلمتين إلى العربية في معجمه الكبير (الفرنسي والعربي) المطبوع سنة 1905 م. فقد فسر كلمة وهو ما نفكر به باطنيا بكلمة (جوهر) وفسر كلمة وهو ما نفكر خارجياً بكلمة (عرض).

ثم جاء بعد نجاريمن كتاب مصر من ترجم كلمة (بالذاتي) وكلمة (بالموضوعي). وقال غير هؤلاء بل نترجم (بالفاعلي) وكلمة (بالمفعولي).

ثم وصل إلى كتاب العرب في العراق: فترجم الأستاذ الكبير ساطع بك الحصري كلمة وهو ما نفكر به باطنيا بكلمة (شخصاني) نسبة سريانية إلى كلمة (شخص) على حد قولنا (جسماني وروحاني) في النسبة إلى الجسم الروح.

وفسر كلمة وهو ما نفكر به خارجيا بكلمة (شبحاني) نسبة إلى (الشبح) الذي يرى من بعيد. ملاحظا أن معنى (الشبح) يراد أحيانا من كلمة ومنه تسمية البلورة الصغيرة في آلة التصوير الشمسي وهي التي تلتقط صور الأشباح الخارجية فترتسم فيها.

ولم يكد يذيع الأستاذ ساطع بك رأيه فيترجمة الكلمتين ويبرهن على صحته حتى عارضه الأستاذ إسماعيل مظهر في مجلة (العصور) مدعياً أن ترجمة كتاب مصر لهما (بالذاتي) و (الموضوعي) خير من ترجمة الأستاذ ساطع لهما (بالشخصاني) و (الشبحاني).

وسئل الأب أنستاس الكرملي عن ترجمة هاتين الكلمتين فأجاب في مجلد السنة السادسة من مجلة (لغة العرب) بما نصه: يقابل في لساننا كلمة (الذهني) والثاني يقابله في لغتنا كلمة (الخارجي). قال أبو البقاء في كلياته عن الأول كذا وعن الثاني كذا. . .

ثم نقل الأب الكرملي عبارة أبي البقاء بطولها وقفى عليها بقوله (فأنت ترى من هذا أن تعريف كل من (الذهني) و (الخارجي) تعريف صحيح على ما يفهمه الإفرنج في هذا العهد. ولا نعرف للحرفين المذكورين كلمتين أخريين، ومن يعرفهما فليذكرهما لنا اهـ).

هذا ما قاله كتابنا على اختلاف أمصارهم في ترجمة هاتين الكلمتين، وقد دار محور النزاع بينهم حول سبعة أزواج من الكلم وهي:

لاهوتي. ناسوتي

أنفسي. آفاقي

جوهر. عرض

ذاتي. موضوعي

فاعلي. مفعولي

شخصاني. شبحاني

خارجي. ذهني

ومن هذا نرى النقلة والمترجمين لا يرجعون فيما شجر بينهم الا إلى أنفسهم. ولا يستمدون الحكم في فصل الخلاف اللغوي الا من ذوقهم. والأذواق مختلفة، ولا تحكيم مع اختلاف المحكمين. والقراء حيارى بين هذا المترجم، وذاك الواضع. وفي تعدد الأوضاع البلبلة والضياع، فلم يبق الا أن يتولى المجمع أمر الوضع، فيجمع الشتات ويرأب الصدع.

اللغة العربية كأداة علمية

للدكتور علي مصطفى مشرفه.

الأستاذ بكلية العلوم

تجتاز اللغة العربية في عصرنا الحالي مرحلة من مراحل تطورها سيكون لها أثر واضح في مستقبلها. فاللغة التي كان عرب البادية يتكلمونها بسليقتهم فيصفون بها حياتهم ويعبرون بها عن مشاعرهم في صحرائهم وبين إبلهم وآرامهم والتي صارت بعد ذلك لغة الكتاب والفلاسفة في عصور المدنية الإسلامية؛ يتناولون بها سائر المعاني الأدبية

والفلسفية. تلك اللغة قد كتب عليها أن يصيبها الخمول فتبقى مئات السنين بعيدة عن مجهودات البشر الأدبية والفلسفية والعلمية ثم ها نحن نراها اليوم وقد بعثت من مرقدها في ثوب جديد فصارت لغة الكتابة والتأليف، لغة الخطابة والتعليم في عصر انتشرت فيه مدنية جديدة وعمته حضارة مستحدثة؛ تختلف في مظهرها الخارجي وفي المحمل العقلي المرتبط بها إختلافاً بيناً عن حضارات القرون الوسطى. فاللغة العربية تبعث اليوم كما بعث الفتية بعد أن ضرب على آذانهم في الكهف سنين عددا فتجد نفسها في عالم جديد موحش لا تأنس إليه ولا يأنس إليها وهو لعمري موقف نادر تقفه لغتنا لعله فريد في بابه. لذلك كان لزاما على الأدباء والمفكرين من أهل اللغة العربية من عصرنا الحالي أن يحوطوها بعنايتهم وأن يهيئوا لها أسباب الحياة الطيبة في بيئتها الجديدة حتى تتكيف بالبيئة وتجنح إليها كما تتوتر لها البيئة وتحتويها. فاللغة كالكائن الحي في تفاعل مستمر مع البيئة التي تحيط به فأما تلاءما فاشتد الكائن وتكاثر ونما وأما تنافرا فاضمحل وتضاءل وهلك.

وإذا نحن قارنا البيئة الفكرية الحديثة بما كانت عليه في أيام ازدهار الحضارة العربية فلعل أول ما يسترعي نظرنا من الفوارق تغلب الروح العلمية على تفكيرنا الحديث. فالمدنية الحالية كما يدل عليه تاريخها مدنية علمية، مدنية كشف واختراع، مدنية استنباط وتحليل، ولذا كان مظهرها الخارجي غاصا بالآلات والعدد تكتنف الناظر إليها عن اليمين وعن الشمال. فلا عجب أن تشعر لغة العيس والسهام بوحشة بين الطيارات والمدافع الرشاشة. ومما لا شك فيه أن التقدم الذي حدث بمصر وفي سائر البلاد العربية في العصر الحالي قد كان من شأنه العمل على المقاربة بين اللغة العربية الحديثة وبين بيئتها. فمن ناحية قد تطورت اللغة بأن دخلت عليها كلمات وعبارات مستحدثة نشأت الحاجة إليها كما تغيرت معاني الألفاظ ومدلولات التراكيب بما يتفق والتفكير الحديث، وهجرت الألفاظ الغريبة علينا أو التي لا لزوم لها، فنشأ عن ذلك تهذيب في اللغة قربها إلى عقولنا وساعد على حسن استخدامها. ومن ناحية أخرى بانتشار التعليم بين طبقات الأمة وبزيادة تبحر متعلميها في مختلف العلوم والفنون قد انتشرت الألفاظ والتراكيب العربية وشاع استعمالها في طول البلاد وعرضها كما تكونت طوائف من العلماء والمفكرين بيننا يكتبون ويخطبون ويؤلفون في سائر العلوم والفنون فنشأت ثروة من الأدب العلمي والأدب الفني الحديثين يصح أن تتخذ مرجعاً لعلماء اللغة في دراستهم للغة العربية الحديثة. الا أننا مع ذلك لا نستطيع أن نزعم أن الشقة بين اللغة وبيئتها قد تلاشت تماما. فلا تزال هناك مدلولات عديدة لم تتسع اللغة للتعبير عنها بحيث يشعر المتعلم منا بنقص في لغته عندما يحاول الكلام في كثير من المواضيع العلمية والفنية. كما أنه من ناحية أخرى يوجد نقص كبير في عدد المتعلمين الذين يحسنون الكتابة أو الخطابة بلغة متفق على صحتها.

وبعبارة أخرى كل ما يمكن أن يقال أن اللغة العربية الحديثة لا تزال في دور التكوين.

لو أتتيح لنا أن ننظر إلى مستقبل اللغة العربية فترى ماذا نجد؟ هل نجد لغة واحدة يكتبها ويتكلمها المتعلمون من أهل مصر وأهل العراق وأهل الشام وغيرهم من الأمم العربية بفروق ضئيلة؛ لا تزيد على الفروق بين لغة أهل استراليا ولغة أهل إنجلترا. وهل تكون هذه اللغة قريبة من اللغة العربية التي أكتبها الآن قرب لغة الإنجليزي المتعلم الآن من لغة شكسبير؟ أم هل نجد لغات مختلفة لغة في مصر وأخرى في العراق وأخرى في لبنان، مثلها كمثل اللغة الألمانية واللغة السويدية واللغة الهولندية في تقاربها وتباعدها، كل لغة متأقلمة بلهجة أهلها ولا صلة بين أيها وبين لغة هذا المقال الا كالصلة بين اللغة الألمانية واللغة اللاتينية. وبعبارة أخرى هل ستحيا اللغة العربية وتنتشر أو ستموت وتندثر وتحل محلها لغات أخرى! أن مآل اللغة العربية في مستقبلها متوقف علينا نحن اليوم. فاللغة كما قدمت في دور التكوين ولذا ففي يدنا قتلها وفي يدنا أحياؤها. أما قتلها فيكون بالجمود بها عن تطورها الطبيعي كما يكون بعدم التعاون بين الأمم المختلفة من أهلها على توحيدها والمحافظة على وحدتها. وأما إحياؤها فيكون بالتبصر والحكمة وحسن الرعاية والتمشي بها في السبيل الطبيعي لرقيها كلغة حية واحدة. ومن حسن الحظ أن لدينا اليوم من الوسائل ما نستطيع به المحافظة على لغتنا في مصر وفي سائر البلاد

العربية، فانتشار المطبوعات وسهولة الانتقال من بلد إلى أخرى والإذاعة اللاسلكية كل هذه عوامل قوية على توحيد اللغة وتعميمها إذا نحن أحسنا استخدامها وتنظيمها.

ولست أتعرض في هذا المقال للغة الأدبية بل أترك ذلك لأدبائنا وكتابنا وإنما أريد أن أشير إلى بعض الصعوبات التي تصادف لغتنا اليوم كأداة للتعبير العلمي. فمن جهة لا تزال كمية التأليف العلمي في مصر وفي الأقطار العربية ضئيلة بحيث لا يمكن بحال ما أن تعتبر ممثلة لحالة العلم في العالم اليوم، ومن ناحية أخرى يعوز المؤلفات العلمية الموجودة التهذيب كما يعوزها التجانس في المصطلحات، فكثير من المدلولات العلمية لا توجد الصيغ اللفظية لها، وبعض المدلولات توجد لها صيغأما ضعيفة أو غير صالحة، كما انه توجد في بعض الأحايين صيغ متعددة للمدلول الواحد مما يؤدي إلى نوع من الفوضى في أدبنا العلمي يجب علينا تلافيها. والطريقة المثلى للتقدم تكون بتأليف لجان من الأخصائيين لمراجعة المؤلفات الموجودة وتهذيبها والعمل على تجانسها كما تكون بتكليف القادرين منا وتشجيعهم فرادى ومجتمعين على وضع المؤلفات في مختلف الفروع العلمية حتى تتألف لنا ثروة من الأدب العلمي يصح أن يعتمد عليها علماء اللغة في استخلاص المصطلحات والعبارات العلمية في لغتنا الحديثة وتحديد معانيها ومدلولاتها بمعاونة العلماء الأخصائيين في ذلك. ويجب أن اذكر بهذه المناسبة أن من العبث أن يحاول علماء اللغة وضع المصطلحات العلمية وضعا قبل ورودها في المؤلفات العلمية وشيوع استعمالها فان ذلك يكون من باب التسرع وقلب النظام الطبيعي لتطور اللغة وهو في الغالب مجهود أكثره ضائع إذ لا يمكن التنبؤ بما إذا كان مصطلح من المصطلحات سيبقى ويدخل في صلب اللغة أو سيموت ويحل غيره محله.

بقيت نقطة أريد أن أتعرض لها وهي العلاقة بين المصطلحات العربية ومصطلحات اللغات الحية الأخرى. ففي رأيي انه من الجائز استعمال مصطلح أجنبي في لغتنا (بعد تحويره ليتفق مع ذوق اللغة وأوزانها) بشروط أن يكون هذا اللفظ مستعملا في جميع اللغات العلمية

الأخرى أو في معظمها. ومثل هذه الألفاظ تكون في الغالب مشتقة من اصل إغريقي أو لاتيني لا جناح علينا نحن إذا اشتققنا منه كما اشتق غيرنا. أما الألفاظ الأجنبية المقصورة على لغة واحدة أو لغتين فرأيي أن يكون له عندنا لفظ عربي مرتبط بأدبنا وتفكيرنا.

ولا يتسع المجال لزيادة التفصيل فليس المراد من هذا المقال أن أدخل القارئ في مسائل فنية هو في غنى عن بحثها وإنما أرجو أكون أثرت من نفسه الاهتمام بهذا الموضوع الذي هو من أهم المواضيع المرتبطة بحياتنا وتقدمنا.

رسالة الأديب في مصر

بقلم الأديب عبد الحميد يونس

وقف الفيلسوف الإنجليزي توماس كارليل وقفة طويلة في كتابه (الأبطال) عند البطل في صورة الأديب وعرفه بأنه (. . الرجل الذي يردد لنا نفسه الملهمة، وأقول الملهمة لأن ما نسميه بالعبقرية أو الصدق أو الموهبة أو صفة البطولة التي لا نجد لها اسماً خليقاً بها تدل على أن الأديب هو الذي يعيش في أعماق الأشياء؛ في الحقيقي، في الإلهي؛ في الخالد الذي يوجد أبداً والذي لا تراه الدهماء، لأنه يختفي وراء الزائل الحقير دائماً أبداً. الأديب هو الذي يذيع هذا الخفي للناس بالقول أو بالعمل؛ وحياته إذن قطعة من قلب الطبيعة الذي لا يعتوره الفناء) ثم استعان بآراء الفيلسوف الألماني (فخته) الذي أذاع سلسلة محاضرات في موضوع (طبيعة الرجل الأديب) قال فيها أن كل الأعمال التي يعملها الناس والأشياء التي تقع عليها أبصارهم في هذه الدنيا ليست الا ثوباً أو مظهراً إحساسياً يجثم وراءها ما أسماه (فكرة العالم الإلهية) وهي (الحقيقة التي توجد في أعماق المظاهر جميعا) وهي بالطبع لا تظهر لعامة الناس لأنهم يعيشون بين المظاهر والماديات. فرسالة الأديب أن يميز لنفسه وللناس هذه الفكرة الإلهية بما فيها من روعة وجمال وقوة وأن يقف إلى جانبها معجبا متعجبا؛ وان يذيعها في الناس حتى يكونوا أنعم بحياتهم وأقدر على فهم وجودهم. عليه أن يسمو بهم فوق رغبات العيش المادي من طعام وشراب وكساء وأن يحررهم (ولو إلى حد ما) من قيود الزمان والمكان.

وأظنك تستطيع أن تتخذ هذا التعريف مقياسا توازن به بين الأدب الحي والأدب الميت.
فكما يوجد في هذا العالم أطباء ودجالون يدعون الطب كذلك يوجد أدباء وأدعياء يدعون الأدب. وإذا كنت تحرص الحرص كله على التمييز بين النقود الصحيحة والنقود الزائفة وهي التي تحصل بها على أغراضك المادية فالأجدر بك أن تكون أكثر حرصا على التمييز بين الآثار الأدبية الصالحة والآثار الأدبية الزائفة وهي التي تحصل بها على أغراضك الروحية.
والأديب يولد ولا يصنع (كما يقول الإنجليز) أي أنه رجل لا يكتسب صنعة الأديب بالتعلم والمران ما لم يكن موهوبا بطبيعته. بيد أن هذه الموهبة كالشجرة ما لم تثقف وتشذب فلن
تؤتي أكلها لذيذا شهيا. . .
نخرج من هذا بأن الأديب في مصر هو الأديب في غير مصر وأن رسالته هنا هي بعينها رسالته هناك وكل ما في الأمر إختلاف طرائق التعبير. على أن مهمة أديبنا أشق من مهمة الأديب الغربي لأن الغربيين يعرفون لأديبهم قدره فيبسطون له في الرزق حتى ينصرف إلى الإنتاج الأدبي الصالح بيننا ينكر المصريون أديبهم ويضيقون عليه الخناق وهم إن اعترفوا له بشيء فإنما يكون هذا الاعتراف بعد أن يفارق هذه الدنيا. ولهذا دون شك أثره البالغ في خلق الأديب فهو أما أن يتزلف إلى السلطات الحاكمة أو يترضى الأمراء والزعماء فإذا لم يستطع هذا أو ذاك أخذ يتملق الجمهور! ولا تتهمني بالمبالغة فأمامك تاريخنا الأدبي الحديث فهو حافل بأسماء الأدباء (وأشباه الأدباء) الذين كانوا أقرب إلى المتسولين منهم إلى أي شيء آخر. والذين انحطوا بصناعة الشعر والنثر إلى الدرك الأسفل حتى أصبح الأدب نوعا من (البهلوانية) في التعبير فإذا ألحت عليهم الحقيقة أتخذوا في إذاعتها فنون اللف والدوران والمواربة! وما أقل أولئك الذين عافت نفوسهم التمسح بأذيال السادة أو التعلق بأردان الجماهير! والأديب (بل وشبه الأديب) معذور لأن الجماعة لا تريد إلا من يسليها ويدخل السرور عليها أما الذي يكشف لها عن المثل العليا ويظهرها على الفرق بين حاضرها وهذه المثل فهو أبغض الناس إليها!
والأديب المصري الذي يريد أن يؤدي رسالته على الوجه الأكمل يصطدم بعقبتين كلتاهما صعبة شديدة. فما بالك إذا علمت أنهما متآخيتان، هاتان العقبتان هما (السياسة والتقاليد).
أما السياسة فقد طغت علينا وأفسدت مزاجنا الأدبي حتى اضطربت موازين النقد في أيدي الكتاب ورجال التعليم يجورون في أحكامهم على الأدباء جوراً ظاهراً: والطلاب والقراء في حيرة ليس مثلها حيرة. وأسرفت السياسة في طغيانها اشتدت جنايتها على الأدب حتى أنصرف الأدباء إلى السياسة وأدركوا أن الشهرة الأدبية لن تأتيهم إلا على حساب الشهرة السياسية!
والتقاليد أمرها غريب حقاً فهي من محاربتها للأدب والأدباء تتستر وراء الدين حيناً ووراء السياسة حيناً آخر. تظهر مرة وتختفي مرات. وويل للأديب الذي يتهم بالإلحاد. وويل للأديب الذي يتهم بالخيانة. وويل للأديب الذي يتهم بالإباحية! لو كان موظفاً طرد من
وظيفته. ولو كان عالماً جرد من شهادته. ولو كان كاتباً حورب في صحيفته!
على أن الأديب القوي هو الذي يصمد لهذا كله ويمضي في إذاعة رسالته مؤمنا بانتصاره. أو قل بانتصار آثاره تدفعه الفكرة الإلهية التي فيه. فإذا اعترف له أبناء عصره بفضله عليهم وعلى الأجيال المقبلة من بعدهم فذاك. وإلا فقد كتب أسمه في ثبت الخالدين. . .
وأدباء مصر في هذا الزمن هم (الطلائع) التي تتعرض للأخطار وتتلقى عن بقية الجيش السهام تتلوها السهام؛ والطلقات تعقبها الطلقات. فعليهم أن يضربوا المثل الصالح لأبناء الجيل الجديد.
وأني لأعلم أن مهمة الأديب المصري في الجيل المقبل ستكون أسهل من مهمة أخيه في هذا الجيل لان الأخير عليه إلى جانب مهمته الأساسية مهمة أخرى هي (التمهيد) وتعبيد طرائق التعبير من نحت ألفاظ. وإصلاح ألفاظ. ومن خلق قوالب أدبية لم يكن لها في تقاليد الأدب العربي وجود كالدرامة والشعر القصص والمقال الاجتماعي وما

يتطلبه هذا كله من التغيير في قواعد النظم والكتابة.
وليذكر أولئك الذين يغرمون بتأليف المجامع اللغوية أن إصلاح اللغة لا يقوم به النحات والعروضيون وأصحاب الأبحاث (الفيلولوجية) وإنما يقوم به الأدباء والأدباء وحدهم لأنهم بطبيعة رسالتهم اقدر على ابتكار الألفاظ التي تتلاءم مع المعاني. والأساليب التي تتفق والأغراض. ثم هم اقدر على إذاعة هذه الأساليب وتلك الألفاظ في الناس. ثم يأتي بعدهم أصحاب النحو والعروض وعلوم اللسان يستخرجون من آثارهم القواعد العامة ويرتبونها ويصنفونها ويضعون المطولات والقواميس فيها!
فليمض الأدباء المصريون (وهم قلة) في تحقيق الرسالة السامية التي وجدوا من اجلها والتي يعيشون لها. والتي يجب أن يموتوا في سبيلها كما يموت كل صاحب رسالة يؤمن برسالته وليكن عزاءهم خلود آثارهم؛ وأحرى بالناس أن يقدروا الأديب الذي لا يعيش لنفسه وإنما يعيش لهم!. . .

في الأدب العربي - العبقرية والقريحة

أو

شوقي وحافظ

بقلم احمد حسن الزيات

فجيعة الشعر العربي في حافظ وشوقي يعز عليها الصبر، ويُعْوز منها العوض، ويصرف أساها الناقدين عن تقويم الميراث العزيز إلى تعظيم الموروث الأعز. وليس مما يزكو بالمنصف أن يجشم نظره رؤية الحق من خلال الدموع، فأن في ذلك اعتداء على العقل أو إساءة إلى العاطفة. وهذه الكلمة إنما نستجيز ذكرها اليوم لأنها إلى الهتاف بالعظيمين أقرب منها إلى النقد، ولأن ما يكتب عنهما الساعة إنما هو تقييد لعفو الرأي وتمهيد لأسباب الحكم الصحيح.
شوقي شاعر العبقرية وحافظ شاعر القريحة. وتقرير الفرق بين الموهبتين هو تقرير الفرق بين الرجلين. فالقريحة ملكة يملك بها صاحبها الإبانة عن نفسه بأسلوب يقره الفن ويرضاه الذوق. ومن خصائصها الوضوح والاتساق والأناقة والسهولة والطبيعية والدقة. أما العبقرية فضرب من الإلهام يستمر استمراراً تجددياً فتلازم أحياناً وتنفك حيناً. ومن أخص صفاتها الأصالة والإبداع والخلق. فالرجل العبقري إذن يعلو ثم يسفل تبعا لقيام العبقرية به أو إنفكاكها عنه. وهو يَشخُب الشعر غالبا فيرسله من فيض الخاطر كما يجئ دون تنقيح له ولا تأنق فيه، ثم هو في عظام الأمور سباق وفي محاقرها متخلف، لأن الجليل يوقظ خاطره ويحفز طبعه والتافه الوضيع ينخزل عن مكانه فلا يبلغ موضع التأثير فيه وقد يعني لسبب من الأسباب بعامي الأشياء أو سوقي الآراء فيبعث فيه من روحه ما يحييه، ومن حرارته ما يقويه، ومن أشعته ما يظهر فيه الطرافة والجدة كما تظهر الشمس كرات التبر في عروق الصخور! فالقريحة كما ترى توجد الصورة والعبقرية تبدع المخلوق. ومزية الأولى في الصنعة وتقديرها في التفصيل، ومزية الأخرى في الابتكار وتقديرها في الجملة. فإذا قرأت قصيدة لذي القريحة راقك منها جرس الحروف ونغم الكلمات واتساق الجمل وبراعة البيت، ولكنك تفرغ منها وليس لها اثر في نفسك ولا صورة في ذهنك. أما العبقريات فحسبك أن تذكر عنوانها لتشعر بها، وتتصور موضوعها لتتأثر منها.
ذو القريحة يقول ما يقول الناس، ولكنه يصوره بقوة ويؤديه بدقة وينسقه بذوق ويهذبه بفن، وذوو العبقرية على نقيضه، ينظر ويشعر ويفكر ويقدر على طريقته الخاصة. فإذا وضع خطة أو رسم صورة أو بحث فكرة أخرجها على طراز فَذ فتحسبها مبتكرة وقد تكون مسبوقة، لأنه استطاع بقوة لحظه ولقانة طبعه أن يريك فروقا لم ترها، ويقفك على تفاصيل لم تتصورها، ويفجر لك النهر من حيث لم يستطع غيره أن يفجر الجدول. والرجل العادي ينظر بالعين فكأنه لسطحيته لم ير! والعبقري يرى باللمح فكأنه لزكاته لم ينظر!
على أن هناك فرصا للكمال تجتمع فيها على الوئام العبقرية والقريحة، فيسلم الفنان حينئذ من التفاوت القبيح بين إصعاده وإسفافه، أو بين جيده ورديئه. لأن العبقرية إذا غفت خلفتها القريحة، والقريحة إذا كبت سندتها العبقرية. على ذلك تستطيع أن تقول أن أبا نواس وأبا فراس والشريف من رجال القريحة وإن أبا تمام وأبا العتاهية والمتنبي من رجال العبقرية، وإن البحتري وابن الرومي ممن جمع في الكثير الغالب

بين الموهبتين. وتستطيع كذلك أن تعلل أمثال قول البحتري في أبي تمام: جيده خير من جيدي ورديئي خير من رديئه؛ وقول الأصمعي في أبي العتاهية: أن شعره كساحة الملوك يقع فيها الجوهر والذهب والخزف والنوى، وقول الثعالبي في المتنبي: كان كثير التفاوت في شعره فيجمع بين الدرة والآجُرَّة، ويتبع الفقرة الغراء بالكلمة العوراء، وقولهم في ابن الرومي: إنه امتاز بتوليد المعنى واستقصائه وسلامة شعره على الطول.

اخطرُ ببالك بعد ذلك حافظا تجد أول ما يبهرك منه لفظه المونق وأسلوبه المشرق وقافيته المروضة وصوره الأخاذة. فأما الروح والموضوع فأصداء منبعثة من الماضي في فردياته وآراء مقتبسة من الحاضر في اجتماعياته، فحافظ لم يستطع لضيق مضطربه وقصور خياله وضعف ثقافته أن يعنى بغير الشكل والصورة، وكانت هذه العناية من اليقظة والحرص بحيث لم تغفل عن خلل ولم تعي بصقال. فإذا تهيأ للشعر أو للنثر عمد إلى الآراء التي تختلج حينئذ في النفوس وتستفيض في المجامع وتتردد في الصحف فيجمعها في باله ويديرها في خاطره ثم يكون همه بعد ذلك أن يصوغها فيحسن الصوغ ويسبكها فيجيد السبك، وتقرأ بعد ذلك أو تسمع فإذا نسق مطرد وأسلوب سائغ وشئ كأنك سمعته من قبل ولكن عليه طابع حافظ ووسمه.

وحافظ يتحمل من بناء القصيدة رهقاً شديداً، لأنه يلدها فكرة فكرة، ويبض بها قطرة قطرة، ويتصيد المعاني فيقيدها في مفردات أو مقطوعات، فربما وقع له ختام القصيدة قبل مطلعها، وعثر على عجز البيت قبل صدره، ثم يعود فيرتب هذه الأبيات لأدنى ملابسة وأوهى صلة! وتجئ الصنعة البارعة فتخدعك عن الخلل بالطلاء، وعن التفكك بارتباط الأسلوب.

ثم أخطرُ ببالك بعد ذلك شوقي تجده غير محدود بالصنعة ولا مقيد بالشكل، وإنما هو فيض يسخر بالحدود، ونور ينفذ من الستور، وإلهام يتصل باللانهاية، وشاعر كالمتنبي أو كهوجو يفتح مطلع القصيدة فكأنما يفتح لك باب السماء! فأنت من شوقي حيال شاعر روحه أقوى من فنه، وشعره أوسع من علمه، وحكمته أمتن من خلقه، وقدرته أكبر من استعداده، فلا تشك في انه وسيط لروح خفية تقوده، ورسول لقوة إلهية تلهمه، ثم تفارقه حينا تلك الروح وتفرق عنه هذه القوة فيعود رجلاً أقل من الرجال، وشاعرا اضعف من الشعراء، فينظم في افتتاح الجامعة ومشروع القرش وما إلى ذلك، فيأتي بما لا وزن له في النقد ولا مساغ له في الذوق!

وشوقي تحت وحي العبقرية يتنزل عليه الموضوع جملة، ثم يشغله عن تفاصيله التفكير في الغاية والتحديق في الغرض فيرسله من فيض الخاطر شعراً متسلسلا متصلا تضيق عن معانيه ألفاظه كما تضيق شطئان الرمل عن الفيضان الجائش المزبد. ومن ثَمَّ كان التجديد والتعقيد والتدفق والعُمق من أقوى خصائص شوقي، كما كان التقليد والبساطة والكزازة والسطحية، من أبين خصائص حافظ.

وهنا نحجز القلم عن وجهه فلا نمعن في تحليل شاعرينا اليوم، فان لذلك إبانه ومكانه، ثم نرسل العين هتانة

المسارب أسى على ماض طويل انقطع، ونغم جميل تبدد، وحلم لذيذ تقضى، وكاهنين من كهان عطارد طواهما الخلود، ثم ترك بعدهما رسالة الشعر عرضة للشعوذة والجمود.

حلقات في الأدب

في الفسطاط

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كانت مدينة الفسطاط منذ القرن الثاني للهجرة مركزاًللتفكير والآداب , يحج إليها كثير من أعلام المشرق. وكانت مصر قد بدأت تتبوأ مكانتها الفكرية والأدبية بين الأمم الإسلامية، منذ استقرت شئونها السياسية في عهد الدولة العباسية. ولم تكن مصر منذ افتتحها الإسلام أكثر من ولاية تابعة للخلافة. ولكنها كانت بين ولايات الخلافة أشدها احتفاظاً بشخصيتها وألوانها القومية؛ وكانت منذ البداية تأخذ نصيبها في بناء صرح التفكير الإسلامي؛ ولكنها كانت تشق طريقها الخاص. وكانت منذ الفتح مركزاً هاماً للسنة والرواية، يحتشد فيها جماعة كبيرة من الصحابة الذين اشتركوا في الفتح والتابعين الذين عاصروهم. وفي القرن الأول أيضا وضعت بذور الحركة الأدبية فنمت

وأزهرت بسرعة , حتى أنه يمكن القول أن مصر كانت منذ القرن الثالث قد كونت أدبها الخاص. ولم يأت القرن الرابع حتى كان هذا الأدب يتميز بخواصه المصريةالقوية مما عداه من تراث التفكير العربي في المشرق والأندلس.

وكانت الفسطاط عاصمة الإسلام في مصر منذ قيامها عقب الفتح سنة 21هـ (641م) حتى منتصف القرن الرابع. وقد قامت بجوارها مدينتا العسكر والقطائع دهراً. ولكن العسكر كانت مركزاً للإمارة والإدارة فقط، وكانت القطائع وهي مدينة بنى طولون مدينة بلاط فقط، أما الفسطاط فكانت قلب الإسلام النابض في مصر، ومهد التفكير والآداب في تلك العصور وحتى بعد أن قامت القاهرة المعزية سنة 358هـ (969م) لم تفقد الفسطاط أهميتها الفكرية والأدبية، بل لبثت بعد ذلك عصوراً تشتهر بحلقاتها ولياليها الأدبية. وكانت هذه الحلقات والليالي الأدبية من محاسن الفسطاط، يشيد بأهميتها وجمالها أدباء المشرق والمغرب الوافدين على مصر. وكانت في الواقع نوعا من الأبهاء الأدبية فيها الأدباء والشعراء، للقراءة والسمر والجدل والمساجلة , وكانت مهاد اللقاء والتعارف بين الأدباء المحليين والنزلاء الوافدين من عواصم الإسلام الأخرى.

وقد بدأت هذه الحلقات الأدبية في الفسطاط منذ القرن الأول. ولكنها كانت في بدايتها فقهية

دينية , وكانت لها أهميتها في تمحيص السنة والرواية. وكانت تجمع بين جماعة من أقطاب الفقهاء والحفاظ والمحدثين الذين يعتبرون في الطبقة الأولى بين فقهاء الإسلام ورواة السُنة، مثل يزيد بن حبيب، والليث بن سعد، وعبد الله بن وهب، ثم الشافعي وأصحابه. ثم اتخذت هذه الحلقات طابعاً أدبياً، فكان يمزج فيها بين الكلام والأدب، وكان معظم فقهاء هذا العصر أدباء أيضاً يأخذون من الأدب بحظ وافر، ولبعضهم في الشعر والنثر براعة خاصة. ونستطيع أن نذكر من هؤلاء الأمام محمد بن إدريس الشافعي قُطبْ الشريعة وحُجة التشريع، فقد كان أيضاً أديباً مبرزاً له في الشعر والنثر محاسن وروائع وكذلك آل عبد الحكم الذين نذكرهم بعد؛ وأبو بكر الحداد قاضي مصر؛ والحسن بن زولاق المؤرخ فقد كان هؤلاء جميعاً من كبار الفقهاء والأدباء وكان الفقه والحديث والأدب تمتزج معاً في مجالسهم وأسمارهم. . ولعل أبهى حقبة في هذه الحلقات الشهيرة في تاريخ الفسطاط مستهل القرن الثالث الهجري ففي ذلك الحين كان الإمام الشافعي نزيل الفسطاط وكان مدى الأعوام التي قضاها بمصر منذ قدومه إليها في أواخر سنة 198هـ (813م) حتى وفاته في رجب سنة 204هـ (819م) قطب الحركة الفكرية فيها وكعبة الصفوة من فقهائها وأدبائها يجذبهم إليه غزير علمه ورفيع أدبه، وبارع خلاله. وكانت حلقات الفسطاط الأدبية شهيرة قبل مقدمه لكنه اسبغ عليها بهاءً وسحراً وروعة. وكان أبو تمام الطائي الشاعر الأكبر إذا صحت الرواية عن مقدمه إلى مصر صبياً واشتغاله بسقي الماء في المسجد الجامع يغشى هذه المجالس الأدبية في حداثته وفيه تفتحت مواهبه الأدبية والشعرية. والظاهر انه كان طبقاً لهذه الرواية يقيم في الفسطاط في خاتمة القرن الثاني أو فاتحة القرن الثالث أعني في نحو الوقت الذي كان فيه الشافعي نزيلها. وكان أشهر هذه الحلقات أو الأبهاء حلقة بني عبد الحكم , وهم أسرة مصرية نابهة كثيرة المال والوجاهة؛ أنجبت عدة من كبار الفقهاء منهم عميد الأسرة عبد الله بن عبد الحكم المصري، وهو من أقطاب الفقه المالكي وأولاده محمد وسعد إبنا عبد الحكم وكلاهما فقيه ومحدث كبير وعبد الرحمن بن عبد الحكم أقدم مؤرخ لمصر الإسلامية. وقد كان بنو عبد الحكم منذ القرن الثاني أعلام الفقه والتفكير والأدب في مدينة الفسطاط وكانت دارهم كعبة العلماء والأدباء ومنتدى للدراسات والأسمار الأدبية الرفيعة، وكانت حلقاتهم العلمية والأدبية تجذب أكابر

العلماء الوافدين على مصر من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، فلما قدم الإمام الشافعي إلى مصر كان بنو عبد الحكم أول من استقبله وأكرم وفادته؛ وأمدته الأسرة النابهة بالمال ونظمت له سبل الإقامة والدرس؛ وكانت أول من انتفع بعلمه وأدبه. وبث مقدم الشافعي في آداب الفسطاط روحاً جديدة واشتهرت مجالسه وحلقاته الفقهية والأدبية. وكانت حقبة علمية أدبية زاهرة (198 - 204هـ) وكانت حلقات المسجد الجامع أو جامع عمرو منذ إنشائه سنة 21هـ (641م) قلب الفسطاط الفكري

وكانت تعقد فيه مجالس القضاء الأعلى كما كانت تعقد مجالس الفقه والأدب الخاصة.
وصحن المسجد الجامع شهير في تاريخ الفسطاط الأدبي وقد كان مدى قرون ندوة فكرية أدبية جامعة وكانت بين جدرانه توجه حركة التفكير والآداب في مصر الإسلامية. ويبدو مما كتبه مؤرخو الفسطاط في هذا العصر أن هذه الحلقات دورية وكانت منظمة برغم صفتها الخاصة. أنها كانت تعقد كل يوم تقريباً في المسجد الجامع. ولكن الظاهر أن أهمها ما كان يعقد يوم الجمعة؛ وأن مجالس الجمعة كانت تعتبر كموسم أسبوعي يغص المسجد فيه بجمهرة الفقهاء والأدباء والقراء والنظارة. وفيها كانت البحوث الكلامية، والمناظرات الأدبية، والمطارحات الشعرية والرواية التاريخية تنظم في حلقات فرعية أو متعاقبة.
وكانت هذه الحلقات الأدبية الشهيرة تتأثر بتطور السياسة والأهواء السياسية والدينية، إذ كانت موئل التفكير والدعوة إلى مختلف المذاهب الفقهية والأدبية. ففي سنة 226هـ مثلاً أمر محمد أبن أبي الليث قاضي قضاة مصر تنفيذا لرغبة الخليفة الواثق بالله، بالقبض على جميع الفقهاء والمحدثين والأدباء باسم الامتحان في مسألة خلق القرآن وهي المعروفة بالمحنة فملئت السجون بالمنكرين لخلقه من العلماء والأدباء، وأغلِقَ المسجد الجامع في وجه المالكية والشافعية، وفضت حلقاتهم العلمية والأدبية، ومنعوا من زيارة المسجد، ومن بث آرائهم ونظرياتهم وأخذ بنو الحكم فوق أخذهم بالمحنة بتهمة أخرى، وهي تبديد أموال طائلة ائتمنوا عليها من علي بن عبد العزيز الجروي، وهو زعيم خارج تغلب حيناً على بعض نواحي مصر ثم أخمدت ثورته، وأتهم بالخيانة، وقضي بمصادرة أمواله، فأتهم بإخفائها بنو عبد الحكم، وقبض عليهم وعذبوا واستصفيت أموالهم أداء لما قضي به وتوفي بعضهم في السجن (سنة 237هـ) ثم أفرج عنهم بعد ذلك، ولكن هذه المحنة ذهبت بوجاهة الأسرة النابهة وجاهها وهيبتها فأضمحل نفوذ هذه الأسرة وتضاءلت أهمية هذه الحلقات الأدبية الباهرة التي اشتهرت بتنظيمها وعقدها زهاء نصف قرن. وفي نفس العام أمر الحارث بن مسكين قاضي القضاة بمطاردة الفقهاء الحنفية والشافعية وإخراجهم من المسجد الجامع وقطع أرزاقهم وحظر اجتماعاتهم.
وهكذا شتت شمل المجتمع الفكري في الفسطاط حينا وانزوت حلقاتها الأدبية الزاهرة حتى منتصف القرن الثالث ولكنها عادت فانتظمت وازدهرت واستعاد المسجد هدوءه وسكينته وردت حرية الاجتماع والدرس. وجاءت الدولة الطولونية (254 - 292هـ) (868 - 905م) فازدهرت في ظلها الآداب والفنون وكان أحمد بن طولون أميراً مستنيراً يحب العلوم والآداب ويرعاها بتعضيده وحمايته، ويجل مجالس العلم وحلقات الأدب. وكانت الفسطاط ومسجدها الجامع أيضاً مثوى الحلقات والمجالس العلمية والأدبية في هذا العصر؛ لأن مدينة القطائع التي شيدها إبن طولون لم تكن كما قدمنا سوى مدينة بلاط وبطانة. ونبغ في هذه الحقبة القصيرة عدد كبير من الأدباء والشعراء وبكت دولة الشعر دولة بني طولون عند ذهابها أيما بكاء فقال شاعرها سعيد القاص من قصيدة طويلة رائعة :-

طوى زينة الدنيا ومصباح أهلها ... بفقد بني طولون والأنجم الزهر
وفقد بني طولون في كل موطن ... أمر على الإسلام فقداً من القطر
تذكرتهم لما مضوا فتتابعوا ... كما أرفض سلك من جمان ومن شذر
فمن يبك شيئاً ضاع من بعد أهله ... لفقدهم فليبك حزناً على مصر
لبيك بني طولون إذ بان عصرهم ... فبورك من دهر وبورك من عصر

وفي أوائل القرن الرابع كانت الفسطاط تضم جماعة كبيرة من أقطاب المفكرين والأدباء وكانت أبهاؤها ومجالسها الأدبية حافلة زاهرة. ففي تلك الفترة اجتمع من زعماء التفكير والأدب أبو القاسم بن قديد وتلميذه أبو عمر الكندي مؤرخ الولاة والقضاة، وأبو جعفر النحاس المصري الكاتب والشاعر، وأبو بكر الحداد قاضي مصر، وأبو القاسم طباطبا الحسيني الشاعر، وأبو بكر بن محمد بن موسى الملقب بسيبويه مصر، والحسن بن زولاق المؤرخ الأشهر وكثيرون غيرهم؛ فكان لاجتماع هذه الصفوة العلمية والأدبية البارزة في هذه الفترة أثر كبير في ازدهار الحركة الفكرية بمصر في أوائل القرن الرابع.

فكانت حلقات الأدب في أوج نشاطها وكان المسجد الجامع يومئذ جامعة حقة يموج بهذه الاجتماعات العلمية والأدبية الشهيرة. وكانت دولة التفكير والأدب في بغداد قد أخذت في الضعف والاضمحلال وأخذت مصر تتأهب للقيام بدورها في رعاية التفكير الإسلامي في المشرق وكان بنو الإخشيد، محمد بن طغج وولداه انوجور وعلي ثم وزيرهم الخصي النابه كافور، مدى دولتهم التي استمرت زهاء ثلث قرن (324 - 358هـ) (935 - 969م) حماة للعلوم والآداب. وقد انتهى إلينا من آثار الحسن بن زولاق المؤرخ، أثر هام يلقي ضياء على تاريخ الحركة الأدبية المصرية في هذا العصر وهو كتاب (أخبار سيبويه المصري) وهو أبو بكر بن موسى الذي سبقت الإشارة إليه وقد كان صديقاً لابن زولاق وزميلا له في الدرس على ابن الحداد. وكانت له أخبار ومُلح ونوادر أدبية طريفة عُني ابن زولاق بجمعِها في هذا الكتاب. وفي دار الكتب نسخة خطية وحيدة من هذا الأثر لا ريب إنها من اقدم المخطوطات العربية التي وصلت إلينا بل لقد انتهينا في تحقيق شأنها إلى أنها اقدم مخطوط أدبي مصري وصل إلينا وأنها من آثار عصر الفسطاط ذاته وبخط ابن زولاق نفسه.

وفي اثر ابن زولاق هذا إشارات كثيرة إلى حلقات الفسطاط الأدبية في عصره في النصف الأول من القرن الرابع الهجري.

ويبدو من سياق كلامه أن المسجد كان مثوى لأهم هذه الحلقات وأشهرها وأنها كانت كما قدمنا دورية منتظمة تعقد على الأغلب في عصر يوم الجمعة وتجتمع بين الفقهاء والأدباء وينعقد فيها الجدل الكلامي والحوار الأدبي والشهري. والظاهر أيضاً أن هذا الجدل والحوار كان ينتهي أحياناً إلى بعض ما ينتهي إليه في عصرنا من مرارة واتهام وتراشق وأن بعض المفكرين الأحرار كانوا ينقمون من عصرهم ما ننقم من عصرنا أحياناً من اعتداء على حرية الرأي والبحث وأن بعضهم كان يرمى بتهم المروق والإلحاد إذا أطلق لنفسه حرية البحث والرأي على نحو ما يشير إليه سيبويه المصري في قوله من قصيدة أوردها ابن زولاق:

أما سبيل اطراح العلم فهو على ... ذي اللب أعظم من ضرب على الرأس
فأن سلكت سبيل العلم تطلبه ... بالبحث أبت بتفكير من الناس
وإن طلبت بلا بحث ولا نظر ... لم تصح منه على إيقانٍ إيناس
وأنبذ مقالة من ينهاك عن نظر ... نبذ الطبيب بذل القرحة الآسي

وهذه ظاهرة فكرية خطيرة يسجلها الشاعر المصري على عصره أعني أوائل القرن الرابع (حول سنة 320 - 340هـ) وهي تدل على أن الجدل العلمي والأدبي كان يرتفع يومئذ الى مرتبة الأيمان والعقيدة وينحدر أحيانا أخرى إلى درك التراشق والمهاترة. كذلك هنالك في قول الشاعر ما يدل على أن بعض المفكرين والأدباء كانوا يؤثرون الصمت على الجهر بآرائهم خيفة الاتهام والوقيعة.

وقد كانت حلقات المسجد الجامع بلا ريب أهم الحلقات الأدبية العامة ولكن هناك في أقوال ابن زولاق ما يدل على أنها كانت تعقد أيضاً في المساجد الأخرى. فمثلا كان الشاعر الأكبر أبو الطيب المتنبي الذي وفد على مصر سنة 346هـ (957م) ليستظل بحماية الأخشيد يجلس في مجلس يعرف بمسجد ابن عمروس وهناك يجتمع إليه الأدباء والشعراء؛ وكانت حلقة المتنبي بلا ريب من أهم مجالس الشعر والأدب والفلسفة في هذا العصر. وأما عن الحلقات والأبهاء الخاصة فيشير ابن زولاق إلى المجالس العلمية والأدبية التي كان يعقدها محمد بن طغج (الإخشيد) وولده انوجور ثم مجالس الوزيرين ابن الفضل جعفر بن الفرات والحسين بن محمد المارداني. والظاهر أن هذه المجالس والحلقات الأدبية كانت يومئذ من تقاليد الحياة الرفيعة وكانت نوعا من الترف الذي يأخذ به الأمراء والعظماء والأسر الكبيرة فان لهم جميعاً على نحو ما بينا في سير الأبهاء الأدبية في تلك العصور أكبر نصيب وذكر، ويرجع إليهم في أقامتها ورعايتها أكبر الفضل.

من طرائف الشعر

النكران

الفأس والشجرة

للدكتور محمد عوض محمد

كانت الفأس قطعة من حديد ... وحدها لا تطيق حزاً وقطعاً

فرأت دوحة: فقالت: (هبيني ... بالك الخير! من فروعك فرعاً!)
امنحيني يداً، تشدي بها أز ... ري فأزداد في البرية نفعاً
فحبتها فرعاً متيناً وظنت ... أنها أحسنت بذلك صنعاً!
باتت الفأس بعدها ذات حول ... يصدع الصخر والجنادل صدعاً
وتناست أنى لها ذلك الحول ... فجاءت لدوحة الأمس تسعى!
أن هوت نحوها بقسوة ذي غل ... وحقد كأنه حقد أفعى
ضربتها ضربات طالب ثأرٍ ... فهوت للثرى: فروعاً وجذعاً!!
وحي الحياة.
لوجهك هذا الكون يا حُسْنُ كله ... وجوهٌ يفيض البشرُ من قسماتها
وتستعرضُ الدنيا غريبَ فنونها ... وتعرب عن نجواكَ شتىَّ لغاتها
ولولاكَ ما جاش الدَجى بهمومها ... ولا افترَّ ثغر الصبح عن بسماتها!
ولا سعدتْ بالوهم في عالم المنى ... ولا شقيتْ بالحبِّ بين لِداتها
ولا حيَيَتْ الفَّنان إلهام فنِّه ... ولا رُزقَ الإبداع من نفحاتها
فوا أسفا يا حسن لِلّحظة التي ... تطيش لها الأحلام من وثباتها!
فوا أسفاً يا حسن للحّظة التي ... يعزُ على الأوهام جمع شتاتها!
وما هي إلا الصمت والبرد والدُّجى ... ودنيا يشيع الموت في جنباتها!
فناءٌ تضجُ الريح من ظلماته ... وتفزع فيه البوم من صرخاتها
وتنتثر الأزهار من عذباتها ... وتعْرى الغصون النُّضْر من ورقاتها
ويغشى السماء الجهمُ من كل ديمةٍ ... تخدِّد وجه الأرض من عبراتها
هنالك لا الدنيا ولا البهجة التي ... عَرَفْتَ، ولا الأيام في ضحكاتها!
ولكن رَوَى النفس التي كنت حبها ... ونافثَ هذا السحر في كلماتها
مضت غير شعرٍ أودعت فيه وحْيَها ... إليك فخذ يا حُسن وَحيَ حياتها!
علي محمود المهندس
في الأدب الشرقي
صفحات من الشعر الهندي
- 1 -
من ديوان رسالة الشرق
لشاعر الهند العظيم محمد إقبال
بقلم الدكتور عبد الوهاب عزام
المدرس بكلية الآداب
محمد إقبال هو شاعر الهند العظيم، وأكبر شعراء الإسلام في عصرنا. درس الفلسفة في إنجلترا وألمانيا وتزود من الفلسفة القديمة والحديثة ما شاء له الذكاء والاجتهاد، وعلم الفلسفة في جامعات الهند سنين كثيرة. وهو اليوم قائد من قادة الأفكار في الهند.
وله من الشعر دواوين عدة بلغ فيها الغاية. نظم واحداً منها باللغة الأردية وسماه (بانك درا) أي صلصلة الجرس. ونظم خمسة بالفارسية وهي:
(أسرار الذاتية ورموز اللاذاتية) (ورموز بي خودي) ،(وأسرار خودي) ،(زبور العجم) ، وقد جعله جواباً للقصائد المشرقية التي نظمها الشاعر (رسالة المشرق) (يبام مشرق) الألماني جوته. وآخرها (جاويدنامه) (الكتاب الخالد).
والقطع المترجمة هنا مأخوذة من (يبام مشرق).
الحياة:
بكى سحاب الربيع في جنح الليل فقال:
إن هذي الحياة بكاء مستمر!
فتلألأ البرق الخاطف أن (قد غلطت. إنها لمحة من الضحك!.) ليت شعري من أخبر البستان بهذا، فهو حديث مستمر بين الندى والورد.؟!
الله والإنسان:
الله
خلقتُ العالم من ماء واحد وطينة واحدة، فخلقتَ انت الفرس والتتار والزنج. خلقت من التراب الحديد، فخلقت انت السيوف والسهام والمدافع، وخلقتَ الفأس لأغصان

الشجر والقفص للطائر الغرّيد.
الإنسان
خلقتَ الليل فخلقتُ المصباح. وخلقتَ الطين فخلقتُ الآنية: خلقتَ الصحارى والجبال والرُّبي فخلقتُ الجنات وحدائق الورد والطرق المشجرة.
أنا الذي صنع المرآة من الحجر!.
وأنا الذي صنع الدواء من السم!.
اليراعة:
سمعت اليراعة تقول: لستُ كالنملة ينال الناس أذاها.
ولستُ كالفراشة، فأني اشتغل ولا احمل منَّة لأحد. إذا صار الليل اشد حلكا من عين الظبي أنرت بنفسي لنفسي الطريق!!.
الحقيقة:
قالت العقاب بعيدة الرأي للعنقاء: أن الذي يراه ناظري سراب! فأجاب ذلك الطائر: أنت ترين. ولكني أعلم أنه ماء. فارتفع صوت السمكة من لجة البحر: أجل يوجد شيء وهو في هياج واضطراب!!. .
الحكمة والشعر:
ضل أبو علي في غبار الناقة، وأخذت يد الرومي بستر المحمل!
هذا غاص حتى ظفر بالجواهر، وذاك دار مع الغثاء على وجه الماء.
الحق إن لم تكن فيه حرقة فهو حكمة. وإنما يصير شعراً حين يقبس من نار القلب!. .
الوحدة:
ذهبت الى البحر فقلت للموج المصطخب: أنت في طلب دائم فما خطبك؟ في جيبك آلاف اللآلئ، فهل في صدرك كما في صدري، جوهر من القلب!. .
فاضطرب وجزر عن الشاطئ ولم يحر جواباً!.
ذهبت إلى الجبل فسألت ما هذا القرار؟ ألا ينال مسمعك آهات المحزونين وصيحاتهم؟! أن يكن العقيق في أحجارك قطرات من الدم فحدثني فأني مُرَزّأ.
فانقبض وصمت ولم يحر جواباً!.
قطعت طريقا سحيقا وسألت القمر: يا جوّاب الآفاق! هل قدر لك منزل لم يوجد؟ العالم من شعاع وجهك حديقة من الياسمين. فهل نور شامتك من تجلي قلب لا يوجد؟ فرأى رقباء بين الأنجم ولم يحر جواباً!.
تخطيت القمر والشمس وصرت الى حضرة الخالق. قلت ليس في عالمك ذرة واحدة تعرفني! العالم خلو من القلب، وأنا، هذه القبضة من التراب كلها قلب!. المرج جميل، ولكنه ليس كفء نغماتي.
فتبسم ولم يحر جواب!.
الحور والشاعر:
جواب منظومة جوته (المسماة الحور والشاعر)
الحور:
لا ترغب في الخمر ولا ترفع بصرك إليَّ. عجيب انك لا تعرف طرائق الصحبة!
هذه الأنفاس التي تصهرها والغزل الذي تغني به كلها نغمة الطلب وكلها حرقة الأمل.
أي عالم من الجمال خلقتَ بألحانك؟ فهذه إرم تلوح لي كطلسم من السيمياء.
الشاعر:
تخدعن قلوب السائرين بكلام لاذع، ولكن لذته لا تبلغ وخزة الشوك! ماذا أصنع؟ أن فطرتي لا تسكن الى المقام وان له لقلبا قلقا كالصبا بين الحدائق!
كلما اطمأن ناظر الى وجه جميل خفق قلبي وراء وجه أجمل.
إني أريد من الشرر نجماً، ومن النجم شمساً. لا أبغي منزلا فان موتي أن أقرَّ. كلما تناولت قدحا من حميا الربيع قمت فأنشدت غزلاً آخر مشوقا الى ربيع جديد. إنما أطلب غاية الذي لا غاية له بعين لا تصبر، وقلب دائم الرجاء. تموت قلوب العشاق بجنة الخلد لا بألحان الألم والغم، والمؤاساة.
نسيم الصبح:
آتي من صفحات البحار وقمم الجبال، ولكني لست أدري من أين أهب!.
أبلغ الطائر المحزون رسالة الربيع، وأنثر في منزله فضة الياسمين.

وأتقلب في المرج، والتف على أغصان الشقائق، فأبعث من مسامها اللون والرائحة.
وأتعلق رفيقا رفيقاً بأوراق الورد والزهر حتى لا تنوء أغصانها بجولاتي!.
وإذا رأيت شاعرا هاجه غم العشق خلطت بنغماته نفساً بعد نفس.
الصقر والسمكة:
قالت سمكة صغيرة لفرخ الصقر:
ان كل ما ترى من سلاسل الأمواج هو البحر فيه وحوش أشد زمجرة من الرعد القاصف. وفيه صنوف الأهوال ظاهرة وخفية. وفيه السيول جائشة تقلع الصخور، وتغشى كل شيء. وفيه جواهر متلألئة ولآلىء نيرة. وليس الى الخروج منه سبيل! هو فوقنا وتحتنا وفي كل مكان. هو أبد الدهر فتى مائج متلاطم. لا يناله من دوران الأيام زيادة ولا نقص.
اتقد وجه السمكة بحرقة الحماسة، فضحك فرخ الصقر، وارتفع من الساحل الى الدوح وصاح: أنا الصقر فمالي وللأرض؟ أن الصحارى، وهي بحار، تحت أجنحتنا. دع الماء وتعوّد سعة الهواء. حكمة لا تدركها الا العين البصيرة.
العشق:
هذه الكلمة الآخذة بالقلوب، والتي هي سر وليست بسر. أنا أخبرك من سمعها وأين سمعها؟
أسترقها الندى من السماء فأوحاها الى الورد، وسمعها عن الورد البلبل، ونثَّتها عن البلبل ريح الصبا.
حداء
(نغمة حادي الحجاز)
يا ناقتي الخطارة ... وظبيتي المعطارة
وعدَّني والشارة
والمال والتجارة ... ودولتي السيارَة
حُثي الخُطى قليلاً ... منزلنا قريب!
جميلة الرواء ... مطربةُ الرغاء
محسودةُ الحوراء ... وغيرةُ الحسناء
بُنيَّةَ الصحراء!
حُثي الخُطى قليلاً ... منزلنا قريب!
كم غصتِ في السراب ... في وقدة اليباب
وسرتِ لم تهابي ... في الليل كالشهاب
والنوم عنك نابي
حُثي الخُطى قليلاً ... منزلنا قريب!
قطعة غيم غادي ... سفينة الروَّاد
كالِخضر في البوادي ... تمضين في سداد
فلذة قلب الحادي!
حُثي الخُطى قليلاً ... منزلنا قريب!
حرقتك الزمام ... وسيرك الأنغام
يتعبك المقام ... لا الجوع والأوام
والسفر المدُام
حُثي الخُطى قليلاً ... منزلنا قريب!
ممسيةٌ في اليمن ... مصبحة في قَرن
ترين حزَنْ الوطن ... كالخز تحت الثفن
إيه غزال الختن!
حُثي الخُطى قليلاً ... منزلنا قريب!
بدر السماء نعسا ... خلف التلال خنسا
والصبح قد تنفسا ... مزَّق هذا الغلسا
والريح تزجي نفسا
حُثي الخُطى قليلاً ... منزلنا قريب!
لحني دواء السقم ... والروح ملء نغمي

يحدو الركاب كلمى ... من جارح وبلسم
هلم بنتَ الحرم!
حُثي الخُطى قليلاً ... منزلنا قريب!
في الأدب الغربّي
الشاعر المحتضر
قصيدة من عبقريات لامرتين
ترجمها وأهداها إلى روح شوقي
أحمد حسن الزيات

تحطمت كأس عمري وهي مُترعة، وتصرمت حياتي زفرات في كل نَفَس، وَعيّ َبإمساكها ما أرسلت من عبرات وحسرات، وقرع الموت بجناحه الناقوس الباكي عليَّ مؤذناً بساعتي الأخيرة، فليت شعري أنوح أم أغني؟؟.!

لأغَنِّ ما دامت أناملي لا تزال على القيثار، لأغن ما دامت المنون تلهمني، وأنا على باب الآخرة ما تلهم البجعة من صرخة موزونة وأنة ملحونة، وإذا لم تكن النفس شيئا غير الحب والألم فلم لا يكون وداعها لحناً قدسياً؟؟!

إن القيثار يبعث أجملألحانه حين ينكسر، والمصباح يرسل أبهى أضوائه حين يخمد، والبجعة ترفع طرفها الى السماء حين تسلم الروح، والإنسان وحده يرجع البصر إلى الوراء ليعد أيامه ويبكيها!!

وما هذه الأيام التي تستدر حوالب عينيه؟ شمس تشرق متقطعة، وساعات تمر متشابهة، وخير تمنحه ساعة فتسلبه أخرى، ثم عمل يتلوه راحة، وألم يتبعه أحيانا حلم ذلك هو اليوم، ثم يمحو آيته الليل!

لِيبْك ذلك الذي أشتد على حطام الدنيا حرصه، وتعلق بأمانيها سببه، ثم يرى حبل مستقبله يَنْبَتّ، وظِل آماله يتقلص! أما أنا فأترك الدنيا في سهولة ويسر لأن جذوري منها كجذور النبتة الرخوة من الأرض، تهب عليها رياح المساء فتقلعها!

الشاعر أشبه شيء بالطيور الغوابر، لا تعشعش على الضفاف ولا تقع على غصَون الغاب وإنما تهدهد نفسها على متون الموج، ثم تمر مغردة على بعد من الشاطئ، فلا يعرف الناس من أمرها، غير ما يسمعون من صوتها!

أبداً لم تدرب يدي على الوتر الرنان يد مخلوق؛ لأن ما تلهمه روح الله لا تعُلِّمه يد إنسان

فالجدول لا يتعلم كيف يجري في المنحدر، والنسر لا يتعلم كيف يشق بجناحيه الهواء، والنحلة لا تتعلم كيف تؤلف العسل!

الناقوس تقرعه القوارع في مكانه العالي ليوم بشرى أو يوم نعي، فينوح مرة ويشدو مرة، وأنا كنت بهذا الناقوس أشبه! طهرني الألم كما طهره اللهب , وحركت الأوتار المختلفة أوتار قلبي فأخرجت لكل عاطفة نغمة!

أنا كالقيثارة (الأيولية) تعزف طول الليل من تلقاء نفسها على خطرات النسيم، وتمزج خرير المياه بأنينها الرخيم، فيقف السائر حيران دهشاً مما يسمع! يطرب ويعجب ولا يدري مصدر هذه الزفرات المقدسة!

قيثارتي تخضل غالباً بالدموع! وما الدموع للمرء إلا كندى السماء للأرض! وهيهات أن ينضج القلب تحت السماء الصافية! فالكأس المصدوعة يسيل عنها عصير الكروم، والريحان الذابل إذا وطئته قدماك، تَضوَّع شذاه بين خطاك!

خلق الله نفسي من نغمة محرقة، فمن يتصل بها يحترق بلهبها! فيا عجبا لمنحة القدر!! أنا أسرفت في الحب ومن ذلك الإسراف أموت! ما لمست شيئاً قط إلا حال إلى رماد! كذلك رجوم السماء الساقطة على أشجار الخَلنَج، تنطفيء بعد أن تدمر كل شيء!

ولكن العمر! لقد استوفى اجله. . والمجد! آه! وما يعنيني من صدى نغمة باطلة تنتقل من عصر الى عصر، وسمعة كاللعبة البراقة تنحدر من جيل الى جيل؟ أيها الذين وعدهم المجد سلطان الغد! استمعوا الى هذا اللحن الذي يخرج من قيثارتي! هل تجدون لرنينه أثراً في الآذان، بعد ما حمله الهواء الى غير هذا المكان؟!

شهد الله أني منذ حييت لم أذكر هذا الاسم العظيم إلا بإزراء، ولطالما عصرت هذه الكلمة التي أخترعها هذيان الإنسان فلم أجد غير هواء، هنالك لفظتها كما تلفظ

الشفتان قشرة يابسة.
في سبيل هذا الأمل الخالب، في هذا المجد الكاذب يرمي الإنسان في مجرى الزمن اسمه وهو عابر، فيلَقفه التيار، وتضعفه الأيام كلما سار، حتى يصير حطاماً تعبث به أمواج الدهر، ثم تحمله على غواربها من عصرٍ الى عصر، حتى تلقي به في لجج النسيان!
أنا كذلك القي اسمي بين تلك الأسماء العائمة، على هذه الأمواج المتلاطمة، ثم اتركه على
هوى الرياح والأمطار يطفو ويرسب! فهل يكون بذلك شأني أعظم ومقامي أرفع؟ ولماذا وكل ما هنالك أسم؟! وهل تسأل البجعة الطائرة في جو السماء إذا كان ظلها لا يزال طافيا على أديم هذه الغبراء؟!
تسألني لماذا كنت أغني؟ سل البلبل لماذا تتجاوب أغاريده وأناشيد الجدول طوال الليل؟! أنا أنشد يا صحابي كما يتنفس الإنسان، ويشدو العصفور، ويعزف الهواء، ويخر الماء!
الحب والدعاء والغناء ثلاث تقسَّمن كل حياتي!. . ولم آسُ ساعة الموت على فائت مما يتشوف إليه الناس في دنياهم إلا على زفرة حارة تتصَّعد الى الله، وسكرة طروبة تهبط من القيثار، وصمتة عاشقة تعمق حين يتعانق قلب وقلب!
إن مثولك خاشعاً أمام الجمال تسمع رجفان أوتار المزْهر، وترى حديث الهوى يمتزج مع أنغامه ويسري في حشاك، وتستقر الدموع من العين المعبودة كما يستقر النسيمأنداء الفجر من الزهرة المطلولة. . .
وترى طافها الشاكي يصَعَّد حزيناً في السماء كأنما يطير مع النغم، ثم يرتد واقعاً عليك وهو بالحرارة العفيفة يجيش، وتبصر من خلال أهدابها المسبلة شعاع نفسها كالنار المضطربة في حالك الليل البهيم. . .
وترى ظلال أفكارها على جبينها الزاهر ترف، والكلام على شفتيها المثقلتين يموت، ثم تسمع بعد هذا الصمت الطويل هذه الكلمة ترن حتى تبلغ أذن الجوزاء! هذه الكلمة، كلمة الآلهة والناس هي: (إني احبك!)
ذلك هو الذي يساوي في الحياة زفرة!!
زفرة!! حسرة!! كلام لا معنى له!
على جناح الموت، روحي تطير إلى السماء! تطير حيث ترى العين شعاع الأمل يضيء! تطير إلى حيث طارت النغمة التي خرجت من مزهري! تطير إلى حيث صعدت جميع زفراتي!.
الإيمان (وهو عين الروح) قد اخترق ظلماتي كما تخترق عين العصفور ما وراء الظلال الحزينة. ثم باحت لي غريزته النبوية بما إستسر من حظي! وكم مرة اقتحمت نفسي آفاق المستقبل حتى بلغت السماء محمولة على أجنحة اللهيب، فتقدمت بذلك الموت!
لا تنقشوا اسمي على قبري الكئيب العابس، ولا تثقلوا بالبناء ظلي الخفيف، أن قليلا من الرمل يكفيني! لست وا أسفاه حريصاً ولا غيوراً!. ثم لا تتركوا من الفراغ أمام القبر الا مقدار ما يضع الزائر العابر ركبتيه!
حطموا هذا المزهر وذرُّوا حطامه في الهواء والماء واللهب فانه لم يجاوب أهازيج النفس إلا بنغمة واحدة! أن مزهر الساروفين يرتجف تحت أناملي! وعما قليل أعيش معهم في عالم النغمات، وأقود بقيثارتي ألحان السموات!
وعما قليل!! أن يد الموت الثقيلة قد قطعت الوتر!
انقطع بعد أن أرسل في أمواج الهواء، نغمة شاكية صماء، صمت مزهري البارد يا رفاقي! فخذوا مزاهركم، وأدخلوا نفسي عالم البقاء، بين خفق الأوتار وترجيع الغناء!. .

بيت الراعي

للشاعر الفرنسي الفريد دى فني

مهداة من المترجم إلى الأستاذ الجليل احمد لطفي السيد بك

الى إيفا

- 1 -

إذا كان قلبك وهو يتخبط عانيا كالنسر الجريح، لفرط ما أبهظته الحياة، قد قضى عليه أن يحمل كقلبي فوق جناحه المهيض عالماً بارداً مضنياً!

إذا كان لا يخفق بغير نزيف جرحه الأبدي، وقد أصبح لا يرى الحب؛ نجمة الصادق ينير له الأفق المتلاشي!

- 2 -

إذا كانت نفسك المكبلة كنفسي، قد أضنتها الأغلال ومر الطعام، فتركت المجداف فوق زورقها المنحوس، وأطلت برأسها الممتقع باكية على صفحة الماء باحثة وسط الأمواج عن طريق مجهول، فرأت - وهي ترتعد - كلمة الجماعة مرقومة فوق كتفها بالحديد.

- 3 -

إذا كان جسمك الحيّ الرعديد تخجله النظرات، وهو يضطرب بالأهواء الدفينة!

إذا كان يبحث لجماله عن حرم مصون، يحكم إخفاءه، عن المستهتر الجارح!

إذا كانت شفتك تجففها سموم الكذب وجبهتك الجميلة تحمر خجلا إذا مرت بأحلام مجهول غير عفيف، يراك أو يسمعك!.

- 4 -

إذا فارحلي بشجاعة اهجري المدن، لا تدنسي بعد اليوم قدميك بغبار الطريق، أشرفي من سماء أفكارنا على المدن الذليلة كأنها صخور القدر لاستعباد البشر! الغابات المترامية والحقول، المنبسطة ملاجئ فسيحة، طليقة، كأنها البحر يحيط بجزر معتمة. سِيري بين الحقولْ وبيمينك زهرة!

- 5 -

الطبيعة تنتظرك في صمت رهيب، العشب يرسل فوق قدميك سحابة الماء، وزفرة الوداع التي ترسلها الشمس فوق الأرض تحرك زهر الزنبق، فكأنه المباخر. الغابة قد نقبت صفوف أشجارها المترامية، وها هو الجبل يختفي والسيسبان ينشر مقاعده العفيفة فوق الأمواج الناصلة.

- 6 -

ها هو ذا الشفق المحب يتوسد الكرى وسط الوادي، فوق زمرد العشب، وذهب الحشائش. تحت القصب الحيية، في المجرى المنعزل، وتحت غابة الأحلام التي ترتعد في الأفق. ها هو يتمايل متسللا وسط عناقيد الزهور البرية، يلقى معطفه الرمادي فوق شواطئ المياه، ويشق عند ظهور الليل باب سجنها!.

- 7 -

فوق جبلي قصب كثيف لا تستطيع أقدام الصائد أن تتخلله. يرفع رأسه الجامح الى ما فوق جباهنا، ويؤوي في الليل الراعي والغريب. تعالى أخف فيه حبك وخطيئتك المقدسة. فإذا اضطرب أو لم يكن علوه كافياً شيدتُ لك بيت الراعي!

- 8 -

يسير الهوينا على عجلاته الأربع. سقفه لا يعلو فوق جبهتك وعينيك سيسبغ الياقوت وخدّاك على عربة الليل لونهما! المدخل عاطر والمخدع واسع معتم. هنالك بين الأزهار سنتخذ وسط الظلال فراشا صامتا لشعرنا المجتمع!

- 9 -

سأزور إن أردت بلاد الجليد. هنالك حيث يشع نجم الحب ويلتهب!. هنالك حيث تصطدم الرياح ويحاصرها الجليد!. هنالك حيث يختفي القطب تحت الثلوج. سنسير كما تشاء المصادفات الى غير سبيل مقرر. وفيم اهتمامي بالزمان؟ وفيم اهتمامي بالمكان؟ سأقول جميلاً ما تراه عيناك جميلا!.

- 10 -

ليهدي الله ذلك البخار الصاعق الى غايته فوق تلك القضب الحديدية، التي تخترق الجبال ليقم ملك كريم على ذلك الموقد الصاخب عندما يدب تحت الأرض أو يهز بجبروته القناطر. عندما يخترق المدن بأسنان نيرانه التي تلتهم المراجل أو عندما يقفز الأنهار بوثبات أسرع من وثبات الوعل، وقد حما قفزه.

- 11 -

ما لم يسهر الملك ذو العينين الزرقاوين على طريق البخار. ما لم يحلق فوقه ويحميه وسيفه بيده؛ ما لم يعد كل دفعة من دفعات الرافعة. ما لم يستمع الى كل دورة من

دورات العجلة في رحلتها الجبارة. ما لم يلق ببصره على الماء وبيده على النار كي يتهلل الموقد السحري بالنصر. كفانا حجر صغير يلقيه طفل!

- 12 -

لقد عجل الإنسان بركوب ذلك الثور الحديدي الذي يدخن ويصفر ويخور، وما يعلم أحد ماذا يحمل هذا الأعمى الخشن في جوفه من زوابع عاصفة! ها هو المسافر يسلمه راضياً كنوزه! ويلقي إليه بوالده العجوز وأبنائه رهائن كما كان يفعل الفينيقيون بما يقذفونه في جوف ثورهم المشتعل ناراً ليرده ترابا يلقيه تحت أقدام اله الذهب.

- 13 -

على أنه يجب أن نقهر الزمان والمكان، فأما نصر وأما موت. التجار يتنافسون، والذهب يتساقط كالمطر من دخان البخار الذاهب! الزمان والغاية هما العالم في نظرنا! كل يقول لنفسه هيا، ولكن لا سلطان لأحد على ذلك التنين الذي اخترعه أحد العلماء. أننا نلعب بما هو أقوى منا جميعا!

- 14 -

وعلى كل ليختط كل شيء سبيله، وليخدم النظر العمل فيحمله على أجنحة النار ما أتسع رحاب قاطرات البائع لكل نبيل، وما خدمت شريف العواطف. لتحل البركة على التجارة ذات الرمز الموفق ما دام الحب الذي يعبث بالمعقول قد أصبح في مكنته أن يخترق في يوم دولتين كبيرتين!. 0

- 15 -

ومع هذا فما لم نكن إزاء صديق يرسل صيحات اليأس، وحياته مهددة بالخطر. أو إزاء فرنسا التي تدق البوق لتدعونا الى ساحات الوغى أو اتصال العلم أو إزاء أمٍّ تحتضر في

سرير موتها، وتود جاهدة أن تلقي ببصرها الرقيق الحزين على ذويها قبل أن تغمض عيناها إلى الأبد.

- 16 -

لنتجنب السكك الحديدية ما دامت الرحلة بها مجردة عن كل لذة، حيث تجري على تلك الخطوط وكأنما هي سهم انطلق في الفضاء من قوسه الى غرضه، وسط أزيز الهواء، وهكذا ترى الإنسان وقد قذف به الى بُعد لا يستنشق، ولا يرى من الطبيعة الا ضباباً خانقاً يخترقه برق خاطف!

- 17 -

لن نسمع بعد اليوم وقع سنابك الخيل على الطرق الملتهبة. وداعا أيتها الرحلات البطيئة! تلك الأصوات التي نسمعها عن بعد! ضحكات المارة توقف العجلات عن السير. ثم تلك المنعطفات غير المتوقعة في مختلف المنحدرات، صديق نلقاه فننسى معه الزمان. الأمل في الوصول إلى مكان مهجور في وقت متأخر!

- 18 -

لقد تغلبنا على الزمان والمكان! لقد مدّ العلم حول كرة الأرض خطاً مستقيماً نحساً. لقد ضيقت معارفنا من فضاء الأرض وأصبح خط الإستواء عبارة عن حلقة صغيرة ضيقة. لا صدفة بعد اليوم. سيتخذ كل وجهته لا يعدو المكان الذي يحتل من بدء الرحلة غارقا في تقديرات صامتة باردة!

- 19 -

محال على الأحلام الوادعة الملتهبة بالعاطفة أن ترى قدمها الأبيض معلقا بها من غير أن ترتجف مشمئزة لأنه لا بد لها من أن تلقي على كل مرئي نظرة طويلة كالنهر المتدفق وأن تستجوب في لهفة كل شيء وأن تدرس في عناية كل سر الهي، وأن تسير وتقف، وتسير ورأسها منحن.

العلوم

النوم واليقظة

بقلم الدكتور احمد زكي

الأستاذ بكلية العلوم

النوم، ما أحلاه! أو هكذا يقول المجهود اللاغب قد استنفد النهار طوقه واستفرغ قواه. النوم ما أعزه وأغلاه! أو هكذا يقول المريض تعذّر عليه القيام وسرى السقام في

عظامه بصنوف الآلام. فلا هو بالصحيح الصاحي فتحمله كالناس رجلان، ولا بالغافل العافي فتغمض له عينان!. أمساؤه كأصباحه ونجوم ليله كشمس نهاره!.

النوم، ما أروحه! أو هكذا يقول المكروب أفعم الهّم صدره حتى كاد يصدّعه، وثار الفكر الملحّ برأسه حتى كاد يطير به، يطلب النوم فيتأبى عليه، والنوم كالسائمة الهائمة تشرد عن طالبها، فيحتال عليه بالفكر اقتناصاً، فيفكر ثم يفكر، ولكن في دائرة لا مبدأ لها ولا منتهى!.

النوم كالهواء والماء غلا حتى عز أن يكون له ثمن، منحة الله العظمى، وعطيته الكبرى، لا يستأثر بها غني ولا توصد الخزائن دونها عن فقير. وعمَّت فلم يختص بها الإنسان، فكان للخلائق أجمعين أنصبة منها، حتى النبات له من ذلك نصيب!.

نعم حتى النبات فهو في النهار يعمل كالإنسان سعياً وراء القوت، فيأخذ من الهواء أكسيد الفحم فيهضمه فأما الفحم فيستبقيه غذاء صالحا يزداد به في الجسم بسطة وفي الأفرع إنبساقاً، وأما الأوكسجين فيطلقه في الجو فضلة لا حاجة به إليها حتى إذا جاء الليل كف عن العمل وهجع إلى الصباح ليعود إلى ما كان عليه في أمسه!.

غريب فعل هذه الشمس في الخلائق. تغيب فتنام الأرض ومن عليها، وتطلع فتنشر أشعتها اليقظة والحياة، أو الأصح أن نقول أن نصف الأرض ينام حيث الشمس غائبة بينما نصفها الآخر صاح حيث الشمس طالعة، فالنوم واليقظة دوّاران كالشمس يدوران على الناس من المشرق الى المغرب. وعلاقة الشمس بالنوم ليست مصادفة وليست عادة ابتدعها الإنسان ثم ألفها، ولكنها علاقة اقتضتها طبيعة الحياة وطبيعة الأجسام الحية وطبيعة النوم كذلك. ومن اجل هذا عمت حتى شملت كل ذي حياة. حتى السمك يقل حسه في الليل ويهدأ حيث هو

من الماء. . ومن أطرف ما رأيت انهم أعلنوا في لندن منذ أعوام خلت أن الشمس ستكسف بعد طلوع الشمس بقليل. وكنا نسكن بظاهر المدينة فقمنا مبكرين نشهد هذا المشهد الجليل. فذَّر قرن الشمس وخرجت الطيور على العادة من أوكارها تسعى الى الرزق. ولكن ما هي الا أن احتجبت الشمس وجلل الأرض ما يشبه الغسق حتى وجدنا هذه الطيور تعود الى أوكارها زرافات ووحدانا مخدوعة عن صباحها، ولم يكن بعد قد جف نداه.

وهذا نظام كما ذكرنا عام اقتضته ضرورة الحياة، وله شواذ الا أنها لا تكون الا لضرورة من ضرورات الحياة كذلك. فكما نرى بين الناس من يضطره العيش إلى القيام والناس تجوع، والى الهجوع والناس قيام نرى من الحيوانات كالمفترسة ما يلبس رداء الظلام يتحسس فريسة نائمة، ومنها الضعيف الهياب كالحشرات والجرذان يتخذ من الليل نهارا يطلب القوت تحت ستاره في أمان واطمئنان. ومن النباتات أجناس رخصت لها الطبيعة بمثل هذا الشذوذ. فبينما نرى الكثير من الشجر تتهدل أغصانه بعض الشيء وتغمض أزهاره وتنحبس عطورها بمغيب الشمس، نرى القليل كنبات التبغ يسير على النقيض فتتفتح أزهاره في الليل ويفوح طيبه وما كان للطبيعة أن تأذن لهذا النبات في رخصة كهذه لولا أن فيها حياته وبها ضمان إنساله، فأن فَراش الليل ينجذب إلى الزهرة الذكر بشذاها، فيحط عليها طلباً لجناها، ثم يشيل عنها متحملا بلقاحها، فيحط به على زهرة أنثى فيتم إثمارها.

أما جوهر النوم وكنهه فقد حار فيهما العلماء كما حاروا في كل شيء يتصل بالمخ وتوابعه من حيث الصحة والمرض ومن حيث الإدراك والتفكير. ولا غرابة في ذلك، فالإنسان أمتاز من الكائنات بخلقه، والمخ أعقد ما في هذا الخلق، وبه ساد الخلائق، وبه تحكم فيها وورث الأرض، وبه سيرث أجرام السماوات. غير انه مما لا شك فيه أن النوم يعطل في الإنسان التعقل والتفكير، وكذلك الإحساس، وتلك جميعها من مظاهر اليقظة. ولا تدوم فترة ما بين اليقظة والنوم أكثر من دقيقة أو دقيقتين، وعندئذ يدخل الرجل الصحيح المعافى في النوم كما يجب أن يكون، وتنقطع الصلة بينه وبين هذا العالم ساعة أو ساعتين، تكون فيها صحيفة ذهنه بيضاء من كل شر أو خير، فهو كالميت وليس ميتا، ثم تقرب الصلة بعد ذلك بينه وبين العالم الحي، وهنا تتدخل الأحلام. وليس النوم ذو الأحلام بالنوم العميق، ولا أدل

على ذلك من أن أحلام النائم تتأثر بما يحدث حوله، فقد يقع كتاب في الغرفة فيتمثل للحالمكان بيتاً ينهد، أو جبلاً ينقض. كذلك تتشكل أحلام النائم وفقاً لما يحدث في

جسمه، كأن تتوعك أمعاؤه أو تتخم معدته فتضيق أنفاسه فيرى أن لصاً مجرماً أخذ بتلابيبه وضيق عليه الخناق، أو أنه ألقي به في اليم فسد عليه الماء منافس الهواء. فالرؤى على هذا نوع من الكرى بين الوسن الخالص واليقظة الخالصة، ولا تكون راحة الجسم فيها تامة، ولو جمعته بالحور الحسان على أرائك من خز وجمان. وكما كان الدخول في النوم تدرجا كان الخروج منه تدرجا ولا يستغرق هذا التحول أكثر من دقيقتين.

ومع أن الإنسان يتعطل تعقله وحركته إذا هو نام الا أن أعمال جسمه الأخرى التي لا تتصل بمراكز المخ الرئيسية لا تتعطل ولا تكاد تتأثر الا قليلا، فالقلب يدق ولا تقل دقاته الا يسيراً، والمعدة تفرز العصارات الهضمية، والأمعاء تتحرك حركاتها الدودية، ويجري امتصاص الطعام فيها بمقدار ما يجري في الصحو. والدورة الدموية تجري كعادتها، إلا أن مخ النائم يقل دمه، بينما يكثر الدم مقابل ذلك في الأعضاء والأطراف لاتساع أوعيتها. ففقر الدم في المخ نتيجة من نتائج النوم، وكثيرا ما يكون سببا من مسبباته. ألا ترى أنك إذا أكلت فأثقلت جاءك النعاس فلم تستطع لسلطانه دفعاً؟ وسبب هذا أن المعدة تجذب الى نفسها أكثر الدم ليعينها على الهضم فيقل نصيب المخ منه. كذلك تقل حرارة الجسم في النوم تبعاً لنقص نشاطه، فأن كل عمل من أعماله نتيجة تفاعل كيميائي يصحبه احتراق بعض مادته. فإذا قل نشاط الجسم قل احتراقه فقلت حرارته.

وإذا نحن قدّرنا نتاج احتراق الجسم في الأربع والعشرين ساعة بنحو 3000 سعر حراري وجدنا انه ينتج من ذلك القدر 600 من الأسعار في ثماني الساعات التي ينامها، وينتج 750 منها في ثماني الساعات التي يستريح فيه غير نائم، والباقي وقدره 1650 ينتجه في ثماني الساعات التي يكد فيها ويعمل. ولقلة دخل الجسم من الحرارة أثناء النوم يتغطى المرء حين ينام بكل موصل رديء للحرارة كالألحفة ونحوها ليقلل خروج الحرارة منه فيتم بذلك توازنه الاقتصادي. ومن أجل ذلك أيضاً يختل هذا التوازن على الأغلب والناس نيام، فيصابون بأزمة داخلية يعبرون عنها بالبرد.

وقد وضع العلماء نظريات عديدة في أسباب النوم لا داعي للإلمام بها لأنهم لم يجمعوا على إحداها. وقد حاول قوم في عصر المحاولات الغربية (الذي نحن فيه) أن يستغنوا عن النوم بالمران، فكانوا كمن يحاول أن يستغني عن الشراب والطعام. ويختلف القدر اللازم منه للإنسان بإختلاف عمله وحركته وخموده، كذلك يختلف على ما هو معروف بأختلاف الأعمار، فالطفل الرضيع ينام أغلب يومه، ثم تقل حاجته منه حتى تبلغ في الشباب ثماني ساعات، ثم تزيد في القلة. فقد تنزل في الشيخوخة إلى ثلاث ثم تنعدم بالطبع عند نفاد الزيت واحتراق الفتيل.

العالم النسائي

تباشير الانقلاب

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

تحيي الرسالة صديقها الزهاوي بقصره الجديد من ضاحية بغداد تحية طيبة، وتعده بأن تعنى بدرس آثاره وتحليل أشعاره عناية ظاهرة، ثم تعاتبه في رقة ولطف على أن يختار لعددها الأول هذه القصيدة.

من بعد ما انتظرت حقابا ... ثارت فمزقت الحجابا
عربية عرفت أخيراً ... كيف تنبذ ما أرابا
كان الحجاب يسومها ... خسفاً ويرهقها عذابا
إن الألى قد أذنبوا ... هم صيّروه لها عقابا
وسيطلب التاريخ من ... ناس لها ظلموا حسابا
سألت لها حرية ... تغنى فما لقيت جواب
حتى إذا ما استيأست ... خرقت بأيديها النقابا
فرأت أمام سفورها ... للمجد أفنية رحابا
ذهبت كزوبعة لها ... صخب فأحمدت الذهابا
أحسنت يا ابنة يعرب ... صنعاً وأتبعت الصوابا
فلقد كفاك غضاضة ... ذاك الشقاء بما أصابا
ليس الجمود سوى خنو ... ع قد يجر لك التبابا

ان الحياة لتبتغي ... في عصرنا هذا انقلابا
ظهرت تباشير له ... تبني المنى منها قبابا
خوضي الى المجد الأثي ... ل - إذا أرديته - الصعابا
وتنكبي الوهد الذي ... يخفيك واطلبي الهضابا
أما العباب فانه ... ان حال فاقتحمي العبابا
الحق حقك فانشدي ... هـ في محاولة طلابا
وإذا أبوا فخذيه منه ... م في محاججة غلابا
لا تعبئي أبداً بغر ... بان يواصلن النعابا
وذري من الدين القشو ... ر جميعها وخذي اللبابا
لا خير في ناس إذا ... أفحمتهم ولوا غضابا
عزووا الحجاب الى الكتا ... ب فليتهم قرأوا الكتابا!
ان التعصب مانع ... أن تبصر العين صوابا
ما عاش شعب نصفه ... قد شل من داء أصابا
الحق يزهق باطلا ... قد زين، والصدق الكذابا
ما كان خدرك غير سجن ... مظلم يولى اكتئابا
قولي إذا أخطأت ... أخطأ، أو أصبت لقد أصابا
أني لأرجو أن أرى ... التوقير في الفتيان دابا
وألوم من مردوا فلم ... يبغوا عن السفه اجتنابا
كم من خراف حين أد ... جي ليلها انقلبت ذئابا
لما رأت لحماً طري ... اً أبرزت ظفراً ونابا
ولرب فاتنة العيو ... ن لحاظها تحكي الحرابا
وترى خصائل شعرها ... فتخالها تبراً مذابا
زفت الى وحش فس ... لت في حيازته اكتئابا
وأجاعها شحاً ولم ... يحسب لجوعتها حسابا
هل ظن أن المرهق ... الغرثان يلتهم الترابا
ولقد غلى منها الأسى ... فتفجرت تبكي المصابا
ان الأسى أما غلى ... ليفجر الصم الصلابا
ونعاتب الأقدار لو ... يسمعن من أحد عتابا!
ولقد يخر الدمع ... محمراً فتحسبه شهابا
ذم الجهالة أنها ... ما أورثت الا خرابا
قالت ألا بعداً لمن ... سمع الدعاء وما أجابا
يا ماء أهلي أين أن ... ت فأنني أشكو اللهابا
يا قبر (ليلى) أنت تحو ... ي فيك زنبقة كعابا
حيتك واكفة الحيا ... تهمي فتسكب انسكابا
كم مثلها من نسوة ... يرجين في الصبر الثوابا
يلوين من جور الرجا ... ل - وقد تبر من - الرقابا
أولست في وأد البنا ... ت من الرجال ترى العجابا
مالي رجاء في الشيو ... خ وإنما أرجو الشبابا
من كل وثاب إذا ... أغريته اقتحم الصعابا
الناس في الآراء يخ_تلفون بعداً واقترابا
بسم المنى لأقلهم ... خطأ وأكثرهم صوابا
أني أرحب بالألى ... بلد الرشيد بهن طابا
من سيدات للعرو ... بة جئن يرفعن القبابا
أولينا النعم الرغا ... ب وما توخين الثوابا
بل خدمة الوطن العزيز ... بهن عن بعد أهابا
نعم سأشكرها ومن ... لا يشكر النعم الرغابا؟!
وكذلك تشكر كل أر ... ض - عضها الجدب - السحابا
يا (نور) هذا الحفل قد ... جازت بطولتك النصابا
لا تحسبي للمرجفين ... (ومن روى عنهم) حسابا!

الجمال والحب
هل يشترط الجمال في المرأة لإثارة الحب؟
آراء طائفة من أعلام النساء والرجال
هل يجب أن تكون المرأة حسناء لكي تحب؟ هذا سؤال طرحته صحيفة نسوية فرنسية ظهرت حديثا هي (جريدة المرأة) وتقدمت بسؤالها الى جماعة من الأكابر ذوي الرأي والمكانة الاجتماعية، رجالا ونساء، وقد رأينا لطرافة هذا الاستفتاء، أن ننقل خلاصة ما أدلى به أولئك الكبراء في هذه المسألة النفسية الخطيرة.
الرأي النسوي
ونبدأ بما يراه الرأي النسوي في ذلك ممثلا في أقوال طائفة من شهيرات النساء.
قالت مدام دوسان الفنانة الباريزية الكبيرة التي تعد نموذجا من أبدع النماذج لجمال الفرنسية وسحرها، والتي تحمل أرفع أوسمة (الشرف) وتشغل في المجتمع الباريزي أرفع مقام:
ماذا يعني أولا أن تكون امرأة حسناء؟ يوجد ألف شكل لتكون المرأة حسناء، وألف) آخر لتكون جذابة، ومائة ألف أخرى لكي لا تكون قبيحة! والحسن ليس شرطاً فقط لكي تحب المرأة، ولكن يجب أن تكون المرأة حسناء لأسباب كثيرة أخرى، يجب أن تكون حسناء بالصدفة. ففي مدننا المروعة حيث تأبى الأشجار ذاتها الحياة، يغدو القوام النسوي الساحر آخر بهجة تقدمها الطبيعة للأعين. ويجب أن تحاول المرأة أن تكون حسناء، فتلك مدرسة بديعة للإرادة. صحيح أن المرأة الحسناء تكون أحيانا فوزاً مدهشاً للطبيعة، ولكنها أكثر ما تكون امرأة استطاعت أن تصلح زينتها وأن تصقل رواءها، أو بعبارة أخرى امرأة استطاعت أن تكون قاسية على نفسها. وقد نعتقد متى فاجأنا إحدى أولئك النسوة تنظر الى المرآة خلسة أنها تعجب بنفسها. وهذا خطأ كبير. فهي في الحقيقة تدرس نفسها، وتضبط نفسها بصرامة حفية، وتتقدم في تفهم وسائل الحسن. ولكنها لن تعترف بذلك مطلقا، ولها في ذلك كل الحق.
ولا يوجد حسنان متماثلين. فقد يكون الجمال هو وسامة الخلقة، ولكنه قد يكون أيضا بشرة وردية وشعراً أشقر، أو يكون نبرة الصوت. أو طريقة الابتسام، ولو دققنا البحث فمن ذا
الذي لا يتمتع بلمحة من الجمال؟
على أنه يجب البحث وراء الجمال لاعتبارات صحية؛ والصحة من أنفس موارد الجمال. وواجب ألا يغرينا منظر الجمال السقيم، فهو كالأثواب الغريبة، قلما يتاح له النجاح. ولكن اضطرام الحياة، والتفاؤل، والحماسة وسائل محققة للاحتفاظ بصباحة الطلعة، وثبات القامة، ولمعان العين.
ولكن ماذا يجب لكي تحب المرأة! هذا هو لب السؤال. حقاً أن الحسن لا يضر، ولكنه ليس بذي عصمة، والجمال مثل المال، لا يحقق السعادة حتما. هذه المرأة الفتية النحيلة، ذات الجمال الخطر، التي تسحرك على لوحة السينما حيث يقتتل اثنان من اجلها، قد أرادت في الأسبوع الماضي أن تنتحر بالسم لأن الرجل الذي تحبه هجرها من اجل فتاة صغيرة من الرعاع لا ميزة لها الا أنها تحسن الطهي. ولكن تأمل أيضا هذه المرأة التي تسير جامدة دون تأنق، فأن لها زوجا يعبدها منذ عشرين سنة لأنها في نظره تجمع بين كل المحاسن. أن المسألة كلها حظوظ فقط.
ومع ذلك فيجب أن نجتهد في استكمال روائنا، وفي الظهور بديعات مشرقات، إذ أن ما نثير من اهتمام أو حماسة يشرق بدوره من حولنا. فنحن نعجب بجمال الممثلات، ولكن روح أدوارهن هو الذي يذكي هذا الجمال ويطيل اجله.
هل يجب أن تكون المرأة حسناء لكي تحب؟ أود أن أجيب أنه يجب أن تحب المرأة لكي تكون حسناء.)
وقالت مدام لوسي ديلاري مردروس الكاتبة والمثالة الشهيرة: (لست أعتقد أن الجمال شرط لإثارة الحب. فالجمال مسألة مفاجأة وظهور على المسرح. ونحن نعتاد النظر إليه كما نعتاد القبح، وهذا هو الخطر. ونحن نعرف الكلمة السائرة: أنها حسناء حتى لا ينقصها شيء. ولكن من سوء الطالع الا ينقص المرأة شيء، إذ يجب أن يمكن المرء من العناية والاختراع لأجل إنسان ما. فهذا التعاون من جانب ذلك الذي نحب ضروري جداً. والرجل يذكر دائما أن حواء قد خلقت من أحد أضلاعه. وإذن ففي بعض

الأحوال قد تفوق جاذبية القبح جاذبية الجمال؛ فان محيا قبيحاً يثير الجزع والألم، ويحاول المرء أن يصلحه بلا انقطاع. وليس معنى ذلك أن المرأة يجب أن تكون قبيحة لكي تحب. ولكني اعتقد أن الحب
لا تذكيه خلقة الشخص، ولكن يذكيه إلهامه، وكذلك دلالة محياه، فإن دلالة ساحرة أفضل من خلقة وسيمة.
وقالت مدام ماريز باستيه الطيارة الشهيرة:
(لست أعتقد أن الرجل يبحث عن الجمال في المرأة اكثر مما نبحث عنه نحن النساء في الرجل. ومن سوء الحظ أن يعرف الرجل أنه جميل وهذا ينطبق أيضا على بعض النساء الحسان. وعلى أي حال فان الحسان يظفرن بكثير من النجاح. فهل يحبهن الرجال أكثر من غيرهن؟ ولكن الأخريات أين هن؟ يخيل إلي أنه لا توجد ثمة وجوه قبيحة).
وقالت مدام جني وهي أخصائية شهيرة في شئون الجمال والزينة (أن ما يدهشني دائما هو ما ألاحظه من ضآلة الدور الذي يؤديه الجمال في الحب. فالرجل تغريه أشياء غير الجمال. ولست أستطيع أن أجد لذلك أي تفسير، فهنالك نساء مبتذلات ونسوة من أحط الرعاع، يرتكب من أجلهن رجال ممتازون أشنع ضروب الطيش. وإذن فلنقل مثل ما قالت كارمن: أن الحب لا يعرف أي قانون)!.
رأي الرجل
واليك رأي الرجل في تلك المعضلة الاجتماعية الدقيقة. ممثلا فيما أدلى به أكابر الرجال:
قال الأستاذ هنري روبير عضو الأكاديمية الفرنسية ونقيب المحامين السابق:
(لا بأس أن تكون المرأة جميلة ولكن ذلك ليس ضرورياً وأني لأفضل مائة مرة امرأة ذكية طيبة القلب وليست عاطلة من الوسامة على امرأة وافرة الحسن ليس لها قلب ولا ذكاء.
أن المواهب العقلية في المرأة لها قيمة كبيرة. وللذكاء النسوي دقائق ندهش لها بحق. والنساء اللواتي يخلبننا هن أولئك اللاتي يستطعن أن يقلن شيئا، فهنالك شيء لا يمكن وصفه، وهو أوقع جداً في إثارة الحب من الجمال: ذلك هو السحر. وهنالك من ضروب السحر نوع لا أستطيع مقاومته، ذلك هو سحر الصوت. وبعد فما قيمة المبادئ في هذا الموضوع؟ أن الإنسان حيوان العادة، فإذا ما اعتاد شيئا فانه لا يعنى بالتحليل).
وقال نيكولا سيجور الكاتب الأشهر:
(ان الجمال مقر ملوكي للحب، والخفاء هو الذي يجعله ينفتح ظافراً مختاراً. والمرأة الحسناء هي قدس طبيعي، بل هي التنزيل الوحيد على الأرض.
وللجمال أهمية كبرى في إثارة الحب. وهو هبة أرفع من المواهب والعبقرية والفضيلة، إذ أن المرأة الحسناء يجتمع في شخصها كما يقول رينان، كل ما تستخلصه العبقرية بمشقة وفي لمحات ضئيلة.
ولهذا فان ظهور امرأة حسناء يضع الرجل أمام المعجزة وجها لوجه. ويثير في نفسه اضطرابات كتلك التي يعرضها هوميروس بأسلوبه الخالد حينما يصف اجتماع شيوخ طروادة على الأسوار وهم يلعنون المرأة الغريبة التي جاءت لتبث في مدينتهم بذور الخراب والموت. ولكن هيلانة ما كادت تظهر حتى نهض أولئك الذين يلعنونها مضطربين يقول بعضهم لبعض: أنه لحق أن نتحمل الضرر من أجل امرأة لها ذلك الحسن.
وفي باريس نعرف كما عرف اليونان الأقدمون، أن الجمال مقدس وانه لؤلؤة الخليقة، والصورة المادية الوحيدة لما نسميه المثل الأعلى.
على أن هنالك خواص عجيبة أخرى تحل محل الجمال، وتخلق الجمال لدى المرأة التي لم تحظ بقسامة الخلقة. ولا ريب أن السحر والظرف، والذكاء تجذب الرجل وتخضعه. وما تغنمه الحسناء توا بظهورها، تستطيع أن تغنمه أية امرأة أخرى بوسائل أخرى.
ويخيل إلى أن ما يأتي بعد الجمال، هو خصب الحياة، وانتعاش الملامح، وما يستشفه الرجل من الحساسية حلال المحيا. فهذه تؤثر فيه تأثيراً قوياً ناجعاً).
وقال الدكتور شابا عضو المجمع العلمي ورئيس جمعية الفنانين:
(لا ريب أن الجمال يعاون كثيراً على إثارة مشاعر الحب. بيد أنه يوجد نساء غير

حسان، ولكنهن اكثر جاذبية من الحسان. وللسحر خفاء لا يعلل، فان السحر الذي تبثه امرأة ما في نفس رجل ما. قد يقتصر أحيانا على هذا الرجل.
ولكل امرأة على الأقل لحظة من السحر. وهذه اللحظة قد تقرر مصير حياتها كله.
ويحدث أحياناً أن نرى نساء هن نماذج الجمال باردات منكمشات، فإذا هن بقبس يسطع في العين، أو حركة في جانب الثغر، فيحدث ذلك تغييرا في المحيا. وهذه الحالة تقع كثيراً للفتيات المحدثات. وإذا من المهم أن نكتشف لديهن ما هو خاف عليهن وعلى ذويهن، وما قد يعود يوما عاملا في إثارة الحب الذي يثرنه).
قال الدوق ليفي ميربو المؤرخ الأشهر:
(ليس الجمال شرطا لإثارة الحب. فإذا احب رجل امرأة وافرة الحسن، فهو غالباً آخر من يلاحظ جمالها، ولا ريب أنه يكون سعيداً بذلك، ولكن الجمال لم يكن أول ما أثار اضطرابه الأول. فالذي يثير ذلك هو الهام الحب، ذلك الإلهام الشهير الخالد. هو السحر الذي يتطور بتطور العصور. وليس وسامة الخلقة وانتظام التقاطيع. فان جوزفين بوهارنيه لم تكن وافرة الحسن، وكانت كليوباطرة (تلك المرأة الهائلة) اقل جمالا من أوكتافيوس).

القصص

على هامش السيرة

حفر زمزم

للدكتور طه حسين

- 1 -

كان عبد المطلب سمح الطبع رضي النفس سخي اليد حلو العشرة عذب الحديث. وكان عبد المطلب أيضاً قوي الإيمان تملك قلبه وتسيطر على نفسه نزعة دينية حادة عنيفة، ولكنها غامضة، يحسها ويخضع لها، ولكنه لا يتبينها ولا يستطيع لها فهما ولا تفسيراً. أبوه من مكة حيث التجارة والثروة، وحيث المكر والدهاء، وحيث الوثنية السهلة التي لا تحرج فيها ولا مشقة. وأمه من يثرب حيث الزراعة والصناعة اليسيرة، وحيث اليهودية تجاور الوثنية فتضعفها وتنقص من ظلها وتكاد تمحوها، وحيث الأخلاق اللينة والشمائل الحلوة وحيث الظرف ونعومة الحياة.

ولد في يثرب ومات عنه أبوه فلم ينقله الى مكة فنشأ بين أخواله وتأثر بحياتهم وتخلق بأخلاقهم وسار سيرتهم حتى بلغ الشباب أو كاد، ثم أقبل عمه فأنتزعه من إقليمه السهل الهين الى إقليم أخر صعب عسير، تجدب فيه الأرض ولا تبتسم له السماء الا قليلا. يرحل أهله الى الآفاق. فهم يأخذون من الناس ويعطونهم ويبادلونهم الأخلاق والشمائل كما يبادلونهم المنافع وعروض التجارة، ولعل أخلاق يثرب وخصال مكة قد اختصمت في نفس هذا الغلام، ولعل اختصامها قد طال، ولعل اختصامها قد قصر. ولكنها على كل حال قد انتهت إلى شيء من الاعتدال آخر الأمر. فلم يكتمل الفتى شبابه حتى كان فتى من قريش، ولكنه يمتاز من بقية فتيان قريش. فيه ذكاؤهم وفطنتهم وفيه إباؤهم وعزتهم ولكن. فيه دعة لم تكن مألوفة عندهم، وفيه شدة في الدين قلما كانوا يرضونها أو يبسمون لها. على أن خصلة أخرى ميزته منهم أشد التمييز، فلم يكن يصدر في حياته، كما كانوا يصدرون عن الروية والتفكير وطول التدبر، وإنما كانت تدفعه الى العمل والاضطراب في الحياة قوة خفية يحسها ويأبى عليها ويغلو في الإباء، ولكنه يضطر الى أن يذعن لها ويصدع بأمرها،

وكانت هذه القوة تصدر إليه أمرها في أشكال مختلفة، تدفعه الى العمل حينا، وكأنها إرادته الخاصة قد ملكت عليه حسه وشعوره؛ فهو لا يستطيع عنها انصرافاً ولا يملك لها خلافاً. وتتمثل له حيناً آخر شخصاً واضح المخايل بيّن الصورة، يلم به إذا إشتمله النوم فيأمره أن يأتي كذا وكذا من الأمر. وتنتهي إليه مرة ثالثة صوتاً رفيقاً ولكنه ملحّ يملأ أذنيه بقظان، ويملأ أذنيه نائما يحثه على أن يأتي كذا وكذا من الأمر، وكان في هذا الصوت غموض، وكان في هذا الصوت إبهام، وكان في هذا الصوت جلال مصدره هذا الغموض والإبهام، وكان الفتى ينكره ويرتاع له، وكان الصوت يغمره ويلح عليه. وكان الفتى يخاف هذا الصوت ويهواه، وكان الصوت يتجنب الفتى حتى يؤيسه من نفسه، يلم به فيكثر الإلمام. ولم يكن هذا الصوت يقع في أذن الفتى بألفاظ كالتي تقع في آذان الناس إنما كان يصطنع ألفاظاً خاصة غريبة الجرس غريبة المعنى.

كانت إليه رفادة الحاج وسقايته بعد عمه المطلب، فكان يطعم الناس إذا حجوا البيت ويسقيهم، يجمع لهم الماء في أحواض من الأدم، وكان يجد في جمع هذا الماء لسقاية الحجيج جهداً وعسراً، فبينما هو نائم ذات يوم أو ذات ليل، أتاه آت رأى شخصه ولم يتبين له إسماً ولا شكلاً وقال له في صوت رفيق غريب فيه أنس وفيه وحشة: احفر (طيبة) قال. وما طيبة؟ فأنصرف الشخص وأنقطع الصوت، وأفاق الفتى وفي نفسه ذعر وعجب وأمل. وحاول أن يعود الى النوم لعله يرى هذا الشخص، أو يسمع هذا الصوت أو يتبين هذا الحديث ولكن النوم كان قد خاصم عينيه وأنصرف عنه مع هذا الشخص الغريب، ففكر وأطال التفكير، وقدّر وأطال التقدير، وتقلب في مضجعه فاكثر التقلب، حتى ضاق بالنوم واليقظة وسئم مضجعه. فجلس يرقى ببصره الحائر الى السماء لعل شمس النهار أو نجوم الليل تفسر له هذه الرؤيا، ويخفض بصره الى الأرض لعله يجد في إطراقه تفسير هذه الرؤيا، ويمد بصره نحو الكعبة لعل صنما من هذه الأصنام المنصوبة يوحي إليه بتعبير هذه الرؤيا. ولكن السماء صامتة والأرض ساكنة وعلى أصنام الكعبة شيء كأنه الوجوم، فيرتد الى الفتى بصره متعباً مكدودا، وتهوى نفسه الى قرارة ضميره لعلها تجد لهذا الرمز تأويلا، فلا تجد شيئا، فيشتد بها الذعر ويزداد فيها العجب، ويبقى لها الأمل. وينهض الفتى فيضطرب مع الناس فيما يضطربون فيه من أمور الحياة.

ثم يقبل الليل ويأوي الفتى إلى مضجعه، وقد أنسى كل شيء الا أنه قد مشى كثيراً وأجهد نفسه كثيرا، وأنه أشد ما يكون حاجة الى أن يبسط عليه النوم جناحيه. ها هو ذا مغرق في نوم هادئ مطمئن، قد هدأ من حوله كل شيء واطمأن في نفسه وجسمه كل شيء. ولكن ما هذا الشخص الغريب يقبل ساعيا إليه في أناة، حتى إذا دنا منه قال له في صوت رفيق غريب فيه أنس وفيه وحشة (احفر بَرَّةَ) وجسم الفتى هادئ مطمئن ولكن نفسه ثائرة مضطربة، ولسانه يتحرك في ثقل وصوته ينبعث من بين شفتيه خفيفا رقيقا بهذه الكلمة (وما برة؟) فينصرف الشخص وينقطع الصوت، ويفيق النائم وجلاً مذعوراً معجباً آملاً، ويفكر ويقدر ويتقلب. ثم ينهض فيسأل السماء ولكنها صامتة! ويسأل الأرض لكنها ساكنة! ويسأل أصنام الكعبة ولكنها مغرقة في البله والوجوم! ويضيق الفتى بنفسه وبالسماء والأرض والأصنام فيهيم على وجهه يلتمس في الحركة والاضطراب نسيان هذا الطائف الذي يفزعه ويغريه. ثم يعمل الناس في أمور الحياة، وينقضي النهار بخيره وشره وحلوه ومره، ويقبل الليل شيئاً فشيئاً فيبسط أرديته السود على ما يحيط بمكة من جبال وآكام وما يزال يمد في هذه الأردية حتى يغمر كل شيء ويستر كل شيء لولا هذه المصابيح الضئيلة التي تشب في الأرض، وهذه النجوم القليلة التي تضطرب في السماء. وقد سمر الفتى مع السامرين فسمع أحاديث التجار عن غرائب الأقطار، هذا يحدث عن قصور بصرى وعظمتها وهذا يحدث عن الخورنق والسدير وهذا يذكر غمدان، وهذا يصف أخلاق اليمانين ومكرهم بالتجار وهذا يتحدث عن سذاجة أهل الشام وانخداعهم لغربان العرب، وهذا يذكر ما أفاد من ربح حين باع الأدم في الحبشة، وهذا يذكر في القوم ما حمل لهم من خمر بيسان، وهم في أثناء هذا كله يتندرون على العجم والأعراب، ويتفكهون بأحاديث أولئك وهؤلاء؛ ويسخرون من أولئك وهؤلاء. حتى إذا تقدم الليل واطمأن كل شيء تفرقوا، ونهض الفتى ثقيلا فمشى الي بيته متباطئا يود لوفّر من النوم، ويود مع ذلك لو نام فألم به هذا الطيف. أنظر إليه! أنه ليتردد أيقذف بنفسه في أمواج النوم هذه التي تتمثل أمام عينه. لم يبق على الشاطئ يقظان يداعب النوم ولا ينام ليتردد ما استطاع، ليمتنع على النوم ما وسعه الامتناع، فان هذه الأمواج المصطخبة أمامه، تستطيع أن تطغي على الشاطئ فتغمره، وتغمر معه كل شيء. وكيف يستطيع هذا الفتى أن يمتنع عليها وما استطاعت أن

تمتنع عليها جبال مكة هذه التي تحيط بها من كل ناحية! أنظر أترى حركة؟ اسمع! أتحس نبأة؟ كل شيء هادئ! كل شيء مطمئن! فما نبوُّك وما امتناعك؟ هلم الى النوم لا تخف شيئاً! أن هذه الأمواج تريح ولا تغرق، اقبل الى هاتين الذراعين اللتين تمتدان إليك فستنس بينهما كل شيء، ومن يدري لعلك تجد بينهما شفاء لنفسك الحائرة! وأطبق الفتى جفنيه وأندفع أمامه فاشتملت عليه أمواج النوم كما اشتملت على غيره من الناس والأشياء. ولكن ماذا؟ هذا شخص يتقدم ساعياً هادئاً كأنه عش

على الهواء، حتى إذا دنا يمشي من الفتى قال في صوت رفيق غريب، فيه أنس وفيه وحشة (أحفر المضنونة). جسم الفتى هادئ، ولكن صورة من الحيرة قد ارتسمت على جبهته، وهذا صوت خفيف رقيق ينبعث بين شفتيه وهو يقول: ما المضنونة؟ فينصرف الشخص وينقطع الصوت، ويفيق الفتى مذعوراً مأخوذاً، قد أظلم في نفسه كل شيء، وأحاط اليأس بعقله وقلبه وضميره. لا يرتفع بصره الى السماء ولا ينخفض الى الأرض، ولا يمتد إلى أصنام الكعبة، ولكنه يدور حائراً! وينهض الفتى وهو يقول: ما أرى الا أني سأجن! لئن أصبحت لآتين الكاهن، فلعلي أجد عنده من هذا العارض شفاءً.

أقبل أيها الصبح أسرع في الخطو، إرفق بهذه النفس الحائرة، هلم الى سوطك المشرق المضيء، فبدد به هذه الأشخاص المائلة، فرِّق به هذه الظلال المضطربة من حولي. ويقضي الفتى ليلا طويلا ثقيلا، حتى إذا كست الشمس بضوئها النقي ظواهر مكة وبطاحها أسرع الفتى الى المسجد يريد أن يقص أمره على الكاهن. ولكنه لا يكاد يبلغ مجالس قريش في فناء المسجد، حتى تذهب عنه حيرته ويفارقه وجومه، ويمتلئ قلبه اطمئناناً وثباتاً؛ ماذا؟ أأزعم للكاهن أني مجنون وتشيع في هذه المقالة ويضحك مني حرب بن أمية ولداتُه ويتندر عليَّ فتيان مخزوم؟ كل، ما أكثر هذه الخيالات التي تسكن الى نفسها في قبور الموتى! وتختبئ في الكهوف والأغوار ما أضاءت الشمس، واستيقضت الطبيعة. فإذا أظلم الليل ونام الكون انتشرت هذه الخيالات في الجو فمنها ما يصعد في السماء يرعى النجوم، ومنها ما يهبط الى الأرض يروِّع الناس. وما أرى أن هذا الطائف الذي يؤرقني منذ ثلاث إلا خيالاً من هذه الخيالات لعله ظل ميت من موتى قريش قد أنسيه قومه فهم لا يزورونه، ولا يقربون إليه لعله شيطان من هذه الشياطين التي تلح على الأنس فتتقاضاهم الطاعة وتخضعهم لسلطانها كرهاً. لعله نذير من أحد الآلهة يطالب بالضحية والقربان، لقد مضت أيام ولم تقدم الى الآلهة شاة ولم ينحر لهم جزور، ولم تصطبغ أرض المسجد بهذا الدم الحار القاني الذي تحب الآلهة لونه ورائحته. إيه يا عبد المطلب، تقرب الى الآلهة بضحية ترضيهم لعلهم يرضون، ولعلهم يكفون عنك هذا الشر! وأقبل الفتى على مجلس من مجالس قريش، فتحدث وسمع ولكنه كان شارد النفس فلم يطل الحديث ولا الاستماع ونهض مولياً، فلما انصرف عن القوم قال حرب بن أمية لمن حوله أرأيتم إلى سرى بني هاشم، أني لأراه محزوناً، أني لأعرف في وجهه الهم، لم يحدثنا اليوم عن مآثر أبيه ومفاخر عمه.

ومضى الفتى الى أهله، فلما دخل على امرأته أنكرت عودته إليها من الضحى، فاستقبلته دهشة وهي تقول: إيه يا شيبة ما خطبك؟ أني لأنكرك منذ أيام. أراك مؤرق الليل، قلق النهار، قليل الحديث، طويل التفكير. ولقد هممت أن أسألك مرات، ولكني خشيت ردَّك علي وانتّهارك لي. فأني لأعلم فيكم معشر قريش رقة للنساء، ودعابة معهن. ولكني لا أجد عندك ما أجد عند قومك، فأنت صامت إذا خلدت إلى أهلك، وأنت مقطب الجبين أن أظلك معهم سقف. تحدث ما يحزنك؟ اخرج عن هذا الصمت الذي لزمته، كن رجلاً من قريش، أشرك أهلك فيما يعنيك، لقد أذكر يوم أنبأني أبي أنك خطبتني إليه، لقد فرحت بهذا النبأ، لقد كنت أتحدث الى أترابي في البادية بأني سأصبح امرأة من قريش، أجد من نعمة الحياة ولينها ومن ظرف الزوج ورقته ما لا يجدن تحت خيام بني عامر بن صعصعة، ولكني وجدت نعمة ولينا، ووجدت حباً وعطفاً، ووجدت عناية لا تعد لها عناية، ولم أجد أحب ما كنت أطمح إليه، لم أجد منك ابتسام الثغر، ولا انبساط الجبين، ولا انطلاق اللسان. قالت ذلك وأنتظرت هنيهة. فأجابها زوجها بصوت هادئ حزين. عزيز علي يا سمراء ما تجدين من حزن، وما تحسين من خيبة الأمل. أني لأحبك كما يحب الضمآن ما ينقع غلته من الماء العذب. أني لآنس إليك أنسا يزيل عن نفسي كل هم ويحبب ألي الحياة ويرغبني فيها. أني لأشتاق إلى التحدث إليك والاستماع لك والأنس بك، ولو خيرت لما عدلت بمجلسك مجلس قريش ولا ببيتك فناء المسجد ودار الندوة. ولكن، قوة خفية عاتية طاغية تملك عليَّ نفسي وتأخذ عليَّ كل سبيل وتدفعني الى حيث لا أدري ولا أريد. أبه يا سمراء، أني لمؤرق الليل، قلق النهار مفرق النفس منذ ليالي، وأني لأخشى على نفسي شراً. هذا طائف يلم بي إذا أغرقت في النوم فيأمرني بصوت رفيق غريب، فيه أنس وفيه وحشة أن أحفر شيئاً يسميه طيبة ويسميه برة ويسميه المضنونة. فإذا سألته عما يريد

أنصرف شخصه وأنقطع صوته، وأفقت حائراً مذعوراً. لقد هممت يا سمراء أن أقص رؤياي هذه على الكاهن، وأن أصف له ما أرى وما أجد، ولكني أشفقت أن يتحدث الناس عني أني مجنون، أو أن يتندر بي فتيان قريش فيقولوا: أن له رَئِيًّا من الجن.
أشيري ماذا ترين؟ قالت سمراء: هِوِّن عليك ولا تغل في الخوف ولا تسرف في الإشفاق، ما أكثر ما يلم أمثال هذا الطيف بالناس عندنا في البادية، فلا يحفلون ولا يأبهون، ومع ذلك فما يمنعك أن تتقرب أنت إلى الآلهة في غير توسط للكاهن، ولا توسل به، قم فضح لهم وقرب إليهم فسيرضون، وسيرضى الفقراء والجائعون، وسيغيظ ذلك قوما من قريش.
وما هي الا ساعات حتى كان فناء المسجد يموج بالناس، فيهم الفقراء، قد أقبلوا من البطاح والظواهر. وفيهم الأغنياء قد أقبلوا يقدمون الضحايا بين أيديهم. هؤلاء يتنافسون أيهم يغلي الضحايا ويكثر منها. وأولئك ينتظرون ويمنون أنفسهم بغريض اللحم وجيده، لقد سمعوا بأن عبد المطلب يريد أن يضحي، وان بني هاشم قد حفلت لذلك، فكرهت أمية أن لا تفعل فعلهم وكرهت مخزوم أن تسبقها عبد مناف، فأقبل أشراف قريش يستبقون في التضحية، ويتنافسون في القربان! تنافسوا. تنافسوا أيها الأشراف! استبقوا أيها الأغنياء! فان في ذلك شبع الفقراء وسعادة الأشقياء.
وقضت مكة يوما دامياً سمينا، كثر فيه الطعام وكثر فيه الشراب ورضيت فيه الأصنام، وسعد الفتى بما رأى، ونسى الفتى ما كان يهمه وينغصه، وقدر الفتى أن قد صرف عنه الشر ورد عنه المكروه، ورضيت سمراء. فتحدثت كثيراً، وسمعت كثيرا وأضحكت زوجها وابنها الحارث بملح الأعراب، ونوادر البادية. وقالت لزوجها وهي تمسح رأسه: أحبب إليَّ بهذا الطائف الذي أرقك وأضناك، فقد حقق أملي وأراني ما كنت أطمح إليه. ورسم في قلبي صورتك جميلة خلابة، فلن أراك منذ اليوم (مهما تكن الخطوب) إلا باسم الثغر، منبسط الجبين، منطلق اللسان. وهل السعادة إلا لحظات قصار، تصيبنا ولم ننتظرها ولم نقدر لها حسابا! فما أسعد القلب الذي يحتفظ بهذه اللحظات حين تمر، ويتخذها ذخراً للأيام، وما يعرض فيها من الخطوب. قال عبد المطلب: إذن فأنت راضية يا سمراء أن رضاك
ليقع من نفسي المحزونة موقع الماء من الأرض المجدبة. انعمي بما أنت فيه، وأنتظري أن يقدر الله لك خيراً منه. فلو قد صرفت عني هذه القوة العاتية الطاغية لأريتك يا سمراء كيف تطيب الحياة، وكيف ترق حواشي العيش.
وأوى الفتى إلى مضجعه راضياً مسروراً، واستقبل النوم مبتهجا له راغباً فيه، ولكن هذا الشخص يقدم عليه ساعيا في هدوء، كأنما يمشي في الهواء، حتى إذا دنا منه انحنى عليه، ووضع على جبهته يداً باردة خفيفة، وقال في صوت رفيق غريب، فيه أنس وفيه وحشة. احفر زمزم. واضطرب جسم الفتى كله واضطربت نفس الفتى كلها وأنفتحت شفتاه عن هذه الكلمة: وما زمزم؟ قال الطيف بصوت رفيق مؤنس، قد فارقته الغرابة والوحشة ومازجته سخرية ورحمة. (لا تُنْزَح ولا تذَم، تسقي الحجيج الأعظم، وهي بين الفرث والدم، عند نقرة الغراب الأعصم) قال الفتى: (الآن قد وعيت) فتولى عنه الطيف باسما وهو يقول: (الله أنتم أيها الناس لا يكفيكم الوحي، ولا تفقهون إلا سجع الكهان. رويداً عما قريب سيضئ الصبح) ونهض الفتى مبتهجاً مسرورا. فلما أصبح دخل على سمراء مشرق الوجه مضيء الأسارير. قالت وهي تسعى إليه: أيهما أحب إلى نفسي إشراق وجهك أم إشراق الشمس؟ ما أرى إلا أنك قضيت ليلا هادئا. قال: أنعمي صباحا يا سمراء لقد طابت الحياة منذ اليوم، أن هذا الطائف الذي يلم بي منذ ليالي، طائف خير يأتي بالنعمة والغيث، انه يأمرني أن إحتفر في فناء المسجد بئرا، فلأفعلن منذ اليوم، ولئن ظفرت بها ليشربن الحجيج في غير جهد ولا عسر. هلم يا حارث خذ معولا ومكتلا ومسحاةً واتبع أباك. ويتبعنه الماء إلى عرفات. .

الشيخ عفا الله

قصة مصرية

بقلم الأستاذ محمود تيمور

حدثني صديقي، قال:

منذ عشرين عاماً كنت أسكن جهة درب سعادة. ذلك الحي القديم ذو الشارع الضيق والمباني المتزاحمة الأثرية. وكنت إذ ذاك في التاسعة عشرة من عمري أحضر

لإمتحان الشهادة الثانوية. وفي أوقات فراغي كنت أجلس أمام البوابة أتفرج على الرائح والغادي. وكان يمر أمام الدار (من وقت لآخر) شيخ بملابس بسيطة ضامر الوجه، بلحية خفيفة فيها آثار الشيب ظاهرة. هادئ المشية. يسير في وقار. منكس الرأس على صفارته يناجيها بألحان شجية. فكنت استوقفه وأطلب منه أن يسمعني شيئاً من أنغامه. وكانت جميع ألحانه تحوي كثيرا من معاني اليأس والحنو. ولاحظت أنه قنوع يرضى بالقليل. وكان إذا استرسل في صفيره خيل لك أن الصفارة تتكلم وتنوح كأنها تحاول أن تفشي سراً! وهو على طهارة قلبه ومظاهر الصلاح الناطقة على وجهه، لا يؤدي أي فرض من فروض الصلاة، ولا يذهب إلى الجامع مطلقا! ولا يتكلم عن شيء اسمه مغفرة ورحمة. وإذا ذكر اسم الله أمامه طأطأ رأسه ذليلا، وتمتم بألفاظ متقطعة غير مسموعة!.

وتوثقت بيني وبين الشيخ ألفة ساذجة. وحاولت أن استوضحه حقيقة آلامه فلم يرض أن يبوح لي بشيء. فاحترمت رغبته وصممت أن لا أفاتحه في هذا الموضوع. وظل الرجل وقتا ما لغزاً لا أستطيع الوصول إلى حله. ومرت الأيام والشيخ يزورنا مرة في الأسبوع فأحظى منه بألحان شجية، وحديث هادئ جميل!. وكان يسترسل في الكلام بعض الأحيان فتفلت منه من غير وعي جمل وكلمات بدأت تكشف لي شيئا من سره. وكان ينشد لي كثيراً من المواويل الريفية في الحب والتشبيب بالنساء وكان إذا لفظ كلمة (الغيط) لفظها مفخمة منغمة واتسعت عيناه ولمعت بوميض غريب. واتسع صدره وتمددت طاقتا أنفه وهو يستنشق في شغف الهواء الذي يحسبه هواء الريف. ثم يعقب ذلك تنهد حار عميق، ومناجاة طويلة لصفارته وباغته ذات يوم بقولي:

- اقسم بالله لقد اكتشفت سرك يا شيخ (عفا الله)!

فارتعد مذعوراً. وأتممت كلامي:

- انك فلاح من الريف

فنظر ألي بحيرة وقال بعد تردد:

- وهل أستطيع أن أنكر (أصلي)!

- وانك تتألم من حب دفين.

فأمسك بيدي وشد عليها، وقال:

- اسكت يا سيدي، اسكت:

- وانك ارتكبت معصية كبرى، وتريد التكفير عنها

فامتقع وجهه ونظر ألي محملقا، وقال:

- أعالم سري؟ .؟ أعالم سري. .

وأخذت استدرجه في القول حتى لان. وبدأ يروي لي قصته كالآتي:

لم اكن أدعى بالشيخ (عفا الله) فيما مضى، بل كنت اعرف (بسرحان) وهو اسمي الحقيقي، وكان لي أخ يدعى (محمد الرخ) كان إماما لمسجد القرية التي نشأت فيها. وكان قد تجاوز الأربعين، بينما كنت في السابعة عشر. أو كنت اعتبره كأبي واحبه حبا عظيما وكان هو الآخر يحبني كابن له: وقد حفظني القرآن وعلمني أصول الدين وأشركني معه في خدمة المسجد. وكنت قد بدأت أتعلم الصفير في ذلك العهد على شيخ طريقة مجذوب يجيد التوقيع على الصفارة وإنشاد القصائد الصوفية. ولما برعت في الصفير كان يلتف حولي على باب الجامع. بعد العشاء. جمع كبير من الفلاحين يستمعون إليَّ.

وكانت زوجة أخي قد توفيت منذ عام، فتزوج بفتاة في الخامسة عشر لم تقع عيني على املح منها. لها جاذبية غريبة سحرتني وخبلت عقلي. رأيتها للمرة الأولى فلم أتمالك أن أحببتها حبا تملك على جميع مشاعري وكبلني بالرغم مني بقيود ظالمة لم استطع التخلص منها. وخجلت من نفسي ومن أخي واعتبرت هذا الحب الشائن اكبر خيانة لذلك الشخص الذي وهبني حنانه وإخلاصه وثقته، وأردت أن أحطم هذه العاطفة الذميمة، ولكني لم استطع فكتمتها في قلبي ولم أبح بها الا لصفارتي! فقد كانت عزائي الوحيد في نكبتي.

وكنت أتعمد أن لا أخلو بزوجة آخي أتحاشى أن أكلمها إلا في الأمر الضروري. وكنت امكث بعيدا عن الدار في فحمة الليل، أناجي حبي بالحان الشكاية والنوح. وحدث مرة أن كنت في موضع خلوتي غير بعيد عن الدار، اصفر في شبه غيبوبة، وأنا ملتذ بآلامي

إذ شعرت بإحساس غريب فرفعت رأسي. والتفت حولي فوجدت (هنية) زوجة آخي جالسة غير بعيدة عني تنظر ألي في صمت وخشوع. فذعرت وقمت من فوري وأنا أقول:
- أنت هنا. .؟
- منذ برهة وجيزة. . . إني أحب صفيرك وأشعر عند سماعه برغبة في البكاء.
وتحركت أريد الهرب، فأمسكت بطرف جلبابي وقالت:
- لماذا لا تريد أن تجلس؟
فصرخت بالرغم مني قائلا:. .
- دعيني!
فنظرت إليَّ دهشة ولم تتكلم. ثم قالت:
- ما الذي يدعوك إلى كرهي. لماذا تهرب مني. .
وبغتة أجهشت بالبكاء. فشعرت كأن قلبي يتمزق وأن دماغي يحترق. ثم هبطت عليها دفعة واحدة، وأخذتها بين ذراعي، وأنا أقول:. .
- أنا أكرهك يا هنية!. .
وأنحنيت عليها أشبعها ضما وتقبيلا معبرا عن حبي الكبير بأحر العبارات. . وكانت الفتاة مستسلمة إليَّ في نشوة وغرام!.
وبينما نحن على هذا الحال إذ طرق سمعنا أصوات من بعيد فصحونا من حلمنا اللذيذ. ورأينا على جسر الترعة أشباحا تسير متمهلة. فاضطربت هنية وهمست في أذني قائلة:
هذا أخوك عائد مع المستأجرين.
ثم قامت دفعة واحدة وقالت:
- سوف أسبقه إلى الدار، متخذة طريق الغيط.
وقامت تعدو كالظبي المذعور، وأنا أراقبها في لهفة حتى ابتلع الظلام شبحها الجميل! وسرت أنا إلى الدار متمهلا في طريق الجسر فوجدت أخي قد جلس أمام الطعام منتظراً حضوري، ولما رآني صاح بي مداعبا:
أيصح أن تتركنا ننتظرك. تعال يا ملعون وشاركنا الطعام!. أريد أن أقص عليك كيف أجْرت الفدادين هذا العام بقيمة لم اكن احلم بها.
وجاءت (هنية) ووضعت العيش أمامنا. وجلست مبتعدة قليلا عنا. وبدأنا نأكل. وكنت منهمكا في تفكيري، لا أفهم شيئاً مما يرويه لي أخي، مع تظاهري بالإصغاء إليه. وكنت أرفع بصري بين وقت وآخر نحو (هنية) فأجدها مسبلة الأجفان في شبه ذهول تأكل بحركات ميكانيكية، ووجهها ممتقع. وحدث مرة أن رفعت نظرها إليّ واشتبكت عينانا. وخيل لي أن وجهي يدنو من وجهها، وأن شفتينا على وشك التلاقي. وبغتة سمعت صرخة اهتزت لها الدار فارتعت، وتنبهت لنفسي فرأيت (هنية) تشهق بالبكاء قائلة:
لا أستطيع! لا أستطيع!
وهب أخي فزعا نحوها. وضمها إلى صدره وهو يقول:
- ما لك يا هنية؟. ما لك؟
ليس لي رغبة في الأكل. دايخة. أريد أن أنام.
- قومي يا حبيبتي لتستريحي. .
وقامت متجهة نحو حجرتها، وهي معتمدة على ذراع أخي. وكنت شاهد هذا المنظر وأنا في شبه خبل. أشعر بأني قد تحجرت وصرت جزءاً من الأرض التي كنت أنا جالس عليها.
وعاد أخي بعد هنيهة، وقال لي:
- المسكينة أجهدت نفسها اليوم في أعمال الدار.
وكنت لا أطيق أن أنظر إلى أخي في هذه اللحظة فقمت من فوري ووجهتي الباب. وسألني أخي؛
- إلى أين؟
- إلى الجامع. أريد أن اصلي العشاء. ثم أقفله أعود.
وخرجت أعدو إلى مأواي المختار (الذي قابلت فيه (هنية) منذ وقت قريب) وارتميت على الأرض أمرغ وجهي في الموضع الذي كانت جالسة فيه، وأنا أنشج نشيجا حارا

وأمضيت ليلتي هناك، وأنا لا يهنأ لي مضجع. أبكي وأغفو وأحلم، ثم أصحو برجفة تزلزل جسمي،
وكان يتراءى لي شبح أخي في يقظتي ونومي. يحوم حولي يريد أن يقتلني، فكنت العنه بأشنع اللعنات. وفي الفجر غلبني نعاس عميق، لم أصحو منه الا عند الظهر. وفتحت عيني وأردت النهوض فخانتني قواي، إذ كنت أشعر بآلام شديدة وضعف هائل. فجلست مستندا إلى جذع شجرة خلفي وأخذت استعيد قواي شيئا فشيئا. وكان الغم يخيم على قلبي، وشعور الندم الشديد يكتسح نفسي. فقمت مهرولا نحو الجامع، واعتذرت لأخي عن تأخيري بمختلف الأعذار ثم هبطت على يده اقبلها، وأنا أقول له: أني احبك يا أخي!. واقسم بالله أني احبك حبا لم يضمره ابن لأبيه. أريد دائما أن أنال رضاك وعفوك. قل لي أتحبني!.
فأجابني:.!
- ما هذا الكلام يا سرحان. هل رأيت مني غير الحب الكبير؟. أنت ابني بل أنت افضل من ابني:.
ونظرت إلى أخي فوجدت آيات الإخلاص مرتسمة على وجهه. فأندفعت اقبل يديه من جديد؛ وأنا ابكي بصوت عال. وأنتابتني نوبة عصبية شديدة، فارتميت على الأرض في حالة تشبه الصرع. ولما أفقت وجدت نفسي ممددا في ركن من أركان الجامع وأخي بجانبي مهموم الخاطر من اجلي؛ يمرضني ويحنو عليّ.
ومضى أسبوع وأنا لا اقصد الدار الا في أوقات قليلة. وكثيرا ما كنت أتناول الطعام في الجامع، وأنام ليلا فيه، ولو استطعت لأمتنعت تماما عن الذهاب إلى المنزل. ولكني كنت احتاط للأمر حتى لا يشك أخي في سلوكي. وكنت أجاهد ما أمكن في سبيل ضبط عواطفي وأكلم (هنية) أمام أخي كلاما عاديا متحاشيا دائما النظر إليها. وإذا تصادف وخلونا نحن الاثنان برهة صغيرة ظللنا صامتين منكسي الرأس وإذا تقابلت الأعين اهتزت منا الأجسام كأن مستها الكهرباء.
ومضت الأيام والنار تأكلني أكلا، أنام نوماً سيئاً، وأقضي يقظتي في شبه أحلام مشوشة. وإذ أديت صلاتي أخطأت الأداء وكان قلبي مسرحا لمختلف الاحساسات المتباينة، الغضب والرحمة، والكفران، والتوبة والحب والبغض تتطاحن كلها باختلاط.
وتركت الدار (يوماً) بعد منتصف الليل بقليل وخرجت أعدو كالوحش المطعون وأنا أردد:
- أنه معها في الحجرة. إنها له. . وهو يتمتع بها. . .
وهمت على وجهي لا أدري أي وجهة اقصد. وأخيرا وجدت نفسي أمام الجامع فدخلته بدون وعي وارتميت على الأرض أعض يدي واضرب رأسي في الحائط، وأنا ما زلت أردد قولي: انه معها في الحجرة. إنها له. وهو يتمتع بها. . .
وبينما كنت على هذه الحالة، شعرت بيد وضعت على كتفي. فالتفت مذعورا. فإذا (هي) أمامي. . هي (هنية) في تلك الساعة الموحشة من الليل، وفي ذلك المكان المنعزل. فأخذتها بين ذراعي بلا كلام واحتضنتها بوحشية وأنا أهذي.
وأمضيت معها ساعة غرام عنيفة، من أشهى ساعات الوجود. وأقسم لك انه ليس على وجه الأرض منذ خلقت الدنيا شخص نال مثلي نعيم تلك الساعة. إنها ساعة تساوي أعماراً بأكملها.
وبعد ذلك نمنا متعانقين. . . وتنبهت فإذا الباب يقرع. وإذا ضوء الشمس يغمر المكان، وسمعت صوت أخي يقول:
- افتح يا سرحان
فوجدتني أجيب بلا وعي:
- سأفتح في الحال
وكان للجامع نافذتان مشبكتان بالحديد. وليس ثمة مخبأ تستطيع أن تختبئ فيه هنية أو منفذ تنفذ منه إلى الخارج. فأختبل عقلي. ولكن خاطراً مر برأسي فقلت لها هامسا!
- أصعدي إلى السطح. . أصعدي سريعاً
فقامت هنية وصعدت في الحال إلى السطح؛ وقمت أنا إلى الباب ففتحته. وتظاهرت بالفتور الشديد ودخل أخي وعليه شيء من مظاهر الغضب. وقال:
- أما زلت تنام في المسجد يا سرحان؟ اليس لنا دار تسعك معنا؟

- . .!يحلو لي الآن أن أتعبد في المسجد حتى مطلع الفجر
وجلس أخي صامتا. وبعد برهة تكلم بلهجة قلقة.
- لقد أستيقضت من النوم؛ فلم أجد هنية بجانبي. وقد بحثت عنها طويلا في الدار فلم اعثر عليها. .
فارتجفت. ولكني تغلبت على ضعفي وقلت:
- لعلها تكون قد خرجت لتملأ جرتها من الترعة
- . . . .ربما. . إنما
ثم ابتلع ريقه وتمتم بكلمات لم أفهمها وقام وقال:
- هيا نصل الصبح!
وقمنا إلى الصلاة. ولكن أي صلاة هذه التي أديتها في ذلك الوقت. كانت صلاة للشيطان لا لله! وأنتهت الصلاة. وبدأ الناس يفدون على الجامع وأصبحت في حالة يرثى لها. وأخيراً خرج أخي عائداً إلى الدار. وما كاد يفعل حتى انسللت صاعدا إلى سطح الجامع لأدبر حيلة لهرب هنية. وما كانت أشد دهشتي حينما رأيت السطح خالياً. ودرت فيه وأنا كالمخبول، ابحث هنا وهناك. وشعرت بإحساس غريب يجذبني نحو حافة السطح. وما كدت أشرف منه إلى الأرض حتى صرخت مرتاعاً. ووجدت نفسي بعد لحظة على الأرض ولا أدري كيف نزلت. وكانت هنية ملقاة بجوار الجدار تئن أنينا خافتا فدنوت منها وأنا في جزع ولهفة وأمسكت بها وسألتها عما أصابها ففتحت عينيها بصعوبة وقالت:
- لقد انكسرت يا سرحان. انكسرت!
وكانت تعض على شفتيها محاولة كتم تأوهاتها!
فاحتضنتها وأنا أواسيها وأشجعها. وسمعتها تقول:
- آلامي لا تطاق. . أني أموت!
وحملتها بكل عناية واحتراس. وأنا أكاد اجن من الحزن، وذهبت بها إلى دار أم عبد الجليل. وكانت امرأة وفية ولي محبة. وأخبرتها بشيء من الحقيقة ورجوتها أن تذهب إلى أخي لتبلغه خبرا ملفقاً. فقامت المرأة من فورها إلى داره.
ونقلوا هنية إلى دارنا وقد أشاعت أم عبد الجليل أنها سقطت من سطح منزلها بينما كانت تأتي بوقود لها!
ومضى يومان وهنية تعيش في أتون متقد من آلام لا يتصورها العقل. أما أنا فكنت أذهب إلى زريبة المواشي، وأحكم أقفالها عليّ. ثم انهال على وجهي باللطم. وأنفجر في نواح طويل وأنا أقول:
- أنا سبب كل هذا!. أنا الذي يجب أن يعذب!. أنا الذي يجب أن يموت!
وماتت هنية في اليوم التالي ودفناها في قرافة القرية باحتفال بسيط. أما حالتي يوم وفاتها فقد اعتراني خبل غريب، فلم أصدق أنها ماتت. وكنت أؤدي عملي الذي كلفت به في مأتمها ببساطة وهدوء، بل كان يعتريني بعض الأحيان نوبات ضحك يعقبها خمول ووجوم. ولكن بعد أيام بدأت أشعر برد فعل شديد، فأخذت أهيم في الغيطان؛ وأختبئ في الذرة، وأنا ابكي وأندب بلا انقطاع. وأخيرا هدأت حالتي نوعا فعدت إلى عملي في الجامع. ولكن مرآي ذلك الجامع كان يزيد شجوني وعذابي. فتتمثل أمامي جريمتي كلما وطئت عتبته ويخيل لي أني أسمع صوت سقوط جسم من أعلى السطح إلى الأرض. فتعتريني قشعريرة واخبىء وجهي في يدي وأجهش بالبكاء.
لقد عملت المستحيل لكي أضلل أخي؛ وأبعد شكه من ناحيتي وتحملت أكبر العذاب في سبيل إخفاء جرمي. ولم اكن أجسر على النظر إليه. وكان يخيل إلي أنه يرفع يده في وجهي يريد سحقي.
ومضت الأيام وسري ينمو ويتضخم في قلبي فأشعر بثقله الهائل. ويخيل ألي في كل وقت إن قلبي يتمزق وان السر يطير منه ويعلن إلى الملأ فضيحتي. وكانت أيام عذاب لا أظن عذاب الجحيم يفوقها.
وفي ليلة عقب صلاة المغرب خرجت لأروح عن نفسي قليلا فقادتني قدماي، بدون شعور، إلى المكان الذي سقطت فيه هنية بجوار حائط الجامع. وبغتة قابلت أخي وجها لوجه ولا أدري ما لذي أرسله إليّ في هذه الساعة وفي هذا المكان. أهي المصادفة أم شيء آخر. لا ادري!. ووقفنا أمام بعضنا بالقرب من ذلك الجدار الرهيب. وشملنا

الصمت برهة. وبغتة وجدت نفسي أصرخ وأقول:
- لا تقربني!. لا تقربني!.
وأندفعت أجري كالمجنون أهيم على وجهي. وكان هذا آخر عهدي بأخي وبتلك الديار!. وأخذت منذ ذلك الوقت أطوف المدن، وأعيش عيشة الطريد الشريد.
ثم أطرق الشيخ عفا الله صامتا. وشاهدت دمعة تتحدر في بطأ على خده. فقلت وأنا شديد التأثر بما سمعت.
- لماذا لا تعود إلى صلاحك، وتطلب مغفرة الله.
فرفع عينيه وقال:
- لقد تألبت عليّ الأقدار. وسأظل حتى النهاية ذلك المتمرد العاصي.
ثم سحب صفارته من عبه في هدوء وأخذ يوقع عليها لحنا شجيا فيه معنى الصبابة والتضحية. وكان منتشياً، بلحنه يتذوق آلامه الدفينة في شبه غيبوبة مسكرة.

في الأكاديمية الفرنسية

انتظم في سلك الأكاديمية الفرنسية أخيرا عضوان جديدان هما الكاتب القصصي بيير بنوا، والمؤرخ الأشهر جوسلان لينتر. والأول هو أصغر (الخالدين) سنا. فهو لا يتجاوز الأربعين من عمره، مع أنه لا يرقى في الغالب إلى هذا الشرف الرفيع سوى رجال قطعوا معظم مراحل العمر وأشرفوا على الستين أو السبعين. وينتمي بيير بنوا إلى أسرة من الضباط وقد كان أيام الحرب الكبرى ضابطاً في الجيش. فلما انتهت الحرب عاد إلى الأدب. وسرعان ما ظهر في ميدانه، وحاز ذروة الشهرة حينما اخرج روايته الأخيرة (الاتلانتيد). وهو يتربع اليوم في كرسي المؤرخ الشهير لافيس.
وأما المؤرخ لينتر، فهو باحث محقق اشتهر بالأخص بتحقيقه في تاريخ الثورة الفرنسية، وله في ذلك (باريس أيام الثورة) و (سقوط الجيرونديين) وقد اشتهر بتاريخ مختصر كتبه عن نابليون يمتاز بطرافته وفكاهته وقد حل في الأكاديمية مكان الروائي الشهير (رنيه بازان) وهو يربى على السبعين من عمره، ولكنه ما زال وافر الإنتاج يشتغل في التحرير في جريدة (الطان) ويكتب فيها باب (التاريخ الصغير).

العالم المسرحي والسينمائي

بنات اليوم على مسرح رمسيس

للأستاذ محمد توفيق يونس

بدأ الموسم التمثيلي هذا العام متأخرا عن موعده العادي، وكان أسبق الأيدي إلى هصر الستار عنه فرقة رمسيس بتمثيلها رواية (بنات اليوم) لمديرها الأستاذ يوسف وهبي. وهي قطعة ناجحة في أربعة فصول شائقة الموضوع، قوية الحوار، سريعة الحركة الا أن فيها بعض الطول. وكلامنا عن الرواية يتناول أمرين موضوعها وبناءها. أما الموضوع فحيوي جليل خليق بالعناية والنظر، هو موضوع الأسرة المصرية الذي طالما أثار الانتقاد، وبعث على الشكوى.
فبنات اليوم من الروايات ذوات الفكرة التي تبحث في نظام الأسرة وتنبه إلى الخطر الذي تتعرض له من الزواج المبني على اختلاف المشارب، وتباين الطباع، وتنافر الأهواء،
الذي تعقده المصادفة ولا يقوم على أساس من حرية الاختيار وائتلاف المزاج.
أحسن المؤلف اختيار موضوعه وأجاد بسطه وإن كان قد عنى بالتأثير أكثر من عنايته بالتحليل والتعليل.
جمع المؤلف بين اثنين مختلفي الأفكار برباط الزواج وقد نكد حظ الزوج به وساء طالعه فزوجته تختلف عنه عقلية ومزاجاً ولكنه سرعان ما يجد في أختها (لطيفة) فتاة تستطيع أن تفهم سر نفسه وتنظم أمور حياته. ويحلو الحب للعاشقين ولكن الزوجة (خديجة) تعلم أمرهما إذ يعثر أبوها على رسائل باللغة الفرنسية تبادلها الحبيبان فيطلب منها قراءتها فتعرف الحقيقة ولكنها تكتمها، مدعية أن ليس فيها ما يريب. ولكن لطيفة تحمل فتأتي إلى عيادة حبيبها وزوج أختها (الدكتور صادق) ليجهضها بعد أن ادعت أنها مسافرة لضيعة إحدى قريباتها. ولكن خديجة تفاجئها فإذا علمت أن أختها في خطر نسيت نفسها واهتمت بأمرها. ولكن الحالة تتحرج بدخول (سامي) خطيب لطيفة وابن عمها. وتنقذ الزوجة الموقف ثانياً فتدعي أن أختها اصطدمت بسيارة فجاءت إلى الطبيب.

تنقضي فترة من الزمن يأتي بعدها عم لطيفة يطلب يدها لأبنه سامي فيوافق الأب ولكن الابنة ترفض فلا يأبه لها ويمضي في تنفيذ إرادته. وتخلو لطيفة بابن عمها فتعلن إليه أنها لا تستطيع أن تقبله زوجاً لأنها لا تحبه. ويعود الأب فيملي عليها إرادته ولكنها لا تطيع، فيثور ويحتد فتضطر الفتاة إلى أن تعلن أن رفضها للزواج من أبن عمها إنما كان لإنقاذه وتسأل سامي أيقبل أن يتزوج من فتاة ساقطة سلمت نفسها لغيره. فيجن جنون الأب ويسألها عن الجاني فيخبره صادق بالواقع بعد أن ينبئه أن جهله وغطرسته وتشبثه بتزويج ابنته الكبرى قبل الصغرى كالتاجر الذي يريد التخلص من بضاعته القديمة قبل الجديدة قد دفعهما إلى هذا الموقف الأليم. لكن الأب لا يسمع ولا يرحم فإذا البيت شعلة من نار تحاول لطيفة أن تطفئها فتلقي بنفسها في النهر فيلحق بها صادق وسامي.

وتنجو لطيفة ويطردها أبوها فتبحث عن عمل فتلجأ إلى بيت حقير يأويها. أما صادق فيسجن لقاء جريمته ثم تنقضي مدة السجن فيعود إلى حبيبته ويتفقان على أن يغادرا البلاد معاً ليستأنفا الحياة من جديد. ثم تقبل خديجة وابنها ترجو من زوجها أن يتركه لها فيودعهما باكياً مستغفراً. ولهذا الموقف أثره في نفس لطيفة فتأبى الرحيل مع صادق حتى يبقى لزوجته وابنه وتسأل سامي إن كان يقبل توبتها ويرضى بها زوجة فيوافق راكعا.

هذا مجمل الرواية أو بالأحرى مجمل الحادث الأصلي فيها ولم نعرض من الأشخاص إلا الأساسيين في العمل. فالرواية مليئة بالحوادث مزدحمة بالأشخاص وكان أجدر بالمؤلف أن يسير إلى غايته قدما حتى لا يضعف أثر الحادث الأصلي في الرواية ولا يقطع سلسلة العمل الأساسي بمشاهد ثانوية وشخصيات فضولية. هذه المشاهد في ذاتها قوية الوضع وتلك الشخصيات خفيفة الظل، ولكن قيمتها بالنسبة إلى الرواية ضئيلة وصلتها بها واهية، وأثرها عكسي في الواقع يخمد من حدة الشعور ويعوق وجهة الدفع الروائي نحو النهاية.

وكذلك يقطع العمل أثناء الرواية بحلول تكاد تكون حاسمة يمكن أن تقف الرواية عندها والروايات الحديثة تنتهي دون خاتمة ولا حل تاركة المجال للتفكير والتأمل.

وفي الرواية شيء من التصنع كتصريح الزوج انه هو المعتدي على عفاف أخت زوجته، وعلى عمل الأب على زج زوج ابنه في السجن مع ما في ذلك من فضيحة للأسرة جميعها.

إذا غضضنا النظر عن هذه المآخذ استطعنا أن نقول أن الرواية جميلة قوية مؤثرة ذات مواقف درامية صادقة ومناظر إنسانية رائعة تسترعي سمع المشاهد وتأسر لبه.

ولا عجب فقد درس الأستاذ يوسف وهبي المسرح وخبر الجمهور فضرب على أوتاره الحساسة واستطاع أن يظفر منه بالإعجاب والإقبال ولا يسعنا نحن الا أن نحييه ونهنئه ونرحب به عاملا من عوامل بناء المسرح المحلي.

العدد 2 - بتاريخ: 01 - 02 - 1933

رسالة الشباب

عن يسارك وأنت خارج من ميدان الأبرا إلى عابدين باب عتيق ضخم، لا تجد بينه وبين جيرته انسجاما في طراز، ولا التئاما في ذوق، تدخله فكأنما تدخل داراً من دور الترك، أو ديراً من ديور الروم: دهليز قاتم رحب، وفناء كالح رطب، ودرج رخامي يصعد بك طبقتين إلى جمعية القرش!

في هذا الربع الموحش يعمل الشباب النضر! ومن هذا الطابق الرهيب ينبثق الروح الذي يهز القلوب، ويشغل الأذهان، ويملأ الصحف، ويحرك الأيدي ويرصد الأهبة لافتتاح (مصنع الطرابيش) عما قليل!

تدخل فتجد مقترح المشروع وكاتب سره وهو فتى لا تزال على محياه الأبلج قسمات اليفاعة! يجلس في غرفة عارية من الأثاث، على مكتب مغطى بأشتات الورق ومن حوله رفاقه الأبرار يجيبون دعاءه، أو يناقشون آراءه، أو يطلبون إمضاءه، والعواطف المشبوبة النبيلة تجيش في هذه القلوب الغضة فتنسيها في النهار الراحة وفي الليل النوم! جلست هنيهة في هذه الغرفة الجرداء الوسيعة، أرى الإخلاص يتمثل في المخايل، والأمل يتدفق في الحديث، والشباب المرح اللاهي يحول إلى كد دائب وصبر غالب ووقار مرهوب، ثم اسمع أخبار اللجان ومعدات المهرجان وحركة المطبوعات

وجمع التبرعات وإصدار الطوابع إلى مختلف الجهات، فقلت لنفسي: يا لله! أقيادة جيش تقرر الخطط وتحفظ السلام وتعز الوطن، أم خلية نحل تدير الأمر وتجمع الرحيق وتصنع العسل؟!

لقد كان الشباب في نهضتنا السياسية الروح الذي أحيا الشعور، والضوء الذي هدى الجمهور والدعوة التي دار عليها الرأي!

وهاهم أولاء في نهضتنا الاقتصادية يرفون رفيف الأملاك حول بنك مصر وشركاته؛ ويضيفون إلى هذا البناء الرفيع المحكم شرفات تزيده جمالا وروعة! يريدون (والشاب قادر إذا أراد) أن يتجمع من القرش الواحد رؤوس أموال لمصانع شعبية. كما يتجمع البحر من قطرات المطر، والجبل من ذرات الرمل!!

فمن ذا الذي لا يساهم في هذا المشروع الخطير بهذا القرش الحقير وفي كل لحظة تلفظ اليد أمثاله في توافه الأشياء وضئال الأمور!

إن نشئنا ليؤدون رسالة الشباب كما تؤدي الزهور رسالة الفردوس.

ولقد رأيت إخوانهم في فلسطين والشام والعراق ينتعشون بهذا التعبير، ويسيرون على هدى هذا الشعاع.

فافسحوا في المجال لعزم الصبي ينهض برأي الكهولة!

فان الوطن لا ينهض إلا بشبانه، وأن الشجر لا يثمر إلا بأغصانه،

أما الشيوخ فكالجذوع، هم الأصل والمدد والسند، ولكنهم الصق بالأرض وأميل إلى السكون وأقرب إلى الجمود، فلا تقوى على تحريكهم رياح الأمل، ولا تغرد على حطبهم طيور السماء!

أحمد حسن الزيات.

خواطر وصور

فكرية (قروش)

مهداة إلى (القروش) النقدية!

للأستاذ عباس محمود العقاد

الشعور السعيد

أسعد الشعور ما امتزج فيه شعور الإنسان بنفسه وشعوره بغيره، أو ما كان فيه الشعور بالغير ضربا من الشعور بالنفس. ومن هذا القبيل شعور الأب بابنه والحبيب بحبيبه والمشهور بشهرته: يرى نفسه في غيره ويرى غيره في نفسه، فيلتقي فيه الرضى عن النفس والرضى عن الدنيا. وهما تمام الرضى الذي يحيل الألم والشقاء سروراً وسعادة.

كراهة الأخيار

قد يكون الشرير الذي يشتد بغضه لأهل الخير من أقرب الأشرار إلى الأخيار. لأنه يحس بما فقد ويحس بما امتاز به غيره فيحسدهم. والحسد إعجاب معكوس، أما الشرير الذي لا يبغض أهل الخير فإدراكه للخير قليل، وطلبه للامتياز والرجحان ضعيف.

حرية الفكر

فرق بين من يجترئ على العقائد الراسخة لقوة في نفسه، وبين من يرتاب فيها لتحلل في طبيعته يعجزه أن يمسك العقيدة القوية ويحتويها.

إصابة الجاهل

الساعة المعطلة تكون أضبط الساعات جميعا في لحظة من اللحظات، وكذلك العقل الصغير الخابي يصيب مرة حيث لا تصيب كبار العقول.

أنانية الشيوخ

دين المنفعة يغلب على الشيخوخة لأنها عهد الضعف والأدبار، لا لأنها عهد الخبرة والمعرفة.

العظماء

حاجة الناس إلى العظيم حاجتهم إلى إرضاء غرورهم لا إلى إرضاء غرور العظيم.

الشعر والشيخوخة

إذا قال الشيخ لا حاجة بي إلى الشعر فلا ترث للشعر بل ارث له هو لأنه ينعى نفسه.

وإذا قالت الأمة لا حاجة بي إلى الشعر فصدقها، واعلم أنها قد شاخت، فلا حاجة بها إلى الشعر، ولا إلى غيره من علامات الفتوة والحياة.

الخوف وحب الحياة
الخوف المفرط من الموت علامة الجهل بقيمة الحياة لا علامة المعرفة بتلك القيمة، لأن الذي يؤثر كل حياة على كل موت يقبل الحياة على أي شكل من الأشكال، ويقبلها على اقبح الأشكال، والذي يقبلها على أقبحها لا يعرف لها قيمة تصان.
الزهد والمتعة
الزاهد الذي يروض نفسه على الزهد بتقبيح الدنيا ليس بزاهد، لأنه لا يترك إلا نجسا قبيحا حين يترك دنياه، والأشرف منه نفساً ذلك الذي ينعم بالدنيا لأنها عنده نفاسة وجمال.
تفاؤل القوة والضعف
يتفاءل المرء ثقة منه بالقدرة على مغالبة الخطوب، أو قلة مبالاة بعواقب الهزيمة، وهذا تفاؤل القوة.
ويتفاءل المرء خداعا لنفسه كي لا يجشمها التأهب لملاقاة الخطوب والتفكير في عواقبها، وهذا تفاؤل الضعف.
الانتقاد والحرية
ليست كثرة الانتقاد دليلا على الحرية في كل حين.
إن الناس يكثرون الانتقاد حين يجهلون الحرية، لأنهم لا يرون للآخرين حقا في التصرف كما يشاءون.
الكبرياء
الكبرياء اعتداء، أو رد اعتداء.
الواقعيون والخياليون
التعويل على المحسوسات دأب جميع الناس، لكن صاحب النفس الكبيرة يحس ما لا يحسه أصحاب النفوس الصغار، فيعده هؤلاء من الخياليين. . لأن محسوساته غير موجودة عندهم، فهي ضرب من الخيال.
صديق
للأستاذ احمد أمين
الأستاذ بكلية الآداب
- 1 -
لي صديق اصطلحت عليه الأضداد، والتقت فيه المتناقضات، سواء في ذلك خلقه وخلقه وعلمه.
حي خجول، يغشي المجلس فيتعثر في مشيته، ويضطرب في حركته، ويصادف أول مقعد فيرمي نفسه فيه، ويجلس وقد لف الحياء رأسه، وغض الخجل طرفه، وتقدم له القهوة فترتعش يده، وترتجف أعصابه، وقد يداري ذلك فيتظاهر أن ليس له فيها رغبة، ولا به إليها حاجة، وقد يشعل لفافته فيحمله خجله أن ينفضها كل حين، وهي لا تحترق بهذا القدر كل حين، وقد يهرب من هذا كله فيتحدث إلى جليسه لينسى نفسه وخجله، ولكن سرعان ما تعاوده الفكرة فيعاود الهرب، وهكذا دواليك حتى يحين موعد الانصراف، فيخرج كما دخل، ويتنفس الصعداء حامدا الله على أنه لم يخر صعقا، ولم يدركه حينه كربا وقلقا.
من اجل هذا اكره شيء عنده أن يشترك في عزاء أو هناء. أو يدعى إلى وليمة أو يدعو إليها، يشعر أنه عبء ثقيل على الناس وانهم عبء عليه، يحب العزلة لا كرها للناس ولكن ستراً لنفسه، ويأنس بالوحدة وهي تضنيه وتبريه.
ثم هو (مع هذا) جريء إلى الوقاحة، يخطب فلا يهاب، ويتكلم في مسألة علمية فلا ينضب ماؤه، ولا يندى جبينه، ويعرض عليه الأمر في جمع حافل فيدلي برأيه في غير هيبة ولا وجل، وقد تبلغ به الجرأة أن يجرح حسهم، ويدمي شعورهم فلا يأبه لذلك، ويرسل نفسه على سجيتها فلا يتحفظ ولا يتحرز.
يحكم من يراه في حالته الأولى أنه أحيا من مخدرة، ومن يراه في الثانية أنه أوقح من ذئب وأصلب من صخر، ومن يراه فيهما أنه شجاع القلب، جبان الوجه.
وهو طموح قنوع، نابه خامل، يرمي بهمته إلى أبعد مرمى، وتنزع نفسه إلى أسنى المراتب، وتحفزه إلى أبعد المدارك، فيوفر على ذلك همه، ويجمع له نفسه، ويتحمل

فيه أشق العناء، وأكبر البلاء، ولا يسأم ولا يضجر. وكلما نال منزلة ملها، وطلب أسمى منها.
وبينا هو في جده وكده، وحزمه وعزمه إذ طاف به طائف من التصوف، فاحتقر الدنيا وشؤونها، والنعيم والبؤس والشقاء والهناء وسمع قول المتنبي:
ولا تحسبن المجد زقا وقينة ... فما المجد الا السيف والطعنة البكر
وتركك في الدنيا دويا كأنما ... تداول سمع المرء أنمله العشر
فهزئ به وسخر منه، واستوطأ مهاد الخمول ورضي من زمانه بما قسم له، وبينا يأمل أن يكون أشهر من قمر، ومن نار على علم، يسافر في الشرق والغرب ذكره، ويطوي المراحل أسمه إذا به يخجل يوم ينشر اسمه في صحيفة، ويذوب حين يشار إليه في حفل ويردد مع الصوفية قولهم (ادفن وجودك في ارض الخمول فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه) يعجب من يراه مجدا خاملا، ومعرفة نكرة، وعاملا مغمورا.
وأغرب ما فيه أنه متكبر يتجاوز قدره، ويعدو طوره. ومتواضع ينخفض جناحه، وتتضاءل نفسه. يتكبر حيث يصغر الكبراء. ويتصاغر حيث يكبر الصغراء. يتأله على العظماء حتى تظن أنه نسل ألا كاسرة ووارث الجبابرة ويجلس إلى الفقير المسكين يؤاكله ويستذل له، هو نسر أمام الأغنياء، وبغاث لدى الفقراء لا تلين قناته لكبير، ويخزم أنفه الصغير.
يحب الناس جملة، ويكرههم جملة. يدعوه الحب أن يندمج فيهم، ويدعوه الكره أن يفر منهم فحار في أمره، فامتزج الحب بالكره، فاستهان بهم في غير احتقار.
صحيح الجسم مريضه. ليس فيه موضع ضعف ولكن كذلك ليس فيه موضع قوة. يشكو المرض فيحار في شأنه الطبيب فيحنق على الأطباء ويرميهم بالعجز، وما العاجز إلا جسمه لم يستطع أن ينوء بنفسه.
كذلك كان رأسه. مضطرب. مرتبك. كأنه مخزن مهوش، أو دكان مبعثر وضع فيه النعل القديم بجانب الحجر الكريم، يؤمن بقول الفقهاء: القديم على قدمه، ثم يدعو إلى التجديد. ويتلاقى فيه مذهب أهل السنة بمذهب أهل النشوء والارتقاء، ومذهب الاختيار بمذهب الجبر، وحب الغني بمذهب أبي ذر وتجتمع في مكتبته كتب خطية قديمة قد أكلتها الأرضة، ونسج الزمان علها خيوطه، وأحدث الكتب الأوربية فكرا وطبعا وتجليدا. ولكل من هذين ظل في عقله، وأثر في رأسه. يسره تأبط شرا في بداوته وصعلكته و (جوته) في حضارته وإمارته ويؤمن لشاعرية هذا وذاك. يسمع إلى الملحدين فيصغي إليهم، وإلى المؤمنين فيحن
شوقا لذكراهم، يهمل في صلاته ويحافظ على صومه. إن ألحد فكره لم تطاوعه طبيعته، وإن كفر عقله آمن قلبه. ومن أصدقائه السكير والزاهد، والفاجر الداعر والعابد. وكلهم على اختلاف مذاهبهم يصفه بأنه يجيد الإصغاء كما يجيد البليغ الكلام.
سرت معه سيرة من جنسه، فأحببته وكرهته، ونقمت منه ورحمته، وكنت أنس به واستوحش منه، يبعد عني فأتوق إليه، ويطول مقامي معه فأتبرم به.
وأخيرا، لم يقو جسمه على هذه الأضداد مؤتلفة، والمتناقضات مجتمعة. فعاجله الشيب في شبابه، وتقوس ظهره في ربيع عمره، وأصبح مترهل العضل، منسرق القوى، يظنه من رآه أنه بلغ أرذل العمر، ولداته في رونق الشباب وميعة النشاط.
بلغني مرضه، فلم أدركه إلا جنازة فشيعته إلى أن أنزل حفرته وأجن في رمسه ونفضت من ترابه الأيدي!
وعدت موجع القلب باكيا، ضيق الصدر، مكروب النفس، أخذني من الحزن عليه ما تنقض منه الجوانح، وتنشق له المرائر، فعلمت أن حبي له كان أعمق من كرهي إياه، وأن نقمتي عليه لم تكن الا مظهراً من عطفي عليه، أني كنت أقسو عليه رحمة به!
رحمة الله عليه فقد حطم بعضه بعضا، ومضى قتيل روحه شهيد نفسه!

مسارح الأذهان

مشروع القرش

دلالته على مبدأ التضامن القوي

للدكتور محمد حسين هيكل بك

أذاعت جماعة مشروع القرش في العام الماضي أكثر من نشرة كتب فيها كبار الكتاب وذوي الرأي حتى لقد أصبح الإنسان يشعر حين يفكر في كتابة شيء جديد للمشروع وأصحابه بشيء من المشقة غير قليل. ذلك شأني على الأقل لأنني لا أريد أن أتناول

موضوعا إلا أن يكون له مساس أو اتصال بالقرش ومشروعه. وقد طلبت إلى جماعة القرش منذ اعتزمت إصدار هذا العدد من (الرسالة) أن أكتب ففكرت وفكرت وفكرت حتى انتهيت أخيرا إلى ما اكتب اليوم عن دلالة هذا المشروع من ناحية الاتجاه الاقتصادي وتأييده لمبدأ التضامن الاقتصادي على غيره من المبادئ وتأييده لهذا المبدأ في حدود الاقتصاد القومي اكثر من تأييده إياه في المدى الواسع الذي يعتبر العالم كله وحدة اقتصادية يجب أن تعمها روح التضامن من غير تقيد بالتفكير القومي ومن غير خضوع للمبادئ الاشتراكية المتطرفة.

أنا لا أظن أن الذين بدءوا التفكير في مشروع القرش بدءوه متأثرين بهذا المبدأ الاقتصادي أو ذاك. بل أغلب الظن أنهم بدءوه متأثرين بخضوع مصر الاقتصادي لغيرها من الأمم خضوعا تستطيع بشيء من المثابرة أن تتخلص من نيره. وإذن فهي فكرة الاستقلال الاقتصادي تدفع إليها عاطفة وطنية كالعاطفة التي دفعت إلى النهضة في سبيل الاقتصاد السياسي هي التي حركت في نفوس السابقين إلى فكرة مشروع القرش الدعوة إلى مشروعهم وإبرازه من حيز الفكرة إلى حيز العمل. لكن ذلك لا يغير شيئا من دلالة المشروع على نحو ما قدمنا بل هو يزيده تأييدا. فلو أن فكرة الاستقلال الاقتصادي وحدها هي التي كانت الدافع والمحرك ولم تخلطها فكرة التضامن القومي لرأينا الدعوة إلى هذا الاستقلال تلبس ثوبا آخر وتظهر في صورة أخرى. ومن قبل دعا الداعون إلى تأليف شركة لإنشاء بنك مصر تحقيقا لفكرة الاستقلال الاقتصادي ونجحت الدعوة نجاحها الباهر

ومن قبل فكر بنك مصر وألف الشركات المختلفة التي يساهم فيها ويشرف عليها وكان لها من التوفيق الحظ الأكبر. وفي هذه الظروف جميعا كانت فكرة الاستقلال الاقتصادي هي الحافز الأول، وكانت العاطفة الوطنية التي تطمح إلى هذا الاستقلال طموحا صادقا هي اكبر عون على الاكتتاب ثم على النجاح.

وكان ممكناً إنشاء مصنع للطرابيش على الطريقة التي أنشئت بها شركة غزل ونسج القطن، وشركة مصايد الأسماك، وكان ممكناً إنشاء مصنع للأصواف بالطريقة ذاتها. لكن مشروع القرش تأثر بالفكرة التي قدمنا فوجهته في سبيل الاستقلال الاقتصادي وجهة جديدة! وجهة تضامن عام في حدود الاقتصاد القومي لا يطبعها الطابع الفردي الذي يطبع الشركات المختلفة التي تصبو أولا وبالذات إلى الربح، بل يطبعها طابع الإيثار من جامعي القرش ومؤلفيه ومنظمي استثماره الإيثار الذي يجعل المرء يحب لغيره ما يحب لنفسه ويعمل لخير غيره بمقدار ما يعمل لخير نفسه، وان كان إيثارا محدودا بالحدود القومية. ولهذا الإيثار القومي عذره وفضله. له عذره في أنه رد فعل طبيعي لثائرة الغرب وحرصه في أن يستأثر بخيرات العالم كله وأرزاقه تاركا للشرق ما يكفي لإقامة حياته كي يجد ويشتغل أجيراً لحساب الغرب الذي يؤيد أثرته هذه بالمدفع والغواصة والطيارة وله فضله في أنه إنهاض قومي لمصر كي تشعر بما تقدر عليه من غير كبير مشقة أو تضحية. وإنهاض يقوم به شبابها فتيات وشبابا لخير الوطن غير ناظرين جزاء ألا أنهم أدوا للوطن خدمة شعروا بأن أداءها واجب عليهم.

والشعور بالتضامن الاقتصادي على الوجه الذي يلقى شباب القرش على الناس درسه مقدمة لحيوية قوية تربط الأمة بروابط التضامن الأكيدة فيما سوى الميدان الاقتصادي من مرافق حياتها. فالرجل الذي يدفع القرش ويلبس طربوشاً مصرياً بثمن معتدل يشعر بأنه يؤدي خدمة وطنية تعود عليه هو في الوقت نفسه بفائدة سريعة. وهذه إحدى فضائل التضامن في كل شيء. وهذا الشعور يجعل كل مصري يقدر أن كل خدمة يؤديها الإنسان لوطنه وكل قرش يدفعه له يعود عليه وعلى أمثاله بفائدة مضاعفة لما دفع. فكما أن قرشك الذي دفعته في العام الماضي سيجعلك تلبس الطربوش تدفع ثمنه خمسة عشر قرشا بدلا من خمسين كذلك يجب أن تسأل عن كل قرش تدفعه ماذا

يعود عليك أو على الوطن من نفعه؟ فإذا لم يعد بمثل هذه الفائدة المضاعفة فاعلم أن الذين ائتمنوا عليه يغتالونه وأنهم لذلك غير أمناء، وانهم لا يقدرون معنى التضامن القومي وواجبهم إزاءه بل يقدرون فائدتهم الشخصية ناسين فائدة مواطنيهم، ناسين بذلك فائدة الوطن، مضحين بمصالحه في سبيل منافعهم الذاتية، وفي سبيل وصولهم السريع إلى الثروة على حساب غيرهم.

إذا صدقت رسالة مشروع القرش التي قدمنا وكانت بشيرا بتقدير المصريين لمبدأ التضامن ولو في الحدود القومية فقد آن للمصريين أن يستبشروا حقا بمستقبل قريب تتطور فيه النظرة إلى الحياة من مختلف نواحيها تطوراً محسوساً. فنظرية التضامن لا تقف عند الميدان الاقتصادي بل تمتد به إلى ميادين النشاط جميعا، وفي مقدمتها ميدان الإنتاج الفكري والفني. ونظرية التضامن لا يحدها زمن، بل هي تقوم على أساس أن الثروة المادية والثروة المعنوية لأمة من الأمم هما جميعا ثمرة مجهود الأجيال المتعاقبة، وأن لأهل القبور فيها نصيبا اكثر مما لأهل الدور، وأننا جميعا وحدة متماسكة في السعي والعمل بدأت من أول الزمن إن كان للزمن أول وتستمر على الزمن ما بقى الزمن. فإذا وقر الشعور بهذا الرأي في النفوس كان من آثاره أن يحس كل بأنه مدين للمجموع اكثر مما هو دائن له، وان تضامنه مع المجموع في المجهود العائد على المجموع وعليه بالفائدة من خضوعه لسلطان الأنانية الغرور. وهنالك يشعر حقا بان واجباً عليه أن يبني لا أن يهدم، وأن يكون منتجا اكثر منه مستهلكا؛ وأن يعمل لخير غيره عمله لخير نفسه. وهنالك تزول البغضاء من النفوس فتحل محلها المحبة وتتلاشى فكرة التنافس لتقوم مقامها فكرة التعاون ويقضي في النفوس على شهوات الحقد والغيرة والغرور الكاذب لتقوم مقامها فضائل العطف والحنو والتواضع الجميل. وأنت قدير متى صورت هذا التطور كله لنفسك أن تصور الشجاعة الجديدة التي تغمر وادينا الخصب الجميل وان تقدر سعة الخطوات التي تخطو في سبيل الحق والخير والسعادة.

لعل شبان القرش وفتيانه يوافقونني على أن هذه النوازع النفسية الجميلة تجول بخواطرهم مبهمة عند البعض أقل إبهاما عند الآخرين ولعلهم إذا خلوا إلى أنفسهم وفكروا في الأمر يرون أنهم لم يفتحوا عهد مصنع الطرابيش أو مصنع الصوف وكفى، وإنما هم يفتحون

السبيل إلى طور جديد يريدون أن يطبعوا به حياة وطنهم. ولعلهم يقدرون عظمة هذا التطور الجديد وعظمة ما يجب على الشباب من مجهود تنهض بعدته أجيال الشباب المتعاقبة لتزيده قوة وإثماراً. ثم لعلهم يحسون أن في الحياة قرشاً غير القرش المادي الذي أدفعه من جيبي. فيها القرش المعنوي والقرش الروحي الذي يعاون على إذكاء معنى التضامن الروحي في النفوس بمقدار ما يعاون القرش المادي على تحقيق معنى التضامن الوطني في الحياة الاقتصادية. هذا القرش المعنوي، وهذا القرش الروحي، الذي يستطيع كل مصري أن يؤديه إستطاعته أداء القرش المادي.

- في أي ناحية يجب أن ينفق وأي مصنع يجب أن يقدم كأثر من آثاره؟! هذا ما أترك للشباب البحث فيه ويقيني أنهم مهتدون إلى خير ما يثمر البحث في هذه الناحية كما اهتدوا إلى خير ما أثمر البحث في ناحية القرش. وهم اقدر على تصوير التضامن المعنوي والتضامن الروحي وما يثمران!. .

مجمع اللغة العربية الملكي

لأستاذ كبير

في مجلة باريس التي ظهرت أول يناير فصل قيم، دقيق مستفيض عن المجمع العلمي المصري، الذي أنشأه بونابرت في القاهرة في شهر أغسطس سنة 1798. تقرأه فيعجبك لفظه العذب وأسلوبه المتين، ودقة صاحبه في البحث وعنايته بالتفصيلات، وعنايته قبل كل شيء وبعد كل شيء وفوق كل شيء بتمجيد فرنسا وبونابرت، وما كان لهما من أثر بعيد في أحياء مصر الحديثة، وتمهيد السبيل أمامها إلى الرقي المادي، والمعنوي جميعاً.

وربما أحسست (وأنت تقرأ هذا المقال) شيئا من الحزن الخفي يمازج هذا الفخر الظاهر، الذي يملأ نفس (المسيو ف. شارل ليرو) كاتب هذا الفصل. لأن هذا الجهد العنيف الخصب المعجز، الذي أنفقه الفرنسيون أثناء إقامتهم القصيرة بمصر في أواخر القرن الثامن عشر لم يؤت الثمر الذي كان ينتظره بونابرت وأصحابه، والذي كان الفرنسيون يودون أن يكون شيئاً غير الفخر والذكرى.

ولعلك تعلم أن هذا المجمع العلمي المصري الذي أنشئ في القاهرة منذ قرن وثلث قرن، على نظام المجمع الفرنسي، وسعى إلى نفس الأغراض العلمية والأدبية التي كان يسعى لها هذا المجمع وسعى بعد ذلك إلى أغراض عملية كانت تحتاج إليها سياسة

الفاتحين وإدارتهم. لعلك تعلم أن هذا المجمع لا يزال قائماً إلى الآن أعيد تنظيمه سنة 1859 وهو الآن يعمل كما كان يعمل آخر القرن الثامن عشر يبحث أعضاؤه عن الرياضة والطبيعة والطب والعلوم الاقتصادية والسياسية والفنون والآداب، ويبحث الآن كما كان يبحث من قبل عن حلول عملية لبعض المسائل التي تمس الزراعة والري والصحة وما إلى ذلك وهو يعتبر كأنه فرع من المجمع العلمي الفرنسي المستقر في باريس ولأعضائه إذا ذهبوا إلى مدينة النور أن يشهدوا جلسات هذا المجمع. وهو دولي كما يقولون فيه علماء يمثلون الأجانب الذين يقيمون في مصر على اختلاف جنسياتهم، وفيه مصريون. ولكن مصر لا تكاد تحسه ولا تشعر به وإن إعانته الحكومة المصرية بالمال، وإن كثر ما ينشره من الكتب والمذكرات، وإن أصدر نشرته في نظام واضطراد لأن لغته ليست اللغة العربية وإنما هي اللغة الفرنسية غالباً والإنجليزية أحياناً. ولست ادري أنشر هذا الفصل في مجلة باريس بمناسبة المرسوم الملكي الذي صدر في منتصف الشهر الماضي بإنشاء المجمع الملكي للغة العربية أم هي مصادفة مطلقة؟ أرادت أن تشتغل مجلة من اكبر المجلات الأوربية بالمجمع العلمي المصري القديم، وفي الوقت الذي تشتغل فيه الصحف المصرية والأندية المصرية بالمجمع الملكي الجديد.

ولكن شيئا يدعو إلى التفكير على كل حال حين نقرأ الفصل الذي نشرته مجلة باريس وهو نشاط الفرنسيين وإسراعهم إلى إنشاء هذا المجمع وفتور المصريين وإبطاؤهم في إنشاء مجمعهم اللغوي.

أيام قليلة لا تكاد تبلغ الخمسة كفت لأن يتكلم بونابرت في مجمعه العلمي إلى بعض العلماء الفرنسيين الذين كانوا يرافقونه ويصدر إليهم أمراً بان يجتمعوا فيضعوا له نظماً ويرشحوا له أعضاء ولأن يجتمع هؤلاء العلماء فيضعوا النظام ويرشحوا الأعضاء ولأن يصدر المرسوم ويعقد المجمع جلسته الأولى وما هي إلا أسابيع قليلة حتى يجمع العلماء الفرنسيين الذين كانوا مفرقين في الإسكندرية ورشيد ليأخذوا مجالسهم في مجمع القاهرة ولا يكاد يعقد المجمع جلسته الأولى حتى يبدأ البحث وتقرأ المذكرات وتنشر الرسائل وكانت المطبعة والمعامل قد أعدت من قبل وما هي الا أعوام حتى يظهر هذا الأثر الخالد لهذا المجمع وهو كتاب وصف مصر.

أما نحن فنفكر في مجمعنا اللغوي منذ أعوام طوال ونحاول إنشاءه فلا نوفق. فكرنا فيه أن صدقتنا الذاكرة في أوائل هذا القرن وقبل الحرب الكبرى وفكرنا فيه وحاولنا إنشاءه أثناء الحرب وفكرنا فيه بعد الهدنة وفكرنا فيه بعد الاستقلال، واعددنا له مشروعا ومشروعا ومشروعاً وكان بعض هذه المشروعات يضيع فلا يهتدى إليه، وبعضها ينام فيطيل النوم وبعضها يقبر قبل أن تنبعث فيه الحياة. وأخيرا وبعد التفكير والتقدير، وبعد الذهاب والإياب، وبعد السفر والإقامة صدر المرسوم، وقيل في البرلمان أن المجمع اللغوي قد أنشئ. وهو قد أنشئ حقاً ما دام المرسوم الذي ينشئه ويحدد أغراضه ويرسم شكله ويبين له خطة العمل قد صدر ونشر وتحدثت عنه الحكومة في البرلمان. ولكنه منشأ بالقوة لا بالفعل، لأن مكانه لم يعرف وأعضاءه لم يختاروا وأبحاثه لم تنشر، والوجود بالقوة خير من العدم على كل حال. أنفق بونابرت أياما لينشئ مجمعاً ينتج بالفعل في واد مجدب من العلم والفن والأدب. وأنفقت مصر ثلاثين عاما لتنشئ مجامعها وتنشر أبحاثها.

وشيء أخر يدعو إلى التفكير حين نقرأ الفصل الذي نشرته مجلة باريس. فالمجمع المصري القديم الذي أنشأه بونابرت لم يكن مقصورا على جنسية بعينها، وكان فيه منذ إنشائه قسيس يوناني شرقي، وهذا المجمع لا يزال إلى الآن دوليا، لا تستطيع أمة أن تقول لها فيه الكثرة حتى ولا مصر التي تؤويه وتنفق عليه وتمكنه من الحياة ونشأ عن ذلك أن مصر هذه التي تؤوي وتمد بالمال لا تستطيع أن تقول أن مجمعها المصري يعترف بلغتها على أنها اللغة الرسمية ومجمعنا اللغوي الجديد دولي أيضاً، سيمثل فيه الشرق العربي كله، وستمثل فيه أمم أوربية مختلفة، يشتغل بعض أبنائها باللغة العربية. وقد تكون اللغة العربية لغة المجمع الجديد وقد يستعين أعضاؤه بالفرنسية أحياناً وبالإنجليزية أحياناً أخرى، وربما كانت هذه اللغة أو تلك ايسر وأدنى إلى أن يفهم بعض الأعضاء بعضاً. وكذلك يكون في مصر مجمعان دوليان أحدهما علمي قديم والآخر لغوي جديد. وكذلك تضرب مصر للناس أحسن الأمثال في الإيمان بأن العلم يجب أن

يكون فوق الأوطان والقوميات واللغات الخاصة!
وشيء آخر يدعو إلى التفكير حين نقرأ الفصل الذي نشرته مجلة باريس، وهو أن المجمع الذي أنشأه بونابرت كان يعقد جلساته في اتصال غريب لا يعرف الراحة ولا الهدوء، وهو الآن يعقد جلساته مرات في الشهر أثناء سنة العمل، لا يستريح إلا في الصيف حين يتفرق الأعضاء.
أما مجمعنا اللغوي الجديد فسيجتمع شهرا في العام في الشتاء أو في الربيع، فإذا فكرت في أن المجمع العلمي المصري واحد من مجامع تعد بالعشرات. وانه لو استراح من العمل لم يكد العلم يخسر كثيراً وأن مجمعنا اللغوي الناشئ بالقوة سيكون يوم ينشأ بالفعل واحداً من مجامع لا تبلغ أصابع اليد الواحدة عداً، وأنه يريد أو يراد له أن يضع معاجم في اللغة منها العادي ومنها التاريخي وان يجدد اصطلاحات العلوم والفنون وينشئ منها ما لم يوجد وأن يشرف بعد هذا كله على حياة الأدب واللغة وصفائهما. نقول إذا فكرت في هذا كله وافقتنا على انعقاد مجمعنا اللغوي شهرا كل عام في الشتاء أو في الربيع أقل جدا من أن يتيح له النهوض ببعض ما يطلب إليه.
ولكن المجمع اللغوي قد وجد على كل حال ولو بالقوة
كما يقول المثل ومن يدري لعل أعضاءه لا يكادون يجتمعون (وماش خير من لاش) لأول مرة حتى تشرب قلوب بعضهم حب بعض ويعز كل منهم على صاحبه ويكرم في نفسه، فلا يفترقون بل يبقون في القاهرة يعملون طول الخريف وطول الشتاء وطول الربيع، ولا يفترقون في الصيف الا كارهين!.
صور من التاريخ الإسلامي
أبو ذر الغفاري
للأستاذ عبد الحميد العبادي
الأستاذ بكلية الآداب
العربي القديم من أبسط الناس طبيعة، وأوضحهم سريرة، وأصرحهم لسانا، وأشدهم استمساكا بما يراه الحق، وأعظمهم حمية، أن يجري عليه ذل أو ضيم. ثم هو من اكثر الناس قناعة، وأرضاهم من حطام الدنيا بالكفاف.
ذلك الخلق، الذي قد لا ترضى عن بعض نواحيه النظريات الأخلاقية الحديثة، يرجع إلى البيئة الطبيعية والاجتماعية التي نشأ العربي في حجرها، صيغ على مثالها. فالبادية محدودة الحاجة، ونظام القبيلة الاجتماعي إنما هو نظام الأسرة مكبراً. وكم للناس من فضائل هي وليدة بيئتهم، وإن شئت فقل: كم من فضائل الناس ما هو مرزوق غير مجلوب، وموهوب غير مكسوب!.
ولقد جاء الدين الإسلامي مطبوعا في جملته بالطابع العربي، موسوما بسمته، قد سلك إلى الحقيقتين الدينية والاجتماعية اقرب السبل، وعبر عنهما أوجز تعبيره وأبلغه، فهو من ناحية يأمر بالتوحيد المحض، ومن ناحية أخرى يأمر بالتسوية بين الناس في الحقوق العامة، وبالأخذ من الدنيا بحساب.
ولكن شاء الله أن ينبعث العرب من جزيرتهم غزاة فاتحين، وان يحووا مواريث أمم التبس عليها أمر الحقيقتين المذكورتين. فلم يلبث العرب أن تأثروا بتلك الأمم وانتقلت إليها أدواؤها وأصابهم ما أصابها من لبس واضطراب. فأما الحقيقة الدينية السهلة فقد صيّرها غلاة الفقهاء والمتكلمين، وأهل الأهواء والنحل، أمراً صعباً مستصعباً، له ظاهر وباطن، وقريب وبعيد.
ليس من موضوعنا أن نفيض فيما طرأ على الحقيقة الدينية في صدر الإسلام، ولكن موضوعنا مقصور على ما عرى الحقيقة الاجتماعية فنقول إن هذه أيضاً قد ضل عنها رجال السياسة ضلالا بعيدا. فأفسدوا بذلك النفس العربية الساذجة، وأبدلوها بالزهد في
الدنيا شغفا بها، وتهالكا عليها. نعم أن أبا بكر وعمر أنفقا جهدا غير يسير في سد ذرائع هذا الخطر، وبدءا في ذلك بأنفسهما. فكانا مضرب المثل في القناعة والزهد وخشونة العيش. وحاول ثانيهما أن يحمل الناس على القصد والاعتدال فلم يقسم بينهم الأرض المفتوحة عنوة، ثم زاد فمنع قريشا من الخروج إلى البلدان المفتوحة الا بأذن وإلى أجل. فلما شكوه خطبهم خطبة قال فيها تلك المقالة التي تفيض قوة وتصميما. . . . .
ألا وان قريشا يريدون أن يتخذوا مال الله معونات من دون عبادة، ألا فأما وابن

الخطاب حي فلا! أني قائم دون شعب الحرة فآخذ بحلاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا في النار. فلما ذهب عمر لسبيله وولى عثمان تنفست قريش وسرى عنها، وأقبلت تستغل لين ذي النورين وحياءه الجم، فانطلقت إلى الأمصار تقتني المال الوافر والعقار الواسع والاقطاعات المترامية على ضفاف دجلة والفرات والنيل، وتتملك أرضا هي بحكم نظام عمر وقف على عامة المسلمين يشركون جميعا في غلته. فأثرت قريش وربلت، وصارت إلى رفاغة عيش لهم تلم لها من قبل بخيال. يحدثنا أبو الحسن المسعودي فيقول: (وفي أيام عثمان اقتنى جماعة من أصحابه الضياع والدور، منهم الزبير بن العوام، بنى داره بالبصرة وهي المعروفة في هذا الوقت. . . . . وابتنى أيضاً دورا بمصر والكوفة والإسكندرية وما علم من دوره وضياعه فمعلوم غير مجهول إلى هذه الغاية. وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار، وخلف الزبير ألف فرس وألف عبد وألف أمة وخطاطا بحيث ذكرنا من الأمصار. وكذلك طلحة بن عبيد الله التيمي، ابتنى داره بالكوفة المشهورة به هذا الوقت المعروفة بالكباسة بدار الطلحتين وكانت غلته من العراق كل يوم ألف دينار، وقيل اكثر من ذلك (!) وبناحية سراة (؟) اكثر مما ذكرنا، وشيد داره بالمدينة وبناها بالآجر والجص والساج؛ وكذلك عبد الرحمن بن عوف الزهري، ابتنى داره ووسعها وكان على مربطه مائة فرس وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم، وبلغ بعد وفاته ربع ثمن ماله أربعة وثمانين ألفا. وقد ذكر سعيد بن المسيب أن زيد بن ثابت حين مات خلف من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس غير ما خلف من الموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار. وابتنى المقداد داره بالمدينة في الموضع المعروف بالجرف على أميال من المدينة وجعل أعلاها شرفات، وجعلها مجصصة الظاهر والباطن. ومات يعلى بن أمية وخلف خمسمائة ألف دينار وديونا

على الناس وعقارات وغير ذلك) ثم يقول المسعودي (وهذا باب يتسع ذكره ويكثر وصفه فيمن تملك من الأموال في أيامه، ولم يكن مثل ذلك في أيام عمر بن الخطاب، بل كانت جادة واضحة وطريق بينة).

مهما يكن من المبالغة في هذا النص، فهو لا ريب يشير إلى حال كانت لا بد مثيرة لمعارضة جادة غير هازلة، فالعهد بصاحب الشريعة الإسلامية والشيخين كان لا يزال قريبا، ومبادئ الإسلام الديمقراطية لم تنمح بعد من الأذهان، وقد وجد نوعان من المعارضة لهذه الحال: نوع يستند إلى العنف والقوة المادية، وكان بالأمصار الكبرى، حيث الجند الذين شادوا الدولة بسيوفهم والذين اصبحوا يرون قريشا استأثرت بحقهم في الفيء، وبلسان هؤلاء يقول شاعر من أهل الكوفة: -

يلينا من قريش كل عام ... أمير محدث أو مستشار

لنا نار نحرفها فنخشي ... وليس لهم فلا يخشون نار

ومن هذا القبيل معارضة أهل المدينة. ولكنها كانت ذات صوت خافت ممجمج لأن المدينة لم تعد محل القوة المادية في الدولة العربية فقد خلفها في ذلك الأمصار المذكورة. والحق أن الأوس والخزرج قد أدوا الواجب الذي من اجله لقبوا (بالأنصار) ثم أخذ نجم مجدهم السياسي في الأفول. وأما النوع الآخر من المعارضةفكان يستند إلى الدليل الشرعي وإلى مبدأ الحق والعدالة. وهذا كان يحمل لواءه عاليا رجل قوال اللسان، ثبت الجنان، صريح في الحق كل الصراحة: ذلك أبو ذر الغفاري.

كانت غفار من القبائل الضاربة حول المدينة، وكانت في الجاهلية تحترف قطع الطريق واعتراض القوافل التي تمر من أرضها وهي حرفة لم يكن بها بأس في عرف ذلك الزمان، فنشأ أبو ذر نشأة أعرابية. واتصف بما يتصف به الأعراب عادة من صدق اللهجة وصراحة القول، ومرن على حياة البادية بما فيها من خشونة وسذاجة. ويقال أنه بقوة عقله وصفاء ذهنه أدرك ما عليه قومه من فساد العقيدة، فاطرح الأوثان ووحد الإله وذلك قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم بثلاث سنين. فلما نبئ عليه السلام وبلغت أبا ذر دعوته، وجد مشاكلة قوية بين هذه الدعوة وبين ما كانت نفسه اطمأنت إليه من قبل، فرحل إليه من فوره، وما هو إلا أن لقيه وسمع منه القرآن حتى أسلم وكان خامس خمسة هم كل الجماعة

الإسلامية آنذاك. ولقد أبى إلا أن يجهر في مكة بدينه الجديد فتعمدته قريش بالأذى ثم ذكرت أنه من قوم تمر عيرها من أرضهم، فكفت عنه.

عاد أبو ذر بعد ذلك إلى البادية فدعا قومه إلى الإسلام فأسلم بعضهم، ثم أسلم سائرهم عندما هاجر الرسول إلى المدينة، وبذلك أصبحت غفار من القبائل التي ظاهرت الرسول في محاربته قريشا. وقد لبث أبو ذر في قومه إلى أن تمت الهجرة وانقضت أيام بدر وأحد والخندق ثم قدم المدينة وخرج مع الرسول في غزوة تبوك ولزم صحبته إلى أن توفي عليه السلام فكان بذلك من أكبر رواة الحديث.

وقد وردت أحاديث تشير إلى أخلاق أبي ذر فيروى أن النبي سمعه يقول لآخر (يا بن الأمة) فقال عليه السلام (ما ذهبت عنك اعرابيتك بعد) وتخلفت بأبي ذر راحلته عن الجيش في غزوة تبوك فتركها أدرك الجيش ماشيا وحده فقال الرسول (. . . يمشي وحده ويموت وحده ويبعث وحده)، وورد فيه أيضاً (ما أفلت الغبراء ولا أظلت الخضراء من ذي لهجة اصدق من أبي ذر).

وأقام أبو ذر بعد وفاة الرسول بالمدينة. فلما كانت خلافة عمر بن الخطاب ألحقه عمر في العطاء بأهل بدر تشريفا لقدره وان لم يكن منهم، فعرض له خمسة آلاف درهم في السنة. ثم خرج إلى الشام، وغزا مع معاوية ارض الروم سنة 23 هـ وجزيرة قبرس سنة 27 هـ.

فلما وقف تيار الفتوح العربية منتصف خلافة عثمان أقام أبو ذر بالشام فرأى ما آل إليه المسلمون من الحال التي سبق وصفها. رأى رجال الدولة تسمى الفيء مال الله توصلا بهذه التسمية الخادعة إلى الاستئثار به أو التصرف فيه كما يشاءون. ورأى المجتمع قد استحال فريقين متباينين: أغنياء مترفين وفقراء معدمين، فأثارت تلك الحال حفيظة أبي ذر وهو الذي شهد دورة الفلك كاملة، ورأى العرب في جاهليتهم وما صاروا إليه في خلافة عثمان، فنصب نفسه لمكافحة تلك الحال مهما جر عليه ذلك. فأعلن برنامجه في الإصلاح. فأما الفيء فيجب أن يسمى (مال المسلمين) لا (مال الله) وأما الأغنياء فيجب أن يرد فضل أموالهم على الفقراء، وذهب أبو ذر إلى المسلم (لا ينبغي له أن يكون في ملكه اكثر من قوت يومه وليلته أو شيء ينفقه في سبيل الله أو يعده لكريم) أخذ ذلك من ظاهر قوله تعالى

(والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم)

وبذلك البرنامج أصبح أبو ذر داعية اشتراكيا صريحا. وقد شاعت دعوته في فقراء الناس ومجاويحهم فثاروا بالأغنياء وطالبوهم أن يشركوهم في أموالهم، فتوجه الأغنياء بالشكوى إلى أمير الشام لذلك العهد: معاوية بن أبي سفيان.

أحب معاوية قبل كل شيء أن يختبر صدق أبي ذر فيما يدعو إليه، فبعث إليه في جنح الليل بألف دينار ولما كان الصبح أرسل إليه يستردها بحيلة إحتالها فوجد أبا ذر قد فرقها كلها، فعلم معاوية أن الرجل يفعل ما يقول. فأقبل يجادله فيما يدعو إليه وعلى سبيل الترضية له قبل أن يسمي الفيء (مال المسلمين) بدلا من (مال الله) ولكن أبا ذر أصر على أن ينزل الأغنياء عن فضل أموالهم للفقراء، وعبثا حاول معاوية أن يقنعه بأن الآية التي يستدل بها إنما نزلت في أهل الكتاب وحدهم. وأعيا معاوية أمر أبي ذر فجنح إلى أخذه بالشدة فنهى الناس عن مجالسته وتهدده بالقتل فلما لم يجد كل ذلك رفع أمره إلى عثمان فأمره بأشخاصه إليه، فأشخصه إليه على شر حال.

لم يكن أبو ذر في المدينة بأسعد منه في الشام فقد حاول عثمان أن يصرفه عن دعوته، ويريه أنه لا يملك أن يجبر الناس على الزهد وعلى أن يؤدوا غير فريضة الزكاة، وان كل الذي يملك هوان يدعو المسلمين إلى الاجتهاد والاقتصاد. ولكن أبا ذر كان يريد برنامجه كاملا، وولع به أهل المدينة والتفوا حوله، فرأى عثمان آخرة الأمر أن يحصر الخطر في أضيق دائرة ممكنة فنفى أبا ذر إلى الربذة وهي مكان في البادية ناء عن المدينة. والظاهر أن عثمان لم يرد أكثر من إبعاد أبي ذر عن الناس، فالروايات تقول أنه أجرى عليه رزقا يناله كل يوم وأنه لم يمنعه إلى الاختلاف إلى المدينة من حين لآخر حتى لا يرتد أعرابياً.

لم يكن أبو ذر ثائرا ولكن طالب إصلاح أرتآه. ومما يدل على عدم نزوعه إلى الثورة أنه وهو في منفاه مر به ركب من أهل الكوفة ممن كان منحرفا عن عثمان فطلبوا إليه أن ينصب راية يلتف حولها كل من كان على شاكلته وشاكلتهم، فأبى ذلك بتاتا ونهاهم عنه: وأما مذهبه في الإصلاح فلا شك أنه ابن بجدته، فالإسلام لا يحظر الثروة

ولا الملكية، ولا يوجب على المسلم حقا في ماله غير الزكاة، وكل ما ينهي عنه الإسلام في هذا الصدد إنما هو أن تجعل الثروة غرضا مقصودا لذاته.

وعندي أن حركة أبي ذر الاشتراكية تمت بنسب قوي إلى حركة مزدك الشيوعي الذي ظهر بفارس على عهد قباذ وكسرى أنو شروان، والذي كاد يقلب نظام المجتمع الفارسي رأسا على عقب لولا عزم أنوشروان وحزمه. فإذا عرفنا أن اليمن خضعت لفارس قبيل الإسلام وان يهوديا من أهل صنعاء يعرف بابن السوداء ادعى الإسلام في خلافة عثمان وجعل يطوف الأمصار الإسلامية داعيا إلى الثورة، وانه هو الذي حرك أبا ذر لما أنس فيه من الميول الاشتراكية، إذا عرفنا ذلك كله فقد وضحت الصلة بين الحركة الشيوعية الفارسية القديمة وبين الحركة الاشتراكية التي أوشكت أن تقع في الدولة الإسلامية على عهد ثالث الخلفاء الراشدين.

لبث أبو ذر في منفاه نحو ثلاث سنين يعاني ألم الوحشة وكبر السن وخيبة الأمل فلما أدركه الموت في سنة 32 هـ كانت وفاته مؤثرة ودالة على شدة ثباته على مبدأه حتى النهاية، وعلى أنه حقا قد مشي وحده، ومات وحده، يروي ابن سعد في طبقاته أنه عندما حضرت الوفاة أبا ذر حارت امرأته في أمرها لتوحدها في تلك الفلاة (فكانت تشد إلى كثيب تقوم عليه فتنظر ثم ترجع إليه فتمرضه، ثم ترجع إلى الكثيب، فبينما هي كذلك إذا هي بنفر تحذ بهم رواحلهم كأنهم الرخم على رحالهم، فألاحت بثوبها، فاقبلوا حتى وقفوا عليها، قالوا ما لك؟ قالت امرؤ من المسلمين يموت تكفنونه. قالوا ومن هو؟ قالت أبا ذر. ففدوه بآبائهم وأمهاتهم، ووضعوا السياط في نحورها، يستبقون إليه حتى جاءوه. فقال لهم. . . . . ولو كان لي ثوب يسعني كفناً لم أكفن إلا في ثوب هو لي، أو لامرأتي ثوب يسعني لم أكفن إلا في ثوبها، فأنشدكم الله والإسلام الا يكفنني رجل منكم كان أميرا أو عريفا أو نقيبا أو بريدا. فكل القوم قد كان قارف شيئا من ذلك إلا فتى من الأنصار قال أنا أكفنك فإني لم اصب مما ذكرت شيئا، أكفنك في ردائي هذا الذي على وفي ثوبين في عيبتي من غزل أمي حاكتهما لي. قال أنت فكفني. . . فكان ذلك الفتى الأنصاري هو الذي تولى تجهيزه ثم دفنوه جميعا.

وهكذا انطفأ سراج هذه الشخصية الفذة العجيبة. أنها لا شك من تلك الشخصيات التي يقدمها الزمن عادة بين أيدي الأحداث الخطيرة إنذارا للناس وإقامة للحجة عليهم إذا لج بهم الغرور فلم يرعوا ولم يزدجروا.

على أن روح أبي ذر لم يكن ليغيب مع جثمانه في تلك الفلاة البلقع، فقد ظل صوته داويا إلى أن تحقق ما أنذر به المدينة من (غارة شعواء وحرب مذكار) ووقفت الفتنة الكبرى التي يقال أنها أنتجت كل فتنة حدثت في الإسلام. ولقد كانت غفار ممن نهض فيها وألقى في نارها حطبا.

العلم والخلق

للدكتور منصور فهمي
أستاذ الفلسفة بكلية الآداب

وجهة العالم في أن يدرك الأمور على ما هي عليه، ونشاطه في أن يكسب للمعرفة من ميدان الجهل، وأن ينشر النور حيث يخيم الظلام. ووجهة الخلقي في أن يصور الأمور على ما ينبغي أن تكون عليه الأمور، وأن يلفت الأنظار إلى مثل عليا تحفز بالناس للتسامي إليها والارتفاع بأنفسهم وبالحياة الراهنة إلى ما هو أرفع من أنفسهم وأرفع من الحياة الراهنة.

ولطالما اضطربت الإفهام واستغلق الأمر على الباحثين حيث تعرضوا لاستجلاء الصلة بين العلم وبين الأخلاق فحسبوا أن الوشائج بينهم مقطوعة حين نظروا إلى وجهتين مختلفتين: وجهة من يصف ويعلل، ووجهة من يرتضي مثالاً ويوجه إليه، وجهة من يهز صوته الفكر ويتردد صدى هذا الصوت بين جوانب الدماغ، ووجهة من تؤم نغماته تجاويف القلب وتسري في أقنية الدم، وعلى أسلاك العصب لتدفع بالنفس كلها إلى العمل.

ولطالما رأى غير قليل من المفكرين أن العلم النظري وثمراته التطبيقية لا تؤثر في الناس لتهذيبهم على نحو ما تؤثر العقائد الدينية والفلسفة والمثل العليا، حتى أن بعض قادة الفكر في الزمن الحديث أمثال (بسكال) و (ديكارت) اصطنعوا لأنفسهم ذلك الرأي فتخطوا العلم ليجدوا في الدين وفي العرف مرشدا لسلوكهم ومأمنا لأحكامهم

وتقديرهم في اتخاذ الحسن من الأفعال وتجنب القبيح منها، وفي اتخاذ السبيل لراحة النفس واطمئنانها. بل قد ذهب غير قليل من مفكري عصرنا إلى إساءة الظن بالعلم فحملوه أوزار الحروب القاسية، وأخطار الفراغ الممل، وأضرار الثورات الاجتماعية العنيفة ومساوئ المطامع والتنازع الحاد، حتى وقد يبالغون في لوم العلم إلى حد أن يروا على نحو ما يرى (أيشتين) في أنه ذلك المسيء إلى الحريات الإنسانية، فمن ينظر إلى تلك المصانع وما فيها من آلات منوعة، وأعمال موزعة، يتبين أنها تتناصر جميعا على استعباد عدد من العمال وفير، وتسخيرهم تسخيراً آلياً تضمحل معه نفوسهم، وتهن من تأثيره كرامتهم، بل ربما يذهب الذاهبون في مذهبهم العدائي للعلم إلى حد أقسى مما تقدم، فلا يشفع له عندهم فضل المحسن إلى البشر إذ يقاوم الأمراض الفتاكة، وييسر المسافات البعيدة، ويرفه الخلق في كثير، فمع ذلك ورغم ذلك قد ينكرون على العلم قيمته وفضله لأن من يستطيع الإحسان في شيء قد تكبر تبعته ويعظم إثمه إذا هو استخدم سلاحه للإساءة والعدوان وهو عارف لمواضع الإحسان. وأي إساءة اعظم من إساءة الحروب المعززة بجهود العلم؟ وأي عدوان أشد من تحويل عدد عديد من الناس إلى صنف من المخلوقات يستغرق في الإنتاج شهوة ومن غير قصد، ويستغرق في الاستهلاك شهوة، ومن غير حد؟.

على أن هذا النحو من النظر العدائي ربما كان بعض مصدره ما تتعرض إليه النفوس واللغات أحياناً من الخلط بين الوسائل وغاياتها، وبين العلل ومعلولاتها، وبين الحال والمحل مما هو شائع ذائع.

وعلى هذا النحو خلط الكثيرون بين العلم المحض الخالص وبين نتائج العلم وتطبيقاته في شؤون الحياة، وكذلك قد ظلموه على نحو ما يظلم السيف المهند في يد الجندي الجبان.

وليس حظ السذج والعامة في الخلط بين العلم وتطبيقاته بأربى من حظ بعض الخاصة وأشباههم في هذا الأمر. وقد يطلب الكثيرون من معاهد العلم ودوره أن تفيض عليهم وعلى أبنائهم من المتعلمين بما ينتفع به الناس انتفاعا عمليا حتى شاعت في السنين الأخيرة عندنا وعند غيرنا من الأمم بدعة العلم العملي والتعليم العملي ونادى بها أكثر من كاتب، وقال بها أكثر من مشتغل بشؤون التعليم. ولو أنصف هؤلاء وهؤلاء لأعترفوا للعلم بطبيعته النظرية، وقدروا له حرصه على المعرفة لذاتها فحسب دون تقدير لنتائجها الضارة أو النافعة.

لكن غير المشتغلين بالعلم الخالص من أفراد الناس بخاصة هم الذين وجهوا نتائج العلم للخير والشر وللحسن والقبيح، دون أن يكون للعلم في ذاته دخل في ذلك التوجيه. فما على العلم إذن وما له إذا استخدم الإنسان بعض آثاره ليعيث بها فسادا أو ليصلح بها في الوجود؟.

ليس في قانون البحث العلمي ما يلزمنا أن نحكم بأن غازا من الغازات يجب أن يتوجه لحيث يحيي أو لحيث يميت! وليس في قانون العلم أن جوهرا من الجواهر يجب أن يكون سما ناقعا أو بلسما نافعا! لكن طبيعة الإنسان بما فيها من رفعة أو ضعة هي التي تستخدم السم لتجعل منه الدواء أو لتجعل منه الداء، وهي التي تستخدم الشيء الواحد ليكون نعمة أو نقمة. فمدار الخير أو الشر إذن إنما هو منوط بالإنسان. . . على أن الناظر المدقق لو أنه تأمل مليا لوجد أن العلم يشمل عدة عناصر تهيئ النفس للتسامي والخير. ذلك لأن العلم بشيء من الأشياء، وتكشف الحق في جهة من الجهات، وإطلاق النور في مكامن الديجور كل ذلك إنما يشعر بعظمة العقل وجدارة الإنسان، وفي الشعور بالعظمة والجدارة أول مصدر للخلق ونبالته. ولست أريد في هذه الكلمة الوجيزة أن أتعرض لما يحدثه العلم واصطناعه في تقوية الاستعدادات الخلقية الكريمة، وحسبي أن أنبه طالب العلم إلى أن العلم في جوهره نبيل وأن المنتمي إليه يجب أن يكون نبيلا. فيا طالب العلم لا تأثم في حقه فتتوجه به إلى منخفض من الحياة، وإلى ما في الدنيا من ضعة! واعمل دائما على أن تعلو بعلمك إلى السماء وتحلق به حيث شرف النفس ورفعة المقصد وآفاق المعاني السامية وعالم الخير.

التجديد في الدين
للأستاذ أمين الخولي
المدرس بكلية الآداب

مقال لمشروع القرش، وحول مشروع القرش، يحضر النفس ذكر الشباب، والتضامن والاستقلال والحياة والقوة وتجديد مجد مصر. . ثم نحن الآن في رمضان: صوم وزهد وتدين. . فمن تداعى هذه المعاني يأتلف العنوان (التجديد في الدين).

عنوان قد يطلع على البعض جريئا بل ربما كان مزعجا لكثير من المتدينين الذين يتعجلون الحكم على الأشياء قبل اختبارها ويبتدرونها بتلك الأحكام الغاضبة السريعة. فان يفعلوا ذلك قبل الفراغ من المقال فهذا هو الذي يفقد أحكامهم قوتها وحرمتها. وإن يتريثوا حتى يقرءوا فسيرون أنهم كثيرا ما يثورون في وجه من لا يستحق منهم الا التقدير.

عنوان قد يكون نابيا قلقا عند غير المتدينين. لأنهم يرون في الشيوخ صورة المحافظة المسرفة، بل يعتبرونهم حجر عثرة في سبيل التجدد على اختلاف ألوانه. ويحملونهم تبعة الكثير مما أوقف الشرق وأخره. ويرونهم جند الرجعية ومرجعها. ويصدر الكثيرون عليهم أحكاما رهيبة. لكنها سرية قل من يجرؤ على مجاهرتهم بها. فأصحاب تلك الآراء والأحكام قد يعدون هذا العنوان دعابة مازحة ومفارقة فكهة. لكنهم إن يتعجلوا الحكم كذلك قبل أن يقرءوا فهذا بعض تطرفهم الذي يفقد جهادهم قوته ويعوق نجاحه. وان يطمئنوا حتى يقرءوا فسيرون أن كثيرا مما ثاروا فيه على الدين ليس من الدين في شيء وأن الدين غير المنتسبين إلى الدين.

العنوان حقيقة صحيحة صريحة لا فكاهة فيه ولا مروق (إن شاء الله) ففي الدين فكرة واضحة عن التجديد تبين ناموسا كونيا وتنبه إلى سنة اجتماعية مطردة لا تتبدل. إذ ورد في الحديث (أن الله يبعث على رأس كل مائة سنة لهذه الأمة من يجدد لها دينها) أو ما هذا معناه. وهو حديث صحيح نص على صحته متقدمون منهم البيهقي والحاكم ومتأخر ون منهم ابن حجر والعراقي. . وراجت فكرة التجديد في الإسلام. وعني العلماء ببيان مجددي كل مائة وتعيين أسمائهم وأعمالهم والترجمة لهم. . . ولا أريد هنا وفي هذه الإلمامة الصحفية، أن أعني باستقصاء تاريخ فكرة (التجديد في الدين) بل اكتفي بأن أشير في ذلك

إلى مجموعة تنتظم من خير التجديد والمجددين صورة كاملة من الهجرة إلى اليوم، وهي تتألف من منظومة للسيوطي في هذا الموضوع سماها (تحفة المهتدين في بيان أسماء المجددين) ومطلع هذه المنظومة:

لقد أتى في خبر مشتهر ... رواه كل حافظ معتبر
بأنه في رأس كل مائة ... يبعث ربنا لهذه الأمة
منا علينا عالما يجدد ... دين الهندي لأنه مجتهد

وعلى هذه المنظومة شرح للشيخ محمد المراغي المالكي الجرجاوي الذي عاش في القرنين الثالث والرابع عشر الهجريين وسمى هذا الشرح (بغية المفتدين، ومنحة المجدين، على تحفة المهتدين. . . الخ) شرح فيه منظومة السيوطي ثم اكمل أسماء المجددين نظما إلى عصره وشرح نظمه على طريقة شرحه نظم السيوطي.

وفي بيان الدينيين لمعنى التجديد تراهم يقولون: أنه نفع الأمة، ودفع المكاره عن الناس، ونصرة الحق وأهله، وإحياء ما أندرس من أحكام الشريعة، وما هي من معالم السنن وما خفي من العلوم الدينية ويتحدثون عن تغير الحياة واستحداث أشياء تحتاج إلى تناول جديد وحسبك من قولهم في معنى التجديد ما ورد في المجموعة السابقة من عبارة النظم والشرح ممتزجتين وهي: (وإنما كان مجدداً لأنه أي المبعوث فينا مجتهد وشأن المجتهد التجديد. . .) ولأن اكتفوا في الأزمنة الأخيرة بالاجتهاد المقيد فبحسبهم أن أناطوا التجديد بالاجتهاد وفسروه به أبعدوه عن التقليد الذي هو آفة العقول وعلة الجمود. وتراهم حين يعدون أسماء المجددين في كل طبقة قد يعددون المجددين ويخصون كل مجدد بفرع من فروع العلم أو العمل. فيوسعون الدائرة توسعة محمودة.

تلك فكرتهم في تجديد الدين: وأنها لفكرة في التجديد متزنة رزينة مقدرة لنظام الحياة وتدرجها معادية للجمود وقاضية عليه قاتلة لأهله. . . . وإذا كان الدين وهو وحي الهي

والإسلام وهو رسالة لا رسالة بعدها هو الذي يقرر لأهله أن نظام الحياة العاملة يحوجه إلى التجدد ويهيئ الله له على الزمن من ينفي عنه مظاهر الجمود، وعوامل الوقوف؛ إذا كان هذا حال الدين، وذاك شأن الإسلام، فمرافق الحياة، وظواهر المعيشة التي لا ثبات لها ولا استقرار، والتي هي وليدة الظروف وصنعتها، اشد حاجة إلى التجدد والتغير. . . .

وإذا كانت البعثة الدينية التجديدية منة على المتينين، وفضلا من الله ونعمة، فالمنتسبون إلى الدين حين يقاتلون المبعوثين لهذا التجديد، ويجمدون على ما وجدوا عليه آبائهم، إنما ينكرون نعمة الله، ويصدون عن سبيله ويبغونها عوجا (وما هم ببالغيه) وهم، وبين أيديهم ذلك الأثر، وعليهم ذلك الواجب لا يأثمون بجمودهم إثما واحدا! بل آثاما كثيرة: إثم لأنهم لا يتجددون وإثم لأنهم لا يجددون وإثم لأنهم يعوقون المتجددين المجددين في تعنت أصم لا يميز الخبيث من الطيب مهما تبينا ولا يعرف داعي الله من داعي الشيطان.

مصر والتجديد في الدين

وما ننسى أن الكلمة لمشروع القرش وحول مشروع القرش. فلنعد إلى مصر المتجددة بجهاد شبانها، مصر ذات الحيوية الفياضة وصاحبة الشخصية الخالدة والتي أسدت إلى الإنسانية والحضارة أطهر الأيادي وأشرفها على تطاول السنين وتمادي الأيام. نعود لنقول أن مصر كعادتها في ذلك قد اضطلعت من تجديد الدين بالحظ الأوفر وساهمت فيه بالنصيب الأكبر على سعة الإمبراطورية الإسلامية وترامي أرجائها وانتظامها الواسع الأفيح أقطار الدنيا القديمة. فأنت حين تعرض أسماء أولئك المبعوثين المجددين على رؤوس المئات خلال الثلاثة عشر قرنا من تاريخ الهجرة تراهم يعدون هكذا:

في المائة الأولعمر بن عبد العزيز
في المائة الثانيةالشافعي
في المائة الثالثةابن سريج العراقي أو أبو الحسن الأشعري
في المائة الرابعة الباقلاني أو الاسفراييني
في المائة الخامسةالغزالي
في المائة السادسة الفخر الرازي
في المائة السابعة ابن دقيق العيد الشافعي
في المائة الثامنة البلقيني أو غيره
في المائة التاسعة السيوطي
في المائة العاشرةالرملي أو غيره
في المائة الحادية عشرة عبد الله ابن سالم البصري
في المائة الثانية عشرة الدردير
في المائة الثالثة عشرة احمد الشرقاوي
في المائة الرابعة عشرة. . . . . .؟

وتجيد نظرك في هذه الجريدة من الأسماء فترى (كما لاحظ القدماء أنفسهم) أن الكثرة المطلقة من هؤلاء المجددين مصرية رجال أنجبتهم وآوتهم وعلمتهم مصر ذات الفضل العتيد على المدنية منذ عرفها بنو آدم، فبين هؤلاء الثلاثة عشرة مجددا ثمانية من المصريين هم: عمر بن عبد العزيز وليد مصر الناشئ بها، والشافعي الذي حمته وفيها علم، وابن

دقيق العيد القشيري المنفلوطي، والبلقيني المنسوب إلى بلقينة قرب المحلة، والسيوطي والرملي المنسوب إلى رملة قرب

منية العطار تجاه مسجد الخضر، والدردير العدوي، والشرقاوي الجرجاوي. وان شئت عددت لمصر منهم تسعة فمصر في القرن الرابع عشر الهجري هي قلب الشرق الخافق وعقله المفكر وقد تصدرت في شجاعة ونبل لحمل أعباء تلك القيادة منذ بدأ ذلك الشرق يمسح عن عيونه آثار النوم ويتهيأ ليقظة نشطة باهرة تمدها عزمة قاهرة تكتب له النجاة وترد له حقه في الحياة. . . ولا أريد اليوم أن أسمي مجدد هذه المائة أو مجدديها من المصريين حتى لا أحابي أحداً، ولا ألقن رأياً وإنما أترك الكلمة في ذلك لشبان الشرق وشبان مصر.

يا شبان الشرق ها أنتم أولاء تطالعكم قوى التجديد من حيث تخشون عناصر الجمود؛ وها هو الإسلام الدين الحي يدفعكم دفعا إلى مسايرة نواميس الكون؛ ومجاراة نظم الجماعات الإنسانية؛ وهذا تاريخكم المجيد يغذي حاضركم الحديث فلا عذر اليوم لكم إذا لم تثبت تلك العزمات لتسمع الدهر صوتا أصغى إليه أزمانا وحدا له فسار؛ ومضى حيث صرفه واحكم فيه.

يا شباب: هاكم ماضيا مجيدا في الصدارة والزعامة، لم يدع ميدانا إلا حله، وها هي ذي مصركم معلمة الدنيا قد أنهت إليكم لواء هذه الزعامة وقد بايعها الشرق وعرف مكانها وعاندها الغرب وجحد حقها. والحياة العاملة اليوم إنما تكتب للأمة الصناع والشعب الدؤب

فلا بد أن تتصدر مصركم ما تصدرت من باقي الميادين قديما وسيبني ثبات شبانها بمشروعهم العملي صروحا سامقة من القوة المادية تشهد أن الذين عرف أسلافهم كيف يجمعون الفلسفة ويعينون العلم ويذودون عن الأديان يعرفون هم جيدا كيف يؤصلون الصناعة على أساس أبقى على الدهر من الدهر.

في الأدب العَرَبيّ

حلقات الأدب في الفسطاط

للأستاذ محمد عبد الله عنان

(2)

لبثت الفسطاط عاصمة الإسلام في مصر منذ قيامها سنة 21 هـ (641م) حتى سنة 358هـ (969م). وفي ذلك العام كان الفتح الفاطمي، وكان قيام القاهرة المعزية التي وضعت خططها الأولى في شعبان سنة 358، ونشأت القاهرة بادئ بدء مدينة ملكية فقط لتكون قاعدة للدولة الجديدة ومنزلا للخلافة الفاطمية، ونشأ جامعها الأزهر الذي أسس بعد قيامها بأشهر قلائل (جمادى الأولى سنة 359هـ) مسجدا للإمامة الجديدة فقط. ومضى زهاء نصف قرن قبل أن تبدو العاصمة الجديدة في شيء مما تميزت به بعد ذلك بين الأمصار الإسلامية من عظمة وروعة وبهاء، وقبل أن يبدأ الجامع الأزهر تاريخه الأدبي الباهر. ولكن ظلت الفسطاط بعد ذلك عصورا تحتفظ بمكانتها الأدبية، ولبثت حلقاتها ولياليها الأدبية شهيرة بين أدباء المشرق والمغرب. وبدأ الجامع الأزهر ينافس المسجد الجامع في حلقاته ومجالسه الأدبية منذ عهد الخليفة العزيز بالله، إذ استأذن وزيره الشهير يعقوب بن كلس سنة 378 هـ أن ينظم بالأزهر على نفقته بعض مجالس القراءة والفقه. وفي خاتمة القرن الرابع، في عهد الحاكم بأمر الله، أنشئت دار الحكمة بالقاهرة ونظمت مجالسها، فكانت مثوى للمجالس العلمية الكلامية والفلسفية.

ولسنا نتحدث عن القاهرة ومكانتها العلمية والأدبية بين الأمصار الإسلامية في العصور الوسطى، ولا عن أزهرها الذي غدا فيما بعد أعظم جامعة إسلامية، كذلك لسنا نتحدث عن دار الحكمة ومجالسها الشهيرة التي كانت تتخذها الخلافة الفاطمية أداة لتحقيق دعوات دينية فلسفية غامضة، فذلك ليس موضوعنا. وإنما نتتبع تاريخ الفسطاط الأدبي، بعد قيام القاهرة، منافستها العظيمة الفتية.

فقدت الفسطاط أهميتها السياسية والرسمية، ولكنها احتفظت عصورا أخرى بأهميتها الاجتماعية والأدبية وفي فترات كثيرة كانت تتفوق على القاهرة بطابعها الأدبي. وهذا ما يشيد به أدباء المشرق والأندلس الوافدين على مصر في عصور مختلفة. ومن هؤلاء أمية

بن عبد العزيز بن أبي الصلت الأندلسي الذي وفد على مصر في أوائل القرن السادس الهجري في عهد الأفضل شاهنشاه. ودرس الحركة الفكرية والأدبية في مصر يومئذ كتب عنها رسالة لم يصلنا سوى شذور قليلة منها. وفي هذه الشذور يتحدث أبن أبي الصلت عن بعض أدباء مصر وعلمائها، ومجالسهم واجتماعاتهم بما يدل على أن الفسطاط كانت ما تزال مركزا هاما للحركة العلمية والأدبية. ووفد ابن سعيد الأندلسي إلى مصر بعد ذلك بنحو قرن، نحو سنة 637هـ (1240م)، ولبث بها أعواماً طويلة يدرس شئونها وأحوالها، فإذا بالفسطاط ما تزال تحتفظ بأهميتها الأدبية، وإذا بها ما تزال مثوى للأدباء ومركزاً لأبهاء الأدب، وإذا لياليها الأدبية ما تزال شهيرة. ويفرد أبن سعيد في كتابه (المغرب في حلى المغرب) فصلا كبيراً للفسطاط عنوانه: (كتاب

الاغتباط في حلى الفسطاط) يتحدث فيه عن المدينة، وزياراته لها واجتماعاته بأدبائها، ولا سيما شاعرها الكبير جمال الدين أبي الحسن الجزار، أشهر شعراء مصر في هذا العصر، وما لقيه من كرم وفادته وشهده من رائع أدبه، وقد كان الشاعر الكبير يومئذ، على ما يظهر شاباً في عنفوان شاعريته لأنه توفي بعد ذلك بنحو أربعين سنة في (679هـ1282م) وهو صاحب الأرجوزة التاريخية الشهيرة المسماة (بالعقود الدرية في الأمراء المصرية) وفيها يستعرض ذكر أمراء مصر وملوكها منذ عمرو بن العاص إلى الملك الظاهر بيبرس، وكانت الفسطاط قد عادت يومئذ فاستعادت كثيراً من بهائها السالف، وأهميتها الاجتماعية القديمة بسبب قيام المدينة الملكية الجديدة التي أنشأها الملك الصالح في جزيرة الروضة المقابلة للفسطاط (638هـ) واتخاذها قاعدة للسلطنة، وانتقال البلاط والحاشية إليها، وسكن كثير من الأمراء والكبراء بالفسطاط في الضفة المقابلة لنهر النيل، وهو ما يشير إليه ابن سعيد في قوله، (وقد نفخ روع الاعتناء والنمو في مدينة الفسطاط الآن لمجاورتها للجزيرة الصالحية (جزيرة الروضة)، وكثير من الجند قد أنتقل إليها للقرب من الخدمة، وبني على سورها جماعة منهم مناظر تبهج الناظر).

ويشير ابن سعيد في كتابه السالف الذكر إلى ليالي الفسطاط واجتماعاتها الشائعة في الليالي القمرية وأشهرها ما كان يعقد في القرافة مما يلي المقطم في قبة الإمام الشافعي التي كانت قد أنشئت على قبره. وكان المسجد الجامع قد عفت أهميته شيئاً فشيئاً مذ قام منافسه القوي، الجامع الأزهر وغيره من المساجد والمدارس الجامعة بمدينة القاهرة، ولكننا نراه ما يزال حتى القرن السابع مثوى للأدب واجتماعاته، وبرغم عفائه وقدمه ونسيان أمره، كانت تعقد في عرصاته حلقات للقراءة والدرس، وهو ما يشير إليه ابن سعيد أيضاً خلال وصفه للمسجد الجامع في منتصف القرن السابع، بيد أن هذه الحلقات لم تكن من الأهمية والرونق والانتظام مثلما كانت عليه في القرون الأولى يوم كان المسجد الجامع مجتمع الأمراء وأقطاب التفكير والأدب. وكانت يومئذ أقرب إلى الصبغة المدرسية. ومع ذلك فقد بقي للمسجد الجامع حتى ذلك العصر كثير من ذكرياته الأدبية المجيدة. وهي كعبة الأدباء والشعراء. يجتمعون فيه كلما سنحت فرص الاجتماع لعقد الأسمار والمطارحات الأدبية. وإليك نموذجاً لهذه الاجتماعات الشهيرة أورده ابن فضل العمري في موسوعته الكبيرة (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) في حديثه عن المسجد الجامع.

(حكي على بن ظافر الازدي. قال: روى لي أن الأعز أبا الفتوح ابن قلاقس وابن المنجم اجتمعا في منار الجامع في ليلة فطر ظهر بها الهلال للعيون. وبرز في صفحة بحر النيل كالنون. ومعهما جماعة من غواة الأدب الذين ينسلون إليه من كل حدب. فحين رأوا الشمس فوق الليل غاربة. وإلى مستقرها جارية ذاهبة. وقد شمرت للمغرب الذيل. واصفرت خوفاً من هجمة الليل. والهلال في حمرة الشفق. كحاجب الشائب أو زورق الورق. فاقترحوا عليهما أن يصنعا في ذلك الوقت الزيه. على البديه. فصنع ابن قلاقس:

انظر إلى الشمس فوق النيل غاربة ... وانظر لما بعدها من حمرة الشفق
غابت وأبقت شعاعاً منه يخلفها ... كأنما احترقت بالماء في الغرق
وللهلال، فهل وافى لينقذها ... في إثرها زورق قد صيغ من ورق؟

وصنع ابن المنجم:

يا رب سامية في الجو فمت بها ... أمد طرفي في أرض من الأفق
حيث العشية في التمثيل معركة ... إذا رآها جبان مات للفرق
شمس نهارية للغرب زاهية ... بالنيل مصفرة من هجمة الغسق
وللهلال إنعطافة كالسنان بدا ... من سورة الطعن ملقى في دم الشفق

وحكي على بن ظافر أيضاً، قال: أخبرني ابن المنجم الصواف بما معناه: قال، صعدت) إلى سطح الجامع بمصر في آخر رمضان مع جماعة فصادفت به الأديب الأعز أبا الفتوح بن قلاقس ونشو الملك علي بن مفرج بن المنجم وشجاعا المغربي في جماعة من الأدباء فانضمت إليهم. فلما غابت الشمس وفاتت، اقترح الجماعة على ابن قلاقس وابن المنجم أن يعملا في صفة الحال. فكان ما صنعه نشو الملك:

وعشى كأنما الأفق فيه ... لازورد مرصع بنضار
قلت لما دنت لمغربها الشم ... س ولاح الهلال للنظار
اقرض الشرق صنوه الغرب دين ... ارا فأعطى الرهين نصف سوار
وكان الذي صنعه ابن قلاقس:
لا تظن الظلام قد أخذ الشم ... س وأعطى النهار هذا الهلالا
إنما الشرق اقرض الغرب دي ... نارا فأعطاه رهنه خلخالا
ونحن نعرف أن الشاعر المصري الإسكندري الأشهر ابن قلاقس كان من شعراء النصف الأخير من القرن السادس الهجري (532 - 607 هـ) وكذلك ابن المنجم من شعراء هذا العصر. وإذن فقد كان المسجد الجامع، حتى أوائل القرن السابع منتدى لأكابر الأدباء والشعراء، وكانت الفسطاط لا تزال شهيرة بلياليها وحلقاتها الأدبية، حتى بعد ذلك بنحو نصف قرن على نحو ما يشير إليه ابن سعيد الأندلسي.
ومنذ أواخر القرن السابع الهجري نرى الفسطاط تفقد أهميتها الاجتماعية والأدبية شيئاً فشيئاً ونرى المسجد الجامع وقد غمره النسيان والعفاء. وقلما نظفر في سير القرن الثامن بما ينبئ عن مكانة الفسطاط أو أهميتها الاجتماعية أو الأدبية. بل نرى الفسطاط في هذا العصر تنتهي إلى ضاحية متواضعة لمدينة القاهرة. ونرى القاهرة تغمر بعظمتها وبهائها وأهميتها العلمية والأدبية عاصمة الإسلام الأولى في مصر. ونراها مثوى كل حركة فكرية أو أدبية. ونرى الجامع الأزهر كعبة العلماء والأدباء لا في مصر وحدها بل في العالم الإسلامي كله، على أن مؤرخ الآداب في مصر الإسلامية لا يسعه - حين يعالج تاريخ الآداب في عصور الإسلام الأولى - إلا أن يلاحظ أهمية الدور الكبير الذي أدته الفسطاط وحلقاتها ولياليها الأدبية، وأداه مسجدها الجامع في تطور الحركة الفكرية والأدبية في مصر.
من طرائف الشعر
نداء للشباب
كن قويا، كن عزيزا
للدكتور محمد عوض محمد
الأستاذ بالتجارة العليا
أتحنو عليك قلوب الورى ... إذا دمع عينيك يوماً جرى؟
وهل ترحم الحمل المستضام ... ذئاب الفلا أو أسود الشرى؟
وماذا ينال الضعيف الذليل ... سوى أن يحقر أو يزدرى؟
لقد سمع النسر نوح الحمام ... فلم يعف عنها ولم يغفرا
انقض ظلما ليغتالها ... وأنشب في نحرها المنسرا
وما رد عنها الأذى ذلها ... ولا أنها ما جنت منكرا
فكن يابس العود صلب القناة ... قوي المراس متين العرى!
ولا تتطامن لبغي البغاة ... وكن كاسراً قبل أن تكسرا
وأولى لمن عاش مثل الثرى ... ذليلا لو احتل جوف الثرى
قلوب الأنام كصم الصفاة ... وشق على الصخر أن يفجرا
أرى أيدياً لاغتيال تمد ... فأجدر بها الآن أن تبترا!
إذا كنت ترجو كبار الأمور ... فأعدد لها همة أكبرا!
طريق العلا أبداً للأمام ... فويحك هل ترجع القهقرى؟
وكل البرية في يقظة ... فويل لمن يستطيب الكرى!
كن جميلا تر الوجود جميلا
للأستاذ إليا أبو ماضي
أيهذا الشاكي وما بك داء ... كيف تغدو إذا غدوت عليلا
أن شر الجناة في الأرض نفس ... تتوقى قبل الرحيل الرحيلا
وترى الشوك في الورود وتعمي ... أن نرى فوقها الندى إكليلا
هو عبء على الحياة ثقيل ... من يظن الحياة عبئا ثقيلا
والذي نفسه بغير جمال ... لا يرى في الوجود شيئا جميلا
ليس أشقى ممن يرى العيش مراً ... ويظن اللذات فيه فضولا
أحكم الناس في الحياة أناس ... عللوها فأحسنوا التعليلا

فتمتع بالصبح ما دمت فيه ... لا تخف أن يزول حتى يزولا
وإذا ما أظل رأسك هم ... قَصِّر البحث فيه كي لا يطولا
أدركت كنهها طيور الروابي ... فمن العار أن تظل جهولا
ما تراها والحقل ملك سواها ... اتخذت فيه مسرحا ومقيلا
تتغنى والصقر قد ملك الج - وعليها والصائدون السبيلا
تتغنى وعمرها بعض عام ... أفتبكي وقد تعيش طويلا
تتغنىُ وقد رأت بعضها يؤ ... خذ حياً والبعض يقضى قتيلا
فهي فوق الغصون في الفجر تتلو ... سوّر الوجد والهوى ترتيلا
وهي طورا على الثرى واقعات ... تلقط الحب أو تجر الذيولا
كلما أمسك الغصون نسيم ... صفقت للغصون حتى تميلا
فإذا ذهب الأصيل الروابي ... وقفت فوقها تناجي الأصيلا
فاطلب اللهو مثلما تطلب الأ ... طيار عند الهجير ظلاً ظليلا
وتعلم حب الطبيعة منها ... واترك القال للورى والقيلا
فالذي يتقي العواذل يلقى ... كل حين في كل شخص عذولا
أنت للأرض أولاً وأخيراً ... كنت ملكا أو كنت عبداً ذليلا
كل نجم إلى الأفول، ولكن ... آفة النجم أن يخاف الأفولا
غاية الورد في الرياض ذبول ... كن حكيما واسبق إليه الذبولا
وإذا ما وجدت في الأرض ظلاً ... فتفيأ به إلى أن يحولا
وتوقع إذا السماء اكفهرت ... مطرا في السهول يحيي السهولا
قل لقوم يستنزفون المآقي ... هل شفيتم من البكاء غليلا
ما أتينا إلى الحياة لنشقى ... فأريحوا أهل العقول العقولا
كل من يجمع الهموم عليه ... أخذته الهموم أخذاً وبيلا
كن هزاراً في عشه يتغنى ... ومع الكبل لا يبالى الكبولا
لا غراباً يطارد الدود في الأر ... ض وبوماً في الليل يبكي الطلولا
كن غديرا يسير في الأرض رقرا ... قا فيسقي عن جانبيه الحقولا
تستحم النجوم فيه، ويلقى ... كل شخص وكل شيء مثيلا
لا وعاء يقيد الماء حتى ... تستحيل المياه فيه وحولا
كن مع الفجر نسمة توسع الأز ... هار شماً وتارة تقبيلا
لا سموما من السوافي اللواتي ... تملأ الأرض في الظلام عويلا
ومع الليل كوكبا يؤنس الغا ... بات والنهر والربى والسهولا
لا دجى يكره العوالم والنا ... س فيلقى على الجميع سدولا
أيهذا الشاكي وما بك داء ... كن جميلا ترى الوجود جميلا

في الأدب الشرقي
الأدب الفارسي والأدب العربي
للدكتور عبد الوهاب عزام
الأستاذ بكلية الآداب

- 1 -

أمة ذات حضارة فاتت التاريخ أوليتها، ونظم أمرتها الحقب الطويلة يقوم عليها ملوك مسلطون رفعوا إلى مستوى فوق البشر أقدامهم، وأقر لهم بهذا رعاياهم، وقد طار صيتهم في الآفاق فملأ جيرانهم رهبة وإكبارا. أمة ذات دين نصر الملوك ونصروه فاشتد قوامه على كل مخالف وارهبوا كل متبوع. نزلت هذه الأمة أرضا وسطا بين مهد الآريين والساميين يجاورها في الغرب بابل وأشور، ويصاقبها في الشرق الهند. ثم يتصل بها من الشمال والشمال الشرقي الترك والصين. فاض بها سلطانها حتى غزت اليونان في عقر دارهم، وغزت كثيرا من أوربا الشرقية الجنوبية. وملكت الشام وفلسطين ومصر. وكانت الحرب من بعد سجالا بينها وبين الروم. كانت بلادها طريقا للتجارة بين الشرق والغرب. وموصلا بين حضارتيهما. وكانت موئلا للفلسفة اليونانية. وملجأ للعائذين من فلاسفة اليونان. تلكم أمة الفرس التي يقول فيها مهيار:

قومي استولوا على الدهر فتى ... ومشوا فوق رءوس الحقب!
عمموا بالشمس هاماتهم ... وبنوا أبياتهم بالشهب!

وأخرى من الأمم عريقة في البداوة وأبية على كل عسف، حديثة عهد بالخضوع حتى لسلطان الله، أنضجتها البداوة فإذا هي قوية نشيطة ذكية متوقدة، وأورثتها معيشتها وحروبها ضروبا من العزة والشجاعة والفروسية والصبر على المكاره، والقناعة بالقليل، وجمع كلمتها وأنار قلوبها الدين، وتلكم هي أمة العرب.

- 2 -

بينما كان الإسلام يجمع شمل العرب كان الفرس مسيطرين على عرب الحيرة يتخذونهم عوناً على الأعراب، وعلى الرومان (كما كان الرومان يستعينون بالغساسنة في الشام)

وكان الفرس كذلك مسيطرين في اليمن والبحرين. وقد أعظم العرب شأنهم فهابوهم وسموهم الأسد، وسموا قبائل ربيعة التي كانت تجاور الفرس وتأبى عليهم أحياناً (ربيعة الأسد من أجل ذلك) وعرفوا من أخبارهم وعاداتهم ما جعلوه مضرب المثل، وعرفوا كذلك دينهم حتى يقال أن من بني تميم من كان يعبد النار. وفي ذكر القرآن للمجوس كثيراً دلالة على هذا.

فلما استقام للعرب أمرهم خلص اليمن بغير عناء وأسلم الفرس هناك، حتى قاتلوا مع المسلمين الأسود العنسي المتنبىء. وكذلك أجلى عامل كسرى على البحرين أيام أبي بكر، وأسلم هناك من أسلم ودفع الجزية من بقي على دينه. ثم تمادى بالمسلمين الفتح فإذا هم يقاتلون في جهات العراق عرباً وفرساً قد تخالطوا حتى لم يتميز بعضهم من بعض وحتى كان العرب يداً مع الفرس على العرب إبان الفتح، فخالد بن الوليد يقول لأهل الحيرة: أعرب أنتم فما تنقمون من العرب؟ فيحتجون لعربيتهم بأنهم ليس لهم لسان غير العربية. تغلغل المسلمون في فتح بعد آخر، صلحاً وحرباً فإذا هم ينازلون الأكاسرة أنفسهم، وأيقن الفرس أن الأمر جد لا هزل، وكان قد اجتمع أمرهم بعد الفرقة ليزدجر السادس فساقوا على العرب جيشا حشدوا فيه من عدد الحرب وجندها ما لا عهد للعرب به، ولم يكن بد للعرب من المقاومة فاستنجدوا الخليفة عمر فأهمته حرب فارس، وندب الناس إليها فتثاقلوا إعظاما لأمر الفرس واستفز عمر العصبية العربية؛ ورضى أن يدعى إلى الحرب مسلمهم وغير مسلمهم. وقد اهتم الفرس بأمر القادسية أيما اهتمام، وارتقب العرب عقباها من العذيب إلى عدن أبين ومن الأبلة إلى ابلة، كما يقول الطبري.

وكانت القادسية أول موقعة عظيمة حشد لها الجمعان ما استطاعوا، ولكنها لم تكن أعظم الوقائع ولا آخرتها فموقعة نهاوند التي سماها العرب فتح الفتوح، وهي آخر الوقائع العظيمة، كانت بعد القادسية بسبع سنين، وبينهما وقائع، وكان ملك الفرس يزدجرد، لا يزال يكر على العرب في الحين بعد الحين، ويستمد الترك وقد تعقبه العرب إلى أقصى الشرق، واستمر على ذلك حتى سنة 31. سبعة عشر عاما بعد القادسية فبينا يتهيأ لصلح العرب على بعض الأقاليم قتله بعض اتباعه كما قتل دارا من قبل بينما يتعقبه الاسكندر المقدوني. وبذلك تم للعرب الاستيلاء على فارس رغم الثورات التي كانت تظهر في الحين

بعد الحين إلا جهات في طبرستان وجيلان لم تفتح إلا بعد قرنين وبقى بعد ذلك أمراء في جهات نائية قرونا طويلة.

- 3 -

فتح العرب الأقطار باسم الدين فلم يكن الا أن يسلم الفارسي فإذا هو واحد من المسلمين الفاتحين. ثم كان حكمهم على رغم مصائب الحروب وفظائعها عدلا لا عنف فيه. وكان في الفرس على هذا من وجدوا في الفتح الإسلامي مخلصا من اضطهاد ديني، فقد كانت الزردشتية شديدة على من شذّ عنها، أو وسيلة إلى جاه.

فالديلم من جند الفرس انحازوا للمسلمين (بعد القادسية وأسلموا) وعاونوا في واقعة جلولاء، ثم استوطنوا الكوفة. ونجد من الفرس مثل (أبي الفرخان) الذي عاون العرب في فتح الري فولي عليها. ونجد مرزبان مرو يخذل يزدجرد ويرسل أمواله بعد أن قتل إلى أمير العرب هناك.

وقد أعطى العرب الفرس الذين قاتلوا معهم حظهم من الغنائم وفرض عمر في العطاء لمثل المرزبان في المدينة وأحسن العرب إلى الفلاحين الذين لم يقاتلوا. ويقول الطبري (عن أهل فارس) وتراجعوا إلى بلدانهم وأموالهم على أفضل ما كانوا

في زمن الأكاسرة فكانوا كأنما هم في ملكهم إلا أن المسلمين أوفى لهم وأعدل عليهم فاغتبطوا وغبطوا. وقد بقى الفرس أحراراً في دينهم وبقيت معابد النار في الجهات كلها ولا سيما في فارس. فقد حكى المؤرخون كالاصطخري وابن حوقل أنه لا توجد قرية في فارس بغير معبد للنار، وان جمهور أهلها من عبدة النار وانهم في شيراز لا يمتازون من المسلمين في مظاهرهم وكانت معابد النار تحمى ويعاقب مخربوها.

وإنما تناقص عدد الزردشتيين بدخول كثير منهم في الإسلام، وقد دخلوا فيه أفواجا حتى شكا عامل خراسان إلى عمر بن عبد العزيز قلة الجزية فأرسل إليه أن الله بعث محمداً صلعم هاديا ولم يبعثه جابيا. على أنهم بقوا كثيرين إلى عصر قريب. ويقول أن كرمان حين حاصرها محمد خان قاجار كان فيها 12 ألف أسرة زردشتية.

إنما أفيض في هذا لأبين أن العرب والفرس بعد الفتح لم يكونوا في نضال مستمر. وان العرب لم يستعبدوا الفرس كما يحسب بعض الناس. لم يفعل العرب الا أن حطموا الحدود

الوطنية فشاركوا الفرس في جماعة أوسع. ونالوا من العلوم والآداب التي تعاونت عليها الأمم الإسلامية، ونالوا عليا المناصب. فالبرامكة مثلا كانوا يدبرون للعباسيين ملكا أعظم وأوسع مما كان يديره بزرجمهر لانوشروان.

- 4 -

الآداب الفارسية الحديثة تؤرخ من القرن الرابع الهجري (تقريباً) - كما يأتي - فماذا أصاب اللغة الفارسية في ثلاثة القرون التي تلت الفتح الإسلامي؟ وماذا أصاب الفرس في هذه القرون؟

في إجابة هذين السؤالين يجب أن نفرق تفريقاً تاماً بين الكلام على الفرس، والكلام على اللغة الفارسية.

فأما اللغة الفارسية فالكلام عنها من جهتين: من حيث أنها لغة تخاطب ومن حيث أنها لغة العلم والأدب. فأما من الوجهة العلمية فقد وقفت اللغة وقفة طويلة، ولم يؤلف فيها إلا كتب قليلة معظمها في الدين، ويمكن أن يقال أنها عقمت تماماً بعد قرنين من ظهور الإسلام، فالكتب التي ألفت في العصر الإسلامي وبقيت على الزمن لا تتجاوز عصر المأمون، وهي كتب دينية قليلة أراد بها الزردشتيون الدفاع عن دينهم والإبقاء عليه. ولكن كان للغة الفهلوية عمل أعظم من هذا أبقى أثراً هو حفظها آداب الساسانيين وتاريخهم في كتبها لتكون مصدرا للترجمة إلى اللغة العربية، ولتكون من بعد أساساً للآداب الفارسية الحديثة. فقد بذل رجال الدين أو الموابذة وملاك الأراضي أي الدهاقين جهدهم في حفظ كتبهم، وكان الساسانيون من قبل ذوي عناية بالكتب وحفظها. ويمتاز إقليمان في إيران بأن كانا موئل الآثار الفارسية: فارس وخراسان (كما امتازت طبرستان بوعورة أرضها وكثرة غاباتها فبقى فيها استقلال الفرس مدة طويلة) فأما خراسان فكانت مبعث الشعر الفارسي الحديث، وأما فارس مهد الدول الفارسية القديمة فقد لاذ بجبالها جماعات من الزردشتيين، فعكفوا على درس آدابهم القديمة وحفظ كتبها. فحصن شيز في جهة أرجان كان مسكن مجوس خبراء بإيران وتاريخها. وكان به صور الملوك والعظماء وتاريخهم، هكذا يقول الاصطخري وابن حوقل، ويؤيد هذا ما يقوله المسعودي: أنه رأى في اصطخر عند أسرة فارسية كبيرة كتاب الملوك يتضمن صور الملوك وأزمتهم ووصف آثارهم. ويتصل بهذا ما رواه صاحب الفهرست عن أبي معشر إن الفرس القدماء خزنوا كثيراً من كتبهم في أصفان في بناء عظيم بقي إلى زمان أبي معشر، أن الناس عثروا على كتب فيه، ثم يقول ابن النديم (اخبرني الثقة أنه أنهار سنة 350 أزج آخر عن كتب كثيرة لا يهتدي إلى قراءتها). والذي رأيته أنا بالمشاهدة أن أبا الفضل ابن العميد أرسل في سنة نيف وأربعين كتباً متقطعة أصيبت بأصفان في سور المدينة وكانت باليونانية إلخ.)

ففي أمثال حصن شيز وبناء أصفان حفظت الكتب القديمة التي ترجمت إلى العربية أيام الدولة العباسية.

في الأدب الغربيّ

حزن أولمبيو

لفيكتور هوجو

ترجمة ابن عبد الملك
لم تكن الحقول غبراء، ولا السماء كدراء حين أقبل يقضي ذمام هذه الربوع التي سال في ثراها قلبه الجريح المثخن وإنما كان ضوء النهار يتألق في أفق لازوردي غير محدود، ويتدفق على بساط من أديم الأرض ممدود. وكانت النسائم عابقة بالعطور، والمروج حافلة بالخضرة والزهور.
وكان الخريف طلق الجوانب، والسماء مذهبة الحواشي، والربى حانية الخمائل المونقة على السهل وقد ضربت في خضرتها صفرة قليلة.
والطيور هاتفة بأغاريدها الشجية القدسية ووجوها إلى الله الذي ينم عليه كل كائن، ويسبح بحمده كل شيء، كأنما كانت تقول له شيئا عن الإنسان!!
أراد الولهان أن يرى كل شيء: يرى الغدير الطامي الذي يصطفق بجانب العين، والطلل البالي الذي استنفد ما في كيسيهما بالصدقة، وسرحة الدردار العتيقة المعوجة وخلوات الحب في أجواف الغاب المترامية، والشجرة التي استغرقا تحتها في القبلات فذهلا عن كل شيء.
بحث عن الحديقة والبيت المنعزل والبستان الحادر، والدرابزون الذي يغيب البصر من خلاله في ممشى منحرف. وكان يمشي متكسر الوجه من الحزن، شاحب اللون كثير الهم فيرى وا أسفاه لدى كل شجرة شبح الأيام الخوالي يقوم منتصبا على وقع خطاه المتئدة الثقيلة!.
تجول طول النهار على طول المسيل وقد ملك إعجابه وجه السماء الضاحك، ومرآة البحيرة المصقولة.
ثم قيد بصره ما راعه من صور الطبيعة في الحقول، فتأملها مليا ثم ذهب مع أحلامه حتى المساء.
تجول طيلة النهار ذاكراً والهفي عليه مخاطره اللذيذة ناظرا من أعالي السوج دون أن يجرؤ على الولوج كأنه صعلوك من صعاليك الهند.
فلما آذنت الشمس بالمغيب أحس في صدره وحشة القبر وفي قلبه لوعة الهم، فجأر بالشكوى وهتف بالنجوى يقول:
أيها الألم! لقد أردت أنا المشترك الخاطر المسعور الفؤاد أن أعلم هل الإناء لا يزال محتفظا بالسائل؟ وان أرى ماذا فعل هذا الوادي السعيد بما خلفت فيه من قلبي؟.
ما اقدر الزمن اليسير على أن يغير كل شيء!
ايه أيتها الطبيعة ذات الوجه الضاحك والجبين الأغر! ما أسرع ما تنسين! وما أشد ما تقطعين العلائق الخفية التي تربط قلوبنا بكثرة استحالاتك وتغير حالاتك!.
أن غرفنا التي اتخذناها من ورق الشجر الألف قد تهدمت.
والشجرة التي حفرنا عليها اسمينا قد ماتت أو تحطمت.
وورودنا النابتة في الحظيرة قد عبثت بها أيدي الأطفال الذين يقفزون فوق الحفرة!
والعين التي كانت تشرب منها ساعة القيظ وهي هابطة من الغاب قد قام على موردها جدار!!
لله ما كان اجمل يدها حين كانت تغترف بها الماء ثم تدعه يتساقط من خلال أصابعها كنثير اللؤلؤ الرطب!!
لقد رصفوا الطريق الغليظ الوعر الذي كنا نسير فيه جنبا إلى جنب فترتسم على رمله النقي قدمانا، ويكون أثر قدمك الرقيقة الأنيقة بجانب قدمي سخرية حسناء، وضحكة استهزاء!!
والحاجز الحجري الذي قام على حد الطريق حقبة طويلة ذلك الحاجز الذي كان يحلو لها أن تجلس فوقه في انتظاري قد هد ركنه اصطدام العجلات الموقرة بالأعباء، وهي آيبة تئن في المساء!!
والغابة أصبحت حطاما هنا وبسقت أدواحها هناك! ولم يكد يبقى من كل ما حللناه وتقمصناه شيء حي!
وأكداس الذكريات تبددها الرياح الأربع ككومة من التراب الخامد البارد قد ألوت بها الريح الدبور!!
وا ويلتاه! ألم يعد لنا إذن وجود؟ هل مضت مدتنا وانقضت لذتنا؟ أما يرجعها إلى صرخاتنا الضارعة الضائعة شيء؟

النسيم يداعب الغصون وأنا أبكي! ومنزلي ينظر إلى ولا يعرفني!
والآن سيمر غيرنا من حيث مررنا، وسيرد آخرون هذا المورد الذي عنه صدرنا، والحلم الذي بدأناه سيواصلون رؤياه، ولكنهم مثلنا لا يستطيعون أن يبلغوا مداه!
وذلك لأن الناس في هذه الحياة لا ينعمون ولا يكملون، سواء في ذلك الخبيثون والطيبون.
وسيستيقظون جميعا في مكان واحد من الحلم، إذ كلهم يبدءون في هذا العالم ثم يتممون في غيره.
أجل ستأتي نوبة آخرين، فينعمون في ظلال هذا الكون الساكن الآمن الفاتن بما وهبت الطبيعة للحب من خيال وجلال ولذة!
وسيرث غيرنا حقولنا وطرقاتنا وخلواتنا، ويستولي من لا تعرفين على غابتك يا حبيبتي! ويقبل بعض النسوة الهوج إلى هذا الماء يبتردن فيه فيكدرن غمره الذي لمسته قدماك العاريتان فتقدس!
يا الله! إذن ذهب الحب الذي أحببناه في هذا المكان باطلا! ولم يبق لنا شيء من هذه الربوات المزهرة التي امتزج فيها لهبانا فانصهر بهما جسمانا واتحد قلبانا.
هيهات قد استرجعته الطبيعة التي لا ترحم ولا تتألم!
بالله! نبئنني أيتها المسايل الممرعة، والجداول المترعة، والعرائش الموقرة بالعناقيد، والأغصان المثقلة بالأعشاش والأغاريد! وخبرنني أيتها المغائر والآجام والأدغال! هل تطربن قلباً غير قلبنا بهذه الأغاني، وتناغين حباً غير حبنا بهذه الأناشيد؟
لقد كنا ندرك مرامي كلامك، ونجعل مشاعرنا كلها أصداء لرجع أنغامك، ونرهف أسماعنا لالتقاط ما يبدر أحياناً من بليغ شعرك، دون أن نميط الحجاب عن خبيئة سرك!
أيتها الطبيعة المجلوة في هذا الخلاء الجميل!
متى رقدت أنا وهي تحت صفائح القبر فهل تظلين جامدة أمام موتنا وموت حبنا، تواليين حفلاتك وأعيادك، وتواصلين بسماتك وإنشادك؟
ألا تقولين لطيفنا إذا ما رأيتهما يجولان بين رباك وخلواتك، وفيما ألفا من جبالك وغاباتك،
ما يقوله جميع الأصدقاء لإخوانهم القدماء من سرائر القلب ونجاوى الضمير؟
هل تستطيعين أن تري دون أن يلوعك الحزن ويرمضك الأسى شبحينا يطوفان بمواقع خطواتنا، ومواضع خلواتنا، وأن تريها تقودني في عناق مكتئب إلى ينبوع منتحب يئن في خفوت وهمس؟
وإذا ما لجأ عاشقان إلى جوارك، واختفيا عن العواذل تحت ستارك، وخبآ سرورهما بين أزهارك، فهل تسرين إليهما هذه الكلمة:
(أيها الراتعان في رياض الحياة! اذكرا من طوح بهما الدهر في قفار الموت!)
لعمرك ما هذه المروج والعيون والغابات والسماوات والبحيرات والسهول والحزون إلا عادة مستردة! يعيرنا الله إياها لحظة من الزمن لنضع فيها قلوبنا وأحلامنا وغرامنا ثم يستردها.
ثم يطفئ بعد ذلك سراجنا ويدفن في حلك الليل شعاعنا. ثم يوحي إلى الوادي الذي انطبعت فيه صورنا ونفوسنا أن يطمس آثارنا، ويمحو أسماءنا وأخبارنا.
لا بأس!! أنسينا أيتها الدار! وانكرينا أيتها الحديقة! ولا تذكرينا يا ظلال! واحتل عتبتنا يا عشب! وغط آثار قدمينا يا عوسج! وغردي أيتها الطيور! وتدفقي أيتها الجداول. وتكاثري أيتها الأوراق. فان الذين طويتم صحيفة ذكرهما لا ينسيان!
وكيف ننسى وانتم خيال الحب نفسه! أنتم الواحة التي يلاقيها المسافر في وقدة الصحراء، والخلوة العظمى التي بكينا بها أحرّ بكاء، وكل منا يده في يد الآخر!
كل الأهواء تمضي مع العمر. بعضها يحمل نقابه وبعضها يحمل مديته كدبر النحل يسافر جذلان شاديا وجماعته تضمحل وتقل وراء الأكمة.
إلا إياك أيها الحب فلا شيء يمحوك! أنت السحر وأنت الفتنة! وسواء أكنت مشعالا بدويا أم مصباحا حضريا فأنت الذي تشرق في العيون وبين الضلوع، وتستولي علينا بالبسمات وخاصة بالدموع! أن الناس في الشباب يلعنونك، ولكنهم في المشيب يعبدونك!

بيت الراعي
للشاعر الفرنسي الفريد دفني
- 2 -
- 1 -
أيها الشعر أيها الكنز. يا جوهرة العقل. أن عواصف القلب كزوابع البحر لن تستطيع أن تعوق رداءك المتعدد الصبغة عن أن يجمع ألوانه، لكن ما أن يراك السوقة وأنت تلمع فوق جبهة نبيلة حتى تضطرب حواسهم لبريق سناك الناصل في أعينهم، الغامض على أفهامهم، فتنطلق ألسنتهم بالنيل منك وقلوبهم تكاد تنخلع من الهلع.
- 2 -
إنما يخشى حماسة الإلهام ضعاف النفوس. أولئك الذين لا يقوون على الاستقلال بعبئه والصبر على لظاه. وفيم تنكبه والحياة تضاعفها نيران العاطفة ولكم من قبس الهي تصيبنا ناره من حين إلى حين. تلك هي الشمس وهو الحب وهي الحياة ومع ذلك فهل من يود أن تنطفئ نارها. أننا نعتز بها ونحن ساخطون عليها.
- 3 -
لقد أستحقت إلهة الشعر ابتسامات التهكم وإمارات الاستهتار التي يستثيرها مرآها منذ أن اتجهت ببصرها إلى العاهرين فأضطرب مقالها ونزل صدقها منزل الشك وحرم عليها أن تعلم الحكمة وأصبحت اليوم إذا صاحت بعابري الطريق أن أفسحوا أفسح لها السائر في غير هيبة ولا احترام.
- 4 -
يالك من فتاة لا عفة لها. يا ليتك صنت وقارك يا سليلة ارفيوس. إذا ما كنت تذهبين إلى حيث لا يليق بك إلى الشوارع وملتقى الطرق تنشدين الأغاني بصوتك المختنق المتهدج. إذا ما كنت تلصقين بجانب فمك باقة الشعر اللاذعة كالذبابة، وبجانب عينك الزرقاء معنى الرمز المستهتر.
5 -
لقد سقطت منذ حداثتك. ففي اليونان أسكرك عجوز بقبلته وكان أول من خلع عنك ثوب
كهنوتك ثم أجلسك على فخذيه بين جماعة من الشبان، ولا يزال على جبينك آثار من غض قبلاته! وفي ولائم هوراس كنت تغنين وأنت تثملين بالشراب، وجاء فولتير فقادك إلى البلاط تحت أبصارنا جميعاً.
- 6 -
يالك من قسيسة خبت نارها. هاهم أعظم الناس خطراً لا يضعون على جباههم من تاجك إلا بعضه. هاهم تقف أقدامهم وكأنما يتعثرون في خطاياك حتى أنه لمن الإهانة لأحدهم ألا يكون شاعراً. ينثرون أفكارهم مع رياح المنصة فتدور بها عمياء كالقدر ثم تحملها إلى غير مستقر.
- 7 -
متكبرون متعالون في مواقفهم الكاذبة وأن مادت الأرض تحت أقدام أولئك التريبون خطبهم الفانية تتملق الجماهير التي تلتف حولهم وتصفق لعباراتهم أولئك الجماهير الذين يتجددون باستمرار في هذه المسارب الضيقة. هؤلاء النظارة لا يحملون لأولئك الممثلين السياسيين إلا أزهاراً لا رائحة لها وما لها من غد في أغلب الأحيان.
- 8 -
افْقهم تحده جدران صالتهم حيث يقومون بألعابهم الكاذبة والشعب يسمع عن بعدُ ضوضاء مجادلاتهم ولكنه لا ينظر إلى تلك الألعاب الا كما ينظر أبناؤه ونساؤه مضطربين إلى ذلك الحدث العجب. آلة البخار ذات المائة ذراع.
- 9 -
ترى الفلاح المعتم يسخط عندما يوقف محراثه ويترك فلاحته لينتخب ومع ذلك ها هو أحد محامي اليوم قد استقر في أعماق نفسه احتقار ما نصيبه الخلود. ذلك المحامي الذي يشك في خلود النفس ويعتقد في خلود أقواله هو. أيها الشعر أنه يسخر من رموزك الموقرة وأنت للمفكرين الحقيقيين موضع الحب الذي لا يفنى.
- 10 -

كيف تصان الأفكار العميقة ما لم تتجمع نيرانها في ماستك النقية التي تحفظ سناها المتركز. تلك المرآة الصافية الوهاجة المتينة (بقايا ما يبيد من دول) ذلك الحجر الخالد الذي تعثر به أقدامنا عندما نبحث عن أنقاض المدن الفانية فلا تجد لها من أثر.

- 11 -

أيتها الماسة الفريدة ليضيء شعاعك للعقل الإنساني مواضع خطواته البطيئة المتخلفة. ليضعك الراعي على قمة منزله لكي نستطيع أن نرقب عن بعد الشعوب تطوى سبيلها. لما يصح النهار وما نزال عند أوائل أشعته الفضية التي تسبق بزوغ الفجر وتميز أفق السماء من مستوى الأرض.

- 12 -

ما تكاد الشعوب تفطن لنفسها وسط حشائش العوسج التي نبتت حولها وهي غارقة في سباتها. ها قد أخذت أيديهم المتضافرة تشق سوقها لتضع الجهاز الأول. ما تزال البربرية تمسك أقدامنا في غمدها. وما يزال رخام الأزمنة الساحقة يعلو إلى ما فوق خواصرنا. ما أشبه كل رجل نشيط بالإله (ترميس).

- 13 -

على أن روحنا الوثابة تفيض بالنشاط، فلنشق الحجب عن مكنون قواها والمكنون موجود وان توارى عن النظر. للنفوس عالم تجمعت به كنوزها وان لم نستطع لها لمسا. بين أحضان الله تضام الوجود وفي منطقه تركزت حكمة البشر كما تركزت أجسامنا في فضاء الأرض.

محمد عبد الحميد مندور

ليسانسيه في الآداب

العُلوم

بين الكأس والطاس

بقلم الدكتور احمد زكي

أستاذ الكيمياء بكلية العلوم

الخمر قديمة كالإنسان، خلقها من خلق الهم، وأبدعها من أبدع الحس، وأرادها أن تبقى على الدهور والأحقاب من أراد ألا يكون الكون خيراً كله ولا شراً كله.

الخمر لا وطن لها لأن الأرض وطنها، عرفها المصري والفينيقي، والإغريقي والروماني، ويعرفها التركي والألماني، والفرنسي والأمريكي، والخمر لا دين لها فقد اعتنقت جميع الأديان؛ عصرها كهان المجوس، وباركها أحبار اليهود، واتخذها يسوع رمزاً لدمه فعتقها من بعده القسيسون والرهبان، وحرمها الإسلام فاستحلها الخلفاء لما صارت الخلافة ملكا عضوضا. لم يحل لهم أنس إلا بها ولم يطب نغم إلا عليها ولا لذ غزل الا في دبيبها ونشوتها.

والخمر لا مدنية لها فقد عرفتها كل المدنيات، عرفتها أبان إشراقها ونشأتها وازدادت بها علما وهي في كبد سمائها وأوج صولتها، ثم غربت على الأكثر فيها كما تغرب الشمس في لجة البحر المحيط. كذلك شربها المدني في كؤوس من ذهب بين عمد المرمر وعلى رنين القيثار، وشربها الوحشي حيث لا كأس غير صحاف القرع ولا عمد غير غاب الغيل، ولا رنين غير زمر القصب وقرع الطبول.

وجاءت المدينة الحاضرة بعلمها وعددها، وبطبها وإحصائها وبتجاريبها في الأفراد وتجاريبها في الجماهير، وخرجت على أن لعنة الناس في الخمر وخسرهم في ذوب الرحيق. وتكونت في كل أمة أمة تدعو إلى السبيل الجديدة وتبشر بالرسالة الجديدة باسم العلم وباسم الاقتصاد في قوى العمال لزيادة الإنتاج. وزادت الدعاية حتى أن أمة من اكبر الأمم عددا أكثرها عدة وأحدثها حضارة صوت ناخبوها بتحريم الخمر، فصدر القانون بطلاق بنت الحان، فأغلقت المخامر أهدرت الدنان، وحاطوا أمريكا بسياج ثقيل من عسس يمنع الداء أن يدخل، والداء بالجسم دفين، والجسم قد يعتل من جرثومة تغزوه ولكن اكثر

علته من جرثومة للموت ولدت فيه. وما هي الا سنة فأخرى حتى سالت الخمر في أمريكا سيلان الماء فيها، سدت عليها منافذ الماء، ومهابط السماء، فتفجرت كالزيت من منابع في أرضها، في عقورها ديارها، فعبها الناس اغتراقا، وعبها رجال القانون معهم؛ ومتى أبطل مداد الأوراق ما جرى به مداد الأعراق؟ ولما أصبح القانون، ذلك

الشيخ الوقور المهاب، يصفع في السر أقل ويصفع في الجهر أكثر جاء منتخبوهم منذ أسابيع فرحموا الشيخ فعقروه، وهكذا عادت الخمر الشيخة تتهادى إلى عرشها، فلما استقرت فيه نظرت للإنسان فابتسمت وكان من ورائها الأجيال فابتسمن أيضا.

وبعد فما الخمر الا الكحول، وهو ماء ولا ماء، ماء في مظهره ونار في مخبره، وقد اتخذ أشكالا عدة، وأسماء عدة فأسموه البيرة أسموه النبيذ وأسموه الوسكي وكل هذه تحويه أن قليلا أو كثيرا وهي تفقد أسماءها بفقده، ومن السخف ما يباع أحيانا بأنه بيرة لا كحول فيها. والبيرة تنتج من تخمير الشعير وبها ما بين 4 إلى 10 في المائة من الكحول ومقدار لا بأس به من أجسام صلبة ذائبة شبه السكر نتجت من تحلل النشاء الذي كان بالشعير. والبيرة المعتادة لونها اصفر وطعمها مرير بسب عشب يضاف إليها. والنبيذ ينتج من تخمير عصير العنب وبه ما بين 6 إلى 8 في المائة من الكحول ولونه أحمر ويتعاطاه الكثير من الفرنجة على الطعام كما يتعاطون الماء. وهناك نوع آخر من النبيذ ويسمى البرط وبه ما بين 15 إلى 20 في المائة. وبالأنبذة غير الكحول مواد سكرية وحوامض كحامض الطرطير تعطيها طعما ذاعقا. أما حسن طعمها وطيب ريحها اللذان يشيد بهما الشعراء فيرجعان على الأكثر إلى اتحادات بين ما بالأنبذة من حوامض وما بها من كحولات إذ (تتأستر) هذه بتلك فتنتج ما يشبه الزيوت العطرية طعما وطيبا. ويزيد هذا (التأستر) على الزمن، لذلك تختزن الخمر فلا ترى الشمس أحقابا طوالا. قال أبو نواس يتمدحها:

عتقت حتى لو اتصلت ... بلسان ناطق وفم

لأحتبت في القوم ماثلة ... ثم قصت قصة الأمم

وأما الشمبانيا فهي أخت النبيذ، فأبوهما الكرم، إلا أن لونها أصفر، ويرجع هذا إلى أنهم يعصرون العنب سريعا فلا يمهلون الصبغة التي بقشرته أن تجري في العصير فتخمره، وغير هذا فانهم يختزنون هذا العصير في أبان تخمره في زجاجات مقفلة سنتين وثلاثا فينحبس بها غاز الكاربون الناشئ من التخمر تحت ضغط كبير، لذا تفور الشمبانيا عند فتحها، ولذا كان طعمها حريفاً كالكازوزة بسبب هذا الغاز ومقدار الكحول الذي بها كالذي بالنبيذ تقريبا.

ويوجد عدا هذه من الأشربة الروحية أنواع لا حصر لها يختلف مقدار الكحول الذي بها اختلافا كبيرا، ومن ذلك الوسكي ويحضر من تخمير الحبوب ثم تقطيرها، والكونياك ويحضر بتقطير النبيذ ولذلك ترتفع نسبة الكحول بكليهما إلى 30 و 60 في المائة. ومن الناس من يتخذ من كحول الحريق شرابا وهو يحتوي نحوا من 90 في المائة من الكحول الخالص ويضيفون إليه أصباغا وزيوت تجعله غير سائغ في الحلق، ولكن حلوق الجهال من الفقراء يسوغ فيها كل كريه مر. ويشرب المرء الخمر كائنة ما كانت فتمتص المعدة فالأمعاء الكحول امتصاصا سريعا فيذهب إلى الدم ثم إلى كل غشاء من أغشية الجسم فيحترق فيها إلى غاز الكاربون والماء احتراقا سريعا كذلك، ولا تبقى منه بالجسم بقية، فهو ليس بطعام بالمعنى المعروف ويخرج مقدار من الكحول قد يعلو إلى 8 في المائة في البول ومن الرئة في التنفس، لذلك تشم رائحته في الفم. ومن الناس من يسترق الشراب ثم يحسب أن رائحته علقت بأشداقه فيغسل فاه حاسبا أنه قد تستر، ويسير في الناس مطمئنا ورئتاه تدفعان بالسر في صوت جهير ابلغ من صوت الشفاه.

ويتعاطى الناس الكحول للأثر الذي يكون منه في المخ والأعصاب فأول ما يحدثه نشوة تثور فيها قوى المخ فيشتد الفكر ويحتد الخيال ولكنه فكر ثائر وخيال مضطرب، وتزول عن الإنسان أثناء ذلك الدقة في العمل ويقل ضبطه للأمور فتكثر الأخطاء. قام الأستاذ (دلنج) أستاذ فن العقاقير بجامعة ليفربول بتجارب على زوجه فكان يسقيها مقادير مختلفة من الكحول ويملي عليها قطعا تكتبها على الآلة الكاتبة ويعدّ الأخطاء. وخرج من ذلك على علاقات طريفة بين مقادير الكحول وبين الأخطاء الناتجة دلت في مجموعها على أنه بالرغم من حدة الذهن وسرعة الإلهام تقل قدرة الضبط في الإنسان. قيل لشاعر فكه في ذلك فقال: إذن لا بأس عليّ من الخمر، استوحي بها في الليل، وأصحح أخطاء الوحي بالنهار. ولعل من اجل هذا أن من الشعراء والكتاب من كان لا يكتب إلا إذا شرب، وذلك

مشهور عن الكاتب الإنجليزي المعروف شارلز دكنز، فقد كان لا يكاد يستفيق، كان كالشمعة يضيء للناس وهو يحترق. وتعقب دائما فترة الإيحاء هذه فترة خمود عميق يكل فيها الذهن وتنثلم الحواس.

وفعل الخمر بالعواطف يناهض فعلها بالعقل، فمن الناس من يخف به الفرح حتى ليذهب بوقاره، ومنهم من تأتيه الكآبة فلا يكاد يحبس دمعه، ومنهم من يرتاع فيهلع قلبه خوفا وفرقا، ومنهم من يشجع فيغفل عن عواقب الأمور. ومن المثل الأخيرة الجراحون فان منهم من لا يستطيع حمل المشرط إلا إذا نقع حواسه بنقيع إبنة العنب.

ولعل هذا ما حدا إلى الجمع بين الخمر وبين كل لذة ولا سيما ما اتصل منها بعاطفة كالغناء والنساء. وهو الذي جمع كذلك بين الخمر وبين كل كآبة، فكم من عزيز قوم تجهمت له الحياة في حب أو وشيجة أو مال فلم يطقها، ولم يطق الموت، فأمات نفسه حيا بالكأس تتلوها الكؤوس. وقد وجدوا أن المستهلك من الشراب يزيد في الضائقات المالية التي تعتري الأمم زيادة كبرى.

ولعل اخطر ما في الشراب الإفراط فيه حتى تتأصل عادته. يشرب الشارب فيكثر، ويشرب والمعدة ملأى بالطعام ويشرب وهي خالية فيكون امتصاص الجسم له في الحالة الأخيرة أشد وسريانه أسرع والى المخ أوحى؛ فتقصر فترة الانتعاش الأولى إلى العدم وتسرع الحواس فتغيم والبصر فيتغبش فيرى الواحد اثنين، وتصيت الأذن ويخف الرأس ويضيع الحكم على الأمور ويرغو الفريسة ويزبد وتأخذه رغبة في الشجار والتحطيم، ثم يسقط جسدا هامدا في غشية تتعطل فيها قوى المخ جمعاء إلا النزر اليسير الذي يكفي لإجراء الدم وإخراج الأنفاس، ثم يصحو من نوم عميق محموم الجسد مصدع الرأس فاقد القوى، بالأذن رنين لا يسكت، وبالقلب وجبة لا تسكن، فلا يجد خلاصا من تلك الأعراض المؤلمة إلا بإعادة الجرعة وهي حقا تزيلها وتزيلها سريعا. قال الأعشى:

وكأس شربت على لذة ... وأخرى تداويت منها بها

ولكنه شفاء لا يدوم إلا قليلا، فيأخذ المسكين يتداوى من داء بداء حتى يصبح الشراب عادة أشد تأصلا في أعراقه من تأصل الروح فيها، وتسوء في هذه الأثناء معدته لأن الكحول مهيج شديد لأغشيتها، ويعتريه فيه التهاب مزمن لا تنفع فيه حيلة الأطباء، وتتحلل مادة

كبده فتتليف أو تتدهن؛ وتقل مقاومة الجسم عامة للأمراض، ولكن اخطر من هذا أن المخ يفسد فيصبح صاحبه في اضطراب دائم ورعشة لا تهدأ وإذا هو أتاه النوم العاصي فبأحلام مروعة أروع منها أحلام اليقظة إذ ترى عينيه في الجهرة الجرذان تخرج من الحيطان والزبانية تختبئ له في كل الأركان، وتسمع أذنه الأحياء المتحركة تسبه والأشياء الجوامد تلعنه ويتسابق جسمه وعقله إلى الفناء في منحدر زلق لا تقف الرجل فيه!

القصص

على هامش السيرة

حفر زمزم

للدكتور طه حسين

(2)

لا هم قد لبيت من دعاني ... وجئت سعي المسرع العجلان

ثبت اليقين صادق الأيمان ... يتبعني الحارث غير وان

جذلان لم يحفل بما يعاني ... لا هم فلتصدق لنا الأماني

ما لي بما لم ترضه يدان

كان صوت عبد المطلب يندفع بهذا الرجز عريضا يملأ الفضاء من حوله، نقيا يكاد يبعث الحنان فيما يحيط به من الأشياء. وكان كل شيء مستقر لا يضطرب فيه الا هذا الصوت العريض النقي وإلا هذه الذراع التي ترتفع بالمعول قوية ثم تهوي بها محتفرة ثم تدعه إلى المسحاة فتغرف بها التراب في المكتل، وإلا هذا الغلام الناشئ يرقب حركة أبيه ويسمع صوته ويرد عليه رجع هذا الصوت كلما وصل في الدعاء إلى هذا البيت.

لا هم فلتصدق لنا الأماني

حتى إذا امتلأ المكتل حمله بذراعيه الضعيفتين وأسرع بشيء من الجهد إلى خارج المسجد فألقى ما فيه ثم عاد وأبوه يرفع المعول في الجو ويهبط إلى الأرض ويملأ فضاء البيت بصوته النقي العريض والعرق يتصبب على جبينه ولكنه لا يحس جهدا ولا يجد إعياء. وكانت الشمس قد ألقت على الأرض رداءً من النور نقيا ولكنه ثقيل همد له كل شيء وآوى له الناس إلى بيوتهم يقيلون. وانقطعت له الحركة وخفتت الأصوات إلا هذه الجنادب التي يروقها وهج الشمس ويسكرها لهب القيض فتصدح بالغناء إذا سكت كل شيء وقد اخذ الغلام يحس لذع الجوع وحر الضمأ ولكنه لا يقول شيئا بل لا يكاد يفكر في شيء، إنما سمعه وقلبه لصوت أبيه، وعيناه للمكتل والتراب، ونشاطه لإفراغ المكتل إذا امتلأ. وهما في ذلك إذا غلام يسعى قد أرسلته سمراء يحمل إلى الرجل والغلام شيئا من طعام وشراب

حتى إذا انتهى إليهما وضع ثقله وقال: مولاي هذا غداؤك وغداء الصبي قد أعدته سيدتي العامرية هيأته بيدها وهي تعزم عليك لتصيبن منه ولترفقن بنفسك ولترفهن على هذا الصبي الحدث: لقد قال الناس جميعا وهدأ كل شيء لهذا الوهج الذي يصهر الأبدان ويحرق الجلود وأنت فيما أنت فيه من جد يضني وجهد يهلك لا تقيل ولا تستريح ولا تريح هذا الطفل الذي لم يتعود الجهد والعناء. بعض هذا يبلغك ما تريد. ولكن عبد المطلب لم يسمع للغلام إلا بأذن معرضة، ولم يستقبله إلا بوجه مشيح، إنما هو ماض في رجزه واضطراب يده بالمعول ارتفاعا في الجو وهبوطا إلى الأرض، والصبي يتبعه بسمعه وقلبه، ولكن عينه ربما اختلست نظرة قصيرة ملؤها الجوع والظمأ والنهم إلى هذه السلة وما فيها. وربما وقف ذهنه الصغير عن متابعة أبيه وانصرف إلى ما في هذه السلة يعدده ويحصيه ويتمثله. أن فيها لشواء غريضاً وأن فيها للبناً يمازجه عسل هذيل الذي حمله خاله فيما حمل من هدايا البادية حين أقبل يزور أخته منذ أيام. وأن فيها لماء عذبا ومن يدري؟. لعل سمراء قد نقعت فيه شيئا من زبيب الطائف، فأنها تجيد ذلك وتحسنه. وعبد المطلب ماض في رجزه وفي حركة يديه بالمعول والمسحاة وقد امتلأ المكتل فيهم الصبي أن يحمله ليلقي ما فيه ويدنو الغلام يريد أن يعينه في ذلك. ولكن عبد المطلب ينهره نهرا عنيفا (إليك يا غلام فما لهذا الأمر إلا عبد المطلب وأبنه).

ويمضي الصبي بالمكتل ويعود، ولكن الرجز قد أنقطع وذراع عبد المطلب لا تضطرب بالمعول صعودا وهبوطا، وإنما هو مطرق إلى الحفرة ينظر فيها فيطيل النظر ثم يرفع بصره إلى السماء فيطيل رفعه ثم، يدير عينه من حوله كأنه يريد أن يلتمس شيئا أو أن يلتمس أحداً. ثم يدعو ابنه في صوت ملؤه الدهش والحيرة والرضى والإشفاق: (هلم يا حار أنظر هل ترى ماء؟ - كلا يا أبت وإنما أرى ذهبا وسلاحا - ومع ذلك فلم أوعد بذهب ولا سلاح، وإنما وعدت بالماء لسقي الحجيج. أن وراء هذا الأمر لسرا. ولكن هلم يا بني فما أرى الا أن الظمأ والجوع قد أجهداك).

وأقبل الرجل وابنه على السلة فأصابا مما فيها ذاهلين واجمين ما أحسب أنهما وجدا لما يصيبان طعماً وأحسا له ذوقا، يصرفهما عنه هذا الذهب الذي يتوهج في الحفرة وهذا السلاح الذي يظهر أنه كثير ثقيل. حتى إذا فرغا من طعامهما عاد عبد المطلب إلى الحفرة

فيستخرج ما فيها فإذا غزالان من ذهب نقي ثقيل وإذا سيوف ودروع. فيكبر ويرفع صوته بالتكبير ويسرع إليه أفراد قليلون كانوا قد بدءوا يفدون إلى المسجد كدأب قريش حين كانت تخف وطأة القيظ. فإذا رأوا هذا الكنز دهشوا ثم تصايحوا ثم يفيض الخبر فيتجاوز المسجد وإذا شباب قريش وشيوخها يقبلون سراعاً مزدحمين يسرع ببعضهم حب الاستطلاع ويسرع ببعضهم الآخر الطمع في الغنيمة ويسرع بفريق منهم باعث ديني غامض فيه خوف وفيه رجاء وفيه إكبار للآلهة وتوقع للمعجزة الخارقة. حتى إذا توافوا جميعا واستوثقوا من أن عبد المطلب قد وجد كنزاً وعرفوا حقيقة هذا الكنز وقوموا ذهبه الخالص وصناعته البارعة وما فيه من سيوف ودروع أداروا أمرهم بينهم. لمن يكون الكنز؟ قال هشام بن المغيرة إنما هو لقريش فقد وجد في المسجد وكل ما وجد داخل الحرم في أرض عامة فهو لقريش. وقال حرب بن أمية: إنما هو لبني عبد مناف فهم الذين إحتفروا وهم الذين ظفروا وما ينبغي لقريش أن تغلبنا على خير ساقته إلينا الآلهة. وتنازع القوم وطال النزاع واختصم القوم واشتدت الخصومة وعبد

المطلب صامت مطرق لا ينطق بكلمة ولا يأتي بحركة. هنالك صاح به حرب: ما لك لا تقول وأنت الذي وجد الكنز وأنت احقنا بان ترى رأيك فيه!. قال عبد المطلب في هدوء وأناة ما ينبغي أن يكون الكنز لأحد حتى نستشير الآلهة فما حفرت ولا ظفرت الا بأمر خفي وما أرى إلا أن للآلهة في ذلك إرادة وقدرا لا نبلغهما حتى نسأل الكهان. هنالك وجمت قريش وغضب بنو عبد مناف وأنكروا جميعا في أنفسهم أن يشرك عبد المطلب معهم الآلهة في هذا الكنز الدفين. ولكنهم لم يقولوا شيئا وما كان لهم أن يقولوا شيئا! ومن الذي يستطيع أن يرد قضاء الآلهة؟ حمل الكنز إذن إلى الكعبة وأقبل القوم إلى الكاهن يسألونه أن يضرب بالقداح وها هو ذا يضرب بقداحه ثم يضرب ثم يضرب بين قريش والكعبة فتخرج القداح للكعبة ثلاثا ويصيح عبد المطلب لقد ظهر قضاء الله فليكن ما أراد! تفرقوا يا معشر قريش. تفرقوا يا بني عبد مناف فليس لأحد منكم في هذا الكنز نصيب. أما هذا الذهب فسيضرب صفائح على باب الكعبة، وأما هذه السيوف فستعلق عليها، وأما هذه الدروع فستدخر في خزائنها. ثم ألتفت إلى أبنه وقال هلم يا حارث اتبعني لنمض فيما كنا فيه. وتفرقت قريش وفي صدورها غل وحنق. ولكن ثلاثة نفر من أهل الظواهر أنتحوا ناحية وأقاموا يرددون الطرف بين الكنز والكعبة وعبد

المطلب. ثم انصرفوا وقد فهم بعضهم بعضا. وأصبح الناس ذات يوم وإذا الكعبة قد جردت مما علق عليها من ذهب وسلاح.

وراح عبد المطلب مع المساء إلى أهله محزونا مكدودا راضيا مع ذلك لم يفارق قلبه الأمل. فاستقبلته سمراء فاترة لم تسع إليه ولم تبتسم له. ولكنها لم تعرض عنه ولم تتجهم له. فلما سألها عن هذا الفتور أطالت الصمت وألح في السؤال. قالت: وبم تريد أن ابتهج ولم تريد أن ابتسم؟ لقد علمت منذ زفني أبي إليك أني قد تزوجت رجلا لا كالرجل. لقد أحببتك ولكني أنكرتك. لقد أملت فيك ويئست منك. ثم عاد إلى الأمل أول أمس ثم ها أنت ذا ترد إلى اليأس مظلما حالكا قبيح الوجه بشع المنظر كأنه الغول. ماذا!؟ يأم بك الطائف أربع ليال يهيب بك ويلح عليك رامزا حينا مصرحا حينا مصراً دائماً حتى إذا أذعنت لأمره وانتهيت إلى ما سيق إليك من خير وادخر لك في الأرض من غنى زهدت فيه وانصرفت عنه وأشفقت أن تسلمه إلى قريش أو إلى عبد مناف. فيقال (ألقى بيده ونزل عن غنيمته فصرفت ذلك عنك وعنهم إلى هذه البنية تحليها بالذهب وتعزها بالسلاح! وماذا تصنع الأحجار القائمة بذهبك وسلاحك!؟ لله أنتم يا معشر قريش!؟ أنكم لتكبرون من هذا البناء المنصوب ما لا نكبر نحن في البادية ولولا حاجاتنا ومنافعنا لما هبطنا إلى بطاحكم هذه حاجين ولا معتمرين ولكنكم قوم ضعاف تكبرون ما لا يكبر ويغركم أن أفئدة الناس تهوي إليكم تحسبونهم يقبلون إليكم بالدين وينصرفون عنكم بالطاعة، وإنما يقبلون عليكم بما عندهم من عروض. وينصرفون عنكم بما تحملون لهم من الآفاق. هلا طاولت قريشا وانتظرت بهذا الكنز حتى تروح إلى، لقد كان فيه غنى لك ولهذا الصبي الذي تعنيه وتضنيه منذ ألم بك ذلك الطائف. هلا تريثت أو اصطنعت الأناة إذا لاحتويت الكنز ولأصبحت أغنى قريش وأكثرهم مالا ولما استطاعوا بنو عبد شمس أن يكاثروك بما يملأ خزائنها من الدراهم والدنانير. إذا لأقبلت إليك بنو عامر بقوتها وبأسها فأعززتك ومنعتك من قريش ولكنك أشفقت وملأ قلبك الفرق وعبثت بنفسك بقية من كبرياء فأفقرت نفسك وقضيت على ابنك هذا أن يكون دون بني حرب ثروة ومالا. قال عبد المطلب محزونا: هوني عليك يا سمراء وأقلي اللوم فما أرى أنك تفقهين مما ترين شيئا. لا أحب لوجهك هذا النضر أن تعلوه غيرة الحرص على المال وما أحب لصوتك هذا العذب أن تشوبه مرارة الحديث عن المال. وما أرضى لك وإن نسلتك أشراف بني عامر أن تغضي من أمر قريش. أن فيكم أهل البادية لطباعاً غلاظاً ونفوساً يملؤها الطمع أنتم لا تحسون الدين ولا تقدرون الغيب ولا تؤمنون الا بما ترون ولا تخافون الا القوة الظاهرة. لقد كنت احسب أن مقامك الطويل بمكة قد غير نفسك بعض الشيء فإذا أنت اليوم كما كنت يوم أنحدرت من بادية نجد إلى هذه البطحاء. هوني عليك ولا تشغلي نفسك بما لست منه في قليل ولا كثير. لقد أمرني الطائف أن أحتفر ووعدني أن أجد الماء لأسقي الحجيج لا أن أجد الذهب لأغنيك وادخل الخصب على بني عامر. فليس هذا الذهب لي ولا لقريش وإنما مخبوء لأمر يراد وأني لمن قوم لا يحبون الغصب ولا يستأثرون بما

ليس لهم ولا يعقدون الحقوق، فان تكن غلظة الأعراب وجفوة البادية وجحودها قد شاقنك فذمي رحالك غداً وألمي بأهلك فهم أحق بك وأدنى إليك. قال ذلك ونهض مغضبا وتركها واجمة بهذا الحديث العنيف تقاوم غيظا لم يلبث أن استحال إلى دموع غلاظ تحدرت على خديها كأنها لؤلؤ العقد قد خانه النظام.

وارتفع صوت عبد المطلب بالتكبير حتى امتلأ به المسجد وفاض من حوله وحتى اضطربت له مجالس قريش في أفناء البيت فخف الناس إليه وهم يقولون: ما نرى ابن هاشم هذا إلا مطروقا يلقى من الجن شططا ويريد أن نلقى منه شططا. اقبلوا إليه سراعاً يزدحمون وقد آلى أشرافهم لئن وجدوه قد ظفر بكنز أو عثر على غنيمة ليغلبنه عليها وليعطنه منها نصيب رجل من قريش وانتهوا إليه. وهو يكبر ويصيح هذا طي إسماعيل هذه بئر زمزم، هذه سقاية الحاج، لقد صدق الوعد وتحقق الأمل. فنظروا فإذا عبد المطلب قد وجد الماء، وإذا هو يستقي فيشرب ويسقي ابنه، ويرسل الماء بيديه من حوله كأنه يريد أن يسقي الأرض والهواء والناس. هنالك ابتسموا له ورفقوا به وقالوا: لقد بررت بقومك يا شيبة وانبطت لهم هذا الماء يستقون منه إذ ضنت عليهم الينابيع فوصلتك رحم، لتعرفن لك قريش هذه اليد. قال ما أنتم وذاك؟ هذه بئري قد حفرتها، وكشفت طيها بأمر هبط إلى من السماء. وهذا شرب ساقه الله إلى سأسقيكم منه أن أردت. ولكني اسقي الحجيج منه قبل أن أسقيكم فبذلك أمرت وأنا على ذلك قائم. قالوا يا ابن هاشم أنك لتسرف على نفسك. وتشط على قومك وتختلق إلى السماء. أن هذه الأرض ليست لك

وإنما هي لله ثم لقريش، وأن كل ما وجد فيها فهو لله ثم لقريش، وإنا لم نشهد أمر السماء حين تنزل إليك ومتى تنزل أمر السماء على الناس إلا من طريق الكهان. فأين الكاهن الذي أمرك أن تحتفر؟ قال: يا قوم خلوا بيني وبين الماء. فوالله لن تبلغوا مني شيئا أنكم تكثرونني بعددكم وعديدكم. ولكن الذي أمرني باستنباط هذا الماء حري أن يردعني كيدكم ويحميني من ظلمكم. أنكم تستضعفونني حين ترون أني أبو واحد ولكن الذي سخرني لهذا الأمر خليق أن يمنحني من الولد من أكاثركم به وأني اقسم لئن منحني من الولد عشرة ذكورا أراهم بين يدي لأضحين له بواحد. وسمع بنو عبد مناف مقالة عبد المطلب فثارت نفوسهم وتعصبوا له وقاموا من دونه يردون عنه عدوان قريش وكاد الشر أن يقع بين القوم ولكن عبد المطلب قال: يا قوم فيم قطع الأرحام وحفر الذمم وإراقة الدماء؟ أني والله ما أوثر نفسي من دونكم بشيء فإن أبيتم أن تؤمنوا لي فهلم إلى حكم فليقض بيننا. قال الملأ من قريش لقد أنصفكم ابن أخيكم من نفسه. فليكف بعضكم عن بعض ولنحتكم إلى كاهنة بني سعد هذيم فما نعرف أبصر منها بمواقع الحكم.

وكانت قافلة قريش تتجهز للرحلة إلى الشام فاجمع القوم أن يصحبها رسلهم إلى الكاهنة في معان. فلما فصلت العير صحبها عبد المطلب في عشرين من بني عبد مناف وأرسلت قريش معها عشرين من بطونها المختلفة ومضى القوم ترفعهم النجاد وتحطهم الوهاد حتى طال بهم السفر ونفد ما كان معهم من ماء واشتد بهم الظمأ واحرق أكبادهم الصدى وغدوا ذات يوم في فلاة مبسوطة يحار بها الطرف دون أن يهتدي إلى أمد ليس فيها عين ولا بئر ولا شجرة ولا عشب وإنما هي ارض ملساء جرداء تقع عليها أشعة الشمس الملتهبة فتلهبها تحت الأقدام وقد يئس القوم من كل روح وقنطوا من كل وجهة فاجتمعوا يتشاورون. قال قائل منهم يا قوم إنما هو الموت فانتم بين اثنتين: أما أن تموتوا ضيعة وتصبح أجسامكم نهباً لسباع الأرض والجو لا تواريكم يد في التراب ولا تؤوي نفوسكم إلى جدث تطمئن فيه وأما أن يقوم بعضكم على بعض ويواري بعضكم بعضا فيكوم لكل منكم حفرته وتعرف نفوسكم إذا هامت في الفضاء الواسع وألمت بأهلها في بطاح مكة وظواهرها كيف تهتدي إلى أجسادها فتلم بها وتسكن إليها. والرأي أن يحتفر كل منكم حفرته، وان تقيموا فأيكم ذهب الصدى بنفسه ورآه أصحابه وبكوا عليه. فلا يذهب منكم ضيعة إلا رجل واحد تمتد به الحياة إلى أقصى أجل. قال ذلك قائلهم ونهض فأخذ يحفر حفرته. وتناقل القوم بعض الشيء يفكرون في أولادهم وآخرتهم ويذكرون مكة ومن تركوا فيها من أهل وولد ومال. ويذكرون الشام وينظرون إلى ما كانوا يحملون إليها من تجارة ويفكرون فيما كانوا ينتظرون أن يحققوا فيها من ربح. وتقدم رسل قريش إلى الكاهنة يتلاومون

في البئر وفي خصومتهم لصاحب الحق. ثم ينهضون والموت يثقل نفوسهم فيعمد كل منهم إلى سنان يخط به حفرته في الأرض.

كل ذلك وعبد المطلب ساكت ساكن لا يقول ولا يومئ ولكنه نهض فجأة وقال بصوته العذب العريض: (يا معشر قريش ما أعجزكم! ها أنتم أولاء تلقون بأيديكم وتنتظرون الموت وتقطعون ما بينكم وبين أهلكم وولدكم من أسباب الحياة، وان فيكم لبقية من قوة وان في ابلكم القدرة على الحركة وفضلا من النشاط لا والله ما أنا بمسلم نفسي للموت حتى يكرهني عليها، هلم فاضربوا في هذه الأرض فلعل الله أن يجد لكم من هذا الضيق فرجا) ووقعت ألفاظ عبد المطلب هذه من نفوس الناس موقع الغيث وإذا الآمال تحيا. وإذا النشاط يتجدد وإذا القوم ينهضون إلى رواحلهم وإذا هم يؤثرون أن يتخطفهم الموت على أن يسعوا هم إليه وينهض عبد المطلب إلى راحلته حتى إذا جلس عليها وزجرها نهضت به وهمت لتندفع ولكن ماذا! ماذا يسمع القوم؟ ماذا يرون؟ هذا عبد المطلب يصيح بأعلى صوته مكبرا وهم يلتفتون فإذا عين غزيرة قد أنفجرت تحت خف الراحلة وإذا هي تفور وإذا الماء ينبسط من حولها فينقع غلة الأرض المحترقة قبل أن ينقع غلة القوم الظماء!.

هلم يا معشر قريش إلى الماء الرواء! قد فجره الله لكم من الصخر الصلد. هلم فاشربوا واسقوا ابلكم وأملأوا مزادكم هلم فانعموا بهذا الماء الصافي النقي البارد في هذه الفلاة القاتمة المحرقة.

والقوم يضجون بالرضى والغبطة وأن للإبل من حولهم لأطيطاً ملؤه الرضى والغبطة أيضاً. ومن ذا الذي زعم أن نفوس الناس وحدها هي التي تجد اللذة والألم وتشعر بالسرور والحزن، روى الناس ورويت الإبل، ورويت الأرض وقالت رسل قريش لعبد المطلب عد بنا يا شيبة إلى مكة فقد قضي علينا وان الذي سقاك في هذه الصحراء وأنقذنا بك من الهلاك هو الذي سقاك في مكة وساق إليك ما تروي به الحجيج.

وأقبل البشير على سمراء ينبئها بأن زوجها قد عاد إليها سالما موفوراً مظفراً. فقالت وعلى ثغرها ابتسامة الكئيب المحزون: (حبذا شيبة مسافراً وحبذا شيبة مقيماً! ولكن شيبة لن يخلص لي منذ اليوم. أنه لا يريد كثرة الولد. وأي نساء قريش تستطيع أن تمتنع عليه). ثم أشرقت شمس الغد على عبد المطلب وهو يسعى إلى عمر بن عائذ المخزومي ليخطب إليه فاطمة وهي أم جماعة من ولده بينهم عبد الله.

قصة عراقية

صديق الكلاب

بقلم احمد حسن الزيات

شرب عبد الواحد وسقانا ثلاثة أقداح من الشاي المعطر. ثم أطلق من حنجرته القوية جشأة طويلة عريضة كخوار العجل، ثم حضأ النار بأنامله وشيع ضرمها في بقية الفحم؛ ثم أشعل منها (سيكارته) العربية وأرسل في رفق دخانها الرقيق الأدكن. وبانت على معارف وجهه شهوة الكلام. وكان كلبي الصغير قد لاذ من قرص البرد بجانب الموقد، فهو ينطوي وينتشر تبعا لما يغلب على جو الغرفة من نفخ النسيم أو لفح اللهب. فرأيته يطيل النظر إليه في طرف ساكن ووجه ساهم. فقلت له مداعبا: لعلك ذكرت بالكلب حبيبتك وهي في خبائها بين كلابها وشائها. فابتسم ابتسامة العذراء الخفرة وقال: الحمد لله ما ذكرت على فقري حياة البر مذ هجرتها، ولكني ذكرت رجلا كان في بغداد يدعى (أبا الكلاب). فسألته وما حديث أبي الكلاب هذا يا عبد الواحد؟ فلمع في عينيه البشر، لأن سروره كان في أن يتحدث وتسمع. وذهب به شيء من التيه لأن شعوره بأنه يعلم ما لا نعلم يرفعه قليلا فوق قدره، لذلك تراه عند الحديث يجلس جلسة النظير، ويلهج لهجة الأمير، ويقرر تقرير العالم.

قص عليَّ هذه الأقصوصة وهو منها على يقين جازم، وما كان أسرني وأسرك لو استطعت أن أنقلها إليك بلغته الجميلة التي تأخذ من لحن بغداد ومن لحن البادية. على أني سأحاول ما أمكنني القدرة أن أترجمها ترجمة صادقة تكشف عن أثرها في نفسه وفعلها في نفسي.

كان في بغداد منذ خمسين عاما أسرة كريمة تعتز بنسب العرب من جهة الأب. وتتصل بنسب الترك من جهة ألام فهي مزاج معتدل من عقليتين متباينتين لا يجمع بينهما غير الدين. والدين في مثل هذه الحال يكون أوثق عقدا وأمتن أسبابا لقيامه مقام الجنسية

الجامعة والعصبية القريبة؛ فالوالدان صالحان تقيان لا يفهمان من العروبة إلا النبوة والقرآن، ولا من التركية إلا الخلافة والسلطان، ولا يعرفان عن بغداد وفروق إلا أنهما بلدان في وطن واحد، والولدان جميلان باران يكبر الذكر منهما الأنثى بخمس سنين، وقد درجا معا من مهد الفضيلة، ثم ترعرعا في حنان الأبوين على كفاف من العيش يؤتيه متجر غير نافق.

لم يشغل عبد الواحد باله كثيرا بتفصيل حياة هذه الأسرة الصغيرة. فكان كلامه عنها مرسلا

مجملا لا يحلل طبيعة شخص، ولا يحدد تاريخ حادث، ولا يعين مكان منزل، حتى أسماء الأب والابن والبنت لم يجد في ذكرها ما يفيد الحديث!.

فهو يحذف ما يزعمه فضولا ويسير قدما إلى هيكل الموضوع وعقدة الحادث، فيقول أن الغلام كان عمره اثنتي عشر ربيعا حينما صحب خاله إلى الأستانة. والأستانة يومئذ كانت منتجع الخواطر ومهوى القلوب الطامحة إلى السطوة أو الثروة أو العلم. فهل كانت هجرته إلى دار الخلافة تثقيفا لنفسه، أو تخفيفا عن أبيه، أو مساعدة لخاله، على تدبير متجره وماله؟ كل ذلك يجهله راوي الحديث فما يعلم الا أنه شدا شيئا من العلم في إحدى مدارس القسطنطينية تحت عين وليه وعونه، ثم أندفع في غمار المدينة الصاخبة يداور الأمور ويتلمس المكاسب، ثم أوغل في مدن البلقان وشعاب الأناضول، حينا في خدمة الجيش، وحينا في طلب العيش حتى أنقطع علم ما بينه وبين أهله. كان الغريب النازح يهاجم الأخطار في كل فج ويصارع الأقدار في كل لج، وكل همه أن يجمع من المال ما يضمن له ولأسرته خفض العيش في ظلال بغداد الجميلة. فلما ملأ الدهر يديه بما أمل كان وا أسفاه ربيعه قد أدبر، وربعه قد أقفر، وحلمه قد تبدد!! فان والديه البائسين قد ألح عليهما من بعده الحزن والضر والفقر حتى انطفأ سراجهما في حولين متعاقبين بعد انقطاع خبره لبضع سنين. وأما البنية اليتيمة فقد حنا عليها بعض ذوي المروءات من أهل البيوتات فضمها إلى حرمه، وواسى يتمها الحزين بعطفه وكرمه.

عاد المهاجر إلى وطنه يحمل في جيبه المال وفي قلبه الآمال فما وطأت قدماه ثرى العراق الذهبي حتى ازدحمت الذكريات على خاطره، ومرت الحوادث المزعجات أمام ناظره، ولكن شعوره في لذة العودة إلى الأرض التي ابصر عليها الدنيا، والسماء تقبل منها الروح، والهواء الذي رف عليه بالصبا، والماء الذي نضح قلبه بالنعيم، والأسرة الحنون التي يراه إليها الشوق. والمستقبل الباسم الذي ينتظره في بغداد، قد شعب فؤاده وشفى كبده ومسح ما به.

عرف المحلة والدار بعد لأي لطموس المعالم القديمة. ثم قرع الباب بيد مرتجفة فإذا المالك الجديد يخرج إليه! فاقبل عليه المسكين لهفان ضارعا يسأله: هنا كان مهبط نفسي فأين أبى؟ وهنا كان مسقط رأسي فأين أمي؟ وهنا كان لي مهد وأخت وملعب وجيرة، فقل لي

بربك يا سيدي أين تحمل بكل هؤلاء القدر؟ وكان بين المسئول والسائل حوار قصير عرف منه البائس أن ريح المنون قد عصفت بأهله. فارتد إلى الفندق لا يملك دمعة ولا قلبه، ثم قضى حينا من الدهر ذاهب القلب يكابد غصص الكرب ويعالج مضض الهموم حتى رأم الزمان والأيمان جروح صدره.

وقع في نفس الوحيد الحزين أن يتزوج ليعيد إلى سجل الوجود اسم أسرته فاقترحت عليه جارة له عجوز أن تخطب إليه فتاة يقولون أن بينها وبين بني فلان عاطفة رحم. ويؤكدون أنها تنزع إلى عرق كريم لطبعها المهذب وجمالها المحتشم فاطمأن قلب الخطيب إلى رأي الخاطبة واختلفت العجوز بينه وبين ولي الفتاة حتى تم الوفاق وسمي الصداق وعينت ليلة الزفاف.

زفت العروس إلى زوجها فبهره ما رأى من جمال وأحس من ظرف وسمع من أدب، فافتر في وجهه السرور وحمد الله على حسن توفيقه، ثم أتقضى شهر العسل على خير ما يجد زوج من زوجه.

وفي ليلة تجاذب العروسان أطراف السمر وشققا بينهما الحديث حتى أفضى إلى علاقتها بوليها فلان (بك) فأحب الزوج أن يعرف درجة القرابة بينهما، فغضت الفتاة من طرفها وشاعت حمرة الخجل في وجهها، وقالت في صوت خافت متهافت من الخزي

والخوف: الحقيقة أنه ليس بيني وبين هذا الرجل قرابة!! وإنما هو نبيل محسن أواني ورباني بعد ما فجعني البين في أخي، والموت في أبي، وأنا يومئذ في حدود الثانية عشر. ثم تتابعت الأسئلة من الزوج، وتسارعت الأجوبة من الزوجة وكان كل من أنجاب عن خبايا الغيب حجاب امتقع لونه وأقشعر بدنه، واشتد وجيب قلبه، وكانت هي كلما رأت منه ذلك نسبته إلى إنخداعه في أصلها فمضت تفصل المأساة وتصور الفاجعة بالكلام والدمع، عسى أن تعطف قلبه على مصابها، فلا يفكر في طلاقها وعذابها، ولكنها لم تكد تلمس الحجاب الأخير حتى رأت زوجها قد وقف شعره وانتفخ سحره وارتعدت أطرافه، ثم أنفجر صارخا يقول: وا ويلتاه! وا مصيبتاه! لقد تزوجت أختي!. . . . ثم خر مغشيا عليه. فلما ثاب إليه بعض رشده نظر إلى أخته فوجدها فاقدة الوعي فتركها وابتدر الباب وخرج مسرعا لا يلوي على شيء ولا يلتفت إلى أحد!.

خرج طريد القدر من بيته خروج (أوديب الملك) من قصره ثم هام في الطرق الضيقة المتشابكة يسأل الرائح والغادي عن مفتي بغداد، فلما ادخل عليه باح له بسر الخطيئة فهول عليه التركي بعقابها، وبالغ في جرائرها وأعقابها. ثم أفتاه بعد الاستشارة والاستخارة والرؤيا أن الله لا يكفر هذا الجرم إلا إذا صدف عن متاع الحياة، وخرج عن أثيل الملك، واستتر بأخلاق الثياب، وقضي بقية عمره في جمع الخبز للكلاب الشوارد! أذعن الخاطئ البريء لحكم الفقيه الأحمق ونزل للزوجة الأخت عما يملك، وارتدى طمرا من غليظ الكرباس وجعل على عاتقه مخلاة ومضى يقرع كل بيت ويقصد كل مطعم ويجمع الفتات والخبز ثم يقف بالميدان فيقسمه بالسوية على من أجاب الدعوة من كلاب الحي.

لم يمض غير قليل حتى عرفه الناس وألفته الكلاب فصار يمشي في الأزقة وخلفه منها قطيع، وينام في العراء وحوله من شدادها حرس مطيع، وتحين الوجبة العامة فلا تجد كلبا طليقا في بغداد إلا أجاب نداءه. وتناول من يديه المحمومتين غداءه، ولكن الوالي رأى على طول الزمن أن يدي أبي الكلاب على رعيته عافية وربيع فسمن هزيلها وكثر قليلها حتى اختنق بلهاثها النهار؛ وصم بنباحها الليل، وأصاب الناس من عظاظها وأمراضها شر كبير. فأقام في ظاهر المدينة حظيرة واسعة ثم أمر الشرطة فصادوا الضواري وألقوها فيها. فكان أبو الكلاب على عادته يجمع الطعام والعظام ثم يذهب إلى ضيوف الحظيرة فيطعمها ويسقيها ثم يتهالك على الأرض من اللغوب فيرقد مكانه حتى الصباح.

وفي ضحوة يوم من الأيام أولم الوالي لأسراه وليمة السفاح فما نجا من بعدها لاهث ولا نابح، وجاء أبو الكلاب فرأى ألافه الخلصاء على أديم الأرض صرعى لا يتملقن بعين ولا يبصبصن بذنب!! فعظم على المسكين أن يرى مثال الصداقة يموت وشبح الجريمة يحيا فتساقط بجانب السور مهدود القوى صريع اليأس ولبث مكانه لا يأكل طعاما ولا يذوق مناما حتى لحق بربه.

مدام دي لوزي

بقلم أناتول فرانس

من (علبة الصدف)

- 1 -

دخلت فمدت بولين دي لوزي إلى يدها. ثم لزمنا الصمت حينا. وكانت قد ألقت في شيء من الإهمال على أحد الكراسي طرحتها وقبعتها من الخوص.

وفتحت على المعزف صلاة أورفيه. ثم دنت من النافذة، ونظرت إلى الشمس تهبط في الأفق الدامي. فقلت لها آخر الأمر، أتذكرين الكلمات التي نطقت بها منذ عامين يوما بيوم، في اسفل هذا التل، وعلى شاطئ هذا النهر الذي تديرين إليه عينيك الآن؟ أتذكرين أنك، وأنت تديرين حولك يدي المتنبئة، قد أريتني معدما أيام المحنة، أيام الجرائم والهول؟

لقد وقفت على شفتي إعلان حبي إليك وقلت: (عش، وجاهد في سبيل العدل والحرية!) سيدتي، لقد مضيت جريئا منذ دلتني على الطريق يدك التي أغمرها كما كنت أحب بالدموع والقبل. لقد أطعتك، فكتبت، وخطبت. أنفقت عامين أجاهد في غير هوادة أولئك الأغمار الجياع الذين ينشرون الاضطراب والبغض، والزعماء الذين

يسحرون الشعب بهذه المظاهر العصبية يصورون بها حبا كاذبا، والجبناء الذين يضحون في سبيل الفوز القريب.
فاضطرتني إلى الصمت بحركة من يدها وأشارت أن استمع! هنالك سمعنا في ثنايا الهواء العطر، هواء الحديقة حيث تصدح الطير، صيحات بالموت تأتي من بعيد: (إلى المشنقة أيها الأرستوقراطي! ليوضع رأسه على الرمح!).
وكانت شاحبة، ساكنة قد وضعت إصبعا على فمها.
قلت، إنما هو الطلب يجد في أثر أحد البائسين. فهم يهاجمون الدور ويقبضون على الناس نهارا وليلا في باريس. ولعلهم يدخلون هنا. يجب أن أنصرف حتى لا أعرضك للشر. فمع أني لا أكاد أعرف في هذا الحي، فأنا في هذه الأيام ضيف خطر.
قالت: أقم!
وللمرة الثانية مزقت الصيحات الهواء الهادئ في المساء. وكان يخالطها وقع الخطى وطلق النار. كانوا يدنون وكنا نسمع: (سدوا المنافذ، لا يفلت الوغد!)
وكانت مدام دي لوزي ظاهرة الهدوء، يعظم حظها منه كلما قرب الخطر.
قالت لنصعد إلى الطبقة الثانية؛ فقد نستطيع أن نرى من ثنايا النافذة ما يحدث خارج البيت.
ولكنها لم تكد تفتح الباب، حتى رأت في الدهليز رجلا ممتقعا مختلط الهيئة، تصطك أسنانه، وتصطدم ركبتاه من الاضطراب. وكان هذا الشبح يغمغم بصوت مختنق: أنقذوني خبئوني!. . . ها هم أولاء. . لقد اقتحموا بابي؛ وأغاروا على حديقتي. . هم يدنون. .

- 2 -

عرفت مدام دي لوزي (بلونشونيه) الفيلسوف الذي يسكن الدار المجاورة، فسألته في صوت شديد الخفوت:
هل بصرت بك طاهيتي؟ فهي يعقوبية!
أجاب لم يرني أحد.
قالت الحمد لله، أيها الجار!
ثم قادته إلى غرفة نومها حيث تبعتهما. ولم يكن بد من الحيلة، ولم يكن بد من أن تجد مخبأ تخفي فيه (بلونشونيه) أياما، أو ساعات على الأقل، حتى تخدع الطالبين وتتعبهم. واتفقنا على أن أراقب المسالك إلى البيت حتى إذا آذنتهما أنسل الصديق البائس من باب الحديقة الصغير.
ولم يكن في أثناء ذلك يستطيع أن يثبت على قدميه. كان رجلا مصعوقا.
وحاول أن يفهمنا أنهم يجدون في طلبه، هو عدو القسيسين والملوك، لأنه إئتمر بالدستور مع مسيو (دي كزوت) وأنضم في 10 أغسطس إلى المدافعين عن قصر التويلري. ولم يكن هذا كله الا اتهاماً دنيئاً. إنما الحق أن (لوبان) كان يتبعه بحقده وموجدته؛ كان لوبان جزاره، وكثيرا ما هم أن يضربه بالعصا ليأخذه بأن يحسن وزن اللحم، ولكنه الآن يرأس لجنة الحي الذي يقوم فيه حانوته.
وبينا هو يغمغم بهذا الاسم مختنق الصوت، خيل إليه أنه يرى لوبان نفسه، فأخفى وجهه بيديه. وكان لوبان يصعد حقا في السلم. فأحكمت مدام دي لوزي رتاج الباب ودفعت الشيخ خلف ستار. ودق الباب، وعرفت بولين صوت طاهيتها، التي كانت تصيح بها أن افتحي،
وان لجنة البلدية بالباب ومعها الحرس الوطني، يريدون أن يفتشوا، يزعمون أن بلونشونيه في البيت، وأنا واثقة بأنهم مخطئون، فما كنت لتخفي وغدا كهذا، ولكنهم لا يريدون تصديقي.
فصاحت مدام دي لوزي من وراء الباب حسن! فليصعدوا! أطلعيهم على البيت كله من أسفله إلى أعلاه.
وسمع البائس بلونشونيه هذا الحوار فأغمي عليه خلف ستارة، ولم ترد عليه الحياة إلا بعد مشقة حين نضحت صدغيه بالماء. فلما أفاق قالت الغادة للشيخ في صوت خافت: اعتمد على صديقي، واذكر أن النساء مكرة.
ثم أقبلت في هدوء ودعة كما لو كانت تعاين بعض شؤون البيت إلى السرير، فجذبته من مكانه قليلا، وفضت الغطاء واستعانت بي فهيئنا بين وسائده الثلاث فراغا مما يلي

الحائط.
وبينا هي في ذلك إذا ضجيج عظيم للأحذية، والقباقيب، والكرانيف والأسواط الغلاظ يسمع في السلم. فقضينا ثلاثتنا دقيقة ملؤها الروع، ولكن الضجيج صعد قليلاً قليلاً فوق رءوسنا. فعرفنا أن الحرس قد بدءوا بقيادة الطاهية اليعقوبية يفتشون على البيت.
وكان السقف يضطرب، وكان يسمع للقوم نذير، وضحك غليظ، وضرب بالأرجل والحراب في الجدران. فتنفسنا ولكن لم تكن في الوقت سعة. واعنت بلونشونيه أن يدخل في الفراغ المهيأ بين الوسائد.
وكانت مدام دي لوزي، تهز رأسها وهي تنظر إلينا. فقد كان للسرير بعد هذا العبث شكل مريب. فحاولت أن ترده إلى هيئته الأولى، ولكنها لم تفلح.
قالت: لا بد من أن أنام فيه. ثم نظرت في الساعة، فإذا هي السابعة مساء.
فقدرت أن إسراعها إلى النوم في هذه الساعة سيبعث الريبة. ولا سبيل إلى التفكير في تكلف المرض: فان الطاهية اليعقوبية خليقة أن تفضح هذا المكر.
فلبثت على هذا النحو مفكرة لحظات، ثم إذا هي بهدوء وبساطة وحياء، ملؤه الجلال تخرج من ثيابها أمامي، ثم تدخل في سريرها وتأمرني أن أخلع نعلي وأتجرد من ثيابي وهي تقول: يجب أن تكون خليلي وان نفاجأ في هذه الحال. فإذا أقبلوا لم تجد من الوقت ما تهيئ فيه زيك وتصلح من شكلك. فتفتح لهم في لبسة المتفضل وقد أنتثر شعرك. . .
وكان كل شيء قد تم كما قدرنا حين هبط الحرس الوطني صاخبا ساخطا.
وأخذ بلونشونيه البائس رعشة عنيفة كان السرير يضطرب لها اضطراباً.
وكان تنفسه من القوة بحيث كان يجب أن يسمع من خارج الغرفة.
قالت مدام دي لوزي: يا للخسران لقد كنت شديدة الرضى بهذه الحيلة. وبعد فلا ينبغي أن نيأس فلعل الله أن يعيننا.
واضطرب الباب لصدمة قوية.
قالت: من الطارق؟
فأجيبت: هم ممثلوا الأمة.
قالت: ألا تنتظرون حينا؟
قيل: افتحي وإلا كسرنا الباب.
قالت: هلم فافتح يا صاحبي.
وما هي إلا أن كانت المعجزة فانقطع اضطراب بلونشونيه وزحيره فجأة.
- 3 -
وكان أول الداخلين لوبان وقد اتخذ منطقته وتبعه اثنتا عشرة حربة.
فأدار بصره بين مدام دي لوزي وبيني ثم قال: بخ، بخ! لقد استكشفنا عاشقين! معذرة أيتها الحسناء!
ثم التفت إلى الحرس وهو يقول: إنما الأخلاق للثائرين. ولكن هذه المصادفة رغم حكمته قد ملأته سرورا.
فأقبل حتى جلس على السرير وأخذ بذقن الحسناء الأرستقراطية وهو يقول: نعم أن هذا الفم لم يخلق ليردد في الليل والنهار: أبانا الذي في السماء!.
ولو قد فعل لعظمت الخسارة، ولكن الجمهورية قبل كل شيء. إنما نبحث عن الخائن بلونشونيه. هو هنا، لا اشك في ذلك. لا بد لي منها. لأتقدمنه لتضرب عنقه. ولأكونن بذلك سعيداً.
قالت: فتشوا عنه إذن.
فنظروا تحت الأثاث وفي الخزائن، وادخلوا الحراب تحت السرير، وحبسوا الوسائد بالخناجر.
وكان لوبان ينظر إليه بمؤخر عينه وهو يحك أذنه. فأشفقت مدام دي لوزي أن يوجه إليه أسئلة محرجة، فقالت أنت تعرف البيت كما اعرفه يا صاحبي. فخذ المفاتيح وطوف بمسيو لوبان بكل مكان. وأنا اعلم أنك ستجد لذة وسرورا في إرشاد المخلصين للوطن.
فقادتهم إلى الكهف حيث نثروا ما فيه من حطب وشربوا عددا ضخما من القناني. ثم شق لوبان بكرنفته الدنان المترعة. فلما خرج من الكهف الغارق في النبيذ أذن

بالرحيل. فصحبتهم حتى أغلقت من دونهم الباب، وأسرعت أعلن إلى مدام دي لوزي أن قد نجونا.
فلما سمعت هذا النبأ عطفت رأسها إلى الفراغ بين السرير والحائط، ونادت: مسيو بلونشونيه! مسيو بلونشونيه.
فأجابها رجع نفس ضئيل.
هنالك صاحت الحمد لله! لقد روعتني فقد كنت أرى أنك قضيت!. ثم التفتت إلى قائلة: مسكين أنت أيها الصديق لقد كنت تجد لذة عظيمة في أن تقول لي من حين أنك تحبني، لن تقولها لي بعد اليوم.
العَالم النسَائي
شعوري نحو مصر والمصرية
كاتبة هذا المقال سيدة سويسرية واسعة الثقافة دقيقة الملاحظة صافية الشعور وقد وعدت الرسالة أن توالي الكتابة في هذا الموضوع فلها الشكر. (المحرر)
مصر اسم يخلب اللب ويسحر القلب ويستثير حتى في أجفى الناس طبعاً صورة هذا البلد الفاتن والطبيعة الخصيبة والبدر اللامع ويلهم النفوس ذكرى هذا الماضي العريق والمدنية القديمة والعظمة الفرعونية وقصص ألف ليلة وليلة الرائعة، وقد أنهكتها جهود المدنية الأولى فاستجمت بعد هذا الشوط البعيد حقبة طويلة من الدهر ما تزال تتذوق فيها خيال هذا الماضي العظيم وسلطانها السالف!
وكم من عاشقين غمرتهم شمسها الضاحكة بالفرح والسعادة ودفء القلوب!
وكم من خياليين جاشت نفوسهم في ربوعها ومجاليها بالأخيلة السعيدة والأحلام البهيجة!
وكم من مترفين ملئوا فراغ حياتهم وخيالهم بمباهجها ومناظرها وقضوا شهوة التطلع من عجائبها ومن المتناقضات فيها!
أليست تجمع في الواقع الكثير من هذا التناقض؟ فيجاور الجاه العريض والرغد الوفير البؤس الساحق والفقر المدقع؟
الست ترى السيارات الفخمة ذات الفرش الوثيرة عند مداخل الملاهي والغلمان الضريرين يستدرون الرحمة ويسألون العطف في أسمال رثة؟!
على أن المدنية تسير فيها الآن بخطى واسعة سريعة. ففي الحين بعد الحين يبدو بين الناس رأى ناضج أو صناعة رائجة فتكون الدليل الساطع على الفوز والنجاح. على أن كثيرا ما فارت حماسة الناس ثم قرت، واتقدت شعلتهم ثم خبت، ما أشد حاجتهم إلى ملكة الاستمرار والاستقرار!
ولطالما سئلت عن رأيي وشعوري في مصر. وكان جوابي واحدا لا يتغير، أنها ككل بلاد العالم فيها الطيب والخبيث، على أننا إذا قدرنا أن العوامل الاجتماعية وظروف الحياة تخلق الأمم كما تخلق الفرد وجب ألا يغيب عن أذهاننا تأثير هذه الظروف والعوامل حين الحكم على مصر التي تجاهد الأيام لاستعادة عظمة القرون الأولى.
فإذا أردت أن أتحدث عن شيء فيها فأنا أتحدث عن أقوى العوامل أثرا في تكوينها، وهو المرأة في مختلف أطوارها وأدوارها ومسؤولياتها وواجباتها.
وقد يبدو للنظرة الأولى أن أثرها ضئيل، فما وجه العلاقة والخطر بين هذا المخلوق الخانع قليل الحظ من العلم ومن عظمة الأمة ومجد الوطن؟
لقد قضيت الآن في مصر ثلاث سنين شعرت فيها بجاذبية غريزية تجذبني نحو المرأة، واغلب ظني أنها تحتاج إلى عناية اكثر وجهد أوفر، فأنها أس الحركة الروحية وجماع الأسرة وروحها الجياشة وشريك الزوج ومربية الأطفال وربة الدار.
ولقد استطعت أن اقدر وأنا أعيش في بيئة مصرية محضة أن المرأة لا تستطيع أن تكون كل ذلك إلا إذا بذلت أعظم مجهود وتغلبت على كل صعوبة فأنها ما تزال ترسف في أغلال العادات وتعليمها لا يزال ناقصا، وشعورها العميق الذي ولده التقليد القديم بأنها مخلوق تافه الشأن ضئيل الوجود يقتل في نفسها أسمى معاني الحياة.
وهي بطبيعتها مقلدة غير مستقلة، فكم شاهدت سيدات الأسرة الواحدة لا يختلفن في القناع والمعطف والفراء وقد نبذن عصابة الرأس الشرقية التي كانت تلائم الوجه الشرقي كل الملائمة.

على أن البدء عسير عادة، والمرأة المصرية ما تزال في خطوات التطور الأولى، بل قد يكون البدء في بعض الأحيان مثيرا للإشفاق والنقد، فإننا إذا لاحظنا زينتها وتجملها رأينا ما يبعث أحيانا على السخرية، فليس اضحك من وجه شرقي الملامح زاد الكحل عينيه الدعجاوين سوادا، وشفتين خضبهما الأحمر القاني، وشعر قد حاله الأوكسجين إلى اصفر فاقع.

فنصيحتي إلى المصرية العزيزة أن القصد والبساطة في التجمل والزينة هما سر رشاقة المرأة وأناقتها.

اشتراك الفتاة في الحياة العملية

أنا إن أقدمت على الخوض في هذا الموضوع فلست أبشر بمبدأ جديد لم تعرفه مصر، أو افتح بابا موصدا في هذا البلد العزيز فكلنا يعرف ما تقوم به الريفية المصرية من الأعمال فهي والرجل على قدم المساواة في العمل بل قد تبذه في كثير من نواحي الحياة مما يقصر عنه باع فلاحنا وتضرب فيه الريفية بسهم عظيم، على أنني بمعالجة هذا الموضوع أريد أن أوجه النظر إلى حياة الفتاة المدنية فاستعرض بعض نظمها وأتتبع بعض أدوائها علني أوفق إلى إيصال صوتي إليها.

وفي نطاق هذه الكلمة أخرج من دائرتي بنات الطبقة الفقيرة المعدمة فهؤلاء غير ملومات ولا يمكن أن ينسب إليهن أو إلى أوليائهن أي تقصير فهن بحكم ظروفهن قد هدتهن الطبيعة إلى استنباط وسائل العيش فكن اقدر من غيرهن على خوض غمار الحياة على رغم ما بهن من فاقة وما يحيط بهن من إملاق، ولكنما أنظر إلى فتاة الطبقة الوسطى وفتاة الطبقة الغنية لأرى هل نظرت إحداهما إلى الحياة نظرة عملية تتفق وعصرنا الحديث؟

قد ينكر البعض علي هذا التساؤل ولكني أريد أن أصل إلى الحقيقة لا يشوبها ملق ولا يموهها خداع، أريد أن أنظر إلى أخواتي وأترابي بعين الحقيقة والواقع.

حقا أن البعض متعلمات والبعض مقبلات على التعليم ولكني أرى الكثيرات لا يأخذن الحياة بعلمهن فيمهدنها لمستقبل عملي مجيد. أرى الكثيرات وقد قنعن بقشور التعليم دون اللباب وقبعن في عقر دارهن مكتفيات ببضع كلمات جوفاء يتشدقن بها خلال التفنن في التبرج وقضاء الساعات أمام المرآة.

الحق أن مثل هذه النتيجة لا تساوي عناء الدرس وليس فيها لهذا البلد غناء.

هلا كان منهن من نظرن إلى أنفسهن والى وطنهن وجعلن من حياتهن متسعا لخدمة الاثنين! ماذا يفيد الأمة وآنساتها متأنقات جميلات ولكن على حساب الرجل التعس الذي يعولهن؟ ماذا يفيد الأمة وآنساتها مستهلكات غير منتجات منفقات ثروات الرجال في المخازن الأجنبية لقاء ثوب أنيق أعجبهن وأداة زينة استغوتهن؟ أريد أن تستثمر الفتاة العلم الذي تعلمت. أريد أن تشعر الرجل أنها لم تعد ذلك الحيوان المدلل الذي يعيش على حسابه ولمتعته. أريد أن تقاسم الفتاة الرجل في العمل والكسب والتمتع بالحياة. أريد فتاة مصرية عاملة تعمل وتزاحم في الحياة بالمنكبين تستشعر لذة العمل وتنهض بمصرنا العزيزة وتربأ

بنفسها أن تكون قعيدة البيت أسيرة المرآة، أريد الفتاة أن تثأر لخمولها الماضي الطويل وتستقبل الدنيا بنفس ملؤها العزم والحزم تزينها الكرامة ويتوجها العفاف.

ترى هل من تستجيب لدعائي؟ ترى هل من تنهض من أجل مصر؟ أن قلب مصر ليخفق، وان مصر لتزخر بالحياة وان هو الا أن نتسابق إلى العمل حتى نهز العالم بجلال نهضتنا ونمضي كما بدأنا مصريين لنا نفوس أبية وأيدي فتية وأثر في الحضارة غير منكور.

تحية أبو العلا

مدرسة بمدرسة غمرة الابتدائية

النقد

لاتينيون وسكسونيون

أترضى أم نسخط حين تعنى الصحف السيارة بالأدب والنقد وحين تتفق مع كبار الأدباء والنقاد على أن يحرروا لها ما تحتاج إليه من الفصول فيهما؟ في ذلك ما يدعو إلى الرضى من غير شك فهذه الصحف السيارة منتشرة وهي اشد إنتشاراً من الكتب وأدنى إلى نفوس الناس وعقولهم والى عيونهم وآذانهم من المحاضرات والأحاديث

فهي إذا تخدم الأدب والنقد حين تذيع رسالتهما في اكثر عدد ممكن من الناس، وهي إذا تخدم الناس حين تنشر فيهم الثقافة الأدبية وترفع دهماءهم إلى حيث يستطيعون أن يروا ويذوقوا جمال الأدب الرائع وآيات الفن الرفيع. وهي لهذا وذاك تخدم الأدباء والنقاد أنفسهم لأنها تعرفهم إلى اكبر عدد ممكن من الناس في أقطار مختلفة من الأرض فترفع ذكرهم وتعلي قدرهم وتنشر دعوتهم وتكسب لهم الأنصار والمؤيدين. وهي بعد هذا كله وقبل هذا كله تخدم نفسها حين تستعين بالأدباء والنقاد على كسب القراء وتستعين برضى القراء على احتكار الأدباء والنقاد. كل هذا حق ولكن هناك حقا آخر يظهر أن ليس من سبيل إلى الشك فيه وهو أن عناية الصحف السيارة بالأدب والنقد لا تخلو من ضرر، ومن ضرر قد لا يكون قليلا. فالأدب والنقد في حاجة إلى الأناة والروية وإمعان التدبر وإطالة التفكير فإذا لم يظفر الأدب والنقد بهذا كله فهما عرضة للضعف والفتور وهما عرضة للتقصير والقصور وهما عرضة لتجاوز الحق والتورط في الباطل وهما عرضة لهذا كله للإساءة إلى أنفسهما وللإساءة إلى الأدباء وللإساءة إلى القراء أنفسهم. فإنما يكون الخير في نشر الأدب والنقد إذا نشرا على وجههما جميلين رفيعين منصفين متبرئين من هذه العيوب التي تفسد جمال الفنون العليا. وأظنك لا تخالفني في أن حياة الصحف السيارة وضروراتها وحاجتها القاهرة إلى أن تظهر في نظام وتصدر في وقت معين وتعطي قراءها ما تعودت أن تعطيهم في كل يوم أبعد الأشياء عن ملاءمة ما يحتاج إليه الأدب والنقد من الأناة والروية ومن التدبر وإطالة التفكير. ولعلك قرأت في بعض الكتب التي قصت علينا حياة أناتول فرانس وفصلت لنا بعد موته أطرافا من سيرته وأطواره في حياته الأدبية أنه شقي بهذا ثم تعوده فسخر منه وازدرى الصحف والأدب والقراء ونفسه أيضاً وعبث بهذا كله. فكان في بعض الأحيان

من اقل الناس عناية بما يكتب للصحف وتحريا فيه للحق ولا سيما حين كان يكتب لبعض الصحف الأجنبية فكان يلفق لهذه الصحف أي شيء ويضع اسمه في آخره ويأخذ أجره على هذا التلفيق ساخرا بالصحيفة وقرائها معتزاً باسمه منتفعاً بما يقع في يده من المال كل شهر أو كل أسبوع.

ويعظم على الأدب والنقد خطر ما تحتاج إليه الصحف السيارة من السرعة والنظام حين لا يكون الأدباء الذين يكتبون لها في الأدب والنقد مقصورين على أدبهم ونقدهم بل تضطرهم ظروف الحياة العامة والخاصة إلى أن يتجاوزوهما فيكتبوا في السياسة أيضا. فهذه السياسة على أنها من حيث هي شر على الأدب لأنها تستغرق من جهد الأديب وميوله وعواطفه مقداراً عظيما كان ينبغي أن يخلص للأدب، يشتد شرها ويعظم لأنها تتأثر هي أيضا بحاجة الصحف إلى النظام والسرعة وبطروء الأحداث السياسية وتطورها واضطرار الكاتب إلى أن يتبع هذا التطور ويسايره ويكتب في ألوانه المختلفة. فإذا أضفت إلى هذا كله أن للأديب أو الناقد حياته الخاصة بقسميها المادي والمعنوي وحياته الاجتماعية التي تضطره إلى أن يستقبل ويزور ويجامل ويتقبل المجاملة، عرفت مقدار الجهد الضئيل الذي تظفر به فصول الأدب والنقد في الصحف من الأدباء والنقاد.

خطرت لي كل هذه الخواطر حين قرأت فصلا قيما نشرته جريدة الجهاد الغراء لصديقي الأستاذ عباس محمود العقاد صباح الثلاثاء 17 يناير.

أراد الأستاذ العقاد أن ينقد كتاب الأستاذ أنطون الجميل في شوقي شاعر الأمراء. ولم أكن أشك في أن الأستاذ سيشتد على الكتاب ومؤلفه وعلى شوقي أيضا. فمذهب الأستاذ في الأدب العصري معروف واقل ما يوصف به أنه بعيد كل البعد عن الإعجاب بشعر شوقي وعن الإقرار للذين يعجبون بهذا الشعر. وقد أشارك الأستاذ في كثير جدا من آرائه في شوقي والمعجبين بهما. ولكن الشيء الذي أخالف فيه الأستاذ اشد الخلاف والذي أكتب من اجله هذا الفصل هو هذه المقدمة التي بسطها بين يدي نقده لكتاب الأستاذ أنطون الجميل. وعرض فيها لما سماه نقد اللاتينيين ونقد السكسونيين.

وأحب أن لا يغضب الأستاذ العقاد إذا اصطنعت الصراحة في بسط رأيي في هذا الفصل فلعله يوافقني على أنه في حقيقة الأمر غير راض عن الكتاب ولا مؤمن ولكنه أراد أن يكون ناقدا مجاملا لبقاً فاستعار من

اللاتينيين ما يعيبهم به من المجاملة واللباقة في النقد لم يرد أن يصارح الأستاذ أنطون جميل بأن كتابه لا يرضيه من كل وجه لأنه حريص على مقدار ولو محدود من المجاملة بين الزملاء. ولم يرد أن يعيد على الناس حديثه في شوقي وشعره لأن شوقي قد مات منذ وقت قصير والنظم الاجتماعية تقضي بشيء من المجاملة للموتى وللذين رزئوا فيهم أشهراً على اقل تقدير. لم يرد هذا ولا ذاك. ولم يكن يستطيع أن يهمل كتاب الأستاذ أنطون الجميل فضلا عن أن يقرضه تقريضاً خالصاً لأن في هذا أو ذاك ظلماً لرأيه وكتمانا لما يعتقد أنه الحق فسلك في نقده هذه الطريقة الغريبة التي لا تخلو من التواء. اعتذر للأستاذ أنطون الجميل بثقافته اللاتينية وأخذه المذهب اللاتيني في النقد عما تورط فيه من خطأ بين وحكم غير مستقيم على شعر شوقي. ولست ادري أظفر الأستاذ العقاد بإرضاء الأستاذ أنطون الجميل أم لم يظفر؟ أوفق إلى مجاملته أم لم يوفق؟ أوفق إلى مجاملة شوقي والذين رزئوا فيه أم أخطأه هذا التوفيق؟ لست ادري ولكني اعلم علم اليقين أنه ظلم الثقافة اللاتينية وظلم النقد اللاتيني وظلم قراءه جميعا وأظن أن إرضاء الأستاذ أنطون الجميل أو مجاملته أهون على الأستاذ العقاد وأهون على الأستاذ الجميل نفسه من ظلم العلم والأدب والقراء جميعا.

واغرب ما في هذا الفصل الذي كتبه الأستاذ العقاد تناقض لست ادري كيف تورط فيه وهو فيما أعلم من أشد الكتاب المعاصرين في الأدب استقامة في الحكم وإيثارا للقصد وحرصا على الإصابة في التفكير. بدأ الأستاذ فصله بأن من العسير جدا أن يوفق الناس إلى الحق حين يعممون أحكامهم على الأمم والشعوب. وعلل ذلك تعليلا حسنا مستقيما ولكنه لم يلبث أن التمس لنفسه وسيلة للحكم العام على الأمم والشعوب. بل على ما هو أعم من الأمم والشعوب على الأجناس. فزعم أولا أن للاتينيين مذهبا في النقد وان للسكسونيين مذهبا آخر وان هذين المذهبين يختلفان فيما بينهما اشد الاختلاف. وزعم بعد ذلك أن أخص ما يمتاز به المذهب اللاتيني (الأناقة). وأخص ما يمتاز به المذهب السكسوني (البساطة) أو (الفطرة).

وفسر هذا بأنك إذا قرأت الناقد الفرنسي رأيت رجلا أنيقا لبقاً يقدم في أحد الصالونات كاتبه الذي ينقده على الأوضاع الاجتماعية المألوفة مجاملا متكلفا وقد يومئ إيماء خفيفا إلى

بعض العيوب ولكن على سبيل النكتة أو على سبيل الحيلة في التماس الدفاع عن هذا الكاتب الذي ينقده أو الرجل الذي يقدمه إلى الصالون. أما الناقد السكسوني فهو لا يحفل بالأوضاع الاجتماعية وإنما يهجم بك فورا على الحياة الفردية، على الحياة الإنسانية، على الرجل من حيث هو رجل لا من حيث هو فرد من جماعة. ومعنى هذا أن نقد اللاتينيين سطحي مخالف لأصول العلم وان نقد السكسونيين هو النقد العلمي الصحيح الذي تجد فيه الفائدة وتجد فيه الغناء. وأنا احب أن يعذرني الأستاذ العقاد إذا قلت له في صراحة أني كنت أنتظر منه كل شيء الا التورط في هذا الخطأ الصارخ والظلم المبين. فليس من الحق بوجه من الوجوه أن الاختلاف بين النقاد اللاتينيين والسكسونيين عظيم إلى هذا الحد الذي يتصوره الأستاذ. فليس هناك نقد لاتيني ونقد سكسوني، وإنما هناك نقد فحسب. فقد يعتمد على هذا الذوق الفني العالي الذي أحدثته الثقافة اليونانية اللاتينية وورثته عنها الأمم الحديثة على اختلاف أجناسها وبيئاتها. فكل النقاد من الفرنسيين والإيطاليين والألمانيين والإنجليز قد قرأوا آيات البيان اليوناني واللاتيني وذاقوا آيات الفن اليوناني والروماني وكونوا لأنفسهم أو كونت لهم هذه القراءة ذوقا عاما مشتركا بينهم يختلف في ظاهره ولكنه لا يختلف في جوهره لأن هذا الجوهر واحد مستمد من هوميروس وبندار وسوفوكل وارستوفان وأفلاطون وسيسيرون وتاسيت ومن إليهم. نعم وهذا النقد الحديث يعتمد على أصول أخرى غير الذوق، أصول تشبه العلم أو تحاول أن تكون علما وضعها أرسططاليس ومن جاء بعده من نقاد اليونان والرومان وسموها علم البيان. يعتمد النقد الحديث عند الأمم الأوربية مهما تختلف أجناسها على هذين الأصلين: الذوق الذي تكونه الثقافة اليونانية اللاتينية، والعلم الذي وضعه أرسططاليس وأصحابه. وللأستاذ أن يدرس على مهل وفي أناة وروية من شاء من النقاد المحدثين في أي أمة من الأمم الأوربية فسيرى أن هؤلاء النقاد جميعا يتفقون في أن نقدهم يقوم على هذين الأصلين اللذين أشرت إليهما. فإذا اختلفوا بعد ذلك فإنما يختلفون في الأشكال والصور باختلاف

أمزجتهم الخاصة وباختلاف البيئات التي يعيشون فيها ويكتبون لها.
عسير جدا أن يقال إذا أن هناك نقدا لاتينيا ونقدا سكسونيا وأن هذين النقدين يختلفان في الجوهر والطبيعة، ثم اعتذر إلى الأستاذ بعد هذا من أني لا أستطيع ولا أظن أن أحداً يستطيع أن يقره على رأيه في النقد اللاتيني، بل أنا لا أقضي العجب من تورط الأستاذ في إعلان هذا الرأي الغريب فليس من الحق أن النقد اللاتيني سطحي وليس من الحق أن هذا النقد يعتمد على الأوضاع الاجتماعية ويهمل الإنسان من حيث هو إنسان.
هذا كلام لا يمكن أن يقبل مع أن من الأشياء المقررة التي يتلقاها الشبان في المدارس أن قوام الأدب الفرنسي الكلاسيكي إنما هو بالضبط: إلغاء هذه الفروق والأوضاع الاجتماعية التي تمتاز بها الأمم والشعوب فيما بينها بل التي تمتاز بها البيئات المختلفة في أمة بعينها والاتجاه إلى الإنسان من حيث هو إنسان إلى هذا القدر المشترك بين الناس جميعا من العقل والشعور. على هذه القاعدة يقوم الأدب الفرنسي الكلاسيكي كما يقوم عليه الأدب اليوناني القديم والأدب كله بما فيه من شعر ونثر ونقد، فكيف يقال في أدب يقوم على هذا الأصل أنه سطحي يقوم على الظواهر والأوضاع الاجتماعية.
ولأدع الأدب بمعناه العام ولأتحدث عن النقد وحده ولن أحدث الأستاذ عن نقد بوالو وفولتير وغيرهما من النقاد الذي عاشوا قبل الثورة فان حديث هؤلاء يطول، وإنما أتحدث إلى الأستاذ عن النقد الفرنسي في القرن الماضي، واسأله كيف يستطيع أن يقول أن هذا النقد سطحي يعتمد على (الأناقة) و (اللياقة) والأوضاع الاجتماعية ويهمل الحقيقة الإنسانية البسيطة؟ ألم يقرأ سانت بوف؟ أن قراءة لفصل واحد لهذا الكاتب الذي ملأ الدنيا نقدا لأنه أنفق في النقد صفوة حياته تقنع الأستاذ ومن هو اقل من الأستاذ جدا إلماما بالأدب والنقد بان سانت بوف كان أبعد الناس على أن يكون رجلا من رجال الصالونات يقدم الكتاب والشعراء إلى الناس في أناقة ولباقة وظرف ومجاملة. ولعل الأستاذ يعلم أن أهم ما أخذ به سانت بوف من العيب إنما هو تعمقه أسرار الناس وبحثه عن دخائلهم وتتبعه لحياتهم الفردية فما ينبغي أن يعرف وما ينبغي أن يجهل وعرضه هذا كله على الناس لأنه كان يرى أن فهم الأدب رهين بفهم الشخصية الفردية للأدباء الذين ينتجون. ولو قد وقع شوقي رحمه الله بين يدي سانت بوف كما وقع لمارتين لقرأ الأستاذ العقاد في نقد شوقي صحفا ترضيه كل الرضى وتخالف كل المخالفة ما قرأه الأستاذ في كتاب صديقنا أنطون الجميل. لم يكن سانت بوف رجل صالونات وإنما كان يغشى الصالونات فيرى ما كان يحدث فيها ويتخذه وسيلة لتعرف ما يقع من وراء الأستار.
كان اقل الناس انخداعا بما يتحدث به الأدباء عن أنفسهم وبهذه الصور الخلابة التي يعطونها لحياتهم فيما ينشئون من شعر أو نثر، فكان يبلغ بذلك أقسى القسوة. فليقرأ الأستاذ إن أراد أحاديث الاثنين وليقرأ الصور وليقرأ كتابه عن شاتوبريان وأصحابه وليقرأ كتابه عن بورويال وتين؟ ماذا يقول الأستاذ عنه؟ أكان صاحب أناقة ولباقة واعتماد على الأوضاع الاجتماعية وهو الذي أنفق جهدا عنيفا ليقيم النقد الأدبي على أساس من العلم؟ وقد قرأ الأستاذ من غير شك لا أقول كتبه في نقد الفرنسيين بل أقول كتابه في تاريخ الأدب الإنجليزي.
زعموا أن بشاراً سئل عن جرير والفرزدق أيهما أشعر؟ ففضل حريرا وقال فيما قال أن النوار امرأة الفرزدق فبكاها النائحات برثاء حرير لامرأته:
لولا الحياء لعادني استعبار ... ولزرت قبرك والحبيب يزار
فليسمح لي الأستاذ أن اذكره بأن الإنجليز أنفسهم لا يزالون يعتمدون إلى الآن على كتاب تين في تاريخ الآداب الإنجليزية ومع ذلك فليس أدبهم في حاجة إلى من يؤرخه من الأجانب.
وبرونتير ماذا يقول فيه الأستاذ؟ أكان صاحب أناقة ولباقة وظرف وصالونات وهو أقل النقاد الفرنسيين حظا من هذا كله، وهو أول من حاول أن يقيم النقد الأدبي على مذهب دروين في تطور الأنواع وفي النشوء والارتقاء. وأميل فاجبه ولنسون وبيدييه وجول لمتر واناتول فرانس وبول بورجيه وبول سودي والنقاد الذين لا يزالون يملئون الصحف والمجلات الكبرى في فرنسا نقدا في الأدب والفن، ما بال الأستاذ لا يقرؤهم

ليتبين أحق أن النقد اللاتيني يعتمد على الأناقة واللباقة والأوضاع الاجتماعية والتماس والنكتة.

لقد فرغت الآن من قراءة فصل للكاتب الفرنسي مارسل دوشومان في مجلة العالمين التي صدرت في أول يناير لو قرأه الأستاذ لعرف أن النقد الفرنسي أبعد ما يكون النقد عن لهو الصالونات وظرفها. في هذا الفصل يحاول الكاتب أن يهدم أسطورة آمن بها الأدباء جميعا عن حياة شاتوريان كانت تصور دعابته ولهوه وكان هو قد انتهى في آخر حياته إلى تصديقها والتخييل إلى الناس أنها قد وقعت بالفعل فإذا الكاتب يثبت بالأدلة القاطعة أن هذه الأسطورة لا تعتمد على أساس ويعتذر إلى القراء لأنه أضاع عليهم قصة غرامية كانوا يجدون فيها لذة وجمالا. كلا ليس النقد اللاتيني سطحيا ولا يستطيع من قرأ منه شيئا ذا بال أن يقول أنه سطحي بل هو مضطر إلى أن يقول مع الكاتب الفرنسي برونتير أن النقد الحديث إنما نشأ ونما آتى أطيب الثمر وأصحه وألذه في فرنسا وفي فرنسا وحدها.

وأنا أحب أن لا يظن الأستاذ العقاد أني أدافع هنا عن الثقافة اللاتينية على حسابات الثقافات الأخرى. فأنا من أشد الناس إكبارا للثقافة السكسونية وإعجابا بما عرفت منها. ولكني كنت وسأظل من أقل الناس حديثا عنها وحكما عليها لأني لا أحسنها وأحب أيضا أن لا يعتقد الأستاذ أني اكتب هذا الفصل متأثرا بالثقافة اللاتينية التي نشأت عليها كما نشأ الأستاذ أنطون الجميل. فالناس جميعا يعلمون أني نشأت على الثقافة العربية الخالصة ولم أتصل بالثقافة الأوربية الا بعد أن تقدم بي الشباب.

إنما هو الحق الذي يجب أن يقال، والعلم الذي يجب أن ينصف والقراء الذين يجب أن نجتهد في أن لا نقدم إليهم الا ما نثق بأنه الحق الذي لا غبار عليه. والحق الذي لا غبار عليه في هذه المسألة هو أن الأستاذ العقاد تعجل وجامل فأخطأ الصواب، وأقام أحسن الدليل على أن التعميم في الأحكام على الشعوب مزلة للأقدام وسبيل إلى الظلم.

أما بعد فأن لي في كتاب الأستاذ أنطون الجميل رأيا أن لم يظهر في هذا العدد فسيظهر في العدد الذي يليه.

الشلوك

عمالقة السود واكثر الهمج وحشية

للرحالة الكبير الأستاذ محمد ثابت

الشلوك طائفة من الزنج تحتل قسما من منطقة السدود في أعالي النيل ويحكمهم ملك يسمى ولا يزالون يتعقبون ملوكهم إلى الجد السادس والعشرين ودولة هذا الـ أو كما يلقبونه تمتد غرب النيل بين كاكا وتونجا وشرق النيل من جنوب كودوك إلى التوفيقية وعلى ضفتي السوباط الأولى ولهم نحو 1300 قرية من أكواخ مخروطية من القش والطين يسكنها نحو أربعين ألفاً. وهم خاضعون تماما لملكهم الذي يبلغه الجواسيس كل أمر جل أو صغر أولاً بأول، ومن أقصى حدود بلاده إلى مركزه المختار في قاشودة على بعد ستة أميال من كودوك. وهم معروفون بالقوام السمهري وبطول السوق وبروز عضلاتهم، جلدهم لامع براق والمقاتل منهم لا يرى خارج كوخه بدون حربته الطويلة ذات السن العريض. ومعها حربتان قصيرتان (ولا يحملون الأقواس والسهام) وسلاح من خشب كأنه الوتد مدبب الطرف ويستخدمون صحافا بعضها من خشب مستدير والبعض من جلد فرس الماء.

وأخص ما يسترعي النظر شعور الرجال التي يرسلونها تنمو ثم يشكلونها أشكالا غريبة بعد أن تبطن بروث البقر. أما النساء فيحلقن مقدم الجمجمة ويتركن شعراً قصيراً جداً في مؤخرها فتبدو المرأة كأنها صلعاء. ويتعهد شعر الرجال (حلاق) عمله محترم لديهم يتوارثه عن أجداده وهو في شهرته ومقامه يلي الرماة والمقاتلة، يأتي الرجل ويجلس أمام كوخ الحلاقة في الشمس المحرقة ويبدأ الرجل غسل الشعر ونفشه ببول البقر ثم يترك مدة في الشمس تناهز نصف ساعة وأنت ترى القمل والحشرات تجري على رقبة الرجل، وأيدي الحلاق والرائحة الكريهة منبعثة منها تعبق في الجو. وخلال ذلك يعد الحلاق المادة التي سيشكل بها الشعر. فيأتي بإناء من فخار ويخلط به بعض الطين والروث والبول والصمغ ويعجنه ثم يبطن به الشعر في مهارة فائقة ثم يجفف

في الشمس ويأخذ في قطع زوائد الشعر بمدية حادة ويدهن جسد الرجل ببول البقر الذي يستخدمونه جميعا رجالا ونساء. بعد ذلك يرش فوق الشعر مسحوقا من حرق روث البقر ممزوجا بالثرى ليأخذ الشعر لونه المطلوب. والعادة أن يتعهد الحلاق شعر رجلين معا لكي يعرف كل نظام شعره إذا ما رأى شعر أخيه ولا تستخدم المرآة عندهم. وأجر هذا العمل شاة أو معزى، ويغلب أن يتعهد الشبان شعرهم هكذا قبل الزواج والحرب وقبل الرقصة الدينية. ولكي لا يفسد نظام الشعر إذا أحس أيلام الهوام التي تتزايد في رأسه كل يوم يضع الحلاق أثناء العملية إبرا من الخشب فتخلف خروقا منها يمكن للرجل أن يحك رأسه بعصي مثلها. وأصعب ما يعانيه الشخص من شعره ليلا إذ ينام على قطعة من خشب يرفعها حاملان وهو لا ينجو من هذا العذاب ولا من عذاب القمل الا إذا مات أحد أفراد العائلة، فعندئذ يجب حلق الرأس وتركها حتى ينمو الشعر ويستأنف تعهده من جديد.

ومما يعانيه شبانهم الاختبار الذي يجوزونه كي يحوزوا لقب المقاتلة في سن الخامسة عشرة فتصحب كل واحد منهم خليلته ويذهب الجميع إلى ضفة النهر، وتمسك كل خليلة برأس صاحبها وتميلها نحو النهر وتأخذ في تشجيعه على أن يحتمل ما سيحل به من ألم. وسرعان ما يجيء طبيب ويشق جبهة الغلام بمدية حادة فلا يجرؤ واحد أن يتأوه وإلا كان خزيا كبيرا، وبعد ذلك تغسل الفتاة الدم في النهر وتنتهي الحفلة. وكل صبية هذا الجيل يلقبون باسم حيوان معين يتخذ شعارهم كالأسد أو الأفعى وما إليها. وكثيرا ما تقطع المدية شريانا فيموت الصبي من كثرة ما يفقده من الدم، والذي يعيش منهم يصبح مساهما في بقر القبيلة ويخول له الحق في الاشتراك في الرقص العام وينظر إليه الجميع نظرهم إلى الرجال. قبيل اجتياز هذا الاختبار يعتبرون أطفالا مفتقرين إلى حماية الرجال وينامون في أكواخ الخدم.

والشلوك أهل مياه وانهار لا عمل لهم سوى الرعي وصيد حيوان السمك فهم يسيرون في المياه بسرعة مدهشة حتى ولو غاصوا فيها إلى أكتافهم. ولا يذبحون ماشيتهم قط بل يستمدون منها اللبن. وبعد ذلك تستخدم بدل النقود في المبادلة وهي لديهم مقدسة ويبتاعون من النوبيين شمالهم الفول السوداني وهو غذاء رئيسي عندهم وقلما يزرعون شيئا، اللهم إلا بعض الذرة والطباق فهم كسالى. وكل عائلة تحل كوخين أو ثلاثة يحوطها سور في جانبه الداخلي إسطبل. البيوت نظيفة تحوي ثلاثة أكواخ واحد للزوج وزوجه والثاني للطبخ والثالث للخدم والأولاد. وأحب مشروباتهم المريسة وزوارقهم جذور منقورة من نخيل، أو أعواد توثق في شكل مجوف يحمله الرجل إذا شاء. والشلوك إذا صادوا فرس الماء حفظوا لحمه لوقت الحفلات، وإذا صاد أحدهم فرسا بدون مساعدة غيره لبس سوارا من عاج حول ذراعه. وكثيرا ما يهاجمهم وحش كالأسد والفهد فيرديه الواحد منهم بحربته وعندئذ يأخذ جلده ليحفظه ويلبسه في الحفلات ليدل على بسالته.

والشلوك يعيشون في قرى مكتظة عكس أمم الباري والنوير الذين لا تزيد مجموعتهم على عائلة واحدة، فالشلوك لهم نظام عائلي وثيق وقانون موحد لذلك قلما تقتتل شيعهم وكثيرا ما يستعملون السم الذي يلطخون به سهامهم في قتل الغير. وملكهم لا يذوق طعاما ولا شرابا إلا بعد أن يتناول من أحد تابعيه قبلة. أما زينتهم فعقود من خرز ملون تلبس صفوفا بعضها فوق بعض وقد تغطي الرقبة كلها وقسما من الصدر، وهي دليل الغنى والجاه ويلبسها الرجال أيضا. واللون الأزرق عندهم بشير الحظ السعيد لذلك يلبسه الأطفال فكلما كثر الخرز دل على جاه أبويه. وبعض الشبان يلبسون سوارا في الساعد والعقب، وهذا يدل على أنهم قتلوا من الحيوان أسداً أو فهدا أو فيلا. والطبخ والزراعة أو الخزف والمريسة وحمل المياه من عمل النساء. أما الرجال فلا يصح لهم أن يقوموا بهذه الأعمال المهينة إلا إذا طعنوا في السن. ولعمل المريسة يوضع بعض الذرة في سلة مع مسحوق من روث البقر والثرى وكلها توضع في ماء راكد لمدة أسبوع حتى تتخمر، ثم تنقل إلى جرة من فخار وتغلى في الماء ويؤخذ السائل العلوي ويبرد ثم يشرب، وكلما نضبت أضيف الماء إليها وأعيد غليها وهكذا وهذا الخمر قوي مسكر.

ويخال بعض الناس خطأ أن اللحم أهم غذاء لديهم على أنهم لا يأكلون إلا لحوم السمك وأفراس الماء، أما لحوم البقر فلا تؤكل إلا في الحفلات. ومن أطعمتهم المحبوبة

خليط من مسحوق الفول السوداني والذرة والسمك النيئ تطهى في جرة من فخار، وكذلك لحم فرس الماء يمزج بالفول السوداني وعشب اسمه صفصاف. وتكثر حفلات الرقص بعد شرب المريسة في الليالي القمرية خصوصا ليلة البدر وكلهم يرقصون والحراب في أيديهم، وقد لعب الخمر بلبهم ويقرع القوم طبولهم المزعجة وسط القرية التي تتجمع بيوتها في شكل دائرة تتوسطها ردهة فسيحة والطبول تقرع من وسطها في باكورة الصباح إعلانا للناس بأن حفلة الرقص ستقام الليلة. وكلما اختلفت قرعات الطبول اختلفت حركات الرقص ودلت على الغرض منه أهو للمطر أم الحرب أم الدين أم الفتيات أم الموت ورقصة

الفتيات تبدأ بعد بزوغ القمر مباشرة والغرض منها تعارف الفتيان بالفتيات إذ ترى الفتيان قبل الغروب مرحين انتظارا لملاقاة فتياتهم ويصرفون زهاء الساعة في تعهد شعورهم ولبس جلود القطط والأنمار والتحلي بصنوف لا تحصى من الخرز والودع وما إليها. وقبيل الغروب تفد الجماهير شبانا وشيبا وتصف جرار المريسة بحجومها الكبيرة وسط الدائرة والى جانبها أطباق من الذرة واللحم نصف المطبوخ، فإذا ظهر النور بدأ المسنون من النساء والرجال في دائرة ومن داخلها جماهير الشباب من الجنسين ويظلون مرحين يتحادثون حتى يقبل الزعيم ومن خلفه اتباعه يحملون الطبول وأدوات الموسيقى فينصت الجمع ويتداخل الفتيان والفتيات في صفين ثم تعزف الموسيقى والطبول وبين أن وآخر يرتل الكل أغنية. وما تكاد تنتهي حتى يعلو قرع الطبل وتموج صفوفهم وبيدهم الحراب التي تتلألأ في ضوء القمر. ثم يسرع أحدهم إلى الوسط مخترقاً صفوف الشابات والشباب وهناك يتمايل ويهاجم كأنه يصارع وحشاً ثم يعاد الغناء ثانية، وبعد ساعة على تلك الحال يشرب الكل المريسة، ويبدو صف آخر من الراقصين بعد انسحاب الأول الذي يظل عاكفا على جرار المريسة يرتشف منها ما يشاء، وأخيراً يختلف الكل في الرقص تاركين الحراب ويتقدم كل شاب في صف الشبان إلى فتاة في صف الفتيات وترفع السواعد بمحاذاة الأكتاف ويقفز كل زوج قفزات منظمة لكن دون أن يلمس الفتى خليلته والفتيات يظهرن دلالهن ويحاولن أسر الرجال واستمالتهم بما يفوق ما تأتيه المرأة الغربية، فهي مثلا تبرز ثدييها بين آن وآخر ثم ترفع عنهما قطعة القماش المهفهفة ثم تعيدها وكثيرا ما يفعل ذلك أمام القاضي في المحاكم فتؤثر فيه وما يكاد الليل ينتصف حتى تكون المريسة قد أخذت بلبهم فيختفي الحابل بالنابل وبمجرد انسحاب الزعماء والمتقدمين في السن يأتي الشبان والشابات بما لا يتصوره العقل بل وبما يستنكره الخلق الفاضل القويم.

الزواج: ولا تتزوج الفتاة قبل الخامسة عشرة وبفضل رقصة الفتيات يمكنها أن تتعرف بالكثير من الفتيان، والزوجة يمكن شراؤها بالقطعان، وللرجل شراء ما استطاع من الزوجات. لأن ذلك دليل الجاه والغنى، وقبل أن تتم صفقة الشراء هذه يجب أن توافق هي على هذا الزوج وفي العادة تكون قد رغبت فيه أبان حفلات الرقص، وهي تحب أن يكون غنيا بقطعانه ومزارعه، والعجيب أن الفتاة تؤثر الزوج الذي يستطيع بماله أن يشتري

زوجات كثيرات غيرها. وقبل إتمام الزواج تقدم الهدايا (الشبكة) كعشر من المعزى وثلاث من الحراب وعشرين خطافا للصيد (سنارة) وما إليها. وخلال تلك الفترة يبدأ التعارف بينهما (نظام شبيه بنظام الغرب) ففي حفلة الرقص يقود الأخ أخته إلى حلقة الرقص والخجل يبدو على وجهها وهناك يسألها زعيم القبيلة أن تعترف بجميع علاقات الحب التي حصلت مع فتيان آخرين من قبل وهي تخشى ألا تقول الصدق لأن الأخبار كلها تصل الزعيم أولا بأول. وبعد تلك المداولات بين الزعماء والعروس تقرع الطبول فينصت الجميع وهنا تكرر الفتاة ذكر أسماء الفتيان الذين أحبوها من قبل فيحضر كل منهم إلى وسط الدائرة ويحكم عليه من الماشية والأغنام ومتى جمعت تلك القطعان قدمت كلها مهراً للزوج، أما الفتاة فلا عقاب عليها متى صدقت في الاعتراف ومتى أقر الزعماء ذلك ولا عار على الفريقين من ذلك فالاعتراف من جانب الفتاة والغرامة من جانب الفتى عقاب كاف وترضية حسنة. والظاهر أن هذا التصرف لا يرمي إلى منع الفساد الخلقي بقدر ما يرمي إلى تزويد الزوجين بالمال والمتفرجين بالطعام والشراب والرقص.

وعند ميلاد غلام تقدم الهدايا للأب من قطعان يربو عددها بالتوالد حتى إذا ما أضحي

الطفل رجلاً قدمت له بعد أن يجوز (حفلة الرجال)، وإذا مات أحدهم دفنت الجثة أمام الكوخ الذي كان يقطنه ويلف الجسم في أفخر ما كان لديه من ثياب أن وجدت والى جانب الأسلحة وأدوات الطبخ وكل ما يلزم للحياة الأخرى ما عدا أدوات الزينة. والجسم يمد في القبر على ظهره وتوضع تحت الرأس وسادة من خشب للرجال ومن قش للنساء والأطفال. وإذا مات الزعيم دفن داخل باب كوخه وأغلق سنة كاملة، بعدها يهدم. وعند دفن الميت تقام حفلة (رقص الموتى) فيجتمع الأهل وقد لطخوا جسومهم برماد من حرق روث البقر ويولول الجميع وفق قرعات الطبول البطيئة ويمثل الراقصون ما يدل على شجاعة المتوفى وفضله ويقدم الناس لأهله الطعام والشراب وتستهلك مقادير عظيمة من المريسة وقبل شروق شمس اليوم التالي ينسى الحزن بتاتا.

وفي رقصة الموت يمثلون موقعة يؤخذ فيها النساء والأطفال والماشية أسرى وهذه الرقصة تقدم في أي وقت من النهار بمجرد سماع القوم لقرع الطبول نداء لها فيتزين كل بما لديه من أدوات البسالة من ريش وجلود وحراب وما إليها ويتقدم المقاتلون ذهابا وجيئة

ويضربون الأرض برجولهم وحرابهم التي كثيرا ما تنثني أو تتكسر ثم يهاجمون الأكواخ التي فيها أسرارهم ويسوقونهم فيها بشراسة زائدة وسط تهليل يصم الآذان مسرعين نحو الزعيم والدماء تسيل من الجروح التي تخدش بها وجوههم وجسومهم ثم يتقدم الطبيب بعد فيضمدها بعصير بعض الأعشاب.

وإذا قام نزاع بين قبيلتين أدى إلى قتال عنيف ولا تتنازل إحداهما عن الأخذ بالثأر إلا إذا تساوى عدد الضحايا من الفريقين ولا يمكن لأية قوة مقاومتهم لأنهم يلجأون إلى صيد الناس بسهامهم المسمومة.

تاريخهم: ويرجح بعض الكاشفين أنهم وفدوا من منطقة البحيرات ولم يحلوا مكانهم هذا إلا منذ أربعة قرون. وفي سنة 1504 غزوا سنار لكن غزاهم البقارة سنة 1861 وفي 1874 ثاروا على الحكومة المصرية في السودان وفي 1890 خلال ثورة المهدي ثاروا ضد تجار الرقيق من العرب والدراويش لكنهم هزموا وسيق عدد كبير منهم إلى أم درمان ولهذا السبب تجدهم يبغضون العرب، ويظهر أنهم يمتون بصلة إلى الدنكا وبعض قبائل البحيرات مثل (كافروندو) لتقارب لغاتهم وبعض عاداتهم.

الدين: ولهم إله اسمه (فوك قادر ومسيطر خلق كل شيء إلا أنهم خاضعون لما يسمونه نيكوانج وهو خليط من الوثنية وعادت الأجداد والأرواح، فهم يرون أن أول جد لهم هو نيكوانج الذي يعمل وسيطا بينهم وبين الإله الأعظم الذي لا يدركه أحد وهو (فوك) فهم يقولون في وقت الضيق (أن فوك قد غضب علينا) ويصلون لنيكوانج للشفاعة وروح هذا تحل كل ملوكهم ويرون أن روح الموتى تزورهم في المنام وتؤثر على حياة الأطفال، وهم يتخيلون الله دوامة هوائية تنتابهم كثيرا وتحمل الرماد عقب إحراق العشب في عمد سوداء عالية، ويقولون بأن الله أسود اللون لأنه لا يرى ويسكن الظلام، وإذا مات الإنسان عاد إلى ربه، وعند الصلاة يقول الشلوك: يا إلهي اتركنا وحدنا ننجو فأنت عظيم، لا يمكن لأحد أن يتكلم معك أنت الله ومن تقتل منا يموت. أنت مقر روحنا فاتركنا ننجو، والباقون يستمعون وهم منصتون وحرابهم في أيديهم بعضهم واقف والبعض راكع. ولتقريب فكرة الآلهة من الناس يفترضون له وكيلا شبيها بالإنسان هو نيكوانج. يتوسلون إليه قائلين: نيكوانج قد أعطاك الله الأرض فاحكم الشلوك وارج لنا ربك يجعل البقرة التي سنذبحها

قربانا مقبولاً لديه، ثم يقتلون البقرة ويغسلون دم الحربة بالماء ويخلطون هذا الماء بالروث الذي يخرجونه من أحشائها ويرشونه على الناس جميعا. ورأيهم في الخلق يتلخص في أن الله هو الخالق، خلق طبقتين مسطحتين: العليا وهي السماء والسفلى وهي الأرض ثم خلق النبات والشجر. وأول حيوان ظهر الجاموس ثم الإنسان وكلم الله الجاموسة قائلا: تعالي غداً أعطك حربة. فسمع الإنسان ذلك وذهب خلسة لما خيم الظلام فلم يره الله فتقدم وهو يمشي على أربع وينفر كأنه الجاموس فقال الله من هذا؟ فأجاب أنا من له قرون متجهة إلى الوراء فجزع الله وأعطاه الحربة ولما جاءت الجاموسة تخور قال الله ألست أنت التي أخذت السلاح مني؟ قالت لا بل الإنسان فأعطاها قرونها وأهاجها على الإنسان أنى لاقته.

ولما خلق الإنسان كان أحمر اللون لأنه شغل من طين النهر ثم ذهب إلى التربة السوداء وخلق الجنس الأسود ولما انتهى خلقه فرك يديه فسقط الطين منها فتاتا هو القمل الذي التصق بشعر الإنسان وضايقه ولذلك اخترع له الله الموس للتخلص منه. وفريق منهم يرى أن الله أمر زوجته فولدت توأمين أسود وأبيض وكانت تحب الأسود وتبغض الأبيض وأمر الله بتربيتهما. وحدث مرة أن مد الأب رجله وأمر أن يلعقها الولدان فخضع الأبيض لأنه عبد وأبى الأسود فأحب الله لذلك الأبيض وحاباه وقال لزوجه إن ابني هو هذا وسأملكه على الأسود يبيع فيه ويشتري وسأمده بالأسلحة التي تسوده على كل شيء.

والطبقة الأرستقراطية تشمل أو وأولاده نيارت وأحفاده ني آريت - وأحفاد أحفاده كواني آريت وهؤلاء فقط هم وارثو الملك أما العائلات المتفرعة عن الملوك الأقدمين فتسمى أورورو ولهم نفوذ عظيم. إلى هؤلاء طبقة قوية وهم أطباء السحر تتمثل فيهم قوة القسس والأطباء وام نيكوانج يسمى كي يا تتمثل في التمساح ولذلك قدسوه وفي كل قرية هيكل لنيكوانج وهو كوخ باسق حوله كوخان عاليان يزين أعلاها حراب بيض النعام وذلك لأن نيكوانج وفد من الصحراء يمتطي نعامة. وإذا مات الملك تزوج صغار زوجاته من بعض أقربائه أما الطاعنات في السن فيصبحن خفر المعابد وبنات الزعماء هن بنات نيكوانج وعند زواجهم تقدم الضحايا لزوجة نيكوانج الكامنة في بطن التمساح فيؤخذ عنز ويذبح على حافة نهر. وعجيب أن تفد التماسيح لأكل الدم أما اللحم فيرسل لحارسات المعابد وهم إذا رأوا دوامة ترابية سجدوا لها لظنهم أن الله (فوك) يسير مختبئا فيها وهذه

العواصف تكثر في شهور الجفاف خصوصا بعد اشتعال النار الذي يكثر عندئذ في العشب والغابات.

وإذا تخلف المطر أقاموا رقصته لمدة ثلاث ليال أو أربع حول معبد نيكوانج عند الغروب وهذه هي الرقصة الوحيدة التي يلبسون لها الأردية. والعادة أن ينتظر الزعيم كوجور بعد الجفاف متحينا فرصة يرجح نزول المطر فيها ثم يقرع الطبول للرقص ويصلون وهم وقوف وجوههم إلى السماء في غير حراك ساعات طويلة وكلهم أيمان بأن المطر سينزل سراعاً وفي داخل المعابد ترى مذبحا للضحايا من الغنم يقام من الخشب وترى فوقه بعض الطعام والمريسة يقدمها كل من أراد التقرب من الوسيط نيكوانج.

حفلة تتويج الملك: والملك ينتخبه زعماء القبيلة من أفراد العائلة المالكة، وفي يوم التتويج يفد من فاشودة إلى الضفة الجنوبية لنهرهم المقدس تحوطه مجامع الحرس بحرابهم ويجتمع أهل القبائل بجيوشهم سائرين من القرى نحو أسبوعين على الأقدام. ويجب أن لا يتخلف أحد الزعماء ويلبس الملك جلبابا مخططا وحزاما مزدوج اللون الأزرق والأحمر وطربوشا أحمر قانيا وهو شعار الملكية ثم يركب حماراً ويظهر على ضفة النهر يحوطه الجند من العمالقة وعليهم الجلباب الأحمر فيحيي الجماهير الملك بحرابهم المرفوعة حتى يجلس على جلد نمر ويقدم أهل كاكا أقصى بلاد الشلوك شمالاً عجلا أبيض ويقدم أهل تونجا أقصى بلادهم جنوبا فتاة صغيرة. والبلاد يقسمها النهر المعدني قسمين جار ولواك ولكل منها زعيم وتحت هذين زعماء القرى فيتقدم أهل الشمال بالثور إلى النهر في مواجهة الملك ويهجم زعيمهم فيخترق الثور بحربته ثم تتبعه سهام الناس من كل جانب فيسقط الثور ويسيل الدم إلى النهر ثم يتقدم زعيم الجنوب إلى الملك وبيده الفتاة عارية فيستلمها الملك ويصيح الكل قائلين (أيوه! أيوه!) وعندئذ يمكن لأهل الشمال أن يتخطوا النهر إلى الضفة الجنوبية. ويبدأ التتويج بأن يغسل الملك بالماء الساخن ثم بالماء البارد لكي لا تؤذيه تقلبات الجو حراً وبرداً ثم يعامل بخشونة وقسوة من الجميع وعليه أن يطيع ويخضع لكي يتعلم التواضع ثم يركع له الجميع إجلالا لأنه ابن نيكوانج ثم يلبسونه خفاً في قدميه من جلد فرس الماء الغفل الخشن ليمضي به على مضض فيفهم معنى الفقر والتقشف ثم يقدم له الخدم بعض لحم الغزال وفرس الماء إشارة إلى توافر اللحم والقناعة في أكله ثم تقدم المريسة بمقادير كبيرة لكن عليه أن لا يسرف في شربها ليدلهم على أنه قنوع ثم يجري إليه ثلاثة شبان بحرابهم تصوب إلى صدورهم فيدفعها الملك بيده إلى تلك الصدور حتى تدمى دلالة على أنه سيحكم حكما صارماً لكنه في عدل ورحمة. وأخيراً

يقف الملك ويخاطب الزعماء ثم يتقدم منثنيا فيركع الجميع إجلالا (وهذا ما يفعله القوم دائما كلما رأوا الملك) وهو يتكلم في تؤدة ووقار فيجيب القوم بصيحاتهم (أيوه! أيوه!) كلما فاه بعبارة واحدة.

في التلفون

بين بتاح في عهد أحمس بطل استقلال مصر وعبد الجليل أحد متطوعي القرش.

- ألو! ألو! من أنت؟

- أنا بتاح ومن أنت؟

- أنا عبد الجليل

- في أي مدينة تكون وما جنسيتك.

- أنا في البدرشين، أنا حيث تمثال رمسيس العظيم ملك مصر الفاتح، أنا في منف. . . العاصمة العظيمة التي امتلأت في عهدكم بالحكماء والقضاة ورجال العلم والفن فأين أنت؟

- أنا في نفس المدينة لكن يخيل إلى أن زمن ما يفصلنا. أنه يشبه الجبال العالية والصحارى المديدة الفسيحة. فأية أعجوبة هذه التي جعلت الأرواح تعبر الأزمان لقد أثار إعجابنا عجلاتنا التي تطوي الأرض طياً ولكن ها هو ذا شيء عجيب آخر يطوي الزمن لكن ماذا تفعل في منف.

- أنا أعمل عملا جليلا. لو استطعت أن تمد يدك وراء الأجيال إلى يدي لشعرت بالدم يجري فيها حاراً ملتهباً إن الفرح الذي يملأ نفسي لتتضاءل أمامه كنوز العالم ومفاخره.

- أن الذي تقوله عجيب. . . فأنت تصف ما أحس به تماما. فأني أنتفض سعادة وأني لأشعر أن الدنيا تصغر في عيني أمام هذا المبدأ العظيم الذي تخرج مصر لتحققه. فهل أنتم تفعلون ما فعلناه نحن منذ قرون. ماذا تفعل في منف؟

- أني هنا اجمع القرش

- تجمعون القرش؟ ماذا تعني

- أعني أننا نجمع من كل مصري شيئا يتبرع به. شيئا تافها من ثروته. فإذا جمعنا هذه الثروات الضئيلة جمعنا ثروة ضخمة - وماذا تفعلون بهذه الثروة الضخمة؟ لست أفهمك فلعل الاتصال الذي بني وبينك قد اضطرب، فان عقلي لا يستطيع أن يدرك من الذي يجمع هذه الثروات الصغيرة ولمن يجمعها - ثم لماذا. آه، لعلكم تخشون المجاعة فتجمعون اليوم ما يقيكم شرها غداً وليس هذا شيئا عجيبا. لا يا صديقي لسنا نجمع هذه الثروات الصغيرة

لشيء مما يجري في بالك. بل نجمعها لنشيد بها مصانع تخرج لنا ملابس نلبسها ومآكل نأكلها، وأثاثاً نؤثث به بيوتنا.

ولكن من الذي يقوم بهذا الجمع؟ - الشعب، الشبان الذين أنا أحدهم. فأنا أترك العاصمة حيث الراحة والترف والهدوء. لأجوس خلال منف التي أصبحت قرية صغيرة فيصيبني التعب، وألقى أحيانا الأعراض، وأرى غالبا الفقر، فتذهب نفسي حسرات في الحالين ومع ذلك لست أيأس ولا أتقهقر.

- أنه إحساس الأمة، بدأ غامضاً، ثم اتضح شعورا ثم استحال فكرة ثم تجسد عملا.

- لا بد أن تكونوا شعبا ناضجاً جدا. أن القوة التي فيكم هي القوة التي خلقنا بها الفنون وأوجدنا العلم ولكن في نفسي سؤالا يضايقني فدعني أسألك إياه! ماذا كنتم تلبسون قبل هذه المصانع التي تريدون تشييدها. هل كنتم عراة. ثم ماذا كنتم تأكلون. هل كنتم في صوم؟ - لا، لقد كنا نشتري ثيابنا من غيرنا من الدول كذلك كنا نبتاع طعامنا. هل سمعت صرختي التي دوت. لقد أحسست بمثل مروق السهم في جسمي حين سمعتك تفوه بهذه الحقيقة المريرة. لقد شعرت بالألم، حين عرفت أن أحفادنا يعيشون متسولين لا يعرفون كيف يحيكون ثوبهم أو يصنعون طعامهم. . أنتم أهون من العبيد ماذا كنتم تفعلون لو منعوا عنكم الطعام، وحجزوا عنكم الثياب. - اطمئن، اطمئن يا أخي. فمصر اليوم من أولها إلى آخرها في ثورة على هذا الحال الأسود. وهو ينقشع وتبدو من بعد أضواء فجر جميل. فها أنا ذا قلت لك أننا نخرج فنؤسس مصانع تغسل عن كرامتنا هذه الإهانة التي جعلتك تصرخ. ومصر أنت تعرفها تستطيع أن تنتج لأبنائها كل شيء الثياب التي يلبسون، والطعام الذي يأكلون. ولكن أبناء أوروبا القارة التاجرة

التي لم تعرفوها، عودونا أطعمة خاصة، وألواناً من الثياب بعينها، فأصبحنا لا نستطيع أن نعيش بدونها فاستوردناها منهم. ثم خلقوا لنا صنوفا من الزينة فاشتريناها منهم ودفعنا ثمنها غالياً. وبذلك تسربت أموالنا إلى جيوبهم.

إن أشد أنواع الاستعباد استعباد الروح والفكرة. ففي بلادنا اليوم أعداء ولكنا لا نحس بهم لأن معتقداتنا ونظام حياتنا وأسلوب تفكيرنا، لم يصلوا إليها ولم يؤثروا عليها. فنحن أحرار ولكنهم هم أنفسهم المستعبدون فقد جاءوا إلى مصر فغيرت عاداتهم وأخلاقهم وجعلتهم أمة جديدة (لعلك أنت في منف لتحارب هؤلاء الأعداء) - نعم، أنا مع مئات الألوف من أبناء

مصر كل منا في صدره قلب لو وضعت يدك عليه لأحسست بعالم يهتز ويموج، في أيدينا سهامنا وأقواسنا وهي تشتعل حرارة هي حرارة هذه القلوب. ثم ترتفع من حناجرنا أهازيج هي أهازيج الفوز والانتصار. وأمامنا قائد هو أحمس تحيطه الأفئدة وتجري وراءه الأرواح، وتتابعه العيون. لا يقول شيئا إلا فعلناه ولا يشير بيده إلا أسرع إليه الشباب كله، في جسمه جروح لا تعد وفي جبينه شج هو خير من تاج. سنسير اليوم صفوفاً صفوفاً تحجب كثرتها قرص الشمس، وتسير أقدامنا تطرق الأرض طرقة متسقة موسيقية تطمئن لها الروح فتنشط لها النفس. ثم تتقدمنا العجلات الحربية فيها الشبان الذين كشفت ثيابهم عن أذرعهم القوية الجبارة، وصدورهم التي ترتفع وتنخفض انتظاراً للمعركة التييرتفع فيها اسم مصر، أني سعيد يا أخي، أني سعيد، فدعني أغني وأرقص. فان ساعة الفوز قادمة - ولكن ألا تفكر في أنك قد تموت!

- أموت! ما أبدع وما أروع! وهل ثمة ميتة أعز من هذه الميتة؟ لقد مات في معركة أمس صديق لي فلما اقتربت منه أساعده وجدت شفتيه تضطربان وعليهما بسمة. ثم همس في أذني. . ما أسعدني ليهبك الله شرف هذا الموت!

ولقد أصاب سهم جنب ابن عمي، فذاق عذابا لو نال الأهرام لذابت، ولكنه كان يغمض عينه ويضغط على شفتيه، وتملأ الصفرة صفحة وجهه وهو لا يكاد يئن. أنه يستعذب الألم، أنه يستطيب العذاب، ما دام ذلك من أجل هذا الوطن الذي نعيش فيه. إن مصر لتهب القوة والجلد والصبر. أنها لتخلق من الجبناء الضعفاء مغامرين أقوياء. دعني يا صديقي أغني فان ساعة المعركة قادمة، سنمضي مثلكم في جيوشنا السلمية: صفوف منظمة، أساليب محكمة وأيمان يملأ القلب. كل سنة نشيد مصنعاً تصنع فيه الكرامة المصرية العتيدة سليمة من جديد. وفي كل لحظة نبشر بمصر التي وهبت للدنيا الفن والحكمة، وعلمتها الزراعة والصناعة ورفعت للعالم مشعلا لم يرتفع له منذ آلاف السنين.

سيد فتحي رضوان

سرير رقم 33 المستشفى الإسرائيلي 15 يناير سنة 933

العَالم المسرحيّ والسِّينمائِي

للأستاذ محمد توفيق يونس

خاتمة الرواية الحديثة

أصاب نقدي على رواية (بنات اليوم) شيء من البتر أثناء الطبع جعل قولي في خاتمة الرواية وحلها غير مفهوم فأحببت أن أوضح هذه الفكرة فأقول:

قام على هذا الموضوع خلاف شديد بين أنصار المذهبين الرومانتيكي والواقعي. فهؤلاء يأخذون على أولئك ختامهم الروائي الذي ينتهي في المآسي بالذبح العام والقتل الشامل. وربما ادخلوا بعض أشخاص الرواية في هذه الرواية لأنها أسهل طريق للتخلص منهم. أما في الكوميديات فغالباً ما يسدل الستار على مكافآت عظيمة، وجوائز سنية، وعيش رغيد يبعد عن الحقيقة كل البعد.

رأى الواقعيون أن المسرح وهو قطعة من الحياة يجب أن لا يفصل عنها. فليس من الفن والواقع في شيء أن يعامل المؤلف القطعة التي اختارها من الحياة كأنها كائن قائم بنفسه. لذلك كان من الواجب عليه، وهو يسير بروايته إلى الغاية، أن يترك في نفوس جمهوره أثراً بأن الدنيا لا تزال مستمرة الحركة فيخرجون وهم يشعرون (بعد أن كوفئت الفضائل، وعوقبت الرذائل، وحققت الرغائب) أن أشخاص الرواية لم يزيدوا ولم يقلوا عن كونهم آدميين سيجدون ولا شك أفراحا جديدة وأحزانا أخرى مكتوبة لهم في سجل القدر. أما في الروايات القديمة فقد كان المؤلف يجعل النهايات حاجزا بين

الحاضر والمستقبل كأنما العالم بعد ختام روايته قد وصل إلى نهايته.
الجامحة على مسرح بريتانيا
رفع الستار وبدأت الرواية. الحوار شائق لذيذ، والعمل محكم جميل، والتحليل قوي دقيق، ولكنا نشعر كلما تقدمت الرواية ونما العمل بجو أجنبي، فالحادث غريب، والبيئة غريبة، والأشخاص غير مصريين وإن كان الكاتب (الأستاذ طاهر حقي) قد أعارهم أسماءنا وألبسهم ثيابنا. فليست الرواية مصرية في الواقع؛ وإذا كان الكاتب قد اقتبسها فكان ينبغي أن يعرضها في صيغة تلائم الذوق المصري، ويعنى فيها باللون المحلي حتى لا يجد
المشاهد نفسه في جو لا يحسه ولا يألفه ولا يتأثر به، وأمام أشخاص لا تدنيه بهم معرفة ولا تربطه بأحدهم صلة. وإذا كان التوفيق بين فكرة الرواية الأصلية والصبغة المحلية متعذرا فكان أجدر به ترجمة الرواية كما هي حتى لا يسئ الاقتباس، ويخطئ المغزى، ويخدع الجمهور.
أما التمثيل فلم يكن في مجموعه صحيحا متسقا. ونجاح الرواية في الواقع يرجع إلى بطلتها السيدة فاطمة رشدي، فقد لبست دورها ببراعة وحذق وكانت في موقعها في ختام الفصل الثاني جديرة بالإعجاب حقا.
الرواية السينمائية المصرية
شهدت القاهرة هذا الأسبوع محاولتين جديدتين في سبيل إيجاد الرواية السينمائية المصرية الصحيحة، (الزواج) للسيدة فاطمة رشدي، ثم (كفري عن خطيئتك) للسيدة عزيزة أمير وهي أول من وضع الحجر التاريخي للسينما المصرية. وهذه حركة نقابلها بالغبطة، وإن كنا نلاحظ على روايتنا السينمائية بوجه عام عدم توفر الأصول الفنية فيها، وكثرة ما بها من نقائص وعيوب. ولن تقوم الرواية السينمائية المصرية وتنهض الا على أساس من المعرفة الصحيحة والدرس الطويل. ومن الضروري أن يعهد بها إلى فنيين زاولوا السينما وأدركوا دقائقها، وفهموا حقائقها، وعرفوا أسرارها. وإذا كانت جهود الأفراد تعجز عن القيام بما يتطلبه هذا الاستعداد من نفقات، فلدينا شركة قائمة هي شركة مصر للتمثيل والسينما تستطيع أن تسد هذا الخلل وتقضي هذه الحاجة. ولنا وطيد الأمل أن تدخل الميدان وتساهم في وضع أساس الرواية السينمائية المصرية فنستقدم الخبيرين نسترشد بفنهم ونهتدي بتجاريبهم حتى ينتظم العمل من وجوهه الفنية جميعا.
ولقد رأينا ما كان لاشتراك المسيو روبير بدرويز المخرج بشركة جومون في رواية (كفري عن خطيئتك) من أثر جميل وتقدم محسوس فخرجت الرواية واضحة متسقة منتظمة. ولا يسعنا نحن إلا أن نرحب بهذه الخطوة الحميدة وأن نقابل بالتشجيع ونذكر بالخير مجهود عزيزة أمير والسادة أحمد الشريعي وتوفيق المردنلي ومحمد صلاح الدين وزكي رستم.
العدد 3 - بتاريخ: 15 - 02 - 1933
بين السوامر والصحف
الرسالة وقراؤها:
خرجت الرسالة إلى قرائها على الحال التي سمحت بها صعوبة البدء وأثالة العمل. فاستقبلوها إستقبالا ما وقع في الظن ولا تعلق به الأمل. ولا يزال البريد يحمل إلينا كل يوم رسائل الأصدقاء والقراء تفيض بحسن الظن، وجمال العطف، وكرم التعضيد، ومحض النصيحة. ومن هذه الرسائل الكريمة ما يستحق النشر لدقة ملاحظاته، أو رقة أدبه. أو سداد رأيه؛ ولكن دورانه على الثناء والتقريظيجعل في نشره إتهاما لخلق الرسالة.
وقلما تجد أنبل عاطفة من رجل يعنى بعملك لذاته، ثم يحمِّل نفسه ووقته لجهد الكتابة إليك صفحات في تأييده وقدره، ثم لا يريد بعد ذلك أن يبوح لك باسمه!!
فإلى هؤلاء تتقدم الرسالة بموفور الشكر على ما يرجون لها من خير، وما ينيطون بها من ثقة، وتسأل الله أن يؤكد بها أسباب التوفيق حتى تتحقق الظنون وتصدق الأماني.
آراء القراء:
من الكرام الكاتبين من يطلب إلى الرسالة المزيد في التعمق والإفاضة، ومن يرغب في شيء من الفكاهة والبساطة، ورأي الأولين أن تقصر على أدب الخاصة، ورأي

الآخرين أن تستدرج ذوق العامة، والرسالة ترجو أن توفق بين الرأيين، بأن تتخذ طريقها بين بين، ثم تنشر الحين بعد الحين أعداداً خاصة بما تجمع لديها من البحوث المستفيضة والدراسات العميقة والقصص الضافية.

لأشاغيل طرآنة:

للأستاذ محمد بك مسعود أثر جميل على الثقافة العامة منذ زمن طويل. وعهد القراء بأسلوبه سائغ المورد مأنوس اللفظ فيما نشر من صحف وألف من كتب. ولكنه منذ توفر محاكاة الأستاذ وحيد في تحقيق اللغة. ومباراة شيخ العروبة في تمحيص التاريخ، بدت على أسلوبه الصحيح أعراض الغرابة التي تلا زم اللغويين، والإعتداد الذي يساور العلماء.

ولا نحب أن نعرض لهذه الروح المنبثة في المنظارة (الطرطوشية) وأمثالها. فإنها بين عالمين جليلين لا يجهلان أن المن يفسد العلم، وأن شهوة التغلب تظلم الحقيقة، إنما نرغب إلى الأستاذ مسعود أن يوافقنا على أن حياة اللغة في أحياء اللفظ الذي لا نظير له في مألوف الكلام، أما استبدال صيغة مهجورة بصيغة مشهورة كاستعمال أشاغيل بدل شواغل، وطرآنية بدل طارئة، وصروح مكان صراحة، وقدور في موضع قدرة، ومشيوخاء بدلاً من شيوخ، فأحياء شر من الموت، وبيان أغمض من العي!!

التجديد والتقليد:

صديقنا الهراوي على تجديده ينكر التجديد، ويزعم إن كلمتي قديم وجديد ينقصهما التحديد، وكنت أحب أن أكون في جانبه حين قرأ في الأهرام (نفثات شاعر) لصديقه وزميله الأستاذ نسيم، إذن لأخذت إعترافه بأن في الشعر جديداً وقديماً، وأن الحطيئة قد يسمى عبد المطلب وقد يسمى نسيماً. وإلا فإلى من كان ينسب هذا الشعر لو لم ينشر تحته أسم صاحبه؟

وما زعزعتني الحادثان كشامخ ... رسا بهضاب فوقه واكام
وللدهر مرنان رددت سهامها ... وقابلتها من حعبتي بسهام
فقدت صديقي اللذين تبوآ ... من الشعر أعلى ذروة وسنام
وأصبحت في جيل نبا بي ودهم ... وساء ثوابي بينهم ومقامي
وليس لهم غيري إذا جد جدهم ... وخطب الرزايا حولهم مترام
ولو شئت كانت لي زعامة شعرهم ... وكنت لمن يأتم خير إمام
شوارد تزري بالحطيئة هاجيا ... وتعي جريرا في مديح هشام
له الحمد ثم الحمد ما ذر شارق ... وما در غيم بارق برهام
وما ذرعت بطحاء مكة أينق ... تحن بأرزام لها وبغام
وما شدت إلا كوار فوق متونها ... وقيدت بشزر محصد وزمام

وبعد فأن الشاعر الذي يجعل للشعر جبلا وجملا ويتخيل الهضاب والآكام والجعاب والسهام والأرزام والبغام، ويذكر بطحاء مكة وأكوار النوق وهو في رياض الجزيرة وعلى ضفاف النيل، ويزعم أنه موئل قومه وليس من الزعامة في كثير ولا قليل؛ لا يسوغ في العدل الأدبي أن يقيد على حساب هذا الجيل: إن تعدد الأساليب في العصر الواحد أثر طبيعي لاختلاف العوامل المؤثرة في كل شاعر؛ ولكن الأسلوب الذي لا ينسجم مع أمور الحياة؛ ولا يتصل بشعور الأحياء، لا يدخل في هذه الأساليب، ولا يدل وجوده على شاعر ولا أديب.

الشبان والشيب:

كتب الأستاذ إبراهيم المصري فصلا قيما في البلاغ عن (أدباء الشباب وأدباء الجيل الماضي) نعى فيها على هؤلاء إستئثارهم بالمجد وإحتكارهم للشهرة وإنكارهم في سبيل ذلك جهود الشباب. وخشى أن يكون ذلك الأئتمار المضمر بالأدب الشاب تخوفا من انهزام أدب أنتشر لخلوالميدان، وأشتهر بطول الإعلان، فلا يجلد بطبعه للتنافس والنقد. وقال أن شيوخ الكتاب في الغرب لإخلاصهم لرساتهم الأدبية وثقتهم بملكاتهم الفنية، يسددون خطى النبوغ الناشئ، ويرفعون ذكر الشباب الموهوب، ويمهدون السبيل لخلافة الجيل الحاضر، ثم يهيب بالعزائم الفتية أن تعلن الحرب المشروعة على هؤلاء القادة الذين كسبوا هذه العناوين من غير جهد، ونالوا هذه النياشين من غير

حرب.
والرسالة تقر الأستاذ المصري على رأيه وترى من الجناية على الأدب أن تطغى أثرة الكهول على هذا الطموح. وأن تكون الهيمنة على الصحافة وسيلة لكبت هذا الروح، وتعلن أنها بطبيعتها ومبدئها أن تكون ملتقى الوئام بين الجيلين، وسفير السلام بين الفريقين.
العراق ومجمع اللغة العربية:
ينام صديقانا الحصري والزهاوي ملء الجفون في قصريهما المتقابلين على طريق الأعظمية ولا يعلمان أنهما أقضا مضجع وزارة المعارف المصرية ليلة: فقد روت الصحف المحلية أن الأستاذين الكبيرين جميل صدقي الزهاوي وساطع بك الحصري رفضا ترشيحهما لعضوية المراسلة للمجمع وجرى في خلال ذلك ذكر لجنة التأليف والترجمة، فظنت السياسة أن هذا الترشيح كان إقتراحاً من لجنة التأليف والترجمة التابعة للمجمع،
وإذن يكون هذا الرفض تسفيها للوزارة من جهة، ودليلا على إعراض البلاد العربية للمجمع من جهة أخرى. فأخذ الوزارة من مقال السياسة المقيم المقعد، وأصدرت بلاغا رسميا تكذب فيه أن يكون منها عرض، ومن الأديبين رفض. ووجه الوفاق بين المعارف والسياسة أن لجنة التأليف والترجمة هذه ليست تابعة للمعارف المصرية وإنما هي لجنة من لجان المعارف العراقية، تنظر في تأليف الكتب العربية ونقل المؤلفات الغربية. أما كيف دخل في اختصاصها ترشيح الأعضاء، فذلك أمر تسأل عنه وزارة (الزوراء).
مسارح الأذهان
الأدب والعلم
للأستاذ أحمد أمين
الأستاذ بكلية الآداب بالجامعة المصرية
مرت كلمة الأدب والعلم في اللغة العربية في أدوار عدة، استعملوا كلمة الأدب أحياناً فيما يرقى الخلق ويهذب النفس واستعملوها بمعنى أوسع حتى عدوا أفحش شعر لجرير والفرزدق والأخطل أدباً، وعدوا خمريات أبي نؤاس وغلمانياته أدباً كما يعد الفنان بعض الصور فنا وإن كانت صورة لوضع مستهجن أو فعل فاضح، وكذلك الشأن في كلمة العلم، كانوا أحياناً لا يستعملونها إلا في العلم الديني، ثم توسعوا في معناها حتى شمل كل ما ينتجه العقل والفن. وفي العصور الحديثة فرقوا بين الأدب والعلم ورسموا لكل دائرة، ومن ثم كانت الصحيفة أو المجلةأحياناً أدبية، وأحياناً علمية، وأحياناً أدبية علمية، وأصبح من المضحك أن نقول علم الأدب لأنالعلم غير الأدب، وأصبح لدينا من يسمى (أديباً) فلا يكون عالماً، وعالماً فلا يكون أديباً، وقد يكون أديباً عالماً ولكن كلمة (عالم) الأزهرية إنما إشتقت من العلم بالمعنى الواسع الذي يشمل الأدب والعلم معاً.
وبعد فما الفرق بين العلم والأدب وما الذي يجعل الأدب أدباً والعلم علماً؟
الحق إن كلمة الأدب والعلم من الألفاظ الغامضة التي نفهمها نوعاً من الفهم فإذا أردنا تحديدها حرنا في أمرها، كالجمال والعدل والخيال والحرية والعبودية، وإذا سألنا (حتى الخاصة) في معناها أجاب كل حسب ميوله وأغراضه وحسب طبيعة فهمه للكلمة.
وهناك أشياء لا نشك في أنها علم أو أدب، فلو سئلت عن نظريات الهندسة وقانون اللوغارتمات وقوانين الحساب والطبيعة والكيمياء فذلك علم بالبداهة، وإذا سئلت عن قصائد بشار وأبي نؤاس والمتنبي ومقامات الحريري فذلك أدب لا علم، ولكن ما حدود الأدب وما حدود العلم؟
قد عودتنا الطبيعة أن الأضداد تفهم ما تباعدت، فإذا ما تقاربت حدودها صعب فهمها، ما أسهل ما تقول أن هذا ظل وهذا شمس، ولكن عند تقارب الظل من الشمس تجد خطوطاً يصعب أن تقول أهي ظل أم شمس، وما أسهل ما تقول إن هذا الماء حار أو بارد إذا
إشتدت حرارته وبرودته ولكن ما أصعب ذلك إذا أخذ الحار يبرد والبارد يسخن فأنك تصل لا محالة إلى درجة يعسر عليك الحكم فيها بالحرارة أو البرودة.
أكبر ظاهرة في التفريق بين الأدب والعلم إن الأدب يخاطب العاطفة، والعلم يخاطب

العقل، فإذا قلت إن زوايا المثلث تساوي قائمتين فإنك تخاطب العقل ولا تمس العاطفة وإذا قال المتنبي:

خلقت ألوفاً لو رحلت إلى الصبا ... لفارقت شيبي موجع القلب باكياً

فهو يمس العاطفة أولا، ومن أجل هذا كانت الجملة الأولى علماً وبيت المتنبي أدباً. العالم يلاحظ الأشياء يستكشف ظواهرها وقوانينها وعلاقتها بأمثالها وما يحيط بها، على حين إن الأديب لا ينظر اليها إلا من حيث أثرها في عواطفه وعواطف الناس، ينظر النباتي إلى شجرة الورد فيدرس كل جزء منها والتغيرات التي تطرأ عليها من وقت بذرها إلى وقت فنائها، ومن أية فصيلة هي، وما علاقتها بالفصائل التي تقرب منها، أما الأديب فينظر إلى أجزاء الشجرة منسقة متناسبة ويرى أنها لم تخلق إلا لزهرتها الجميلة، وأن بين الزهر وقلبه نسباً، يعجب بحمرة لونها على خضرة أوراقها ويذهب خياله في ذلك كل مذهب. أما النباتي فيبحث لم كانت الزهرة حمراء وأوراقها خضراء. عالم الحياة لا يرى في الفتاة المحبوبة إلا إنساناً خاضعا لكل أبحاث البيولوجيا أما الأديب فيرى في محبوبته شيئاً وراء كل ما يبحث عنه العالم، هي الحياة وهي الدنيا وهي النعيم إذا وصلت والبؤس إذا صدت، أو يقول مع القائل:

ويلاه إن نظرت وإن هي أعرضت ... وقع السهام ونزعهن أليم

فالكلام إذا لم يثر عاطفة لم يكن أدباً فإذا هو خاطب العقل وحده كان علماً، وإذا أمعن في إثارة العاطفة كان أمعن في الأدب. وليس الأدب وحده هو لغة العاطفة فقد تفوقه في هذا الموسيقى فهي قادرة على أن تضحك وتبكي، وتسر وتحزن، وتسر سروراً حزيناً، وتحزن حزناً سارا وتؤلم ألما لذيذا، وتلذ لذة أليمة، وتثير الشجاعة حتى لتدفع إلى الموت، وتنفث الخمول حتى لتدعو إلى النوم، تقدر الموسيقى أن تفعل كل ذلك في العاطفة وهي اقدر من الأدب لأن الأدب يخاطب العاطفة بواسطة الكلام ومن طريقة أما الموسيقية فتخاطب العاطفة وجها لوجه من غير وسيط، تؤثر فيك أدوار العود والقانون والبيانو ولو لمتصخب بكلام ولو لم تفهم أي معنى منها، بل تكره أن تفهمالا النغم وحلاوته والتوقيع وعذوبته. أما الأدب فلما أعتمد الكلام والكلام إنما يفهم بالعقل كان لا بد للقطعة الأدبية من قدر من العقلومن المعاني تستثار بها العاطفة وتهيجمنها المشاعر. وارتباط العاطفة بالأدب هو الذي منح الأدب (لا العلم) الخلود، فالنتاج الأدبي خالد أبدي لا النتاج العلمي، فقصائد أمريء القيس والنابغة وجرير والفرزدق وبشار وأبي نؤاسوالمتنبي كلها خالدة تقرؤها فتلتذ منها كما يلتذ منها من كان في عصرهم، فأن احتاج إلى شيء فتفسير ما غمض من الألفاظ والمعاني، وهو بعد يشعر بشعورهم ويسر كسرورهم، ثم القطعة الأدبية لا تمل، تقرؤها ثم تقرؤها فتسر منها في الثانية سرورك منها في الاولى، تتعشق تلاوتها وتكرارها، وليس ذلك هو الشأن في العلم فحقائق العلوم خالدة ولكن منتجات العلوم غير خالدة فما في كتاب أقليدس من نظريات هندسية خالدة ولكن الكتاب لايقرؤ الآن إلا من أراد أن يرجع إلى تاريخ الهندسة، وكل كتاب في الهندسة يموت بمرور سنين عليه ولا تعود له قيمة إلا القيمة التاريخية مهما حوى من نظريات جديدة وترتيب جديد، وكذلك كتب الحساب والجبر والطبيعة والكيمياء والفلك ليست خالدة وإن كانت الحقائق التي فيها خالدة، بل الطبعة الثانية من هذه الكتب تقضي على الطبعة الأولى بالفناء إذا دخلها تغيير، وليس طالب علم الآن يرجع إلى ما ألف من خمسين عاما إلا إذا أراد أن يؤرخ العلم ولكن طالب الأدب يرجع إلى ديوان المتنبي ليتذوق أدبه ويلذ مشاعره كما كان ذلك منذ ألف عام، وقد حفظت بعض قصائده ولا أزال أستمتع بترديدها ولكن إن أنت قرأت كتاباً في الرياضة وفهمت ما فيه لا تستطيع في الحال أن تعيد قراءته إلا على مضض.

والسبب في هذا (على ما يظهر) أن عواطف الإنسان لم تتقدم كما تقدمت عقولهم، قد ترقى العواطف شكلاً فترى أن الإحسان إلى الفقير بإعطائه درهماً ليس خيراً ولكن خيراً منه بناء مستشفى وإنشاء ملجأ ونحو ذلك، ولكن العاطفة هي هي في أساسها، وقد ترقى عاطفة الحنو الأبوي فلا ترى مانعاً من دفع الأولاد إلى حرب الحياة وجوب الأقطار، ولكن العاطفة في أساسها واحدة. أما العقل فوثاب دائماً راق أبداً، في الشكل وفي الأساس يرى حلالا اليوم ما كان حراماً بالأمس ويرى حقاً الآن ما كان

باطلاً من قبل ويخترع كل يوم جديداً ويصوغ حياته وفق الجديد. ومن أجل ذلك لا يلذ له أن يقرأ عقل السابقين إلا كما
يقرأ تاريخهم ولكن عواطفه هي هي ركزت وثبتت فتلذذ اليوم بما يمثل عواطف الأقدمين وإن كرت عليها الدهور وتوالت العصور، وليس الأمر بهذا القدر من السهولة في الفصل بين الأدب والعلم. فهناك أنواع يصعب الفصل فيها حتى على الخاصة أأدب هي أم علم، هناك أدب (معلم) وهناك علم (مؤدب) هناك تاريخ صيغ صياغة أدبية فلا يكتفي بسرد الحقائق وتعيين سبب وقوعها وإنما يضع ذلك في قالب يثير شعورك للإحتذاء والقدوة أو للحب أو الكراهة. وهناك فلسفة صيغت في قالب قصة، وهناك طبيعة وكيمياء صاغتها يد صناع ماهرة في الفن تحمل قلم أديب فأخرجت منها موضوعات شيقة تثير عاطفة الجمال وتستخرج الإعجاب بما في هذا العالم من إبداع وفن.

هذه الموضوعات وأمثالها ليست أدباً خالصاً ولاعلماً خالصاً وإنما هي علم أدبي أو أدب علمي، هي أدب بمقدار ما تثير من عاطفة، وهي علم بمقدار ما فيها من حقائق.

العلم لغة العقل، والأدب لغة العاطفة، ولكن لابد في هذه الحياة أن يلطف العلم بالأدب، والأدب بالعلم، فالعقل إذا جمح استخف بالشعور وجعل الحياة ثمناً للعلم، وهو إذا مزج بشيء من الأدب مس الحياة ورقّه على الناس، والعاطفة إذا شردت كانت ثوراناً وهياجاً. ألا ترى التعجب يزيد فيكون نباحاً، والعشق يهيم فيكون جنوناً؟

حظ الأديب في مصر

للأستاذ عبد العزيز البشري

خاض بعض أفاضل الكتاب في هذا الحديث فتظاهروا على أن الأدب لا يجدي في مصر على أهله، وإن هو أجدى بعض الأحيان ففي شح وتقتير، إذ هو في بلاد الغرب يعود بالغنى والثراء، وقد يعود بأوسع الغنى وأضخم الثراء. وراحوا يتشعبون مذاهب العلل والأسباب لهذه الحال: ومن بين هذه الأسباب قلة عدد المتعلمين في البلاد، وفتور هؤلاء عن اقتناء كتب العلم والأدب، وخاصة إذا استخرجت منه أثمانها، وانتشار الأدب الرخيص تنتضح به بعض المجلات الأسبوعية فيقبل عليه الشباب من المتعلمين ومن لا يزالون في طريق التعلم مطاوعة للشهوة، ولأنه لا يحتاج إلى كد ولا مطاولة. وكذلك أضافوا الأمر إلى أثرة الناشرين وإستغلالهم حاجة الأدباء وضعف وسائل هؤلاء إلى القيام بنشر آثارهم بأنفسهم. ثم إلى عدم عناية القادرين، من أي صنف كانوا، بالأدب الرفيع يذكونه بألوان المعونة والتشجيع.

وكل هذه الأسباب لا تعدو في رأي الحق الواقع في كثير ولا قليل. وعلى ذلك لم أدفع القلم اليوم لمناقشتها والتماس سواها، وإنما لأسرد تاريخاً موجزاً لصلة الأدب بالمادة في بلادنا إبتداء من الجيل الذي شهدنا طرفه إلى غاية هذا الجيل الذي نعيش فيه. كان الأدب من بضع وخمسين سنة مجرد حلية وزينة يتكلفه المتأدبون إما للمفاكهة والتعابث والتظرف، وأما للزلفى طلبا للتمكين من المنصب أو الحظوة عند أولي الأمر، أو أستخراجا للإحسان.

لم يكن الأدب، في الجملة، إذن يطلب غرضاً سامياً سواء من إمتاع النفس باطلاعها على ما في الكون من فتنة وجمال، أو معالجة القضايا العامة وملابسة الأسباب الدائرة بين الناس. فكان الشعر في الجملة أيضاً، يدور في المذاهب التي سلكها العرب الأقدمون من مدح وهجاء، وفخر وغزل ورثاء؛ على أنه، حتى في هذه الأغراض الضئيلة لم يكن أكثره على شيء من الخطر سواء في سمو المعاني أو في قوة الأداء. بل كان نسلاً ضعيفاً متزايل الأجزاء. وكيف يشعر لا يزيد على أنه نقض دارس مما أزل شعراء العهد العثماني: التماس المحسنات البديعية من جناس وتورية واستخدام، بالغة ما بلغت المعاني وواقعاً ما وقع نظم الكلام.

أما النثر، وأعني النثر الفني بالضرورة، فكان أشد نسولة وأبلغ تزايلا؛ كلام لا يكاد يجري لغرض أو يستشرف إلى غاية؛ إنما هو السجع يلتزم فيه كله فترى فيه السخن والبارد، والحلو والحامض.

لم يكن من شأن هذا المقال أن يعرض للأسباب التي بعثت هذا الأدب القوي العالي الذي نذوقه اليوم، فذلك مبسوط في كتب تاريخ الأدب العربي. وإنما عقدنا هذا الكلام لأيراد موجز من تاريخ التكسب بالأدب عندنا في العصر الحديث كما ذكرنا في صدر

هذا المقال.
لقد كان التكسب بالشعراء، في الجملة، من طريق واحدة، هي أن طائفة ممن يتكلفون نظم الكلام كانت الحاجة تبعثهم إلى أن يرتصدوا إلى حكام البلاد وأعيانها وموسريها حتى إذا دخلت على أحدهم نعمة من أي لون كانت أو مات له ولد أو نسيب بادروا بأزجاء التهنئات يموهون حروفها بماء الذهب، أو المراثي يجللون رقاعها بالسواد، ولا يزالون يختلفون اليه في طلب العطية. وقد لا يظفرون، في الغاية ألا بتسريح بغير إحسان. ولقد أساء هؤلاء إلى الأدب إساءة بالغة، بحيث نشأت ناشئة الجيل الماضي وهي لا تكاد ترى في الأدب إلا الكدية، ولا في الأديب إلا أنه شحاذ! أما التكسب بالنثر فكان له طريق آخر أقبح من ذاك وأخزى. وذلك بأصدار صحف صغيرة حقيرة قد تظهر مرة في الأسبوع أو في الشهر أو في نصف العام. ومادة كسبها في الواقع من تخويف ضعاف النفوس بتشهيرهم وطلب معايبهم والتدسس إلى مكارههم إلى أن يشتروا أعراضهم، فأن فعلوا وإلا فلأمهم الهبل.
ولقد إنتهى، والحمد لله، هذان الضربان من التكسب بالأدب ولم يبق لهما في بلادنا، على ما أرى، من أثر. ولعل ذلك راجع إلى تغير فهم الناس لمعنى الأدب، وإرتفاعهم به على ذلك الهوان، وإلى إنتشار الثقافة بوجه عام، وإلى خشية سطوة القانون بوجه خاص.
وليس معنى هذا أنه لم يكن هناك لا أدب ولا أدباء، بل كان الشعراء وخيار الكتاب، إلا أنه لم يكن يتكسب أحد من هؤلاء (ما عدا الصحفيين المحترفين) بصنعة القلم.
نعم كانت الصحافة بمعناها الصحيح، ولا زالت مهنة كريمة نبيلة تجدي على أصحابها وعلى المشتغلين بها ما يعودون به على شملهم، بل ما قد يغنيهم ويضيف إليهم الثروات الضخام. أما هواة البيان على حد التعبير الحديث، فلم يكن لهم من هذه الجدوى نصيب.
ثم كانت (الجريدة) وقام على شأنها الأستاذ العلامة الكبير أحمد لطفي السيد بك، فرأى أن
يدعو نفراً من كبار العلماء والكتاب إلى تغذية الجريدة من وقت لآخر بالمقالات المتخيرة المنتقاة في مختلف أسباب الحياة، واجتعل لهم ذلك الجعالات. ولعله في ذلك كان متهدياً بسنة الصحافة في الغرب.
على أنه لما إشتدت قوة الصحافة في مصر وعظم انتشارها بحكم إطراد الحضارة وكثرة المتعلمين، وإزدياد تتبع الجمهرة للأسباب العامة وشدة إهتمامها بها (اضطرت) كبريات الصحف، بنوع خاص، إلى العناية بتجويد تحريرها، وإغزار مادتها، حتى لقد جردت بعض صفحاتها لطريف البحوث في شتى العلوم والفنون، وفوق أنها أضعفت وظائف محرريها أضعافاً. فقد جعلت كذلك تؤجر الكاتبين فيها من غير محرريها بما لم يكن يحلم به أحد من عشر سنوات خلت. هذه حقيقة للأدباء أن يغتبطوا بها، وإذا كان المدى بين حظوظهم وبين حظوظ رصفائهم في الغرب لا يزال فسيحاً، فلهم من الأمل في القريب مزيد إن شاء الله.
بقى الحديث في التكسب بالأدب من طريق نشر الكتب ودواوين الشعر. والذي شهدناه من أعقاب الجيل الماضي ولا نشهد غيره إلى اليوم. أن الكسب من هذه الطريق يكاد يكون مكسوراً على جماعة الوراقين كما قال بحق بعض كبار الكاتبين على إنني أرجو منه أن يأذن لي في إستثناء أصحاب الكتب المقررة للتدريس، فاؤلئك وحدهم المجدودون، أو الذين كانوا مجدودين إلى وقت قريب. لقد كان الأدب عندنا، ولعله لا يزال عند الأكثرين إلى الآن ينتظم في سمط الكماليات، والكماليات عند أكثر الناس ليست حقيقة بأن يخف المرء اليها، اللهم إلا إذا واتته عفواً، أو بغير مشقة ولا جليل إنفاق. فبات بديهاً ألا تنفق كتب الأدب حتى تعود على أصحابها بنفقات طبعها بله الثروة وكرائم الأموال.
أما كتب العلم، فأن العلم يطلب في بلادنا على أن يفضي إلى إحراز شهادة رسمية تقلد محرزها منصباً حكومياً، فإذا لم يكن الأمر على هذا فلا كان علم ولا كان تعليم! هذه حقيقة واقعة أرى إن إنكارها ضرب من الغش والتدليس مشايعة لهوى الجمهور، والعياذ بالله! لعل واحداً في كل ألف من الذين ختموا دروسهم في بلادنا هم الذين يشقون كتاباً علمياً لا تدعوهم إلى شقه حاجة المهنة. نعم لعل في الألف من

المتعلمين واحداً أو دون الواحد هم الذين يطلبون العلم ويراجعون مدوناته ليكملوا أنفسهم، وليتزيدوا من
معارفهم، ويفسحوا في ملكاتهم. العلم عسير الهضم، يكد الذهن ويجهد النفس، ففيم مكابدته وشدة المطاولة في تحصيله ما لم تقض بتحصيله ضرورة ملحة قاسية، من إرهاق الولي أو إلحاح الحاجة، أو جموح الشهوة إلى المنصب يعرض الجاه، ويعز في الأهل والصحاب!. فكيف تريدون أن تنفق عندنا كتب العلم للعلم؟ . . . . . .!
أما الكتب المقررة للتدريس فهي التي كانت إلى وقت قريب، تدر على أصحابها الكثير بل الذي يستطيعون أن يكاثروا به أعلى مؤلفي الغرب قدراً وأبعدهم صوتاً! ولا أحسب أن هذا الأجداء كله يرجع إلى فضل المؤلفين وحده وعظم تجويدهم لما يخرجون من فنون الكتب، بل لعل شيئاً من ذلك يعود إلى أن هذه الكتب مفروضة فرضاً على العديد الأكبر من تلاميذ المدارس تشتريه وزارة المعارف لهم أو تريدهم على شرائه، وإلا خذلوا في الإمتحان وأفلتتهم الإجازات، أو على الأصح فاتهم التأميل في المناصب الحكومية. ولا حول ولا قوة إلا بالله!
الواقع أن أكثر الكتب المقررة موف على الغاية من التجويد والإحسان، ولكنها غير مدينة في رواجها إلى هذا التجويد والإحسان. بل هي مدينة في ذلك، مع الأسف الكثير، لأنها مفروضة على التلاميذ فرضاً، ولو قد عدل عنها ما أخرجت المكتبات عشر ما خرج منها على أسخى تقرير. وهذه الحقيقة المرة القاسية ترينا مبلغ حظ العلم والأدب في هذه البلاد.
ومهما يكن من شيء فأن لنا أن تغتبط، ولو قليلاً، إذا نحن قسنا حاضرنا بماضينا القريب، فبين مؤلفينا من يستردون من أثمان مؤلفاتهم ما أخرجوا لطبعها، وفيهم من تفضل عليهم من الربح الكثير أو القليل. وكل الذي نرجو أن تطرد همم الشباب في تحصيل العلم الصحيح، وتتجرد عزائمهم في طلب الأدب العالي، معرضين عن إلتماس هذا الأدب الهين الرخيص. هنالك تنبعث في البلاد الحياة القوية العزيزة، وهناك يجازى العلماء والأدباء بما يكافئ الجهد العظيم.

أثر الثقافة العربية في العلم والعالم

بقلم أحمد حسن الزيات

(2)

فرغ العرب من رسالتهم الدينية بانقضاء الفتوح، ولم يكد الأمر يستوثق لهم والنظام يستقر بهم وظلال الامن ترف عليهمحتى أخذوا يبلغون العالم رسالتهم العلمية بذلك العزم الذي لا ينكل عن خطة ولا يقف دون غاية. وكان مهبط الوحي بتلك الرسالة بغداد لأنها البلد الأول الذي رفرف عليها السلام وتدفق فيه الغنى واشتد به الخلاط وتجمعت لديه شتى الوسائل. ومن خير هذه الوسائل التي حققت هذا الشرف للعراق أن علماء النساطرة الذين نفوا إليه من الممالك الرومانية الشرقية لأسباب دينية، كانوا قد أنشأوا في إديسة من بين النهرين مدرسة تنشر علوم اليونان والرومان، ولما أغلقها الأمبراطور زينون الأوزريالي لأسباب دينية أيضاً، لاذوا بأكناف بني ساسان فلقوهم لقاء جميلاً، وأقام لهم أنوشروان في جنديسابور مدرسة وصلت ما انقطع من تلك الحركة.
وكان الأمبراطور جستنيان يومئذ قد فتح باب الجور على أساتذة المدارس الأفلاطونية في أثينا والإسكندرية فألجأهم للجلاء والشراد فما اعتصموا منه إلا بفارس. وأخذ هؤلاء وأولئك ينقلون إلى السريانية والكلدانية كتب أرسطو وسقراط وجالينوس وأقليدس وأرخميدس وبطليموس، فكان ما ترجموه من العلوم ومن خرجوه من العلماء نواة صالحة لهذه النهضة المباركة التي نهد لها الخلائف الأولون من بني العباس. كان أول من تلقى وحي هذه الرسالة الخليفة الثاني أبو جعفر المنصور فأنشأ المدارس للطب والشريعة واستقدم جرجيس بن بختيشوع رأس أطباء جنديسابور ونفراً من السريان والفرس والهنود فترجموا له كتباً في الطب والنجوم والأدب والمنطق. ثم حملها من بعده الرشيد فنفخ فيها من روحه ونشرها في العالم بروحه وترجم في زمنه ما وجد من كتب الطب والكيمياء والفلك والجبر والنبات والحيوان. فلما تلقاها المأمون لم يبق من كتب العلوم والفنون والصناعة شيء في العبرانية واليونانية والسريانية والفارسية والهندية إلا نقل إلى العربية. ولم يقف العرب عند الدرس في هذه المترجمات وإنما

أقبل بعضهم على تحصيل اليونانية واللاتينية ليرجعوا بهما إلى بعض تلك الأصول. وفي مكتبة الاسكوريال ما يثبت ذلك من
قواميس عربية يونانية وأخرى عربية لاتينية قد ألفها العرب للعرب. ثم أقبل الناس في الشرق والغرب على هذه العلوم يعالجونها بالشرح والتحليل حتى اجتازوا سراعاً دور التلمذة والتقليد إلى دور الابتكار والتجديد، فهبوا ينشئون المدارس ويقيمون المراصد ويمحصون المسائل ويؤلفون الرسائل ويؤسسون المكاتب، وقد جروا في ذلك إلى أبعد الغايات. ذكر (بنيامين دتوديليه) أنه رأى في الاسكندرية عام 1173م عشرين مدرسة، فما ظنكم ببغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة وأشبيلية وطليطلة وغرناطة وقد كان فيهن عدا العدد الوفر من مدارس الثقافة العامة جامعات للثقافة الخاصة وما يتبعها من وسائل البحث كالمعامل والمراصد والمكاتب؟ وأنكم لتكبرون ما بذله العرب من الجهود الجبارة في سبيل المدنية والعلم إذا قستموه بما خلفوه من البحوث وما ألفوه من الكتب. فقد تناولوا أصول المعارف الإنسانية بالتقصي الدقيق والغوص العميق حتى فرعوها إلى ثلاثمائة علم أحصاها طاشكبرى زاده في كتابه مفتاح السعادة. ثم استنزفوا الأيام في معاناة التأليف على صعوبة النسخ وكثرة المؤونة وقلة الجدوى، فتركوا للعالم ذلك التراث الضخم الذي اشتملت عليه مكاتبهم في الشرق والغرب. فقد ذكر (جيبون) في كتابه عن الدولة الرومانية أنه كان في طرابلس على عهد الفاطميين مكتبة تحوي ثلاثة ملايين مجلد أحرقها الفرنج سنة 502هـ، وقال المقريزي انه كان في خزانة العزيز بالله الفاطمي مليون وستمائة ألف مجلد نزل بها ما نزل بمصر من الأحداث فأغرقت في النيل أو ألقيت في الصحراء تسفى عليها الريح حتى صارت تلالاً عرفت بتلال الكتب! وروى المقري انه كان بخزانة الحكم الثاني بقرطبة أربعمائة ألف مجلد فيها أربعة وأربعون للفهرس، وأبلغها الأستاذ جوستاف لوبون إلى ستمائة ألف، ولاحظ بهذه المناسبة أن شارل الحكيم الذي اعتلى عرش فرنسا سنة 1364 أي بعد خلافة الحكم بأربعمائة سنة، لم يستطع أن يجمع في المكتبة الأهلية بباريس حين أسسها إلا تسعمائة مجلد كتب ثلثها في علوم الدين. ناهيكم بالثمانين ألف مجلد التي دمرها (كيمينيس) في ساحات غرناطة وبما أحرقه التتار في بخارى وسمرقند وأغرقه هلاكو ببغداد عاصمة العلم والعالم في ذلك العهد! ويلوح لي أنه ليس في ذلك كثير من المبالغة، فأن في المؤلفين من تبلغ تصانيفه بضع مئات، وإن في المؤلفات ما يقع في عشرات المجلدات، فلأبي عبيدة مائتا كتاب، وللكندي واحد وثلاثون ومائتان، وللرازي
مائتان، ولأبن حزم أربعمائة، وللقاضي الفاضل مائة. وجاء في نفح الطيب أن مؤلفات عبد الملك بن حبيبعالم الأندلس قد بلغت الألف. على أن توالي الفتن والمحن على العالم الإسلامي لم يبق للعصر الحديث من هذا الكنز المذخور والمجد المسطور إلا ثلاثين ألفاً وزعت على مكاتب العالم! يزعم بعض المتعصبين من العلماء الأوربيين أن العرب إنما كانوا في العلم حميلة على اليونان ونقلة عنهم، فليس لهم أصالة فكرية ولا عقلية فلسفية، ولو لم يكن للعرب على زعمهم من الأثر إلا أنهم أنقذوا هذه الكتب من عدوان الأرضة، وحفظوا تلك العلوم من طغيان الجهالة، حتى أدوها صحيحة نقية إلى العصور الحديثة لكان لهم بذلك وحده الفخر على الدهر والفضل على الحضارة. فكيف والواقع غير ما يدعون بشهادة المنصفين منهم؟ فأن ملايين الكتب التي دمرتها بربرية أسلافهم في الغرب، وأشباه أسلافهم في الشرق، لم يكن ما نقل منها عن خوالي الأمم إلا بضع مئات كانت أساساً لبناء باذخ ضخم شاده العرب، ونواة لدوحة باسقة ظليلة رواها وغناها الإسلام. فالطب قد أخذوا أصوله عن أبقراط وجالينوس وبعض السريان والهنود، ولكنهم نقوا هذه الأصول من الشعوذة، ورقوها بالترتيب، ونموها بالتجربة، وانتقدوا مذاهب القدماء في تعليل بعض الدواء، استحدثوا في التشخيص والعلاج نظريات وعمليات ووسائل أطبق الباحثون على إنها لم تعرف من قبلهم، ولم تنسب إلى غيرهم، ككشفهم علاج اليرقان والهيضة، وأخذ المرضى بالصفد والتبريد والترطيب في الفالج والحمى واللقوة على غير ما ألف الأقدمون. فعلى ذلك صاعد بن بشر ببغداد فنجح تدبيره فأقتدي به سائر الأطباء بعده. وهم أول من أستعمل المُرْقد في الطب، والكاويات في الجراحة، وصب الماء البارد لقطع النزيف. وقد فطنوا إلى عملية تفتيت الحصاة، وعين أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي المعروف عند

الفرنج (بالبوكاريس) موضع البضع لإخراجها، وهو ماعينه متأخرو الجراحين من الفرنج. وأبو القاسم هذا هو الذي قال فيه الأستاذ هالير: (إن كتبه كانت المنهل العام الذي نهل منه جميع الجراحين بعد القرن الرابع عشر) وأبو بكر محمد بن زكريا الرازي أول من كتب في أمراض الأطفال، وألف في الجدري والحصبة، وأستعمل الكحول والحجامة في الفالج. والرئيس أبو علي بن سينا أمير الأطباء وجالينوس العرب كما يلقبه الفرنج وضع كتابه القانون فكان شريعة الطب في العالم زهاء ستة قرون. وكان عمدة التدريس في

جامعات فرنسا وإيطاليا ولم ينقطع تدريسه في جامعة مونبلييه ألا أواسط القرن التاسع عشر. وقد تعرض فيه بالتفصيل الدقيق إلى علم الصحة وقرر نظرية (الهجين) الرياضي وهي نظرية كان المظنون أنها من ثمرات العلم الحديث. ومن الأقوال المأثورة أن الطب كان معدوماً فأحياه جالينوس، وكان متفرقاً فجمعه الرازي وكان ناقصاً فأكمله ابن سينا. وإذا مضينا نذكر أمثلة مما جدد سائر الأطباء العرب كإبن زهر وإبن رشد وإبن باجة وإبن طفيل إستبحر القول والتاث علينا تحديده وحصره. وفي كتاب طبقات الأطباء لأبن أبي اصيبعة وتراجم الحكماء لأبن القفطي وتاريخ الطب العربي للكلركما ينقع غلة المستزيد. وللعرب القدم الأولى واليد الطولى في الصيدلة والكيمياء والنبات، وهي في رأيهم شعب من علم الطب أو لواحق به، فهم واضعوا أصول الصيدلة وأول من مارس تحضير العقاقير واستنباط الأدوية. وكذلك هم أول من ألف في الأقرباذين على هذا النمط، وأقام حوانيت الصيدلة على هذا الوضع. وظل العرب معتمدين في المارستانات والصيدليات. على أقراباذين وضعه سابور بن سهل في منتصف القرن الثالث من الهجرة حتى نسخه أقرباذين ابن التلميذ المتوفي سنة 560 ببغداد. ولا تزال أسماء العقاقير التي أخذها الفرنج عن الشرق في كتبهم على وضعها العربي المرتجل أو المنقول. ولا نزاع اليوم في أن علم الكيمياء الصحيح إنما يؤرخ وجوده بجهود العرب فيه. فأنه في سبيل العثور على الإكسير أو إنكاره هدوا إلى عمليات أساسية ومركبات كيميائيةكان لها الأثر الظاهر في تأسيس هذا العلم. والإفرنج يعترفون للعرب بأنهم عرفوا التقطير والترشيح والتصعيد والتذويب والتبلور والتكليس، وإن جابر بن حيان وأخلافه قد استنبطوا طائفة من الأحماض التي تستعمل اليوم. كذلك برع العرب في علم النبات وبخاصة ما يتصل منه بالطب، فقد استفادوا مما كتبه دسقوريدس وزادوا عليه ما وفقوا اليه من شتى الأنواع ومختلف الشكول. والعلماء لسان واحد في أنه لم يأت بين دسقوريس اليوناني ولنييه السويدي المتوفي سنة 1707 أطول باعا ولا أوسع اطلاعا في هذا العلم من أبن البيطار المالقي. فأنه درس كتاب دسقوريدس ثم رحل إلى بلاد اليونان وأقصى ديار الروم فحقق أنواع النبات بنفسه، وأتصل ببعض من يعانون ذلك فاستعان بفهمه على فهمه، وأضاف علمهم على علمه، ثم عبر إلى المغرب فقام بمثل ذلك، وطلب منابت العشب في مصر والشام فدرسها حق

الدراسة ثم وضع بعد طول الدرس وسعة الخبرة كتابه الموسوم بجامع مفردات الأدوية والأغذية فكان أجمع الكتب في فنه، ومرجع الأوربيين في موضوعه. ولا يقل عن ابن البيطار في التفوق والفضل معاصره ومآزره رشيد الدين بن الصوري المتوفيسنة 639 فقد من إتقانه أنه كان يخرج إلى الأودية والفلوات في درس النبات ومعه مصور قد أستكمل آلته وأصباغه، فيشاهد النبات ويحققه ويريه المصور في أبان نباته وفي وقت كماله ثم في حال ذراه ويبسه، فيعتبر لونه ومقدار ورقه وأغصانه وأصوله ثم يصوره في كل طور من أطواره بالدقة. وذلك غاية ما بذلته الأمانة العلمية اليوم من الكمال. أما أثر العرب في العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية فبحسبنا أن نشير إلى أنهم أول من نقل الأرقام الهندية إلى أوربا، وأول من أستعمل الصفر في معناه المعروف، وأن كلمة الجورتمي اللاتينية مشتقة من أسم الخوارزمي محمد ابن موسى المتوفي سنة 220هـ وأن الجبر بأسمه العربي يكاد يكون علماً عربياً بعد أن وضع الخوارزمي كتابه في الجبر والمقابلة. وقد قال (كاجوري) في كتابه تاريخ الرياضيات: (إن العقل ليملكه الدهش حينما يقف على أعمال العرب في الجبر.) وفي مادة المثلثات من دائرة المعارف البريطانية أن العرب أول من أدخل المماس في عداد النسب المثلثية. وهم الذين استبدلوا الجيوب بالأوتار وطبقوا الجبر على الهندسة

وحلوا المعادلات التكعيبية. وفي الفيزياء أو علم الطبيعة كشفوا قوانين لثقل الأجسام جامدها ومائعها، وبحثوا في الجاذبية وقالوا بها. وكان أبو الحسن علي بن إسماعيل الجوهري أول من وضع مبادئ الضوء وأوضح أسباب انعكاسه عن النجوم، وأصلح الخطأ الشائع يومئذ من أن الأشعة تنشأ في العين ثم تمتد إلى المرئيات. وتشهد دائرة المعارف البريطانية في مادة الضوء أن بحوث العرب فيه هدت العلماء إلى اختراع المنظار. وفضل العرب على الفلك من البينات المسلمة، فقد رصدوا الأفلاك وألفوا الأزياج وابتكروا آلات الرصد وصححوا أغلاط اليونان والهند وحسبوا الكسوف والخسوف ورصدوا الأعتدالين الربيعي والخريفي وقالوا باستدارة الأرض ودورانها على محورها. وذكر (سكوت) في كتابه المملكة الأندلسية أن عالماً من طليطلة رصد أربعمائة رصد ونيفا ليحقق أبعد نقطة في الشمس عن الأرض ولم يختلف حسابه في ذلك عن أدق المباحث الحديثة إلا بجزء من الثانية. ويقول (كاجوري) أن اكتشاف بعض الخلل في حركة القمر يرجع إلى أبي الوفاء

الفلكي الزرجاني لا إلى تيخوبراهي. وقد عد لالاند الفلكي الفرنسي البتَّاني في العشرين فلكياً المشهورين في العالم كله ولا تزال طائفة الاصطلاحات العربية في الفلك مستعملة في كتب الفرنجكالسمت والنظير والمناخ والمقنطر والسموت فضلا عن أسماء النجوم والعربي منها لا يقل عن النصف. وأما أثرهم في الفلسفة المدرسية فأن الكندي والفارابي وإبن سينا في الشرق، وإبن باجة وإبن طفيل وإبن رشد في الغرب، قد توفروا على فلسفة اليونان بالدرس والشرح والتمحيص حتى جددوا دارسها وجلوا طامسها وكملوا ناقصها ووسموها بسمة الحرية والعبقرية والنضوج. وقد أثار أبن سينا بتفكيره الحر المنظم، وعقله القوي المنطقي، مسائل من العلم تشغل أذهان الباحثين اليوم. ووضع إبن طفيل قصته الفلسفية (حي بن يقظان) فأبان عن قوة نادرة في التفكير، وموهبة عجيبة في التصوير، واستيعاب موجز للأفلاطونية الحديثة. وقد نقل هذه القصة إلى اللاتينية (إدوار بوكوك) سنة 1671 فظهر أثرها سريعاً في قصة (روبنسون كروزويه) وشهد رينان لأبن رشد في كتابه عنه (أنه أعظم فلاسفة القرون الوسطى ممن تبع أرسطو ونهج سبيل الحرية في الفكر والقول) ودخلت العالم المسيحي فلسفة إبن رشد وفلسفة أرسطو فكان الاعتراض عليهما شديداً والإعجاب بهما أشد. وكان اللاهوتيون في القرون الوسطى يعجبون بأبن رشد وسعة علمه ودقة فهمه ونفاذ بصيرته ولكنهم كانوا يخشون أثر رأيه الجريء في العقائد. وتجدون (دانتي) في الملهاة القدسية قد جعل أبن رشد وأبن سينا في المقام الذي جعل فيه عباقرة الرجال من جهنم. تلك يا سادتي إشارات مبهمة مجملة إلى جهود العرب في العلم وآثارهم في الفكر تجدون بيانها وتفصيلها في تاريخ هذه العلوم، عرضتها بهذا الإِجمال على سبيل المثال لنقول لأصحاب ذلك الرأي الظنين الأفين أن التجديد في العلم يستلزم الاستقصاء البالغ والتمثيل التام والفكر المستقل، وإن العرب كما قال البارون (كارادفو) لم يكونوا نقلة للعلوم فحسب. ولكنهم بذلوا الجهد في إصلاحها وتحقيقها، وأفرغوا الوسع في بسطها وتطبيقها، حتى أدوا أمانتها إلى العصر الحديث.

فلسفة شوبنهور

للأستاذ زكي نجيب محمود

عصره:

سادت في أوروبا روح التشاؤم في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وتملك النفوس يأس قاتل، وارتفعت بذلك أصوات الشعراء والفلاسفة في كل ناحية من نواحيالقارة: بيرون في إنجلترا، ودي موسيه في فرنسا، وهيني وشوبنهور في ألمانية. ولقد يقف المرء امام هذه الظاهرة العجيبة وقفة لا تطول كثيراً حتى يجد اسباب ذلك في طبيعة ذلك العصر وظروفه التاريخية: فقد انفجرت الثورة في فرنسا ودوت في أرجاء أوروبا دوياً اهتزت من حوله عروش، وكان لصوتها صدى في كل الصدور وأثر عميق في كل النفوس، فمن أشراف ناقمين ساخطين، إلى زراع يهللون لها ويكبرون. . . ثم كانت واقعة وترلو فخفت ذلك الصوت الداوي، وعزل نابليون على صخرة سنت هيلانة الصامتة الموحشة في عرض المحيط، وعاد (البوربون) إلى ملكهم في فرنسا، وعاد في ذيلهم أشراف الإقطاع يطالبون بأملاكهم، وانتشرت في أوربا حركة رجعية تعمل على طمس معالم الثورة والتجديد.

كم من ملايين الشباب زهقت نفوسهم عبثاً، وكم من عامر الأرض بات خراباً بلقعاً. . .
فكنت لا ترى على وجه أوربا إلا آثاراً خربة وأنقاضاً هنا وهناك، ذلك لأن الجيوش النابليونية الجرارة من ناحية، وأعداءها من ناحية أخرى، أخذت تروح وتجيء اكثر من عشرين سنة قضت فيها على الأخضر واليابس، وخلفت القرى والمدائن ينتابها فقر مدقع وبؤس شامل.

ماتت الثورة الفرنسية وكأنما انتزعت معها روح الحياة من أوربا، لأن قلوب الشباب الطامح في كل بقعة من بقاعها كانت قد صغت إلى الجمهورية الناشئة وعاشت في ظلال الأمل الوارفة حيث أملت في مستقبل ذهبي سعيد، فما هي إلا أن وقعت الواقعة في وترلو حتى تحطمت كل هذه الآمال وتبدلت بمأساة سنت هيلانه ومؤتمر فينا فدبت في النفوس روح اليأس التي ملكت على الناس شعب الحياة، وأثَّر ذلك في النزعة الدينية أثرين مختلفين: أما الطبقة الفقيرة الجاهلة فقد التجأت إلى الدينتجد في كنفه السلوى والعزاء، وأما

الطبقة المفكرة فطغت على قلوبهم موجة إلحادية، ولم تعد عقولهم تسيغ أن يكون ثمة مدبر أعلى لهذا الكون.

فأما فريق العقيدة والدين فقد أقتنع بأن هذه النكبات ليست إلا إذلالاً للنفوس جزاء وفاقاً بما نزعت إليه من الإعتزاز بحكم العقل ونبذ العقائد وراء الظهور. وأما فريق الإلحاد فقد ارتأى أن اضطراب أوربا ينهض دليلاً قوياً على فوضى الحياة وعبثها، وعلى رأس هؤلاء بيرون وهينيوشوبنهور.

فلسفته:

1 - العالم فكرة

يرى شوبنهور أن الوساطة الوحيدة بين الإنسان والعالم الخارجي هي الحواس والمشاعر، فأنت إذا رأيت شجرة انطبعت صورتها في ذهنك، وهذه الصورة إنما انتقلت عن طريق عدسة العين، فقد تكون مطابقة لحقيقتها الخارجية وقد لا تكون، وقل مثل ذلك في كل معلوماتك عن أجزاء الوجود، فالصورة التي كونهاذهنك عن هذه الدنيا هي فكرة خلقتها حواسك ولا يتحتم أن يكون لها حقيقة واقعة مطابقة لها وإذن فالإنسان كما يقولون دنيا نفسه، وأن في الوجود من الدنى بمقدار ما فيه من عقول بشرية.

يخلص شوبنهور من هذا بأن الواجب الأول هو دراسة العقل قبل البدء بدراسة المحسوسات، لأن في دراسة العقل المفتاح الذي نصل به إلى حقائق الوجود الخارجي.

2 - العالم إرادة

يكاد يجمع الفلاسفة على أن كنه العقل وجوهره هما الشعور والفكر، إلا أن شوبنهور يرفض ذلك رفضاً، ويقول بأن الشعور إن هو إلا قشرة خارجية لعقولنا لا يعرف على وجه الدقة ما تحويه في باطنها، فهذا الغلاف المفكر يخفي وراءه إرادة لا شعورية، لا يخمد لها نشاط، ولا تنتهي لها رغبات وآمال، وهي التي تملك زمام الإنسان في كل حركاته وأعماله، أما هذا المنطق الذي نحتكم إليه في كثير من شئوننا، والذي يخيل إلينا أنه نابع من العقل الواعي، هو في الواقع ملجم بهذه الإرادة الباطنية، فنحن لا نريد الشيء لأن هناك من الأسباب المنطقية ما يدفعنا إلى ذلك، ولكننا نخلق الأسباب خلقاً إذا كنا نريده إرادة لا شعورية. فالأسباب نتيجة لا مقدمة!! بل نستطيع أن نذهب إلى أبعد من هذا الزعم

فنقول: إننا إنما نخلق الفلسفات ونبتدع الديانات لنخفي في طياتها رغباتنا الخفية.

ابحث في كل نواحي النشاط الإنساني، تجد دوافعه مشتقة من الإرادة اللاشعورية، لا من العقل والشعور. فهذا التنافس والتناحر على أسباب العيش من طعام ولذات، إنما ينبع من (إرادة الحياة) التي يبطنها كل كائن في طوايا نفسه، حتى شخصية الفرد لا تتكون من أعماله العقلية ولكن من نزواته اللاشعورية التي يندفع اليها بإرادته الخفية؛ ومن هنا كانت الديانات على اختلافها تعد الجنة للإرادة الطاهرة (أي القلوب) ولكنها لا تعترف بالعقول الكبيرة ولا تحسب لها في جناتها حساباً.

وليست سيطرة الإرادة مقصورة على الحياة الفكرية، بل تتعداها إلى الدائرة الفسيولوجية. فإرادة الحياة خلقت أوعية يجري فيها الدم، وإرادة المعرفة خلقت مخاً

يصل إلى شتى المعارف، وإرادة القبض على الأشياء خلقت الأيدي، وهكذا نشأ كل عضو بعد نشوء إرادة وظيفته، فحركات الجسم هي في الواقع إرادات مجسمة بل الجسم كله إرادة متبلورة.

إذن فالارادة، لا العقل، هي كنه الإنسان بل كنه الكائنات الحية جميعاً، هذه الإرادة التي نتحدث عنها هي رادة الحياة، وليس الحياة أياً كان لونها، ولكن (إرادة الحياة الكاملة). وليست هذه الإرادة مقسمة بين الأفراد، أعني ليس لكل فرد إرادته المستقلة تعبث به كيف شاءت، ولكنها إرادة واحدة تتناول الحياة بأسرها كتلة واحدة وشيئاً لا يقبل التجزئة. فالفرد ليس حقيقة في ذاته ولكنه ظاهرة لحقيقة، فهو جزء من كل متماسك، ومحتوم عليه بحكم إرادته أن يسير في طريق مرسوم حتى لا يضطرب نظام ذلك الكل المتحد. ومن هنا نشأت رغبة التناسل مثلا، فهي ليست رغبة فردية، ولكنها رغبة الحياة بأسرها وهي وحدها التي تسخر الأفراد لصالحها بل أن هؤلاء الأفراد الصورة المحسة التي تظهر فيها إرادة الحياة.

يقول سبينوزا: لو أن حجراً ألقي في الهواء وكان لديه شعور وإدراك لظن أنه إنما يتحرك بمحض إرادته الحرة وأنه هو الذي يختار الزمان والمكان اللذين يقع فيهما. وما أشبه الإنسان في حياته بذلك الحجر الملقى: كلاهما تدفعه قوة خارجية وكلاهما يتوهم أنه حر لا سلطان على إرادته.

نعم، إرادة الحياة في عمومها حرة التصرف لأنه ليس هناك إرادة تحد تصرفها ولكن كل

قالب من قوالب الحياة، أي كل جسد مادي يدب فيه جزء من الحياة، محدود ولا ريب بتلك الإرادة الكلية سواء أكان ذلك القالب الحي نوعاً أم فرداً أم عضواً من فرد.

3 - العالم شر

ما دامت الإرادة أساس الحياة فالحياة شر كلها. ذلك لأن الإرادة مبعث لسلسلة من الرغبات لا تنقطع. والرغبة عادة تمتد إلى أكثرمما يستطيع الإنسان تحقيقه: وهكذا يظل الإنسان مدفوعا في حياته بآلاف الدوافع من الآمال التي إن تحقق بعضها فمعظمها خائب فاشل، وهو أمام هذا الفشل الذي يغمره في كل خطوة يخطوها يستحيل عليه أن يتذوق في حياته سعادة مطلقة، ثم هو لا مناص له من هذه الرغبات التي يسوق بعضها بعضاً، لأن جوهر الإنسان إرادة كما بينا، فإذا هو تخلص من إرادته فقد تخلص من نفسه؛ ولابد لهذه الإرادة أن تعيش وتتغذى، وهذه المطامع المستمرة في حياة الفرد هي الوقود الذي تخلقه الإرادة لنفسها.

والحياة كلها شر كذلك، مادامت الآلام هي طبيعة مادتها التي تتكون منها، وليست السعادة إلا حالة سلبية يقف فيها تيار الآلام. وما اصطلحنا على تسميته بالسعادة إنما هي الحالة التي ينعدم فيها وجود الألم، أعني أن ليس ثمة سعادة إيجابية. وقد أشار أرسطو إلى هذه الحقيقة بقوله أن الحكيم لا يجوز له أن يبحث عن السعادة، بل يجب عليه أن يسعى وراء التخلص من آلامه.

وفوق هذا كله، فالحياة شر كلها لأنها عراك دائم، فأينما سرت صادفت تناحراً وتنافساً وجهاداً، فكل نوع يقاتل في سبيل المادة والزمان والمكان.

نعم لا ريب أن الحياة قاسية مؤلمة، وليس يعجب شوبنهور إلا من متفائل يبتسم لهذا العالم ويقول لو أن أشد الناس تفاؤلا طاف بالمستشفيات والسجون وساحات الحروب ليشهد ألوان الألم والعذاب، ولو أنه رأى البؤس الذي يتواري خجلاً في اركان الأكواخ المظلمة. نعم لو أبصر هذا وذاك وما هو شر من ذلك جميعاً لأنقلب متشائماً يئوساً على الفور. وإلا فحدثني بربك من أين اشتق دانتي صورة جحيمه إلا من هذا العالم الذي نعيش فيه، ومع ذلك فقد كونها صورة ما أهولها من صورة!! ثم انظر كيف اصطدم بمشكلة سقطت أمامها عبقريته عجزاً وإعياء عندما أراد أن يصور جنة سعيدة لأنه التمس من الحياة أجزاء الصورة التي

يريد فعز عليه المثال!!

4 - الفلسفة

رأينا كم يدفع المرء من الشقاء ثمناً باهضاً لأنفاسه! وعلمنا أن الحياة بما تحوي من شر تجارة خاسرة لا تساوي ثمنها!!. ولكن ألا نستطيع أن نرسم طريقاً للسعادة؟ ذلك ميسور إذا تغلب جانب العقل والمعرفة على جانب الإرادة والرغبة من الإنسان. فأنت

عاجز عن إدراك السعادة إذا تملكت الإرادة منك الزمام، وأنت عاجز عن إدراك السعادة بالمال والجاه، وهي على قاب قوسين منك إذا أسلمت قيادك إلى العقل واستطعت أن تضغط على الإرادة حتى تحصرها في حيز ضئيل. ويعتقد شوبنهور أن الإعجاز لا يكون في إخضاع العالم بأسره بقدر ما يكون في إخضاع الإرادة. . . . . إذن فالفيلسوف وحده هو الذي يستطيع أن يتغلب على شقاء الحياة. لأنه صورة من المعرفةغير المقيدةبالإرادة، وإذا استطاع الفكر أن يتخلص من قيود الرغبة والهوى أمكنه أن يرى الأشياء على حقيقتها المجردة.

فالفلسفة هي عبارة عن النظر المجرد عن الارادة، هي إنكار الذات عند النظر إلى مظاهر الوجود واعتبارها حقائق في ذاتها دون أن تربطها بالحياة البشرية.

5 - الفن

نحن إذن ننشد تحرير المعرفة من استعباد الإرادة، ننشد إنكار الشخص لنفسه عند نظره للأشياء، وليس هذا المنشود إلا الفن في أصح معانيه. فالفنان العبقري يحاول أن يرى الأشياء من وجهة صفاتها العامة لا يعبأ كثيراً بالأشباح المادية التي تمثل تلك الصفات فموضوع الفن هو تجسيد الكلي العام في جزئي من الجزيئات والصورة الفنية يجب أن تكون المثل الأعلى للشيء المصور، ومعنى ذلك أن صورة البقرة مثلاً لكي تكون من آيات الفن الرفيع، يجب أن يتجمع فيها كل مميزات هذا النوع وما يتعلق به من صفات، كأن نوع البقرة كله قد تركز في هذه البقرة الواحدة. وصور الأشخاص يجب أن تقصد لا إلى الدقة الفوتوغرافية، بل إلى عرض كل ما يمكن عرضه من صفات الإنسان عامة في ملامح الشخص المصور، إذ الواقع أن الفنان سيصور صفات، وليست الأجسام إلا وسائل فقط لإبراز تلك الصفات.

ولنوجز هذا في عبارة أخرى: نقول أن الصورة الفنية لشيء ما يجب أن تكون عبارة عن

لذلك الشيء، وبقدر ما تقرب الصورة من ذلك المثل الخيالي (المثل الأفلاطوني) تكون قيمتها الفنية. فطربنا لجمال الطبيعة أو الشعر أو التصوير إنما يصدر عن تأمل الأشياء في حقيقتها الواقعة دون أن يمتزج ذلك التأمل بوجهة النظر الشخصية. فسواء لدى الفنان أن يرى غروب الشمس من قصر منيف أو من كوة في سجن مظلم.

فالفن يمحو بؤس الحياة وعللها بأن يعرض علينا صوراً خالدة من وراء هذه الصور الفردية الزائلة.

6 - الدين

وإذا كانت الفلسفة وسيلة لاتقاء شرور الحياة بما تستطيعه من إخضاع الشهوة لحكم العقل، وإذا كان الفن عاملاً من عوامل السعادة لأنه لا يعبأ بالأشباح المادية التي تتحرك أمامنا وإنما يعنى بحقائق هذه الأشياء الخالدة، فالدين طريق ثالث يؤدي إلى سعادة النفس وطمأنينتها لأنه بدوره عبارة عن إخضاع الإرادة لحكمة العقل، فالصيام الذي تفرضه الأديان جميعاً يقصد منه تدريب النفس على قهر إرادتها أو شهوتها.

7 - حكمة الموت

وبعد، فما أعجب أن تكون الحياة كما هي شروراً وآلاماً، ومع ذلك تتخذ لها من أنفسنا عوناً على الانتشار والذيوع!! يصيح شوبنهور بأعلى صوته أن الحياة سوء وشر ويجب أن نقضي عليها قضاء مبرماً. ولكن كيف؟ الحل عنده بسيط وهو أن نهجر النساء هجراً جنسياً لأنهن أس البلاء بما يقدمن للرجال من فتنة وأغراء. وهو يتساءل: إلى متى تدفعنا الحياة أمامها دفع الخراف. وهي لا تحوي إلا شقاء وعناء؟ متى نستجمع كل ما نملك من قوة وشجاعة لنصيح في وجهها أن الحياة أكذوبة وخدعة. أن نجاة الإنسان وخلاصه إنما هو الموت!

-

لماذا ترجمت فرتر

إلى الصديق الذي سألني هذا السؤال وهو طليق الحرية في بغداد فأجبته وهو سجين (في كركوك)

تسألني لماذا ترجمت فرتر. . والجواب عن هذا السؤال حديث، والحديث غداً سيكون قصة، وليس يعنيك اليوم منها إلا ما نجم عنها:

قال ((جوت) يوماً لصديقه (اكيرمان): (كل امرئ يأتي عليه حين من دهره يظن فيه

أن (فرتر) إنما كتب له خاصة) وأنا في سنة 1919 كنت أجتاز هذا الحين!: شباب طرير حصره الحياء والانقباض والدرس ونمط التربية وطبيعة المجتمع في دائرة ليس فيها من الواقع غير وجوده،. . . وإحساس مشبوبيتوقد شعوراً بالجمال، وقلب رغيب يتحرق ظمأ إلى الحب، ونوازع طماحة ما تنفك تجيش، وعواطف سيالة ما تكاد تتماسك. . . . .! فالطبيعة في خيالي شعر، وحركات الدهر نغم، وقواعد الحياة فلسفة!. . وكان فهمي لكل شيء وحكمي على كل شخص يصدران عن منطقأفسد أقيسته الخيال، وزور نتائجه المثل الأعلى. ثم غمر هذه الحال التي وصفت هوى دخيل هادئ ولكنه مُلِحٌّ، فسبحت منه في فيض سماوي من النشوة واللذة، وأحسست أن وجودي الخالي قد امتلأ، وقلبي الصادي قد ارتوى، وحسي الفائر قد سكن، وتخيلت أن حياتي الحائرة قد أخذت تسير في طريق لاحِب تنتثر على مدارجه نواضر الورود، وترف على جوانبه نوافح الريحان، وتزهو على جوانبه ألوان عبقر، وترقص على حفافيه عرائس الحور!. . ورحت أسلك هذا الطريق السحري محمولاً على جناح الهوى كأنني (فوست) على جناحي (ميفستوفاليس) حتى ذكرني الزمان الغافل فأقام فيه عقبة أصطدم عندها الخيال بالواقع، والحبيب بالخاطب، والعاطفة بالمنفعة!! على أنني بقيت على رغم الصدمة حياً ولا بد للحي أن يسير!!

تطلعت وراء العقبة أنظر الطريق فإذا الأرض قفر والورد عوسج والريحان حمض، والعرائس وحوش. فشعرت حينئذ بالحاجة إلى الرفيق المؤنس!. . ولكن أين أنشد ما أبغي وحولي من الفراغ نطاق مخيف، وأمامي على أسنة الصخور أشلاء وجثث!!؟ هذه أشباح صرعى الهوى تتراءى لعينيَّ، وهذه أرواح قتلاه تتهافت عليّ، وهذه سجلات مصارعهم بين يدي، فلم لا أحدو بأناشيدهم رواحلي، وأقطع بمناجاتهم مراحلي، وألتمس في مواجعهم لهواي عزاء وسلوة؟؟

قرأت هيلويز الجديدة، ورينيه، وأتالا، وأدولف، ودومينيك، وماريون دلورم، ومانون ليسكو، وذات الكميليا، وجرازيلا، ورفائيل، وجان دكريف، وتوثقت بأشخاصها صلاتي، وتصعدت في زفراتهم زفراتي، وتمثلت في نهايتهم المحزنة نهايتي. ولكنهم كانوا جميعاً غيري، نتفق في الموضوع ولكن نفترق في الوضع، كالنساء النوادب في مناحة، تندب كل واحدة منهن فقيدها وموضوع الأسى للجميع واحد هو الموت!!

فلما قرأت (آلام فرتر) سمعت نواحاً غير ذلك النواح، ورأيت روحاً غير هاتيك الأرواح، وأحسست حالاً غير تلك الحال!! كنت أقرأ ولا أرى في الحادثة سواي، وأشعر ولا أشعر إلا بهواي، وأندب ولا أندب إلا بلواي، فهل كنت أقرأ في خيالي أم أنظر في قلبي، أم هو الصدق في نقل الشعور والحذق في تصوير العاطفة يظهران قلوب الناس جميعاً على لون واحد؟؟

كنا يومئذ في مايو والطبيعة تعلن عن حبها بالألوان والألحان والعطر، ونفسي تحاول أن تعلن عن هواها بالدموع والشعر، فآلامي تجيش في عيني، وعواطفي تتنزَّى على لساني وبلابلي تتوثب في خاطري، وكلها تطلب السبيل إلى العلانية، (والشكوى في الحب كالطفح في الحمى كلاهما عرض ملازم) فلما قرأت (فرتر) تنفس جواي المكظوم، واستغنى عن البيان هواي المكتوم، لأنني لو كنت صببت مهجتي على قرطاس لما كانت غير (فرتر)، وهل فرتر إلا قصة الشباب في كل جيل؟ رجل شديد الحس قوي العاطفة يتقسم الخيال (والايديال) نواحي نفسه، ورجل آخر بارد الطبع عملي الفكر يعرف دائماً كيف يجر النار إلى قرصه، وامرأة بينهما يجذبها إلى الأول طبعها الغزلي وقلبها الشاعر ويربطها بالثاني عقلها المادي ووعدها المأخوذ. . . هذا هو موضوع آلام فرتر وهو عينه موضوع آلامي. . . فلم لا أنقله إذن إلى لغتي لينطق عن لساني كما ترجم صادقاً عن ضميري؟؟

فنيت في (جوت) وقادني إلهامه وروحه، وأهَبْتُ بلغة القرآن والوحي أن تتسع لهذه النفحات القدسية فأسعفتني ببيانها الذي يتجدد على الدهر ويزهو على طول القرون. ثم أصبح فرتر بعد ذلك لنفسي صلاة حب ونشيد عزاء ورُقْيَة هم!! كأنما كان (جوت) يناديها من وراء الغيب حين يقول في تقدمته لفرتر: (وأنت أيتها النفس. . . إذا أشجاك ما أشجاه من غصة الهم وحرقة الجوى فاستمدي الصبر والعزاء من آلامه وتلمسي البرء والشفاء في

أسقامه، واتخذي هذا الكتاب صاحباً وصديقاً إذا أبى عليك دهرك أو خطؤك أن تجدي من الأصدقاء من هو أقرب اليك وأحنى عليك؟؟

أ. الزيات

كسوف حلقي للشمس

يقع في يوم فبراير سنة 1933

للأستاذ عبد الحميد سماحة. مفتش مرصد حلوان

(إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته)

(حديث شريف)

حسبنا أن يكون في ذلك دليل مفحم للذين يتقولون القول وينسبون إلى الكواكب سعادة قوم وشقاء آخرين، وهي بريئة من هذا وذاك. ولكن أنى لنا أن نقنعهم وفريق يتخذها وسيلة للكسب، وفريق آخر يتخذها رجاء وسلوة.

لقد انقضى ذلك العهد الذي حسب الناس فيه أن بين الكواكب وبين الأفراد والشعوب في سعادتهم أو شقوتهم وانتصارهم أو هزيمتهم ارتباطاً. وتقدمت الدراسات الفلكية في القرنين الماضيين تقدماً عظيماً، وأصبح في استطاعة الفلكيين أن يقيسوا درجة حرارة النجوم كما يقيس الطبيب درجة حرارة المريض، واستبانوا أبعادها وأحجامها وأوزانها وتركيبها! ولم تعد الظواهر الفلكية منذرة بالحروب والبلاء، أو مبشرة بالسعادة والرخاء بل أصبحت تجربة علمية كبيرة تجربها الطبيعة فيستغلها العلماء إلى أقصى حد فيما لا يتيسر لهم تجربته على ظهر الأرض. فهناك مثلاً كثافة السديم نراها أدنى مليون مرة من كثافة أية مادة تصل إليها أيدينا بينما هي في بعض النجوم أعلى بمقدار مليون من كثافة أية مادة على الأرض! فليت شعري كيف يتسنى لنا أن نعرف طبيعة المادة من التجارب التي نجريها في المعمل ولا يزيد مدى كثافة المواد التي بين أيدينا على واحد في مليون المليون من المدى الكلي لكثافة المادة في الطبيعة؟؟

لقد أصبح من الصعب إيجاد الحد الفاصل بين أنواع العلوم الطبيعية؛ وتقدمت الاكتشافات العلمية وهي سلسلة الحلقات، فمن إلكترونات أقطارها كسور من ملايين الملايين من البوصة، إلى سدائم تقاس بمئات الآلاف من ملايين الملايين من الأميال! فكل زيادة في معلوماتنا الفلكية تزيد حتماً في معلوماتنا في الطبيعة والكيمياء والعكس بالعكس.

لهذا كان اهتمام العلماء بالظواهر الفلكية عظيماً، فهم يستغلونها في أبحاثهم، ويقيسون عليها نظرياتهم، وكثيراً ما كانت الأرصاد الفلكية سبباً لاكتشافات عظيمة كان للبشرية منه نفع مادي جليل الشأن. مثال ذلك غاز الهليوم أكتشف أولاً في تحليل طيفي للشمس أثناء كسوفها في عام 1868. وهذا الغاز كما نعلم عظيم المنفعة لأنه الغاز الوحيد الصالح لملء المناطيد. ونحن إنما نذكر هذا الحادث العظيم على سبيل المثال للذين يزنون العلوم بمقدار ما يمكن أن تدر عليهم أو على البشرية من نفع مادي؛ ولكن الغاية الأولى من الدراسات الفلكية هي البحث وراء الحقائق العلمية وحدها ولذاتها، وهي غاية تدافع عن نفسها بنفسها.

لقد أصبح كل طالب يعرف أن الأرض ومثلها الكواكب السيارة الثمانية الأحرى إنما تدور حول الشمس في مدارات دائرية، وأن القمر يدور حول الأرض بمدار دائري أيضاً. وأنه إذا توسط القمر بيننا وبين الشمس حجب أشعتها عنا فتنكسف الشمس؛ ولكن يجب أن نضيف هنا أن مدار القمر حول الأرض يميل بمقدار خمس درجات على مدار الأرض حول الشمس، فالثلاثة لسن في مستوى واحد على الدوام، ولولا ذلك لحدث كسوف للشمس كلما كان القمر في المحاق حيث يتوسط وقتئذ بين الأرض والشمس.

لقد حسب الفلكيون أن كسوفاً حلقياً للشمس سيشاهد في القطر المصري في يوم الجمعة الموافق 24 فبراير سنة 1933 يبتدئ في الساعة الثالثة والدقيقة 43 مساء، وينتهي في الخامسة والدقيقة 29 مساء من نفس اليوم.

أجل ستنكسف الشمس في ذلك اليوم، وبين هذين الزمنين المحددين بالضبط لا محالة، ولكن لا سبيل في ذلك إلى التفاؤل ولا إلى التشاؤم، فليست الشمس والقمر والأجرام السماوية المختلفة الأخرى إلا آيات بينات لأولي الألباب.

في الأدب العربي
العوامل المؤثرة في الأدب
(1)
ليس الأدب إلا التعبير القوي الصادق عن مشاعر المرء وخواطره وأخيلته، وهذه تتأثر بأحوال العيش وأنواع العقائد وأطوار المجتمع وأنظمة الملك وتقلبات السياسة، ومن المفيد الإلمام بهذه العوامل المؤثرة في الأدب لتكون دستور المؤرخ وشريعة الأديب ونبراس الباحث فيما يصدر عن الإنسان من كد الأذهان وفيض القرائح.

فمن هذه العوامل (طبيعة الإقليم ومناخ البلد) وأثرهما في حياة الناس وسلائل الأجناس معلوم في بدائه العقول. فأحوال الإقليم هي التي تنهج لساكنيه سنن معاشهم ونظام اجتماعهم. وتكون الكثير الغالب من أخلاقهم وطباعهم، ومناظره هي التي تربي ذوق أبنائه، وتغذي كتابه وشعراءه، فالشعر الجاهلي مثلاً صورة صادقة لطبيعة البادية وحياة البدو: فألفاظه خشنة كالجبل، ومعانيه وحشية كالأوابد، وأساليبه متشابهة كالصخر، وأخيلته مجدبة كالقفر، ولن تجد في غير الجزيرة العربية أمثال الشنفري وتأبط شراً والسليك بن السلكة من هؤلاء الشعراء الصعاليك الذين تغنوا بحياة البادية ومناظرها وأباعرها وغزلانها وكثبانها وأطلالها وجبالها بشعر متين الحبك صادق الوصف جاف اللفظ عنجهي الخيال. وقد أختلف الشعر في شبه الجزيرة نفسها باختلاف الأماكن: فهو في نجد غيره في الحجاز، وهو في أهل الوبر غيره في أهل المدر. ولهذا العامل وحده نعزو انقراض الأراجيز وهي أقدم الأطوار لشعر البادية حين إرتحل ناظموها من الصحارى المجدبة إلى سواد العراق وريفه. وفي حواشي العراق وظلاله، وخمائل نجد وجباله، أخضر عود الشعر واستقام وزن القصيد ومن ثم قال القدماء أن امرأ القيس ومهلهل بن ربيعة وعمرو بن قميئة هم أول من قال الشعر وأطال القصائد، وما كانوا في الواقع إلا زعماء النهضة الأدبية في هذه البلاد.

وظل عامل الطبيعة يفعل فعله في الأدب خلال القرون، فخالف بين الشعر في عواصم الشرق وبينه في الأندلس فقد وجد

الشعراء العرب في أوربا ما لم يجدوه في آسيا من الأجواء المتغيرة والمناظر المختلفة والأمطار المتصلة والجبال المؤزرة بعميم النبت، والمروج المطرزة بألوان النور، فهذبوا الشعر وتأنقوا في ألفاظه ومعانيه، ونوعوا في أوزانه وقوافيه، ودبجوه تدبيج الزهر، وسلسلوه سلسلة النهر، وسلكوا به مسلك التنوع والتجديد. وهذا العامل هو الذي يخالف اليوم بين الأدب في مصر وبينه في الشام والعراق. فالطبيعة المصرية تكاد أن تكون نائمة: فالجو معتدل في جميع الفصول لا يكاد يختلف، وحقول الوادي الحبيب لا تعرى من الزهور والزروع، والسماء السافرة والصحراوان الوسيعتان لا تكاد مناظرهما تتغير. فإذا لم تكن طبيعة بلادنا نائمة فهي على الأقل مسالمة، لأنها لا تزعجنا بالزلازل العنيفة، ولا تهزنا بالعواصف الرعن، ولا تخزنا بالبرد القارس والحر اللافح، فطبعت أهلها على الوداعة والفكاهة والبشاشة والكسل والمحافظة على القديم من العادات والأخلاق والآداب فلا تتطور هذه الأمور في مصر إلا بمقدار. ولذلك تجد شعرنا منضد اللفظ جيد السبك بطيء التجدد هادئ الأسلوب لين العطف لا يأخذ الأمور إلا بالملاينة والرفق. بينما تجد الشعر في الشام شديد الحركة كثير التنوع سريع التجدد قلق الأساليب لتعدد المناظر واختلاف الصور وتقلب الطبيعة ونشاط الحياة.

وهو في العراق قوي أبي ثائر ساخط متوثب منتشر على ألسنة الخاصة والعامة لالتهاب المخيلة وتوقد الشعور وصفاء الحس من إفراط الطبيعة في الحر والبرد وغلبة الحياة البدوية على كثرة السكان.

على أن هذا العامل قد أخذ يضعف منذ أواسط القرن الماضي لسهولة المواصلات وكثرة المخترعات وانتشار المدنية، فيستطيع الإنسان أن يعيش في آسيا وأفريقيا كما يعيش في أوربا، وسيزداد ضعفاً في المستقبل دون أن يمحي ويبيد.

ومنها (خصائص الجنس) فشعر العرب يختلف عن شعر اليونان في المذهب والخيال والغرض، وشعر ابنالرومي يختلف عن شعر ابن المعتز وقد نشأ في بلد واحد وعصر واحد، لأن الجنس الآري أميل إلى الاستقصاء والتفصيل والتحليل والتعمق، والجنس السامي لذكاء قلبه وحدة خاطره يفهم الشيء في لحظة، ثم يلخصه في لفظة، فهو

أميل إلى التعميم والأجمال والبساطة. ومنها (دوام الحرب بين جنسين أو أمتين لفتح بلاد أو صد عاد أو تحرير وطن). فأن هذه الحروب تتمخض عادة عن أبطال ينمون في الخيال، ويعظمون
في الصدور، ويكبرون في الزمن، حتى تنسب إليهم الخوارق، وتخلع عليهم المحامد، فتسير بذكرهم الرواة، وتتحدث بأفعالهم القصاص، وتنتقل شهرتهم من فم إلى فم ومن جيل إلى جيل، وهي في خلال ذلك تتسع وتفيض حتى تصبح سيرهم لدى الشعب حديثاً وطنياً يجب أن ينشر، وتراثاً قومياً يحرصعلى أن يزيد، فيقيض الله لهذه السير المتجمعة على طول الدهور شاعراً سمح القريحة فينظمها بأسلوب شائق ونمط جميل، كذلك دارت الإلياذة الإغريقية على حروب اليونان لأهل طروادة. ومهابهاراته الهندية على الحرب التي نشبت بين نيدهو وبني كرو، والشاهنامة الفارسية على تاريخ الأكاسرة ووصف الحرب التي اشتعلت بين أهل إيران وأهل طوران، وقد كانت تلك الحروب مفخرة الفرس الأولين ورمزاً للخلاف الدائم بين ألهي الخير والشر (وكذلك دارت أغاني رولان الفرنسية على حروب الفرنج لعرب الأندلس. وهذا هو الشعر القصصي أو الملاحم الذي خلا منه الشعر العربي لأسباب لا يتصل ذكرها بموضوع اليوم) على أن عامل الحروب قد أثر في النثر العربي والشعر العامي وأن لم يؤثر في الشعر الفصيح. فأن نشوب الحروب الصليبية قد اقتضى تدوين بعض القصص الحماسية كقصة عنترة وسيرة بني هلال والأميرة ذات الهمة إثارة للنفوس وتحميساً للشعب وتفريجاً من الهم.

ومنها (طبيعة العمران وتوزع الثروة وما يتصل من ذلك من حال الاجتماع) فأن تقدم الحضارة ورخاء العيش ونماء الثروة تؤثر في الذوق، وتزيد في الصور؛ وتساعد على نشر العلوم، وتنوع في معاني الشعر وأساليب الكتابة. وشاهد ذلك أن مدن الحجاز حينما زخرت بالمال ونعمت بالفراغ منذ خلافة عثمان إلى أواخر القرن الأول للهجرة تدفق أهلها في اللهو وعكفوا على الغناء وألقوا أزمتهم في يد الصبابة وانقطع شعراؤها إلى الغزل فافتنوا فيه وتصرفوا في معانيه وأغفلوا سائر أنواع الشعر الأخرى كعمر بن أبي ربيعة وجميل بن معمر وكثير عزة. وشاهد آخر على تأثير الأحوال الاجتماعية في الفنون الأدبية هو شيوع البذاء والفحش في شعر بعض البغداديين على عهد الرشيد والمأمون.

فقد حدث شئ من ذلك في الجاهلية وفي العصر الأموي حين كان الفرزدق وجرير ومن لف لفهما يتجاوبون بالفحش ويتهاجون بالبذاء، إلا أن ذلك لم يكن مقصوداً لذاته، وإنما كان يقال هجاء للعدو وسباباً للخصم. أما الفحش في شعر أبي نؤاس ومطيع بن أياس وحسين
الضحاك وابن سكرة الهاشمي وابن الحجاج فقد كان صادراً عن خلق وناقلا عن طبع ومعبراً عن حالة. فالشعراء يقولونه ويفعلونه، وأهل البيوتات وذوو الثمالة يسمعونه ولا ينكرونه، فيما ذا نعلل ذلك الفساد الذي نال الطباع العربية الحرة فجعلها تمتهن الكرامة وتلقي شعار الحشمة؟؟ إذا عللناه بمفاسد الترف حين تطغى الحضارة ويثور البطر كان هذا التعليل وحده غير فاصل ولامقنع. فأن أكثر أمم التمدن الحديث اليوم قد غرقوا في اللهو وشرقوا بالنعيم وأمعنوا في الخلاعة، ثم لا تجد النوابغ من شعرائهم وكتابهم يجرءون على أن ينعوا أنفسهم بالفواحش أو يجهروا في كتبهم بالفضائح، وناهيك بما حدث لفكتور مرجريت حين نشر قصة لاجرسون.

إنما الأشبه بالحق أن هناك سبباً آخر يساعد هذا السبب وهو كثرة الرقيق، وتأثير الرقيق إنما حدث من جهتين: أولاهما قيام العبيد على تربية الأحداث في كرائم الأسر، وفي كثرة العبيد دناءة في الطباع ووقاحة في القول فأفسدوا النشء وعودوهم هجر القول وفحش الحديث، وأخراهما إقحام الجواري والسراري خدور العقائل فأعدينهن من أخلاقهن بالمجانة، فسقطت المرأة من عين الرجل فأخذها بالعنف وضرب عليها الحجاب وأقام عليها الخصية على عادة الفرس وأقصاها عن تربية الولد وتدبير البيت وأتخذها للمتاع واللذة، فكان من ذلك أن فشت في الخاصة أخلاق العبيد والأماء فتنادروا بالفحش وأكثروا الشعر في الأحماض والمجون. وإليك شاهداً آخر على تأثير الأحوال الاجتماعية والأمور المادية في فنون الآداب: ظهر أدب العامة أو الشعر باللغة العامية في بغداد والأندلس في عصر واحد، ففي بغداد ظهر المواليا على لسان صنائع

البرامكة من العامة، وظهر نوع آخر ذكره ابن الأثير صاحب المثل السائر قال: (بلغني أن قوماً ببغداد من رعاع العامة يطوفون بالليل في شهر رمضان على الحارات وينادون بالسحور ويخرجون ذلك في كلام موزون على هيئة الشعر وان لم يكن من بحار الشعر المنقولة من العرب، وسمعت شيئاً منه فوجدت فيه معاني حسنة مليئة وأن لم تكن الألفاظ التي صيغت بها صحيحة) ولكن الشعراء والأدباء استخفوا به واحتقروه فلم يقلدوه ولم يدونوه ولم يأبهوا لأربابه. وحاول أحد الأطباء الأدباء وهو محمد بن دانيال الموصلي أن يبتكر نوعاً جديداً من الأدب أقتبسه من ألعاب خيال الظل فألف كتاباً سماه طيف خيال فحبط عمله.

وأما في الأندلس فأبتدع عبادة بن ماء السماء القزار الموشح، وأبتكر أبو بكر بن قزمان الزجل، فطرب الناس لهما وأعجبوا بهما وأقبل أمراء القريض وزعماء الأدب على نظمهما وجمعهما فنبغ فيهما النوابغ واشتملت على روائعهما الكتب. فم السبب إذن في استهجان البغداديين لأدب العامة وعزوفهم عنه، واستحسان الأندلسيين له ونبوغهم فيه؟ السبب يعرفه المؤرخ الباحث في بغداد وهو أن بغداد كانت شديدة الأرستقراطية لأنها موطن الأشراف وذوي الأحساب والمثالة والثروة، فكانوا يترفعون عن الشعب ويستخفون بأدبه وذوقه وذكائه. ويجدون من الغضاضة أن يتحلوا بحليته ويجروا على أسلوبه؛ ولكن الأندلس كانت ديمقراطية غنية كأمريكا اليوم، فلم يعتز أحد فيها بالنسب لتساويهم فيه، ولا بالثروة لعموم الرخاء فيهم، وحسن توزيع الثروة بينهم، فكانت منازل الخاصة والعامة متصاقبة. وأذواقهم وآدابهم متقاربة. لذلك لم يتأبه الشعراء والأدباء عن تقليد الأدب العامي وتدوينه.

من طرائف الشعر

تطور في الجماد

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

ما حياة قديمها غير باد ... لك إلاّ تطوُّر في الجماد
أنها تبتني لها في نظام ... كل ما يقضي حاجها من عتاد
وإذا ما الجماد رثَّت قُواه ... ذهبت كلها الحياةُ بداد
وهي ليست إذا نظرتَ اليها ... في جميع البقاع غير جهاد
ولقد يهلك الذي يتوقَّى ... ولقد لا يعيش أهلُ الحياد
ولدتها الأرض الكريمة بكراً ... وسقتها السماء دَرَّ العهاد
ليس منا الأجساد بالروح تحيا ... إنما يحيا الروح بالأجساد
إنما الأرض وهي ما نحن نسعى ... فوقه ما بين رائح أوغادِ
كوكب مظلم يطوف من الشم ... س حثيثاً بكوكبٍ وقاد
كفَراش يدور حول سراج ... واهج ما لزيته من نفاد
وعلى وجهيها نهارٌ وليل ... فهي لا تستغني عن الأضداد
كل ما في الوجود فهو لعمري ... من نواميس الكون في أصفاد
ولعل الزمان في دوره يجم ... ع بين الآزال والآباد
وكأن المجرَّ نهرٌ مديد ... وردته من النجوم صواد
وكأن الوجود فاض على الشط ... طين اذ عَبَّ سيله في الوادي
ويراه الحجا شموساً تُعاني الس ... بح في لانهاية الأبعاد
وأحاطت بما هنالك أسر ... ارٌ لعيني تجللت بسواد
من شداد الغموض فيها يحار ال ... عقل والعقل بعض تلك الشداد
جل كون قد حف باللا تناهي ... عن شبيه له وعن أنداد
أترى أن ماله قِدَمٌ في ال ... كون ذو حاجة إلى أيجاد
عالمٌ يختفي وآخر يبدو ... والذي يختفي عتادُ البادي
وفسادٌ يجيء من بعده كو ... ن وكون يجيء بعد فساد
ليس موت الآباء إلا ضماناً ... لحياة الأبناء والأحفاد
أنا في جوهري قديم على الأ ... رض وإن كان حادثاً ميلادي
أنا جزء من عالم ماله من ... آخر ينتهي به أو نفاد
ليست الأرض غير قبرٍ مُوارٍ ... لرفات الآباء والأجداد
قل لمن طال في التراب كراهم ... هل لكم يقظة وراء الرقاد؟

غيَّر الدهر كلَّ عضو بجسمي ... غير قلب لي في الحبِّ هو هادِ
لم تكن مني الصبابة في شي ... خوختي غير جمرة في الرمَاد
ولقد حاقت بي المصائب تترى ... من أناس عاشرتهم في بلادي
ولمن في حياته خالط النا ... س كثيراً أحبَّة وأعاد
أيّ ذنب لي إن تباعدت الشق ... قة بين أعتقادهم وأعتقادي؟
كلما خالف الجماعة في الرأ ... ي جريء رموه بالألحاد!
ثلَّة منهم العيون تريني ... ما تكنّ الصدور من أحقاد.
عدَّني ان أردت في سعداء ال ... قوم أو عدَّني من الأنكاد
إنني في جميع ما أنا آتٍ ... مكره ليس في يديَّ قيادي
أنا هذا ولستُ أقوى على تغ ... يير ما في خلقي أو استعدادي!
أنا بالشعر وحده متسلٍ ... إنه كل طارفي وتلادي
وإذا وافته المنيّة قبلي ... فاحفروا حفرة له في فؤادي
وإذا مت قبله فهو يرثي ... ني لو ظل حافظا لودادي
أيها الناقد المهين لشعري ... أنت ما بالنزيه في النقَّاد
لا تحقر بنات فكري فتلكم ... كلُّ ما خلَّفت من أولاد
حان ذاك اليوم الذي ليس تورى ... فيه ناراً إذا قدحتُ زنادي
ما ألذ الحياةَ لو هي دامت ... غير أن المنون في المرصاد!
حبذا عهدٌ سالف لم أكن في ... هـ لغير الجمال بالمنقاد!

مزايا الحجاب

للدكتور محمد عوض محمد

رُويداً! أنَحْزَن أم نطربُ؟
فَذِي قصة شأنها اعجبُ:
فتاة من الزِّنج تهوى الرجالَ
وعنها رجال الورى ترغبُ
قضت زهرة العمر تبغي الحليلَ
فما جاءها خاطبٌ يخطب
وقد صدَّ عنها وُوُلى الفرارَ
شبابُ بني الزنج والأشيبُ
ونَفَّر منها بني جنسها
مُحَيَّا لها كالح مُرْعب
وصوت وليس كصوت الكنار،
ولكنه البوم إذ تنعب
وأنفٌ مناخره كالجِفانِ
ذباب الملا حوله تلعب
ومن مِشْفَرٍ فوقه مِشْفَر
كعقربةٍ فوقها عقرب.
وإذ يئست من بني قومها
وعَزَّ لها فيهم المطلبُ
أتت أرض مصر ملاذ الغريب
وحيث لكل امرئ مهربُ
وألقت عصاها وقالت: (هنا
سأسعى لإدراك ما أرغبُ)
وقد أُعجبت بنظام الحجاب
وما فيه من حِكَمٍ تُعْجِبُ
فقالت: (حمدتك ربَّ الورى،
لأن الوجوه هنا تحجبُ
ويَسدُلُ كل النساء النقابَ
إذا ما رقيب أتى يرقبُ
فلا يعلم الناس ما تحته

أظبيٌ من الغيد أم ثعلب
وهل وجهها مشرق في النقا
ب أم غيهب فوقه غيهبُ؟
وهل ساقها فوقها جوْرب
أم الجلد من طبعه جورب؟
وما لا تراه عيون الأنام
فأنفسهم نحوه تجذب.
وقد صدقتْ؛ فرآها فتىً،
واقبل من خلفها يدأب
رآها فأعجبه قدّها
وقد يسحر القدّ أو يخلب!
فقال لها: (يا حياتي: ارحمي
فتى صادق الحب، لا يكذب.)
فكان السلام وكان الكلام،
وكان القران وما يعقب
وراجت بضاعتها وانثنت
ومُجْدِبُها مُمْرِعٌ مخصبُ. . .
وكم سلعة كسدت سوقها
وفي أرض مصر لها طُلَّبُ!!
لقاء!!
للشاعر الشاب علي محمود طه المهندس
طال انتظارك في الظلام ولم تزل ... عينايَ ترقب كل طيفٍ عابر
ويطير سمعي صوب كل مُرِنَّةٍ ... في الأفق تخفق عن جناحي طائر
وترفُّ روحي فوق أنفاس الربا ... فلعلها نَفَسُ الحبيب الزائر!
ويخفُّ سمعي إثر كل شعاعةٍ ... في الليل تومض عن شهاب غائر
فلعلَّ من لمحات ثغرك بارق ... ولعلها وضح الجبين الناضر!
ليلٌ من الأوهام طال سهاده ... بين الجوى المضني وهجس الخاطر
حتى إذا هتفت بمقدمكَ المنى ... وأصختُ أسترعي انتباهةَ حائر
وسرى النسيم من الخمائل والربا ... نشوانَ يعبق من شذاك العاطر
وترنم الوادي بسلسل مائه ... وتلت حمائمُه نشيد الصافر
وأطلَّت الأزهار من ورقاتها ... حيْرى. . . تعجَّبُ للربيع الباكر
وجرى شعاع البدر حولك راقصاً ... طرباً على المرج النضير الزاهر
وتجلَّت الدنيا كأبهج ما رأت ... عينٌ وصورها خيال الشاعر
ومضتْ تكذبني الظنون فأنثني ... متسمعاً دقات قلبي الثائر
وإذا بنا في الروض تملأ خاطري ... سحراً وأملاً من جمالك ناظري!
متعانقين على الزهور ونحن في ... شكٍ من الرؤيا وحلمٍ ساحر
غبنا عن الدنيا وغابت خلفها ... صور لماضٍ لا يغيبُ وحاضر
حتى إذا حان الرحيل هتفت بي ... فوقفت واستبقتَ خطاك نواظري
وصرختُ بالليل المودع باكياً ... والدمع يشفع لي وأنت مغادري
يا ليتنا لم نصحوا منه وليتنا ... ما أعجلته رحى الزمان الدائر!
ولقد أتت بعد الليالي وانقضت ... وكأننا في الدهر لم نتزاور
بدلت من عطف لديك ورقة ... بحنين مهجور وقسوة هاجر
وكأنني ما كنتُ إلفك في الصبا ... يوماً ولم تك في الحياة مناصري
ونسيتَ أنتَ، وما نسيتُ وأنني ... لأعيش بالذكرى، لعلك ذاكري!
في الأدب الشرقي
الأدب الفارسي والأدب العربي
للدكتور عبد الوهاب عزام. أستاذ بكلية الآداب
(2)
ولا ننسى بعد أن اللغة الفارسية بقيت لغة الدواوين المالية في إيران حتى زمان عبد

الملك بن مروان.
ولا ريب أن اللغة الفارسية بقيت لغة التخاطب في إيران بين العامة على الأقل، ولا سيما في القرى والنواحي البعيدة، فأنا قد وجدناها منذ القرن الرابع ترتقي إلى أن تكون لغة الآداب؛ واللغة لا تموت جملة واحدة ولا تخلق جملة واحدة. على أن كثيراً من الدلائل يثبت إنها كانت لغة الكلام في هذه الفترة أي قبل عصرها الأدبي الحديث، وقد انتقلت منها كلمات كثيرة إلى البلاد العربية مع النازحين من الفرس وتأثرت بها لهجات بعض العرب.
فرسل عبد الملك بن مروان إلى المختار بن أبي عبيدحينما جاءوا معسكر ابن الأشتر , ,، لم يسمعوا كلمة عربية، وعبد الله بن زياد وهو أمير عربي كانت فيه لكنة فارسية (أخذها من زوج أمه) (والفرس الذين عرفوا العربية لم يخلصوا من لغتهم ولهجتها)
وقد روى الجاحظأن الحجاج قال لنخاس فارسي: أتبيع الدواب المعيبة من جند السلطان؟ فقال: (شريكاتنا في هوازها وشريكاتنا في مدائنها وكما تجيء تكون) قال الحجاج ويحك ما تقول؟ فقال بعض من كان اعتاد سماع الخطأ وكلام العلوج بالعربية حتى صار يفهم مثل ذلك: يقول شركاؤنا بالأهواز والمدائن يبعثون إلينا بهذه الدواب فنحن نبيعها على وجوهها. وأبو مسلم الخراساني على فصاحتهالتي جعلت رؤبةابن الحجاج يقول: ما رأيت أعجمياً أفصح منه (كان لا يستطيع النطق بالقاف) وقد رؤى المؤرخون أن إبراهيم الإمامحينما أوصى أبا مسلم قال له: وان استطعت ألا تبقي في خراسان لساناً عربياً فافعل. مما يدلنا على أن لغة الجمهور كانت فارسية. ونجد الشاعر العماني يتملح بذكر الألفاظ الفارسية في مدائح الرشيد
ويحدثنا الجاحظ أن لغة أهل البصرة بل لغة أهل المدينة كان بها كثير من الكلمات الفارسية في أيامه، يدلنا على بقاء الفارسية وتأثيرها البعيد، ويحدثنا أيضاً أنه سأل خادماً له إلى من
أرسل هذا الغلام؟ فقال إلى أصحاب السند نعال: يعني النعال السندية.
وأمثال هذا في كتب الأدب كثيرة. ولأمر ما ثار النزاع منذ أيام أبي حنيفة على قراءة القرآن بالفارسية. ثم بابك الخرميكما يؤخذ من الفهرست كان لسانه متعقداً بالأعجمية، و (به آفريد) الفارسي المتنبي على عهد أبي مسلم لما أراد أن يضع لأتباعه كتاباً وضعه بالفارسية. وأنتم تعلمون ما دخل العربية من الفارسية لا سيما في أسماء الطعوم والأثاث. هذه جملة تثبت أن اللغة الفارسية لم تمت في هذه الفترةإن كان هذا في حاجة إلى الإثبات.
وأما الفرس أنفسهم فقد خلطهم الفتح والإسلام بالعرب، أي خلط، فالقبائل العربية انتشرت في الأرجاء الفارسية، والفرس انتقلوا إلى البلاد العربية أسارى أو مهاجرين طلباً للرزق أو العلم أو المناصب. فالمدينة على نأيها كان بها فرس، وهم قتلوا هنالك عمر وسعيد بن عثمان بن عفان.
وسرعان ما تعلم الغرس العربية وشاركوا في العلوم الإسلامية. ولكن كان للفرس قبل قيام الدولة العباسية حال تختلف عن حالهم بعدها كل الاختلاف.
كانت دولة الأمويين عربية وقليل من غير العرب من سموا فيها إلى الدرجات العليا، وكان العرب، لأنهم أصحاب الدين والدولة ولأنهم الذين أقاموا الملكونشروا الدين، يرون أنفسهم أجدر بالرياسة وأولى بالشرف على ما كان فيهم من الاعتداد بأنفسهم والفخر بأنسابهم منذ أيام الجاهلية. فسخط الفرس من أجل ذلك عليهم، ولكن الفرس لم يكونوا قد أفاقوا من دهشة الفتح الإسلامي ولم يكونوا قد تمكنوا في الإسلام واللغة وامتزجوا بالعربامتزاجاً يمكنهم من منافسة العرب، وما كان العرب قد ضعفوا وتغيروا وتفرقوا في الأقطار. بقي الفرس ساخطين فاستعان بهم الثائرون على الأمويين، فكانوا عوناً للمختار بن أبي عبيد ولعبد الرحمن بن الأشعث، فكان جيش المختار من الموالي إلا قليلاً وقد عتب العرب عليه إذ استعان بالعتقاء من الموالي ثم أعطاهم حظهم في الغنائم. ولما قال رسل عبد الملك لأبن الأشتر: أجأت تقاتل جيوش الشام بهؤلاء؟ أجاب ما هؤلاء إلا أبناء أساورة الفرس.
وإذا نظرنا إلى أن جيش المختار كان أول من ثأر للحسين بن علي وقتل من قتله عرفنا أحد الأسباب التي جمعت بين التشيع والفرس منذ أمد بعيد، فقد كان للعلويين

والفرس سواء في كراهة الأمويين فتحابوا. جاءت الدعوة العباسية وقد تهيأت الأسباب ليأخذ الفرس
مكانهم في الأمة الإسلامية فكانوا أخلص دعاة هذه الدولة وإليهم يرجع الفضل في إقامتها، وقد رأى نصر بن سيار في هذه الدعوة خطراً على العرب والإسلام فقال فيما قال:
تعزي عن رحالك ثم قولي ... على الإسلام والعرب السلام
كانت الدعوة العباسية خليطاً من الدين والعصبية الفارسية فأبو مسلم كان فارسياً ومسلماً غيوراً مخلصاً، وقد أسلم من أجله كثير من دهاقين الفرس وهو الذي قتل المتنبي الفارسي سر (به آفريد) حين إنتهز فرصة الدعوة فقام يحيي الزردشتية؛ وكان أبو مسلم قد دعاه من قبل فأسلم وسود. هذا المزج يتمثل حتى في تسمية أهل خراسان الرماح التي خرجوا بها لنصرة العباسيين: كافركوب (أي مضارب الكفار) فهو أسم مركب من كلمة عربية متصلة بالدين ومن كلمة فارسية. وما يتفكه به هنا قول بعض الشعراء:
وولهني وقع الأسنة والقنا ... وكافر كوبات لها عجر قفد
بأيدي رجال ما كلامي كلامهم ... يسمونني مرداً وما أنا والمرد؟
ومهما يكن فلا أخال البيروني قد أخطأ حين سمى الدولة العباسية (دولة خراسانية شرقية).
كان للدعوة العباسية وما عقبها من قيام الدولة نتائج كثيرة، وإنما يعنينا منها ما يتعلق بالفرس، فقد انتعشت الآمال في نفوسهم ومكنت لهم في الدولة وخلطتهم بالعرب خلطاً تاماً وكان من مظاهر هذا الانتصار في بلاد الفرس ظهور دعوات جديدة وثورات: (به آفريد) أنتهز الفرصة لوضع دين قريب من الزردشتية. فأعجلهأبومسلم وقتله. وقد أعجب الفرس بأبي مسلم أيما اعجاب، فلما مات أنكر المسلمية موته وقالوا أنه اختفى وسيجئ مهدياً من بعد، ومنهم من قال انه نبي بعثه زردشت وإنه لم يمت كما لم يمت زردشت. وقد دعا إلى هذا داعية في بلاد الترك يعرف باسم إسحاق التركي ولكنه فارسي. وقام صديق من أصدقاء أبي مسلم أسمه سنباد يقول: أن أبا مسلم اختفى في صورة حمامة بيضاء، ثم يعلن أنه سيذهب لهدم الكعبة انتقاماً لصديقه، وقد جمع حوله زهاء مائة ألف ولكن ثورته لم تلبث طويلاً. وتلت ذلك ثورات يوسف البرم والمقنع الخراساني وعلي مزدك، وبابك الخرمي، وأكثرها مصحوب بذكرى أبي مسلم.
ثم جاء القرامطة وفعلوا ما فعلوا وكان منهم ابن أبي زكرياالذي شرع لهم أن من أطفأ النار بيده قطعت يده، ومن أطفأها بفمه قطع لسانه وهذا من أثر الزردشتية. كل هذه مظاهر تحتاج إلى شرح واستقصاء ولها دلالتها
على بقايا العصبية الدينية والجنسية في نفوس الفرس. هذا في بلاد الفرس، وأما أثره في سياسة الدولة وفي حاضرة الإسلام بغداد فقد كان للفرس الرجحان على العرب عند الخلفاء منذ قيام الدولة، وقد بلغ الأمر غايته حين تنازع الأمين والمأمون فكان المأمون في مرو من أقصى خراسان أشبه بخليفة فارسي وقد أعانه الفرس على حرب أخيه الذي كان يعتز بالعرب. وروي أن أول شعر فارسي نظم في مدح المأمون كان إذ ذاك. فلما غلب المأمون تمت الغلبة للفرس، ثم استمروا مسيطرين على الخلفاء حتى أديل منهم لأتراك المعتصم؛ حتى إذا قامت الدولة الفارسية ملك بنو بويه بغداد إلى أن كان طور السلطان التركي فأديل منهم للسلاجقة.
ساس الفرس الدولة على قواعد الساسانيين، وقلد الخلفاء وغيرهم الفرس في ملابسهم ومساكنهم وطعامهم وشرابهم؛ أم ر الخليفة المنصور أن تلبس القلنسوة الفارسية، وأتخذ هو ومن بعده الحلل المذهبة على الأساليب الفارسية، وقد أبقى الزمن من نقود الخليفة المتوكل ما يظهر هذا الخليفة في مظهر فارسي كامل. ومن الكلمات الجامعة في هذا ما قاله المتوكل حين أراد إصلاح السنة المالية ورد النيروز إلى مكانه من العام فأحضر الموبذ ليستعين به، فقال الخليفة. قد كثر الخوض في ذلك ولست أتعدى رسوم الفرس. وسأله رأيه في الإصلاح.
الخلاص.
للشاعر الهندي رابندرانات طاغور
من كتاب ظهر حديثاً بعنوان (الزورق الذهبي).

ترجمة الأستاذ عبد المسيح وزير
الأستاذ عبد المسيح وزير أحد كتاب العراق القليلين الذين يتتبعون تطور الثقافة) الحديثة بشغف ولذة. وهو المترجم الفني لوزارة الدفاع العراقية، وصاحب الأثر الحميد (.في مصطلحاتها العسكرية ومغذي أكثر الصحف بالأبحاث العلمية والأدبية
تجلس العاشقة المنكوبة في حبيبها إلى حديقة أزهار تفتحت عن رائع زهوها. فتجبل لمعشوقها الراحل تمثالاً من طين يبرز رويداً رويداً في شبه الصورة المحفوظة في ذاكرتها.
تتفرس في التمثال ثم تحدق إلى الماضي فيجول الدمع في عينيها.
وفي كل يوم ينزل ظل متكاثف يكتنف الصورة المنقوشة في لوح قلبها. فالرسم الذي كانت تراه بالأمس بارزاً جلياً تلفيه اليوم متضائلاً مموهاً. وكما تطبق الزنبقة وريقاتها ليلاً تسدل العاشقة الستار على ذكرى غرامها.
تثور سورة غضبها على نفسها. ويأخذ الخجل مأخذه كله منها. فتعمد إلى التقشف. فتعيش على الثمار والماء، وتنام على أديم الأرض.
وكلما دنا التمثال من الكمال بعد عن شبه الصورة المكنونة في ذاكرتها. ويخيل إلى العاشقة أن ذلك التمثال لا يشبه صورة إنسان على الأرض، ولكنها تخدع نفسها فتحسبه شبه الحبيب الذي فقدته إلى الأبد.
تعبد التمثال مع عبادتها الزنابق. وتوقد حوله سرجاً مصوغة من ذهب. فيعبق المكان بالرائحة المنبعثة من زيت السرج. وتتراكم الأزهار والشموع يوماً فيوماً حول التمثال إلى أن يختفي. يتقدم إليها طفل ويقول: (نريد أن نلعب هاهنا).
- (أين؟)
- (بجانب دميتك)
فتجيبه قائلة: (لن أسمح لقدم بالدنو من هذا المكان)
ويقول طفل آخر: (نريد أن نقطف بعض أزهارك)
- (أي أزهار تريدون قطفها؟)
- تلك الزنابق القريبة من الدمية الكبيرة
فتقول له: (لن أسمح ليد بمس تلك الأزهار)
ويطلب إليها طفل آخر قائلاً: (أخرجي ذلك السراج وأنيري سبيلنا). فترفض طلب الولد بقولها: (لن ينقل ذلك السراج من مكانه)
يتوافد الأطفال عليها أفواجاً أفواجاً. فتنصت إلى هذرمتهم، وتشهد تواثبهم في مرحهم وجذلهم. فتستغرق في التأمل هنيهة.
ثم تنتبه من غفلتها مذعورة فتتورد وجنتاها خجلاً.
بعد ذلك يفتتح معرضاً في المدينة المجاورة فيزورها شيخ طاعن في السن ويسألها قائلاً: (ألا ترافقيني ايتها الحبيبة إلى المعرض؟)
(أني لا أستطيع ذلك)
وتهرع إليها فتاة تناديها قائلة: (هلمي بنا إلى المعرض!)
(لا أتمكن من مرافقتك، لأنني لا أستطيع الاستغناء عن لحظة أقضيها في سبيل ذلك)
ويمسك طفل بهدب ثوبها متوسلاً إليها بقوله: (خذيني معك إلى ذاك المعرض العظيم).
ولكنها لا تستطيع الانقطاع عن تأمل منية قلبها طرفة عين.
وفي جنون الليل تسمع صوتاً كهدير الرعد. لأن مئات الزوار وألوفهم يجوزون القرية في طريقهم إلى المعرض.
وعندما تفيق من نومها يسكت وقع أقدام الزوار تغريد الطيور. فتشعر برغبة في الذهاب إلى المعرض، ولكنها تتذكر آنذاك أنها لا تستطيع ذلك، إذ ليس في وسعها أن تهمل عبادة إلهها (صنم عشيقها الراحل) يوماً واحداً.
وفي الصباح تبكر مسرعة إلى الحديقة.
فأين الصنم، يا ترى؟
يمر الزوار زرافات بالقرية وقد عفا أثر الحديقة واختفى الصنم، أما سيل الرجال الجارف

فلا يقف لحظة عن جريانه، تناجي نفسها في لهف قائلة: (أين حبيبي؟).
فيهمس في أذنها هامس قائلاً: (هو بين عابري السبيل هناك!).
وفي اللحظة ذاتها يتقدم اليها طفل ويقول لها: (خذيني معك)
(إلى أين؟)
(ألست ذاهبة إلى المعرض)
(بلى. أني لذاهبة)
فتجوز حديقة الأزهار وتنضم إلى قافلة الزوار، لانها وجدت فقيدها المنشود بين الأحياء.

في الأدب الغربي

القرية المهجورة

للشاعر أوليفر جولد سمث

يا جنة في سفح وادينا ... يا نفحة السحر من فردوس ماضينا (أوبرن)
حيث السعادة للحصاد: عافية ... تشد منه، وخيرات أفانينا
وحيث تبدو بواكير الربيع بها ... غيسا قبل أن تغشى البساتينا
وحيث يخلف فيك الصيف بهجته ... زهراً يرف، وأطياراً تغنينا
معاهد كنت أغشى في عرائشها ... ثرى بُلَهنيَة قد طاب أردانا
مقاعد من شباب كله مرح ... سقيت فيها الهوى والسحر خلصانا
جررت ذيل شبابي في خمائلها ... تيها، ومليت فيها اللهو ألونا
حيث السعادة فيها وادعة ... تعز من كل شيء فوقها هانا
لكم وقفت لأستملي مناظرها ... وأملأ العين سحراً جد مختلس
أشاهد الكوخ في أظلال أيكته ... والجدول العذب يجري غير محتبس
وألمح البيعة الزهراء مشرفة ... من سفح رابية في دجنة الغلس
أصغي الو الليل والطاحون ... صاخبة والطير تشدو بصوت ناعم الجرس
هناك في دغل هذا الدوح كم أنست ... فيه الطفولة مغنى من مغانينا
كانت مطاف الهوى في طيب عزلتها ... حينا. . وكانت مطافاً للأسى حينا
كم حمل النسم من أطرافها عبقا ... تساجل الشيب أو همس المحبينا
وكم حمدنا ليوم اللهو مقدمه ... فيها لنحيي بها أصفى ليالينا
يوم ترفه عنها النفس ما لقيت ... من المتاعب في رفق وإبطاء
ويجمع الحاصدون الغر شملهم ... في ظل فينانة الأغصان فرعاء
تحويهم حلقات من شبابهم ... فيرقصون على المزمار والناء
يناجزون من الألعاب أروعها ... والشيب يلحظهم إغراء
وإن يمل من الألعاب صحبتهم ... أستأنفوا طارفاً في اللهو وأنغمروا
كل ينافس في الصبر وفي جلد ... رفيقه - ليقال الغالب الظفر
وكي تداول الآفاق سيرته ... وينشر الحي ما أبدى فيشتهر
قد استخف بما يلقاه من تعب ... والترب يعلو جبينا منه والعفر
بيننا ترى سامرا في القوم مغتبطا ... يروي النكات لهم والكل مبتهج
يتلوا عليهم طريفاً من نوادره ... حلواً يكاد مع الأرواح يمتزج
ورب ساجية الأجفان فاتنة ... ظلت ترانيه منها أعين دعج
وتفهم الأم ما ترمي فتحدجها ... حدج الملأمة في صمت فتنزعج
آها لعهدك (يا أوبرن) أذكره ... وكيف تنفع ذكرى تنبعث الأسفا
هذي المفاتن كانت في ترادفها ... توحي إلى قلب أهليك الهوى الشغفا
على خمائلها فاضت مراتعها ... سحراً - ورفت على أدغالها طرفا
مفاتن أذوت الأيام بهجتها ... وصيرتها الليالي للبلى هدفا
أين تولت من مغانيك ... هذه الملاهي وفرت من روابيك؟ (أوبرن)
لقد تمشت يد العاتي عليك فلم ... ترحم قلوب الحزانى من أهاليك
وقد علاك شحوب من تعسُّفها ... ووحشة قد تمشت في مراعيك
بأي حكم زمان صار يحكمها ... فرد - وكانت تراثاً في أواليك
كانوا جميعا (فأمسى جمعهم بدداً ... والربع أقوى) وكان الربع مأنوساً
والسهل لم يبق فيهبعد نضرته ... إلا بقية زرع كان مغروسا
والجدول العذب لم نبصر تألقه ... كما عهدنا - وفيه اليومُ معكوساً

لكن سرى وهو بالأعشاب مختنق ... يشق مجراهبين الغاب محبوسا
وفي مفارجك الخضراء حل بها ... ضيف غريب من الأدغال قد هتفا
هذا هو (الرخم) يبني وكره ويرى ... مستمكنا في ذرى الأغصان مشترفا
وفي طلولك تدوي البوم ناعبة ... تنعى بصوت كئيب ماضيا سلفا
آها لعهدك يا أوبرن أذكره ... وكيف تنفع ذكرى تبعث الأسفا
هذي خمائلك الخضراء ذاوية ... حلت مباهجها. دالت دواليها
تواثبت فوقها الأعشاب هائشة ... والمحل أصبح ضيفا راعيا فيها
واليوم أهلك في خوف وفي وجل ... من بطش منفرد الأحكام طاغيها
قد بدلوا عيش أرض غير أرضهم ... وبدلوا ود أهل غير أهليها
م. ع. الهمشري

نفسية قطة

للكاتب الفرنسي تيوفيل جوتييه

نقلها عن الإنجليزي الأستاذ أحمد أمين

قطتي بيضاء الصدر، قرنفلية الأنف، زرقاء العين، تعيش معي على خير ما يكون الصديق لصديقه. إن نمت نامت تحت قدمي. وأن جلست على كرسي أكتب جلست هي علي متكئة تحلم، وإذا مشيت في الحديقة تتبعني وإذا أكلت زاحمتني، فحالت (أحياناً) بيني وبين لقمتي. أستودعني ذات يوم صديق لي ببغاء أخضر ريثما يعود من سفره. فأستوحش من منزلي، وشعر أنه غريب، فتسلق القفص حتى أعلاه، ثم جثم ساكتاً مرتعداً.

وكانت قطتي لم تر ببغاء قط، فكان مخلوقاً جديداً أمام عينيها، أدهشها منظره فكانت أشبه بقطة محنطة من آثار الفراعنة، وأستغرقت في التأمل كأنها تستعيد في ذاكرتها كل ما درسته من التاريخ الطبيعي على سطح الدار وفي حديقة المنزل؛ وكان ما يدور بفكرها يتجلى في نظراتها حتى لأستطيع أن أتبين من عينيها خلاصة أفكارها كما لو كانت تعبر بقول بليغ ومنطق فصيح. كانت كأنها تقول: (ليس هذا المخلوق دجاجة خضراء) ولما بلغت من درسها هذه النتيجة تركت المائدة حيث كانت ترصد الببغاء وربضت في ركن من أركان الحجرة مبسوطة الذراعين مطرقة الرأس ممطوطة الظهر، كأنها نمر يتربص غزالا ورد الغدير.

كان الببغاء يتتبع حركاتها في اضطراب، وقد نفش ريشه ورفع ساقه المرتعشةوسن منقاره على إنائه الذي يأكل فيه، وهدته غريزته إلى أن هناك عدواً يدبر الكيد له.

ثم أخذت القطة تسدد إلى الببغاء نظرات حادة وهو ينظر إليها فاهما حق الفهم ما يجول بخاطرها. فكأنها كانت تقول (لا بد أن تكون هذه الدجاجة لذيذة الطعم على الرغم من أنها خضراء).

وكنت أرقب هذا المنظر باهتمام موطناً نفسي أن أتدخل عند الحاجة.

ثم دنت القطة من الببغاء وأنفها القرنفلي يرتعد، وعيناها تضيقان، وأظافرها تنقبض وتنبسط، وعمودها الفقري يرتفع وينخفض، وأخذت تمني نفسها قرب الحصول على طعم لذيذ، كما يمني الشره نفسه إذا دعي إلى مائدة صفت عليها ألوان الطعام الشهي.

ثم انحنى ظهرها فجأة كما تحنى القوس في يد الرامي، ووثبت وثبة فإذا هي بجانب القفص. فأيقن الببغاء بما هو فيه من خطر وقال بصوت خافت رزين: (هل أفطرت يا جيمس؟) وهي كلمة تعوّد الببغاء أن يقولها كما علمه سيده. فأخذ القطة من الرعب مالا يوصف؛ فلو أن طبولاً دقت وصحافا كسرت، وطلقات نارية دوت، ما روعت القطة كما روعت من هذه الكلمة! إرتدت إذ ذاك إلى الوراء وعلى وجهها أنها غيرت كل آرائها في هذا الطائر، وكان يخيل إلى من ينظر إليها أنها تقول: (ما هذا طائراً. إن هذا إلا إنسان صغير).

هب الببغاء يغني بصوت عال، لأنه تحقق أن كلامه خير وسيلة يدفع بها عن نفسه.

نظرت القطة ألي نظرة أستفهام فلم يقنعها جوابي. فخبأت نفسها في فراشي ولم تتحرك طيلة يومها.

وفي اليوم التالي عاودتها شجاعتها فعاودت الكرة على الببغاء ولكنها لاقت في يومها

ما لاقت في أمسها، فاعترفت بهزيمتهاوقررت أن تعامل هذا الطائر باحترام كما تعامل الإنسان.

بيت الراعي

للشاعر الفرنسي دفني

(3)

1. أيفا. من أنت؟ وهل لك من علم بطبيعتك؟ أتعلمين لم خلقت وما هو واجبك في الحياة؟ أتعلمين أن الله لكي يعاقب الرجل (مخلوقه) على خطيئته الأولى إذ امتدت يده إلى شجرة المعرفة شاء أن يكون حبه لنفسه في كل زمان وفي كل أدوار حياته غرضه الأول. مهموم بحب نفسه مهموم بأن يرى نفسه.

2) ولكن إذا كانت إرادة الله شاءت أن تسكني إلى جانبه أيتها المرأة. أيتها الرفيقة الرقيقة. أيفا. أتعلمين السر في ذلك؟ إنما هو لكي يرى نفسه في مرآة نفس أخرى. إنما هو لكي يسمع تلك الأغنية التي لا يمكن أن تصدر إلا عنك. ذلك الفيض الإلهي الذي يتردد في هذا الصوت العذب. إنما هو لكي تقضي في أمره وأن كنت له أمة. لكي تحكمي في حياته وإن أخضعك لقوانينه.

3. في أقوالك المرحة جبروت المستبد. في عينيك سطوة القوة، وفي مرآك أمارة السلطان، حتى لقد شبه ملوك الشرق في أغانيهم نظراتك في هول وقعها بنزول الموت. كل يحاول جهده أن يثني من أحكامك المتسرعة. على أن قلبك الذي يكذب جسارة مظاهرك سريع ما يخضع لضربات القدر من غير مقاومة ولا دفاع

4. لعقلك وثبات كوثبات الغزال، إلا أنه لا يستطيع السير من غير مرشد ولا معين. الأرض تدمي قدميه، والهواء يضني جناحيه، وعينه يعشو بصرها عن ضوء النهار إذا سطع لألاؤه. وإذا اتفق أن سمت به الفكرة في دفعة من دفعات حماستها إلى مستقر علوي اضطربت بها الرياح وعجزت عن أن تمسك نفسها من غير خوف ولا ضجر.

5. ومع ذلك فليس فيك مافينا من خصائص الجبن إذ تتردد صيحات المظلوم في قلبك، ويدق بها نبضه كالأرغن في سكون الكنيسة المطبق، يتأوه متألماً كأنه يرجع صوت ألم تلقاه. للهيب ألفاظك تتحرك الجماهير وبدموعك تمحي آثار كل إهانةونكران للجميل. بيمينك تهزين الرجل فينهض وسلاحه بيده.

6. إليك يجمل أن تنتهي كبريات الشكوى التي تأن منها البشرية الحزينة. عندما يتضخم القلب بالموجدة نرى هواء المدن يكاد يخنقهكلما دق، ومع ذلك تسمو تنهداته إلى ما فوق الدخان الأسود لتنعقد كلمة واحدة نسمعها بوضوح.

7. تعالي إذن. ما السماء عندي إلا إطار تخيط بك زرقته. ويغمرك ضوؤه ويحميك جداره، ما الجبل إلا معبدك والغابة قبابه. العصفور فوق الزهرة لا ترنحه الرياح والزهرة لا ينبعث أريجها والطائر لا يجري أنينه إلا ليصفوا الهواء الذي تستنشقين ما الأرض إلا بساط لقدميك الجميلتين كأقدام الطفل.

8. أيفا: سأحب كل مخلوق، وسأتأمل في نظراتك الحالمة التي ستنشر في كل ناحية أضواءها المتعددة الألوان فتنشر معها لذتها السحرية وسكونها الضاحك. تعالي ضعي يدك الطاهرة على قلبي الممزق. لا تتركيني وحيداً مع الطبيعة لأنني أعرفها حق المعرفة لكي لا أخشاها.

9. أراها تخاطبني قائلة: ما أنا إلا ذلك الملعب الذي لا تحركه أقدام اللاعبين. درجاتي الزمردية وساحاتي المرمرية وأعمدتي الرخامية صاغتها يد الله. هيهات أن أستمع إلى صيحاتكم أو إلى تنهداتكم بل ما أكاد أحس بالمهزلة الإنسانية التي تمر فوق ظهري باحثة لها عبثاً عن متفرجين بُكْمٍ في السماء.

10. فأنا أطوي البشر بجانب من غير أن أسمعهم أو أبصرهم كما لا أميز بين أجحار النمل ومسحوق رفات الإنسان لا علم لي بأسماء الأمم التي أقلها. يسمونني أمهم وما أنا إلا قبرهم. شتائي يلتهم أموتهم قربانا له، وربيعي لا يستمع لصلوات غرامهم.

11. لقد كنت قبل أن توجدوا دائماً معطرة وجميلة يوم كنت أترك للرياح شعوري المنحلة، وأسلك في السماء طريقي المعتاد فوق قب الميزان ذي الكفات الإلهية. فلما وجدتم ذهبت وحيدة في صمت رهيب أعبر الفضاء الذي تتقاذف فيه الكائنات، وأشق الهواء بجبهتي وثديي الناهدين.

12. هكذا تخاطبني الطبيعة في صوت حزين متعال، وأنا أبغضها في نفسي وأرى دمنا

في أمواج مياهها، وجثث موتانا تحت حشائشها تغذي بعصيرها جذور غاباتها. وأقول لعيني اللتين قد ترياني فيها جمالا (حولا نظراتكما إلى غيرها) وأسكبا دمعاتكما على سواها. ليكن حبكما لما سوف لا تريانه مرتين.

13. آه! تُرى من سوف يشاهد جمالك ورقتك مرتين أيها الملك الشاكي الذي يتكلم بتنهداته؟ ترى من سوف يولد مثلك حاملا قبلة كما تحملين فيما ترسله عيناك من بارقات النظر في ترنحات رأسك المنكس. في هذا القد المضني الساكن في دعة إلى فراشه، ثم في تلك الابتسامة النقية النقية التي تفيض بالحب والألم.

14. عيشي أيتها الطبيعة، وعيشي إلى الأبد فوق أقدامنا وفوق جباهنا مادامت تلك سنتك؛ عيشي وأحتقري (إن كنت ربة حقاً) الإنسان، ذلك العابر سبيل الذي كان من المقدر أن يقوم عليك ملكاً، فإنني أحب جلال الألم البشري فوق ما أحب ملكك ومظاهره الكاذبة. هيهات أن تنالي مني صيحة حب!

15. ولكن أنت أيتها السائحة المتهاونة! أما تريدين أن تضعي رأسك فوق كتفي وتستسلمي لأحلامك؟ تعالي نشاهد ونحن على مدخل منزلنا المتحرك من مرَّ ومن سيمر من البشر. لسوف تدب الحياة فيما يحمله إلى الشعر من صور الإنسانية عندما تمتد أما منزلنا آفاق الأرض الصامتة إلى غاياتها البعيدة.

16. وهكذا نسير غير تاركين وراءنا فوق تلك الأرض العاقة التي مر عليها أمواتنا من قبل إلا شبحنا. سنتجاذب الحديث عنهم عندما تظلم الآفاق، ويحلو لك أن تسلكي سبيلا ممحوا لتستغرقي في أحلامك مستندة إلى الأغصان الضئيلة باكية حبك العابس المهدد كما بكت (ديانا) على شواطئ تبعها.

محمد عبد الحميد مندور. عضو بعثة كلية الآداب بباريس

القصص

على هامش السيرة

الفداء

للدكتور طه حسين

أصبحت سمراء محزونة كاسفة البال تبدو على وجهها المتجعد وجبينها المقطب كآبة مظلمة، لم تحاول في هذا اليوم أن تخفيها أو تخفف من حدتها كما تعودت أن تفعل منذ أعوام وأعوام، فقد عرفت سمراء ألم الحزن منذ احتفرت زمزم، ومنذ ظهر حرص زوجها على الولد، ورغبته في كثرة العدد، ومنذ خطب فاطمة المخزومية فأحبها وكلف بها، وانصرف إليها عن كل شيء وعن كل إنسان. ومنذ كثر ولد فاطمة من البنين والبنات واشتد لذلك حبعبد المطلب لها وكلفه بها، وانصرافه إليها، وتجافيه عن زوجه الأولى تلك التي أضاءت له سبيل الشباب وأعانته على احتمالأثقال الحياة الأولى.

نعم عرفت سمراء ألم الحزن في هذه الأعوام الطوال من حياتها، ولكنها كانت على بداوتها امرأة لبقة بارعة الجمال، زكية القلب، تعرف كيف تخفي عن زوجها ما يكره، وكيف تلقاه بما يحب.

وكانت توفق بفضل هذه اللباقة وهذا الذكاء إلى أنتستميل إليها زوجها. وربما إضطرته إلى أن ينقطع إليها وقتاً ما وينسى زوجه الأخرى إلى حين، ولكن يوما أقبل يحمل إلى سمراء شراً ليس فوقه شر وألماً ليس بعده ألم، أصبح هذا اليوم مظلماً، فما أمسى حتى أظلمت له حياة سمراء كلها، ذلك أنه مضى يموت إبنها الوحيد، فأذاقها مرارة الثكل واليتم والترمل جميعاً. فقد كان الحارث لها إبناً تجد عنده قرة العين، وأباً تحس منه العطف وحنو الآباء، وكان هو يجد ألمها، ويعرف أسراره ويجد في الطب لهذا الألم، فكان يبالغ في رعاية أمه وحمايتها، وكان شديد الحرص على أن يلقاها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وعلى أن يطيل المكث معها والتحدث إليها، يشركها في جد أمره ولعبه، يستشيرها ويظهر قبول مشورتها والاستماع لنصحها. فكان يقوم منها في أكثر الأحيان مقام أبيه، وكان يعزيها بحبه وبره عما كانت تجد من الوحشة حين يصد عنها زوجها فيطيل الصدود. فلما مات الحارث مات معه أمل سمراء، ولم تلق الحياة إلا بوجه محزون كئيب يصور قلباً مكلوماً مظلماً. وقد جزعت سمراء لهذا الخطب وأشتد جزعها، وطال، ولكن أي شيء يبقي على الأيام! ولقد ذهبت الأيام الطوال بحدة هذا الجزع وشدته، كما ذهبت بنضرة شباب سمراء وكما ذهبت بحياة إبنها الحارث، وكما ذهبت بحب زوجها عبد المطلب، وأصبحت وقد

تقدمت بها السن وأمتحنتها حوادث الدهر امرأة مذعنة لحكم القضاء، لا تنكر شيئاً ولا يسرها شيء محزونة ولكن في دعة! ملتاعة ولكن في هدوء!

وقد أحست إنكار الناس من حولها لما يرون من حزنها وكآبتها. وما يجدون من انقباضها عنهم. فجدت ما استطاعت في إخفاء ما تجد وكتمان ما تحس، وأحتفظت لنفسها بهذا الكنز الحزين، كنز الذكرى وما تثيره من العواطف وما تهيجه من اليأس. وتركت للناس من نفسها شخصاً عادياً يبتسم حين يبتسمون، ويرضى حين يرضون ويشاركهم في أكثر ما يجدون من عاطفة أو شعور.

على إنها كانت تجد شيئاً من الرضى وراحة النفس حين تجد من زوجها عطفاً عليها أو أنساً إليها. وكان زوجها منذ أصابها هذا الخطب شديد الرفق بها، كثير الزيارة لها يصفيها مودة خالصة قوية، ولكنها خالية أو كالخالية من هذا الحب الذي يحيي قلوب النساء.

أصبحت سمراء في هذا اليوم محزونة ظاهرة الحزن، كئيبة بادية الكآبة. أقبل عليا إماؤها الثلاث يحيينها تحية الصباح فردت عليهن تحيتهن رداً فاتراً، ثم جلست وجلسن وأخذت مغزلها وأخذن مغازلهن، وعملت أيديهن في الغزل وسكتت ألسنتهن عن الكلام. وكانت سمراء تدع مغزلها من حين إلى حين وتظل ساكتة واجمة، وربما إنحدرت من إحدى عينيها دمعة حارة فأسرعت إليها تزيلها بيدها دون أن تقول شيئاً. والأماء صامتات ينظرن في حزن عميق إلى مولاتهن الحزينة، ولا تستطيع واحدة منهن أن تبدأها بالكلام. فلما طال عليهن هذا الصمت وهذا الحزن وثقل عليهن ما كان يجدن من ألم وما كان يملأ قلوبهن من حب للاستطلاع ورغبة في الكلام وميل إلى تعزية مولاتهن. اجترأت (ناصعة) وكانت أشجعهن قلباً وأطولهن لساناً. لأنها كانت تعرف مكانتها عند سمراء، فقالت: لقد أصبحت يا سيدتي على حال ما رأيناك عليها منذ زمن بعيد، فقد كنا نراك محزونة كئيبة ولكنك كنت تجاهدين الحزن وتدافعين الكآبة وتتكلفين الرضى، وكنا نجد من ذلك ما يشجعنا على تسليتك وتلهيتك بالحديث حيناً وبالغناء حيناً آخر؛ تقص عليك كل واحدة منا ما حفظت من أخبار بلادها، وتغنيك كل واحدة منابما تعلمت من الغناء في رطانتها الأعجمية. وكذلك كنت تسمعينأقاصيص سورية وأخرى حبشية وأخرى يونانية. وكنت تسمعين أغاني في لغات أجنبية قليلاً ما تعجبك ولكنها كانت ترسم على ثغرك الابتسام في اكثر الأحيان، أما اليوم فلم نر منك الا حزناً قاتماً، ولم نسمع صوتك العذب، ولم يرعنا الا هذه الدموع التي تسفحينها في صمت أليم. تكلمي يا مولاتي! بيني ماذا تجدين؟ ماذا أحزنك اليوم؟ تكلمي واحسني ظنك بنا، فقد نستطيع أن نعينك على الحزن كما كنا نستطيع أن نبعث في قلبك السرور. نحن إماء ولكننا نساء نجد الحزن كما تجدينه، ونحس اللوعة كما تحسينها. ولعل حبنا للبكاء أشد من حبنا للضحك، ولعل حرصنا على الحزن أشد من رغبتنا في السرور. ولعلنا إن شاركناك في الحزن والألم جارينا طبائعنا، وأرسلنا نفوسنا على سجاياها. فليس في حياتنا وإن كنت لنا مكرمة ما يسر أو يرضي، وأي شيء يسر أو يرضي في حياة الأمة الغربية التي لا تملك نفسها، ولا تحس إلا ذل الرق ولا تستطيع أن ترضى حقاً أو أن تسخط حقاً إلا إذا خلت إلى نفسها، وأنى لها أن تخلو إلى نفسها! تكلمي يا سيدتي ماذا يسوءك وماذا يغشى وجهك بهذا الغشاء الحزين؟ قالت ناصعة ذلك وانتظرت أن تجيبها سمراءولكنها لم تظفر بجواب، وإنما رأت دموعاً تنحدر ثم تنهمر ثم تستحيل إلى زفرات حارة ونحيب غير منقطع، هنالك محا الحزن ما بين السيدة الحرة وإمائها من فروق، فأسرعن إليها يهدئنها ويرفقن بها. هذه تقبلها، وهذه تمسح دمعها، وهذه تمر يدها على رأسها، وهن جميعاً يبكين لهاويبكين لأنفسهن. وقد هدأت سمراء بعض الشيء، وسكنت نفسها الثائرة إلى هؤلاء الإماء الرفيقات فابتسمت لهن في حزن، وشكرت لهن ما أظهرن لها من مودة وعطف، وطلبت إليهن العودة إلى ما كن فيه من عمل، وأخذت هي مغزلها وجعلت تديره في يدها ولكن ناصعة لم تلبث أن عادت إلى الكلام فقالت وهي تتكلف الابتسام وتتصنع الضحك: ليس يغني عنك الصمت يا مولاتي فأنا نعلم ما تسرين كما نعلم ما تعلنين، ولولا خوفنا منك وإكبارنا إياك لقصصنا عليك القصة التي تحزنك وتجري دموعك الحرة على خدك النقي. ولكن أنى لنا أن نبلغ منك هذه المكانة وإنما أنت

سيدة ونحن إماء! قالت سمراء كفي عن هذا الحديث يا ناصعة فقد أنسيت اليوم أن بيني وبينكن
فرق ما بين السيدة وإمائها، ولست أرى منكن الآن إلا نساء تعسات مثلي. إنما نحن أخوات في الشقاء والبؤس، وما ينفعني أنني حرة وأنا مثلكن مقيمة على الضيم محتملة للذل، مذعنة لصروف القضاء! لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً ولا أستطيع أن أبرح هذه الدار! وإلى أين أبرحها! لقد ذهبت غارة بني أسد بأبي وأخي، وأصبحت أمي وأخواتي مثلكن إماء مثلكن، لا أعرف من أمرهن شيئاً ولمينهض فتيان بني عامر للثأر! ليت شعري ماذا يصنع أبو براء بأسنته! ماله لا يلاعبها لقد ذهب الموت بابني وأصبحت أسيرة في يد عبد المطلب، أسيرة لا كالأسرى: يجفوني ولا أستطيع له بغضاً ولا قلى كما يفعل الأسرى. وإنما أحبه ولا أجد عن داره منصرفاً، هاهو ذا قد عاد من رحلته إلى اليمن منذ ثلاث، فلما بلغ مكة أسرع إلى هالة بنت وهيب فقضى عندها أولى لياليه وأول أيامه لأنها أحدث زوجاته به عهداً. ثم أصبح فانتقل إلى نتيلة فأقام عندها يوماً وليلة. ثم أصبح فانتقل إلى فاطمة فأقام عندها يوماً وليلة وما أرى إلا أنه سيقبل بعد حين، فيلم بهذه الدار إلمامة قصيرة ثم يسرع إلى هالة! فما أشد شوقه إليها وقد حدثت أنه أقبل من اليمن كأحسن ما يكون الرجال سمة وابرع ما يكونون جمالاً، وحدثت أن هالة أنكرته حين رأته فقد ودعنا أبيض الرأس وعاد فاحم الشعر، كأنه لم يتجاوز الثلاثين. وقد أنكرته من الغد قريش كلها لما رأت من سواد لمته. ولكنه أزال عجب قريش حين أظهر لها هذا الخضاب الذي حمله من اليمن، والذي يرد الشيب شباباً، والذي أسرعت قريش إليه فاشترت منه واختضب به شيبها فإذا أهل مكة كلهم شباب. كل ذلك ولم أر عبد المطلب، ولم أحس منه ذكراً لي وحنيناً إلي. وماذا يصنع؟ ليس لي شباب هالة، ولا جمال نتيلة ولا ولد فاطمة! وإنما أنا عجوز فانية، يتيمة وحيدة ليس لها أب ولا أم ولا ولد، أنا هذا الحمل الثقيل، الذي يضيق به صاحبه، ولكنه يأبى أن يلقيه ويتخفف منه مخافة أن يصفه الناس بالضعف أو القصور.
قالت ذلك وأغرقت في بكاء طويل شاركها فيه إماؤها الثلاث. ولكن ناصعة لم تلبث أن قالت: أهذا كل ما تعلمين من أمر زوجك يا سيدتي؟ إنك إذا لتجهلين كل شيء ولا تعلمين إلا أقل أمره خطراً، وأن عندي من أمر سيدنا ما لو قصصته عليك لأرضاك ولخفف لوعة الحزن هذه التي تحرق فؤادك الكئيب. لن تري زوجك اليوم يا مولاتي فهو عنك في شغل، لقد كان راضياً مسروراً حين كان يرى نساءه ينكرن سواد لمته ويعجبن بشبابه الجديد،
وحين كانت قريش تستبق إليه تشتري منه هذا الخضاب بما أحب من مال، ولكنه محزون منذ أمس، مغرق في حزن لا قرارة له، فهو خليق بالرثاء. إنك تحبينه يا سيدتي وستنسين إعراضه عنك، وسترثين له، وإني أخشى أن تخفي إليه حين تعرفين نبأه. قالت سمراء في شيء من الجزع بدأ هادئاً ولكنه لم يلبث أن اشتد قليلاً قليلا حتى بلغ أقصاه: ماذا تقولين وبم تتحدثين؟ وهو محزون! هو خليق بالرثاء لماذا؟ أبيني متى علمت بذلك؟ وكيف أخفيته علي؟ ما الذي يحزنه؟ ما الذييسوءه؟ ما الذي يجعله أهلاً للرثاء؟ ما الذي يضطرني إلى أن أخف إليه لأعزيه وأواسيه؟ قولي، أسرعي، لا تخفي علي شيئاً. قالت ناصعة: مهلاً يا سيدتي أرفقي بنفسك ولا تذهبي بها في الخيال كل مذهب، لابأس عليه في نفسه، ولا في ماله ولكنه يمتحن منذ أمس في بنيه. هوني عليك إن في هذه المحنة لعزاء لك عن فقد حارثك العزيز. أتذكرين يوم احتفر زمزم فنذر لئن أوتي من الولد عشرة ذكوراً. . . . . قالت سمراء: يراهم ليضحين بواحد يا بؤس هذا اليوم! لقد عرفت هذا النذر فكان مصدر شقائي كله، عرفت أنه سيستكثر من النساء ورأيت مدية التضحية ممدود إلى عنق قد تكون عنق ابني العزيز. منذ ذلك اليوم كرهت النساء جميعاً لأني رأيت في كل واحدة منهن ضرةلي، ومنذ ذلك اليوم رأيت شبح الموت مقيماًبهذا البيت ما أقام فيه ابني مفارقاً لهذا البيت ما فارقه أبني، ومنذ ذلك اليوم لم أر ابني في يقظة ولا في نوم إلا رأيت الموت له ظلاً، أتمي حديثك يا ناصعة. قالتالفتاة: لقد ذكر زوجك أمس وهو يتحدث إلى فاطمة نذره هذا وذكر أن أبناءه الذكور قد بلغوا عشرة أحياء يراهم بمولد طفلهحمزة فأقسم ليوفين نذره، وليضحينبأحد أبناءه وليجعلهم تسعة منذ اليوم حتى تتمهم له هالة أو نتيلة أو غيرهما عشرة أو تزيد بهم على العشرة. ولم يكد يعقد هذه اليمين التي جزعت فاطمة

وشاركها بناتها في الجزع. أشفقت على الزبير وأبي طالب وعبد الله وغيرهم من بنيها. وبلغ الخبر نتيلة فخافت على العباس، وبلغ الخبر هالة فجزعت على حمزة وثارت لكل امرأة قبيلتها. وألح الناس على الشيخ؛ تأبى كل قبيلة أن تكون التضحية منها. ومضى الشيخ في يمينه فجمع إليه بنيه وأنبأهم بنذره فكلهم أقره وكلهم أطاعه وكلهم ألح عليه ليوفين بالنذر ولتقدمن الضحية. وليس لقريش منذ أمس حديث إلا هذا النبأ هم يتناقلونه ويكبرونه وينكرونه وقليل منهم من يقر الشيخعلى هذا العزم الفضيع. قالت سمراء وهي

مضطربة، ثم قالت الفتاة: ثم أقبل الشيخ ببنيه إلى الكعبة مع الصبح فأجال فيهم قداحه فخرج القدح على أحب بنيه إليه. وآثرهم عنده، قالت سمراء وقد سالت من عينيها دمعتان محرقتان: خرج القدحعلى عبد الله قالت الفتاة: نعم. فأخذ الشيخ بيد ابنه يقوده إلى المذبح وفي يده المدية ولكن بناته جميعاً وأمهن قمن دون الفتى صائحات يستصرخن بني مخزوم ويستصرخن قريشاً كلها ويمنعن الفتى بحياتهن. وأقبلت إحداهن إلى الشيخ ضارعة ثائرة معاًفقالت: إذا كانقلبك قد استحال إلى صخر فلا ترق لأبنك الشاب ولا لأمه الشيخة ولا لأخواته البائسات، وإذا كانت شريعة قريش قد قست وجفت وغلظت حتى جعلت للآباء على أبناءهم حق الحياة والموت كأنهم الرقيق أو الحيوان، فدعنا نحتكم في هذا الفتى إلى رب هذا البيت فهو أوسعمنك رحمة وأجدر منك أن يضن بهذا الشباب على الضياع وأن يربأ بهذا الدم الذكي أن يراق. لنحتكم إلى رب هذا البيت في أمر هذا الفتى، لنقرع بينه وبين هذه الإبل الكثيرة التي تسيمها في الحرم ولنبلغن من ذلك ما يرضي رب هذا البيت.

وكانت قلوب قريش قد تفطرت حزناً وتصدعت أسى لقول هذه الفتاة وهي تبكي، وقد التزمت أخاها تعانقه وتقبله وتغسل وجهه الناصع بدمعها الغزير وهي تصيح: لأموتن قبل أن تموت. فما زالت قريش بالشيخ تلاينه حيناً وتخاشنه حينا حتى اضطرته إلى أن يقبل تحكيم الآلهة.

قالت سمراء وقد بلغ بها الهلع أقصاه: ثم ماذا؛ قالت الفتاة ثم لا أدري تركتهم يتأهبون لإجالة القداح بين الفتى والإبل وأقبلت لأقصعليك النبأ فرأيتك فيما كنت فيه من حزن عميق.

قلت سمراء يا بؤس لهذه الحياة! لا يسعد فيها الناس بخير مهما يكثر كل السعادة، ولا تشقى فيها الناس بشر مهما يعظم كل الشقاء. أسعيدة أنا بموت الحارث أم شقية؟ لو قد عاش لذقت الآن ما تذوقه فاطمة من هذا الحزن اللاذع والخوف المهلك ولكني كنت أوثر مع ذلك أن يعيش فقد كان يمكن أن تخطئه القداح، وقد كان يمكن إن لم تخطئه في المرة الأولى أن تخرجعلى الإبل من دونه وقد كنت أستمتع به أعواماً، ولكن هلم لا مقام لنا الآن لنسرع إلى حيث هم لنشاركهم فيما يجدون. وا حسرتاه! إني لصادقة الحزن! إني لصادقة الخوف! إني لشديدة الإشفاق! إني لشديدة الرجاء، ولكن فاطمة ستضن بي سوءاً وستقدر أني أقبلت غير

بريئة النفس من الشماتة، قالت ذلك ونهضت يدفعها حزنها الخالص ويردها خوفها من سوء الظن، ولكنها أسرعت مع ذلك وأسرع معها إماؤها. ولم تكد تتقد م في الطريق نحو المسجد حتى سمعت أصواتاً ورأت إضطراباً ثم تبينت في الأصوات فرحاً ورأت على الوجوه بشراً، وعرفت أن القدح قد خرج بعد لأي على مائة من الإبل. وأن عبد المطلب يؤذن في الناس أنه سينحر هذه الإبل بين الصفا والمروة، وأنها حرام عليه وعلى بني هاشم، مباحة لغيرهم من الناس والحيوان والطير.

فأسرعت سمراء حتى اختلطت بفاطمة وبناتها وهن سائرات يحطن بالفتى ويحلن بينه وبين غيره من الناس، حتى إذا بلغن البيت ألفين فيه امرأتين تبكيان إحداهما هالة بنت وهيب أم حمزة وزوج عبد المطلب، والأخرى بنت عمها اليتيمة آمنة بنت وهب. هنالك أقبلت سمراء هادئة باسمة إلى الفتاة فكفكفت من دموعها؛ وضمتها إليها وقبلت جبينها الطلق، ثم التفتتإلى عبد الله وهي تقول: هلم يا فتى فقبل أهلك فمهما تغل لها في المهر فلن تبلغ هذه الدموع التي ذرفتها حزناً عليك. ثم نظرت إلى فاطمة وهي تقول: ألا ترين أنها أحق فتيات قريش أن تكون له زوجة!

الرجل صاحب الكلب

قصة مصرية.

للأستاذ محمود تيمور
حدثني الراوي قائلاً:
عندما كنت طالباً في مدرسة الزراعة بالجيزة كنت أتردد في أوقات فراغي على قهوة صغيرة بالقرب من الشارع العمومي يجري بجوارها جدول صغير وتتهدل فوقهاأغصان شجرة عتيقة. وكنت أعتبرها حلقة الاتصال بين الحضر والريف أو بين المدنية والحياة الساذجة البدائية. فبينما تكون جالساً في مقعدك البسيط تشرب القهوة في هدوء وتصغي إلى خرير الماء وتشم رائحة النبات إذ بك تسمع دوي ترام أو سيارة ويمتلئ أنفك برائحة البنزين والتراب.
وكان يتردد على هذه القهوة رجل بدين الجسم كروي الوجه بأنف أفطس وعيونصغيرة يلبس بدلا من المعطف حرملة من اللون الأزرق الكالح ويلف رأسه بشال قديم مهلهل. وكنا في ذلك الوقت على أبواب الشتاء. وكنت ألاحظ عليه مظاهر الجربعة. وأعتقدت أنه من أرباب المعاشات الفقراء. وأذكر أنني لم أذهب إلى القهوة مرة واحدة ولم أجده. أراه دائماً في ركنه المعهود بجوار باب القهوة منتفخاً في جلسته يدخن النارجيلة ويحتسي القهوة ويزعق بين فترةوأخرى على الخادم يصدر إليه أوامره الممضة. يصحب معه دائماً كلباً أسود بشع الهيئة من فصيلة الأرمنت. يزعج القهوة بنباحه الثقيل. كان سيده يبالغ في تدليله والإعتناء به. ويكلمه ببعض كلمات إنجليزية بلهجة سقيمة لا تتعدى قوله: كام هير جيمي كام هير ماي دير.
ولا أدري ما الذي دفعني إلى أن أهتم بهذا الرجل وكلبه وأدقق في ملاحظتي إياهما. مع نفوري منهما.
وذهبت مرة إلى القهوة فوجدت عويساً ماسح الأحذية يتشاجر معه. وكان الرجل يشتم الغلام بصوته العريض الوقح وهو منتفخ الأوداج محمر العين يبصق أماه بصقات متوالية. ورأيت الكلب ينبح ماسح الأحذية بشدة ويجذب بأسنانه طرف ثوبه. فتحاشيت التدخل بينهما وقصدت إلى مكاني بجوار الجدول ومعي كتاب الزراعة المصرية لأذاكر فيه. وجاء
صاحب القهوة فحسم الخلاف وشتم عويسا وأرضى الأفندي ببعض كلمات لا تخلو من تملق. وترك الكلب ثوب الغلام وذهب إلى سيده فنظر إليه مليا وهو يبصبص بذنبه ثم تمدد تحت أقدامه ونام.
وجاءني عويس يمسح لي حذائي كالمعتاد فمددت له قدمي في حركة آلية غير ملتفت إليه وأنشغل الغلام بالمسح وأنا بالتفكير وبعد برهة خاطبت عويسا ووجهي لا يفارق الكتاب. .
- من يكون هذا؟
فأجابني وهو منهمك في عمله.
- واحد حكيم لا طلع ولا نزل. يدعي أنه كان حكيمباشي في الجيش في الزمن الماضي.
- والآن؟
- على المعاش
ثم رفع رأسه إلي وقال:
تصور يا بيه أنه يريد أن يعطيني قرش تعريفة واحد في مسح حذائه ووضع شريط جديد له. وأي جزمة هذه التي مسحتها. ربنا لا يوريك أؤكد لك أن الورنيش لم يمسها منذ أن كان جنابه في الجيش. .
قرش تعريفة واحد نظير مسحة وشريط جديد. الله الغني يا سيدي. . هذا خلاف الخدمات التي أؤديها له بدون مقابل. ولو كان شخصاً فقيراً لقلنا نخدمه لوجه الله ولكنه رجل عاكم. عاكم تمام.
وسمعت الحكيمباشي يبصق بشدة على الأرض فخفف عويس من حدته وهمس قائلاً:
- تصدق بالله، لو ذهبت إلى بيته لظننت انك في مزبلة أو مربط بهائم. . . . . لم كل هذا والدنيا أخرتها موت. فضحك واردم على هذه السيرة. .
وغبت عن القهوة بضعة أيام. وبينما كنت مرة في الترام منهمكاً في قراءة (البلاغ) إذ شعرت بشخص يدخل العربة، وكانت مزدحمة بالركاب، ويحشر نفسه بين الجالسين وسمعت همهمة استياء من كل ناحية. ورفعت بصري لأرى من الداخل فوقع بصري

أول وهلة على كلب اسود ضخم بشع الهيئة عرفته على الفور. ورأيت أمام مقعدي الحكيمباشي يمسح وجهه المحتقن المعقد ويشد حرملته على أكتافه ويدفع جاره وهو يدمدم. وتلاقت
أعيننا. وشعرتبأنني ابتسم له. وشاهدته يجيبني مجاملة بابتسامة سطحية خاطفة. وبعد لحظات قال لي مندفعاً:
- يدفع الواحد منا ستة مليمات لهذه الشركة الملعونة ليحظى بمثل هذه الجلسة المرهقة. نحن آدميون ولسنا بهايم حتى يحشروننا هكذا كأننا في عربة للحيوانات. لماذا لا يزيدون عربة على كل قطار في مثل هذه الأوقات. أقسم بالله ان سوارس الذي تدفع فيه ثلاثة مليمات فقط أحسن ألف مرة من هذا الترام.
فوافقته موافقة تامة. وأخذت أذم له الشركة بدوري. فظهر على وجهه الارتياح وأخذ يناقلني الحديث بلهجة ودية ومن غير تكلف كأنه يعرفني منذ أعوام، وقال:
- لم تحضر إلى القهوة منذ أيام
- كنت مشغولاً جداً. لقد هجمت علينا الدروس.
- إيه يا بني لو كنت معنا في الجيش لأستصغرت من شأن مشاغلك. . كنت أنا لا أجد الوقت الكافي لأتناول كوب اللبن في الصباح.
- حضرتك خدمت في الجيش مدة طويلة؟
فأجاب بلهجة متزنة وهو يعبث بسلسلة ساعته. .
- 45 سنة، 45 سنة وأنا أعيش في الخيام وعلى ظهور الجياد. أضمد جروح الجرحى وأعنى بالمصابين. ثم أخرج بعد هذه الخدمة الطويلة العريضة الشاقة بمعاش لا هو في العير ولا في النفير. . . لا مكافأة ولا يحزنون. .
ثم مال علي وهو يبتسم وقال:
- ألم تسمع المثل القائل: آخر خدمة الغز علقة.
وكان قد خلا مكان بجواره فنظر إلى كلبه الذي كان ممدداً تحت أقدامه وقال له وهو يفرقع بإصبعه. .
- كام هير جيمي. كام هير ماي دير.
وأشار له إلى المحل الخالي، فقام الكلب وبعد أن تمطى وتثاءب في هيئة شنيعة قفز بجوار سيده والناس يرمقونه بالنظر الشزر. وألتفت إلي الحكيمباشي وقال وهو يلاطف كلبه. .
- لم أر في حياتي كلباً وفياً كجيمي هذا. أنه إنسان وليس بحيوان. لقد إستغنيت به عن البنين فهو أبني وعن الخدم فهو تابعي الأمين. وعن الحراس فهو حارسي الذي يبذل دمه في سبيلي. أتصدق أنني لا أعاشر سواه في منزلي.
ثم نظر إلى كلبه وقال:
- أوه جيمي أي لاف يو فري ماتش
وكان بجواري شيخ معمم فسمعته (يمصمص) بشفتيه ويتمتم قائلاً:
- لله في خلقه شؤون!
ووقف الترام على إحدى المحطات ودخل العربة محمد أفندي زكريا الموظف ببنك الكومرسيال الإيطالي فسلم علي في بشاشة. ثم إلتفت إلى الحكيمباشي وقال:
- أهلاً أسعد بك. في غاية الأشواق يا حبيبي.
وتحدثنا برهةً في العموميات، ثم رأيت أسعد بك الحكيمباشي ومحمد أفندي زكريا يفتحان باب البحث في المسائل المالية. فسكت وأصغيت لهما. وأخذا يتعمقان قليلاً قليلا فلم أعد أفهم من كلامهما شيئاً. وكانت أمثال الكلمات. . الكامبيو والبورصة وسندات الشركة البلجيكية وأسهم البنك العقاري والرنت الفرنساوي تطن في أذني طنيناً مزعجاً، وارتسمت على وجه أسعد بك أشد مظاهر الاهتمام فوجدت عينيه تحملقان في وجه محدثه حملقة الجائع الشره، وطاقتي أنفه تتسعان كأنهما تستجديان الهواء. . . وأخيراً وصلنا الجيزة فسلم أسعد بك علينا ونزل لأنه كان يسكن في هذه البلدة. أما أنا ومحمد أفندي زكريا فتابعنا ركوبنا إلى الأهرام إذ كنا نرغب في تناول الشاي في (مينا هاوس) وملت على محمد أفندي وقلت له:
- إن لصاحبك باعاً طويلاً في الأمور المالية.
- إنه يا عزيزي يلعب بالجنيهات في سوق المضاربة كما تلعب الأولاد (بالبلى)

- وهل يكسب؟
- لم أسمع مرة واحدة أنه خسر.
ومرت الأيام وكثرت مقابلتي لأسعد بك في القهوة وتوثقت بيني وبينه روابط الصداقة. وأتضح لي أنه شخص غير مزعج كما توهمت قبل معرفتي إياه. فكان إذا رآني في ركني المعهود منكباً على كتابي أذاكر درسي أحترم عملي ولم يفتح فمه بكلمة. أما إذا لاحظ أنني لا عمل لي دعاني إلى الجلوس معه. ولا أذكر أنه أكرمني بفنجان قهوة. أو قدم لي سيكارة واحدة. أما حديثه فكان سخيفاً ولكنه مسل للغاية. معظمه حكايات عن حياته الماضية في الجيش ونوادر عن كلبه لا تخلو طبعاً من مبالغات ومغالطات. وكان إذا تكلم عن كلبه لمعت عيناه بوميض غريب وخيل إليك أنه يتكلم عن ابن وحيد له وهبه كامل محبته وحنانه.
وتغيبت بضعة أيام عن القهوة ثم عدت إليها فكان أول شئ لاحظته هو أن أسعد بك غير موجود. ولما جاءني غلام القهوة سألته عنه فلم يفدني شيئاً. وبعد قليل ظهر عويس ماسح الأحذية. وكان مسروراً يخبط بظهر فرشته صندوقه فسألته:
- ما الخبر يا ولد؟
- خبر عظيم جداً يا بيه.
- لقد أخذوا كلب أسعد بك في عربة الكلاب.
- يا شيخ!
- شاهدت ذلك بعيني رأسي.
ونالني شئ من الأسف. ولكنني لم أهتم بالأمر كثيراً. وأعتقدت أنني سأرى في الغد صديقي وكلبه يحتلان ركنهما المختار في القهوة.
وبعد انقطاعي بضعة أيام ذهبت إلى القهوة فوجدت أسعد بك وبحثت بعيني عن الكلب فلم أجده. وكانت عينا صديقي مربدتين حائرتين ووجهه محتقناً. وسلمت عليه فسلم علي في اقتضاب وصمت فلم أشأ أن أثقل عليه. وقصدت إلى مكاني وفتحت كتابي وبدأت دراستي ولكنني ما كدت أفعل حتى سمعته يتكلم في لهجة شرسة وكأنه يتحدى إنساناً أمامه قائلاً:
يأخذون الكلب ويطلبون مني جنيهاً مقابل إطلاق سراحه! جنيه! هذا نصب، نهب. . إخص على دي مصلحة.
. . . وبصق بصقة كبيرة. ثم أتم كلامه:
- مع أني أفهمتهم أني حكيم. . حكيمباشي الأورطة التاسعة التي قهرت العصاة في . . الأبيض ودارفور. رجل مقامي معروف وماضي مفعم بجليل الأعمال. مصلحة دون! لا تعرف أصحاب المقامات. . إخص. . !
وبصق بصقة أخرى. وكان يتكلم دون أن يلتفت ناحيتي. ولكني كنت متأكداً أن الكلام موجه إلي إذ لم يكن في القهوة غيرنا. فرأيت من باب المجاملة أن أعير حديثه اهتمامي. وقلت:
- جميع مصالح الحكومة بايظة.
فاحتد في كلامه وهو ينظر أمامه دائماً وقال:
- الا هذه المصلحة. إنها ليست بايظة فقط. إنها غير موجودة. . . . . أتصدق أنهم يرفضون شهادتي الرسمية بأن الكلب غير مكلوب وأنه ليس من الكلاب الضالة، ويقولون أن الإجراءات يجب أتتبع مجراها. إجراءات؟ هه!. . سأريهم كيف تتخذ أمثال هذه الإجراءات معي ومع كلبي. سأريهم. . !
وضرب بشدة على المائدة والتفت إلي هذه المرة وعيناه تشعان باللهيب وقال:
- لقد أرسلت عريضة اليوم إلى وزير الحربية لتخلية سبيل كلبي في الحال. . في الحال.
فأجبته على الأثر.
- حسناً فعلت.
وفي الغد سافرت مع فرقة من طلبة المدرسة إلى الصعيد وقضينا هناك أسبوعاً كاملاً نتنقل بين ربوعه متفرجين على آثاره العظيمة. وفي اليوم التالي لعودتي إلى القاهرة قصدت إلى قهوتي المعروفة. فرأيت عويسا جالسا القرفصاء على الأرض بجوار إحدى

الموائد وأمامه صندوقه ينتظر زبائنه. فناديته وسألته على الفور.
- ماذا جرى لكلب أسعد بك؟
فابتسم ابتسامة عريضة وقال:
- تعيش أنت!
- قتلوه؟
- منذ أربعة أيام.
ألم يدفع أسعد بك المبلغ؟
- يدفع المبلغ! انه يرضى أن يدفع لهم عينيه! ولا يتجاوز لهم عن الجنيه.
وشاهدت أسعد بك آتيا صوب القهوة يتوكأ على عصاه الغليظة ويسير في ثقل وإعياء، ولما
اقترب منيابتسم لي ابتسامة هزيلة وسلم علي ثم جلس. وأشار إلى المقعد الذي أمامه وقال:
- تفضل اجلس
جلست وبدأنا نتحادث في أمور تافهة. وكانت لهجته مهملة ونظراته فيها بعض الشرود. ولم يتكلم بكلمة واحدة عن جيمي فعلمت أنه لا يريد الخوض في هذا الموضوع. ثم خيم علينا صمت ثقيل فاستأذنت وقصدت إلى ركني.
ومنذ ذلك الحين اختلت مواعيد أسعد بك ولم أعد أراه دائماً في القهوة كلما ذهبت. وغير عادته في فنجان القهوة السادة الذي كان لا يحيد عنه ولا يزيد عليه واستبدل به بضع كوؤس من العرق. وكان كلما ثارت الصهباء في رأسه اندفع يتكلم في إسهاب ممض وبصوت مرتفع كأنه يصرخ أو يشتم. وكانت موضوعاته دائماً لا تخرج عن سبهمصلحة الطب البيطري وسب العالم كله على السواء. كان يقول دائماً:
- الدنيا كلها نهب في نهب. إخص بلا قرف. وبدأ يضيفني على شرب الزبيب معه ويقول لي:
- لا تخش ضرراً. أنا حكيم. إن الزبيب مقو للدم وفاتح للشهية. أحسن المشروبات كلها.
وأصبح مجلس أسعد بك لا يطاق. فلم أكن أنعم بتلك المحادثات المسلية. ولم يكن يتركني أذاكر دروسي في هدوء. بل كاندائماً يقلقني بصياحه المزعج ويضطرني إلى الإنصات له وتحبيذ كلامه. وكان إذا رآني مقصراً في الالتفات إليه جاء إلى مائدتي ونقل مشروبه إليها واحتل مقعداً بجواري وبدأ يسح بشكاياته وشتائمه.
وحدث مرة أن جاء صاحب القهوة بحساب الشهر (وكان من عادة أسعد بك أن يدفع الحساب شهرياً) فأخذ الورقة من يد الرجل وألقى عليها نظرة عابسة ثم صاح في وجهه:
- مائة قرش؟ جنيه! أما لصوص صحيح! لن أدفع هذا المبلغ ماحييت ودعك الورقة ورماهافي وجه صاحب القهوة. وأراد الأخير أن يتفاهم معه في لطف فأقترب منه ومعه الحساب وأخذ يوضح له عدد الطلبات التي طلبها. فدفعه أسعد بك بشدة وصاح. .
- اذهب من أمامي لن ادفع شيئا. كلكم لصوص أولاد كلب. فأحمرت عينا صاحب القهوة وقال:
- اللصوص وأولاد كلب يا حبيبي هم الذين لا يؤدون ما عليهم.
- اخرس! أتعرف من الذي تكلمه؟ أنا أسعد بك حكيمباشي الأورطة التاسعة في الجيش المصري.
- وماذا يهم؟ أنا أريد نقودي. ليس هذا الجنيه كجنيه مصلحة الطب البيطري الذي لم تدفعه إنقاذاً لكلبك. هذا جنيه ثمن مشروبات جررتها من محلي. .
ورأيت سحنة أسعد بك قد انقلبت وصارت كسحنة النمر الهائج وقال وصوته يرتجف:
- ماذا تقول يا وقح؟ جنيه الطب البيطري! أتظن أنني قد بخلت بالجنيه في سبيل إنقاذ كلبي؟ أتجرؤ على هذا القول يا لعين؟ أنا أرضى أن ادفع مائة جنيه لا جنيها واحداً من أجله. . ولكنني لا أدفع للصوص أولاد الحرام، كلكم تستحقون ضرب الصرم، ورأيته يدس يده المرتجفة في جيبه في حركة شاذة ويخرج ورقة مالية من ذات المائة قرش وينهال عليها تمزيقاً في وحشية غريبة ويقول:

- أتستطيع أن تقول إنني لا أستطيع أن ادفع جنيهاً. .
ثم قام وأنشب أظافره في رقبة الرجل. وقامت بين الاثنين معركة حامية استدعيت من أجلها الشرطة.
وساءت أحوال أسعد بكفلم أعد أراه الا مخموراً رثالهيئة ممزق الملابس. قوي الشبه بهؤلاء المشردين مدمني المخدرات الذين تراهم في الطرق يستجدون المارة. وكان لا يسكت لسانه عن النقود وبالأخص عن الجنيه الذي لم يدفعه إنقاذاً لكلبه، وكان يؤكد لي في حماس غريب أنه لم يدفع هذا الجنيه نكاية في مصلحة الطب البيطري وليفهمهم أنه ليس مغفلاً أو ضعيفاً. وكان يروي الحكاية لكل من يقع عليه بصره في القهوة أو في الطريق وهو يصيح ويهدد ويشتم. وإذا لم يجد من يكلمه رأيته يحدث نفسه محتداً وهو يلوح بيده في حركات شاذة.
وانقلبمن شحيح متكالب على المال إلى مسرف متلاف لا تعرف يمينه ما تنفقه شماله. وسمعت أنه كثيراً ما يذهب إلى مصلحة الطب البيطري ليفدي الكلاب الضالة ويخرج لها رخصاً بمبالغ لا يستهان بها. وكان يحرضني دائماًعلى التبذير ويقول:
- اصرف وبحبح على نفسك.
وقابلت مرة محمد أفندي زكريا الموظف ببنك الكومرسيال فروى لي أخباراً مزعجة عن
أسعد بك قال: أنه يضارب الآن بجنون ويخسر خسائر فادحة.
وحلت الإجازة السنوية وانقطعت عن زيارة القهوة ثلاثة أشهر كاملة ولما عدت إليها رأيت كل شئ فيها لم يتغير. وكانت مائدتي المختارة في موضعها بجوار الجدول تظلها أغصان الشجرة العتيقة. فكأنني لم أفارقها إلا منذ ثلاثة أيام. واستقبلتني الوجوه التي أعرفها كل بابتسامته الخاصة. وألتفت حولي مشرق الوجه وأنا أقول:
- كل شئ كما هو!
وبغتة قلت لعويس الذي كان يمسح مقعدي في هرج وسرور ويهيء نفسه لمسح حذائي. .
- أين أسعد بك؟
فتوقف عن عمله ورفع بصره إلي وقد غابت ابتسامته وانقطع ضجيجه المرح وقال بلهجة قابضة:
- ألم تسمع عنه شيئاً؟
- كلا
- لقد أرسلوه إلى المارستان. كانت حالة المسكين في المدة الأخيرة عبرة. وكنت أنا الذي أعتني به.
- ما هذا الكلام؟
- الحقيقة ما أرويها لك.
- وهل يمكن أن نزوره في المارستان؟
ومد عويس صندوقه تحت قدمي وبدأ يمسح في هدوء. وقال في لهجة غريبة:
- كلا يا سيدي لا تستطيع أن تزوره. . . لن تراه أبداً. . ونكس رأسه. . . فنكست رأسي أنا أيضاً وبدأت أستغرق في تفكيري الحزين.
قصة عراقية
تريد أن تحب. . .؟
للأستاذ أنور شاءول
الأستاذ أنور شاءول كاتب عراقي وشاعر غزلي رقيق يمارس المحاماة ويزاول الصحافة ويصدر مجلة (الحاصد) وهي أرقى المجلات الأسبوعية في بغداد. وهو ثاني إثنين أقاما القصة العراقية على قواعد من الفن الصحيح وله فيها كتاب الحصاد الأول. (الرسالة)
فرغت من قراءة المقال وفي هذه المرة لم ترم المجلة بعنف ويأس شأنها كل يوم إنما وضعتها بلطف قرب وسادتها ثم مدت يدها تضغط على زر المصباح فساد الظلام.
وفي حلكة الغرفة كانت عيناها مفتوحتين يلتمع فيهما بريق غريب. لم تستلم للنوم لأنها كانت تشعر بحاجة ملحة إلى الإنتباه والتفكير. عجباً أيمكن أن يكون شقاؤها الملازم قد أشرف على النهاية فتشرق شمس الغد ضاحكة وتقبل السعادة المفقودة

لترتمي بين أحضانها؟
إنه مقال (في الحياة والحب والجمال) لا مثيل له فيما قرأته قبل يوم من تلك الفصول المطولة. أنه قطعة من وجد، فلذة من قلب بل هو حياة مثلى مصغرة لما حنت إليها بعد نكبتها قبل سنتين. ولكن هذا المقال لم يثر من اهتمامها قدر ما أثار منه كاتب المقال، ذلك اللوذعي القدير المتفنن ذو القلم الساحر الذي استطاع ما لم يستطعه قبله من أهاجة الجمرات الكامنة من أعماق صدرها.
فمن هو هذا الكاتب؟
المقال مذيل بإمضاء ولكن الإمضاء لا يشير إلى شخصية حقيقية إنما هو من تلك الإمضاءات المستعارة المبتكرة. (سمير النجوم). ومن هو هذا سمير النجوم؟ وضغطت على زر المصباح فتفجرت الأنوار تغمر الظلمة وكانت المجلة في يدها فجلست متكئة على وسادتها وراحت تطالع المقال ثانية. وهي في كل فقرة من فقراته تستمهل النظر فتطلق لأفكارها الجامحة العنان. لم تعرف (م) كم مرة أعادت تلاوة ذلك المقال في تلك الليلة. ولم يكن ليهمها أن تعرف ذلك. وعندما دقت الساعة إثنين بعد منتصف الليل تذكرت أنها آوت إلى فراشها في منتصف الساعة الثامنة.
و (م) من هي؟
هي تلك الزنبقة التي ما كاد ثغرها يفتر في الحديقة الغناء فتمتص الندى وتتشرب العصير وتستحم بأنوار الشمس حتى قطعت عنها الطبيعة مجاري المياه فراحت تشكو العطش وتحذر الهلاك!.
هي الزوجة الحسناء بالأمس المترعة الكأس سعادة قدسية، الأرملة البائسة اليومالممتلئة الجوانح شعوراً غريباً علوياً!.
يا للجمال الرائع تلامسه يد الأسى بأصابعها النارية! يا للقلب الفارغ بعد امتلاء تتسرب إليه الوحشة والحنين بين الذكريات الوامضة الجميلة!
ويا ليالي الشتاء ما أطولها وما أقسى بردها على هذه الحمامة الوحيدة الوادعة!
توفي زوج (م) ولم يمر على زاوجهما أكثر من عام فخلف شريكة حياته ولا سلوى لها سوى طفلة في مهدها وذكريات طيبة مشوبة بمرارة الفراق الأبدي. من الذي سيبادلها الحديث الحلو؟ الابتسام؟ القبلات والعناق؟ ومن سيشاطرها الحياة شهورها وسنيها؟!
أحبت وحيدتها شأن كل أم وأفرطت في الحب ولكن هذا الإفراط ما كان ليخفف من مصابها بشريك حياتها. ومرت الأيام والأشهر وتصرم عام وبعضه و (م) تستهدف سهام الحياة.
فتتألم ذلك الألم الأخرس الذي يجيش في نفس جريح خانته قواه فما استطاع كلاماً حتى ولا أنينا!.
سل الوسادة عما بللها من دمعها الغزير في ظلمات الليل! سل النجوم عما تصعد إليها من حسرات على أجنحة الرياح! وسل المرآة الصافية عما صوب إليها من نظرات حزينة! ومن خلال لآلئ الدموع كانت عيناها تنظران بخيلاء كسير إلى الجمال المضاع.
إنني ما زلت حسناء. . . جاذبيتي ما زالت ثائرة. . . وقلبي فارغ. . . هل سيظل هكذا. - . .؟ ولماذا يظل هكذا. . . . . .؟
تجول هذه الأفتكارات وأشباهها في رأس (م) فلا تلبث أن ترتمي على كرسي قريب وتجهش بالبكاء. فإذا ما دنت إليها طفلتها تصيح (ماما) انقلبت من البكاء للضحك ومن الإجهاش للقهقهة، وبقي شيء لم يتغير هو الألم الممض في قلبها الوديع.
وحي علوي هبط على نفس (م) هبوط قطرات الطلعلى الزهرة . .(أريد أن أحب) العطشى
ولامس كل عاطفة من عواطفها ملامسة لفحة الموقد للجسم البارد ولكن أين من تحب؟ ومن هو؟ وكيف الحصول عليه؟.
شاب في مقتبل العمر، ممشوق القوام، ضحوك الوجه، براق العينين؛ جرسي الصوت؛ محبوب المعشر؛ مثقف؛ ذكي؛ ذلك من كانت تبحث عنه أو تحاول أن تبحث عنه (م) ليملأ فراغ قلبها الفتي.
ولكن أين نجده ومجتمعنا من القساوة بحيث يراقب منها الحركات والسكنات ويحصي عليها حتى أنفاسها. طريقها طويلة شائكة فهل تسير وهي حافية القدمين أم تنكص الأعقاب؟ (أريد أن أحب) كانت وحياً هابطاً ما أن له مرد.

بعد تفكير أيام بلياليها وصلت إلى أن بإمكانها أن تحب أحد كواكب السنما، وكواكب السنما كثيرون تتمتع بجمالهم وأصواتهم في السنما الناطق كل أسبوع، فما عليها إلا أن تحب أحدهم مثال روبرت مونتكومري أو كلارك كابل أو موريس شفاليه أو جاك بوكانان أو شارلس فارل أو رامون نوفارو أو أي كوكب آخر تقبل على إقتناء صوره ومشاهدة أفلامه وقراءة أخباره وتتبع كل أثر من آثاره. وهي فكرة جميلة تخفف من لواعجها ولكنها لا تطفئ أوار قلبها! إنها في حاجة إلى حب حقيقي، فلتبحث عن أمنيتها في غير هذه السبيل.

- لماذا لا تطالع الروايات العصرية التي ما زال أشخاصها أحياء يرزقون! فإذا ما تملك إعجابها بطل ما فلتبحث عنه عساها تصل إلى معرفته والانتصار عليه فتفوز به وعلى رأسها إكليل (كيوبيد) وإلى جانبها عشيقها العزيز المغلوب!

فكرة جميلة جداً حاولت أن تخرجها إلى حيز الوجودفقرأت أكثر من خمسين رواية فلم تظفر بمطمح أنظارها وأفكارها فأشاحت بوجهها حزينة ولهى!

وكومضة البرق الخاطف تحت جنح الظلام خطر لها خاطر أنست إليه ورأت فيه مخرجاً لها من هذه الحالة الأليمة، هو أن تبحث عمن (تريد أن تحب) في الجرائد والمجلات المحلية منها بوجه خاص، ففي هذه الصحف يكتب العشرات من الكتاب والقصصيين والشعراء فما عليها إلا أن تطالعها بانتظام حتى تعثر على ضالتها المنشودة.

مقالات! قصائد من الشعر المنظوم أو المنثور! كلمات مأثورة لا يحصى لها عدد! هذا سياسي؛ ذلك أديب؛ الآخر عالم. ألا إنهم كثيرون؛ كثيرون جداً ولكنهم على رغم كثرتهم لم يثر واحد منهم كامناً في نفس (م) فكانت تطالع ما ينشرونه ثم لا تلبث أن ترمي الصحيفة جانباً ثم يتملكها شعور هو أقرب إلى النفور منه إلى سواه. حتى كانت تلك الليلة السعيدة التي وقع نظرها فيها على مقال (سمير النجوم) في الحياة والحب والجمال فتنفست الصعداء وبرقت أسارير وجهها وخفق قلبها خفقة غريبة لم تستطع (م) تأويلها إلا بأنها عثرت على من تريد أن تحب.

والمجلة التي نشرت مقال (سمير النجوم) أسبوعية كانت (م) تشتريها صباح كل أحد من بائع الجرائد المجاور لدارها أما اليوم فقد كتبت إلى إدارة المجلة ترجو أن تعدها مشتركة في ثلاث نسخ أرسلت بدل الاشتراك السنوي عنها سلفاً.

وكان نهار الأحد التالي فصدرت المجلة، ويا لحزن (م)! فهي بعد انتظار أسبوع كامل كان أطول من عام لم تقرأ شيئاً لـ (سمير النجوم) ويا لوحشة القلب!

وحي أخذ يتجسم مفعوله في نفس (م) يوما فيوما باعثاً الأمل في (أريد أن أحب) أعماقها؛ وفي الأسبوع الرابع قرأت ودمع الفرح تترقرق في أجفانها مقالاً ثانياً لسمير النجوم عنوانه (السعادة، الزواج والمال) فكان له أثر عميق في نفس (م) فأعادت قراءته ثانية وثالثة ورابعة حتى أوشكت أن تحفظه عن ظهر قلب.

وفي الأسبوع التالي نشر (سمير النجوم) قصيدة في 21 بيتاً بعنوان (قلبي. .) كل بيت من أبياتها يسيل رقة وجمالاً، فكررتها (م) حتى حفظتها كلها وراحت تتغنى بها صباح مساء.

وظلت (م) تتعقب آثار (سمير النجوم) عشيقها؛ مثلها الأعلى، معبودها، فتلتهمها التهاماً ولا تقرأ سواها. وفي أحد الأيام فكرت حقاً في الأمر وارتأت أن عليها أن تعمل عملاً جازماً في هذا الشأن فتقول لسمير النجوم وجهاً لوجه (أني احبك. . احبك إيه الكاتب القدير. . احبك أيها الفتى الجميل. .) فكيف تصل إلى ذلك؟ وأجهدت فكرها وإذا بوحي الحب يهبط فيلهمها أن تدعو (سمير النجوم) (برسالة تبعثها إليه بواسطة المجلة) لتناول الشاي لديها في مساء الثلاثاء القادم. ما أبدعها فكرة مصيبة سهلة التنفيذ!.

وفي هدوء الليل جلست إلى مكتبها تحبر الدعوة إلى سمير النجوم وكان القلم يرتجف بين أناملها فتكتب وتشطب وتمزق ثم تكتب وتشطب وتمزق ثم تعود فتكتب وتشطب وتمزق. .

هذه كلمة خشنة. . هذه جملة مفككة. . هذا تعبير غير صحيح. . وأخيراً استقرت على أن تكون الدعوة كما يلي:

أنا إحدى المعجبات بكتاباتك الفياضة بالروح. أتشرف بدعوتك إلى تناول الشاي في)

داري الواقعة. . في الساعة الخامسة زوالية من عصر الثلاثاء القادم. أهلاً بك منذ الآن).
قرأتها ثانية وثالثة فأعجبتها، عند ذلك وضعتها في غلاف معطر وكتبت عليه: إلى الكاتب المحترم سمير النجوم - بواسطة مجلة. . . الغراء.
وحين استلقت على فراشها أرادت أن تقرأ الرسالة للمرة الأخيرة قبل أن تلتحف فتناولتها وتلتها بصوت عال كأنها تريد أن تتحسس موسيقى نبراتها فصدمتها منها الجملة الأولى (أنا إحدى المعجبات) لا. . لا لا. . يجب أن تكون هكذا (أنا معجبة ألخ. .) لماذا أتحدثإليه عن إعجاب الغير؟
ونهضت إلى مكتبها تعيد تبييض الرسالة وبعد هنيهة كانت تساورها الأحلام الجميلة. بعد ثلاث ساعات يأزف الموعد. كل شئ منظم بذوق سليم. الأواني، الطنافس، الوسائد، الصور، في وسط الغرفة رسم لها كبير يريك ثديها الأيمن تغطيه ملاءة حريرية شفافة، مجموعات الرسوم الفنية، الراديو غرامافون، السكاير، العطور. ما أعظمه يوماً في التاريخ.!
لم يبقى إلا ساعتان
لم يبق سوى ساعة ونصف!
ساعة واحدة فقط. . ثلاثة أرباع الساعة. . نصف ساعة. . ربع ساعة. . ما لقلبها يدق سريعا سريعا. .؟ ما لها لا تستطيع الثبات على المقعد. .؟ إنها تروح وتغدو كأن في صدرها ناراً تحركها. .
. .بقي عشر دقائق. . تسع. . سبع
وأحست بقلبها كأنه يريد أن يتحرك من مقره وبصدرها يعلو ويهبط. . وبأفكارها وأنظارها زائغة لا تستقر على قرار.
تن. . تن. . تن. . تن. . تن
دقت الساعة خمسة فطرق الباب على الأثر فهرولت تستقبل سعادتها المنتظرة. فتحته قليلاً وهي تقول بصوت عذب متقطع. تفضل!
فدخل سمير النجوم يتوكأ على عصاه. . كان شيخاً تجاوز الستين، محدودب الظهر، غائر العينين. . . . . .
- مساء الخير سيدتي. .
- تفضل!!
وأومأت إليه أن يدخل غرفة الاستقبال وركضت إلى غرفتها فارتمت على فراشها تبكي بكاء الأطفال. . .
أنور شاءول المحامي. بغداد
رحلة إلى دير طورسينا
للأستاذ الدمرداش محمد. مدير الامتحانات والسجلات بوزارة المعارف
1
كنا تسعة من الرفاقمن شعوب مختلفةجمعتنا المصادفات فأحسسنا رغبة مشتركة للقيام برحلة إلى قلب شبه جزيرة طور سيناء لزيارة ديرها الشهير (دير سانت كاترين) فاتفقنا على تنفيذ الرغبة رغم ما تنطوي عليه من مشقة ومتاعب جمة ولكنها كانت رغبة ثائرة دفعتنا إلي العمل بحماس شديد ساهم فيه الشباب منا والكهل والشيخ على حد سواء. وبعد أن استكملنا عدتنا من مرافق السفر والإقامة وتزودنا بكل ما يلزمنا من معلومات وخرائط. استأجرنا أربع سيارات من نوع معروف بالمتانة ومقاومة الصدمات والرجات العنيفة. ثم جعلنا إحداها لحمل المعدات والأخريات لركوب الجماعة.
تستغرق هذه الرحلة عادة أسبوعاً كاملاً ثلاثة أيام في الذهاب ويومين في الإقامة والتفرج على الدير ومثلهما في العودة، هذا إذا لم تصادفك عراقيل في الطريق ولكن كثيراً ما يضيع على المسافر يوم أو بعض يوم في إصلاح ما قد تصاب به سيارته من عطب أو في إنقاذها من ورطة، فقد تغوص عجلاتها في الرمل ولا يتيسر إخراجها منه إلا بجهد ومشقة، وتعتبر الكثبان الرملية من أكبر معطلات الانتقال السريع في الصحراء. وهي تعترض الطريق في كثير من الجهات، وكذلك جلاميد الصخر وهيمنتشرةفي كثير من الوديان ومجاري السهول، الا أنها أقل خطورة من الكثبان.

والمسافة بين القاهرة والدير نحو 425 كيلو متراً يقطعها المسافر عادة في ثلاثمراحل من القاهرةإلى السويس، والمرحلة الثانية إلى أبي زنيمة على خليج السويس، والمرحلة الثالثة من أبي زنيمة إلى الدير.

غادرنا القاهرةبعد ظهر يوم الخميس 23 أبريل 1931 بساعتين قاصدين السويس عن طريق الصحراء، فوصلناها في الأصيل وبتنا فيها. وفي اليوم الثاني عند الفجر عبرنا قنال السويس إلى الضفة الشرقية عند نقطة الشط، وبعد أن فحصنا سياراتنا ورتبنا معداتنا انطلقنا نسير نحو الجنوب في طريق رملي منبسط (وعن يميننا خليج السويس وعن يسارنا تلال تتدرج في الارتفاع كلما بعدت عنا نحو الشرق) وبعد ساعة من الشط مررنا بعيون موسى وهي عبارة عن واحة صغيرة قريبة من الخليج خالية من السكان وبها عين ماء راكدة ونخيل وبعض أشجار أخرى.

وعند الظهر قطعنا وادي الغرندل. وهو واد عريض يسير من الشرق إلى الغرب، كثير الشجيرات، وافر الكلأيتوسطه مجرى من الماء العذب. وبعد وادي الغرندل تتغير طبيعة الطريق فيصير صخريا في كثير من أجزائه كثير التعاريج والالتواءات بين انخفاض وارتفاع، وتقوم في جهته الغربية سلسلة من جبال عالية تحجب البحر ونسيمه. وقبيل العصر برزت أمامنا جبال المنجنيز بلونها الأدكن وعلوها الشاهق. وبعد أن مررنا بوادي الطيب وهو كوادي الغرندل كثير الماء، أنعطف الطريق نحو الغرب وبعد أن اجتزنا مضيقاً بين جبلين، انحدرنا نحو البحر إلى سهل واسع مواز للخليج تقع أبو زنيمة في طرفه الجنوبي وعلى مرفأ صغير للسفن وهي عبارة عن قرية صغيرة بها منشئات شركة المنجنيز ومستودعاتها ومساكن الموظفين والعمال ومسجد ومدرسة أولية ونقطة بوليس ومكتب للبريد والتلغراف ودكان صغير (كانتين) قد يجد فيها المسافر بعض ما يلزمه كالأطعمة المحفوظة والبنزين والسجاير، وبالقرب من الدكان المذكورة مستودع للماء العذب الذي يؤتى به من السويس في البواخر والشركة تعطيه للمسافر من غير مقابل.

كان وصولنا إلى أبي زنيمة قبل الغروب بساعة فلم نشأ المبيت بها بل تابعنا السير والطريق بعدها لمسافة ليست قصيرة ضيق يسير فوق صخور عالية تشرف على البحر من جهة وتحف بها الجبال من الجهة الأخرى، وعند الغروب وصلنا إلى نقطة بوليس لخفر السواحل واقعة على البحر تبعد عن السويس نحو 154 كيلومتراً فبتنا بالقرب منها. وفي صباح اليوم الثالث تابعنا السير جنوباً في الطريق المؤدي إلى الطور مبتعدين عن الطريق الشرقي للدير لكثرة رماله الناعمة وهو الذي تسلكهعادة سيارات مصلحة الحدود. وعند الظهر وصلنا إلى نقطة تفرع منها طريقيتجه شرقاً وهو طريق وادي فيران الموصل إلى الدير فتبعناه وبعد ساعة (وكان تقدمنا بطيئاً جداً لليونة الأرض وكثرة الجلاميد بها) دخلنا وادي فيران العظيم، وهو من أجمل الوديان التي شاهدتها. طوله نحو 120كم، كثير التعاريج وجباله جرانيتية شاهقة ذات ألوان متعددة بين أبيض وأسود وأحمر، وجوانبها تكاد تكون رأسية وقممها مخروطيةتناطح السحاب والوادي كثير العشب والخيرات. وتقع واحة فيران في منتصفه طولها نحو أربعة كيلومترات، يرويها نبع من الماء الزلال يتفجر من جوانب الصخر، ويسيل في مجاري تتخلل بساتين الواحة وترويها، والواحة عامرة بالناس والحيوان والمزروعات والحشائش، ففيها من الحيوانات الجمل والغنم والماعز، ومن المزروعات القمح والشعير والبقول، ومن الأشجار النخيل والليمون المالح والتفاح والنبق والتين والزيتون والسرو والعنب والصبير وغير ذلك من الأشجار البرية التي لا أعرف لها أسماء.

كان وصولنا إلى الواحة قرب الغروب بساعة فنزلنا ضيوفاً على الحديقة التابعة للدير وبتنا تلك الليلة بها، وقد رحب بنا الراهب المشرف على الحديقة وزاد في إكرامنا فهيأ لنا عشاء شهياً مركباً من شاة مشوية وبعض البقول المطبوخة والفواكه المحفوظة.

وبعد العشاء جلست إلى الراهب أستمع لما يقول وهو من أصل يوناني يتكلم العربية برطانة ولكنها مقبولة مفهومة قال: جئت هذه الواحة موفداً من قبل المطرانية منذ ستة عشر عاماً وكنت قد جاوزت الستين فوجدت فيها ما كنت أنشده من العزلة

وطيب الإقامة ولا يزيدني مرور الأيام إلا التصاقاً بها ومحبة فيها وقد عشت مع هؤلاء البدو الطيبين عيشة عائلية لم تشب عشرتنا طول هذه المدة أي شائبة، وكل ما أتمناه أن تكون حجرتي الصغيرة هذه (مشيراً إلى حجرة تتوسط الحديقة) وهي التي آوتني طول هذه السنين في قيظ الصيف وزمهرير الشتاء، أتمنى أن يكون فيها لحدي كذلك.

ثم سكت وأطرق برأسه، وبعد أن تثاءب طويلاً أخذ يرتل نشيداً دينياً بصوت خافت ونغمة عذبة شجية طربت لها واهاجت عواطفي حتى كدت أبكي ثم اتجه إلى ناحية في الحديقة ودعانا نرقب الهلال من ربى سربالة فكان مشهداً لم أر أجمل منه.

ومظهر الحديقة وحسن تنسيقها يدلان على ما يبذله هذا الشيخ من عناية ومجهود، ويقوم على خدمتها جماعة من البدو بإرشاده وله عندهم مكانة واحترام، وهو يعيش بينهم آمناً مطمئناً ويعيشون في كنفه مسالمين قانعين، وهو المتصرف في شئون النبع فلا يسمح لبساتين الأهالي من مائه الا بما يزيد عن حاجة حديقته. ويشرف على الواحة جبال سربالة بجدرانها القائمة وقممها الضاربة نحو السماء برؤوس مخروطية كالسهام. وقد شاهدنا بين الربى مبان قديمة قيل لنا أنها منازل رومانية أثرية ومن بينها صوامع للرهبان.

وفي صباح اليوم الرابع تابعنا السير بين مناظر طبيعية رائعة خلابة وكان تقدمنا بطيئاً كاليوم السابق لتصعيد الطريق وقبل الظهر مررنا بقبة على ربوة بجانب الوادي قيل لنا أنها مقام نبي الله صالح عليه السلام وبعدها تغيرت معالم الوادي واتجهنا نحو الجنوب ثم مال بنا الطريق نحو الشرق وارتقى بنا في واد شديد الانحدار، وهناك في أحضان جبال ثلاثة وعلى ارتفاع ألف متر من سطح البحر أو يزيد، ظهرت لنا حديقة الدير بأشجارها الباسقة ومن خلفها الدير نفسه رابضاً عند سفح جبل موسى كالحصن ثابت الأركان عالي الجدران تعلوه المنازل والأبراج.

النقد

لاتينيون وسكسونيون

لم أحب أن تنتقل المناقشة بين الأستاذ العقاد وبيني من نقد اللاتينية والثقافة السكسونية. ولست أحب أن تنقل هذه المناقشة إلى هذا الموضوع. ولست أريد ولا أستطيع أن أجاري العقاد في المفاضلة بين هاتين الثقافتين.

ذلك لأني أحب هاتين الثقافتين جميعاً وأوثرهما جميعاً وأريد أن أتثقف بهما جميعاً بل أريد أن أتثقف بكل ثقافة أستطيع أن أصل إليها وأن أظفر منها بحظ سواء كان ذلك من طريق القراءة في النصوص الأولى أو من طريق القراءة في التراجم. وإذا كنت أشكو شيئاً أو أضيق بشيء فهو أن قدرتي ووقتي لا يسمحان لي بأن أقرأ كل شئ، وأن آخذ من كل ثقافة بطرف قوي أو ضعيف طويل أو قصير. ولم أفهم قط مناقشة في تفضيل ثقافة على ثقافة أو إيثار ثقافة على ثقافة بالقياس إلى أديب كالأستاذ العقاد، أو إلى رجل مثلي كل همه أن ينتفع ما استطاع بالثقافات الإنسانية على اختلافها.

بل أذكر أن مسألة الثقافات المختلفة قد فرضت نفسها فرضاً في بعض الأوقات حين كنت أستطيع أن أوجه التعليم في بعض البيئات المصرية بعض التوجيه. فكرهت دائماً أن أؤثر ثقافة على ثقافة، ووقفت دائماً موقف الخصومة العنيفة من الذين كانوا يريدون أن يفرضوا على مدارسنا الثقافة اللاتينية أو الثقافة السكسونية، ودعوت وسأدعو دائماً إلى أن تكون مدارسنا وجامعاتنا ملتقى لأعظم حظ ممكن من الثقافات، وأن يترك للطلاب وأسرهم حق الاختيار بين هذه الثقافات. وقد دعوت وسأدعو دائماً إلى ألا تفرض على طلابنا وتلاميذنا لغة بعينها من لغات أوربا الكبرى، وإنما تدرس هذه اللغات الكبرى كلها في المدارس ويختار منها الطلاب وأسرهم ما يشاءون. وحجتي في ذلك أن للثقافات كلها قيمة خصبة وأن منفعتنا الصحيحة إنما تتحقق يوم نأخذ منها جميعاً بحظوظ مختلفة فلا نكون أسرى الإنجليز ولا أسرى الفرنسيين ولا أسرى الألمان وإنما نكون مصريين قبل كل شئ يأخذون بحظهم من الثقافات الحية حسب أمزجتهم ومنافعهم وحاجاتهم وطاقاتهم أيضاً. وإذا كان هذا مذهبي في الصلة بيننا وبين الثقافات الحية فمن غير المعقول أن أجادل في تفضيل ثقافة على الأخرى، والذين قرءوا الفصل الذي كتبته في الرسالة يذكرون أني لم أوثر

اللاتينيين على السكسونيين ولم أفضل هؤلاء على أولئك، وإنما أنكرت وما زلت أنكر على الأستاذ العقاد زعمه أن النقاد اللاتينيين يؤثرون الظواهر والأوضاع الاجتماعية ويتتبعون النكت ومراسم الصالونات على حين يعنى النقاد السكسونيون ببساطة الطبيعة وبالرجل من حيث هو رجل.

هذا بالضبط هو موضوع الخلاف بين الأستاذ العقاد وبيني. ويسرني أن الأستاذ قد برئ في الفصل الذي كتبه رداً علي من أن يكون قد أراد أن يعم اللاتينيين كلهم بهذا الحكم. فهذه البراءة في نفسها إنصاف لهؤلاء النقاد اللاتينيين اللذين جنى عليهم مدحالأستاذ أنطون الجميل لشعر شوقي رحمه الله.

وليس الدفاع عن النقاد اللاتينيين تعصباً لثقافتهم اللاتينية أو تنكراً لثقافة السكسونيين وإنما هو العلم ينبغي أن يقر الأشياء في نصابها. وليس من الحق بحال من الأحوال أن نقد اللاتينيين كله أو أكثره أو نصفه أو ثلثه كما أراد الأستاذ العقاد أن يصوره؛ وإنما النقد اللاتيني كان دائماً وما زال نقداً جدياً يقصد إلى طبيعة الكاتب أو الشاعر في بساطتها. ويقصد إلى الرجل من حيث هو رجل، وقد يصطنع في ذلك التأنق والظرف ولكن ذلك ليس عيباً له ولا غاضاً منه وإنما يعيبه ذلك ويغض منه لو لم يكن في النقد اللاتيني إلا تأنق وظرف؛ فأما وفيه بحث وتحقيق، فأما وفيه التماس لطبيعة الكاتب والشاعر في بساطتها. فقد يكون التأنق والظرف شيئاً لا بأس به ولا معنى للزهد فيه.

وعجيب جداً من الأستاذ العقاد أن يكره الاعتراف بأن النقد الحديث كله يقوم رغم تطوره واختلاف المذاهب الحديثة فيه على الثقافة الأدبية اليونانية واللاتينية وعلى ما شرعه ارسططاليس في كتاب الخطابة والشعر من أصول البيان. غريب جداً كره الأستاذ العقاد لهذه الحقيقة. فأن العقل الأوربي كله مهما تكن بيئته ومهما تكن جنسية أصحابه ومهما يكن حظه من التطور وليد العقل اليوناني الروماني سواء رضينا أم كرهنا. ولست أدري لماذا يقبل الأستاذ العقاد أن تكون طبيعة ارسططاليس ومنطقه وإلهياته ورياضيات اقليدس أصولاً لطبيعة الأوربيين المحدثين ومنطقهم وإلهياتهم ورياضياتهم ولا يرضى أن يكون نقد اليونانيين والرومانيين أصلاً للنقد الحديث، مع أن اتصال الأدب الحديث بالأدب اليوناني واللاتيني مازال أقوى وأشد وأمتن من اتصال العلم الحديث بالعلم اليوناني. ولست أدري لم يرضى الأستاذ العقاد أن يكون تفكير اليونانيين والرومانيين في السياسة والتشريع أصلاً من أصول التفكير الأوربي الحديث في السياسة والتشريع ولا يؤمن للنقد بمثل هذه الصلة؟ أم هل الأستاذ العقاد ينكر أن يكون بين العقل الأوربي الحديث وبين العقل اليوناني الروماني صلة ما بين الأصل والفرع؟ فأن كان هذا مذهبه فليس من السهل أن نلتقي أو أن نتفق، بل ليس من السهل أن يلتقي الأستاذ أو يتفق مع الأوربيين أنفسهم. ومن الذي يزعم أن رقي النقد الحديث وبعد ما بينه وبين أصله القديم يقطع الصلة بينهما؟ وما عمل التطور إذن في حياة الأحياء؟ وهل بيننا نحن المتحضرين المترفين وبين آبائنا الذين كانوا يسكنون الكهوف والأغوار ويهيمون في الأحراش والغابات صلة! أم هل نحن قوم قد خلقنا أنفسنا وابتكرناها ابتكاراً؟ ومن ذا الذي يستطيع أن يوافق الأستاذ العقاد على أن النقد لا يمكن أن يكون علماً يذكر قبل أن يوجد علم النفس الحديث؟ أما أنا فلا أعرف أن النقد علم ولا أحب له أن يكون علماً وإنما أرى كما قلت في غير هذا الموضع أن يكون النقد مزاجاً من العلم والفن وهو على هذا النحو قد وجد منذ عهد بعيد، وجد منذ كان السفسطائيون يعلمون الناس في صقلية وأثينا صناعة الخطابة وفن الجدل. وجد حين كان أرسطوفان يوازن بين ايسكولوس وايروبيدس أمام النظارة من اللاتينيين وهو يمثل لهم قصة الضفادع أو عيد سبرس، وجد حين وضع ارسططاليس فن الخطابة وفن الشعر وأستمر في روما عند سيسرون وعند خلفائه من نقاد الرمان، ووجد ذلك عند العرب. ووجد عند الأوربيين المحدثين قبل أن يوجد علم النفس الحديث. إنما الذي نستطيع أن نوافق الأستاذ عليه هو أن هذه الفنون من النقد القديم قد أصبحت الآن لا ترضينا ولا تغنينا كما أصبحت طبيعة ارسططاليس وطب ابن سينا وفلك جالينوس لا تعجبنا ولا تغنينا، ولكن هذا الشيء وما يذهب إليه الأستاذ العقاد شيء آخر. أما أنا فاعتذر إلى الأستاذ من أني لا أستطيع أن آخذ الأشياء هذا الأخذ السهل الهين القريب ولا أن اقف بها عند أصولها القريبة وإنما أحب أن أتبعها وأن اتبعها إلى ابعد ما أستطيعأن اصل إليه من الأصول،

وقد يكون ذلك عيباً من عيوب الثقافة العربية التي نشأت عليها أو من عيوب الثقافة اللاتينية التي تأثرت بها

ولكني حريص على هذا العيب لأني أراه الأصل الصحيح لكل بحث علمي له صبغة من الجد. ولست أشك في أن الأستاذ العقاد نفسه حريص على هذا العيب لأن الثقافة السكسونية تكبره أشد الإكبار ويخيل إلي أن قد كلن سكسونيا ذلك الرجل الذي لم يرضه أن ينتهي بالإنسانية إلى آدم فترقى بها أو تنزل في طبقات الحيوان الأخرى. ولست أدري لم نقر دروين حين يرد الناس إلى القردة ولا نقر الأديب الذي يرد النقد الحديث إلى نقد ارسططاليس؟

وبعد فأيهما أنشأ صاحبه: أهو علم النفس الذي انشأ النقد أم هو النقد الذي انشأ علم النفس الحديث؟ مسألة غريبة بعض الغرابة لأن المعروف أن علم النفس فرع من فروع الفلسفة قد تطور حتى أصبح الآن علماً تتناوله المعامل بالدرس والتحليل، والنقد فن من فنون الأدب. ومع ذلك فهذه الغرابة لا تثبت إذا فكرنا في أن هذا النقد إنما هو تحليل للآثار الأدبية وإن هذه الآثار الأدبية إنما هي صور لنفوس الأدباء الذين أنشئوها لنفوس القراء الذين استمتعوا بها. فدراسة الآداب دراسة للنفس الإنسانية. وليست هذه الفكرة جديدة ولا عصرية وإنما هي قديمة جداً عليها أعتمد ارسططاليس في كتاب الخطابة والشعر وعليها أعتمد العرب أنفسهم في فنون البيان. ومن المحقق الذي لا شك فيه أن الدراسات النقدية التي نشرها (سانت بوف) قد أعانت جداً على تكوين علم النفس الحديث. ومن المحقق الذي لا شك فيه أن (تين) كان ناقداً ولكنه ألف كتاب العقل الذي لا يزال له خطره العظيم في علم النفس الحديث. فليس وجود النقد الحديث نتيجة لنشأة علم النفس، وإنما النقد مؤثر جداً في نشأة علم النفس ومتأثر جداً بهذا العلم، وكلاهما قديم وضع اليونان أصوله الأولى. وأنا معتذر إلى الأستاذ العقاد من الرجوع دائماً إلى اليونان فقد أراد الله أن نرجع إليهم دائماً كل ما أردنا تاريخ مظهر من مظاهر الحياة العلمية أو الفنية أو الأدبية.

وهنا أريد أن أعاتب الأستاذ العقاد عتاباً رفيقاً. فقد زعم الأستاذ أن (سانت بوف) لا يشهد لمذهبي في نقد اللاتينيين، وإنما يشهد لمذهب الأستاذ لأنما في (سانت بوف) من مزايا راجع إلى تأثره بالثقافة السكسونية والدم السكسوني. ذلك أن أم سانت بوف من أصل إنجليزي وأنه كان يؤثر الشعر الإنجليزي على الشعر الفرنسي في بعض الفصول التي كتبها عن الإنجليز، وفي بعض رسائله الخاصة.

أما أن (سانت بوف) كان يؤثر الشعر الإنجليزي على الشعر الفرنسي فذلك شيء مشكوك فيه جداً لأن (سانت بوف) لم يكن يؤثر شيئاً أو قل كان يؤثر كل شيء أو قل ان أردت التحقيق أن أخص ما يمتاز به هذا الناقد العظيم أنه كان شاكاً مسرفاً في الشك يقر اليوم شيئاً ويعدل عنه غداً ويجوز أن يرجع إليه بعد غد. ولقد أراد (أميل فاجيه) أن يشخص عقلية (سانت بوف) فقال أنه لم يؤمن بشيء ولم يقتنع بشيء ولم يؤثر شيئاً على شيء حتى حين أعتنق الكاثوليكية في الدين والرومنتسم في الأدب، وخدع عن نفسه زعماء الدين حتى هم (لامنيه) أن يستصحبه إلى روما، وزعماء الرومنتسم، حتى فتن عظيمهم (فيكتور هيجو).

كان (سانت بوف) إذا عني بشيء جديد من شعر أو نثر أو تاريخ فتن به فتنة المؤمن الفاني في الأيمان حتى إذا أتقنه وقتله بحثاً وفهماً زهد فيه وانصرف عنه ونفر منه نفوراً شديداً. ولم يكن هذا دأبه في حياته العقلية والأدبية فحسب. بل كان دأبه في حياته العملية والشعورية. فقد كلف بالمذاهب السياسية كلها وزهد فيها كلها وكلف بالكاثوليكية حتى فتن الكاثوليك وبالبروتستنطية حتى شغف به البروتستنطيون. وقال عنه (فاجيه) انه لم يكن يستطيع ان يحب امرأة بعينها او كان يستطيع أن يحب النساء جميعاً. وإذن فلا ينبغي ان يخدعنا (سانت بوف) حين يثني على الشعر الإنجليزي ثناء المفتون به، فلعله لم يكد يفرغ من هذا الثناء حتى أنكره. وهو كذلك قد أثنى على الشعر الفارسي حين ظهرت ترجمة الشهنامة ثناء المفتون به وهو مع ذلك لم يعرف الفارسية ولم تفتنها ثقافته حقاً، وهب هذا الناقد العظيم قد آثر الشعر الإنجليزي حقاً على الشعر الفرنسي ولم يخدع نفسه ولم يخدع الناس عن رأيه الصحيح في ذلك فمن ذا الذي يزعم مخلصاً أن هذا يكفي لإثبات أن الناقد مدين بمزاياه للثقافة الإنجليزي؟ أؤكد للأستاذ أني لم أعتقد يوماً من الأيام أنه هو مدين حتى بوحي الأربعين

وغيره من دواوينه ولا بكتابه عن ابن الرومي ولا بكتابه عن جوت ولا بأبحاثه الكثيرة الممتعة لثقافته الإنجليزي الخصبة التي يحبها ويذود عنها. وإنما هو مدين بهذا كله كما يرى (سانت بوف) لشخصيته ولبيئته الخاصة التي نشأ فيها عقله والتي لا تكاد تتجاوز الكتب التي قرأها والمعاني التي فكر فيها والمسائل التي عرض لدرسها. فحب (سانت بوف) لشعر الإنجليز إن صح لا يجعله مديناً بأدبه للإنجليز. وأين يقع تأثير الثقافة الإنجليزي في (سانت بوف) من تأثير الثقافة الفرنسية فيه؟ والذي كتبه سانت بوف عن الإنجليز وعن الأجانب كلهم ليس شيئاً يذكر بالقياس إلى ما كتبه عن الفرنسيين في كتبه الضخمة المدهشة في هذه المجلدات الستة عن بورويال وفي هذه المجلدات الثمانية عن الصور، وفي هذه المجلدات الثلاثة والعشرين التي سماها أحاديث الأثنين، وفي هذين المجلدين عن شاتوبريان وأصحابه. أين يقع ما كتبه (سانت بوف) عن الإنجليز مما كتبه عن الفرنسيين بل مما كتبه عن اليونانيين واللاتينيين؟ فالأستاذ العقاد يعلم بالطبع أن (سانت بوف) عين أستاذاً للأدب اللاتيني في الكوليج دفرانس، ولما منعه الطلاب من إلقاء دروسه عن فرجيل لأنه كان يؤيد سياسة الإمبراطورية الثانية طبع الدروس التي لم يستطع إلقاءها فكان منها كتاب قيم عن صاحب الانيادة. وقد كتب (سانت بوف) عن كثير من الشعراء اليونانيين وعن الإسكندريين منهم خاصة. فما بال الأستاذ العقاد يرى تأثر سانت بوف في نقده بالثقافة الإنجليزي ولا يرى تأثره بالثقافة اللاتينية واليونانية لأنه أحب شعراء اللاتين واليونان، وبالثقافة الإيطالية لأنه كتب عن شعراء إيطاليا في عصر النهضة، وبالثقافة الألمانية لأنه كتب عن جماعة من الألمان وعن جوت؟ أما أن أم الناقد العظيم كانت من أصل إنجليزي فالأستاذ يبالغ في نتيجته، فقد كانت أم (سانتبوف) نصف إنجليزية كما تقول دائرة المعارف البريطانية، وذلك أن أباها كان بحاراً فرنسياً وأن أمها كانت إنجليزية. فإذا كان الأستاذ العقاد يرى أن هذا يكفي ليكون (سانت بوف) مديناً بمذهبه في النقد للإنجليز فليسمح لي بألا أذهب معه في هذه الطريق لأنها طريق شديدة الالتواء. للوراثة أثرها في تكوين الفرد ولكن من الإسراف أن نذهب في تقدير هذا الأثر مذهب الأستاذ ومن الغريب أن الذين أرادوا أن يدرسوا مذهب (سانت بوف) في النقد لم يحفلوا بهذا العنصر الإنجليزي في تكوينه، فلم يلتفت (فاجيه) ولا (لنسون) إلى أم (سانت بوف) كثيراً. أما تين فرأي الأستاذ العقاد فيه عجيب، فهو يرى أني لم أوفق حين استشهدت به أيضاً لأن عمه علمه الإنجليزية في صغره ولأن تين شغف بالآداب الإنجليزية فكتب لها تاريخاً، ولكن الأستاذ العقاد نفسه تعلم الإنجليزية صغيراً وشغف بها وقرأ كثيراً من الآداب الإنجليزية. والثقافة العربية ضعيفة بالقياس إلى الثقافة الإنجليزية. ومع ذلك فأنا لا أطمئن إلى الحكم بأن الأستاذ مدين بأدبه للإنجليز. فكيف إذا عرفنا أن الثقافة الفرنسية التي نشأ فيها تين ونبغ بفضلها قوية تستطيع أن تثبت للثقافة الإنجليزية، وأن تين لم ينبغ بتاريخه للآداب الإنجليزية وإنما نبغ بكتب أخرى أجل خطراً من هذا الكتاب، نبغ بكتابه عن لافونتين الذي نال به الدكتوراه من السوربون، ونبغ بكتابه الضخم الذي أرخ فيه فرنسا الحديثة، ونبغ بكتابه عن العقل، ونبغ بكتابه في فلسفة الفن. فهل يظن الأستاذ بعد هذا كله أني لم أوفق حين اتخذت سانت بوف وتين أعلى مثل للنقد اللاتيني الفرنسي؟ وما ذنبي أنا إذا كان الله قد أراد أن يكون هذان الرجلان رمزين خالدين لحياة الأدب الفرنسي في القرن الماضي؟ وقد بعدنا جداً عما كنا بسبيله من تشخيص النقد الفرنسي اللاتيني، أهو نوع من تتبع النكتة وتأنق الصالونات أم هو نقد بأدق معاني كلمة النقد؟ لن ينفع الأستاذ العقاد أن يحتاط وأن يقول أنه لم يرد النقاد الفرنسيين جميعاً، وإنما أراد كثرتهم أو قلتهم، فليس من الحق أن كثرة النقاد الفرنسيين أو قلتهم كما يظن الأستاذ. وإنما الحق الذي لا سبيل إلى الشك فيه أن السمة الفنية الخالصة هي أظهر ما يتصف به النقد الفرنسي، وأن من ظلم العلم والحق أن يقال في هذا النقد غير ذلك. وأما بعد فهل يسمح لي كتاب آخرون أرادوا أن يخوضوا معنا في هذا البحث بأن أتحدث إليهم حديثاً قصيراً ولكنه لا بد منه. فأما أحد هؤلاء الكتاب فالأستاذ سلامة موسى الذي تفضل فجلس مجلس القاضي وأصدر بين الثقافتين حكم الواثق المطمئن في أسطر ما أحسبها تتجاوز العشرة، ووجد طريقاً إلى أن يقارن هذه الأسطر القليلة بين الإنجليز والفرنسيين وبين أناطول فرانس وبرنارد شو وأن يقول أن الفرنسيين قادوا العالم في القرن الثامن عشر وإن الإنجليز يقودون العالم الآن.

أظن أن الأستاذ سلامة موسى يوافقني على أن هذه المسألة أعسر وأعظم خطراً من أن يقضي فيها بجرة قلم وبهذا الإيجاز الذي لا يمكن أن يوصف بأقل من أنه يدعو إلى الابتسام.

وأما الكاتب الآخر فهو الأستاذ محمد علي غريب، فقد كتب الأستاذ في البلاغ فصلاً أشهد أنه أضحكني وأضحكني ضحكاً فيه إعجاب كثير. فهو يسخر من العقاد ومني لأنا نتناقش في مسألة كهذه لا تصلح موضوعاً للمناقشة ولا تنتهي المناقشة فيها إلى نتيجة عملية. وله كل الحق في أن ينكر هذه المناقشة لولا أنه يخطئ حين يطلب إلى كل بحث أو مناقشة أن تكون له نتيجة عملية. قد تكون المناقشة خيراً في نفسها وقد يكون من القصور أو التقصير

ألا يكتب الناس إلا ليحققوا غرضاً عملياً، وقد يكون إحقاق الحق في نفسه أهم غرض ينبغي أن يكتب من أجله الكتاب. وقد يكون الأستاذ مخطئاً أيضاً حين يزعم أن ليس في مصر نقد أدبي مصري ويكفي أنه هو ينقد الأستاذ العقاد وينقدني. وقد يكون الأستاذ مخطئاً أيضاً حين يزعم أننا نجادل في الأدب الأجنبي ولا ننتج شيئاً، فأنا أظن أن الأستاذ العقاد قد أنتج شعراً ونثراً وأظن أني لم أنفق حياتي عبثاً. وأنا أحب أن ينقدنا الناقدون بل أنا شديد الحرص على هذا النقد وقد أفتن به أحياناً، ولكني أحب أيضاً أن يتلقى هؤلاء الناقدون نصحنا لهم لقاء حسناً، لعل أحسن ما ننصح به لهم ألا يسرفوا على أنفسهم ولا على الناس.

الكتب

ضحى الإسلام

ألفه العلامة أحمد أمين الأستاذ بكلية الآداب ونشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر في 450 صفحة من القطع الكبير وقدم له (الدكتور طه حسين بهذه المقدمة) وستعود الرسالة إلى هذا الكتاب القيم فنقول كلمتها فيه. قال الدكتور:

أراد ناقد من نقاد التمثيل أن يثني على قصة راقته، وملكت عليه إعجابه، وكان صاحب القصة له صديقاً حميماً فتوقع أن يلام في الثناء عليه، ولكنه لم يتحرج من إهداء هذا الثناء إلى صديقه في غير تردد ولا تحفظ. وأعلن في صراحة (أعجبتني) أن من خيانة الأصدقاء أن تتخذ صداقتهم وسيلة إلى جحود مالهم من حق وإخفاء مالهم من فضل، وتجاملهم هذه المجاملة السلبية التي تدفعك إلى أن تتردد وتتحفظ، وتقدم إليهم ثناء ممتقعاً شاحباً، حتى لا تتهم بالإغراق، ولا توصف بالمحاباة. وحتى لا يسوء ظن قرائك بنصيبك من الأنصاف، وحظك من الاستقلال.

رأى ذلك الناقد (وأنا أرى معه) أن هذا النحو من معاملة الأصدقاء خيانة منكرة، وظلم قبيح. وأنه فالوقت نفسه نوع من اتهام النفس، والإسراف في سوء الظن بها. فليس ينبغي للناقد أن يصدر (فيما أرى من رأي) عما يقول الناس فيه أو ما يمكن أن يقولوا فيه، وإنما هو مدين لنفسه ولقرائه بما يعتقد أنه الحق الخالص، سواء أرضي الناس أم سخطوا، وسواء أوافق رأيه هوى القراء، أم انحرف عنه.

وعلى هذا النحو من الاستعداد عمدت دائماً إلى النقد، واجتهدت ما استطعت أن لا أظلم الصديق لصداقته، ولا الخصم لخصومته، وليس الظلم مقصوراً على أن تغضَّ من العمل الأدبي أو العلمي، أو تنقص من قيمته لأن صاحبه صديق لك، أو حرب عليك. بل هناك ظلم أقبح من هذا وأشنع، وهو أن تثني على من لا يستحق الثناء أو تغلو في حمد من لا يستحق الحمد إلا بمقدار، وأن تحمد الخصم لأنه خصم، ولأنك تكره أن يقول الناس فيك خاصمه فعجز عن إنصافه وتحامل عليه.

ولست أريد أن أخون صديقي (أحمد أمين) بالإسراف في الثناء عليه، ولا أن أخونه بالغض منه والتقصير في ذاته، وإنما أريد أن أنسى صداقته، وأهمل (ولو لحظة قصيرة) ما بيني

وبينه من مودة كلها صفو وإخاء استطعنا أن نجعله فوق ما يتنافس الناس فيه من المنافع وأغراض الحياة، وإنما أريد أن أنصفه، وأشهد لقد فكرت وقدرت، وجهدت نفسي في أن أجد شيئاً من العيب ذي الخطر أصف به هذا الكتاب الذي أقدمه إلى القراء فلم أجد، ولم أوفق من ذلك إلى قليل ولا كثير.

وليس ذنبي أن (أحمد أمين) قد قصد إلى عمله في جد وأمانة وصدق، وقدرة غريبة على احتمال المشقة والعناء، والتجرد من العواطف الخاصة. والأهواء التي تعبث

بالنفوس، فوفق من ذلكإلى أعظم حظ يستطيع العالمأن يظفر به في هذه الحياة.
نعم؛ وليس من ذنبي أن (أحمد أمين) قد استقصى فأحسن الاستقصاء، وقرأ فأجاد القراءة، وفهم فأتقن الفهم، واستنبط فوفق إلى الصواب. ليس من ذنبي هذا ولا ذاك، وليس من ذنبي أن (أحمد أمين) بعد هذا كله، وبفضل هذا كله، قد فتح في درس الأدب العربي باباً وقف العلماء والأدباء أمامه (طوال هذا العصر الحديث) يدنون منه ثم يرتدون عنه، أو يطرقونه فلا ينفتح لهم، ووفق هو إلى أن يفتحه على مصراعيه، ويظهر الناس على ما وراءه من حقائق ناصعة، يبتهج لها عقل الباحث والعالم والأديب، ليس شيء من هذا ذنبي أنا! وإذا لم يكن بد من أن يلام أحد لأن عالماً مصرياً قد وفق إلى هذا الفوز المبين، أهدي إلى اللغة العربية كتاباً لم يسبق إلى مثله، فليُلَم هذا العالم المصري نفسه، وليعاقب (أحمد أمين) لأنه ظفر بهذا الفوز.
لقد اختار (أحمد أمين) لكتابه عنوانه هذا (ضحى الإسلام) وهو لا يقدر إلا أن الضحى يأتي بعد الفجر، وأنه وقد أظهر (فجر الإسلام) يجب أن ينغمس في ضحاه. أما أنا، فكنت أفهم معه هذا الفهم، وأذهب معه هذا المذهب، ولكني لم أكد أبدأ معه قراءة الكتاب حتى أخذت أحس شيئاًلم أرد أن أتحدث به إليه، مخافة أن يكذب ظني مضينا في قراءة الكتاب، ولكننا مضينا، ومضينا حتى أتممنا هذا الجزءالذي نقدمه إلى القراء. فإذا هذا الشيء الذي كنت أحسه يزداد وضوحاً وجمالاً وقوة. وإذا ظني يصدق شيئاً فشيئاً حتى يصبح يقيناً وإذا أنا مؤمن إيماناً لا يشوبه الشك بأن هذا الكتاب الذي أنا سعيد بتقديمه إلى القراء يلقي على تاريخ الإسلام في العصر العباسي الأول نوراً رائعاً وضاء قوياً هو أشبه شيء بنور الضحى.
فالكتاب (ضحى الإسلام) لأنه يدرس تاريخ الحياة العقلية للمسلمين في القرن الثاني للهجرة، وهو (ضحى الإسلام) لأنه قد جلى هذه الحياة وأظهرها للناس كأوضح ما يمكن أن تكون، وكأجمل وأبهى ما يمكن أن تكون، ولست أدري أيهما أهنئ بهذا الفوز (أحمد أمين) لأنه قد جدوألح ومضى في الجد وإلحاح، حتى انتهى إلى هذا التوفيق، أم الجامعة المصرية لأنها قد اهتدت إلى (أحمد أمين) ووكلت إليه ما وكلت من أنواع الدرس وفنون البحث، ولعل الخير كل الخير في أن أصرف هذه التهنئة عن (أحمد أمين) وعن الجامعة إلى الذين يقرءون اللغة العربية، ويعنيهم أن يؤرخوا آدابها، ويستكشفوا ما اشتملت عليه من الكنوز التي كانت مجهولة إلى الآن، هؤلاء أحق بالتهنئة لأنهم سيسيرون منذ اليوم إلى أغراضهم في طريق واضحة سهلة معبدة، يغمرها نور الضحى.
لن تكون حياة المسلمين منذ اليوم، كما كانت من قبل، غامضة مضطربة، يتحدث عنها مؤرخو الآداب بالتقريب لا بالتحقيق، ويقولون فيها بالظن لا باليقين. ذلك عصر قد انقضى، وألقى بينه وبين الذين سيؤرخون الآداب ستار صفيق. ألقاه (أحمد أمين) وأصبح الذين يقصدون إلى تاريخ الأدب قادرين منذ اليوم على أن يحققوا ويستيقنوا، ويسيروا فيبحثهم على بصيرة وهدى.
ما أكثر ما كنا نضيق صدراً بهذه الرموز الغامضة التي كان يلجأ إليها مؤرخو الآداب حين كانوا يذكرون تطور الحياة الإسلامية (أيام بني العباس) بفضل الاختلاط بين العرب وغيرهم من الأمم. وبفضل اتصال العقل العربي بالعقول الأجنبية، وبفضل الترجمة والمترجمين؛ والتأليف والمؤلفين. كانت هذه الألفاظ كلها رمزاً إلى الآن تدل على أشياء كثيرة، ولكنها لا تدل على شيء. تُصَوِّرُ أمام الباحثين صوراً مختلطة مضطربة لا تحصى ولا تستقر، فهي ذاهبة أبداً، جائية أبداً، غامضة أبداً. نسعى إليها، ولا نظفر بها. أو يصرفنا عنها الكسل العقلي؛ الذي هو آفة حياتنا الأدبية في هذا العصر.
أما الآن فقد ضبطت هذه الصورة أحسن ضبط وجليت أحسن تجلية، وأصبحنا إذا ذكرنا تطور الأمة العربية أو الأمم الإسلامية في القرن الثاني للهجرة نعرف بل نحس حقيقة هذا التطور ومصدره، والآماد التي انتهى إليها، وأصبحنا إذا ذكرنا الحياة الاجتماعية للمسلمين في هذا العصر لا نقول كلاماً مبهماً، وإنما نقول كلاماً يدلعلى ما يراد به أحسن دلالة وأجلاها؛ يدل على طبيعة هذه الحياة وما تقوم عليه من اتصال بين الأفراد والجماعات،
على اختلاف الأجناس والبيئات والأمزجة، يدل على طبيعة الزواج الذي كان يكون بين هؤلاء الناس فيخلط دماءهم خلطاً، أو قل يمزجها مزجاً، يدل على طبيعة الرق الذي

محا الشخصيات الفردية والاجتماعية لكثير من الأفراد والأمم، وصهرها كلها في مرجل واحد هو الدولة الإسلامية، فكون منها شخصية جديدة كل الجدة، طريفة كل الطرافة، هي شخصية الأمة الإسلامية.

نعم ويدل على هذه الطبقات التي كان يتألف منها الجسم الاجتماعي، للأمة الإسلامية، والتي كانت تتقسم فيما بينها الأعمال الكثيرة المختلفة، التي يحتاج إليها هذا الجسم لا ليحيا فحسب، بل ليرفه هذه الحياة ويرقيها، ويأخذ فيها بأعظم حظ ممكن من الترف المادي والعقلي والشعوري جميعاً.

وإذا ذكرنا الثقافة اليونانية، فلن نفهم منها منذ اليوم هذا المعنى المبهم الذي نرمز إليه بالفلسفة أحياناً، ولكنا سنعرف بالضبط مقدار ما أخذ العرب عن اليونان، وكيف أخذوه، ومن أين أخذوه، وكيف أساغوه أولاً، ثم تمثلوه بعد ذلك؟. وقل مثل هذا في الثقافة الهندية والفارسية، أستغفرالله بل خيراً من هذا، قل أكثر جداً من هذا فما أعلم أن باحثاً عن تاريخ الأدب العربي وفق إلى تحقيق الصلة بين العرب والهند، أو بين العرب والفرس إلى مثل ما وفق إليه (أحمد أمين) وهو (بعد هذا كله) أول من بسط هذا في اللغة العربية بسطاً يطمئن إليه الباحث الذي يسلك إلى بحثه طريق الجد والصدق، لا طريق العبث والتضليل.

وإذا ذكرنا الثقافة المسيحية والثقافة اليهودية، فلن نفهم منهما منذ اليوم ما كنا نفهمه من قبل، من أن اتصال المسلمين باليهود والنصارى قد أحدث بين أولئك وهؤلاء ضروباً من التأثير العقلي العام.

ولكننا سنعرف طبيعة هذا التأثير ومقداره ومصدره، ثم سنضع أيدينا على مظاهر هذه الحياة الجديدة، فيما أنتج المسلمون من أدب وعلم وفن.

أستطيع أن أقول إن (أحمد أمين) حينما انتدب لتأليف هذا الكتاب قد أتخذ لأمة المحارب، ووضع أمام عينيه غرضاً أقسم ليبلغنه، أو ليعدلن عن إظهار الكتاب. وهذا الغرض: هو تخليص الحياة العقلية الإسلامية في القرن الثاني من الغموض والإبهام، وما زال بهذا الغموض والإبهام حتى أجلاهما عن موقفهما، وانتزع منهما حياة المسلمين العقلية إلى

منتصف القرن الثالث للهجرة. وكان يزورني كل أسبوع ومعه طائفة جميلة رائعة من الغنائم التي كان يكسبها في هذه الحرب الشاقة المتصلة، فأقاسمه سعادته بالظفر، واغتباطه بالفوز.

ولست أحب أن تقدر أني أعمد في هذا الكلام إلى ضروب المجاز وألوان التمثيل لأزين القول وأنمقه، ولكني أحب أن تستيقن أني إنما أقول الحقخالصاً من كل زينة، بريئاً من كل تنميق. فقد كان تأليف هذا الكتاب حرباً عنيفة طويلة مملة بين المؤلف وبين الغموض والإبهام. وكان المؤلف كلما تقدم خطوة وقف ينظم انتصاره، ويصوغ ثمراته هذه الصيغة الجميلة التي ستراها في فصول هذا الكتاب ويتأهب في الوقت نفسه لهجمة أخرى يكسب بها موقعة أخرى، وينتصر بها انتصارا جديداً.

ومع أن المؤلف قد أنفق جهداً قوياً في أن يجنبك مشاركته فيما كان يحتمل من عناء، ويلقى من مشقة، ويذوق من مرارة الصبر والمصابرة، ومطاولة المسائل المعضلة التي كانت تعرض له. فأنت واجد أثر هذا كله في فصول الكتاب، حين ترى المؤلف يسير في أناة تشبه البطء، ويعرض عليك جزئيات ضئيلة، تشبه أن تكون إغراقاً في التفصيل، وتقليداً للجاحظ في حب الأستطراد، ولكن إثْبُتْ لهذا البطء، واصبر لهذا التفصيل، وامض مع الكاتب في رفق وأناة فسترى أن نتيجة هذا الثبات والصبر والرفق أقوم جداً مما كنت تظن، وأنفس جداً مما كنت تنتظر، وأن الكاتب لم يتورط فيها تورطاً، وإنما قصد إليها قصداً، وتعمدها تعمداً. لأنه لم يكن يستطيع أن يعدل عنها حتى يضحي بالأمانة العلمية، والتحقيق الذي يفرضه البحث الحديث فرضاً على العلماء. ولا تَخَفْ من هذا البطء، ولا تشفق من هذه المطاولة، فلن يعترضك ملل، ولن يفل من حدك سأم، ولن تضيق بالكتاب لحظة، فقد عرف الكاتب كيف يهون عليك طول الطريق إلى غايتك، وكيف يبث أمامك في هذه الطريق من الزهر ما يستهوي عينك، وكيف ينشر حولك في هذه الطريق من الأصداء الحلوة ما يخلب أذنك. وأنا زعيم بأنك ستحتاج إلى أن تعيد قراءة بعض الصحف وبعض الفصول، وسترى أن الكاتب على إبطائه وأناته مسرع مسرف في السرعة بعض الأحيان.

أشهد لقد وفق (أحمد أمين) في هذا الكتاب إلى الإجادة العلمية والفنية معاً: أستكشف الحياة العقلية الإسلامية استكشافا لم يُسْبَقْ إليه، ثم عرضها عرضاً هو أبعد شيء عن جفاء العلم
وجفوته، وأدنى شيء إلى جمال الفن وعذوبته.
فلينعم القراء بفصول هذا الكتاب، ولينعم المؤلف بما ينعم به الظافر حين ينتهي إلى فوز لا تشوبه شائبة. ولتكن هذه الحياة الجادة الخصبة المنتجة (في تواضع ولين جانب) التي يحياها (أحمد أمين) درساً نافعاً، ومثلاً صالحاً للذين يريدون أن يحيوا في مصر حياة العلماء.
طه حسين

المنهل الصافي
لأبي المحاسن بن تغرى بردى
للأستاذ عبد الله عنان

من آثارنا التاريخية النفيسة كتاب (المنهل الصافي، والمستوفي بعد الوافي)، تأليف أبي المحاسن بن تغرى بردى المؤرخ المصري الكبير المتوفي سنة 874هـ (1469م) وهو معجم ضخم للتراجم يقع في ثلاثة مجلدات كبيرة، وتوجد منه نسختان خطيتان بدار الكتب المصرية. وفيه يترجم المؤلف أعلام الإسلام منذ أوائل الدولة التركية ويبدأ بالمعز أيبك التركماني زوج شجرة الدر وملك مصر (648 - 55هـ) أعني منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادي إلى منتصف القرن الخامس عشر، ويفيض بوجه خاص في سير أعلام مصر والشام من ملوك وساسة وجند وعلماء وأد باء، ويترجم أيضاً بعض ملوك النصرانية وأمرائها في هذه العصور، مرتباً ذلك كله على حروف المعجم. وقد جعل أبو المحاسن مؤلفه تكملة أو ذيلاً لمعجم الصفدي الشهير (الوافي). ولهذا الأثر قيمة تاريخية خاصة، لأن مؤلفه وهو من أمراء البلاط القاهري في القرن التاسع الهجري لم يتأثر في وضعه بمؤثرات أو أهواء خاصة، ولا سيما فيما يتعلق بترجمة معاصريه، حسبما يشير إليه هو في مقدمته، إذ يقول إنه وضع كتابه (غير مستدعي إلى ذلك من أحد من أعيان الزمان، ولا مطالب به من الأصدقاء والأخوان ولا لتأليفه وترصيعه من أمير ولا سلطان). والمعنى الذي يقصده المؤلف بهذه الإشارة ظاهر؛ فقد كانت معظم التراجم في عصره توضع بوحي معين أو تحقيقاً لشهوات لخصومات السياسية والأدبية، التي جعلت من كتاب القرن التاسع ومؤرخيه أحزاباً أدبية متنافرة متخاصمة. ولكن أبا المحاسن يقدم لقارئه سيَّر معاصريه والقريبين من عصره في صور أكثر استقلالاً وحرية في التقدير والحكم.

هذا الأثر المصري النفيس ما زال مخطوطاً لم ينشر، كمعظم آثارنا الأدبية. ولكن المستشرق المعروف الأستاذ (فييت) مدير دار الآثار العربية، أخرج لنا منذ عهدقريب بالفرنسية مجلداً ضخماً عن محتويات (المنهل الصافي) وسماه بنفس الأسم، ونشر ضمن مجموعة المجمع العلمي المصري، وكان ضمن مجلدات ثلاثة من وضعه قدمها أخيراً إلى جلالة الملك. والواقع أن كتاب مسيو فييت هذا لا يمثل كتاب (المنهل الصافي) لا في كثير
ولا قليل من محتوياته. فهو على رغم كونه يقع في 480 صفحة كبيرة، ليس أكثر من فهرس الكتاب الأصلي، يمهد له مسيو فييت بمقدمة صغيرة يصف فيها الكتاب ومحتوياته، ويحصي عدد التراجم التي يتضمنها (وعددها 2822ترجمة) حسب صفات أصحابها من أمراء وقادة وساسة وتجار وأدباء وعلماء. . ألخ، ثم يكتفي في كل ترجمة بذكر أسم صاحبها وتاريخ مولده ووفاته ورقم الورقة التي يشغلها من المخطوط الأصلي؛ ويذكر المراجع الأخرى التي تشير إلى هذه الترجمة، وأخصها كتاب النجوم الزاهرة لنفس المؤلف (أبي المحاسن) وخطط المقريزي، وإبن حجر، والسخاوي. . ألخ، ثم يذيل ذلك بفهرس أبجدي عام. وهذا مجهود له قيمته من الوجهة العلمية بلا ريب. ولكنا نلاحظ أن الفائدة التي تترتب عليه بالنسبة لكتاب المنهل الصافي ليست كبيرة، فهو كما قدمنا فهرس أو دليل فقط للبحث في الكتاب الأصلي. والتراجم التي يتضمنها الكتاب الأصلي مرتبة على حروف المعجم، ولم يكن عسيراً على الباحثين أن يستخرجوها منه. وليس مما يقدم البحث كثيراً أن يرشدنا مسيو فييت إلى أرقام المجلدات والصحائف، وأن يحيلنا في التراجم إلى مراجع يعرفها كل مشتغل بالتاريخ

المصري. وكان خيراً لو أن مسيو فييت بذل هذا المجهود في نشر الكتاب نفسه أو جزء منه، لأن هذا الفهرس الضخم يقع في نحو الخمسمائة صفحة، أعني نحو نصف المخطوط الأصلي، وقد أنفق في إخراجه ما يكفي لإخراج مجلد ضخم على الأقل من المخطوط الأصلي. على أننا نرجو أن تتقدم لنشر هذا الأثر المصري النفيس لجنة التأليف والترجمة والنشر، إلى جانب كتاب (السلوك في دول الملوك) الذي تشتغل الآن بطبعه فتسدي بذلك إلى التاريخ المصري وإلى البحث فيه خدمة جليلة.

العدد 4 - بتاريخ: 01 - 03 - 1933

ملكة الجمال

للدكتور طه حسين

هناك ابتسامة تتردد كثيراً قبل أن ترتسم على بعض الثغور. وتتألق في بعض الوجوه. أو قل إن هناك ثغوراً ووجوها تتردد كثيرا قبل أن تقبل أن ترتسم عليها، وتتألق فيها بعض الابتسامات. أو قل إن هناك نفوساً تتردد كثيرا قبل أن تتخذ ثغورها ووجوهها مظاهر لهذا الذي يعرب عنه الابتسام في بعض الظروف. وقد فكرت في هذه الابتسامة المترددة، وفي هذه الثغور والوجوه والنفوس التي تتردد بين الرضا والسخط، وبين ما يظهرهما، ويدل عليهما من الابتسام والعبوس، حين قرأت في الصحف أخبار ملكة الجمال وتشريفها لمصر بزيارتها السعيدة الموفقة.

فكرت في هذه الابتسامة المترددة، لأني أحسست ترددها على شفتي، فرأيتهما تحاولان الانبساط ثم تعودان فتنفرجان وتنبسطان بالابتسامة، ثم تستقر عليهما هذه الابتسامة التي كانت مترددة؛ ولكنها تستقر في سخرية إلا تكن شديدة المرارة، فليس فيها شيء من حلاوة الرضا. ذلك لأني لا أدري أوفقت الإنسانية حين فتحت على نفسها هذا الباب الظريف السخيف، الذي يدخل عليها منه ظرف كثير، ويدخل عليها منه سخف كثير؟ ومن يدري لعل الظرف والسخف صديقان لا يفترقان، وحليفان لن يختصما، أو تتغير الأرض ومن عليها وما عليها. وهذا الباب الظريف السخيف الذي يبعث الرضا ويبعث السخط، والذي يغيظ ويلهي هو باب المسابقة إلى الفوز بسلطان الجمال!

خطرت هذه الفكرة لكاتب فرنسي، ليس هو من المتعمقين في الجد، ولا هو من المتهالكين على الهزل. وإنما هو كاتب خفيف ظريف، يرضى في سهولة، ويرضي الناس في يسر، وتنفق عندهم سوقه في غير مشقة. وأكبر الظن انه يسخر من الناس ومن نفسه وأكبر الظن انه إنما يرضي الناس ويعجبهم لأنه يسخر منهم، يستهزئ بهم ويخيل إليهم أنه يجد كل الجد حين يسوق إليهم الأحاديث، مع أنه لا يزيد على أن يهزل أشد الهزل وألطفه، ولعله إنما يفعل هذا كله، فيهزل جاداً ويجد هازلاً لأنه صحفي، أو قل لعله إنما أصبح صحفيا رائجا نافق السوق لأنه يفعل هذا كله. وأنا اعتذر إلى الصحفيين ولكني أعتقد أن صاحبة الجلالة الصحافة إنما أقامت عرشها العظيم على هذه الدعائم المتينة الصلبة من

سياسة الجمهور. وإنما تساس الجماهير في ظل الديمقراطية أحسن سياسة وأجداها حين تلبس لها ثوب الجد وأنت تهزل، وترتدي لها رداء الهزل وأنت تجد، وتظهر لها على كل حال من نفسك ما تريد أن تظهر لا ما ينبغي أن تظهر. هذا الكاتب الفرنسي اللبق الذي فتح للإنسانية باب الجمال على مصراعيه وأثار في رءوسهاالفارغة فكرة المسابقة إلى سلطان الحسن هو (موريس دواليف). خطرت له هذه الخاطرة ذات يوم وهو يمزح، أو ذات ليل وهو يلهو، فتحدث فيها إلى صديق أو صديقين ثم إلى زميل أو زميلين ثم إلى إدارة الجرنال. وما أصبح الصباح حتى ملأت الفكرة باريس. وما أمس المساء حتى ملأت الفكرة فرنسا. وما كان الغد حتى ملأت الفكرة أوربا، وما مضت أيام حتى ملأت الفكرة الأرض كلها ولعبت برؤوس الناس جميعا. وهذا مصدر آخر من المصادر المادية لسلطان صاحبة الجلالة الصحافة هو أنها ترى الرأي فإذا هو أمام الناس جميعا أو أمام جماعات ضخمة منهم في وقت واحد أو في أوقات متقاربة. ومن حوله المغريات والمرغبات والمثيرات للميل. فيلقى الناس بعضهم بعضا وقد قرءوا الصحيفة وإذا هم يتساءلون: وما رأيك في هذه الفكرة الطريفة الظريفة معا فكرة موريس دواليف في هذه المسابقة التي ستدعى إليها الفتيات لإظهار ما لهن من جمال بارع وحسن فتان. ثم تعود أصداء الدعوة من باريس وفرنسا وأوربا وأطراف

الأرض إلى الجورنال، وإذا الفكرة قيمة، وإذا التجربة الأولى تهيأ ثم تتم، وإذا للجمال ملكة في فرنسا، وإذا البلاد الأخرى تسير مسيرة فرنسا، وإذا لكل بلد ملكة للجمال، وإذا المسابقة أوربية بين صاحبات الجلالة القومية. وإذا لأوربا ملكة، ثم للعالم كله ملكة، وإذا نظام جديد قد أقيم، وإذا الديمقراطية المتطرفة والاشتراكية الغالية والأرستقراطية المعتدلة والأوتقراطية المسرفة، كل هذه النظم المختلفة المتباعدة قد اتفقت على الإذعان لسلطان الجمال.

ولكن سلطان الجمال وان استعار ألقاب الملكية، أحاط نفسه بألوان القوة وضروب الأبهة، ضعيف نحيف، فاتر قصير المدى كالجمال نفسه، فهو ملك، ولكنه أشبه بالجمهورية، وأي جمهورية؟ أشبه بالجمهورية القديمة؛ جمهورية اليونان والرومان لا يدوم السلطان فيه لصاحبته أكثر من سنة، وهو ملك، ولكنه لا يورث، وإنما يكسب بالانتخاب، وأي انتخاب!! انتخاب ضيق محدود متأثر بالأغراض والأعراض السياسية في كثير من الأحيان، فيجب

أن يكون ملك الجمال قسمة بين الشعوب تتبادل سلطانه فيما بينها، تظفر به فرنسا ثم تمره إلى بلجيكا، وهذه تمره إلى هولندا، وعلى هذا النحو حتى يكون لكل شعب حظه من هذه السيادة العالمية البريئة. البريئة؟ مسألة فيها نظر! فهي سيادة بريئة بالقياس إلى الشعوب والأقاليم والمدن والقرى، ولكن براءتها تتعرض للشك والخطر في كثير من الأحيان، ذلك أن هذا الملك الطارئ السريع الزوال يعبث برؤس الملكات وأسرهن، ومن طبيعة الملك أن يعبث برؤس الا إذا اعتمد على دستور صحيح متين، وليس لملك الجمال دستور، وملك الجمال لا يعبث برؤس الملكات وحدهن، وإنما يعبث برؤس كثير من الرعية أيضا، من الشبان والشيوخ وأصحاب الملاعب والمراقص والسينما، ثم ملك الجمال فصيح على هذا العبث، فهو يجري أقلام الكتاب في الصحف، ويطلق ألسنة السيدات في الصالونات، ويزيد هذا كله في الدوار واضطراب العقول.

لذلك لا تكاد ملكة ترقى إلى عرش الجمال حتى يصبح مصيرها بعد الخلع - أستغفر الله - بعد الاعتزال مشكوكا فيه. وأكبر الظن أنها صائرة إلى ملعب من ملاعب اللهو، أو ناد من أندية الرقص، أو دار من دور السينما، أو إلى هذه جميعا.

فملك الجمال في حاجة إلى دستور يضمن الملكة الا يكون ارتقاؤها إلى العرش وسيلة إلى ابتذالها.

على أن ناحية أخرى من نواحي هذا العبث الذي يعبثه ملك الجمال بالعقول خليقة بالملاحظة، فملكات الجمال يؤمن بملكهن عادة، ويصدقن أنهن ملكات حقا، وكثيرا ما تؤمن لهن الجماعات بهذا الملك، فيصبح المزاح جداً واللعب حقا لا شك فيه، وينشأ عن هذا الجد الطارئ وعن هذه الحقيقة الإضافية الموقوتة التي لم يفكر فيها اينيشتين بعد، لون من الحياة الذي يبعث هذه الابتسامات المترددة التي تحدثت عنها أول هذا الفصل.

أنظر إلى ملكة الجمال التي شرفت مصر بزيارتها هذه الأيام لم تكد تهم بهذه الزيارة حتى سبقتها الأنباء فطربنا واستشعرنا شيئا من الغبطة لا حد له وتفضلت صاحبة الجلالة الصحافة فقامت لزميلتها في الملك بما يجب من الإعلان ونشر الدعوة. ثم وصلت ملكة الجمال فلم يكن بد لصاحبة الجلالة الجميلة من أن تتناول الشاي عند صاحبة الجلالة الفصيحة البليغة. وكانت دار الجهاد ملتقى الملكتين على مائدة صديقي توفيق دياب،

وتفضلت الملكتان ملكة الجمال وملكة الكلام بشيء من العطف الغالي الكثير على طائفة من الرعية المولهة المفتونة، وكنت ممن مسهم هذا العطف. ولكن ملكة أخرى ثقيلة ممقوتة تبسط سلطانها الآثم على الناس في الشتاء وهي صاحبة الجلالة البغيضة الأنفلونزا حالت بيني وبين الاستمتاع بهذا العطف السامي من صاحبة الجلالة الجميلة وصاحبة الجلالة الفصيحة. فأسفت وما أشد ما أسفت!

وملكة الجمال ظريفة كما ينبغي أن تكون فلم تكد تصل إلى مصر حتى أدت طائفة من الواجبات بفرضها عليها جلال الملك وسماحة الجمال فقيدت اسمها في قصرها الملكي العالي ثم ثبت فزارت رئيس الوزراء. فلما فرغت من السلطة التنفيذية تعطفت على السلطة التشريعية فتفضلت بزيارة البرلمان. فأدى وكلاء الأمة واجبهم بين يدي جلالتها كأحسن ما تكون التأدية.

ثم لم تكد صاحبة الجلالة تفرغ من مصر الرسمية حتى تفضلت ففكرت في مصر المعارضة. والملك فوق الأحزاب فتعطفت بزيارة حضرة صاحب الدولة رئيس الوفد المصري ثم فكرت في مصر التي لا تشتغل بالسياسة وإنما تشتغل بالإصلاح الاجتماعي والاقتصادي فتفضلت بزيارة حضرة صاحبة العصمة رئيسة الاتحاد النسائي وزارت دار الاتحاد وشهدت فيه التمثيل وزارت دور الصناعة والتجارة وهي في هذه الزيارات تؤدي لكل حقه بما فطرت عليه من جمال وظرف وأدب ورشاقة وخفة روح، وإذا جلالة أخرى رسمية تشرف مصر وهي الجلالة الإيطالية فينقطع حديث الجمال ويبتدئ حديث السياسة. وليست هذه الصحيفة من السياسة في قليل ولا كثير، فلتكتف إذا بأن ترحب في صدق وإخلاص بصاحبي الجلالة الإيطالية ثم لتعد إلى ملكة الجمال، فلتتمن لها التوفيق بعد الملك كما وفقت أثناء الملك ولتلتفت بعد ذلك إلى القارئ الكريم فننصح له بأن يقرأ قصة تمثيلية بديعة أنشأها الكاتبان الفرنسيان جورج بيرولويس فرنويل، موضوعها ملكة الجمال وعنوانها (مس فرانس) فسيجد القارئ في هذه القصة جداً وهزلاً وفكاهة وصراحة ولذة قوية على كل حال.

شعر جديد

لأستاذ كبير

في يوم واحد هو يوم 19 من هذا الشهر قرأت في جريدتين محترمتين من جرائد الصباح قصيدتين إحداهما من شعر آنسة تلقب نفسها (فتاة الصعيد) والأخرى لشاب شاعر من إخواننا السوريين.

فتاة الصعيد توجه تغريدها المنظوم إلى رجل كبير من زعمائنا فتقول:

احبك مهما أثار الخبر ... كوامن حقد إذا ما انتشر

أرى صورة لك في لوحة ... فيلهب قلبي هوى مستعر

وشاعر الشباب السوري يقرظ سيدة كبيرة هي أيضا في كل شيء الا في سنها، ألقت محاضرة في بعض النوادي فيهتف على آثارها:

الله اكبر من سحر البيان ومن ... سحر بعينيك خلى الحفل نشوانا

هذا يدير على الألباب خمرته ... وذا يدير على الأسماع ألحانا

وما علمنا في الأدب العربي أن امرأة أرسلت كلمة (أحبك) في شعر سائر إلا رابعة العدوية حين قالت تخاطب ربها:

أحبك حبين حب الوداد ... وحبا لأنك أهل لذاكا

فابتدعت فنا من الشعر الغرامي صوفيا لا يدرك مراميه الا أهل الأذواق والمواجد. قد يكون في سن الآنسة أو في شكلها أو في غير ذلك من أمرها ما يغفر لها التصايح بالحب في الميادين العامة. ولكنا على ثقة من أن فتيات الصعيد لا يعرفن الهوى المستعر.

ومن صليت منهن نار الحب ماتت شهيدة الكتمان تردد أنفاسها الخامدة قول العباس بن الأحنف:

لأخرجن من الدنيا وحبكمو ... بين الجوانح لم يشعر به أحد

فصاحبتنا بلا ريب ليست صعيدية ونسبتها إلى الشعر كنسبتها إلى الصعيد، يشهد بذلك قولها في منظومتها على سبيل المدح:

وغيرك في زعمه كاذب ... ومن ذا سواك زعيم، فشر

أما شاعر الشباب السوري فقد كان من حقه إذ يحضر مجالس العلم والأدب أن يشغله شيء

آخر عن ملء عينيه من شيء غيره.

وليس بمنكر أن يتحدث الشعر عن العيون السواحر، لكن حديث العيون لا يكون في محاضرة أدبية ولا يكون في النادي الكاثوليكي.

غير أن شاعرنا المسكين يعترف بأنه كان سكران حين نحت قريضه. وما كان أجدره بحد السكر حتى يصحو من خمر العيون ثم لا يقول الشعر إلا صاحيا ولا يسكر بعدها إلا في ألحان من خمر الدنان.

ليت شعري ما الذي يزين هذه البدع في أذواق شبابنا؟ ويا خوفي أن يحسبوها من أثر ثقافة لاتينية أو سكسونية على حين لا من ثقافة هي ولا من ذوق!

خواطر وصور
بعض الناس
للأستاذ محمد عبد الواحد خلاف

عرفت فيمن عرفت من الناس رجلا اجتمع له كل ما يشتهي من جمال في المظهر، كان مديد القامة في غير شذوذ، مكتنز العضلات في غير ترهل، حسن قسمات الوجه في غير تخنث، اشرب لونه حمرة تنطق بما حباه الله من عافية في بدنه، محمود الملبس لا تنقصه فيه أناقة ولا حسن انسجام. وكان يغشى ناديا اختلف إليه جماعة من الإخوان فاستشعرت له أول الأمر هيبة وتوسمت فيه خطرا، وكان أحد الرفاق يتحدث في أمر شديد الاتصال بذاته فرأيت لهذا الرجل نظرة ساخرة. أدركت معها أنه يعلم عن هذا الحديث ما لا يعلم قائله، ولم يطل بي الانتظار حتى رأيته قد استولى على الحديث وأخذ يذكر عن نفسه وتجاربه المتصلة به كثيراً، وتشعب الحديث، وأثار الاستطراد ذكر مسائل مختلفة، وكان هو فارس كل ميدان والحجة في كل موضوع، وكان إذا ما اشتد الجدل علا صوته حتى غلب على كل صوت، وإذا أعوزه في دعوى أن يقيم الدليل، أفحم مناظريه بالضجيج والتهويل. وتكرر التقائي به حتى هان عليّ أمره، وصرت لا أحفل لقول يقوله. ولكني كنت أجد في دعواه العريضة شيئا من الفكاهة يروح عن النفس بعض ما تلقاه من جد الحياة.

وقرأ خبيث من الرفاق في إحدى الصحف خبر اعتصاب الحمالين لخلاف بينهم وبين رؤسائهم، فبيَّت في نفسه أمراً يهتك به ستر هذا الدعي. وأقبل صاحبنا يتهادى في مشية بطيئة وقورة وقد تدلى من بين شفتيه سيكار فاخر. واشرق وجهه بتلك الابتسامة الساخرة التي توحي إلى الرائي هو أن الناس عليه، وعلمه من حقائق الأمور ما لا يعلمون. فتلقاه المداعب الخبيث بتهليل المعجب الذي وقف على ما أخفاه من فعال، وبدا عليه ما يشبه الخجل والحياء لافتضاح مكرمة يأبى عليه تواضعه أن تنشر وتذاع. وقال له الصديق المداعب: (لك الله من بطل! لقد لمست في الأمر أصبعك، وشممت منه ريحك، وقلت منذ قرأت الخبر أنها لا شك إحدى أياديك في نصرة الضعفاء. ولكن نبئني كيف وفقت في جمع كلمة أولئك الحمالين مع انقطاع كل صلة بينك وبينهم، وكيف تم لك تدبير أمرهم؟).

وأشفقت من وقع تلك السخرية اللاذعة المكشوفة على نفس صاحبنا، ووجدت فيها قسوة شديدة على هذا الغر. ولكني عجبت حين وجدته يهز رأسه في أناة هزة الواثق، ويذكر أنها بداية حملات يقوم بها في رد حقوق المهضومين، وأن هذا شيء لا يستحق الذكر إلى جانب ما ستظهره الأيام من جهوده العظيمة في هذا السبيل.

وانطلقت من الأفواه ضحكات طويلة عددتها سخرية وعدها هو طرب إعجاب وتقدير، وبدأت بعد هذا أرثي للرجل وأشفق عليه مما سيحيق به من السخرية والازدراء في كل مجتمع يغشاه، حتى كانت بعض الحركات العامة فوجدت الرجل يتصدر مجالسها مسموع الكلمة عالي المنزلة!

أدركت عند ذلك أن أولى الناس في هذا البلد بالرثاء، هم ذوو الفضل والحياء.

أقيلوا عثرات الناس

نشأت نشأة محافظة جعلتني أغلو في استنكار زلات الشباب. واشتد بالنقمة على كل عاثر، ولا يتسع صدري لتلمس عذر لخاطئ. وكنت أجافي من أعرف عنهم ذلك واشتط في الحكم عليهم، فلا أرجو منهم خيرا أبداً.

وكان لي صديق ألف الله قلبينا برباط من الود الصادق أنزله من نفسي أكرم منزل، وباعد بيننا طلب الرزق حينا، فلما التقينا بعد طول غياب وجدت على وجهه غمامة من الاكتئاب دلتني على انه يعاني بين جنبيه هماً مبرحاً ثقل عليه حمله. وكان كلما هم أن يفضي إلي بوجيعته ساوره شيء من الخوف فطواه في صدره. وما زلت أترفق به، حتى قص علي قصته، وعلمت انه في إحدى ثورات العواطف جمحت به نفسه، وأفلت منه قيادها فزلت قدمه، وأتى ما يأتيه كثير من الناس. ولم يجد فيما روى به حسه من متع غناء عما فقده من رضى نفسه وطمأنينة وجدانه، فهو لهذا بائس حزين.

وسكت الصديق ونظر إلي نظرة جازعة لما يعلمه عني من القسوة في الحكم على مثل تلك العثرات. والعجيب من أمري أني وجدتني أكثر محبة لهذا الصديق بعد أن قص

علي قصته، وأشد فهما لظروفه ووجدتني أرى عثرته مقالة، وزلته مخفورة ورحت أهون عليه الخطب وأتلمس السبيل لتهدئة أعصابه.
وخلوت لنفسي بعد ذلك وفكرت كيف يتغير حكمنا على الأشياء بتغير فاعليها، ليس منا من أمن العثار. وإذا وقانا الله شرها في أنفسنا فقد يعثر حميم نعزه. فلم نقبل عثرات الأولياء
ونتلمس العذر لأخطاء أنفسنا ومن نحبهم ثم نقسو في الحكم على من بعدت بيننا وبينهم الصلات؟
علمتني هذه الحادث أن أقيل كل عاثر وارحم كل خاطئ. وانظر إلى كل زلات الناس على أنها أمراض تعالج بالرفق والعطف والرحمة.
اللذائذ والآلام أوهام
ليست اللذائذ الا بعض خدع الطبيعة تغرينا بها على أداء وظائفنا الحيوية، الست ترى أحدنا إذا مر وهو جائع بمقربة من طعام وفاحت رائحته فمست خياشيمه، أو لاحت صور فرأتها عيناه سال له لعابه وتحرق شوقا إلى التهامه حتى إذا ما ملأ منه معدته وأدى ما تتطلبه الطبيعة لحفظ الذات صد عنه كارها ولم تثر فيه رائحته ومرآه شهوة.
كذلك الحال في كل لذائذ الحس لا تبهر الا جائعا ولا تثير غير صادئ فإذا ارتوى منها زهد فيها.
ومثل اللذائذ الآلام فهي إحساس خادع ينبه المحروم من أداء وظائفه الحيوية إلى أدائها.
واحسبنا نستطيع بشيء من رياضة النفس والمران على حكم الاعصاب، أن نصل إلى منزلة نغالب بها إلى حد كبير خداع الطبيعة فلا تثيرنا كثيرا لذائذ الحس وآلامه.
السلوة
للأستاذ عبد الحميد العبادي
وكان صاحبي كلما سئم تكاليف الحياة، وضاق ذرعا بمعاشرة الناس، التمس . . . . . الراحة فيما تيسر له من أمور ثلاثة: العزلة، والطبيعة، والماضي البعيد.
أما العزلة فتفرغ عليه هدوء السر: وراحة البال: ثم هي فوق ذلك تهيئ له أسباب التفكير في نفسه، وتعينه على أن يستعرض عمله، وأن ينقده في تؤدة وأناة. وصاحبي شديد الأخذ لنفسه. مسرف في تعهدها ومحاسبتها على الصغيرة والكبيرة، فربما بات ساهرا متململا لبادرة بدرت منه، أو زلة زلها لسانه. وهو بعد حريص على راحة ضميره وطمأنينة قلبه. فان استطاع أن يقيم علاقته بالناس على أساس من العدل والأنصاف فذلك، وإلا فليكن المظلوم غير الظالم والمقتول غير القاتل. من أجل ذلك كانت العزلة كثيرا ما تفتح عليه باب ألم معنوي شديد، بيد أنه ألم في شرعه محتمل مستعذب، يصلى ناره، راغبا ويخلص منها مغتبطا راضيا.
وأما الطبيعة، فهي عنده الأم الرءوم: إليها يستريح ويسكن، ومن جمالها ينهل ويعل، وفي حجرها تنبعث نفسه المجهودة، وتهيج عاطفته المكدودة. قد فتن بالطبيعة وحياة الطبيعة، حتى ليكاد مزاجه يساير فصول العام إنبساطاً وانقباضاً، وابتهاجاً واكتئابا، ولولا بقية إيمان لانقلب صابئا يسجد للشمس عند شروقها وغروبها. ويهتف للقمر حين بزوغه وأفوله، ويساهر النجوم والأفلاك من طلوعها لمغيبها. ولصار حلوليا يرى في ثنايا الجبال وأهضاب الأودية وفي الأجمة الملتفة والصحراء البلقع، جنا تراءى له في غدواته وروحاته، ولفتاته ولمحاته، تحاول أن تستدرجه لتستهويه، وتستميله لتفتنه، أجل! ولولا أثارة من تماسك وتصاون، لحنا على النبتة الواهية، ولكبر للدوحة العالية، ولأجهش للصخرة الراسية على ساحل البحر المتغلغل: ولا ندفع بقول الشعر يساجل الطير: لحنا بلحن وتغريداً بتغريد.
على أن صاحبي ليس بالناسك ولا الزاهد. وقد يكون في قرارة نفسه، وحقيقة أمره، مرحا طروباً، ويود، على شدة انصرافه عن الدنيا؛ ألا ينسى نصيبه منها، ولكنه متزمت متشدد؛ يريد للقوم صفواً من النفاق والدهان، خلوا من الحقد والاضطغان، فأما وقد أعجزه ذلك؛ فقد
أصبح يرى ضالته المنشودة في الغابرين الأولين من أهل القرون الخالية: أصبح يراها في الماضي البعيد، والماضي عنده عالم حافل بأعلامه وأحداثه، زاخر بخيره وشره: لا عيب فيه سوى أن القدم قد صهره ومحصه، وأن الموت قد نفى خبثه عن طيبه، وزغله

عن صميمه، فبدت فيه كل نفس على حقيقتها، ومثَّل كل حادث على جليته، من أجل ذلك اصطفى صاحبي من الماضين خلانا وأصدقاء، قد أصفاهم الود، وأخلص لهم الحب؛ وأن اختلفت الدار، وبعد المزار؛ لقد أدرك صاحبي أن الموت حق والحياة باطل.
تكاءدت الهموم هذا الفيلسوف يوما، فخرج من منزله، وقد طفلت الشمس للغروب، فما زال يتخير الأمكنة والبقاء؛ حتى آوى إلى صخرة قد استقبلت بحرا خضما، واستدبرت مرجا معشوشبا مدهاماً؛ وفي شرقيها المدينة هائجة مائجة؛ صاخبة داوية؛ وفي غربيها قصر عتيق مثلم الجنبات متداعي الأركان.
فأخذ الفيلسوف مجلسه من ذلك المنظر الفخم؛ وجعل تارة يسرح الطرف في البحر الواسع؛ فتطير شعاعا فوق صفحته أشجانه؛ وتذوب في هدير أمواجه آهاته وأحزانه، وتارة ينثني نحو المرج يداعب منثور زهره؛ ويتسمع سجع طيره، وأخرى يلتفت إلى القصر يسأله أخبار من نزلوه ثم ارتحلوا عنه، وكانوا أحاديث. حتى إذا ما ارتوى الفيلسوف من نسيم البحر؛ وعبير الزهر، وحديث القصر؛ تناول هراوته، وزر معطفه، وعاد يؤم المدينة متثاقل الخطى، مرددا قول الشاعر:
أن الطبيعة أم نستجير بها ... من جانب للبرايا غير مأمون!
مسارح الأذهان
مشروع مقالة
للأستاذ احمد أمين. أستاذ الأدب العربي بكلية الآداب
1
جلست إلى مكتبي وأمسكت بالقلم واستعرضت ما مر علي أثناء الأسبوع لأختار منه موضوعا أكتب فيه، فخطر لي أن أكتب في المساجلات الأدبية التي دارت بين شيخ العروبة والأستاذ مسعود في (الطرطوشي ولاردة)، وبين الدكتور زكي مبارك والأستاذ عبد الله عفيفي في كتاب (زهرات منثورة)، وبين الدكتور طه حسين والأستاذ العقاد في (اللاتينيين والسكسونيين). وقلت أن هذا موضوع طريف جدير أن يكتب فيه الكاتب ويعرض فيه لنوعي النقد اللذين ظهرا في كتابة هؤلاء الأدباء؛ فأحد النوعين قاس عنيف، تورط فيه الأربعة الأولون حتى يخيل إلي أنه لم يبق إلا أن يتسابوا بالآباء، أو يتضاربوا بالأكف، ويتبارزوا بالسيوف! والآخر عفيف خفيف كالذي سلكه طه والعقاد، فيه لذع، ولكن بالإيماء والإشارة، وفيه مهاجمة عنيفة، ولكن للفكرة لا لقائلها، ويخيل إلي أنهما إذ تقابلا تعانقا، ومهما أطالا فلن يتباغضا، ليس في أسلوبهما إدلال وفخر وإعجاب وعجب، كالذي بين شيخ العروبة ومسعود، وليس فيه إسفاف وتنابز بالألقاب وإدخال للعمامة والقبعة في وسط المعمعة، كما بين عبد الله عفيفي وزكي مبارك! يدعو أحدهما الآخر إلى التلمذة له، ويلقي كلاهما درسا في النحو على أخيه، ويذكر أن من الألفاظ ما لو ذكرته لهاج بي قراء الرسالة يوسعونني تأنيبا وتجريحا، ولغضب عليَّ صاحب الرسالة فعاقب مقالتي بإهمالها.
وقلت من الحق أن تصرخ في وجه هؤلاء، وأن تعلن أن نقدهم يعجبك موضوعا ولكن لا يعجبك شكلا، وأن الذوق إذا رقى اكتفى في الخصام بلمحة، وأن الأديب يعجبه التعريض والتلميح، ويشمئز من الهجو المكشوف والتصريح، وأن العامة إذا تسابوا أقذعوا، وأن أولي الذوق إذا تخاصموا كان لهم في الكناية ومراتبها، والإيماء ودرجاته، والتعريض ومقاماته، مندوحة من الأسلوب العريان والصراحة المخزية، وأن الحقيقة الواحدة يمكن أن تقال على ألف وجه، يتخير الأديب أحسنه، على حين لا يعرف العامي إلا وجها واحدا يتلوه
الضرب، وأن في أعناق شيوخ الأدب حقا للناشئة من المتعلمين الذين يضربون على قالبهم ويسيرون على منوالهم، وأن هؤلاء الناشئة ليجدون في هذه الصحف والمجلات مدرسة تثقفهم وتغذيهم، ثم هم بعد قادة الأدب وهداة الأمة، فلو أنا علمنا النشء هذا النقد الذي لا يرعى صداقة ولا يأبه لوفاء كان علينا وزرهم، ووزر الأجيال بعدهم، وكانت مدرستنا التي ننشئها قاسية البرامج فاسدة الطريقة.
وقلت: ان هذه الطريقة لا تخدم الحق كما يزعم أصحابها، فلسنا نطلب منهم أن يسكتوا على باطل، وأن يغمضوا عن خطأ. بل نحمد منهم جدهم في خدمة الحق، وسهرهم في كشف الصواب، ولكنهم يسيئون إلى الحق إذا ظنوا أنه لا يؤدي الا بهجر، ولا يكشف إلا بسباب، والحق إذا عرض في أدب كان أجمل وأجدى على رواده، وإذا

عرض في سفه حمل المعاند أن يصر على عناده، وحمل الخجول أن يكتم آراءه في نفسه حتى لا ينهش عرضه ولا تبتذل كرامته، فقل التأليف وضعف الإنتاج.
جال كل هذا في نفسي، ولكني خفت أن أكتب مقالتي في هذا الموضوع، وقلت إن فعلت هاجوا بك وتركوا خصومتهم لخصومتك، وتصادقوا لعداوتك، وقالوا أتلقي علينا درساً في الأدب ونحن أساتذة الأدب؟ ومن أنت وما شأنك؟ وجلسوا مني مجلس الملكين يسألون ويسفهون. وأنت ما أغناك عن هذا الموقف! وما أبعدك من هذا المأزق! فتركت هذا الموضوع وعدلت عن المشروع.
ففيم أكتب إذن؟
2
كنت في الترام عصر يوم من هذا الأسبوع، فصاح بائع الجرائد: المقطم! البلاغ! فلم ألتفت إليه لأني كنت قرأتهما. فلم يصدق أني سمعت فصاح صيحة أنكر من الأولى، فكان موقفي منه هو موقفي، فأمعن في الصراخ وأمعنت في البرود، فما وسعه إلا أن صعد لترام ومسني بالمقطم والبلاغ، فاضطررت إلى أن أقول أني قرأتهما ليصدق أني سمعت وفهمت!
وقلت: إن هذا موضع للكتابة طريف، أدعو فيه إلى دقة الحس ورقة الشعور وظرف المعاملة، فان ذلك لو كان لأغنانا عن كثير مما نلاقي من عناء وجفاء، وما معاملاتنا الا كالآلة بلا زيت: تسير ولكن تصدِّع.
على أنني قلت أن هذا الموضوع من جنس الأول، فلو أن أساتذة الأدب رقوا في نقدهم، لرق بائعو الجرائد في عرضهم.
فعرضت عن هذه إذ عرضت عن تلك.
3
وجلست في مجلس يجمع طائفة مختارة من الأدباء، فعُرضَت بعض القصائد والمقالات، فما من قصيدة أو مقالة إلا استحسنها قوم واستهجنها آخرون، ورأيت من استحسن لم يستطع أن يقنع من استهجن، ولا من استهجن قد استطاع أن يقيم الدليل على من استحسن، ورأيتهم إذا تناقشوا في المعقولات أطالوا حججهم وسددوا براهينهم، وذكروا لقولهم الأسباب والنتائج، وهم أعجز ما يكون عن ذلك في الفنون والآداب.
فقلت هذا موضوع جيد، أليس من الممكن أن يوضع للذوق منطق كما وضع أرسطو للعقل منطقا؟ فلتكتب في (الذوق الفني) ولتحاول أن تبين أسباب الخلاف ووجه الصواب ووجه الخطأ، وترسم سلما للرقي في الذوق تعرف به من اخطأ ومن أصاب، وتبين به علة الخطأ في المخطئ والإصابة للمصيب، وكيف تحكم على ذوق بأنه أرقى من ذوق، كما تحكم على عقل أنه أرقى من عقل.
ولكني رأيت الموضوع عميقا يحتاج إلى أن أفرغ له وأهجم عليه ابتداء من غير أن أشتت فكري في موضوعات مختلفة فأرجأته إلى حين.
وقلت: ما الذي يمنع أن أجعل مشروع المقالة مقالة؟ فليكن!
إلهتي
ما رونق البدر إلاّ ... أشعة من عيونك
ما سحر بابل إلا ... إشارة من جفونك
هديتي لآلهي ... فنوره في جبينك
وحيرتي فيه بعض ... من حيرني في شئونك
وأنت سر وجودي ... فكيف أحيا بدونك؟
صالح جودت
قلب!!
يا حسان النبات هاكن قلبي ... زهرة لا تزال في الأكمام
ملؤه في الصميم عرف شذى ... من حنان ورقة وهيام
طله باكر الندى فهو غض ... لم تفارقه روعة الاحتشام
لقنته الطيور في الأيك لحنا ... وقعته قيثارة الإلهام
وهو نسج الطبيعة الحر قد صا ... نته عن كلفة وعن أوهام
يرقب الشمس أن تغذيه بالن ... ور حتى يبيح سر الختام

يوم يفتر بعد طول اغتماض ... عن غرام لم يفوق كل غرام
جنين - فلسطين أ
أثر الثقافة العربية في العلم والعالم
بقلم أحمد حسن الزيات
3
لم يشهد الشرق فاتحا قبل العرب يفتح البلدان والأذهان ويستعمر الألسنة والأفئدة في وقت معا. فاليونان والرومان غزوه بالسيف والحضارة والعلم، ولبثوا الحقب الطوال يمكنون لأنفسهم فيه، ويطبعون آثارهم في أكثر نواحيه، حتى إذا وهنت اليد القوية، وأمكن من يده السلطان الغريب، تنكرت المعارف وعفت الآثار.
وكان ما كان من ملك ومن ملك ... ثم انقضى فكأن القوم ما كانوا!
ولكن العرب تدول دولتهم وتزول صولتهم ويعمل الفاتح الغشوم في رجالهم السيف، وفي آثارهم النار، حتى إذا ظن انه ملك، وان عدوه هلك، إذا بالعرب يقولون له في كل مكان وفي كل إنسان؛ أنا هنا! وإذا بالمغير المزهو يستسلم لهذه القوة الخفية فتحتل خواطره ومشاعره وكيانه، ثم ينقلب على الرغم منه داعيا لخلافتها ناشرا لثقافتها!
فهل رأى التاريخ مثيلا لهذه الأمة التي حكمت الناس ظاهرة ومضمرة؟ وهل رأى التاريخ ضريباً لهذا الشعب الذي طبع قسما كبيرا من الدنيا بطابعه منذ ثلاثة عشر قرنا ثم لا يزال هذا الطابع على رغم العوادي جلي السمات واضح الدلالة؟ فسلطان العرب على العالم قد زال منذ قرون، ولكن ثقافتهم ما تنفك قائمة في الشرق الإسلامي حتى اليوم! ومن الشبيه باللغو أن نفصل أثر هذه الثقافة في أفريقيا وآسيا، فان من خضع للعرب من شعوب هاتين القارتين قد انقطع ما بينهم وبين أسلافهم من صلات اللغة والأدب والعقائد والتقاليد، فأصبحوا لا يتكلمون ولا يفكرون ولا يعتقدون ولا يعيشون إلا بما للعرب من جميع ذلك. وذو الحيوية القوية منهم كالفرس استطاع بعد حين أن يجمع فلول لغته من يد البلى فأعادها إلى الحياة بعد ما اقتبس لها من الألفاظ العربية ما يشارف الستين في كل مائة، فضلا عن استمداده من العربية الروح والحرارة والبلاغة والخط. ومع ذلك ظل الفرس ومن فعل فعلهم يستعملون العربية إلى وقت قريب في التأليف والتعليم والأدب كما كان الأوربيون في القرون الوسطى يستعملون اللاتينية لمثل ذلك. على أن الثقافة العربية لم تقف في الشرق عند حدود الفتوح وإنما تجاوزتها إلى حدود الهند والصين على يد التجار من العرب، والمهاجرين من الفرس، والغازين من الترك والمغول، فالعرب نقلوا في رحلاتهم التجارية طائفة كبيرة من المعارف إلى تلك البلاد ظنها الأوربيون فيما بعد أصيلة فيها. وقد ألح العلامة سديو الفرنسي صاحب كتاب تاريخ العرب في التدليل على هذا الرأي. والرياضي النابغ محمد بن احمد البيروني المتوفى سنة 430 نقل إلى الهند أثناء اتصاله الطويل بمحمود الغزنوي خلاصات قيمة من العلوم العربية نقلها الهنود إلى السنسكريتية في مثنويات من النظم. وكوبلاي خان المغولي أدخل في الصين طب العرب وبعض ما ألف من الكتب في بغداد والقاهرة. ثم أخذ الفلكي الصيني (كوشيوكنج) أزياج ابن يونس المصري من جمال الدين الفارسي ونشرها في بلاده.
وبينما كان الشرق من أدناه إلى أقصاه مغمورا بما تشعه منائر بغداد والقاهرة من أضواء المدينة والعلم، كان المغرب من بحره إلى محيطه يعمه في غياهب من الجهل الكثيف والبربرية الجموحة، وكان حظه من الثقافة يومئذ ما تضمه حصون الأمراء المتوحشين من بعض الكتب، وما يعلمه الرهبان المساكين من قشور العلم. وانقضى القرن التاسع والقرن العاشر للميلاد وأولئك الأمراء في قصورهم يتبجحون بالأمية ويرتعون في الدماء، وهؤلاء الرهبان في ديورهم يمحون الكتابة من روائع الكتب القديمة لينسخوا على صفحاتها الممحوة كتب الدين، حتى أزال الله الغشاوة عن بعض العيون فرأوا من وراء هذا الظلام الداجي بقعة من المغرب تسطع فيها شمس المشرق، فلما تبينوا أن البقعة هي جزء من أسبانيا، وان النور قبس من نور بغداد، استيقظفي نفوسهم طموح الكمال الإنساني فطلبوا العلم فلم يجدوه إلا عند العرب. ففي سنة 1130 أنشئت في طليطلة مدرسة للترجمة تولاها الأسقف (ريموند) وأخذت

تنقل جلائل الأسفار العربية إلى اللاتينية وأعانهم على ذلك إليهود، فبعثت هذه الترجمة في أوربا الخامدة شعورا لطيفا وروحا طيبة، وتضافرت على هذا المجهود النبيل قواعد أخرى للترجمة طوال القرون الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر حتى بلغ ما ترجموه من العربية يومئذ ثلاثمائة كتاب أحصاها الدكتور (لكلارك) في كتابه تاريخ الطب العربي وأحصاها غيره أربعمائة. وكان أكثر ما ترجم في هذه العهود كتب الرازي وأبي القاسم الزهراوي وابن رشد وابن سينا وما نقل إلى العربية من اليونانية لجالينوس وأبقراط وافلاطون وأرسطو واقليدس الخ. . . وظلت هذه الكتب المنقولة منهاجا للتعليم في جامعات أوربا خمسة قرون أو ستة، واحتفظ بعضها بقوته وقيمته حتى القرن التاسع عشر ككتب ابن سينا في الطب مثلا، وكان ابن رشد هو المهيمن المطلق على الفلسفة في جامعات فرنسا وإيطاليا وبادو على الأخص ابتداء من القرن الثالث عشر. ولما أراد لويس الحادي عشر تنظيم التعليم سنة 1473 أدخل في المنهج فلسفة ابن رشد وارسطو. فلولا وجود العرب في الأندلس وترجمة علومهم في صقلية والبندقية لما تهيأ للقرون الوسطى أن تظفر بكتاب من كتب اليونان ولا أثارة من علم العرب، ولما تيسر لطلاب العلم من الأوربيين أن يردوا مناهله الصافية في جامعات اشبيلية وقرطبة وطليطلة. قال المؤرخ الإنجليزي جورج ملر في كتابه فلسفة التاريخ: إن مدارس العرب في أسبانيا كانت هي مصادر العلوم، وكان الطلاب الأوربيون يهرعون إليها من كل قطر يتلقون فيها العلوم الطبيعية والرياضية وما وراء الطبيعة. وكذلك أصبح جنوب إيطاليا منذ احتله العرب واسطة لنقل الثقافة إلى أوربا. وممن ورد تلك المناهل الراهب جربرت الفرنسي. فانه بعد أن ثقف علوم اللاهوت في (أورياق) مسقط رأسه جاب عقاب (ألبيرانس) والوادي الكبير حتى ورد اشبيلية. فدرس فيها وفي قرطبة الرياضيات والفلك ثلاث سنين. ثم ارتد إلى قومه ينشر فيهم نور الشرق وثقافة العرب فرموه بالسحر والكفر، ولكنه ارتقى إلى سدة البابوية سنة 999 باسم سلفستر الثاني. كذلك تخرج على علماء قرطبة (شانجة) ملك ليون واستوريا، وأولع بعض أمراء إيطاليا بالعربية وعدوها لغة الأدب العالي، وأوصى قومه الراهب (روجر بيكون) الإنجليزي في كتبه بتعلم اللغة العربية وقال: (إن الله يؤتي الحكمة من يشاء، ولم يشأ أن يؤتيها اللاتين، وإنما آتاها اليهود والإغريق والعرب) وروى فولتير أن جميع ملوك الفرنج كانوا يتخذون أطباءهم من العرب واليهود، وذكر مثل ذلك (جيبون) في الفصل الثاني والخمسين من كتابه تاريخ اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها، وزاد عليه أن مدرسة (سالرنو) التي نشرت الطب في إيطاليا وسائر أوربا كانت غرس العبقرية العربية. وقال المسيو ليبري (امح العرب من التاريخ تتأخرنهضة الآداب في أوربا قرونا طويلة) وتلك حقيقة لا ريب فيها. فان العرب كانوا الحلقة التي لابد منها لصلة المدنية القديمة بالمدنية الحديثة. فهم الذين وقفوا أوربا على مخلفات اليونان وغير اليونان، وهم الذين عالجوا هذه العلوم بالتجربة والاختبار لا بالحفظ والتكرار، حتى جلوا غامضها ونقدوا زائفها ورفعوا مباحثها على أساس من النظر الصحيح. ومالنا نحمل تبعة الكلام ونتعرض للنقض والإبرام وقد كفانا الأمر ثقاتهم ومنصفوهم؟ قال المؤرخ الإنجليزي (ولز) في كتابه ملخص التاريخ: (هب العرب يظهرون ما خفي من مواهبهم فبهروا العالم بما أتوه من معجزات العلم وأصبح لهم السبق بعد اليونان فبعثوا كتبهم من مراقدها. ونفخوا فيها من روحهم الحياة والقوة، فجعلوا بذلك سلسلة العلوم متصلة الحلقات محكمة السرد لا يمسها انقطاع ولا وهن. فإذا كان اليونان آباء الأبحاث العلمية المبنية على الصراحة والأمانة والوضوح والنقد، فان العرب مربوها؛ وما جاءنا العلم والمدنية الا عن طريقهم لا عن طريق اللاتين) وأنكر كاتب من الإنجليز فضل اليونان على العلم الحديث وعزاه كله إلى العرب قال: إن العلم الحقيقي إنما دخل أوربا عن طريق العرب لا عن طريق اليونان، فان الرومان أمة حربية، واليونان أمة ذهنية، وأما العرب فكانوا أمة علمية.

لبث الفرنج يا سادتي في طور التخرج والنقل حين أخذوا عن العرب، أكثر مما لبث العرب في هذا الطور حينما أخذوا عن اليونان. فان من اليسير أن نعد كثيرا من العرب قد بذوا أساتذتهم من اليونان قبل انقضاء قرن على الترجمة، ولكن من المستحيل أن نعد من الفرنج مؤلفا واحدا قبل القرن الخامس عشر كان يعمل شيئا غير النقل عن

العرب أو الجري على أسلوب العرب، فرجور بيكون، وليونارد دبيز، وأرمان دفيلنوف، وريمون لول، وهرمان الدلماشي، وميخائيل سكوت، ويوحنا الاشبيلي، وسان توما، وألبيرلجراند، والفونس العاشر أمير قشتاله، لم يكونوا غير تلاميذ للعرب أو نقله عنهم. قال مسيو رنان: إن البير لجراند مدين بعلمه كله لابن سينا، وسان توما مدين بفلسفته لابن رشد.

أسمعوا يا سادتي ما يقول (بترارك) شاعر إيطاليا العظيم ينعى على قومه تخلفهم في مضمار العلم وقعودهم عن مجاراة العرب، والشاعر من رجال القرن الرابع عشر فلا جرم أن شهادته حجة. قال في لهجة مرة من الإنكار والتعجب:

(ماذا! ماذا! أبعد ديموستين يستطيع شيشرون أن يكون خطيبا، وبعد هوميروس يستطيع فرجيل أن يكون شاعراً، وبعد العرب لا يستطع أحد أن يكتب؟ لقد ساوينا الإغريق غالبا وشأوناهم حينا. وإذا شأونا الإغريق فقل شأونا جميع الأمم ولكن ما عدا العرب! يا للجنون! يا للضلال! يا لعبقرية إيطاليا الراقدة أو الخامدة!!)

هذه يا سادتي صفحة واحدة من صفحات الثقافة العربية تعب فيها الإيجاز وضاق عنها الوقت. ظهر فيها أثرها العلمي العالمي على عموميته وإجماله ناصع البيان مشرق الدلالة. وتراءى من خلالها الذهن العربي ساطع العبقرية باهر الجلالة، فهل من الإخلاص للإنسانية والمدنية أن نترك هذا التراث الفكري العجيب يذهب ضحية لخطأ الحكم في الماضي وسوء الفهم في الحاضر؟ أن الثقافة اليونانية وهي أقدم من العربية لا تزال تستغل، وأن الأدب الأوربي ليستمد من روحها قوة ومن قديمها جدة، وأن ثقافة العرب وهي عصارة أذهان الشعوب وخلاصة أديان الشرق لحرية أن تبعث في آدابنا القوة وفي أخلاقنا الفتوة وفي نهضتنا الطموح والحركة على أن هناك صفحات ناصعات من هذه الثقافة في الخلق والأدب والفن سنجعلها موضوع محاضرة أخرى في فرصة أخرى. . .

رفائيل

للدكتور عبد الوهاب عزام

البارحة بعد نصف الليل أتممت قصة رفائيل قراءة. وكنت بدأت قراءتها منذ زمان بعيد فتطاول الأمد، وتثاقلت النفس، تثاقل الغم والحزن على قلبي جوليا ورفائيل.

ما حسبت قط أن الحزن الذي شربته جرعات، وأشربه قلبي وأحسسته حينا بعد حين يبلغ بي هذا المبلغ. بلى؛ أذكر أني في إحدى الليالي وقفت القراءة إشفاقاً على نفسي حينما بلغت برفائيل وجوليا حديقة منسو. وحم هنالك الوداع! أذكر أني حينئذ وضعت الكتاب على حافة السرير، وألقيت على الوسادة رأسا بنوء بالهموم، فماج بي الليل وطار الفكر في أرجاء السماوات، وقذف القلب بأحزانه زفرات، ودارت النفس في أعماق من الظلام والفكر ما لها من قرار. ولكني ما حسبت قط أن الحزن آخذ بي إلى هذه الغاية. وأذكر في هذه القصة مواقف موجعة، ومشاهد مروعة. أذكر جوليا ورفائيل، وهما في نفسيهما مأساتان أحكم الله تأليفهما. وبعث بهما إلى الأرض في صفحات الحادثات أو في صفحات لا مرتين ليقرءوا على مر الأيام. وأذكر البحيرة، بحيرة (برجيه) يوم جمع القضاء بين حبيبين لا يعرف أحدهما الآخر، فكأنهما التقيا على موعد بعد أن برح بهما الشوق، وأمضهما الانتظار، ويوم حان فراق اكس، ورحلت جوليا إلى باريس فتبعها رفائيل يرقبها عن كثب وهي لا تدري، وينجدها كلما عرض لها ما تكره؛ حتى أبلغها دارها ثم رجع، وأذكر تلاقيهما في باريس يجتمعان على هوى عذري، وفرح هو أشد ضروب العذاب، في ملتقى حبيبين هو أشبه بمأتم تهيأ فيه للقضاء الذي ليس منه مفر. ويوم يبيع رفائيل لؤلؤة أمه وهو يبلها بدمعه ليستطيع الإقامة على مقربة من جوليا، ويوم ذهب إلى أمه فأخبرها أن الطبيب أشار عليه بالمسير إلى سافورا، فلا تجد أمه بدا أن تقسو على أعز صديق وأنفس ذخيرة وأجمل ذكرى: الشجرات اللاتي يظللن المنزل واللاتي حنون على هذه الأسرة دهراً طويلا! فكان في ظلالهن مسارح اللهو ومدارج الصبا لرفائيل وأمه وأبيه. فانظر كيف تضطرها الأقدار، أن تسلط الفأس على هذه الأشجار!

كل أولئك أذكره، وأنها لذكرى ممضة. ولكن ما حسبت قط أن يبلغ الحزن بي هذا المدى!

البارحة بعد نصف الليل أخذت الكتاب أقرأ الوريقات القليلة الباقية ونفسي تضطرب فزعا
مما سيلقاها في ثنايا هذه الصفحات التي بدت كأنها صحف الغيب تنفتح عن المقادير واحدا بعد آخر.
حتى إذا بلغ رفائيل الكوخ الذي حمل إليه جوليا، فلم ير الا ظلاما ولم يسمع بين الظلام نأمة حي، فدار يقبل الجدار والجدار، حتى بلغ المكان الذي ركع فيه بين يدي جوليا وهي في غشيتها يوم البحيرة. ثم يتحامل إلى جدول يأكل على حافته ما يمسك ذماءه. على ذكرى قاتلة، وحرقة يعيا بها الوصف.
قرأت حتى جاء الملاح إلى رفائيل برسالة من صديقه لويس يبلغه رسائل جوليا، فعاد رفائيل إلى حجرته يسير إلى مهلكه على شعاع ذاو من أشعة الشمس الغاربة. يفض رفائيل الغلاف عن رسالة لويس ثم عن رسائل باريس فإذا كتاب معلم بالسواد، وإذا خط (ألن) لا خط جوليا. يقرأ سطورا سوداء تنعى إليه جوليا. وينظر بصره الزائغ فإذا خط جوليا نفسها، أجل خط جوليا نفسها، ولكنها كلمة أرادت قلمها عليها وهي في غمرات الموت تعزي رفائيل عن نفسها، فلله ما أفظعها تعزية! تركت رفائيل يخر مغشيا عليه. وخررت على فراشي فبكيت ثم بكيت ثم لج بي البكاء.
وحاولت سدى أن أسكن جأشي أو أكفكف دمعي، ما تعمدت البكاء ولا رجوته، ولا خلت أن أنتهي إليه، ولكنه كان وحيا من الحزن والدمع لا أعرف من أين هبط، بل ثورة من هموم راكدة، وأحزان كامنة، كانت قصة رفائيل لها كقداحة الزناد. أو كضربة مسحاة على نبع يدافع الثرى لينفجر.
كذلك انتهت بي قصة رفائيل، وكذلك أبكي لامرتين بعد مائة سنة شاعراً مجهولا يشبه لامرتين طبعاً مكتئباً، وقلبا منقضباً، ونفساً ملتهبة. شاعرا قد يبلغ به الاعتداد بنفسه أن يظن أن ليس بينه وبين أن يكون لامرتينا آخر الا (التأملات).
كذلك فعلت بي قصة رفائيل، فلما أفقت لم أدر أأساء إلى لامرتين أم أحسن، ولم أدر أأحمد صديقي الزيات أم ألحاه؟.
. . .هذا الغروب
للأستاذ راشد رستم
شهدت غروب الشمس في كل ناحية من نواحي هذا الوادي الفسيح الممتد: رأيت الشمس من أعلى الهرم الأكبر تذهب مع ذهب الصحراء، ورأيتها تختفي وراء صفحة الماء، أو تودع حسرى خلف جبال ليبيا، أو تغيب كاسفةً وراء الأفق بين أطلال وآثار، أو تغوص في لجة الغيب تحت إشراف المنائر وأعالي الأشجار، أو تحتجب عن الأبصار وسط جمع من كثيف السحاب، أو تذوب في سماء صافية تمسحها من لوحة النهار يد الليل القاتمة، ولها في كل حال ما شاءت لها الأيام من وحشة ومن وراء.
وهؤلاء القدماء آباء هذا القطر القديم كانوا يسيرون، هادئين طائعين، مع الشمس حتى الغروب: كم أعطتهم حياة وحرارة! وكم أمدتهم بأسباب الخلود في الجلمود! وهم اليوم قد غابوا عنها. أما هي فما غابت عنهم ولن تغيب عنا وإنما يأتي اليوم الذي نغيب نحن فيه كما غابوا وكما تلقيناها نحن عن الأجداد سيتلقاها عنا الأحفاد.
وهذه الشمس المانحة، تسير عبر الوادي سابخة، كما كانوا يقولون، تقبل عليهم نياما وتتركهم أيقاظا، تمنحهم بهجة النهار، وتنزل عليهم سكينة الليل، ولكنها بين ذلك قد تأتيهم وقت الغروب بالوحشة ذات الخفايا والظلمات، حتى ليظنون في يقين أن هذا الغروب وداع للنور وتسليم بظلمة الوجود.
ينقطعون عن الحي الصاخب المتحرك، ويدخلون البيوت الهادئة الساكنة كأنهم يدخلون القبور، وفي السكون مع الهدوء تنشأ الحركات - ولكنهم يتركون الفضاء الواسع والنجم الساطع ويخضعون لكابوس الليل الزائل، يسيرون بالركب وئيدا مستسلمين، يضمهم وينضمون إليه وهم فيه صامتون، إلا ما كان أمراً لصارخ بالسكوت، أو زجراً لسريع بالهدوء، أو همساً لآمل باليأس الممقوت. . .
أما أنا فما ساءني غروب في هذا الوادي الخصيب، بل دلني كل غروب، في اختلاف حالاته، على انه حركة تتلوها حركات، وانه علامة للفصل، تنبئ عن وجه جديد بشروق جديد، في نور جديد بأمل جديد. . وهكذا حييت مع هذا الفاصل، متصلا دائما بالأمل الجديد. . .

ولم أسأل نفسي ولن أسألها عما يكون مع الشروق الجديد، ولن أسأل غيرها عن غدها إذ الكل على الغد عيال، وما عرفنا عند الناس علم الغيب ولا عناوين الأيام.

إنما أناجي نفسي كل غروب: ماذا أعددت للغد أيتها النفس الساكنة في قلق، الآملة في يقين؟ ماذا هيأت من أثر يضاف إلى آثار سابقات، أو من حسنة تمحو سيئات، أو من بسمة تذهب بالآهات، فيكون ذلك منك فهماً لمعنى الواجب بل لمعنى الحياة. . .

حتى إذا سحبت الشمس بعد غروبها ذيل ضيائها وتمكن الليل من الأحياء، فأني أودع صاحبي وأقول: قم يا صاح فللغروب شروق، وللمساء صباح. . .

فلسفة نيتشه

للأستاذ زكي نجيب محمود

لسنا نحسب أن داروين، حينما أذاع رأيه في تنازع البقاء وبقاء الأصلح، كان يدور في خلده أن ذلك الرأي سيكون له من العمق والسيطرة الفكرية ما له اليوم، وأنه لن يقتصر على الأحياء من نبات وحيوان، بل سيتعداها إلى كل لون من ألوانالنشاط الإنساني؛ فأساليب الحكم، والدين، والأدب، والفن، والفلسفة، كل هذا وما هو أدق من هذا وأجل، يحاول الكتاب الآن أن يخضعوه إخضاعاً لقانون تنازع البقاء.

فعسانا لا نسرف في القول إذا زعمنا أن داروين هو رب الفكر الحديث، يتأثر خطاه آلاف المفكرينوالكتاب، وأصبح بقاء الأصلح غرض الرمي في الكثير الغالب من أبحاث العلم والفلسفة والفن جميعاً.

وفلسفة نيتشه هي واحدة من تلك الفلسفات العديدة التي يرجع نسبها إلى قانون داروين، فقد استولد نيتشه ذلك القانون واتخذ منه مقدمة، ثم استخرج فلسفته كنتيجة لازمة لتلك المقدمة، ولم يجد التردد إلى نفسه سبيلا في إذاعتها في الناس على خطورتها، واقعة ما وقعت من نفوسهم.

ما دام قانون تنازع البقاء وبقاء الأصلح يسيطر على كل مظاهر الحياة، فلابد للواهن أن يخور ويتلاشى، ولابد للقوة في كل شيء أن تظفر آخر الأمر، وإذا فالمثل الأعلى للفضيلة هي القوة دون سواها، والضعف هو علة العلل وآفة التقدم. فأيا كانت الأخلاق التي تثبت قدمها في معترك البقاء، فهي الفضيلة وهي الخير، وأيا كانت الأخلاق التي تخور قواها فتسقط صريعة في الميدان لتخلي الطريق لسواها فهي الرذيلة وهي الشر.

هكذا يبدأ نيتشه منطقه ثم يتابع هذا المنطق إلى نهايته، حتى يصل آخر الأمر إلى نتيجة خطيرة كل الخطر: إلى نبذ المسيحية بل إلى نبذ الأديان جميعا ما دامت تنتشر مبادئ العطف والإيثار والاستسلام؛ ثم ينادي بدوره بوجوب القسوة والقوة والعنف لأنها قوية، ولأنها أقدر على البقاء.

الإنسانية في حياتها وفي تقدمها تحتاج إلى القسوة دون الرحمة، وإلى الكبرياء دون التواضع، وإلى الذكاء والسيطرة دون الإيثار. أما هذه المساواة والديمقراطية التي اتجهت إليها الشعوب في التاريخ الحديث، فإنما تقف عقبة كؤوداً في سبيل الانتخاب الطبيعي للبقاء، فليس في الكثرة العددية والجموع البشرية كمال الإنسانية المنشود. ولكن في الصفوة القوية العبقرية وحدها. إذا فليس من المنطق في شيء أن تكون المساواة أساس الأجتماع، تلك المساواة التي تحد من قوة القوي، وتضيف إلى الضعيف قوة مصطنعة أبتها عليه الطبيعة. فلننبذ الديمقراطية نبذ النواة، ولنخل الطريق أمام القوة لكي تستطيع أن تتبوأ مكانها وتتحكم في أعناق الجماهير، وليكن المثل الأعلى في الحكم هو بسمارك وأشباهه الذين يسوسون الشعوب بالنار والحديد.

الأخلاق

أراد نيتشه أن يقوض بناء الأخلاق السائدة من أساسه، ليقيم على أنقاضه بناء خلقياً جديداً. أراد أن يبيد هذا النوع الإنساني ليخلق ضرباً آخر من الإنسان قوياً عنيفاً ذكياً كما يريد: هو السوبرمان (الإنسان الأعلى).

فقد شهد التاريخ نوعين مختلفين من الأخلاق: أخلاق نبيلة سامية، كانت شعار الشعوب القديمة، وبخاصة الرومان. إذ كانت الفضيلة تعني الرجولة والجرأة والشجاعة، وأخرى وضيعة دنيئة ظهرت في الشرق، اصطنعها اليهود اصطناعاً أيام ضعفهم. حيث الفضيلة عبارة عن مجموعة من صفات ترجع في أصولها إلى الخوَّر والاستكانة والذل.

فالخضوع قد خلق التواضع خلقا، والعجز كون الإيثار تكويناً، وهكذا نسج القوم حولهم نسيجا من الأخلاق الهزيلة الخائرة يدرعون بها حيث لا مقدرة لهم ولا سلطان، ونزعت النفوس إلى السلم والتماس لنجاة، بعد أن كانت تلتمس مواضع القوة والخطر؛ فحل الخداع والمكر محل القوة، والإشفاق والعطف مكان الصلابة والعنف، وجاء التقليد دون الابتكار والإنشاء، وقام الضمير حكماً يلتجأ إليه مقام التفاخر بالشرف. . فالشرف وثني، روماني، أرستقراطي؛ أما الضمير فأثر من آثار اليهودية فالمسيحية فالديمقراطية.

ويقول نيتشه إن الأنبياء استطاعوا بما أوتوا من قوة الشخصية. وسحر البيان أن يزينوا للناس ذلك النوع الهزيل من الأخلاق، حتى رسخت في نفوسهم وأصبحت عقيدة ليس إلى نبذها من سبيل، فإتقلبت الأوضاع، وأصبح الفقر والضعف هما جوهر الفضيلة، والقوة والثراء عنوان الرذيلة.

وقد بلغ هذا التقدير الخلقي أقصى حدود التقديس أيام المسيح الذي جعل الناس جميعا سواسية، ومن هنا أشتق العصر الحديث مبادئ الديمقراطية والاشتراكية، التي يعتقد نيتشه أنها الطريق المؤدية إلى الدمار والخراب.

ولكن الطبيعة تأبى الا أن تهدي الإنسانية سواء السبيل، فزودتها بإرادة غريزية لا تخطئ ولا تطيش لها سهام، فأنت إذا أمعنت النظر في الطبائع البشرية، أيقنت أن هذه الأخلاق السائدة من عطف ورحمة وإيثار وتضحية وما إلى ذلك، ليست الا ستاراً رقيقاً يخفي وراءه دافعاً غريزياً يمتلك من الإنسان قياده، نعم ذا أنت أمعنت في تحليل النفس الإنسانية، وجدت (إرادة لقوة) مستقرة في صميم الأعماق، تسير بالإنسان حيث تشاء. أعني أن الإنسان يلتمس القوة والسيطرة في كل ما ينزع إليه من أعمال وما يجيش في نفسه من مشاعر، وهذا الحب الذي يتخذه كثيرون دليلا على الإيثار بحجة أن التضحية فيه واضحة لا تحتاج إلى دليل هو في أعماقه رغبة في التملك، فما يبذله المحب في سبيل حبيبه يدفعه ثمنا للسيطرة على مخلوق آخر!! بل يزعم نيتشه أكثر من هذا فيقول إن من يتفانى في البحث عن الحقائق، لا يصرف مجهوده في سبيل الله من دونه، بل هو في الواقع يحاول أن يمتلك الحقائق قبل الآخرين.

وإرادة القوة هذه تملي على الإنسان ألوان الفلسفة وشتى ضروب الفكر، فمخطئ واهم من يحسب أنها تمثل الحقائق الواقعة، وإنما هي صورة منعكسة لرغباتنا، فالفيلسوف لا يضع المقدمات الصحيحة ثم يستنبط منه حكمته، ولكن الفكرة تنشأ وتتكون في ذهنه أولاً ثم يجيء بعد ذلك المنطق الذي يبررها.

فهذه الرغبات الغريزية المستترة وراء تلك الحجب الكثيفة من الأخلاق الظاهرة، هذه (إرادة القوة) هي التي توجه ميولنا وتكون آراءنا.

فالمنطق إذا ثوب رياء نخدع به أنفسنا، أو بعبارة خرى، تتخذ إرادة القوة من المنطق مبررا لأعمالها أمام العقل الإدراكي، ولكن الرجل القوى لا يحاول أن يستر إرادته وراء هذا الستار المنطقي الشفاف، الرجل القوي لا يعرف الا منطقا بسيطاً ينحصر في كلمتين، هما: (أنا أريد) ومتى أراد فلا حاجة إلى التماس المبررات، ولكن جاءت المسيحية فعكست الأوضاع الطبيعية، وأصبح الرجل القوي يستحي من قوته، ولابد له من البحث عن منطق لرغباته. وبذلك أخذت الأخلاق الأرستقراطية القوية الصالحة تذوي وتندثر، ونهضت قطعان الشعوب تقيم على أنقاضها صرحاً جديداً للأخلاق التي تلائم ضعفهم، وليس من سبيل إلى الشك في أنه إذا أرغمت أنوف الأقوياء، وأخذت السوقة تتبوأ مكان الزعامة من الإنسانية، فهي سائرة بخطى حثيثة إلى الدمار والفساد. ولسنا بحاجة إلى أن نقول إذا كانت الشفقة والرحمة والسلام خيراً، فليست الصراحة والعنف والحروب بأقل منها نفعا للمجتمع الإنساني: وبديهي أن هذه الأخلاق قد دافعت عن بقائها طوال العصور، ولم تبق الا لأنها نافعة وصالحة. ولولا أن (الشر) خير لاختفى من الوجود. فمن الحمق أن ننشد خيراً مطلقاً. بل لابد للأخلاق أن تتطور في الخير والشر على السواء، أي لابد للخير والشر أن يقفا جنبا إلى جنب، وأن يأخذ كل سبيله إلى الارتقاء.

السوبرمان

ما دامت الأخلاق تنزع إلى القوة في تطورها، فغرض الإنسانية لا يجوز أن يلتمس في السمو بالطبقات جميعا، وإنما يلتمس في تكوين نخبة صالحة؛ في تكوين السوبرمان،

ومن العبث أن ينصرف المجهود البشري نحو إسعاد السوقة. بل يجب أن يتجه بكل قوته نحو إبادة هذا النوع من البشر، وإيجاد نوع أعلى مرتبة في الأخلاق؛ وانه لخير للإنسانية ألف مرة أن تتلاشى وتندثر من الوجود إذا لم تكن سائرة نحو تحسين النوع والارتفاع به. فليس المجتمع غرضا في ذاته، إنما هو أداة لزيادة قوة الفرد ونمو شخصيته، وهذا الفرد القوي السامي هو السوبرمان. الذي يؤمل نيتشه أن يخرج من أحضان الإنسان الحالي، وهو لا يعتمد في ذلك على الانتخاب الطبيعي، بل يريد أن يتعمد تكوينه بوسائل التربية، لأنه لاحظ أن تطور الحياة الطبيعي لا يعمل على إيجاد الفرد القوي الممتاز، وأن الطبيعة أقسى ما تكون على خيرة أبنائها، فلا سبيل إلى السوبرمان إلا بالانتخاب الصناعي والأخذ بوسائل (اليوجنية) والتربية الكاملة، وهو يقترح لتحقيق ذلك أن نعني بزواج الرجال الأقوياء من نساء ذوات قوة ممتازة، حتى لا يكون الزواج لمجرد التكرار، بل أداة للتسامي،

فإذا ما أنتج ذلك الزواج نسلا، أعددنا له مدرسة خاصة تروضه على القسوة والعنف والجرأة والشجاعة، لا يتردد في تنفيذ أغراضه مهما اعترض سبيله من عقبات، غير عابئ بشر أو بخير، فليس الخير إلا ما يزيدنا شعورا بالقوة، وليس الشر الا ما تخور معه العزائم.

الأرستقراطية

الأرستقراطية وحدها هي الطريق إلى السوبرمان، فيجب أن نبحث الديمقراطية من أصولها، وأن نحطم في سبيل ذلك المبادئ المسيحية بأسرها لأنها والديمقراطية صنوان.

الديمقراطية معناها الدمار، معناها أن يتصرف كل جزء من الكل العضوي كيفما شاء، معناها التحلل والفوضى، معناها استخفاف بالعبقرية والنبوغ. معناها استحالة ظهور العظماء، إذ كيف يخضع العظيم لمهزلة الانتخابات، وهذه الشعوب تنبذ النفوس الكبيرة الحرة الجريئة نبذ الكلاب للذئب الجسور؟ نعم تنبذ النفوس الثائرة على القيود والعبادات، والتي لولاها لظلت الإنسانية حيث بدأت في ركود مميت. فكيف السبيل إلى استنبات السوبرمان في مثل هذه التربة الجدباء؟ كلا! لا سبيل إلى ذلك في مثل هذا المجتمع الذي يرفع على أكتافه رجل الأغلبية دون الرجل العبقري العظيم. في مثل هذا المجتمع الذي يحاول عبثا أن يسوي بين أفراد جعلتهم الطبيعة درجات بعضها فوق بعض.

وإذا كان نيتشه ينادي باقتلاع الديمقراطية وتحطيمها. فهو بالتالي يسخر من الاشتراكية لأنها وليدة الديمقراطية وربيبتها، فإذا كانت المساواة السياسية عدلاً، أفلا تكون المساواة الاقتصادية عدلا كذلك؟

لا! العدل أن لا مساواة بين الرجال، والطبيعة نفسها تأبى هذه المساواة وتسعى جهدها في تباين الأفراد والطبقات والأنواع.

الحوت الكبير يلتهم السمك الصغير، هذه سنة القوة وخلاصة الحياة؛ فلتكن كذلك سنة الإنسانية ومثلها الأعلى في الأخلاق بغير مواربة ولا رياء.

نقد

يدعو فردريك نيتشه الإنسان الحالي إلى الفناء والتضحية بنفسه في سبيل السوبرمان، ومن التناقض الظاهر أن يصدر عنه نداء بالتضحية في الوقت الذي يؤكد فيه أن الأخلاق القوية الصحيحة هي التي تدور حول الأنانية والاعتزاز بالنفس! كيف تريدني على إنكار نفسي وتمهيد الطريق لسواي، أستغفر الله بل تدعوني إلىإخلائها وتركها لمن هو خير مني، وفي هذا من الاستكانة والضعف ما يعود نيتشه فينكره أشد إنكار؛ ولم لا أثبت أنا في الميدان؟ ولم لا أكون أنا السوبرمان المنشود بعد إصلاح ما اعوج من طبيعتي؟ كذلك يريد نيتشه أن يقوض الأخلاق السائدة التي تعتمد على الرحمة والإيثار والعطف، ويقول أن ذلك خلقه الضعيف خلقا ليتقي به القوي وقسوته؛ وكم كنا نود أن نسأله كيف تغلب الضعيف حتى سادت آراؤه وأصبحت أخلاقا معترفا بها؟ وأين كانت الأرستقراطية القوية عندما شهرت صفوف الشعب في وجهها هذا السلاح الرهيب؟ الحق الذي لا شك فيه أن النزعات والأخلاق جميعا قد فرضها القوي على الضعيف

فرضا، فان كان بها من الوهن شيء، فلا يقع تبعته إلا على عاتق القوي الذي يروج لحكمه نيتشه.

بين كرامة الثقافة وضآلة المهنة

في العالم الأوربي والأميركي ملايين المثقفين الذين تلقي بهم المقادير مكرهين إلى المهن الضئيلة في غير رفق ولا رحمة، فلا يقال إن العلم بذلك قد أهينت كرامته وانتهكت حرمته، لأنهم يفهمون العلم على أنه سبيل الرجولة التي تدفع بصاحبها إلى الضرب في زحمة الحياة في غير ترددأوتبرم حتى يساهم في الإنتاج وقد أنف من أن يعيش حميلة على غيره. . أما نحن فنفهم العلم على أنه الوسيلة إلى المكاتب الفخمة والمراوح الجميلة والأبهة المرموقة والفخفخة المغبوطة، ولذلك أصبحت للعلم في مصر كرامة (محلية) خاصة بهذا البلد التعس ينبغي إن ذكرتها أن ترفق بها , وألا تشتد عليها وإلا فقد أدميتها بشدتك وآذيتها بقسوتك .!.

هذا الترفه في مظاهر الحياة آية الأمم عندما تدب إليها الشيخوخة ويمضي عهد شبابها. ولست أجد شاهدا على صدق هذا أعدل من الدولة الرومانية التي أصابت في عهد فتوتها من الغنى والثراء والأسرى ما أدخل الغرور إلى نفوس أبنائها، فمالواعن فلاحة الأرض واستثمارها، وجنحوا عن الاشتغال بالجندية إلى اللهو والترف، فلم يغن عنهم ما لهم وعبيدهم وفنونهم وآدابهم وقوانينهم وعلومهم. وارتج عرش دولتهم أمام القبائل المتوحشة من الصقلب والكلت والجرمان. وما لبث التاريخ أن شهد مصرع الدولة العظيمة ومجدها يتوارى، وعزها يغرب، وجلالها يميل إلى الانحدار .!.

نعلم أن من طبيعة المجتمع أن يحن إلى الكمال، وينزع إلى المثل الأعلى، ولا يقيم على حب (الواقع) فيطمح إلى ما ينبغي أن يكون. ولا أكاد أشك في أن المجتمع لا يسعه أن يحقق مثله الأعلى كما ينبغي أن يحقق إن ظلت المهن التافهة مقصورة على الأميين والجهلة. لأن جمودهم الذهني وظلامهم العقلي يحولان دون تطور هذه المهن وتدرجها إلى الكمال. وهكذا حدثنا تاريخ الزراعة في مصر. . شغل بها الجهلة ومال عنها المثقفون من طلاب الزراعة الذين انطلقوا كلما أتموا دراستهم يبحثون عن وظيفة يظفرون فيها بالمكتب والمروحة وما إليهما من راحة ونعيم. . فكانت النتيجة أن الفلاح المصري ما زال يستخدم من الآلات ما كان يستخدمه أجداد أجداده الأولين. ولو مارس المهنة المثقفون من طلاب الزراعة لتطورت على أيديهم وسارت إلى الكمال بين الحين والحين. وبدت آياتها في شتى مناحيها، ولكن هؤلاء قد جهلوا أن غاية العلم تنحصر في (خدمة المجتمع). ولست

في شك من أن السائح الذي يرى معالم النهوض تبدو في مصر واضحة في العمارة والعلم والفن والاقتصاد، ثم يشهد الانحطاط لذي يدب في مهنة الزراعة عندنا سيأخذه الذهول والعجب. . . إذا أردنا أن نحقق للمجتمع مثله الأعلى الذي ينشده ويحن إلى تحقيقه فلنعد إلى شتى طبقاته ونوجد بينها التعاون الفكري ليوجد التوازن في التطور الذي يعم الحياة ويسود مرافقها. . .

وأظن أن المجتمع يحسن إلى نفسه كثيرا إن هو غير نظرته إلى المهن التافهة، لأن الاحتقار الذي يصبه الناس عليها يباعد بينها وبين رغبة المثقفين في الاشتغال بها. . كان توماس كارليل يتغنى بالبطولة ويناشد الإنسانية عبادة أصحابها وإجلال شأنهم. فما تاريخ الإنسانية في زعمه الا تاريخ العظماء من أبنائها. .! ولكن سبنسر يقول إن البطل يبني عظمته على حساب من يبخل عليهم المجتمع باحترامه. . فمن جهاد الجندي المسكين استعار القائد عظمته ومن شقوة العامل المعذب استمد الثري راحته. فمن الظلم والجور أن نقول أن تاريخ الإنسانية بأسرها تاريخ العظماء من أفرادها. .

ولكن الإنسانية قد بدأت تكفر عن سيئاتها حين هبت تحيي الجندي المجهول (في ميدان الحرب) وترفع من شأنه وتجل من ذكره، وقد بقي عليها أن تمضي إلى إجلال الجندي المجهول في ميدان السلم، إذ ما زالت تعيش على عرق جبينه في الكثير من مناحي حياتها. وأكبر ظني أن هذا الإجلال الذي سيظفر به الجندي المجهول قبل أن يواريه التراب خير ما يمهد للمثقفين الطريق إلى الاشتغال بالمهن الضئيلة.

تساءل صاموبل سمايلز: أيهما يخفض أو يرفع من شأن الآخر: المهنة أم الإنسان. .؟ إنما يرفع من شأن المهنة التافهة ناضج الفكر سليم العقل، وكأنما تستعير المهنة من جلاله جلالة، ومن رهبة مكانته قداسة. . وهذا بالإضافة إلى نتاجها الذي سيربو ويزداد

على يديه. . واعتبر عكس هذا في المهن الرفيعة العالية يوم يشغلها من ليس أهلا لها.
ولا ينبغي أن نخشى على عبقرية المثقفين أن تنزوي وتفنى في تفاهة المهنة، فان العبقرية الصحيحة لا تستكين لظلم الزمان ولا تخضع لحكم القدر، وان آياتها لتبدو وتلوح ولو كرهت ظروف صاحبها وعملت على طمس معالمها. . فاتركوا المثقفين يعملوا ويضربوا في زحمة الحياة حيثما ألقت بهم المقادير، والجهاد خير محك للعبقرية وأصدق ميزان لها.

توفيق الطويل

في الأدب العربي

العوامل المؤثرة في الأدب

2

ومن العوامل المؤثرة في الأدب الأديان وما يتصل بها من الأخلاق والمعتقدات، وتأثير الأديان في الأدب أمر ثابت بأدلة الطبع والسمع فأنها تخلق موضوعات جديدة لمصنفات جديدة. وتؤثر في الأخلاق والعواطف تأثيرا يتردد صداه في مناحي الأدب. على أن تأثيرها الذي يعنينا الآن هو إيجادها لأنواع خاصة من النظم والنثر، فان بنى الإنسان منذ أفزعتهم تهاويل الطبيعة وأدهشتهم تعاجيب الفلك أحسوا بقوة القوى فألهوها كما فعل اليونان والهنود، أو نسبوا الأعاجيب الممتعة الخيرة لمبدأ، والتهاويل المفزعة الشريرة إلى مبدأ آخر كما فعل الإيرانيون الأقدمون، ثم امتلأت نفوسهم بجلالها وجمالها وعظمتها ففاضت على ألسنتهم بالأناشيد والصلوات، فكان من ذلك الشعر الديني وهو مبدأ كل شعر في كل أمة، ومن أقدمه أناشيد (رع) عند المصريين، وأناشيد (فيدا) عند الهند البرهميين، وأناشيد (جالا) عند الإيرانيين، وأناشيد (أرفيه) عند اليونانيين، وسفر أيوب عند العرب.

وعندي أن الشعر العربي لم ينشأ في الصحراء على ظهور الإبل وإنما نشأ كذلك في المعابد العربية أبان انفصال العرب عن الأسرة السامية الأولى، فظهر على ألسنة الكهان باسم السجع ومن أقدمه سفر أيوب على أرجح الآراء. وربما عدت إلى بسط هذا الرأي في فرصة أخرى.

وتأثير الأديان في الآداب غير متحد ولا متشابه لاختلاف العقول في إدراك هذه القوة الخفية، فاليونان قد عددوا آلهتهم وجسدوها على صور البشر، ونسبوا إليها ما للإنسان من كرم ولؤم وغضب وحلم وحرب وسلم وعفة ودعارة وزواج ولذة، ولم يميزوهم من الناس الا بالقوة والخلود. لذلك كان شعرهم الديني في الآلهة أشبه بشعرهم الدنيوي في الملوك: يصف الخوارق والعظائم والقوة، ولا ينم عن رحمة الخالق وخشوع المخلوق، ولا يدل على الرجاء الذي يبعث على الطاعة، ولا على الخوف الذي يردع عن المعصية.

أما بنو إسرائيل فقد وحدوا الله وبرءوه من النقص، ونزهوه عن المثل وملئوا صدورهم بهيبته وعزته وجلالته، فكان شعرهم في ذاته العليا فياضاً بالتقديس والإجلال والابتهال والاتكال وللبكاء والرجاء والخوف. كذلك يختلف تأثير الدين الواحد في الأدب باختلاف الأزمان والبلدان وطبقات الناس ونظام الحكم، فان في كل دين من الأديان السماوية قسما وجدانيا اجتهاديا يختلف أبناؤه في فهمه اختلافهم في الطبائع والمنازع والغاية. فأشعار الخوارج مثلا تنضح بالدماء وتطفح بالحماسة لتعصبهم وتصلبهم وجعلهم غاية الإسلام جهاد مخالفيهم في الرأي، وأشعار الشيعة تفيض بإجلال زوج البتول وصهر الرسول وتمجيد ذكرى بنيه وتمثيل آلامهم، ورثاء من قتل من أعلامهم. وأشعار الصوفيين تصف مقاماتهم وتذكر إشاراتهم وتكثر من الكناية بالخمر والسكر والعشق والعبق عن شدة تعلقهم بالله. ولا يقتصر تأثير الأديان على النظم وإنما يؤثر كذلك في النثر، فلولاها لما كانت النبوءات عند الإسرائيليين، ولا التعازي عند الفرس، ولا خطب المنابر ومقامات الوعظ عند المسلمين والمسيحيين.

ومنها: العلوم النظرية والتجريبية. وتأثيرها العام في ترقية العقل وتقوية الشعور وتنمية الصور لا يحتاج إلى تمثيل ولا تدليل، ولكن لها تأثيراً خاصاً في خلق أنواع طريفة من الآداب كالشعر التعليمي مثلا وهو نوع من الشعر يجمع بين رشاقة اللفظ ولطف التخيل وجودة الوصف ودقة البحث وحقائق العلم. وتراه في الآداب الأجنبية القديمة والحديثة أرفع وأمتع منه في الآداب العربية، فان من الغضاضة على الفن والإساءة إلى

الذوق أن ندخل فيه منظومة ابن عبد ربه في التاريخ، وألفية ابن مالك في النحو. وقد استحدث اليونان في النثر المحاورات الفلسفية كمحاورات أفلاطون، وهي نوع طريف من الأدب الإغريقي قلده شيشرون في محاوراته في الأخلاق والفلسفة والبلاغة. كذلك احدث انتشار العلوم نوعا من القصص الخيالية تمتزج فيها حقائق العلم بروعة الخيال وغرابة الحوادث تحقيقا لرأي من الآراء أو تشويقا لعلم من العلوم كما فعل الفرنسيان فلا مريون الفلكي وجول فيرن القصصي. وكما صنع من قبلهما أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل الأندلسي في رسالة حي بن يقظان، فقد أراد بوضع هذه القصة أن يشرح كيف يستطيع الإنسان بمجرد عقله أن يتدرج من المحسوسات البسيطة إلى أسمى النظريات العلية، ولكنه يعجز عن إدراك أرقى الحقائق بغير وحي من الله أو هداية من نبي، ثم كان من نفاق العلوم التاريخية في صدر القرن التاسع عشر، وميل الجمهور إلى دراسة الماضي، أن ظهر في إنجلترا

القصص التاريخي، ابتدعه الكاتب الإنجليزي (ولترسكوت) واقتفاه في فرنسا (الفريد دفني) في رواية خمسة مارس. وفي ألمانيا (جورج ايسبرس) في قصته المصرية وردة. وفي مصر جرجي زيدان في رواياته الإسلامية. وللعلوم فضل ظاهر على اللغة في المادة والاسلوب، وأثر قوي في ترقية النثر خاصة لأنها تكسبه القوة والدقة والوضوح. وما ارتقى النثر في أمة من الأمم إلا بعد تقدمها في الحضارة ورقيها في العلم، لأن النثر لغة العقل كما ان الشعر لغة الخيال. فالنثر اليوناني لم يرق الا بعد عصر هوميروس بأربعة قرون حين دون تاريخ توسيديد ومحاورات أفلاطون وخطب ديمستين. والنثر العربي لم يرق الا أوائل الدولة العباسية على يد ابن المقفع، والنثر الفرنسي لم يرق الا بتأثير الفلاسفة والرياضيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر كبسكال وديكارت.

ومن تلك العوامل: أحوال السياسة الداخلية، فإن لمدها وجزرها، ولانتقاض حبلها أو أتساق أمرها، أثراً بالغا في فنون الآداب يختلف باختلاف حاله.

ففي خلافة معاوية مثلا انتشر الهجاء المقذع في العراق، وفاضت بحور الغزل الرقيق في الحجاز، وما علة ذلك إلا سياسة هذا الخليفة، فقد كان يخشى العراق على عرشه الواهي الدعائم، فساسه بالتفريق وإحياء العصبية وإذكاء التنافس بين الشعراء والقبائل ليشغل الناس عن الخصومة في خلافته بالخصومة في أمر جرير والفرزدق والأخطل، وكان يستوحش من ناحية الحجاز فاعتقل شباب الهاشميين في مدنه، وسلط عليهم الترف وشغلهم بالمال وخلى بينهم وبين الفراغ فعكفوا على اللهو والصبابة والغزل. وبعد خلافة المتوكل العباسي ازدهر الأدب العربي وازداد ابتكارا وانتشارا وكثرة. وعلة ذلك السياسة أيضا، فان الخلافة العباسية قد انتقض حبلها في أواخر عهد المأمون وانصدع شملها في عهد المتوكل باستقلال الولاة في فارس والشام ومصر والمغرب. فكان ضعف السياسة قوة للأدب لأن الشعراء والأدباء والعلماء بعد أن كانوا مكدسين في بغداد لا يريمون عنها تفرقوا في الممالك الجديدة فوجدوا من أمرائها وأجوائها ما ساعدهم على وفرة الإنتاج ورفع شأن الأدب. وللأحوال السياسية كذلك أثر في خلق فنون جديدة من الأدب أو ترقية ما كان منها، ومثل ذلك النوع الذي يسميه الفرنج بالخطابة السياسية كالخطب الرائعة التي ألقاها ديمستين في مجالس اليونان العامة حين كان فيلبس ملك مقدونيا يتربص بحرية أثينا وسلامتها ريب المنون، وكتلك التي ألقاها شيشرون في مجالس الأعيان دفاعا عن شؤون الجمهورية الرومانية، وقد نفق هذا النوع في مصر الحديثة على لسان الزعيمين الكبيرين مصطفى باشا كامل وسعد باشا زغلول، وهذا الفن وليد الحرية السياسية والحياة الديمقراطية والأنظمة الدستورية. فإذا منيت الشعوب بالاستعباد أو طغيان الاستبداد تلاشى وانقرض، كما تلاشى في اليونان حينما وقعوا في العبودية، وانقرض عند الرومان حين فدحهم طغيان القياصرة، وهناك الشعر السياسي أيضا كالشعر الذي كانت تصطنعه الأحزاب والفرق في صدر الدولة الإسلامية. ومن ذا الذي ينسى فيضان بحور الشعر وطغيانها في بغداد ودمشق حين أعلن الدستور العثماني؟ لقد كان الظلام ضاربا على العيون، والجهل غالبا على الافئدة، والجمود مستوليا على العواطف، وقوى العرب المنتجة معطلة، وأياديهم العاملة مغللة، فكان إعلان الدستور بسمة الأمل في قطوب اليأس، وومضة المنارة في بحر مكفهر الجو بالضباب مضطرب الموج

بالعواصف، فاهتزت النفوس وانطلقت الألسن وصدحت البلابل تنعى الليل وتبشر العيون بالصباح.

كذلك من هذه العوامل اختلاط الأجناس المختلفة العقليات والعادات والاعتقادات بالمصاهر والمجاورة في أمة واحدة، وأثر هذا العامل أظهر ما يكون في دولة العباسيين في بغداد ودولة الأمويين في قرطبة، فان حضارتيهما نتيجة اختلاط شعوب مختلفة لكل شعب منها خصائص ومزايا أكملت نقص الآخر وساعدته على العمل والإنتاج ففي البلدين اتصلت المدنية السامية بالمدنية الآرية فالتقى التصور العميق بالتصوير القوي، والعقلية العلمية بالوجدان الشعري، وكان من أثر هذا اللقاح في الفكر والعقل ما يعلل لنا وفرة المعاني الجديدة في شعر بشار وأبي نواس وأبي العتاهية وابن الرومي. ولولا هذا اللقاح المخصب العجيب لظل الأدب العربي ظامئ الجذوع دقيق الفروع ذابل الأوراق واحد المذاق قليل الثمر.

ومنها التقليد والاحتذاء، والتقليد فطري في الإنسان لا يستطيع بدونه أن يتكلم ولا أن يتعلم ولا يملك لنفسه اكتساب عادة ولا تربية خلق، ولولا الاحتذاء لما كانت فنون الآداب، لأن الشعر والنثر إنما يصاغان على قواعد وأساليب خاصة. وما مراعاة هذه القواعد والأساليب إلا اقتداء الأديب بمن سبقه سواءً أكان إقتداؤه مقصودا منه أم غريزيا فيه.

على أن التقليد الذي نقصد إليه هنا هو تقليد أمة لأخرى لشدة ارتباطها بها، أو لاعتقادها السمو في آدابها، وقد أشرت منذ هنيهة إلى مثال من ذلك وهو ظهور القصص التاريخية في إنجلترا وانتقالها إلى الأمم الأخرى بالاحتذاء، ولقد كان للتقليد في الآداب القديمة شأن نابه وأثر ظاهر. فالشعر اللاتيني في عصر أغسطس عاف أساليبه الفطرية وأوزانه القديمة، واغترف من بحور الشعر اليوناني فحاكاه في أوزانه وأنواعه ومعانيه، والأدب الفرنسي قبل (رنسار) و (ماليرب) كان حائراً بين اللاتينية والإغريقية، والتمثيل إنما نشأ بديا في كنائس رومية وباريس أثناء القرون الوسيطة لتمثيل صلب المسيح وآلام الشهداء الذين أوذوا وقتلوا في سبيل المسيحية على نحو ما يفعل الفرس من تمثيل ما أصاب أهل البيت من الخطوب والاضطهاد والمحن، ثم انتشر التمثيل بالتقليد في سائر الأمم. ولما حييت الآداب اليونانية واللاتينية واطلع أدباء الغرب على ما صنف فيهما من الروايات التمثيلية تهافتوا على تقليدها واقتباسها فدخل فن التمثيل من جراء ذلك في طور جديد. ولو شاء الله لأدبنا الكمال من نقصه لألهم المترجمين في عصر المأمون أن ينقلوا روائع الأدبين الإغريقي واللاتيني من الشعر والقصص والروايات والخطب والملاحم كما نقلوا العلم والحكمة، إذن لقلدهم أدباء العرب في ذلك ولسدوا في الأدب العربي خللا ما بريء منه حتى اليوم. إنما استفادالأدب العربي من التقليد في فن الحكايات والأمثال حين ترجم ابن المقفع وبعض الكتاب شيئا من القصص الفارسي ككليلة ودمنة وهزار افسانه ودارا والصنم الذهب، فكان ما ترجموه حديا للعرب ونموذجا لهم في وضع ما وضعوه منها.

أما الأدب الفارسي والأدب التركي فهما صنيعة التقليد ونفحة من نفحات الأدب العربي، فان الفرس حينما استولى الإسلام على أفئدتهم ولغته على ألسنتهم ظلوا زهاء قرنين يقرضون الشعر بالعربية دون الفارسية. فلما هبوا في القرن الثالث يستردون مجد أجدادهم، ويطاردون العربية ونفوذها من بلادهم، ويوحون إلى شعرائهم من أمثال الدقيقي والفردوسي أن يجددوا مفاخر الأسلاف بتأليف المنظومات القصصية والأناشيد القومية لم يجدوا ذلك ميسورا إلا باحتذاء الشعر العربي واقتباس أوزانه وبديعه وكذلك فعلوا في النثر فقد أخذوا يوشونه منذ أوائل القرن الخامس برشيق الألفاظ وغريب المجاز وزخرف البديع اقتداء بما نشر في أقاليم العجم الشمالية الشرقية من الكتب التاريخية العربية التي كتبت بالسجع المونق ككتاب اليميني الذي ألفه أبو نصر العتبي للسلطان محمود الغزنوي.

وأما الأتراك العثمانيون فانهم حين أخذوا يدونون أشعارهم في أوائل القرن الثامن اقتبسوا من الفرس بعض الأوزان العربية مدداً لأوزانهم القديمة، ولكنهم ابتداءً من القرن التاسع أغفلوا أوزانهم واصطنعوا العروض الفارسي فجروا علىمناهجه وفنونه. وظل الأدب التركي صورة من الأدب الفارسي يترسم خطاه ويردد صداه حتى منتصف القرن الماضي حين هب الوزير ضيا باشا المتوفى سنة 1295 للهجرة يقوض دعائم

الشعر القديم وينعى على الشعراء ما هم فيه من جمود وقصور ورق، فانضوى إليه رهط من الشعراء المجددين ككمال يكن وأكرم بك وناجي أفندي فأنقذوا أدبهم من سخف التقليد، وقووه بالابتكار والتجديد، هذا مثل من التقليد العاجز الذليل الأعمى. أما التقليد البصير القوي المستقل فهو الذي يهذب أدبنا اليوم ويتمم نقصه، فالأقصوصة والقصة والرواية، والأسلوب المهذب والفن التمثيلي، كل أولئك قد أخذ بفضل تقليد الفرنج ينبت في حقوله، ويضيف فصولا خالدة على فصوله.

هذه هي أقوى العوامل التي تؤثر في الآداب على اختلاف لغاتها، وهي تعمل أما مجتمعة وأما منفردة، والواجب على مؤرخ الآداب أن يحلل ما تركب من أفعالها المتنوعة كما يحلل العالم بالميكانيكا القوة الناتجة ثم يردها إلى القوى البسيطة الفاعلة. وهيهات أن يقف الأديب على هذه العوامل ما لم يكن المؤرخ في عونه، ولا يتسنى للمؤرخ أدراك كنهها الا بالاستقصاء البالغ والبحث الشديد في أحوال الشعب الذي يدرسه ويؤرخه. وكل تعليل لأطوار الأدب وظواهره قبل دراسة هذه العوامل ضرب من التخرص لا يطمئن عليه القلب.

البيروني

سخاو . .(إنه أكبر عقلية عرفها التاريخ في كل عصوره)

تمهيد:

قرأت في العدد الأول من الرسالة في مقالة (حلقة مفقودة للأستاذ أحمد أمين) ما يلي:

وبالأمس كنت أتحدث إلى طائفة من المتعلمين عن البيروني العالم الإسلامي) الرياضي المتوفى سنة 440هـ وما كشف من نظريات رياضية وفلكية، وأن المستشرق الألماني (سخاو) يقرر انه أكبر عقلية عرفها التاريخ في كل عصوره وانه يدعو إلى تأليف جمعية لتمجيده وإحياء ذكره تسمى جمعية البيروني. فحدثني أكثرهم أنه لم يسمع بهذا الاسم ولم يصادفه في جميع قراءاته، وهو يعرف عن ديكارت وبيكون وهيوم وجون ستوارت مل كثيراً ولكنه لا يعرف شيئا عن فلاسفة الإسلام).

عند قراءة هذه القطعة تبادر إلى ذهني أمران: أولاً روح الإنصاف عند بعض علماء الفرنج، ثانياً جهل المتعلمين منا بفلاسفة الإسلام والعرب وفحول علمائهم. . . أما الأمر الأول فليس بغريب على رجل سيطرت عليه روح العلم الصحيحة التي لا تعرف غير توخي الحقيقة أن يجاهر بما يعتقد حتى ولو كان ما يجاهر به مما لا يسر أبناء وطنه، على حين أننا نجد بعض علماء الغرب قد أغار على الكتب العربية وادعى ما فيها لنفسه، وبعضهم لم يذكر المصادر العربية التي اعتمد عليها أو نقل عنها، وقد أتينا بأمثلة على ذلك وعلى أن العرب سبقوا الفرنج إلى اكتشاف بعض النظريات والأبحاث الرياضية في مقالات نشرناها في مجلة المقتطف الغراء.

وأما الأمر الثاني فقد يكون لدى هؤلاء المتعلمين مبرر ولا سيما أن تاريخ بعض رجالنا السالفين قد أحيط بسحب كثيفة من الإبهام، وفقد البعض الآخر منه، وكان لكسلنا وخمولنا الأثر الأكبر في إهمال نوابغ العرب وتبيان مآثرهم في مختلف فروع المعرفة، ولكن مما لا شك فيه أن هذا التبرير حجة علينا ومن واجبنا بل من دعائم نهضتنا القومية أن نتولى أمر الكشف عن حقيقة رجالنا ومآثرهم بأنفسنا، وبذلك (وعلى الأقل) نضع حدا لادعاءات بعض المتعصبين وبعض المتفرنجين منا الذين يزعمون أن العرب لم يكونوا مخترعين مستنبطين، وانهم لم يكونوا الا نقلة عن غيرهم. وقد عنيت بوضع كتاب يبحث في أثر العرب على العلوم الرياضية وما أخذه الغربيون من هذه العلوم، وتأثير ذلك في تقدمها. والمقالة التالية مجمل من ترجمة نابغة من نوابغ العلماء المسلمين قال عنه سخاو: (انه اكبر عقلية عرفها التاريخ في كل عصوره).

مولده ومنشؤه

هو محمد بن أحمد أبو الريحان البيروني الخوارزمي أحد مشاهير رياضيي القرن الرابع للهجرة ومن الذين جابوا الأقطار ابتغاء البحث والتنقيب. ولد أبو الريحان في خوارزم عام 362هـ - 873م ويقال أنه اضطر أن يغادر مدينة خوارزم على أثر حادث عظيم إلى محل في شمالها اسمه (كوركانج) وبعد مدة تركه وذهب إلى مقاطعة جرجان حيث التحق بشمس المعاني قابوس أحد أحفاد بني زياد وملوك وشمكير، ثم عاد إلى

كوركانج وتمكن بدهائه أن يصبح ذا مقام عظيم لدى بني مأمون ملوك خوارزم. وبعد أن استولى سبكتكين على جميع خوارزم ترك أبو الريحان كوركانج وذهب إلى الهند فبقي مدة طويلة (ويقال انه سافر فيها أربعين سنة) يجوب البلدان ويقوم بأبحاث علمية كان لها تأثير في تقدم بعض العلوم. وقد استفاد البيروني من فتوح الغزنويين في الهند وتمكن من القيام بأعمال جليلة؛ فانه استطاع أن يجمع معلومات صحيحة عن الهند، ويلم شتات كثير من علومها ومعارفها القديمة. وأخيرا رجع إلى غزنة ومنها إلى خوارزم ولم يعرف بالضبط تاريخ وفاته. وإنما الراجح أنه توفي سنة 440 هجرية - 1048 ميلادية.

تنقلاته العلمية ومآثره:

كان البيروني رياضيا وفلكيا وطبيباً ومؤرخا وجغرافيا. وهو أبرز شخصية بين علماء عصره الذين بفضلهم كان للعرب عصر ذهبي تقدمت فيه العلوم تقدمها المعروف. قرأ فلسفة الهند وله فيها وفي الرياضيات والفلك مؤلفات كثيرة، وهو من أوسع علماء الإسلام اطلاعا على آداب الهند وعلومها ويقال انه ضرب بسهم وافر في الجغرافيا حتى أن أبا الفداء كان يعتمد أحياناً في أبحاثه الجغرافية على كتب أبي الريحان. قال سيديو: إن أبا الريحان (اكتسب معلوماته المدرسية البغدادية ثم نزل بين الهنود حين أحضره الغزنوي فأخذ يستفيد منهم الروايات الهندية المحفوظة لديهم قديمة أو حديثة، ويفيدهم استكشاف أبناء
وطنه ويبثها لهم في كل جهة مر بها، وألف لهم ملخصات من كتب هندية وعربية، وكان مشيرا وصديقا للغزنوي استعد حين أحضره بديوانه لإصلاح الغلطات الباقية في حساب بلاد الروم والسند وما وراء النهر. وعمل قانوناً جغرافياً كان أساسا لأكثر القسموغرافيات المشرقية؛ نفذ كلامه مدة في البلاد المشرقية ولذا استند إلى قوله سائر المشرقيين في الفلكيات، واستمد منه أبو الفداء الجغرافيا في جداول الأطوال والعروض وكذا أبو الحسن المراكشي. . .) ويعترف
في الجزء الأول من كتابه تاريخ الرياضيات أن البيروني كان ألمع علماء زمانه (سمث) في الرياضيات، وان الغربيين مدينون لكتبه في معلوماتهم عن الهند وعلومها الرياضية، والبيروني ذو مواهب جديرة بالاعتبار، فقد كان يحسن السريانية والسنسكريتية والفارسية والعبرية عدا العربية، وفي أثناء إقامته بالهند كان يعلم الفلسفة اليونانية ويتعلم هو بدوره الهندية، ويقال انه كان بينه وبين ابن سينا مكاتبات في أبحاث مختلفة ورد أكثرها في كتب ابن سينا. وكان يكتب كتبه مختصرة منقحة بأسلوب مقنع وبراهين مادية. لكنه لم يتعد أن يوضح القوانين الحسابية بأمثلة ما، قال البيروني عن الترقيم في الهند: إن صور الحروف وأرقام الحساب تختلف باختلاف المحلات، وان العرب أخذوا أحسن ما عندهم (أي عند الهنود) والقطعة التي قالها في ذلك هي لدينا ولا مجال لذكرها الآن. وهو من الذين بحثوا في تقسيم الزاوية إلى ثلاثة أقسام متساوية، وكان ملما بعلم المثلثات وكتبه فيه تدل على أنه عرف قانون تناسب الجيوب. ويقال انه وبعض معاصريه عملوا الجداول الرياضية (للجيب والظل) وقد اعتمدوا في ذلك على جداول أبي الوفاء البوزجاني.

وعمل البيروني تجربة لحساب الوزن النوعي، واستعمل في ذلك وعاء مصبه متجه إلى أسفل، ومن وزن الجسم بالهواء والماء تمكن من معرفة مقدار الماء المزاح، ومن هذا الأخير ووزن الجسم بالهواء حسب الوزن النوعي، واستطاع أن يجد الوزن النوعي لثمانية عشر عنصراً ومركباً بعضها من الأحجار الكريمة، وله أيضا كتاب في خواص عدد كبير من العناصر والجواهر وفوائدها التجارية والطبية، وهو وابن سينا من الذين شاركوا ابن الهيثم في رأيه القائل بأن شعاع النور يأتي من الجسم المرئي إلى العين.

مؤلفاته

من اشهر مؤلفات البيروني التي وصلت إلى أيدي العلماء كتاب (الآثار الباقية عن القرون الخالية) وهذا الكتاب يبحث فيما هو الشهر واليوم والسنة عند مختلف الأمم القديمة من آشوريين ويونانيين إلى وقت البيروني، وكذلك في التقاويم وما أصاب ذلك من التعديل والتغيير وفيه جداول تفصيلية للأشهر الفارسية والعبرية والرومية والهندية والتركية تبين كيفية استخراج التواريخ بعضها من بعض، وتجد فيه أيضا جداول لملوك آشور وبابل والكلدان والقبط واليونان قبل النصرانية وبعدها، ولملوك الفرس قبل

الإسلام على اختلاف طبقاتهم. ولم يقتصر الكتاب على ذلك بل بحث في المتنبئين وأممهم من أهل الأوثان وأهل البدع في الإسلام، وغير ذلك من الموضوعات التي يتعلق بالأقباط وأعيادهم، وأعياد النصارى على اختلاف طوائفهم. . .

يقول كشف الظنون عن هذا الكتاب: (إنه كتاب مفيد، ألفه لشمس المعالي قابوس وبين فيه التواريخ التي تستعملها الأمم. . .) ومنه أيضا يستدل على أن البيروني أول من استنبط تسطيح الكرة. وقد فصل ذلك في كتابه المذكور الذي يدل أيضا على أن له استنباطات جليلة في الفلك والرياضيات، وقد ترجم (سخاو) الآثار الباقية المذكورة إلى الإنكليزية، وطبع عام 1879م في لندن، وله كتاب تاريخ الهند، وقد ترجمه أيضا سخاو إلى الإنكليزية وطبع الأصل في لندن سنة 1887م والترجمة فيها سنة 1888م، وفيه تناول البيروني لغة أهل الهند وعاداتهم وعلومهم.

واعتمد عليه (سمث) وغيره من المؤلفين عند بحثهم في رياضيات الهند والعرب، وله كتاب تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة وقد ترجم إلى الإنكليزية عام 1887م، وكتاب مقاليد علم الهيئة ما يحدث في بسيط الكرة. وفي هذا الكتاب بحث في (شكل الظل) اعترف فيه بان (الفضل في استنباط الشكل الظلي لأبي الوفاء بلا تنازع من غيره)، وقد كنا نشرنا هذا في مقالنا عن البوزجاني في مجلة المقتطف. وجاء أبو الريحاني في بعض كتبه على ذكر قسم من الكتب القيمة التي دخلت في زمن العباسيين والتي كان لها اثر كبير في تقدم علوم الفلك والرياضيات، فقد أتى ذكر على المقالتين اللتين حملهما أحد الهنود إلى بغداد في منتصف القرن الثاني للهجرة، فالمقالة الأولى في الرياضيات والثانية في الفلك، وبواسطة الأولى دخلت الأرقام الهندية إلى العربية واتخذت أساسا للعدد،

والثانية اسمها (سدها نتا) التي عرفت فيما بعد باسم كتاب (السند هند) ترجمها إبراهيم الفزاري وكان نقلها بداءة عصر جديد في دراسة هذا العلم عند العرب. مما مر نستنتج أن البيروني كتب في تاريخ الرياضيات عند الهنود والعرب. ولولاه لكان هذا الموضوع اكثر غموضا مما هو عليه الآن، كما إن أكثر الكتب الحديثة التي تبحث فيه (في الرياضيات عند الهنود والعرب) تعتمد في الأغلب على كتبه كما يتضح لمن يتصفح كتب تاريخ العلوم الرياضية. وله مؤلفات أخرى يربى عددها على المائة والعشرين، منها: كتاب القانون المسعودي في الهيئة والنجوم، وقد ألفه لمسعود بن محمود الغزنوي، وكتاب استيعاب الوجوه الممكنة في صنعة الإسطرلاب، وكتاب استخراج الأوتار في الدائرة بخواص الخط المنحني فيها، وهو مسائل هندسية أدخل فيها طريقته التي ابتكرها في حل بعض الأعمال، وكتاب العمل بالإسطرلاب، ومقالة التحليل والتقطيع للتعديل، وكتاب جمع الطرق السائرة في معرفة أوتار الدائرة وكتاب جلاء الأذهان في زيج البتاني، وكتاب التطبيق إلى تحقيق حركة الشمس، وكتاب في تحقيق منازل القمر. وتمهيد المستقر لتحقيق معنى الممر، وكتاب ترجمة ما في براهم سدهانه من طرق الحساب، وكتاب كيفية رسوم الهند في تعلم الحساب، وكتاب استشهاد باختلاف الأرصاد، وقد ألفه البيروني لأن أهل الرصد عجزوا عن ضبط أجزاء الدائرة العظمى بأجزاء الدائرة الصغرى، وكتاب الصيدلة في الطب (استقصى فيه معرفة ماهيات الأدوية ومعرفة أسمائها واختلاف آراء المتقدمين فيها وما تكلم كل واحد من الأطباء وغيرهم فيه، وقد رتبه على حروف المعجم)، وكتاب الإرشاد في أحكام النجوم، وكتاب في إفراد المقال في أمر الظلام، وكتاب تكميل زيج حبش بالعلل وتهذيب أعماله من الزلل، وكتاب الجماهر في معرفة الجواهر، ومقالة في نقل ضواحي الشكل القطاع إلى ما يغني عنه، وكتاب تكميل صناعة التسطيح، وله كتاب التفهيم لأوائل صناعة التنجيم، وهذا الكتاب لم يطبع بعد ولابد ان تكون بعض نسخ خطية منه موجودة في المكاتب الأوربية والمصرية، وهو لدينا في نسخة خطية نسخت منذ تسعين سنة عن نسخة قديمة، وهو يبحث في الهندسة والحساب والعدد ثم هيئة العالم ثم أحكام النجوم وذلك (لأن الإنسان لا يستحق سمة التنجيم الا باستيفاء هذه الفنون الأربعة)، وقد ألفه على طريقة السؤال والجواب ولغته سهلة سلسلة، ونترك التفصيل عنه الآن لكتابنا الذي نؤلفه.

نابلس. فلسطين. قدري حافظ طوقان

من طرائف الشعر
الشاعر والسلطان الجائر
للأستاذ إيليا أبو ماضي
أمر السلطان بالشاعر يوما فاتاه
في كساء حائل الصبغة واه جانباه
وحذاء أوشكت تفلت منه أخمصاه
قال: صف جاهي، ففي وصفك لي للشعر جاه.
ان لي القصر الذي لا تبلغ الطير ذراه
ولي الروض الذي يعبق بالمسك ثراه
ولي الجيش الذي ترشح بالموت ظباه
ولي الغابات، والشم الرواسي، والمياه
ولي الناس، وبؤس الناس مني والرفاه
!!إن هذا الكون ملكي. . أنا في الكون اله
ضحك الشاعر مما سمعته أذناه
وتمنى أن يداجي فعصته شفتاه
قال: أني لا أرى الأمر كما أنت تراه
إن ملكي قد طوى ملكك عني ومحاه
القصر، ينبئ عن مهارة شاعر ... لبق، ويخبر بعده عنكا
هو للآلي يدرون كنه جماله ... فإذا مضوا فكأنه دكا
ستزول أنت ولا يزول جلاله ... كالفلك تبقى إن خلت فلكا
!أنا من حواه بعينه وبلبه ... ولئن حواك وحزته صكا
والروض؟ إن الروض صنعة شاعر ... سمح طروب رائق جزل
وشى حواشيه وزين أرضه ... بروائع الألوان والظل
لفراشة تحيا له، ولنحلة ... تحيا به، ولشاعر مثلي
ولبلبل غرد يساجل بلبلا ... غردا، وللنسمات والطل
ولديمة تذري عليه دموعها ... كيما تقيه غوائل المحل
فإذا مضى زمن الربيع أضعته ... وأقام في قلبي وفي عقلي
والجيش معقود لواؤك فوقه ... ما دمت تكسوه وتطعمه
للخبز طاعته وحسن ولائه ... هو (لاته الكبرى) (وبرهمه)
فإذا يجوع بظل عرشك ليلة ... فهو الذي بيديه يحطمه
لك منه أسيفه ولكن في غد ... لسواك أسيفه وأسهمه
أتراه سار إلى الوغى متهللا ... لولا الذي الشعراء تنظمه؟
وإذا ترنم هل بغير قصيدة ... من شاعر مثلى ترنمه؟
والبحر. . قد ظفرت يداك بدره ... وحصاه. . لكن هل ملكت هديره؟
أمرجت أنت مياهه؟
أصبغت أنت رماله؟
أجبلت أنت صخوره؟
هو للدجى يلقى عليه خشوعه ... والصبح يسكب وهو يضحك نوره
هو للرياح تهزه وتثيره ... والشهب تسمع في الظلام زئيره
للطير هائمة به مفتونة ... لا للذين يروعون طيوره
للشاعر المفتون يخلق لاهيا ... من موجه حوراً، ويعشق حوره
ولمن يشاهد فيه رمز كيانه ... ولمن يجيد لغيره تصويره
يا من يصيد الدر من أعماقه ... أخذت يداك من الجليل حقيره
لا تدعيه. . فليس يملك، أنه ... كالروض جهدك أن تشم عبيره
ومررت بالجبل الأشم - فما زوى ... عني محاسنه، ولست أميرا
ومررت أنت فما رأيت صخوره ... ضحكت ولا رقصت لديك حبورا
ولقد نقلت لنملة ما تدعي ... فتعجبت مما حكيت كثيرا
قالت: صديقك ما يكون؟ أقشعماً؟ ... أم أرقم؟ أم ضيغماً هيصورا؟

أيحوك مثل العنكبوت بيوته؟ ... حوكا؟ ويبني كالنشور وكورا؟
هل يملأ الأغوار تبرا كالضحى؟ ... ويرد كالغيث الموات نضيرا
أيلف كالليل الأباطح، والربى ... والمنزل المعمور والمهجورا؟
فأجبتها: كلا، فقالت: سمه ... في غير خوف (كائنا مغرورا)
فاحتدم السلطان أي احتدام ... ولاح حب البطش في مقلتيه
وصاح بالجلاد: هات الحسام ... فأسرع الجلاد يسعى إليه
فقال دحرج رأس هذا الغلام ... فرأسه عبء على منكبيه
قد طبع السيف لحز الرقاب ... وهذه رقبة ثرثار
!اقتله. . واطرح جسمه للكلاب ... ولتذهب الروح إلى النار
سمعا وطوعا سيدي - وانتضى ... غضبا يموج الموت من شفرتيه
ولم يكن إلا كبرق أضا ... حتى أطار الرأس عن منكبيه
فسقط الشاعر معروضا ... يخدش الأرض بكلتا يديه
كأنما يبحث عن رأسه ... فأستضحك السلطان من سجدته
ثم استوى يهمس في نفسه ... (ذو جنة) أمسى بلا جنته
أجل! هكذا هلك الشاعر ... كما يهلك الآثم المذنب
فما غص في روضة طائر ... ولم يتطفئ في السما كوكب
ولا جزع الشجر الناصر ... ولا اكتأب الجدول المطرب
وكوفئ عن قتله القاتل ... بمال جزيل وخد أسيل
!فقال له خلفه السافل ... ألا ليت لي كل يوم قتيل
في ليلة طامسة إلا نجم ... تسلل الموت إلى القصر
بين حراب الجند والأسهم ... والأسيف الهندية الحمر
!!إلى سرير الملك الأعظم ... إلى أمير البر والبحر
ففارق الدنيا ولما تزل ... فيها خمور وأغاريد
فلم يمد حزنا عليه الجبل ... ولا ذوى في الروض أملود
في حومة الموت وظل البلى ... قد التقى السلطان والشاعر
هذا بلا مجد، وهذا بلا ... ذل، فلا باغ ولا ثائر
عانقت الأسمال تلك الحلي ... واصطحب المقهور والقاهر
لا يجزع الشاعر أن يقتلا ... ليس وراء القبر سيف ورمح
ولا يبالي ذاك أن يعذلا ... سيان عند الميت ذم ومدح
وتوالت الأجيال تطرد ... جيل يغيب وآخر يفد
أخنت على القصر المنيف فلا ... جدران قائمة ولا العمد
ومشت على الجيش الكثيف فلا ... خيل مسومة ولا زرد
ذهبت بمن صلحوا ومن فسدوا ... ومضت بمن تعسوا ومن سعدوا
وبمن أذاب الحب مهجته ... وبمن تأكل قلبه الحسد
وطوت ملوكا ما لهم عدد ... فكأنهم في الأرض ما وجدوا
والشاعر المقتول باقية ... أقواله، فكأنها الأبد
الشيخ يلمس في جوانبها ... صور الهوى، والحكمة الولد

البحر

للدكتور محمد عوض محمد

!أيها الزاخر ذو الصدر الرحيب! ... كم طوى صدرك من سر رهيب
قد شهدت الكون والكون فتى ... وسترعاه إلى وقت المشيب
كم قرون عصفت وانقرضت ... وخطوب قد مضت إثر خطوب
!ومحياك رزين، ناظر ... بابتسام تارة أو بقطوب
ساخراً مما يلاقيه الورى ... من نعيم زائل أو من كروب
هازئاً مما أثاروا بينهم: ... من جدال أو خصام أو حروب
!ثائراً حينا، وحيناً هادئاً ... باعثا رعبا، وأمناً للقلوب
مهلكا حينا، وحيناً منقذاً ... كعدو ناقم أو كحبيب
باسماً طوراً وطورا عابساً ... في كلا الحالين ذو شأن عجيب
لابساً للدهر ثوباً أزرقا ... يسحر الأعين ذا حسن مهيب

حلة تزهر بها الدنيا كما ... تخطر الحسناء في الثوب القشيب
زرقة الفيروز تحكيها وإن ... كبرت عن أن تضاهي بضريب
عانقتك الشمس من جو السما ... وهي تجري من شروق لغروب
هل رأى العالم في غير كما ... كيف يحلو مزج ماء بلهيب
قلبك الهادئ لا تزعجه ... زعزع نكباء جدت في الهبوب
لم تحرك منك إلا ظاهرا ... دفعته لشمال أو جنوب
تحته قلب عميق ساكن ... هازئ من حادث الدهر العصيب
ليت شعري ما الذي تضمر في ... قلبك الهائل من أمر غريب!
عالم آياته قد أتعبت ... فكرة الحاسب أو عقل الأريب
لقاء
للأستاذ محمود الخفيف
هزها الشوق والخيال فغنت ... وحباها الغرام لحنا جميلا
أسرعت في مسيرها وتأنت ... ثم مالت لتستريح قليلا
أنظر الزهر كيف يرنو إليها ... والمح العشب كيف يبدو نضيرا
وارقب الغصن كيف يحنو عليها ... واسمع الطير كيف تشدو سرورا
فتن الكون كله بفتاة ... بث فيها الجمال سحراً حلالا
مذ تبدت على بساط نبات ... كست الكون بهجة وجلالا
هي كالزهر رونقا وبهاء ... وهي كالطير خفة ودلالا
هي كالماء رقة وصفاء ... صاغها الله للجمال مثالا
هي كالصبح روعة وابتساما ... وهي كالفجر ريبة وحياء
وهي كالشمس حدة واحتداما ... وهي كالبدر رقة وسناء
أطلقت في الخلاء صوتاً رخيما ... مثل سجع الحمام عند البكور
هادئا ناعما شجيا رخيما ... دق في الوصف عن أدق الشعور
ذكرت حبها وقالت كلاما ... من رقيق العتاب سامي البيان
لم ترد بالعتاب إلا سلاما ... وحديث العتاب جم المعاني
ضحكت برهة ولكن عراها ... أثر هذا السرور شيء عجاب
عبست فجأة وخارت ... وسعت الهم نحوها والعذاب
أنظر الدمع كيف يجري سخينا ... أغرق الخد يأبى انقطاعا
واسمع اللحن كيف صار أنينا ... يملأ القلب رأفة والتياعا
هتفت باسمي وهي تحسب أني ... لا أراها ولم أزل في بعادي
ويح قلبي! أيهرب القلب مني؟ ... ويح نفسي! أشعلة في فؤادي؟
أبصرتني فكفكفت مقلتيها ... وعراها وقد رأتني اضطراب
وعراني وقد هرعت إليها ... نشوة ثم رجفة واكتئاب
قد دهاني عند اللقاء إختبال ... وعصاني فلم يترجم لساني
حين لم يبق للسان مجال ... ترجم الدمع عن أدق المعاني
أمهلتني هنيهة ثم قالت ... ويح نفسي لقد سمعت عتابي
واطمأنت لحيرتي ثم مالت ... تطل البعد وهي ترجو اقترابي
قلت مهلا ترفقي بفؤاد ... شفه الوجد والحنين إليك
جئت أسعى إليك بعد بعاد ... ووضعت الفؤاد بين يديك
لست أرضى الخلود عنك بديلا ... فحياتي رهينة بهواك
لا ولا المجد أرتضيه خليلا ... غاية المجد أن أنال رضاك
لك نفسي إذا أردت فداء ... أنت روحي وأنت غاية نفسي
لا أدرى في الوجود عنك عزاء ... أنت عيني وأنت سمعي وحسي
أطرقت عفة وأغضبت حياء ... إذ رأتني محدقا في اشتياق
وأرتني تمنعا وإباء ... وإباء الدلال حلو المذاق
لست أنسى جمال ذاك المحيا ... بين زهو الصبا وطهر العفاف
وحديثا وعاه قلبي شهياً ... أين من وصفه بليغ القوافي؟
لست أنسى طلاقة وبهاء ... وانتشاء وغفلة وابتساما
لست أنسى تعففاً وحياء ... وانتباها وفطنة واحتشاما

لست أنسى تلهفا وافتتانا ... وهي تصغي إلى حديث اغترابي
!لست أنسى ترفقا وحنانا ... ما أحيلاه بعد طول الغياب
إن هذا اللقاء يملأ قلبي ... كل حين مسرة وهناء
فأراها على البعاد وحسي ... ذاك حتى يجود دهري عزاء
ثم ماذا؟
ثم ماذا يا دهر؟ هل من جديد ... أجتني منه لوعتي وعنائي؟
هات ما قدر القضاء علينا ... ولتفض كأس عيشنا بالشقاء
لست أخشى القضاء إن قصد العد ... ل. ولكن أخاف ظلم القضاء //
ورضينا بالظلم. . لو أن دهري ... ينتهي ظلمه بهذا الرضاء
سخريات هذي الحياة وسر ... لم يزل غامضا على الأذكياء
أي معنى للزهر يولد في الرو ... ض صباحا وينتهي في المساء؟
أي معنى للحسن أصبح فيه ... كل صب نضواً من البرحاء
ثم يخبو ضياه حتى كأن لم ... يك بالأمس بالوضئ الرواء
وترى دمعة الحنين إليه ... حول الدهر سيرها للرثاء!
غدرات الأيام تأتي سراعا ... وسراعا تمضي ليالي الهناء
رب ليل ظللت أرشف فيه ... كل ما شئت من معاني الصفاء
ورأيت الغرام أيقظ مني ... شعر نفس أشفت على الإغفاء
فخلقت البديع من كل معنى ... وجلوت الجمال للشعراء
هكذا بت، لا فؤادي شاك ... من هواه، ولا حبيبي ناء
فأتى الصبح بالخطوب التوالي ... من عذاب وفرقة وجفاء
فتساءلت: كيف جرع قلبي ... غصة البين بعد حلو اللقاء؟
. .أين قلبي؟ فقدته في غرامي ... أين عيني؟ أذبتها في بكائي
!ورجائي أضاعه لي دهري ... في شبابي، يا رحمتا للرجاء
لسواء علي عشت سعيدا ... أم قضيت الحياة في بأساء
فالزهور التي ذوت ظامئات ... كالزهور التي ذوت في الماء
. .والطيور التي تغرد في الأي ... ك سرورا مصيرها للبكاء
عشت في عالم تهيج شجوني ... كلما قيل: عالم الأحياء
علموني كيف الغباء لأحيا ... هانئا بينهم حياة الرخاء
!وامنحوني بعض الرياء لعلي ... أرتوي غيلة ببعض الرياء
مصطفى كامل الشناوي
في الأدب الشرقي
الأدب العربي والأدب الفارسي
للأستاذ عبد الوهاب عزام. أستاذ الأدب الفارسي بكلية الآداب
3
وكان من آثار هذا الاختلاط والتنافس ظهور الشعوبية من فرس وغيرهم، وهم الذين قاموا يردون على العرب دعواهم في فضلهم على الأمم. ولم يقتصر الشعوبية أن يسووا أنفسهم بالعرب، بل تمادى الجدل بهم إلى تفضيل غير العرب عليهم، كان من الشعوبية غير الفرس، وكان من الفرس أنصار للعرب، ولكن النزاع كان في معظمه نزاعا بين العرب والفرس خاصة. وقد تناضل الفريقان عن كثب، وأرسلوا الكلام إلى غاياته في غير تحرج.

فعلان الشعوبي الفارسي وهو نساخ في بيت الحكمة أيام الرشيد والمأمون، كتب كتاب الميدان الذي (هتك فيه العرب وأظهر مثالبها) كما يقول ابن النديم، وسهل بن هارون صاحب خزانة الحكمة في عهد المأمون كان شديد العصبية على العرب، وقد كتب رسالة في البخل وكأنه أراد بها الزراية بالجود الذي كان عمدة مفاخر العرب، وسعيد بن حميد بن البختكان لم يتحرج، وهو على مقربة من الخلفاء، أن يكتب كتابا يسميه فضل العجم على العرب، وأشباه هؤلاء كثيرون، وقد استمر النزاع في الكتب عصوراً طويلة، وليس يسعنا أن نستقصيه الآن.

بعد هذا كله نسأل السؤال الذي يفهم جوابه استنتاجا مما تقدم: ما أثر الفرس في الآداب العربية؟

مهما تحدث الناس عن النزاع بين العرب والفرس، فان هذا النزاع لا يشرح لنا كل شيء، كان المتنازعون إما من الرؤساء ومن التف حولهم، وإما من الطامعين في الزعامة والمناصب. فأما العلماء أكثرهم فكانوا كدأبهم في كل زمان يعملون ولا تسمع أصواتهم، وهم الذين تعاونوا على إغناء اللغة العربية بالكتب في شتى الفنون. فقد تقدم الفرس النجباء لحمل الأمانة العلمية منذ العهد الأموي، وثابروا فإذا هم المتقدمون في كل فن: في التفسير، والحديث، والفقه، حتى علوم العربية من نحو وصرف وعروض، والآداب العربية شعرها ونثرها، قديمها وحديثها، وما عنوا بالكلام عن الفرس والعرب. وكانوا يتحرجون أن يخوضوا في هذا، وكان حسبهم أن ينصروا الدين وعلومه، ولو كان لابد لهم أن يتجاوزا إلى أخذ الفريقين لآثروا نصرة العرب تدينا وتقوى. وحسبنا أن نذكر هنا أمثال الحسن البصري، والبخاري، ومسلم، والأمام أبي حنيفة، ومحمد بن جرير الطبري، وابن قتيبة، وابن فارس. على أن المتعصبين أنفسهم قد اتخذوا العربية لغتهم، فلم يكن لهم بد من إمدادها بمعارفهم طوعا أو كرها. والحق أن كراهيتهم للعرب لم تكن كراهة للغة العربية. وأصدق شاهد على هذا أبو عبيدة اللغوي: كان شعوبيا متعصبا على العرب، وأصله يهودي فارسي، وأنت تعلم ما أجدت مؤلفاته على اللغة العربية، وما بذل من جهد لحفظها ورواية آدابها، ومن هذه الآداب كتابه في مثالب العرب.

للفرس يد أخرى على الآداب العربية، هي ترجمتم ذخائر لغتهم إلى اللغة العربية ترجمة حاذق قد اتخذ العربية من لغته بديلا. ولعل عصبيتهم حفزتهم إلى هذا ليحفظوا آثارهم من الضياع وتقوم لهم الحجة بما يترجمون على فضل آبائهم، وعظم حضارتهم، وقد بدأت هذه الترجمة - فيما يظن - أيام الخليفة هشام بن عبد الملك: ترجم جبلة بن سالم كاتب هشام سير ملوك الفرس، ثم جاء زعيم المترجمين ابن المقفع، وعبد الحميد بن أبان، وآل نوبخت. وقد عد صاحب الفهرس أربعة عشر مترجما غير ابن المقفع وأسرة نوبخت.

والكتب التي ترجمت من الفارسية أقسام ثلاثة:

1. كتب في الحكمة: وهذه ليست ذات خطر، فإنما هي فلسفة اليونان جاءت من طريق الفرس، وكان العرب يأخذونها من مصادر خير من الفارسية.
2. كتب في التاريخ والقصص: مثل كتاب (خداي نامه) أو سير الملوك، وكتاب التاج في سيرة أنوشروان اللذين ترجمهما ابن المقفع، وسيرة أردشير، وسيرة أنوشروان، اللتين ترجمهما أبان اللاحقي. وبعضها مأخوذ عن السجلات الرسمية الفارسية. وهذه الكتب لها أثرها في كتب التاريخ العربي. وهي أصل لكل ما في الكتب العربية من تاريخ الفرس وأساطيرهم، فأخبار الساسانيين في الطبري مثلا مأخوذة منها. يثبت هذا مقارنة الكتب العربية بعضها ببعض وبالكتب الفارسية كالشاهنامه. فهذه الكتب على اختلاف مصادرها المباشرة تتفق في سرد التاريخ اتفاقا يؤدي إلى الاعتقاد بأنها أخذت من أصل واحد.
3. كتب المواعظ والآداب والسياسة وما يتصل بها: مثل عهد (أردشير بابكان) إلى ابنه سابور. وعهد أنوشروان إلى ابنه هرمز، وجواب هرمز إياه، ورسالة كسرى إلى زعماء الرعية، وكتاب (زادان فرخ) في تأديب ولده، وآيين نامه الذي ترجمه ابن المقفع، وقد أمدت هذه الكتب اللغة العربية بثروة من الحكم الأخلاقية والأقوال المأثورة تتجلى في مثل كتب ابن المقفع: كليلة ودمنة، والأدب الكبير، والأدب الصغير، واليتيمة، وهي أصل لكتب الأخلاق العربية التي ألفت من بعد، ومن هذا النوع الكتب التي عرفت باسم المحاسن، أو المحاسن والمساويء، مثل: المحاسن لعمر بن الفرخان الطبري (في عصر المأمون). والمحاسن المنسوب لابن قتيبة. والمحاسن والمساوئ للبيهقي، والمحاسن والأضداد للجاحظ، فهذه الكتب لها نظائر في الفهلوية ألفت حتى في العصر الإسلامي. وهي معروفة باسم شايد نشايد، أو (شايسة نشايسة).

كتب التاريخ وكتب المواعظ لها أثر كبير على الأدب العربي بالمعنى الأخص. أعني الكلام البليغ نظمه ونثره، فهذه الأساليب المسهبة السهلة التي تقدم بها عبد الحميد وتلاه فيها ابن المقفع وغيره تأثرت بالأساليب الفارسية كما كانت موضوعاتها فارسية. وقد ذكر أبو هلال العسكري في الصناعتين وهو يحتج على أن البلاغة ترجع إلى المعاني: ذكر أن الذين عرفوا لغات غير العربية نقلوا بلاغتها إلى العربية في كتابتهم،

وضرب مثلا بعبد الحميد الكاتب إذ أجدت على العربية بلاغته الفارسية، وأمر آخر يرجع إلى الشعر: هو الشعر المزدوج الذي نظم به أبان بن عبد الحميد كتاب كليلة ودمنة وغيره، فقد نظم شعراء الفرس فيما بعد كل ما نظموا من قصص في هذا النوع من النظم وسموه المثنوي. فلعل هذا النوع من أثر الفرس على اللغة العربية أيضا على قلة معرفتنا بحال الشعر عند الفرس قبل الإسلام.

طرف من شعر السلاطين

هذه طرف من شعر سلاطين آل عثمان، وقد نبغ منهم شعراء كثيرون، ولبعضهم دواوين متداولة. وأعظمهم أثراً في الشعر بايزيد الثاني، ومحمد الفاتح، وسليم الأول، وسليمان القانوني، وسليم الثاني، (وكل واحد من هؤلاء أب لمن بعده) ثم مراد الثالث، ومراد الرابع، ولكل من هؤلاء السلاطين الشعراء اسم عرف به في الشعر فالفاتح (عوني) وسليمان القانوني (محيي) وهلم جرا.

وقد يشوق القارئ أن يسمع إلى السلاطين يتحدثون عن سرائرهم ليرى أن الدولة والسلطان لا يرفعانهم عن مستوى الآلام والآمال.

ومن يظن أن السعادة ملك وغنى وصيت وجاه وجبروت فليسأل سليمان القانوني، وإرادته قضاء محتوم، وقوله في العالم قانون، ليسمع أن السعادة ليست ملك (سليمان)، وأن العروش لا تسمو على الأشجان.

السلطان محمد الفاتح (عوني)

أيها الساقي هات المدامة!ّ فسيذهب البستان من اليد،
سيأتي الخريف، وتذهب الحديقة والربيع من اليد
أيها الحبيب! أوف بالعهد، ولا يغرنك الجمال والنضرة
ياملكي، قد جعلتني أسيراً في سلسلة طرتك
ويا رب لا تحررني من هذه العبودية
جور الحبيب، وطعان العدو، وحرقة الفراق، وضعف القلب
لهذه الألوان من الآلام خلقتني يا رب!
قد اجتمع على إحراقي وهدمي
حرقة القلب، ونار الآهات، ودمع العين

السلطان بايزيد الثاني (عدني)

يبدى لنا الفلك حينا حبا ووفاء
ويتقلب حينا فيبدل بالنعمة ألف نقمة!
ما عهدت من قبل تلك الآلام التي احتملت في سبيل العشق
وكذلك ترى هذه البدور العاشق ما لم يره
هاأنذا أتحامل في طريق العشق غريبا!
والجميلات يتغامزن بي
لا تحسبن هذا الفلك الغدار يمكن للسرور
فانه يضمر جوراً ويبدي صفاء
قد سير طبيبي آلامي بنظرة واعدة
كأنه لقمان تذهب يده بالسقام
إن ضللت طريق العشق فسل (عدني)
فهو يهدي إلى السبيل كل من أضل طريقه يهدي!

السلطان سليمان القانوني (محيي)

إن الذي يؤثر الفقر لا يريد عرشاً ولا إيوانا
ولا يبغي لنفسه إلا من زاد الأحزان
ولن يتبوأ عرش القناعة ملكا حرا
لا يريد أن يكون سلطانا على سبعة الأقاليم كلها
إنما أهل العشق من يقيم في دار الحبيب
يجن ولكن لا يريد الصحاري ولا الجبال
يا محبي: من يشرب قدحا من يد حبيبه
لا يرد حتى ماء الحيوان من يد الخضر
لا شيء أعظم من الدولة في هذا العالم

ولكن الدولة في هذه الدنيا لا تزن نفساً واحدا من العافية
ما هذا الذي يسمى سلطنة إلا ضوضاء الخليقة
وما في هذه الدنيا سعادة ولا جد كالوحدة
دع هذا العيش واللهو فإلى الفناء المصير
وإذا أردت الصديق الباقي فلا شيء كالطاعة
إن يكن عمرك عدد الرمال
فلن يبلغ ساعة واحدة في زجاجة هذا الفلك
إن ترد الحضور يا محبي فأفرغ قلبك
فليس للوحدة مقام كزاوية العزلة

في الأدب الغربي

معنى الشعر

للشاعر الإنكليزي درنكووتر

المستر جون درنكووتر نزيل مصر الآن من أقطاب الشعر الإنكليزي الحاضر وله عدة) مجموعات شعرية وقطع مسرحية شهيرة، ولد سنة1882 وبدأ حياته العملية كاتبا في إحدى وكالات التأمين. وهو الآن أستاذ الأدب الإنكليزي بجامعة برمنجهام. وأشهر مؤلفاته (إبرهام لنكولن). وهي قطعة مسرحية رائعة. ومنها مجموعة شعرية عنوانها (رجال وساعات) وهي أولى مجموعاته و (العصيان) وغيرها. وقد دعت الجامعة المصرية المستر درنكووتر ليلقي خمس محاضرات عن الشعر الإنكليزي. فألقى الأولى منها يوم الخميس 17 فبراير في الجمعية الجغرافية الملكية، وموضوعها (معنى الشعر) وهذه خلاصتها:

قال مستر درنكووتر:

تقوم اليوم كثير من الصعاب الخطيرة والمسائل الهامة التي تزعج معظم دول العالم. وهذه المسائل تشغل عقول المفكرين جميعا. ولكن أحدا لم يوفق إلى حلها، بيد أنهم على يقين من أمر واحد: هو أن هذا الحل لا يحقق ما لم تتناول مسائلنا بروح متبادل من التفاهم وحسن النية، وهذا هو الجوهر، فالناس لا يود بعضهم لبعض سوى الخير، ولكن ذلك لا يتم إلا بالاحتكاك الشخصي: فإذا ما اقتنعنا بوجوب التعامل بتعقل، خفت متاعبنا.

ورمز هذا الروح المشبع بالتفاهم وحسن النية: هو الشعر، فالشعر يعني بالأشياء الكونية الخالدة الخالقة، والشعر يبغض الظلم، وتبديد النشاط البشري، وخيبة الأمل، وقد خلق للاحتشام، والتسامح، والاحترام المتبادل.

فمما يشجع إذن أن يعمل شيء في تلك الأيام العصيبة لتقوية التفاهم بين الشعوب. وهذا بلد (يعني مصر) قد دعا شاعراً من بلد آخر ليأتي ثم يتحدث عن شعر بلاده، وهي بلاد ذات لغة وتقاليد، وذات أغراض سطحية أخرى، فهذا في نظري أمر وافر الحكمة؛ وإني لفخور بأن أنتهز هذه الفرصة التي قد يعدها كثير من الساسة خارجة عن نطاق عملهم، ولكني أراها عملا حرا كريما من أعمال السياسة.

ثم قال مستر درنكووتر: إنه سيحاول أن يبين في محاضراته أمرين: الأول أن يلفت النظر إلى جمال الشعر الإنكليزي في ذاته، والثاني أن يبين أن الخلافات السطحية بين الشعر الإنكليزي والشعر المصري (العربي) ليست في الواقع أكثر من سطحية، وإنه عندما نتأمل الحقائق التي يعنى بها الشعر، نجد الحياة البشرية تضطرم في نفس الشاعر، سواء أكانت بين الفلاحين المصريين أم بين الفلاحين الإنكليز، أو بين طلبة جامعة إكسفورد وكامبردج أم بين طلبة جامعة القاهرة، أو شاعر أيرلندي مثل يتس أو شاعر عربي مثل شوقي. ثم قال أنه قرأ (مجنون ليلى) التي ترجمها مستر أربري، فدهش إذ رأى مبلغ ما هنالك من تشابه بينها وبين ما يكتبه شاعر كمستر يتس.

ولكن يجب أن أقول أني لم أدهش، لأننا نعرف أن هذه هي طريقة الشعر، فالشعر لا يعرف الحواجز التي تقيمها بين الشعوب مصالح التجارة أو السياسة، بل تقيمها العادة والإقليم، والشعر يذهب إلى أعماق الحياة ويرى أن أعماق الحياة لا تختلف بالنسبة لمختلف الشعوب، وأنها واحدة في العالم بأسره.

فإذا كنت أحدثكم فأرجو ألا تعتبروني سائحاً من بلد أجنبي، ولكن صديقا يتحدث باسم الشعر عن أشياء يجب الا يظن متأملاها أن أحدهما غريب عن الآخر: واسمحوا لي أن

أكون جريئا، فأستميح عفوكم في بيت لشاعركم شوقي.
ولست أعتقد، بعد الذي غمرني به المصريون من العطف، أنني رجل متعثر ضال.
ثم قال مستر درنكووتر: ما هو الشعر؟ يمكن أن نقول: أنه (الفن) فالفن في كل خواصه الجوهرية كالشعر سواء بسواء. والشعراء لا يخلقهم الشعر، ولكن الشعراء هم الذين يمدون العالم بعلم النظريات الشعرية، وإذن فالشعر هو فهم تام للتجارب، وإبراز هذا الفهم في صيغ الألفاظ. وعقولنا جميعا مهما اختلفنا في الجنس واللون والمركز والآراء والأطماع نستقبل جميعا في كل وقت أسفارا ضخمة من التجارب، والمسألة هي كيف نفهم هذه التجارب، والعقل القوي دائما سيد تجاربه؛ وهنا يتدخل الشاعر، فالشاعر لا يختلف في النوع عن أقرانه، ولكنه يحتاج إلى فهم أعمق لهذه التجارب، وهذا الإجهاد، وهذه الرغبة، وهذه الضرورة هي المجد، وهي المأساة في حياة الشاعر. هي المجد إذا استطاع أن يرضي هذه الضرورة؛ وهي المأساة لأن معظم هذه التجارب لا يمكن أن يحقق ويفهم.
والشاعر يعتبر أحياناً محسناً عاما؛ وهذا صحيح إلى حد ما؛ ولكن الشاعر لم يكن قط باختياره محسناً خلقياً، فالشاعر حين يكتب لا يفكر في فعل الخير؛ فهو يتفهم تجاربه فقط. وإذا اعتقد الشاعر نفسه محسنا عاما، فانه يتعثر في عمله. ذلك لأنه يفكر عندئذ فيما قد يراه الناس في عمله، ويكتب تحت هذا الأثر، بدلا من أن يقول الحقيقة.
ثم قال: أن الشعر في كل أمة يتأثر إلى حد ما بالأقاليم والمناظر وما إليها، وأن مناظر الخريف الإنكليزية وتناثر أوراق الشجر، والسماء الشهباء، وفصل الكآبة، قد أثرت في عقول ألوف وألوف من الإنكليز، ولكن رجلا واحدا لاحظها وفهمها؛ ثم أخرج منها أصدق صورة، وصاغ قطعة من أبدع ما في الشعر الإنكليزي؛ وكان هذا الرجل شكسبير. وكذا البلبل وأغاريده، فقد نفذت إلى ذهن فتى يقيم في ضاحية لندن فاخرج عنها قصيدته الخالدة (نشيد إلى البلبل) وكان هذا الشاعر كيتس.
والفن كله هو التعبير عن التجارب؛ ولكن الشعر لا يعبر عنها إلا باللفظ. وذلك لأن (الألفاظ تستعمل للتعبير عن كثير من الأشياء العادية. ولذا وجب أن يستعمل الشاعر الألفاظ بطريقة تجعلها حية دائما. والشعر أعظم من الشعراء، فهؤلاء يموتون، ولكن شعرهم يبقى دائما حياً صبوحاً)
كلمات في البحث العلمي
ترجمة الأستاذ احمد أمين
قال فرنسيس بيكون:
(لم أجد نفسي صالحة لشيء صلاحيتها لدرس الحقيقة، ذلك أني منحت عقلا له من النشاط والمرونة ما يمكنه من إدراك وجوه الشبه بين الاشياء، وله من الثبات ما يعينه على تعرف وجوه الخلاف، ولأني منحت رغبة في البحث، وصبرا على الشك، وغراما بالتفكير، وبطأ في الجزم، واستعدادا للنقد، وعناية بالترتيب، ولأني ليس لي ولع بالجديد، ولا إعجاب بالقديم، وأكره كل أنواع الخداع، لذلك أرى أن لي طبيعة تألف الحقيقة، ولها بها اتصال).
وقال هكسلي:
(إذا تكلمت عن الأغراض التي كانت نصب عيني من يوم أن بدأت حياتي العلمية فتلك باختصار هي أن أستزيد من المعلومات الطبيعية، وأن أطبق طرق البحث العلمي على كل قضايا الحياة جهد الطاقة وقد نما الاعتقاد عندي بأنه لا يخفف آلام النوع الإنساني إلا الإخلاص في الفكر، والإخلاص في العمل، ومواجهة العالم كما هو بعزم ثابت بعد أن تمزق عنه ثوب الرياء الذي خلعه عليه المراءون).
وقال فارادي:
(يجب على الفيلسوف أن يصغي لكل رأي، ولكن لا يكون مصدر الحكم الا نفسه، لا يخدع بالظواهر ولا يميل إلى فرض فروض خاصة، ليس تابعا لمذهب معين، وليس له في اعتقاده أستاذ، لا يحترم الأشخاص ولكن يحترم الحقائق. غرضه الأسمى الوصول إلى الحق، فان هو أضاف إلى ذلك الجد في السعي كان خليقا أن يخترق حجب الظواهر، ويصل إلى حقائق العالم).
وقال السير ميكائيل فوستر في خطبة له في المجمع البريطاني سنة 1899:
(أن الصفات التي تلزم الباحث في العلم ثلاث:

1. يجب أن تكون طبيعته متموجة تموج ما يبحث عنه، فالباحث وراء الحق يجب أن يكون مخلصا للحق، والباحث في أحوال الطبيعة الصادقة يجب أن يكون صادقا.
2. يجب أن يكون يقظ العقل، فأن الطبيعة إنما تفهم بالإشارة أو تهمس في الأذن بأوليات
أسرارها، فعلى الباحث أن يكون مستعدا لفهم إشاراتها مهما دقت، ولسماع أصواتها مهما خفيت.
3. (الشجاعة، وأعني بها التحمل والصبر
وقال نيكون:
(أن الحق يظهر من الخطأ بأسرع مما يظهر من الخلط والغموض، فإذا بدأنا نحدد الخطأ بدأ الخطأ يختفي كالذي يحكي عن الجني إذا بدا يتجسد سنحت الفرصة للقبض عليه.
وصور (دارون) اشتباك العالم تصويرا دقيقا محكما وسمى ذلك (نسيج الحياة) فقال إن العالم كله سلسلة متصلة مشتبكة وأوضح ذلك بأن للقطط علاقة بمحصول البرسيم، وليس يقع طائر الا وقد يحدث من وقوعه أعمال واسعة النطاق. فالقطعة الصغيرة من الطين قد تعلق برجل الطائر ويرمي بها إلى الأرض فتتصل بها بذرة (تنبت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة) وهناك دورة لا تنقطع للمادة، والقوة فقد تؤثر (1) في (ي) ولو لم تعلم (ي) بـ (1) فهناك علاقة بين تقليل الأشجار ووباء الحشرات، وبين الطيور وانتشار البذور، وبين ضوء الشمس وصيد أنواع من السمك، وهذه الأمثلة قد تظهر بادئ بدء كأنها ألغاز، ولكن إذا بينت الارتباطات المتسلسلة وضحت وضوح الشمس).
وقال آخر: (غرض العلماء أن يروا العالم شفافا وأن يجعلوه (سينما) عقليا، صوره المعروضة أسباب متعاقبة تمر أمام أعيننا بدون انقطاع)
وقال كارل بيرش:
(يجب على العالم أول كل شيء أن يزيل العوامل الشخصية من أحكامه، وأن يقدم على ما يقول برهانا تقبله عقول الناس كما يقبله عقله، وأن يعني بتقسيم الحقائق وملاحظة تسلسلها وارتباط بعضها ببعض)

القرية المهجورة

للشاعر أوليفر جولد سمث

أتى عليك زمان كله رغد ... يفيض فوق رباك الخير مطردا
وكان عهدك والفلاح مغتبط ... يأتي له الرزق من غلاته رغدا
لكن تنكرت الأيام وامتلكت ... هذي البلاد قساة أغلظوا الكبدا
فعطلت من ليالي الأنس أربعها ... والأهل قد هجروها، لا أرى أحدا
يا لمحة السحر التي اختلست ... لقد طواك زمان كله عِبرُ (أوبرن)
لكم رجعت إليك اليوم مكتئبا ... والنفس ولهانة والقلب منفطر
أرتاد فيك مكانا كان يؤنسه ... ظليل كوخك أو نسرينك العطر
فتملأ الذهن أفكار تراوحني ... بذكريات عهود كلها صور
لما رمت بي النوى في دار غربتها ... وذقت فيها نصيب الحزن والتعب
ركبتها ولقلبي الصب أمنية ... في أن يكون إلى (أوبرن) منقلبي
وكنت أحرص في جهدي الطويل على ... قنديل عمري حرص المشفق الحدب
ألكي أقضي في قومي بقيته ... أروي لهم كل ما لاقيت من عجب
دعوهم حول نيراني لأطرفهم ... بعد العشي بأخباري وأهوالي
كأنني أرنب في الدوِّ أفزعها ... صيد فعدت لوكري بعد إجفال
قد كنت أحلم في آفاق دسكرتي ... وكان عودي إليها جل آمالي
فذاك أحسن شيء سحر بهجتها ... وذاك خير معادا تربها الغالي
يا عزلة الريف يا مكنون روعته ... يا إلف شيخوخة الإنسان في الكبر
آها على طيب أحلام رزئت بها ... وسدتها فيك بين الماء والشجر
ما كان أصفى نعيم المرء لو ختمت ... مشيبه راحة في دوحك الخضر
يجفو الحياة وما تحويه من خدع ... غرارة ونعيم غير ذي أثر
ما كان أعذب ذاك الصوت سيرسله ... وحي المساء ليفني في أصائلك

قد كنت أمشي وئيد الخطو منتشيا ... أصغي له وهو يعلو من منازلك
والليل أرخى على الراعي ستائره ... فخب يحدو الرواعي في خمائلك
وقد تهادى الإوز الغر في شغف ... على مياهك. . يلهو في جداولك
يا لهف نفسي عليك اليوم قد سكنت ... عن سكب ألحانها هذي الأغاريد!
لم يبق في الغاب من صوت يجاوبه ... صدى السكون ولا للريح ترديد
ولم تعد فيك تحيي الأنس ثانية ... في الليل فتيانك الطيب الصناديد
لم يبق غير عجوز جد عانية ... أو ثاكل هَّدها هَمٌ وتسهيد
قد أكرهتها حياة لا تبدلها ... من مأكل خشن أو مشرب رنق
فقوست ظهرها فوق الضفاف على ... هشائم العشب تجنيها أو الورق
وثم ترجع في ضعف يغالبها ... لكوخها توقد النيران في الغسق
ظلت لتبقى على الوادي مؤرخة ... له وتطوي بقايا العمر في قلق
هناك في أجمة كانت تشارفها ... أشجار مهتزة الأزهار فيحاء!
قد أوحشتها غصون لا تشذبها ... عناية فتدلت جد لفاء!
هناك من بين أغصان محطمة ... تغشى المكان. . وبين الظل والماء
يقوم مرتبع القسيس في خفر ... مستحيياً يتوارى تحت أفياء!
قد كان شيخاً وقور الذات متقيا ... يخشى الإله ويقضي الليل أوابا!
يعده القوم من أهل اليسار وإن ... لم يحو غير التقى ذخرا وأسلابا!
وكان في الناس محبوبا ومحترما ... يلقي الغريب ويلقي الأهل أحبابا
لم يقرب المدن من إثم يطوف بها ... بل كان يطوي القرى للوعظ جوابا!
ما زال سائله المسكين يقصده ... وضيفه الشيخ يرعاه بلا برم!
ولم يزل يجلس الجندي مصطليا ... في داره موقد النيران من أمم!
يروي له كل ما لاقى وتلذعه ... نار الجراح فيشكو شدة الألم
والشيخ جانبهم دوما يقاسمهم ... آلامهم بحنان غير متهم
يظل كالطائر الشادي يرف على ... صغاره فوق أغصان الخميلات
يحتال كيما يطيروا. . ثم يحملهم ... إلى جناب خصيب في السماوات!
قد راح يزجر من يبطئ ويسعفه ... إذا تخلف عن طير الجماعات!
يهديهم نحو كون لا يطوف به ... غير السعادة في علوي جنات!

م. ع. الهمشري

العلوم

سبيل الإنسان والطبيعة.

للدكتور احمد زكي. أستاذ الكيمياء بكلية العلوم.

الطبيعة تسير في كل ظواهرها وحوادثها على قوانين مرسومة منذ الأزل، وستسير فيما يظهر على تلك القوانين الموضوعة إلى الأبد.

وقد كان الإنسان القديم يعجب بهذه الظواهر، وتأخذه الرهبة، ويلبسه الإجلال والإكبار عند اعتبار تلك الحوادث، ولكن لم يحفزه شيء إلى تفهمها، ولم تجش في نفسه رغبة إلى تعرف أسبابها، لأنها كانت تستأذن على عقله فُرادي وأشتاتا ثم تُركَم فيه على غير نظام كما يركم المتاع عند تاجر الأمتعة القديمة، فالحذاء البالي إلى جانب المرآة الصقيلة، والكتاب القيم بجوار قدر الطعام. وكان عقله صبياً، والعقل قد يصبو في الشيخ، والعقل قد يشيخ في الصبي، وعقل الصبي في القرن العشرين قد يزيد على عقل الشيخ في قرون الحياة الأولى، وعقلي وعقلك اليوم ليسا من خلق هذا الجيل، بل هما تراث لأجيال جاء دوري ودورك في احتوائه. وقد أورِّثه أعقابي من بعدي وتورثه أعقابك من بعدك وفيه نقص، وقد أورثه وتورثه وفيه زيادة، ولكن لا شك أن ما يورثه جيل جيلا من ذلك يزيد بمر الأجيال بزيادة التجارب وتسلسل الثقافات وتتابع المدنيات.

ولما تفتح الذهن الإنساني أخذ يدرك بين ظواهر الكون العديدة أشباها برغم تراكمها، وبدأ يبصر بين الأشياء منها وجوها للخلاف برغم خفائها وتعسرها، وأخذ يرتب ما دخل عقله شتيتا فيقرب بين المتعارفات، ويباعد بين المتناكرات، وأصبح ما يدخل عقله يقصد من فوره إلى مكانه من ذلك النظام وما يستأذن على رأسه يُؤذن له ولكن من باب دخل فيه من قبله أجناسه، وبهذا العقل المنظم، وبما فيه من وحدات متآلفة متخالفة مترابطة. أخذنا نحن بني الإنسان نتفهم الطبيعة، فاستكشفنا أن لها قوانين،

وأن لها مُثُلا تنسج عليها في كل ما تصنع، ونماذج تحتذيها في كل ما تأتيه.
وقد يتراءى لنا نحن بني العدم والفناء أن الطبيعة تشذ عن مثلها أحياناً، وتخرج عن مألوفها أطوارا، وما في الطبيعة من شذوذ، ولا هي تخرج عن مألوف، وإنما هو سوء فهم منا لمألوفها، وقصور منا عن إدراك نواميسها، وما ذلك القانون الذي شذت عنه، ولا
الناموس الذي خرجت عليه، إلا من خلقنا نحن، فنحن الألى أوجدناه، ونحن الذين فرضناه وفرضنا اطراده. فلما لم نجده مطرداً سمينا ذلك شذوذاً، ولما لم نجد القاعدة التي ابتدعناها متبعة أسمينا نواقضها استثناء.
على أننا أثناء ذلك لم نفقد حبنا للنفع، ولم تنقض فينا الرغبة في الفائدة، فكنا لا نكشف سراً ناقصاً من أسرار الطبيعة الا ونتساءل كيف ننتفع به في بيوتنا، وكنا لا نزيح الستار عن عجيبة من عجائب الكون لم نفهمها كل الفهم حتى نتساءل كيف نستفيد منها في مدننا وأسفارنا، وما ضرنا ونحن بنو المادة أن تكون قوانين الطبيعة ناقصة ما دمنا نستهدي بها إلى البخار يحملنا من بلد إلى بلد؟ وما ضرنا ونحن بنو النفع أن تكون لنواميس الطبيعة استثناءات ما دمنا نصنع بعونها الطوائر من المعدن والخشب، ونبني المواخر تشق البحر ولا تعبأ بما فيه من أمواج وأنواء؟ ونجحنا في هذا السبيل نجاحا زاد أقدامنا فيه ثباتاً. فبدل أن كانت الغاية مقصورة على فهم الكون ودرس طبائعه، وقبل أن نفهم الكون وندرس طبائعه فنشتفي من ذلك، تطلعنا إلى محاكاة الطبيعة، إلى إنتاج ما تنتج، إلى خلق ما تخلق، إلى التحريك بمثل ما تحرِّك، والتسكين بمثل ما تسكن، وعمدنا إلى مناهضتها كذلك، إلى إماتة ما تحيي، وإلى إحياء ما تميت، إلى تحريك ما تسكِّن وتسكين ما تحرّك، وإلى توجيهها إلى ما أرادت وإلى ما لم ترد. هذه غاية ابن آدم: يريد أن يخلق وهو مخلوق، ويحل الوثاق عن قوى للطبيعة هو بها موثوق، ويسيطر على عالم قليل ما هو فيه، وكان الناس يرون في ذلك افتئاتا من المخلوق على الخالق، فأصبحوا يرون فيه تمجيدا من المخلوق للخالق، وكانوا يرون فيه زندقة ومروقا وعصياناً، فأصبحوا يرون فيه إيمانا وتخشعا وتعبدا، وتبينوا أن سر الإنسان من سر الله، وأن ما يأتيه الإنسان إنما يصدر عن فطرة وفطنة هي لله ومن الله.
حاول الإنسان أن يقلد الطبيعة في أمور عدة، فبلغ غايته في البعض، وفات الغاية في البعض، وخاب في كثير من الأمور.
رأى النبات يخرج ألوانا تشبه ما في الطيف من ألوان ويخرج ألوانا على ما في الطيف من ألوان، ولكن النبات بطيء في عمله، والإنسان خُلق من عَجَل، والنبات لا يجود من ألوانه إلا بالنزر اليسير، والإنسان يريد منها الوافر الكثير، والنبات يجود منها بعدد على كثرته قليل، والإنسان يريد منها عددا كآماله لا حد لها ولا حصر. فأخذ يبحث ويدأب ويصمد ويصابر الجيل بعد الجيل حتى أتى من الأصباغ بما تحسده الطبيعة عليه، أو لعل الأوفق أن نقول بما تغتبط الطبيعة به، فالإنسان بعضها. أتى من الأصباغ بما يطابق أصباغ النبات أحياناً ويشابهها أحياناً، وأتى منها بما يفوقها زهواً وإشراقاً، وأتى منها بعدد يكاد يجل عن الحصر وخلط بينها فأتى بكل لون وقعت عليه أعين الأحياء وهم أيقاظ صاحون، وكل لون وقعت عليه أعينهم وهم نيام يحلمون، أتى بألوان تزري بألوان الربيع في إبانه، وتستحقر ما يتنزل به وحي الشاعر عند صفاء قريحته وفي سمو خياله.
ورأى الإنسان الطائر يطير فأراد أن يقلده في طيرانه، رآه طليقا من قيود الأرض مالكا أعنة الهواء يسرح في أبعاد ثلاثة من طول وعرض وارتفاع، فأراد أن يكسر قيده ويستعير للهواء أعنة ويزيد على بعدي هذا السطح الأرضي بعداً ثالثا، وبعد خيبة تتلوها خيبة، وبعد نفس تتبعها إلى خالقها أنفس، وُلدت الطائرات، ولم تولد كالإنسان في ساعة ولا يوم ولا عام، وإنما يوم ميلادها كان حقبة من الزمان، فلم تكن بنتاج ذهن، ولكن نتاج أذهان، وأصبح إنسان هذا العصر يطير في الجو كيف شاء وحيث شاء، وحصد بنو اليوم حصادا حصدت في سبيله رقاب بني الأمس.
ومن أحدث الأمثلة في تقليد الإنسان للطبيعة ما جاءت به الأنباء منذ قريب بما يحق لنا أن نسميه ثورة قصد العلم إليها في الإضاءة والضياء. كنا في الأزمنة الأولى نقنع في حلك الليل بالضوء القليل يخرج علينا من حريق الخشب مع فحمه ودخانه، وحمدنا

القدر لما هدانا إلى الزيوت والشموع نشعلها على هوانا ونطفئها على هوانا، وزدنا للقدر حمدا لما تهيأت لنا مدخنة من زجاج وضعناها على المصباح فوقتنا سخامه، وجاء المصباح الكهربائي فوجمنا له حيناً نحسبه من عمل السحرة أو صنع الشياطين، ولما اطمأننا إليه زدناه على السنين شدة وزدناه جمالا، وكنا نحسب أن هذا غاية المنى ومنتهى الأمل، ولكن الإنسان بعد أن وجم لهذا المخلوق الجديد مستغربا معجبا، وبعد أن رباه ونماه فخورا زاهيا، وجد أخيرا أنه لم يبلغ به هواه. ونظر إلى الشمس في بياض ضيائها وبارح سناها فابتسمت له أو ابتسمت منه، فوجد فيها الغاية التي ليس من بعدها غاية. وتبين فيها آية الطبيعة الكبرى والمثل الذي تضاءل بجواره الأمثال.

فرجع يقسم ألا يفتر له عزم حتى

يأتي بمثل هذا السنا والضياء.

وجاءت البشائر في الأشهر القريبة الماضية بأنه نجح في هذا أو كاد. وأنه استعاض عن المصباح الكهربائي الأثري، أو الذي سيصبح عن قريب أثريا، بمصباح جديد لا فتيل فيه. وإنما ملئت زجاجته بمزيج من غازين بنسب خاصة تمر فيه الكهرباء فيخرج منه ضياء يشبه ضياء الشمس في أمرين: في نصوع بياضه وفي انتظام توزعه. وهو فوق ذلك لا يتكلف من الكهرباء ألا خمس ما كان يتكلف المصباح القديم، أو الذي نرجو أن نسميه في القريب العاجل قديماً. وهم يعدوننا أنه لا يمضي شهر حتى تضاء أميال من الطرق بجوار لندن بهذا الضياء الجديد. وهم يعدوننا أنه لن تمضي سنوات حتى يستعاض بمصابيح الشوارع وما يحملها من عمد طويلة بأنابيب متواصلة من هذا الضياء تمد على الأرض على جانب الطرقات. فلا يكون ثمة حاجة إلى إنارة العربات والسيارات في الليل أو في النهار الذي صنعه الإنسان.

القصص

أديب

للدكتور طه حسين

- 1 -

زعموا أن من أظهر خصائص الأديب حرصه على أن يصل بين نفسه وبين الناس، فهو لا يحس شيئا إلا أذاعه، ولا يشعر بشيء إلا أعلنه. وهو إذا انظر في كتاب أو خرج للتروض أو تحدث إلى الناس فأثار شيء من هذا في نفسه خاطرا من الخواطر، أو بعث في قلبه عاطفة من العواطف، أو حث عقله على الروية والتفكير لم يسترح ولم يطمئن حتى يقيد هذا الرأي أو تلك العاطفة أو ذلك الخاطر في دفتر من الدفاتر أو على قطعة من القرطاس. ذلك لأنه مريض بهذه العلة التي يسمونها الأدب، فهو لا يحس لنفسه وإنما يحس للناس. وهو لا يشعر لنفسه وإنما يشعر للناس، وهو لا يفكر لنفسه وإنما يفكر للناس، وهو بعبارة واضحة لا يعيش لنفسه وإنما يعيش للناس. وهو حين يأتي من الأمر هذا كله يخادع نفسه أشد الخداع ويضللها أقبح التضليل. فيزعم أنه مؤثر لا يريد أن يستمتع وحده بنعمة الإحساس والشعور والتفكير، وإنما يريد أن يشرك الناس في هذا الخير الذي تنتجه طبيعته الدقيقة الخصبة الغنية، فإذا كان متواضعا معتدل الرأي في نفسه فهو شقي تعس محزون يجب أن يعلن إلى الناس ما يجد من شقاء وتعس وحزن. لعلهم يرثون له أو يرأفون به أو يشفقون عليه، وربما لم ير في نفسه إيثارا ولم يحسس أنه شقي، وإنما آثر نفسه بالخير وأحبها قليلا أو كثيرا فهو يسجل ما يحس وما يشعر وما يفكر ليحفظه من الضياع، وليستطيع العودة إليه من حين إلى حين كلما خطر له أن يستعرض حياته الماضية. وكثيرا ما تعرض له الفرص التي تحمله على أن يستعرض حياته الماضية، والذاكرة قصيرة ضعيفة. فلم لا يسجل خواطره وعواطفه وآراءه التي يتكون منها تاريخه الفردي الخاص ليعود إليه كلما دعاه إلى ذلك جد الحياة أو هزلها، وما أكثر ما يدعو جد الحياة وهزلها إلى أن يستعرض الإنسان حياته الماضية وما اختلف عليه فيها من الأحداث.

يخدع الأديب نفسه هذه الضروب من الخداع. ويعللها بهذه الألوان من التعللات، وحقيقة الأمر أنه يكتب لأنه أديب لا يستطيع أن يعيش إلا إذا كتب، يكتب لأنه محتاج إلى الكتابة

كما يأكل ويشرب ويدخن لأنه محتاج إلى الطعام والشراب والتدخين. وهو حين يكتب قلما يفكر فيما يحسن أن يكتب، وما ينبغي ألا يعرفه القرطاس أو يجري به القلم، كما

أنه حين يأكل ويشرب ويدخن قلما يفكر فيما يلائم صحته وطبيعته ومزاجه من ألوان الطعام والشراب وأصناف التبغ؛ إنما هي حاجة تضطره إلى الحركة فيتحرك، وتدفعه إلى العمل فيعمل. فأما عواقب هذه الحركة ونتائج هذا العمل فأشياء قد يتاح الوقت للتفكير فيها في يوم من الأيام حين تصبح أمرا مقضيا لا ينصرف عنه، ولا سبيل إلى التخلص منه.

إذا كان هذا كله صحيحاً، وأكبر الظن أنه صحيح، فيجب أن يكون صاحبي الذي أريد أن أتحدث إليك عنه أديبا، فلست أعرف من الناس الذين لقيتهم وتحدثت إليهم رجلا أضنته علة الأدب واستأثرت بقلبه ولبه ونفسه كصاحبي هذا، كان لا يحس شيئا ولا يشعر شيئاً ولا يقرأ شيئاً ولا يرى شيئاً ولا يسمع شيئاً إلا فكر في الصورة الكلامية، أو بعبارة أدق في الصورة الأدبية التي يظهر فيها ما أحس وما شعر وما قرأ وما رأى وما سمع. وكان يجد مشقة شديدة في إخفاء تفكيره هذا على الناس، فكثيرا ما كان يقول لأصحابه إذا رأى شيئا أسخطه أو أرضاه: ما أخلق هذا الشيء أن ينشئ صورة أدبية ممتعة للسخط أو الرضى، وكان يقضي نهاره في السعي والعمل والحديث حتى إذا انقضى النهار وتقدم الليل وفرغ من أهله ومن الناس وخلا إلى نفسه أسرع إلى قلمه وقرطاسه وأخذ يكتب ويكتب ويكتب حتى يبلغ منه الإعياء. وتضطرب يده على القرطاس بما لا يعلم ولا يفهم، وتختلط الحروف أما عينيه الزائغتين، ويأخذه دوار، فإذا القلم قد سقط من يده، وإذا هو مضطر إلى أن يأوي إلى مضجعه ليستريح، ولم يكن نومه بأهدأ من يقظته، فقد كان يكتب نائماً كما كان يكتب يقظاً، وما كانت أحلامه في الليل إلا فصولا ومقالات، وخطبا ومحاضرات، ينمق هذه ويدبج تلك كما كان يفعل حين كانت تجتمع له قواه العاملة كلها، وكثيرا ما كان يحدث أصدقاءه بأطراف غريبة قيمة من هذه الفصول والمقالات التي كانت تمليها عليه أحلامه فيجدون فيها لذة ومتاعا، وكثيرا ما كان يقرأ عليهم فصولا من النثر ومقطوعات من الشعر أملتها عليه يقظته وسجلتها يده حين كان يخلو إلى نفسه بعد أن يكون قد ملأ عينيه وأذنيه وحسه وشعوره وقلبه وعقله بما يحيط به من الأشياء، وبما يمسه من الناس ومن الحياة، وكان أصدقاؤه إذا سمعوا منه هواجس الأحلام أو خواطر اليقظة ألحوا عليه أن يذيع ذلك وينشره، فيبتسم ثم يهزأ ثم يمتنع عليهم ويلح في الامتناع، لأنه كان يؤمن بأن ما يكتبه لم يصل بعد إلى أن يكون خليقا بأن يقدم إلى المطبعة، فهو كان يخاف المطبعة ويكبرها ويحيطها بشيء من التقديس غريب، وكان يتحدث بأن ما يقدم إلى المطبعة من الآثار المكتوبة أشبه شيء بما كان يقدمه الوثنيون القدماء إلى آلهتهم من الضحية والقربان، وبما يتقدم به الآن المؤمنون المترفون إلى إلههم من الصلاة والدعاء. فمن الحق أن تصطفى الضحية وأن يتخير القربان، وأن تكون الصلاة قطعة من النفس، وأن يكون الدعاء صورة للقلب، والعقل جميعا، وكان صاحبنا يرى أن ليس فيما كتب ضحية تصطفى، ولا قربان يختار، وانه لم يوفق بعد إلى أن يودع القرطاس قطعة من نفسه، أو يسطر عليه صورة قلبه وعقله، فما زالت الآماد بينه وبين المطبعة بعيدة، وما زالت الأستار والسجف دونه مسدلة، فليكتب إذا لنفسه لا للمطبعة، فإذا ضاق بنفسه وبما تملي فليظهر أصدقاءه على شيء منه ليرضي هذه الحاجة القوية التي نحسها جميعا إلى أن نشرك الناس فيما نجد من حس أو شعور، والحق أن صاحبي لم يكن يقدم على هذا الا كارهاً مضطرا حين لا يجد بداً من الاقدام، أو حين يسأله أصدقاؤه عما أحدث بعدهم، وكان حياؤه يمنعه من إظهار عقله وقلبه، كما يمنعه من عرض جسمه عاريا على الناس، ولكن أصدقاءه لم يكونوا في حاجة إلى أن يروا شخصه عاريا، وكانت حاجتهم شديدة إلى أن يروا نفسه كما هي، لأنها كانت جميلة خلابة تروعهم حينا وتثير في نفوسهم الحب والمودة دائما.

كان قبيح الشكل نابي الصورة تقتحمه العين ولا تكاد تثبت فيه، وكان إلى القصر أقرب إلى الطول، وكان على قصره عريضاً ضخم الأطراف مرتكبها، كأنما سوى على عجل فزادت بعض أطرافه حيث كان يجب أن تنقص، ونقصت حيث كان يحسن أن تزيد، وكان وجهه جهما غليظاً يخيل إلى من رآه أن في خديه ورما فاحشا، وكان له على ذلك أنف دقيق مسرف في الدقة، منبطح غال في الانبطاح، قد اتصل بجبهة دقيقة ضيقة لا يكاد يبين عنها شعره الغزير الجعد القاصم، لم تكن قد تقدمت به السن بل لم يكن جاوز الثلاثين، ولكن علامات الكبر كانت بادية على وجهه وقده لا يخدع عنها أحد،

كان على قصره مقوس الظهر إذا قام، منحنياً إذا جلس، ولعل إدمانه على الكتابة والقراءة وإسرافه في الانحناء
على الكتابة أو القرطاس هما اللذان شوها قده هذا التشويه، وقلما كان وجهه يستقيم أمامه، إنما كان منحرف العنق دائما إلى اليمين أو إلى الشمال؛ وقلما كانت عيناه الصغيرتان تستقران بين جفونه الضيقة، إنما كانتا مضطربتين دائما لا تكادان تستقران على شيء حتى تدعاه مصعدتين في السماء، أو تنحرفا عنه إلى ما يليه من إحدى نواحيه. ولم يكن صوته عذبا ولا مقبولا، وإنما كان غليظاً فجاً، ولكنه مع ذلك لم يكن يخلو من نبرات حلوة تجري عليه إذا قرأ شيئا فيه تأثر وانفعال، وكان له ضحك غليظ مخيف يسمع من بعيد، بل كان كل ما يصدر عن صوته غليظاً مخيفاً، يسمع من بعيد، ولم يكن للنجوى معه سبيل، وكثيرا ما ضايقه ذلك حين كان في باريس، وكثيرا ما حمل ذلك الناس عامة وأصدقاءه خاصة على أن يضيقوا به ويجتنبوه إذا لقوه في قهوة أو ناد أو ملعب من ملاعب التمثيل. وهو على رغم هذا كله كان أحب الناس ألي وأكرمهم علي وآثرهم عندي وأحسنهم مسلكا إلى نفسي ومنزلا من قلبي، كان يزورني فانصرف إليه عن كل شيء، وأقضي معه الساعات، فإذا تركني خيل ألي أني لم أقض معه الا اللحظات القصار. وكنت إذا أعياني الدرس واحتجت إلى الرياضة أو الراحة، آثرت زيارته والتحدث إليه والاستماع له على كل ما كانت تقدم إلى القاهرة أو باريس من أنواع الرياضة والراحة.

- 2 -

فقد عرفته في القاهرة قبل أن يذهب إلى باريس ثم أدركته إلى باريس بعد أن سبقني إليها، عرفته مصادفة وكرهته كرها شديدا حين لقيته لأول مرة؛ كنا في الجامعة المصرية القديمة في الأسبوع الأول لافتتاحها وكنت أختلف إلى ما كان يلقى فيها من المحاضرات حريصاً عليها مشغوفاً بها معتزماً أن لا أضيع حرفاً مما يقول المحاضرون. وكان مجلسي لهذا دائماً قريبا من الأستاذ، فأني لمصغ ذات ليلة إلى الأستاذ وإذا بصوت من ورائي ينطلق بالحديث هادئا ولكنه، على هدوئه يغمر أذني جميعا، ويكاد يخفي علي صوت الأستاذ، فأجد في التخلص منه فلا أفلح، وأضيق بهذا الصوت ويضيق به صاحباي اللذان يكتنفانني، فنلتفت إلى صاحب الصوت نطلب إليه الصمت فلا يسكت الا ريثما يستأنف الحديث، ونراجعه مرة أخرى فلا يحفل بنا، فنشكوه إلى الأستاذ فيضطره الأستاذ إلى الصمت، حتى إذا انتهت المحاضرة وخرجنا من غرفة الدرس رأيناه قد وقف لنا ينتظرنا، فيعرض لنا في غلظة، فإذا زعمنا له أن من حقنا أن نسمع الأستاذ، وأن ليس له أن يصرفنا عنه قهقه قهقهة مخيفة، وقال في صوت ما نشك أن الأستاذ قد سمعه: (وماذا تريدون أن تسمعوا؟ ولكنكم معذورون، جئتم من الأزهر فكل شيء عندكم قيم، وكل شيء عندكم جديد). واجتهدنا بعد ذلك في أن نجتنب مكانه من غرفة المحاضرات، وأن نختار لأنفسنا مجلساً بعيداً منه أقصى غاية البعد. تركناه ولكنه لم يتركنا، وكأنما عمائمنا كانت تغريه بنا وتحرضه علينا، فلم نكن نخرج من محاضرة حتى يعرض لنا ويأخذ بجبتي أو قفطاني وهو يسألني (أأعجبتك المحاضرة؟) فان قلت (نعم) قال: وماذا أعجبك منها؟ وهل فهمتها على وجهها؟ وكان يقول لي: هون عليك من هذا الحرص على المحاضرات، ولا تتهالك عليها هذا التهالك، فهي أقل غناء مما تظن وخير لك أن تقرأ من أن تسمع، فلما ألح علي في ذلك سألته وإذا كنت ترى هذا الرأي فما اختلافك إلى الجامعة؟ وما استماعك للمحاضرات وما تهويشك علينا بصوتك العالي وحديثك الذي لا ينقطع؟ فضحك وقال: الجامعة شيء جديد أحب أن أراه، وقد سئمت القهوة، ولو لم يكن في الجامعة الا أنت وأصحابك هؤلاء الذين تتفتح عقولهم للعلم الحديث فيتلقون ما يسمعون في كلف ونهم مصدرهما الجهل العميق، لكان هذا كافيا لأن اختلف إلى الجامعة واستمع للمحاضرات. ثم سألني ذات يوم: أين تقيم؟ أجبته: أقيم في حي كذا. قال: ومع من تقيم؟ قلت: مع جماعة من الأهل والأصدقاء كلهم يطلب العلم في الأزهر أو في المدارس المدنية، قال: إن منزلك بعيد وليست بيئتك بالتي تحب، فأنا لا أحب مجالس الطلبة، وأنا مع ذلك حريص على أن أجلس معك وأتحدث إليك فأطيل الحديث، بل أنا حريص على أن أقرأ معك بعض الكتب، فلابد إذا من أن نلتقي، ومن أن نلتقي في نظام واطراد فليكن ذلك عندي، ولك علي أن أردك إلى أهلك وأصدقائك

قبل أن يتقدم الليل، ودون أن تجد في ذلك مشقة أو تحتمل فيه عناء. وكان يقول هذا بصوته الغليظ العريض في لهجة الحازم الواثق بأن أمره سيطاع، وقد هممت أن أرد عليه معتذراً، وما كان أكثر المعاذير! فلم أكن أستطيع أن أسهر ولا أتعرف إلى أحد دون إذن من أخي، وكان علي أن أغدو مع الفجر إلى درس الأصول، ولم يكن بد من أن أستعد لهذا الدرس وغيره من دروس الأزهر، وأن أعوض هذا الوقت الذي أضيعه كل مساء في الجامعة على كره من أخي في القاهرة وأسرتي في الريف. هممت أن أعتذر ولكنه لم يمهلني ولم يتح لي أن أقول حرفا، وإنما استوقف عربة ودفعني فيها دفعا وأمر خادمي الأسود الصغير أن يجلس إلى جانب السائق، وجلس هو إلى جانبي وقال للسائق بصوته الغليظ العريض: إلى القلعة، وكنت أسكن في أقصى الجمالية، فلما أخذت أقدر بعد الأمد بين داره وداري، وهممت أن أتكلم وضع يده على كتفي وقال: ألم أقل لك أني سأردك إلى حيث تقيم؟!

- 3 -

وقطعت بنا العربة أحياء مختلفة، ومضت بنا في أجواء متباينة وكنت أحس اختلاف الأحياء وتباين الأجواء فيما يصل إلي من أصوات الناس وحركاتهم، ومن اضطراب الأشياء من حولنا كما كنت أحس ذلك في سير العربة نفسها وفي لهجة السائق وهو يدفع الناس أمامه ويطلب أن يتنحوا له عن الطريق، أو أن يجنبوا أنفسهم خيله وعربته.

كان الحي رشيقاً أنيقاً، وكان الجو سمحاً طلقاً، وكانت الحركات والأصوات من حولي لا تخلو من شدة وعنف، ولكن فيها ظرفا وتأنقا، حتى إذا بلغنا شارع محمد علي ضاقت الطريق واشتد أمامنا الزحام وكثر من حولنا الصياح، وأخذت أصوات الأطفال ونساء الشعب تختلط بأصوات الرجال من العمال وسائقي عربات النقل، وانتشرت في الجو روائح ثقيلة تمتاز منها روائح البصل والثوم وقد أخذت تعمل فيهما النار، وارتفع صوت السائق واتصل، وكثر نذيره، وتحذيره وكثر من حوله لوم الناس له وتأنيبهم إياه، وتردد في الهواء هذا الصوت المعروف الذي يحدثه السائقون بأسواطهم حين يأتون بها هذه الحركة التي يرعون بها الخيل وينبهون بها المارة، ثم تتفسح الطريق وتتسع، ويصفو الجو، ويخف الهواء، وتهدأ الحركة، ويتنفس السائق مطمئنا، وتمشي الخيل رفيقة، ولكن ذلك لا يطول إلا ريثما تنعطف العربة ذات اليمين، وإذا نحن في حارة ضيقة هادئة قد ثقل فيها الهواء وفسد فيها الجو وكثرت في أرضها الأخاديد فالعربة تقفز بنا قفزا والسائق يهز سوطه في الهواء ويحذر وينذر في هدوء ورضى، ويدعو ذلك بعض النوافذ إلى أن تفتح، ويثير ذلك بعض الصبيان فيخرجون من بيوتهم أو من أوكارهم يبيتون بالسائق، ومنهم من يتعلق بالعربة ثم ينصرف عنها، ونحن نضحك من هذا كله ونضحك من السائق خاصة وهو ينظر أمامه ويلتفت وراءه ويضرب الهواء بسوطه ويطلق لسانه بألفاظ ترق حتى

تبلغ المداعبة الحلوة، وتغلظ حتى تصل إلى الشتم القبيح، وكل ذلك يصل إلى نفسي فيحدث فيها آثارا مختلفة، ولكنها على اختلافها تتفق في شيء واحد هو الطرافة لأني لم أكن تعودت ركوب العربات، ثم يقف السائق فجأة وننزل من العربة، وإذا صاحبي يقول لي لم نبلغ البيت بعد، ولكننا انتهينا إلى حيث لا تستطيع العربة أن تمضي، فهل تعودت التصعيد والرقي في الجبل، فأنا لا أحب أن أسكن في السهل المنبطح فأكون كغيري من الناس، وإنما أحب أن أشرف على القاهرة وأن أخيل إلى نفسي أني لست منغمسا فيها وأني أدخلها إذا غدوت إلى عملي مع الصبح وأخرج منها إذا رحت إلى بيتي مع الليل، ولست أخفي عليك أني أجد لذة قوية حين أدخل المدينة مع النهار هابطاً إليها من هذه الربوة كأني أغزوها وأسقط عليها سقوط النسر على فريسته، وأجد لذة أخرى ليست أقل من تلك اللذة قوة حين أمضي النهار كله في المدينة مضطرباً مع الناس فيما يضطربون فيه من عمل، خائضا مع الناس فيما يخوضون فيه من حديث، مشاركا للناس فيما يأتون من خير وشر، نافعاً ضاراً منتفعاً محتملاً للضرر، حتى إذا كان المساء ضقت بهم وضاقوا بي وأويت إلى جامعتكم هذه الجديدة أريح نفسي بما اسمع من كلام فيه الممتع وفيه السخيف، ولكنه على كل حال ليس بذي غناء، حتى إذا أخذت بحظي من هذه الراحة الأولى رحت إلى بيتي فلا تسل عن هذا الشعور العذب الذي ينبسط على قلبي شيئا فشيئا، كلما دنوت من هذا المكان أحس

كأني أنسل من المدينة وأتخفف من أثقالها وألقي آثامها من ورائي وأطهر جسمي ونفسي من أوضارها وأدرانها حتى إذا رقيت هذه الربوة وبلغت قمتها هذه (وكنت قد أحسست الجهد من الصعيد في طريق عالية ملتوية) وقفت وقفة من كان في مكروه فخلص منه، وأرسلت زفرة يخيل ألي أنها تحمل بقية ما علق بنفسي من شر المدينة، ثم تنفست ملء رئتي مرة ومرة ثم أقبلت هادئا مطمئنا قصير الخطى إلى هذا الباب. وهنا وقف ودق الباب دقتين ففتح لنا ثم أغلق من دوننا.

رحلة إلى دير طور سينا

للأستاذ الدمرداش محمد مدير إدارة الامتحانات والسجلات وزارة المعارف.

2

ها قد وصلنا بعد ثلاثة أيام وبعض اليوم على ظهر مطية القرن العشرين ونحن على أحسن حال، فترجلنا أمام الباب وأرسلنا إذن الدخول إلى المطران مع أحد خدمة الدير، وبعد برهة خرج إلينا أحد القساوسة فرحب بنا ثم قادنا إلى دهليز ضيق كمداخل الطوابي انتهى إلى طريق صاعد، ثم إلى طرقة تطل على كنيسة، ثم ارتقينا سلما انتهى إلى باحة مكشوفة فيها حجرة استقبلنا فيها واقفا رئيس الدير، وبعد أن صافحنا جلس وجلسنا على مقاعد وثيرة، بعد تبادل عبارات التحية والترحيب دخل الخادم يحمل بين يديه صينية من الفضة عليها كؤوس صغيرة بها شراب الزبيب، فطاف بها علينا، ثم خرج وعاد يحمل صينية أخرى عليها أقداح كبيرة فيها قهوة لم أذق ألذ منها، ثم وفد إلى الحجرة قساوسة الدير بملابسهم الكهنوتية السوداء، وقبعاتهم العالية، وكان عددهم ثمانية، فحيونا ببشاشة ولطف، وجلسوا على المقاعد القريبة من الرئيس، وبعد حديث قصير وأسئلة شتى وقف الرئيس وانصرف إلى مكتبه، وقادنا القسوس إلى الأماكن المعدة لنزولنا، وهي صف طويل من الحجرات أمامها ممشى مسقوف ويتوسطها دورة مياه ومطبخ وحجرة للمائدة. والحجر كثيرة الأثاث والرياش، ففيها الأسرة والمقاعد والدواليب والصور وأرضيتها مغطاة بالسجاجيد والأبسطة، وحجرة المائدة كاملة المعدات، وبالجملة قد توافر في مكان الضيافة جميع وسائل الراحة مع النظافة وحسن الترتيب.

ونوافذ الحجرة تطل من علو شاهق على مدخل الدير وحديقته، وتشرف على الجبال والوديان والمسالك لمسافة بعيدة.

وبعد أن استرحنا وتناولنا الغداء تفرقنا في نواحي الدير للفرجة وخرجت أنا وأربعة من الرفاق نصعد إلى قمة جبل المناجاة أو جبل موسى عليه السلام.

وتبدأ الطريق المؤدية إلى القمة من قاعدة الدير في الجهة الجنوبية صاعدة رأسية تقريبا على درج من حجر مرصوص يشبه الدرج العادي، وقد مكثنا نصعد هذه السلالم نحو

ساعتين ونحن نلهث لهثا شديدا من فرط ما أصابنا من الإعياء، وقبل بلوغنا القمة اجتزنا فجوة في الجبل دخلنا منها إلى رحبة فيها كنيسة وحديقة صغيرة ينمو فيها شجر السرو، تسقى من نبع يفيض ماؤه العذب على جوانب الصخر.

استرحنا قليلا ثم استأنفنا الصعود، وبعد نصف الساعة تقريبا وقفنا على قمة جبل موسى، وهي على ارتفاع 2200 متر من سطح البحر (نحو 8000 قدم) وكان الهواء باردا والسماء صافية والشمس تؤذن بالمغيب. فأجلنا النظر فيما حولنا، فكان منظرا ساحرا بديعا لم تر العين أجمل منه، فضوء الشمس ينعكس على القمم بلون أحمر كلون الشفق، وعلى جوانب الجبال بلون أزرق قاتم كالدخان وبلون أحمر مشرب بالزرقة على الربى والتلاع، وفي الجنوب البعيد ماء البحر الأحمر يتلألأ تحت أشعة الشمس، ومن تحتنا تتقابل الوديان وتتقاطع متجهة كل صوب كأسارير الوجه العجوز فلما عدت إلى نفسي وجدتني مسند الظهر إلى حائط مسجد صغير، وعلى بعد خطوات منه كنيسة صغيرة كذلك، فلم أتمالك ان دخلت المسجد أنا وصديقي الأستاذ فريد أبو حديد (ألبسه الله ثوب العافية) وركعنا لله ساجدين بقلوب خاشعة ونفوس طافحة بالذكريات التاريخية والدينية، وعند خروجنا من المسجد لمحنا جماعة من البدو رجالا ونساء وأطفالا وقد جلسوا في وهدة تحت جدار المسجد من جهته المقابلة، حول نار أوقدوها للتدفئة فلما رأونا هبوا إلينا مهللين مكبرين، فصافحناهم وتبادلنا وإياهم

التحيات والتمنيات، ثم سألناهم عن سبب وجودهم، هنا في هذا البرد القارص، فقالوا قد جرت العادة من قديم الزمان أن نجتمع هنا يوم وقفة عيد الأضحى المبارك، ثم نقضي الليلة، وفي الصباح نصلي صلاة العيد في هذا المسجد العتيق وننحر وبعد تبادل التهنئات والدعوات الصالحات نتفرق عائدين إلى ديارنا.

ملأنا العين بهذه المناظر الفريدة ثم عدنا أدراجنا إلى الدير وقد غابت الشمس وظهر القمر، فكان الهبوط أسهل من الصعود وأكثر خطرا بسبب الظلام.

في صباح اليوم الخامس جلنا في الدير ومشتملاته وملحقاته. فالدير نفسه من حيث هندسته وأسواره وطرقاته ومخابئه وأقبيته وسلالمه الحلزونية الكثيرة وأبراجه وعيون المدافع ومواضعها أكثر شبها بالحصن منه بالدير، والحقيقة أنه بني ليكون معقلا للرهبان يقيهم غزوات البدو، والمشهور أنه بدئ في تشييده سنة 527 ميلادية أثناء حكم الإمبراطور البيزنطي يوستينيانوس.

يبلغ طول الدير نحو 300 متر وعرضه نحو 200 متر وارتفاعه في المتوسط نحو 15 مترا وهو مبنى بحجر الجرانيت المنحوت، ويوجد في فنائه كنيسة كبيرة ينزل إليها بسلالم، وهي عامرة بالتحف الثمينة من شمعدانات وثريات ومصورات وما إلى ذلك من الأشياء الكنسية ذات القيمة الغالية، والكنيسة أفخر مباني الدير وأجملها من حيث المباني والزخرف، ولها برج عال معلقة فيه الأجراس النحاسية الكبيرة، وتقام فيها الشعائر الدينية في أوقاتها.

وفي الجهة الشرقية من الدير صوامع الرهبان، وهم لا يخرجون منها الا نادرا، وقد تقابلت مصادفة بواحد منهم أثناء تجوالي في الدير فرأيته شيخا ضعيفا لا يقوى على السير الا بصعوبة، وبمجرد أن وقع نظره علي أسرع إلى أقرب صومعة واختفى فيها بحالة عصبية دهشت لها، وعدد رهبان الدير الآن لا يزيد على العشرين مع أن عددهم قبل الحرب كان كبيراً، وهم من شعوب مختلفة، معظمهم من روسيا والأمم السلافية الأخرى، وليس لهؤلاء الرهبان من عمل في الدير إلا النسك والعبادة، أما شئونه الأخرى من إدارة وإقامة شعائر وحراسة فهي من وظائف القساوسة. وبالقرب من الكنيسة وفي مستو أعلى منها جامع أثرى صغير مفروشة أرضه بالبسط، وفيه منبر صغير ويلتصق بالجامع مئذنة مرتفعة. وهو يفتح للصلاة في أوقاتها الخمسة.

وفي أقباء الدير شاهدت طاحونة يديرها بغل، وبجوارها مخبز يصنع فيه الخبز اللازم لرجال الدير وللتوزيع على البدو على حسب العادة التي جرى عليها الرهبان من زمن بعيد.

وفي الجهة الشمالية حجر القساوسة ومكتبة الدير وكانت مغلقة. وأمام الدير حديقة واسعة منسقة تنسيقا حسنا، وبها كثير من أشجار السرو والتين والزيتون والموالح والكروم، ومزروع فيها شتى البقول والخضر والزهور الجميلة، وفي ناحية منها كنيسة الجماجم، وهو بناء حديث جمعت فيه جماجم وعظام الرهبان والقساوسة الذين توفوا بالدير من عصور بعيدة. وقد رصت فيها صفوفا بعضها فوق بعض ووضع في صناديق خاصة تكريما لأصحابها، أما لمكانتهم الكهنوتية أو لقيامهم أثناء حياتهم بعمل مجيد للدير.

ويسقى الدير والحديقة من عيون عذبة على شكل آبار قليلة الغور. وبعد ظهر هذا اليوم تفرقنا نجوس خلال الوديان القريبة، ومن أجمل المشاهد منظر الصوامع المنتشرة بين الربى على الجبال المحيطة بالدير، وترى بجانب كل صومعة شجرة سرو طويلة أو نخلة تسقى من نبع أو ثؤلول يسيل ماؤه على الصخر فيفيض في المنخفضات والثقوب، وفي الوصول إلى هذه الصوامع صعوبة لوعورة الطريق أو انزلاقها أو انحدارها الشديد، وللقساوسة حكايات ونوادر ظريفة طريفة يروونها عن تاريخ كل هذه الصوامع أو المشاهد لا يقع المجال هنا لسردها.

وفي صباح اليوم السادس قفلنا راجعين إلى القاهرة فوصلناها سالمين مغتبطين في مساء السابع.

الكتب

في الصيف لطه حسين

بعد (الأيام) دليل بعد دليل على ملكة أخرى كانت مجهولة في هذا الذهن (في الصيف)

العجيب! فقد كان عهد الناس بصديقنا طه عالما غزير البحر، وباحثا جريء الرأي، وناقدا نافذ البصيرة، وجدليا دامغ الحجة؛ أما الكاتب الذي يستشف بالإلهام حجب الغيب، وينمق بالخيال صور الحقيقة، ويحيي بالعاطفة خمود الفكرة، فظل مغموراً بين الأديب الذي يبحث في ضوء العقل، والأستاذ الذي يدرس في حدود العلم، فلم يكد يظهر الا في صفحات من ذكرى أبي العلاء نسي فيها المعري وذكر نفسه، وفي مقالات نشرت في السفور صور فيها عواطفه وحسه، حتى نشرت (الأيام) فعجب الناس أن يكون وراء هذا العقل المتمرد هذا القلب الشاعر، واقبلوا في دهشة يتعرفون إلى طه التلميذ والأخ والزوج والوالد، ويتحدثون إليه في منازله ومباذله وبين أهله، فيجدون من اللذة في أحاديثه، أمثال ما وجدوا من الفائدة في بحوثه. ثم جاء كتاب اليوم قاطعا في الدلالة على بلوغ هذه الشخصية الأدبية الغاية في كل ناحية من نواحي الأدب، حتى الناحية التي لا يغنى فيها الخيال عن الواقع، ولا السماع عن النظر!

قرأ (في الصيف) أديب كبير فطلب إلى طه في شيء من الدعابة أن يترك العلم إلى القصص، وتقرأ أنت (في الأدب الجاهلي) فتقول هذا اختصاصه وتلك مادته، ولعلك إذا سمعته يحاضر أو قرأته يناظر تقول هذا عمله وهذه غايته. وأبلغ آيات العبقرية أن تكون في كل مادة أصيلة، وفي كل موضوع سامية، وفي كل غاية مبرزة.

طه قصصي من طراز خاص، أو هو لم يشأ إلى اليوم أن يكون على غير هذا الطراز.

فالأيام وفي الصيف طوائف شتى من الذكريات والتأملات والملاحظات أنثالت في وقت الفراغ على ذهن شديد النفاذ، وفكر دقيق الملاحظة، وشعور صادق الحس، ثم ألف بينها خيال كروح المنطق فيه لذة وفيه عقل، وأبان عنها أسلوب كأسلوب الحديث فيه طلاوة وفيه فضل، ثم تقرأ قليلا وإذا بك متصل بالكتاب، مغمور بشعوره، مسحور بحديثه، مشغول بتفكيره، يخرج بك من موضوع إلى موضوع، وينقلك من موضوع إلى موضوع، دون أن يدع لك السبيل إلى استرجاع الذكريات التي هاجها بذكرياتها، واستقبال الخواطر

التي جددها بخواطره، فأنت منه كما تكون من البحر الداوي لا تدري بماذا استولى على مشاعرك؟ أبجلاله أم بجماله أم بسعته أم بروعته أم بكل أولئك جميعا؟ ثم تفرغ من القراءة وتعود إلى نفسك فتقول: ربما ولدت هذا المولد؛ ونشأت هذا المنشأ، ودرت هذه الدراسة، وسحت هذه السياحة، ورأيت هذه الصور، وعرضت لي مثل هذه الخواطر، ونعمت بمثل هذه الأسرة، ولكن أولئك كله جف في خيالي كما يجف نمير الماء في العود الذابل، ومات في خاطري كما يموت رنين الصوت في الصخر الأصم! ولكنها في الأيام أحيا ما تكون في ذهن، وفي كتاب (في الصيف) أزهى ما تكون في خيال!! ذلك إذن هو الفن الذي يخص الله به إنسانا دون انسان، وذلك إذن هو ما ينقص الناس فيجدونه في الفنان!!

لا يروعك منه الحادث، ولا تدهشك المفأجاة، ولا تشوقك العقيدة، ولا (في الصيف) تفتنك الصنعة، فانه كما قلت لك مجموعة من الذكريات والتأملات يتشقق بعضها كما تتشقق الأحاديث، وإنما يأخذ بلبك منه الصدق في تصوير الفكرة، والحذق في نقل الشعور، والنفس التي تشتد في المجتمع حتى تشتط، وترق في الأسرة حتى تضعف، والروح التي تحلق فوق الأحداث متمردة، وتخفض الجناح لأهواء الطفلين الحبيبين حانية، والألمعية التي تصور بالظن فلا تخطيء اليقين، وتسمو على جناح الخيال فلا تفوت الحقيقة، والأسلوب الذي يحار في تعريفه البيان المكتوب، وأقل ما يصفه به الكاتب العجلان أنه تفضيل في غير إملال، وبساطة في غير ابتذال، وتدفق في غير كدورة، وجدة في غير عجمة، وإهمال نادر يجره وتجرفه الحركة، ومذهب جديد كثر في ناشئة الكتاب من يحاول الجري عليه.

إن في هذا الكتاب صفحة ضاقت بما يضيق به القلب الصديق! نشرتها ظروف وستطويها ظروف، وسيطيل النظر فيها من يعني بفهم هذه النفس الكبيرة على حقيقتها، ودرس ما تتأثر به من العوامل في بيئتها، وان في هذا الكتاب صفحات على نحو ما في (الأيام) من ذكريات الأزهر، وأحاديث إخوان الصفا من طلابه، وآلاف الجمود من شيوخه، ولن يتذوق ما فيها من جمال الفن الا من حي هذه الحياة وشعر هذا الشعور، وان في هذا الكتاب صفحات خالدات لن تجد كثيرا من أمثالها في الأدب العالمي! تلك ما كتبت عن فرنسا عامة وعن الألزاس خاصة.

أما التحليل والتمثيل فلن يغنياك عن قراءته شيئا، وفي اعتقادي أن خير ما يسر به الإنسان نفسه أن يغيب عن دنياه في دنيا هذا الكتاب ساعة أو ساعتين!

الزيات

ضحى الإسلام أو أحمد أمين

- 1 -

إذا قرأت ضحى الإسلام عرفت أحمد أمين، وإذا عرفت أحمد أمين فكأنك قرأت ضحى الإسلام، وكمال المعرفة بالاثنين أن تفهمهما معا، لأنك لا تجد تلازما بين شيئين أشد مما هو بين هذا الرجل وما يكتب، فإذا ألف أو أنشأ مقالا أو ترجم فصلا ظل باقيا وراء كلماته، وخلال سطوره، يعرض عليك الصور، ويقرر لك الآراء، بطلعته الباسمة في غير افترار، ولهجته الحازمة في غير أمر، وعقله القوي في غير عنف، وطبعه الحيي في غير ضعف، وأسلوبه الهادئ في غير فتور فلا تدري أتقرأ أم تسمع، وكتاب في يدك أم رجل معك!

وهو في بروز الشخصية العلمية يتفق مع صديقه طه، ثم يختلف بعد ذلك عنه في كل شيء.

أستبن الجاحظ في أدبنا القديم، وأحمد أمين في أدبنا الحديث، ثم قل بعد ذلك فيما يشبه التعميم: أن كل كتاب متى أخرجه إلى الناس مؤلفه، يكاد من وهن الصلة به لا يعرفه، وإنما تظل مسائله في قلقها أشبه بالطيور المقنوصة، لا تفتأ نزاعة إلى الجو الذي عاشت فيه، وإلى الوكر الذي أخذت منه. فإذا كثر الحديث عن احمد أمين منذ ظهر فجر الإسلام، واستفاض هذا الحديث عنه منذ نشر ضحى الإسلام، فذلك لأن هذين الكتابين وحدهما فتح في الآداب العربية، ونصر للعقيدة الإسلامية، ومجد للعقلية المصرية، لم يهيئهما الله في الغابر والحاضر لهؤلاء الا على يد احمد أمين.

ومعاذ الله أن نهجم على الحق وندخل على القارئ برأي لا يقره الضمير ولا يرتضيه العلم، فقد قضينا العمر بين أشتات المؤلفات العربية، نكابد ما يكابد غيرنا من تناقض وتعارض وغموض، ثم عالجنا التأليف وبلونا ما يعانيه ناشد العلم في بيد دونها بيد، ثم قرأنا هذين الكتابين فأكبرنا فيهما الجهد الذي لايكل، والعقل الذي لا يضل، والبصيرة التي تنفذ إلى الحق من حجب صفيقة، وتهتدي إليه في مسالك متشعبة.

نشأ أحمد أمين نشأة أزهرية، ونعني بهذه النشأة ما يلازمها من نمط خاص في الحياة والتربية والدراسة والوجهة، ومن غريب هذه النشأة أنها تساعد على الهبوط كما تساعد على الصعود، فمتخرجو الأزهر إما قادة للشعب وإما حميلة عليه، لأن حرية التعليم فيه

كانت تهيئ كل نفس لما خلقت له: فهذا تعده ليكون قارئا في ضريح أو إماما في زاوية، وذاك تعده ليكون مستشارا في محكمة أو أستاذا في جامعة، واحمد أمين كمحمد عبده وسعد زغلول وطه حسين قد زوده الأزهر بخير ما فيه من صبر على الدرس. واتكاء على النفس، واستقصاء لأطراف البحث، ثم دفعه إلى الحياة دفعا فاستكمل ثقافته في مدرسة القضاء ثم اشتغل بالتعليم، ثم تولى الحكم بين الناس في المحاكم الشرعية، ثم ثقف على نفسه اللغة الإنجليزية، ثم تبوأ كرسيه في الجامعة المصرية، وها هو ذا بكتابيه يحتل مكان الزعامة العلمية.

إن ألمع ما في شخصية هذا الرجل متانة خلقه، ولأمر ما شغف منذ شب بتدريس (الأخلاق)، وترجمة (الأخلاق)، وتأليف (الأخلاق)، ولسر ما يتجدد انتخابه بالإجماع رئيسا للجنة التأليف والترجمة والنشر تسع عشرة مرة في تسع عشرة سنة متوالية!!

إن نجاح الأستاذ احمد أمين في الحياة نجاح للعلم وفوز للفضيلة، لأنه لم يعتمد في شهرته العلمية على الإعلان

و (التهويش). ولا في مناصبه الحكومية على الاستخذاء والملق. وإنما يجري في عمله على الأخلاص، وفي معاملاته على الحق، وفي علاقاته على الشرف. وما حياته الحافلة إلا مثل للحياة العاملة في غير ضجيج، الناصبة في غير ملل، المثمرة في غير غرور ولا دعوى، فهي أشبه شيء بالنبع السلسال العذب، يسيل حلو الخرير تحت شواجن الأدغال، وفوق مطمئن الأرض، فيروي العطاش ويمرع السهول، في غير هدير ولا صخب!

ذلك هو الكاتب، وأما الكتاب فنرجو أن نوفق إلى تحليله في العدد المقبل.

العدد 5 - بتاريخ: 15 - 03 - 1933
بين السوامر والصحف
أسير الجهاد:
بين عشية وضحاها نزل صديقنا الأستاذ محمد توفيق دياب من قصر صاحبة الجلالة الصحافة، إلى سجن المجرمين من سلاب الأموال وقتلة الأنفس، لأنه رأى رأياً في سياسة هذا البلد عن إخلاص وعقيدة فلم يقره عليه القانون القائم، وحاولت صاحبة الجلالة أن تعصمه من أمر القضاء بالرحمة، ومن تنفيذ الحكم بالعفو، ومن قسوة التنفيذ بالرجاء، فما رجعت بطائل. وظهر أن جلالة الصحافة كجلالة الحسن: رواء في العين، ولا سلطان في اليدين!!
إنا نؤمن بعدالة القضاء كما نؤمن بحكمة القدر؛ ولكن في السجن الموحش المظلم فُرجة قد ادخرها القانون لضحايا العدل؛ فإذا لم تتسع لأمثال دياب فلمن تتسع؟ أن الكاتب الذي يحرق مخه وعصبه ليضيء الطريق لشعبه، ويغذي حيوية قومه بعصارة عقله وقلبه، ولا يبتغي من وراء جهاده غير مرضات وطنه وربه، لجدير باحتمال قسوته إذا قسا، واغتفار زلته إذا زل.
أن خطأ الاجتهاد في الرأي لا يعتبر جريمة الا في اصطلاح القانون الذي تسنه الحكومات له، فإذا ما اتسعت الصدور، أو تبدلت الأمور، عاد العمل بالقول المأثور: للمجتهد أجران إذا أصاب، وأجر إذا اخطأ. فإذا كانت جريمة الأستاذ دياب من النوع الذي يحرُم هنا ويحل هناك، ويوجب العقوبة اليوم ويقتضي المثوبة غداً، فأن شديدا على الضمير أن يعامل في سجنه معاملة الجناة والعصاة، فيعيش في غير شكله، ويشتغل في غير شغله، ثم يحرم لذة الجسم فلا يستريح، ومتعة الروح فلا يقرأ، وحق المريض فلا يعالج.
درس في الإحسان:
زار صاحبا الجلالة الإيطالية وادينا الحبيب فحلاّ في ربوعه حلول السعادة، ونزلا من أهله منزل الاجلال، وأفاضا على عاصمته وصعيده غمراً من سراوة الملك، ونبالة الخلق، ثم اختصا فقراء الإسكندرية بقرابة ألف جنيه على ما روى المقطم، فكان هذا العطف السامي موضعاً للتفسير والتأويل، ومثالا لاختلاف العقول في الاستنباط والتعليل، فمن قائل أن صاحب الجلالة أراد تعميم الإحسان في أجناس بني الإنسان، والإسكندرية شبه دولية، ومن قائل أنه أراد تخصيصه، وكثرة الجالية الإيطالية، تنزل ربوع الإسكندرية. والأمر في كلتا الحالين مثل في شرف الغاية، لأن مبعث التعميم عاطفة الإنسانية، ومبعث التخصيص عاطفة الوطنية.
كلام طرآني:
ذكرنا في معرض الكلام عن أسلوب الأستاذ محمد بك مسعود أنه (منذ توفر على محاكاة الأستاذ وحيد في تحقيق اللغة، ومباراة شيخ العروبة في تمحيص التاريخ، بدت على أسلوبه الصحيح أعراض الغرابة التي تلازم اللغويين، والاعتداد الذي يساور العلماء).
وهذا الكلام كما ترى نزيه القصد بريء الدلالة. ولكن الأستاذ وحيدا وريث العجَّاج، وخليفة الزجَّاج قد طوع لنفسه أن يرد عليه في الأهرام بهذا الرد فقال:
جاء في مقال للأستاذ الكبير المفضال محمد مسعود هذا اللفظ (طرآني) فقال له) كاتب في صحيفة أغربت في الكلام إغراب وحيد وشيخ العروبة (يعني برهان العلم والأدب أحمد زكي باشا)
وأني أقول للكاتب رأى القارئون عدوته (بفتح العين وإسكان الدال) ليس الطرآني) من غرائب الكلام. وكفى قولي له أنك تراه من بلاغة اللغة في كتاب الزمخشري (أساس البلاغة) الذي قيل فيه: ومن خصائص هذا الكتاب تخير ما وقع في عبارات المبدعين. قال الأمام الزمخشري في أساس البلاغة: رجل طرآني، وحمام طرآني، لا يدري من أين جاء، وكلام طرآني الخ.
اجتزئ بقولي لكاتب (ذي عدوة) ما قاله الأعرابي: ليس هذا بغريب ولكنكم في الأدب (غرباء)
ونحن نقول بدورنا للأستاذ الجليل: لقد أغربتم فلم نفهم، وأفصحنا فلم تفهموا، فإذا كنا

في الأدب غرباء، فأنتم في اللغة أدعياء، أليس كذلك؟
وهذا أيضاً!
أخذ صديقنا الأستاذ أحمد أمين على بعض كتابنا أنهم إذا تناظروا تخاصموا، وإذا تناقشوا تشاتموا، ونسي أن يقول كذلك أنهم إذا نقدوا تلمسوا أسباباً للنقد تدل على سوء القصد،
وأحدث الأمثلة على ذلك أن الأستاذ (ع. ع) وهو أديب نابه لا يُتهم في علمه ولا في فهمه، قد كتب في البلاغ بمناسبة ضحى الإسلام يقول ما مؤداه: أن أدباءنا قد استمرءوا (مائدة العراق) فهم إذا كتبوا في الأدب كتبوا عن العراق، وإذا بحثوا في العلم بحثوا في العراق، ثم نعى على صاحب ضحى الإسلام أن يغفل مصر، وفيها أنشئ الأزهر، وإليها هاجر العلماء. ولو قرأ الأستاذ الكتاب لوجد فيه فصلا عن مدرسة الإسكندرية. بل لو قرأ المقدمة لوجد المؤلف يقول: (عنيت بضحى الإسلام المائة سنة الأولى للعصر العباسي) وفي هذه المائة سنة لم يكن أسس الأزهر ولا سقطت بغداد! ومن الغريب أن يقول الأستاذ للمؤلف: إن طول النظر مرض ذكرته الأطباء، وهو يعلم أن قصر النظر كطوله سواء بسواء!

خواطر وصور

المتردد

أعرف رجلا يعيش رخي الصدر آمن السِّرب في دار بهيجة وأسرة حبيبة ورفقة مخلصين، تلقى ذات يوم كتاباً من صديقين يدعوانه إلى رحلة خارج القطر كانت منذ زمن طويل منتجع خاطره ومهوى فؤاده، فوجد من فرصة الفراغ وجمال الربيع ووفاق الخليط مغرياً جديدا بها، ودافعاً شديداً إليها، وكان صديقاه يطلبان جواباً حاسما سريعاً.
فوقف الرجل بين الأمرين وقفة المتخير المتحير، لا يدري أيظل في هذا المكان المحبوب الذي يستبقيه، أم يرحل إلى ذلك البلد الجميل الذي يستدعيه؟
بدأ تردده هادئاً مقبولا كهدهدة المهد، ثم ما لبث أن عاد مزعجاً مملولا كاضطراب البحر. كان ترجُّحه بين الإقامة والظعن أشبه بتأرجح الزورق على الماء الهادئ يدفع إلى الأحلام والأوهام. والمتردد واسع الخيال كثير الفروض، فأخذ يقلب الأمرين في خاطره: يوازن بينهما منفردين، ويتمناهما مجتمعين، ويطمع أن يدركهما متعاقبين.
أزف الموعد والصديقان ينتظران الجواب إيجاباً أو سلبا، فلابد أن يخرج من عماية هذه الحيرة ليكتب إليهما، جلس جلسة الكاتب وأخذ أهبته للكتابة، ولكنه لم يكد يقر على الصحيفة يده حتى ساوره الشك فأمسك! واخذ فكره يتنقل بين المكانين، ويفاضل بين المعنيين، حتى انتهى به التردد إلى أيثار البقاء.
آثر البقاء لأن الصديقين ربطاه بعدة خفيفة، لا بكلمة شريفة، ولأن في المتردد جرثومة من جراثيم الكسل؛ المترددون أميل إلى الكف والاحجام، دون العمل والإقدام. ذلك إلى أن مخيلته الخصيبة قد انبتت له من الذرائع والأسباب ما وافق هواه: كيف يصدف عن مسرة هادئة أكيدة، إلى أخرى جديدة غير أكيدة؟ أنهم يمتدحون ذلك البلد الطيب هوائه وجمال مناظره، ولم يعلموا أن في الرحلة إليه والحلول فيه أضرارا تخاف وتحذر! أين يجد ما يعدل زوجته العزيزة وداره الجميلة وحديقته البهيجة؟ لقد أصبحت هذه الثلاث أجمل في نظره وأجمع لخيره منها قبل ذلك!
أليس من الحمق والجحود أن يغمط الإنسان مثل هذه السعادة؟ على أن هذا البلد بعيد الشقة، ولا بد للراحل إليه أن يبيت ليلة في القطار على فراش لا وثير ولا وطئ، أو يعبر البحر
متعرضاً لدواره وأخطاره، وإذا أصابه مرض في الطريق أو في الفندق فماذا تكون عاقبة أمره؟ ذلك فضلا عن الغذاء الدنيء والمسكن الوبئ والعناء المبِّرح.
أجمع صديقنا في الأمر رأيه، ووطن على البقاء نفسه، فكتب الكتاب بالرفض ودفعه إلى الخادم ليحمله إلى مكتب البريد القريب، ولكن الخادم لم يكد ينطلق بالكتاب حتى تحرك الشك في نفسه، وتغير المنظر الماضي في عينه، فكأنما سحر ناظره. أو تبدلت مشاعره!
ذلك البلد الذي استخف به منذ قليل تجلى لعينيه في صورة جذابة أنيقة، وتلك الأحاديث العجيبة التي سمعها عنه تواردت على ذهنه تباعا منمقة الحواشي بسحر جمال المفقود، وحب استطلاع المجهول، ثم تمثلت أمام عينيه فوائد تلك الرحلة

وملذاتها، فعاد باللائمة على نفسه! كيف عميت بصيرته عن هذه المنافع جمعاء؟ وكيف إعتاقه عن هذا الأمر مئونة الاتفاق والنصب؟ أن متاعب السفر هي الصحة والقوة والحياة! ولا شيء أذهب للعمر وأقتل للمرء من أن يظل قعيد بيته مخلداً إلى عيشة رغيدة وادعة. وحياة متشابهة مملة، تلك فرصة ما يحسب الدهر بمثلها يجود! رحلة ممتعة مفيدة! وإخوان صدق ملئوا ظرفا وعلما! أن ذلك الرفض ضرب من البله والجبن!

تحول ذلك التوبيخ أسى وحسرة، وبلغ به الحنق والشوق والخجل حد الهياج والقلق، فأهوى بيده إلى الجرس، وصاح بأحد الخدم أن يرد عليه الكتاب وحامله، فقال له: أن الخادم يا سيدي أنصرف إلى وجهه منذ ربع ساعة!

فارتد الرجل كاسفاً حزينا، وانقلب ما حوله مظلما قبيحا، واستولى الضجر على نفسه، وأصبح بيته الجميل الرحب أضيق في عينيه من كفة الحابل، ثم ما لبث أن عاد إلى نفسه وأخذ يفكر في جواب الخادم، فقرر أن المسافة إلى مكتب البريد يقطعها الخادم راجلا في ربع الساعة، فإذا قطعها هو على سيارة استطاع أن يوافيه قبل أن يضع الكتاب في صندوق البريد.

وما هو إلا رجع البصر حتى أنطلقت به السيارة يشق صوتها المزعج زحام الطريق؛ ولكنه لم يضع قدمه على عتبة البريد حتى كان الخادم خارجا منه وقد أنجز عمله!.

بهت صديقنا وكاد يستسلم لليأس لولا أن مر ذكر التلغراف على خاطره، فبرقت أساريره وقال:

أن الرسالة البرقية تصل قبل الكتاب فتنسخه. ثم أخذ طريقه إلى مكتب التلغراف وبدأ يكتب الرسالة، ولكنه ما بلغ الكلمة الرابعة حتى جمدت يده على الورقة! قال في نفسه: أن الرسالة البرقية كالكلمة الملفوظة إذا قيلت فلن تسترجع، وسأكون بها مقيدا مأخوذا، ألقى القلم وخرج من المكتب يتنسم الهواء، واخذ يمشي أمام الباب ذهابا وجيئة وهو يسائل نفسه: أيكتب أم لا يكتب؟

دقت الساعة دقتين فارتعد وقال: ما لي أتردد؟ يجب أن أقطع الرأي، فأن الوقت وأن طال لا يسع المطال، ثم فكر وقدر، فجاء برأي خليط مبهم لم يلبث أن نزل عنه، وظل واقفا يتصفح وجوه الآراء ليرى الرأي القاطع نصف ساعة كان فيها فريسة الهم والضجر!

إستقبح من نفسه هذا الضعف الشديد، فاقتحم المكتب، وأتم الرسالة ودفعها إلى العامل وهو يقول في نفسه: سأتبعها بأخرى إذا بدت لي في الأمر بداءة.

ثم انكفأ راجعا إلى بيته يستعد ويتأهب! واقسم أن منظر ذلك البيت الذي يريد أن يفارقه غدا سيحيي في مخيلته صورة رائعة الجمال شديدة السحر، وأن زوجه وكتبه وأزهاره وأشجاره ستملك عليه وجدانه. فلا يمنعه الخجل أن يصبح ناكثا ما أمرَّ وناقضا ما أبرم!

لعل في القراء من يحمل وصف هذا الرجل على المبالغة، ولكني أؤكد لهم أن مكانه من الصدق مكان صورته الشمسية.

أن التردد مرض من الأمراض لا يؤبه له لندرته. يصيب المرء في حياته العملية، فيغل يده، ويشل عقله، ويتركه فريسة للألم من ضعفه، والخجل من صحبه. تظهر أعراضه في صغار الأمور وكبارها، فيكون في انتقاء الثوب، واختيار الحالة، وفي الإقدام على الزيارة القصيرة، والرحلة الطويلة، ويدخل في لذاذات الرجل وأعماله، كما يدخل في أدباره وإقباله.

جرت بين هذا الصديق نفسه وبين زوجه هذه المحاورة منذ اسبوع، فأنا أنقلها إليك بنصها لتزداد به معرفة.

قال وهو يهم بالخروج إلى مكان عمله:

- زينب! اتشيرين علي بأن آخذ مظلتي؟
- افعل يا علي ما تشاء.
- أتظنين أن السماء تمطرنا اليوم؟
- وما يدريني؟
- آخذها والسلام!
- حسناً تفعل.

- ولكنها تضايقني إذا لم تمطر السماء.
- دعها إذن!
- ولكن المطر إذا نزل بلل طربوشي وثوبي.
- خذها إذن!
- ما هذه الحماقة؟ وما هذا التردد بين الأمر والنهي؟
ليس للمشير إلا رأي واحد! فهل ترين أني احسن إذا أخذتها؟
- نعم!
- سآخذها إذن.
- ولكن الهواء دافيء، والسماء مصحية، وأخشى إذا دام الجو كذلك أن اذهل عنها فأفقدها؛ سأتركها قطعاً!
ثم سار يريد الخروج فلمحها معلقة على المشجب فأخذها وهبط السلم ذاهلاً، متباطئاً، حتى بلغ البواب فدفعها إليه.

احمد حسن الزيات

مسارح الأذهان

تراثنا القديم

للأستاذ أحمد أمين

خبران أثرا في النفس أبلغ التأثير، وآثارا في القلب كوامن الأسى والأسف.

أولهما أن أديبا كبيرا، وخطيبا خطيرا طلب من إحدى المكاتب القاموس المحيط للفيروزابادي، فأرسلته إليه، فاستبقاه أياما ثم رده شاكرا لأنه لم يستطع أن يعرف طريقة الكشف فيه، وإذا استطاع فلا يفهم ما يقول، ولا يتبين ما يشرح. لذلك يعتذر عن شرائه ويطلب بدلاً منه معجما من المعاجم الحديثة، كأقرب الموارد، ومحيط المحيط، والبستان، لسهولة الكشف فيها، ووضوح القصد من معانيها.

والثاني أن مجلسا من مجالس المديريات قرر إنشاء مكتبة يتردد إليها طلبة المديرية ومثقفوها، وعهد إلى بعض رجاله اختيار الكتب الصالحة فلم يختر فيما اختار كتابا قديما كالقاموس المحيط ولسان العرب وتاريخ الطبري وتاريخ ابن الأثير والأغاني والعقد الفريد ونفح الطيب، وإنما قصر اختياره على ما أنتجه الأدباء المحدثون من روايات وقصص وتاريخ حديث، وأدب من الوزن الخفيف.

راعني ما في هذين الخبرين من دلائل مؤلمة، وما يحملان من نتائج خطيرة!. دلالة الخبرين أن تيار الفكر إنما يسير نحو الثقافة العصرية، وأن المثقفين إنما يعتمدون على ما تخرجه المطابع من آثار للثقافات الأجنبية، فأما تراثنا القديم وما فيه من ثراء ضخم فتنبو عنه أذواق الناشئة ومن يقودهم ويختار لهم. ولا يقبل عليه الا المستشرقون وأمثالهم من علماء قليلين يسيرون نحو الفناء، دون أن يخلف من بعدهم خلف يقوم على هذا التراث فيحفظه ويستثمره.

ولهذه الظاهرة أسباب أهمها:

أن هذه الكتب جارت عصرها ولم تجار عصرنا، فالتعبير معقد. والمعنى غامض، والتأليف مشتت، والمصطلحات جامدة، والأمثلة واحدة فقطع هذا كله الصلة بين القديم والحديث، ولم يستطع أن يتفهم هذه الكتب القديمة الا من نشأ عليها، وأنفق أكثر العمر في فهم عباراتها، وحل معمياتها، وكثير منهم وقف عند ألفاظها ومصطلحاتها، ولم يسعفه الزمان بالتغلغل في أعماقها. واكتناه أسرارها، واستخراج كنوزها، فلما نشأ الجيل الجديد وقد تعلم أول أمره في رياض الاطفال، واسلمته هذه إلى مدارس ابتدائية وثانوية يجتهد مدرسوها أن يعلموا على أحدث طرق البيداجوجيا، ويقرأ تلاميذها في كتب ألفت على غرار الكتب الأوربية في الشكل والموضوع، أصبح الخريجون لا يربطون جديدهم بقديم آبائهم، وصارت الكتب الأوربية أشهى إلى نفوسهم وأقرب إلى عقولهم من كتب الأدب العربي والفلسفة الإسلامية، وكتب القانون الفرنسي أحب إليهم من كتب الفقه الإسلامي وهكذا. وهم إذا نظروا في هذه الكتب العربية هزئوا بها وضحكوا منها! فإذا وقع نظرهم في الفقه على تحديد ماء الطهارة بأنه عشر في عشر بذراع الكرباس، قالوا ما لنا ولذراع الكرباس؟ إنما نعرف الذراع البلدي والذراع المعماري، وإذا رأوا نظام أخذ العشر قالوا ماذا يقابل ذلك من نظام الضرائب والجمارك؟ وإذا نظر الأطباء في

كتاب القانون لابن سينا وقفوا أمام أحاجي لا طاقة لهم بها، وإذا نظر الأدباء في الأغاني والعقد وأمثالهما رأوا شرا كثيرا وخيراً قليلا! وكان ما فهموا أندر مما لم يفهموا.

الحق أن هذه مشكلة كبيرة تحتاج في علاجها إلى مهرة الحكماء، وأن ما في كتب أسلافنا من ثروة يحتاج إلى عقول كبيرة تضع منهجا قويما للاستفادة منها.

ونحن بين اثنتين: إما أن تتخصص منا طائفة صالحة لترجمة ثروتنا القديمة إلى لغة العصر وروح العصر وأسلوب العصر، فيستطيع ناشئتنا أن يضعوا أيديهم على تراث آبائهم، وإما أن يتثقف أكبر عدد ممكن بنوع من الثقافة الشرقية القديمة، فضلا عما عندهم من الثقافة الحديثة، فيجمعوا إلى مواردهم الأجنبية الموارد العربية، ويخرج نتاجهم متشبعا بالروحين، مستمدا من الثقافتين.

فإن لم يكن هذا ولا ذاك خشيت بعد قليل أن تصبح كتبنا القديمة غير صالحة الا للأرضة تعيث فيها، والعنكبوت ينسج عليها، ويكون شأننا معها كما قال ابو العلاء:

سيسأل قوم ما الحجيج ومكة ... كما قال قوم ما جديس وما طسم

إسكندر يقتل صديقه!

للدكتور عبد الوهاب عزام

إسكندر يثبت عرشه وسلطانه وهيبته وكبرياءه في مقدونية واليونان، ثم يتوجه تلقاء آسيا.

الفريقان من اليونان والفرس يلتقيان على نهر (كرانيكوس) الصغير عام أربع وثلاثين وثلاثمائة، فيتاح لإسكندر أول فتح في آسيا، وتخضع له المدائن حتى سرديس، فقد دانت له آسيا الصغرى كلها.

ثم يتقدم صوب الجنوب، فيجتاز طوروس ويسير تلقاء الشام. وإذا جيش دارا، الجيش اللهام الذي لا يغلب من قلة رابض في طريقه. وفي سهل إسوس الضيق بين الجبال والبحر تزدحم مئات الألوف في المعترك، ويسقط في البحار مائة ألف من الفرس، ويفر دارا وينهب معسكره، وتؤسر أمه وزوجه وابنتاه. . فانظر إسكندر قد قهر (الملك الأعظم) ملك الفرس الذين طالما فخر اليونان بأنهم احتملوا صدمتهم، وردوهم عن بلادهم!!

يتقدم الفاتح العظيم فيقهر مدن الشام، وتقاومه صور وتتحدى جبروته وسلطانه، ثم تخر أمامه بعد حصار سبعة اشهر، فيقتل منهم ثمانية آلاف، ويؤسر ثلاثون ألفا فيباعون عبيدا، ويصلب على القلاع ألفان عبرة ونكالا! ذلكم إسكندر الفاتح العظيم، وذلكم جزاء من يقف في سبيله!

ويفتح إسكندر مصر عام اثنتين وثلاثين وثلاثمائة، ويرفع نسبه إلى أمون. ثم يجمع جنده ويسير إلى العدو الأكبر الملك الأعظم. يجتاز الفرات ودجلة إلى حيث يعسكر دارا.

وهنالك على مقربة من أطلال نينوى العظيمة التي تندب مجد آشور الغابر، وعلى سبعين ميلا إلى الشمال والغرب من مدينة أربيل، ليس بعيدا من ملتقى عبد الله بن علي العباسي، ومروان بن محمد خاتمة الخلفاء الأمويين، حيث سقطت دولة وقامت دولة! هنالك تراءى الجمعان، وعسكر إسكندر تجاه دارا، ويشير (برمينيو) على الفاتح المقدوني أن يهاجم عدوه ليلا، فيأبى مجد إسكندر وكبرياؤه، فيقول له: (أنا لا أسرق النصر). ثم يلتقي الجمعان، وتدور الدائرة على دارا وجنوده، فيفر صوب المشرق.

أرأيت بابل العظيمة مدينة السحر والعلم؟ ها هي تفتح أبوابها لإسكندر ويباركه كهنتها. ويطوي الملك الشاب المراحل إلى سوس وأصطخر حاضرتي الفرس، لا يصمد لمدينة إلا فتحها، ولا يعمد لجيش إلا مزقه.

تمتد الفتوح والآمال والنشوة والكبرياء بإسكندر إلى ما وراء النهر في طريقه شطر الهند، بعد أن طارد دارا حتى عثر به في الطريق قتيلا.

إسكندر العظيم في مدينة سمرقند عام سبع وعشرين وثلاثمائة. قد طوى المراحل والممالك ما بين مقدونية ونهر سيحون. ينعم هنالك بالشباب والظفر والملك الفسيح، والكنوز التي لا تحصى، والجند الذي لا يعد إسكندر الآن أعظم ملك في العالم كله.

ويدعو أصحابه وقواده إلى مأدبة في سمرقند، فيأكلون ثم تدور الكأس حتى يثمل القوم أو يكادون، ثم تترع للملك المظفَّر كؤوس من الإطراء والإعجاب والآجال والإكبار، ويغلو المتملقون المعجبون فيرفعونه فوق الأبطال جميعاً. ويدعون أن أعماله

المعجزة لا تكون إلا عن نسب ألهي، بل يرفعونه إلى مستوى الآلهة كهرقل. ويشارك الملك الشاب في إعظام مآثره والإعجاب بها، ثم لا يقنع بما فعل، فيجعل لنفسه ما نال أبوه من ظفر آخر عهده، ويغض من فيليب وإن كان أباه!.

يسخط المقدونيون من الزراية ببطلهم القديم، ولكنهم لا ينبسون. و (كليتوس) رابض ينظر إلى إسكندر ومادحيه ساخطا محملقا. كليتوس أيحد قائدي الفرسان، كليتوس الصديق القديم أخو (لانيس) حاضنة إسكندر التي قتل اثنان من أبنائها تحت رايته، كليتوس الذي نجى إسكندر في معركة كرانيكوس حين أبصر أحد الفرس يهوي بسيفه إلى الملك من خلفه فسارع كالبرق فضرب السيف فقده دون رأس الملك. كليتوس هذا لم يستطع صبرا على الغض من فيليب! قال كليتوس: ما لهؤلاء المادحين يضعون أقدار الغابرين ليرفعوا عليها مجد الحاضرين؟ أن فيليب كان عظيما! ثم تأخذه الحدة فيقول: (ليست مآثره دون مآثر ابنه! لا، أن مآثره لأعظم. فقد خلق الرجل لنفسه ملكا وجيشا. وإنما صلت أيها الملك بما أورثك فيليب من ملك ممهد وجند مدرب. إنما ظفرت بفضل هؤلاء المقدونيين الذين تحقرهم اليوم وتقدم الفرس عليهم. ألم تقتل برمنيون العظيم؟)

هاج الحاضرون وقذفوا كليتوس بالجدل والتوبيخ. وثار ثائر إسكندر الفتى الفاتح الذي سخر ملك مصر وبابل وآشور وفارس، إذ قرعت أذنه لأول مرة نبأة ناقد يعترض كلامه ويرد عليه دعواه. غضب إسكندر وصاح بكليتوس يزجره ويجادله، وانحاز الحاضرون للملك المعجب بنفسه، وكليتوس كالأسد يزمجر ويرد الكلمة بمثلها، ثم ينتفض قائما ويصيح

مادا يده إلى الملك: (اذكر أن حياتك دين لهذه اليد التي نجتك يوم كرانيكوس! وأصغ لصوت الحق الصراح، أو تجنب دعوة الأحرار إلى مأدبتك، واختص العبيد بصحبتك!)

اهتاج إسكندر لموقف كليتوس ولذكرى كرنيكوس وبرمنيون، فنهض يتحسس خنجره، فإذا الخنجر بعيد قد نحاه أحد الحاضرين. فينادي الحرس مغضبا هائجا ويأمر أن ينفخ في الصور إيذانا للجند، فما أطاع أحد أمر الملك الهائج النشوان، وتقدم نحوه بطليموس (وبردكاس) القائدان الكبيران فأحاطا به وأمسكا يده برفق يسكنان ثورته، ويكسران حدته، ويحيط آخرون بكليتوس يخرجونه من البهو، فيأبى أن يخرج فيعترف بأنه أساء واعتدى. ويقول إسكندر: (وا أسفاه! إن قوادي قد غلوني كما فعل بسوس بدارا. وإنما لي من الملك اسمه). ويتقدم إسكندر تلقاء كليتوس، ولا يجرؤ القواد أن يقفوه قسرا، ثم ينقض كالصاعقة فينتزع حربة من أحد الجند فيغمدها في صدر كليتوس الصديق القديم!

يرتاع الحاضرون. ويفيق إسكندر من نشوته وثورته وعنجهيته، فيفتح عينيه فإذا كليتوس طريح يضطرب في دمه.

خرج إسكندر من البهو يعدو إلى فراشه، فارتمى عليه ثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب، يبكي بدموع عزت على الخطوب الشداد، وغلت في الحوادث السود. ويتمادى به البكاء، وكلما كفكف دمعه تمثل له صديقه طعينا بيده، ويلعن نفسه نادما، ويهتف باسم كليتوس وأخته لانيس، ثم يقول: ويلي! أنا الغادر الكنود. لقد جزيت كليتوس ولانيس شرا بما أحسنا ألي. لست بعد اليوم جديرا بالحياة.

ويجتمع إليه صحبه يعزونه. ويسوغون ما عمل، فلا يزداد الا حزنا واكتئابا وندما وأسفا، ويجتمع الجند المقدونيون فيجمعون على أن كليتوس قتل بحقه، وأنه ينبغي الا يدفن، فيغضب إسكندر ويقول: كلا! أنه سيدفن بأمري. ويأتي الكهنة فيقولون: أن الملك لم يقتل صديقه بيده، ولكنها نقمة من الإله (ديونسوس) أجراها على يد الملك انتقاما لنفسه بما حرم القربان في هذه المأدبة. ثم يأتي الفيلسوف (انكشر خوس) فيقول: أيها الملك أن الذي أنت فيه لعجز. وأنك أيها الملك العظيم والفاتح القاهر لجدير بأن تحل وتحرم وتحق وتبطل بإرادتك لا أن تخضع للقوانين التي سنها الناس. ثم يأتي كلستنوس الفيلسوف فيجهد أن يهون على الإسكندر ما فعل.

فارق إسكندر مضجعه بقلب كليم إجابة لنصحائه وإجابة لواجبه في هذه البلاد النائية. ولكني أحسب الجرح قد ذهب مع إسكندر إلى قبره!

إسكندر العظيم لم يعظم عليه مطلب، ولا بعدت على همته غاية، ولا ثبتت في طريقه دولة، ولا وهن قلبه في سلم ولا حرب، ولكن إسكندر الفاتح القاهر، والملك المسلط،

لم يحتمل وخزة واحدة من وخزات الضمير، فخر كالطفل يبكي ويتململ، وكاد يبخع نفسه فرارا من الندم!

أن عذاب الضمير هو العذاب الأكبر، ولكن لا يعرفه الا ذوو الضمائر، وقليل ما هم!

لله در كليتوس! لقد ذهب مثلا في الوفاء، وأين في الدنيا الأوفياء؟

ولله در كليتوس صريع الوفاء! ولله در إسكندر صريع الوجدان!.

مجمع البحور وملتقى الأوزان

للدكتور محمد عوض محمد

يحسن بنا كلما دخل الأدب العربي في طور جديد، أو ظهرت به بدعة جديدة، أن نقف لحظة لنحقق أمر هذا الطور الجديد، وهذا المنهج الذي يريد بعض الأدباء أن ينهجه. وبديهي أن الكائن الحي يجب أن يكون في تبدل أبداً وفي تحول. لكن يجمل بنا من آن لآن أن نقف قليلا لنحلل هذه الاتجاهات الجديدة، لكي نكون على بصيرة من أمرنا، ولكي نمشي على علم وهدى. فان بعض السبل الجديدة يؤدي إلى الخير، وبعضها لا يفضي إلى شيء.

وقد ظهر في عصرنا هذا ضرب جديد من الشعر، لم يعرفه الأوائل ولا الأواخر، ولا نعرف في شعراء الشرق من عرب وترك وفرس من نحا هذا النحو، ولا في شعراء الغرب في الأدب الإنجليزي والفرنسي والألماني، ممن له شأن وخطر، من سلك هذا السبيل: وأن كان بين قراء (الرسالة) من يعرف شاعرا ذا شأن طرق هذا الباب من قبل. فقد يسرنا أن نعلم عنه ما جهلناه.

أما هذا الضرب من القريض (وقد سميناه مجمع البحور) فأنه يسوغ للشاعر في المنظومة الواحدة والموضوع الواحد، أن يجمع بين ما شاء من بحور الشعر، بلا قيد ولا شرط؛ فينتقل كما شاء وشاء له الهوى من وزن إلى وزن بلا سبب ظاهر وبدون أي قاعدة مفهومة أو غير مفهومة. فيبدأ منظومة بالخفيف مثلا، ويمضي فيه إلى بيتين أو إلى أبيات، ثم يعرج على البسيط فينظم فيه أيضاً بيتين أو ثلاثة. ثم يميل فجأة إلى الرمل ثم إلى الكامل. وهكذا لا يزال ينتقل من بحر إلى بحر. ويثب من وزن إلى وزن، والمنظومة واحدة والموضوع واحد.

ليس من شك في أن هذا الضرب من الشعر جديد. ولو أن المتنبي وهو الأمر الناهي في مملكة القريض، قيل له أن فلانا ينظم القصيدة الواحدة فيجعلها من بحور شتى، لقال لمحدثه: (يا هذا أن شاعرك مثله كمثل الطاهي الذي يخلط الحلو بالحامض، والمائع بالجامد، والرطب باليابس، والصلب بالشهد؛ ثم يرجو بعد هذا أن يكون في ما طهاه شفاء وغذاء).

مفهوم أن يكره الإنسان التقيد بالقيود من أي نوع كانت. والنفس تثور من آن لآن، تحاول تحطيم السلاسل التي تقيدها وتمنعها من ارتياد منهل الحرية عذبا نميرا. وقد رأينا منذ زمن كيف ابتدع بعض الشعراء نظم القريض مرسلا، من غير قافية ثابتة؛ لكن مع الاحتفاظ بالوزن. وكان لهذا الضرب من القريض أنصاره، الذين نادوا بأنه سيرقى بالشعر العربي إلى سماء ما طاولته سماء. ثم لم تلبث تلك النار أن باخت، وتلك الأصوات أن خفتت. وأصبحنا اليوم وأكثر الأدباء متفق على أن إرسال القافية لا يلائم الشعر العربي؛ فلم نكد ننعم بتلك الحرية حينا حتى عدنا بأنفسنا طائعين إلى حمل السلاسل والأغلال، مضحين بتلك الحرية العروضية التي لم تنتج لنا الا كل فاتر تمجه النفس.

ثم جاءت بعد هذا بدعة أكبر وأخطر. وهي بدعة (مجمع البحور) التي وصفناها. ومما يؤسف له أن يكون شاعر من أجلّ الشعراء شأنا وهو (شوقي) على ما به من قدرة ومكانة، وهو الشاعر ذو النفس الطويل. الذي ما كان يعييه أن ينظم فيطيل ما شاء الإطالة. وهو الذي نظم (صدى الحرب) و (مقدونيا) و (نهج البردة). أنه برغم هذا رأى الا يلتزم وزنا واحدا في روايته التي كتبها أخيرا. فأحياناً كان شخص من أشخاص الرواية يسأل السؤال في وزن، فيرد عليه بوزن آخر. وكثيرا ما ينتقل المتكلم إلى وزن جديد، وموضوع الحديث لم يتغير.

لقد قيل أن لشوقي في ذلك أسوة بكبار الشعراء الروائيين أو القصصيين، وهذا ليس بصحيح. فان جميع روايات شكسبير من وزن واحد وهو المسمى وملحمتا هوميروس

كلتاهما من بحر واحد، والفردوس الضائع لملتون كلها من وزن واحد. والشهنامة والمثنوي كلها ذات وزن واحد. وبرغم ما قيل وما يقال عن روايات شوقي، فان كثيرا من الناس يقر بأن هذا الإكثار من الأوزان قد افقدها قسطا كبيرا من الحسن.
ونحن نسوق هنا على سبيل المثال قطعة من (قمبيز) وهي الرواية التي تفوق صواحبها في هذا الأمر.
جاء في المنظر الأول من الفصل الأول الحوار الآتي بين نتاتس وعمها فرعون (أمازوس):
نتاتس: نفريت يأبى المسير هب لي ... مكانها منك يا أمازوس
فرعون: أنت التي تذهبين، نتاتس: لم لا؟ ... فرعون: هذا هو النبل يا نتاتس
بخ بخ بنت أخي
نتاتس (في استنكار): أنت يا قاتل عمي ... لا. . أبي يأبى وأمي
في هذا الحوار القصير الذي يتألف من ثلاثة أبيات ومصراع واحد، ثلاثة أوزان مخلع البسيط ومنه البيتان الأولان ومجزوء الرجز ومنه المصراع الذي يليهما. ثم مجزوء الرمل ومنه المصراعان الأخيران.
وقد يرى بعض الناس أن من الغلو في الحرية أن يكون أحد المصراعين في البيت الواحد والثاني من بحر آخر. ولكن في الحق أن هذا هو التطور المنطقي لمجمع البحور. فإذا كان مستحسنا أن يغير الإنسان الوزن بعد بيتين أو ثلاثة، فليس هناك معنى لأن يمتنع المرء عن تغييره في كل مصراع، بل وفي اقل من مصراع. وقد فعل ذلك أيحد الأفاضل في الجزء الثالث من (أبولو) في قصيدة من هذا النوع عنوانها (الشراع) جاء فيها:
وأنتزع عنك كساء الليل ثوبا: (رمل)
شحبا (؟)
تحتك اللجة السحيقة تدوي (خفيف)
(=) فوقك اللانهاية الأبدية
وأمامك الأفق البعيد يضلل (كامل)
والقارئ الذي يهمه هذا الضرب من الشعر يجب أن يرجع إلى هذه القصيدة لأنها خير مثال له بين أيدينا. ولولا ضيق المقام لتمثلنا بكثير من أبياتها.
وقد جاء في العدد الرابع من الرسالة منظومة للشاعر الفاضل إيليا أبو ماضي عنوانها الشاعر والسلطان الجائر. وقد أعجبنا بما فيها من خيال بديع، واكن افتتاحها بنوع خاص منبئاً بأن المنظومة من الدرر الغوالي. الا أن هذه الدرر كانت ذات نظام مختلط غذ جعل الشاعر يغير من وزنها ست مرات أو سبعا. فلا تكاد الأذن تطمئن إلى نغمة، حتى يستبدل بها نغمة تخالفها وتغايرها. والذين اكتفوا بقراءة القطعة الأولى حكموا بأن القصيدة من أحسن الشعر؛ وأما الذين قرءوها إلى النهاية فقد أسف كثير منهم على أن الشاعر قد افقد المنظومة حسنها لهذا الاضطراب في النظم؛ لأن لكل بحر أثرا خاصا في النفس، وهذا التقلب السريع مما يزعج الخاطر وينفر الأسماع.
لسنا بحاجة لأن نسرد للقارئ أمثلة أخرى ندل بها على هذه الظاهرة الجديدة، التي بدت في كتابات بعض الشعراء، وليس من شك في أن (مجمع البحور) هذا سيكون شأنه شأن الشعر المرسل، سينادي به بعض الكتاب حينا، وقد يستفحل أمره زمنا ما. ثم لا يلبث أن تخمد جذوته، ويذهب كما ذهب أخ له من قبل.

فلسفة برجسون

للأستاذ زكي نجيب محمود

ثورة على المادية

كثيرا ما يبدأ الفكر الإنساني بدراسة نفسه، ثم ينتهي إلى إحدى نتيجتين: فهو أما أن ينظم العقل في سلك المظاهر المادية التي تخضع للقوانين الآلية الصارمة، ثم ينصرف بناء على ذلك إلى دراسة الوجود المادي بما فيه من صور وأوضاع؛ وأما أن ينتهي إلى إنكار ذلك الوجود المادي جملة وتفصيلا، واعتباره من خلق العقل وتكوينه، ثم يتجه على هذا الأساس إلى دراسة العقل وحده، لأن في دراسته دراسة للوجود بأسره، ما دام هو الذي خلق هذا خلقا، وأنشأه إنشاء.
إذا فقد أنقسم الفلاسفة إلى قسمين مختلفين: فريق ينصرف بأسره إلى العلوم

الطبيعية لأنها السبيل إلى تفهم مظاهر الكون، وفريق ينكب على دراسة النفس انكبابا، لأنها هي كل شيء. ونحن نستطيع أن نقول في شيء من الدقة أن تاريخ الفلسفة الحديثة ينحصر في هذا العراك العنيف القائم بين علم النفس والعلوم الطبيعية، فهذه تنشد الحقيقة في دراسة الظواهر المادية، وقد ترى في طريقها من بوارق الأمل الباسم ما تمضي معه في بحثها ثابتة اليقين موطدة العزيمة، وذلك يلتمسها في دراسة النفس دون المادة وهو مؤمن أن ليس أقوم من تلك السبيل سبيل.

ولكن جاء القرن التاسع عشر، فانعرج ذلك المجرى الفكري بعض الشيء، واتجه إلى دراسة المظاهر المادية اتجاها مباشراً، دون الوقوف على هذه النفس الإنسانية وقفة تحليلية، ولعل ذلك راجع إلى أن الإنسان قد خيل إليه أن العلوم الرياضية والميكانيكية وما إليها، هي التي دفعت به في العصر الحديث هذا الدفع السريع، وله عذره في هذا الظن. ما دامت الصناعة التي تدوي أرجاؤها في أوربا، والتي قلبت الحياة رأسا على عقب، هي ربيبة تلك العلوم. . . إذاً فلماذا لا تدرس هذه العلوم الطبيعية دون سواها؟

هكذا اصطبغت الفلسفة في القرن الماضي بصبغة مادية، وذهبت في الفضاء صيحة ديكارت التي ألح بها في أن تبدأ الفلسفة سيرها من النفس ثم تتابع طريقها إلى العالم الخارجي.

انطوى القرن التاسع عشر أو كاد، فبدأ الإنسان يفيق بعض الشيء من تلك الفتنة التي أخذه

بها الانقلاب الصناعي، واخذ الفكر ينزع عن نفسه شيئاً فشيئاً ذلك الثوب المادي الذي أشتمله واحتواه حينا من الدهر. ويبحث عن حقيقة الوجود في (الحياة) التي تدب في أنحاء الكون، لا في حركة القصور الذاتي التي تنتظم الجماد، وما زال الفكر يمعن في هذه النزعة الجديدة حتى كادت الحياة تدب في المادة نفسها، واصطبغت العلوم الطبيعية بصبغة حيوية، وهكذا كتب لها أن تلقي السلاح وتندحر أمام علم النفس فيما نشب بينهما من عراك.

ولعل شوبنهور هو أول من فطن إلى (الحياة) هي أساس الوجود؛ ثم جاء برجسون في عصرنا الحاضر وتناول هذه الفكرة بحثا واستقصاء، حتى استطاع بقوة أيمانه أن يجذب إليها أنظار هذا العالم الذي طغت عليه روح اللاأدرية والشك طغيانا مروعا.

عكف برجسون على دراسة المذهب المادي، وخلاصته أن العالم كتلة موات من المادة والحركة، وأن الحياة والفكر وكل خصائص الإنسان ليست سوى أعراض مختلفة لتفاعل المادة والقوة التي تحرك دقائقها، فكان كلما أمعن في تلك الدراسة، ازداد يقينا بفساد ذلك المذهب، وهو يتساءل في دهشة: إذا كان العقل مادة وكانت كل عملية عقلية عبارة عن هزة عصبية لا أكثر ولا أقل، فما فائدة الشعور؟ أليس مجرد وجود الإدراك دليلا قويا على ضرورته؟

يقول المذهب المادي أن ليس ثمة (حياة إرادية)، أي ليس في الوجود تلك القوة الحيوية التي تريد هذا فتعمله، ولا تريد ذاك فتنبذه، وكل ما هنالك حالات مادية متتابعة، كل حالة نتيجة لما قبلها ومقدمة لما بعدها؛ وهنا يتساءل برجسون: إذا كان الوجود وما يحوي في لحظة معينة نتيجة آلية للحظة التي سبقتها (دون أن تكون هناك قوة مدركة تنشئ وتكون وتختار) وإذا كانت تلك اللحظة السابقة بدورها أثراً آليا للتي سبقتها، وهكذا دواليك، فنحن إذا سنسير في هذا التسلسل حتى نصل إلى السديم الأول، ونتخذ منه سببا لكل ما طرأ على الكون من أحداث، لا فرق بين دقيقها وجليلها! ماذا؟ هل يريدنا ذلك المذهب على أن نعتقد بأن السديم هو السبب فيما كتبه شكسبير مثلا؟ وأنه العلة في خطابه أنطوني وهملت؟!

هكذا أخذ برجسون من منطق الماديين ما يكفي وحده للرد عليهم ودك مذهبهم من أساسه.

العقل والجسم

لعل ما حدا بالإنسان إلى النزعة المادية في تفكيره هو ارتباطه بالمكان ارتباطا وثيقا، حتى

خيل إليه أن الحياة ليست الا هذه الصور المكانية التي يحسها؟ ولكن الحق الذي لا ريب فيه هو أن جوهر الحياة وروحها إنما ينحصران في الزمان أكثر مما يتعلقان

بالمكان؛ والزمان في الواقع عبارة عن تراكم صور كونية فوقها فوق بعض، أو إن شئت فقل صورة كونية واحدة امتدت على طول الزمان وأخذت تنمو وتتزايد شيئا فشيئا، ومعنى ذلك أن الماضي من بدئه الأزلي لم يفن، وإنما أخذ يتقدم فتتزايد أحداثه قليلا قليلاً إلى أن تضخم فكون الزمان الحاضر. وإذا كان الزمان عبارة عن مجموع الصور التي مرت على الوجود فيستحيل أن يكون المستقبل مشابها للماضي، لأن في كل خطوة زيادة تضاف إلى تلك الكومة المتراكمة، وفي كل دقيقة ينشأ شيء جديد ليس نتيجة لمقدمة سابقة ولكنه خلق خلقاً ولا يمكن استنتاجه قبل حدوثه. فالتغير سنة الحياة وألزم صفاتها.

والذاكرة عند الإنسان هي الوعاء الذي يمتد مع الزمن فيختزن فيه هذه الصور المتراكمة المتزايدة، لكي تكون لنا عونا في حياتنا، إذ كلما اتسعت دائرة الحياة اتسع معها نطاق الاختيار، أي يعرض للإنسان مؤثرات عدة تستدعي منه سرعة اختيار للتلبية المناسبة لكل من تلك المؤثرات. وهذه المؤثرات وتلبياتها تكون في الإنسان إدراكا يستعين به في كل ما يعرض له من مشكلات.

فالكائن الحي كتلة فعالة مؤثرة. لأنه يضيف إلى العالم قوة ونشاطا، وليس الإنسان كما صوره الماديون آلة ميكانيكية لا حول لها ولا قوة، ينفعل ويتأثر بعوامل البيئة دون أن يكون مركزا للخلق والزيادة. ففي قولنا أن الإنسان مدرك لما يعمل اعتراف ضمني بحرية اختياره.

قلنا إن وظيفة الذاكرة هي استدعاء الصور الذهنية التي مرت بنا في التجارب الماضية مقرونة بما سبقها وما تلاها، فتتمكن بذلك من الحكم في المواقف المشابهة التي قد تعرض لنا، حكما صادقا. ولكن للذاكرة فوق هذا عملا آخر، فبوساطتها نستطيع أن نستوعب الخلود بأسره في دقيقة واحدة، وفي ذلك تحرير لنا من قيود الضرورة الطبيعية التي تخضع لها الأشياء الجامدة. يخطئ إذا من يحسب الإنسان آلة صماء في يد القوانين المادية، إنما هو كائن مدرك، حر الإرادة، قادر على اختيار سلوك معين؛ والاختيار خلق وإنشاء، فليس الإنسان رتيبا في حياته كالحيوان المحدود بغرائزه.

وإذا فليس العقل والمخ (أي الجسم) شيئاً واحداً؛ صحيح إن الإدراك العقلي يعتمد على المخ، يسمو وينحط تبعا لسلامة هذا أو انحطاطه، ولكن كما تعتمد ملابسك على المشجب. تظل عالية ما دام المشجب مثبتا في الحائط، وتهوي إذا ما سقط من مكانه، وبديهي أن ذلك لا يدل على أن الملابس والمشجب شيء واحد.

فالمخ مجموعة من التصورات وردود الأفعال، أما الإدراك فهو تلك القوة التي تختار من بين تلك المجموعة ما تريد. المخ هو المجرى الذي يسير فيه تيار الإدراك، ولكن ليس الماء ومجراه شيئاً واحداً، وأن يكن ذلك محدودا بهذا، ولا بد له أن يخضع لإلتواءاته وتعاريجه.

وإذا كان هذا هكذا، فما الذي حدا بنا إلى الاعتقاد بأن العقل والمخ شيء واحد؟ لعل ذلك راجع إلى أن جزءاً من عقولنا، وهو ما نسميه بالذكاء، قد نشأ وتطور لكي يمارس الأجسام المادية ويتفهمها، فاكتسب من هذا الميدان المادي كل تصوراته وقوانينه، وهكذا أخذ الارتباط الذهني بين العقل والمادة ينمو شيئا فشيئا، حتى انتهى بنا الأمر إلى الظن بأنهما شيء واحد؛ ولكن هذا الذكاء الذي يكشف لنا عن العلاقات التي تصل المظاهر الكونية بعضها ببعض، عاجز كل العجز عن إدراك الامتداد الزمني وما يعرض فيه لتلك المظاهر من تغير وخلق، أو بعبارة أخرى هذا الذكاء الذي يفكر في الصور المادية لا يستطيع أن يدرك ما في الكون من حياة، لأنه يلتقط صورا متلاحقة بعضها يجيء في إثر بعض، أي أنه يلتقط صورة الكون في هذه اللحظة، ثم صورته في اللحظة التي تليها، ثم صورة ثالثة في التي تليها وهكذا، ومعنى ذلك أن العالم الخارجي في نظر العقل عبارة عن جملة صور لحظية تملأ كل صورة منها الكون بأسره؛ هذه الصور تتلو الواحدة منها الأخرى لحظة بعد لحظة، وكل صورة لحظية من هذه الصور تمثل الحقيقة الخارجية من أول الماضي إلى آخر المستقبل. الا أن تلك الصور تظل مستقلة في الذهن، لا يتناولها الاستمرار أو الحركة التي تربطها جميعاً، مع أن الحياة ليست الا في وصل هذه الصور المجزأة. مثل العقل في ذلك كمثل الشريط السينمائي الذي يلتقط عددا من الصور المتلاحقة، لا حياة في كل منها على حدة، فإذا

ما دبت فيها الحركة والاستمرار، واتصل بعضها ببعض، كونت حياة، أو شيئاً يشبه الحياة. ولن يكون في هذه الصور التي تصلنا عن طريق الحواس شيء من الحياة، حتى يتناولها تيار الحركة الدائم الذي يربط أشتاتها ويكون منها حقيقة واحدة يطرأ عليها التغير والتبدل كلما مر عليها شطر من الزمان.

صحيح أن كل صورة حسية هي جزء من الحياة، ولكن مجموعها لا يكون مجموعة الحياة، إلى أن يتحقق في أجزائها شرط الاتصال والربط، فكما أن كل جزيئي من الخط المنحني يمكن أن يكون جزءا من خط مستقيم بدليل أنهما يتماسان في أي نقطة شئت، ومع لك لا تستطيع أن تقول: بما أن أجزاء هذا هي أجزاء ذلك، إذن فالخط المنحني هو خط مستقيم؛ كذلك قل في الحياة والمظاهر الطبيعية، فليست الحياة هي مجموعة المظاهر الطبيعية، على الرغم من أن تلك المظاهر هي الجزئيات التي تتكون منها الحياة.

يستنتج من هذا أن العقل ليس هو الأداة الصالحة لأدراك الحياة، لأن هذا مطلب فوق مقدوره واكثر مما يستطيع، إذ العقل كما بينا يميل إلى استعمال الوجود لصالحه، وهذا الاستعمال يتطلب منه وقف تيار الحياة الذي يدب في الكون، وتجزئة الوجود للتمكن من بعضه، فالعقل والحواس آلات للتجزئة، والغاية منهما تيسير الحياة لا تصوير الوجود، أي أنها تتناول الوجود في ظاهره ولكنها لا تنفذ إلى باطنه. . . ولما كانت المعرفة الحقيقية هي التي تتمشى مع الوجود في تحوله، وتتغلغل في باطن الاشياء، وتحسها إحساسا مباشرا كما يحس الحمل الوديع وجوب الفرار من غائلة الذئاب؛ فالبصيرة وحدها هي الأداة الصالحة لذلك النوع من المعرفة المباشرة، لأنها حاسة الحياة التي تنقل تلك الوحدة الحيوية التي تربط أجزاء الوجود.

التطور خلق وإنشاء

لا يمكن أن يكون تطور الحياة على تلك الصورة البشعة القاسية التي رسمها دارون وسبنسر، إنما التطور خلق مستمر، وتجديد متواصل، وتغير لا ينقطع.

الانتخاب الطبيعي عند دارون هو الأساس الذي تقوم عليه نشأة الأعضاء والوظائف والأنواع. ولكن لم يكد يستوي ذلك المذهب على قدميه، حتى أحاط به من الصعاب والمشكلات ما لم يقو على رده فكاد يخر صريعاً وهو ما يزال في يفاعته.

كيف يستطيع الانتخاب الطبيعي أن يفسر نشأة حاسة الأبصار مثلا! أولا، لا بد أن نسلم بأنه من المستحيل أن تكون العين قد نشأت على هذه الصورة المعقدة من بادئ الأمر، فإذا

فرضنا أنها تكونت بعد سلسلة من الاطوار، فهل من اليسير أن تقنع عقلا سليما أن تلك الأدوار التي مرت بها عين الإنسان تطابق تمام المطابقة الدوار التي مرت بها الحواس الابصارية لأنواع الحيوان جميعا؟! مع أن الانتخاب الطبيعي أساسه المصادفة المحضة! وهل من الجائز أن تكون سلسلة المصادفات التي تعاقبت على عين الإنسان وأذنه وأنفه وسائر أعضائه الأخرى هي التي تعاقبت على أعضاء الحيوانات جميعاً؟!

وإذا سلمنا (جدلا فقط) بأن تلك المصادفة السحرية العجيبة جائزة في أنواع الحيوان لتشابه المؤثرات التي تحيط بها جميعا. فما قولك في الحيوان والنبات، وهما نوعان يسيران في طريقين مختلفين أتم اختلاف؟ كيف يتفق الاثنان على طريقة واحدة للتناسل؟ كيف يوفق الحيوان، عن طريق المصادفة، إلى اختراع الذكورة والأنوثة أداة للتكاثر، ثم يوفق النبات نفس هذا التوفيق وعن طريق المصادفة أيضاً؟!

كلا! يستحيل أن يكون هذا الأساس الواهي قاعدة التطور، ولابد أن يكون في أجزاء الوجود (مهما تنوعت أشكالها) قوة كامنة متشابهة في الجميع؛ هي الحياة. وهذه الحياة الحالّة في كل شيء تخلق فيه ميلاً خاصاً وتوجيهاً معينا يؤثران في كل جزئي من جزئياته، وهكذا يظل الجسم المادي يتشكل ويتغير حسب ذلك التوجيه الذي تمليه تلك الحياة الدافعة الكامنة فيه. وليس ثمة قوة خارجية تعمل على التطور كما خيل إلى دارون وأشياع مذهبه.

هذه الحياة الشاملة تسعى جهدها للتغلب على الجمود المادي وطمس معالمه من الوجود، فهي تتغلب على الموت بالتناسل، وأن ضحت في سبيل ذلك الافراد؛ وهي تبذل كل ما تملك من قوة لتحرير نفسها من قوانين المادة وأغلالها؛ فوقوف الحيوان وسيره وسعيه وكل ما يأتي من ضروب الحركة والنشاط، هو في الواقع تحد من

الحياة لتلك الأغلال والقيود.
كانت الحياة في مبدأ ظهورها أشبه ما تكون بالمادة في جمودها واستقرارها، لأنها كانت تتمثل في النبات وحده، والنبات كالجماد في سكونه واستحالة سعيه وحركته؛ ولكنها ما لبثت أن نشدت الحرية من تلك القيود المادية؛ وراحت تسعى وراء ذلك المثل الاعلى، فاخترعت أنواع الحيوان، وزودتها بشتى الأعضاء التي يستطيع أن يحقق بها شيئا من تلك الحرية المنشودة، ثم ما لبثت أن عقدت أمالها في واحد من تلك الحيوانات جميعا: هو
الإنسان. فلا شك في أن الحياة تحاول ما استطاعت أن تسخر من قيود المادة، ونحن نضحك ونسخر إذا ما رأينا كائنا حيا يتصرف كما تتصرف الكتلة المادية الجامدة، كان تزل قدمه فيسقط بقوة الجاذبية كما تسقط قطعة الحجر.
يتضح من لك أن الحياة قد سارت في تطورها خلال مراحل ثلاث:
الأولى: مرحلة النبات إذ كانت أقرب ما تكون إلى سكون المادة وجمودها.
الثانية: مرحلة الحيوان الغريزي كالنحل والنمل الذي يتحرك ويسعى، ولكن في حدود مرسومة وخطة معلومة.
الثالثة: مرحلة الحيوان الفقري، الذي أخذ يسير في طريق الفكر، ولن يزال هذا الفكر ينمو ويشتد ويستقيم، فهو ذخر الحياة وأملها الذي سيحقق لها ما تنشد من حرية.
هذه الحياة التي لا تفتأ تخلق وتغير وتبتدع، والتي تلتمس الحرية من قيود المادة، هي الله، فالله والحياة اسمان على مسمى واحد. ولكنه اله ذو سلطان محدود بقيود المادة، وليس مطلق الإرادة كما تصوره الأديان، الا أنه دائب في التخلص من أغلاله وأصفاده؛ وأغلب الظن أن الحياة ستظفر آخر الأمر، ونكاد نوقن أنها ستتغلب على الموت، فيتحقق لها الحرية والخلود. فكل شيء جائز في نظر الحياة ما دام في الزمن امتداد.
وبعد. فما أجمل أن يرتفع صوت برجسون بشيرا بما في الكون من حياة فعالة خالقة، ليقف تيار المادية الذي طغى على أوربا في القرن الماضي، حتى غمرها بين ثناياه، وكم كنا نود أن نشترك معه في ثل ذلك العرش الذي كان يتربع عليه اله العقل، ولكن على شريطة الا يدعونا إلى تقديس اله آخر: هو البصيرة؛ لأنها قد تخطيء كما تخطيء الحواس.

في الأدب العربي

ابن خلدون في مصر

للأستاذ محمد عبد الله عنان

- 1 -

ترددت خلال العام الماضي دعوة لأحياء ذكرى المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون لمناسبة انقضاء ستمائة عام على مولده، فاستجابت دوائر التفكير والأدب في جميع البلاد العربية لهذه الدعوة الكريمة، وأقيمت عدة حفلات علمية للإشادة بذكره وخالد آثاره، ولا سيما في تونس مسقط رأسه ومطلع مجده، وفي مصر مقام شيخوخته ومثوى رفاته؛ وحفلت المجلات والصحف حينا بمختلف البحوث عنه. ولكن ناحية من حياة المفكر الكبير لم تلق كبير عناية، تلك هي حقبة مقامه بمصر، وصلته بها، وأثره فيها؛ وهذا ما نريد أن نعنى به في هذا الفصل تحية لذكرى المؤلف والفيلسوف الاجتماعي الأشهر.
غادر ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون تونس في منتصف شعبان سنة 784 هـ (أكتوبر سنة 1382م)، فوصل ثغر الإسكندرية في يوم عيد الفطر بعد رحلة بحرية شاقة، ويقول ابن خلدون في (تعريفه) عن نفسه، أنه قدم إلى مصر لينتظم منها في ركب الحاج، وأنه لبث بالإسكندرية شهرا يهيئ العدة لذلك، ولكن لم يتح له يومئذ أن يحقق هذه الغاية، فقصد إلى القاهرة، وكان قضاء الفريضة حجته الظاهرة في مغادرة تونس، واستئذان سلطانها أبي العباس في السفر إلى المشرق. ولكن ما يقصه ابن خلدون من الحوادث قبل ذلك يدل على أن مغادرته لتونس كانت فرارا؛ وكانت خشية من بطش سلطانها، وغدر بلاطها. وكان ابن خلدون قد أنفق نحو ربع قرن في خوض غمار السياسة ودسائس القصور، وتقلب في خدمة معظم سلاطين المغرب والأندلس، وذاق نعم الرياسة ومحن النقمة مرارا، وعانى مرارة السجن والأسر وخطر الهلاك غير

مرة. ولم تهدأ نفسه المضطرمة بشغف المغامرة والنضال والدس الا في كهولته، يوم أعيته الحيل، وغلبته الأرزاء والمحن، وفقد عطف معظم القصور التي تقلب فيها، وأضحى يتبرم بقضاء تلك المهام السلطانية التي كان يتخذ قضاءها وسيلة للنفوذ والرياسة. عندئذ عافت نفسه غمر السياسة ودسائس القصر، فارتد في أواخر سنة 776هـ، إلى قلعة نائية منعزلة بناحية أولاد عريف بالمغرب الأوسط؛ وهنالك أنقطع للبحث والتأليف مدى أربعة أعوام، وأخذ في كتابة تاريخه الضخم، وأنجز منه مقدمته الشهيرة وعدة مجلدات أخرى. ثم رأى أن يقصد إلى تونس ليستكمل مراجعه في مكاتبها، وكانت بينه وبين سلطانها وحشة؛ فاستأمنه وحصل على رضائه؛ وغادر مقامه النائي إلى تونس فوصل إليها في شعبان سنة 780. وهنالك اشتغل بإتمام مؤلفه بتكليف السلطان ورعايته حتى أتمه ورفعه إلى السلطان، ومدحه يومئذ بقصيدة طويلة أوردها في (تعريفه). وكان ذلك لنحو عامين من مقدمه إلى تونس (782 - 1380م).

وهنا ألقى ابن خلدون نفسه في معترك جديد من الدسائس، وقصده رجال البطانة بالكيد والسعاية لدى السلطان، وأغروه أكثر من مرة باستصحابه إلى غزواته ومهامه الخطرة، فخشى ابن خلدون عاقبة السعاية، ولم يجد في تونس ما كان ينشده من هدوء وسكينة، فانتهز فرصة وجود السلطان في تونس، ووجود سفينة مصرية في مرساها تقصد الإسكندرية، فألح على السلطان في الإذن له بالسفر لقضاء الحج، وركب البحر بمفرده تاركا أسرته في تونس، فوصل الإسكندرية كما قدمنا في يوم عيد الفطر سنة 784.

كان مقدم ابن خلدون إلى مصر إذا، نوعا من الفرار وخيفة البطش والمحنة، ولم يكن قضاء الفريضة قصده المباشر، بل كانت حجته الظاهرة. وكان يرجو بلا ريب أن يقضي بقية أيامه بمصر في هدوء ودعة، وأن ينعم بذلك الاستقرار الذي لم تهيئه له بالمغرب حياة النضال والمغامرة. وكان يومئذ في الثانية والخمسين من عمره، ولكنه كان وافر النشاط والقوة، يتطلع دائما إلى مراتب النفوذ والعزة؛ وكانت القاهرة يومئذ موئل التفكير الإسلامي في المشرق والمغرب، ولبلاطها شهرة واسعة في حماية العلوم والآداب، فكان يرجو أن ينال قسطه من هذه العناية والحماية. ووصل ابن خلدون إلى القاهرة في أول ذي القعدة سنة 84 - نوفمبر سنة 1382؛ فبهرته ضخامتها وعظمتها وبهاؤها كما بهرت سلفه ومواطنه الرحالة ابن بطوطة قبل ذلك بنصف قرن وكما بهرت على كر العصور كل من رآها من أعلام المشرق والمغرب. ولا غرو فان المؤرخ لم ير بالمغرب سوى تلك المدن الصخرية المتواضعة، ولم ير بالأندلس حيث قضا ردحا من الزمن، مدينة في عظمة القاهرة وروعتها. وهو يهتف للقاهرة اثر مقدمه ويحييها بحماسة تنم عن عميق إعجابه وسحره وتأثره، ويصفها في تلك الفقرة الرنانة: (فرأيت حاضرة الدنيا، وبستان العالم،

ومحشر الأمم، ومدرج الذر من البشر، وإيوان الإسلام، وكرسي الملك؛ تلوح القصور والأواوين في جوه. وتزهو الخوانق والمدارس والكواكب بآفاقه، وتضيء البدور والكواكب من علمائه؛ قد مثل بشاطئ النيل نهر، ومدفع مياه السماء، يسقيه العلل والنهل سيحه، ويجبي إليهم الثمرات والخيرات ثجة؛ ومررت في سكك المدينة تغص بزحام المارة، وأسواقها تزخر بالنعم. . .)

ولم يكن ابن خلدون نكرة في مصر. فقد كان المجتمع القاهري يعرف الكثير عن شخصه وسيرته؛ وكانت نسخ من مؤلفه الضخم ولا سيما مقدمته الشهيرة قد ذاعت قبل ذلك بقليل في مصر وغيرها من بلدان المشرق، وأعجبت دوائر العلم والتفكير والأدب بطرافة مقدمته وجدتها وروعة مباحثها. فلم يكد يحل بالقاهرة حتى أقبل عليه العلماء والطلاب من كل صوب. يقول ابن خلدون في كبرياء وتواضع معا: (وأنثال عليّ طلبة العلم بها يلتمسون الإفادة مع قلة البضاعة، ولم يوسعوني عذرا) وهذا ما تشير إليه التراجم المصرية؛ فيقول أبو المحاسن بن تغري بردي في ترجمته لابن خلدون: (واستوطن القاهرة وتصدر للإقراء بالجامع الأزهر مدة، واشتغل وأفاد) ويقول السخاوي: (وتلقاه أهلها (أي أهل مصر) وأكرموه وأكثروا ملازمته والتردد عليه، بل تصدر للإقراء بالجامع الأزهر مدة. . .). جلس ابن خلدون للتدريس بالأزهر، والظاهر أنه كان يدرس الحديث والفقه المالكي، ويشرح نظرياته في العمران والعصبية وأسس

الملك ونشأة الدول؛ وغيرها مما عرض إليه في مقدمته. وكانت هذه الدروس خير إعلان عن غزير علمه، وشائق بحثه، وساخر بيانه. وكان ابن خلدون محدثا، بارعا رائع المحاضرة، يخلب لباب سامعيه بمنطقه وذلاقته. وهذا ما يحدثنا به جماعة من أعلام التفكير والأدب المصريين الذي سمعوه أو درسوا عليه؛ ومنهم المؤرخ الكبير تقي الدين المقريزي الذي سمعه ودرس عليه فتى وكذا الحافظ ابن حجر؛ فقد درس عليه وأنتفع بعلمه ووصفه بقوله: (وكان لسنا فصيحا، حسن الترسل وسط النظم؛ مع معرفة تامة بالأمور خصوصا متعلقات المملكة) ونقل السخاوي عن الجمال البشيشي أنه (كان فصيحا مفوها جميل الصورة) وعن الركراكي (أن محاضرته إليها المنتهى).
وهكذا استطاع ابن خلدون لأول مقدمه أن يخلب الباب المجتمع القاهري، وأن يستثير إعجابه وتقديره؛ ولكن صفاء الأفق من حوله لم يدم طويلا كما سنرى، وفي أثناء ذلك اتصل ابن خلدون بأمير من أمراء البلاط يدعى علاء الدين الطنبغا الجواني، فشمله برعايته، وساعده على التقرب من السلطان والاتصال به. وكان السلطان يومئذ الظاهر برقوق؛ وقد ولى الملك قبيل مقدم ابن خلدون بأيام قلائل (أواخر رمضان سنة 784)، فأكرم وفادة المؤرخ واهتم بأمره؛ يقول ابن خلدون: (فأبر مقامي. وانس الغربة ووفر الجراية من صدقاته، شأنه مع أهل العلم) وبذا تحققت أمنية المؤرخ من الاستقرار والمقام الهادئ في ظل أمير يحميه ويكفل رزقه، ولم يمض قليل على ذلك حتى خلا منصب للتدريس بالمدرسة (القمحية) بجوار جامع عمرو وهي من مدارس المالكية فعينه السلطان فيه. ويعني ابن خلدون في تعريفه، بوصف مجلسه الأول في هذا المعهد؛ فقد شهده جمع من الأكابر أرسلهم السلطان لشهوده؛ والتفوا حول المؤرخ. وألقى ابن خلدون في ذلك الحفل خطاباً بليغاً، يحرص على إيراده بنصه. وقد تكلم فيه بعد الديباجة عن فضل العلماء في شد أزر الدولة الإسلامية. وعن تغلب الدول. ثم أشاد بما لدى السلاطين المصرية من فضل في نصرة الإسلام، وإعزازه، ومن همم في إنشاء المساجد والمدارس، ورعاية العلم والعلماء والقضاة، ثم دعا للملك الظاهر، وأشاد بعزمه وعدله وعقله؛ وعطف بعدئذ على نفسه، وما أوليه من شرف المنصب في تلك العبارة الشعرية: (ولما سبحت في اللج الأزرق، وخطوت من أفق المغرب إلى أفق المشرق، حيث نهر النهار ينصب من صفحة المشرق، وشجرة الملك التي اعتز بها الإسلام تهتز في دوحه المعرق، وأزهار الفنون يسقط علينا من غصنه المورق. . أولوني عناية وتشريفاً، وغمروني إحساناً ومعروفاً، وأوسعوا همتي إيضاحاً ونكرتي تعريفاً، ثم أهلوني للقيام بوظيفة السادة المالكية بهذا الوقف الشريف. . . إلخ)

اثر اللغة العربية في العالم الإسلامي

للسر دنسون روس. مدير مدرسة اللغات الشرقية بلندن

هذه ترجمة المحاضرة الأولى من المحاضرات الثلاث التي ألقاها السر دنسون روس باللغة الإنجليزية في قاعة الجمعية الجغرافية إجابة لدعوة الجامعة المصرية وقد نقدته الجامعة على كل محاضرة خمسين جنيها وسننشر ترجمة المحاضرتين الأخريين تباعا في الأعداد المقبلة.

تمهيد:

أشعر وأنا أختار موضوعا مثل هذا لمحاضرة في الجامعة المصرية، أنه ينطبق علي المثل القائل (كمن يجلب الفحم إلى نيوكاسل) أو على حد تعبير الفرنسيين (كمن يحمل الماء إلى البحر) أو كما يقول العرب (كمن ينقل التمر إلى البصرة) أو (كمن يبيع الماء في حارة السقائين).

إذ كيف يجرؤ شخص مثلي لا يخرج عن كونه تلميذاً يدرس العربية أن يقوم ببحث في هذه اللغة العظيمة على مرمى قوس من الأزهر؟ إن اعتذاري عن هذا ينبغي أن يكون اعتذار النملة أمام عرش سليمان!.

وربما قيل عن عنوان محاضرتي أنه تقرير لقضية مسلمة، فالعربية لغة القران والحديث وتأثيرها في العالم الإسلامي حق لا ريب فيه.

ولكنني أرجو أن أسوغ عنواني هذا بأن أبين تأثير اللغة العربية في تلك الممالك التي تتكلم لغات أخرى، وتتكلمها لا على أنها واسطة لفهم العقائد وإقامة الشعائر الدينية؛ بل لأنها عامل منتج من الثقافة العامة.

ذلك لأنه ينبغي أن نعلم حق العلم أن ليس ثمة دين عالمي آخر قامت فيه اللغة الأصلية للكتب المقدسة بذلك الشأن الخطير كما هو الحال في الإسلام.

فإذا اعتبرنا البوذية والمسيحية وهما ديانتان تقومان بالدعاية فأننا نلاحظ أن كتبهما المقدسة إذا أذيعت في ممالك أخرى فإنما تذاع بلغة تلك الممالك. خذ لذلك مثلا تلك المجموعة الضخمة مجموعة القوانين البوذية المعروفة باسم (السلات الثلاث) فأنك تجدها تقرأ في الصين واليابان مترجمة إلى لغة تلك البلاد. حقاً أن لغة الهند الأصلية قد اختفت كما اختفت
البوذية نفسها من الهند.

وقل مثل هذا عن التوراة والإنجيل فأنهما يقرءان في الأمم المسيحية بلغة كل منها دون أن تقوم العبرية أو المسيحية بأي شيء في حركات الدعاية التي تقوم بها الجمعيات الدينية.

وأن اللغة الوحيدة التي يمكن مقارنتها بالعربية من حيث أنها واسطة للتعاليم الدينية إنما هي اللغة العبرية، على أن هناك اختلافاً بين الحالتين من بعض الوجوه وإن اتفقت اللغتان في أن كلتيهما تدين بخطرها الأساسي إلى أنها لغة الكلام المنزل من عند الله. فأما العبرية فنجد أن كل تقي من اليهود يحفظ بعضا منها، ولكن اليهودية لا تعتبر الآن من الأديان الواسعة الانتشار وذلك على الرغم من انتشار جماعات اليهود في أنحاء العالم. وأنك لتجد طوائف وطنية منهم في الهند وأثيوبيا لا يعرفون من العبرية الا قليلا.

ويجب أن نتذكر أني إنما أبحث في التأثير اللغوي الذي أحدثه القران لا في رسالة النبي، وعلى ذلك فأظنني أستطيع تقرير تلك الحقائق دون أن أسيء إلى الحاضرين من المسيحيين واليهود.

أن التأثير الذي تركته التعاليم البوذية والكتب العبرية المقدسة في آداب الممالك البوذية والمسيحية لا يقل شأنا عن تأثير القران إن لم يكن أكثر في ناحية الفن.

ولكن ما حدث في الصين وفي أوربا هو أن تلك الكتب المقدسة قد أصبحت جزءاً من الآداب القائمة إذ ذاك وكانت تلك الآداب غنية بالأبحاث والموضوعات الدنيوية، وفيما يتعلق بأوربا نقول أنه لما كانت اللغات الحديثة قد اشتقت من اللاتينية والتوتونية القديمة، فأنه لما ترجم الإنجيل إلى تلك اللغات، أصبح ذلك الكتاب هو المؤثر الثابت فيها كما يشهد بذلك الجهد الذي بذله لوثر في وضع أساس الألمانية الراقية الحديثة.

نعم لقد لعبت اللاتينية بين الكاثوليك دوراً مشابهاً لذلك الدور الذي لعبته العربية بين المسلمين (ولكن اللاتينية لم تكن لغة التنزيل).

الموضوع:

ولنعد الآن إلى الموضوع الأساسي لمحاضرتي. وستكون الممالك التي يتناولها بحثي هي تلك التي لا يزال الإسلام سائداً فيها ولكن لا تتكلم العربية، أعني بلاد الفرس وبلاد الهند وما وراء النهر وتركيا.

أن دخول الشرق الأدنى والشرق الأوسط والهند تحت نفوذ العرب (وقد كانوا أنفسهم حديثي العهد بالدخول في الدين الجديد وقبول (الوحدانية السامية) قد أدى إلى ثورة عظيمة (في الأدب والثقافة) لا تقل في خطورتها من حيث قوتها وتمامها، ومن حيث أنها مبدأ عهد جديد، عن ذلك التغير الذي طرأ على العقيدة الدينية.

ويرجع هذا في أساسه إلى ذلك التأثير المعجز الذي أحدثه القران في نفس كل من أعتنق الإسلام.

فإن القران وهو كلام الله الذي أنزل على رسوله قد قوبل من المسلمين قاطبة بالاحترام والإجلال، أولاً، من أجل عباراته ذاتها لأنها تنزيل من الله، وثانيا لما اشتمل عليه من الآيات البينات، ومن أجل ذلك كان لزاما على من يقبل الإسلام أن يقبل معه اللغة العربية، تلك اللغة التي نزل بها القران وأرسل بها الرسول.

وهنا لا نجد لغة غريبة غير مستعملة لا يفهمها الا عدد محصور من العلماء كما كان الحال في ديانة زرادشت والديانة الهندية، بل نجد (لغة حية) يتكلمها أولئك القوم الذي دعوا سكان الممالك التي فتحوها إلى الدخول في الدين الجديد.

إن الرقي الفجائي الذي طرأ على اللغة العربية وأحالها إلى لغة مهذبة مكتوبة ليعد من أعجب الأمور إذا تذكرنا أنه في الوقت الذي ظهر فيه الرسول لم يكن لدى العرب (أدب لغة) بالمعنى الذي يفهم من هذه العبارة، وأن استعمال الخط كان قليلا إلى

درجة كبيرة بدليل أنه في أثناء الكفاح بين المسلمين وأعدائهم كما حدث في بدر وأحد كان المتبع أن يبقي المسلمون على حياة من يعرفون الكتابة من الأسرى.

ولكن العرب قد أخرجوا فحول الشعراء الذين تغني الناس بشعرهم في طول شبه الجزيرة وعرضها، وأن كان الاختلاف لا يزال قائماً بين الباحثين فيما إذا كانت هذه الأشعار قد ظهرت حقاً في الجاهلية أم في الإسلام.

والذي ما يهمنا هو أن بين هذه الأشعار طائفة يمكن اعتبارها في المنزلة الأولى لا في أدب العرب فحسب، ولكن في أدب العالم اجمع.

وكان القران يمثل اللهجة التي كانت شائعة في الحجاز. وإلى أن قام الخليفة عمر (بمراجعاته) الرسمية الدقيقة للقران، لم يكن هناك أي كتاب في النحو، كما لم يكن هناك أي

قاموس عربي، وكان الفرس أول من ميزوا أنفسهم باستنباط بعض القواعد النحوية من القران. وبعد هذا أخذ الأذكياء في العالم الإسلامي يحذقون هذا اللسان الصعب، وابتدأ الناس ينافس بعضهم بعضا كل بما حصل من اللغة، ومنذ ذلك الوقت، فيما بين إسبانيا وسمرقند، أخذ الكثير من الشعراء المطبوعين، الذين كانوا من قبل في حاجة إلى أداة يظهرون بها إبكارهم ينظمون الشعر بالعربية. ولقد شرعوا أول أمرهم يحاكون الأشعار البدوية التي لم يكن لهم بموضوعاتها علم مباشر، ثم أخذوا يطرقون من الموضوعات ما تميل إليه قلوبهم، وما يوافق طبيعتهم وبيئتهم.

موسى بن شاكر وبنوه الثلاثة

للأستاذ قدري حافظ طوقان. عضو الجمعية الرياضية بلندن

منشؤهم

ظهر موسى بن شاكر في عصر المأمون ولمع في سماء العلم ولا سيما في الهندسة وانبثق منه ثلاث نجوم: محمد واحمد وحسن نبغوا في الرياضيات وعلم الهيئة والفلسفة، وكان لهم في ذلك مؤلفات نادرة عجيبة. وهؤلاء الأربعة (ممن تناهى في طلب العلوم القديمة وبذل فيها الرغائب واتعبوا فيها نفوسهم وأنفذوا إلى بلاد الروم من أخرجها إليهم فأحضروا النقلة من الأصقاع والأماكن بالبذل السني، فاظهروا عجائب الحكمة، وكان الغالب عليهم من العلوم الهندسة والخيل والحركات والموسيقى والنجوم وهو الأقل. .).

ويقال إن موسى مات صغيرا وقد خلف أولاده الثلاثة صغاراً اعتنى بهم المأمون كثيراً، ووصى بهم إسحاق بن إبراهيم المصعبي وأمره بالاهتمام بهم والمحافظة عليهم، وانقطعوا إلى العلوم يبحثون عنها فغاصوا فيها واستطاعوا أن يجيدوا أكثرها. فأكبرهم وهو أبو جعفر محمد أجل اخوته عالماً بالهندسة والنجوم والمجسطي، وكان جمّاعة للكتب، ومضى عليه زمن كان مدخوله السنوي أربعمائة ألف دينار. أما أحمد فقد كان دون أخيه في العلم الا صناعة الحيل فقد تعمق فيها، وأجادها وتمكن من الابتكار فيها، وفاق القدماء المحققين في هذا العلم مثل (أيرن)، وأما حسن فقد كان منفردا في الهندسة، ومع أنه لم يقرأ من كتب الهندسة الا ست مقالات من كتاب اقليدس في الأصول، فقد حدث نفسه باستخراج مسائل لم يستخرجها أحد من الأولين (كقسمة الزاوية إلى ثلاثة أقسام متساوية، وطرح خطين بين خطين ذوي توال على نسبة، فكان يحللها ويردها إلى المسائل الأخرى ولا ينتهي إلى آخر أمرها، لأنها أعيت الأولين).

وحكي عنه أنه كثيرا ما كان يغرق في الفكر في مجلس فيه جماعة فلا يسمع ما يقولون ولا يحسه.

مآثرهم

ثبت أن المأمون أمر بني موسى بقياس درجة من خط ونصف النهار لإيجاد محيط الأرض، وقد أجروا حسابهم ذلك في سنجار كما أجروه ثانية في الكوفة. ومن توافق الحسابين علم المأمون صحة ما حرره القدماء في هذا الصدد وهم الذين كملوا الزيج المصحح، وحسبوا الحركة المتوسطة للشمس في السنة الفارسية، وحددوا ميل وسط منطقة البروج المسماة بالاكليتيك في مرصدهم المبني على جسر بغداد المتصل بالباب المسمى بالطاق، وعرفوا فيها فروق حساب العرض الأكبر من عروض القمر وقد عول ابن يونس في أرصاده الفلكية على أرصادهم، وعمل أحدهم وهو محمد تقويمات لمواضع الكواكب السيارة. ولأبناء موسى في الحيل كتاب يعرف بحيل بني

موسى، وهو عجيب نادر، يشتمل على كل نادرة وقد يكون هو الكتاب الأول الذي يبحث في الميكانيك ولقد وقفت عليه فوجدته من أحسن الكتب وأمتعها، وهو مجلد واحد وهي (أي الحيل) شريفة الأغراض عظيمة الفائدة مشهورة عند الناس ويحتوي هذا الكتاب على مائة تركيب ميكانيكي عشرون منها ذات قيمة عملية. وقد كتبوا في فن الآلات الروحية وهذا العلم (يتبين فيه كيفية أيجاد الآلات المرتبة على ضرورة عدم الخلاء ونحوها من آلات الشراب وغيرها، ومنفعته إرتياض النفس بغرائب هذه الآلات كقدحي العدل والجور. . و. . و. .) وعلى ذكر قدح العدل وقدح الجور يقول كشف الظنون في الجزء الأول ص 137 ما يلي: (أما الأول (قدح العدل) فهو إناء إذا امتلأ على قدر معين يستقر فيه الشراب، وأن زيد عليها ولو بشيء يسير ينصب الماء ويتفرغ الإناء عنه بحيث لا يبقى قطرة، وأما الثاني (قدح الجور) فله مقدار معين أن صب فيه الماء بذلك القدر القليل يثبت، وأن مليء يثبت أيضاً، وأن كان بين المقدارين يتفرغ الإناء، كل ذلك لعدم إمكان الخلاء. . .) واكثر هذه الآلات توضح أنواعا من الحيل العلمية وهي مبنية على المبادئ الميكانيكية المنسوبة لهيرو الإسكندري. وقد اهتموا بنقل احسن الكتب اليونانية، حتى أن أحدهم وهو محمد ذهب إلى بلاد اليونان ابتغاء الحصول على مخطوطات تبحث في الرياضيات والفلك، واستعملوا منحني نيكوميدس في تقسيم الزاوية إلى ثلاثة أقسام متساوية، واستعملوا الطريقة المعروفة الآن في إنشاء الشكل الاهليليجي، أما الطريقة فهي أن تغرز دبوسين في نقطتين وأن تأخذ خيطا طوله اكثر من ضعف البعد بين النقطتين، ثم بعد ذلك تربط هذا الخيط من طرفيه وتضعه حول الدبوسين، وتدخل فيه قلم رصاص فعند إدارة القلم يتكون الشكل الاهليليجي، وتسمى النقطتان بمحترقي الاهليليجي أو بؤرتيه. وفي أحد مؤلفاتهم في الهندسة استعملوا القانون

المعروف بقانون (هيرون) لمساحة المثلث إذا علم طول كل ضلع من إضلاعه. ولا يفوتنا أن نذكر أنه نسب إلى أبيهم موسى القول بالجاذبية، يدلنا على ذلك ما جاء في كتاب بسائط علم الفلك للعلامة صروف الذي يقول: (وهذا التفاعل بين الأجرام السماوية الذي يطلق عليه اسم الجاذبية العمومية انتبه له بعض العلماء من قديم الزمان، فأشار إليه بطليموس صاحب كتاب المجسطي حاسباً أنه هو الذي يجعل الأجسام تقع على الأرض متجهة نحو مركزها، وهو الذي يربط كواكب السماء بعضها ببعض. ويقال أن موسى بن شاكر المهندس الذي نشأ في أوائل القرن الثالث الهجري انتبه له أيضاً وقال به)

مؤلفاتهم

كتب بنو موسى في موضوعات مختلفة: في الهندسة والحيل والطب والمساحة والمخروطيات وعلم الهيئة، وقد أجادوا في ذلك إلى درجة أثارت إعجاب كثير من العلماء، فمن تآليفهم كتاب بني موسى في الغرطسون وكتاب مساحة الاكر وكتاب قسمة الزاوية إلى ثلاثة أقسام متساوية، ووضع مقدار بين مقدارين ليتوالى على قسمة واحدة، وكتاب يبحث في الآلات الحربية.

ولأحدهم هو أحمد كتاب بين فيه بطريق تعليمي مذهبا هندسيا وهو ليس في خارج كرة الكواكب الثابتة كرة تاسعة.

ولحسن: كتاب الشكل المدور والمستطيل. أما محمد فله كتاب حركة الفلك الأولى وكتاب الشكل الهندسي وكتاب الجزء وكتاب في أولية العالم، وكتاب على مائية الكلام، وفي الفهرست ينسب إلى محمد كتاب المخروطيات، ولكن كتاب كشف الظنون يقول في هذا الكتاب ما يلي:

وقال أبو موسى شاكر الموجود من هذا الكتاب سبع مقالات وبعض الثامنة، وهو . . .) أربعة أشكال، وترجم الأربع الأول منه أحمد بن موسى الحمصي، والثلاث الأواخر ثابت بن قرة. . . أصلحه الحسن واحمد بن موسى بن شاكر. . .)

قدري حافظ طوقان. نابلس. فلسطين

طرائف من شعر الشباب

مناجاة غدير

للأستاذ محمود الخفيف

شاق نفسي الجلوس فوق حرير ... من نسيج الربيع ينطق حسنا

كنت قبل الشروق عند غدير ... يملأ النفس من أغانيه لحنا
كل ما في الوجود حلو جميل ... يبعث البشر في الفؤاد نديا
ونسيم الصبح عذب بليل ... باعث في الربوع نشراً ذكيا
ساد حولي السكون لولا غدير ... عبقري الخيال سامي البيان
ثائر هادئ معنى صبور ... رائق الحس مستفيض المعاني
زاده الصبح والسكون رواء ... وكساه الربيع ظلا ظليلا
وحباه الشباب منه مضاء ... فترى الماء دافقاً سلسبيلا
يا غدير الصباح هيجت قلبي ... أنت للنفس رحمة وعذاب
لست أدري وقد تملكت لبي ... أترنمت أم عراك انتحاب؟
يا غدير الصباح لحنك عذب ... باعث في الفؤاد شتى المعاني
يا غدير الصباح هل أنت صب ... تعرف البعد في الهوى والتداني؟
أي معنى أردت أن فؤادي ... حركته لما تقول شجون
ويح نفسي لقد ملكت ودادي ... فعرفت الخشوع كيف يكون
هيه يا أيها الغدير فأني ... أن ترنمت أو بكيت سميع
يا غدير الصباح افصح وزدني ... أن قلبي بما تقول ولوع
أن ترنمت يا غدير فحسبي ... من دواعي السرور ذاك الغناء
وإذا ما بكيت حركت قلبي ... فبقلبي لكل باك رثاء
!لست يا أيها الغدير بشاك ... كيف تشكو ولست تعرف ظلما
لست يا أيها الغدير بباك ... كيف تبكي؟ أأنت تعرف هما؟
لم تجرب شماتة من عدو ... أو تحمل إساءة من صديق
أو تقاس البعاد بعد دنو ... أو تعان الظنون بعد وثوق
لم تسهد بجفوة من حبيب ... أو تعذب بغيرة وارتياب
أو تفاجأ بفتنة من رقيب ... أو تروع بنبوة من صحاب
لم تصادف تفاخراً من دعي ... أو تبادر بغلظة من جليس
أو تشاهد تطاولا من غبي ... أو تجرع إهانة من خسيس
لم تخف يا غدير قط عذاباً ... أو تذق يا غدير للحزن طعما
أو تقابل لدى الحياة صعابا ... كيف هذا ولست تعرف وهما؟
أنت يا أيها الغدير طروب ... ناعم البال لست تزهب رزءا
مطمئن إلى الحياة لعوب ... لست تدري عن المنية شيئا
يا غدير الصباح زدني غناء ... وأملأ القلب من غنائك وحيا
كل لحن سواك عاد هباء ... يا غديرا لقد وعيتك وعيا

في الليل

اسكتي يا طيور! لا تملئي الليل ... غناءا بصوتك الخلاب
توقفي يا غصون لا تتناغي ... بحديث الهوى وهمس العتاب
طاب لي مجلساً بعيداً عن السم ... ار، في نجوة من الأصحاب
فتنتني سكينة الليل، واللي ... ل سكون يطير بالألباب
واحتواني الظلام حتى كأني ... قطعة منه في سواد أهاب
وكان السماء صحراء خرسا ... ء بدا نجمها كومض السراب
وكان الليل البهيم عباب ... وأنا سابح بهذا العباب
بين شطين من ظلام قد امت ... دا امتداد العصور والأحقاب
نام زهر الرياض في سرر العش ... ب ونامت على السفوح الروابي
وسرت روح شاعر يعبد الحس ... ن فرفت في الليل بين السحاب
إنما الليل للذي يعرف اللي ... ل وما فيه من معاني عذاب
قدس الليل، أنه هيكل السح ... ر ووحي الهوى وستر الشباب

أمين عزت الهجين

الله وراء كل شيء

شقيت نفسه فضلت هداها ... وتجلى إلهها في هواها
زعمت أن طينها أزلي ... كذبتنا وحق من سواها
ولئام النفوس أن تلف مولا ... ها حفيا بها عصت مولاها

ضلة للعقول لم تك شيئاً ... ثم كانت فأنكرت من براها!
قف حيال السماء ليلا وسائل ... سفن النيرات من أجراها!
سفن موجها الأثير ولا يع ... لم إلا ربانها مرساها
جاوزت في العيون حد التقصي ... فتراها ولا تكاد تراها
أن تطالع أبصارنا مبتداها ... فإلى الله ربها منتهاها
واسأل الوردة اكتست كل لون ... من كساها ومن حباها شذاها؟
ألبستها الأوراق كف قدير ... فأرتنا لثم الشفاه الشفاها
أبرزتها عذراء من خدركم ... في حياء توردت وجنتاها
ودعتها مليكة الزهر لما ... ألبستها الرياض تاج نداها
فأصغ للجواب منها تجدها ... باسم من حاكها تحرك فاها
شجرات في الروض مشتبهات ... شهوة الآكلين فأطعم جناها
ذقت هذي فما أمر جناها ... ثم هذي فقلت ما أحلاها!
ما اختلاف الطعوم والماء فيها ... واحد، والتراب أصل غذاها؟
صاغها مثلما أراد بديع ... قد نفينا عن ذاته الأشباها
ثم سائل بلابل الأيك تشدو ... فيهز الأملاك لحن غناها
وتناجي القلوب وهي تغني ... فتذيب القلوب في نجواها
من بري هذه الحناجر عيدا ... ناً وأنشأ قيثارة في لهاها؟
أنه مبدع كسا الطير ريشاً ... وحباها في الجو ملكا وجاها
هذه النملة الدقيقة خلقاً ... كيف تسعى وكيف تبني قراها؟
هذه النحلة اكتست حبرات ... من طهي شهدها وسل حماها؟
قل لشمس النهار من جلاها ... واسأل الأرض من أدار رحاها؟
واسأل الريح كيف تسجي سحابا ... واسأل السحب كيف يهمي حياها
ثم سائل بروقها مشرعات ... هل تضج الرعود خوف أذاها
واسأل الدوح كيف شب لظاه ... واسأل الراسيات من أرساها
مدها في الثرى وأعلى ذراها ... قادر في غد يحل حباها
ضل في التيه من أبى الرشد تيهاً ... يا أخا العقل لا تكن تياها
يجهل العقل كنهه وهو عقل ... وجدير أن يدرك الا كناها
قل له ما الأثير وهو فضاء ... أن يحمل رسالة أداها؟
ثم ما الكهرباء وهي قريب ... منه وهو البعيد عن معناها؟
قل له ما ارتباط جسم بروح ... ظل فيها دراسة واكتناها؟
هل أعنا الأعصاب حين أصاخت ... أذناها وإذ رنت مقلتاها؟
أو أعنا للقلب نبضا ضعيفا ... تستمد الأبدان منه قواها
أو أعنا الأنفاس مطردات ... وهي في النوم لا تني رئتاها
إن خلف العقول ربا حكيما ... أودع الكائنات سر بقاها
عبد الغني المنشاوي - المدرس بالمدرسة الخديوية

في الأدب الشرقي

نظرات في الأدب الفارسي منذ نشأته إلى إغارة التتار

للدكتور عبد الوهاب عزام

مهما تختلف الآراء في تاريخ اقدم أثارة من الأدب الفارسي الحديث فان مؤرخا يستطيع أن يقول أن ظهور هذا الأدب صحب ظهور الإمارات الوطنية في إيران، فهذه الإمارات بعثت الأمل في نفوس الفرس وأتاحت لهم فرصة يستطيعون فيها التقرب بالمدائح وغيرها إلى أمراء يفهمون عنهم، ويعجبون بهم، ويسرهم أن تحيا آداب لغتهم وآثار آبائهم.

وأمر آخر يسترعي نظر مؤرخ الآداب الفارسية، هو ظهور هذه الآداب في الديار النائية عن البلاد العربية وعن بغداد حاضرة الخلافة والمدنية الإسلامية، إذ كانت هذه الديار أبعد من سلطان الأدب العربي الذي كان ترجمان حضارة الإسلام كلها حقبا طويلة. ثم استقلال الإمارات كذلك يبدأ في الأقطار النائية، وإنما تنقص الأرض من أطرافها. ومن أجل ذلك أتيح لخراسان البعيدة مهد أول دولة فارسية عظيمة في العصر الإسلامي أن تكون مبعث الأدب الفارسي الحديث. ولم تنل هذا الشرف فارس مهد الدول القديمة

على تبريزها في العلم وتقدمها على خراسان فيه. حتى يقول أبو أحمد الكاتب كاتب الأمير إسماعيل بن احمد الساعاتي:

لا تعجبن لعراقي رأيت له ... بحرا من العلم أو كنزا من الأدب
واعجب لمن ببلاد الجهل منشؤه ... أن كان يفرق بين الرأس والذنب

يريد ببلاد الجهل ما وراء النهر وجهات خراسان.

ولى المأمون طاهر بن الحسين خراسان ثم جعلها ولاية لذريته فاستمروا يلونها حتى سنة 259 نحو 50 عاما. ولكنها كانت أمارة صغيرة قصيرة المدة. وكانت الأسباب لما تتهيأ لانبعاث الأدب الفارسي. ثم بنو طاهر لم يعنوا بالأدب الفارسي، وروي أن رجلا أهدى كتابا إلى عبد الله بن طاهر وهو في نيسابور فسأله ابن طاهر ما هذا؟ قال قصة (وأمق وعذراء) التي ألفها بعض الحكماء للملك أنوشروان، فقال الأمير: نحن قوم نقرأ القران ولسنا في حاجة إلى غير القران والحديث. فما لنا ولهذه الكتب التي ألفها المجوس؟ ثم أمر ألقى الكتاب في الماء، وأمر أن يحرق كل كتاب في ولايته بلغة المجوس. ويقول عوفي عن آل طاهر: أنهم لم يكن لهم اعتقاد في لغة الفرس.

وفي سنة 247هـ سنة موت المتوكل ظهر في الشرق يعقوب بن الليث الصفار وهزم جند الخليفة أول الأمر وقال (كما يروي نظام الملك) أنه يريد خلع الخليفة، وكان شيعيا فيما قال، وخلفه أخوه عمرو إلى أن استنجد الخليفة المعتمد بني سامان فهزموه وأزالوا دولته.

والفرس يرون في يعقوب بطلا فارسيا لأنه أول ثائر على الخلفاء. أقام سلطانه على رغمهم اكثر من أربعين عاما. وقد سوغت لهم هذه العقيدة أن نسبوا إلى طفل ليعقوب أنه نطق بأول بيت من الشعر الفارسي الحديث، وفي الحق أن بلاد الفرس لم تعد إلى حكم الخلفاء الحقيقي بعد ثورة يعقوب.

ولكن أول دولة فارسية عظيمة لها أثر يذكر في الأدب الفارسي كانت الدولة السامانية. والسامانيون ينتسبون إلى بهرام جوبين أحد أعيان الفرس الذي ثار أيام الساسانيين على كسرى برويز، والبيروني يؤيد هذه النسبة. وقد بعثت الآداب الفارسية مع هذه الدولة (فيما نعلم).

وبينما كان السامانيون متسلطين في خراسان وما وراء النهر ظهر بنو بويه وعظم سلطانهم حتى استولوا على بغداد سنة 334، وساقوا نسبهم إلى بهرام كور أحد ملوك السامانيين؛ وما زالوا يصرفون الأمر حتى أديل منهم للغزنوية ثم للسلاجقة.

ظهرت دولة بني سبكتكين في غزنه وأديل لهم من سادتهم السامانيين أو (كما يقول بديع الزمان):

أظلت شمس محمود ... على أنجم سامان

وسبكتكين تركي لا فارسي ولكنه مكَّن لنفسه في بلاد الفرس، وكان لدولته شأن عظيم في آدابهم. وجاء السلاجقة فنسخوا كل هذه الدول، وكان لهم من السلطان وبسطة الملك ما لم يتح لدولة قبلهم من غير الخلفاء؛ وكان مه هؤلاء أو بعدهم دول ذات شأن: منها الدولة الزيارية في طبرستان التي منها شمس المعالي قابوس بن وشمكير وابنه منوجهر فلك المعالي وحفيده كيكاوس عنصر المعالي، ودولة ملوك خوارزم الصغيرة التي قضى عليها محمود، وملوك خوارزم العظام الذين تسلطوا على معظم إيران قرناً وربع قرن والذين كانوا سببا في إغارة التتار وكانوا أول هلكاهم، والدولة الغورية التي قضت على الغزنويين في أفغانستان.

هذه هي الدول التي صرفت أمور الفرس منذ القرن الرابع الهجري، ويرى منها أن الفرس لم يفلحوا في إقامة دولة عظيمة تضم أرجاء بلادهم، وإنما كان السلطان الشامل لدولتين تركيتين الغزنوية والسلاجقة، وما عرفنا أن ثورات فارسية عظيمة حاولت التخلص من هاتين الدولتين، وهذه مسألة جديرة أن تغير آراء الذين يريدون تفسير كل حركة في إيران في تلك القرون بالعصبية الفارسية.

الآن نرجع إلى الأدب الفارسي نراقب منشأه ونتعقب تطوره منذ بدأ إلى عصر التتار؛ فأما ما بعد التتار فنرجئ الكلام فيه إلى مقال آخر.

إنا لا نعرف شيئا عن الشعر الفارسي قبل الإسلام حتى ليظن أن الفرس لم يكن لهم

منه حظ كبير، ولأمر ما نسب بعض كتاب الفرس أول شعر فارسي إلى بهرام جور، وقالوا: أنه اخذ الشعر من العرب إذ تربى في الحيرة. يذكر هنا محمد عوفي في لباب الألباب وشمس قيس في كتاب المعجم، ويزيد الأخير أنه قرأ في بعض الكتب الفارسية أن علماء عصر بهرام لم يستهجنوا منه الا قول الشعر، وأن آذرباد بن زرادستان الحكيم بالغ في نصحه ليترك الشعر تنزها عن معايبه؛ ثم يقول أن بهرام انتصح ومنع أولاده وذوي قرباه أن يقرضوا الشعر. ثم يقول: من أجل هذا كانت مدائح باربد وأغانيه عند كسرى برويز كلها منثورة لا نظم فيها.

ويقول ابن قتيبة:

(وللعرب شعر لا يشركها أحد من الأمم الأعاجم فيه على الأوزان والأعاريض والقوافي والتشبيه ووصف الديار والآثار، والجبال والرمال والفلوات وسرى الليل، والنجوم. وإنما كانت أشعار العجم وأغانيهم في مطلق من الكلام (منثور) ثم سمع بعد قوم منهم أشعار العرب وفهموا الوزن والعروض فتكلفوا مثل ذلك في الفارسية وشبهوه بالعربية.)

وأما في العصر الإسلامي فلا ريب أن الشعراء الذين يعرفهم تاريخ الأدب لا يتقدمون العصر الساماني. غير أن في كتب الأدب الفارسي روايات عن شعر قيل قبل هذا العهد، وهي على علاتها لا تخلو من دلالة على أدب فارسي أقدم مما نعرف عسى أن يبينه التاريخ يوما.

يقول محمد عوفي معللا ظهور الشعر الفارسي الحديث ما يأتي مترجما مختصراً:

(حتى إذا سطعت شمس الملة الحنيفية على بلاد العجم جاور ذوو الطباع اللطيفة من الفرس فضلاء العرب واقتبسوا من أنوارهم ووقفوا على أساليبهم واطلعوا على دقائق البحور والدوائر وتعلموا الوزن والقافية والردف والروي والايطاء والإسناد والأركان والفواصل. ثم نسجوا على هذا المنوال.)

ثم يروي أبياتا أربعة لشاعر اسمه عباس مدح بها المأمون في مرو سنة 193 منها:

كس برين منوال بيش ازمن جنين شعري نكفت ... مر، زبان بارسي را هست تا اين نوع بين

ليك زان كفتم من اين مدحت ترا تا اين لغت ... كيرد أز مدح وثناء حضرت تو زيب وزين

وترجمتها:

ما قال أحد قبلي شعرا كهذا وما كان للسان الفارسي عهد به، وإنما نظمت لك هذا المديح لتزدان هذه اللغة بمدحك والثناء عليك.

فأعطاه المأمون ألف دينار عينا، وبالغ في اكرامه، يستمر عوفي فيقول: (ولم ينظم الشعر الفارسي أحد بعده حتى كانت نوبة آل طاهر وآل الليث فظهر شعراء قليلون، فلما كانت دولة السامانيين ارتفع علم البلاغة، وظهر كبار الشعراء.)

ويروي شمس قيس: أن أول من قال الشعر الفارسي أبو حفص السغدي من سغد سمرقند وكان حاذقا في الموسيقى، وقد ذكره أبو نصر الفارابي وصور آلاته الموسيقية وقد عاش حتى سنة 300هـ وينسب إليه هذا البيت:

آهوى كوهي دردشت جكونه دودا؟ ... جوندار ديار بي يار جكونة رودا؟

(كيف يعدوهذا الظبي الجبلي في الصحراء؟، أنه لا حبيب له فكيف يسير بغير حبيب؟)

فأما رواية عباس المروي فأن المؤرخ الناقد يرتاب فيها لأن غريبا أن يبدأ الشعر الفارسي بهذا الأسلوب المتين ثم يصمت الشعراء أكثر من مائة سنة لا يؤثر عنهم شيء. وأما رواية السغدي فراجعة إلى العصر الذي بدأ فيه الشعر الفارسي وسجل لنا التاريخ بعض شعرائه.

ومهما يكن من شيء فاتفاق مؤرخي الآداب على أن أول شاعر فارسي عظيم هو أبو جعفر الرودكي شاعر نصر بن أحمد الساماني، الذي يسميه معروفي البلخي (سلطان شاعران) ويقول فيه البلعمي: أنه لا نظير له بين العرب والعجم، ويعترف الدقيقي والعنصري بتقدمه.

الأدب الياباني
للأستاذ أحمد الشنتناوي
كانت اليابان إلى عهد قريب محجوبة عن أنظار العالم المتمدين بحجب كثيفة لا يكاد المرء يتبين ما يجري وراءها بين أبناء تلك الأمة العظيمة من عادات وتقاليد، وكان الأدب الياباني بنوع خاص من أغمض مظاهر الحضارة اليابانية أمام الباحث، ويرجع ذلك إلى صعوبة اللغة اليابانية وغرابة أحرفها الهجائية وعدم إقبال الأدباء والعلماء على تعلمها، مع أن الآداب اليابانية غنية في مادتها متنوعة في أبوابها، وتعد بحق بين الآداب العالمية الرائعة.
وليس هناك أمة من الأمم تكون آدابها جزءا هاما من تاريخها مثل أمة اليابان، فأفراد الشعب هناك على اختلاف طبقاتهم يستسيغون الشعر ويطربون لموسيقاه، بل هم شعراء بسليقتهم لا فرق في ذلك بين النساء والرجال؛ فالأمة كلها تشترك في مهرجان الشعر الذي يقيمه الإمبراطور كل عام، فيأخذ كل ياباني في إنشاد أطيب ما جادت به قريحته، ويذكرون أن الإمبراطور (ميدي) وهو جد ميكادو إمبراطور اليابان الحالي كان يشجع هذه المهرجانات الشعرية، فيخصص الجوائز الثمينة للفائزين، وقد ألف هو نحو مائة ألف مقطوعة شعرية.
أما شغف الياباني بباقي فروع الأدب فلا يقل عن شغفه بالشعر، لهذا كانت الآداب اليابانية غنية في مادتها رائعة في أسلوبها إنسانية في معانيها، ولكن تلك الآداب العالية لم تتخط حدود اليابان الجغرافية لصعوبة اللغة التي كتبت بها، ثم زاد من صعوبة تلك اللغة دقة المعاني وعمق الأفكار التي حملها إياها اليابانيون، والتي لا تصدر الا من أبناء الشرق الصميمين في مدنيتهم الشرقية، ويكفي أن نقول أن كلمة (امرأة) لها في اللغة اليابانية ما يزيد على أربعة وعشرين لفظا مرادفا، كل لفظ يستعمل في حالة معينة وظروف خاصة حسب مكانة المرأة المخاطبة الاجتماعية أو الشخصية، أو درجة الاتصال بها. كذلك لفظة (أنت) لها ما يقرب من اثنى عشر مرادفا؛ وهذا التعدد في الألفاظ يدلنا على مقدار الدقة التي يتوخاها الياباني في تعبيراته الاجتماعية والأدبية، وليس هذا في نظرنا دليلا على رقي اللغة أو غناها فقط، إنما يدل كذلك على الشعور الدقيق والحساسية الراقية، والآداب
العالية هي في لبها وجوهرها إحساس دقيق وشعور متدفق.
وإذا كان فن التصوير الياباني له اثر واضح على الآثار الأوربية فأننا لم نسمع قط أن الآداب الغربية متأثرة بالآداب اليابانية، ولم يمنع هذا أن يكون العكس صحيحا، فالأدب الياباني غاص بالتراجم العديدة لكثير من الآداب الأوربية العالمية، فجميع المؤلفات القيمة من إنجليزية وفرنسية وألمانية وروسية نقلت إلى اللغة اليابانية، وهذا دليل واضح على تعلق هذا الشعب الناهض بالآداب على اختلاف منابتها.
والعصر الذهبي للآداب اليابانية الكلاسيكية هو عصر (هايين) من 784 - 1186 إذ انتعشت فيه الآداب اليابانية وظهرت فيه عدة قصص غرامية وتاريخية، كما أنه لم يخلو من النشرات الأدبية الانتقادية، ولعل أهم ما يلفت النظر في ذلك العصر هو ظهور أديبتين يابانيتين شهيرتين وهما (موراساكي) و (سي) وموراساكي اسم ياباني معناه زهرة البنفسج وصاحبته أديبة في أسلوبها فخامة وحلاوة وفلسفة لينة بينما (سي) ومعناها النور تمتاز بشعورها الفياض وأسلوبها السهل الممتنع وأشهر قصة لموراساكي؛ هي قصتها المسماة غنسي وهي وصف محكم وصورة طبق الأصل وملاحظات دقيقة مدهشة عن الحياة في البلاط الياباني في القرن الحادي عشر. وهي كثيرة الشبه بالحياة في بلاط لويس الرابع عشر، وقد اتخذت لها بطلا سمته (غنسي) وهو عبارة عن دون جوان آخر، أي مخلوق حر بكل معنى الكلمة، يأتي ما يشاء من الأفعال دون النظر إلى ما كان يأتيه يتماشى مع الاعتبارات الدينية أو الإنسانية أو الاجتماعية أو لا يتماشى، إنما كل همه إرضاء شهواته وملاذه، فكانت له عدة مخاطرات غرامية. وهذه القصة تعطيك صورة واضحة للحياة اليابانية الاجتماعية في عهد (موراساكي)، ولا تسل عن العذوبة والروعة التي كتبت بها الحوادث الغرامية التي خاض غمارها (غنسي) وكل ذلك في أدب وحشمة وتورع.
أما الأديبة الأخرى (سي) فكانت معاصرة لموراساكي وتعيش معها في البلاط الياباني، ولقد عرفت بالكبرياء والصلابة في رأيها، وكتاباتها ملآى بالنقد والتجريح، كذلك كانت

لها قدرة على وصف الطبيعة وما بها من حيوان وطير وصفا بليغا دقيقا.
ولنذكر هنا قطعة لها قصيرة في وصف فصول السنة الأربعة قالت:
(أن الذي يسحرني في الربيع هو الفجر يتهادى في مشيته على قمم الجبال، بينما كل شيء يضيء رويدا رويدا، وقطع السحاب اللازوردية تسبح في الفضاء جماعات جماعات. . . . . .)
(أما في الصيف فالذي يسحرني فيه هو الليل. . . يعجبني منه القمر المنير .! وتسحرني الليلة الليلاء، حيث يطير في جوها الحالك الحباحب المشعة هنا وهناك. . . وإذا تساقط المطر في تلك الليلة فأنه يزيد في جمالها وسحرها. . .
والذي يسحرني في الخريف هو المساء عندما ترقد الشمس في مغربها مرسلة سهامها اللينة نحو قمم الجبال العالية، فتسرع الغربان نحو أعشاشها تطير جماعات مثنى وثلاث ورباع! حقا أنه منظر فيه حزن وجمال. . . . وما اجمل المنظر وأبهاه إذا لاح في الأفق البعيد سرب من الطيور البرية الصغيرة!. . بعد ذلك تختفي الشمس وتزأر الرياح وتخرج الهوام والحشرات من مخابئها صائحة مهللة. كل ذلك مما يهيج في النفس ألما لذيذا. . . والذي يسحرني في الشتاء هو سقوط الثلج إذا ما تنفس الصباح، فتكتسي منه الأرض حلة بيضاء ناصعة، وعندما يقر البرد توقد النيران للتدفئة، حتى إذا ما انتصف النهار وخفت وطأة البرد ترى جمرات النار وقد تحولت إلى رماد ابيض، وذلك هو الحزن بعينه. . .!)
وفي القرون الأربعة التي أعقبت عصر (هايين) نجد القصة والشعر الياباني لا ينتقلان من مكانهما بعيدا، الا أننا نجدهما يتأثران كثيرا بالفلسفة البوذية، فينتعش الأدب التاريخي ويولد الأدب المسرحي في اليابان، وأبطاله (كابوكي) و (نو) وفي عام 1642 يظهر في سماء الأدب الياباني (سيكاكو) وهو أستاذ الأدب الواقعي في اليابان، وقد خلف هذا الأديب مؤلفات وافرة وتلاميذ كثيرين وكانت الآداب اليابانية قبل عهده تعد في جملتها آدابا أرستقراطية كتبت لخواص الناس وأهل الثقافة منهم، فأتى سيكاكو وجعل من الأدب الياباني أداة للإفصاح عن مشاعر الإنسانية وعواطفها وهمومها وأحزانها أي تلك النواحي العامة التي قد يشعر بها رجل الطريق قبل أن يشعر بها رب الجاه والسلطان. وهو في وصفه وتحليله لتلك العواطف الإنسانية راعى الدقة التي يلاحظها النباتي في وصفه لزرعه؛ أو عالم الحيوان في دراسته لحشرة من الحشرات. وتظهر هذه المقدرة بأجلى بيان في قصته المسماة (حياة امرأة) وصف فيها سيكاكو كيف تكون حياة المرأة الخليعة
المستهترة التي لا يهمها من عيشتها الا إشباع شهواتها وقضاء ملاذها، ولكن حياة الدعارة والمجون نهايتها دائما محزنة مبكية فنرى في نهاية القصة تلك المرأة التي كانت بالأمس زينة المجالس وبهجة الناظرين تهجر العالم بعد أن عضها البؤس بنابه، وتنزوي بين منعطفات الجبال في كوخ حقير من القش والخرق البالية. . .!
ولعل (تيكاماتسو) أشهر كاتب درامي في اليابان، فهو يعد بحق شكسبير الأدب الياباني. ولكنه اقتصر في مؤلفاته على الإشادة بذكر العواطف الإنسانية العالية وتحليلها كالحب والشرف والإخلاص والعفاف، ويعده البعض بين زمرة الشعراء لأن رواياته كتبها كلها نظما، ولكننا لا ننسى أن معظم كتاب اليابان الأقدمين كتبوا آثارهم شعرا لأنهم عشقوا الشعر وطربوا لأنغامه الموسيقية فألهاهم ذلك عن كل شيء آخر. (وتيكاماتسو) هذا خالق الدراما اليابانية التي تصف الحياة اليومية وتتغلغل في أعماقها وتكشف عما بها من محاسن ومعايب، وتعبر عما تختلج به قلوب الآلاف من المظلومين والمساكين.
ظل الحال على هذا المنوال حتى الثورة اليابانية التي شب لظاها عام 1867 والتي يرجع سببها إلى الروح الغربية التي بدأت تتسرب إلى بلاد اليابان الهادئة المطمئنة حوالي ذلك الوقت، فتأثرت الآداب اليابانية كما تأثر الفن الياباني، كذلك لم يسلم من هذا التيار الجديد الحياة الاجتماعية نفسها، فتغير سلوك الفرد ونظام الأسرة، حتى المساكن وأنواع الأطعمة دخل عليها شيء كثير من التعديل والتغيير، وغذى المجتمع الياباني شيء آخر جديد مغاير لليابان إبان عهد هايين أوسيكاكو، وبدأ الشعب الياباني يقف على مسرح الحياة بنفسه بعد أن كان إلى هذا العهد مشاهدا متفرجا لما يقع بين ظهرانيه، اذ بعد أن هدأ تيار الثورة وخمدت الحروب الأهلية حوالي سنة 1880 ظهر

في الأفق شعاع جديد لامع يبشر بمستقبل أدبي جديد لم تلبث أن أشرقت في أثره شمس الآداب اليابانية الحديثة وهي موضوع الكلام في مقالنا الثاني إن شاء الله.

في الأدب الغربي

قصة فيلسوف عاشق

للدكتور طه حسين

لا أعلم أن الفلسفة تحضر الحب على أهلها، بل الذي أعلمه أن الفلسفة حب كلها. وليس اسمها الا لفظاً من ألفاظ الحب؛ ولكن هذا الحب إذا احتل قلباً شغله عن كل شيء واستأثر بكل ما فيه من قوة وعاطفة وهوى، ولم يدع من ذلك للحياة اليومية العاملة الا شيئا يسيراً جدا.

فالفلسفة حب الحكمة، وهذه الحكمة شديدة الغيرة، شديدة الاثرة، لا تحب الشركة ولا ترضاها، ولا تسمح لعشاقها بأن يصفوا بودهم شيئاً أو أحداً غيرها. فمن فعل ذلك أو شيئاً منه، فليس هو من الحكمة في شيء؛ وإنما هو رجل مثلي ومثلك يغشى الأندية، ويضطرب في الشوارع، ويعيش مع الناس، وليس له حظ من المدينة الفاضلة التي يسكنها ويسيطر عليها عشاق الحكمة وحدهم.

لذلك كان أمر هذا الفيلسوف الذي أحدثك عنه عجباً من العجب، وفنا من هذه الفنون النادرة التي لا يظفر بها المؤرخون والقصاص الا في مشقة وعسر، وإلا على أن تفرق بينها القرون الطويلة والعصور البعيدة. والذي أعرفه أن التاريخ لم يظفر قبل فيلسوفي هذا العظيم بعاشق قد دلهته الحكمة، وعبث بلبه جمال ألهتها العليا؛ ولكنه على ذلك استطاع أن يشغف بآلهة أخرى يشركها مع هذه الآلهة التي كان يصورها اليونان في صورة أثينا، تلك التي خرجت من رأس أبيها زوس، تامة الخلق، مكتملة الشباب، فيها جمال فتان؛ ولكن فتنته تخلب بقوتها لا برقتها.

لم يعرف التاريخ عاشقاً من عشاق أثينا استطاع كما استطاع فيلسوفي العظيم، أن يشرك معها امرأة من النساء في حبه وهيامه، وأن يختصها من هذا الحب والهيام بمثل ما اختص به آلهة الحكمة نفسها، وأن ينتهي به الأمر إلى أن يخلط ابنة زوس بابنة بابيس، ويتخذ منهما شخصاً واحداً يحبه ويقدسه، ويصوغ له ديناً قويا خصبا، ويحاول أن يبسط سلطان هذا الدين على الإنسانية كلها، أو على الإنسانية المسيحية على أقل تقدير.

أظنك قد عرفت هذا الفيلسوف، فهو (أغست كونت) مؤسس الفلسفة الوضعية، وواضع علم الاجتماع، وصاحب السلطان العظيم على العقل الفرنسي، ثم الأوربي، ثم الأمريكي، عصرا طويلا من القرن التاسع عشر. وأظنك قد عرفت هذه المرأة التي زاحمت الفلسفة في قلب (أغست كونت) فكادت تغلبها عليه، أو غلبتها عليه بالفعل؛ ثم أصبحت إلهة للفيلسوف يعبدها كما يعبد النصارى المسيح، وكما كان الوثنيون من اليونان يعبدون أثينا أو أرتميس. ثم أصبحت إلهة لجماعة من تلاميذ الفيلسوف المتفرقين في أطراف الأرض، ثم أقيم لها معبد لا يزال يحج إليه إلى الآن في بابيس، وأقيمت لها معابد متفرقة في أمريكا الجنوبية. حيث لا يزال للفيلسوف اتباع يشايعونه في القسم المتطرف من فلسفته.

هذه المرأة هي (كلوتلد دي فو) وأظنك تطمئن الآن وقد سمعت هين الاسمين، الا أني لا اخترع ولا اتبع الخيال، ولا أضع قصة؛ وإنما أكتب فصلا من فصول التاريخ. وليس من الضروري أن يلجأ الكاتب إلى الخيال والاختراع، ليستطيع أن يمتع قراءه، وأن يؤثر في نفوسهم ويثير فيها هذه العواطف الحادة المختلفة التي تعبث بها حين تحس لذة أو الماً، وحين تجد حبا أو بغضا، وحين تشعر بحزن أو سرور. فقد تكون الحقائق الواقعة أبرع وأروع من أحسن القصص الخيالية وأبدعها. ولكني في حاجة إلى أن اقدم إليك شخص هذين العاشقين قبل أن أحدثك عن عشقهما، وأقص عليك ما كان بينهما من غرام.

نشأ أغست كونت مع القرن التاسع عشر، ولم يكد يتوسط العقد الثاني من عمره حتى ظهر تفوقه في العلوم الرياضية، ولم تكد تتقدم به السن قليلا حتى عرف له هذا التفوق، وإذا هو حجة في هذه العلوم، وإذا هو لا يقف عندها ولا يقتصر عليها؛ وإنما يفكر في الصلة بينها وبين بقية أنواع المعرفة الإنسانية من جهة، ويفكر من جهة أخرى في الحياة الأوربية المضطربة بعد الثورة والإمبراطورية، فيحاول أن يضع ترتيباً جديداً

للعلوم، ويوفق إلى ما يريد، ويحاول أن يجد نظاماً جديداً تقوم عليه الحياة الأوربية، فيوفق أيضاً، ويصبح لهذين النوعين من التوفيق صاحب الفلسفة الوضعية ومؤسس علم الاجتماع.

ولكن فلسفته الوضعية هذه، كانت حديثة ثائرة لا تستأثر بالقلوب استئثاراً مطلقا، ولا تقطع على أهلها سبيل الحياة. فسمحت لعاشقها (أغست كونت) أن يعيش كما يعيش الناس، وأن يحب كما يحبون. فعاش وأحب. ولكن أي عيشة وأي حب؟ تركت الفلسفة قلبه حرا،

وشغلت عقله كله، فاختار في الحب بحسه وقلبه، ولم يختر بعقله، فيا بئس ما اختار! اختار امرأة جشمته الأهوال، وعلمته كيف تحتمل الآلام، وكيف يتجرع الإنسان مرارة الغيظ: كانت هلوكا فاجرة. وخيل إلى (أغست كونت) أنها نقية طاهرة، فأحبها وأظهرت له الحب، وخطبها فقبلت الخطبة، وتزوجها فقبلت الزواج. وما هو الا وقت قصير حتى تبين من أمرها ما كره. فخاصمها وقاومته، وأنذرها فازدرته، وحاول أن يعاقبها فثارت به، وصبر الرجل فصابر حتى جن. وإذا هو يلقي نفسه في النار، وإذا الشرطة تستنقذه وتدفعه إلى المستشفى، فيقيم مع المجانين حينا ثم يفيق فيستأنف الفلسفة، ويستأنف التعليم، ويستأنف الحب والعذاب. ويجن مرة أخرى، ويفيق وتنقطع الصلة بينه وبين امرأته في غير طلاق، لأن القوانين الفرنسية لم تكن تبيح الطلاق يومئذ. فنشاطه إذا موقوف على الفلسفة والتعليم.

وفي سنة 1840 كان فيلسوفنا ممتحنا في مدرسة الهندسة وكان بين الشباب الذين تقدموا إليه في هذا الامتحان غلام في الخامسة عشرة من عمره، هو (مكسيمليان ماري). رآه الأستاذ الفيلسوف وسأله، فأحبه واعجب به، ورأى أن الخير في ألا يقبله هذا العام. فأجله سنة ثم قبله بعد ذلك، واتصلت بين الأستاذ وتلميذه محبة لن تلبث أن بلغت أقصاها، وإذا الفتى يميل إلى أستاذه وفلسفته وإلى الحرية خاصة، وإذا هو يستقيل من المدرسة ويتبع الأستاذ ويتتلمذ له ويعيش من التعليم في المدارس الحرة على كره من أبيه. وفي سنة 1844 يتزوج هذا الفتى ويعيش مع امرأته في بيت الأسرة، حيث يزوره الأستاذ من حين إلى حين، وهناك يلقى أخته (كلوتيلد) فلا يكاد يسمعها ويتحدث إليها، حتى تبتدئ بينه وبينها قصة الغرام.

وكانت كلوتيلد هذه في الرابعة والعشرين من عمرها ولكن حياتها كانت ممتلئة بالخطوب. كان أبوها رجلا من الطبقة الوسطى، عمل في جيش الإمبراطورية وارتقى في آخر عهد الإمبراطور إلى رتبة الكابتن، ثم سقطت الإمبراطورية فأحيل إلى الاستيداع، وعاش من مرتبه العسكري الضئيل. وكانت أم الفتاة من أسرة شريفة من أهل اللورين، فنشأت (كلوتيلد) نشأة فيها بؤس وضيق؛ ولكن فيها احتفاظا شديداً بتقاليد الطبقة الوسطى، ولم تكد تتجاوز الخامسة عشرة حتى زوجت من رجل يحمل اسما من أسماء الأشراف. ولكن حظه من الشرف كان قليلا، وهو (ميودي فو). اقترن بالفتاة وعين جابياً للضرائب، وقضى مع امرأته أعواماً لا هوبالسعيد ولا هو بالذي يمنح امرأته قسطاً من السعادة. ثم أصبح الناس ذات يوم، وإذا هو قد هب إلى سفر مجهول، وما هي الا أن يبحث عنه ويفتش عن أمره، حتى يظهر أنه قد بدد أموال الدولة، وشيئاً كثيراً من أموال الناس في اللعب، ثم هرب من فرنسا، إلى حيث لم يعرف من أمره شيء.

فظلت هذه المرأة الشابة معلقة، لا هي بالمتزوجة، ولا هي بالمطلقة، محزونة بائسة، لا أمل لها في الحياة. عادت إلى أسرتها تعيش بينها، وعكفت على نفسها تعيد وتبدي ما يجول فيها من خواطر الألم والحزن، ثم أخذت تكتب ما تحس وتقيد ما تجد، وإذا هي كاتبة لها حظ من أدب ونصيب من خيال. وكان جمالها معتدلا لا إسراف فيه. وكانت المحنة قد أفادتها رصانة ورزانة، وأفاضت على شخصها شيئاً من الحب يعطف النفوس عليها، وأجرت في حديثها شيئاً من العذوبة الحلوة الهادئة، يحببها إلى القلوب.

فلما لقيها الفيلسوف في بعض زياراته لأخيها، نظر إليها فلم تكد تبلغ نفسه، ونظرت هي إليه فأنكرته وأكبرته. أنكرت شكله الدميم، وصورته القبيحة، وخلقه المضطرب المرتبك، وأنكرت صوته الغليظ، وحديثه المتكلف. ولكنها أعجبت بذكائه، وأكبرت عقله وفلسفته، وسكتت عنه، وسكت عنها. واتصلت الزيارات، واتصل اللقاء. وأخذت نظرات الفيلسوف تستقر على الفتاة، وأخذت أذن الفتاة تطمئن إلى حديث

الفيلسوف، ولكن أحداً منهما لم يشعر بأن صاحبه قد وقع من نفسه موقعاً خاصاً.
كان الفيلسوف يزور الأسرة ثلاث مرات في الأسبوع، وكان يجد لذة ودعة في هذه الزيارة، كان يلقى ثلاثاً من النساء: أم تلميذه وكانت مشغوفة بالتصوير، تحاول دائما أن تصور الفيلسوف، وزوج تلميذه وكانت موسيقية تطربه بالتوقيع على البيانو، وكلوتيلد أخت تلميذه وكانت أديبة تحدثه عن الأدب وعن قصتها التي أنشأتها وسمتها (لوس) ورمزت فيها لحياتها الخاصة، وربما أنشدته شيئا من شعرها. ولم يكن الفيلسوف يحب الأدب ولا يحفل بالشعر، ولكنه كان يجد لذة في أدب كلوتيلد، ويذوق الجمال في شعرها وإن لم يكن هذا الشعر جميلا، وإن لم يكن مستقيم الوزن أحياناً. وكان الفيلسوف يتحدث إلى كلوتيلد عن فلسفته الوضعية، وعن مجلداته الخمسة التي ظهرت تذيع هذه الفلسفة في الناس، وعن أنصاره وخصومه، وعن دروسه في الفلك.
وكانت الفتاة تعجب بهذا كله، وإن لم تكن بطبعها مشغوفة بالفلسفة. وكان الفيلسوف يلتمس إرضاءها والتقرب إليها على غير شعور منه، فيذكر لها براعة النساء في الأدب والفلسفة، وكان هذا الحديث يروقها ويتملق كبرياءها، وكانت الفتاة تكبر في نفسها حين ترى الفيلسوف قد رآها لثقته أهلا.
وذات يوم سقطت على الفيلسوف من السماء سعادة لم يكن يقدرها ولا ينتظرها ولا يحسب لها حساباً. زاره تلميذه ومعه أخته، وكان الفيلسوف في جماعة من العلماء، وكان الحديث علمياً عميقاً، فابتهج الفيلسوف وأعجبت الفتاة، وجلست تسمع في إكبار وتثاؤب خفيف لحديث العلماء، ثم همت تريد أن تنصرف فجمع الفيلسوف شجاعته كلها في يديه واستأذن الفتاة في أن يزورها في بيتها الخاص، فأذنت. هنالك بدأت الخصومة بين آلهة الفلسفة وآلهة الجمال. هنالك اضطرب (أغست كونت) بين العقل والقلب، وبين التفكير والحب. هنالك أخذ الفيلسوف يسأل نفسه: ما قيمة هذا العلم الخالص الجاف؟ وما قيمة هذا التفكير العميق العقيم؟ ومتى كان الرجل رجلا بعقله دون قلبه؟ ومتى كان الإنسان أنسانا بالتفكير دون الحب؟ إن الإنسان لا يستطيع أن يفكر في كل وقت، ولكنه يستطيع أن يحب دائماً. وإذا فقد تكون آلهة الفلسفة مسرفة في الطغيان، وقد يكون من الممكن أن يتخذ (أغست كونت) رأسه معبداً لأثينا وقلبه معبداً لكلوتيلد.
وابتدأت زيارة الفيلسوف للفتاة في بيتها. وإذا الحب يعلن، وإذا الفيلسوف يلح في حبه ويسلك إلى إقناع الفتاة بهذا الحب طرقاً، منها الملتوي، ومنها المستقيم. ولكن كلوتيلد لا تحب ولا تهوى، إنما تعجب وتكبر، فهي ترده عنها في رفق، وتطلب إليه مودته دون حبه، فلا يكاد يعرف منها هذا حتى يضيق بنفسه وبالحياة، وحتى تضيق به حصته، ويعجز جسمه ورأسه عن احتمال هذا الخذلان، فهو مريض يلجأ إلى السرير أياماً، وهو مشفق أن يعاوده جنونه القديم، على أنه يبل من مرضه، ويحاول أن يجدد عهده بالفتاة، ولكنها تحظر عليه زيارتها في بيتها، وتعده باللقاء عند أمها مرتين في الأسبوع، فلا يكفيه ذلك، فتعده بلقائه مرة ثالثة، فلا يكفيه ذلك أيضاً، وتتصل بينهما كتب فيها حوار حلو ملؤه الحنان حين يصدر عن الفتاة، عنيف معوج ملؤه الفلسفة حين يصدر عن الأستاذ، ثم يستحيل هذا الحب في نفس الفيلسوف إلى شكل جديد، فليس هو حباً عادياً كهذا الذي يكون بين الناس، وإنما هو التقاء شخصين عظيمين قد خلقا ليلتقيا ثم ليتعاونا على إصلاح الإنسانية وإنهاضها.
هي إذن قد خلقت له ولن يدعها ولن يتخذ غيرها زوجاً، إذا ماتت زوجه النائية، ثم تستحيل هذه العواطف ويستحيل هذا التفكير إلى فن من الفلسفة، يضعه (أغست كونت) في رسالة، ويهدي الرسالة إلى الفتاة بهذا العنوان: (رسالة فلسفية في التذكار الاجتماعي). في هذه الرسالة يتغير رأي (أغست كونت) في المرأة ومكانتها الاجتماعية تغيراً تاماً. فقد كان منذ أشهر يكتب إلى تلميذه (ستوارت ميل) فيرى أن ليس في المرأة أمل ولا خير، أما الان فهو يرى المرأة عنصراً أساسياً في الإصلاح الاجتماعي الذي وقف نفسه عليه، وقد سرت الفتاة بهذه الهدية، وكبرت في نفسها فزارت الفيلسوف مع أمها شاكرة له.
هنالك نشط الأمل وتجددت الحياة، واعتقد الفيلسوف أنه سعيد. واستأنف إلحاحه على الفتاة، واستأنفت الفتاة مدافعته عن نفسها، واحتالت في ذلك حتى زعمت له أنها قد أحبت من قبله فتى كان لحبها أهلا، وأحبها الفتى وسعد بهذا الحب؛ ولكن لم يجدا إلى

الزواج سبيلا، لأن الفتى كان معلقا مثلها يخاصم امرأته ولا يستطيع لها فراقا، فيئست من الحب والسعادة، وأزمعت أن تنصرف عن لذات الحياة أبدا. ولكن الفيلسوف مغرم، والغرام لا يعرف اليأس، وهو إذا كان صحيحاً قويا قد يتحول ويتشكل، ولكنه لا يزول. وما الذي يمنع غرام كونت أن يتخذ شكلا فلسفيا ولو إلى حين. لقد كان عود نفسه الحرمان منذ دهر طويل، فألغى القهوة منذ عشرين سنة، وترك التدخين منذ عشر سنين، ثم ألغى النبيذ ثم ألغى الفاكهة، ثم اتخذ ميزانا يزن به ما يلائم حاجة جسمه من الطعام الخشن، وكان ربما يكتفي بالكسرة من الخبز يتبلغ بها، وهو يفكر في إخوانه من الناس الذين قد لا يظفرون بمثلها. وما دام قد سيطر على نفسه إلى هذا الحد، وعودها هذا الحرمان في الطعام والشراب، فما له لا يزيد هذه السيطرة وما له لا يعود نفسه الحرمان لا في الحب بل في لذات الحب. إذا فليبق حبه قويا حارا؛ ولكن ليظل هذا الحب نقيا طاهرا مجدبا من كل لذة، ولينتظر، وليجتنب اليأس، فكل شيء يدني الفتاة منه، وكل شيء يدنيه من الفتاة. لقد أصبحت زميلة له منذ نشرت بعض الصحف السيارة لها قصتها التي وضعتها عن نفسها فأصبحت كاتبة مثله تتحدث إلى الناس في الأدب كما يتحدث هو إلى الناس في الفلسفة. هما إذا زميلان، بل هما اكثر من زميلين؛ فقد أخذت الفتاة تدنو من مذهبه في الفلسفة، وتحس ميلا إلى آرائه الاجتماعية، وتكون منه مكان التلميذ والنصير. فليحب إذا وليصبر، وفي أثناء ذلك كانت أم الفتاة تقول لها: لولا أن مسيو كونت قبيح دميم لقلت أنه يتملقك ويدور حولك كما يدور العاشقون حول من يحبون، ومع ذلك فإن من الحق عليه لك ولنفسه أن يفكر في أن هذه الزيارات المتصلة المنظمة، لا تليق بك ولا به لأنها تخالف العرف المألوف أشد الخلاف.

الوادي

للشاعر الفرنسي لامرتين

إن قلبي المكلوم، المتقطع رجائه حتى من الأمل، لن يزعج الأقدار بعد الآن بابتهالاته كما كان يزعجها من قبل.

ولكن أيها الوادي، يا مأواي في أيام طفولتي، أفسح لي مجالا (ولو ليوم واحد) فأعيش في ربوعك في انتظار المنون.

ها هي ذي الطريق الضيقة المؤدية إلى ذلك الوادي المظلم:

هنا، في أحضان هذه الروابي، تقوم أشجار تلك الغابات الكثيفة، فترسل ظلها على وجهي الشاحب، وتحوطني بسكون مسكر.

وهناك جدولان يسيران تحت (جسور) من الأعشاب المخضوضرة، فيرسمان في انسيابهما تعاريج الوادي ومنحدراته، وتراهما بين الفينة والفينة، يمزجان تموجاتهما الفضية بألحان خريرهما العذبة، ثم يتلاشيان قريبا من المنبع، بعيداً عن أعين الناس.

وأيامي في انسيابهما أشبه بهذين الجدولين! فهي تمضي وتتلاشى دون أن يشعر بها الناس، ودون أن تحدث ذلك الخرير العذب! أما نفسي الكئيبة الملتاعة فهيهات أن تعنى بحياة يوم جميل من أيام حياتي.

إن خمائل الوادي الفينانة، بظلها المخيم، دفعتني لقضاء النهار كله على ضفاف جداولها، فنفسي الحساسة تغفو على أنغام خرير المياه، كما يغفو الطفل في مهده على صوت المناغاة.

هناك تحوطني الطبيعة بأسوار من العشب الاخضر، وبأفق محدود، لكنه فسيح لناظري.

إنني أحب أن اثبت قدمي، وأن أبتعد عن الناس لأسمع خرير المياه، ولأتمتع برؤية السماء.

لقد رأيت في حياتي أموراً كثيرة، وشعرت باحساسات جمة، وملأت أيامي عشقا. والآن جئت أستوحي الطبيعة في هدوئها الشامل.

أيتها الأماكن البهيجة الجميلة! كوني لي تلك الضفاف التي ينسى الإنسان بقربها كل شيء، فقد أصبح سر سعادتي في النسيان.

هنا يطمئن قلبي؛ هنا ترتاح نفسي؛ هنا تلفظ ضوضاء العالم البعيد أنفاسها الأخيرة كما يلفظ الصوت البعيد أنفاسه حين تبعد به الشقة قبل أن يصل مع النسيم إلى الأذن الحائرة.

من هنا، ومن خلال هذه الغيوم الصافية، أرى ماضي حياتي يختفي في ظلام دامس، تاركا لنفسي ذكريات حية لحبي، كما تترك اليقظة في نفس المستيقظ صور خيالات جميلة لحلم لذيذ قد استفاق منه.

يا نفسي! خذي حظك من الراحة في هذا المنزل الأخير كما يأخذ المسافر الطافح قلبه بالامال، حظه من الراحة، قبل أن يدخل أبواب المدينة، يستنشق هنيهة نسيم المساء المعطر.

ولننفض نعالنا كما يفعل هذا المسافر، لأننا لن نمر ثانية في هذه الطريق التي اجتزناها مملوءة بالغبار، ولنتذوق مثله أيضاً، في آخر مرحلة من طريقنا، هذا الهدوء الذي يبشرنا بضجعتنا الأبدية.

أيها الإنسان! إن أيامك المعدودة، التي تشبه في حلكتها وقصرها أيام الخريف، تنحدر بك كما ينحدر الظل على جوانب الهضاب. فالصداقة تخونك، والرحمة تعرض عنك، إلى أن تتركاك في طريق القبر وحيدا.

ولكن الطبيعة هنا تدعوك إليها لتبثك أشواقها، فارتم في أحضانها.

عندما يقلب لك كل شيء ظهر المجن، عندما يخونك كل شيء ويعرض عنك، ترى الطبيعة على حالها المعهودة. فالشمس نفسها تشرق طيلة أيام حياتك.

أن الطبيعة لم تزل كما كانت عليه بالأمس، ترشدنا تارة بنور حقيقتها، وتظللنا أخرى. فلا تأسف أيها الإنسان لكل ما تضيعه من متاع الحياة الدنيا. وتعال تعبد ذلك الصدى وألحان تلك الموسيقى العلوية كما كان يتعبدهما (فيثاغورس) من قبلك.

دع الطرف يناج الغزالة في سمائها نهارا، والأشباح في محرابها ليلا؛ واسبح مع الغيوم على بساط الريح؛ واخترق غابات الوادي الظليلة مع أشعة ذلك الكوكب الخفي.

إن الله خصك أيها الإنسان بالعقل والفطنة لكي تتحقق بهما وجوده. فاستجله في صحيفة الطبيعة، فإن في سكونها وهدوئها صوتا يهتف باسمه.

من منا لم يسمع هذا الصوت يدوي في أعماق قلبه؟

بيروت. محمد كزما

غيرة

قد زرعنا بين أفواف الربا ... وردة الحب لإقبال الربيع
داعبتها عند إقبال الصبا ... نسمة الآصال والصبح الوديع
خلع الروض شذاه بعدها ... وحبتها اللون وجناتُ الحبيب
فهي كالنار، ولكن عندها ... تشتهي الأفواه تقبيل اللهيب
كأن قلبي مسرح الود الندِي ... وسقته العين أمواه الحياه
وعزيز أن أرى غرس يدي ... تحتويه بين عيني الشفاه
وردة الحب استباحت ادمعي ... وتولت عند إقبال الخريف
عذبت قلبي وأبكته معي ... وأرتني كيف إذلال الضعيف

محمود محمد منتصر

العلوم

أسرع كمرة في العالم

صورة تؤخذ في جزء من 40000 من الثانية

إذا أردت أن تصور جسما ثابتا، كتمثال من الحجر، كفاك في ذلك أن تثبت أمامه كمرة غاية في البساطة، تتكون من خزانة مظلمة، بسطحها القريب من التمثال عدسة تركز الأشعة المنبعثة منه على فلم حساس في السطح المقابل من الخزانة، فترتسم عليه الصورة المرغوبة. ثم يستخرج الفلم في الظلام ويثبت بالطرق المعروفة. ومن أهم الأمور التي يراعيها المصور مدة التجلية أي مدة تعريض الفلم للضوء، وهي تتوقف على أمرين: أولهما درجة إحساس الفلم، وثانيهما شدة الضوء الذي ينير التمثال. وفي المثل الذي نحن بصدده يكفي أن يغطي المصور عدسة هذه الكمرة البسيطة بورقة مقواة سوداء، فإذا حان وقت التصوير جلى عن الفلم مدة ثانية أو ثانيتين أو ثلاث أو أربع حسب ضوء الشمس الحاضر، وذلك بإزاحة الغطاء ثم رده سريعاً إلى مكانه.

هب بعد ذلك أنك تريد تصوير رجل من لحم ودم، وهب أنك وقفته مكان التمثال وجليت عن الفلم ثلاث ثوان أو أربع، فهل تدري ما الصورة التي تخرج لك؟ صورة مغبشة على الأغلب لأن الإنسان ليس له سكون الحجر، فهو لا يستطيع صبراً على

الوضع الواحد، فيتحرك فيتخذ أوضاعا كلها ترتسم على الفلم فتخرج الصورة مبهمة الحدود متضاعفة الخطوط مختلط بياضها بسوادها. فتجد نفسك عندئذ في حاجة إلى تقصير مدة التجلية حتى لا يتحرك الرجل، ومعنى هذا أنك بحاجة إلى زيادة حساسية الفلم، ومعنى هذا أيضاً أنك بحاجة إلى زيادة شدة الضوء، فبدل أن تصور في نور الصباح الأول أو في نور المساء الأخير، تصور والصباح ضاح مشرق، وعندئذ تكفيك بعض الثانية عن الثواني الكثيرة.

هب بعد هذا أنك تريد أن تصور رجلا وهو يسير، أو حيوانا كقطة أو كلب لا تستطيع أنت أن تريده على السكون، أو هب أنك تريد أن تصور حصانا وهو يجري، أو طائرا إذ يطير، أو قطارا ينهب الأرض، فقد لا تنفعك تجلية الفلم ثانية أو عشر الثانية، فالقطار الذي يسير بسرعة 60 كيلومتراً في الساعة يقطع في الثانية الواحدة نحو من 17 مترا. فانظر كم صورة تنطبع عندئذ على الفلم في الثانية الواحدة، وتخيل مقدار تغبش الصورة الحاصلة.

فكان لا بد من تقصير مدة التجلية تقصيرا كبيرا كان تكون مدة التجلية جزءا من مائة من الثانية أو من مائتين، ولما كانت اليد الإنسانية لا تستطيع كشف العدسة وتغطيتها بهذه السرعة كان لا بد من ابتداع غطاء تحركه قوة آلية كقوة الزنبركات مثلا، وتدخلت الكيمياء لتزيد في حس الأفلام لكي تتأثر بالضوء في المدة القصيرة الجديدة. وتقدم الإنسان في اختراع الكمرات السريعة حتى أصبح تصوير المتحركات أمراً سهلا لا يكلف تعبا ولا إجهادا، وأصبح مألوفا حتى لا يثير استغرابا ولا إعجابا. وصرنا نحلل بها حركات الحيوان لنعرف منها تفصيل سيره، ونحلل حركات الطائر لندرك منها كنه طيره، وصرنا نجمع هذه الوحدات التي تحللت إليها الحركة، والعناصر التي تقسمت إليها أفعال الحيوان والإنسان، فنعرضها على الشاشة البيضاء متتابعة متواصلة، فنحكي من حوادث الوجود ما نشاء أين نشاء ومتى نشاء.

ولكن من حوادث الوجود ما يحدث في مدد قصيرة تنافس العين في لحظتها والخاطر في لمحته، فلا بد من تقصير مدة التجلية إلى ما يسبق لحظة العين ويقاصر لمحة الخاطر، وإذن فلا بد من الزيادة في حساسية الافلام، ولا بد من زيادة الضوء حتى يزيد على ضوء الشمس، فجد الباحث بعد الباحث، وعاون المفكر المفكر، وتضافر الطبيعي والكيميائي، والرجل النظري والرجل التطبيقي؛ حتى جاءت الأنباء حديثاً بأسرع كمرة عرفها الزمن، كمرة إذا صدقت الأخبار العاجلة تصور الصورة في جزء من أربعين ألفا من الثانية، اخترعها أستاذان من أساتذة معهد الصناعات بماساشوسيت بالولايات المتحدة، وهي تعتمد بالطبع على فلم شديد الحس، ولكن اكبر اعتمادها على دورة كهربائية تستطيع أن تحدث برقة ضوئية أسطع من شمس الظهيرة مرات وهي تعدل في شدة ضوئها 40000 مصباح كهربائي مركزة كلها في صعيد واحد، قوة الواحد منها خمسون واطاً.

وقد استطاعا أن يصورا بها أموراً عدة لا تستطيع أن تصورها الكمرات السريعة المعروفة، نذكر من ذلك صورة للماء النازل من الصنبور، فهذا يخرج تحت ضغط وتسير قطراته في السيل المندفع بسرعة كبيرة، وإلى هذا فهي تتحرك في كل جهة بحركات تختلف سرعاتها باختلاف تدافع القطرات واتجاهها، وتراها في الصورة المرفقة كأنما قال لها الله اجمدي مكانك فجمدت، وتراها على غير ما تراها العين من الانسجام والملاسة.

ومن ذلك صورة للمضرب إذ يضرب به اللاعب الكرة في اللعبة المعروفة بالجلف، فأنك ترى الكرة المصنوعة من المادة الصلبة القوة قد انبطحت من قوة الضربة؛ ولأن انبطاحها لا يستغرق الا جزءاً من الثانية في غاية الصغر كان من المتعذر على العين أن تراه؛ وكان من المتعذر على الكمرات العادية أن تسجله. وبقي أمراً مفروضا حتى أتت الكرة السريعة فجعلته رأى العين، والعين جهيزة الحجج، إذا رأت قطعت قول كل خطيب.

على أنه لا يفوتنا أن ننبه إلى أن كل صورة لشيء متحرك، مهما كان نوعها، وبأي كمرة صورت، ما هي الا مجموعة من صور لا حصر لعددها. هب أنك أخرجت يدك من

جيبك فوضعتها تحت ذقنك؛ وهب أن هذا حدث في ثانية واحدة، فأنك لتجد يدك اتخذت عدداً من الأوضاع لا حد له. فما دامت يدك في حركة مستمرة ففي كل أجزاء الثانية، مهما صغر، وضع خاص به يختلف عن وضع الجزء الذي يليه من الثانية، ومن الطبيعي أننا كلما زدنا في التجزئة قل الخلاف بين أشكال هذه الأوضاع العديدة حتى تعجز العين الإنسانية عن إدراكه. فصور الكمرة السريعة المرفقة هي في الواقع عدة من صور عجز حس الإنسان عن إدراك الفروق بينها، فحس الإنسان لدقائق المكان محدود، كما أن حسه لدقائق الزمان محدود.

ولعل هذا التثلم في الإحساس نعمة من نعم الله، ولو أن هذه الحدة في الإحساس بالزمان والمكان أعطيت لي هبة لترددت كثيراً في قبولها، لأني إن قبلتها لم أجد في الكون شيئا ناعماً، حتى أكثر المرايا انصقالا تصبح في عيني كسطح الصخرة المتهشم، ولأني أن قبلتها تراءت لي الدنيا تموج بمخلوقات أنا الآن عنها أعمى، وتكشف لي في طيات الدنيا التي أعرفها وفي حواشيها دنى أنا سعيد بجهلها، ولأني أن قبلتها لم يكن للفظة السكون موضع من قاموس لغتي، ولأصبحت أحس في هدوء هذا الليل وأنا أكتب هذه الكلمة على مكتبي هذا الساكن، وفي حجرتي هذه الهادئة كأني اكتبها في عربة رجراجة من عربات الترام إذ تمر نهاراً في أشد أحياء المدينة صخباً وجلبة، وأخيراً لأني أن قبلتها وقبلت زيادة الإحساس بالزمن أصبحت ثانيتي ساعة وأصبحت ساعتي سنة وسنواتي ألوفاً.

الأنفلونزا أو النزلة الوافدة

للدكتور سامي كمال

النزلة الوافدة مرض مستوطن في القطر المصري، فلا يمر شتاء دون أن نسمع ببعض إصاباته؛ لكن هذه الإصابات لا تأخذ شكلا وبائياً، وتظهر عادة في فصل الشتاء مقرونة بسابق التعرض لبرد شديد أو للرطوبة، وعاقبتها دائما حميدة.

وتظهر هذه النزلة الوافدة في جميع أنحاء العالم، كما تظهر عندنا، ويكثر عدد المصابين بها في البلاد الحارة، وتقل إصاباتها عادة عند حلول فصل الربيع.

وهي تنتقل بالعدوى بواسطة جراثيم خاصة؛ تلك الجراثيم عبارة عن بذور تتفاوت في حيويتها وتأثير إفرازاتها، لأن الجراثيم لا تؤثر الا بفعل هذه الإفرازات التي هي من أقوى السموم وأشدها فتكا بالإنسان.

فإذا صادفت أجساماً قوية قاومتها، أما إذا عرضت لها أجسام ضعيفة فأنها تقوى عليها، وتشتد بانتقالها على غيرها، وتزداد قوة إذا تهيأت لها ظروف خاصة، كما حصل ذلك في نهاية الحرب العظمى عام 1918 إذ وجدت الإنسان ضعيفاً جائعاً منهوك القوى والأعصاب ففتكت به، ومات بالنزلة الوافدة في العالم عدد يفوق عدد من مات في ميادين القتال.

هنا تكون وبالا، وهنا تكون خطراً على العالم أجمع، حيث تنتقل مع المسافرين بسرعة الطائرات والسيارات.

وهذا النوع من النزلة الوافدة الوبائية يسمى عادة باسم الوطن الذي نشأ فيه، ففي عام 1918 كانت اسبانيا، وهي في هذا العام إنجليزية.

وكل الأخبار تدل على أن خطر هذه الوافدة الإنجليزية أقل بكثير من سابقتها الإسبانية.

وأوبئة الوافدة تتشابه في مجموعها من حيث الأعراض. لكنها تتفاوت من حيث مضاعفاتها وخطرها على العموم.

ومدة حضانتها، أي من وقت العدوى إلى وقت ظهور أعراضها لا تزيد على اليومين.

أما أعراضها فزكام واحتقان في أغشية الحلق والمجاري الهوائية مع قشعريرة وحمى وشعور بتكسر في الجسم وعطس وسعال، وهي سريعة العدوى خصوصاً لأن اكثر الناس لا ينعكفون في دورهم عند الإصابة بها، بل يستمرون في مزاولة أعمالهم، يذهبون ويجيئون ويختلطون بالناس.

وهم لو عرفوا كيف تحصل العدوى وعزلوا أنفسهم في بيوتهم وحجراتهم لدرءوا عن أنفسهم وعن عائلاتهم وعن مواطنيهم شر هذا المرض.

أن العدوى تحصل بواسطة العطس أو السعال اللذين ينقلان جراثيم المرض مباشرة إلى السليم.

لذا يتحتم على المريض أن يتحاشى العطس أو السعال في وجه الناس وليفعل ذلك يميناً أو شمالا.
كذلك من يخالط المرضى يجب عليه أن يحتاط بوقوفه جانبا غير هياب ولا وجل، يخدم في رفق ثم يغسل يديه، ويستعمل مطهرات الفم والأنف، ويجب أن تكون غرفة المريض معرضة لأشعة الشمس يتجدد الهواء فيها مراراً كل يوم ثم يلازمها المريض عند أول الشعور بالمرض، ويستعمل الأطعمة السائلة والمعرقات والمشروب الساخن وهو خير علاج بجانب الأسبرين والكينين عند الاحتياج حسب أمر الطبيب مع استعمال مطهرات الأنف والحلق.
ومن خير الاحتياطات الابتعاد عن حضور الاجتماعات العامة خصوصا في المحلات المغلقة، واستعمال مطهرات الأنف كزيت الأوكالبتوس صباحاً ومساء، ومطهرات الحلق مثل الماء المضاف إليه نقط اليود والابتعاد عن المرضى.

بحوث مصائد الأسماك وماهيتها

للدكتور حسين فوزي. مدير إدارة أبحاث المصائد

ليس المخلوق الحي مع ما هو عليه من مظهر الوحدة سوى مجموعة مركبة من مواد عضوية وغير عضوية، تربطها ببعضها قوى طبيعية هي نفس القوى الصادرة عن الكون المحيط بها، لذا يتقدم الباحث لدراسة هذه المجموعة كوحدة حية أولاً، ثم كجزء من ذلك الكل أو الوسط الذي يعيش فيه ثانياً. وقد أطلقت كلمة بيلوجيا (علم الحياة) على مجموع هذه الدراسات: دراسة أشكال المخلوق الحي وأوضاعه في الفضاء وهي (المورفولوجيا) ودراسة أوصاف أجهزته وأعضائه وهي (علم التشريح) والبحث عن تطور هذا المخلوق من البويضة حتى يصبح كامل الخلق وهو (الايمبريولوجيا) (علم الأجنة) ودراسة وظائف أجهزته وأعضائه وهي (الفيزيولوجيا). ودراسة الحياة وقوانينها وتطوراتها الكونية، والوسط الذي تعيش فيه المخلوقات باحثة عن غذائها، والغازات الضرورية لتنفسها، وكذا اثر هذا الوسط فينا وتوزيعها حسب تطوراته تلك هي (الايكولوجيا).
والأحياء المائية تتميز من غيرها بأن الوسط الذي تعيش فيه هو الماء. وهذا النوع من الحياة هو أهم الفروق بينها وبين الأحياء الاخرى، لأنها فيما عدا ذلك تتنفس وتتغذى وتتناسل وتؤدي أعضاؤها نفس الوظائف التي تؤديها الأحياء الهوائية. وإنما تتطور هذه الوظائف ويتطور شكل المخلوقات المائية تبعا للوسط الذي فرض عليها مظاهرها الخاصة.
والأسماك فصيلة من المخلوقات المائية استرعت اهتمام الإنسان منذ اقدم العصور لأنها مصدر هام لغذائه. فالإنسان منذ النشأة الأولى كان صيادا قنصا. على أنه ثمة أحياء مائية أخرى أنتفع بها الإنسان أما لغذائه أو لأغراض نفعية أخرى. نكتفي منها بالإشارة إلى
الصدفيات (كالجندوفيلي وأم الخلول)، وذوات القشور (كالجمبري واللانجوست) لغذائه. وإلى الإسفنج وحيوانات اللؤلؤ والمرجان والسلاحف المائية والتماسيح (الباغة والجلود) لزينته ونظافته. وإلى الدرافيل والحيتان لصنع الجلود واستخلاص الزيوت. وإلى بعض الأسماك لاستخلاص سماد (الجوانو) والغراء الحيواني والمستحضرات الطبيعية كزيت كبد البكلاه (زيت كبد الحوت) وإلى الأعشاب البحرية التي يستخرج منها اليود وينتفع بها في الأسمدة.
ونقصر هذا المقال على بحوث الأسماك وهي بحوث يمكن تطبيقها على الأحياء المائية الأخرى مع بعض تغيير في الطرائق يقضي به تكوينها المختلف ونوع حياتها الخاص.
أول ما يعنى به من يدير شأنا من الشؤون كمنجم أو بحيرة هو أن يعرف ما تحويه التربة من معادن في طبقة مخصوصة، أو ما يعيش في البحيرة من مخلوقات نافعة أو ضارة، لذا كان أول ما يهم خبير المصائد هو أن يستعرض المخلوقات التي تعيش في مياهه فيعمل لها سجلا، وعلى أساس هذا السجل يستطيع أن يتعرف طرائق بحثه. وأن مؤلفا جليلا مثل (أسماك النيل) (لبولانجيه) أو (أسماك البحر الاحمر) لكلونتسنجر لهو محاولة موفقة في هذا السبيل، فعلى خبير المصائد أن يجمع المعلومات من

المصائد المصرية المختلفة عن أنواع الأسماك التي تدخل أسواقنا، بل والأنواع الأخرى التي لا يهتم بها صيادونا أو لا يعرفون طرق صيدها. وليس عمل قائمة بجميع اسماك المياه المصرية سهلا كما يتراءى لأول وهلة. فمنذ ظهر كتاب (وصف مصر) الذي قامت به البعثة الفرنسية الملحقة بحملة بونابرت إلى يومنا هذا لم تبلغ بعد قائمة أسماكنا حد التمام خصوصا في البحرين الأحمر والأبيض، فثمة أسماك لا يعرف صيادو البحر الأبيض طرق صيدها (وأخصها الأسماك الرحل). كما أن طرق الصيد في البحر الاحمر لما تزل على حال من البساطة يتعسر معها الحصول على جزء كبير من الأسماك التي تعيش في ذلك البحر.

فأمام أخصائيي المصائد في مصر سنوات طويلة يقضونها في البحث المتواصل حتى تتم قائمة الأسماك المصرية مرتبة حسب الأنواع والفصائل والأجناس. كما ينبغي أن تدعم هذه القائمة بمتحف كامل يضم نماذج من جميع أسماكنا جيدة الحفظ جلية العرض.

كذلك يعنى الأخصائي بمعرفة مواطن الأسماك، فثمة اسماك تقطن الماء العذب وأخرى

تقطن الماء الأجاج، وغيرها تعيش في البحار، أو تنتقل بين الماء العذب وماء البحر. ومن الأسماك البحرية ما تعيش على القاع، وتفضل نوعا من القاع، رمليا أو صخريا أو طينيا، ومنها ما تغشى الصخور وفرجاتها، ومنها ما تعيش في طبقات الماء العليا أو السفلى متنقلة بين مناطق البحر سريعة الحركة.

وفي مياه النيل يهمنا أن نعرف مواطن كل نوع من أسماكه، تلك التي تأوي إلى الحشائش أو تعيش على القاع الطيني. وتلك التي تقاوم التيار أو تقاوم كمية من الملوحة تسمح لها بالحياة إذا ما وصلت مع المصارف إلى بحيراتنا ذات الماء الأجاج.

فإذا عرفنا مواطن كل نوع من السمك وجب علينا أن ندرس توالده، فعندما تبلغ الأسماك طولا معلوماً يختلف باختلاف الأنواع ينضج جهازها التناسلي، فتمتلئ مبايض الأنثى بأجسام كروية تبدو للعين المجردة كما يظهر لك بفحص قطعة من البطارخ، وليست هذه إلا مبيضاً ممتلئاً ببويضات أنثى البوري الناضجة. وإذ تنضج الأنثى فهي بادئة بالمبيض، وذلك بأن تلقى بالآلاف من بويضاتها في الماء، أما على قاع رملي أو طيني، أو بين الحصى أو الأعشاب المائية أو في شقوق الصخور، أو في أوكار محفورة في الطين، أو بين طبقتين من الماء حيث تبقى البويضات عائمة بفعل ثقلها النوعي وكذا ينضج الذكر عند طول معلوم يقرب من طول الأنثى، ويغلب أن يكون أقل قليلا.

وينتج جهازه التناسلي خليات سريعة الحركة لا تراها العين المجردة. ففي موسم التوالد تتألف الذكور والأناث، فما تكاد تلقى الأنثى بويضاتها في مكان من الأمكنة التي سلف ذكرها حتى يتقدم الذكر إلى ذلك المكان ليلقي بملايين من تلك الخليات السريعة الحركة بجانب البويضات التي لا حراك بها، وتسرع تلك الخلايا إلى الاندماج في البويضات. وقد يجتمع للبويضة بضعة من تلك الخلايا، فلا ترضى منها بغير واحدة تتغلغل داخلها وتمتزج بها كل الامتزاج. وينفث هذا الاتصال في البويضة حياة جديدة إذ تنقسم (وهي خلية واحدة) إلى ملايين من الخلايا تتطور حتى تصبح مخلوقا صغيرا لا يشبه والديه فهو محوط بغشاء رقيق هو غشاء البويضة الخارجي يذيبه ثم يخرج إلى الماء مزودا بكيس محي يكون غذاءه في الأيام الأولى. فإذا ما نفذ ذلك الغذاء أصبح الجنين سمكا صغيرا يسعى وراء غذائه، وهو لا يزيد طولا على بضع ملليمترات. ولا يزال يكبر حتى يبلغ بدوره الطول الذي تنضج فيه أعضاؤه التناسلية إن ذكرا وإن أنثى.

على أن السمك وقد بلغ ذلك الطول لا يبيض طوال السنة، لأن عملية نضوج الجهاز التناسلي عملية دورية تبلغ تمامها في وقت معين من السنة؛ يختلف باختلاف الأنواع؛ فمن أسماك تبيض في الشتاء وأخرى في الربيع أو الخريف أو الصيف. وقد يستمر مبيضها أياما أو شهورا. وكذا يتبع الذكر تطوراً موازيا لتطور كل أنثى من نوعه.

وفهم أمثال هذه الحقائق (كمعرفة عمر الأسماك والطول الذي ينضج عنده جهازها التناسلي) من أهم القواعد التي يستند عليها التطبيق العملي. لأنه لما كان من الضروري أن يسمح لأكبر عدد من الأسماك بالتوالد وجب أن نعرف وقت هذا التوالد لحماية النوع برد عادية الصياد عنه، وهذه الحماية لا تتناول الأبوين فحسب، بل يجب

أن تتناول البويضات وأفراخها.
ولذا كان من المهم أيضاً معرفة المناطق التي تغشاها الأسماك وقت التوالد فيمنع الصيد فيها. من ذلك مثلا أنواع البلطي التي تبيض وتفرخ بين الحشائش المائية (كالبردي) فيجب إبعاد الصيادين عن تلك المناطق أثناء موسم التوالد.
ومن أسماكنا كالبوري والطوبار ما يترك الماء العذب أو البحيرات الشاطئية ليخرج إلى البحر فيفرخ.
ولما كان مخرج هذه البحيرات إلى البحر بوغازاً ضيقاً، أصبح واجبا منع الصيد بتاتاً في البواغيز الموصلة بين البحيرة والبحر للسماح للبوري والطوبار بالخروج إلى البحر، ولأفراخه (وهي تقدر بالملايين) بالعودة إلى البحيرات.
كأننا بهذه المعلومات البيولوجية استطعنا أن نفي بالشرط الأول من شروط علم الحيوان التطبيقي. وهي حماية النوع بمساعدة الطبيعة في مجهودها نحو بقائه.
على أن هذه المعلومات يمكن الانتفاع بها على وجه آخر، إذ يمكن للأخصائي أن يقلد الطبيعة في عملها بإعداد أمكنة خاصة لأفراخ الأسماك وتعهدها بالعناية، وذلك برد أعدائها عنها وتغذيتها تغذية تساعد على نموها العاجل، كذلكيستطيع نقل الأسماك من جهة تكثر فيها إلى جهة صالحة لنموها وتوالدها ولكنها فقيرة منها.
وفي البحار تتخذ هذه المسائل طابعها الخاص، ولكن الدراسة تقضي هنا أيضاً بتعرف حياة
الأسماك البحرية من سرعة نموها إلى أمكنة توالدها إلى هجرتها.
لقد كان حديثنا حتى الآن عن السمك نفسه تلك الوحدة الحية التي ليست سوى جزء من كل. وهذا الكل هو الوسط الذي يعيش فيه الأسماك ولها به صلات وثيقة، لذا كانت دراسة هذا الوسط تعادل في الأهمية دراسة السمك نفسه، هذا الوسط متجانس ظاهراً. ولكن كم من العوامل تجعل من هذا التجانس الظاهر اختلافات عديدة، ومن الطبيعي أن يتأثر المخلوق المائي بتلك العوامل، لقد كانت جميع المخلوقات في ظلام التاريخ الجيولوجي تعيش في الماء مرنة التكوين سهلة التأثر بالعوامل المحيطة، وقد احتفظت المخلوقات التي لا تزال تعيش في الوسط المائي بتلك المرونة التكوينية التي كانت الأصل في تعدد الأنواع، ودراسة الوسط المائي دراسة تفصيلية تلقي ضوءا جديدا على عوامل التطور.
على أن لهذه الدراسة أهميتها العملية، فالوسط المائي يشطر أعمال الأخصائي شطرين: بيولوجيا المياه البحرية، وبيولوجيا المياه العذبة، وقد يتصل الشطران إذ يختلط وسط آخر كما يحدث ذلك في بحيراتنا الساحلية، أو يختلط بحران من تكوين وطبيعة مختلفين كما حدث ذلك بحفر قناة السويس.
ما منشأ اختلافات المياه العديدة والماء وسط متجانس؟ أولها وأهمها وجود المواد الذائبة فيه، وينشأ عن وجود هذه المواد ظواهر كيميائية طبيعية أهمها (الأسموز) ومن أظهر المواد الذائبة في البحار كلورو الصوديوم. والمخلوق المائي يعيش في حالة توازن كيميائي طبيعي مع الوسط المحيط به، ولقوة الأسموز اليد الطولي في هذا التوازن، فإذا نقلنا سمكة من اسماك الماء العذب إلى البحر اختل هذا التوازن، وعجزت السمكة عن مقاومة هذا الاختلال طويلا ثم ماتت. وكذا العكس.
على أن هناك غير قليل من الأسماك دخلت من البحر إلى البحيرات الساحلية، وتعودت مياها اقل ملوحة من مياه البحر، بل قد تصل في عذوبتها إلى ما يدنيها من مياه الأنهار. بل هناك أسماك تتحمل الحياة في الماء العذب والبحر على السواء. على أن تلك الأسماك البحرية التي تعودت الحياة في الماء العذب أو الأجاج تدفعها فطرتها إلى العودة إلى البحر لتفرخ. وإذا أمتنع عليها الوصول إلى البحر أصابها العقم، وتلك حالة ثعابين السمك (الأنقليس) والبوري والطوبار من أسماكنا المصرية.
ويعرف سكان المنزلة والبرلس وأدكو تلك الظاهرة حق المعرفة. إذ تخرج آلاف البوري والطوبار إلى البحر في مواسم معينة يطلقون عليها (الخرجيات).
وقد اكتشف الأستاذ (يوهانس شميدت) اكتشافا يعد من أغرب ما وصل إليه الكشف العلمي في البحار، وهو أن ثعابينالسمك التي تعيش في الأنهار والبحيرات الأوربية تخرج إلى عرض الاقيانوس الاطلنطيقي لتفرخ قرب جزر (الأنتيل) عند منطقة تسمى بحر سارجاس.

وتهاجر ثعابين السمك الأمريكية شرقا لتلتقي بثعابين السمك الأوربية في منطقة بحر سارجاس.

فإذا انتهى موسم الأفراخ اتجهت أفراخ الثعابين الأوربية شرقا وأفراخ الثعابين الأمريكية غربا حتى يصل كل منها إلى قارته. فيدخل الأنهار في شكل أسماك مستديرة زجاجية بيضاء اللون. وهي ما تسمى بالحنكليس. وتعرف مصر هذه الظاهرة، أي خروج ثعابيننا إلى البحر وعودة آلاف الحنكليس إلى البحيرات الشاطئية ودخولها نهر النيل.

وتلك ظواهر نراها رأي العين في مصر، ولو أننا لا نزال في شك مما إذا كانت الثعابين المصرية تفرخ وسط الأطلانطيق أو في البحر الأبيض المتوسط.

لقد أوردنا تلك الأمثلة لنبين إلى أي حد وصلت مرونة تلك الأسماك في تقبلها تغير قوة الاسموز.

كما يهم الباحث معرفة الأكسجين الذائب في مياه ما، لأنه يتوقف عليه تنفس الأسماك. الا أن احتياج نوع من السمك إلى كمية من الأكسجين لا يوازي احتياج نوع آخر. فقد يموت نوع إذا هبط مقدار الأكسجين الذائب إلى 4 جرامات في اللتر مثلا، بينما يقاوم نوع آخر حتى يبلغ الأكسجين جرام ونصف في اللتر. ثم تبدو عليه علامات الضيق حتى يموت.

ولكل هذا أثره في مواطن الأسماك، أسماك لا تعيش الا في مجاري المياه الجبلية حيث المياه جارية تذيب في تدفقها كمية كبيرة من الأكسجين. وافضل مثل على هذا سمك (الترونا) المعروف في البلاد ذات المجاري السريعة الجبلية كسويسرة واسكتلندا وكندا الخ. . وأسماك تعيش في الأودية كسمك الكارب والتانش في أوربا وجميع أسماك مياهنا العذبة.

كذلك يهم الباحث معرفة درجة حرارة المياه وحركاتها كالتيارات والمد والجزر لأن كل واحدة من هذه المسائل أهميتها في دراسة الأسماك. فهذا النوع يفرخ إذ تصل حرارة المياه التي يعيش فيها إلى درجة معينة، وذاك النوع يغشى المياه الهادئة كي يفرخ في مأمن من التيار الخ. .

وقد سبق الكلام عن أهمية دراسة القاع لمعرفة الأنواع التي تغشاه، ودراسة القاع تدخل ضمن علم الصخور وهو فرع من الجيولوجيا.

ودراسة غذاء الأسماك يتطرق بنا إلى دراسات بيولوجية أخرى. فعلينا أن نعرف نوع الغذاء، فمن اسماك تتغذى على اسماك اصغر منها، أو حيوانات صدفية أو ذات القشور أو ديدان. إلى اسماك لا تتغذى الا بالنباتات المائية.

وعلى أخصائي الأسماك أن يتعرف جميع الأنواع التي تكون ذلك الغذاء، وحياة هذه الأنواع، ومما لا شك فيه أن لنوع الغذاء أثرا واضحا في شكل الأسماك. فتلك الأنواع التي تحتاج في غذائها إلى المطاردة السريعة يتخذ جسمها الشكل المغزلي، وهو أوفق الأشكال للحركة السريعة. كما نرى في التونة والبلاميطة. وتلك الأنواع التي تجد غذائها على القاع يتطور شكلها تبعا لحياتها الهادئة، فهي مفرطحة كما نرى ذلك في سمك موسى وأشباهه.

ولا يستطيع خبير المصائد أن يقرر صلاحية بحيرة أو بركة لتربية نوع خاص من السمك قبل أن يقرر نوع الغذاء الذي يقتات منه، بل وأفضل تغذية تعجل في نموه وتكسب لحمه صفات شهية.

رغبنا في هذا المقال أن نمر سراعاً على شتى المسائل التي تتناولها بحوث مصائد الأسماك. وهي متعددة الوجوه لا يستطيع فرد واحد أن يضطلع بها، بل هي في حاجة إلى فرقة من أخصائيين ذوي ثقافة علمية قويمة تشمل علوما مختلفة منها التاريخ الطبيعي بأنواعه (علم الحيوان والنبات والجيولوجيا) وعلوم الكيمياء والطبيعة، وعلم الأرصاد الجوية ومبادئ الإحصاء.

على أننا لم نأت على آخر ما يتعين على أخصائي بحوث المصائد أن يعرفه. إذ أن هذه العلوم تتبع في تطبيقها العملي الظروف الخاصة بكل إقليم.

ولنضرب مثالا لذلك نظام الري في مصر، من ري الحياض وما إليه من تيارات وقنوات. وري الدلتا بترعه ومصارفه واتصاله بالبحيرات الشاطئية. وأثر الخزانات والقناطر، تلك

مظاهر مائية تكاد تكون خاصة ببلادنا. وهي لهذا تفتح أمام خبير المصائد فتحا جديداً في التطبيق العلمي. إذ من العبث أن يطبق الإنسان بلا تبصر طرائق بلاد على بلاد أخرى، وإنما عليه أن يجد لكل حالة ما يلائمها معتمدا على دراسة متينة، وتجربة متعددة الوجوه، وفهم للظواهر الخاصة بالبلاد.

القصص

مشاهدات غربية

للأستاذ محمد احمد الغمراوي. أستاذ الكيمياء بكلية الطب

- 1 -

في منجم

كانت ليلة السبت 18 فبراير سنة 1878 موعد انعقاد الجمعية الطبيعية الكيميائية في الكلية، وكان المقرر أن يذهب أعضاؤها لزيارة منجم فخم على بعد ميلين أو ثلاثة من نوتنجهام. فبعد أن تناولنا الشاي بالكلية خرجنا ومعنا الرئيس الأستاذ بارتن فركبنا الترام إلى المنجم، وهناك وجدنا بعض رجاله ينتظروننا، فقيل لنا أنه لا بد من أن يحمل كل منا مصباحا يستضيء به، وقادونا إلى غرفة المصابيح أو بالأحرى مخزنها، وقد ذكرني حين دخلته بمخزن القناديل في مسجد البلد أيام كان المسجد يضاء بالقناديل، فقد كانت رائحة الزيت المحترق تفوح من المصابيح الموقدة المصفوفة. وكان كل مصباح عبارة عن فتيلة داخل اسطوانة قصيرة من الزجاج متصلة من أعلاها بمخروط ناقص من شبك الحديد، يظاهره مثله من صفائح النحاس، وهذا ينتهي بحلقة يحمل منها المصباح تلتقي عندها أسلاك تتصل بالقاعدة وتصون زجاجتها. هذا هو مصباح (دافي) اخترعه السير (همفري دافي) لأول مرة سنة 1815 وهو على بساطته جم النفع، لأن شبكته الحديدية تحول بين اللهب: لهب المصباح (أو لهب ما قد يدخله من غازات ربما تصاعدت من شقوق يصيبها العامل في اقتطاعه الفحم) وبين أن يمتد إلى ما قد يخالط هواء المنجم من غاز قابل للالتهاب، فيحترق دفعة واحدة فينسف ما حوله. وتلك خاصة من خواص ما شابه الحديد والنحاس من المعادن أنها لسهولة سريان الحرارة فيها إذا لامست غازا ملتهبا أخذت من حرارته ما يكفي لتخفيض درجتها عن درجة الالتهاب، فإذا نفذ الغاز منها إلى خارجها نفذ غير ملتهب.

حمل كل منا مصباحا وذهبنا لننزل المنجم فإذا المنزل إليه فوهتان كأنهما بئران متجاورتان منصوب عليهما قوائم متشابكة من الحديد عظيم حجمها وارتفاعها، تحمل في أعلاها جهازا

يتدلى منه سلسلة متينة، تحمل في طرفيها صندوقين كل صندوق في فوهة. والسلسلة من الطول بحيث إذا حاذى أحد الصندوقين وجه الأرض، مس الآخر أرض المنجم على عمق خمس وسبعين ومائتي ياردة. هذا هو الرافع الذي يرفع به الفحم إلى سطح الأرض ولكنه لا كالذي نعرف عن الرافع، فأنه على سماجته التي لا تليق بما جعل له، عجيب في نظامه وحركته. وهو يتحرك بالكهرباء: يدير العامل مفتاحا في إحدى تلك القوائم، فيدق جرس صغير ثلاث دقات في باطن الأرض وفي ظهرها ايذانا، وعندئذ يهوى أحد الصندوقين ويرتفع الآخر بسرعة ثلاثين ميلا في الساعة. وكل منهما في بدء هبوطه يدع سلسلة كان قد رفعها تقل حاجزا من خشب فيسد باب الفوهة، فإذا ما قارب الصندوق مقره في صعوده رفع السلسلة فأنفتح الباب.

بدأنا النزول منتصف الساعة السابعة، فدخل منا عشرة صندوقا فوسعهم مع العامل واقفين متلاصقين. وإذا في أرض الصندوق قضيبان حديديان إذا بلغ الصندوق أرض المنجم كونا جزءاً من السكة الحديدية الممتدة فيه، وعليهما توقف عربات الفحم وترتفع بما فيها إلى سطح الأرض. والهابط إلى المنجم يشعر بما لعلك شعرت ببعضه إذا كنت هبطت راكبا بعض مصاعد الحوانيت التجارية أو المباني الكبرى. يخيل إليه أن الرافع قد هوى من تحت قدميه، ويقوى هذا الشعور عنده كلما زادت سرعة الهبوط حتى إذا بدأت تتناقص في النصف الآخر من المسافة وأحس حمل أرض الرافع لقدميه أكثر من قبل خيل إليه أنه صاعد وليس بصاعد. وفي صعوده يشعر بعكس ما شعر في هبوطه. فلما تكامل عددنا داخل المنجم ذهبنا إلى غرفة الملابس فخلع بعضنا فيها رداءه، ثم سرنا في طرق فيها بعض سعة سقوفها أقبية مبنية، ونورها مصابيح كهربائية، نريد زيارة الجهاز الكهربائي الضخم الذي يجر عربات الفحم من مسافة لا

تقل عن ميل. ولا تظن العربات تتحرك كما يتحرك الترام، ولكن بحبل غليظ مشدود بها إذا دار الجهاز دارت اسطوانة كبيرة بسرعة كبيرة فالتف عليها الحبل فانجرت العربات. ثم ذهبنا فرأينا مرابط الخيل التي تجر العربات فيما وراء الميل، فإذا هي ليست أسعد حالا من خيول جر الأثقال في مصر. وهي شر منها في أنها قائمة نائمة تحت الأرض لا ترى الشمس بعد نزولها المنجم حتى تموت.

ثم سرنا بعد ذلك ميلين في طرق تضيق حتى لا تكاد تتسع لشخصين يسيران جنباً لجنب،

كانت من قبل عروق الفحم في الأرض فنقبها العامل بصبره ومعوله، نائما على بطنه ومستلقيا على ظهره ومائلاً على جنبه ومنحنيا وقائما. وكلما نقب خطوات إلى الارتفاع المرسوم جاء بالأخشاب الغليظة فجعلها سقفا يحمل طبقات الفحم أو الطين حتى لا تنهال؛ تحمله من جانبيه قوائم من مثله أقيمت عمودية على جانبي الطريق. ولم يخل سيرنا في تلك الطرقات من تعب، فكثيرا ما كنا نسير فيها منحنين نحس السقف بأعيننا والأرض بأرجلنا؛ ولكنا كنا نتخذ من ذلك كله فكاهات نضحك لها. فمن كان يرانا عندئذ كأن يرى أشباحا يحمل كل منها مصباحا، ولم يخل منظر المصابيح يتلو بعضها بعضا من بهجة في تلك الظلمة؛ ثم كان يسمع أصواتا تتجاوب، فلا يكاد القائد يقول (وكثر ما كان يقول) رأسك والخشبة! حتى يرفع بها صوته من خلفه، ولا يزال فم يلقى بها إلى فم كلما مر بالخشبة شخص حتى تبلغ آخر الصف. وقد تسمع بين ذلك هذا يصيح: وا دماغاه! وذاك: وا ركبتاه! أو تسمع سائلا يسأل وآخر يجيب. وأحيانا إذا استقام الطريق كانت ترتفع أصوات بعض الغناء نغنيه معا، فنجد له عندئذ ما يجد الجندي الذي أتعبه السير الموسيقى. وكنا نظن أننا ذاهبون لنرى القاطعات الكهربائية التي تقتطع الفحم؛ فإذا بالقائد يقودنا كل تلك المسافة ليرينا الفحم أين هو! فلما سألناه عن القاطعات قال هي في جهة أخرى لا نصل إليها من موقفنا ذلك الا عند منتصف الليل. فرجعنا أدراجنا نقول: متى نبلغ؟ ولم نبلغه الا بعد الثامنة، فكتب كل منا أسمه في دفتر الزائرين ثم صعدنا فزرنا المولد الكهربائي الذي يدير تلك الآلات كلها؛ فإذا بآلات يحار فيها الفكر في غرفة عرضها عشرون خطوة وطولها خمس وعشرون، ويكفي لتقدير عظم آلاتها أن التيار يتولد عن قوة محركة كهربائية قدرها 2500 فولت، ولعل ترام القاهرة لا تزيد القوة المحركة لتياره على خمسمائة.

والعامل في منجم الفحم يتقاضى أجرا كبيرا لما في عمله من الخطر والمشقة، وهو يحاسب على كل طن يقتطعه، وقد يقتطع ما يؤجر عليه سبعة جنيهات في الأسبوع. وقد وجدنا أن المنجم مقسم إلى مناطق صغيرة كل منطقة لها رمز من عدد أو حرف تعرف به ويعرف به العامل فيها. وكلما ملأ عامل عربة كتب رمزه على كل قطعة ظاهرة من فحمها ليعرف أنها له فتضاف إلى حسابه. والمنجم الذي زرناه كان يستخرج منه في اليوم في ذلك الحين مائة

وألف طن من الفحم لقلة العمال، وقبل الحرب كان يستخرج منه حوالي طن في اليوم.

المبارزة

للكاتب الروسي اسكندر بوشكين

كنا نعسكر في قرية روسية صغيرة، وأنت تدرك بالطبع حياة الضباط وما تكون عليه، نؤدي في الصباح التمرينات العسكرية ونتدرب على ركوب الخيل، ثم نتناول طعام الغداء عند قائد الفرقة أو في المطعم اليهودي، فإذا جاء الليل أخذنا نشرب الخمر ونلعب الورق، ولم يكن لنا غير هذا الجانب الضئيل من التسلية، لأن الفتيات الناضجات لم يكن يسمح لهن بالخروج، وكنا ننفق الوقت معا حتى إذا اجتمعنا لم تجد بيننا فرداً لا يرتدي الملابس الرسمية.

ثم تعرفنا على شخص من غير الجنود، ومع أنه كان في الخامسة والثلاثين تقريبا كنا نعتبره أكبر من هذا بكثير، وكنا نعتقد في حكمته وكثرة تجاربه، ولقد أسرنا نحن الشبان بكرمه وقوة شخصيته وما فطر عليه من التهكم وعدم الاكتراث. وخيل إلينا أن وراء هذا كله شيئا يكتمه، وأن بين ضلوعه سراً يطويه، ولقد نبئنا أنه كان في فرقة الفرسان يشهد له الجميع بالتفوق والنشاط، ثم استقال منها فجأة لسبب مجهول، واعتكف في هذه القرية الصغيرة؛ ومع قلة معاشه كنا نراه ينفق عن سعة ويفتح بيته

لنا نحن الضباط، فإذا جلسنا إلى مائدته استطعنا أن نأكل ثلاثة أصناف من الطعام، وأن نشرب الكثير من كؤوس الشمبانيا؛ ولم نكن نعرف شيئا من شؤونه الخاصة، غير أن الذي يعد له طعامه هو خادمه العجوز الذي كان في مطلع حياته جنديا؛ ولم يجسر أحد على سؤاله عن حياته أو ماضيه.

وكانت له مكتبة حافلة بالكتب (معظمها خاص بالجندية وما يتصل بها) يعيرها مسروراً ولا يسأل عنها بعد ذلك، كما أنه إذا استعار كتابا لم يفكر في رده إلى صاحبه. . فإذا دخلت غرفته وجدت جدرانها مغطاة بظروف الرصاص فيكسبها ذلك شكل عش الزنبور؛ ولم يكن في داره من معالم الترف غير مجموعة ثمينة من البنادق والأسلحة.

وهو يرتدي في الغالب سترة رثة، فإذا نظرت إلى ملامح وجهه وجدته روسيا في الصميم، مع أنه يحمل اسما أجنبيا. ولقد كان ماهراً في الرماية إلى حد أنه يصوب بندقيته إلى خوذة الواحد منا فيصيبها دون أن ينال صاحبها بسوء. . وكثيراً ما تحدثنا عن المبارزة، ولكن (سيلفيو) (ولنسمه بهذا الاسم) لم يكن يشترك معنا في الحديث، فإذا ما سأله أحدنا عما إذا

كان قد تبارز في حياته، رد بالإيجاب ولم يزد، وخيل الينا أنه يكره هذا الموضوع لأنه يثير ذكرى حادثة معينة قتل فيها فرد معين من ضحاياه العديدين.

وفي ذات يوم كان يتناول طعام الغداء في منزل (سيلفيو) ثمانية أو تسعة من الضباط، وكنت أحدهم، واذكر أننا شربنا وأسرفنا في الشراب، فلما انتهينا من طعامنا رجونا من مضيفنا أن يكون أمين الصندوق في لعب الميسر، ولكنه رفض، لأنه قلما يلعب، فلما أصررنا طلب لنا الورق وجلسنا إلى جانبه على شكل دائرة وأخذنا نلعب.

لم يتحدث الرجل أثناء اللعب ولم نجره إلى المعارضة أو الشرح، وكان إذا أخطأ أحدنا أعطاه ماله أو حجز ما عليه لنفسه. وكنا جميعا نعرف طريقته. . وحدث أثناء اللعب أن ضاعف أحدنا (وكان ضابطا حديث العهد بمعسكرنا) رهانه على ورقة بالذات دون قصد منه لانشغاله وذهوله، فما كان من سيلفيو الا أن تناول قطعة الطباشير وكتب المبلغ المطلوب فقط. . عارض الضابط وأراد أن يصحح خطأه، ولكن سيلفيو لم يعره اهتمامه، وظل يدير اللعب كان لم يحدث شيء. . وهنا تناول الضابط الطلاسة ومحا الأرقام، فأجاب مضيفنا على ذلك بأن أعاد كتابتها في هدوئه المعهود. كان الضابط متأثراً بالشراب وباللعب وبضحكات زملائه الساخرة فظن أنه أهين، وتناول شمعدانا رمى به وجه سيلفيو ولكنه انحنى قليلا إلى الأمام فأخطأته الضربة، فدمدمنا جميعا انتظرنا ماذا يكون بينهما.

وقف مضيفنا شاحبا، وسدد إلى الضابط نظرات دونها نظرات النسور وقال له (لتغادر المكان يا سيدي ولتشكر الله على أن ما حدث كان في بيتي).

ولم نشك لحظة في نتيجة هذا الحادث وما سوف يسفر عنه من قتل زميلنا الجديد. ونظرنا جميعا إليه وهو يغادر المنزل في وجوم معلنا استعداده لمقابلة سيلفيو في الوقت الذي يراه. وطبيعي الا يستمر اللعب بعد ذلك كثيراً لأننا انصرفنا واحدا بعد واحد لما رأيناه على مضيفنا من علائم الذهول والانفعال. ولم نكد نعود إلى معسكرنا حتى أخذنا نتحدث فيما سيؤول إليه هذا الحادث الفريد.

وفي صبيحة اليوم التالي عندما كنا نقوم بتمريننا العادي على ركوب الخيل تساءلنا هل مات الضابط أم لا يزال على قيد الحياة؟ ولكنه ظهر بيننا، فعجبنا للأمر وأمطرناه وابلا من الأسئلة، فأجابنا أنه لم يتلق دعوة ما إلى المبارزة من سيلفيو، وأسرعنا إلى زيارة الرجل

في منزله فوجدناه يتدرب على إطلاق الرصاص وقد الصق بالباب غرضا جعل يصوب الطلقات إليها له تباعا فلا يخطئه. فلما رانا تلقانا كعادته، ولم يذكر لنا شيئا عن حادث الليلة الماضية. . ومرت ثلاثة أيام والضابط لا يزال على قيد الحياة، ونحن نتساءل (ألا يتبارز سيلفيو؟) أجل لن يتبارز الرجل! بل راح يشرح الأسباب العرجاء التي لم تقنع أحدا منا.

وهذا الرفض وذلك الاحتمال من جانب الرجل أساء إلى سمعته بيننا نحن الشبان، لأن الشباب لا يغتفر الجبن، ويعتقد أن الشجاعة خير الصفات التي يجب أن يتصف بها المرء في جهاد الحياة، وأن الشجاع يستبيح لنفسه كل شيء: يحلل الحرام ويحرم الحلال. ولكن سرعان ما نسينا كل شيء بعد مدة، وسرعان ما استعاد سيلفيو مكانته

القديمة بيننا.
وفي الحق أن رأيي في هذا الرجل لم يعد إلى ما كان عليه، لأنني رومانتيكي في خيالي وتفكيري، ولقد أحببت هذا الرجل اكثر من غيره، مع أنه كان لغزاً للجميع. وكنت أتصوره دائما بطلاً لدرامة رائعة. وكنت واثقا من أنه يحبني، فإذا انفرد بي ترك تهكمه اللاذع وراح يتحدث معي في شتى المواضيع، ولكني بعد الحادث المعروف لم أكن أطمئن إليه ولا أرتاح إلى حديثه، لاعتقادي أنه أهين ولم يغسل إهانته بالدم، وكنت أتحاشى مقابلته أو النظر إليه.
وكان الرجل من الذكاء ونفاذ البصيرة بحيث أدرك تماما سبب تغيري، وخيل ألي مرتين أنه يريد أن يتحدث ألي في هذا
الموضوع ولكنني تحاشيته ولم يصر من جانبه علي الحديث.
عبد الحميد يونس
الكتب
فتح العرب لمصر
تأليف الدكتور ألفرد. ج. بتلر
وتعريب محمد فريد أبو حديد
للأستاذ عبد الحميد العبادي. أستاذ التاريخ بكلية الآداب
سمعت أستاذنا الجليل احمد لطفي السيد بك يقول مرة ما معناه: أننا الآن في دور النقل والتعريب من حياتنا العلمية. وهو قول لا غبار عليه، فان زمن الاقتصار على تراثنا العلمي والأدبي القديم قد انقضى منذ عهد بعيد، وزمن الابتكار في العلم والأدب لم يأت بعد، وينبغي أن يتقدمه زمن نتوفر فيه على نقل أصول العلوم والفنون والآداب الغربية إلى لغتنا العربية إقتداء بما فعل السلف الصالح في صدر الدولة العباسية.
أننا بهذا التوفر نبث في حياتنا العلمية روحا جديدا، ونكسبها مادة جديدة وأسلوبا في البحث والعرض العلمي جديدا، ونكون قد مهدنا للحياة العلمية المستقلة، وأعددنا لها أساسا قوياً راسخا لا يخشى عليه من تطاول البنيان ومرور الزمان، ونكون قد أدينا واجب العلم والوطن والإنسانية جميعا.
لكن الترجمة الصحيحة عبء ثقيل مضن يقتضي كثيرا من الجهد والتضحية. فهي من ناحية المترجم تتطلب غزارة علم وأدب، وإنكارا شديدا للذات، يستعذب معه المترجم أن يكون أسيرا للمؤلف الذي ينقله، وقليل من الناس من يصبر على مثل هذا العناء. ثم هي تقتضي من ناحية الناشر، وبخاصة في بلدنا هذا، أن يوطن نفسه على الخسارة المادية تصيبه مما ينشر، فإذا استطاع أن يخرج من الأمر كفافا لا له ولا عليه فحسبه ذلك.
والناشر يُعد تاجر يقيس قيمة الكتب بالفائدة المادية المرجوة منها، فماذا يحمله على أن يعرض ماله للضياع؟
من اجل هذا كسدت سوق الترجمة في بلدنا، وتأثرت حياتنا الأدبية بهذا الكساد تأثرا شديدا، حتى أصبحت لا شرقية ولا غربية، ولا قديمة ولا حديثة، ولكن الحمد لله، فقد أخذت هذه الحال تؤذن بالتحول والزوال. وآية ذلك ما نسمعه عن التفكير في وضع قاموس عربي
جديد يجمع شتات اللغة التي أصبحت إلى حد بعيد سماعية غير مدونة. ومن آيته أيضاً ما ترجم في السنوات الأخيرة من غرر أدب الغرب وعلمه. نذكر من هذه الغرر على سبيل المثال: كتاب الجمهورية لأفلاطون، وكتاب الأخلاق، وكتاب الكون والفساد، ونظام الأثينيين لأرسطو، وآلام فرتر لجوته، وفاوست له أيضاً، والشاهنامه للفردوسي، وأصل الأنواع لدارون، ثم كتاب فتح العرب لمصر، وهو الذي سقنا هذه المقدمة تمهيدا للتعريف به أصلا وترجمة.
ألف كتاب (فتح العرب لمصر) منذ ثلاثين سنة بحاثة إنجليزي هو الدكتور الفرد. ج. بتلر، ونقله إلى العربية منذ عام صديقنا الأستاذ محمد فريد أبو حديد، ثم نشرته في هذه الأيام لجنتنا المباركة لجنة التأليف والترجمة والنشر. والكتاب يقع في قرابة ستمائة صفحة مكسورة على ثلاثين فصلا وبضعة ملحقات. في الفصول الأربعة الأولى يعرض المؤلف الحال السياسية العامة للدولة الرومانية في أوائل القرن السابع الميلادي ويتكلم عن الثورة التي انتهت بأن أصبح هرقل عاهل الدولة المذكورة، وفي

الفصل الخامس والسادس والسابع والثامن والتاسع يتكلم عن غزو الفرس الشام ومصر، فنهضة هرقل واسترداده الإقليمين المذكورين وعقده مع الفرس صلحا أعاد إلى الروم شرفهم العسكري، فالحال الأدبية للإسكندرية خاصة لذلك العهد. وفي الفصل العاشر والحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر يتكلم عن ظهور الإسلام، وفتح العرب الشام ومصر، واضطهاد قيرس البطريرك الملكاني للأقباط في السنوات العشر السابقة على الفتح. ومن الفصل الرابع عشر إلى الثالث والعشرين يفصل المؤلف الكلام عن حوادث الفتح العربي لمصر، فيتكلم عن زحف عمرو بن العاص على مصر وبلوغه مدينة مصر، فغزوة الفيوم، فواقعة عين شمس، فحصار حصن نابليون وأخذه، فالزحف على الإسكندرية والاستيلاء عليها، فاخذ المدن الساحلية الشمالية، فانتهاء السيادة الرومانية على مصر. ومن الفصل الرابع والعشرين إلى الثلاثين يتكلم المؤلف كلاما ممتعا موضوعه حال الإسكندرية وقت الفتح، ومكتبتها المشهورة، وحريق هذه المكتبة المنسوب إلى عمرو، وغزو عمر لبرقة وطرابلس، والنظام الإداري الإسلامي الذي وضع لمصر عقب الفتح. ثم يتبع المؤلف هذه الفصول بملحقات حقق فيها، بصفة خاصة، شخصية المقوقس، والترتيب الزمني لحوادث الفتح العربي. والكتاب إلى جانب ذلك كله مزود بخرائط ورسوم تعين على فهم موضوعه.

من هذا العرض العام يتبين القارئ أن المؤلف قد أحاط بموضوع الفتح العربي لمصر أتم الإحاطة، واستوعب وقائعهكل الاستيعاب، والحق أن الدكتور بتلر قد جلا موضوعا من أوعر موضوعات التاريخ الإسلامي، وحل كثيرا من ألغازه: أوضح شخصية المقوقس وكانت غامضة، ورتب حوادث الفتح ترتيبا أدنى إلى الصحة منه في أي مصدر قديم، وأتى بالقول الفصل في حريق مكتبة الإسكندرية، وبين وجه الخلاف القديم في فتح مصر، أصلحا كان أم عنوة؟ على أن الكتاب يؤخذ بنقص جوهري واحد: ذلك أن المؤلف عنى بالجانب السياسي والديني فقط من حال مصر قبيل الفتح وأغفل شئونها الإدارية والاقتصادية على ما كان لها من أثر قوي في سهولة انتقال مصر من حكم الروم إلى حكم العرب. ولقد ظهر في هذا الموضوع في العشرين سنة الأخيرة بحوث قيمة كنا نود لو أن الكتاب طبع طبعة ثانية تضمن نتائجها. من هذه البحوث: (النظام العسكري لمصر البيزنطية) لجان ماسبرو، و (الإدارة المدنية لمصر البيزنطية) لجرمين روبارد.

ثم أننا لا نوافق المؤلف على تصويره لغارة عمرو على الفيوم، فهو يرى أن عمرا عندما بلغ رأس الدلتا ورأى قلة من معه من الجند، وحرج موقفه بين جنود الروم جنوبا وشمالا، أرسل إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستمده، ورأى في الوقت نفسه أن يشغل جنده ويستنقذهم من الخطر ريثما يصل المدد، فتكلف عبور النيل إلى شاطئه الغربي، وأغار على الفيوم ثم عاد فعبر النيل ثانية، فوجد المدد قد قدم من المدينة. لا شك أن هذه طريقة غريبة جدا في الخلاص من المواقف العسكرية الحرجة، ثم هي لا تأتلف بحال مع ما عرف عن عمرو من شدة الدهاء وبعد المكيدة. يضاف إلى ذلك أن المصادر العربية من حيث هذه الغزوة نوعان: فنوع لا يعرفها بالمرة، ونوع يعرفها، ولكنه يوردها على صورة تجعلها أقرب إلى المعقول من الصورة المذكورة؛ ومع ذلك لم يعتمد عليها المؤلف واكتفى بمتابعة يوحنا النقيوسي بحجة إنه أقدم عهدا من كل المصادر العربية. ولكن القدم وحده لا يكون دائما دليلا على صحة المصادر التاريخية. كذلك يؤخذ على المؤلف حكمه في الفصل الحادي عشر بأن غزوة تبوك المشهورة كانت فشلا، لأنها لم تؤدي إلى ما كان الرسول يرمي إليه بها من مصادمة الروم. والحق أنها أدت إلى ما كان النبي (ص) يرمي إليه من شد سلطانه السياسي على شمال الحجاز. بقيت ملاحظة يسيرة: لقد توهم المؤلف أن مسيلمة المتنبئ ظهر باليمن (ص131) والصحيح أنه ظهر باليمامة.

ومع ذلك فهذه الملاحظات لا تنقص من قيمة الكتاب العلمية، وحسب القارئ أن يعلم أن الدكتور بتلر قد أقام في كتابه، تاريخ الفتح العربي لمصر على أساس علمي متين، وأنه إلى الآن لم يظهر في ذلك الموضوع كتاب آخر يدانيه، فضلا عن أن يفوقه.

أما الترجمة العربية لكتاب فتح العرب لمصر فأحب قبل كل شيء أن أهنئ صديقي فريدا على توفيقه فيها أخلص التهنئة. فقد جاءت صورة صادقة للأصل مطابقة له

فقرة فقرة وجملة جملة. هذا مع سهولة العبارة وسلاستها ووضوحها، مما يشهد للأستاذ فريد بالبراعة في صناعة الترجمة. ولكن ليت شعري أي مترجم، ولو كان الأستاذ فريد نفسه، يترجم زهاء الستمائة صفحة ثم لا يهفو قلمه ولا ينحرف عن الأصل الذي ينقل عنه يمنة أو يسرة؟ على هذا الاعتبار أهدي إلى الأستاذ فريد هذه الملاحظات اليسيرة.

جاء في صفحة 25 هذه العبارة (النذر اليسير) وصوابها (النزر) بالزاي المعجمة. وفي صفحة 27 عرب اسم المستشرق المشهور بـ (دي جويجة) وصوابه (ده غويه) ووردت في صفحة 27 أيضاً كلمة (المونوفيسية) واحسن منها أن يقال (المذهب اليعقوبي). وجاء في صفحة 123 (هزيمة تبوك) بدلا من (فشل غزوة تبوك) وهو المقابل للأصل، وفي صفحة 83 ترجمت (بالفقه) وصوابها (اللاهوت)، وجاء في صفحة 218 (تسور الزبير إلى الحصن) والصواب أن يحذف حرف الجر، وفي صفحة 228 ترجمت بـ (قناطر) وأصح من ذلك (جسور) لأن العرف جرى بإطلاق اللفظ الأول على البناء الثابت الذي يعقد فوق الأنهار وهو غير المراد من اللفظ الإنجليزي. وجاء في صفحة 255 (وكانت مسلحة المدينة) بدلا من (وكانت حامية المدينة). وفي صفح 406 (وقال عنه النواوي) وصوابه (النووي) بدون ألف المد.

على أن هذه الملاحظات أيضاً لا تضر الترجمة شيئا. وإذا كان الكتاب مثالا يحتذى من حيث دقة البحث العلمي، فترجمته العربية مثال ينسج على منواله من حيث أمانة النقل وصحة التعريب.

ضحى الإسلام

ما كان لي أن اقف مع الذين يتحدثون عن الأستاذ المحقق (احمد أمين) ولا أن أساهم في الكلام عن علمه ومؤلفاته، لأن ذلك شأن لا يضطلع به الا كبار أهل العلم والفضل ليكون لكلامهم من القيمة ما يكافئ مكانة هذا العالم الكبير، ولكني وأنا أطلب العلم والأدب وادرسهما منذ ربع قرن (وما زلت مجداً في سبيلي) أجد لزاماً علي وقد قرأت كتابه الممتع (ضحى الإسلام) أن أبين في كلمة صغيرة لأخواني طلاب الأدب والعلم ومن يعنون بدراستهما مقدار ما أخذت من هذا الكتاب ومدى انتفاعي به.

أخذت هذا الكتاب يوم صدوره اخذ المشوق اللهفان، لأني كنت ارتقب صدوره بعد أن بزغ (فجره) من زمن غير قليل، ولم البث أن عكفت على قراءته عكوفاً لم أدع معه النفس أن تتطلع إلى شيء غيره من متاع الحياة حتى انتهيت منه.

وفي الحق أني لا أستطيع أن أصف وصفا دقيقا مقدار ما استمتعت به من هذا الكتاب، ولا أن أصور تصويراً صادقاً مبلغ ما فيه من علم وبحث، ولكني لو أردت أن أصف أمري بعد أن فرغت من قراءته في عبارة صغيرة لقلت: (أني على كثير ما قرأت من كتب العلم والأدب لم أفد من كتاب مثل ما أفدت من هذا الكتاب) فقد كشف عن الحياة العقلية الإسلامية في القرن الثاني للهجرة بما لم يكن معروفا مثله لأحد؛ فظهرت أشياء لم تكن تعرف من قبل، ووضحت أمور كانت غامضة أو مبهمة، وصححت مسائل كان الناس يعلمون منها غير الذي حققه ببحوثه العميقة عالمنا الجليل.

ولقد شهدت في هذا الكتاب الممتع كيف سارت حياة الإسلام في الحقبة التي أرخت فيه، وتنورت على هدى تحقيقه ما أثر في هذه الحياة من مختلف النواحي وما تأثرت به هذه النواحي، حتى لكنت أحسب وأنا أدرس هذا الكتاب أن الحياة العقلية الإسلامية قد صورت تصويراً صادقاً على لوحة السينما بحيث لا يخفى منها شيء، ولا يحتجب منها وجه.

وأني لأقرر في صراحة أني بعد أن قرأت كتابي (فجر الإسلام وضحاه) قد تغير رأيي في كثير من أمور ديننا الحنيف كنت فهمتها من بعض كتب العلم، وأصبحت بذلك مضطراً إلى أن أعود إلى هذه الكتب لأقرأها ثانية حتى أفهم ما فيها على حقيقته.

هذا بعض ما أخذته من كتاب (ضحى الإسلام) بقدر (قريحتي وفهمي) أنشره وأؤذن بصوت الحق أن هذا الكتاب الفريد تجب دراسته على الأديب والعالم والديني والمؤرخ وجوباً.

جزى الله عالمنا الجليل لقاء ما ناله من تعب، وتحقيق في سبيل العلم خير الجزاء،

وأعانه على إتمام ما انتدب له من خدمة العلم أنه سميع الدعاء.
المنصورة - محمود أبو رية
الهيام
لعبد الرحيم مصطفى قليلات
هذا الكتاب ديوان شعر. وعنوانه (الهيام) قد يخدع القارئ لأول وهلة، فيحسب أن الديوان أكثره أو كله نسيب. والحقيقة أن العنوان مقتبس من الآية (ألم تر أنهم في كل واد يهيمون) وقد هام هذا الشاعر في أودية كثيرة، والكتاب الذي بين أيدينا هو ثمرة هذا (الهيام)، وأشعار الكتاب مقسمة إلى خمسة أبواب: الأول: في الدين والأخلاق؛ الثاني: في الثقافة والاجتماع؛ الثالث: في تهذيب المرأة ومحبتها؛ والرابع: في الفكاهة؛ والخامس: وهو أطول الأبواب جميعا، في الأناشيد. ومنه يتبين للقارئ أن المؤلف لم يدع هيأة من الهيئات في بلده الا علمها كيف تتغنى بأعمالها وشئونها، وكثير من هذه الأناشيد يصحبه توقيعه مكتوبا بالعلامات الموسيقية، وسيسر المصريون إذ يرون هذا الشاعر السوري الفاضل قد ختم الكتاب بنشيد جميل (دمعة على سعد) ومعه لحنه، ولم يتح لنا أن نسمع توقيعه.
وقد أعجبنا في الكتاب كله تلك الروح الدينية والوطنية والخلقية العالية التي يحسها القارئ في كل صفحة من صفحاته. وقد عالج المؤلف عدة مواضع من الأهمية مكان، ولكن يخيل إلينا أن الشاعر يكتب بسرعة وبكثرة هائلة لا تسمح له بتنقيح شعره واختيار عباراته وألفاظه. وليس من شك في أنه لو تأنى وتريث لأتى بشعر جليل، وهو أحسن ما يكون حين يقص علينا قصة. وسيسر القارئ من القسم الفكاهي، وقد أعجبنا منه بنوع خاص قطعته البديعة (ليلة القدر). ومن أجل هذه القطعة وحدها يستحق الكتاب أن يقتنى.
م. ع. م.
العدد 6 - بتاريخ: 01 - 04 - 1933
في الربيع. . .
منذ أيام تيقظت الطبيعة من رقادها الطويل، وأخذت تنضح جفنها الوسنان بأنداء الربيع، وتبحث عن حللها وحلاها في خزائن الأرض، وتأهب كل حي ليحتفل بشبابها العائد وجمالها المبعوث. فالحياة الهامدة تنتعش في الغصون الذابلة، والطيور النازحة تعود إلى الأعشاش المقفرة، والأفنان السليبة تتفطر بالأوراق الغضة، وبأرض النبت يحوك على أديم الثرى أفواف الوشى، والنسيم الفاتر يروض أجنحته ليحمل إلى الناس رسالة الزهور، وسر الحياة يستعلن في الحي فينتشي ويمرح، وطيوف الهوى تمس القلوب فتهفو وتختلج، والعالم كله يسبح في فيض سماوي من الجمال والنشوة والغبطة؛
اللهم إلا الإنسان!!
فقد حاول بادعائه وكبريائه أن يكون عالماً بذاته، فكان نشوزاً في نغم الكون، ونفورا في نظام العالم، فلو أنه اقتصد في تصنعه وائتلف كما كان بالطبيعة، لاتَّحَدَ الآن مع الربيع فشعر بتدفق الحياة في جسمه، وإشراق الصفاء في نفسه، وانبثاق الحب في قلبه، وأحس أنه هو في وقت واحد زهرة تفوح، وخضرة تروق، وطائر يشدو، وطلاقة تفيض على ما حولها البشر والبهجة!
لا يكاد يقبل على أوربا الربيع حتى تختلط أناشيد الشعراء وأغاريد البلابل في تمجيده وإعلانه، لأنه يفد إليهم فيرد عليهم النور والدفء والزهر والجمال والحركة.
أما نحن فلا نكاد نفطن لحلوله ولا لرحيله، لأن العالم كله على ضفاف الوادي يوم من أيام الربيع: فجره النديُّ يناير، وضحاه الزاهر أبريل، وظهره الساطع يوليو، وأصيله الرخيُّ أكتوبر!
فليس للربيع المصري على سائر الفصول فضل إلا بذلك السر الإلهي الذي تتشقق عنه الأرض، فيسري في العود، ويشيع في الجو، ويدب في الأجسام، وينشأ عنه هذا البعث الصغير!
ففي الربيع يشتد الشعور بالجمال وبالحاجة إلى التجمل، فترى الشباب بجنسيه يستعير ألوان الرياض، وعبير الخمائل، ومرح الطيور، ويحتشد في دور الملاهي،

وصدور الشوارع، فيخلع على الوجود وضاءة الحسن، وعلى الحياة رونق السعادة!
وأجمل شيء في ربيع القاهرة أصائله وأماسيه!
ففي هذين الوقتين تزدهر شوارع القاهرة الحديثة بزهرات شتى الألوان من بنات الإنسان، فتملأ الجو عطراً، والعيون سحراً، والقلوب فتنة!
وهنالك على أفاريز الطرق، ومشارف المقاهي، تقف أبصار الكهول والشيوخ حائرة مبهورة تلسع بالنظر الرغيب هذا الحسن المصون! وبين النظرة والنظرة عَبرة جافة تَصعَّد أسى على شباب ذاهب لا يرجع، وجمال رائع لا يُنال!
وفي الربيع تضطرم العواطف والعزائم في الشباب، فينفحون بالأمل والطموح والحب نَفَحان الورُود النِواضر بِعَرْف الطيب! فقصائدهم الغزلية تنثال كل يوم على بريد (الرسالة) فيحول بينها وبين استيعاب (نشرها) العَطِرِ صفحاتها المعدودة.
وكتبهم القيمة تظهر فياضة بالأفكار الوثابة، والعواطف المشبوبة: كالفكر والعالم، والشعبية، وعلى طريق الهند، والحياة الثانية، والربيع، والضحايا، وغير ذلك مما نقرأه الآن لنعود إلى نقده وتحليله بعد.
ومشروعاتهم الاقتصادية والثقافية تظهر موسومة بطابع الإقدام والإخلاص والوطنية؛ كمشروع تعاون الشباب لمزاولة الأعمال الحرة، ومشروع القرى لتثقيف العامة.
وفي الربيع تحتدم الطباع في الأدباء الكهول، فيثب بعضهم على بعض بالهجو المقذع والنقد اللاذع، ويتنافرون تناقر النسور على الصخور، والطيور الوديعة جاثمة في ظلال الغصون ترقب المعركة على بعد، فكلما رأوا الريش المنتوف والدم المنزوف، كبّروا واستبشروا، ودعوا الله في أغرودة شامتة أن يتفانى الفريقان، ليخلو الجو من البزاة والعقبان!
وأدباؤنا الكهول شديد بعضهم على بعض! فهم يسخون بالنقد الممِض، ويضنون بالتقريظ العادل، كأنما العصر لا يحتمل غير كاتب من الكتاب، والمكاتب لا تحتمل لغير كتاب من الكتب!
ويعجبني الأستاذ صاحب رواية (الهادي): عرف أن الأدباء ربما خرجوا عن نقدها وتقريظها بالصمت كالعادة، فكتب هو في مدحها فصلا في البلاغ. والإنسان أولى الناس بخيره، وأعرف بقيمة عمله من غيره.
وفي الربيع تتقد حَمِية العروبة في العرب. فتسمع اليوم في فلسطين والشام أبناء الشعب
الخالد، ووراث المجد التالد، يصرخون صراخ الأسد في راقد العدل أن يستيقظ، وفي غائب الحق أن يثوب!
وترى في العراق حطام السياسة البالية تكسحه الريح كسحها للهشيم، ثم تقوم على هذا الطلل المنسوف حكومة فيها حيوية الربيع، ولكن ليس فيها شبابه!
والشباب في العراق كالشباب في مصر منذ سنين: يحاول القائمون على أمره أن يربوه تربية الدجاج: ينقنق دائراً بين الحَب والماء، ويبحث في الأرض ليذهل عن السماء، ويأبى الشباب إلا أن يكون طيراً يحتقر القفص، ويقتحم الجو، ويسمو إلى الغاية! والغد على كل حال يومه!.

أحمد حسن الزيات

الخجول

خجول بطبعه، ضعيف الثقة بنفسه، إن تحدث ظن حديثه مملولا فيقتضبه، أو معروفاً فتحمر بالخجل وجنتاه، ويبتل بالعرق جبينه. ويحاول التخلص من موضوعه فلا يعرف، فيتلعثم لسانه، ويموت على شفتيه كلامه.
إذا أراد شراء حاجة، كان كمن يحاول فعل شيء محرَّم، فهو يخرج من شارع إلى شارع، ويمر من أمام حانوت إلى أمام حانوت، دون أن يجرؤ على دخول واحد منها!!
ولا يزال كذلك حتى تكل رجلاه، فينكفئ راجعاً إلى بيته؛ فإذا كانت الحاجة شديدة، نسي خجله لحين، ثم استجمع ما استطاع من الشجاعة، ودخل رابع حانوت يقابله. فيطلب ما يشاء في صوت المسترحم، فإذا ما أحضر إليه، لم يفكر في جودة الصنف ولا في غلاء الثمن. . بل يؤدي الثمن فوراً. . ويغادر المحل منتصرا!!.
إذا قابل صديقاً انضمت يمناه إلى يسراه وأخذتا تتحاكَّان! فإذا كانت إحداهما مشغولة، ارتفعت الثانية إلى ذقنه. أو إلى طربوشه. . أو إلى أذنه. . . .

والسلام! أمر ما أشقه! فهو يبدأه والصديق على مسافة طويلة، ثم يحيي بصوت خافت لا يكاد هو يسمعه.
هذا إذا كان الصديق بازائه، ولا مفر له من لقائه، أما إذا استطاع أن يهرب فهو يوفر على نفسه كل هذا العناء في خفة يحسده عليها اللص!
إذا دعوته إليك، اعتذر وبالغ في الاعتذار، فإذا ألححت في الدعوة، دفعه خجله إلى الإجابة، وكم تكون تضحيته عظيمة في هذه الحالة! فهو يتحمل ساعة ما أشقها على نفسه! كلها عمل وإجهاد فكر. . . لا يكاد يدخل الحجرة حتى يصطدم بأول كرسي يقابله، فإذا ما حاول إعادته إلى وضعه الأول اصطدمت يده بالمنضدة. . . .
إذا قدمت إليه القهوة اعتذر عن شربها. . ولكنه يتناول الفنجان عندما يقدمه إليه صديق، ولا يكاد يمسكه حتى تقوم في الفنجان عاصفة تدفع بالقهوة يمينا وشمالا، ولا مفر لها من هذا الاضطراب، ما دام هو بعينه حال يده. .!!
إذا طلب إليه صديق أن يقرضه مبلغا من المال، امتدت يده إلى جيبه فأخرج المطلوب دون وعي ولا تفكير!!
وقد يحتاج هذا المال بعد أيام، وتضطره الحاجة إلى الذهاب إلى صديقه، فإذا ما بلغ البيت
نسي سبب المجيء، وكاد يعود أدراجه. . ولكن الحاجة تلح عليه. . فتدفعه إلى داخل المنزل. . فإذا ما قابل الصديق نسي كل شيء. . .!!
وهو شاب مثقف، له غرام بالأدب الحديث، وله آراء سديدة فيه، ولكنه عندما يعارَض، ينسى آراءه ويعتقد أنها خاطئة، وإن كان لا يعرف وجه الخطأ فيها. . .!!
قدِّر لي أن أسمع حديث حبه وغرامه. .، وقد كان هذا منه غريبا، ولكن أغرب منه غرامه، فقد رأى حبيبته مارة أمام بيته في خفة الغزال، وجمال الزهرة، فأعجب بها، ووقع في شراك حبها. .، وكان يظفر منها كل يوم بنظرة في هذا المكان وفي هذا الوقت. . أما اسمها ومنزلها وأسرتها فذلك أبعد شيء يفكر فيه. . .
أليس الخجل كالتردد (مرضا من الأمراض يصيب المرء في حياته العملية فيغل يده ويشل عقله) ويجعل الحياة في نظره عبثا لا يحتمل، ولغزا لا يحل؟
سليمان محمود جاد
الزهرة
الزهرة ابنة الصباح، وجمال الربيع، ومنبع العطر، وظرف العذارى، وغرام الشعراء!
هي كالإنسان، قليلة البقاء، سريعة الفناء. ولكنها تُساقط أوراقها على الأرض في أناقة ولين!
كان القدماء يُجملون بها كؤوس موائدهم، ويتوجون بها رؤوس حكمائهم، ويجلّلون بها أجساد شهدائهم. أما اليوم، فتذكارا لهذه الأيام الغابرة نضعها نحن في معابدنا، ونعبر بألوانها عن مشاعرنا: فالأمل باخضرارها، والطهر بياضها، واشتعال الحب باحمرارها، والغيرة باصفرارها. فهي كتاب رشيق أنيق. يجمع بين دفتيه تاريخ الحب وثورات القلوب، ولكن لا أثر فيه للفتن والحروب!
محمد توفيق يونس
من رسالة إلى صديق
حول التجديد
الجديد جديد في مظهره، قديم في جوهره، لا يصلح موضعاً لدرس ولا موضوعاً لحديث. . .
ستقول: إذن ما بال هذه القصائد الرائعة التي يجلوها الشعراء والمقالات الرائقة التي يدبجها الكتاب؟ فأقول لك إنك إذن تفهم من كلمتي القديم والجديد غير ما أفهم، وتريد من مدلولهما غير الذي أريد. كأنك تريد بهما ما كان يريده الأقدمون حين كانوا يتمارون في شعر امرئ القيس وجرير وأبي نواس وأبي تمام والبحتري والمتنبي وابن هانئ. والأقدمون كما تعلم إنما كانوا يختلفون في شكل الشعر لا في موضوعه، فهم يتكلمون في اللفظ الجزل والركيك، والأسلوب الرصين والمهلهل، والمعنى المسروق والمطروق، والتشبيه المنتزع من وجوه البادية أو من صور الحضر، والمطلع الجيد والرديء، والتخلص الحسن والقبيح، ويجرون في كل ذلك على أذواق تختلف باختلاف الطبقات والبيئات والصناعات والأجناس. وعذرهم في ذلك واضح. فالشعراء لأسباب

فطرية واجتماعية، لم يقدموا إليهم الا نوعاً واحداً من الشعر هو ما يتعلق بالوجدان والعاطفة. فكان النقاد أمام وحدة الشعر العربي ونقصه، مسوقين إلى أن يقصروا جهودهم على لفظه: يحكون معدنه، ويعجمون عوده، ويسبرون غوره بالموازنة والمقارنة والتعقب. والشكل الخارجي حكمه حكم اللباس والأثاث والآنية: يتغير بتغير الزمان والمكان والحالة، ليس لأحد في ذلك حيلة.

فهل ترى أن أبا نواس مجدد بالإضافة إلى أمرؤ القيس، لأنه بدأ قصيدة بوصف الخمر، وتكلم في الغلمان والطرد؟ أو أن المتنبي مجدد بالإضافة إلى أبي نواس، لأنه داف شيئاً من فلسفة اليونان في شعره؟ أو أن مطرانا مجدد بالإضافة إلى المتنبي، لأنه ذكر القطار والكهرباء، ولوّن أدبه بأدب الغرب؟ أني لا أرى في مثل هذا التفاوت الظاهري تجديداً، ما دام الشعر قد ظل في كل هذه العصور واحداً في موضوعه وطريقه ونوعه ووزنه. . أما تغير الشكل فذلك فعل القانون العام الذي يغير أبدا كل شيء.

وهل قصد أحد من هؤلاء وأولئك إلى هذا التجديد المزعوم فجاهد في سبيله أهل جيله، كما

فعل أرباب المذهب الاتباعي والابتداعي والواقعي في فرنسا مثلا؟؟ لم يكن شيء من ذلك، لأنهم لم يختلفوا كما اختلف الفرنج في الموضوع والينبوع حتى تتباين الأغراض من تلك المواضيع، وتتشعب المسالك إلى هذه الينابيع. وهل سمعت أن الناس اختلفوا يوم تركوا العلبة إلى الكوز والكوب والقدح والجام؟ أم علمت أنهم اختصموا كلما تغيرت موادها من الجلد إلى الخشب، ثم إلى الخزف. ثم إلي الزجاج، ثم إلى المعدن؟ كلا! لم يسمع أحد بذلك، لأن اللبن والماء وهما القصد والغاية لم يتغيرا منذ خلقهما الله. أما حين تغير الشراب من اللبن إلى الخمر فقد حدث الخلاف وتشعب الرأي وتعددت المذاهب.

الحق أن التجديد لا يحدث، والجديد لا يكون، الا متى وجد القِصص والتمثيل في الشعر فيكمل، ودخلت الأقصوصة والقصة والرواية في النثر فيتم. أما ادعاء التجديد بالدعوة إلى العامية وترجمة الأساليب الغربية فعجز يتظاهر بالقدرة، وجهل يتستر بالتحذلق!

ا. الزيات

السائل

بينما كنت أسير في إحدى الطرق، وقفني سائل مسكين بوجه شاحب، وعينين داميتين، وشفتين متقلصتين، وقدمين مرتجفتين. فقلت في نفسي:

أوه! ما أتعس هذا الشقي!

قدَّم إليَّ يده الحمراء النحيلة القذرة، وطلب مني صدقة بصوت يخنقه بالبكاء.

فوضعت يدي دون أن أفكر، وقد أخذتني الشفقة على هذا البائس، وضعتها في جيوبي، ثم جعلت أبحث فيها عن شيء أعطيه إياه، ولكني وا أسفاه لم أجد شيئاً، لا نقوداً ولا ساعة، حتى ولا منديلا!

صار موقفي حرجا، وما زال السائل ماداًّ إليَّ يده واثقاً كل الثقة من العطية! لم أعرف ماذا أعمل!. وفي النهاية أخرجت يدي وأنا حيران خجل، ثم مددتها وصافحت يده الممدودة قائلا:

(أنا آسف يا أخي فليس معي شيء).

ولم أكد أتم هذه الجملة حتى رأيت عيني السائل وشفتيه تفترَّان عن ابتسامة رقيقة، وإذا به يضغط على يدي شاكراً ممتنا وهو يقول:

(حسناً يا أخي! شكراً لك! إن هذه أيضاً صدقة!)

م. يونس

التجديد في الأدب

للأستاذ أحمد أمين

- 1 -

موضوع ثار فيه الجدل بين الكتَّاب، واحتدم فيه الخلاف بين الباحثين. هل أدبنا العربي يحتاج إلى تجديد؟ وهل سواء في ذلك شعره ونثره؟ وتعصب قوم للقديم يذودون عنه ويحافظون عليه، ولا يسمحون بأي تغيير فيه. وهب المحدثون ينعون علىالمحافظين جمودهم، وينذرونهم بسوء العاقبة إن هم ظلوا متمسكين بالقديم معرضين عن الجديد.

ولكن أسوأ ما يسوئني في هذا الموضوع وأمثاله الغموض والإبهام؛ فإذا سألت المجددين ماذا يريدون بالتجديد وما ضروبه وما مناحيه وماذا يقترحون أن يدخلوه على الأدب العربي جمجموا بالقول وأتوا بكلمات غير محدودة المعنى، ولا واضحة الدلالة.
وقد يجوز إذا حددوا أغراضهم وأبانوا عن مقاصدهم، أن يوافقهم المحافظون أو أكثرهم، ولا يكون ثمة خلاف، وإن يكن فخلاف معروف تقام عليه حجج واضحة.
من أجل هذا كله أحاول أن أعرض لوجوه التجديد التي يخيل إليّ أنهم يريدونها، وأدلي برأيي فيها، وأدعو الكتاب أن يساهموا فيها بآرائهم، ويستدركوا ما يفوتني من حججهم وأغراضهم:
في أدب كل لغة عناصر ثابتة لا يعتريها تغير ولا ينالها تجدد، هي قدر مشترك من الأسلوب والتراكيب وتأليف الجمل؛ به تمتاز اللغة من سائر لغات العالم. وينفرد أدب الأمة عن آداب العالم، وقدر مشترك من الفن، نتبين به الجيد من الأدب في كل عصر وكل جيل، هو فوق البيئة وفوق العوامل السياسية والاجتماعية، وفوق ما يطرأ عليها من كل تغيير.
وهذا وذاك هما اللذان يجعلاننا نتذوق الأدب الجاهلي، وندرك ما فيه من جمال، ونشعر بما فيه من نقص. ويستطيع الأديب منا أن يعرف خير ما قال امرؤ القيس، وما قال طرفة، وما قال زهير؛ وهو الذي يجعلنا نتذوق ما في القرآن الكريم من جمال في الأسلوب والمعنى. وندرك ما في العصر العباسي إلى عصرنا هذا من نثر وشعر، ونزنه ونقومه، ونحكم على بعضه بالحسن والجمال والقوة، وعلى بعضه بالضعف والقبح والغموض.
ولولا هذا القدر المشترك لانقطعت الصلة بيننا وبين القديم فلا نحس له جمالا، ولا نتذوق له طعما.
وهذا النوع من العناصر لا يقبل تجديداً ولا تغييرا، إذ بتغييره تضيع اللغة وتفقد مشخصاتها، فلو قلبنا تركيب الجمل رأساً على عقب، أو لم نراع الوضع الذي تسير على نهجه اللغة، لكان لنا من ذلك لغة جديدة، ليس بينها وبين الأولى نسب.
وهناك نوع آخر من العناصر في اللغة والأدب، خاضع للتغيير، قابل للتشكل، يتأثر بالبيئة وبدرجة الحضارة، وبالأساليب السياسية، وبالحياة الاجتماعية، وغير ذلك.
وفي هذا النوع يكون التغيير والتجديد. ومن أجل هذا التغيير كانت الفروق واضحة بين الشعر العباسي والشعر الجاهلي، في التعبير والتشبيه والأسلوب والموضوع ونحو ذلك. ومن أجل هذا أمكن الأديب إذا عرض عليه نوع من الأدب، أن يعرف عصره ولو لم يعرف قائله؛ لأنه يستطيع أن يتبين خصائص كل عصر ومميزاته، ويطبق ذلك على ما يعرض عليه من شعر أو نثر. ومن أجل هذا أيضاً ترى الفرق واضحاً بين لغة الأدباء الآن وبين لغتهم منذ عشرين عاماً. وتجد الفرق واضحاً بين لغة الجرائد المصرية اليوم، وبين لغة الجرائد السورية والعراقية، وإن كانت كلها تصدر باللغة العربية، وتشترك في العناصر الأساسية.
وهذا التغيير أو التجديد في الأدب وتأثره بما حوله خضع له الأدب العربي وكل أدب على الرغم من المحافظين والجامدين؛ فقد رأينا في العصر العباسي مدرسة وعلى رأسها الأصمعي لا تحب إلا الشعر الجاهلي، ولا تحب من المحدثين إلا من قلّد القدماء. ورأينا من كان يُنْشدُ الشعر فيستحسنه، فإذا قيل له انه محدث استهجنه واتهم ذوقه؛ ولكن هذه المدرسة أخضعها الزمن لحكمه، ونشأ أدب عباسي جديد، احتفظ بالعناصر الأساسية للأدب العربي ولم يأبه لما عداها وكان الفرق كبيراً بين الأدبين كما قال الجاحظ: كم من الفرق بين قول امرئ القيس:
تقول وقد مال الغبيط بنا معاً
وقول علي بن الجهم:
فبتنا جميعاً لو تُراق زجاجة ... من الماء فيما بيننا لم تَسَرَّبِ
وجاء المتنبي وعلى أثره المعري فجددا في الشعر من ناحية الأسلوب ومن ناحية المعاني، فأنكر عليهما أدباء عصرهما نزعتهما الجديدة، حتى رأينا من بين العلماء من أبوا أن يعدوهما في الشعراء. ثم حكم الزمن على هؤلاء العلماء ووضع المتنبي والمعري في مكانهما اللائق بهما.
وكان هذا هو الشأن في كل عصر، حتى عصرنا الحديث، نشأ قوم تأثروا بالأدب العربي

القديم وحذوا حذوه، ولم يخرجوا قيد شعرة عنه. فلو ركبوا الطائرة قالوا ركبنا الهودج والبعير، وإذا استهلكت البنزين قالوا رعت السَّعدان، وسموا الجنيهات الإنجليزية وعملة الورق دراهم ودنانير، وإذا لم يكن لهم من الأمر شيء قالوا لا ناقة لنا ولا جمل، إلى كثير من أمثال ذلك.

وتأدب قوم بالأدب الغربي إلى ثقافتهم العربية، فثاروا على كل ذلك واختلفوا بينهم في مقدار هذه الثورة، فقوم يريدون أن يتحرروا من الأوزان والتزام القوافي، وآخرون يريدون أن يتحرروا من التشبيهات البالية والمجاز العتيق، وآخرون يعافون بعض الأساليب القديمة، والموضوعات التي جرى عليها السابقون. وكان صراع بين الطائفتين نعرض له بعد.

على كل حال دلتنا أحداث الزمان على أن عوامل البيئة في التغيير والتجديد لا يمكن أن تقاوم، كما دلتنا على أن ليس كل تجديد يصادفه التوفيق ويتسع له صدر الزمن، وأن نجاح من نجح من دعاة التجديد وفشل من فشل منهم إنما كان خاضعا لقوانين طبيعية ظاهرة حيناً وخافية أحياناً، وأن نوع التجديد إن كان صالحا وكان مما تسمح به القوانين الطبيعية للأدب فمعارضة المعارضين لا يكون لها من أثر إلا أن تؤخر زمن الإصلاح، وهو واقع لا محالة يوما ما، وإذا لم تسمح بها هذه القوانين كانت دعوة التجديد صيحة في فضاء، أو خطاً في ماء.

وبعد فأي أنواع التجديد يتطلبه المجددون؟ وهل من خير الأدب العربي قبوله أو رفضه؟

إن أول أنواع التجديد وأبسطها تجديد الألفاظ، لأنها مادة الأديب الأولية، وخيوطه التي ينسج منها قطعته الفنية.

وتجديد الألفاظ على ضربين:

(1) اختيار الألفاظ التي تناسب العصر ويرضاها ذوق الجيل الحاضر، لأن لكل أمة في كل عصر ذوقاً خاصاً بها تختار ألفاظا تناسبها وتأنس بها، وتمج ألفاظا لا تستحسنها ولا تستسيغها، وذوق الأمة في حياة مستمرة، فهو كذلك في عمل مستمر إزاء الألفاظ، وأدباء كل عصر لهم معجم يخالف معاجم اللغة القديمة. فلو أن أديباً استعمل كلمة (هَبَّيَّخ) للجارية الحسناء لكفت في إسقاط قصيدته أو مقالته. ولو استعمل كلمة بُعاق للمطر أو السيل لدل على فساد ذوقه، وسوء أدبه، ومن أجل ذلك لا يستحسن في هذا العصر بعض ما كان يستحسن في عصور سابقة. فقد كان يستحسن من أبي الطيب قوله:

وترى الفضيلة لا ترد فضيلة ... الشمس تشرق والسحاب كَنَهْورا

ولكن كنهورا الآن ثقيلة في اللفظ كريهة على السمع، وهذا بديهي لا يحتاج إلى إطالة.

وكل من جهل هذه الحقيقة لا يفلح أن يكون أديباً، لقد أراد الأستاذان الشنقيطي وحمزة فتح الله أن يحييا غريب الألفاظ ويستعملاه في قولهم وكتابتهم ففشلا كل الفشل، وكان الناس يستظرفون ذلك منهما كما نستظرف فتاة حضرية لبست ثياب بدوية، وفهموا أن ذلك ليس جدا من القول، وليس طبيعيا أن تعيش بداوة القرن السابع في حضارة القرن العشرين. إنما يحيا الأديب يوم يوفق لاختيار الألفاظ الرشيقة التي تناسب ذوق عصره، والعصر الآن أميل إلى السرعة والاقتصاد، وكلاهما يتطلب الوضوح والجلاء لا الغموض والغرابة.

لذلك أصبحت في معاجم لغتنا ألفاظ كثيرة ليس لها قيمة إلا أنها أثرية تحفظ فيها كما تحفظ التحف في دار الآثار.

والضرب الثاني: ألفاظ تخلق خلقا، تلك الألفاظ التي تساير المدنية الحديثة بكل ما اخترعت من أدوات وصناعات، وما ابتكرت من فن وعلم ومعاني وآراء، واللغة العربية اليوم، قاصرة كل القصور في هذا الباب، فليس لدينا ألفاظ لكثير مما اخترع وابتكر، وهذه مشكلة المشاكل اليوم وقبل اليوم تجادل العالم العربي فيها طويلا ولما يستقر على حال.

وكان لقصور الألفاظ أثر كبير في ضعف الأدب. فكيف يستطيع الأديب أن يصف حجرة وكل ما فيها من أثاث ليس له ألفاظ تدل عليه؟ وكيف يستطيع الكاتب أن يؤلف رواية، وهو في كل خطوة يعثر بمسميات لا أسماء لها؟ ولذلك يهرب كثير من الأدباء من

التعبير الخاص إلى التعبير العام، فإذا أراد أن يصف رجلا يلبس طربوشاً قال انه يلبس عمارة أو
قلنسوة، والحقيقة انه لا يلبس عمارة ولا قلنسوة، وإنما يلبس طربوشا، وإذا أراد أن يقول انه يضرب على البيانو قال إنه عزف على آلة موسيقية، وهذا منتهى الفقر في التعبير.

كل هذا حقن الأفكار في أدمغة الأدباء، وسبب ضعف الوصف والرواية وغيرهما في الأدب العربي الحديث، وجعل الأدباء يفرون إلى الموضوعات الإنسانية العامة، والأفكار الميتافيزيقية، فان نحن شئنا أن يكون الأدب ظلاً لحياتنا، وحياتنا الآن، وجب أن نحل مشكلة الألفاظ حتى يطلق الأدباء من أغلالهم، وإلا ظلوا يدورون حول أنفسهم، وظل أدبهم غذاء ناقصا للأمة ليس فيه كل العناصر التي لا بد منها للحياة.

وهناك تجديد في مناحي أخرى غير الألفاظ نعرض لها في مقالات تالية إن شاء الله.

الثور في مستودع الخزف

للدكتور محمد عوض محمد

جعل الثور يطوف في نواحي المدينة، ويجول في طرقاتها في ساعة غفل فيها الرعاة، وغاب الحراس. فلم يزل يمشي على غير هُدىً، حتى ساقه القدر المحتوم إلى مستودع الخزف:

في دار صغيرة متعددة الحجرات، جمع أهل المدينة تراثهم الخالد (أو الذي حسبوه خالداً) من خَزَف قديم وحديث.

وصناعة الخزف أقدم صناعات الإنسان جميعاً. بدأ يمارسها منذ آلاف السنين، وهو بعد في مثل سذاجة الأطفال، فكانت في العصور الأولى شكولاً ساذجة، وصوراً بسيطة. يراد بها النفع والفائدة، لا الزينة والحسن، فلا نقش فيها ولا تزويق، ولا إتقان في الصنع ولا إبداع. ثم لم تزل ترقى برقي الإنسان، وتمشي وإياه جنبا إلى جنب، وتحاكيه في تقدمه ورفعته، حتى غدت فناً من أجلّ الفنون، وصناعة من أشرف الصناعات. وأبدع فيها الخيال البشري أيَّما إبداع، فأصبح منها اليوم ما يعد تحفة القرون وفخار الفنون.

وهذه المدينة عريقة في صناعة الخزف البديع، قد نبغ فيها في جميع العصور، رهط من كبار رجال الفن، فرفعوا في العالم ذكرها. وحلقت شهرتها في سماء الفنون. ولم يكن لها في هذه الصناعة ضريب.

وفي هذه الدار الصغيرة، قد أودع أهل المدينة خير ما أنتجته قرائح بنيها على مدى القرون، لكي تكون معرضاً لهذه الصناعة، يزورها الناس في كل آونة، فتنعم عيونهم بما فيها من جمال باهر، وتنعم نفوسهم بما يبعثه الجمال في النفس من سعادة وغبطة. فكان بابها مفتوحاً النهار كله، يقصد إليها الناس على الرحب والسعة، في كل ساعة من الزمان.

وفي ساعة نامت فيها ملائكة السعد واليمن، واستيقضت أبالسة النحس والشؤم، ساقت المقادير العجيبة الغريبة، ذلك الثور العنيف المخيف، إلى هذه الدار - من دون الديار جميعاً!

ولم يلبث طويلاً حتى حملته أرجله إلى داخل الدار. فأجال عينيه فيما حوله، فإذا أمامه آيات الفن، مصفوفة على المناضد والرفاف: من أواني قد ألبستها الحسن يد صناع، وتعاونت على نقشها وتصويرها البراعة والخيال. . . ها هنا صور تمثل الطبيعة بزهرها ونَوْرها، وخضرتها ونضرتها، وأنهارها وعينها، ونبتها ودوحها، ومائها وسمائها. . . وهناك صور تمثل الطبيعة كما يراها خيال العبقري، لا كما يراها الناس، فيزيد في حسنها حسناً، وفي شكولها أشكالا وضروباً. . .

وها هنا صور للحياة، تذكرنا وصف أبي نؤاس للكؤوس، تتمثل فيها الناس في جدهم ولعبهم، وفي سرورهم وكمدهم؛ وحين يريحون وحين يسرحون؛ وحين يدأبون وحين يمرحون. ومن تماثيل ذات حسن عزيز؛ كأنما نصبت هناك لتقيم المعاذير لمن عَبَدَ الأوثان، ومجَّد الأصنام: منها القائم الناهض، والجاثم الرابض، والمتكئ والمستلقي، والساكن الهادئ، والثائر النافر. بعضها قد ألبس ثوباً أو بعض ثوب. وبعضها عارٍ إلا من الحسن. وكلها آيات في الإبداع والابتكار.

فتباركت الأيدي القديرة، التي أحالت الطين والصلصال، إلى كل هذا الجمال والجلال!.

رأى الثور هذا كله، وما برأسه إدراك للفن أو تقدير للحسن؛ وما في غريزته فهم لهذا

. . .الجمال المتَّسِقِ المؤتلف، وهذه الصناعة الباهرة الساحرة
كلا. . . بل في غريزته عنف وبطش، وتحطيم وتدمير، فأجال فيما حوله نظرة بهيم. ثم تراجع إلى الوراء قليلا، شاهراً قرنين حديديين كالفولاذ. واندفع نحو تلك التحف والطرف وصال فيها وجال. . وهي (وا أسفاه!) هَشَّة ضعيفة، سهلة المكسر، لا حول لها أمام العنف ولا قوة. فطاحت تلك الآيات إلى الثرى، وتناثرت قطعها الغالية في جوانب الدار!
وحملق الثور في التدمير الذي أحدثه، وكأنما راقه منظره. فأعاد الكرة، المرة بعد المرة.
وما هي الا دقائق معدودة، حتى لم يبق بالدار تمثال قائم، ولا إناء منصوب؛ بل استحالت جميعا إلى شظايا مبعثرة، وأجزاء متناثرة. وقد اختلط بعضها ببعض، فما تميز العين جديدها من قديمها، ولا طارفها من تليدها؛ ولا آنيةً من تمثال، ولا رأساً من جسم. . . لقد صارت جميعاً أكداساً من الخزف المحطم، ليس فيها من الجمال أثر، ولا يرى فيها شاهد على براعة الصناعة.
في بضع دقائق استطاع هذا البهيم العنيف أن يقضي على تراث القرون، وثمار القرائح، وخلاصة الفن؛ وأن يحيل هذه الدار، ولم يكن لها نظير في جمال التنسيق، إلى دار فوضى
قد شاع فيها الخراب والدمار!
ولم يكن بالدار غير فتاة ترعاها. هالها أن رأت ذلك الثور المخيف، وأحست بالشر، يوشك أن يحدق بالدار ومن بها. فغافلته وهو يلهو بالكسر وبالتحطيم؛ وانطلقت تنشد النجدة والمعونة. . .
. . .وبعد لأى أقبل الناس، علَّهم أن ينقذوا البقية الباقية. فلم يجدوا بقية باقية
وهل شفي الغليل أن قُتل الثور ومُزِّق كل مُمَزق؟
إن دماء ثِيَرَةِ الأرض جميعا لا تعادل آية واحدة من آيات الفنون!
ويلُ الورى من عَنيفٍ أحمقٍ خَرِفِ، ... كأنه الثورُ في مستودع الخزفِ
رأى جمالاً وفناً ليس يفهمه ... وهاله ما رأى من مُبْدَع الطُّرَفِ
فلم يزل مُرْهِفاً قَرْنَيه، مندفعاً ... يجري، فيكسر ما ألْفَى من التحف
كأن في صدره حقداً ومَوْجِدة ... لكل شيء بديع الصنع مؤتلف
وكيف يدرك (ثور) أنَّ ذي تُحَف ... للحفظ والصون، لا للمحوَ والتلفِ؟
فلسفة برجسون
نشرت (الرسالة) بحثاً قيما لحضرة الأستاذ زكي نجيب محمود لخص فيه فلسفة برجسون أحسن تلخيص وأوفاه، وهي تلك النظرية التي تسود عالم العلم الآن، والتي صار لها الرجحان التام على كل ما خالفها من المذاهب والآراء.
وإنني على شدة إعجابي بالطريقة الشيقة الواضحة التي عرض فيها بحثه، وبما دعمه من الحجج القوية، والأدلة الساطعة التي تثبت بأجلى بيان إن الأصل في الكائن الحي هو الروح لا الجسم، وإن الروح كائن مستقل بذاته، وأنه هو الذي يسيطر على الجسم، وهو الذي يديره ويوجهه حسب إرادته الذاتية. وإن الكائنات الحية من نبات وحيوان وإنسان، خلقت أنواعها خلقاً مستقلا، ووضعت في الدرجات والمنازل التي عينتها لها الروح بمطلق إرادتها، لا بطريق النشوء والتطور؛ كما كانت تذهب إلى ذلك الآراء المادية البائدة. أقول مع إعجابي بذلك وبغيره مما شيد به أركان النظرية، وأقام عليه بناءها المحكم- أراه قد انتهى إلى نتيجة لا تتفق مع هذه المقدمات، ولا تسير مع أحكام العقل؛ بل بعضها يناقض بعضا.
تلك النتيجة هي قوله في ختام بحثه: (هذه الحياة التي لا تفتأ تخلق وتغير وتبتدع، والتي تلتمس الحرية من قيود المادة هي الله (تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا) فالله والحياة اسمان على مسمى واحد؛ ولكنه إله ذو سلطان محدود بقيود المادة، وليس مطلق الإرادة كما تصوره الأديان؛ إلا أنه دائب في التخلص من أغلاله وأصفاده. وأغلب الظن أن الحياة ستظفر آخر الأمر الخ. . .)
فنرى من ذلك أنه جعل الله والحياة شيئاً واحدا، وبعد أن وصف هذا الشيء بأنه أساس الوجود وبأنه هو الخالق وهو الذي عيّن الحياة درجاتها ومراحلها وخلق لها أعضاءها ووظائفها، وسخر لها المادة تسخيرا، عاد فجعل هذا الشيء الذي هو الحياة، وهو

الروح، وهو الله، خاضعا لقيود المادة، وأنه يجاهد ليتخلص منها. وهذا لعمر الحق تناقض لا يقبله العقل ولا يقول به أحد.

إنه لا بد من أحد أمرين: فأما أن تكون الروح هي الأصل في الوجود والمادة طارئة عليها أو العكس، فإذا كانت الروح هي الأصل (كما ذهب الأستاذ إلى ذلك وبرهن عليه) فلا ريب في أن هذه الروح مستقلة الإرادة مالكة لتمام حريتها، وأن وجودها لذاته لا يحتاج في قوامه

إلى شيء، وانه مطلق. فليت شعري ما هي العوامل التي جاءت بعد ذلك وأخضعت الروح للمادة الطارئة وقيدتها بأغلالها وأصفادها؟. أما إذا كان العكس أي إذا كانت المادة هي الأساس، فهذا ما لا يسعنا فرضه، لأن النظرية لا تقول بذلك، بل أنها قامت على هدم هذا الأساس، وقد نجحت في ذلك نجاحا باهرا، حتى لا يكاد يوجد الآن من يقول به.

وعلى هذا يكون الغرض الأول (وهو أساسية الروح واستقلالها عن المادة وتسلطها عليها) هو الواجب التسليم به، ولا يكون ثمة معنى لارتباط هذا الروح بالمادة ارتباط خضوع، ثم لا أدري ماذا يريد الأستاذ بقوله: أن الله أو الحياة يجاهد ليتخلص من قيود المادة. فإذا فرضنا أنه نجح (كما توقع هو ذلك) فماذا يكون بعد نجاحه؟ وأي حالة يصبح عليها؟ أهي شيء غير استقلاله بذاته ونيله حريته التامة؟ ولماذا لم يكن ذلك من الآن بل ومن قبل ما دام هو الأساس في الوجود؟

أما اعتباره الحياة كائناً مستقلاً ذا شخصية موجودة تدافع وتناضل عن نفسها فما ذلك الا وهم، لأن الحياة أمر معنوي لا يقوم الا في الذهن وليس له وجود في الخارج، وكذلك سائر المعاني الكلية مثل العلم والإرادة والقوة فأنها لا توجد في الخارج، بل الذي يوجد منها إنما هو أفراد موصوفون بالحياة أو العلم أو الإرادة أو القوة، وذلك مبسوط في كتب المتكلمين والمناطقة فلا حاجة للتوسع في شرحه هنا؛ وإذا كان المر كذلك فما هي تلك الحياة التي يقول بوجودها وأنها هي الله؟ مع أننا لا نرى الا أفراداً من الأحياء سواء أكانوا من نوع الإنسان أم الحيوان أم النبات، وفي غير أفراد هذه الأنواع لا نرى للحياة وجودا.

الحقيقة أننا لا يمكننا إساغة النتيجة التي انتهى إليها حضرة الأستاذ الباحث بالصورة التي هي عليها، ولا يمكن التوفيق بينها وبين المقدمات التي وضعت بين يديها. فدفعا لهذه الإشكالات، وتخلصا من هذه المتناقضات، يجب أن نضعها على النحو الذي يحكم به العقل والمنطق، بل الذي تقضي به البديهة: وهو أن نميز الروح التي قلنا إنها أساس الوجود، وأنها تخلق وتدبر من الروح المخلوقة والخاضعة لقوانين الوجود ونواميس المادة، ثم نميز كذلك هذه الروح المخلوقة والتي لها صفة الحياة من المادة المائتة، ونعتبرهما متباينين في الجوهر وفي درجة الوجود، وبعبارة أخرى تكون النتيجة هكذا:

إن للعالم روحاً هي أساس وجوده، وهذه الروح موجودة لذاتها لا عن شيء آخر، ولا لعلة،

وإن وجودها مطلق، وسلطانها غير محدود، وأنها هي التي أوجدت كل شيء بمحض إرادتها، وهي التي خلقت المادة وخلعت عليها الحياة بجميع مراتبها، وهذه الروح يجب أن يكون لها كل صفات الكمال والبراءة من جميع شوائب النقص، تلك الروح هي ذات الله تبارك وتعالى.

وما نظن هذه النتيجة تكون موضع بحث فضلاً عن أن تكون موضع خلاف، لأنها هي التي يحتّمها العقل والتي أجمع عليها رجال العلم والفلسفة في كل عصر - الا شواذ لا يعتد بهم ممن يقولون بالحلول أو بوحدة الوجود كسبينوزا وجيوردانو وأضرابهما.

تلك هي ملاحظتنا نقدمها إلى الأستاذ الفاضل عن إخلاص، راجين أن يحلها محلها من الاعتبار، ولا يفوتنا هنا أن نكرر إعجابنا وعظيم اغتباطنا بمبحثه النفيس ومجهوده الموفق.

سيد أحمد فهمي

خواطر!

ضجة!

هي موسيقى كلها نشوز، موسيقى خفاقة مضطربة؛ يثيرها فرد بل تثيرها في الفرد

يده اليمنى، وليست الموسيقى الا تعبيراً عن الذوق والإحساس. وقد اشتهر المصريون من يوم خوفو وأترابه بالذوق الرفيع، والإحساس السامي. . .

والمصريون أمة مرحة طروب؛ وإذا كان هناك شك فقد بطل الشك، وأثبت نزعة المرح في أمتنا بائع العرقسوس!

في أحيائنا الوطنية وأنصاف الوطنية يسير هذا الرجل يحمل إلى صدره آنية ضخمة، خرج من فوهتها لوح من الثلج طويل يترجح بين البياض والسمرة. . . ويمسك بيده اليمنى وعاءين من النحاس الأصفر، يتنافران أحياناً؛ فإذا تجاذبا تعانقا، وكانت قبلتهما تلك الموسيقى التي يضج لها الشارع، وتطل عليها الملاليم، وتملأ لها الكوبات، ويحسوها الناس فرحين، وتنفرج الشفاه عن لفظ الجلالة. .!!

وعلم الله أن بائع العرقسوس وشراب العرقسوس، لا يستحقان هذا التقدير، وليس من الذوق أن يثيرا هذه الضجة المزعومة، وإلا كان لبائع التمر هندي أو الرمالي أو جروبي أن يسير وفي معيته طبل بلدي.!!

تقليد!

يزعمون أن التقليد لا يفيد، وأن المقلد أعرج بالقياس إلى صاحب الفكرة، أو كالتل بالنسبة للجبل، ويعطينا الزاعمون أمثلة من الأدب، فيقولون: إن الأدب الروماني ظل للأدب اليوناني، ولهذا كان الأدب الروماني ضعيفاً بالقياس إلى أدب اليونان. ثم يعرجون على حياة الجماعة، فيقولون: إن تقليد الناس للناس في مظاهر حياتهم معناه أن المقلد يستمر على ذيل القافلة يتطلع ولا يتقدم، ويبصر ولا يفكر.

وسواء أكان هذا الرأي صواباً أم خطأ فأنا أرى أن تقليد الإنسان للإنسان هو قضاء على تفكير المقلد، وعبودية لعبقريته الكامنة. وأن النفس التي تعيش على تفكير نفس أخرى، أجدر بالزراية وأحق بالتثريب.

فتياتنا في مصر أردن خلع البراقع وأردن تقليد الغربيات، فماذا اخترن لرؤوسهن من لباس؟ اخترن (البيريه) وما أعجب وضع هذا البيريه على الرأس! ذلك الوضع الذي يحتاج إلى حارس يراقب رأس الآسنة! محافظة على ذلك البيريه الذي تنافر مع معظم الرأس وتجاذب مع بعضه، مصغياً إلى الشمال جدا. .! وحسب موقع البيريه من الرأس أنه يترجح بينها وبين الأرض، وأنه في حاجة إلى إنسان يراقبه من عثرة السقوط! أما لون البيريه فأغلب الظن أنه تقليد أعمى لجوارب كرة القدم في ملاعب القاهرة. .!

أنا لا أكره البيريه وإنما أكره وضعه من الرأس ولونه السخيف. . .

سخاء!

لعل طبيعة السخاء في المصريين تغلب على طبائعهم جميعا، وليس يشك عاقل في أن السخاء طبيعة محبوبة ترضاها الإنسانية المعذبة التي لا تجدها في كثير من الأحيان. ولكن، نعم، ولكن السخاء قد يركب العقل والقلب ويصبح نوعا من الإسراف، فيه ثورة على أمن الناس وراحتهم. . .!

في الترام أو في السيارات العمومية تجد هذا السخاء يمتط ويعرض وتطول حباله فإذا به ثورة. . سحاء يدفعه الوفاء حيناً وتدفعه المظاهر أحياناً، هذا يريد أن يكلف نفسه ما وسعت فيتحمل عن صديقه عبء التذكرة. . . والصديق يأبى أن يستغرقه هذا الفضل!. ويرغب في أن يكون سباقاً في هذا المضمار!

وتقوم ثورة تحسها في اللسان، وقد اجتمعت عنده أغلظ الايمان، وتراها في العينين الزائغتين، وفي اليدين المندفعتين، تحمل القروش إلى المحصل! وتبدأ الثورة رويداً رويداً ثم تتكاتف الألسنة، وتبرق العيون، وتندفع الأيدي؛ هذا يريد أن يدفع، وذاك يود أن يسبق صاحبه، والمحصل يظل حائرا، وقد وسعت يده أكثر مما يطلب، ويرجو إن أمكن أن تصل يد قبل أختها. فأغلب الظن أن يدي الصديقين تصلان معاً في فترة واحدة، وفي عاصفة من التهليل والتكبير!. أما الراكبون فلست أشك أنهم لا يغضبون، لأنهم في هذا السخاء سواء يعلنونه ما ملكت إيمانهم وما وسعت جيوبهم، وكم أخاف أن تقوم هذه الضجة فلا يجد أحدهما في جيبه غير ثمن تذكرته، وتصبح ثورة السخاء هباء في هباء، والناس من حولهما يضحكون أو يأسفون؟.!

إبراهيم عبده

باقة من حديقة أبيقور

لأناتول فرانس

ماهية الحقائق العلمية

انه لخطأ كبير أن نظن الحقائق العلمية تختلف اختلافا جوهريا عن تلك التي نشاهدها كل يوم وهي إن امتازت بشيء فبسعة إحاطتها ومبلغ دقتها، أما من الوجهة العملية فالاختلاف عظيم الأهمية، ويجب أن لا ننسى في نفس الوقت أن قوة الملاحظة عند العالم مقصورة على ظواهر الأشياء وما يجري في الطبيعة، ولكنها لن تستطيع أن تنفذ إلى باطن المادة أو تعرف شيئا عن حقائق الأشياء؛ والعين التي تستعين بالمجهر ما تزال عينا إنسانية؛ نعم أنها أكثر إبصارا من العين المجردة، ولكنهما لا تختلفان في الوسيلة. وان العالم ليزيد من صلات الإنسان بالطبيعة ومعرفته بها، ولكن يستحيل عليه بأي حال أن يحدد الخواص الجوهرية لتلك العلاقات المتبادلة بين الأثنين، وهو يشاهد كيفية حدوث بعض الظواهر الطبيعية ولن سبب حدوثها بمثل هذه الكيفية يبقى عليه كما هو علينا سرا محجوبا وبابا مغلقا.

وإننا لنبوء بالخيبة اللاذعة حين نتطلب في العلم قانونا أخلاقيا، فقد كان الناس يعتقدون منذ ثلاثمائة سنة أن الأرض مركز الكون، ولكننا نعلم الآن أنها جزء من الشمس قد انفصل عنها وأن هذا الكون الذي نحن فيه كذرة التراب الهائمة إنما هو في حركة دائمة وعمل مستمر لا ينفك ينشأ ثم يبيد، وأن الأجرام السماوية لا تفتأ تموت ثم تولد. ولكن من أية ناحية قد تغيرت طبائعنا وأخلاقنا بهذه الاستكشافات العظيمة؟ أترى الأمهات قد تأثر حبهن لأطفالهن قوة وضعفا؟ أم ترى تقديرنا لجمال المرأة قد كثر أو قل؟ أم أن نبض قلب البطل المغوار في صدره قد اختلف عن ذي قبل؟ كلا! فلتكن الأرض كبيرة أو صغيرة فماذا يعني الناس من كل هذا؟ أن في سعتها ما يكفي ليجعل منها مسرحاً للألم والحب، فهما منبعان متلازمان لجمالها الذي لا ينفد، نعم الألم ما أجله وأقدسه! وما أجهلنا بقدره وقيمته! فنحن ندين له بكل ما هو حسن فينا وكل ما يجعل الحياة جديرة بالعيش فيها، ندين له بعاطفة الرحمة والشجاعة وسائر الفضائل، وما الأرض الا ذرة من الرمل في اللانهاية المجدبة للعوالم التي تحيط بنا.

ولكن إذا كان على الأرض وحدها نقاس الخلائق المتعددة فهي أعظم قدراً من تلك العوالم بأجمعها، بل هي كل شيء والباقي لا شيء، فبدونها لن يكون للفضيلة ولا للعقل وجود. وما هو الذكاء إذا لم يكن فناً يقصد به إبعاد الألم؟ على إنني أعلم أن هناك عقولا كبيرة قد تطلعت إلى آمال أخرى غير هذا، فقد كان رينان يعلل نفسه في فرح الواثق بحلم هو انتظار قانون أخلاقي مؤسس على العلم إذ كان يثق به ثقة لا حد لها، وكان يعتقد أنه ما دام العلم قد استطاع أن يتخذ في الجبال نفقاً فلن يعجز عن تغيير العالم برمته في المستقبل، ولكنني لا أظن مثله أنه قادر على أن يجعل منا آلهة كاملة، والحق أقول أنني لا أريد ذلك ولا أرغب فيه، فإنني لا أحس في نفسي عناصر الألوهية بعد غض النظر عن بساطتي، فضعفي عزيز عليّ محبب ألي وهو نقص ولكنه أهم مميزات وجودي.

سذاجة العلماء

لقد عهدت العلماء كالأطفال في سذاجتهم وبعدهم عن الادعاء، وفي كل يوم نلقى أدعياء يتوهمون أنهم محور العالم، ومن المؤسف أن يعتبر كل منا نفسه مركز الكون. وهذا وهم شائع في جميع الناس لا يخلو منه الكناس العابر تنبئه به عيناه حين ينظر حوله فيرى قبة السماء تستدير به من كل الجهات، جاعلة إياه مركز السماء والأرض، وقد يتزعزع هذا الاعتقاد في نفس من يفكر تفكيراً عميقاً، فالتواضع وهو شيء نادر بين المتعلمين ما زال أندر منه بين الجاهلين!

ماهية الجهل

الجهل شرط ضروري لا بد منه لا للسعادة فحسب بل للحياة نفسها. فلو أحطنا بكل شيء علماً لما استطعنا احتمال الوجود ساعة واحدة، لأن الشعور الذي يحببه إلينا أو يجعله محتملا على الأقل إنما ينبع من الأباطيل ويتغذى بالأوهام، فلو استطاع إنسان أن يستحوذ كمالا له على الحق المطلق ثم يفلته من يديه لبادت الدنيا واختفى العالم كما يختفي الظل، فالحق الإلهي كيوم القيامة يسحق هذا الوجود سحقاً.

في الأدب العَرَبي
القصة المصرية
للأستاذ جيب. أستاذ الأدب العربي في مدرسة اللغات الشرقية بجامعة لندن

جاء ابتداء ظهور القصة كفن من فنون الأدب في مصر متأخراً، إلى حد أننا نلتمس العذر لمن يدرس الأدب المصري، إذا هو رجع إلى ما أنتجته من قبل (مدرسة الكتاب السوريين) من الآثار ليبحث عما إذا كان هناك في الأصل علاقة بينها وبين نمو القصة.

وفيما عدا ما يحتمل من أن نجاح القصصيين السوريين قد شجع الكتاب المصريين على إنتاج نوع من القصص يلائم شعبهم، ستبقى (القصة المصرية) وهي موضوع هذا المقال، أثناء البحث مستقلة تمام الاستقلال عن تاريخ القصة السورية.

أما المؤثرات الغربية، فقد ظهرت بوضوح فيما ولى ذلك من الأطوار كما أنها استخدمت استخداما مباشرا، ولكن على الرغم من هذا فان (آداب التسلية) في مصر قد ظلت لمدة طويلة تعتمد على ما خلفه العرب من النماذج الأدبية العالية، والنماذج العرفية التي درج الناس عليها. فلما آن لها أن تتحرر من تبعيتها لتلك النماذج، كان تحررها ببطء وبعد تردد، ومن ثم كان نجاحها في ذلك الاتجاه فردياً موزعا، ولم يكن نتيجة لحركة تطور مستقيمة.

ونحن في الواقع إذا أردنا أن نتحدث عن (نمو) القصة في مصر، فلا بد أن نمد في معنى هذا اللفظ (القصة) حتى يشمل شعبة واسعة من فنون الكتابة يربطها جميعا رباط الخيال القصصي، وإن كان بينها كثير لا يمكننا مطلقا أن نعتبره قصة إذا قصدنا المعنى الحقيقي لهذا اللفظ.

ويعزى تأخر مصر في هذا الميدان، ميدان القصة، إذا هي قورنت بتركيا والهند (وهما المركزان الأساسيان الآخران للثقافة الإسلامية) إلى عدة عوامل أوضحناها في مقال سابق في صدد الكلام عن الأسباب الأدبية. والأسباب التعليمية التي كانت عقبة في سبيل ظهور آداب للتسلية من نوع جديد في مصر. ونستطيع أن نضيف اليوم إلى تلك العوامل أن المصريين وجدوا غنية ومتاعا فيما خلفه العرب من آداب عالية متنوعة، مما لم يكن له

مثيل في كلتا اللغتين التركية والأردية. وهناك بعض عوامل محلية خاصة سنعرض لها في شيء من التفصيل في بحثنا هذا، ولكننا نحب أن نشير الآن إلى تلك الحقيقة التي تحوي شيئاً مما سنعرض له، وهي أن تلك الطبقة المحصورة التي تعلمت تعلما حديثاً في مصر، كانت تستطيع أن تجد بغيتها في الأدب الفرنسي والأدب الإنجليزي، ومن أجل ذلك انعدمت في الدوائر الأدبية البواعث التي تشجع على تأليف كتب التسلية بالعربية. فلما أمست الحاجة إلى هذا النوع من الكتب، كان المسلك الطبيعي الذي سلكه الأدباء هو إقبالهم على ترجمة القصص الفرنسية والإنجليزية، وفضلوا ذلك على أن يقوموا بإنتاج أدب قصصي جديد لا يرجون له انتشاراً، إذ كان ذلك العمل يتطلب منهم خلق فن جديد من فنون الكتابة.

ولما كانت هذه القصص قد ترجمت ترجمة سقيمة، ولم يراع في اختيارها حالة مصر الاجتماعية، ولا حالة الثقافة العامة، ولا الذوق الأدبي في البلاد. فان قبول القراء لها على الرغم من عيوبها ليدل على انه كان هناك شعب يتذوق هذا النوع من الأدب ويقدره حق قدره.

على أن هناك كتاباً يصح اعتباره مقياسا للكياسة والمهارة اللتين ينبغي أن يتصف بهما من يريد القيام بترجمة قصة أوربية، بحيث يجعلها تلائم ذوق شعب ثقافته إسلامية كالشعب المصري، ذلك الكتاب هو ترجمة عثمان جلال لقصة (بول وفرجيني) فان تلك الترجمة على ما فيها من الاختصار والتصرف في الجملة ظلت محافظة على الروح الأصلية وعلى ما جاء في الأصل من المعاني. أضف إلى ذلك أن استعمال السجع في عبارات سهلة. ووضع المؤلف بعض المقطوعات الشعرية محل الأفكار الفلسفية التي وردت في الأصل، قد أكسب هذه الترجمة مسحة عربية، لم توجد مع الأسف في معظم ما عاصرها أو جاء بعدها من الكتب المترجمة. ويمكننا أن نستشهد على ذلك بالفقرة الآتية:

وما أنت أيتها الصغيرة فلا عذر لك في السفر، ولا بد من تسليمك للقضاء والقدر، وأن)

تطيعي أمر الأقارب وإن ظلموا وأن تسلمي لمل به حكموا، فإن سفرك وإن كان لا أحد يرضاه، فهو على ما حكم الله. فلقد أنزل تعالى في كتابه العظيم، على لسان نبيه الكريم: قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة في القربى، وإن سفرك إن شاء الله لنعم العقبى، أفتعصين الله ما أمر، أم تسلمين للقدر).

وهناك غير هذا الكتاب مئات أخرى بينها عدد ليس بالقليل حرص فيه المترجمون على الأصل إلى درجة تختلف قلة وكثرة عما ذكرنا، ونخص بالذكر تلك التراجم التي قام بها المنفلوطي، وإن كان ينقصها كثير من مزايا ترجمة عثمان جلال، على الرغم من براعة أسلوب المنفلوطي. والذي يعنينا في هذا الصدد الكتب المترجمة من أنها كثيرة وأنها صادفت رواجا عظيما.

ونستطيع أن نتبين ميل الكتاب المصريين إلي المحافظة على ما خلفه لهم العرب من الأوضاع الأدبية التقليدية، (الا أن يضيفوا إليه بعض العناصر الجديدة) في تلك القصة التي تعد أول قصة مصرية بالمعنى الذي أشرت إلى وجوب اعتباره في صدد الكلام عن القصة المصرية، وهي (رواية عذراء الهند أو تمدن الفراعنة لمنشئها الضعيف احمد شوقي) عام 1897. وهي من أوائل مؤلفات الشاعر النابه احمد شوقي. ولم توضع هذه القصة على نمط قصص ألف ليلة وليلة أو على طراز قصص السيرة، وإنما وضعت على نمط تلك الأقاصيص الخرافية الشهيرة التي تعرف (بالحواديت)ـ وقد سار المؤلف في توسيعها على الطريقة التي تتبع في (القصص التاريخية)ـ على أني أقرر صراحة أن هذه القصة مما لا يمكن أن يستسيغه العقل، من حيث الخطة ومن حيث ما حشر فيها حشراً من المخلوقات الخرافية كالسحرة والعرافين، مما لا تكاد تخلو منه صفحة من صفحاتها، ولكنها ورثت مما سبقها من (الحواديت) المشهورة ميلاً شديداً إلى الحركة والمخاطرة فعوض ذلك عليها بعض مساوئها، وإننا لنشعر بشيء من اللذة أثناء قراءة الصفحات التي لم تحشر فيها الخرافيات لأنها تعد بين القصص الحي.

أما ما تدين به تلك القصة (للقصة التاريخية) فهو طريقة سرد التاريخ في ثنايا القصة. ولقد تعرضت هذه القصة لشرح عظمة مصر القديمةـ وهي جديرة بالاعتبار من هذه الناحية. على أن خطرها الحقيقي إنما يرجع إلى أنها كتبت بذلك الأسلوب الفخم الذي قلد شوقي زعامة الشعر في الأدب المصري. ويعد النثر المسجوع فيها من أفصح ما عرف من هذا النوع ولقد كانت الفقرات تجري على روى واحد أربع مرات أو خمسا في غير إملال. وكانت تتخلل هذه الفقرات بعض المقطوعات الشعرية الرائعة للمؤلف. وأن الإنسان ليأسف على انه لم يتح لهذا الأسلوب موضوع آخر ومواد أخرى غير التي استعمل فيها.

بجانب تلك المحاولة التي قام بها شوقي، ظهرت محاولة أخرى بعد ذلك ببضع سنوات كانت أبعد نجاحا وأعظم أثراً وهي التجاء الكتاب إلى ذلك الضرب المعروف بالمقامات، وهي تعد في نظر من يدرسون الأدب العربي في العصور الوسطى أقرب ضروب الكتابة في ذلك الوقت إلى القصة بمعناها الحقيقي. ولقد ظلت المقامة تستعمل في شكلها التقليدي حتى أواخر القرن التاسع عشر. وعلى الأخص على يد ناصيف اليازجي وعبد الله باشا فكري، ولكنها كانت في يدي هذين الرجلين وغيرهما من كتاب مدرستهما مقصورة على الموضوعات القديمة ولم يكن لها بحياة عصرهم غير ارتباط قليل.

ولكن ظهر بجانب هذه المقامات نوع آخر لجأ إليه الكتاب فيما طرقوه من الموضوعات وعلى الأخص في النقد الاجتماعي؛ وأقبل عليه عدد من الكتاب المصريين فأخرجوا طائفة من الآثار الأدبية؛ كانت إحدى المظاهر الخاصة التي امتاز بها الإنتاج الأدبي في السنوات العشر التي سبقت عام 1914.

ويعد (حديث عيسى ابن هشام) لمحمد إبراهيم المويلحي (1858 - 1930) أقدم وأحسن تلك المجموعة الجديدة، بل أن هذا الكتاب في تصوراته وطريقته ليكاد يصل إلى القصة بمعناها الحقيقي. ولقد لجأ المويلحي أيضاً في ذلك الكتاب إلى الخرافيات، لأن الخيط الذي يربط أجزاءه، هو تجارب أحد الباشوات الذين عاشوا في عهد محمد علي، وقد بعث هذا الباشا من مرقده فهاله ما وجد من الظروف الاجتماعية الغريبة التي لم يألفها في القاهرة التي استحالت إلى مدينة أوربية. وبهذه الوسيلة تسنى للمؤلف أن ينتقد في حوار ممتع حالة عصره، وأن يقارن ذلك بالماضي مظهراً ما في

الحاضر من مساويء، أهمها ولع أهله بتقليد الأوربيين تقليدا مرذولا. على أن هذا الكتاب، كما لاحظ محمود تيمور، ينقصه الخواص الجوهرية للقصة، وأعني بها الخطة البسط، ولكنه في تصوير الأشخاص قد نجح إلى درجة جديرة بالاعتبار. ولقد أضيف إلى الطبعة الأخيرة لهذا الكتاب جزء آخر سمي (بالرحلة الثانية) غيرت فيه المناظر الأولى بمناظر باريس أبان المعرض العظيم عام 900، وبذلك تسنى للمؤلف انتقاد مساوئ التشبه بالغربيين، وأوضح معايب المدنية الغربية لدى منابعها. ومما هو جدير بالملاحظة أن الباشا لم يرجع ثانية إلى قبره، ذلك إلى مثله في الكتاب ما يحملنا على الظن بان المؤلف قد نسى الفكرة التي بدأ بها كتابه.

ولا يعزى نجاح هذا الكتاب وشهرته إلى القصة نفسها ولا إلى مغزاها بقدر ما يعزى إلى براعة الأسلوب والمقدرة على الوصف، فإن المؤلف يقلد تقليدا متقنا الخصائص الحسنة التي يمتاز بها أسلوب المقامة مضافا إلى ذلك سهولة حديثة وظرف. ويتخلل عباراته المسجوعة حوار في لغة سهلة حديثة. ولقد يلجأ المؤلف إلى اللفظ العامي الاصطلاحي فيستعمله في غير تردد، وذلك على الرغم من أن الحوار نفسه كان يتطرق كثيرا إلى عبارات وصفية مسهبة. وكان السجع مزيجا متقنا من القديم والحديث مما أكسب الأسلوب طرافة ورونقا، وجعل القارئ يستمتع بأثر من الآثار الأدبية الحية جدير بأن ينافس آثار المنفلوطي في الأسلوب مع تفوقه عليها في عمق الحس وحسن الترتيب.

وتستطيع أن تضيف إلى كتاب المويلحي كتابين آخرين، جرى فيهما صاحباهما على سنّة المويلحي في اختيار طريقة المقامة للكتابة في النقد الاجتماعي، وإن كانا أقل منه لباقة ورقة، أولهما (ليالي سطيح) لمحمد حافظ إبراهيم وهو أقوى منافس لشوقي في زعامة الشعر العصري (1871 - 1932) وظهر هذا الكتاب عام 1907. وخطة هذا الكتاب بسيطة تتلخص في أن جماعة من الناس كانوا يشكون في ليالي متوالية ما يلاقونه من مساوئ الأحوال السائدة في مصر، فيجيبهم على التوالي صوت خفي مبيناً أسباب ما يضجون منه من المساوئ في نثر مسجوع تتخلله بعض المقطوعات الشعرية، واصفاً لهم الدواء. على أن خطة الكتاب تأخذ بعد ذلك في التغير تدريجا حتى يصير الجزء الأكبر منه عبارة عن محاورات في نثر مرسل سهل تضيع فيه المعالم الأصلية للكتاب. ولقد قوبل هذا الكتاب بحماس وإقبال في الدوائر الأدبية المصرية ولكن مما تلذ ملاحظته في هذا المقام أن أصواتا عالية قد ارتفعت في ذلك الوقت منددة باستعمال السجع في مثل هذه المؤلفات.

أما ثاني هذين الكتابين فهو (ليالي الروح الحائر) للكاتب السياسي والمؤلف المسرحي محمد لطفي جمعة. ولقد سار المؤلف في هذا الكتاب على طريقة المقامة بالدقة، دون أن يلجأ إلى السجع. ويلاحظ في كتابه أثر كتّاب (المدرسة السورية الأمريكية) واضحا خصوصا في هذا النوع من الإنشاء المعروف باسم الشعر المنثور أو الشعر الحر. أما المتحدث في هذا الكتاب فهو روح غير مجسمة كما يفهم من اسمه، وأغلب هذا الحديث في انتقاد الأحوال الاجتماعية في مصر، ولقد أشار زيدان بحق إلى جمال هذا الكتاب وفصاحة أسلوبه. وفي نظري أنه في هذه الناحية أهم منه في الناحية الأخرى: ناحية التعمق في الأفكار التي تعرض لشرحها.

وقبل أن أترك هذه المجموعة المتشابهة أحب أن أشير هنا إلى كتاب آخر عظيم الشبه بها وإن امتاز منها في الروح ثم في الأسلوب إلى حد كبير، ذلك هو مجموعة الفصول التي جمعت تحت عنوان (أين الإنسان) لمؤلفها الشيخ طنطاوي جوهري. ولقد قدمت هذه الرسالة إلى المؤتمر الدولي الذي انعقد في لندن عام 1911. أما المتكلم في هذه الرسالة فهي روح سماوية، وأما الحديث فانه يدور حول التقدم العالمي والإخاء البشري. ولم يلجأ الكاتب إلى استعمال السجع، وهذه الرسالة مفخرة للأدب العربي العصري، وهي جديرة بأن تكون موضوع دراسة خاصة، ولكني أكتفي هنا بالإشارة إليها لخروجها عن موضوع بحثي.

ويمكننا أن نتبين في هذه المؤلفات عدة محاولات مجتمعة لإيجاد نوع جديد من الأدب، يسد حاجة جمهور قارئ جديد، ويتصل بعض الاتصال بمشاكله ونظراته إلى الحياة، بحيث يسهل تناوله، ويثير اهتمامه، ويلائم خياله. على أن أصحابها لم يصادفوا نجاحا

في تلك المحاولات لأنها كانت أقرب إلى الأدب العالي منها إلى آداب التسلية، فلم يقبل عليها الا عدد صغير من خاصة القراء.

وبدل أن يطرقوا موضوعات جديرة طريفة تسري عن الجمهور ما يلاقيه من متاعب الحياة نراهم يوجهون اهتمامهم إلى هذه المتاعب نفسها فيتناولها بالدرس والتحليل، وأدهى من ذلك انهم كانوا يسلكون في كتاباتهم طريقة الوعظ الجافة، أضف إلى ذلك انهم لم يسلموا من تسلط الفكرة القديمة، فكرة العصور الوسطى، التي تنظر إلى الأدب كوسيلة من وسائل المباهاة والظهور، سواء في ذلك ساروا على الطريقة القديمة أو من قاموا بترجمة بعض المؤلفات الغربية كعثمان جلال والمنفلوطي، ولم يخل الكتاب السوريون من التشيع بهذه الفكرة أيضاً وحتى كتاب الأقاصيص التافهة التي تركت في زوايا النسيان الذي استحقته منذ ظهورها، قد قصدوا في كتاباتهم إلى ذلك الغرض الوعظي الخلقي. ويظهر لنا من هذا أن أولئك الكتاب كانوا ينظرون إلى القصص التي تكتب للجمهور نظرة ازدراء مما كان له أكبر الأثر في تأخر نمو القصة كفن من فنون الأدب العربي.

ابن خلدون في مصر

للأستاذ محمد عبد الله عنان

(2)

وانه لمنظر شائق ذلك الذي يقدمه إلينا ابن خلدون عن مجلسه في ذلك اليوم ومن حوله العلماء والأكابر يشهدون الدرس الأول لذلك المفكر المبدع. وهو يحرص على تدوينه كما يحرص على تدوين الأثر الذي يعتقد أنه أحدثه إذ يقول: (وانفض ذلك المجلس وقد شيعتني العيون بالتجلة والوقار). وفي ذلك ما يدل على ما كان يشعر به ابن خلدون من كبرياء وثقة من أنه كان شخصية ممتازة تجب أحاطتها بمظاهر خاصة من التكريم والرعاية. ثم كانت الخطوة الثانية في ظفره بمناصب الدولة، وتعيينه قاضياً لقضاة المالكية في أواخر جمادى الآخرة سنة 786 (أغسطس 1384م) مكان القاضي المعزول جمال الدين بن خير السكندري. وكان ارتفاعه إلى هذا المنصب الذي هو رابع أربعة تعتبر من أهم مناصب الدولة إيذانا بوثوب العاصفة من حوله، واضطرام تلك الخصومات التي كدرت صفو مقامه، وادالت نفوذه، واقتلعته من المنصب غير مرة. يقول ابن خلدون في سخرية: (وأقمت على الاشتغال بالعلم وتدريسه إلى أن سخط السلطان قاضي المالكية يومئذ في نزعة من النزعات الملوكية. فعزله واستدعاني للولاية في مجلسه وبين أمرائه. فتفاديت من ذلك، وأبى الا مضاءه). وقد عرف ابن خلدون هذه (النزعات الملوكية)، وعرف أنها تبطن من الشر والنقم في معظم الأحيان أكثر مما تسبغ من العطف والنعم. ولكنه يريد أن نفهم أن ارتفاعه إلى منصب القضاء لم يكن نزعة ملوكية فقط. وإنما أختاره السلطان كما يقول (تأهيلا لمكانه وتنويهاً بذكره).

ونستطيع أن نقدر أن ولاية ابن خلدون لخطة القضاء لم تكن حادثاً عادياً، فقد كان أجنبياً. وكان تقدمه في حظوة السلطان، وفي نيل الناصب سريعاً. وكانت مناصب التدريس والقضاء دائماً مطمح جمهرة الفقهاء والعلماء المحليين؛ ولم يكن مما يحسن وقعه لديهم أن يفوز بها الأجانب الوافدون دونهم. وإذا فقد تولى العلامة المغربي منصبه في جو يشوبه كدر الخصومة والحسد. وجلس بمجلس الحكم في المدرسة الصالحية بحي بين القصرين، فلم يمض سوى قليل حتى ظهرت من حوله بوادر الحقد والسّعاية

ويقول لنا أبن خلدون في سبب هذه العاصفة التي ثارت حول توليه القضاء، كلاما طويلا عما كان يسود القضاء المصري يومئذ من فساد وأضطراب، وما يطبع الأحكام من غرض وهوى، وعما كان عليه معظم القضاة والمفتين والكتاب والشهود من جهل وفساد في الذمة؛ وأنه حاول إقامة العدل الصارم المنزه عن كل شائبة، وقمع الفساد بحزم وشدة، وسحق كل سعاية. وغرض: (فقمت في ذلك المقام المحمود، ووفيت عهد الله في إقامة رسوم الحق وتحري العدالة. . . . لا تأخذني في الله لومة. ولا يرغبني عنه جاه ولا سطوة، مسويا بين الخصمين، آخذ الحق الضعيف من الحكمين، معرضا عن الشفاعات والوسائل من الجانبين، جانحاً إلى التثبت في سماع البينات، والنظرة في عدالة المنتصبين

لتحمل الشهادات؛ فقد كان البر منهم مختلطاً بالفاجر، والطيب متلبساً بالخبيث، والحكام ممسكون عن انتقادهم فيتجاوزون عما يظهر عليهم من هناتِهم. لما يموهون به من الاعتصام بأهل الشوكة، فأن غالبهم مختلطون بالأمراء، معلمون للقرآن وأئمة للصلوات، يلبسون عليهم بالعدالة فيضنون بهم الخير، ويقسمون الحظ من الجاه في تزكيتهم عند القضاة، والتوسل لهم، فأعضل داؤهم، وفشت المفاسد بالتزوير والتدليس بين الناس منهم؛ ووقفت على بعضها فعاقبت فيه بموجب العقاب، ومؤلم النكال. . .) ثم يعدد نواحي الفساد التي شهدها، وجدّ في إصلاحها وقمعها، وكيف مضى في سبيله (من الصرامة وقوة الشكيمة) وكيف احتقر شفاعات الأعيان والأكابر خلافاً لما اصطلح عليه زملاؤه القضاة من قبولها، حتى ثار عليه السخط من كل ناحية، وسلقته جميع الألسن وكثرت في حقه السعاية لدى البلاط.

وهذا التعليل الذي يقدمه لنا أبن خلدون عن سبب الحفيظة عليه، واضطرام الخصومة حوله، معقول يحمل طابع الصراحة والصدق. بل هذا ما تسلم به التراجم المصرية المعاصرة والقريبة من عصره. فيقول أبو المحاسن مثلاً مشيراً إلى ولايته للقضاء: (فباشره بحرمة وافرة، وعظمة زايدة، وحمدت سيرته، ودفع رسائل أكابر الدولة، وشفاعات الأعيان، فأخذوا في التكلم في أمره. . .) ويقول ابن حجر والسخاوي: (فتنكر (أي ابن خلدون) للناس بحيث لم يقم لأحد من القضاة لما دخلوا للسلام عليه، مع اعتذاره لمن عيبه عليه في الجملة، وفتك في كثير من أعيان الموقعين والشهود، وصار يعزر بالصفع، وشبهة الزج، فإذا غضب على إنسان، قال زجوه فيصفع حتى تحمر رقبته) وفيما ينقل السخاوي قصد إلى التعريض والانتقاص، وسنرى أنه شديد الوطأة على أبن خلدون يشتد في نقده وتجريحه؛ ولكن في قوله ما يؤيد أن ابن خلدون كان يصدر في قضائه عن نزاهة وحزم وصرامة؛ بل هو يشهد لابن خلدون بذلك صراحة، حينما يقول عنه في موضع آخر: (ولم يشتهر عنه في منصبه الا الصيانة. .).

انقضت العاصفة على ابن خلدون إذا لأشهر قلائل من ولايته وكثر السعي في حقه والإغراء به حتى (أظلم الجو بينه وبين أهل الدولة) على حد تعبيره، وفقد حظوته وما كان يتمتع به من عطف ومؤازرة. وأصابته في ذلك الحين نكبة أخرى هي هلاك زوجه وولده وماله. وكان منذ مقدمه ينتظر لحاق أسرته به؛ ولكن سلطان تونس حجزها عن السفر ليرغمه بذلك على العودة إلى تونس فتوسل إلى السلطان الظاهر أن يشفع لديه في تخلية سبيل أسرته به، ففعل، وأطلق سراح الأسرة وركبت البحر إلى مصر. ويروي لنا ابن خلدون نبأ الفاجعة في قوله: (ووافق ذلك مصابي بالأهل والولد. وصلوا من المغرب في السفين، فأصابها قاصف من الريح، فغرقت، وذهب الموجود والسكن والمولود؛ فعظم المصاب والجزع، ورجح الزهد، واعتزمت على الخروج عن المنصب) ولم يمض سوى قليل حتى أقيل المؤرخ من منصب القضاء، أو بعبارة اخرى، حتى عزل. بيد أنه يريد أن نفهم أن هذا العزل جاء محققاً لرغبته إذ يقول: (وشملتني نعمة السلطان أيده الله في النظر بعين الرحمة، وتخلية سبيلي من هذه العهدة التي لم أطق حملها، ولا عرفت فيما زعموا مصطلحها، فردها إلى صاحبها الأول وأنشطني من عقالها؛ فانطلقت حميد الأثرة مشيعاً من الكافة بالأسف والدعاء وحميد الثناء، تلحظني العيون بالرحمة، وتتناجى الآمال في العودة) والخلاصة أن ابن خلدون يؤكد لنا إن عزله كان نتيجة التحامل والحقد والسعاية فقط، وأنه أثار استياءً وأسفاً في المجتمع القاهري، وأنه غادر منصبه موفور الكرامة والهيبة. بيد أننا سنرى، حسبما يشير في قوله المتقدم، أنه كان يرمى بجهل الأحكام والإجراءات وأنه لم يكن بذلك أهلا لتولي القضاء، وانه كان مشغوفاً بالمنصب، أشد ما يكون حرصاً عليه.

وكان عزل ابن خلدون عن منصب القضاء لأول مرة في السابع من جمادى الأولى سنة 787 هـ (يوليه 1385م)، أعفي لنحو عام فقط من ولايته، فأنقطع إلى الدرس والتأليف كرة أخرى.

على أن هذا العزل لم يكن إيذاناً بسخط السلطان ونقمته؛ فقد لبث ابن خلدون في منصب التدريس بالقمحية؛ ولم يمض سوى قليل حتى عينه السلطان أيضاً لتدريس الفقه المالكي بمدرسته الجديدة التي أنشأها في حي بين القصرين (المدرسة

الظاهرية البرقوقية). واحتفل ابن خلدون كعادته بالدرس الأول، وألقى خطابا بليغا يدعو فيه للسلطان، ويعتذر عن قصوره في تواضع ظريف. وشغل بالدرس في المعهدين حتى كان موسم الحج عام تسعة وثمانين، فأعتزم عندئذ أداء الفريضة، وأذن له السلطان وغمره بعطائه، وغادر القاهرة في منتصف شعبان؛ وقصد إلى الحجاز بطريق البحر؛ ثم عاد بعد أداء الفريضة، بطريق البحر أيضاً حتى القصير؛ ثم أخترق الصعيد بطريق النيل، فوصل القاهرة في جمادى الأولى سنة تسعين (790 هـ)؛ وقصد السلطان تواً واخبره بأنه دعا له في الأماكن المقدسة، فتلقاه بالعطف والرعاية. ثم خلا كرسي الحديث بمدرسة صرغتمش فولاه السلطان إياه بدلا من تدريس الفقه بالمدرسة السلطانية؛ وجلس للتدريس فيها في المحرم سنة إحدى وتسعين، وألقى خطاب الافتتاح كعادته في حفل فخم، وأعلن أنه قد قرر للقراءة في هذا الدرس كتاب الموطأ للإمام مالك؛ ويعرفنا ابن خلدون بموضوع درسه الأول في ذلك اليوم، فقد تكلم فيه عن مالك ونشأته وحياته وكيفية ذيوع مذهبه، ثم يقول لنا في كبريائه المعهود: (وأنقض ذلك المجلس، وقد لاحظتني بالتجلة والوقار العيون، وأستشرت أهليتي للمناصب القلوب، وأخلص النجا في ذلك الخاصة والجمهور).

أثر اللغة العربية في العالم الإسلامي

للسير دنسون روس. مدير مدرسة اللغات الشرقية بلندن

- 2 -

الهند:

سأبدأ الآن بالهند مبيناً ما تدين به تلك البلاد للعرب. وكلكم تعلمون أن الفتوح الأولى للقوات الإسلامية في الهند، لم تذهب بهم بعيداً داخل تلك البلاد، ومن ثم كانت قليلة الأثر هناك، ولكن الأتراك في القرن العاشر استطاعوا أن يتوغلوا بالإسلام إلى مسافات بعيدة داخل الهند، إلى أن كان القرن الثالث عشر، وهنا نرى أول ملك إسلامي يتبوأ عرش (دلهي).

ولننظر الآن ما كانت عليه أحوال تلك البلاد في ذلك الوقت، نرى قبل كل شيء أنه كان يوجد في الهند آداب واسعة، هندوكية وبوذية، وكانت تتجلى في اللغات الكلاسيكية التي لم يكن يفهمها الا طائفة محصورة من الناس. ثم يأتي بعد ذلك أن الهنود كانوا وثنيين، وأنهم كانوا أول عدو من غير أهل الكتاب صادفهم المسلمون.

ويعتبر في الحقيقة أتراك أواسط آسيا أول من نشر الإسلام بشكل واسع في الهند، وكان هؤلاء الأتراك يتكلمون التركية بينما كانت ثقافتهم فارسية، وهي تلك الثقافة الفارسية الحديثة، التي ظهرت فجأة في بلاط (سميندس) في بخارى.

وعلى ذلك يكون الإسلام قد أدخل في الهند لغتين: العربية لغة الدين، والفارسية لغة الشعر؛ وكانت العلاقة الوثيقة بين اللغة الفارسية، واللهجات السائدة في الهند الشمالية، هي بلا شك السبب في أن مسلمي الهند قد اختاروا الفارسية واسطة لآدابهم دون العربية والتركية، واستمر الحال كذلك بينهم حتى القرن الخامس عشر، إذ لم تصل اللغة الأردية (وهي خليط من الهندية والفارسية، إلى المستوى الذي تصلح معه لأن تكون واسطة أدبية) الا في ذلك القرن.

ولم يك مسلمو الهند قادرين على تذوق العبقرية التي امتازت بها العربية بالسرعة التي كانت عند غيرهم من الفرس، ولكن حدث على مر الأيام أن أنجبت الهند أدباء نابهين، ومما هو جدير بالملاحظة أن بعضاً من النصوص العربية الأنيقة كان من وضع أدباء الهند

في العصور الأخيرة.

وإني أميل بعد ذلك إلى أن أقرر أن أعظم تغيير أحدثته الثقافة الإسلامية، بعد ذلك التغيير الهائل، وهو دخول هذا العدد العظيم من الهند في دين التوحيد، إنما هو ما طرأ على الهند من الميل إلى تذوق التاريخ.

فإن هذا العلم لم يصادف هوى في قلوب الهنود من قبل، إذ كان يعتبر أمراً مادياً صرفا في نظر قوم مفكرين وفلاسفة بالسليقة. وهذا هو السبب في أن التاريخ الهندي القديم قد جمع بصعوبة عظيمة، وكان الاعتماد في جمعه على ما عثر عليه من السكة والتماثيل، دون أن يكون هناك بجانب هذه الأشياء مخلفات كتابية.

ولا تزال التواريخ بل القرون التي ظهر فيها بعض الحكام الأولين موضع جدل

ومناقشة. فلما ظهرت الهند الإسلامية، دبت الحماسة في قلوب الناس فجأة نحو كتابة التاريخ، وكان من نتيجة ذلك أن دونت مع التوسع أخبار جميع ملوك دلهي ابتداء من القرن الثالث عشر.

وينبغي أن لا يفوتني هنا أن أذكر إدخال الحروف الهجائية العربية في الهند، وانتشار الكتابة بين الناس على العموم، في بلد كان كلما يتعلق بالعلم والكتابة فيه محصوراً في أيدي البراهمة.

أواسط آسيا وبلاد فارس:

مهما أطنبنا في وصف الأثر الذي تركه تعلم اللغة العربية في عقول سكان أواسط آسيا والهند، فلن يعد ذلك منا إسرافا أو مبالغة، فإن الأثر الذي تركته العربية في عقول الأتراك والفرس، ومسلمي الهند، كان أجل شأنا وأعظم خطراً من الأثر الذي تركته اللاتينية في عقول الأدباء من أهل أوربا في العصور الوسطى.

فمع أن اللاتينية كانت الواسطة للكتابات الدينية والعلمية، لم يكن هناك ميزة أخرى من ورائها سوى تلك المهارة الأدبية التي كان يتصف بها كل من ثقفها. إذ كان قبل حركة الأحياء الكاثوليكية بزمن طويل، نصف سكان أوربا ينظمون الشعر ويتغنون به، كما أن بعض اللغات كانت قد اتخذت فعلا شكلا محدوداً، واصطبغت بصبغة البيئة التي وجدت فيها.

ولم يكن الأمر كذلك في العربية، فان العربية قد أمدت المستنيرين في أواسط آسيا بثقافة

تعتبر جديدة من جميع الوجوه. وبثت في قلوب هؤلاء أفكارا طريفة، وفتحت أمام أعينهم عوالم جديدة، وبعبارة أخرى، فان العربية أمدت الفرس والأتراك والهنود (بلغة جديدة) ولا غرابة في ذلك، فانه بالقضاء على الديانات القديمة قضاء ظاهراً، وبحلول العربية محل اللغات القديمة في المسائل الأدبية، ثم باستبدال الثقافة الإسلامية بكل ما يرجع في أصله إلى الثقافة الآرية، كل أولئك يحملنا على القول بأن العربيةأمدت بلاد فارس بخزائن جديدة من العلم، إلى جانب لغة مكتوبة منظمة. أو قل أمدت الفرس (ببعث قومي جديد مع ثقافة حديثة) وكل ذلك في وقت واحد، فلقد أتحفت العربية أواسط آسيا بالشعر العربي الذي غيّر وجه الشعر هناك، ثم بالفلسفة اليونانية، وغيرها من العلوم.

ونستطيع أن نقول أن المجوسية لم يكن لها الا معنى ضئيل في عقول معظم الرعايا الساسانيين، وكان لا يفهمها الا طائفة الكهنة، بينما كانت لغة الكتب المقدسة وهي الفهلوية لا يكاد يفهمها إلا رجال الدين، وطائفة الموظفين الرسميين.

فمن السهل أيضاً أن نتصور الأثر المباشر الذي أحدثته العقائد الإسلامية في الفرس، بله الروعة والدهشة للتي تركهما في نفوسهم ذلك الكتاب المقدس الذي نزل بلسان سهل مبين.

هذا وينبغي أن لا ننسى أنه في الأيام الأولى قبل إدخال الشكل، وخلو العربية من الحروف التي تعين الساكن والمتحرك لم يكن من السهل قراءة اللغة العربية، ولكن العربية كانت على أي حال أسهل من الفهلوية، إذ كان نظام هذه الأخيرة في الكتابة أصعب نظام عرف حتى ذلك الوقت. ولكن حينما ظهرت مدارس النحو في الكوفة والبصرة، أصبح من السهل ضبط العربية واستيعابها.

وهذا البحث يؤدي بنا إلى الهجاء العربي، وإلى فن الإملاء، ذلك الفن الذي كان حتى ذلك الوقت مجهولا تمام الجهل في فارس والهند.

أحس الناس وعلى الخصوص غير العرب منهم فضلا عن الزهو الذي داخل نفوسهم بتعلم اللغة العربية، سرورا وميلا عظيما نحو تلك الحروف المرنة السهلة وهي الحروف الهجائية العربية. ولقد كان لهذه الحروف في نفوسهم مثل ما للصور من الجمال الفني ولا سيما إذا نقشت على ظاهر المباني، أو إذا حفرت على الأضرحة والمقابر سواء ما كان منها ثلثاً أو كوفياً أو نسخاً.

ولست (إلى حد كبير) أشك في أن هذه الزخرفة الأنيقة في رسم الحروف العربية إنما كانت نتيجة لتحريم تصوير الأشخاص في العهود الأولى. ولكن بحث هذه النقطة ربما يخرج بي بعيداً عن الموضوع.

ويجب ألا ننسى أن العرب لم يدخلوا معهم إلى تلك البلاد أي شيء في شكل فني،

وأن الفرس كانت لهم تقاليد فنية ترجع إلى ما يزيد على ألف سنة. ومما يدعو إلى الدهشة أن الإغريق وقد حكموا الفرس فعلا نحو قرنين لم يتركوا فيها أي أثر أدبي، كما انهم لم يتركوا شيئا من هذا في الهند. وكذلك لم يترك فتح الفرس لمصر أي أثر في تلك البلاد. وهكذا استمر الفرس حتى الفتح الإسلامي محتفظين بآدابهم منعزلة تماما عن أي تأثير من غيرهم.

وكانت آداب الفرس محدودة من جهة الانتاج، فلم يكن لديهم عدا بعض الكتب الدينية الا مجموعة من السير والتواريخ كما أنهم ترجموا أمثال بيدبا عن السنسكريتية.

على إن بعض القطع الفهلوية تدلنا على أن الفرس قد أكثروا من الشعر، وربما كانت (المناظرة) ترجع في أصلها إلى الفرس ولكن الأوزان والقوافي العربية كانت أمرا جديدا بالنسبة لهم. وان المرء ليعجب لتلك السرعة التي أخذ بها الفرس هذه الأشياء.

وأريد أن أختتم كلامي بكلمة عما تدين به العربية للفرس. كلنا نعرف أن خلفاء المسلمين في دمشق وبغداد كانوا يدينون للفرس بكل المسائل المتعلقة بالحكم ونظام الملك، ومما يذكر عن أحد الخلفاء الأمويين أنه قال: (أني لأعجب من أمر هؤلاء الفرس: لقد حكموا ألف سنة دون أن يحتاجوا إلينا مرة. بينما نحن لم نستطع مدة المائة سنة التي حكمناها أن نستغني عنهم لحظة).

إن العلم الإسلامي في القرون الأولى كان يدين للإغريق بالمسائل العلمية والفلسفية، ولكنه كان يدين للفرس بما وصل إليه من الآداب الجميلة. وما علينا لكي نفهم أثر الفرس في تلك الثقافة العربية الفخمة إلا أن نستعيد أسماء هؤلاء الشعراء والكتاب المجيدين لنرى عدد من يرجع منهم إلى الفرس من حيث الأصل أو المولد.

(محمود الخفيف)

طرائف من شعر الشباب

عتاب

للأستاذ محمود الخفيف

أي ذنب جنيت؟ أن فؤادي ... مذ أردت الجفاء يخفق رغبا
أي ذنب جنيت غير ودادي ... أيكون الوداد عندك ذنبا؟
ذاك ذنبي وكيف أقلع عنه؟ ... إن ذنبي تعلتي ورجائي
ذاك دائي ولست أشفق منه ... فهو برئي وسلوتي وعزائي
كيف أُجْزَى على الوداد جفاء! ... وأسام العذاب من غير ذنب!
كيف أرجو مع الجفاء عزاء! ... إن هذا الجفاء يُذهب لبي
يخفق القلب إن خطرت ويهفو ... وتَمُرين في سكون غريب
وتظنين أنني عنك أغفو ... كيف أغفو ومهجتي في لهيب؟
لست أنسى وقد مررت سريعا ... لم تبالي بحيرتي واضطرابي
نظرة منك خلفتني صريعا ... نظرة الهجر والجفا والتغابي
أزجر القلب إذ أراك وأبدى ... غضبة الحر وابتئاس الوَلوع
أكتم الحزن والتألم جهدي ... فإذا ما مضيت فاضت دموعي
كنت قبل الجفاء طلق المحيا ... أنهب اللهو والسعادة نهبا
كنت طوع الشباب حرا قويا ... لا أرى في الحياة سهلا وصعبا
كنت كالسيل دافقاً لا أبالي ... بملام ولا أخاف رقيبا
هادئ النفس لا أهاب الليالي ... لا أرى في الوجود شيئاً رهيبا
كنت كالطائر المغرد ضحكا ... مستفيض السرور عذب الشباب
كنت كالطفل لست أعرف شكا ... مطمئن الفؤاد جم التصابي
أسبق الشمس كل يوم شروقا ... فأحيي الصباح فوق التلال
أنزل السهل حيث شئت طليقا ... مشرق الوجه سابحاً في الخيال
يرقص الزهر عن يميني اختيالا ... وتغني الطيور صوب يساري
ويفيض الغدير عذباً زلالا ... رائع الحسن مثل وجه النهار
كنت جم النشاط أقضي نهاري ... (كفَراش الربيع بين الزهور)
دائم الوثب لا يقر قراري ... أملأ السمع من غناء الطيور
جعل الحب كل شيء نضيرا ... وأثار الجمال كامن حسي
وسها الدهر فاغتدوت قريرا ... كل ما في الوجود يبهج نفسي

كنت أنت الجمال ملء عيوني ... كنت أنت الحياة تملك لبي
كنت أنت الهناء ملء جفوني ... كنت أنت الشعور يملأ قلبي
كنت وحي القريض ينفث سحرا ... في فؤادي فيستجيب لساني
أنظم الدر من حديثك شعرا ... أين من وقعه رقيق الأغاني؟
أعشق الكون كله في هواك ... إذ أرى الكون في هواك جميلا
أطلب المجد كي أنال رضاك ... لا أرى في الجهاد عبئاً ثقيلا
كم سقانا السرور كأساً دهاقا ... وحبانا الشباب عيشاً رضيا
كم نهلنا من الوداع رحيقا ... وشربنا الغرام عذبا شهيا
ويح نفسي أذاك عهد تولى؟ ... أم تريدين بالجفاء عتابي؟
ولعمري لقد سئمت فهلا ... آمل الوصل بعد طول العذاب؟
من رآني يهوله اليوم لوني ... واكتئابي ولوعتي وذبولي
وهن العظم في الصبابة مني ... ودهى الناس حيرتي وذهولي
يهمس الناس: قد علاه اصفرار ... ويشير العليم في غير همس
أيها الناس إن دائي خطير ... أو ليس الغرام يضني ويؤسي؟
قتل الحب كم أحل دماء ... من دماء الشباب في غير حق!
ولكم أورث النفوس عناء ... واستباح القلوب في غير رفق!
ليت قلبي يطيعني في غرامي ... حطم القلب في الهوى كبريائي
أيها القلب أنت أصل سقامي ... واكتئابي ومحنتي وبلائي
ويح نفسي! أما لهمي انتهاء؟ ... كدت أقضي صبابة ونحولا
ويح قلبي! أما لقلبي ارعواء؟ ... أو لم يأن أن يثوب قليلا؟
شهد الله، لو تحرر قلبي ... لتمنيت أن يعود أسيرا
فاقتليني إذا أردت بذنبي ... سوف أبقى بما جنيت فخورا
كدت أهوى الشقاء لولا اشتياقي ... لذة الحب لوعة واضطراب
أن بعد الغياب يحلو التلاقي ... ويلذ الهوى وينسى العذاب
أخدع القلب في الهوى وأسَرِّي ... عن فؤادي بأنني سأراك
أن هذا الخيال يشرح صدري ... كيف بالوصل حين ألثم فاك؟

الفلاح

رفقاً بنفسك أيها الفلاح ... تسعى وسعيك ليس فيه فلاح
لك في الصباح على عنائك غدوة ... وعلى الطوى لك في المساء رواح //
هذي الجراح براحتيك عميقة ... ونظيرها لك في الفؤاد جراح
في الليل بيتك مثل دهرك مظلم ... ما فيه لا شمع ولا مصباح
فيخر سقفك إن همَت عين السما ... ويطير كوخك إن تهب رياح
هذي ديونك لم يسدد بعضها ... عجزاً، فكيف تسدد الأرباح؟
بغضون وجهك للمشقة أسطر ... وعلى جبينك للشقا ألواح
عَرق الحياة يسيل منك لآلئاً ... فيُزان منها للغنى وشاح
قد كان يجديك الصياح لديهم ... لو فجر الصخرَ الأصم صياح
يتنازعون على امتلاكك بينهم ... فلهم عليك تشاجر وكفاح
كم دارت الأقداح بينهم ولم ... تملأ بغير دموعك الأقداح!
حسب الولاة الحاكمون على القرى ... أن ثَمّ أجساد ولا أرواح
كيف التفاهم بين ذينك: نائح ... يشكو العذاب، وسامع مرتاح
قد أنكروا البؤس الذي بك محدق ... أفينكرون الحق وهو صراح؟
يا غارس الشجر المؤمل نفعه ... دعه فان ثماره الأتراح
اقلعه فالثمر اللذيذ محرم ... للغارسين وللقوي مباح
أصبحت تورثك الحقول أسى فما ... يهتاج أتَسك نشرها الفياح
أفنت حقولك آفة أرضية ... عاثت بها وشعارها الإصلاح
سر ببؤسك فاضح لذوي الغنى ... لو أن سرك في البلاد يباح
يا ريف ان كتاب بؤسك مشكل ... يعيا بحل رموزه الشراح
أطيار روضك غالها باز العدا ... وعدا على أسماكك التمساح
الورد قد خنقته أشواك الربى ... ظلما وفر البلبل الصداح

يا ريف ما لك شرب أهلك آجن ... رنق، وشرب ولاة أمرك راح؟
النجف. أحمد الصافي النجفي
وداع
أذكري يوم أن رحلت اذكريه ... لا قضى الله بعد ذلك بينا
يوم كنا على المحطة نبغي ... لو يطول الوقوف ثمَّ علينا
قد أخذنا لنا مكاناً قصيا ... فذكرنا غرامنا واشتكينا
ونخاف القطار يأتي، فنمضي ... ننظر الساعة التي في يدينا
بل خدعنا نفوسنا (يا سعاد) ... وعبثنا بعقربيّ ساعتينا
نحسب الوقت بالدقيقة حتى ... قدم (القطر) من بغتة فبكينا
وتضنين بالفراق، إلى أن ... دق صوت الناقوس في أذنينا
فركبت القطار، ثم تهادى ... فحكانا، ونحن نمشي الهوينى
لم يكن بعد، غير بضع ثوان ... واختفيتم عن عيننا واختفينا
افترقنا ولم نبل غليلا ... ولنا اليوم أشهر ما التقينا
!لا جزى الله يوم بينك خيرا ... كم أسال الدموع من مقلتينا
محمد برهام
بعد الحب
لم تكن للحياة قبل لقائي ... بك معنى، فأنت معنى حياتي //
زهَرُ الروض كان خلوا من العط ... ر فأمسى معطَّر النَفحاتِ
وليالي الربيع كانت بلا سح ... رٍ فباتت ظلالها ساحراتي
وبنفسي لحن سجين عن الحب ... وناي مشوش الصرخات
أنت أطلقته فدوَّم في الصد ... ور غني بأعذب النغمات
والهوى يصبغ الحياة بلون ال ... ورد حتى تعود شتى النبات
إنني إن أسفت آسف للما ... ضي، تولى لم أدر طعم الحياة
هو عهد مضى، وعيني عليها ... حجب من ستائر مظلمات
ثم جاء الهوى ففتح عينيَّ ... فأبصرت فتنة الكائنات
فإذا بالجمال يسبح في الجو ... ويسري شذاه في النسمات
وإذا بالجمال يسبح في الرو ... ض ويهدي شذاه للزهرات
كل ما في الجمال حلو مع الحب ... فيا حب أنت سر الحياة
أمين عزت الهجين
في الأدب الشرقي
نظرات في الأدب الفارسي
منذ نشأته إلى إغارة التتار
للدكتور عبد الوهاب عزام
- 2 -
يروي عن الرودكي أنه نظم شعراً كثيراً جداً يقدره بعضهم بألف ألف بيت. وأنه نظم كليلة ودمنة، ولكن ليس عندنا من شعر الرودكي كله الا قطع منها نحو242 رباعية، ومن الحكايات المأثورة المشهورة عن هذا الشاعر ما ذكره نظامي العروض، أن الأمير نصر بن أحمد خرج بجيشه إلى هراة فأعجب بهوائها وثمارها، وبقى يتردد في أرجائها أربع سنين حتى ضاق العسكر ذرعاً، ولم يستطيعوا صبراً عن أوطانهم وأولادهم، فذهبوا إلى الرودكي وجعلوا له خمسة آلاف دينار على أن ينظم شعراً يشوق الأمير إلى بخارى. فنظم قصيدة وجاء الأمير وهو يصطبح، فغناها على المزهر فما أتم الأبيات حتى نهض الأمير مسرعا إلى فرسه لا يصبر حتى يلبس حذاءه، وتوجه إلى بخارىلا يلوي على شيء، فلم يدركه الناس الا بعد فرسخين، وهناك قدم له الحذاء فلبسه.
وأول هذه الأبيات:
بعرى جرى موليان آيد همي ... بعرى يا لهربان آيد همي
(ما يزال يهب علينا نسيم نهر جيحون ... وما نزال ننشق على بعد روح الأحباء)
ثم يؤثر على الرودكي شعر من نوع الدوبيت أو الرباعي. وهو ضرب فارسي. فهذا أول شعراء الفرس ينظم على أساليب العرب وعلى أسلوب آخر، وهذا ينبئ بما سيكون

عليه الشعر الفارسي الحديث من الجمع بين الصبغتين العربية والفارسية.
ثم نجد هذا الشاعر يسبق إلى نظم القصص، إذ نظم كليلة ودمنة، وهذه ميزة أخرى من مزايا الشعر الفارسي كلف بها الشعراء من بعد.
توالى الشعراء من بعد الرودكي وارتقى الشعر على الزمن حتى بلغ غايته.
شجع السامانيون الآداب الفارسية، ولمنصور بن نوح منهم شعر فارسي، فنبغ في أيامهم
شعراء يقاربون الثلاثين، ثم شرعوا يؤلفون ويترجمون الكتب من العربية إلى الفارسية، فترجم تاريخ الطبري وتفسيره (وألف لهم بالفارسية كتاب أبي منصور والهروي في الطب) ومنه نسخة مخطوطة في فينا، وهي أقدم مخطوط فارسي (سنة 447 هـ) وألف لهم كذلك كتاب في التفسير. فهذه الكتب الأربعة أقدم نثر فارسي بأيدينا.
وأما بنو بويه فليس لهم أثر في الأدب الفارسي، وأكثر أمرائهم كانوا شعراء في العربية. ووزيراهم ابن العميد، والصاحب من حملة لواء الأدب العربي لا الفارسي، وحسبنا أن الصاحب لم يقصده به الا شاعران فارسيان هما المنطقي والخسروي، على كثرة شعراء العربية الذين مدحوه.
وكان الزياريون في طبرستان من حماة العلوم والآداب، ولكن شيخهم قابوس كان أميل إلى العربية، وقد مدحه الخسروي السرخسي من شعراء الفرس، كما اتصل بابنه منوجهر الشاعر الفارسي الذي سمى نفسه منوجهري تبعاً لسيدة. وقد ألف كيكادس حفيد قابوس كتابه قابوس نامه بالفارسية لتربية ابنه.
وكان من المتصلين بقابوس أبو علي بن سينا، وله شعر بالفارسية، وقد ألف كتابه دانش نامه علائي بعد موت قابوس، فأهداه إلى علاء الدولة أبي جعفر كاكوية في اصفهان وسماه باسمه.
وكان محمود بن سبكتكين في غزنة مقصد كبار الأدباء والعلماء، وأثر عنه وعن ابنه محمد شعر فارسي. فمن شعرائه: العنصري والأسدي، والعسجدي، والفردوسي الذي قدم له الشاهنامه، فلم يعطه محمود ماأراد فغاضبه وهجاه، وقد ألف شرف الملك من شعراء محمود كتابا في الديوان بالفارسية سماه كتاب الأصطفا. ويقال إن اليميني من شعراء محمود أيضاً كتب تاريخ محمود بالفارسية، وكتب البيروني كتاب التفهم في النجوم بالفارسية والعربية.
وفي عصر السلاجقة، ذلك العصر المديد نبغ شعراء كثيرون جداً عد منهم عدني أكثر من مائة - وأعظمهم الأنوري والخاقاني نظامي الكنجري، والأزرقي، وظهير الغارياني، وناصر خسرو والخيام، وبابا طاهر، والفصيحي، ومسعود سعد، والأديب صابر، والمعزي، وعمق البخاري، وسوزني، ونظامي العروض؛ ومن الصوفية: أبو سعد بن أبي الخير، والأنصاري، ثم مجد الدين سنائي، وفي نهاية هذا العصر فريد الدين العطار.
ولا ريب أن هذا العصر أزهى عصور الشعر الفارسي.
ومن المؤلفين والكتاب في هذا العصر نظام الملك الوزير مؤلف سياستنامه، والغزالي والسجزي الفرخي مؤلف ترجمان البلاغة في الشعر والصناعات البديعية، والرشيدي السمرقندي مؤلف زينت نامه في علم الشعر، ورشيد الدين وطواط مؤلف الكتاب الذائع الصيت: حدائق السحر في دقائق الشعر، والبهرامي مؤلف غاية العروضيين وكنز القافية، والأسدي مؤلف لغة الفرس، وشاهمر دامه بن أبي الخير مؤلف الموسوعة (نزهة نامه لملاني) ألفها لعلاء الدولة، وخاص بك أمير طبرستان آخر القرن الخامس، والباخرزي مؤلف دمية القصر، ومؤلف طرب نامه وهي رباعيات فارسية، وأبو المعالي محمد بن عبيد الله مؤلف كتاب بيان الأديان في آخر القرن الخامس.
ومن مؤلفي الصوفية الهجويري صاحب كشف المحجوب وهو من أقدم الكتب الصوفية، ألف في القرن الخامس.
ومن المترجمين من العربية إلى الفارسية. الجرباذقاني، ترجم تاريخ العتبي للفارسية، وجمال القرشي مترجم الصحاح، وفراهي الذي نظم قاموساً عربياً فارسياً يقرأ في مدارس إيران حتى اليوم، والزوزني الذي كتب معجما عربيا فارسيا سماه ترجمان القرآن، ونصر بن عبد الحميد مترجم كليلة ودمنة.
وفي العصر القصير الذي بين السلاجقة والمغول نجد من الشعراء العطار وجلال الدين

الرومي وسعدي الشيرازي وغيرهم. ونجد من المؤلفين ابن اسفنديار مؤلف تاريخ طبرستان، وفخر الدين الرازي مؤلف الاختيارات العلائية، ونصير الدين الطوسي، وشمس قيس مؤلف المعجم، ومحمد عوفي مؤلف لباب الألباب.

هذه نظرة عامة غير شاملة ولا بالغة. ترينا كيف بدأ الأدب الفارسي شعرا ونثرا، وكيف توإلى مع الدول المختلفة. ويكفي هنا أن يقال إن لباب الألباب يحتوي على 27 ملكاً نظموا بالفارسية و43 وزيراً، و69 عالماً، ويذكر من الشعراء تسعة وثلاثين ومائة.

ولأجل أن ندل على حظ الأقطار المختلفة من هذا العدد نقول: ان خراسان وهي مهد الأدب الفارسي الحديث ينالها 31 من العلماء الذين نظموا بالفارسية و55 من الشعراء. وما وراء النهر 13 من العلماء، و22 شاعراً. والعراق 16 من العلماء و16 من الشعراء. وغزنة وما يليها 22 شاعراً. فخراسان أوفرها حظاً.

بعد هذا يحق لنا أن نسأل ما مميزات هذا الأدب الفارسي الإسلامي في الشعر والنثر؟

فأما الشعر فيشارك الشعر العربي في موضوعه من الهجاء والمدح والغزل والفخر والوصف (في ميل إلى المبالغة) ويمتاز بأشياء:

(1) ذكر ملوك الفرس القدماء وأبطالهم مثل فريدون ورستم، وزال، وكأس جمشيد، وقد سرى هذا إلى الشعر العربي الذي نظم في بلاد الفرس كشعر بديع الزمان وأمثاله.

(2) يمتاز الشعر الفارسي بميزتين عظيمتين: الشعر القصصي والشعر الصوفي.

فأما الشعر القصصي فقد أولع الفرس به في كل عصر، وقد رأينا أن أبان بن عبد الحميد نظم كتاب كليلة ودمنة بالعربية، وأن الرودكي أول شعراء الفرس الكبار نظم هذا أيضاً، ومن الأدلة على ولع الفرس بالقصص قصة يوسف وزليخا، فهذه القصة مأخوذة من القرآن، ولكن شعراء العرب لم يهتموا بها، وأما الفرس فقد نظموها مراراً، نظمها من كبارهم الفردوسي وجامي. ونظمها آخرون. ورواية وامق وعذراء التي قيل أنها قدمت لعبد الله بن طاهر فأمر بطرحها في الماء؛ نظمها العنصري شاعر محمود الغزنوي، ثم الفصيحي في رعاية كيكادس الزياري ونظمها أربعة شعراء آخرون.

وحسبنا شاهنامه الفردوسي التي حاكاها شعراء كثيرون فألفوا شاهنمات لم تنل ما نالته من القبول والصيت؛ ومن القصص المنظومة رواية خسرو وكل، وبلبل نامه لفريد الدين العطار، وسلامان وابسال لمولانا جامي وغيرها مما لا يتسع المقال لتعديدها.

وأما الشعر الصوفي فقد بدأه أبو سعيد بن أبي الخير من بلدة مهنا في خراسان، وأبو عبد الله الأنصاري من هراة. نظما فيه قطعاً ورباعيات، ولكن لم يكثر فيه التأليف الا بعد مدة طويلة، إذ نبغ طليعة فرسانه سنا، الغزنوي، ثم قفاه العطار ثم تلاه إمام الصوفية مولانا جلال الدين الرومي صاحب المثنوي الذي يسمى القرآن في اللغة الفارسية، ويقال لمؤلفه لم يكن نبيا ولكن أوتي كتاباً.

ومن بعد غارات التتار نبغ لسان الغيب شمس الدين حافظ الشيرازي والشيخ عبد الرحمن الجامي الذي يعد آخر شعراء الفرس العظام.

والحق أن اللغة الفارسية تبذ سائر لغات العالم بهذا النوع من الشعر النفسي الإنساني الفلسفي الذي يرتفع عن جدال المذاهب وعصبيات الأجناس، وينفذ إلى بواطن الأشياء فيرى الوحدة الإلهية المتجلية في مظاهرها العديدة.

الأدب الياباني

للأستاذ أحمد الشنتناوي

- 2 -

انتهينا في مقالنا الأول من الكلام عن الأدب الياباني حتى نهاية العقد الثامن من القرن التاسع عشر، أي بعد أن هدأت الثورة اليابانية الأهلية وابتدأت بوادر التجديد تظهر في جميع نواحي الحياة اليابانية كما هي العادة دائما عقب الثورات الاجتماعية الخطيرة التي تظهر في الأمم. وكان حظ الأدب الياباني من هذا التجديد عظيما إذ لم يلبث أن ظهر في الميدان الأدبي (كويو) وهو مؤسس المدرسة الأدبية الحديثة في اليابان المسماة (أصدقاء المحبرة) وكان هو وتلاميذه وأتباعه يدينون بالمذهب الواقعي، ولا يكتبون الا القصص المفعمة بالمشاعر الرقيقة، والتي تتزاحم فيها العواطف والنزعات المختلفة، متخذين كتاب الحياة مصدرا ومعينا لما يكتبون ويصفون. وبالرغم من تباين

أتباع (كويو) في الأعمار والمراكز الاجتماعية والأزمنة التي عاشوا فيها كانوا يضربون جميعا في مؤلفاتهم على هذا الوتر الحساس الذي طرب له (كويو) فاتخذه شعاراً لمدرسته الأدبية الحديثة، ونعني به المذهب الواقعي. ولم يعمر (كويو) طويلا بل توفي في عنفوان شبابه بعد أن طبقت شهرته جميع أنحاء اليابان. وتعد قصته الموسومة (بشيطان الذهب) أبلغ أعماله الأدبية على الإطلاق. ولقد اشترك مع (كويو) في تأسيس تلك المدرسة الأدبية الحديثة أديب آخر يدعى (روهان) ولو أن هذا لم يكن يميل إلى المذهب الواقعي، بل كانت الروح الغالبة على مؤلفاته هي الروح الخيالية الدينية الفلسفية. كذلك اكتسب هذا الأديب شهرة فائقة بقصة ألفها تدعى (بوذا المدلل) وهو لم يكتب شيئا آخر غير تلك القصة، ولو أن العمر امتد به إلى ما بعد تاريخ هذا الكتاب بكثير.

وبعد الحرب الصينية اليابانية أخذت الآداب الغربية تطغي على اليابان رويدا رويدا، وكان أعظمها أثرا مؤلفات تولستوي وإبسن إذ ترجمت إلى اليابانية آثارهم وآثار غيرهم من زعماء الأدب الأوربي أمثال موبسان وهوجو وزولا وغيرهم حواليعام 1896 حتى وقف العقل الياباني حائرا أمام هذا السيل الجارف من الآداب الأوربية؛ وحاول (كويو) وأتباعه أن يدخلوا روحا جديدة تحليلية على الأدب الياباني، وفعلا أصدروا عدة مؤلفات تعبر أصدق تعبير عن نفسية الشعب الياباني الحديث، كما تعصب فريق آخر لأدب زولا وحاولوا تقليده.

وبعد انتهاء الحرب الروسية اليابانية التي شب أوارها عام 1905 نجد الآداب اليابانية تزيد صبغتها الغربية وتقوى، فأننا نجد مثلا (هجوتسو) أحد أساتذة جامعة (واسدا) في طوكيو يعود بعد سياحته الطويلة في ربوع أوربا ويؤسس مدرسة أدبية جديدة هي تحوير للمدرسة الأدبية الفرنسية المعروفة بالمدرسة الطبيعية، حسبما تقتضيه البيئة اليابانية وأذواق الشعب الياباني. وأهم المبرزين في تلك المدرسة هما

تبدأ الحرب العالمية بعد ذلك ويخفت صوت الآداب الأوربية نوعا ما، فتجد الآداب اليابانية المجال أمامها متسعا لكي تقف بنفسها في الميدان، وتسمع صوتها للملأ، فتقوم في اليابان حملة عنيفة على الأدب المكشوف، وهو شعار المدرسة الطبيعية، ويطلب أصحاب تلك الحملة بإلحاح أن تكون الآداب وسيلة لطب المثل العليا، وأنها يجب أن تسير في جو محتشم طاهر، وأصبح هؤلاء فيما بعد زعماء المدرسة (الإنسانية) وهؤلاء لم ينجحوا الا في القضاء على أصحاب الأدب المكشوف، ولكنهم في الوقت نفسه ظلوا في إسار الآداب الغربية. ولعل أشهر هؤلاء الجماعة وأرسخهم أدبا هو (أريزيما) وأشهر أعماله الأدبية قصته المسماة (تلك المرأة) وهي تاريخ حياة امرأة حديثة (مودرن) تمثل في جملتها العقلية اليابانية في ذلك العهد الذي تشبع بالروح الغربية، ويمكننا أن نعتبر هذه القصة مثالا لحالة الأدب الياباني في ذلك العصر الذي أغارت فيه الحضارة الغربية على بلاد الشمس المشرقة.

والمتصفح لتاريخ الأدب الياباني منذ أقدم عصوره إلى الآن يمكنه أن يلاحظ بكل وضوح مقدار اختلاف العقلية اليابانية عن العقلية الغربية. فالذي تنفرد به العقلية اليابانية هو سرعة استعدادها لاعتناق كل ما هو جديد. بل التهامه التهاما دون التأمل والنظر فيما إذا كان الطعام الذي ستتناوله في مقدرتها هضمه أم لا. وليس معنى هذا أنها عقلية عديمة القدرة على التمييز والاختيار ولكن هذا التمييز وهذا الاختيار يأتيان بعد فترة من الزمن بعد أن تملك النفس زمامها وتألف رؤية الشيء الجديد ويذهب عنها بريقه ولمعانه. ويمكننا أن نذكر لك أن اليابان كانت تعشق أدب تولستوي عام 1894 فتحولت عنه إلى سودرمان

وهوبتمان عام 1896، ثم تحولت عنهما عام 1897 إلى موبسان وزولا وهوجو ثم منهم إلى ترجنيف عام 1898 ثم إلى نيتشه عام 1901 ثم إلى مكسيم جوركي ومترلنك عام 1902 وأخيرا انتهى بها التنقل والمطاف إلى تشيكوف وواجنر عام 1903. وإذا عرفنا هذا لا نعجب إذا رأينا اليابان تحتفل احتفالا عظيم الشأن بالعيد المئوي للشاعر شيلر، أو إذا رأيناها تخصص الصفحات الأولى من جرائدها ومجلاتها المحترمة للكتابة عن إبسن ومؤلفاته ومكانته الأدبية الممتازة عقب وفاته. لهذا يمكننا أن نعتبر الآداب الغربية نوعا من أنواع (المودة) التي تروح وتغدو كل عام بين أوربا واليابان.

ولم يعقب هذا اللقاح المتعدد الأنواع والأجناس الا نوعا من الآداب أشبه شيء بالثوب الذي تزدحم فيه الألوان دون تناسق أو تآلف أو ترتيب، ولكن يصح الآن أن نقول أن الآداب اليابانية قد تخلصت من جميع تلك العناصر الغربية بل يمكن أن نميز فيها بوضوح اتجاهين يابانيين جديدين. فانه بعد المدرسة الإنسانية التي أنشأها (سيرا كابا) عقب المدرسة الطبيعية ظهرت مدرسة أخرى جديدة تدين بالمذهب الواقعي جعلت همها مخاطبة الجماهير والتحدث إليهم عن معايب الطبقة الرأسمالية الغنية؛ وكان زعيم هذه المدرسة الجديدة (كيكوتي) الذي أسس عام 1911 في اليابان جمعية أدبية أطلق عليها اسم (جمعية القصصيين) ولا يزال أثر هذه المدرسة نافذ المفعول حتى اليوم، لأن آثار (كيكوتي) وأتباعه الأدبية قد لاقت هوى في نفوس العدد الأكبر من اليابانيين لأن رجال المال هم القابضون على زمام الأمور في تلك البلاد.

أما الاتجاه الآخر فهو أن جماعة من كتاب اليابانيين الحديثين أخذوا على عاتقهم أن يصفوا في كتاباتهم حياة الطبقة الدنيا من اليابانيين أي طبقة العمال ومن إليهم، وقد تعمقوا في هذا الوصف حتى أنك تكاد تلمس بيديك في كتاباتهم هيكل البؤس والتعس المخيم على هذه الطبقة الفقيرة.

وخلاصة الموقف الأدبي الآن في اليابان هو أن هناك في الميدان أربع فرق من الأدباء تتنازع الجمهور الياباني، فالفريق الأول هم أصحاب المدرسة الكلاسيكية الذين يعشقون الآداب لذاتها، وهؤلاء يمثلون الطبقة الأرستقراطية من المجتمع، ويقفون وجها لوجه أمام الفريق الثاني أي الأدباء الذين يعبرون عما تكنه صدور الطبقة الدنيا من آلام وآمال وهموم

وأحزان؛ ثم الفريق الثالث وهم أدباء المدرسة الحديثة الذين يحبون التجديد في كل شيء حتى في العواطف الإنسانية ويطلقون عليهم تهكما اسم (المدرسة الاستقراضية) وآثارها مع ذلك لا تخلو من الطرافة في نواحي عدة منها. أما الفريق الرابع فهم أدباء المدرسة الشعبية وينضم تحت لوائها العدد الأكبر من أدباء اليابان وهم يخاطبون الشعب الياباني كأنه كتلة واحدة لا تباين فيها ولا اختلاف.

واتصلت زيارة أغوست كونت لأسرة كلوتيلد، واشتدت الصلة بينه وبينها متانة وقوة؛ وأخذت تزول من هذه الصلة بقايا هذه التكاليف الاجتماعية التي تواضع الناس عليها في حياتهم المألوفة، والتي لا يزيلها ولا يمحوها الا المودة الخالصة إذا بلغت أقصاها، أو الحب الصحيح إذا انتهى إلى غايته. وألحت الأسرة في التعريض بهذه الزيارات المتصلة، وبهذه الصلات التي كانت تتخلص شيئاً فشيئاً من التكلف والاحتشام. ونزعت الفتاة نفسها وقتا طويلا في أن تتحدث إلى الفيلسوف بهذه الريبة التي أخذت تثور حولهما في نفوس الأسرة؛ ولكنها انتهت إلى أن أنبأته بما عندها من ذلك فاستمع لها، ولم يحتج إلى تفكير وتقدير ليمتلئ قلبه سروراً وغبطة، وليأخذه شيء من الكبرياء غريب في ظاهر الأمر، ولكنه مألوف عند العشاق والمحبين. وماله لا يسر ولا يغتبط والحجب ترفع كل يوم بينه وبين من يهوى؛ وماله لا يأخذه الكبر ولا يملأه التيه وهو يثير الريبة في نفوس الأسرة، ويضطرهم إلى أن يشعروا بحبه للفتاة وبأن الفتاة لا تزدريه ولا تفرط في ذاته، ولا تنظر إليه في غير عناية ولا اكتراث. لعلها لا تحبه كما يحبها ولكن في قلبها عاطفة ما تعطفها عليه وتدفعها إليه. ومن يدري؟ لعل هذه العاطفة أن تنمو وتقوى وتخضع لما يخضع له الإنسان بملكاته وعواطفه من التطور، فتستحيل من المودة الخالصة إلى الحب العنيف. وإذا فما له لا يستأنف سعيه وإلحاحه؟ وما له لا يدور حول قلب الفتاة لعله يجد سبيلا لبلوغه والوصول إليه. وقد فعل. فهذا الحنان الذي كان قد كظمه في نفسه أو أسبغ عليه لوناً من الجد يجعله إلى الود أقرب منه إلى الحب، قد أخذ يتجرد من ثوبه المتكلف ويظهر على حقيقته وفي صورته الصحيحة، وقوته التي لا تبقي على شيء. وهذا التحفظ الذي كان اصطنعه في الحديث يزول شيئاً فشيئاً. وإذا هو صريح، وإذا هو يجدد إعلان الحب، ويكرر هذا الإعلان ويحيط الفتاة

بشباك من الطلب والأمل والتضرع والاستعطاف والأغراء الذي يتجه إلى العقل حيناً وإلى الشعور حيناً آخر. وكيف تريد أن تفلت الفتاة من
هذه الشباك جميعاً وهي لا تكاد تخلص من واحدة حتى تتعثر في أخرى. هي مضطرة إذا إلى أن تسالم بعض الشيء وتصانع إلى حد ما، وتنهزم عن خط الدفاع الأول كما يقولون.

وهل كانت هي في نفسها منصرفة عن الفيلسوف حقاً راغبة عن حبه كل الرغبة؟ لست أدري ولكنها على كل حال عجزت عن المقاومة فكتبت إلى أجوست كونت تنبئه بهذا العجز وتظهره على ذات نفسها وتبين له رأيها في التخلص من هذا الموقف الدقيق ورأيها أنها لم تكن تقدر أن أحداً يكلف بها ويتهالك عليها، وأنها هي لا تكلف بأحد ولا تتهالك على أحد، ولكن أملها إن صح أن يكون لها أمل في الحياة، إنما هو طفل تقف عليه حبها وحنانها وقوتها ونشاطها. وهي إذا شاركت رجلاً في الحياة فإنما قوام هذه الشركة الوصول إلى تحقيق هذا الأمل. وهي حريصة كل الحرص على أن يكون شريكها إن ظفرت به رجلا ممتازا مرتفع النفس كبير القلب خليقا بالإكبار. وهي تجد هذه الخصال كلها في الفيلسوف ولا تكره أن تتخذه شريكا في تحقيق هذا الأمل وخلق هذه الطفل. ولكنها لا تريد أن تخدعه ولا أن تغره فهي لا تحبه بالمعنى المألوف لهذه الكلمة وحياتها ليست بالشيء النفيس الذي يحرص الناس على الاشتراك فيه. فهي بائسة تحتاج إلى من يعزيها وهي فقيرة تحتاج إلى من يعولها. وهي لا تحمل لشريكها الا مودة صادقة وإخلاصا لا حد له.

ويقرأ الفيلسوف هذا الكتاب فيجن جنونه وتدور به الأرض ثم تهدأ نفسه، وتشرق في وجهه الدنيا وتبتسم له الأيام. وهل كان يطمع في أن تقبل كلوتيلد منه مثل هذا وترضى أن تكون خليلة وتقاسمه الحياة وتشاركه في خلق إنسان؟ وهو قابل إذا وهو راض وهو سعيد وهو واثق بأن هذه خطوة ستتبعها خطوات وهو يكتب إليها ويمضي كتابه على هذا النحو: زوجك المخلص أجوست كونت.

وتزوره ذات يوم زيارة المستسلمة المستعدة للوفاء بالوعد وإنفاذ هذه الشركة، فيلقاها فرحاً مبتهجا ثم يجلسها ويجثو بين يديها ويقدم إليها صلاة فلسفية حارة. ولكنه عالم لا حظ له من براعة الأدباء ولا من براعة الرجال الذين تعودا عشرة النساء والتلطف لقلوبهن، فصلاته فلسفية، وحديثه بعد ذلك عملي كله وحركاته حين يضطرب في غرفته منظمة قد قدرت تقديراً. فهو لا يرفع شيئاً الا بحساب ولا يضع شيئاً الا على نظام ولا يأتي حركة الا إذا كانت لها علة ظاهرة وتأويل معقول وهو يتحدث عن دخله وعما سيحتاجان إليه من نفقة
وعن ترتيب البيت وعن النظام المادي للحياة. وهو على هذا كله دميم لا جمال في شكله ولا روعة، قصير متقدم البطن مضطرب الوجه. فأين يقع هذا المنظر؟ وأين يقع هذا الحديث؟ وأين تقع هذه الحركات المنظمة من قلب امرأة لم تتجاوز الثلاثين بعد؟ ما أسرع ما ضاقت بهذه الشركة ورغبت عنها، وما أسرع ما ضحكت من نفسها في نفسها، وما أسرع ما استيقنت أنها كانت تحاول أمراً لا قبل لها به ولا قدرة لها عليه، وما أسرع ما نهضت وهي تقول: لقد تقدم الوقت دعني أكتب إليك. وما أسرع ما خرجت من الباب وهبطت السلم وبلغت الشارع ومضت، والفيلسوف ينظر إليها من النافذة. فإذا هي تسرع أمامها لا تلتفت ولا تلوي على شيء وتكتب إلى الفيلسوف بعد ذلك معتذرة متعللة قائلة إنها قد تعجلت الوعد وتبين لها أنها في حاجة إلى التفكير الطويل وأن الخير في أن تمهل نفسها لترى. فلا يكاد الكتاب يصل إلى الفيلسوف حتى يحس أنه قد آذاها بحديثه فيكتب إليها متلطفاً ملحاً. وتمضي هي في إبائها. ويشتد هو في إلحاحه حتى إذا أثقل عليها أجابته في شيء من الشدة والصرامة أنها لا تستطيع أن تبيع نفسها ولا أن تساوم فيها فان كان يقنعك ما أعرضه عليك من المودة الخالصة الطاهرة فذاك ولك أن تلقاني في بيت أسرتي كدأبك من قبل ولا بد لي من ستة أشهر أفكر فيها وأروى وإلا فإني عائدة إلى ما كنت فيه من وحدة وعزلة. هنا يفيق الفيلسوف من ذلك السكر الذي كان قد غمره وملأ عليه قلبه وعقله. ويعود إلى حاله الأولى ليس شديد الرجاء ولكنه ليس يائسا بل هو بعيد كل البعد من اليأس واثق بأن العاقبة له وبأن الفوز لن يخطئه مهما يكن من شيء، سيصبر إذا وسيستأنف حياته الأولى فيلقى الفتاة في بيت أسرتها مرتين في الأسبوع.

وكلاهما سيئ الحال ضيق ذات اليد. أما هي فتبحث عن عمل لتعيش منه أو لترفه به بعض الشيء حياتها الضيقة الخشنة. وهي لا تتردد في أن تشغل مكان السكرتير في مكتب من المكاتب أو عند رجل ذي مال ان ظفرت به. ولكنها لا تظفر بشيء ولا بأحد الا فيلسوفها الذي قد وثقت به واطمأنت إليه. فهي لا تخفي عليه من أمرها شيئاً وهو يعدها بالمعونة ويعرض عليها أن يقرضها ما تحتاج إليه، بل يؤكد لها أن كل ما يملك من المال ملك خالص لها تستطيع أن تأمر فيه بما تشاء. نعم ولكنه هو لا يملك شيئا أو لا يكاد يملك شيئا، أعماله شاقة ونفقاته ثقال والمستقبل أمامه مظلم. هو يلقي دروساً رياضية في بعض المدارس الحرة ولكن صاحب المدرسة يريد أن يلغي هذه الدروس رغبة في الاقتصاد، وهو يكسب شيئا من مدرسة الهندسة ولكنه في حاجة إلى أضعاف هذا الذي يكسبه. وهو يلح على تلاميذه في إنجلترا أن يرتبوا له رزقا معلوما، ولكن التلاميذ لا يؤمنون لأستاذهم بهذا الحق وهو مضطر إلى أن يرزق امرأته ثلاثة آلاف فرنك في كل عام، ولا بد له من أن ينقص هذا الرزق وأن يختزل منه ثلثه. وهو على هذا كله يعمل، وهو على هذا كله يحب وهو حريص على ألا يقصر في ذات فلسفته ولا في ذات عشيقته. وعشيقته أيضاً تعمل لخدمة الأدب أن أعجزها ان تعمل لكسب المال. لقد نجحت قصتها الأولى بعض الشيء فما لها لا تكتب قصة أخرى وقد بدأت كتابة هذه القصة واتخذت نفسها لها موضوعاً مع شيء من الرمز والإيماء وأخذت كلما كتبت شيئا أرسلته إلى الفيلسوف، فيقرأ ويعجب ويهيم. ويقرظ فيسرف في التقريظ.

ويستأنف زياراته للأسرة محتملا ما يرى من الأعراض يقابله بمثله في كثير من الأحيان. حتى إذا كتب أخو الفتاة رسالة في الرياضة وعرضها على أستاذه ونظر الأستاذ فيها وأطال النظر فلم تعجبه. فيضطر إلى أن يعلن رأيه إلى تلميذ في غير تردد وإلى أن يتحدث إلى الفتاة بأن حبه لها وحرصه على مودة أخيها لن يمنعاه من أن يعلن رأيه في هذا الكتاب الذي لا خطر له. هنالك يزداد سخط التلميذ على أستاذه وهذا هو الذي يدور حول أخته ويشرب القهوة في البيت مرتين في كل أسبوع، ثم لا يشجع تلاميذه ولا يعترف لهم بما يوفقون إليه من فضل.

ويشتد إنكار الأسرة على الفتاة وتثبت هي لإنكارهم، فتجادلهم في أستاذها وتذودهم عنه، وتخرج من عندهم مكدودة متعبة وتؤوي إلى بيتها وقد فقدت أو كادت تفقد الشجاعة والنشاط. فتفكر في الفيلسوف، وفي أنه الرجل الوحيد الذي يؤثرها بالحب، ويصفيها المودة والعطف، فتنازعها نفسها إليه. ولكن نفوراً قوياً يمسكها أن تندفع في هذا الحب. فتكتفي بالشكوى، وتقبل من الفيلسوف عطفه وحنانه، ومعونته المالية أيضاً. وكانت أعراض الضعف قد ظهرت عليها، فأخذت تحس فتوراً وانحلالا وأخذت تقاوم سعالا متكرراً مضنياً ولم تقدر إلا أن ما تحسه عرض من أعراض هذا الجهد الذي تلقاه. فصبرت واحتملت وجدّت في كتابة قصتها، وجدّت أيضاً في الأنس إلى الأستاذ وأذنت له أن يزورها في بيتها

الخاص، فأحيت أمله، وبالغت في إحياء هذا الأمل حين أهدت إلى الأستاذ باقة من الزهر الصناعي صنعتها بيدها، وأرسلت معه أبياتاً من الشعر لا قيمة لها، ولكن الفيلسوف رآها آية من آيات البيان.

وزارها الفيلسوف ذات يوم فإذا هي متعبة تلقى من الآلام جهداً شديداً فتحدث إليها وأطال الحديث واطمأنت هي إليه اطمئناناً شديداً، فلما نهض لينصرف اختلس قبلة من فمها، ولكنه لك يكد يبلغ بيته حتى كتب إليها كتاباً مشهوراً يعتذر فيه من هذه القبلة، لأنه لم يكن يثق حين اختلسها بأن نفسه كان نقيا طيب النشر. وردت عليه في هذه السذاجة البديعة: (لا بأس عليك فأنا التي منحتك قبلة صديقة مخلصة).

ويشتد المرض والفقر بالفتاة. ويشتد الهيام والبؤس بالفيلسوف، وتزول بينهما الكلفة، وتكثر الزيارة عندها وعنده، ويعرض عليها خادمته لتعينها على الحياة. فتأبى، وتقضي الشتاء وحيدة عاملة لا يسليها عما تجد الا زيارات الفيلسوف لها وعطفه عليها، وقد عرضها على الطبيب فقدر لها مرضاً أخذ يعالجه وهو بعيد كل البعد عما كانت تجد. واشترك الفيلسوف في الأوبرا على فقره ليسلي صاحبته بالموسيقى من حين إلى حين. ولكنه لم ينس الحب ولم يفكر في الأعراض عنه فهو ما زال يلح على الفتاة ويتقاضاها هذه الصلة المادية التي تتوج ما بينهما من ائتلاف العقل والقلب وهي تأبى حتى إذا أثقل عليها فأسرف. كتبت إليه تذعن لما يريد وهي تقول: إنك تطالب بأجر ما

تبذل لي من ود ومعونة فلن أماطل في تأدية هذا الأجر. هنالك استحى الفيلسوف واستكبر فرفض هذا التسليم وأبى الا صلة مصدرها الحب والرغبة.

وزارته ذات يوما وهي مكدودة قد أجهدها المرض، واشتدت بها الحمى فلما انتهت إلى البيت استلقت على وسادة ونظر إليها هو، وأن في عينه لحباً لا حد له، وشهوة لا حد لها. وإذا هو يرى عينيها الزائغتين من الألم وخديها الذين توردهما الحمى فلا يرى الا جمالا مغرياً وحسناً فتانا. وهي مستلقية أمامه لا حول لها ولا طول، وهو قادر عليها؛ ولكنه ليس قادراً على نفسه. فهو يشتهي إلى حد الهيام ولكن عقله ووقاره يأبيان عليه هذا الغصب. فتنحل هذه الشهوة الحادة العنيفة إلى حب وقور، فيه شيء كثير من جلال الدين. والمرض والبؤس يلحان على الفتاة، والحب والفقر يلحان على الفيلسوف وإذا هي قد لزمت غرفتها،

ولزمتها خادمة الفيلسوف. وجاء الطبيب فلم يشك في أنها مسلولة مشرفة على الموت. وكثر تردد أمها عليها وكثر تردد الفيلسوف أيضاً. وكانت بين الأم والفيلسوف حول هذا الجسم الناحل وهذه النفس التي تتأهب لمفارقة الحياة، خصومات مؤلمة ولكنها لا تخلو من فكاهة. فأما الأم فكانت أسيرة الأوضاع الاجتماعية، أسيرة هذا الحب الذي يعطف المرأة على ابنتها. وأما الفيلسوف فكان أسير هذا الحب الفلسفي، ولم يكن يتردد في أن يعلن أنه وحده صاحب الأمر في هذا البيت لأنه الزوج الخالد للفتاة. ولم لا؟ لقد كان ينهض بكل ما تحتاج إليه، ويعرف من تمريضها ما ظهر وما خفي. لقد كتبت إليه مرة تقول: ما أشد حاجتك إلى الرحمة أيها العاشق التعس، فلم تظفر من خليلتك الا بشر ما يظفر به الأزواج. وكان مؤلماً جداً، وباعثاً للابتسام أحياناً أن يرى الفيلسوف جاثياً أمام السرير وهو يصلي إلى الفتاة فيدعوها أخته وزوجه وابنته. ويؤكد لها ويقسم ليعصمنها من الموت، ولأن عبثت الطبيعة بجسمها فليضمنن هو لنفسها الخلود. ولم لا؟ ألست أرقى امرأة عرفتها الإنسانية. لقد لقيت أرقى عقل عرفته الإنسانية، فلن يكون للفناء عليك ولا علي سلطان.

وساءت حالة الفتاة ودعي القسيس ليهيئها لاستقبال الموت فلم تمانع هي ولم يمانع هو. وأقبل القسيس فأدى عمله والفيلسوف يراه ويسمع له ساخطا حتى إذا انصرف أقبل فأنكر هذه العادة الدينية التي تنتزع المريض انتزاعاً من الحياة لتدفعه بين ذراعي الموت.

أقبل عذب الصوت رضي النفس حنون القلب فجثا إلى السرير وحنى على الفتاة وأخذ يحدثها أحاديث عذبة كلها أمل وكلها رحمة. ثم انصرف وعاد فإذا الأسرة كلها مجتمعة وإذا هم يأبون عليه أن يصل إلى المريضة. فتثور ثائرته ويخرج عن طوره ويأبى أن ينصرف. ويهم بإخراجهم جميعا لأن المريضة زوجه وخليلته وهي له وحده دونهم، بذلك اعترفت له وعلى ذلك أقسمت له فيجب أن يخلى بينه وبينها. فأما الأم فتنكر وتبكي وتستخذي. وأما الأخ فيقبل على أستاذه منذرا. وأما الأب الشيخ فيقبل هادئا وقوراً يطلب إلى الفيلسوف أن يدع المريضة لأهلها.

فانظر إلى الفيلسوف وقد جثى أمام الشيخ ضارعاً مستعطفاً حتى رق له الشيخ فقال أنصرف الآن ولك علينا أن ندعوك إذا استيئسنا منها. خرج الفيلسوف فلزم داره فلما كان من غد جاءه الرسول فأقبل مسرعاً حتى انتهى إلى البيت. فلما رأته الأسرة انفرجت له

وخلت بينه وبين غرفة الفتاة. فدخل وأغلق الباب من دونه وأرتجه فأحكم إرتاجه. وأقام ساعات طوال لا يخرج ولا يدخل عليه أحد. ويستطيع الخيال أن يذهب كل مذهب في تصور ما قال الفيلسوف للفتاة المحتضرة أو ما عمل أمام هذا الحب العظيم الذي كان الموت يغلبه عليه قليلاً قليلاً. فلما تقدم النهار ودنى المساء فتح الباب وخرج صامتا لا يلوي على شيء. فأقام في داره ولم يشهد الجنازة ولم يشيعها إلى القبر. وماذا يعنيه من الجنازة؟ لقد حاول أن يصل إلى هذا الجسم فلم يجد إليه سبيلا وحاول أن يصل إلى هذه النفس فلم تقاومه ولم تمتنع عليه، وإنما أسرعت إليه فأقامت في عقله وقلبه. لم تمت كلوتيلد وإنما أودعته خير ما فيها فهي إذا في قلبه، هي إذا تقاسمه حياته الذائلة حتى إذا انقضت هذه الحياة الموقوتة امتزجت بنفسه فكانت منها نفس واحدة خالدة. عكف الفيلسوف في داره على هذه الصورة يعبدها ويهيم بها وما هي الا أن استحال حبه لكلوتيلد ديناً وضعت له التقاليد وألوان الصلوات

والعبادات. وأغرب من هذا كله أن الحياة الظاهرة للفيلسوف لم تتغير. فدروسه كانت تلقى في نظام ومجلاته كانت تقرأ في نظام ورسائله كانت تقرأ ويرد عليها في نظام أيضاً.

ما أعجب أمر الإنسان تراه ساذجا يسيرا وأن شخصه لشديد التعقيد.

فولتير المؤرخ

للأستاذ زكي نجيب محمود

لبث التاريخ قروناً يتلوها قرون، وهو لا يحسب للشعوب حساباً، ولا يعنى بحياة الإنسان قليلا ولا كثيراً، إنما ملئت سطوره وأفعمت صفحاته بذكر الملوك والأمراء، فكان تاريخ الأمة هو تاريخ ملوكها، أما سائر الطبقات، التي هي في الواقع لحمة الحياة وسداها، وهي الإنسانية بأسرها، هي مبعث القوى والنشاط جميعاً، فكانت لا تظفر من المؤرخ بسطر واحد فضلا عن صفحة أو كتاب.

بقيت الحال كذلك ما بقيت الشعوب بعيدة عن دوائر السيطرة والحكم، ثم ما كادت تنهض أوربا نهضة الأحياء، ويستيقظ الناس من ذلك السبات العميق، وتبدأ الديمقراطية الصحيحة تنشر ألويتها، وتجد سبيلها إلى صميم القلوب، حتى انقلب ذلك الوضع الخاطئ، واتخذ شكله المستقيم، وأصبحت الشعوب وحياتها عند التاريخ كل شيء.

ولكل انقلاب رسوله الأمين، ورسول ذلك الانقلاب في كتابة التاريخ هو فولتير، الذي يمثل في شخصه حلقة الاتصال بين العهدين، وجسر التطور بين المنهجين.

كان فولتير كثير القراءة والاطلاع إلى حد النهم، وكلما تقدمت به السن ازداد في ذلك إمعاناً وإدمانا، حتى احتوى في نفسه شطراً عظيما من عصارات الأذهان البشرية التي سبقته إلى الوجود، فلم يسعه أمام ذلك الإنتاج العقلي الغزير، الا أن يكبر العقل الإنساني إلى درجة التقديس، وقد أوحى إليه ذلك الإكبار أن يجرد قلمه للارتفاع بمكانته إلى أعلى عليين. فأخذت تلك اليراعة العبقرية تدبج الفصول التي تظهر فيها عظمة العقل ظهورا واضحاً لا يخطئه النظر، ثم تطورت عنده تلك النزعة فولدت في نفسه عنصراً جديداً، هو حب الإنسانية والفناء من أجلها، فأخذ يسمو بها بمقدار ما يصب غضبه ونقمته على أيدي الجهالة السوداء التي اعترضت سبيل تقدمها، وكانت عثرات في طريقها. هذا التقديس للعقل وللإنسانية، وهذا السخط الذي أراد أن يسحق به عوامل الجمود على اختلاف ألوانها، كان أول عنصر جديد أدخله فولتير في كتابة التاريخ.

ونحن إذا تتبعنا مؤلفاته التاريخية، التي كتبها في مراحل عمره المختلفة، أدركنا على الفور تدرج تلك النزعة في نفسه تدرجاً أدى بها إلى تلك الخاتمة التي ذكرنا.

كانت باكورة مؤلفاته التاريخية (حياة شارل الثاني عشر) الذي كتبه ولم يزل يرسف في أغلال التقاليد، التي أملت عليه مثله الأعلى، فأخرج كتابه للناس آية في تمجيد شارل، وإكليلا من الزهر يتوج به هامة ذلك الملك، الذي سما به إلى مرتبة رفيعة لا يدانيها من البشر إلا الأقلون. وكل عبقريته انه نشر الدماء وبعثر الأشلاء!! وانه خاض في أوروبا من الشمال إلى الجنوب، فاحتواها في قبضته من تركيا إلى السويد!! ولكن نفس فولتير لم تضطرب فيها عاطفة واحدة نحو ذلك الشعب الذي نسج حول مليكه تلك العظمة الحربية بخيوط من أرواحه وما ملكت أيديه، كلا ولم يحسب حساباً لتلك الشعوب التي داسها شارل تحت أقدامه، وأذل أعناقها لتخلي أمامه الطريق!.

يسجل ذلك الكتاب أولى مراحل فولتير الفكرية، ولكنه لم يكد يفرغ من كتابه ويذيعه في الناس، حتى اتجه بسائره إلى دراسة العلوم الطبيعية والرياضية: إلى دراسة ما أكتشفه نيوتن وما أرتاه لوك. وهنا آمن بعظمة العقل الإنساني إيمانا لا تزعزعه الريب والشكوك، وما هي الا أن عاد إلى ميدان التاريخ يجول فيه ويصول، ويبحثه في ضوء إدراكه الجديد ولبه المأخوذ بجلال الإنسان. فأخذ يعالجه بأسلوب لم يعهده التاريخ من قبل، بعيد كل البعد عن الطريق التي انتهجها في كتابه عن شارل الثاني عشر.

بهذه النزعة الناشئة. وفي هذا الضوء الجديد، نشر مؤلفه المشهور عن لويس الرابع عشر، الذي أن قرأته فلن تتجاوز ورقات قليلة، حتى تلمس هذا الأسلوب التاريخي الجديد، وتدرك المدى البعيد الذي انتقلت إليه عقليته في كتابة التاريخ. فبينما هو يسرد عليك في كتابه الأول قصة واحد من الملوك، تراه يصور في كتابه الثاني عصراً بكل ما

أحتوى من ضروب الحياة. بل تستطيع ألا تجشم نفسك مؤونة القراءة لتتبين هذا الفرق بين الكتابين، ويكفي أن تلقي نظرة عجلى على عنوانيهما لتدرك ما تناول وجهة نظره من تطور وانقلاب؛ فعنوان الكتاب الأول (تاريخ شارل الثاني عشر) وعنوان الثاني (عصر لويس الرابع عشر) في كتاب شارل أخذ يسرد في تفصيل وتطويل ما طرأ على حياة ذلك الملك من أحداث، وما كان يطبع شخصيته من ضروب المميزات والفضائل، أما في هذا الكتاب

الأخير، فقد تتبع الشعب في نزعاته وميوله وحركاته، وقد ذكر في مقدمته أنه. (لن يصف حياة رجل واحد، بل سيعني بأحوال الشعب جميعاً) فبينما تراه يلم إلماماً سريعاً بأخبار الحروب، تراه يذكر في إطناب نواحي الحياة الأخرى التي لم تحظ قبل فولتير بصفحة واحدة من صفحات التاريخ. فقد عقد فصلا للتجارة والحكومة الداخلية، وآخر للحالة المالية، وثالثاً لتاريخ العلوم، كما اختص الفنون الجميلة بفصول ثلاث. وعلى الرغم من أنه كان يعتقد ان النزاع الديني لا يستحق إلا القليل، الا أنه أفسح لأخبار الكنيسة في عصر لويس الرابع عشر من كتابه مكاناً واسعاً، لأنه لم يشك في أنها لعبت دوراً خطيراً في شؤون الحياة، التي أراد أن يصورها في مؤلفه هذا تصويراً دقيقاً.

ولكنا يجب أن نلاحظ أن هذا الكتاب، وإن يكن خطوة واسعة وانقلاباً خطيراً في دراسة التاريخ، الا انه لم يخل من شوائب الماضي إذ أطال فولتير (في غير ما موجب للتطويل) في تفصيل حياة لويس الرابع عشر نفسه، وما كان يتقلب فيه من ضروب اللهو والعبث والمجون، ثم حاول بعد ذلك أن يقيم الدليل على سمو مكانته وعظمة مجده، وأن يدفع حراب النقد التي كانت تصوب إلى أسمه من كل حدب وصوب.

كان ذلك الكتاب إذن وصلة التطور بين عهدين، لأنه ثار على القديم من ناحية، وتعلق بأسبابه من ناحية أخرى، ثم ما كادت تنطوي سنوات أربع، حتى طلع على العالم بسفره الجليل في أخلاق الشعوب، الذي يعتبر بحق أسمى ما أنتجه العقل الإنساني في القرن الثامن عشر.

لم يعن فولتير في هذا الكتاب كثيرا بدسائس البلاط، وتتابع الوزارات، وما أصاب الملوك من سعود ونحوس، ولكنه حاول أن يترسم آثار الإنسانية في سيرها وتقدمها مرحلة بعد مرحلة، فهو يقول فيه (أريد أن أكتب تاريخاً للمجتمع الإنساني، غير معني بما نشب فيه من حروب، وأن أبين في جلاء ووضوح كيف كان يعيش الأفراد في حياتهم العائلية الخاصة، وما هي الفنون المختلفة التي كانوا يعالجونها، ذلك لأن الموضوع الذي أنا بصدده، هو تاريخ العقل البشري، فلن أسرد الحوادث التافهة الحقيرة، ولن أعني بأخبار الأمراء والعظماء وما قام بينهم من ملوك فرنسا من قتال وعراك، ولكني سأدرس المراحل التي اجتازها الإنسان حتى انتقل من الهمجية إلى المدنية).

وهكذا ضرب فولتير مثلا أعلى للتاريخ كيف يكون، فاهتدى بهديه المؤرخون من بعده، وأخذوا يدرسون ما هو جدير بالدرس ويسقطون من حسابهم تلك التفصيلات الجافة المملة التي لا تتصل بالحياة الا بسبب واه ضئيل، والتي غصت بها مجلدات التاريخ من قبل.

لم يكن فولتير في تلك الروح الجديدة الا مرآة صافية ينعكس فيها ما تضطرب به نفوس القوم في القرن الثامن عشر، لذلك لم يكن هو الكاتب الوحيد الذي اختط لنفسه هذا النهج، بل عاصره منتسيكو وتيرجوا، اللذان نسجا على هذا المنوال في كتابة التاريخ.

وهكذا بدأ المؤرخون يحولون موضوع الدراسة من أشخاص الملوك والأمراء، إلى حياة الشعوب وما يرتبط بها من مصالح. فأخذوا ينقضون الآراء العتيقة البالية، ويبذرون في النفوس بذور القلق والاضطراب، ثم يحتقرون تلك الشخصيات، التي كانت تملأ عظمتها النفوس من قبل، والتي كانت أقرب إلى الآلهة منها إلى البشر.

وبذلك انقلب التاريخ معولا لهدم الملكية والأرستقراطية بعد أن كان أداة قوية للدعاية لسلطانهم. وأصبح قيثارة تنبعث منها نغمات الديمقراطية، وتقديس الإنسان، وتمجيد الأيدي العاملة؛ ثم أخذت تلك الألحان الجديدة تدوي أصداؤها في جنبات أوروبا عامة وفرنسا خاصة، حتى انتهت بالثورة الكبرى، التي ثلت العروش ودكت قوائم

الأرستقراطية دكاً. ولعل ما حدا بفولتير إلى انتهاج هذا الأسلوب في كتابة التاريخ، هو ميله إلى التعميم في دراسته للأشياء. فهو لا يطمئن للبحث في الجزئيات، الا إذا كان ذلك على سبيل الاستشهاد وضرب الأمثلة التي تؤيد قاعدة عامة ومبدأ شاملا. لهذا تراه قد أقام التاريخ على أساس المراحل التي اجتازتها الإنسانية عامة في تطورها؛ أما الملوك ومن إليهم فهم بمثابة الجزئيات من تلك الكتابة الإنسانية؛ فلا يجوز دراستها لذاتها. ولم تقتصر تلك الروح التعميمية على كتابة التاريخ. بل اشتملت روايته أيضاً. فهو لم يحاول أن يصور فيها عواطف أفراد وأخلاق آحاد. إنما قصد إلى إبراز روح العصر الذي وقعت حوادث الرواية فيه.

كان من النتائج الطبيعية لهذه السبيل التي سلكها فولتير في كتابه التاريخ بناء على إكبار العقل الإنساني، وإجلال صفوف الشعب، التي هي نسيج الحياة الاجتماعية ومادتها، انه كان يزهو بحاضره إذا قاسه إلى الماضي، كما كان قوي الأيمان، مزدهر الأمل في مستقبل

الإنسانية، ما دامت جادة في طريقها لا تلوي على شيء، أو على الأصح لا يلويها عن تلك الجادة المستقيمة شيء. لذلك كان يضيق صدرا بمن عاصره من الكتاب الذين كانوا إذا أرسلوا بصرهم إلى المستقبل، ارتد حسيرا إليهم، وإذا جالوا الطرف في حاضرهم، قتلهم اليأس والقنوط؛ فكانوا يولون وجوههم إلى الوراء، يستعيدون صورة الماضي، التي كان يخيل إليهم أنها أقرب إلى الخير والكمال. والشعوب إذا دب فيها دبيب العجز والقعود، التمست في الماضي مثلها إلا على، أما إذا كانت فتية قوية، فهي تنظر إلى المستقبل يحدوها الأمل والرجاء. وليسمح لي القراء أن استطرد قليلا فأقول أنني لا اطمئن إلى هذه اللوعة التي يتردد انينها الحين بعد الحين، أسفاً وحسرة على (السلف الصالح) الذين غيبهم التاريخ في جوفه العميق، سواء أكان هذا السلف من المصريين القدماء أم من العرب. إنما يجب ان نذكر أولئك وهؤلاء كما يذكر الشاب القوي طفولته الضعيفة العاثرة، لا كما يذكر الشيخ المتهدم شبابه الفتي الضائع.

أعود فأقول أن فولتير قد ضاق صدراً بتلك الطائفة من الكتاب، التي كانت تنشد مثلها الأعلى في الحياة الماضية، فلم يتردد في أن يذيع في الناس صورة ذلك الماضي المظلم الغشوم، وأن يطلع أمته على حقيقة العصور الوسطى التي كانت تتخبط في ديجور الجهل والفوضى، حيث كانت أشنع الجرائم ترتكب بغير قصاص، وأشراف الإقطاع يبطشون بالناس بطش العزيز المقتدر بغير حساب؛ وبذلك عرف فولتير كيف يهدم تلك الفئة الضالة المضللة، وعرف كيف يمحو هذا الإعجاب السخيف المصطنع بالماضي البالي العتيق، كما عرف كيف يبسط للناس في الأمل الوارف الظلال؛ وكان المعول الذي اتخذه لتحطيم ذلك جميعا، هو سخره اللاذع وتهكمه القارص بهؤلاء الذين يعيشون في الحاضر بأجسادهم، وفي الماضي بنفوسهم وعقولهم (فليستمع الجامدون!!) وقد أخذ عليه بعض النقاد، انه إنما لجأ إلى السخر عندما أعوزه المنطق الذي يدعم به ما يقول! فأين إذن من هو أقوى من فولتير حجة وأسد منطقا؟! ولسنا نشك في أن من المنطق الا يناقش تلك الطائفة بالمنطق! وإلا فحدثني بربك كيف تجد الحجة العقلية سبيلها إلى نفوس هؤلاء، الذين نبذوا الجديد لأنه جديد، ومجدوا القديم لأنه قديم، مع أن العكس أولى وأقوم، لأنه أقرب إلى سنة الحياة؟!.

لله در فولتير في تلك السخرية التي صادفت أهلها وأصابت مرماها، فقد استطاع أن يسحق

رجال الدين سحقاً، وأن يسقط أعلام الفكر في عصره، الذين أرادوا أن يعودوا بالإنسانية أدراجهاإلى الماضي، وعرف كيف يزلزل عروش هؤلاء وأولئك (وكانت مكينة حينئذ) زلزالا عنيفا، بأن احتقرهم وازدراهم، تارة بالإهمال والحذف، وطورا بتصويرهم في كتاباته في صور تبعث القراء على الضحك.

نعم استطاع فولتير أن يقوض سلطان الكنيسة المخيف، وان يهزأ بالدراسات الكلاسيكية، التي كانت موضع الإعجاب والتقدير حينا طويلا من الدهر. ولكنه لم يكن هداما وكفى، بل أقام على تلك الأنقاض بناءً قويا من الأمل في المستقبل بعد اليأس من الإصلاح، ومن العناية بالشعوب دون الملوك، بعد أن كانت تلك الشعوب في زوايا الإهمال والنسيان وقد استعان على ذلك جميعا بقوة المنطق تارة، وبالسخرية اللاذعة طورا، حتى كتب له النجاح والتوفيق.

هكذا كان فولتير من رسل الديمقراطية في الطليعة، ومن أبطال الثورة الفرنسية في المقدمة، لأنه حطم ذلك التقديس الإلهي الذي كان يحيط بالملوك ورجال الدين، ثم رفع الشعب حتى تبوأ تلك المكانة السامية، فلوح له بمستقبل مزدهر هنيء سعيد، فلعبت تلك الأماني الحلوة بأفئدة القوم، وضاقوا بحياتهم صدرا، وبدأ القلق يساور النفوس. تعجلا لذلك المستقبل الموعود، فأخذ الشعب يتحفز ويتوثب، إلى أن هب في الثورة الكبرى، وحطم ما كان يرسف فيه من أصفاد وأغلال.

لم يعد لويس السادس عشر الحقيقة حين قال، وقد وقعت عينه في السجن على كتب فولتير وروسو: (لقد انقض هذان الرجلان ظهر فرنسا) ويقصد بذلك أسرة البوربون.

ذلك هو فولتير، الذي لم يكن واحداً في عداد الأفراد، بل احتوى في شخصه عصراً بكل ما فيه من عقل وروح، حتى قال عنه فكتور هوجو: (إذا ذكرت فولتير، فقد ذكرت القرن الثامن عشر).

وهذه هي آثار ما كتبه من أدب وتاريخ، واضحة في النعرة الديمقراطية التي تحتوي الأرض من أقصاها إلى أقصاها، فحق له أن يقول: (إن الكتب تحكم العالم).

العلوم

مركز الكون

للأستاذ عبد الحميد سماحه. مفتش مرصد حلوان

في يوم 22 يونيه سنة 1633 وقف العالم الإيطالي الكبير جاليليو جاليلي أمام المحكمة المؤلفة بأمر من قداسة البابا وقتئذ، لسماع الحكم عليه بشأن عقيدته العلمية. وصدر الحكم المشهور فكان لطمة جريئة على وجه الحقيقة العلمية، ليس لها مثيل في التاريخ.

ثبت لدى المحكمة أن جاليليو اعتقد اعتقاداً فاسداً ومنافياً للتعاليم السماوية، بأن الشمس هي مركز الكون وأنها لا تتحرك من الشرق إلى الغرب، وإنما الأرض هي التي تتحرك، وأنها ليست مركز الكون، فحكمت عليه بأن يرتد عن عقيدته هذه وأن يعلن لعنته عليها، واحتقاره لها. ثم بالغت المحكمة في قسوتها، فقضت على جاليليو بالسجن؛ لولا أن تداركته العناية الإلهية، فقد أشفق البابا على الشيخ العظيم، وألغى في اليوم التالي الجزء الأخير من الحكم، ولكنه قضى عليه بأن يلزم عقر داره في الريف، وألا يتصل بأحد الا بأذن خاص.

هكذا جرحت كرامة العلم في شخص واحد من أعز أبنائه. ولم يكن جاليليو في الحقيقة هو صاحب هذه النظرية، فقد زعم بدوران الأرض والقمر والكواكب السيّارة، حول نار مركزية فيلالاوس حوالي القرن الخامس قبل الميلاد. ومن بعده ارستاركس العظيم أحد علماء مدرسة الإسكندرية في أوائل القرن الثالث قبل الميلاد؛ فقد قال بأن الشمس والنجوم كلها ثابتة لا تتحرك، وأن الأولى هي مركز الكون؛ وأن الأرض تتحرك حول محورها مرة كل أربع وعشرين ساعة، وحول الشمس مرة كل سنة، فيتسبب عن حركتها الأولى ظاهرة الليل والنهار، وعن حركتها الثانية ظاهرة الفصول. ولكن أرسطو اعترض على ذلك اعتراضا عظيما فقال: لو أن الأرض تدور حول الشمس لتسبب عن ذلك تغيير ظاهري في مواقع النجوم؛ ولما كانت الأرصاد الفلكية لا تحقق هذه النتيجة، زعم أرسطو بأن الأرض ثابتة لا تتحرك، وأنها مركز الكون. وعلى هذا الأساس وضع علماء الفلك التفسيرات المختلفة لحركة الكواكب السيارة في السماء. ومع أن الأرصاد لم تؤيد تفسيراتهم المعقدة لم يجرؤ واحد منهم على الأنداد عن تعاليم أرسطو الفيلسوف العظيم دهراً طويلا؛ حتى كان منتصف القرن السادس عشر، وفيه نشر كتاب للعالم البولندي كبرنكس وفيه

يفسر المؤلف حركة الكواكب السيارة على أساس نظرية أرستاركس القديمة تفسيراً سهلا، تتحقق بواسطة الأرصاد. فيقول بأن الأرض وجميع الكواكب السيارة تدور حول الشمس. ولكن ما كاد ينشر الكتاب حتى قامت قيامة الكنيسة والجامعات على السواء، وأوصدوا أبوابهم من دون نظرية كبرنكس الجديدة، ووضعوا أصابعهم في آذانهم إذ لم يرق في نظرهم أن يكون مهد الإنسانية ومهبط روح الله عيسى عليه السلام على مثل ما يدعيه كبرنكس في نظريته.

ثم كانت حرب طاحنة بين الحقيقة والوهم، كان النصر فيه حليف الحقيقة؛ لأن جاليليو كان قد أبى بالبراهين العملية على صحة نظرية كبرنكس؛ فرأى بمنظاره الجديد كيف

أن الزهرة تتشكل بأشكال مثل أشكال القمر. وبرهن على أن ذلك لا يكون إلا نتيجة لدورانها حول الشمس. ثم جاءت البراهين تلو البراهين على صحة نظرية كبرنكس حتى ثبتت وأصبحت مما لا يقبل الشك. وتعتبر هذه الحقيقة الحجر الأساسي في علم الفلك الحديث، بل ربما كانت هي أهم الحقائق العلمية على وجه الإطلاق.

بعد ذلك تقدمت الأبحاث العلمية في هذا الاتجاه فوجد أن الشمس بدورها ليست الا واحدة من مجموعة شموس، أو نجوم مثلها يقدر عددها بمائة ألف مليون وهذه المجموعة تسمى المجموعة المجرية، وهي المحدودة في السماء بذلك السديم العظيم المعروف (بسكة التبانة) وهي تشبه في شكلها عجلة السيارة، وتدور حول محور عمودي على سطحها مار بالمركز، وان الشمس مع ذلك ليست هي مركز المجموعة، بل ولا قريبة منه، ولذلك تدور حول المركز بمعدل مائتي ميل في الثانية.

ولما تقدمت وسائل الرصد، خطت الأبحاث العلمية خطوة كبيرة أخرى في هذا الاتجاه، فوجد أن ملايين عديدة من المجموعات كالمجموعة المجرية، وهي المعروفة بالسدائم الخارجة عن المجرة. فالسديم (م 31) من المرأة المسلسلة مثلا يبلغ قطره ربع قطر المجموعة المجرية، ووزنه يعادل وزن خمسة آلاف مليون شمس؛ وانه كالمجموعة المجرية يدور في الفضاء حول محور عمودي على مستوى سطحه.

وتبدو هذه المجموعات في المنظار مختلفة الأشكال نظراً لتباين أوضاعها بالنسبة إلينا.

أما الأبحاث العلمية الحديثة فنسبتها كلها إلى أصل واحد وإلى سلسلة واحدة من التطورات،

فالكروي التام منها مثل (3379 يصبح كرويا ناقصاً مثل السديم (4621 ومع مضي الزمن يصبح كالعدسة المتعصرة من الجانبين مثل السديم (4594 ثم يصير كالقرص أو عجلة السيارة مثل السديم (4565 أو السديم المجري نفسه. وفي منتصف هذه السلسلة من التطورات يبدأ تكون النجوم.

ترى إذن كيف أن مركز الأرض في الكون ضئيل إلى أقصى حد؛ فهي أحد أفراد المجموعة الشمسية تدور حول الشمس (التي هي مركز المجموعة) مرة كل سنة. أما الشمس فهي واحدة من مجموعة عظيمة من نجوم أو شموس تعد بآلاف الملايين؛ وهي الأخرى تدور حول مركز المجموعة. ومثل هذه المجموعة مجموعات كثيرة تعد بالملايين متشابهة في تكونها ومنشئها وتطوراتها.

هذا هو مركز الأرض بالنسبة إلى الأجرام السماوية الأخرى فكيف لو نقيس عليه آمالنا ومطامعنا ومتاعبنا في هذه الحياة؟

الشاي

في عام 543 بعد الميلاد، حضر من الهند إلى الصين ناسك متعبد، يذيع في الناس دينه ويدعو إلى الخير والسلام. وما وطئت رجلاه أرض الصين، حتى نذر أن يصوم عن النوم تسعة أعوام، يتأمل فيها فضائل ربه (بوذا) ويعدد مناقبه، ويسبح بآلائه وحمده، وظل على هذه الحال صاحياً ثلاثة أعوام، ثم غلبه النوم، فلما استيقظ استشاط غضباً من نفسه. ولما كان لكل زلة عقاب، قص أجفان عينيه، وألقى بهما إلى الأرض. ثم أخذ من جديد في التأمل والتعبد خمس سنين أخر، ثم بدأت رأسه تميل للنعاس، ولكن وقعت يده اذ ذاك على شجيرة قريبة، فأخذ يتلهى بمضغ أوراقها، فوجد فيها القوة على مغالبة النوم، ووجد فيها اليقظة المنشودة، فأتم تسعة الأعوام المنذورة في يقظة وتهجد. وكانت هذه الشجيرة تسمى بالصينية (شا).

بهذا تتحدث أساطير الصين. ومهما يكن من الأمر، فلا شك أن الشاي أول ما عرف في الصين، ثم انتقل منها إلى اليابان، وهناك زرعوه تعمداً، ثم انتقل غرباً إلى الهند، فأوربا. ولعل أكثر الأمم الأوربية شرباً للشاي، الأمة الإنجليزية، حتى ليظن ظان أنه نبات متوطن بها، وأن عادة شربه نشأت بداءة في تلك الجزيرة الغربية، ثم تفشت في الأمم مشرِّقة. وليس الأمر كذلك، فان الشاي كان شيئاً نادراً في إنجلترا في منتصف القرن السابع عشر، وكان ثمن الرطل منه نحو عشرة من الجنيهات. وكان شراباً جديداً يسقاه الخاصة في مقاهي مختارة. ولما بدأ يدخل المنازل كانوا يغلونه كما يغلون الخضر، ثم يصفونه، فأما الماء فيصبونه في البلاعة جهلا، وأما الورق فيبسطونه كالمربيات على الخبز المزبود فيأكلونه. وبالطبع صحح هذا الخطأ سريعاً تجار لهم في ذلك مصالح، وزاد المستهلك من الشاي في تلك البلاد عاما بعد عام، حتى أربى في

السنوات الأخيرة على 400 مليون رطل بمعدل نحو من ثمانية أرطال للفرد في العام.
والشاي أوراق شجيرات لا يكاد يزيد ارتفاعها على متر ونصف المتر، تظل خضراء طول العام، فلا تعرو في الخريف، تحمل وريقات صغيرة، يتراوح طولها بين خمس السنتيمترات والعشر، لها شكل كسنان الرمح، وحرف ذو أسنان. وتزرع تلك الشجيرات فلا يقطف منها شيء في العام الأول، فإذا حانت السنة الثانية تهيأت وريقاتها للقطاف، ويزداد المقطوف منها بتتابع الأعوام. ولما كانت تزرع لورقها، لا لخشبها أو ثمرها، كان
لا بد من تقليم أفرعها، كي لا تطول مُصعِدَة، وينتج عن هذا خروج أفرع جديدة من جوانب الأفرع المقلمة، أفرع تكتسي كلها بالورق فيكثر المحصول من الأوراق. وبعد قطف الأوراق تنشَّر على حصر لتجف وتذبل، ثم تدرج وتبرم باليد في ضغط على أسطح من الخشب، والقصد من ذلك تكسير الخلايا لتجود بزيتها العطري، فتطيب رائحته. ويعقب ذلك عملية الاختمار فتعرض الأوراق لدرجة حرارة تتراوح بين 35، 40 درجة مئوية، فتتحول من اللون الأخضر إلى الأصفر، ثم يقتم لونها إقتماما، وذلك بسبب الخمائر التي فيها، فهي تؤكسد بعض حامض التنيك الذي بالورق، فتستحيل إلى مادة ذات لون قاتم تكسب الشاي لونه المألوف. وعملية الاختمار هذه من الأهمية بالمكان الأول، وعلى إجادتها تتوقف جودة الشاي.
أما الشاي ذو اللون الأخضر الذي يباع في الأسواق فيحضر بطريقة كطريقة الشاي الأسود الآنفة، غير انه يحمص قبل تخميره في أوعية تسخن بالغاز تسخيناً هيناً، وهذا التسخين يقتل بعض تلك الخمائر التي كانت سبباً في أكسدة حامض التنيك، وفي إحداث اللون القاتم، فإذا تخمرت الأوراق بعد ذلك، قامت بالتخمير بقية الخمائر التي لم يقتلها التسخين، ولهذا يظل الشاي حافظاً لشيء من إخضراره الأول وانفتاح لونه.
والشاي يحتوي مواد كيميائية كثيرة، أهمها ثلاثة أصول: أولها الزيت الطيار، وهو الذي يكسب الشاي نكهة تصعد إلى أنف شاربه فتجد منها السبيل إلى قلبه ونفسه. ومقدار هذا الزيت بالغ في القلة، ولعله لو زاد لما طاب الشاي شرابا. وثانيهما حامض التنِّيك، ويسمى التنِّين كذلك؛ وهو مادة صلبة سحيقة بين البياض والسمرة تذوب في الماء. ويبلغ مقدار التنين في الشاي على العادة من 10 إلى 17 في المائة من وزن الأوراق. والتنين قابض شديد، تعرف أثره في لسانك إذا تذوَّقته. وسبب قبضه انه يرسِّب الزلال والمخاط اللذين باللسان والفم، وبأغشية الجسم الأخرى كالتي تتبطَّن بها القناة الهضمية من معدة وأمعاء. فتجف تلك الأغشية وتنقبض وتقل إفرازاتها. ولذلك كان التنين دواء للإسهال، ودواء للالتهابات التي تعتري القناة الهضمية. فانه فضلا عن تقليل الإفرازات، فإن الراسب الذي يحدثه عند التقائه بمخاط جدران الأمعاء الملتهبة، يقي هذه الجدران مس الطعام في سيره واحتكاكها بما فيه من بقايا خشنة مؤذية. ويستخدم التنين دواء للثة الدامية، وفي التهاب
الحلق فيتعاطى غرغرة. هذه كلها لا شك فضائل ولكن في المرض، أما في الصحة فهي مؤذيات يزيد أذاها بالإسراف من شرب الشاي. فمن ذا الذي يحب الإقلال من إفرازاته الطبيعية التي عليها مدار الهضم؟ ومن ذا الذي يحب أن يستعيض عن معدته الطرية الملساء بما فيها من مخاط بمعدة كجلد القرب؟ عرفت سيدة عجوزا يؤذيها الشاي خفيفا، ولكنها تستريح عليه إذا كان ثقيلا كلون الدم السكيب. وكانت تتعاطاه في بدء كل طعام وفي آخره؛ وما ذاك الا أنها كانت قريحة المعدة لا تحتمل مس الطعام وإن لان. ولكن ليت شعري عمَّ يتساقاه فلاحونا عافاهم الله، فتلك بكارجهم لا تكاد تطفأ من تحتها النار، فيقذفون فيها بالماء فالشاي، فالماء فالشاي، حتى يصبح الشراب أقتم من طالعهم الأسود، أعن أمعدة قريحة يتساقونه فيجدوا فيه شفاء من ألم؟ أم لأنهم لم يجدوا في سوء الغذاء وقلته وفي الامراض الكثيرة المتوطنة بمصر كالبلهارسيا والانكلستوما أداة كافية لهد قواهم فاتخذوا من الشاي في العقد الاخير أداة جديدة تقتل في بطأ وطول؟
وثالث الأصول التي بالشاي وأهمها مادة قلوية تسمى بالكافيين، وإن شئت قلت القهوتين، وإن شئت قلت الشايين، وهذه كلها معناها الأصل الفعّال في الشاي أو في القهوة المتعارفة؛ فالأصلان واحد. وهذا الأصل أهم ما في هذين الشرابين من الأصول الطبية. أما أثره فيظهر في مراكز المخ العليا، فهو يزيد في يقظة العقل عامة، وفي

المقدرة على الحكم في الأمور وعلى حسن الاستنتاج، وربط الفِكَر. وهو يذهب بالتعب عقليا كان أو جثمانياً. ولعل شرب الناس له في العصر بعد انقضاء أكثر عمل اليوم، كان لحكمة اهتدى إليها الشاربون بغريزتهم. وهو فوق ذلك يدرّ البول.

وللشاي في الأمم المدنية الحديثة أثر اجتماعي كبير، فقد اتخذت منه تلك الأمم وجبة خفيفة، خفيفة على المعدة وعلى الجيب على السواء، يجتمع عليها أهل الأعمال يتحدثون برهات قصيرة، وأهل المودة يتسامرون ساعات قليلة، ويلتقي عليها الأحباب في برء وعفة، يتجاذبون أطراف الأحاديث الحلوة، يبطون بالطعام خفيفة، وقلوب بالحب مفعمة ثقيلة.

القصَص

يوم عصيب في جبل المقطم

للأستاذ محمد الدمرداش محمد. مدير إدارة السجلات والامتحانات بوزارة المعارف

كان ذلك في يوم جمعة في شهر فبراير سنة 1919، ولم أكن وقتها حديث عهد بجبل المقطم، أو قليل خبرة بوديانه وطرقاته، ولكنها حالة طارئة من النوع الذي يبتلى به رواد الصحراء. فتودي بهم أو تجعلهم يتخبطون فيها على غير هدى، إلى أن تنتشلهم العناية الألهية (كانت تجربة قاسية ولكن الله سلم)، ولا يظنن القارئ أن هذه التجاريب وأمثالها تصد رواد الجبال والصحراوات عن رحلاتهم، بل هي مما يزيد في خبرتهم وحماستهم ويجعلهم (معيدين) يقدمون غير هيابين أو وجلين.

خرجت من منزلي في هذا اليوم في الصباح الباكر، وبصحبتي أحد الأصدقاء نقصد زيارة الغابة المتحجرة الكبرى بجبل المقطم على أربع ساعات من القلعة بالسير الحثيث جهة الجنوب الشرقي وكان اليوم صحواً، والطقس معتدلا، والهواء ساكناً، وكنا على عزم أن نعود بعد الظهر بقليل، فلم نأخذ معنا ماء ولا طعاما سوى شطيرتين (سندوتش) لكل منا. وكانت ملابسي خفيفة وليس معي من مرافق الرحلات الجبلية سوى عصا قصيرة.

وصلنا المنشية في منتصف الساعة السابعة، ثم درنا حول القلعة من جهة (عرب اليسار) وبعد أن اجتزنا تكية سيدي المغاوري أخذنا نرتقي الجبل؛ وبعد نصف ساعة وصلنا هضبة المقطم السفلى، وبعد أن مررنا بقلعة الجبل ومقام سيدي الجيوشي أخذنا طريقنا إلى هضبة المقطم العليا، ثم أخذنا نسير في نفس الطريق الذي يسلكه عادة الذي يقصدون (عيون موسى) وبعد ساعة مررنا بعيون موسى، ثم انحدرنا إلى وادي اللبلابة وهو واد متسع قليل الارتفاعات، فأخذنا طريقنا فيه متجهين نحو الجنوب وبعد ساعتين من عيون موسى وصلنا الغابة المتحجرة الكبرى بعد أن قطعنا نحو 18 كيلو متراً.

كانت الساعة وقتئذ العاشرة والنصف. وكنا على أحسن ما نكون نشاطاً وسروراً، وكانت الشمس ساطعة، والهواء دافئاً منعشاً، وبعد أن استرحنا قليلا تناولنا ما كان معنا من الطعام.

ثم انطلقنا نجوس خلال الغابة باحثين مستطلعين. فهذا جذع شجرة ملقى على الأرض تخاله من بعد أنه جذع شجرة حقيقي. فإذا تبينته عن قرب وجدته قطعة من الصخر الرملي. فالرمل قد حل مكان الخلايا النباتية بألوانها وأشكالها وتعرجاتها، وإذا طرقته بقطعة من الصخر أعطى صوتاً له رنين المعدن (وهذا فرع شجرة حل به ما حل بالجذع) وقد قضينا في الفرجة نحو الساعتين، وكان كل شيء حتى الآن على ما يرام، ولكن لم نكد نتهيأ للرجوع حوالي منتصف الساعة الواحدة. حتى شعرنا بأن ريحاً شمالية غربية باردة بدأت تهب في وجوهنا، ثم تلبد الأفق من جهة الغرب بسحب كثيفة، وزادت سرعة الريح. وبعد قليل انتشر في الجو ضباب كثيف وحوالي الساعة الواحدة سقط رذاذ خفيف وبدأت الشمس تحتجب وراء السحب.

فلما تغير الحال كما رأيت عولنا على العودة مسرعين، فاتجهنا نحو الشمال الغربي قاصدين السير في نفس الطريق الذي سلكناه في الصباح ونظراً لتلبد الجو بالضباب واختفاء الشمس. اعتمدنا في تعرف الجهات على هبوب الريح، فجعلنا نسير في الاتجاه المضاد لهبوبه. وبعد أن سرنا نحو ساعة بالسير الحثيث لحظت أن معالم الطريق بدأت تتغير. فلم أهتم لذلك ظناً مني أنه ربما انحرفنا قليلا جهة الشرق أو

الغرب، ولكن بعد ساعة أخرى أدركت أني أسيره في طريق لم آلفه من قبل فساورني بعض القلق وأخذ صاحبي يسألني عن موضعنا بالنسبة للقلعة ومتى نصل وهكذا من الأسئلة المتنوعة، كنا قد وصلنا في هذا الوقت إلى واد صخري عميق ظننته لأول وهلة وادي عيون موسى. ولكن بعد أن نزلناه وسرنا فيه قليلا تأكدت انه غيره، وهنا أمطرتنا السماء مدراراً فتبللت ملابسنا وتوحل الطريق فأعاقنا عن السير، ثم برد الجو، فلم نر بداً من الالتجاء إلى مغارة قريبة لنستريح فيها قليلا، فلما خف المطر استأنفنا السير في نفس الاتجاه، وبعد ساعة أخرى أدركت تماماً أني أسير على غير هدى وأيقنت بعد أن تنكر الطريق أني قد ظللت، فتملكني ضيق شديد وساورتني المخاوف وأخذت أندب سوء المصير في هذه المفاوز حيث لا ماء ولا طعام ولا غطاء، ولكني وجدت من الحكمة ان أخفي حالي عن صاحبي، فكتمت كربي وتكلفت الاطمئنان تكلفا وكنت كلما سألني عن القلعة وعن سبب تأخرنا أجبته أنا لابد واصلان إن شاء الله، ولكن بالرغم من محاولتي إخفاء اضطرابي وتصنعي الهدوء لحظ صاحبي في وجهي شدة الحيرة والقلق، فأخذ يشكو الجوع والبرد والتعب، وزاد الطين بلة أن ثارت في وجهنا في هذه اللحظة زوبعة رملية شديدة وهطل المطر كأنه أفواه القرب فعميت عيوننا وأصبحنا غرقى في لجة من الماء والوحل، وكنا عندئذ نسير على ظهر جبل عال لا يزيد عرضه على عشرين متراً، وعن شمالنا واد عميق جدرانه قائمة كالطور ولا يقل انخفاضه عنا عن مائة متر أو يزيد، وعن يميننا واد آخر كالأول الا أنه أكبر اتساعا وأقل انحداراً، وكان الظلام منتشراً في كل مكان، وريح باردة عاتية تسفي في وجوهنا الرمل والتراب باستمرار، فتعذرت الرؤية واشتد بنا الكرب وتوقعت في كل خطوة أن نهوى في هوة عميقة أو نسقط على الأرض من الإعياء. طلب مني صاحبي ونحن في هذا الموقف الحرج أن نأوي إلى ملجأ يقينا البرد والمطر وشكا إلى ما حل به من التعب المضني. فطيبت خاطره وشجعته ثم أفصحت له عن حقيقة موقفنا بكلمات قليلة ورجوته أن يصبر، وقلت له أن الليل قد داهمنا وليس لنا من واق في هذه الجبال الا رحمة الله. وأن الوقوف عن الحركة يضر بنا فملابسنا مبللة وبطوننا خاوية والبرد قارص ولا فائدة من التذمر، ثم أردفت ذلك قائلا: ربما كنا أقرب إلى السلامة مما يبدو لنا الآن. فلما وقف صاحبي على ما نحن فيه اضطرب كثيراً ولكن لم يلبث لحسن الحظ أن سلم أمره لله وقال سر بنا وسأتبعك فالله سبحانه يتولانا بلطفه وهدايته. ثم قال: ولماذا لا نسير في عكس اتجاهنا خصوصا وإنا قد جربنا السير في اتجاه مضاد للريح ولم نصل إلى غاية. فقلت له ربما لحظت أني دائما أسير والريح في وجهي وذلك لأني أعلم أن هبوب الريح في مصر في هذا الشهر من السنة يكون عادة من الشمال الغربي أو الغرب، فالسير في هذا الاتجاه أسلم عاقبة ما دمنا لا نملك وسيلة أخرى من وسائل الاهتداء إلى الجهات الأصلية. ولا بد أن يؤدي بنا السير آجلا أو عاجلا إلى وادي النيل. فقال عسى! ثم سكت. وبعد أن قطعنا مرحلة أخرى رأيت من الحكمة أن التجئ إلى الوادي بسبب الظلام الدامس والبرد القارص فاخترت نقطة ظننت أنها ربما تكون أقل خطورة للهبوط إلى الوادي، وأشرت إلى صاحبي أن يتبعني وأن يكون حريصاً منتبها وأن يستجمع كل قواه حتى لا تزل قدمه فيهوى إلى الحضيض، فأومأ بالإيجاب، وفي أقل من نصف ساعة وصلنا بطن الوادي بسلام وبعد أن استرحنا قليلا أخذنا طريقنا متبعين تعاريج الوادي قائلاً في نفسي إن كتب علينا البقاء في هذه البيداء هذه الليلة فسنجد في إحدى المغاور ملجأ وحماية.

بعد أن سرنا في الوادي نحو كيلومتر فطنت إلى أننا متجهان نحو منبع الوادي من اتجاه الحشائش في أنحائها. فعدنا أدراجنا مؤملا إن نحن واصلنا السير أن نصل إلى مدخل الوادي في وقت قريب، وعندها ربما نهتدي إلى طريق يوصلنا إلى مكان يكون لي به معرفة.

في هذا الوقت العصيب ظهرت بارقة أمل على غير انتظار بددت كثيراً من غمنا وكآبتنا وأعادت إلينا شيئا من الطمأنينة والثقة، كانت الساعة السادسة والنصف مساء عندما أدركت أن لي بالوادي الذي نسير فيه معرفة سابقة من بعض الشواهد والعلامات. وبعد قليل ترجح عندي من تعاريج الوادي ونظامها إنا نسير في (وادي دجلة) ثم لم نلبث طويلا حتى ثبت لي من علامة مميزة في الحائط الجنوبي للوادي، وهي فتحة

مغارة لها شكل خاص، من أن الوادي هو وادي دجلة حقيقة، فكدت أطير من الفرح وأخذتني نشوة سرور أعجز عن وصفها ولا يشعر بمثلها الا من كان في مثل موقفنا وحالتنا عندما تنتشله العناية الإلهية من ضيق مهلك إلى سلامة مؤكدة، ثم أخذت أفكر فيما عسى أن يكون قد جرى لنا حتى تحولنا عن وجهتنا الأصلية إلى هذا الوادي.
ووادي دجلة واد طويل يبلغ طوله من مدخله حتى نهايته نحو أثنى عشر كيلومتراً، كثير التعاريج ينتهي بشلال غاية في الجلال. يقصده كثيرون من محبي الرحلات الجبلية للتفرج على مشاهده الفريدة ومناظره البديعة ويقع مدخل الوادي في الشرق من (طره) وعلى بعد ساعة ونصف منها، وتمتد بينهما سلسلة من التلال تخفي مدخل الوادي وتجعل الوصول إليه متعسرا. وعقب الأمطار الغزيرة يترع الوادي بالماء ويخرج منه أحياناً سيل جارف يهدد المنطقة حول طره بالإتلاف والغرق.
وبعد أن بشرت صاحبي بالخلاص من الورطة، وبعد أن انتعش وعادت إليه بشاشته أخذت ونحن نسير في الوادي أقص عليه بعض ما صادفته من المواقف الحرجة في رحلاتي السابقة وكيف كنت أخرج منها في كل مرة سالما بتوفيق الله. وبفضل الاطمئنان ورباطة الجأش وقوة ذاكرتي التي تحفظ كثيراً من العلامات المميزة للجبال والوديان التي أزورها.

المبارزة

للكاتب الروسي اسكندر بوشكين

لا يعبأ الذين يعيشون في العواصم بالحوادث الصغيرة لانشغالهم بما هو أهم وأخطر. ولا يتصورون ما يكون لهذه الحوادث على ضآلتها من الخطر والأثر في المدن الصغيرة والقرى البعيدة. . مثال ذلك وصول البريد، ففي يومي الجمعة والثلاثاء من كل أسبوع تكتظ مكاتب المعسكر بالناس. هذا ينتظر نقوداً وذاك رسالة وهؤلاء يسألون عن الصحف. كل يتلقف ما له في شغف واهتمام. وأذكر أن رسائل سيلفيو كانت تعنون إلى معسكرنا، وانه كان يزورنا وقت وصول البريد لتسلمها. وفي أحد هذه الأيام تسلم خطابا، فلما لمح اسم الجهة الصادر منها حتى لمعت عيناه وأسرع بفضه وقراءته في تأثر وحماس.
وبالطبع لم يدرك أحد سواي هذه التغيرات التي بدت في ملامح وجهه وحركات يديه لانشغال الجميع بقراءة رسائلهم.
وبعد لحظات التفت الرجل إلينا قائلاً (يضطرني العمل إلى مغادرة القرية هذا المساء، وأنا لذلك أدعوكم لتناول الغداء معي اليوم للمرة الأخيرة، وكلي أمل ألا أحرم من لقائكم جميعا) ثم أشار إليّ بالذات وقال (وكم أتمنى أن أراك بينهم!) ثم أسرع بمغادرة المكان كما أسرع كل منا إلى جناحه الخاص بعد أن اتفقنا على إجابة الدعوة.
ووصلت إلى منزل سيليفيو في الساعة التي عينها فوجدت ضباط الفرقة جميعا هناك، ورأيت كل أثاث المنزل قد جمع وربط استعداداً للرحيل، وأبصرت الجدران عارية من أغلفة الرصاص. . جلسنا إلى المائدة وأكلنا هنيئا وشربنا حتى ثملنا، وكنا نكثر من الخمر التي ما أن نصبها في الكؤوس حتى تغرينا بزبدها ورائحتها فنتجرعها، ولما انتهينا (وكنا قد أطلنا الجلوس) لبسنا قبعاتنا وهممنا بالانصراف راجين لمضيفنا العزيز التوفيق في رحلته، فأجاب شاكراً وأخذ يرد تحية ضيوفه واحداً واحداً حتى جاء دوري فأسر إليّ (إنني أريد أن أتحدث إليك برهة من الزمن!) فلم أر بداً من المكوث بعد انصراف الآخرين.
جلس كل منا قبالة صاحبه وأخذنا ندخن في سكون، وقد كان سيليفيو متعبا شاحب الوجه، وان عجبت لشيء فلم أعجب الا من هذا التغير الفجائي الذي بدا عليه، فقد غاض ذلك السرور الذي أشرق به وجهه ساعة الغداء، واختفى بريق عينيه وضعفت نظراته وأصبح منظره وهو ينظر إلى سحائب الدخان المتصاعدة من غليونه منظر الشيطان!
وبعد بضع دقائق قال: (قد لا نلتقي بعد هذا المساء، ولذلك أرى من واجبي أن أشرح لك بعض أمور لا أشك في أنك تساءلت عنها بينك وبين نفسك. . . وأنا وإن كنت لا أعير آراء الشباب اهتماما سأخبرك عما تريد لأنني أميل إليك وأعجب بك!) ولما رآني أسكت وأتحاشى نظراته أفرغ غليونه وواصل حديثه (لقد دهشت على ما أرى لتصرفي

مع الضابط السكير رسيانوف في الليلة التي تذكرها ولا شك، وأظنك عجبت عندما علمت إنني لم أغسل الإهانة التي لحقتني ومع هذا فأنا اعتبر عدم إقدامي على مبارزة ذلك الأحمق كرماً مني، لأني (وقد كان اختيار السلاح لي) أثق بانتصاري عليه وقتله مهما كان السلاح، ومهما كانت طريقة المبارزة، ولكني في الواقع لا أملك حياتي!؟).

نظرت إليه في دهشة واستغراب. . . ومضى يقول: منذ ستة أعوام تلقيت ضربة من شخص لا يزال على قيد الحياة!؟ هنا زادت دهشتي فسألته مسرعا: أو لم تقابله؟. لا ريب في أن ظرفا خاصا منعك من لقائه فأجاب: (لقد قابلته، وهذا ما أسفر عنه لقاؤنا).

وقام وأحضر من صندوق قريب قلنسوة من القماش الأحمر لها زر معقود وضفائر مموهة مثل القبعات التي يسميها الفرنسيون ولما لبسها رأيت ثقبا يدل على أن رصاصة اخترقتها على مسافة بوصة واحدة من الجبهة!

وواصل حديثه قائلا (أنت تعرف أنني كنت في فرقة الفرسان الإمبراطورية، وتعرف خلقي فأنا أحب أن أسود الجميع، ولقد كانت هذه الرغبة في السيادة أيام شبابي قوية إلى درجة الجنون، وكانت لذة الشبان في المشاجرة وقت ذاك، ولهذا كنت شيخ المتشاجرين وزعيمهم في الفرقة، وكنا نفخر بالسكر والعربدة، أما أنا فكنت أفوق في الشراب (ب) الشهير في أغنية دافيدوف. . لي في كل يوم مبارزة أمثل فيها الدور الأول أو الثاني فينظر ألي زملائي نظرة الإعجاب، أما رؤسائي فكانوا يعتقدون أنني كالطاعون الذي لا خلاص منه
ولا نجاة!

وظللت أعيش وسط معالم الانتصار وعلائم الرهبة حتى نقل إلي فرقتنا شاب غني) من أسرة نبيلة، وأنا لا أريد أن أذكر لك اسمه، ولكن ثق أنني لم أقابل شخصاً له حظ هذا الشاب، فيه كل ما تتصور من القوة والنشاط، وكل ما تحلم به من الجمال والرشاقة، وكل ما تتمناه من الذكاء وسرعة البديهة والرقة في الحديث بل كل ما تصبو إليه من الثروة والبذخ. . . فيه كل هذا وأكثر منه: إقدام غريب لا يعبأ بالخطر أو الموت، ولا يفكر في الهزيمة. . . فما أن وصل هذا الشاب فرقتنا حتى تلاشى نفوذي وزالت سطوتي، وقد أراد أول مجيئه مصاحبتي لما رآه من الزعامة المعقودة عليّ، ولكني قابلته بفتور ولذلك تركني دون أن يظهر عليه شيء من التأثر).

وأقول لك الحق لقد كرهته لما رأيت من شغف الجميع به واحترامهم إياه ولما) شاهدته من إعجاب السيدات به وتهالكهن عليه وكم حاولت أن أجره إلى الشجار معي بأسلوبي التهكمي اللاذع وسخريتي المتصلة، ولكنه كان يجيب على ذلك بسرعة خاطره وذكائه وميله إلى السرور. . كنت أجدّ دائما وكان يمزح دائما، وفي النهاية بينما كنا في منزل بولندي نحضر حفلة من حفلات الرقص أسررت في أذنه جملة مهينة لكرامته لما رأيته من شغف ربة البيت به وصدوفها عني مع أنها كانت تعيدني قبل أن تتعرف إلى هذا الشاب الغني الجميل فما كان منه الا أن صفعني، فأسرعت إلى سيفي وأسرع إلى سيفه. . وقامت الدنيا وقعدت. وفقد بعض السيدات صوابهن، واندفع زملاؤنا وحالوا بيننا وبين الشجار؛ ولكنا غادرنا المكان رغبة منا في المبارزة الصريحة حتى يغسل كل واحد منا الإهانة التي لحقته بالدم!

وذهبت مع شهودي الثلاثة إلى المكان المعهود، وكنت أنتظر غريمي في قلق) واضطراب. . طلعت الشمس وأخذت حرارتها تزداد شيئاً فشيئا، وأتى يتهادى في مشيته مرتدياً قميصه واضعاً رداءه الرسمي على كتفه، يحمل في يده قبعته التي ملأها بفاكهة الكرز ولم يكن معه غير شاهد واحد.

أقمنا الشهود في نقطتين تبعد إحداهما عن الأخرى باثنتي عشرة خطوة، وكان من حقي أن تكون طلقتي الأولى، ولكني رفضت لما كنت أخشاه من أخطائه في حالتي العصبية. ورفض هو الآخر ولذلك تركنا المسألة للمصادفة وكانت في جانب هذا الشاب الذي أفسده

الحظ الحسن. أطلق رصاصته ولكنها اخترقت قبعتي ولم تصبني بسوء، وجاء دوري فشعرت أنه تحت رحمتي فأستطيع إذا شئت أن أسلبه نعمة السعادة بل نعمة الحياة. . نظرت إليه في شوق، وكنت أنتظر أن أراه ممتقعاً شاحب الوجه. ولكن خاب ظني لأني رأيته يأكل فاكهته في هدوء واطمئنان ويلقي بالبذور إلى ناحيتي فتتساقط

(تحت أقدامي.
فكرت في نفسي ماذا أجني من أخذ حياة هذا الشاب الذي لا يعنى بالحياة! ولمعت)
عيناي عندما خطر لي خاطر غريب، وأفرغت بندقيتي وقلت له، يخيل ألي أنك لا تهتم
كثيراً بموتك أو حياتك في هذه اللحظة، وأنك تعنى بأفكارك أكثر من عنايتك
بالمبارزة. . ليكن ما تراه فليس عندي الرغبة في إزعاجك.
فأجاب: أحب أن تلزم عملك فقط، وأرجو أن تطلق رصاصتك ولكن يجب أن تذكر أن
(لك أن تطلقها في المكان والزمان اللذين تشاء، وأنا رهن إشارتك في كل حين!)
غادرت المكان وأنا أقول لشهودي أنا لا أرغب في إطلاق رصاصتي في هذا اليوم)
وانتهت المسألة وقت ذاك على هذه الصورة
ثم أرسلت استقالتي من الجيش واعتكفت في هذه القرية المتواضعة وأنا لا أفكر في
(غير شيء واحد هو الانتقام، وقد جاء وقته!)
وعندئذ أخرج سيليفيو الرسالة التي تلقاها هذا الصباح من أحد معارفه (ولعله محاميه)
يقول له في أن الرجل (المطلوب) سيتزوج في القريب العاجل من فتاة رائعة الجمال.
. ثم مضى في حديثه يقول (وليس من شك في أن الرجل المطلوب هو عدوي الذي
أريد الانتقام منه. وها أنا ذاهب إلى موسكو. وسأرى إذا كان يقابل الموت وسط أفراح
العرس بالفتور الذي قابله به وقت ذاك. وفي يده رطل من فاكهة الكريز)
ولما نطق بهذه الكلمات ألقى بقبعته إلى الأرض. منفعلاً ثم أخذ يسير في الغرفة جيئة
وذهاباً كما يسير النمر المحبوس! ولم أعترضه أثناء حديثه فقد ملك لبي واسترعى
انتباهي وأثار في أنواعاً متضاربة من العواطف.
ودخل أحد الخدم يقول لسيده. إن العربة قد أعدت، وهنا تناول سيليفيو يدي وصافحني
في حرارة، وركب العربة التي كان فيها صندوقان يحتوي أحدهما على أسلحة الرجل
وبنادقه ويحتوي الآخر على أدواته وملابسه. . ثم حياني مرة أخرى قبل أن تتحرك
العربة، وفي
. . .الحق لقد كان وداعاً مؤثراً!
عبد الحميد يونس
العدد 7 - بتاريخ: 15 - 04 - 1933
. . .في العيد
في ذات مساء اشتد فيه الصراع بين بواكر الربيع وأواخر الشتاء، ارتفع من بين ضجيج
القاهرة ولغط النهار الراحل، طلقات ضعيفة من مدفع عتيق. . وتألقت في شرفات
المآذن الشم مصابيح الكهرباء بغتة. . فعلم الناس بمقتضى التقاليد أن غداً يوم
العيد. .!
راح قوم يقضون ليلهم بين وحشة القبور ورهبة الموت، في غير إدِّكار ولا اعتبار ولا
خشية! وبات آخرون يتعهدون كباش الأضاحي بالعلف، ويشحذون لصباحها المدى
والسواطير. . .!
وأصبحت القاهرة دامية البيوت، حامية المطابخ، شديدة الجلبة: وبيوت الله التي نزل
فيها العيد من السماء، تنتظر المؤمنين للصلاة والدعاء، فلم يغشها إلا فئات من العمال
والبوابين والخدم.!
أما السراة والأوساط، فقد خرجوا من هندام الأمس، واهتمام اليوم، يستقبلون العيد
في القهوات والحانات، بين لعبة النرد الصاخبة، وأحاديث الدواوين المعادة! فإذا تلاقى
في الطريق صديقان، أو تراءى في القهوة قريبان، تبادلا في فتور تحية العيد، ثم مضى
كل منهما لشأنه!!
ذلك هو العيد أو ما يقاربه في مصر وفي سائر البلاد العربية.! فلولا مرح طافر يقوم
بالأطفال في هذا اليوم لعطلة المدارس، وجدة الملابس، وسحر النقود، وفتنة اللعب
المرَّ كسائر الأيام حائل اللون تافه الطعم بادي الكآبة!
فليت شعري ماذا حاق بنا من الأحداث والغِيَر حتى غاضت ينابيع المسرة في القلوب،
وماتت أحاسيس البهجة في النفوس، وتحللت أواصر المودة بين الناس، وآل أمر
العيدين (وهما كل ما بقى في أيدينا من مظاهر الوحدة الدينية والعزة القومية) إلى
هذه الصورة الطامسة والحال البائسة؟!
لا نستطيع أن نتهم حسرة الحزن على الماضي، وذلة الضعف في الحاضر، فإن أعياد

اليهود وإن فقدت بذلك مظهرها الاجتماعي، لم تفقد روعة الدين في الكَنيس، ومتعة الأنس في البيت، وجمال الذكرى في الخاطر.
وأعياد إخواننا في الوطن والجنس والمجد والأسى من نصارى الشرق لا ينقصها الرواء والإخاء واللذة.
كذلك لا نستطيع أن نتهم المادية والمدنية، فانهما (وإن جنَتا على بعض الأخلاق الكريمة كالإخاء والإخلاص والمروءة والرحمة) لم تجنيا على نزعات السرور في النفوس، ولم تقضيا على غرائز اللهو في الطباع، بل ازداد الناس بهما في ذلك شراهة وحدَّة.
والأعياد الأجنبية التي تشهدها مصر في ذكرى الميلاد ورأس السنة غاية في نعيم الروح والجسم، وآية في سلامة الذوق والطبع، وفرصة ترى فيها القاهرة (وهي متفرجة) كيف تفيض الكنائس بالجلال، وتزخر الفنادق بالجمال، وتشرق المنازل بالأنس، وتمسي الشوارع وبيوت التجارة ودور اللهو مسرحا للحسن، ومعرضاً للفن، ومهبطاً للسرور، وتصبح أعياد القلة القليلة مظهراً للفرح العام، ومصدراً للابتهاج المشترك!
وهي من وراء ذلك كله من أقوى العوامل في توثيق العلاقة بين الله والإنسان بالصدقات، وبين الأصدقاء والأقارب بالهدايا، وبين الكبار والصغار باللعب، وبين الإنسان والإنسان بالمودة.
إذن ما هي الأسباب الصحيحة التي مسخت حياتنا هذا المسخ، وشوهت أعيادنا هذا التشويه، فجعلت المظاهر فيها خروفا يذبح ولا يضحَّي، ومدافع تساعد المآذن ولا تجاب، وأياما كنقاهة المريض كل ما فيها همود ونوم وأكل؟؟
الحق أن لذلك أسباباً مختلفة، ولكنها عند الروية والتأمل ترجع إلى سبب رئيسي واحد: هو غيبة المرأة عن المجتمع الإسلامي. . . ذلك السبب هو علة ما نكابده من جفاء في الطبع، وجفاف في العيش، وجهومة في البيت، وسآمة في العمل، وفوضى في الاجتماع.
كرهنا الدور لاحتجاب المرأة، وهجرنا الأندية لغياب المرأة، وسئمنا الملاهي لبعد المرأة، وأصبحنا كالسمك في الماء، أو الهباء في الهواء، نحيا حياة الهيام والتشرد، فلا نطمئن إلى مجلس، ولا نستأنس لحديث!
فإذا لم تصبح المرأة في البهو عطر المجلس، وعلى الطعام زهر المائدة، وفي النَّدِي روح الحديث؛ وفي الحفل مجمع الأفئدة، فهيهات أن يكون لنا عيد صحيح، ومجتمع مهذب، وحياة طيبة؛ وأسرة سعيدة!.
أحمد حسن الزيات
التجديد في الأدب
للأستاذ أحمد أمين
- 2 -
عرضت في مقالي السابق للبحث في الألفاظ وما تتطلب من جِدة؛ واليوم أعرض لضرب آخر من ضروب التجديد وهو التجديد في العبارة، وأعني بالعبارة الجملة التي يؤدَّى بها المعنى على اختلاف ألوانها، من حقيقة ومجاز وتشبيه واستعارة وكناية.
ومما لا شك فيه أن البليغ يستمد تشبيهاته واستعاراته وما إلى ذلك مما يحيط به من بيئة طبيعية واجتماعية. فالأدب الجاهلي (مثلاً) صورة صادقة لمعيشة العربي في الجاهلية؛ إذا بكى، فإنما يبكي الأطلال والمنزل الداثر والرسم العافي. وإذا رحل، فعلى ناقة أو بعير. وإذا أعجبه نبت، فالشيح والقيصوم، والخزامى والعَرار. وإذا ذكر النسيم، فصبا نجد. وإذا حن إلى مكان، فموطنه من الرقمتين ورَضوى وثَبير. كذلك كان في تشبيهاته واستعاراته وأمثاله: يستوحي ما يحيط به، ويستلهم ما يقع حسه عليه. فقال: استنوق الجمل، وهو أعز من الأبلق العقوق، وأبدت الرغوة عن الصريح، وهم أكثر من الحصى، وهو ليث غابة، وما تُحَلُّ حَبْوته، وألقى حبله على غاربه، وقصُرت الأعنة، واشتجرت الأسنة، وزلزلت الأقدام من رنين القِسِي، وقراع الرماح، وطحنهم طحن الرحى، ومطله مطل نعاس الكلب، وكالباحث عن حتفه بظلفه، وحط راحلته، وضرب أوتاده، وألقى عصاه، والقافلة تسير والكلاب تنبح. إلى كثير من أمثال ذلك، فهم في كل هذا يصفون حياتهم، ويشتقون منها تشبيهاتهم، ويضربون منها أمثالهم.
وتتابع أدباء العرب بعدُ يزيدون في التعبير، تبعاً لتغير المعيشة الاجتماعية، وتقدمهم في الحضارة. فقالوا: صندل الشراب وعنبره (وكأن أخلاقه سبكت من الذهب المصفى)

ويكاد يسيل الظرف من أعطافه، ويمازج الأرواح لرقته (قد دس له الغدْر في الملَق) وهو من صيارفة الكلام، يتطفل على موائد الكتاب، وكأن ألفاظه قطع الرياض، وكأن معانيه نسم الآصال. وهكذا كانت العبارات المحدثة في العصر العباسي تخالف من وجوه كثيرة العبارات الجاهلية والأموية.

وقد جارى المؤلفون الأدباء: يدونون ما اخترعوا، ويقيدون ما أبدعوا. فرأينا عبد الرحمن الهمذاني يجمع في كتابه (الألفاظ الكتابية) العبارات المختارة من جاهلية وإسلامية ورأينا الحصري يملأ كتابه (زهر الآداب) بفصول يعنونها (ألفاظ لأهل العصر) يجمع تحتها ما اخترعته أهل عصره من تعبير رقيق وتشبيه أنيق. ونهج المؤلفون بعد هذا المسلك حتى كانت خاتمتهم إبراهيم اليازجي في كتابه (نجعة الرائد وشرعة الوارد) جمع فيه أحسن العبارات والألفاظ مما قال السابقون والمحدثون إلى عصره.

وبعد، فلو قارنا بين الأدب العربي الحديث، والأدب الغربي في هذا الباب، أعني باب العبارة، وجدنا في أدبنا العربي قصوراً ظاهراً، وضعفاً بيناً.

ذلك أن الأدب الغربي ساير الزمن، واعترف بكل ما حدث فيه، واستمد منه، على حين أن الأدب العربي الحديث أغمض عينه عن كل ما كان، ولم يعترف بوجوده. نظر الأدب الغربي إلى ماضيه وحاضره ومستقبله؛ ولم ينظر الأدب العربي إلا إلى ماضيه. وزّع الأدب الغربي لفتاته لينظر نظرة شاملة وثبَّت الأدب العربي عينيه فيما وراءه، فلم ينظر إلا إلى قديمه، فكان ناقصاً، لا يسايرنا ولا يصفنا ولا يمس حياتنا، وإنما يمس حياة آبائنا.

اعترف الأدب الغربي بالأدب القديم فأخذ منه خيره، واعترف بالدنيا الحديثة فاستمد تشبيهاته واستعاراته منها، رأى في دنياه مخترعات ومستكشفات لا حد لها من كهرباء ومواد كيميائية وطيارات وغواصات وغازات وأضواء وراديو وما لا يحصى كثرة. كل هذه الأشياء قلبت الحياة الاجتماعية رأساً على عقب. فلماذا لا تقلب الأدب؟ فأقبل الأديب عليها يتعرفها، ويستلهمها تشبيهات واستعارات عصرية طريفة، كان له منها ما أراد.

ورأى الأديب علم النفس ينمو ويرقى ويحلل أعمال الإنسان تحليلاً علمياً دقيقاً، ويعرض لكل المظاهر اليومية من ابتسامة وعبوس ورضى وغضب، فأخذ بحظ وافر منه واستعان به في أدبه وتعبيراته حتى استطاع أحد الكتاب الفرنسيين (وهو مارسل بروست أن يحلل ابتسامة سيدة في ست صفحات، ورأى نُظماً في الحكم تقوم وأخرى تسقط وكان لها من الأثر في حياة الناس وعقليتهم ما يخيل إليك معها أنهم أصبحوا بها خلقاً آخر، فجعل يتتبع هذه التغيرات ويقتبس منها ما شاء ذوقه الأدبي.

كل هذا وأمثاله جعل الأدب الغربي يسير محاذيا لكل نظم الحياة ويشاركها في رقيها واتجاهها، إن استضاء الناس بمصباح كهربائي فالأدب يعبر عنه ويستعير منه ويشبه به، وإن كان نظام الحكم ديمقراطياً فالأدب ديمقراطي، والصور التي يصورها ديمقراطية، ويتعمق السيكولوجي في بحثه فيتعمق الروائي في تحليل شخصيات روايته، وهكذا كانت الاختراعات والصناعات والعلوم ونظم الحكم والسياسة والأدب تسير معاً، لا يخطو عنصر منها خطوة إلى الأمام حتى يدرك الآخر سر تقدمه فيعمل على أن يحتذيه. أما الأدب العربي فيحارب متراليوزا بقوس وسهم، ويضيء في أدبه سرا جابزيت، والناس اليوم قادمون على أن يغيروا المصباح الكهربائي بخير منه، ويبكى الأطلال ولا أطلال، ويحن إلى سلع ولا سلع، ويستطيب الخزامي والعرار ولا خزامي لدينا ولا عرار. من الحق أن نحب القديم الجميل ونحفظه ونتعلم منه ونعجب بما فيه من مظهر عاطفة حية وشعور قوي، ولكن لا ننشئه. وإذا قلناه وجب أن نقول معه ما نحياه ونعيش فيه

إذا أنت لم تحم القديم بحادث ... من المجد لم ينفعك ما كان من قبل

وقفت العبارة العربية حيث كانت في العصر العباسي، ولم تتقدم إلا قليلا بما اقتبس من الأدب الغربي، والذي نتطلبه من التجديد فيها أن نستمد من حياتنا الواقعية، ومن كل ما يحيط بنا جملا حية تلائم ما في نفوسنا، وأن نخترع عبارات من المجازات والاستعارات والتشبيهات والكنايات نستمدها من الحياة التي نعيشها، وما وصلت إليه علوم النفس والاجتماع والسياسة والاقتصاد.

وقد عاق الأدب العربي الحديث عن الوصول إلى هذه الغاية عوائق كثيرة أهمها:

ما سبقت الإشارة إليه من أن المخترعات ليس لها أسماء، وأن أئمة اللغة لم (1) يرضوا أن يستعملوا الكلمات الأجنبية ولا وضعوا لها أسماء عربية، وتركوا الأدباء في حيرة من أمرهم، فكيف يستطيعون أن يستلهموها في جملة لتكسب المعنى قوة، وهم يفرون من التلفظ بها، ويخشون من علماء اللغة استعمالها، لذلك رضينا من الأدب بالعدول عنها جملة وتفصيلا، حقيقة ومجازا. وبهذا سد أمام الأديب العربي باب من أوسع الأبواب وأغزرها فائدة.

وسبب آخر من أهم الأسباب في فقر الأدب العربي في التعبير، هو أن الأدب (2) العربي الحديث أدب أرستقراطي لا أدب شعبي، وأعني أرستقراطية العلم لا أرستقراطية المال، ذلك أن الأدب الإنجليزي أو الفرنسي أو الألماني، أدب شعب لا أدب طبقة خاصة (نعم قد يرقى الأدب الإنجليزي مثلا) فلا يفهمه إلا الراقون، ولكن بجانبه أدب إنجليزي شعبي، لا يختلف عن أدب الخاصة في ألفاظه وتراكيبه وإن اختلف في دقة المعنى وبساطته، (أما الأدب العربي فأدب خاص لطائفة المتعلمين تعلماً راقياً فحسب، لا يشاركهم فيه العامة وأشباه العامة، وللعامة أدب بلدي خاص، يستمتعون به في أغانيهم ونكتهم وزجلهم ومواليا تهم) وحتى الخاصة، لا يتذوقون الأدب العربي إلا في الكتب والمجلات والجرائد، أما أحاديثهم وتنادرهم وفكاهاتهم فباللغة العامية، وليست أمة من الأمم الحية الآن بين لغتها اليومية ولغتها الأدبية من الفروق ما بين اللغة العربية واللغة العامية.

نتج من هذه الظاهرة نقص كبير في الأدب العربي الحديث، لأن استعمال الكلمات والعبارات في البيت وعلى المائدة وفي الشارع يكسبها حياة قوية ويزيدها صقلا ومرونة، ولو اقتصر في استعمالها على الكتب كانت حياتها ناقصة، لا يهذبها الاستعمال ولا يرقيها الصقل اليومي. وحسبك دليلا على ذلك أن النكت والنوادر وهي من أهم أركان الأدب لا تجد منها سائغا عذبا في أدبنا العربي عشر معشار ما تجده في الأدب العامي، وأن النادرة تحكى بالعامية فتضحك إلى أقصى حد، ثم تحكيها باللغة الفصحى فتخرج باردة تافهة، وأن كثيراً من الألفاظ والتعبيرات العامية قد أفادها الاستعمال روحا قوية فإذا عبرت عنها بالعربية لم تجد لها من التعبير قوة العامية وحسن دلالتها على المعنى.

وكل أمة قد كسبت من توحيد لغتها الكلامية والكتابية ما لا يقدر، فقد أصبح الشعب كله منتجا أدباً وتعبيراً قويا، وأصبح الحديث عن المائدة وفي حجرة الجلوس وفي التمثيل والسينما يخرج أدباً جديداً ويحيي أدباً قديماً، والأمة كلها تتعاون في الإنتاج الأدبي، هذا بتعبيره الرقيق، وهذا بنكتته ونوادره، وهذا بقصته وأمثاله، وهذا بشعره، وهكذا.

وليس كذلك الحال في الأدب العربي، فالأمثال والنوادر والحكايات باللغة العامية، والأحاديث اليومية وقضاء كل شؤون الحياة باللغة العامية، وليس للغة العربية إلا الكتاب وما إليه، ولذلك أصبح عندنا أدبان أدب أرستقراطي هو هذا الشعر والكتب التي تؤلف، والمجلات والجرائد التي تنشر، وأدب شعبي هو الزجل والأغاني والحواديت وما إليها، وبين الأدبين فواصل كبيرة وحواجز متينة، وفي هذا ضرر كبير على الأمة والأدب معاً، أما الأمة فلأن شعبها لا ينتفع بنتائج المتعلمين منها، وأما الأدب فلأنه ليس أدباً صحيحاً، إذ

الأدب الصحيح هو ما كان ظلا لحياة الأمة الاجتماعية كلها لا لحياة طبقة خاصة منها.

ولا أمل لحياة الأدب العربي من هذه الناحية إلا بإزالة الحواجز القوية بين العامية والعربية، على أي وجه يرضاه قادة الأمة، ويحفظ للغة العربية مكانتها من حيث هي لغة الدين ورابطة الشعوب الشرقية. إذ ذاك تصبح اللغة حية، والتعبيرات حية؛ وإذ ذاك تزول الحيرة التي نعيش فيها الآن، فإنك تستعمل اللفظ العامي والعبارة العامية، فلا تجد لهما نظيرا في العربية، وإن وجدت لهما نظيراً فنظير ميت ليس فيه حياتهما. كنت أقرأ الآن في جريدة فوجدت فيها كلمة (بعبع) وكنت أسمع فسمعت من يقول: إنه بيت (مُبَهْوَأ) ومن يقول (رزق الهبل على المجانين). ووجدتني إذا أجهدت نفسي قد أعثر على تعبيرات عربية مرادفة لها أو قريبة منها. ولكن ليس فيها حياتها، لأن الحياة وليدة الاستعمال، وأريد الاستعمال الشعبي. وهذا أحد الأسباب في أن مقالات الأستاذ فكري

أباظة، والمجلات الهزلية، والهزلية الجدية، لها من الرواج في أوساط الجماهير ما ليس لغيرها، وتتفتح لها نفوس شعبية أكثر مما تتفتح للمقالات العربية الصرفة؛ وترن الكلمة أو العبارة في الأذن رنيناً دونه رنين العربية الكلاسيكية.

وسبب ثالث هو أن الحواجز عندنا بين العلم والأدب قوية متينة، وإن شئت فقل إنه (3) ليس هناك صلة بين كلية العلوم والآداب، وأن الثقافة التي يتثقفها الأديب ينقصها (غالباً) قدر ضروري صالح من المعلومات العلمية، تجعله يستطيع أن يلم إلماماً ما بالمخترعات والمستكشفات، ويستغلها في أدبه. وهذا القدر يلقفه الأديب الأوربي في بيته وفيما يقع في يده من كتب ومجلات أولية، ثم في مدرسته. وأدباء الطبقة الأولى منهم كانوا على حظ عظيم من الثقافة العلمية استغلوها في منتجاتهم، فأصبحت هناك أنواع من الأدب، ومن التعبيرات والتشبيهات القوية التي تعتمد على الثقافات العلمية، أخذها منهم الشعب واستساغها. أما برنامج الأديب العربي فقاصر من هذه الناحية كل القصور؛ ولذلك كان نتاجه قاصراً كل القصور.

وهناك أنواع من التجديد في الأسلوب والموضوع والنثر الفني والشعر والقصة وغيرها، نعرض لها فيما بعد.

صور من التاريخ الإسلامي

زرياب المغني

للأستاذ عبد الحميد العبادي

- 2 -

إذا قدر للأندلس أن يكتب تأريخها الفني والاجتماعي، فلا شك أن أنضر صفحة في ذلك التاريخ المجيد وأعجبها تكون صفحة أبي الحسن علي بن نافع المغني الملقب بزرياب. فهو رجل استطاع وحده أن ينقل أمة بأسرها من حال البداوة إلى حال الحضارة، وذلك بشيئين اثنين: تحبيب الموسيقى إليها، وتنظيم حياتها اليومية.

فتح المسلمون الأندلس في العقد الأخير من القرن الأول الهجري، وانتشرت قبائلهم العربية والبربرية في بسائطها وحزونها ولكنهم ظلوا حتى أواخر القرن الثاني بداة جفاة كلما اجتمعت كلمتهم لم يلبثوا أن تفرق بينهم الإحن والعداوات المنبعثة عن العصبية القبلية، فكأنهم لا يزالون ضاربين في هضاب نجد وسهول تهامة ومفاوز إفريقية. ثم أخذت شؤونهم السياسية تستقر وتتسق بفضل مجهودات المتقدمين من أمراء الدولة الأموية الأندلسية: عبد الرحمن الداخل، وهشام، والحكم، وعبد الرحمن الأوسط. أما الأحوال الاجتماعية فظلت على ما كانت عليه فسادا واضطرابا.

وعلى العكس من ذلك كان المشرق الإسلامي في ذلك الزمان فقد إستبحر فيه العمران وبلغت المدنية الإسلامية فيه غايتها، وتعلق فيه ذوو الدعة واليسار بأسباب الكمال من شؤون الحياة، بعد أن استكملوا الضروري، والحاجي منها على حد تعبير ابن خلدون. وقد ساعفهم في ذلك عامل الدين وعامل التاريخ معا. فأما المعتدلون منهم فكانوا يستندون إلى أن الدين الإسلامي دين يسر يحب من المؤمن أن يكون هينا لينا موفور الحظ من الظرف والكياسة غير فظ ولا غليظ القلب، ولا ناس نصيبه من الدنيا. وأما المتطرفون فوجدوا في تقاليد الفرس والروم الاجتماعية ما جعلهم يؤثرون العاجلة ويحرصون على لذة الحياة الدنيا ومتعها، أياً كانت الطرق الموصلة إليها.

وقد تألفت من هؤلاء طبقة أرستقراطية، مرهفة الأذواق، رقيقة الطباع، ترى في الموسيقى، ومجالس الأنس والطرب، وحفلات السمر خير ما ينقعون به غلة تلك الأذواق

المرهفة والطباع المترفة. هذا هو السبب المباشر في تقدم صناعة الغناء في ذلك الزمان، وبلوغها الغاية على أيدي إبراهيم المهدي، وإبراهيم الموصلي، وأبنه إسحاق.

وهذا هو السبب كذلك في استفاضة مجالس الأنس والطرب لذلك العهد في مدن الشرق الإسلامي عامة وبغداد خاصة، وفي بلوغ هذه المجالسدرجة من التأنق يمكن تصورها إذا عرفنا أنهم وضعوا لها آدابا كانوا يأخذون بها من الندماء، والجلساء، والسمار.

من ذلك أن يكون الغناء قوامها، وأن يحتفل لها بلبس الثياب المصبغة الأنيقة، وأن يزين المجلس بالأزهار والرياحين، وألا يحضرها إلا من كان مهذباً، خفيف الروح، حاضر البديهية، قادراً على قول الشعر وارتجاله، فضلا عن تذوقه وروايته عندما يقتضي

المقام ذلك.
إلى هذا المشرق اتجه أمراء بني أمية الأندلسيون، وهم أبناء خلائف دمشق ورصافتها، يستهدونه فنانين ومعلمين يهذبون ما غلظ من طباع العرب والبربر والمولدين، وينظمونها جميعاً في نسق واحد. وقد أهدى المشرق إلى المغرب غير واحد من المغنين أمثال علون، وزرقون، ولكن زرياباً كان أعظم هؤلاء جميعاً وأبعدهم أثراً.
كان أبو الحسن علي بن نافع مولى للخليفة المهدي العباسي، ولسواد لونه، وحلاوة شمائله لقبوه بزرياب تشبيها له بطائرأسود غريد يعرف عندهم بهذا الاسم. وقد تكاملت لزرياب كل أسباب النبوغ والتفوق موهوبها ومكسوبها، فكان شديد الذكاء، لطيف الحس عارفا بالنجوم والجغرافية، شاعراً فصيح اللسان، غير أنه كان إلى الغناء أميل وبه أشغف، وقد درسه علماً في كتب الأقدمين من حكماء اليونان، وعملاً على أستاذه اسحق الموصلي زعيم المغنيين في ذلك الوقت، ولشدة افتتان زرياب بالموسيقى كان تفكيره فيها لا يكاد ينقطع حتى أنه ليلهم النوبة والصوت وهو نائم، فيهب من نومه مسرعاً، ويقيد ما وقع له أو يلقيه على جاريتيه غزلان وهنيدة، ثم يعود إلى مضجعه عجلا، ومن ثم قيل انه كان يأخذ ألحانه عن الجن كما قيل في إبراهيم الموصلي نفسه. قالوا وكان يحفظ عشرة آلاف مقطوعة من الأغاني بألحانها. ولم يأل زرياب جهداً في أن يأخذ نفسه بالأدب الرفيع والسلوك العالي المصطلح عليه في البيئة التي كان يعيش فيها ببغداد، بيئة البلاط وقصور الأمراء ورؤساء الدولة العباسية.
ويذكرون أن السبب في هجرة زرياب من المشرق إلى المغرب، انه غنى يوما في حضرة هارون الرشيد، فأخذ الخليفة بصناعته وظرفه وطلب إلى اسحق أن يعنى به حتى يفرغ لسماعه. ولكن اسحق لم يلبث أن تحركت في صدره عوامل الغيرة والحسد والحقد على تلميذه، فخلا به وخيره بين الموت والحياة، بين أن يقيم ببغداد فيعرض حياته للهلاك ومهجته للتلف، وبين أن يذهب في أرض الله العريضة فينجو بحياته، ووعده إذا هو اختار ثاني الأمرين أن يعينه على الرحيل بما شاء من المال، وغير المال. فأختار زرياب الرحيل عن المشرق بأسره، ووفى له اسحق بما وعده من المعونة.
وتذكره الرشيد بعد أن فرغ من شغله الذي كان منهمكاً فيه وطلب إلى اسحق إحضاره فقال (ومن لي به يا أمير المؤمنين؟ ذاك غلام مجنون يزعم أن الجن تكلمه وتطارحه ما يزهي به من غنائه، فما يرى في الدنيا من يعدله، وما هو إلا أن أبطأت عليه جائزة أمير المؤمنين، وترك استعادته، فقدر التقصير به والتهوين لصناعته، فرحل مغاضبا ذاهبا على وجهه مستخفياً عني، وقد صنع الله تعالى في ذلك لأمير المؤمنين فأنه كان به لمم يغشاه ويفرط خبطه، فيفزع من رآه). يقول المقري (فسكن الرشيد إلى قول اسحق وقال على ما كان به (فقد فاتنا منه سرور كثير).
خرج زرياب يؤم المغرب، فلما كان بأفريقيا أتصل بصاحبها زيادة الله الأغلى. ولكنه لم يطب له المقام بها فرحل عنها إلى المغرب الأقصى، وهنا كتب إلى الحكم بن هشام، أمير الأندلس المعروف بحبه للموسيقى، يستأذنه في دخول الأندلس والصيرورة إليه، فأذن له الأمير في كل ذلك من فوره. وعبر زرياب البحر إلى عدوة الأندلس، وبينما هو يتأهب للرحيل إلى قرطبة إذ سمع بوفاة الحكم فهم أن يعود أدراجه إلى المغرب لولا أن كتب إليه الأمير الجديد، عبد الرحمن الأوسط، يستقدمه ويعده أن ينيله كل ما تصبو إليه نفسه من مال وجاه. فقدم عليه زرياب، ويروون أن عبد الرحمنأحتفل لمقدمه أعظم احتفال إذ خرج بنفسه من قرطبة لتلقيه. وما هو إلا أن سمعغناءه وحديثه حتى شغف به فغمره بفضله وإنعامه وأجرى عليه من الرواتب والأرزاق الشيء الكثير، حتى لقد كان يركب وبين يديه مائة مملوك. وقدمه الأمير على سائر المغنين وبلغ من شدة شغفه به أن جعل في قصره باباً خاصاً يستدعيه منه كلما أحب سماع غناءه الرائع وحديثه العذب الطريف.
وقد لقي زرياب النعمة بمثلها وجزى المعروف بالمعروف، ولكنه قصد إلى ذلك من طريق غير مباشر، قصد إليه من طريق النصح والإخلاص للأندلس التي أصبحت له وطناً، وأهل الأندلس الذين أصبحوا أهلا له ومعشراً. فعكف على رفع مستوى الموسيقى الأندلسية وعلى النهوض بالمجتمع الأندلسي حتى يداني المجتمع الشرقي ببغداد وقد وفق فيما قصد إليه كل التوفيق.

يمكن القول إن زريابا نهض بالموسيقى الشرقية نهضة جديدة مطبوعة بطابعه وذلك بما أدخله على العود من إصلاح وتحسين، وبما استن من طرق جديدة في إلقاء الغناء وتعليمه. فقد أتخذ لنفسه وهو بالمشرق عوداً جعله على الثلث من وزن العود القديم، وصنع أوتاره من حرير لم يغزل بماء ساخن يكسبها أناثة ورخاوة، وأتخذ بمها ومثلثها من مصران شبل أسد (فلها في الترنم والصفاء والجهارة والحدة أضعاف ما لغيرها من مصران سائر الحيوان، ولها من قوة الصبر على تأثير وقع المضارب المتعاورة بها ما ليس لغيرها). فلما كان بالأندلس زاد أوتار العود الأربعة المقابلة للطبائع الأربع وتراً خامساً يقوم مقام النفس من الجسد، فأكتسب به عوده ألطف معنى وأكمل فائدة كما يروي المقري. وأتخذ مضراب العود من قوادم النسر بدلا من مرهب الخشب (وذلك للطف قشر الريشة ونقاءه وخفته على الأصابع وطول سلامة الوتر على كثرة ملازمته إياه). وأما من حيث إلقاء الغناء فقد رسم زرياب أن يبدأ في الإلقاء بالنشيد بأي نقر كان، ثم يؤتي في أثره بالبسيط ويختتم بالمحركات والأهزاج. أما مذهبه في تعليم الغناء فيقول المقري (وكان إذا تناول الإلقاء على تلميذ يعلمه أمرَه بالقعود على الوساد المدور المعروف بالمسورة، وأن يشد صوته جدا إذا كان قوي الصوت، فأن كان لينه أمره أن يشد على بطنه عمامة فأن ذلك مما يقوي الصوت ولا يجد متسعا في الجوف عند الخروج على الفم فان كان ألص الأضراس لا يقدر على أن يفتح فاه، أو كانت عادته زم أسنانه عند النطق، راضه بأن يدخل في فيه قطعة خشب عرضها ثلاثة أصابع، يبيتها في فمه لليالي حتى ينفرج فكاه. وكان إذا أراد أن يختبر المطبوع الصوت المراد تعليمه من غير المطبوع أمره أن يصيح بأقوى صوته يا حجام! أو يصيح آه! ويمد بها صوته، فأن سمع صوته بها صافياً ندياً قوياً مؤدياً لا تعتريه غنة ولا حبسة ولا ضيق نفس، عرف انه سوف يَنجُبْ وأشار بتعليمه، وأن وجد خلاف ذلك أبعده). هذه العبارة تشير في صراحة إلى أن زرياباً انشأ بالأندلس في أوائل القرن الثالث عشر الهجري ما يصح أن نسميه بلغة الوقت الحاضر معهداً لتعليم الموسيقى الشرقية.

ولم يكن زرياب أقل ابتكاراً في شؤون الحياة اليومية منه في مجال الموسيقى والفن، وهذا محل العجب من سيرته. فقد ابتكر لأهل الأندلس ألوانا من الطعام فاستطابوه ونسبوا بعضها إليه، وعلمهم أن يشربوا من آنية الزجاج الرقيق بدلاً من آنية المعدن، وهو أول من اجتنى لهم البقلة الشهية المعروفة بالهليون وكانوا لا يعرفونها من قبل. وعلمهم أن يبسطوا فوق ملاحف الكتان أنطاع الأديم اللين، وأن يبسطوا سفر الأديم فوق الموائد الخشبية فذلك أنظف لها وأنق لمنظرها. وعلمهم أن يلائموا بين ما يلبسون وبين فصول السنة الأربعة، فيتدجوا من الخفيف الأبيض صيفاً إلى الثقيل الملون شتاء، ولفتهم إلى أنواع من الطيب والعطر لم يلبثوا أن أقبلوا عليها وفضلوها على ما كانوا يتعطرون به من قبل، كما علمهم كيف ينظمون شعورهم تصفيفاً وتدويراً وإرسالاً.

لا ندري بالدقة متى توفى زرياب والغالب أن وفاته كانت في إمارة الأمير محمد عبد الرحمن الأوسط (238 - 273هـ) وكما رزق زرياب الحظوة عند أهل الأندلس في حياته فقد رزقتها ذكراه عندهم بعد مماته. ذلك بأن مذهبه في الغناء وما رسمه لهم من أسلوب المعيشة ظل باقياً متوارثاً فيهم حتى آخر أيامهم. فلما انتهى أمر الأندلس وخرج من تبقى من أهلها إلى بلدان أفريقيا الشمالية أنتقل إليها بانتقالهم مقدار غير قليل من صناعة زرياب وآدابه. يقول ابن خلدون عند ذكره زرياباً (فأورث بالأندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه إلى أزمان الطوائف وطمأ منها بإشبيلية بحر زاخر وتناقل منها بعد ذهاب غضارتها إلى بلاد العدوة بأفريقية والمغرب وانقسم على أمصارها وبها الآن منها صبابة على تراجع عمرانها وتناقص دولها) ويقول المقري (وكان زرياب قد جمع إلى خصاله هذه الاشتراك في كثير من ضروب الظرف وفنون الآداب ولطف المعاشرة وحوى من آداب المجالسة وطيب المحادثة ومهارة الخدمة الملوكية ما لم يجده أحد من أهل صناعته حتى اتخذه ملوك أهل الأندلس وخواصهم قدوة فيما سنه لهم من آدابه واستحسنه من أطعمته فصار إلى آخر أيام أهل الأندلس منسوباً إليه معلوما به).

كان أهل رومية على عهد نيرون يلقبون سريا من سراتهم اسمه بطرونيوس برب الظرف وسلامة الذوق لأنه كان عندهم مضرب المثل في ذلك. أما أهل الأندلس فقد وصفوا زرياباً بأنه (معلم الناس المروءة) وهو لاشك أجمل وصف يوصف به وأحقه بأن يحفظه عليه التاريخ ويذكره به.

الزهرية العاطلة.

للأستاذ راشد رستم.

لا أجد هنا من يضع لي الزهر في غرفتي، وأنا الذي أحب الزهر قريباً مني، أضمه إلى صدري حنيناً، وأشمه لتسمو به روحي بعيداً، أحب العطر منه، وأحب العطف عليه.

ليس غيري إذن يضع الزهر لي في غرفتي، بل أختاره بنفسي وأرعاه وحدي.

واليوم اشتريت من الزهّارة الفتية الناضرة، باقة من ذلك الزهر الذي تحبه. . . . . (روحي).

لم تدر فتاة الزهر الجميلة لماذا سألتها السماح لي اليوم أن أنتقي بيدي أنا تلك الزهرات الحبيبة التي سأجعل منها وحدها دون غيرها، حديقتي في هذا اليوم.

سكتت فتاتي الحسناء راضية، وتَنحَّت هادئة، ونظرت إليَّ في سرور وابتسام وعجب!. ولِمَ تعجب؟ ومن عاشر الزهر لا يغضب.

لم ترني الفتاة قبل اليوم ألمس أزهارها بيدي، إنما أشير إليها بالطرف وهو كليل فتفهم مني قصدي، وتجمع لي زهراتي المختارة، تنتقيها من بين أخواتها برشاقة في حنو وعطف.

تبتسم الفتاة بسمات اللطف والرقة، وكأني بها تعلم سري عن الزهرات وهي تجمعها فتحدثها بها جهراً تقول: ما أحلاك أيتها الوردة الحمراء المملوءة عطراً وعطفاً وشوقاً وحرارة!. . وأنت أيتها الزهرة الفاتنة مثال الرشاقة والخفة والحلاوة! وأنت يا حبيبة الفؤاد! تعالي تعالي يا زهرة الحب والإخلاص والحنان! أما أنت فيا للفتوة ويا للحياة!. وما أسعد الفتى بالفتاة؟ وأنت يا ربة الدلال والكمال. تقدمي! تقدمي! خذي مكانك هنا بين زميلاتك الرشيقات!.

هكذا كانت الزهرة تناجي وتنادي وتداعب هذه الزهرات النواعم، وهي تجمعها من هنا وهناك وتنسقها ثم تلفها في حرزها لتحميها، ثم تلتفت في رقة الفاتنات المائلات وتقول: تفضل يا حبيب الزهر فخذ زهراتك المحبوبات، وبودي لو أطلعت عليك معها، أو لو علمت سرها معك!!. ثم تعود مسرعة إلى زهرها.

نعم أتيت اليوم بذلك الزهر الذي تحبه. . (روحي)، وهي لا تعلم أنني جئت به! ليس له اليوم شريك من زهرات أخر.

هذا الزهر الذي تحبه (. . .) أشمه يوماً في كل عام، فيحييني طول العام! وبعد. . فليس له عندي زهرية تصونه وتماشيه، ولا بد له من زهرية خاصة ترضيه وتحميه وتحييه.

ولكن هل أخشى هذه الزهرية ألا تحمل إليَّ هذا الزهر يوماً ما؟.

أم هل أخشى هذا الزهر ألا يكون في هذه الزهرية يوماً ما؟.

أم أخشى يوماً تحمل إلي فيه هذه الزهرية زهراً غيره؟.

نعم. قد يأتي هذا اليوم الذي أخشاه، وقد أرى بعيداً عني هذا الزهر الذي تحبه (. . .) والذي أحب أن أرعاه.

ولكني لا أخشى أن تكون الزهرية يوماً عاطلة!

ألم تحمل لي هذا الزهر يوماً من الأيام؟

وهل هذا اليوم ينسى مع الأيام؟

أني لأرجو أن تبقى الزهرية بعد اليوم عاطلة على الدوام، فهي عاطلة أحب إليّ منها خالية بعد هذا اليوم الذي أخشاه ستظل كنفسي التي تحمل دوماً ذكريات كنَّ في يوم من الأيام. . . . حقيقة موجودة. وواقعة مشهودة. . .

المعادي - راشد رستم

جلال الدين منكبرتي

للدكتور عبد الوهاب عزام

سارت جيوش التتار تقذف بالموت والدمار. (وفتحت يأجوج ومأجوج وهم من حَدب

ينسلون). خرَّت المدائن لصولتهم فأسروا وقتلوا، ثم سلّطوا الماء والنار فأخربوا ودمروا. وانطلقوا في جحافل من السيوف والسهام والنار والدخان، والدماء والماء، والهول والفزع.

وعلاء الدين ملك خوارزم. قد أوقد النار فلم يستطع إطفاءها، وفتح باب الشر فلم يقدر على إغلاقه. لم يفن جنده ولم تثبت عزيمته. فما زال يهجر المدينة بعد المدينة حتى اعتصم بجزيرة في بحر الخَزَر فهلك بها.

ورث جلال الدين ملك أبيه. وإنما ورث الضراب والطعان، وعرشاً في أشداق المنون، تخاض إليه الأهوال، وتقطّع دونه الآمال. لقد ذهب الملك وعلاء الدين معاً. وورث جلال الدين دَين أبيه من الكفاح والنضال، ورث القتال الحاضر , والملك الغابر.

هلَّم جلال الدين!: ادفع عن رعيتك ملا يُدفع، وأختر لنفسك وليس في الشر خيار: هما خطتا إما إسار وذلة وإما دم، والقتل بالحر أجار.

تحفز البطل تحفز الأسد، وتقهقر ليثب، ولكن المغول كانوا في أثره حيثما سار، يطوون وراءه الليل والنهار، حتى خرج من ملكه وقارب الهند. وهنالك صف جلال جنده وهم:

عصابة ليس لهم ديار ... إلا ظهور الخيل والغبار

فهزم عدوه الجبار في ست معارك.

يلقى المنية في أمثال عُدَّتِها ... كالسيل يقذف جلموداً بجلمودا

ولكن طوفان المغول أعظم من أن تثبت فيه صم الجلاميد أو يغنى فيه العزم المرير والبأس الشديد.

فذلكم جلال الدين على نهر السند وأولئكم المغول على نهر السند. يكرّ عليم كالأسد المُحرَج ويَصدقهم القتال من الفجر الى الظهيرة، يموت في يمينه الحسام بعد الحسام، وينفق تحت عزائمه الجواد بعد الجواد. فلما سدت على العزائم سبل النصر، وضاقت بالمجال حيل الأبطال، حمل على عدوّه فحطمه، ثم انثنى إلى النهر فأقتحمه، والموت خزيان ينظر. تلك لجة النهر تموج بجلال الدين وجنده، وفوقهم من سهام المغول وابل منهمر. وفي الهمم

القعساء تستوي الغبراء والدأماء. أعجب الأعداء بهؤلاء الأبطال فوقفوا معجبين ينظرون.

غرق معظم الجند وخرج البطل ببقايا القتل والغرق ليلقى بهم عدواً آخر. فهذا (جودي) أحد أمراء الهند يغير على البطل المرزَّأ لينفيه من أرضه. وهذا جلال الدين على العلات يصمد للمغير فيهزمه، ثم جاءه مدد من جنوده فتقدم في أرض الهند وأقام بها حيث شاء على رغم (قراجه) أمير السند وأيلتتمش أمير دهلي إذ تحالفا وحالفا عليه الدهر.

وما جهد هذا الدهر إلا هزيمة ... إذا نازلت عزم الكرام كتائبه

أتحسب جلال الدين بلغ من الجهد غايته، ومن الجلد نهايته، وقد أعذر إلى المجد والملك والرعية؟ أتحسبه قد فقد ملكه جميعه، وهزم في أرض غريبة فهو حريّ أن يطلب في فجاج الأرض مفراً أو يلتمس في زواياها مستقراً؟ كلا! إنه فقد ملكه ولم يفقد رجاءه، ولا عزمه، ولا إباءه. إن له ملكاً وإن يكن في يد العدو الجبار وإن له عرشاً وإن يكن في ذمة الزمان الغدّار. إن أمامه في عراك الخطوب ثماني حجج تطير فيها بين المشرق والمغرب همته. وتنقله من حرب إلى حرب صرامته. ويسلمه من مصيبة إلى مصيبة حظه.

يشق بين الأهوال طريقه إلى كرمان ففارس فأصفهان فالري. ثم يصمد للخليفة العباسي الناصر فيهزم جنده ويقتل قائده ويسوق المهزومين إلى أسوار بغداد.

ثم يستولي على تبريز ويتخذها دار ملكه، ويغير على الكرج كأن أعداءه ليسوا أكفاء نضاله. وبينما هو في تفليس جاءه نبأ هائل. وناهيك بخيانة الأعوان في حومة الطعان: أنبئ أن براقا الحاجب والي كرمان قد مالأ المغول. فبادر من تفليس إلى كرمان ليعاقبه بخيانته. ثم يرتد من كرمان إلى الشمال ليحارب التركمان والملاحدة فيهزمهم ويجزيهم بما اقترفوا في غيبته. ويشرق تلقاء دامغان ليهزم جيشاً من المغول. ويرجع إلى الغرب حين يعلم إن الكرج تألبوا عليه. فيلتقي الجمعان وتأبى على جلال الدين شجاعته ومضاؤه إلا أن يبارز أبطال الكرج. وقد قتل أربعة من صناديدهم وِلاءً ثم حمل على الكرج فهزمهم أجمعين.

هذه سنة سبع وعشرين وستمائة وجلال الدين يعمل ليؤلف أمراء المسلمين ويضرب بهم هذا العدو المدمر فلا يمهلهم عدوه فيباغته ثلاثون ألفا من المغول فينهزم أمامهم ولكن ليستولي على مدينة كنجة.

عشر سنين نازل فيها جلال الدين منكبرتي أحداث الزمان مجتمعة وغلب فيها جهد الأعداء وخيانة الأصدقاء، وجالد عدو المسلمين وخليفة المسلمين. وحارب المغول والتركمان والملاحدة والكرج.

أرأيت جلال الدين نجما يدور به فلك من الخطوب بين المشرق والمغرب؟ أعلمت أن الرجل العظيم يخلق أحداث التاريخ ولا ينقاد لها. إن يكن ما يروى عن جلال الدين مستحيلا فكم بين حقائق التاريخ من مستحيلات.

غياث الدين أخو جلال الدين يمالئ الأعداء أيضاً فانظر إلى البطل العظيم عام 628 وقد أجتمع عليه الأعداء وخانه الأخوة والأصدقاء وناء بقلبه خذلان أعوانه لا بطش أقرانه. ها هو ذا مكتئبا حزيناً مشرداً يسير في قرى الكرد ولعله كان ليحاول أن يخلق من عزمه جنداً وحرباً وانتصاراً وملكاً. ولكن رجلاً من الكرد باغته ففتك به:

أتته المنايا في طريق خفية ... على كل سمع حوله وعيان

ولو سلكت طريق السلاح لردها ... بطول يمين واتساع جنان

ولكن النفس العظيمة التي ملأت العدو والصديق هيبة وإعجاباً لا تموت بموت الجسد، فقد أكبر الناس أن يموت البطل الذي غلب الموت في كل معترك. فبقوا أكثر من عشرين عاما يتحدثون أن بطلهم حي وأنه ظهر في هذا المكان أو ذاك. بل حاول بعض الناس أن يلبسوا عظمته ويحملوا أسمه فناءوا بالعبء فأخذهم المغول بغير عناء.

يا شباب الشرق! قلبوا صفحات مجدكم فإن أعظم المصائب أن تمحى ذكرى الآباء من صدور الأبناء. وأن لكم في جلال الدين لعبرة.

مجمع البحور

إلى الدكتور محمد عوض محمد

قرأت مقالكم الممتع، تحت عنوان (مجمع البحور وملتقى الأوزان) فوجدت فيه من الطرافة ما يدل على التفوق في الذوق، غير أني أخذت عليكم فيه مأخذين أدلي بهما إليكم وإلى قراء مجلة (الرسالة) الكرام.

(1) قد ذهبتم إلى أن الشعر المرسل قريب العهد في الحدوث. وهذا غير الواقع فقد أنشد أبو عبيدة لأبنة أبي مُسافع وقد قتل أبوها يوم بدر:

فما ليثُ غريفٍ ذو ... أظافير وأقدام

كحييّ إذا تلاقوا

وَ ... وجوه القوم أقرانُ

وأنت الطاعن النجلا ...َء مزبدٌ آنٍ

وبالكف حسامٌ صا ... رم أبيض خذامُ

وقد تركب بالركبِ ... وما نحن بصحبانِ

وتجدون هذه الأبيات في (الموشح) للمرزُباني، (ص20) ومن يدري؟ فلعل هناك كثيراً من قصائد الشعر المرسل ذهبت بها أيدي الضياع. والمعروف أن الأستاذ الزهاوي هو الشاعر الوحيد في المحدثين الذي رفع لواء الشعر المرسل، ولا أعلم العلة التي حدت بكم إلى إغفال ذكره في الموضوع، وهو معيد الفكرة إلى نشأتها الأولى.

(2) أنكم عبتم على أمير الشعراء عدم التزامه وزناً واحداً في رواياته؛ وأنا أقول: لو أن شوقي رحمه الله أجهد نفسه، وتكلف الكثير حتى جاء برواياته، من بحر واحد وقافية واحدة لقال الناس ولقلت أنت أيضاً: إن شوقي قد وضع في عنق الشعر طوقاً يغله به في عصر الحرية والإنطلاق، وأنه مقلد وقديم في عهد التمرد والابتكار. ولكنا إذا صرفنا النظر عن كل هذه الاعتبارات، ونظرنا إلى الموضوع من حيث أن تلك الروايات إنما وضعت للتمثيل خاصة، تجلى لنا الموقف الذي ظهر في شوقي وهو يقدم لأدب الضاد مادة طريفة دلل بها على أن لغة القرآن لا تضيق بكل ضرب من ضروب التفكير، وكل فن من فنون الأداء وأن في الشعر ما يصلح أداة للتمثيل.

أنا لا أختلف وإياكم فيما يحدثه نظم القطعة الواحدة من بحور متعددة من الشعور بنفرة

الانتقال المباشر في الموضوع الواحد. ولكن هذه المفارقة النافرة في الذوق لا يبقى لها أثر متى لا حظنا أن الشعر خاص بالتمثيل وأنه نظم ليلقى على المسرح بغير لسان واحد. فانتقال الإلقاء من هذا إلى ذاك مما تضيع به فائدة المحافظة على البحر والقافية في قاعة التمثيل فضلا عما يحدثه التمثيل ذاته في أنفس السامعين من الاتجاه إلى الحادثة وتسلسل المواقف دون الالتفات إلى أن هذا يسأل من بحر الخفيف وذاك يرسل الجواب من بحر الطويل. وقد حضرت روايات شوقي التي مثلتها الفرق المصرية في العراق فلم أجد في نفسي أثراً لاختلاف البحور والقوافي ولم أسمع من غيري شيئا من هذا. ويظهر أن فكرتكم قد تولدت من القراءة المجردة دون أن تقترن بالروح التي تبعثها مشاهدة التمثيل. وما كان شوقي بعاجز عن أن يوحد البحور والقوافي في رواياته بشيء من الجهد وهو أمير الشعراء، ولو كان قد تكلف اجتياز هذه العقبة الكأداء لما وفق في الموضوع إلى المدى الذي انتهى إليه من البراعة في حبكة الرواية والإتيان بأرفع الخواطر سمى ذلك لأن الشعر ذاته في حاجة (بالتمثيل) إلى كل هذه التوسعة وإلا طغت الألفاظ على المعاني وجاءت المواقف في شيء كثير من البرود والجفاف مهما بلغ الشاعر حظا عظيما من فيض العبقرية.

ويظهر أن الأبيات التي استشهدتم بها من رواية قمبيز ليست ثلاثة ومصرعا (بفتح الراء) وإنما هي أربعة أبيات باعتبار قوله:

بخٍ بخٍ ... بنتَ أخي

بيتاً واحداً مصرعاً (بتشديد الراء) كما يدل عليه التشكيل في الرواية وعلى حد قوله في (قمبيز) أيضاً:

النوبُ جيلْ ... حر أصيلْ=يقضي الديونْ

نحن الأسود ... حمر الجلودْ=حمر العيونْ

لنا لبدْ ... من الزردْ=هي الحصونْ

إلى آخر القطعة (ص 98) وهناك كثير من أمثال ذلك وهو بحر جديد يستسيغه الذوق طبعاً. وبذلك يرتفع ما يؤخذ على شوقي من استساغته اختلاف البحر في البيت الواحد، وذلك لا يصح صدوره من شاعر، لأن البيت في الشعر وحدة مستقلة الذات في القصيدة، وهذا الاستقلال يفرض معه اتحاد البحر في البيت الواحد.

وبعد فإني أرجو لا يكون هذا الدفاع مبرراً لما جريت عليه في تأليف روايتي الشعرية (رسول السلام) من عدم التقيد ببحر واحد وقافية ثابتة والاكتفاء بموسيقية الوزن فحسب، إنما أرجو فيه إصلاحا لما علق في بعض الأذهان من أن روايات شوقي فقدت أكثر جمالها بفقدها اتحاد الوزن والقافية. ويكفي الشعر التمثيلي أن يحتفظ بنغمة الوزن وحدها ما دام المسرح لم يخصص لقائل واحد وإنما هي مشاهدة عدة وممثلون كثيرون قد يكون هذا التنويع في البحور والقوافي، ملائماً لإبراز ملامح الجمال التي تنسجم مع الموقف ومن فيه.

بغداد- حسين الظريفي

مشروع تعاون الشباب

صيحة من قلب الشباب لإنقاذ الشباب

للأستاذ حافظ محمود

في الوقت الذي يزاحم القنوط آمال الشباب في ساحة العمل والنشاط قد ارتفع صوت ينادي الشبان إلى الخلاص مما أحاق بحياتهم العملية من ضغط وإرهاق، يقول لهم أن في يد الشباب معجزة الثروة الطائلة إذا هم ادخروا من أموالهم المتواضعة بضعة قروش تحتسب لهم أساساً للمساهمة في إنشاء شركات مصرية صناعية تزيد في كسبهم ناحية لن تزيدهم الأيام إلا سعة وتجديدا.

ذلك هو مشروع تعاون الشباب الذي يتقدم إلى شباب الأمة المصرية بهذه الفكرة الناضجة، يفصل لهم رءوس الأموال تفصيلا، يستطيع كل فتى وكل فتاة إلى الاشتراك فيه سبيلا. فخمسة قروش ما أسهل توفيرها في كل شهر مرة واحدة لمن أراد، وأكثر من مرة واحدة للقادرين!

فحسبنا من المصريين واحد في المائة من تعدادهم يؤمنون بتنفيذ هذه الفكرة. إن واحداً في المائة من خمسة عشر مليونا مصريا إذا ادخروا خمسة قروش لكل منهم شهرياً اجتمع لنا في عام واحد تسعون ألفا من الجنيهات. وهو مبلغ يحسب في تاريخنا

الاقتصادي الناشئ بالشيء الكثير. فأنت حين تراجع تاريخ إنشاء بنك مصر وتعلم أنه قام أول ما قام على ثمانين ألفا فقط لا بد واجد من نفسك بعد هذا إحساسا طيبا نحو هذه التسعين ألفا من الجنيهات التي يستطيع شبان المدن المصرية وحدهم أن يدخروها في سنة واحدة من بقايا نفقاتهم النثرية في غير عنت ولا إرهاق.

أن الحركة الاقتصادية هي ميزة العصر الحاضر على كل العصور، ومن الأمثلة التي تساق في هذا البحث أن مصر تستورد سنويا من الخارج بما يقرب من المليون جنيه غرائر (زكائب) خشنة ساذجة، مع مصلحة التجارة والصناعة بعد درسها لصناعة الغرائر علميا قد تبينت إننا نستطيع أن ننشئ بتسعين ألفا من الجنيهات أو يزيد قليلا هذا المصنع العظيم الذي يغنينا عن بذل مليون أو ملايين بضرورة التكرار سنويا للمصانع الخارجية.

هذا كله إنما يقوم دليلا قويا على صلاح الدعوة التي يدعوها (مشروع تعاون الشباب) لفتح

آفاق جديدة يرتادها شبان مصر في حياة الأعمال الحرة، ويزيد فخرهم فيها أنهم هم المنشئون، وهم العاملون، وهم الذي يفيدون ويستفيدون.

ذلك أن القائمين بدراسة هذا المشروع وتنفيذه فكروا أول ما فكروا ألا تكون قروش الشباب هبة أو عطاء، فليس العطاء من تاريخ الاقتصاد في شيء، إنما جعلت هذه القروش الخمسة التي يكرر الشباب المصري ادخارها لمشروع تعاون الشباب وسيلة ميسورة تنتهي بالجميع إلى أن يصبحوا مساهمين في الشركات التي ينشئونها بأموالهم. فيكونون قد أنشئوا للصناعة في مصر منشآت جديدة من ناحية، وفتحوا لأنفسهم طريقاً إلى الربح من ناحية ثانية. وزادوا على هذا وهذا أنهم يبذرون بما يعملون بذور النزعة الاقتصادية المنتجة في أرض البلاد.

فأنت ترى أن الفكرة في هذا المشروع لم تكن وليدة رأي عارض أو تقليد أصم. إنما هي فكرة ولدتها حاجة الحياة المصرية إلى كثير من المنافذ التي تنفذ منها جهود الشباب إلى ما يهيأ لهذه الشبيبة المصرية مستقبلا أكثر رخاء ورغداً، وأنت ترى في تضاعيف هذه الفكرة نزوعا إلى تحقيق الديمقراطية الاقتصادية إذ تفتح وسائل المشروع أبواب المساهمة في تأسيس الشركات والمصانع أمام أصحاب خمسات القروش كما تفتحها أمام أصحاب الآلاف أو الملايين، وهي نزعة علمية صالحة جديرة بالتقدير والاعتبار.

كان هذا المشروع فكرة، ثم انقلبت الفكرة صوتا ينادي شباب مصر إلى العمل في سبيل مستقبلهم ومستقبل بلادهم. والواقع أن في مصر مشكلة يصح أن تسمى مشكلة الشباب، وأن هذا المشروع حل من أوفق الحلول لهذه المشكلة الضخمة فأولئك الألوف الذين تخرجهم المدارس كل سنة إلى أين يذهبون بما تسلحوا من علوم وفنون؟ لقد ضاقت سبل الرزق عن أن تسد حاجاتهم، وعز على أوليائهم والأغنياء من أهلهم أن يضحوا في سبيلهم، وحقت عليهم التجربة القاسية التي سيخرجون منها إما ظافرين بمعنى سام من معاني الرجولة التي تعرف قيمة الاعتماد على نفسها، وإما حاملين أثقال الخيبة التي لا رجولة فيها.

لم يبق أمام الشبيبة المصرية إلا أن تعنى بمستقبلها: تدبر له الأمر وتنفذ ما فيه بناؤه، بناء يقوم على أسس مادية ثابتة لا تتعرض لها أيدي الآخرين. ولعل مشروع تعاون الشباب هذا

هو الترجمة الحرفية لهذا كله، فهو محاولة مرضية في خلق شيء لمستقبل الشباب بجهود الشباب وماله من قليل المال وكثير النشاط. وربما كان حتما لزاما على إخواننا الشبان أن يوجهوا جهودهم في تنفيذ هذا المشروع على الوجه الذي يحقق آمالهم أملا فأملا ليثبت لهم في سجل الأيام أنهم عرفوا واجبهم فأدوه، وآمنوا بحقهم فسعوا إليه.

أما وسائل التنفيذ لهذا المشروع فقد أحسن أو يحسن القائمون به تنظيمها، فلكل خمسة قروش تودع لحساب المشروع (كوبون) مرقوم بالرقم المسلسل، مختوم بالخاتم المسجل، ممضي إمضاء رسمية. وهذه الكوبونات التي يتقاضاها المساهمون في هذا المشروع تودع قيمتها أو أثمانها لحساب المشروع في بنك مصر إيداعاً ليس فيه صرف ولا حل إلا يوم تنعقد الجمعية العمومية للجان المشروع بعد ستة أشهر، فتحصى المجموع عدداً وتقرر ما ينشأ به من صناعة ومن يقوم على الإنشاء من

الأعضاء الأخصائيين البارزين. يومئذ تأذن الجمعية لثلاثة من الرؤساء أن ينفقوا على عملية التأسيس بحساب معلوم تحت رقابة مسؤولة.

هذه وسيلة من وسائل النجاح للمشروع يزيد عليها أن القائمين بعملية التوزيع في ذاتها ليسوا فتية غير مسؤولين، إنما هم أعضاء لجان في وزارات الحكومة ومصالحها ومدارسها يشرف عليها رؤساء من أكبر الرؤساء. وهم يشتركون في المسئولية عن كل ما يوزعون حفظاً وضماناً لما يجمعون.

أما المال الذي يجمع فهو مضمون في خزائن بنك مصر، وأما ملكيته فهي لأصحاب خمسات القروش أنفسهم تعود عليهم أرباحه يوم تنشأ الشركة ويكونون فيها مساهمين، وأما نوع الصناعة التي تؤسس بمال المشروع هذا فمتروك أمرها لقيمة رأس المال الذي يمكن جمعه وتوفيره لهذه الغايات كلها التي يسعى إليها المشروع من إنشاء صناعات وطنية إلى فتح أبواب جديدة للرزق. فلجنة المشروع تضع نصب أعينها إذن غرضين: صناعة لا مزاحمة فيها للمواطنين، ومصانع يتطلب العمل فيها أكبر عدد ممكن من أيدي الشباب المواطنين.

إن كل غرض من هذين الغرضين اللذين يسعى إليهما مشروع تعاون الشباب جدير بعطف الأمة وتقديرها، وإذا كان قلب الأمة موزعا في قلوب الشباب فما أحرى هذه القلوب أن

تنصت إلى نداء (تعاون الشباب) ثم تجاوبه بالإقبال والبذل والعمل في سبيل الحرية التي تلمس بالأيدي ويحس بها الأفراد جميعاً.

في الأدب العربي

القصة المصرية

للأستاذ جيب

أستاذ الأدب العربي في مدرسة اللغات الشرقية بجامعة لندن

- 2 -

أول قصة مصرية بالمعنى الحقيقي خرجت إلى الوجود، وهي غفلاء من أسم مؤلفها، فلم تلق أول الأمر إلا اهتماماً قليلاً من جانب المتعلمين، تلك القصة هي (زينب) مناظر وأخلاق ريفية، بقلم فلاح مصري - القاهرة، مطبعة الجريدة عام 1914. ومؤلفها هو الدكتور محمد حسين هيكل، ولما كان غداة نشرها محامياً صغير السن طموحاً لم يشأ أن يذكر أسمه مخافة أن يقف ذلك عقبة في سبيل عمله.

خرجت (زينب) خروجاً تاماً، في لغتها وأسلوبها وموضوعها وفي الطريقة التي عالجها بها المؤلف عن جميع ما تقدم من الآثار في الأدب العربي. وليس هناك علاقة بينها وبين قصص زيدان التاريخية، وقصص فرح إنطوان، فلقد كتبت كما يتضح من عنوانها لتصوير الحياة الاجتماعية في الريف بسلسلة من الحوادث تدور حول فتاة قروية.

ونستطيع أن نسرد الحكاية في أيجاز، فنقول، أن زينب وهي فتاة قروية جميلة، قوية الإحساس، بعد علاقة بريئة بشاب متعلم يدعى حامد أبن صاحب الأرض في القرية، قد أحبت فتى يقال له إبراهيم، ولكنها تزوجت رغم أنفها وبمشيئة والديها من صاحبه حسن. فحرصت على وفائها وولائها له، ولكنها ظلت على حبها لإبراهيم، ولقد أدى التنازع بين هاتين العاطفتين، عاطفة الحب وعاطفة الإخلاص الزوجي إلى تأثير سيئ في صحتها، ولما علمت بدخول ابر أهيم في الجيش بلغ ذلك من نفسها مبلغاً عظيما حتى أضناها الحزن ثم أودى بحياتها، وبجانب هذه الخطة تقوم حكاية أخرى. وهي تلك العلاقة بين حامد وابنة عمه، وهي فتاة من فتيات المدن، ثم اختفاؤه عندما أخفق مسعاه في التزوج منها.

ويتضح من ذلك أن الخطة على العموم أقل من أن تكفي لملء أربعمائة صفحة، وبالقصة من جهة أخرى عيوب سنعرض لها الآن. وينبغي أن نتذكر أن تلك القصة ليست أول

مجهود لشاب صغير السن فحسب. بل هي كذلك أول مجهود من نوعه في أدب فني، فيجب أن ينظر إليها مع هذا الاعتبار، والواقع أن ما في القصة من تفاصيل تستوجب النقد، يقل شأنه، إذا قارناه بتلك الحقيقة وهي أن هناك مجهودا بذل، وأن تلك القصة تعتبر شيئاً جديداً من نوعه أضيف إلى الأدب العربي.

ويعد بناء هذه القصة ممتعا من الناحيتين الوصفية (والسيكلوجية) وواضح أن القصة

إنما قصد بها انتقاد تلك الروح الرجعية التي ما زالت تسيطر على طبقة خاصة من الناس على الرغم من التقدم الحديث، على أن نجاحها في هذا السبيل لم يكن تاما، إذ أن الشخصيات نفسها لم تركب بدرجة كافية، اللهم إلا شخصية حامد، وهي بلا شك تمثل إلى حد كبير شخصية المؤلف نفسه. كذلك نلاحظ أن تصوير الأشخاص والحوادث بطريقة (درامية) جاء ضعيفا بالجملة.

وكانت النتيجة أن تعليقات المؤلف (السيكلوجية) كانت تأتي على لسانه هو بطريقة أقرب إلى طريقة الكتب المدرسية مع استعمال ضمير المتكلمين الجمع. ويظهر تدخل المؤلف بشكل أوضح في مواضع الوصف. ولقد ذكر هيكل بك في مقدمة الطبعة الثانية الظروف التي وضع فيها كتابه، وذلك حين كان يطلب العلم في باريس وجد به الحنين إلى وطنه، فجعل يتمثل في ذهنه جميع مظاهر الحياة القروية، ومجالي الطبيعة في مصر، ويظهر أثر ذلك في كل صفحة من صفحات الكتاب تقريبا، في قطع وصفية مسهبة للمناظر الطبيعية، كالشمس والقمر والنجوم والمحاصيل والجداول والبرك. . . الخ، ولقد يرتفع أسلوبه في ذلك إلى درجة عظيمة من الفخامة والروعة الموسيقية، ولكن طول الوصف مما يسبب السآمة وتشتيت الذهن. ففي كل حادثة وفي كل منظر وصف وتعليق، مما جعل القصة في بعض المواضع تسير متعثرة. أضف إلى هذا أن الكاتب كان يعمد أحيانا إلى قصص استطرادية تافهة، لا تمت بصلة قوية إلى القصة الأصلية، لا لغرض سوى أن يستطيع بواسطتها أن يضيف بعض الفقرات الوصفية، ثم بين الفينة والفينة تظهر بعض جمل مثقلة بالوصف الى درجة تفقد معها مبناها ومادتها.

ولكن يجب ألا ننسى أن هذه الفقرات الوصفية تحمل من المعاني إلى ذهن القارئ المصري أكثر مما تحمل إلى غيره، وإن تأثيرها الفني في نفسه، يعد أحد الأسباب الرئيسية التي قامت عليها شهرة هذه القصة عند المصريين.

أما ما حوته من المباحث الاجتماعية، فكان أكثر تمشيا مع الخطة، إذ كان من المحتم أن يتلمس المؤلف أسباب المساوئ التي ذكرها وأسباب المأساة النهائية، وأن يرجع ذلك إلى أصله في العادات الاجتماعية. ويغلب على القصة من أولها إلى آخرها التعرض لنقد المساوئ التي أنتجها التمسك بالعادات البالية، ولكن النقد الاجتماعي لم يحشر بالطريقة التي حشرت بها الفقرات الوصفية (والسيكلوجية) ويرجع ذلك إلى أن المؤلف قد أجراه على لسان حامد، وهو شاب متعلم متأثر بأفكار قاسم أمين وغيره من المصلحين الاجتماعيين، على أن المؤلف كان يلجأ هنا أيضاً في بعض الأحيان إلى اصطلاحات الكتب المدرسية.

وكان تنظيم الأسرة وتحرير المرأة هما المحور الذي تدور عليه انتقادات المؤلف الاجتماعية، أضف إلى ذلك بعض مظاهر الحياة الاجتماعية في مصر، كبعض الحرف البعيدة كل البعد عن حقائق الحياة، مثل حرفة طبيب القرية (الحكيم البلدي) ومشايخ الطرق الذين يتجرون بتضليل العامة وغير ذلك.

أما شعور المؤلف القومي، فكان مضمراً أكثر منه صريحا وإن كان قد أظهره في بعض المواضيع، وبخاصة عند إشارته إلى حقارة الخدمة العسكرية، تحت سيطرة الأجنبي.

أما أسلوب القصة فقد سار الكاتب فيه على الأسلوب الأدبي الحديث مع تهذيبه في أغلب الأحيان في اللفظ والتركيب، ويلاحظ فيه من جهة أثر الاصطلاحات العامية الخاصة بدلتا مصر، ويتضح ذلك في اقتضاب بعض الجمل، وفي طريقة الانتقال وغيرها، كما يلاحظ فيه من جهة أخرى أثر الفرنسية، ويظهر ذلك في طول الجمل والتوائها مع كثرة الجمل الفرعية والمعترضة التي تدخل على الجملة الرئيسية، مثال ذلك الجملة التي تبتدئ بالفقرة الآتية (ومن الظلام روافه) صفحة 37 من الطبعة الأولى و34 في الطبعة الثانية وكذلك الجملة التي تبتدئ بقوله: ولم تكن إلا لحظات. . . ص 89 في الطبعة الأولى و 70 في الثانية.

أما ما يتعلق بتلك المشكلة الصعبة، مشكلة أسلوب الحوار فقد لجأ هيكل بك في شجاعة إلى استعمال اللغة العامية إذا كان الحوار بين الفلاحين، أما إذا كان بين الطبقات المتعلمة فيتركهم يتكلمون اللغة الفصحى.

ويتضح مما قدمنا أن عنصر الخيال في زينب أقل منه في مثيلاتها من القصص الأوربية المتوسطة، وأن ما في القصة من فقرات عقلية ووجدانية (وهي في الواقع العنصر الشخصي فيها) يسمو على الناحية القصصية. ولقد ذكر الكاتب في مقدمة الطبعة الثانية أن القصة فضلا عن مظاهرها الخاصة تأثرت أيضاً بطريقة القصة الفرنسية السيكلوجية الحديثة، ولكنا على الرغم من ذلك (إلا إذا ثبت تماما أن القصة قد جرت في تفاصيلها وأسلوبها وخطتها على نمط القصة الفرنسية) نقول أنه يستحيل علينا أن ننكر على زينب أنها أول قصة مصرية كتبت بقلم مصري للقراء المصريين، وأن شخصياتها وأوضاعها وخطتها قد اشتقت من الحياة المصرية الحاضرة.

لم تلق هذه القصة إلا اهتماما قليلا حينما نشرت في عام 1914، ولكنها لاقت بعد ذلك نجاحاً كبيراً لما اتسعت دائرة القراء. وكان إعادة طبعها في عام 1929 بناء على طلب الجمهور، وقد أدى إلى ذلك عدة عوامل نذكر منها أنها زادت في إحساس الناس بقوميتهم، وأن مؤلفها قد ارتفع صيته في عالم الأدب، وأنها اختيرت موضوعا لأول (فلم سينمائي) أخرج في مصر.

ومن أجل ذلك أصبحت القصة موضع بحث، وكتب في نقدها بعض مقالات كان معظمها مدحا وتقريظا. ومن أحسن ما كتب في هذا الصدد مقالتان طويلتان للمازني في السياسة الأسبوعية بتاريخ 27 أبريل و4 مايو سنة 1929. وحدث أن كتب بعد ذلك كل من هيكل بك ومحمد عبد الله عنان سلسلة مقالات في السياسة الأسبوعية في أوائل عام 1930 ذات فائدة كبيرة فيما يتعلق بنشأة القصة في مصر.

يسائل هيكل بك عن أسباب ذلك الضعف وذلك الفقر الغريبين اللذين يمتاز بهما الأدب العربي الحديث في القصة، مع أن المصريين يمتازون بمقدرة طبيعية على سرد القصص. ولقد علل ذلك بعدة أسباب منها: فقدان المقدرة على طول الخيال، والفرق بين لغة الكتابة ولغة التخاطب، وكسل الكتاب المصريين. ولكن ليس في هذه الأسباب ما يمكن اعتباره السبب الحقيقي وإن بدا في الثاني منها بعض الوجاهة. ويذكر هيكل بك بعض الأسباب الفرعية الأخرى ومنها (1) نسبة الأمية الهائلة في مصر، وهي تحول دون أي تقدير حقيقي من جهة، وتكون سببا في قلة العوض المالي من جهة أخرى (2) عدم التشجيع من

جانب الطبقات العالية والطبقات الغنية، وربما كان السبب في ذلك أن هؤلاء لم يجدوا تشجيعا من جانب المرأة وبهذه المناسبة يشير المؤلف إلى أثر المرأة في فرنسا في القرنين السابع عشر والثامن عشر والى أهمية تشجيع المرأة للحركة الأدبية في الأدب العربي القديم (3) الحط من قيمة الأدباء في مصر والتشهير بهم علنا من منافسيهم وممن هم أقل منهم منزلة (4) انشغال الناس بالمسائل السياسية والاقتصادية وميل الكتّاب إلى الاهتمام بالناحية السياسية أكثر من اهتمامهم بالناحية الأدبية.

ويوافق عنان على تلك الأسباب في الجملة، غير أنه يقول أن ثانيها هو أكثرها خطرا، فإن الوسيلة الحقيقية إلى نمو القصة في مصر تنحصر في مركز المرأة الاجتماعي ويشير عنان إلى أن الدور الذي لعبته المرأة في إنهاض الشعر العربي القديم لم يكن له علاقة بالقصة، لأن أساس القصة إنما يوضع في مجتمع تلعب فيه المرأة دورا خطيرا ويكون المجتمع متأثرا بنفوذها خصوصا في رسم مستوى الخلق والسلوك. وكان من نتيجة فقدان هذا الأثر ضيق مجال الأدب العربي القديم والأدب الأوربي في العصور الوسطى ونقصهما في جمال الشعور والعواطف. ولا يزال هذا الضيق موجودا في الأدب العربي الحديث لأن المستوى الاجتماعي لم يزل كما هو لم يتغير. وتعتبر قصة زينب إحدى الشواذ التي تنهض دليلا على صحة القاعدة، فإن نجاحها إنما يرجع إلى تلك الحرية النسبية التي تتمتع بها المرأة في الحياة الريفية. وعلى ذلك فإن عنانا لا يشارك هيكل بك في تفاؤله، ففي نظره أنه لا يمكن أن تتقدم القصة المصرية ما لم تتحسن تلك الظروف القائمة، ولا يمكن أن تترجم أو تمثل العواطف والأخلاق السائدة في الحياة الاجتماعية. ولا ينتظر أن يكون لها مستقبل في التطور الأدبي الحديث ما دامت الحياة الإسلامية محافظة على تقاليدها الموروثة. ومما قاله في هذا الصدد (استطعنا أن نقطع بأن المجتمع الإسلامي لا يمكن (متى بقي تطوره وتقدمه محصورين في المبادئ الإسلامية الخالدة أو في التقاليد التي كانت أثرا لهذه المبادئ) أن يظفر كتاب القصص العربي يوما بمادة واسعة أو غزيرة كالتي يقدمها المجتمع

الغربي إلى كتاب الغرب أو أن يغدو الأثر الذي يفسحه للمرأة ذات يوم وحيا للفن والجمال).

ولقد أدت مقالة عنان إلى رد من جانب هيكل بك يتعرض فيه إلى الناحية السيكلوجية)

للموضوع، وهي مقالة جديرة بأن تقرأ بمزيد الاهتمام. يقرر الكاتب أن الضعف الحقيقي في القصة القصيرة والقصة الطويلة في مصر إنما يرجع إلى عدم المقدرة على تفهم الحياة والى حاجتنا إلى تربية العواطف، فإن العواطف النبيلة لا يمكن أن تثمر في حياة اجتماعية يقف فيها الشعور عند نقطة تقوم معها الأغراض الجسدية مقام أي عاطفة سامية من عواطف النفس الإنسانية. وإن أي فن لا يكون في الأصل قائما على حب الفنان لناحية من نواحي الحياة لا يمكن مطلقا أن يصل إلى درجة الكمال، وتطور غريزة الحب إلى عاطفة إنسانية سامية يحتاج إلى تدريب طويل شاق وقد لا يكفي لبلوغ ذلك جيل بل عدة أجيال. وحتى فضيلتا الإحسان والعطف يندر وجودهما في مظهرهما الاجتماعي الراقي في مصر. ولم يزل الحب أيضاً قريبا من الغرائز الأولية، ومن النادر أن يعثر المرء في هذه الناحية على مثل من المثل العليا الجميلة. وأخيرا يتلمس الكاتب أسباب نقص التهذيب العاطفي في انعدام وسائل التربية التي تقصد إلى هذا الغرض في المنزل، كما يتلمسها في طرق التعليم القديمة التي تعد أدخل في باب الحرف منها في باب الإنسانية.

ولم يكن من السهل مرور هذه المناقشات دون أن تثير معارضة من جهات مختلفة وسنوضح أحد هذه الانتقادات الشهيرة عند الكلام على قصة المازني (إبراهيم الكاتب)

ولقد صدرت تلك المعارضة عن صفوف المثقفين. ومما قاله أحدهم في هذا الصدد. . . ما هذه المناقشة الطويلة حول القصة؟ لقد سار الأدب العربي بدونها في الماضي ولم ينقص ذلك من قدره، وإن التطلع إلى إيجاد القصة فيه الآن ليعد مثلا جديدا من أمثلة تقليد الأوربيين تقليدا ضارا ينذر بتقوض دعائم الحياة الاجتماعية في الشرق. إن القصة الغربية بما فيها من نقص وتزييف وعدم ملاءمة للتقاليد الاجتماعية في الشرق قد أثرت تأثيرا هداما في حياة مصر الاجتماعية. أفنسعى بعد ذلك وراء هذا الداء الوبيل؟

ابن خلدون في مصر

للأستاذ محمد عبد الله عنان

- 3 -

ثم عين المؤرخ في وظيفة أخرى هي مشيخة (نظارة) خانقاه بيبرس، وهي يومئذ أعظم الخوانق أو ملاجئ الصوفية؛ فزادت جرايته، واتسعت موارده. ولكن أمد سكينته لم يطل، فقد نشبت فتنة خطيرة أودت بعرش الظاهر برقوق بطلها ومدبرها الأمير يلبغا الناصري نائب حلب؛ وكانت نظم البلاط القاهري وظروفه وما يضطرم به من الدسائس والخيانات مما يسمح بتكرار هذه الفتن؛ وكان يلبغا الناصري نائب السلطنة من قبل، وزعيم عصبة قوية من الأمراء والفرسان؛ وكان الظاهر برقوق من جملة أمرائه وتابعيه؛ ولكنه استطاع في فتنة سابقة (رمضان سنة 784) أن يظفر بالعرش دونه، وأن يجرده من سلطته ونفوذه، وأن يقصيه إلى الشام. ثم سنحت فرصة الخروج ليلبغا، فسار إلى القاهرة في أتباعه وتحول أنصار برقوق عنه، ففر من القلعة، ودخل يلبغا الناصري القاهرة، وأعاد الصالح حاجي السلطان المخلوع إلى العرش، وقبض على برقوق وأرسله سجينا إلى الكرك (جمادى الأولى سنة 791). ولكن ثورة أخرى نشبت بقيادة أمير آخر يدعى منطاش، فقبض على الناصري، وسار إلى دمشق لمحاربة برقوق الذي استطاع أن يفر من سجنه؛ فهزمه برقوق وعاد إلى القاهرة ظافراً منصوراً، واسترد عرشه في صفر سنة 92، لبضعة أشهر فقط من عزله.

ويخصص ابن خلدون في (تعريفه) فصلاً لهذه الحوادث، ويمهد له بشرح فلسفي اجتماعي يتحدث فيه عن نهوض الدولة بقوة العصبية واتساع ملكها، ثم طغيان الحضارة والرفاهة عليها، وخروج الأقوياء منها عليها، وبثهم فيها روحاً جديداً من القوة، وتكرر هذه الظاهرة، ثم يطبق نظريته على دول المماليك المصرية منذ صلاح الدين، ويقص تاريخها باختصار. وهنا يبدو ابن خلدون كما يبدو في مقدمته، ذلك الفيلسوف الاجتماعي الذي يعنى بتعليل الظواهر والكائنات، واستقرائها في حوادث التاريخ.

والظاهر أن ابن خلدون قد عانى من جراء هذه الفتنة، ففقد مناصبه وأرزاقه كلها أو بعضها بسقوط الحزب الذي يتمتع بعطفه ورعايته. فلما عاد الظاهر برقوق إلى العرش ردت إليه. يدل على ذلك قوله في التعليق على عود الظاهر: (ثم أعاده إلى كرسيه للنظر في مصالح
عباده، وطوقه القلادة التي ألبسه كما كانت، فأعاد لي ما أجراه من نعمته).
ولبث ابن خلدون على ذلك أعواما ينقطع للبحث والدرس، وهو يقف بالتعريف بنفسه عند هذه المرحلة، حتى مستهل سنة سبع وتسعين (797) في الترجمة المتداولة الملحقة بتاريخه. ولكنه يمضي في هذا التعريف مراحل أخرى، في النسخة المخطوطة التي أتينا على ذكرها؛ ويفصل حوادث حياته حتى مختتم سنة 807، أعني قبل وفاته ببضعة أشهر. والنسخة المخطوطة أكثر تفصيلا وإسهاباً حتى فيما تتفق فيه مع النسخة المتداولة من مراحل الترجمة؛ ولهذا آثرنا الرجوع إليها إلى جانب النسخة المتداولة في كل ما هو أوفى وأتم مما تقدم ذكره من المراحل. غير أن النسخة المخطوطة ستكون منذ الآن وحدها مرجعنا فيما سيأتي من تفاصيل حياة المؤرخ حتى وفاته.
ليس في حياة ابن خلدون في هذه الفترة ما يستحق الذكر سوى سعيه إلى عقد الصلات بين البلاط القاهري وسلاطين المغرب ويجمل ابن خلدون ذكر هذه الصلات الملوكية، ويصف المراسلة والمهاداة بين صلاح الدين وبني عبد المؤمن ملوك المغرب؛ وبين الناصر قلاوون وملوك بني مرين؛ ويصف الهدايا المصرية والمغربية؛ ثم يعطف على مساعيه في عقد الصلة بين الملك الظاهر وسلطان تونس؛ وملخصها أنه كتب إلى سلطان تونس بحثه على إهداء ملك مصر، فأرسل إليه هدية من الجياد النادرة، ولكنها غرقت مع السفينة التي كانت تحمل أسرة المؤرخ كما قدمنا. ورد الملك الظاهر بإهداء سلطان تونس؛ ثم بعث سنة تسع وتسعين إلى المغرب ليشتري عدداً من الجياد، فزود ابن خلدون الرسل بالإرشاد والتوصية. ولكنهم عادوا بهدية فخمة كان سلطان تونس قد أعدها وتأخر إرسالها؛ وعدة هدايا أخرى قدمها أمراء المغرب، ومنها خيل مسومة، وعدد وسروج ذهبية. ويصف لنا ابن خلدون يوم تقديم الهدايا وعرضها ثم يقول لنا إنه شعر يومئذ بالفخر وحسن الذكر بما (تناول بين هؤلاء الملوك من السعي في الوصلة الثابتة على الأبد).
لبث ابن خلدون بعيداً عن منصب القضاء زهاء أربعة عشر عاما، يحول بينه وبين توليه، على قوله، ذلك الجناح من البلاط الذي شغب في حقه، وأغرى السلطان بعزله؛ فلما ضعف ذلك الحزب وانقرض رجاله، انتهز السلطان أول فرصة لرده إلى منصبه وكان ذلك في منتصف رمضان سنة إحدى وثمانمائة (مايو سنة 1398م) على أثر وفاة ناصر الدين
التنسي قاضي المالكية. وكان ابن خلدون عندئذ بالفيوم يعنى بضم قمح ضيعته التي يستحقها من أوقاف المدرسة (القمحية) فاستدعاه السلطان وولاه القضاء للمرة الثانية. ثم توفي السلطان بعدئذ بقليل؛ في منتصف شوال؛ فخلفه ولده الناصر فرج، وسرى الاضطراب إلى شئون الدولة، واضطرمت الفتن والثورات المحلية حينا. فلما استقرت الأمور نوعاً، استأذن المؤرخ في السفر إلى بيت المقدس، فأذن له؛ وجال ابن خلدون في المدينة المقدسة، يتفقد آثارها الخالدة؛ وشهد المسجد الأقصى، وقبر الخليل، وآثار بيت لحم، ولكنه أبى الدخول إلى كنيسة القيامة (قبر المسيح). يقول لنا (وبناء أمم النصرانية على مكان الصليب بزعمهم، فنكرته نفسي، ونكرت الدخول إليه) ثم عاد من رحلته ووافى ركاب السلطان أثر عوده من الشام في ظاهر مصر، ودخل معه القاهرة في أواخر رمضان سنة 802.
وفي المحرم سنة ثلاث عزل ابن خلدون من منصب القضاء للمرة الثانية. وسترى أن هذا العزل كان نتيجة لسعي منظم من خصوم المؤرخ، وأن تكراره كان مظهراً بارزاً لذلك النضال الذي كان يضطرم بينه وبين خصومه داخل البلاد وخارجه. ولم يمض قليل على ذلك حتى جاءت الأنباء بأن تيمورلنك قد انقض بجيوشه على الشام واستولى على مدينة حلب في مناظر هائلة من السفك والتخريب (ربيع الأول سنة 803هـ - 1400م) ثم اخترق الشام جنوبا إلى دمشق. فروعت مصر لهذه الأنباء، واضطرب البلاط أيما اضطراب، وهرع الناصر فرج بجيوشه لملاقاة الفاتح التتري ورده، واصطحب معه القضاة الأربعة وجماعة من الفقهاء والصوفية ومنهم ابن خلدون. ولا ريب أن المؤرخ

لم ترقه هذه المفاجأة التي ذكرته بما عاناه بالمغرب من تلك المهام السلطانية الخطرة؛ بل هو يقول لنا صراحة أنه حاول الاعتراض والتملص، لولا أن غمره يشبك حاجب السلطان (بلين القول، وجزيل الأنعام). ويفرد المؤرخ فصلا لحوادث تلك الحملة، ويمهد له بتعريف عن نشأة التتار والسلاجقة. وكان سفر الحملة في ربيع الثاني سنة 803، فوصلت إلى دمشق في جمادى الأولى، ونزل ابن خلدون مع جمهرة الفقهاء والعلماء في المدرسة العادلية، واشتبك جند مصر تواً مع جند الفاتح في معارك محلية ثبت فيها المصريون؛ وبدأت مفاوضات الصلح بين الفريقين. ولكن مؤامرة دبرها نفر من بطانة السلطان لخلعه

اضطرته للعودة سريعاً إلى مصر؛ فترك مصر لمصيرها، وأرتد مسرعاً إلى القاهرة فوصلها في جمادى الآخرة. وعلى أثر ذلك وقع خلاف بين القادة والرؤساء حول تسليم المدينة. وهنا تغلب المؤلف نزعة المغامرة كما تغلبه الأثرة.

فقد خشي أن تقع المدينة في يد الفاتح، فيكون نصيبه الموت أو النكال؛ ورأى أن يعتصم بالجرأة، وأن يغادر جماعة المترددين إلى معسكر الفاتح، فيستأمنه على نفسه ومصيره. ويحدثنا المؤرخ عن ذلك بصراحة، فيقول على ما شجر بين القادة من خلاف (وبلغني الخبر، فخشيت البادرة على نفسي، وبكرت سحراً إلى جماعة القضاة عند الباب، وطلبت الخروج، أو التدلي من السور لما حدث عندي من توهمات ذلك الخبر).

وانتهى المؤرخ بإقناع زملائه فأدلوه من السور، وألفى عند الباب جماعة من بطانة تيمورلنك وأبنه شاه ملك الذي عينه لولاية دمشق عند تسليمها فأنظم إليهم، والتمس مقابلة تيمور؛ فساروا به إلى المعسكر أدخل في الحال إلى خيمة الفاتح. ويصف لنا ابن خلدون ذلك اللقاء الشهير في قوله: (ودخلت عليه بخيمة جلوسه، متكئاً على مرفقه، وصحاف الطعام تمر بين يديه تشريها إلى عصب المغل، جلوساً أمام خيمته حلقاً حلقا. فلما دخلت عليه، فانحنيت بالسلام وأوميت إيماءة الخضوع، فرفع رأسه، ومد يده إليّ فقبلها؛ وأشار بالجلوس فجلست حيث إنتهت، ثم استدعا من بطانته الفقيه عبد الجبار بن النعمان من فقهاء الحنفية بخوارزم فأقعده يترجم بيننا).

البيروني أيضاً.

نشرتم في ص20 من الجزء الرابع من الرسالة ترجمة للبيروني حسنة التأليف والمضامين متناولة لكثير من مناحي الرجل العلمية والفنية، ولكنها مغفلة لمنحاه الأدبي المصطلح عليه في عصره، وهذا مما تعنى به الرسالة ويصيب منها هوى فيه، فللبيروني كتاب (شعر أبي تمام) قال ياقوت الحموي: (رأيته بخطه لم يتمه) وكتاب التعلل بإجالة الوهم في معاني نظم أولي الفضل، وكتاب تاريخ أيام السلطان محمود وأخبار أبيه، وكتاب المسامرة في أخبار خوارزم ذكره ياقوت أيضاً في مادة (خوارزم) وكتاب مختار الأشعار والآثار، قال ياقوت: (وإنما ذكرته أنا هاهنا لأنه كان أديباً أريباً لغوياً وله تصانيف في ذلك) ولم يذكر في الترجمة المذكورة في الرسالة كتابه (تقاسيم الأقاليم)، قال ياقوت (وجدت كتاب تقاسيم الأقاليم تصنيفه وخطه وقد كتبه في هذا العام) وليس هو الذي أشير إليه في الرسالة بما نصه (وعمل قانوناً جغرافياً كان أساساً لأكثر القسموغرافيات المشرقية) وله كتاب (اعتبار مقدار الليل والنهار) وسبب تأليفه أن السلطان محمود الغزني ورد عليه رسول من أقصى بلاد الترك وحدث بين يديه بما شاهد، في ما وراء البحر نحو القطب الجنوبي (كذا) من دور الشمس عليه ظاهرة في كل دورها فوق الأرض بحيث يبطل الليل، فتسارع السلطان على عادته في التشدد في الدين، إلى نسبة الرجل إلى الإلحاد والقرمطة، على كونه بريئاً منهما، فقال أبو نصر أبن مشكان للسلطان (أن هذا لا يذكر ذلك عن رأي يرتئيه ولكن عن مشاهدة يحكيه) وتلا قوله عز وجل (وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا) فسأل السلطان أبا الريحان عن ذلك فأخذ يصفه له على وجه الاختصار ويقرره على طريق الإقناع، وكان السلطان في بعض الأوقات يحسن الإصغاء ويبذل الإنصاف، فقبل ذلك وانقطع الحديث بينه وبينه وقتئذ، وبعد تولي ابنه مسعود للسلطنة انبعثت القضية ائتنافاً وفاوض البيروني يوماً فيها وفي سبب اختلاف مقادير الليل والنهار في الأرض وأحب من أبي الريحان البرهان ليجتزئ به عن العيان، فقال له أبو الريحان (أنت المنفرد اليوم بامتلاك الخافقين، والمستحق بالحقيقة اسم ملك الأرض، فأخلق بهذه المرتبة إيثار الاطلاع على مجاري الأمور وتصاريف أحوال الليل والنهار

ومقدارها في عامرها وغامرها) وصنف له ذلك الكتاب المتقدم ذكراً بطريق يبعد عن مواضعات المنجمين وألقابهم ويقرب تصوره من فهم من لم يرتض بهذا العلم ولم يعتده، وكان السلطان قد مهر في العربية فسهل له وقوفه عليه وأجزل إحسانه إليه، وكذلك صنف كتاباً في (لوازم الحركتين) بأمر هذا السلطان. قال ياقوت (وهو كتاب جليل لا مزيد عليه مقتبس أكثر كلماته عن آيات من كتاب الله عز وجل وكتابه الآخر المعنون بالدستور الذي صنفه باسم شهاب الدولة أبي الفتح مودود بن السلطان شهيد، مستوف أحاسن المحاسن) وذكر له صاحب روضات الجنات غير ما جيء به في الرسالة كتاب (تسطيح الكرة) وكتاب (الاستيعاب في علم الإسطرلاب) وهو غير (العمل بالإسطرلاب) وكان كبيراً على ما قال مؤلف الروضات، وكتاب (تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن) وكتاب (التفهيم في صناعة التنجيم) بالعربية والفارسية، وكتاب (الأظلال) ورسالة في تهذيب الأقوال ومقالة في استعمال الإسطرلاب الكرى وأخرى في تلافي عوارض الزلة في دلائل القبلة، وكتاب اختصار بطليموس القلوذي، وكتاب الأطوال للفرس، وتاريخ الهند وهو مجلدات، ونفهم من كلام صاحب الروضات أن العلماء اختلفوا في أسمه فترجمه بعضهم في باب (المحمدين) وبعض مع الأحمدين وفعل هو الأمرين، وأن صلاح الدين الصفدي ذكره في تاريخ (الوافي بالوفيات) وذكره صاحب طبقات النحاة ومؤلف رياض العلماء وحمد الله المستوفي الفارسي في نزهة القلوب، وذكره القفطي في ترجمة (بطليموس القلوذي) الذي أسلفنا ذكراً له، قال (وما أعلم أحداً تعرض لتأليف مثل كتابه المعروف بالمجسطي ولا تعاطى معارضته بل تناوله بالشرح والتبيين كالفضل بن أبي حاتم التبريزي وبعضهم بالاختصار والتقريب كمحمد بن جابر البتاني وأبي الريحان البيروني الخوارزمي مصنف كتاب القانون المسعودي ألفه لمسعود بن محمود بن سبكتكين وحذا فيه حذو بطليموس. . .) وذكره شمس الدين الشهرزوري في تاريخ الحكماء فقال (أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني وبيرون مدينة في السند. . .) وقال ياقوت (وهذه النسبة معناها: البراني لأن بيرون بالفارسية معناه: برا، وسألت بعض الفضلاء عن ذلك فزعم أن مقامه بخوارزم كان قليلا وأهل خوارزم يسمون الغريب بهذا الاسم كأنه لما طالت غربته عنهم صار غريباً، وما أظنه يراد به إلا أنه من أهل الرستاق، يعني أنه من برا البلد) وأقول أن التكلف في تخريج نسبته ظاهر، فالشهرزوري اتبع قوله السابق ما صورته (وبيرون التي هي منشأه ومولده بلدة طيبة فيها عجائب وغرائب، ولا غرو فان الدر ساكن الصدف) وقد ألحق في كتابه آثار الباقية المطبوع في ليبزيج ثبت لكتبه فيه اسم (112) تأليفاً.

بغداد- مصطفى جواد

من طرائف الشعر

شوقية لم تنشر

نظم شاعر الخلود المغفور له شوقي بك هذه القصيدة في منفاه ولم يتمها. فنشرناها للأدب والتاريخ:

وسقيمة الأجفان لا من علة ... تحيي العميد بنظرة وتميته
وصلت كتربيها الحديث بضاحك ... ضاحٍ كمؤتلف الجمان شتيتُه
قالت تغربت الرجال، فقلت في ... ضيم أريد بجانبي فأبيته
قالت نُفيت، فقلت ذلك منزل ... وردَته كل يتيمة ووردته
قالت رماك الدهر، قلت فلم أكن ... نِكساً ولكن بالأناة رميته
قالت ركبت البحر وهو شدائد ... قلت الشدائد مركب عُوِّدته
قالت أخِفت الموت قلت أمُفلت ... أنا من حبائله إذا ما خفته؟
لو نلت أسباب السماء لحطني ... أجل يحل لحينه موقوته
قالت لقد شَمِتَ الحسود فقلت لو ... دام الزمان لشامت لحفلته
قالت كأني بالهجاء قلائداً ... سارت، فقلت هممت ثم تركته
أخذتْ به نفسي فقلت لها دعى ... ما شاءت الأخلاق لا ما شئته
من راح قال الهُجر أو نطق الخنا ... هذا بياني عنهما نُزَّهته
الله علمنيه سمحاً طاهرا ... نَزِه الخلال وهكذا علمته

كشافة العراق
للأستاذ محمد الهراوي
هذي العراق وأهلها الغر ... تهتز من طرب بهم مصر
أبناء بغداد، وهم شهب ... في أفق مصر الأنجم الزُّهر
نزلوا بساحتها، وقد نزلوا ... حيث الحشا والقلب والصدر
كشافة شدوا رحالهمو ... لا البر يعييهم ولا البحر
ومن السلام عليهمُ بشر ... ومن الحمية فيهمُ جمر
عن مصر حيتهم مواسمها ... وعن الربيع الطير والزهر
لله بغداد ومصر معاً ... فهما الحما والموطن الحر
أختان من رحم ومن نسب ... غذى أصولهما الدم الطهر
ولقد توارثتا معاً أدباً ... ينبيك عنه النثر والشعر
ولقد تشابهتا فأرضهما ... من جنة، والكوثر النهر
والدين وحد بين قومهما ... رمياتهم، والمطمح الوعر
ماضيهمو مجد، وحاضرهم ... جد، وللمستقبل النصر
من أدب الزنوج
ترجم الأستاذ ايليا أبو ماضي هذه الأنشودة من أناشيد الزنوج في أمريكا واضطهاد البيض اياهم معروف
فوق الجميزة سنجاب ... والأرنب تمرح في الحقل
وأنا صيَّاد وثاب ... لكن الصيد على مثلي
محظور إذ أني عبد
والديك الأبيض في القُن ... يختال كيوسف في الحسن
وأنا أتمنى لو أني ... أصطاد الديك ولكني
لا أقدر إذ أني عبد
وفتاتي في تلك الدار ... سوداء الطلعة كالقار
سيجيء ويأخذها جاري ... يا ويحي من هذا العار
أفلا يكفي أني عبد؟
الهوى والشباب
للأستاذ بشارة الخوري
الهوى والشباب والأمل المن ... شود توحَى فتبعث الشعر حيا
والهوى والشباب والأمل المن ... شود ضاعت جميعها من يديا
يشرب الكأس ذو الحَجِيِّ ويبقى ... لغد في قرارة الكأس شيَّا
لم يكن لي غد فأفرغت كأسي ... ثم حطمتها على شفتيا
أيها الخافق المعذب يا قلْ ... بي نزحت الدموع من مقلتيا
أفحَتْم عليَّ إرسال دمعي ... كلما لاح بارق في مُحَيا؟
يا حبيبي لأجل عينيك ما ألْ ... قى وما أوَّلَ الوشاة عليا
أأنا العاشق الوحيد لتُلقي ... تبعات الهوى على كتفيا
اسقني من لماك أشهى من الخم ... ر ونم ساعة على راحتيا
أنا ميتٌ غدا مع الفجر فاسكب ... نغمات الحنان في أذنيا
موطني
لنزيل البرازيل: إلياس فرحات
نازح أقعده وجد مقيم ... في الحشا بين خمود واتقاد
كلما افتر له البدر الوسيم ... عضه الحزن بأنياب حداد
يذكر العهد القديم ... فينادي
أين جنات النعيم ... من بلادي
زانها المبدع بالفن الرفيع ... منصفا بين الروابي والبطاح
ملقيا من نسج أبكار الربيع ... فوق أكتاف الربى أبهى وشاح
حبذا راعي القطيع ... في المراح
ينشد اللحن البديع ... للصباح
موطني يمتد من بحر المياه ... ممعنا شرقا إلى بحر الرمال

بين طوروس وبين التيه تاه ... بجمال فائق حد الجمال
ذكره يغري فتاه ... بالمعالي
أنا لا أبغي سواه ... فهو مالي
في الأدَبِ الشرقي
نظرات في الأدب الفارسي
منذ نشأته إلى إغارة التتار
للدكتور عبد الوهاب عزام

وأما ألفاظ الشعر ففيها كثير من الألفاظ العربية وعليها طابع عربي في تركيبها، ولكن أثر العربية في الشعر أقل منه في النثر.
وأما قوافيه وأوزانه فلا يمكن تفصيلها في هذا المقال، وحسبنا أن نقول إن الفرس يكثرون من الشعر المزدوج الذي يسمونه المتنوي وهو شعر القصص كلها، وأكثروا كذلك من الدوبيت أو الرباعي، وعندهم ما يسمونه تركيب بند، أو ترجيع بند، وهو قريب من الموشحات العربية، وعندهم الشعر المردف وهو الذي تكرر في آخره كلمة واحدة ويعتبر الروي والقافية ما قبل هذه الكلمة. وجملة القول أنهم لم يسهلوا القوافي العربية وإن اخترعوا ضروبا فيها.
وأما الوزن فجدير بالتدقيق جداً، فان الفرس حاكوا العرب في أوزانهم أول الأمر ولكنهم سرعان ما نبذوا أشهر الأوزان العربية. فالطويل والمديد والبسيط والوافر والكامل، وهي بحور الدائرة الأولى، لم ينظم فيها الفرس إلا جماعة من المتقدمين أرادوا إظهار براعتهم كما يقول شمسي قيس. ونظموا في الرمل والرجز والخفيف والمضارع والمجتث والمتقارب (وهو وزن الشاهنامة) وأولعوا بالهزج ولعاً شديداً حتى جعلوه أصلا فرَّعوا منه أصناف الرباعي وخرجوا به عن أصله العربي.
ويلاحظ أنهم لم يقفوا بالبحور عند المقادير العربية، فالرمل قد يأتي مثمناً والرجز كذلك وما جاءا قط كذلك في شعر العرب، والهزج (مثلا) الذي هو سداسي الأصل عند العرب ومجزوء وجوباً ينظم منه الفرس مثمنا. ثم تصرف الفرس في الزحاف والعلل تصرفاً كثيراً جدا، واشتقوا من الدوائر العربية بحورا أخرى قريبة من البحور الأصلية مثل الغريب والمشاكل والقريب.
وقد أراد بعض المستشرقين أن يعلل الخلاف بين الأوزان العربية والفارسية الخ بما بين طبائع الأمتين من اختلاف.
ويقول شمسي قيس أن سبب نقل الطويل والمديد والبسيط أن أجزاءها غير متناسبة في حركاتها وسكناتها ويطيل في بيان ذلك. ولا يمكن الفصل في هذه المسألة إلا بعد بحث مفصل في أوزان الشعر العربي وعلاقتها بالكلمات العربية، وفي تطور الأوزان العربية في الشعر الفارسي وتبيين ما بين هذا التطور ولغة الفرس من صلة، وبعد بحث طويل شاق لم تتهيأ وسائله.
وأما النثر الفارسي فأثر العربية عليه أبين: الألفاظ العربية فيه أكثر، والتركيب قريب من التركيب العربي، ولكن لا بد من الفرق بين النثر الأدبي - نثر الرسائل والمقامات ونثر الكتب، فأما الأولى فقريبة من الشعر، وأما الثانية فيفرق فيها بين كتب التاريخ التي هي قصص يستعمل فيها الكلام المعتاد غالبا وبين المؤلفات العلمية مثل كتب الفقه والتوحيد والبلاغة والطب وهلم جرا. فهذا الصنف الأخير يكاد يكتب بألفاظ عربية، وتستعار فيه كل الاصطلاحات العربية، فاصطلاحات البلاغة وضروب البديع واصطلاحات العروض أخذت برمتها، وما زادوه فيها اشتقوه من العربية أيضا، ثم المؤلفات كلها علميا وأدبيا يتخللها كثير من المقتبسات العربية، ففي كتب الدين الآيات والأحاديث، وفي كتب الأدب والتاريخ كثير من الأبيات والأمثال والمأثورات، وقد تجد من ذلك أسطرا كثيرة متوالية.
قد عرفنا حال اللغة الفارسية في إيران إجمالاً، وكيف بدأت وكيف تطورت وكيف شاركت في فنون كثيرة. وقد يتردد في نفس القارئ هذا السؤال: ماذا أصاب اللغة العربية في تلك البلاد بعد أن صار لها لغة أدبية خاصة؟ هل استبدت اللغة الفارسية بالآداب ولم يبق للعربية فيها مجال؟ والجواب كلا!!
قد تقلبت الغير باللغتين ولكن يمكن أن يقال أن العربية احتفظت بالسيادة في الأطوار

كلها فيما عدا الشعر. فأما أدلة هذا وتفصيله ففي هذه الكلمة الموجزة.
لا ريب أن المؤلفات العربية التي ألفت في بلاد فارس ما بين أول القرن الرابع وغارات التتار أكثر جداً من نظائرها الفارسية، ولكن ينبغي أن نفرق بين الشعر وبين غيره أيضاً فإن الأمر فيهما لا يجري على سنن واحد:
فأما العلماء المؤلفون فلا حرج على باحث أن يقول أنهم كلهم كانوا يعرفون اللغتين، وقد ألف بعضهم فيهما ولكن المؤلفين بالعربية أشهر ذكرا وأعظم أثرا. وحسبنا أن نذكر ابن مسكويه وابن سينا والبيروني والعتبي والغزالي والرازي والزوزني والتبريزي والنسفي والبيضاوي والطوسي.
وأحسن مقياس في هذا أن نعمد إلي جماعة ممن ألفوا باللسانين لنرى أمؤلفاتهم العربية أكثر وأعظم أم الفارسية. ولا أحسب الأمر يحتاج إلى عناء، فيكفينا أن نذكر الغزالي فنحن نعرف مؤلفاته العربية وليس له في الفارسية إلا رسالتان: كيمياء السعادة ونصيحة الملوك، وقد صرح في الأولى أنه ألفها بالفارسية ليفهم العامة. وفخر الدين الرازي له زهاء 33 مؤلفا يعرف منها في الفارسية واحد فقط هو اختيارات علائي، ونصير الدين الطوسي على تأخر زمانه له نحو 50 مؤلفا قليل منها الفارسي. والبيضاوي ألف تفسيره بالعربية ولم يمنح الفارسية إلا كتابا صغير أسماه نظام التواريخ.
وأما الشعر وما يتصل به فلا ريب أن النبوغ كان لشعراء الفرس أو لشعراء الفارسية، فليس فيمن شعروا بالعربية ببلاد الفرس أمثال الفردوسي أو الأنوري أو العنصري، ولكن أكثر العلماء الذين اتخذوا العربية لغة علم كانوا ينظمون شعرا عربيا. وكثير من شعراء الفرس نظموا شعرا عربيا كذلك. وحسبنا أن نعرف أن الثعالبي وهو من رجال القرن الرابع ذكر في الجزء الثالث والجزء الرابع من اليتيمة واحدا وخمسين ومائة من معاصريه الذين نظموا الشعر العربي في أرجاء بلاد الفرس وهم أكثر من كل شعراء الفرس الذين ذكرهم عوفي وهو في القرن السابع.
ومن الشعراء الذين نظموا باللغتين بديع الزمان الهمذاني وأبو الفتح البستي وقد ضاع ديوانه الفارسي، والبديع البلخي الذي مدح أحد الأمراء بشعر ملمع. وعطاء بن يعقوب الكاتب وكان له ديوانان عربي وفارسي، والباخرزي، وابن سينا، والشيخ سعدي. ومن الكتاب رشيد الدين وطواط صاحب حديقة الشعر وله رسالة عربية منشورة في رسائل البلغاء.
لم يكن حال اللغتين سواء في العصور كلها فقد كانت الفارسية منذ ظهرت في صعود بينما كانت العربية في هبوط (وهذا الهبوط كان أبين في الشعر منه في العلم، فالراوندي مؤلف
راحة الصدور ينقل أبياتا عربية بليغة لأحد وزراء السلاجقة ثم يأسف على ذلك الزمن ويقول: أن وزراء زمنه لا يفهمون مثل هذا) وصاحب المعجم من رجال القرن السابع يقول أن شعراء زمانه يعرفون اللغتين ولكنه لما نظم كتابه في العروض بالعربية نقم عليه أدباء فارس حتى قسم الكتاب قسمين المعجم والمعرب.
ذعوني يقول: فان كل مستعرب يعرف الفارسية وليس كل شاعر فارسي يعرف العربية، على أن اللغة الفارسية نفسها لم تكن قد ضبطت قواعدها كقواعد العربية حتى نجد شمسي قيس في القرن السابع يشكو من هذا ويشرح القواعد شرح المستنبط الذي لم يسبق أطوار الترجمة.
والخلاصة أن العربية فيما عدا الشعر حلت مكانة فوق الفارسية حتى غارات التتار التي عصفت بالحضارة الإسلامية وأصابت العلوم والآداب بضربات لم تفق منها حتى اليوم.
والكلام عن اللغتين بعد سقوط بغداد لا يجري على هذا النمط، وعسى أن تتاح فرصة للكلام عن ذلك.
حول الأدب الياباني
كتب إلينا الأديب نادر الكزيري من ندوة المأمون بدمشق يلاحظ على الأستاذ أحمد الشنتناوي أنه لم يشر في آخر مقاله (الأدب الياباني) إلى أنه منقول بالنص عن مقال فرنسي نشر في عدد يناير سنة 1933 من مجلة الشهر تحت عنوان (إقليم اليابان الأدبي) ولعل ذلك سهو من الكاتب يتداركه إن شاء.

في الأدَب الغربيّ
في الأدب الروسي
تولستوي
ناحية من نواحي فلسفته
طفل خجول نفور من الناس، لكنه رقيق المشاعر شديد الحس جياش العاطفة. ثم جندي يحارب في سبيل الوطن. مستهتر متهتك مبالغ في الاستهتار. وهو ملحد مغرق في الإلحاد ساخر بالدنيا. ثم هو كهل شديد الإيمان قوي الثقة في الحياة.
وأخيراً تتمخض حياة الروائي الكبير عن شيخ يعتزل ثروته ويترك المدنية بكل زينتها وخداعها ونفاقها ليعمل جنباً إلى جنب مع فلاحيه، وليفيض قلبه حنانا على الإنسانية المعذبة. وليصبح شخصية خالدة على ممر الدهور.
هكذا كان تولستوي وهكذا كانت حياته.
ثم فلسفة قوية مليئة بالحياة هي فلسفة الإيمان والعاطفة، وعاطفة قوية صريحة يدعمها العقل، ويحركها التأمل، ويفيض عليها الإلهام نورا عميقا.
هكذا كانت فلسفة تولستوي.
فلن تجد في فلسفته هذه المشكلات المنطقية، وهذا اللف والدوران وهذا التكلف والتعمل اللذان تجدهما في كثير من الفلسفات. بل لم يحاول تولستوي مرة أن يضع كتابا في الفلسفة أو يجمع آراءه في صوره مرتبة منمقة.
ففلسفته في شتات رواياته التي تتجاوز العشرين. وهي في شتات أشخاص هذه الروايات التي تعبر كل واحدة منها عن ناحية من نواحي المؤلف نفسه: عن شكه أو سخريته، عن إيمانه أو إلحاده.
ولذلك ففلسفته محببة إلى النفس. يقدمها في لون من أشهى الألوان إلى القلب: في صورة قصة أو في صورة ذكريات.
وهو لم يكن يكتب ليرتزق من وراء كتبه كمعظم الروائيين. ولم يكن يكتب ليضحك من الناس أو يسخر منهم كما فعل أناطول فرانس. بل كان يكتب معبراً عن عاطفة قوية أحست
بالحياة، وشكّت في الإله، ثم آمنت به من بعد شك. ثم اعتزت بالحياة من بعد سخرية.
وهو لم يبحث في الإله وصفاته، أو في الروح وطبيعتها، أو في الجسد وعلاقتها بالروح، أو في الزمان والمكان، أو في ترتيب الخلق والموجودات، أو فيما شابه ذلك من أمهات المسائل التي تشغل بال الفلاسفة. بل كانت فلسفته من صنف آخر لا يقل جودة ولا ينقص عظمة ولا عمقا. حاول فيها أن يخفف من الآلام الإنسانية وعذابها، وأن يرشد الفرد والجماعة إلى الطريق السوي. وأن يرسم لهما مثلا أعلى يعملان من أجله. فلسفة بحثت في جميع أمراض الإنسانية فشخصت الداء وبينت مواضع الضعف. ثم أخيرا أرشدت إلى أنواع العلاج.
وقد عالج تولستوي سعادة الفرد وكيف يمكن تحقيقها، ووصف عيوب المجتمع الذي نعيش فيه. وبيّن سخافاته ومتناقضاته والطريق إلى علاج هذه المتناقضات. وبحث في الدين والعلم والفن وأخيرا في كل ما يمس المجتمع الإنساني وما يتصل بأفراد هذا المجتمع بسبب.
وسنحاول في هذه العجالة أن نطلعك على ناحية من نواحي فلسفته. ناحية حاول فيها أن يرسم للفرد مثلا أعلى. وأن ينهج له الطريق إلى السعادة التي ينشدها.
كل منا قد تساءل ما الحياة وما قيمتها؟ ولماذا نحياها هكذا؟ أخلقنا لنشقى أو عشنا لنموت؟
وكل منا مرت به ساعات من السخط على الحياة أو الابتسام لها. لا ندري لماذا نبتسم ولماذا نسخط؟
وكل منا يرغب في سعادة هادئة مطمئنة، سعادة لا يفوز ولم يفز ويظهر أنه لن يفوز بها! ومع ذلك فنحن دائبون في العمل لها. وهي دائبة في البعد عنا.
ومر بخلد تولستوي هذه الشكوك وانتابته هذه الحيرة وجرى وراء السعادة، فأقبل يرتوي من منهل الحياة: يعربد ويتهتك ويتمتع بكل ما حرم ولذ، ونال من الحياة ما لم ينله غيره.
فهو من أشراف الروسيا، له من المجد ما لهم، وله من العبيد ما يزيد على سبعمائة.

وهو غني في غير حاجة إلى عمل يرهقه، أو رئيس يخضع له، والطبيعة وإن لم تزوده بوجه جميل، قد أعطته من جمال الروح ورقة العاطفة ما خفف من حدة قبحه، وقلل من بشاعة منظره، وتزوج فأخلصت له زوجته، وتمتع بأشهى ما تصبو إليه نفس من وفاق عائلي
وذرية صالحة.
ماذا يريد بعد هذا من أطايب الحياة ولذات المعيشة؟
على أنه لم يفز بالأمل المنشود. ولم يظفر بالسعادة ولا بظلها، بل كان ينتابه شعور بسخف الحياة وعبثها.
فهي إما ساكنة هادئة، ولكنها مملة جافة. وهي إما مضطربة هائجة، ولكنها مؤلمة قاسية. وهي في كل هذا سخيفة من دون معنى ولا غرض ولا غاية واضحة. أيعتزلها كراهب؟ ولكن أنى له الخبز الذي يملأ بطنه الجائع؟ وما قيمة حياة يعتزلها المرء؟ وأنى للإنسانية أن تعيش إذا قدر لكل فرد أن يعتزل العالم؟ وهل يجد الإنسان في العزلة راحة وهدوءا؟
أيحياها كما حيتها مئات الأجيال من قبله، وكما ستحياها من بعده؟ ولكن هذه سخافة لا تطاق. وما الذي يحمله على أن يتعذب ويتألم ويقاسي ليكون نعجة من نعاج هذا العالم يسمن ليذبح، أو يهزل ليمرض ويموت؟ أيعتقد في حياة أخرى ليست هذه الدنيا إلا مزرعة لها؟ وما يكون إذن معنى الحياة؟ أهي تجربة سخيفة؟ وماذا يمنعنا من اختصار هذه التجربة؟ ولماذا لا نسرع فنأتي على حياة بائسة لندرك أخرى أسعد منها أو أقل منها سخفا.
وأخيراً ما هي السعادة؟ وما الطريق إليها؟ أهي ثروة وضياع وجاه؟ ولكن تولستوي جربها فلم تبدد شكوكه ولم تشبع مطامعه بل أصابه منها ملل قاتل لا يدري كنهه، وسأم مروع زهده فيها.
أهي درس وقراءة واطلاع؟ ولكن تولستوي قرأ وقرأ أحسن ما أنتجه بشر، فلم ترضه هذه القراءة، ولم تضع حدا لشكوكه، وأخيراً ما فائدة الاطلاع والمعرفة والعلم؟
وقف تولستوي من الحياة هذا الموقف، وأخذ يفكر ويجهد نفسه في التفكير لعله يوفق إلى تعريف الحياة. وأخذ يقرأ لعله يصل إلى حل يطمئن إليه أو فلسفة يرضى عنها.
ولكنه حاول عبثا وبدا له أخيراً أن الفكر وإعنات الروية لن يجديا شيئا. وتملكه يأس وأخلص فيه. ولكن ما لبث أن أشرق عليه نور جديد: نور الإيمان في الله، ونور الاعتقاد في الحياة وفي عظمتها. نور وهاج قوي يقف أمامه العقل خاشعا، ولا يستطيع العلم المادي بكل جبروته أن يجابهه أو يسخر منه!
أنريد فهما للحياة ولسر وجودنا فيها؟ أنريد فوزا بالسعادة؟ حسن! فلنعمل ما تطلبه منا
الحياة. ولتنفذ مشيئة الله. وما غاية الحياة؟ هي أن نعمل ونجيد ما نعمله. وليكن عملنا في سبيل الغير، ولنضح بأنفسنا في سبيلهم، ولنحبهم كما نحب أنفسنا بل أكثر مما نحبها. ولنتعاون معهم، ولننم جميع قوانا من عقلية وجسمية، ولنحسن استخدامها في خدمة الآخرين: التعاون، الحب، العمل، ثالوث مقدس هو سر الحياة وسر السعادة.
ليمتد حبنا إلى جميع أفراد الإنسانية. ولنعمل لإخواننا في البشرية، ولننس أنفسنا فنكون بذلك قد أدينا مهمة الحياة التي خلقنا من أجلها وفي هذا طمأنينة لنا وهدوء.
لقد أسأنا فهم الحياة. وحسبناها مسرحا لقتال دام يفترس فيه القوي الضعيف، ويلتهم فيه الكبير الصغير. ثم اتهمناها بالقسوة وما هي بقاسية بل هي أعز شيء في الوجود.
وبحسبنا السعادة في هذا النضال السمح، وبحسبنا الراحة في هذا القتال العنيف.
بالغنا في الأنانية، أردنا الحياة لنا وحدنا، أردنا مالا وجاها وحبا وبنين لأنفسنا ولأنفسنا وحدها.
والحياة لا تريد منا هذا، فالفرد ذرة لا معنى له في الوجود دون غيره. ذرة من أصغر ذرات العالم، فإذا ما اجتمعت هذه الذرات واتحدت وتعاونت استطاعت أن تصل إلى أقصى سعادتها وهي مستطيعة أن تنال جميع أمانيها، فإذا ما اختلفت وتناحرت وتفرقت أصبحت لا شيء. وهي واقعة في شقاء لا خلاص منه.
لقد ظننا بالحياة شراً، وقد حاولنا أن نجعل من قانون سخيف ندعوه تنازع الحياة وبقاء الأصلح قانونا للحياة. فالأفراد في تنافس، والأمم في تناحر، ومن هذا النزاع الدائم

يتولد البؤس واليتم والفقر والآلام، وتتولد الإنسانية عاجزة خادعة ماكرة ضعيفة.
لننس هذه الأحقاد مرة واحدة، ولنتعاون، ولينس الفرد أنه خلق لنفسه، وليجعل غايته خدمة غيره. خدمة أولاده، خدمة أفراد الإنسانية جمعاء، إذن يخف كل شقاء. وتعم السعادة الجميع. سنقول هذا خيال شاعر وأمل فيلسوف.
ولكن تولستوي لا يقول لك ضح بنفسك لأن في التضحية نبلا أو جمالا. وهو لا يقول لك كن خيّرا لأن الجنة للخير والنار للشرير. وهو لا يزعم أن في خدمة الآخرين قياما بواجب لا تستطيع أن تفهم من فرضه عليك. هو يقول لك أحب جارك واعمل لغيرك، لأن هذا هو قانون الحياة، ولأنك لا تملك عنه محيداً، وهو يقول ضح بنفسك لأنك ستضحي بها مرغما
إذا أبيت. هو يقول لك سامح عدوك وأدر له خدك الأيسر إذا أصاب منك خدك الأيمن لأن في الخلاف شقاء لك وله.
وليس في هذا جري وراء خيال أو مثل أعلى يضاف إلى غيره من الأمثلة العليا. ولكن جرب بنفسك. اقتنع بأنك خلقت لغيرك وسترى أي سعادة ستجلبها عليك هذه التجربة، لن يخيفك الموت بعد هذا لأنك سترى فيه إفساحاً للطريق أمام غيرك. لن تعبأ بالآلام تصيبك لأنك سترى فيها تخفيفا لآلام اخوتك من البشر.
أما إذا أبيت هذا، وضننت بنفسك أن تكون ضحية في سبيل الآخرين، فكن أنانيا جشعا وابلغ المجد على أكتاف الناس، واجمع حولك من متاع الدنيا ما تسرقه وما لا تسرقه، ولكنك لن تكون سعيدا. وستظل شقيا بائساً، ولن تشعر براحة ما دام لديك ذرة من ضمير. وستمعن الحياة في السخرية منك، تجعلك آلة لها تنفذ مشيئتها، وستكون ضحية على رغم أنفك، وستعيش خائفا وجلا من الموت أو من خصم قوي، وسيؤنبك ضميرك، ولا يلبث أن يضيع ما أنفقت حياتك من أجله، سيلتهم مالك وجاهك من هو أقوى منك، أو لا تلبث أن تموت، فيتمتع به غيرك، وبذا تكون الحياة قد انتقمت منك شر انتقام.
وليس معنى خدمتك للغير أو تضحيتك بالنفس أن تنسى ذاتك أو تعتبرها كمالاً مهملًا في الوجود. إذ هي شرط من شروط الحياة وشرط هام لا تستطيع الإنسانية أن تتحقق بدونه، ولكنها ليست غاية الحياة، وليس من أجلك وحدك قد كانت الحياة.
وليس معنى هذا أن تكبت غرائزك أو تحمل نفسك ما لا تطيق. بل وجِّه نشاطك إلى ما خلق له. .
في مثل هذه اللغة البسيطة الساذجة القوية يحدثك تولستوي. ولا يضير فلسفة تولستوي أن تبدو شعرية عاطفية إذ هي لا تكاد تخرج عما قالته الأديان. فالمسيحية ومن قبلها اليهودية ومن بعدها الإسلام تبشر بما قاله تولستوي. وكلها حضت على التعاون وقالت أن المؤمنين اخوة وأحب لغيرك ما تحب لنفسك. وكلها رفعت من شأن العمل للآخرين وكلها حضت على الإيثار وكلها أمرت بالتقرب إلى الله وحده وجعلت منه رمزا للوحدة.
لم يأت بجديد. ولكنه أحب أن يثبت أن ما قالته الأديان صحيحا، وأنه عملي، وأنه الطريق الأوحد إلى السعادة الفردية والإنسانية، وأحب فوق هذا أن يبين أن ما قالته الأديان ليس
مثلا أعلى يصعب تحقيقه، بل هو الغاية التي لا محيد عنها، والشيء الذي نعمله كارهين أو راضين.
لقد رأى أن الحياة لا معنى لها في الأفراد مشتتين. بل لا يمكن تصورها إلا في الأفراد مجتمعين متعاونين. وقد رأى أن للحياة غرضا بسيطا هو أن يلتئم الأفراد ويتحدوا، هو أن تجتمع الذرات الإنسانية لتصبح ذرة واحدة كبيرة ترجع إلى خالقها. وفي هذا الاتحاد كل سعادتها.
ولم ير الحياة الدنيا إعداداً لحياة أخرى كما ترى معظم الأديان بل وجد فيها سلسلة لا تنقطع. فليس في موت الأفراد انتهاء للحياة. بل موتهم معناه بقاؤهم في نسلهم، ومعناه حلقة جديدة قد تكون أحسن استعدادا وأكثر تضامنا.
وهو متفائل راض مطمئن على مصير الإنسانية، فهي تسير إلى الوحدة منفذة في ذلك مشيئة خالقها.
وهو يرى أن كل ما فينا أعد لتنفيذ غاية الحياة. ففينا حب الحياة لنستطيع أن نحيا، وفينا حب النشاط والحركة وكره السكون حتى نعمل، وفينا الجانب الحيواني بكل

غرائزه لنستطيع أن نعمل، وفينا العقل لنفهم كيف نعمل والى أي غاية نسير، وفينا الضمير ليؤنبنا وليحاربنا إذا ما حاولنا الحياد عن الغاية المرسومة لنا. وفينا غريزة النسل لتخرج ذرية أقوى تستطيع أن تتمم ما تريده الحياة إذا ما ضعفنا أو متنا.

يعد تولستوي الشقاء الذي نشعر به نتيجة طبيعية لمخالفتنا ضمائرنا التي تفهم وحدها الغرض الوحيد من الحياة. وتنبهنا كلما حدنا عن الطريق المستقيم، وهذا الشقاء داع إلى تفكيرنا في أنفسنا. والى شعورنا بالحياة وغرضها.

ويعلل تولستوي الحيرة والقلق اللذين يستوليان على المرء بأنهما نتيجة لإهماله واجبه المقدس في الحياة، وإغفاله العمل، أو لمقته الآخرين وترك معونتهم. وهذه الحيرة نفسها خطوة أولية نحو الشعور بالحياة والتأمل فيها والوصول إلى فهمها.

وهو يرى في العقيدة والإيمان ملجأ حصينا من الشك والتورط فيه. إذ العقيدة النيرة الحية البعيدة عن التعصب، هي التي تدفعك إلى العمل وحب الغير وتجعلك طفلا فرحا سعيدا وهي التي تجعلك هادئا قرير العين بالحياة.

قد تقول أن هذا شيء تعرفه. وأنه لم يأتك بجديد. ولكن تولستوي لم يحاول أن يبهرك بآراء غريبة تضعها بين آلاف الآراء، ولم يحاول أن يتحفك بطريف الأفكار. بل أراد أن يرشدك إلى منهاج السعادة في الحياة وهو منهاج عملي جربه بنفسه فنجح فيه نجاحاً باهراً.

أحب جارك. أحب لكل إنسان ما تحبه لنفسك؛ اعمل لغيرك، ففي كل هذا سعادتك.

لا تقل أن غيرك لا يعمل لهذا، فليس معنى تقصيره أن تقصر أنت، ولا تسأل لماذا تكون أنت الوحيد الذي يختط لنفسه هذا الطريق.

بل اعتقد أن الناس لا بد صائرون إليه، وأن لا مرية في أنهم منتهون إلى اتباعه. فلماذا لا توفر على نفسك شقاء؟ ولماذا تضن على نفسك بالطمأنينة والسعادة؟

ذلك جانب من فلسفة تولستوي. وهناك جانب آخر عالج الرجل فيه المجتمع ومساوئه، وموعدنا به عدد قادم.

شهدي عطية الشافعي. خريج قسم الاجتماع والفلسفة من الجامعة المصرية

من الأدب الفرنسي

الطبيعة والإنسان

لفيكتور هوجو

شمسُ هذا النهار قد غربت في ... أُفْقها خلفَ مكفهرّ السحاب
وغداً تعصفُ الرياح، ويأتي ... بعدَ ذاك الظلامُ داجي الإهاب
وَيَلِي الفجرُ بعد ذاك مضيئاً ... مُرسِلاً نورَه خلالَ الضباب
فنهار، فليلة - خطواتُ الد ... هرِ والدهرُ ممعن في الذهاب
سوف تمضي هذي الدهورُ جميعاً ... سوف تمضي معاً لغير مآب
سائراتٍ على جِباهِ الرَّوابي ... ووجوهِ البحارِ ذات العُباب
ومياهِ الأنهارِ وهْيَ جَوَارٍ ... لامعات مِثل اللجين المذاب
وعلى الغاب وهو يَذْوي بأروا ... حِ الألى قد قَضَوْا من الأحباب
وستَبقَى وجوه تلك الأواذي ... وستبقى جباهُ تلك الهضاب
البوادي الغضونِ لا عنْ مشيب ... أو فتورٍ في عنفوان الشباب
وستبقى بواسق الغاب ذات ال ... خُضرة المستمرَّة الجلباب
سوف تبقى على الزمان جميعاً ... في شباب مجَدّدٍ وتصابى
وستَبقى الأنهارُ تحمل من تل ... ك الرُّبَى ما تلقي به في العُباب
ذاك، أمَّا أنا فها أنا يَحْني ... كلُّ يوم رأسي ويُوهِن قابي
وقشْعَرِيرةُ البرودة تحت الشم ... س أمست تَدِبُّ في أعصابي
وسأقضي نحبي وَشيكا سريعاً ... وسْطَ عيدِ الطبيعةِ المطْرابِ
وسأمضي، فلا يَضير مُضِيِّ ... ذلك الكونَ أو يُحِسُّ غيابي

فخري أبو السعود

من الأدب الإنجليزي

كنار يموت

للدكتور و. ج. لونج

في الصيف الماضي ضربت خيمتي خلف عين ماء وسط الغابة، وكنت كثيرا ما أستلقي بجوارها لا لأشرب، بل لأكون بقربها برهة ألاحظ في هدوء حبيبات سيالها البارد تنسل من ثنايا أرضها السوداء، محوطة بفقاقع راقصة، ثم تضرب في زحمتها الدائمة نباتي السرخس والطحلب المحيطين بشواطئ العين، ومن حين إلى آخر كانت الحيوانات البرية تسمع نداء دعوتها الخافت لمن أحرقه العطش، فتأتي مسرعة مهطعة. ولكنها حينما تراني تتراجع إلى مرقبها من نبات السرخس. حيث تختبئ هناك متسمعة، ولكن الغدير الصغير يستمر في ندائه الخافت، فسرعان ما تخرج من مخبئها معتبرة إياي صديقا لها لطول جلوسي بقرب غديرها.

وفي ذات يوم ذهبت إلى الغدير، فرأيت على غصن شجرة دائمة الخضرة كنارا صغيرا طالما لاحظته من قبل مستريحا بجوار الغدير، أو متنقلا في دعة هادئة فوق الأعشاب السندسية، وخيل إلي أنه ما كان يأتي إلى هنا إلا لشغفه بحب الغدير مثلي، فنادرا ما رأيته يستقي منه، ولكنه كان دائما هناك، لقد كان كهلا وحيدا. وقد أخذ اللون الأغبر يغير على تاجه اللامع السواد، وأخرج له العمر الطويل قشورا كثيرة حول ساقيه، ولم يكن لتبين عليه الرهبة أو تتملكه رعشة الخوف. فكأنما بعث فيه كر الليالي وداعة الحياة، فكان يتحرك مبتعدا في أناة إذا ما اقتربت من مكانه، ولكنه لا يذهب بعيدا، وبلغت به الوداعة أنه كثيرا ما قاربني يظنني لاهيا عنه بتحديقي الدائم في الغدير.

واليوم قد جلس على هذا الغصن المعلق فوق مياه الغدير، في هدوء أكثر من هدوئه الأول، وكان وديعا مستسلما، حتى لم يبد نفوراً حينما مددت يدي أتحسسه، بل اتكأ في سكون ودعة على إصبعي وأسبل عينيه في طمأنينة، ومضت نصف ساعة، وهو في حالته هذه مسرور يهتز مهوما من آن إلى آخر، فاتحا عينيه في فترات، محدقا بها في اتساع، كلما وضعت له على إصبعي نقطة من الماء الذي رواه صغيرا، وصاحبه كبيرا.

ولما أقبل المساء وصمتت ألسنة الغابة واستولى عليها سكون موحش، وضعته في رقة ولطف على

الشجرة الفينانة؛ حيث راح في سبات عميق قبل أن أوليه ظهري، وفي الصباح كان موقعه أقرب إلى الغدير الحبيب، وعلى غصن دني من غصنه بالأمس، واستكان مرة أخرى في كنف أصابعي، ورشف في امتنان قطرات الماء من فوق أناملي.

وفي المساء وجدته ناشبا بحذر من جذور شجرته المعهودة، وقد تدلى رأسه إلى أسفل، وعلقت مخالبه بلحاء الجذر علوقاً أبديا، وقد لمس منقاره في خفة ذلك الماء النمير، وقد فتح فكيه قليلا للمرة الأخيرة، وراح في سبات دائم آمن، بجوار الغدير الذي عرفه طوال حياته. وظل بجواره إلى أن لفظ الروح في جنباته؛ بجوار الغدير الذي قبلت مياهه منقاره قبلة الوداع، وحفظت صورته في أعماقها إلى اللحظة الأخيرة.

لقد ذهب هذا الكنار كما يذهب أغلب سكان الغابة في هدوء وفي أمن، بجوار الغدير الذي عاش على حبه، ومات بقربه. وليست قصته إلا مشهدا من فصل الموت في رواية الغابة يتجدد دائما باستمرار: فحين يحس الحيوان بغريزته تدفعه إلى البعد عن رفاقه، يمعن في البعد حتى يصل إلى غدير أحبه، ويرقد هنالك مختفيا في انتظار الراحة القادمة، وحينما يأتيه الموت لا يظنه إلا غفوة تأخذ تعبه معها، ثم يعود بعدها حرا طليقا، وهناك في رقدته الأبدية تخفيه أوراق الأشجار، التي ألفها وألفته؛ عن أعين أصدقائه وأعدائه على السواء. . .

محمد أبو الفتح البشبيشي

العُلوم

القهوة

للدكتور أحمد زكي. أستاذ الكيمياء بكلية العلوم

جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد الذبحاني شيخ من أشياخ اليمن عاش في منتصف القرن التاسع الهجري (منتصف القرن الخامس عشر الميلادي) وكان متواليا رياسة الإفتاء بعدن، تعرض عليه الفتاوي فيقر منها ما يراه صوابا ويصحح ما احتاج منها إلى تصحيح. عرض له أمر اقتضى خروجه من عدن إلى بر الأعاجم، وأغلب الظن أنه الحبشة، وعاش في أهله دهراً يشرب معهم شراباً لم تعرفه الأعارب، فلما رجع إلى عدن مرض فتذكر الشراب فأحضر شيئا من ذلك الحب وحمصه وطبخه بالماء كما كان

يطبخه الأحباش، فخف عنه المرض وذهب عنه السوء، ووجد فيما وجد من خواصه أنه يذهب بالنعاس والكسل ويكسب البدن خفة ونشاطاً. وكان من أمر الشيخ بعد هذا أنه سلك طريق التصوف فصار هو وغيره من الصوفية يستعينون بهذا الشراب الجديد على السهر وقيام الليل في التعب والأذكار، وأسموه القهوة، ومن ثم انتشر شرب القهوة فشمل الفقهاء والعوام، هؤلاء يستعينون بها على مدارسة العلوم، وأولئك للمثابرة والمجالدة في معالجة الصناعات والفنون. وبلغت القهوة مكة فشربها بعض الأشياخ والقضاة وارتاب فيها أئمة آخرون، أما من شربها فرآها شراباً حلالا طيباً مما أخرجته الأرض بإذن الله، والله يقول (خلق لكم ما في الأرض جميعاً) وأما من أباها فرآها شراباً حراما مسكراً يحصل بشربه ضرر في الأبدان والعقول، وكان لهم في ذلك جدل طويل وحجاج مستفيض انقلب إلى محنة وفتنة، وكثر التعصب لها وعليها من الجانبين، وشاع التقاطع والتدابر بين الفريقين، وبلغ الغضب بنفر من الأتقياء الصالحين البررة الأطهار أن حدثوا عن رسول الله (ص) أنه قال من شرب القهوة يحشر يوم القيامة ووجهه أسود من أسافل أوانيها.

ولم يهل القرن العاشر الهجري حتى ظهرت القهوة في مصر وكان أول ظهورها في الجامع الأزهر برواق اليمن، فكان اليمانيون ومن ساكنهم من أهل الحرمين وبعض العامة يجتمعون للأذكار والمدائح على طريقتهم كل ليلة اثنين وجمعة، فتقدم إليهم القهوة في ناجود كبير من الفخار الأحمر، وكان يغترف منها النقيب بسكرَّجة صغيرة، ويسقيهم الأيمن

فالأيمن، وهم على الذكر عاكفون، وكانت تذهب بالكسل والنعاس عنهم، فكانوا لا ينصرفون حتى يصلوا صلاة الصبح مع الجماعة من غير عناء ولا تكلف. وانتشرت في الناس فاجتمعوا على شرابها في بيوت خاصة بها وفي الأسواق.

ومن هذا العهد ظلت القهوة بين مكة والقاهرة تحلل عاما وتحرم عاما، يناهضها حكام وفقهاء، ويشايعها حكام وفقهاء، تباح فتشرب في الحرم الشريف جهراً، وتمنع فيعزر شاربها ويطاف به في الأسواق، ويكبس العَسَس بيوتها ويخرجون من فيها عل حالة شنيعة، بعضهم في الحديد وبعضهم في الحبال، فيسجنون ويجلدون.

ولا شك أن المعارضين للقهوة كان منهم أناس يخلصون لها الكراهة في ذاتها لما كانوا يرون من أثرها السيئ فيمن أدمنها من عامة الناس، فكثير منهم من تغيرت حواسه وساء عقله وتنكرت هيئته.

ولأنها كانت تباع في أماكن على هيئة الحانات يجتمع فيها الناس من رجال ونساء بالدف والرباب، أو بالشطرنج والمنقلة، وغيرها يلعبونها للميسر، فساء الأتقياء هذا المنظر القبيح، ووقع مشهده من قلوبهم موقع سوء.

وكان من الناس من يدس الخمر في القهوة فزادت كراهتها عند العارفين بذلك.

أما الحكام ممن كرهوا القهوة، فكانت أغلب كراهتهم من اجتماع الناس على تلك الصورة؛ وأوجسوا من هذا التجمهر خيفة. ولما كان حفظ النظام من أوجب واجبات السلطان، ولما كانت الفتنة من عمل الشيطان، كان لا بد من قتلها قبل أوانها، ودرء بوادر السوء قبل استفحالها.

ولعل أقوى من ناصر القهوة في هذا الصراع مشايخ الصوفية في كل البقاع الإسلامية: أحبوا الذات الإلهية وفنوا فيها وتغزلوا وشببوا بها؛ وكأن الغزل لا يحلو إلا بالصهباء، والتشبيب لا يكون إلا مع بنت ألحان، فاتخذوا من القهوة خمرهم، ومن فناجينها كؤوسهم، وذكروها وأكثروا ذكرها في أشعارهم، فقال ابن الفارض (سقتني حميا الحب. . .) وقال آخر من الأولياء الصالحين يصفها:

شرابُ أهل الله فيها الشفا ... لطالب الحكمة بين العباد
نطبخها قشراً فتأتي لنا ... في نكهة المسك ولون المداد
فيها لنا تبر وفي حانها ... صحبةُ أبناء الكرام الجياد
كاللبن الخالص في حِله ... ما خرجت عنه سوى بالسواد

وقال آخر:

وقهوة لا غم تُبقي إذا ... قابلك الساقي بفنجانها
لا يوجد الغم بحاناتها ... قد خضع الغم لسلطانها
بمائل نغسل أكدارنا ... ونحرق الهم بنيرانها

يقول من أبصر كانونها ... أُفٍّ على الخمر وأدنانها

ولم تكد تستقر القهوة في الشرق العربي حتى تسربت إلى أوربا عن طريق القسطنطينية والبندقية في القرن السابع عشر الميلادي. وأنشئ أول مقهى في إنجلترا عام 1652م، ولم تلق القهوة في الغرب ترحاباً خالصاً كله، فقد قامت في وجهها معارضة شديدة على نحو ما عانته في الشرق، ففي ألمانيا كان لا بد لتحميص البن من رخصة يعطيها الحاكم، وفي إنجلترا حاول شارل الثاني أن يحرِّم المقاهي باعتبارها مراكز للقلاقل الثورية والنزعات الحادة السياسية. ولكن القهوة شاعت برغم ذلك ولعبت في الحياة الاجتماعية الأوربية في القرن السابع عشر فالذي يليه دوراً ذا خطر كبير. ومن أوربا انتشرت القهوة في كل بلاد الله، وكانت اليمن مصدر البن الوحيد إلى مختتم القرن السابع عشر، فأصبح بعد ذلك يزرع في بقاع كثيرة من أفريقية الحارة، وفي الهند الغربية، وفي الهند الشرقية، ولا سيما في البرازيل فهي البلد الذي ينتج الآن نحواً من ثلثي محصول العالم، والبن له كالقطن لمصر، وربما كان أشد خطراً.

والبن بذور لثمر شجرة دائمة الاخضرار قد تطول إلى ستة أمتار والسبعة في منابتها الطبيعية، ولكنها تقصر عن ذلك كثيراً إذا هي زرعت، ولهذا الشجر زهر أبيض ناصع يكتسي به عند ازدهاره، فيكون له رونق وجمال يزيد فيها ما ينفح منه من عطر وطيب، لذتان للعين والأنف لا يطولان، فعمر الزهر بالغ في القصر. إلا أن الشجر يزدهر مرتين وثلاثا وأكثر من ثلاث في العام الواحد. وتطيب الثمرة بعد ازدهارها ببضعة أشهر، فيحدث من ذلك أنك تجد على الشجرة الواحدة ثمرات من ازدهارات متلاحقة، بعضها وليد وبعضها بالغ. والثمرة خضراء وهي فجَّة، فإذا أخذت في النضوج اصفرَّت ثم تستحيل الى لون أحمر قرمزي شديد. وتجنى الثمرة باليد انتقاء أو تترك حتى تسقط من الشجرة بهزها. وهي بعد ذلك تجفف بفرشها على الأرض في الشمس الحارة، وقد تترك حتى تجف على أغصانها، ثم يزال عن بذور البن القشر فالذي يليه من غشاء شديد اللصوق بالبذور كان لباًّ فجف وانضمر وذلك بالدق الخفيف في الهواوين، أو بضرب البذور بالمطارق. وحتى الفرك باليدين يكفي لتخريجها، وهذه طريقة اليمن وما جاورها من البلاد، ولكن بالبرازيل طرق أحدث من هذه لا تستدعي تجفيف الثمرة بل تدهك بالآلات دهكا فتفصل البذور بذلك عن لب الثمرة الطري.

ثم تحمص البذور على ما هو معروف في اسطوانات دوارة فوق النار فتفقد بذلك مقداراً من وزنها لا يزيد على الخمس، والمفقود ماء وبعض أبخرة تنشأ من تخلل الدهن والسكر الذي بالبذر وشيء من الأصل الفعال بالبن المسمى (بالقهوتين) وحرارة التحميص يجب أن لا تزيد على 200° درجة مئوية بكثير وإلا فقد البن الكثير من عطره. وإذا انتهى تحميصه وجب الإسراع في تبريده. ثم يطحن بعد ذلك. ويجب أن لا يطحن البن بل ألا يحمص قبل طبخه بزمن طويل فإنه يفقد عطره سريعاً، ويجب كذلك حفظه في أواني مغلقة فإنه شديد الامتصاص للأبخرة والروائح كريهة كانت أو عطرة فيمتص رائحة الجاز والجبن الفاسد. وأهم أغراض التحميص اثنان: أولهما توليد الطيب فيه وتوليد النكهة التي تُشهِّي القهوة إلى النفوس، فالبن الأخضر خال منهما، وثاني الأغراض تهشيش الحب ليسهل دقه، فالأخضر جامد مستعص، والتحميص صناعة لا يَحذِقها إلا القليلون.

ويحتوي البن على مواد كيمياوية عدة منها عطر ودهن، وهو كالشاي يحتوي التنين والقهوتِينَ الذي إن شئت أسميته الكافيين وأن شئت فالشابين، وهو الأصل الفعال في القهوة والشاي كليهما، ومن أجله يُشربان، وهو لا يتغير في القناة الهضمية وإنما يمتص كما هو في الدورة الدموية فيذهب إلى المخ فيكون له الأثر المحمود على نحو ما فصل في مقالة الشاي السالفة: من زيادة في قوة الفكر وإصابة الحكم وامتلاك النفس، ولكن استحالة الأفكار إلى أفعال قد تتعطل به، فيعتري الإنسان تردُد، وذلك ليقظة العقل الشديدة، ويزيد حس الإنسان بكل ما سر وساء، وهو ينعش الجسم ويزيل التعب عضلياً كان أو نفسيا، ويؤخر النوم ويدر البول. هذه بالطبع فوائد كلها قد تنقلب مضار بزيادة المشروب من القهوة،

فالقهوتين عُقَّار سام يصحب التسمم به تلهف إلى الماء وألم في المعدة والأمعاء، وقيء شديد وإسهال ودوار في الرأس وارتعاد في الأطراف. ويتضح أثر القهوتين من حالة رجل أدخل مستشفى (بلفي) بنيويورك به أعراض شديدة من سوء في الهضم بالغ، وفقر دم متناه، وعجز تام في الحركة، وأزمة في القلب بالغة، وضيق في الصدر شديد. كان هذا الرجل يشرب في اليوم 30 فنجانا من الشاي بلا طعام.

سباع البحر كادت تكسب الحرب

مات في الأسابيع الماضية القبطان الإنجليزي (ودوارد) مات في بلدة (رامزجات) بإنجلترا وله من العمر 82 سنة. وهو الرجل الذي خطر له في مدة الحرب أن يجري تجربة عُدّت في أول الأمر عرضا من تلك الأعراض التي تأتي للإنسان وقد أشتد خياله واحتد وتهيأ لدخول البيمارستانت، ولكنها عدت في آخر الأمر تجربة لو ساعدها الحظ لأنهت الحرب وحقنت الدماء ولو بغلبة فريق على فريق.

تلك التجربة هي رياضة سباع البحر على تتبع الغواصات الألمانية، وهذه السباع تشبه عجول البحر غير أنها أكبر منها، وله عُرف بيِّن وآذان كبيرة وحظ من الذكاء وافر.

بدأ هذا الرجل باستئذان السلطات الحكومية، والسلطات في العادة مرتابة حذرة جامدة محافظة، ولكن خطر الحرب يحرك الجامد ويذهب بالحذر، فأذنت له وحشرت إليه ما في البحر من آساد، فبدأ بدراسة الأصوات التي تصوتها الغواصة في الماء، ثم اجتهد فاخترع آلة تئز مثل أزيزها، وفي بحيرة راض هذه الآساد على إتباع هذا النغم أين سار في الماء، فأصبحت تتبعها أحسن اتباع، وفاقت في دلالتها على اتجاه الغواصة كل الآلات الطبيعية المعروفة، ووضعت على رءوس هذه الحيوانات البحرية كمامات من أسلاك الحديد تمنع أسماك البحر أن تقترب منها خشية أن تسترعي انتباهها فتحيد عن غرضها، ونجحت التجربة نجاحاً باهراً. ولكن. . . عرف الألمان ذلك بطريق الوحي أو الإيحاء فأجروا غواصاتهم مثنى وثلاث ورباع فهوشوا على السباع الآذان، وخيبوا التجربة للقبطان.

القصَص

يوم عصيب في جبل المقطم

للأستاذ محمد الدمرداش محمد. مدير إدارة السجلات والامتحانات بوزارة المعارف

- 2 -

في المقالة الأولى وصف الكاتب كيف ظل هو وصديقه في جبل المقطم حتى اهتديا) بعد الغروب إلى واد لهما به معرفة سابقة، وهو وادي دجلة، فاتخذا طريقهما فيه نحو مدخله.)

مضت ساعة على هذه الحال ولم نصل بعد إلى مخرج الوادي، فقال صاحبي ألا من نهاية لهذا الوادي؟ فقلت لم يبق إلا ساعة واحدة، فقال وماذا بعد ذلك؟ قلت إما أن نقصد (طره) ونركب القطار إلى باب اللوق، وأما أن نذهب إلى المنشية عن طريق البساتين ومدافن الإمام الشافعي. فقال أنه يفضل الطريق الأخير، فقلت لا بأس وعلى كل حال فالزمن اللازم لقطع المسافة في الحالتين لا يقل عن ساعتين من مدخل الوادي، فتضجّر صاحبي ونظر إلى ساعته ثم قال. . أننا لن نصل إلى بيوتنا قبل نصف الليل. فلم أجبه بشيء، وبعد سكون طويل عاد وسألني: هل من خوف علينا في هذه الجهات النائية الموحشة من الوحوش أو اللصوص؟ فقلت كن مطمئنا فالله معنا وهو يحمينا. فقال: كيف ذلك وليس معنا ما ندفع به عن أنفسنا غير هذه العصا (مشيرا إلى عصا قصيرة كنت أحملها في يدي) وقبل أن أجيبه عن سؤاله عثرت قدماه بحجر كبير فكاد يسقط، فتألم وتضجر ثم سكت، وغشينا سكون عميق، لا نسمع فيه غير وقع أقدامنا على أرض الوادي الصخرية وصفير الريح في صدوع الصخور وثقوبها.

ولا أطيل القول. فقد كانت الساعة التاسعة عندما وصلنا مدخل الوادي. وما كدنا نتجه نحو بلدة البساتين حتى أمطرتنا السماء مدرارا مرة أخرى، واشتد الظلام حتى لا نرى أمامنا أكثر من نصف المتر، ولكن ذلك لم يمنعنا من الاستمرار في السير والجد فيه، ثم أخذنا نرتقي أول تل في طريقنا وهو يرتفع عن السهل نحو 50 متراً. وحدث هنا أمر كان يقضي علي لولا لطف الله في تلك الليلة الليلاء، فعندما كنا نتسلق التل إلى

ظهره صاح بي صاحبي مستنجدا فالتفت فجأة إلى الوراء لأتبين ما حل به، وكنت متشبثا بكلتا يدي بحجر
في جدار التل، فلم أشعر إلا وقد زلقت يداي واختل توازني وأخذ جسمي يتدحرج بعنف إلى الأرض، ولكن قدرت لي السلامة، فصدمني حجر آخر منعني من الهبوط بعد أن أصبت في رأسي وركبتي إصابة بسيطة، ولما استعدت توازني انتصبت واقفا وأنا أكاد لا أصدق بالنجاة، ثم سمعت صاحبي يناديني وقد بلغ ظهر التل، فاتكأت على عصاي وأخذت طريقي إليه وفي رأسي دوار من أثر الصدمة، وعندما أدركته استرحنا قليلا وقد سرى عني بعض الغم، ثم لحظت الريح تهب من الجنوب الغربي فاستغربت ذلك وأدركت السر في وجودنا مكان يبعد عن الغابة المتحجرة الكبرى بنحو 12 كيلو مترا جهة الجنوب الغربي مع أن سيرنا منذ الظهر كان في اتجاه الشمال حسب ظني. فلما تغير اتجاه الريح من الشمال الغربي إلى الجنوب الغربي درنا معها في منحنى واسع من غير انتباه. فلما استرحنا قمنا متجهين نحو البساتين فبعد أن قطعنا في التل مسافة طويلة أخذنا ننحدر نحو القرية، وهنا انقشعت السحب وصفا أديم السماء وظهرت النجوم فألقيت نظرة على ما حولي ولشد ما دهشت حين وجدتنا لا نزال نسير أمام مدخل وادي دجلة قاطعين عرض المدخل من الجنوب إلى الشمال؛ فكظمت دهشتي وحيرتي وعدلت اتجاهي مرة أخرى. وعدنا فارتقينا التل مرة أخرى وبعد قليل تبين لي أيضاً أننا لا نزال نسير أمام وادي دجلة. أمر غريب محير لم أر في تعليله إلا شيئا واحدا وهو أن رأسي فقد الاتجاه! فلما صرت إلى هذه الحال أشرت على صاحبي بالجلوس للراحة، فقال ولماذا؟ فقلت له قد ضللنا الطريق مرة أخرى! فما كاد يسمع هذه الكلمة حتى خارت قواه وسقط على الأرض، وأخذت جسمه رعدة شديدة، وأقسم أنه لا يبرح مكانه، ثم استولى عليه النعاس فنام نوما عميقا، فجلست بجانبه وأخذت أفكر في الأمر وأنا حزين بائس، وقام بعقلي أن أعود إلى الوادي ملتمسا لنا ملجأ نأوي إليه حتى الصباح. بيد أني رأيت قبل تنفيذ هذه الفكرة أن أقوم بمحاولة أخيرة، فخلعت سترتي وألبستها عصاي وغرست العصا بالأرض بجانب صاحبي لتكون علما أستدل به عن مكانه عند عودتي، ثم صعدت أعلى قمة بالقرب منا مستكشفا ما حولنا، فأدرت بصري في الجهات الأربع فلمحت جهة الغرب وراء الأفق ضوءا ساطعا ظننته أول وهلة ضوء مصانع شركة الأسمنت بالمعصرة. فهرولت إلى صاحبي أزف إليه هذه البشرى فأيقظته من نومه قائلا لقد أبصرت ضوءا قويا جهة الغرب سوف يهديني
طريق السلامة. فلم يكترث لقولي. ويظهر أن النوم كان قد أراح عقله وجسمه نوعا، فنهض في نشاط وقال: هيا بنا مغمغما بكلمات لم أتبينها، ثم اعتمد على كتفي بإحدى يديه وأخذنا نسير وقد عولت هذه المرة أن أتبع مسيل الوادي من غير انحراف، فأخذت طريقي مع مجرى السيل خطوة خطوة، وكان جسمي وعقلي متعبين. وعيناي غائرتين ضعيفتين. وعلى الجملة كانت حالتي سيئة، وكنت أشعر بيده على كتفي كأنها حجر ثقيل. فكنت أنقلها من كتف إلى كتف من غير أن أزعجه في سكونه. بعد أن سرنا على هذه الحال ساعة ونصفا انكشفت أمامنا أضواء شديدة ساطعة انشرح لها صدر صاحبي وعاودته بشاشته، فأخذ يمزح ويعيب هيئتي الرثة، فوجهي مغبر شاحب، وطربوشي من الأمطار فقد شكله وأصبح متهدلا كاسيا رأسي حتى أذني، وبدلتي تقلصت وضاقت؛ فارتفع طرف بنطلوني إلى قرب ركبتي واسترخى جوربي، فغطى حذائي وامتلأ الحذاء بالماء والوحل، وعلى الجملة فإن شكلي كان مضحكا وهيئتي تدعو إلى الشفقة والرثاء.
بعد أن فرج صاحبي بعض كربه بأمثال هذه المهاترة سألني فيم أفكر؟ فقلت أني أستغرب وجود هذه الأضواء الشديدة في هذه البقعة؛ فقال مازحاً: لا تستغرب فربما كان الجن قد نصبوا لهم هنا عرسا، فقلت تعوّذ بالله فحسبنا ما أصابنا هذا اليوم. وبينما نحن في هذا الحوار سمعنا صوتا غريبا يرن في الفضاء، فوجمنا لهذه المفاجأة الجديدة ثم أنصتنا بشدة خلت معها أني أسمع دبيب الحشرات في بطن الأرض، وأخذنا نحدق يمينا وشمالا عسى أن نهتدي لمصدر الصوت فلم نر شيئا. وبينما نحن في اضطراب وحيرة رن الصوت في الفضاء ثانية، وكان في هذه المرة جليا: سمعنا (هولت!) (هولت!) فقلت لصاحبي بلهفة: قف! فقال ما الخطب؟ قلت يظهر أننا في وسط

معسكر للجنود الإنجليزية، فقال يا سوء المصير! فقلت له اطمئن ولا تخف، وبعد قليل تقدم إلينا ثلاثة من الجنود الإنجليزية مدججين بالسلاح وسألونا هل معكم سلاح؟ فأجبنا مأخوذين ليس معنا سوى هذه العصا. فقالوا تقدما، فتقدمنا ثم قادونا إلى خيمة قريبة مضروبة بالقرب من المعسكر فوجدنا بها ضابطا شابا على كرسي وأمامه منضدة وهو مشغول بالقراءة في كتاب أمامه. فلما لمحنا نظر إلينا شزراً وسألنا وهو يتثاءب: هل أنتما هاربان من المعسكر؟ فأجبت: لسنا جنودا، فقال بخشونة: أقصد أنكما أسيران هاربان من المعسكر، فقلت: عفوا لسنا من الأسرى،

فقال وهو يحملق فينا: من أنتما إذن؟ فقلت: أنا فلان ووظيفتي كذا وزميلي فلان ووظيفته كذا، فكتب ذلك في ورقة أمامه، ثم قال: ما خطبكما؟ فقصصت عليه حكايتنا بإيجاز، فلم يكد يسمع طرفا منها حتى اعتدل في كرسيه وألقى الكتاب جانبا، وأصغى إلينا بانتباه، وما كدت أنتهي حتى مد يده إلينا مصافحا ثم غمرنا بلطفه وكرمه، أمر لنا بكرسيين من القماش فجلسنا، ثم أمر لنا بقدحين من الشاي وبعض البسكويت فشربنا وأكلنا، وبعد أن شكرته على إحسانه وجميل عواطفه قال أن واجبه يقضي عليه بعد أن سمع قصتنا، وتحقق من صدقنا أن يخلي سبيلنا، ولكنه يرى أننا في غاية التعب والضعف، فهو يدعونا لنكون في ضيافته حتى الصباح، فشكرته كثيرا على معروفه واعتذرت إليه ثم رجوت منه أن يأمر لنا بمرشد يقودنا إلى محطة السكة الحديد، فقال ولماذا لا تمكثان هنا هذه الليلة؟ فقلت ألا ترى يا سيدي أننا في الساعة الثانية صباحا ولا بد أن أولادنا الآن في قلق شديد على مصيرنا. وقبيح بنا أن نطيل عذابهم أكثر من ذلك، فاطرق قليلا ثم أمعن النظر فينا وقال: حسنا هيا بنا. فأركبنا سيارة أقلتنا إلى محطة طره، ثم ركبنا القطار إلى باب اللوق، ومنها قصدنا منزلينا شاكرين لله سبحانه فضل العناية والرعاية.

المبارزة

للكاتب الروسي اسكندر بوشكين

مرت السنون، ودعتني مصلحة الأسرة للعيش في هذه القرية المظلمة في مقاطعة (يرنا)؛ وكم تمنيت لو أتيحت لي العودة إلى حياة الجندية وما كان لي فيها من متعة الاجتماع ولذة الشباب؛ وكانت حياتي هنا مملة في تشابه أيامها قاتمة لندرة حوادثها، أقضي وقتي حتى الغداء في التحدث إلى المالك أو في مراقبة العمال ومشاهدة المباني الجديدة، فإذا جن المساء (وخصوصا أمسيات الشتاء والربيع الطويلة المزعجة) لم أجد ملهاة ولا تسلية، فقد قرأت الكتب القديمة الموجودة كلها، واستعدت من خادمتي العجوز (كربلوفنا) القصص التي تحفظها أكثر من مرة، ولم أكن أميل إلى أغاني القرويين لما فيها وفي معانيها من الحزن والألم والحسرة، وحظي من هذا كله كثير. أما الشراب فقد كنت أتجرع كل ما تصل اليه يدي على رداءة نوعه وحدة طعمه، وقد تمنيت أن أكون سكيراً كهؤلاء الذين تكتظ بهم هذه القرية الغريبة. وكان جيراني الأقربون جماعة من السكيرين، حديثهم زفرات متصلة وأنات متقطعة. فكيف لا أوثر الوحدة على الاجتماع بهؤلاء؟ ولم أجد حلاً لهذا السأم سوى التبكير في اليقظة، والتأخير في تناول الغداء. حتى يطول نهاري ويقصر ليلي.

وعلى بعد أربعة فراسخ من منزلنا توجد المقاطعة الجميلة التي تملكها (الكونتس بيروفنا) ويسكن هذه المقاطعة وكيل السيدة، أما هي فلم تزرها غير مرة واحدة في الشهر الأول من زواجها.

وفي يوم من أيام العام الثاني لحياتي في هذه القرية سمعت أن الكونتس وزوجها سيقضيان الصيف في مقاطعتهما، ولقد وصلا حقا مع حاشيتهما في النصف الأول من شهر يونية.

وليس من شك في أن قدوم جار غني يعتبر حادثا هاماً في حياة الريف. وقد تحدث الناس عن هذا الحادث قبل حدوثه بثلاثة أسابيع، ولا يزالون يتحدثون فيه حتى اليوم مع مرور ثلاثة أعوام عليه. أما أنا فلم يثر فيّ غير الشعور بقرب سيدة شابة رائعة الجمال، حتى إذا جاء الأحد الأول على إقامتهما تناولت غدائي وأسرعت إلى قصرهما لأقدم نفسي للسيدة بصفتي جارها القريب وخادمها المطيع.

قادني الحاجب إلى المكتبة فبهرني أثاثها البديع ومساحتها المتسعة، هنا رفوف صفت الكتب والمجلدات فوقها على كل منها اسم مكتوب بالبرنز، وهناك تماثيل ومرآة،

وعلى الأرض بساط أخضر عليه سجاجيد عجمية رائعة النقوش، ولما لم أكن متعوداً هذه المناظر المترفة شعرت بضآلة مركزي وضعة شأني، وداخلني شعور غريب فيه من الحيرة والخجل ما فيه، وأصبحت كالفلاح الساذج الذي يطلب مقابلة الوزير!
فتح الباب ودخل رجل في الثانية والثلاثين أو يقاربها، فما رآني حتى هش لي وابتسم في وجهي. . . أخذت أسرد عبارات التحية المعروفة كأن أقول أنني مسرور بلقائه وأن. . . وأن. . . ولكنه وقفني عند حدي بحديثه الطريف ورحب بي.
وما أن استعدت هدوء نفسي أمام ابتسامته وتواضعه حتى فتح الباب ودخلت الكونتس، هنا اصطكت ركبتاي وانعقد لساني. . . لقد كانت آية من آيات الجمال والرشاقة، وكم حاولت أن أجيبها فلم أستطع ولاحظ الكونت اضطرابي فراح يقدمني إلى زوجته في أسلوب عادي كأنني صديق قديم.
وجلت بنظري في المكتبة حتى استقرت عيناي على الصور ولم أكن من غواة الصور أو نقادها، ولكن صورة واحدة استوقفتني لا لما تمثله من المناظر السويسرية الساحرة ولكن لأن طلقتين اخترقتاها واحدة فوق أخرى!
إلتفت إلى الكونت وقلت (ما أجمل هذه الصورة!) فرد مبتسما (نعم! وهي على جمالها لها عندي مركز خاص. هل تحسن إطلاق الرصاص؟)
فأجبت على سؤاله مسرعاً لأنني وجدت فرصة سانحة للتحدث في موضوع أفهمه (أجل!. وأنا أستطيع إصابة بطاقة على بعد ثلاثين خطوة) وهنا تدخلت الكونتس (حقا!. . وأنت يا عزيزي هل تستطيع إصابة بطاقة على بعد ثلاثين خطوة؟)
فأجاب الرجل: (لا أدري! لقد كنت ماهراً في الرماية أيام شبابي. . وقد مضى علي أربع سنوات لم ألمس فيها بندقية)
قلت (صدقني يا سيدي أنك لا تستطيع إصابة البطاقة على بعد عشرين خطوة وأنا أراهنك على ذلك، لأن الرماية تحتاج إلى مران مستمر. . وأذكر أنني لم أستعمل بندقيتي شهرا كاملا أيام كنت في الجيش لأنها كانت عند مصلح الأسلحة. . أتدري ماذا حدث؟ لقد
أخطأت زجاجة على بعد خمس وعشرين خطوة لا مرة واحدة ولكن أربع مرات متتابعة! وكان لفرقتنا قائد يحب المزاح دائما فقال: أظنك تحترم الزجاجة أيها الصديق! فالتمرين واجب. . وأذكر أن أمهر من قابلت في هذا الضرب من ضروب الرياضة رجل غريب كان يتدرب على إطلاق الرصاص ثلاث مرات قبل الغداء على الأقل. . وكما أنه لا يستطيع نسيان الكونياك لا ينسى بندقيته مطلقا!).
ورأيت الزوجين يعجبان من حديثي ويقبلان على الإنصات.
سألني الكونت (وما طريقته؟). فأجبت (سأقص ذلك عليكما. . كان إذا رأى ذبابة على الحائط. . أنت تضحكين يا سيدتي؟ أقسم لك أن ما أقوله حق لا ريب فيه. . ثم ينادي خادمه. كوسكا هات بندقيتي! فيأتي له بها ثم. . طراخ! فإذا بالذبابة منبطحة على الحائط!)
فصاح الكونت: (يا لها من مهارة! وما اسمه؟) فأجبت (اسمه سيلفيو يا سيدي)
فانتفض الرجل واقفا وهو يقول (سيلفيو؟ وهل عرفت سيلفيو؟)
قلت (أعرفه؟ لقد كنا صديقين. . وكان سيلفيو معي في الفرقة؛ وها قد مضت خمسة أعوام على ذلك. . هل تعرفه أنت؟)
فقال الكونت (أجل أعرفه تماما. أو لم يخبرك عن حادث فريد وقع له؟)
- (أخبرني كيف لطمه شاب وقح على وجهه في مساء أحد الأيام)
- (وهل ذكر لك اسم هذا الشاب الوقح؟)
وهنا استدركت لأنه يغلب على ظني أن الشاب هو (لا لم يطلعني على اسمه. . آه!)
الكونت وقلت (عفوا سيدي. . لم أكن أعلم!. ولكن يغلب على ظني أنه أنت!) أجاب الكونت في ارتباك: (أجل هو أنا. . وهذه الصورة ذات الثقب نتيجة لقائنا الأخير!)
هنا اعترضت الكونتس قائلة (نشدتك الله يا عزيزي ألا تتحدث في هذا الموضوع، إن مجرد التفكير فيه يرعبني حتى اليوم!) ولكن الكونت لم يحقق رجاءها بل قال (يجب أن يعرف السيد كل ما يتصل بالموضوع، فهو يعلم كيف أهنت صديقه فمن الواجب أن نروي له كيف انتقم ذلك الصديق.)
ودعاني الرجل إلى الجلوس قريبا منه في مقعد ذي مسند وأخذت أنصت لهذه القصة.

تزوجنا منذ خمسة أعوام وقضينا شهر العسل في هذا المنزل؛ وفي الحق لقد كانت أهنأ أيام
حياتي لو لم تعكرها هذه الحادثة المزعجة.
وفي مساء أحد الأيام ركبت مع زوجتي للنزهة ولكن الجواد جمح بنا حتى ارتاعت زوجتي ورجتني أن أعود بالعربة إلى الإسطبل أما هي فستعود سيرا على الأقدام، ولم أكد أصل إلى الدار حتى رأيت عربة سفر أمام الباب. وقيل لي أن إنسانا لم يذكر اسمه ينتظرني لمهمة خاصة في المكتبة. . أسرعت إلى هناك فوجدت رجلا لا يزال في ثياب السفر له لحية طويلة، وأخذت أتذكر أين رأيته قبل ذلك. .
وقال الرجل: أولا تذكرني أيها الكونت؟، وكان صوته مضطربا. . فصحت عند ذلك: سيلفيو!
وأقول الحق لقد وقف شعري من الرعب. وقال صاحبنا جئت لأطلق رصاصتي. فهل أنت مستعد؟، ورأيت بندقيته بين طيات ثيابه وعددت اثنتي عشرة خطوة ورجوته أن يسرع في مهمته لأن زوجتي في الطريق إلى المنزل؛ ولكنه قال أريد النور أولا، لذلك طلبت الشموع.
ثم أغلقت الباب وأمرت ألا يسمح لأحد بالدخول، ورجوته مرة أخرى أن ينجز مهمته فرفع بندقيته وأخذت أعد الثواني ولم أكن أفكر في غير زوجتي حتى إذا انقضت دقيقة كاملة خفض بندقيته وقال (أنا آسف جداً لأن بندقيتي ليست محشوة ببذور الكريز! والرصاص كما تعلم صعب الاحتمال! ولكن تعال نفكر في المسألة مرة أخرى. . لا أرى مبارزة فيما أنا مقدم عليه. . بل هي أقرب ما تكون إلى القتل، وليس من عادتي إطلاق الرصاص على شخص أعزل من السلاح، هيا نبدأ المبارزة من جديد فنرى أينا يبدأ. . . وأعددنا ورقتين كتبتا في الأولى رقم 1 وفي الثانية 2 ووضعناهما في القبعة التي أصبتها في المبارزة الأولى. . . وتناول كل منا ورقة دون أن ينظر فيها فإذا بورقتي رقم واحد وهنا صاح سيلفيو ((لا أنكر أيها الكونت أن حظك حسن كحظ الشيطان!))
لم أفهم غرضه وأجبرني على أن أطلق رصاصتي التي لم تصبه بل أصابت الصورة التي تراها!
وأشار الرجل إلى الصورة التي استرعت انتباهي أول جلوسي وصار وجه الكونت أحمر قرمزيا وأصبح وجه زوجته كوجوه التماثيل الرخامية البيضاء. أما أنا فقد تعثرت بين شفتي أنة خافتة وأتم مضيفي قصته:
أشكر الله لقد أخطأته رصاصتي: أما هو فقد كان رابط الجأش ثابتاً ينتظر. . فتح الباب فجأة ودخلت زوجتي فلم تكد ترانا على هذه الصورة حتى ألقت بنفسها عند أقدامي، وهنا استعدت شجاعتي وقلت لها، عزيزتي، ألست ترين أننا نمزح؟ اذهبي واشربي قدحا من الماء ثم عودي الينا، وعند عودتك سأقدم إليك صديقي وزميلي القديم، ولكنها لم تصدقني وسألت سيلفيو في رهبة وتأثر، هل أصدق زوجي فأعتقد أنكما تمزحان، فأجاب، انه يمزح دائما يا سيدتي، اتفق مرة أن صفعني وهو يمزح، وأصاب قبعتي برصاصته وهو يمزح، ومنذ دقائق أخطأني وهو يمزح أيضا، والآن جاء دوري لأضحك قليلا!، ثم استعد، ولكن زوجتي جثت بين قدميه. . . عندئذ قلت لها، انهضي يا عزيزتي! ألا تخجلين من نفسك؟؛ ثم وجهت حديثي إليه وقلت هل تريد أن يغشى على هذه السيدة؟ فلتطلق رصاصتك! قل نعم أو لا! فأجاب: لن أطلق رصاصتي فقد تم غرضي، ها أنت ذا ترتعد من الخوف وها هو وجهك كوجوه الموتى، وهذا كل ما أطمع فيه. . ولكن أذكر أنني أعطيتك فرصة ثانية وكنت أظن أنك لن تخطئني. . . لن تنساني بعد الساعة. . سأتركك لضميرك يرى رأيه فيك!.
واتجه نحو الباب، ثم التفت إلى الصورة دون أن يستعد وأطلق رصاصته فوق رصاصتي تماما! وهنا أغمي على زوجتي ولم يستطع الخدم الوقوف في وجهه وقد كانت الأبواب تفتح أمامه في سرعة حتى وصل إلى عربته ومضى. . أما أنا فلم أعد إلى نفسي إلا بعد مدة طويلة.
إلى هنا انتهى حديث الكونت، وهكذا سمعت هذه القصة الرائعة ولم أر بعد ذلك سيلفيو ولم أسمع عنه إلا أنه قاد جماعة من الثوار في الفتنة التي أشعلها (اسكندر

. . .ابسلانتي) وأنه قتل فيها عندما كان العدو في (سكولياني)
عبد الحميد يونس
قصة مصرية
. . .!حكمت المحكمة
عم الأسف رجال القرية ونساءها عندما علموا بوفاة ابنة عبد الدايم المسعودي (وهو من الأعراب الذين يسكنون الخيام في أرضهم) فأما الرجال فقد أشفقوا على عبد الدايم لأنه فقدها وفقد أمها في عام واحد، فلم يبق له من بعدهما من يرعى غنمه ويعنى بشئون بيته. وأما النساء فقد ذكرن أن سلمى ماتت فجأة فلم تمرض كغيرها، وأنشأن يترحمن على شبابها وحلو ابتساماتها. . . وتدافع الأهالي وراء نعشها يشيعونها إلى مقرها الأخير. ثم أقبلوا على والدها يعزونه بكلماتهم المحفوظة وهو يرد عليهم بمثلها، فهو (عظم الله أجره) وهم (شكر الله سعيهم) ورجع الجميع إلى بلدتهم ليقيموا ليالي المأتم الثلاث وليسمعوا ما تيسر من القرآن، وعند الغروب خرج أهالي كفر المعداوي كل (بطبليته) إلى المأتم وعليها عشاؤه الممتاز استعدادا لإطعام المعزين من البلاد المجاورة، وجلسوا بعد الصلاة، وقد تنحنح المقريء إيذانا بقراءة القرآن، فأنصتوا وأطفئوا سجائرهم ثم بدأ القارئ بصوت منخفض غير مسموع تدرج به قليلا قليلا حتى أصبح يغطي على همس بعضهم بالتحية لبعض، ويخفي أحاديثهم عن الشئون الزراعية (وقد بدءوها بعد أن بدأ الفقيه بقليل) بنغمات يطرب البعض لها فيمص ويردد لفظ الجلالة اعتبارا واستحسانا. أما عبد الكريم الدايم فقد كانت تبدو على سيماه علامات التفكير العميق والحزن الدفين، ولكنه كان يتجلد للقادم فيسلم عليه ويتقبل تعزيته شاكرا.
وانقضت ليالي المأتم. . . . وتلفت عبد الدايم حوله فلم يجد إلا غنمه ونفسه فقبع في خيمته لا يزور أحدا، وإنما كان يزوره من فاته العزاء في حينه. وانتقد أهل القرية فيما بينهم إبراهيم أفندي لأنهم لم يروه في المأتم، ولكنهم علموا بسفره إلى القاهرة منذ أيام فلما عاد لحظوا أنه لم يقم بواجب التعزية لعبد الدايم، فبرموا بغطرسته واستكباره، ولكن ما حيلتهم وهو ابن العمدة!
مرت الأيام بعد ذلك سراعاً فأوشكت بفعلها أن تصرف أذهان الناس عن مصاب عبد الدايم لولا أنهم رأوا عجبا. رأوه وقد طوع للموسى أن تجذ شاربيه الطويلين وتعبث بلحيته المستعصية حتى أسفرت ذقنه بعد احتجاب طويل، مع أنهم يعرفون في الأعراب تمسكهم
بشواربهم ولحاهم، ولم ينسوا مبالغة عبد الدايم في هذا، فلم يبق إلا أن الحزن قد أساء إلى عقله فحسن له جنونه أن يظهر على هذه الصورة الجديدة.
وذهب الحاج عبد المطلب وهو أحد مشايخ البلد إلى (دوار) العمدة في المساء جريا على عادته فوجده جالسا في عدد من حاشيته يتحدث إليهم في السياسة عن مصطفى كمال وكيف طار وراء الإنجليز، ويعرج على الاقتصاد فيعلل لهم نزول الجنيه الإسترليني بتعليلات ما أنزل الله بها من سلطان. ولما انتهى العمدة من حديثه اتجه بنظره إلى الحاج عبد المطلب وسأله عن جديد، فأنشأ شيخ البلد يسرد له صنوفا من الأخبار ويتبسط في شرح تفاصيلها إلى أن قال وما رأيكم في عبد الدايم المسعودي؟ يظهر أن الرجل قد جن بعد وفاة ابنته، ولم يكن العمدة على علم بما جرى للحية عبد الدايم فهز رأسه من اليمين إلى اليسار هزات سريعة مستفسراً، وتسابق الجميع إلى إجابته فحدثت جلبة وضوضاء نفذ لهما صبر العمدة فوصفهم بوصف البرابرة: واحد يسمع ومائة يتكلمون، وأشاح عنهم بوجهه إلى الحاج عبد المطلب يسأله عما جرى فلما أخبره بأن عبد الدايم أصبح حليق الذقن والشارب تردد في تصديق ذلك ولكنهم أكدوا له صحة الخبر فرفع حاجبيه في عجب ودفعه حب الاستطلاع إلى أن يأمر شيخ الخفراء باستدعائه.
وجاء عبد الدايم بعد قليل فدهش العمدة عند مرآه وسأله عن سبب حلقه للحيته فأجاب ساخرا إنه رأى واحدا من أهل القرية يضحك منها فآثر أن يزيلها. وقابل أحد الجالسين سخريته بمثلها فقال: (وكيف استغنيت عنها مع أنك كنت تمسح فيها يديك بعد أكل الثريد؟) فتجهم وجه الأعرابي وجحظت عيناه وقال (لما اتسخت أزلتها) فقال العمدة (وما ذنب شاربك؟) فأجاب (صغرت في نظر نفسي فحلقته) وخرج مغيظاً

محنقاً. . .
وكان بالمجلس شيخ معروف في القرية بالنباهة ودقة الملاحظة فقال للعمدة (إن لم تخني فراستي فلا بد أن أحدا اعتدى عليه اعتداءاً خطيراً أقسم بعده، كما هي عادة بعض الأعراب، ليحلقن ذقنه وشاربه تشبها بالنساء حتى يأخذ بثأره). فأخذت هذه الملاحظة مكانها من نفوس الحاضرين وصار كل منهم يعلق عليها بما يؤيدها، أما العمدة فقد همه الأمر وحسب لتهديد عبد الدايم حسابه، فهو داهية شديد البأس وتداول الأمر مع مشايخ البلد فأفهمه الشيخ عبد المطلب (وكان على جانب من العلم) أن من واجبه العمل على منع
الجرائم قبل وقوعها واطمأن العمدة إلى هذا الرأي فعزم على تبليغ المركز وقام إلى التليفون واتصل بالمعاون.
وعلم المأمور بالأمر فضحك من عقلية عمدة المنشية الذي يجد في حلق رجل لحيته وشاربه خطرا على الأمن العام خصوصا وأنه كان يرى فيه من قبل سذاجة وقلة حيلة، فأمر ملاحظ البوليس أن يستدعيه ليوبخه على تصرفه ويطلب إليه أن يكون في حكمه على الحوادث أبعد نظرا وأكثر رزانة. ورجع العمدة ونفسه تفيض أسفا على تبليغ الأمر للمركز بعد ما راعته ضربات الملاحظ على المكتب، وجرحت عزته شتائمه فكان يسب مشايخ بلده الذين حسنوا له التبليغ ويخص منهم الشيخ عبد المطلب وهو المتحذلق الذي أشار إليه بالعمل على منع الجرائم قبل وقوعها. ولكنه كان يحاسب عقله فلا يجد في عمله مأخذا، ويستشير ضميره فيلقاه راضيا عن قيامه بواجب وظيفته، ثم يرجع بذاكرته إلى الماضي القريب فيذكر أنه لما قتل في قرية بجوارهم سويلم العربي حلق ابنه جويفل لحيته وشاربه حتى أخذ بثأر أبيه فأطلقهما في السجن، وهكذا اختصمت أفكاره فضاع صوابه. . . .
أسدلت يد الأيام ستار النسيان على هذا الحادث حتى جاء يوم فرفع الستار. . . . في صبيحته امتطى إبراهيم أفندي صهوة جواده يقصد السوق فعاد الجواد يعدو إلى مربطه بعد قليل وكان العمدة مطلا من شباك داره فلما رآه انخلع فؤاده لأن ذلك معناه أن سوءاً حل بولده. ونزل يجري في الطريق الموصل إلى السوق منفعلا هائجا فلحق به أهل القرية من كل صوب ولم يذهبوا بعيدا حتى وجدوا إبراهيم أفندي ملقى بجوار مزرعة للقصب يتلوى ألما ورأوا أن رصاصة استقرت في فخذه.
يا لهول الفاجعة!! حتى أبناء العمدة يعتدى عليهم!! ولم تحم الشبهات إلا حول عبد الدايم فانبث الخفراء في أزقة القرية يبحثون عنه بعد أن لم يجدوه في خيمته، واهتزت الأسلاك تنقل الخبر إلى النيابة؛ أما الجريح فقد نقل إلى مستشفى الزقاقيق ليسعف بالعلاج. وبعد برهة وصل وكيل النيابة ثم تبعه ضابط المباحث على رأس قوة من البوليس ففتشوا بيت عبد الدايم فلم يجدوا شيئا يفيد التحقيق، فخطر لضابط المباحث أن يفتش مزرعة القصب لأنه استبعد أن يظل عبد الدايم محتفظا ببندقيته، ورجح أن يكون قد ألقاها فيها فبعثر رجاله في أنحائها وإذا برجل منهم يعثر على بندقية. . وإذا بالبندقية حديثة الطلق. . . . وإذا بكل
من رآها يشهد أنها لعبد الدايم.
اكتفت النيابة بهذا الدليل فقبضت على عبد الدايم ولكن سر الجناية ظل غامضا حتى وصل إليها بلاغ من مجهول يقول فيه (لقد علمت من أحد المصادر أن سلمى عبد الدايم المسعودي لم تمت ميتة طبيعية وإنما قتلها أبوها لأنه علم باتصالها بإبراهيم أفندي بن عمدة كفر المعداوي. وقد كان يمكن كشف هذه الجناية في حينها لو أن طبيب المركز رأى الجثة قبل دفنها، ولكنه صرح بالدفن مكتفيا بقول حلاق القرية إنها ماتت بسكتة قلبية) فانتقل وكيل النيابة فوراً مع الطبيب الشرعي إلى قبر سلمى وأمر بإخراج جثتها وقال الطب كلمته فإذا بها ماتت خنقا. . . . وختمت النيابة أبحاثها وبدأت التحقيق. . . . .
س - إبراهيم أفندي يقول أنه رآك تطلق عليه الرصاص.
ج - أبداً
س - وماذا تقول في البندقية التي عثرنا عليها في القصب وهي لك؟
ج - لم تعد لي بندقية منذ أخذها الإنجليز مني وهم يجمعون السلاح في سنة 17.
س - وابنتك سلمى؟ لدى النيابة شهود يقررون أنها لم تمرض مطلقا وأنهم رأوها أمام

خيمتها قبل أن تموت بقليل؟ فهل مرضت وشكت واحتضرت وأسلمت الروح في أقل من ساعة؟
ج - هو كذلك، فإنها ماتت بسكتة قلبية.
س - ولكن الطبيب الشرعي أثبت أنها ماتت خنقا.
ج - إذن تكون قد خنقت نفسها.
س - ولماذا حلقت ذقنك وشاربك بعد موتها؟
ج - خطر لي أن أتزوج فحلقتهما كي أبدو صغير السن.
س - ولكنك قلت في مجلس العمدة كلاما يستفاد منه أن أحدا اعتدى عليك فحلقتهما حتى تأخذ بثأرك.
ج - لم أقل ذلك وإنما كنت أسخر من قوم رأيتهم يسخرون مني.
س - لقد وصل إلى علم النيابة أنه كان بين ابنتك وبين إبراهيم علاقة وأنك من أجل هذا قتلتها وأردت أن تقتله.
فضرب الأعرابي جبهته في عصبية ويأس ورمى وكيل النيابة بنظرة شزراء ثم اندفع يقول إذن فاسمع. إني اعترف بأني قتلت ابنتي وإني أطلقت الرصاص على إبراهيم. خذني إلى السجن فإني أريد أن أتلهى بأشغاله الشاقة عن لؤم الناس وظلم القانون.
واقفل المحضر بعد أن تليت عليه أقواله فأقرها وأمضى. . .
السيد أبو النجا
الكتب
ضحى الإسلام أو أحمد أمين
- 2 -
ضحى الإسلام كصاحبه شديد الوضوح، سديد المنهج، غزير البحر، جم التواضع، تقرأه فتتسابق معانيه إلى فهمك، وتتساوق أغراضه إلى ذهنك، فلا تشك في أن مؤلفه قد استبطن دخائل موضوعه، وأحاط بأصول بحثه وفروعه، لأن المعنى إذا اتضح في الذهن واتسق في الشعور أسفر عنه البيان في إشراق وسهولة وقوة، وما يتعقد الأسلوب إلا من غموض الفكرة أو طموس الصورة أو ضعف الملكة.
اسمع صاحب الضحى أو اقرأه تجده في حاليه واضحا صريحا ثقة، لأنه يتكلم عن روية، ويشرح عن فهم، ويكتب عن تفكير، ويؤلف عن دراسة، أما فترة الشك والتردد فنهايتها بداية عمله.
موضوع الكتاب الحياة العقلية للمسلمين في القرن الأول من العصر العباسي، والعقلية الإسلامية يومئذ كانت أشد العقليات تركيباً، وأكثرها تعقدا، وأوفرها نتاجا، لأنها مزيج عجيب من آثار شتى لجنسيات متعددة، وحضارات متنوعة، وثقافات مختلفة، فتحليل هذا المزيج إلى عناصره الأولية كما يفعل الكيميائي، ورد هذه القوة الناتجة إلى قواها البسيطة المحركة كما يفعل الميكانيكي، أمر لم يضطلع به إلى اليوم غير أحمد أمين، لأن الوسائل التي تهيأت له من مواهبه ومكاسبه وبيئته وعصره لم تتح مجموعة لأحد من قبله، فلو أنه اجتمع لمؤرخينا السالفين مع سلامة الفطرة، ونفاذ البصيرة، وسعة الاطلاع، الوقوفُ على علوم الاجتماع، ومذاهب النقد ومناهج البحث، لما تركوا لنا التاريخ على هذه الحال المضنية من النقص والمبالغة والفوضى، ولكن هذا التاريخ الذي قنع بأخبار الحرب والفتح، والولاية والعزل، والولادة والوفاة، واغفل الكلام في تبدل الأحوال والأطوار، وتغير الميول والأفكار؛ وتطور العادات والمعتقدات، في طبقات الأمة، هو نفسه الذي استخلص منه احمد أمين كتابيه فجر الإسلام وضحى الإسلام على هذا النهج الواضح والنسق المطرد! فاعتبر في نفسك أي عقل إستجلى هذا الغموض، وأي فكر استغل هذا النقص، وأي صبر ساعد هذا الجهد!
سار المؤلف في تحرير كتابه على خطة سديدة، وتبويب متناسق. فجعله جزئين متساويين: بسط في الأول العوامل التي أثرت في العقلية الإسلامية وهو الذي ظهر، وفصّل في الثاني الآثار التي نشأت عن هذه العقلية نفسها وهو الذي سيظهر. ثم كسر كلا من الجزئين على بابين: فالأول على الحياة الاجتماعية وعلى الثقافات الدينية والمدنية، والثاني على الحركات العلمية ومعاهد العلم وحرية الفكر، ثم على المذاهب الدينية وتاريخ حياتها وأشهر رجالها وأهم أحداثها.
فموضوع الجزء الذي في يدينا الآن إذن هو العوامل المؤثرة في الحياة العقلية

الإسلامية في شباب الدولة العباسية، وهذه العوامل أما مادية نشأت من طبيعة الاجتماع كاختلاف الأجناس، وصراع الطوائف، ونظام الرقيق، ومظاهر الترف من مجون ولهو، ونتائج البؤس من يأس وزهد، إلى غير ذلك مما أسبوعيته فصول الباب الأول الستة وأما أدبية نشأت من تداخل الثقافات الفارسية، والهندية، واليونانية، والعربية، واليهودية، والنصرانية، وما يتبع ذلك من تمازج الآداب والمعتقدات والأنظمة، وقد استقصى المؤلف أطرافها في فصول الباب الثاني الستة.

وهذا الوضع المنطقي المحكم قد ضمن لآراء الكتاب أن تطرد، ولأجزائه أن ترتبط، ولأبحاثه أن تجتمع، فجاء من حيث التأليف مدمج الفصول، مرسوم الوجهة، محدود الغاية، بريئا مما يجره عدم الخطة أو فسادها من استطراد مشت في جهة، وإخلال مرهق في جهة أخرى، وتلك مزية قل أن تجدها في كتاب.

صاحب ضحى الإسلام شديد اليقظة، مستقل الرأي، لا يعرض قولاً دون مناقشة، ولا بحثا دون تقدمة، ولا رأيا دون دليل، ولا تشعر وأنت تقرأه أن هناك رأياً معينا تسلط عليه، أو فكرة سابقة أثرت فيه، فهو يخطّئ (جولد زهير)، كما يخطّئ ابن خلدون، ويعرض الثقافات الدينية المختلفة بميزان واحد ولسان واحد.

تبدو هذه اليقظة، ويتجلى هذا الاستقلال، منذ الكلمة الأولى في الكتاب؛ إذ يفطن إلى الخطأ الذي جره على بعض المؤرخين الكسل والتقليد في تصويرهم سقوط الأمويين وقيام العباسيين حداً فاصلا بين حياتين مختلفتين للأمة الإسلامية، تبتدئ الثانية عند انتهاء الأولى، ثم يتجليان في سائر الفصول وعلى الأخص في الشعوبية والاسترقاق والزندقة،

فليس وراء ما كتبه فيها مراغ لمستزيد.

وصاحب ضحى الإسلام أديب بارع، وعالم ضليع، يظهر أدبه في الصور التي رسمها كصورة الرشيد، والتراجم التي وضعها كترجمة ابن المقفع، وتلك الصورة وهذه الترجمة نموذجان عاليان لكاتب التاريخ ومؤرخ الأدب. ويتحقق علمه في كثرة المصادر التي رجع إليها، ووفرة النتائج التي حصل عليها، وعرضه للثقافات، ولا سيما الهندية، عرضا ينم عن اطلاع واسع واستقراء دقيق وصبر نادر.

وكل ذلك والتواضع الأصيل في الطبع يأبى للمؤلف أن يصدق ما يقوله العلماء، والمستشرقون من أنه مثال الباحث الجامعي الحق، وكتابه نموذج البحث العلمي الصحيح.

الزيات

جولة في ربوع أفريقية لمحمد ثابت

بقلم الدكتور محمد عوض محمد

ليس من السهل أن نجد في هذا القطر كله لمحمد ثابت ضريبا ولا شبيها في حبه للرحلات البعيدة، وفي التضحية بوقت نفيس وبمال أنفس، في سبيل إرضاء هذه الرغبة السامية، التي تدفعه في كل صيف إلى أطراف العالم، لكي يرى بعينيه تلك الأقطار البعيدة التي طالما سمع عنها وتاقت نفسه لمشاهدتها. . وأي امرئ لا يملك الإعجاب الشديد حين يرى محمد ثابت ينفق من ماله القليل الذي ادخره بكثير من حرمان النفس، ينفق عشرين جنيها كاملة من أجل رحلة بالسيارة من (كمبالا) على بحيرة فكتوريا إلى (فورت بورتال) على سفح رونزوري (مسافة لا تزيد كثيرا على ما بين القاهرة والإسكندرية) لكي يمتع الطرف بالتأمل في تلك الجبال الشامخة ساعات قلائل، وقد اختفت قللها تحت غشاء كثيف من السحاب والضباب. ثم يعود أدراجه إلى كمبالا لكي يستأنف سياحته الطويلة.

وفي المصريين كثير ممن ينزحون عن قطرنا صيفا. . . ولكن هؤلاء لهم شأن غير شأن صديقنا ثابت، وقصة غير قصته. فهؤلاء قبلتهم إما فيشي أو كارلسباد يتداوون بمائها الشافي بما أنزلوه بأجسامهم من نتائج الإفراط أو التفريط. أو قبلتهم باريس حيث يحيون حياتهم في القاهرة، يجلسون النهار كله وشطرا من الليل في مقاهي مدينة النور (وهم لا يرون من نورها شيئا) يقضون وقتهم قعودا كسالى يتحدثون وهم في ميدان الأوبرا بذلك الصوت المصري الجهوري فيسمعهم جميع من بالبوليفارد، يعلنون

عن أنفسهم، وما في أنفسهم شيء يستحق الإعلان، ومنهم من هو شر من هذا. . وأي شر؟ ولكن مالي أكدر نفسي بالكلام عن هؤلاء وأنا أريد أن ينشرح صدري بالكلام عن محمد ثابت؟

منذ ثلاثة أعوام جال محمد ثابت في ربوع أوربا، فلم يزل ينتقل من قطر إلى قطر حتى بلغ جزيرة أيسلندة وكان من الدائرة القطبية قاب قوسين أو أدنى. . . وفي الصيف التالي يمم شطر المشرق وجال في بلاد الهند والصين واليابان؛ وفي الصيف الماضي حملته السفينة باسم الله مجراها ومرساها إلى شرق أفريقية وجنوبها. فاخترق خط الاستواء للمرة الأولى (إذ لا أظنه اجتازه في جولته الآسيوية) ثم عاد إلى مصر بطريق البر والنهر (نهر النيل) مجتازا بلاد كينيا وأوغندة والسودان المصري.

وإني ليحزنني أن إعجابي الذي لا حد له بالرحالة محمد ثابت لا ينصرف إلى الكتاب الذي بين يدي الآن (جولة في ربوع أفريقية) فإن شخصية المؤلف لم تنصف شخصية الرحالة. ولم تقم بالواجب نحوها.

فتحت (جولة في ربوع أفريقية) وأنا أتوقع أن أطالع كتابا يصف لي رحلة المؤلف وحركاته وسكناته بدقة، ويصور لي كل شيء رآه، وما مر به من الحوادث. لكي أشعر أنني معه ألازمه في رحلته أسافر كما يسافر وأرى ما يرى. وهذه هي اللذة الخاصة التي أجدها في مطالعة كتب الرحلات. لكن محمد ثابت لم يفعل هذا بل أخرج لنا كتابا يتضمن بيانات (لا أنكر أن أكثرها نافع مفيد) عن جغرافية شرق أفريقية، وقد ضاع حديث الرحلة بين الفصول الجغرافية كما تضيع قطع الذهب وسط أكوام من التراب فكنت أجده لأقل المناسبات يترك موضوع الرحلة تماما، ويأخذ في كتابة فصل جغرافي في شيء من الإسهاب، ولكنه خارج عن موضوع الرحلة. ففي صفحة 76 بيان طويل عن السكر وزراعته لا في أفريقية وحدها بل وفي غيرها من الأقطار، ويتكلم في صفحة 56 و57 عن بلاد روديسيا والكنغو مع أنه لم يرهما ولم يمر بهما، ويكتب فصلا طويلا عن جبل كلمنجارو مع أنه رآه عن بعد مائة كيلو متر، وفصلا عن تاريخ أوغندة أو عن نقل السفن إلى بحيرات فكتوريا منذ عشرات من السنين. وبيانا عن الكركدن ولم يره، وفصلا طويلا عن الشلوك اقتبسه من دراسته الخاصة لا مما رآه في رحلته.

وهذه التفاصيل الخارجة عن الرحلة قد طغت على حديث الرحلة حتى لم يبق منه إلا القليل. وإني أريد أن أذكر لصديقنا الفاضل أن أمامنا كتبا كثيرة نستخلص منها تاريخ أفريقية وجغرافيتها!. ولكن الذي بنا إليه شغف شديد، والذي يستطيع هو وحده أن يعطينا

إياه، هو كتاب عن رحلة محمد ثابت. ولهذا كان أمتع فصول الكاتب على الإطلاق هو ذلك الجزء الذي يصف لنا فيه كيف منع من دخول جنوب أفريقية، وكيف جنت عليه مصريته في تلك الأقطار النائية. هذا الفصل للقارئ هو بمثابة الجوهرة وسط الأحجار.

ويخيل إلي أن محمد ثابت لم يكن يكتب مذكرات (يومية) أثناء رحلته. ولو فعل لكان لديه محصول وافر يغنيه عن تلك الفصول الجغرافية. وإنك لتقرأ الكتاب فلا تستطيع أن تستبين منه تفاصيل حركات السائح. فقد دخل (نيروبي) ولكنه لا يذكر لنا في أي تاريخ نزل بها. وبات ليلة في (ناكورو) فلا يخبرنا أين بات. ويمر بأوغندة ويقضي بها أياما، ولكنك لا تعرف متى دخلها ومتى خرج منها. ولست أستطيع أن أعزو هذا الإغفال إلا لشيء واحد هو أنه لم يكتب مذكرات يومية أثناء السياحة. ولهذا أرجو منه في سياحته المقبلة ألا ينام ليلة قبل أن يدون مشاهدات يومه. وسيرى القراء الفرق بين الكتاب الجديد والقديم.

بقى أني وجدت هفوات يسيرة أريد أن أنبه المؤلف الفاضل اليها وهي (ص6) أن لفظ عنوان كتاب لا أسم أحد المؤلفين، وشيبا وسبأ كلمة واحدة (ص7) فيقال بالإنجليزية ملكة شيبا وبالعربية ملكة سبأ وهي بعينها السيدة الفاضلة التي دخلت صرح سليمان وحسبته لجة. . . ونهر النيل (ص169) لم يعد أعظم نهر في العالم، لا من حيث الطول ولا من حيث ما يجري فيه من الماء. . ويطليموس الجغرافي (ص169) لم يعش قبل الميلاد بل في القرن الثاني بعد الميلاد، وغابات ايثوري في الناحية الغربية لجبال رونزوري فلا يمكن أن ترى من حصن يورتال. والغورلا يا سيدي ثابت حيوان ليس له ذنب (ص197) فقد اضطر إلى أن يستغني عن هذه الزائدة استعدادا لأن يكون إنساناً

مثلي ومثلك ومثل كواكب السينما، وأخيرا لا أوافق المؤلف على أن قطن الجزيرة يزرع في الشتاء ويحصد في الربيع. . بل يزرع في أواخر الصيف (ابتداء من أغسطس) ويحصد في الشتاء ابتداء من يناير. (ص269)

وإني لأرجو من صديقنا السائح الفاضل رحلة سعيدة في الصيف الآتي وأن يتحفنا بعدها بكتاب عن تلك الرحلة وعن نفسه لا عن شيء آخر.

العدد 8 - بتاريخ: 01 - 05 - 1933

شروح وحواشي

عام 1352 أشرقت الشمس على الدنيا شمس محرم في اصفرار يشبه الكسوف أو انكسار يقارب المذلة! كأن صبحه الضاحي لم يغرق الكون بالنور، ويخرج العالم من الضلالة! وكأن يومه الأغر لم يغير وجه الزمان وينتصب علما في تاريخ الخليقة! أو كأن الهجرة التي يشع هذا اليوم بذكراها لم تدفع الإنسانية في طريق الكمال آلافاً من المراحل وهي على بعيرين هزيلين يتنكبان الجواد ويمشيان على كلال ووجل! وكأن الفلك لم يدر به القرون الطوال على دين حرر العقول، وملك طبق الأرض، وحضارة مدنت العالم! ولكن ليت شعري لم لا تنكسف شمس المحرم، وهي إنما تطلع اليوم على أطلال من المجد والملك والخلق لا تبعث في العين غير الدموع، ولا في النفس غير الكآبة؟!

لقد أصبحنا وما نملك لذكرى الهجرة إلا مظهرا وضيع الشأن قاصر الدلالة: عطلة رسمية في الحكومة، وحفلة كلامية في جمعية الشبان!

أما المظهر الشعبي الذي يغمر الشعور بالبهجة، ويعمر القلوب بالعزة، فكأن نفوسنا لم تتهيأ له بعد!

وفي العراق (وا أسفاه) يستقبلون المحرم بلدم الصدور بالأكف، وضرب الظهور بالسلاسل، وإقامة المناحات في الشوارع والمنازل، فيضيع بذلك عيد المجد النبوي في مأتم السبط الشهيد، وتأبى هذه المصادفة المشئومة على حكومة بغداد، أن تجعل يوم الهجرة عيداً من الأعياد.! وفي سائر البلاد الإسلامية يمر هذا اليوم المسكين فلا يعلنه تقويم ولا يحفله أحد!

رحماك اللهم! فأين الشرق من الغرب!! وأين المحرم من يناير؟!

نهضة العراق: كثر اليوم حديث الصحف المحلية عن العراق ونهضة العراق، وفي ذلك رضا للعاطفة التي أحملها لهذه البلاد الكريمة يدفعني إلى إعلان هذا الفوز. فوزارة المعارف تريد على ما روت إحدى الصحف أن تستعين بما وضعته معارف العراق من الأناشيد، في تقرير هذا النظام الجديد. وتنشر الصحف أن لجنة ألفت في وزارة المعارف العراقية (لتغيير) الأناشيد المدرسية! فتقدم إليها على الفور جمعية الرابطة الأدبية في بغداد ثلاثين نشيداً منها: تحية العلم، الحرية، تربية الطفل، المطر، تدبير المنزل، تحية الملك: نشيد النهضة، نشيد الوحدة، نشيد الحماسة، نشيد الفتاة، النشيد الوطني، الرياضة، الكشافة،

العلم والعرفان: ويقرأ هذا الخبر شعراؤنا الفحول فيسألون الله السلامة، ويتضاءل في نفوسهم الرفيعة معنى الزعامة! وتضرى الخصومة السياسية عندنا فتمزق العلائق والأعراض فيضرب الكتاب المثل الأعلى بالخصومة النبيلة التي تقع بين ساسة العراق فلا تتعدى أندية الأحزاب ولا دواوين الحكم. وتحس الصحافة المصرية حز القيود فتغبط الصحافة العراقية بحريتها الجديدة، وتشكر لحكومتها السعي في تقرير نقابتها العتيدة.

والحق إن في الشعب العراقي أفضل ما في الشعوب الناهضة من حيوية وطموح ومرونة ورجولة، فإذا أضفت إلى هذه الخلال انه جذ من ورائه تقاليد النظام القديم، وإن معاهدته الجديدة قد قللت من الاستشارة الأجنبية المعرقلة، وإن حكومته بسيطة الآلة ضيقة الدائرة، حتى لتسنح الفكرة للمدير العام (وكيل الوزارة) في مجلس من المجالس أو تقترح عليه فتصبح قانونا أو لائحة، أدركت سر القوة الحافزة في نهضة العراق. أما الحكومة الملتوية المعقدة ذات الزوايا والحنايا فأن المقترح أو المشروع يضل فيها بين توزع المسؤولية وتقسم الرأي فيخرج من مكتب إلى مكتب حتى يدركه الإعياء فيرقد في درج أو سلة!!

الأدب المصري الحديث أدب ثرثرة: هكذا قالت (العاصفة) في بيروت، ثم تفضلت على الصديق طه فنصبته زعيما على هذا الأدب! وقالت: (إن الأدب الحديث الناشئ في

مصر أدب لا يزال بحاجة إلى صقل وتهذيب فهو أشبه بالحجارة غير المنحوتة) ثم قالت في موضع آخر (وأصدق قول ينطبق على القسم الأعظم من هذا الأدب الذي يتحفنا به أدباء مصر انه أدب ثرثار ورجاله حائرون بين الابتكار والتقليد فيشوقهم أن يكونوا من المبتكرين وأن يسيروا في التيار الغربي فإذا القديم يغلب عليهم. . . . . ومقال العاصفة على (ثرثرته) إندفاعة نفس شابة لاتزن الكلام ولا تبالي التبعة، وهي لا تملك والله الحمد ميزان القضاء ولا أهلية الحكم. فالدفاع أمامها دفع بعدم الاختصاص. على أن من الخير لنا ولها أن تقف قليلا عند قولها: (ولم تشعر مصر بروح الأدب العالي تجول فيها إلا يوم أرتادها أدباء لبنان وسورية. . . فالأدب الذي حمله إلى مصر تقلا ونمر وصروف وإسحاق واليازجي وحداد وزيدان والرافعي والمطران وسواهم هو الأساس في نهضة مصر الأدبية الحديثة ولولاه لم يكن حافظ ولا شوقي ولا العقاد ولا المازني ولا طه حسين ولا ولا الخ. نعم نقف قليلا عند هذه الجملة الطائشة لنقول للكاتب وأمثاله: إن

الزمان لم يدع في أيديكم وأيدينا من المجد المشترك إلا هذه اللغة وهذا الأدب، فلم تأبون إلا أن تقسموهما على البلدان وتوهنوا أسبابهما بهذا الهذيان! تلك نعرة بدوية ونغمة مملولة. والعاصفة التي أثارت هذا الموضوع الجاهلي تتشدق بالتجديد! فهل علمت ما يشبه ذلك بين الأدباء في فرنسا وسويسرا وبلجيكا، أو بين الأدباء في إنجلترا وأمريكا؟ وماذا يضيرها إن تركتنا متآخين متحابين على هذا المنهل الباقي ننعم جميعا بريه ومائه، ونحرص جميعا على فيضه وصفائه؟؟

شاعر وشاعر:

هو الحظ غير البيد ساف بأنفه ... خزامى وأنف العود بالذل يخذم!

في اليوم الذي تحتفل فيه لبنان بذكرى (لامرتين) في الشرق تجيء أخبار الموصل بأن بلديتها هدمت قبر أبي تمام! فأما تكريم لبنان لذكرى الشاعر الفرنسي فلم يخرج عن سنن العرب في تمجيد الأدب وأهله، والاعتراف بإحسان المحسن وفضله. وأما تكريم الموصل للشاعر العربي بهدم ضريحه وطمس أثره فذلك ما لم نفهمه لا من طبيعة الشيء ولا من سياق الخبر ولا من احتجاج العرب ولا من روح العراق. فهل يكون السبب أن مدينة (الخالدين) عدنانية وأبا تمام من قحطان، أم السبب إنها عراقية والطائي من قرى غسان؟!

قرية الأدباء: من أنباء موسكو أن الحكومة الروسية قررت بناء قرية للأدباء بالقرب من لينغراد وصدرت لها من مالها ما يساوي مائة ألف جنيه ذهبا وستحظر على غير الأدباء دخولها الا بإذن رسمي خاص. وغايتها من ذلك بالطبع استخدام الأدب في تأييد الحكم السوفيتي ونشر المذهب الشيوعي. والذي يعنينا من هذا الخبر انه تنفيذ سخي لقلم الشعراء الذي يقترحه على وزارة المعارف صديقنا الهراوي، وتحقيق لفكرة (المدينة الفاضلة) التي خططها في الخيال أستإذنا الفارابي!!

أحمد حسن الزيات

من غير عنوان

للأستإذ أحمد أمين

أكلت أكلة ساء هضمها، فانقبضت نفسي، وغاضت بشاشتي؛ وتقطب ما بين عيني. . .، وسئمت كل شيء حولي، وبرمت بمخالطة الناس كما برمت بالعزلة عنهم، وكرهت السكوت كما كرهت الكلام.

ونظرت إلى العالم فتجهمته، رأيته ثقيل الروح، فاسد المنطق، يمج السمع نغماته، ويعاف الطبع منظره، وتأخذ بخناقي ألاعيبه وأحداثه.

أي شيءفيه يسر؟ إن هو إلا جيفة تنبحها الكلاب، وميتة يتساقط عليها الذباب، عدو كل ألفة، ومصدع كل شمل، يبلي الجديد ولا يجدّ البالي. ليست لذته إلا ألماً مفضضاً، ولا مسرته إلا حزنا مبهرجا!

ودعوت ربي بالسلامة جاهدا ... ليصحني فإذا السلامة داء

ما حال من آفته بقاؤه ... نغص عيشي كله فناؤه

أليس عجيباً ألا تكون لذة حتى يحدها ألمان، ولا راحة حتى يكتنفها عناءان؟!

سعيد وشقي، وفقير وغني، وذكي وغبي، ليست إلا ألفاظا اصطلح عليها، فإن أنت تأملتها لم تجد كبير فرق بين مدلولاتها:

ما الظارون بعزها ويسارها ... إلا قريبو الحال من خيابها
أكبر الناس قيمة، وأضاعها الموت وتفاوتوا في الجاه والثراء وسوى بينهم القبر!
ومن ضمه جدث لم يبل ... على ما أفاد ولا على ما اقتنى
يصير ترابا سوا علي ... هـ مس الحرير وطعن القنا!
ليست الدنيا إلا قطرة من شهد في بحار من علقم، وذرة من سعادة في جبال من شقاء يلح الدهر ببؤسه وعنته حتى إذا استيأست النفوس وبلغت الروح التراقي سخا بقبس من نعيم أطفأه برياح عاتية من عذاب!
قد فاضت الدنيا بأدناسها ... على براياها وأجناسها
وكل حي فوقها ظالم ... وما بها أظلم من ناسا
نظام كله فوضى! وحياة كلها فساد. رذيلة تسعد وفضيلة تشقى!
والناس شتى فيعطي المقت صادقهم ... عن الأمور ويعطي الكإذب الملق
بحار تشكو الري. وصحراء تشكو الظمأ، وماء ولا شارب. وشارب ولا ماء!
تباركت أنهار البلاد غزيرة ... بعذب وخصت بالملوحة زمزم
غنى عقيم، وفقير عائل:
سبحان من قسم الحظو ... ظ فلا عتاب ولا ملامة!
أعمى وأعشى ثم ذو ... بصر وزرقاء اليمامة!
عيش كله هذيان، أعاليل بأباطيل، والدنيا تلعب بنا لعب الكرة!
ترينا الدجى في هيئة النور خدعة ... وتطعمنا صاباً فنحسبه شهدا
كذب المؤرخون فسموا زمنا سلما وزمنا حربا، وما السلم الا حرب صامتة شر من الحرب الناطقة! كل شيءفي العالم مفترس، أسد يفترس ذئبا، وذئب يفترس حملا. إنسان يفترس كل شيء حتى نفسه!
قوم سوء فالشبل منهم يخول الليث ... والليث راح أكل شبله!
كان العالم عالم سوء فتوج الإنسان شروره
كلما أنبت الزمان قناة ... ركب المرء في القناة سنانا
عالم كله أحاجي وألغاز، وعقل قاصر عنيد، منذ خلقه الله يحاول أن يفهم، يحوم حول العالم يريد أن يعرف الغرض منه فلا هو يصل ولا هو يعدل
نفارق العيش لم نظفر بمعرفة ... أي المعاني بأهل الأرض مقصود؟
الله صورني ولست بعالم ... لم ذاك، سبحان القدير الواحد!
حياة حار فيها الحكيم وضل فيها الفيلسوف، مبادئ تتضارب، وصور تتنازع، وكلام مزخرف- ظاهره جميل وباطنه مزيف كلما ظنوا أن حلوا مشكلة نجمت مشاكل - وقديما قضى الفلاسفة حياتهم في الجوهر والعرض والكمية والكيفية وأيس وليس، ثم عادوا آخر المطاف يعترفون بالفشلويقرون بالعجز ويقولون مع القائل:
نهاية إقدام العقول عقال ... وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا إذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
زاد تلبك معدتي، فزادت من الحياة نقمتي!
فيا موت زر أن الحياة ذميمة ... ويا نفس جدي أن دهرك هازل
تناولت دواء هاضما فأخذت أهش للحياة وأبش، وبدأت أنظر إلى العالم بوجه منطلق، ومحبباً منبسط - هاهو ذا قد تألقت صفحته. وأسفرت غمته، وانقشعت غمامته.
الحق أن العالم جميل، فهذا نسيم يعطر الجو بعرفه، ويحيي النفوس يرقته ولطفه، وهذا الربيع نزهة العين ومنطق الطير. وهذه حديقة عقد منظوم. ووشي مرقوم.
أصبحت الدنيا تروق من نظر ... بمنظر فيه جلاء للبصر
والأرض في روض كأفواف الحبر ... تبرجت بعد حياء وخفر
كل شيءحولي يضحك! ليس في الأمكان أبدع مما كان.
قلبي وثاب إلى ذا وذا ... ليس يرى شيئاً فيأباه
يهيم بالحسن كما ينبغي ... ويرحم القبح فيهواه
إن الحياة غنية باللذائذ، وليست الآلام فيها إلا توابل تهيؤ لاستمرار اللذة.
والشوك في شجرات الورد محتمل
ما لدنيا إلا قيثارة يوقع عليها شجى الألحان! أو مائدة شهية صففت عليها صنوف

الألوان!
وقد تخمد الشمس الصباح بضوئها ... تفاوتت الأنوار والكل رائق
إن كان في الدنيا سخف وهذيان، فكن الفيلسوف الضاحك، وليس الفيلسوف الباكي!
وإن كانت الدنيا ألغاز وأحاجي، فكم نجح العقل في حلها واستجلاءغامضها. وكل يوم تتسع دائرة المعلوم، وتضيق دائرة المجهول. والعقل يلذه البحث ولو لم يصل. ويشعر بالغبطة ولو لم ينل. وفي نجاحه فيما أدرك، عدة له فيما لم يدرك.
رحماك اللهم! إن كان درهم من دواء هاضم يغير وجه العالم ويحيل السواد بياضاً، والشقاء سعادة، والقبح جمالا، والظلام نوراً، والحزن سروراً، فأين الحق!
التجديد في الأدب
حول مقال الأستاذ أحمد أمين
للدكتور عبد الوهاب عزام
قرأت في (الرسالة) مقالا للأستاذ الفاضل أحمد أمين عنوانه (التجديد في الأدب) فرأيت آراء بينة استحسنتها، وألفيت رأيا آخر لم أقبله، وقد هممت أن أكتب مجاملا الأستاذ ثم بدى لي أن أرجئ الكتابة إلى حتى يتم مقالاته، فلما قرأت المقال الثاني زاد الخلاف بيني وبينه. ثم عرفت أنه سيتلبث قليلا فلا يكتب عن هذا الموضوع في العدد الآتي فسارعت إلى الكتابة وأنا اشعر أن الذي يحبب إلى مجادلة الأستاذ حبي واعظامي وتلمسي محادثته كلما وجدت إليها سبيلا في المجالس أو في صفحات المجلات.
قابلت الأستاذ بعد أن قرأت المقال الأول فقلت: سأنتقد مقالك أو اشرحه. فقال مازحا: قبل أن تقرأه؟ فقلت نعم. ذلك أنني أنشأت أنا وصديقي الأستاذ العبادي في بعض الأسفار أبياتا وسميناها (القصيدة المكتمة) وكتمناها الأستاذفقال: لا أبالي هذا الكتمان، وسأشرحها دون أن أراها. وأذكر أني قابلته مرة فقلت: (سؤال) فقال قبل أن يستمع إلى سؤالي: (جواب) أتريد أن أجيب قبل السؤال أو بعده؟ ولكن ليطمئن أستاذنا وليعلم أني قرأت مقاله قبل أن أكتب عنه، وهو أمامي الآن أقرأه وأكتب ما يبدو لي فيه.
أعجبني قول الأستاذ عنالمجددين: (فإذا سألت المجددين ماذا يريدون بالتجديد، وما ضروبه وما مناحيه وماذا يقترحون أن يدخلوه على الأدب العربي؟ جمجموا في القول وأتوا بكلمات غير محدودة المعنى ولا واضحة الدلالة) وأنا أزيد علىهذا أن التغيير ليس فضيلة ينبغي الحرص عليها والتنافس فيها والتفاخر بها، وإنما يستحسن التغيير أو التجديد حين تدعو الحاجة إليه. والكاتب النابغ إذا أحس الحاجة إلى التجديد بدّل وغيّر وابتدع في غير صخب ولا سخرية ولا مباهات، ثم عرض على الناس نتاج رأيه، وثمرة ابتكاره فيرضونها، أو يجادلون في أمر وضحت معالمه واستبانت حدوده. الكاتب المجدد حقاً هو الذي يمضي في سبيله قدما، مبيناً عن آرائه ومشاعره على الأسلوب الذي يفي بهذا البيان. والخطة التي يؤثرها ويفصلها لا يتكلف الإغراب والشذوذ ليقال انه مجدد. والشاعر المطبوع هو الذي يسير على فطرته مخلصاً لنفسه مبيناً عنها لا يبالي أن يكون قد لزم الجادة المطروقة أو
حاد عنها، ثم يعرض على الناس شعره فيما اختار من موضوع وأسلوب في الوزن والقافية. فإذا ثار الناس عليه جادل عن نفسه وأوضح حجته. والأدب فيما أحسب يؤثر فيه الاستطراف، فقد يغير الشاعر أسلوبا طال عليه العهد ومله الناس، وقد يرجع الناس إلى الأسلوب المهجور بعد حين فيستطرفونه. فالتغيير في الأدب واسع المجال ولكن ينبغي أن تحسن الحاجة إليه وتستبين سبله.
الأدب العربي تقلب في أطوار مختلفة. وابتدعت فيه بدع كثيرة ولكن لم نسمع إن المبتدعين مهدوا لابتداعهم بمعركة كلامية في القديم والجديد، نظم ابن المعتز موشحه، وافتن المغاربة في الموشحات افتنانا خرج بها عن الأوزان والقوافي المألوفة، ومضى الناس على هذا ولم يمهد لهذا الابتداع بثرثرة في التجديد، ولم يكن للمجددين من حجة إلا أن ألقوا إلى الناس موشحاتهم تحتج لنفسها. وكذلك نظمت قصص كليلة ودمنة وغيرها في القافية المزدوجة، ولم يكن هذا معروفا من قبل، وكتب بديع الزمان الهمذاني مقاماته وهي طريقة جديدة، وما عرفناه أن تقدم هذا وذاك جدال أجوف ذو دوي كالذي نسمعه في هذا العهد والمتنبي ذهب في الشعر المذهب

الذي ارتضاه ثم قال:
أنام ملء جفوني عن شواردها ... ويسهر القوم جراها ويختصم
المعري ملأ شعره بالفلسفة وأمور لم يألفها الشعر من قبل وكتب رسالة الغفران على غير مثال فما دعا إلى طريقته ولا جادل فيها أحدا. وما أحسب لامرتين الشاعر الفرنسي حين نشر (التأملات) قد أجهد نفسه في الدفاع عن نفسه، والهجوم على مخالفيه. هذه هي الطريقة المثلى التي تجنبنا المعارك الضالة والكلام المتهاتر، والحجج المبهمة، حين يدور الجدل علىأمر مشهود بين يمد الكلام، ويقصر النزاع، ثم يكون المثال الجديد حجة لنفسه تسد السبل على المعاندين والمغالطين. هذه هي الطريقة المثلى. وأما الجعجعة بغير طحن، أو جعجعة في طحن الكلام، وإثارة الخصام جناية على القارئين، ومضلة للباحثين.
إنما يكثر تحدث الإنسان عن صحته حين يعتل، وأما الصحيح القوي فهو عامل جاهد، ماض في سبيله لا يقيس كل خطوة بنصح الأطباء، ولا يزن كل أكلة بما أعطي من الدواء. وكذلك أعجز الناس عن الابتكار والإتقان أكثرهم ضوضاء وسخرية وافتراء وادعاء. أعود إلى مقال الأستاذ احمد امين، بعد أن ند القلم في الكلام عن التجديد والمجددين، وأترك للأستاذ المقدمةالتي ذكر فيها (العناصر الثابتة) في الأدب و (العناصر المتغيرة) وأتصدى لكلامه في تجديد الألفاظ. هو يرى أن التجديد فيها على ضربين: الأول (اختيار الألفاظ التي تناسب العصر، ويرضاها ذوق الجيل الحاضر) وضرب الأستاذ مثلا كلمة هبيخ وبعاق وكنهور. وأنا لا أريد أن أناقش الأستاذ في الأمثلة فقد قرأنا في كتبنا القديمة أن (المناقشة في المثال ليست من دأب المحصلين) ولكني أخالفه فيما سماه ذوق العصر وأعرض نفسي لحكمه حين يقول: (وهذا بديهي لا يحتاج إلى إطالة. وكل من جهل هذه الحقيقة لا يفلح أن يكون أديبا) أخالفه في أن يجعل الذوق حكما ولا سيما ذوق الجيل الحاضر على قصوره في اللغة والأدب. وأخشى أن يقتصر هذا الذوق على ما ألف من الكلمات فيعد كل كلمة غير مألوفة نابية عن الذوق ثقيلة على السمع، فإذا أراد كاتب أن يدل على الهواء بين السماء والأرض فقال (السكاك) أو (السمهى) ضحك منه أهل الذوق. وإذا أراد أن يدل على الهواء بين جبلين فقال (النفنف) سخروا منه، وإذا قال صفقت الباب وأجفته بمعنى أتممت إغلاقه أو تركت فيه فرجة (رجلته) اشمأز الذين لم يسمعوا بهذه الكلمات، على إن البيان في حاجة إليها. إن الذوق يسقم ويصح. والأديب النابغة يستملي فطرته فيلائم الذوق العام أو يسيره حيث يشاء ولا يقف نفسه أسيرا تتصرف به الأذواق. إن أمر الألفاظ أجل وأخطر من أن يحكم فيه الذوق وحده. إن الحاجة خلاقة الألفاظ ومبقيتها، والحاجة لا تباليبالأذواق. فعلى كل أمة وكل جيل أن يأخذ من لغته الألفاظ التي يحتاج إليها ويخلق الألفاظ التي لا يجدها، غير مبال بالغرابة أو الثقل الذي يبدو أول الأمر، فان الاستعمال جدير باستئناس الكلمة الملاءمة بينها وبين أذواق الناس. وكم من كلمة أجنبية ثقيلة استعملها الناس فألفوها، ولميجادلوا فيها. فبعض كتابنا يقول البروباجندا والديموقراطية والأرستقراطية والميتافيزيقية على بعدها عن طبيعة لغتنا وأوزإنها، أنا أعرف أن القدماء من أدبائنا غلوا في الظرف وأخذوا على المتنبي وغيره كلمات سموها نابية أو حوشية. وقد تجلى هذا الظرف في كتاب المثل السائر وغيره ولكن هذه الرقةلا يقام لها وزن عند الحاجة الملحة. بعض ألفاظ اللغة محاكاة الأصوات، وبعضها فيما أظن، تخيل المعاني في الأصوات: حاكت اللغة صوت الريح والرعد والطير وأنواع الحيوان ونحوها ومثلت المعاني الأخرى في ألفاظ تلائمها، فليس لنا أن ننفر من الألفاظ الشديدة
ونتجنبها إن أردنا أن ندل على المعاني الشديدة. فالعقنقل والحقف والكثيب والجلمودوأشباهها ملائمة لمعانيها. ولا بد من استعمالها لندل على هذه المعاني. ولكن الذوق الحاضر يؤثر الألفاظ اللينة الحفيفة الجرس المألوفة، ويترك مثل هذه الألفاظ على شدة الحاجة إليها.
ينبغي أن تؤثر الألفاظ القوية الشديدة لمعانيها، والألفاظ الخفيفة لمعانيها، دون إنصات إلى حكم الأذواق. بل ينبغي أن يعمل الأديب لإحياء الألفاظ الطبيعية الشديدة كلما نزعت بالأمة رخاوة الحضارة إلى نسيإنها، وينبغي أن تعالج اللغات بالألفاظ القوية التي تبدو ثقيلة غير مألوفة، كما يعالج ترف الحضارة بضروب السياحات والرياضات الشاقة.

والاستعمال جدير بتذليل كل صعب، وأستأنس كل وحشي. يجب أن يحكم موضوع الكلام لا ذوق المترفين. فالشاعر في القاهرة أو باريس إذا وصف الجبال أو الحروب، وهي بعيدة من إلفه، ساغ له أن يأتي بالألفاظ التي تثير الروعة والهيبة. إن اللغات العامية في البلاد العربية نتيجة الأذواق المختلفة، ولغة الأدب الموحدة في هذه البلاد نتيجة مقاومة هذه الأذواق بالتعليم، ورفعها إلى مستوى أرفع وأقوم.

أضرب للأستاذ الفاضل قول مسلم بن الوليد في وصف الصحراء

ومجهل كاطراد السيف محتجز ... عن الإدلاء مسجور الصياخيد

تمشي الرياح به حسرى مولهة ... حيرى تلوذ بأكناف الجلاميد

ما رأيه في (مسجور الصياخيد) و (أكناف الجلاميد)؟ أهي ملائمة لذوق الجيل الحاضر؟ وهل يرى غيرها أجدر بمكانها في هذا الشعر؟ إنها لا ريب حسنة في موقعها، بالغة ما أريد بها من وصف الصحراء حين تشتعل فيها الهواجر. فإن كان علم الجيل الحاضر باللغة ينفر به عن أمثال هذه الكلمة فليس على الكاتب أن يتحرز عنها، ولكن على الناس أن يألفوها. ثم ماذا يرى الأستاذ في قول ابن هانئ الأندلسي:

فحياضهم من كل مهجة خالع ... وخيامهم من كل لبدة قسور

من كل أهرت كالح ذي لبدة ... أو كل أبيض واضح ذي مغفر

طردوا الأوابد في الفدافد طردهم ... للأعوجية في مجال العثير

ماذا يرى إن كان جهل جيلنا الحاضر باللغة ينفر بذوقه من قسور وأهرت والأوابد والفدافد والأعوجية. وهل ينبغي أن يهجر قول الشريف الرضي:

من القوم حلوا بالربى وأمدهم ... قديم المساعي والعلاء القدامس

تحلهم دار العدو شفارهم ... وترعيهم الأرض القنى المداعس

بها ليل أزوال، بكل قبيلة ... ملاذع من نيرانهم ومقابس

أو ينبغي أن يهجر ذوقالجيل الحاضر ان نفر من مثل هذا الشعر؟

أرى أن حاجة الكتاب إلى الإبانةوالإعراب والإبداعتسوغ لهم أن يتخيروا من اللغة ما يشاءون، ويطبعوا ذوقالأمة كما يبتغون، وأرى أن الذوق ربما يكون وليد الجهل وفساد الطبع، والاستكانة إلى كل هين يسير، والركون إلى كل سفساس مبتذل.

للذوق الحكم حين يتسع العلم باللغة والأدب، وتعرض ألفاظ عدة لمعنى واحد فيختار الذوق واحداً منها. وللاختيار أسباب كثيرة، فقد يختار (هبيخ وبعاق وكنهور) وقد يختار غيرها. وإنما الفظاظة والثقل أن يعمد الكاتب إلى كلمات غير مألوفة فيؤثرها على المألوف إغرابا وتعمقا وشذوذاً ومخالفة للذوق دون جدوى.

ثم يقول الأستاذ: (لذلك أصبحت في معاجم لغتنا ألفاظ كثيرة ليس لها قيمة الا إنها أثرية تحفظ فيها كما تحفظ التحف في دار الآثار) وأنا أقول بعد الذي قدمت: ما أشد حاجتنا إلى كثير من هذه الألفاظ المهجورة، فإنها مجدية على من يعرفها ويستعملها. وعسى أن تصير ملائمة لذوق الجيل الحاضر حين يعرفها فيقضي بها حاجته من الإبانة عما يريد.

ربما يقول الأستاذ بعد قراءة هذه الكلمة. إن الذوق في رأيي هو الذوق الذي تخلقه الحاجة والمعرفة والتمكن من اللغة والأدب، وبلوغ الغاية مما نريد لا الذوق الذي يكون على العلات في كل حين. فان يكن هذا الذي أراده أستاذنا فقد شرحته وبينته وبررت بوعدي حين لقيته فقلت: (سأنقد مقالك أو أشرحه) وأما الأستاذ الثاني وهو أجدر بالمجادلة فموعدنا بنقده (الرسالة الآتية)

روح الإسلام

للدكتور محمد عوض محمد

. . . . . منذ سنوات كنت اطلب العلم في جامعة لفربول.

وفي ذلك الزمن كنت قد عاهدت نفسي وعصبة من الرفقاء، منذ نزلنا بلاد الإنكليز على ألا نألوا جهدا في إفهام القوم أمر بلادنا، واطلاعهم على مالنا من تاريخ مجيد وثقافة جليلة. فكنا نرحب بكل من جاء يستطلع منا خبرا، أو يستفتينا في أمر يمت إلى الشرق بسبب.

وفي يوم من أيام الشتاء، بعد انصرافي من إحدى المحاضرات، ابتدرتني طالبة من الطالبات بالسؤال الآتي: هل تستطيع أن تخبرني في كلمة واحدة أو في كلمات قلائل

ما روح الإسلام؟ أدهشني السؤاللأول وهلة، ونظرت إلى السائلة نظرة الحائر المستفسر. فأدركت أن في السؤال شيئا من الغموض. فقالت: (اننا، مثلاً، نرى أن روح المسيحية يتمثل في لفظ واحد وهو الحب. فهذا هو لب لباب ديننا، والأساس الذي شيدت عليه صروح المسيحية كلها. فما من عقيدة ولا شعائر ولا تعاليم إلا والحب محورها الذي تدور حوله. ولا تكترث لما قد تراه مخالفا لذلك فما هو من المسيحية في شيء.) فقلت: (إنك إذن تريدين مني كلمة واحدة أو كلمات قلائل، تكون من الإسلام بمثابة كلمة الحب من المسيحية؟.) فقالت: (أجل فقد يكون روح الإسلام مثلا العدل أو القوة. .)

فأطرقت قليلا، وأنا أمعن في التفكير، لعلي أهتدي إلى جواب ترضاه وأرضاه. وخطر لي أن أشرح لها أن للإسلام أركانا خمسة. لكني ذكرت إن في المسيحية أيضا صلاة وصياما. وخشيت أن تقول لي إن هذا من الدين بمثابة الجسم وإنها تبحث عن الروح.

قلت لها في صراحة: (إنني ما خطر لي يوما أن أبحث عن كلمة واحدة تؤدي كل ذلك المعنى الجليل الخطير. وأنتم معشر الإنكليز قوم تحبون تبسيط كل مسألة. . ومع هذا أمهليني أتدبر الأمر، أو أسأل أهل الذكر. فلا خير في جواب عاجل لا ينطوي على الصواب.)

في مساء ذلك اليوم جلست في حجرتي مطرقا، مسندا رأسي على يدي، محدقا في مصطلى تشتعل فيه النار. كأنما كنت ألتمس الإلهام من لهيبها المندلع وقبسها المضطرم. وأطفأت المصابيح كي لا يلهيني عن التفكير ما بالحجرة من أثاث أو صور. . . . . .

لم أكن (علم الله) من الملمين بعلم الدين. وكنت أحس من نفسي عجزا وقصورا، عن معالجة تلك المسألة، ولكني رغم هذا رأيت أن أحاول معالجتها ما استطعت إلى ذلك سبيلا. . وجعلت أجهد فكري أيما إجهاد. وخيل لي أني أرى أمامي سبلا كثيرة فجعلت أسلك كلا منها، ولا أزال أتبعه إلى نهايته، ثم أعود فأسلك طريقا آخر فأجتازه إلى غايته. . . وكانت كل خطوة تدفعني إلى خطوة أخرى حتى أبلغ نهاية المرحلة.

وهكذا سلكت في تفكيري وبحثي طرقا شتى. وعجبت إذ ألفيتني أصل في كل مرة إلى غاية واحدة، ويسلمني البحث إلى شيء واحد. . فقد كان ينتهي بي التفكير دائما إلى التوحيد. . . . . .

لعل روح الإسلام إذن هو التوحيد. . وهل أراني بلغت الغاية حين رست بي سفينة الفكر على ذلك الساحل الأمين؟ أليس التوحيد أن يقصد الناس بجسدهم وبروحهم وجه الإله، ولا ينصرفوا عنه إلى سواه؟ وألا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله؟. . وأن نرتفع بأنفسنا عن عبادة المال والتكالب على جمعه. . وعبادة الشهوات التي تسترقنا وتذلنا. . أليس التوحيد إذن هو الذي يعلو بأنفسنا عن كل دنيء مهين، ويرقى بنا إلى سماء كلها طهر وصفاء؟

فيم التردد إذن؟ إن روح الإسلام هو التوحيد.

جالت بنفسي هذه الخواطر، وجعلت أرددها في صدري مرارا فلا تزداد إلا ثباتا ورسوخا. وخيل إلي إني اهتديت إلى إجابة صريحة (لا لبس فيها ولا إبهام) على السؤال الذي سألته صباح ذلك اليوم.

وكنت أخشى ألا ألتقي بصاحبة السؤال إلا بعد أيام، فأردت أن أرسل إليها الجواب في طي كتاب فتناولت قلما وورقا، وأوقدت المصابيح، وجعلت أسطر ما جال بخاطري في شيء من الإسهاب والتفصيل، كي لا يبقى في صدر القارئة ذرة من الشك في صحة ما استقر عليه رأيي.

وأعدت تلاوة الكتاب مرارا، واطمأننت إلى إنه يؤدي كل ما جال بنفسي أحسن الأداء. وكنت بهذا فرحا طروبا. ثم طويت الكتاب، ونهضت لأحمله إلى دار البريد.

في تلك الساعة كان المطر ينهمر مدرارا. فجلست إلى جانب النافذةانتظر عله يكف أو يسكن قليلا. . وجعلتانظر إلى خارج الدار. أتأمل الغيث إذ يتساقط على أحجار الشارع الملساء، والضباب الخفيف وقد انتشر في سائر الأرجاء. والمصابيح وهي تبدو ضئيلة فاترةخلال الضباب والغيث. وكأنها أشباح اليقين وسط دياجير الشك.

لم يطل تأملي لذلك المنظر حتى عاد بي الخاطر إلى موضوع الكتاب الذي بيدي. .

وانتقل بي التفكير من الإسلام إلى البلاد التي تدين بالإسلام. وجعلت أنظر بعين الوهم إلى تلك الأفكار، التي يفصل بيني وبينهاآلاف الأميال. وأخذت ترتسم أمامي صورتها شيئا فشيئا. .

ليت شعري ماذا في بلاد الإسلام من روح الإسلام؟ وماذا في بلاد التوحيد من التوحيد؟ غشيني شيء من الذهول. ورسم الوهم أمامعيني صورة مروعة مفظعة هائلة، لتلك الأقطار القاصية. .

رأيت البلاد. قد حلق فوقها عقاب البغي، باسطا عليها جناحيه، ومنشبا فيها أظفاره، وقد خضعت لسلطانه الرقاب، وعنت لخشيته الوجوه! وهلعت الأفئدة. وذلت الأعناق، ورغمت الأنوف! وانطلقت الأفواه تسبح بحمده، وتمجده، وهو لا يزداد إلا بغياً وعتواً، والأعناق لا تزداد إلا خشوعا وذلا.

وتبدلت الرؤيا بعد ذلك. . فأبصرت هيكلا عظيم البناء، لا يبلغ الطرف مداه. ورأيت الناس منطلقين إلى أبوابه الكبيرة، ليقيموا الشعائر. . زمر تسعى إثر زمر. . جموع تتجاذب وتتدافع، ويموج بعضها في بعض. . ولا تكاد الأبواب تحتويهم على سعتها. . . . . .

ثم انكشف الغطاء وأبصرت ما بداخل الهيكل. . فإذا أوثان هائلة، قد نصبت في أرجاء الهيكل. ومن دون كل صنم مذبح عظيم تقدم إليه القرابين، ويحرق عنده البخور. والناس من حولها بين قائم وقاعد وركع وساجد. .

نظرت ذات اليمين فإذا صنم جبار أصفر اللون، براق لامع، ما شككت في إنه (مامون) إله النضار. إن لم تنم عنه صورته فقد نم عنه رواده وقصاده. جنود مجندة وكتائب محتشدة. قد أقبلت على عبادته بأيد ممدودة، ووجوه تفيض شرهاً وجشعا.

وقد حمل كل عابد قربانه: هذا يقرب الشرف، وذاك يذبح الدين، والآخر يقدم الوفاء والميثاق، وذلك يقرب وطنه الذي نماه وغذاه، وصاحبه يقدم الأهل الذين أنجبوه. . . . . .

وها هنا شخص يحرق ضميره ومبدأه بخورا.،. وهناك آخر يضحي بما لديه من عفاف وكبرياء. . . . . .

وكأن ليس في العالم شيء أعز وأكبر من أن يكون قربانا لذلك الصنم الهائل الدميم. الذي كان يقبل القربان حيناً، ويزور عن عباده أحيانا. فلا يزيدهم نفوره وازوراره إلا تهالكا عليه، وغلواً في عبادته، وإكثاراً من الضحايا والقرابين. . . ثم نظرت إلى أطراف الهيكل، فأبصرت جموعاً أخرى عاكفة على أوثان أخر: ها هنا إله الشهوات وقد احتشدت عبيده من حوله. وهنالك وثن المناصب والجاه والناس من حوله ركع سجود. . . وفي هذه الناحية وتلك شكول وضروب من أصنام يكاد يخطئها العد، ويعجز عنها الوصف.

وألفيت نفسي بعد قليل أتنفس الصعداء، وقد إنجابت عن عيني تلك الرؤيا، ولم يبق أمام ناظري سوى الغيث المنهمر، والضباب المنتشر، وضوء المصابيح الضئيلة. ولبثت برهة واجماً ساكنا: وقد امتلأت نفسي خزنا وغما. . . . . .

ثم نهضت ببطء شديد، وأغلقت النافذة وأسدلت الستر. وعدت إلى مجلسي بجانب الموقد. . . . . .

وأمسكت بيد مرتجفة ذلك الكتاب الذي تعبت في تسطيره وتحبيره. . . . . .

وبيد مرتجفة ألقيت به في النار. . . وجعلت أحدق فيه إذ يحور لهيبا ودخانا. . .

وأحسست بقطرات تنحدر على خدي. . فتناولت منديلي ومسحتها. . . . . ولعلها من قطرات ذلك الغيث أصابت وجهي وأنا جالس لدى النافذة!

ألفيت الفتاة بعد أيام فأعادت السؤال فقلت لها إن كان روح النصرانية الحب، فأن روح الإسلام التوحيد.

الشعر والحياة الحديثة

لشاعر الهند رابندرانات تاغور

يعيش العالم الآن في عصر ثورة. فاعتقاده القديم وميله حتى نفوره في تغير وتبدل. ولم يشهد التاريخ تطوراً أصابه من التقلبات السريعة المفاجئة ما أصاب هذا التطور البادي في عقلية الجماعة والفرد. فالأخلاق تختلف، والآراء تتغاير، والاعتقادات تتباين. والجيل الجديد قد دفعته الرغبة الملحة إلى تجربة كل شيء في الحياة حتى نسي فن

الحياة، فلا يملك الوقت للتفكير والتأمل، ولا يجد الفراغ للسرور الهادئ الذي يمتع به نفسه، ولا فرصة للقراءة يغذي بها روحه، وشدة الزمان وعنف الجهاد لا يسمحان لامرئ أن يفاكه شيئا لا رادة فيه ولا ثمرة، لذلك كان فن الشعرأبعد ما يكون عن الازدهار والانتشار. فالشعراء قليلون. وروائع الشعر نادرة، لأن طبيعة العصر تقتضي ذلك.

أنا لا أزعم إني أفهم ميول العصر، ولكني أسجل ما عليه الشعر العصري من حاضر سيئ وحال أليمة. ليكن السبب في ذلك متصلا بأي صورة من الصور بالحرب وأثرها في نفوس الشعوب التي صليت بنارها (وذلك ما لا أجرؤ على تأييده) فإن الأمر الواقع أن ازدهار الشعر في هذه الساعة من أصعب الأمور.

ومما لاشك فيه أن الناس لا يجدون لثقافة الشعر فراغا تركه السينما الناطق وموسيقى الجاز وذلك الحرص على أن يزدردوا في أربع وعشرين ساعة مقدارا من التجارب والاختراعات والاحساسات كان يغذي آباءنا الأولين شهوراً عدة.

على أن هذا الحال من الظواهر الطارئة التي لا تلبث أن تزول، فأن في الإنسان جزءاً جوهريا يقتضي الشعر ويتطلبه. أما وقت زوالها فذلك ما أجهله، ولكنه على أي حال لا يكون اليوم، لأن الناس أصبحوا غير أهل لتقدير العمل الفني، وإذا استطاع المسافر في قطار سريع أن يحسن التقدير لمنظر من المناظر، استطاع الرجل الذي يحيا هذه الحياة المحمومة أن يزن الحكم على قصيدة من القصائد. أن للحياة نسقا موزونا إذا أعجلته في حركته عرض الوجود كله للخطر. وقد نسى رجال اليوم ذلك فأصبحوا يركمون الإحساس فوق الإحساس دون استمتاع ولا تذوق، كالأكول الشره يبتلع اللقمة دون استمراء ولا مضغ ففاتهم بذلك خير ما في الحياة! تلك هي الحال الغالبة على كل شيء.

ويريبني الشك في أن مثل هذه الحال توفى بالإنسانية إلى السعادة حتى ولو حققت لها النجاح المادي، لأن هذا النجاح لا يعدو أن يصبح كل إنسان قادرا على اكتساب ثروة تضمن له ترف العيش، وتنوع له صور الحياة، ولكن الواقع أن عبادة السرعة التي احتلت المشاعر وغلبت على الأذهان تستفرغ جهد المرء في تبريزه على جاره وأخذه المهلة على منافسه، والسرعة وإن بلغت بالناس بعض النجاح لا تستطيع على ما أظن أن تجدي عليهم جمال الحياة ورخاء الصدر. فالجيل الناشئ قد جنى معرفة واسعة بالأشياء وخبرة عظيمة بالأمور، ولكنه على وشك أن يفقد حساسيته، ويوشك هذا الميل إلى الإفراط أن يطغي على العالم بأسره، لأن انتقال الأفكار من قطر إلى قطر لم يكن في زمن من الأزمان أسرع منه الآن، وقد راعني سريان هذا الداء إلى شرق الهند بسرعة غريبة. فمنذ قليل كان في البنغال جمهور عظيم قد سلم شعوره من شر الأخلاق، فكان عباد الجمال من شعراء الشباب موضع إجلالهم وتقديرهم، ودواوين شعرهم مصدرا لغبطتهم وسرورهم، ولكن الهنود اليوم قد أخذوا بأسباب الحياة الحديثة وهي كما قلت شر عل الشعر وحائل دون ازدهاره.

يزعم فريق من الناس أن تأخر الشعر نتيجة لتقدم العلوم في الثلاثين أو أربعين سنة الأخيرة وزعمهم هذا باطل، فإن نفاق العلم لا يستلزم حتماً كساد الشعر.

وإنما الخطر الحقيقي الوحيد هو أن الناس في هذه الرجات الاجتماعية الحديثة يصبحون عاجزين عن ترجمة الخواطر بالشعر، قاصرين عن إدراك الجمال في القصيد، وذلك لا ريب عرض من أعراض الهرم. ومثل هذا العرض لا يظهر في الشعوب الشابة لأن حاسة الشعر خصيصة من خصائص الشباب. على أن هذه الحاسة يفقدها المرء بسهولة إذا لم يساعدها بالثقافة والمران، ومتى فقدها فقد معها نضرة العيش وجمال الحياة.

فلسفة التاريخ

مقدمة

الفلسفة هي محاولة إيجاد قانون واحد شامل ينتظم الكون بأسره وتخضع له جميع الحوادث. فالعلوم تبحث عن الجزيئات والفيلسوف يستخرج من جزيئات العلم كليات الفلسفة.

وقد حاول الكثيرون أن يبحثوا في التاريخ من ناحيته الفلسفية وكدوا أذهانهم في البحث عن سبب واحد يعللون به جميع حوادث التاريخ وتطوراته من يوم ولد إلى يوم

يموت فوصلوا إلى نتائج مختلفة وأسباب متشعبة.

التفسير الاقتصادي للتاريخ

كان من بين النظريات التي اهتدى إليها البحث نظرية (التفسير الاقتصادي للتاريخ) ومن أكبر دعاتها الفيلسوف الاشتراكي كارل ماركس. وخلاصة هذه النظرية أن العوامل المادية كانت دائما الدافع الأول والمباشر لكل حوادث التاريخ فالإنسان الأول لم يلجأ إلى تكوينالجماعات إلا ليسهل على نفسه سبل العيش، والجماعات لم تنقسم إلى دول وشعوب إلا لاختلاف مصالحها الاقتصادية ونشوء الدول وتطورها وسقوطها يرجع إلى أسباب اقتصادية بحتة والحروب والغزوات والهجرات لم تقم إلا على أسباب مادية خالصة.

ولأصحاب هذه النظرية شواهد تاريخية كثيرة تسند رأيهم وتعزز قولهم فالانقلاب الصناعي الذي حدث في أوروبا في القرن الثامن عشر كان له أكبر الأثر في تطور الشعور الديني عند مختلف الطبقات، وقد انتهى بضعف النزعة الدينية وتقوية شوكة الإلحاد. والحرب الأوربية الكبرى عام 1914 أقرب مثال لتأثير التطور الاقتصادي في تيار السياسة ومجراها. خرج الرجال إلى ميادين القتال فبرز النساء إلى ميادين العمل يملأن المصانع بأيديهن العاملة ويقمن بالحركة التجارية على أكمل وجه وقد قل بذلك اعتماد المرأة على الرجل، وتغير موقفها الاقتصادي نحوه فطالبت بحق التصويت. وسرعان ما احتلت مقعداً بين النواب بل وارتقت إلى كرسي الوزارة. وقد كان لهذا الانقلاب الذي طرأ على مركز المرأة الاجتماعي أثر كبير في تغيير القوانين والآداب والفنون وجميع المرافق الأخرى التي قد تبدو عديمة الاتصال بالحالة الاقتصادية. وهكذا تم تحرير المرأة عندما قل اعتمادها

الاقتصادي على الرجل ولم تكن لتحصل على هذه الحرية بتأثير كتابات أفلاطون وجون ستيوارت مل وغيرهما ممن ذاد عن حرية المرأة ودافع عن كرامتها. وكانت الطهارة والعفاف من فضائل المرأة الكبرى التي فرضها عليها الرجل حينما كانت تعتمد عليه، وكان تفريطها في عرضها جريمة كبرى في نظر الرجل لا تقاس بها جرائمه التي يرتكبها في هذا الاتجاه مهما كانت جليلة خطيرة، فلما تحررت المرأة قلت مسئوليتها عن عفافها وكادت تساوي مسئولية الرجل.

والواقع أن كثيرا من آدابنا العامة وفلسفتنا الخاصة يخضع لتأثير العوامل الاقتصادية كل الخضوع فالقناعة والرضا بالأمر الواقع والتواضع والخنوع فضائل إرتآها الأغنياء للفقراء وفرضوها عليهم فرضا فاتخذوها هؤلاء على مر الزمن مبادئ ثابتة لهم تحت تأثير سلطة الأغنياء وبدافع ما يسميه ماكدوجل (الشعور بالذات السلبي) - وهو شعور عكسي يدفع المرء لا إلى التغلب على غيره بل إلى الاستكانة والخضوع.

التفسير المادي للتاريخ

ومن الباحثين من كان تحت تأثير الفلسفة المادية فأرجع التاريخ إلى أسباب مادية، وإن تكن غير اقتصادية (والمادية في الفلسفة معناها أن جميع ظواهر العقل والفكر إما طبيعية أو ترجع إلى أسباب طبيعية) ومن هؤلاء بكل الذي يقرر أن المناخ هو العامل الأكبر في تقلبات الحوادث فالحضارات القديمة إنما نشأت في الجهات الحارة مثل مصر والهند وآشور وغيرها لسرعة نمو النباتات في تلك البلاد وسهولة العيش تبعا لذلك وكلما ارتقى الإنسان في سلم التطور انتقلت مراكز حضارته إلى البلاد الباردة. ويعزز لك سير المدينة شمالا من مصر إلى بلاد اليونان والرومان إلى أواسط أوربا وإنجلترا والسويد والنرويج حيث هي اليوم. ومن هؤلاء أيضا فرويد الذي يرى إن العلاقات الجنسية هي أساس كل ما يصدر عن الإنسان من حركات وأعمال. فنحن إذن نستطيع أن ننظر إلى التاريخ من عدة نواح مادية (أي طبيعية) ولكنها ليست اقتصادية ولا تتفق مع تفسير ماركس للتاريخ. ونظرية التفسير المادي للتاريخ تختلف إذن كل الاختلاف عن المادية في الفلسفة ولابد من فصل الواحدة عن الأخرى.

العواطف وأثرها في التاريخ

رغما عما للعوامل الاقتصادية والأسباب المادية التي ذكرناها من الأهمية العظمى في تكييف السياسة وتحديد معتقدات شعب من الشعوب فإننا لا يمكن أن نتجاهل بعض العوامل الأخرى التي كان لها أكبر الأثر في تاريخ الإنسان وحياته العامة.

وأشد هذه العوامل وضوحا وأكثرها إهمالا من جانب الاشتراكيين اتباع كارل (أ)

ماركس عامل القومية، فكثيرا ما تعارضت القومية مع المصلحة الاقتصادية وتغلبت عليها فتريستا مثلا كانت تعد نفسها قبل الحرب العظمى إيطالية مع أن مصلحتها الاقتصادية كميناء تتوقف على تبعيتها للنمسا، ولكن نظراً لأن أكثر سكانها من الإيطاليين فقد كانت تضحي بفائدتها المادية في سبيل إشباع شعورها القومي. كما أن انفصال دول البلقان عن بعضها أدى إلى ضعفها الاقتصادي ومع ذلك فقد تم الانفصال تحت تأثير عوامل عاطفية قومية بحتة.

وقد كان العمال أثناء الحرب العظمى يسيرون مندفعين وراء شعورهم القومي متناسين رأيهم الاشتراكي الذي كانوا ينادون به (يجب أن يتحد العمال في جميع أنحاء العالم) تجاهل العمال هذا المبدأ حيناً، ووقفوا في ميدان القتال وجها لوجه للمحافظة على حدود الوطن وتلبية لداعي القومية. وقد يعترض أصحاب فكرة التفسير الاقتصادي على ذلك فيقولون، إن العمال كانوا يستمعون في هذا القتال لنداء أصحاب رؤوس الأموال الذين رأوا في الحرب فرصة للصيد في الماء العكر، وتكديس الأرباح والمكاسب ولكننا لا نقيم لهذا الاعتراض وزنا إذا عرفنا أن كثيراً من الرأسماليين هووا إلى الإفلاس أثناء الحرب.

ومن العواملذات الأثر البين في التاريخ المنافسة وحب السيطرة. فالمنافسة (ب) التجارية بين إنجلترا وألمانيا كانت سبباً هاماً في نشوب الحرب الكبرى، والمنافسة كما نعلم غريزة من غرائز الإنسان المتعددة تظهر بأشكال مختلفة وقد كان هذا الوجه الاقتصادي الذي ظهرت به قبيل الحرب أحد هذه الأشكال فلا يمكننا إذن أن نعد هذا السبب من أسباب الحرب من بين العوامل الاقتصادية فقد كان بوسع أصحاب الأموال من إنجليز وألمان أن يتحدوا ويتعاونوا فيجنوا من وراء ذلك الأرباح الطائلة، ولكن غريزة المنافسة غلبت عليهم فتجاهلوا مصلحتهم الاقتصادية واندفعوا وراء غرائزهم الوحشية.

هذا وقد دفعت غريزة السيطرة وحب القوة الإسكندر وقيصر ونابليون وغيرهم إلى تملك

ناصية العالم، ولم يكن هؤلاء الرجال يرمون إلى زيادة ثروتهم وممتلكاتهم، وإنما كانوا يشبعون غرائزهم ويبذلون أرواحهم في سبيل منافسة خصومهم والتغلب عليهم، أن الدنيا لو خلت من خصم لهم لتلمسوا المعاذير وخلقوا أسباب الخصومة خلقاً، جريا وراء النصر وحب التغلب!

وكيف يمكننا أن نتجاهل العاطفة الدينية وما كان لها من أثر في حروب دموية طويلة عند ظهور الإسلام وبين المسلمين والصليبيين. وكثيراً ما اتحدت الجماعات المختلفة بتأثير العامل الديني رغم ما كان بينها من فوارق اقتصادية وإنا لنجد العامل الكاثوليكي في أوربا يصوت لرأسمالي كاثوليكي ولا يصوت لاشتراكي ملحد رغم اتفاقه وإياه في آرائه الاقتصادية فطبقة العمال تنظر إلى رفع عماد الدين قبل أن تنظر إلى تحسين حالتها المعيشية.

الفلسفة وأثارها في التاريخ

وكثيراً ما كانت لآراء الفلاسفة نتائج عملية في توجيه السياسة. وليس أدل على ذلك مما كان لتعاليم روسو من أثر قوي في مجرى السياسة العالمية، مما أدى إلى قيام الثورة الفرنسية وما استتبعها من تطورات كما أدى إلى مناداة الولايات المتحدة بحريتها ومطالبتها باستقلالها.

علم النفس وضرورته لتفسير التاريخ

وأخيراً فأن التاريخ يحتاج كما تحتاج جميع مظاهر الحياة إلى معونة علم النفس لتفسيره وتحليل أسبابه وقد أظهرت المباحث الحديثة في هذا العلم أن الأعمال التي ترتكز على أساس من العقل والفكر ليست إلا قطرة حقيرة في خضم الأعمال التي تنبعث عن الشعور متأثرة بأسباب غير معقولة وكثيراً ما تغير وجه التاريخ لأسباب مجهولة نبعت عن دوافع لا شعورية عند بعض الزعماء وعظام الرجال، ولكن ماركس كان متأثراً بآراء علماء النفس في القرن الثامن عشر حينما كان يبحث عن أسباب معقولة يفسر بها حوادث التاريخ فهداه البحث إلى العامل الاقتصادي وعليه بنى نظريته في الاشتراكية زعماً منه أن المساواة الاقتصادية تدعو إلى إيقاف التطاحن والحرب بين البشر.

محمود محمود محمد- ليسانسيه في التربية والتاريخ
نشأة المدنية
الأستاذ زكي نجيب محمود

كان راسخا في الأذهان إلى عهد قريب أن دراسة التاريخ بعيدة كل البعد عن دقة العلوم الطبيعية، ذات القوانين الثابتة المطردة، من حيث طريقة البحث، وانتزاع الأحكام الكلية من الأمثلة الجزئية، لأنه رواية لأعمال الإنسان وسلوكه فرداً ومجتمعاً، وعلى ذلك فهو لا يخضع لقانون دقيق، كما تخضع العلوم الرياضية مثلا، ما دامت أعمال الإنسان نفسها لا تطرد ولا تستقيم مع قانون خاص، وبناء على تلك العقيدة الراسخة، لم يحاول مؤرخ في العصور الماضية (فيما نعلم) أن يستنبط من شتيت الأخبار التي يرويها التاريخ قانونا عاما ينتظم الجماعة الإنسانية، كما أستنبط الرياضيون من مختلف المظاهر الكونية مجموعة القوانين اليقينية التي لا يجد الشك إليها سبيلا.

ولكن دراسة التاريخ أخذت تخطو في العصر الحديث خطوات نحو الدقة العلمية واستخلاص القوانين العامة من الجزئيات التي تزخر بها بطون المجلدات- ومن أدق ما قرأنا في هذا الموضوع، ما كتبه توماس بكل، المؤرخ المعروف، الذي حاول في كتابه (تاريخالمدنية في إنكلترا) أن يخضع النشاط الانساني، الذي يبدو في أحداث التاريخ المختلفة، إلى نواميس ثابتة دقيقة، كالعلوم الطبيعية سواء بسواء، وكأني به قد وضع المجموعة البشرية في مخبار وأخذ يضيف إليها من المواد ألواناً مختلفة، حتى انتهى به البحث إلى تلك النتائج القيمة التي دونها في كتابه المذكور،

وسنحاول في هذا البحث أن نحلل العوامل الأساسية، والقوانين العامة، التي أنتجت المدنية الإنسانية من أحضان الهمجية الاولى، لإنها لم تنشأ حيث نشأت اعتباطا وعن طريق الصدفة العمياء، ولكنها نتائج محتومة لمقدمات طبيعية.

ولكن ما هي هذه المدنية التي نحاول أن نتتبعأسباب نشأتها؟ أليس جديراً بنا أن نلم إلمامة سريعة بمعناها أولاً، حتى يقوم البحثعلى دعامة قوية وأساس متين؟ نعم، ولكن دون ذلك البحوث المستفيضة وليس هذا المقال القصير مجالا لهذا البحث المتشعب الأطراف، والذيلا أحسب موضوعا بلغ فيه الخلاف بين الباحثين من الشدة والاتساع ما بلغه في هذا الموضوع، وأذكر أني قرأت ملاحظة طريفة أوردها الكاتب (الإنكليزي هافلوك اليس) في
مقال كتبه عن المدنية، حيث يقول عن هذه الكلمة إنها لم ترد في دائرة المعارف التي وضعها جماعة الانسيكلوبيديين لكثرة ما يقوم حول تعريفها من خلاف.

ولكنمهما يكن من أمر ذلك الخلاف في مدلول المدنية، الذي منشؤه تباين وجهات النظرللحياة، فأن أحداً لا ينكر إنها تعتمد في تقدمها بوجه عام على تقدم العلوم والمعارف أكثر من أي شيء آخر، وأكاد أقول في شيء من اليقين إنها عبارة عن كمية المعارف التيوصل إليها الانسان، لا أكثر ولا أقل، على الرغم من تلكالدعوى التي لا يؤيدها منطق ولا تاريخ والتي يأخذ بها بعض المفكرين في كثير من النعرة الواهية، وهي أن المدنية رهينة بتقدم الأخلاق وحدها، ويكفي أن تلقي نظرة عجلى إلى تاريخ الإنسانية منذ فجرها حتى الآن، لتعلم أن الأخلاق في العصور الأولى هي هي الأخلاق في العصر الحاضر، لم تتقدم إلا بمقدار ضئيل جداً لا يكاد يذكر، فلا يزال الصدق محموداً والكذب مرذولاً، ولا تزال الأمانة خيراً والخيانة شراً. . . أما العلوم فهي تسير كل يوم، إن لم يكن كل ساعة سيراً حثيثاً إلى الأمام.

يتضح من هذا أن المدنية في جوهرها عبارة عن المعارف الإنسانية، فإذا ما أردنا أننبحث عن الأسباب التي أدت إلى نشأة المدنية، فلنبحث عن نشأة العلوم، ماداما صنوين متلازمين، أو بعبارة أدق لأنهما شيء واحد.

حاول أن تصور لنفسك الجماعة الإنسانية في فجر التاريخ، فترى إنسانا لا يملك من الأدوات التي يستعين بها في عمله الشاق شيئا، ترى إنسانا يعمل بيده كل شيء، لا يكاد يستيقظمن نومه حتى يمشي في مناكب الأرض سعياً وراء قوته من نبات وحيوان، ويظل هذا السعي حتى يغشاه الليل بظلمته، فيركن إلى كهف يأوي إليه مهدود الجسد، فيستغرق في النعاس حتى تشرق عليه الشمس كرة أخرى، فينهض من مخدعه ليعيد في يومه سعي أمسه.

فهذا الذي يستنفد نهاره في الحصول على قوته وسائر ما تقتضيه الحياة من شئون،

ويقضي ليله في جوف الكهف نائما، لا يكون لديه من الفراغما يمكنه من التفكير في خلقالسماوات والأرض، والتفكير أولى مراحل العلم، وإذن فالعلوم كامنة في ثنايا العدم، ولا يكتب لها الظهور إلى ضوء الوجود إلا إذا تبدلت الحياة غير الحياة والإنسان، فتتوفر لجماعة إنسانية

بيئة تساعدها على إنتاجمحصول يزيد على طعام يومها، حتى يتكون فيض إنتاجي لا يلبث أن يتجمع عند أفراد قليلين، هم الأقوياءعادة، وبذلك يستطيع ذلك النفر القوي أن يتخلص من المجهود الذي كان يبذله لتحصيل ضرورات الحياة، وإذن فقد تمتع بالفراغ الذي لابد أن يستتبع التفكير في مظاهر الكون، وهذا التفكير هو النواة الأولى للعلوم والمعارف المختلفة.

يتضح مما سبق أن الشرط الأول لنشأة العلوم - وبالتالي المدنية - هو خصوبة التربة الذي يؤدي إلى وفرة الإنتاج بما يزيد على حاجة الاستهلاك، وأمثلة ذلك كثيرة في التاريخ، فالمدنية المصرية القديمة لم تنبت في وادي النيل إلا لخصوبة تربته، كذلك الأمة العربية كانت قبل إسلامها أقرب إلى الهمجية منها إلا أي شيء آخر، فلما جاء الإسلام، ثم تبعه انتقال الأعراب إلى الوديان الخصبة كوادي النيل ووادي دجلة والفرات، حيث الخصب والنماء والثروة أنقلب هؤلاء الأجلاف شعباً متحضراً بلغت مدنيته حداً قل أن شهد مثله التاريخ.

ويجدر بنا أن نشير هنا إلى أن المدنية الأوربية تختلف في أسباب نشأتها عن المدنيات القديمة، فبينا هذه تنشأ من خصوبة التربة، نرى الأولى نتيجة لاعتدال المناخ. ولم كانت المدنيات القديمة قد تأثرت بالعوامل الطبيعية وحدها، أعني إنها نتيجة لتفاعل المناخ والتربة من غير أن يتدخل الإنسان تقريبا، وخصب التربة محدود الغلة مهما أجيد استغلاله في حين أن الحضارة الأوربية لا يقف في سبيلها شيء لأنها أثر لتفاعل المناخ وذكاء الإنسان الذي لا يمكن أن نتصور له حدوداً يقف عندها، لهذا فالمدنية الأوربية أقوى أساساً وأعمق جذوراً وأبعد مدى من المدنيات القديمة جميعاً.

ولكن إذا كانت المدنية في أول أمرها (كما بينا) تابعة لخصب التربة، حتى يتوفر من المحصول الزائد ما يتجمع فيكفي فئة من الناس مؤونة العمل، وبذلك تبدأ الطبقة العلمية في الظهور، فلماذا اقتصرت المدنيات على المنطقة المدارية، حيث ظهرت في مصر والشرق الأدنى والهند وبيرو ومكسيكو، وكل هذه تكاد تكون على خط عرض واحد، نقول لماذا لم تنشأ المدنية في المنطقة الاستوائية، مع إنها وفيرة الإنتاج النباتي الذي يحقق شرط الفراغ الضروري للتفكير، فالعلم، فالمدنية؟ الجواب على ذلك سهل ميسور، وهو أن الجهات

الحارة لا تساعد الإنسان على التفكير والنشاط، بل من شأنها أن تقعده وتعجزه عن ضروب النشاط جميعاً، ومن جهة أخرى، فأن الوفرة النباتية الطبيعية، التي ليست ثمرة العمل الإنساني، تؤدي إلى التواكل وتعمل على خمود الذهن، لأن الحاجة أم الاختراع. وليس هناك حاجة تشحذ القوى العقلية لاكتشاف أي اختراع. إذن فأنسب مكان تظهر فيه المدنية أول عهدها، هو ذلك الذي يضطر الإنسان إلى العمل لتحصيل القوت، والذي يكون من خصبه ما يستطيع به أن يمد الإنسان بغلة تربى على حاجة الاستهلاك. ولكن قد يعود القارئ فيعترض بقوله إن هذا المناخ المعتدل الذي يبعث الإنسان على النشاط الذهني، وتلك الخصوبة التي توفر للإنسان محصولا زائداً، قد يتوفران في كثير من بقاع أوروبا مثلا، فلماذا لم تظهر المدنية في تلك الربوع في بادئ أمرها؟ هنا يتقدم (بكل) في كتابه الذي ذكرناه في أول هذا المقال، بتعليل دقيق يدعو إلى الإعجاب وإطالة النظر فهو يرى إنه لابد للمدنية في مهدها من كثرة عدد السكان بحيث يكون التفاوت عظيما بين الطبقات، حتى تستطيع الطبقة الحاكمة أن تتمتع بكامل السلطان المطلق على أفراد الشعب، فلا ينازعونها في الاستيلاء على ثمرة مجهود غيرها، وزيادة السكان بما فيها من تفاوت الطبقات، ميسورة في الجهات الدافئة دون الشمالية الباردة وإليك البيان:

لا ريب في أن الإنسان يدور مع الطعام وجوداً وعدماً فبينما تراه يتكاتف ويزدحم في البقاع الخصيبة، ترى الصحراوات خراباً لا يكاد يعمرها أحد، وهكذا يتوقف عدد السكان كثرة وقلة، على درجة خصوبة الأرض، ذلك لأنه كلما كثر الطعام كان الحصول عليه ميسوراً لكل إنسان، ومادامت غائلة الجوع مأمونة الجانب، فزيادة النسل تطرد إطراداً

لا يحول دونه شيء، والعكس صحيح. أي كلما قل الطعام وعز مناله على الفقراء، تناقص السكان حتى يتكافأ عددهم مع ما تنتجه الأرض من محصول.

ولسنا بحاجة إلى ذكر ضرورة الطعام للكائن الحي لأدائه وظيفتين هامتين لا مندوحة عنهما لحفظ الحياة: فهو الذي يحفظ حرارة الجسم كما أنه يعوض ما يفنى من الأنسجة أثر القيام بالعمل، ولكنا نريد أن نرتب على ذلك نتيجة لها خطرها في موضوع بحثنا، فمن الحقائق المعروفة أن حرارة الجسم تتولد من اتحاد أكسجين الهواء الذي نتنفسه مع كربون الطعام الذي نأكله، فيولد هذا الاتحاد الحرارة اللازمة لحفظ كيان الإنسان، فلكي يحتفظ الجسم بحرارته، يجب أن يناسب بين أكسجين الهواء وكربون الطعام، أي يجب أن يحصل من الطعام على مقدار يكون ما فيه من كربون متناسباً مع الأكسجين الذي يصل إليه عن طريق التنفس. ولما كان الإنسان في الجهات الباردة يتنفس أكسجيناً أكثر من زميله فيالجهات الدافئة: أولاً، لأن الهواء أكثف في الجهات الباردة فيكون مقدار الأكسجين في الشهقة الواحدة أكبر مما لو كان الهواء مخلخلا خفيفاً. وثانياً، لأن الإنسان يتنفس في الجهات الباردة مرات أكثر عدداً في كل فترة زمانية. فهذا التنفس السريع من الهواء يضاعف كمية الأكسجين التي تصل إلى الجسم في الجهات الباردة. والنتيجة اللازمة لذلك أن الإنسان في هذه الجهات يجب أن يمد جسمه بمقدار من الكربون في طعامه أكبر جداً مما يتطلبه زميله ساكن الجهات الحارة. إذن فأهل الشمال بحاجة إلى لحوم الحيوانات المختلفة لما تحتوي عليه من الكربون الذي يتطلبونه في طعامهم، مع أن أهل الجنوب يكادون يقتصرون على النباتات وحدها. ومن الحقائق العجيبة التي تلفت النظر، أن كمية الحيوان أقل جداً من كمية النبات: ومعنى هذا أن أهل الشمال لا بد أن يبذلوا أضعاف المجهود الذي يبذله أهل الجهات الدافئة للحصول على طعامهم، ولا مندوحة إلى التعرض في سبيل ذلك إلى أشق الأخطار وأعنف الصعاب، حتى أن بعض الكتاب يعلل بذلك روح المخاطرة التي تميز الأخلاق الأوربية. وإذن فالنتيجة الطبيعية لقلة الطعام في الجهات الباردة دون الجهات الحارة، زيادة السكان في الثانية أعظم من الأولى. وزيادة السكان معناها كثرة الأيدي العاملة، وكلما كثرت هذه الأيدي قلت أجورها تبعا لقانون العرض والطلب. وقلة أجور الطبقة العاملة معناها أن تتجمع الثروة في أيد قليلة (هي الفئة القوية لأن توزيع الثروة توزيع للقوة) وهكذا تزداد هذه الطائفة ثراء على حساب أجور العمال. ثم يتسع هذا الفرق ويزيد حتى يتكون في الأمة طبقتان اجتماعيتان، بينهما فارق شاسع فسيح: طبقة الملوك والأشراف، والطبقة الفقيرة العاملة. وبديهي أن هذا الفرق الاجتماعي يكون في الجهات الدافئة أكثر منه في الجهات الباردة حيث السكان قليلون بسبب قلة الطعام، فتزداد أجورهم نوعاً، وبذلك تقل الثروة التي تتجمع في أيدي الفئة القوية، وتضيق مسافة الخلف بين الطبقتين، ولعل هذا هو السبب في تمكن النزعة الاستبدادية في بلاد الشرق، ونماء الديمقراطية في ربوع الغرب. ويظهر مما سبق أن العاملين اللذين أشترطهما (بكل) لقيام المدنية يتوفران في الجهات الدافئة قبل الباردة.

يحسن أن ألخص هذا التفصيل في سلسلة منطقية يسهل استيعابها حتى لا تتشعب أطراف الموضوع، فيفقد القارئ الرابطة التي تصل بعضها ببعض: زيادة السكان تتبع كثرة الطعام ولما كان الطعام الضروري للحياة أكثر في الجهات الحارة منه في الجهات الباردة فقد أزداد عدد السكان في الجهات الحارة بنسبة أكبر من الجهات الباردة ولكن ازدياد السكان يؤدي إلى قلة الأجور.

ثم يؤدي هذا بدوره إلى ازدياد الثروة عند الطبقة القوية. إذن فالطبقة غير المنتجة تظهر في الجهات الحارة قبل ظهورها في الجهات الباردة. ولما كانت نشأة العلوم (أي المدنية) رهينة بوجود هذه الطبقة غير المنتجة التي تستطيع أن تتفرغ للتفكيرفالنتيجة المنطقية لكل هذه المقدمات هي أن المدنية تشأ في الجهات الدافئة قبل نشأتها في الجهات الباردة، ولكنها إذا ما نشأت في هذه الجهات الأخيرة، كانت أقوى أساساً لما ذكرناه من إنها في تلك الجهات نتيجة لتأثير المناخ في الإنسان، في حين إنها في الجهات الدافئة نتيجة لتأثير المناخ في التربة، ولذلك نراها تسير نحو الجهات الباردة كلما ارتقت وازدادت قدمها رسوخاً، ولو أنا تصفحنا التاريخ على عجل للاحظنا لأول وهلة إنها نشأت في مصر (وهي منطقة دافئة) ثم أخذت تسير نحو الجهات الباردة

شيئاً فشيئاً، فقد انتقلت إلى الشرق الأدنى، ثم إلى اليونان، ثم إلى إيطاليا، ثم إلى أواسط أوروبا، وهي الآن رابضة في شمال غربي أوروبا، ويتنبأ بعض الكتاب بأنها ربما استقرت في اسكندناوه في مستقبل أيامها، وهناك من الدلائل ما يؤيد ذلك.

لقد شرحنا فيما سبق القواعد العامة التي تتحكم في قيام المدنيات، ورأينا إنها نتيجة منطقية لمقدمات طبيعية، وإنها لا تخبط خبط عشواء في سيرها. ويجمل بنا الآن أن نطبق تلك القواعد الشاملة على نشأة المدنية المصرية زيادة في الإيضاح. ذكرنا أن بواعث المدنية هي:

(1) اعتدال الحرارة لأن الحرارة الشديدة تشل قوة التفكير

(2) خصب التربة

وهذان الشرطان متوفران في وادي النيل، فهو في المنطقة المعتدلة الدافئة، وتربته غنية بما يحمله هذا النهر المقدس من طينة كأنها النضار.

ولكنا اشترطنا أن تجود الأرض بأكثر من حاجة الاستهلاك، وهذا متوفر في مصر. (3)

فقد كان البلح والذرة هما النبات الرئيسي الذي تجود به أرض مصر جود الكريم، وبذلك يصبح تحصيل القوت ميسورا، وإذن فزيادة السكان نتيجة محتومة، إلى آخر ما يتبع ذلك من نتائج. وبعبارة واضحة، لعلها لا تدهش القارئ بعد التحليل الذي بسطناه، إن نبات الذرة في مصر هو السبب الأساسي الذي دفع المدنية المصرية إلى الظهور.

ومما يؤيد هذه النتيجة أن المدنية المصرية نشأت أولاً في الوجه القبلي لأنه اصلح لإنبات الذرة، حتى يقال أن زراعته انتقلت منه إلى الوجه البحري في وقت متأخر، ولا يزال صعيد مصر يزخر بآثار تلك المدنية العظيمة التي تنهض دليلا على ذلك.

ومما يؤيد زيادة السكان، التي نتجت عن وفرة الطعام، ما ذكره هيرودت من أنه وجد في مصر عند زيارته لها عشرين ألف مدينة عامرة. وقد أدت زيادة السكان طبعاً إلى نقص الأجور وتفاوت الطبقات تفاوتا عظيماً، بلغ حد التأليه للملوك، ونزل بطبقة العمال إلى هاوية التسخير غير المأجور، كما يتضح من بناء الأهرام وما إليها.

ليست أحداث التاريخ فوضى لا ضابط لها كما يتبادر إلى الأذهان التي تقف عند النظر السطحي، ولكنها تبدو للذي يستبطن دخائلها، خاضعة لقانون محكم لا يشذ، ومنطق سليم لا عوج فيه ولا التواء.

زكي نجيب محمود

في الأدب العربي

القصة المصرية

للأستاذ جيب. أستاذ الأدب العربي في مدرسة اللغات الشرقية بلندن

ولقد كتب الدكتور زكي مبارك معارضة من هذا القبيل يوافق فيها على أن القصة لا يمكن أن تنشأ في مصر إلا إذا حصلت المرأة على مركز اجتماعي لائق، ويصف كتاب القصة في الأدب العربي بأنهم ينتمون إلى الطبقة الوضيعة من طبقات الأدباء، وينعى عليهم قلة خبرتهم بفنون الكتابة وعدم استقلالهم في الرأي وسطوهم على الآداب الأوروبية، وأدهى من ذلك أنهم يغرون الشباب باحتقار فنون الكتابة الأخرى، على حين إن الأدب الحقيقي الذي يتجلى فيه الصدق والدقة الفنية قد يوجد في ضروب أخرى من ضروب الكتابة كالرسالة والقصيدة. وليس من الجائز أن نحكم على الأدب العربي بما نشاهده في الأدب الفرنسي والإنجليزي، بل يجب أن نحكم عليه حسب ميول أبنائه، وحسب درجة نجاحه في التعبير عن أفكارهم وأخيلتهم وأغراضهم. ويشير الكاتب إلى أن آداب الصحافة في مصر توضح الآن كثيراً من المشاكل العلمية والروحية ومشاكل العاطفة التي تواجه المصريين، وإلى أن مراقبة الحكومة ووقوف الرجعيين بالمرصاد يحولان دون الإفاضة في توضيح تلك المشاكل. ويقول الكاتب أن هناك نقطة أخرى جديرة بالانتباه وهي أنه يجب علينا ونحن وارثو الماضي أن نستحضر ذلك الماضي ونحن نفكر في الحاضر، وأن ننظر بعين الاعتبار إلى الأساليب والطرق القديمة في الكتابة حينما نتجه نحو التجديد، فأن ذلك أجدى علينا من هذا البهرج الكاذب الذي يزيف به الأدب الحديث.

ولكن الأدب العصريفي مصر قد أثبت الآن حيويته وسار فعلا في طريق الاستقلال، وليس من الممكن أن يجدالقارئ المتوسط بغيته الآن في الأدب القديم، فإنك إذا

وجهت اهتمامه مثلا إلى العقد الفريد أو إلى غيره من آثار (العصر الذهبي) فكأنك بذلك تعطيه حجراً بدل الرغيف الذي يطلبه ويصر على الحصول عليه. وإذا وقف الكتاب دون إمداده بما يطلب فأنه يتجه إلى استيراده من الخارج مهماثبت له عدم ملائمة ذلك الذي يستورده لطبيعته وحالته الاجتماعية. وقل أن يجد القارئ في المقالة أو في الموضوع الذي يعرف بالرسالة في القصيدة العادية ما يغير خياله، إذ ينقصها عنصر الخيال واللذة الحية، اللهم إلا في
القصيدة الشعرية المتينة فقد يكون فيها ما يدخل في دائرة الميراث الخيالي للناس.
وهكذا نرى أن المسألة في جوهرها ليست مسألة تقليد ومحاكاة لأهل الغرب، فلقد أدى أتساع التعليم إلى اتجاه ميول القراء إلى نواح أخرى. ولما نشأت تلك الحالة في أوربا عمد الكتاب إلى القصة ليقابلوا بها ميول القراء، ونستطيع أن نقول إنه ما لم يتسن للكتاب المصريين إيجاد القصة فسيستمر اتجاه القراء في مصر إلى الأدب الأوربي، فإن المقالة أو الموضوع الأدبي أقل من أن يفي بالغرض الذي يسعى إليه القراء.
أما القول بأن إدخال فن من فنون الكتابة لم يكن موجوداً من قبل قد يكون فيه مساس بكرامة الشعب الأدبية فرأي مبني على التطرف والمبالغة، وهل أدى إدخال القصة في الأدب التركي أو الهندي إلى الحط من كرامتها؟ كلا. ومن أجل ذلك نرى القصة المصرية تنشب جذورها في تربة الأدب المصري في ثبات مهما صادفت من صعاب ونكران للجميل.
ولكن القصة لا تصل إلى تمام نموها، إلا إذا وافقت بيئة البلاد الاجتماعية، ومن هنا تنشأ المشكلة الرئيسية.
إذا وضعنا جانباً تلك العوامل الاجتماعية التي تكلمنا عنها فإن كتاب القصة في مصر قد وجهوا بمشكلة أخرى أشرنا إليها في مبدأ هذا البحث وهي خلق (فن اصطلاحي حديث) للقصة. ونستطيع أن نتبين في كتابات المنفلوطي وجورجي زيدان بعض المحاولات في هذا السبيل ولكن من حيث الأسلوب فقط، الأول بطريقته والثاني بسهولة عبارته، ولكن كلاهما لم يتعرض للنقطة الأساسية، وهي الوصول إلى تمثيل الحياة الاجتماعية الراهنة تمثيلا صحيحاً في الألفاظ وطريقة التعبير عما في النفس وعلى الأخص في الحوار.
على أن هذه المهمة قد وجدت من أشتغل بها من كتاب القصص القصيرة وأقدمهم في ذلك هو محمد تيمور (1829 - 1921) ويمنعنا ضيق المجال هنا من أن ندرس بالتفصيل آثار تلك الطائفة، ولذلك نكتفي بأن نشير نقطة من أهم النقط التي تعرضوا لها وهي الطريقة التي جروا عليها في أسلوب الحوار.
وهنا ينبغي أن نذكر أن مشكلة الأسلوب الواجب إتباعه في الحوار لم تكن مقصورة على الأدب العربي ولكنها ظهرت في كثير من آداب الممالك الأوربية وبخاصة في تلك الممالك
التي ذهبت فيها لغة التخاطب العادية تحت تأثير الكتابات الأدبية، وتنحصر تلك المشكلة في السؤال الآتي: هل نجعل اللغة الفصحى لغة الحوار وبذلك نجعله حواراً مصطنعاً غير طبيعي؟ أم نقتصر على اللغة الفصحى في القصص والوصف، ونستعمل العامية في الحوار، وبذلك نعرض القصة للتفكك والتنافر؟
وقد سار الكتاب في القصص التي ظهرت فيما قبل على الطريقة الأولى أعني استخدام اللغة الفصحى في الحوار لا في الترجمة فحسب (وهنا تكون المسألة طبيعية) ولكن فيما ألفه كتاب القصص من السوريين أيضاً، وذلك بذكر القارئ الأوربي ما كانت عليه القصص الأوربية أثناء نشأتها من تكلف وضعف. وتعتبر زينب في نظري أول قصة استعملت إليها اللغة العامية في الحوار، ولقد ترك ذلك أثراً في القصص القصيرة الأخرى، ونخص بالذكر منها مجموعة محمود تيمور المسماة (بالشيخ جمعة) ولقد قامت بجانب ذلك فكرة أخرى وهي أن يكون الحوار بحسب درجة تعلم المتكلم، وبذلك يراوح الكاتب أن يرواح بين اللغة الفصحى واللغة العامية هبوطاً أو صعوداً، وإذا استعمل الفصحى على لسان شخص متعلم الأدبية العالية ينبغي أن يتحاشى العبارات، لكي يتمشى ذلك مع السهولة المطلوبة والمعتادة في الحوار (ويلاحظ أن الحوار في الطبعة الثانية للشيخ جمعة قد عدل بما يتفق مع هذا المبدأ) وبهذه الطريقة يتسنى

للكتاب أن يحرصوا على المظهر الطبيعي للقصة مع تضحية قليلة في الصدق والإصابة بحيث لا يصعب على القارئ أثناء مطالعة القصة أن يحول في ذهنه عبارات الحوار المكتوبة إلى ما يعرفه من عبارات الحديث المألوفة. ونحن من جهتنا نتوقع أن نشاهد تحقيق هذه النظرية في القريب، وعلى الخصوص مع أتساع التعليم الابتدائي وبفضل مجهود الأدباء.

ويبقى علينا في هذا الصدد أن نتساءل إلى أي حد قد استطاع القصصيون الحديثون في مصر أن يعبروا عن مشاكل شعبهم وحاجته وأطماعه. يمكننا أن نستنتج من البحث المتقدم أن عدد القصص التي يظهر فيها ذلك قليل جداإذا اقتصرنا على الآثار التي لها قيمة أدبية حقيقية. '

يعتبر نقولا حداد، صاحب جريدة السيدات والرجال التي نشرت فيه معظم مباحثه، أوفر القصصيين العصريين إنتاجا وهو في نظر محمود تيمور أبعدهم شهرة أيضا. وعلى الرغم

من أن الرجل سوري الأصل فإن لبحثهوأسلوبه صبغة مصرية اكثر مما لسواه من الكتاب السوريين، ونستطيع أن نحكم من روايته التاريخية (فرعونة العرب) أن لديه مقدرة على اجتذاب القراء إليه بما يتخلل قصته من الحركة السريعة والمواقف الرائعة. على أن خطة القصة فيها شيء من التفكك، والأشخاص تعوزهم قوة التصوير، حتى أننا نشك فيما إذا كان المؤلف قد أضاف شيئاً إلى نمو القصة المصرية من حيث الشكل أو من حيث الموضوع. وهناك قصة تاريخية أخرى تحوي الكثير من اللذة الأدبية، وتعتبر أول عمل من نوعه في الأدب المصري، تلك هي قصة (ابنة المملوك) لمؤلفها الأستاذ محمد فريد أبو حديد، وهذه القصة لا تمت بأية صلة إلى ذلك النوع من القصص التاريخية التي أخرجها زيدان، وهي من جهة أخرى تفوقها من وجوه عدة. ففي قصة ابنة المملوك قد حلت الحقيقة محل الخيال الجامح الذي تمتاز به قصص زيدان، وفضلا عن ذلك فإن تلك القصة لم تستغرقها كثرة الحوادث التاريخية، وإنما وضعت بطريقة تاريخية واضحة، وكان العصر الذي اختير لها هو فترة النزاع بين محمد علي والمماليك سنة 1805 - 1808 ولقد أتستطاع المؤلف أن يعرض الحوادث التاريخية في ثنايا القصة بحيث لا يجتذب التفات القارئ إليها قسراً. وحتى أهم الحوادث التاريخية في تلك الفترة وهي الحملة الإنجليزية التي وجهت إلى الإسكندرية وهزيمتها في رشيد عام 1807، لم يشر إليها المؤلف إلا إشارة وجيزة في سطرين أو ثلاثة مع أن بطل القصة وهو فتى عربي فار من وجه الوهابيين قد صوره المؤلف على أنه قام بنصيب في تلك الحرب، ومع أن القصة لم تنجح تماماً في تجنب الجفاء الذي تمتاز به القصص التاريخية نجد على الرغم من ذلك حياة وحركة في تصوير الأشخاص. وهي فضلا عن ذلك تسترعي انتباه القارئ من فاتحتها حتى خاتمتها التي جاءت في شكل مأساة.

تأتي بعد ذلك تلك القصة التي نشرت حديثاً، وتعتبر من جميع الوجوه أهم قصة صدرت بعد زينب. وهي القصة التي طال انتظارنا إياها من المازني. وقد نشرت عام 1930 تحت عنوان إبراهيم الكاتب. ويقول المؤلف في مقدمة القصة إن جزءاً منها كتب في عام 1925 وإنها تمت في عام 1926 ثم تركت بعد ذلك جانباً، وإن جزءاً من نصفها الأخير قد كتب بسرعة أثناء الطبع نظراً لفقد بعض الأصول وقد يساعدنا ذلك على تفسير الاضطراب

الذي سنشير إليه أثناء الكلام عنها. وقد جاء في المقدمة أيضاً بحث شيق للمشاكلالتي تكلمنا عنها. أما فيما يختص بأسلوب الحوار فإن المازني يرفض الكلام العامي لخلوه من دقة التعبير وعدم ثباته، في حين إن العبارات الفصيحة آخذةً في التقدم والتهذيب يوماً بعد يوم. ويعارض المازني أيضاً في مقدمته هيكل بيك فيما يراه من أن العوامل الاجتماعية في مصر تحول دون خلق القصة المصرية. فإن القائلين بهذا الرأي يفترضون خطأ أن القصة الغربية هي النموذج الوحيد للفن القصصي. ولكن لم لا يكون هناك قصة مصرية قائمة بذاتها تميزها مميزات خاصة؟ ويرى المازني أن الحياة الاجتماعية في مصر لا تقوم عقبة في وجه أي كاتب بارع الخيال. ويقول إننا إذا سلمنا بأن وجهة المصريين وأفكارهم فيما يتعلق بالحب، تختلف عن وجه الأوربيين في ذلك، فلا يتحتم أن يكون ذلك عقبة كأداء في سبيل القصة المصرية. ولم تكون عاطفة الحب

ذاتها هي المحور الأصلي الذي تدور حوله القصة؟ ويضيف المازني أن ما يتخيله الكتاب من ضيق مجال القصة المصري، إنما هو (نوع من الهستيريا) لا أقل ولا أكثر.
على أن القصة نفسها لا تحقق ما ينتظره منها المرء بعد هذه المقدمة. وليس ذلك لأنها أخفقت في الخطة أو في تفصيل المواقف وتصوير الأشخاص أو غير ذلك من المسائل الفنية. كلا فإنها من هذه الوجوه أحسن قصة في الأدب العربي على ما أعلم، ويتجلى في هذه القصة تلك الروح التي ينفرد بها المازني من جميع معاصريه أعني تلك الرقة هاتيك الروح الفكاهية التهكمية التي تظهر في كتاباته. ويسير القصص فيها سيراً حثيثا وفي سهولة كما أن الحوار سهل طبيعي وقد جاءت الانتقادات الاجتماعية والتحليلات النفسية (التي قصد إليها المؤلف بطريقة مضمرة في ثنايا الكلام) أكثر منها صريحة واضحة. ولكنها على الرغم من ذلك (فيما عدا أشخاصها وأوضاعها) ليست قصة مصرية بالمعنى الذي يفترضه المازني نفسه، وأكبر دليل على ذلك إن بطل القصة عبارة عن شخصية غريبة لا تكاد تنطبق إلا على القليلين من المصريين، وربما كان الناشر مصيباً في أن اتفاق الاسم بين المؤلف وبطل القصة لم يكن أمراً خيالياً محضاً. والقصة ذاتها غريبة في المشاعر والمثل كما هي كذلك في المسحة الأدبية وفي الموضوع الذي تدور حوله. ودراسة عاطفة الحب قائمة على أساس غربي لا شرقي وحتى المظاهر الخارجية ذاتها من حيث
الشكل والأسلوب تنطق بهذا الطابع الغربي، ومن أمثلة ذلك كثرة استعمال المجازاتوالجمل الغريبة. وأغرب من ذلك كله جرى المؤلف على طريقة اقتباس فقرات من الإنجيل في رأس كل فصل من فصوله. ويوجد فرق محسوس في اللهجة والموضوع بين نصف القصة الأول ونصفها الثاني. أما الأول فأنه يسير في دائرة الحياة الاجتماعية المصرية ولا يمكن أن يصور ما فيه من فكاهة وعطف إلا قلم كاتب مصري. أما النصف الثاني فيستبين فيه جو آخر وتتغير فيه اللهجة الأولى تدريجياً كما لو كان أسلوب المؤلف قد تأثر بما انتاب بطل القصة في هذا النصف.
ونحن دون أن ننكر على المؤلف إصابته في الخيال، نقرر أن (إبراهيم الكاتب) (كزينب) واضحة الصلة بالرواية الغربية، ولكن ما حوته زينب من العواطف لا يروق في عين المازني الذي تتجه ميوله إلى جهة أقوى، والذي يهتم بتمثيل الحقيقة. وفي هذه الحالة نقول إن تداعي الأفكار الأدبية التي يمتاز بها فكر المازني قد صرف ذهنه إلى رواية (سانين) فأوجد صلة بين رواية المازني أو على الأقل بين جزء منها في تصوراتها وبين هذه الرواية الروسية التي ترجمها المازني تحت عنوان (ابن الطبيعة). نعم إن رواية إبراهيم الكاتب تختلف كل الاختلاف في الخطة وفي طريقة الاتساع عن قصة (سانين) ولكن شخصية إبراهيم قد استعادت بعض الشيء من شخصية سانين. وفي رواية المازني منظر يعتبرترجمة حرفية لخاتمة القصة الروسية.
ومما تقدم نرى أنالقصة المصرية كما يتجلى في كتابة كاتبين من أكبر كتابها، لا تزال دون المثل الذي رسمه لها الكتاب. ولا تصل القصة المصرية إلى كمالها، إلا بالجمع بين المقدرة الفنية التي يمتاز بها كتاب الغرب وبين الإلهام المصري. وإلى أن يصل الكتاب إلى ذلك سيظل معظم القراء المصريين مقبلين على آداب غيرهم، ولن يقف تيار الأدب الأوروبي إلا إذا تسنى للمصريين أن يخلقوا فناً جديداً من فنون الكتابة بواسطته تظهر القصة المصرية في معناها الحقيقي.
ترجمها عن الإنجليزية للرسالة: محمود الخفيف

ابن خلدون في مصر

للأستاذ محمد عبد الله عنان

وتحدث الفاتح طويلاً إلى المؤرخ وسأله عن أحواله وأخباره وسبب مقدمه إلى مصر وما وقع له بها، ثم سأله عن المغرب ومدنه وأحواله وسلاطينه، وطلب إليه أن يكتب له رسالة في وصف المغرب، وحدثه المؤرخ بأنه كان يسمع به ويتمنى لقاءه منذ أربعين سنة أعني منذ تألق نجمه وبزغ مجده، وشرح له طرفاً من آرائه ونظرياته الاجتماعية في العصبية والملك. ولا ريب أن مفاوضة في شأن المدينة وقعت أيضاً بين المؤرخ والفاتح واستطاع المؤرخ أن يقنع الرؤساء والفقهاء بالتسليم، فقد فتحت دمشق أبوابها للفاتح على أثر ذلك، وجاء القضاة والرؤساء وعلى رأسهم المؤرخ إلى معسكر تيمورلنك يقدمون له الخضوع والطاعة. ويقول لنا ابن خلدون إن تيمورلنك

صرفهم واستبقاه حيناً، ثم أنصرف واشتغل أياما بكتابة رسالة في وصف بلاد المغرب حتى أتمها وبلغت على قوله أثنى عشرة كراسة صغيرة ثم قدمها إلى تيمورلنك فأمر بترجمتها إلى اللغة المغولية.

وكان المفهوم أن دمشق قد نجت بالتسليم من بطش الفاتح ولكن التتار احتجوا باستمرار القلعة في المقاومة فشددوا عليها الحصار حتى سلمت، ثم اقتحموا المدينة وصادروا أهلها وأوقعوا فيها السفك والعبث والنهب وأضرموا النار في معظم أحيائها وتكررت المناظر المروعة التي وقعت في حلب، على أن ابن خلدون لم يقطع صلته بالفاتح بل لبث متصلا به يتردد لزيارته خلال المحنة. وحدثه تيمورلنك ضمن ما حدث بأمر شخص تقدم إليه مدعيا بالخلافة وأنه سليل بني العباس وجرت مناقشات فقهية طويلة في شأنه أشترك فيها المؤرخ وأدلى فيها بآرائه ونظرياته في الخلافة. وقدم ابن خلدون أيضاً إلى الفاتح هدية هي (مصحف رائق وسجادة أنيقة ونسخة من البردة وأربع علب من حلاوة مصر الفاخرة) ولما قدمها إليه وضع تيمورلنك المصحف فوق رأسه بعد أن عرف أنه القرآن الكريم، ثم سأله عن البردة وذاق الحلوى ووزع منها على الحاضرين في مجلسه.

والتمس المؤرخ منه في هذا المجلس أماناً للقضاة والرؤساء والعمال فأجابه إلى طلبه وأصدر الأمان.

يصف لنا ابن خلدون هذه المحادثات والمقابلات التي وقعت له مع الفاتح التتري، وقد كان

فيها يؤدي دور المفاوض والسياسي القديم. ولكن مؤرخاً مصرياً هو ابن أياس يقدم إلينا فيذلك رواية أخرى، فيقول لنا إن الذي قام بمفاوضة تيمورلنك في تسليم دمشق هو القاضي تقي الدين بن مفلح الحنبلي، وإنه هو الذي أدلي من السور وأختاره الزعماء لتلك المهمة، لأنه كان يعرف التركية ولأنه هو الذي سعى في تسليم المدينة وأقتاد وفد القضاة إلى الفاتح وأستصدر منه الأمان وتولى تنفيذ جميع رغائبهفي جمع المال والأسلاب. ولكن ابن خلدون صريح في روايته في إنه هو المفاوض والوسيط في عقد المهادنة بين الفاتح وأهل دمشق كما قدمنا وأنه كان ممثل الرؤساء والقضاة لدى تيمورلنك ولا شك في روايته. وهي من جهة أخرى رواية ابن عربشاه الدمشقي مؤرخ تيمورلنك الذي كتب تاريخه قريباً من هذه الحوادث فهو يصف لقاء ابن خلدون للفاتح تحت أسوار دمشق على رأس العلماء والقضاة ويصور لنا قي عبارة شعرية ساحرة منظر هذا اللقاء وما تخلله من أحاديث ومناقشات. على إن صحة هذه الرواية لا تمنع من جهة أخرى أن يكون آب مفلح قد أشترك في المفاوضة وتولى تنفيذ شروط التسليم.

ولعل ابن خلدون كان يعلق على صلته بالفاتح آمالاً أخرى غير ما وفق إليه في شأن دمشق وشأن زملائه العلماء والقضاة، ولعله كان يرجو الانتظام في بطانة الفاتح والحظوة لديه والتقلب في ظل رعايته ونعمائه. على أنه لم يوفق بلا ريب إلى تحقيق مثل هذه الأمنية فلم تمضِ أسابيع قلائل حتى سأم البقاء في دمشق وذهب إلى تيمورلنك يستأذنه في العود إلى مصر. فإذن له وطلب إليه في تلك المقابلة أن يقدم إليه بغلة إذا استطاع فأهداه المؤرخ إياها وبعث إليه تيمور ثمنها فيما بعد عقب وصوله إلى مصر. وغادر المؤرخ دمشق في شهر رجب (سنة 803) لنحو شهرين فقط من مقدمه إليها ودهمه اللصوص أثناء الطريق فسلبوه ماله ومتاعه ولكنه وصل سالماً إلى القاهرة في أوائل شعبان سنة ثلاث وثمانمائة.

وهنا يهتف المؤرخ مغتبطاً بنجاته (وحمدت الله على الخلاص) ويقول لنا أنه كتب إلى سلطان المغرب مولاه السابق يصف هذه الحوادث وما دار بينه وبين تيمورلنك ويصف له الفاتح وعظم بأسه وشاسع ملكه وروعة سلطانه.

(3)

وما كاد ابن خلدون يستقر في القاهرة حتى أخذ يسعى للعود إلى منصب القضاء. وقد رأينا

إنه كان يحتفظ دائماً بكرسي التدريس في مدرسة أو اثنتين. ولكن القضاء من مناصب السلطة والنفوذ، وكان ابن خلدون يشعر وهو في ذلك الجو المشوب بكدر الخصومة والمنافسة إنه بحاجة إلى ذلك النفوذ الذي أعتاد أن يتمتع به في جميع علائقه

السلطانية، وكانت المعركة التي تضطرم حول ذلك الكرسي، والتي شهدنا مظاهرها في تكرار تعيينه وعزله، تذكي بلا ريب في نفسه شهوة الظفر بذلك الكرسي، فيكون ذلك آية نصره على خصومه ومنافسيه. وكان المؤرخ قد بلغ الرابعة والسبعين يومئذ، ولكن نفسه الوثابة كانت تتطلع أبداً إلى مسند النفوذ والجاه، ويصور لنا هذه النفسية مؤرخ مصري نزيه ثقة في إشارة موجزة إذ يقول لنا في خاتمة ترجمته للمؤرخ (رحمه الله، ما كان أحبه في المنصب) وكان ثمة شيء آخر إلى جانب هذا الشغف بالمنصب، فقد كان بين ابن خلدون وبين خصومه نضال، وكان منصب القضاء كما سنرى محور هذه المعركة، يرتفع ابن خلدون إليه كلما استطاع أن يسترد مكانته في القصر وأن يتغلب على كيد خصومه، ويفقده كلما نجحت سعاية خصومه في حقه.

عزل ابن خلدون من منصب القضاء للمرة الثانية في المحرم سنة ثلاث كما قدمنا، وذهب معزولاً في ركب السلطان إلى الشام، فاتخذ خصومه بعده عن القاهرة فرصة للدس في حقه، وزعم بعضهم إنه هلك في حوادث دمشق. ويريد المؤرخ هنا أن نفهم أن المنصب كان محفوظاً له أو أنه وعد على الأقل برده إليه من أولي الأمر، فيقول لنا أنه على أثر هذا الإرجاف في حقه عين مكانه في قضاء المالكية، جمال الدين الأقفهسي (جمادى الثانية سنة ثلاث) فلما عاد إلى مصر عدل عن ذلك، وعزل الأقفهسي، وولي ابن خلدون للمرة الثالثة في أواخر شعبان أو أوائل رمضان فلبث في منصبه زهاء عام يعمل في جو يفيض بالأحقاد والخصومة، ولكنه يقول لنا أنه لم يحفل كعادته بمصانعة الأكابر وأنه أستمر كما كان (من القيام بالحق والإعراض عن الأغراض). فاضطرمت من حوله الدسائس القديمة، واشتدت في حقه المطاعن والمثالب، وأسفرت المعركة عن النتيجة المعتادة، وعزل المؤرخ كرة أخرى في 14 رجب سنة أربع (804)، وولى مكانه جمال الدين البساطي في أواخر رجب، وهو ممن شغلوا المنصب من قبل. والظاهر أن المعركة كانت هذه المرة أكثر وضوحاً وصراحةً، وإن ابن خلدون عانى من حملات خصومه ما لم يعان من قبل حتى أنه طلب بعد العزل أمام الحاجب الكبير، ووجه إليه كثير من التهم، ويقول لنا ابن حجر والسخاوي في هذا الموطن: (وادعوا عليه (أي على ابن خلدون) أموراً كثيرة أكثرها لا حقيقة له، وحصل له من الإهانة مالا مزيد عليه). وهنا اشتدت المعركة بين المؤرخ وخصومه، واستحالت إلى نضال عنيف سريع الأثر، وبقي مظهرها التداول على المنصب، ولكنه أنحصر حينا بين ابن خلدون والبساطي، مما يدل على إن البساطي كان ممثل الحزب الذي يناوئ المؤرخ في هذا الدور من المعركة. والظاهر أن ابن خلدون كان يعتمد في مقاومة خصومه على عوامل وقوى ليست أقل أثراً مما يعتمدون عليه، فإنه لم يمض على ولاية البساطي نحو ثلاثة أشهر حتى عزل في أوائل ذي الحجة، وعين ابن خلدون للمرة الرابعة في 16 ذي الحجة، واستمر في المنصب عاماً وشهرين، ثم رجحت كفة خصومه فعزل في السابع من ربيع الأول سنة ست (806)، وأعيد البساطي في الشهر نفسه، ثم عزل في شهر رجب سنة سبع، وأعيد ابن خلدون للمرة الخامسة في شعبانسنة سبع، ثم عزل بعد ثلاثة أشهر في 26 ذي القعدة من نفس العام، وأعيد خصمه القديم جمال الدين الأقفهسي فلبث ثلاثة أشهر، ثم عزل وخلفه جمال الدين التنسي لمدة يومين فقط، ثم أعيد البساطي في ربيع الأول سنة ثمان (808) وعزل في شعبان من العام ذاته، ثم أعيد ابن خلدون للمرة السادسة فلبث في منصبه بضعة أسابيع فقط وفي السادس والعشرين من رمضان سنة ثمان وثمانمائة (16 مارس سنة 1406م) توفي المؤرخ والمفكر الكبير، قاضيا للمالكية وقد بلغ الثامنة والسبعين من حياة باهرة حافلة بجليل الحوادث وروائع التفكير والابتكار، ودفن في مقبرة الصوفية خارج باب النصر وهي يومئذ من مقابر العظماء والعلماء.

ويصل ابن خلدون تدوين أخبار هذا النضال العجيب حتى عزله للمرة الخامسة في ذي القعدة سنة سبع أعنى إلى ما قبل وفاته بعدة اشهر فقط.

من طرائف الشعر

المنجم

للدكتور محمد عوض محمد

جلست إلى جانب المنجم ... أحدق في جوفه الأقتم

ظلام رهيب (. . . وغور بعيد) ... وليس إلى القاع من سلم!

فيا عجبا! أي كنز ثمي ... ن تكدس في قاعه المظلم. . .؟
وأي نعيم لمن يستط ... ع وصولا إلى جوفه المفعم!
وأي انتصار لمن قد يغو ... ص فيخرج ما فيه من أنعم!
ومالي أحجم عما أرو ... م ولا فوز في الدهر للمحجم. .
أيا نفس قد آن أن تقحمي ... رهيب الخطوب وأن تقدمي!
فيا صاح هات الرشاء المتي ... ن لأدليه من فم المنجم
وأنزل وسط الظلام المخي ... ف نزول العقاب أو القشعم
عفاء على بؤس عيش مضى ... لقد آن يا نفس أن تنعمي!
فما زلت أهبط في جندس ... به الكف لا تهتدي للفم
إلى أن تحجب ضوء النها ... ر وأمسيت في حالك أدهم،
أحاول جهدي التماس السبي ... ل بسمع أصم وطرف عمي!
وحولي هواء رطيب كري ... هـ كأني في بؤرة من دم
وكم من بخار غريب مريب ... ومن نفس مدنف مسقم!
فهل مثل هذا الطريق الكري ... هـ يؤدي إلى المقصد الأعظم؟
على أن صوت الرجاء المَل ... ح يهيب بنفسي: لا تحجمي!
فكم نقمة طيها نعمة ... وحلو تولد من علقم!
فما زلت منحدراً . . نازلا ... بصبر الجليد وعزم الكمى
ينير فؤادي ضياء الرجا ... ء فلم أتراجع، ولم أهزم
وكم شدة إثرها شدة ... تحملتها غير مستسلم!
وبعد عناء وسير طوي ... ل إلى غاية المنجم المقتم!
وصلت إلى قاعة مجهدا=وقد أخذ الوهن من أعظمي!
ورحت أفتش أرجاءه ... بقلب مشوق وصدر ظمي
أطوف به باحثا فاحصاً، ... فأعدو هنا، وهنا أرتمي
فلم ألق كنزاً ولا شبهه، ... فيا حسرة البائس المعدم!
وما كل شيء عزيز الطلا ... ب بذخر ثمين ولا مغنم!
وما كل ممتنع في الخدور ... حقيق بعشق الفتى المغرم!
وكم يخدع النفس بعد المنا ... ل وتغتر بالغامض المبهم. .

الضحية

سلوت ولكن لا يزال بمهجتي ... حنين إلى الماضي البعيد بعيد
وكم حاولت نفسي السلو فلم تجد ... لها مذهباً الا إليك يقود
أنا الحر لكن في هواك مقيد ... وفي الحب دنيا رحبة وقيود
أحن إلى عهد الدموع ولم يزل ... أخو الحب يسلو تارة ويعود
ليالي. . كالأطلال ينعب بومها ... لها كلما جن المساء نشيد
ترومين قربانا ينجيك من لظى ... فروحي قربان وموتي عيد

حلب - عمر أبو قوس

الذكرى

أيتها الذكرى جزيت من دمي ... أنت وإن نكأت جرحي بلسمي
ما أنت؟ هل أنت كتاب دارس ... يهمس بين دفتيه هامس؟
أم طائف يهزج قيد مسمعي ... إذا خلوت بالبكا كان معي
أم واعظ بالزفرات ينطق ... أم شبح بناظري معلق
أم أنت في ليل الضمير ناعبه ... أم ثاكل بين الضلوع نادبه
أغريت بي طيف الحبيب، مرحباً ... بمن أباح مهجتي وعذباً
يزورني مع الكرى وفي السهد ... يا زائراً بالقلب والجفن انعقد
أحببته لغرة مثل الضحى ... وطلعة لو شامها الصبح امحى
ومقلة أهابها بين المقل ... ومبسم من مشرع الخلد نهل
كأنه الوردة في ريعانها ... أو نعمة البائس في أبانها
يشفي غليل المستهام إن ألم ... وربما داوى الشقي بالألم
أحببته حباً على النفس غلب ... وما على الصب المشوق لو أحب؟
إن الشباب نهم مذوق ... نشوان من كل حلال يسرق

يلص ما يحلو له بلا وجل ... ويشحذ النظرة تمضي كالأجل
ولا يبالي أحرقته ناره ... وزلزلت فوق الصعيد داره
أم عانق اللذة في غلائل ... وجاده صوب النعيم العاجل
أيتها الذكرى أعيدي ما غبر ... ورددي ما طاب من عيشي ومر
لله أيام الصبا ما اجملا! ... ودورة العمر بنا ما اعجلا!
أين لأترابي أمس ملعب ... ومستراد نازح ومذهب؟
وأين عهد بالحمى لا يخلق ... وكيف وهو للحياة مشرق
تغير الصحب وقوض الحمى ... كأنما عشنا به توهما!
وغالت الأحلام غولة القدر ... فودع السكر وجاءت الفكر
أكلما لج الأسى بخاطري ... محوت بالماضي شقاء الحاضر؟
سينضب العمر فبثي سره ... والحب خطى في الهواء قبره
وأسمعيني في الممات لحنه ... وصوري لناظري حسنه

سورية. حمص. رفيق فاخوري

في الأدب الشرقي

في الأدب الصيني

القصة الحديثة في الأدب الصيني

مترجمة عن مجلة الشهر الفرنسية

ليست القصة الصينية بنت الأمس، وإنما يرجع مولدهاإلى عهد أسرة تشيو وكانت تسمى يومئذ (سياوشوو) أي المناسبات الضئيلة، وكتابها الأولون هم لي يوكيو، وتشو، ووانغ تسو، وتشنغ شي تسو.

فالأول كان من رجال القرن الرابع قبل الميلاد، والآخران قد نبغا بعده بقرن وقصصهم كانت تستمد موضوعاتها من الأساطير والخرافات والأمثال، ولبثت القصة في هذا الطور الابتدائي أمداً طويلاً حتى ولي الحكم أسرة (طنغ) (618 - 907) فدبت فيها الروح وسارت في طريق الكمال.

كان العمل الروائي في الأقاصيص والحكايات يتقدم شيئاً فشيئاً خلال القرون الخالية حتى أصبح قبيل العهد (الطونغي) مسلاةأدبية. وكان القصص على شدة قصرهلا يجري على خطة مقررة فأقره كتاب العصر الطونغي في نصابه من العناية والفن فحددوا الغاية، ورسموا الطريقة وبسطوا العمل، ودققوا التفاصيل، وجودوا الأداء، حتى أصبح أجمل المظاهر في الأدب الصيني بعد أن كان موضع الزراية والاحتقار عند أشياع كونفشيوس.

كانت الأساطير وحياة النابهين في الشرف أو النابهات في الحسن موضوعالأقصوصة من أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع فكتب (ونغ تسو) (حياة مرآة قديمة) وهي أقصوصة بطلتها مرآة سحرية مغامرة صرعت ثعلبة مسحورة تحولت إلى امرأة، ثم قهرت أفعواناً ضخماً كان قد أتخذ وكره في أصل شجرة، ثم قتلت قرداً وسلحفاة فاستحالا إلى إنسانين أخذا يحاضران في العلم والسحر الخ وكل مغامرة من هذه المغامرات يحكيها القصصي بثقة، ويصدقها القارئ ببساطة. وفي النصف الأخير من القرن الثامن ظهرت أقصوصة أخرى شهيرة، وهي أقصوصة المقام في مخدة تأليف (شن كي تسي) وموضوعها أن (لو) الخالد أعطى أحد الشبان مخدة سحرية فدخل فيها ورأى رؤيا عجيبة يقصها

فتستغرق أعاجيبها كل الحكاية. ثم ظهرت على أثر ذلك أقاصيص الأبطال فغلبت على أذهان القصاص والقراء حتى اليوم، فالبطل ذو السيف لا يعجزه شيء ولا تنقصه موهبة فهو يطير، وله سيف يدرك ويشعر فهو في السلم يقصر ويختفي في أنف البطل أوفمه وفي الحرب يخرج ويقتل العدو على أي مسافة يريدها صاحبه، وللصينيين ولوع بهذا الضرب من القصص حتى في نهضتهم الحديثة، وبجانب أقاصيص الخوارق والأعاجيب تجد سير العظماء والأمراء محكية على نمط تاريخي أوروائي أوهجائي كسيرة (لي كوي) وسيرة (ينغ - ينغ) ولكن في النادر أن تجد في الأدب الصيني حكاية أوسيرة تقوم على الواقع وحده، فالكتاب على الجملة يميلون إلى تزيين الحقيقة بالمبالغة والتزييد فيجرهم ذلك إلى فقد الوحدة أو عدم التوازن أوخطأ المغزى.

أما القصة الطويلة ذات الفصول فلم تظهر إلا في عهد آل سونغ من 960 - 1279م

وهم يسمونها (بنغ هويا) منشؤها في الصين كمنشئها في سائر بلاد الشرق: رجل يسمونه (المحدث) يقص على الناس في مجلس عام حكاية من الحكايات بالأجر، فمن فائدته إذن أن يطيل الحكاية ما استطاع لينتفع من ورائها في جلسات كثيرة، والجزء الذي يحكيه في جلسة من هذه الجلسات يؤلف فصلا من فصول السيرة. وظلت (البنغ هويا) على هذا النمط الأولي حتى جاء (لوبن) 1330 - 1400 في عهد آل يوان فجعلها فناً، كان يقتبس موضوعاته من التاريخ ولكنه يضيف إليها وقائع وأشخاصاً من عمل الخيال. وكان يصور أبطاله على نحو ما يفعل القصصيون الأوربيون ولكن أفضلها وأجملها قصته المسماة (على شاطئ البحيرة) تقع في مائة فصل وتدور على مخاطرات بطل يدعى (سونغ كيانغ) مع رفاقه المائة والسبعة (وهو شخص تاريخي ورفاقه كانوا ستة وثلاثين ليس غير) وكانوا يحتلون (اليانغ شان) ثم ثاروا على أسرة سونغ الحاكمة فهاجموا مدنها وقاتلوا جيشها ونهبوا مقاطعاتها وأصبحوا حكاماً في هذه الأرض. وهؤلاء العصاة الفتاك كانوا من خيار الناس فألجأهم إلى هذا الموقف عسف الإمبراطور ومن هاواه من الخونة.

ولم يكن هم (لوبن) أن يخلق أشخاصاً ويصف أخلاقاً وإنما كان همه فوق ذلك أن يرمي إلى غرض أخلاقي، وتلك هي الصفة الغالبة على الآداب الصينية، فالكتابة عند كتاب الصين وسيلة إلى الخلق، والشعر عند شعرائها طريق من طرق التربية. والأخلاق عند (لوبن) قائمة على الديمقراطية، فهو يؤلب الأخيار المضطهدين على الأسرة الحاكمة، ويحارب الفروق الاجتماعية بين طبقات الشعب، فلا يعترف إلا بنصفين من الناس: الشجعان والأذكياء، وهؤلاء وأولئك ملزمون أن يعملوا لخير الأمة، ولا بأس أن يعيشوا عيش اللصوص وقطاع الطرق ما داموا يذودون بذلك عن المظلومين والمحرومين.

ثم ظهرت بعد ذلك طائفة كبيرة من القصص على عهد آل (منغ) من سنة 1368 - 1662م ولكن قصتين اثنتين من بينها تلفتان النظر وتسترعيان الخاطر وهما (حكاية رحلة إلى بلاد المغرب)، و (زهور الشر في أصيص من الذهب) فالأولى قصة وهمية كثيرة المخاطر الخارقة والأوهام العجيبة. والثانية قصة نفسية (بسيكولوجية) لمؤلف مجهول تدور على ما وقع من المخاطر الغرامية لغني من الأغنياء أسمه (سي من كنغ) وهو متبطل شهوان محصن ولكن له أخداناً كثيرات، والقصة تعرض بالتفصيل حياة هؤلاء الخليلات الخاصة، وتشتمل على فصول من الفحش والرجس والدنس ولكنها غاية في التحليل النفسي للمرأة، والدقة في وصف المشاهد، والتنويع في مساق الحوادث. وفي عهد آل (تسنغ) ظهرت أنواع كثيرة من القصة كالقصة العلمية ويمثلها قصة عنوانها (ثرثرة شيخ قروي يتشمس) للقصصي (هياكنغ كيو) من كتاب القرن السابع عشر، وقصة أخرى عنوانها (حظ الأزهار المنعكسة على الثلج) للكاتب (لي فوتشن) من رجال القرن الثامن عشر، فالأولى تخوض في أحاديث شتى عن الفلسفة والكتب القديمة وأمانة الوزراء وتقوى الأبناء والمكائد والفنون والطب والأخلاق وغير ذلك مما جعلها دائرة معارف هي إلى الدعوى والافتراء اقرب منها إلى العلم الصحيح. وأما الثانية فهي بحث علامة جليل عالج فيها كثيرا من المسائل النسائية وعلى الأخص مساواة الجنسين، وهذا في الأدب الصيني شيء جديد.

والقصة الأخلاقية ظهرت في هذا الحين، وهي تقص حكايات الممثلين والممثلات، وتصف أخلاق البغايا والمومسات، ثم ظهرت في القرن التاسع عشر القصة الهجائية فهجم بها الكتاب على الأسرة الحاكمة التي طواها الموت، ورشقوا بسهام النقد طبقة العلماء والموظفين على أن الأنواع القديمة كالأقاصيص الخرافية والقصص التحليلية وسير الأبطال استمرت تؤتي أكلها في عهد آل (تسنغ).

تلك كانت حال القصة الصينية حينما ظهرت بواكير الثورة الأدبية في القرن التاسع عشر

فتفتحت اليوم عن أدب حديث يشعر على حداثته بحقيقته ومصيره.

كانت الثورة الصينية ثورة سياسية واجتماعية وثقافية في وقت معاً. ففي السياسة أدت إلى سقوط الملكية وقيام الجمهورية، وفي الاجتماع أفضت إلى اقتباس الأخلاق الغربية. وفي الثقافة هدت إلى اكتشاف العلوم والأفكار الأوربية. والفضل في هذا الاكتشاف للأديبين (ين فو) (1853 - 1921) و (لن شو) (1852 - 1924) فإن الأول نقل إلى الصين فلسفة (هكسلي) و (ستيوارت مل) و (سبنسر) و (سميث) و (جنكس)

و (جفونس) و (ستراب) و (منتسكيو) ونقل الثاني قصص (ستيفنس) و (ديكنز) و (ولترسكوت) و (كونان دويل) و (واشنطون أرفنج) و (فكتور هوجو) و (دوماس) و (بلزاك) و (سرفنتيس) و (تولستوي) فكان لما ترجماه أثر بالغ في الفكر الصيني الحديث.

فمنذ الساعة الأولى فكر رسل الثورة الاجتماعية في اتخاذ القصة وسيلة للدعاية، وقد قال (ليانغ كي تشاو) وهو صحفي من المدرسة الحديثة: (يجب أن نبدأ اليوم بثورة في القصة، فإنا لا نستطيع أن نخلق شعباً جديداً إلا بقصة جديدة).

ولكن الصعوبة الوحيدة هي اللغة. فإن لغة الكتابة تختلف عن لغة التخاطب، ولغة التخاطب نفسها تختلف في إقليم عنها في إقليم بل في مدينة عنها في مدينة. فالمدرسة الحديثة حاولت أن تقرب بين لغة الكتابة ولغة الخطاب. ولكن أي لغة من لغات التخاطب تجعلها نموذجاً ومثلاً؟ وهل تضطلع حروف الهجاء الصينية (وهي لحسن الحظ واحدة في جميع المدن والأقاليم) بهذا الإصلاح؟ إن توحيد التعليم العام يقتضي لغة كتابية يقبلها كل الناس. واللغة المندرينية لا يمكن أن تكون على حالتها هي تلك اللغة.

ففي سنة 1911م أسست الجمهورية الناشئة مجمعاً عاماً أصلح هذه اللغة وجعلها لغة وطنية، ثم وضع لها تسعاً وثلاثين علامة صوتية، تساعدها على الانتشار بين طبقات الشعب، ومنذ ذلك الحين أصبح في إمكان الكاتب أن يؤلف القطع الأدبية، ويكتبها بالحروف الصينية. فتتفق مع اللغة الوطنية، وهذه اللغة المكتوبة الجديدة التي يفهمها الصينيون على السواء قد أطلقوا عليها أسم (بوهويا) أي اللغة الواضحة. والأدب الصيني في هذه اللغة العامة لا يرجع تاريخه إلى أكثر من اثنتي عشرة سنة.

وليس هذا كل الاختلاف بين الأدب الحديث والأدب القديم. فإن الفكر الصيني قد تغير جملة واحدة، فرجال المدرسة القديمة كانوا يصرون على تقليد القدماء تقليداً عقيماً جر عليهم الغرابة والتقيد والجفاف، حتى جاء في سنة 1916م أحد المحدثين وهو (هوشي) فأقترح ثماني وسائل لتجديد الأدب القديم كانت أساساً لبناء الأدب الحديث وهي (1) ألا يلمح الأدباء إلى شيء من التاريخ والأدب والأساطير في غضون النثر والنظم. (2) ألا يستعملوا الحكم المأثورة والأمثال السائرة اتقاء للابتذال. (3) ألا يسرفوا في البحث عن الأقيسة النحوية والمقابلات البيانية وعلى الأخص في الشعر. (4) ألا يتجنبوا الألفاظ العامية والتراكيب الشعبية. (5) أن يعنوا أشد العناية بالإنشاء. (6) ألا يئنوا ما لم يحسوا في أنفسهم الحاجة إلى الأنين. (7) أن يعتدوا بشخصياتهم فلا يقلدوا القدماء في شيء. (8) ألا يكتبوا إلا إذا جال في خواطرهم ما يريدون أن يكتبوه.

فإذا كانت الفلسفة الصينية اليوم في وقوف، والتاريخ غير موجود، والإنتاج المسرحي قليل القيمة، والشعر لم ينطلق بعد من أسار التقليد، فأن القصة تنمو وتزدهر معتمدة في تجديدها وتأييدها على ثلاثين مجلة تحلها من صفحاتها المحل الأول، أهمها القصة الجديدة القصة الصينية الحديثة واقعية كالقصة الغربية فلا تأبه مطلقاً للتقاليد ولا تتصل بالأساطير والخوارق. وكتابها لا تعوزهم القرائح الخصبة ولبعضهم قصص جليلة الشأن عظيمة الخطر، ولكنك لا تجد فيها ذلك السحر الأخاذ، ولا ذلك الجو الأثيري النقي، ولا تلك الخفة التي كانت تميز القصة القديمة وتلونها باللون الصيني الخالص. فإن القصة الحديثة اقتبست من القصة الغربية الشكل والاصطلاح والروح أيضاً، والمشابهة شديدة بين الحكايات الحديثة في الصين وبين بعض الأقاصيص في أمريكا، وإذا قرأت حكاية (كونغ يي كي) للكاتب (لوسين) حسبتها مكتوبة بقلم شروود أندرسون.

من القصصيين المعاصرين (تشنغ تسوينغ) وهو كاتب وافر الإنتاج، ويعزون هذه الوفرة إلى أنه يشتري قصص المفلوكين من الأدباء بثمن بخس ثم ينشرها تحت اسمه. وقد انفرد بمعالجة نوع واحد من المشاكل الاجتماعية، وهو تضارب العواطف بين ثلاثة أشخاص رجلين وامرأة أوامرأتين ورجل وليس في قصصه أصالة فكرية ولا لأسلوبه قيمة أدبية ولكنه مع ذلك أكثر الكتاب قراء وأبعدهم سمعة.

ثم (كووموجو) وهو زعيم المذهب العمالي الذي يعني أتباعه بمعالجة الموضوعات الخاصة بالفقراء الذين يعيشون على عملهم وهو يدير اليوم حركة الدعاية الشيوعية ضد الحكومة، ويؤلف في سبيل ذلك الأقاصيص والروايات والخطب ولكن حظها من

الفن قليل. فاذا نسى السياسة وكتب للأدب تكشف لك عن قصصي سمح القريحة واضح الطريقة.

ثم (يي شاو كيون) و (يوتافو) وهما قصصيان من الطراز الأول، يعالجان غير القصة الأخلاقية، يصفان فيها جوانب الفقر والفسق والبؤس من حياة الشعب الصين في المدن الكبرى. ثم (ينغ ناغان) وهو معدود في طبقة الكتاب النابهين ولكن أرفع القصصين المحدثين ذكراً وأسماهم مكانة هو (لوسين) له مجموعتان من الأقاصيص عنوان الأولى (صرخات الحرب) وعنوان الثانية (اضطراب البال) ونتاجه على قلته موسوم بسمة الجمال والعبقرية.

وسنترجم في الأعداد المقبلة قصة له وأخرى لينغ ناغان تمثلان الروحين الشائعين، والاتجاهين المختلفين في القصص الصيني الحديث.

في الأدب الغربي

بين بين

للدكتور طه حسين

الأصل في الكلام إنه وسيلة تتوسل به إلى الأعراب عما تريد أن يفهمه عنك غيرك، فهماً واضحاً جلياً لا لبس فيه ولا غموض. والكلام كله يشترك في هذا الأصل أو قل كان يشترك في هذا الأصل سواء منه ما كان شعراً وما كان نثراً، وسواء منه ما تحدث إلى العقل وما تحدث إلى القلب والشعور. فإذا خرج الكلام عن أصل البيان والتبيين هذا فكان فيه غموض أو التواء فمصدر ذلك قصور في المتكلم أو الكاتب أو قصور في السامع أو القارئ، عجز ذاك فلم يحسن الإعراب عما يريد، أو عجز هذا فلم يحسن الفهم لما لقي إليه. وقد يكون الغموض مقصوداً والالتواء متعمداً، لأن للكاتب أو الشاعر أو المتكلم غرضاً يدفعه إلى أن يتكلف الغموض ويتعمد الالتواء ولكن هذا الكلام الغامض الملتوي واجد على كل حال من يقرأه أو يسمعه فيفهمه فهماً صحيحاً مستقيماً.

هذا هو الأصل في الكلام ولكن يظهر أن الترف الفني الذي ترقى بنا الحضارة إليه، وتنتقل بنا في درجاته المختلفة يأبى أن يقر الأشياء في أصولها أو يدعها ميسرة لما خلقت له. فكما أن الأصل في الطعام والشراب الغذاء والري، ولكن الحضارة والترف قد خرجا بهما عن هذا الأصل إلى ما يتجاوز الغذاء والري، إلى غيرهما من اللذات التي يجدها الطاعمون والشاربون فقد خرج الترف الفني في هذه الأيام بالكلام عن أصله المألوف إلى شيءآخر غير البيان والتبيين، ونشأت طائفة من الكتاب والشعراء لا تكتب النثر ولا تقرض الشعر لتقول شيئاً واضحاً جلياً أو لتقول شيئاً ينتهي بعد الجهد والبناء إلى الوضوح والجلاء. وإنما تكتب وتنظم لتثير في نفسك ألواناً من المعاني وضروباً من الخواطر، ولتهيج في قلبك أشكالاً من العواطف وفنوناً من الشعور، تحسها فتلذ لها وتألم، وتبتهج لها وتضيق بها، وتفهمها حيناً وتعجز عن فهمها أحياناً، وتذهب مذاهب مقيدة غريبة متباينة في فهم هذا الكلام الذي يلقى إليك وتأويله وتخريجه فتقر ما تنتهي إليه ثم يبدو لك فتعدل عنه، ثم تقرأ هذا الكلام مرةً أخرى فإذا أنت تذهب في فهمه وتأويله وتخريجه مذاهب لم تكن قد ذهبتها من قبل، ثم تتحدث إلى من قرأ هذا الكلام نفسه فإذا هو يخالفك في الفهم كل

الخلاف أو يخالفك في بعضه ويوافقك في بعضه الآخر. ثم تتحدثان إلى ثالث قد قرأ هذا الكلام فإذا له فيه رأي لم ترياه ولم يخطر لكما على بال ولعلكم إن سألتم الكاتب أو الشاعر الذي ألقى إليكم والى الناس هذا الكلام عما أراد به حين كتبه أو نظمه لم تجدوا منه جواباً مقنعاً ولا رداً مريحاً. أو وجدتم أجوبة مختلفة وردوداً متباينة، لأنه هو لا يعرف بالضبط ماذا أراد حين كتب أو نظم أو كان يعرفه أثناء الكتابة والنظم ثم ذهب عنه بعد ذلك، أو كان يعرفه فلما أتم الكتابة والنظم وترك ما كتب ونظم حيناً عاد إليه يقرأه فإذا هو يفهم منه غير ما أراد ويتبين منه غير ما كان قد قصد إليه.

وقد يخطر لك أني أقصد بهذا النحو الكلام إلى شيء من العبث أو الدعابة، فذد عن نفسك هذا الخاطر فلست بصاحب عبث ولا دعابة. وإنما أنا صاحب جد كل الجد وأنا أكتب هذا الكلام بعد أن فرغت من قراءة قصة لذيذة قيمة ممتعة للكاتب الفرنسي جورودو. صاغها في صيغة القصص التمثيلي ووضع لها العنوان الذي وضعته أن لهذا الفصل، ونشرها في عددين من مجلة باريس.

وقد قلت إن هذه القصة لذيذة قيمة ممتعة وأنا أريد ما أقول، ولعلي مقصر حين أكتفي بهذه الأوصاف وحسبك أني قرأتها ثلاث مرات وسأقرؤها إن أذن بذلك الوقت وسمحت به الظروف. وقد وجدت قي كل قراءة لذة ومتاعاً وأنا واثق بأني سأجد في القراءة الرابعة لذة ومتاعاً. ولكني على ذلك كله لم أفهم ما أراد الكاتب أو قل فهمت أشياء مختلفة وأغراضاً متباينة، ما أظن أن الكاتب قد أراد إليها أو فكر فيها. وقد أسأت الظن بنفسي فأقرأت هذه القصة قوماً آخرين وجدوا فيها لذات لم أجدها ومتاعاً لم أشعر به. ولكنهم كانوا مثلي عاجزين عن أن يفهموا بالدقة أو بالتقريب ما أراد إليه الكاتب حين كتب قصته هذه البديعة الغريبة. ثم انتهى بنا الأمر إلى أن اتفقنا على إن الكاتب لعله لم يرد شيئاً أكثر من أن يثير في نفوسنا وقلوبنا هذه الخواطر والعواطف وهذه الأهواء والميول. وعلى أن الكاتب لعله أراد أن يذهب بالكلام مذهب الموسيقيين بالموسيقى، فلا يقصد إلا إلى أن يثير في نفسك ضروباً من العواطف والأهواء حول فكرة خطرت له وأثرت فيه فصورها كما استطاع في هذه الألحان التي قد تطابق ما في نفسه وقد تقصر عنه وقد تتجاوزه وتربى عليه. ولكنها على كل حال قلما تنقل إلى نفسك صورة صحيحة مطابقة لما كان في نفسه، وقلما تثير في النفوس المختلفة عواطف وأهواء مؤتلفة أو متقاربة تقارباً شديداً. إنما قصاراها أن تدفع بك في عالم من الخيال لا حد له. فأنت تتصور فيه ما تشاء. وأنت تحس فيه ضروباً متباينة من الإحساس وقد تسمع اللحن الموسيقي الآن فيثير في نفسك لوناً من الخواطر وتسمعه بعد ذلك فيثير في نفسك لوناً آخر. وكذلك يذهب أصحاب الكلام بالكلام حتى يجعلوه فناً من النغم وضرباً من الموسيقى، وحتى يستطيعوا أن يلقوه إليك فإذا أنت لا تفهم منه شيئاً دقيقاً جلياً كما تعودت أن تفهم من الكلام. ولكنك على ذلك لا ترغب عنه ولا تنفر منه بل تؤثره ولا تعدل به شيئاً.

في هذه القصة خداع غريب خطر لأنه يخيل إليك إنك تفهم ما تقرأ على وجه من وجوه الفهم فتمضي بالقراءة متابعاً فهمك هذا مطمئناً إليه، ولكنك لا تلبث أن تضل الطريق. وإذا أنت في واد غير ذلك الوادي الذي كنت تمضي فيه. وما يزال كذلك ينقلك من واد إلى واد ويثب بك من مذهب في الفهم إلى مذهب آخر حتى تنتهي القصة. وإذا أنت تسأل نفسك ماذا فهمت أنت منها وماذا أراد الكاتب بها إليه.

ولا بد لي من أن ألخص لك المقدار الذي يستوي الناس جميعاً في فهمه من هذه القصة حين يقرءونها وهو هذه الصورة الظاهرة التي يقسمها الكاتب إلى مناظر وفصول. ولكني أحب أن تفهم أن هذا التلخيص لا يعطي شيئاً ولا يصور ما أراد الكاتب. وقد قرأت لجماعة من النقاد فما أرى إنهم فطنوا لما قصد إليه في دقة ووضوح.

كل شيء في القصة مبهم قد تعمد الكاتب إبهامه، حتى الأماكن التي تقع فيها حوادث القصة، والأوقات التي أختارها الكاتب لوقوع هذه الحوادث. فأكثر ما يقصه عليك الكاتب يجري في مكان غير محدود ليس هو داخل المدنية وليس هو شديد البعد منها وكأنه في طرف من أطرافها حيث تتصل عمارات المدن بالفضاء الواسع الطلق. وهو في غابة أو في شيءيشبه الغابة، تتبين فيه الأشجار ولكنك لا تضيق بها ولا تحس كثافتها والتفافها. والمكان واسع قد كسا أرضه العشب وأنتثر فيه زهر كثير مختلف. ولا تقع حادثة من حوادث القصة في أول النهار أو في وسطه حين تستطيع العين أن تحيط بالأشياء وتحقق النظر فيها وحين تستطيع النفس أن تتابع العين فتفكر في شيءبين محدود.

وإنما تقع الحوادث في الأصيل حين يختلط آخر النهار بأول الليل، وحين يضطرب على الأشياء رداء رقيق جداً من الضوء، وحين تتفرق النفس كأنها تريد أن تتابع الشمس في مسراها من وراء الظلمة الكثيفة المقبلة.

وإذا أختار الكاتب هذا المكان المبهم، وهذا الوقت المبهم لم يكن من العسير عليه أن يختار أشخاصاً إن ظهرت صورهم المادية ظهوراً واضحاً في بعض الأحيان، فأن صورهم النفسية وما يصدر عنها من الأحاديث والخواطر مبهمة شديدة الإبهام ملائمة أشد الملائمة لما يحيط بها من زمان ومكان. ولعل أحسن مظهر لبراعة الكاتب إنما هو إنشاء هذه البيئة الغامضة الواضحة المبهمة الجلية التي هي بين بين.

موضوع القصة نفسه يقتضي هذا الموقف المتوسط بين الوضوح والغموض، فنحن في مدينة صغيرة من مدن فرنسا كانت هادئة مطمئنة تجري حياة أهلها في اضطراد لا

نتوء فيه كأنه السهل المنبسط. ثم يضطرب أمرها فجأة وتحدث فيها حوادث غير مألوفة كأن شيطاناً ماكراً قد أشرف على أمورها فقلبها رأساً على عقب. تعودت أن تجيل بين أهلها في كل عام طائفة من أوراق (النصيب). فإذا جاء موعد القرعة فقد تعودت المدينة أن تخرج القرعة لأغنى أهلها إلا في هذه السنة فقد خرجت لرجل فقير. تعودت أن تؤدي عملية الإحصاء من حين إلى حين كما تؤديها غيرها من المدن فإذا سألت الأسر عن عددها ردت بأجوبة تلائم العرف والقانون إلا في هذا العام، فالعمدة يستحي أن يقدم إلى المركز أوراق الإحصاء لأن الناس قد أحصوا أنفسهم، وكلابهم، وماشيتهم. ولأن الرجال لم يضعوا زوجاتهم في أجوبة الإحصاء، وإنما وضعوا خليلاتهم. تعودوا أن ينهر الرجل صبيه فلا يثور الصبي، وأن يزجر كلبه فلا يثور الكلب، أما في هذا العام فالصبيان ثائرون بآبائهم وأمهاتهم، والكلاب ثائرة بأصحابها وسادتها. وعلى هذا النحو أضطرب في المدينة كل شئ. ومصدر الاضطراب فيما يظهر أن إشاعة ملأت المدينة بأن شبحاً يظهر لبعض أهلها إذا تولى النهار وأقبل الليل. وقد صدق الناس هذه الإشاعة واطمأنوا إليها فكلهم يلتمس الشبح وكلهم يراه، وكلهم يخافه، ويحتاط للقاءه. وانتهى أمر هذا الاضطراب إلى باريس فأرسلت الحكومة المركزية مفتشاً إلى هذه المدينة يبحث ويستقصي، وأمرته بأن يحسم الداء إذا انتهى إلى أصله. وفكرة الحكومة أن هذا عارض من الضعف العقلي ومن الشعوذة قد ألم بهذه الدينة، فيجب أن يرد عنها وأن يبسط عليها سلطان العلم والعقل، ويقبل هذا المفتش ممتلئاً بهذه الفكرة فلا يكاد يتحدث إلى العمدة والصيدلي ومراقب المكاييل والموازين حتى يروعه تصديق المدينة لهذه الخرافات، وحتى يشتد عزمه على أن يشمر في الحرب لهذا السخف حتى يقضي عليه. وهو ينكر وجود الأشباح والأرواح، وهو يتحدى الأشباح والأرواح ويطلب إليها أن تقلق طائراً ولو يسيراً عن غصن من هذه الأغصان وهو يحصي ثلاثة فلا يتم الإحصاء حتى تسقط قلنسوته عن رأسه! فيقول: ما أشد الريح أو يجيبه أصحابه: ليس في الجو أثر للنسيم! وهو يعود إلى التحدي في لفظ غليظ بشع ويطلب إلى الأرواح والأشباح أن تمسه بأذى ولو ضئيل. ويحصي ثلاثة فلا يكاد يفرغ من الإحصاء حتى تزل قدمه به فيهوى! فإذا نهض قال: ما أشد الرطوبة! فيجيبه أصحابه، إن عهدنا بالمطر لبعيد! وبهذا يتحقق الخلاف بين ممثل الحكومة المركزية وأهل المدينة. هو صاحب علم وعقل وهم أصحاب خيال وإيمان بالخرافات. ولكن علم المفتش أولى وعقله محدود. فهو يؤمن بما في الكتب ويسلم به مقلداً فيه وهو يرى الإيمان به والتعصب له سياسة تلائم الديمقراطية وتوافق نظم السياسة الحديثة. وسذاجة أصحابه الذين يحاورهم ظريفة طلقة ليس فيها غلظ ولا ضيق، وإنما هي سذاجة ذات أجنحة تسمو بأصحابها حتى تتجاوز بهم حدود المألوف المعقول وكأنها قد اتخذت أجنحتها من الخيال وأصبحت شعراً كلها، فالحوار إذاً إنما هو بين الحقائق الواقعة المقيدة التي لم تبرأ من الجمود ولم تسلم من القصور، وبين الخيال المطلق الحر الذي أخذ بحظ عظيم من الرقي والصفاء والتهذيب. الحوار إذاً بين الحياة اليومية المألوفة يمثلها شخص المفتش وبين الشعر يمثله هؤلاء الناس. بل يمثله معهم أكثر أهل المدينة وتمثله معهم بنوع خاص إيزابيل هذه الفتاة التي تقوم على تعليم البنات مكان المعلمة المريضة والتي تذهب في تعليم الفتيات مذهباً غريباً ملائماً كل الملاءمة للطبيعة الحرة والشعر الطلق. فهي لا تضطرهن إلى المدرسة وإنما تتخذ من الغابات والحقول مدرسة تلقي عليهن فيها علماً غريباً يضيق به المفتش الذي يمثل حياة كل يوم. وهي تلقي إليهن أسماء غريبة تدل بها على ألوان العلم في الفلك والطبيعة والنبات والحيوان وهي لا تتحرج في أن تحملهن على أن يتشكلن بأشكال الحيوانات المختلفة ويتسمين بأسمائها ويسرن سيرتها، كل تعليمها يمتاز بأنه شعر، ويقوم على تحبيب الطبيعة إلى التلاميذ. ولا يكاد المفتش يرى هذا ويتبينه حتى ينفر منه ويثور به ويرى إنه أصل هذا السخف الذي سيطر على المدينة ونشر فيها الفساد والاضطراب. فيعزل الفتاة إيزابيل من منصب التعليم، ويأمر أن يجري التعليم في المدرسة على ما يجري عليه في المدارس الأخرى في أضيق حدود التقاليد وقد أنبئ بأن مصدر هذه الإشاعة التي اضطربت لها المدينة إنما هو هذه الفتاة المعلمة، فهي التي ترى الشبح وتناجيه إذا كان المساء! وقد ثبت له ذلك. فأرصد للفتاة وطائفها ومعه نفر مسلحون حتى إذا كان المساء أقبلت الفتاة وأقبل الطائف فتحدثت إليه

وتحدث إليها. وهما في حديثهما وإذا نار تطلق فيهوى الطائف إلى الأرض كما يهوى القتيل. ويظهر المفتش وأصحابه وهم لا يشكون في أن هذا الطائف ليس إلا شاباً أراد أن يغوي الفتاة فاتخذ صورة الطائف وشكل الخيال. ويحنو بعضهم على القتيل فلا يرى جثة وينظر القوم فإذا الطائف يرتفع في الجو شيئاً فشيئاً حتى يسترد صورته الأولى ثم يقول: إلى غد يا إيزابيل! إلى غد في غرفتك إذا كانت الساعة السادسة!

فإذا كان الغد أقبلت الفتاة إلى غرفتها قرب الموعد المضروب وأقبل مراقب المكاييل والموازين فأخذ يتحدث إليها حديثاً فيه حب، فتريد أن تصرفه عن نفسها فيأبى ويعرض عليها الزواج، وهما في الحديث وإذا الطائف قد أقبل وطلب إليه أن ينصرف ويدعه مع الفتاة. ولكن الرجل يأبى ويلح في الإباء ويكون بينه وبين الطائف حوار عنيف دقيق أيهما يستأثر بالفتاة، والفتاة مترددة بين هذا الرجل الذي يمثل الحياة وهذا الطائف الذي يمثل الموت ولكن ميلها إلى الحياة ينتصر آخر الأمر فينصرف الطائف مهزوماً وتهوى الفتاة في غشية كأنها الموت. ويقبل المفتش والعمدة والصيدلي والتلميذات وبعض أهل المدينة وكلهم يريد أن يستنقذ الفتاة من هذا الإغماء. وكلهم يقترح لذلك دواء وطباً ولكن الصيدلي يتقدم إليهم جميعاً في أن ينسوا الفتاة وينصرفوا إلى أنفسهم. ويستأنف كل منهم حياته في هذه الغرفة كما لو كان بعيداً عنها فهؤلاء يلعبون الورق وهؤلاء الفتيات بينهن حديثاً عادياً، وهاتان الفتاتان تتحدثان في الأزياء، وهذا المفتش ينطق من حين إلى حين بألفاظ تمس العلم والتعليم والديمقراطية وقد استحالت الغرفة صورة مصغرة للمدينة. وإذا الفتاة المغمى عليها تفيق شيئاً فشيئاً حتى تشترك في الحديث عن الأزياء ويأتي من يخبر بأن الأمور قد استقامت فخرجت قرعة النصيب للأغنياء دون الفقراء، ويعلن الصيدلي في ألفاظ تذكر بقصة فوست أن قد انتهت هذه الحال التي كانت بين بين!

هذه صورة غليظة جداً لهذه القصة لا دقة فيها ولا تحديد ولا إلمام بشيء مما فيها من مواطن الشعر ومظاهر الجمال الفني الرائع. ولا إلمام فيها أيضاً بهذه المواقف الكثيرة التي يعرض فيها الكاتب للحياة اليومية على اختلاف فروعها بالنقد اللاذع المر، ولكنك تستطيع أن تسأل نفسك كما سألت نفسي وكما سأل غيري من القراء نفسه حين قرأ هذه القصة، ماذا أراد الكاتب أن يصور فيها؟ أتراه اكتفى بنقد ما نقد من ألوان الحياة الفرنسية ولم يرد غير ذلك! إلا فإن هذا النقد عارض في القصة يكفي أن تنظر فيه لتعلم إن الكاتب لم يتخذه غرضاً من أغراضه الأولى. أتراه رمز بهذا الطائف إلى شيءمما يعرض للناس في حياتهم وجعل الفتاة رمزاً للناس جميعاً أو لطائفة من الناس؟ ولكن ما عسى أن يكون هذا الشيء الذي أتخذ الطائف رمزاً له أهو الحب؟ أهو الموت؟ أهو الأمل؟ أهو المثل الأعلى؟ أهو شيء غير هذا كله؟ أتراه إنما أراد أن يصور حالاً من أحوال الناس تعرض لهم في طور من أطوار حياتهم حين يكونون بين النوم واليقظة، أو حين يكونون بين الصبا أو الشباب وبين الاكتهال واكتمال السن. أتراه أراد أن يصور لنا حياة فتاة مريضة بنوع من أنواع الأمراض العصبية تتأثر بالوهم وتتبعه حتى تمضي في أثره إلى أمد بعيد ثم لا ترد إلى الحياة الواقعة إلا في هدوء ورفق. وإلا بأن تحيط بها الحياة الواقعة إحاطة متصلة لا تكلف فيها ولا جهد. كل ذلك ممكن، ولعل شيئاً غير ذلك كله ممكن أيضاً ولعل الكاتب (وقد هممت أن أملي الشاعر) لم يرد كما قلت إلا أن يخلق حولك هذه البيئة الشعرية التي تطلقك من قيود الحياة الواقعة وتسلمك إلى الخيال يمضي بك حيث يشاء ساعة من نهار أو ساعة من ليل. وقد ذهب الشعراء إلى هذا النحو من الفن منذ عهدٍ غير قصير، فمنهم من جعل الشعر موسيقى تلذ السمع أولا، وتثير في النفس لذة النغم الموسيقي بعد ذلك وأعرض عن المعاني إعراضاً شديداً أو هيناً. ومنهم من أعرض عن هذه الموسيقى الظاهرة التي يتأثر بها السمع قبل كل شيءواتخذ الشعر مفتاحاً يفتح لك به أبواب اللانهاية كما يقول الشعراء ووسيلة يخلق لك بها هذه البيئة الفنية العليا التي ترتفع بها وقتاً ما عن الحياة والأحياء.

وأخذ الكتاب يذهبون بالنثر مذهب الشعراء بالشعر ولكن كاتبنا قد تجاوز مذهب الكتاب الذين يقلدون الشعر والشعراء في النثر الذي يتجه إلى القراء ليس غير، وسلك هذا المذهب

الشعري بالنثر التمثيلي وبالتمثيل نفسه. وأنت في غير حاجة إلى أن أبين لك الفرق بين النثر الذي يذهب في صاحبه مذهب الشعراء والموسيقيين والذي يتجه إلى الناس جميعا ولكنهم يقرءونه متفرقين ويتأثرون به متفرقين، وبين النثر الذي يذهب به صاحبه هذا المذهب ويتجه به إلى طبقات من الناس يجمعهم في مكان واحد، هو الملعب وينتزعهم من الحياة الواقعة معا ويسمو بهم معا إلى عالم الشعر والخيال ويتخذ لهذا سبيلا واحدا هو التمثيل. وأظنك توافقني على أن هذا النوع من الإقدام والابتكار جراءة فنية قيمة. ولكن قد رأينا الآثار التي تتركها قراءة هذه القصة في نفس القراء ولم نحب أن نرى الآثار التي تتركها تمثيل هذه القصة في نفس النظرة. ولكن أين نحن من هذا وأين هذا منا في مصر الآن؟

وأنا أريد أن اعرض عليك منظر من مناظر هذه القصة لم اختره اختياراً وإنما هو كغيره من المناظر التي تستحق كلها أن تترجم وأن تتخذ نموذجا ومثلا لهذه الفن التمثيلي الجديد. وهذا المنظر حوار بين إيزابيل وبين الطائف:

الطائف - أكنت تنتظرينني؟

إيزابيل - لا تعتذر! فلو كنت طائفا مثلك لوقفت عند هذا الشفق وعند هذه الأودية، حيث لم أستطع إلى الآن أن أحمل الا جسما كثيفاً. إذاً لاستوقفتني الغدران والنبات الملتف وكل ما أقف عنده الآن! إذاً لما كنت هنا الآن لو أني أستطيع مثلك أن أطوف بظلي كما لا أستطيع الا أن أمسه أو أراه! إذاً لاتخذت لنفسي جسما من الأشياء كما أهوى عصفوراً على الغصن مرة! أو طفلا مرة أخرى! أو انحرف مرة ثالثة فأتقمص عوداً مزهرا من النسرين. إنما الاحتواء هو القرب الصحيح. . . ولكني ألومك لأنك أقبلت هذا المساء وحدك، وحدك دائما. لم تستطع أن تمس أحداً من ذويك ولا أن تحمله على صحبتك!

الطائف: لم أستطع.

إيزابيل: لقد فكرنا أمس بعد كل هذا الإخفاق أن أقدر الأشياء على أن يهيجهم، ويؤثر فيهم، ويوقظ ما يمكن أن يكون أعصاب الطيف، قد يكون صيحة طويلة، وشكوى متصلة متشابهة، تتردد في طول واتصال. كهذه الصيحة الحقيقية أو التي نحلم بها والتي تصدر عن القطار فتوقظنا أحيانا مع الفجر وتردنا إلى الأحياء. أو كصيحة سفينة أثناء الليل في الخلجان، تلك الصيحة التي تبلغ حتى الأسماك الرخوة في القاع. أبعثت هذه الصيحة؟ أأنفقت يقظتك في بعثها؟

الطائف: نعم!

إيزابيل: أنت بنفسك؟ أنت وحدك؟ ولم تلحق بصوتك شيئا فشيئا آلاف من أصوات تشبهه. .

الطائف: لقد اصطدمت بنوم الموتى.

إيزابيل: أينامون؟

الطائف: أيكون هذا نوما؟ لقد تسود اكثر الأحيان حيث يجتمعون رعشة، ثم ينساب فيهم نشاط جديد، حتى لقد ينبعث منه شيء يشبه الصوت أو انعكاس الضوء فإذا أقبل عليهم الطارقون المحدثون انغمسوا في اضطراب لذيذ تهدأ له بقية حياتهم يهزهم دائما ترجح الأرض الخفيفة. ولكن ربما اتصلت جماعتهم كلها، فكأنها قطعة من الثلج قد غمرها نوم الشتاء فإذا هبط إليها الموتى الوافدون غرقوا فيها مع شعاع يرافقهم، لأن نوم الأحياء شمس وبهجة.

إيزابيل: أكانوا كذلك أمس؟ أيفصل ذلك زمنا طويلا؟

الطائف: قرونا. . ثواني

إيزابيل: أليس من أمل في المعونة؟

الطائف: منهم، لا أظن.

إيزابيل: لا تقل هذا! إن بين الذين قضوا من حولي من أحسست أنهم قد ذهبوا إلى غير رجعة ومحيت أشخاصهم من كل حياة ومن كل موت. لقد أرسلتهم على العدم كما أرسل الحجر. ولكن بينهم من وجهتهم إلى الموت كأنما وجهتهم في مهمة، أو كأنما كلفتهم محاولة، يظهر الموت فيها وكأنه أقصى غايات الثقة. فكان يضطرب حول المقابر جو السفر والأماكن المجهولة. ولم اكن أميل إلى أن أودعهم باللفظ بل

بالإشارة. وكنت أحس أثناء المساء كله كأنهم يبحثون عن إقليم جديد وعن بيئة جديدة. وكانت الشمس مشرقة، وكنت أراهم هناك ينامون في شمسهم الجديدة. وكان المطر يسقط وكانوا يتلقون القطرات الأولى من أمطار الجحيم. فلن تقنعني بأن هؤلاء أيضا ينسون أو يسقطون متى انتهوا إلى
مستقرهم؟
الطائف: لم يصلوا لم أرهم.
إيزابيل: ولكنك أنت نفسك تلقي السلاح؟ وتكتفي من الأمل والرغبة بأن تهيم طائفا فوق مدينة ضئيلة؟
الطائف: المهمة خطيرة.
إيزابيل: ومع ذلك فها أنت ذا.
الطائف: إن بين الموتى من ينام وكأنه يقظان.
إيزابيل: إن هذا النائم المستيقظ يستخفي مع الصبح وما زلت مقيما.
الطائف: لقد جذبتني. لقد أوقعتني في الشراك.
إيزابيل: أي شراك؟
الطائف: إن عندك لشركا يجذب إليه الموتى.
إيزابيل: وأنت أيضا تراني ساحرة.
الطائف: إن سحرك لطبيعي حتى لكأنك قد عرفت فيم يفكر الموتى فأنت لا تهيئين لهم ذكريات ولا صوراً وإنما تهيئين لهم الشعور بانعكاس الصور وأجزاء الضوء قد استقر على زاوية من الموقد، على أنف هر، أو على ورقة كأنها الحطام الضئيل يطفو على الطوفان. . . . . أتريننى مصيبا؟
إيزابيل: وإذاً؟
الطائف: وإذاً فكل غرفتك في الظاهر غرفة للأحياء، لفتاة حية من أهل الأقاليم، ولكن من يحقق فيها النظر يرى أن كل شيء قد قدر لتكون هذه العلامة من الضوء على الأشياء المألوفة على إناء من الصيني أو مقبض من المقابض قد استبقى دائما بالشمس أو النار في النهار، وبالمصباح أو القمر في الليل. هذه هي حبالتك وقد كان حقا علي أن احتاط حين رأيتك في نافذتك ذات مساء. لم يكن وجهك المشرق هو الخطر. ولكني رأيت انعكاس اللهب على الحاجز أمام الموقد. ورأيت ضوء القمر على المنبه. ورأيت ماس الظلال. فأخذت!
إيزابيل: أخذك الشرك فمن أبقاك؟
الطائف: صوتك قبل كل شيء أحاديث صوتك هذه التي تجعل في الشفق كل مساء شيئاً تهيم به الظلال يشبه ما يرى الناس إن الطير تحبه من الشمس! وأبقاني بنوع خاص هذه الثقة الكريمة التي تمنعك حتى من أن تفكري في أني قد خدعتك وأني حي.
ثم تطلق النار فيهوى الطيف!
من الأدب الإنجليزي
للشاعر شلي
حجاج العالم
حدثيني أيتها النجمة ذات الأجنحة النورانية!
أيتها الروح التي تسبح في أفقها الوهاج
في أي كهوف الليل وأغواره أخفيت كيانك
وحدثني أنت أيها القمر. . يا كوكب الليل الأصفر الحزين
أيها الرحالة التائه في طريق لا معلم فيه ولا هاد
في أي أعماق الليل أو النهار تلتمس مأواك؟؟
وأنت أيتها الريح المتعبة الكليلة
التي تجوب الوجود مولولة كالطريد المنبوذ من العالم
أو ما زلت تبحثين عن عشك الشجري في عذبات الصفصاف والكافور؟؟
أغنية
هو طائر حزين جلس يبكي إلفا له قد مات.
لقد استوى في ذروة غصن من أغصان الشتاء //

وكانت الريح المقرورة تزحف فوقه.
والجدول المتجمد يدب تحته.
لم تكن ثمة ورقة خضراء تخفق في الغابة العارية الجرداء.
ولا زهرة ترف فوق الربوة الشاحبة الكئيبة
وكان الجو صامتاً زامتاً
إلا من أزيز الأرجاء البعيدة
إلى القمر
خبرني أيها القمر عن سر اصفرارك؟
أمن التعب الذي تلاقيه وأنت تتسلق السماء جاهدا محملقا إلى الأرض بين رفاق من النجوم تفاوتت أعمارها؟؟
خبرني لماذا لا يبدو عليك تغير ما، كأنك عين حزينة لا تجد في العالم ما يثير انتباهها؟؟
محمد عبد المعطي الهمشري
العلوم
التيفوس
للدكتور أحمد زكي
اليوم يوم من الأيام التي طواها القرن الثامن عشر بانطوائه. والبلد لندن حين لم يكن لها هذا الشأن الكبير، ولا لمرافقها الصحية هذا الخطر الكبير، ولا لأهلها هذه الثقافة وهذا اليسر المعروف. والدار دار المحكمة وهي التي تقع في سرة ذلك البلد العتيق. ففي ضحوة ذلك اليوم أخذ الناس يتوافدون على تلك الدار زرافات ووحدانا. هذا مجرم فاجر وفي عينيه القسوة وفي مشيته التحدي، يقوده رجال من الشرطة على حذر وريبة. وهذا مجرم منكسر الحال وفي طرفه الذلة يقوده شرطي، وهؤلاء نفر من ذوي هذا المجرم أو ذاك في أثوابهم تهدل القِدَموعليها لون السنين، وفي أحذيتهم خروق السعي المتواصل، وعلى وجوههم شحوب الجوع وهم الرزق وقذارة الفقر، أو صفرة المرض أو سحنة الإسراف في فنون الدعارات الرخيصة. وهذا أحد المحلفين جاء يمشي في زهو المسيطر، وخيلاء الحاكم، وإلى جانبه صاحب له يرفع عقيرته يجادل صاحبه في شأن من شئون القضاء، يريد أن ينبه من حوله من الطغام أنه خبير بالقانون بالرغم من كونه محلف، عالم بسياسة الملك وتقسيط العدالة على الرغم من أنه أختير من صفوف السوقة وغوغاء الرعية. وهذه عربة فخمة برز منها رجل أنيق الملبس ناعم الحال في وجهه حمرة النعمة وفي جلده دهن الموائد، جاء للتفكه والتسلية لما أعوزه ما يشغل به وقته.
أما في داخل الدار فقد أخذت المقاعد تمتلئ، ثم ما بين المقاعد ثم الزوايا والأركان، وامتلأ ما بين المقاعد والسقف بأنفاس ثقيلة تكاد تسقط، وأبخرة كثيفة ندية تكاد تتقطر، ورائحة تألفت من روائح ذات أسباب عدة كلها مما لا يطيب إلا في أنوف الكلاب. ودخل المحلفون فأثار اهتمام الجمهور وعلم الناس حينئذ أن القاضي يكاد يدخل القاعة، ولم يلبثوا أن صاح بهم صائح قي صوته قوة وإمرة (وقوفاً) فوقف الناس ودخل صاحب الجلالة القضائية وعلى رأسه عارية من الشعر بيضاء، كأنما تطمئن الناس إلى عدل القضاء. وجاء الناس وأفتتحت المحكمة وجيء بالمذنب بعد المذنب وقام الاتهام فصال وجال وبالغ في وصف الجرم ما شاء له حرصه على المجتمع أن تعبث به يد الفساد، وتذهب بطمأنينته نزعات من
الشر خالدة في نفوس البشر. وقام الدفاع فأنكر الجريمة فدفع الحجة بالحجة والغضبة بغضبة أشد منها وتقبضت كفاه، ولما لم يكن من حسن اللياقة دخول الأكف في النقاش أنهال على المنضدة حتى أوجع كفيه، ولكن ذلك كان ثمناً طيباً للأثر الطيب الذي كان لدفاعه عند الجمهور. وجاء دور المحلفين فقالوا كلمتهم، وجاء دور القاضي فنطق بالأحكام. وانقضى اليوم والجمهور بين راض وحانق. ومضى أسبوع فأسبوع فشاع في الناس أن رئيس المحلفين قد مات، فعلم الحانقون انهم كانوا مصيبين في حنقهم وإن الحكم كان خاطئاً، وقال الراضون إن هو إلا سهم طائح طائش عارض من سهام عزرائيل أصاب المرحوم اتفاقا. ومضى أسبوع وشاع بين الناس إن إثنين من المحلفين قد ماتوا، فزاد الحانقون حنقاً على الأحكام، وأخذ الراضون يرتابون من صحة

الميزان، ولكن الحق وضح واليقين تجلى لما مات القاضي بعد ذلك بأسبوع. وهل مات أحد من الجمهور؟ بالطبع لم يبلغ الناس شيءمن ذلك، وما كان من الممكن أن يبلغهم.

وجاءت جلسة قضائية تعقبها جلسة أخرى. فزادت الجنائز وامتلأت المقابر وسر الدفانون. فبان ما لم يكن بائناً من قبل، ذلك أن جمهور النظارة أيضاً حصد منه الموت أكبر حصاده، وزالت الرابطة ما بين الأحكام وبين الأموات، وعلم الناس إنه وباء من تلك الأوبئة التي يبعثها الله على عباده من حين إلى حين لغرض لا يعلمه إلا سواه، وخافوا تلك المحاكم واستشأموا منها وأسموها السوداء.

وفي هذا الشهر الحالي من القرن الحالي في مدينة القاهرة في أشد عيادات العالم المتمدن ازدحاماً وقذارة وسوء حال، وقع حادث كما ذكرناه فأصيب بضعة من أطباء القصر العيني ومساعديهم بنفس ذلك المرض الذي ذكرناه، ولكن علم الإنسانية بأعداء الإنسان زاد كثيراً، وفقهه للأوبئة تقدم تقدماً كبيراً، فما كادت تعرض الأعراض، على المنكوبين المذكورين حتى عرف المرض الخبيث وأسرع إليهم بالعلاج، أو بالقدر الذي يستطيعه الإنسان من ذلك في المرحلة الحاضرة من تقدمه في فهم هذا المرض، والذي نتمناه ألا تنشر هذه الكلمة حتى يدخل الأطباء المصابون دور النقاهة، والذي نتمناه أن يمن الله على من لم نسمع بهم ممن لاشك قد أصيبوا من المرضى الخارجين بالقصر العيني، والذي نتمناه أن يكون هذا درس نافع للجميع لا للقاهرة فحسب، بل في الريف كذلك.

أما التيفوس فمرض من أخبث الأمراض، ولاشك أنه قديم ولكن القدماء لم يتبينوه لاشتباه أعراضه بأعراض الحميات عامة، وهو قد يتوطن في الأقطار فتظهر منه إصابات قليلة، ولكنها ثابتة العدد لا تتغير إلا يسيراً، وقد يمتد في القطر فينتشر وباؤه فيحرث في الناس حرثاً، ففي الوافدة التي زارت أيرلندا عام 1846 حصد التيفوس من عاصمتها وحدها نحواً من ستين ألفاً. ويساعد على إحياء التيفوس ونشره ازدحام الناس مع سوء الغذاء والقذارة، لذلك تراه يظهر في الحروب بين الجيوش، وآخر أمثلة ذلك الوافدة التي زارت بلاد الصرب في الحرب العظمى، وذلك إن النمسا هاجمت البلاد الصربية لأول مرة فهاجر السكان من غير المحاربين إلى الجنوب في ازدحام وفاقة وعري وسوء حال، فأستيقظ الوباء النائم وبلغ أشده في عام 1915، وعندئذٍ خافت النمسا على جيوشها وكانت تنوي مهاجمة الصرب المرة الثانية فأجلتها، وقام هذا المرض الوبيل نيابة عنها ففتك بالصرب أشد فتك فمات منهم بسببه في ستة أشهر مائة وخمسون ألف نفس.

والتيفوس تنتقل عدواه بواسطة القمل، وبالقمل وحده على قدر ما حقق الباحثون. ومن الغريب أن هذه الحقيقة لم تدخل دائرة اليقين إلا في عام 1909 فأنهم حقنوا قرداً بمقدار من دم مريض بالتيفوس فانتقلت العدوى إلى القرد فربوا عليه قملا ونقلوا هذا القمل إلى قردة أخرى فأصابتها العدوى. وهذا يفسر لنا أن التيفوس يحصل إذا اجتمعت الزحمة والفقر وفي الحروب، ولقد صدق من أسماه (داء القذر) ويفسر لنا سرعة انتشاره من مريض لصحيح، ومن المريض للطبيب، ويفسر لنا أنه ينتشر في البلاد المعتدلة وفي الباردة على الأغلب في الشتاء أي في الحين الذي يرغب فيه الناس ولا سيما فقراؤهم عن الاستحمام وفي الحين الذي يزدحمون فيه في المساكن والقيعان رغبة في الدفء وهرباً من البرد.

أما سبب المرض فغير محقق تماماً إلى الآن. يظن بعضهم إنه فعل جراثيم دقت حتى عجزت عن رؤيتها أكبر المجاهر، وصغرت حتى عجزت مرشحات الجراثيم المعروفة عن حبسها، ولكن أكثر البحاث اليوم يرون أن هذه الجراثيم على صغرها يمكن ترشيحها، ودليلهم على ذلك أن دم المريض إذا رشح ثم حقن الراشح منه في جسم سليم لم تصبه

العدوى. وقد حاول كثيرون الحصول على هذه الجراثيم، ونجح كثيرون في الحصول على جراثيم، ولكن جراثيم الباحث لم تطابق في الصفات جراثيم الباحث الآخر، فدل ذلك على أنها عوارض، وبعضها لا يعطي المرض فهي ليست جراثيم المرض. ولعل أوثق ما أستكشف في هذا الصدد مما له علاقة بهذا المرض جسيمات صغيرة وجدها الباحث ريكيتس عام 1909 في دم المرضى ببلاد المكسيك، وأمن على وجود أشباه

لها فون فرو فازيك أثناء بحثه عام 1910 في بلاد الصرب، وجدها في باطن خلايا الدم البيضاء للمرضى، وسميت هذه الجسيمات بأسمي هذين الباحثين اللذين ذهبا ضحية المرض تشريفاً لهما وحفظاً لذكرهما. ومن بعدهما وجدت هذه الجسيمات في القناة الهضمية للقمل. والأبحاث في هذا السبيل لا تزال جارية تبعث بأشعة من نور ضئيل في ظلمات هذه العلة المبيدة.

وأعراض التيفوس تشابه من بعض الوجوه أعراض التيفود لذلك كانا يختلطان على الناس حتى جاء جرهارد عام 1837 ففرق بينهما. وسمى المرض الثاني بالتيفود ومعناها شبيه التيفوس: والمدة التي تمضي على دخول الميكروب في الجسم وظهور أعراضه تسمى مدة الحضانة، وبئست هي من حضانة، تتراوح ما بين خمسة أيام إلى واحد وعشرين يوماً، وتظهر الأعراض على الأرجح بغتة وقد تظهر بالتدرج. فترتفع الحرارة ويصحب ارتفاعها قشعريرة يصحبها صداع شديد وقيء، ويكون الهذيان أول الأمر زائطاً، ويظهر في نحو اليوم الخامس على جلد المريض طفح، وفي الوجه ثقل وبلاهة. وفي الأسبوع الثاني يصبح الهذيان تمتمة، وإن شاء له الله الشفاء والسلامة نزلت حرارته في نحو اليوم الرابع عشر فجأة وصحبها عرق غزير.

ولا سبيل لاتقاء التيفوس إلا بتطهير السكان من القمل، والقمل من الحشرات التي يمكن استئصالها ولو أن كثيراً من المصريين في الأحياء الفقيرة وبؤساء الريف يظنون أن القمل كالبق لا سبيل لاستئصاله، وربما أتينا في كلمة أخرى على طرق ذلك.

الفضاء وقياسه وتطور رأي العلم فيه

عرف من زمن بعيد أن طول الشيء الواحد يتغير قليلا بتغير وضعه بالنسبة لاتجاه سير الأرض، فمثلا إذا أخذت قصبة ووضعتها في اتجاه سير الأرض حول الشمس كان لها طول معين. فإذا أدرتها بحيث تصبح عمودية على اتجاه سير الأرض وجدتها أطول قليلا مما كانت عليه في الوضع الأول. هذا يتعارض طبعا مع الاعتقاد السائد بأن طول الشيء ثابت لا يمكن أن يتغير لمجرد تغير وضعه. والواقع أن هذا التغيير ضئيل جداً لا يظهر إلا في الحسابات الدقيقة وهو أضأل من أن يؤثر أي تأثير محسوس في تجاربنا العادية.

ولم يخطر بالبال أن هذا التغير الضئيل ستنبني عليه نتائج غاية في الخطورة إلى أن تطور العلم عرف سبب هذا التغير. وهاك بيان السبب:

من الثابت الآن أن كل جسم مادي يتألف من دقائق متناهية في الصغر تسمى كهارب بعضها متحمل بشحنة كهربائية موجبة، ويسمى بروتون وبعضها شحنة سالبة، ويسمى ألكترون. فالقلم الذي بيدي هو مجموعة هائلة من تلك الدقائق الصغيرة المكهربة وكذلك كل جسم آخر.

ومن الثابت أيضاً أن أي جسم مشحون بشحنة كهربائية إذا تحرك بسرعة فأنه يصبح مغناطيساً له خواص الجذب. وعلى ذلك إذا تحرك أي جسم مادي بسرعة كبيرة فأن كل دقيقة من دقائقه المكهربة يصبح مغناطيساً، فينشأ بينها تجاذب ينتج عنه انكماش في ذلك الجسم. وقد حسم العلماء مقدار هذا الانكماش بناء على القوى المغناطيسية الناشئة فوجدوه مساوياً تماماً لما يحدث فعلا للأجسام بحركتها مع الأرض.

وعلى ذلك صار من الثابت أن الجسم المتحرك ينكمش قليلا ولهذا الانكماش علاقة بمقدار سرعة الجسم، فكلما زادت السرعة زاد الانكماش وهكذا.

ولكننا نعلم أن في الكون كواكب مثل كواكب السدم اللولبية تتحرك بسرعة هائلة بحيث يصبح لها تأثير محسوس في حجوم الأجسام التي عليها. ومنها ما تبلغ سرعته حداً ينتج عنه حتماً انكماش كل جسم عليها إلى نصف الحجم الذي يكون عليه لو كان عندنا هنا على الكرة الأرضية. بمعنى أن الحجر هنا الذي يكون حجمه متراً مكعباً لو أنتقل إلى هناك ووضع على ذلك الكوكب وأصبح متحركاً معه لصار حجمه نصف متر مكعب فقط.

فإذا فرض مثلا أن في تلك السدم كوكباً مثل الأرض تماماً وعليه أشخاص مثلنا وحياة كحياتنا بالضبط لكان حجم الرجل هناك نصف حجم الواحد منا وكل شيءهناك ينقص حجمه بنفس النسبة.

ولكن ثمة سؤال غاية في الدقة والصعوبة وهو (أينا يا ترى الذي يتحرك بتلك السرعة الهائلة. نحن أم تلك السدم؟) إن كل ما نعرفه أن تلك السدم تبتعد عنا كذا ميلا في

الثانية. ولكننا لا نعرف أين المتحرك وأين الثابت. من السهل على سطح الأرض أن يقول الرجل هذا الشيء متحرك وهذا ثابت لأنه يقارنهما بسطح الأرض، فراكب القطار يخيل إليه أن عمود التلغراف هو الذي يجري إلى الوراء ويخيل إليه أنه هو جالس لا يتحرك ولكنه يعرف أن الحقيقة عكس ذلك، إذ ينسب حركة الأجسام إلى الشيء الثابت وهو سطح الأرض.

أما الحركة في الفضاء فليس لها ضابط تنتسب إليه، اللهم إلا إذا اعتبرنا مجموعتنا الشمسية ثابتة وكل ما عداها متحركاً، واعتبرنا أنفسنا مركز الوجود، وهذا غرور نربأ بأنفسنا عنه لعلمنا بأن شمسنا ما هي إلا واحدة بين ملايين الملايين من أمثالها، وإن من الشموس ما هو أعظم منها بآلاف المرات.

لا يحق لنا إذن أن نعتبر أنفسنا ثابتين وإن تلك السدم تطير مبتعدة عنا، لأن لتلك نفس الحق في أن تعتبر نفسها ثابتة وإننا الذين نطير مبتعدين عنها. وعلى ذلك فالحجر الذي نقيسه على سطح الأرض فنجده متراً مكعباً والذي قلنا عنه واثقين أنه إذا أنتقل إلى تلك السدم صار حجمه نصف متر فقط لا يحدث له شيءمن هذا إلا في زعمنا وعلى اعتبار أننا ثابتون، أما في عرف من يكونون عائشين على تلك السدم فالأمر بالعكس، وفي زعمهم أن هذا الحجر إذا قيس على أرضنا فحجمه نصف متر فقط وإذا أنتقل عندهم أصبح حجمه متر كامل.

إذن فحجم الشيء ليس بالقدر الثابت، بل يختلف باختلاف الشخص المشاهد له، والجزء الواحد من الفضاء يختلف مقداره باختلاف الشخص المشاهد له، والجزء الواحد من الفضاء يختلف مقداره باختلاف الموضع الذي يشاهد منه، فلا معنى إذن لعبارة (متر مكعب من الفضاء) ويجب أن نحدد هذا المتر بأن نقول (بالنسبة لرجل يعيش على كوكب كذا).

عبد الغني علي حسين. مدرس بمدرسة المنصورة الثانوية

القصص

في الأدب الإيطالي الحديث

الرواية في بونتاسياف!

للكاتب الإيطالي لوسيو دامبرا

(1)

في ذلك المساء بعد تناول الطعام، كانوا يتحدثون في شرفة (الفيللا) عن الشهرة، وكان رئيس الأركستر (فينيزياني) يلقى بسمعه في الحديث، وعلى ثغره ابتسامة حائرة، يتراءى فيها التهكم واضحاً جلياً، وبعد صمت عميق، قال:

- الشهرة. . . أوه!. اسمعوا إذن هذه القصة. ليس بينكم من لا يعرف (سيريني) المؤلف الشاب، المؤلف المسرحي الشهير. وقد أذكر إني سافرت معه من روما إلى فلورنسا بالقطار، فأيقظنا عند الفجر، صوت عامل يصيح: (بونتاسياف. بونتاسياف) ناحية كسائر النواحي، بل هي محطة عادية، تبعد عن فلورنسا بضعة كيلومترات، وليس فيها ما يستوقف المسافرين أو يلفت أنظارهم، ولكن الأدباء يا سادة ليسوا كغيرهم من المسافرين.

- صرخ (سيريني) بونتاسياف! ياله من أسم جميل!. . . إنه منتهى الرقة والعذوبة والطرافة! إنه ليبدو لي كل الروعة!

ولقد شعرت عند سماعه الشعور الذي أحسه، لو حدثوني عن حديقة (بوبولي) أو جسر (كرايا)!!

ووراء (بونتاسياف) هذه، لستُ ألمس مدينة فلورنسا بل فيورنزا التاريخية، التي أتخيلها بتلك الحديقة (الميديسية) وقد زخرت بنساء النهضة الفاتنات. وأكاد أسمع في أعماق نفسي تلك الأنغام الشجية التي كانت تعرف بها قصائد (بوليثيان) الرائقة.

أشاعر أنت بالجمال السحري الذي يغمر هذا الاسم؟ سأؤمها، سأؤمها، (بونتاسياف)!!

لأني أحبها كما يجب أن تحب، دون أن أعلم لماذا!!.

والمصادفات التي تخدم صرعى الغرام، أبت ألا تحقق أمنية عاشق (بونتاسياف) فلم تمض أسابيع، حتى اضطرته إلى الوقوف في ساحتها الكبرى (الوحيدة) أثناء سفره بالسيارة من

فينيسيا إلى روما، لأن البنزين، كان قد نفد حتى آخر قطرة.
ذهب السائق يبحث عن القليل من هذا السائل الثمين، وأخذ (سيريني) يطوف هذه القرية، فأتم طوافها في وقت قصير.
وفي الواقع (وهذا ما يدلنا دلالة واضحة على أن أحلامنا بعيدة كل البعد عن الحقيقة!) لم تقع أبصار (سيريني) على ما يذكره بحديقة (ميدسيس) أو شعر (بوليثيان)!
وداعاً أيها الحلم المعسول! حلم (ميدسيس) وقد زخرت بحسان النهضة الفاتنات!. . . ليس في (بونتاسياف) كلها أثر للخضرة بله المروج.
وداعاً أيتها الأصداء الشجية، التي تردد أنغام قصائد (بوليثيان) الرائعة، ليس في (بونتاسياف) الغارقة في قيلولتها الصيفية غير نغمة واحدة: بكاء طفل، متواصل، ملح، مزعج يبعث على السأم والضجر، تنفجر قنابله من حانوت صغير في مؤخر قهوة القرية الحقيرة.
وهذه القهوة، دخلها (سيريني)، ليدخن بضع لفائف، ويكتب عدداً من البطاقات البريدية إلى أصدقائه، فلما أتم ذلك كان الملل قد أستبد به، واستولى ولم يرقه قط أن يبصر السائق يعود في هذه اللحظة ويداه فارغتان. إن العثور على لتر من إكسير الحياة لأسهل بكثير من إيجاد قطرة بنزين في هذه القرية المتواضعة. . .! والحاجة كالقانون، تملي إرادتها إملاء وتفرض مشيئتها فرضاً لابد من إيجاد قليل من البنزين، مهما كلف الأمر، فليعد السائق، وليبحث عن هذا السائل الثمين.
يضجر (سيريني!) فيترك سيارته تنعم في ظل بيت صغير، هو أجمل البيوت، ويخرج إلى الساحة الكبرى حيث الشمس تذهب كل ما فيها وتلهبه، ويعود بعد قليل إلى سيارته ففيها على الأقل يستطيع أن يأخذ نصيبه من الراحة، فليتمدد فيها، وليرغم نفسه على أن ترضى بما لاتريد، وليتغنى بقطعة شعرية للشاعر (بوليثيان) وليهدئ من حركاته لعل الرقاد يلبي نداءه.
وأنه لكذلك، وإذا مصراع نافذة فوق رأسه يفتح، وتطل عليه مخلوقة فاتنة. . . تقابلت نظراتهما، فأحدثت في كل منهما ما تحدثه عادة، نظرات الرجل في المرأة والمرأة في الرجل. . وأخذت العيون تبحث عن العيون من طرف خفي حتى إذا تقابلت ازورت، وإذا ازورت تقابلت،. . وهكذا تم التعارف بينهما ولم يشاهد أحدهما الآخر قبل هذه الساعة.
وتخاطبت الأبصار بلغة سحرية، دون أن تتظاهر بأنها تتخاطب، وتفاهمت، دون أن تتظاهر بأنها تتفاهم واليكم ما قالته عيون المرأة للشاعر:
- أنت لطيف جداً! يا سيدي! أنت شاب أنيق جذاب من طبقة يندر أن ترى في ساحة (بونتاسياف) الكبرى. . . وبعد دقائق معدودات. يا سيدي الفتان. سيوافيك الشخص الذي تنتظره ولعله امرأة جميلة ترافقك في السفر. أو تفر معك!
وإذ ذاك. يزأر محرك السيارة. حيث يلتوي الطريق ستختفي إلى الأبد. أيها الحلم الجميل! ستختفي وأنت من تلك الطبقة التي لا تتسنى لنا مشاهدتها أكثر من دقائق قليلة خلال شقائنا الدائم ونحن بنات الريف التعسات اللواتي قضي عليهن أن يخلقن في الريف، وأن يتزوجن في الريف وأن يقضين الحياة في الريف خاضعات (لأمانة) يرتضينها على غير إرادة منهن
أيها الشاب الجذاب، الذي سيختفي بعد بضع دقائق! إنه ليلذ لي كثيراً، من هذه النافذة أن أتصل بك! والاتصال بك خطيئة النساء اللواتي على شاكلتي. . . !!!
وقد انبرت لحاظ الشاعر تجيبها:
- أنت جميلة أيتها المجهولة الفاتنة! أنت جميلة بعينيك البراقتين، وشعرك المسدول!) أنت جميلة بهذه الجدائل المجعدة على الطريقة القديمة، وهذا الثوب الأسود الذي ترتدينه أملس مصقول إلى درجة تسمح برؤية النقط البارزة في جسمك البض.
وهذه الدانتيلا التي تماشي هذا الصقل وتحده، في غاية الأناقة والظرف!
وهنا، في هذه النافذة التي تخفي من جسمك الغض ما تخفي، وتظهر ما تظهر، تتراءين في وسط الهالة المظلمة التي تكتنفك، في جمال تمثال، من تماثيل 1859، كأنك آلهة من آلهة العصور القديمة، بهذه الزينة التي لا يعرفها عصرنا، عصر الفساتين القصيرة، وعصر الفوكس - تروت!
لقد أضاع عصرنا ذلك الجمال البالغ!

وكم تروقين لي، أنا الشاعر المفتون، أيتها السيدة الحسناء! إنكِ لتملكين ما تجملين به (بوناسياف) أكثر من كل صورته لي مخيلتي!!
وإن لك وأنت تتظاهرين بعدم النظر إلي، بينا أنت لا تنظرين إلا إليّ إن لكِ وأنت تتصنعين التحديق في الأفق البعيد، بينا أفقك الواسع ينحصر في المساحة الصغيرة التي تشغلها سيارتي، إن لك ابتسامة حزينة تفتر عنها شفتاك الرقيقتان اللتان لم تشعرا بلذعة القبل الملتهبة ولم تتمتما بالجمل المغرية!
أيتها الريفية الحزينة التي زوجت منذ عشرة أعوام بمن لا تريد: بشيخ البلد! بالطيب! بكاتب العدل! - أيتها المرأة الشقية التي ترتضي أن تقضى في هذا المنزل قبل أن تعرف الحياة، والتي ترتضي أن تخنق في مهدها الأحلام المعسولة التي يسرح في عوالمها قلبها الخفاق، وتحلق في أجوائها مخيلتها الوثابة، بعد أن رضعت الخيال من القصص والروايات.
أيتها الريفية الحزينة، التي تستطيع أن تجد الحب في جميع الكتب، ولا تتصور أنها تستطيع أن تجده في غير المدن! أيتها الريفية الحزينة التي تتحسر على ألا تفهم من الحياة غير واجبات الزوجية، وعواطف الأمومة والتي تتحدد آمالها كل يوم، وفي مثل هذه الساعة. عند غروب الشمس!
أيتها الريفية الحزينة التي تبحث من فتحة هذه النافذة عن قليل من الهواء، وقليل من الفضاء، وعن قطعة من السماء، تبصر فيها النجم يشعل زهرته المتلألئة!
أي مدام (بوفاري) أي حرقة تعتلج في صدرك عندما تدركين أن الأسفار الجميلة التي تحلمين بها، لن تتحقق منها غير هذه الوقفة الكئيبة التي تقفينها كل يوم، عند هذه النافذة! أي مدام (بوفاري) (بونتاسياف)! ما أروع حب الاستطلاع الذي تنم عنه عيناك! عيناك اللتان تنظران إلي، دون أن تتظاهرا بالنظر إلي! عيناك اللتان تتكلفان البحث في البعد عما لا أدري وهما لا تبحثان في الحقيقة إلا عني، أنا الجالس في هذه السيارة التي جاءت من حيث لا تدرين، والتي تتأهب لان تذهب
إلى حيث لا تدرين! أه! لو كان يستطيع رجل مثلي أن يقف هنا، أو لو كنت تستطيعين أن تنزلي إليه وتركبي إلى جانبه في هذه السيارة وأن تختفي معه هنالك حيث يلتوي الطريق عند تلك النقطة التي تمثل حد العالم الذي أذن لك أن تعرفيه حتى اليوم!
آه لو كنت تستطيعين أن تذهبي معه. وألا تعودي بعد اليوم. . . . . !
(2)
هكذا تناجت منهما العيون، وقد طالت بينهما المناجاة لأن البنزين كان ما يبرح صعباً إيجاده، حتى في ضواحي (بونتاسياف)، وسيريني الذي بلغ من الشهرة حداً قصياً، واعتاد أن يعرفه الناس في كل مكان، طفق يحدث نفسه يقول: لا شك إنها عرفتني، لأن رسمي كثيراً ما ينشر في الصحف والمجلات، وهذه نظراتها التي لا ترفعها عني تدل بوضوح على إنها تعرف من أنا!. . وهي مهما كانت (بوفارية) لا يمكن أن تنظر بهذا الشكل إلى رجل عادي، يمر في طريقه بنافذتها!
ولا بد أن تكون قرأت لي، وقرأت لي كثيراً لأن ساعات الفراغ في الريف أطول منها في المدن، وإذن فللنساء وقت كاف فوق الكفاية، لأن يلتهمن الكتب مكاتب، مكاتب!!
وما دامت فلورانسا على قيد خطوتين من (بونتاسياف) فمما لا ريب فيه إنها ذهبت إلى مسارح التمثيل وأبصرت بعض رواياتي تمثل فيها، وربما رأتني عندما يستدعيني المتفرجون إلى المسرح لأحييه ويحيني بين عاصفة من التصفيق والهتاف!. وفي هذه اللحظة ظهرت في النافذة امرأة مسنة، أحاطت بوجهها هالة من الشعر الأبيض. فنظر إليها (مارك سيريني) وأستأنف حديثه مع نفسه: من المؤكد إن هذه المرأة أمها فهي تشبهها كل الشبه، وهذه أبنتها تسر في أذنها وأني واثق إنها تقول لها: (أترين هذا الرجل هو مارك سيريني) الكاتب المسرحي الشهير!!. . أجل، لاشك إنها قالت لها ذلك أو شيئاً يماثله، لأن الأم أيضاً أخذت تنظر إلي ولا ترفع بصرها عني!! انظرا إلي!. . انظرا إلي!. . أيتها السيدتان العزيزتان ترى هل أروق في أنظاركما؟
انظرا إلي ولا تغضا الطرف عني حياء (وخجلا) فقد فرض على أصحاب الشهرة أن يمتع الناس أنظارهم بهم!!
اختفت الأم، ولكنها لم تلبث أن عادت، وفي يدها مجلة عرف من جلدها الأزرق إنها مجلة (ألالليستراسيون) وفتحت الأم المجلة على حافة النافذة وأشارت بيدها إلى

صفحة فيها، تلفت أنظار أبنتها إليها، ثم عادت إلى التحديق في الشاعر: (لاشك إنهما تقابلان بين رسمي المنشور في المجلة وبين وجهي. . . أجل أيتها السيدتان أنا هو (مارك سيريني) لحماً ودماً. . أنا هو (مارك سيريني) الذي لم يك ليخطر له أن من الممكن أن تضطره
المصادفات للوقوف في (بونتاسياف). . . أنا هو (مارك سيريني) الذي سيرحل بعد قليل، ولكن بعد أن يكون قد ترك قلبه في هذه النافذة، لأنه شاعر، والشاعر مجنون، وهو هو هذا الجنون الذي أطبق عليه، وجعله مفتوناً بك أيتها المجهولة المغرية، إلى حد الوله!!.
وله؟. . . وأكثر من ذلك أيضاً!
هكذا في طرفة عين؟. . هكذا في طرفة عين!
ولقد استحال عدم اصطباره إلى شيء آخر، حتى إنه لم يستطع أن يخفي استياءه، عندما أبصر السائق يعود بعد أفول الشمس، وفي يده وعاء فيه قليل من البنزين، حصل عليه بأعجوبة من سائق أستوقفه على قارعة الطريق.
وأخذ (سيريني) يحدث نفسه: (لماذا وجدت البنزين أيها الأبله!. ألم تحدثك نفسك أن سيدك أمسى لا يرغب في الابتعاد عن هذا المكان؟ وإنه هنا وتحت هذه النافذة يمتع نفسه بالنظر إلى عيون حسناء مغرية؟ لقد كان خيراً له أن تعود فارغ اليدين ما دام قلبه قد امتلأ!!).
ولكن السائق الذي لم يك نبيا ولا يمت إلى نبي بصلة النبوة ولا صاحب كرامة تسمح له أن يشعر من مسافة ثلاثة كيلومترات أن سيده صار فجأة لا يرغب في البنزين لم يفهم التأنيب الخفي الذي يسدده إليه سيده لأنه بذل أكثر مما في وسعه حتى حصل على الوسيلة التي ستمكنه ان يرقد براحة وهدوء في سريره الوثير بروما!
علام هذا الصمت. . .؟ ما باله لا يتكلم والشمس توارت، والليل جن؟
أشعل الضوء في غرفة المجهولة الحسناء، فلم يعد في الإمكان تمييز وجهها الجذاب وعينيها الدعجاوين وغدا شبحها يتراءى أغبر قاتما وهذا الشبح لم يك أقل جمالا من وجهها وعينيها فهذا رأسها قد اتكأ على ساعديها بهيئة جميلة.
تهيأ كل شيء وأشعلت الفنارات!. . . فوا أسفاه على الزمن الماضي زمن الفنارات التي تضاء بالاسبتلين! ذلك الزمن الذي كان يضيع الإنسان فيه وقتاً طويلا ليجد ما يلزمه من ماء وكاربير! فلا يحصل على ما يريد إلا بعد الغضب والصخب. . ولكن المرء إذا كان عاشقا ولا سيما إذا كان يرغب عن السفر فان الفنارات القديمة تستطيع أن تؤدي له خدمات عظيمة.
وداعا أيها الحلم المعسول!
أخذت السيارة تجأر وأخذت تعدو وأخذت تبتعد وما زالت تجأر وتعدو وتبتعد حتى اختفت عند النقطة التي يلتوي فيها الطريق.
ترى هل يعود إلى (بونتاسياف)؟
. . .فابتسم (سيريني). . . لن يعدم سبباً للعودة
(3)
!!!لم يعد في الحال، ولكنه عاد
كان للشاعر في أحد أدراج مكتبه بروما رواية لم يتم منها إلا بضعة مشاهد. وهو مؤلف نشيط خصب الإنتاج سريع العمل إلى حد يفوق التصور. ولا شك ان هذه الصفات تبلغ حدها الأسمى إذا كان الحب يلهب منه الدماء ويسعر في قلبه الضرام. . .
وكان إذا اخذوا عليه حبه، لا يتردد في الإجابة: (يخفف المغرمون عن أنفسهم بالتنهد، أما أنا فبالكتابة!. . أحصوا أحصوا رواياتي تجدوا كل رواية بامرأة. . .)
ولما لم يكن للرواية الأخيرة امرأة فإن تقدمها كان بطيئا جداً. . . أما الآن وقد غدا وجه تلك الريفية الحسناء لا يفارق مخيلته فإن الشاعر اكتشف الينبوع الذي يستمد منه وحيه وإلهامه، وفي وقت أقل من القليل، أتم الرواية، ونقلها وقرأها لأصدقائه المخلصين. وراحت الصحف، تعلن عنها بحروف بارزة، أنها اعظم حادث مسرحي، لذلك الموسم.
وما كاد يذاع هذا النبأ الخطير، حتى هرع إلى (سيريني) عدد كبير من رؤساء فرق التمثيل، وعرضوا عليه مسارح روما، وميلانو وتوران ونابل لتقوم أشهر الفرق بتمثيلها

للمرة الأولى. وكان بين المتسابقين ممثل فرنسي شهير، حاول ان يحتكر تمثيل هذه الرواية الرائعة لفرقته، ولم يطلب لذلك أكثر من المدة التي تكفي للترجمة، وقد بذل جهوداً عظيمة لينيل باريس شرف تمثيلها لأول مرة، ولكنه لم يفلح.

وتقدم رؤساء آخرون يعرضون مسارح برلين وفينا ولندن لأن (سيريني) كانت له شهرة اوربية لا تقف عند حد، وقد سرت عدوى هذه الحميا إلى إحدى صاحبات العروش، فأسرعت إلى عرض مسرح البلاط الملكي!

أما الشاعر فقد كان يلازم الصمت، ولا يجيب بحرف، وكل ما فعله أنه أوعز إلى سكرتيره الخاص بتسجيل أسماء المدن التي تعرض عليه. وتجمع عليه أصدقاؤه وألحفوا عليه في السؤال:

- أي المدن اخترت؟. . روما؟ ميلانو؟ فلورنسا؟ توران؟ نابلي؟

كان (سيريني) لا ينبس ببنت شفة، وإنما كان يجيبهم بهزة رأس تدل على النفي كل الدلالة!

- إذن. هل اخترت مدينة أجنبية؟ باريس؟ برلين؟ فينا؟ لندن.

ولكن الشاعر لبث صامتا، رأسه وحده كان يتكلم!

فانفجر أحد أصدقائه وقال: إذن. . إذن أين؟؟

- هل اخترت مسرح (الماريونيت)؟. . مسرح (الفينيول)؟

أخذ (سيريني) يبتسم بوداعة وسكينة. . وأخيراً أجاب:

- ستمثل روايتي لأول مرة في (بونتاسياف)!!

في (بونتاسياف)؟؟

دهش الجميع، وطفقوا يحتجون في غير هدوء ولا سكون، أما (سيريني) فانه لبث يبتسم ابتسامته الغامضة ويعيد في غير ملل:

- قلت لكم في (بونتاسياف)!!!. . . كفى!!!

ولم يستطع أحد بعد ذلك أن يستدرجه إلى قول جملة غير هذا، فتسارع أصحاب المسارح ورؤساء الفرق والممثلون وسفراء الملكات إلى داره ليروا: أمازح هو أم جاد؟ أم اعتراه جنون مزاح؟. . . كلا!. . إن (سيريني) وهو جالس إلى منضدته يعيد بدون ملل: (ستمثل روايتي لأول مرة في بونتاسياف)! وقد زاد على ما تقدم: (هاهي مستريحة في هذا الدرج، على غاية ما ترون من الصحة، ولم يصف لها أي طبيب تبديل الهواء اللهم إلا إذا كان هواء بونتاسياف).

فأخذ بعضهم ينظر في وجوه بعض والدهشة ترفع من عيونهم الحواجب، وتقطب الجبهات، وشرعوا يتساءلون عن سبب هذا العناد، فاختلفت آراؤهم وتضاربت، ولكن أحداً منهم لم يستطع إدراك الحقيقة.

وقد أسرع رؤساء شركات التمثيل بالرجوع إلى القطار لأنه لم يك بينهم من يفكر في (بونتاسياف) عادوا مخفقين وأكثرهم كان قد تعاقد سلفاً على تمثيلها في أشهر المدن وأكبر العواصم! ولكن تمثيل رواية جديدة، للمؤلف المسرحي الشهير (مارك سيريني) عملية رابحة، تدر الذهب الكثير فهل يتركها الجميع؟ كلا لقد قبل أحدهم (وكان أمريكياً) أن يمثلها لأول مرة في (بونتاسياف) لأنه بحساب أمريكي، رأى أن هذه العملية ستدر عليه أرباحاً أمريكية أيضاً. . وهكذا تعاقد مع المؤلف ووقع الاتفاق، ولما كانت شركات التمثيل المنظمة لا تستطيع أن تذهب بممثليها إلى (بونتاسياف) حيث لا عمل لهم، فقد وعد أن يهيئ في ثمانية أيام، فرقة خاصة لتقوم بتمثيلها ثلاث ليال متواليات. . . وبعد ستة شهور يمنح امتياز الرواية للفرق العادية لتمثلها في كبريات المدن وأمهات العواصم.

حلب. إيزاك شموش

الكتب

آراء بعض المستشرقين في الشاهنامة

الشاهنامة هي الملحمة الفارسية التي نظمها الفردوسي في تاريخ ملوك الفرس من بداية تاريخهم إلى عهد بني ساسان زمن الفتح الإسلامي، فبلغت 60 ألف بيت نقلها إلى العربية نثراً الفتح بن علي البنداري من أدباء القرن السابع الهجري وظلت هذه

الترجمة سراً في ضمير الزمان حتى كشفها الدكتور عبد الوهاب عزام فقارنها بالأصل الفارسي وأكمل ترجمتها في مواضع، ثم صححها وعلق عليها وقدم لها مقدمة جامعة في مائة صفحة من القطع الكبير فدل بذلك على سعة اطلاع وفضيلة صبر لا يؤتاها إلا القليلون من أبطال العلم وجنود المعرفة. وإليك نبذاً مما أرسله إليه المستشرقون تقديراً لجهده وتنويهاً بفضله.

وقال الأستاذ نيكلسون أستاذ الأدب الفارسي بجامعة كمبردج ما ترجمته:

(أهنئكم على الطريقة الجديرة بالإعجاب التي أخرجتم بها هذا الكتاب الكبير الذي لابد له من بحث طويل وجهد كبير. وإذا اعتبرناه ضخامة الكتاب تبين الجهد الخارق للعادة الذي بذلتموه لإخراجه في هذا الزمن القصير)

وقال الأستاذ جيب أستاذ الأدب العربي بجامعة لندن ما يأتي بنصه العربي:

(هذا وقد اغتنمت أول فرصة لأتصفح هذا الكتاب الضخم وأستفيد بمجهوداتكم العظيمة في نشره والتعليق على متنه ولابد من الاعتراف بتعجبي من أتساع هذا العمل الذي قد تكفلتم به وبإتمامه وبإعجابي بحسن نجاحكم في ذلك ولاسيما بالمدخل الممتع الذي قدمتموه لمتنه).

وقال الدكتور ريتر وكيل جمعية العلوم الألمانية بإستانبول ما يأتي بنصه العربي:

(وقد وصل خطابكم في الشاهنامة فإنه لا يفارقني من أسابيع وهو والله كتاب تعجبت منه وأعجبت به. انتقدته فوجدته ذهباً إبريزاً. وأنا والله شديد في الانتقاد. قد أخذت من طريقة العلم الأورباوي صحيحها واجتنبت سقيمها وصرت لنا أخاً في العلم بل أستاذاً فيه. ولو ذكرت فضائل كتابك بالتفصيل لصار هذا المكتوب كتاباً آخر طويلا. ومما سرني خاصة معالجتكم المسائل المتعلقة بتحقيق المتن والحكم في الأصول المختلفة والتفريق بين أنواع التعاليق. فإن ذلك شيء يهمله كثير من المستشرقين. ثم البحث في مسألة التراجم القديمة للخداينامة وغير ذلك مما يدل على دقة نظركم والاعتناء في البحث وترك إدعاء شيء

بدون دليل واضح وبرهان مقنع ثم طريقتكم في توضيح الكتاب بعضه ببعض، والاعتناء بذكر الكتب المقتبس منها، وترتيب الفهارس المفيدة. كل ذلك مما يسر عين الناظر في كتابكم.)

جولة في ربوع أفريقيا

رد على مقال

أشكر للأخ الفاضل الدكتور محمد عوض حسن تقديره وجميل عطفه وتشجيعه وآسف جد الأسف لأني لم أوفق لكتابة جولتي بحيث تصادف هوى في نفسه فهو (كما خيل إلي) كان يريدها قصة تنقل عن يومياتي دون أن تغفل حتى أجور السفر وأماكن المبيت ومواقيت الارتحال والإقامة في كل بلد حللته وما إلى ذلك من التفاصيل التي لا شأن لها في نظري ولو فعلت ذلك لأخرجت دليلاً هو إلى كتب السياحة (أمثال بدكر) أقرب ولأغفلت غرضاً أنا شديد التمسك به في جولاتي كلها، وهو أن أثير الناحية العلمية والجغرافية كلما أتاحت لي مناسبات الرحلة ذلك.

ويأخذ الأستاذ علي أني تكلمت عن أماكن لم أطرقها وقصصت عن شعوب لم ألقها وضرب لنا مثلا، بلاد الكنغو وروديسيا وشعوب الشلوك. وأنا لم أكتب عن تلك البلاد إلا بمناسبة ما شاهدته من غلاتها التي كانت توسق في ميناء بيرا البرتغالية طيلة إقامتي بها وهي المنفذ الرئيسي لمنتجات بلاد روديسيا والكنغو. أما عن شعوب الشلوك فأني لاقيتهم مراراً وحققت بعض ما أعلمه عن سيرتهم وبخاصة في الملاكل من أعالي النيل الأبيض.

ويرى الأستاذ أن بعض النقص الذي نسبه إلى الكتاب راجع إلى إغفالي كتابة مذكرات يومية. مع أن هذا ما أفعله دائماً ولم أتهاون فيه ليلة واحدة في جميع جولاتي الإفريقية والآسيوية والأوربية غير أني لا أنشر من تلك المشاهدات إلا ما أراه ضرورياً وما تسمح به ظروف النشر.

ولو أراد الدكتور بصفة خاصة أن يطلع على يومياتي لوجدها طوع أمره. أما عن الهفوات التي أشار الأستاذ اليها فها أنا أبين ما عن لي فيها:

يقول الدكتور إن كلمة شيبا الإنجليزية هي سبأ العربية. وأظن إن هذا عين ما قلته فذكرته كلمة (شيبا) بين قوسين بعد ذكر كلمة سبأ العربية.

وهو ينبهني إلى أن نهر النيل (لم يصبح أعظم أنهار الدنيا وهناك ما هو أطول منه وأوفر ماء) وأنا لم أتعرض لطول النهر ومائه. ولا أزال على رأيي في أن النيل أعظم أنهار الدنيا على الأقل من وجهة نظري كمصري وحق لنا جميعاً تمجيده والإشادة بذكره
وعظمته. ومتى كانت عظمة الأنهار يا صديقي مقصورة على أطوالها ومقادير مائها؟
ويقول الأستاذ إن غابات أثوري في غرب جبال رونزوري فلا أستطيع أن أراها من فورت بورتال وأنا لم أقل في كتابي إني رأيتها. هذا فضلا عن إن أهل البلاد كانوا يشيرون اليها من فورت بورتال، وهم يطلقون عليها هذا الاسم على رغم ما أعلمه أنا وأنت من أن أكثفها حقاً ما كان على الجانب الغربي.
كذلكلم أقل قط يا سيدي الدكتور بأن للغوريلا ذنباً وذلك أمر يعرفه حتى صغار الطلبة، ولكني ذكرتها في مقام التشبيه إذ قلت إن الواحد من الزنوج يبدو كأنه الغوريلا أو القرد الكبير. فالذؤابة التي تتدلى من أعجاز القوم تشبه ذنب القرد ومظهرهم العام يحاكي الغوريلا.
أما قطن الجزيرة فغلة شتوية وقد كنت هناك في أواخر سبتمبر ولم يكن القوم قد بدءوا زراعته بعد. وهو يجنى في أوائل الربيع كما قلت غير أن تحديد الشهور بالضبط أمر غير ميسور، فنحن هنا في مصر مثلاً لا نبدأ زراعة القطن في شهر واحد في كل البلاد ولا في كل السنين فقد يتراوح البدء بين شهر وشهرين.
وقبل أن أختتم كلمتي أكرر للأخ الفاضل عظيم شكري وكبير إجلالي واحترامي.
محمد ثابت

حول قصة مصرية

قرأت في العدد السابع من مجلة الرسالة الغراء قصة مصرية بعنوان (حكمت المحكمة) لكاتبها (السيد أبو النجا).
وهذه القصة مصرية حقاً لأنها تصف ناحية من الحياة الاجتماعية المصرية في الريف. ولكنها من الوجهة الفنية قد شابها عيب جوهري أفقدها روعتها وأضعف عنصر الحياة فيها فالقصة كما كتبها صاحبها لم تحرج عن إنها قشور للقصة الحقيقية التي كان يجب أن تظهر على سواها وتكشف عن العوامل التي أدت إلى هذه المأساة.
أما خطة القصة الحقيقية التي كان يجب أن تكون فتتلخص في ما يأتي: -
1 - كيف اتصل إبراهيم أفندي بابنة الأعرابي؟
2 - كيف كانت العلاقة بينهما؟
3 - كيف ظهرت هذه العلاقة وعرفها والد الفتاة. هذه هي العناصر التي كان يجب أن تظهر في القصة. ومع شيءمن التحليل يبين أثر العواطف والمشاعر، ويكشف عن المحاولات التي بذلها إبراهيم أفندي في الوصول إلى غايته.
وقد كان من الطبيعي وقد خلت القصة من هذا العنصر الأساسي أن يلجأ واضعها إلى (الحوادث) فيسردها سرداً كأنها خبر من أخبار الصحف اليومية.
العدد 9 - بتاريخ: 15 - 05 - 1933

شروح وحواشي

في المرأة أيضا

كتبنا في العدد السابع كلمة عن العيد جاء فيها أن غياب المرأة عن المجتمع الإنساني جر عليه فيما جر الجفاء والجفاف والسآمة والفوضى. فوقع هذا القول من الجنسين البارز والمستتر موقع التسليم والرضا. ولكن قليلا من صالحي الإخوان لا يزالون يرون إقصاء المرأة عن الحياة العامة أمراً من أوامر الدين، وقاعدة من قواعد الخلق، فكتبوا إلينا وإلى بعض الصحف يفندون هذا الرأي بحجج انتزعوها من أحاديث الظنون، وهواجس الخوف، ومواضعات العرف.
أما صلة الحجاب بالدين فقد فرغ من توهينها العلماء من أمد طويل. وشديد على العقل أن يسلم بأن البدويات والقرويات ومعظم الحضريات (ومجموعهن يربى على تسعين في كل مائة من جميع المسلمات) قد تعدين بسفورهن حدود الله منذ ظهر الاسلام، ولم يأخذ على أيديهن إمام ولا حاكم حتى اليوم.
وأما الاعتقاد بأن احتجاب المرأة هو الضمان الوحيد لحصانتها وعفتها فذلك إفلاس للتربية، وسوء ظن بالدين، وإلقاء بالنفس إلى الرذيلة!

فلو أن الفتاة وهي صغيرة فتحت عينها على القدوة الحسنة، وأذنها لصوت الواجب، وقلبها لنور الله لوجدت من روحها القوى وضميرها النقي وزرا من الفتنة وعصمة من الغواية.

فالتربية الصحيحة إذن هي الضمان الذي لا يضر معه سفور، ولا ينفع بدونه حجاب، وهي وحدها السبيل المأمونة إلى الغاية التي قصدناها من تلك الكلمة، ولا زلنا نعتقد اعتقادا لا ظل عليه للريب أن غاية الكمال الاجتماعي أن يكون الرجل في كفة والمرأة في كفة من ميزان المجتمع، وتلك هي السنة التي فطرنا عليها الله، والنظام الذي فرضته علينا الطبيعة، والواجب الذي يتطلبه العدل، أما المجتمع الأعرج الأشل البليد الخشن، فغير جدير بالسباق ولا باللحاق في هذا العصر الطموح الطائر، ومجتمعنا بغير المرأة هو ذلك المجتمع: فهو اعرج لأنه يمشي على رجل واحدة، أشل لأنه يعمل بيد واحدة، بليد لأن حدة العواطف تنقصه. خشن لأن لطافة الأنوثة تعوزه.

لاحظ مجلسا من مجالسنا احتشدت فيه الرجال شبابا وشيبا فماذا تجد؟ تجد الحركات العنيفة، والأصوات الناشزة، والمناقشات الفجة، والأحاديث الجريئة، والكلمات المندية، والذوق العامي، والإحساس البطيء!

لاحظ هذا المجلس نفسه وقد حضرته امرأة (امرأة واحدة ليس غير) تجد الحركات تتزن، والأصوات ترق، والمناقشات تنتج، والأحاديث تحتشم، والكلمات تنتقى، والذوق يسمو، والإحساس يدق، ذلك لأن الرجل حريص بطبعه على أن يجمل سمته في عين المرأة، ويحسن صوته في أذن المرأة، ويسوغ رأيه في عقل المرأة، والأخلاق المكتسبة تبتدئ بالتطبع وتنتهي إلى الطبع.

جهل الأولون وظيفة المرأة فلم يعرفوها إلا متاعا وزينة، لذلك اشتد تنافسهم فيها وتنازعهم عليها واستئثارهم بها حتى ضربوا دونها الحجب، وأحصوا عليها الأنفاس، وبثوا حولها العيون، فجعلوها بذلك قينة لا شريكة، ومملوكة لا مليكة، وكان من جريرة ذلك عليها أن وهن جسمها لقلة العمل، وساء خلقها لفقد الحرية، وضعف تفكيرها لترك التدبير، وغفل ضميرها لعدم المسئولية، فلم تفكر إلا في حللها وحليها، ومدافعة الضرائر والجواري عن نصيبها من زوجها. . . لقد كان للأسلاف ولا شك عذر في إقصاء المرأة عن مكانها من المجتمع وخير أعذارهم انهم كانوا ينظرون إلى المرأة نظرهم إلى الكنز الثمين،. وكان من عادتهم في الكنوز أن يدفنوها في الأرض أو يحفظوها في الخزائن. ذلك إلى أن عمرانهم لم يكن من السعة والتعقد بحيث يطلب نشاط الجنسين جميعا، فحملَ الرجال وحدهم أعباءه وقالوا:

كتب الموت والقتال علينا ... وعلى الغانيات جر الذيول

أما نحن فبأي عذر نعتذر وعلى أي حجة نعتمد؟ إن الأمم الراقية التي نعاصرها ونصارعها لم تزل تنظر إلى المرأة نظر الأسلاف إليها، ولكنها عرفت كيف تحتفظ بالكنوز وتستفيد منها، فهي تعرضها اليوم في المتاحف أداة علم ومتعة، وفي المصارف رأس مال وقوة. وعمراننا قد زخر واستبحر حتى اعتدى فيه العمل على الراحة، والتنافس على العدل، والقوة على الحق، وتسلح الغربي في جهاد الحياة بقوى الطبيعة في السماء والأرض، ونحن ما زال نصفنا اللطيف قاعداً عن الإنتاج عاطلا من العمل.

أنا لا أريد أن ندفع بفتاتنا في أتون الحياة المستعر فتحمل الفأس، وترفع المطرقة، وتقعد للبيع، وتجلس للحكم، إنما أريد أن تعطى حريتها الطبيعية في حدود عملها الطبيعي، وأن تعلك كيف تساهم في شركة الزوجية، فتربي الولد، وتدبر البيت، وتدير الأسرة، وتعدل ميزانية الرجل، وتشعر أنها تعمل متضامنة مع بنات جنسها وبني قومها لتكوين أمة متماسكة الأجزاء وثيقة البناء لا ينال من وحدتها شهوة من هوى، ولا نزوة من جهل.

ذلك ما قصدنا إليه في تلك الكلمة الموجزة بسطناه اليوم بعض البسط لعل فيه جلاء لما اختلج في بعض النفوس من هذا الموضوع.

لعل في الثرثرة فائدة!

تريد (العاصفة) البيروتية أن تضع الموازين القسط للأدباء، فتقول فلان أحسن وفلان أساء، وهي لم توفق إلى إدراك الغرض القريب من الكلمة الواضحة التي وجهناها في

عددنا الماضي إليها!! فقد قلنا لها ما خلاصته (أن محاولة التفريق بين أدباء العرب طيش ورعونة، وان التعصب للبلد كالتعصب للقبيلة نزعة بدوية ونغمة مملولة) ففهمت من ذلك أن الرسالة تقول: (. . . إن الإشادة بفضل أدباء سورية ولبنان على النهضة الأدبية في مصر ضرب من الطيش، وإن الإيجاز في الكلام نعرة بدوية ونغمة مملولة) فإذا كان هذا مبلغ فهم العاصفة للكلام، فقد أخطأنا حين مضضناها بالملام، فان اللوم على العجز ظلم، والمناقشة مع الخبث مهاترة!

أحمد حسَن الزيات

أدب القوة وأدب الضعف

للأستاذ أحمد أمين

يروون أن جماعة من آل الزبير كانوا يجتمعون إلى مغنية فيسمعون ويطربون حتى إذا استخف الطرب أحدهم (وهو عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير) قال فيها:

أحلف بالله يميناً ومن ... يحلف بالله فقد أخلصا

لو أنها تدعو إلى بيعة ... بايعتها ثم شققت العصا

فبلغت هذه الأبيات أبا جعفر المنصور فدعاه إليه وعنفه على قوله، وعيّره بضعف آل الزبير من هذه الناحية إلى أن قال له (حتى صرت أنت آخر الحمقى تبايع المغنيات، فدونكم يا آل الزبير وهذا المرتع الوخيم!)

وسخر المنصور من هذا الضرب من القول. وهذا النوع من الحياة، وقال إنما يعجبني أن يحدى لي بهذه الأبيات:

إن قناتي لنبع لا يؤيسها ... غمز الثقاف ولا دهن ولا نار

متى أجر خائفاً تأمن مسارحه ... وإن أخف آمناً تقلق به الدار

هذه القصة تمثل نوعين من الأدب: فنوع يصح أن تسميه أدبا رقيقاً، وإن كنت أشد صراحة فسمه أدبا ضعيفاً أو أدبا (مائعاً) كما يصح أن تسمي النوع الثاني أدبا قويا أو أدبا رصيناً.

ولست أعني بالضعف أو القوة ضعف الأدب أو قوته من الناحية الفنية، وإنما أعني ضعفه وقوته من الناحية الخلقية والاجتماعية، فقد يكون هذا النوع الذي أسميه ضعيفاً أو مائعاً في منتهى الرقي من الناحية الفنية، كما قد يكون الأدب القوي ليس قويا بالمقياس الفني.

وهذه القصة تمثل لنا أيضاً أن الأدب المائع والقوي أثر من آثار الحوادث والظروف، فقد فشل آل الزبير سياسياً ولم تتحقق مطامعهم. فاستولى عليهم اليأس وانصرفوا إلى اللهو وانسوا بالسماع وما إليه واحتقروا الخلافة حتى ليهمون أن يبايعوا جارية مغنية، ويحدث عبد الله بن مصعب هذا عن نفسه فيقول: إذا غنتني هذه الجارية.

حسبت أني مالك جالس ... حفت به الأملاك والموكب

فلا أبالي واله الورى ... أشرق العالم أم غربوا

أما المنصور فنجح وأسس ملكا ضخما، ووصل إلى هذا النجاح بقوته وحزمه، لذلك كان أحب شعر إليه شعر القوة والعظمة والحمية.

يخيل إلي إنا إذا ألقينا نظرة عامة على الأدب العربي من هذه الناحية رأينا الأدب الجاهلي قويا (كجلمود صخر حطه السيل من عل) حماسة قوية، وفخر قوي، بل وغزل قوي، والأدب الإسلامي إلى آخر العهد الأموي، أدب قوي، فيه عزة الفاتح، وإعجاب الناجح، ونشوة المنتصر، وإن كان فيه نغمات ضعف فنغمات الحزب الذي غلب على أمره، أو المحب الذي يئس في حبه، أما من عدا هؤلاء ففخر وإعجاب، وهجاء في أعلى درجات القوة.

فإذا نحن انتقلنا إلى العصر العباسي رأينا العزة العربية تأخذ في الضعف، ورأينا الانهماك في اللهو يبعث أدباً جميلا في فنه، ضعيفاً في روحه، فيقول رئيس المجددين في عصره بشار بن برد:

قد عشت بين الريحان والراح وال ... مزهر في ظل مجلس حسن

وقد ملأت البلاد ما بين قغفو ... ر إلى القيروان فاليمن

شعرا تصلى له العوانق وال ... ثيب صلاة الغواة للوثن

وتوالت النكبات على الشرق من ظلم وجور وسوء في كل نظم الحياة الاجتماعية

فكان الأدب العربي ظلاً لهذه الحياة (كان أدبا ضعيفاً)، إن أنت حصرته وجدته بين باك على مصائب الدهر كأبي العلاء، ومادح للولاة والأمراء والأغنياء. ومستهتر يصف استهتاره وصفاً أنيقاً بديعاً يرضي الفن ولا يرضي الروح، وما اخترع من الفنون كان من هذا الضرب، مقامات للبديع والحريري بنيت على التسول والاستجداء، وإفراط في المجون، أو إفراط في التصوف، وكلاهما فرار من حياة الجد والنثر حمل كل أنواع الزينة من سجع وبديع، فكان كالفتاة تسرف في التجمل الصناعي لما شعرت بنقصان جمالها الطبيعي.

ولم يظفر العالم العربي من العهد العباسي إلا بأفراد قلائل منحوا من القوة في أدبهم ما كان موضع الإعجاب كالمتنبي والبارودي، وكلاهما كانت قوته صدى لحياته، فالمتنبي فارس شجاع كان في أكثر شعره يسجل وقائع سيف الدولة مع الروم، ويدوّن مظاهر القوة

والفروسية، والبارودي كذلك رب سيف وقلم، فكان قلمه مسجلا لآثار سيفه، وقليل كان أمثال هؤلاء. وإلا فخبرني عن شعر البطولة والفروسية والحياة والقوة بعد، وأين الشعر الغنائي الذي صدر عن شعور بالعزة القومية في الأدب العربي؟ أليس عجيباً أن نرى شعر البهاء زهير وقد كان في أسمى منصب من مناصب الدولة وكان مشرفاً على الحروب الصليبية ومساهماً في تدبير شئونها لا يذكر لنا في شعره شيئاً من أغاني الفروسية، ثم ينصرف بكله إلى الغزل المائع. على حين أن الصليبيين خلفوا لقومهم أغاني وأشعاراً صليبية قوية، ولم يخلف لنا الأدب العربي في هذا الباب الا ما كان تافهاً ضعيفاً، لعل السبب في هذا ان المسلمين كان موقفهم في هذا موقف دفاع لا هجوم (وما غزي قوم في عقر دارهم إلا ذلوا).

وبعد، فكل عاطفة من عواطف الإنسان (على كثرتها وتعددها) موضوع للأدب، وخير الأدب ما انبعث عن عاطفة صحيحة لا مريضة، فالشعر المتناهي في وصف ما يلاقي المحب من عذاب والذي يذوب رقة وحناناً ليس (في نظري) مؤسساً على عاطفة صحيحة كالذي في شعر العباس بن الأحنف وأمثاله، وهذا الشعر وإن أرضى الجمهور ولذ لهم هو في كثير من الأحيان أجوف، وهو في كثير من الأحيان نتاج عاطفة مريضة.

وليس من الحق أن يبيع الإنسان عواطفه بهذه السهولة (والشاعر المجيد) هو الذي يثير العواطف بقدر، ويبنيها على أساس عميق، أما إن هو تغالى في ذلك وأثار عواطف حادة لأسباب واهية كان أدبه أدباً خفيفاً ضعيف القيمة مهما استلذه الناس وأعجبوا به.

هناك عواطف حنان، وعواطف إجلال. وعواطف جمال وعواطف قوة، وهناك ما يثير البطولة، وما يدفع إلى المجد، وما يدفع إلى اللهو، وكلها صالحة للأدب، وكلها في نظر الأدب سواء وان اختلفت قيمتها في نظر الأخلاق، ونظر دعاة الاصلاح، فالأخلاقي يرى أن الأدب الذي يثير لذة حسية أقل رقياً من أدب يثير شعوراً أخلاقياً كالإعجاب بالبطولة، واحتمال الآلام في سبيل أعمال جليلة، وأرقى الأدب في نظرنا ما أحيا الضمير وزاد حياة الناس قوة.

وأغرب ما في الأمر أن أدبائنا الذين انتفعوا بالأدب الغربي وعملوا على نقله إلى الأدب العربي أفرطوا في نقل هذا النوع من الأدب المائع وفرطوا في نقل الأدب القوي، وسبب

ذلك أنهم جاروا ميول الجمهور وسايروا رغباته فكانوا تجاراً أكثر منهم قادة، والجمهور إنما استلذ هذا النوع لأنه من قديم ألف البكاء، وكانت حالته الاجتماعية تدعو اليه، ولأنه ترك جده على كاهل غيره ففرغ للهو.

وكان هذا النوع من الأدب أضر بالشرقي من ضرره بالغربي، لأن الغربي عنده بجانب هذا الأدب الضعيف أدب آخر قوي، فإذا بعث الأول حناناً ورقة، بعث الآخر قوة وجلداً، فتعادلت حياته وتغذت نواحي عواطفه. أما الشرقي فليس له تراث حاضر من أدب قوي يسند ضعفه ويحيي نفسه، وسبب آخر وهو أن الشرقي (على العموم) ذو عاطفة أحد وهو لها أقل ضبطاً، فإذا نحن غذيناه دائماً بهذا الأدب الحاد زادت عواطفه ميوعة، مع أنه أحوج ما يكون إلى ما يقوي عاطفته ويضبط جموحها.

الحق أن الأدب عود ذو أوتار ويجب أن تكون أوتاره على نظام ما عند الإنسان من عواطف جدية وهزلية، ورقيقة وقوية، وضاحكة وباكية، ورخيصة وغالية، والعود الذي يوقع عليه الأديب الشرقي ناقص الأوتار، تنقصه الأوتار القوية والأوتار التي تبعث

الحياة، والأوتار التي تبعث الضحك ليتلوه جد، والأوتار التي تهز النفس لتملأها أملاً، والأوتار التي تبعث النغم بصور بطولة، والتي تبعث النغم ليوقظ من سبات، عود الأديب الشرقي على نحو عود المغني الشرقي، أشجى أغانيه أحزنها، وخير نغماته أبكاها.

فهل يتقي الله الفنانون والأدباء في الجيل الناشئ فيصلحوا أغانيهم ويكملوا ما نقص من أوتارهم، ويستدركوا ما فاتهم، وينشدوا طويلا نشيد الحياة، كما أنشدوا من قبل طويلاً نشيد الموت؟

ساعة مع الأستاذ الجليل أحمد لطفي السيد بك

دقائق مجهولة من حياة الإمام محمد عبده

كانت نسائم الأصيل في مصر الجديدة قد أخذت تنفح جوها المحرور بالطراوة المنعشة حين غمزنا الجرس مستأذنين على الأستاذ الجليل أحمد لطفي السيد بك، وكان جوسقه الأنيق غريقا في سكون فلسفي حالم، وحديقته البهيجة ترف على جوانبها الأربعة بالجمال والعطر فتذهب عن صمته الانقباض وعن سكونه الوحشة، وكان كل شيء يقع عليه طرفك في الحديقة والدار يعلن عما وراءه من مزاج حكيم، وذوق فنان، ونفس شاعرة.

كان الأستاذ على عادته يستريض مع أرسطو في كتابه (الطبيعة) وهو السفر الثالث الذي يخرجه للناس من آثار المعلم الأول، وفي رأيه انه أجلّ كتب أرسطو وأدلها على سمو عبقريته وسر نبوغه. لقينا في البهو لقاء ذوي البيوتات الكريمة والأبهاء القديمة فسلّم في أريحية وحيا في هشاشة، ثم خيرنا بين مجلس الدار ومجلس الحديقة فاخترنا هذا، وجلس ثلاثتنا على كراسي قصيرة القواعد وثيرة المقاعد حول منضدة مستديرة فوقها مظلة صيفية على طراز ما يستعمله المصطافون على شواطئ البحار وفي فنادق الجبال، وجلس الأستاذ الحكيم قبالتنا على كرسي له ظلة كالعلبة المستطيلة تقي الجالس فيها وهجة شمس، أما كلبه الضخم الجميل فقد ذهب يتهادى في المماشي المزهرة، ومن حين إلى حين كان يعود ليداعب السامرين على قدر ما يفهم من الدعابة.

أخذ الأستاذ يطارحنا الحديث (على نحو ما كان يتحدث إلى تلاميذه صديقه أرسطو زعيم المشائين في مماشيه المظللة) بصوته النقي العذب، وجرسه العربي الواضح، وأدائه المتئد الموزون، ولهجته (الشرقاوية) التي ينثرها عمداً في خلال الحديث فتكسبه ظرفاً ورقة. ولطفي بك مسامر حلو النغمة، فكه اللسان، متفنن الحديث، متخير اللفظ، فلو رحت تكتب ما يقول لكان قريب الشبه مما تكتب. وبراعة الحديث صفة امتازت بها طبقته التي تأثر بها وأثر فيها من أمثال محمد عبده وسعد زغلول والهلباوي، فأنت في حضرتهم لا تشتهي الكلام لأن لذتك في أن تسمع، ولا تثير الجدال لأن همك في أن تستفيد. ومجلس لطفي بك يصدق الصورة التي رسمتها له في ذهنك قبل أن تلقاه من شهرته المستفيضة وأعماله المنشورة: فبديهته حاضرة وفكره نفاذ وبيانه أخاذ واطلاعه شامل ومنطقه مستقيم وهو يتوخى في حديثه الإفادة واللذة فسامعه لا ينفك راضي العقل ريان العاطفة.

وقصارى ما تقوله فيه أنه خلاصة الجيل الماضي بأسره، وتطبيق صحيح لمدرسة الأفغاني وعصره. وأوضح مظهر لهذا التطبيق كان في نزعته السياسية وطريقته الكتابية. ففي (الجريدة) نهج للناس سياسة مصرية خالصة لا تتصل بالدعوة العثمانية ولا بالجامعة الاسلامية، وفي (الجريدة) ابتكر للكتاب أسلوباً لفظه قدر لمعناه، ووصفه طبق على موصوفه، وسبيله قصد إلى غايته. فكان مذهباً جديداً جرى عليه الصحفيون إلى اليوم وأصدق الأمثلة عليه أسلوب صاحب البلاغ.

ولطفي بك بارع في سلسلة الحديث سريع إلى اقتناص المناسبة فلا تخشى على الحديث في مجلسه أن يبوخ ولا على الصموت في محضره أن يحرج.

قال حينما استقر بنا الجلوس يعيد التحية ويفتتح السمر: أنا أقرأ ما تكتبونه في (الرسالة) بشوق ولذة. . . ويسرني ان الكتابة في مصر قد بلغت من الكمال الفني حد الاعجاب، فأصبحت للألفاظ دلالتها الدقيقة، وللأوصاف بيانها المقصود، أما الكتابة في (أيامنا) فكانت بالتقريب، فمعاني الكاتب تقريبية وألفاظها الدالة عليها تقريبية، والأثر الذي تتركه في نفس القارئ (إن كان مبهم أو تقريبي) فقال له أحدنا:

- ولكن سواد القراء يقرءون اليوم بالتقريب
- طبيعي! فالكاتب أيام كان يكتب بالتقريب كان القارئ لا يقرأ وإذا قرأ لا يفهم، فلما ارتقى الكاتب إلى التدقيق ارتقى القارئ إلى التقريب.
ولقد تصرف كتاب العصر في فنون الكتابة فعالجوا بها شتى الأغراض في براعة وحذق. ولذلك لا أوافق الدكتور طه على جعله النثر لسان العقل والشعر لسان العاطفة فان من النثر ما يكون شعراً.
ثم تشاجن الحديث وتشقق بعضه من بعض فتناول المويلحيين والخضري وشوقي وأبا النصر والأفغاني والطويل حتى أدى إلى علاقته بالشيخ محمد عبده فقال:
- تخرجت في مدرسة الحقوق وأنا في الثانية والعشرين من عمري فرغبت الأسرة في زواجي فأوعز أبي إلى أمي ان تكلمني في ذلك فأبيته، ولم يشأ والدي أن يفاوضني بنفسه في ذلك الأمر فلجأ إلى الشيخ عبده وكانت المعرفة قد اتصلت بينهما بسببي فدعاني الشيخ
إلى داره. . . .
- لقد كان حسنا من الإمام أن يجمع قلوب الشباب حوله ويتدخل بالنصح في أمورهم الخاصة.
- لم يكن الأمر في التعميم والإطلاق على ما فهمت، فقد كان الشيخ في علاقته بالناس على انقباض وتحفظ والشباب أنفسهم هم الذين سعوا إليه والتفتوا حواليه لأنه كان بطبعه رجل ثورة، ولأن اتصاله بصالون نازلي هانم ومصطفى فهمي وكرومر أوهن أسبابه بالقصر وأيبس ما بينه وبين الخديوي، ولأنه كان يدعو إلى الإصلاح والتجديد فكان قريباً بنزعته إلى هوى الشبان، ولأنه كان ينتدب في كل عام لامتحان طلاب الحقوق المنتهين وقد اتصلت به معرفتي بسبب ذلك الامتحان نفسه. . .
- شت!! فكف الكلب المطيع عن النباح وكان ينبح شيئا أو شخصا خارج السور.
- فجاء الكلب الوديع حتى دنا من سيده.
- فانتبذ مكانا قريبا ونام.
ثم عاد الأستاذ إلى حديثه يقول: اقترحوا علينا في امتحان الإنشاء أن نكتب في هذا الموضوع: كيف كان للحكومة حق عقاب المجرم؟ وجعلوا زمن الإجابة أربع ساعات على ما أظن. فكتبت المذاهب الأربعة التي قررها العلماء في هذه المسألة ثم عقبت عليها ففندتها ونفيت أن يكون للحكومة على أي شكل من أشكالها (حق) عقاب المجرم لأنها قائمة على القوة لا على الحق. وأسرفت في التدليل على ذلك حتى ملأت الكراسة ثم خرجت فذكرت لرفاقي ما أجبت به فاضطربوا واكتأبوا وقرروا جميعاً أني لا محالة راسب، ثم اشتد من جانبهم اللوم والتقريع حتى ذهب من نفسي كل أمل في النجاح فلما كان يوم الامتحان الشفهي وقف الشيخ فقرظ موضوعي وكان قد وضع الدرجة النهائية، ولكنه نصح لي أن اقتصد الآن في هذه الآراء إشفاقا علي.
وكم للشباب من شطط في الآراء.
زرت الشيخ بعد ذلك في جهة شارع الشيخ عبد الله نائبا عن فريق من الطلبة التمس منه أن يقرأ لنا درساً في التفسير بمسجد الفتح على مقربة من مدرسة الحقوق، فأجاب الملتمس وانضم إلينا طلبة من دار العلوم فكنا بين الثلاثين والأربعين. وهنالك قويت الصلة بيني
وبين الشيخ حتى بلغت حد الألفة.
وفي سنة 1897 سافرت في الشتاء إلى جنيف لغرض سياسي، فانتهزت هذه الفرصة وانتسبت إلى جامعتها في دروس في الأدب والفلسفة أقامتها في الصيف خاصة للحاصلين على درجة علمية، واتفق أن جاء الشيخ وسعد بك زغلول وقاسم بك أمين مصطافين وكان المرحوم قاسم بك يشتغل في كتاب تحرير المرأة وكان يقرأ لنا غالبا بعد الظهر في كتاب للفيلسوف الفرنسي (تين) ومن العجيب إننا كلما التوى علينا فهم عبارة كان الشيخ وهو أقلنا علماً باللغة الفرنسية، يجلو لنا غامضها.
سافر سعد باشا وقاسم بك وبقى الشيخ عبده فانتسب معي إلى دروس الأدب واقبل عليها بجد ومثابرة، وأذكر أن أستاذ الأدب كان قد قرر علينا فيما قرر كتاب (روي بلاس) لفكتور هوجو نقرأه وندرسه ثم نناقشه وننقده في الدرس أمامه فلما جاء يوم

المناقشة أدلى كل طالب برأيه والأستاذ يعقب على الآراء فيخطئ ويصوب ويصحح حتى نخرج آخر الأمر بطائفة صالحة من الآراء الصائبة. وخرج الشيخ شديد الإعجاب بما رأى وسمع وقال: هكذا يكون التعليم! نحن في بلدنا لا نعلم واعتزم أن يدخل هذه الطريقة في الأزهر.

كان مراحنا ومغدانا قبل الدرس وبعده إلى حلوانية تجاه الكلية تدعى (اكسلين) ويأبى الشيخ رحمه الله إلا أن يدعوها (اخصلين) على الرغم من وسامتها الظاهرة. وكان زيه وعمامته قيد الأبصار وموضع التساؤل ومستجر الحديث في كل مكان نحله. وهنا ذكر الأستاذ بعض الطرف التي تدل على ظرف الشيخ ولطف روحه ورقة شمائله ثم قال:.

. . وكان من عادتنا أن المتقدم منا ينتظر المتأخر عند هذه الحلوانية حتى نذهب إلى الدرس معاً. ففي ذات يوم جئت قبله فانتظرته ثم انتظرته حتى مضى الوقت الذي كان يصل فيه عادة إذا تأخر وكانت الجامعة قد استقدمت أحد العلماء الطبيعيين ليحاضر في استحضار الأرواح والدخول عام والزحام لا بد شديد، فلما أزف موعد المحاضرة ولم يبق إلا دقائق قلت للفتاة: إذا جاء الشيخ فأخبريه أني انتظرته إلى قبيل المحاضرة. ثم مضيت فدخلت مدرج المحاضرات من بابه الأعلى وأخذت مجلسي بين الحضور. ولشد ما كانت دهشتي حين وثبت إلى عيني عمامة الشيخ جالساً في الصفوف الأمامية بين سيدتين جميلتين، يميل على هذه مرة وعلى تلك أخرى!! فداخلني من أمر الإمام ما لم أكن أعهده. ثم خيل إلي أن الزمن يبطئ والدرس يثقل لأن رغبتي كانت تلح في الوقوف على جلية الخبر. فلما انتهت المحاضرة أسرعت في النزول إليه وفي عيني دهشة وعلى وجهي تعجب وبين شفتي كلام! وتبين الشيخ ذلك في هيئتي من بعيد، فصاح قبل أن أحدثه:

- تعال يا لطفي أقدمك إلى البرنسيس!!

وقدمني إلى الأميرتين نازلي وخديجة!

وكان ذلك أول معرفتي بالأميرتين المصريتين فدعتانا إلى الشاي في الفندق الفخم الذي تنزلانه.

وفي سنة 1898 رغب الشيخ أن يقضي معي أياما بالبلد. فما علم بمقدمه رجال الإدارة والقضاء بالمنصورة حتى توافدوا إلى لقائه، وفيهم المرحوم حشمت باشا، وحفل المجلس بالناس على اختلافهم ودار الحديث. فقال الشيخ فيما قال أن السيد جمال الدين كان يقول: إذا أردت أن تحكم على أخلاق أمة فاجلس في قهوة من قهوات الفقراء، فما انطبع في نفسك من الانفعالات فاحكم به على هذه الأمة من غير تحرج، فأخذت أنقض هذا الحكم وأفنده والشيخ يدافع عنه ويؤيده فاستحييت أن ألح في معارضة الشيخ في المجلس فأمسكت.

وفي العصر ركبنا جوادين، وخرجنا نرتاض في المزارع والحقول فعدت إلى ذلك الموضوع فقال الشيخ لا أدري لماذا لا تصدق هذا؟ أليست قهوة الفقراء تجمع الفقير الذي سيبقى فقيراً، والفقير الذي سيصير غنياً، والغني الذي صار فقيراً؟

وفي سنة 1905 أذكر إن الشيخ كان قادماً من الوجه القبلي وأظنه كان في السودان، فنزل عندي بالمنيا وكنت يومئذ نائبا بها، وحضر للسلام عليه رجال القضاء الأهلي والشرعي ووجوه البلد. فلما احتشد المجلس بالجمع قال أحد العلماء من رجال المحكمة الشرعية أن كثيراً من النصارى يدخلون في الإسلام فتضاعف بذلك شغلنا. فقال له الإمام: فيم تشتغل أيها الشيخ؟ فقال نعلمهم أركان الدين. فقال له: يكفي أن تقول له صل وصم وزك وحج فقال ولا بد أن نعلمه الوضوء. فقال قل له اغسل وجهك ويديك إلى مرفقيك وامسح رأسك واغسل رجليك، فقال ذلك لا يكفي ولا بد أن نعلمه حدود الوجه من أين يبتدئ وإلى أين ينتهي، فقال الشيخ بصوته الجهير في شيء من الحدة: سبحان الله يا سي الشيخ!! قل له يغسل وجهه! كل إنسان يعرف حدود وجهه من غير حاجة إلى مساح!!

وهنا استأذنا الأستاذ الجليل في الانصراف على نية العودة إليه من حين إلى حين فنستزيد من طرائف هذه الأحاديث.

الزيات

هل للشعر المرسل مكان في العربية

للأستاذ محمد فريد أبو حديد. وكيل المدرسة التوفيقية الثانوية

يسر الرسالة أن تقدم إلى قرائها صديقاً من خيرة أصدقائها وهو الأستاذ محمد فريد أبو حديد صاحب (ابنة الملوك) التي تحدث عنها بالخير الأستاذ جيب في العدد الماضي، ومؤلف (صلاح الدين) وكاتب (المرحوم محمد) ومترجم (فتح العرب لمصر) لبتلر.
والأستاذ فريد من أصفى أدبائنا شعوراً وأخصبهم قريحة وأوفرهم انتاجاً، وهو جندي باسل من جنود الأدب العربي، أغرم بالقراءة والبحث والكتابة وأسرف حتى خامره من ذلك داء مؤلم موئس عقله عن إخوانه وتلاميذه وقلمه بضعة شهور، فنحن بتقديمه اليوم إنما نقدم التهنئة الخالصة لأصدقائه بسلامته، والبشرى الطيبة لعشاق أدبه بقراءته.

(التحرير):

قرأت مقالين قيمين في الرسالة بعنوان (مجمع البحور) تعرض فيهما كاتباهما المفضلان إلى الشعر المرسل ومكانه في اللغة العربية. وليس بالعجيب أن ينفر بعض الكتاب من أسلوب لم يألفوه كما أنه ليس بالعجيب أن ينكر الأديب بدعة في الأدب العربي إذا ظن أن تلك البدعة قد تدخل إليه ما لا يزينه أو ما قد يتخذ سبيلاً إلى التزييف والابتذال. ولكنا مع ذلك لا نجد بدا من التسليم مع المنطق السليم بأنه إذا كان يراد إدخال بعض أنواع من التأليف في اللغة العربية فلا بد من وسيلة لفك قيود القافية. فالقافية غل متين يمنع الاسترسال في القول وإذا كان الاسترسال والإطالة لازمين كانت القافية حجر عثرة لا بد من إزالتها. فالشعر القصصي والرواية الشعرية لا بد فيهما من ترك القافية أو الاحتيال عليها لأنه من الطبيعي في الشعر القصصي أن يصور الشاعر صوراً كثيرة واضحة قد يحتاج في تصويرها إلى نظم آلاف الأبيات. وبذلك يحتاج الشعر القصصي إلى أن يكون النظم حراً لا يلتزم فيه قافية تضطر الشاعر إلى ما يجعل المعنى مبهما أو مقتضبا. وفي هذا وحده علة وجود الشعر المرسل في لغة مثل اللغة الإنجليزية.

وإنما يورد للشعر المرسل عيبان أولهما أنه يحرم الأذن من موسيقى القافية. والثاني أنه يحطم الحدود بين الأبيات فلا ترتاح الأذن إلا ما اعتادته من الوقف في آخر كل بيت والترنح مع الوزن من بدء مقدور إلى خاتمة منتظرة. وهذا قول لا شك في أن به حقا كثيرا، فمن أراد الموسيقى والغناء فلا بد له من شعر موزون خفيف الروح إذا بدأت أول قطعة منه توقعت ما يليها، وإذا سمعت جرس القافية في أول بيت توقعت تمام المتعة بجرس ما بعدها. غير أنا لا نقصد أن يكون شعر الأغاني مرسلا فإنما للمرسل موضع غير الأغاني وهو كما ذكرنا ضرورة يلجأ إليها من أراد الإطالة في غرض من الأغراض.

وقد قال أدباء ممن يؤثرون الإبقاء على القافية في كل صنوف الشعر أن الشعر المرسل لا ضرورة إليه، فإذا شاء امرؤ أن يطيل وصفاً أو يؤلف قصة فما من شيء يمنعه من أن يفك نفسه من قيدي الوزن والقافية جميعاً ويجعل قوله نثراً صافيا. وليس في مقدرة أحد أن يقنع الناس برأيه في مسألة أدبية بأكثر من أن يعرض عليهم ما يستطيعون بناء حكمهم عليه، فان الحكم في مسائل الأدب مرجعه إلى الذوق وموقع الكلام من النفس. وليس من قصد أحد أن يتعصب لأسلوب خاص، فانه لا مأرب لأحد في ذلك إلا أن يكون لذلك الأسلوب في نظره ميزة على سواه. على أن مجال القول فسيح لمن شاء الانتصار للشعر المرسل، فانه فوق النثر في أنه موزون وللوزن حظ من الأثر الموسيقي الذي يمتاز به الشعر، كما أن الشعر المرسل يجعل الأديب ينحت قوله على نمط مقدر، فتخرج المعاني في ثوب مقدود على قدر ومقياس ينحيانه عن الفضول ويكسبان الأسلوب شيئا من الأناقة التي تنشأ عن اختيار الألفاظ الموافقة للوزن وتزويقها وتوثيق الاتصال بينها.

وبعد فالمثل أولى من تلك الحجج. ولهذا قد آثرنا أن نختار قطعة من تأليف ملك الشعر المرسل وهو شكسبير في روايته المشهورة (عطيل) وأنّا عارضوها على القراء مترجمة مرتين، مرة منهما من قلم الشاعر الكبير (خليل مطران) في نثر سهل حلو أدى المعنى أداءً دقيقا في أكثر المواضع ولكنه على كل حال لا يعاب عليه شيء في سلاسته ووضوحه. والترجمة الأخرى من قلم رجل آخر واتته المقدرة على أن يؤدي المعنى الإنجليزي في شعر مرسل. ورأينا ان نقرن بين الترجمتين حتى يمكن للقارئ أن يحكم بينهما ويحدث لنفسه رأياً في أفضلهما. والقطعة المختارة هي نبذة من

الموقف الذي كان بين (ياجو) و (عطيل) يحاول فيه (ياجو) أن يظهر نفسه في مظهر الصديق الناصح ويدس في حديثه سم سوء الظن يبعثه إلى قلب (عطيل) ليجعله يحقد على زوجته الفاضلة راميا من وراء ذلك إلى غرض مادي شخصي ظن أنه لن يبلغه الا بالقذف في امرأة عطيل وتصويرها في
صورة من تهوى رجلاً آخر اسمه (كاسيو). كان ذلك الواشي (ياجو) يريد الإيقاع به. وعطيل يحب امرأته حباً شديداً فكان على الواشي المخادع أن يحكم حيلته ومكره حتى يستطيع أن يثير الشك
في قلب ذلك الزوج المحب. فابتدأ متظاهرا بالتردد في اتهام الزوجة وجعل يلمح إلى إن الشرف أغلى متاع للمرء حتى إذا ما رأى (عطيل) ينساق مع الغيرة جعل يتظاهر بذم غيرة الأزواج على نسائهم حتى دفع الزوج المسكين إلى أن يفتح قلبه وعقله للاتهام. وهذا البدء هو الموضع الذي نقلناه.
قال مطران في ترجمة تلك القطعة:
ياجو: حسن السمعة للرجل والمرأة يا سيدي العزيز أثمن جوهرة من حلي النفس. من يسرق كيس نقودي يسرق شيئا زريا. كان لي واصبح له وكان قبلنا لألوف آخرين. أما الذي يسرق حسن سمعتي فيختلس شيئاً لا يغنيه ويجعلني فقيراً جهد الفقر.
عطيل: وأيم السماء لأعرفن أفكارك
ياجو: لن تعرفها ولو كان قلبي في يدك. فهل تصل إليها وذلك القلب في حراستي.
عطيل: آها!
ياجو: أي مولاي أحذر الغيرة. تلك الخليقة الشوهاء ذات العيون الخضراء التي تسخر مما تتغذى به من لحوم الناس. الرجل الذي يثلم عرضه فيعرف مصابه ويكره جالبه عليه سعيد. سعيد بجانب ذلك الذي يقضي الدقائق الجهنمية شغفا إلا انه مستريب. عاشقا أشد العشق ولكن تساوره الشكوك.
عطيل: يا للشقاء!
ياجو: الفقر مع القناعة غنى بلا جاه عريض. أما النعم التي لا تحصى فتكون فقراً عقيماً عقم الشتاء البارد للذي يخشى أبدا أن يصبح معسرا. اللهم يا ذا الراحم أعف من الغيرة نفوس أمثالي.
عطيل: لم كل هذا، أتظن إنني سأعيش هذه العيشة مغيِّرا ظنوني كلما تغير هلال. كلا. متى نفذ الريب ثبتت النفس على حالة معه. تبدل مني بتيس قطيع يوم أدع نفسي بين أيدي الشبه التي تحدثها كل دسيسة. أنا لا تستفز غيرتي بأن يقال لي إن امرأتي جميلة وأنها
لطيفة المحاضرة وأنها تحب معاشرة الناس وأنها طليقة النفس في أحاديثها وتغني وتلعب وتحسن الرقص، كل هذه الأفعال تكون فاضلة متى كانت المرأة فاضلة. الخ
وقال المترجم الآخر في تأدية القطعة نفسها:
ياجو: شرف الإنسان أغلى (سيدي).
من سواد القلب هذا يستوي
فيه من كانوا ذكورا أو إناثا.
إن من يسرق مالي إنما
نال مني تافهاً غير خطير
إنما المال متاع هيّن
فلقد كان معي ثم مضى
ليديه بعد حين مثلما
كان قبل الآن عبداً لألوف
إنما سالب عرضي نال ما
ليس يغنيه وقد أفقرني
عطيل: قسماً لا بد من كشف ضميرك
ياجو: لا. لن تكشفه حتى ولو
كان ذاك القلب ما بين يديك
لا. ولن أفصح ما دام هنا
بين أضلاعي.

عطيل: ها!
ياجو: أيها السيد حاذر (لا تطع
هذه الغيرة) حاذر إنها
غولة ذات عيون خضرة
إنها تسخر من مقتولها
بعد أن تنهشه - كن حذرا
إن من يعرف في زوجته
أنها تخدعه، لكنه
ليس يهواها فلن تزعجه
إنما البؤس لمن في شكه
يتلظى والهوى يكوي فؤاده
عطيل: وا شقاءاه
ياجو: موسر من كان في الفقر قنوعا
وأشد الفقر مال طائل
مع خوف الفقر. ربي نجني
من لظى الغيرة واحفظ منه أهلي
عطيل: لم هذا القول؟ هل تحسبني
ذلك الغيران يمضي هائما
سابحا في غير من شكه
مثلما يسبح في أبراجه
قمر الليل؟ فلا كنت إذن
إنني إن كنت أمضي هائما
مثلما تحسب لم أبلغ سوى
مبلغ التيس. ولكن عزمتي
عزمة لا شك فيها إن بدا
لي وجه الريب. إني لا أرى
سببا للريب عند امرأتي
لو يقول الناس عنها أنها
ذات حسن. تشتهي الأكل اللذيذ
أو تحب الناس. أو ثرثارة.
أو تغني. بل إذا ما زعموا
أنها تلعب أو تحسن رقصا
ليس هذا الوصف عيبا. إنه
صفة محمودة عند العفاف.

ولعلي أستطيع أن آتي لقراء الرسالة ببعض أمثلة أخرى من هذا النوع من أساليب القول. تاركا لهم أما الانتصار له وإما خذلانه. فإذا وجدوه صالحا كان بابا يستطيع ذوو المقدرة من شبان الأدباء أن يلجوا منه إلى ميادين فسيحة.

العشق النجمي

للدكتور محمد عوض محمد

لئن كنت أيها القارئ ممن وقاهم الله غائلة العشق، ولم تنفجر في صدورهم قنابل الغرام، ولم تضع المقادير قلوبهم بين سندان الشقاء ومطرقة البلاء، إذن فأحمد الله، واشكرجدك الباسم!

لكن إذا كنت خلياً فاذكر الشجي، ولا تمنعك السعادة من أن ترثي للشقاء؛ فأن لصرعى الغرام عليك حقا، أن تذرف من أجلهم لتراً أو لترين من الدمع الساخن، ثم تسقي به ثراهم وتروي به الطلحة الحزينة التي تظل جدثهم.

وأني محدثك اليوم عن ضرب جديد من العشق، أو على الأقل ضرب كنت أحسبه جديداً. . إلى أن ألفيته قديماً، شأن كل الأشياء التي يطلع علينا بها المجددون. .

بيد أن العشق الذي نحن بصدده، إن لم يكن جديداً، فقد استحدثنا له اسماً جديداً. ودعوناه (العشق النجمي). . وهو كما ترى

أسم طريف؛ ليس في الكتاب من سبقنا إليه. . . ولا خير في كاتب لا ينهض للجليل من الأمور فيبتدع لها الجديد من الأمور فيبتدع لها الجديد من الأسماء.

وأول من أصيب بالعشق النجمي فيما نعلم؛ أو على الأقل أول من سجلت أصابته رسمياً، هو العباس بن الأحنف إذ يقول عن حبيبته:

هي الشمس مسكنها في السماء ... فعز الفؤاد عزاء جميلا
فلن تستطيع إليها الصعود ... ولن تستطيع إليك النزولا

هكذا كان ذلك العشق المسكين: يطلب ما ليس إليه سبيل، ويظمأ والشراب عزيز، ويشتهي وقصارى جهده أن يشتهي.

ولعمرك مادام مناط حبه الشمس، فليس حظه منها سوى التطلع والتحديق، والزفير والشهيق. . هل كان يعلم عفا الله عنه! أن بينه وبين الشمس 92 , 000 , 000 ميلا في الصيف و 93 , 000 , 000 ميلا في الشتاء؟ وهي في كلا الحالين بعيدة المنال، ليس إليها في شتاء ولا صيف وصول.

ومن العبث أن ننصح أمثاله من العشاق أو نعذلهم، أو نطلب إليهم أن يصرفوا هواهم إلى الممكن المتيسر، والقريب الداني. وان يراعوا صحتهم، فأن في طلب المحال سقماً وسهداً وإن التحديق في الشمس يضني القلب كما يضني البصر. . ولكن هيهات . . . إن المحب عن العذال دائماً في صمم.

وأحسب القارئ قد أخذ الآنيفهم ما أعنيه بالعشق النجمي. وأظنه يتوهم أن العشق النجمي هو عشق الشيء البعيد المنال. . لكن هذا ليس الذي أرمي إليه. إن العشق النجمي هو عشق النجوم نفسها. . أجل النجوم التي في السماء على طريقة العباس بن الأحنف المذكور. ورويداً يظهر لك ما أظمره، شيئاً فشيئاً.

هنالك أمراض تصيب الناس من آن لآن. لكنها تصيبهم فرادى. أي تصيب هذا مرة، وذاك مرة أخرى. ثم يأتي بعد ذلك زمان تصبح فيه تلك الأمراض وباء يجتاح العالم كله إقليماً بعد اقليم، وشعب بعد شعب.

وهكذا (العشق النجمي) كان فيما مضى يصيب الناس فرادى، فأمسى الآن وباء شائعاً فاشياً، قد ملأ السهل والجبل وانتشر في المشرق والمغرب. وسبب ذلك أن قد ظهرت في العالم سماء جديدة تدعى (السينما) وقد امتلأت أرجاؤها بالنجوم.

والعشق الذي تتأجج ناره في قلوب المغرمين ببعض هذه النجوم لا يختلف، في كثير ولا قليل، عن ذلك الهوى المبرح الذي وصفه لنا العباس بن الأحنف. وقد يظن بعض البسطاء أن نجوم السينما أدنى إلينا وأقرب منالا، إذ نراها أمامنا ونشاهدها بأعيننا. وهذا لعمرك خطأ محض! فإنها قريبة على بعد، بعيدة على قرب.

. . . والشرق نحو الغرب أقرب شقة ... من بعد تلك الخمسة الأمتار

والآن قد أدركت أيها القارئ ما (العشق النجمي) وأنه هو تلك اللوعة التي تحرق قلوب الناس في مشارق الأرض ومغاربها ومن أجل بعض النجوم التي تدور في أفلاك تدعى (الأفلام) في سماء يسمونها (الشاشة) البيضاء.

فالعشق النجمي أذن منسوب إلى نجوم السينما، وبالله لا تقل كواكب السينما! لأن الكواكب في علم الهيئة قريبة المنال دانية المزار ومن علمائنا اليوم من يحلم بالوصول إلى بعض الكواكب كالمريخ. أما النجوم فبعيدة بعد الشيء المستحيل وكذلك العشق النجمي فأن مرامه بعيد، ومأربه محال.

وأكبر ما يمتاز به هذا العشق أنه عذري. . فأنك قد تولع بنجمة فتانة من نجوم هوليود، فيمتلئ بحبها قلبك، وتملك عليك مشاعرك، فلا ترى في الأرض الفسيحة غير وجهها، ولا تسمع غير صوتها. هي حلمك إذا هجعت، ونجواك إذا صحوت. إن أبصرتها في قصة حزينة استولى عليك الحزن والألم. وإن أصابها برد أو زكام أصابك مثلها سعال وزكام. وإن رأيتها ويا للهول!، صريعة قتيلة، قطع الحزن نياط قلبك، وأظلم العالم في وجهك، فلا تزال كئيباً أسيفاً، جاحظ العين متقلص الشفتين، حتى تراها في فلم آخر فرحة ضحكة؛ فيسري عنك؛ وتبرق أسارير محياك. وتضحك حتى تبدو نواجذك. .

ومن الغريب انك لا تأخذك الغيرة حين ترى عشاقها الكثيرين، ولا تستنكر منها أن تبدل في كل فيلم زوجاً مكان زوج أو صاحباً مكان آخر. لا يهمك من هذا كله شيء لأنك لا تفكر في سعادتها، فكل ما ترضاه ترضاه. ويحلو في عينك ما يحلو في عينها. بل لقد

. . .ألهاك التفكير فيها عن التفكير في شيء آخر
ثم أنت بعد كل هذا لا ترجو نوالا ولا وصالا، تعلم أنها بعيدة عنك بعد النجم. وإن قرّبها منك الفلم. وقد رضت النفس على هذا البعد الممزوج بالقرب، وهذا النوال المنطوي على الحرمان. وهذا الوصل الذي هو أدنى إلى القلي والهجران.
فلا تريد على حبك جزاء ولا لدائك دواء. ذلك أن هواك عذري أفلاطوني بريء. فلا تريد لنارك المتأججة أن تطفأ، ولا لغليك المستعر أن يشفى. حب هو الغاية والوسيلة، نار تأبى إلا اضطراماً ودمع يأبى إلا انسجاماً، وتنور يريد أن يفور، وكان يحلو له أن يثور. من غير مأرب تنشده، أو أمل تريد تحقيقه، أو غاية تبغي الوصول إليها. . بل إن الحب هو الشغل الشاغل عن كل أمل أو مأرب أو مرام. .
تلك إذن هي الظاهرة الأولى للعشق النجمي: انه هوى عذري طاهر عفيف نظيف. أما الظاهرة الثانية لذلك العشق. فهي انه يصيبك من بعيد. . وقديماً وصف لنا الشريف الرضي هذه الظاهرة فقال يخاطب نجمته:
. . .!سهم أصاب وراميه بذي سلم ... من بالعراق. . . لقد أبعدت مرماك!
ذو سلم هذا مكان في جوار المدينة المنورة، يكثر الشعراء من ذكره حين ينسبون. ولو كان لديك أيها القارئ مصور جغرافي لأمكنك أن تقيس المسافة بين العراق وذي سلم، ولعلمت
أنها لا تتجاوز سبعمائة من الأميال. ومع ذلك يندهش
الشريف الرضي لان سهم الحب قد أصابه من ذي سلم والشاعر في العراق. لكن تلك المسافة لا تعد شيئاً إذا قورنت إلى البعد الهائل الذي يفصل ما بين هوليود وبين وادي النيل السعيد. . وأن النجمة الفاتنة لترمي بسهمها من تلك الأقطار القاصية.، فلا يلبث أن يصيب صميم الفؤاد، ويفتت الأكباد، في شرق العالم وغربه. لا تحول دونه بحار ولا قفار. . .
وفي الحب العادي قد يكون البعد من أسباب السلو، والبعيد عن العين بعيد عن القلب في زعم الناس. لكن البعد بين المحب والمحبوبة شرط أساسي في هذا الصنف من الغرام. بل إني زعيم بأن عاشق النجمة لو رآها على قارعة الطريق، وهي تبتاع شيئاً من الحلوى، أو داخلة إلى دكان الحلاق. . لرأى شيئاً كسائر الأشياء وامرأة كسائر النساء، ولما حدثته نفسه بأن قد يصيبه من مثل هذه قنبلة غرام. . بل ولا سهم ضئيل.
.
كلا إنما يلعب حب النجوم بالأرواح عن بعد. ومن مستلزماته تلك الحجرات المظلمة القاتمة، تبعث في النفس رهبة، وتثير فيه شغفاً ورغبة. وهذه الأنوار الساحرة تنبعث من مكان خفي، وتسطع على لوح فضي: ظلام يتوسط النور، ونور يحيط به الظلام. وحسبك تلك الحال السحرية باعثة على الشجن، ومثيرة لمكامن الجنون.
وهكذا تستطيع النجمة، وهي على سواحل المحيط الهادي أن ترسل أشعتها إلى أطراف العالم، وتنشر شباكها في جميع الأقطار.
هذا وللعشق النجمي خصائص أخرى، ولكننا ضربنا عن ذكرها صفحا، لأنها تعد في المرتبة الثانية من الأهمية، وحسبنا ما ذكرناه وصفا لأعراض ذلك المرض. . أستغفر الله بل تلك العاطفة القاهرة، التي استرقت قلوب الناس من شباب وكهول، وصفدتهم بسلاسلها وأغلالها. وقد أسلموها قيادهم طائعين خاضعين. .
لقد تحسب أيها القارئ أن فيما ذكرناه غلوا أو أن نصيب الخيال فيه أكثر من نصيب الحقيقة. . وفي الحق أننا ما كنا نعلم أن لهذا الشيء وجوداً أو أن شره قد استفحل. وخطره قد أشتد إلى هذا الحد، لولا أن صديقنا العزيز (رشاد) قد أصابه ذلكالسهم، فأحزننا مصابه. ولقد تتاح لنا قريباً فرصة أخرى فنحدث القارئ بحديث ذلك الصديق وإن كان حديثاً أليماً.
هذا العذاب. . .
للأستاذ راشد رستم.
دخل الغابة ينشد الوحدة الهادئة الهادية، فرآها أول ما رأى في صمت الجذوع وتحملها، ثم تمثلها عند تساقط الأوراق واستسلامها، وفي السكون الشامل الذي يحيط به، وفي اللون الأخضر القاتم الذي يغشاه، ثم سمعها في أنين الغابة الداوي، ولاقاها عند الغدير الصغير الجاري، ورآها في قاع مجراه الصافي كامنة بين الحصا الأبيض الناعم، ثم

شاهدها في تهدل الأغصان واضطرابها، وفي رعشة الأوراق المتحيرة ذات الحفيف المحزن، ووجدها ساكنة في الأعشاش الخاوية، ولمحها عالقة بأجنحة الطير المتثاقلة وهي تبيت. وفي آخر أشعة الشمس الصفراء وهي تغيب.

جلس في تلك الظلال القاتمة وحيداً بين الشجر، ينظر إلى السماء الناعسة يستنجدها وحيها المهيب. أو يستودعها سره العجيب. وقد بدت فروع الأغصان مع الأوراق على صفحة السماء وقت هذا الغروب في لون من سواد كئيب، كأنها (دنتلة) الحزن على صدر أملس رائع أسيف. قد صبغته نيران الزفرات والتنهدات بلون الشفق الوردي الهادئ صدر واسع عميق جذاب تحنو عليه شفاه الرحمة والإشفاق بقبلات العطف والحنان تترك فيه آثارا من حرارة التضامن الكامن في الصدور بين قلب حنون وآخر محزون. .

لم يفكر في شيء، فقد أحاطت به الأفكار من كل جانب، قام هارباً من تهافت الأفكار متعمقاً في الغابة يطلب الهدوء الأصيل في حضنها الظليل، ومن هاجمته أفكاره أعجزته تفكيراته، وقد يضيع بها أو يبقى بينها حيران زماناً حتى تجذبه إحداها فتشغله عن سواها، وهكذا يفر المرء من عذاب إلى عذاب.

على أنه وقد وجد سكينته عند الطبيعة فقد سلبها منه وآلمه فيه ابن الطبيعة، طلع عليه من خلال الأشجار أطفال يلعبون، والناس ملائكة صغاراً شياطين كبارا.

كَمِنَ له الصغار لما رأوه مقبلا هائماً، انتظروه إذ ظنوه سارحا هادئاً. فاجئوه يحسبونه خائفاً، فلما وجدوه رابطا ثابتا، عادوا يخشونه متحفزا ثائراً. ثم تنبه هو من تيهه فوقف باسماً، يدعوهم لاعبا مسالماً ضاحكاً، ولكنهم من الرجفة الأولى يفرون مستنجدين صارخين. فأنجدهم أهل لهم في الغابة يحتطبون، يسألونهم عن أمرهم وما دهاهم من مفترس أو روح شرير، فكانوا يبكون صامتين، يشيرون إلى مكان قريب.

مفترس! وحش! روح شرير!!

ليس في المكان إلا ما في الغابة من شجر ووحشة ودوي طويل. خرج عليهم (الوحش) يدعوهم إلى الهدوء والاطمئنان. فتلقوه مؤنبين معرضين، فتولى عنهم في غيظ وكمد. مختفياً في الغابة الممتدة الواسعة. تلك الغابة العنيدة التي هو سيدها ومالكها والتي يهبها صدقه يسمح بحطبها وحياتها ومتاعها حلالا طيباً للسائلين والمحرومين.

أقبل على الغدير الصغير، وهنالك أمام خرير الماء الطاهر البريء، الجاري من الأزل إلى الأبد، وقف في إطراق وصمت وتسليم قليلاً ثم نظر إلى العود الذي يتوكأ عليه. وهو من حطب الغابة، وكتب به في بطء ولين وتفكير كلمات لا شك أنها ذاهبة مع الماء في مجراه. .

ثم أتخذ سبيله عائداً إلى البيت الذي يأويه وكان قد هجره بمن فيه وما فيه.

وإذ هو يمشي وئيدا كئيباً وقد طواه غسق الليل، أبصر المحتطبين خارجين من الغابة فرحين محملين وهم يذكرون الوحش المفترس والروح الشرير. . .

تثور نزعاته تطلب لوجودها جهراً. ولكنه يكظمها في نفسه صبرا، ثم تفور عواطفه فورا. فيحبسها في صدره غورا ثم يسرع الخطى على غير هدى قليلا حتى يدله الألم الساري وسط ظلام الحياة على حقيقة عذاب الإنسان للإنسان، ومكان الإحسان عند الإنسان، وأن الجهر بالإحسان إحسان. .

ثم يذكر ما كتب على صفحة ذلك الغدير الصغير، ويردده في ألم وثورة وأسف، حقاً إن في صمت الإحسان جنة للناس وعذاب للمحسنين. .

التجديد في الأدب

يناقش الدكتور عبد الوهاب عزام الأستاذ أحمد أمين في رأيه عن التجديد في الأدب، وقد دفعتني هذه المناقشة إلى إبداء رأي وذكر مناقشة، أما الرأي فهو: إن المعاجم اللغوية التي يقول الأستاذ أحمد أمين إن فيها (ألفاظا كثيرة ليس لها قيمة الا أنها أثرية تحفظ فيها كما تحفظ التحف في دار الآثار)، في هذه المعاجم ألفاظ كثيرة لها قيمة عظيمة عند من يحسن الأداء بها في مواقعها وكثير منها يؤدي لنا عن معان كنا نظن أن ليس لها في الألفاظ العربية ما يدل عليها، فالبحث عن هذه الألفاظ واستعمالها يزيد من غير شك في حيوية اللغة ونمائها، وقد فعل الدكتور محمد شرف والدكتور أحمد عيسى شيئاً من ذلك في معجمهما عن الحيوان والنبات، فكشفا في هذه

القواميس عن ألفاظ عربية لنباتات وحيوانات كنا نستعمل عند الدلالة عليها أسماءها العلمية اللاتينية. وذلك لظننا خلو لغتنا من أسمائها.

وأما ما ذكره الأستاذ أحمد أمين من إلغاء هذه الألفاظ لأن الذوق العام للقراء لا يسيغها الآن، فأنا أظن بأن درجة المعرفة التي يصل إليها جمهور القراء ليست كافية للاعتبار والحكم على اللغة والكاتبين، والكاتب النافذ البصيرة له أن يقدم لهذا الجمهور القارئ ما يرى أنه مفيد من الألفاظ للإبانة عما يريد من معنى أو إحساس، ولو كان الجمهور القارئ لا يعرف هذه الألفاظ أو لا يسيغها ذوقه، ولكن المهم أن يقتصد في ذلك على الضروري المفيد ولا يتعمد الإِغراب.

هذا مع ملاحظة أن ما لا يسيغه ذوق الجمهور هو الأقلية من هذه الألفاظ المهجورة. هذا عن رأيي، وأظنني فيه قريبا من الدكتور عزام وإن كنت أخالفه في بعض الشواهد التي أوردها في مقاله وفي بعض الآراء كذلك.

وأما عن المناقشة فقد جرت منذ شهور بيني وبين كاتب من كبار كتابنا المتحمسين لتبسيط اللغة، وكان يقول إن هذه الألفاظ الموجودة في القواميس هي مثل الزوائد والبقايا الأثرية في جسم الإنسان (كالزائدة الدودية وعجب الذنب مثلا) ويجب علينا طرحها لنكسب الوقت والسرعة، فقلت أنا، إن في هذه القواميس ألفاظا تؤدي لنا عن معان نتحير الآن في الأداء عنها بكلمة واحدة، فنعبر عنها بجملة أو سطر، فلو أننا استعملنا هذه الألفاظ وأشعناها لاكتفينا بلفظ واحد عن هذه الجملة أو السطر، فكسبنا بذلك الوقت والسرعة ولفظاً جديدا يزيد في لغتنا سعة، فقال: اذكر مثلا، قلت: أقرب مثل هو صديقك فلان الذي عرفتني به أخيرا، فقد لاحظت ان لون عينيه مختلف فله عين زرقاء والأخرى كحلاء. فلو أردت أن أذكر لك هذه الصفة فيه استعملت لها سطراً من الكلام، ولكني وجدت في القاموس كلمة واحدة تؤدي هذا المعنى كله وهي (أخيف) وهذه الكلمة نفسها تغنينا عن جملة أخرى، فإن الأبناء الذين هم من أم واحدة وأباء شتى يقال لهم (أخياف) فيمكنك في الأول أن تقول (فلان أخيف) بدل (فلان إحدى عينيه زرقاء والأخرى كحلاء) وفي الثاني (هؤلاء الاخوة أخياف) بدل (هؤلاء الاخوة من أم واحدة وآباء شتى)، وقد كسبنا بذلك الوقت والسرعة ولفظة جديدة، وهذه الكلمة لا أحد يقول (حتى الأستاذ أحمد أمين) إنها نافرة أو ثقيلة على الجيل الحاضر، وقد استعملها ابن زيدون في قطعة جميلة من شعره.

فقال صديقي الكاتب الكبير في صيغة التحدي والتهكم، إنك بذكر هذا اللفظ أطلت في الوقت وأضعفت من السرعة لأنك ستشرحها للقارئ بهذه المعاني التي ذكرتها، فكان خيراً لك وله لو انك اكتفيت بالشرح عن المشروح فلم تذكر اللفظ الواحد ثم تتبعه بجملة شارحة، فقلت أنا أولاً لا أسلم بضرورة الشرح فان القارئ واحد من أثنين، قارئ يقظ يقرأ ليفهم ويفتش عن كل كلمة ولا يكتفي بالفهم الإجمالي، وهذا القارئ عندما يجد هذه الكلمة (إذا لم يكن يعرفها) سيبحث عنها في القاموس حتى يعرفها، ومن المرجح انه بعد ذلك لن ينساها، وهذه وحدها فائدة أخرى، والقارئ الثاني يمر على الكلام مراً ويكتفي بالفهم الإجمالي، فهذا ليس يهمني أن أشرح له، ولعله هو أيضا لا يهتم لشرحي، وعلى فرض التسليم بضرورة الشرح لهذه الكلمة ومثلها، فان الشرح لن يكون الا بمقدار ما تشيع هذه الألفاظ وتعرف لجمهور القارئين وعند ذلك تترك وحدها فيفهمها القارئ ونكسب نحن وهو الوقت والسرعة وألفاظاً جديدة تزيد في لغتنا وتنميها، ثم ذكرت له بعضاً من الألفاظ والجمل استعملها هو بدءا وشرحها في أول ما استعملها وأصبحت الآن مفهومة لكل قارئ وشائعة على أقلام الكاتبين وألسنة الناطقين حتى كأنها تستعمل منذ مئات السنين.

ولعلنا نجد في المقالات القادمة للأستاذ أحمد أمين أننا فهمنا من كلامه غير ما يقصده هو، وعندئذ فنحن على وفاق، أو في (خلاف لفظي. . .) كما يقول الأصوليون.

محمود. ع. الشرقاوي. عالم من الأزهر

فلسفة كانت

للأستاذ زكي نجيب محمود

كانت الفلسفة وهي في مهدها مطمئنة إلى تلك الأداة التي اتخذتها سبيلا إلى تفهم الكون وما يحوي من سر مكنون، فكانت تأتمن هذا العقل الإنساني وتثق به وثوقا لا

يعرف الشك، ولكنها ما لبثت أن اشتد ساعدها واستقامت على قدمين راسختين، فانقلبت على تلك الأداة نفسها، وداخلها الريب في أمانتها ودقتها فيما تنقل إلى ذهن الإنسان من صور العالم المحس، فتناولتها بالبحث والتحليل.

وتظن أن (لوك) كان أول من تصدى لذلك البحث في تاريخ الفكر الحديث، وقد انتهى بعد بحثه الطويل إلى إنكار الآراء الفطرية التي يقول دعاتها أنها تولد مع الإنسان كمعرفة الخير والشر مثلا، وأكد أن العقل عند ولادة الطفل يكون كالصفحة البيضاء، خالياً من كل شيء، وقابلا للانفعال بالبواعث المختلفة، فإذا ما مرت به تجارب الحياة المختلفة، تركت فيه آثارا لا تمحى، وطريق تلك التجارب إلى العقل هي الحواس وحدها، وليس في حنايا العقل أثر واحد لم يسلك طريق الحواس أولا، فالآثار الخارجية تنتقل إلى الذهن في احساسات مختلفة، ثم تولد هذه الاحساسات شتى الآراء والأفكار. وما دامت الأشياء المادية وحدها هي التي يمكن أن تنتقل عن طريق الحواس، إذن فكل معلوماتنا مستمدة من الأجسام المادية دون غيرها. ومعنى ذلك ان المادة عند (لوك) هي كل شيء.

ثم جاء (بركلي) وخطا بعد ذلك خطوة جريئة. فقد سلم بمقدمات لوك، ولكنه اختلف وإياه في النتيجة. ألم يقل لوك بأن معلوماتنا جميعاً مشتقة مما يجيء عن طريق الحواس؟ إذن فنحن لا ندري عن الشيء الخارجي الا الاحساسات التي تنبعث إلينا منه، والأفكار التي تتولد من هذه الاحساسات عند وصولها إلى الذهن. خذ تفاحة مثلا، فهذا لونها يصل إليك ضوءاً عن طريق العين، وهذه رائحتها تصل عن طريق الأنف، وذاك طعمها تعلمه عن طريق الذوق، وذلك ملمسها وشكلها يصلان إليك عن طريق أعصاب اليد، فإذا تناول هذه التفاحة كفيف البصر؛ علم عنها كل شيء الا لونها، وإذا كان فاقداً لحاستي الشم والذوق، اقتصرت معرفته على الشكل والملمس، فإذا فرضنا أن أعصاب يده فقدت عملها أيضا، أنكر صاحبنا وجود التفاحة في يده مهما قدمت إليه من وسائل الإقناع. فلولا الحواس لما كان للأشياء الخارجية وجود بالنسبة إلينا على الأقل. فالحواس هي التي كونتها. ولذلك لم يتردد بركلي في إنكار المادة إنكاراً تاماً. ولا يعترف بوجود شيء الا حقيقة واحدة يحسها في نفسه وهي العقل.

أجهز بركلي على المادة فمحاها من صفحة الوجود، وأشفق على العقل فسلّم به، ولكن جاء بعده هيوم، فأبى أن يقف عند هذا الحد المتواضع من الإنكار، وسارع إلى العقل بمعوله فألقاه في هوة العدم! ما هذا العقل الذي يتشبث بوجوده بركلي؟ ابحث في نفسك بحثاً باطنياً وحاول أن تعثر على ذلك العقل باعتباره ذاتاً مستقلة، فلن تعود بطائل، ولن تصادف في نفسك إلاّ سلسلة من الأفكار والمشاعر والذكريات يسوق بعضها بعضاً. فليس ثمة عقل، ولكنها عمليات فكرية وصور ذهنية لا أقل ولا أكثر. وإذاً فقد انهار العقل كما انهارت المادة من قبل! وهكذا قوضت الفلسفة بفؤوسها كل شيء، ثم وقفت بين تلك الأنقاض الخربة لا تجد وقوداً يذكيها، فقد ضاع العقل وضاعت المادة ولم يبق لها منهما شيء!؟

ولكن الله قيض لها فيلسوفنا العظيم (عمانوئيل كانت) فأعاد البناء من جديد، وشيده على أسس قوية ثابتة لا تزال قائمة حتى اليوم. فقد أنكر بادئ ذي بدء ما ذهب إليه لوك والمدرسة الإنجليزية إنكاراً تاماً، لأن التجارب التي يقول عنها لوك أنها مصدر معرفتنا جميعاً، لا يتحتم أن تلازمها الصحة دائماً، فهي إن صحت نتائجها اليوم فقد تخطيء غداً، فضلا عن أنها تقتصر على الجزئيات ولا تتعداها إلى التعميم الذي ينزع إليه العقل بطبيعته. ومما لا ريب فيه أن لدينا من الكليات العامة ما يستحيل عليه الخطأ، كأن نقول مثلا أن 2 2=4 فهذه حقيقة لم نعتمد في تحصيلها على تجربة خارجية، وإنما اكتسبت ضرورتها من طبيعة عقولنا، فليس العقل الإنساني سلبياً، ليس قطعة من الشمع تولد خالية ثم تخط فيها التجارب ما تشاء كما ذهب لوك، كلا ولا هو أسم يطلق على سلسلة الحالات العقلية كما ادعى هيوم، انما هو عضو فعال، يتناول الاحساسات التي تأتي إليه من العالم الخارجي فيؤلف بينها، ويكون منها الأفكار المختلفة، ويصبها في القالب الذي يشاء. العقل الإنساني قوة إيجابية تعمل على تنظيم ملايين التجارب التي تصادف الإنسان في حياته، وتخلق منها وحدة فكرية منظمة!

ولكن كيف؟
يجتاز العقل في ذلك مرحلتين: الأولى هي الانتقال من مجرد الإحساس إي وصول الأثر إلى الذهن، إلى الإدراك، أي فهم ذلك الأثر المعين. والثانية هي الانتقال من هذه المدركات الجزئية إلى المعقولات والكليات العامة. وسنفصل هذا الإجمال فيما يأتي:
تأمل نفسك لحظة، تجد عدداً من المؤثرات لا يحده الحصر يندفع إليك ويتسلل إلى ذهنك عن طريق الحواس، فهذه عشرات الأصوات تنتقل إلى أذنك من جهات مختلفة، وتلك آلاف المرئيات تبعث ضوءها إلى عينيك، وها هو ذا جسمك يحس في كل جزء من أجزائه بالمؤثرات المختلفة: يحس نعومة ملابسك أو خشونتها. كما يحس الحرارة والبرودة. فهذه الاحساسات العديدة المختلفة التي تصل إلى ذهنك من أبواب متباينة، تسبح في العقل صماء دون أن يكون لها معنى خاص الا إذا تآلفت أجزاؤها وارتبطت بمكان وزمان، وذلك التأليف والربط لا بد لهما من قوة ايجابية، هي العقل. فأنت قد ترى اللون الأصفر وتحس الشكل الدائري، وتشم رائحة معينة، وتذوق طعما خاصا ولا يكون لكل تلك المؤثرات مدلول واحد، الا إذا جمع العقل هذه الأشتات وربطها بمكان خاص (في جسم برتقالة مثلا) وعندئذ ينتقل إحساسك إلى إدراك لهذا الشيء المعين. فالواقع إن الاحساسات الأولية ليست إلا مؤثرات متفرقة تجيء إلينا من الخارج. ولا يكون لها معنى بذاتها، وهذا ما يشعر به الطفل في أول حياته العقلية. إذ يرى لون البرتقالة ويلمسها بيده، ويشمها ويذوقها. ولكنه مع ذلك لا يعرفها فإذا ما نمت قواه العقلية، أخذت هذه المجموعة من الاحساسات تتجمع وترتبط بهذا الشيء، وبذلك ينتقل حسه إلى مرتبة المعرفة والإدراك، ولا تعود صفات البرتقالة تؤثر في ذهنه مستقلا بعضها عن بعض كما كانت الحال من قبل، بل تنتقل إلى ذهنه كتلة متحدة مترابطة لا انفصال فيها. ولكن كيف أخذت تتجمع هذه الصفات في الذهن حتى تكون منها كل لا يتجزأ له مدلول خاص؟ هل تم ذلك بطريقة آلية، أي أخذت تتراص بجانب بعضها البعض. فسارع لون البرتقالة ووقف بجانب الرائحة والطعم والشكل. حتى تكونت صورة البرتقالة في الذهن، دون أن يتدخل العقل في هذا التكوين؟ هنا يجيب (لوك) ومدرسته بالإيجاب وينكره (كانت) كل الإنكار: ولا يفهم كيف تتحد جزئيات الإحساس التي سلكت إلى الذهن ألف سبيل وسبيل من تلقاء نفسها، الا أن يكون هناك قوة تنظم هذه الفوضى الحسية، قوة تؤلف بينها وتوجهها في الطريق التي تريد. قوة تشكلها وتصبها في قالب المعنى. هي قوة العقل. وآية ذلك أن الإنسان يأتيه في كل لحظة آلاف الاحساسات، ولكنه لا يقبلها جميعا، بل ينتقي من ذلكالجيش الجرار من الدوافع والمؤثرات ما يلائم حالته في تلك اللحظة المعينة، وهذا دليل قاطع على فاعلية العقل، ولو كان الأمر يتم بالطريقة الآلية التي زعمها لوك وهيوم، لما كانت هناك أفضلية لإحساس على آخر، بل يرغم الإنسان على قبولها بأسرها، فكل صوت يقرع الأذن لا بد أن يصل إلى الذهن، وهكذا في سائر الحواس. ولكن ليس هذا هو الواقع. فها هي ساعتي تدق على مكتبي أثناء كتابة هذا المقال، ولكنني لا أسمعها لأنني لا أريد أن أسمعها فإذا ما توجهت بإرادتي إلى استماعها، تم ذلك على الفور مع أن صوتها لم يرتفع عن ذي قبل. وقد تكون الأم نائمة مستغرقة في نومها، فتحدث جلبة شديدة. أو تمر موسيقى أمام البيت بطبلها وزمرها. فلا تستيقظ من نعاسها، أما إذا تحرك ابنها الرضيع في مهده حركة خفيفة، أو بكى بصوت منخفض، هبت من نومها مذعورة، فما الذي آثر عندها هذا الصوت الخافت على مئات الأصوات التي تقرع أذنها؟ ألا يكون هناك قوة فعالة تعرف كيف تختار من المؤثرات ما هو صالح ملائم.
خذ مثلا آخر يدلك على إيجابية العقل في الإدراك. . انظر إلى هذين الرقمين 3، 2، وأجر فيهما عملية الجمع، تسارع إلى ذهنك النتيجة وهي خمسة، ثم أقرأهما ثانية معتزما إجراء عملية الضرب تجيء إلى ذهنك نتيجة أخرى هي ستة. هاتان فكرتان أو نتيجتان مختلفتان نشأتا في الذهن من باعث واحد. وكان السبب في اختلافهما اختلاف الغرض الذي توجه به الذهن نحو ذلك الباعث، ويتضح من هذا أن العقل ليس مجرد آلة (كمرآة) تلتقط الاحساسات كما هي، وعلى رغم أنفها، ولكنه قوة تدعو من البواعث ما تريد. ثم تفكر فيها بأشكال مختلف. وهو يستعين في هذا التفكير بالغرض الذي يوجهه إلى المؤثرات الخارجية.
ولما كان لا مندوحة للعقل عن أن يفرض مكانا وزمانا يسند إليهما أثر الأحاسيس

المختلفة. لأنه لا يستطيع أن يتصور مدركات مطلقة، فليس في مقدوره مثلا أن يفهم اللون الأبيض مجرداً عن (مكان) ولا أن يدرك حادثة الا إذا نسبها إلى (زمان)، إلى ماض أو حاضر أو مستقبل، أقول لما كان لا مندوحة له عن فرض الزمان والمكان لفهم المادة التي تقدمها له المؤثرات الخارجية. اخترعهما اختراعا، فهما ليسا حقيقتين في ذاتهما. أي ليس في الوجود الخارجي زمان ولا مكان، إنما خلقهما العقل ليتخذهما وسائل للادراك، وسبيلا لصب المعاني في المحسات.

شرحنا فيما سبق كيف تنتقل الاحساسات المنبعثة من الأشياء الخارجية إلى إدراك، ونريد الآن أن نوضح الخطوة الثانية التي يجتازها العقل في أداء وظيفته، عند الانتقال من هذه المدركات إلى مرتبة المعقولات أي تصور العلاقات الكائنة بين أجزاء الوجود بعضها ببعض، وبعبارة أخرى تلك الخطوة التي يخطوها العقل من مرحلة التجارب الجزئية إلى العلوم الكلية. فكما أن للعقل قوة يتمكن بها من تنظيم البواعث المختلفة في قالب المكان والزمان، فيدرك بذلك معنى الأشياء، كذلك له قوة أخرى، تجيء بعد هذه، وهي التي تنظم تلك المدركات في قوانين عامة، كقانون السببية، وقانون الجاذبية، وما إلى ذلك من النواميس التي تبوب على أساسها معلومات الإنسان، وهذه العملية هي كنه العقل وطبيعته. فالعقل عبارة عن عملية تنظيم التجارب وتبويبها، وهو في هذا التبويب والترتيب إيجابي فعال، وليس كما توهم لوك وهيوم قطعة من الشمع اللين التي تشكلها التجارب المختلفة وإلا فهل تستطيع أو تتصور الوحدة الفكرية التي تشتمل على فلسفة (أرسطو)، والتي تكونت ولا ريب من جزئيات أتته عن طريق التجربة والحواس، هل تستطيع أن تتصور أن تلك الجزئيات قد نظمت نفسها بطريقة آلية حتى بدت متماسكة في فلسفة متحدة، دون أن يتدخل العقل في ذلك التنظيم؟ تخيل أن بطاقات دار الكتب قد انتثرت في غرفها واختلطت ألفها بيائها، فهل تصدق أن هذه البطاقات تستطيع أن تجمع نفسها وترتب صفوفها؛ وتسلك طريقها إلى قمطراتها في نظامها الأبجدي؟!

هل يمكن أن يتم ذلك دون أن يتدخل الإنسان ويتناولها بالترتيب؟

كذلك حال العقل مع المدركات، فهي في الكون شتيت متضارب، وهي تصل إلى الذهن في هذه الفوضى: ألوان متباينة، وأصوات مختلفة، وأذواق عدة، وأشكال متنوعة، فيأخذ العقل في ترتيبها وتبويبها حتى ينتهي بها الأمر إلى هذه العلوم المنظمة المنسقة، وبديهي أن هذا التنسيق لم ينبعث إلينا من الأشياء الخارجية نفسها، وإذن فقد أخطأ لوك كل الخطأ حين زعم أن العقل سلبي، تنقش فيه التجارب بطريقة آلية، فإذا لم يكن الأمر كذلك فهل يستطيع لوك أن يبين لنا كيف ان التجارب الواحدة تؤثر في مجموعة من الرجال، فتخرج منهم هذا الغبي وذاك الفيلسوف؟

كلا! لا ندحة عن التسليم بإيجابية العقل وقوته في تكوين المدركات من الاحساسات أولا، ثم في تكوين المعقولات من المدركات ثانيا.

وإن صح هذا التحليل، فيكون العالم كما نعرفه من تكوين عقولنا وصنعها، فنحن لا نعلم عن الأشياء الخارجية إلا مظاهرها التي تنتقل الينا، وليس في مقدورنا أن نتغلغل في بواطنها، وقد تكون هذه الصورة الذهنية التي كونتها عقولنا عن العالم الخارجي بعيدة جدا عن الحقيقة في ذاتها، فنحن لا نعلم عن القمر مثلا إلا ما انبعث إلينا منه من احساسات زائداً ما عملته عقولنا في تلك الاحساسات، فتكونت لدينا من هذا المزيج صورة عقلية عن القمر، أما أن هذه الصورة العقلية تطابق الواقع أو لا تطابقه، فلا يستطيع البشر أن يجيب!

وهكذا أثبت (كانت) وجود المادة، إلا أنه أنكر أن تكون فكرتنا عنها على مثال الحقيقة الواقعة.

ثم يعود (كانت) بعد ذلك فيرفض ما زعمه لوك من أن العقل يولد كالصفحة البيضاء، ويؤكد في يقين انه إنما يرث شعوراً لا يأتيه عن طريق التجربة والحواس ولا بد لكل إنسان أن يسلم بوجوده، هو ذلك الشعور الذي يدلنا على أن هذا خير وذاك شر، هو ذلك الشعور الذي لا يفتأ يؤنبك إذا نبوت عن جادة الخير ويطمئن ما دمت سالكها، هو ذلك الشعور الذي تحس من أعماقك انك لو اتبعت ما يمليه عليك، وحذا حذوك البشر

أجمعون، لكان الخير كل الخير. ذلك الشعور الذي يقف لك بالمرصاد والذي يولد معك. هو الضمير. ومن ذا الذي يستطيع أن ينكر هذا الصوت الواضح الجلي الذي يضيق للشر ويطمئن للخير. فأنت قد تكذب. وقد تنهب حقوق غيرك. ولكن لا يسعك إلا الاعتراف ولو أمام نفسك إن هذا خطأ ولو خيرت لما رضيت أن يسود الكذب والسلب بين الناس. وكل إنسان على الإطلاق يحمل بين جنبيه هذا الوازع الذي لا تأخذه عن أعمالك سنة ولا نوم، والذي يملي على صاحبه في غير لبس ولا غموض ما يجوز عمله وما لا يجوز.

وهذا الخير الذي يمليه الضمير إنما يقصده لذاته على الرغم من انه قد يتضارب مع صالح الفرد تضاربا صريحا. فالمثل الأعلى الذي يصبو إليه هو أداء الواجب دون النظر إلى
السعادة الشخصية.

ووجود الضمير دليل قاطع على ما للإنسان من حرية الإرادة لأن معنى رقابته أن الإنسان يستطيع أن يسلك هذا السلوك أو ذاك. ولو كان الإنسان مرغماً على أن يسير في طريق مرسومة لما كان لهذا الضمير فائدة. وكذلك يدل وجود الضمير على خلود الروح. ذلك لأن الحياة الدنيوية لا تأخذ المجرم بالقصاص في كل الأحيان، لا بل تضرب لنا الحياة آلاف الأمثلة بأن الشر هو السبيل إلى السعادة الشخصية، تعلمنا الحياة أن نمكر بالآخرين وأن من لا يظلم الناس يظلم، ولكنا على الرغم من ذلك ننشد الخير وننبذ الشر، فهذا الشعور لم يستمد من الحياة طبعا، فمن أين جاءتنا تلك النزعة للخير إذا لم نكن نعلم في أعماقنا أن هذه الحياة الدنيا ليست كل شيء، بل هي جزء من حياة ثانية خير وأبقى من الأولى، وأن هذا الطيف الزائل ليس الا مقدمة لبعث جديد؟ ثم يستطرد (كانت) في هذا المنطق، حتى يصل إلى إثبات وجود الله عز وجل، لأنه إذا كان الشعور بالواجب الذي يمليه الضمير بتضمن الدليل على حياة أخرى خالدة تجزي كل امرئ بما قدمت يداه، فهذا الخلود ناشئ بالضرورة عن سبب يلائمه، كي تتكافأ العلة والمعلول، أو بعبارة أخرى لا يمكن أن تتفرع الحياة الخالدة الا عن إله خالد.

هذا هو البناء الشامخ الذي شيده كانت، ولا يزال قائما في عالم الفلسفة تعمل فيه معاول الهدم فلا تنال منه الا كما تنال الريح الهينة من الجبال الشم الرواسخ، وعلى الرغم من أن كتاب القرن التاسع عشر حاولوا أن ينقضوا رأيه في الأخلاق والدين فقال قائل أن ليس ثمة ضمير يملي الخير، لأن الخير ليس مطلقاً فما هو خير اليوم قد يكون شرا غدا؟ وسخر ناقد من منطق (كانت) في إثبات وجود الله، فقال انه (كالحاوي) الذي يخرج من قبعته الفارغة ما يشاء، يريد بذلك انه انتزع نتيجة من مقدمات لا تؤدي إلى ذلك. أقول على الرغم من ذلك جميعا فلا يسعنا إلا أن نطأطئ الهامات إجلالا له وإكبارا.

المغنية الضريرة

من رسالة إلى صديق

أنت تأخذ على تبرمي بالحياة وانقباضي عما تزخر به القاهرة من شهوات السمع والبصر. ولكن أنسيت أن العين التي بيضها الحزن لا تستطيع أن تجتلي جمالا يرف في روضة، ولا حسنا يشرق في طلعة. وأن الفم المريض أزهد ما يكون في طعام وشراب. أنسيت أن صديقك كان يقطع أيام الشباب في مثل طلعة الصبح إشراقا وبهجة. ثم أمسى وقد استحال كل أولئك إلى ذكريات أليمة تعاوده في غرفة معزولة تدور به في مثل حلقة الواو كربا وضيقاً، فهو أبدا موصول الحنين متتابع الزفرات. أنسيت آمالي وأحلامي؟ (أما الآمال فقد عصفت بها النكبات حتى أحالتها إلى هشيم تذروه الرياح) وأما الأحلام فأنت تعرف أنها تكشفت عن رجاء ضائع وشباب هالك وحسرة لذاعة من شماتة الأعداء. ولكن مالي وللحديث في هذا ولست بسبيل من أن أتحدث إليك فيه اليوم؟ وإذن فدعني أحدثك حديث المغنية الضريرة التي سمعتها ليلة الأمس في حفل سعيت إليه في رفقة من الأصدقاء على الرغم مني. . . هي حلوة القسمات بديعة التكوين جميلة كالزهرة تسند في حدود الخامسة عشرة من عمرها. . . أخذت مجلسها على استحياء فيما يشبه أن يكون ذلة وانكساراً وشيئاً من الخجل غير قليل. وصدقني أن مرد ذلك فيما أعتقد أنها فقدت بصرها وهي طفلة لم تدرج بعد من لفائف مهدها. . وما أحسبك تعتقد أن سلاح المرأة في هذه الدنيا شيئا

غير سهام العين. وفتنة اللحاظ ترسلها ذابلة مريضة، فإذا بها السيف حدة ومضاء، والشرك المنصوب لا يخطئ الفريسة ولا يعد والغرض. ولكن الأقدار التي قست عليها فجردتها من سلاحها الوحيد كامرأة لم تشأ أن تقسو عليها القسوة كلها فمنحتها صوتا عذبا حنونا يفيض بالأسى وتقطر من جوانبه اللوعة. . . وارتفع صوتها بالغناء حزينا شاكيا يهيج ودائع القلب. ويستدر روافد الدموع.

أتعرف ذلك البلبل الذي هاجمته جيوش الظلام. قصياً عن العش الذي عرف، والدوح الذي ألف، والنبع الذي منه رشف، والجو الذي في أنحائه غنى وهتف، أسمعته وهو بين لهفة إلى مهوى الفؤاد تقيمه، ووحشة من رهبة الليل تقعده، يصب ألحانه في إذن الوجود باكية حزينة تهز أوتار القلب. وتنتزع منه العطف والإشفاق والرثاء؟ أسمعته يشكو بغير لسان،

ويبكي بغير دموع فيبعث لك من الماضي البعيد كل دفين ومستور؟ إن كنت سمعته على هذه الصورة التي أسلفت لك. وكنت مثلي تحيا على أمل عزيز لديك ففقدته، وكنت مثلي تذيب حبة قلبك وجداً على حبيب يجزيك على عبادته كفرانا وجحوداً وعلى دمعك المسفوك ووجدك المبرح هوانا ونسيانا. إن كنت كذلك فأنت وحدك الذي يستطيع أن يدرك ذلك الأثر العميق الذي خلفته في نفسي تلك الفتاة الناشئة بصوتها الساحر الجميل. غناء كأنفاس الفجر ندية لينة، وشدو يصافح الأسماع في رفق ولين كنجوى العاشقين في هدأة السحر وقد بسمت لهما الدنيا وهاودتهما الأقدار والسلام!!.

عبد الوهاب حسن. قلم نشر مطبوعات الحكومة بوزارة المالية

في الأدَب العَرَبي

ابن خلدون والتفكير المصري

للأستاذ محمد عبد الله عنان

- 4 -

قضى ابن خلدون في مصر ثلاثة وعشرين عاما (784 - 808 هـ) ولكنها كانت بين مراحل حياته أقلها حوادث وأقلها إنتاجا.

فأما عن الحوادث فان الحياة السياسية العاصفة التي عاشها ابن خلدون بالمغرب، والتي جاز خلالها معتركا شاسعا من المغامرات والدسائس الخطرة، وعانى كثيراً من الخطوب والمحن، كما نعم مراراً بمراتب النفوذ والسلطان، والتي هي في الواقع صفحة قوية شائقة في تاريخ المغرب في أواسط القرن الثامن: هذه الحياة المضطرمة العاصفة، استبدلها المؤرخ في مصر بحياة أكثر هدوءا ودعة. وفي مصر يعيش ابن خلدون شخصية عادية لا علاقة لها بشئون الدولة العليا، بعد أن لبثت بالمغرب ربع قرن روح هذه الشئون، يتجرد من ثوب السياسي المغامر ليتشح بثوب العالم المقتدر، وليستوحي نفوذه المحدود من هذه الناحية. على أن المؤرخ لقى في هذه الفترة حادثين من أهم حوادث حياته، هما فقد أسرته. ولقاؤه للفاتح التتري تيمورلنك.

وأما عن الإنتاج، فقد رأينا أن المؤرخ حقق أعظم أعمال حياته، أعني كتابة تاريخه الضخم ومقدمته الرائعة قبل مقدمه إلى مصر. ولا نعرف أن ابن خلدون وضع أثناء مقامه بمصر مؤلفاً جديداً. غير أن الذي لا ريب فيه هو أن وجوده بمصر على مقربة من المكاتيب والمراجع الشاسعة قد أتاح له فرصة التنقيح والتهذيب في التاريخ والمقدمة، خصوصا فيما تعلق فيهما بمصر والشرق، كذا استمر المؤرخ في كتابة ترجمة حياته أثناء إقامته بمصر، واستمر فيها إلى قبيل وفاته، وضمنها فصولا جديدة عن خواص دول المماليك المصرية، ونشأة التتار مما أشرنا إليه في موضعه. وكتب أثناء مقامه بالشام وصفاً لبلاد المغرب ورفعه إلى تيمورلنك كما قدمنا. كذلك لا ريب في أن ابن خلدون كان يعنى في دروسه ومجالسه ببث مذاهبه وآرائه الاجتماعية وشرحها.

غير أن ابن خلدون لم يستطع على ما يظهر أن ينشئ له بمصر مدرسة حقيقية، يطبعها

بآرائه ومناهجه، وقد كان حريا أن ينشئ مثل هذه المدرسة في بلد انقطع فيه للبحث والدرس أعواما طويلة. نعم ان التفكير المصري المعاصر ليس خلواً من تأثير ابن خلدون كما سنرى، ولكن هذا التأثير الذي كان حريا أن يزدهر بمصر وأن ينبث في

مدرستها التاريخية التي كانت يومئذ في أوج قوتها، كلن ضئيلا محدود المدى. ونستطيع أن نرجع ذلك إلى الروح الذي استقبل به المؤرخ من المجتمع المصري المفكر، وهو روح نفور وخصومة، فقد جاء ابن خلدون إلى مصر يسبقه حكمه على المصريين في مقدمته بأنهم قوم (يغلب الفرح عليهم والخفة والغفلة عن العواقب) ويورد ابن خلدون هذه الملاحظة في معرض كلامه عن أثر الهواء في أخلاق البشر ويعتبرها نتيجة لوقوع مصر في المنطقة الحارة. على أنه مهما اتخذت هذه الملاحظة سمة البحث العلمي فإنها لا يمكن أن تقابل ممن قيلت في حقهم بغير الاستياء والحفيظة. واكن طبيعيا أن يحدث هذا الغرض السيء أثره في شعور المجتمع المصري المفكر نحو المؤرخ. وكان هذا المجتمع نفسه يجيش عندئذ بكثير من عوامل الخصومة والمنافسة، وزعامته يطبعها لون من الجفاء والقطيعة. وكان اضطرام المنافسة بين أعلام التفكير والأدب يومئذ سواء في ميدان التفوق والنبوغ أو في تحصيل ما تسيغه الزعامة الأدبية من الجاه والرزق ظاهرة هذه الخصومة. وكان المجتمع القاهري الأدبي ينقسم عندئذ إلى شيع وطوائف تنحاز كل شيعة أو طائفة إلى زعيم أو جناح معين من الزعماء فتؤيد جهوده الأدبية وتناجز خصومه في ميدان الجدل. فلم يكن من السهل على أجنبي مثل ابن خلدون جاء ينتظم في سلك هذا المجتمع منافساً في طلب الجاه والرزق أن ينعم بصفاء الأفق، أو يلقى خالص المودة والصداقة، هذا إلى ما كان يغلب على خلاله من حدة وصرامة وكبرياء تزيد من حوله الجفاء والقطيعة. كان طبيعياً أن تلقى آراء ابن خلدون ودروسه في هذا الأفق الكدر من الإعراض والانتقاص أكثر ما تلقى من الإقبال والتقدير، وان تكون محدودة الذيوع والأثر. ومع ذلك فقد درس على ابن خلدون جمهرة من أعلام التفكير والأدب المصريين وانتفعوا بعلمه، وظهر أثره جليا في بعض ثمرات التفكير المصري المعاصر. وممن درس عليه وانتفع بعلمه الحافظ ابن حجر العسقلاني المحدث والمؤرخ الكبير فهو يقول لنا في كتابه (رفع الإصر عن قضاة مصر) إنه (اجتمع بابن خلدون مراراً وسمع من فوائده ومن تصانيفه خصوصاً في التاريخ) وإنه

كان لسنا فصيحاً حسن الترسل وسط النظم مع معرفة تامة بالأمور خصوصا) وإنه كان جيد النقد للشعر وإن لم يكن بارعا فيه. بيد أن ابن حجر .(متعلقات المملكة يحمل على ابن خلدون بشدة، وينقل في ترجمته كثيراً مما قيل في ذمه وتجريحه. فهو يقول لنا في تاريخه أن ابن خلدون مؤرخ بارع (ولكنه لم يكن مطلعا على الأخبار على جليتها ولا سيما أخبار المشرق) ويعارض المقريزي في مدح المقدمة ويرى أنها لا تمتاز بغير (البلاغة والتلاعب بالكلام على الطريقة الجاحظية) وان محاسنها قليلة (غير أن البلاغة تزين بزخرفها حتى يرى حسناً ما ليس بحسن) وأما ابن خلدون كقاض فان ابن حجر يقول لنا: (أنه باشر القضاء بعسف وبطريقة لم تألفها مصر. وانه لما ولي المنصب تنكر للناس وفتك في كثير من أعيان الموقعين والشهود، وانه عزل لأول مرة بسبب ارتكابه التدليس في ورقة ثم ينقل في هذا الموطن كثيراً مما قيل في ذم المؤرخ وتجريحه. من ذلك إن أهل المغرب لما بلغهم ولايته للقضاء تعجبوا ونسبوا المصريين إلى قلة المعرفة بحيث قال ابن عرفة: (كنا نعد خطة القضاء أعظم المناصب فلما وليها هذا عددناها بالضد من ذلك) ومن ذلك قول الركراكي أحد الكتاب الذين عملوا مع ابن خلدون (أنه عرى عن العلوم الشرعية) بل ينقل ابن حجر أيضاً بعض المطاعن الشخصية والأخلاقية التي قيلت في حق المؤرخ من ذلك ما نقله عن العينتابي وهو أنه كان يتهم بأمور قبيحة وما نقله عن كتاب القضاة للبشبيشي، وهو (أن ابن خلدون كان في أعوامه الأخيرة يشغف بسماع المطربات ومعاشرة الأحداث وأنه تزوج امرأة لها أخ أمرد ينسب للتخليط) وأنه كان (يكثر من الازدراء بالناس) وأنه (حسن العشرة إذا كان معزولا فقط فإذا ولى المنصب غلب عليهم الجفاء والنزق فلا يعامل بل ينبغي أن لا يرى) وهذه أقوال تنم عن خصومة مضطرمة ومبالغة في الانتقاص تنحدر إلى معترك السباب والقذف. وقد كان البشبيشي بلا ريب من ألد خصوم المؤرخ وأشدهم وطأة عليه. وقد دوَّن حملاته على المؤرخ في كتاب ألفه في تاريخ القضاة ولم يصل الينا، ولكن ابن حجر ينقل إلينا منه تلك الفقرات الشخصية اللاذعة.

وأخيراً يقول ابن حجر من ابن خلدون وأثره يدعو إلى التأمل، فهو على رغم اتزانه

واعتداله وعفة قلمه ينساق هنا إلى نوع من التجريح والانتقاص ليس مألوفا في كتاباته. ولا ريب أن في لهجته وأقواله مبالغة وتحامل، ولكن لا ريب أيضا أن لها قيمتها في تقدير
الرأي المصري المعاصر لأبن خلدون، بل نستطيع أن نعتبرها ممثلة لرأي الفريق المفكر الذي كان يخاصم المؤرخ ويشتد في تجريحه، والحملة عليه، وقد كان الفريق الأقوى بلا ريب لأنه كان يضم كثيراً من المفكرين والفقهاء البارزين مثل ابن حجر، والجمال البشبيشي، والركراكي، وبدر الدين العيني (العينتابي). وقد امتدت آثار هذه الخصومة الأدبية طوال القرن التاسع الهجري حتى جاء السخاوي في أواخر هذا القرن يردد كل ما ذكره ونقله شيخه ابن حجر في ذم ابن خلدون وتجريحه والانتقاص من أثره، ولكن في لهجة مرة لاذعة تنم عن الخبث، وقصد التشهير والهدم أكثر مما تنم عن قصد النقد الصحيح، وهذه الروح المرة اللاذعة تبدو في معجمه (الضوء اللامع) في معظم تراجم الشخصيات البارزة. بيد انه يعترف في كتاب آخر له (بنفاسة) مقدمة ابن خلدون ويبدو أكثر اعتدالا وتقديرا.

إسماعيل صبري

بمناسبة مضي عشر سنوات على وفاته

يوم نستقبل الربيع نذكر الخمائل على ضفاف النيل وهي ترسل نسماتها البليلة الندية، والطير جاثمة فوق غصونها تشدو بأغانيها الجميلة الشجية، ومن خلال أشجارها تجري جداول تدفقت فيها المياه العذبة الروية. اليوم الذي تستجيب فيه العين والأذن للزهر وللطير وللماء، لا ننسى انه اليوم الذي ذوت فيه زهرة أرجة ناضرة، وانقطع صوت لين حنون، وجف في مجراه ماء عذب دفيق: ففي مثل هذا اليوم استوفى إسماعيل صبري ظمأ حياته.

فهلا يجمل بنا اليوم، يوم تمضي على وفاته عشر سنوات أن نذكره ولو بهذه الإجمالة الموجزة؟

لا نريد أن نترجم حياة صبري وإن كانت خطيرة، فقد تدرج في وظائف الحكومة حتى شارف ذروتها، ذلك لأن هذه المناصب الرفيعة، وإن أحلت صاحبها في حياته مقاماً محموداً، أهون على الناس من أن تبعثهم على أن يحفلوا بأمره بعد أن بت ما كان يصلهم به من أسباب الحياة، هذا إلى أن مراد القول أضيق من أن يستفيض لترجمة شاملة وافية نتبين منها

ما تركته أطوار حياته من آثار وندوب في هذا الجانب الروحي الذي يمس النفس الإنسانية فيصل بين أجزائها وإن اختلف ما يحفها من عهود وبيئات.

أستقبل صبري حياته، في أوائل النصف الثاني من القرن الماضي. وقد تجمعت عدة جهود أدبية وقامت فيما يشبه الثورة: فبعثت طائفة من معاجم اللغة وأسفار الأدب ودواوين الشعر من خزائنها وطبعت، وأخذت الصحف الأدبية تنشأ وتعمل لتقويم اللغة وإحياء الأدب العربي، وأعيدت البعوث إلى أوربا بعد أن وقف إرسالها أيام عباس وسعيد، وأقيمت نظارة المعارف وعهد إليها بأمور التعليم وأنشئت دار الكتب ومدرسة المعلمين، وظهرت مسارح التمثيل والموسيقى والغناء وغير هذا مما لم يكن إلا ناحية من نواحي الثورة الاجتماعية التي أقامها الخديوي إسماعيل يوم رسم لمصر خطة الاتجاه إلى أوربا واقتباس حضارتها الجديدة.

في هذه البيئة التي يدب النشاط في جنباتها فيبتعث الملكات الهامدة، بدأ صبري يقرأ الشعر ويحبه، وأخذ ينعم النظر فيه ويحاول أن يقلده، حتى استقامت له وهو في السادسة عشرة بضعة قصائد في مدح الخديوي وتهنئته نشرتها له مجلة (روضة المدارس المصرية) التي أنشأها جماعة من صفوة الكتاب البارزين إذ ذاك. وكانت هذه الأشعار مجرد تقليد واضح في أغراضها ومعانيها وأساليبها لمن سبقه من شعراء عصره كالبارودي وعبد الله فكري، وإن ظهرت علينا حيناً مسحة رقيقة من روحه وشخصيته.

ولكن هذه البيئة الأدبية النشيطة لم يقتصر أثرها على توجيه صبري إلى الأدب وإذكاء ميله إلى الشعر، بل حببت إليه قراءة الشعر العربي القديم من ناحية، وحثته على قراءة الأدب الفرنسي منذ أرسل إلى فرنسا ليدرس الحقوق في جامعة إكس من ناحية أخرى. فقرأ الشعر العربي وتذوقه وأحب منه بوجه خاص شعر البحتري، ذلك أن

صبري، كما وصفه الدكتور هيكل (ابن بلد) والبحتري كما قال حافظ إبراهيم (يأخذ قارئ شعره بالحضن) وقرأ الأدب الفرنسي وصادف فيه جمالاً يرضي عاطفته؛ وسيولة تروي شعوره. وبهذا تأثر صبري ببعض مميزات الشعر الفرنسي حيناً، وببعض مميزاتهما معاً حيناً. ولكن ما مدى هذا التأثير في أطواره الادبية، وما هي مظاهره في نتاجه الشعري؟ هذا سؤال يتناول ناحية خطيرة في دراسة الشاعر، وأنا لا أملك الآن ما يؤهلني لبحثها في دقة وتحقيق. ولكني أراني ملزماً بأن أعرض لها ولو في هذه الصورة التي أعرف أنها ليست دقيقة كل الدقة، وليست شاملة كل الشمول.

حين نقرأ هذه الأشعار القليلة التي خلفها صبري نرى أنفسنا أمام طائفتين متمايزتين من الشعر، تشتركان في صفاء الديباجة ورواء الأسلوب بوجه عام، وتختلفان في الشعور الذي صدرتا عنه، وفي العاطفة التي أوحت بهما، وفي المعاني التي تدوران عليها. وقد يضعف هذا الاختلاف حيناً وقد يشتد حينا آخر اشتداداً يحملنا على أن نزعم أننا لا نقرأ شاعراً واحداً وإنما نقرأ شاعرين مختلفين. وليس في هذا ما يدهشنا، فصبري قد عاش ما يقارب سبعين عاماً، مرت عليه أثنائها عهود الشباب والرجولة والكهولة، حاملة أراءها وأفكارها، وخواطرها وخلجاتها، وآلامها ولذاتها، وتنقلت حياته أثناءها بين هذه الآراء المتضاربة التي يمتلئ بها العقل تبعاً لما يتغذى به من ألوان الثقافة المختلفة، وبين هذه الاحساسات المتباينة التي يجيش بها القلب تبعاً لما يعرض له من مناسبات وملابسات.

فأما الطائفة الأولى من شعره فهي التي أنشأها بين العشرين والأربعين وأكثرها قصائد في مدح أو تهنئة إسماعيل وتوفيق وعباس، وفي هذه الأشعار نرى أثر الشعر العربي ظاهراً واضحاً، ونرى أثر البحتري وحده، على وجه الدقة، عميقاً بارزا، إلى حد يبيح لك أن تشرك شعريهما في مميزات واحدة. خذ مثلا قصيدته في تهنئة الخديوي بحلول شهر رمضان ومطلعها:

بعلاك يختال الزمان تبختراً ... وبقدرك الأسمى يتيه تكبراً

وقارنها بكثير من مدائح البحتري تجد أن صبري قد تأثر فيها بالبحتري تأثراً هو أشد من تقليد شاعر لشاعر، وهو أقرب إلى حلول روح شاعر في جسم شاعر آخر. ولكن، وعلى رغم هذا كله، فان هذا الأثر تناول الديباجة وحدها فأكسبها جزالة وسهولة في مفرداتها وتراكيبها، من غير أن يمتد إلى المعاني فينتج منها شيئا جديداً قيما، وذلك لأن البحتري، وهو الوشيجة التي تصل صبري بالأدب العربي، قل أن نظفر في شعره بكثير من المعاني المبتكرة، وقل أن نحب فيه غير متانة الأسلوب وسلاسته. تأثر في هذا الطور الأدبي بين العشرين والأربعين بالشعر العربي وحده، فأين كان الشعر الفرنسي؟ أليس من الشذوذ أن نرى صبري قد ذهب إلى فرنسا قبل أن يبلغ العشرين من عمره، وبدأ إذ ذاك يقرأ الآداب الفرنسية ويتذوقها ويشدوها ثم لا نكاد نظفر في شعره أثناء هذا العهد بأثر قوي لهذا الشعر الفرنسي بل ولا لأي مظهر من مظاهر الحياة الأوربية؟ ولكن يظهر أن صبري قد أوتي، إلى جانب حواسه المرهفة، ذاكرة قوية مكنته من أن يختزن فيها ما يعرض له حتى يتمثله في تؤدة وأناة وحتى ينتجه مكتمل النمو مستوفي النضوج.

ونحن لا نفترض هذه الموهبة ولا نتكلف التماسها، وإنما يحملنا على الاطمئنان إليها أننا نجد فيها تعليلا لهذا الاضطراب الذي يغشي أطوار حياته الأدبية. فقد قضى صبري شبابه وشعره يكاد يقتصر على المدح وما إلى المدح مما تنفر منه نفس الشباب، ولا تكاد تبين فيه إثارة من هذه العواطف التي يحفل بها الصدر في ربيع الحياة، بينما تفتحت شاعريته الجائشة وأخذ يتغنى بأناشيد الحب والهوى أثناء الكهولة التي تنطفئ فيها عواطف الشباب الفياضة. ذلك لأن ذاكرته القوية قد استطاعت أن تحتفظ بهذه الاحساسات الفتية التي اختلفت عليها أثناء شبيبته، حتى تفجرت بعد ذلك شعراً ثميراً لا تشوبه فجاجة الحس ولا غضاضة العاطفة.

ولهذا ظهر أثر الشعر الفرنسي في هذه الأشعار التي تغنى فيها بالعاطفة الإنسانية التي يسمونها الحب أو العطف أو الوداد وناجى فيها الله وتخوف وتشوف إلى الممات، وشاد بمجد وطنه واستنهض أبناءه إلى استعادة الماضي المجيد. في هذه القصائد والمقطوعات، التي كتبت أسمه في ثبت الخالدين، ظهر أثر الشعر الفرنسي بارزاً

شاملا: بارزاً حتى يكاد يخفي وراءه كل أثر للشعر العربي، شاملا فلا يقتصر على الديباجة وحدها، ولا على المعاني وحدها، وإنما ينال الأسلوب فيضفي عليه جمالا ورواء، ويتعداه إلى الفكرة فيمزجها بروح غريبة لم يألفها الشعر العربي من قبل.

وهل ترى في الشعر العربي مثالا لهذه القطع التي أنشدها في الحب؟ كلا! فالشاعر العربي الغزل لا يرى في المرأة الا (أنثى) جميلة الوجه دقيقة القسمات، مهفهفة القوام رشيقة الأعطاف، رخيمة الصوت شيقة الحديث، يهصر صدرها ضما ويشبع ثغرها تقبيلا، وهي تتهافت وجداً وتتهالك هياما! والغزل في الشعر العربي يضيق عن أن يستفيض لجميع وجوه الجمال الإنساني، وينصب على ناحية الجمال الجسمي وحده، فيصفه جملة أو تفصيلا، سواء كان الغزل عذريا أو إباحياً أو متكلفاً. أما شعر صبري في الحب فيختلف عن هذا الغزل العربي في صلته بالمرأة، إذ يتسامى عن الجمال المادي إلى الجمال المعنوي في أرحب آفاقه وأشمل معانيه. فلا تستخفنا فيه هذه العيون والحدود، والصدور والنهود، والملاسة والرشاقة، والتقبيل والضم، والتأود والتثني، والتأوه والأنين وإنما نهتف فيه بالمثل الأعلى للمرأة في أفتن جمالها، وأذكى فؤادها، وأنبل روحها.

وأني لأشعر حين أقرأ قصيدته (تمثال جمال) أني أنظر إلى صورة فنية رائعة، فلا أميز بين هذه المرأة التي يهتف بها الشاعر، وبين هذه المرأة التي يتخذها المصور رمزاً لمعنى من المعاني الإنسانية كالألم أو الأمل أو الحنان! بل أني لأحس حين أرتلها أن قلبي قد صفا مما به من شره وأنانية وغرور وكبرياء، وأن صدري قد انطفأت فيه جذوات الحقد والحسد والغيرة والطماح، وأن فؤادي قد غمر الخشوع والإيمان ما يغشاه من شك وضلال: أشعر أني قد سموت من الأرض إلى السماء!

ولم لا وصبري قد امتزجت فيه الروحية بالجمال؟ ألم ينشأ على ضفاف هذا النيل الذي أوحى إلى الإنسانية أن تبتكر ديناً وإيمانا، ألم يلابس الحياة الأوربية وما تضفيه من فتنة وجمال؟ وبهذا استجاب للروحية المصرية وتمثل الجمال الأوربي، وبهذا اجتمعت فيه مصر بروحيتها وأوربا بجمالها، وبهذا كان نتاجه الشعري مزاجاً من الروحية في معانيه ومن الجمال في أساليبه.

وشعره في الحب، بعد هذا، سمح وديع رضي: لا يفطر القلب أسى، ولا يرسل من العين دمعاً، ولا يبعث من الصدر أنيناً، ولكنه لا يشيع في المرء غبطة في الحياة ورغبة في متاعها ولا يغري بالإسراف والتوفر على لذاتها، وإنما يجمع في شعره لوعة غير مسرفة، ومتعة غير غالية، ذلك لأن صبري لم يكن لاهياً ولا عابثاً ولم يكن كئيباً ولا محزوناً، وإنما كان سمح الذوق، وديع الخلق، رضي النفس، فما كان يذعن قلبه لامرأة واحدة تأسره وتطغي عليه، وما كان ماجناً في حبه سادراً، ولا متهتكا في لهوه مستهتراً، وإنما كان ينشد المرأة التي تشبع القلب ولا تتخمه، وتروي الفؤاد ولا تغرقه، وترضي الشعور ولا تقسو عليه.

وهذه الدعة التي تميز بها في حبه، تشيع كذلك في شعره في مناجاة الله، وازدراء الدنيا، واستشفاف ما في الحياة الأخرى. فهو لم يكن ناسكا في الدنيا زاهداً في لذاتها، ولم يكن مفتوناً بالحياة متوفرا على متاعها، وإنما كان ينال من هذا في قصد ويأخذ من ذلك في اعتدال، فإذا أسرف في حبه للحياة واستمتاعه بلذاتها الرخيصة، ذكر الدنيا وما فيها من نكر وخداع وضلال، وذكر ما بعدها من حساب وعقاب وثواب، فاستعجل الموت وراحة القبرحيناً، وناجى الله وأمل فيه حينا.

ولكن صبري الوادع الهادئ كان إذا تحدث عن وطنه جاشت الحماسة في أنحاء صدره، وفاضت الحرارة في سياق شعره، فمثلت الوطن بجلاله وروعته، وأشعرت المصري بمجده وكرامته، وأذكت نار الوطنية في فؤاده، وألهبت فيه عاطفة التضحية في سبيل بلاده.

وهو في شعره يستلهم العاطفة ويستوحيها. كانت تختلف عليه غير السياسة وأحداثها فلا يحفل بها، وتتوالى أمامه الكوارث والخطوب فلا يأبه بها، وتتراكب في عينيه شؤون الحياة وأمورها، وتزدحم بخيراتها وشرورها، وتغص بلذاتها ومنغصاتها، فلا تسترعي منه حاسة

ولا تستثير في نفسه عاطفة، بينما يجيش وجدانه وتهتز عواطفه عند موت طفل، أوفراق صديق، أو قراءة كتاب، أو وقفة عند سفح الأهرام- هذه الحوادث التي تمر بنا

فلا نلتفت إليها كانت تثير شاعرية صبري بهذه المقطوعات التي تمس النفس الإنسانية في أعمق حواسها وأدق مشاعرها. وهذه هي مهمة الفن: يفتح العين المغمضة، ويذكي الحاسة المطفأة، ويبعث العاطفة الهامدة، ويحيي موات القلوب، حتى يشركنا لحظ مما فاتنا من اللذات السامية التي قصرت على النفوس الموهوبة. وهل نرى بهجة الحياة إلا بعين المصور، وهل نستمع إلى أنغامها إلا بإذن الموسيقي، وهل نحس الحق والجمال إلا بقلب الشاعر؟ وأي شعر أرفع من شعر صبري الذي (فاضت به) العاطفة من غير أن تتكلفه أو تكره عليه؟ وأي شعر أنضج من شعر صبري الذي كان يؤمن بشيطانه ولا يعصي له أمراً، فيستوحيه الشعر ولا يستجديه؟ وأي شعر أسمى من شعر صبري الذي تشيع فيه هذه المرارة وهذا الحنين، فيذيب في الصدر أطماع الحياة وآثامها، ويسمو بالنفس عن متعها الخسيسة الهينة، إلى المستوى الإنساني حيث يستحيل البغض حباً، والقسوة حناناً، والأثرة إيثارا، والتناحر وداداً، والصراع عناقا . . .

إلى جانب هذا النضوج في روح صبري، نذوق جمالا في أسلوبه يملك على المرء نفسه حين يتلوه، ويحمله على أن يرتله مرة بعد مرة وعلى أن يذكره آونة بعد آونة، فلا يزداد الشعر إلا عذوبة وصفاء تزيد المرء لذة ومتاعاً، ويخيل إلى المرء أنه أمام وجه جميل، كلما أطال النظر إليه، ازداد رغبة فيه وحباً له. وهكذا يقاس نضوج الفن: يزداد المرء بالصورة إعجابا كلما انعم النظر فيها، ويزداد حنيناً إلى الموسيقى كلما أطال الاستماع إليها، ويزداد فتنة بالشعر كلما أكثر ترديده وترتيله. وكيف لا يكون شعر صبري جميلا وقد استقاه من ينابيع فياضة بالجمال: تأثر بشعر البحتري الذي امتزجت فيه الجزالة بالسهولة، وتأثر بالشعر الفرنسي الذي يفيض سيولة ورواء. ويتجاوب ألحاناً وأنغاماً، وهو قبل هذا قد أوتي أذناً دقيقة تجيد انتقاء المفردات، وتحسن الاستماع إلى اتساق العبارات (وتحس نبو الوتر). وصبري كان مولعاً بالموسيقى، مفتوناً بالغناء، وكان متصلا بمن عاصروه من الموسيقيين والمغنيين، وأمدهم بكثير من المقطوعات الغنائية الشعبية، ومن أجملها (قدك يا أمير الأغصان) (الفجر لاح يا تجار النوم). وكانت تستخفه عذوبة الحديث وبلاغة الإلقاء

ولهذا كان كثير التبديل والنقد لشعره، وكان يبذل في صياغته جهداً ناصباً، حتى إذا استقام له البيت أو البيتان أو الأربعة أهملها ثم نسيها، فلم يبق لنا من شعره إلا القليل.

هذه سوانح تخطر لي عندما أتلو شعر صبري الذي لم تتطرق إليه البداوة العربية التي تغشى غيره من شعرائنا، أكتبها لنذكر صبري (أستاذ الشعراء) الذي صبغ الشعر العربي الحديث بطابع نلمس آثاره في شوقي وحافظ.

عبد الحميد عبد الغني

من طرائف الشعر

شوقية لم تنشر

نظمها شاعر الخلود شوقي بك فغنت بها إحدى القيان ولم تنشر

بي مثل ما بك يا قمرية الوادي ... ناديت ليلى، فقومي في الدجى نادي
وأرسلي الشجو أسجاعاً مفصلة ... أو رددي من وراء الأيك إنشادي
لا تكتمي الوجد، فالجرحان من شجن ... ولا الصبابة، فالدمعان من واد
تذكري! هل تلاقينا على ظمأ؟ ... وكيف بل الصدى ذو الغلة الصادي
وأنت في مجلس الريحان لاهية ... ما سرت من سامر إلا إلى نادي
تذكري قبلة في الشعر حائرة ... أضلها فمشت في فرقك الهادي
وقبلة فوق خد ناعم عطر ... أبهى من الورد في ظل الندى الغادي
تذكري منظر الوادي ومجلسنا ... على الغدير كعصفورين في الوادي
والغصن يحنو علينا رقة وجوى ... والماء في قدمينا رائح غاد
تذكري نغمات ههنا وهنا ... من لحن شادية في الدوح أو شادي
تذكري موعداً جاد الزمان به ... هل طرت شوقا؟ وهل سابقت ميعادي؟
فنلت ما نلت من سؤل ومن أمل ... ورحت لم أحص أفراحي وأعيادي
طائري المهاجر
في قفار الفلاة كان مسيري ... والشمس ترسل نارا
لفحات كأنها من سعير ... زادت أواري أوارا //

ليس فيها سوى رمال كثيب ... من فوقهن رمال //
لا غدير ولا جناب رطيب ... تحنو عليه الظلال
متعباً يائساً آويت لكهف ... مالت عليه الصخور
وتراميت بين جهد وخوف ... تضيق منه الصدور
غير أني أبصرت طيرا جميلا ... ما راعه أن رآني
لونه كالسماء، أحلى هديلا ... من مطربات الأغاني
قلت يا طير: إن قلبي وجيع ... فغنني واشف قلبي
أنا في هذا القفار مضيع ... فكن عزائي وطبي
فدنا عند ذاك مني وغنى ... والسحر في نغماته
وأتى فوق راحتي مطمئنا=يفتر عن بسماته
وغدا طائري أنيس حياتي ... في وحشة الصحراء
وألفت البقاء وسط فلاتي ... حتى نسيت شقائي
فكأن الرمال أضحت غياضا ... تجري بها الأنهار
وكأن الصخور صارت رياضا ... تزينها الأزهار
غير أني. أواه! أبصرت يوما ... طيري على غير عهدي
فتوددت في خشوع فأومأ ... عليّ عبوس وصد
وتوسلت ضارعا بودادي ... وما تضمن قلبي
وجرى الدمع من دماء فؤادي ... ولست اعرف ذنبي
بم ناديت حسب نفسي شقائي ... وما ترى من بكائي
إنني لا أعيش إلا رجاء ... فلا تضيع رجائي
فلوى رأسه الجميل مجيبا ... في قسوة وجفاء
!قال: ما تبتغي؟ كفانا نحيبا ... أف لهذا البكاء
أنا طير ولي جناحا فدعني ... أطير نحو السماء
والتمس صاحبا شبيهك، أني ... سئمت طول البقاء
قال هذا وطار عني يغني ... بين ثنايا السحاب
تاركا مهجتي لنيران حزني ... تلقى صنوف العذاب
م. ف

علالة المجنون

قطعة تمثل مجنون ليلى في إحدى خلواته، وهو يرفع إلى عشيقته عفوه عن الحب)
ويشرح ماله من يد وفضل على المحبين، وهو الذي ذهب بعقله وأورده موارد التلف،
ويسر في أذن الليل صبابته وإخلاصه لفاتنة قلبه ومالكة لبه)

(الناظم)

عفا الله يا ليلاي عن ذلك الحب ... وجدد ما قاسيت في البعد والقرب
ولا زادني إلا عذابا ومحنة ... أفانيهما حتى أغيب في الترب
صبرت على عيشي زمانا وللهوى ... جراح لم يجرؤ لساني على العتب
وغالب غيري حبه متبرما ... وغالبته نشوان مختبل اللب
ولولا الهوى لم يعمر البيد خاطري ... ولا طار في أجواء مأنوسة قلبي
ولولا لم يحل من وجنة جنى ... ولا شرع الهيمان في السلسل العذب
ولولا الهوى لم يسفح البين أدمعاً ... تسيل على الخدين كاللؤلؤ الرطب
ولم تسلك الألحاظ في النفس مسلكا ... كما خامر الرعديد طيف من الرعب
ولولاه أصبحت الشقى بوحدتي ... وإن ضافني قومي وعللني صحبي
به أبصرت عيني ولم أك مبصراً ... وهبت رياحي وأنجلت غمرة الكرب
وزفت لي الدنيا كفردوس آدم ... وطالعني الريحان في المهمة الصعب
إليك أبث الحب يا ليل فاستمع ... لأنت إذا نامت عيون الورى حسبي
عشقت ومالت بالفؤاد صبابة ... ومن حسنات الكون يا ليل ما يصبي
يقولون ما أغناك عمن تحبه! ... إذا هو أصلاني الغرام فما ذنبي؟
ولولا شعاع بين عينيه راعني ... وشرد عقلي ما اهتديت إلى الحب
كذبت هوى ليلاي إن لم أمت به ... وأقضي على تذكار قاتلتي نحبي
أأجزيه من دمعي؟ لقد نفد البكى ... فهات لأجفاني دموعا من السحب

أأكتمه والسقم واش، وحيرتي ... وليلى، وأنفاسي تحدث عن صب؟
حنانك يا ليلى ألم تحملي الهوى؟ ... ألم تعلمي يا منية النفس ما خطبي؟
رفيق فاخوري (سورية حمص)
ليلة!
ليلة الأنس تقضت ... في شراب ومجون //
لم يشاهدها الندامى ... في مقاصير الأمين //
طلع الفجر وكنا ... من هوانا ثملين
ضمني صدر وفي ... كله عطف ولين
وفم يعبق طيباً ... كعبيق المورلين
لذة العمر لديها ... كل شيء قد يهون
لا ترم مني شرحا ... أنا للسر أمين
حسين شوقي - كرمة ابن هانئ
في الأدَبِ الشرقي
من الأدب التركي
الزامر الأعمى
للدكتور عبد الوهاب عزام
جلست إلى دواوين الشعر التركي أقلب الأجيال بين يدي: أطالع مرة وجه (نجاتي) و (ذاتي) وأنظر أخرى إلى (باقي) و (نفعي) وثالثة أرى (نديما) (وراغب باشا) و (الشيخ غالب) ثم أعمد إلى العصور الأخيرة فإذا اسناسي و (نامق كمال) و (ضيا باشا) و (توفيق فكرت) و (عبد الحق حامد) وغير هؤلاء.
وبينا أطوي العصور باللمحات، وأقلب الأجيال تقليب الصفحات، بصرت (بالصفحات) ديوان الشاعر الكبير صديقي الكريم محمد بك عاكف. فسارعت إلى الجزء الأول فانفتح عن قطعة عنوانها (الزامر الأعمى) فقرأتها ثم عمدت إلى القلم فترجمتها نثراً إذ ضاق الوقت دون نظمها وأنا أقدمها للقراء كما جاءت عفو البديهة في الاختيار والترجمة:
الزامر الأعمى
كنت أرى هذا السائل الضرير، يتأبط ذراع قائده، وفي يده قصبة عتيقة، ينبعث منها صوت قوي، كأنه النواح في المأتم. ويمر به الناس فيقفون ويستمعون رحمة به ورثاء له. ثم يلقي كل منهم إلى كشكوله البائس الذليل خمس بارات أو عشراً.
كان يبعث أناته في قصبته المرضوضة فينبعث إلى أذنه في رنين العشرات والخمسات صدى البشرى، ورسالة المودة، رنات لا تفنى في أنين الناي الحزين، ولكنها تؤلف نغمة أخرى تسايره. كم أحزنني هذا الصوت! وكم أمضني ذلك المرأى الأليم!
إنه من دهره في ليال متتابعة مديدة، لا يتنفس في آفاقها المظلمة صبح، ولا يلوح في وجهه لمحة من النور، تحدث عن بسمات الرجاء والأمل. كلا. إن هذا لوجه الأغبر، هذا الوجه التعس قد أقتمت فوقه سحب متراكمة من الشقاء: ماضيه ظلام، وظلام مستقبله. سله عن الحياة فهي حقيقة مظلمة مديدة. تراها نظراته حجابا من الظلمات دون حجاب. انه لا يبصر المصائب، ولكن كل شيء حوله مصيبة، يمتد به العمر الشقي في هذا العالم البائس،
ويتحسس ظلامه الذي ما ينتهي فلا يظفر بطريق تخرجه إلى صبح الأمل المسفر.
وعلى كتفيه مزق من عباءة بالية قد اتخذها مجنا في عراك الأيام، ولكن يد الريح العابثة تنازعه هذا الستر كلما هبت، فتكشف عن كتفيه، وتلقي بصدره أمواج المطر والبرد.
بينما أخرج السوق بصرت بسائل يبعث أنينا حزينا، وهو متكئ على أحجار تغشاها أوحال. وتحته حصير أبلاه مر الأيام ولا يظله إلا طنف (سبيل) هناك. ولكن صوت الناس لا ينطلق الآن بعيداً، وإنما سمعت عن كثب صدى كنسيس المحتضر.
ليت شعري أكان يزمر لنفسه أم كان يئن؟ لا أحد يسمع له! ولا أحد يقف عنده! ولكن المارة يلقون إليه بنظراتهم ثم تمضي بهم السبل. ومن ذا الذي يصيخ إلى صدى تلفظه المقابر؟ أيها المسكين! وطّن على الموت نفسك! واقطع أنات الشكوى. لا لا. أصخ! قد سمع في الكشكول رنينا مديدا! يا لها نغمة من الرجاء مطربة! يا لها بشرى

أستمع لها القلب والأذن معاً.
الماء يخترق الطنف، فينسكب المطر من ثقوبه فيضرب الكشكول البائس! سمع الأعمى الصوت فحسبه نبض الرحمة قد جاشت به قلوب المارة. فمد يده، مدها إلى الكشكول، ولكن هيهات! قد خاب رجاؤه، وكذب ظنه، ارتدت يده المتجمدة من البرد! ارتدت إليه فارغة مبتلة!

في الأدَب الغربيّ

عنزة المسيو سيغان

لألفونس دوديه

إلى الشاعر الملهم بيبر غرينفوار - بباريس

ستظل طول حياتك على حالك التي عهدتها يا صديقي البائس!

كيف تعرض عليك وظيفة مخبر لإحدى كبريات الجرائد في باريس ثم ترفض! تأمل في حالك أيها المسكين! أنظر إلى ثوبك الممزق وإلى حذائك البالي، والى وجهك الضعيف الشاحب، أذلك ما أجداه عليك غرامك بالشعر. وهذا جزاء خدماتك الجلى (لأبولو) مدة عشر سنوات. . . ألا تخجل من نفسك بعد هذه النتيجة؟

إقبل هذه الوظيفة أيها الغبي! إعمل مخبراً! ستكسب الدنانير الجميلة فتستطيع بها أن تأكل في المطعم أكلا شهياً وأن تلبس في أول الشهر معطفاً جديداً. . .

ألا تريد أن تقبل؟ أترفضها إذن؟ تريد أن تبقى حراً إلى الأبد. . . أصغ إذاً إلى قصة عنزة المسيو سيغان لتعلم ما يجنيه المرء من الإخلاد إلى حياة الحرية!

لم يلاق المسيو سيغان حظاً في اقتنائه المعز. فقد خسر أعنزه كلها بطريقة واحدة: كانت تقطع حبلها في الصباح لتهرب إلى الجبل حيث يفترسها الذئب. فلا وداعة سيغان ورفقه، ولا اسم الذئب وبطشه، كانت تثنيها عن خطتها. فكانت، على ما يظهر، معزى مستقلة بنفسها، لا ترضى بغير الهواء الطلق مربطا ولا بغير الحرية مرتعاً.

ولكن سيغان لم يكن يفهم طبعها ولا يعرف شيئاً من خلقها ليخفف قليلا من حدته وذعره. فكان يقول:

- انتهى الأمر! إنني لن أقتني بعد اليوم عنزة واحدة لأنها تمل عشرتي.

ولكنه على رغم ذلك لم ييأس اليأس كله. فبعد أن خسر ست عنزات بالطريقة المعلومة اشترى السابعة. ولكنه في هذه المرة عنى باختيارها صغيرة ليأمن بقاءها عنده.

آه! يا صديقي غرينفوار ما كان أجمل عنزة سيغان هذه المرة! عينان ناعستان ولحية صغيرة كلحية الضابط، وحافر أسود لماع، وقرنان معقوفان، وصوف طويل أبيض يتدلى على جسمها! إنها أحلى وألطف من جدي اسميرالد الذي رأيناه يطوف به الشوارع بالأمس، أتذكره يا صديقي؟ إنها كانت هادئة، وديعة، سهلة الانقياد. . .

وكان سيغان يربط ما عزه في حضيرة محاطة بالعليق خلف منزله. فربط فيها العنزة الجديدة، وأطال لها الحبل لترعى ما جاورها من الأعشاب النضرة، واخذ يطل عليها من وقت إلى آخر ليتعرف حالها. ولشد ما كان سروره عظيما عندما رآها سعيدة، منكبة على مرعاها الخصيب. تأكل منه ما لذ لها وطاب. فقال سيغان في نفسه:

- الحمد لله! لقد وفقت أخيرا إلى عنزة لا تمل عشرتي.

ولكن السيد سيغان كان مخطئاً، فإن العنزة أدركها السأم والملل!

نظرت عنزة صاحبنا إلى الجبل ذات يوم، فقالت في نفسها:

- لا شك إن الحياة هنيئة حلوة في هذا الجبل ما أسعدني عندما أمرح بين أعشابه من غير هذا الحبل اللعين الذي يحز رقبتي!. . . لا بأس إذا رعى الحمير أو البقر في مثل هذا المكان الضيق!. . . أما نحن معشر المعزى فلنا الخلاء الفسيح.

ومنذ ذلك الحين أصبحت لا ترى لعشب الحضيرة طعماً. وأخذ الملل يستولي عليها. فهزلت، وشح حليبها، وأصبحت لا ترى طيلة النهار إلا ممددة على الأرض، شاخصة إلى الجبل وهي تثغى بصوتها المحزن.

ولاحظ المسيو سيغان أن العنزة أصابها شيء، ولكنه لم يعلم ما هو. . . ففي ذات الصباح بينما كان يحلبها التفتت إليه وخاطبته بلهجتها القومية:

- أصغ إلي يا مسيو سيغان، أني أكاد أموت هنا، فدعني أذهب إلى الجبل.

فصاح مسيو سيغان فزعاً:
- آه! ربي!. .
وترك الوعاء من يده، ثم جلس إلى جنبها على العشب وقال:
- وأنت أيضاً تريدين مفارقتي يا بلانكيت؟ فأجابته عجباً!:
- نعم يا مسيو سيغان.
- أتنقصك الأعشاب هنا؟
- لا يا مسيو سيغان.
- ربما كان رباطك قصيراً، أتريدين أن أطيله لك؟
- لا، أرح نفسك من هذا العناء يا مسيو سيغان.
- إذاً ما بك، ماذا تريدين؟
- أريد أن أذهب إلى الجبل يا مسيو سيغان.
- ولكن، ألا تعلمين أيتها المسكينة أن الذئب هناك. . . وماذا تصنعين عندما يهاجمك؟ . .
- أضربه بقرني يا مسيو سيغان.
- ولكن الذئب لا يبالي بهما. فقد أكل لي معزى كان قرناها أطول من قرنيك. إنك تعرفين رينود التي كانت عندي في العام الماضي؟ فقد كانت قوية نشيطة ظلت الليل على طوله في عراك مستمر مع الذئب. . . وفي الصباح تغلب عليها وأكلها.
- مسكينة! مسكينة!. . . ولكن لا بأس، دعني أذهب إلى الجبل يا مسيو سيغان.
- سبحانك ربي!. . . هذه أيضاً واحدة ستكون للذئب طعاماً. . . لا، لا. . . سأمنعك رغما عنك! وسأقفل عليك باب الحضيرة حتى إذا قطعت الحبل لا تجدين لك مهربا.
حينئذ قاد المسيو سيغان عنزته إلى حجرة مظلمة في الحظيرة وأغلق دونها الباب. ولكنه نسى أن يغلق النافذة، فما كاد يخرج حتى وثبت العنزة إليها وفرت منها هاربة. . .
أظنك تقهقه يا صديقي غرينفوار وترى رأي الماعز. . . ولكن ستعلم بعد حين إذا كان ضحكك يدوم طويلا.
ولما وصلت العنزة البيضاء إلى الجبل، أغتبط بها وأكبر حسن طلعتها، ذلك لأن أشجاره القديمة لم تر فيما مضى عنزة جميلة كهذه العنزة، وانحنت الأغصان المورقة نحوها لتحظى بلمس ثوبها الفتان، وتفتحت الأزهار وأرسلت في الهواء كل ما تحمل من عبير وعطر احتفالا بملكة الجبل الجديدة.
تأمل يا صديقي غرينفوار ما كان أشد سرور بلانكيت! لا حبل، ولا وتد. . . ولا شيء يعوقها عن القفز والجري، والرعي كما تشتهي. . . هنا وجدت العشب كثيراً ناميا! وفي هذا المكان أحست بطعمه!. أي عشب لذيذ، طري، مطرز الأطراف، كثير الأنواع. أنها لم تجد مثيلا له في الحظيرة الضيقة. والأزهار الجميلة على اختلاف أنواعها! أنها أخاذة ساحرة.
هنا أحست بالشبع، فأخذت تلهو وتمرح، تروح وتغدو، تثب في الهواء وتجري على الارض، تقفز من فوق السيول فتبلل صوفها بالماء، ثم تتمدد على صخرة في الشمس لتجففه، حتى أعادت للجبل سالف حياته، وبعثت فيه نشوة الفرح والحبور! وكان يخيل للناظر أن في الجبل عشر عنزات للمسيو سيغان لا عنزة واحدة.
وبينا هي على قمة الجبل ممسكة بين أسنانها زهرة جميلة أبصرت في الوادي منزل المسيو سيغان والحظيرة التي بقربه، فقهقهت ضاحكة وقالت:
- ما أصغر هذا المسكن! كيف صبرت على بقائي فيه؟ ورأت نفسها على قمة عالية فحسبت أنها أصبحت تملك الكون بأسره. . .
والخلاصة يا صديقي أن يومها كان سعيدا جداً.
ومما هو جدير بالذكر أن بلانكيت التقت في طريقها عند الظهر بقطيع من الوعل يقضم بأسنانه أشجار الكرم. فأحبت أن تشاركه في طعامه ففسحوا لها المجال بأدب. ويظهر أن هناك وعلاً وقع من قلب العنزة موقعاً حسنا، فاختفت وإياه في الغاب مدة ساعة أو ساعتين. فإذا أردت أن تقف على حقيقة ما جرى بينهما فاذهب وسل عيون الماء المتفجرة، المنسابة بين الأعشاب المخضوضرة.
وفجأة برد الطقس، وأخذ الليل يرخي سدوله على الجبل. فقالت العنزة:
- عجباً! كيف يمضي النهار بسرعة؟

وكان السهل قد اختفى عن ناظريها في الظلام، ولم تعد ترى من منزل المسيو سيغان إلا سقفه الأحمر وقليلا من الدخان المتصاعد منه. ولما أخذت تصغي إلى صوت قطيع من الغنم عائد إلى حضيرته أحست في أعماق نفسها بوخز الضمير فتألمت. ومر إذ ذاك طائر ليبيت في وكره فكاد يلمسها بطرف جناحه. في هذه اللحظة سمعت في سفح الجبل صوتا يدعوها إليه (وكان ذلك صوت المسيو سيغان ينبعث من بوقه) فتذكرت الذئب وأخذت تفكر فيه بعد أن أنساها فرح النهار وجوده.

ثم سمعت صوت الذئب يتجاوب صداه في الأرجاء. فوطدت العزم على النجاة من مخالبه بإجابة المسيو سيغان. ولكنها تذكرت الحبل والوتد فشق عليها أن تعود إلى سالف حياتها وفضلت البقاء.

. . .وفي هذه الأثناء انقطع صوت البوق

وسمعت العنزة خلفها حفيف الأوراق، فالتفتت لتنظر فرأت أذنين صغيرتين ترتفعان وعينين تقذفان بالشرر. . فعرفت أنه الذئب. . .

ربض الذئب الكبير ينظر إلى العنزة نظرة نهم، ويتأملها دون أن يعجل إلى افتراسها. ولما همت بالمضي في سبيلها أخذ يضحك ويسخر، ثم مد لسانه الأحمر الغليظ.

هنا أحست بلانكيت بخطر الموت. . وتذكرت حكاية العنزة رينود التي قاومت الذئب طيلة الليل عبثاً، فألقت عصا الطاعة وصممت على أن تتلقى الذئب صاغرة ليأكلها سريعا.

ولكنها في اللحظة الأخيرة رجعت عن رأيها هذا، ووقفت للدفاع عن نفسها، فأحنت رأسها وأشهرت قرنيها، لا لتقتل الذئب وهي تعرف أن المعزى لا تقدر عليه بل لتجرب إذا كانت أقوى بأسا من صديقتها رينود. . .

آه! يا صديقي ما كان أشجع هذه العنزة الصغيرة! أنها اضطرت الذئب أكثر من عشر مرات إلى أن يستريح فترة من الزمن كانت في خلالها تقضم العشب بسرعة لتعود إلى القتال مملوءة الفم. . .

وظلت الحال على هذا المنوال، الصراع مستمر يقطعه تقهقر وقتي من الذئب، والعنزة تنظر إلى النجوم الرجراجة وهي تأمل دوام القتال حتى مطلع الفجر، إلى أن أخذت النجوم تهوي واحدة بعد الأخرى. . وامتد في الأفق شعاع باهت. . وأرسل الديك صيحته من إحدى المزارع المجاورة. فقالت العنزة المسكينة التي انتظرت الفجر لتستسلم للذئب:

- ها قد وصلت إلى بغيتي أخيرا!

ثم تمددت على الأرض وصوفها الأبيض مخضب بدمها. . . عند ذلك هجم الذئب عليها وأكلها.

وداعا يا صديقي إن القصة التي رويتها لك واقعية لا أثر فيها للخيال. ويمكنك إذا جئت إلى هذه الضاحية يوما أن تطلب من أحد أهليها أن يقص عليك حكاية عنزة المسيو سيغان التي قضت الليل بطيلته في عراك مستمر مع الذئب. . . وفي الصباح تغلب عليها وافترسها.

أسامع أنت يا غرينفوار!. . . وفي الصباح تغلب عليها وافترسها.

بيروت. محمد كزما

العُلوم

حديث قملة عجوز

للدكتور احمد زكي. الأستاذ بكلية العلوم

لا يلذ لكم معشر البشر أن نتحدث إليكم نحن معشر القمل، لأننا في أعينكم شارة الأقذار ظل الأوساخ، وتلك قذيفة لا تقوم على حجة ولا يدعمها برهان، فنحن لا نتغذى إلا من دمائكم، ولا نرتوي إلا من ثغور نثقبها في جلودكم، وسواء لدينا الجسم القذر والجسم النظيف، وربما كان الجسم النظيف أحب إلينا، لأن مثاقب القوت تكون عندئذ أقرب إلينا ولكن صاحب الجسم النظيف لا يعطينا المهلة للحياة فهو يغير ملابسه المرة تعقبها المرة، فيحول بذلك بيننا وبين موارد أرزاقنا فنموت جوعا في يومين وقد نحيى إلى سبع، لأننا في طيات هذه الملابس نتخذ منازلنا ولا نخرج عنها إلى الجسم الا طلباً للقوت، فإذا

أصبناه عكفنا راجعين إليها.
وقلتم أن القمل سبب لأمراض قاتلة كالتيفوس، والحق أننا لا نخلق المرض ولا نبتدع الشر فأصول هذه الأوبئة فيكم وعنكم نأخذها في الدم الذي نستقيه منكم، وبالرغم حبنا لمساقط رؤوسنا وألفتنا للجسم الذي نشأنا عليه وترعرعنا، تضل منا أحياناً أفراد فتنتقل غير واعية من رجل مريض إلى رجل سليم لا سيما في الزحمة حيث تتلاقى المناكب وتتلاصق الثياب، فإذا هي وردت منهله العذب لوثته، بما حملت من المنهل الأكدر، فترون من هذا أنا لا نخلق السوء وإنما نسوي بينكم في الأسواء.
وأسميتمونا المتطفلة لأننا لا نستطيع هضم كل طعام كما تستطيعون، وليس لنا جهاز هاضم راق كالذي به تهضمون، فأنتم تهضمون لنا الغذاء، فنمتصه منكم مهضوماً في الدماء، وليت شعري أي سبة في هذا أو عار أفلستم تتطفلون على الشاة والبقر وصنوف الطير
والنبات الحي فتزدردونها كلها ازدراد، أفترون الشعرة في أعين الناس ولا ترون الخشبة في عيونكم، على أنه مقدار حقير ذلك الذي نمتصه في الوجبة الواحدة ولسنا نطعم غير وجبتين في اليوم، لنا في الطعام ذوق الأعزة الكرام، فنحن نعاف دم المريض ونتقزز من أجسام الموتى فنفارقها مع الحياة.
واحتقرتمونا لصغر أجسامنا وكبر أجسامكم فإن فاتنا الجرم الكبير فقد أصبنا العدد الكثير، فالأنثى منا لا تبلغ اليوم الثامن بعد أفراخها حتى تلد ثم تلد ثم تلد، وهي لا تلد واحداً أو اثنين في العام كما تلدون وإنما تبيض في المرعى الخصيب عشراً كل يوم، فإن عاشت الأنثى أربعة أسابيع فقد تبيض مائتين من الصئبان، وإن امتد بها العمر إلى أرذله فعاشت ستة أسابيع فقد تبيض ثلاثمائة بيضة، والبيضة من بيضاتها تلبث السبعة الأيام أو الثمانية ثم تفرخ، فانظر إلى العدد الكبير من الخلف الصالح الذي تخلفه الأنثى منا قبل مفارقتها هذه الحياة الفانية. أنا بالطبع أنثى شيخة أكاد أستكمل الثلاثين ربيعا، وما ربائعنا إلا أياما، نسلت من الأبناء والأحفاد ما نسلت، ولكني انسل ولا أتعهد نسلي، وكل ما أفعله أن أتخير لهم الموضع الأمين، فأنا أبيضهم على كل شعار خشن ألقاه، وأبيضهم على فتائل الملابس ولا سيما حيث يخاط اللفاق باللفاق، ليكون لهم معتمد عليها وفي دروءها ستر من عصف الزمان. وأبيضهم على الأشعرة دون الأدثرة حتى إذا أفرخوا كانوا من طعامهم قاب خطوات من خطواتنا، ومن الدفء اللازم لأفراخهم على بعد قامة من قاماتنا، فنحن مثلكم حاجتنا للدفء لا تقل عن حاجتنا للطعام، وأوفق الحرارة التي نبيض فيها هي ما دون حرارتكم بدرجتين، والدرجات التي تعلو على الستين تهلك بيضنا، والدرجات الواطئة تعطل أفراخه، فإذا هبطت إلى ما دون الـ 22 درجة امتنع أفراخه بتاتا.
وسواء ارتفعت الحرارة أو انخفضت فبيضنا لا صبر له على البعد عن أجسامكم طويلا، فإن رمى به الحظ العاثر إلى ملابس خلعتموها يصابر شهراً وبعض شهر رجاء أن تعودوا فتلبسوها ويعود هو إلى أفراخه، فان لم تفعلوا فالويل لذرارينا فانهم يهلكون يا كبدي ولم ينعموا بخطوة واحدة على جلدكم الوطيء ولم يستمتعوا بقطرة من شرابكم المريء.
وللفرد منكم معشر البشر عمر طويل موفور، وللفرد منا معشر القمل عمر قصير منقوص، الا أن حظنا من الزمن مجموعين مثل حظكم ونصيبنا من قديمه وحديثه مثل نصيبكم،
نطاولكم في القدم ونكاثركم فيما طويناه جميعا من مراحل الأزل، فإن كانت نطفتكم قديمة فلعل بيضنا أقدم، وسنسايركم إن شاء الله على حذاء في مجاهل الأبد، فما دام فيكم الجهل والفقر بقدر كائنا ما كان فرفقتنا لن تنفصم عراها بإذن الله، فالجهل والفقر لابد دائما فيكم دوام الأنانية والفردية بعون ربنا وربكم تقدست أسماؤه.
نعم ربنا وربكم، فإن لنا مكانا في الخليقة مثل مكانكم، فما الخليقة إلا قبائل وبطون وأفخاذ جمعها أصل واحد، وفرقت بينها أجواء مختلفة وبيئات متباينة وحظوظ من العيش متفاوتة، فنحن وكثير من أحياء البحار كالاربيان وأبي جلنبو والجنبري قبيل واحد، ولكنهم اختاروا الماء واخترنا الأرض فكان منا النحل والصرصور والجراد والبق وعدد عديد من الأجناس يبلغ المليونين لم يتعرف علماؤكم منه غير مائتين وخمسين ألف. فقبيلنا نحن أبناء الحشر في قبائل الأحياء أكبر قبيل، وانقسمنا بعد ذلك بطوناً،

وانقسمت البطون أفخاذاً حتى بلغ التقسيم إلينا نحن عشائر القمل، ومنا عشائر تعيش على الطير تقرض ريشه، ومنا عشائر تعيش على الحيوان كالكلب والإنسان تمتص دمه. وتستوطن أجسامكم يا سادة الحيوان ثلاثة أجناس منا، جنس يستمرئ جذوعكم وأطرافكم، وهو أكبر الأجناس وأنا المتحدثة إليكم منه، وجنس يحب المسكن الأعلى والمرقب الأسنى فاختار رؤوسكم، وجنس استأثر بمواضع العفة منكم. نحن الثلاثة الأجناس نعيش في كنفكم ووفير كرمكم، نستجدي أجسامكم وهي لا تعرف المنع، ونستحلب دماءكم وعادتها العطاء، فتشكل خلقنا وفقا لهذا العيش اللين والنعمة الميسورة، ففقدنا أجنحتنا لما فقدنا الحاجة إلى التنقل، واشتدت أرجلنا وقصرت لتمسك بشعوركم وتلصق أشد التصاق بجلودكم وبفتائل ثيابكم ومن ذا الذي لا يستمسك بالمرعى الخصيب والرزق القريب، واستحالت أفواهنا فصارت قادرة على الثقب والمص، ولنا قناة هضمية ودورة دموية وجهاز للتنفس وجهاز عصبي، كلها بقدر بساطة حاجاتنا، ولنا عينان كبيرتان في مقدمة رأسنا، والى جانبيهما قرنان نستهدي بهما، ويلي الرأس صدر يحمل من الأرجل ثلاثة أزواج بأطرافها مخالب كالإبر إلا أنها تعرف كيف تترفق في السير عليكم، ويلي الصدر منا بطن كبير هو كل ما بقي منا. وعلى هذا المثال يتقسم الحشر جميعه، وتتراءى بظاهرنا تقاطيع حلقية كأنما ضم خاتم إلى خاتم إلى خاتم، ولا غرابة في هذا فبين قبيلنا وقبيل الديدان وشائج وأرحام.

وتفننتم يا أهل المروءة والحنان في طرق إبادتنا. كنتم تبيدوننا بالماء الساخن والصابون ففطنتم إلى أن كثيرا منا يفلتون بأرواحهم وإلى أنكم إن أعدمتم بذلك البالغين منا فقد فاتكم أن تعدموا الصئبان، فخلطتم الصابون بالجاز وبئس ما فعلتم، فالجاز من أسمّ السموم لنا، نموت نحن وبيضنا إذا غمسنا دقيقة فيها ولا نستطيع مقاومة بخاره غير ثلاثين دقيقة. وهداكم سوء طالعنا إلى مواد أسم وأفعل من الجاز نموت على الفور نحن وبيضنا إن تبللنا بها ونعدم بعد 5 دقائق في استنشاق أبخرتها، ولكن يعزينا أنها ليست في متناول كل أحد منكم لندرتها، ولغلائها.

على أنه لا ملامة عليكم ولا تثريب في ذلك، فكلنا يطلب العيش والحياة، فأنتم تسعون للبقاء ونحن نسعى للبقاء، والحرب بيننا سجال، والحرب بين أجناس الخلائق سجال كذلك، جنس يقاتل جنسا ثانيا فيقتل منه، وجنس ثان يقاتل جنساً ثالثاً فيقتل منه، وجنس ثالث يقاتل الجنس الأول فيقتل منه، فهي حروب في دوائر، وكل ما دار في دائرة فلا انتهاء له ولا انقضاء، وسبحان راسم الدوائر ذي الخلود والبقاء.

الكتب

في النقد

للدكتور طه حسين

سلمى وقريتها: كتبته باللغة الفرنسية (مدام أمي خير)

أهل الكهف: كتبه باللغة العربية (توفيق الحكيم)

ليختصم أنصار الجديد وأنصار القديم، ما وسعتهم الخصومة وما وجدوا من أنفسهم قوة على احتمال أثقالها، والمضي فيما تحتاج إليه من الجهاد. فان الزمن يمضي في سبيله رغم خصامهم وصلحهم. وهو لا يمضي وحده ولكنه يدفع أمامه قوما منا، ويجر وراءه قوما آخرين. وهو منته بأولئك وهؤلاء إلى حيث يريد هو من التغير والتطور والتجديد، لا إلى حيث يريدون هم من الوقوف والجمود والإسراف في المحافظة على القديم كل القديم. .

ولقد خطر لي هذا بعد أن فرغت من قراءة ما ينشره أصدقاؤنا في (الرسالة) حول التجديد وأنصاره، وحول المحافظة وأصحابها. وقد فرغت أيضاً من قراءة طائفة من هذه الكتب الكثيرة التي أظهرتها الشهور الأخيرة، والتي تجتمع أمامي تزداد من يوم إلى يوم، وتلح عليّ في أن أفرغ لها وأجلس إليها وأنظر فيها، فأنصرف بها عما يحيط بي من ظروف الحياة التي أعمل فيها كل يوم.

نعم فكرت في هذا، وقد فرغت من قراءة بعض هذه الكتب، فإذا نحن نختصم في الجديد والقديم، ونسرف في الخصومة، ونغلو في التفسير والتأويل، على حين يدفعنا الزمان في طريق التجديد دفعا لا سبيل إلى مقاومته، أو يجرنا في هذه السبيل جراً لا سبيل إلى الإفلات من قوته. ولكني وقفت عند ظاهرة لعلها تستحق أن يقف عندها النقاد والمفكرون، وهي هذا الشكل العقلي الفني الذي تأخذه الصلة بين الشرق

والغرب في هذه الأيام، فقد كنا منذ حين نتأثر بالغرب ونسعى إليه ونقتبس منه ونريد أن ننقله إلينا إن صح هذا التعبير. وكان هذا السعي يفني شخصيتنا أو يكاد يفنيها، فإذا نحن غربيون في تفكيرنا وتعبيرنا وحياة عقولنا وقلوبنا. وإذا حظوظنا تختلف من هذه الغربية قوة وضعفا. منا من يحسن التقليد، ومنا من يسيئه. وكان ضعف شخصيتنا هذا يبغضنا إلى المحافظين من أهل الشرق
ويزهدهم فينا. وكان يثير في نفوس المجددين من أهل الغرب حبا لنا يشوبه العطف والاشفاق، وكنا نضيق ببغض أولئك وحب هؤلاء، ونتمنى لو نقف من أولئك وهؤلاء موقفا طبيعيا لا حرج فيه ولا تكلف ولا ضيق.
كذلك كانت حال كتابنا وشعرائنا في هذا العصر الحديث حين كانوا يريدون التجديد أو يذهبون إليه. ولكن الأمر تغير في هذه الأيام فقويت شخصية الكتاب والشعراء حتى آمنت بنفسها وآمن بها الناس من حولها في الشرق والغرب جميعا، وأصبح كتابنا وشعراؤنا ينشئون النثر ويقرضون الشعر فلا يزور عنهم كثير من المثقفين حقا في الشرق، ولا يرفق بهم أهل الغرب، وإنما يحبهم أولئك فيقرئونهم ويخلصون لهم النصح والنقد والتشجيع، ويقدرهم هؤلاء فيدرسونهم ويقيسون الآماد التي قطعوها في سبيل التجديد والاتصال بالحضارة الغربية والتمكين لهذه الحضارة في بلاد الشرق دون أن تفنى شخصياتهم أو يصيبها الضعف والفتور.
وأغرب من هذا الذي تراه حين نقرأ ما يكتبه (جيب) و (كمفمير) وغيرهما عن كتابنا وشعرائنا، انك تلاحظ في هذه الأيام، أن من أهل الشرق من يتمثلون الغرب حتى كأنهم من أهله فيتحدثون إليه بلغته ويفكرون كما يفكر، ويشعرون كما يشعر، ويشاركونه بهذا في إنتاجه الأدبي الخالص، ويصدرون كتبهم حيث يصدر الغرب نفسهكتبه في لندن أو باريس. وإذا هذه الكتب تصل إلينا من عواصم الغرب فنتلقاها كما كنا نتلقى الكتب الغربية من قبل، وتتناولها صحفنا بما تتناول به كتب الغرب من نقد وتقريظ، وترى بعض أهل الشرق يتمثلون الغرب ويسيغونه ويهضمونه إن صح هذا التعبير، ويذيبونه في أنفسهم، ويغلبون شخصيتهم عليه ويغذون قوميتهم به. ثم يتحدثون إلينا بلغتنا مهذبة، ويفكرون معنا بطرائق تفكيرنا مصفاة، قد أضيفت إلى ثروتها ثروة أخرى فأخصبت وأتت ثمراً نحبه ونستعذبه ونستزيد منه فنلح في الاستزادة.
وكذلك يتصل الشرق بالغرب اتصالا عقليا وفنيا بعد أن كان الاتصال بينهما ماديا تقليديا، وكذلك نتقدم في التجديد خطوات واسعة قيمة مغنية حقا، فنضيف إلى ثروة الغرب كما يضيف الغرب إلى ثروتنا.
وأنا أريد أن أتحدث إليك الآن عن كتابين يمثلان هذه الحال التي وصفتها من الاتصال المتكافئ الكريم بين الشرق والغرب. فأما أحد هذين الكتابين فقصة كتبت بالفرنسية. وأما الآخر فقصة كتبت بالعربية، لأول الكتابين قصص خالص، والآخر قصص تمثيلي؛ أول الكتابين لسيدة لبنانية هي السيدة أمي خير، والثاني لكاتب مصري هو الأستاذ توفيق الحكيم.
أما كتاب مدام خير فهو: (سلمى وقريتها)، سمعنا عنه منذ أكثر من عام وتحدثت إلينا صاحبته، بخلاصته وقرأت علينا بعض فصوله في محاضرة ألقتها مدام خير منذ عام في قاعة من قاعات الكونتننتال حيث يجتمع أصدقاء الثقافة الفرنسية في يوم الجمعة من كل أسبوع أثناء الشتاء. وكنا قد أحببنا ما سمعنا من هذا الكتاب ومن الحديث عنه، ومنينا أنفسنا ساعات لذيذة نقضيها معه بعد أن يتم طبعه ويعود إلينا من باريس في ثوبه الفرنسي الجديد. ولكني شديد الاحتياط، أسيء الظن بنفسي ورأيي ولا اطمئن إلى هذه الأحكام العجلى، ولست أخفي أني أسأت الظن بما أحسست من رضى عن هذا الكتاب في العام الماضي، وأشفقت أن يكون مصدر هذا الرضى براعة مدام خير في المحاضرة وحظها من حسن الإلقاء، وقدرت إن الخير أن انتظر حتى يصل إلي الكتاب فأقرأه بعيداً من صاحبته ومن صوتها العذب وحديثها الجميل.
ووصل إليّ هذا الكتاب منذ أسابيع، فخلوت إليه ساعات ولست أخفي أني رضيت عنه رضى كثيراً وأعجبت بفصول منه إعجاباً عظيما، ووقفت عند فصول أخرى وقفة من يشعر بشيء منالرضى لا إسراف فيه.
موضوع الكتاب ظاهر من عنوانه، فهو قصة فتاة لبنانية وتصوير للقرية التي عاشت

وماتت فيها. والمؤلفة تنبئنا بأن كتابها صورة فوتوغرافية لسلمى وقريتها. وقد يكون هذا حقاً بل هو حق. وهو في الوقت نفسه مصدر فضل الكتاب ومصدر شيء مما يلاحظ عليه. وكم كنت أود لو أن هذا الكتاب لو يكن صورة فوتوغرافية، بل كانت صورة فحسب، صورة من عمل الإنسان لا من عمل الآلة الفوتوغرافية، صورة تظهر فيها شخصية الكاتبة ظهوراً واضحاً نأنس إليه ونستعين به على إساغة هذه الحقائق التي يشتمل عليها الكتاب. ولكن القصة كانت كما أرادت مدام خير صورة فوتوغرافية، فامتازت بالصدق وامتازت بالدقة، وفقدت شيئاً كثيراً من الحياة والتأثير.

ليست القصة غريبة ولا طريفة، وإنما هي شيء مألوف نكاد نقرءه في كل كتاب (استغفر الله) نكاد نقرءه في كتب كثيرة ألفت في القرن الماضي، ونكاد نجده في كل كتاب من كتب الأدب العربي حين يتحدث عن العشاق الذين يضنيهم الحب حتى يسلمهم إلى الموت. فقد أحبت سلمى فتحي من قرية مجاورة لقريتها في شمال لبنان. مرض أبوها وقامت أمها على تمريضه وانفردت هي بالذهاب إلى المزرعة فلقيت فيها هذا الفتى الغني الموسر المثقف بعض الشيء. فمال الفتى إليها ومالت هي إليه ثم تحدثا ثم عرف كل منهما أمر صاحبه. ثم ملأ الحب قلب الفتاة وملك عليها نفسها، ثم بريء الأب من مرضه وانقطع لقاء المحبين فكانا يختلسان ساعات يلتقيان فيها. ثم ظهر الأب على بعض الأمر. فضرب الفتاة وذهب يعاتب الفتى ويعرض عليه الزواج. فاعتذر وأرسله عمه إلى مصر يلتمس فيها الثروة ويبدد فيها حبه على ضفاف النيل، وأصاب الفتاة حزن عميق كان الأمل يخففه حيناً ويضاعفه أحيانا. ثم كان اليأس. وزوجت الفتاة من شاب كان يكلف بها. فحاولت أن تخلص له وجدّت في ذلك ولكنها لم تستطع أن تخلص من حبها القديم فيضعف قلبها وجسمها عن الوفاء بحبها الأول والإخلاص لحب زوجها فيأخذها مرض، ما يزال بها حتى ينقذها من هذه الحياة.

فأنت ترى أن ليس في القصة شيء غريب مبتكر، ولكن جمال القصة مع ذلك شيء لا سبيل إلى الشك فيه، ومصدره فيما يظهر هذا التصوير الفوتوغرافي الذي ينقل إليك قرية من قرى لبنان. وما فيها من حياة نحب سذاجتها، ووداعتها، وجمالها الطبيعي الذي لم يفسده التكلف، ولم يشوهه الإغراق في الحضارة. والذي يمتزج فيه الإيمان الخالص الحر بالحياة الخالصة الحرة. نعم ونحب في هذه الحياة التي يملؤها النشاط المنتج في فصل العمل، وتملأها الراحة الهادئة في فصل السكون، ولعلنا نحب أيضا هذا النوع من العشق الذي ينبعث من القلب الإنساني في غير تكلف ولا ترف ولا تأثر بفلسفة العقل وتهالكه على البحث والتحليل والاستقصاء. ثم نحن نحب بعد هذا كله وفوق هذا كله هذه الصور الفوتوغرافية لطبيعة لبنان في أشكالها المختلفة. لهذه الجبال الشاهقة يكسوها الجليد إذا كان الشتاء، ويزينها الربيع بالشجر المخضر. ولهذه الوديان التي يجاهدها الإنسان جهاداً عنيفاً ليستخرج منها القوت الذي يستعين به على الحياة، وحب اللبنانيين القوي الصادق الساذج لطبيعتهم وجبالهم وأوديتهم، حتى انهم ليفتتنون بها فتنة تجعلهم جميعاً شعراء.

والغريب من أمر هذه القصة أنها ليست صادقة في تصوير موضوعها وحده، بل هي صادقة في تصوير ناحية من نواحي الكاتبة نفسها، أريد بها ناحية المهارة الفنية، ففي أولها شيء من الضعف والبطء واستقصاء اللغة، كأن الكاتبة تجاهد نفسها بعض الشيء، حتى إذا مضت في القصة مرحلة أو مرحلتين أصبح قلمها طيفاً وألقت إليها اللغة الفرنسية أعنتها واستقاد لها الأسلوب الفرنسي فانطلقت حرة سمحة كأنها قد أتمت التمرين. لهذا كان آخر الكتاب خيراً من أوله. ولهذا كان من حقنا أن نثق بأن الكتاب الذي ستصدره مدام خير سيكون خيراً من الكتاب الذي أصدرته. وإذا لم يكن بد من أن ألاحظ بعض العيب فقد آسف لأن شيئاً من التهاون في اللغة لم يبرأ منه الكتاب فقد استعملت ألفاظ عامية مبتذلة لا ينبغي ان توجد في كتاب أدبي إلا أن تدعو إليها النكتة. ولعل من أوضح الأمثلة لذلك ما يوجد في صفحة 72 و140. وجملة القول أننا مدينون لمدام خير بساعات لذيذة قيمة قضيناها مع هذا الكتاب الممتع ولكن أملنا أكثر جدا من رضانا. فلنشكر لها جهدها الأول ولنهنئها به، ولننتظر من جهودها المقبلة خيراً كثيراً.

أما قصة (أهل الكهف) فحادث ذو خطر، لا أقول في الأدب العربي المصري وحده. بل أقول في الأدب العربي كله. وأقول هذا في غير تحفظ ولا احتياط. وأقول هذا مغتبطا

به مبتهجا له. وأي محب للأدب العربي لا يغتبط ولا يبتهج حين يستطيع أن يقول وهو واثق بما يقول أن فناً جديدا قد نشأ فيه وأضيف إليه، وإن بابا جديدا قد فتح للكتاب وأصبحوا قادرين على أن يلجوه وينتهوا منه إلى آماد بعيدة رفيعة ما كنا نقدر أنهم يستطيعون أن يفكروا فيها الآن.

نعم هذه القصة حادث ذو خطر يؤرخ في الأدب العربي عصراً جديداً. ولست أزعم أنها قد حققت كل ما أريد للقصة التمثيلية في أدبنا العربي، ولست أزعم أنها قد برئت من كل عيب، بل سيكون لي مع الأستاذ توفيق الحكيم حساب لعله لا يخلو من بعض العسر. ولكني على ذلك لا أتردد في أن أقول أنها أول قصة وضعت في الأدب العربي، ويمكن أن تسمى قصة تمثيلية حقاً، ويمكن أن يقال إنها أغنت الأدب العربي وأضافت إليه ثروة لم تكن له. ويمكن أن يقال إنها قد رفعت من شأن الأدب العربي وأتاحت له أن يثبت للآداب

الأجنبية الحديثة والقديمة. ويمكن أن يقال إن الذين يعنون بالأدب العربي من الأجانب سيقرءونها في إعجاب خالص لا عطف فيه ولا إشفاق ولا رحمة لطفولتنا الناشئة. بل يمكن أن يقال إن الذين يحبون الأدب الخالص من نقاد أجانب يستطيعون أن يقرءوها إن ترجمت لهم، فسيجدون فيها لذة قوية وسيجدون فيها متاعاً خصباً، وسيثنون عليها ثناء عذبا كهذا الذي يخصون به القصص التمثيلية البارعة التي ينشئها كبار الكتاب الأوربيين.

أهذه القصة مصرية؟ أهذه القصة أوربية؟. . ليست مصرية خالصة ولا أوربية خالصة، ولكنها مزاج معتدل من الروح المصري العذب والروح الأوربي القوي. وقد يكون من العسير على غير الفنيين أن يفرقوا بين هذين الروحين اللذين تتألف منهما القصة.

ولكن الذين لهم مشاركة قوية في الأدب العربي والأجنبي يستطيعون أن يتميزوا هذين الروحين حين يجدون في القصة سهولة النفس وعذوبتها، وحين يشعرون بهذا العبث الخفيف الذي يضطرهم إلى الوقوف من حين إلى حين وهم يقرءون، وحين يجدون ألفاظاً وجملا تصور النفس المصرية الآن كما صورتها في أزمان مختلفة منذ كان للمصريين أدب عربي، ثم حين يجدون هذا التفكير العميق الخصب الدقيق الذي يلح في التعمق ويغلو في الدقة، ويأبى أن يترك حقيقة من الحقائق عرضة للشك أو هدفا للغموض، إلا أن يكون الكاتب قد تعمد ذلك وأراده وأبى أن يرسل نفسه فيه على سجيتها مراعاة لبعض الظروف.

كل هذا يمكن النقاد من أن يتبينوا في هذه القصة روحاً مصرياً ظريفاً وروحا أوربياً قوياً. ولنقف وقفة قصيرة عند موضوع القصة وشكلها.

فأما موضوع القصة فلم يخترعه الكاتب وإنما استكشفه، وفرق ظاهر بين الاختراع في الأدب والاستكشاف. ولعل الاستكشاف أن يكون أصعب في كثير من الأحيان من الاختراع، وهو في قصتنا هذه صعب عسير. موضوع القصة موجود في القرآن الكريم، وهو قبل أن يوجد في القرآن كان معروفاً في القصص المسيحية التي لها حظ من التقديس. ويكفي أن تعلم أنه حديث أهل الكهف الذين أشفقوا من اضطهاد ملك رومي للمسيحيين ففروا بدينهم من هذا الملك الظالم وأووا إلى الكهف فناموا فيه ثلاثمائة سنة وازدادوا تسعا. ثم بعثهم الله عز وجل فأنكروا الناس وأنكرهم الناس فعادوا إلى كهفهم وفيه قبضهم الله إليه.

وأنت تعلم أن هذه القصة قد قصها الله في القرآن في آيات كريمة هي أعذب وأسمى ما نعرف من آيات البيان العربي، وأنت تعلم إن من العسير أن تستغل مثل هذه القصة في أدبنا العربي الذي لم يتعود في العصر الحديث أن يستغل الكتب الدينية استغلالا فنيا كما تعود الأوربيون أن يلتمسوا في الكتب المقدسة موضوعات للقصص والشعر والتمثيل والنحت والنقش والتصوير الموسيقى. فإذا استطاع الأستاذ توفيق الحكيم أن يلتمس موضوع قصته في القرآن أو في قصة فصلها القرآن وأن ينشئ في هذا الموضوع أثراً فنياً بديعاً كان خليقاً أن يهنأ بشجاعته وبراعته معا.

فموضوع القصة إذن شرقي عرفته أحاديث المسيحيين وفصّله القرآن الكريم. ولم يعرفه الأوربيون إلا من هذه الطريق، ومؤلفنا إذن كغيره من المؤلفين الأوربيين الذين يلتمسون الموضوعات لقصصهم التمثيلية أحياناً في التوراة والإنجيل. ولكن مؤلفنا كغيره أيضاً من المؤلفين الأوربيين لم يحك حكاية ما عرفته أحاديث المسيحيين وما

جاء في القرآن، وإنما بعث في أهل الكهف حياة أخرى فيها قوة وفيها خصب وفيها فلسفة تمكنها من الاتصال بالحياة الإنسانية العامة على اختلاف العصور والبيئات من أنحاء غير الناحية التي عنى بها القرآن وعنيت به الأحاديث المسيحية. وهو يدخل في هذه الحياة عناصر جديدة لم تدخلها القصة القديمة أهمها عنصران: عنصر الفلسفة، وعنصر الحب. فالفرق عظيم جداً بين هؤلاء الأشخاص كما يصورهم القرآن وكما تصورهم أحاديث المسيحية الشرقية في سذاجة لا حد لها ووداعة لا حد لها وإيمان لا حد له ولا غبار عليه، وبين هؤلاء الأشخاص كما يصورهم الأستاذ توفيق الحكيم وقد تعقدت حياتهم فتعقدت عقولهم أيضاً. ففقد اثنان منهم هذه السذاجة المطلقة والوداعة المطلقة والإيمان المطلق ولم يحتفظ بهذه الخصال منهم الا شخص واحد، هو يمليخا الراعي، وبهذا النحو من التصوير الجديد لهؤلاء الأشخاص استطاع الكاتب أن يجعلهم أبطال قصة تمثيلية حديثة. ولو قد احتفظ الكاتب لهم بخصالهم الأولى لما استطاع أن يتجاوز بهم أبطال قصص الأسرار التي كانت تمثل في القرون الوسطى أمام الكنائس. فالكاتب مستكشف لقصته في ظاهر الأمر ولكنه مخترع لها في الحقيقة قد خلق أشخاصها خلقا جديدا وأدار بينهم من الحوار الفلسفي ما لم يكن يخطر لأحد منا على بال. وقد يكون من العسير أن تحقق الفلسفة التي أراد الكاتب أن ينتهي اليها،

ولكن هذا العسر نفسه مزية من مزايا الكاتب وفضيلة من فضائله. فهو ليس متعصبا ولا متأثراً بالهوى، وهو لا يريد أن يفرض عليك رأيا بعينه من مذاهب الفلسفة وإنما يريد أن يثير في نفسك التفكير في طائفة من الآراء والمذاهب. وهو دقيق متواضع لا يحب أن يعلن رأيه في صراحة مخافة أن يتابعه ضعاف الناس في غير بحث ولا تفكير. فهو يكتفي إذاً بأن ينبهك إلى طائفة من المسائل يحسن أن تفكر فيها وان تلتمس لها الحل لعلك تظفر به أو تنتهي إليه. ما الزمن؟ ما البعث؟ ما الصلة بين الإنسان والزمن؟ ما الصلة بين الحي والأحياء؟ بأي الملكتين يستطيع الناس أن يحيوا وان ينتجوا في الحياة؟ بهذه الملكة التي نسميها القلب والتي بها نحب ونبغض، أم بهذه الملكة التي يسميها العقل والتي بها نفكر ونحلل ونلائم بين الأشياء؟

كل هذه المسائل خليقة أن تفكر فيها وان تقف عندها فتطيل الوقوف، والكاتب يثيرها في نفسك ويصطنع لذلك فناً بديعاً نادرا فيه قوة مؤثرة وفيه رفق شديد. ليس هو معلما ولا أستاذاً ولكنه صديق يتحدث معك ويسايرك ويلفتك إلى ما قد تمر به دون أن تقف عنده أو تنظر إليه. لا أعرف كاتبا عربياً كان حسن السيرة مع قرائه كالأستاذ توفيق الحكيم. فقد أكبرهم حقا وأرشدهم حقا. ونفعهم في غير إذلال ولا تيه ولا كبرياء.

والحب هذا الحب الذي أدخله الكاتب في هذه القصة في غير تكلف ولا عناء وفي غير مصادمة للشعور الديني، والذي استطاع الكاتب أن يصوره صورتين قويتين تبلغ إحداهما من القوة حدا لا نكاد نجده إلا عند أشد الكتاب والشعراء الأوربيين عناية بالعشق وآماله ولذاته على اختلافها وتنوعها. وتبلغ إحداهما الأخرى بالحب قوة صوفية طاهرة بريئة من كل شائبة لا نكاد نجدها إلا عند كبار المتصوفة والقديسين.

أعترف أني معجب ببراعة الكاتب في غير تحفظ والى غير حد. والحياة الواقعة التي يحياها هؤلاء الناس العاديون الذين لا يتفكرون في أكثر من أعمالهم اليومية والذين لا يذوقون الفلسفة ولا يحسنون تصورها والحديث فيها كيف صورها الكاتب فأتقن تصويرها في شخص الملك ومن يحيط به من أهل القصر والمدينة. وهذا الإيمان المختلط الذي يمتاز به قوم يصطنعون العلم ولكنهم في حقيقة الأمر أنصاف متعلمين، فيهم سذاجة ولكنهم يريدون أن يكونوا أذكياء. وفيهم حب للحياة وحرص عليها ولكنهم يريدون أن يظهروا

وكأنهم يؤثرون الإيمان على الحياة. ما أبرع الأستاذ توفيق الحكيم حين صوره في شخص المؤدب غالياس!

أظنك لا تريدني على أن ألخص لك القصة فهي مطبوعة تستطيع أن تقرأها بل يجب أن تقرأها فما ينبغي لمثقف في الأدب العربي أن يجهل هذا الأثر الأدبي البديع.

ولكن وكم أنا آسف للكن هذه. وكم كنت أحب ألا احتاج إلى إملائها. ولكن في القصة عيبان. أحدهما يسوؤني حقا ومهما ألم فيه الكاتب فلن أؤدي إليه حقه من اللوم، وهو

هذا الخطأ المنكر في اللغة. هذا الخطأ الذي لا ينبغي أن يتورط فيه كاتب ما فضلا عن كاتب كالأستاذ توفيق الحكيم قد فتح في الأدب العربي فتحا جديداً لا سبيل إلى الشك فيه. أنا أكبر الأستاذ، وأكبر قصته، وأكبر (الرسالة) عن أن أقف عند هذه الأغلاط القبيحة التي يمس بعضها جوهر اللغة ويمس بعضها النحو والصرف ويمس بعضها الأسلوب وتركيب الجمل. ولا أتودد في أن أكون قاسيا عنيفا وفي أن أطلب إلى الأستاذ في شدة أن يلغي طبعته هذه الجميلة وان يعيد طبع القصة مرة أخرى بعد أن يصلح ما فيها من الأغلاط. وأنا سعيد بأن أتولى عنه هذا الإصلاح إن أراد. ولعل ما سيتكلفه من الطبعة الثانية خليق أن يعضه وأن يضطره إلى أن يستوثق من صوابه اللغوي فيما يكتب قبل أن يذيعه بين الناس.

أما العيب الثاني فله خطره ولكنه على ذلك يسير لأن القصة هي الأولى من نوعها كما يقولون. هذا العيب يتصل بالتمثيل نفسه فقد غلبت الفلسفة وغلب الشعر على الكاتب حتى نسي أن للنظارة حقوقا يجب أن تراعى فأطال في بعض المواضع، وكان يجب أن يوجز. وفصّل في بعض المواضع وكان يجب أن يجمل، وتعمق في بعض المواضيع وكان يجب أن يكتفي بالإشارة. ولعله يوافقني على أن من الكثير على النظارة أن يستمعوا في الملعب لهذه القصة الجميلة جدا، الطويلة جدا التي تقصها برسكا على غالياس وهي تودعه وقد اعتزمت أن تموت في الكهف مع عشيقها القديس.

هذا العيب عظيم الخطر لأنه يجعل القصة خليقة أن تقرأ لا أن تمثل. وأنا حريص أشد الحرص على أن تمثل هذه القصة، واثقا كل الثقة بأن تمثيلها سيضع يد الأستاذ على ما فيها من عيب فني وسيمكنه من اتقاء هذا العيب في قصصه الأخرى ومن إصلاحه في هذه القصة.

أما بعد فأني أرجو مخلصا أن تترجم قصة مدام خير إلى اللغة العربية وان تترجم قصة الأستاذ توفيق الحكيم إلى اللغة الفرنسية لتؤدي القصتان ما ينبغي أن تؤدياه من تحقيق الصلة الصحيحة المنتجة بين الشرق والغرب.

القصَص

في الأدب الإيطالي الحديث

الرواية في بونتاسياف!

للكاتب الإيطالي لوسيو دامبرا

وفعلا، لم تمض ثمانية أيام حتى كانت الغرفة قد أعدت! وهذا الحادث العظيم، هذا الحادث الغريب، حادث إصرار (مارك سيريني) على أن تمثل روايته الحديثة ولأول مرة، في قرية حقيرة لا يتجاوز عدد سكانها الخمسة آلاف نسمة، هذا الحادث الذي لا يصدق، أثارت الصحافة حوله ضجة كبرى، اقتحمت حدود إيطاليا وأقلقت صحافة أوربا بأسرها. ولقد كانت هذه القضية رنانة كسائر قضايا (مارك سيريني) ورنانة أيضا كانت عودة رئيس الشركة الأمريكية من (بونتاسياف) إلى (الستيديو)، حيث كان المؤلف، وسيجارته في فمه، ممتداً على أريكة وثيرة، يفكر بسيدة النافذة الشهية!!!

- كل شيء الا هذا!. . . لقد ذهبت أتعابنا أدراج الرياح. أني أعود من (بونتاسياف) إذ ليس فيها مسرح!!!

- ليس فيها مسرح؟ هذا أمر عديم الأهمية. إن بناء مسرح لا يستغرق أكثر من شهر، وهو الوقت اللازم للحفظ والمراجعات.

- ماذا؟؟. . . بناء مسرح جديد؟. . . وفي ظروف شهر واحد؟؟ لم يتحرك (سيريني)،. . . نظر إلى طاولة عليها رزنامة من المعدن اللماع. وقال:

- أجل، في شهر واحد!. . . نحن الآن في سبتمبر، ولن يزال البرد شديداً حتى في أكتوبر في هذه البلاد،. . . وبعد، فان بناء مسرح خشبي يتسع لألفين شخص، لا يمكن أن يستغرق أكثر من ثلاثة أسابيع.

- . . . .وتزيينه؟. . . وتنميقه؟. . . في ثلاثة أسابيع؟ لن يكون هذا المسرح سوى براكة هنا انتفض (سيريني) وأجاب بلهجة قاسية:

- لن يتسابق الناس لمشاهدة المسرح، بل لمشاهدة روايتي!!!

لنختصر: لم ينتجع وسيلة لحمله على تغيير رأيه، ولو كان رئيس الشركة التي تعاقد معه إيطالياً، لترك الأرباح التي قد تنجم عن هذا الاتفاق، ولترك المؤلف يسدر في عناده وجنونه، ولكنه كان أمريكياً، وللأمريكيين عقل خاص، وتفكير خاص يميزانهم عن غيرهم. ولم يمض شهر، حتى كان كل شيء قد تم: حفظت الرواية وروجعت وأقيم المسرح في بقعة جميلة. أما ما جرى في (بونتاسياف) في ذلك الوقت، فأمر لا يستطاع تصويره أو وصفه، ولا شك أن بينكم أناساً وجدوا فيها، في ذلك الحين، وهؤلاء وحدهم يستطيعون أن يذكروا كيف احتلت الغرف المعدة للإيجار احتلالا لا يفرق عن الاحتلال العسكري بشيء، وكيف أن الجموع الغفيرة تسابقت إلى فلورانسا وإلى (اريزو) لتبحث لها عن مبيت، وكيف أنها عادت إلى (بونتاسياف) لتحضر تمثيل الرواية، وتعود بعد منتصف الليل إلى إحدى المدينتين المذكورتين. ولا شك انهم يذكرون أيضاً أنه كان بين المتفرجين أناس تقاطروا من أقصى البلاد، بينهم كثير من النقاد المسرحيين، ورؤساء شركات التمثيل الأجنبية. . . وقد كان بينهم صحفيون اضطروا خدمة للفن أن يبيتوا ليلة كاملة في القطار، وان يضيعوا يوما كاملا في ساحة (بونتاسياف) وأن يمضوا ليلة ثانية متعبة، في دائرة البرق، حيث ظن عامل التلغراف المسكين، إن الساعة اقتربت، وإن القيامة قامت!!!

وليست هذه بالمعركة الأولى التي استبسل فيها (مارك سيريني) بطبعه الهادئ الرزين، ولكنها كانت أشد المعارك كلها وأحماها وطيساً، لأن تلك الرغبة الشاذة، التي شاءت أن تضطر محبي الفن للمجيء إلى (بونتاسياف) تركت أسوأ الأثر في النفوس، حتى أن القادمين كانوا على أتم استعداد لأن يثأروا لأنفسهم!

وهكذا فانه قبل أن يرفع الستار بساعتين، أسرع أصدقاء (سيريني) إليه، وأخبروه أن الجو مكهرب، وأن عواصف السخط والغضب لن تلبث أن تصدم الرواية صدمة عنيفة، ربما كانت لا تقوى على احتمالها، ولكن المؤلف أجابهم بلهجة حازمة:

- إذا كانت لديهم سهام فليسددوها!. . وإذا كان لديهم قنابل فليقذفوها!. . أما أنا ففي غنى عن آرائهم: لا يهمني هذا المساء، غير رأي شخص واحد!

- امرأة؟

- طبعاً!. . ومن تريدون أن يكون إذن؟. . وزير؟

ولم يزد على ذلك كلمة لأنه كان يحرص كل الحرص على أن يخلص بسره لنفسه. . . أما الناس فقد ذهبوا في الظن كل مذهب. .

- 5 -

ومع ذلك، ورغم هذا الحرص فانه لم يضن على به. . من عادة (سيريني) أن يتخلف عن حضور رواياته، عند تمثيلها لأول مرة، ومن عادته أيضاً أن يدور حول المسرح كما تدور الفراشة حول الضوء، حتى إذا أخذ اللهيب بأحد أجنحتها لجأت إلى الهرب فإذا نسيت اللهيب وأثره في جسمها عادت تحوم حول الضوء وحول الخطر، و (سيريني) يحاول ان يتظاهر بالهدوء. وأن يتحدث عن أشياء لا مساس لها بالرواية حتى إذا أصابها الإخفاق فقد رزانته وشرع يصب جام غضبه طيلة الليلة بكاملها على تلك الجموع المأفونة التي لا تقدر الفن، ولا تفهمه، ولا تستحق أن تفهمه، ورماها بأقبح الوصمات وأشنعها.

أخذنا نتنزه سوية، ذلك المساء في أزقة القرية التي استحالت في ساعة من الزمن إلى ميدان تتزاحم فيه السيارات، ويتكدس بعضها فوق البعض الآخر. . وكان الشاعر يبتسم، ويطلعني بهدوء على الأسباب التي حدت به لأن يثير عليه سخط تلك الجموع الغفيرة، وكان يقول لي وهو يضغط على يدي:

- أفهمت؟. . أفهمت؟. . أني إذا كنت أصررت ألا تمثل روايتي لأول مرة إلا في (بونتاسياف) فلأني أريد أن استثير إعجابها!!. . تلك هي الغاية الوحيدة التي أرغب في إدراكها من غرامي الغريب!

- آه!. . . لو انك رأيتها في ذلك اليوم، لصهرك حبها رغم ما أنت عليه من (برود)، وبعد، فأنا لست أعتقد إن بين الذكور، رجالا ينطبق عليهم هذا الوصف، وإنما هم جميعاً في نظري، براكين هادئة. تثيرها مشاهدة امرأة، وتجعلها أشد هياجاً من البراكين الدائمة الإستعار! آه. . لو رأيتها وهي تطل من فتحة النافذة!. . . ها. . . . ها هي. . . . نافذتها نافذتها مغلقة، وهي ذات درفات خضر، وواجهة وردية. . . . كانت محكمة

-

الغلق، لا يتسرب من خصاصها أقل بصيص نور، فسر (مارك) لذلك، وقال بلهجة المنتصر:

- لم يبق أحد في داره!. . . لقد ذهبت (المدينة) بأسرها لمشاهدة روايتي!. . . وهي، هي. . . هي في هذه الساعة، هناك، مأخوذة بجمال روايتي وقوتها، تكتسحها موجة الإعجاب التي أردت أن أتغلب عليها بها. . . أني اقدم لها فخراً لا يعدله في العالم فخر. . . أقدم لها عيداً، بل مهرجاناً لا يحلم به أحد!. . . أي سحر؟. . . وأي عيون؟؟؟ آه!. . أني لا أتمنى إلا أن تبادلني الحب هذه الريفية الحسناء، أنا الشاعر المتعب. . أنا الشاعر الفتان، الذي تضايقه النساء، وتطارده. . تلك النساء اللواتي تجملهن المساحيق، وتزينهن (الكريمات) المختلفة. . . تلك النساء الكئيبات، اللواتي يلبسن جوارب بمائتين فرنك فقط. . . تلك النساء الفارغات القلوب، كبطونهن التي لا يملأنها خشية السمنة!!!

إن سيدة النافذة، على نقيض هذا كله: هي بسيطة رشيقة حقيقية الجمال، لها نفس، ولها قلب، ولها مواهب، ولها نباهة ولقد قرأت في عينيها ذلك الإعجاب اللامتناهي الذي تخصني به وتسبغه عليّ!

وأنا موقن أن هذه الحسناء قرأت رواياتي كلها، وأنها أصبحت تعرفها ولكن معرفتها بها لا يجوز أن تقارن بمعرفة صديقاتي المعجبات (باركهن الله) بما وضعت من روايات. . تلك الصديقات اللواتي يتسارعن لمشاهدة رواياتي عندما تعرض للتمثيل لأول مرة، وكأنهن يتسابقن (ليجبرن خاطري). . حتى إذا بدأ التمثيل أخذن في الثرثرة والمغازلة مع عشاقهن في زوايا المقصورات: إنهن لا يتقاطرن على المسرح من أجلي، أو من أجل رواياتي. . كلا!. . بل ليعرضن على الأنظار أثوابهن الحديثة!.

وألقى نظرة أخيرة على درفات النافذة، ثم أخذ يتجه نحو المسرح، كما يتجه الفراش نحو الضوء.

- أني أحبها. . أحبها حتى العبادة!. . ولأجلها وضعت هذه الرواية، وقد وضعتها بعاطفة لم اشعر بمثلها من قبل!. . أقسم لك على ذلك!. . . تصور. . . تصور انك ذات مساء، تبصر بين الحضور المرأة الوحيدة التي تحبك وتعجب بك إعجابا لا يحد بحدود، ولا يقاس بمقياس، تصور ذلك، وقل، ألا تدير (السانفوني) التاسعة إدارة لا تحسن مثلها في كل وقت؟ ألا تخرج منها ما لم يحلم (بتهوفن) نفسه أن يخرجه منها؟؟ إذن. . أنا اليوم أحارب هذه الجماهير كلها. من اجلها هي. أنا أحارب باسمها وبجمالها!

إن رواياتي إنما هي معارك، وحروب، وسباقات، إذن فهي لا تبعث على التثاؤب والملل، وإذن فهي لا تدع المتفرجين هادئين ساكنين، بل تحرك ما في نفوسهم من عواطف وميول وتحملهم على التفكير.

ماذا؟. انتصار؟. لم نكد ندرك المسرح، حتى هرع إلينا بعض الأصدقاء.

- انتهى الفصل الثاني منذ قليل: نجاح لا مثيل له!. . انتصار لا يعد له انتصار!. . ولكن أي جمهور في بدء التمثيل؟ جمهور عبوس حذر، إلا أنه لم يلبث أن خفف من حدته بالرغم منه حتى إذا كان التمثيل، لم يتمالك أيديه عن التصفيق وألسنته عن الهتاف: وهكذا، لم ينتهي الفصل الأول حتى ثارت عواطف التقدير، وانفجرت قنابل الإعجاب. أما الفصل الثاني، فهو الذي أتم الانتصار وجعل الستار ينزل بين رعود من التصفيق الحاد المتواصل، والهتاف العالي القاصف!!!. . . وقد اضطرت الممثلة (تيريز اندرياني) أكثر من عشر مرات متوالية أن تعود إلى المسرح، لتحية الجماهير المعجبة.

أيزاك شموش. حلب

العدد 10 - بتاريخ: 01 - 06 - 1933

من بريد الرسالة

بين الرسالة والمرأة

في بريد الرسالة بالأمس كتاب بالفرنسية، أنيق الشكل، جيد الخط، رائق الأسلوب، في رأسه وفي ذيله قرأته فذكرت بأسلوبه وإمضائه تلك المقالات الرقيقة التي كانت تتألق بالذكاء النسوي المصري في صدر (الليبرتيه) أيام كان يصدرها الأستاذ (ليون كاسترو). وسواء أكانت (الحياتان) واحدة أم اثنتين، فأن الأدب الذي يصدر عن هذه

النفس والثقافة التي تظهر في هذا الأدب، يحملاننا على أن نناقش الآنسة الفاضلة في هدوء المنطق، ونعاتبها في حدود الرفق، ولا أقول إني أصطنع القول اللين، والحجاج الهين، لأن ذلك واجب الرجل في خطاب المرأة، فأن الآنسة تقول: (وما اعترفت منذ عرفت الرجل وسبرت قواه في مطالعاتي واختباراتي أن له من المزايا الفطرة ما يجعله قيماً على المرأة، وأن من هوان نفسي عليّ أن أقبل منه العطف لأني ضعيفة، أو اللطف لأني امرأة. . .)

شغلت الآنسة الصفحة الأولى من كتابها، بتقريظ الرسالة وكتابها ونحن مع الشكر لها نعتقد مخلصين أن مجهود الرسالة لا يزال لضآلته أبعد ما يكون عن تحقيق الأمل واستحقاق الحمد، ثم قالت: (ليس قصدي من هذه الكلمة أن أكون معك أو عليك فيما كتبته موفقاً عن المرأة، فأني أعتقد أن هذه المسألة لا تتعلق إلا بنا، ولا يكون الحكم فيها إلا لنا، وما دخول الرجل فيها إلا أثر من اعتقاده القديم أن في يده زمام هذا الجنس المنكوب يرخيه ويشده على هواه ` والأمر لا يخرج على كونه نظاماً طبيعياً يجري على سنة الحياة من هيمنة القوة على الضعف، وطغيان الأثرة الباغية على العدل الذليل. . . فحرية المرأة كحرية الأمة سبيلها الفعل وحجتهما القوة، أما الدفاع بالقول والإقناع بالحق فأصوات مبهمة كزفيف الريح المحبوسة في مخارم الجبل لا تدل على الطريق ولا تساعد على الفرج. لا أقصد كما قلت أن أناقش رجلاً في موضوع لا شأن له به، إنما أريد أن أقول لك إذا كان رأيك في المرأة هذا الرأي، وعطفك عليها هذا العطف، فلم حرمتها أن يكون لثقافتها مظهر في الرسالة بجانب ثقافة الرجل؟ فإن من يقرأ الرسالة في غير مصر يظنها تصدر عن بلاد كبلاد (الأسطورة الصينية) ليس فيها امرأة. .

سأنزل في الجواب على إرادة الآنسة (حياة) فلا أخوض معها في حديث المرأة، ولا أعتب عليها في انتقاص الرجل، مادام الفصل في خصومة الجنسين للطبيعة لا لأحدهما.

سأقصره إذن على ما أخذته الآنسة على الرسالة من إغفالها ثقافة المرأة، ونحن في ذلك إنما نجري على مذهبها الذي ارتضته وأعلته فلم نرد أن يتحدث الرجال عن شؤون النساء الخاصة، وفتحنا الباب ومنعنا أن يدخل منه غير أهله، ثم انتظرنا أن يصل إليه شيء يدل بقيمته وقوته على النهضة النسائية المزعومة، فلم يأتنا بعد تسعة أعداد من الرسالة إلا كتابان: أحدهما منك والآخر من آنسة تسمى (عفيفة سيد، شارع الشيخة صباح، طنطا).

فأما كتابك يا سيدتي فقد قبلته الرسالة (موضوعاً) ورفضته (شكلاً) لأن كتابك إياه بالفرنسية الخالصة تدل على تلك الثقافة الشوهاء التي لا ترضاها الرسالة للفتاة. فهل تظنين أن العربية تقل جمالاً في الفم الجميل والقلم المذهب عن الفرنسية؟ وهل تظنين أن جَرْس العربية يقل إمتاعاً في الصالون، وإيقاعا في (النجوى) عن جرس الفرنسية؟ وهل تعتقدين أن المصرية لا تكون حديثة لنشأة ولا عصرية الثقافة إلا إذا كتبت بالفرنسية، أو ارتضخت لكنة أجنبية؟ إن المصارف والمتاجر والشركات وأرباب الامتيازات يحتقرون العربية لأنهم (الانديجين) وأولئك الانديجين لا يزالون من خدر الذل في بلادة صماء يضيع فيها وخز الإهانة! ولكنك يا سيدتي تسمين حياة، وتشيرين في كتابك إلى حفظ القرآن وإقامة الصلاة. فكيف تسيئين بنفسك إلى كرامتك. وبيدك إلى لسانك!؟

هذا كتابك وهو في رأيي محتاج إلى عفو الوطن. أما كتاب الآنسة الأخرى فهو بالعربية، ولكنه عبث طفلي ترجين وأرجو أن يقف داؤه عند الآنسة (عفيفة) أتدرين علام لصقت غلافه؟ لصقته على رسالة ومقالة! فالرسالة تعتب علينا في إغفالنا باب المرأة. وترغب إلينا في نشر المقالة (وهي كما تقول قطعة بقلمها تشجيعاً لها ولزميلاتها على الكتابة. .) والمقالة عنوانها (قبلة حية في رسالة) وتقرئيها، ومعاذ الله إن تقرئيها، فإذا المتكلم عاشق داعر، وإذا المخاطب معشوقة هلوك!! فخبريني يا سيدتي هل استجملت الناقة، أم طبقت الآنسة مذهب (لاجارسون) حتى في هذه العلاقة؟ وهل يروقك بعد ذلك إن تكون لثقافة المصرية في الرسالة هذا المظهر الأجنبي، أو ذلك العبث الخلقي؟؟

بين النجف وبغداد

روينا في هذا المكان من العدد الثامن إن وزارة المعارف العراقية، رغبت في تغيير الأناشيد المدرسية، فقدمت إليها على الفور (جمعية الرابطة الأدبية في بغداد) ثلاثين نشيداً. . . ولكن كتاباً من النجف جاءنا اليوم يصحح الرواية ويقول: (إن الأناشيد نتاج قرائح الرابطة العلمية الأدبية بالنجف الأشرف مركز الثقافة العربية) ونحن نعلن هذا التصريح ونزيد عليه إن الشعر في العراق فراتي، لا يستسيغ (كثيراً) ماء دجلة، ولنا على هذا الرأي تدليل سننشره في يوم قريب. ولئن عناك أن تسأل بعد ذاك عما صنعته (الرابطة الأدبية في بغداد) فأعلم إنها شربت الشاي مرة عند الرئيس، ومرة أخرى عند أحد الأعضاء، ثم أدركها الحر فرقدت بجانب (جمعية الثقافة العربية) في سرداب! ومن الذي تظنه يوقظها وقد هاجر البؤس بالرصافي إلى قرية الفلوجة، وظفر النعيم بالزهاوي إلى جوار الملك في شارع الأعظمية؟؟

أحمد حسن الزيات

إلى الدكتور طه حسين من الأستاذ توفيق الحكيم

يا دكتور

يعنيك طبعاً أن تعلم كيف يرى الجيل الجديد عملك وعمل أصحابك، إن رسالتي إليك ليست حكماً يصدره الجيل الجديد، إنما هي تفسير لذلك العمل، لك أن تقره ولك أن تنكره. لا ريب إن العقلية المصرية قد تغيرت اليوم تحت عصاك السحرية، كيف تغيرت؟ هذا هو موضوع الكلام، إن شئون الفكر في مصر حتى قبل ظهور جيلك كانت قاصرة على المحاكاة والتقليد، محاكاة التفكير العربي وتقليده، كنا في شبه إغماء، لا شعور لنا بالذات، لا نرى أنفسنا ولكن نرى العرب الغابرين، لا نحس بوجودناولكن نحس بوجودهم هم، لم تكن كلمة (أنا) معروفة للعقل المصري. لم تكن فكرة الشخصية المصرية قد ولدت بعد. رجل واحد لمعت في نفسه تلك الفكرة فأضاء لكم الطريق: (لطفي بك السيد)، وسرتم ركضاً حتى بلغتم اليوم هذه الغاية، وإذا الجيل الجديد أمام روح جديدة وأمام عمل جديد. لم يعد الأدب مجرد تقليد أو مجرد استمرار للأدب العربي القديم في روحه وشكله، وإنما هو إبداع وخلق لم يعرفهما العرب. وبدت الذاتية المصرية واضحة لا في روح الكتابة وحدها بل في الأسلوب واللغة أيضاً، من ذا يستطيع أن يرد أسلوب طه حسين إلى أصل عربي قديم؟ بون شاسع بين الأمس واليوم. حتى أمس القريب كانت مقامات الحريري ورسائل عبد الحميد وبديع الزمان مثلاً تحتذي في كتابات حفني ناصف والمويلحي وغيرهما ممن رسفوا في أغلال التقليد راضين أو مرغمين. لقد بدأنا نعي ونحس بوجودنا، وأول مظاهر الوعي شخصية الأسلوب واستقلال طريقة التعبير وما يتبعها من ألفاظ وأخيلة، بهذا يبشر صاحبكم احمد أمين اليوم، ويصيح في هذا الجيل كي ينظر فيما حوله ويعبر عما يراه بخياله هو لا بخيال العرب. كل هذا جلي معروف، ولم أبعث برسالتي من أجله، حاجة مصر إلى الاستقلال الفكري أمر لا نزاع اليوم فيه، وعملك أنت وأصحابك لهذا الاستقلال أمر لا نزاع فيه أيضاً. ولقد مضى كلامكم في هذا، إنما الأمر الذي يحتاج إلى كلام هو معرفة مميزات الفكر المصري. معرفة أنفسنا: حتى تتبين لجيلنا مهمته. هذه هي المسألة، لقد فهمنا عنكم مميزات الأسلوب والشكل، وما فهمنا بعد جيداً مميزات النفس والروح، ما هي مميزات العقلية المصرية في الماضي والحاضر والمستقبل؟ ما روح مصر؟

ما مصر؟ إن اختلاطنا بالروح العربية هذا الاختلاط العجيب كاد ينسينا إن لنا روحاً خاصة تنبض نبضات ضعيفة تثقل تحت ثقل تلك الروح الأخرى الغالبة. وإن أول واجب عليكم لنا استخراج أحد العنصرين من الآخر. حتى إذا ما تم تمييز الروحين إحداهما من الأخرى كان لنا أن نأخذ أحسن ما عندهما، وكان لكم أن تقولوا لنا: (ها نحن أولاء أنرنا لكم الطريق إلى أنفسكم فسيروا) لا بد لنا إذن أن نعرف ما المصري وما العربي؟ هذا السؤال ألقيته على نفسي منذ ست سنوات إذ كنت ادرس الفنين المصري والإغريقي. وكانت المسالة عندي وقتئذ: ما المصري وما الإغريقي؟ وأذكر أني أثرت هذه المسألة أمام بعض أصدقائي في حي (مونبارناس)، أذكر أني لخصت لهم الفرق بين العقليتين بمثل واحد في فن النحت سائلاً: ما بال تماثيل الآدميين عند المصريين مستورة الأجساد وعند الإغريق عارية الأجساد؟ هذه الملاحظة الصغيرة تطوي تحتها الفرق كله،

نعم كل شيء مستتر خفي عند المصريين، وعار جلي عند الإغريق، كل شيء في مصر خفي كالروح، وكل شيء عند الإغريق عار كالمادة. كل شيء عند المصريين مستتر كالنفس، وكل شيء عند الإغريق جلي كالمنطق. في مصر الروح والنفس، وفي اليونان المادة والعقل. نظرةٌ أخرى في أسلوب النحت تدعم هذا الكلام. أن المثّال المصري لا يعنيه جمال الجسد ولا جمال الطبيعة من حيث هي شكل ظاهر، إنما تعنيه الفكرة، انه يستنطق الحجر كلاماً وأفكاراً وعقائد. على انه يشعر مع ذلك بالتناسق الداخلي، يشعر بالقوانين المستترة التي تسيطر على الأشكال، يشعر بالهندسة غير المنظورة التي تربط كل شيء بكل شيء، يشعر بالكل في الجزء، وبالجزء في الكل، وتلك أولى علامات الوعي في الخلق والبناء؛ هذا كله يحسه الفنان المصري لأن له بصيرة غريزية أو مدبرة تنفذ إلى ما وراء الأشكال الظاهرة لتحيط بقوانينها المستترة، فنان عجيب لا يصرفه الجمال الظاهر للأشياء عن الجمال الباطن. إنه يريد أن يصور روح الأشكال لا أجسامها، وما روح الشكل إلا القانون العام الأعلى المستتر خلفه؛ إن ولع المصريين بالقوانين الخفية لشيء يبلغ حد المرض، مرض إلهي، لو أن الآلهة تمرض لكان هذا مرضها: فرط البحث عن القانون! كل شئ في مصر إلهي، لأن مصر التي منحتها الطبيعة الخير واليسر وسهولة العيش وكفتها مشقة الإجهاد في سبيل المادة استلقت منذ الأزل تتأمل ما وراء المادة. . حظها في هذا حظ الهند: أمة كثيرة الخير كذلك دانية القطوف لا حاجة بها إلى الكفاح ولا عمل لها إلا استمراء ترف الحكمة العليا، انقطعت هي أيضاً من قديم تحت أشجارها المقدسة تبحث عما وراء الحقيقة.

مصر والهند حضارتان قامتا على الروح لأنهما قد شبعتا من المادة، الإغريق على النقيض، أمة لم تشبع من المادة، أمة نشأت في العسر والفاقة، أرضها لا تدر من الخير إلا قليلا، كان لزاماً عليها الكفاح في سبيل العيش، وكان حتماً عليها الجري وراء المادة، حرب تلو حرب، وفتح بعد فتح، وضرب في مشارق الأرض ومغاربها، على هذا النحو لم يكن للإغريق ذلك الضمير المطمئن ولا ذلك الشعور بالاستقرار، ولا ذلك الإيمان بالأرض الذي يوحي بالتفكير فيما وراء الأرض والحياة، إن عاطفة الاستقرار والإيمان ممزوجة بالدم عند المصريين، لأن المصريين نزلوا من بطن الأزل إلى أرض مصر، لا يعرف لهم نسب آخر على وجه التحقيق، واختلاف العلماء في أمر أصلهم لم ينته بعد، وفي كل يوم يبدو دليل على أن العمران والاستقرار وجدا في مصر قبل التاريخ المعروف، ولقد ظهرت الحضارة المصرية في التاريخ تامة كاملة دفعة واحدة، كما يظهر قرص الشمس في الأفق عند الشروق، ولقد قال سولون: إن الكهنة المصريين يعنون العناية كلها بذكريات تلك القارة العظيمة ذات المدنية الزاهرة التي أبتلعها المحيط قبل مبدأ التواريخ: (قارة الأتلانتيد). أترى كانت الحضارة المصرية استمراراً لتلك المدنية المندثرة؟. . . لم يقم دليل، على كل فرض. مصر أمة مستقرة مؤمنة زهدها عمرها الطويل وخيرها الكثير في مباذل الحياة، وهذا الزهد والتفكير فيما وراء الحياة ظهر أثرهما على وجه الفن المصري، ولا شيءيدل على عواطف أمة وعلى عقليتها مثل فنها. فلقد طالع العالم الحديث على وجه الفن المصري الصرامة والجد والعمق ولا أكاد أفتح كتاباً في الفن المصري حتى أجد كلمة (الصرامة) نعتاً من نعوت هذا الفن، ولا أفتح كتاباً في الفن الإغريقي إلا وجدت كلمة (الحياة) وكلمة (الإنسانية) من نعوت هذا الفن، نعم. الحياة هي كل شيء عند الإغريق، قد يدفعهما حب البحث إلى لمس حدود الحياة الأخرى فيلمسونها بالعقل والمنطق لا بالقلب والروح. فلسفتهم فلسفة العقل والمنطق والحياة، فلسفة الحركة لا فلسفة السكون، عند مصر والهند السكون، عند الإغريق الحركة، قرأت حديثاً (المقبرة البحرية) لـ (بول فاليري) وهو المتصل اتصالاً مباشراً بالفلسفة اليونانية. فإذا هو يشير في القصيدة إلى الحركة

والسكون، وإذا الحركة عنده من خصائص الكينونة الواعية الفانية، والسكون من خصائص العدم الخالد غير الواعي، وهو يعارض زينون الألياتي في إنكاره للحركة ويتغنى في آخر القصيدة بانتصار الحركة على قصرها وفنائها، فهو في ذلك لم يخرج عن يونانيته المكتسبة. ولم يفهم في رأيي روح مصر والهند، ولم يشرف على ذلك العالم الخالد غير الواعي، كان دون هذا الإشراف والاتصال والتجرد التام من كل عقل

آدمي أو منطق بشري، هذه هي الصعوبة في فهم مصر والهند، وهذا ما جعل الفن المصري سراً مغلقاً حتى أوائل هذا القرن، وما صرف الناس إلى دراسة اليونان وحدها، فهي واضحة المعنى يسيرة المنال. لأنها لزمت شاطئ الحياة.

حظ الإغريق في كل هذا حظ العرب. العرب أيضاً أمة نشأت في فقر لم تعرفه أمة غيرها، صحراء قفراء، قليل من الماء يثير الحرب والدماء، جهاد وكفاح لا ينقطعان في سبيل العيش والحياة، أمة لاقت الحرمان وجهاً لوجه، وما عرفت طيب الثمار وجري الأنهار ورغد العيش ومعنى اللذة إلا في السير والأخبار، كان حتماً عليها ألا تحس المثل الأعلى في غير الحياة الهنيئة، والجنات الخضراء، والماء الجاري، وألوان النعيم واللذائذ التي لا تنضب ولا تنتهي، أمة بأسرها حلمت بلذة الحياة ولذة الشبع، فأعطاها ربها اللذة ومنحها الشبع. كل تفكير العرب وكل فن العرب في لذة الحس والمادة، لذة سريعة منهومة مختطفة اختطافاً، لأن كل شيْ عند العرب سرعة ونهب واختطاف، عند الإغريق الحركة، أي الحياة، وعند العرب السرعة، أي اللذة، لم تفتح أمة العالم بأسرع من العرب، ومر العرب بحضارات مختلفة فاختطفوا من أطايبها اختطافاً ركضاً على ظهور الجياد، كل شيء قد يحسونه إلا عاطفة الاستقرار. وكيف يعرفون الاستقرار وليس لهم أرض ولا ماض ولا عمران! دولة أنشأتها الظروف ولم تنشئها الأرض، وحيث لا أرض فلا استقرار، وحيث لا أستقرار فلا تأمل، وحيث لا تأمل فلا ميثولوجيا ولا خيال واسع ولا تفكير عميق ولا إحساس بالبناء، لهذا السبب لم تعرف العرب البناء، سواء في العمارة أو الأدب أو النقد، الأسلوب العربي في العمارة من أوهى أساليب العمارة التي عرفها تاريخ الفن، وإذا عاش لليوم فإنما يعيش بالزخرف، فن الزخرف العربي أنقذ العمارة العربية، إن العمارة العربية ـ إلا في مصر ـ ما هي في رأيي سوى زخرف لا بناء، فلا أعمدة هائلة ولا جبهة عريضة ولا وقفة قوية ولا بساطة عظيمة ولا روعة عميقة، إنما هي وشي كثير وجمال كجمال الحلي المرصع يهز البصر ولا فكر خلفه. أما فن الزخرف العربي فهو في الحق أجمل وأعجب فن للزخرف خلده التاريخ. والزخرف عند العرب وليد ذلك الحلم باللذة والترف، كل شيء عند العرب زخرف. الأدب نثر وشعر لا يقوم على البناء، فلا ملاحم ولا قصص ولا تمثيل، إنما هو وشي مرصع جميل يلذ الحس، فسيفساء اللفظ والمعنى، و (آرابسك) العبارات والجمل. كل مقامة للحريري كأنها باب جامع المؤيد، تقطيع هندسي بديع. وتطعيم بالذهب والفضة لا يكاد الإنسان يقف عليه حتى يترنح مأخوذاً بالبهرج الخلاب، كذلك الغناء العربي (آرابسك) صوتي، فلا مجموعة أصوات متسقة البناء كما في (الديتيرامب) أو (الأوركسترا) الإغريقية أو كما في (الكورس) الجنائزي المصري، ولا حتى مجرد صوت ينطلق حراً بسيطاً مستقيما. إنما هو صوت محمل بألوان المحسنات من تعاريج وانحناءات والتواءات وتقاسيم كأنها (ستالاكتيتات) غرناطية، لا يكاد يسمعه (القاضي الفاضل) حتى يستخفه الطرب ويضع نعله فوق رأسه؛ كان هذا في العهد الأول للموسيقى إذ كانت عند جميع الشعوب بسيطة عارية تخرج من القلب تعبيراً عما في القلب، أو رمزاً لفكرة من الأفكار. والموسيقى كالعمارة من الفنون الرمزية لا الشكلية، ولكن العرب لا يحبون الرموز، ولا طاقة لهم بالفن الرمزي، ولا يردون إلّا التعبير المباشر بغير رموز، وإلا الصلة المباشرة بالحس، فجعلوا من الموسيقى لذة للأذن لا أكثر ولا أقل، ولقد حاول الفارابي فيما أذكر التقريب بين الموسيقى العربية والموسيقى الإغريقية، وكان لا بد له من الإخفاق لأسباب قد أذكرها بعد، كذلك التصوير العربي على جماله ودقته ليس إلا مجرد تزيين وزخرف للكتب والمخطوطات لم يؤَدِ لغير تلك الغاية (المنياتور) الفارسي. قد يكون للدين دخل في تأخر النحت والتصوير عند العرب، غير أني أعتقد براءة الدين. أن العرب كانوا دائماً ضد الدين كلما وقف الدين دون رغبات طبائعهم، لقد حرم الدين الشراب، فأحلوا هم الشراب في قصور الخلفاء، وما وصفت الخمر ولا مجالس الخمر في أدب أمة بأحسن مما وصفت في الأدب العربي، لا شيء في الأرض ولا في السماء يستطيع أن يحول بينهم وبين اللذة، أما النحت أو التصوير الكبير فليس في طبيعتهم، لأن تلك فنون تتطلب فيمن يزاولها إحساساً عميقاً بالتناسق العام مبناه التأمل الطويل والوعي

الداخلي للكل في الجزء وللجزء في الكل، وليس هذا عند العرب، فهم لا يرون إلا الجزء المنفصل وهم يستمتعون بكل جزء على انفراد، لا حاجة لهم بالبناء الكامل المتسق في الأدب، لأنهم لا يحتاجون إلا للذة الجزء واللحظة، قليل من الكتب العربية في الأدب تقوم على موضوع واحد متصل، إنما أكثر الكتب كشاكيل في شتى الموضوعات تأخذ من كل شيء بطرف سريع: من حكمة وأخلاق ودين ولهو وشعر ونثر ومأكل ومشرب وفوائد طبية ولذة جسدية، وحتى إذ يترجمون عن غيرهم يسقطون كل أدب قائم على البناء، فلم ينقلوا ملحمة واحدة ولا تراجيديا واحدة ولا قصة واحدة، العقلية العربية لا تشعر بالوحدة الفنية في العمل الفني الكبير، لأنها تتعجل اللذة، يكفيها بيت شعر واحد أو حكمة واحدة أو نغم واحد أو زخرف واحد لتمتلئ طرباً وإعجاباً، لهذا كله قصر العرب وظيفة الفن على ما نرى من الترف الدنيوي وإشباع لذات الحس، حتى الحكمة، وشعراء الحكمة كانوا يؤدون عين الوظيفة: إشباع لذة المنطق، والمنطق جمال دنيوي ولا استغرب غضب نيتشه على إيروبيد لإسرافه في هذا المنطق على حساب الموسيقى، ومن المستحيل أن نرى في الحضارة العربية كلها أي ميل لشؤون الروح والفكر بالمعنى الذي تفهمه مصر والهند من كلمتي الروح والفكر. إن العرب أمة عجيبة، تحقق حلمها في هذه الحياة، فتتشبث به تشبث المحروم، وأبت إلا أن تروي ظمأها من الحياة وأن تعب من لذتها عباً قبل أن يزول الحلم وتعود إلى شقاوة الصحراء، وقد كان. إن موضع الحضارة العربية من (سانفونية) البشر كموضع الـ (سكِيْرتزو) من سانفونية بيتهوفن: نغم سريع مفرح لذيذ!!

لا ريب عندي أن مصر والعرب طرفا نقيض: مصر هي الروح، هي السكون، هي الاستقرار، هي البناء، والعرب هي المادة، هي السرعة، هي الظعن، هي الزخرف! مقابلة عجيبة: مصر والعرب وجها الدرهم، وعنصرا الوجود، أي أدب عظيم يخرج من هذا التلقيح! إني أؤمن بما أقول يا دكتور. وأتمنى للأدب المصري الحديث هذا المصير: زواج الروح بالمادة، والسكون بالحركة، والاستقرار بالقلق، والبناء بالزخرف! تلك ينابيع فكر كامل ومدنية متزنة لم تعرف البشرية لها من نظير، إن أكثر المدنيات تميل إما إلى ناحية الروح وإما إلى ناحية المادة.

حضارة واحدة قيل أنها استطاعت في وقت ما هذا المزج بين الروح والمادة وهذا الاتزان

بين عنصري الوجود، تلك حضارة الإغريق. نعم أعود فأرد إلى أمة الإغريق اعتبارها، وأعترف أني عندما وضعتها في كفة المادة كنت متأثراً بكلام (تين) فضللت السبيل. (تين) عقل خلاب لكنه عقل. والعقل وحده بعيد عن فهم الجانب الروحي للمدنيات. ما هداني إلى الحق إلا القلب. . . ألا طول تأملي في جبهة (البارتينون). من دماغ ذلك الجواد الذي خلقته يد (فيدياس) فوق هذا المعبد خرجت أفكار توحي إلي بأن أولئك القوم كانوا أعمق مما نظن، وكانوا يشعرون بشيء آخر غير مجرد المادة الظاهرة، وما لبثت (ميلبومين) أن جاءتني ببينة أخرى، وتأملت قليلاً فرأيت القناع قد كشف. ذكرت أن أصل الإغريق جنسان مختلفان: اليونان القادمون من آسيا المعروفون عند الهنود باسم (اليافاناس) أي عباد (يونا) والدوريون الحربيون البرابرة الهابطون من الشمال، اله اليونانيين: (ديونيزوس) إله الدوريين (أبولون). وهاهنا تفسير الإغريق: في هذا الصراع بين ديونيزوس رمز الروح والقوى الشائعة والنشوة. . . وبين أبولون رمز الفردية والشخصية الفارزة والوعي، الصراع بين الروح والمادة، وبين القلب والعقل، وبين النشوة والوعي، ديونيزوس إله آسيوي فيما يخيل إلي، جلب من الهند بالأمراء. فغدا في اليونان ينبوع الموسيقى، لهذا السبب قدرت إخفاق الفارابي، أن الموسيقى العربية وليدة عقل واع، لأن العرب أمة الفردية والوعي والمنطق العقلي والظاهر المحسوس، إن العرب من عباد أبولون وهم لا يشعرون. إن العرب لا يمكن أن يفهموا ديونيزوس ولا نشوة ديونيزوس. تلك النشوة الدينية الجارفة التي تخرج صاحبها من سيطرة العقل والوعي كي تصله مباشرة بالطبيعة. إن أغاني عباد (باكوس) الحماسية في الغابات ومزامير الـ (ساتير) لشيء بعيد إدراكه على العقلية الفردية، شعور الإنسان في لحظة أنه انقلب مخلوقا له جسم جواد ورأس رجل أو أرجل ماعز. هذا الاتحاد بين الحيوان والإنسان إحساس ليس له مثيل إلا عند المصريين القدماء، وهذا

التلاقي بين الأنواع وبين القوى في مخلوق واحد لهو عند الأولين بقية ذكرى تلك المحلوقات الإلهية البائدة التي كانت تحكم الأرض قبل ظهور الإنسان. . . مخلوقات لا هي من الإناث ولا هي من الذكور، ولا هي من الحيوان، ولا هي من الإنسان، لأن الأجناس والفصائل لم تكن قد فرزت. كذلك (الساتير) في الميثولوجيا الإغريقية رمز الإنسان الأول، ذلك الإنسان الداني من الحيوان القريب من
الآلهة، يدنو من الحيوان بغريزته الجنسية المتيقظة ينبوع القوة الخالقة عند الإغريق كما هي عند المصريين، ويقرب من الآلهة بغريزته الروحية المتصلة بقوى الطبيعة الإلهية، فهو ما زال يحتفظ بقبس من الحكمة العليا بدون أن يشعر، وببريق من ذلك النور الروحي والإلهام الذاتي يرى به كتلة الزمن من ماضي وحاضر ومستقبل في شبه لمحة واحدة.
تلك القدرة الخفية هي حاسة بائدة كانت للإنسان الأول، وفقدناها اليوم، نعم فقدنا كل القوى الروحية التي منحتنا إياها الطبيعة يوم كنا نحبها ونتصل بها، ولم يبقى لنا اليوم إلا العقل المحدود والمنطق القاصر. وها نحن اليوم في هذا الكون الهائل مخلوقات منفردة منبوذة! أين ذهب ديونيزوس؟ وهل يبعث من جديد؟ وإذا بعث فهل يجد من يعرفه في هذا العصر ذي الحضارة المادية الفردية؟!
رجل واحد ما زال يذكر هذا الإله ويستطيع أن يعرفه إذا ظهر كل عرف غالياس أصحاب الكهف!! وهو وحده كذلك الذي يستطيع أن يستقبله باسم هذا العصر، هذا الغالياس العصري هو: (تاجور) انه يتكلم كثيراً عن ذلك الاتحاد بين الإنسان والطبيعة. وعن ذلك الفاصل المرفوع بين الحياة الخاصة والحياة العظمى التي تخترق الكون. وعن ذلك الحب بين الإنسان والجماد. هذا كلام جميل. لكن هل تراه يشعر بحقيقته؟ يخيل إلي أن تلك الحقائق قد انطوت بانقضاء دولة الإغريق. بل لقد انقضت قبل أن تنقضي دولة الإغريق. انقضت بطغيان منطق سقراط على روح هوميروس. انقضت بطرد ديونيزوس من تراجيديات ايروبيد (غضبة نيتشه المعروفة) انقضت بظهور براكسيتيل على فيدياس، انقضت بغلبة الإحساس العقلي على الإحساس الروحي، انقضت بانتصار (أبولون) في النهاية على (ديونيزوس). وهكذا اختل التوازن، ورجحت كفة المادة، وانطفأت الحضارة الإغريقية إلى الأبد. ولم ترث أوربا منها غير كنوز العقل والمنطق، وبقيت في الظلام كنوز ديونيزوس الخفية.
لم تنجح اليونان إذن النجاح المطلوب في تطعيم الروح بالمادة، فهل تأمل مصر بلوغ هذه الغاية يوماً؟ أرجو من الدكتور أن يجيب، أنت وأصحابك ومدرستك قد فرغتم من تصوير وجه الأدب المصري، ولم يبقى إلا صبغه باللون الخاص، وطبعه بالروح الخاصة، فما هو هذا اللون؟ وما هي هذه الروح؟ إن ردك على هذا السؤال نور يلقي على طريق الجيل
الجديد.
سيجيب الدكتور طه عن هذه الرسالة القيمة في العدد القادم :(الرسالة)

نظرة في نظام بيعة الخلفاء

النمو الأول

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

- 1 -

جاء في صحيح البخاري إن النبي عليه الصلاة والسلام عندما جاءه الموت قال (ائتوني أكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده أبداً) فقال بعض من حضر (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد غلبه الوجع وعندكم القرآن. حسبنا كتاب الله) فاختلف أهل البيت واختصموا فمنهم من يقول (قربوا يكتب لكم كتاباً لا تضلون بعده) ومنهم من يقول غير ذلك. فلما أكثروا اللغو والاختلاف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (قوموا)، ولم يكتب لهم شيئاً.
ولعل الذي كان النبي عليه الصلاة والسلام يريده من ذلك أن يأمر بطريق الحكم بعده، ولكنه لم يكن ليفعل شيئاً عبثاً فلم يمض في ذلك وترك الأمر لأصحابه وأمته يختارون لأنفسهم ويجتهدون في أمثل الطرق لحكومتهم.
ولم يكن من قبل ذلك نظام مقرر لاختيار الخلفاء فكان على المسلمين أن يبتكروا من الخطط أمثلها في نظرهم بحسب ما تقتضيه الظروف والأحوال. وقد كان في الإسلام

دوائر متعددة عند موت النبي. فقد كان هناك الأنصار أهل المدينة، وبين ظهرانيهم المهاجرون من أهل مكة، وكان هناك أعيان مكة من القرشيين المقيمين في عاصمتهم القديمة. وخارج هاتين المدينتين كانت قبائل العرب، بعضهم من قبائل اليمن وبعضهم من قبائل مضر، وكان كل من هذه الدوائر يشعر بالغيرة والأنفة أن يكون تابعاً للدائرة الأخرى، إذ أن الإسلام وإن هذب عصبية العرب وصرفها نحو الخير، لم يقض عليها أو ينزعها من القلوب كلها. فرفع الأنصار صوتهم أول شيء فقالوا أنهم أحق بالأمر، وتنادوا باسم زعيمهم سعد بن عبادة، وهتف بعضهم هتافاً كأنما يدعو إلى تحكيم السيف بالأمر. ووقف المهاجرون إلى جانب إخوانهم الأنصار يجادلونهم بالحسنى، ويذكرونهم بما وجب عليهم من الحق في ذلك الوقت العصيب، وما كان الأنصار ليثبوا وراء داعي الشقاق من أجل الحكم، وهم الذين قنعوا من قبل بأن يتركوا غنائم النصر الذي أحرزوه في وقعة حنين للمؤلفة قلوبهم ورؤساء الأعراب الذين لم يكن لهم كبير أثر في نصرة الإسلام، وقنعوا بأن يعودوا إلى بيوتهم ورسول الله في رحالهم راضين بأداء واجبهم ورضى ضمائرهم جزاء على أعمالهم. ما كان هؤلاء ليحرصوا على الحكم بل سمحت نفوسهم به، ورضوا بأن يكونوا الوزراء دون الأمراء بعد أن لم يرضى المهاجرون بان يجعلوا منهم أميراً مع أميرهم.

في هذا الموقف تقررت أمور كثيرة ذات خطر عظيم في دستور دولة المسلمين. فتقرر أن يخرج الأنصار من الأمر فلا يكون الخليفة منهم بل يكون من إخوانهم المهاجرين من قريش. وتقرر كذلك أن تكون دولة الإسلام موحدة منذ أبي المهاجرون إلا أن يكون على المسلمين أمير واحد من المهاجرين، ولو قبل مبدأ أن يكون في المسلمين أميران أحدهما من أهل المدينة والآخر من المهاجرين من أهل مكة، لانقسمت دولة الإسلام إلى قسمين من أول أمرها ولسار تأريخها سيرة أخرى غير التي سار فيها.

ولم يكن الأنصار وحدهم الذين رفعوا رؤوسهم يتساءلون عن الأمر لمن يكون، بل إن قبائل العرب جميعها اشرأبت أعناقها تتطلع إلى الحوادث الجارية. فخرج بعضها عن الإسلام جملة، وقال بعضها يجب أن يكون الإسلام ديناً لا حكماً فامتنعوا عن أداء الزكاة التي هي رمز الحكم وحق الدولة على رعيتها. غير أن ذلك الأمر لم يتعد الحد في خطورته فاستطاع المسلمون في المدينة أن يبسطوا سلطانهم على القبائل مرةً أخرى وأصبحت لهم بعد شهور قلائل دولة متحدة متماسكة.

على أن طريقة اختيار أبي بكر نفسه، لم تكن طريقة اختيار بالمعنى الصحيح. ولم يكن الحال عند ذلك يسمح للناس أن يطيلوا التفكير في طريق الاختيار لعلمهم بما حولهم من المشكلات والأخطار. فبعد أن اتفق المهاجرون والأنصار على المبادئ العامة ورضي الأنصار بمكانة الوزراء دون مكانة الأمراء، ولم يبق موضع للتردد الكثير في قبول مرشح المهاجرين، ولو سمي رجل من أكابر الصحابة غير أبي بكر للقي قبولاً عند ذلك، ولكن المسلمين وفقوا أكبر توفيق في اختيارهم. وكان اختيارهم نتيجة شعور عميق وصراحة عقيلة نادرة، فلم يجاملوا ولم يحابوا، بل نطق عمر بما وافق هواهم، فسمى لهم أبى بكر فرضوا به ولم يتطلبوا أن يتبع اختيار خليفتهم رسم خاص ولا خطة تضمن صدق الاختيار. وأكبر الظن أنه لم يخطر ببالهم أن هناك طريقاً آخر غير أن يسمي أحدهم رجلاً يرضونه فيبايعونه فلم يطل الأمر بعد المناقشة الأولى بل ازدحم الناس على أبي بكر يبايعونه وهم قانعون مما كان يعرفونه من وداعته وقوته وقدمه في الإسلام. ولم يخل الأمر مع هذا من وجود بعض الساخطين على هذا الاختيار مثل سعد بن عبادة من أهل المدينة ومثل أبي سفيان من أهل مكة، ولكن سيرة أبي بكر في مدة حكمه أرضت عنه من كان كارهاً لطريقة اختياره منتقداً لها لما رأى فيها من السرعة وعدم التمام.

وكان أبا بكر نفسه يشعر بأن طريقة اختياره لم تكن معصومة من النقد فقد روي عنه أنه لما مرض مرضه الأخير دخل عليه عبد الرحمن بن عوف وكان بينهما حديث طويل جاء فيه أن أبا بكر كان يشعر بالندم الشديد على أنه لم يكن قد سأل النبي عليه الصلاة والسلام عن هذا الأمر لمن هو حتى لا يختلف فيه الناس، وعما إذا كان للأنصار حق فيه أم هو وقف على قريش.

ولم يرض أبو بكر أن يترك الناس للاختلاف مرة أخرى فقد كانوا في المرة الأولى حديثي عهد بالرسول، فكان أثر شخصه العظيم داعياً إلى زوال كثير من الحرص وتملك الزهد في النفوس وخشي أبو بكر أن يكون للناس عند موته فرصة للخلاف مع وجود جنود المسلمين في وجهين عظيمين تلقاء مملكتي الفرس والروم، فرأى أسلم طريق أن يعهد إلى صاحبه المجرب ووزيره القوي المؤتمن عمر بن الخطاب.

غير أن طريقة استخلاف عمر كانت طريقة جديدة قابلها أهل المدينة بالرضى الصامت الذي لا يخلو من النقد الصامت، بل قد صعدت بعض أصوات النقد من بعض الزعماء، فأن طلحة مثلاً قيل أنه لام أبا بكر على اختيار عمر إذ كان يرى فيه شدة وصلابة، وقد روي أن عبد الرحمن بن عوف نفسه عندما دخل على أبي بكر في مرض موته استشاره أبو بكر في تولية عمر فأنكر عليه ذلك وقال إن فيه شدة وصلابة.

وعلى كل حال قد مضى أبو بكر في عهده إلى عمر وسن بذلك سنة جديدة، وهي أن الخليفة له أن يفرض على المسلمين أن يتبعوا رأيه بعد موته في تولية من يختار لهم بغير أن يكون لهم الحق في أن يحيدوا عنه، أو يعدلوا من رأيه، فكان تلك سابقة للطريقة التي سيتبعها عمر في رسم خطة اختيار الخليفة بعده.

غير أن أبا بكر وإن أبتدع سنة جديدة لم يخرج عن السنة التي رسمت في أول الأمر فاختار الخليفة بعده من المهاجرين.

ولما قتل عمر بن الخطاب كانت الدولة في حال غير حالها الأول فقد فتحت الفتوح وأستقر العرب في البلاد المفتوحة وأنشئوا فيها أمصاراً لهم وعظمت شوكتهم فلم يكن يخشى عند موته من خذلانهم إذا طالت مدة اختيار الخليفة بعض الطول. فلم يشأ عمر أن يترك الناس لطريقة اختيار أبي بكر خوفاً من كثرة التردد والاختلاف، وما قد ينجم عنه في بلاد مثل بلاد العرب يسهل أن يثور فيها تعصب القبائل والعشائر ولاسيما بعد أن صار في المسلمين زعماء كثيرون معروفون امتازوا في حوادث الفتح بحسن الفعال وأصالة الرأي ولو لم يكونوا من أصحاب السابقة في الإسلام الذين جرى المسلمون على تقديمهم في أول الأمر، وكذلك لم يشأ عمر أن يوصي إلى رجل واحد كما أوصى أبو بكر إليه فأنه رأى أن في ذلك الشيء الكثير من عبء المسؤولية والاستبداد بالرأي في وقت ليس فيه ما كان عند وفاة أبي بكر من الخطر على الدولة وجنودها في ميادين القتال. فابتكر عمر طريقته المعروفة وهي وسط بين فرض الرأي وبين ترك الاختيار، ففرض رأيه في ترشيح جماعة من الزعماء أولي القدم والسابقة في الإسلام، ولم يخرج عن السنة الأولى، فاختارهم جميعاً من المهاجرين وترك لهم بعد ذلك أن يختاروا واحداً منهم يرضونه في مدة ثلاثة أيام، وأمر زعيماً اسمه مسلمة بن مخلد ألا يدعهم إلا مدة تلك الأيام الثلاثة.

وكان اجتماع هؤلاء المرشحين أهل الشورى وطريقهم في الاختيار خطوة واسعة في سبيل بناء دستور عربي متين لو بلغ مداه لكان من أتم نظم الحكومات.

أخرج أحدهم نفسه من الأمر واجتهد اجتهاداً لا يصدر إلا عن قلب عامر بحب المصلحة العامة، وقضى الليالي الثلاث التي جعلت للاختيار وهو لا ينام ولا يستريح بل يقضي الوقت كله في سؤال الناس سراً وعلانية. فسأل الأنصار والمهاجرين وسأل زعماء المسلمين وسأل قواد الجنود الذين وجدهم في المدينة عند ذلك وهم يمثلون جنود العرب الذين بالامصار، فكان بذلك ساعياً إلى الاستنارة برأي مختلف الدوائر، واستشارة مختلف الطبقات، والنظر إلى الأمر من مختلف النواحي. فلم يكن بين هذا وبين الانتخاب العام إلا خطوة واحدة، وهي أن يحصر حق الانتخاب في جماعة تتوافر فيهم صفات معينة وان تؤخذ آراؤهم بطريقة منظمة.

وقد تبين لعبد الرحمن من وراء بحثه أن الناس لا يقدمون أحدا تقديمهم لزعيمين من الصحابة من أهل الشورى وهما علي وعثمان، فلما استقر رأيه على اختيار واحد منهما ثارت في وجهه مسائل جديدة أولها المنافسة القديمة بين بيتي قريش: وهما بيت هاشم، وبيت أمية، وثانيهما ما كان في بيت هاشم من الاعتقاد بأن لهم الحق في الأمر لقرابتهم من رسول الله عليه الصلاة والسلام وخشي إذا هو اختار عليا أن يحمل ذلك على أنه إنما اختاره لقرابته من الرسول لا لفضله وصفاته السامية، فكان في أمره في حيرة شديدة، وخرج منها على أن يطرح على المرشحين سؤالاً يكون بمثابة استطلاع لبرنامج كل منهما إذا هو ولى الحكم. فجمع الناس في المسجد وعرض

سؤاله فقال: (هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه وفعل أبى بكر وعمر؟) فرأى علي أن معنى ذلك تقييده فوق كتاب الله وسنه الرسول بفعل خليفتي المسلمين قبله. ورأى أنه لا يحسن به أن يقيد نفسه بغير الكتاب والسنة تاركاً لنفسه بعد ذلك الاجتهاد والنظر وإن خالف رأي صاحبيه. وكانت أجابته على ذلك أن قال: (اللهم لا ولكن على جهد من ذلك وطاقتي) وأما عثمان فانه قال: (اللهم نعم) وكان عبد الرحمن ممن يرون اتباع السلف فيما ساروا عليه منذ كانوا في ذلك مجتهدين، ومنذ دلت الحوادث على حسن سياستهم فيه وسلامة عاقبة حكمهم. فرأى اختيار عثمان ورفع رأسه إلى سقف المسجد ويده في يد عثمان ثم قال: (اللهم اسمع واشهد. اللهم أني جعلت ما في رقبتي من ذاك في رقبة عثمان) وازدحم الناس بعد ذلك على الخليفة عثمان يبايعونه.

فخرجت الأمة الإسلامية من ذلك الموقف بسابقة جديدة منظمة تنظيماً كبيراً صالحة لأن تكون أساسا لنظام وافٍ صالح لاختيار الخلفاء، ففيه نواة الانتخاب العام، وفيه نواة النظر والموازنة بين المرشحين، وفيه نواة إدخال جميع العرب حق الاختيار، سواءاً أكانوا من أهل المدينة أم من أهل جزيرة العرب أم من أمصار البلاد المفتوحة. وفيه فوق كل ذلك نواة لرسم خطة للحكم يسأل عنها الخليفة قبل توليته، ويكون اختياره بعد الإفصاح عنها والتصريح بها وبذلك يكون عليه الوفاء بما تعهد به من الشرط قبل استخلافه.

ولم يبطئ العرب فيتلقف هذه الحقوق ولم يتهاونوا في المطالبة به في عهد عثمان ولم يترددوا في الثورة عندما رأوا أن خليفتهم لم يف بما تعهد به.

التجديد في الأدب

حول مقال الأستاذ أحمد أمين

للدكتور عبد الوهاب عزام

قرأت المقال الثاني الذي تكلم فيه الأستاذ عن (التجديد في العبارة) فرضيت آراء وأنكرت أخرى.

وأول ما آخذ على المقال أنه لم يحكم تحديده فالقارئ يحس أن كاتبه أراد أن يعالج التجديد في المعنى والعبارة معاً.

يقول الأستاذ في مستهل مقاله (واليوم أعرض لضرب آخر من ضروب التجديد وهو التجديد في العبارة. وأعني بالعبارة الجملة التي يؤدى بها المعنى على اختلاف ألوانها من حقيقة ومجاز وتشبيه واستعارة وكناية.) ولست أدري كيف يكون التجديد في التعبير الحقيقي؟ الحقيقة لفظ مستعمل فيما وضع له. فإذا أتفق معنى لشاعر في الجاهلية فأداه بألفاظ حقيقية ثم وقع المعنى بعينه لشاعر معاصر فأراد الإبانة عنه بلفظ حقيقي لم يمكن التجديد في الأداء إلا بالإسهاب أو الإيجاز وليس هذا ما يريده الأستاذ، أو بإيثار لفظ حقيقي على آخر مثله وهذا يرجع إلى بحث الألفاظ الذي فرغنا منه في مناقشة المقال الأول، إذا أراد شاعر معاصر أن يبين بألفاظ لا تجّوز فيه عن قول القتال الكلابي:

ولما رأيت أنني قد قتلته ... ندمت عليه أي ساعة مندم

لم يستطع هذا تغييراً يلائم العصر الحاضر، ولم يواته إلا أن يضع أبصرت مكان رأيت أو أسفت موضع ندمت أو يقدم أو يؤخر في الكلمات. وليس هذا هو التجديد في العبارة الذي عناه الأستاذ. أي تجديد في العبارة يستطيعه قائل يريد أن يترجم عن هذا المعنى.

يقيم الرجال الأغنياء بأرضهم ... وترمى النوى بالمقترين المراميا

إنما يمكن التغيير في المجازات والكنايات والتشبيه والتمثيل مما يمكن فيه تأدية المعنى الواحد بطرق مختلفة، وتصوير الحقيقة الواحدة بصور شتى وألوان عدة تنجلي فيها أثر الخيال والمعايش المختلفة، والأزمان والبلدان المتباينة. وهو موضوع لا يغني فيه الإجمال ولا غنى به عن التفصيل:

1. بعض المجازات والكنايات جرت مجرى الحقائق حتى نسي أصلها أو كاد. ولا يدرك فيها التجوز أو الكناية إلا بالبحث والرجوع بالكلمات إلى أقدم أصولها المعروفة. وذلك مثل أسبل المطر، فلان زميل فلان. وأرهقه العمل، وراض نفسه على الأمر، ودهماء الناس، وأمثال هذا مما شاع استعماله حتى ساوى مجازه الحقيقة أو غلب عليها فلم

يبق المعنى الحقيقي شاهداً بأصل الاستعمال ودالاً على التجوز في غيره، كما يعرف التجوز في قولنا زلّ في رأيه، وزرع المودة في قلبه، وسمع زئير الحرب، ببقاء هذه الألفاظ معروفة ذائعة الاستعمال في معانيها المحسوسة. وحكم هذا المجاز حكم الحقيقة لا تجديد فيه ولا تغيير على الأسلوب الذي يريده الأستاذ أحمد أمين.

2. وأما المجازات التي يظهر فيها التجوز، ويبين فيها التخيل فبعضها يخترعه الكاتب البليغ الذي يحس في نفسه المقدرة على تصريف الكلام وخلق العبارات. وهذا مأخوذ من عقل الكاتب، أو المتكلم وإحساسه وعلمه كما يسمي الجمل سفينة الصحراء ويسمي الرجل الجريء أسداً وذئباً الخ. وكما يسمى أحدنا الغواصة مثلاً نسر الماء، ومنطاد زبلين حوت الهواء، ويقول عن خبر فظيع جاءه بالتلغراف: هذه إحدى صواعق البرق، ويشبه الرجل العليم بأخبار العالم وأحواله بالراديو الخ. وينبغي ألا ننسى أن علم الإنسان وعقله ليسا مقصورين على البيئة التي يعيش فيها بل من هذه البيئة ومما رأى أو سمع عن بلادٍ غابرة أو حاضرة، وأمم ذاهبة أو قائمة. فقد يسوغ للكاتب المصري أن يستمد مثلاً أو تشبيهاً مما يعرف عن أمم الإسكيمو أو مما عرف عن الأمة المصرية القديمة أو الأمة العربية قبل الإسلام، أو من خرافات اليونان الأقدمين. فإذا قال عن رأي سيئ يظهر بمظاهر مختلفة أنه غول متلونة أو عن فكرة سخيفة في نفس باردة أنها كواحد من همج الإسكيمو يقطن بيتاً من الثلج لم يكن لأحد أن يقول له: أنك لم ترى الغول ولا عاشرت الإسكيمو فينبغي أن يكون بيانك خالياً من التشبيه بهما. وإنما شرط هذا أن يكون مصدر المجاز أو التمثيل معروفاً لا يقف بالقارئ عند غموض أو إغراب.

وضرب من المجازات وما إليها ينشا هذه النشأة ثم يذيع وتتداوله الأجيال حتى يصير مظهراً لبيان الأمة وخيالها لا لخيال كاتب أو متكلم كالذي ورثناه في لغتنا عن بلغاء العربية في الجاهلية والإسلام.

وهذا جدير بالاستعمال، فكل كاتب أو متكلم أن يتوسل به إلى البيان وإن كان مصدره غريباً غير مألوف، بل ينبغي المحافظة عليه بما يبين عن تاريخ الأمة وحياتها في طور من أطوارها.

فلا عيب أن يقول القائل: أخذه برّمته، وترك حبله على غاربه، وما له خف ولا حافر، ورموا عن قوس واحدة، وأعطى القوس باريها، وألقى عصاه، والقافلة تسير والكلاب تنبح، كالمستجير من الرمضاء بالنار، كمهدي التمر إلى هجر، أعقد من ذنب الضب، أعدى من الشنفري، مرق مروق السهم، أختلط الحابل بالنابل، أهدى من القطى، وهلم جرا.

ولغات الأمم الأخرى حفظت كثيراً من عاداتها وتاريخها ولست أضرب مثلاً باللغة الفارسية أو التركية أو الأردية فهي لغات شرقية لا تصلح حجة في هذا العصر، ولكن أضرب مثلاً من اللغة الإنكليزية والفرنسية: يقال في الإنكليزية لمن يبالغ في كلامه: (ينزع في القوس الطويلة) ولمن يخير بين أمور عدة: (عنده أوتار لقوس واحدة) وهذه العبارة الأخيرة في اللغة الفرنسية أيضاً. ويقال في الإنكليزية في تقدير المسافة: (على رمية سهم) كما يقال في العربية (مقدار غلوة). ويقال في الفرنسية لمن يتوسل إلى غايته بكل وسيلة: (يبري سهاماً من كل خشب). وأمثال هذا كثير. فما منع الإنكليز والفرنسيين استبدالهم بالأقواس والسهام آلات الحرب الحديثة منذ مئات السنين، أن يبقوا على العبارات التي حدثت في عهد الأقواس والسهام.

لست أقول ينبغي أن نلزم العبارات القديمة ونأبى كل عبارة حديثة فلا أحد يستطيع أن يحول بين الناس وبين الإبانة عما في أنفسهم بوسائل مشتقة من حياتهم ولكني أخشى أن تكون الدعوة إلى الجديد دعوة إلى هجر القديم، ونحن في هذا العصر، عصر الفتن أحوج ما نكون إلى التمسك بالقديم، والاستمساك دون التهافت في التقليد، والضلال بين القديم والجديد. ومن يمعن النظر في صحفنا ومنشآت طلبتنا يعرف كيف تركنا كثيراً من عباراتنا الجيدة الموروثة إلى عبارات غثة ضعيفة لا تكاد تبين عما وراءها.

ثم يتكلم الأستاذ عن مسايرة الأدب الغربي للزمن ووقوف الأدب العربي، فيقول: (ذلك بأن الأدب الغربي ساير الزمان وأعترف بكل ما حدث فيه وأستمد منه، على

حين أن الأدب العربي الحديث أغمض عينيه عن كل ما كان، ولم يعترف بوجوده الخ)
ولو رددنا الأمور إلى نصابها وتجاوزنا ظواهر الأمور إلى بواطنها ما رأينا في هذا قصور الأدب العربي، ولا عجز أدباء العربية بل عرفنا فيه قصورنا في العلوم والفنون الحديثة أو حداثة عهدنا بها. الأدب ترجمان الحياة العامة فهو لا يتناول مسائل علم واصطلاحاته حتى تشيع أوليات هذا العلم بين الأمة شيوعا يدخل مصطلحاته في لغةالتخاطب0 ولا ينبغي للأديب أن يدخل في الأدب المسائل العلمية أو الأسماء التي لا تزال مقصورة على العلماء المختصين بها. فإذا جاوزتهم إلى جمهور الأمة ودخلت في لغة الكلام ساغ للأديب أن يتناولها. في الكيمياء، مثلاً، مسائل عويصة لا يعرفها إلا علماء الكيمياء فهذه المسائل ستبقى وقفاً على العلماء مخبوءة بين أجهزة الكيمياء، ولن تخرج إلى لغة الخطاب العامة فتدخل في الأدب إلا أن تصير الأمة أو جمهورها من علماء الكيمياء.
وهناك مسائل من أوليات هذا العلم كصفات الأحماض وتأثير بعض العناصر في بعض. وهذه تدخل في اللغة العامة وتتهيأ للدخول في الأدب حين يشيع في الأمة علمها فلا يختص بها الكيميائيون. ومن أجل هذا تجد طلاب الفلسفة أو الطب أو النحو يتفكهون بتشبيهات من هذه العلوم لا يفقهها غيرهم إذ شاع علمها بينهم وصلحت للدخول في لغة تخاطبهم. وإذا رجعنا إلى تاريخ الأدب العربي عرفنا أن اصطلاحات الفلسفة والمنطق وغيرهما لم تدخل في الأدب أول عهد المسلمين بهذه العلوم. ثم شاعت بعض قضاياها واصطلاحاتها فساغ لأبي نؤاس وأمثاله أن ينظموها في شعرهم. كما قال أبو نؤاس:

تأملُ العينُ منها ... محاسناً ليس تنفد
فبعضها (يتناهى) ... وبعضها (يتولد)

فالتناهي والتولد من اصطلاحات الفلاسفة، وكما قال البحتري:

وكأن الزمان أصبح (محمولاً) ... هواه مع الأخس الأخس

فهو فيما أظن يشير إلى قول المنطقيين إن النتيجة تتبع أخس المقدمتين. وكقول المعري:

طرق العلى مجهولة فكأنها ... (صم العدائد) ما لها (أجذار)

أدخل في شعره من أسماء الحساب العدد الأصم والجذر وكقول الفارابي في اصطلاحات الهندسة:

وهل نحن إلا خطوط وقعن ... على كرةٍ وقع مستوفز
محيط السماوات أولى بنا ... فماذا التنازع في المركز؟

وقد يكفي في هذا أن تشيع القضية العلمية بين المتأدبين من الأمة ولا ينتظر بها أن تشيع بين الجمهور. ولا يتسع المجال للإفاضة في البيان هنا.
ومهما يكن الأمر فقد غلا الأستاذ إذ قال: (أما الأدب العربي فيحارب مترليوزا بقوس وسهم، ويضيء في أدبه سراجاً بزيت والناس قادمون على أن يغيروا المصباح الكهربائي بخير منه ويبكي الأطلال ولا أطلال، ويحن إلى سلع ولا سلع ويستطيب الخزامي والعرار ولا خزامي لدينا ولا عرار.) هل يستطيع أستاذنا أن يعرفنا بشاعر أو كاتب في مصر أو الشام والعراق يفعل هذا؟
ويقول الأستاذ: (وسبب آخر من أهم الأسباب في فقر الأدب العربي في التعبير. هو أن الأدب العربي الحديث أدب أرستقراطي لا أدب شعبي.) وأنا لا أخالف هذا الرأي في جملته ولكن لي فيه مآخذ.
ليس حقاً أن أحاديث الخاصة من متعلمينا وتنادرهم وفكاهاتهم باللغة العامية. (1) فأحاديث الخاصة من المتعلمين أقرب إلى لغة الكتابة من اللغة العامية. ومراقبة مجلس الأدباء والعلماء تشهد بما أقول.
وفي هذا نفسه بيان خير الوسائل إلى ما دعا إليه من (إزالة الحواجز القوية بين العامية والعربية على أي وجه يرضاه قادة الأمة.) وذلك أن قرب أحاديث الخاصة من لغة الكتابة يبين لنا الطريق التي ينبغي أن نسلكها لإزالة هذه الحواجز. فليس لنا من وسيلة إلا أن ترقى العامة حتى تستطيع أن تفهم عن الخاصة إذا حدثتها. فكلما شاع التعليم في الأمة ارتقت العامة إلى مستوى أقرب إلى لغة الأدب. ونحن اليوم سائرون في هذه السبيل وقد سمعت في السنين الأخيرة جماعة من العامة وأشباه العامة يخطبون ويتكلمون بلغة لا تخالف لغة الكتابة إلا قليلاً. وآلاف المتعلمين من طلاب

مدارسنا وآلاف القارئين الذين يستطيعون مطالعة الصحف والكتب عاملون كل يوم للتقريب بين العامية والفصحى.

(2) ثم قد غلا الأستاذ حين قال: (وكل أمة قد كسبت من توحيد لغتها الكلامية والكتابية ما لا يقدر، فقد أصبح الشعب كله منتجاً أدباً وتعبيراً قوياً.) ليس في العالم شعب ينتج كله أدباً قوياً ولا يزال الخاصة من الأدباء هم منتجي الأدب وأئمته، بل أتفه الأدباء أقربهم إلى العامة. فلا يزال عند الأوربيين فوارق بين أدب العامة وأدب الخاصة وستبقى هذه الفوارق

ما دام اختلاف العلماء والجهال في عقولهم ومشاعرهم. وكل الذي نبغيه أن يلتقي العامة والخاصة في مقدار من الأدب مشترك هو أعلى ما تسمو إليه العامة وأدنى ما تنزل إليه الخاصة. ولن يزول الفارق بين الأدبين أبداً.

وكيف يوفق الأستاذ بين دعوته إلى أن يساير الأدب العلم وتستحكم الصلة بين كلية الآداب وكلية العلوم وبين دعوته إلى توحيد الأدب والمساواة فيه بين الخاصة والعامة. أيمكن أن يكون جمهور الأمة آخذاً بحظه من كلية العلوم أيضاً.

(3) ثم الفكاهات والنوادر. يقول أستاذنا الفاضل. (حسبك دليلاً على ذلك أن النكت والنوادر، وهي من أهم أركان الأدب، لا تجد منها سائغاً في أدبنا العربي عشر معشار ما تجد في الأدب العامي. وإن النادرة تحكى بالعامية فنضحك إلى أقصى حد ثم تحكيها باللغة الفصحى فتخرج باردة تافهة)

نظر الأستاذ إلى هذه القضية من جانب واحد. والحق أن النكتة تبلغ مبلغها فيما وقعت فيه من حال وعبارة. فالذين يشهدون الواقعة المضحكة أو يسمعون الكلمة المضحكة أكثر ضحكاً لها ممن رويت لهم في غير أحوالها أو بغير ألفاظها، بل ينطق الرجل بالكلمة فيضحك لها الناس فإذا رواها غيره بلفظها في مثل حالها لا تبلغ من النفوس ما بلغته أول مرة لما فاتها من أثر القائل الأول. فإذا اختلفت العبارة فأحرى أن يختلف التأثير. فإذا ترجمت الفكاهة من لغة إلى أخرى ضاع أثرها كله أو بعضه وإذا نقلتها من عبارة إلى أخرى في لغة واحدة لم تبق على حالها الأول. فإن تكن النكت العامية تبرد إذا نقلت إلى العربية الفصحى فكم من نادرة فصيحة تموت إذا نقلت إلى العامية. وكثير من فكاهات الجاحظ و (كتاب الحمقى والمغفلين) لابن الجوزي لا يمكن نقلها إلى العامية؛ فالفكاهات المتعلقة بالنحو والعروض والفقه ونحوها وكثير منها يضعف أثره وإن أمكن نقله. وإلا فكيف تترجم إلى العامية هذه العبارات:

قال رجل للحسن يا أبى سعيد. فقال كسب الدرانيق شغلك عن أن تقول يا أبا سعيد. وقدم رجل من النحويين رجلاً إلى السلطان في دين له عليه فقال أصلح الله الأمير لي عليه درهمان. قال خصمه: لا والله أيها الأمير إن هي إلا ثلاثة دراهم لكنه لظهور الإعراب ترك من حقه درهماً واعتبر كل ما في كتب الأدب من ملح تجد أكثرها يجري هذا المجرى.

ولا ريب أن لغة التخاطب ولغة الكتابة أو لسان العامة ولسان الخاصة كانا متقاربين في عهد الجاحظ ولم يكن بينهما ما بين الفصيحة والعامية اليوم. ولكن الفكاهات إذ ذاك كانت كما هي اليوم لا تصلح للنقل من لغة إلى أخرى. قال الجاحظ:

(ومتى سمعت حفظك الله بنادرة من كلام الإعراب فإياك وأن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها. فإنك إن غيرتها بأن تلحن في إعرابها وأخرجتها مخرج كلام المولدين والبلديين خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير. وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام وملحة من ملح الحشوة والطغام فإياك وأن تستعمل فيها الإعراب أو أن تتخير لها لفظاً حسناً الخ)

وكذلك يقول قدامة بن جعفر في كتاب نقد النثر: (وللفظ السخيف موضع آخر لا يجوز أن يستعمل فيه غيره. وهو حكاية النوادر والمضاحك وألفاظ السخفاء فإنه متى حكاها الإنسان بغير ما قالوه خرجت عن معنى ما أريد بها وبردت عند مستمعها).

(4) وبعد فلا ينبغي أن تسف لغة الآداب العالية إلى مستوى العامة بل يجب أن ترقى العامة إلى مستوى لغة الآداب أو ما يقرب منه. على أن هذا التباعد بين ما يسميه الأستاذ (الأدب الأرستقراطي) وما نسميه (الأدب الشعبي) مظهر واحد من مظاهر الاختلاف بين عامتنا وخاصتنا، بين الفريقين تفاوت عظيم في العقل والمعرفة والأزياء

والمساكن وطرائق المعيشة. ولا بد من تقريب المسافة بين العامة والخاصة في هذا كله قبل أن يشتركا في لغة واحدة ويستمتعا بأدب واحد فإن الأدب الصحيح ترجمان معيشة الأمة.

التجديد في الأدب

للأستاذ أحمد أمين

من أوضح الظواهر أن الجمهرة العظمى من المتعلمين الذين درسوا أدباً عربياً وأدباً أجنبياً يعكفون على الأدب الأجنبي يتذوقونه ويكثرون من مطالعته، في جدهم إن شاءوا الجد، وفي لهوهم إن شاءوا اللهو، وهم إن قرءوا في الأدب العربي ففي القليل النادر، وإن فعلوا لم يطيلوا ولم يتعمقوا، وقل أن يدرسوا كتاباً دراسة جيدة، إنما أكبر همهم أن يقلبوا صفحات الكتاب ليقع نظرهم على أبيات من الشعر يستملحونها، أو قصة طريفة يتفكهون بها. ومكتبتهم، على قلتها، تمثل ميلهم، فالكتب الإنجليزية أو الفرنسية فيها غالبة، والكتب العربية قليلة نادرة.

ذلك ولا شك حال أغلب المثقفين ثقافة عصرية. ويذهب بعض الباحثين في تعليل هذه الظاهرة إلى أن السبب يرجع إلى فساد تعليم اللغة العربية وآدابها في المدارس، فإن أساتذتها لا يحببون إلى الطلاب الأدب العربي، ولا يصلون به إلى نفوسهم، وإنما هي أمثلة محدودة تتكرر عاماً بعد عام، ونماذج من الشعر والنثر تعرض مرة بعد مرة، ولا غرض من دراستها إلا أن يذكرها الطلبة عند الامتحان فيؤدوها كما تليت عليهم، ثم تذهب بذهاب الامتحان، لأنهم قد تجرعوها على مضض، فهم يفرحون بنسيانها فرح المريض، وقد شفي، بالخلاص من دواءٍ مر المذاق.

قد يكون هذا سبباً صحيحاً، ولكنه فيما أرى ليس بالسبب الجوهري، فإن بعض اللغات الأجنبية التي تدرس بيننا ليست دراستها بأحسن حالاً من دراسة اللغة العربية، ومع هذا فالطلبة يسيغون أدبها ويتذوقون كتبها بما لا يظفر ببعضه الأدب العربي.

أهم سبب عندي يرجع إلى موقف الأدبين الأدب العربي والأدب الأوربي.

ذلك أن كل أدب أوربي له قديم وحديث، والأدب الحديث هو الذي يناسب جمهور المتعلمين وعامة الشعب لأنه في الغالب يعرض لما يشعرون به فيعبر عنه التعبير الفني، فالأديب المحدث يرى ظاهرة اجتماعية فيضعها في قصة أو منظراً جميلاً فيضعه في قصيدة، أو معنى أثارته في نفوس قومه أحداث سياسية أو اقتصادية فيضعه في مقالة أو كتاب، فيقبل

الجمهور على قراءة ذلك ويعجبون به، وسبب الإعجاب أن الأديب شعر بما يشعر به الجمهور، واستطاع أن يعبر عنه التعبير الفني الذي لا يستطيعه الجمهور. أما الأدب الأوربي القديم فإنما يناسب خاصة المتعلمين لأنه يتطلب دراسة لغوية وأدبية عميقة كما يتطلب، لتطلبه، أن يلم المتعلم بشيء كثير من المسائل التاريخية والاجتماعية التي أحاطت بالأديب وبالقطعة الفنية حتى يستطيع أن يفهمها فهماً صحيحاً، وليس ذلك في مكنة السواد الأعظم من الناس. فالذين يفهمون الإلياذة والأوديسة وخطب ديمستين قليل بالنسبة إلى الذين يقرأون الأدب الحديث ويفهمونه، وكذلك الذين يفهمون الأدب الإنجليزي أو الفرنسي في القرون الوسطى ويتذوقونه هم الخاصة من الأدباء. وإن قرأ الجمهور شيئاً من الأدب القديم فإنما يقرءوه مترجماً إلى اللغة الحديثة، أو معروضاً في شكل جديد قد ذللت فيه كل الصعوبات التي يحتمل أن يلقاها القارئ العادي. أما الأدب الإنجليزي أو الفرنسي الحديث فيكاد يكون حظ الإنجليز أو الفرنسيين جميعاً.

وسبب ذلك أن الأدب هو نقد الحياة في أسلوب فني، وإذ كانت كل أمة تفهم حياتها الحاضرة فهماً ما، وإن اختلفوا في مقدار الفهم، كان الأدب الحديث أقرب إلى فهمهم وأيسر متناولا لجمهورهم، وإذ كان الأدب القديم وصفاً لحياة قديمة لا يستطيع فهمها فهماً صحيحاً إلا من عرف بيئتها وتاريخها، كان ذلك الأدب أدب الخاصة.

وبعد فالأدب العربي أدب قديم لا حديث له، وإن شئت تعبيراً دقيقاً فقل إنه أدب قديم لم يستكمل حديثه، لذلك كان الأدب العربي أدب الخاصة لا أدب الجمهور.

لا يستطيع القارئ أن يفهم الأدب العربي القديم إلا بفهم دقيق للتاريخ، وفهم بالغ للظروف الاجتماعية التي نشأ فيها الأدب ومعرفة واسعة بالجغرافيا، وعلم تام بقوانين

الصرف المعقدة كأنها قوانين اللوغاريتمات ليعرف كيف يبحث في معاجم اللغة العربية عن كلمة غريبة، وليس يصبر على ذلك كله إلا المجاهدون الصابرون، وقليل ما هم.
يريد سواد المتعلمين أن يغذوا مشاعرهم من حب يحلل تحليلاً دقيقاً، أو إعجاب بمنظر طبيعي ملك عليهم نفوسهم، فأرادوا أن يصور هذا الإعجاب في قطعة فنية، أو تبرم بأسر ورق فهم يريدون أدباً يتغنى بالحرية ويحفز النفوس إلى تحقيقها، أو ألم من سوء حالة اجتماعية فهم يبتغون قصة تمثلها أو قصيدة تصفها، أو كتاباً يحللها، أو نحو ذلك من
ضروب المشاعر فلا يجدها في الأدب العربي الحديث إلا قليلا نادراً فيضطر إلى الأدب الأجنبي يقرأه ويتغنى به ويستمرئه، وهو على الرغم من أن ذلك الأدب ليس بلغته، ولا يصف مشاعر تمثل بالدقة مشاعره، ولا يحلل حالات اجتماعية تشبه مشابهة تامة حالاته، على الرغم من ذلك كله مضطر أن يقرأه، إذ ليس عنده من أدبه ما يكفي لغذائه، وفي الأدب الغربي كل صنوف الغذاء على اختلاف الأنواع وعلى اختلاف الأساليب؛ إن شاء سهلاً وجد السهل، أو صعباً وجد الصعب، أو بين ذلك وجد بين ذلك، وإذا غمض عليه لفظ استطاع أن يكشف عنه في المعاجم من أول درس تعلمه، فكيف لا يهمل بعد ذلك الأدب العربي ويعكف على الأدب الغربي؟
أن شئت فوازن بين ما يدرسه الطالب في المدارس الثانوية أو العالية في الأدبين، فهو في الأدب الغربي يدرس شكسبير وأمثاله فيجد موضوعاً شيقاً يمثل حالة من الحالات التي تتصل بنفسه، وتمس حياته الاجتماعية بقدر ما، قد صيغت في قالب فني رشيق، فخرج من الدرس يحبها ويحب موضوعها، أما في الأدب العربي فيدرس مختارات من جرير والفرزدق والأخطل، أو مختارات من مقامات البديع والحريري أو نحو ذلك، وهذه كلها لا تمثل ناحية اجتماعية يحياها أو ما يقرب منها، ولا فكرة عميقة حللت تحليلا واسعا، لذلك يخرج منها وهو لا يحبها، أو على الأقل يكون على الحياد منها.
لست أنكر أن في جرير وأمثاله، والمقامات وأمثالها، وفي الأدب العربي على العموم جمالا وفناً وإبداعا، ولكن ذلك لا يدركه إلا الخاصة الذين مرنوا طويلاً على الدرس وبذلوا الجهد في تدريب أذواقهم على تقويمه واستساغته، وليس ذلك في استطاعة كل الطلبة ولا أكثرهم.
فإن أنت نظرت إلى الأدب العربي الحديث فماذا ترى؟ ترى كثيراً من الأدب الغربي قد ترجم إلى العربية، وليس من الحق أن نعد هذا أدباً عربياً في جوهره وموضوعه، إذ ليس له من العربية إلا لغة ملتوية على النمط الغربي. وترى نتاجاً مبتكراً قليلاً، وأكثر هذا القليل مقالات وفصول جمعت بعد ذلك وسميت كتباً مجازاً، لا تربطها وحدة غالباً إلا بضرب من التمحل. والبقية الباقية من القليل هي التي يصح أن تسمى أدباً عربياً حديثاً لم يكتمل. ذلك في نظري أكبر سبب في انصراف جمهور المتعلمين عن الأدب العربي، فإن
أريد إقبالهم عليه فلا بد من إنتاج حديث وافر يغذي كل مشاعر الحياة كما يغذي العقول، وليس من الحق أن ندعو السواد الأعظم إلى الأدب العربي قبل أن نستكمله أو على الأقل نوجد فيه ما يسد رمقهم، وأن أردنا الأنصاف فواجب أن ندعو الدعوتين: دعوة الأدباء بالعربية إلى أن ينتجوا، ودعوة القراء إلى أن يقرأوا.
وينجح الأدباء إذا اقتصروا على أن يحتذوا حذو القدماء شكلا وموضوعا دون أن يمسوا حياتهم الواقعية وبيئتهم الاجتماعية ومشاعرهم النفسية؛ فالأدب متغير، خاضع لقوانين النشوء والأرتقاء، فإذا تقيد أدباؤنا بالموضوعات التي عالجها القدماء وبالأشكال التي صب فيها الأدب القديم، عد أدبهم قديماً لا حديثاً، ولم يصلح علاجاً لما نصف من أمراض.
مثال ذلك: أنا إذا وضعنا أيدينا على مختارات البارودي، وهو كتاب ضخم في أربعة أجزاء أختار فيها الثلاثين شاعراً من شعراء العصر العباسي، وجدناه قد أختار نحو أربعين ألف بيت، منها أكثر من أربعة وعشرين ألفاً في المديح، وإذا أضفت الهجاء والرثاء إلى المديح وجدت جميع ذلك يقرب من ثلاثين ألفاً، والربع الباقي في الأدب والصفات والزهد والنسيب!
فترى من هذا إفراط الأدباء القدماء في وصف العواطف الشخصية من كرم ورثاء

وهجاء، وتقصيره في أبواب كثيرة أهمها وصف المناظر الطبيعية، وتحليل الانفعالات النفسية، وغير ذلك من ضروب الأدب.
وهذا التقصير وقع في الأدب الأوربي القديم كما وقع في الأدب العربي، فلو قرأنا شعر هوميروس وفرجيل ودانتي وجدنا فيه قليلاً من وصف جمال الطبيعة من جبال وبحار ونجوم، على حين، الشعر الأوربي الحديث قد مليء بهذا الضرب من القول وأبدع الشعراء فيه إبداعا لا حد له فأفاضوا في القول في السماء ونجومها، والأشجار وازدهارها وذبولها، والبحار والصحراء وغيرها، ووجدوا في ذلك كله كنوزاً استمدوا منها شعرهم، وكان تقصير القدماء وإجادة المحدثين في ذلك قانوناً طبيعياً لأن الإعجاب بجمال الطبيعة نتيجة رقي كبير في الذوق، فإذا قصر أدباؤنا المحدثون في هذا كما هو حادث الآن وتابعوا الأقدمين في المديح والهجاء والغزل، فقط، فقد ظل نقص الأدب العربي على ما هو عليه.
كذلك يعيش الشرقي عيشة خاصة غير التي كان يعيشها آباؤه، سفرت المرأة بعد حجابها،
وتغبر في العشرين سنة الأخيرة كل نظم الحياة تقريباً من معيشة بيتية ونظم اجتماعية، وحياة سياسية، وأصبح كل باب من هذه الأبواب يتطلب قصصاً جديداً وشعراً جديداً وكتباً أدبية جديدة، فأن نظر أدباؤنا إلى دواوين الشعراء الأقدمين ولم ينظروا إلى دواوين الطبيعة وصحائف العالم الذي فيه يعيشون، فلا أمل في شعرهم، ولا نثرهم وظل المتعلم منصرفاً عنهم إلى الأدب العربي على الرغم منهم.
ونوع آخر من الأدب يصح أن يستغله الأدباء، وهو أن يعمدوا إلى الأدب القديم، وأبطال الشرق، والأحداث التاريخية العربية فيجعلوا منها موضوعاً لدراستهم ثم يلقوا عليه أضواء مما وصل أليه العلم الحديث والأدب الحديث وعلم النفس الحديث، فيترجموه إلى لغة العصر ويبرزوه في شكل يناسب ذوق الجمهور ويحبب إليهم قديمهم.
أنهم إن فعلوا ذلك استطاع من لا يعرف لغة أجنبية أن يجد غذاءه في الأدب العربي، واستطاع أن يكون إنساناً مثقفاً تكفيه ثقافته، واستطاع من يعرف لغة أجنبية أن يباهي بأدب قومه كما تباهي كل أمة بأدبها، وفي ذلك اعتداد بشخصيتنا العربية الشرقية لا يستهان به.

إلى الدكتور عوض

من الدكتور علي مصطفى مشرفة

قرأت في مقال لك منشور برسالة أمس إن بيننا وبين الشمس 92 , 000 , 000 ميلا في الصيف، 93 , 000 , 000 ميلا في الشتاء. ولما كنت أنت اعلم الناس بان بعد الشمس عنا اكثر صيفاً منه شتاء (بداهة، يقصد سياق الحديث من الصيف في النصف الشمالي للكرة الأرضية والشتاء كذلك إذ أن العباس بن الأحنف إنما عاش في هذا النصف).
كما أن 93 , 000 , 000 ميلاً هي متوسط بعد الشمس أي البعد حوالي وقتي الاعتدالين الربيعي والخريفي، وأما البعد في فصلي الربيع والصيف فأكثر من ذلك، ويبلغ أقصاه حوالي وقت الانقلاب الصيفي، فيزيد حينئذٍ بنحو 1: 60 من قيمته المتوسطة، أي بنحو 1 , 5 مليون ميل، وفي فصلي الصيف والخريف والشتاء يكون أقل من المتوسط، ويصل إلى حده الأدنى حوالي وقت الانقلاب الشتائي فيكون حينئذ أقل من قيمته المتوسطة بنحو60: 1 منها بنحو 1. 5 مليون ميل أيضا، فتكون نهايتاه العظمى والصغرى نحو94. 5 مليون ميل صيفاً ونحو 91. 5 مليون ميل شتاء. أقول لما كنت أنت أعلم الناس بذلك أردت أن أكتب هذا إليك لكي تبادر بتصحيح ما قد يكون علق بأذهان قراء مقالك الممتع من ان الشمس أقرب إلينا صيفاً منها شتاء.
وفي الختام أرجو أن تتقبل سلامي الخالص وإعجابي بمقالاتك التي أتتبعها في الرسالة بعناية مقرونة باللذة الفكرية.

حول قصة مصرية

قرأت كلمة في العدد الثامن من الرسالة الغراء بعنوان (حول قصة مصرية) وصف فيها كاتبها قصتي (حكمت المحكمة) بأنها قشور للقصة الحقيقية، وكم كان بودي أن يذيلها حضرته بإمضائه حتى أشكره وأشد على يديه إستحساناً وطرباً، فإن لي غراماً بفن القصة القصيرة، وأكبر الظن أني لن أصل إلى غايتي فيه إلا على ضوء النقد

كل ما أريد أن أقول هو أني عالجت في أقصوصتي:
1. عادات الريفيين في مآتمهم
2. مركز العمدة في القرية المصرية
3. اعتزاز العربي بشرفه ودفاعه عن عرضه
4. خطأ القانون في عقاب المدافع عن عرضه ومسامحته المعتدي على هذا العرض
ولست أعتقد أن كل ذلك قشور كما وصفه الكاتب، بل أني أخاف أن ينطبق هذا الوصف على خطته التي رسمها للقصة.
إنه يتساءل:
1. كيف أتصل إبراهيم أفندي بابنة الأعرابي وهذه نقطة غير لازمة، يكفي أن يعرف القارئ من القصة أن الاتصال ممكن مادامت سلمى تخرج إلى الحقول ترعى غنمها.
2. وكيف كانت العلاقة بينهما؟ على خير ما تكون يا سيدي. هي علاقة حب ما في ذلك شك. ولن أترك موضوع قصتي لأحصي عدد القبلات التي طبعها إبراهيم أفندي على خد سلمى
3. كيف ظهرت هذه العلاقة وعرفها والد الفتاة؟ إن يكن الجواب صعباً فهو موضوع لقصة أخرى بوليسية، وأن يكن سهلاً مفهوماً ففي ذكره اتهام لذكاء القراء
وبعد فقد عاب حضرة الكاتب على القصة خلوها من أثر العواطف والمشاعر، وادعي إني لجأت في وضعها إلي الحوادث فسردتها سرداً كأنها خبر من أخبار الصحف اليومية، وفي هذا تجن على الحقيقة كثير كما ترى.

السيد أبو النجا. مدرس بالتجارة المتوسطة بالظاهر

في الأدب العربي

ابن خلدون والتفكير المصري

للأستاذ محمد عبد الله عنان

(5)

على إن ابن خلدون كان من جهة أخرى يحظى بتقدير فريق قوي من الرأي المصري المفكر. وكان على رأس هذا الفريق المؤرخ العلامة تقي الدين المقريزي. فقد درس المقريزي في فتوته على ابن خلدون واعجب بغزير علمه، ورائع محاضراته، وطريف آرائه ونظرياته. ويتحدث المقريزي عن شيخه ابن خلدون بمنتهى الخشوع والإجلال وينعته (بشيخنا العالم العلامة الأستاذ قاضي القضاة) ويترجمه في كتابه (دور العقود الفريدة) بإسهاب وإعجاب، ويرتفع في تقدير مقدمته إلى الذروة فيقول: (لم يعمل مثلها، وانه لعزيز أن ينال مجتهد مثالها، إذ هي زبدة المعارف والعلوم ونتيجة العقول السليمة والفهوم، توقف على كنه الأشياء، وتعرف حقيقة الحوادث والأنباء، وتعبر عن حال الوجود، وتنبئ عن أصل كل موجود، بلفظ أبهى من الدر الظيم، والطف من الماء سرى به النسيم). وهو تقدير يعارضه فيه ابن حجر كما قدمنا، ويأخذ ابن حجر وتلميذه السخاوي على المقريزي موقفه من ابن خلدون، ويرميانه بالمبالغة والإفراط في تعظيمه وإجلاله، ويقدم لنا ابن حجر تعليلا لهذا الموقف، وهو إن المقريزي كان ينتمي إلى الفاطميين وابن خلدون يجزم بإثبات نسبهم، ثم يقول لنا: إن المقريزي غفل في ذلك عن مراد ابن خلدون، فانه كان لانحرافه عن آل علي يثبت نسب الفاطميين إليهم، لما أشتهر من سوء معتقد الفاطميين وكون بعضهم نسب إلى الزندقة وادعى الألوهية.
وقد تأثر المقريزي فوق تعظيمه وتقديره لابن خلدون بنظرياته تأثراً كبيراً. وظهر هذا الأثر واضحاً في كتابه (إغاثة الأمة بكشف الغمة) الذي انتهت إلينا نسخة وحيدة منه تحتفظ بها دار الكتب المصرية.
ففي هذا الكتاب الذي يقول لنا المقريزي انه كتبه في ليلة واحدة من ليالي المحرم لسنة 808 والذي يتحدث فيه عن محن مصر منذ اقدم العصور إلى عصره، ينحو المقريزي في الشرح والتعليل منحى شيخه وأستاذه ابن خلدون في مقدمته. فيقدم لرسالته بمقارنة موجزة
بين الماضي والحاضر، وملخص لما جازته مصر من محن الغلاء والشَرَق منذ الطوفان إلى عصره، ثم ينفرد لنا فصلاً يتحدث فيه عن الأسباب التي نشأت عنها هذه المحن وأدت إلى استمرارها طوال هذه الأزمان، وفي هذا الفصل نرى منهج ابن خلدون في البحث والتعليل واضحاً، بل نرى المقريزي يستعمل ألفاظ شيخه وعباراته مثل (أحوال

الوجود وطبيعة العمران وما إليها.) وفي رأي المقريزي إن أسباب الخراب والمحن، ترجع أولاً إلى توليه الخطط السلطانية والمناصب الدينية بالرشوة، واستيلاء الظلمة والجهلاء عليها، وثانياً غلاء استئجار الأطيان، وزيادة نفقات الحرث والبذر والحصاد (نفقات الإنتاج) على الغلة، وثالثاً ذيوع النقد المنحط، ويتبع ذلك بنبذة في تاريخ العملة في الدول الإسلامية ومصر. ثم يتحدث عن طبقات المجتمع، وأوصاف الناس، ويقسم لنا المجتمع المصري إلى سبعة أقسام: _

(1) أهل الدولة.

(2) أهل اليسار من التجار وأولي النعمة من ذوي الرفاهة.

(3) الباعة وهم متوسطو الحال من التجار، وأصحاب المعاش وهم السوقة.

(4) أهل الفلح وهم أرباب الزراعة والحرث وسكان الريف.

(5) الفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العلم.

(6) أرباب المصالح والأجر وأصحاب المهن.

(7) ذوي الخصاصة والمسكنة الذين يتكففون الناس.

ويذكر أحوال كل فريق بالتفصيل، ثم يتحدث عن أسعار عصره وبخاصة أسعار المواد الغذائية ويختتم بشرح رأيه في معالجة هذه المحن، وهو أن يغير نظام العملة، فلا يستعمل منها إلا المكين الثابت من ذهب وفضة، وهي فكرة تثبيت النقد بعينها.

هكذا ينحو المقريزي في الشرح والتعليل، وهكذا نلمس أثر المؤرخ واضحاً في منهج تلميذه، ونستطيع أن نجد كثيراً من أوجه الشبه بين ما يعرضه المقريزي في رسالته، وبين ما كتبه ابن خلدون في مقدمته عن طبيعة الملك وعوامل فساده، وعن السكة، وعن أثر المكوس في الدولة، وأثر الظلم في خراب العمران، وكيف يسري الخلل إلى الدولة وتغلبها وفرة العمران والغلاء والقحط، وغير ذلك مما يتعلق بانحلال الدول وسقوطها بل نستطيع

أن نلمح مثل هذا الأثر في بعض ما كتبه السخاوي نفسه في كتابه (الإعلان بالتوبيخ) عن قيمة التاريخ وأثره في دراسة أحوال الأمم، فهنا يبدو السخاوي أيضاً على رغم خصومته لابن خلدون متأثراً بفكرته الفلسفية في شرح التاريخ وفهمه.

وهنالك مؤرخ مصري أخر هو أبو المحاسن بن تغري بردي يشاطر شيخه المقريزي تقديره لابن خلدون ويشيد بمقدرته ونزاهته في ولاية القضاء ويقول لنا انه باشر القضاء بحرمة وافرة وعظمة زائدة وحمدت سيرته.

ويظهر اثر ابن خلدون أيضاً في اعتماد بعض أكابر الكتاب المصريين المعاصرين عليه والاقتباس من مقدمته وتاريخه، ومن هؤلاء أبو العباس القلشندي صاحب كتاب (صبح الأعشى) فانه يقتبس من ابن خلدون في مواضع شتى من موسوعته.

(6)

هذه صورة دقيقة شاملة لحياة ابن خلدون في مصر، وصلاته بحياتها العامة، وأثره في حركتها الفكرية المعاصرة.

وهذه الحقبة من حياة المؤرخ، وهي حقبة طويلة امتدت ثلاثة وعشرين عاماً، تخالف في نوعها وظروفها حياته بالمغرب، ففي المغرب عاش ابن خلدون بالأخص سياسياً يتقلب في خدمة القصور المغربية، ويخوض غمر دسائس ومخاطرات لا نهاية لها.

ولكنه عاش في مصر عالماً قاضياً وإذا استثنينا مفاوضاته مع تيمورلنك في حوادث دمشق، وسعيه إلى عقد الصلة بين بلاط القاهرة وسلاطين المغرب، فانه لم يتح له أن يؤدي في سير السياسة المصرية دوراً يذكر. وإذا كان ابن خلدون قد خاض في مصر، معترك الدسائس أيضاً، فقد كان هذا المعترك محلياً محدود المدى شخصياً في نوعه وغاياته.

وكانت حياة ابن خلدونفي مصر اكثر استقراراً ودعة، وأوفر ترفاً ونعماء من حياته بالمغرب، ولكن الظاهر إن سحباً من الكآبةوالألم المعنوي كانت تغشى هذه الحياة الناعمة. فقد كان ابن خلدون في مصر غريباً بعيداً عن وطنه وأهله، وكان يعيش في جو يشوبه كدر الخصومة وجهد النضال، ونستطيع أن نلمس ألم البعاد في نفس المؤرخ في بعض المواطن، فهو يذكر غربته حين يتحدث عن اتصاله بالسلطان إثر مقدمه ويقول إن السلطان (أبر مقامه وآنس غربته). وهو يكشف لنا عن هذا الألم في قصيدة طويلة نقلت إلينا

التراجم المصرية منها هذه الأبيات المؤثرة:

أسرفن في هجري وفي تعذيبي ... وأطلن موقف غربتي ونحيبي
وأبين يوم البين موقف ساعة ... لوداع مشغوف الفؤاد كئيب
لله عهد الظاعنين وغادروا ... قلبي رهين صبابة ووجيب

ولا ريب إن هلاك أسرة المؤرخ كانت عاملاً في إذكاء هذا الألم المعنوي، وهو يحدثنا عن هذه الفاجعة بلهجة الحزن واليأس حين يقول: (فعظم المصاب والجزع ورجح الزهد).

وكان المؤرخ يؤثر حياة العزلة في فترات كثيرة، وهو يشير إلى ذلك في بعض المواطن، حيث يقول لنا انه: (لزم كسر البيت ممتعاً بالعافية لابساً برد العزلة). وتشير التراجم المصرية إلى هذه العزلة فيقول لنا السخاوي: (ولازمه (أي المؤرخ) كثيرون في بعض عزلاته، فحسن خلقه معهم وباسطهم ومازحهم). وكان المؤرخ يشتغل في هذه الفترات بمراسلة أصدقائه بالمغرب والأندلس من السلاطين والأمراء والفقهاء، وهو يشير إلى ذلك في عدة مواضع.

وقد يكون من الشائق أن نعرف أين كان يقيم المؤرخ بالقاهرة، ولدينا عن ذلك نصان نقلهما ابن حجر عن الجمال البشبيشي ويقول الجمال في أولهما (انه كان يوماً بالقرب من الصالحية فرأى ابن خلدون وهو يريد التوجه إلى منزله وبعض نوابه أمامه. . .) (فيلوح من هذه الإشارة إن المؤرخ كان يقيم مدى حين على مقربة من الصالحية في الحي الذي تقع فيه هذه المدرسة اعني حي بين القصرين أو في أحد الأحياء القريبة منه، وذلك لأن مركز وظيفته كقاض للقضاة كان بهذه المدرسة ولأن إيوان الفقهاء المالكية كان يقع بجوارها. وأما في النص الثاني فيقول لنا الجمال ما يأتي مشيراً إلى ولاية ابن خلدون للقضاء عقب عوده من دمشق سنة ثلاث وثمانمائة (إلا انه (أي ابن خلدون) تبسط بالسكن على البحر واكثر من سماع المطربات. . . الخ) ويستفاد من ذلك إن المؤرخ كان يقيم في هذا الحين في أحد الأحياء الواقعة على النيل ولعله جزيرة الروضة أو لعله بالضفة المقابلة من الفسطاط، حيث كانت لا تزال بقية من الأحياء الرفيعة التي قامت هنالك مذ خطت الروضة وعمرت وصارت منزل البلاط في أواسط القرن السابع، وسكن الكبراء والسراة في الضفة المقابلة لها من الفسطاط. ويرجح هذا الفرض إن المدرسة القمحية التي كان يدرس فيها ابن خلدون بلا انقطاع كانت تقع على مقربة من هذا الحي.

هذا وأما مثوى المؤرخ الأخير، فقد ذكر لنا السخاوي انه دفن (بمقابر الصوفية خارج باب النصر) ويحدثنا المقريزي عن موقع هذه المقابر وقد كانت تقع بين طائفة من الترب والمدافن التي شيدها الأمراء والكبراء في القرن الثامن خارج باب النصر في اتجاه الريدانية (العباسية) ومقبرة الصوفية هذه أنشأها صوفية الخانقاه الصلاحية في أواخر القرن الثامن في هذا المكان وخصصت لدفن الصوفية، وقد كان المؤرخ كما نذكر مدى حين شيخاً لخانقاه بيبرس.

فهل يكشف لنا الزمن يوماً عن مثوى رفات المفكر العظيم فيغدو قبره أثراً جليلاً يحج إليه المعجبون برائع تفكيره وخالد آثاره؟

من طرائف الشعر
شوقية لم تتم

ننشر اليوم (مشروع قصيدة) كان شاعر الخلود شوقي بك يريد أن ينظمها في (الصحراء)، ثم بدا له فتركها على حالها الأولي قبل أن تتم، فأثبتناها بخطه كما هي خدمة للأدب والتأريخ

يا مُصّلي أديمه ... من بني آدم طُهر
سبّح الرمل والحصى ... في نواحيه والحجر
وعلى ظُهر جوه ... صلَّت الشمس والقمر
جمعا عُزلة المدا ... ر إلى عزلة المدر
سبحا ثم سبحا ... بالعشايا وبالبُكر
وخِصَمَّا من الرما ... ل أواذيَّه الصَخر
ماله ساحل ولا ... من فحاءاته وزرَ
فيه من كل حاصب ... جلل الجو وانهمر

هب من كل جانب ... كالدَّبى اشتد وانتشر
رب أكفان مقمر ... منهُ هيَّئن أو حُفر
وفضاء كأنه ... حلم رائع الصور
العشايا سواحر ... في حواشيه والبكر
. . . . كل سار وسامر
ثم غير المرحوم هذه الأبيات الثلاثة المتقدمة بالأبيات آلاتية:
يا فضاء بسحره ... ولَّه الركب بالسَّحر
فتنتهم وجوهه ... واستخفتهمُ الصور
وشجاهم سكونه ... بالعشايا وبالبكر
لا تلمهم فإنما ... قائد إلا نفس الفِطر
كل نفس لها هوى ... كل نفس لها وطر
كم جمال ومنظرٍ ... فرقا لذة النظر
كل حسن ومنظر ... فيهما للهوا نظر
وطن جبران خليل جبران
هو ذا الفجر فقومي ننصرف ... عن ديار ما لنا فيها صديق
ما عسى يرجو نبات يخلف ... زهرهُ عن كل ورد وشقيق
وجديد القلب أنى يأتلف ... مع قلوب كل ما فيها عتيق؟
هو ذا الصبح ينادي فاسمعي ... وهلمي نقتفي خطواته
قد كفانا من مساء يدعي ... إن نور الصبح من آياته
قد أقمنا العمر في واد تسير ... بين ضلعيه خيالات الهموم
وشهدنا اليأس أسرابا تطير ... فوق متنيه كعقبان وبوم
وشربنا السقم من ماء الغدير ... وأكلنا السم من فج الكروم
ولبسنا الصبر ثوباً فالتهب ... فغدونا نتردى بالرماد
وافترشناه وساداً فانقلب ... عندما نمنا هشيماً وقتاد
يا بلادا حُجبت منذ الأزل ... كيف نرجوك ومن أي سبيل؟
أي قفر دونها أي جبل ... سورها العالي ومن منا الدليل؟
أسراب أنتِ أم أنتِ الأمل ... في نفوس تتمنى المستحيل؟
أمنام يتهادى في القلوب ... فإذا ما استيقظت ولى المنام؟
أم غيوم طفن في شمس الغروب ... قبل أن يغرقن في بحر الظلام؟
يا بلاد الفكر يا مهد الألى ... عبدوا الحق وصلوا للجمال
ما طلبناك بركب أو على ... متن سفن أو بخيل ورحال
لست في الشرق ولا الغرب ولا ... في جنوب الأرض أو نحو الشمال
لست في الجو ولا تحت البحار ... لست في السهل ولا الوعر الحرج
أنت في الأرواح أنوار ونار ... أنت في صدري فؤاد يختلج
القلب اليتيم
أرأيتِ النسيم مَرَّ على الرو ... ض يناغي الزهور بالتقبيل؟
ورأيتِ الغصون يهفو بها الشو ... ق فتلتف في عاق طويل؟
ونظرت العشاق: كل خليل ... طائر القلب في غرام خليل؟
يغمر الحب كل قلب ويسقي ... كل نفس من كأسه السلسبيل
غير قلبي، فقد خلا من نعيم ... الحب أو روضه البهج الظليلِ
بادليه الغرام ثم اقبسيه ... من سَنَا نورك البهي الجليل
طهريني بناره واتركيني ... شاردا في مراحه المجهول
وَدَعيني افن الشباب غراما=بين نوح ولهفة وعويل
قد مللتُ الحياة من غير حب ... واراني في الحب غيرَ مَلولِ
أمين عزت الهجين
قلبي
قلبيِ الذيِ يحبه ... يرفُّ حولَ قده
يسبح في مقله ... يرقص فوق خدّه
قلبي الذي استعار من ... لهَّفتهِ خُفوَقهُ

أعمى فانْ لاح له ال ... حسن رأى طريقهُ
قلبي المعنىّ طائرٌ ... داميةٌ جراحه
أكلما خَفّ له ... أثقلهُ جناحه؟
قلبي سراج في الدجى ... من ناظريك نورُهُ
أطفأه بُعدك يا ... حلوُ فمن ينيره؟
حمص. رفيق فاخوري (سورية)
حينما كنا صغيرين
ذلك عهد وان تولى جديد ... مشرق النور عاطر النفحات
هو ماض من الحياة سعيد ... يملأ النفس في ربيع الحياة
كلما جد ذكره عاودتني ... عند ذكراه نشوة المستعيد
وإذا غاب طيفه وجهتني ... حرقة الوجد نحوه من جديد
يا زماناً عرفته حين كنا ... نشبه الزهر في معاني النقاء
وكأن الزهور ترنو إلينا ... في انتباه وغيرة واشتهاء
حين كنا كطائرين أصابا ... في ظلال الربيع غصناً وريقاً
ننهب اللهو جيئةً وذهاباً ... ونرى العيش ما حللنا طليقاً
كم نهضنا مع الطيور صباحاً ... نطلب اللهو في رواء الصباح
نسبق الطير خفة ومراحاً ... بين حزن الربى وسهل البطاح
كم سعينا إلى الرياض أصيلاً ... وقطفنا الزهور ملء يدينا
كم ضحكنا وكم لعبنا طويلاً ... كم جرينا وكم مشينا الهوينى
!كم جمعت الزهور من كل غصن ... ووضعت الزهور بين يديها
جمع الزهر كل طهر وحسن ... أين حسن الزهور من وجنتيها؟
اعرف الحب منذ كنت صغيراً ... مطمئناً إلى نعيم الحياة
ليتني قد بقيت طفلاً غريراً ... ساهي الطرف لاهي النظرات
ليت شعري أتذكر اليوم ودي ... أم تناسته والتباعد ينسي
!وبحسبي من الصبابة وجدي ... ومن الهجر ما يعذب نفسي
يا زماناً ذكرته في شبابي ... فتمنيت أن أعود غلاماً
وعجيب مع الشباب طلابي ... غير إن الزمان يأبى ابتساماً
محمود الخفيف
صورة
لوليم وردزورث
أبدع بفن أبرزت آياته ... ذاك الغمام بحسنه المتألق
// لم يسه ثمة عن دخان خافت ... يسمو ولا عن ضوء شمس مشرق
واستوقف الماشين قبل غيابهم ... في ذلك الغاب الألفِّ المورق
وأيان ذلك الفلك يفتأ مرسيا ... فوق الخليج وماءه المترقرق
يا أيها الفن الذي يروي النهى ... ويظل يقبس كل حسن مونق
من روعة الآصال يقبس نوره ... أو لمعة الإصباح ذات الرونق
هي وهلة في الدهر مسرعة الفنا ... وافيتها ببنانك المترفق
فجلوتها لبني الممات جديدة ... وكسوتها ثوب الخلود المطلق
متاعب الإنسان
لأندريه شنييه
// لكل شجون في الحياة كثير ... ولكن يواري عن سواء شجونهُ
وكل فتى يبكي لبلواه غابطاً ... فتى مثله باكي الفؤاد حزينهُ
ولم يدر الإنسان بآلام غيره ... فهم مثلما يخفي الأسى يكتمونهُ
وكل يناجي نفسه في شقائه ... بان جميع الناس تسعد دونه
فخري أبو السعود
في الأدب الشرقي
من الشعر التركي
للشاعر المرحوم إسماعيل صفا
ترجمة الدكتور عبد الوهاب عزام

الشيخ البائس (1)
احدودبت قامته، وارتعدت رجله ويده، وشحب لونه، وترنحت خطواته، ونمت أسرة وجهه عن فجائع حياته.
أن تنعم النظر في عينيه البارقتين، ومحياه الواضح، ولحيته البيضاء، تتبين انه طوف في الصحارى والبحار، وتهادته المدائن والقفار، وما جبينه المشرق إلا كتاب مفعم بالخطوب.
وقد غشى وجهه اشمئزاز من الحياة، وبرم بها، فالعالم أمامه مقبرة مكررة.
وتقرا في وجهه انه نضو حانات، شرب صفوها وكدرها، وتجرع ألوانا من سمومها.
رأيته لأول مرة، فقلت: ليت شعري من الرجل؟ ولست ادري لماذا زدت على الأيام شغفا بمعرفته، وكلفا بأستكناه أمره، انه يمر بداري كثيرا، فهو لا ريب أحد جيرتي، ولكن من هذا الشيخ البائس المحبوب الطلعة؟
كم لقيته شريدا تتقاذفه الطرقات، وتعثر به الخطوات، قد تأبط زجاجته، وقطب أسرته، فليت شعري من هو، وماذا يضطرب في ضميره؟
ذهبت يوما إلى أيوب، إلى غابة السرو المترعة بالأحجار وغصت في لجج من الفكر ما لها من قرار، ألست أرى الشيخ السكير؟ نعم انه هو. قد استند إلى شجرة من السرو وضرب بيده على لحيته مفكرا حزينا. وأمامه صفائح عتيقة قد استغرقت نظراته، واستبدت بأفكاره.
مشيت إليه على هينة حذراً، وقرأت ما كتب على القبر فعرفت حال الرجل ورثيت له، وجاشت في نفسي ثورة من الحزن والغم، وكان الذي قرأته هذه الأبيات:
وا حسرتاه! إن صرصر الأجل العاتية، قد ذهبت بشجرة الأمل الناضرة، وقد مشى) الموت الجبار على زهرة حياتي، فما الدنيا من بعد إلا مأتم، وما فرحي وعيدي إلا الحزن والغمّ).
إن تاريخ رحلته واحسرتا قد أتفق: (جنت مقرا ولدي محمد فريدمك) (صارت الجنة مقر محمد فريدي) سنة 1299
ليكن لك (2)
ليكن لك ما غاب في العالم من جمال وحضر، وما ظهر من حُسن فيه واستسرّ، والسحائب بألوانها الباهرة، والصحارى بمرائيها الساحرة، وكل ما ترنم به العشق من غناء، وما إفاضه الوجد على ألسن الشعراء، وهذه الحدائق بنفحاتها ونغماتها، وهذه القبة المنيرة بشموسها وسياراتها، ومطلع الشمس في روائه، والقمر في لألائه والأزهار في حلل من الشفق، والأسحار مزدهرة في الغسق.
ليكن لك الجبال والبحار، والفلوات والأشجار، لتكن لك الدنيا دائمة السراء والسعادة والصفاء، ليكن لك في هذه الحياة كل ما تشائين، وليكن طوع أمرك ما تشائين، وليكن تحت طوعك ما تحبين.
ولكن كوني أنتِ لي يا حبيبتي، كوني أنت وحدك لي.
قلت وأقول (3)
قلت: لو إن الليل المظلم صار نهارا!
وقلت: حين أمضّي الشتاء: لو انه انقلب ربيعا معطارا!
قلت: ولو إن طودا تخلله الأشجار، وتزينه الرياحين والأزهار، مشرف على لجج البحار.
قلت: ولو هنالك صحارى ومروجا تمرح فيها الطير والحملان.
قلت: ولو وقعت في الصحراء الظباء، فكلما بصرت بي أجفلت وانطلقت حيث تشاء
قلت: ولو إن على الجبل شجرة دلب عتيقة ولو إني في ظلها وحيد، وعلى غصونها بلبل غريد!
قلت: ولو خلع القمر على الكائنات حلل الضياء، وغشت السكينة الأرجاء.
قلت: ولو إن الأرض كلها والسماوات معطرة الأرجاء مضيئة الجنبات.
قلت: ما كنت لأسعد بهذا كله إلا أن يسعد طالعي فيؤنسني حبيبي.
وأقول الآن: هب كل هذا ميسرا. إنه واحسرتا! ظل زائل، فلو ذهبت إلى عالم لا تحول لذاته، ولا تفنى مسراته!!
العلوم
صور النجوم

للأستاذ عبد الحميد سماحة. مفتش مرصد حلوان
قسم الفلكيون من قديم الزمان النجوم إلى مجموعات ليتيسر حصرها ومعرفتها بسهولة، وصوروا هذه المجموعات بصور مختلفة وسموها بأسمائها، فكل نجم أعطوه اسم العضو الذي يقع عليه من الصورة، فالنجم الذي عند القلب في صورة العقرب، يسمى (قلب العقرب) والذي عند الرجل في صورة الجبار يسمى (رجل الجبار).
ومن الغريب أن تكون هذه الطريقة في تقسيم النجوم معروفة عند أمم مختلفة من سكان الدنيا القديمة على بعد الشقة بينها، ووجدها الأوربيون عند سكان بيرو وكندا عند اكتشاف الأمريكيتين.
ومن الصعب معرفة تاريخ تسمية الصور بأسمائها المعروفة الآن، ولكن من المقرر أن الكثير منها يرجع في تسميته إلى ما قبل الميلاد بنحو ألف وأربعمائة سنة، وقد أطلق اليونان على الكثير منها أسماء أبطال قصصهم التاريخية، وبقيت هذه الأسماء على مرور الزمن، ولكن العرب عندما ترجموا عن اليونان عربوا بعض الأسماء مثل الدلو أو ساكب الماء لكوكبة اكوريوس وأبدلوا بعض الأسماء بأدوارها التي تلعبها في القصص اليونانية مثل المرأة المسلسلة لكوكبة اندروميدا وتركوا البعض الأخر على أصله في اليونانية مثل قيطس لكوكبة وقنطورس لكوكبة
وأطلق العرب أسماء عربية بحتة على كثير من النجوم ولا تزال تطلق عليها عند الأوربيين مثل الذنب المعروف والرِّجل المعروف باسم والطائر المعروف باسم
ويجب إلا ننسى إن هذه المجموعات من النجوم لا تدل تماما في شكلها على صورة الأحياء المسماة بأسمائها، اللهم إلا في مخيلة أول من سموها بهذه الأسماء. فسبعة النجوم الرئيسية من كوكبة الدب الأكبر مثلا وهي تؤلف الهيكل الرئيسي لصورة دب كما هو ظاهر في الصورة، يمكننا مع قليل من التعب أن نرسم عليها صورة فيل أو نمر مثلا، هذا فضلا عن إن ثلاث النجوم التي تكون الذنب متباعدة بحيث نجد هذا الذنب في الصورة طويلا على غير ما هو معروف من إن ذنب الدب قصير جدا.
وقد قسم بطليموس المتوفى سنة150 قبل الميلاد السماء إلى 48 كوكبة منها اثنتا عشرة في الدائرة الكسوفية وهي المعروفة بالبروج وإحدى وعشرون في نصف الكرة الشمالي، والباقي وهو خمس عشرة كوكبة في نصف الكرة الجنوبي.
وقد أضيفت كوكبات كثيرة إليها، ونقلت بعض النجوم من إحدى الكوكبات إلى الأخرى، ومعظم النجوم اللامعة في هذه الكوكبات له أسماء عربية أو لاتينية أو يونانية.
وليست الكوكبات فيما تتصل به من أسماء أبطال القصص مما يهم الفلكي، ولكن لا بأس من أن نسرد بعض ما يتصل بالمهم منها بالقصة اليونانية لشدة ولع الناس بها من هذه الناحية.
يروى إن كاسيوبيا وهي المعروفة عند العرب بذات الكرسي، زوجة قيفاوس ملك اثيوبيا كانت على جانب عظيم من الجمال، وكانت تباهي به الآهات البحر اللواتي توسلن إلى (نبتون) أن يرسل قيطس الغول إلى شواطئ الملك قيفاوس ليثار لهن، وأن قيفاوس أوحى إليه أن يربط ابنته (اندروميدا) إلى صخور الشاطئ فيغتالها الغول فداء لهم، ففعل، ولكن عند عودة برشاوش البطل العظيم من رحلة رأى ما حل باندروميدا فقاتل الغول حتى قتله وتزوج من الأميرة الحسناء. ويأتي في القصة انه بعد وفاة كاسيوبيا رفعت إلى السماء بجوار القطب، وأن الآهات البحار انتقاما لأنفسهن وضعنها بحيث يكون رأسها إلى الأسفل مدة نصف الوقت.
وبرشاوش هو ابن جيوبتر وقد أرسل ليقتل ميدوسا إحدى الشقيقات الثلاث وهي الفظيعة المعروفة في القصة باسم لها أنياب حادة ومخالب غليظة ورأس كرأس الثعابين، وكل من نظر إليها بعينيه صيرته حجراً جامداً لساعته، وقد احتاط برشاوش للأمر فاستعار درع مينرفا وحذاء عطارد ذا الأجنحة ولم ينظر إليها عند مقاتلتها بل إلى صورتها في الدرع، فقطع رأسها ثم عاد به، وكان يستعمله في مقاتلة الأعداء لأنه احتفظ بخاصيته الغريبة في أن يصير كل من ينظر إليه حجرا.
ومما يلاحظ إن العرب كانوا يسمون كوكبة هذا باسمي برشاوش أو حامل راس الغول، ومن أحفاد برشاوش واندرومينا (هرقل) المشهور في القصة اليونانية بمخاطراته الجريئة التي يبلغ عددها اثنتي عشرة، ويرى هرقل في الكوكبات المصورة جاثيا وقدمه اليسرى

على التنين ولابساً لبدة الأسد الذي كان قتله أول أعماله المشهورة، وقد ذهب هرقل لإحضار التفاحات الذهبية من حديقة هسبريدز وقد كان يحرس الحديقة الثعبان الكبير لادون الذي لا تغمض له عين (وهو الممثل في السماء بكوكبة التنين، وهي نظراً لقربها من القطب لا تغيب تحت الأفق).

وغني عن البيان إن هرقل قتل التنين واحضر التفاحات، غير إنا لا نعرف لماذا صوروا هرقل جاثيا، وربما كان ذلك هو السبب في تسميته عند العرب باسم الجاثي على ركبتيه.

أما ذات الشعور فيروى إن الملكة برنيس زوجة بطليموس ملك مصر في القرن الثالث قبل الميلاد نذرت شعرها الجميل لمعبد الزهرة إذا عاد زوجها مظفرا من إحدى حروبه في آسيا وقد انتصر فوضعت الشعر في المعبد، ولكنه سرق في الليلة نفسها فغضب الملك لذلك غضباً شديداً، ولكن (كونن) الرياضي أراه مجموعة صغيرة من النجوم وقال له ها هي ذي فتعزى الملك وأطلق عليها اسم وسماها العرب كوكبة ذات الشعور.

عبد الحميد سماحة

حلم الأستاذ مجنان

للدكتور احمد زكي

للأستاذ مجنان رأي بديع في مستقبل الطيران يشبه الأحلام في حلاوتها. وإذا اعتبرنا انه المستشار الفني لوزارة الهواء الفرنسية وانه درس خمسمائة جنس من أجناس الطيور، وعددا لا يحصى له من الحشرات الطائرة، بقصد زيادة الطيران دقة وسهولة ويسراً، وانه قضى في تلك الدراسة نيفاً وعشرين سنة، وإذا اعتبرنا انه قص هذا الحلم الحلو في مجمع العلوم بباريس، وان العلم كثيرا ما أتانا بأحلام لا نلبث أن وجدناها أولت تأويلا صادقا، إذا اعتبرنا كل ذلك صغينا إلى الأستاذ بآذان واعية وقلوب مؤمنة، إن كان بها قليل من الريبة ففيها كثير من الأمل، وان خّفت بها غرابة ما يقترح إلى ابتسامة التكذيب، قعدت بها ابتسامة هادئة من سرور الطمأنينة والتصديق، ذكرياتٌ غريبات كانت بالأمس فأصبحت اليوم مألوفات لا تأخذ عيناً ولا ترهف آذناً.

يرى الأستاذ انك في المستقبل القريب عندما تريد أن تزور صديقا لن تدخل إليه من باب بيته وإنما تطرق عليه باب سطحه، ولن يكلفك ذلك إلا أن تلبس جناحين لا تزيد مساحة الجناح منهما على أربع أقدام مربعة أو خمس وتقفز من سطح بيتك في الهواء فإذا بك تطير في الفضاء على بركة الله. وإنما يشترط أن يكون بعضلك من القوة ما يحرك الجناحين بسرعة بحيث يضربان عددا من الضربات بين الثلاث عشرة والعشرين في الثانية الواحدة. بالطبع لن يستطيع ذراعان إحداث هذا العدد من الضربات في ذلك الوقت القصير، لذلك يقترح الأستاذ أن تقوم الأرجل مقام الأذرع فتضغط على بدالين كبدالات الدراجات، إنما هنا يتحركان معا. وهذان البدالان يحركان جيرا يحرك جيرا اصغر منه

وهكذا حتى تتصل الحركة إلى الجناحين، فإذا حركت رجلاك الجير الأكبر مرتين في الثانية، حرك هذا الأصغر منه أربع مرات، وحرك هذا الذي يليه وهو اصغر منه أضعاف هذه المرات، فلا تصل هذه الحركات إلى الجناحين وهما خفيفان جدا حتى يتحركا بما هو بما بين الثلاث عشرة والعشرين من الضربات. ولكن يجب أن يضرب الجناح في اتجاه رأسي وهو نازل فإذا صعد صعد في زاوية، وبهذه الطريقة يقدر المرء أن يسير في الهواء في سطح أفقي واحد، إلا إذا واجه تيارات هوائية فهذه ترفعه. أما الآلة فلن يزيد وزنها عن مائتين وعشرين رطلا والقوة اللازمة للطيران بها على الصورة المذكورة تبلغ ثمن حصان وهي القوة التي ينفقها العامل الذي يشتغل بجسمه كل يوم في عمله. وفي استطاعتك إذا أردت أن تقتصد في من قوة بدنك أن تستخدم محركا صغيرا لا يزيد حجمه كثيرا على حجم رأسك، وعندئذ تستطيع أن تسير أسرع من ذي قبل، وان تصعد في الجو إذا أردت، وتفرغ لتوجيه الآلة، وللبحث عن تيارات الهواء والاستفادة منها، وللمتعة الكبيرة بما يمر تحتك من أشباح الجوامد والأحياء.

وفي استطاعتك إن خشيت وقوف المحرك لخلل ما أن تحمل معك دسقطا من الدساقط المعهودة تقيك الهبوط السريع فالتهشيم، أما مادام المحرك يعمل والجناحان يضربان بالصورة التي كشفها الأستاذ من الطيور بالكمرة السريعة فلا خوف عليك ولا أذى فالصعود في الجو كالصعود في الجبل. ففي الجبل تستعين بعصا تقاوم فيها فعل الجاذبية الأرضية، وفي الهواء عصاك جناحاك تمسك بهما الهواء وتتشبث به كما تمسك بعصاك حجر الجبل، وللهواء جسم كما للجبل جسم وهو جامد بمعنى كما الجبل جامد، ولو كان لنا حس أدق من حسنا وعين أبصر من عيننا لأحسسنا جمود الهواء كما يحسه الطير.

القصص
في الأدب الإيطالي الحديث
الرواية في بونتاسياف!
للكاتب الإيطالي لوسيو دامبرا

شرع (مارك) يبتعد، وهو ممسك بذراعي:

- وهي؟. . . . هي؟. . . . . آه! ليتني أستطيع مشاهدتها! ليتني أستطيع ذلك!. . . . إنها لا شك مسرورة الآن كل السرور بل هي الآن فخورة بهذا الانتصار الذي هو انتصارها!!!

ولكن أنى لي مشاهدتها أثناء التمثيل، والظلام يغشى القاعة كلها؟. . . خير لنا أن ننتظرها على بضع خطوات من منزلها. . . وانتظرنا. . . . . انتظرنا أكثر من ساعة، وإذا الستار ينزل بين إعصار شديد من الهتاف والتصفيق، فتسابق أصدقاء (سيريني) إليه، ليؤكدوا له نجاحه، وليقودوه إلى المسرح، لتحية الجماهير، ولكنه أبى أن ينزل على رغبتهم، لم يتحرك، بل لبث يحدق في تلك النافذة، شاحباً كئيباً!!!

أخذت الجماهير تتدفق، وقصدت جموعها تلك القهوة الحقيرة، التي ربحت في تلك الليلة ما لا يصدق؛ وبعد ساعة من الزمن، طفقت ترفض زرافاتها شيئاً فشيئاً، فأوى من أسعدهم الحظ باستئجار غرف في (بونتاسياف) إلى مضاجعهم، وانطلقت سيارات القسم الآخر تعدو وتتسابق، فلم تلبث القهوة أن أقفلت أبوابها، ولم يبق أحد مستيقظا، غير جماعة النقاد المسرحيين، الذين كانوا يتهافتون على دائرة البرق، ليبرقوا إلى صحفهم بهذا الانتصار، وبآرائهم فيه.

أما (سيريني) فأنه لبث واقفاً يحدق في تلك النافذة، ولا يرفع بصره إلا عنها، وقد كانت تلوح على وجهه إمارات الكآبة والحزن:

- طالع منكود!!!. . . أنا الذي لم يرغب في هذا الانتصار إلا لأتمتع برؤيتها عن طريقه. .

ماذا كنا ننتظر بعد تلك الساعة؟ ليس من شك أنها عادت إلى دارها من حيث لم تقع أبصارنا عليها. . . ليس من شك أنها عادت، ومن وقت غير يسير؛ وأنا كذلك، وإذا (سيريني) يتأكد أن منزل عروس أحلامه، لا باب له من واجهته!!!

طفقنا نبحث عن الباب، فاهتدينا إليه، في زقاق ضيق. . . . لا شك أنها عادت، ولكن. . . لو كانت عادت، لأبصرنا الضوء من خصاص النوافذ، ولو برهة وجيزة. إلا أنا كنا إذا أمعنا في التفكير قلنا: وما يدرينا؟ هل نحن واقفون على هندسة الدار، حتى نعلم إذا كان إشعال النور في إحدى الغرف، لابد أن يظهر من تلك النوافذ؟

دقت الساعة الثانية بعد منتصف الليل، في الكنيسة المجاورة، وكان التعب قد بلغ مني مبلغه، حتى كدت أسقط إلى الأرض إعياء وضعفاً، فشرعت أتوسل إليه أن يعود، ومازلت به حتى أقنعته بذلك. . . وهكذا بفضل الله، وبعد سلسلة لا حد لها من التأوهات المحرقة، والتنهدات الملتهبة، وبعد كثير من الحدس والتخمين، وبعد نواح شبيه بمراثي أرميا، وبعد أن رسم خططاً ليقوم بتنفيذها في الغد، بعد كل ذلك، أوى (سيريني) إلى فراشه، وهو يزأر ويزمجر، وتركني أرقد بسلام؛ وأنا ألعن في نفسي الحب الريفي الذي يحتل قلوب كبار رجال المدن!!!

- 6 -

وفي الصباح، عند الساعة العاشرة، أحتشد الناس في قهوة القرية الحقيرة. وكان (مارك) قد دعا رهطاً من أصدقائه لتناول الطعام في الهواء الطلق، رغبةً منه في استبقائهم حوله. وكان بين المدعوين الممثلة الشهيرة (تيريز اندرياني) وعدد غير يسير

من أصدقائه في فلورانسا وروما. وفريق من النقاد المسرحيين. الذين كان الشاعر الرصين، الذي يعرف كيف يدير أعماله لتكون موفقة حتى في اشد أحواله اضطرابا، سيرجعهم بسيارته الخاصة إلى روما. وهنالك طفق اعظم أولئك النقاد مقدرةً، وأبعدهم صيتاً، ينقد الرواية نقداً وجيهاً. مسهباً، ويمتدحها في غير تحفظ ثم أخذ يبين كيف كان يضعها لو عهد إليه بتأليفها. ولكنه لم يكد يدرك نقطة التدليل على سداد رأيه ببرهان جليل من علم الجمال حتى تحول عنه (مارك سيريني) ولم يعد يكترث به. وبأروع جمله. . .

حدث حادثان عظيمان. . . ظهرت عروس أحلامه. ومن ورائها أمها. تخطر وتتهادى في ذلك الزقاق الضيق. متجهة نحو الساحة الكبرى. ولم يكد يتميزها تماماً حتى كان أحد أصدقائه الفلورانسيين. قد هرع إلى السيدتين. ورفع قبعته لتحيتهما. . . وقد لبث يتحد إليهما زهاء عشر دقائق. كاد (سيريني) ينفجر أثناءها. . . وقد انفجر. . . واخذ يطلع الجميع على سره: (هل تريدون أن تعلموا أصررت على أن تمثل رواياتي لأول مرة في (بونتاسياف)؟. . . إذن فاعلموا. إني لم افعل ذلك إلا من اجل هذه السيدة. التي أهيم بها هياماً جنونياً!).

وبكلمات قليلة أطلعهم على كل شيء. أطلعهم على قصة غرامه منذ وقوف سيارته تحت نافذتها. حتى انتظاره إياها في الليلة السابقة إلى ما بعد منتصف الليل بساعتين! وكانت ترتفع عبارات الدهشة. والاستغراب. من ههنا وههنا. وكانت ترافقها في بعض الأحيان تعليقات مختلفة متضاربة. ورغم هذا كله ومع إن سيدة النافذة كانت ما تبرح تتحدث إلى (جيورجيني) صديقه الفلورانسي فأنها لم تلتفت إلى جهتنا قط. . . ولكن لا. . . لقد جادت علينا بنظرة قصيرة عندما لفت (جيورجيني) نظرها إلينا.

اخذ (سيرين) يلاحظ الأم. كانت تحمل عددا من مجلة (الليستراسيون) وكتاباً للصلاة تحت إبطها. . . وقد فتحت المجلة وارت صديقنا صفحة فيها. لم يملك أن يكتم دهشته على أثر النظر إليها

- هي تريه رسمي بكل تأكيد!. . . ولكن. . . لماذا يبدي (جيورجيني) هذه الدهشة.

وفي هذه اللحظة تماما، هز الفلورانسي يدي السيدتين، ورفع قبعته لتحيتهما وودعهما، واتجهت السيدتان، دون أن تلتفتا إلى جهتنا نحو الكنيسة. . .

وعاد (جيورجيني) إلينا مسرعا، ولكن (مارك) كان قد أسرع لمقابلته، وسؤاله:

- من هي؟؟؟

- مدام (ازوري). . . عرفتها وهي طفلة في مدينة فلورنسا

- وماذا قالت لك؟

- لم تقل لي شيئا ذا أهمية!!!

- إذا لماذا نظرت إلي؟

- لم تنظر إليك قط!!!

- إني أؤكد لك إنها نظرت إلي . . .

قال مارك ذلك. واحتد. . . فذكر (جيوجيني)، وبعد مدة

- ها. . . ربما كان ذلك عندما سألتهما إذا كانتا ترغبان في التعرف إلى (مارك سيريني). . .

- وهي. . . ماذا. . . ماذا قالت؟

- لم تقل شيئا!!

- كيف لم تقل شيئا؟. . . هذا محال!. . . تكلم!. . . تكلم!. . . تكلم. . .

- إني أستميحك عذرا يا (سيريني) من اطلاعك على جوابها!. . . إني لا أجد في نفسي الجرأة الكافية لذلك!!!. . . إني لا يسرني أن أسمعك ما لا يسرك!!!!

- قل!!!. . . قل!!!. . . قل وإلا سحقتك!!!

أما نحن، فقد كنا في غاية الدهشة، والاستغراب. . . و (جيورجيني) المسكين لم يك يفهم سببا لهياج الشاعر وثورته، وكان كلما شدَّد المؤلف عليه النكير، أزداد هو جموداً واضطرابا

- قلت لهما: هل ترغبان في التعرف إلى (مارك سيريني). . . هذا هو!. . . فنظرتا إليك. . . ولكن. . بعد ذلك. .

- ماذا بعد ذلك؟؟؟. . قل. . . تكلم. .

- . . .وبعد ذلك. . . وبعد ذلك سألتني
- ماذا سألتك؟؟
- سألتني. . . سألتني: ومن هو (مارك سيريني)؟؟
!!!يا للصاعقة
كان (سيريني) واقفاً، فهوى على كرسيه متهالكا، ثم قال بصوت ضعيف:
- وأنت، ماذا أجبتها؟
- لم اجبها بشيء. . . فقد تذكرت وقالت: (آه. . . أجل. . . أليس هو (مارك سيريني) مؤلف الأوبرا التي مثلوها مساء البارحة؟)
- . . .!!!(الأوبرا) . . .!!!(الأوبرا)
- إن التعبير غريب، أليس يسمون كذلك؟ ولكن ينبغي أن نتلمس لها عذراً، لأنها ريفية. . . .وسكان الريف يسمون كل شئ يمثل في لغتهم (أوبرا)
- ولكن. . . قل لي. . . (استطرد (سيريني) بصوت يكاد لا يسمع). . . قل لي، هل ذهبت على الأقل لمشاهدة (الأوبرا)؟
- كلا!!! لم تحظر التمثيل. . . لقد سألتها ذلك. . . لم تحضره لان زوجها مسافر. . . ومن جهة ثانية ليس لها رغبة في مشاهدة الروايات التمثيلية. إذ لديها ما يشغلها عن ذلك من الأعمال البيتية. . . لقد اعترفت لي بذلك. . . وقد اصبح لها ثلاثة أولاد فأنى لها ذلك؟؟؟
اخذ يردد (مارك) في نفسه. كيف لم تذهب؟. وكلمة (أوبرا) كادت تسحقه. . . ثم التفت إلي: (أوبرا). . . (أوبرا) أهذا يصدق؟؟؟
وعرض له خاطر آخر فسأل (جيورجيني)، ولكن. . . لماذا أرتك رسمي؟
- رسمك؟. . . أي رسم؟
- آه!. . . هل أصبحت أنت أيضاً (خبيثا)؟ لقد أرتك رسمي. . . أرتك إياه. . . إني موقن من ذلك!!! أولم تفتح لك الأم مجلة (الليستراسيون)؟؟؟
- مجلة (الليستراسيون)؟. . . آه. . . هذا صحيح. . . تذكر (جيورجيني). . . ولكنها لم تريني رسمك!!!. . . لعل من المستحسن أن أعلمك، بان زوجها مسيو (ازّوري) كيماوي، وبكلمة اصح، صيدلي، وقد اخترع في المدة الأخيرة حبوبا تقوي نهود النساء متى ما بلغن سنا معينة، وهو يحسب انه سيكسب بذلك الملايين، ولو سمعت السيدتان تتحدثان عن هذه الحبوب، لأيقنت إنها حبوب عجيبة جدا، ولقد أرتني الأم الإعلان الذي نشرته مجلة (الليستراسيون) عنها، وهو إعلان طريف، يصور الإلهين (جينون) و (فينيس) يتشادان من شعورهما وهما يتنازعان علبة من هذه الحبوب التي دعاها الصيدلي: مجددة الشباب!!!
- 7 -
كان هذا الحديث ضربة قاضية على آمال (سيريني) وأحلامه فارتمى على كرسيه خائراً، مضعضعاً، وأشار إلى (جيورجيني) بيديه، ألايتابع حديثه، وألا يعود إليه. . . أما نحن، فقد كنا غارقين في صمت رهيب، لا يعدله غير صمت المقابر، ولا أضنني بحاجة لأن أعلمكم، بان الدعوة وقفت عند هذا الحد، وان المدعوين عادوا إلى فلورنسا عادوا إليها ليتناولوا الطعام في مطاعمها.
وقد تناولت الطعام مع (سيريني) في مطعم (ميليني)، وإذا الشاعر قد أضاع رشده، وفقد صوابه، وأعاد النقاد المسرحيين بالقطار إلى روما. . .
ولما فرغنا من الطعام، جعلنا نتناول الفاكهة، وإذا به ينفجر:
- أرابت؟. . . لقد صادفت في حياتي انتصارات واندحارات عديدة، ولكني لم اشعر في حياتي على أثر اندحار، بالخجل القاتل الذي تركه في نفسي انتصار البارحة كلا! لم اشعر قبل اليوم بمثل هذا الخجل السام!!!
- إن الألفي شخص الذين أطاعوا هواي، وتسابقوا إلى (بونتاسياف) لمشاهدة روايتي الحديثة، وتحيتها بأعاصير داوية من الهتاف والتصفيق. . . والجرائد الصافحة بالتقاريظ والانتقادات الفخورة بنشر اسمي ورسمي. . . والسياحة الموفقة التي ينتظر أن تصادفها فرقتي. . . وبرقيات التهنئة التي ما برحت تتقاطر علي من كل حدب وصوب. . . إن كل ذلك يا صديقي قد تلاشى واندثر!!!
ولإطفاء هذا اللهيب. . . ولإحداث الظلام بتلك الأضواء، لم تتكبد تلك الريفية التي كنت

احسب إنها تعجب بي إعجابا، لا يعد التأليه بجانبه شيئا مذكورا. . . لم تتكبد مشقة كبيرة. . . إنما كفاها أن تسال ذلك الأحمق (ولكن من هو مارك سيريني؟)
كم يبدوا لنا العالم كبيرا. وكم هو صغير!!! إن اعظم العظماء، إذا خرجوا عن دائرة بضعة آلاف شخص، يصبحون مجهولين، لا يعرفهم أحد، ولا يأبه بهم أحد!!!
انظر هذه جريدة (لاناسيون) قد شغلت اكثر من نصف صفحة بالحديث عن روايتي، وهذا اسمي قد كتب فيها بحروف بارزة على أربعة عواميد. . . ويخيل إليك بعد ذلك إن جميع الناس أصبحوا يعرفون هذا الاسم، بل ربما ظننت انه ينبغي لهم بعد ذلك أن يعرفوه. . . ولكن الحقيقة هي إن لا أحد يتذكره، عندما يقلب الصفحة. . هو ذا الجارسون يتأهب ليقدم لنا القهوة، وهو قد طالع جريدة هذا الصباح، ادعه واسأله. من هو مارك سيريني)؟. . . إني أراهنك على زجاجة شمبانيا: انه سيسخر منك، وسيفتح لك عينين كبيرتين دهشتين.
إلا إن (مارك) لم يقدم لي شيئا من الشمبانيا، لأني أحسنت صنعا بعدم دعوة (الجارسون)، ولكن المؤلف لم ينقطع عن الشكوى والتذمر، وأخذ ينعى على نفسه جهوده الضائعة، ولم يتردد عن لصق بعض الوصمات بنفسه، لأنه زرع بذورا قوية من العمل الدائم، ليحصد
بعد ذلك الموقف المزري الذي تقفه بلاده العاقة من نبوغه وعبقريته!!!
وأخيرا دعونا (الجارسون) لندفع له الحساب، وبينما (مارك) يعيد محفظته إلى جيبه، ابتسم الجارسون، وقال وهو يلتقط البقشيش:
- عفواً. . . ألم أحرز الشرف بخدمة (مارك سيريني)؟
فانتفض هذا الأخير وقال:
- وكيف عرفتني؟
- لقد أبصرت اسمك هذا الصباح منشورا في مجلة (الليستراسيون) وذهب يبحث عن العدد. ولم يلبث أن عاد به. وفتحه عند الصفحة التي نشر فيها رسم (سيريني) جديد بمناسبة تمثيل روايته الحديثة في (بونتاسياف) فنظرت أنا و (مارك) إليها. ولحظنا فجاء على الصفحة اليمنى. إزاء الرسم المنشور على الصفحة اليسرى تماما. أبصرنا يا لسخرية الصدف! أبصرنا (جينون وفينيس) يتنازعان علبة من الحبوب المجددة للشباب!!!
فخرج (مارك) من مطعم (ميليني) وقد هدأت أعصابه، وسكنت نفسه
هل ينبغي تهنئة (الجارسون) لأنه عرف (سيريني)؟. . . هل ينبغي تخطئة سيدة النافذة لأنها لم تعرفه؟
كلا أيها الأصدقاء! إن سيدة (بونتاسياف) الفاتنة قد ألقت علينا درساً مفيداً، ومفيداً جداً: ينبغي علينا أن ندير الاركستر وان نضع الروايات لا لغيرنا، بل لأنفسنا!!!
أما الشهرة، فهي كلمة جوفاء أيها الأصدقاء الذين أرادوني على الكلام كثيرا. الشهرة؟. . . كلمة لا أفكر فيها عندما أشير بعصاي اللدنة إلى أعضاء الاركستر. . . وهي الكلمة التي لم يعد (سيريني) يفكر فيها عندما يأخذ اليراع ليضع رواية جديدة. . . تمت
حلب. ايزاك شموش

قصة مصرية

سفروت الحاوي

كان بمدينة بور سعيد رجل اسمه (سفروت الحاوي) يتردد على المقاهي فيعرض ألعابه السيماوية وحيله السحرية على الجالسين لقاء ما يجودون به عليه، وكان سفروت هذا لبقاً فكه الحديث سريع الخاطر قلما يخلو له أسبوع من حيلة جديدة، وبذلك اكتسب رزقا حسده عليه بنو مهنته.
وأهالي بور سعيد كما يعلم القراء اشتهروا بأنه قلما وجد لسان في شرق الأرض أو غربها لم يلموا منه ببعض مفردات. ولكن سفروت هذا فاق أهل بلده في ذلك فقد وهبه الله هبة اللغات فكان يتفاهم في لغتين، ويشرح حيله ويطلب أجره في تسع لغات.
كان سفروت رجلا طويل القامة نحيلا أسمر اللون، زينت له أمه أذنه اليمنى بحلقة فضية لأنه عاش لها بعد خمسة ماتوا في طفولتهم. وكان يسر في جلباب من السكرونة عليه معطف طويل محشو الجيوب وينادي بصوت طلق قوي:

أنا سفروت الحاوي، أنا الحاوي سفروت، اطلع البيضة من الكتكوت، جلا جلا جلا جلا) جلا ويترجم ذلك أو شبهه إلى ألسن مختلفة بينما (يفنط) أوراق اللعب بين يديه بمهارة نادرة.

وأغنى الله سفروت الحاوي جزاء استقامته وذكائه واقتصاده فجلب من ألمانيا لعباً سيماوية ثمينة واتخذ له صبية وسيمة الوجه جذابة القد أسمها بهية، وانتشرت شهرته بين أصحاب المقاهي والملاهي في بور سعيد فاستأجروه لإحياء ليال خاصة أدرت عليه وعليهم الربح الكثير.

وزاد طموح سفروت فبدل ثوبه الوطني ببدلة سوداء على مثال أبناء حرفته الغربيين، وأرسل شعره طويلا قائماً، واتخذ لنفسه لقب (بروفيسير)، ثم انتقل إلى القاهرة يشتغل بها في موسم السواح، ويتركها إلى الإسكندرية وغيرها من المصايف في موسم الحر.

كان سفروت كعادة الحواة يبدأ ألعابه بالمألوف من الحيل مثل كسر البيض ووضعه في إناء أمام النظارة، ثم إخراجه صحيحاً من آذانهم، ويتدرج من ذلك إلى الصعب العجيب مثل أكل الخرق البالية وقصائص الورق، وإخراجها من فمه أعلاما للدول المختلفة وهكذا حتى ينتهي إلى أصعب ألعابه وهي لعبة صندوق الإخفاء الألماني العجيب الذي اشتراه بمبلغ كبير.

وأمر هذا الصندوق يظهر غريبا للمتفرجين، وبيانه إن سفروتا يأتي ببهية فيقيدها بالسلاسل والأغلال ويضعها في صندوق أمام المتفرجين، كان قد طلب إليهم فحصه قبل ذلك.

ويوصد الحاوي الصندوق بالأقفال ويربطه بالأحبال ويقف عليه، فيكفهر وجهه، ويقف شعر رأسه، ويتمتم ويتلو تعاويذ سليمان على الجن الحمراء، ويأمرهم سفروت أن يحولوا جسم بهية إلى المادة الهيولية. عندئذ يتصاعد من الصندوق بخار أحمر فينزل الحاوي عنه ويفتحه فلا ترى أثراً للفتاة فيه. ويقفل سفروت الصندوق ثانية، ويقف عليه فيكفهر وجهه ويقف شعر رأسه، ويدعو سليمان فتحضر الجن ثانية، فيأمرهم أن يسترجعوا جسم بهية، وينزل الدخان الأحمر من سقف المسرح ويفتح الحاوي الصندوق فإذا ببهية في أصفادها كما كانت.

حدث ذات مرة في موسم (رأس البر) أن تعاقد مدير فندق كبير مع (البروفيسير سفروت) على إحياء سبع ليال لتسلية المصيفين مقابل أجر طيباً فأمر الحاوي أن يبني له مسرح خاص في ردهة الفندق الكبيرة، وبدأ لياليه كالعادة، حتى كانت الليلة الثالثة ففي هذه الليلة بعد أن انتهى من لعبة الصندوق وبينما كان يجمع أدواته من المتفرجين ويعطيهم ما كان قد استعاره منهم أثناء الحفلة أعترضه رجل قصير القامة، بدين الجسم، يلمع العرق على وجهه الأسمر الأصفر، رجل من أقباط الصعيد في زعبوط أسود وعمامة سوداء يخاله الناظر من تجار الكسبة أو العجوة.

تقدم الرجل من سفروت خجلاً متردداً فقال: (نكتة اللعبة دي!. . . نكتة تمام يا أخينا).

فوافق سفروت على قول الرجل ببرود وأدب مصطنع، ثم مضى إلى غيره، ذلك أن الناس كثيراً ما كانوا يأتون إليه بعد الحفلات يخبرونه أنهم يعلمون سر ألعابه أو أن ما فعله قد رأوه منذ سنوات أو ليلحوا عليه كي يعلمهم السر في حيلة أعجبتهم إلى غير ذلك من سخف كثيراً ما سايرهم فيه أو صرفهم عنه بسحرية غير جارحة، إذ لم يكن من الكياسة أن يجفو لهم في القول وعليهم مدار رزقه.

وتبع القبطي الحاوي وهو يردد في شيء من الذهول: نكتة جوي والله عبارة الصندوق دي!. . . . نكتة جوى. (فقال سفروت مستهزئاً! (إذا كان أعجبك فلم لا تشتري لك واحداً يا معلم! فلم يدرك الصعيدي أن الحاوي يهزأ به إذ كان يفكر في أمر ملك عليه انتباهه.

انتهى سفروت وخرج كعادته يتمشى على شاطئ البحر ليريح نفسه من عناء العمل وليستنشق هواء الليل قبل أن يذهب إلى فراشه فإذا بالقبطي يقتفي أثره ويبادر بحديث الصندوق.

_ لا تؤاخذني يا حضرة. . . . أنا عاوز أكلمك، أنت أولاً أسمك إيه؟

_ خدامك سفروت

_ عاشت الأسامي يا سي سفروت. . . . تعرف ياسي سفروت عبارة الصندوج دي

مش نكته جوى جوي برده!
- إياك أنت تكون اهتديت لسرها بنباهتك من ساعة ما سبتك؟
_ لألأ! مش غرضي.
وأدرك سفروت من لهجة محدثه أنه يحاول أن يكتسب صداقته؛ وكانت الليلة مقمرة، فلما نظر رأى عيني القبطي تلمعان بانفعال غريب فحدثته نفسه (ماذا يريد هذا الرجل مني؟) ولكن محدثه قطع عليه تفكيره.
- بجه مش تفتكر أن تخيبة المرة اللي معاك دي يخصر اللعبة بعض شيء؟
- برده يا خواجه لك حق، لكن يعني أمال حخبي مين؟
- ليه ما تخبيش واحد من المتفرجين؟ أهو ده يكون نكته تمام.
وأندهش سفروت من هذا الاقتراح الشاذ وأجاب ساخراً
- يبقى نكتة أوي إذا كان واحد يرضى يوالس معايه! طبعاً إذا كنت أنت متطوع يبقى كويس. دا حتى ما يبقاش فيه فائدة للصندوق. الزعبوط بتاعك ده كفاية أوي، الزعبوط ده يخبي دستة. ثم ضحك مقهقهاً.
- ما تآخذنيش يامعلم! أنا راجل أحب الهزار.
- ولكن الرجل الغريب الأطوار تجاهل وقاحة الحاوي أو هو لم يسمعه فقد نظر حوله كمن يريد أن يستوثق من عيون رقيب، ثم أدنى فمه من أذن محدثه هامساً. اسمع! أنا راضي، أنا أتفق وياك. وتلفت حوله في انفعال عصبي ووضع يده في عبه وأخرج منها محفظة نقوده فاخذ ورقة ذات خمسة جنيهات وهو يهمس.
- ما تفتكرشيبا سي سفروت أني مجنون، يمكن أطواري تظهر غريبة لك شوية، لكن أنا
مش مجنون. أنا عاوز أتعلم اللعبة دي، وآدي خمسة جنيه علشان تعلمهالي ونعملها بكرة سوى قدام الناس وساور الحاوي الشك في سلامة عقل الرجل، ولكن المال أغراه فبينما هو يقلب الأمر على وجوهه إذا صوت إمرأة يرتفع في وحشة الليل حوله.
- بولص!! بولص!
ونظر سفروت فإذا المرأة طويلة هزيلة في حبرة سوداء مقبلة عليهما.
وارتبك الرجل القبطي ارتباكاً واضحاً وظهر عليه الخوف، فقال مسرعاً:
- اسمع! دي مراتي أنا لازم أروح. أنا لازم أروح حالا. أنت اتفقت ولا لأ؟ فأخذ الحاوي الورقة من يد الرجل قائلاً:
- مادمت أنت عاوز كده مفيش بأس.
- يمكن تقابلني بكره الساعة تسعة الصبح علشان تعلمني؟
فرضي سفروت وانصرف الرجل إلى زوجته مسرعا كأنما هو يحرص أن لا تكشف عن صفة محدثه.
وفي اليوم التالي في الساعة المحدودة قابل الحاوي بولص وعلمه كيف يهبط قاع الصندوق مع الجزء الذي تحته من خشب المسرح بالضغط على زر خفي بأحد جوانبه، وكيف يفك أغلاله ويربطها بعد ذلك وكيف يرفع القاع إلى ما كان عليه.
وكان بولس برغم بدانته، وغرابة أطواره، وزعبوطه، ذكيا سريع الفهم تعلم في وقت قصير وأتقن اللعبة إتقان صبية الحاوي.
وكانت الحفلة في المساء وقام سفروت بألعابه كعادته الا انه كان كلما نظر إلى بولص رأى عينيه شاخصتين نحوه كأنما يربطهما بالحاوي خيط، فشعر بوساوس مقلقة وتوترت أعصابه وترك بهية تقوم بدور لا تحتاج فيه إليه فانسرق إلى البار وشرب بعضاً من الوسكي ثم رجع يعاود ألعابه.
وأتى دور الصندوق ولسفروت من حدة الذهن وجرأة الخمر ما ألهمه هذه الديباجة:
اعمل أمام حضرتكم الليلة أيها السيدات والسادة، ما لم يعمله حاو في العالم أجمع لا قبلي ولا بعدي، فإرضاء لزبائننا الكرام اتصلت قبل الحفلة بخادمي من الجن الأحمر المدعو جنجلوت. . . لا تضحكوا أيها السيدات، نعم، خادمي جنجلوت الخفيف الذي سخره لي
سليمان. وبعد الجهد الجهيد أيها السيدات والسادة رضى جنجلوت أن يأخذ أحد حضرات المتفرجين هذه الليلة ويحوله إلى المادة الهيولية ويصطحب روحه في نزهه سماوية.

من منكم أيها السيدات والسادة يحب أن يخاطر هذه المخاطرة؟ من عنده الشجاعة والإقدام؟. . . ألو ألو. . . الا أونا الا دوه. . . دقيقتين فسحة بين الكواكب يا سيدتي الو؟. . . حضرتك؟ لا؟ طيب تعالي أنت يا ست يا أم برقع، لأ؟ طيب بلاش لأ يا سعادة البيه، انت ثقيل شويه على جنجلوت أنت يا أفندي يا صغير؟ بقي ما فيش حد يجبر بخاطر جنجلوت الجني الخفيف الضريف؟ ألو الو ألا أونا الا دوه. . . ما فيش في الصالة واحد شجاع.

وظل المتفرجون بين ذلك يضحكون ولكن سرعان ما اعتراهم الصمت والدهشة إذ رأوا أحدهم يرتقي المسرح فعلا، وفي هذا السكون ارتفع صوت المرأة ذات الحبرة السوداء كما ارتفع في وحشة الليلة الماضية.

- بولص!!! بولص بولص!!! ارجع هنا.

صوت وحشي جهوري تفضح نبراته قسوة قلبها وأنانيتها. وتبينت أغلبية أهل الفندق بولص تاجر الصعيدي المتيسر والرجل الصامت المنعزل مع زوجته القبيحة، دائماً في شرفة الفندق الغربي. وتهامسوا فيما بينهم يرقبون بدهشة ما يحدث، وهابت نفوسهم إذ رأوا شبه جنون في عيني الرجل ورأوا العرق يتصبب غزيرا من وجه الأسمر الأصفر. ولكن سرعان ما وجدت أنظار الخلعاء ما يثير الضحك في هيئة الرجل التعس، فنادى أحدهم ما تخافيش يا ستي ده المعلم بولص يخوف العفاريت ونادى آخر.

- حاسب يابولص لا الجن يركبك وقال ثالث: ما تتطرفشى يا معلم في السماء لحسن عزرائيل يشوفك.

وغير ذلك مما تقهقه له الجماهير ولا يكاد الفرد يبتسم له. وكررت المرأة أنا بأقول ارجع يا بولص. فلم يكن بذلك من أثر سوى إسراف الناس بالضحك.

قيد الحاوي بولص بالسلاسل والأغلال وأقفل الصندوق بالأقفال والحبال ووقف عليه واكفر وجهه ووقف شعر رأسه وتمتم وهمهم وحضرت الجن وتصاعد البخار الأحمر فنزل عن الصندوق وفتحه فوجده فارغاً كما يجب. حدث ذلك طبعاً بين قهقهة الناس وهتافاتهم.

واقفل سفروت الصندوق ثانية الخ. حتى نزل الدخان الأحمر من سقف المسرح، فرفع الغطاء ولكن بولص لم يرجع إليه! ارتبك الحاوي واقفل على عجل قائلا لنفسه (ربما لم أعطه الزمن الكافي) وشغل المتفرجين بلعبة أخرى بسيطة برهةً ما، ثم فتح الصندوق ثانية ولكن الصندوق بقي فارغا.

أدركت النضارة عدم وجود بولص فارتفع همسهم إلى ضجيج وتساءل البعض صائحا: فين المعلم بولص؟: أوع ليكون اختنق الرجل في الصندوق الخ الخ. .

فتحدث إليهم سفروت بحضور ذهنه المعتاد عن صعوبة رجوع بعض الأجسام من اللامادة إلى المادة، وخصوصا أجسام أهل الصعيد، حتى إذا استوثق انه أعطى الرجل ما يكفي من الوقت فتح الصندوق ثالثة ولكن بغير جدوى!!

لغط الناس وهاجوا وتسابق الشباب منهم يفحصون الصندوق ويعبثون بأدوات الحاوي، الذي أسرع إلى تحت المسرح يبحث عن بولص بغير نتيجة، وعلم مدير الفندق أيضا بالخبر فجزع وأرسل رجاله يبحثون. ولما رجع سفروت إلى الردهة اندفعت إليه المرأة ذات الحبرة السوداء اندفاع الأعاصير في أمشير وقد بلغ منها الغضب أشده.

- ازاي يعني تأخذ راجل طويل عريض تحويه! هي الدنيا سايبه ولا ايه!؟ مسخرة وقلة أدب!!

- يا ستي بس اهدي شوية دلوقت ايبان.

- يبان؟ أنا عاوزة جوزي دلوقت حالاً.

- هو أنا قلت له تعالى، ما هو هو اللي جه من نفسه.

- أبدا أنت حويته أنت راجل متختشيش.

الكتب

شعر ونثر

وحي الأربعين. للأستاذ عباس محمود العقاد

ثورة الأدب. للدكتور محمد حسين هيكل بك

عليّ دين ثقيل للأستاذ العقاد حيل بيني وبين أدائه إلى الآن. ويظهر أني لن أستطيع أن أؤديه جملة فلا بد من تأديته أقساطا. فبين يدي كتب ثلاثةقرأتها وأعجبت بها ولي فيها

آراء وأحب أن أذيعها. وهي كتاب الأستاذ عن ابن الرومي وكتابه عن جوت وديوانه الأخير وحي الأربعين.

ولسست ادري لماذا آثرت أن يكونقضائي لهذا الدين عكسيا فابدأ بآخر هذه الكتب الثلاثة ظهوراً. ولعلي إنما آثرت البدء بوحي الأربعين لأنه شعر، ولأن الوقوف عند الشعر والشعراء عذب لذيذ للكتاب الذين لا يحسنون قرض الشعر. فهم يجدون في قراءته ونقده وتحليله لذة لا يجدونها في قراءة النثر ونقده وتحليله. ولعلي إنما آثرت البدء بهذا الديوان لأن نقده أيسر من نقد الكتابين الآخرين. أيسر علي، وأيسر على الشاعر الكبير نفسه. فلن يكون بيننا جدال طويل ولا قصير. ولن نحتاج إلى أن نرجع إلى كتب الأدب والتاريخ لنثبت رأيا أراه ويخالفني العقاد فيه أو رأياًيراه العقاد ولا أقره عليه. وإنما هي آراء وخواطر تثيرها فينفسي قراءة هذا الديوان وسأعرضها على العقاد وعلى قرائه الذين نقدوه والذين قرظوه دون أن أحاول أن أفرضها على أحد فرضا أو أن أتعصب لها أو أن أجادل عنها. ودون أن يكون للعقاد وأنصاره وخصومه أن ينكروا هذه الآراء أو يجادلوا فيها لأنها آراء تتصل بالذوق وتتصل بمزاج الكاتب وطبيعته وتأثره بالفن الجميلأكثر مما تتصل بالحقائق المقررة أو الأمور التي يكثر فيها الجدال والنضال.

وما أظن أن أحدا يطمع في أن يفرض علي ذوقا غير ذوقي أو طبيعة غير طبيعتي أو تأثر بالفن الجميل غير تأثري به لمن شاء أن يرضى ولمن شاء أن يسخط وأنا أوثر بالطبع رضى الناس على سخطهم ولكن إيثاري لهذا الرضى شيء وظفري به شيء آخر.

ولعلي آخر الأمر إنما آثرت البدء بهذا الديوان لان كلام الناس قد كثر فيه ولأن جدالهم قد أشتد من حوله ولأن نقاده قد غلوا حتى جاوزوا القصد وأنصاره قد أسرفوا حتى جاروا عن

الحق فأحببت أن أقول في هذا الديوان كلمة، لا أقول أنها تقر الأمر في نصابه، وترد المختلفين إلى الوفاق، فليس إلى ذلك منه سبيل. ولكنها قد تصور رأى جماعة من المنصفين الذين لا يرضون عن آثار العقاد ولا ينكرونها لأنهم يغلون في حب العقاد أو يغلون فيبغضه، بل لأنهم ينظرون إليها من حيث هي آثار فنية خالصة تلائم أذواقهم أحيانا فيرضون، وتنافر أذواقهم حينا فينكرون. ومن حق هؤلاء الناس أن تصور آراؤهم وتظهر مذاهبهم في آثار كاتب مهما يقل فيه خصومه، فلن يستطيعوا أن ينكروا عليه البراعة، وشاعر مهما يقل أعداؤه فلن يستطيعوا أن يجحدوا حظه من الاجادة، وتوفيقه إلى شيء كثير جدا من الإبداع.

وأريد أن أقف وقفة قصيرة عند هذه الصفحات التيقدمها العقاد بين يدي ديوانه هذا لأقره في غير تحفظ، على ما ذهب إليه فيها من إن بين المجددين قوما يقلدون في التجديد، فيخطئون الفهم ويعدون الصواب ويتورطون في أحكام على الشعر والفن، لا خطر لها ولا غناء. وأن أقره أيضا في غير تحفظ على ما ذهب إليه في هذه الصفحات من أن للشاعر المجدد أن يطرق الفنون التي طرقها القدماء دون أن يمس ذلك تجديده أو يغض ذلك من براعته، بل قد يكون من الحق عليه أن يطرق هذه الفنون فيجددها ويبعث فيها حياة ملائمة للعصر والبيئة ولميول الجيل الذي يعيش الشاعر فيه.

فليس المدح عيبا من حيث هو مدح، وليس المدح فنا يجب أن يموت وإنما المدح فن من فنون الشعر لا بد من بقائه ما بقي الشعر، وما بقي بين الناس من يجيد ويحسن، وما بقي بين الناس من يرضى عن الإجادة ويحمد الإحسان للمحسنين. والهجاء فن من فنون الشعر لابد من أن يبقى ما بقي في الناس من يسيء وما بقي في الناس من يحب نقدا المفسد وتقويم المسيء. وقل في مثل ذلك في غير المدح والهجاء من هذه الفنون التي طرقها القدماء من العرب وغير العرب لا ينبغي أن تزول ولا أن تهجر، وإنما ينبغي أن تتطور لتلائم غيرها من أساليب الحياة العقلية والفنية التي يحياهاالناس على اختلاف البيئات والعصور.

ولكني وقفت مفكرا بعض الشيء عند هذا التعريف الذي أراد العقاد أن يعرف به الشعر حين يقول:

(وان من أراد أن يحصر الشعر في تعريف محدود لكمن يريد أن يحصر الحياة نفسها في تعريف محدود، فالشاعر لا ينبغي أن يتقيدالا بمطلب واحد يطوي فيه جميع

المطالب، وهو (التعبير الجميل عن الشعور الصادق) وكل ما دخلفي هذا الباب، باب التعبير الجميل عن الشعور الصادق، فهو شعر وان كان مديحا أو هجاء أو وصفا للإبل والأطلال وكل ما خرج عن هذا الباب فليس بشعر وان كان قصة أو وصف طبيعة أو مخترع حديث).

فالشعر عند العقاد كالحياة ليس إلى حصره ولا إلى تحديده من سبيل، أو هو كالحياة يحصر ويحدد إذا أمكن حصر الحياة أو تحديدها. ولكن العقاد بعد ذلك يعرف الشعر بأنه التعبير الجميل عن الشعور الصادق وهو بهذا التعريف نفسه قد حدد الشعر وجعله أضيق من الحياة. فليست الحياة كلها تعبيرا جميلا عن شعور صادق بل في الحياة شعور غير صادق يعبر عنه تعبير غير جميل، وفيها شعور كاذب يعبر عنه تعبيرا جميلا، وفيها شعور صادق يعبر عنه أحيانا تعبيراً جميلا وتعبيرا غير جميل. وإذا فليس الشعر كالحياة لا سبيل إلى حصره بل ليس الشعر كالحياة يحصر كما تحصر الحياة ويحدد كما تحدد الحياة. وإنما الشعر لون من ألوان الحياة وتحديده ليسمستحيلا ولا عسيرا وآية ذلك أن العقاد نفسه قد حاول هذا التحديد فعرف الشعر بأنه التعبير الجميل عن الشعور الصادق وجعل كل ما يدخلفي هذا الباب شعرا مهما يكنجوهره وكلما يخرج من هذا الباب لم يجعله شعراً مهما يكن شكله وصورته وموضوعه.

وأظن إن العقاد لم يوفق في هذا التعريف فماذا أراد بالتعبير الجميل اهو المنظوم أو المنثور؟ أم هما المنظوم والمنثور معاً؟ فان تكن الأولى فقد يدخل في تعريف الشعر من الكلام ما ليس منه وإن تكن الثانية، فقد يخرج الشعر المنظوم كله من هذا التعريف، وإن تكن الثالثة فكل كلام جميل يصف شعورا صادقا فهو شعر. وإذا ففيما تقسيم الكلام إلى شعر ونثر؟. سيقول العقاد إن هذا التقسيم قديم لا غناء فيه ولكن العقاد نفسه لم يسم نثره شعرا ولم يطلق لفظ الديوان الا على كلامه المنظوم. ووحي الأربعين فيما اعلم نظم كله لا نثر فيه الا الشرح والتفسير. فالتعريف إذا من هذه الناحية بعيد كل البعد عن الدقة التي يعرف بها العقاد. ويزداد هذا البعد إذا توسعت بعض الشيء في معنى التعبير الجميل، والموسيقى تعبير جميل، والغناء تعبير جميل. فكل فن جميل إذا، فهو شعر، وهذا كلام يقوله الكتاب حين يتجوزون أو حين لا يحرصون على التحقيق. فأما إذا أرادوا الإصابة والدقة فلا بد لهم من أن يلاحظوا فيه الوزن والقافية أو الوزن دون القافية أو الانسجام الموسيقي على كل حال. وهذا الشعور الصادق ما هو وما عسى أن يكون وهليطمئن العقاد حقا إلى أن كل ما يصفه الشعراء فيجيدون وصفه إنما هو نتيجة لشعور صادق حقا، أليس من الشعراء من يجيد الوصف لطائفة من العواطف، لا يجدها ولا يشعر بها شعورا صادقا وإنما هو يعرفها ويحسن معرفتها ويواتيه الفن فيجيد وصفها ويعبر عنها تعبيراً جميلا. وأظن العقاد يوافقني على إن المعرفة الجيدة شئ والشعور الصادق شئ آخر. والعقاد يعرف من غير شك هذا المثل الذي ضربه ارسطاطليس لبراعة الشعراء في التناقض وهو مثل بندار حين طلب إليه أن يمدح بغلا ولميعجبه الأجر، فاستكبر وذم البغل. فلما ضوعف له الأجر، جعل هذا البغل فرساً ذات جناحين. ومن المؤكد أن بندار لم يكن يشعرشعورا صادقا لا بمحاسن هذا البغل ولا بعيوبه وإنما كان يعرف هذه المحاسن والعيوب، وأعانه فنه فصورها تصويرا بديعا.

وكلنا يعلم إن الشعراء والخطباء يروضون أنفسهم على مدح الشيء وذمه، فيجيدون في المدح والذم جميعا ويعبرون عنهما تعبير جميلا دون أن يكون شعورهم بها صادق من غير شك، أو كاذبا من غير شك، وإنما هي البراعة الفنية الخالصة. وإذا فصدق الشعور قد يكون مزايا الشعر ومحاسنه، ولكنه لن يكون ركنا من أركان الشعر ولو قد جعلنا صدق الشعور ركناً من أركان الشعر لأسقطنا أكثر الشعراء من تاريخ الأدب في جميع اللغات. ولم يخطئ القدماء حين قالوا أن أعذب الشعر أكذبه. ولم يخطئ ارسطاطليس حين أباح للشعراء ما لم يبح للخطباء من الإسراف والإغراق. فلا بد إذا من ان يحقق العقاد تعريفه هذا للشعر ومن أن يحقق جزأيه جميعاً. ومع ذلك فهلل يصدق هذا التعريف على وحي الأربعين بحيث نستطيع أن نقول إن هذا الديوان كله تعبير جميل عن شعور صادق.

أما إن شعور العقاد بكل ما وصفه في ديوانه صادق فشيء أحسه في قوة لا تقبل الشك ولا الريب، ولكن بالقياس إلى بعض الأبواب. بالقياس إلى هذه الأبواب التي

تظهر فيها شخصية العقاد ظهورا واضحا كل الوضوح. بالقياس إلى باب الغزل، مثلا هذا الذي تظهر فيه للعقاد شخصية خفية الظل جداً، حلوة الروح جداً، محبة للحياة جداً، مقبلة على اللذة
جداً، في حب لها واقتصاد فيها. انظر إلى هذه الأبيات:

ياله من فم ... يالها من شفة!
يا لشهد بها ... كدت أن أرشفه
يا لزهر بها ... كدت أقطفه
حلوة ويحها! ... غضة مرهقة
حسرتي بعدها ... حسرة متلفة

ألست ترى فيها شخصية تحب الحياة وتكلف بها، وتحب اللذة وتوشك أن تسرع اليها، لولا أن شيئاً يصدها عنها صداً ويردها فترتد كارهة آسفة. وانظر إليه كيف وفق إلى الإبداع في تصوير هذه المعاني السهلة المألوفة، في لفظ جميل عذب كله أنيق، وكيف استطاع أن يصور من وراء هذه المعاني اليسيرة المألوفة، التي يجدها الناس جميعاً، ويراها الناس جميعاً، معنى آخر ليس يسيراً، ولا مألوفاً ولا شائعاً بين الناس وإنما هو مقصور على الذين يسلطون العقل على الحس ويحكمون الإرادة في العاطفة، ويجدون لذة في الرغبة الحادة يمسكها الحرمان الشديد. فالعقاد مفتون بصاحبته، مفتون بهذا الفم وهذه الشفة، شديد الظمأ إلى شدها، شديد الميل إلى زهرها، يود ولكنه لا يفعل، ويكاد ولكنه لا يحقق. ويجد لذة قوية في هذا الحب، وفي هذا الحرمان، يخرج عن طور اللذة الغرامية المألوفة إلى طور اللذة الفلسفية الخالصة.

في هذه الأبيات تظهر شخصية العقاد كما هي خفية جداً تهفو إلى الجمال وتصبو إليه، رزينة جداً تؤثر أن يكون استمتاعها بالجمال عقليا لا إثم فيه ولا جناح.

في هذه الأبيات تظهر براعة العقاد ويظهر كل ما يملأ قلب العقاد من غناء، يجمع بين الحلاوة والقوة، ويغري المغنين بتلحينها. في هذه الأبيات يتحققتعريف العقاد للشعر فهي تعبير جميل عن شعور صادق.

وقل مثل هذا في هذين البيتين وهما عندي من اجمل الشعر وأرقاه، وهما عندي يمثلان العقاد تمثيلا صادقا. يمثلان جموحه وتمرده، ويمثلان وداعتهوطمأنينته.

لا أرى الدنيا على نور الضحى ... حبذا الدنيا على نور العيون
هي كالراووق للنور فلا ... صفو الا صفوها العذب المصون

فانظر إليه كيف نفر وشذ وجمح في الشطر الأول من البيت الأول. فلم ير الدنيا على نور الضحى كما يراها الناس جميعا، ولم يألفها على هذا النور كما يألفها الناس جميعا. ثم انظر إليه كيف ثاب وأناب وهدأ واطمأن وأحب هذه الدنيا، ولكن في نور العيون بعد أن اختصرت وهذبت ونفيت عنها الأعراض، واستبقيت منها الخلاصة الخالصة والصفو الذي برئ من كل كدر، حبذ الدنيا على نور العيون. ثم انظر إليه كيف فسر حبه لهذه الدنيا المصفاة في هذا البيت الجميل:

هي كالراووق للنور فلا ... صفو الا صفوها العذب المصون

فالعقادفي هذين البيتين لا يحب الدنيا المبتذلة التي يرخصها نور الضحى ويبيحها للناس جميعاً. وإنما يحب الدنيا المصونة الممتازة التي يحتويها نور العيون ولا يبيحها الا لطبقة خاصة من الناس هم الشعراء.

فإذا أردت، ويجب أن تريد دائماً مع العقاد، أن تتجاوز هذا المعنى الظاهر الذي يفهمه كل ذي حظ من الأدب، إلى الرمز الذي يريد إليه العقاد. وإذا ذهبت، ويجب أن تذهب دائماً مع العقاد، مذهب الرمزيين الذين يدلون بالقليل على الكثير وبالواضح على الخفي، فسترى إن هذين البيتين على قلتهما وقصرهما وضيقهما يسعان كل شيء ويصوران نفس الشاعر ونظرها إلى كل شيء. فالعقاد لا يحب الابتذال وإنما يحب الامتياز. ولا بأس عليه من ذلك ولا جناح عليه فيه، فالشاعر الذي يستحق هذا الاسم أرستقراطي بطبعه، وان كان أقدر الناس على تصوير الديمقراطية وفهمها وامدادها بالحياة.

وأكاد لا أشك في أن شعور العقاد صادق في كل هذا الباب من الديوان، ولو أني ذهبت أحلل الجيد من هذا الباب، وكله جيد، لما فرغت من التحليل في فصل ولا في فصول. وكم كنت أود لو أتيح لي أن أقف عند هذه القصيدة البديعة التي يسميها العقاد

(المعاني الحية)، أو عند هذه الآية الشعرية التي يسميها العقاد (الغزل الفلسفي). أو عند هذه الآية الأخرى من بين الموشحات وهي التي سماها العقاد (ليلة البدر). فقد أجتمع للعقاد في هذه القصائد الثلاث من محاسن الشعر الرائع ما لم يجتمع له في غيرها من قصائد هذا الديوان. أجتمع له صدق الشعور وعلوه وصدق التصوير ودقته، وصدق الحس وامتيازه، وجمال اللفظ الذي لا غبار عليه، وأجتمع له التوفيق إلى المعاني النادرة التي قلما يقع عليها الشعراء
عندنا، والمهارة في تأدية هذه المعاني بحيث يخدع عنها القراء والسامعين فيخيل إليهم أنهم يقرءون أو يسمعون شيئا مألوفا. وهم يقرءون ويسمعون كلاما من أندر الكلام وأنفسه وأعلاه. كلاما لا يصدر إلا عن شاعر حقا. أجتمع له في هذه القصائد جمال التعبير وصدق الشعور، وكاد يجتمع له جمال التعبير وصدق الشعور في كلهذا الباب لولا ألفاظ تنبو عن سمعي وأحسبها تنبو عن سمع كثير من الناس كلفظ المأرف في قوله:

لك وجه كأنه طابع الصد ... ق على صفحة الزمان المأرف

فلست ادري لماذا لا أحب هذه الكلمة في هذا البيت، ولما اشعر بأنها قلقة لا تستقر في مكانها الا كرها، ولما اشعر بأنها صغيرة ضئيلة بالقياس إلى الزمان. وكلفظ الطين الذي أنكره غيري من النقاد على العقاد في قوله في القبلة:

هي كأس من كؤوس الخالدين ... لم يشبها المزج من ماء وطين

فأنا لا أناقش في المعنى ولا اعتدي عليه بمحاولة إفساده أو الغض منه. ولكن ذوقي هذا الذي تأثر بأدبنا العربي القديم ينفر، بل يفر من هذا الطين الذي يقرن بالقبلة. وأنا أفهم إن يعتذر الشاعر بصحة المعنى ودقته وامتيازه وارتفاعه من مألوف الناس، ولكني مع ذلك لا أطمئن إلى هذا الطين الذي تقرن به القبلة، أو يقرن بها. وهنا تظهر خصلة من خصال العقاد التي تميزه من غيره من الشعراء المعاصرين. فهو من شعراء المعاني الذين يحرصون اشد الحرص على تصحيح معانيهم وتجويدها وتميزها والارتفاع بها عن المألوف، ولكنهم لا يتكلفون مع الألفاظ ما يتكلفونه مع المعاني من تخير وتدقيق في التخير ومن تحرج وغلو في التحرج. هم اتباع المعاني وهم يزعمون أن الألفاظ يجب أن تتبعهم وان تدين لهم، وهم لا يطلبون إلى الألفاظ الا أن تؤدي لهم معانيهم وتعرب عنها إعراباً صحيحاً لا لبس فيه. فان أتيح لها مع ذلك أن تكون جميلة جذلة ورقيقة وعذبة فذاك وإلا فليس عليهم بأس ولا جناح. ولكن العقاد خليق بإحدى اثنتين: فإما أن يصلح تعريفه للشعر فلا يشترط جمال التعبير وإما أن يصلح مذهبه في الشعر فيكون احرص على تجويد اللفظ وتجميله وتزيينه في السمع والقلب مما هو الآن. وأنا أؤثر له الثانية، فليس من الحق في شيء أن الشعر يستطيع أن يستغني عن جمال اللفظ بجمال المعنى وروعته ولعله يستطيع أن يستغني بجمال اللفظ عن جمال المعنى أحياناً. فالشعر موسيقى أولا، وهو إذا متجه إلى السمع، فإذا استطاع، أن يخدع السمع بجمال اللفظ وانسجامه، فقد يستطيع أن يخدع القلب والعقل وقد يستطيع أن يكتفي بالسمع وحده. والخير كل الخير أن يوفق الشاعر إلى الملائمة بين جمال اللفظ وجمال المعنى. والعقاد يوفق إلى هذه الملائمة كثيراً ولكنها تخطئه أحياناً.

تخطئه حين ينسى نفسه، ويعمد إلى الفلسفة ويريد أن يكون فيلسوفاً موضوعياً إن صح هذا التعبير، يعرض علينا الآراء الفلسفية في نفسها ومن حيث هي دون أن يبعث فيها شيئاً من شخصيته، أو من حياته كأنه العالم يقرر أصلاً من أصول العلم أو قانوناً من قوانينه. في هذه الحالة يتقن العقاد معانيه، ويصححها تصحيحاً لا غبار عليه. ولكن هذا الإتقان والتصحيح يستغرق جهده أو أكثره، ولا يكاد يبقي له الا ما يمكنه من النظم. وإذا شاعرنا مفكر من الطبقة الأولى ولكن نظمه يشبه نظم أبي العلاء، تنقصه السلاسة والنصاعة وصفاء الديباجة، وهذا الانسجام الذي يخلب سمعك ويملك عليك أمرك ويجعلك نهباً للشاعر يلقي في روعك ما يشاء.

كل هذه الخواطر تخطر لك حين تقرأ القسم الأول من وحي الأربعين. وأحب أن أكون منصفاً فلا يكاد الإنسان أن ينظر في هذا الديوان وفي غيره من دواوين العقاد، حتى يعجببالشاعر إعجاباً لا حد له، لأنه رفع نفسه ورفع الشعر معه إلى عالم لم يتعود شعراء العرب أن يعيشوا فيه، لا أكاد استثني منهم الا أبا العلاء. فالموضوعات التي

يقصد إليها العقاد وينظم فيها الشعر موضوعات عالية كلها رفيعة، حتى إذا هبط العقاد إلى حيث يعيش الناس وشاركهم فيما تعودا أن يقرضوا الشعر فيه من الفنون لم يلبث أن يرتفع بهذه الفنون، ويحلق بها في جو لا يكاد يرقى إليه الطرف. وأكاد اجزم بأن العقاد لو استقامت له الألفاظ وأسمحت له اللغة، لمااستطاع أحد في هذه الأيام أن يساميه. ولكن لغته لا تمكنه من الأسف الشديد من أن يستمر محلقاً في الجو بل تثقل عليه وتثقل على معانيه وتضطره إلى الهبوط، فيهبط ومن حقه ان يظل عالياً. وهل يأذن العقاد في أن أنكر عليه خصلة أخرى في وحي الأربعين وهي هذه الشروح التي يقدمها بين يدي طائفة من قصائده الفلسفية والتي تترك في النفس أثراً مؤلماً ثقيلاً إلى حد ما، وتخيل إلى القارئ إن الشاعر قد تخير بعض الموضوعات الفلسفية التي طرقها الناس من قبله وأتقنوها بحثاً ودرساً فنظمها، ونظمها في غير توفيق إلى الوضوح فقدم هذا الشرح بين يديها وجعل شعره أشبه بالمتون منه بالشعر حقاً.

إن الذين يقرءون شعر العقاد ويذوقونه هم المثقفون المستنيرون، الذين تعودا أن يقرءوا الشعر وأن يفهموه، وأن يقرءوا شعراً أصعب من شعر العقاد وأشد منه إمعاناً في الغموض، فيستطيع العقاد أن يحسن بهم الظن وان يخلي بينهم وبين شعره ليفهموه كما يريدون وكما يستطيعون. وليسس على العقاد بأس أن يفهم شعره أحياناً على غير ما أراد هو فمن يدري. لعله أن يكون هو مخطئا وأن يكون قارئه مصيباً، ومن يدري لعله يعود إلى شعره يقرأه فيفهم منه غير ما كان أراد، قد يكون هذا عيباً في النثر ولكنه مزية من مزايا الشعر الرائع، ولو أن لي أن اقترح على العقاد لطلبت إليه أن يلغي هذه الشروح الفلسفية في الطبعة الثانية من هذا الديوان، إن لم تكن قد تمت. فأني اعلم أن الطبعة الأولى قد نفذت منذ حين.

ولست أدري لما لا أريد أن أقف، وأن أختم هذا الحديث دون أن آخذ العقاد بملاحظة أخرى أود أن يقدرها ويفكر فيها، وهي: أن التجديد في الشعر يتناول الألفاظ ويتناول المعاني من غير شك، ولكنه خليق أن يتناول الوزن أيضاً فلكل نفس مذهبها في التفكير، ومذهبها في التعبير، ولكلل نفس موسيقاها أيضاً. وإذا صدق هذا بالقياس إلى الأفراد فهو صادق بالقياس إلي الأجيال. والعقاد يعلم إن كل نهضة في الشعر خليقة بهذا الاسم تستتبع تغييرا في الوزن، واستحداثاً لفنون جديدة من التوقيع. كان ذلك في شعرنا العربي في الشرق وفي الأندلس. وكان ذلك في غير شعرنا من الأمم، وكنت أحب أن يكون ذلك في شعرنا الحديث، وكنت احب أن يكون العقاد من السابقين اليه، ولست يائسا من ذلك فان العقاد رجل خصب النفس قوي الحس دقيق الشعور واخلق بمن تجتمع له هذه الخصال، ويكون له معها خيال قوي بعيد المدى أن يجدد في الشعرفيحسن التجديد، وان يتجاوز التجديد في الألفاظ والمعاني إلي التجديد في الأوزان والقوافي.

اعترف بأني قرأت وحي الأربعين مرتين وأني أود لو أقرأه مرة ومرة، وأني واثق بأني سأجد في قراءته المقبلة من اللذة والمتاع ما يجعلني فيها راغبا وعليها حريصاً.

أهي المصادفة التي أردت أن أتحدث عن العقاد وعن هيكل في مقال واحد، أم هو تشابه قوي أو ضعيف بين هذين الأديبين دعاني إلى أن اجمع بينهما في هذا الفصل، وإن كان الاختلاف بينهما شديدا مغرقا في الشدة.

أما الذي لا اشك فيه فهو إن ظهور ثورة الأدب ليس هو الذي دعاني إلي الجمع بين هذين الأديبين فقد كنت أستطيع أن افرد لكل واحد منهما فصلاً ولعلي لو فعلت أرحت القارئ وأرحت نفسي من الإطالة ولعلي لو فعلت فرغت لكل واحد منهما فوفيته بعض حقه من النقد والثناء. ولكني وجدت نفسي مدفوعاً إلى أن انظمهما في سلك واجمعهما في فصل. وابحث بعد ذلك عما دفعني إلى هذا. وأظن انه الشعور الذي كنت أجده حين كنت انتقل من شعر العقاد إلى نثر هيكل، ومن نثر هيكل إلى شعر العقاد. فقد كان يخيل ألي أني انتقل بين أديبين مختلفين غاية الاختلاف. وإنما كنت انتقل من شعر كثيراً ما يشبه النثر إلى نثر كثيرا ما يشبه الشعر وكلاهما يمتاز بالخصب والثروة والعمق وكلاهما يمتاز بهذه الديباجة التي ينقصها الصفاء في كثير من الاحيان، وكلاهما يمتاز بإيثار المعاني وإعمال الألفاظ إلى حد بعيد. وهل أنا في حاجة

إلى أن اصف هيكلا، واحمد فيه قلبه الزكي وعقله القوي، وبصيرته النافذة وفهمه الصحيح لحقائق الأشياء التي يعرض لها بالبحث والدرس. وهل أنا في حاجة إلى أن اصف هذا الخصب المدهش الذي يحار الإنسان في وصفه وفي تصويره، كلما فكر في هذه الجهود الهائلة التي يبذلها هيكل في غير انقطاع ولا توانٍ ولا فتور، والتي تستطيع مع هذا كله أن تحتفظ بقوة متشابهة لا يكاد يظهر فيها التفاوت ولا يكاد يعرض لها الضعف، فهيكل صاحب صحيفة يشرف عليها ويدير امورها، ويكتب فيها فصلا في كل يوم على اقل تقدير، وهو عضو في حزب سياسي يشارك زملائه فيما يعملون ويتحدث إليهم كل يوم في السياسة، إذا كان الصباح، وإذا كان المساء. وهو أديب يقرأ فيكثر القراءة وينوعها ويحسن تنويعها. يقرأ في الأدب العربي، ويقرأ في الأدب الانكليزي، ويقرأ في الأدب الفرنسي، ويقرأ في السياسة، ويقرأ في التاريخ، والغريب انه لا يكره أن يقرأ في علوم القانون وإن كان من رجال القانون وهو على هذا كله يكتب في الأدب في موضوعات مختلفة منه، يكتب في الأدب الإنشائي فإذا هو يصف فيبدع في الوصف، وإذا هو يقص فيجيد القصص، ويكتب في الأدب الوصفي فإذا هو ينقض الشعر وينقض النثر، ويوفق في هذا النقد إلى خير ما يطمع فيه الناقدون، وهو على هذا كله أب
وزوج لا يبخل على أسرته بحقها عليه وهو صديق لا يبخل على أصدقائه بحقوقهم عليه. وهو رجل له مكانته الظاهرة في حياتنا الاجتماعية والسياسية، وهو ينهض بما تستتبعه هذه المكانة من حقوق وواجبات. الغريب مع هذا كله أنك تلقاه فإذا هو رجل هادئ مطمئن كأنه أفاق منذ حين قصير من نوم مريح، فهو لم ينشط كل النشاط بعد ولكنه بعيد كل البعد عن الخمود والفتور، ولا تكاد تتحدث إليه دقائق حتى يفتنك ويروعك فكأنك تتحدث إلى جني ولكنه جني عذب الروح لذيذ الحديث.

هذا هو هيكل. فالذي لا يقضي الإنسان عجبا من قدرته على الإنتاج المتصل، في السياسة وفي أي سياسة، في الأدب وفي أي أدب، دون أن يظهر عليه ضعف أو إعياء أو شئ يشبه الملل.

أصبحت ذات يوم لا أكاد اسم صاحبي يتلو علي صحيفة من صحف الصباح الا سمعت إعلانا في هذه الصحيفة عن كتاب لهيكل جديد هو (ثورة الأدب) وكان الإعلان أمريكيا لا عهد لهيكل بمثله. فهيكل من انشط الناس في الأدب والسياسة ولكنهم من أشدهم فتورا في الإعلان. فقلت يجب أن يكون هيكل قد تغير ذلك فليس عهدي به بعيدا، يجب أن يكون شيء من حوله قد تغير، يجب أن يكون الله قد رزقه عفريتا في الإعلان كما هو عفريت في الإنتاج. وما هي الا ساعة أو ساعتان حتى اقبل رسول يحمل إلي نسخة من الكتاب. وكنت اعرف هيكلا بطيئا في إهداء كتبه وكثيرا ما لمته في ذلك، وكثيرا ما أسرفت في الإلحاح لأظفر بنسختي مما كان يصدر من الكتب. فلم ازدد أمام هذه السرعة وهذا النظام الا دهشا، وما زلت إلى الآن دهشا لأني لم افهم بعد مصدر هذه السرعة وهذا النظام في الإهداء والإعلان. ومهما يكن من شئ فقد أسرعت فأعلنت كتاب هيكل إلى الناس في الكوكب كما أعلنته الصحف الأخرى، ثم أسرعت فبدأت في قراءة الكتاب. ولم يخفني عنوانه، أما لأن صديقي هيكلا لا يخيف مهما يثر، وأما لان الثورة مهما تكن لا تخيفني. ولم احتج إلى هذا التفسير الذي خيل إلى هيكل انه محتاج اليه، ليفهم الناس عنه هذا العنوان. فأي غرابة في أن يسمي أي كتاب في الأدب الآن (ثورة الأدب). وهل حياة الأدب العربي في هذه الأيام الا ثورة متصلة. نحن ثائرون حين ننشئ ونحن ثائرون حين نصف ونحن ثائرون حين ننقد. كل إنتاجنا الأدبي ثورة حتى الذين يسمون أنفسهم محافظي
ويلحون في المحافظة ويتمدحون بها ويبتغون بها الوسيلة عند الذين يحبونها ويستغلونها. هؤلاء أنفسهم ثائرون يفرون من القديم الذي يحرصون عليه، يريدون أن يؤيدوه فإذا هم يجددونه ويغيرونه ويكفي أن تقرأ حتى في نور الإسلام وهي المجلة الرسمية للأزهر. فسترى فيها ثورة ومحاولة للتجديد، وحرصا على أن يظهر شيوخ الأزهر حين يفكرون ويكتبون ملائمين للعصر الذي يعيشون فيه. حياتنا الأدبية كلها ثورة إذا وكل كتاب نكتبه في الأدب فهو ثورة الأدب، لذلك لم اقف طويلا عند العنوان وإنما أسرعت فمضيت في قراءة الكتاب.

لم أجد في الكتاب شيئا جديداً وأرجو أن الا يغضب هيكل فالكتاب كله جديد ولكني

أعرفه لا لأني قرأت كثيرا من فصوله حين نشرت في السياسة اليومية أو الأسبوعية بل لأني قرأته وسأقرأه كله في هيكل كما لقيته أو تحدثت إليه. فالكتاب صورة مطابقة اشد المطابقة وأصدقها وأجملها لنفس الكاتب. تقرأ في الكتاب فترى هيكلا وتسمع له وقد تنكر الرأي من آرائه فتهم بأن تتحدث بإنكارك هذا إلى هيكل كأنه جالس إليك تراه وتسمع منه وتريد أن تأخذ معه في الحديث. ليس في الكتاب شئ جديد وهو لذلك من اخطر الكتب واشدها غدرا لك ومكرا بك تمضي فيه فيخيل إليك انك تمضي في كلام مألوف ولكنك لا تكاد تفكر قليلا فيما تقرأ، أو لا تكاد تلح في القراءة، حتى يفتح لك هذا الكتاب أبواباً ويبسط أمامك آفاقا ما كنت تعرفها أو تفكر فيها من قبل وإذ كل شئ جديد، وإذ كل شئ طريف، وإذا الكاتب يخدعك ويمكر بك وان لم يرد خداعاً ولا مكراً.

أريد أن أعطي قارئ الرسالة فكرة دقيقة عن هذا الكتاب بشرط أن لا ألخصه ولا أحلله لا لأني لم اقرأه كما ظن هيكل بصديقنا المازني بل لأن تلخيصه يفسده ويذهب بجماله وقيمته الصحيحة وكيف تلخص في فصل واحد كتاباً يتناول التجديد والتقليد في الأدب ويتناول القصص والتمثيل ويتناول الأدب القومي ويحاول الإنتاج في هذا الأدب القومي، كيف تريد أن تلخص هذا الكتاب على اختلاف ما فيه من ثمرات وألوان. لقد حاول صديقنا المازني أن يلخصه فلم يوفق ولولا أن هيكلا شك في قراءته للكتاب لما تكلف المازني هذه المحاولة. أريد أذن أن أعطي قارئ الرسالة فكرة دقيقة عن هذا الكتاب دون أن ألخصه، ولعلي أوفق إن لاحظت أن لهذا الكتاب ناحيتين فهو تاريخ صحيح دقيق للأدب العربي

المصري في هذه الأعوام الأخيرة من جهة وهو فلسفة أدبية رفيعة موضوعها أدبنا الحديث من جهة أخرى. فإذا كنت تريد أن تعرف كيف نشأت الخصومة عندنا بين القديم والجديد وكيف تطورت والى أين انتهت وما المؤثرات المختلفة التي ألحت عليها فقوتها حيناً وأضعفتها حيناً آخر، وإذا كنت تريد أن تعرف مقدار ما كسبنا من أنفسنا من شخصية قوية أو ضعيفة في فنون الأدب على اختلافها في الشعر والنثر رسائل وقصصا وتمثيلا. وإذا كنت تريد أن تعرف الصورة التي نرسمها لأنفسنا من الأدب القومي، والحقيقة التي استطعنا أن ننتهي إليها من هذا الأدب فأنت واجد هذا كله في هذا الكتاب. وأنت واجد في هذا كله قصصاً هيكلياً ممتعاً بديعاً. ثم إذا كنت تريد أن تجعل الأدب موضوعاً للتفكير والفلسفة كما يجعل الفلاسفة الطبيعة وما بعد الطبيعة موضوعاً لفلسفتهم وتفكيرهم فيحللون ويعللون ويشرحون ويفسرون ويتنبئون فستجد هذا كله في هذا الكتاب. فقد حلل هيكل وعلل، وقد شرح هيكل وفسر، وقد أرخ هيكل وتنبأ، ووفق هيكل إلى كثير جدا من الحق في هذا كله.

اظلم هيكلا واظلم نفسي إن قلت أن إعجابي بكتابه يمكن أن يحد فهو مرآة صافية نقية صادقة لحياتنا الأدبية منذ وضعت الحرب الكبرى أوزارها ولكني أظلم هيكلا، وأظلم نفسي إن قلت أني راض عن كتابه كل الرضا، مقر بكل ما جاء فيه. فبين هيكل وبيني خصومة قديمة ما أرى أنها تنتهي لأنه لا يريد أن ينهيها. ولغة هيكل هي موضوع هذه الخصومة. فهيكل من أصحاب المعاني بين الشعراء، وهيكل يهمل لغته إهمالا شديدا ويتورط في ألوان من الخطأ واضطراب الأسلوب، يدنيه أحيانا من الابتذال، والغريب انه لا يضيق بذلك ولا يجد به بأسا، ولا يعترف بأنه يسيء إلى نفسه والى أدبه معا. ولست أريد أن أحصى عليه هذه العيوب ولا أن اضرب لها الأمثال فهو لا ينكرها ولا يراها عيوبا، ولعله يتمدح بها أحيانا وهو مخطئ من غير شك. فان من المؤلم أن تبدو معانيه الجميلة الرائعة في ثياب رثة بالية في كثير من الأحيان. وهيكل كالسيل إذا عرض لموضوع اندفع فيه فجاء بالجيد الكثير ولكنه لا يسلم أحيانا من الغثاء. فكثيرا ما يتورط في الخطأ لأنه يسرع ولا يتكلف التحقق والتثبيت في بعض مسائل التاريخ. أنظر إليه في المقدمة يريد أن يذكر الأوديسا فيذكر الإلياذة ويضيفها إلى اليونان. والإلياذة هي قصيدة فرجيل، وهيكل يعلم ذلك حق العلم

ولكنه نسى وصحح كتابه ولم يخطر له أن يتحقق مما يكتب. وانظر إليه في موضوع آخر حين يذكر تحرر الفرنسيين من آثار اليونان والرومان في القرن السابع عشر، كيف يذكر لابروير وموليير وهو يعلم حق العلم أن أولهما تأثر من غير شك بتيوفرايست، وإن الثاني تأثر من غير شك بتيرانس وبلوت. وتستطيع أن تأخذ هيكلا بطائفة غير قليلة من هذا الخطأ الذي مصدره الإهمال والسرعة، وشيء من الازدراء

لتحقيق المحققين. ولو أني عرفت أن هيكلا يحفل بنقد الناقدين، أو نصح الناصحين لألححت عليه في أن يتخذ لفصوله الأدبية مصفاة، إن صح هذا التعبير، يصفى بها ما يكتب فيزيل منه الخطأ اللغوي ويزيل منه الإهمال في بعض الحقائق التاريخية.

أمتفق أنا بعد هذا كله مع هيكل في آرائه كلها حول القديم والجديد؟ ما أظن الا إننا نتفق في أكثرها ونختلف في أقلها. ولعل اختلافنا أن يكون ناشئاً من شيئين أحدهما هذا الإهمال الذي آخذ به هيكلا. والذي يدفعه إلى المبالغة ويضطره إلى التقصير أحياناً.

والثاني أن هيكلا رجل أديب، ولكن اشتغاله المتصل بالسياسة قد أثر في تصوره للأشياء وحكمه عليها بعض الشيء. فهو يسرف حين يسئ الظن بما يكتبه الأوربيون عنا حين يمسون حياتنا الأدبية، فما أظن أن (جيب) وأمثاله يتخذون السياسة وأهوائها مقياساً لدراساتهم الأدبية، وهو يسرف حين يحسن الظن بنا وبحظنا من الخيال وقدرتنا على الإنتاج. ولكنه رجل سياسي حين يكتب في الأدب، يريد أن يدافع عن مصر والشرق كما يفعل في السياسة، ويريد أن يرضي المصريين والشرقيين كما يفعل في السياسة. أما أنا فأريد أن أدافع عن مصر والشرق ولكن بشرط أن لا يورطني هذا في تغيير الحقائق العلمية أو مسها بشيء من التشويه ولو قليلا. فالحق آثر عندي من أي شئ ومن أي إنسان.

أما بعد فمهما نأخذ به كتاب هيكل هذا، فلن نغض منه ولن يستطيع أحد أن ينكر أن هيكلا هو المؤرخ العربي للأدب العصري الحديث. وانه قد فرض بذلك نفسه، لا أقول على هذا الجيل وحده، بل أقول على الأجيال المقبلة أيضاً. وأنا واثق كل الثقة بأن كتابه هذا سيصبح من المصادر القيمة للذين يريدون أن يدرسوا أدبنا المصري في نهضته هذه الحاضرة.

طه حسين

سلمى وقريتها

للسيدة (آمي خير)

بقلم الأستاذ الكبير م. ع.

هذه قصة لبنانية بأشخاصها وأماكنها ووقائعها، فرنسية بلغتها، وقد كتبت في مصر، وطبعت في باريس.

واسم المؤلفة مركب من لفظين: ثانيهما عربي، وأولهما أعجمي بهمزة مفتوحة بعدها مدة فميم مكسورة فياء ساكنة.

كنت في مجلس بعض الأدباء، فجرى حديث هذه القصة فيما تناوله السمر، قال قائل منهم:

- من تكون مدام آمي خير؟

- إن كنت لا تعرفها فقد فاتك نصف عمرك.

- أواه، كم فاتني عمر كله، وكم فاتني نصف عمر!

- آمي خير سيدة تحدرت أرومتها من منابت الأرز في لبنان إلى أمومة لا تعرف الأرز ولا لبنانه، ونبتت في أحضان البحر الصغير في مدينة المنصورة، وربيت تربية فرنسية خالصة في هذه المدينة المصرية الخالصة.

هنا أخذ كل واحد من الجماعة يدلي برأيه غير منتظر تمام الحديث، فمن قائل: أن مؤلفة (سلمى وقريتها) لا يمكن ان تعتبر الا فرنسية، لأن صبغة الثقافة الفرنسية قوية جداً تصهر النفوس وتحيلها فرنسية مهما كان أصلها، الثقافة الفرنسية وريثة الثقافة اليونانية التي وجهت الفكر البشري توجيهاً يونانياً ودمغت بطابعها العلم والحكمة والدين.

أنظر إلى الكونتس (دي نواي) التي رزئ بها الشعر منذ قريب، لقد ماتت فرنسية، وعدت فرنسا مصابها مصاباً قومياً. والثقافة هي التي جعلتها فرنسية، لا الدم الذي كان يجري في عروقها. ومن قائل: ان الثقافة الفرنسية مهما قوى سلطانها فهي لا تستطيع أن تصنع شيئاً في الدم السكسوني وأن كان لقاحاً، ذلك الدم النزاع بجوهره إلى غير منازع الفرنسيين.

كان في المجلس شاب لبناني فأخذته حماسة الشباب وصاح: ودم لبنان؟ أليس للدم اللبناني حساب؟ إنا لنهفو إلى بعض الثقافات ونقلد بعض الامم، لكنا على ذلك ذوو عرق في الشرق عريق. .

وقال فتى من أهل الدقهلية:
- ما دامت السيدة قد نبتت بين البحرين فهي منصورية لحماً ودماً، والمنصورية مدينة لها من التاريخ ذكريات داوية من عهد ابن لقمان وداره، إلى عهد أبي سحلي وآثاره.
ثم عاد صاحب الحديث الأول يتمه: إن في السيدة (آمي خير) جمال المرأة الذكية، وفيها ذكاء المرأة الجميلة.
قال بعضهم: يا رفاقي على دين الدكتور (فريد الرفاعي) أفمن كانت بهذه المثابة تعنى نفسها بصنعة الكتابة؟
فانبرى للجواب صاحب الحديث:
- إن للسيدة (آمي خير) مشاركة جيدة في الفن والأدب، ولها ذوق من ألطف الأذواق، وهي على اتصال دائم بالمميزين من أهل الثقافات الغربية وإخوانهم من أهل الثقافات الشرقية، وتحاول أن تصل بين الثقافتين اللتين تحبهما على سواء.
تعطف على الفنانين والأدباء عطفا يسمو على اعتبارات الأجناس والأوطان والأديان لأنهم يؤدون رسالة الجمال في هذا العالم.
وكأنما تستصفي صواحبها تخيرا من ذوات الحسن البارع لأنها ترى المرأة الجميلة أيضا تؤدي رسالة جمال في هذا العالم المحتاج إلى جمال.
وتنقّل الحوار إلى (سلمى وقريتها) فمضى قائل يقول: موضوع القصة لا طرافة فيه، فان فتاة من بنات الفلاحين صبا إليها فتى من أبناء الأعيان ففتنت به، وكان بينهما كل ما يكون في كل حب من: عناق وقبل، وفرقت الأقدار بينهما وتزوجت (سلمى) شاباً من أهل قريتها كان يسر في قلبه حبها منذ زمان. لكن عقابيل الغرام الأول لم تزل تعاود سلمى حتى مرضت بالسل ووافاها حمامها.
ومن عجب إن المحبين في أقاصيصنا والمحبات يموتون بالسل دائما كأن جراثيم ذلك الداء لا تنتعش الا في صدور العاشقين!
قال آخر: يكون في كثير من الأحايين موضوع القصة بسيطا مطروقا لكن الكاتب يحسن تناوله فيبرزه في إطار من المعاني الشريفة والصور، ويسمو به إلى أفق الإبداع.
كان في حاشية المجلس رجل لم يشترك في شيء من الحديث وان أصغى إلى كل الحديث،
فلما سكت القائلون تصدى للكلام:
- يشعر القارئ لكتاب (سلمى وقريتها) بأن مؤلفته أرادت أن تصور لبنان تصويرا شاملا. فهي ترسم الجبال شامخات عاريات يلمع الثلج فوق هاماتها. وتنحدر الوديان من حولها وهادا سحيقة. ومروجا خضراء، وتتناثر القرى في سفوحها وفي أحضانها وربما تسامت إلى ذؤاباتها، والينابيع تتدفق عن يمين وشمال بالعذب النمير والكروم والأشجار تجتمع جنات الفافا، وتفترق ألواناً وأصنافاً.
وتصف السيدة حياة القوم حين يجمعهم الشتاء أسارى، وحين يطلقهم الصيف احرارا، وتذكر أمرهم في بيوتهم، وحالهم في مزارعهم، وشأنهم في مجامعهم، وتنعت ما يأكلون وما يشربون وما يقولون وما يفعلون، وتمثل أفراحهم وأحزانهم، وجدهم ولعبهم، ورقصهم وغنائهم، وعشقهم وغزلهم، ولا تهمل شعائر الدين فيهم كل ذلك في أسلوب بسيط إن خلا من زينة الصنعة فهو لا يخلو من جمال السهولة والوضوح.
وفي الكتاب لمحات بسيكولوجية، وقصة سلمى نفسها مملوءة من هذه اللمحات التي تكشف عن معان نفسانية.
فإيثار سلمى لجميل فارس بالعشق ملحوظ فيه انه وريث وجاهة وغنى، وقد حسبته انصرف عنها بعد أن تلهى بمغازلتها، فثارت في نفسها للكرامة حمية بددها الغرام بابن السادة الأغنياء. وأبو سلمى عرف أن ابنته العذراء قد فتنها جميل، وتهامس أهل القرية بما بينهما فلم تخرجه الغيرة عن حدود الرزانة والحلم وزوج سلمى حين سمع حليلته تهتف في سكرات الموت باسم عشيقها، صدمه ذلك ففار فورة ثم انطفأ وعاد يريق دمعه عند أقدام سلمى.
أما أم سلمى فقد جعلتها مدام خير مثال الزوجة البرة الصالحة والأم الحكيمة الرحيمة.
ويوشك أن يكون أروع ما في (لبنان مدام خير) بعد منابع المياه ومزة العرقي هي أم

سلمى.
وكان ذلك نهاية السمر بين القوم فتفرقوا مجمعين على أن (آمي خير) قد وصفت لبنان وأهل لبنان في كتاب (سلمى وقريتها) وصفا فيه روعة الدقة ولطف الملاحظة وحسن البيان.

م. ع

الفكر والعالم

للأستاذ إبراهيم المصري

يشتمل هذا الكتاب على مجموعة مقالات (أو دراسات كما يدعوها المؤلف)، ثم قطعة تمثيلية من أربعة فصول فهو إذن كتابان في كتاب واحد. وسنقصر كلامنا على أولهما. الفكر والعالم كلمتان عظيمتان تدلان على كل ما في هذه الخليقة من مادة وروح. وقد تشك في أن هذا الكتاب الصغير يحوي بين دفتيه خلاصة الفكر وخلاصة ما في العالم. فإذا ما قرأت هذا الكتاب انقلب الشك يقينا، فالكتاب يخدعك بعنوانه الضخم، وليس به من عنوانه الا القليل.

ولكنك قد تجد في الكتاب متعة أقرب إلى النفس، لأنك تتصل بفكر خصب هو فكر المؤلف نفسه، وتتصل بعالم حي هو نفس المؤلف ومشاعره. إذ ليس الكتاب سوى صورة إبراهيم المصري، صورة ميوله وآماله، ومتاعبه وآلامه. وفي الرسالة الأولى من الكتاب، وعنوانها نجوى، يتمثل تفكير المؤلف، وأسلوبه في الكتابة. استمع إليه وهو يقول:

(. . . نهذب نفوسنا ونصقلها بشتى الأفكار والمعلومات. وما تزال الحيوانية الكامنة ترتع في قلوبنا وتستشره. ترق احساساتنا في بعض الأحايين، وتخمد أعصابنا ويغفو ذهننا العامل المجد، ويخيل إلينا أننا بلغنا قمة الحكمة، وسمونا إلى حيث يشترك العقل البشري بالقوة الإلهية المحركة الأولى.

وسرعان ما نتصل بالمجتمع، فنلمس الحقيقة فنكر راجعين والخيبة تملأ جوانحنا، والكمال الروحي يتباعد عنا شيئا فشيئا، حتى يتلاشىّ بغتة ويغيب عن الأبصار.)

وهكذا تقرأ في الكتاب صفحات وصفحات من العبارات المتراصة المشبعة بالصفات والكلمات المؤكدة تنساق في سلسة واحدة لتصور لك في الحقيقة وفي والنهاية أمرا واحدا: الوجه الشاحب، قد أحاطت الغضون فيه بالفم والجبين قبل الأوان. وذلك الشعر الغزير الكثيف الذي وخطه الشيب على رغم الشباب. وتينك العينين المتعبتين من أثر الإسراف في القراءة تغطيهما عدستان قويتان. تلك هي الصورة التي تبرز لك من خلال مطالعة الكتاب: صورة إبراهيم المصري وهو يجاهد في مضمار الحياة تطحنه المادة، ولكن ذهنه المستنير يأبى إلا أن ينتصر، وأن يحطم الجسم في هذا السبيل. . . (فلتنزل بي الطبيعة أشد كوارثها، ولتغمرني في الفقر والمرض حتى مغرقي، ولتمنحني جزءاً من فضيلة واحدة، ثم لتفعم نفسي بما شاءت من رذائل وآثام. . . فأنا راض. راض بالنقص الذي لا اعتبره نقصا. انه قوتي. وإنما الكون قد أوجدني لأسعى إلى الكمال لا لأبلغه.)

وهكذا تلمح في هذه الصفحات النفس الثائرة الطامحة. يحدوها الرجاء حينا ويردها اليأس أحيانا، ولكنها لا ترتد ولا تهزم.

ويتابع الأستاذ إبراهيم المصري هذا الأسلوب، في رسائله الأخرى، حين يعطينا صورا لحياة عظماء عرفوا الشقاء وعرفوا الياس، ولكنهم ظلوا يعملون في عزيمة وصبر، كي يضيفوا إلى تراث الإنسانية شيئا خالدا. . . فهو يتكلم عن بروست وبودلير وميكائيل انجلو، وبيرون، مصورا لك حياتهم أو جانب منها، تصويرا دقيقا هو خلاصة لاطلاع واسع.

(ميم)

لم يستطيع صديقي (ميم) الذي كلفته نقد (الفكر والعالم) أن يطالع وينقد القطعة التمثيلية، التي تحتل النصف الثاني من الكتاب. وليس هنا مقام الأسف على الظروف التي اضطرت المؤلف أن يطبع الكتابين في كتاب واحد، وألا يستطيع أن يبرزهما للقراء في شكل جميل يليق بكل منهما. أما الرواية التمثيلية (نحو النور) فهي مشبعة بنفس الروح التي تبدو لنا خلال الرسائل فهي تمثل لنا رجلا نابغا شريف النفس ينشد الإصلاح بقوة وبعزم، وقد تألب عليه كل ما يمكن أن يعترض سبيل المصلحين من

كوارث ونكبات، فمن فقر مدقع، إلى نفس أبية مسرفة في الإباء، إلى زوجة لا تفهم زوجها بل تخونه وتندفع في خيانته، إلى مجتمع جاهل فاسد يضطهده ويعنّيه. كالمريض الذي يجمع كل ما لديه من قوة لكي يقتل الطبيب الذي جاء لعلاجه.

تلك هي الصورة الجليلة التي أراد المصري أن يبرزها لنا في شخص (محسن)، ولئن كانت الصورة التي رسمها المؤلف لا تنهض تماما إلى مستوى الموضوع الجليل الذي يعالجه. فأنها مع ذلك محاولة قيمة، وإنا لنرجو أن يعود الأستاذ لمعالجة هذا الموضوع الخطير مرة أخرى. بعد أن ترسخ قدميه في فن الكتابة المسرحي فإن الموضوع جليل حقا. ويمكن أن يعالج عدة مرار من نواح شتى.

م. ع. م.

العدد 11 - بتاريخ: 15 - 06 - 1933

من بريد الرسالة

جواب الآنسة حياة

وكتاب آخر فرنسي، أنيق الشكل، جيد الخط، رائق الأسلوب، هادئ البيان، أتانا من الآنسة حياة!! فعجبت من إصرار هذا اللسان الأجنبي على التدخل الفضولي بين لسانين عربيين! ولكني لم أكد أسير في قراءته حتى تساير عن نفسي العجب، وتراجع عن وجهي القطوب، واتضح في ذهني العذر، وملكتني سورة من الحنق المر على نُظمنا التربوية والتعليمية التي شوهت في النشء عواطف الجنسية، وشتت في الشعب معاني الوحدة، وأخفقت كل الإخفاق في تكوين أمة واحدة النزعة والوجهة والثقافة.

تقول الآنسة الفاضلة: (. . . نعيت عليّ أني كتبت إليك بالفرنسية، والسبب في ذلك بعيد كل البعد عن التظرف والحذلقة والله يعلم وصواحبي يشهدن بما كان بيني وبين الراهبات المعلمات من الجدل العنيف كلما تعرّضن لديننا بالغمز، أو لتاريخنا بالعبث أو للغتنا بالزراية. . إنما أنا ومثيلاتي ضحية من ضحايا نظام مدرسي لم يقم ألا لتعليم الفتى (ميكانيكية) الحكومة. لأن قيامه لهذه الغاية جعل من طبيعته إغفال أمر البنت، فلجأ بها أولياؤها إلى المدارس الأجنبية، فنشأت هذه النشأة البتراء المشوبة، لا تعرف عن دينها إلا التشبه، ولا من لغتها وأدبها غير القشور.

لو كنت كتبت إليك بعربيّتي لحسبتني طفلة تجمجم بالكلام ولا تبين! ويكون من وراء ذلك انك لا تفهمني ولا تفهم عني، فكتبت إليك بالفرنسية لأن الإنسان يميل بطبعه إلى جهة القدرة لا إلى جهة العجز، ويؤثر بغريزته جانب الكمال على جانب النقص، ولئن تعرّضت بذلك إلى غضبك، فقد نجوت ولله الحمد من سخرك، وسخطك عليّ أحب إلى كرامتي من استخفافك بي.

ما كان أسعدني لو ملكت من لغتنا ما تملك فترجمت عن نفسي بمثل ما ترجمت عني في الفقرات التي نشرتها من كتابي.

أنا الآن أعالج في نفسي هذا النقص بالدرس المستمر لآداب العربية، وتكاد (الرسالة) أن تكون الوسيلة الوحيدة لهذا الدرس، فأنا أستوعب أبوابها المختلفة، وأتذوّق أساليبها المتنوعة، ويخيّل إلي أني قطعت إلى غايتي مرحلة كبيرة. ولكني أجد في (الرسالة) نفسها

أن زعماء الكتّاب لا يزالون ينتقدون زعماء الكتّاب في مبادئ النحو وبسائط التراكيب!! فليت شعري أأقنط من دراستي أم أستمر؟ . . .)

والآنسة الفاضلة تسمح لي أن أقف هنا في ترجمة كتابها لأعجل بالنصيحة لها أن تستمر، فأن العربية لاطراد قواعدها في القياس، واتفاق تراكيبها مع الطبع، أبسط اللغات نحواً وأقربها غاية. ولكن آفتها يا سيدتي منهاج سيئ، ومعلم عاجز، وتلميذ كسول!! وستقرئين في الرسالة بعد صفحات من هذه المقالة بحثاً قيّماً في ثقافة المرأة للآنسة أسماء، وشعراً منثوراً في التصوف للآنسة ناهد، فتجدين في صياغتهما الحسنة، وعبارتهما الصحيحة، وأسلوبهما الرقيق، مشجعاً لك ومصدقاً لي. .

جواب الآنسة عفيفة

أجابت الآنسة عفيفة عن تعليقي الموجز بكتاب إنكليزي مسهب، وقد فضّلت أن تكتب جوابها بالإنكليزية لأنها تتهم بيانها العربي بالقصور لقرب عهدها بالكتابة، وتعتقد لذلك إننا أسأنا الفهم فأسأنا الإجابة، وبيان الآنسة سليم من القصور، بريء من العي، لأننا

فهمناه على الوجه الذي أرادته. وهو رسالة غزلية إلى امرأة عن لسان رجل. أما القصد من اتخاذ الآنسة (دور) الرجل في موضوع غرامي - وهذا موضع الإنكار - فلم تذكره الكاتبة في حاشية الكتاب، ولم نفهمه نحن من طبيعة الشيء، فحملناه معذورين على العبث الذي نربأ بفتياتنا عنه.

أرادت الآنسة أن تكشف اليوم عن ذلك القصد في هذا الجواب، فقالت: إنها لم ترد أن تتحدث عن الحب، وإنما قصدت أن تضع نموذجاً للرسائل الغرامية في اللغة العربية يكون مبنياً على الشعور الصادق والمنطق السليم، لأنها تلقت رسالتين: واحدة من صديقة إنكليزية، وأخرى من صديقة مصريّة، فوجدت الأولى صورة صادقة لحياة الكاتبة، وحال البيئة، وروح الجماعة، من ألعاب وأصحاب ودرس، ولم تجد في الثانية إلا عواطف مبهمة، وجملاً مزوّرة؛ وأمثالاً محفوظة. ثم قرأت كتابين أحدهما للكاتبة (جين وبستر) وثانيهما للكاتب (سليم عبد الأحد) وموضوعهما (رسائل في الحب)، فوجدت الفرق بين هذين الكتابين، هو الفرق بين تينك الرسالتين. وأنا أحترم تفسير الآنسة الأديبة لقصدها وأسلمه من غير مناقشة، وأعتذر إليها إذن من نقد في غير محله، ولوم وجهته إلى غير أهله. ثم استميح سيدتي الأذن بمناقشة هذه الطريقة من حيث الفن. إنك تنتقدين ما قرأت من الرسائل العربية، لأنها تصدر من اللسان لا من القلب، وتنقل عن الحافظة لا عن الطبع، فهل تعتقدين أنك صدقت في نقل شعور العاشق حينما أخذت (دوره) في رسالتك وأنت لا تحسّين هذا الشعور ولا تدركين كنهه؟ لعلّك لو كنت أخذت (دور) الحبيبة أو (دور) (الخطيبة) لكنت أقرب إلى الصدق وأدنى إلى الإجادة، على أن هذه النماذج المصنوعة يا سيدتي أعجز من أن تعير الجامد روحاً والبليد حساً والعي إبانة، إن الفكرة أو العاطفة إذا أشرقت في الذهن أو في النفس وجدت الكلمة وخلقت الصورة على غير مثال ولا قاعدة، ذلك لأن الشعور وحده يوجد الفن كما ترين في توفيق الحكيم، ولكن الفن وحده لا يوجد الشعور كما ترين في عبد الأحد. وإن في الأدب العربي الحديث طرفة من هذا النوع الذي تريدين، هي آية من آيات الفن في دقة الصنعة، ولعلها لا تقل جمالاً عن تماثيل فدياس وصور رفائيل، ولكنها كهذه التماثيل وتلك الصور ينقصها شيء واحد هو كل شئ: ذلك هو الروح!! هل قرأت (رسائل الورد) للأستاذ الرافعي؟ أرجو أن تقرئيها، وأن تكتبي إليّ رأيك فيها . . .

أحمد حسن الزيّات.

من طه إلى هيكل

أخي العزيز:

قرأت كتابك الممتع الذي تنشره الرسالة اليوم وستنشره السياسة بعد غد وسيقرؤه الناس مرتين، فَأْذَن لي في أن أشكر لك هذا الكتاب أجمل الشكر لأنه راقني، وأثار في نفسي من حبك، والإعجاب الشديد ببراعتك ولباقتك، ما تثيره آثارك الأدبية كلها في نفسي حين اقرأها، وَأْذَن حقاً لي في أن أعود فأثني عليك لأني لن أتعب من الثناء عليك، ولن يعنيني أن أدهشك أو أخجلك، وإنما تعودت أن أقول الحق سواء عليّ إرضائك حتى أنتهي بك إلى الخجل، أم أسخطك حتى أنتهي بك إلى الثورة، أو إلى غضب هادئ فيه مكر، هو أشد من الثورة وأحدث، فاخجل يا صديقي ما وسعك الخجل، وادهش يا صديقي ما وسعك الدهش، واغضب يا صديقي ما استطعت احتمال الغضب، فأنت كاتب بارع، وأديب فذ كثير الإنتاج كأنك الجني، قد أخذت تحب الإعلان بعض الشيء في هذه الأيام حتى أنك لتنشر ردك عليّ مرتين. وفيك إسراع إلى الحكم وفتور عن البحث ورغبة عن الاستقصاء تضطرك أحياناً إلى الخطأ وتصرفك أحياناً عن الحق. وفي أسلوبك الرائع البارع وبيانك الفائق الرائق شيء من الضعف يقربه أحياناً من الابتذال. ويخيل إلي أيها الصديق العزيز أن هذه الملاحظة وحدها هي التي آلمك بين الملاحظات الأخرى التي أخذت بها كتابك ثورة الأدب، فأذن لي في أن أصر عليها وألح فيها. وأذن لي في أن أسر أيضا على كل رأي فيك لا أغير منه حرفا، ولاأنقص منه شيئا. فأنت تجيد حتى تصل إلى الإبداع، وتضعف حتى تشرف على الابتذال. ولك أن تلومني ما شئت لأني لم أهدك إلى مواضع الضعف في أسلوبك فقد يئست من هدايتك، لأنك كما تقول محب لأسلوبك كما هو، مشغوف به على علاته، لا تريد أن تغيره ولا أن تصلح مواضع النقص فيه، وكل ما أخشاه أيها الصديق إنما هو أن تتهمني

بالإسراف عليك والغلو في نقدك، وقد كنت هممت أن أضرب الأمثال من ثورة الأدب لضعف أسلوبك فيه أحيانا، ولكني كرهت ذلك واكتفيت بالإشارة. فأما وأنت لا تحب الإشارة ولا ترضى إلا التصريح. فأذن لي في أن أضع يدك على طائفة من مواضع الضعف لا في ثورة الأدب بل في هذا الكتاب القيم الذي ترد به علي في الرسالة اليوم وفي السياسة بعد غد.

فأنت تقول في هذا الكتاب (ولست أخفيك) ولعلك توافقني على إن الخير في أن تقول

وأنت تقول (ويرى أنها ما تزال لما تهدأ) ولعلك توافقني على أن (ولست اخفي عليك) لما هنا ثقيلة جدا مفسدة للأسلوب لوقوعها هذا الموقع النابي بين فعلين وأنت تقول (إذ وضعت تحت نظرك هذه العبارة) وأظنك توافقني على إن تحت نظرك هذه قريبة جدا إلى الابتذال. وأنت تقول (لن أرضى لنفسي أن أكون إلا أنا). ولعلك توافقني على أن الصواب إلا إياي.

ومثل هذا كثير أيها الصديق العزيز في هذا الكتاب وفي ثورة الأدب. ولعلك ترى إن الخطأ والابتذال شيء وان البساطة والإيجاز والقوة شيء آخر. وانك تستطيع، إن أردت، أن تكون بسيطا موجزا قويا دون أن تخطئ أو تدنو من الابتذال. أما بعد فقد أعجبني منك أيها الصديق انك سجلت في كتابك على ثنائي عليك كله تسجيلا. ففيم كان هذا التسجيل؟

أخائف أنت أن أنساه؟ وكيف أنسى ما سجلت المطبعة؟ أخائف أنت أن أنكره؟ فثق بأني قد أثنيت عليك صادقاً وما تعودت أن أعطي باليمين وأسترد بالشمال؟ بعض هذا المكر وبعض هذا الدهاء. فالأمر بينك وبيني أرفع من المكر وأمتن من الدهاء وأوضح من أن يحتاج إلى التسجيل والتشديد في الحساب.

أما عد فهل تأذن لي في ملاحظة يسيرة جدا كنت أود لو لم احتج إليها، ولكن حياة الأدباء في هذه الأيام تضطرني إليها. كم أحب للأدباء ألا يضيقوا بالنقد وألا يحفلوا بالرد عليه إلا أن تدعو إلى ذلك حقيقة علمية لا ينبغي إهمالها فماذا يعنيك أن يحسن رأي الناس أو يسوء في أسلوبك، فإن كان هذا يعنيك أو يؤذيك فالخير في ان تجعل هذا سرا بينك وبين نفسك لا أن تعلنه إلى الناس.

وأنا أرجو أيها الصديق العزيز أن تقبل مني تحية كلها الحب والإعجاب.

طه حسين

إلى الأستاذ توفيق الحكيم من الدكتور طه حسين

سيدي الأستاذ

لست أدري أيعنيني حقا ويعني أصحابي، أن نعرف رأي الجيل الجديد في جهدنا الأدبي وما أحدثنا من أثر في حياتنا الأدبية الجديدة. لأن العلم الصحيح برأي المعاصرين لا سبيل له، أو لا تكاد توجد السبيل التي توصل إليه. أو قل أن هذا الجيل الجديد نفسه قد يشق عليه جدا أن يصور لنفسه فينا رأياً صحيحاً مستقيماً بريئاً من هذه العواطف الحادة الجامحة التي تسيطر على نفوس الشباب، وتؤثر أشد التأثير فيما يكونون لأنفسهم من آراء في الكتاب والشعراء المعاصرين. فهم بين معجب يدفعه الإعجاب إلى الإغراق في الثناء، وبين ساخط يدفعه السخطإلى الإغراق في الذم. وأكاد أعتقد أن ليس من اليسير لكاتب أو شاعر أن يعرف رأي الناس فيه حقا، لأن هذا الرأي لا يظهرواضحا جليا بريئا من تأثير العواطف والأهواء والظروف، إلاحين يصبح الكاتب أو الشاعر وديعة في ذمة التاريخ. ومع ذلك فأنا أشكر لك أجمل الشكر رأيك في أصحابي وفيّ، وثناءك على أصحابي وعليّ ويسرهم كما يسرني أن يكون رأيك فينا صحيحاً، وأن يكون ثناؤك علينا خالصاً من الإسراف في الحب الذي يدعو إلى الإسراف في التقدير.

لقد قرأت كتابك الممتع فترك في نفسي آثارا مختلفة، ولكن أظهرها الإعجاب بهذا التفكير المستقيم العميق، وهذا الاطلاع الواسع الغني، وهذا الاتجاه الخصب إلى تعرف الروح الأدبي لمصر في حياتها الماضية والحاضرة والمستقبلة. وقد دفعني إعجابي بكتابك القيّم إلى ألاّ

أختص به نفسي فآثرت به قرّاء الرسالة وأذعته فيهم. وأنا واثق بأنهم قد رأوا فيه مثل ما رأيت وحمدوا منه مثل ما حمدت، وأثنوا عليك بمثل ما أثنيت، وهموا أن يناقشوا بعض ما جاء فيه من الآراء كما أريد أنا الآن أن أناقشها. ولست أدري أيقف أمر كتابك هذا عند إذاعته في الرسالة وردي عليه، أو يتجاوزهما إلى مناقشة طويلة عريضة، يشترك فيها كتاب مختلفون ونقاد كثيرون. فكتابك خليق بهذه المناقشة لأن أسلوب التفكير فيه جديد قيّم، ومهما أفعل فلن أستطيع أن أتناول كل ما أشعر بالحاجة إلى تناوله بالنقد والتمحيص من آرائك الكثيرة المتباينة التي أفعمت بها كتابك إفعاماً. ولكني أقف عند طائفة قليلة من هذه الآراء، لا أستطيع أن أدعها تمضي من غير نقد ولا تعليق.

وأول ما أقف عنده من هذه الآراء رأيك فيما تسميه شؤون الفكر في مصر، قبل الجيل الذي نشأنا فيه، فقد ترى أن هذه الشؤون كانت كلها محاكاة وتقليداً وتأثراً للعرب، واحتذاءً خالصا لمثلهم الأدبية، حتى جاء الأستاذ لطفي السيد ففتح لنا طريق الاستقلال الأدبي. وفي رأيك هذا شيء من الحق، لكن فيه شيئا من الإسراف غير قليل، فلست أعتقد أن الشخصية المصرية محيت من الأدب المصري محواً تاماً في يوم من الأيام، ولست أعتقد أن كلمة أنا لم يكن لها مدلول في لغة المصريين، ولست أعتقد أن المصريين كانوا في شبه إغماء حتى أقبل هذا الجيل الذي تتحدث عنه، فرد عليهم الحياة والنشاط. كل ما يمكن أن يصح لك هو أن الشخصية المصرية في الأدب كانت ذاوية ذابلة إلى حد بعيد في وقت من الأوقات لعلّه يبتدئ بآخر عصر المماليك. ولكن هذه الشخصية على ذبولها وفتورها لم تمت ولم تمح، بل ظلت حية تتردد أشعتها الضئيلة في آثار الكتاب والشعراء والعلماء، إلى أن كان العصر الحديث. ويكفي أن تقرأ الأدب المصري في أيام المماليك وقبل أيام المماليك، لتعلم أنّ شخصيتنا الأدبية كانت قوية منتجة، وكانت جذابة خلّابة في كل فرع من فروع حياتنا المعنوية. كانت في الشعر بنوع خاص أقوى منها في هذه الأيام، وأقرأ ديوان البهاء زهير فستجد صورتك فيه واضحة، وستجد نفسك فيه ظاهرة، وستجد عواطفك فيه ممثلة، وستجد هذا كله أشد جلاء وقوة عند هذا الشاعر القديم منه عند شعرائنا المعاصرين. والأمر ليس مقصورا على هذا الشاعر، بل هو شائع في شعرائنا جميعا قبل فتح الترك لمصر. وهو كذلك شائع في كتّابنا وعلمائنا، ولو قد كانت شخصيتنا ضعيفة فانية وفاترة واهية، لما أتيح لنا أن نؤدي الحضارة الإسلامية ونحفظها من الضياع حين أخذ التتار والأوروبيون عليها أقطار الشرق والغرب. ولم تكن هذه الشخصية في عصور الضعف والوهن خفية ولا غامضة، فأنت تجدها واضحة في شعر هؤلاء الشعراء المتأخرين الذين عاشوا في أول القرن الماضي وفي أثنائه، والذين لا نحب شعرهم ولا نطيل النظر فيه، والذين يخيل إلينا انهم كانوا يقلّدون فيسرفون في التقليد، ولكنهم برغم هذا التقليد الشديد لم يستطيعوا أن يمحوا مصريتهم ولا أن يخفوها. ولست أستطيع أن أضرب لك الأمثال هنا فذلك شيء لا ينتهي، ولكني أؤكد لك أن حكمك على هذه الشخصية المصرية في الأدب محتاج إلى التصحيح، وأنت قادر على هذا التصحيح، إن قرأت أدبنا المصري كما تقرأ الأدب الغربي وكما تقرأ الأدب العربي القديم، ستجد فيه تقليداً، وستجد فيه بديعاً كثيراً، ولكنك ستجد فيه نزعة مصرية واضحة تحسّها حيثما ذهبت، وأينما وجهت من أرض مصر، وتجدها عند المصريين المعاصرين الذين لم تخرّجهم الثقافة الأوروبية عن أطوارهم المألوفة، في الشعور والتفكير وفي النظر إلى الحياة والتأثر بها والحكم عليها. هذه النزعة صوفية بعض الشيء، فيها مزاج معتدل من الإذعان للقضاء والابتسام للحوادث، وفيها مزاج معتدل من حزن ليس شديد الظلمة، ولا مسرفاً في العمق، ومن سخرية ليست عنيفة ولا شديدة اللذع ولكنها على ذلك بالغة مقنعة، تمضي في كثير من الأحيان، ولعلك تجد هذه النزعة نفسها قريبا جداً منك. لعلك تجدها في أهل الكهف. فجيلنا إذن لم يحدث شخصية مصرية لم تكن، وإنما جلا هذه الشخصية وأزال عنها الحجب والأستار، وجيلنا لم يمنحها الحياة، وإنما منحها النشاط، وزاد حظها من الاستقلال وغيّر وجهتها، فلفتها إلى الأمام بعد أن كانت تصر على الالتفات إلى وراء، وليس هذا بالشيء القليل. وأنا

معجب بآرائك في الفن المصري، وفي الفن الإغريقي، ولكني لا أحب لك هذا الإسراع إلى استخلاص الأحكام
العامة، وإقامة القواعد التي لا تثبت للنقد والتمحيص. وآية ذلك أنك أنت نفسك قد أحسست بعض هذا الإسراع فأصلحته حين قضيت على اليونان في أول الكتاب ثم قضيت لهم في آخره. وستر أنك أسرعت في الأولى وأسرعت في الثانية، وكنت خليقا أن تصطنع الأناة فيهما جميعا. فليس من الحق أن اليونان كانوا أصحاب مادة ليس غير، وليس من الحق أن روحية اليونان هذه التي أنكرتها في أول الكتاب، وعرفتها في آخره قد جاءتهم من إلههم ديونيزوس وحده. فحظ اليونان من الروحية قديم تجده بيّناً في شعرهم القصصي في الإلياذة والأوديسا قبل أن تظهر فيهم الآثار العنيفة لدين ديونيزوس، وأنت تعلم أن ظهور هذا الإله عند اليونان متأخر العصر، وأنه في أكبر الظن اله أجنبي جاءهم من تراقيا، وأنه لم يعطهم هذه الحياة الروحية العليا، التي نجدها عند سقراط وعند تلاميذه، وعند أفلاطون بنوع خاص، وإنما أعطاهم حياة روحية أخرى كلّها تصوف وكلّها طموح إلى عالم مجهول مختلط تحيط به الأسرار والألغاز، وتعبّر عنه الرموز والكنايات. وكان هذا النوع من الروحية ذا مظهرين مختلفين، أحدهما شائع مشترك، يساهم فيه الشعب كله، وأهل الريف منهم خاصة، والآخر مقصور على طائفة معينة، هي هذه التي تتعلم الأسرار وتشترك في إقامتها وإحيائها. فكان دين ديونيزوس أشبه شيء بطرق الصوفية عندنا، علمها الصحيح مقصور على خاصة المتصوفة، ونشاطها العملي الغليظ شائع في أفراد الشعب جميعاً. وقد كان أثر ديونيزوس في الأدب اليوناني قوياً عميقاً. وحسبك إنه إله التمثيل، ولكن روحية اليونان الخصبة حقاً، الممتازة حقاً، التي أزعم معتذراً إليك إنك لا تستطيع أن تجد لها شبيهاً ولا مقارباً في مصر الروحية. هذه الروحية اليونانية تجدها واضحة جلية، عذبة ساحرة عند فلاسفة اليونان من تلاميذ سقراط، وعند أفلاطون بنوع خاص. ستقول كما قال كثيرون من قبل: إن أفلاطون قد زار مصر، وأخذ منها. ولست أنكر روحية مصر، ولكني لا أعرف عنها شيئاً كثيراً، ولعلي مدين لليونان بما أعرفه من الروحية المصرية. ومهما يكن من شئ فأنت توافقني على أن اليونان لم يكونوا أصحاب مادة فحسب، ولم تأتهم روحيتهم من ديونيزوس وحده، وإنما اليونان مزاج معتدل من المادة والروح. هم الذين يحققون مثلك الأعلى من المزاوجة بين المادة والروح، والملائمة بين الحركة والسكون، وبين القلق والاضطراب، ولذلك كان اليونان هم الذين أخرجوا للإنسانية في العصر القديم
أرقى تراث في الأدب والفن والفلسفة.
قلت إني لا أنكر روحية المصريين. وأقول أيضا إني مؤمن بروحية الهنود، ومعترف بتأثير الروحية المصرية والهندية في حياة اليونان. ولكني لا أعرف من روحية المصريين شيئاً كثيراً لأننا لا نعرف للمصريين فناً ناطقاً، لا نعرف لهم أدباً بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة. وأنت ترى معي أن الأدب هو أوضح مصور لحياة العقول والقلوب، لأنه يحقق مقداراً مشتركاً يمكن الاتفاق عليه، ويصعب الاختلاف فيه. فنحن إذا قرأنا الشعر أو النثر معاً، فهمنا فهماً واحداً أو فهمين متقاربين، ولكن الفن الصامت فن البحث والتصوير وما إليهما يثير في نفوس الناس معانٍ مهما تكن متقاربة متشابهة، فهي تختلف باختلاف الأشخاص والبيئات والعصور، ها أنت ذا تفهم من الفن المصري ما تفهم، ويشاركك فيه كثير من المثقفين ثقافة أوربية، ولكن أواثق أنت حقاً بأن قدماء المصريين كانوا يرون تماثيلهم وعماراتهم كما تراها، ويفهمونها كما تفهمها، ويستلهمونها كما تستلهمها؟ أرأيتك لو سألت مصرياً معاصراً لرمسيس عن رأيه في تمثال من التماثيل، أو عمارة من العمارات، أيقول فيهما مثل ما تقول؟ ومثل هذا يقال في الفن اليوناني، وفي كل الفنون الصامتة، فليس من الخير أن نعتمد عليها وحدها في تشخيص عقلية الأمم وروحيتها، إنما المشخص الصحيح للعقول والقلوب والأرواح هو الكلام، والكلام الجميل الذي نسميه الأدب ونقسمه شعراً ونثراً. فإلى أن يكشف لنا علماء الآثار المصرية عن أدب مصري قديم خليق بهذا الاسم أرجو أن تأذن لي في أن أشك في كثير جداً من هذه الأحكام التي يرسلها الأدباء والشعراء وأصحاب الفن على عقلية المصريين القدماء وروحيتهم، وبعدهم عن المادة، وقربهم من الروح.
كل هذه عندي أحكام يتعجل بها أصحابها، ويرسلونها على غير تحقيق، وإذن فقد يكون

من الإسراف أن تتخذ هذه الروحية المصرية الغامضة التي يسرع إليها الشك، والتي تعجز عن أن تثبت للبحث، والتي توشك إن تكون خيالاً تخيلته أنت وتخيله أصحابك من الأدباء ورجال الفن أساساً لأدبنا المصري الحديث. فمن يدري لعل البحث عن آثار مصر أن يكشف لنا بعد زمن طويل أو قصير عن حياة مصرية قديمة تغاير كل المغايرةهذا الخيال الذي تحبونه تطمئنون إليه، ويخيل إليكم أن الفن المصري القديم يوحيه ويمليه وينطق به.

نحن إذاً أمام أمرين أحدهما عرضة للشك الشديد، لا نكاد نعرف منه شيئاً، والآخر لا سبيل إلى الشك فيه؛ أحدهما حياة مصر القديمة وحضارتها العقلية - إن صح هذا التعبير - والآخر حياة العرب وحضارتهم. فإلى أي الأمرين نفزع لنقيم عليه بناء أدبنا الجديد؟ أإلى الشك أم إلى اليقين؟ وهنا يظهر الخلاف بينك وبيني شديداً حقاً، فقد أصلحت أنت رأيك في اليونان، ولا أستطيع مناقشتك في أحكامك على المصريين لأنها أثر الإلهام الفني، ولكن رأيك في العرب وآثارهم في حاجة شديدة جداً إلى التقويم. فقد كنّا نرى أن ابن خلدون جار على العرب فإذا أنت أشد منه جوراً وأقل منه عذراً. فقد يسّر الله لك من أسباب العلم بالتاريخ القديم، وتاريخ القرون الوسطى وتاريخ الحياة الأدبية والفنية والعقلية لمختلف الأمم والشعوب ما لم ييسّره لابن خلدون. فإذا قبل من هذا المؤرخ الفيلسوف أن يتورّط في الخطأ لأن عقله الواسع لم يحط من أمور اليونان والرومان والهند والفرس والمصريين القدماء بما نستطيع نحن الآن أن نحيط به أو نمعن فيه. فليس يقبل منك أنت هذا الخطأ وليس يقبل من المعاصرين بوجه عام. وقد ذهب إلى مثل ما ذهبت إليه جماعة من المستشرقين منهم دوزي ورينان، وأحسبكم جميعاً تظلمون العرب ظلماً شديداً وتقضون في أمرهم بغير الحق. فلو أنكم ذهبتم تقارنون بين العرب وبين الهنود والفرس، والمصريين القدماء لما كان من حقكم أن تقدموا هذه الأمم في الأدب على الأمة العربية بحال من الأحوال، لأننا لا نكاد نعرف من آداب هذه الأمم في تاريخها القديم شيئاً يقاس إلى ما بين أيدينا من الأدب العربي. فإلى أن يستكشف أدب هذه الأمم إن كان لها أدب أكثر من هذا الذي نعرفه، يجب أن نؤمن للعرب بالتفوق عليها في الشعر والنثر جميعاً. للمصريين فنهم، وللهنود قصصهم وفلسفتهم، ولكن للعرب شعرهم ونثرهم ودينهم، ولهم قصصهم أيضاً. فإذا أردت أن تقارن بين العرب والرومان فأظنك توافقني على أن الأدب العربي الخالص أرقى جداً من الأدب الروماني الخالص، أيأن الأدب الروماني إنما ارتقى حقاً حين أثّر فيه الأدب اليوناني، فالرومان تلاميذ اليونان في الأدب والفن والفلسفة، والعرب يشبهونهم في ذلك. ولكن العرب كان لهم أدب ممتاز قبل أن يتأثّروا بالحضارة اليونانية، ولم يكن للرومان من هذا الأدب الروماني الممتاز الخالص حظ يذكر. وقد تفوق الرومان في الفقه، ولكنهم لم يسبقوا العرب في هذه الناحية من نواحي الإنتاج، ولعل الأمة الوحيدة التي يمكن أن تشبه بالرومان في الفقه إنما هي الأمة العربية.

لم يبق إذن إلاّ أدب اليونان، هو الذي يمكن أن يقال فيه انه متفوق على الأدب العربي حقا، ولكن من الذي يقيس رقي الأدب في أمة من الأمم برقي الأدب في أمة أخرى؟ فإذا كانت ظروف الحياة العربية مخالفة أشد المخالفة لظروف الحياة اليونانية، فطبيعي أن تختلف الآداب عند الأمتين. وليس من شك في أن الأدب العربي قد صوّر حياة العرب تصويرا صادقا فأدى واجبه أحسن الأداء، وكل ما يؤخذ به الأدب العربي القديم هو أنّه لا يصوّر حياتنا نحن الآن، ولكن أواثق أنت بأن الأدب اليوناني القديم قادر على أن يصور الحياة الحديثة تصويراً يرضي أهلها؟! أمّا أنا فلا أتردد في الجواب على مثل هذا السؤال، فالأدب اليوناني القديم خصب غني ممتع من غير شك، ولكنه كالأدب العربي قد صوّر حياة القدماء، وهو قادر على أن يلهم المحدثين لا أكثر ولا أقل.

وأراك تذكر الفن العربي فتعيبه وتغض منه، وقد تكون موفقا في ذلك، ولكن أليس من الظلم أن تحمل هذا الفن على العرب وإنّما هو فن إسلامي ساهمت فيه الأمم الإسلامية المختلفة واستمدت أكثره من البيزنطيين. فإذا كان لك أن تعيب هذا الفن أو تحمده، فأحب أن تقتصد في إضافته إلى العرب، والخير أن تضيفه إلى الأمم الإسلامية. وأمر العرب بالقياس إلى الفن والأدب والعلم والفلسفة بعد العصر العباسي الأول، كأمر اليونان بالقياس إلى هذه الأشياء كلها بعد غارة الاسكندر على الشرق.

كانوا ملهمين باعثين للنشاط دافعين إلى الإنتاج، مقدمين لغتهم وعاء لما تنتجه العقول والملكات على اختلافها، وقد يكون من الحق أن كل مقامة من مقامات الحريري أشبه بباب من أبواب جامع المؤيد، ولكن من الحق أيضا أن الآثار الأدبية التي تشبه مقامات الحريري والآثار الفنية التي تشبه أبواب جامع المؤيد كثيرة جدا عند اليونان في العصر المتأخر، وعند البيزنطيين، ولعل هذه الآثار اليونانية البيزنطية هي التي أحدثت عند المسلمين مقامات الحريري وأبواب جامع المؤيد. وأنت تميز اليونان بالحركة، وتميز العرب بالسرعة، وتستنبط من هذه السرعة ظلماً كثيراً للعرب، كما فعل ابن خلدون من قبل، وليس من شك في أن العرب يشاركون اليونان في الحركة، ولكن ليس من شك أيضاً في انك تغلو غلواً شديداً في وصفهم بالسرعة. إنما أسرع العرب في الخروج من باديتهم، ولكنهم حين بلغوا الأمصار استقرّوا فيها، وطال بهم المقام، فأثروا في أهلها وتأثروا بهم، وكانوا في القرون الوسطى أشبهالأمم باليونان في العصر القديم. ورأيك في الموسيقى العربية واليونانية في حاجة إلى التصحيح أيضا، فنحن نعلم من الموسيقى اليونانية شيئاً يسيراً غير مضبوط، ولا نعلم من الموسيقى العربية شيئاً، ولست أدري إلى أي أمة أو إلى أي جيل نستطيع أن نرد هذه الموسيقى، وهذا الغناء اللذين نتحدث عنهما. ولكن الشيء الذي لا أشك فيه هو أن من العسير جداً أن نردهما إلى العرب القدماء. وكل شئ يدل على أن الموسيقى والغناء العربي كما كان يعرفهما العرب أيام الأمويين والعباسيين وفي الأندلس كانا متأثرين أشد التأثر بالموسيقى البيزنطية والغناء البيزنطي. فإذا أردت أن تعيبهما فلا تنس أن تعيب أصلهما اليوناني القديم.

وأريد الآن أن أدع هذه المناقشات التي تمس أموراً جزئية وأن أخلص إلى جوهر الموضوع الذي تريد أن تعرف رأيي فيه، وهو: الروح المصري الذي ينبغي أن يقوم عليه الأدب الحديث ما هو؟ وما العناصر التي تؤلفه؟ وأنا استأذنك في أن أكون يسيراً سهلاً، لا متعمقاً ولا متكلّفاً، ولا باحثاً عن الظهر في الساعة الرابعة عشرة (كما يقول الفرنسيون) فالأمر أيسر جداً من هذا كله. عناصر ثلاثة تكون منها الروح الأدبي المصري، منذ استعربت مصر، أولها العنصر المصري الخالص الذي ورثناه عن المصريين القدماء على اتصال الأزمان بهم، وعلى تأثرهم بالمؤثرات المختلفة التي خضعت لها حياتهم، والذي نستمده دائماً من أرض مصر وسمائها، ومن نيل مصر وصحرائها. وهذا العنصر موجود دائما في الأدب المصري الخالص، قد حاولت تشخيصه بعض الشيء في أول هذا الفصل، فيه شيء من التصوف، وفيه شيء من الحزن، وفيه شيء من السماحة، وفيه شيء من السخرية. والعنصر الآخر هو العنصر العربي الذي يأتينا من اللغة ومن الدين ومن الحضارة، والذي مهما نفعل فلن نستطيع أن نخلص منه، ولا أن نضعفه ولا أن نخفف تأثيره في حياتنا، لأنه قد امتزج بهذه الحياة امتزاجاً مكوناً لها مقوماً لشخصيتها، فكل إفساد له إفساد لهذه الحياة ومحو لهذه الشخصية، ولا تقل انه عنصر أجنبي، فليس أجنبياً هذا العنصر الذي تمصر منذ قرون وقرون، وتأثر بكل المؤثرات التي تتأثر بها الأشياء في مصر من خصائص الإقليم المصري، فليست اللغة العربية فينا لغة أجنبية، وإنما هي لغتنا وهي أقرب إلينا ألف مرّة ومرّة من لغة المصريين القدماء. وقل مثل ذلك في الدين، وقل مثله في الأدب.

أما العنصر الثالث، فهو هذا العنصر الأجنبي الذي اثّر في الحياة المصرية دائماً، والذي سيؤثّر فيها دائماً، والذي لا سبيل لمصر إلى أن تخلص منه، ولا خير لها في أن تخلص منه، لأن طبيعتها الجغرافية تقتضيه، وهو هذا الذي يأتيها من اتصالها بالأمم المتحضّرة في الشرق والغرب. جاءها من اليونان والرومان واليهود والفينيقيين في العصر القديم، وجاءها من العرب والترك والفرنجة في القرون الوسطى، ويجيئها من أوربا وأميركا في العصر الحديث. فخذ الآن أي أثر أدبي مصري فحلله إلى عناصره التي يتكون منها، فستجد فيه هذه العناصر الثلاثة دائما. ولكنك ستجد بعضها أقوى من بعض بمقدار حظ المؤلف أو المنشئ من هذه الثقافات الثلاث المختلفة. بعض هذه الآثار يغلب فيه العنصر العربي، وبعضها يغلب فيه العنصر الأوربي، وقليل جدا منها يظهر فيه العنصر المصري القديم. فإذا لم يكن بد من أن أصور المثل الأعلى لروحنا المصري في أدبنا الحديث، فأني أحب أن يقوم التعليم المصري على شيء واضح من الملاءمة

بين هذه العناصر الثلاثة فتشتد عنايته جدا بالتاريخ المصري، والفن المصري، والأدب المصري على اختلاف العصور. وتشتد عنايته جداً بالأدب العربي، والتاريخ العربي، والدين الإسلامي. ثم تشتد عنايته بالثقافة الحديثة. وأخوف ما أخافه على هذا الروح المصري شيئان: أحدهما أن تلهينا الثقافة الأوربية عن الثقافة المصرية والعربية، وكل شيء يغرينا بها ويغريها بنا فهي ضرورة من ضرورات الحياة، فمن الحق علينا أن لا نضيع حظنا منها، ولكن من الحق علينا ألاّ نفني أنفسنا فيها. الثاني أن نؤثر ثقافة أوربية على ثقافة أوربية فنؤثر الثقافة الإنكليزية (كما يريد قوم وكما تريد سياسة الدولة) أو نؤثر الثقافة اللاتينية (كما يريد قوم آخرون، وكما كانت تريد سياسة الدولة من قبل) هذا خطر لأنه يجعل الروح المصري الناشئ وجها لوجه أمام روح أوربية أقوى منه وأشد بأسا. فيوشك أن يخضع له ويفنى فيه، فلو قد فتحنا أبوابنا للثقافات الأجنبية على اختلافها، لانتفعنا بها كلها ولأضعف بعضها بعضا، وحال بعضها دون بعض أن يفنينا أو يسيطر علينا. لذلك تمنيت وما زلت أتمنى لو لم تفرض على مصر لغة بعينها من لغات الأوربيين، بل جعلت اللغات الحية الراقية كلها مباحة للطلاب يأخذون منها ما يشاءون.

هذا الروح المصري الذي يتكون من هذه العناصر الثلاثة، هو الذي نشهده الآن عندك وعند كثير من أمثالك المثقفين، وهو الذي نجد في نشره وإذاعته بين المصريين جميعا، وهو الذي سيطبع أدبنا المصري الحديث بطابعه القوي سواء أردنا أم لم نرد. فشخصيتنا المصرية العربية أقوى بحمد الله من أن تمحى أو تزول، والحضارة الأوربية أقوى وألزم من أن نعرض عنها، أو نقصر في الأخذ بحظنا منها. ستسألني: ولكن الأديب؛ من أين يستمد خواطره، ويستلهم وحيه؟ فأجيبك: من هذه العناصر كلها، أو من أي من هذه العناصر شاء، سيكون منّا الأديب الذي يستلهم العنصر المصري القديم؛ أليس بين الفرنسيين من يستلهم اليونان؟ وسيكون منّا الأديب الذي يستلهم العنصر العربي؛ أليس من الفرنسيين من يستلهم الرومان؟ وسيكون منّا أن يستلهم العنصر الأوربي، أليس من الفرنسيين من يستلهم السكسونيين؟ بل من يستلهم الشرق الأقصى، أو الشرق الأوسط، أو الشرق القريب، بلى. والأمر كذلك عند الإنجليز وعند الألمان، وعند غيرهم من الأمم الحية. فأنت ترى أن أمر هذا الروح المصري أيسر من أن يدعو إلى الخوف أو يضطر إلى الحيرة وأكبر الظن أنّ مصدر هذه الحيرة وذلك الخوف إنّما هو اضطراب سياسة التعليم في مصر وقيامها على غير أساس، وسيرها في غير طريق، ولو قد وضحت هذه السياسة واستقامت منذ زمن بعيد لما تساءلنا الآن عن الروح المصري، ولا عن الأدب المصري من أين يستمد الحياة.

أمّا بعد؛ فقد كنت أريد أن أقتصد وأؤثر الإيجاز، ولكن الحديث معك أغراني بالإطالة وحببها إليّ، وأرجو أن لا أكون عليك ولا على غيرك من القرّاء، وأرجو أن تقبل تحيتي الخالصة.

أدب اللفظ وأدب المعنى

للأستاذ أحمد أمين

من قديم اختلف علماء البلاغة، أهي في اللفظ أم في المعنى، وقد عقد عبد القادر الجرجاني فصلاً ممتعاً في آخر كتابه دلائل الأعجاز ذكر فيه حجج الفريقين، وقد كان فريق يرى أن المعاني مطروحة أمام الناس، والبليغ من استطاع أن يصوغها صوغاً جميلا، وإنّما يتفاضل الأدباء بجودة السبك وحسن الصياغة، ويرى الفريق الآخر أن المعاني هي مقياس التفاضل، وإنّ الأديب يفضل الأديب بغزارة معانيه، وجدة أفكاره، وأظن أن الزمان فصل في هذه القضية، إذ أصبح واضحاً أن حسن الصياغة، وجودة المعاني، عنصران أساسيان لابد منهما للأديب، وان من تجرد من أحدهما لا يسمى أديباً بحال، وان المثل الأعلى للأديب معان غزيرة سامية، وصياغة جيدة محكمة.

غير أنّ هناك - ولا شك - مواضع تراعى فيها المعاني أكثر مما يراعى فيها اللفظ وصياغته، كفصول النقد الأدبي، والمقالاتالعلمية الأدبية والمقالات التاريخية الأدبية؛ وتراجم الأشخاص ونحوها، فالغاية من هذه الموضوعات ليست اللذة الفنية، وإنّما الغرض الأول هو المعاني والحقائق، فيجب أن تكون غزيرة فياضة، وكل ما نتطلبه فيها من اللفظ أن يعبّر عن هذه المعاني في دقة ووضوح، أمّا القصد إلى محسنات البديع ومجملات الصناعة فلا داعي له، وربما كان إفراط الكاتب في هذه المحسنات حجباً

للمعاني عن الأنظار، ومضلة للعقول عن الوصول إلى حقيقة المعاني، وهي أقوم ما في هذه الموضوعات.

وهناك ضرب آخر من الأدب كالشعر والقصص فيه مراعاة اللفظ وحسن السبك في المنزلة الأولى، ولست أعني أن الحقائق والمعاني فيهما مجرّدة من القيمة بل هي كذلك من مقدماتهما، والشاعر الذي يجيد السبك ولا يجيد المعنى ليس من شعراء الطبقة الأولى، وخير الشعراء من صح حكمه، واتسعت تجاربه في الحياة. وكان له علم عميق في كثير من الأشياء التي حوله ثم صاغ ذلك كله صياغة جميلة، وهذا الأدب الصرف كالشعر والقصص والقطع الفنية الأدبية، ليس الغرض الأولى منه نقل المعاني كما في الصنف الأول، وإنّما الغرض منه إثارة عواطف القارئ والسامع.

والألفاظ - كما يظهر لي - لم توضع لنقل العواطف، وإنما وضعت لنقل المعاني، والألفاظ أعجز ما تكون عن نقل عاطفة الأديب إلى القارئ. فكيف أنقل إعجابي بالطبيعة أو أنقل حباً ملأ جوانحي، أو غضباً استفزّني، أو رحمة ملكت مشاعري؟ لم توضع الألفاظ لشيء من ذلك، إنما وضعت لنقل مقدمات ونتائج منطقية، ولكن ما حيلتنا وقد خلقنا عاجزين لم نمنح لغة العواطف، ولابد لنا من التعبير عنها ونقلها إلى قارئنا وسامعنا، لذلك استخدمنا لغة العقل مرغمين، وأردنا أن نكمل هذا العجز بضروب من الفن، كموسيقى الشعر من وزن وقافية، وكالسجع، وكل ضروب البديع، وليس القصد منها إلاّ أن تكمل نقص الألفاظ في أداء العواطف.

في هذا النوع من الأدب ليس من الضروري أن تكون معانيه جديدة، وربما يستطيع الأديب أن يجعل من المعنى المطروق قصيدة رائعة، أو قصة ممتعة، وكل ما فيها من جديد صياغتها الجديدة، وخيالها المبتكر، وليست وظيفة الأديب فيها أن يعلم الحقائق، إنما وظيفته أن يثير مشاعر الناس بها، ويعبر عمّا لا يحسنون التعبير عنه، وان كانت المعاني في نفوسهم، وبين سمعهم وبصرهم. كل إنسان يشعر بجمال الوردة، ولكن الأديب يملأ مشاعرك بجمالها، ويوحي إليك بمعان ترتبط بها، مثل اقتران تفتحها بتفتح الشباب ونشوة الأمل، أو ما تبعث من شجن. وجودة الأسلوب وحسن النظم قد يرقيان بالمعاني المألوفة فيخرجانها في شكل جذاب ولكن لا يمكن الأديب على كل حال أن يتبوأ مكاناً عالياً إذا أعتمد على الأسلوب وحده وكان مصاباً بالفقر العقلي.

في أدب كل أمة نرى أدب اللفظ وأدب المعنى، وفي الأدب العربي أمثلة واضحة لذلك، فمقامات الحريري والبديع أدب لفظ لا معنى، قلّ أن تعثر فيهما على معنى جديد، أو خيال رائع، وهما من الناحية القصصية في أدنى درجات الفن، ولكنهما تؤديان غرضا جليلا من الناحية اللفظية، ففيهما ثروة من الألفاظ والتعبيرات لا تقدر، ويظهر أن مؤلفيهما قصدا إلى تعليم اللغة وإمداد المتعلم بثروة كبيرة من الألفاظ والأمثال والتعبير، وتحايلا على ذلك بهذا الوضع الجذاب، فإن كانا قد قصدا إلى ذلك فقد نجحا نجاحاً تاماً وان كان قصدهما غير ذلك فلا.

وشعراء القرون المظلمة بعد سقوط بغداد وكتابها أدباء ألفاظ: رواء في العين، ولا شيء في

اليدين، بل إن أدب كثير منهم لا هو أدب لفظ ولا هو أدب معنى، يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا، والمعري في لزومياته أديب معنى لا أديب لفظ، غزرت معانيه وقصرت ألفاظه، حاول أن يدخل المحسنات البديعية في شدة ففشل، قد التزم ما لايلزم فأضاع ما يلزم، والمتنبي - على الجملة - أديب لفظ ومعنى قد وقع من معاني الحياة على ما لم يقع عليه من قبله، ثم صاغه صياغة قوية حببته إلى النفس.

وبعد فيظهر لي أن الزمن سائر إلى تقويم المعاني أكثر من تقويم الألفاظ، وشأن الناس في تقويم الأدب شأنهم في تقويم الجمال في سائر الفنون، فمن لم يصلوا إلى درجة راقية من المدنية يعجبهم من الألوان اللون الزاهي كالأحمر القاني والأصفر الفاقع، ويعجبهم من الأجسام السمين القوي في ملامحه، ومن الأصوات الطبل والمزمار، فإذا بلغوا مبلغا كبيرا في الحضارة أعجبتهم الألوان المتناسقة والألوان الخفيفة، كما تعجبهم وحدة الفكرة التي تنسق الألوان المختلفة والمظاهر المتعددة، وأعجبهم من جمال الإنسان الرشاقة وخفة الروح، وأعجبوا بجمال الحركة، وقوّموا جمال المعاني أكثر مما يقومون جمال الملامح، ونظروا إلى جمال الروح أكثر مما ينظرون إلى جمال الجسم، حتى في جمال الجسم يقومون وحدة التناسق والنسبة

بين الأعضاء أكثر مما يقومون جمال الوجه وحده، وفي الموسيقى تعجبهم النغمات الهادئة، والنغمات المتناسقة، والنغمات التي تمثل المعاني. كذلك شأنهم في الأدب يكرهون السجع الدائم، والكتابة التي اختفت معانيها أو ضاعت وراء الزينة المفرطة والزخرف الكثير، والقافية الطويلة على وتيرة واحدة، وتعجبهم البساطة في القول والزينة بقدر، والألفاظ كوسيلة لا غاية، يكرهون النكت كلها لعب بالألفاظ، والنكت تلذغلذغا صريحا، وتعجبهم النكتة أسست على معنى، والنكتة تلذع في إيماء ورقّه.
إن الأديب إذا رزق حظوة في السبك، وأصيب بفقر في المعنى كانت شهرته وقتية وقيمته محدودة الزمن، ولا يلبث الناس أن يدركوا ضعفه وفقره فينبذوه، والأديب الخالد من زاد في معارفنا ومشاعرنا بما في قوله من معنى وقوة.
أديب اللفظ فارغ الرأس قليل العلم بما حوله، قريب الغور، قد ستر كل هذا بزخرف القول كما تستر الشوهاء عيبها بالأصباغ، رخصت بضاعته فبالغ في التجمل في عرضها ولفت الأنظار إليها. وشعر إنها مزيفة فغضب لنقدها والتلويح بامتحانها. والأمة في طفولتها
وشيخوختها يعجبها هذا النوع من الأدب، لأن خفة رأسها من خفة رأس أدبائها. ولأن العقول السخيفة يعجبها السحر والشعوذة وألعاب البهلوان، والأدب اللفظي المحظ نوع من هذا اللعب. فإذا نضج عقلها تغير ميزاتها ونفذ نظرها إلى أعماق الشيء، لتعرف ما وراء الظواهر. وإذ ذاك تقدر المعاني أكثر ممّا تقدر الألفاظ، ترى الألفاظ جسما والمعنى روحه. وترى المعني غاية واللفظ وسيلة. وتستحسن اللفظ لا لذاته، ولكن لأنه لفق المعنى.
تزين معانيه ألفاظه ... وألفاظ زائنات المعاني
ما أحوج أدبنا العربي الحديث إلى المعنى القوي الغزير في اللفظ الجميل البسيط!
نظرة في نظام بيعة
الخلفاء
النمو الثاني.
للأستاذ محمد فريد أبو حديد
- 2 -
هل استطاع التاريخ أن يصدر حكمه في ثورة الفرنسيين؟ إن هذه الثورة قريبة العهد، فحوادثها قريبة الحدوث وأكثرها مدون في وقته، مضبوط التاريخ وحكومة اليوم قائمة على تلك الثورة، ومن أكبر الجرائم في دولتها أن يعمل أحد على مس نظام الجمهورية الذي وضعته تلك الثورة، ومع ذلك فأنّا نجد الأفكار مقسمة مضطربة إذا تناولت ذكرها وحوادثها. فقوم من المؤرخين يتشيعون لها ويتغنون بكل ما كان فيها. وقوم آخرون ينكرون عليها فعالها، ويزوّرون من قاموا بها وآزروها.
وهل يستطيع العرب ألاّ أن يكونوا كذلك؟ فأن ثورتهم في مدة الخليفة عثمان لم تكن ثورة من كل الناس، وان اشترك فيها كل العرب بالرأي والقول، وتناولوها بين منكر ومنتصر. ولسنا بسبيل هؤلاء أو أولئك، ولكننّا نرى إنها مثل الثورة الفرنسية، ان اختلفت فيها الآراء فأن الكتّاب جميعا متفقون على انها كانت ظاهرة اجتماعية طبيعية. فلندع الخوف في هل كانت تلك الثورة حقا أم كانت باطلة، وحسبنا من القول أن يقال إنها كانت ثورة طبيعية، وإنها كانت خطوة في سبيل بناء الدستور العربي. وهي وان لم يشترك فيها كل العرب قد كان فيها ممثلون للأنحاء المختلفة من بلادهم، فقد كان فيها جماعة من مصر وجماعة من مصري العراق، كما اشترك فيها الأعراب من أنحاء جزيرة العرب. وقد جمعت جماعة من الزعماء كما ضرب فيها العبيد بسهم فعدد الثائرين كان محدودا، ولكن فكرة الثورة كانت شائعة، وكانت رقعتها كذلك محدودة، ولكن مدى الاشتراك فيها كان يشمل حدود الدولة العربية إذ ذاك. لسنا نقصد أن نقول إن العرب جميعا كانوا يريدون سفك دم الخليفة الشهيد، فقد كان هذا أبعد شيء عنهم، بل أن الفكرة ذاتها لم تكن في نفوسهم من أول الأمر، ولكن الثورة كانت في نفوس الجميع. وكانت ثورة طبيعية لا هي وليدة تدبير ولا هي بنت حادثة، بل كانت نتيجة فكرة اختمرت في النفوس حتى صارت عقيدة، ثم كان من الأمر ما كان عن عقيدة.
كان انتخاب سيدنا عثمان كما سبق القول نتيجة اختيار واسع الرقعة وكان كذلك قائماً

على تعهد وبرنامج، ثم جرت حوادث على مرّ الأيام لاحظها العرب وأحصوها في نفوسهم، وإذا قلنا العرب فإنما نقصد جميع العرب سواء في ذلك من كانوا في قلب الجزيرة والحجاز ومن كانوا في الأمصار. وهل كان أهل الأمصار يتركون الأمر يسير كما يشتهي فئة من قريش وهم جنود الدولة الذين يوفرون له الفيء والأموال، ويعودون عليها بالنصر والفتح. ولسنا في حاجة إلى هذا التساؤل فحسبنا أن نتذكر أن اختيار عثمان كان قائما في ناحية منه على رضا جنود الأمصار، فإذا لاحظ هؤلاء الجنود كيف يذهب فيئهم في غير وجوهه انقلبوا ينتقدون رئيس الدولة الذي يسمح بمثل هذا، وإذا رأوا مشيختهم يُعزلون عن البلاد التي فتحوها لكي تسلم القيادة إلى فتية لا غناء لهم ولا تحيط بهم ذكريات المجد والفتح أحاطتها بالزعماء المعزولين نفرت نفوسهم وطفقوا يحصون على الوالي الجديد أعماله ويسيئون تأويلها أو يزيدون تأويلها قبحا. ومنذ بلغ الحال هذا المدى بدأ النقد يتخذ شكل الشكوى. ونطقت الألسنة بما دار في النفوس من التهم.

ولسنا نقصد أن نذكر الحوادث أو نسرد ما كان من الخطوات التي أدت إلى الثورة، فذلك معروف متداول، ولكننا نذكر أمرين لا غنى عنهما: الأمر الأول أن رؤساء العرب في المدينة اقتنعوا اقتناعا كبيرا بحق الشاكين ووجوب إزالة ما يشكون منه وبدأت نفوسهم تنحرف عن عثمان عندما رأوه لا يبدي الجد في إحقاق الحق وكان جديرا به أن يكون عند الحق مقيدا. والأمر الثاني أن الذين كانوا يأتون للشكوى لم يكونوا من أهل الفساد والعبث بل كانوا رجالات من الزعماء أتوا وقلوبهم موغرة تملؤها الشكوى، وما كانوا يقصدون سوى أن تزال مواطن تلك الشكوى بعد أن بثوها مرارا.

وما كانوا مدفوعين إلاّ بعامل واحد وهو الإصلاح. وكان أبعد شيء عنهم أن يفكروا في قتل الخليفة، ويثيروا بذلك المشكلات والعداوات أو أن ينقضوا بناء الدولة الذي كان لهم الفضل في بنائه فضلاً عن انهم من جنود الدولة الحريصين على الدفاع عنها وبسط سلطانها. وإذا كان لابد من ضرب المثل للتدليل على صدق مذهبنا في هذين الأمرين

فأنّا نذكر القراء بما كان من عبد الرحمن بن عوف وهو كما نعلم صاحب اليد في اختيار عثمان. فأنه غير متهم إذا هو قام يذكر عثمان بما وجب عليه. ولقد بلغ به الأمر أن خاصم عثمان وحلف ألا يكلمه بكلمة حتى يفرق بينهما الموت، وقد بر بقسمه فقد قيل إنه لمّا حضرته الوفاة دخل عليه عثمان عائداً فأدار وجهه إلى الحائط ولم يكلمه. وذلك موقف كان يدعو إلى ترك الخلاف لو لم يكن الأمر قد بلغ حداً لا يرتاح الضمير إلى التساهل فيه. وإذا شئنا أن نكرر الأمثلة التي تدل على انحراف زعماء الصحابة عن عثمان في آخر الأمر لم نضق بالأمر، فقد غضب طلحة حتى كان فيمن يحرض على عثمان تحريضاً شديداً، وغضب عمار بن ياسر وبلغ الأمر بأبي ذر الغفاري أن نفي من المدينة، ولكنه لم يكن راضياً وإن لم يظهر شيئاً من غضبه بأكثر من كلمات قالها لعثمان أو لبعض أهله. ولقد كان علي (رض) في أشد المواقف فأنه كان في حيرة بين واجبه نحو صديق آخى بينهما رسول الله (ص)، وبين واجبه نحو العدل وهو بقية العهد الأول من عهود الإسلام، وهو البطل الذي ما كان يرضى بالحيد عن العدل مهما كان في سبيل ذلك من الأخطار. على انه كان مع ذلك يحاول أن يحمل الخليفة على الإصلاح لكي يتحاشى النكبة التي لاحت في الأفق.

وأما الأمر الثاني وهو حسن نية الثوار فليس أدل عليه من أنهم لم يرضوا بترك الأمر فوضى بعد قتل الخليفة، بل كانوا يعرضون الأمر على الزعماء. ويظهرون لهم وضوح حجتهم في ثورتهم، ولم يفكر أحدهم في أن يذهب إلى مصره ليضرم فيه النار، أو أن يهرب إلى بلده قبل أن يستقر الأمر ويتدارك ما كان من الخطب، فلم يكونوا بالمجرمين الذين متى تمت جريمتهم فزعوا هاربين من ضوء الشمس يحاولون أن يدخلوا في غمار الناس حتى لا تنالهم معرة فعلهم. فكانوا أشبه الناس بأصحاب يوليوس قيصر عندما قتلوه وقاموا بين الناس معترفين بما أتوه، وبأنهم إنما فعلوا فعلتهم دفاعاً عن الحق والحرية.

قتل الخليفة ولكن قتله كان غير مدبر تدبيراً محكماً نتيجة تفكير طويل، بل جاء عندما فزع الثوار إذ بلغهم أن الجيوش الموالية له تتحرك نحوهم لتبطش بهم من أنحاء الأمصار. وقد ذهب الخليفة ضحية الظروف القاسية التي كانت تخيم على دولة العرب

والتي كانت تحتاج إلى رجل له عقلية غير عقلية عثمان. عقلية محضة لا تردد فيها بين العواطف المختلفة،
ولا تنازع فيها بين جانبي العدل والميل الطائفي، فأمّا أن تكون عقلية دنيوية محضة تسير على الميل الطائفي والأثرة ولكنها تسير قُدُماً بغير تردد، وأما أن تكون عقلية عادلة محضة تسير مع العدل قدماً بلا تردد. وأما عثمان فقد كان قلبه مملوءاً بفكرة العدل، ولكنه كان لين العاطفة يصل قرابته، ولا يستطيع إلاّ أن يكون مائلاً نحو من لهم به مساس من رحم. فتردد بين الدافعين المتضادين، وكانت الكارثة من وراء هذا التردد.
ولما تم الأمر عاد الثوار إلى أنفسهم وكأنهم يريدون إنقاذ الموقف فقضوا أسبوعاً يبررون فعلهم، ويعرضون الخلافة على الزعماء. وقد أرادوا ألاّ يبعدوا عن السنن التي اختطها السلف وألاّ يحيدوا عمّا سار عليه العرب في بناء دستورهم منذ كانت دولتهم، فرأوا أن يرجعوا إلى آخر خطوة من خطى ذلك الدستور قبل الثورة، ألا وهي خطوة الشورى. ولم يكن الوقت ليسمح لهم بالسير بعد ذلك خطوة أخرى جديدة في سبيل تقدم ذلك الدستور وهي الخطوة التي كانت تنتظر لبلوغ نظام كفيل بتمثيل العرب واختيار أليقهم للخلافة إذ أنّ ذلك كان يستلزم الهدوء والاستقرار. فلمّا لم يستطيعوا السير إلى الأمام عادوا إلى حيث كانوا ورجعوا إلى المرشحين للخلافة بعد مقتل عمر. وكان بعضهم قد لحق بربه مثل عبد الرحمن بن عوف وكان بعضهم بعيدا عن المدينة، وهو الزبير. فعرض الخلافة على طلحة فأبى وكره أن يتقدم في مثل هذا الظرف خوفاً من التهمة، إذ كان ممن ظهر منهم التحريض الصريح على عثمان، وأمّا سعد بن أبي وقاص فقد كان أخرج نفسه منها منذ حادثة الشورى وأبى أن يعاود نفسه في ذلك الأمر، فلم يبق من المرشحين للخلافة من أهل الشورى إلاّ علي (ع). وقد عرض الثوّار الخلافة عليه فلم يرض بادئ الأمر، وأبى كل الإباء أن يقبلها.
وكان عليّ عند مقتل عمر (رض) أول المرشحين للخلافة، ولولا أنّه أبى أن يقيد نفسه بغير كتاب الله وسنة نبيّه، ورفض أن يحرم نفسه الاجتهاد على هذين الأساسين فيما يقابله من مسائل الدولة لكان هو الخليفة بعد عمر. ولمّا رأى الثوار أن كل أهل الشورى لا يواتونهم فيما يطلبون عادوا إلى عليّ وغيروا لهجة عرضهم وخاطبوه بما وجد في قلبه موقعا. وذلك أنهم بدءوا يظهرون لهم حال الدولة الإسلامية، وقد مضى عليها أسبوع بغير خليفة، وحدودها ممدودة إلى أعداء كثيرين. وإذا استطال الأمر بها لم يؤمن عليها من
الضياع والانفراط. وهل كان عليّ يترك دولة الإسلام في مثل هذا المأزق ويتردد في قبول حمله والاضطلاع به؟ لقد كانت المشكلات واضحة لكل ذي عينين، وكان كل من عرضت عليهم الخلافة يرفضونها، وهم يخشون ما وراء قبولها من العقبات والأخطار والمتاعب. فلم يكن الأمر أمر خلافة وسلطة وسيادة بل كان الأمر أمر شقاق، وكان على الخليفة أن يحاول القضاء عليه، وأمر دولة تريد أن تنهار ويجب الاحتفاظ بها وحفظها من الضياع، وأمر شهوات وأغراض يريد أصحابها أن يصلوا إليها متسترين بالثأر، والواجب حماية المجتمع والدولة الإسلامية منها. وقد كان عليّ من بناة الدولة وأول أبطالها الذين تعرضوا للموت مرارا في سبيل بنائها، فلمّا أن جاءه الثوّار من ناحية ما يحيط بها من الأخطار ثار قلبه ونسي كل ما يمكن أن يلقى في سبيل الدفاع عنها، وقبل ما يعرضه الثوّار، وكان عن الخلافة راغبا. وقال عند ذلك كلمته القصيرة الكبيرة الدلالة: (قد أجبتكم لما أرى، وأعلموا أني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، وان تركتموني فإنما أنا كأحدكم، إلاّ أني أسمعكم وأطوعكم لمن ولّيتموه أمركم).
على أن هذه الثورة وإن كانت في مظهرها هدماً قد كانت في الحقيقة بناء له خطر عظيم في دستور الدولة العربية. فقد أظهر العرب بعنف أن الخليفة إذا قبل شرط المبايعة كان لزاما عليه أن يفي بما تعهد به، وانّه إن لم يفعل كان للشعب أن يعزله. فإن أبى أن يعتزل أو يعتدل كان للشعب أن يثور عليه. وإذن كان على الخليفة الذي يلي أمر العرب بعد ذلك أن يحتاط ويحترس في السير على منهاجه الذي بايع عليه.
وبذلك تم بناء الدستور العربي الأول على أسس واضحة صريحة، فقد كان اختيار الخليفة في ذلك الدستور من حق العرب جميعا، ولكن السنّة التي سار عليها خلفاء العرب الأوائل جعلت اختيار الخليفة محصوراً، فما كان الخليفة ليختار إلاّ من قريش.

وكان الخليفة يختار ممن تتوافر فيهم شروط الرجولة التامة والعدل الذي لا يعرف ميلا، وكان أساس الاختيار أن يعمل الخليفة بمقتضى برنامج صريح قائم على أحكام الكتاب والسنة والاستنارة بسنن الخلفاء الماضين. وكانت المبايعة من جانبين: جانب الشعب وجانب الخليفة فإذا خالف الخليفة شروط المبايعة كان للشعب أن ينقده ويطلب إليه الرجوع إلى المنهاج القويم وإلاّ كان له أن يثور عليه. ولم يقف نمو هذا الدستور بعد ذلك لنقص في القوة الحيوية في الشعب العربي. بل قد تكلّف خلفاء بني أميّة وبني مروان شيئاً كثيراً من العناء وارتكبوا جرائم كثيرة وخاضوا الحروب والمخاطر قبل أن يستطيعوا أن ينقضوا أسس ذلك الدستور.

خواطر في الشعر العربي

للأستاذ محمود البشبيشي. المدرّس بدار العلوم

للرسالة الغرّاء فضل على الأدب العربي أن أتاحت لقرّائها فرصا كثيرة للإطلاع على آراء ناضجة، وبحوث طريفة في الأدب العربي.

ولقد أثار كتابها الفضلاء موضوعات طليّة في هذه الناحية لقيت من قادة الأدب والباحثين فيه عناية كبيرة، تردد صداها على صفحات وفي أندية الأدب، وإذا كان من حق الرسالة على أدباء (الرسالة) العربية أن يشكروا لها حسن مسعاها. فإن من واجبهم أن يبوحوا بما يهتدون إليه من آراء حيال هذه الموضوعات، ليكون للأدب من كتاباتهم وبحوثهم مدد لا ينقطع.

أثار الباحث المفضال (الدكتور محمد عوض) مسألة الشعر الذي لا يجري على سنن واحد، وكان موفقاً في تسميته (مجمع البحور) كما كان جدّ موفق في نقده وتجريحه حتى تركه هباءً تذروه الرياح. ولقد كانت صيحة (الدكتور) موفقة، نبّهت رجال العربية إلى خطر داهم ينتظر الشعر العربي من هذه الدعوة الباطلة التي لم تعدم لها أنصارا، ولم تعتمد في قيامها على دليل، لقد طالما صدّعت آذاننا بمثل هذه الدعوة، فمن داع إلى التحرر من القافية، إلى منادٍ بجمود الشعر العربي، إلى طارح لأوزان العروض المأثورة، إلى غير هذه النزعات الطائشة الغامضة، وأخيرا فوجئنا بفكرة التحلل من وحدة البحور، وقرض الشعر على غير نظام والسير فيه على غير هدى، ولقد كنّا نشفق على الشعر ذلك التراث المجيد أن تعبث به المحاولات، ثم يعود إلينا شيء من الطمأنينة، اعتماداً على ما فيه من مناعة تقيه هذه الألاعيب، غير أن دعاة هذه الفوضى الشعرية ما فتئوا يعاودون الكرّة بعد الكرّة يريدون أن يتسللوا في غفلة الرقباء إلى حمى الشعر فيستبيحوه، فإذا تم لهم ذلك لجّوا في طغيانهم، وقضوا على أنصع صفحات الأدب العربي، وأزهى رياضه، وانضر وجوهه، ثم نعبت غربانهم على أطلاله، وقطعوا ما بين حاضر الأمة وماضيها، وبنوا على أطلال ذلك الماضي المجيد، ما خيله لهم أهواؤهم من أمانيّ وأحلام.

لست أدري ماذا ينقم القوم من الشعر؟ وهو الذي ساير الدهر قرونا طوالا، وماشى الحضارات على اختلافها، واتسع للأغراض الشعرية على كثرتها، واستقبل حكمة العرب واليونان بعزة الواثق بنفسه، المعتز بقوته، فما دعاه غرض إلاّ لبّى، وما أهاب به جديد إلاّ استجاب، وما سمعنا أنه قعد عن حكمة المتنبي وأبي تمام، ولا تخاذل دون مباهج الحياة وأغراضها في بغداد والأندلس، ولا قصّر يوم طلب إليه ترجمة (الإلياذة). ولا يوم دعي لنظم (قمبيز) و (كيلوباترا)، بل ما رأيناه نفر ممن حمّلوه ما لم يخلق لأجله فضموا به العلم، وأطالوا به المتون، فالشعر العربي خصب بطبيعته، قابل للتجديد ومسايرة الزمن، ولكن في حدود العقل والمنطق، وفي حدود السليقة العربية، والحضارة العربية.

فماذا يريد القوم بعد ذلك؟ وأيّ غرض يرمون إليه؟ ماذا يريدون بمجمع البحور، وهو نوع لاحظ له من النغم الموسيقي، الذي هو روح الشعر، وسر تقدمه على النثر، هو لون من القول يريد أن يخدع الناس عن نفسه فلا يلبثون أن يعرفوا حقيقته، ويدركوا أنّه لا إلى الشعر ولا إلى النثر.

لقد أبان لهم (الدكتور الفاضل) أن هذا بدع من القول لم تعهده اللغات الأخرى، ولم ينزل إليه شعراؤها النابهون، أمثال (شكسبير) وصاحب الشاهنامة، وعهدنا بأصحاب هذه الدعاوى، إذا أخذهم الدليل أن يتشبثوا بأهداب التجديد، ويجروا وراء الأدب

الغربي، فإذا كانت حجتهم داحضة، وأسبابهم واهية، وإذا كان فحول شعراء اللغات الأخرى لم يسفوا إلى (مجمع البحور) فماذا عساهم يقولون؟ ما أظن الباعث لأكثر هؤلاء إلاّ الطموح إلى الشهرة وذيوع الصيت، يستهينون في سبيله بلغتهم، وهي مناط العظمة، وديوان المفاخر، ومظهر الكرامة والعزّة القومية، هم يحسدون الشعراء على مكانتهم! ويحاولن ألاّ يقصروا في كل مظاهر العظمة، فيتعلّقون بأهداب الشعر، فإذا هو نافر منهم، ويرون معاناة الشعر أمراً عسيراً على طبائعهم، شديداً على نفوسهم، ويدركون أن العقبة الكؤود دون الذي يريدون، قوانين دعت إليها طبيعة الشعر كفن من فنون الموسيقى، وأقواها في نظرهم وحدة الوزن والقصيدة أو ما يعبّر عنه بالبحور، فلا يهدأ لهم بال، ولا يقر لهم قرار حتى ينفّروا الناس من هذه القوانين لعلهم أن يحطموها، فتصير طريق الشعر في زعمهم واضحة معبّدة، وعند ذلك يستوي الشاعر والمتشاعر، ويندس في زمرة الشعراء الملهمين من لا يمت إلى الشعر بسبب، وقد نسوا أن الشعر كالموسيقى والصوت الحسن لا ينقاد إلاّ لمطبوع عليه.

رويدكم أيّها الإخوان! فما أنتم ببالغي هذه الغاية! وإن تراءت لكم قريبة المزار، إنّ شعراً يفقد أهم عناصره وهي وحدة الموسيقى لجدير أن تمجه الآذان، وتنفر منه الطباع، وما كان هذا شأنه. فلن يرقى إلى درجة الشعر الصحيح ولن يجد من النفوس إلا احتقارا، ثم لا يلبث أن يقبر في مهده. وانه لخير مما تريدون أن يسمع الإنسان كلاما منثورا منسجما لا تكلف فيه، ولا تتعب أذنه في التوفيق بين أنغام مختلفة متنافرة، لاحظّ لها من الشعر، ولا روح لها من ألفة موسيقية، وان يوماً يستحيل فيه الشعر إلى ما ذهبتم إليه لهو يوم القضاء على الشعر العربي وجناية هذا على الأجيال المستقبلة أخطر مما تتصورون.

ليس يجدي ما تدعون إليه أن يتجلى على الناس في حلّة الشعر وأن يحمل بين يديه قيثارته، فلن تلبث الحلّة الخادعة، أن تبدو مهلهلة شتى الصور والألوان فتقذي بها الأعين، ولن تلبث القيثارة أن تظهر أوتارها المتناثرة فتحجبها الآذان. ولا يلبث ذلك المسمّى شعراً أن يبدو في حلّته عظاماً نخرة، لا تقوى على الهواء فتعود رفاتا سحيقاً، فاعملوا للتجديد إن كنتم صادقين على دعائم ثابتة من القديم، وإذاً يمضي أدبكم العربي المجيد في طريقه قُدُما، ويتسع لما شئتم من جديد نافع.

من أدب الجاحظ

للأستاذ توفيق الحكيم

أستاذنا الكبير الدكتور طه

إني أشكر أهل الكهف الذين قادوني إليك. وإذا كان هذا هو الغرض من بعثهم في كتابي فقد حق البعث نجح. الحقيقة أن رعاية الدكتور طه أثمن ما منحني القدّيسون الثلاثة من كنوز. وأن صداقته التي أطمح إليها يوم أكون خليقاً بها هي مفتاح عملي الأدبي في المستقبل. إنه ليشق علي أن يمضي الأسبوع ولا ألقى الدكتور. فلقد وجدت في حديثه الجميل زاداً روحياً لا غنى لي عنه.

تشرفت بلقاء الأستاذ الجليل لطفي بك، ودار بيننا حديث طويل أرويه إن شاء الله عند اللقاء.

وبعد فقد كنت أقرأ الجاحظ منذ عامين فألفيت عنده كلاما كالحوار التمثيلي لم أر مثله في الأغاني. وقد بدا لي أن أنقل هذا الحوار على شكل (منظر صغير) دون تغيير في الألفاظ والمعاني. إنما سمحت لنفسي ببعض الحذف وبعض الملائمة بين وضع الحوار الأصلي والوضع المسرحي بغير أن أمس جوهر الموضوع. حتى يبقى الفضل للجاحظ وللأدب العربي، والحق إنه حوار يذكر بألفريد دي موسيه في (كوميدياته وأمثاله) أن عناصر كل نوع من أنواع الأدب والفكر موجودة عند العرب لكنها مجرد عناصر. فلماذا لا نستخرج هذه العناصر ونفصلها ونبوبها؟ لماذا لا نضع مثلا كل حوار من هذا الطراز في الشكل التمثيلي على قدر المستطاع. ونجمعه على انه نماذج تمثيلية من الأدب العربي. أو على أنه القديم بإلباسه حلّة جديدة دون تغيير للب؟ إذا صح هذا فإن مجال العمل في الأدب العربي القديم متسع. ولن تفرغ منه أجيال قادمة برمتها. والدكتور أول من بحث وحفر ونقب في آثار الأدب العربي. وأول من أدخل روح البحث والتنقيب في الجامعة. والجامعات هي ميدان لمثل هذا العمل. إذا كان الدكتور لا يوافقني على

أن عناصر القصص التمثيلي موجودة عند العرب. فما تراه يقول في هذا (المنظر) وهو من تأليف الجاحظ:

الفراق

المنظر: باب دار كبير، جارية كأنها قضيب يتثنى. يدنو منها شيخ ويسلم عليها فترد السلام بلسان منكسر وقلب حزين.

الشيخ: - يا سيدتي! إني شيخ غريب أصابني عطش فأمري لي بشربة من ماء تؤجري.

الجارية: إليك عني يا شيخ، فإني مشغولة عن سقي الماء وادخار الأجر!

الشيخ: يا سيدتي لأيّة علة؟

الجارية: (بعد تردد) لأني عاشقة من لا ينصفني، وأريد من لا يريدني!

الشيخ: (يتأملها) يا سيدتي، هل على بسيط الأرض من تريدينه ولا يريدك

الجارية: انه لعمري على ذلك الفضل الذي ركب الله فيه من الجمال والدلال.

الشيخ: يا سيدتي، فما وقوفك في الدهليز؟

الجارية: هو طريقه، وهذا أوان اجتيازه.

الشيخ: يا سيدتي. هل اجتمعتما في خلوة في وقت من الأوقات أم حب مستحدث؟

الجارية: (تتنفس الصعداء وتسيل دموعها على خديها كطل على ورد وتنشئ تقول):

وكنا كغصني بان وسط روضة ... نشم جنا اللذات في عيشة رغد

فأفرد هذا الغصن من ذاك قاطع ... فيا من رأى فردا يحن إلى فرد؟

الشيخ: يا هذه ما بلغ من عشقك هذا الفتى؟

الجارية: أرى الشمس على حائطه أحسن منها على حائط غيره، وربما أراه بغتة فأبهت وتهرب الروح من جسدي، وأبقى الأسبوع والأسبوعين بغير عقل

الشيخ: عزيز عليّ؛ وأنت على ما بك من الضنى وشغل القلب بالهوى وانحلال الجسم وضعف القوى، ما أرى بك من صفاء اللون ورقة البشرة. فكيف لو لم يكن بك من الهوى شيء؟ أراك كنت مفتنة في أرض البصرة!

الجارية: كنت والله يا شيخ قبل محبتي لهذا الغلام تحفة الدلال والجمال والكمال. ولقد فتنت جميع ملوك البصرة وفتنني هذا الغلام.

الشيخ: يا هذه ما لذي فرّق بينكما؟

الجارية: نوائب الدهر وأوابد الحدثان. ولحديثي وحديثه شأن من الشأن. وأنبئك أمري: إني كنت اقتصدت في بعض أيام النيروز، فأمرت فزين لي وله نجلس بأنواع الفرش وأواني الذهب، ونضدنا الرياحين والشقائق والمنثور وأنواع البهار. وكنت دعوت لحبيبي عدة من متظرفات البصرة فيهن من الجواري جارية شهران وكان شراؤها عليه من مدينة عمان ثمانمائة ألف درهم، وكانت الجارية قد ولعت بي، وكانت أول من أجابت الدعوة وجائتني منهن. فلمّا حصلت عندي رمت بنفسها عليّ تقطعني عضا وقرصا. . . فبينا نحن كذلك إذ دخل عليّ حبيبي. فلمّا نظر إلينا اشمئزّ لذلك، وصدف عني وعنها صدوف المهرة العربية إذا سمعت صلاصل اللجم، وعضّ على أنامله وولّى خارجا. فأنا يا شيخ منذ ثلاث سنين أسلّ سخيمته، وأستعطفه فلا ينظر إليّ بعين، ولا يكتب إليّ بحرف، ولا يكلّم لي رسولا.

الشيخ: يا هذه، أفمن العرب هو أم من العجم؟

الجارية: هو من جلّة ملوك البصرة.

الشيخ: من أولاد نيابها أو من أولاد تجارها؟

الجارية: من عظيم ملوكها.

الشيخ: أشيخ هو أم شاب؟

الجارية: (تنظر إليه شزراً): إنك لأحمق. أقول هو مثل القمر ليلة البدر أمرد أجرد، وطرّة رقعاء كحنك الغراب تعلوه شقرة في بياض. عطر اللباس ضارب بالسيف، طاعن بالرمح، لاعب بالنرد والشطرنج، ضارب بالعود والطنبور، يغني وينقر على أعدل وزن لا يعيبه شيء إلاّ انحرافه عني لا نقصاً لي منه بل حقداً لما رآني عليه.

الشيخ: يا هذه وكيف صبرك عنه؟

الجارية: (حالي معه كحال القائل):

أمّا النهار فمستهام واله ... وجفون عيني ساجفات تدمع

والليل قد أرعى النجوم مفكرا ... حتى الصباح ومقلتي لا تهجع
كيف اصطباري عن غزال شارد ... في لحظ عينيه سهام تصرع
الشيخ: يا سيدتي، ما أسمه وأين يكون؟
الجارية: تصنع به ماذا؟
الشيخ: أجهد في لقائه وأتعرف الفضل بينكما في الحال.
الجارية: على شريطة
الشيخ: وما هي؟
الجارية: تلقانا إذا لقيته وتحمل لنا إليه رقعة.
الشيخ: لا أكره ذاك
الجارية: هو ضمرة بن المضيرة بن المهلّب بن أبي صفرة. يكنى بأبي شجاع، وقصره في المربد الأعلى. وهو أشهر من أن يخفى. (تصيح في الدار): يا جواري دواة وقرطاسا. .
الشيخ: يا سيدتي وجب حقك عليّ. ولزمتك حرمتي لطول وقوفي عليك، وكنت قد سألت شربة ماء. . .
الجارية: أستغفر الله! ما فهمنا عنك. (تصيح في الدار): أخرج إلينا شرابا من ماء وغير ماء (تقبل وصيفتان تحملان الدواة والقرطاس وتشمّر الجارية عن ساعدين كأنهما طومارا فضة ثم تحمل القلم وتكتب الرقعة. ثم تقبل ثلاثون وصيفة بأيديهن الكؤوس والجامات والأقداح مملوءة ماء وثلجاً وفقاعا وشرابا فيشرب الشيخ. .)
الشيخ: يا سيدتي. مع قدرتك على هذا من استواء الحال وكثرة الخدم والعبيد والجواري، فلم لا تأمرين إحدى الجواري أن تقف مراعية للغلام حتى إذا مرّ أعلمتك فتخرجين إليه.؟.
الجارية: لا تغلط يا شيخ.!
الشيخ: (يفهم مرادها ويطرق خجلاً من هفوته)!
انتهى المنظر. وكان في مقدوري أن أجعل منه فصلاً كبيراً. لكني آثرت أن أبقيه على أصله. لأن المسألة عندي هل نظهر العناصر مع بقائها على شكلها أو نتصرف بها ونستعملها كما نشاء؟ سنتكلم في هذا إذا التقينا في الأسبوع القادم.
ثقافة المرأة
للآنسة أسماء فهمي (درجة شرف في الآداب)
اتجه خاطري نحو هذا الموضوع بعد قراءة تعليق (الرسالة) على خطاب الآنسة حياة التي تشكو من أن أصحاب (الرسالة) قد حرم المرأة أن يكون لثقافتها مظهر في مجلته بجانب ثقافة الرجل، ورد صاحب الرسالة بأنه لم يرد أن يسمح للرجال بالتحدث عن شؤون النساء الخاصة. ولست أفهم تماماً المقصود بشؤون النساء، أهي أمور الدار وتربية الأطفال، أم المراد مساهمة المرأة في ميدان التحرير وطبع الأدب بطابعها الأنيق الخاص، بصرف النظر عن الموضوعات النسوية البحتة؟
وسواء أكان المقصود الأمر الأول أم الثاني أم الاثنين معاً فأن موضوع ثقافة المرأة العامة، هو ما ينبغي أن يبدأ ببحثه حتى نتبين ما إذا كانت ثقافة المرأة تنحصر في دائرة خاصة، وهل يحسن أن يكون لها تعليم وتهذيب يختلفان عن تعليم الرجل وتهذيبه.
وقد لا يكون من غير الملائم لفت الأنظار إلى هذا الموضوع في الوقت الذي تطور فيه تعليم الفتاة في العشر سنين الأخيرة تطوراً عظيماً، فبعد أن كان تعليمها قاصراً على بعض الفنون المنزلية ومبادئ القراءة والكتابة وقشور اللغات الأجنبية، أصبحت تتلقى من العلوم ما يتلقى الفتى في المدارس الابتدائية والثانوية، كما أصبحت تدرس معه جنباً إلى جنب في الجامعات.
وبالرغم من أن مصر لم تبتدع ذلك النظام، وإنما نسجت فيه على منوال الأمم الراقية التي تأخذ عنها جل نظم الحضارة والعمران، فأن ذلك الانتقال لم يتقبله الكثيرون قبولاً حسناً بعد، لأنهم يرون فيه ضياعاً لوقت الفتاة التي خلقت لأن تكون أماً، زاعمين أن سيكولوجية المرأة وتركيبها النفسي، ووظيفتها في الحياة تستدعيان أعداداً خاصاً وتعليماً غير تعليم الرجل. ويظهر أن أنصار هذا المبدأ لهم تفسير خاص، لأغراض التعليم ومعنى الثقافة! أما ما يفهم عادة من الثقافة فهو كل ما من شأنه تهذيب

النفس وصقل العقل وتقويم العاطفة وتوسيع المدارك وعلى ذلك يدخل تحت الثقافة العلوم بأنواعها والفنون والآداب والأخلاق، وكل ما يكتسب المرء من تجارب وتعليم عملي في الحياة. ولما كان هذا النوع من الغذاء العقلي والروحي لا يستغني عنه الإنسان الذي يصبو إلى الكمال، وكانت المرأة إنساناً لا تختلف، عن الرجل من هذه الناحية، فلا بد لها من غذاء عقلي ومعنوي أيضاً، ولما كان التكافؤ العقلي بين الجنسين أصبح من الأمور المسلم بها، وجب إذن أن يتغذّى عقل المرأة كما يتغذى عقل الرجل حتى تصل إلى حظ مثل حظه من الثقافة. نعم لا مفر الآن من تثقيف المرأة بالطريقة التي تتبع في تثقيف الرجل، إذ أصبح من الجلي الآن إن الطريقة القديمة لتعليم الفتاة لم تنتج غير مخلوق ناقص من نواح كثيرة، بدليل هجران الرجل لمنزله في كثير من الأوقات، لأن شريكة حياته تعجز عن أن تمده بالنصح والمعونة، كما تعجز عن جعل دارها مهبطاً للجمال والتسلية. أقول هذا القول وأشعر إنني لو قلته في بلد آخر متمدن غير مصر، لنظر الناس إليّ بمنتهى الدهشة، نظرتهم إلى من يخبرهم مثلاً إن النهار في الصيف أطول منه في الشتاء، ظاناً إنه يذكر لهم أمراً طريفاً!. . ولكن مصر التي سارت بخطى واسعة جداً في نواح كثيرة من نواحي التقدم والرقي مازالت تتردد في قبول بعض المبادئ التي تعد أساس الرقي الصحيح وعنوان الحضارة، أعني مساواة المرأة بالرجل في الحقوق وخصوصاً الثقافة.

وليس الغرض الرئيسي من تعليم الفتاة كما يظن الكثيرون تأهيلها لمزاولة مهنة من المهن كالمحاماة أو الطب أو الهندسة، وإنما الأهم أن تصل إلى حقها الطبيعي من اعتيادها التفكير المنظموإكسابها خلق الاعتماد على النفس والاعتداد بالكرامة، وذلك لا ينشأ إلا عند تبيّن مبلغ المقدرة الشخصية والاستعداد. ولا ضير إذا هي لم تستخدم تلك المعلومات بالذات في حياتها المنزلية إذ الغرض الأساسي من التعليم كما يقول أفلاطون في (الجمهورية): توجيه الروح إلى النور باعتياد التفكير المنتجوبالابتعاد زمناً ما عن قيود الماديّات. والواقع إننا نحط من شأن التعليم كثيراً إذا نظرنا إليه قبل كل شيء كوسيلة لتحقيق غرض مادي. فالتعليم يجب أن يعتبر غرضا في ذاته قبل أن ينظر إليه بتلك النظرة المادية سواء في حالة تعليم المرأة أو تعليم الرجل. سأل مرة أستاذ في إحدى الجامعات الكبرى تلميذه لماذا يتعلم تعليماً جامعياً ولم اختار التاريخ لفرع تخصصه. فكان جواب الطالب الصريح مما أهاج الأستاذ الذي لم ير مغضباً من قبل. وذلك انه أجاب إنما يتعلم ليحصل على درجة عالية تمكنه من الحصول على وظيفة تضمن له رغد العيش. . . ثار الأستاذ وغضب لأنه شعر أن تلميذه لا يتعلم لوجه العلم، وعلى ذلك فهو يفقد أهم شروط التهذيب الصحيح.

فبغير هذا الشرط لا يمكن أن يمتزج العلم بالنفس أو بعبارة أخرى لا يمكن أن تحدث الثقافة. وعلى ذلك تكون المرأة امتن ثقافة وأعمق تهذيباً لو تعلمت تعليم الرجل لأنها في الغالب تتعلم العلم فيكون لإنتاجها مظهر جذاب لأنه بعيد عن المؤثرات المادية التي كثيراً ما تعترض تقدم الرجل. إلا أن ثقافة المرأة لا تكمل ولا يصبح لها أثر محسوس إذا علمناها علوم الرجل بينما تحرم مما يستمتع به من حرية وإرادة مستقلة، وتحاط بسياج من التقاليد العتيقة والرقابة الخانقة، فهي في هذه الحال تقول بمرارة: من لي بعيش الأغبياء. . . كما أنه لا يمكن أن يصدر عنها ثقافة عالية، إذ ينقصها بسبب قيودها الشخصية والابتكار والصراحة والنظرة العلمية. . وهكذا تبدو ثقافتها مبتورة وان تناهت في الظرف وتألق فيها الذكاء الباهر.

وهنا قد يسأل سائل: وما مبلغ أثر التعليم المنزلي في ثقافة المرأة؟ إني وإن كنت أريد تعليم المرأة تعليماً عالياً ابتغاء وجه العلم، أو استعداداً للعمل فلست ممن ينكرون ما للتعليم المنزلي من أهمية في ثقافة المرأة. وهو لا ينفعها عملياً فحسب، وإنما لهذا التعليم أثر جميل في إنتاجها العقلي أو مظهر ثقافتها. وقد كان يقال عن (جين أوستن) الكاتبة الإنجليزية التي اشتهرت ببراعة الأسلوب وسمو الخيال ودقة التحليل إنها إنما اكتسبت الطلاوة في التعبير، والدقة في التفاصيل، من تدريبها الطويل على استعمال الإبرة والمنسج. والواقع أن مثل هذا التعليم يكسب المرأة المقدرة على مراعاة النسب ودقة الأسلوب ودقة الحساسية، وكل ذلك يبدو واضحاً إلاّ أن ما يعترض عليه بشدة هو تضحية التعليم العام من أجل هذا التعليم المنزلي، بحجة عدم استخدامه عملياً في وظيفتها الخاصة. انه لمنتهى الظلم إلاّ ننظر إلى المرأة كإنسان له حق

كامل في الحرية والتعليم قبل أن ننظر إليها كأم أو دمية منزل، بل أن منتهى الاستهتار بمواهب المرأة أن نكتفي منها بالقشور دون اللباب، فلا نحاسبها على عدم تعمقها في التعليم وإنما ننظر إليها نظرة كنظرة أهل العصور الوسطى، الذين كانوا لا يطلبون من المرأة أكثر من اتصافها بالعفة والصيانة. أما الصفات الأخرى كالذكاء وبُعد النظر والشجاعة والصراحة فلم يكن عليها إقبال يذكر؛ وإنما الاستكانة والخشوع كانا من أهم مميزات الكمال النسوي في تلك العصور. ولقد كانت (جرزلدا الصبور) التي تحملت مرارة هجر الزوج وقسوته مثل الفضيلة والأمومة الصالحة عندهم. . . وأخشى أن تكون (جرزلدا) هذه لا تزال المثل الأعلى للزوجة عند الكثير من الرجال. . .

إن التطورات الفكرية والاجتماعية والاقتصادية التي تبعد الشقة كل يوم بين العصور الوسطى والعصر الحديث، تفرض علينا تغيير الآراء القديمة بالنسبة إلى مركز المرأة وثقافتها. ففي حياتنا الحديثة المتشعبة المسالك الكثيرة المطالب، المملوءة بالصراع والتنافس لم يبق مكان للمرأة الساذجة الضعيفة. وعلى ذلك كان من الخطأ الكبير أن نتعمد إنقاص تثقيف المرأة عن تثقيف الرجل، بل يجب أن يتناسب مقدار الثقافة مع وظيفة تلك التي تهز العالم بيسارها إذا ما هزت المهد بيمينها؛. . ولكن ماذا تكون النتيجة لو تعلمت المرأة كما يتعلم الرجل؟ هل تفقد مميزاتها الخاصة ولا يصبح هناك فرق بين ثقافتها وثقافته؟ الواقع أن الثقافتين لا تختلفان إلاّ شكلاً فقط، فيكون لثقافة المرأة وان اتحدت في الجوهر مع ثقافة الرجل طابعها الخاص، إذ تتجلى فيها ما تمتاز به المرأة من حنان ورقة وتأثر بالعواطف والهام وحدة ذكاء وشدة حساسية.

وإنا لنأمل أن نرى أثراً واضحاً لتلك الثقافة النسوية (في الرسالة) التي تعتبر بحق رسالة الروح الحديثة المملوءة قوة وابتكاراً وتجديداً.

!!. .إلى الله

للآنسة ناهد محمد فهمي

!!. . .رباه طالما حادثتك في ليل السريرة

!!. . .وطالما ناجيتك حزينة ومسرورة

!!. .وكنت عقب صلواتي أسمع صوتك القدوس يدوي، صداه في أركان روحي المادية

!!. .عرفتك بالغريزة وأنا طفلة

!!. .فكنت أتأدب كلما ذكروا اسمك العظيم

!!. .لأني أعتقد دائماً أني في حضرتك

!!. .وكنت أضطرب محبة واحتراماً وعبودية، كلما فكرت أنك تراني دائماً حادثتك وأنا في (الكُتّاب) اقرأ بسم الله الرحمن الرحيم فآمنت بك لرحمتك وحنانك. .!!

!!. .لأن الرحمة والحنان أول ما يفتقر إليهما الناشئ في هذه الحياة القاسية

!!. .عرفتك في (الليالي الممطرة)

!!. . .فكنت أقف ساعات منصتة للرعد، فهو جلجلة همساتك

!!. .وكنت ارقب البرق. . فهو نور ابتسامتك

!!غفرانك يا رب

!!. .إذا تخيلتك هكذا (بمخيلتي) الإنسانية الضعيفة

عرفتك في الرّبيع. . . حين مرت يداك القادرتان على وجه الأرض. . . فتجلى صنعك البديع في النبات والورود، وعرفت رحمتك في تلك النفحات الربيعية العطرة وصوتك في أهازيج الطبيع ' البهيجة. .!! فأيقنت برحمتك وآمنت بجنتك. . .!!

عرفتك في (الصيف). . فاعتقدت بجبروتك وآمنت (بنارك) وفي الخريف فآمنت بالموت والفناء والمرض، وعلمت أنك الباقي ونحن الفانون. . .!

!!. .عرفتك في النهار عندما ملأت أنوارك عيني وبهرت آياتك لبي

وعرفتك في الليل حينما باحت لي النجوم

!!. .الزواهر بسرّ عظمتك، وبعث الظلام الحالك في نفسي معنى رهبتك

عرفتك في كل مظهر من مظاهر أكوانك ... وناجيتك في كل سورة من سور قرآنك ولكني بعد هذه المعرفة الطويلة، والمناجاة المتصلة اسمع في جوانب نفسي سائلاً يسأل: هل عرفتك حقيقة يا رب؟

الأدب والحياة

للأستاذ زكي نجيب محمود

تطغى على العالم موجة مادية تجتاحه أصولاً وفروعا، وتريده على أن يحمل تراث الإنسانية الأدبي، منذ فجرها حتى اليوم الراهن، فيأخذ سمته نحو أليم، فيلقي بذلك التراث في لجة مالها من قرار، ثم يعود وقد أزاح عن كاهله ذلك العبء المضني من دموع الشعراء وأنينهم وهزّات نشوتهم وسرورهم، وغير ذلك من نزوات الطفولة التي لا تدعو إليها ضرورة ولا شبه ضرورة في هذا العصر الحديث، وأن يتوفر على أزيز المعامل ومقارع الآلات، التي لا ينبغي أن يطرب لسواها، أو ينصت لصوت غير صوتها!! وماذا يغني دانتي وشكسبير بجانب علوم الطبيعة والكيمياء، التي على أساسها تعمل المطارق وتدور الأرجاء!! وفي ذلك يقول الكاتب الإنجليزي توماس بيكوك: (الشاعر في عصرنا هذا نصف همجي يعيش في عصر المدنية، لأنه يقيم في الزمن الخالي، ويرجع بخواطره وأفكاره وخوالجه وجوانحه إلى الأطوار الهمجية، والعادات المهجورة، والأساطير الأولى، ويسير بذهنه كالسرطان زحفاً إلى الوراء. . . . لقد كان الشعر نقرة تنبه الذهن في طفولة الهيئة الاجتماعية، ولكن من المضحك في عصر النضج العقلي أن نعني بألاعيب طفولتنا، ونفسح لها موضعاً من شواغلنا، فإن هذا سخف يشبه سخف الرجل الذي يشتغل بألاعيب الصبيان، ويبكي لينام على رنة الأجراس الفضية).

هكذا يقال عن الأدب الآن، كأنه عرض من أعراض الحياة، لا يمسها في الجوهر والصميم، والواقع أننا حين ننزل عن الأدب وسائر الفنون، فأننا إنما ننزل عن نفوسنا، لأن هذه وتلك شيء واحد اختلفت أوضاعه.

وللشاعر الفيلسوف طاغور تحليل يبين به موضع الفن من أساس الحياة، وأنه ضرورة لازمة لا مناص منها، ونحن نورد للقارئ خلاصة موجزة لذلك البحث الجليل:

من الحقائق البديهية، ان الإنسان مرتبط بهذا العالم بصلات شتى، فهو يعيش في مضطرب الحياة مدفوعاً بطائفة من الحاجات التي يتحتم عليه قضاؤها وهو في تلك المحاولة مضطر إلى أن يتصل بالعالم اتصالاً ليس له عنه منصرف ولا محيد.

فالحاجة الجسمية تملي عليه أن يفلح الأرض ويتعهد الزرع حتى يثمر له القوت، وأن يلتمس من الطبيعة مسكناً وملبساً يدفعان عنه الفقر والهجير.

والحاجة العقلية تريده على أن يمعن النظر ويستقصي البحث في مظاهر الكون، لان العقل لا يقنع بالنظر إلى الأشياء الخارجية دون أن يتتبع العلل ويكتشف القوانين العامة التي تنتظم جميع الجزئيات، فهو مطبوععلى هذا البحث ليخفف عن نفسه أعباء الحقائق الكثيرة التي تصادفه في حياته، باختزالها في عدد قليل من القوانين، أو في قانون واحد شامل إن استطاع إلى ذلك سبيلا.

وليست حاجة الإنسان تقتصر على العقل والجسد، بل هو يحمل بين جنبيه نفساً لها مطمح تنشده وتسعى إليه، فهي بدورها مضطرة إلى أن تتصل بالكون كي تلتمس عند مظاهره ما تصبو إليه، وهي بحكم وجودها تعالج ضروباً من المشاعر، فهي تموج بالأمل واليأس والسرور والغضب وغير ذلك من ألوان الشعور.

ولكن هذه الروابط التي تصل الإنسان بالعالم لا تقتصر عليه دون سائر الحيوان، فهو يشاركه في الحاجة الجسمية ويشاركه في الحاجة العقلية - إن صح إطلاق هذه الكلمة على الحيوان الأعجم - كما يشاركه في مشاعره النفسية كذلك، إلاّ أن أهم ما يرتفع بالإنسان عن مرتبة الحيوان، إن هذا محدود في دائرة ضيقة جداً، لاتسع لأكثر من الضرورات التي يقتضيها استمرار الحياة، فهو يبذل ما يبذله من مجهود لحفظ كيانه، والاحتفاظ بجنسه، ثم لا يزيد على ذلك إلاّ بمقدار ضئيل، أما الإنسان فلا تكلفه الضرورة إلا بقدر محدود ثم يبقي لديه من القوة ما يجول به حرا من الأصفاد والقيود، مثل الحيوان في ذلك، مثل الزارع الذي ينوء بأعباء الدّين الفادحة فهو يكد ويكدح ويعمل ويشقى طول العام، فإذا ما حان الحصاد تسرّب الثمر إلى الدائن، ويخرج صاحبنا من المعركة صفر اليدين، أما الإنسان فهو في هذا التشبيه صاحب ضيعة واسعة النطاق، لا يفقد من دخله إلا جزءاً يسيرا، ثم ينعم بعد ذلك حرا لا يقف دونه سلطان ولا رقيب، أي إن لديه من ثروة الحياة ما يزيد على الحاجة الضرورية بقدر عظيم، وبذلك يتاح له من القوة والفراغ، ما يستطيع معه أن يعالج مختلف الشئون، لا

باعتبارها واجباً حتماً تمليه ضرورة الوجود، ولكن على أنها أغراض في نفسها تقصد لذاتها.

فللحيوان مقدار من المعرفة ولا ريب، إلا أنها معرفة ضئيلة محدودة، يستخدمها في حفظ الحياة وكفى، فهو ملزم أن يدرس بيئته في شئ كثير من الدقة ليستطيع أن يتخذ لنفسه من أركانها مستقراً يؤويه، وليتمكن من الحصول على طعامه وشرابه في سهولة ويسر، وهو ملزم كذلك أن يعلم بعض خواص الأشياء من حيث اللدونة والصلابة مثلاً، ليبني ما يشاء من أوكار، ويعالج شؤون الحياة الأخرى، وهو لابد أن يعرف للفصول المختلفة علامات تدل على قدومها. حتى يتهيأ لأجوائها المتباينة بالريش أو الفراء، هذه وأشباهها معرفة لا ندحة عنها لكل أنواع الحيوان للذود عن كيانها والاحتفاظ بوجودها. ولكنها لا تزيد على ذلك إلاّ قليلا. والإنسان أيضاً. لديه تلك المعرفة اللازمة لاستمرار الحياة - حياة الفرد والجنس - ولكن معرفته لا تقف عند هذا القدر القليل، بل تفيض معرفته فيضاً غزيراً يطغى على تلك الحدود الضرورية، فهو يحصل جانباً من المعرفة لذاتها، وينشد العلم لأجل العلم، لا يبغي وراء ذلك قصداً ولا غاية. ومن هذا الفيض العلمي تنشأ الفلسفة والعلوم.

وللحيوان جانب خلقي غير منكور، فلديه كثير من الإيثار تراه واضحاً في حنان الأم على صغارها أيا كان نوعها ويبدو ذلك الإيثار بارزاً في هذه النحلة العاملة، وتلك النملة المثابرة، فهما تسعيان وتطوفان هنا وهناك، تجمعان القوت، ولكن لماذا؟ لخلية النحلة كلها أو لجماعة النمل بأسرها. وهذا المقدار الضئيل من الأخلاق، إنما أوجدته ضرورة الحياة عند الحيوان، أما الإنسان فقد رسم لنفسه من التشريع الخلقي ما يربي على حاجته الضرورية أضعافاً مضاعفة، فهو يفرض نفسه على الخير لأنه صالح للجماعة أولاً، ولكنّه لا يكتفي بهذا الفرض المتواضع، بل يمعن في ذلك إمعاناً بعيداً، فينشد الخير محضاً ويطلبه لذاته فقط ومن هذا الفيض الخلقي، نشأ علم الأخلاق.

وللحيوان شعور يحسه ويعبّر عنه، فهو يبغض ويحب، وهو يسر ويحزن، وهو يأمن ويخاف. ولكنه كذلك لا يعدو في التعبير عن مشاعره ذلك الحد الذي تقتضيه ضرورة الحياة. أما الإنسان، فعواطفه - وان تكن قد نشأت في الأصل لتلك الأغراض التي نشأت من اجلها عواطف الحيوان - إلا إنها قد جاوزت ذلك الحد تجاوزاً، وتركت في الأرض جذورها الأولى التي أخرجتها إلى الوجود، وانبسقت عالية منتشرة بغصونها في سماء اللانهاية، نعم لدى الإنسان من العواطف أضعاف أضعاف ما تتطلبه طبيعة وجوده، وهذا الفيض الغزير العميق من المشاعر التي تضطرم وتحتدم في الصدور لابد أن يجد متنفسا

يتسلل منه، ليعلن عن نفسه في أنحاء الوجود. وقد كانت الثغرة التي تدفق منها ذلك الفيض الشعوري هو الفن الجميل في ضروبه المختلفة من أدب وتصوير ونحت وموسيقى وغيرها. إذ أتخذها الإنسان أداة للتعبير عما يحسه من شعور، وهذا الشعور الذي يلتمس طريقه إلى عالم التعبير في صورة فنية، إنما يكشف عن نفوسنا وما يدور فيها من إحساس. وبعبارة أخرى إن الفنون وسيلة لابراز مشاعر النفس الإنسانية ودون الأشياء المحسة التي تتعلق بها تلك المشاعر، وبذلك أتاحت للإنسان أن يسكب نفسه أمامه، فيراها ويلمسها، وليس له عن ذلك بد بحكم تكوينه، فهو حين ينظم قصيدة من الشعر أو يضرب على أوتار الموسيقى فان ذلك يوازي في قائمة الضرورات الإنسانية - الملبس والطعام -، ومن هنا كان الإنسان هو الحيوان الذي يعرف نفسه ويشعر بوجوده.

ولمّا كانت الآداب والفنون هي شخصيتنا تدفقت إلى العالم الخارجي في مختلف الأثواب، كان لا يصلح موضوعا للفن إلا ما يتصل بنفوسنا وينتظم في سلك مشاعرنا، أو تغذوه عواطفنا، فيكتسي الرضى أو السخط أو السرور أو الألم أو غيرها، وعندئذ يصبح جزءاً منا، يصح له أن يبرز في صورة فنية. فعلمنا أن الأرض تبعد عن الشمس كذا ميلا لا يصلح موضوعاً للفن لأنه لا يمس نفوسنا، أما منظر غروب الشمس فهو يثير فينا عاطفة ما (الإعجاب مثلاً) فيمتزج المنظر بنا، ويختلج في نفوسنا، ثم لا يلبث أن يسلك سبيله إلى التعبير. وهكذا كلما اجتمعت مشاعرنا حول شئ معين فإنها تجاهد في الإفصاح عن نفسها مستعينة في ذلك بالفنون، ولما كانت معظم الأشياء التي

تصادفنا في الحياة تثير فينا لونا خاصا من العواطف، فالإنسان فنان في الكثير الغالب من نواحي الحياة. فهو يشيد دوراً فخمة لمسكنه وكان يكفيه كوخ خشن ضئيل، وهو يبني المعابد والمساجد الشامخة التي ترسل قبابها ومآذنها في الفضاء، لينفس عن عاطفته الدينية، وكان يكفيه حيز محدود في العراء لأداء فريضته، وهو يخطط المدن وينسق الحدائق ليرضي عاطفته الوطنية وهو يعني بأثاث منزله وجمال ملبسه إلى آخر دقائق الحياة. لماذا؟ لأنها تمس مشاعره فتصبح قطعة من شخصيته لا يسعه إلاّ إبرازهاوالإعلان عنها.

من ذلك نرى أن الفنون جميعاً هي الأداة التي يستخدمها الإنسان ليتمكن من صب الوجود نفسه. ثم يعود فيسكبها شخصية تنبض فيها الحياة، وقد اتخذت الفنون قوالب الجمال وسيلة

إلى ذلك التعبير كالتصوير والموسيقى والعبارة الجميلة، فأدى ذلك إلى اقتران الآيات الفنية بمعاني الجمال فالتبس الأمر على بعض المفكرين وذهب بهم الظن إلى أن الجمال هو الغرض المقصود من الفنون. والحقيقة انه أداة فقط، استعملت للوصول إلى الغاية الحقيقية وهي إبراز الشخصية الإنسانية. وقد تبع ذلك جدل ونقاش حول موضوع لم يكن ليحتمل النقاش والجدل وهو أيهما افضل في الأدب؛ المعنى أم المبنى؟ فذهب فريق كبير إلى تفضيل العبارة الجميلة وحجتهم في ذلك أن المعنى أدخل في باب العلوم منه في باب الأدب، أما اللفظ الجميل فهو خالص لأنه قطعة من الجمال والجمال أساس الفنون! وفات هؤلاء أن جمال الأدب لا يتحقق إلاّ بمزج هذين العنصرين مزجاً (كيميائياً) لا يقبل التجزئة والتحليل، فأنت إذا أردت أن تتذوق لونا من ألوان الطعام فلا تعمد إلى تحليله إلى عناصره الأولى لتختبر كل واحد على حدة بل لابد لك أن تتناوله وحدة متماسكة. كذلك الحال في الأدب؛ الكل شئ آخر غير أجزائه. فالمعنى وحده قطعة من العلم واللفظ وحده كذلك جزء من علم البلاغة والنحو والصرف، فإذا مزجت بينهما كان لديك بذلك آية أدبية خالدة.

فالفنون ومنها الأدب هي أشخاصنا وأرواحنا في حين أن العلوم (كالأشياء نفسها) جامدة ميتة لا تتصل بنفوسنا ولا تظهر فيها الشخصية الإنسانية. وقد أحسن فكتور هوجو حين قال في كتابه (وليم شكسبير): (ينأى كثير من الناس في أيامنا هذه (ولا سيما المضاربون وفقهاء القانون) إن الشعر قد أدبر زمانه. فما اغرب هذا القول؟! الشعر أدبر زمانه! لكأنّ هؤلاء القوم يقولون؛ أن الورد لن ينبت بعد وان الربيع قد أصعد آخر أنفاسه وان الشمس كفت عن الشروق وانك تجول في مروج الأرض فلا تصادف عندها فراشة طائرة، وان القمر لا يظهر له ضياء بعد اليوم، والبلبل لا يغرد والأسد لا يزأر والنسر لا يحوم في الفضاء، وان قمم الألب والبرانيس قد اندكت، وخلا وجه الأرض من الكواعب الفواتن والأيفاع الحسان. . . لكأنهم يقولون انه لا أحد اليوم يبكي على قبر ولا أم تحب وليدها وأن أنوار السماء قد خمدت وقلب الإنسان قد مات).

والخلاصة أن الأدب والفن بوجه عام، ضرورة تحتمها المشاعر الزائدة على حاجة البقاء، وأنها صورة دقيقة لنفوسنا، تربطنا بالعالم برباط الصداقة والرحم، بخلاف العلوم، فإنها

صورة العالم الخارجي ولا دخل للإنسان فيها، فهي من الإنسان بمثابة الزائر الأجنبي الذي لا تصله بنا وشائج القربى. وأحسب أننا لو خيّرنا بين العلم والأدب لما ترددنا لحظة في أن ننبذ العلم نبذاً، ونتمسك بالأدب ونعتز به اعتزازنا بالنفوس.

في الأدب التركي

فهل كنت تعلمين؟

اذكري تلك الأيام، تلك الليالي المقمرة،

وحذارا أن تنسى سويعات الوصال الهنيئة،

وبينا الناس في مضاجعهم نيام يغطّون،

كان يصهرني النسيم المنبعث من شفتيك. . .

فهل كنت تعلمين؟

كنت تذهبين فأبقى مرتعشاً

وآوي إلى فراشي الموحش باكياً منتحباً،

أراقب النجوم والشهب المتساقطة كالمأخوذ،
كنت مفتوناً بسحرك منذ عرفتك. . .
فهل كنت تعلمين؟
ينبثق الفجر فاسمع وقع نعليك على السلالم فيرتج قلبي،
وأرقب قدومك متحرّقاً وقد أمضني الليل،
فإذا بك تقبلين والكتاب تحت إبطك،
فأشعر بمطرقته تحاول كسر ضلوعي بينما أنظر إلى صدرك المجلل بسواد ثوبك الرهيب.
فهل كنت تعلمين؟؟؟
حلب: ترجمة يحيى جركس
الذكرى
ولّى ربيع الحب من بعد ما ... ضحّى فؤادي كل ما يملك
وكنت أرجو قطف أثماره ... إذا بها يا أسفا تهلك
تركت عهد الحب في كوخه ... وقلت يقضى والأسى بعد حين
وعدت أدراجي وكل الذي ... خلفته للعيش قلب حزين
وخلت في طول النوى سلوة ... تغني عن الماضي وتخفي عليه
إذا بذكراي وما أوجع ال ... ذكرى بهذا اليوم عادت إليه
حماه - إسماعيل العظم
في الأدب العربي
مآثر العرب في الفلك
مقدمة
يعيب البعض على العرب انهم لم يكونوا عمليين، ولم يعرفوا من العلوم إلاّ قسمها النظري، وهذا الاعتقاد خطأ، ويظهر فساده جلياً ببعض الإلمام بتأريخ العلوم، إذ يتحقق لدى الباحث المنقب أن للعرب عدا ترجمتهم أهم نتاج قرائح الأمم التي سبقتهم إضافات هامة وابتكارات جمة مبينة على التجربة، على أساسها بنى الغرب حضارته، ولولاها لما تقدمت المدنية تقدمها الحاضر. والآن سأبحث بصورة مجملة عن أهم مآثر العرب في علم الفلك، وطبعاً لا يمكنني في هذه العجالة أن أجول كثيراً في هذا الموضوع فهو أجلّ من أن يوف حقه بمقالة، ولقد سبقنا الغربيون إلى البحث عن التراث العربي في الفلك وغيره من العلوم والفنون، وأظهروا الاكتشافات الفلكية التي للعرب وأثر ذلك في تقدم العلوم الطبيعية، وكان من ذلك أن اعترف المنصفون من علماء الفرنجة بخصب العقل العربي وفضل الحضارة العربية على حضارتهم التي ينعمون بها.
اعتناؤهم بالفلك:
لم يعرف العرب قبل العصر العباسي شيئاً يذكر عن الفلك، اللهمّ إلاّ فيما يتعلق برصد بعض الكواكب والنجوم الزاهرة وحركاتها وأحكامها، بالنظر إلى الخسوف والكسوف، وبعلاقتها بحوادث العالم من حيث الحظ والمستقبل والحرب والسلم والمطر والظواهر الطبيعية، وكانوا يسمون هذا العلم الذي يبحث في مثل هذه الأمور بعلم التنجيم، ومع أن الدين الإسلامي قد بيّن فساد الاعتقاد بالتنجيم وعلاقته بما يجري على الأرض لم يمنع ذلك الخلفاء ولا سيما العباسيون في بادئ الأمر أن يعتنوا به وأن يستشيروا المنجمين في (كثير من أحوالهم الإدارية والسياسية. فإذا خطر لهم عمل وخافوا عاقبته استشاروا المنجمين فينظرون في حال الفلك واقترانات الكواكب ثم يسيرون على مقتضى ذلك) وكانوا يعالجون الأمراض على مقتضى حال الفلك، يراقبون النجوم ويعملون بأحكامها قبل الشروع في أي عمل حتى الطعام والزيارة.
ومما لاشك فيه أن علم الفلك تقدم تقدماً كبيراً في العصر العباسي كغيره من فروع المعرفة، وقد كانت بعض مسائله مما يطالب بمعرفتها المسلم كأوقات الصلاة ومواقع بعض البلدان المقدسة وقت ظهور هلال رمضان وغيره من الأشهر أضف إلى ذلك شغف الناس بعلم التنجيم، كل هذه ساعدت على الاهتمام بالفلك والتعمق فيه تعمقاً أدى إلى الجمع بين مذاهب اليونان والكلدان والهنود والسريان والفرس، وإلى إضافات هامة لولاها لما أصبح علم الفلك على ما هو عليه

الآن.
قد يستغرب القارئ إذا علم أن أول كتاب في الفلك والنجوم ترجم عن اليونانية إلى العربية لم يكن في العهد العباسي بل كان في زمن الأمويين قبل انقراض دولتهم في دمشق بسبع سنين. ويرجح الباحثون أن الكتاب هو ترجمة لكتاب عرض مفتاح النجوم المنسوب إلى هرمس الحكيم، والكتاب المذكور موضوع على تحاويل سني العالم وما فيها من الأحكام النجومية، وأول من اعتنى بالفلك وقرب المنجمين وعمل بأحكام النجوم أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي الثاني، وبلغ شغف المنصور بالمشتغلين بالفلك درجة جعلته يصطحب معه دائماً نوبخت الفارسي، ويقال أن هذا لما ضعف عن خدمة الخليفة أمره المنصور بإحضار ولده ليقوم مقامه فسّير إليه ولده أبا سهل بن (نوبخت) وقد ساعد المنصور كثيراً إبراهيم الفزاري المنجم وابنه محمد وعلي بن عيسى الاصطرلابي المنجم وغيرهم، وهو الذي أمر أن يُنقل كتاب في حركات النجوم مع تعاديل معمولة على كردجات محسوبة لنصف نصف درجة مع ضروب من أعمال الفلك من الكسوفين ومطالع البروج وغير ذلك. وهذا الكتاب عرضه عليه رجل قدم سنة 156همن الهند قيّم في حساب السندهنتا، وقد كلف المنصور محمد بن إبراهيم الفزاري بترجمته وبعمل كتاب في العربية يتخذه العرب أصلاً في حركات الكواكب، وقد سمّاه المنجمون كتاب السندهند الكبير الذي بقى معمولاً به إلى أيام المأمون وقد اختصره الخوارزمي وصنع منه زيجه الذي اشتهر في كل بلاد الإسلام (وعول فيه على أوساط السندهند وخالفه في التعاديل والميل فجعل تعاديله على مذهب الفرس وميل الشمس على مذهب بطليموس، واخترع فيه أنواع التقريب أبوابا حسنة، وقد استحسنه أهل ذلك الزمان وطاروا به في الآفاق)، وفي القرن الرابع للهجرة حوَّل مسلمة بن احمد المجريطي الحساب الفارسي إلى الحساب العربي.
بعض فلكييّهم:
زاد اهتمام الناس بعلم الفلك وزادت رغبة المنصور فيه، فشجع المترجمين والعلماء، وفي مدة خلافته نقل أبو يحيى البطريق كتاب الأربع مقالات لبطليموس في صناعة أحكام النجوم ونقلت كتب أخرى هندسية وطبيعية أرسل المنصور في طلبها من ملك الروم، واقتدى بالمنصور الخلفاء الذين أتوا بعده في نشر العلوم وتشجيع المشتغلين فيها، فلقد ترجموا إلى العربية ما عثروا عليه من كتب ومخطوطات للأمم التي سبقتهم وصححوا كثيراً من أغلاطها وأضافوا إليها.
وفي زمن المهدي والرشيد أشتهر في الأرصاد علماء كثيرون من أمثال (ما شاء الله) الذيألف في الأسطرلاب ودائرته النحاسية، وأحمد بن محمد النهاوندي. وفي زمن المأمون ألّف يحيى بن أبي منصور زيجاً فلكياً مع سند بن علي، وهذا أيضا عمل أرصاداً مع علي أبن عيسى وعلي أبن البحتري، وفي زمنه أيضا أصلحت غلطات المجسطي لبطليموس، وألّف موسى بن شاكر أزياجه المشهورة، وكذلك عمل أحمد بن عبد الله بن حبش ثلاثة أزياج في حركات الكواكب، واشتغل بنو موسى في حساب طول درجة من خط نصف النهار بناءً على طلب الخليفة المأمون، وفي ذلك الزمن وبعده ظهر علماء كثيرون لا يتسع المجال لسرد أسمائهم كلها، وهؤلاء ألّفوا في الفلك وعملوا أرصاداً وأزياجاً جليلة أدت إلى تقدم علم الفلك. أمثال: ثابت بن قرّة والمهاني والبلخي وحنين بن إسحاق والعبادي والبتاني الذي عدّه لالاند من العشرين فلكياً المشهورين في العالم كله، وسهل بن بشار ومحمد بن محمد السمرقندي، وأبو الحسنى علي بن إسماعيل الجوهري وأبو جعفر بن أحمد بن عبد الله بن حبش، وقسطه البعلبكي والكندي، والبوزجاني وابن يونس والصاغاني والكوهي والمؤيد العرضي وابنه وأبو الحسن، المغربي ومسلمة المجريطي وأبو الوليد محمد بن رشد وجابر بن الأفلح والبيروني والخازن والطوسي وابن الشاطر والفخر الخلاني وجمشيد والقوشجي والبطروجي والفخر المراغي ونجم الدين بن دبيران وعماد الدين الأنصاري وأولوغ بيك وقاضي زاده رومي والتيزيني والحزري وفتح بن ناجية وأبو الفتح عبد الرحمن والغزالي والتوفيقي وهبة الله والمدني ومبشر بن أحمد ومحمد بن مبشر. . . .
مآثرهم:
بعد أن نقل العرب المؤلفات الفلكية للأمم التي سبقتهم صححوا بعضها ونقحوا الآخر وزادوا عليها، ولم يقفوا في علم الفلك عند حد النظريات بل خرجوا إلى العمليات

والرصد، فهم أول من أوجد بطريقة علمية طول درجة من خط نصف النهار، وأول من عرف أصول الرسم على سطح الكرة وقالوا باستدارة الأرض وبدورانها على محورها وعملوا الأزياج الكثيرة العظيمة النفع، وهم الذين ضبطوا حركة أوج الشمس وتداخل فلك هذا الكوكب في داخل أفلاك أخر، واختلف علماء الغرب في اكتشاف بعض أنواع الخلل في حركة القمر إلى البوزجاني أو إلى (تيخوبراهي) ولكن ظهر حديثا أن اكتشاف هذا الخلل يرجع إلى أبي الوفاء البوزجاني لا إلى غيره. وزعم الفرنجة أن آلة الإسطرلاب من مخترعات تيخوبراهي المذكور مع ان هذه الآلة والربع ذا الثقب كانا موجودين قبله في مرصد المراغة الذي أنشأه العرب، وهم (أي العرب) الذين حسبوا الحركة المتوسطة للشمس في السنة الفارسية وحسب البتاني ميل فلك البروج على فلك معدل النهار فوجده 23 درجة و 35 دقيقة وظهر حديثا انه أصاب في رصده إلى حد دقيقة واحدة، ودقق في حساب طول السنة الشمسية وفي حساب إهليليجية فلك الشمس فاستطاع أن يجد بعد الشمس عن مركز الأرض في بعديها الأبعد والأقرب وقد كانت النتائج التي وصل إليها قريبة جدا مما وصل إليه العلماء الآن، والبتاني من الذين حققوا مواقع كثير من النجوم، وقال بعض علماء العرب بانتقال نقطة الرأس والذنب للأرض، ورصدوا الاعتدالين الربيعي والخريفي وكتبوا عن كلف الشمس وعرّقوه قبل أوربا وأنتقد أحدهم وهو أبو محمد جابر بن الأفلح المجسطي في كتابه المعروف بكتاب إصلاح المجسطي وكان جابر يسكن في إشبيليه في أواسط القرن السادس للهجرة. وقد دعم انتقاده عالم آخر، أندلسي وهو نور الدين أبو إسحاق البطروجي الإشبيلي في كتابه الهيئة الذي يشتمل على مذهب حركات الفلك الجديد، ويقول الدكتور سارطون إنه بالرغم من نقص هذه المذاهب الجديدة فإنها مفيدة ومهمة جداً لأنها سهّلت الطريق للنهضة الفلكية الكبيرة التي لم يكمل نموها قبل القرن العاشر وأبحاثهم في الفلك أوحت لكبار (أن يكتشف الحكم الأول من أحكامه الثلاثة الشهيرة وهي إهليليجية أفلاك السيارات) وأخيراً نقول أن العرب عندما تعمقوا في درس علم الهيئة (طهروه من أدران التنجيم والخزعبلات وأرجعوه إلى ما تركه علماء اليونان علماً رياضياً

مبني على الرصد والحساب وعلى فروض تفرض لتعليل ما يرى من الحركات والظواهر الفلكية).

المراصد وبعض آلاتها والأزياج:

لم يصل علم الفلك عند العرب إلى ما وصل إليه إلا بفضل المراصد، وقد كانت هذه نادرة جداً قبل النهضة العلمية العباسية، وقد يكون اليونان أول من رصد الكواكب بالآلات وقد يكون مرصد الإسكندرية الذي أنشئ في القرن الثالث قبل الميلاد هو أول مرصد كتب عنه، ويقال إن الأمويين ابتنوا مرصداً في دمشق ولكن الثابت أن المأمون هو أول من أشار باستعمال الآلات في الرصد، وهو الذي ابتنى مرصداً على جبل قيسون في دمشق وفي الشماسية في بغداد، وفي مدة خلافته وبعد وفاته أنشأت عدة مراصد في أنحاء مختلفة من البلاد الإسلامية، فلقد ابتنى بنو موسى مرصدا في بغداد على طرف الجسر، وفيه استخرجوا حساب العرض الأكبر من عروض القمر وبنى شرف الدولة أيضاً مرصداً في بستان دار المملكة، ويقال أن الكوهي رصد فيه الكواكب السبعة. وأنشأ الفاطميون على جبل المقطم مرصدا عرف باسم المرصد الحاكمي، وكذلك أنشأ بنو الأعلم مرصدا عرف باسمهم، ولا ينبغي أن ننسى أن مرصد مراغة الذي بناه نصير الدين الطوسي في القرن السابع للهجرة من أهم المراصد التي قدمت بعلم الفلك تقدما محسوساً، ويوجد عدا هذه مراصد أخرى في مختلف الأنحاء كمرصد ابن الشاطر بالشام ومرصد الدينوري بأصبهان ومرصد البيروني ومرصد أولوغبك بسمرقند ومرصد البتاني بالشام ومراصد غيرها كثيرة خصوصية وعمومية في مصر والأندلس وأصبهان. . .

كان للرصد آلات وهي على أنواع، وتختلف بحسب الغرض منها، وهاك أسماء بعضها: اللبنة، والحلقة الاعتدالية، وذات الأوتار وذات الحلق، وذات السمت والارتفاع والآلة الشاملة، وذات الشعبتين، وذات الجيب، وذات المشتبهة بالناطق، والإسطرلاب وأنواعه المتعددة وقد اعترف الفرنجة بان العرب أتقنوا صنعته. وثبت أن الإسطرلاب وذات السمت والارتفاع والآلة الشاملة والرقاص وذات الأوتار والمشتبهة بالناطق كل

هذه من مخترعات العرب عدا ما اخترعوه من المساطر والبراكير وعدا التحسينات التي أدخلوها على كثير من آلات الرصد.

في هذه المراصد عمل المسلمون أرصادا كثيرة، ووضعوا الأزياج القيمة الدقيقة.

وعلى ذكر الأزياج نقول أن مفردها زيج وفي معناه قال ابن خلدون (ومن فروعه (علم الهيئة) علم الأزياج وهي صناعة حسابية على قوانين عددية فيما يخص كل كوكب من طريق حركته وما أدى إليه برهان الهيئة في وضعه من سرعة وبطئ واستقامة ورجوع وغير ذلك يعرف به مواضع الكواكب في أفلاكها لأي وقت فرض من قبل حسبان حركاتها على تلك القوانين المستخرجة من كتب الهيئة. ولهذه الصناعة قوانين كالمقدمات والأصول لها في معرفة الشهور والأيام والتواريخ الماضية وأصول متقررة من معرفة الأوج والحضيض والميول وأصناف الحركات واستخراج بعضها من بعض يضعونها في جداول مرتبة تسهيلاً على المتعلمين وتسمى الأزياج) ومن أشهر الأزياج زيج إبراهيم الفزاري وزيج الخوارزمي وأزياج المأمون وابن السمح وابن الشاطئ وأبى حماد الأندلسي وابن يونس وأبى حنيفة الدينوري وأبى معشر البلخي والأيلخاني وعبد الله المروزي البغدادي والصفاني والشامل (لأبي الوفاء) والشاهي (لنصير الدين الطوسي) وشمس الدين وملكشاهي والمقتبسي (لأبي العباس بن أحمد بن يوسف بن الكمال) وو و. . .

الخلاصة:

وبالجملة فان للعرب فضلاً كبيراً على الفلك.

لأن العرب نقلوا الكتب الفلكية عند اليونان والفرس والهنود والكلدان والسريان (أولاً) وصححوا بعض أغلاطها وتوسعوا فيها وهذا عمل جليل جداً لاسيما إذا عرفنا أن أصول تلك الكتب ضاعت ولم يبق منها غبر ترجماتها في العربية وهذا طبعاً ما جعل الأوربيون أن يأخذون هذا العلم عن العرب فكانوا (أي العرب) بذلك أساتذة العالم فيه.

و (ثانياً) في إضافاتهم الهامة واكتشافاتهم الجليلة التي تقدمت بعلم الفلك شوطا بعيداً.

و (ثالثاً) في جعلهم علم الفلك استقرائياً وفي عدم وقوفهم عند حد النظريات كما فعل اليونان.

و (رابعاً) في تطهير علم الفلك من أدران علم التنجيم.

نابلس - فلسطين - قدري حافظ طوقان - عضو الجمعية الرياضية بلندن

من طرائف الشعر

شوقية لم تنشر:

نظم شاعر الخلود شوقي بك مجموعة من رائع الشعر الحكيم السهل لتكون للأطفال أدباً وثقافة، ويسرنا أن ننشر اليوم قطعة منها لم تنشر من قبل وعنوانها المظنون (ولد الغراب)

ومُمهدٍ في الوكر من ... ولد الغُراب مُزقَّقِ
كروُيْهبٍ مُتقلس ... مُتأزِّر مُتنطقِ
لبس الرَّمادَ على سوا ... دِ جناحه والمفرقِ
كالفحم غادر في الرَّما ... دِ بقيَّة لن تحرقِ
ثُلثاه منقار ورَأ ... س والأظافرُ ما بقي
ضخْم الدماغ على الخلو ... من الحجى والمنطقِ
من أمهِ لقي الصغ ... يرُ من البَليّة ما لقي
جلبَت عليهِ ما تذو ... دُ الأمهاتُ وتتّقي
فُتِنت به قتوهَّمت ... فيه قُوىً لم تُخلقِ
قالت كبِرت، فثبْ كما ... وثَب الكبار وحلّقِ
ورمت بهِ في الجو لم ... تَحرصْ ولم تستوثقِ
فهوى فمُزق في فنا ... ء الدار شرَّ ممزقِ
وسمعتُ قافاتٍ تردّ ... دُ في الفضاءِ وتَرتقي
ورأيت غِرباناً تَفرّ ... قُ في السماء وتلتقي
وعرَفت رنَّة أمه ... في الصارخات النُّعَّق

فأشرْتُ فالتفتت فقل ... تُ لها مَقالة مُشفق
ِأطلقتِه ولو امْتحن ... تِ جناحَه لم تُطلقِ
وكما ترفق والدا ... كِ عليكِ لم تترفقي
أصداء الربيع
قُمْ إلى الزمان وغيبْ ... سورة الهم في مجالي ربيعهْ
خلصَ القلب من مآتم كانو ... نَ وعاد الشادي إلى ترجيعه
عبقتْ بالسهول أنفاس آذا ... رَ وساف المشتاق نفح الزهور
رقَّة في الفضاء شاعت ولطف ... ساغَ للنفس كالهوى في الصدور
واكتسى الدوح نظرة بعد عري ... ولكان ربَّ في المشيب الشباب
وتغنى الحمام فيه وساحتْ ... تحتَ أظلاله عيون عذاب
وكان الروض الذي نبهته ... من كرىً غفوةُ النسيم العليلِ
طرفةُ تملأ العيونَ بهاءً ... أخلصتها يُمنى حبيبٍجميلِ
قم إلى البشر والطلاقة وانفض ... عن محيّاكَ كدرَة الأيامِ
سيغول الحياة غول وتبقى ... مُتع العيش حسرةً في العظامِ
وَتناس الآلام يندملِ الجر ... حُ تنصب في مقلتيك الدموع
أنتَ أضريت بالفؤاد رزايا ... هُ فضاقت بما تكن الضلوع
أنت أحسست من شجونك ما خي ... لت واخترتَ أن تكونَشقيا
إنما الحزن والسرور اعتبارٌ ... لم يكونا لولاه في النفس شيا
أيها القلب قد أظلكَ آذا ... رُ ورّفت على الرُّبا أصاله
فتزوّدْ منهُ ليومك حظاً ... قبل أن يوحش القلوبَ زواله
لا تسل عن غدٍ وخَل المقادي ... ر فقد كنَّ في الغيوبِ وكانا
حسبنا من مغانم العيش يومٌ ... حاضرُ السعد عن غدٍ أغنانا
أيُها القلبُ إن دعاكَ التصابي ... وثنيت العنان ضل ضلالك
لا تجب داع الرشاد فقدماً ... شقيت في طلابه أعمالكِ
واعبد الحسن في الطبيعة طفلاً ... برئت روحه، وفي الغيد سحراً
وفتونا ينهي الفتى عن نهاهُ ... كلما دار بالمحاجر أغرى
أرسل الشوق لهفة، وخفوقاً ... يوهن الجسم أو يداوي ضناهُ
وابعث الحب في الجوانح برقاً ... يهتدي ناضري ضحى بسناه
حمص_رفيق فاخوري (سورية)
في الأدب الشرقي
نامق كمال
للدكتور عبد الوهاب عزام
أبو الأدب التركي الحديث الذي نزل من أفكار الترك وقلوبهم منزلة لم ينزلها غيره. والذي لا تزال آثاره مدونة في التأريخ التركي الحديث، محفوظة في قلوب الجبل الحاضر. ولد سنة 1256هـ في أسرة مجيدة يجمع تاريخها كثيراً من كبار الدولة العثمانية وكان أبوه مصطفى عاصم بك فلكياً، وجدَّه - شمس الدين بك رئيس المابينفي عهد السلطان سليم الثالث، وأبو شمس الدين قعبودان أحمد راتب باشا الذي ينتهي نسبه إلى الصدر الأعظم - طوبال عثمان باشا.
وأبو الشاعر من يكي شهر وأمه من قونيجة في ألبانيا. وكان أبوه ديِّناً متصوِّفاً، فلمّا ولد المولود العظيم أخذه إلى أحد الدراويش فدعا له أن (يكون كمالاً للإسلام). تعلم كمال في دار أبيه ودرس فيما درس بها العربية والفارسية والفرنسية، ولم يتعلم في المدارس إلاّ تسعة أشهر.
وفي سن الثانية عشرة ذهب مع جده إلى قارص وكان يمضي أكثر أوقاته في الصين، ثم ذهب إلى صوفيا حيث شرع يقرض الشعر وهو في الرابعة عشرة من عمره. ثم عاد إلى اسطنبول وهو ابن17 فصار مترجماً في الباب العالي واتصل بجماعة من الأدباء الذين يكبّرون الشعراء القدماء ويسيرون على نهجهم فشارك في الشعر وعُرِّفَ به ونشر ديوانا صغيراً تسمى فيه (نامقا) كدأب شعراء الفرس والترك في اتخاذ اسم شعري يردده الشاعر في منظوماته فيعرف به.
وكان شناسي أفندي أحد أدباء الترك الذين تعلموا في فرنسا يحتذي الشعراء

الفرنسيين ويحرض ناشئة الأدباء على اتباع أسلوب جديد في الأدب، وكان لمقالاته في جريدته (تصوير أفكار) أثر عظيم على نامق كمال وأضرابه من الشبان، فأُعْجِبَ كمال به وشارك في تحرير جريدته ودعا إلى تجديد تركيا في السياسة والأدب وعظمت مكانته. فلمّا فرّ شناسي أفندي إلى باريس 1280هـ (1864م) خلفه في تحرير الجريدة، فانتشرت (تصوير أفكار) انتشارا عظيماً.

وقد ضاقت الحكومة العثمانية ذرعاً بمقالاته فأرادت أن تشغله ببعض المناصب فجُعِل متصرفا للقلعة السلطانية في غليولي زمنا قصيرا وهو في سن 23. وبعد حين أريد إرساله سفيراً إلى بلاد العجم فأبى. وانتهى الأمر بينه وبين الحكومة إلى أن فر هو وجماعة من أنداده إلى لندرة سنة 1282هـ (1866م) ويقال انه ذهب إليها إجابة لدعوة مصطفى فاضل باشا ونشر لندرة جريدة (المخبر) ثم نشرها في باريس ونشر بعدها جريدة (الحرية) وفي باريس درس الحقوق والاقتصاد السياسي وترجم بعض الكتب من الفرنسية.

ولما مات الوزير عالي باشا سنة 1287هـ رجع كمال إلى استانبول فنشر جريدة (عبرت) فصارت أعظم الجرائد التركية. ولا يزال أدباء الترك يحرصون على صفحات هذه الجريدة ومقالاتها، وكتب إذ ذاك قصة (وطن ياخود سلستريا) فلم تحتمل الحكومة جرأته وصرامته، فنفته إلى قبرص فحبس بها وكتب هناك قصته الأخرى (عاكف بك) ولما تولى السلطان مراد رجع إلى استانبول بعد أن أقام في منفاه 38 شهراً، وشارك مدحت باشا وضيا باشا في تحرير الدستور. ولما تولى السلطان عبد الحميد لم يصبر على أقوال كمال وأفعاله، فأوخذ وحبس خمسة أشهر ونصف، شغل أثناءها بقراءة التاريخ ابتغاء أن يكتب تاريخاً للجيش العثماني. ولما برأته المحكمة مما اتهم به نفاه السلطان إلى جزيرة متلين وهنالك كتب قصائد أعرب فيها عن شكاته وحزنه، وكتب قصتين (جلال الدين خوارز مشاه) و (جزمي) تناول فيهما بعض حادثات التاريخ الإسلامي. ثم جعل متصرفا للجزيرة التي هو بها ثم نقل إلى رودس وكانت أكثر ملاءمة لصحته. وفي رودس شرع يكتب تاريخ الدولة العثمانية وقد جمع بها مكتبة حافلة مكنته من التأليف، ثم جعل متصرفا لمتلين فعاد إليها وواصل كتابة تاريخه على رغم مرضه، حتى منعت الحكومة أن يطبع هذا التاريخ وأمرته ألا يستمر في كتابته، وبعد سنة توفي سنة 1305هـ.

لا يتسع المجال هنا لتعداد مؤلفات نامق كمال، ولكن يمكن إجمالها في الديوان وثماني قصص ومؤلفات تاريخية منها (أوراق بريشان) التي ترجم فيها لصلاح الدين الأيوبي ومحمد الفاتح وسليم الأول ونوروز بك، ومقدمة في تاريخ الرومان والتاريخ الإسلامي وكتاب ردّ فيه مزاعم رينلن الفرنسوي سمّاه (رينان مدافعة نامه سى) وهو من احسن ما كتب في رد ما كتبه رينان عن الإسلام. ومقالات عديدة هي من أروع آثاره. ويتجلى في

كتب كمال حماسته وغيرته وإخلاصه في سبيل وطنه والإسلام، كما يتجلى الخلق العظيم، والنفس الكبيرة، والعزة الماضية والصبر على المكارة، والخيال الرائع، والتصوير الجميل والأعراب الحر عن آرائه ومشاعره. ولا ريب ان كمالا هو خالق النثر التركي الحديث والذي مهد

للأدباء الطريقة المثلى في الشعر بعد أن هداه إليها شناسي أفندي: وهذه قطع من آثار نامق كمال وان آثاره لأعظم وأكثر من أن تبين عنها هذه القطع الصغيرة. قال من مقال منشور وعن الشعر والشعراء:

- 1 -

الشاعر مخلوق من البسمات الحزينة: بسمات الطبيعة في أشد أوقاتها وجداً وولهاً. ترى في ضحكة أثر البكاء كقطرات الندى على صفحة الورد، وتلوح في بكائه سمات الابتسام كقوس قزح في السحاب المكفهر. هو أشد الخلائق استئساراً للطبيعة ولكنه يحاول أن يسمو فوقها، بينا هو لا يحسن تدبير أمره، يبغي إن يدفع بذراعيه الضعيفتين كرة الأرض إلى مركز كمال جديد ومحور سعادة آخر. فإذا عيّ بما يريد أرسل أناته الحزينة كأنات البلابل في الأقفاص خلف الحجب السوداء، أو صاح صياح النسور قد حلّقت في اللوح حتى ضاق بأنفاسها الهواء فأهوت مسرعة تملأ الهواء، صر صرتها. الشعر هذه الصيحات الأليمة والشعراء هؤلاء البؤساء الذين فطروا على هذه الفطرة،

لا من يؤلف التفاعيل والأفاعيل من خمسة عشر حرفاً أو يستطيع أن يؤلف القوافي من ثمان وعشرين كلمة. . الخ
- 2 -
وهذه قطعة منظومة ختم كل بيت منها بكلمة (على رغم) فتمثل في هذا التكرار إصرار النفس الكبيرة وثباتها على الدهر القلب:
لست أبالي إن أعود تراباً على رغم عمري، ولست أفرُّ من عنصري، على رغم الممات.
لا تجعلن نفسك أذلّ من التراب الذي تطأه، اثبت على عزيمتك على رغم الدهر الذي لا ثبات له.
ما تمثل لي الباطل حقاً قط، ولقد اعتمدت على (الحق) على رغم الآلهة كلها.
لا يخفين داهيةٌ آراءه، أعرض على الناس ما تعرف على رغم الدهاة أجمعين.
إن كان لابد للحياة على ظهر الأرض من تمريغ الوجه بالتراب فاختر بطن التراب على رغم الحياة.
رأيت مسير الكائنات شراً فاعتزلها، ووقفت في هذه السبيل وحيدا على رغم الكائنات.
وما التفت قط إلى الحظوظ الفاتنة على رغم ما لاح في طالعي من آلاف الحظوظ.
- 3 -
وهذه أبيات من قصيدة حماسية طويلة.
رأيت ولاة العصر قد حادوا عن الإخلاص والصدق فهجرت المناصب عزيزا سعيدا إن جرثومة هذا الجسم تراب الوطن. فماذا يفيده أن يمزقه الجور والمحنة في سبيل الوطن؟
لا يعين الظلمة إلا الأوغاد كما تنعم الكلب في خدمة الصياد السفاح.
من يخشى لوم الناس ولا يستح من نفسه فنفسه أحقر الناس عنده.
إن انتقام العقلاء من الدهر أن يعتبروا بحادثاته فيزدادوا جدا وصرامة وإقداما.
انتصار الأمة في اتحاد قلوبها والرحمة في اختلاف آرائها
إن عزيمة الرجل المكين تدير العالم، والدنيا في اضطراب من ثبات أولي العزم.
ليس على الأسد المسلسل عار، ولكن العار على الفلك الذي بنصب لحرب أولي الهمم. نحن سلالة الكرام من بني عثمان اختمرت طينتنا بدم الشهادة ونحن أولو المجد والهمم العالية الذين اخرجوا من عشيرة صغيرة دولة مسيطرة على العالم ونحن أصحاب السجايا الرفيعة الذين يرون في ميدان الحمية تراب القبر أهون من تراب المذلة.
هلم أيها الفلك اجمع مظالمك كلها ثم اصمد إلى فان كلت عزيمتي في سبيل الأمة فأنا المرأة الهلوك. . .
أيها الظالمون احذوا منازلة أبطال الحق فان نار الحمية تصهر سيوف الظلم.
- 4 -
وهذه رباعية دائرة على الألسن من مأثور قوله -:
ما حملت في حياتي سلاسل الأسار
وان الدنيا تعرفني مبرأ من قيودها والآصار
هذا ميدان الحمية لا تفر أيها الجبار
فليمحك الله من هذا العالم أو فليمحني.
في الأدب الغربي
من الأدب الفرنسي:
للأستاذ شاتوبريان (1768 - 1848)
للأستاذ أبي قيس
ولد فرنسوا شاتوبريان في سان مالو وهو قدوة الكتّاب في القرن التاسع عشر، اقتبس عن الفصحاء المدرسيين كبسكال وبوسويه وفولتير، وتأثر ببلغاء الإبتداعيين كروسو وبرناردان، ولكنه لم يقلد منهم أحدا. هو مصور ماهر لا يصف إلا ما يشاهده بأم العين فيثير في مخيلة قارئه أروع المشاهد، ويبالغ في الإتقان والمحاكاة حتى يجعل الغائب كالشاهد، ففتح بذلك مغالق الطبيعة وكشف عن سواحر محاسنها.
وهو ذلك الشاعر الذي يصور ببراعة حركات الفؤاد ووثباته، والخطيب البليغ الذي يرتفع

حجاب السمع لرائع تشبيهاته واستعاراته، ولم يظهر في القرن التاسع عشر أسلوب أفخم ولا أسلس ولا أكثر تنوعا من أسلوبه، فكان لتبسطه في فنون اليراع إماما للشاعر المبدع، والكاتب الممتع، والمؤرخ الصادق، والناقد المنصف، والخطيب المثير، والقصصي القدير؛ وحسبك دليلاً على مبلغ تأثيره في كتاب عصره أن فكتور هوجو كتب على دفتره المدرسي وهو في الخامسة عشرة ما نصه: (أريد أن أكون شاتوبريان أو لا أكون شيئا!)

ومن روائعه: الشهداء وروح النصرانية، ورحلة من باريس إلى بيت المقدس وهي التي عربنا منها للرسالة وصفه لعرب فلسطين وحوادث آخر بني سراج التي عربها الأمير شكيب الأديب المنتج العجيب، ولخصها صاحب النظرات واتالا التي نقلها أنطون فرح إلى العربية.

عرب فلسطين

العرب حيثما أبصرتهم في فلسطين ومصر أو في بلاد البربر، قد ظهروا لي بقامة أقرب إلى الطول منها إلى القصر، مشيتهم البخترية برشاقة طبعوا عليها وخلقتهم في أحسن تقويم: وجوه مسنونة وجباه مقوسة عريضة وأنوف يزينها القنا والشمم، وعيون نجل لوزية الشكل ذات نظر نديٌّ عذب، ثم لاشيء يشعرك منهم بوحشة، وان لبثت أفواههم مطبقة

أبداً. ذلك انهم إذا ما اخذوا في التحدث إليك أسمعوك لغة تطربك نغمتها ويفعمك شذاها، ولمحت ثغوراً يروعك البياض الناصع من ثناياها والشنب مما يذكرك بأسنان العسابر وبنات آوى

والعربي يرتدي على الأغلب جلباباً يشده الحزام على الخصر وتراه ينزع يده حينا من كم جلبابه هذا فيمثل لك الردية القديمة وتبصره حينا آخر يلف بعباءة من صوف فتكون له رداءً أو كساءً أو وقاءً من الحر بحسب التفافه بها أو طرحها على منكبيه أو رأسه وهو يمشي حافياً أو منتعلاً ويتسلح بالبندقية والخنجر والرمح الطويل.

إن القبائل ترحل قوافل، والإبل تمشي قطاراً، والبعير الأول منه يجره حبل من مسد حمار هو قائد القافلة: فهو لذلك قد أكرم بإعفائه من الأثقال وبما حبوه من أنواع الرعاية والاختصاص والعشائر الموسرة تزين الأباعر بالمخمل المهدب والريش والبنود.

أما الجواد فإنه يكرم على قدر استيفائه لأقسام العتق والكرم ولكنهم مع ذلك لا يتسامحون في سياسته أبداً فلا يحبسون الخيل في الظل بل يعرضونها لِلَفْحْ الهواجر مربوطة بالأوتاد من قوائمها الأربع ربطاً تجمد له في مقرها، وهي أبداً مسرجة وكثيراً ما تقضي نهارها على ورد واحد، ولا تعلف في اليوم كله إلاّ حفنات من الشعير: ومثل هذا التقتير في العلف مع انه لا يَهْزِلُها كفيل بتعويدها السرعة والصبر والقناعة.

راقني كثيراً جواد عربي كان مقيداً في الرمضاء. وشعر عرفه منتشر، ورأسه منحنٍ بين يديه التماساً لبعض الظل، وهو ينقد بعين وحشية صاحبه ناظراً إليه عن عرض شزراً فإذا ما أنت فككت قيده وقذفت بنفسك على ظهره أزبد وحمحم ثم نهب الأرض نهباً.

إن كل ما يروى لنا عن ولع العرب وغرامهم بالقصص هو حق لا مرية فيه وأنا مورد لك على ذلك مثالاً:

سمرنا ذات ليلة على الرمل من ساحل البحر الميت، وبات التلاحمة حول النار المتأججة وبنادقهم ملقاة إلى جانبهم على الأرض والخيل، وهي مثلنا على شكل دائرة موثقة بأوتادها، وبعد أن احتسينا القهوة وتجاذبنا أهداب الأحاديث سكت هؤلاء العرب ما خلا شيخهم الذي كنت المح من خلال سنا النار حركات وجهه الناطقة ولحيته السوداء وأسنانه البيض والأشكال المختلفة التي كانت تتشكل بها ثيابه وهو ممعن في سرد قصته. وكان أصحابه

يصغون إليه الإصغاء كله، مائلين إليه برؤوسهم ومقبلين بوجوههم على اللهب وهم يصيحون تارة صيحة إعجاب وطرب، ويقلدون أوضاع الشيخ المحدّث تارة أخرى. وبعض رؤوس من الخيل كانت ممتدة فوق السامر بأعناقها وانك لتتبينها في العتمة فتكمل بها صورة تلك اللوحة الرائعة ولا سيما إذا أنت أضفت إليها ناحية من البحر الميت ومن جبال فلسطين!. (دمشق - أبو قيس)

العلوم
الرياح
للدكتور محمد عوض محمد
لعلنا معشر المصريين من أقل الأمم اكتراثاً لأمر الرياح، نعيش حياتنا كأننا لا يهب علينا إلاّ نسيم عليل أو ريح رخاء، لا نستثني من هذا غير شهر أمشير الذي ننعته بالأرعن. ولا يلبث أن يمضي أمشير حتى نتناسى أن في العالم عواصف وزوابع وأعاصير منها ما يثير التراب وما يقتلع الشجر ويهدم المنازل والدور
على أن هبوب الزوابع حتى في بلادنا - بلاد النعومة والسهولة ليس بالشيء النادر. وكثيرا ما نحس في أمشير وغير أمشير من الشهور تلك الحركة العنيفة في طبقات الهواء، وأنها لتهيب بنا فجأةً ونحن عنها لاهون، فإذا أبوابنا تقرع بعنف. ونوافذنا تكسر، وإذا سحب من العشير المطّار تتخذ سبيلها إلى أعيننا وآذاننا وأنوفنا المرغمة.
وهذه الزوابع قد تدوم ساعة وبعض ساعة أو يوماً أو بعض يوم، ثم لا يلبث الهواء أن يعود نسيماً ولا تلبث الريح أن تعود رخاء، ونحن قوم سريعو النسيان ووطننا العزيز سريع الغفران.
ومع ذلك فما أجدرناأن يزداد اهتمامنا بأمر الرياح، فإنها من الأمور التي تعنى بها طوائف عديدة من الناس في كل زمن وكل بلد. فالشعراء مثلاً من أكثر الناس اهتماماً بالرياح. طالما ذكروها ونعتوها، وحملوها رسائل الغرام بل قد تبلغ بالواحد منهم الجرأة أن يحملها القبلات والآهات والأنات:
وإني لأستهدي الرياح سلامكم ... إذا أقبلت من نحوكم بهبوب،
وأسألها حمل السلام إليكم ... فإنْ هي يوماً بلغت فأجيبي!
وطالما أثارت شجونهم، وبعثت الحنين في نفوسهم والدمع في مآقيهم وما أسهل انهمال دموع الشعراء!
وكأني بك أيها القارئ تتوهم أن هذا كله ليس بأمر ذي خطر بل قد ترى أنه من السخف أو
دونه السخف، وقد تكون في هذا مصيباً. ولكن إذا كانت نظرة الشعراء إلى الرياح خفيفة سخيفة فإن نظرات الملاحين إلى الرياح نظرات حادّة جادّة.
وليس من سبيل لإنكار ما للرياح من أياد بيضاء يوم كانت هي القوة الفعالة التي تدفع السفن على أديم الماء. فعلّمت الناس أن يتعارفوا وأن يتعاملوا ويتعاونوا. وهدتهم لأن يتاجر بعضهم مع بعض وكيف يستطيعون. . ويا للأسف، أن يسطو بعضهم على بعض ويفتك بعضهم ببعض؟.
كانت الرياح هي الوسيلة الوحيدة إلى قطع البحار والتقريب بين البعداء.
ولئن كانت البواخر في غنى عن الرياح فإنها لم تزل تخشاها وترهبها، فإن الرياح ما برحت قادرة على إثارة موج كالجبال ترتعد لها فرائص الرّكب. ويرتاع له الملاّحون.
وهناك سفن جديدة لا تجري على صفحة الماء بل تشق عباب الهواء وتحلق فيه تحليق العقاب. وهذه تخشى الرياح وتحسب لها ألف حساب فلئن كانت دولة الرياح قد دالت على صفحات الماء فإن لها في عالم الطيران سلطاناً لا يزال في أشد عنفوانه.
ثم أن هنالك طائفة من الناس أشد خطراً من هؤلاء جميعاً أو على الأقل تعد نفسها أعظم خطراً من الناس جميعا - وهي طائفة العلماء، علماء الطبيعة الذين يدرسون ظاهراتها، ويحاولون أن يطلعوا على أسرارها. هؤلاء يهمهم أمر الرياح كما يهمهم كل شيء على وجه الأرض وعلى غير وجه الأرض، وهم ينعتونها ولكن لا على طريقة الشعراء فلا يحملونها سلاماً ولا كلاماً بل يقيسون سرعتها بإحكام ويعرفون اتجاهها بدقة ويشرحون لك ما يسببها وما لا يسببها ويعززون أقوالهم بأرقام ورموز يوهمونك بها أن في الأمر أسراراً غامضة وأن صدورهم هي خزانة تلك الأسرار.
والآن فلنتحدث عن الرياح حديث العلم أولاً ثم نعود فنتحدث عنها حديث الأدب وهكذا نقدم للقارئ الغذاء الدسم في البداية تاركين الحلوى إلى النهاية.
فلنذكر أولاً أن هذه الكرة التي تزحف كلنا على سطحها يحيط بها غلاف عظيم من الهواء: غلاف لم يسبر أحد غوره تماماً وقد يكون عمقه مائة ميل وقد يكون مائتين، بل قد يكون أكثر من هذا. وان سألت العلماء كيف عرفوا عمق الهواء ولو على وجه

التقريب قالوا لك انهم يرقبون سقوط الشهب حين تندفع نحو كوكبنا العزيز، فإذا رأوها تأخذ في الاحتراق،

علموا إنها قد بدأت تحتك بهوائنا فإذ استعانوا بآلات راصدة سليمة لم يتسرب إليها الخلل وكان عقل الراصد سليماً لم يتسرب إليه الخلل استطاعوا أن يعرفوا على وجه التقريب درجة ارتفاع الهواء عن أديم الغبراء.

وهنالك طرق أخرى يقاس بها عمق الفضاء ولكن لن أتعب نفسي وأجهد القارئ في شرحها وتفهمها. وقد يتفضل بعض الأصدقاء (من العلماء) بالرد على هذا المقال؛ ثم يتوسع في الشرح والبيان بما يشفي غلة الظمآن.

علمنا إذن أن هذا الكوكب يشمله الهواء من جميع النواحي. ولحكمة إلهية عظيمة قد أحيطت الأرض بهذا الغطاء الكثيف الذي يحول دون أن تنفذ إلى الفضاء رائحة ما بالأرض من أدران وآثام. وما يغشاها من بغي وظلم. . فلنحمد العناية التي عملت على وقايتنا شر الفضيحة، فلم تطلع سكان السماوات على ما انغمست فيها أرضنا من إثم ورجس وفسوق وعدوان.

هذا الغلاف العظيم الذي يحيط بالأرض ليس هادئا ساكناً بل فيه حركة دائمة. وهذه الحركة هي التي نحسها حين نحس بهبوب الرياح. وأول سؤال يعرض لنا طبعاً هو: لماذا يتحرك الهواء ولماذا تهب الرياح؟

إن الشاعر العربي يتساءل: (أم هبت الريح من تلقاء كاظمة؟) ويريد هو واتباعه من الغاوين أن يوهموا العالم إن الريح ما هبت من تلقاء كاظمة إلا لكي يستطيع حضرته إن يمزج دمعاً جرى من مقلة بدم! ونحن نؤكد للشاعر الفاضل إن الريح لا يهمها إذا كان يمزج دمعه بدم أو يمزج الماء بالراح أو الوسكي بالصودا. . وإذا كانت الريح قد هبت من تلقاء كاظمة، فما ذلك إلا لأن الضغط الجوي شديد (عال) في جهة كاظمة وخفيف يسير (منخفض) في الناحية التي كان بها الشاعر.

ولقد يقف القارئ عند كلمة الضغط هذه ويتساءل (وحق له أن يتساءل) كيف يكون في الجو ضغط شديد أو غير شديد؟ إنّا نسلم بان في الأرض ضغطا وظلما واستبدادا يتفاوت من مكان إلى مكان ومن زمان إلى زمان ولكن أيكون في الهواء ضغط وهو تلك المادة اللطيفة؟

والجواب على هذا السؤال بالإيجاب. فان الهواء في بعض النواحي شديد الضغط ونواح أخرى خفيف الضغط، فيدفع الهواء من الناحية التي يشتد بها الضغط إلى الناحية التي يخف بها الضغط منحرفاً في سيره إلى اليمين قليلاً في نصف الكرة الشمالي وإلى اليسار في نصف الكرة الجنوبي.

وهكذا تحدث الرياح وكلما كان الفرق بين الضغطين كبيراً ازدادت الرياح شدة وقوة. فيكون الاختلاف بين الرياح: فمن نسيم عليل إلى إعصار عنيف.

ثم يعرض لنا سؤال آخر نحاول أن نفر منه فلا نستطيع إلى الخلاص منه سبيلا. ذلك إننا وان سلمنا بان الرياح انتقال الهواء من جهة ذات ضغط شديد (عال) إلى جهة ذات ضغط خفيف (منخفض)، فأننا لابد أن نتساءل لم كل هذا الاختلاف في الضغط؟ ألا يمكن تطبيق مبدأ المساواة المجيد ولو في الهواء، مع العلم بأن المساواة في الظلم عدل؟

هنالك لابد لنا أن نقرر والحزن يملأ قلوبنا إن ليس في العلم (ويا للأسف!) مساواة. انظر حيثما شئت تجد التباين والاختلاف! انظر إلى البحار تجد منها العميق الذي لا يسير له غور والضحل القريب المنال. والأنهار منها الضعيف القليل الماء ومنها المفعم السريع الجريان. ثم انظر إلى اليبس تر فيه جبالاً شاهقة قد رفعت رأسها فوق السحاب وفي ناحية أخرى ترى سهولاً مبسوطة وأودية وطيئة.

إذن فلا عجب إذا اختلف ضغط الهواء على وجه الأرض وأسباب هذا الاختلاف كثيرة، وأهمها من غير شك اختلاف حرارةالأقاليم، فحيث الحرارة الشديدة يتمدد الهواء ويخف وزنه وضغطه ويحاول الصعود إلى أعلى فيندفع الهواء من جهات حرارتها أقل من حرارة تلك الأقاليم ليحل محل الهواء المتمدد الصاعد ويسد الثغرة التي أوشكت أن تحدث. وإذا كنا نحن في مصر نحسّ رياحا آتية من الشمال ذاهبة نحو الجنوب (نحو خط الاستواء) مارة ببلادنا العزيزة فتنعشها وتبردها ومن اجلها أحببنا لمنازلنا أن تطل على الشمال. فان هذه الرياح هي من ذلك النوع وهي الرياح التجارية بالذات - تمر بنا

وهي ذاهبة إلى الأقاليم الحارة لكي تحل محل ذلك الهواء الخفيف المتصاعد في تلك الأقاليم.
هذا بعض السبب في اختلاف ضغط الهواء من مكان إلى مكان. وهنالك أسباب أخرى مثل دوران الأرض وتوزيع الماء واليابس وغير ذلك من أمور لا نريد أن نطيل شرحها خوفاً من أن ينقلب هذا الحديث إلى درس من دروس الجغرافية.
بقيت ملاحظة لابد منها وهي أن المصريين وعلى الخصوص الطبقة المثقفة منهم قلما يلاحظون الرياح وهبوبها واتجاهها. فقد يختلف اتجاه الرياح في اليوم الواحد من أيام الخماسين مرتين أو ثلاثا فلا تنتبه إلى هذا التغيير في اتجاه الريح. وأقصى ما نلاحظ أن الهواء حار أو شديد. وانه قد انقلب فصار هادئا بارداً.
وان المرء لتأخذه الدهشة حين يقارن هذه الحال بما كان عليه العرب من دقة الملاحظة لهذه الظاهرة الطبيعية وكيف استطاعوا أن يميزوا شكولها وضروبها فراقبوا اتجاهاتها المختلفة وأطلقوا على كل ريح اسماً يدل عليها. ثم لاحظوا ما بها من قوة وضعف وجعلوا لكل اسمه، وكذلك ميزوا الرطب منها والبارد والحار وما إلى ذلك.
ولئن كان العلماء اليوم يرقبون اتجاه الرياح ويقيسون سرعتها وشدتها ودرجة حرارتها مستعينين بآلات دقيقة فان العرب قد سجلوا هذا كله من غير استعانة بآلات. فمن حيث اتجاه الرياح نرى العرب قد ميزوا بين الرياح التي تهب من الشمال والجنوب والشرق والغرب، ورياح الشرق هي التي سموها الصبا ويقابلها من الغرب الدبور. وكانت الريح أحيانا تهب منحرفة عن الجهات الأربع الأصلية فكان العرب يدعونها عند ذلك بالنكباء.
ثم أرادوا أن يميزوا بين الرياح الضعيفة المريضة والقوية العنيفة فأكثرها هدوءاً النسيم التي تهب بنفس ضعيف ثم الرخاء السهلة ثم الحنون التي لها مثل حنين الإبل ثم تليها الرياح الشديدة فالبارح التي تهز الأشجار.
وتأخذه عند المكارم هزة ... كما اهتز تحت البارح الغُصن الرطب
ثم الهوجاء التي تجر وراءها ذيلاً من التراب ثم الزعزع ثم العاصفة، ثم الحاصب وهي التي تقشر الحصا من وجه الأرض (وأرسلنا عليهم حاصبا).
وكذلك ذكر العرب أنواعا خاصة من الرياح فالزوبعة هي التي تدور في الأرض دون ان تقصد وجهاً واحداً. والإعصار ريح تدور بقوة وتنعكس من الأرض إلى السماء. وهكذا تجد في العربية كثيراً من الدقة في التمييز بين الرياح القوية والضعيفة. أما ملاحظتهم للرياح الحارة والباردة فلا تقل عن هذا دقة. فالريح البليل هي المنعشة ذات الندى التي ليست بالحارة ولا بالقارسة وكذلك الصراد أبرد منها قليلا. أما الرياح الشديدة البرودة فهي العريّة التي تهب عادة من الشمال:
وأنت على الأدنى شمال عَرِيَّة ... تذاب منها مرسغ ومسيل
ثم الريح الصرصر والحرجف والالوب.
أما الرياح الحارة فمن أسمائها الحرور والسموم والسعار وهذه الأخيرة اشدها حراً وسعيرا.
وليست هذه الأسماء كل ما ورد ذكره في كلام العرب عن الرياح بل أن هنالك أسماء أخرى عديدة. وما ذكرنا الذي أوردناه هنا إلا لكي يرى القارئ مبلغ دقة العربي في ملاحظة الظاهرات الطبيعية، وليس بين كل هذه الأسماء ما هو مترادف. بل لكل منها معناه الخاص الدقيق.
وبالطبع قد أكثر شعراء العرب من ذكر الرياح وبوجه خاص اكثروا من ذكر الصبا. وأهل الحجاز يدعونها صبا نجد لأنها تهب عليهم من تلك الناحية.
وهي ريح لطيفة جافة ليست بالحارة ولا بالباردة. وأظن الإكثار من ذكرها في الأشعار يرجع إلى عذوبة اسمها اكثر مما يرجع إلى عذوبة المسمى. أو لعل شعراء نجد هم الذين أكثروا من ذكرها إذ كانوا يفدون إلى الحجاز ليتاجروا بما لديهم من تمر وسمن ووبر ثم تهيج الصبا شوقهم إلى أوطانهم فيصيح شاعرهم:
ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد؟ ... لقد زادني مسراك وجداً على وجد
فالأصل في التغني بريح الصبا أن يكون صادرا عن النجدي وهو في الحجاز ثم يقوم الآخرون بالتقليد.
وهنالك نظرية أخرى لا تقل طرافة عن هذه، وهي إن الوفود إذا أقبلت على مكة فان

الفتى الحجازي قد يهيم بغانية من بنات نجد لا تلبث أن تعود بعد الحج إلى وطنها العزيز ويطير قلبه وراءها شعاعا. ولا يزال بعدها تهيجه روح الصبا وتشوقه.
أما بشار بن برد فزعم انه تستهويه الجنوب على إنها عادة رياح حارة شديدة الحرارة وللناس فيما يعشقون مذاهب!
هوى صاحبي ريح الشمال إذا جرت ... وأهوى لقلب أن تهب جنوب
وما ذاك إلاّ أنها حين تنتهي ... تناهى وفيها من عبيدة طيب.
ويعجبني في هذين البيتين مطابقتهما في المعنى لبيتين قالهما بعد بشار بألف سنة الشاعر الاسكتلندي الرقيق روبرت برنز. وهما قوله:
وتعريب البيتين:
من بين الرياح التي تهب من مختلف الجهات
أحب حباً شديداً رياح الغرب
لأن هنالك تعيش الغادة الحسناء
الغادة التي أحبها أكثر من كل شيء
وهذا من أبدع الأمثلة التي يمكن أن تذكر في توارد الخواطر.
ولابد أن نختم الآن هذا المقال لان حديث الشعراء كحديث العفاريت إذا فتحته فمن الصعب أن تسده.
القصص
قصة مصرية
سفروت الحاوي
- 2 -
ووقف الجمع برهة ينتظر رجوع الرجال الذين بعثهم صاحب الفندق وعلموا أنهم بحثوا عن بولص خارج الفندق وداخله من غير جدوى. فانفجرت المرأة ثانية بالصياح والتهديد
- أنا بقولّك أب واغْطس بجوزي دلوقت أهه لحسن اوديك في داهية.
- يا ست يعني أنا حاخذه أعمل بيه ايه، ياريت كنت عارف طريقه وأنا كنت والله أجيبه لك.
- أمال راح فين الراجل؟
- والله يا ستي أنا علمي علمك.
- لأ. أبدا. أنت عارف طريقه! أنت سحرته بالجن الأحمر والأخضر بتوعك
- جن اخضر بتوعي؟!، هو أنت صدقت إني اعرف جن وسحر؟ يا ستي أنا راجل على باب الله وده كلام بس علشان أكل العيش تعالي وأنا أوريك الصندوق علشان تصدقي.
- اصدق؟ أنا ماعرفشي أمور الحوي دي، أنا حاوديك في داهيه. أنت خنقت الرجل علشان تاخذ فلوسه
ولوت المرآة وأمسكت بخناق الرجل بأصابع كأنها (كماشة النجار) فالتف الناس حولهما وأخذوهما إلى نقطة البوليس
ولما لم تكن على سفروت مسؤولية جنائية فقد أطلق سراحه بعد يوم فترك راس البر تتحدث عن هذا الحادث المدهش وسافر إلى غيرها من المصايف.
مر على ذلك الحادث عامان نسي فيهما الحاوي بولص وامرأة بولص إلا في فترات كانت تعاوده الذكرى فكان يتعجب للأمر في نفسه ويود لو عرف ما انتهى إليه أمرهما حتى إذا كان ذات مساء وهو يدخل باب ملهى من ملاهي العاصمة كان وقتئذ يشتغل به لمح بائع سميذ جالسا يعد قروشه على الإفريز وتبين فيه صاحبنا بولص فلما أيقن من صواب زعمه دنا من بائع السميذ هامساً:
- أنت بولص بتاع واقعة رأس البر؟
فأنتصب البائع واقفا في رجفة تناثر معها بعض سميذه ونقوده وحاول أن يهرب ولكن سفروت أوقفه وأعاد عليه السؤال فأنكر واشتد في الإنكار وقال إن اسمه محمود وانه لا يعرف ما راس البر ولا من هو سفروت، ورأى الحاوي إن حديثهما وهياج محدثه قد يجمعان عليهما المارة فاخذ البائع إلى حارة باب المسرح الخلفي وهدأ خاطره وأكد انه لا يضمر له كرها ولا ينوي شراً وان كل ما به إنما هي رغبة شديدة في أن يعرف السبب الذي حدا به إلى فعلته الشاذة.
وبعد لأي اعترف البائع بأنه هو بولص ورضي أن يدخل مع الحاوي إلى غرفته الخاصة

بالملهى حيث حدثه بخبيئة أمره. قال سفروت فيما تحدث به لبولص:
- طيب يعني مالئتش إلا صندوقي تختفي منه! ما كنت تسيبها وتمشي من غير شوشرة وفضيحة؟
قال بولص:
- ما جدرتش أبداً يا أخي. فكرة الهروب منها دي ما جاتش في دماغي إلا في راس البر، يظهر أنها زي اللي خمنت باللي في نيتي فكانت دائما في رجليهما تسيبيش 10 دجايج لما طهجتني وجطعتني العشم. تعرف بعد ما نزلت بالصندوق وبعته لك فاضي! أنا طرت على الفلوكة اللي كانت تستناني فوج عند الطابية أخذتها ورحت على دمياط ومن دمياط ببجور الفجر على مصر.
- يعني كنت بتكرهها للدرجة دي؟
- اكرهها؟ أنت متعرفشي جدا إيه يمكن الواحد يكره مراته ياسي سفروت، يكرهها ويكفر منها وينجن كمان. يا أخي أجول لها ياحنينة أنا في عرضك طلجيني. أبوس مركوبك يا حنينة تسيبيني. أعطيك 500 جنيه. أعطيك ألف جنيه. مفيش فايدة، يمكن أنت متصدجشي ياسي سفروت لكن أنا كنت راجل غني، أنا كنت بتاجر في 2000 جنيه وكان عندي بيت كويس وعشر فدادين طين ملح وده كله سبته لها. اعمل إيه! مفيش طلاج عندنا ياسي سفروت زي ما عندكم، هجيت وبعت سوداني وجصب وسميط واستحملت اجلام الشاويش وشخطه وعشت في أوده بريال في بولاج، كل ده عشان اهرب من وشها. جيت أغير ديني
وأبجه مسلم مطجشي، ما هانش عليه ديني يا سي سفروت. دين الواحد زي ولده.
ولاحظ سفروت ان توتر أعصاب محدثه بلغ اشده ولاحظ دماً قرمزيا يترقرق في وجه الرجل الذي صبغته الشمس والقذارة بلون غرين النيل فحاول ان يهدئه ويواسيه ولكن بولص اندفع يقول:
_ دي ربت لي وجع الجلب والله يا سي سفروت. أنا كل مفتكر المره دي جلبي زي اللي يُجَفْ. لا ولأدهى من كده انها لسه بتعتش عني! الأنكت من كده إنها لا عاوزة فلوس ولا طين عاوزاني أنا بس.
_ يمكن بتحبك يا بولص.
_ بتحبني!! لأ. لأ. دا مش عبارة حب دا جنون. دي تكرهني زي العمى يا سي سفروت.
وانتهى حديث الرجلين بعد وقت فخرج بولص يبيع سميذه وذهب سفروت إلى مسرحه وهو يعجب لأمر الرجل.
وبعد بضعة أيام بينما سفروت يعد عدته للظهور على المسرح إذ دخل عليه بولص وبعينيه بريق الجنون الذي يكون به في ساعات هياجه، فلما رحب به الحاوي أظهر القبطي خشونة وجفاء كأنما هو يضمر عداء وشرا فسكت سفروت وقتا حتى تحدث بولص:
_ أنت فتنت عليّ؟
_ فتنت إيه؟!
_ أيوه أنت فتننت عليّ. أنت اللي بلغت عني للبوليس.
_ إزاي افتن عليك يا معلم؟! هو أنا لي صالح في كده؟ وحتى لو كان هو أنا راجل خسيس للدرجة دي؟ عيب ده يا معلم بولص متكلمشي كلام زي ده.
وقام بولص بعنف فأمسك بتلابيب الحاوي الذي ملكه الخوف والدهشة وصاح به قائلا:
- أنت مجوز؟ احلف لي بالطلاج انك مبلغتش البوليس.
ولم ير الحاوي بداً من القسم بالطلاق ثلاثا انه لم يفعل شيئا من هذا فهدأ بولص واعتذر ثم شرح ما حدث له قال.
- لما روحت امبارح جالت لي الولية جارتي أم شحاتة إن واحد شاويش جه يسأل عني في النهار مرتين. أول مرة جه لوحده وأم شحاتة جالت له إن مفيش ساكن اسمه بولص هنا.
بعدين راح ورجع في المغرب ومعاه حرمة طويلة ووجفوا يتحروا في الحتة. أم شحاتة جالت إن الساكن اسمه محمود بتاع السميط، حامت الحرمة سألت عن وصفتي وأم احمد أعطتها وصفتي، حنينة جالت أهو هو دا بولص. تصدج يا سي سفروت والله ماجدرتش أبات في الأوده رحت اتلجحت في الجامع اللي جنبنا لحد الصبح اعمل إيه يا

سي سفروت؟ اهرب من حنينة فين؟ المره دي مش ناوية تسيبني ألا ميت.
واتت بهية تذكر سفروت بعمله فودع هذا بولص وذهب إلى المسرح وقبيل الحفلة ذهبت بهية إلى غرفتها لتغير ثوبها استعدادا للدور الأخير وتركت الحاوي يشرح للنظارة أمر الصندوق ويعد له عدته، وتأخرت بهية فبينما هو يفكر فيما يفعل إذ أقبل بولص عليه من جانب المسرح بوجه أدكن وعينين بارقتين شاردتين مما ذكر الحاوي بوجه الرجل في الليلة المقمرة. تقدم بولص وبه من الرجفة والذعر ما شغل الحاوي عن حرفته وأنساه صيته وموقفه والنظارة الذين خفتت أصواتهم واشرأبت أعناقهم في انتظار ما يكون، وهمس بكلمات متقطعة كحديث المحتضر قال:
- خبيني. . . أنا في عرضك خبيني. . . مراتي بره ومعاها شاويش. . . حطني في الصندوج، حطني في الصندوج!!
ودخل القبطي إلى الصندوق بغير انتظار واقفل عليه بابه وقد ملك الدهش على سفروت أمره حتى فقد القول والفعل، ثم رجع إلى نفسه بعد برهة ليتبينها أمام حقيقة واقعة وليدرك ان لا مخرج له سوى ان يخفي الرجل داخل الصندوق.
وقال سفروت في نفسه: لو فلت القبطي فقد أسديت له يدا ولو لحقه البوليس فما علي من ذلك لوم ولا تبعة وليس هو بالمجرم ولا أنا بالخارق للقانون، وكل ما علي الآن هو أن أسرع في عملي وأعطيه الفرصة ليهرب ويقيني انه لن يرجع إلى الصندوق، فإذا دعوت بهية بعد ذلك فسوف تقوم بحيلتها كالعادة وأما إذا أخرجته الآن من الصندوق بالقوة فسوف يكون من ذلك هياج الناس وتعكير صفو المحفل ومسئوليتي أمام المدير.
ولم يتردد سفروت بل ربط الصندوق ووقف عليه وتحدث إلى النظارة المنذهلين عن جنه وهيوليته الخ الخ، حتى إذا انتهى من الديباجة نزل. رفع الغطاء وهو موقن أن بولص قد خرج من الصندوق إلى تحت المسرح ثم إلى ما شاء له قدره.
ولكن بولص لم يخرج من الصندوق ولم يتحرك؟؟
روح بولص فقط هي التي بارحت الصندوق إلى بارئها أما جثته فقد بقيت لتستلمهاحنينة!!
قال أحد السامعين: غرضك بولص مات في الصندوق؟؟
فأجاب الراوي: نعم نعم، في رواية انه مات بالسكتة القلبية وفي رواية أخرى انه مات منتحرا بطعنة سكين في جنبه الأيمن وإن سفروت رأى دمه يسيل إلى المسرح، ولكن مهما اختلفت الروايات فمن الثابت ان زوجة القبطي وجدت جثته هامدة لما ارتقت المسرح مع ضابط البوليس.
وقال سامع ثان: طيب وجرى إيه لسفروت؟
فأجاب الراوي: حدثني صديقي احمد عن صديقه محمد أن الحاوي طَلَّق حرفته بعد هذه الحادثة وانه يشغل الآنترجمانا في بلدته بور سعيد ولكن الله أعلم بحقيقة الأمر
وسأل سامع ثالث: ما اتهموش سفروت بقتل الراجل! فتجاهل الراوي هذا السؤال لغباوة سائله.

م. م. م

إلى بئر جندلي

للأستاذ الدمرداش محمد. مدير إدارة السجلات والامتحانات بوزارة المعارف

- 1 -

في شتاء سنة 1908، وقبيل إجازة عيد الأضحى، دعاني خالي إليه وابتدرني قائلا وفي فمه ابتسامة:
_ هيا معي إلى بير جندلي. غداً مساءً سنغادر القاهرة.
_ بير جندلي؟ ما هذا؟
_ رحلة صيد في جبل المقطم تستغرق خمسة أيام، وسنكون مع أصدقائنا عائلة رشيد، وقد اعددنا لها العدة.
كانت مفاجأة، واترك للقارئ أن يتصور وقع هذه المفاجأة في شاب لم يبلغ الثامنة عشرة، لا يعرف عن جبل المقطم إلا القليل مما التقطه في طفولته من أفواه العجائز في أحاديثهم عن العفاريت والوحوش، أو عرفه من القراءة في كتب وضيعة تصور لك

المقطم قفاراً ومفاوز لا نبات فيه ولا ماء، وانه مسكن المردة والجان ومأوى جبابرة اللصوص وقطاع الطرق ومرتع الوحوش الضارية من نوع السباع والأسود التي يرسمها نقاشنا البلدي على واجهات منازل الحجاج العائدين من الحجاز.

كان قد أزف الوقت فانصرفت أعد نفسي للرحلة على عجل، وأذكر الآن وقد مضى على الحادث ما يزيد على خمسة وعشرين عاماً، إني صرفت شطراً كبيرا من الليل في تصفح ما كان عندي من الخرائط، متفرساً في أسماء الجبال والسهول والأودية، باحثا بينها عن بئر جندلي، ولكني لم اظفر بطائل، وأذكر كذلك أني لم أنم في تلك الليلة إلا غراراً، فقد كنت مشرد العقل مهموما قلقاً تتوارد على ذاكرتي حكايات الوحوش وقطاع الطرق وقصص الأهوال التي لاقاها رواد الجبال، من عطش، وجوع، ومخاطر، فينقبض لها صدري وتثور هواجسي، ولولا إرادة قوية، وإيمان ثابت لتغلب الضعف على نفسي، ولأحجمت عن مصاحبة الجماعة.

بعد الغروب في اليوم الثاني أقلتنا عربة إلى منزل عائلة رشيد بشارع الدرب الأحمر بالقرب من المحجر على بعد عشر دقائق من القلعة - منزل عتيق من طابقين له باب كبير ثقيل ومن خلفه دهليز يؤدي إلى فناء رحب تحيط به الحجر والمرافق وتطل عليه النوافذ والشرفات - في هذا الفناء شاهدت جملين مناخين حولهما حركة عنيفة صامتة، فقد كان القوم منهمكين في إعداد لوازم الرحلة - فهذا يملأ قرب الماء حتى إذا ملأها تعهد متانتها ثم أحكم ربطها إلى جانبي البعير، وذاك يحزم الملابس والأغطية ثم يضعها على ظهره، وثالث يرتب علب المأكولات داخل صندوقين من الخشب ثم يشدهما بوثاق إلى ظهر البعير الثاني وهكذا - بعد أن تبادلنا التحية دخلنا حجرة واسعة قد جلس في صدرها رجل وسيم المحيا مليء الجسم طويل القامة كبير الشوارب وقد خط الشيب شعره، فاستقبلنا واقفاً مرحباً ثم قدمني إليه خالي قائلا:

عمك عبد الله بك كبير الأسرة.

فلثمت يده على ما كان متبعاً في ذلك الوقت فضمني إلى صدره وقبّلني في جبيني وقال وهو يلاطفني: إنك الآن يا ولدي تجيب داع التقاليد في أسرتك؟

بعد قليل هدأت الحركة في الفناء، ثم نهضت الجمال وخطت نحو الباب وقد أمسك بزمام الجمل الأول شيخ يناهز الستين في لباس بدوي وقد ارتسمت على وجهه جميع إمارات الثقة بالنفس والتوكل على الله، وكان يقود الجمل الثاني شاب بدوي كذلك ممشوق القامة نحيل الجسم قد عّلق على ظهره بندقيته وتدلّى من صدره حزام للخرطوش ولما مرّت الجمال أمام النافذة أطلّ عليها عبد الله بك وقال بصوت هادئ رزين:

- على بركة الله يا شيخ سويلم

فأجاب الشيخ بصوت متهدج فيه غنة وبحة: بارك الله فيكم يا بك

- أين الانتظار؟

- على نير الفحم يا بك

خرجت الجمال إلى الشارع وقد انتصفت الساعة التاسعة وبخروجها شمل المنزل سكون عميق. ثم اتجه عبد الله بك نحو نضد في جانب الحجرة قد ثبتت فيه آلة لحشو الخرطوش فأخذ يديرها بمهارة وخفة، وبعد ان قضى في ذلك نحو نصف ساعة تناول من علاّقة قريبة مناطق الخرطوش وملأ به عيونها ثم خرج.

وبعد قليل عاد يتبعه أخوته الأربعة وهم جميعا في حلة الصيد من سترة مقفلة وسروال قصير وقد لفّوا حول الساق (القلاشين) ووضعوا فوق الرأس قبعات كبيرة على نحو ما يلبسه المهندسون زمن الصيف، فجلسنا نتجاذب أطراف الحديث، وفي نحو الساعة التاسعة والنصف دق الباب فصاحوا جميعا: ها قد أقبل الشيخ محمد - ثم دخل رجل في لباس بدوي فاستقبلوه باحتفاء وترحاب وبعد ان استوى في مجلسه سأل عن الجمال فقيل له أنها بارحت المكان منذ ساعة ثم نظر إليّ وقال من هذا الصغير؟ فقيل له ابن أخت احمد بك، فمال نحوي وقال بلهجة عذبة هل تصاحبنا يا آخي؟ فقلت نعم. فقال هكذا يكون الشباب يا سادة! - كان الرجل يكلمني وأنا مأخوذ فلم أر فيه إلا وجها صغيراً تحيط به لحية خفيف، وجسماً نحيلا وقامة قصيرة.

وفي تمام الساعة العاشرة وقف الشيخ محمد وتناول بندقيته وثبتها على ظهره وفعل مثله الآخرون ثم قال هيا بنا يا سادة. توكلنا على الله!، فخفق قلبي خفقاشديدا ثم

تقدمنا وسرنا خلفه في صفوف.
(لها بقية)
الكتب
ثورة الأدبمن هيكل إلى طه
أخي طه
لم تخلفني موعدك عند ظهور كتابي (ثورة الأدب) فقد عوَّدَتْني أُخُوَّتُكَ الصادقة وصداقتك الخالصة كلما ظهر لي كتاب ان تتناوله بالبحث وان تتناولني بالثناء. بل عودتني هذه الاخوة ان تتناول بعض فصول كتبتها بالبحث فيها وبالثناء عليّ من أجلها. وتحت نظري الآن ثلاثة فصول من قلمك العذب أحدها عن كتابي (في أوقات الفراغ)، والآخر رد على نقدي كتابك في (الأدب الجاهلي)، والأخير عن الفصل الذي كتبت عن النثر والشعر والذي احتواه كتابي الجديد. وفي كل واحد من هذه الفصول كما في غيرها من فصول نشرت السياسة ونشرت الأهرام من قبل هذا الثناء، وهذا البحث الذي يسعدني بما لك من أثر في مجهودي وإنتاجي يجعلك صاحب فضل فيه كبير. ولست أخفيك أني مدين في حيلتي ككاتب لأشخاص كثيرين شجعوني وآزروني وعاونوني بوحيهم وبنقدهم وبحسن توجيههم إياي وأني ما أزال بحاجة إلى هذه المؤازرة وإلى هذا الوحي إن كان قد قدر لي أن أنتج في الكتابة شيئاً جديداً ولعلي أستطيع يوما أن أفي لأصحاب الفضل هؤلاء بفصل على الأقل أكتبه، فما أستطيع اليوم أن أحصيهم وهم كثيرون. لكنك كنت وما تزال يا صديقي في مقدمتهم كنت وما تزال كذلك حين ألقاك وأتحدث إليك وحين أقرؤك واستمتع بجمال ما تكتب، وعظيم لذته ودسم غذائه وحين أفكر فيك وفيما أثرت في الأدب وفي تاريخ الأدب العربي من ثائرات لما تهدأ. والحق انه إذا كانت ثورة الأدب مدينة في هذا العهد الأخير لعدد غير قليل من الكتاب والأدباء فهي مدينة لك بأعنف ما فيها، مدينة لك بأشد ما فيها طرافة. وبحسبي أن أذكر ذلك لتعلم كم يفكر فيك من فكر وما يزال يفكر في ثورة الأدب، ومن يعتقد بل من يلمس هذه الثورة ويرى أنها ما تزال لما تهدأ وأنها ما تزال تحطم وتهدم وتحاول أن تبني كما حطمت الثورة الفرنسية النظم والطبقات. ولست أحاول الرجم بما عسى ان تتمخض عنه هذه الثورة حين يستقر الأمر إلى التوليد الهادئ المطمئن، ولعل صديقنا المازني أقدر مني على هذا الرجم.

ولست أخفيك كذلك ان فصلك عن (ثورة الأدب) أثار مني ابتسامات دهشة وخجل متصلين من أوله إلى آخره فقد رأيتك تصورني فيه صورة لا أعرفها لنفسي، صورة جن لا ينقطع إنتاجه وأب لا يبخل على أسرته بحقها عليه، وصديق لا يضن على أصدقائه بحقوقهم عليه. فلست أعرف لنفسي من هذا كله شيئا. إنما أنا مقصر في حقوق أصدقائي، أكثر من مقصر في حق أسرتي. ثم ماذا تراني يا صديقي أنتجت؟ دعك من فصول يومية تكتب في الصحف فأنت أعرف الناس بتفاهة ما ينفق من مجهود في هذه الفصول. ودعك من العمل في حزب سياسي فأنت أدري بالسياسة المصرية: ما هي وما مبلغ الجد فيها. دعك من هذين وانظر وإياي فيما أنتجت. إنه لا شيء أو لا يكاد يكون شيئا، فأنا رجل بيني وبين الخامسة والأربعين شهور، وهذا أنا لا خيل عندك تهديها ولا مال، فليسعد النطق ان لم تسعد الحال. أم تحسب هذه الكتب القليلة مجهود جني؟! إن يكن ذلك فهو جني بليد ويطوف في الآفاق ثم يرضى من الغنيمة بالإياب، أو هو كما ذكرت جني هادئ مطمئن آفاق منذ حين قصير من نوم مريح. ولعلي لا آسف إذ أصف نفسي في ذلك على حقيقتها. وكل رجائي أن أصل من الحياة إلى حظ هادئ مطمئن يكفيني بعده أن أفي لأصدقائي بحقوقهم ولأسرتي بحقها وألا أكون هذا الرجل المقصر الذي يعذر الناس تقصيره ويتوهمونه لكثرة عمله، وما هي كثرة العمل وإنما هو تقصير من جعله الحظ مقصرا.

وتذكر يا صديقي انك دهشت حين رأيتني أعلنت عن (ثورة الأدب) إعلانا أميركياً وإني

سارعت في إهدائي وكنت تعرفني أشد الناس فتورا في الإعلان والإهداء، وتتساءل إن كان الله قد رزقني عفريتا في الإعلان، وتكرر انك ما تزال دهشا لأنك لم تفهم بعد مصدر هذه السرعة في الإهداء والإعلان. وإني لجد حريص على أن تزول دهشتك. فلأدلك على هذا العفريت الذي رزقني الله في الإعلان والإهداء. هو النظام الجديد للمطبوعات والصحف. فقد تعلم أن هذا النظام يقتضي إجراءات، منها تقديم عدد من النسخ إلى إدارة المطبوعات ومنها أن أية هيئة علمية أو أدبية أو دينية أو ما أدري ماذا تستطيع أن توحي إلى الحكومة فتصادر الكتاب الذي يطبع، وقد تصادر المطبعة التي طبع الكتاب فيها. ولعلك لم تنس قصة كتاب الخطيب البغدادي في السنة الماضية وحسن بلائك في الإفراج عنه. وقد ابتلينا نحن من قبل بشيء من هذا حين طبعت وصاحبي المازني وعنان كتاب (السياسة المصرية والانقلاب الدستوري) فقد قدمنا منه خمس نسخ لإدارة المطبوعات وأخذنا بها إيصالا وأردت بنفسي أخذ خمسمائة نسخة من الكتاب فإذا البوليس يحيط بي ويقتادني وكتابي إلى قسم عابدين، وإذا به يأمر ألا ينشر الكتاب وإذا بي اضطر إلى الالتجاء للنائب العام وإلى انتظار أسبوع أو نحوه حتى يفرج عن الكتاب. أفليس من حقي وذلك ما رأيت أن احتاط لنفسي حتى لا يقودني البوليس والجند مرة أخرى إلى القسم. فإني لأؤكد لك يا صديقي طه إن مثل هذا الموقف ليس مما تستريح له نفسي ولا نفس أي رجل مثقف. ولتلاحظ يا صديقي أن عنوان كتابي (ثورة الأدب). . وإذا كنت مهما آثر ألاّ أخيفك أو كانت الثورة لا تخيفك مهما تكن فيخيل إلي إن غيرك يخاف حين أثور وإن لم أر نفسي يوماً في حاجة إلى أن أثور، ويخيل إلي أن غيرك يخاف من كلمة الثورة كما كان الأتراك في العهد الحميدي يخافون كلمة الثورة وكلمة الحرية ولا يأذنون بنشرها أو نشر ما يماثلها. ولكي أتقي البوليس والجند والذهاب إلى القسم أعلنت الكتاب للناس وسارعت إلى إهدائه أصدقائي حتى إذا صودر قبل نشره أو أصابته مصيبة من مصائب هذا العهد أكون قد تعزيت بما أهديت من بعض نسخه، وبأني أعلنته للناس فحل بي وبه ما حل من ظلم وهضم.

هذا هو العفريت الذي لم تعرف يا صديقي مصدره. ولعلي إذ دللتك عليه وذكرت لك ما أصاب كتابي (السياسة المصرية والانقلاب الدستوري) عزيري عن خروجي على ما طبعت عليه من فتور في الإعلان والإهداء يعادل فتوري في حق أصدقائي وفي حق أسرتي. فان رأيتني مع ذلك بالغت في الاحتياط فظهرت في غير ما كان يليق بي أن أظهر فليس لي إلا أن أعتذر إليك وأن أعدك أني لن أعود إليها.

هذا عن شخصي. وما أدري يا صديقي ما عساي أقول لك فيما كتبت عن (ثورة الأدب) لقد أثار دهشتي وأثار خجلي فما كنت أحسبه ينال منك كل هذا التقدير، ولا كنت أحسبه جديراً به. وما عساي أقول في تقديرك الكتاب بأنه (تاريخ صحيح دقيق للأدب العربي المصري في هذه الأعوام الأخيرة من جهة وهو فلسفة أدبية رفيعة موضوعها أدبنا الحديث من جهة أخرى) وانه كتاب (تمضي فيه فيخيل إليك انك تمضي في كلام مألوف ولكنك لا تكاد تفكر قليلاً فيما تقرأ، أو لا تكاد تلح في القراءة حتى يفح لك هذا الكتاب أبواباً ويبسط أمامك آفاقاً ما كنت تعرفها أو تفكر فيها من قبل). وإذا كل شيء جديد. وإذا كل شئ طريف. وإذ الكاتب يخدعك ويمكر بك وان لم يرد خداعا ولا مكرا، (وان المؤلف هو المؤرخ العربي للأدب العصري الحديث، وانه قد فرض بذلك نفسه، لا أقول على هذا الجيل وحده، بل أقول على الأجيال المقبلة أيضا. . . وان كتابه هذا سيصبح من المصادر القيمة للذين يريدون أن يدرسوا أدبنا المصري في نهضته هذه الحاضرة) ما عساي يا صديقي أقول في هذا كله. أقول انه كثير. وانه أثار دهشتي وخجلي. واحسب صدق مودتك وإخلاص اخوتك كان لهما أثر غير قليل في إملاء هذه العبارات ومثلها عليك، كما كان لهما اثر غير قليل فيما كتبت عن شخصي.

ولعلك أنت شعرت بهذا، وخشيت من أن يتهمك الناس بالإسراف في الثناء على صديقك إسرافا بصرفهم عن حسن الاستماع له فأردت أن تحصي عليه وعلى كتابه بعض هنات تجعلهم أدنى إلى الإيمان بعدالة ثنائك. وأنت على حق فيما أحصيت من بعض الهنات وإن كنت قد أسرفت في بعضها. فقد ذكرت أن هيكلا: (من أصحاب المعاني بين الكتاب وأنه يهمل لغته إهمالا شديداً ويتورط في ألوان من الخطأ

واضطراب الأسلوب، يدنيه أحيانا من الابتذال. والغريب أنه لا يضيق بذلك ولا يجد به بأسا ولا يعترف بأنه يسيء إلى نفسه
وإلى أدبه معا) والحق يا صديقي إنني لا أضيق بشيء ولا أجد به بأساً. لكني أستأذنك في أن أوجه إليك شيئا من اللوم غير قليل. فنحن حقا مختلفان في أمر اللغة والأسلوب خلافاً سأتلو عليك سببه. لكني لم أعرف قط منك أن لغتي وأسلوبي يدنياني من الابتذال. بل عرفت منك غير هذا. ولعلي لا أخطئ إذا وضعت تحت نظرك بعض عبارات كتبتها أنت في هذا الشأن. فقد ذكرت حين كتبت في السياسة الأسبوعية في 13 مارس 1926 عن كتابي (في أوقات الفراغ). و (. . . كذلك كنت منذ عشرين سنة أو نحو ذلك حين كنت تكتب في (الجريدة) وكذلك أنت الآن. وإن يكن قد جد شيء فهو أنك ازددت فيما أنت فيه من القوة ثباتاً ورسوخ قدم، وانك استطعت ان تملك اللغة العربية وتسخرها لأغراضك، وقد كانت تستعصي عليك وتنتهي بك أحيانا إلى ما يكره سيبويه والخليل، وصديقك طه حسين. وأنت تذكر ما كان بيني وبينك من جدال متصل في هذا الموضوع. فقد كنت أتهمك بقلة البضاعة في اللغة العربية وكنت تجيبني بأني أزهري. وكان أستاذنا لطفي السيد يسخر منك ومني في رفق وحنان. وقد مضت أيام وأعوام وما زلت أنا أزهرياً كما كنت، أما أنت فقد أتقنت اللغة العربية إتقاناً وروّضتها حتى ذلت لك. فأنت تستطيع ان تقول إني أزهري وأنا لا أستطيع أن اتهمك بالضعف في اللغة العربية. ولكن لكل شيء حداً. فما رأيك في أنك أتقنت اللغة العربية، حتى لقد تسرف في هذا الإتقان وتصطنع من الألفاظ والأساليب ما يصح أن تعاب به لأنه أدنى إلى التقعر منه إلى شيء آخر. صدقني فأنت أزهري في بعض الأحيان. وكم لي عليك من فضل أيها الصديق العاق. ما زلت أعيب لغتك حتى أصبحت شيخاً قحاً). . .
وقد ذكرت حين كتبت عن فصل الشعر والنثر في السياسة الأسبوعية بتاريخ 9 أغسطس سنة 1927: (أنت لا تكتب إلا اضطررت قرّاءك إلى الثناء والإعجاب، وأنت لا تسمع ثناءً ولا تحس إعجابا إلا ازددت إجادة وأمعنت في الإتقان. ولست ادري إلى أين يذهب بك هذا الإمعان في إجادة البحث وإتقان التفكير والتوفيق إلى الجمال الفني فيما تكتب. الخ) لعلي لم أخطئ إذ وضعت تحت نظرك هذه العبارات وما قد تذكر من مثلها لأوجه إليك شيئاً من اللوم غير قليل. فمالك يا صديقي وكلنا نعرف دقة ذوقك الأدبي، لم توجه نظري منذ تلك السنوات الطويلة إلى ما أتورط فيه من خطأ واضطراب في الأسلوب يدنيني أحيانا من الابتذال. لقد كان لي أثناءها متسع من الوقت لأوجه شيئا من الجهد أسلم به من هذا الذي لم تنبهني إليه إلا اليوم. أما ولم تفعل فلعلي لا أغلو يا صديقي إذا اتهمتك بأنك خدعتني كل هذه السنين وعبثت بي كل هذا العبث، وتركتني حتى تقدمت بي السن إلى حيث لا يستطيع الإنسان إصلاح ما أفسد الدهر.
أم أن الأمر ليس كذلك يا صديقي وأنك أنت قد ازداد ذوقك الفني دقة، زادت نقدك للغة والأساليب بأساً وشدةً، فأخرجني ذلك من حظيرة رفقك وتسامحك. إن يكن ذلك فأنت جدير من أجله بكل ثناء، جدير بكل تقدير على ما حباك الله مما كنت أود لو جاد عليّ ببعض منه.
أم إنني كنت يا صديقي على ما وصفت في سنة 1926 وسنة 1927 ثم عادت بضاعتي من اللغة العربية إلى مثل ما كنت تذكر قبل خمس وعشرون سنة من قلة، وعاد أسلوبي إلى الاضطراب أحيانا. إن يكن ذلك فلا حول ولا قوة إلا بالله. وإنّا لله وإنا إليه راجعون. فإما إن لم يكنه فلومي شديد إياك وعتبي عليك يقضي به عليك وفاؤك لصديقك أن تراجع كتبه كلها ما ظهر منها وما قد يظهر وان تزيل منها ما قد يكون فيها من اضطراب وخطأ، فان لم تفعل وجهت إليك اليوم ما وجهت أنت إلي في سنة 1926 من تهمة عقوق الصداقة وعدم الوفاء بما لها من حق.
أحسبك ستبتسم حين تقرأ هذه العبارة لأنك تعلم أني لا أضيق بأسلوبي، ولا أجد به بأساً. ولعلك يا صديقي على حق. بل انك لعلى حق. فليكن أسلوبي ما يكون فلن أرضى به بديلا: فأسلوب الكاتب هو الكاتب. ولن أرضى لنفسي أن أكون إلا أنا. أنا بما فيّ من حسن وقبيح. من خير وشر. من عرف ونكر. والحمد لله الذي جعلني كما أنا، ولم يجعلني شراً مما أنا. والحمد لله الذي جعل كثيرين ممن تناولوا كتابي هذا وغيره من كتبي يعجبهم أسلوبي اكثر مما أعجبك يا صديقي.

وما لي أضيق بأسلوبي ولم اتخذ الأدب يوما صناعة ولا أنا توفرت على دراسة الأدب.
إنما أنا رجل درس القانون ودرس الاقتصاد والسياسة ومال إلى قراءة الفلسفة والأدب لا إلى دراستهما دراسة انقطاع وتمحيص، وطبيعي أن يكون أسلوبي أسلوب الذين درسوا القانون والذين يرون ان تؤدي المعاني بألفاظ لا تزيد عليها ولا تضيق بها، والذين لا
يعنيهم لذلك بهرجة اللفظ للفظ، وقد زادني حرصا على هذا الأسلوب إني رأيت مثله موضع الإطراء من طائفة من كبار الكتاب والفلاسفة. وأنت لا ريب يا صديقي قد قرأت نقد (تين) لفلسفة كوزن في أحد الأجزاء الثلاثة من كتابه (رسائل في النقد والتاريخ) ورأيت كيف جعل من أشد ما آخذه به أنه يطيل من حيث لا تقتضي الفكرة الإطالة، وكيف جعل ينقل الصفحة الكاملة من كوزن فيضع فكرتها في سطرين أو ثلاثة اسطر. هذا والأدب الذي أقرأ ينحو اليوم نحو هذا الأسلوب. فبعد أن كانت روايات روسو تقع في خمسمائة صفحة أو اكثر نزعت القصة شيئا فشيئا بأسلوبها إلى الإيجاز. لا في وقائعها، ولكن في بهرجة الألفاظ التي تقص بها تلك الوقائع، ولعل ميل العالم الحاضر إلى السرعة في كل شيء هو الذي عفى على الإطالة، فملّ الاستماع إلى الأشخاص الذين يعجبون بالاستماع إلى كلامهم حين يتكلمون فيطيلون القول لتطول لهم لذة هذا الاستماع، وملّ قراءة الأشخاص الذين يعجبون بألفاظهم حين يكتبون فيطيلون رسائلهم وكتبهم. لعل هذا الميل إلى السرعة هو الذي مال حتى بالأدب إلى أسلوب القانون، وهو الذي جعل الذين درسوا القانون في فرنسا وفي مصر وفي كل أمة من الأمم يجددون في الأساليب كما يجدد فيها الذين توفروا على دراسة الأدب، أو أكثر مما يجدد فيها هؤلاء في بعض الأحايين، والفن الحديث هو الآخر ينحو هذا النحو، فالبساطة والقوة هما اليوم أساسه، ويخيل إلي أن أسلوب هذا الفن وأسلوب الأدب وأسلوب القانون قد اتفقت اليوم وقد نفت الزخرف للزخرف، وأصرت على أن يكون اللباب هو الأساس في أساليبها جميعا. اللباب الذي يعطي القطعة الفنية طابعها والذي يقيم نظريات القانون ويحقق رسالة الأدب، اللباب الذي يقف من هذه جميعا كالبيت المشيد من غير حاجة إلى ما تعودته القرون الماضية من زخرف عصور الرومانتسم ومن زخرف الكلاسيك أنفسهم. ولعلك توافقني يا صديقي على الأسلوب هذا ولا ترى رأيا غبره وإن كان الخلاف بيننا على اللغة وعلى الأسلوب قديما. فقد درجت أنت من أزهريتك التي أشرت إليها إلى أسلوبك الجديد وجاهدت أنا ما استطعت الجهاد حتى وصلت إلى ما أنا اليوم.
لكني أعترف يا صديقي بأنك على حق حين آخذتني بأنني أسرع فيفوتني لذلك التحقق من بعض الشؤون وانك وقعت على هنّة ما كان يجوز لي أن أقع فيها حين أردت أن أذكر
الأوديسا فذكرت الأنياد. وإذا ذكرت لك أنني أنا الذي قمت بتصحيح تجارب الكتاب فقرأته عدة مرات قبل طبعه رأيت أني أكبر جريرة. لكني اختلف وإياك وإن كنت لا أحسب ذلك خلافا فيما ذكرت عن لابروبير وموليير. فما اشك في انهما تأثرا بكتّاب اليونان ممن ذكرت ومن تعرف أكثر مما أعرف لأنك درستهم دراسة خاصة. ولكنني إنما أردت أن موليير ولابروبير لم يتخذا من تاريخ اليونان والرومان إطار أدبهما كما فعل راسين وكورني. بل اتخذا الحياة المحيطة بهما وتأثرا بها إطار أدبهما. وهذه خطوة في التحرر من آثار اليونان والرومان مهدت للخطوات التي بعدها. فان تكن إشارتك يا صديقي إلى طائفة من الخطأ تأخذ به كتابي إنما هي إلى خطأ من هذا النوع، فلعله لا يكون خطأ. ولعلنا نستطيع أن نتفق عليه اتفاقنا على أكثر ما في كتابي من آراء، وليس شيء احب إلى من أن أتفق وإياك وأن كنت أجد في اختلافنا لذة لا أجدها في خلاف يقع بيني وبين أحد غيرك.
وقد لاحظت يا أخي أن اشتغالي المتصل بالسياسة قد أثر في تصوري الأشياء وفي حكمي عليها بعض الشيء وذكرت لذلك مثلين:
أحدهما إني أسرفت حين أسأت الظن بما يكتبه الأوربيون عن حياتنا الأدبية بينما أنت تظن أن (جب) وأمثاله لا يأخذون السياسة وأهواءهامقياساًلدراستهم الأدبية. والثاني إنني أسرفت حين أحسنت الظن بنا وبحظنا من الخيال وقدرتنا على الإنتاج وإني إنما فعلت ذلك لأرضي المصريين والشرقيين في الأدب كما أفعل في السياسة. وانك أنت

ترى هذا شرا لأنه تغيير للحقائق العلمية إرضاء لمصر والشرق، والحقائق آثر عندك من أي شئ، ومن أي إنسان. وإنني لأؤكد لك صادقا ان الحقائق العلمية آثر عندي أنا أيضا من كل شئ ومن كل إنسان. وإذا كان اشتغالي المتصل بالسياسة قد اثر في تصوري الأشياء وفي حكمي عليها فإنما كان أثره أن زادني تقليباً للأشياء، وامتحانا لها وتعمقاً في بحث ما تنطوي عليه وما ترمي إليه، وأنا معك في أن (جب) وأمثاله لا يتخذون السياسة وأهواءهامقياسا لدراستهم الأدبية. لكن دراساتهم هذه، ودراسات الكثيرين منهم على الأقل، يقصد بها أكثر الأمر إلى تنوير الساسة من أهل بلادهم، وإلى اطلاعهم على عنصر من عناصر حيوية الشرق هو في رأيهم، وهو في الواقع، أجلّ هذه العناصر خطراً. فإذا كانت الأهواء السياسية ليست هي التي توجه دراساتهم فدراساتهم يقصد بها في كثير من الأحيان إلى خدمة هذه السياسة وإن قصد بها كذلك إلى أغراض علمية بحتة. وما أحسبك تخالفني يا صديقي في أن كتاب (وجهة الإسلام) الذي ألفه خمسة من كبار المستشرقين المشتغلين بالأدب الحديث في بلاد الشرق المختلفة إنما هو كتاب سياسي مداه بحث ما وصلت إليه أوربا مما يسميه الأستاذ (جب) تغريب الشرق، وما يرجى لهذا (التغريب) في المستقبل من نجاح. وأنا لا أعيب هؤلاء العلماء المحترمين بهذا بل أحسدهم عليه أعظم الحسد. فهم به يخدمون أوطانهم ويخدمون العلم ويخدمون الحقيقة من ناحية سياسة بلادهم ومن ناحية الحضارة الغربية التي يريدون ان تظل المدنية الحاكمة في العالم. وهذه الخدمة الجليلة التي يقومون بها لأوطانهم وللعلم ولحضارتهم حقيقة علمية يسرّ لي اشتغالي بالسياسة الوقوف عليها. ولو أنك انقطعت للسياسة يا صديقي انقطاعي وأفنيت من تفكيرك فيها ما أفنيت أنا لوافقتني على هذه الحقيقة ولم تتهمني بالإسراف إذ علمتها، وما ذكرت أنا في مقدمة (ثورة الأدب) عن الحضارة التي نعمل جميعا لبعثها، وهل هي حضارة إسلامية أم حضارة عربية، واهتمام بعض الطلاب والطالبات الأوربيين برأينا في ذلك وحرصهم على إقناعنا بأنها حضارة عربية وليست حضارة إسلامية، إذاً صدق ظني، ففيه جانب من السياسة يعادل ما فيه من جانب البحث عن الحقيقة العلمية.

أما إني أسرفت متأثراً باشتغالي المتصل بالسياسة في حسن الظن بنا وبحظنا من الخيال وقدرتنا على الإنتاج فاحسب صديقي يوافقني على انه إذا زالت عوامل الفتور والضعف مما أشرت إليه في تضاعيف كتابي لما كان فيما قلت شيء من الإسراف. وإذا جاء اليوم الذي ينفسح فيه عندنا ميدان العلم وتزول كل العوائق التي تقف اليوم في سبيله والذي تتقرر فيه حرية العاطفة وحرية الحس وحرية الأدب، والذي يبعث فيه تراث هذا الشرق العظيم، والذي يكثر فيه المتعلمون تعليما صحيحاً منا كثرة تسمح بالتخصص في الأدب والانقطاع لفرع من فروعه، يومئذ يكون القول بقصورنا في الخيال وفي القوة على الإنتاج تجنياً على هذه البلاد وعلى الحقيقة، هذا إلا أن تكون يا صديقي من الذين يقولون بان الأوربيين ينتمون إلى الجنس الآري وهم لذلك أرقى منا ونحن ننتمي إلى الجنس السامي بالطبع. وما أحسبك تقول بهذا أو تعتبره حقيقة كما يود بعض العلماء في أوربا اعتباره بل أحسبك ترى هذه حقيقة سياسية يراد بترويجها تغريب الشرق والقضاء عليه بان يبقى خاضعا للغرب إلى الأبد.

واختم رسالتي هذه إليك يا صديقي بشكرك شكراً لا حد له وبان أشير عليك أن تقرأ كتيباً صغيراً كتبه بول جيزل عقب وفاة أناتول فرانس عنوانه ما ذكر فيه عن موليير وشكسبير وغيرهما من كبار الكتاب وما قاله النقاد فيهم. وإذا كنت أنت اكبر من هؤلاء النقاد، وكنت أنا لا شيء إلى جانب هؤلاء الكتاب الذين خلقهم القدر أعلاما في حياته الإنسانية بل في حياة الوجود كله فان فيما قرأت أنا من ذلك ما عزاني عن أسلوبي وعن بعض ما أخذت عليّ بحق من هنّات أؤكد لك إني سعدت بتنبيهك إليها اكثر ما سعدت بثنائك علي. أفليست الحياة جهاداً متصلا نحو الكمال، كل في حدود ما يطيق، وهل للكمال سبيل إلا المجهود المتصل والتهذيب الدائم لهذا المجهود وتشذيب ما يند عن الطريق السوي فيه حتى لا ننساق وراء الشذوذ فنضل الطريق السوي. وهذا فضل لك جديد أضيفه إلى سابق أفضالك علي وأرجوك أن تعتقد إني دائما.

صديقك الوفي المخلص

محمد حسين هيكل
1
العدد 12 - بتاريخ: 01 - 07 - 1933
ذكرى المولد
في مثل هذا الأسبوع من مثل هذا الشهر لسنة ثلاث وخمسين قبل الهجرة أعلن الله كلمته من جديد، في استهلال هذا العربي الوليد!!
وكانت قافلة الحياة يومئذ جائرة السبيل حائرة الدليل خائرة العزيمة. والعالم الإنساني يكابد في هيكله المنحل عوامل البلى من وثبة توبق الروح، وجاهلية توثق العقل، ومادية ترهق الجسد. وكانت الولاية عليه في ذلك الحين لأعقاب من الروم شفهم الفسوق والترف، وإخلاف من الفرس هدهم الغلول والطمع، والناس عدا هؤلاء وأولئك أوزاع وهمج. . اللهم إلا شعبا نبيل الفطرة اعتصم بالصحراء من هذا الفساد الشامل، فما عبث بضميره سلطان، ولا عدا على خلقه طاغية. . . نشّأته الطبيعة على سجاياها المرسلة، وراضته على نظمها المحتومة، وصفّاه (الانتخاب الطبيعي) بالغزو المتلاحق والدفاع المتصل، فأودى بضعيفه، وأبقى على قويه، حتى لم يدم على أديم الجزيرة إلا سيف صارم، وفرس جواد، ودارع بطل! ثم تنخل من هذه الصفوة الباقية في القرن السادس أمّة وسطا تحمل في قوة الحيوية، وكمال الرجولة، وصفاء الحس، المثل الأعلى للإنسان الأعلى (سوبرمان).
تلك هي الأمة العربية التي اختارها الله لقيادة شعوبه الحائرة، واختار منها محمدا لتبليغ رسالته الأخيرة. . .
بين إيوان كسرى وبلاط قيصر اهتز مهد العربي اليتيم في أرض مكة! فتصدّع لهزّته الإيوان، وتطامن لهيبته القصر!! وكأنما هتف بالعاهلين العظيمين من جانب الغيب هاتف: (اليوم ينتهي تاريخ ويبتدئ تاريخ! ليس بعد اليوم ملك ولا كاهن ولا سيد! إنّما العبادة لله، والقيادة للرسول، والسيادة للدين، والحكومة للعرب، والدنيا للجميع!!)
وبين عرش قيصر وعرش كسرى انتصب منبر النبي الكريم في سماء (المدينة) فتضاءل لجلاله عرش، وتقوّض لدعائه عرش! ثم انبثق نوره القدسي في مجاهل البدو ومعالم الحضر، كما يبتسم الأمل في قطوب اليأس، وتومض المنارة في ظلام المحيط! هنالك ظهرت الوحدانية على الوثنية، والغيرية على الأنانية، والإنسانية على العصبية، والإسلام على الجاهلية، ثم عرف الإنسان قدر الإنسان، وأدركت النفوس جمال الإحسان، ووجدت قافلة الحياة طريقها القاصد!
كان العالم يقاسي حين ولد محمد بن عبد الله تفكك الخلق، وتحلل الرجولة، وضياع المثل
الأعلى، فكان أكمل ما في حياة (الأمين) هذه الصفات النوادر: خلق عظيم شهد به الله، ورجولة كاملة خضع لها الناس، ودين يجمع إلى سعادة الدنيا سعادة الآخرة، ورسالات الرسل إنما تعالج بظهورها الفساد الذي استشرى في العالم، والداء الذي استفحل في الناس.
فإذا كانت معجزة الرسول في القرآن، فان مجده في الخلق، وفوزه بالرجولة. والشعوب المختلفة التي صهرتها شخصية العرب، وطبعتها ثقافة العرب، لم تصل إلى الإخاء والوحدة إلا على منهاجه وهديه!.
ظهر رسول الله والعرب أشتات من غير جامع، وهمل من غير رابط، وأحياء من غير غرض، فاضت في نفوسهم الحياة، وزخرت في صدورهم القوّة، وصرفوا هذا النشاط العجيب إلى نزاع لا ينقطع، وصراع لا يفتر. فحمل إليهم وحده رسالة الله لا يسنده سلطان، ولا يؤيده جيش، ولا يمهّد له مال، فنفروا منها نفور الوحش المروّع! ثم رأوا فيها سيادةً لأسرة، وخضوعا لقانون، وخروجا على عرف، فقابلوها بالعناد وعارضوها بالحجاج ودافعوها بالكيد. آذوا الرسول في أهله وفي صحبه وفي نفسه، فما وهن عزمه ولا لانت قناته. وإنما قابل الأذى بالصبر، والسفه بالحلم، والفضاضة بالرقة، وهذا هو الخلق؛ ثم قارع الجدال بالتحدي، والمكابرة بالسيف، وهذه هي الرجولة: وبذلك الخلق وهذه الرجولة انتصر محمد وحده على العرب! وبذلك الخلق وهذه الرجولة انتصر العرب بعده على العالم!
فلينظر اليوم شعب محمد وأتباع محمد ماذا في نفوسهم من دينه. وفي أخلاقهم من

خلقه، وفي أيديهم من تراثه؟؟ فإن وجدوا أن دينهم أصبح رسما محيلا في نفوس الخاصة، وأثرا مشوها ضئيلا في نفوس العامة، وأن أخلاقهم فقدوها يوم فقدوا الحرية، وأضاعوها يوم أضاعوا الملك، وأنّ تراثهم أصبح نهبا مقسّما بين شذاذ الشعوب وذؤبان الأمم، فليفيقوا من النوم، وليخففوا عن القدر اللوم، فإن الله لا يظلم الناس مثقال ذرّة! ومن عاند طبيعة الحياة فقتل في نفسه الطموح، وفي فكره التجدد، وفي عمله الابتكار، ورضى أن يكون في الدنيا كالأثر في المتحف، إنما يدل على ملك باد وشعب انقرض، كان يسيرا عليه أن يدع دينه للمبشرين، ووطنه للمستعمرين، ثم يقعد مقعد الخوالف يتحسّر على المجد المفقود، ويتعلل بالأماني الكواذب!!

إن ذكرى مولد الرسول ذكرى انطلاق الإنسانية من أسر الأوهام، وطغيان الحكّام، وسلطان القوة. وتحكّم الجهالة. فما أجدر النفوس الذاكرة الحرة على اختلاف منازعها أن تخشع إجلالا لذكرى رسول التوحيد والوحدة، ونبي الحرية والديمقراطية، وداعية السلام والوئام والمحبة!! وما أخلق الزعماء الذين يحاولون اليوم توحيد العرب من جديد، أن يتخذوا منهاجه سبيلا إلى هذا العمل المجيد!!

أحمد حسن الزيّات.

لغو الصيف

للدكتور طه حسين

من هنا يا آنسة؟ من هنا؟ ثم أشار إلى مائدة منعزلة كأنّما هيئت لقوم يريدون الخلوة واعتزال الناس. فلما انتهيا إليها أعجبهما مكانها الجميل على شاطئ النيل في ظل هذه الشجرة الضخمة الباسقة، قد مدّت أغصانها في قوة إلى أمام، حتى إذا تجاوزت بها الشاطئ حنتها نحو الماء، وغمستها فيه كأنما تريد أن ترتشف منه، ونظر الصديقان من حولهما فلم يريا أحدا، ومدّ الصديقان بصرهما أمامهما وأطالا النظر إلى النيل وهو يجري من تحت أقدامهما في قوة الشاب وهدوء الحكيم، ثم جلسا، وقال الرجل لصاحبته: هنا يحسن الحديث، قالت: ويحسن الصمت أيضا. وقد ظهرت على وجه صاحبها علائم تدل على أنّه لم يفهم عنها ما أرادت إليه، وأحسّت هي منه السؤال الذي لم ينطق به، فقالت وكأنها تجيب، إن تحدثنا تساقينا موسيقى الحوار، وإن سكتنا تساقينا نجوى الضمائر ووحي القلوب. ولنا في كلتا الحالين لذّة، ولنا في كلتا الحالين متاع، فخذ بأيهما شئت. قال فأيهما تريدين؟ قالت لا أريد شيئا إلاّ أن نترك أنفسنا على سجيتها. فإن انطلقت ألسنتنا سمعتها آذاننا، وإن آثرت نفوسنا الحديث الصامت وعته قلوبنا. قال وهو يضحك: أيسر من هذا كله وأدنى إلى التناول أن نتساقى ما يبرد الغليل، ويرد عنّا حرّ هذا القيظ، ثم دقّ يدا بيد في شيء من الرفق. فأقبل الخادم وتلقى عنه أمره وأنصرف.

وكان هو طويلا نحيفاً، ظاهر النشاط، خفيف الحركة، مكتمل القوة، لا يظهر عليه ما يدل على سنه إلاّ خيوط بيض متفرقة قد انتثرت في شعر رأسه انتثارا. وكان عذب الصوت، حازم اللهجة، معتدل الحديث، ولعله كان إلى الإبطاء فيه واصطناع الأناة أدنى منه إلى الإسراع والتعجل، وكان صوته يمتد من حين إلى حين، لا غضباً ولا تحمساً، ولكنه كان مقتنعا بما يقول، فكانت حدّة صوته ولينه يمثلان حظه من الإيمان والاقتناع بما يقول.

وكانت هي ربعة. ممتلئة الجسم، مستقيمة القد، معتدلة القامة، وكان وجهها مشرقا شديد الإشراق، منسقا بديع التنسيق، تمر به من حين إلى حين سحابة رقيقة جدا من حزن لا يكاد يتبيّنها إلاّ من اعتاد أن يلقاها ويطيل صحبتها والتحدّث إليها.

وكانت هذه السحابة الطارئة لا تمر بها وهي تتحدّث، إلاّ قطعت عليها الحديث فجأة، ثم لا تلبث أن تزول فيتصل الحديث، ولا تمر بها وهي تسمع إلاّ لهت عن محدثها لحظة ثم تزول، وإذا هي ترفع إلى محدّثها طرفا فيه شيء كثير جداً من الحياء والإشفاق، وتستعيده ما قال في صوت عذب، ولفظ حلو، يحسن مسّه للآذان ووقعه في القلوب. وكان صوتها هادئاً عريضاً يمثل نفسا هادئة غنية ممتلئة بالعواطف الخصبة والشعور الحي والعلم الغزير.

وكأن الفرصة أرادت أن ترضي حاجتها إلى الصمت، وحاجة صديقها إلى الكلام، فقد أقاما صامتين للحظة غير قصيرة ينظران إلى سعى النهر أمامهما، كأنهما ينتظران

شيئا، وكأنهما يلهوان بالنهر وسعيه الهادئ القوي عمّا يضطرب في نفوسهما من الخواطر والآراء، ومن العواطف والأهواء، حتى إذا أقبل الخادم فهيأ المائدة وصفّ أكوابه وأطباقه، وانصرف راضياً عن نفسه مبتسما لضيفيه، نظرت هي إلى صاحبها كأنها تسأله أن يبدأ الحديث فقال: وقد فهم عنها ما كانت تريد، لسنا في حاجة إلى أن نبتدئ الحديث، وما علينا إلاّ أن نأخذه حيث تركناه حين انتهينا إلى هذا المكان الهادئ الجميل.

قالت فإن هدوء هذا المكان وجماله قد أنسياني حدّة ما كنّا فيه من حوار، واضطراب ما كنّا نتبادل من رأي، فلننظر القضية من أولها، فلعل هذا الهواء الطلق وهذا المنظر الحلو، وهذا السكون الساكن، أن تكون قد ردتك إلى شيء من الصواب وصدتك عما كنت فيه من جموح. فما أرى إلاّ أنّك تظلم الأدب والأدباء جميعا، وتقسط على الشبّان والشيب. وكم أحبّ لك أن تكون سمح النفس، رضيّ الطبع، مستعداً لشيء من التجاوز، تعذر طيش الشباب، وترفق بحدة الشيوخ. قال فأحب أن أعلم أين الشباب وأين الشيب، ومتى يكون الأديب شابّا، ومتى يكون الأديب شيخا. فهذا حديث طريف لم أسمع به في مصر قبل هذه الأيام، ولقد رأيت الأدباء منذ عرفت الأدب ينشئون النثر ويقرضون الشعر على اختلاف أسنانهم وتفاوت حظوظهم من القوة والضعف، فلا يختصمون في شباب ولا شيخوخة، وإنّما يختصمون في الرأي ويختصمون في الفن، يعين بعضهم بعضا، ويدافع بعضهم بعضا، لا يعتز الشيخ على الشاب بتجاربه وكثرة ما أنتج من الآثار، ولا يعتز الشاب على الشيح بحداثته وقوته، ونظرة شبابه، واتساع الأيام أمامه، وانبساط الآمال له. قالت لم تر ذلك من قبل ولكنك قد رأيته الآن. فأيّ غناء في أن تنكر شيئا حدث الآن لأنه لم يحدث من قبل، وأي فرق بينك وبين عامة الناس الذين يضيقون بالجديد، لا لشيء إلاّ لأنهم لم يألفوه ولم يطيلوا عشرته.

إنّ في الشباب نزوعا إلى الفوز، وطموحا إلى الظفر، وتعجلا لأتساع الشهرة وبُعد الموت، وكل هذا طبيعي، وكل هذا مألوف لأنه يلائم فطرة الشباب وأخلاقهم. ولا تنكره عليهم. ولا تصرفهم عنه، فإنّي أخشى أن يفت ذلك في أعضادهم. وأن يضعف من نشاطهم، وأن يرد جذوتهم هذه الجميلة إلى الخمود. قال لقد كنّا شبابا كما كانوا. وكان لنا من رفاقنا في الأدب أساتذة قد سبقونا إلى الحياة وتقدمت بهم علينا السن، وأخذوا من التجارب العلمية والفنية بحظوظ لم نأخذ بمثلها. فما حسدناهم وما أنكرناهم، ولا جاهدناهم ولا قصدنا إلى المكر بهم والكيد لهم، وإنما كنّا نقفوا آثارهم ونسمع لنصائحهم ونستعذب أحاديثهم، ولعلنا كنّا نحس ما بينهم وبيننا من خلاف، فلم يكن ذلك يغرينا بهم، ولا بصرفنا عنهم، وإنك لتذكرين كم كنّا نستعذب أحاديث حفني ناصف، وكم كنّا نحرص على أن نروي عنه كل ما كان يحدثنا به من هزل القول وجدّه. وإنك لتذكرين إنّا كنّا ننصرف عنه بعد الجلسة الطويلة معجبين به محبين له، ثم لا نلبث أن نستعيد ما سمعنا منه فننكر بعضه ونعرف بعضه الآخر، ولا يمنعنا ذلك من أن نتعجّل عودته إلى القاهرة آخر الأسبوع لنلقاه ونسمع منه ونتحدّث إليه. وما خطر لك ولا خطر لي ولا خطر لواحد من أصحابنا أن ينكر حفني ناصف لأنّه كان شيخا ولأننا كنا من الشبّان، أو يلوم حفني ناصف، لأنه سبقنا إلى الحياة والإنتاج، فسبقنا إلى الشهرة وبعد الصوت، إنّما كنّا نستعينه على أن نكون خيراً منه، وكان يعيننا على ذلك راضيا به مبتسما له راغبا فيه. قالت: فإنّي أحب لكم معشر الشيوخ أن تكونوا كحفني ناصف وأمثاله من أساتذتكم، لا تضيقون بأبنائكم إن ثاروا أو تمرّدوا أو لعبت برؤوسهم نزوات الشباب. هنا قال صاحبها في شيء من الغضب الضاحك: ومن زعم لك إنّي شيخ، هذا شيء لا أقرّه ولا أرضاه. قالت وهي مغرقة في الضحك، وما يعنيني أن تقرّه أو لا تقرّه، وإن ترضاه أو لا ترضاه، فأنت شيخ سواء أردت أم لم ترد. ألست قد أنفقت أكثر من ربع قرن تنشئ الرسائل وتنشر الفصول وتذيع الكتب؟ أليس قد اختلف إليك أجيال من الشباب فقرءوا ما كتبت، وسمعوا لما قلت، وتأثروا بهذا وذاك. فمنهم من ذهب مذهبك، ومنهم من ذهب مذهب فلان أو فلان من أصحابك. فكن شيخا أو لا تكن، فأنت أب على

كل حال، ماذا أقول؟ بل أنت جد. فلم يختلف إليك جيل واحد وإنما اختلفت لديك أجيال، ولم تتخرج عليك طبقة من الكتّاب، وإنّما تخرجت عليك طبقات. ولست أدري

ماذا يغيضك من الشيخوخة. وماذا يسوؤك منها؟ ولم تكره أن يراك الناس كما أنت؟ بل لم تكره أن ترى نفسك كما أنت. ولم تريد أن تطمع في غير مطمع؟ وتطلب ما لا سبيل إليه؟ فليس التصابي من الأشياء التي تحب أو يرغب فيها الرجل المحتشم، وقد عرفتك رجلا محتشما فأجعل نفسك حيث أراد الله أن تكون. قال في لهجة ماكرة وصوت عابث: فأنت شيخة إذن، فقد كتبت الكتب وأذعت الرسائل ودبجت الفصول، منذ عشرين سنة. قالت: بل منذ خمس عشرة سنة. قال: بل منذ عشرين. قالت: لم أكن أكتب حين شبّت الحرب. قال: بل كنت تكتبين، وإنّي لزعيم أن أذكرك بعض ما كتبت قبل أن تشب الحرب. قالت: فإنّي لم أكن قد بلغت الخامسة عشرة.

قال: لن أقول إنّك شيخة في السن، ولو قلت ذلك لكذّبني ما أرى وما أسمع. فعلا وجهها احمرار شديد، ومسّت يده في رفق كأنّما تريد أن تضربه. وهي تقول: متى تدع هذا العبث. ومضى هو في الحديث.

فقال: أنت على نضرة شبابك شيخة في الأدب. قد كتبت منذ زمن طويل، وعلّمت أجيالا مختلفة من الشباب وتخرّجت عليك طبقات مختلفة من الكتّاب. قالت تعال نتفق. لسنا شيخين ولا شابّين، وإنّما نحن شيء بين ذلك وأنت أدنى إلى الشيخوخة وأنا أدنى إلى الشباب. قال ولا هذا، فلا بدّ من أن نتفق على معنى الشيخوخة في الأدب، فليس يكفي أن نكون قد اصطنعنا الأدب منذ زمن طويل. وأثرنا في أجيال مختلفة من الكتّاب لنكون شيوخا، وليس من الحق أن كل أب شيخ، ولا أن كل جد شيخ. فقد نكون آباء، وقد نكون أجدادا، ولكننا على ذلك لسنا شيوخا، إنّما الشيخوخة ضعف. وما أرى إلاّ أنّ الشيخ هو الذي أخذه الضعف، وبلغ منه العجز والفتور، فاضطر إلى العقم، وحيل بينه وبين الإنتاج. أفترين إنّا قد انتهينا إلى هذه الحال؟ إنّك تكتبين في كل يوم، وإنّي أكتب في كل يوم. والناس يقرؤون لك ويقرؤون لي، والناس يعجبون بك ويرضون عن بعض ما أكتب. قالت بعض هذا التواضع، ولكنه مضى في الحديث فقال: وما زالت آمالك وآمالي في الأدب أبعد من أن تحد، وأوسع من أن تحصر، وما زلنا نتم الفصل أو الكتاب وإذا نحن نفكر في

فصل جديد أو كتاب طريف، نريد أن نكتبه أو نذيعه، وما دمنا نجد هذه القوة، ونملك هذا النشاط ونعرض آثارنا على الناس، ومنهم هؤلاء الشباب، فلسنا شيوخا ولا قريبين من أن نكون شيوخا، قالت ليهلك هذا الشباب الذي تحبه وتحرص عليه، وتخشى أن يغتصبه منك الشبان، ولقد كدت أرضى منك بهذا الحديث وأحمد لك إحياء الأمل في نفسي لولا أجد من الضعف ما لا تجده، وأحس من الهزيمة ما لا تحس. فأنت تكتب وتفكر في الكتابة، وأنت تنشئ وتتهيأ للإنشاء، أما أنا فلا اكتب ولا أفكر في الكتابة وان كتبت فلا أكتب للناس وإنما أكتب لنفسي، ولا أتحدث إلى الناس وإنما أتحدث إلى نفسي. ولعلي لا أذكر الناس في هذا الحديث وإنما أذكر نفسي. إنما أنا شيخة قبل أن ابلغ سن الشيوخ. أمحزونة أنا لذلك أراضيه أنا به؟ لا أدري، ولعلي أحزن له حينا وأرضى عنه حينا آخر. ولكني على كل حال لا أجد في نفسي هذا النشاط الذي يمكنني من رفض الشيخوخة. قال في صوت هادئ حار: كلا يا سيدتي، هذه أزمة من أزمات الشباب ليس بينها وبين الشيخوخة سبب، وأنا زعيم بأن هذا الصيف لن ينقضي حتى يتحدث الناس عنك فيطيلوا الحديث، ويعجب الناس بك فيكثروا الإعجاب. وسأكون أنا أحد هؤلاء المتحدثين وأحد هؤلاء المعجبين ولكن حديثي عنك وإعجابي بك لن يقعا من نفسك إلا كما يقع منها حديث غيري من الناس وإعجابهم. قالت فأنت إذن تريد الثناء.

قال: كلا وإنما أريد شيئاً آخر خيرا من الثناء , أريد أن اسبق الناس إلى قراءة شيء مما تكتبين. قالت دعني ودع ما أكتب ومالا أكتب وحدثني عن ظاهرة أخرى في الأدب المصري ظهرت عنيفة في هذه الأيام. قال وما هي؟ قالت ألست ترى غضب الأدباء من الشيوخ والشبان. قال دعي لفظ الشيوخ. فليس في أدبائنا شيوخ. فضحكت وقالت: ألست ترى أن الأدباء جميعا يضيقون بالنقد ولا يحتملونه، ولا يطيقون الصبر عليه. وكيف تفسر هذه الحدة؟ وأين تجد العلة لهذا الضيق؟ لقد كنت أريد أن أجد في هذه الحدة والضيق دليلا على شيوخة الأدباء، ولكني أراهما شائعين حتى عند الذين لا أشك ولا تشك أنت في انهم من الشبان. فهم أبغض للنقد والناقدين من كل إنسان. ومهما أعجب فلن ينقضي عجبي من كاتب أو شاعر ينشر نثره أو شعره على الناس في كتاب مطبوع أو في صحيفة سيارة فيخرجه بذلك عن ملكه الخاص، ويجعله بذلك

ملكا للناس جميعا. ثم يأبى على الناس بعد ذلك أن يتصرفوا في ملكهم كما يريدون.
قال: إن
الكتاب والشعراء يسرفون على قرائهم ويكلفونهم شططاً، فهم يغضبون إن لم يقرأهم الناس، وهم يغضبون إن قرأهم الناس، ونالوهم بشيء من النقد ولو خفيفا. ولقد أتردد أحيانا في أن أقرأ الكتاب أو الديوان يرسله إلي صاحبه، لأني واثق باني قد أرى فيه غير ما يحب الكاتب أو الشاعر. فان سكت عنه أثمت في حق الأدب وفي حق نفسي، ولم يرض مني صاحب الكتاب أو الديوان بهذا السكوت، وان قلت ما أرى فتحت بابا من أبواب الجدال ليس إغلاقه بالأمر اليسير، ولعله لا يغلق الا على كثير من الموجدة.
قالت: هذا اعوجاج في أخلاق الأدباء كنا ننكره على شيوخنا المتقدمين، وكنا نقدّر أن أدباء الحيل الحديث سيقومونه في أنفسهم والناس، فاخلفوا الظن، وكذبوا الرأي، وأصبحوا خليقين أن يقومهم المقومون سواء أرضوا بذلك أم كرهوه. فهمّ أن يتكلم، ولكنها مضت في الحديث قائلة: على انهم لا يضيقون بالنقد فحسب، ولكنهم يتهالكون على الثناء فما أشد ثورتهم على الناقدين! وما أحسن لقائهم للمقرظين! قال ومع ذلك: فإني اتهم كل مقرظ، وأسيء الظن بكل تقريظ، واعتقد اعتقاد الموقن أن النقد مهما يشتد ومهما يسرف صاحبه فهو أنفعوأجدى. لأن الكاتب إلى أن يعرف عيوبه ويتبين مواضع الضعف في آرائه وألفاظه وأساليبه، أحوج منه إلى أن يقال له أحسنت حين يحسن، وأصبت حين يصيب.
ومر فتى لم يبلغ السادسة عشرة، صبيح الوجه رث الزي حافي القدمين يحمل سلة فيها باقات من زهر، فوقف على الصديقين وقدم إليهما أزهاره. قال الصديق لصاحبته: اختاري. قالت أليس من الاختيار بد؟ قال الفتى لا بد من ذلك يا سيدتي فإني في حاجة إلى العشاء. هنالك اضطرب بصرها بين باقتين في إحداهما ورد، وفي الأخرى قرنفل. قال الرجل للغلام: ضع هاتين الباقتين، ثم التفت إلى صاحبته وهو يقول: أما أنا فأحب الورد وشم القرنفل.
الكيف لا الكم
للأستاذ أحمد أمين
روي أن ابن سينا كان يسأل الله أن يهبه حياة عريضة وإن لم تكن طويلة، ولعلّه يعني بالحياة العريضة حياة غنية بالتفكير والإنتاج، ويرى أن هذا هو المقياس الصحيح للحياة. وليس مقياسها طولها إذا كان الطول في غير إنتاج، فكثير من الناس ليست حياتهم إلاّ يوما واحدا متكررا، برنامجهم في الحياة أكل وشرب ونوم، أمسهم كيومهم، ويومهم كغدهم، هؤلاء إن عمّروا مائة عام فابن سينا يقدره بيوم واحد، على حين أنه قد يقدّر يوما واحداً (طوله أربع وعشرون ساعة) بعشرات السنين إذا كان هذا اليوم عريضا في منتهى العرض، فقد يوفق المفكر في يومه إلى فكرة تسعد الناس أجيالا أو إلى عمل يسعد آلافا، فحياة هذا (وإن قصرت) تساوي أعمار آلاف بل قد تساوي عمر أمّة، لأن العبرة بالكيف لا بالكم.
وليس على الله بمستنكر ... أن يجمع العالم في واحد
وتقدير الأشياء بالكيف لا بالكم منزلة لا يصل إليها العقل إلاّ بعد نضوجه. أمّا الطفل في نشأته، والأمة في طفولتها فأكثر ما يعجبهما الكم، فالريفي عنده خير (الخيار) ما كبر حجمه وبيع بالكوم، والمدني خير (الخيار) عنده ما نحف جسمه وكان (كالقشّة) وبيع بالرطل. والطفل وأشباهه يرغبون بكثرة العدد لا بجودة الصنف، فحيثما مررت في الشارع أو زرت متجراً رأيت أكثر الترغيب في الكم (فأربعون ظرفا وجواباً بتعريفة)، و (دستة أقلام رصاص بصاغ)، وهكذا، وسبب هذا أن البيع والشراء يعتمدان على أدق قوانين علم النفس، والباعة من أعرف الناس بهذه القوانين التي تتصل بعقلية الجمهور، فهم يعلمون أنهم أكثر تقويما للكم، وأكثر انخداعا بالعدد، فهم يأتونهم من نواحي ضعفهم وموضع المرض منهم، وقل أن يرغبوهم في الشيء بأنه من (العال) أو (عال العال) لأن هذا تقدير للكيف وليس يقدره إلاّ الخاصة.
وكل إنسان قد مرّ بدور الطفولة، والأمم جميعها مرّت كذلك بهذا الدور فعلق بأذهانهم تقدير الكم ولم يستطيعوا أن يتحرروا منه مهما ارتقوا، وأصبحوا (حتى الخاصة منهم) ينخدعون بالكم من غير شعور وبلا وعي، وصار هذا مرضا ملازما، إنما يتحرر منه الفلاسفة وإلى

حد، ألاّ ترانا نرى الرجل الضخم حسن الهيئة جميل الطلعة فنمنحه الاحترام، ولو لم نعرف قيمته، ونرى الرجل صغير الجسم غير مهندم الثياب فنحتقره لأول وهلة من غير أن نعرفه، وأساس معاملتنا بالإجمال احترام ذوي المظاهر الجميلة حتى يثبت العكس واحتقار ذوي المظاهر الوضيعة حتى يثبت العكس، وليس ذلك إلاّ من خداع الكم ولو أنصفنا لوقفنا على الحياد من الجميع حتى نتبين الكيف.

ونرى ذا العمامة الكبيرة واللحية الطويلة فنعتقد فيه العلم والدين، مع أن لا علاقة بين كبر العمامة وطول اللحية وبين العلم والدين وإن كان ثمّة علاقة فعلاقة الضدية، لأن الدين محلّه القلب والعلم موطنه الدماغ، وإذا مليء القلب دينا والدماغ علما أحتقر المظهر وأبى أن يدل على دينه أو علمه بمظهر خارجي بل هو إن امتلأ دينا وعلما أنكر على نفسه الدين والعلم وأعتقد أنه أبعد ما يكون عمّا ينشده من دين وعلم، وكذلك الشأن في اللباس الجامعي واللباس الكهنوتي.

وقديما أدرك العرب خداع الكم فقالوا: (ترى الفتيان كالنخل وما يدريك ما الدخل.) وقال شاعرهم:

ترى الرجل النحيف فتزدريه ... وفي أثوابه أسد مزير
ويعجبك الطرير فتبتليه ... فيخلف ظنّك الرجل الطرير

وفي كل شأن من شؤون الحياة وضرب من ضروب العلم والفن ترى خداع الكم ولنأخذ الأدب مثلا.

فالمؤلفون يعلنون عن كتبهم أنها في أربعمائة صفحة - مثلا - من القطع الكبير، والمتعلمون كثيراً ما باهوا بكثرة ما قرءوا والكتّاب بكثرة ما كتبوا، والصحافة كثيرا ما خدعت القرّاء بالكم. فكان مما اصطنعته زيادة عدد الصفحات في الجرائد والمجلات مع أن الصفحات وحدها كم ولا قيمة لها ما لم يصحبها الكيف، وكم أتمنى أن أرى جريدة أو مجلة ترغّب قرّاءها بالكيف فقط وإن كنت أجزم بأن مصيرها الفشل لأن أكثر الناس لم يمنحوا بعد ميزان الكيف.

وقد جرت كثرة الصفحات في الجرائد والمجلات إلى تحوير الأسلوب إلى ما يناسبها فكان الأسلوب أحيانا كالعهن المنفوش يصاغ في صفحة، ما يصح أن يصاغ في عمود وفي

عمود ما يصح أن يصاغ في سطر ولست أدري لم كان الناس إذا أرسلوا تلغرافا تخيروا أوجز الألفاظ لأغزر المعاني، ولم يفعلوا شيئا من ذلك في كتبهم ورسائلهم ومقالاتهم؟ ولعلهم يفعلون ذلك لأن الكلمات في التلغراف تقدر بالقروش وليس كذلك فيما عداها، إن كان هذا هو السبب دلّ على تقدير القرش اكثر مما يقدر زمن القارئ والكاتب، وفي هذا منتهى الشر، وفي هذا أقسى مثل لغفلة الناس في تقدير الكم لا الكيف.

وقديما عرض علماء البلاغة للكيف والكم في الأدب وسموهما اسماً خاصاً هو الإيجاز والإطناب، وعدوا الإيجاز أشرف الكلام والإجادة فيه بعيدة المنال لما فيه من لفظ قليل يدل على معنى كثير، ومثلوا للإيجاز والإطناب بالجوهرة الواحدة بالنسبة إلى الدراهم الكثيرة، فمن ينظر إلى طول الألفاظ يؤثر الدراهم لكثرتها، ومن ينظر إلى شرف المعاني يؤثر الجوهرة الواحدة لنفاستها، ولا يعدل عن الإيجاز إلى الإطناب إلا لإيضاح معنى أو تأكيد رأي.

والحق إن الأدب العربي في هذا الباب من خير الآداب، فاكثر ما صدر في عصوره الأولى حبات من المطر تجمعت من سحاب منتشر، أو قطرات من العطر استخلصت من كثير من الزهر.

وبعد، فلست أحب أن تكون كتابتنا كلها تلغرافات، وإذن لعدمنا ما للأسلوب من جمال، وما لتوضيح الفكرة وتجليتها وتحليتها من قيمة، وإنما أريد أن يكون المعنى هو القصد وهو المقياس فان أطنبنا فللمعنى، وإن أوجزنا فللمعنى.

وأريد أن يقوّم الناس الكيف للكيف، وإذا قدروا الكم فللكيف.

ولعل من ألطف ما كان، أني حين بلغت هذا الموضع من مقالتي أخذت أعد صفحات ما كتبت، فوجدتها قليلة العدد فآلمني ذلك لأني لم أبلغ ما حزرت أن يكون، ولأني خشيت أن يستصغرها صاحب الرسالة وقراء الرسالة وفرحت بهذه الملاحظة لأنها

سدت فراغا ما في المقالة يكمل بعض ما فيها من قصر، ألسنا جميعا عباد (كم)، أو ليس هذا من نوع تقدير الخيار بالكوم؟

الشعر المرسل أيضاً

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

نشرت الرسالة ترجمتين لقطعة من رواية (عطيل) الشهيرة إحداهما نثر والأخرى شعر مرسل وقد حاولت أن أعرف رأي الأصدقاء في أوقع الترجمتين في نفوسهم أهي الترجمة الأولى أم الثانية. وكان رأي الكثرة إنه الشعر المرسل. على أن بعضهم استدرك في قوله، فقال إن الذي يقرأ السطر الواحد من الشعر المرسل ثم يقف في آخره ينتظر ما اعتاد انتظاره من انتهاء المعنى يشعر بالمضاضة، ويقبح قي عينيه ذلك الأسلوب.

ولكنه إذا قرأ ذلك الشعر المرسل على سجيته فلم يقف إلا حيث يقف به المعنى وجده قولا سائغا لا قبح فيه.

وها أنا ذا أعرض على القارئ صفحة من رواية صغيرة لي بها علم وهي في شعر مرسل. وقف فيها رجل غجري يحاول إلانة قلب فتاة من جنسه جامحة العاطفة معرضة عنه. وهي تجيبه إجابة تمنع ودلال.

الفتى: جرحت فؤادي

بدلال يثير فيّ لهيباً

فأعيدي سعادتي وأعيدي

بسمات الرضا أعيدي حياتي

الفتاة: (ضاحكة ساخرة)

ليت قلبي يسير طوعي سميعاً

فيلبي نداء كل شفيع.

إن قلبي له هواه فيمضي

حيث شاء الهوى جموحاً عنيداً.

الفتى: كنتِ (ميسون) سلوتي وحياتي

فاذكري عهدنا القديم وعودي

لفؤادي الجريح يا ميسون.

الفتاة: (بعناد)

إن ماء العيون يحلو جديدا

وجمال الغرام أن نتولى

كفراش الربيع بين الزهور

الفتى: (بتذلل)

أنت روحي. وكيف أحيا وحيدا؟

فانظري لي ببسمة لأداوي. . مهجتي

الفتاة (جامدة) إنه كلام ثقيل

الفتى: (غاضبا)

ويل نفسي - أما بصدرك قلب؟

الفتاة: (ضاحكة)

لا تحاول نوال حبي رجاءً

لا ينال الهوى بدمع وشكوى

إنما الحب آمر ليس يعصى

يأخذ القلب قاهراً منصورا

ولعل القارئ إذا اتبع نصيحة ذلك الصديق فقرأ ذلك القول كما يقرأ النثر واقفا عند نهاية المعاني وجد فيها ما يقبله ذوقه.

هذا وقد عرضت لي ترجمه بارعة لقصة أخرى من قصص شكسبير، وهي ترجمة أستاذنا المفضل محمد بك حمدي ناظر مدرسة التجارة العليا، وقد كانت ترجمة حلوة بديعة دقيقة في نثر حلو ممتع، واتفق أن قطعة من تلك القصة كانت كذلك مترجمة في شعر مرسل، فرأيت أن أتبع الموازنة الأولى بموازنة ثانية، لعل ذلك يكون أفسح في التدليل وأقوى إعانة على صدق الحكم.

وتلك القطعة المختارة هي في الموقف المشهور الذي وقفه أنطونيس يرثي قيصر بعد مقتله، وفيه استطاع تحويل رأي العامة من الحنق على قيصر والعطف على قاتليه إلى الثورة للثأر له والانتقام من أعدائه.

ترجمة الأستاذ حمدي بك:

أنتوني: أيها الأخوان. أيها الرومان. بني وطني. أعيروني أسماعكم فإني ما جئت للتمدح بقيصر ومناقبه، ولكن لأواريه لحده وأهيل عليه التراب. فقد جرينا على أن ما يعمل الإنسان من شر يخلفه، وما يعمل من خير يرمس معه في غمار الرمم ولفيف الرفات، وهذا شأن قيصر معنا اليوم نتناسى مناقبه ونعدد معايبه. قال لكم بروتاس وهو رجل الشرف الصميم: إن قيصر طماع فان كان كذلك كان ذنبه يوجب الأسى والأسف كما كان جزاؤه أدعى للحزن والشجن، إني أقف بينكم الآن في جناز قيصر بإذن من بروتاس وهو رجل النبل والفضل وبإذن من زملائه الآخرين وكلهم مثله أجلاء نبلاء، ولكن قد كان لي في قيصر صديق حميم وبر كريم، لم أعهد فيه الطمع الذي يرميه به بروتاس رجل الفضل والشرف، أتاكم قيصر بالأسرى مكبلين فملأت دياتهم بيت المال، فهل كان في عمله هذا ما ينبئ عن طمع. كان قيصر يبكي شفقة ورحمة كلما ذرفت الفقراء دموع الفاقة والإملاق، وعهدي بالطماع أخشن طبعا وأغلظ كبدا، ولكن بروتاس يقول انه طماع وبرتاس كما تعلمون رجل الفضل والشرف. ألم تروا إني عرضت عليه التاج ثلاث مرات في (لوبركال) فكان يرفضه في كل مرة؟ فهل كان هذا لطمع فيه؟ ومع ذلك فان بروتاس يقول انه طماع، وبروتاس رجل الفضل والشرف. لا أريد أيها السادة أن أدحض دليل بروتاس ولا أن أقارعه الحجة بالحجة، وإنما أنا أقول ما أعرفه من الحق الصراح. لقد كنتم كلكم تحبون قيصر حباً جماً فهل كان ذا من غير داع وبلا مسوغ؟ إذن ما الذي يمنعكم الآن أن تقيموا عليه شعار الحداد؟ يا للعدالة! لقد أويت إلى قلوب الوحوش الضارية فغادرت الإنسان جباراً عتياً فاقد الرشد والصواب. عفواً سادتي إن قلبي مدرج مع قيصر في أكفانه فأمهلوني حتى يرتد إليّ.

الترجمة الأخرى في شعر مرسل:

أيها الروم يا صحابي وقومي
أنصتوا ساعة لبعض مقالي.
لست آتٍ أصوغ قيصر مدحاً
بل لأسعى مشيعاً لرفاته.
إنما تخلد الذنوب وتبقى
بعد ما خاضها على حين تثوى
حسنات الماضين بين القبور
فليكن حظ قيصر مثل هذا.
قد سمعتم (بروت) وهو كريم
قال يا قوم إن قيصر طاغ
ولئن كان ما يقول صحيحاً
كان هذا لاشك وزراً كبيرا
نال من أجله جزاءً أليماً.
فلندع ذكر ذاك - أني مدين
لبروت وصحبه إذ أجازوا
أن أقوم الغداة أرثي صديقي
فبروت كما علمتم كريم
وذووه كما عرفتم كرام:
كان نعم الصديق خلاً وفياً
لا. ولكن بروت ينقم منه
انه طامع حريص وأنتم
قد عرفتم بروت شهما نبيلا.
انه قد أتى بأسرى جموعاً
وحبانا فداءهم أموالا

ملأت بالغنا خزائن روما.
أبهذا ترون قيصر يطغى؟
كان والحق إذ يصيح فقير
يسيل الدمع رأفة ولعمري
أن قلب الطغاة عات صليب.
غير أني أقول هذا وأنتم
قد سمعتم بروت وهو كريم
قال قد كان طامعا جبارا.
أرأيتم تلك الغداة وأنا
يوم عيد (الخصيب) إذ قد شهدتم
كيف قدمت نحوه التاج أرجو
لو تلقاه بالقبول ثلاثا
فأباه - أكان ذلك حرصا؟
لا ولكن بروت قد قال حقا
انه طامع. ولا شك فيه
فبروت كما علمتم شريف
ولئن قلت ما علمت فإني
لست فيه مكذبا لبروت.
أيها الناس كان قيصر منكم
في ثنايا القلوب وهو جدير.
فلماذا أرى العيون صلابا
جامدات. وفيم هذا الجفاء؟
لا! قد أصبح الرجال سواما
منذ طارت أحلامهم وكأني
بوحوش الفلات أرجح عقلا.
أي رفاقي لا تعذلوني وعفوا
إن تعديت في المقال. فإني
ضاع لبي وضل عني فؤادي
فغدا عند نعش قيصر رهنا.
فدعوني حتى ألاقي فؤادي.
أنظروني حتى يعود جناني.

ولعلي أستطيع أن أسأل من لم أسأل من الأصدقاء بعد لأعرف رأيهم في هذه البدعة الأدبية أهي وسيلة صالحة أم هي مدخل إلى العبث والإسفاف؟ فان كان من الأدباء من يراها صالحة رجوت أن يبعث لنا منها قصة غنائية أو ملحمة بارعة بعد أن يكون قد فاض عليها من جمال روحه وروعة عبقريته.

بين بريسكا وتوفيق الحكيم

بريسكا: أني أبغضك. أبغضك من أعماق قلبي.

ت. الحكيم: استغفر الله! لماذا يا سيدتي؟ ما جنايتي؟

ب: واحتقرك كما احتقر غالياس.

ت: لاحظي يا سيدتي قبل كل شئ أن ليست لي لحية غالياس!

ب: قل لي أنت قبل كل شئ: ماذا عليك لو أنك أبقيت لي مشلينيا؟. . لو أن قلمك تمهل لحظة صغيرة ولم يقصف تلك الحياة قبل أن يحضر غالياس وعاء اللبن. . .! ماذا كسبت أنت من موت مشلينيا قبل الأوان؟ لحظة واحدة صغيرة كانت كافية لإنقاذ الفتى. . لكنك ضننت بها أيها القاسي الظلوم!

ت: لست قاسيا يا سيدتي ولا ظلوما. ولو كنت أملك أمر بقاء مشلينيا دقيقة واحدة لأبقيته لك عن طيب خاطر.

ب: لو كنت تملك؟ ومن غيرك يملك؟!

ت: لا تحمّليني يا سيدتي هذه التبعة.

ب: جميل أن يتنصل خالق من تبعة خلقه كل هذا التنصل!!

ت: ما أظلم الإنسان! وما أحوج المبدعين إلى الرحمة والرثاء في هذا الوجود!
ب: نحن الظالمون وهم المظلومون! شيء بديع!
ت: إنكم تحملونهم التبعات وترمونهم بالظلم وهم براء من كل صفة من الصفات. فلا ظلم ولا عدل، ولا قسوة ولا حنان، ولا غضب ولا رضى، تلك عواطف لا يعرفونها ولا يشعرون بها. ولو أصغى إله لصوت آدمي لأنحلّ الكون في طرفة عين كما تنحل قصة أهل الكهف لو أني أصغيت إلى شخص واحد من أشخاصها! فأنت تريدين أن أؤخر موت مشلينيا دقيقة. ولا تعلمين أن هذه الدقيقة الواحدة كانت كفيلة أن تغير وجه القصة وتقلب مصير الأشخاص وتلقي عناصر الفوضى في العمل كله. كلاّ يا سيدتي. إني لم أرد موت مشلينيا ولم أرد بقاءه. ولم أحب ولم أكره. ولم أظلم ولم أعدل. إنّ المبدع لا يمكن أن يخضع لغير قانون واحد: (التناسق).
ب: هذا كلام تبرر به قسوتك.
ت: أنت يا سيدتي لا تعرفين ما مهنة المبدع! ثقي أن كلمة (قسوة) لا معنى لها في تلك المهنة.
ب: أنت كائن لا يمكن أن يفهمني ولا يمكن أن يفهم الحب.
ت: لا أفهمك، هذا صحيح. أمّا أني لا أفهم الحب فهذا غير صحيح.
ب: هل أنت تفهم الحب؟
ت: قليلا.
ب: هل أحببت في حياتك. .؟
ت: أيتها الأميرة. لا أسمح بالكلام في شؤوني الخاصة.
ب: معذرة. إنما أردت أن أعرف كيف فهمك للحب؟
ت: ماذا تريدين أن تعرفي. أحب الخالق وهو روح التناسق. أم حب المخلوق. .؟
ب: حب المخلوق. . حب القلب. . الحب ما أريد. صدقت ما دمت أنت خالقا وأنا مخلوقتك. فإن بيننا تلك الهوّة. . فأنت لا تنظر إليّ بعين خاصة. ولا تعرفني معرفة خاصة. ولا تتصل بي اتصالاً مباشرا. إنما تنظر إليّ كعنصر من عناصر الكل المتسق. تنظر إلي بعين ذلك القانون الذي تحكي عنه، وينبغي أن تكون مخلوقا مثلي وعنصراً أو جزءاً مثلي حتى يكون بيننا ذلك الارتباط الخاص وذلك الالتفات الخاص. فهبك كذلك وهبني أحببتك فهل تحبني؟
ت: يا لكِ من ذكية ماهرة!
ب: أجب. إذا أحببتك. . .؟
ت: ومشلينيا؟
ب: دعنا الآن من مشلينيا.
ت: إذا أحببتني؟. . أنا. .؟
ب: نعم.
ت: إني أخشى هذا الحب.
ب: لماذا؟
ت: لأنك لن تحبيني.
ب: من أين لك العلم؟
ت: هل رأيتني؟ إني لا أشبه مشلينيا في شيء. فليست لي فتوته ولا جماله ولا قوامه ولا ذراعاه ولا شفتاه. . .
ب: ولا قلبه؟
ت: أتردد قبل أن أجيب. قد يكون لي قلبه. لكن ثقي أني إذا شقيت في هذا الحب فإني لا أذهب إلى الكهف ولا أموت جوعا. أولاً ليس عندي كهف أموت فيه. وإن وجدنا الكهف فلسنا واجدين الشجاعة والصبر عن أكل الشواء والدجاج يوما واحداً. . .
ب: إذن ليس لك حتى قلبه!
ت: نعم وا أسفاه!
ب: إذن ما يصنع مثلك لو شقي في هذا الحب؟
ت: يذهب إلى كهف من كهوف النبيذ في مونمارتر. ويؤلف قصصاً تمثيلية.
ب: مرحى!. مرحى!.

ت: لا تغضبي أيتها العزيزة بريسكا.
ب: أهذا فهمك للحب؟
ت: ماذا تريدين إنّا لسنا قديسين!
ب: أنتم مبدعون!. . كنت أحسبكم خيراً من هذا!!
ت: كذلك قال غالياس يوما فيما أذكر عن القديسين الثلاثة إذ خالطهم وحادثهم. ألا تذكرين؟
ب: كنت أظنك على الأقل خيراً من غالياس المسكين فهماً للحب!!
ت: يشق عليّ أن يخيب ظنك فيّ يا عزيزتي!
ب: عزيزتك! كلا. لست أسمح لك. إنك تخاطبني كما لو كنت تعرفني من قبل. أو كما لو كنت لي بعلا!!
ت: حقيقة أيتها الأميرة. ليس لي هذا الشرف.
ب: تستطيع أن تنصرف يا هذا.
ت: أنصرف إلى أين أيتها الأميرة. .؟
ب: أتسألني؟ إلى حيث كنت. . إلى سمائك. .
ت: أين هي هذه السماء؟ في دمنهور؟ أو في قهوة (جراسمو)؟ ما أكثر أوهامكم أيتها المخلوقات!
ب: نعم ما أكثر أوهامنا. . وتخيلاتنا وخيبة آمالنا. .!
ت: ذلك أنكم تريدون أن تخضعوا كل شيء لخيالكم أنتم.
ب: صدقت. إنّا نتمثّل القديسين والآلهة كما تصورهم لنا عقولنا. .
ت: ثقي أن لو كشف المجهول يوماً لأعين البشر لصاحوا كلهم بكلمتك التي لفظت الساعة: (كنّا نحسبه خيراً من هذا. .!)
ب: ربما. .
ت: ذلك أنهم سيرون المجهول شيئا لا علاقة له بعقلهم، ولا بخيالهم، ولا بمنطقهم، ولا بعواطفهم، ولا ببشريتهم. .
ب: إنّا مخلوقات ماذا تريد من مخلوقات؟ إنا لا نستطيع أن نخرج من أنفسنا لنفهم ونرى شيئا غير أنفسنا.
ت: ومع ذلك فإن لهذه المخلوقات كنزاً لا يوجد عند الآلهة.
ب: القلب.
ت: نعم.
ب: إني أؤمن بما تقول. فها أنت ذا خالق من نوع تافه. . ليس لك القلب الذي لمشلينيا. .!
ت: أعترف أني أقل شأنا من حبيبك.
ب: ومع ذلك فقد اجترأت يدك على إطفاء حياته الجميلة. . .
ت: عدنا إلى الاتهام.
ب: إني أبغضك. . أمقتك. . أبغضك من أعماق قلبي. .
ت: سبحان الله! اقسم أن لا فائدة من مناقشة امرأة تحب.

أدب القوة وأدب الضعف

للأستاذ محمود الخفيف

أحس إذ أتناول هذا الموضوع أني بين عاملين: عامل الحياء وعامل الفخر. أما الحياء فأول دواعيه أن أعقب أنا الصغير على مقال أستاذنا العلاّمة أحمد أمين. وأما الفخر فحسبي أن يقرأ لي الأستاذ سطوراً قد تحظى برضاه في موضوع كهذا يعنيه.

يرى الأستاذ (أن الشاعر المجيد هو الذي يثير العواطف بقدر، ويبنيها على أساس عميق) ويرى أن الأدب في العصر العباسي كان أدباً ضعيفاً. إن أنت حصرته وجدته بين باك ومادح ومستهتر، ثم يرى أن عود الأديب الشرقي على نحو عود المغني الشرقي أشجى أغانيه أحزنها، وخير نغماته أبكاها.

وعلى ذلك يسمي الأستاذ ذلك النوع من الأدب الباكي الذي يتعمق في إثارة العواطف أدباً مائعاً، وذلك الأدب الذي لا يثيرها إلاّ بقدر أدباً قوياً، فهل يسمح لي الأستاذ أن أتجرأ فأقلب هذا الوضع، فأسمّي ذلك الأدب الوجداني الحاد الذي يبالغ في إثارة العواطف أدباً قوياً، وذلك الأدب الذي لا يمت إلى العاطفة بصلة قوية أدباً جافاً أو مائعاً؟

أرى الأنغام الوجدانية الحادة أساس الأدب الحاد، ولن يكون الأدب الحاد مائعاً، وأرى العبارات الخالية مما يثير العواطف أو التي تثيرها بقدر أساس التفكير العقلي، والخطوة الأولى نحو الفلسفة (القوية) ولن تكون الفلسفة القوية أدبا قويا، وعلا ذلك فما يسميه الأستاذ أدبا مائعا هو في الواقع أدب قوي، وأما ما يسميه أدبا قويا فهو فلسفة قوية.

والأدب والفلسفة شيئان: فالأدب لغة القلب، والفلسفة لغة العقل، والإنسان إنما يبدأ بقلبه فيفرح أو يبكي ويحب أو يبغض ويرضى أو يغضب ويأمل أو ييأس ويثور أو يهدأ حسب ما يحس من عواطف، فإن كان لابد من تخفيف حماسته، فليكن ذلك بشيء من حدة عقله، ولكني لا أرى تجريده من ذلك الحماس ولا أحسب ذلك ممكنا، إذ ما القلب بغير حماس؟ ثم ما الأدب بغير عاطفة؟

وإذا اشتدت العاطفة فكيف يكون الأدب مائعاً، وكيف تشتد العاطفة إلاّ إذا اشتدت بواعثها؟ وإذا ما اشتدت بواعثها فما القوة إن لم تكن القوة في إظهارها قوية رائعة؟ إن الإنسان بطبعه عسوف عنوف، لا يسكن إلاّ لعجز، ولا يرتدع إلاّ من خوف، ولا يعفو إلاّ عن ضعف ولا يقنع إلاّ مضطراً، ولو أطلق له العنان لكان شره مستطيرا ومكره خطيرا بيد أنه على غلظته لا يخلو قلبه من عواطف نبيلة، ولكنها خامدة، وميول خيّرة ولكنها كامنة، ولذلك فهي في حاجة إلى الإبانة والتنبيه، والأدب الوجداني الحاد يخاطب القلوب فيهزها ويستثير ما كمن فيها من نبل فيبعثه، ولذلك كان هو عماد المصلحين ودعاة الإنسانية، فإنك إن تخاطب الإنسان في منطق وفي عبارات جافة فقلّما يصغي إليك، وإن استمع فقليلا ما يعي، وإن أنت بدأت بقلبه فهززته في رفق وألنته بأنغام قيثارتك ثم أهبت به فقد يهوي إليك.

تحدّث شكسبير عن تأثير الموسيقى في النفوس فبدأ بالعجماوات فقال ما بال تلك الوحوش الكاسرة تسمع أناشيد الموسيقى فتقع متراخية وتظهر كأنها مأخوذة حائرة؟ وما بال ذلك العدد المضطرب من الخيل الجانحة يسمع الموسيقى فيهدأ فجأة ويسير في نظام كأنما تذهب الأنغام ثائرته وتسحره عن نفسه.

والأدب الوجداني موسيقى النفس، وموقفه من القلوب البشرية الفطنة موقف الموسيقى الحسية من تلك الخلائق الهائمة الثائرة، فهو الذي ينفذ إلى القلب ويختلط بالنفس فيلائم بين ذراتها وينظم تموجاتها. ويقلل من عنف الإنسان وجبروته فيجعله رقيقا وادعاً.

ولا تثريب على الشاعر، أو القصصي، أن يبكي فيبكي عيوناً تكاد أن تتحجر، ويفتح آذاناً ضربت عليها المطامع المادية ويهز قلوباً كانت لا تحفل دعاء أو تجيب رجاء.

وهو إن بكى على نفسه فغير ملوم، فإنما ينطق بما يحس، وبذلك ينفس عن قلبه، وقد تخفق قلوب معه وتهوي أفئدة إليه، وها هو ذا البارودي الفارس يقول:

أفي الحق أن تبكي الحمائم شجوها ... ويبلي فلا يبكي على نفسه حرّ؟
وماذا عليهم إن ترنّم شاعر ... بقافية لا عيب فيها ولا نكر؟

وهو في بكائه غير ضعيف، بل إن حدة عواطفه لتنهض دليلا على قوته، وإلاّ فما أضعف جيته ولامرتين وهوجو وأبا فراس والمعرّي وغيرهم ممن ضربوا على أوتار حزينة باكية!

ولقد بكى هؤلاء في شبابهم أعني في أيام قوتهم وبكوا لقوة إحساسهم ونبالة قصدهم وكمال إنسانيتهم.

ومن البلية أن يسام أخو الأسى ... رعى التجلّد وهو غير جماد

وليس من الضروري أن يكون الشعر المتناهي في وصف ما يلاقي المحب من عذاب غير مؤسس على عاطفة صحيحة، لأن مثل هذا الشعر يكون ترجمة لإحساس الشاعر فما دام أنه محب فله أن يعبر عمّا يحس، وليس لنا أن نتهمه في ذلك بضعف، بل أنه يكون ضعيفا حقاً إن هو أحسّ عذاباً من وراء حبه ثم لم يستطع الإفصاح عنه.

ولم يكن الأدب العباسي ضعيفاً، لما جاء فيه من بكاء ومديح واستهتار، فإن الأدب في كل عصر صورة لذلك العصر، فإذا عبّر أدباء العباسيين عمّا يحسّون فلم نتهمهم بالضعف؟ وإذا كان أدبهم حزيناً باكياً يتخلله المديح والاستهتار فكيف كان يتسنى لهم أدب غيره، وإذا هم تطاولوا في غير عزّة وتفاخروا بغير فخر وضحكوا في غير مرح، أفما كنا نتهم أدبهم بأنه سقيم زائف أو بعبارة أخرى ضعيف مائع؟

ثم أن الضعف السياسي لا يستلزم أن يكون وراءه ضعف في الأدب، بل لقد يكون الضعف السياسي ذاته سبباً قوياً من أسباب قوة الآداب كما يحدث عند انقسام الدول الواسعة كما كان الحال في القرن الرابع، وكما كان الحال عند الإغريق في مدنهم الحكومية وكما كان الحال في النهضة الإيطالية الحديثة.

وليت شعري لم لا يكون بكاء الشعوب على ما يصيبها قوة واستنهاضاً للهمم؟ هزمت فرنسا في حرب السبعين وخرجت ألمانيا متفاخرة بالنصر، فخاطب أحد الأدباء الفرنسيين الألمان الظافرين بقوله (نعم قد انتصرتم علينا ولكن ليس لديكم شاعر يشيد بنصركم كشاعرنا هذا الذي يبكينا على مصابنا) فهل كان بكاء الفرنسيين في ذلك الوقت ضعفا؟ اللهم لا.

وأما ما جاء عن مصعب بن الزبير حين استخفه الطرب وعن استخفاف المنصور به لذلك حتى جعله يتمثل بتلك الأبيات التي أوردها الأستاذ، فأقول أن مصعبا كان متغزلا وأن المنصور كان متفاخرا وشتّان بين الموقفين، فهذا تستملح فيه الرقة واللين وذلك لا يليق فيه إلاّ الصرامة والشدة. وإذا كان في كلام مصعب ضعف فماذا يكون في كلام الرشيد وهو يخاطب جارية بهذا البيت:

أما يكفيك أنك تملكيني ... وأن الناس كلّهم عبيدي؟

وبعد فيعجبني من الأستاذ قوله أن أرقى الأدب في نظره ما أحيا الضمير وزاد حياة الناس

قوة، وهذا في رأيي هو الأدب الوجداني القوي هو ذلك الأدب الذي يرقق القلوب ويستثير الهمم ويطهر النفوس، هو ذلك الأدب الذي يجعل من الشيخ شاباً فتياً، وهو ذلك الأدب الذي يملأ المحاجر بالدموع والقلوب بالشفقة والحنان.

فلسفة سبينوزا

للأستاذ زكي نجيب محمود

لم يكد سبينوزا يبلغ سن الشباب حتى انكب على الفلسفة يدرسها دراسة صادفت في نفسه هوى. فأخذ ينهل من مواردها العذبة ويؤثرها على كل شيء وقد طالع فيم طالع فلسفة برونو فوقعت منه آراؤه موقع الإعجاب وامتلأ ذهنه بما قاله ذلك الفيلسوف من: أن الوجود في جوهره وحدة متجانسة وإن تعددت ظواهرها. إذ نشأت جميعها من أصل واحد ثم اتخذت ألوانا مختلفة لا تغير من جوهر طبيعتها المتجانس.

كذلك أعجبه رأي برونو المذكور القائل بأن الروح والمادة شيء واحد فكل ذرة من ذرات الكون يتحد فيها الجانبان: الروحي والمادي، وعنده أن موضوع الفلسفة هو إدراك تلك الوحدة التي تربط هذه الأشتات المتضاربة في الظاهر فترى الروح في المادة كما تلمس المادة في الروح.

ثم قرأ سبينوزا فلسفة ديكارت قراءة درس وتمحيص، فدعاه إلى التفكير الطويل برأي ديكارت في تقسيم الكون إلى شطرين: شطر مادي متحد في الجوهر على الرغم مما يبدو في الأجسام المادية من إختلاف وشطر روحي متجانس في جوهره كذلك، وهو عبارة عن مجموع القوى العقلية الحالّة في مختلف الأجسام وتدير هذه الشطرين وتشرف عليهما قوة إلهية عليا. . . قرأ سبينوزا ذلك فلم يوافق على شطر الكون واختمرت في نفسه على الفور فكرة وحدة الوجود التي تقول بأن الكون شطر واحد لا يتجزأ، وهذه الفكرة هي المحور الذي تدور حوله فلسفة سبينوزا، وها نحن أولاء نتناولها بالشرح والتحليل.

يقول سبينوزا أن في الكون حقيقة واحدة خالدة، هي عبارة عن قانون عام شامل لا ينقص ولا يزيد. هذه الحقيقة الخالدة، أو هذا القانون الشامل، لا يمكن أن يعبر عن نفسه ويفصح عن حقيقته إلاّ بواسطة الأجسام المادية، فاتخذ من تلك المادة التي تملأ جوانب الكون، قوالب وأشكالا لكي يبرز عن طريقها إلى عالم الواقع المحسوس، وهذه الصور والأشكال

المادية التي تتخذ وسيلة للتعبير عن ذلك القانون الخالد، لا تظل على هيئة خاصة معينة، فهي متغيرة متبدلة أبداً، بل قد تزول وتفنى، ولكن تلك الحقيقة نفسها باقية خالدة لا تفنى ولا تزول، بل لا تنقص ولا تزيد، وهي لا تفتأ تلبس هذا الثوب المادي

وتخلع ذاك إلى أبد الآبدين. ذلك كما تقول أن للدائرة قانوناً لا يتغير، يخضع لناموسه كلما وجد أو يوجد من الدوائر، وإن كانت الدوائر نفسها تمحى وتتجدد، الا أن قانونها يظل باقياً لا يعتريه التبدل أو الفناء. فأجسامنا، وأفكارنا وهذه الأرض التي نعيش عليها، وكلما يحتوي الكون من أشياء، كل ذلك صور مختلفة تستخدم لإبراز الحقيقة الكائنة وراءها، والتي لا يمسها معنى من معاني التغيير والتبديل، إنما القوالب المادية وحدها هي التي تخضع لذلك التبديل والتغيير.

فالطبعة على هذا الأساس مزدوجة الجوانب، فهي فعالة حيوية منشئة من ناحية (قارن في فلسفة برجسون) وهي منفعلة متأثرة منشأة من ناحية أخرى، هذا الجانب المنفعل المتأثر من الطبيعة: هي أجزاؤها المادية، هي هذه الجبال والبحار والمزارع والرياح وما إلى ذلك من الصور المادية التي لا يحدها الحصر، أما الجانب الفعال المنشئ فهي تلك القوة الكامنة وراء هذه الصور المادية، وهي التي خلقتها خلقاوأبدعتها إبداعاً أو بعبارة أوضح هو الله عز وجل. . .

ويقصد سبينوزا بكلمة (الله) ذلك القانون الثابت الذي لا يجوز عليه التغيير أو الفناء، تلك القوة الفعالة التي تنظم الكون وتباشر ترتيب ما يطرأ من أحداث على المادة التي تملأ جوانب الكون.

ولولا تلك القوانين العامة التي يسير بمقتضاها العالم، لتداعى الكون بعضه على بعض، مثل ذلك مثل الجسر (الكوبري)، فهو في حد ذاته كتلة من المادة، ولكنه مشيد على أساس من القوانين الرياضية والميكانيكية، التي وإن تكن مختفية لا تظهر بشكل محسوس، في مادة الجسر، الا أنها كامنة فيه ولو اختل واحد منها انهار البناء على الفور. فالعالم المادي بمثابة ذلك الجسر، والله سبحانه وتعالى من هذا العالم بمثابة تلك القوانين التي لا ترى ولكنها لا تنكر.

وعلى هذا الاعتبار تكون إرادة الله وقوانين الطبيعة شيء واحد، وكل ما يقع من حوادث عبارة عن النتيجة الآلية المحتومة لتلك القوانين الدائمة، أي أنها ليست عبثا ولا فوضى. فهذا العالم تسيره تلك الإرادة العليا، وليس مخيرا في كثير ولا قليل مما يفرض عليه فرضاً، وليس له عن تنفيذه نحيد. والإنسان - ككل جزء آخر من أجزاء العالم - يسير كذلك في هذه الطريق المرسومة، الا أنه قد تبلغ به الأنانية حدا بعيدا فيظن انه المقصود من خلق هذا الكون الفسيح، وأن هذه الطبيعة وما فيها إنما وجدت من أجله ولصالحه، ولكن لا يجوز للفيلسوف بحال من الأحوال أن ينظر إلى العالم هذه النظرة الشخصية الضيقة فواجب أن نجرد أنفسنا من نزعتنا البشرية، حتى يتسنى لنا أن ندرك الكون مستقلا عنا، بعيدا عما تمليه أغراضنا، وأن ندرسه دراسة موضوعية كحقيقة عارية لا تؤثر فيها الميول الإنسانية. فلا ننسب الخير والشر لهذا الشئ أو ذاك لأن الخير والشر نسبيان للبشر، وليس لهما وجود في الواقع، فإذا ما حكما على شيء قي الطبيعة بأنه عبث وشر، أو أنه يثير فينا السخرية فذلك لأننا لا نعرف الأشياء الا معرفة جزئية، ولأننا نريد أن تسير الامور كما نشتهي نحن، وحسب ما تمليه عقولنا، لأننا نجهل أن الكون وحدة لا تتجزأ، فما نحكم عليه بأنه شر ليس في الحقيقة شرا بالنسبة للقوانين التي تسير الطبيعة بمقتضاها، ولكنه شر بالنسبة لطبيعتنا نحن بعد فصلها وانتزاعها من تلك الوحدة الكونية. فالشر والخير أوهام لا تعرفها الحقيقة الخالدة. لا ولا الجمال والقبح لأنهما كذلك أوصاف اصطلح عليها الإنسان. فالشيء الجميل والشيء القبيح هما في نظر القوانين العامة سواء ولا تفضيل لأحدهما على الآخر. هكذا يريد سبينوزا أن نجرد أنفسنا من كل النزعات والميول والأغراض وأن ننظر إلى العالم من وجهة نظر الواقع، لا من وجهة نظرنا نحن. حتى نصدر أحكاما صحيحة. يجب أن ننظر إلى العالم نظرة مجردة كما ننظر إلى المثلث مثلا، فأنت لا تحكم عليه كما يقع في نفسك، فيكون لك فيه رأي ولي فيه رأي آخر، لا بل ننظر إليه بالنسبة إلى القانون العام المجرد الذي يتحكم في جميع المثلثات على السواء فيكون المثلث عندك كما هو عندي وعند أي إنسان. فلننظر إذن إلى هذا العالم من وجهة نظر قوانينه الثابتة الشاملة حتى لا يتغير باختلاف الميول والأشخاص. ويزعم سبينوزا: أن تلك النظرة الشخصية قد أفسدت علينا فهم الله سبحانه وتعالى فهما صحيحا، فأخذنا

ننسب إليه صفاتنا نحن، لماذا؟ لأننا أبصرناه من نافذة نفوسنا، ولم نتجرد لنطل عليه من
جانب الحقيقة والواقع، فنحن مثلا نتصور الله في صورة المذكر دائما، ولا نرضى أن نصبغه بصبغة التأنيث، نقول هو ولا نقول هي، وليس ذلك الا نتيجة لخضوع المرأة لسلطان الرجل، كذلك ننسب إليه كل الصفات التي نراها حسنة كاملة لا من حيث الواقع ولكن من حيث حكم العقل البشري المحدود بميوله وأغراضه. وقد كتب سبينوزا في ذلك إلى أحد معارضيه يقول: (إذا اعترضت عليّ بأنني لا أريد أن أصف الله بالنظر والسمع والملاحظة والإرادة وما إلى ذلك من الصفات. . . فأنت إذن لا تعرف الإله الذي أتصوره وأحسب أنك لا تستطيع أن تتخيل مثلا أعلى من الصفات السالفة الذكر، وإني لا أستغرب منك هذا القصور في الخيال لأنني أعتقد أن المثلث إذا استطاع أن يعبر عن نفسه لقال كذلك أن الله يتميز بصفات المثلث. كما تقول الدائرة أن طبيعة الله دائرية. وهكذا ينسب كل شيء إلى الله من الصفات ما يراها في نفسه)

الله عند سبينوزا هو مجموع الأسباب والقوانين جميعا وقوته هي مجموع القوى العقلية الكامنة في كل أجزاء المادة المنتشرة في الزمان والمكان.

لأن لكل شيء في الوجود جانبا عقليا أي روحيا، كما أن الامتداد، أي الجسم، جانب آخر.

ولكن ما هو العقل وما هي المادة؟ ذهب الخيال الجامح ببعضهم إلى حد القول بان المادة روح كلها وليس الجسم الا محض فكرة، كما جمد الخيال عند بعض آخر إلى حد القول بأن العقل مادة كله، وليست الأفكار الا عمليات جسمية، وذهب فريق ثالث إلى أن العقل والمادة مستقل بعضهما عن بعض الا انهما متوازيان في عملهما أي أن العقل يفكر والجسم يتحرك دون أن يكون بين ذلك التفكير وهذه الحركة علاقة ما. يستعرض سبينوزا هذه الآراء جميعا فيرفضها جميعا، فلا المادة روحية ولا العقل مادي ولا هما مستقلان متوازيان إذ ليس هناك شيئان متميزان: عقل ومادة، حتى نبحث عن العلاقة بينهما بل ثمت شيء واحد فقط وعملية واحدة فحسب لها مظهران أو جانبان، فأنت تراها الآن باطنيا في صورة الفكرة ثم تراها خارجيا في صورة العمل. فالعقل والجسم وحدة لا تتجزأ، وكل أجزاء الوجود لها هاتان الشعبتان الممتزجتان المتحدتان، وبعبارة أخرى المادة التي في الكون والروح التي في الكون شيء واحد ذو وجهين، وبعبارة ثالثة، الطبيعة والله شيء واحد، وإذا كان الأمر كذلك من توحيد العقل والجسم أي أن الروح والمادة وجعلهما شيئا واحدا فلا

اختلاف إذن بين الإرادة والذكاء، ما دامت الإرادة هي عبارة عن نزوع الجسم إلى عمل معين، والذكاء هو القوة الفكرية الخالصة، وها نحن أولاء قد رأينا أن أعمال الجسم وقوة الفكر ليسا إلا ناحيتين من حقيقة واحدة.

الإنسان إذن بعقله وجسمه وحدة لا تقبل التقسيم وعماد وجوده هو الرغبة اللاشعورية في البقاء، فالرغبة اللاشعورية عند سبينوزا هي كنه الإنسان وجوهره (قارن إرادة الحياة عند شوبنهور وإرادة القوة عند نيتشه) وكل الغرائز خطط دبرتها الطبيعة لحفظ الفرد أو النوع، والسرور والألم ينشآن عن إشباع الغرائز أو تعطيلها، فليس السرور والألم سببا لرغباتنا كما يذهب فريق من المفكرين ولكنهما نتيجة لها. نحن لا نرغب في الشيء لأنه يسرنا ولكنه يسرنا لأننا نرغب فيه، ولا بد لنا أن نرغب فيه لأنه يشبع لنا الغرائز التي تمهد لنا سبيل البقاء. ولا بد أن يكون القارئ قد سارعت إليه النتيجة الطبيعية لهذه المقدمات وهي أن ليس ثمت إرادة حرة، وأن الإنسان مجبر على السير في طريق معينة مرسومة ليس له أن يحيد عنها قيد شعرة، لأن ضرورات الحياة تحدد الغرائز والغرائز تملي الرغبات والرغبات تخلق الأفكار والأعمال المعينة.

وقد يتوهم الإنسان انه حر فيما يفكر ويعمل ومنشأ ذلك الظن الخاطئ انه مدرك لرغباته ولكنه يجهل الأسباب التي تسوق إليه الرغبات فيخيل إليه انه إنما تولدت بمحض إرادته، والحقيقة أن هناك من الدوافع الغريزية ما تحتم عليه أن يحقق هذه الرغبة أو تلك رغم أنفه، فهو يدرك النتائج فقط ويجهل الأسباب الدافعة إليها، ويشبه سبينوزا الإنسان في ذلك بقطعة من الحجر الملقى الذي لا بد له من أن يسقط في مكان معين تبعا لقوة الدفعة، فلو فرضنا أن ذلك الحجر الملقى له إدراك كالإنسان

لظن انه إنما يسقط في هذا المكان الخاص وفي هذه الساعة المعينة لأنه يريد ذلك وهذا لأنه يجهل اليد التي دفعته فقسرته على تصرف لا يستطيع أن ينحرف عنه.
وهكذا تخضع أعمال الإنسان لقوانين ثابتة ثبوت القوانين الهندسية ومعنى هذا ان الإنسان جزء لا يتميز من سائر أجزاء الطبيعة بل يندمج فيها ويخضع لناموسها.
الإنسان ظاهرة مادية ككل الظواهر الأخرى يتحكم فيها ذلك القانون الشامل الذي يكمن وراء الكون جميعا ولا ينفصل عنه بل يكون معه كلا لا تنفصم عراه. وقد ضربنا مثلا
بذلك الجسر (الكوبري) وقوانينه الميكانيكية، نحن أجزاء من ذلك التيار الذي يجرف أمامه كل شيء تيار القانون العام والسببية، ولما كان ذلك القانون هو الله فنحن إذن أجزاء من الله تعالى ولو أن الأفراد تفنى بالموت الا أن تلك الحقيقة الخالدة التي تتمثل فينا باقية لا تموت. أجسامنا خلايا في جسم الجنس والأجناس أعضاء من جسم الحياة، وبهذا الدمج - دمج الفرد في الكل. يقول شاعر هندي (اعلم أن روحا واحدا ينظم نفسك في الكل وانبذ الوهم الذي يفصل الأجزاء عن كلها الشامل.)
وباعتبار الإنسان جزء من كل فهو خالد، ذلك لأن القانون الذي يسيره لا يفنى بفنائه كما قدمنا، بل هو أبدي تظهر آثاره في الأفراد بعد الأفراد. فأنت إذا محوت مثلثا مخطوطا على ورقة أمامك فليس معنى ذلك فناء القوانين التي تخضع لها المثلثات لان هذا المثلث المعين الذي محوته لم يكن شخصية منفصلة عن زملائه المثلثات بل هو يضبط الجميع ناموس واحد لا يعتريه التغير والفناء. وقل مثل هذا تماما في أفراد الإنسان. يموت الواحد ويبقى قانونه ممثلا في سائر الأفراد وهذا هو معنى الخلود عند سبينوزا، وهو كما ترى ليس خلود لأفراد بل خلود لقوة وقانون، وذلك يتضمن بالطبع إنكار الثواب في الحياة الآخرة جزاء الفضيلة الدنيوية، وهو يقول في ذلك: (إن هؤلاء الذين ينظرون للفضيلة كأنها عبودية مفروضة عليهم من الله تعالى ولا بد أن يمنحهم الله جزاء على قيامهم بهذا الفرض الثقيل إنما هم أبعد ما يكونون عن فهم الفضيلة على الوجه الصحيح. فالفضيلة أو طاعة الله هي سعادة في نفسها يشعر الإنسان بالطمأنينة والنعيم في أدائها فعلام تنتظر الجزاء؟ انك تكون كرجل أسكنه سيده قصرا فخما وأعد له فيه كل ألوان النعيم فيظل يرتع فيه وينعم ثم هو بعد ذلك ينظر من سيده أجر البقاء في ذلك النعيم!!)
والخلاصة أن الطبيعة تسير بمقتضى قوانين كامنة في صورها كما تكمن قوانين الصوت مثلا في جهاز الراديو، فكما أنك لا تستطيع أن تقول هذا هو الجهاز المادي للراديو وتلك هي قوانينه النظرية منفصلة بل هما شيء واحد لا ينفصل كذلك لا يمكنك أن تقول هذا هو العلم المادي وتلك هي القوة الروحية التي تسيره، لأنهما متصلان في وحدة لا تتجزأ. وبما أن هذه القوانين تسيطر على كل جزء من أجزاء الوجود (والإنسان واحد منها) فالإنسان يسير بمقتضى تلك القوانين الثابتة. ولا يتمتع بذرة من الحرية في تصرفاته.
وهناك جوانب أخرى من فلسفة سبينوزا، فقد كتب رسالة في الأخلاق وأخرى في النظام السياسي وكنا نحب أن نتناولهما بالشرح الموجز لولا ضيق المقام فلعلنا نوفق إلى تحقيق ذلك في مقال آخر.

عمالقة الأشجار

للدكتور محمد بهجت. خريج جامعة كاليفورنيا

لا ريب أن العالم كان مسكونا بكائنات على جانب عظيم من الضخامة فالعلم يخبرنا عن (الداينصور) العظيم الذي يوجد هيكله العظمي الهائل بالمتحف البريطاني مع هياكل أشباهه من عظائم الحيوان وأغواله، وكذلك (العنقاء) أو الطير العظيم أو المسمى (بتروداكتيلس) ولم يكن هذا الأخير طيراً بمعنى الكلمة أو وطواطا بل نوعا من العظايا الهائلة اكتسب خصوصية الطيران.
دبت هذه الحيوانات المرعبة على ظهر الأرض في العهد (الميوسيني) كما يسميه علماء طبقات الأرض أو عهد منتصف الحياة، وذلك من ملايين السنين الخالية!! ويحتمل أنها عاشت قبل الإنسان بكثير.
ويظهر أن هذه الحيوانات انقرضت فجأة بفعل وبتأثير بركان عنيف أباد معظم

المخلوقات، ثم تبع ذلك العصر الجليدي فأتى على آخرها ولم يترك لنا من آثارها الا عظاما نخرة أقامها العلم هياكل هائلة ووقف الإنسان مبهوتا فاغرا فاه. أما في البحار فلا يزال بها من المخلوقات العظيمة ما لم تنقرض كأقربائها الدواب فالحوت الهائل يمخر البحار ويشق عبابها واذكر أنهم اقتنصوا وحشا منه في المحيط الهادئ قرب شاطئ كاليفورنيا الجنوبي منذ سنتين وكان يزن سبعين طنا!!

كذلك كان الحال في المملكة النباتية، كانت لها عمالقتها، كانت هناك أشجار ضخمة تؤلف غابات شاسعة تشمل المناطق الشمالية من أوربا وأمريكا، ولا ريب أنها أظلّت وحمت الكثير من تلك الوحوش، ومن هذه الأشجار شجرة (السيكويا) - ملكة النباتات - التي قاست ولا ريب كل المحن التي ألمت بالكائنات الحية التي عاصرتها ولكنها نجت من دونها وعاشت إلى هذا الوقت تخبرنا في صمت رهيب عن ماض بعيد مليء بالكوارث والخطوب.

وتنتمي شجرة السيكويا إلى العائلة المخروطية أي عائلة الصنوبر ويجد منها نوعان: (سيكويا جايجانتيا) ولا يوجدان في مكان ما على ظهر البسيطة و(سيكويا مبرفيرنس) إلاّ في ولاية كاليفورنيا. فيوجد النوع الأول نامياً على ساحل المحيط في شمال الولاية حيث الطقس بارد صيفا وشتاء وحيث الرطوبة متوفرة طول السنة، وفي منطقة يبلغ طولها 450 ميلا بموازاة الساحل، ويقل تدريجيا كلما ابتعد عن البحر وامتد شرقاً إلى الجبال الساحلية. وأما خشبه فضارب إلى الحمرة ويعرف في مصر بالجوز الأمريكاني الذي يصنع منه الأثاث، وأما النوع الثاني فيوجد بداخل الولاية ومنتصفها في ثلاثة أحراج متقاربة في قمة جبال السييرا على ارتفاع عظيم من سطح البحر. ومن العجب أنه لا توجد أشجار متفرقة من هذا النوع فكأنها خافت على نفسها نوائب الحدثان وخشية الانقراض فتجمعت في هذه الأحراج متقاربة كما تتقارب أفراد القطيع إذا أحسّت خطراً.

وعندما اكتشف النوع الثاني الذي هو أضخم من الأول في سنة 1855، أرسلت منه نماذج إلى إنجلترا فأسماه النباتي لندلي (وللنجتونيا) تمجيداً لأسم الجنرال ولنجتون الذي قهر نابليون والذي كان في ذروة المجد وقمّة الشهرة إذ ذاك، فأخذت الأمريكان النعرة الوطنية إذ عزّ عليهم أن تسمى شجرة أمريكية بإسم رجل إنجليزي فأسموها (واشنطجطونيا) نسبة إلى جورج واشنطن أبى الأمريكيين. وأخيرا قر الرأي على جعل اسمها الجنسي سيكويا نسبة إلى رجل من متوحشي الهنود الحمر سكان أمريكا الأصليين لم يصب مجدا بالفتح وإراقة الدماء، بل بعقلية جبارة وعبقرية نادرة. ينتمي هذا الهندي إلى قبائل (الشيروكي) التي كانت ضاربة في تخوم ولاية جورجيا الجنوبية، تزوج أبوه الأبيض من أمه الهندية ثم لم يلبث أن هجرها فاعتزلت وابنها ركنا في غابة ونشأ نشأة هادئة تغاير نشأة أترابه الهنود الذين يتلقنون فنون الصيد والقنص والحرب وغيرها من أعمال الفروسية في سن مبكرة فكان يساعد أمه على أعمال المنزل أو فلاحة الأرض وقطع الأخشاب، فلما شبّ وترعرع احترف الصياغة ونبغ فيها نبوغا عظيما وذاع صيته ذيوعاً كبيراً ثم وجد أن البيض يغيرون على وطنه ويقتطعون أراضيه ويجلون أهله وعشيرته عن مساقط رؤوسهم فأحزنه ذلك وأخذ يفكر في الأمر وخرج من تفكيره بضرورة مقاومة المدنية بالمدنية.

ولما أدرك بثاقب فكره ان السر في تفوق البيض وتمدينهم ينحصر في مقدرتهم على التفاهم قراءة وكتابة قرر أن يخترع لغة لقومه فنبذ الصياغة وعكف على الدرس في الغاب وأخذ

يكد ذهنه ويحفر في قشور الأشجار إلى أن وصل بعد ثلاث سنين إلى اختراع رموز تمثل كل كلمة أو فكرة في لغة قومه، ولكن هذه تكاثرت لدرجة يصعب على الأذهان استيعابها ففكر مرة أخرى واهتدى أخيرا إلى أن الصوت هو مفتاح اللغة فكدّ واجتهد إلى أن خلق حروفا أبجدية فاستطاع أن يكتب لغة أغنى بمفرداتها من لغاتنا!! بعد ذلك علمها قومه فتهافت عليها صغيرهم وكبيرهم إلى أن حذقوها، ومن ثم تحسنت أحوالهم العمرانية وازدادت ثروتهم وخطوا في سبيل المدنية خطوة واسعة، ولكن جشع الأبيض وظلمه كانا دائبين. فما زال بأراضيهم يغتصبها بقوة السلاح إلى أن تشردت قبائل الشيروكي وتقلصت حدودهم. لم يقف سيكويا عند هذا الحد بل خرج وهو في الثانية والثمانين من عمره في صحبة صبي صغير ليدرس لهجات الهنود المختلفة ويضع بعد

ذلك لغة عامة للهندي الأحمر. فعبر السهول والجبال ولكن مات رفيقه الصبي من مشاق الرحلة فسار وحده ضاربا في الفيافي المقفرة والغابات الموحشة والجبال الشامخة المكسوّة بالجليد، إلى أن وقفه الضعف والإعياء فحطّ رحله قرب حدود المكسيك لآخر مرة. ودفن حيث مات في حفرة عادية، ولم تلبث الذئاب أن نبشت قبره وبعثرت عظامه.

هذا رجل من عظماء العالم قل من يعرفه، حتى قبره امتهن ولم تكن عليه أقل إشارة تدل على عقله الراجح ونفسه العظيمة ولكن العبقرية لا تفنى فقدر لأسمه أن يقترن بهذه الأشجار الخالدة وسوف يخلّد معها إلى أبد الآبدين.

وأشعر بعد طول هذه المقدمة أن أقصر كلامي على حرج واحد من الأحراج الثلاثة، لا لأنه أهمها فقط بل ولأنه أعجبها. . .

حاجة اللغة العربية إلى دراسة الثقافة اليونانية

من محاضرة للمستر اربري أستاذ اللغة والآداب اليونانية

واللاتينية في كلية الآداب

انقضى نحو ألف من السنين والعالم الإسلامي مُولٍ ظهره لليونان وثقافته، ولم يبدأ الاهتمام بهذه الثقافة مرة أخرى إلاّ في الجيل الحديث، وهذه العودة إلى دراسة الآثار اليونانية ليست أقل الظاهرات التي امتازت بها النهضة العلمية والأدبية الجديدة في البلاد الناطقة بالضاد. وقد كان لمصر فضل السبق في هذا الميدان كدأبها في جميع الحركات الهامة.

ونظراً لأن أشعار هوميروس هي أول ثمرة أنتجتها قرائح اليونان، فكان من الملائم جداً أن يكون أول ما ترجم إلى العربية حديثاً من الآثار اليونانية إلياذة هوميروس. وقد بدأ سليمان البستاني ذلك العمل الشاق في عام 1887، واستطاع أن يخرج للناس في سنة 1904 ترجمة عربية كاملة منظومة. ومن الظلم البين أن يحاول الإنسان نقد هذا العمل الجليل أو الحط من شأنه، ماذا يهمنا أن نقرر بأن النظم ليس من مرتبة عالية، أو أن المعنى الأصلي - بل والروح أيضا - لم يدركه المترجم أحيانا؟ حقيقة أنه من سوء حظ المترجم أنه اختار للترجمة ملحمة لكي يظهر فيها مقدرته على النظم، فان اللغة العربية لا يلائمها هذا الضرب من القريض بنوع خاص (كذا) نظراً لما لها من نظام معقد في الوزن والقافية. ولكن على رغم هذا، الأجدر بنا ألاّ نطبّق قواعد النقد الأدبي على تلك الترجمة، بل ننظر إليها كأنها بشير ينبئنا بما يمكن للأدب العربي أن يبلغ إليه بعد.

ولا أظن أن بي حاجة إلى أن أحصي لكم المترجمات الأخرى التي ظهرت في هذا القرن. فكلنا نعلم جهود الأستاذين لطفي السيد بك، والدكتور طه حسين في هذا الباب. فبفضل ما بذلاه من جهود أصبحت اللغة العربية مرة أخرى غنية بما ترجم من آثار الفيلسوفين أفلاطون وأرسطو. وواجب على كل محب لرقي الآداب والعلوم العربية أن يشجع كل عمل من هذا القبيل. ولكني الآن أريد أن أتساءل، ومن المهم جدا أن أتساءل، هل من المستحب ترجمة الآثار اليونانية واللاتينية إلى اللغة العربية في الوقت الحاضر؟ وإذا كان هذا مستحبا، فهل يكتفي بالترجمة عن التراجم التي في اللغات الأوربية الحديثة؟ أم هل من اللازم أن يكون المترجم ملمّا بالأصل اليوناني أو اللاتيني للكتاب الذي يترجمه؟ ولنبدأ

بالرد على السؤال الثاني. فنرى من البديهي أن الترجمة عن ترجمة، شيء لا يكفي ولا يغني، وإذا جاز لنا أن نضرب مثلا فلنتصور كاتباً فرنسياً يريد أن يطلع قومه على جمال الأدب العربي ولكنه بدلاً من المبادرة إلى تعلم العربية يلجأ إلى ترجمة إنجليزية أو ألمانية للكتاب الذي يريد أن ينقله، ثم يكتفي بنقله على هذه الصورة إلى اللغة الفرنسية. فكيف يستطيع مثل هذا الكاتب إذا أراد ترجمة المعلقات مثلا بهذه الطريقة، أن يحتفظ بما فيها من خيال شعري، ونظم البديع؟ أو إذا أراد نقل رسالة من تلك الرسائل الدقيقة المعنى التي ألّفها ابن العربي أو مقالة من مقالات الجاحظ البليغة، فهل يمكن أن تكون ترجمة الترجمة التي يقدمها للقراء، إلاّ بمثابة شبح لشبح؟ ولو أني قابلت رجلا من هذا القبيل لأبديت له إعجابي بحماسه وغيرته، ثم طلبت إليه بكل ما لدي من أدب وحزم أن يبدأ بدراسة العربية خمس سنين ثم ينظر بعد ذلك هل في وسعه أن ينهض بذلك العبء.

فإذا كان لابد من نقل الآثار اليونانية واللاتينية إلى العربية، فليس من شك في أن هذا العمل الخطير يجب أن ينهض به علماء من الناطقين بالضاد، لهم إلمام تام بهاتين اللغتين. وليس من وسيلة أخرى لإتمام ذلك العمل على الوجه الأكمل، بل أني أذهب إلى أبعد من هذا فأقره بأن العمل لا يستحق أن يعمل بأي شكل آخر.

ولكن هل من اللازم القيام بذلك العمل؟ قد يتساءلون: أليست آدابنا وحدها كافية لتثقيف المصري في عصرنا هذا؟ أليس الأولى بمن لغتهم العربية، أن يقصروا دراستهم على الأدب العربي اللهم إلاّ فريق المتخصصين؟ ثم على فرض أنه من المستحب لأسباب كثيرة أن ندرس لغات وأدبيات أجنبية، ألا يكون الأفضل دراسة اللغات الأوربية والآسيوية الحديثة؟ وما دامت اللغتان اليونانية واللاتينية قد ماتتا منذ قرون عديدة، أليس الأولى بنا نحن أن نتركهما في رمسهما؟ وإلاّ فما الفائدة التي تجنيها اللغة العربية والآداب المصرية من دراسة تلك الآثار اليونانية واللاتينية بما لا يمكن الحصول عليه بشكل أكمل وأحسن بدراسة الآداب الحديثة؟

لقد جاء في كتاب (الفلسفة في الإسلام) تأليف دي بوير العبارة الآتية: (إن أجلّ شيء خلقه لنا العقل اليوناني في الفنون وفي الشعر وفي التاريخ، لم تصل إليه أيدي الشرقيين. وكان من الشاق عليهم أن يفهموه لجهلهم حياة الإغريق. فنرى مثلا مؤرخي العرب قادرين على ذكر أمراء اليونان حتى كيلوباترا، وكذا قياصرة الروم. ولكنهم كانوا يجهلون المؤرخ تيو سيديد، ولا يعرفون اسمه. أما هوميروس فلم ينقلوا عنه غير جملة واحدة وهي: (لا يكون الحكم إلاّ لواحد).

ولم يكن لهم أدنى دراية بالشعراء والروائيين من الإغريق. ولكن مثل هذا الحكم ليس عادلا تماما. حقيقة لم يكن للمسلمين الأولين إطلاع على القسم الأعظم من أدب اليونان. ولم يكن لهم علم بحياة الإغريق، ولم يهتموا بمعرفتها، ولكن لو أن المصادفة ساقت إليهم هذه الآثار المجيدة، أكان يتعذر عليهم أن يتذوقوها ويقدروها حق قدرها. أليس الأرجح أن شعبا متوقد الذكاء، شديد الإحساس بالجمال، مثل الشعب العربي هو أقدر الناس على تقدير محاسن الأدب اليوناني، كما أمكنه أن يقدر ويفهم دقائق الفلسفة اليونانية؟ ولكن ظروفاً سيئة حالت بين العرب والأدب اليوناني. ففي وقت نشأة الإسلام كانت الدولة البيزنطية يغشاها ظلام. وأشد العصور التي مرّت بها حلكة وظلاما هي المدة ما بين 641 و 850. ويحدثنا عن الحالة في أول هذه الفترة فيقول في كتابه عن تاريخ الدراسات اليونانية واللاتينية: أن القيصر ليو الثالث الذي استطاع أن يرد إغارة العرب على القسطنطينية. وأن يعيد تنظيم الإمبراطورية سواء من الناحية الحربية أو المدنية. لم يصنع مع هذا كله شيئا لتشجيع العلوم. بل لقد حرم معهد العلوم الإمبراطوري من ممتلكاته بالقرى من أيا صوفيا. وطرد رئيس المعهد ومعه إثنا عشر معلما كانوا يتولون مع نيوريس الفنون والفقه. وكذلك يروي بعض المؤرخين انه أمر بإحراق مكتبة المعهد، وبها نحو ثلاثة وثلاثين ألفاً من المجلدات في موضوعات دينية وغير دينية، ولئن كانت هذه حالة دولة اليونان في هذا العصر أي في العصر الذي اتسع فيه نفوذ الثقافة اليونانية في البلاد العربية، فكيف ترجو أن يعنى العرب بدراسة الآداب اليونانية واللاتينية؟ أما الفلسفة والعلوم المفيدة فقد كان لها عندهم المكان الأول، نظرا للظروف الخاصة التي دعت للاهتمام بهما: إذ كانت الفلسفة عندنا على الجدل الديني، والعلوم النافعة مثل الطب والهندسة، من بواعث الراحة المادية للإنسان. وكذلك يجب ألاّ تنسى أن العرب كان لهم أدب زاهر لا مراء في أنه من الرقي بمكان عظيم. وكأنما وجد الناس في القصائد الجاهلية وفي المدائح والمراثي والمنظومات المختلفة التي تغنى بها الشعراء الأمويون والعباسيون، وجد الناس في هذا كله بغيتهم من الخدمة الأدبية. أما النثر فانه من بعد تلك المعجزة الأبدية: (القرآن) قد جعل يرتقي حتى بلغ في أيدي كبار الأساتذة أمثال الجاحظ والحريري والهمذاني على مرتبة عالية من الكمال. وبهذه الصورة نما للعرب أدب خاص ممتاز وأصبح تراثا عظيما آل اليوم إلى البلاد الإسلامية.

ولكني وإن علمت ما امتاز به هذا التراث من عظمة واتساع ورقي. فإني على ذلك لا أتردد في أن اقرر بأن الذكاء العربي قادر بعد على إنتاج ثمرة لا تقل عن تلك المنتجات. بل لقد تفوقها وأنا زعيم بأن بلوغ تلك الغاية على أكمل وجه إنما يكون

بدراسة آداب اليونان والرومان.
إن جميع الآداب الأوربية الحديثة مدينة دينا لا يمكن حصره للآداب اليونانية واللاتينية، وحسبنا أن نذكر تلك الحقائق المألوفة عن عصر النهضة في غرب أوربا وكيف أن استكشاف الآداب اليونانية من جديد - على أثر استيلاء الأتراك على الأستانة وانتشار العلماء والأسفار اليونانية في أوربا - كان باعثا لحياة جديدة في ميدان العلم والأدب، ووسيلة لغرس بذور الآداب القومية في كل بلد من البلاد الأوربية. . . .
في الوقت الحاضر نرى الآداب الأوربية الحديثة تدرس بحماس وبتقدير يبعثان على الإعجاب. وحاشاي أن أحاول الغض من هذا الحماس والنشاط. بل أني لأرى في المقالات التي كتبها المنفلوطي ومدرسته والكتّاب المعاصرون أمثال العقاد ومنصور فهمي وسلامة موسى وغيرهم من أعضاء ذلك الرهط النابغ من الكتّاب بعثاً جديداً في الأدب العربي. وخصوصا وفوق كل شيء نرى تلك النهضة في نبوغ شوقي الذي لا يضارع إعجابنا به إلاّ حزننا على فقده. وفي تلك الروايات التمثيلية التي أثمرها فكره الناضج الجميل.
ولكن إذا ما ذهبنا لرؤية رواية من رواياته تمثل في أحد المسارح فلنذكر أن الفن التمثيلي إنما ولد في بلاد اليونان، وإن ما خلفه الإغريق من القطع التمثيلية التي هي للعالم ذخر يعتز به ويحرص عليه، منذ خمسة وعشرين قرنا، لأنها هي أكمل وأبدع الروايات التمثيلية التي أنتجها الفكر البشري. لنذكر ونحن نقرأ روايات شكسبير وكورني وجوتيه، انه لولا اليونان لما كانت تلك الآثار وكذلك فنون الأدب الأخرى، فان مرجعنا فيها إلى أدب اليونان والرومان، الذي هو المنبع والمرجع لكل من آداب الأمم العربية. والآن يحق لنا أن نتساءل هل يجوز أن تستبعد الآثار اليونانية من النهضة الجديدة التي يعيش في ظلها كل مصري
في وقتنا هذا سواء أدرك ذلك أم لم يدركه، وسواء رغب في ذلك أم رغب عنه؟ ومن ذا الذي تبلغ به الجرأة على أن ينادي بالاكتفاء بالأدب الأوربي عن الأدب اليوناني، والاستغناء عن المثال اكتفاء بالقياس؟
قال الأستاذ جيب في كتاب (تراث الإسلام) مقارنا بين أدب اليونان والعرب؟: (من أهم مميزات الأدب العربي والفارسي أنه عاطفي وأن الطالب الذي نشأ على حب المثل اليونانية في الأدب لن يجد في أدب العرب والفرس تلك الصفات التي امتاز بها أدب اليونان والتي هي السر في قوته الساحرة الباقية على مدى الزمان، وبرغم ما فيه من قوة الصياغة التي قد يفوق فيها قوة الصياغة في أدب اليونان، فإن فيه جمودا وفي أدب اليونان تنوعا، وفيه إغراق ومبالغة وفي أدب اليونان شدة ووقار، وقد بلغ الكتّاب اليونان واللاتين ما بلغوه من العظمة بتوخي البساطة والسهولة وعدم الاندفاع. بينما الكاتب الشرقي ينسج آياته فيملأها بالبديع الغامض من اللفظ، ويلتمس لها الاستعارات والكنايات البعيدة الخلاّبة. واليوناني يؤثر في الفكر بواسطة الجمال الخالص. أما العربي أو الفارسي فيؤثر في الحاسة أو في الخيال بما يأتي به من الألوان الساحرة).
والآن أليس من المحتمل أن قد يتاح لأبناء مصر أن يوفقوا بين المثل الأدبية العربية واليونانية؟ أليس ممكنا أن تعليما يتناول دراسة الأدبين العربي واليوناني في آن واحد، قد يأتي بنتائج لا يحلم بها أحد، ويوجد في الأدب العربي ثروة جديدة، إذ يكون سببا في خلق مسرح قومي وأناشيد وقصائد وتاريخا ونقدا أدبيا، وهذا كله يجمع مزايا كل من الأدبين ويفوق كلا منها؟ فهل يكون أملاً بعيداً أن نرجو أن الجامعة المصرية قد تصبح يوما ما ذات شهرة عظيمة في أمور كثيرة، ومنها أنها المعهد الذي يساعد على إيجاد مثل ذلك الأدب؟
في القرن الثالث الهجري، كتب الجاحظ وهو بالبصرة: (إننا لو لم تكن لدينا كتب الأوائل التي خلّدوا فيها حكمتهم وعلمهم والتي ذكروا فيها تاريخهم وأعمالهم حتى نكاد أن نراهم بأعيننا. ولو لم تكن عندنا ثروة تجاريهم، لكان حظنا من الحكمة والعلم صغيرا ضئيلا). هكذا كتب الجاحظ وما كان نصيبه من حكمة القدماء إلاّ نزرا يسيرا.
فهل نكون نحن أقل اعترافاً منه بالجميل مع أن نصيبنا أكبر وأوفر؟
بلاط الشهداء بعد ألف ومائتي عام
للأستاذ محمد عبد الله عنان
في أواخر أكتوبر من العام الماضي، كان قد انقضى ألف ومائة عام كاملة على حادث

كان له أعظم الآثار وأبعدها في تاريخ الإسلام والنصرانية، بل كان كلمة الفصل الحاسمة في مصاير الإسلام والنصرانية.

هذا الحادث الجلل، هو موقعة بلاط الشهداء التي تعرف في التواريخ الإفرنجية بموقعة (توراوبواتييه)، والتي نشبت بين العرب والإفرنج في سهول فرنسا على ضفاف اللوار في أوكتوبر سنة 732.

وقد مضى على بلاط الشهداء ألف ومائة عام، وتغير وجه التاريخ، ومحيت آثار الإسلام من غرب أوربا ومن الأندلس منذ نحو أربعة قرون. ومع ذلك فإن ذكريات بلاط الشهداء ما زالت حيّة في الغرب، وما زالت وقائعها وآثارها التاريخية موضع التقدير والتأمل من جانب المؤرخ الغربي. وكان انقضاء الألف ومائتي عام على حدوثها، ذكرى جديدة نظمت من أجلها الاحتفالات في فرنسا، وكانت مثار تأملات وتعليقات جديدة، تدور كلها حول الصيحة التاريخية القديمة: لو لم يرد العرب والإسلام في سهول تور، لما كانت ثمة أوربا نصرانية، بل لعلّه ما بقيت نصرانية على الإطلاق، ولكان الإسلام اليوم يسود أوربا، وكانت أوربا الشمالية تموج اليوم بأبناء الشعوب السامية ذوي العيون الدعج والشعور السود، بدلاً من أبناء الشعوب الآرية ذوي الشقرة والعيون الزرق.

وهذا الحادث الجلل، وهذه الذكريات والتأملات التي آثارها وما زال يثيرها، هي موضوعنا في هذا الفصل. وسنعنى بشرح مقدماته وتفاصيله على ضوء أوثق المصادر العربية والغربية، وسيرى القارئ بعد إذ يتلو هذه التفاصيل، أن التاريخ الإسلامي كله قد لا يقدم إلينا حادثا له من الخطورة والأهمية وبعد الأثر ما لموقعة بلاط الشهداء.

افتتح العرب إسبانيا، وغنموا ملك القوط في سنة 97 - 98هـ (711 - 712) م - 1 - على يد الفاتحين العظيمين طارق بن زياد وموسى بن نصير، في عهد الوليد بن عبد الملك، وأضحت أسبانيا من ذلك التاريخ كمصر وأفريقية ولاية من ولايات الخلافة الأموية، وتعاقب عليها الولاة من قبل الخليفة الأموي، ينظمون شؤونها، ويدفعون الغزوات الإسلامية

إلى ما وراء جبال البرنيه (البرت أو الممرات) في غاله (جنوب فرنسا)، فلم تمض عشرون عاما على افتتاح الأندلس حتى استطاع العرب أن يجتاحوا ولايات فرنسا الجنوبية، وأن يبسطوا سلطانهم على سهول الرون وأن يتقدموا بعيدا في قلب فرنسا.

ولكن إسبانيا المسلمة على حداثة عهدها لم تلبث أن اضطرمت بالفتن والمنازعات الداخلية، ولم تلبث النصرانية أن أفاقت من دهشتها الأولى، وتأهبت للنضال والمقاومة، ولقي العرب بعد ثورة الظفر التي اجتاحت جنوب فرنسا، هزيمتهم الأولى في موقعة تولوشة (تولوز) في ذي الحجة سنة 102هـ (يونيه سنة722 م) وقتل أميرهم وقائدهم السمح بن مالك، فارتدوا إلى سبتمانيه بعد أن فقدوا زهرة جندهم وسقط منهم عدة من الزعماء الأكابر.

وقطعت الأندلس بعد ذلك زهاء عشرة أعوام من الاضطراب والفوضى، وخبت ثورة الفتح، وشغل الولاة بالشؤون والمنازعات الداخلية، حتى عيّن عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي واليا للأندلس في صفر سنة 113هـ (أبريل سنة 731م).

ولسنا نعرف كثيراً عن سيرة الغافقي الأولى، ولكنا نعرف أنه من التابعين الذين دخلوا إلى الأندلس، ثم نراه بعد ذلك من زعماء اليمانية وكبار الجند ونراه في سنة 102هـ، على أثر موقعة تولوشه ومقتل السمح بن مالك، يتولّى قيادة الجيش وإمارة الأندلس باختيار الزعماء والقادة مدى أشهر، ثم لا نسمع عنه بعد ذلك، حتى يولّى إمارة الأندلس للمرة الثانية من قبل الخليفة سنة 113هـ. على الذي لا ريب فيه هو أن عبد الرحمن الغافقي كان جنديا عظيما ظهرت مواهبه الحربية في غزوات غاليا، وحاكما قديراً، بارعاً في شؤون الحكم والإدارة، ومصلحا مستنيراً يضطرم رغبة في الإصلاح، بل كان بلا ريب أعظم ولاة الأندلس وأقدرهم جميعا. وتجمع الرواية الإسلامية على تقديره والتنويه برفيع خلاله، والإشادة بعدله وحلمه وتقواه، فرحبت الأندلس قاطبة بتعيينه، وأحبه الجند لعدله ورفقه ولينه، وجمعت هيبته كلمة القبائل، فتراضت مضر وحمير، وساد الوئام نوعا في الإدارة والجيش، واستقبلت الأندلس عهدا جديدا.

وبدأ عبد الرحمن ولايته بزيارة الأقاليم المختلفة فنظم شؤونها وعهد بإدارتها إلى ذوي الكفاية والعدل، وقمع ألفتن والمظالم ما استطاع، ورد إلى النصارى كنائسهم

وأملاكهم المغصوبة، وعدّل نظام الضرائب وفرضها على الجميع بالعدل والمساواة، وقضى صدر
ولايته في إصلاح الإدارة وتدارك ما سرى إليها في عهد أسلافه من عوامل الاضطراب والخلل، وعني بإصلاح الجيش وتنظيمه عناية خاصة فحشّد من الصفوف من مختلف الولايات وأنشأ فرقا جديدة مختارة من فرسان البربر بإشراف نخبة من الضبّاط العرب وحصّن القواعد والثغور الشمالية وتأهب لإخماد كل نزعة إلى الخروج والثورة.
وكانت الثورة توشك أن تنقض في الواقع في الشمال، وبطلها في تلك المرّة زعيم مسلم هو عثمان بن أبي نسعة الخثعمي حاكم الولايات الشمالية. وكان ابن أبي نسعة (أو منوزا أو مونز كما يسميه الإفرنج) من زعماء البربر الذين دخلوا الأندلس عند الفتح مع طارق. وقد عيّن واليا للأندلس قبل ذلك بثلاثة أعوام ولم يطل أمد ولايته، ثم عيّن حاكما للولايات البرنيه وسبتمانيه. وقد كان الخلاف يضطرم منذ الفتح بين العرب والبربر. وكان البربر يحقدون على العرب إذ يرون أنهم قاموا بمعظم أعباء الفتح واستأثر العرب دونهم بالمغانم الكبيرة ومناصب الرئاسة. وكان ابن أبي نسعة كثير الأطماع شديد التعصب لبني جنسه وكان يؤمل أن يعود إلى ولاية الأندلس ولكن عبد الرحمن فاز بها دونه فزاد ذلك في حقده وسخطه وأخذ يترقب الفرص للخروج والثورة.
إلى الدكتور هيكل
بإذن الدكتور طه
عزيزي هيكل
حوار ناعم صاغته أناملكما القديرة. وحجاج ذو غمزات تواثبت فيه من كل جهة مع يراعاة الربيع، مهبات الصبا ونفحات النرجس.
إن ما نثرتماه على طريق القرّاء أشبه (بأقاحي الخميلة وحريرها) ولكني لهذا خفت أن يكون ما بين طيات النرجس وتحت الحرير نفاثة طائشة، من حشرة ساهية تضرب ما بين الدعاب البريء، فتصيب من غيركما مقتلا للهوى أو ميلا وليداً للفن.
بل خفت على رغم ما صرّحت به، أن تعود فتعتصم من الغلط. اغلط يا صديقي هيكل، بل يا صديق قرّائك، إذ لا معرفة بيني وبينك إلاّ ما بلغني من فيض قلمك. اغلط وأكثر من الغلط الموهوم. وكسر من هذه القيود التي كسر بعضها من قبلك طه. كسرها لنفسك ولنا. كما كسرها لنا وله. وأعلن، أعلن عن جهدك، عن كتبك، فاسمك للقرّاء شعر موسيقي يتهلل له الضمير المسجون. أعلن لنعرف نحن، قريبين أو بعيدين، أن منّا رجال العمل والتفكير. أسمك مجد لقارئيك وللعربية. كلاّ! لست بذلك أمريكيا، فأرباب القلم أجمعوا أن يكون لهم جمعيات ومجلات ومشروعات عدّة لمجرد الإعلان الأدبي في أقطار العالم المتمدن.
أسلوبك شائق، عباراتك كصفوف جيش أعدت للهجوم. أفكارك تلتهب ما بينها التهاب القنابل: هذا جيشان نفسك المزدحم! أكثر من شخصيتك، أسكب نفسك كأنوار الشمس، يتلذذ بالحياة العلمية والوطنية فيها من يقرؤك.
إن أغلاط أكابر الكتّاب هي صك تحرير النشىء الصاعد.
بيروت. حبيب شماس
والرسالة تسأل السياسة
أهذا الكتاب الرقيق على ما فيه خير أم ذلك الخزي الذي نشرته يوم الاثنين فأهانت بنشره اللغة والأدب والذوق والعراق؟!
بنت فرعون تحب
للأديب حسين شوقي
الأميرة (تتي) تعسة جدا لأنها تحب ولكن حبها مستحيل لأنه بشري. . يا للكفر! بنت الفراعنة، بنت الآلهة تحب رجلا فانيا؟ حقا إنه لخطب جلل! ماذا تفعل الأميرة في حيرتها واضطرابها الوجداني؟ ستطلع الملكة على سرها علّها تعينها في الخطب فهي أمها ذات الصدر الحنون، برغم ما يزعمه الناس في أن تلك الأم من منبت ربّاني، وبرغم ما يحيطونها به من مظاهر العبادة والتقديس. ذهبت الأميرة إلى الملكة فأطلعتها على جلية الأمر. . . فحزنت الملكة من أجل ذلك حزنا شديدا، لعلمها بأن أبنتها لن تحقق حلمها اللذيذ، وقد كان لها هي أيضا في صباها مثل هذا الحادث ولم

يشفها منه إلا سيل من الدموع. . الملكة في حيرة من أمرها لأن حب تتي ليس حبا زائلا كما توهمت أول وهلة بل هو حب مرضي في درجته الثالثة. . والأميرة آخذة في الذبول، على أن شحوب وجهها قد زادها رونقا وجمالا،. . أتطلع الملكة بدورها فرعون على الأمر؟ كلا! لا فائدة من ذلك لأن فرعون ليس بشرياً وإنما هو إله عابس نحت قلبه من صوان نوبيا الأصم. . ولو عرف السر لقضى على العاشق وهو فتى إغريقي في جيشه. .

هدأت الملكة من روع (تتي)، ولكن من إذن يخرج الملكة من حيرتها؟ الكاهن الأكبر؟ أجل! هو صديقها وهو رجل قادر مهيب مقرّب كما يزعم الناس من الآلهة متصل بهم اتصالا وثيقا. . أطلعت الملكة الكاهن على السر، ولكن ماذا يعمل الكاهن! الكاهن يحك صلعته حيرة، لأن الحب كما يعلم شيطان متعب لا يعبأ بالرقي والتعاويذ، بل يسخر من الآلهة والناس على السواء!.

قال الكاهن بعد أن عصر قريحته: حسنا يا مولاتي سنقيم تمثالا لآمون الرب الأكبر في حجرة الأميرة عساه يطرد ذلك الجني الخبيث الذي اختبأ في قلب الفتاة. . ثم مرت الأيام والتمثال لا يأتي بمعجزة، إلاّ أنه زاد في زينة الحجرة لأنه كان جميل المنظر صنع كله من الذهب الخالص. . أمّا العاشق واسمه بالاس وهو من منبت إغريقي كما قدمنا فقد كاد يجن من هذه الخرافات، فضلا عن أنه كان يحب الأميرة حبا جمّا، تلك الفتاة التي كان يدعوها بحق: الظبية الأفريقية. .

ولكن ماذا يفعل بالاس في قوم يشركون الآلهة في كل شأن من شؤون الحياة؟ التقى بالاس ذات ليلة بالأميرة تحت شجرة الجميز الكبرى القائمة في إحدى زوايا القصر، حيث اعتاد الفتى والفتاة أن يتناجيا بلغة كوبيدون الشجية، كلما سنحت لهما الفرصة، فقال بالاس: أميرتي! هيا نهجر هذا البلد الذي حرّم الحب تحت سمائه، حيث يسعد القط والضفدع فيؤلهان ويقدسان، بينما يشقى البشر. . لنذهب إلى يونان الجميلة. . فأجابت تتي في حماسة: ما أعظم شوقي إلى رؤية وطنك المحبوب ذي الجبال الشاهقة التي يرتقى منها الناس إلى مقر الآلهة في الأولمب!!.

ولكن عادت تتي فقطبت حاجبيها قائلة: ولكني أخشى غضب الآلهة وسخطهم علينا يا بالاس! فصاح بالاس: كلا يا حبيبتي لا تخشي شيئا لأن الحب الذي يحرك قلبينا: ما هو الا هبة من نفس أولئك الآلهة. أعد بالاس بعد تلك المقابلة زورقاً وجهزه بالزاد لرحلة طويلة، وفي ليلة ظلماء حمل بالاس الأميرة إلى الزورق نازلا في النيل إلى البحر الأبيض، ولم ينس أن يحمل معه أيضا التمثال الذهبي الذي وضع في حجرة تتي لشفائها من الحب، ولما سألته الأميرة في دهشة عن سبب حمله للتمثال كذلك، أجابها مبتسما: هذا. . . مهرك يا حبيبتي!

كرمة بن هانئ. حسين شوقي

في الأدب العربي

عكاظ والمربد

للأستاذ أحمد أمين

من أبعد الأماكن أثراً في الحياة العربية عكاظ والمربد، وقد كان أثرهما كبيرا من نواح متعددة: من الناحية الاقتصادية ومن الناحية الاجتماعية ومن الناحية الأدبية، ودراستهما تضئ لنا أشياء كثيرة في تاريخ العرب.

ولكن يظهر لي أنه لم يعن بهما العناية اللائقة، فلا نرى فيما بين أيدينا الا كلمات قليلة منثورة في الكتب يصعب على الباحث أن يصور منها صورة تامة أو شبهها، ومع هذا فسنبدأ في هذه الكلمة بشيء من المحاولة في توضيح أثرهما وخاصة من الناحية الأدبية.

عكاظ

في الجنوب الشرقي من مكة وعلى بعد نحو عشرة أميال من الطائف ونحو ثلاثين ميلا من مكة، مكان منبسط في واد فسيح به نخل وبه ماء وبه صخور، يسمى هذا المكان (عكاظ)، وكانت تقام به سوق سنوية تسمى سوق عكاظ، وقد اختلف اللغويون في اشتقاق الكلمة فقال بعضهم: اشتقت من (تعكظ القوم) إذا تحبسوا لينظروا في أمورهم، وقال غيرهم سميت عكاظا لأن العرب كانت تجتمع فيها فيعكظ بعضهم بعضا بالمفاخرة أي يعركه ويقهره، كما اختلفت القبائل في صرفها وعدم صرفها،

فالحجازيون يصرفونها وتميم لا تصرفها، وعلى اللغتين ورد الشعر:
قال دريد ابن الصمة: (تغيبت عن يومي عكاظ كليهما)
وقال أبو ذؤيب:
إذا بُنى القباب على عكاظ ... وقام البيع واجتمع الألوف
وكان للعرب أسواق كثيرة محلية كسوق صنعاء، وسوق حضرموت وسوق صحار وسوق الشحر، انما يجتمع فيها - غالبا - أهلها وأقرب الناس إليها. وبجانب هذه الأسواق الخاصة أسواق عامة لقبائل العرب جميعا، أهمها: سوق عكاظ، وسبب عمومها وأهميتها على ما يظهر:
(1) أن موعد انعقادها كان قبيل الحج، وهي قريبة من مكة وبها الكعبة، فمن أراد الحج من جميع قبائل العرب سهل عليه أن يجمع بين الغرض التجاري والاجتماعي بغشيانهم عكاظ قبل الحج، وبين الغرض الديني بالحج.
(2) أن موسم السوق كان في شهر من الأشهر الحرم - على قول أكثر المؤرخين، والعرب كانت في (الشهر الحرام) لا تقرع الأسنة، فيلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه فيه فلا يهيجه تعظيما له، وتسمى مضر الشهر الحرام بالأصم لسكون أصوات السلاح فيه، وفي انعقاد السوق في الشهر الحرام مزية واضحة، وهي أن يأمن التجار فيه على أرواحهم، وإن كانوا أحيانا قد انتهكوا حرمة الشهر الحرام فاقتتلوا كالذي روي في الأخبار عن حروب الفجار كما سيجيء، ولكن على العموم كان القتل في هذا الشهر مستهجنا، قال ابن هشام: إني آت قريشا فقال: إن البراض قد قتل عروة وهم في الشهر الحرام بعكاظ، الخ وقد قال ذلك استعظاما لقتله.
(فكان يأتي عكاظ قريش وهوازن وغطفان والأحابيش وطوائف من أفناء العرب) وكانت كل قبيلة تنزل في مكان خاص من السوق، ففي الخبر أن رسول الله ذهب مع عمه العباس إلى عكاظ ليريه العباس منازل الأحياء فيها، ويروى كذلك أن رسول الله جاء كندة في منازلهم بعكاظ بل كان يشترك في سوق عكاظ اليمنيون والحيريون. يقول المرزوقي: كان في عكاظ أشياء ليست في أسواق العرب، كان الملك من ملوك اليمن يبعث بالسيف الجيد والحلة الحسنة والمركوب الفاره فيقف بها وينادي عليه ليأخذه أعز العرب، يراد بذلك معرفة الشريف والسيد فيأمره بالوفادة عليه ويحسن صلته وجائزته ويروي ابن الأثير عن أبي عبيدة (ان النعمان ابن المنذر لما ملكه كسرى ابرويز على الحيرة كان النعمان يجهز كل عام لطيمة - وهي التجارة - لتباع بعكاظ). فترى من هذا أن بلاد العرب من أقصاها إلى أقصاها كانت تشترك في هذه السوق. واختلفت الأقوال في موعد انعقادها، وأكثرها على أنه كان في ذي القعدة من أوله إلى عشرين منه، أو من نصفه إلى آخره، قال الأزرقي في تاريخ مكة.
فإذا كان الحج. . . خرج الناس إلى مواسمهم فيصبحون بعكاظ يوم هلال ذي القعدة) فيقيمون به عشرين ليلة تقوم فيها أسواقهم بعكاظ، والناس على مداعيهم ورواياتهم منحازين
في المنازل تضبط كل قبيلة أشرافها وقادتها، ويدخل بعضهم في بعض للبيع والشراء، ويجتمعون في بطن السوق، فإذا مضت العشرون انصرفوا إلى مجنة فأقاموا بها عشرا، أسواقهم قائمة، فإذا رأوا هلال ذي الحجة انصرفوا إلى ذي المجاز ثم إلى عرفة؛ وكانت قريش وغيرها من العرب تقول لا تحضروا سوق عكاظ والمجنة وذا المجاز الا محرمين بالحج، وكانوا يعظمون أن يأتوا شيئا من المحارم أو يعدو بعضهم على بعض في الأشهر الحرم وفي الحرم.)
وظيفته: كانت سوق عكاظ تقوم بوظائف شتى فهي (أول كل شيء) متجر تعرض فيه السلع على اختلاف أنواعها، يعرض فيه الأدم والحرير والوكاء والحذاء والبرود من العصب والوشى والمسير والعدة ويباع به الرقيق ويعرض فيه كل سلعة عزيزة وغير عزيزة، فما يهديه الملوك يباع بسوق عكاظ ويتقاتل ابن الخمس مع الحارث بن ظالم فيقتله ابن الخمس ويأخذ سيف الحارث يعرضه للبيع في عكاظ، وعبلة بنت عبيد بن خالد يبعثها زوجها بأنحاء سمن تبيعها له بعكاظ.
ونسبوا إلى عكاظ فقالوا: أديم عكاظي أي مما يباع في عكاظ. ولم تكن العروض التي تعرض في سوق عكاظ قاصرة على منتجات جزيرة العرب، فالنعمان يبعث إلى سوق عكاظ بمتجر من حاصلات الحيرة وفارس لتباع بها ويشتري بثمنها حاصلات أخرى، بل

كان يباع في عكاظ سلع من مصر والشام والعراق، فيروي المرزوقي أنه قبل المبعث بخمس سنين حضر السوق من نزار واليمن ما لم يروا أنه حضر مثله في سائر السنين، فباع الناس ما كان معهم من إبل وبقر ونقد وابتاعوا أمتعة مصر والشام والعراق. وكانت السوق تقوم بأعمال مختلفة اجتماعية، فمن كانت له خصومة عظيمة انتظر موسم عكاظ (كانوا إذا غدر الرجل أو جنى جناية عظيمة انطلق أحدهم حتى يرفع له راية غدر بعكاظ فيقوم رجل فيخطب بذلك الغدر فيقول: ألا أن فلان ابن فلان غدر فاعرفوا وجهه، ولا تصاهروه ولا تجالسوه ولا تسمعوا منه قولا، فان اعتب وإلا جعل له مثل مثاله في رمح فنصب بعكاظ فلعن ورجم.) وهو قول الشماخ:

ذعرت به القطا ونفيت عنه ... مقام الذئب كالرجل اللعين

ومن كان له دين على آخر أنظره إلى عكاظ، ومن كان له حاجة أستصرخ القبائل بعكاظ

كالذي حكى الأصفهاني أن رجلاً من هوازن أسر فاستغاث أخوه بقوم فلم يغيثوه فركب إلى موسم عكاظ وأتى منازل مُذْحَجٍّ يستصرخهم. وكثيراً ما تتخذ السوق وسيلة للخطبة والزواج فيروي الأغاني أنه اجتمع يزيد بن عبد المدان وعامر بن الطفيل بموسم عكاظ، وقدم أميّة بن الأسكر الكناني وتبعته ابنة له من أجمل أهل زمانها فخطبها يزيد وعامر فتردد أبو هاشم، ففخر كل منهما بقومه وعدد أفعاله في قصائد ذكرها.

ومن كان صعلوكا فاجرا خلعته قبيلته (إن شاءت) بسوق عكاظ وتبرأت منه ومن فعاله كالذي فعلت خزاعة: خلعت قيس بن منقذ بسوق عكاظ أشهدت على نفسها بخلعها إياه وأنها لا تحتمل له جريرة ولا تطالب بجريرة يجرها أحد عليه.

من طرائف الشعر

كليوبطرة تناجي القصر

قطعة نظمها شاعر الخلود شوقي بك في رواية كليوبطرة ثم بدا له فأسقطها منها فلم تنشر.

أيها القصر أتَرْعى عهدنا ... وتفي أن عز في الناس الوفى؟
لا تضع عندك أسرار الهوى ... واختزنها في الزوايا والحني
واتخذ ختماً على أشيائه ... إن أشياء الهوى كنز سنى
ذكريات كلما حركتها ... ضاع من جدرانك المسك الزكي
قُبَل: لم يحصها إلاّ الهوى ... طِبنَ بالصبح وطيّبن العشى
يجد الجسم لها همساً كما ... خفق السنبل أو رن الحلى
وعناق كالجفون اشتبكت ... والغصين التف باللدن الطري
أيها القصر انقضى عرس الهوى ... وطوى الأصباح ليل الأنس طي
وقديماً في الليالي لم تدم ... بهجة العرس ولم يبق الدوى

القرآن والتعليم

عرض مشروع التعليم الإلزامي على مجلس الشيوخ فاقترح الأستاذ حسين والي حفظ القرآن لتلاميذ التعليم الأولى. فهز ذلك من صديقنا الهراوي فبعث إلى الرسالة بهذه الأبيات:

قل (لوالي) عُوذت بالقرآن ... هل درى نبل قصدك المجلسان؟
وقفةٌ منك للكتاب والدي ... ن تولى تسجيلها الملكان
ليت شعري والخُلق في الناس فوضى ... هل له وازع سوى القرآن؟
نحن في أمة تداركها الل ... هـ بلطف ورحمة وحنان
خدَعتها حضارة الغرب حتى ... كان منها عداوة الإيمان
فانبرت للفسوق والنكر والبغ ... ي جميعا والإثم والعدوان
فإذا لم يكن من الدين حصن ... تتمادى في الغي والعصيان
إنّ هذا القرآن يهدي إلى الرش ... د ويدعو لصالح الإنسان
أصلح الله سعيكم هل أبيتم ... أن تمدوا القرآن بالسلطان؟
لا تقولوا: في الحافظين غناء ... بعض هذا! فما تفيد الأماني؟
غير مجد أن يحمل الوحي صوت ... يتغنى للأجر والإحسان
نحن نبغي القرآن علما وفهما ... يخلقان الكمال في الشبان

نحن نبغي القرآن لفظا ومعنى ... فهو صقل الحجا وصقل اللسان
نحن نبغي القرآن دينا ودنيا ... يتجلى في هديّه الحسنيان
ليس مثل القرآن سحر من اللف ... ظ وهدى وحكمة في المعاني
نحن نبغي القرآن في معهد الدر ... س وفي كل منزل ومكان
الهراوي
رويدك قلبي
صبا القلب من شوق وحنّ إلى مصرا ... رويدك قلبي لا حنين ولا ذكرا
تشوقك مصرٌ لا فؤاد بها إلى ... لقائك مشتاق ولا كبد حرّى
تركتُ بمصر قبل بيني وديعة ... من الود فاستولى عليها الردى غدرا
وما حفظت مصر ودادي ولا رعت ... بعادي ولا صانت كما خلتها السرّا
فؤاد رحيم كان مس حنانه ... أرق على قلبي من القطر أو أسرى
حننت له حينا وشاطرته الجوى ... وحنّ إلى عودي وشاطرني الذكرى
ولو دام لي في مصر عذب وداده ... لما اسطعت بعد اليوم عن أرضها صبرا
سلا اليوم ذكري في الثرى وتفردت ... بحمل الأسى والشوق مهجتي الحسرى
أحن له ما راح دهري واغتدى ... وما عشت أبلو بعد أمر له أمرا
وأسقي بدمعي ذكره كلما هفا ... وهاجت بصدري لوعة تلهب الصدرا
يعود إلى أوطانه كل نازح ... فيحمد ظلا في حماها ومستذرى
وأحيا غريبا طول عمري مفردا ... رجعت لمصر أو تناءيت عن مصرا
لندن. فخري أبو السعود
في الأدب الشرقي
من الأدب التركي الحديث
محمد بك عاكف
للدكتور عبد الوهاب عزام
لا أريد أن أعرف اليوم بصديقي عاكف بك، ومكانته بين شعراء الترك، وكيف استحق أن يسمى (شاعر الإسلام)، وعسى أن أعود إليه في مقال آخر حين يأذن لي تواضعه وحياؤه أن أكتب عنه، ولكني أعرض قطعة من الجزء الأول من ديوانه المسمى (الصفحات) عنوانها (سيفي بابا) أي (الأب سيفي) أو (عمنا سيفي) بلغة مصر.
ولست في حاجة إلى أن أبين للقارئ العزيز ما يفوته من جمال القطعة حين تترجم منثورة عاطلة من حلية النظم، ولا سيما نظم عارف بك المحكم السلس الذي يعمد إلى الموضوع الآنف. لم يألفه النظم ولم يَرُضه الشعراء فإذا هو ريّض مذلل موطأ للشعراء كأنهم درجوا عليه قرونا.
سيفي بابا
عدت البارحة إلى داري فقيل لي: (سيفي بابا) مريض طريح الفراش.
- ليت شعري ماذا به؟
- لا ندري. غير أن ابنه مرّ علينا مصبحاً فأخبرنا.
- ليتني كنت هنا. وا أسفاه. إليّ بالفانوس. أين عصاي؟ عجلي يا بنيتي. سأبيت هناك إن تأخرت فلا تنتظروا أوبتي. الطريق طويلة موحلة.
- لا بأس! لسنا وحدنا الليلة، فقد جاءت خالتكم.
العكّاز في يمناي، وفي اليسرى فانوس مكسور الزجاج تبص فيه شمعة، والمطر منهمر، والوحل إلى الحيازيم، ليس للسابل منجاة من الغرق، لولا أن أرواح الأحجار، أحجار البلاط التي دفنها البلى تنبعث أمامه فتدعوه إلى الاعتصام بها. ما زلت كالعقعق، أحجل من حجر إلى حجر، ممطراً شآبيبالرحمة على موتى الأحجار. لا تسل عمّا عانيت، ما جاوزنا الأحجار إلاّ لنسبح في البحيرات سبحا، كان فانوسي يعوم فينثر الشرر حوله. كنا وإياه
زورقين يتباريان، لا أدري كم سبحنا ولكنا انتهينا إلى البر، فأخذ فانوسي يحس ما حوله قليلا قليلا، وكان الجهد قد بلغ مني مبلغه، ولكنه كان أشد تعبا، وكنت أرى عليه خمار الكد والنعاس، تارة يصطدم كالأعمى بجدار غير مطلي، وتارة تتساقط أشعته الميتة على قبر، وحينا ينطلق تحت سقف دار خربة، وحينا يتخطى معبدا دارسا، وطورا أراه يطوف في زوايا مقفرة مخوفة، ثم يعترض أفظع الرجال لقاء غير هياب.

وعارٍ تدثر في ثوب من حالك الليل، يأوي إلى طنف، هو والويل مضطجعا في مهاد من الرغام. تخاله نائما وكيف ينام؟
وجماعات من البؤساء، ضن عليهم بالبيوت الشقاء، وأوكار خرست أصداؤها، وبيوت خاوية على عروشها، وأسراب النساء أشتات مطلقات، وأشتات من أفراخ هذه الزيجات المبثوثة، وأكوام من القمامات جاثمة في الظلمات: أسرات هائمات في الأزقة تحمل بيوتها على ظهورها، وقاطع طريق بالليل وهو في وضح النهار سائل، وشريد، وشحاذ، ولص وقاتل.
مناظر هائلة كلما بصر بها الفانوس الأعمى أبى إلاّ أن يريني إياها ولست أدري لماذا.
شرب الفانوس من ماء المطر فقال (جز) لا فظاً آخر أنفاسه. فانقلبت أعمى يتحسس طريقه بالسمع واللمس، وما أشد هذا هولاً! وصارت العكازة لي عينا ويدا ورجلا، لا أكذب الله، لقد استشعر قلبي الفزع.
أشكر الله، هذه ثلاثة فوانيس تمر أمامي. فلو استقامت على الطريق غير معرجة فسرت في أثرها! ما حاجتي إليها. قد اهتديت الطريق. أقول (اهتديت الطريق) وقد بلغت غايتي فهذه دار صديقي القديم. أأرى ضوءً؟ إن لم يكن فلا ريب إنه قد هجع. لابد أن يكون في وسط الباب حبل في طرفه خشبة، فإذا وجدته فجذبته ففتحت الباب. أجل. ولكن الباب موجف أحسب أن خارجا قد خرج الآن. ما لي ولهذا؟ قذفت نفسي داخل الدار ونزعت الجرموق من رجلي وتقدمت ثم ملت ذات اليمين فإذا سلم ذا أربع مراق أو خمس شق عليّ الارتقاء فيه قليلا. وملت نحو اليسار، وعالجت الستر الغليظ البالي المنسدل على الباب فوقع في أذني صوت الصديق الفقير.
أين كنت يا بني؟ ما تفقدتني قط. لك العذر، والذنب لي إذ لم أخبرك. أعرف أن) عملك
كثير وان دارنا بعيدة. هلم فأسترح قليلا فلا شك أنك قد جهدت. أوقدت جارتنا النار منذ قليل فإن تكن مقرورا فأنبش في الموقد، قلّب النار وأصطل)
كانت غبشة الحجرة موحشة، فقلت لو أضاء هذا الفانوس! وقدحت علبة من الثقاب حتى أمسكت آخر الأعواد فأدنيته من رأس الشمعة فهبط النور على عينها العمياء، كما تكحل العين بالميل. انفتح ستر الظلام قليلا فتجلى للعين مرأى البؤس العريان. فلو كنت شاعرا ما استطعت أن أصوره، فإنها فلاكة لا يدركها الخيال. زحف (سيفي بابا) إلى الموقد ناشرا على ركبتيه عباءة بالية.
قد أغلى جارنا الزيزفون منذ حين فلو وجدناه! لا تقم، أنا أبحث عنه.
(إن أصبناه شربنا منه فهو نافع. هذا هو ذا يا بني. لا تبحث لا تبحث)
ووقعت يدي على مغلاة بطينة فأخذت أغلي الماء وأسقيه قدحا بعد قدح، فاستبان الدم قليلا في وجه صاحبنا الهرم.
- خبرني ماذا كانت علتك؟ لعل زكاما أصابك فهذا شتاء قارس جدا.
- قطر الماء من سقف محمد أغا وصعدت إلى السطح لإصلاح القراميد فأصابني البرد منذ خمسة عشر يوما. قل: ما لك وللقراميد أيها الأحمق! أراني العام مشترك اللب، ولست أدري أهي الشيخوخة أم ماذا. ولكن هب أني لا أصعد إلى السطوح لإصلاح القراميد فمن لي بالخبز؟ أيحسن أن أقعد كالأعمى وأبسط يدي إلى كل لئيم؟ يا بني من لم يكدح من أجل الخبز في هذه الدنيا فهو عار الأصدقاء، وسخرية الأعداء. وإلاّ فالشيخ الذي جاوز الخمسة والسبعين ليس كفئا للعمل، وليس عليه إلاّ أن يفرغ للوضوء والصلاة. مرضت فلم أجد أحدا يمرضني. عثمان دائب ليل نهار يطلب عملا يقتات منه. ولست أدري متى تدرك يده القوت. نحن في الساعة الثالثة الآن وهو لم يعد. ما أفضع الوحدة! يمضي الأسبوع يا بني لا يسقط إليّ أحد. قد بلغت مني الوحدة هذه المرة ما لا أطيقه.
- سأعرقك وأثقل غطاءك هذه الليلة فإني أحسبك إن عرقت كثيرا تماثلت.
دع الشيخ يعرق ملففا في لحافه. . . رقدت على كليم بجانب الموقد وشرعت أتحسس النوم ولكن هيهات هيهات. . وكان التعب قد غلبني فأغفيت، فلما لاحت تباشير الصبح استيقظت فقلت ينبغي أن أنصرف، ولكن لابد أن أدخل السرور على هذا الشيخ المعدم. لم أجد في
كيسي شيئا، لم أجد عشر بارات، لم أجد إلاّ خاتمي ذليلا منكسرا.

في الأدب الغربي
الذئب في الأدبين العربي والفرنسي
وصف الفرزدق صداقته وذئبا عاهده على ألاّ يخونه، فكان وفياً، ووصف الشريف الرضي ذئبا أصبح غرضا لقسي نوازع، وطعمة لرهط جائع؛ ووصف البحتري ذئباً هزيلا سدد إليه نصالاً أوردته منهل الردى، في قصائد تراها في دواوين هؤلاء.
وقد رأيت أنها في موضوع واحد - هو الذئب - فما المجلية بينها إذا جرت معا في حلبة السباق؟ وما التي تقرب من المثل الأعلى في الموضوع؟ وهل لها في غير العربية مثيل أو شبيه؟
وما دام في الفرنسية لهذه القصائد ند، وما دام بين الشعراء الفرنسيين من نظم في هذا الموضوع، فسنعرض لقصائدهم هذه بالنقل علّنا نستطيع الموازنة بينها كلها أو البحث فيها كلها، ولعل قصيدة (ألفرد دفيني) الشاعر الفرنسي الفذ في (موت ذئب) أقرب ما قرأت إلى هذه الروائع، فستكون أول ما نترجم، وأما الموازنة بينها فستكون في عدد تال إن شاء الله.
موت ذئب
خفت السحب إلى القمر المتألق، كما يخف الدخان إلى الحريق، واسودت الغابات فبلغ سوادها الأفق، وكنا نمشي على النبت الأخضر الندي دون أن ننبس بكلمة. فلمحنا في الظلام الكثيف تحت أشجار الصنوبر مخالب الذئاب التي كنا نطاردها منذ هنيهة.
فأنصتنا حابسين انفاسنا، وسمرنا أرجلنا إلى الأرض، فلا الغابة ولا السهل يتنفسان في وجه الريح الساكنة، اللهم إلاّ دولاب هواء حزينا كان يصعد في السماء زفرة وداع أليمة، لأن الهواء ارتفع عن الأرض فلا يصيبه منه شيء.
وكان كل شيء ساكنا، حين تقدم الصياد الشيخ خافض الرأس يتحرى ويدقق، فنظر إلى الرمل الذي اضطجع عليه منذ قليل ثم قال:، وهو الذي لم تؤخذ عليه هفوة، إن هذه الآثار آثار مخالب ذئبين كبيرين وجروبهما تبخرت منذ وقت غير بعيد.
فهيأ كل منا سكينه، أخفينا بندقياتنا وبريق حديدها الأبيض، ووقفت وثلاثة من رفاقي نرمي ببصرنا إلى الأمام، فإذا عينان تتقدان بالشرر، وأربعة أشباح أخرى رشيقة ترقص في
وسط الأعشاب على ضوء القمر.
كانت الذئاب تشبه الراقصين بحركاتها، تلعب في صمت ورزانة عالمة أن على قيد خطوتين منها عدوها الإنسان، مضطجعا بين جدران بيته لم يأخذ النوم بمعاقد أجفانه بعد.
وكان الذئب الأب واقفاً على بعد أمام الشجرة وزوجه مستريحة كصنم المرمر الذي عبده الرومان ومنه انحدر روموس ورومولوس.
وأقعى الذئب ومخالبه غائصة في الرمل، حين علم أنه هالك لا محالة، لأن عدوه باغته وملك عليه سبيله، وامسك بفمه الملتهب عنق أجرأ كلابنا، ولم يحول عنه فكيه الحديديين على رغم طلقاتنا النارية التي اخترقت جلده، وعلى رغم مدانا الحادة التي مزقت أحشاءه، ولكنه لما أحس بأن فريسته فارقت الحياة قبل أن يفارقها هو، أفلته من فكيه، ونظر إلينا مرة وأتبعها أخرى إلى جسمه فرأى المدى غارقة في أحشائه، ورأى نفسه سابحا في بحر دمائه، تحيط به البنادق، فحدق فينا ثانية واضطجع وهو يلعق ذنبه بفمه، ويلقف نزيف الدم من كلومه، ودون أن يجرب أو يبحث كيف يموت، أغمض عينيه الكبيرتين ومات دون أن يصرخ صرخة واحدة. . .
أسندت جبهتي حينذاك إلى بندقيتي واستسلمت للأفكار فلم أجد سبيلا إلى متابعة تلك الصور المريرة التي سيصبح عليها أولاده الثلاثة، وتصورت حال الأم وقد أرادت أن تشارك زوجها في حمل عبء هذه التجربة الخطرة، ولكن واجبها يقضي بان تنقذ أولادها، وأن تعلمهن كيف يتحملن الجوع، ويصبرن على ملاقاة الموت، وأن تحذرهن دخول المدن لئلا يخدعن بالعهد الذي قطعة الإنسان للحيوان، هذا الحيوان الذي يجري أمامه في الصيد، ويخدمه. . كل ذلك ليؤويه وهو سيد السهل والجبل. .
وا أسفاه! لقد فكرت كثيراً في معنى عظمة هذا الاسم الذي يتحلى به بنو الإنسان، وعدت إلى نفسي خجلاً أتهم الإنسان بالضعف والجبن.
أنت وحدك أيها الحيوان علمت كيف يجب أن نغادر الحياة وأوزارها، فليس فيما نعمله

في الحياة الدنيا، وفيما نتركه عليها ما يستحق الذكر الا الصمت. هو العظمة، وكل ما سواه ضعف.
آه!. . لقد فهمت معنى نظرتك أيها المسافر المستوحش لأنها نفذت إلى أعماق فؤادي قائلة:
-) إذا استطعت فاجعل نفسك، على تفكيرها وحلمها، واثقة مطمئنة من القضاء والقدر. الشهيق والبكاء وصلاة الخوف كلها جبن، فاعمل بثبات عملك الطويل الشاق، في الطريق الذي شاء الحظ أن يدعوك إليه، ثم. . تألم. . ومت. . مثلي دون أن تنبس بكلمة).
حلب. سامي الدهان
بنجن على ضفاف الرين
للشاعرة الإنكليزية
كان ثمة جندي ملقى على الأرض في بلاد المغرب ينتظر موته. لم تعن به ممرضة، ولم تذرف الدمع على فقده امرأة.
ولكن عني به صديق وقف إلى جانبه وهو يلفظ النفس الأخير. ومال على المحتضر بنظرات كلها إشفاق وحسرة ليسمع ما قد يقول.
تناول الجندي المشرف على الموت يد رفيقه وقال بصوت متهدج مرير: لن أراك يا وطني - يا وطني العزيز بعد: بربك خذ رسالتي وابلغها أصدقائي البعيدين كل البعد، فقد ولدت في بنجن - في بنجن على ضفاف الرين!
قل لاخوتي ورفاقي عندما يحتشدون حولك، ليسمعوا قصتي المحزنة في مزرعة الكرم، قل لهم إننا قاتلنا بشجاعة وإقدام، فلما انتهى اليوم كانت الجثث مبعثرة فوق الثرى عليها صفرة الموت تحت الشمس الغاربة وبين الموتى جنود مارست الحرب وعركتها، صدورهم دامية من اثر الطعن، وبعضهم صغير السن لم يلبث أن أظلم صبح حياته، وواحد منهم من بنجن - من بنجن الجميلة على ضفاف الرين.
قل لامي أن اخوتي الباقين سيكونون لك خير عزاء! قل لها لقد كنت عصفوراً هائماً يحسب وطنه القفص وقد كان أبي جنديا وكنت في طفولتي أهتز طربا عندما أسمعه يقص عن الحروب أروع القصص.
فلما مات وتركنا نتقاسم ميراثه المتواضع قلت لهم خذوا ما شئتم ولكن دعوا لي حسام أبي. وبشغف الطفولة المرحة علقته حيث تسطع الشمس على حائط الكوخ في بنجن - بنجن الهادئة على ضفاف الرين.
قل لأختي لا تبك عليّ ولا تحزن!
إذا رأت الجنود عائدة إلى مستقرها بخطى مطمئنة فرحة، قل لها لا تبك، ولا تعول بل لتنظر إليهم بفخر وزهو لأن أخاها كان جنديا مثلهم، ولم يكن يهاب الردى. وإذا تقدم إليها أحد الرفاق من الجند يخطب ودها فاسألها باسمي أن تنصت إليه، لا آسفة ولا مانعة: ولتعلق ذلك السيف القديم في موضعه، سيف أبي وسيفي حبا في بنجن القديمة - بنجن الغالية على ضفاف الرين.
وثمت فتاة أخرى ليست بأخت، صحبتها في الأيام السعيد السالفة، ستعرفها من ذلك الحبور الذي يتلألأ في عينيها، بريئة لم يمسها العار، متهكمة يحلو لها أن تهزأ وتسخر. غير أني أيها الصديق أخاف على أشد القلوب جذلاً من أن يثقلها الحزن.
قص عليها حديث الليلة الأخيرة من حياتي، لأنني سأموت قبل طلوع القمر. ستذهب من جسدي الآلام وتخرج روحي من السجن. كأنني أحلم بها وأنا واقف معها نشاهد الشمس وهي تغرب وراء تلال بنجن المكسوة بالكروم - بنجن الجميلة على نهر الرين.
إني أرى النهر الأزرق يتدفق ماؤه، واسمع أو يخيل إليّ أني اسمع: أناشيد الألمان التي كنا نغنيها في صوت متناسق عذب فنتردد بين النهر والسهول المنحدرة في جوف الليل الصامت الهادئ. إني أرى عينيها محدقتين فيّ، ضاحكتين زرقاوين، وكأنني أسير إلى جانبها، في تلك الطرق المحببة إليّ، تلك الطرق التي أذكرها بالإجلال والتقديس، وأحس بيدها الصغيرة آمنة في يدي. ولكنا لن نلتقي مرة أخرى في بنجن - في بنجن العزيزة على ضفاف الرين
أخذ صوته الأجش يضعف ويفنى، وصارت قبضته كقبضة الطفل وارتسمت في عينيه أشباح الموت، ثم تنهد وامسك عن القول.

فمال عليه صديقه لينهضه؛ ولكن سراج حياته كان قد خبا.
لقد مات الجندي المسكين في أرض نائية عن وطنه. عندئذ طلع القمر على مهل واطلّ على الكون وعلى الرمال المخضبة بالدماء إثر المعركة، وعلى الجثث المتناثرة (المبعثرة).
وفي هدوء، أرسل أشعته الشاحبة على ذلك المنظر المفزع. كما يرسلها على بنجن البعيدة - بنجن الجميلة على نهر الرين.
محمود فهمي رزق
أغنية. . لفكتور هوجو
يولد الفجر، وأنتِ موصدة الأبواب! فلم يا حسنائي الرقود، ساعة يقضة الورود؟
فهلا تستيقظين؟
اسمعي يا فاتنتي عناء محبك وبكاءه!
كل يقصد حماك المبارك.
فالفجر يشدو. . (أنا النهار!)
والعصفور يغرد: (أنا الموسيقي!)
وقلبي يردد: (أنا الحب!)
اسمعي يا ساحرتي غناء محبك ونواحه!
أعبدك كملاك، واحبك كامرأة.
والإله الذي كمّل خلقي بك
جعل حبي خصيصاً لك
ونظري لرؤية جمالك!
اسمعي يا غادتي غناء محبك ونحيبه
حلب. سامي الدهان
العلوم
الاقيانوغرافيا أو تقويم المحيطات
بقلم الدكتور حسين فوزي مدير إدارة أبحاث المصائد
قلما استطاع المرء مهما امتدت ثقافته أو رقّ شعوره أن يدرك وهو على شاطئ البحر مدى ذلك الجزء من الأرض يغطيه الماء. وعبثا يعلم أن البحار تغمر نحو ثلاثة أرباع الكوكب الذي نعيش عليه. وأنى له أن يقدّر معنى هذه الحقيقة ويفهم أثرها في تطور المخلوقات، بل في تاريخ البشرية منذ ظهر الإنسان على سطح البسيطة؟ وماذا يعلم عابر المحيط من أمره إذ يرى سفينته العظيمة تتلقفها الأمواج وسط دائرة الأفق المطبق على سطح زاخر من الماء؟ وهل أدرك في تلك اللحظات أنه رب سابح فوق هوات عميقة، لو أن جبال أيفر ست اقتلعت من رواسيها وغاصت في البحر لابتلعتها تلك الهوات دون أن يظهر أثر لقمّتها الشامخة بتاج جليدها الأبدي؟ وكيف يدري أسرار تلك المياه وحركاتها وما أودعته من مخلوقات كأنها أسرار الجنة مغلقة في قماقمها؟ وأنى له أن يفهم أثر الأفلاك في ذلك المنبسط العظيم من الماء؟ وكيف يطلع على المآسي الدائرة على أساس تنازع البقاء وسط ذلك الخضم الهائل؟
أدرك الشعر عن طريق إحساسه شيئا من تلك العظمة البالغة. ووقف الشعراء يقارنون بين اليابسة وما عليها، فهناك تترك العصور الجيولوجية طابعها في الثلاجات والجبال والكهوف والوديان. والعصور التاريخية آثارها في المعابد والمقابر والمنازل. ولعل الصحراء أشد ما على اليابسة قدرة على الكتمان، ومع ذلك فقد تنجح أو لا تنجح في إخفاء معالم الحضارات في بطون كثبانها، وبين البحر وقد شهد معالم التاريخين، وتنازعته القوى الطبيعية والقوى البشرية، واتصلت بين شواطئه الحضارات. وهو عدا زئير أمواجه صامت لا يفشي سراً من أسراره.
تأمل البحر الأبيض تلك البحيرة الضئيلة وسط المحيطات. در حوله وطالع أثر الحضارات العظيمة التي قامت على شواطئه. هنا فينيقيا ومصر ويونان وروما والبندقية وجنوا وعصر الأسبان (الربنسانس) والقرن التاسع عشر. أنصت إلى صفحته المصقولة لتستخرج حديثاً وحيدا. نثه عن ذلك الماضي، سله عن سفن يونان عائدة من طروادة لعله

مخبرك بخبر اوديسيوس أو اينياس. أو عن سفائن الفرس وما أصابها من تمستوكل في سلاميس. أو عن أسطول كليوبطرة لتعلم كيف باع انطونيوس ملك العالم في اكتيوم مطاردا الهاربة الجميلة. سله عن محاربة بونابرت في أبي قير. أو عن أجدادنا الأقربين في نافارين، ذهبوا ليخنقوا حرية يونان وما استطاعوا أن يدافعوا عن حريتنا. سله عن ذلك التاريخ القريب والبعيد، بل سل عن الجاريات المنشآت وكانت منذ لحظة صروحا شامخة يمرح على سطوحها ألوف من الناس. أيّ جواب تتلقى من البحر غير اصطخاب أمواجه أو تلألؤ الشمس فوق صفحته اللازوردية؟

وليس من عجب أن نجد البحر في أساطير الأقدمين ركنا من أركان القوة الهائلة المجهولة المحيطة بالبشر. فقد طغى على البشرية جمعاء ذات يوم فأغرقها إلاّ فرقة صالحة استوت سفينتها على جبل الجودي.

وشطر (مردخ) العملاق (تيامات) فجعل من أشلائه الأرض والسماء. وركّز الأولى وكانت على شكل جبل متوّج بالسحب فوق البحر الذي تبزغ الشمس من شرقه لتغوص في غربه، وأمر جيهوفا الماء أن يغيض في مكان لتظهر اليابسة وسمّاها الأرض أقام صرح السماء كالقبة على سطح البحر.

واقيانوس أبو الآلهة تقمّص بحراً أحاط باويقومينا واتصل بالبحر الأبيض عند أعمدة هرقليس. ونفذ تحت الأرض لينبثق فوق سطحها عيونا وغدرانا وانهارا.

وقصّت عليّ جدتي حكاية ثور معروف يحمل الأرض على قرنه. وينقلها من قرن إلى قرن كما أنقل ثقل جسمي من ساق إلى ساق، حين يعاقبني مدرس الجغرافيا بالوقوف إلى الحائط وقد أردت تحويل خرافات جدتي إلى حقائق جغرافية.

- وأين تنتهي الأرض يا جدتي؟

- عند جبل قاف يا بني.

- وماذا بعد جبل قاف؟

- تنين يحيط بجبل قاف يا بني.

- والتنين يا جدتي؟

- سابح في البحر الذي يحيط بالدنيا والثور واقف على جزيرة من جزر ذلك المحيط. . .

وهكذا.

ولقد حاول اليونانيون أيضا تحويل أمثال هذه الصور الخرافية إلى حقائق جغرافية.

ولكن هيرودوت أنكر وجود بحر يحيط بالأرض من الشرق، وقد عرف في مصر خبر بعثة وجهها نيخو الثاني سنة 600 قبل الميلاد. في البحر الإريتري - بحر البلاد الحمراء أي بلاد العرب، فدارت حول أفريقيا حتى عادت إلى مصر بعد ان اخترقت أعمدة هرقليس (جبل طارق). ولم يصدق هيرودوت ما ذكر عن ملاحي تلك الرحلة من أنهم شاهدوا الشمس تشرق وتغرب عن يمينهم في إحدى مناطق طوافهم.

ورأي ارسططاليس الرأي القائل بأن الإريتري والاطلانطيقي بحر واحد، وتضاءلت الدنيا أمام علمه حتى قال باستطاعة سفينة شراعية ان تسافر في رياح ملائمة من أعمدة هرقليس (جبل طارق) حتى الهند.

وجاء العالم الإسكندري بطليموس في القرن الثاني قبل الميلاد وقال بان أفريقيا تتصل شرقاً اتصالا تاما بآسيا، وأن المحيط الهندي بحر داخلي. وكان يعتقد هو أيضا أن غرب أوربا قريب من شرق آسيا. ويرجع إلى هذا الرأي الذي ارتآه عالم كبير كبطليموس بعض الفضل في اعتزام كولمبوس الوصول إلى الهند من غرب أوربا واكتشافه أميركا.

وهكذا ظلّ العالم يتخبط في تفهم مدى المحيطات حتى بدأ البرتغاليون والإسبانيون رحلاتهم المجيدة في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر. واستطاع فاسكو دي جاما تطويق رأس الرجاء الصالح. واكتشف كولمبوس جزر الأنتيل وقد حسب انه وصل إلى آسيا، ولم يدر انه كان في أسبانيا اقرب إلى آسيا منه وهو في دنياه الجديدة.

وسافر ماجلان من إسبانيا مخترقا الاطلانطيق فالمضيق الذي حمل أسمه فيما بعد فالمحيط الهادي. ومع انه قتل في الفلبين فقد عادت بعثته إلى إسبانيا بعد إتمام طوافها حول العالم في ثلاث سنوات.

وهكذا استطاع العالم في أقل من نصف قرن (1492 - 1522) أن يعرف أضعاف ما عرفه الأقدمون عن البحار، وإذا استثنينا رحلات العرب في المحيط الهندي بعد ذلك التاريخ فان الاستكشافات فقدت نشاطها منذ أوائل القرن السادس عشر حتى قام الكابتن كوك برحلته في البحار الجنوبية في أواخر القرن الثامن عشر. حينئذ استطاع الملاّحون أن
يتصوروا عن المحيطات صورة اقرب إلى الحقيقة.
وإذا كانت الجغرافيا تشمل وصف المحيطات باعتبارها جزءاً من الكوكب الأرضي فقد اختصت الاقيانوغرافيا بدراسة المحيطات كوحدة كونية تغمر ثلاثة أرباع الكرة الأرضية، ومع أن الاقيانوغرافيا تحاول أن تجد لها نسبا عريقا في جميع الاكتشافات السالفة الذكر، فالواقع أنها لم تنشأ كعلم مستقل إلا في النصف الأخير من القرن الماضي.
وعلينا الآن أن نترك التاريخ لحظة إذا أردنا ان نعرف إلى أي حد يحق للايقيانوغرافيا ان تتصل بنسبها إلى الاستكشافات الجغرافية قديما وحديثا، ولا يمكننا معرفة ذلك قبل الإجابة على السؤال التالي: ما هي الاقيانوغرافيا؟
الاقيانوغرافيا هي وصف أحواض المحيطات والظواهر التي تبدو على سطحها والعوامل والتفاعلات الحادثة في بطنها. ودراسة القاع وتكوينه منذ أن ينحدر الشاطئ القارّي تحت الماء حتى أبعد الأعماق، ودراسة المياه التي تملأ أحواض المحيطات وما فيها من مواد عالقة أو ذائبة وأثر الضوء والحرارة على المياه ومحتوياتها.
هذه هي الاقيانوغرافية الاستاتيكية
وفهم أثر الرياح والقوى العالمية (جاذبية القمر) على سطح الماء من أمواج ومد وجزر. ودراسة أثر الثلوج القطبية وما تسببه من تيارات.
تلك هي الاقيانوغرافيا الديناميكية
ودراسة الأحياء التي تغشى القاع أو تعيش في طبقات الماء المختلفة. وتلك هي الاقيانوغرافيا البيولوجية.
يظهر من هذا العرض السريع أن الاقيانوغرافيا تستعين بعلوم مختلفة. فدراسة خصائص الماء وما بها من مواد ذائبة أو عالقة، وأثر الضوء والحرارة عليها وحركة التيارات تقتضي تطبيق علوم الكيمياء والطبيعة. ودراسة القاع وتكوينه ليست الا تطبيقا جيولوجيا. كما أن تحديد مرتفعات هذا القاع ومخفضاته - بطريق قياس الأعماق - هي عملية طبوغرافية. وفهم أثر الرياح على سطح الماء يقتضي فهم الجو نفسه بطريق علم الأرصاد (الميتيورولوجيا) وتقدير ارتفاع المد وانخفاض الجزر وتوقيتهما يحتاج إلى معارف فلكية. وفي كل هذا يلجأ الاقيانوغرافي إلى الرياضيات لحصر تلك الظواهر الطبيعية، في دائرة
المعادلات والقوانين. كما أن من البديهي أن ترتكز الاقيانوغرافيا البيولوجية على علمي الحيوان والنبات.
وقد يتساءل نوع من القراء، وقد فرغ من هذا التعداد، وما فائدة كل هذه الدراسات؟ وهذا النوع من التساؤل طبيعي في الناس ولكنه يتخذ في مصر لهجة يشوبها غير قليل من السخرية، ويظهر أننا برغم ما يبدو من مقدار نجاحنا في دوائر العمل (أو فشلنا بالأولى) رجال عمليون بالفطرة.
فإذا حدثتنا عن فينوس ميلو، أو مخلدات ميكلانج، أو بدائع دورر، أو نظرية آينشتاين. أو ناقشتنا في قيمة مؤلف عظيم انتهينا بك إلى (جميل!) (ولكن ما فائدة كل هذا؟) إذ يجب على المؤلف والفيلسوف والمصور والحفار ان يحض على فضيلة أو ينشئ مصنع طرابيش ليكون لعمله قيمة في نظر أبناء: (مصر. . . قطعة من أوربا).
ومن حسن حظ الاقيانوغرافيا أن تجيب السائل عن سؤاله بأكثر من جواب. على أننا قبل أن ننوه (بفوئد) الاقيانوغرافيا لن نتردد في القول بأنه إذا كان الأصل في البحث العلمي هو رغبة الإنسان في استخدام القوى المحيطة به، فانه يرجع في غير قليل إلى رغبة البشرية في فهم تلك القوى لمجرد الفهم.
وإذا كان الكشف العلمي قد أدى إلى حضارة اليوم فان هذه الحضارة لم تكن لتبلغ هذا المبلغ لو لم يكن من اجل صفات الذهن البشري أن يفكر لمجرد التفكير، محاولاً فهم كنه الظواهر المحيطة به. وإلاّ فما الأديان وما الفلسفة؟
وإذا كان الإنسان قد قام برحلاته في المحيطات لغرض عملي، فليس معنى هذا أن

ننسى فضل المفكر الذي يقف بشواطئ المحيط حائراً متسائلا إلى أين تمتد مياهه. ناظراً إلى السماء متسائلا ماذا وراء النجوم. والإنسان الأول قبل أن يعد عدته للانتفاع بمنتجات البحار، وقف بشواطئها يتأمل مياهها لا لشيء إلاّ لأن الإنسان حيوان مفكر. ثم لمح مخلوقا غريبا يلمع في طبقات الماء فغاص وراءه أو فكر في طريقة لصيده، لا لشيء إلاّ للرغبة في تعرف هذا المجهول. ثم أدرك بعد ذلك انه يستطيع الانتفاع بلحم هذا المخلوق في غذائه. رأيت أن لا مناص لي من أن أنتحي هذا الجانب من التفكير في عرض الكلام عن الاقيانوغرافيا. قبل أن أتحدث عن فوائدها، ذلك لأن هذه الفوائد مهما كبر شأنها فلن

تستطيع أن تفسر للذهن العادي معنى المجهود الذي بذلته وتبذله الإنسانية لكشف البحار. ولقد سئمت أذني سماع سؤال واحد في الأيام الأخيرة بمناسبة البعثة الأجنبية التي تستعير السفينة الاقيانوغرافية المصرية (مباحث) للكشف العلمي بالمحيط الهندي. (ما فائدة هذه الرحلة؟)

وكان جوابي واحدا في كل مرة: (لا فائدة منها إلاّ أن تضيف كنزاً من المعرفة إلى كنوز العالم)

ما فائدة الاقيانوغرافيا

رأينا في بدء هذا المقال كيف جهد الملاحون جهدهم في تعرّف أنحاء الاقيانوسات. ولا يكفي في معارف الملاح أن يعلم باتجاهات الرياح وكيف يجد الجهات الأصلية في الليل والنهار. فهو إذا رفع نظره دائما إلى النجمة القطبية كان نصيبه من البحر نصيب ملاح (الراين) في أنشودة هايني (لوريلاي) إذ تأسر بصره الجميلة الجالسة عند أعلى الصخرة تمشط شعرها الذهبي، فإذا بقاربه يرتطم بالصخور ويتحطم.

فالملاح يجب أن يعرف من أعماق البحر ما يقيه شر المياه الضحلة لذا كان سبر الأعماق من أقدم ما قام به الإنسان من دراسة اقيانوغرافية. على أنه إذا كان سبر الغور هاما قرب الشواطئ وما إليها من مواضع قريبة القاع، فلم يكن يهم الملاح أن يعرف اعمق ما يصل إليه البحر. ويغلب على الظن أنه كان يعتقد بأن غوره في بعض الجهات لا نهائي كالجو. وأول محاولة سجلها التاريخ لقياس الأعماق البعيدة هي ما قام به ماجلان، إذ دخل المضيق المعروف الآن باسمه وأدلى مقياس أعماقه وهو ثقل معلق بحبل لا يزيد طوله على بضع مئات من الأمتار، فلم يرتكز الثقل على قاع، ولذا اعتقد انه وصل إلى أعمق بقعة في المحيط. والواقع أن العمق في مضيق ماجلان لا يتجاوز 4000 متر في حين انه اكتشفت أعماق أبعد من هذا (نحو 10000 متر).

كذا يهم الملاح معرفة نوع القاع في الأعماق القريبة. وقد روى هيرودوت خبر العلامة التي يعرف بها الملاحون اقترابهم من شاطئ مصر (وهو شاطئ منخفض لا يرى إلاّ عن قرب) فهم إذا عاد ثقل مقياس الغور محاطا بالطين وسجل عمق أحد عشر ذراعا عرفوا انهم على مسيرة يوم من شواطئ مصر.

وإذا كانت الأعماق السحيقة لا تهم الملاح فهو مهتم في جميع أنحاء البحر بالعميق منها وقريب الغور بمعرفة اتجاه التيارات. وقد لاحظ بنيامين فرانكلين في سنة 1770 وكان مديرا للبريد في إنجلترا الجديدة أن البريد المرسل من إنجلترا يصل أميركا على السفن الأميركية أسرع من وصوله على السفن الإنجليزية. فأخبره القبطان الأميركي بخبر تيار بحري يتجه في المحيط الاطلانطيقي إلى الشرق تنتفع به السفن الأميركية في الذهاب وتتجنبه في الإياب. بينما تجهل أمره السفن الإنجليزية. وحينما سافر فرانكلين إلى فرنسا حرص على تدوين ملاحظاته عن هذا التيار (جولفستريم) ورسم خريطة له ظلت سراً حتى طرد الإنجليز من مستعمرتهم الأميركية الكبيرة، وقد كان هذا الاكتشاف بدء عهد الملاحة الترمومترية. إذ كان الملاح يتعرف وجوده في طريق هذا التيار بملاحظة ارتفاع درجة حرارة الماء من معدل معروف للاقيانوس في المناطق التي لا يمر بها التيار. وللملاحة الترمومترية فائدة عظمى في الضباب إذ يدل انخفاض درجة حرارة الماء انخفاضا سريعا وغير عادي على اقتراب السفينة من جبال ثلجية عائمة.

ويعرف الملاح أيضا حركات المد والجزر. إذ بدون معرفتهما تتعرض سفينتهم لأخطار الارتطام بالصخور كما لا يستطيع تعيين وقت دخوله المرافئ.

ويعنى صانعو السفن ومهندسو الموانئ بدراسة خصائص ماء البحر لاختيار المواد التي

ينشئون منها قاع السفن وحواجز المياه والأرصفة فلا تؤثر فيها مياه البحر وما بها من أملاح ذائبة وخصوصا كلورور الصوديوم.

وإذا سقنا الملاحة والهندسة البحرية مثلا على الفنون والحرف التي تنتفع بالمعلومات الاقيانوغرافية فان علينا أن نشير إلى حرفة تعد مدينة للاقيانوغرافيا بغير قليل من تقدمها. تلك هي حرفة الصيد. ولقد سبق أن كتبنا عن (بحوث مصائد الأسماك) وهي في البحار فرع من الاقيانوغرافيا محدود بأغراض نفسية محضة. وسنعود في فرص أخرى إلى هذا الموضوع وإنما نكتفي الآن بالإشارة إلى كنوز البحار من أسمك وحيتان ووحوش وسلاحف ولآلئ ومرجان وأعشاب ينتفع بها الإنسان لغذائه وزينته وتدخل في صناعاته إذ يستخرج منها الزيوت والأسمدة واليود الخ.

وأخيراً عرف المتتبعون أخبار العلم بخبر تلك المحاولة الجبارة التي يقوم بها جورج كلود

للانتفاع بقوى المحيطات الحرارية. فهذا العالم الفرنسي يبني تجاربه على أساس ظاهرة كشفت عنها الاقيانوغرافيا. وهي أن اختلاف درجة الحرارة بين السطح والقاع في البحار الاستوائية كبير إلى حد إمكان تحويل هذا الاختلاف إلى قوة محركة.

هذا عن الفوائد العملية المباشرة. أما عن فائدة الاقيانوغرافيا للعلم نفسه فقد وجد فيها علم الأرصاد خير معين على تفهم الظواهر الجوية على سطح الأرض. فالجو بحر غازي يتأثر بالحرارة والضغط وجميع العوامل الأخرى التي تؤثر في البحر. ولما كان هذا الأخير بطيء التأثر بالنسبة إلى الجو الأهوج، فأن بطئ الظواهر البحرية خير معوان على تفهم ظواهر الجو السريعة كما يفهم الإنسان حركات العدو، أو القفز العالي عن طريق فيلم سينمائي يدار ببطء، كما أن سطح المحيط هو خير منطقة لدراسة الجو في أبسط مظاهره، فبينما تكثر المرتفعات والمنخفضان على سطح الأرض ويتغير الضغط الجوي تبعا لها، نرى البحر بسطحه المستوي وصفحته المائية يحول دون التغيرات السريعة في الضغط الجوي الناشئة في الأرض عن مرتفعاتها ومخفضاتها. كذا برودة الهواء وسخونته أقل استعداداً للتغير الكبير السريع فوق الماء منها فوق اليابسة.

وكان من الطبيعي أن تنتفع الجيولوجيا من الاقيانوغرافيا، ففي دراسة قاع المحيطات الحالية وتفسير تكوينها ما يعين الجيولوجي على أن يفسر تكوين بحار العهود الجيولوجية المنقرضة.

وتبدو استفادة علم الحيوان من الاقيانوغرافيا بمقارنة مجموع الحيوانات الأرضية والحيوانات البحرية المعروفة. فإذا فتحت أي كتاب حديث في علم الحيوان عند الفهرس وجدت أن فصائل الحيوانات البرية لا تمثل إلاّ نسبة ضئيلة في مجموع الحيوانات المعروفة.

وبعد أليس هذا طبيعياً؟ فمساحة البحار تعادل نصفا وضعفي مساحة اليابسة. وإذا كانت الأحياء الأرضية تعيش فوق السطح أو تغادر هذا السطح قليلاً لتطير في الهواء، فالأحياء المائية تغشى المحيط عند سطحه وفي جميع طبقاته وفوق قاعه. فأي عجب أن تكون أكثر بكثير من الأحياء البرية؟ ونعرف أن عمق المحيط يتراوح بين متر وعشرة آلاف متر، هذا إلى أننا الآن أقرب إلى حصر الأنواع الأرضية منا إلى الإحاطة بجميع الأنواع
البحرية.

الآن وقد عرفنا أغراض الاقيانوغرافيا نستطيع الحكم بأنه إذا حق لهذا العلم أن يتصل بنسبه ونشأته إلى رحلات جوّابي البحار حتى أواخر القرن الثامن عشر، فان عهد الاقيانوغرافيا الحقيقي لم يبدأ إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهذا ما ستراه في مقالنا التالي إذ نتابع قصة البحار قاصرين حديثنا على بعثات الاستكشاف الاقيانوغرافي.

القصص

قصة سودانية

تاجوج ومحلق

ما كنت أحسب قبل أن يحدثني صديقي حمدان، إن بجانب الغاب أكواخا تحوي جمالا، وأن في أواسط البيد جنات يرف ورد الحياة الفيّاح فيها، وتتفتح أكمام العيش الهني

عن زهرات من الحب السعيد والهوى البريء.
لذلك لم تتهيأ لي الفرصة لركوب السفين حتى انتهزتها ميمماً الجنوب إلى أن رست بنا على مرسى الغاب المزعوم.
وهناك انتقلت من ظهر السفين إلى ظهر الهجين، فأخذ يخب بي بين نجاد ووهاد، تارة في رأد الضحى، وطوراً في طفل الأصيل، حتى انتهيت إلى حيث أراد الدليل.
فأدرت ناظري فيما حولي من الأدغال يخفق قلبي روعة، ويذهب لي حيرة، وإذا بشيخ كهل قد ائتزر بمئزر، والتفع برداء، يقوم في جفاء البداوة، وجفوة الأعراب، ماذا تريد يا زول؟ قلت التمتع والاستطلاع، فأربد وجهه، وانقبض جبينه، وكأنما الشر قد جثم بين عينية، فانخلع قلبي حذر أن أكون استبحت حماه، ولكن صديقي دلف إلينا بسرعة، وحيا البدوي في حديث مرسل ينم عن سابق معرفة، وقديم صحبة، فهدأت نفسه وسكن غضبه، وانبسطت أسارير وجهه، ثم أقبل علي باشاً مصافحا.
فسألت ممن الرجل؟ قل: من بني عقيل بن جعفر بن أبي طالب، قلت: وأنا من بني الحسين بن علي بن أبي طالب، فعاد إلي مصافحا معانقا، وكانت المصافحة حارة، والعناق طويلا.
ثم ساق رواحلنا إلى كوخ من القش بجانب خيمة من الوبر، ونادى: يا ليلى! ابن العمومة من بني هاشم شرف أحياء العرب، فبرزت ليلى من خبائها كما يبرز البدر من خلال الغيوم، ثم قالت: يا بشرى! هذا ابن الريف، قرّة العين، وسليل الحسين، وأطلقتها زغرّدة دوّت في الفضاء، فمال حمدان برأسه وقال: لها الله ليلى من فتاة بارعة الحسن تامة الجمال! أنظر تر جسما مستقيما منتصبا كأنه قضيب بان، وعينين سوداوين فيهما سحر وفيهما دلال، وشعراً لا معقوصا ولا مظفوراً وإنما هو مدلّى كخيوط الليل، ووجهها تمتزج
حمرته بسمرته فيبدو من امتزاجهما دم جذاب يرق حتى ليكاد يكون روحا، وثغرا كأنما يبسم عن در، ويفتر عن لؤلؤ فقلت: يا سبحان الله! أما قرأت: قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم. . وكان حمد مضيفنا تجاوز الكوخ ليدعوا بعض غلمانه، فقلت لحمدان (وكان من طبعه الانقباض) إن كنت رجلا حقا فأطلقها ضحكة عالية في وادي الهموم، كما أطلقتها ليلى زغرّدة في أجواز الهواء. قال: كيف؟ والمدنية الحديثة جعلت فينا أمزجة منقبضة وطبائع سوداوية، فأضعنا نضارة الشباب في هم مبرح. ولم نتلقى غفلات العيش على ما في طيها من نعم وخيرات، كما يتلقى قطان البادية من الأعراب، وسكان الغابات من عجائز السود، شظف الحياة، وضيق العيش. بصدر رحب، وثغر بشوش.
قطعت علينا الحديث خادم عجوز سوداء لليلى. أتت ولا شيء يسترها غير رقعة تحجب سوءتها، ثم مدت سماطاً بديع النسيج الا أنه مهلهل، وعادت فأتت بمبخرة فيها عود أو صندل
ثم أتى حمد وخلفه جزور فنحره، وحمله الخدم بعد لطهيه، وجاءت أقداح الشاي واستمرت تدور المرة بعد المرة، وحمد يحدثنا بحديث عذب فيه رطانة الزنوج، ولحن الأعراب
حدثنا انه يتصل بعرب الحمران، وأن لهم أحاديث كالمسك، في الهوى العذري، والحب الطاهر، وأن منهم (تاجوج ومحلق) الذين ضربت بحبهما الأمثال، وتحدثت عن عفتهما الركبان
قلت: ومن تاجوج ومحلق؟
فأجاب، كانت تاجوج فتاة جميلة، لم تر بلاد السودان فتاة أجمل منها إلى اليوم، وقد بلغ من جمالها أن الناس كانوا يحثون المطايا ليروها ثم يعودوا، وكان أبوها يدعى (الشيخ أوكد) شيخ القبيلة، أحبها ابن عمها (محلق) وتزوجها، وفي يوم أسكره الحب وتيمه الغرام، فألح عليها ان تتجرد من ثيابها وتمشي أمامه عارية فامتنعت حياء، ألح مرة أخرى فامتنعت، ثم ألح ثالثة فقالت، إذا أطعتك فماذا تفعل؟
قال: أنفذ كل طلب لك
!قالت: أقسم، فأقسم، فتجردت ومشت أمامه ذهابا وإياباً. إلى أن قال: كفى كفى ثم قال، اطلبي الآن ما تريدين. قالت: أن تطلقني في الحال، فطار صوابه، فوقع على

قدميها يقبلهما ويسألها العفو فأبت الا البر بقسمه، فطلقها وهام على وجهه ينشد في حبها الأشعار كمجنون ليلى.
ثم تزوجت بعد طلاقها رجلا من وجهاء قبيلتها فتأثّر محلق فغلبه على ماله، المرة بعد المرة ثم رده إكراما لتاجوج.
وأخيرا اشتد عليه الكرب وأضناه الحب، فألح على أهله أن يمكنوه من رؤيتها، فذهبوا إليها وأخبروها لحاله فرقت له، وذهبت لرؤيته، فإذا هو طريح الفراش وحوله نساء يندن بها ليصرفن قلبه عنها، فلما دخلت لم يسعهنّ الا الوقوف احتراما لجمالها وإعجاباً بها، وأجلسنها إلى جانب سريره فلما رأته على تلك الحال تنهدت وقالت: أإلى هذا الحال وصلت يا حشاي وأنا لا أدري؟ ثم وضعت رأسه على ركبتها وكان قد أغمي عليه، فلما أفاق نظر إليها وأنشد أبياتا منها هذا البيت الذي ننقله بلغته ولحنه وصورته:
(حبك في الضمير قاطع لأكباده ... تقتلي الزول سريع قبل الشهادة
ثم شهق شهقة ومات مسلماً الروح.
ثم أطرق حمد طويلا برأسه إلى الأرض وعاد فنظر إليّ ساهما وقال: حدث بعد ذلك أن غزانا عرب (الهدندوة) فوقعت تاجوج أسيرة في أيديهم فاختلفوا فيها اختلافا كاد يفضي إلى سفك الدماء وأراد كل فريق أن تكون تاجوج من نصيبه
فنهض أحد مشايخهم وكان حازما، ونادى: (تاجوج) من خبائها، فلما أقبلت طعنها بخنجره في صدرها فماتت وحسم النزاع.
ماتت تاجوج، ولكنها ظلت حية في نفوس الذين قتلوها كما هي حية في قلوب بني وطنها جميعاً ولا زال قبرها إلى اليوم يزار (في رأس النيل) بين خور جب وكسلا، وما زال أهل السودان يضربون بها وبمحلق الأمثال.
ثم جاء الطعام على عادة العرب (كسرة، مرقة، وشواء) فكانت رغبتنا في التهام طعامه حديثه أكثر من رغبتنا في التهام طعامه
فقلت وهو يستطعمني فأطعم، ثم ماذا بعد؟ فان أعذب الحديث حديث المائدة خاصة مع العرب الأجواد فقال: ثم إن بطناً من عرب الحران حلّ بهذا المكان القريب من هذه الغابة
فأنجباني أنا وليلى، فكنت معها كمحلق مع تاجوج، غير أنها وفت لي فلم تستبدل بي زوجاً، ووفيت لها فلم أدخل عليها زوجة، مع كثرة تعدد الزوجات في هذا الحي الذي ننزل به
وما كدنا ننتهي من طعامنا وشرابنا وأحاديثنا حتى كانت الشمس مضيفة للغروب، والقمر يستعد للجلوس على عرش السماء، بعدها، فتهيئنا للجولان بالغابة ومعنا معداتنا من حراب ورماح، وموعدنا ببقية الحديث رسالة أخرى.
محمد البنداري. مدرس بالخرطوم
إلى بئر جندلي
للأستاذ الدمرداش محمد. مدير إدارة السجلات والامتحانات بوزارة المعارف
- 2 -
وبعد دقائق انحدرنا إلى ميدان المنشية وأخذنا طريقنا إلى مقبرة الأمام الشافعي، وبعد أن اخترقناها أقبلنا على قرية البساتين فكانت في سكون لا يسمع من حولها إلاّ نباح الكلاب وصرير الصراصير، ثم مررنا بمقابر اليهود فاستقبلنا حارسها وأخبر الدليل بمرور الجمال.
كان الليل باردا والسكون شاملا وضوء القمر فاترا يملأ الأرجاء، وكنا نسير في صمت وأمامنا الدليل منحن قليلا إلى الأمام يجد في السير بقدم ثابتة ونحن نتبعه ونتابعه.
معنا السلاح والذخيرة، ومعنا الماء والزاد، ومعنا الدليل الخبير المجرب، ونحن جماعة أشداء، فمم الخوف؟ كانت تجول هذه الأفكار بخاطري وانظر إلى الرفاق وهم يسيرون على هيئة الجند فتتملكني روح زهو وفخار، واشعر بنشاط وقوة، فيرتفع رأسي ويتسع صدري وألاحق الدليل وأتقدم الجماعة، والنفس طافحة بشراً وغبطة.
بعد ساعة مال الطريق نحو الشرق، ثم أخذنا نرتقي هضبة وأخذت تتلاحق التلال وتعلو، وقبيل نصف الليل غاب القمر وخيم الظلام وأصبح منظر الوادي رهيباً موحشا،

وهنا قال الدليل: (وادي التيه يا سادة) في هذا الوقت كنا نتقدم في واد متسع تعلو الهضاب على جانبيه وهو ينثني بينها تارة يمينا وطورا شمالا.
وعند الساعة الثانية صباحا وصلنا حيث كانت تنتظرنا الجمال في ناحية من الوادي، وقد جلس بجانبها سويلم يدخن غليونه بينما انشغل على الجمال بإمداد بؤرة التدفئة بالعشب الجاف، كان قد طال بنا السير أجهدنا أصبحنا في حاجة إلى الراحة بل إلى النوم، فاستلقينا على الأرض قريبا من الجمال ثم غلبنا النعاس فنمنا.
كنا نائمين في العراء وليس علينا غطاء، فاستيقظنا عندما لاح الصباح بعد نوم قصير وأجسامنا ترتعد وأطرافنا ترتجف من شدة البرد، وكانت الطبيعة هادئة وبزوغ الشمس من وراء الجبال فتناً ساحرا، وكنت أطيل النظر فيما حولي واسأل نفسي: أنا في حلم أم في
يقظة؟ فقد زال عنائي وغدوت مرحا فرحا نشطا، وبعد أن تناولنا فطورا ساخنا بسيطا ذهبت الجماعة بصحبة الدليل إلى الصيد وبقيت أنا ومحمد بك لنسير مع الجمال، وقد تواعدنا أن نلتقي ظهرا على بئر دجلة.
كان الصباح لطيفا منعشا، والشمس مشرقة، وقد وجدت في محمد بك خير صاحب، فقد كان لطيف المعشر حلو الحديث على علم بالصيد وطرق الجبال والأودية، فاستأنست به، واطمأنت نفسي إليه فاخذ يقص عليّ في حماس ونحن نسير الهوينى خلف الجمال ما وقع له في رحلاته السابقة من مخاطر عجيبة، ونوادر لطيفة، وبعد أن سرنا هكذا نحو ساعة ضاق الوادي وانتهى بنا إلى هضبة عالية فارتقيناها على مهل، وكان صعودنا على جرف في طريق لولبي شديد الانحدار، لا يزيد عرضه على القدم ومن تحته هوّة عظيمة، وقد اجتازت الجمال هذا المنحدر الوعر من غير مشقة، فكانت متزنة الخطوات متئدة متنبهة تحاذر السقوط أو الزلل، وبعد ساعة أخرى أخذنا نهبط وادياً عظيما كثير التعاريج جدرانه قائمة، وتقوم على جانبيه الروابي العالية، والقمم الشامخة، وقبل الظهر بساعة وصلنا بطن الوادي بسلام، واتجه سويلم إلى ناحية فيه وأناخ الجمال، أشار بيده إلى كوّة مرتفعة في الجدار الجنوبي للوادي يظللها نتوء من الجبل كبير البروز، وتكتنفها أحجار ضخمة تجعلها كالوكر في مأمن من الرياح والأمطار، وقال هنا نمضي الليلة، فحملنا إليها الغطاء وبعض الحاجات وفرشنا أرضها بسجادة واعددنا في ناحية منها موقداً جمعنا بالقرب منه عشبا جافا من شيح وشوك وطرفاء، ثم هيأ محمد بك للجماعة طعاما دسما من لحم مسلوق وأرز وخضار، وبعد الظهر بساعة أقبل الصيادون يحملون أرنبين كبيرين وقد لفحت الشمس وجوههم وبدا عليه التعب، وبعد أكلة شهية تفرقنا في الوادي نتفرج على مناظره الطبيعية البديعة، وتقع بئر دجلة على عشر دقائق من معسكرنا جهة الشرق في حضن شلال فخم يعله خانق جميل، والبئر في مسقط السيل وعمقها نحو ثلاثة أمتار تمتلئ بالماء وقت الأمطار ويفيض ماؤها وقت الجفاف، والوادي كثير العشب وافر الكلأ، يسبح في فضائه أنواع من العصافير والحدأة، وترعى فيه الإبل والماعز، وبعد الغروب عدنا إلى المعسكر وقد خيم الظلام واشتد البرد وشمل الوادي سكون موحش، وبعد العشاء آوينا إلى الفراش ونمنا ملء الجفون حتى قبل الفجر، وكان منظر الوادي في السحر فاتناً يستهوي الأفئدة
ويملأ النفس دهشة وروعة، وفي الصباح الباكر توجهنا للصيد وبقى عبد الله بك وسليمان بك بالسير مع الجمال، واتفقنا أن نلتقي عصرا على بئر جندلي.
خرجنا من وادي دجلة مع بزوغ الشمس وأخذنا طريقنا فوق الهضاب وفي الأودية متوغلين شرقا لا نتبع طريقا معينة، وكان في القيادة حسن بك وهو صياد ماهر خفيف الجسم رشيق الحركة بصير بالصيد وضروبه. وبعد قليل أقبلنا على واد وافر العشب فا بصرنا أرنبا يقطع عرض الوادي بسرعة البرق يتلوه ثان وثالث، وفي لمح البصر اختفت وراء الصخور وكان لمنظرها وهي تعدو أثر مدهش في الجماعة، فاندفعوا وراءه لا يلوون على شيء، وفي المقدمة حسن بك ينهب الأرض نهبا كأنه الجواد في حلبة السباق. وفي لحظات توسطنا الوادي وبدأت المطاردة، وما أن رأتنا الأرانب حتى قفزت إلى وهدة ثم مرقت كالسهم إلى أخدود، ثم تسلقت الجبل ونحن في أثرها نتبعها من غير هوادة، نرتقي الهضاب ارتقاء، ونلقي بأنفسنا من الجبال إلى السهول إلقاء، وإشارات القائد تقذف بنا يمينا أو يسارا، طورا مقبلين وطورا مدبرين، مرة في

صياح وجلبة، ومرة في حذر وسكوت، تارة نعلو وتارة نهبط، وهكذا كانت تستمر المطاردة ساعات متواليات والحيوان التعس ينتقل من ساحة إلى ساحة، يطلب النجاة وراء الصخور وفي الصدوع وفوق الربى وتحت الأرض، ونحن وراءه نحاول دفعه إلى السهل وهو يأبى الا الوعر، تقوده غريزة البقاء فان اخطأ المسكين التقدير وحم القضاء ضاق النطاق وعز الفرار وتلقفته نيران البنادق من كل صوب فيخر صريعا ضاربا أعلى المثل في الزوغان والعناد، والصبر على الجهاد. وقد بلغ حماس القوم في المطاردة هذا اليوم حد الجنون، وكاد يقضي على أحدنا، وهو أحمد بك بالموت على أبشع صورة لولا أن قدرت له السلامة، ذلك أنه اندفع وهو مأخوذ وراء غزالة فجرت الغزالة إلى جرف صاعد في جدار الجبل، فلحق بها وأطبق عليها ولكنها أفلتت منه، ولما انطلق وراءها انهار الجرف فهوى بجسمه من شاهق فتشبث بصخرة ناتئة وأصبح معلقا بين السماء والأرض.

الكتب

الأمواج.

لأحمد الصافي النجفي

يتغنى الشاعر العراقي الفاضل في هذا الديوان بنغمات جديدة طريفة. فهو لا يسمعك مدحا في أمير أو سلطان، ولا تجد في شعره تلك العواطف المبتذلة، وليس في الكتاب نسيب يستحق الذكر. وإنما يتغنى الشاعر في ديوانه هذا بأنشودتين جليلتين الأولى الفضيلة والثانية الوطنية. وليس الموضوعان بالشيء الجديد، ولكنه يتناولهما بطريقة جديدة، ويسمعك في الأنشودتين نغمات جديدة. ولقد عاش شعراء العرب هذه القرون الطويلة وهم يحرقون فنهم بخورا أمام أصنام بشرية زائلة، ألم يأن لهم أن يقضوا قرونا أخرى يمجدون الفضيلة والوطن وهما من الموضوعات الخالدة؟

ولكي يفهم القارئ كيف يتناول المؤلف هذه الأغراض نذكر هنا القطعة الآتية:

قد كثر الفقراء ظلم ذوي الغنى ... لم يكثر الفقراء حكم الباري

كم عاش قوم من طوى، قوم وكم ... عمرت ديار من خراب ديار!

فلرب قصر بالجماجم مبتنى ... ولرب نهر بالمدامع جاري

كم مجتن ثمرا ولم يغرس، وكم ... من غارس لم يجن من أثمار!

عجز الفقير عن استعادة حقه ... فأحال ذنب الفقر للأقدار

أغني! لا تسخر بزفرة بائس ... كم من دخان منذر بالنار

وفي الكتاب قطع وقصائد كثيرة تردد هذه النغمة وأمثالها. وكلها دليل على أن الشاعر يرى أن عليه واجبا نحو وطنه ونحو بني جنسه، وان الشعراء يجب أن يكونوا رسل إصلاح لا مجرد عصافير تغرد وتطرب، وتنشدك ما تعاني وما تكابد، وما تحرق لها من مهج، وما سال من عيونها من دمع، إلى آخر ما هنالك مما تجيش به أشعار الأدب الضعيف.

وفي عدد مضى من الرسالة مقالة للأستاذ أحمد أمين في أدب القوة وأدب الضعف، وبهذه المناسبة نرى واجبا علينا أن نعلن أن هذه (الأمواج) من أدب القوة. .

ويتناول المؤلف أحيانا موضوعات أخرى في الوصف مثل قصيدته في (الشاي) و (الحنين إلى الطبيعة) و (الليل والنجوم) ولكن نزعة الوطنية والفضيلة هي الغالبة البارزة.

فقراء الرسالة قد قرءوا في عدد سابق قصيدة لهذا الشاعر وهي قصيدة (الفلاح). ومن يتأمل تلك القصيدة والقطعة التي أتينا بها هنا يستطيع أن يدرك مواضع القوة والضعف في أشعار (الصافي). أما مظاهر القوة فبادية واضحة، وأما موضع الضعف فهو في نظرنا أن الشاعر (وكأنه في هذا كشأن اكثر المجددين من شعراء هذا العصر) تشغله العناية بالمعنى عن العناية باللفظ، فألفاظه لا تنهض إلى مستوى معانيه الا قليلا. ونحن نؤاخذه أنه أحيانا يهمل العبارة اللفظية إلى درجة الخطأ كما جاء في قصيدته (بين شاعر وصاحب فندق) ورويها هي التاء الساكنة بعد ألف المد ويقول فيها:

قد جاء رب المنزل لي سائلا ... يقول ما شغلك في ذي الحياة

فقلت شغلي الشعر في نظمه ... ادفع عني جحفل النائبات

قال وهل بالشعر تحيا وهل ... تملي به أحشاؤك الجائعات

ثم يقول:

وكنت أدعى عجميا بهم ... كأنني لست ابن عرب أباة
فرحت للبدو وعاشرتهم ... فلم أجد لي مشبها في البداة
ومعروف أن التاء في الحياة وأباة والبداة في الوقف تنقلب هاء. . . وكذلك قد يذكر الشاعر ألفاظا كنا نود الا يذكرها مثل قوله:
أريد لثم كفها ... لولا اختشا عقابها
فلفظ (اختشا) ليس من الألفاظ التي يأسف الإنسان على فقدها من شعره.
على أن هذا لا يحط من قدر (الأمواج) كديوان شعر عصري لأديب مفكر قوي. وأنا لنرجو أن يهتم القارئ المصري خاصة بهذه الثمار القيمة التي تنضجها روح الأدب في العراق وسوريا.
م. ع. م
الورد الأبيض
مجموعة أقاصيص مصرية
بقلم محمد أمين حسونة
الأستاذ محمد أمين حسونة كاتب من شباب الكتاب خصب الخيال طبع القريحة لامع الذكاء جم النشاط كثير الحركة، عني على الأخص بالجانب القصصي من الأدب المصري الحديث فعالجه في توفيق وإجادة، ومجموعة (الورد الأبيض) باكورة نظيرة من ربيعه المونق جمع فيها ثلاث عشرة أقصوصة ثم سماها باسم الأقصوصة الأولى، وتقرأ هذه الأقاصيص فترى أثر مواهبه ظاهراً في وصف الأشخاص وتصوير المناظر ورسم البيئة وسلسلة الحوار، ومن خير الأمثلة على براعة فنه ودقة ملاحظته وصدق شعوره الأقصوصة الثانية (في الواحة). فلو انه أوتي من سلامة التعبير ما أوتي من سلامة التصوير والتفكير لكان له في هذا ألفن شأن غير هذا الشأن، وخطر غير هذا الخطر، على أن أسلوبه أحيانا يرتفع إلى درجة محمودة من البلاغة كقوله في ختام (في الواحة).
ويعود عدنان في صبيحة اليوم التالي بعد أن أصيب بجرح عميق في صدغه، فيفتش) عن مأوى فلا يجدها، ويطوف بالبادية نهارا وليلا، يسأل الرمال والحصى فلا تهديه، ويناجي النجوم والسحاب فتمر في طريقها ولا تجيبه. . . . ويعثر على جوادها مصادفة ملقى إلى جانب الصخور وقد طمرت الرمال نصفه الأدنى. . . . فيدرك لأول وهلة ما حدث لصاحبته، وأي مصرع لقيت المسكينة؟ فيحاول أن يبكي فيستعصي عليه الدمع، ويتحجر الأسى في مآقيه، ويرجع ثانية إلى مقره شريد النفس كاسف البال، تلوح على محياه إمارات اليأس والقنوط (!!. وعسى أن يتدارك الأستاذ في الطبعة الثانية ما وقع في هذه الطبعة من أغلاط النحو والإملاء ومخالفة العروض فيما رواه من الأبيات.
كواكب في فلك
للأستاذ توفيق وهبة
يشتمل هذا الكتاب على نحو عشر قصائد وعدة مقطوعات من الشعر؛ وعدد كبير من المقالات القصيرة مما نشره المؤلف الفاضل في صحف مصر وسوريا. ولذلك تغلب النزعة الصحفية في كثير من المقالات، فهي عادة قصيرة لا تتجاوز صفحتين أو ثلاث، ولهذا يختار المؤلف عادة موضوعات سانحة قصيرة كموضوع (عبادة المال) أو (على سطح البحر) حيث يتكلم عن خشية الراكب متن البحار. و (تركيا والألقاب) و (التأنق والتجمل) و (الرأي العام) وهلم جرا. وقد يرى البعض أن هذه الموضوعات في حاجة إلى التوسع والتعمق، لكن المؤلف عرف كيف يلم بكل منها إلمامة قصيرة، ولكنها في كثير من الأحيان لا تخلو من جمال: أنظر إلى قوله من مقال (خطاب عن الموسيقى).
إن الكون كله قصيدة أنشدتها الطبيعة
إن الملائكة تغني
إن الطيور تغرد
إن حفيف الأوراق والأشجار غناء
إن زمهرير الرياح غناء الغضب
إن هينمة النسيم غناء الرقة والعذوبة
وفي الكتاب بحث في موضوع المبارزة بشيء من التفصيل وشرح الاعتبارات القانونية للمبارزة في مختلف البلاد. ليس هذا البحث وأمثاله أحسن شيء في الكتاب. بل خير

ما فيه هو تلك القطع الأدبية، التي يصور بها المؤلف عاطفة أو فكرة أو خيالا، وكنا نود لو أسقط المؤلف مقاله عن (العرى) وعن (حفظ القلوب) فما كان يفقد الكتاب من قيمته شيئا. أما القصائد والمقطوعات، فمن رأينا أنها دون المقالات طبقة. وإلى القارئ مثالا يستطيع به أن يقارن بينه وبين ما ذكرنا له من منشور، قال يهنئ صديقا بالزواج:

بارق البشر بهيا طلعا ... فابسمي إن به كل الرجا
أنت رمز الطهر والحسن معا ... وأبوك الندب رمز للحجى

م. ع. م

1

العدد 13 - بتاريخ: 15 - 07 - 1933

شروح وحواشي

الشعر بعد أميريه:

عام مضى أو كاد على يومي حافظ وشوقي! فهل شعب القلوب الدامية عنهما سلوان، وعزى النفوس الآسية منهما عوض؟ لا يزال الجزع يهفو بالأفئدة على مستقبل الشعر اليتيم، ولا يزال الصمت الموحش يقبض الصدور في خمائل الوادي، بلى، نشط في مصر القريض، وتجاوبت الأفراخ النواهض بالأغاريد، ولكن أصواتها الناعمة الرخوة لم تملأ الأسماع ولم تطرد الوحشة، ولاحت في سورية المهاجرة مواهب النبوغ، ودلائل القيادة، ولكن البعاد يبدد الصوت القوي، والاغتراب يوهن الجهد الجهيد. كان اسم حافظ واسم شوقي علمين على الشعر في العهد الأخير، وكان الناس يؤمنون بقوة أدبية لازمة تظاهر نهضتنا، وتساير ثقافتنا، في هذين الشاعرين. فكلما خفقت القلوب لنزوة من الألم، أو لنشوة من الأمل، أصغت الأسماع تنتظر من رياض (الجيزة) أو ربى (حلوان) تلحين هذه العواطف، أو تدوين هذه المواقف. فلما خلا مكان الرجلين وقع في الأوهام وجرى على بعض الأقلام أن تلك القوة زالت وأن زمان الشعر ذهب! فحاول عشاق الأدب ورواد القريض أن يقرّوا في الرؤوس سلطان هذا الفن، ويقروا في النفوس وجود هذه القوة. فحشدت جماعة (أبولو) جميع وحداتها، وعزفت جوقتها على جميع آلاتها، وشرّقت الصحف والمجلات بفيض القرائح الشابة، ودعا الكهول القرَّح إلى عقد موسم للشعر، والزمن الذي يمحص الأشياء فينفي البهرج، الزائف ويثبّت الحق الصريح، هو الذي يعرف مكان هذه الجهود، من عالم الفناء أو من عالم الخلود.

موسم الشعر:

وقع في نفس الأستاذ الهراوي منذ شهرين أن يدعو الشعراء إلى مواضعة الرأي في إقامة موسم للشعر، فلبّى فريق، وتأبّى فريق، ورأت جماعة (أبولو) في الدعوة إحتكاراً لفضل الفكرة، واقتصاراً على بعض أغراض الشعر فأهملتها، ثم قررت أن تقوم هي بمهرجان سنوي جامع. ثم سعى بين الجماعتين ساع من حسن النية وشرف القصد فاتفقتا على العمل معا، ثم اجتمع أعضاؤهما في دار لجنة التأليف والترجمة والنشر، ونظروا في نظام الجماعة ومنهاج العمل، ومضى الشعراء الموظفون يلتمسون من معالي وزير المعارف

شرف الرئاسة للموسم فأجاب الملتمس، ثم اضطربت الألسنة والأقلام بالفكرة التي قام عليها، والغاية التي يقصد إليها، فلم نخض مع الخائضين وإنما تحدثنا إلى القائم بالدعوة نستجلي منه الغرض فما أجاب إلا جمجمة، فقلنا ليس في الأمر إذن إلا قصائد تنشد على المسرح، وتصفيق يدوي في الحفل. ثم ريح لينة تذهب رخاء بهذه الأصوات إلى مجاهل الأبد.

ولكن موسم الشعر تولى أمره نفر من كبار الأدباء فرسموا خطته وعينوا وجهته ونشروا ذلك في بيان للناس فجعلوا وجوده أمرا لاشك فيه، وتسجيله عملا لابد منه. أصبحت (جماعة موسم الشعر) بحكم البيان المنشور مجمعاً أدبيا له وسائله وله أغراضه. فأما وسائله فقرض الشعر الفصيح ووضع البحوث في الأدب، وإلقاء المحاظرات في الموسم، وأما أغراضه فإقامة موسم عام للشعر العربي في مدينة القاهرة. و (العمل للاحتفاظ في الشعر العربي بقوة الأسلوب ووضوحه، والجري على ما تقتضيه ضوابط اللغة من الصحة وما تتطلبه خصائص البيان من بعد الأسلوب عما

يضعفه أو يفنيه في غيره أو يقطع صلة حاضرة بماضيه، وتقريب ما بين الشعر العربي وغيره مع المحافظة على السنن العربي والعمل لتنوع أغراضه وفنونه وأخيلته ومعانيه، وإبراز الحياة الحاضرة والمدنية القويمة في صورها الصحيحة، والمحافظة في الشعر على الذوق العربي مع مماشاته لحاجات العصر وروحه. وتوجيه الشعراء إلى القيام بحاجة العامة والتلاميذ من الشعر في أغانيهم وأناشيدهم، وحفّز مواهب الشعراء إلى تهيئة السبل لظهورها والانتفاع بها، وخدمة اللغة العربية ونشر آدابها وتقويم ملكاتها وتنمية ثروتها من الألفاظ والمعاني والأخيلة، وتوثيق الصلات الأدبية بين مصر والأقطار العربية الأخرى.)

والرسالة تؤيد هذه الأغراض السامية من غير تحفظ، وتدخر غبطتها بها وتصفيقها لها ليوم التنفيذ؛ فإن صوغ الأماني ووضع الأنظمة وإذاعة العزم شيء، وتجويد العمل وتنفيذ الفكرة وتحقيق الغرض شيء آخر. ولعلك تذكر أن (مجمع اللغة العربية الملكي) سُن له قانون، ورصدت له أموال، ورشحت له رجال، ودعيت إليه دعوة، ووعدت به حكومة، ومع ذلك فقد انقضى عليه عام وهو لا يزال كما كان منذ سنين عدة من عدات المنى، وحديثاً من أحاديث الظنون!!

عيد المولد:

لعل أروع المظاهر الإسلامية في مصر مولد الرسول، لأنه ائتلاف منسجم من جلال الدين وأبهة الحكومة وابتهاج الشعب، ولكنه كذلك أدل الدلائل على البطء الفاتر في شيوع المدنية وارتقاء الذوق في مهد الحضارة القديمة، وأسبق الشرق القريب إلى الحضارة الحديثة!

إن كنت ذهبت إلى هذا الاحتفال منذ بضعة أيام، فثق أنه هو الذي ذهب إليه أجداك منذ عشرات الأعوام!: خيام مضروبة على الثرى الجديب، ومطاعم منصوبة على الطريق المغبر، وملاعب كنماذج الصناعة في عهد (ما وراء الفن)، وملاه يراها المثقف فيظن نفسه في مصر غير مصره، أو في عصر غير عصره!

أظهر المظاهر في هذا العبد شيئان: الأسهم النارية وهي الشيء الوحيد المدني. لأنها الشيء الوحيد الأجنبي! والحلوى، وهي موضع البلوى ومحل النظر!: حوانيت خشبية وقتية ثابتة أو منتقلة، تكدست فوق رفوفها البالية ألوان (السمسمية والحمصية والسكرية والعلف)، ثم قامت على حواشيها تماثيل وعرائس هشّة من الحلوى الرديئة، عليها غلائل فاقعة الألوان من الورق المصبوغ، وكل ذلك في غير ذوق ولا جمال ولا فن، وكل ذلك من غير غطاء ولا وقاء ولا ستر! إنما هي مهبط للذباب والغبار، طول الليل وطول النهار! يراها الخاصة فيشمئزون من شكلها القبيح، وقذرها البادي، وبائعها الوسخ، ويحملها العامة إلى بيوتهم في المناديل الغليظة والجرائد القديمة فيحملون مثابة للنمل ومباءة للجراثيم!

إن حلوى عيد الميلاد في ديسمبر، وألعاب يوم الحرية في يوليو، مثلان أجنبيان في سلامة الذوق وجمال المظهر وحسن المتاع، فلتبق حلوانا وطنية، ولتبقَ ألعابنا شرقية، ولكن ارفقوا بالذوق والجمال والصحة فأدخلوا عليها شيئاً من المدنية! أحمد حسن الزيّات

لغو الصيف

للدكتور طه حسين

(2)

من هنا، يا أستاذ من هنا! وأذن لي في أن أسعى بين يديك فلا بد لك من دليل. ثم سعت أمامه رشيقة أنيقة في طريق طويلة جميلة، يحفّها من جانبيها الشجر والزهر، وفيها قليل من ضيق، وشيء من التواء. وقد استمتعت الأشجار القائمة على جانبيها بشيء من الحرية عظيم لا يستمتع به الناس في هذه الأيام، فمدت أغصانها كما شاءت في غير نظام، حتى اختلط بعضها ببعض والتف بعضها ببعض. وجعلت الآنسة تسعى أمامي رشيقة رفيقة، وتجدُّ في التفريق بين هذه الأغصان الملتفّة المتعانقة لتشقّ طريقها وطريق صاحبها، وكأنها كانت تجد في ذلك شيئاً من العسر اللذيذ، فكانت تحاول أن تعتذر بهذه الجُمل السهلة اليسيرة الفارغة التي تقال في مثل هذه الحال: ليست الطريق سهلة هنا، يجب أن تحتاط، وما رأيك في هذه الأغصان التي تريد أن

تداعبنا وإن لم نطلب إليها المداعبة؟ حقاً لقد أسرفنا في إهمال هذه الأشجار فأسرفت في الانتفاع بحريتها. وكان صاحبها يجيب على هذه الجمل بضحك فارغ لا يدلُّ على شيء إلا على أنه لم يكن يجد ما يقول. لأنه لم يكن يسمع لهذه الجمل التي تلقى إلا بإحدى أذنيه. وقد كانت نفسه كلها مفتونة بهذه الطبيعة الحرة المطلقة، وبما بينها وبين حياة الناس في هذه الأيام من تناقض واختلاف. ولعله كان يُعجبْ بهذا القوام المعتدل الذي كان يسعى أمامه في رفق، ويجاهد هذه الأغصان في لباقة وظرف، ولكنه كان يخفي حتى على نفسه هذا الإعجاب الذي لو أحسّتْه صاحبته لضاقت به ضيقاً شديداً. حتى إذا طال سعيهما في هذه الطريق الخفيّة الملتوية انتهيا إلى رقعة واسعة رحبة من الأرض، وقد فرشت ببساط ناعم كثيف من العشب، وانتثرت فيها قطع بديعة من الزهر، قد نسِّقت أحسن تنسيق وأجمله، وقامت في وسطها مائدة قد نثرت عليها أوراق الورد في كثرة تلفت النظر. فلما انتهيا إلى هذا المكان الهادئ الباسم الجميل، أرسلت من صدرها زفرة ضاحكة وهي تقول: لقد انتهى الجهد وآن للمتعب أن يستريح، اجلس يا سيدي فهنا يحسن الحديث فيما أظن. قال: بل هنا يحسن الاستماع. قالت: الاستماع لمن! الاستماع لماذا؟ قال: الاستماع لك والاستماع لهذا الصمت الناطق من حولنا.

قالت: دع عنك الاستماع لي فما أحسب إلا أنك قد سئمته، أو ستسأمه، وما أحسب إلا أنك قد زهدت فيه أو ستزهد فيه حين يستأنف بيننا الحوار، فيستأنف بيننا الحوار من غير شك، ولكن حدِّثني عن الاستماع للصمت كيف يكون؟ وحدثني عن الصمت كيف ينطق أو كيف يصدر عنه الكلام؟ وكأنا في أثناء هذا الحديث قد أخذا مكانهما إلى المائدة وجهاً لوجه. وكان صاحبها حائر النظر بعض الشيء يردده بين السماء والأرض، ويردده بين قطع الزهر المنتثرة من حوله وبين آنية الزهر القائمة على المائدة، وبين أوراق الورد المنثورة بين يديه. قالت: ألست قد زعمت لي منذ أيام أنك تحب لثم الورد وشم القرنفل فهذا هو الورد تستطيع أن تمتع نفسك به كيف أحببت، أنظر إليه مختلفاً ألوانه مستوياً على سوقه، بعضه قد هام بالحياة والضوء فانبسط لهما انبساطاً وأخذ يلتهمهما التهاما، وبعضه قد أحبهما، ولكنه يسمو إليهما في استحياء فيتفتح لهما قليلا قليلا، وبعضه يحسّهما وينعم بهما ولكنه لا يكاد يشعر بهذا الحس وهذا النعيم، فهو أكمام لم تتفتح بعد. وانظر إليه أسيراً في هذه الآنية لم يبق فيه من الحياة إلا ذماء يسير يمسكه عليه هذا الماء الذي تحتويه الآنية. وانظر إليه صريعاً قد فقد الحياة وتفرقت أوراقه، وانتثرت بين يديك غضة، ولكنها تسرع إلى الذبول أو يسرع إليها الذبول.

وهذه زهرات من قرنفل قد هُيِّئتْ لك وفرقت في آنية الورد تبعث إليك عرفها هادئا قويا. فماذا تريد فوق هذا؟ قال: لا أريد إلا أن تمضي في هذا الحديث الذي أخذت فيه منذ الآن، فإني لا أعرف ترجمة عن هذا الصمت الذي كنت أريد أن اسمع له أبْلغْ من هذه الألفاظ التي ينثرها حديثك العذب. قالت: وما زلت مشغوفاً بالعبث لا تفرغ منه إلا لتعود إليه. لقد أنبأتني عن حبك للورد والقرنفل، فها أنت ذا بين الورد والقرنفل، فحدثني أنت بحديثهما فأنت أعلم به وأقدر عليه مني. قال: ما أعرف يا آنسة أن لهما حديثاً يحكى، فان كان لهما حديث فما أعرف أن أحداًيستطيع أن يحكيه غيرهما فاستمعي لهما إن شئت، وغيركِ فاسمعيني حديثهما إن شيءتِ، فإنما أنت زهرة بين الزهر.

قالت: كأنك تريد أن تحفظني. فاعلم أنك لن تبلغ ما تريد، ولن تثير حفيظتي، ولن تصرفني عما أزمعتُ من أن أسمع منك حديث الورد والقرنفل. فلا تلتوِ به فلن ينفعك الالتواء. وأقبلت خادم تسعى وهي تحمل صينية عليها إبريق وأكواب. فوضعت إبريقها وصفّت أكوابها، وانصرفت متثاقلة. وكانت عجوزاً شمطاء قد انحنت قامتها، وأسرف الذبول في وجهها، فلم تكد تبقى فيه قطرة من حياة. وكان منظرها في هذا الفناء مناقضاً أشد المناقضة لما يحيط بها من هذه الحياة القوية، فهمّ أن يتكلّم، ولكن صاحبته قالت وقد فهمت عنه ما كان يريد: ومع ذلك فهي أنشط منك للحياة، وأحرص منك على نعيمها ولذّاتها، لا يفوتها موسم، ولا يفلت منها عيد، ولا تقصَّر عن فرصة إن سنحت لها لتشترك فيما يراه الناس سعادة ونعيماً أو لهواً وصفواً. وهي بعد هذا كله صماء مغرقة في الصمم تستطيع أن تتحدث إليها وتصيح بها فلن تسمع لك ولن تفهم

عنك. وهي بعد هذا وذاك قد نيَّفت على الستين، ولكن هات حديث الورد والقرنفل. ثم عمدت إلى الإبريق فملأت منه قدحين وهي تقول: لقد أنسيت، فهذا يوم الورد تستطيع أن تراه وأن تشمه، وأن تلمسه، وأن تلثمه، وأن تشربه أيضاً. فليس في هذا القدح بين يديك إلا ماء الورد.

والآن تحدث، فقد يحسن الحديث. قال: أيّ حديث يحسن في مصر وما أعرف بلداً أفضح لسر الحديث، وأكلف بنشره وإذاعته من هذا البلد. أتذكرين؟ قالت: وكيف لا أذكر؟ إنك تشير إلى مجلسنا ذاك على شاطئ النيل، وإلى حديثنا هناك عن شيوخ الأدب وشبابه. فقد نشر هذا الحديث في الرسالة. قال: ومع ذلك فلم يكن في مجلسنا ولا قريباً منه أحد. قالت: ولست أنت قد ألقيته إلى من أذاعه، هذا شيء لا شك فيه. قال: ولا أنت، هذا شيء لم يخطر لي. قالت: وإذن؟ قال: وإذن فهو طائر من هذه الطير التي تؤوي إلى الأغصان إذا كان الأصيل ودنا الليل فتسمع حديث الناس وتعيه، وتلقيه في روع الكتّاب والشعراء. أو هو جنيٌّ من هذه الجن التي تألف شاطئ النيل فتقيم في ظل الأشجار التي تقوم عليه، أو تسكن تحت هذا الماء الذي يجري فيه، وتسمع أحاديث الناس والأشياء وتعيها فتنقلها إلى الكتاب والشعراء وتنطق بها ألسنتهم، وتجري بها أقلامهم. ولهذا لست مسرفاً في حب الحديث، وفي حب الحديث عن هؤلاء الذين لا يحبون أن يتحدث الناس عنهم إلا بما يريدون لا بما يريد الناس. قالت: من الظواهر التي لا تحتاج ملاحظتها إلى دقة ولا إلى ذكاء أن مصر مفشية للسر، قليلة الحرص على الكتمان. أنظر إلى بيئاتها المختلفة، فلن ترى لها سراً. أحاديث ساستها وقادتها وأدبائها وأصحاب الأعمال فيها ذائعة شائعة يعرفها الناس جميعاً ويتناقلها الناس جميعاً. ومصدر هذا في أكبر الظن أن طبيعة مصر نفسها صافية واضحة، مسرفة في الصفاء والوضوح، سماؤها صحو دائماً، لا يتكاثف فيها الغمام، ولا يتراكم فيها السحاب، وأرضها مبسوطة هينة لا ترتفع فيها الجبال الشاهقة، ولا تنتثر فيها الكهوف والأغوار، ولا تنبت فيها الغابات الكثيفة الملتفّة، فأمرها كله ظاهر، وحديثها كله شائع، وشمسها المشرقة دائماً لا تؤتمن على سر مصون. على أننا لم نقل في حديثنا ذاك شيئاً يسوء الأدباء أو يغضب أحداً، فليس من إذاعته بأس وإن كنت لا أحب ذلك، ولا أرتاح إليه، ولا أخفي عليك أني إنما أثرت أن يكون اجتماعنا الليلة عندي لأني واثقة أن لنا من العزلة ما نحب، وبأن أحداً لن يستطيع أن يندسّ لنا، أو يتسمّع علينا. قالت: إلا هذه الطير التي تؤوي إلى الأغصان إذا أقبل الأصيل ودنا الليل، وإلا هذه الجن التي تستظل بالأشجار وتتضاءل أحيانا حتى تتخذ لنفسها منازل في ثنايا العشب وبين أوراق الأزهار. في هذه الطير، وفي هذه الجن، وفيما يحيط بنا من الزهر والشجر من يسمع لنا وينمّ بما نتساقى من ماء الورد، وما يجري بيننا من لغوِ الحديث، قالت: وأيُّ بأس بأن يذاع ما يجري بيننا من لغو الحديث؟ إنما يكره الناس جد الحديث ويخافونه، فأما لغو الحديث فالناس مزدرون له، أو راغبون فيه. قال: وهل تظنين أنا نستطيع أن نأخذ بالجد حين نعرض للحديث عن الأدب والأدباء في مصر؟ وأين تجدين الجد في حياة الأدب والأدباء؟ أتجدينه في هذا الحوار الذي يطول ويطول حتى يثقل ويمل حول ألفاظ وقعت في كتاب، أو حول رأي رآه ناقد في كتاب، أو حول حديث كان بين كاتبين، أو مناظرة يسيرة كانت بين أديبين؟ أليس هذا كله دليلاً على فراغ البال واحتياج الأدباء إلى ما يشغلون به أنفسهم عن هذه الأحاديث الطوال الثقال التي تضيّع الوقت، وتفني الجهد دون أن تنفع أو تفيد؟ قالت: هذا حق ولكن الأدباء أصحاب كلام وما داموا يتكلمون فهم يؤدون حق الناس عليهم فالناس لا ينتظرون منهم إلا أن يكتبوا لهم ما يقرؤون. قال: لا كل ما يقرؤون بل ما ينتفعون به إذا قرؤوه. قالت: هنا نختلف فقد ينبغي أن نتفق أولاً على معنى الانتفاع بما يقرأ أنت تريد إذا قرأت كتابا أو فصلا أن تفيد شيئا جديدا أو أن تضيف علما إلى علم وأن تنمي حظك من الثقافة أو أن يثير ما تقرأه في نفسك عاطفة أو لونا من ألوان الشعور وأنت لا ترضى من القراءة دون هذا.

فأنت عسير ليست السبيل إلى إرضائك سهلة ولا ويسيرة. وأنت لذلك تلتمس قراءتك عند

قليل جدا من أدباء الشرق وعند عدد غير كثير من أدباء الغرب. ولكنك تخطيء كل الخطأ حين تزعم أن القراء جميعا يطلبون إلى الكتّاب مثل ما تطلب إليهم. ولو قد

فعلوا لكان الأدباء شر الناس حالاً وأدناهم إلى العجز والإفلاس. أنت وأمثالك تشقون على الأدباء فيما تطلبون ولكني أنا وأمثالي لا نطلب إليهم كل هذا أو لا نطلبه إليهم في كل وقت، فنحن نحب أن ننتفع إذا قرأنا ولكنا نكتفي من القراءة بما دون ذلك. نريد منها أن تلهينا إذا ركبنا الترام أو القطار وان تعيننا على إنفاق الوقت إذا لم يمكنا نشاطنا من العمل وان تدعو إلينا النوم إذا أبطأ علينا. ولا تغضب أن زعمت لك إننا قد نضيق بالقراءة الخصبة الغنية ونؤثر عليها هذه القراءة السهلة الفارغة التي لا تنفع ولا تضر ولكنها تعين على إنفاق الحياة. وأنت تستطيع أن تنكر على أدبائنا ما شئت ولكنك لن تستطيع فيما اعتقد أن تنكر عليهم انهم يكتبون لنا من الكتب وينشرون لنا من الفصول ويثيرون بيننا من ألوان الخصومة والحوار ما يمكننا من أن نركب الترام والقطار ومن أن نقرأ إذا أجهدنا العمل ومن أن نتعجل النوم إذا طال انتظارنا له. وأنت تظن أن هذا قليل وأؤكد لك أن هذا كثير فليس الأمر ذو الخطر في الحياة هو أن نتعلم ونثقف أنفسنا وإنما الأمر ذو الخطر حقاً هو أن نحتمل الحياة وأدباؤنا يعينوننا على احتمال الحياة حقا بما يكتبون ويذيعون. قال: قد يكون هذا حقا ولكنه مؤلم ثم سكت وأطال السكوت. وسكتت هي فأطالت السكوت. ثم مد يده إلى قدحه فاستنفد ما كان فيه من ماء الورد. وأراد أن يعود إلى صمته ولكنها سألته باسمة: فيم هذا الصمت الطويل! أمستمع أنت لحديث الزهر؟ أم مشفق أنت من الطير والجن أن تنم عليك بما تقول؟ هنالك ابتسم ابتسامة شديدة المرارة وقال في صوت حزين: كلا لست استمع للزهر ولا أخاف الطير والجن وإنما أستمع لنفسي وأخافها. فهل تعلمين أنك قد بغضت إليّ الكتابة والإنتاج الأدبي منذ اليوم. قالت وهي مغرقة في الضحك: أنا! ولماذا؟ قال: من يدري؟ لعلي لا أكتب ولا أنشر إلا لأعين القراء على أن يركبوا الترام والقطار وينفقوا الوقت إذا أضناهم العمل ويتعجلوا النوم إذا أبطأ عليهم النوم. قالت: لم أقل هذا وهبني قلته أليس كذلك يكفيك أن تكون عوناً لقرائك على احتمال الحياة؟ قال: لا. قالت: انك لواسع الطمع عظيم الكبرياء. ثم مدت يدها إلى أناء من آنية الزهر فأخذت منها قرنفلة وضعتها في صدره ووردة أدنتها من فمه. وقالت: لتلتمس عزاءك عند هذه الوردة

وهذه القرنفلة فما أرى إلا انهما قادرتان على هذا العزاء. ولكنك مخطئ أن ظننت انك قد أنسيتني بهذا الحديث قصة الورد والقرنفل فما زلت أذكرها وأنتظرها. فتحدث. قال: إنها يا آنسة قصة طويلة وليس هذا وقت البدء فيها. فإذا عدت من رحلتك السعيدة إلى أوروبا فسأحدثك بها، وأنا زعيم بأنك ستجدين في الاستماع لها لذة ورضى.

. . .آفة اللغة هذا النحو

أذكر أن الطالب الناشئ كان يدخل الأزهر فيجد أول ما يقرأ من كتب النحو شرح الكفراوي على متن الأجرومية، وهذا الكتاب شديد الكلف بالأعراب، يأخذ به المبتدئ أخذا عنيفا قبل أن يعلمه كلمة واحدة من أقسام الكلام ووجوه النحو. يفتحه الصبي المسكين فلا يكاد يقول (بسم الله الرحمن الرحيم) حتى يصيح به الشارح أو المقرر أن أنتظر حتى أعرب لك البسملة! وهنا يسمع لأول مرة بحرف الجر الأصلي والزائد، ويعلم بطريقة أن له في البسملة تسعة أوجه نشأت من رفع الرحمن ونصبه وجره، مضروبة في رفع الرحيم ونصبه وجره، ثم يمضي المعرب في إعراب هذه الأوجه بالتخريج العجيب والحيلة البارعة حتى تقف قدرته عند وجهين لا يجد لهما مطلعا ولا مأتى فيمنعهما، وهما جر الرحيم مع رفع الرحمن أو نصبه؛ ثم يخشى بعد ذلك الجهد أن يعبث النسيان الساخر بهذه الدقائق الغالية فيسجلها في هذين البيتين وهما:

أن ينصب الرحمن أو يرتفعا ... فالجر في الرحيم قطعاً منعا

وأن يُجر فأجِز في الثاني ... ثلاثة الأوجه خذ بياني!

يأخذ الطالب هذا البيان على العين والرأس ثم يخطو خطوة فتقع عينه على العنوان الأول في الكتاب وهو (باب الإعراب) وهنا يقول له الشارح: قل باب الأعراب بالرفع أو باب الأعراب بالنصب أو باب الأعراب بالجر فلن تعدو وجه الصواب في أي حالة!! فالرفع على أن (باب) خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هذا باب الأعراب، أو على أنه مبتدأ والخبر محذوف تقديره: باب الأعراب هذا محله، والنصب على أنه مفعول به لفعل محذوف تقديره: اقرأ باب الأعراب، وأما الجر فعلى أنه مجرور بحرف جر محذوف

تقديره: أنظر في باب الأعراب!! ثم يصعد الطالب في معارج النحو على كتاب من هذا الطراز بعد كتاب، حتى يتسنم ذروته، وليس في ذهنه مذهب صحيح ولا قاعدة سليمة.

وماذا تنتظر من مثل هذا الخلط غير إفساد الذوق وإضعاف السليقة، وطبع القرائح على هذا الغرار من التفكير العابث والتقدير الهزيل؟ جنى هذا النحو الفوضوي على الناشئين في معاهده فعمى عليهم وجوه الأدب، ثم فتح لهم من الجدل اللفظي والتخريج اللغوي أودية وشعابا يقصر دون غايتها الطرف. فعندهم كل صواب يمكن أن يخطّأ، وكل خطأ يمكن أن يصوّب وكل كلام على أي صورة يجب أن يفسر أو يؤّول! أخرق القواعد، وأقلب الأوضاع، وأنطق

اللفظ على أي حركة، واستعمله في أي معنى، فانك واجد ولا شك من هؤلاء من يلتمس لك وجها من وجوه (البسملة) السبعة، أو مخرجا من مخارج (باب الأعراب) الثلاثة!

عرفت أيام الطلب شيخا قد ابتلي بهذه الشعوذة، فحشا جسمه بهذا العبث النحوي حتى ليرشحه من جلده، ويرعفه من أنفه، ثم يتكلم فيتعمد اللحن القبيح، فإذا أنكر عليه منكر انفجر عن هذا الهوس فذكر لكل خطأ وجها، ولكل وجه علة، ثم يقول في تفيهق وزهو: (لولا الحذف والتقدير، لفهم النحو الحمير) وسمعت أن شيخا ضعيف البصر ممن يسوغ في فهمهم كل كلام، قرأ قول الرسول (ص) (المؤمن كيِّس فطِن، فصحّفها: المؤمن كيس قطن! وراح يحملها على التشبيه فيقول: معناه أن المؤمن أبيض القلب كالقطن: وزعموا أن شيخا كبيرا كان يفسر كتاب الله وهو لا يحفظه، فرأى قوله تعالى: (إذ يبايعونك تحت الشجرة) فقرأها أذئبا يعونك. . . وكتب في تعليلها وتأويلها أربع صفحات من القطع الكبير بالحرف الصغير!!. وحدثوا أن ممتحنا من هذا النمط، كتب في ورقة طالب راسب: (لا يصلح) ثم ظهر لأمر خارج عن إرادته أنه ناجح، فكتب تحت هذه الجملة: (قولي لايصلح، صوابه يصلح ولا زائدة) والأحاديث مستفيضة عمن نكبوا بهذه الدراسة دون أن يكون لهم من المنطق ضابط، ولا من الطبع دليل.

إن ما نجده في النحو العربي من التناقض والشذوذ وتعدد الأوجه وتباين المذاهب إنما هو أثر لاختلاف اللهجات في القبائل، فقد كان رواة اللغة يرودون البادية ويشافهون الأعراب، فيدونون كلمة من هنا وكلمة من هناك، فاجتمع لهم بذلك المترادفات والأضداد، وتعدد الجموع والصيغ للفظ. واختلاف المنطق في الكلمة، والنحاة مضطرون إلى أن يمطوا قواعدهم حتى تشمل هذه اللحون، وتستوعب تلك اللغات، فأغرقوا القواعد في الشواذ، وافسدوا الأحكام بالاستثناء، حتى ندر ان تستقيم لهم قعدة أو يطرد عندهم قياس. وزاد في هذه البلبلة أن أسرف أعاجم النحاة في التعليلات الفاسدة، والتقديرات الباردة، منذ نهج لهم ذلك النهج ابن أبي اسحق الحضرمي، فجعلوا النحو ضربا من الرياضة الذهنية، والقضايا الجدلية، التي لا يصلها باللغة سبب، ولا يقوم عليها فن ولا أدب. ليس من شك في أن دراسة النحو على هذا الشكل تفيد في بحث اللهجات في اللغة، ودرس القراءات في القرآن، ولكن دراسته لضبط اللغة وتقويم اللسان أمر مشكوك فيه كل الشك. نحن اليوم

وقبل اليوم إنما نستعمل لغة واحدة، ونلهج في الفصيح لهجة واحدة، فلماذا لا نجرد من النحو القواعد الثابتة التي تحفظ هذه اللغة، وتقوم تلك اللهجة، وندع ذلك الطم والرم لمؤرخي الأدب، وفقهاء اللغة، وطلاب القديم، على أن يطبقوه على الحاضر، ولا يستعملوه في النقد. وإنما يلحقونه بتلك اللغات البائدة التي خلق لها وتأثر بها، فيكون هو وهي في ذمة التاريخ وفي خدمة التاريخ.

لقد صنعت المدارس المدنية شيئا من ذلك، فنجحت بعض النجاح في تجريد (نحو) عام يكاد يسير في وجه واحد، ولذلك لا تجد المتخرجين فيها يتقارعون في النقد بالنحو القديم، ويقصرون المناظرة على هذا الجدل العقيم. ولكن فريقا ضئيل الشأن من بقايا الثقافة القديمة في مصر والعراق، لا يزالون يظنون أنا مجبرون على إخضاع ألسنتنا وأقلامنا لتلك اللهجات البالية، فيقعد بهم تخلف الذهن وضعف الملكة وكلال الذوق، عند هذه البقايا الأثرية ينبشون عنها قبور البلى، ثم ينثرونها كالشوك في طريق الأدباء الموهوبين، ويتبجحون بان هذا اللغو هو اللغة!!

يقرؤون الكتاب القيم للعالم الباحث، أو للأديب المجدد، فيعمون عن خطر البحث في

نفسه، ومجهود الباحث في بحثه، ولا يرون إلا حرفا وقع مكان حرف، أو جمعا لم يجدوه في كتب الصرف! لا نريد أن نسمي الأسماء ولا أن نضرب الأمثال، فحسب الشذوذ أن يدل على نفسه، وحسبنا أن نهيب بالعلماء والأدباء أن يشذبوا هذه الزوائد من لغتنا لتقوى، ويُنَحُّوا هذه الطفيليات عن أدبنا لينتعش.

الزيات

رأي في أوراق الورد

للآنسة عفيفة سيد

قلنا في العدد الحادي عشر في معرض الرد على الآنسة الفاضلة عفيفة (إن في الأدب العربي الحديث طرفة من هذا النوع الذي تريدين (الرسائل الغرامية) هي آية من آيات الفن في دقة الصنعة، ولعلها لا تقل جمالا عن تماثيل (فدياس) وصور (رفائيل) ولكنها كهذه التماثيل وتلك الصور ينقصها شيء واحد هو كل شيء: ذلك هو الروح) أردنا بتلك الطرفة أوراق الورد (وقد كتبناها سهوا رسائل الورد) للأستاذ الرافعي. ثم رجونا من الآنسة عفيفة أن تقرأها وتبدي رأيها فيها، فقرأتها ثم بعثت إلينا بهذه الرسالة.

سيدي الأستاذ:

ما كان الأمر يحتاج إلى رجاء (فرسائل الورد) أو (أوراق الورد) أسم مشوق يستميل القلب ويستهوي النفس. ومن ذا الذي لا يسرع إلى أوراق الورد لتبهج قلبه، وتزيل كربه، وتهذب إحساسه، وتغذي خياله؟

غير أني لم أكد أطالع رسالتين من رسائل الورد حتى عرفت سبب الرجاء، وقلت لعل الأمر كان يحتاج إلى ألف رجاء. إذ وجدت إن من العسير علي بل من المتعذر أن امضي في مطالعتها، وكدت أن ابعث إليك برأيي فيها مكتفية بما طالعت، غير أني وجدت من الإسراف أن احكم على الكتاب بقراءة رسالة أو رسالتين، فمضيت في المطالعة والله يعلم كم مرة انقبضت نفسي، وكم مرة اعتراني الملل، حتى زهدني في أن أدلي برأيي فيها.

ولعلك يا سيدي الأستاذ لو كنت دفعت بي إلى الوراء سبعمائة عام مضت لوجدت في (البهاء زهير) صورة صادقة لنفسي، ومرآة جلية لعواطفي وشعوري، بل لذكرني لفظه الرقيق ومعناه الدقيق رقة طبيعة مصر وعذوبتها، بل لوجدت في مقطوعاتها الحية ما يجعلني أن أتخيل إن كاتبها معاصرا لنا اكثر من كثير من معاصرينا الموجودين.

حاولت أن أقف على الفكرة التي تدور حولها (أوراق الورد) فلم أوفق، فهي رسائل مفككة لا يتصل بعضها ببعض، لا تترجم عن عواطف صحيحة ولاعن شعور صادق. يعرض علينا الكاتب عواطف مبهمة فيها تكلف وفيها صنعة، دون أن يبعث فيها شيئا من شخصيته وميوله وعواطفه. لا أثر فيها لروح الجماعة أو البيئة التي خضع لها الكاتب. هو متكلف

متصنع، وإلا لأطلق لشعوره العنان وترك نفسه على سجيتها، فلا يتسامى عن وصف الحياة الاجتماعية، ولاعن الحوادث اليومية، مما يسميه هو حشواً، لأن المترجم الصادق هو من يعني بالصغيرة قبل الكبيرة فلا يتقيد بقيود لفظية ولا معنوية ولا يضع بيننا وبينه حجابا كثيفاً.

يسير الكاتب إلى غرضه في المعنى القليل إلى كثير من التعقيد اللفظي، ليخلق منه فلسفة، فإذا أراد أن يقول ما قاله شوقي:

لا أمس من عمر الزمان ولا غد ... جمع الزمان فكان يوم لقاك

يقول في صفحة 245:

(قد عرفنا أن لنا أعماراً محدودة، أفلا يجوز أن ساعات الهناء والسعادة إنما كانت محدودة لأنها أعمار لأعمارنا؟ فبضعة أشهر من الجفاء أو البعد يكون عمرها هو ساعة اللقاء التي تنفق بعدها، وسنة كاملة من عمل يكون عمرها يوم سرور إن كان هذا صحيحا فما أقصر عمرك يا عمري!. . .)

فها هو ذا شعر شوقي لرقة لفظه وسهولة معناه، يكاد أن يكون نثراً، أما نثر (أوراق الورد) فمحتاج إلى طول أناة لتعرف قصده وتقف على مرماه.

أنا يا سيدي الأستاذ لم أعرف السر في توجيهك نظري إلى (أوراق الورد) فإذا كان قصدك أن تدفع بالبرهان قولك: إن الفن وحده لا يوجد الشعور فهذا الكلام لا يحتاج

إلى برهان، وأنا مؤمنة به كل الإيمان. وأما إذا كنت تعني جادا أن تطلعني بقراءتها على جمال في الأدب العربي الحديث، لعله لا يقل جمالا عن تماثيل (فدياس) وصور (رفائيل)، فأرجو ان يسمح لي سيدي الأستاذ ألا أشاركه هنا الرأي، فأوراق الورد لا جمال فيها إذ لا معنى لها، والمعنى مصدر الروح، وهو إن حلَّ في الشيء المادي كونه وناسب بين أجزائه، وجعلها وحدة لا تنفصم.

إذن لا جمال حيث لا روح ولا وحدة ولا تعبير والمعنى مصدرها جميعا.

أرجو أن يتفضل سيدي الأستاذ فيدلني على موضع الجمال فيما سأنقله إليه نموذجاً لما اشتمل عليه الكتاب (من رسالة في العتاب صفحة 207)

ما هذا يا سيدتي وليس خيط عمري في إبرتك. . . ولا ما يتمزق من أيامي . . .) تصلحه

بقدرتك، وان كنت أنا أقل من (أنا)، فلست أنت بأكثر من (أنت) (ماكينة الخياطة) فان كان قلبك يا سيدتي شيئا غير القلوب فما نحن شيئا غير الناس، وان كنت . . .) هندسة وحدها في بناء الحب، فما خلقت أعمارنا في هندستك للقياس، وهبي قلبك خلق (مربعاً) أفلا يسعنا (ضلع) من أضلاعه؟ أو مدوراً أفلا يمسكنا محيطه في نقطة من انخفاضه أو ارتفاعه؟ وهبيه (مثلثاً) فاجعلينا منه بقية في (الزاوية) أو (مستطيلاً) فدعينا نمتد معه ولو إلى ناحية. . . ما بال كتابنا يمضي سؤالاً من القلب فيبقى عندك بلا (جواب) ونبنيه نحن على حركة قلوبنا فتجعلينه أنت مبنياً على (السكون) ثم لا محل له من (الإعراب). . . الخ.

أما الصور والتماثيل التي تفوز منا بإعجاب الجمال، فيكاد أن يكون لها روح، أو لها روح بالفعل من معانيها التي حدت بعبقرية المثال أو المصور إلى تصوير الأفكار الجيّاشة بمخيلته، فهي معبرة عن الرجاء، أو الحب، أو الحكمة، أو الخوف، أو الوداعة، أو الطهارة.

وسقراط كان يقول عن خبرة انه يجب على المثال أن يصور حالة الذهن في تمثاله، وكانت تماثيل الإغريق لها أثر كبير في تقرير مزاج الأمة. هذا رأيي في (أوراق الورد) وكم أحب أن اقرأ كلمة الأستاذ الفاصلة. . .

والرسالة تترك الكلمة للأستاذ السيد مصطفى صادق الرافعي

إلى الصديق الراحل

دُودٌ على عُود

للدكتور محمد عوض محمد

ها أنت ذا، أيها الصديق، قد استويت ومن معك على ذات ألواح ودسر. وقد أذنت ساعة الرحيل، ولم يبق بد من الفراق، فلم نجد مناصًا من النزول إلى البر، تاركيك على ظهرها، غير آسف لفراقنا، ولا مستشعر لوعة على تركنا. . . وانطلق الصفير والزئير يشقان الفضاء، فإذا السلالم قد رفعت، والأهلاب قد جذبت من قاع البحر. وإذا سفينتك آخذة في الابتعاد على مهل كأنها لا تريد أن تؤلمنا ببعدكم مرة واحدة؛ وإذا مناديلنا تخرج من جيوبنا بيضاء ناصعة، وقد حملتها الأيدي أعلاما تهزها هزاً؛ وبين الجوانح قلوب تخفق خفقان الأعلام، ولكن أعينكم لا تراها. وها أنتم أولاء وقوف بأفريز السفينة، تخفق مناديلكم بأيديكم خفقانا فاتراً، لم ينبعث من قلب حزين، ولا نفس آسفة؛ وعلى ثغوركم ابتسامة تعبت في تأويلها وتفسيرها؛ وأحسبها ابتسامة الرثاء والإشفاق: إنكم ترثون لنا، معشر المقيمين، وتنظرون إلينا كأننا من نوع آخر غريب عنكم، نوع يعيش عيشة الأشجار: تنشأ حيث تغرس، ثم تنمو عليها الغصون والأوراق، والزهر والثمر؛ وهي باقية في مكانها لا تبرح. وكلما تقدم بها العهد ازدادت تشبثا بمنبتها، وتعلقا بمغرسها، لا تعرف ما ركوب البحار، ولا لذة التنقل والأسفار. . .

أجل كنتم تنظرون إلينا نظرة إشفاق، وكأنكم بعض الآلهة تلقي نظرة من السماء على ما دونها من الكائنات. . . وفي تلك الساعة رأيت دموعا كثيرة تنهمل، ولكنه كانت تتساقط من عيون المودعين، لا الراحلين. . فيا ويل الشجى من الخلي؟ ويا ويل المجهود من المجدود!

وعجبت لك أيها الصديق، كيف ترحل عنا باسم الثغر، قرير العين مثلج الصدر. وأنت تعلم انك راحل عنا أشهرا طوال، لا ترانا فيها ولا نراك، أليس للود القديم حرمة، ولا للحب لمؤلف رعاية؟ وهذا الوطن العزيز الذي أنبتك ثراه وغذّاك هواؤه، وأظلك دوحه،

وأنضجتك شمسه، مالك لا تحس لفراقه جزعا ولا أسفا؟ بل كأنك بهذا الفراق جد مغتبط، ولهذا الرحيل مشتاق متلهف! لا تحاول الإنكار! إن سرورك بهذا البعاد أكبر من أن يخفيه التكلف، وما أنت ممن يحسنون تصنع الأسف، بل إن بك شوقا شديدا بادياً لمغادرة هذه
الديار، وكأنك لا تحيا بيننا تلك الشهور من كل عام، إلا لكي تقضي هذه الأشهر بعيداً عنا. فيا عجبا! أي شيء هذا السم الزعاف الذي يملأ هواء بلادنا، ويحملنا على أن نجد في البعد عنها، ويُنفِّر الابن البار من أمه البرّة؟ أهو هواؤها الحار، أم مجتمعها الفاتر، أم ما يحيق بها من ظلم وجحود، ومن حرج وضيق؟
لقد أخذت سفينتك تبتعد، ولم تلبث أن اختفت عن الأبصار وأضحت كأمل البائس لا تزداد على المدى إلا بعدا. وكأني بك واقفا على ظهرها، تتنفس نفسا عميقا، لكي تخرج من رئتيك ما قد ثوى فيهما من هواء؛ كأنك لا تريد أن تحتفظ حتى بهذا القدر القليل من الذكرى. . . بل تريد أن تأخذ عدتك لحياة جديدة، وأيام سعيدة. فما أخلفك إلا تبقي للشقاء الغابر في نفسك أثراً؟
لكن أمامك في السفينة أيام لا أراني غابطك عليها، بين أناس قد اتخذوا الدعة شعاراً، يصبحون كسالى، ويمسون كسالى، لا يعرفون جدّاً ولا دأبا، أقصى همهم أكلة لذيذة يصيبونها! أو رقدة طويلة يستطيبونها، وما عرفت الناس أدنى إلى الأنعام في مكان منهم على ظهر سفينة. . . قصارى جهد كل منكم أن يقتل الوقت، وأن يتخذ لذلك سبلا شتى: فمنكم العاكف على الشراب، لا يشفي غليله الإسراف فيه. ومنكم المكب على الورق يتسلى بإتلاف القليل من دراهمه أو الكثير. وبعضكم يلتمس اللهو في ألعاب تافهة، أو في تقليب صفحات كتاب هزيل. إذ لا يستطيع أن يجشم نفسه مشقة أو جهداً.
ولقد تقدم العالم في طريق المادة، وجاء الاختراع بسفن ذات قوة وجسامة، ولكن الركب ما برحوا اليوم كما كانوا في قديم الزمن: دود على عود!
أحسبك تتوهم أن سيتاح لك وأنت بالسفينة أن تلتقي بأعظم الرجال، واجمل النساء، ولست أدري على أيِّ َعمدٍ قام في نفسك مثل هذا الرجاء؟ وهو لعمرك جدير بما يصيبه من الخيبة المرة بعد المرة. انك تظن أن العظمة والجمال في العالم من الكثرة بحيث يجوز أن يكون لكل سفينة تشق البحار نصيب منهما، وخيل اليك ان السفينة خير دار تلقاهما فيها، حيث لا مفر لهما منك. وان المجال الضيق كفيل بان يجعل الناس بعضهم مقبلا على بعض والوقت طويل مديد، لابد للناس ان يتعاونوا على قطعه بالحديث والسمر: فالفرصة أذن مؤاتية (فيما كنت تزعم) لأن تنعم نفسك بحديث العظمة ومرأى الجمال.
وما اشد ألمك حين ترى نفسك بين أناس ككل الناس، او أتفه من كل الناس. وان المجال الضيق قد حال بينك وبين الهرب منهم. والوقت الطويل الفسيح قد حباك الفرصة اللازمة لان تعجب كيف استطاع بنو الإنسان أن يشتملوا على كل هذه التفاهة والبلاهة.
لكن، صدقني ان الذنب ذنبك أنت إذ تركت نفسك يحلق بها الأمل الكاذب. فليست ام الدنيا ولودا للعظمة والجمال بالدرجة التي صورها لك الوهم. وما جل بنيها لو فتشت الا الطغام. وليس ببدع إن خلت سفينتك مما كنت تتمناه، ثم نظرت حولك فلم تجد على ظهرها سوى دود على عود.
ولقد تشرق عليكم الشمس صبحا، وملؤها الروعة والبهاء، فتضرج وجنات المشرق بالنجيع، ثم تسكب على صفحة الماء نضاراً وسحراً، وأنتم في أسَّرتكم الضيقة القلقة راقدون، يحاول كل منكم النعاس وسط دمدمة الآلات، وصرير الأبواب والجدران؛ فلا تصيبون من النوم سوى شيء غريب، ليس بالنوم الهادئ، ولا باليقظة أو السهاد، بل هو أشبه بغفلة المخدرين، تتخللها إفاقات قصيرة المدى. . . وأخيراً تنهضون من رقادكم المضطرب، ويقبل بعضكم على بعض تتثاءبون، وتتحدثون أتفه الحديث.
وعند المساء تميل الشمس إلى الغروب، وقد أحاطت بها السحب طبقات بعضها فوق بعض، وهي تنحدر وسطها في شيء من الحيرة، كأنما تلتمس بينها طريقها إلى المغرب. تارة تحتجب وراء سحابة قاتمة حمراء، وطورا تستتر وراء أخرى استتاراً جزئياً لا يكاد يخفيها، كأنها الحسناء في الغلالة، وتارة تنحسر السحب عنها تماما فتبدو

للعين كاملة، لكنها ضعيفة لا تبهر البصر، وكأن، سير النهار قد أنهك قواها وأدال منها. فبات من السهل عليك أن تقف أمامها، محدقا في محياها آمنا، وهي كلما ازدادت ميلا إلى المغيب ازدادت ضعفاً وسقما. . . لكنها استطاعت أن تملأ السماء بشعاع أحمر قاني، ونشرته أيضاً على صفحة الماء؛ وقد اختلطت هذه الألوان كأنها بعضها ببعض، فكان منها صور تعجز الوصف.

وأنت تذكر أيها الصديق، أننا قد اتفقنا (وقلما نتفق) على ان هذا المنظر: الشمس الغاربة وسط السحاب المنشور، فوق صفحات اليم، هو أبدع شيء في الطبيعة كلها! وما أخالك الا آلماً اشد الألم، حين تنظر إلى من معك من أهل السفينة، تحاول ان تتحدث إليهم بما يبعثه

هذا المنظر في نفسك من إحساس وإجلال. . . وفي تلك اللحظة يُؤذن مُؤذن العِشاء، فإذا هم يغادرونك في شعرك وسحرك، ويتسللون إلى حجرة الطعام، راغبين عن لذة لا يعقلونها إلى لذة يفهمونها ويستمرئونها. . . وإن الصخور الصماء لتحس من معانِ ذلك الغروب البديع أكثر مما تحسه أفئدة أصحابك هؤلاء وما هم لعمرك، سوى: دود على عود.

ولقد يكون البحر لكم أول الأمر صديقاً، وبكم رفيقا. ولكنه بعد ذلك قد ضاق بكم ذرعا، فأراد ان يريكم انه مثلكم يا بني آدم، ليس ذا وجه واحد. بل إن له أوجها كثيرة، وقد أراكم من قبل صفحة فيروزية زرقاء، ووجها هادئا، أملس ناعما. كأنه سهل فسيح من مرمر أزرق. وكانت جاريتكم تجري عليه في اعتدال واتزان، لا تهتز ولا تميل وكلكم فرح بذلك مسرور. تحسبون أن الوقت قد طاب وأنكم بنجوة من العذاب. ثم رأى البحر أن يريكم وجهاً من أوجهه الأخرى. فعبس وتجهم، وثار ومار، وتطاير من وجهه الشرار. وانقلب صفاؤه إلى كدر، وهدوءه إلى انفعال، وحلمه إلى مكان، ورزانته إلى رعونة، وعلا موجه من كل جانب، ووثب رذاذه على باخرتكم، ودخل إلى نوافذ حجراتكم، وجعلت السفينة تتمايل من اليمين إلى اليسار، ثم من اليسار إلى اليمين ومن الخلف إلى الامام، ثم من الأمام إلى الخلف، سكرى من غير سكر، صرعى من غير صرع.

ولم تك الا لحظة حتى انقلب اطمئنانكم إلى اضطراب، وامتلأت نفوسكم جزعا وقلوبكم هلعا. وانصرفتم عن الطعام والشراب، وعن اللعب والحديث واستحالت رؤوسكم إلى قطعة من صداع واوجاع، وضعفت أرجلكم عن حمل أجسامكم، فارتميتم على سرركم، وأسلمتم أمركم إلى بارئكم.

فيا عجبا! لقد أمعن الإنسان في الإبداع والاختراع، واستحدث كل هذه السفن الهائلة ذات السرعة والفخامة. . . ثم لا يزال ركبها اليوم كما كانوا في عهد عمرو وعمر: دود على عود

تلك أيامكم على ظهرها أيها الصديق. وإني لأرجو لك بعدها سفراً هينا ورحلة ميمونة، وما أجدرك الا تجعلها كلها عبثا ولعبا.

توفيق الحكيم

للدكتور حلمي بهجت بدوي

لشبابنا المثقف شكوى تواضَعَ على صيغتها على اختلاف ألوان ثقافته، وتلك الشكوى هي نقص الغذاء الفكري في الحياة المصرية. وقد كان لتبين وجه هذا النقص آثار بغيضة، فهو أولا منتشر في النفس في مزيج من السأم والتشاؤم، وهو على أي حال باعث في العزيمة خوراً وفي الهمة فتورا، وهو بعد ذلك (وهنا وجه السوء) دافع إلى المغالاة في التقدير. إذ كثيرا ما يصيب الصيغة الصحيحة هوى من النفس فتظل في عرف الناس صادقة على مدى الزمن وإن تساقط بعد ذلك وجه الصواب فيها. وكان من أثر هذا النقص أن نظر الشباب إلى الجانب الفكري من الحياة المصرية فتخيله مستنقعا آسنا، فانصرف عنه أما إلى الحياة المادية وما فيها من لهو وعبث، واما إلى مصدر ثقافته مستعينا بالكتب والمجلات الأجنبية.

فلم يكن غريباً بعد ذلك انه كلما بدا وميض من النور في حياتنا الفكرية لم يلق الا أعينا مغمضة، وإذا أينع زهر صغير صادف بردا فذبل والتوى.

أزمة الغذاء الفكري شر أذن، انما شر منها روح التشاؤم الذي فشا في هذا الشباب المثقف، وكلمة السر التي جرت على الألسنة في سهولة عجيبة من انه لا سبيل إلى تلمس هذا النوع من الغذاء في الإنتاج المصري والتي تنتهي إلى قتل العناصر السليمة التي قد تنهض لتغذية حياتنا الفكرية.

وإذا أنا ذكرت الإنتاج المصري فاني أرسل هذه الكلمة على معنى خاص. فأنا استبعد الترجمة لأنها ليست الا وسيلة لتغذية من كانت ثقافتهم عربية محضة، او لتهيئة الاتصال بين ثقافتين مختلفتين. وأنا استبعد كذلك النقد لكي استبقي بعد ذلك صورة واحدة , هي الخلق

وإذا أنا استبعدت النقد فليس ذلك لأنني أخرجه عن معنى الإنتاج، أو لأنني أتمثله ضعيف الشأن في تموينا بالغذاء الفكري وانما استبعده لأنه مرهون بالخلق ومن أجل ذلك كان النقد الذي أينعت أثماره في مصر هو ذلك النقد للإنتاج الأوروبي وللإنتاج العربي القديم. أو ذلك النوع من النظرات العامة التي تتلمس أوجه النقص والكمال فيما لدينا من إنتاج لترسم صورته الحقيقية جميلة كانت أو قبيحة.

وقد ظهر أخيراً كتاب أهل الكهف لتوفيق الحكيم وهو من نوع الإنتاج الذي أقصده. ولا أذكر كتاباً قابله النقد في مصر بعناية وتقدير بمثل ما قوبل به هذا الكتاب ولست أتعرض هنا لنقده بعد أن وفاه حقه الدكتور طه حسين والأساتذة مصطفى عبد الرزاق والمازني وهيكل بك ومحمد علي حماد وغيرهم من فضلاء الكتاب.

ذلك أن مؤلف أهل الكهف صديقي ربما كان تقدمي لنقد كتابه (والأمر كذلك) مثيراً لريبة مشروعة. وهل هناك من شك في إنني سوف أحيط كتابتي بإطار من العطف الذي تبرره شريعة الصداقة، أو ليست الصداقة في بعض وجوهها نوعا من التعاون الخالص وضرباً من التنابذ في سبيل النجاح!

وإنما حلا لي أن اكتب عن تاريخ حياة هذا الكتاب. وقد قدرت في تلك الصداقة التي كانت تلقي الريبة على نقده تزكية لا غبار عليها للكتابة عن تاريخ حياته، وما تاريخ حياته الا وجه من تاريخ حياة مؤلفه وقطعة من شخصيته لعلي أجدر الناس بالكتابة عنهما.

منذ عشر سنوات خلت كان توفيق الحكيم طالبا في مدرسة الحقوق ومؤلفا مسرحياً ملحقاً بمسرح حديقة الازبكية، وقد تقدم إلى هذا المسرح في روايات عدة بعضها مؤلف وبعضها مقتبس عن المؤلفات الأوروبية. وقد قرأت هذه الروايات في ذلك الوقت وكنت عندئذ هاويا لكل ما يتعلق بالمسرح. وكان من بين هذه الروايات رواية مؤلفة عنوانها (المرأة الجديدة) وموضوعها مشكلة المرأة في الجيل الحالي وقد لاقت هذه الرواية من النجاح ما لاقت، وقد يكون دون ما تستحق وقد لا يكون، وقد لا يزال توفيق الحكيم ينظر إلى رواياته الأولى بعين لا تخلو من الحنو والعطف وقد يكون هذا الشعور مفهوما من جانبه، أو ليست أعمال الشخص كأطفاله إذا حظى السليم منها بالحب أختص العاطل منها بالعطف والحنان!

وكنت انظر حينئذ إلى توفيق الحكيم بعين الأمل، ذلك إنني كنت أراه منصرفا إلى فنه تمام

الانصراف، في إخلاص وإيمان، شاعراً بأن هذا الفن يجري في دمه، وهو لم يشعر بذلك شابا فقط. وانما هو هم احتواه صبيا فمراهقا. فهو لا يعيش الا من اجله، ولا يفكر الا فيه. وإذا اطمأن اليك مرة فحدثك عنه أدهشك ذلك الحماس الذي ينبعث منه، وتلك النشوة التي يغرق فيها إلى آذانه فتأخذ بلبك وبلبه.

من أجل ذلك كنت أنظر إليه بعين الأمل، ولكن لم يكن أملي فيه محددا بل كان أملاً غامضاً لعل مصدره ما في الشباب من صحة وثورة وتفاؤل، وعلى أي حال لم أكن آمل في نجاحه الا من ناحية الكتابة الفكهة، وقد بعث هذا في نفسي روايته (المرأة الجديدة)، إذ كتبها وهو يقصد عين الجد فإذا به أصاب دعابة لذيذة، وكنت المح في دعابته نوعا من العمق لم اكن متيقنا منه، وانما كنت أحس به وأنا بين المصدق والمكذب.

إلى أن سافرنا منذ ثماني سنوات إلى باريس بعد انتهاءنا من دراسة الليسانس، وكان المقصود من سفرنا دراسة دكتوراه الحقوق وبهرنا عند وصولنا ازدهار الفن والأدب في باريس، وظهر لنا جليا ناطقا محددا ذلك الجانب الروحي والفكري من الحياة الذي حرمنا من نعيمه في مصر، كيف أينعت أزهاره في هذا البلد، كيف كان داني القطوف،

عجيب الألوان، شهي الرائحة. ويدرك من يتذوق هذا الجانب من الحياة كيف يحلو الري بعد هذا الظمأ والامتلاء بد طول الطوى. فهل كان من المعقول أن يعيش توفيق الحكيم في باريس وهي مهبط الفن والأدب وأن يمر بهذا الفن والأدب وفي دمه ذلك الحماس، وفي روحه ذلك الخلوص والانصراف فلا ينهل من الفن والأدب الا بقدر ما ينهل الناس لمجرد الغذاء الفكري؟ ما مضت بضعة أشهر على إقامتنا في باريس حتى بدأت انظر إليه بعين ملؤها الاحترام. . الاحترام الغامض أيضاً.

ذلك أني رأيته وقد انصرف عن اللهو وعما يحصل كل شاب من باريس عادة، عن باريس اللاهية، عن باريس الضاحكة الماجنة؛ انصرف عن كل هذا بنفس آمنة مطمئنة. وإذا به وأحياء باريس عشرون حياً يبدأ أولها في مركز المدينة وينتهي آخرها بأطرافها يسكن الحي العشرين، وما أظن مصريا قد هبطت قدمه إلى هذا الحي غير توفيق، ومن كان يفكر في زيارته من أصدقائه.

قرأ كتاب تين عن فلسفة الفن فانبثق له من هذا الكتاب قبس من نور فتعلق به وقد شعر انه باستهوائه إياه لابد واصل إلى استكمال تثقيفه، وإلى إدراك مكنونات الفن أسراره ومنعطفاته. وانكب على دراسته انكبابا. والكتاب يتحدث عن فن التصوير والنحت أكثر مما يتحدث عن غيرهما، فهو ذاهب إذن لزيارة متحف اللوفر في زيارات دورية، وقد اصبح له هذا المتحف بمثابة الجامعة للطالب. وهو مصطحب هذا الكتاب كصديق مرشد. وهو متثبت من مطابقة التدليل البديع الذي يجري به قلم متين عن كيفية نشوء فن ما، في بيئة ما، على تلك المجموعة التي لا تقدَّر من كنوز الصور في متحف اللوفر. وهو قد قرأ الكتاب واستوعبه استيعابا وهضمه هضما، ثم شاهد كيف استخلص تين حياة هذه القطع الفنية من جنس الفنان والوسط الذي أحاط به والوقت الذي ظهرت فيه.

ولكن أنّى له ان يفهم فن التصوير فهما واعيا، وثقافتنا المصرية في هذا الشأن معروفة! ان كتاب تين ليس الا خلاصة محاضرات كان يلقيها على طلبة مدرسة الفنون الجميلة في باريس فهو يتقدم به إلى أناس على قدر متقدم من الثقافة الفنية، وقد شعر توفيق بعد قراءته للكتاب بالنور يبهره، فأدرك أن هناك جمالا لم يكن يحس بوجوده قبل ذلك وعالما آخر تراءى له ولكن في إطار من السحب والغيوم، وأحس في الوقت نفسه انه لم يدرك كنه هذا الجمال بعد ولم يدخل هذا العالم الجديد.

وكان أن عرضت له فرصة يتعجل بها سد هذا النقص الذي كان يقض مضجعه، فلم يتردد في التعلق بأهدابها، فهو قد تعرف في ذات يوم إلى شاعر فرنسي أخنى عليه الفن والأدب، ولعله البقية الباقية من جماعة من مذاهب الشعر، فرأى فيه توفيق رجلا مثقفا ثقافة واسعة، ذا مكانة في لأدب والشعر وإن جار الزمان عليه وعلى مذهبه. فجعل يمد هذا الشاعر البائس بإعانة مالية نظير استعانته به في فهم أسرار اللوفر ومتحف رودان والمكتبة الأهلية. ثم انكب على القراءة انكبابا، ولكن الإنتاج الأوروبي هائل فيه الغث وفيه السمين، وإلى جانب الإنتاج الحديث يوجد الكلاسيك وهو لا يقل هولاً، والوقت من ذهب، لابد أذن من ان يختار ما يقرأه من بين هذا كله، وهو شاعر بالمراحل الواسعة التي لابد له من قطعها ليستعيض عما ضيعه من أيام شبابه في قراءات كان يتخبط فيها دون هدى او مرشد، وهو يستعين أذن بصاحبه الفرنسي في هذا الاختيار، وهو يستمع إليه في دروس خاصة منظمة، جعل صاحبه يعايرها له كما يعاير الدواء للمريض، وإذا به الآن قوي البنية بعد هذا الهزال الطويل، عبل الذراعين بعد هذا الضعف والتهالك.

وهو لا يكتفي بعد ذلك بالتهام الكتب واستيعابها، وانما هو يجعل من قراءاته أداة للتأمل والتفكير. فهو يركن إلى الوحدة في غالب أيامه يهضم فيها ما قرأ، وهو يجلس في قهوة نائية وقد فتح امامه كتابا ذراً للرماد في العيون، ثم يظل يسبح في بحر خياله وهو مغتبط بهذه الوحدة كبير بها، وكأنه قد أدرك قول ابسن: (ان الرجل الوحيد المنفرد هو الرجل القوي).

وكنت دائماً أتلقى ثمرة ذلك التأمل الطويل، فهو يغيب عني أسبوعين او ثلاثة ثم يزورني فاجلس إليه ساعات متوالية لا ينقطع فيها حديثه، وهو دون شك قد اختار

موضوع هذا الحديث قبل حضوره. ودون شك كان هذا الموضوع شاغله الوحيد في هذه الأسابيع الماضية، وإذا بي أمام محاضرة طويلة عريضة. . . متشعبة، ولكنها مبوبة تبويبا كاملا، مرتبة ترتيبا بديعا. وإذا لها خاتمة تلم بأغراضه، وإذا بي غارق في نشوة صافية، وإذا أنا أفكر في هذا الموضوع وذاك الحديث، لا في اثناء إنصاتي إليه فقط بل بعد انصرافه عني أيضاً.

أنصرف في حين ما إلى قراءة ما كتب عن قدماء المصريين وعن روحهم العميق، وإذا هو شاعر بمصريته العريقة كيف هي تتمشى في دمه، وإذا هو محدثك عن هذا الروح في فخر وإدراك لا في مجرد زهو ونعرة، وإذا أنت يبهرك هذا الإفضاء ويتملكك نوع من الحماس، وتتكشف لديك آفاق جديدة، وتتحلل في ذهنك ألغاز كنت تحار في تعليلها أو كنت تعللها تعليلا غامضا، وإذا الأمل الذي كان يدب في نفسك دبيبا مبهما في مستقبل مصر وفي روح مصر قد تحدد لديك تحديدا كاملا لأنك تشاهد النور بعد أن حجبه عنك ستار، وتلمس الحقيقة بعد أن كانت وراء حجاب، وتشعر بما في روح مصر من عبقرية خاصة بعد أن أدركت أسبابها فلم يصعب بعد ذلك أن تأمل فيما تؤدي إليه من ثمرات.

وهو لم ينس المسرح (فنه العزيز عليه) في وسط هذا كله، فهو يشاهد التمثيل من الكوميدي إلى الأوديون إلى مسارح البولفار إلى مسارح لا يدركه ملل ولا سأم وهو لا يذهب لمجرد اللذة الفكرية، بل أيضاً للدرس والوعي. وهل يمكن أن يكون الأمر غير ذلك وتلك النار المقدسة تنفخ في صدره وتوطد من عزمه لا تدركها هوادة ولا خمود!

ويدهشك بعد هذا انه في يوم ما منصرف عن هذا كله، عن قراءاته وعن مسارحه، عن اللوفر ورودان وبقية المتاحف وإذا به يشغله شيء واحد: الموسيقى، ماذا؟ توفيق الحكيم الذي كان يكاد يشترك في تلحين رواياته الموسيقية في مصر، توفيق الحكيم الذي كان مولها بالموسيقى الشرقية غارقا وراء أسرارها يستمع الآن إلى الموسيقى الغربية؟

لقد أدرك معنى، انها إحدى الفنون السبعة فهو الآن منكب على دراستها انكباباً، ولا بأس أن يستعين بأصدقائه الفرنسيين على فهمها، وهو منصرف إلى الأوبرا والأوبرا كوميك وإلى صالات الموسيقى السمفونية، ولا بأس من أن يذهب إلى الأوبرا ولو لم يقتدر الا على أعلى التياترو، ولا بأس من أن يتسلل بلباسه الغريب المتواضع على درج أوبرا باريس الفخمة، ومن بين أزياء المساء الفاخرة ولآلئ الجواهر الثمينة!.

وإذا به يتدرج كالطالب في المدرسة فهو معجب أولاً بسان ساينس وبيزيه وموسيقاهما ذات النغم الشرقي، ثم هو منتقل بعد ذلك إلى الإعجاب ببتهوفن وموسيقاه الرومأنتيكية وهو بعد ذلك مشيد بذكر فاجنر وموسيقاه القوية، وهو أخيراً يستمع إلى موسيقى استرافنسكي وغيره من المحدثين.

سأله أخيراً المكاتب الفني لإحدى الجرائد المصرية عما أوحى إليه بأهل الكهف فكاد ينطلق لسانه بأسم بيتهوفن، وقد قص علي هذه الحادثة فلم أملك نفسي من الابتسام.

ولماذا لم ينطلق لسانك؟

فكان رده الذي كنت أتوقعه والذي من أجله ابتسمت:

- يضحكون مني!

وهو في وسط هذا التموين الهائل الذي كان يمون نفسه به اخذ (ومن ساعة متقدمة) يحاول الإنتاج، فجعل يزاول الكتابة بالفرنسية، فكتب قطعا من الحوار وجعل يعرضها على بعض أصدقائه الفرنسيين، ولم يثن عزمه عن الكتابة إلمامه الابتدائي بالفرنسية، فهو مثابر مجد على رغم ذلك، وهو في النهاية قد عثر على صيغته، وإذا بأصدقائه الفرنسيين يشهدون له بانه في توجيه الحوار واسع الحيلة، وإذا بعضهم يذكر عند قراءته لتوفيق بورثوريس الكاتب الفرنسي الشهير وحواره المقتضب المتماسك.

وكنت أراقب هذا النماء عن قرب مغتبطا به، سعيداً بمشاهدتي هذه الثمرة كيف غرست، ثم

كيف نمت، ثم كيف ترعرعت وأينعت، ولم ينشأ شعوري بهذه السعادة عندما نشر كتاب أهل الكهف، وعندما استقبله النقد هذا الاستقبال العظيم، وانما هو قد نشأ من زمن بعيد! عندما قرأت (أهل الكهف) مخطوطة من ثلاث سنوات قبل أن تتخاطفها أيدي المدرسة الحديثة، بل عندما قرأت (شهرزاد) مخطوطة منذ أربع سنوات لما

أرسلها إلي توفيق في باريس بعد عودته إلى مصر ولما حملتها راكضا إلى الدكتور ماردروس (وهو أديب فرنسي ترجم ألف ليلة وليلة إلى اللغة الفرنسية وزوج مدام لوس دلارو ماردروس الكاتبة الفرنسية المعروفة) ليقرأها وليرى من أي زاوية نظر مؤلف مصري إلى قصص الف ليلة وليلة.

بل شعرت بذلك منذ خمس سنوات عندما كنت أقرأ أولاً بأول الصفحات الاولى من رواية (عودة الروح) عندما كان مؤلفها يحاول ترجمتها إلى اللغة الفرنسية.

عند ذلك كله تحدد أملي فيه بعد ان كان غامضا، وتبدد ذلك التشاؤم الذي كنت أنظر به إلى جونا الفكري، وأدركت ان لدينا مؤلفا نفاخر به المؤلفين الأوروبيين نقرأه في لذة وإعجاب، إعجاب بهذا المنظار الخاص الذي ينظر به إلى الأشخاص والأشياء والحوادث فيكتشف فيها نواحي فذة.

نعم فقد تمر أمامنا الحادثة لا نفكر في أن نعلق عليها اهمية خاصة: ولكنها تستوقفه فيناقشك فيها. ويبدأ يصور لك فيها تصويرا غريبا، فإذا هي امتدت، وإذا هي ذات جسم وكيان، وإذا بها نواح من الأهمية بمكان، وإذا أنت دهش بعد ذلك كيف مرت عليك ولم تلحظ فيها كل ذلك.

كنت أتحدث مرة إلى أحد أصدقائنا عن روايات توفيق الحكيم وتسلسل الحديث إلى أن ذكرت لمحدثيه أن توفيقا قد كتب رواية اسمها (الخروج من الجنة)، فكان رده عليّ:

وطبعا شخصيات الرواية ثلاث: آدم وحواء وإبليس! فلم أتمالك من الابتسام، ذلك ان عنوان الرواية ليس الا رمزا وان اشخاص الرواية عصريون فليسوا آدم وحواء وانما هم محمود وإقبال وغيرهما من أبناء آدم وحواء.

وقد ابتسمت لقول صاحبي لأنه لفظه في اطمئنان عجيب، وسر اطمئنانه انه قد قرأ (أهل الكهف) ورأى كيف استخلص مؤلفها تلك القطعة الفلسفية من القصة التي لا يجهلها مصري

وقرأ (شهرزاد) فرأى ثمرة التأمل الذي أوحت به قراءة الف ليلة وليلة إلى صديقنا توفيق، فإذا هو كتب رواية بعنوان (الخروج من الجنة) فهو لا شك قد عالج خروج آدم وحواء لأن هذه الحادثة قد استوقفته، ولابد انه قد نظر إليها من زاويته الخاصة فصبّها رواية مسرحية!

خرج صاحبنا من مجرد عنوان الرواية ومن ان مؤلفها توفيق الحكيم بهذه النتيجة التي يراها طبيعية، وهو حريص على ان يكون استنباطه بتلك النتيجة من تلقاء نفسه، فهو لا يسأل عن أشخاص الرواية وانما هو يبادر بذكرهم من تلقاء نفسه شأن من فهم روح مؤلف أهل الكهف!.

بهذه الموهبة الفذة وبهذه الثقافة الشاملة وهذا المجهود الجبار يتميز توفيق الحكيم، وهو قد أدرك أن الأدب ليس مجرد سليقة نطلقها فتنطلق، أو إلهاما يوحى إلينا به فنرسله على طبيعته، وانما هو إلى جانب ذلك وقبل ذلك علم ودراسة لابد فيهما من المثابرة على القراءة، والانكباب على المذاكرة والإلمام بجميع نواحي الفنون، والتأمل في كل ما نقرأ ونشاهد. وكتاب أهل الكهف الذي لاقى ما لاقاه من نجاح لدى النقد في مصر، والذي لا أشك في انه سوف يستقبل استقبالا عظيما لدى النقاد الأوروبيين إذا ما ترجم إليهم، هذا الكتاب إذن لم يكن ثمرة مصادفة، لم يكن زهرة صغيرة أينعت في المستنقع المصري وانما هو دوحة هائلة غرسها غارس ثم تعهدها بالصيانة والتهذيب.

وبعد، فاني أدرك ان مقالي هذا قد يرسم على الشفاه ابتسامة ذات مغزى!! (هو صديق يقوم بالدعاية لصديقه)

ولأمر ما، يهمني ان ارفع هذا الخطأ المحتمل، فان مؤلف (أهل الكهف) وكتابه ليسا في حاجة إلى دعاية بعد أن اجمع النقاد على تقدير الكتاب.

وانما حاولت أن أرسم صورة لتاريخ حياة الكتاب بان قدمت صورة من تاريخ حياة مؤلفه، اظهر بها جانباً هيأت لي الصداقة التي تجمعني ومؤلف هذا الكتاب أن ألم به، فأثرت أن يطلع قرّاء الكتاب على هذا الجانب.

وربما كان لي غرض آخر من هذا المقال: هو أن يدرك شبابنا المتأدبون ان فن الأدب لا يكتفي فيه بالموهبة، او بالاعتقاد في تلك الموهبة، ثم ارسال القلم في كتابات لا

تقدمنا خطوة واحدة وانما هو إلى ذلك اطلاع وتأمل، لا في الشعر والنثر بأنواعه فقط بل كذلك
في النحت والتصوير والموسيقى، ولا في الإنتاج العربي وحده، بل كذلك في الإنتاج الأوروبي، ولست أحاول ان ارسم بهذا خطة، فالخطة مرسومة مقدما، بل هي بديهية من البديهيات وانما قصدت لفت النظر.
فإذا أتى اليوم الذي نرى فيه شبابنا المشتغلين في الأدب قد أدركوا هذه الحقيقة كنا سعداء: توفيق الحكيم، وكاتب هذه السطور، وكل من يجري في دمه الإخلاص لهذا البلد المنكود بكل ما تحتويه كلمة الإخلاص من معنى.

عمالقة الأشجار

للدكتور محمد بهجت- خريج جامعة كاليفورنيا

(2)

حرج ماريبوزا

يقع في قمة جبال السييرا على ارتفاع ستة آلاف قدم. سمي كذلك لوجوده بمقاطعة بهذا الاسم. (وماري بوزا) كلمة إسبانية معناها (أبو دقيق) وكان أول من لمح رؤوسأشجاره عن بعد رجلا يسمى (أوج) في سنة 1855 ولكن رجلا آخر يسمى (جالن كلارك) اكتشفه عام 1857 وإليه يرجع الفضل في ذلك. يصل إليه الزائر من طريق ضيقة لا تتسع لأكثر من عربة، شديدة الانحدار والتعاريج تمر وسط غابات كثيفة مكتظة بأنواع الصنوبر التي تعطر الجو دواما. وغالباً ما تكون حافة الطريق هي حافة هوة بعيدة القرار يغطى منحدرها آلاف الأشجار. وكثيراً ما يصادف الإنسان قطيعا من الغزلان يعترض الطريق ترنو إليه بأعين سوداء كبيرة هادئة ثم لا تلبث ان ترتاع وتقفز في رشاقة نادرة وتختفي في ظلمات الغاب. ومن وقت إلى آخر تخترق الأذن نغمة لطير جميل الريش يتفيأ ظلال الأغصان. أو يقفز أمامك سنجاب صغير يقف على خلفيتيه ويرفع ذيله الطويل على ظهره حتى يكاد يلامس مؤخر رأسه، ينظر اليك لحظة ثم ينقلب راجعا في سرعة البرق. وأحيانا يصادفك دب أسود الفرو لامعة ينظر اليك متكاسلا ثم يدير رأسه إلى الناحية الاخرى متباعدا عنك غير عابئ بك.
وأخيراً تنتهي الطريق إلى الحرج الذي لا تتجاوز مساحته ميلين مربعين. وهناك يشعر الزائر انه دخل في معبد فسيح معطر الأرجاء ذي عمد هائلة، لا تستطيع الشمس أن ترسل الكثير من أشعتها إلى أرضه لكثافة رؤوس الأشجار، فالظل لذلك وارف ظليل والهواء بارد عليل، واما الصمت فرهيب شامل وما هي الا برهة حتى تملك الإنسان خشية ورهبة فيصمت هو الآخر ويتأمل! أشجار باسقة تحلق رؤوس بعضها في الجو إلى ارتفاع مائة وعشرة من الأمتار. ويبلغ قطر البعض الاخر عشرة أمتار!! يرفع الإنسان رأسه ليدرك سمو هذه المخلوقات النبيلة ولكنه لا يلبث أن يطأطئه في خشوع وذهوليميد بالحيرة ويضج بالأسئلة. ترى كم من السنين قامت هذه العمد النباتية في مكانها لا تبرحه، تحمل الثلوج
شتاء على اذرعها الضخمة المنبسطة وتحتمل الزمهرير ولطمات البروق وجلجلة الرعود وهطول الأمطار وتدفق السيول؟ يقول بعضهم ثمانية آلاف سنة ويقول بعضهم أربعة آلاف!! ومهما يكن التقدير فإنها ولا شك أسنّ المخلوقات الحية وأعظمها. كيف لا والشجرة (الصغيرة) التي تجاوزت الخمسمائة ربيع لا تزال في ميعة الصبا وأما التي سلخت من الزمن الفي سنة فلا تزال في سن الكهولة!! إذا نظر الإنسان إلى شيخ قارب المائة أو جاوزها شعر بوقار السن وجلاله، وخشع لتلك المسحة الهادئة الحزينة التي تطبعها عليه يد الهرم. فما بالك إذا نظر إلى مخلوق عمره ستة قرون؟ ومع هذا فلا ترى ضعفا ولا تقوساً ولا تهدما بل ترى شموخا وقوة وعظمة- ترى اصلها كأنه أبو الهول ناشبا أظفاره الضخمة في جانب فريسة هائلة، ترى التمكن والرسوخ. نعم ان عليها روح الكآبة والحزن ولكنها كالجبار المكتئب يرفع رأسه إلى السماء في جمال وروعة غير عابئ بما في جنبه من طعنات أو في نفسه من وخزات. وحقيقة ترى بعضها محترق الجانب او القلب غير انها لا زالت حية باسقة تهزأ بكوارث الطبيعة وهوجها، تطالع فيها رمز الصبر والاحتمال والخلود، ثم انها كتاب تاريخي ضخم استوعب الكثير من تاريخ القرون ولكن كيف السبيل إلى حل رموزه وطلاسمه؟ هيهات! تقف صامتة، تنظر مبتسمة ساخرة، ولكنها لا تبوح بمكنون فؤادها فكأنها

حفيظة لسر الدهر.
ولكل من هذه العمالقة اسم معروف يعرف به، فهذه شجرة مارك تواين تخلد اسم الكاتب المشهور وهي أطولأشجار العالم اذ يبلغ ارتفاعها 331 قدما، وهذه شجرة جالن كلارك مكتشف الحرج وهذه شجرة واشنجطن، وهذه شجرة غروب الشمس وهي آخرة الأشجار التي تغيب عنها أشعة الشمس. وتلك شجرة الإسطبل التي تؤوي خمسة عشر حصاناً جذعها الأجوف، وتلك شجرة المنظار التي احترق من جوفها ما طوله خمسون قدما فأصبحت كالمنظار ترى من داخلها السماء. ثم تلك شجرة (واوونا) - تلك الشجرة العجيبة التي شق في أحشائها طريق في سنة 1880 ارتفاعه ثماني أقدام وعرضه احدى عشرة تمر منه عربات الزوار الذين يحجون إليها من أنحاء المعمورة. ومع هذا لا تزال حية تضحك من أقزام الإنسان الذي أعمل فيها قواطعه ومناشيره وأجرى عليها هذه العملية الجراحية القاسية من غير ما مسكن أو مخدر!!. . وترى وسط الحرج (العملاق الرمادي) .
وهو من أضخم ما على البسيطة من أشجار ومن أطولها عمراً. يبلغ ارتفاعها 204 ومحيطها 104 أقدام، رأسها غير كامل لأنه محترق، ويظهر أن صاعقة انقضت عليه فأطارته. يبلغ سمك قشرتها الذي يكسو خشبها نحو 75 سنتيمترا، والعادة أن يكون لونه لون القرفة، اما في هذه الشجرة المعمرة فاللون رمادي يشهد بمعاركة الرياح والأمطار والشمس وعناصر الطبيعة الأخرى القاسية قرونا طويلة، واقفة كأنها تصارع الزمن بسيف متكسر فهي كالبطل المنهوك المثخن بالجراح تغيب بين أضلاعه النصال والسهام. فمن ذا الذي يرى هذا المخلوق النبيل ولا يحني رأسه في خشوع وإعظام وإكبار؟ من ذا الذي لا يقف بأصلها ضارعا بعد أن يشعر بعظمة الخالق والمخلوق؟
وسأحاول تصوير ضخامتها بما يلي من الأمثلة:
1 - إذا وقف عشرون رجلا في حلقة مقفلة حول أصلها بحيث تتلامس أطارف أصابعهم مع امتداد أذرعتهم فانهم يستطيعون تطويقها تماما.
2 - إذا شق في أصلها طريق يمكن أن تمر منها مركبتان من مركبات الترام جنبا إلى جنب.
3 - إذا أمكن ان تقور قاعدتها بحيث تشبه الغرفة استطاع اربعة عشر شخصا أن يجلسوا على مقاعد حول مائدة مستديرة في وسطها من غير ما تزاحم.
4 - إذا قطع ونشر خشبها أنتجت ما يربو على نصف مليون قدم من الخشب.
وبجانب آخر من الغاب يرى عملاق هائل صريعا ممددا يسمونه (الملك الساقط) دون عظمته وضخامته عمد قدماء المصريين الصوانية المتساقطة في المعابد. مؤثرة والله رؤية ذلك الطود الأشم بل ذلك الملك منزوع التاج منطرحاً على الأرض جسماً بلا روح (ذلك الطود الذي عاصر الأهرام حيا وها هو ذا لا يزال يسابقها في حلبة العمر إذ يأبى خشبه الاستسلام للعفن وللاضمحلال والفناء مع أن جنبه يلامس الأرض منذ مائتي عام!! وقد صورت أكثر من مرة وعليها عربة بستة أحصنة وعدة سيارات وجمع غفير من الرجال.
ولعل اهم ما يتساءل عنه الزائر المتحير هو كيفية تكأثر هذه الأشجار وحفظ نوعها. وربما تأخذه الدهشة إذا علم انها تتكاثر من بذرة في حجم الخردلة!! وتوجد هذه البذرة مع غيرها في مخروط صغير لا يزيد حجمه على حجم البيضة الكبيرة. وقد يحتوي المخروط على
ثلاثمائة بذرة. وتنتج الشجرة عددا هائلا من هذه المخاريط ولكن ما ينبت من بذورها قليل جداً.
وقبيل الغروب عندما يتأهب الزائر لمغادرة ذلك المكان الساحر يرى ضربا آخر من الجمال إذ تنفذ أشعة الشمس في حزم عريضة تشق ظلام الغاب إلى سوق تلك الأشجار فتضيء جوانبها المغضنة بفيض من النور البديع يشف عن لون محمر يزري بأجمل ألوان رخام إيطاليا المصقول. اما الجوانب المقابلة فتكون معتمة مصبوغة بلون بنفسجي شفاف. . . بعدذلك ترى نفسك مضطراً إلى مغادرة المكان اذ يهجم الظلام سريعا. فإذا ما خرجت من الحرج إلى الطريق استطعت ان ترفع صوتك بالحديث بعد أن كنت تهمس، ثم تؤخذ بجمال الجبال عند الغروب. عجبا!! كيف يمكن ان تصطبغ رؤوس تلك الجبال ومنحدراتها وأشجارها بهذا اللون البنفسجي البديع الذي لم يستطع

العلم تقليده إلى الان؟. . . وان استطاع فاي جن يمكنهم ان يصبغوا به مثل تلك السطوح الهائلة في ذلك الوقت القصير؟!! ثم بعد ذلك أيضاً تنطبع صور تلك الأشجار العجيبة في ذاكرتك إلى مدى العمر، وتقف فيها، بارزة قوية بحيث تراها وتحسها وتحن إليها وأنت في أي ركن من اركان العالم.

العبقرية علم وأدب وفن

للأستاذ الحوماني. أديب جبل عامل

قبل الكلام على واحد من هذه الثلاثة يجب ان نتكلم على النفس التي هي مصدر العلم والفن اللذين هما مصدر الحياة التي هي مصدر العلم.

والنفس هنا هي جماع ما في الجسم من جوهر، واما النفس التي هي نواة الحياة في الحي مجردة عن الخصائص التي تعرضها، فهي السر الكامن في الجسم الحي الحساس ينبعث عنه الفعل أو ينفعل هو بما يعرضه في الحياة.

فهي على هذا التحديد الاعتباري. مجمع الخصائص في الإنسان كالإرادة والفكر والعقل ونحوها من أمهات العمل الخارجي او الداخلي. ولما كان المرء عبارة عن شخصيته التي يمتاز بها، وهي نتاج هذه الخصائص، وكان هذا الجسم قشرة لذلك الجوهر أطلقت النفس على المرء بمجموعه قلبا وقالبا.

فالنفس التي هي مصدر العمل وعكسا هي أم الإرادة التي هي مصدر العمل طرداً لا عكساً، أي ان النفس تفعل وتنفعل واما الإرادة فتفعل ولا تنفعل إذا صح ان كبت الإرادة انما هو انفعال النفس لا انفعال الإرادة كما سيمر بك.

اما مصدر هذه النفس وإرادتها التي يتطور بها الإنسان بله الحيوان روحا وبدَناً فإنما هو تلك القوة المالئة هذا الكون او لعلها هي نفس الكون او لعل الكون إحدى جزئيّات معناها الكلي.

ولم اكن لأومن كل الإيمان انها (أي النفس الناطقة) نتيجة تفاعل هذه الخلايا او انها احدى خواص هذا التركيب الجسدي، أو انها هي هو، أو انه ظرف يشتمل عليها وان كان بعضها اقرب إلى العقل من البعض الآخر.

لا أومن بشيء من ذلك ولا بعدمه على رغم أني اعتقد باقتسام خصائص النفس اجزاء الجسم كالدماغ والقلب والأعصاب.

لا أومن كل الإيمان ولا اجحد كل الجحود ضرورة انه لم يثبت لديّ ان الكائن مطلقا إنما هو نتيجة تفاعل المكين كما لم يثبت لديّ عدمه مطلقا.

فقد تكون الروح من الجسد مكان اللون والنور من الأجرام المرئية كما قد تكون منه مكان

الطعم من الثمر والعطر من الزهر وقد تكون منه مكان الصدي والسير من السيارة كما قد تنزل منه منزلة السائق منها فتكون غيره.

ولعلي لم آل جهدا في التفكير بما يقفني على هذه القوة (مصدر النفس) واكتناه حقيقتها الغامضة أو لعلي لم أحجم عن درس أي كتاب اتصل بي صادرا عن أي مفكر في العالم للبحث عن هذه القوة، فلم يزدني كل ذلك علما بما وراء ما أحس إلا انه أمر فاتني حسه ففاتني اكتناة سره، ولم أكن لأقول فيه إلا من وراء الحدس والظن ولعل ما نقوله في تلك النفس التي توحي إلينا الفكر وتحرك ألسنتنا بالنطق، انما هو من قبيل الخوض في هذا التيار الحافل بأسرار هذه القوة الغامضة فلم نقل فيه إلا تخرصاً وحدسا.

ثم ما هي حقيقة هذه الإرادة؟

وما هو هذا الفكر؟

هل هي وليدة انفعال تلك القوة العليا؟

وهل هذا الفكر الذي نجول به في عالم النفس هو وليد ما يصدر عن هذه الإرادة من عمل؟ ام هما معا فعل تلك القوة الاولى أم نتيجة انفعالها؟

وهل من الممكن لو لم يصدر عن الإرادة عمل في الحياة ان يتكون هنالك فكر يتدبر هذا العمل فنقول قد كانت إرادة ولم يكن فكر وسيبقى وتهرم الإرادة ثم تموت؟ أي أن الإرادة هي التي أوجدت الفكر، والفكر سيتغلّب عليها بما يعضده من نواميس الاجتماع التي يسنُّها فيخلق الإرادة حينئذ من جديد ويصبح الإنسان ملكا.

ومهما يكن من شيء فلا بد لنا قبل التعمق في لبحث عن الفكر من تحرير الإرادة،

وهذا التحرير يستلزم كلمة تتناول ما وراء هذا العمل الخارجي من عامل داخلي.
الانفعال:
هو الانتقال من عوارض النفس بما يفاجئها من حوادث خارجية او تصورات داخلية، فالغضب الذي هو نتيجة انفعال النفس بما يثير حفيظتها ويمتهن قدرها والسرور الذي هو نتيجة انفعالها بما تتلقاه من نبأ سار هما من العواطف التي هي نواة الشاعرية في النفس والتي تنبعث عن هذا الانفعال.
وقد يكون الانفعال غير مفاجئ فينجم عن أمر الإرادة للنفس بما يكبتها كاليأس الذي يتسرب
إلى النفس تدريجا بما تحدوها الإرادة إلى فعله من وراء الأمل فتخفق في تحصيله جملة ويبقي لها رجاء بالحصول عليه، ثم يضمحل هذا الأمل تدريجا فيضغطها اليأس ويكون من وراء ذلك حزن عميق ينشأ عن انفعالها بالإخفاق.
وقد ينشأ هذا الانفعال العميق بما تتلمسه النفس الشاعرة أمام مشهد اجتماعي له جلاله كالأثر الفخم والجند الزاحف او منظر طبيعي له جماله كالحدائق الغضة والخمائل الملتفة والمروج الخضراء، كل ذلك يفعل في النفس ما يبعث فيها السرور او الحزن فتنفعل به. فالانفعال من عوارض النفس لا الإرادة، ضرورة انها تنفعل بما لا تريد.
الإرادة:
أكما تتأثر نفسك الشاعرة بأحد المشاهد الاجتماعية أو المناظر الطبيعية فتنقبض أو تنبسط، والفكر من ورائها يشرف على ثورتها ويحول دون طغيانها فينشأ بين جمالها وجلاله أثر في الخارج هو نتيجة فعله وانفعاله، أكذلك كانت هذه النفس وليدة القوة الاولى مصدر القوى الكونية، وكانت الإرادة من لوازمها الذاتية ضرورة بقاء الحي حيا فهي لا تنفك عن النفس منذ الأزل؟
ثم لا بد لنا من تمهيد بسيط هو أن في الأثر جزءاً من مؤثره، سواء أكان الأثر معنويا ام ماديا كالحكمة والفن في الإجرام التي نبتدعها. فالحكمة في الأثر أعني الغاية التي كان لها إنما هي جزء من عقل المؤثر المجرد يشير إلى عظمته في نوعه من هذه الناحية، والفن فيه هو جزء من عقله المتخيل المبدع يشير إلى عظمة المؤثر من حيث خياله وتصويره في رقيه الفكري.
ومجموع الحكمة والفن في الأثر هو الجمال، فجمال الجرم المبتدع هو ما يروعك فيه من شكل ولون وهو الفن، ومن سمو غاية وهي الحكمة، وكذا الأثر المعنوي، ففي البيت الواحد من الشعر أو الفقرة الواحدة من النثر جزء من روح الشاعر أو الناثر تلمسه روح النافذ البصير من ورائهما.
وهكذا الصورة والقلم ونحوهما من نتائج الفكر المادي ففيهما جزء من روح الصانع يتراءى للحكيم من وراء صنعه. فجلال هذا الروح وجماله بجلال هذا الأثر وجماله.
ففي قول القائل:
لا يغرنك في الشام رجالُ ... موّهوا بالرياء وجه الفرنسي
ربما أثرت العيون من الكح ... ل وخلف الجفون منبت ورسِ
تتجلى روح لم تكن، وأنت الشاعر، لتلمسها في قول الاخر:
لا يغرنك منهم نفر ... أظهروا نحوك حبا ووداد
لو تبدى لك ما قد أظمروا ... لرأيت النار في وسط الرماد
وهكذا فانك لا تستطيع ان تقابل ما في الكرسي بما في الساعة من حكمة الصانع، فبقدر ما في الصانع من عظمة يبدو لك ما في صنعه من جمال او جلال.
وكون هذا الأثر مرآة مصدره كما نشاهد من وقوفنا على روح الشاعر بدراسة شعره وفكرة الفنان بتحليل فنه هو أمر متحقق في الخارج لا شبهة فيه.
بلاط الشهداء بعد الف ومائتي عام
للأستاذ محمد عبد الله عناق
(2)
وكان أثناء غاراته أو رحلاته في (اكوتين) قد اتصل بأميرها الدوق (أودو) وتفاهم معه، وكان الدوق مذ رأى خطر الفتح الإسلامي يهدد ملكه يسعى إلى مهادنة المسلمين، وقد فاوضهم فعلا، فأنتهز كارل مارتل محافظ القصر وزعيم الفرنج هذه الفرصة

لإعلان الحرب على الدوق، وكان يخشى نفوذه واستقلاله، وغزا كوتين مرتين وهزم الدوق فكان أودو في الواقع بين نارين يخشى الفرنج من الشمال والعرب من الجنوب، وكانت جيوش كارل مارتل تهدده وتعيث في أرضه (سنة 731 م) في نفس الوقت الذي سعى فيه عثمان بن أبي لسعه لمحالفته والاستعانة به على تنفيذ مشروعه في الخروج على حكومة الأندلس والاستقلال بحكم الولايات الشمالية , فرحب الدوق بهذا التحالف وقدم ابنته الحسناء (لاميجيا) عروسا لعثمان، وفي بعض الروايات أن أبن أبي نسعة أسر ابنة الدوق في بعض غاراته على اكوتين ثم هام بها حبا وتزوج منها. وعلى أي حال فقد وثقت المصاهرة عرى التحالف بين الدوق والزعيم المسلم، ورأى ابن أبي نسعة كتمانا لمشروعه ان يسبغ على هذا الاتفاق صفة هدنة عقدت بينه وبين الفرنج، ولكن عبد الرحمن ارتاب في أمر الثائر ونياته، وأبى قرارالهدنة التي عقدها وأرسل إلى الشمال جيشا بقيادة ابن زيان للتحقق والتحوط لسلامة الولايات الشمالية، ففر ابن أبي نسعة من مقامه بمدينة الباب الواقعة على (البرنيه) إلى شعب الجبال الداخلية فطارده ابن زيان من صخرة إلى صخرة حتى أخذ وقتل مدافعا عن نفسه، وأسرت زوجه لاميجيا وأرسلت إلى بلاط دمشق حيث زوجت هناك من أمير مسلم. ولما رأى أودو ما حل بحليفه واستشعر الخطر الداهم تأهب للدفاع عن مملكته، وأخذ الفرنج والقوط في الولايات الشمالية يتحركون لمهاجمة المواقع الإسلامية، وكان عبد الرحمن يتوق إلى الانتقام لمقتل السمح وهزيمة المسلمين عند أسوار تولوشة، ويتخذ العدة منذ بدء ولايته لاجتياح مملكة الفرنج كلها، فلما رأى الخطر محدقا بالولايات الشمالية لم يرَ بداً من السير إلى الشمال قبل أن يستكمل كل أهبته، على انه استطاع ان يجمع أعظم جيش سيّره المسلمون إلى (غاليا) منذ الفتح، وفي أوائل سنة732م (أوائل سنة 114 هـ) سار عبد الرحمن إلى الشمال مخترقا أراغون (الثغر الأعلى) ونافار (بلاد البشكنس) ودخل فرنسا في ربيع سنة 732م، وزحف تواً على مدينة (آرل) الواقعة على نهر الرون لتخلفها عن أداء الجزية واستولى عليها بعد معركة عنيفة نشبت على ضفاف النهر بينه وبين قوات الدوق أودو، ثم زحف غرباً وعبر نهر الجارون وانقض المسلمون كالسيل على ولاية اكوتين يثخنون في مدنها وضياعها، فحاول أودو ان يقف زحفهم، والتقى الفريقان على ضفاف الدوردون فهزم الدوق هزيمة فادحة، ومزق جيشه شر ممزق، قال ايزيدور الباجي: (والله وحده يعلم كم قتل في تلك الموقعة من النصارى) وطارد عبد الرحمن الدوق حتى عاصمته بوردو (بردال) واستولى عليها بعد حصار قصير، وفر الدوق في نفر من صحبه إلى الشمال، وسقطت اكوتين كلها بيد المسلمين ثم ارتد عبد الرحمن نحو الرون كرّة أخرى، واخترق الجيش الإسلامي برجونيا واستولى على ليون وبيزانصون ووصلت سريّاته حتى صانص التي تبعد عن باريس نحو مائة ميل فقط، وارتد عبد الرحمن بعد ذلك غرباً إلى ضفاف اللوار ليتم فتح هذه المنطقة ثم يقصد إلى عاصمة الفرنج. وتم هذا السير الباهر. وافتتح نصف فرنسا الجنوبي كله من الشرق إلى الغرب في بضعة أشهر فقط. قال أدوار جيبون. (وامتد خط الظفر مدى ألف ميل من صخرة طارق إلى ضفاف اللوار. وقد كان اقتحام مثل هذه المسافة يحمل العرب إلى حدود بولونيا وربى ايكوسيا. فليس الراين بأمنع من النيل او الفرات، ولعل أسطولاً عربيا كان يصل إلى مصب التايمز دون معركة بحربة، بل ربما كانت أحكام القرآن تدرَّس الآن في معاهد أكسفورد وربما كانت منابرها تؤيد لمحمد صدق الوحي والرسالة).

أجل كان اللقاء الحاسم بين الإسلام والنصرانية، والشرق والغرب، على وشك الوقوع. وكان اجتياح الإسلام للعالم القديم سريعا مدهشا، فانه لم يمضِ على وفاة النبي العربي نصف قرن حتى سحق العرب دولة الفرس الشامخة، واستولوا على معظم أقطار الدولة الرومانية الشرقية من الشام إلى أقاصي المغرب، وقامت دولة الخلافة قوية راسخة الدعائم فيما بين السند شرقا والمحيط غربا، وامتدت شمالاً حتى قلب الأناضول، وكانت سياسة الفتح الإسلامي مذ توطدت دولة الإسلام ترمي إلى غاية أبعد من ضم الأقطار وبسطة السلطان والملك. فقد كان الإسلام يواجه في الأقطار التي افتتحها من العالم القديم، أنظمة

راسخة مدنية واجتماعية تقوم على أصول وثنية أو نصرانية، وكانت النصرانية قد سادت أقطار الدولة الرومانية منذ القرن الرابع، فكان على الخلافة ان تهدم هذا الصرح القديم وان تقيم فوق أنقاضه في الأمم المفتوحة نظما حديثة، تستمد روحها من الإسلام. وان تذلل النصرانية لصولة الإسلام سواء بنشر الإسلام بين الشعوب المفتوحة او بإخضاعها من الوجهة المدنية والاجتماعية لنفوذ الإسلام وسلطانه، وكان هذا الصراع بين الإسلام والنصرانية قصير الأمد في الشام ومصر وافريقية، فلم يمضِ نصف قرن حتى غيّر الإسلام هذه الأمم بسيادته ونفوذه، وقامت فيها مجتمعات إسلامية قوية شاملة، وغاضت الأنظمة والأديان القديمة ثم دفعت الخلافة فتوحها إلى أقاصي الأناضول من المشرق وجازت إلى إسبانيا من المغرب. فأما في المشرق فقد حاول الإسلام ان ينفذ إلى الغرب من طريق قسطنطينية، وبعثت الخلافة جيوشها وأساطيلها الزاخرة إلى عاصمة الدولة الشرقية مرتين: الأولى في عهد معاوية بن أبي سفيان سنة 48هـ (668م) والثانية في عهد سليمان بن عبد الملك سنة 98هـ (717م) وكانت قوى الخلافة في كل مرة تبدي في محاصرة قسطنطينية غاية الإصرار والعزم والجلد ولكنها فشلت في المرتين وارتدت عن أسوار قسطنطينية منهوكة خائرة.

إلى روح شوقي بك

خيم الليل وفي آفاقه ... شهب ترمي إلى الأرض سناها
ملكت عينيْ كئيب عاشق ... قد رعتْه مذ تبدّت ورعاها
شاعر قد ضاقت الدنيا به ... فَرَنا شوقًا إلى رحب سماها
روحه الثكلى بكت فقد المنى ... أين للباكي أسى مثل أساها؟
بات يدعو الله في أحزانه ... عله يشفي من النفس ضناها
أطلق اللهم قيدي في الهوى ... وأبنْ عن مهجتي الحرى جواها
وأعد نفسي إلى حيث الورى ... في سماء الحب لم تعبد سواها
كل يوم للردى سخرية ... تجرح القلب وللناس صداها
تتراءى لي تهاويل الأسى ... بين خذلان حياتي ورجاها
كحسان عاريات تكتسي ... من لهيب النار ما يدمي حشاها
وأثبات تتنزى حسرة ... والمنايا تتهادى في خطاها
كلما في الليل مالت نجمة ... خلتها نفسي دهاها ما دهاها
أو رأيت الطير في دوحته ... والخريف السوء عرَّاها حلاها
خلته العاشق في وحدته ... واجماً يذكر أياماً قضاها
عذبات الأنس ما عانقتها ... وثمار اللهو لم أجن جناها
زهرة الجثمان في ريعانها ... وركاب العمر لم تبلغ مداها
والأماني لم تزل في فجرها ... باسمات الثغر والأمن غطاها
عطفت روحي على ريحانها ... عطفة الأم على مهد فتاها
ثم ولت وهي عبرى بعدما ... لثمت منها خدوداً وشفاها
غالها الدهر بسهم صائب ... فغدت تذبل في زهو صباها
ثم فاضت روحه طاهرة ... وجرت في مقلة الشمس دماها
صدح البلبل لما أشرقت ... وصداح الطير نوع من بكاها

حلب. عمر أبو قوس

دعابة

!ما أنت في ثوبك بدر الدجى ... كلا ولا أنت غزال شدَن
أنت وربي فتنة صورت ... للناس من كل أنيقٍ حسن
تستأسرُ الآةَ فتهفو لدي ... مرآك من كل فؤادٍ فتن
لا تحتجب بالبعد عنا فما ... يعرف فضل الحسن إن لم يبَنُ
وأنت في ذاتك سر وذا ... حسنك في أبصارنا قد علن
يا نعمتي في محنتي، داوني ... يا سكني إما تجافي السكن
تعال زَوّد شفتي قبلةً ... من قبل أن يُسرع فيك الزَّمن

حمص. رفبق فاخوري

الحرية في الكتابة ومدى التجديد فيها

لست أقصد بحرية الكتابة ما يقصده كتاب السياسة حين يكتبون عن

الصحافة والصحف، وما يجوز للصحف أن تتعرض له وما لا يجوز لهل الخوض فيه، وانما اقصد ذلك القدر من الحرية الذي ينبغي أن يتمتع به الكاتب الأديب حين يكتب مقالته أو ينشئ رسالته، وأسأل: أهو قدر غير محدود؟ وهل هي حرية غير ذات نهاية أو حد؟ أم هو قدر من الحرية مهما اتسع أفقه وطال قطر دائرته فإن له حداً لا ينبغي للأديب أن يتجاوزه، وقواعد لا ينبغي له أن يطغى عليها فيمحوها أو يغير منها؟ وقد دعاني إلى هذا التساؤل ما قرأته في العدد الأخير من الرسالة للأديب الفاضل حبيب شماس يخاطب فيه الدكتور هيكل بك فبقول له: (اغلط واكثر من الغلط الموهوم وكسِّر من هذه القيود التي كسر بعضها من قبلك طه) ويختمه بقوله: (ان أغلاط أكابر الكتّاب هي صك تحرير النشء الصاعد)

وليست المسألة أن يخطئ الدكتور هيكل أو يصيب، ولا أن يكسر الدكتور طه قيودا من قيود الأدب او يتركها تغل الأيدي والأقلام وإنما المسألة مسألة اللغة العربية وما وضع لها من قواعد وحدود، كما وضع لغيرها من لغات العالم كله، فان هذه الأغلاط والأخطاء إن أبيح للدكتور هيكل وغيره من كبار الكتاب ان يقعوا فيها، فليس لأحد بعد ذلك أن يحضر على النشء الصاعد ما أبيح للنشء الذي صعد، وسيحاول أولئك المخطئون من النشء ان يبرروا أخطاءهم كما يفعل كبار كتّابهم وقادتهم من الأدباء، ولكنهم عندئذ لن يقدموا دليلاً على صحة ما كتبوا كما لم يقدم أكابر الكتاب دليلا على صحة ما كتبوا، وانما سيؤول الأمر في ذلك كله إلى إرادة الكاتب وهواه، وسنعود في قواعد اللغة العربية إلى مثل ما نحن فيه الآن من خلاف للنقد الأدبي، أهو قائم على قواعد وأسباب بعينها، أم هو قائم على الذوق وحده؟ وسيرى كلُ في اللغة العربية ما يريد، هذا يرفع المفعول وذاك ينصبه وذاك يجر الفاعل وهذا ينصبه، فإذا سألته في ذلك أو نقدت قوله قال لك: دعني فاني هكذا أكتب، وهكذا أريد، ولن أغير في كتابتي ولن اكتب غير ما أريد. وستنفرد اللغة العربية إذن بهذا الأسلوب الغريب المتعدد الذي لا ضابط له من قواعد ولا قياس، فتفوق بذلك لغات الأرض قديمها والحديث، وسيكون ذلك كله باسم التجديد في اللغة والأدب. ان هذه اللغة العربية ليست لغتنا نحن المصريين، وانما هي لغة طغت على اللغة المصرية، واحتلت مكانها فصارت لغتنا وأخذناها ونحن راضون بها مطمئنون إليها، فهي لغة كتاب السواد الأعظم من المصريين ولغة نبيهم الكريم، فأما أن نحرص عليها وعلى قواعدها ونسير وفق مناهج أصحابها، وأما أن نغير تلك القواعد ونجعلها موافقة لطبيعة عصرنا وأمزجتنا، ونصطلح على قواعد لا يختلف فيها نشء صعد ولا نشء صاعد، أما قبل ذلك التجديد فليس لنا إلا أن نتبع ما لدينا من قواعد اللغة ونحوها. سيقال أن هذا التجديد الذي يحدثه كبار الكتاب فيما يكتبون سيصبح مع الزمان قواعد تتبع ونماذج تحتذى، بل هو قيل بالفعل، ولكن ليس كل الكتاب من الأكابر، وليس من الممكن أن نقصر التجديد على كبار الكتاب ونحظره على الناشئين منهم، ولسنا نأمن على اللغة من هؤلاء الناشئين أن يفسدوها من حيث أرادوا لها تجديدا وإصلاحا. للكتاب أن يغيروا من الأساليب كيفما يشاءون، وأن يصطنعوا الإطناب أو الإيجاز كما يريدون، فان هذا كله خير للغة ودليل على غناها ومرونتها، ولكن في حدود القواعد المرسومة والنحو الموضوع، ولا يهمني أن تكون تلك القواعد جديده نصطلح عليها الآن أو أن تكون هي التي بين أيدينا والتي أجاهر بأنها في حاجة كبيرة إلى الإصلاح، فالمقصود هو أن ننزع اللغة من براثن الفوضى، وما دام الكتاب كباراً ففي وسعهم من غير شك أن يكتبوا فيحسنوا الكتابه، وأن يعرضوا أفكارهم الناضجة وآثارهم الأدبية فيحسنوا عرضها، وأن يحافظوا مع ذلك كله على قواعد اللغة.

إسكندرية- محمد قدري لطفي. ليسانسييه في الآداب

في الأدب العربي

عكاظ والمربد

للأستاذ أحمد أمين

(2)

وقد يتفاخر الرجلان من قبيلتين فيفخر كلٌ بقبيلته ومكارمها فيتحاكمان إلى حكم

عكاظ كما فعل رجل من قضاعة فاقر رجلا من اليمن فتحا كما إلى ذلك الحكم.
ومن كان داعيا إلى إصلاح اجتماعي او انقلاب ديني كان يرى أن خير فرصة له سوق عكاظ، والقبائل من أنحاء الجزيرة مجتمعة، فَمَنْ قَبِلَ الدعوة كان من السهل أن يكون داعيا في قومه إذا دعا إليهم، فنرى قس بن ساعدة يقف بسوق عكاظ يدعو دعوته ويخطب فيها خطبته المشهورة على جمل له أورق فيرغِّب ويرهِّب ويحذِّر وينذر.
ولما بعث رسول الله (ص) اتجه إلى دعوة الناس بعكاظ لأنها مجمع القبائل، روى الواقدي أن رسول الله أقام ثلاث سنين من نبوته مستخفياً ثم أعلن في الرابعة فدعا عشر سنين، يوافي الموسم، يتبع الحجاج في منازلهم بعكاظ والمجنة وذي المجاز يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلِّغ رسالة ربه ولهم الجنة، فلا يجد أحداً ينصره حتى انه يسأل عن القبائل ومنازلهم قبيلة قبيلة، حتى انتهى إلى بني عامر بن صعصعة فلم يلق من أحد من الأذى ما لقي منهم، وفي خبر آخر أنه أتى كندة في منازلهم بعكاظ فلم يأت حيا من العرب كان ألين منهم، وعن علي بن أبي طالب (ع): إن رسول الله (ص) كان يخرج في الموسم فيدعو القبائل فما أحد من الناس يستجيب له نداءه ويقبل منه دعاءه، فقد كان يأتي القبائل بمجنة وعكاظ ومنى حتى يستقبل القبائل، يعود إليهم سنة بعد سنة حتى كان من القبائل من قال: أما آن لك أن تيأس منا؟ من طول ما يعرض عليهم نفسه حتى استجاب هذا الحي من الأنصار.
وروى اليعقوبي أن رسول الله (ص) قام بسوق عكاظ عليه جبة حمراء فقال: يا أيها الناس قولوا لا اله إلا الله تفلحوا وتنجحوا، ويتبعه رجل يكذبه وهو أبو لهب بن عبد المطلب. كذلك كان لعكاظ أثر كبير لغوي وأدبي، فقد رأينا قبائل العرب على اختلافها من قحطانيين وعدنانيين تنزل بها، وملك الحيرة يبعث تجارته إليها، ويأتي التجار من مصر والشام والعراق، فكان ذلك وسيلة من وسائل تفاهم القبائل وتقارب اللهجات، واختيار القبائل
بعضها من بعض ما ترى أنه أليق بها وأنسب لها، كما أن التجار من البلدان المتمدنة كالشام ومصر والعراق كانوا يطلعون العرب على شيء مما رأوا من أحوال تلك الأمم الإجماعية. وفوق هذا كانت عكاظ معرضا للبلاغة ومدرسة بدوية يلقى فيها الشعر والخطب وينقد ذلك كله ويهذب، قال أبو المنذر: (كانت بعكاظ منابر في الجاهلية يقوم عليها الخطيب بخطبته وفعاله وعد مآثره وأيام قومه من عام إلى عام فيما أخذت العرب أيامها وفخرها) وكانت المنابر قديمة يقول فيها حسان:
أولاء بنو ماء السماء توارثوا ... دمشق بملك كابرا بعد كابر
يؤمون ملك الشام حتى تمكنوا ... ملوكا بأرض الشام فوق المنابر
فيقف أشراف العرب يفخرون بمناقبهم ومناقب قومهم. . . فبدر بن معشر الغفاري. . كان رجلا منيعاً مستطيلا بمنعته على من ورد عكاظ فاتخذ مجلسا بهذه السوق وقعد فيه وجعل يبرح على الناس ويقول:
نحن بنو مدركة بن خندف ... من يطعنوا في عينه لا يطرف
ومن يكون قومه يغطرف ... كأنهم لجَّة بحر مُسدَف
فيقوم رجل من هوازن فيقول:
أنا أبن همدان ذوي التغطرف ... بحر بحور زاخر لم ينزف
نحن ضربنا ركبة المخندف ... إذ مدَّها في أشهر المعرف
وعمر بن كلثوم يقوم خطيبا بسوق عكاظ وينشد قصيدته المشهورة:
ألا هي بصحنك فاصبحينا
والأعشى يوافي سوق عكاظ كل سنة، ويأتي مرة فإذا هو بسرحة قد اجتمع الناس عليها فينشدهم الأعشى في مدح المحلق والنابغة الذبياني تضرب له قبة أدم بسوق عكاظ يجتمع إليه فيها الشعراء فيدخل إليه حسّان بن ثابت وعنده الأعشى والخنساء فينشدونه جميعا ويفاضل بينهم وينقد فيما زعموا قول حسان:
لنا الجفنات الغر يلمعن في الضحى
فيقول لحسان قلْلَت العدد ولو قلت الجفان لكان أكثر. وقالت يلمعن بالضحى ولو قلت يبرقن بالدجى لكان أبلغ في المديح لأن الضيف بالليل أكثر طروقاً.
ودريد بن الصمة يمدح عبد الله بن جدعان بعد أن هجاه فيقول:
إليك أبن جدعان أعملتها ... محففة للسرى والنصب. . الخ

وقس بن ساعدة يخطب الناس خطبته المشهورة فيذكرهم بالله والموت ورسول الله يسمع له، والخنساء تسوم هودجها براية وتشهد الموسم بعكاظ وتعاظم العرب بمصيبتها في أبيها عمرو بن الشريد وأخويها صخر ومعاوية، وتنشد في ذلك القصائد، فلما وقعت وقعة بدر وقتل فيها عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة أقبلت هند بنت عتبة إلى عكاظ، وفعلت كما فعلت الخنساء، وقالت اقرنوا جملي بجمل الخنساء ففعلوا، فعاظمت هند الخنساء في مصيبتها وتناشدتا الأشعار: تقول إحداهما قصيدة في عظم مصيبتها وترد الأخرى عليها، وعلى الجملة فكانوا في عكاظ يتبايعون ويتعاكظون ويتفاخرون ويتحاجون، وتنشد الشعراء ما تجدد لهم، وفي ذلك يقول حسان:

سأنشر ما حييت لهم كلاما ... ينشر في المجامع من عكاظ

فمن هذا كله نرى كيف كانت عكاظ مركزا لحركة أدبية ولغوية واسعة النطاق كما كانت مركزا لحركة اجتماعية واقتصادية.

نظام سوق عكاظ

كانت القبائل (كما أسلفنا) تنزل كل قبيلة منها في مكان خاص بها، ثم تتلاقى أفراد القبائل عند البيع والشراء أو في الحلقات المختلفة. كالذي حكينا أن الأعشى رأى الناس يجتمعون على سرحة، أو حول الخطيب يخطب على منبر، أو في قباب من أدم تقام هنا وهناك، ويختلط الرجال بالنساء في المجامع، وقد يكون ذلك سببا في خطبة أو زواج أو تنادر وكانت تحضر الأسواق (وخاصة سوق عكاظ) أشراف القبائل. وكان أشرف القبائل يتوافون بتلك الأسواق مع التجار من أجل أن الملوك كانت ترضخ للأشراف، لكل شريف بسهم من الأرباح، فكان شريف كل بلد يحضر سوق بلده، إلا (عكاظ فانهم كانوا يتوافون بها من كل أوب.

والظاهر أن المراد بالملوك هم الأمراء ورؤساء القبائل الذين يرسلون بضائعهم لبيعها في أسواق العرب كملك الحيرة والغساسنة وأمراء اليمن ونحوهم (وكانت القبائل تؤتي لرؤسائها إتاوة في نظير إقامتهم بالسوق، فقد ذكر اليعقوبي في تاريخه أخبار أسواق كثيرة

كان يعشرها أشرافها) أي يأخذون العشر. وفي عكاظ كانت القبائل تدفع لأشرافها هذه الإتاوة (فهوازن كانت تؤتي زهير بن جذيمة الإتاوة كل سنة بعكاظ، وهو يسومها الخسف وفي أنفسها منه غيظ وحقد) وكانت الإتاوة سمنا وأقطا وغنما. (وكان عبد الله بن جعدة سيدا مطاعا وكانت له إتاوة بعكاظ يؤتي بها، ويأتي بها هذا الحي من الازد وغيرهم، ومن هذه الإتاوة ثياب).

وكان الأشراف يمشون في هذه الأسواق ملثمين، ولا يوافيها (عكاظ) شريف إلا وعلى وجهه برقع مخافة أن يؤسر يوما فيكبر فداؤه، فكان أول من كشف طريف العنبري، لما رآهم يطلعون في وجهه ويتفرسون في شمائله، قال: قبح من وطّن نفسه إلا على شرفه، وحسر عن وجهه وقال:

أو كلما وردت عكاظ قبيلة ... بعثوا إليّ عريفهم يتوسم

فتوسموني إنني أنا ذلكم ... شاكي السلاح وفي الحوادث معلم

إلى آخر الأبيات.

وكان على سوق عكاظ كلها رئيس إليه أمر الموسم وإليه القضاء بين المتخاصمين، قال أبو المنذر: وتزعم مضر أن أمر الموسم وقضاء عكاظ كان في بني تميم. . . وكان من اجتمع له ذلك منهم بعد عامر بن الظرب العدواني سعد بن زيد بن مناة من تميم، وقد فخر المخبل بذلك في شعره:

ليالي سعد في عكاظ يسوقها ... له كل شرق من عكاظ ومغرب

حتى جاء الإسلام فكان يقضي بعكاظ محمد بن سفيان بن مجاشع

تاريخ عكاظ:

من العسير جدا أن نحدد بدء عكاظ فلم نجد في ذلك خبراً يصح التعويل عليه. يقول الآلوسي في بلوغ الأدب (انها اتخذت سوقا بعد الفيل بخمس عشرة سنة) ولكن إذا بحثنا في الأحداث التي رويت في عكاظ وجدنا ذلك غير صحيح فهم يروون (كما قدمنا) أن عمرو بن كلثوم انشد قصيدته في عكاظ وعمرو بن كلثوم كان على وجه التقريب

حول سنة500 م.
كذلك إذا عدنا إلى ما رواه المرزوقي في الأزمنة والأمكنة عن رؤساء عكاظ وجدنا انه عدهم قبل الإسلام عشرة أولهم عامر بن الظرب العدواني. وهذا (من غبر شك) يجعل تاريخ عكاظ أبعد مما يحكي الآلوسي بزمان طويل كذلك يروي الأغاني ان عبلة زوجة عبد شمس بن عبد مناف باعت أنحاء سمن بعكاظ.
وظلت سوق عكاظ تقوم كل سنة وكانت فيها قبيل الإسلام حروب الفجار، وهي حروب أربع وكان سبب الأولى على ما يروى، المفاخرة في سوق عكاظ. وسبب الثانية تعرض فتية من قريش لأمرأة من بني عامر بن صعصعة بسوق عكاظ. وسبب الثالثة مقاضاة دائن لمدينهِ مع إذلالهِ في سوق عكاظ، وسبب الأخيرة أن عروة الرجال ضمن ان تصل تجارة النعمان بن المنذر إلى سوق عكاظ آمنة فقتله البراض في الطريق.
فكلها تدور حول سوق عكاظ وهذه الحروب كانت قبل مبعث (النبي صلى الله عليه وسلم) بست وعشرين سنة وشهدها النبي وهو ابن أربع عشرة سنة مع أعمامه وقال: كنت يوم الفجار أنبل على عمومتي
واستمرت هذه الحروب نحو أربع سنوات. وقد كانت هناك نزعتان عند اشراف العرب، نزعة قوم يقصدون إلى السلب والنهب وسفك الدماء لا يصدهم صاد ولا يرعون حتى الأشهر الحرم ويتحرشون بالناس فيمد أحدهم رجله في سوق عكاظ ويتحدى الأشراف مثله أن يضربوها فتثور من ذلك الثائرة.
وفريق يميل إلى السلم ودرء اسباب الحروب ونجاح التجارة والأسواق بتأمين السالكين وعدم التعرض لهم بأذى.
جاء في تاريخ اليعقوبي: (انه كان في العرب قوم يستحلون المظالم إذا حضروا هذه الأسواق فسموا (المحلون) وكان فيهم من ينكر ذلك وينصِّب نفسه لنصرة المظلوم والمنع من سفك الدماء وارتكاب المنكر فيسمون الذادة (المحرمون) فأما المحلون فكانوا من أسد وطيء وبني بكر بن عبد مناة وقوم من بني عامر بن صعصعة وأما الذادة المحرمون فكانوا من بني عمرو بن تميم وبني حنظلة بن زيد مناة وقوم من هذيل وقوم من بني شيبان. . . فكان هؤلاء يلبسون السلاح لدفعهم عن الناس.
وكان من اشهر الداعين إلى السلم عبد الله بن جدعان فقد كان إذا اجتمعت العرب في سوق عكاظ دفعت أسلحتها إلى ابن جدعان ثم يردها عليهم إذا ظعنوا، وكان سيداً حكيما مثرياً.
ويظهر أن أصحاب هذه النزعة الثانية وهم الذادة هم الذين سموا هذه الحروب حرب الفجار لما ارتكب فيها من الفجور وسفك الدماء وهم الذين تغلبوا فيما بعد ونجحوا في وقف هذه الحروب (ودعوا الناس أن يعدوا القتلى فيدوا من فضل. وان يتعاقدوا على الصلح فلا يعرض بعضهم لبعض) وربما كان من أثر ذلك حلف الفضول وقد عقد في بيت عبد الله بن جدعان هذا.
واستمرت عكاظ في الإسلام وكان يعين فيها من يقضي بين الناس، فعين محمد بن سفيان بن مجاشع قاضيا لعكاظ وكان أبوه يقضي بينهم في الجاهلية وصار ذلك ميراثا لهم.
ولكن يظهر ان هذه الأسواق ضعف شأنها بعد الفتوح فأصبحت البلاد المفتوحة أسواقا للعرب خيراً من سوق عكاظ، وصار العرب يغشون المدن الكبيرة لقضاء أغراضهم، فضعفت أسواق العرب ومنها عكاظ. ومع ذلك ظلت قائمة وكان آخر العهد بها قبيل سقوط الدولة الأموية. قال الكلبي: (وكانت هذه الأسواق بعكاظ ومجنه وذي المجاز قائمة في الإسلام حتى كان حديثا من الدهر، فأما عكاظ فإنما تركت عام خرجت الحرورية بمكة مع أبي حمزة المختار بن عوف الأسدي الأباضي في سنة129 خاف الناس ان ينهبوا وخافوا الفتنة فتركت حتى الآن، ثم تركت مجنه وذو المجاز بعد ذلك).
واستغنوا بالأسواق بمكة وبمنى وبعرفة. . . وآخر سوق خربت سوق حباشة خربت سنة197. أشار فقهاء أهل مكة على داود بن عيسى بتخريبها فخربها وتركت إلى اليوم.
فعكاظ عاصرت العصر الجاهلي الذي كان فيه ما وصل إلينا من شعر وأدب، وجرت فيها أحداث تتصل بحياة النبي (ص) قبيل مبعثه، مهدت السبيل قبيل الإسلام لتوحيد

اللغة والأدب وعملت على إزالة الفوارق بين عقليات القبائل، وقصدها النبي (ص) يبث فيها دعوته، وعاصرت الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين والعهد الأموي ولكن كانت حياتها في الإسلام اضعف من حياتها قبله، وبدأ ضعفها من وقت الهجرة لما كان من غزوات وحروب بين مكة والمدينة او بين المؤمنين والمشركين، فلما فتحت الفتوح رأى العرب في أسواق المدن المتحضرة في فارس والشام والعراق ومصر عوضا عنها، ثم كانت ثورة أبي حمزة الخارجي بمكة فلم يأمن الناس على أموالهم فخربت السوق، وختمت صحيفة لحياة حافلة ذات اثر سياسي واجتماعي وأدبي.

من طرائف الشعر

شوقية لم تنشر

وهذه قطعة اخرى من أدب الأطفال عنوانها (الرفق بالحيوان) نظمها شاعر الخلود شوقي بك ولم تنشر.

الحيوان خّلْق ... له عليك حق
سخرَهُ الله لكا ... وللعباد قبلكا
حمولة الأثقال ... ومرضع الأطفال
ومطعم الجماعة ... وخادم الزراعة
من حقه ان يرفقا ... به وألا يرهقا
ان كلّ دعه يسترح ... وداوه إذا جرح
ولا يجمع في داركا ... أو يظم في جواركا
بهيمة مسكين ... يشكو فلا يُبين
لسانه مقطوع ... وما له دموع

بين صياد وأسد

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

لاقى أسامة وهو الضيغم الضاري ... في الغاب صياد آساد وإنمار //
فقال واليدُ تحوي بندقيته ... يلقي عليه سؤال العاتب الزاري
يا ليث قل لي: لماذا أنت ذو ولعٍ ... بقتل باقورة ترعى وبَقار
فقال بالقتل يغريني السعار فسل ... منً كان يقتل لهواً بالدم الجاري
وقد أحاول قتل النفس مثئرا ... والقتل للهو غير القتل للثار
وربما اضطرني للقتل معترض ... وما على القاتل المضطر من عار
القتل فيه حياة لي سأشكر من اجله من ... له حياتي بأنياب وأظفارِ
أصوم يومي وحسبي أن يكون على ... دم عبيطٍ لظبي صدتُ إفطاري
لأنت أضعف مخلوق ويدهشني ... ما في سلاحك من سحر وأسرار
ان القضيب الذي تلهو يداك به ... يكاد يخطف منه البرق إبصاري
وتعتري رجفة مني الفؤاد لدى ... سماع صوت له كالرعد هدار
وهذه الأرض من خوفي سأهجرها ... فلست تسمع بعد اليوم أخباري
لأنت أعدى عدو لي يطاردني ... وأنت أجدر من عاد بإكباري
قد كنت أحمي عريني أن يطوف به ... وحش وأني ذاك القسوَر الضاري
إذا زأرتُ فإني مثل راعدة ... أو انقضضت فاني شبه إعصار
وقد أهاجم جاموسا فاصرعه ... بضربة من يميني ذات آثار
ما اكثر الوحش في الآجام وأغلة ... وما بها كل ذي ناب بمغوار
واليوم إني على ما فيّ من ثقةٍ ... بقوتي خائف من زندك الواري
الليل منك إذا ما جن يسترني ... أما النهار فواشٍ غير ستار
إني أقر بأوزاري التي عظمت ... لو كان يذهب إقراري بأوزاري
ان كنُت أقتل ذا شر يهاجمني ... فقد قتلتم الوفا غير أشرار
بالسيف، بالنار، بالغازات خانقة ... وبابتعاث الوباء الفاتك الساري
ونحن إما أردنا البطش ننذركم ... وتفتكون بنا من غير إنذار
ندنو فنقتل بالأنياب عن كثب ... وتقتلون برغم البعد بالنار
كانت لنا الأرض ملكا قبل خلقكم ... من صلب قرد طريد آكل الفار
سل إن شككتَ رجال العلم يعترفوا ... بما أقول وما ذو الجهل كالداري
بلى أضرُّ إذا ما وجعت مفترسا ... لكني لست في شبعي بضرار

لا أوثر القتل حُباً في محاسنه ... بل ان في حاجتي بعثاً لإيثاري \
خلقت ليثا هصوراً وسط غابته ... ولم أكن أنا في خلقي بمختار
إني بكوني رِئْبالاً لمفتخرٌ ... فلا تعيبنَّ أخلاقي وأطواري
وجدت في الغاب نفسي ضاريا أسداً ... فهل يعير مني الهازئ الزاري؟
ولست تعلم ما نفسي ترى حسناً ... فان رأسك يحوي غير أفكاري
أما الحياة فليست مثل ما زعموا ... مقسومة بين أشرار وأبرار
أدير عيني في الأحياء أرقبها ... فلا ألاقي أمامي غير أشرار
ان القوي ليبقى والحياة وغى ... في البرِّ في البحر، في الأجواءِ في الغار
ولا يعيش عزيزا غير مجترئ ... ولا يموت ذليلا غير خوار
تود سجني لو تستطيع في قفص ... ويمقت السجن حر شبل أحرار
الخريف والزهرة
همس الخريف لغرسة فواحة ... ضحك الربيع لها وبرعم عودها
اليوم يرقصك النسيم وتلتوي ... بيد النسيم من الزهور قدودها
اليوم تفرح بالربيع خمائل ... جليت مطارف زهوها وبرودها
اليوم تسكركِ الطير وتسمعي ... ن على الغصون مرنما غريدها
لكن غدا! وغدا إذا خف الهوى ... وذوت أزاهير المنى وورودها
يمشي الشحوب على محاسنك التي ... سطعت يزيل خطوطها ويبيدها
وأمد كفي للزهور تهزها ... تيهاً، فيفرط شذرها وفريدها
فذري حياة للعذاب تألفت ... ويل الشقاء يشوبها ويعودها
قالت حياتي يا خريف عزيزة ... وأنا على رغم الشقاء أريدها
أنا كالغواني تستلذ العيش ما ... فتئت تشع ميولها وخدودها
قال الخريف: أميتها وتميتني ... قال الربيع: تعيدني وأعيدها
خليل هنداوي
عبقر
لأسرة المعلوف قدم سابقة في الأدب، وعبقرية خالقة في الشعر، ورحم الله فوزي المعلوف فقد ابتدأ الشعر من حيث انتهى غيره ولو لم يحتضر وهو في ريق العمر لأرى الناس كيف يتحضر الشعر ويتجدد الأدب. وقد نبغ اليوم من هذه الأسرة الكريمة الشاعر الشاب شفيق المعلوف: فقد نظم ملحمة عنوانها (عبقر) ثم نشرها في البرازيل. وسنكتفي اليوم باختيار شيء منها على ان نعود إلى الكلام عنها في عدد قادم.
قال من الفاتحة:
يا يقضة تنفض عن مقلتي ... إغفاءة طارت وحلماً نأى
ان الضحى صعد أنفاسه ... على سراجي فغدا مطفأ
ومن تكن حالته حالتي ... لم يستعض بالسيئ الأسوأ
ما الفرق في نومي وفي يقظتي ... وكل في يقظاتي رؤى؟
شيطان الشاعر:
على الربى استلقى شعاع الضحى ... يعبث فيه الأرج العاطر
فعانق الزهر وضمتهما ... غمامة علقها الناظر
غمامة بينا أراها إذا ... شيطان شعري تحتها سائر
كأنه لما بدا خفية ... أظهره فوق الثرى ساحر
في فمه من سقر قطعة ... منها يطير الشرر الثائر
ووجهه جمجمة راعني ... أنيابها والمحجر الغائر
كأنما محجرها كوة ... يطل منها الزمن الغابر
أقبل نحوي قائلا إنني ... طوع لما يقضي به الآمر
أتيت والليل طوى ذيله ... فعم صباحاً أيها الشاعر
قلت لشيطاني: أمن حالق ... أتيتني ام من شقوق الثرى؟
فقال إني جئت من بقعة ... خافية تدعونها عبقرا
تسوس فيها الجن عرافة ... ترى بزجر الطير ما لا يرى
الشعر ولاّها شياطينه ... فسادت الهوجل والهوبرا

ساحرة مطلسم مسحها ... تطوي بها الأجيال والأعصرا
تقفوا السعالي أثرها كلما ... أججت المندل والعنبرا
جن من النور جلابيبها ... في كل سعلاة ترى نيرا
تضطرب الأرض متى أقبلت ... قاذفة عزيفها المنكرا
فقم بنا صاح إلى عبقر ... نجوس ذاك المجهل الأوعرا
وانطلق الشيطان في الجو بي ... كأنه النيزك أو أسرع
مكنت من فقاره قبضتي ... مندفعا أصنع ما يصنع
حتى تهاوى بي إلى موضع ... ما راقني من قبله موضع
غمائم زرق على متنها ... منازل جدرانها تسطع
تثور في أبراجها ضجة ... بها يضيق الأفق الأوسع
فقال هذي عبقر ما ترى ... وضجة الجني الذي تسمع
عزت على الأنس فمن حولها ... أبالس الأبراج تستطلع
أنحاؤه الأربع مرصودة ... تحرسها الزعازع الأربع
ما أفلت الإنسي من زعزع ... الا تلقى صدره زعزع
الشهوة:
جنية تمعن في وثبها ... كأن شيئا حولها راعها
حُلَّتها كالضوء شفافة ... عن بشرة تزيد إشعاعها
كأنما الشمس التي كورت ... من حلقات النور أضلاعها
ألقت إلى الأرض بما أبدعت ... ليكبر العالم إبداعها
إن بسطت ذراعها أحجمت ... ملتاعة تود إرجاعها
ثم أراها وهي مأخوذة ... تطوي على ما لا أرى باعها
من عالم الأجساد مبلوَّة ... بنهمة تود إشباعها
لشهوة في نفسها طاردت ... في ظلمة الأدغال اتباعها
تعانق الأرواح حتى إذا ... خابت مضت تحمل أوجاعها
شفيق المعلوف
في الأدب الشرقي
من الأدب التركي الحديث
بين صديقين
من ريف الأناضول إلى خمائل الأستانة
للكاتب الاجتماعي يعقوب قدري
من يدري مدى الحيرة التي تنتابك والدهشة التي تستولي عليك حينما يقع بصرك على إمضائي في آخر هذه الرسالة؟
فقد انقضت أعوام وأنا لم اكتب حرفا وأنت لم تخط إلي سطرا. ولا ريب انك ستجد في صوتي الذي اخترق حجاب هذا الصمت الطويل رجعا لصدى غريب من أصداء ما وراء الطبيعة. وهل أنا (والحق يقال) إلاّ رجل يخاطبك من وراء الطبيعة ويناديك؟؟
ان هذه الحرب الطاحنة والفوضى الجارفة قد بدّلتا كل شيء؛ حتى اصبح كل من خرج منهما سالما ذا أنباء وأخبار كأنما هو بأسرار القيامة عالِمْ وعلى أدوار ما قبل التاريخ واقف.
ان هذه السنين الخمس من أعمارنا مملوءة بحوادث خمسة عصور، فالأشياء التي كنا نعلمها والملامح التي كنا نعهدها قد أصبحت غريبة عنا ليس بها من عهد. وأنا اليوم لا أجد في نفسي القدرة على أن أتتذكر أيام الصبا التي كنا نقضيها مجتمعين والكتب التي كنا نقرؤها مشتركين والأعمال التي كنا نقوم بها متعاضدين والخيالات التي كنا نبني عليها سعادتنا متفائلين، وكل ما أستطيع أن أتذكره أننا لم نكن في تلك الأيام أسعد بالا ولا أحسن حالاً منا في هذه الأيام.
وأنا أريد ان أوضح لنفسي هذا بنفسي فلا أوفق، فيخيل إلى الآن إنني كنت بإنشاد الشعر مشغوفا، وانك كنت بالرسم مفتوناً، ففي السنة الأولى من عهد الانقلاب كنت أنا في عالم الآداب شاعرا معروفا بعض المعرفة، وكنت أنت في عالم الصناعة النفيسة رساما مشهورا بعض الشهرة وأننا كنا اكثر رفاقنا اهتماما للملبس واكتراثا

للمسكن واحتفالاً بالمأكل: فكنا نقضي أيامنا بالذهاب إلى المآدب الفاخرة او بالسعي في ترتيب الملاهي الساهرة.

على أنني أتذكر ان شهرتنا الصغيرة وثروتنا التي كانت تمهد لنا السبيل إلى رغباتنا والإعجاب الشديد الذي كان يظهره رفاقنا بنا، كل ذلك لم يكن ليروي ظمأ نفوسنا الصادية، ولا ليطفئ حرارة قلوبنا المتأججة. وكنا إذا ما انفردنا بأنفسنا نتشاكى ما يجول في خواطرنا من رغبات، وما يختلج في ضمائرنا من نزعات: فلطالما كنا نحتقر محيطنا وبيئتنا، ونشمئز من عالمنا وإقليمنا، فكانت ضالتنا المنشودة، أوربا. . . .

وكنا حين نسير في الشوارع، إذا تطاير إلى أثوابنا الوحل، أو تناثر على أحذيتنا الغبار، اشمأزت نفوسنا، واكفهرت وجوهنا، وزفرنا زفرة وصحنا: (هل يستطيع الإنسان ان يعيش في هذه البلاد؟!)

وأخيراً ذهبت أنت إلى روما، وأنا إلى باريس. ولكن يخيل إليّ ان تلك الرسائل التي كنت ترسلها إلي من روما، وأرسلها اليك من باريس، كانت مملوءة بنفس الشكاوي، مغمورة بعين الأحزان. فكنت تقول: (ان مظاهر الصنعة الباهرة، ومشاهد الفن الساحرة، لا تكفي لترويح روحي المعذبة، وتسكين نفسي المضطربة. وبالرغم من وجودي بين الجدران، وتحت السقوف التي زيَّنها (ميخائيل آنجلو) و (رفائيل) بريشتهما البديعة، فإنني منقبض النفس ولهان، مشرَّد الفكر حيْران وان ذلك السجين الذي يحبس في الأقبية الضيقة ذات الهواء الفاسد، والحلك الدامس، لا يعرف معنى القسوة والشدة، مثلما أعرف فما الذي أريد، وعما أبحث؟. . .)

هكذا كنت تقول، وكنت أجيبك: (أجدني في هذه المدينة الكبرى وحيدا، أرجو السلوان فلا أجده، والتمس العزاء فلا ألقاه. فمن أنا بين هذه الجموع الغفيرة، ومن يدري بي؟ فان الجنون والخبال كادا يخالطاني لولا كتبي التي كانت تعيد إلى نفسي الأمل والتفاؤل بين الفينة والفينة!)

لم يمضِ زمن طويل حتى عدنا أدراجنا إلى الأستانة، فكنت أنت قد سئمت الرسم، وكنت أنا قد تركت الشعر.

فكنت أقول: (قد قيل كل شيء، وشعر بكل شيء، فما الفائدة من ترديد الأقوال التي مجتها الاذواق، وتكرير الاحساسات التي نفرت منها الأسماع؟؟)

وكنت تقول: (ما الذي يرسمه الإنسان ويصنعه، بعد ان رأى جدران كنيسة (سيكستين) المزخرفة البديعة وسقوفها الملونة الجميلة؟ فيجدر بالرسام اما ان يكون فناناً كأنجلو، واما ان يترك الرسم لأهله).

وكانت الحياة تمتد أمامنا وتنبسط، ونحن نسير يمنة ويسرة كالتائه في البادية القفراء التي لا حد لها ولا نهاية.

فكنا في وطننا وبلدنا، وبين أخداننا وخلاننا، مهذارين لا عمل لنا ولا شغل، نطوف الشوارع حيارى، ونجول في الأزقة كسالى. وكنت كلما استيقظ من النوم افتح عيني وأنا في سريري وأقول: (يا إلاهي! كيف أقضي هذا اليوم أيضاً؟!) وأئنُّ أنيناً شجيًّا كأن بين جنبي داء مبرحاً وفي أحشائي ناراً ملتهبة، وهكذا كنت أضيق بالحياة ذرعاً، واسخط على العالم كرهاً، وبينا أفكر ذات صباح في عثار جدي، إذ خطر ببالي خاطر لم أفكر فيه من قبل: ذلك هو خاطر الذهاب إلى مزرعة أبي، لعل الهم يسري عني قليلاً، والغم يهجرني ملياً.

فكنت تضحك مني يا أخي، وأنا أفارق الأستانة ضحكا مشوبا بالألم، وممزوجا بالحنان وتقول: (الحياة الريفية في الأناضول؟. . . إن ذلك لبعيد عنك؛ وسوف نرى!!)

ها قد مضت ستة أعوام: أنا هنا! ولا أكذبك إنني تألَّمت في أوائل قدومي، فساورني الهم والشجن واستولى عليَّ الغم والحزن؛ ولكني باعدت عن نفسي تلك الهموم، وشمرت عن ساعد الجد وأخذت أسعى وأتعب، بعد ان سئمت الحياة المدنية المتكلفة، وضجرت من العيشة البلدية المتصنعة فملت إلى الأرض أفلحها، وإلى الحيوانات أخدمها، وإلى الزروع أتعهدها. ولم تمض سنة واحدة على مجيئي حتى حوَّلت ذلك البناء الصغير إلى قصر كبير، وتلك البحيرة الكدرة الآسنة التي كانت للجواميس مقيلاً، وللخيول مشربا، إلى بحيرة صافية الماء، طيبة الرائحة. وكان يخترق المزرعة جدول أجرد ليس على ضفتيه نبات ولا شجر فأصلحت مجراه وغرست على جانبيه أشجار الصنوبر، فغدا اليوم روضة ذات منظر يملأ العين، ويبهج القلب. وان تلك الأراضي

الواسعة الجرداء، والبراري الشاسعة القفراء، قد استرجعت حيويتها بفضل السماد والعناء، فأخذت تدر علينا الحب الكثير، والرزق الوفير.
واما أنا يا أخي! فرئيس (أغا) قرية، تراني وأنا أجول في الأراضي، وأطوف في البراري ممتطياً صهوة جوادي، قابضا على سوطي، محمر الخدين، مخشوشن اليدين، قد أكسبني
العمل قوة العضلات، ووهبني الجهد حدة النظرات.
نعم! ان مسعاي قد أصابه اثناء الحرب بعض الإخفاق، ومزرعتي قد امتدت إليها يد الإملاق، وذلك لتلبية الشبان داعي الدفاع عن الوطن، وكان يجدر بي أنا أيضا الذهاب حيثما ذهبوا والتوجه أينما توجهوا، ولكن الأرض لم تدعني أذهب، ولم تتركني أجيب. ففضلت البقاء بين الأطفال والنساء أسعى لسد عوزهم وقضاء حاجتهم.
وأنا يا أخي ما كتبت اليك هذه الرسالة الا لتعرف ان السعادة قد توجد في الأماكن التي لا تخطر على البال، والمواضع التي ليست بذات جمال، ولتعلم انها لا تتوافر بالشهرة ولا الثروة ولا بالسفاهة والعزلة، وإنما تتوفر بالعمل المنتج في الارياف، والسعي المتواصل في المزارع.
فانك إذا كنت لا تزال في ذلك المكان المظلم الضيق الذي تركتك فيه، فاسمح لي أن أقول ان كل جهد تبذله فيما لا يثمر ضلالة عمياء تبعث القلق والندم، وكل سعي تقدمه فيما لا ينتج جهالة صماء توجب الخيبة والخذلان.
سورية. الريحانية- عمر لبسروق
في الأدب الغربي
لامرتين والخريف
لامرتين شاعر رائق الفكر سليم الأسلوب رقيق العبارة. وهو واحد من شعراء فرنسا المجيدين في القرن التاسع عشر. وإليه يعزى الفضل في إحياء الشعر الغنائي الفرنسي الحديث.
حياته:
ولد في ماكون في (21 - 10 - 1790). وكان ابوه ملكيا متحمسا. وقد اضطر بعد عهد الإرهاب إلى الاعتكاف في ضيعته في بلدة ميلي مقربة من مسقط رأسه ماكون. وهناك شب ونما في أسرة حنون ومناظر طبيعية غاية في الجمال.
وقد ألقيت مقاليد تربيته إلى قسيس كريم كان لحبه للأقاصيص وكلفه بها أثر كبير في لامرتين حين كتب قصته (جوسلان أرسله أبوه بعد ذلك إلى كلية ليون ثم إلى مدرسة بليه الاكليريكية. وكانت دراسته حتى ذلك الحين ضئيلة تافهة قومها بعد خروجه من المدرسة بمطالعاته العديدة وبإمعانه النظر في الطبيعة وبجريه وراء الأحلام والخيال.
انتظم عام 14 في فرقة حرس الملك لويس الثامن عشر، ولم يتركها الا بعد (المائة يوم). وفي عام 1820 نشر مجموعة من الأشعار باسم (التأملات). وقد لاقت هذه المجموعة نجاحا منقطع النظير، وكان لها اثر كبير في شهرة لامرتين وتوجيه حياته في طريق العظمة والمجد. وفي العام التالي عين كاتبا لسر المفوضية الفرنسية بفلورنسا. ونشر عام 1823 مجموعة شعرية جديدة سماها (التأملات الجديدة) ثم دخل، بعد ذلك بسبع سنين، (الاكاديمية الفرنسية) وعكف علىّ الرحلة والأسفار فزار بلاد اليونان وسوريا وفلسطين. وكتب عند عودته، سياحة في الشرق.
غير ان الحياة السياسية جذبته إليها فرغب فيها، ومال إليها فرشح نفسه للنيابة وفاز في الانتخاب عام 1833 دون ان يكون له آراء أو مبادئ سياسية مرسومة محددة، ثم اندمج شيئا فشيئا في صفوف المعارضة. ووجهته أشعاره نحو الآراء الديمقراطية فاستقبلها وحفل بها. ويبدو ذلك جليا واضحا في مؤلفه (تاريخ الجيرونديين) عام 1847. وقد ساعد على
سقوط الملكية بتمهيد الطريق لثورة يولية 1830 التي انتهت بخلع شارل العاشر، وبتنصيب مجلس النواب الفرنسي دوق أورليان (لويس فيليب فيما بعد) ملكا على الفرنسيين. وانتخب لامارتين عام 1848 وزيرا للخارجية في الحكومة المؤقتة التي تألفت من الجمهوريين والاشتراكيين حين ملّت فرنسا حكم فيليب، الا أن لامارتين اضطر إلى اعتزال السياسة والعودة إلى الحياة الخاصة بعد ان حلَّ لويس نابليون المجلس وشتت أعضاءه عام 1851.

وقد كانت كهولة لامرتين محزنة اذ اضطر تحت عبء الحاجة للمال إلى الانقطاع إلى الإنتاج العاجل المهين لعبقريته والقاتل لذكائه. وقضى في 25 - 2 - 1869م بعد ان باع اكثر عقاره الموروث.

شعره:

هو شاعر عظيم ولكنه ليس بفنان موهوب، هو (هاوي الشعر) كما يقول هو عن نفسه. وهو لا يستطيع حين يعوزه الوحي والإلهام ان يفعل مثل غيره من الشعراء فيلجأ إلى كفاءته ومقدرته في الصياغة والتأليف ليسد بها حاجته وليشبع بها رغبته. غير ان مجموعة أشعاره الأولى (التأملات) تكفي من غير شك لأن تجعل من لامرتين شيخا للشعر الفرنسي الحديث. وقد ساعد على ذلك ان مجموعته الشعرية هذه تضمنت كل الصفات الغنائية التي فاتت شعراء القرن السالف الذين كانوا ينظمون أشعارا موسيقية في كل الموضوعات دون ان يفيضوا عليها شيئاً من أرواحهم. اما لامرتين فينشدنا ما أحس من فرح أو حزن ومن سرور أو ألم ومن راحة أو وصب. وعبقرية لامرتين في مرونة أشعاره وتنوعها وفي تعبيره الدقيق عن العواطف السامية والإفصاح عنها الإفصاح كله.

وهو شاعر الطبيعة. عرف روح الأشياء وكنهها دون ان يتجشم مرة محاولة تصويرها وتلوينها وهو يحب على الأخص ساعات الغسق وفصل الخريف الذي تمتزج بمظاهره الأخيلة والأوهام في رقة وعذوبة. وهكذا يتلاشى فكره الذي ليس له من غاية محدودة في سحابات مبهمة عديدة وهو بعد ذلك يعرف كيف يستخلص لنا منها فكرة ويفصح عما يجول في خاطره في موسيقى عذبة جذابة.

وقد بلغ لامرتين بوضوح الأسلوب وصفائه وتوافق نظمه وإيقاعه (وهما خلتان لازمتان للكاتب) درجة لم يبلغها شاعر قط. وقد أبدع لامرتين (دون تكلف أو جهد أو صقل) في نظم أشعاره وترقيتها وتنغيمها. غير ان البساطة والسهولة اللتين نظم بهما أشعاره أساءتا إليه من حيث لا يدري، فقد جعلتاه عرضة للسهو واستعمال العبارات المبهمة الغامضة والقوافي النابية الركيكة وذلك نجده بوضوح حتى في القطع الجيدة القليلة من شعره.

مؤلفاته:

كتب لامرتين، غير أشعاره الغنائية التي أشهرها (التأملات الشعرية) و (التأملات الجديدة) أشعاراً اخرى قصصية وفلسفية نذكر منها (موت سقراط وجوسلان وسقوط ملاك). هذا إلى مجموعة من المذكرات والقصص مثل (رحلة في الشرق وروفائيل جرازيلا). وقد كتب أيضا في التاريخ (تاريخ الجيرونديين) ولم ينس في أخريات أيامه أن يكتب (دروسا عامة في الأدب).

والقطعة التي اعرض لترجمتها اليوم هي قطعة من مجموعة أشعاره التأملات الأولى. وقد كتبها في خريف عام 1819.

ولم تكن حالته الصحية وقتئذ على حال من الثبات والاستقرار. فقد كان نهبا لشتى الآلام والعلل. هذا إلى صدمة تلقاها من قبل اذ رفضت خطبته الآنسة ماريان اليسا بيرسن الإنجليزية التي أصبحت له فيما بعد زوجة. وهو يشير في الفقرة السابعة إلى هذا الأمل الضائع.

وقد أوحى بها إلى لامرتين نوبة حادة من الحزن والكمد وقد صار موضوعها من الموضوعات التي يتميز بها شعر جماعة (الرومانتكيين). فالخريف؛ صورة من الفناء والموت يحمل بين طياته الحسرة والندم على السعادة الذاهبة.

وقد كتب في هذا الموضوع نفر من الشعراء الإنجليز والفرنسيين الا ان لامرتين اسبغ عليه فيضا من التغييرات الدقيقة استخلصها من حس رقيق وخيال واسع وقريحة خصبة. قال:

1

سلام عليك أيتها الخمائل المكللة بفضلة من الخضرة! ويا أيتها الأوراق المصفرة المتناثرة

على العشب سلام عليك أيتها الأيام الأخيرة الجميلة! ان حداد الطبيعة يلتئم وألمي ويتفق ومشاربي.

2

وها أنذا أسير في الطريق المنعزل حالماً مفكِّراً ويحلو لي ان أرى ثانية وللمرة الأخيرة الشمس الكاسفة وقد أخذ شعاعها الواهي الضئيل يكشف الطريق بعد لأي لقدمي وسط ظلمة الخمائل الحالكة.

3

حقاً أني أجد في لحاظ الطبيعة المحجبة حين تقضي في أيام الخريف جاذبية وسحرا، انها وداع صديق، بل هي ابتسامة لشفتين سيلجمهما عما قريب الموت إلى الأبد.

4

وها أنذا وقد شارفت أفق الحياة، ما زلت أتلفت وأنا ابكي أمل أيامي الطويلة المتلاشي، وانعم نظري في حزن وحسرة في محاسن الحياة التي لم أتمتع بها بعد.

5

يا أيتها الغبراء، ويا شمس ويا وديان، ويا أيتها الطبيعة الجميلة الحلوة، إني مدين لكن بدمعة وأنا على حافة قبري! ما أعبق النسائم بالعطور! وما أنقى الضوء! وما أجمل الشمس في نظر المحتضر!

6

كم أودُّ الآن أن استشف هذه الكأس وقد امتزج فيها الرحيق بالمرّ. فلربما تبقى لي في هذه الكأس التي أتناول فيها الحياة، قطرة من الشهد.

7

ولربما أخفى لي المستقبل أيضا في ثناياه أوبة لسعادة ضاع الأمل فيها! ولربما تفهم نفسي؛ من بين الصفوف، نفس أجهلها فتجيبني!. . .

8

تسقط الزهرة تاركة عطرها للريح الدبور، وهذا وداعها للحياة وللشمس. وها أنذا أموت! وروحي حين تفيض تتصاعد كرجع صوت حزين شجي.

محمود فهمي ادريس- ليسانسييه في اللغة الفرنسية وأدبها

نشرنا هذه المقالة تشجيعا لشبابنا الناشئين في الأدب ولعلهم قبل ان (الرسالة) يفكروا في الكتابة يستكملون أداتها الضرورية من نحو وبيان، فان إهمال ذلك شر ما يؤاخذ به الكاتب.

العلوم

الاشعاع

للدكتور أحمد زكي. وكيل كلية العلوم

الاشعاع من أظهر ظواهر الوجود وأهم حادثاته الدائمة، تجده في المثل الصغير الحقير كما تجده في المثل الهائل الكبير، فالشمعة يحترق دهنها فيشع من احتراقه نور مضطرب ضئيل، يجهد ان يبدد من ظلمة الليل ما استطاع حتى يتبدد هو والنجوم تتوقد في السماوات العلى فتشع فتبعث في القبة الموحشة السوداء روحا وتبعث فيها جمالاً، ويتأجج هذا التنور السيار الهائل تلك الشعلة الدوارة الأبدية التي أسميناها الشمس، فتشع علينا بالنور والدفء، وبالهدى والحياة.

هذه أمثلة للإشعاع معروفة مألوفة، لأن العين تراها ولكنها ليست كل ما في الوجود من ذلك. ففي غير المألوف إشعاعات كثيرة لا تراها العين كشفها العلم. فالإشعاع اللاسلكي مثل حادث قريب الوقوع لا يزال يملأ قلوبنا بالإعجاب، ورءوسنا بالفكر والتأمل والحيرة، ولكنه ليس الا بعضا من كل، ومثلاً من مثل. تحدث ظواهر بينة الخلاف شديدة التغاير، وهي على شدة تغايرها وظاهر تناكرها وتعدد أسمائها حبات في عقد واحد وحلقات في سلسلة مطردة وأفراد من أسرة واحدة، تختلف سمة وتقاسيم ولوناً، ولكن تحت هذا الظاهر المضطرب باطن مستقر تلتقي جميعها فيه، وتتوحد جميعها عنده. ولكل شعاع من تلك الأشعة حكاية رائعة، وأحدوثة جميلة تنطق عن صبر للإنسان لا ينفد، وعن حيلة لا تعرف الخيبة، لا في استكشاف تلك الأشعة فحسب، بل في إلجامها وركوبها وتأنيسها حتى تكون ذلولاً طيِّعاً لا تنفر الا إذا أراد الإنسان منها النِفار، ولا تبطش الا حين يريدها على البطش. تناول السير اسحق نيوتن اظهر انواع الاشعاع بالبحث فأمرَّ أشعة الشمس في منشور ثلاثي من الزجاج، فبدل ان تخرج بيضاء كما دخلت، خرجت خليطا من أضواء عدة ذات ألوان عدة. فأعاد تجربته ثم أعاد فخرج على أن ضوء الشمس الأبيض مزيج من عدة أضواء، أي ان إشعاعها وان ظهر

متجانسا خليط من جملة إشعاعات مستقلة الحدوث. وأسمى هذا المزيج بالطيف، فكان هذا هو الحجر الأول في بناء علم الإشعاع الحديث.
وانتقل الإنسان يسأل نفسه بعد ذلك: وكيف تسافر أشعة هذا الضوء؟ قال نيوتن انها تسافر
في خطوط مستقيمة، وقال بنظريته المعروفة وفسر بها بعض الظواهر الضوئية كالانعكاس، وبالتدرج أخذ عقل الباحثين يقتنع بالشبه الذي بين سفر الضوء على متن الفضاء، وسفر الأمواج على متن الماء، حتى اهتدوا إلى إثبات أن أضواء الطيف إنما اختلفت ألوانها من الأحمر إلى البرتقالي إلى الأصفر إلى الأخضر إلى الأزرق إلى النيلي إلى البنفسجي لاختلاف في الطول بين موجاتها، واهتدوا كذلك إلى ان الضوء الواحد ذا اللون الواحد إذا ضعف أو اشتد فإنما يحدث ذلك لضعف الموجة او اشتدادها، اعني زيادة ارتفاعها وانخفاضها، او نقصهما عن مسارها المستقيم في الفضاء، وان شئت فسم ذلك اتساعها، اما طولها فثابت لا يتأثر ما بقي اللون على حاله، فان تغير طول الموجة تغير اللون، فاللون الأحمر أطول موجة من البنفسجي؛ ولو انك وقفت في مسار هذين اللونين وعددت موجات الأحمر التي تمر عليك في ثانية، وعددت مثال ذلك من البنفسجي لوجدت عدد موجات الأحمر أي ذبذبته أقل لطول موجتها من ذبذبة البنفسجي. وخرج العلماء من هذا كله بان الشعاعة تتعين وتتحدد بذبذبتها وبطول موجتها وبسعتها.
بعد ذلك تساءلوا عما يحمل موجة الضوء من مكان إلى مكان. موج البحر يحمله الماء. وتهز الحبل فتسير فيه موجة تبتدئ من حيث مسته يدك وتنتهي حيث ربطته من الحائط. فالحبل أو كتانه هو الذي حمل موجته. فأي مادة حملت موجة الضياء حتى أتتنا من الشمس والقمر والكواكب؟ ليست هي مادة الهواء، فإنما الهواء غلاف كقشرة البرتقالة يلف الأرض ولا يصعد إلا أميالا نحو السماء، وليست هي مادة مما نعرف من المواد، بل ان الضوء يسير في الفراغ، فإن الأنابيب المفرغة بالمعنى الذي نفهمه لا تعوق الضوء في انسيابه. ولكن الموجة طاقة متنقلة، والطاقة لابد ان يتقمصها شيء. فما هو هذا الشيء الذي عجزت حواسنا الموهوبة عن إدراكه وآلاتنا مهما دقَّت عن كشفه؟ والآلات كثيرا ما بصرت بما عميت عنه العين، وسمعت ما صمت عنه الآذان، وناءت بأثقال توافه لا تحفل بها اليد. ما هو هذا الشيء المعدوم في وجوده، الموجود في عدمه؟ ان هذا الشيء معدوم عند العقل العادي الذي لا يؤمن الا بالذي يراه، ولكنه موجود عند العقل العلمي الذي يتخذ من الآلات حواس جديدة فوق حواسه الخمس، ويتخذ من حقائق العلم وتجارب العلم وماضي العلم وحاضره ومآسيه ومفارحه دروسا وعبراً، ويتخذ من التفكير العلمي وحواره وحجاجه واستنتاجه منطقا جديدا غير منطق الشراب والطعام والملبس والمركب. موجود عند ذلك العقل العلمي الذي لبس جناحين من ذكر للماضي عاصم من خدعاته وثقة جريئة في المستقبل لا تعرف إلا الإمكان، يطير بهما في مجاهل لا يغني فيها السمع والبصر، ومفاوز على حدود البشرية أشبه بالمعاني منها بالمباني، وبالأرواح اللطيفة منها بالأجسام الكثيفة، هذا الشيء الذي لابد أن تسير فيه موجات الضوء موجود عند ذلك العقل العلمي بالرغم من ظاهر انعدامه، منظور بالرغم من خفائه، ملموس ولو أفلتته الاصابع. وإذن فلا بد له من اسم. فأسموه الأثير. وما مادته؟ لست أدري ولا المنجِّم يدري. وما خواصه؟ لا يعرفها حتى الذي اسماه. سئل الأستاذ أوليفر لودج العالم الطبيعي المعروف عن تعريف له فقال في كلمات ثلاث: هو شيء يتموج. وان كان لابد لك من تعريف فقل انه شيء له من الخواص ما يأذن بانتقال موجات الضوء فيه على نحو ما نعرف وفقا للقوانين التي نعرف، والسرعة الهائلة التي نعهد. فمثلا نعرف ان سرعة الموجة تتوقف على كثافة المجال الذي تنطلق فيه، ونعرف ان الضوء في سيره يقطع في طرفة العين ولمحة الخاطر مسافات يصعب على خيال المرء تصويرها، فنستنتج من هاتين الحقيقتين ان الكتلة التي في سنتمتر مكعب من هذا الأثير لابد ان تكون هائلة المقدار. وبعد ان درس العلماء الوان الطيف وهو كالسلم بدرجاته السبع، أسفلها الأحمر وهو أطولها موجة وأبطأها ذبذبة، وأعلاها البنفسجي وهو أقصرها موجة وأسرعها ذبذبة أخذوا يبحثون عن موجات أسفل من الأحمر وأطول منه موجة، وعن اخرى أعلى من البنفسجي وأقصر منه موجة، فهدتهم التجارب إلى

صدق ما حدسوا: إلى موجات دون الأحمر وهي الموجات التي تنتقل بها الحرارة من بين ما تنتقل، وإلى موجات فوق البنفسجي وهي موجات ذات خواص كيميائية تستخدم في التصوير الشمسي، وأمرها الآن معروف ومشهود، وكلا هذين النوعين من الاشعاع غير منظور، فالعين لا ترى الا سلّم الطيف بدرجاته السبع.

وأحس الطبيعيون بأن شعاعات أخرى لابد موجودة فيما دون الأحمر غير التي اكتشفت، فأجرى العالم الطبيعي (هرثر) تجاربه فكشف بها عن موجات جديدة غير مرئية وجدها شبيهة بموجات الضوء والحرارة، الا انها اكثر طولا واقل ذبذبة، وسميت باسمه. وفي الناحية الاخرى في أعلى السلم اكتشفت موجات غير مرئية اخرى قليلة الطول كثيرة الذبذبة، سميت بالأشعة الكهربائية المغناطيسية، ثم تلتها الأشعة (السينية) المعروفة بأشعة (اكس) وقد أفادت الطب اكبر فائدة وهي تنفذ في الرصاص إلى نحو من خمسة سنتمترات. واليوم نتحدث عن الأشعة (الكونية) صعد الأستاذ منطاده في بالونه المشهور إلى طبقات الجو العليا في طلبها، وتحدثت عنها وعنه الجرائد منذ أشهر قليلة. وهذا الاشعاع الجديد لا يتوقف انبعاثه على الكرة الأرضية التي لنا الحظ بالعيش عليها فهو ينبعث صباح مساء في الصيف والشتاء غير آبه لنا أو لها، وينبعث حاملا طاقة واحدة لا تزيد ولا تنقص ينفذ بها في الرصاص بضعة أمتار وفي الماء نحو 800 قدم. ما أثر هذه الأشعة الجديدة اكتشافا، الأزلية مولداً، فيما على الأرض من حياة؟ ما أثرها في حياة النبات والحيوان وفي حياتنا نحن وارثي الأرض وما عليها؟ يقول الأستاذ السير جيمس جينز ان هذه الأشعة تحلل في الثانية الواحدة ملايين الجزئيات من أجسامنا. ان كان هذا حقا فما اثقل النعاس الذي كنا فيه حتى نمنا كل هذه القرون والأجيال عن أمر له هذا المساس القريب بذواتنا. ويا ترى كم من أمواج اخرى في هذا الفضاء تعمل فينا وفي أجسامنا وفي أرواحنا، ونحن عنها غافلون. وهل يا ترى سنجد في هذا النوع من الاشعاع تفسيرا لبلي الجديد وشيخوخة الشباب وفناء الحي. أذكر من سنوات عدة كلمة للسير أوليفر لودج لا أنساها الا إذا نسيت حضرته الرائعة، تروعك منها قامته الطويلة وكتفاه العريضان ورأسه العظيم يطل عليك من فوق جسمه الكبير مجللا بالشيب ولحية وقورة بيضاء صافية كصفاء ايمانه، وعينان وادعتان تنظر اليك منهما حقب من الزمان امتلأت علما وفكرا في مبنى الوجود ومعناه. كان يحاضرنا في جمع حافل أتى يستمع للعالم الشيخ فساقه ختام المقال إلى عفو من الكلام قال: (أنا هنا واقف بينكم في القرن العشرين في قاعة مملوءة بأنواع عدة من أمواج عدة (يقصد الأمواج اللاسلكية) منبعثة في اتجاهات عدة وكلنا صموت نتسمع ولكننا لا نسمع شيئا. ولكننا جميعا برغم ذلك مؤمنون بوجودها. ولو أني وقفت بينكم هذا الموقف في القرن الغابر أحدثكم عن هذي الأمواج لقلتم خرف أصابه مس الكبر. الفرق بين الموقفين فرق بين الزمنين، ذلك أني اليوم أستطيع أن أعيركم هذه الأذن الجديدة (وأشار إلى سماعة اللاسلكي التي تلتقط الأمواج) تسمعون بها ما عجزت عن سماعه آذانكم. ثم دار الأستاذ بعينيه في أرجاء الحجرة الواسعة في صمت وبطئ كأنما يستوحي جدرانها ثم قال: (ليت شعري كم بهذه الغرفة الآن من أمواج غير التي نحن بصددها، وليت شعري أي الآذان يبتدعها الإنسان لادراكها، وليت شعري متى يكون هذا. . . وأنّى، واين؟) ثم صمت يفكر وصمتنا ننظر. فقال (ما الخاطر يرد لي ولك في آن وبيننا الأقطار العريضة والبلاد الواسعة؟ ما النذير يأتي قلبي وقلبك بالشر فيصدق حينا ويكذب حينا؟ ما الايحاء؟ ما الوحي؟) وفنيت جملته في تمتمة لم نسمعها، ورسمت يمناه في الهواء دوائر كأنما كانت تستكمل له رأياً لم يبح به أو فكرة وجد من الكياسة لا يذيعها، او لعله الهام جاءه على غير احتساب فشاء ان يتذوقه في مخدعه فردا قبل ان يكون للجماعة شأن فيه. وفي العلم الهام كما في الشعر الهام، وكما في النبوة وحي؟

القصص

قصة مصرية

دموع بريئة

للأستاذ محمود الخفيف

عرفته في الثامنة عشرة، طويل القامة في غير افراط، نحيل الجسم في غير هزال،

مهيب الطلعة في غير تأنق، حلو الحديث في غير تكلف، ولست أذكر وقد مضى على تعارفنا نحو ستة أعوام ما الذي جذبني إليه حينما رأيته لأول مرة حتى لقد امتزجت روحي بروحه، أهو هدوءه ورزانته ام نشاطه وهيبته؟ وكل ما أتذكره الآن هو أني رأيته فأحببته ولشد ما أبهج نفسي أن رأيته يحس نحوي ما أحس نحوه فما هي الا أيام حتى توثقت عرى المودة بيننا واستحكم الوفاق بين قلبينا وصار كلأنا يأنس بصاحبه ويهش للقائه ويحرص على رضائه. ولما عاشرته وتبينت خلاله أعجبني منه أدبه الجم ووقاره العاقل وقلبه الرحيم وأكبرت منه نظراته الهادئة ونفسه المتوثبة وعواطفه الثائرة وشبابه المرح وروحه الجذابة.

وتبينت فيه شاعراً يقدس الجمال ويعشق الطبيعة في خيال خصب وذهن متوقد وحس دقيق كما تبينت فيه على حداثته فيلسوفا بعيد النظر دقيق الملاحظة حلو الفكاهة عذب الروح ورأيته مشغوفا بالحياة مقبلا عليها قانعا بحظه منهما راضيا عن نفسه غير ساخط على أحد. ولقد جعلني منذ ان تعارفنا موضع سره يحدثني في غير تحفظ ويجد عزاء طيبا في ان يثني لواعج نفسه وخطرات حسه كما يجد هناء سائغا في أن أشاطره مسراته وأسباب سعادته. وكان حديثه تارة حزينا يستدر الدموع وتارة بهيجا يملأ جوانب النفس سروراً وغبطة وكان يقص عليَّ مشاهداته في الحياة غير انه كان يشفعها بآرائه او يمزجها بخواطره فيكسبها بذلك قوة تحرك القلب وتستثير العواطف. وكنت أحرص على أحاديثه إذ أرى فيها خواطر فتى كبير القلب راجح العقل. غاب عني شهرا فأشفقت أن يكون قد مسه الضر وأردت أن أذهب إليه ولكن الخادم أحضر إليَّ كتابا تبينت خطه على غلافه ففضضته في شغف فإذا به يخبرني انه سيكون عندي في المساء، ومرت الساعات ثقالا

حتى كانت الثامنة فإذا هو يطرق الباب ثم يفتحه في هدوء. ودخل عليَّ شاحبا مكدوداً واجما مهموما. ومد إليَّ يده وكأنه قرأ في وجهي إشفاقي وتلطفي، فابتسم ابتسامة قصيرة ثم جلس وقد اتكأ بمرفقه على حافة القعد وأسند رأسه إلى قبضة يده، وشملته كآبة مرعبة دق لها قلبي فأنا اعرفه ثائر العواطف واسع الرحمة يستوقف بصره بكاء بائس فتدمع مقلتاه، ويطرق أذنه أنين ملتاع فيملك عليه مشاعره وكثيرا ما اظهرت له إشفاقي فكان يضحك مني قائلا: لا حيلة في ذلك فتلك جبلته. ولقد كان يتهم نفسه بالطفولة ولكنه كان يعود فيفتخر بهذه الطفولة التي تملأ قلبه رحمة وحناناً. واطرق قليلا ثم رفع رأسه وقال وهو يضحك ضحكة غريبة تعبر عن الأسى والألم: (هو شهر، ولكنه قرن في حوادثه) وتالله لقد ألهب شوقي بتلك العبارة فاصخت بسمعي إليه وأقبلت بكليتي عليه وفهم هو من نظراتي أني استعجله فهز رأسه هزة عصبية وقال:

لله ما اغرب هذا المسرح الهائل مسرح الحياة الذي يموج بالناس في غير نظام وكل يلعب دوره حتى يسدل الستار عليه فإذا هو في طي الفناء وفي أغوار الأبدية. هذا ضاحك مستبشر وهذا فرح فخور. وهذا بائس محزون وهذا حائر مشدوه وهذا مستسلم وهذا مغتر متطاول وهذا. . . وأخيراً يتساوى الجميع فيساقون في سكوت كل إلى حفرته.

قلت أمرك عجب ايها الصديق وهل هذا ما يحزنك هذا الحزن؟ لكأني بك قد اجتمعت فيك كل هذه الصور. ماذا أحزنك وعهدي بك مرحا خلي البال؟ وتنهد الفتى تنهدا عميقا وقال:

على المسرح المرعب او قل في زواياه التي لا تراها الا الأعين البصيرة او التي لا) تراها الأعين الا مصادفة، على هذا المسرح الصاخب المضطرب وفي هذه الزوايا المتوارية عن الأنظار يوجد من المآسي والآلام ما يتفطر له القلب حقاً .. .)

وقاطعته قائلا: هون عليك يا فيلسوفنا الصغير وما لك ولهذا الانقباض وأنت في زهرة العمر؟

فنظر إلي نظرة لوم وقال:

ما حيلتي وتلك جبلتي؟ يراني الناس ضاحكا فرحا فيظنون أني خلو من الهموم، وتالله) ما ضحكي الا خداع مني لنفسي ومغالبة لشعوري، هو كالزهر الصناعي يغالط به الطفل نفسه. . . ولكن. . . أراك على حق فسأضحك وسألعب وسأنسى كل شيء. . . نعم سوف

(. . .اضحك مع الضاحكين. . . وسوف لا ابكي بعد اليوم مع احد او على احد
وضاحكته استطلع دخيلة نفسه وحقيقة أمره فاعتدل في جلسته وتوثب وتحفز
واستجمع قوته ثم قال في قوة وعزم
هو دور لعبه أمامي ويا ليتني لم أره ولكن ما اسخف لعبته هذه!. . . ليكن ما يكون
وليكن ما قدر وهو كائن.
قلت مالأمر؟ انك تحيرن. فاستطرد في صوت أبح لم اسمعه منه قبل اليوم وقال:
هن فتيات أربع جئن فسكنَّ في المنزل المجاور لنا وكان قبل مجيئهن تسكنه سيدة)
وابنها وهو فتى في نحو الخامسة والعشرين ولقد تبينت بعد مجيئهن إنهن اخوته وكان
أول ما رأيتهن في ظهيرة يوم عندما عدت إلى المنزل ففتحت النافذة كعادتي في كل
يوم وإذا بي أراهن أمامي لا يكاد يفصلني عنهن إلا نحو سبعة أمتار وما وقعت أنظارهن
عليّ حتى جرين مسرعات إلى داخل الحجرة واقفلن الباب من ورائهن إلا صغراهن
وهي في العاشرة تقريبا فقد ظلت ترمقني بنظرات ساذجة بريئة وكأنها وكانت تجيد
(لعبة اليويو) قد أرادت أن تريني مهارتها فأخذت تلعبها وتنظر إلي، فابتسمت فضحكت
ودخلت إلى أخواتها صائحة لاعبة. ومضيت أنا إلى بعض المجلات فجعلت اقلبها ولكن
نظري كان كثير الاتجاه دائما نحو هذا المنزل أو نحو ذلك الباب، وأنت يا أخي تعرفني
أحب الاستطلاع ولا أكاد استقر حتى تصل نفسي إلى ما تريد فجلست اختلس
النظرات وأتظاهر بالنظر إلى الصحيفة التي في يدي فرأيت كبرى البنات وهي في
العشرين تقريبا قد وقفت إلى الباب فرأيتها ذات حظ من الجمال غير قليل غير انه
جمال شاحب حزين. ومرت أختها الصغيرة أمامي وهي في نحو السادسة عشرة تكسو
محاها سمرة خفيفة وهي فتاة ضاحكة والعينين مرحة جريئة النظرات سريعة الحركة
خفيفة الروح إلى حد عظيم. أما وسطاهن فلم تظهر طول ذلك اليوم. ولست ادري
وأيم الله لم ضايقني ذلك، وكل ما أذكره هو إني أحسست بانقباض وضيق لعدم
ظهورها. على إني ما لبثت أن اضحك بل وسخرت من نفسي ومضيت إلى كتبي
ونسيت من أمرها ومن أمرهن كل شيء. وفي صبيحة اليوم التالي نزلت إلى عملي
فتبينت وجهها من خلال زجاج النافذة، جميلة رائعة الجمال دعجاء المحاجر بيضاء
الوجه دقيقة الأنف حلوة اللفتة ناهدة الصدر. وفي ظهر ذلك اليوم رأيتها
واقفة فلم تهرب كعادتها بل رفعت إليّ بصرها ثم دخلت حجرتها في هدوء ورزانة. لا
أكتمك يا أخي أني شعرت بميل نحو تلك الفتاة كان أول أمره معتدلا عاديا. فقد
أعجبني منها رشاقة جسمها واتزان حركاتها وتناسق أعضائها وغضارة بشرتها وجمال
محياها وكانت عيناها الدعجاوان ترسلان من أشعتهما حرارة الشباب فتهز قلبي وتفتح
جوانب نفسي حتى لقد صرت أجد في النظر إليها متعة وهناء أشبه بهناء النفس في
حلم هادئ جميل. غير أن ما جذبني إليها حقا هو تلك النظرات الحزينة الهادئة التي
كانت تتخلل نظراتها اللامعة القوية وتلك البسمات الخفيفة الفاترة التي كانت لا تلبث
أن يطفئها وجوم غريب وإطراق مؤثر. وازداد ميلي إليها إلى أن كنا صبيحة يوم
فسمعت وأنا بين النوم واليقظة نحيبا متقطعا ولست ادري لم انصرف ذهني إليها لاول
وهلة؟ فقفزت إلى النافذة فرايتها ووجهها بين كفيها باكية تئن أنيناً موجعا. وأنا أترك
لك أن تقدر لنفسك مبلغ ما نالني من الحزن في تلك اللحظة الرهيبة ولقد كدت أن
أصيح بها أن كفكفي دموعك يا فتاة لولا انها أفاقت سريعا من غشيتها ومسحت
دموعها في هدوء ثم نظرت إلى الشمس المشرقة نظرة حزينة يهتز قلبي كلما ذكرتها
ودخلت بعد ذلك إلى مخدعها. ومنذ ذلك اليوم عرفت طعم الألم حقا وكانت تتمثل لي
صورتها فيكتنفني من الألم اللاذع ما يزق شغاف قلبي ويحرك مكامن وجدي ولا سيما
وقد تكرر ذلك منها كثيراً في الصباح أحيانا وفي المساء أحيانا اخرى.
وأخيراً. . . وأخيراً حم القضاء ووجدت نفسي أسير تلك الفتاة الحزينة الباكية ولك ان
تعجب مني ما شئت أنا الذي طالما سخرت من الحب وهزأت بالعاشقين، أنا الذي
طالما وصفت لك الحب بانه حلم من أحلام الشباب الخادعة وسراب خلب يحسبه
الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجد شيئا، أو فورة دماء واضطراب مزاج لا أقل ولا أكثر،
ولكن الإنسان ضعيف لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا.
ولماذا أحببتها؟ أهو جمالها الساحر قد ملك على نفسي أم هو حزنها العميق قد صادف
عطفا وحناناً في قلبي؟ ولكن مالي أبحث عن سر حبها ومتى كان الحب أمرا يقبل

التعليل ويخضع للتحليل! مالي لا أقول أني أحببتها لأنني أحببتها ولتضحك بعد مني ماشئت ولكن لم تضحك؟ أليس الحب تفاعلا نفسانيا أو مزيجا روحانيا يأتي بكل سهولة وبغير أدنى
ترتيب؟
أحسست باهتمامي بأمرها وإشفاقي عليها فكانت تشكرني بابتسامة عذبة وصرت أرى في عينيها ما يدل على الاعتراف بالجميل، ولكني كنت لا أرى في نظراتها ما يدل على أنها تبادلني حبي وتطارحني هيامي، انها كانت نظرات شكر وامتنان وتالله كانت تؤلمني أحيانا ولكني كنت في سكرة الحب أعلل النفس بالآمال واترك للغد القول الفصل والحكم الأخير. ولكن تصرمت أيام دون أن اجرؤ على مخاطبتها ولو بالتحية.
وراقبتها مرة فرأيتها تتأهب للخروج وثارت نفسي واعتراني جنون الشباب وامتدت يدي إلى ملابسي فلبستها دون ان اشعر بشيء أو ادري ماذا افعل وسرت في أثرها وأن فؤادي ليخفق وأن نفسي كلها لتهتز إلى أن رأيتها تجلس وحدها على حافة قناة صغيرة كانت تقرب من المنزل وقد أطرقت قليلا ثم رفعت رأسها فإذا هي تراني أمامها فساورها مزيج من الدهشة والابتسام والخوف والارتياح والغضب والرضى.
ولست ادري من أين جاءتني تلك الشجاعة في تلك اللحظة الدقيقة؟ فقلت في ثبات:
هل لي يا فتاة أن أسألك سؤالا صغيراً؟
فنظرت إلي نظرة عميقة فيها كثير من المعاني. ويح نفسي إني لأراها الآن، أرى تلك العينين الدعجاوين وتلك التقاطيع الحلوة وذلك الفم الجميل وتينك اليدين الرشيقتين.
قالت وما سؤالك يا فتى؟
قلت: هل لي ان اعرف سبب حزنك وبكائك؟
فسرت رعدة قوية في أعضائها وتمشت صفرة فاقعة في وجهها وكأنني هززت بذلك السؤال كل كيانها وتمتمت بكلمات لم اسمعها ثم قالت:
شكرا لك على اهتمامك بأمري. لست أستطيع أن أجيبك على ما سألت.
قلت ولكني أريد ان اعرف.
فعظمت دهشتها وبدا على محياها ذهول وخوف ثم قالت في حدة مصطنعة:
وما شأنك أنت والسؤال عن هذا؟
قلت أني. . . أني. . . أريد. . . أرجو. . .
فساورها الشك في عقلي فلقد قرأت هذا الشك في نظراتها، وحدجتني بنظرة طويلة وقد اغرورقت بالدمع مقلتاها ثم أشاحت بوجهها عني فألحفت وتوسلت فقالت:
اليك عني واتق الله في فتاة ضعيفة بريئة.
قلت لا أستطيع البعد عنك.
ثم انهمرت دموعي فصدقت وقالت وهي تنتفض من شدة الاضطراب:
حسبتك أحد أولئك الشبان الذين لا أخلاق لهم ولقد هممت أن أصرفك في قسوة.
ثم نظرت إلي طويلا دون ان تتكلم فقلت في صوت خافت متقطع: ستكونين لي منذ الآن.
فتجهمت قليلا ثم ابتسمت ابتسامة فهمت من معانيها الندم والحسرة والألم وهزت رأسها كأنها تريد ان تقول لي انك لا تدري من الأمر شيئا ثم قالت:
دعني بربك ولا تشغل نفسك منذ اليوم بأمري فلن يجديك ذلك نفعا وستبدي لك الأيام صحة قولي وصدق نصحي.
وكأنها ارتاعت لوقع ذلك على قلبي فقالت وهي تبكي:
آه ليتني أستطيع!. ليتني أستطيع!. اتركني أشكرك على. . . وغلبها الحزن والبكاء فأجهشت كما يجهش الطفل. فتظرفت إليها ولاطفتها ثم تناولت يدها فلم تمانع ولما أردت ان اجذبها نحوي نهضت قائمة وسارت لا تلوي على شيء ولم تلتفت وراءها وغابت عن بصري في منعطف، فبقيت في مكاني جامدا كالصخر ثائرا مضطربا ثم مرت علي دقائق افتقدت فيها نفسي وحسي.
ومرت أيام وأنا أتجنب النظر إليها ما استطعت، أيام كنت أثنائها كالذي يتخبطه الشيطان من المس ولقد بلغ من نفسي أنني كنت أرى الأسرة كلها حزينة كأنما هم مقبلون على أمر خطير. ولما ضاقت بي الدنيا كتبت إليها اطلب عفوها وأبثها لواعج

نفسي. وفي صبيحة يوم جلسن جميعا يبكين حول أمهن وأنا حائر مشدوه لا ادري من أمرهن شيء فناديت البدال فأقبل وهو فتى طيب القلب فقلت له: أتدري يا فتى سر هذا الحزن؟ وأشرت إليهن دون أن يرينني.
قال أو ما تعلم؟
قلت كلا.
قال ان صاحب المنزل قد (أوقع الحجز) عليهن أعقبه بائع الخبز بحجز مثله وفاء لما عليهن من الدين وقد قرب يو البيع.
قلت وقد دق قلبي دقا عنيفا: هل مات أبوهنَّ؟
قال خير لك الا تعرف عنه شيئا، ثم قال:
كان أبوهن تاجرا من كبار التجار وكان عظيم الثراء ولكنه لم يرع النعمة وراح يقامر مرة ويسرف مرة ويتعاطى المخدرات بكثرة مخيفة وهو الآن نزيل السجن من سنتين.
وارتفع الدم بغزارة إلى وجهي وأحسست بحرارة كحرارة المحموم ومرت غشاوة فحجبت بصري ورأيت الجو بعد برهة اصفر مكفهرا ثم قلت:
وأخوهن؟
قال هو شاب عاطل لا يجد لنفسه عملا مع انه يحمل شهادة عالية. مناه أصدقاء والده كثيرا بوظيفة ولكن أين هي الوظائف الآن؟ وكثيرا ما نصحناه ان يلجأ إلى عمل، أي عمل حر ولكن يظهر أن الأبواب سدت في وجهه.
قلت ولم لم يتقدم احد لخطبة البنات من قبل؟
قال بلى خطبت الكبيرتان ولكن خطيبيهما تركاهما بعد ما جرى لأبيهن ما جرى. ثم سكت البدال وقال في ألم: مع ان البنت الوسطى ولعلك تعرفها ذات الشعر الأصفر كانت تحب خطيبها لدرجة الجنون.
فصرفته ودخلت حجرتي كئيبا ملتاعا وذرفت الدمع سخينا.
وسكت صاحبي برهة ثم قال في نبرات حزينة: أرأيت كيف يقضي هؤلاء الإغفال على أنفسهم واموالهم وأولادهم؟ الا قاتل الله الجهالة انها اصل الفواجع والآلام. ثم قال دونك فاسمع البقية، وبدت منه حركة عصبية ظاهرة في يديه وعينيه وصوته المبحوح وصدره المجروح، قال:
في صبيحة اليوم التالي سمع سكان البيوت المجاورة صراخا عاليا ففتحوا النوافذ فوجدوا الدخان يتصاعد من نافذة المطبخ في ذلك المنزل أما أنا فكأني كنت اعلم بما سيجري من قبل فسكت ولكنه كان سكوت اليأس وتجلدت ولكنه كان تجلد الإغماء. وهرع الناس فدخلوا المطبخ فإذا هي ممدودة على الأرض لا تبدي حراكا ولم يحترق منها الا شعرها وقرر الطبيب ان الوفاة بالاختناق. وارحمه لك يا. . . حتى النار أكبرتك وأشفقت من ان تلهب
هذا الجسد الطاهر ولكنك جدت بغدائرك الذهبية التي طالما قطعت إليها الأعين وخفقت لرؤيتها القلوب.
وهنا لم يتمالك صاحبي نفسه فأجهش كما يجهش الصبي وناولني قصاصة من الورق فقرأت فيها ما يلي:
وصلتني كلمتك الرقيقة يا صاحبي فضممتها إلى صدري وقبلت الخطاب من أجلك وذرفت الدمع سخينا شفقة عليك. سامحني واعف عني وسنتقابل في الحياة الاخرى حيث لا شقاء ولا عذاب وأرجو أن تستغفر لي الله في صلواتك، الوداع والشكر الجميل!
ولما تلوت تلك الورقة وجدته قد غلبه النوم وطول الجهد فأخذت رجليه برفق ومددتها على المقعد وعمدت إلى ملحفة فنشرتها عليه وخرجت على أطراف أصابعي وتركته لينام عله يجد في النوم بعض الراحة وسألت الله ان يشفق به في أحلامه وأن يهبه العزاء والسلوان.
محمود الخفيف
إلى بئر جندلي
للأستاذ الدمرداش محمد. مدير ادارة السجلات والامتحانات بوزارة المعارف

لحظة رهيبة مرعبة، ولولا أن ملك الجماعة زمام عقولهم وتصرفوا بما يستلزمه الموقف من بديهة حاضرة وهمة عالية، لسقط أحمد بك في الهاوية، ولا أدري الآن، وقد توالت الحوادث بسرعة مدهشة، كيف نسي الرفاق أن ينتشلوا زميلهم من ورطته، وعلى كل حال فقد انتهى الحادث بسلام، وعاد الجماعة إلى ما كانوا فيه من مطاردة الأرانب، وعند الظهر كانوا قد أنهكهم التعب وأضناهم الجوع، فملوا المطاردة وقنعوا بما أصابوه في ذلك اليوم وكان شيئا كثيراً، فحثوا المطايا في السير كي يصلوا وادي جندلي في الموعد المضروب.

وكانوا حينئذ يسيرون على ظهر ربوة عالية وعن يسارهم نحو الشمال، جبل اليحموم الأزرق بلونه القاتم، وعن يمينهم نحو الجنوب جبل أبو شامة بقمته العالية (2300) قدم وكانوا كلما توغلوا شرقا تغيرت معالم الجبال وزادت ارتفاعا، والأودية خضرة وعمقا، وقبل الأصيل اقبلوا على واد شديد الانخفاض كثير التعاريج كبير الشبه بوادي دجلة ونظروا من علٍ فابصروا الجمال ترعى في باطنه والاستعداد قائم حولها لتهيئة الطعام وإعداد مكان المبيت، فطابوا نفسا وقرُّوا عيناً.

يقع بئر جندلي على خمسين كيلو مترا من القاهرة على ارتفاع 300 متر من سطح البحر، وقد قضينا بالقرب منه ليلتين ويوما وسط طبيعة نقية هادئة مشرقة في صحبة أصدقاء مخلصين حباهم الله الصحة والبشر وسلامة الطوية، حقيقة انها سويعات تعد من أسعد فترات الحياة واصفاها، وقد وافق اليومالثالث من رحلتنا أول أيام العيد، ففي الصباح صلينا ونحرنا غزالة ثم قضينا اليوم في الوادي نلعب ونضحك ونتسابق ونمرح ونمزح كأننا

الأطفال الصغار. وبعد الغداء جلسنا إلى الدليل نستمع لحكاياته الطريفة عن حياته فقال وقد مال في جلسته واسند ظهره إلى حجر كبير، وعقد يديه على رأسه: من خمس وعشرين سنة كنت شابا شقيا أجوب الصحراء شرقا وغربا شمالا وجنوبا لا أستقر على حال، وفي مرة نزلت السويس وقت موسم الحج فتحككت بشيخ مغربي يحمل خرجين كبيرين ينوء بثقليهما فظن أني أسديه المعونة فمد يده إلى رأسي ودعا لي بالهداية ودعاني أن أرافقه إلى الحجاز، وقد كان فأديت الفريضة واستقبلت الكعبة، وبصوت عميق خلته يخرج من كل جسمي دعوت الله ان يغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر، فاستجاب الله دعائي، وعدت من الحج صالحا طاهر القلب شديد الإيمان، والتحقت بالأزهر فمكثت فيه خمسة عشر عاما إلى ان قطعت عني الجراية في عهد الشيخ محمد عبده، فتحولت إلى التجارة وشغلت بعرض الدنيا ولكني وقد ناهزت الخمسين لا زلت شديد الحنين إلى الجبل فأخرج إليه كلما سنحت الفرصة فأقضي فيه أياما قريبا من الله بعيدا عن المدينة وكدرها ثم أعود وقد تطهرت نفسي وهدأ عقلي واستراح جسمي. ثم انه على غير انتظار امسك عن الكلام وترقرقت دمعة في عينه وتحول ببصره عنا وأطرق برأسه ثم أطبق عينيه ونام.

كان البرد في تلك الليلة شديدا فآوينا إلى مضاجعنا مبكرين وأشعلنا نارا كبيرة لنصطلي، وفي أول الليل اكفهر الجو وعصف الريح وأبرقت السماء وأرعدت وانهمر مطر غزير ثم اخذت الصواعق تنقض من حولنا، والبرق يومض بلمعان يضيء الفضاء كأنه نور النهار، والماء يتدفق إلى الوادي بدويٍّ شديد، ثم فاض الوادي بسيل عنيف جارف، فكان مشهدا رائعا. وبعد ساعة انقشعت السحب وصفا أديم السماء واشرق الوادي بنور القمر فسرى عنا ما ساورنا من قلق واضطراب، ثم نمنا نوم الهناء والعافية. وقبل الفجر استيقظت على صوت حركة غير عادية بمعسكرنا فوجدت الجماعة يتقلدون سلاحهم وعلامات الاهتمام بادية على وجوههم وأبصرت الدليل ينزل إلى وهدة متوسطة ويقف وراء صخرة كبيرة ويتجه ببصره نحو البئر ثم يتبعه عبد الله بك ويهمس في أذنه بكلمات ويحتمي هو الآخر وراء حجر كبير ثم تتفرق باقي الجماعة على الصخور المجاورة ويتخذونها متاريس يكمنون وراءها وينصبون بنادقهم على حوافيها. دهشت لهذا الاستعداد وانتقلت إلى حيث كان خالي رابضاً واستوضحته في صوت خافت جلية الأمر فأشار إلى

الدليل وقال، انه رأى شبحين ومعهما بعير هبطا إلى الوادي بالقرب من البئر وبعد أن عقلا الدابة أخذا ينسلان نحو مربط الجمال ملتزمين السفح، فقلت هل تراهما؟ قال ان

البئر بعيد والضوء ضعيف والرؤية متعذرة.
وبعد قليل صاح الدليل (ها! أكمنوا لا تطلقوا النار) ثم انه أطلق عيارا في الهواء وعندها برز رجلان إلى عرض الوادي واندفعا نحو الجمال فصاح الدليل (جماعة أطلقوا النار في الهواء) فدوى في سكون الليل صوت البنادق كأنه زمجرة المدافع فذعر الرجلان لهذه المباغتة ووقفا مكتوفي اليدين علامة التسليم، فانتقل إليهما سويلم الجمال وقادهما إلى حيث كان الدليل فقالا أنا قادمان من المرج قاصدين وادي الحقول على البحر الأحمر في أمر مستعجل، وفي المساء كنا نجتاز اليحموم الأزرق فشاهدنا ناركم فعرجنا عليكم لنستدفئ وما قصدنا بكم سوءا ولكنها مداعبة على عادة البدو. وبعد أخذ ورد من الدليل على قولهما سألهما عن البعير فقالا انهما وجداه ضالا فساقاه أمامهما حتى لا يقع غنيمة في يد (أولاد علي) اسم قبيلة، وبعد ان نفحناهما بطعام وكبريت انصرفا بسلام وقد تنفس الصبح ولاح.
قضينا اليوم الرابع في الصيد كذلك فوق سفوح جبل القطامية على ثلاث ساعات شرقي بئر جندلي وعند الظهر التقينا بوادي الغز بجبل أبو شامة حيث كانت تنتظرنا الجمال وبتنا فيه تلك الليلة وفي صباح اليوم الخامس غادرنا أبا شامة راجعين عن طريق البعيرات فوق مشارف وادي دجلة وبعد سير حثيث دام عشر ساعات من غير انقطاع وصلنا القاهرة عند العشاء ونحن على احسن حال وفي أجود صحة.
لاحظ القارئ ولا ريب ان عبد الله بك واخوته يمثلون جيلا من الناس أولع (الرسالة) بالصفة الباقية من صفات الفتوة وهي الصيد. والصيد رياضة بدنية نفسية تربي في النفوس أخلاق الرجولة كالنخوة والمغامرة والقوة وقد كانت ولا تزال ديدن الملوك والأمراء والقادة فعسى ان يكون لهذا الجيل بقية في مصر. وان يكون لهذه البقية أثر صالح في توجيه الناشئة لمثل هذه الرياضة.

الكتب

أهل الكهف

للدكتور علي مصطفى مشرفة

عزيزي الأستاذ توفيق الحكيم

لطالما تاقت نفسي إلى رؤية أدب عربي أجد فيه الغذاء الروحي واللذة الفكرية اللذين الفتهما فيما اطلع عليه عادة من الأدب. ومع إيماني باليوم الذي يرتفع فيه أدبنا إلى المستوى العالمي كنت اشعر بان هذا اليوم سيجيء بحكم طبيعة الأشياء متأخرا، فربما رآه أهل جيلي، وربما حبت به الظروف أبناء جيل قادم. فلما قرأت (أهل الكهف)، الذي تكرمت عليّ بنسخة منه، علمت علم اليقين ان اليوم الذي كنت أترقبه قد طلع وملأت شمسه الآفاق. تعلم أنني لست من الأدباء ولا من (المستأدبين)، وإنما نظرتي إلى الأدب، كنظرتي إلى غيره من نواحي الفن الإنساني: نظرة الرجل المثقف العادي يطلب الجمال والإلهام الصادق حيث يجدهما، كما يتطلب مستوى خاصا من التفكير المطلق المخلص فيه لوجه الحق حيث وجد. وفي رأيي ان (أهل الكهف) قد ارتفع من كل هذه النواحي إلى أسمى ما قرأته وان كانت لي ملاحظة على كتابك فربما كانت شيئا من التحديد في دائرة ما تناولته فيه من الموضوعات، فما كان أشوقني إلى رؤية بعض المسائل الاجتماعية مثلا تعالج بنفس القلم الذي صور لنا إيمان المسيحيين الأولين وقابل لنا بين الحقيقة والتاريخ! ولكن لعل ذلك شراهة مني، فالوليمة ولا شك فاخرة وان كانت تشحذ شهية أمثالي. لا تنتظر مني نقدا فنيا لروايتك التمثيلية فأشخاص الرواية كلهم أحياء يتحركون ويلمسون (ربما كان الملك أقل الشخصيات وضوحا ولعلك تريده عديم الشخصية) والمواقف على أشد ما تكون من التشويق والتأثير. وإلى حد ما، أستطيع أن أرى، ستكون روايتك ناجحة على المسرح إذا استطعت ان تجد لها ممثلين يفهمون أدوارهم فيها، وأظنها تكون ناجحة بدون ذلك. لم يبق عليَّ بعد هذا الا ان أشكرك على التحية التي انطوى عليها إرسالك نسخة من كتابك إليَّ، وأن أرجو ما انتظره لك من التوفيق والسلام.

النجوم في مسالكها

تأليف الأستاذ جيمس جينز

وترجمة الدكتور أحمد عبد السلام الكرداني

كتاب جليل الموضوع لطيف الحجم أنيق الطبع كان محله من المكتبة العربية خاليا.

وضعه السير جيمس جينز احد أساطين علم الفلك في العصر الحديث بأسلوبه المشرق وبيانه الرائع وعرضه الحقائق العلمية العويصة في معرض سهل المأخذ قريب التناول، وذلك ما انفرد به بين العلماء، وتميزت به كتبه بين الكتب. بسط المؤلف في هذا الكتاب (خلاصة ما انتهى إليه العلم الحديث في الكون ونظامه واصله ونشوئه، وتركيب أجسامه وذراته، وتولدها وانحلالها، وبحث مدى الكون من حيث هو محدود أو غير محدود ومتمدد أو منقبض، وعرج على الطاقة والإشعاع والنسبية، ثم بحث الحياة في عالمنا والعوالم الاخرى في الكون) واستوعب تفصيل هذه المباحث الطريفة في ثمانية فصول وأربعة ذيول. قرأها الدكتور أحمد عبد السلام الكرداني ناظر مدرسة القبة الثانوية (وهو في هذا الموضوع ثقة) فاعجب بمادته وطريقته فترجمه ترجمة أمينة رصينة. ولم يقف جهد الأستاذ المترجم عند أمانة النقل. وإنما تجاوزها إلى مسألتين خطيرتين هما تمصير الكتاب، وتحقيق المصطلحات، فمصَّر الكتاب بأن وضع للقارئ المصري مصورا للنجوم يبين ما يرى منها في القاهرة على الدوام او في بعض الأيام، كما وضع المؤلف مصوره مراعيا فيه موقع إنجلترا وحال القارئ فيها. وحقق المصطلحات بالرجوع إلى مظانها العربية ككتاب عجائب المخلوقات للقزويني ومحاضرات السنيور نللينو المستشرق الإيطالي، ثم جعل للكتاب لحقا يشتمل على فهرس أبجدي شامل لمواده، وقائمة بأسماء النجوم والسيارات باللغتين العربية والإنجليزية، وقائمة ثانية بالحروف العربية المقابلة للحروف اليونانية والرومانية، ثم قائمة ثالثة بالمصطلحات وما يقابلها بالإنجليزية، وأثر الجهد والعناية بادٍ في ترجمة الكتاب وتحقيقه وصوره وطبعه. وحسبه مزية أن يكون السير جيمس مؤلفه، والدكتور الكرداني مترجمه، ولجنة التأليف والترجمة ناشرته، ومطبعة دار الكتب المصرية طابعته.

أ. ح

رحلة إلى بلاد المجد المفقود

بقلم وريشة مصطفى فروخ - مطبعة الكشاف ببيروت

كتاب أنيق الشكل جيد الطبع، لا تكاد تتناوله حتى تدرك أن صاحبه من رجال الفن، فهو بقلمه وبريشته، على غلافه صورة لناحية من جامع قرطبة وقد كتب عنوانه من الخارج ومن الداخل بخطين مختلفين طريفين، وتناثرت فوق صحائفه طائفة من الصور التقطت بعضها عدسة التصوير، ونقشت بقيتها ريشة المؤلف الفاضل فجاء في مجموعها جامعة بين الجمال والفائدة، ولذلك فالكتاب من هذه الناحية طريف خفيف الظل. وتقرأ في أوله كلمة تحت عنوان (الأندلس) فتلمس فيها إعجاب الكاتب بتلك البلاد وتشوقه إليها، بل هيامه بها قبل زيارتها، تلمس ذلك في مثل قوله (أجل شغفت بها طفلا وشابا وسأحتفظ بهواها مدى الحياة) وكأنك لشدة حماسته تسمع صوته ولست تقرأ عبارته، ولذلك فالكتاب من هذه الناحية قوي الروح عميق الأثر. ولقد أحسن الكاتب صنعا بأن مهد لكتابه بكلمة في أهمية الفن، ثم بلمحة في الفن العربي عامة، والأندلس خاصة، ثم بعجالة في تاريخ الأندلس. قضى المؤلف أربعة أيام في مجريط، ثم اتخذ سبيله إلى طليطلة ويسميها المنيعة، فمتع نفسه بجمال آثارها ثم عاد إلى مجريط فاتخذ القطار من محطة مديوديا إلى قرطبة دار العلم كما نعتها، فزار جامعها ووصفه وصفا مسهبا واتى له بطائفة من الصور البديعة ثم سار إلى أشبيلية، وهي عنده مدينة الطرب وهناك زار قصر الزهراء ووصفه وصفا دقيقا، ومن إشبيلية سار إلى أختها غرناطة مقر الحمراء فوصفها في حماس قوي وإعجاب شديد. ومما أحمده للمؤلف تلمسه الروح العربية في تلك البلاد، مما يشهد بدقة ملاحظته، ففي مجريط أحس تلك الروح في كرم أهلها، ووفرة الطعام على موائدهم، وفي طليطلة رآها في نوافذها وأبوابها الدمشقية وفيما يعرضه الباعة في الطرقات من أقمشة زاهية الألوان، من أساور وأقراط و (بقج) مقصبة وأسلحة وحلي. . . الخ وفي قرطبة وإشبيليةوغرناطة تجلت له تلك الروح في عادات الناس وفي شكل المنازل ذوات الردهات الفسيحة والأبواب والنوافذ العربية , وفيما رآه من أمثال بائعي (البوظة) والليمونادة، وهم يضربون صحونهم ويصيحون في لحن عربي على نحو ما يشاهد في شوارع دمشق.

ولئن قدرت قيمة الكتب بما تتركه من أثر في نفوس قارئيها فإني أشهد أن هذا الكتاب من
أجمل الكتب في بابه ومن أعظمها فائدة، وكما أن تلك الآثار المخزونة الجميلة التي وصفها تعد دمعة أرسلها التاريخ على ما فات من مجد العرب فان هذا الكتاب يعتبر بدوره دمعة كريمة على ذلك المجد وعلى تلك الآثار. بيد أني على الرغم من إعجابي أصارح المؤلف بان أسلوبه مع الأسف لا يتمشى مع روح الكتاب ولا يتناسب مع ما يحتويه من فن وادب، ولولا حماسة الكاتب، ودقة وصفه وتدقق معانيه لفقد الكتاب بذلك الأسلوب كثيرا من قوته، هذا عدا ما فيه من هفوات تاريخية لا أحبها له، كقول المؤلف: إن معاوية بن هشام ابن عبد الملك المسمى بالداخل أتى من الشرق هارباً عام 759م والواقع أن الذي جاء هاربا من الشرق هو ابنه عبد الرحمن الداخل، وكان ذلك عام 756م. وقوله إن العرب طردوا من الأندلس في القرن الرابع عشر، والصحيح انهم لم يطردوا إلا في أواخر القرن الخامس عشر عام 1492م. ولكن ذلك لن ينقص من جوهر الكتاب إلا كما ينقص من جمال الحسناء شذوذ بسيط في نظام ملبسها والمؤلف كفيل بأن يزيل هذا النقص حتى يكون الكتاب من جميع جهاته جديرا بفنه وعلمه وأدبه؟

م. الخفيف

1

العدد 14 - بتاريخ: 01 - 08 - 1933

شروح وحواشي

ذكرى حافظ:

عجبت لهذا البؤس العنيف الملح كيف لازم حافظاً في عمره الأول ثم أبى ذكراه أن يفارق في عمره الثاني!!

قطع هذا البؤس مع الشاعر مراحل عمره الفاني جميعا فترك حياته المضطربة من غير منارة ولا مرفأ وداره الموحشة من غير ولد ولا زوج، واسمه النابه من غير جاه ولا مجد، وقلبه الشاعر من غير عزاء ولا أمل، ثم فرق بينهما الموت فانقلب حردان يعبث بما خلف الشاعر في الدنيا وفي الناس من أثر وذكرى، فتنكر الحكومة حافظا لأن من أسماء البؤس السياسة، وتهمل الخاصة حافظا لأن من أسماء البؤس النكران، ويغفل الشعب حافظا لأن من أسماء البؤس النسيان، وتثور الحفيظة من هذا الجحود بأصدقاء حافظ فيعتزمون إقامة حفل وتأليف كتاب وتشييد ضريح، ولكن البؤس المغيظ يطوف على أولئك الأصدقاء في دورهم، فيقول لأغنيائهم: امسكوا عن البذل، ولأدبائهم: امسكوا عن الكتابة، فحسب كل امرئ ما تباكره به الصروف كل يوم من هموم ومغارم! ويذكر الشباب الذين طالما هدهد الشاعر عواطفهم بأغانيه، وخلد مواقفهم بقوافيه، أن يوم الذكرى يقع في الحادي والعشرين من شهر يوليو. فيريدون أن يكفروا اليوم عن تقصير الأمس، فيقرر (اتحاد الجامعة المصرية) إقامة حفلة تأبينية، ثم يعلن عن مكانها وزمانها في الصحف، ويتقدم إلى الأدباء والوجهاء بالدعوة، ويعد الأستاذ (البشري) كلمته فيمن أعد، ثم يقبل من ظاهر القاهرة إلى نادي الاتحاد فلا يجد غير البواب يتحدث إلى نفر من زملائه، عن تعويض الحكومة للنوبيين وموعد أدائه! فيعجب الأستاذ ويغضب، ويستمر عجبه وغضبه يومين حتى يقرأ في بعض الصحف أن اتحاد الجامعة قد رأى تأجيل الحفلة إلى الأسبوع الأول من نوفمبر لتكون حفلة جامعية يشترك فيها أساتذة الجامعة وأقطاب الأدب. . وأعجب من عجب الأستاذ ألاّ يخطر هذا السبب الخفيف ببال الاتحاد إلا بعد إعلان الحفلة وتحديد الميعاد!! بؤسا لك يا بؤس حافظ!! لقد أسرفت في العبث حتى اتهم الوفاء، وتظنن البعداء وتردد على السنة الناس قول صاحبك:

فما أنت يا مصر دار الأديب ... وما أنتِ بالبلد الطيب

على أن حافظا وقد فرض على أدب العصر سلطانه، وأجرى على لسان الدهر بيانه، وكتب في ثبت الخالدين أسمه لا يضره بعد ذلك نكران المنكر، ولا ينفعه عرفان العارف!

جاد الله بالرحمة ثراه، كلما تجددت في النفوس ذكراه، وجزى بالخير (أبولو) فقد كان عددها الخاص بالذكرى أخلص تحية صعدت إلى هذه النفس الكريمة، من هذه الدنيا

اللئيمة!
تعليق على تعليق:
روى صاحب التعليقات في (البلاغ) أن أديبا مصريا علل شيوع الألفاظ (الجنسية) في أدب الدولة العباسية، بأن العربي لكثرة ما خالط الإبل والخيل والحمير فقد طبيعة الحياء، فأصبح يقول ما يشاء ويفعل ما يشاء! ولو صح هذا التعليل المضحك لكان الأدب الأموي أمعن في المجون والأدب الجاهلي أدخل في الإباحية لصلتهما الوثيقة بحياة البداوة، وهما على النقيض من ذلك أعف الآداب العالمية، وأكثرها استعمالا للأساليب الرمزية. ثم كان من رأي الأستاذ المعلق أن السبب في ذلك إنما يلتمس في طغيان الحضارة لأن الكتاب الإنجليز مثلا لا يتحرجون اليوم أن يذكروا ما كان يتحرج منه بشار وأبو نؤاس بالأمس. والواقع أن فحش المجون في الأدب العربي لم ينبت في أصله ولم يأته من أهله، فإن شعراء المجون لم يكونوا بديا من العرب، وإنما كانوا من الموالي الذين أساءوا خلق الأمراء بالعدوى. وأفسدوا أدب الشعراء بالقدوة، وأكثر الأشعار المجونية إنما كان ينشد في المجالس الخاصة، ويروى على الألسنة الخاصة ويدون في الكتب الخاصة. فلو كان أولئك الأدباء يكتبون للنشر ويؤلفون للجمهور كما نفعل اليوم لطووا في نفوسهم أكثر ما نشروا. ولا تجد اليوم أديبا من الأدباء، إلا وله مثل هذه الأشياء، ولكنه يقصره على خاصته فلا يعلنها في الناس ولا يدونها في الكتب.
كوبري الخديوي إسماعيل:
كذلك كتبت الحكومة بخط الثلث الجميل على مدخل الجسر الجديد بقصر النيل، فهيأت للعابر المفكر موضوعا للتفكير يقطع به طول الجسر في راحة ولذة:
بماذا نعلل بقايا الألفاظ التركية في دواوين الحكومة المصرية، ولم يعد لأمتنا بالتركِ صلة
ولا للغتنا بالدخيل حاجة؟
منذ سنوات تخلص الترك من العرب وقد كانوا خاضعين لسلطانهم الأدبي فرأوا من الغضاضة على استقلالهم أن يظل لسانهم خاضعا للساننا، وأدبهم تابعا لأدبنا، فأخذوا يحررون التركية من الألفاظ العربية (وهي معظمها) ويستبدلون بها ألفاظا تركية خالصة أو إفرنجية مشوبة ثم ترجموا القرآن وتركوا الأذان. وأعجموا الصلاة، وفرضوا التركية فرضا على الأجانب في المدارس والمصارف والأسواق. ومنذ سنوات تخلص العراقيون من الترك (وقد كانوا خاضعين لسلطانهم السياسي) فكان أول ما عملوه أن طهروا العربية من شوائب التركية في الدواوين والقوانين والمدارس والجيش. واستبدلوا بهذه الألفاظ الدخيلة على أصالتها وكثرتها ألفاظا عربية صريحة.
ومنذ قرن ونيف تخلصت مصر من الترك ولكنك ما تزال تسمع في البيوت تيزا وأبلة وأبيه وإنشته، وفي المدارس قلفة وطابور ويمكخانة وبحيث جزيرة، وفي الدواوين ألفاظا وأساليب ليس إلى حصرها من سبيل وأما في الجيش فأسماء رتبة وفرقه وعتاده ومصطلحاته وإيعازا ته كلها تركية فبماذا نعلل هذا؟ تعليل ذلك فيما أظن أن الأمة المصرية من أشد الأمم الشرقية إحتفاظا بالقديم، وتسليما بالواقع، ورضا بالحاضر مع ما قد يكون في ذلك كله من شر فليس من طبعها ذلك القلق السامي الذي يدفع النفوس إلى التجدد ويحفز الأمم إلى التقدم ويربأ بالإنسان أن يقنع من حياته بالنصيب الأخس، وتقدم الأمم على هذه الحال في سبيل الكمال عسيرا أو بطيء.
رفقا بالقوارير يا أبا السامي!
نشرنا في عددنا الأخير رأيا للآنسة عفيفة في (أوراق الورد) للأستاذ الرافعي، ورأت الرسالة مؤاتاة الفرصة ليمتع الأستاذ قراءها بفصل من فصوله الرائعة فتركت له الكلمة وتفضل الأستاذ فكتب. ولكنه حين وضع يده على الدواة ليتناول القلم الذي كتب به (أوراق الورد) أخطأ فتناول القلم الذي كتب به (على السفود). لحظنا هذا السهو حين قرأنا هذه الكلمة فطويناها معتقدين إن الكاتب الكبير سيتبعها كلمة أخرى تكون منها مكان (بدل الغلط)، تشاركها في الإعراب وتنفرد دونها بالصواب.
أحمد حسن الزيات
لغو الصيف
للدكتور طه حسين

سمعت طرقا خفيفا فرفعت رأسها وصوتها آذنة بالدخول، ومدت عينها إلى الباب فلما فتح لم يرعها إلا صديقها الأديب يسعى إليها مشرق الوجه باسم الثغر مبسوط اليد مرتبكا مع ذلك شديد الحياء. قالت وقد غشي وجهها احمرار رقيق زاده جمالا وحبا إلى النفوس، مصدره الدهش لهذا المقدم غير المنتظر، أو مصدره زيه المهمل وثوبها الذي لبسته لنفسها لا للناس ولم تكن تقدر إن الطارق أحد غير الخادم التي تعودت ان تطرق عليها الباب في رفق إذا كانت الساعة الخامسة من كل يوم لتحمل إليها الشاي، فلما رأت صديقها ارتاعت لمرآه، وقالت في دهش وخجل واضطراب: (أنت من أين أقبلت؟ انجمت من الأرض أم هبطت من السماء؟) قال ولم يكن اقل منها ارتباكا واضطرابا: نعم أنا أقبلت من حيث تريدين ولكن لي إليك حاجة يا آنسة أعرضها عليكِ قبل التحية، وأتمنى لو تجيبينني إليها قبل السؤال والجواب، فسيكون السؤال طويلا دقيقا، وسيكون الجواب ملتويا مرتبكاً، ولكن حاجتي يسيرة فاسمعيها مني واقضيها لي، ثم لنأخذ بعد ذلك فيما تحبين، قالت وقد أخذت تثوب إلى نفسها وإلى ثوبها: من أين أقبلت؟ وكيف أراك في نيس وقد تركتك في القاهرة على انك ستقضي فيها الصيف؟ قال ثقي يا آنسة إني قد سمعت سؤالك ووعيته ووعيت ما يحيط به من عجب وإنكار أني سأجيب وسأحاول أن أزيل هذا العجب وأمحو هذا الإنكار ولكن حاجتي اسمعيها واقضيها قبل كل شئ. قالت لا قبل أن نجلس، ثم عادت إلى كرسيها وقد حولته شيئا عن المائدة وأشارت إليه أن اتخذ هذا الكرسي وأخذت تجمع صحفاً كانت منثورة على المائدة، ثم قالت مبتسمة: وما عسى أن تكون هذه الحاجة التي تقدمها بين يدي تحيتك، وقد بعد العهد بينك وبيني والتقينا من وراء البحر، فقد تركتك منذ أسبوعين، قال بل منذ عشرة أيام إن لم أخطئ الإحصاء، فقد زرتك قبيل السفر. . فقطعت عليه الحديث قائلة نعم، قد ذكرت فهات حاجتك فإني لم أتعود أن انتظر تحيتك، وعبثك كل هذا الوقت الطويل؛ قال حاجتي يسيرة وهي إلا تلومني ربة الدار، فقد مكرت بها واحتلت عليها، وما زلت أخدعها عنك وعني حتى تركتني أطرق الباب وأدخل عليك في غير استئذان سابق. فأغرقت في الضحك حتى استلقت إلى كرسيها وهي تقول: إنها لحاجة عسيرة، لست أدري كيف أقدر على إرضائها وقد أذنت لك فيما كنت تريد وطرقت الباب وفاجأتني بغير إذن سابق مني بذلك، وفيم كان كل هذا المكر، وفيم كان كل هذا الاحتيال؟ ومتى استباح أمثالك أن يفاجئوا أمثالي على هذا النحو، وفي مثل هذا الوقت من النهار؟ هنالك اشتد ارتباكه حتى بلغ الاضطراب، أو كاد يبلغه، فلم يكن يقدر أنها ستلقاه هذا اللقاء ولا إنها ستنكر هذه المفاجأة، ولعله كان يظن بل كان يوقن أن سرورها بلقائه سيكون أشد من حاجتها إلى الاستطلاع، وسيكون أشد من إنكارها بهذه المفاجأة فلما رأى منها هذا الإلحاح في السؤال والتشدد في النكير فقد ما كان يملك من الأسباب، واختلط عليه الأمر فلم يدرِ ماذا يصنع ولم يعرف كيف يقول. ولو انه كان على شئ من البصر بصاحبته والعلم بدخيلة نفسها لرأى انه لم يكن مخطئاً حين قدر أنها ستبتهج بلقائه ولكنه كان شديد الذكاء قوي الفطنة واسع الحيلة ما بعد عن النساء وعن صاحبته هذه خاصة، فإذا لقي واحدة منهن أو لقي صاحبته هذه فهو رجل ساذج أول الأمر، لا حظ له من ذكاء ولا من فطنة، ولا قدرة له على ثبات أو فهم، حتى إذا اتصل الحديث وتنوع استرد ملكاته قليلا حتى يعود كدأبه في الحياة العادية، ذكي القلب قوي الفطنة متصرفا في ألوان الحديث. فلما رأت ارتباكه واختلاط الأمر عليه واضطراب لسانه في فمه دون أن يبلغ الإفصاح عما كان يريد، رقت له وأخرجته من حيرته بإجابته إلى ما كان يريد وإعلانها إليه إنها لن تلوم صاحبة الدار ولن تظهر لها سخطا ولا إنكارا. ثم قالت: والآن حدثني من أين أقبلت وكيف أراك هنا اليوم، وقد تركتك في القاهرة منذ عشرة أيام؟ أنجمت من الأرض أم نزلت من السماء؟ قال إن عشرة أيام تكفي لقطع الأمد من القاهرة إلى الإسكندرية ولعبور البحر إلى مرسيليا (وطولون) ولبلوغ مدينة نيس حيث تقيمين قبل أن تستأنفي السفر إلى تلك المدينة الصغيرة الجامعية من مدن فرنسا الوسطى لتسمعي دروس الصيف. قالت فأني لا اشك أن عشرة أيام تكفي لهذا كله ولا اكثر من هذا كله ولكن تركتك في القاهرة غضبان أسفا لأنك ستقضي الصيف حيث لم تكن تعودت أن تقضيه، ولعلك تذكر انك كنت تحسدني وتسرف في الحسد على هذه الرحلة الجامعية التي كنت أزمعتها ولعلك تذكر انك ما

زلت تصور لي حزنك ويأسك حتى رحمتك وأشفقت عليك، فكيف استطعت أن تفارق القاهرة وترحل عن مصر تظفر بزيارة باريس؟ فأنت
ذاهب إلى باريس من غير شك، قال نعم أنا ذاهب إلى باريس، وماذا تكون فرنسا بدون باريس وبدون الحي اللاتيني ومونبارناس ومونمارتر؟ وقد زعموا أن الحركة الأدبية والفنية قد أخذت تنتقل الآن من مونبارناس إلى. . . قالت حسبك قد علمت هذا كله وعرفت رأيك فيه وسنعود إليه ولكن كيف تركت القاهرة؟ وكيف أتيت إلى باريس؟ قال وأي شئ أيسر من ذلك يا آنسة؟ إنما يستغرب هذا من رجل كانت تمسكه الأزمة في مصر ويعجز أجر السفينة أو نفقات الإقامة في فرنسا، فهذا الرجل إذا أتيح له السفر بعد امتناعه عليه يمكن أن يسأل أنّى لك هذا في مثل هذه الأيام الشداد. فأما إذا كان الذي يحول بين الرجل وبين السفر إرادة وزير من الوزراء أو عناد رئيس من الرؤساء فما أيسر أن يريد الوزير وقد كان لا يريد، وما أسهل أن يلين الرئيس وقد كان متأبيا عنيدا، وهذه قصتي فما زلت برئيسي حتى رق لي وما زلت بوزيري حتى عطف عليّ. قالت صنع الله للرئيس وللوزير معا فلولا ظرف أحدهما وعطف الآخر لما أتيح لك أن ترى باريس.
قال بل لما أتيح لي أن أسعد بلقائك في نيس وأن اسعد باصطحابك ساعة أو ساعات على ساحل البحر، هذا الساحل الجميل الهادئ القوي معا حيث نستطيع أن نرى البحر والجبل وقد دنا كلاهما من صاحبه في مودة وألفة وحيث نستطيع أن نرى الطبيعة الحرة القوية والحضارة البديعة المترفة وهذه القصور الشاهقة تشرف على البحر وتشرف عليها الجبال، وحيث نستطيع أن ننشد قصيدة بودلير هذه القصيدة الرائعة التي كنت تغنينها في القاهرة أجمل غناء، أتذكرين؟
لقد عشت دهرا طويلا تحت أروقة واسعة تضيفها شمس البحر، قالت نعم كل هذا أذكره، وكل هذا افهمه وكل هذا لا تفسير له إلا انك قد رجعت إلى صوابك واستردت قواك موفورا واستأنفت ما ذهب من العبث والمزاح. فقد آمنت انك سعيد بلقائي وقد آمنت انك ستسعد وسأسعد معك بقضاء ساعة أو ساعات على هذا الساحل الجميل.
وقد آمنت بأن رئيسك خليق بالشكر لأنه رق لك بعد أن قسا عليك وان وزيرك حري بالثناء عليك لأنه لطف بك بعد أن كان شديدا عنيفا ولكني لن أتحدث إليك الآن ولن اسمع منك الحديث عن الجبل والبحر ولا عن الصخور والقصور، فقد يتاح لنا الحديث عن هذا كله بعد حين. إنما أحب أن أسمع منك أنباء مصر، قال أنهما لخليقان بالشكر والثناء حقا
ولا سيما حين تعلمين. . . قالت لا أريد أن أعلم شيئا. قال وهو يضحك ضحكا ملئه المكر والإلحاح: بل يجب أن تعلمي لتضاعفي الشكر وتجزلي الثناء فإني لم أرحل للسياحة ولا للراحة ولا لرؤية باريس وإنما رحلت. . . قالت لأمر من أمور الدولة فستدرس شأنا من شؤون التعليم أو فنا من فنون النظام أو لونا من ألوان الإدارة أو شيئا من هذه الأشياء التي يرحل الموظفون لدرسها في أوروبا أثناء الصيف، فيسرحون ويمرحون ويلهون ويلعبون ويكتبون في آخر الصيف تقريرا يرفعونه إلى الرئيس أو إلى الوزير، فيتلقى الوزير أو الرئيس هذا التقرير ويتلقى صاحبه كلمة شكر وثناء وقد فهم الرئيس عن صاحب التقرير وفهم صاحب التقرير عن الرئيس ما يريد كل منهما أن يفهم عن صاحبه، وأؤكد لك أني أضاعف شكري لصاحبيك وثنائي عليهما؛ ولكن أرحني من حديثهما كما أرحتني من حديث البحر والجبل والساحل وعد بي إلى مصر. قال ما أشد شوقك إلى مصر وتلهفك إلى الحديث عنها! ألم تشبعي من مصر وقد أقمت فيها سنة كاملة منذ رحلتك الأخيرة؟ أمشتاقة أنت إلى مصر ولما يمض على فراقك إلا عشرة أيام؟ قالت فإني لا أريد ان تحاسبني على ما أجد أو لا أجد من الشوق إلى مصر وعلى ما أحس أو لا أحس من الضيق بمصر، وإنما أريد أن تحدثني عنها كيف تركتها؟ وكيف تركت أهلها؟ ثم مست هذا الزر الكهربائي الذي لا تخلو منه غرفة من غرف الفنادق فما أسرع ما أقبلت الخادمة فهمت أن تطلب إليها الشاي ولكنه اعترض دون ذلك وقال: ماذا تريدين أجننا حتى نتناول الشاي في غرفة مغلقة والجو صحو والماء صفو والشمس توشك أن تنحدر إلى مغربها فترسل على الجبل والبحر. . قالت حسبك فإني أستطيع أن أتم ما تريد أن تقول. قال وإذن فهلم نتناول الشاي حيث نستطيع أن نستمتع بهذا الجمال الذي لا نجده في مصر، وكان حازما

ملحا، فلم تجد بدا من أن تسمع له وتستجيب لدعائه، فصرفت الخادم ونهضت فغابت عنه قليلا في غرفة مجاورة متصلة بالغرفة التي كان فيها. ثم عادت إليه وقد اتخذت زيها المنظم المنسق الذي عرفه في القاهرة، فلما رآها اطمأن إلى هذا الزي الذي كان يألفه، ولعله أسف على ذلك الزي المهمل الذي كان أعجبه والذي كان قد أخذيطمئن إليه. وما هي إلا لحظات حتى كانا يسعيان معا في هذه الطريق الجميلة على ساحل البحر تلك التي يسمونها في نيس طريق الإنجليز.

وكان طرفه حائرا بين البحر وهذه الفنادق الضخمة المشيدة، وهؤلاء الرجال والنساء الذين كانوا يذهبون ويجيئون في هذه الطريق وقد اتخذوا للرياضة والشاي زينتهما. لكنها لم تتح له الاستمتاع بهذه الحيرة، فما أسرع ما ردته إلى مصر وحديثها، وعادت تسأله عن المصريين كيف تركهم. قال ولم يخف شيئا من الضجر الباسم العابث تركتهم من خمسة أيام كما تركتهم أنت منذ عشرة أيام، وكما سيتركهم كل مسافر ويلقاهم كل عائد، وكما يترك كل رجل من الناس أي جيل من الأجيال، تركتهم قوما كراما يكرمون آبائهم وأمهاتهم، ويؤثرون أبنائهم وبناتهم، ويشفقون من الآلام، ويسرعون الى اللذات، ويكثرون القول، ويقصدون في العمل، ويفرون من الدور، ويستقرون في الأندية، ويطيلون الحوار في الأدب والسياسة، ويقرءون الصحف ويعبثون بكتابها. . . قالت ياله من سيل جامح لا يقف ولا يهدأ ولا يتئد، ولا يتخير ما يحمل، ما عن هذا أسألك، وما طلبت إليك أن تصور لي المصريين كما تراهم أنت بهذا الرأي المظلم القاتم، الذي لا يعجب بشيء ولا يرضى عن شيء، بل ينكر كل شيء، إنما سألتك. . . قال ياله من جدول هادئ متئد، عذب ظريف، لا يحمل غثاء ولا جنادل، وإنما هو صافي الصفحة نقي الأديم، كله رضى وكله ابتهاج، وكله أمل، إنما تسألينني عن الأدباء أليس هذا ما كنت تريدين، قالت هو هذا، ومتى رأيتني أتحدث إليك عن غير الأدباء؟ قال فقد تركت الأدباء في شغل شاغل وهم مقيم، يقولون فيطيلون، ويعملون فلا يبلون، وكأنهم هذا القطار الذي يهم بالحركة فيكثر فيه الضجيج والعجيج والقعقعة والاضطراب، وهو ثابت في مكانه لا يريم، لأن الله لم يأذن له بالحركة بعد، أو لأن أداة من أيسر أدواته لم يتح لها أن تشترك في العمل مع أخواتها، قالت وما ذاك؟ قال انهم يذكرون حافظاً، فقد دار العام على وفاته، ولم يصنع له أحد شيئا. فهم يلومون أنفسهم وهم يلومون غيرهم، وهم يلومون مصر كلها، يلومون الشعب لأنه قصر غير عامد، ويلومون الحكومة لأنها تعمدت التقصير، حتى إذا أسرفوا في اللوم وأعياهم الإسراف عزوا أنفسهم وعزوا الشعب الذي قصر عن غير عمد، والحكومة التي قصرت عن عمد بأن حافظا كان أديبا حقا، فلا غرابة في أن تدركه حرفة الأدب. وقد كان حافظ رحمه الله حسن الحظ، ميسرا له في الأمر بالقياس الى زميله في حرفة الأدب منذ اكثر من ألف سنة. فأنت تذكرين أنها قد أدركت ابن المعتز فانتزعته من الخلافة، ولما يقم فيها يوما

ولم يكفها أن تنتزعه من الخلافة، فانتزعته من الحياة على شر الأحوال واشدها نكرا، ما حافظ فقد كان بائسا في حياته لم يعرف النعيم، والبؤس أيسر من الخلع، والبؤس الدائم أيسر من البؤس الطارئ، بعد طول النعمة وحسن الحال، وقد مات حافظ على فراشه، والموت الهادئ أيسر من الموت العنيف، وحافظ بائس بعد موته لم يجتمع له الناس، ولم تمتلئه الأوبراء ولم تلق فيه الخطب المدبجة. ولا القصائد المنمقة. وقبر حافظ مجهول أو كالمجهول ولكن هذا البؤس كله ليس شيئا بالقياس الى بؤس آخر أشد وأمض، وهو هذا الثناء المتكلف، وهذا الإكبار المصنوع، وهذه الخطب والقصائد التي لا يراد بها وجه الله، ولا وجه من قيلت فيه، وإنما يراد بها وجه الذين يصرفون السياسة ويسيرون أمور الناس كما يحبون، والى حيث يحبون. فقد كان حافظ ومازال بائسا، وكان حافظ ومازال شقيا، ولكن شقاء حافظ سعادة، وبؤس حافظ نعيم، وما كان أحق شوقي رحمه الله واجدره، بأن يشارك حافظا في هذا البؤس المجيد، فقد كان شوقي كما كان حافظ مجداً لمصر وللشرق وللأدب العربي؛ ولكن السياسة استأثرت بشوقي فازدردته ازدرادا. وعجزت عن أن تستأثر بحافظ، وأي غرابة في هذا؟ لقد كان شوقي رحمه الله هينا لينا رفيقا رقيقا، وكانت في حافظ صلابة الشعب وغلظته، وخشونة الشعب وشدته.

قالت وهي محزونة: ولكن بؤس حافظ مهما يكن مجيدا بالقياس إليه فهو عار على

مصر، ومن حق مصر لنفسها أن تكشف هذا العار، وكانا قد بلغا ناديا من هذه الأندية التي يكون فيها الرقصمع المساء والتي يؤخذ فيها الشاي، فاتخذا مكانا منزويا فيه دون أن يتفقا على ذلك، إنما هي رغبتهما في اتصال الحديث، وزهدهما في هذا المتاع الذي يتهالك عليه الناس، ولم ينقطع حديثهما وقتا طويلا إنما هي لحظة طلبا فيها الى الخادم ما كانا يريدان، ثم اتصل بينهما الحديث، ولكنه لم يمس أمير الشعراء ولا شاعر النيل.

قال ومع ذلك فلم تسأليني عن مصر والمصريين وأنت ترين مصر وأدباءهافي فرنسا كأحسن ما تحبين أن تريهم؟ قالت في فرنسا؟ وأين ذاك؟ قال ماذا تصنعين إذن منذ تركت السفينة؟ ألا تقرئين؟ قالت لا. قال بل تكتبين، وقد كان ينبغي أن أفهم هذا، ولعلى قد فهمته حين رأيت تلك الصحف المنثورة على المائدة، والتي أسرعت الى جمعها وإخفائها حين رأيتني مقبلا عليك كأنك خفت أن أمد إليها يدا، أو أن أختلس إليها نظرة، قالت لا تقل هذا ولا تسرف في

التجني، فما كنت أستطيع أن أمضى في الكتابة وقد أقبلت، وما كان ينبغي لي أن أدع المائدة مختلطة كما كانت، قال فإذا سألتك أن اقرأ بعض هذه الصحف التي كانت منثورة فهل تأذنين؟ قالت هذا شيء آخر دعنا من هذه الصحف المنثورة فستقرأها يوما ما، ولكن حدثني أين وكيف أستطيع أن أرى مصر والمصريين في فرنسا؟ قال تستطيعين أن ترى مصر والمصريين في فرنسا الآن، وفى هذا المكان، وعلى هذا النحو، ثم أخرج لها صحيفة النوفيل ليتريز ونشرها، وقال انظري، فنظرت فدهشت فسكتت، ثم قالت هذا غريب! صفحة أدبية عن مصر لا يكاد يكتب فيها مصري! قال ولو ترجم ما فيها للمصريين لرأوا أنفسهم كما يرونها في المرآة الصافية الناصعة، أليس قد صور لهم كاتب أمير شعرائهم العظيم تصويرالا يصفه من قريب ولا من بعيد؟ أليس قد زعم هذا الكاتب إن قد كان لأمير الشعراء خصوم كلهم بغيض؟ أليس قد أذاع هذا الكاتب بين الفرنسيين والأوربيين الذين يقرءون هذه الصحيفة صورة عن شاعر مصر وعن أنصاره وخصومه لا تلائم رأي مصر ولا حاجتها، وإنما تلائم رأي السياسة القائمة،؟ قالت سأقرأ هذا الفصل، ولكن انظر قال وما تريدين أن أنظر؟ أتظنين أني لم اقرأ هذه الصفحة قبل الآن؟ ماذا تنكرين؟ فصل لصديقنا الأستاذ أنطون الجميل عن المجمع اللغوي الملكي، أي غرابة في هذا؟ قالت وهى تضحك ضحكا حزينا، الغرابة أن يعلن عن هذا المجمع في فرنسا ولما يوجد في مصر بعد، قال لم يوجد الآن فسيوجد بعد عام! قالت فقد كنت أحب من صديقنا، بل كنت أحب لصديقنا أن ينتظر حتى يوجد هذا المجمع بالفعل قبل أن يكتب عنه فيطيل، فقد أرى أن فصله غير قصير، وما عسى أن يكتب بعد أن يوجد المجمع؟ قال ليس على صديقنا بأس من أن يكتب عن مجمع إن لم يوجد بالفعل فهو موجود بالقوة، ولا سيما إذا طلبت إليه الكتابة وأثقل عليه في الطلب، وليس إسراعه الى الكتابة في شيء هو الى الوهم اقرب منه الى الخيال فضلا عن الحقيقة الواقعة هو الذي أنكره عليه أو ألومه فيه، إنما أنكر عليه فهمه للمجامع اللغوية وتصويره لتاريخها عند العرب، أترين الى أسواق الجاهليين؟ لقد كانت مجامع لغوية عند الأستاذ انطون الجميل، ثم أترينالى مدارس اللغة والنحو والأدب في البصرة والكوفة وبغداد وفى حلب ودمشق والقاهرة وقرطبة؟ لم تكن من المجامع اللغوية في شيء عند الأستاذ انطون الجميل. هذا كثير ألا ترين ذلك؟ قالت وأكثر منه أن يستجيب صديقنا لدعوة

السياسة، وان يرضى صديقنا لنفسه أن يضع الأدب من السياسة هذا الموضع، وقد كنت أرى أنه يجب إخضاع السياسة للأدب، لأكتبن إليه، قال لا تفعلي، فليس هو الآن في القاهرة، أنه يطوف في لبنان فانتظري حتى تعودي ويعود، ثم خذي معه في هذا الحديث، ولكن اقرأي هذا الفصل وفكري فيه، فهو فصل من فصول الصحف السيارة في مصر لا أكثر ولا أقل.

ولكن حدثيني أتريدين أن تطيلي الإقامة في نيس؟ قالت وأنت حدثني كيفوقعت الى نيس وأنت تقصد الى مدينة النور؟ قال وهل يكون النور إلا حيث أنت يا آنسة؟ قالت مغيضة: هل تعلم انك تثقل علي أحياناً بهذا العبث السخيف؟ قال ما أردت هذا ولا فكرت فيه، وما أرى أني ألام إن كنت ثقيلا، فلعل الثقل أن يكون بعض طبيعتي؟ فخذيني كما أنا، قالت فان لم يعجبني منك هذا، قال فاحتمليه على أي حال فلعل عندي ما يهون عليك احتماله، أتريدين أن تطيلي الإقامة في نيس؟ قالت سأقيم أياما،

وأنت؟ قال سأقيم فيها ما أقمت إن لم يثقل عليك ذلك، وسنرتحل معا حتى إذا كنا في بعض الطريق تخلفت أنت في مدينتك الجامعية الصغيرةفاصطليت فيها حر الصيف ونار العلم والأدب، ومضيت أنا الى باريس، ومن يدرى، لعل نار الأدب والعلم أن تستهويني فأتخلف وقتا طويلا أو قصيرا، وهل أنا فراشة تستهويها النار، ولا تكره أن تحترق بها؟ قالت في شيء من التفكير: أنت مقيم في نيس ما أقمت، مرتحل عن نيس إذا ارتحلت عنها، متخلف حين أتخلف، مصطل للنار التي أريد أن اصطليها. قال هذه خطة مرسومة، وكيف تريدين يا آنسة أن تغيري ما رسم القضاء؟

التجديد في الأدب

للأستاذ أحمد أمين

(4)

الشعر

من قديم حاول الأدباء والنقاد أن يضعوا تعريفا للشعر فاختلفت تعاريفهم لاختلاف أنظارهم، ولأن كلمة الشعر استعملت في معاني مختلفة، فكان كل أديب يعرفه حسب نظره، وحسب المعنى الذي يرمي إليه، وكان سواء في ذلك أدباء العرب والإفرنج.

ذلك أن الشعر (على العموم) يتكون من عنصرين أساسين وهما الوزن والقافية أولاً، وإثارة المشاعر ثانيا، فإذا فقد الكلام عنصرا من هذه العنصرين لم يصح أن يسمى شعرا، غير أن بعض العلماء طغى عليه النظر إلى عنصر الوزن فعرفه تعريفا أفقده روحه، فقالوا أن (الشعر هو الكلام الموزون المقفى) ومثله قول بعض الفرنج (أي كلام موزون يسمى شعرا سواء أكان جيدا أم رديئا) وعلى هذا التعريف فألفية ابن مالك شعر، وقواعد الحساب المنظومة شعر، والمتون الفقهية المنظومة شعر، كما أن بعض العلماء طغى عليه النظر إلى روح الشعر ومعناه فعرفوه تعريفا أفقده موسيقاه، كالذي قال بعضهم (الشعر فيضان من شعور قوي نبع من عواطف تجمعت في هدوء) ومثله قول رسكن: (الشعر إبراز العواطف النبيلة من طريق الخيال) وهو تعريف يصح أن يكون للأدب كله نثره وشعره بل للفن جميعه من أدب ونحت وتصوير وموسيقى.

وابن خلدون نقد التعريف بأنه الكلام الموزون المقفى وقال انه اصبح تعريفا عند العروضيين لا يصح عند البلاغيين ثم اختار أن يعرفه (بأنه الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف المفصل بأجزاء متفقة في الوزن مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله الجاري على أساليب مخصوصة. وعيب هذا التعريف انه ممل وانه لم يلتفت إلى مزية الشعر وروحه وهو إثارة المشاعر واستقلال كل جزء منه في غرضه ومقصده ليس من العناصر الأساسية التي يصح أن تدخل في التعريف.

فلو قلنا إن الشعر هو الكلام الموزون المقفى المنبعث عن عاطفة والمثير لعاطفة كان تعريفا أقرب إلى الصواب.

فإذا وجدت نوعا من الأدب يجمع الوزن والاتصال بالمشاعر فسمه شعرا وإلا فلا.

والشعر يثير المشاعر بما فيه من خصائص (فأولاً) بأوزانه وقوافيه ولذلك كان المعنى الواحد إذا قيل مرة شعراً ومرة نثرا كان في الشعر أقوى أثرا (وثانيا) بلغته فللشعر لغة غير لغة النثر ولسنا نعني بلغة الشعر الكلمات الغريبة أو أنواع البديع أو نحو ذلك فقد يكون الشعر في منتهى الرقي وكلماته في منتهى السهولة وهو كذلك خلو من كل أنواع البديع إنما الذي نعينه أن للشاعر ملكة لا يمكن أن نوضحها تمام الوضوح، بها يستطيع أن يتخير من ألفاظ اللغة ما يرى أنها ابعث للمشاعر. وهو كذلك يضعها في قوالب يتخيرها من القوالب العديدة والتراكيب اللغوية المختلفة، وهذا هو ما يجعل الشاعر شاعرا فقد يكون عندنا شعور فياض كالشعور الذي عند الشاعر أو أغزر منه ولكن ليس لنا هذه القدرة على الإفصاح واختيار الألفاظ والقوالب والتراكيب ومن ثم كان من المستحيل ترجمة الشعر إلى شعر لأن الترجمة لا ترينا ما للشاعر من قدرة فنية على اختيار الألفاظ والأساليب، والذي نترجمه هو المعنى الذي حواه الشعر وما فيه من تصوير وخيال. ويعد المترجم أمينا إذا هو استطاع أن ينقل هذا، أما طريقة الأداء فلا يمكن ترجمتها. نعم إن بعض الشعراء قد يقرأ القطعة من الشعر ويكون له قدرة فنية فيصوغ هو شعراً مستمدا من وحي ما قرأ وقد يجري مع الأول في واد واحد وتكون له عذوبة ما للأول ولكن ليس هذا ترجمة على الإطلاق.

كذلك يثير الشاعر الشعور بما عنده من لطف النظر أو الإلهام أو اللقانة أو ما شئت

فسمه، فللشاعر روح غامض طبع عليه لا يكتسب بتعلم، به ينظر إلى الأشياء نظرا خاصا وبه يبعث الشعور عند السامع. ولعل هذا هو الذي جعل شعراء العرب يعتقدون أن لكل شاعر شيطانا ينفث فيه الشعر. ولأمر ما خلط العرب فسموا النبي شاعراً أحيانا وكاهناً أحيانا (وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذَكَّرون) وللشاعر نظر باطن للحياة يغوص فيها ويستخرج معانيها ويعرضها في شعره، ولأن الشعر هو معنى الحياة كان شعر كل عصر مرآة له. وقديما قالوا: (الشعر ديوان العرب) والحق انه ديوان الأمم تسجل فيه حياتها وأفكارها ومشاعرها. فالشاعر يعطينا صورة روحية حية أكثر مما يعطينا إياها التاريخ. والشعراء عادة في مقدمة قومهم شعوراً وشعرهم إيذان بالفلسفة وإرهاص لها، فهم يلهمون الشيء إلهاما غامضا ثم يتضح ما ألهموا به على مر الأزمان وتأتي الفلسفة بعد فتشرح وتحلل وتدلل.

أما الوزن في الشعر فهو موسيقاه وله قيمة كبرى في الشعر حتى عُد أهم فارق بينه وبين النثر، والشعر يحلو بالموسيقى الجيدة ويضعف شأنه إذا ساءت موسيقاه. وارتباط الشعر بالموسيقى أشد من ارتباط الفنون الأخرى كالنقش والتصوير حتى كان الرومان يقولون: (إن الشعراء ليسوا إلا مغنين يترنمون بشعرهم ويغنون به لأنفسهم ولمن شاء أن يردده بعدهم).

ومن أنواع الشبه بين الموسيقى والشعر ما لاحظه بعضهم من أن كلا منهما يتنوع أنواعا متماثلة. فالصوت يختلف عن الصوت من نواح أربعة:

من ناحية الطول والقصر (2) والغلظة والرقة (3) والارتفاع والانخفاض (4) ومن (1) ناحية مصدر الصوت كعود أو قانون.

وهذه النواحي الأربعة يمكن أن نراعيها في الشعر، فمن النوع الاول اختلاف التفاعيل طولا وقصراً فالرجز أقصر في التفاعيل من الطويل وهكذا. ولهذا الاختلاف تأثير كبير في الأذن الموسيقية.

كذلك نرى في الشعر ما يتناسب مع الشدة والضعف والغلظة والرقة. فالشعر قد يناسبه (أحياناً) حروف وكلمات ضخمة قوية وقد يناسبه حروف وكلمات لينة رخوة كالذي قالوا في قوله:

ألا أيها النوام ويحكموا هبّوا ... أسائلكم هل يقتل الرجل الحب؟

فالشطر الاول قوي شديد والثاني رخو ناعم

وفي الشعر ما يناسبه الهدوء والدقة كشعر الغزل، ومنه ما يناسبه الشدة والبطش، ويناسبه إنشاده في قوة وجلبة كشعر الحماسة. ونلاحظ في الموسيقى إن النغمة الواحدة إذا وقعت على الكمنجة ثم وقعت بعينها على البيانة كانت النغمتان مختلفتين تأثيرا، وهذا يقابله في الشعر القافية فالقصيدة على قافية قد يكون لها أثر لا يكون إذا قيلت على قافية أخرى وهكذا.

والشعر أقل تقدما وأبطأ خطى من النثر سواء في ذلك اللغة العربية وغيرها من اللغات،

وسبب ذلك على ما يظهر أن الشعر لغة العواطف والنثر لغة العقل، والمشاعر والعواطف قليلة التغير بطيئة الرقي، وما حدث فيها من تغير فأكثره تغير في الشكل لا في الموضوع، أما العقل فراق أبداً وثاب في الرقيّ ومظهر ذلك الرقي العلمي الذي نحسه من سنة إلى أخرى. ولأن الشعر تعبير شخصي وأعني بذلك أن الشاعر يعرض علينا في شعره مشاعره ونظراته إلى الحياة وإحساسه بها أما الناثر فعالمي إنساني يعرض الشيء كما هو لا كما يرى. تحس في الشعر دائما بالشاعر يحدثك عن نفسه وتحس في النثر بعقل يخاطب عقلك، وان شعرت بالناثر فمن وراء حجاب ومن أجل هذا خضع النثر للمنطق ولم يخضع له الشعر، ترى في الشعر غالبا مبالغة لا يرضاها المنطق وتناقضا لا يقره المنطق وتحكما في الحكم لا يؤيده المنطق، وتخبطا وهراء يغتفرهما العقل في الشعر ولا يغتفرهما في النثر. وهذه الظاهرة وهي سير النثر إلى الأمام في سرعة وقفز وسير الشعر في بطء وتمهل هي التي جعلتنا نتذوق الشعر العربي في العصر العباسي وما بعده أكثر مما نتذوق النثر في ذلك العصر، لأن الصلة بين نثرنا والنثر القديم صلة ضعيفة قد خالفناها كل المخالفة ولم يبق منها إلا أساس التركيب الذي تقتضيه طبيعة اللغة، بل أن مسافة الخلف بين نثرنا والنثر من عشرين

سنة بعيدة كل البعد، وعلى العكس من ذلك الشعر فالفرق بين الشعر القديم والحديث قليل تافه، ومع هذا فالشعر يجب أن يخضع لسنة النشوء والارتقاء ويجب أن يتقدم ويجاري الزمان كما حدث في الشعر الغربي. يجب أن يتقدم الشعر في كل من عنصريه عنصر الوزن وعنصر المعنى، ففي الوزن نرى إن العرب في الجاهلية صبت شعرها في ستة عشر بحرا وكان خضوعها لهذه البحور لا لأنها حصرت كل ما يمكن أن يكون ولكن ابتكروا أولاً بحرا أو بحرين ثم جاء الخلف فزادوا هذه البحور شيئا فشيئا لا يهديهم في الابتكار إلا الأذن الموسيقية: وهم لا عيب عليهم في ذلك ولكن العيب عيب من أتى بعدهم فقد سوّا هذه البحور ولم يشاءوا أن يخرجوا عنها قيد شعرة وقد تحكم العلماء والأدباء في أذواق الناس فأبوا عليهم أن يقولوا في غيرها أو أن يشذوا ولو قليلا عنها. وهو تقديس في غير محله لأن أوزان الشعر كما قلنا هي موسيقاه، وكما تطورت الموسيقى في العصور واخترعت نغمات وولد من القديم نغمات جديدة، وكانت موسيقى العصر العباسي غير موسيقى العصر الأموي، وهما غير موسيقى الجاهلية، كان واجبا أن

يغير الشعراء موسيقى الشعر ولا يقفوا عند الحد الذي رسمه الجاهليون، وعجيب أن نسمح في عصرنا للموسيقى الشرقية أن تطعم بالموسيقى الغربية ونهيئ آلاتنا للتوقيع عليها بهذه النغمات الجديدة، ونهيئ آذاننا لسماعها ثم لا نفعل ذلك في الشعر! نعم أخذ بعض الناس يتحللون من قيود البحور والقوافي الجاهلية كما فعل الأندلسيون بالموشحات وما إليها، ولكن وقف من بعدهم على اختراعهم ولم يسيروا على سننهم في التقدم. يجب أن يتحرر نوابغ الشعراء من هذه القيود ويشعروا بما يحسون ويوقعوا على النغمة التي يرتضون وليس الحكم بيننا وبينهم هو البحور الستة عشر ولكن الحكم هو الأذن الموسيقية، والأذن الموسيقية وحدها. وكما نرجع في كل فن إلى الخبيرين نستفتيهم ونحتكم إليهم فكذلك في هذا الضرب يجب أن نحتكم إلى من رقت أذنهم الموسيقية وأذواقهم الفنية وليس في هذا ضير على ثروتنا القديمة في الشعر فإنا باختراعنا بحورا وأوزاناً نزيد في ثروتنا إلى ثروتهم، كما نزيد في موسيقانا إلى موسيقاهم، وفي علمنا إلى علمهم.

أما من حيث الموضوع ومعاني الشعر فمجال القول فيه أوسع، وتقصير الشعراء فيه أبين ولئن كانت تعد الشعر ديونها تسجل فيه نزعاتها وآمالها وحياتها فأنا أخشى أن يكون الشعر العربي سجلا ناقصاً لم يدون فيه إلا وقائع قليلة من نزعات كثيرة، وصفحات ضئيلة من حياة حافلة مركبه معقدة. لقد دون الشعر كثيرا من وقائع المديح والرثاء والغزل والخمريات وما إليها وهذا حسن، وهو ضرب من الشعر لابد منه، ولكن ليس هذا كل مشاعرنا ولا أكثرها لقد مررت في هذا العام على تلاميذ مدارس ثانوية خارجين من لعب الكرة فسمعت بعضهم يصيح (يا محني ديل العصفورة، ومدرستنا هي المنصورة) فجرت من عيني دمعة على ما نحن فيه من ضعة وانحطاط وقلت أين الشعراء يضعون الأناشيد تجاري نفسية الطلبة، وترقي من مشاعرهم وتزيد في روحهم حماسة وقوة وتميز الطبقة المتعلمة من طبقة العامة وأمثالهم؟ وأتى كشّافة العراق ينشدون الأناشيد المختلفة في المناسبات المختلفة، فلم يجد كشافة مصر ما يجيبونهم به ويساجلونهم فيه إلا هراء من الكلام وسخفا من الغناء، ثم أين الشعراء يضعون أغاني للشعب وأغاني للمتعلمين تناسب حياتهم وموقفهم الاجتماعي؟ نعم تنبه بعض الشعراء لهذا ووضعوا أغاني أرقى ممن وضع من قبلهم ولكن أكثرها بكاءً وحنين وذوبان وهي من الأدب الذي سميته أدباً مائعاً، والذي لا يصح لأمة ناهضة أن تقتصر عليه، بل أين شعراء الشرق الذين تغنوا بما حوته طبيعة بلادهم من جمال إبداع فرقوا ذوق شعوبهم وأشعروهم بجمال الطبيعة، وغذوا عواطفهم وعودوهم تقدير الجمال والهيام به؟ لقد قصر شعراء العرب قديما وحديثا في هذا الباب فلا نعثر منه في الأدب العربي إلا على قليل، وهذا القليل لا يكفينا الآن ولا يسد رغباتنا لأن شعر الطبيعة قد رقّيَ عند الأمم وأصبح مؤسس على شيئين لابد منهما وهما علم بالطبيعة ومعرفة بقوانينها، وحب للطبيعة وهيام بها ثم صياغة ذلك كله في قول ساحر جذاب.

وهذا الضرب من الشعر قطع فيه المحدثون من الغربيين شوطا بعيدا وسبقوا فيه من قبلهم بمراحل طويلة (وبعد هذا كله) أين الشعر الاجتماعي العربي الذي يساير نزعات

أمم الشرق ومطامعها وآمالها في الحياة؟ إن أمم الشرق تنزع إلى الحرية وتأمل أن تتبوَّأ في العلم الإنساني المكان اللائق بها، وتنشد ضروبا من الإصلاح الاجتماعي ترى الحاجة ماسة إليه وكلها مجال فسيح للشعر يلهب حماستها ويقوي إيمانها ويهديها سبل الحياة. فأين الشعراء الذين وقفوا هذه المواقف وقادوها قيادة صالحة؟ إن عواطف الأمم الشرقية ساغبة تنتظر من يغذيها ولا تجده. الحق أن أدباء النثر قد أدوا رسالتهم خيراً مما أداها أدباء الشعر، وفي كل من الفريقين تقصير؟

صور من التاريخ الإسلامي

عمر بن عبد العزيز 62 - 101 هـ

للأستاذ عبد الحميد العبادي

3

ود الحكماء من قديم لو أن ملوك الأرض كانوا فلاسفة أو لو أن الفلاسفة كانوا ملوكاً؛ أذن لاقترنت السياسة بالأخلاق على أساس ثابت مطرد. وتعاونتا جميعا على النهوض بالمجتمع الإنساني، ولاستحال علمنا المضطرب جنة راضية ونعيما مقيما.

وكثيرا ما كتب الحكماء في نظم عامة ابتدعتها أخيلتهم وزعموها توفر على الناس في هذه الدنيا اللذة والسعادة، وتنفي عنهم الألم والشقاوة: فعل ذلك أفلاطون في (الجمهورية) والفارابي في (أهل المدينة الفاضلة) وتوماس مور في (اوطوبيا) كما فعله كثير غير هؤلاء ممن ترسم آثار أفلاطون ونسج على منواله.

هذا الحلم الجميل تحقق أو كاد في التاريخ مرة واحدة على ما نعلم، وذلك على عهد الخليفة العربي المسلم عمر بن عبد العزيز، فهو رجل ألقت إليه المقادير بزمام أعظم دولة في الأرض في زمنه، ومع ذلك استطاع أن يقدع شهوته حتى كاد يميتها، وأن يروض نفسه حتى ردها إلى الرضا بالقليل الأقل. ثم تجرد لإصلاح رعيته من طريق العدل والرفق والرحمة فأذاقهم لذة الأمن واليسر والرضا. وفوق هذا وذاك قد ترامت همته إلى ما وراء قومه وبلاده، فطمع أن يجمع شعوب الأرض طراً في نظام واحد يقوم على مبادئ الاخوّة والعدالة والمساواة. وقد وفق ابن عبد العزيز في هذا المطمع البعيد توفيقاً حدَّ من مقداره يا للأسف، أن عجلت إليه المنية وهو لا يزال في ميعة العمر وعنفوان الحياة.

قد اجتمع في تكوين هذه الشخصية العجيبة عاملا الوراثة والبيئة معاً، فأبوه عبد العزيز قد ولي مصر عشرين سنة دلَّت على ثقافته العالية واضطلاعه بأعباء الحكم، وبصره بتآلف القلوب، وجده مروان بن الحكم هو ذلك السياسي الجريء العارف بنفسية الأفراد والجماعات، والخبير بانتهاز الفرص عند إمكانها. وأما نسبه لأمه، فأمه أم عاصم بنت عاصم بن

عمر بن الخطاب، وكفى بانتسابه إلى تلك الشخصية العظيمة تعريفا بسبب من أسباب ورعه وجراءته في الحق على نفسه وغيره.

وليس أثر البيئة في تكوين بن عبد العزيز بأقل من أثر الوراثة فقد ولد بالمدينة عام 62هـ وشب بها على أصح الروايات. فلما ولى أبوه مصر عام 65 هـ حمل إليه، ولبث بمصر زمنا ما، نعم فيه بصحبة أبيه ومشاهدة آثار الحضارة المصرية والبيزنطية، وهنا رمحته دابة فشج شجته التي عرف من أجلها بأشج بني أمية، فلما بلغ سن التأديب بعث به أبوه إلى المدينة ليتأدب بها وينشأ نشأة إسلامية مدنية، وكانت المدينة إذ ذاك بيئة مركبة غير بسيطة، يعرف فيها من يحللها الروح الديني الصحيح ماثلا في نفر من بقايا الصحابة وكبار التابعين، أمثال أنس بن مالك وعبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، كما يعرف فيها الجانب الأرفه من الحياة ممثلا في مثل عبد الله بن جعفر أول نصير لصناعة الغناء العربي، وطائفة من المغنين والقيان يتقدمهما معبد ومالك بن أبي السمح المغنيان المدنيان الشهيران. ثم أن المدينة كانت إذ ذاك من الناحية السياسية موطنا للمعارضة التي تستند إلى الكتاب والسنة في مقاومة الحكومة الأموية. في هذه البيئة تخرج أبن عبد العزيز، فروى الحديث عن حملته ورواته، ولقف صناعة الغناء وأعانه على المساهمة فيها صوت ندي عذب. كما أشرب روح الحكومة الإسلامية القديمة التي كانت تختلف عن الحكومة الأموية اختلافا كبيراً. إلى ذلك كله كان أبن عبد العزيز فتى مليح الخلقة ناعماً مترفاً كعادة فتيان بني أمية. يروى أنه أبطأ يوماً عن الصلاة فسأله مؤدبه صالح بن كيسان

عن سبب إبطائه فقال (كانت مرجلتي تسكن شعري) فكتب مؤدبه بذلك إلى أبيه، فبعث أبوه رسولا فلم يكلمه حتى حلق شعره.

في عام 85 هـ توفي عبد العزيز بن مروان بمصر، وكان أبنه عمر قد تم تأدبه بالمدينة، فأجتذبه الخليفة عبد الملك بنمروان إلى الشام وزوجه من أبنته فاطمة، ثم ولاه (خناصرة) وهي بليدة من أعمال حلب واغلة في البادية. فلبث والياً عليها سنتين كانتا من أنعم سني حياته وحياة زوجه. وقد أعجبته خناصرة حتى أنه عندما استخلف اتخذها منزلاً على عادة ملوك بني أمية في إيثارهم سكنى البادية على الحاضرة. وفي عام 87هـ اختاره الخليفة الوليد بن عبد الملك لولاية المدينة بدلا من هشام بن إسماعيل المخزومي الذي أساء السيرة في أهلها، ولا شك أن الوليد إنما اختار عمر للمدينة لما يعلم من المشاكلة القوية بينه وبين

هذه الولاية، ثم أنه بعد قليل ضم إليه مكة والطائف فاصبح عمر بذلك أميرا على الحجاز كله.

كانت حكومة عمر ابن عبد العزيز بالحجاز (87 - 93) حكومة شورية أبوية يمازجها من ناحيته الشخصية مقدار غير قليل من الحرص على الترف والتنعم. فلأول قدومه المدينة اصطفى عشرة من العلماء اتخذهم نصحاء ومستشارين يصدر في الأمور عن رأيهم، ثم عكف على إصلاح شؤون الحجاز فهدم المسجد النبوي وأعاد بناءه على نحو أوسع وأروع، وأصلح الطرق، وأكثر من الآبار وتيسر بذلك الماء في ذلك القطر الظمىء، كما أنه عمل بالمدينة فوارة يستقي منها أهلها، وقد اعجب الخليفة بتلك المنشآت عندما زار المدينة سنة 91هـ وأمر للفوارة بقوام يقومون عليها، وأن يسقى أهل المسجد منها، ففعل عمر ذلك. ومن مظاهر بساطة عمر في إمارته بالحجاز انه جلس مرة في المسجد يرتِّل القرآن بصوته العذب فتأدّى بذلك سعيد أبن المسيب على غير علم منه بصاحب الصوت، فلم ير عمر بأساً بان ينتحي ناحية أخرى من المسجد. وبلغه أن قاضيه على المدينة استخفه الطرب عندما سمع جاريته تغني حتى أخرجه من وقاره، فعزله عمر، ولكن القاضي المعزول تحدى الأمير لسماع الجارية، فسمعها عمر وكاد هو أيضا يستخف فعذر القاضي وردَّه إلى عمله. وعندما قدم الفرزدق الشاعر المدينة وكانت السنة ممحلة وخاف أهل المدينة لسانه رفعوا أمرهم إلى عمر فأخرجه من المدينة ونهاه أن يعرض لأحد من أهلها بمدح أو بهجو. أما من حيث حياة عمر الشخصية في تلك الفترة فكان مترفا مسرفا في الترف، يرخي شعره ويسبل أزراره ويلبس الثوب تبلغ قيمته مئات الدنانير، ويكثر من الطيب حتى لتقصف ريحه إذا مشى مشيته (العمرية) وهي مشية كان يتبختر فيها ويختال، ولملاحتها كانت الجواري تأخذها عنه.

حادث واحد نغَّص على أبن عبد العزيز إمارته على الحجاز: ذلك مصرع خبيب بن عبد الله بن الزبير فقد نقم الخليفة الوليد من خبيب أشياء بلغته عنه وكتب إلى عمر أن يضربه فضربه عمر ضرباً كان فيه هلاكه. وقد جزع عمر لذلك جزعا شديداً، ويقولون انه لبس المسوح سبعين يوما حدادا على خبيب، ثم أقلع عن ذلك. فلما استخلف دفع ديَّة خبيب إلى أوليائه، ومع ذلك كان يرى أن الله لابد مؤاخذه لذلك الذنب، فكان إذا بشره أحدهم بالجنة

قال: (وكيف بخبيب!).

وغدا الحجاز ينعم بأمن وعافية مما ابتليت به الأمصار الأخرى ولا سيما العراق من الفتن والقلاقل، ولذلك أخذت فلول ثوار العراق والخوارج تفد على الحجاز فراراً من وجه الحجاج وسيفه المسلول، فكان بن عبد العزيز يجيرهم ويحميهم. ثم لم يكتف بذلك فكتب إلى الخليفة يندد بعسف الحجاج وبطشه. فاضطغنها الحجاج عليه وكتب إلى الخليفة يشكو من أن أمير المدينة يجير (مراق) العراق وان ذلك موهن له. وقد نظر الخليفة في الأمر ملياً، ثم رأى أن يشدُّ أزر الحجاج في هذه الخصومة، فالعراق أخطر من الحجاز والحجاج أولى بالمصانعة من عمر بن عبد العزيز، فصرف عمر عن الحجاز بأميرين أحدهما للمدينة والآخر لمكة. فكان أول ما صنعاه أن أخرجا من الحجاز إلى الحجاج كل عراقي في الجوامع والأغلال، وتوعدا كل حجازي أنزل عراقيا أو آجره داراً.

خرج ابن عبد العزيز من الحجاز إلى الشام مغاضبا للخليفة الوليد، وقد ساءه أن عزل

عن إمارة المدينة حتى قال لمولاه مزاحم وهو ببعض الطريق: (أخشى أن أكون ممن تنفيه المدينة) إشارة إلى الحديث الوارد في أن المدينة تنفي خبثها. فلما حصل بالشام شغل نفسه بالغزو فراراً من وجه الوليد والتماس الأجر والسلوى. فلما توفي الوليد عام 96 هـ وولي سليمان بن عبد الملك لزمه عمر، وكان أثيراً عنده يستشيره سليمان وينزل على رأيه في كثير من الأمور، على إن عمر نفعه أن عزل عن الإمارة على النحو المتقدم فقد دفعه ذلك في السنوات الست التي قضاها بالشام قبل أن يستخلف (93 - 99) إلى النظر في حال الدولة العربية في أواخر القرن الأول الهجري.

نظر فإذا الدولة الإسلامية قد أبعدت في التخلي عن الصفة الدينية التي كانت لها قديما وأسرفت في الاصطباغ بالصبغة الزمنية المتطرفة، أليست حكومة عبد الملك والوليد والحجاج ويزيد بن المهلب حكومة تجبر وطغيان؟ أليست حكومة سليمان حكومة الشهوة العطشى والجسد المنهوم؟ لقد أصبح السلطان يعتمد في شد أركانه وتقوية دعائمه على القوة الغشوم والسيف المرهف. أما العدل وأما الرفق وأما الرحمة فلم يعد لكل ذلك عنده محل ولا حساب. ونظر فإذا أموال الدولة قد عراها الخلل والاضطراب من كل نواحيها. فنحو ثلث أموال الدولة قد استحال ملكا خاصا لبني أمية، وأكثر الضرائب يجبى من غير وجوهه ويصرف في غير مصارفه الشرعية. فكثير من الأراضي الخراجية التي لا يصح تملكها قد استحالت أرضاً عشرية يتملكها أفراد من المسلمين يؤدون عنها الزكاة التي مقدارها أقل من مقدار الزكاة. وكثير من الموالى أو مسلمي الأعاجم لا يزالون مع إسلامهم يؤخذون بالجزية لغير ما سبب سوى أن العمال لحظوا في إسلامهم معنى الفرار من الجزية فأبوا أن يعفوهم منها. هذا فوق أن هؤلاء الموالي لم يكونوا والعرب سواء في الحقوق، فكانوا يغزون إلى جانب العرب دون أن يكون لهم عطاء. ثم إن عدم إنفاق الزكاة في مصارفها الشرعية قد ادى إلى كثرة الفقراء والمساكين والمرضى والزمنى ممن جعل لهم الشرع حقا في الصدقات العامة ثم نظر فرأى بأس الأمة الإسلامية بينها شديد، قد توزعت الفرق المتباغضة والأحزاب المتناحرة، فمن شيعة يطوون الصدور على الإحن لما نالهم به بنو أمية من أذى ومساءة، ومن خوارج يتحينون الفرص لهدم النظام القائم وإحلال نظامهم محله، ومن موال قد ساءهم إلا يسوى بينهم وبين العرب في الحقوق العامة، ومن مضرية ويمينية وربعية كل يحاول أن يكون له النفوذ السياسي من طريق الولاية على الأقاليم والتأثير في السلطان نفسه. هذا في الداخل أما في الخارج فرأى عمر إن الجهاد الذي شرع على عهد النبي (ص) لمنع العدوان على النفس والعقيدة والذي كان على عهد الشيخين ضرورة اقتصادية ملحة قد استحال في زمن الأمويين أداة للتوسع في السلطان وجر المغنم الوافر والسبي الرائع حتى قال الشاعر:

ألا ذهب الغزو المقرب للغنى ... ومات الندى والجود بعد المهلب

نظر عمر في كل ذلك فرده إلى سبب جوهري واحد هو انحراف الجماعة الإسلامية عن الأساس الذي قامت عليه، أساس الدين. والدين عند عمر هو الدين المتصل بالحياة العامة يمدها ويغذيها بقوته المعنوية والممسك لشؤون الجماعة أن تضطرب وتصبح فوضى، هو الدين الذي أثره في الحاكم شعور قوي بالمسؤولية وعمل صادق على إسعاد العباد والترفيه عنهم والذي أثره في المحكومين اقتضاء للعدل إذا حرموه وأنفة من الضيم والذل إذا ما أريدوا عليهما، الدين عند عمر بن عبد العزيز: هو الحق والإنسانية عبر عنهما بلفظ واحد.

وبينا عمر يرسل الفكر في أنحاء الحياة الإسلامية العامة متعرفا عللها إذا به في الوقت نفسه قد أخذ يخضع لتطور نفساني عنيف. لقد أخذ حرصه على الترف والتنعم يضعف رويدا رويدا وميله إلى الزهد والتنسك يقوى شيئا فشيئا وأصبحت نظرته إلى الحياة نظرة إلى متاع قليل زائل لا يعدل شيئا بجانب طمأنينة النفس وراحة الضمير كما أصبح دائم التفكير في الموت وفيما بعد الموت، فالموت آت لا ريب فيه؛ والموت برزخ مؤد إما إلى جنة وأما إلى نار والمنتهى على كل حال رهين بما يكون عليه المرء في العدوة الدنيا من ذلك البرزخ الرهيب.

ما سر هذا التطور العجيب الذي جعل من ابن عبد العزيز الناعم المترف ناسكاً زاهداً متصوفاً؟ نتبين ذلك السر في نفسية ابن عبد العزيز من جهة؛ وفي مقدار تأثره بالحياة

الإسلامية العامة لذلك العهد من جهة أخرى.
لقد كان في عمر نزوع طبعي إلى الزهد فهو كما رأينا من سلالة عمر بن الخطاب؛ وكان في طفولته يحاول التشبه بخاله الزاهد عبد الله بن عمر ولما تورط في أمر خبيب لبس المسوح سبعين يوما يأسا من غضارة ولذاذة الحياة فلما نصح بالإقلاع عن ذلك أقلع. ثم أن الحياة الإسلامية قد ألمت بها في أواخر القرن الاول نزعة زهد جاءت كرد فعل للمادية التي طغت عليها إذ ذاك. هذه النزعة التي تحولت بعد ذلك إلى الحركة الصوفية المشهورة نتبينها في طبقة العباد والنساك التي يتكلم عنها صاحب العقد الفريد طويلا. وقد خضع عمر لتأثير هذه الطبقة وهو في المدينة فكان من أشد الناس تأثيرا فيه عبيد الله بن عبد الله ابن عتبة. فلما صار بالشام خضع لتأثير رجلين يعتبران بحق من أقطاب عصرهما علما وزهدا وورعا. هذان هما الحسن البصري ورجاء بن حيوة الكندي. أما الحسن فقد اتصل به عمر من طريق المراسلة ولعله قد أخذ عنه كراهية القول بالقدر الذي ينسب إلى الحسن خطأ. وأما رجاء فقد كان مستشار سليمان بن عبد الملك وكان لذلك أقرب إلى عمر وأقوى به اتصالا.
وبعد فلئن كان النظر في الأحوال العامة قد انتج لعمر ضرورة الرجوع إلى الدين في إصلاح غيره؛ فقد انتج له مزاجه الخاص وتأثره بالزهاد من أهل عصره ضرورة الزهد من اجل إصلاح النفس وتهذيبها. الدين والزهد، هاتان هما الخلتان اللتان كانتا تعمران فؤاد عمر وقلبه عندما أخذ صلحاء الشام يرشحونه للخلافة.

الثقافة المصرية وكيف تستفيد من ثقافة الجاحظ
الأدبية والعلمية والسيكولوجية
للأستاذ مصطفى عبد اللطيف المحامي

دعونا في مقال نشر بالسياسة الأسبوعية إلى الرجوع إلى الثقافة العربية بدوية كانت أم حضرية وأهبنا بالمثقفين ثقافة عالية أن يصرفوا جهودهم إلى بعث تلك الثقافة وتغذية ثقافتنا المصرية بمادة مفيدة صالحة وذكرنا في ذلك المقال أسماء بعض زعماء الثقافة العربية. ومن بينهم أبو عثمان بن بحر الجاحظ أحد أعلام العصر العباسي ومن أكبر زعماء الفكر الإسلامي.
وها نحن نعود أولاء إلى هذه الدعوة وتأييد تلك الفكرة بذكر شيء من ثقافة الجاحظ الواسعة، تلك الثقافة التي يباهي بها العرب ويعجب لوفرتها الجيل الحاضر لأنها ثقافة تزيد في الوفرة على ثقافة جوت الألماني وديدرو الفرنسي ودستوفسكي الروسي وغيرهم من ذوي الثقافات الواسعة الرفيعة.
والحق أني بعد أن تصفحت جمهرة من مؤلفات الجاحظ وما كتب عنها لم أجد وصفا أصدق عليها من أنها كالبحر اللجب الزاخر تحوي الجوهر كما تحوي الصدف، فأنت إذا تناولت تلك المؤلفات ألفيت بحوثا شائقة في الأدب وملاحظات قيمة في العلم ومعلومات رائعة في سيكولوجية الإنسان والحيوان وأفكارا كالأمواج متزاحمة متلاحمة تشرق عليها أنوار الثقافات الفارسية واليونانية والهندية.
هي ثقافة ثرة متعددة النواحي يتطلب تصويرها كتبا مفردة ولكني سأحاول أن أتناول في اختصار ثلاث شعب منها، وهي ثقافة الجاحظ: الأدبية، والعلمية، والسيكولوجية. واكتفي برسم خطوط لتلك الثقافات تاركا إخراج صورة كاملة لها لمن هم أقدر مني عليها. وغايتي من المقال كما سبق إظهار روائع الثقافة العربية وبيان صلاحيتها لتغذية ثقافتنا المصرية، إذ فيها خير مادة لنا وخير ثقافة.

ثقافة الجاحظ الأدبية

ونحن إذا قلبنا البصر فيما صدر عن الجاحظ من المؤلفات الأدبية الكثيرة أدركنا قطعا نفع
تلك المؤلفات لثقافتنا وصلاحيتها لتغذية إلهاماتنا. ويحتاج بحث هذه المؤلفات إلى كتاب مفصل. ولكني سأقصر بحثي على وصف رسالة الجاحظ الموسومة (بالتربيع والتدوير) وهذه الرسالة أعتقد أنها تكفي لرسم صورة تامة عن أدب الجاحظ وأسلوبه الرصين المونق ومعانيه البليغة وميله إلى خلط الجد بالهزل في كتاباته. وهذه الرسالة مدبجة في احمد بن عبد الوهاب من معاصري الجاحظ ومن ذوي النفوذ والمقربين لدى الخلفاء، وهي تمثل في أوضح بيان جمال الرصف والقدرة على ملكية العبارة. ومن المستحسن أن أصف هذه الرسالة وآتي بفقر منها: ابتدأ الجاحظ الرسالة بالقدح في

احمد والزراية بعقله، وطرح عليه مائة سؤال منها الخفيف ومنها الثقيل ومنها الجدي ومنها المضحك حتى إذا ما آذاه وجرحه جرحا يكاد يقطر دما وأدرك فداحة ما صنع أسرع إلى قلمه فمسحه من الدم ودهنه بالمرهم ليأسو الجرح ويداوي ما بضع سنان القلم، فاخذ يقدم وجه العذر ويدير اليراع بالمغفرة ويزكي صفات احمد ويطنب في مدحه ويسرف. فها هو ذا يسم أحمد في مفتتح الرسالة بالادعاء وينعته بالجهل يقول: (كان احمد بن عبد الوهاب مفرط القصر ويدعي أنه مفرط الطول وكان جعد الأطراف قصير الأصابع وهو يدعي البساطة والرشاقة، وكان كبير السن متقادم الميلاد وهو يدعي انه معتدل الشباب حديث الميلاد. وكان ادعاؤه لأصناف العلم قدر جهله بها، وتكلفه للإبانة عنها على قدر غباوته فيها. . . وكان قليل السماع غمرا. . . يعد أسماء الكتب ولا يفهم معانيها ويحسد العلماء من غير أن يتعلق فيهم بسبب).

واستطرد يقول بعد كلام طويل فصيح: (فلما طال اصطبارنا حتى بلغ المجهود منا وكدنا نعتاد مذهبه ونألف سبيله، رأيت أن أكشف قناعه وأبدى صفحته للحاضر والبادئ وسكان كل ثغر وكل مصر بان أسأله عن مائة مسألة أهزأ به فيها وأعرف الناس مقدار جهله).

وأخذ يلقي عليه الاسئلة في خلال الرسالة ومنها قوله: (خبرني ما تقول في الفراسة؟ وما تقول في أسرار الكف؟ وما تقول في النظر في الأكتاف! وخبرني متى تستغني الحية عن الغذاء! ومتى ينتفع الضب بالنسيم! وخبرني ما السحر وما الطلسم وما الدنهش! وما قولهم في اللبان الذكر!؟).

وبعد أن سقاه سخراً وأشبعه تهكما وجعله ضحكة الضاحكين وهزأة الساخرين انبرى يشدو بذكره ويتغنى بمدحه مما يجعلنا نعجب من الجاحظ ومن تناقضه الظاهر ومن انقطاع

الملابسة المنطقية بين هجو الفارط المفرط ومدحه اللاحق المفرط. استمع إليه يقول في مدح أحمد: (وهل على ظهر الأرض جميل حسيب أو عالم أديب إلا وظلك أكبر من شخصه وظنك أكثر من علمه، واسمك أفضل من مغناه، وحلمك أثبت من نحواه، وصمتك أفضل من فحواه!). . . ثم تأخذه الأنفة وتغطيه العزة فيتسامى على أحمد بالمعرفة ويتفاضل بالحكمة. يقول: ـ فأنت والله يا أخي تعلم علم الاضطرار وعلم الاختيار وعلم والأخبار أني أشد منك عقلا، واظهر منك حزما والطف كيدا وأكثر علما وأوزن حلما وأخف روحا وأكرم عينا. . . وأنت رجل تشدو من العلم وتنفق من الأخبار، وتموه نفسك وتعز من قدَّرك وتتهيأ بالثياب وتتنبل بالمراكب). . . وأخيرا يحس الجاحظ شدة ما ساقه من الذنب إليه فيعمد إلى تلطيفه ببيانه الساحر الجذاب فيقول: (فان أنت عاقبتني فقد رغبت عن النبل والبهاء، وعن السؤدد والسناء، وصرت كمن يشفي غيظا أو يداوي حقداً أو يظهر القدرة أو يحب أن يذكر بالصولة. ويشفع هذا بكلام يتنفس الملق والدهان يقول: (وأني لك بالعقاب وأنت خير كلك، ومن أين اعتراك المنع وأنت أنهجت الجود لأهله؟ وهل عندك إلا ما في طبعك؟ وكيف لك بخلاف عادتك؟).

وأكتفي بهذا الاقتباس الطويل الذي تعمدت أطالته لإثارة القارئ لتلاوة هذه الرسالة برمتها ليتذوق جمالها الفني وحلاوة عباراتها وعذوبة مائها، وهذه الرسالة عندي لا تمثل الجمال الفني للعبارة بل أنها تمثل جمال المعنى وبلاغته. وللجاحظ رسائل أخر شائقة متقدمة في الفصاحة متناهية في الرصانة والسلاسة والجزالة وهي آية قائمة على تفوق الرجل في أدب المقال وإحسانه فيه أقصى إحسان. والمجال يطول بذكر شيء عن هذه الرسائل ونسرد أسماء بعضها ليدرك القارئ كيف تنبه الجاحظ منذ قرون لمعالجة موضوعات تهز العواطف والمشاعر والانفعالات. فرسالة البخلاء تحوي قصصا غريبة عن بخلاء عصره وعاداتهم، ورسالة الحاسد والمحسود تهجن الحاسد وتذم انفعال الحسد. ورسالة (العشق والنساء) تصف عاطفة العشق وكيف يخنع لها الجبابرة وكيف خنع لها الحجاج الطاغية. وكتابه (المحاسن والأضداد) تناول فيه ذكر محاسن كثيرة من العواطف الفردية مثل عواطف الصدق والعفو والمودة والوفاء والشجاعة والسخاء وحب الوطن؛ ومدح فيه انفعال الغيرة وذمه في صفحات معدودة. وهذا الكتاب لا تظهر فيه شخصية الجاحظ الخلاقة لأن

مادته منقولة عن الأعراب. وعلى العموم فمؤلفات الجاحظ الأدبية بجملتها تفتق اللسان وتقوي العارضة وتمدنا بثروة واسعة من التعابير الجميلة وتعطر أفئدتنا وتنعش صدورنا بمعانيها اللطيفة الفريدة. يقول المسعودي في هذا الصدد: (كتب الجاحظ تجلو صدأ الأذهان وتكشف واضح البرهان) ويقول ابن العميد: (كتب الجاحظ تعلّم العقل أولاً والأدب ثانيا. . .)

ثقافة الجاحظ العلمية

ويعني ابن العميد بهذا القول أن يقول أن كتب الجاحظ تعلم العلم أكثر من أنها تعلم الأدب، والواقع أن كتب الجاحظ الأدبية لا العلمية تتضمن ملاحظات بارعة وإشارات دقيقة ومعلومات قيمة يمكن أن تبنى عليها بحوث علمية رائعة.

حدثني أحد المهتمين بالثقافة العربية أنه قرأ رسالة التفاح للجاحظ في مكتبة بألمانيا فوجد بها ملاحظات وتجاريب للجاحظ مدهشة منها أن الجاحظ كان يكتب بمادة كيمياوية بعض الأسماء على التفاحة قبل نضجها. فتظهر الأسماء على التفاحة بعد النضج، وكأنها خلقت على هذه الصورة وكأن الأسماء نقشت على التفاحة نقشا طبيعيا. وذكر أن الجاحظ أبان في هذه الرسالة كيف تتلون التفاحة في الطبيعة: فالقمر يخلع عليها اللون الأصفر والشمس تهبها اللون الأحمر. وهذه الحقائق لا أعلم مبلغ صدقها. ولكني أثبتها بقصد الإثارة للبحث عن هذه الرسالة ونشرها. ولا شك في أن رسائل الأدب لا تخلو من معلومات مفيدة للعلم فما بالنا بالرسائل والكتب العلمية مثل كتب: النبات، والمعادن، والكيمياء، والطب وغيرها التي لم نطلع عليها وا أسفاه إلى الآن، والتي أفاد منها الغربيون واستقوا آراءهم. فقد جاء في دائرة المعارف الإسلامية أن كازويني وداميري اعتمدا في بحوثهما العلمية على كتاب الحيوان والنبات للجاحظ، ونحن وان كنا قد عثرنا في مطالعاتنا على طائفة من حقائقه العلمية فان هذه الحقائق تعتبر نقطة من محيط. وشعاع من شمس قد يهدف ذكرها في هذا الموضع إلى سوء التقدير وغباوة الحكم، ولهذا فإني اكتفي هنا بتوضيح مذهبه في البحث وطبعه العلمي وحبه للتحقيق والتدقيق. فها هو ذا يقدم لأحد كتبه في الحيوان بالتعوذ بالله من أن يدعوه شغفه بإتمام كتب الحيوان إلى أن يصل الصدق بالكذب أو يدخل الباطل في تضاعيف الحق. أو يتكثر بقول الزور أو يتلمس تقوية ضعفه باللفظ للحسن وستر قبحه

بالتأليف المونق. وهذه الأقوال لا تصدر إلا من رجل وهب ضميرا علميا يزعه عن الأوهام وينزهه عن ذكر المغالط ويدعوه إلى التثبت من العلة وتنقية الثقة من الريبة، وتطهير الحجة من الشبهة.

وأنا لنراه في كتبه ومؤلفاته يستند كثيرا إلى التجربة ويعتمد على الملاحظة، فإذا ما أعوزته التجربة ولم تتيسر له الملاحظة رجع إلى ثقة من الثقات للمذاكرة فإذا لم يجد الثقة الذي يعتمد عليه ويتذاكر إليه ربأ به ضميره عن نقل المعارف نقلا مهما كان مصدرها. فها هو ذا في كتب الحيوان تناول ذكر كثير من الحيوان والطير والحشرات ورجع إلى ما كتب أرسطو في الحيوان، وأخذ عنه بعض ما حققه بنفسه أو قامت التجربة على صدقه. ورفض أن يثبت في كتبه معلومات غريبة عنه، فنراه مثلا لم يكتب شيئا عن (السمك) مع أن ارسطو أفاض وأشبع القول في هذا الموضوع. ولكن الجاحظ أبى أن ينقل عن ارسطو شيئاً في هذا البحث؛ وعلة ذلك انه لم تتوفر له الملاحظة عن السمك وعن طباعه وأحواله وأنه سأل البحريين عن بعض الحقائق الواردة في كتب ارسطو فلم يصل منهم على قول محقق؛ لهذا ترك هذا الباب كلية ولم يكتب فيه حرفا.

وأنا لنتمنى أن نجد مثقفا مصريا أو شرقيا يخصص نفسه؛ وينفق عمره في التنقيب عن كتب الجاحظ العلمية في مظان وجودها ومحال مكامنها. وينقلها إلينا ليخدم بذلك الثقافة المصرية. لأن البحوث التي لدينا عن الجاحظ كلها موجزة مجملة؛ وكلها تركت الناحية العلمية جانبا. فالسندوبي قصر بحثه الواسع على (أدب الجاحظ) وترك علمه. واستقى مادته من جمهرة صالحة من الكتب الأدبية، والأستاذ خليل بك مردم كتب بحثا مجملا مفيدا عن الجاحظ وثقافته. والأستاذ أحمد أمين كتب فصلا بديعا موجزا عن الجاحظ ومس الناحية العلمية مساً خفيفا. وليس من شك في أننا في حاجة إلى من يدرس الجاحظ درسا واسعا من جميع نواحيه. واليوم الذي نجد هذا الرجل هو اليوم

الذي نقع فيه على ثقافة ممتعة، ونواح طريفة للتفكير العربي.
ثقافة الجاحظ السيكولوجية
ومن النواحي الطريفة لثقافة الجاحظ الناحية النفسية أو السيكولوجية. وهذه الناحية ماثلة بجلاء في طائفة من كتبه. وهي أشد ما تكون جلاء في كتب الحيوان السبعة. فقد تناول في
هذه الكتب نفسيات الحيوان والطير والحشرات وتحدث عن أخلاقها وطباعها وعاداتها وضمنها معلومات عجابا وملاحظات دقاقا تشهد بسعة ثقافة الجاحظ وبأنه أنفق عمرا طويلا في معاشرة الطير ومؤالفة الحيوان ومراقبة الحشرات، وانه هام من أجل ذلك في الغياض وتوغل في بطون الأودية وركب البحار وسكن الصحاري ونبض قلبه مع النبات واهتز لسحر الطبيعة: ففي كلامه عن الحيوان تحدث عن نبالة الكلب وذكر انه يتخير أنبل موضع في المجلس، وتحدث عن القط وذكر انه لئيم خؤون وشره شديد الشراهة. وفي الوقت نفسه يؤثر أولاده بالأكل على نفسه!
وتكلم عن الديك وإيثاره الدجاج على نفسه في سن الشباب؛ فإذا هرم صار أنانيا لا يعرف إلا نفسه. وتكلم عن الفيل وجرأة قلبه وقوة عزمه بينما هو يفزع من القط فزعاً شديدا! وتكلم عن اليربوع وسعة حيلتها وانها علمت الفرس والروم الاحتيال واتخاذ المطامير على تدبير بيوتها. وأفاض في ذكر عداوة الحيوان بعضه لبعض، فالأسد عدو للكلب يشتهي لحمه والذئب يشتهي لحم الثعلب والثعلب يصيد القنفذ وهكذا.
وفي الفصول التي عقدها عن الطير أفاض في ذكر الحمام والعصافير. فذكر أن العصافير لا تقيم في الدار إذا خرج أهلها منها وأنها شديدة العطف والبر بأولادها وتحتمل الأخطار في سبيل الذود عنها. وتحدث عن الحمام فذكر حبه للناس وأنس الناس به وأنه لا يهجر الدار إذا هجرها أهلوها وأنه لا يغير. . . وفي الفصول التي عقدها عن الحشرات تكلم عن النحل وكمال غريزته وعن خلق الخلية وما فيها من غرائب الحكم وعجائب التدبير وكيف يتضافر النحل في عمل الخلية. فمنه ما يقوم بجمع المادة من الشجر والزهر. ومنه ما يبني البيت ومنه ما يقوم لعمل الشمع. وتكلم عن العنكبوت وبداعة نسجه. وطريقته الحكيمة في صنع مصيدة من خيوطه لإيقاع الذباب وصيده. وتكلم عن عداوة القنفذ للحية والحية للعصافير والعصافير للجراد والجراد لفراخ الزنابير والزنابير للنحل والنحل للذباب والذباب للبعوض، وغير هذا من أجناس هذه المعلومات وأشباهها مما وعته صفحات كتب الحيوان. وقد ذكرنا وشلا منها، ولا ريب أن المشتغلين بعلم النفس يجدون في هذه الكتب معلومات قيمة مفيدة.
وبالأخص المهتمون بعلم النفس التجريبي الحديث الذي تدور بحوثه على درس الحيوان والحشرات. فجدير بنا أن نهتم بهذه الكتب التي سبقنا الغربيون إلى تعرف خطرها وقدرها
ونباهتها.
الخلاصة
ونخلص مما تقدم إلى أن الجاحظ كان رجلا مثقفا بكل معنى الكلمة، ولأقصى درجة من درجات الثقافة العالية، فقد وعى أدبه ثروة وجمالا وملاحة، وحوى علمه براعة الملاحظة وصدق التجربة، وتغلغلت نفسه في أعماق نفوس البشر ونفوس الحيوان. وسلك مذهب الحرية في الدين فأحب جمال الدين وشعر العقيدة. ولم يتحرج من اعتناق مذهب المعتزلة برغم مخالفته للرأي السائد. وقصارى القول أن الجاحظ أديب العلماء وعالم الأدباء غير مدافع؛ وفيلسوف عملي لا مذهبي وعالم يكثر الملاحظة والتفكير. وملاحظاته أغزر من تفكيره. فجدير بنا بعد هذا أن نتذوق ثقافته فنذوق روح الحياة وننشق عطر البحث ونستمتع بجمال الأسلوب ولذة المعرفة.
ميت غمر. مصطفى عبد اللطيف المحامي
من الشعر المرسل
ذو الفأس
للآنسة سهير القلماوي. ليسانسيه في الآداب
جان فرانسوا ميلين رسام فرنسي عاش في النصف الاول من القرن التاسع عشر. وقضى أخريات حياته في الريف على مقربة من غابة فونتينبلو حيث رسم لوحاته الريفية المشهورة. أشهر هذه اللوحات لوحة (الانجلوس) وهي تمثل فلاحة وفلاحاً

سمعا صوت جرس الكنيسة فهما يصليان خاشعين. ومن أشهر لوحاته (ذو الفأس)، وهي تصور فلاحاً متكئاً على فأسه وقد بلغ به التعب والبؤس أقصى درجات الألم. تلك الدرجة التي يشعر فيها الإنسان أنه فقد حواسه.

جاء بعد الرسام ميلين الشاعر الأمريكي أدوين مركهام فنظم قصيدة أوحاها إليه هذا الفلاح المتكئ على فأسه. ولقد أذاعت هذه القصيدة صيت الشاعر حتى أصبح يعرف باسم مؤلف ذي الفأس.

وهذه قصيدة أوحتها إلي قصيدة الشاعر مركهام والرسام ميلين. ولقد راعيت فيها خاصتين من خواص الشعر العربي: وهما الوزن وتمام المعنى في البيت الواحد وأهملت الخاصة الثالثة وهي القافية. واشعر تماما إن إهمال القافية لا يحس به ما دام المعنى كاملا في البيت الواحد فهل يشعر القارئ بمثل ما اشعر؟

ذو الفأس

متكئاً على الفأس في انكسار ... منحني الظهر من الهموم
ينظر في الأرض بلا انتهاء ... فليس إلا نحوها المصير
قد أوهنت عظامه السنين ... وغضنت جبينه العصور
وقسوة المسعى وراء العيش ... قد أفقدته جزءه الإنساني
من أطفأ الشعلة من حياته؟ ... من رده وثوره سواء؟
لا يعرف اليأس ولا الرجاء ... لا يعرف الآمال والأحلاما
ما المجد عنده وما الجمال؟ ... ما الجاه؟ ما السمو؟ ما الخلود؟
ما أبعد الهوة بين هذا ... وبين حلم العالم المنشود!
إذاك من قد أبدع الرحمن؟ ... إذاك من قد كوّن العظيم؟
إذاك من قد خصه الجبار ... بالعقل والعرفان والسلطان؟
يا سادة العبيد والأراضي ... هذا الذي قد صنعت أيديكم!
هذا الذي قدمتم لقاء ال ... غفران والرحمة من باريكم!
يا سادة العبيد والأراضي ... كيف لقاء الرب يوم الدين؟
يوم مثوله أمام الله ... بعد سكون الساع والسنين!

في الأدب المصري القديم

فنون الشعر الفرعوني (القصائد، القافية، الأوزان، البديع، الجناس)

للأستاذ حسن صبحي. مؤلف قصص البردى

يحفظ التاريخ للمصريين القدماء سبق الابتكار في كل ناحية من نواحي المدنية. فنراه يسجل لهم أولوية الصناعة كما ينعتهم بالزراع الاول، ثم يقص علينا من أنباء بعثاتهم التجارية إلى النوبة والى الشام والى العراق ما مكن لذوي المطامع منهم أن يستبسلوا في الإغارة على هذه البلاد بين حين وحين، وهم إذ ينتصرون يملكون الأرض ومن عليها فينشرون من أسباب المدنية بين أهل هذه البلاد ما بقي أثره إلى اليوم فيها سواء كان في أساليب الزراعة أو في طرائق الصناعة أو طرق التجارة، أو كان في اللغة والنحت والتصوير أو الموسيقى والرقص والشعر مما بقي أثره لهذا الوقت الحاضر في روح كل فن أو مهنة أو صناعة تمت للعصر القديم في أي من هذه الأقطار بصلة.

وكما كان المصريون في كل فن الأول فقد كانوا أيضا الشعراء الاول في هذا العالم، رأوا وأحبوا ما يحيط بهم من جمال الطبيعة الهادئة ومناظرها المتكررة الساكنة، فنظموا الشعر وقصدوه في وصف النيل ومجراه وفي مطلع الشمس ومغربها وفي فضية القمر وشحوبه، وفي خضرة الحقل ووحشة القفار. ثم عاشوا بين أسباب المدنية التي أقاموها فوجد الحب والبغض والحسد والشكر وقامت الحروب وأقيمت الصلوات، وأحسوا كل هذه الصور في الحياة فقالوا الغزل والحمد وهجوا واستعدوا وأشادوا واستنهضوا، وكان لابد لقول هذه الصور المختلفة من الحياة من قوالب تصاغ فيها، فخلقت القوالب وكانت القصائد والقوافي والأوزان والسجع، وتطور افتنانهم ورقى فدخلته التباديل ولعب فيه الجناس اللفظي. أليست هذه كلها أحدث فنون الشعر المصري؟

القصائد المصرية

مذ خلق المصريون القدماء لأنفسهم الكتابة الهيروغليفية وهم يكتبون الشعر في صورة غير صورة النثر. يكتبونه مقطوعات مشطرة ثلاثية أو رباعية الشطرات، متقاربة الطول
مرتبطة المعنى، تستقل كل مقطوعة منها في مناسبة تميز المقطوعة من غيرها، حتى في أقدم صور الشعر، قبل أن يفطن المصريون إلى ضرورة فصل الشطرات عن بعضها بنقط حمراء في كتابته للدلالة على الوقف.
وانك لتجد في القصيدة التالية ما يعطيك صورة حقيقية لأقدم أشكال الشعر المصري وهي منقولة عن الأصل الهيروغليفي: أنت تبحر في سفينك العطري الخشب
يملأه الرجال من المقدمة إلى السكان
فتصل إلى مضيفتك العامرة هذه
التي ابتنيتها لنفسك
يملأ فمك النبيذ والخمير
والخبز واللحم والفطير
وتذبح الثيران وتفتح الأدنان
وتنشد الأغاني كلها أمامك
يضمخك كبير معطريك بالدهون الزكية
ويحمل إليك الأكاليل سقاتك
ويقدم إليك الطيور ناظر فلاحيك
كما يقدم إليك السمك صيادك
القوافي
وليس التشطير والمقطوعات وحدها هي ما تدل على شعرية النظم المصري وتميزه من النثر، لكن القوافي أيضا تدل عليه وتميزه. ولو أنها من نوع غير الذي نعرفه في شعرنا الحاضر في أية لغة من اللغات. فقد كانت قوافي الشعر المصري قوافي استفتاح يستهل بها الشاعر أبيات قصيدته ويكررها في مستهل كل مقطوعة كما ترى في القصيدة التالية المنقولة عن الهيروغليفية والمعروفة بقصيدة (جدل المتعب من حياته مع روحه):
شوف كم هو بغيض اسمي
شوف أكثر من رائحة الدود
في أيام الحر حين تكون السماء ساخنة
شوف كم هو بغيض اسمي
شوف أكثر من صيد السمك
في يوم الصيد حين تكون السماء ساخنة
شوف كم هو بغيض اسمي
شوف أكثر من رائحة الطير
أكثر من مستنقع فيه إوز
إلى آخر القصيدة الطويلة التي تبدأ دائما؛ (شوف كم هو بغيض اسمي)، وأنا إذ أعرب اللفظ المصري القديم إلى اللفظ الحديث الدارج (شوف) إنما أريد أن أعطي القارئ فكرة صحيحة عن معنى اللفظ الأصلي الذي يراد به أكثر من الرؤية بالعين، ومقصود به أن يلفت نظر القارئ أو السامع في تعجب لمبلغ التشبيه من نفسه ووقعه فيها. مما تحمله كلمة (شوف) الدارجة التي نستعملها في حديثنا الآن عندما نريد لفت النظر والحس إلى التعجب من أمر نهتم له.
الأوزان الشعرية
من النقائص الكبيرة في دراستنا لِلُغَةْ المصريين القدماء عدم معرفتنا معرفة أكيدة لنطق ألفاظها كما كانوا ينطقونها. وكل ما استطعنا أن نصل إليه في هذا النطق الذي احتفظت به اللغة القبطية لألفاظها وهي تأخذها من المصرية فتكتبها بحروف إغريقية وتخضعها حتما لاختلافات كثيرة متباينة يرجع بعضها لاختلاف نطق اللهجات المصرية بين صعيدي وبحيري وفيومي وأخميمي، والبعض لاختلاف نطق حروف الكتابة الإغريقية عن المصرية، والآخر لتدخل كثير من الكلمات الأجنبية في المصرية، وأخيرا لاضطرار الأقباط إلى نحت كثير من الألفاظ الجديدة مما يتفق مع تطور العمران وازدياد

مقتضيات الحياة واتساع أسبابها.
لهذا كله نعتمد في أوزان الشعر على ما لدينا من الشعر المصري المتأخر الذي كتب في عهد المسيحية وبقي لنا باللغة القبطية يعطينا صورة هي أقرب الصور إلى الأصل القديم من غيرها.
والثابت الآن من قواعد النحو والصرف في اللغة المصرية القديمة التي أصبحت راجحة التفسير في العصر الحاضر إن كل كلمة ذات معنى في اللغة اسما كانت أو فعلا أو صفة لم تكن تحتوي إلا على حرف متحرك واحد شديد الحركة، وإذن فكل شطرة من شطرات الشعر المصري تحتوي على وقفتين أو ثلاث أو أربع هي مواقع الحروف المتحركة الشديدة الحركة بينها وهدات متفاوتة الطول والقصر تكون الميزان الشعري للشطر، وتكون بهذا الوصف ميزانا شعريا مطلقا لم تصل بعد إلى ربط صنوفه وتبويبها.
واليك مقطوعة من الشعر المصري المتأخر بنصها القبطي مشار تحت مواضع الحركة الشديدة في شطراتها بخطوط قصيرة والى جانبها تعريبها ولم أجد خيراً منها مثلا لبيان أوزان الشعر المصري:
النص المصري (بالقبطية) التعريب
ارشان إرأومي بوك ابشمو رجل آخر يذهب للخارج
تفر اورومي شاف اكتوف ابف أييدور سنة ثم يعود إلى بيته
أ - أرخيليتس بوك اتانزيف لكن أرحيليتس ذهب للمدرسة
اس أوميشي انهوا بينآ وأبف هو فكم هي الأيام حتى انظر إلى وجهه
البديع
والشعر المصري يفيض بالبيان والبديع، وهو في كل أطواره وعهوده يدل على أن الشاعر المصري لم يكن يكتفي بالسطر الواحد في المقطوعة ليدل على معنى يريد أن يصوره في صورة بارزة جميلة فاكسب بتلك الفصاحة لغته ثوبا أنيقا رقيقا. صوّر دقة إحساسه بما كان يبديه من العبارات المتشابهة المعنى المختلفة الألفاظ البديعة الاختيار، التي يقتضي تخيرها نعومة في الذوق وعلو لا يتفق لكل الناس. فهو يقول حين يتحدث عن (تحوت)
(يستيقظ القاضي - يظهر تحوت)
والقاضي هو تحوت إله الحكمة ثم يقول عن الملك.
(وعندئذ تكلم أصحاب الملك وأجابوا أمام ربهم)
وربهم هو الملك لكن لكل من الجملتين معناها الخاص على رغم تشابه الغرض. ثم انظر كيف يصف واقعة في موضع آخر: (أولئك الذين يدخلون إلى هذا القبر. . . أولئك الذين يرون ما فيه)
هاتان الجملتان تبدوان للقارئ السطحي تكراراً، لكن القارئ الدقيق الإحساس يستطيع أن يتبين فيهما فرقا أراده الشاعر المصري القديم. هو يريد أن يأخذ يد الداخل إلى القبر فيضعها على ما في القبر من نقوش وتحف اكثر مما فيه من شيء آخر. أليس في هذا منتهى دقة الحس ونعومة التصوير؟
الجناس
وكما يشتهر المصريون في الوقت الحاضر بحبهم الشديد للجناس اللفظي الذي تفيض به الأغاني والأشعار الدارجة فان أجدادهم المصريين القدماء هم أصل التراث الفني البديع الذي يلذ للقارئ أن يطالعه وينعم بفكاهاته.
خذ مثلا الأغنية المصرية الدارجة:
يا دي الجمال والدلال والحب ونهاره
والشَّعر فوق الجبين كالليل ونهاره
والدمع فاض م الجفون كالبحر وانهاره
قلبي أسير في هواك ويحل انهاره؟
والكلمات الأخيرة في كل الأبيات متشابهة النطق لكنها تؤدي معاني مختلفة تمام الاختلاف.
مثل هذا الجناس كثير في الشعر المصري وجميل لكنه مستحيل الترجمة لأن اللعب فيه يدور على الألفاظ في علاقاتها بالمعاني، فإذا ما تغير اللفظ بترجمته فقد الجناس

بطبيعة الحال. ومع ذلك فسأحاول أن أنقل هنا بضعة شطرات من هذا الشعر الذي يحتوي الجناس وأنا أعربه عن المصرية بتصرف كبير لأوفق فيه ألفاظ الجناس وأقربها للفهم لا أكثر ولا أقل، هي قصيدة طويلة في وصف عربة الحرب قال فيها واصفها:

(عرفت رأسها كل البلاد وخر لها القواد)

ورأس العربة أي مقدمتها، وإذ دخلت في ركاب الملك كل البلاد فقد عرفتها، ولأنها مصنوعة على شكل رأس كبش رمزا لآمون إله هذا العصر فان القواد جميعهم خروا سجداً لهذا الرأس. ثم يقول:

(مقابض عربتك عنات وعشتر)

يريد بذلك من جهة مقابض العربة التي يمسكها الملك وهو يحارب فيها، من الجهة الأخرى

أن القابضين على زمام العربة هما إلها الحرب في الغربة.

ولا يستطيع القارئ مطلقا أن يتذوق جمال هذا الجناس إلا وهو يقرأ النص المصري القديم الذي يدل على مبلغ ما وصل إليه المصريون من الافتنان في الشعر والصنعة الشعرية ومبلغ حبهم للنكتة والتورية منذ أربعين قرنا مضت، ناطحتهم فيها شدائد توهن أصلب الأعواد ومع ذلك لم تذهب بروحهم الكبيرة ونفسهم المرحة مدى هذه القرون الطويلة.

نهضة الشعر العربي وموسم الشعر

رسالة من الدكتور أحمد زكي أبو شادي

سيدي محرر (الرسالة):

اسمح لي أن اشكر لكم عنايتكم بخدمة الشعر العربي. ولقد أتيح لي الاطلاع على فاتحة العدد الأخير من (الرسالة) إذ أشرتم إلى حالة الشعر العربي بعد شوقي وحافظ ثم تكلمتم عن فكرة موسم الشعر، وإني حباً في الإنصاف الأدبي وفي خدمة الحقيقة التاريخية أستأذنكم في التعليق على فاتحتكم بهذه السطور القليلة.

لقد أصبتم في إشارتكم إلى ضياع شعر الناسبات بعد شوقي وحافظ. وأما الشعر الفني الأصيل المتسامي بالنفس الإنسانية فقد ازداد تألقه، وإن الشعب الذي تُصقَل عواطفه بمثل هذا الشعر والذي يتجه به إلى مثل أعلى لن يكون الخاسر بفقدان شعر الحماسة الجوفاء والوطنية العمياء وأمداح المواسم المعهودة. . . إن أحسن ما في شوقي وحافظ حي دائم تضاف إليه الآن جهود الشباب الشاعر المثقف المتوثب. وقد أصبتم بقولكم: (إن الزمن الذي يمحص الأشياء فينفي البهرج الزائف ويثبت الحق الصريح هو الذي يعرف مكان هذه الجهود من عالم الفناء أو من عالم الخلود).

بدأ نشاط (جمعية أبولو) منذ تكوينها في حياة كل من شوقي وحافظ وبرنامجها هو لم يتبدل. وقد كان ولا يزال من المبادئ الأصلية للجمعية أن الشعر العربي لم يغنم فنياً من استخدامه في المناسبات السياسية وغيرها استخداماً لا ضوابط له. ويرجع للجمعية الفضل في وقف ابتذال الشعر في الصحف والقضاء على جعله مادة للتكسب الوضيع وفي الارتفاع بتعريف الشعر والتسامي بغاياته مع العمل على إبراز المجهول من الشعر العصري الجيد وإظهار الشعراء القادرين الخاملين وما هم بالقليلين.

ستصلكم هذه الكلمة وعدد (ابولو) المخصص لذكرى المرحوم حافظ. ومن دراستكم له وللعدد الذي خصصناه من قبل لذكرى المرحوم شوقي ستقتنعون أننا لسنا من يجحد جمال القديم، فللفن جماله كيفما كانت صبغته ونزعته، وفي الوقت عينه لسنا من يتجاهل روح العصر والتطور الذي بلغته الفنون الجميلة جميعها اتجاهاً وتعبيراً ونحن جدّ حريصين على أن ينال الشعر العربي نصيبه من كل هذا واثقين من حيويتنا الشاعرة الفسيحة الأفق.

إن الروح العالمية التي دعتنا إلى اختيار اسم (أبولو) لجمعيتنا ولمجلتنا هي نفس الروح التي نصت في دستور جمعيتنا على إقامة مهرجان سنوي وعلى تمثيل العالم العربي. ففكرة إقامة موسم سنوي للشعر هي فكرة أصلية لجمعيتنا وغير صحيح نسبتها إلى أي هيئة أو فرد آخر، ولم يدر بخلد صديقنا الهراوي سوى استغلال الموسم النبوي للشعر الديني، ويرجع لأعضاء جمعيتنا الذين لبُّوا الدعوة إلى اجتماعه الأول الفضل في التخلي عن هذه الفكرة والدعوة إلى إقامة موسم سنوي للشعر الخالص، وكل هذا ثابت لا شك فيه.

لم تغضب جمعية (أبولو) إلا عندما رأت استغلال مبادئها وبرنامجها بأسماء أخرى، واقتران ذلك بدعايات ضدها، فان صديقنا الهراوي وصحبه من المحافظين ما كتموا يوماً خصومتهم لجمعية أبولو فقد كانوا وما يزالون وسيبقون دائماً خصوماً لها، لأن الجمعية ذات روح تعاونية قوية وتأبى إباءً فكرة الإمارات والوزارات الشعرية وعبادة الأفراد وتعمل بالروح التي أطراها شوقي في قوله:

لعلّ مواهباً خفيت وضاعت ... تُذاع على يديك وتُسْتَغَلُ

بينما أصدقاؤنا الأعزاء يحلمون دائماً بالمجد الشخصي على غير ابتكار رائع يؤهلهم إلى شئ من هذا الحلم.

كذلك يرجع إلى (جمعية أبولو) الفضل في تقدير رعاية وزارة المعارف وفي ضم الصفوف وترك الحزبية والمعاونة على تكوين (جماعة موسم الشعر) التي نالت (جمعية أبولو) أغلبية الكراسي في إدارتها وبعد الاعتراف بمنزلة وجهود (جمعية أبولو) ودعوتها إلى مناصرة موسم الشعر بكل قواها لم يبق هناك خلاف في هذه المسألة وإن بقيت الذكرى واليقين بأن هذا لن يكون آخر خلاف بيننا وبين إخواننا المحافظين، وأنهم لن يتورعوا عن استغلال آراء الجمعية في أي وقت مع الطعن فيها.

وتفضلوا بقبول إعجابي وولائي.

تجديد التقليد

بهذا العنوان نشرت مجلة المغرب التي تصدر بالرباط هذا المقال فأحببنا أن يطلع (أدباؤنا عليه)

في مصر اليوم جماعة من حاملي الأقلام بلغ بها حب التجديد إلى حد أنها رأت التقليد الذي يرسف في أغلاله كتاب العربية وشعرائها قد بلي وقدم، وأنه في حاجة ماسة إلى التجديد فراحت تسود أوراق الصحف والمجلات بالنهي عن تقليد العرب وأسلوب العرب، وتفكير العرب، وكل ما هو من العرب. . . لا لتضع في محله شيئاً جديداً مبتكراً، ولكن لتحاكي الغرب وأسلوب الغرب وتفكير الغرب! وكل ما جاء عن الغرب وإن لم تشعر بذلك، أليس هذا تجديدا. . . للتقليد؟ أو ليست هي جماعة المجددين؟ وعدم فهمكم لها جعلكم ترمونها بعدم القدرة على التفكير بالعربية وأساليبها الضادية؛ وكيف تكون غير قادرة على هذا وهي التي تعلمت في أوروبا وقضت شهوراً وأعواماً في (حي مونبارناس) والحي (اللاتيني). . . وهلم جرا. لا ليس هذا (عجزاً يتظاهر بالقدرة وجهلا يتستر بالتحذلق) كما زعم الزيات بل سيل التجديد طغى حتى على التقليد وأراد تجديده.

أتدري ماذا تنكر هذه الجماعة على العربية؟ تنكر عليها أنها خالية من القصة والرواية ومن (التراجديا والكوميديا والميتولوجيا) وأن أدبها ليس منقسما مثل الأدب الغربي إلى (كلاسيكي ورومانتيكي) وأن شعرها ليس منقسما إلى (أبيك وليريك) وأن جن شعرائها لم يتأله ولم يتخذ (أبولو): ذلك الاسم العالمي اسما له، وأن التاريخ العربي الإسلامي ليس منقسما كالتاريخ الغربي إلى: (العاديات والقرون الوسطى وعصر النهضة والعصر الحديث والعصر الحاضر)

وصفوة القول أن ذنب العربية هو عدم مجيئها على النمط الغربي، وقد تكون جديرة بأن تقلدها جماعة المجددين المصريين لو أنها احتوت على مثل تلك الأقسام، وأخشى مع هذا أن لو كان مثل ذلك للعربية دون الغرب لألفته قديما بالياً ويكون مع ذلك الحق معها؛ لأنها ليست جماعة المبتكرين بل جماعة المجددين، وكل ما يهمها هو التجديد لا الابتكار. ولو كان يهمها هذا لأخرجت لنا عوض هذا التقليد المشوه والصخب الفارغ والكلام الأجوف إنتاجا فكريا صحيحاً، ولست أنكر أنها جاءتنا (بمعجزات) فنية جديدة كل ما فيها غربي إلا بعض ألفاظ وحروف عربية.

وهنا ضرب الكاتب المثل برسالة الأستاذ توفيق الحكيم إلى الدكتور طه حسين، ثم لخص بعض رأي الأستاذ وعقب عليه بقوله: هذا رأي الكاتب، أما رأيي أنا فهو أن مصر القديمة لولا تلقحها بعناصر أجنبية لما كان لها أدب وفكر؛ والتاريخ بالباب وهو أصدق مرشد وأعظم برهان، فلولا الإغريق لما كانت مدرسة الإسكندرية الفلسفية، ولولا العرب لما كان لمصر أدب أو فكر حديث يذكر ولا ذكرت مصر في تاريخ العالم إلا بفنها وهندستها الدينية؛ والحقيقة أن تلك الجماعة إنما تريد إبدال المقلد: إبدال العرب بالغرب؛ وقد بلغ تطرف صاحب مقال (الرسالة) إلى حد أنه رمى الكاتب الوحيد الذي

ابتكر جديداً في العربية ولم يحاك أحداً بالتقليد. وكتاب المويلحي (حديث عيسى بن هشام) لا يزال قريب العهد، وما يعنيني الأسلوب إذا كان الكتاب غربيا مبتكراً؟ ولم تنتج مصر بعده جديداً سوى (الأيام) لطه حسين. ومنذ سنوات كانت جماعة المجددين المصريين تبرق وترعد بمحاسن المدنية الغربية وأفضليتها وسوء الحضارة الشرقية. ولما أراد الله رفع الستار عن مساوئ الأولى وظهر إفلاسها بعد الحرب فبرز كتاب أوروبيون عظام للتنديد بها وتفضيل الحضارة الشرقية في عدة نواح وخصوصا الروحية منها، أخذت هذه الجماعة نفسها تمجدها تقليداً لهؤلاء لا عن عقيدة، وهذا حد التقليد! إني لا أنكر على هؤلاء الكتاب حملتهم على التقليد وإنما أنكر عليهم أولا سعيهم في إبدال المقلد بدون كبير فائدة. وثانيا أنهم بدلا من أن يشتغلوا في ابتكار جديد والعمل على الإنتاج الصحيح يضيعون وقتهم في الصخب. أما خلق أدب مصري قومي فهو (مودة) بالية قديمة بالنسبة لمن يتخذ لقب مجدد؛ على أن الأدب الجميل جميل في كل محل وتحت كل شمس وقمر و (ألف ليلة وليلة) حجة لذلك. وأما أن يكون عدم وجود الرواية والقصة سبب فقر أدبنا العربي فهذا غلط، فلربما جاء فكر عربي عند نضوجه بشيء أفضل من القصة والرواية، شيء يلائم طباعنا وأدبنا؛ وإن كان لا بد منهما فسيجيئان في وقتهما حسبما تنضج وتختمر الفكرة في عقول أبناء العربية، ولا يكفي قولنا لهما كونا فيكونان لأن النبوغ يتدفق من تلقاء نفسه ولا يستخرج، وكذلك تقسيم الأدب العربي على النمط الغربي؛ وله تقسيمه الذي لا يحتاج إلا إلى إصلاح وضبط. ويكفي مثلاً لفساد تطبيق أقسام التاريخ الأوربي على التاريخ العربي الإسلامي، أني كنت أقرأ كتابا عن تاريخ الإسلام والعرب لكاتب مجدد جرى فيه على الأسلوب الغربي في التقسيم، جاء فيه: (. . . وقد كان آباؤنا يتخبطون في بحر الجهل والتعصب طيلة القرون الوسطى. . .) والكل يعلم أن القرون الوسطى في التاريخ العربي هي أزهى المدنية الإسلامية العربية.

وأرجو لمصر أن تخرج من هذا المخاض بخير وعافية بفضل ما بقي صالحا سالما من أبنائها الكرام، وأن يسفر هذا المخاض عن إنتاج صحيح مبتكر؛ وألا تكتفي جماعة المجددين بإبدال المقلد فحسب.

محمد حصّار

العبقرية علم وأدب وفن

للأستاذ الحوماني

أمامك ما تحسبه في الطبيعة كائنا ومكيناً من عظمة وقفت عقولنا دون حدها أو تصورها، فكنا أمامها ولا نزال حائرين لا إلى الرشد كل الرشد فنتبين مصدرها، ولا إلى الجهل كل الجهل فنصدف عنها بطبعنا. لأن الحي لا يستطيع أن يفكر فيما وراء حياته. فهو يريد أن يقيس ما خفي عنه على ما بدا له، ولعل ما يبدو له هو خلاف الحقيقة التي ينشدها من وراء ما يحس إذ يمكن أن يكون ما يتراءى له اليوم حقيقة ينكشف عنه الغد خيالا، نتيجة كذب في حس أو خطأ في فكر.

وربما كان ما يأتيه العقل في يقظته وهو قيد الحواس حلماً يبدو له بعد تحرره من رق هذه الحياة الدنيا، فتكون نسبة ما نأتيه اليوم إلى ما ندركه بعد الموت كنسبة ما نأتيه في الحلم إلى ما ندركه في اليقظة.

فإذا ثبت لدينا أن في الأثر لا محالة جزءاً من روح المؤثر ثبت بداهة إن هذه النفس جزءا من القوة المسيطرة على الكون أو القائمة به ضرورة، إنها (أي النفس) إحدى جزئياته الداخلة في مفهوم كلياته.

فالإرادة كما يبدو لنا هي أول خصائص النفس وقد كانت الكنز الأولى في خزانتها ولكن هل هي الجزء الذي ينم على الفكرة التي ابتدعتها في الكون؟

قد تكون كذلك إذا ثبت لنا أنها هي جماع ما في النفس من جمال، ولكن أنّى لها أن تكون كذلك وليست هي المثل الأعلى في الإنسان بله الحيوان بداهة أن مناطها في النفس حب البقاء والسيادة والاستمتاع؟ فالمرء يريد بطبعه ألا يتناول من الخارج إلا ما يتصل ببقائه وسيطرته واستمتاعه.

فإذا كان ذلك مناطها ورأينا أن الصلاح كثيرا ما يكون في كتبتها وصدها عما تأتيه، علمنا إذ ذاك أن المثل الأعلى في النفس الذي يشير إلى حكمة الصانع الاول هو غير الإرادة.

ثم إذا استعرضنا ما تأتيه هذه الإرادة من عمل بعد تنفيذه أو في طريق هذا التنفيذ،

نحس بشيء يشعرنا بصحة هذا العمل أو فساده. فما هو أذن ذلك الشيء الذي نشعر به في أنفسنا غير الإرادة؟
هل هو ذاتها، فيصبح كون الشيء ضداً لنفسه أم غيرها فيثبت لدينا أن الحي مركب من إرادة تفعل، ونفس تفعل، وتنفعل وشيء آخر يشرف عليهما فيكوّن من الفعل والانفعال مثلا أعلى هو ذلك الجزء المنبعث من الحكمة المبدعة الأولى؟
ثم على فرض وجود هذا الثالث، فهل وجد مع النفس كالإرادة ثم نمّاه فعل الإرادة في الخارج إلى حد أصبح معه ذا سلطة عليها في كثير من الأحيان؟ أم هل تكون في النفس من تصادم الإرادات ضرورة بقاء المجموع ليضمن بقاء الفرد فيكون وجوده متأخرا؟
وهذا إنما يتضح في إجماع العقول الناضجة مثلا على استحسان أمر له علاقة في بقاء المجموع واستقباح أمر آخر يتعلق بفساد المجتمع فيربِّي هذا الإجماع المستمر في النفوس ملكة كبت الإرادات والمحاكمة بينها فتكون هذه الملكة أم هذا الموجود الثالث الذي نسميه فكراً تارة ومعقولا تارة أخرى، إن صح تعاقب هذين اللفظين على معنى واحد كما سيمر بك.
وعلى كلا الأمرين فأنا نشعر أن في ذواتنا نفوسا تتدافع وتتصادم في الحياة فتحرك هذه القوالب بأمر من الإرادة أو تتحرك هي بإرادة أخرى تتصادم وإرادتها، ذاتية كانت أو عرضية.
ثم نشعر إن ضمن هذه النفوس إرادات تسيِّرها إلى ما خلقت له طبعا، فهي تريدك على الطعام والشراب والمتعة ضرورة أن هذه من مقومات حياتك.
ونشعر بعد ذلك أن هنالك ما يستعرض هذه الأوامر الإرادية ثم يعرضها على الحياة فيصل بها إما إلى صلاح فيستمر معها وأما إلى فساد فيصدها. ذلك هو الفكر قبل الحكم وهو يستعرض ويقيس، وهو نفسه العقل والهوى بعد الحكم متسلطاً على الإرادة أو خاضعاً لها.
ومن الصعب جدا تحديد أي الثلاثة في طريق تحديد الآخر منها لشدة تمازجها والصلات المتأصلة بينها.
وربما كان أصدق تأويل لها هو أن النفس إنما هي الوسيلة الأولى لتنفيذ أوامر الإرادة والأعضاء هي الوسيلة الثانية. على أن العقل هو الحاكم الأعلى المشرف على المجموع، ينتهي الحكم عنده سلبا أو إيجابا. فالإرادة في الطبع تأمر والعقل يوقع والنفس تنفذ مباشرة، في الداخل أو بواسطة الأعضاء في الخارج. والنفس تنفرد دونهما في النوم والجنون
والإغماء ونحوها، إذا صح أن لا إرادة للمجنون بناء على إن الإرادة مناط أمر النفس بما يعوزها طبعا لا اجتماعا، والمجنون قد يفعل ما يضره في الطبع بله الاجتماع. فالإرادة لا تحمل الحي إنساناً كان أو حيواناً على أن يلقي بنفسه من شاهق كما يفعله المجنون أحيانا، من اجل ذلك تتحقق فيه النفس دون الإرادة والعقل.
وهكذا هي في النائم دونهما إذا صح أن العقل الباطن الذي هو زعيم الأحلام ليس إلا خيال العقل الظاهر الذي هو زعيم اليقظة وحقائقها كما اعتقد، لا أنه حقيقة مستقلة تتكون من تجاريب العقل الظاهر التي أخفق معها في حاضره أو ماضيه. ولكن العقل اليقظ المتخيل الذي ينتزع من الحقائق خيالا غريبا ينطبع خياله هذا في مرآة النفس فيفعل فعله منتزعا من أخيلة الحقائق في اليقظة أخيلة غريبة في النوم: وإذا لم يكن العقل الباطن هو نفس العقل الظاهر يبدو ضعيفا لضعف مركزه العصبي المتأثر بالنوم إلى حد يختل معه نظامه، فيكون تناهي العقل بالحدة إلى درجة التخيل المبتدع. وتناهيه بالضعف إلى درجة خرافات الأحلام. وكلاهما ينتزع من بين حقيقتين أو حقائق خيالا مزعجا في الحلم أو رائعا في اليقظة، وكما يصيب في يقظته المغيبات أحيانا كذلك هو في حلمه. . . إذا لم يكن كذلك فهو خياله المنطبع على مرآة النفس يتضاءل لبعده عن الحقيقة فيظهر مبتراً منقطعا.
وأما الإرادة والعقل فملزومان للنفس لا انفراد لهما دونها، فحيثما وجدت الإرادة والعقل كانت النفس ولا عكس.
ماذا وراء النفس بعد الإرادة؟؟
يقولون أن هنالك عقلا وفكراً وخاطراً وضميراً، ان هنالك ذهنا وفطنة وذاكرة وذكاء، إن

هنالك شعورا وعاطفة وخيالا. وليست العبرة في تعداد هذه الخصائص في الإنسان ولا في نسبتها إليه وإنما العبرة في تحديد كل منها وبيان ما يميزها من غيرها من الخلال ولغموض هذه الفروق نرى الكثيرين يخلطون في الكلام عليها، من أجل ذلك يجمل بنا قبل تحديدها إن نتمثل فيما يعرضها واضحة الحدود.

لنفرض أن لك صديقا حميما قد كثر غشيانك إياه في منزله الذي يضمه وأجمل فتاة قد اقترن بها، وفي كل زيارة ينمو في جسمك حب هذه الفتاة، لما ترسل إليك من نظراتها الساحرة ويملأ نفسك من ورائها جمال نفس يفيض على فمها رقة وابتساما، والى جانب هذا

الحب تنمو في نفسك صداقة الزوج لما يغمرك به من فضل وإحسان إلى رقة طبع ودماثة خلق وليس ما تربي في نفسك من ولاء أخيك وحب فتاته بأقل مما يحمل الزوج لك من ولاء. وتشعر به الزوجة نحوك من غرام.

تبادلتما هذا الحب وبدا لك جليا واضحا هيامها بك وشوقها لك من عينيها الشاخصتين إليك ونظرها المسبغ عليك، ثم بدا لك أن تزور صديقك في وقت كنت مضطراً معه إلى أن تراه، وكان هو مضطراً فيه إلى ان يغادر مكانه، فكنت والزوجة خليين في منزل واحد وعلى مقعد واحد يناجي كل منكما الآخر بما يجول في نفسه، فيبدو جليا على عينه رقة وفي حديثه تقطعا وفي حركاته اضطرابا. ثم امتد الأمر بكا إلى أن هم كلاكما بصاحبه فكانت هي أشد ثورة منك، فأول ما تتحرك فيك الإرادة والرغبة؛ ولكنك قبل أن تنفذها أو تباشر بتنفيذها تلحظ ما يحف بهذا العمل الذي أقدمت عليه بدافع قوة الإرادة الحيوية، تلحظ ما يحف بهذا العمل (وهو إشباع نفسك من جمالها) من أمور خارجية منها ما يدفعك إليه ومنها ما يردعك عنه. فمن الاول التمتع بالجمال الماثل أمامك والذي هو في متناول يدك، ثم أمان العاقبة وشيوع الأمر المفضي بك إلى العار ثم إشباع نفسها من جمالك لتأمن مكرها فيما إذا هي أخفقت منك.

ومن الثاني خيانة صديقك البار بك والتعدي على جمال ليس لك فيه حق، وتشويه هذا الجمال بما تخفيه من دخيل داء.

لابد من ملاحظتك هذه الأمور واستعراضها جملة أو متفرقة في زمن واحد أو أزمنة مختلفة تتخللها فترات قصيرة. فأي العوامل كان أقوى أثرا في نفسك لقوته في الخارج كانت له السيطرة عليك داخليا فكان قائدا لك.

فأما أن يكون الاول فيجذبك إليها وتلبث زمنا ما تعبث بجمالها والشهوات تقيمك وتقعدك بين يديها. وأما أن يكون الثاني فيصدك عنها وتخرج ناصع الجبين مطمئنا إلى راحة الوجدان.

تجري هذه المحاكمة بناءاً على سلامته بذلك واستقامة نظام الحياة فيك وإلا فلضعف الأعصاب. وهي بعض مراكز هذه الخصائص تأثير قوي في صرف الإرادة وتعضيدها.

وأخفق مشروع الخلافة في فتح الغرب من تلك الناحية ولقي الإسلام هزيمته الحاسمة في المشرق أمام سور بيزطية وقامت الدولة الشرقية في وجه الإسلام حصنا منيعا يحمي النصرانية من غزوه وسلطانه. ولكن جيوش الإسلام جازت إلى الغرب من طريق إسبانيا وأشرفت من هضاب البرنية على باقي أمم أوروبا النصرانية ولولا تردد الخلافة وخلاف الزعماء لاستطاع موسى ابن نصير أن ينفذ مشروعه في اختراق أوربا من المشرق إلى المغرب والوصول إلى دار الخلافة بطريق قسطنطينية ولكان من المرجح أن تلقى النصرانية ضربتها القاضية يومئذ وأن يسود السلام أمم الشمال كما ساد أمم الجنوب ولكن الفكرة قبرت في مهدها لتوجس الخلافة وترددها.

على أن الفتوح التي قام بها ولاة الأندلس بعد ذلك في جنوب فرنسا كانت طورا آخر من أطوار ذلك الصراع بين الإسلام والنصرانية، فقد كانت مملكة الفرنج أعظم ممالك الغرب والشمال يومئذ، وكانت تقوم في الغرب بحماية النصرانية على نحو ما كانت الدولة الرومانية في الشرق بل كانت مهمتها في هذه الحماية أشق وأصعب، إذ بينما كان الإسلام يهدد النصرانية من الجنوب كانت القبائل الوثنية الجرمانية تهددها من الشمال والشرق؛ وكانت الغزوات الإسلامية تقف في المبدأ عند سبتمانيا ومدنها؛

ولكنها امتدت منذ ولاية السمح إلى اكوتين وضفاف الجارون، ثم امتدت إلى شمال الرون وولاية بورجونيا وشملت نصف فرنسا الجنوبي كله، وبهذا بدا الخطر الإسلامي على مصير الفرنج والنصرانية قويا ساطعا؛ وبدت طوالع ذلك الصراع الحاسم الذي يجب أن يتأهب لخوضه الفرنج والنصرانية كلها.

كانت المعركة في سهول فرنسا أذن بين الإسلام والنصرانية. بيد أنها كانت من الجانب الآخر بين غزاة الدولة الرومانية والمتنافسين في اجتثاء تراثها؛. كانت بين العرب الذين اجتاحوا أملاك الدولة الرومانية في المشرق والجنوب؛ وبين الفرنج الذين حلوا في ألمانيا وغاليس. والفرنج هم شعبة من أولئك البربر الذين غزوا رومة وتقاسموا تراثها من

فكان ذلك اللقاء بين العرب والفرنج في سهول .(واندال وقوط والان وشوابيين) فرنسا اكثر من نزاع محلي على غزو مدينة أو ولاية بعينها: كان هذا النزاع في الواقع أبعد ما يكون مدى وأثراً. إذ كان محوره تراث الدولة الرومانية العريض الشاسع؛ الذي فاز العرب منه بأكبر غنم ثم أرادوا أن ينتزعوا ما بقي منه بأيدي منافسيهم غزاة الدولة الرومانية من الشمال.

وكانت هذه السهول الشمالية التي قدر لها أن تشهد موقعة الفصل بين غزاة الدولة الرومانية تضم مجتمعا متنافرا لم تستقر بعد قواعده ونظمه على أسس متينة. ذلك أن القبائل الجرمانية التي عبرت الرين وقضت على سلطان روما في الأراضي المفتوحة كانت مزيجا مضطربا من الغزاة الظمأى إلى تراث روما من الثروة والنعماء.

وكان القوط قد احتاجوا شمال إيطاليا منذ القرن الخامس وحلوا في جنوب غاليس وإسبانيا؛ ولكن هذه الممالك البربرية لم تكن تحمل عناصر البقاء والاستقرار فلم يمض زهاء قرن آخر حتى غزا الفرنج فرنسا وانتزعوا نصفها الشمالي من يد حاكمه الروماني المستقل بأمره وانتزعوا نصفها الجنوبي من القوط وحلت في غاليس سلطة جديدة ومجتمع جديد. وكان الغزاة في كل مرة يقيمون ملكهم على القوة وحدها ويقتسمون السلطة في نوع من الاقطاع، فلا يمضي وقت طويل حتى تقوم في القطر المفتوح عدة إمارات محلية. ولم يعن الغزاة بإقامة مجتمع متماسك ذي نظم سياسية واجتماعية ثابتة ولم يعنوا بالأخص أن يندمجوا برعاياهم الجدد، فكان سكان البلاد المفتوحة من الرومان والغليين الذين لبثوا قرونا يخضعون لسلطان رومة ما تزال تسود فيهم لغة رومة وحضارتها. ولكن القبائل الجرمانية الغازية كانت تستأثر بالحكم والرياسة وتكون وحدها مجتمعا منعزلا لبثت تسوده الخشونة والبداوة أحقابا قبل أن يتأثر بمدنية رومة وتراثها الفكري والاجتماعي. وكان اعتناق الفرنج للنصرانية منذ عصر كلوفيس أكبر عامل في تطور هذه القبائل وتهذيب عقليتها الوثنية وتقاليدها الوحشية. ثم كان استقرارها بعد حين في الأرض المفتوحة؛ وتوطد سلطانها وتمتعها بالنعماء والثراء بعد طول المغامرة والتجول وشظف العيش وحرصها على حياة الدعة والرخاء، عوامل قوية في انحلال عصبيتها الحيوية وفتور شغفها بالغزو واذكاء رغبتها في الاستعمار والبقاء. وهكذا كانت القبائل الجرمانية التي عبرت الرين تحت لواء الفرنج واستقرت في غالا قد تطورت في أوائل القرن الثامن إلى مجتمع مستقر متماسك نوعا. ولم تكن غاليس قد استحالت عندئذ إلى فرنسا ولكن جذور فرنسا المستقبلة كانت قد وضعت وهيأت الأسباب والعوامل لنشوء الامة الفرنسية. بيد أن هذا المجتمع رغم تمتعه بنوع من الاستقرار والتماسك كان وقت أن نفذ العرب الى فرنسا فريسة الانحلال والتفكك، وكان الخلاف يمزقه كما بينا وكانت اكوتين وباقي فرنسا الجنوبية في يد جماعة من الأمراء والزعماء المحليين الذين انتهزوا ضعف السلطة المركزية فاستقلوا بما في أيديهم من الأقاليم والمدن. ثم كانت القبائل الجرمانية الوثنية فيما وراء الرين من جهة أخرى تحاول اقتحام النهر من آن لآخر وتهدد بالقضاء على مملكة الفرنج. فكان الفرنج يشغلون برد هذه المحاولات ويقتحمون النهر بين أونة وأخرى لدرء هذا الخطر ولإرغام القبائل الوثنية على اعتناق النصرانية. فكانت المسألة الدينية أيضا عاملا قويا في هذا النضال الذي يضطرم بين قبائل وعشائر تجمعها صلة الجنس والنسب. ولم ينقذ مملكة الفرنج من ذلك الخطر سوى خلاف القبائل الوثنية وتنافسها وتفرق كلمتها.

هكذا كانت مملكة الفرنج والمجتمع الفرنجي في أوائل القرن الثامن أعني حينما نفذ

تيار الفتح الإسلامي من أسبانيا الى جنوب فرنسا. وكان قد قضى منذ وفاة النبي العربي الى عهد هذا اللقاء الحاسم بين الإسلام والنصرانية (سنة 732م) مائة عام فقط، ولكن العرب كانوا خلال القرن قد افتتحوا جميع الأمم الواقعة بين السند شرقا والمحيط غربا واكتسحوا العالم القديم في وابل مدهش من الظفر الباهر، واستولوا على جميع أقطار الدولة الرومانية الجنوبية من الشام الى أقاصي المغرب وأسبانيا، وعبروا البرنيه الى أواسط فرنسا. هذا بينما أنفقت القبائل الجرمانية الشمالية أكثر من ثلاثة قرون في افتتاح أقطار الدولة الشمالية ومحاولة الاستقرار فيها.

في الأدب العربي

من طرائف الشعر

مداعبات شوقية لم تنشر

ظفرنا بثلاث قصائد من الشعر الفكه لشاعر الخلود شوقي بك نظمها ولم يتمها (في الدكتور محجوب ثابت ومكسويني). ومكسويني هذا كان حصانا بائسا يجر مركبة الدكتور ولا يزور الإسطبل إلا لماما، فألح عليه اللغب والسغب حتى لصب جلده ووهن جلده فمات، وكان في حياته وموته موضوعا طريفا لكثير من الشوقيات الغر؛ نشر بعضها ولا يزال البعض الآخر مطويا. وسنكتفي اليوم بهذه القصيدة التي قالها الشاعر على لسان خلفه بعد موته. وكان الدكتور محجوب يومئذ معتقلا في قصر النيل عقب الثورة مدة الخلاف بين الزعيمين سعد وعدلي.

سيوفُ أبيه من خمسين عاما ... لواصق بالجدار بغير سلِّ
علاها العنكبوت فكان غمدا ... على غمد قديم العهد خلّ
ولى كالخيل اصطبل ولكن ... أفارقه وأترك فيه طلى
سلوا (بار اللواء) و (صُلْتَ) عني ... ومصطبة السرى الشيخ الأجل
من المَرشال أطلب رد روحي ... وعودة فارسي وفكاك خلي
وأنذر أن تفضل صوم عام ... ومثلي من يصوم ومن يصلي
والا مُتّ دون الحق جوعاً ... كذلك مكسويني مات قبلي
ويا كمبوت فيمَ كسرت قلبي ... وأمس الحادثاتُ كسرن رجلي
وما الدكتور مجنون بسعد ... ولاَ هو بالمحلل شتم عدلي
ولكن قبلة الدكتور مصرٌ ... وسودان يراه لها كظل
بقصر النيل بات وكل سجن ... وإن كان الخورنقَ لا يُسلي
أقضي الليل حول السجن شوقاً ... للحيته أناجيها: أطِلِّي
تشير من النوافذ لي وتومي ... كغانية هنالك ذات دلِّ
ولولا الديدبان دنوت منها ... وكنت أنا الممشط والمفلي

نجوى

لشاعر الشباب السوري أنور العطار

أقول لنفسي في هذه الساعة وفي هذا المكان: كنت ذات يوم محبوبا. ولقد أحببتها ولقد كانت جميلة. ثم خبأت هذا الكنز في نفسي الخالدة. ورفعته الى الله!. . . (الفريد دي موسيه)

إليكِ أبعثُ أحلاماً مُروعةً ... منزوعةً من فؤادٍ جِدّ محروبِ
ما تستنيمُ الى صمتٍ فيغمرُها ... لكنها أختُ تسهيدٍ وتعذيبِ
تظلُ تُقلِقُ هذا القلبَ صارخةً ... حتى تلِمُّ بطيفٍ منك محبوبِ
كباغمٍ موجعٍ أفضى الهزالُ بهِ ... الى مرامٍ عسير الدركِ محجوبِ
إنَّ عللوَّهُ بما ينسيه مطلبهُ ... أوحى الخيال إليه ألف مطلوبِ
يصوِّرُ الدمعُ ما يعيا اللسانُ به ... ومدْمعُ الطفلِ موشيُّ الأساليبِ
لهفي عليه تُمنيه الرؤى عبثاً ... كأنه لُعبة بين الألاعيبِ
أقصيتني عنك لا عهدٌ ولا أملٌ ... سوى عذابٍ على الأيام مصحوبِ
وعشتُ بعدكِ مخطوفَ الفؤادِ هوى ... مغرَّباً في دياري أيَّ تغريبِ
خيبتني فطويت العمر مكتئباً ... ما كان أوجعَ حرماني وتخييبي
خلفت نفسي آمالا مصرعةً ... ما في قرارتها غيرُ الأكاذيب
ترى السماوات تابوتاً قد انسدلت ... على جوانبه سودُ الجلابيب
من الهوى أن يعود العمر طافحةً ... أيامهُ بصبّي كالحلمِ موهوبِ

يبني منَ الشفقِ الرفاف زورقُه ... ويستحيل الى أُنسٍ وتحبيبِ
هذي الأماني أضنتني مآربها ... يا ويحها كم أداريها وتلهو بي!
منحتها خافقا نهلانَ من أملٍ ... يهزُّ بالشدو أرواحَ المطاريب
فما جزتني على ودي بعارفةٍ ... تبقى ضماداً لجرحٍ غير مرؤوبِ
الكون بعدك أنقاضٌ مبعثرةٌ ... كمعبدٍ من عراكِ الدهر مخروبِ
ترى به مقلتي المسلوبُ رونقها ... دار الحريب ومأوى كلِّ منكوب
مشت عليه الليالي وهي هازئةٌ ... نكراء تقرع مشعوباً بمشعوبِ
لا دُمْيتي بت أرعاها وأعبدُها ... كناسكٍ ذاب في جوفِ المحاريب
ولا دُعائي أدَّت بي معارجُهُ ... الى مطافٍ شهي الحُلمِ مرغوب
وأين لا أين مني همس فاتنة ... أفنيتُ في حسنها حبّي وتشبيبي
غابت فولت عن الدنيا بشاشتها ... فلست ألمحُ فيها غير تقطيب
وقد بدا العيش خلواً من مفارحه ... مجللًا بشجاً كالليلِ غِربيبِ
والحقل بعدك تؤذيني زيارتُه ... فانثني عنه والترداد يغري بي
لا أستطيع أجيل الطرفَ مفتقداً ... آثار حُبٍّ كدمع الفجرِ منهوبِ
مافي خمائله حسنٌ ولا القٌ ... ولا أزاهره تخضلُّ بالطيب
إذا خيالكِ لم يبهجه مؤتلقاً ... فالحقل في ماحلٍ كالقفر مجدوب
غشيته وفؤادي ما يُفيق جوى ... ما كان أجدرني عنه بتنكيب!
هنا تذوقتُ سِرّ الحب مغتبطاً ... من غير ما مأثمٍ فيه وتتريب
هنا من الحب سِفرٌ رائع عجب ... قد ضم أقدس تذكاري وتجريبي
هنا شبابي مد الله سرحته ... رَبا وما فيه من وزرٍ ولا حُوب
هنا الهوى كان طفلا في محفته ... وكان أمتعَ مولودٍ ومربوب
لما حبا هلل الوادي له فرحاً ... وقد تقلب فيه أي تقليب
فرشتُ بالزهر المنضور ملعَبه ... فرفّ يزهو بتنضيدٍ وترتيب
وحينما سَعِدَ الوادي بمطلعِه ... رمى به الموت في هُلكٍ وتتبيب
وراعني أن أرى الأطيار ساكتةً ... خرساء من غير ترنيم وتطريب
لا النهر يُوحي إليها ناغماً هزِجاً ... سكرانَ يركض في اثناء مَلحوب
ولا النسائم تذكي في جوانحها ... أشعار قلب من الأوجاع مكروب
تكاد إن أخذت عيني خيالتها ... تردها بين تصديقٍ وتكذيب
لم يبق من أُنسها الحالي سوى أثر ... من إسمك العذب فوق الجذْع مكتوب
خَشعتُ بالقرب منه ذاهلا حسراً ... كهيكل في شعاب الأرض منصوبِ
قدسته فمشى ثَغرِي يقبله ... ومدمعي بين محبوسٍ ومسكوب
تقتات نفسي بالذكرى ويؤنسها ... خيالكِ الحلوِ في صَحوي وتغييبي
وقد أراك فينسى القلب لاعِجَه ... ولا يطيف بيأسٍ منكِ محلوب
تبارك الحلم الرّقَّاف كم غلبتْ ... غيابة منه حزناً غير مغلوب
حججت بيتكِ في وهمي فما سَعِدتْ ... روحي بود نقي النبْع مصبوب
كأنما نسي الحسن الذي طَفَحَتْ ... منه السماوات إدلاجي وتأويبي
فتّشت في ساحة عن ظل موحية ... غيداَء غطت على سحر الرعابيب
ناديتها باسمِها فارتَعت مرتجفاً ... من موحش دائب الإنصات مَرهوبِ
فما رأيت لها ظلا ولا أثراً ... وملت الدَّار من بحثي وتنقيبي
خَلتْ مقاعد كانت أمسِ مونقةً ... فغامت اليومَ من نَسجِ العناكيبِ
أحسُّ منه صدى صوت أقدسه ... أسرى الى الخلدِ من وخد وتقريب
كأن بالأذنِ من نجواه وشوشةً ... تبكي على أمل في الغيب مغصوبِ
مشى مع النور لا تثنى عزيمته ... عجْلان يدفع ألهُوباً بألهوبِ
يلوح في الفلك الفضي متشحاً ... بلامع من شعاعِ الخلدِ مصبوبِ
ما زال يطوي الفضاء الرحب مختفياً ... كتائه في فجاج الغيبِ مَحزوبِ
حتى ترامى على عرش الالهِ أسىً ... وذاب في لاهب بالحب مشبوبِ
مجمرة الأفق
لله عند المغيب موقفنا ... وللهوى عندنا تباريحُ //
نرتقب الليل فوق رابية ... يعبق منها العَرار والشّيح

والشمس في أفقها معلقة ... من حولها للسحاب توشيح
كأنها والسحاب مجمرة ... أطار عنها رمادها الريح
ليلاي ماج الغدير وارتجحت ... للّيل في حضنه مصابيح
دونك روضا كأن أغصنه ... صدر لضم العشاق مفتوح
هُزي أراجيحه، فهل خلقت ... إلا لأحلامنا الأراجيح؟
لا شمس غابت، ولا ظلام دهى ... ولا غصونٌ هفت ولا ريح
لكنه حبنا فما اختلجت ... في الروض لولا غرامنا روح
شفيق معلوف
شاعرة
غادة جرت ذيول الأدب ... وتغنت بقريض العرب
يأسنُ الشعر فان مر على ... ثغرها عاد بنشر طيب
تنطق الألفاظ معذوذبة ... بفم حلو اللمى معذوذب
درر خارجة من درر ... تلك لم تثقب وذي لم تثقب
شد ما يأسر لبي قلم ... مرهف في أنمل مختضب
يا رعى الله قواما لينا ... ينحني كالقوس خلف المكتب
ويمينا بضة ناعمة ... خلقت للجد لا للعب
طبع النقس عليها شامة ... كالتي في خدها الملتهب
أن في قرطاسها مرقمها ... كأنين العاشق المكتئب
وحنا بين يديها رأسه ... كانحناء الساجد المقترب
غادة مرآتها ان نظرت ... صفحة من صفحات الكتب
يا إله الشعر باركها إذا ... سبحت في موجه المصطخب
احفظ الهيفاء من تياره ... ليس بحر الشعر سهل المركب
يا فتاة الخدر عوذتك من ... سهر الليل ونجوى الشهب
وشرود الفكر في جنح الدجى ... وهروب اللفظ عند الطلب
أتركي جفنك ينفث سحره ... في خيالي وقفي عن كثب
لا تقولي الشعر بل أوحي به ... أنت خصب للخيال المجدب
إنما الشعر محيط فاسلمي ... ودعي أمواجه تقذف بي
إنه عبء على حامله ... ما لهذا العبء إلا منكبي
محمود غنيم
يا ليتني!
عينيَّ هل من صوب دمع مسعد؟ ... نفدت دموعي والأسى لم ينفد
روح فقدت حنانها البر الذي ... لا يُستظل بمثله إن يفقد
ما زلت في حزن عليها مرمض ... وتحير في إثرها وتلدد
جاءت وراحت أشهر لم تنصرف ... عن ودها روحي وقد صفرت يدي
وتجيء أعوام وتذهب أشهر ... لا يرتوي من وجهها الطرف الصدي
يا ليتني قد كنت حاضر يومها ... وسعدت قبل رحيلها بتزود
وشهدت أنتها بليِّن مهدها ... ورأيت سكتتها بجافي المرقد
لما نضت أوصاب داء مسقم ... من بعد طول تصبر وتجلد
ورمت قيود معيشة ما عاشها ... في الناس غير مثقَّل ومقيد
لولا حذاري أن يفجعها الأسى ... ويؤودها صرف الحمام المعتدي
ويزيدها شجنا على أشجانها ... لوددت لو عاشت وكنت أنا الردي
ونعمت في لحدي بهاطل دمعها ... ينهلُّ لي وبشوقها المتجدد
وحنانها الصافي يظل مزاوراً ... قبري يروح مع الزمان ويغتدي
وأقر جسمي في التراب موسداً ... ذاك الفؤاد يعودني في العوَّد
قد كان ذلك راحتي لا ما أرى ... من حيرة تضني وعيش مكمد
فخري ابو السعود
في الأدب الشرقي
من الأدب التركي الحديث
عبد الحق حامد

للدكتور عبد الوهاب عزام

شاعر الترك الأكبر، حمل لواء الشعر أكثر من خمسين عاما غير منازع، ولا يزال على المرض والشيخوخة مطمح الأبصار، وقبلة الأفكار. ولد سنة 1267 هـ فهو الآن في الخامسة والثمانين من عمره المبارك، وما فتئ مذ بلغ العقد الثالث فياضا بالشعر والنثر يسلك فيهما المسالك المختلفة موفيا على الغاية، بالغا من الجمال والجلال النهاية، حتى كتب أكثر من ثلاثين كتابا، ثروة يفخر بها الأدب التركي بل يتحلى بها الأدب الإنساني. وليس يتسع المقام هنا للإبانة عن شعره ونثره، أو الإفاضة في وصفه والكشف عن نواحي النبوغ والإعجاز في طبعه، ولكني أعرض لكتاب واحد من كتبه:

في سنة 1302 كان الشاعر في الهند فمرضت زوجه، فسافر بها راجعا دياره فماتت في الطريق ودفنها في بيروت. وكانت في سن الخامسة والعشرين، وشاعرنا يومئذ ابن خمس وثلاثين.

كانت وفاة فاطمة قيامة في نفس عبد الحق وفي الأدب التركي. كتب في البكاء عليها زهاء ألف وخمسمائة بيت في كتابين أكبرهما وأولهما سماه (مقبر) وهو صرخة ما تزال مدوِّية في الأدب التركي منذ خمسين عاما. ولن يمحى صداها في الحياة ما بقي في الإنسان قلب وما بقي للشعر التركي قارئ والثاني سماه (أولو) أي الميت.

يقول جناب شهاب الدين وهو من أعاظم أدباء العصر:

إن (المقبر) ومقدمته فتحا عصراً جديداً في أدبنا المنظوم والمنثور. ولم تؤثر وفاة فاطمة في حياة الشاعر وحده بل في آداب الأمة كلها. . . ولا ريب أنه قد ولد من القبر الذي في بيروت شاعر جديد أعظم من شاعرنا الأول. إن (المقبر) أعظم وأجمل تمثال في آدابنا، ولست أرتاب في أن هذه البديعة التي كتبت على حافة البقاء قد قدر لها الخلود.

(المقبر) ثورة هائلة بعث فيها الشاعر أناته وعبراته وصيحاته وكل ما في قلبه وعقله. ينظر الى القبر باكيا فيطير به الفكر في أرجاء العالم، ويصعد به الى الله ثم يطوي فكره شيئا فشيئا ويهبط به الى القبر ليطير عنه الى السماوات كرة أخرى. وهو في ثورته واستسلامه يذكر القارئ بقصيدة فكتور هوجو. التي رثى بها ابنته.

ثارت ثائرة بعض النقاد على حامد (ومقبره) حينما نشره إذ رأوا فيه لغة غير مفهومة، فكان في جلال الحزن وشدة الألم أسمى من أن يبالي المدح أو الذم. وما كتب الشاعر كتابه ليكون بديعة أدبية. بل أراد، كما يقول: أن يبني بالشعر قبر الحبيبة، لا يكترث بالناس حين يبنيه؛ ولا يبالي بما يقولون فيه.

وقبل أن أعرض على القارئ نموذجا من (المقبر) أترجم مقدمته المنثورة التي يراها بعض الأدباء عهدا جديدا في النثر، كما يعدون الكتاب عصراً جديداً في الشعر. قال:

(المقبر): وأنا أعلم أنه ليس في (المقبر) وهو آخر ما كتبت، كتب لتخليد وجود أصابه الفناء. (المقبر) أثر من المعاني الشعرية التي تنطوي عليها المقابر. وإنما (المقبر) صيحة حسرة منبعثة من العدم، فلن يظفر قارئه بشيء، ولكنه عندي شيء. أجل أن الفكر حين يجوس خلال الكتاب ليطوِّف في مقبرة ثم يخرج منه كما يخرج من المقابر؛ لا يفقه شيئا. . .

قراءة فاتحة هذا الكتاب كاستيعابه كله، والإحاطة بما فيه كالتفكير في اسمه. لقد كتب هذا الكتاب في مقبرة، فهو وحي من الألم لمن يعرفون الكاتب السيئ الحظ، ووحي من الكلال لمن لا يعرفونه.

من يسألني: لماذا تنشر على الناس آلامك في هذه الصورة وكان يسعك أن تكتمها في قلبك، أو تكتبها ولا تنشرها؟ فذلك جوابي له: لا يبقى من هذه الأجساد المتهافتة في وادي الصمت إلا أحفان من التراب، وكذلك لا يبقى في القلب من أحب الذكريات إلا خيال دارس، ولست أقنع بهذا الخيال.

وأما نظم الكتاب وحفظه بين أوراقي فمصيره أن يبلى كما تبلى الأعضاء الميتة والأفكار اليائسة ولست أرضى بهذا البلى.

هل يضمن نشر الكتاب خلودها كما رجوت؟ لا، ولكن مهما يكن من شيء فـ (المقبر) أطول مني عمراً. ومن أجل ذلك نشرته، إنه قبر مبني من الصيحات التي في قلبي؛ أود أن تكون كلماته كالكلمات التي نقشت على الأحجار. هيهات. . .! كل صيحة في هذا (المقبر)

قبر منفصل ولكن فيها كلها دفيناً واحداً، هو الإنسانية التي تجلت لي في الوجه الذي أحببته. كتبت هذا الكتاب لأقرأه وحدي، فقليل من يشاركني إحساسي. بل لا أود أن يشاركني أحد في هذا الإحساس خشية أن لا تكون هذه المشاركة إلا بالتجريب. أريد أن أبكي وحدي على المسكينة التي بكيتها، وهذه الوحدة عندي سلوان لأنها أكبر العذاب.

ألا يرى القارئ أن هذه المقدمة كذلك تشبه كتابا كتب لي وحدي. وبعد، فليست العبارة المكررة في (المقبر) إلا كلمة واحدة، وليست هذه الكلمة إلا قبرا: كما تنتهي الأصوات كلها الى النفس الأخير.

لا أرتاب أن (المقبر) كآثاري الأخرى سيفنى، بل أعرف أن الأبدية كلها لا تفي بحفظ آلامي على حالها، وسيصعد الكتاب الى حضرة الخالق ودماء هذا الجرح سيالة من قلبه.

من القلوب مالا يجتمع فيه السرور والآلام، ومن القلوب مالا يزول حزنه بما يصيب في الدنيا من سعادة وجد، ولكن هذا الحزن لا يحول دون السرور، وفي بعض القلوب يخيم السرور والحزن معا، ومن أجل ذلك تلوح السلوة في الحزن أحيانا، ويبين الألم في الابتسام.

ومن القلوب ما يزيد الفرح أحزانها. ومن هذه الآلام آلامي. أود أن أطرب ليزيد حزني، ولست بمستطيع أن أفهم الناس ذلك، فلغة هذا الإحساس تكبر على الأفهام. فلأصمت!

إن القارئ الذي يريد أن يعد (المقبر) شعراً لأنه من آثاري لن يجد فيه من شاعريتي أثراً. ولكنه إذا فكر يسمع صرخات يستطيع أن يحسبها شعراً، وما هذه الصرخات إلا عجز البشر.

أعظم الشعر وأجمله وأصدقه أن يعيا الإنسان بالبيان فيصمت حين تنوء به إحدى الحقائق الهائلة. ولكن (المقبر) يخطب ولا يصمت. يعجز الإنسان أحيانا أن يعرف خيالا لا خطر له لما يبهره من جماله، ويقصر أحيانا عن إدراك الفكر الطائر عن عقله لما يفوته من علائه. ويعيا أحيانا بفهم الإحساس المولود من قلبه لما يهوله من عمقه. وفي هذا العجز يرسل صيحاته، أو يشدو بما لا يفهم من كلماته. أو يصمت فلا يترجم عن حسراته، فيأخذ قلبه فيطؤه بقدمه فيحطمه. وهذا كله شعر.

(المقبر) يتضمن إحساسا ولده قلبي. ولكنه في بعض نواحيه غريب كل الغرابة عما يروي من شاعريتي. يجد القارئ فيه لغتين لا تشبه إحداهما الأخرى، حتى يحسب أنه قد تعاقب على (المقبر) كاتبان. بل يبعد بعضه مني حتى أعيا أنا بفهمه.

فأما حديثي فيه عن الماضي (وهو أكثر مواضعه خرابا على أنه أحبها إليّ) فيبكي من يعدونني شاعرا، ويزيد صدق من لا يعدونني من الشعراء. وبعض مواضعه ليس من شعري، بل هو أشبه بقبر فتاة في ميعة الصبا.

أول هذين من النقائص الأدبية، والثاني من النقائص الإنسانية. وما يرجع الى تصوير الفضائل ناقص أي نقصان.

وبعض نواحيه لا يستطيع أن يمكث في الأرض لأنه صيحات. (المقبر) في جملته يراه كثير من الناس أثرا باردا، ولكنها البرودة التي تحرق قلبي.

لابد لعالم الأدب من آخرة، والمقبر من هذه الآخرة علامة، (المقبر) قبر حياتنا الأدبية، والمقبر زوالي.

(المقبر) يبين عن فكر واحد بأساليب شتى، ألفاظه عند الخاصة لا شيء، ولكن هيكله قبر ميت عزيز فهو عندي شيء. (المقبر) خفيف في جانب ثقل المصيبة التي أصابتني، فارغ في جانب عمقها، عدم في جانب شعرها، ولكنه بالقياس اليّ شيء. ينبغي أن يكون (المقبر) ضريحاً لا قبرا، معبداً لا ضريحا، كوكبا لا معبدا، فضاء لا ينتهي لا كوكبا. ولكنه وا أسفاه، لم يبلغ أن يكون قبرا.

(المقبر) ينبغي أن يكون منبرا ينزل إليه نور إلهي، ولا يستطيع أن يصعد إليه الفكر الإنساني، يجب أن يكون (المقبر) محشرا. هيهات! لا أقول يجب ألا أظهر فكري بل يجب أن يكون مما لا يمكن ظهوره. (المقبر) يئن أبدا. وان دل هذا الأنين الأبدي على العمق فوا حسرتاه أنه لا يعدو أن يكون قبرا. إن معنى هذا (المقبر) ظواهر المقابر.

ذكرت النقائص الأدبية والنقائص الإنسانية. نعم ماذا عسى أن افعل؟ ماذا أفعل لتصحيح الخطأ وأكبر الخطأ صادر من المصحح.

إن الأبيات يجب أن تصنع للوقائع الجليلة، والأفكار الجميلة، كما تبنى الهياكل للأسماء الكبيرة، وبأسماء الوجوه الجميلة. والقبر هيكل بناه الله فكيف نستطيع نحن أن نصور ونجسِّم؟

أي شاعر جسَّد امرأة جميلة فصورها للذين لم يروها؟ أي قلم حكى المحاسن الطبيعية على وجهها؟ إن الذي يلهمنا أحسن ما نشعر ونكتب هو الطبيعة، وهذا الشعر يشبه الصورة التي تتراءى في الماء لا بد لها من مصدر خارجه.

بعض أكابر الأدباء يدعون أن مزايا الشاعر تتولد من نفسه وليس هذا رأيي. إن محاسني (إن كانت) هي للجبال والمروج والوجوه الجميلة والأزهار. وأما سيئاتي فهي لي. أقول قبل أن أختم:

ان المصيبة التي اخبرني بها (المقبر) قلبت شعري كما قلبت كل شيء في. فهل صعدت صدمة هذا الانقلاب بفكري أو هبطت به؟ يعرف ذلك إخواني.

انظروا كيف عجزت عن كتابة كلمات حتى في المقدمة؟

الانقلاب الذي ذكرت هو قيامي في نقطة أو في فضاء غير محدود حيث تصطدم السماء والقبر. بقى قلبي طويلا بين هاتين القوتين الهائلتين، كلما اقتربتا شعرت بالعزاء وكلما ابتعدتا غمرني اليأس.

ثم اتحدتا فتحطمت فظهر (المقبر). فهل هذا شعر؟ محال. كان يجب أن يتحد القبر والسماء أو بعبارة أصدق أن يبقيا مفترقين، وكان يجب أن أنوح في الافتراق والاستغراق فيكون هذا شعرا.

أنا لا استحسن معظم ما كتبت قبل (المقبر) وبعضه يعجبني قليلا، وأما المقبر فلا يعجبني قط، ولكني أحبه كل الحب. لا يعجبني لأن صلة هذا الكتاب بالأدب واهية، وأحبه لأنه (هي).

لعل (المقبر) يشبه الشعر عند من يرون الخليقة كلها شعراً، وهو عندي يذكرني بشاعرة، شاعرة كانت شعر القدرة الصانعة كل ما في (القبر) على نقصه وحشوه. روحانية متوفاة، ومعنوية روح.

حالها وصورتها وخيالها وهيكلها وقبرها وحياتها التي ذهب الدهر بمحاسنها. ثم (المقبر) أكرر فأقول: (المقبر) (هي) ومن أجل ذلك أحببته.

ولكن (المقبر) في نظر الأدب طفل دميم: طاهر، ولكنه ليس جميلا، وفيلسوف حقير: حكمة ولكنها ذات ريب، وحسن معيب: صيحة ولكن ذات صناعة، وقبر مشيد: ليس حزينا ولكنه

قبر: مغرب ولكنه متلألئ، جمال ولكن بغير حب، شعر ولكنه ذو قافية، لأجل هذا لا أحبه.

الفكر نهايته الموت، والشعر نهايته الألفاظ والقوافي، فماذا أصنع؟

إن لم يكن (للمقبر) بد من فكر شرعي فهذا الكتاب قبر متوفاة، أسأل زائريه الفاتحة.

وفي العدد الآتي نعرض على القارئ مثالا من شعر (المقبر) ان شاء الله.

في الأدب الغربيّ

الزهرية المصدوعة

لسوللي برودوم

ترجمة الأستاذ أبي قيس عز الدين علم الدين. عضو المجمع العلمي العربي

سوللي برودوم شاعر فرنسي ولد بباريس سنة (1839 - 1908) وتثقف بها في شبابه بثقافة علمية متينة، اكتسب منها عنايته الشديدة بتدقيق العبارات وتوضيح الدلالات، وقد امتزج ذلك بما أوتيه من قوة الإحساس وسعة الاحلام، ولم يتخرج إلا من المدرسة البرناسية التي تعلم فيها كما قيل: (أن ينظم بصعوبة قصائده السهلة).

وقد برع في التعبير عن أدق عواطف القلب البشري وأصدقها، براعته في قصائده الفلسفية المشتملة على أسمى المعاني وأنبلها.

وأما قصيدته الموسومة بالزهرية المصدوعة فان لها شهرة ذائعة في الغرب، وهي من آيات سوللي والروائع الرمزية الخالدة، وقد عرف بها ناظمها لبعد شهرتها فقيل له:

شاعر الزهرية المصدوعة وفيها أبدع الإبداع كله بتشبيه القلب الجريح الذي نضب دمه
فذبلت زهرة محبته بالإناء الصديع الذي جف من الصدع ماؤه، فظمئت زهرة نبتته
وذبلت أخيراً، والذي جرح القلب هو قسوة المحبوب وتماديه في هجرانه، تمادياً حرمه
ندى عطفه وحنانه، قال:

شهدت الإناء الذي في ... هـ تقضي من الزهر سوسنة وادعة
قد اصطدم اليوم (ويحاً له) ... بمروحة صدمة صادعة
لكنها لم تك غير لمس
فلم تثر من ضجة أو حس
ومع أنه كان صدعا لطيفا ... وما ظنه أحد بالشديد
فقد كان تأثيره، وهو سار، ... ببلوره كل يوم يزيد
وقد سرى به الصدع خفيا
فامتد في الإناء تدريجيا
وماء الإناء، وفيه الحياة ... غدا يتقطر من صدعه
فجفت عصارة أزهاره ... وغاض الرحيق جنى طلعه
لم ينتبه لذاك حي يعلم
لا تلمسوه! إنه محطم
ورب يد غضة قد تحب ... أناملها وهي تبدو لطيفة
تمس شغاف القلوب فتخ ... دشه خدشة قد تخال خفيفة
ينصدع القلب لها من نفسه
ذابلة زهرته ليبسه
وقلب يرى أبداً في العيو ... ن صحيحاً وما هو قلب صحيح
نما جرحه فبكى صامتاً ... وبالجرح يشعر قلب الجريح
وجرحه العميق هذا مؤلم
لا تلمسوه! إنه محطم

دمشق

حديث الطبيعة

لشاعر الطبيعة وردز ورث

أهاب صديقي ذات صباح ... لدن رونقُ العيش غضٌ نضِر
هنالك عند البحيرة إذ ... جلست أطيل لديها النظر:
أراك قضيت سحابة يوم ... ك منفرداً فوق ذاك الحجر
ففيم اعتزالك يا صاح تمضي ... حياتك بين الرُّؤى والذكَرْ؟
وكتبك أين؟ شعاع الحياة ... يُبيِّن من أمرها كل سر
إليها! وفز بتراث الجدود ال ... لذي لآتي العصُر
تقلب في أمك الأرض عيناً ... كأن ولدتك لغير وطر
كأنك أول من ولدته ... ولم يحيى قبلك حي غَبَر
فقلت: وهل أُذُنٌ تأتلي ... عن السمع، أو مقلة عن بصر؟
سواء على الجسم إن رمت منه ... الشعور وإن لم ترمه شَعَر.
رأيت الطبيعة ذات قُوّى ... تغلغل في مُهُجات البشر
تغذي النفوس وهن سكون ... ولم نشق فيها النهى والفكر
أتحسبنا لن ننال الحقيقة ... دون طلاب طويل عسر
وهذي الطبيعة آثارها ... شواهد ناطقة بالعبر؟
فأن ترني لحديث الطبيع ... ة أنصت في صمتي المستمر
فلا تسألني علام قضائي ... حياتي بين الرؤى والذكر

فخري أبو السعود

محمد

للشاعر الفيلسوف جيته

بقلم الأستاذ الجليل معروف الأرناءوط

أولع جيته شاعر ألمانيا الأكبر وأديب الإنسانية الأعظم في شبابه بأشعار الشرق
وأقاصيصه، وبلغ من ولعه بمحاسن الشرق حداً جعله يتهافت على دراسة ماضي

شعوبه، وفي سنة 1772 قرأ جيته للمرة الأولى ترجمة القرآن للأستاذ ماغرلين فسحرته بلاغة سورة إبراهيم، كما استهوته طفولة محمد، هذه الطفولة البارعة التي أمضاها في بيت حليمة السعدية مرضع الرسول اليتيم، وكان جيته على نصرانيته يشعر بصفاء الإسلامية وطهارتها، فعكف على دراسة حياة محمد وخرج من هذه الدراسة التي وهب لها عواطفه واحساساته بروايته التمثيلية (محمد) وهي مأساة في ثلاثة فصول أودعها جيته أرق أشعاره وأعذبها، وكان أمتع فصول هذه الرواية التي لم تنقل لسوء الحظ الى اللغة العربية ذلك الفصل البارع الذي صور فيه شاعر ألمانيا الأكبر محمد معتزلاً قومه ليعيش في الريف، وفي هذا الفصل يتحدث الرسول الى الكواكب، ثم يفتح صدره لله فيغمره بنوره الخالد، ويخرج يتيم مكة بعد ذلك الى العالم نبياً ورسولاً.

ومما هو جدير بالذكر أن رواية محمد لم تكد تظهر في ألمانيا حتى راح خصوم جيته يتهمونه بالكفر والخروج على النصرانية فنشر جيته على أثر ذلك رسالته المشهورة وعنوانها: لماذا آمنت بمحمد، وذكر فيها أنه أحب محمد كما أحب عيسى بن مريم، وانه يرى في الإسلام ديانة الخلق السامي الصحيح.

وقد نقلنا بعض فقرات من هذه الرواية العظيمة ليقف القراء على رأي سيد أدباء العالم في سيد أنبياء العالم.

الفصل الأول - المشهد الأول

(محمد ينظر الى الكواكب. . .)

أواه! لا أستطيع ان أفرق بينك يا أشعار السماء، الا ترين الى نفسي وقد برح بها شجن بليغ عنيف، لقد كان من أرضى أماني هذه النفس أن تهب احساساتها لكل كوكب؟ فما قدرت على ذلك؟ فأي هذه النجوم الفواتن يسلفني السمع ويسترق صلاتي؟ أي هذه النجوم

ينظر الى طرفي الدامع الضارع؟

أي كوكب العشية الساجية الرخية الظل، أنك لتجوز نواحي الأفق، في حاشية من بروق فتانة، ثم تواريك هذه الغلائل الرقيقة فتنأى عني فأناديك، ألا عُد الى مسفرك وأنظر اليّ، فأنني أولعت بك أشد الولع، وهمت بفتونك وإشراقك.

أثابك الله أيها القمر، أنك لأفضل من يرشد هذه الكواكب، ويقودها الى عوالم الضياء والبهاء، فأنر طريقي ولا تذرني هائماً في هذه الظلمات مع شعبي السادر الحائر!

وأنت أيتها الشمس التي تخلع ظلها على الأشياء والناس، ظليني بنورك البهي وقودي خطواتي، ولا يحجبك عني سحاب أو ضباب!

أواه! أتتوارين عن عيني في الأسداف البعيدة أيتها الشمس، يا من غدا أمرها فتنة لجميع الناس.

من يجذبني إليك أيها القدير العظيم، من يقربني منك يا من خلق الأرض والشمس والقمر والسماء وخلقني أنا في لحظات، من يقربني منك فأغسل قلبي بنورك الذي لا يغيب.

المشهد الثاني (محمد، حليمة)

(محمد): أي حليمة! لماذا جئت في هذه الساعة الهانئة الصافية؟ أكان وفودك عليّ لأثارة حياتي الراكدة الساجية؟

(حليمة): جنّب نفسك الخوف يا بني فأني ما زلت أبحث عنك منذ غارت الشمس واطفل النهار، ناشدتك الله الا تعرض شبابك الرقيق الناعم لأسواء الليل ومخاطره.

(محمد): يفرق الرجل الرديء الخبيث من متوع النهار كما يفرق من سحر الليل، وذلك لأن الرذيلة تجلب التعاسة، أما أنا فلست ذلك الرجل الذي يعاف متوع النهار وبهاء الليل، فلقد غمر الله نفسي بضوئه، وخلق من حولي عالماً يزهر شبابي ويريق عليه سحره وفتونه.

(حليمة): ولكني أخاف عليك وأنت في عزلتك في هذا الليل البهيم أن يدهمك اللصوص والسراق.

(محمد): ألا ترين إليّ؟ أنني لم أكن وحدي في هذا الريف الضحيان فلقد أبى الله سيدي ومولاي وخالقي إلا أن يصاحبني في هذه الوحدة.

(حليمة): أرايت الله يا بني؟

(محمد): وأنت ألا تبصرينه؟ أنه غير بعيد عني، ولا يبرح يتراءى لي عند الينبوع الدافق الهادر، وتحت السرحة الغناء، وفي الظل الرقيق البهي. . لقد توافى إلي من عليائه فأحسست حرارة حبه، وشق صدري وأنتزع من قلبي حوباته حتى يتاح لي أن أفهم معنى حبه!

(حليمة): ولكنك تحلم! إذن كيف يقدر لك أن تحيا وقد شق الله صدرك؟

(محمد): سأصلي صلاتي لله فلعله يضيء عقلك فلا يبدو لك حديثي غامضاً مبهماً

(حليمة): وأي اله هذا الذي تعبد؟ أهو اللات أم هو هبل؟

(محمد): أي شعبي التعس! أنك لتظل السبيل وتنزع الى الحجارة والأصلاد فتجعل منها الهاً يعبد! ولكني ما زلت أحبك على شديد تعسك، وهذا الحب الشديد العنيف هو الذي يحفزني الى مصارحتك بأن هذه الحجارة التي تصلي لها لا تستطيع أن تستمع لك، وليس في ميسورها أن تفتح لك ذراعيها.

(حليمة): أين يسكن الهك؟

(محمد): إنه في كل مكان يا حليمة!. .

العلوم

الحمى داء ودواء

للدكتور أحمد زكي. وكيل كلية العلوم

الحمى من قديم الزمان عرض مخوف وطارق مرهوب، وكثيرا ما كان رسول الموت وقائد الحي تحدو ركبه الى وادي الفناء. ولكن في هذه الأيام القريبة الماضية نشأت فكرة أخذت تحل محلا ذا بال في رؤوس البحاث من الأطباء، أو رؤوس القليل منهم الذين لا تزعجهم غرابة الخاطر، ولا يصرفهم عن الأمر خروجه عن المألوف. ومحصول هذه الفكرة أن الحمى ذلك العدو القديم للحياة قد تنقلب، أو يمكن تأليفها وقلبها الى صديق نصير، فبدل أن تكون عوناً على الداء، تصبح عوناً على الشفاء، في بعض الأمراض التي عجز عنها الطب وحار فيها الأطباء.

وحكاية هذه الفكرة بسيطة بقدر غرابتها، ومنشؤها تافه بالرغم من خطورتها، وهي في ذلك جرت على سنة جرى عليها كثير عليها من المستكشفات التي غيرت من سطح الأرض، وتحكمت في مستقبل الإنسان. ذلك أنه منذ خمسة أعوام في معامل للكهرباء كبيرة مشهورة لاحظ مديرها المستر (وتني) أن المهندسين الذين كانوا يمكثون في مجال الكهرباء الأستاتيكية لناقلات الراديو ذي الذبذبات العالية، ولو زمناً قليلاً، يحترون وترتفع فعلا درجة حرارتهم. وأذاع المدير في تقرير له هذه الحقيقة، ولكنها لم تسترع اهتمام أحد في عالم الطب. ولحسن الطالع لم يكن (وتني) طبيباً فلم يأبه لهذا الخذلان، وكان يهوى الحقيقة أنى وجدها، وكان واسع الإطلاع كثير القراءة، فذكر أنه قرأ مرة أن العالم النمسوي الأستاذ (وجنار ياوديج) شفى عدة أشخاص مجذومين مشلولين من أثر الجذام المعروف بالزهري بأن أصابهم عامداً بداء الملاريا، وذكر أن هذا الحادث أثار مناقشات حارة بين رجال الطب في أوروبا، ثارت في سبب هذا الشفاء أهو الملاريا أم ظروف عارضة لا علاقة لها؟ وانتهى النقاش الى غير خاتمة.

ذكر (وتني) ذلك، وكان جاهلاً بالطب، وذكر أن الملاريا تصحبها حرارة عالية، فتراءى له في لمحة أن الحمى التي تصحب الملاريا ربما كانت هي السبب الأول في الشفاء، ذلك أنها تطبخ ميكروب الجذام فتهلكه. وتراءى له أنه لو صح هذا لكان للحمى التي تحدثها الكهرباء

مثل هذه الصفة. على أثر هذا أستأجر خبيرة في علم وظائف الأعضاء أسمها الآنسة (هوزمر) فأثبتت له أن الفئران وأمثالها من الحيوانات القارضة يمكن أصابتها في المجال الكهربائي بأي قدر يراد من الحمى. وبعد ذلك أستخدم الدكتور (كربنتر) وهو بكتريولوجي ذو خبرة وأمانة، فعدى كثيراً من الأرانب بالجذام ثم وضعهم في المجال الكهربائي ليصيبهم بالحمى فشفاهم بذلك.

نشرت هذه الأبحاث منذ ثلاث سنين، كان من المنتظر أن تثير في عالم الطب عاصفة، ولكنها لم تثر إلا نسائم خفيفة، وسبب هذا أن الطب امتلأ في السنوات الأخيرة بأكاذيب كثيرة وشعوذة مهينة للعلم، صدرت عن علماء أو متعالمين، وعدا هذا فالجديد أينما سار يجر وراءه ظلاً من الريبة، ولاسيما إذا كان الجديد بالغاً في الغرابة، شديد المناقضة للمعروف، وقد تكون بساطته سببا لتهامه، وتعقده شفيعاً له الى قلوب

الناس وعقولهم.
لم يجزع (كربنتر) للذي لقي من جمود القوم، وأخذ سبيله فبنى صندوقاً أشبه شيء بناووس الموتى، وأغرى قوماً يؤمنون بالتضحية في سبيل الخير بالدخول فيه، فاستطاع بالكهرباء أن يرفع درجة حرارتهم، لم يلبث قليلاً حتى وجد أنه بضغط زر أو إدارة عقرب يستطيع أن يتحكم في حرارة المريض رفعاً أو خفضاً مقلداً بذلك حمى الملاريا، ولم يلبث أن ذهب هذا العلاج بجنون ثلثي المرضى الذين عالجهم. ولكنه كان علاجاً مؤلماً شديد الوطأة، وهو فوق ذلك لا يؤتمن، لأن المريض أثناءه يتصبب عرقاً يتجمع يتجمع فتتركز الطاقة الكهربائية، فيحدث من هذا تفريغ ينشأ عنه شرر وبرق يحرق جلد المريض، ولعل جنون المرضى في الأحوال المذكورة كان رحمة، فلولاه لخافوا الألم ونظروا في العاقبة فاحجموا.
لو أن تجربة (وتني) وقفت عند هذا الحد لما قدر لها النجاح، ولكانت طرفة نفعها للعلم وللتاريخ فحسب، ولظل الطبيب الى الأبد يعالج هذا الداء بالزرنيخ، ذلك العقار السام الذي لا تؤدي القناطير منه الى شفاء تام لا شبهة فيه. ولكن في يوم شات مثلج من يناير عام 1931 بالولايات المتحدة بلغ رجلا من العلماء ما كان من أمر التجربة، ففكر فخال لساعته أنه لو صنع خزانة على مثال الناووس وأمَرَّ فيها تيارا من الهواء الساخن بقدر لبخر بذلك العرق المتساقط من المرضى فحماهم خطر الحريق. وبعد عشرة أشهر كان هذا العالم مع رفقة آخرين آثروا جميعا ستر أمرهم الى حين قد أتموا الخزانة في حجرة من مستشفى
متداع ببقعة بغرب الولايات لا تسمى. وكان فاتحة أعمالهم أن وضعوا فيها ضحية من ضحايا الزهري (ولم تكن الخزانة تهيأت للهواء الساخن يمر فيها) ولكن الرجل كان في المرحلة الأخيرة من المرض يعاني كربه فلم يبال أحيّاً خرج من الخزانة أم ميتاً، ولعله رأى فيها وسيلة انتحار أضمره لا تصم ذويه من بعده، واليوم هذا الرجل حي يرزق إن كان يشكو شيئا فذلك انه لا يكتسب من عمل يومه بمقدار ما يحب.
وأدخل الهواء في الخزانة على درجة 50 مئوية وكانت هذه الحرارة تظن كافية لتجفيف قطرات العرق المتجمعة على أجسام المرضى، ولكن هذا الظن لم يتحقق كله، وعلى رغم ذلك جرى العمل على ما رسم بفضل مهندس شاب مخلص قيم على جهاز الهواء، وممرضات صبورات كن يبعثن من لطفهن وأنوثتهن وحنانهن الأمل والرجاء، في قلوب المرضى التعساء، وهم في الخزانة، في ألم من الداء وهول من الدواء.
وفي ذات أحد من الآحاد اشتعلت النار بالخزانة فانقض في نصف ساعة بناء عام، فكنت لا ترى إلا ركاما من فحم ورماد وأنابيب منصهرة وأسلاك ملتوية، والى جانب هذا الحطام المهندس الفتي والممرضات بعيون شاخصة حجبت أبصارها الدموع.
لم تستطع النار ولا الدمار اللاحق أن يضعف من همة تلك الرفقة الكريمة في صراعها في سبيل الخير. فلم يمض قليل من الزمن حتى أقاموا خزانة جديدة أقرب الى الغرض وأكثر إراحة للمرضى، وقد يكون بعض النفع من البلاء. وجاءت النقالة بعد النقالة تفرغ في الخزانة الجديدة حمولتها من أجسام أهلكها الجذام وأعقابه، وما لبث الكثير منهم أن خرج من المستشفى على رجليه يسعى كالناس يحدوه رجاء جديد في حياة جديدة. من ذلك شاب بلغ الزهري الى أعصابه وشرايينه فلم يكن يستطيع الحراك ولا إطعام نفسه. حم في الخزانة ثلاث مرات كل مرة خمس ساعات فاستطاع بعد ذلك أن ينال فمه بيده. وبعد الحمى الثامنة استطاع أن يقف لأول مرة على قدمين مرتعدتين، وذلك بعد عام من بدء العلاج، وهو الآن يزاحم الأحياء بالمناكب في الطرقات يسعى الى رزقه سعيهم الى أرزاقهم.
ومن ذلك طفل في التاسعة من عمره جاءت تقوده أمه لأن الزهري كان أصاب عينيه فلم يكد يفرق بهما بين نور النهار وظلمة الليل، حم تسع مرات فارتد إليه بصره كما كان.
وعولج اثنا عشر مريضاً ممن شل الزهري أجسامهم وذهب بعقولهم فعاد إليهم جميعا صوابهم إلا واحداً. وعولج آخرون ظاهرهم الصحة وفي دمائهم خبث المرض فتطهروا بعد الحمى من الداء الدفين النائم الذي قد يستيقظ يوماً من أيام العمر فيودي بصاحبه بعد أن يذيقه ألوان الشقاء.

وتتجه الأبحاث في الوقت الحاضر الى محو مرض الزهري وهو في أدواره الأولى قبل أن يستقر الميكروب في جثمان المريض ويتغلغل فيه الى حيث أصول الحياة ومنابتها، وقد لا يمضي عقد من الزمان حتى يمكن تأمين ملايين البشر من هذا البلاء الذي لا تزيده الأيام إلا انتشاراً، ففي أمريكا وحدها نحو من عشرة ملايين مسهم هذا الوباء، أما بالعدوى وأما بالوراثة. وفي مصر يفتك الداء في ذوي الخطايا والأبرياء على السواء، وهو في مأمن من الإحصاء.

وسوف تقوم دون انتشار هذا الجهاز الجديد عقبات، منها انه غالي الثمن فليس في استطاعة كل مطبب حيازته، ومنها انه معقد ككل جهاز في أول نشأته، ومنها أن التطبيب به ليس من الأمور اليسيرة إلا في أيد خبيرة قديرة، وبقوامة ممرضات لبقات صبورات تدربن خصيصاً لهذا العلاج الجديد. وهي كلها عقبات هينات عرفت حيلة الإنسان كيف تتخطى الألوف من أمثالها، وإنا لما تأتي به السنون لمرتقبون.

القصص

كلبتي بلوتا

بقلم الأديب حسين شوقى

من المظنون إن العبقرية لا تغيب طويلا عن (كرمة ابن هاني) فان البواكير التي تتفتح عنها قريحة حسين شوق في الشعر والقصص لابد أن تذكرها بمهبطها الاول ومألفها القديم. ولعلك واجد في هذه القصة الساذجة من رقة الحديث وخفة الأسلوب ما يبعث الأمل في هذا الظن)

إذا سقت إليك الحديث الآن عن كلبتى (بلوتا) فإنما هي حجة أصطنعها لأذكر فصلا من عهد الطفولة اللذيذة التي تنعش ذكراها النفس كأنما هي على حد تعبير المصريين القدماء: مكان رطب ظليل في يوم قيظ لافح. .

كلبة إسبانية. حصلنا عليها في برشلونة أثناء المنفى، على سبيل الهدية. . وكان (بلوتا) صاحبها من رجال السلك السياسي اضطرته المهنة أن يغادر إسبانيا الى بلد آخر بعيد، وكان يخشى ما تجره إليه بلوتا من متاعب أثناء الطريق، فرأى أن يهديها إلينا. .

قدمتنابلوتا بعد ظهر يوم من أيامالشتاء ضاح جميل، وكنا مجتمعين في الحديقة ننظر ذلك العضو الجديد في أسرتنا!

حقا! ما كان أجمل بلوتا بشعرها الأبيض الناصع ذى اللفائف المتعددة، لأنها كانت من النوع الذي يشبه الخراف في فروته. . .

وكانشعرها مقصوصا على شكل يحاكى لبدة الأسد، أرسلوه الى آخر الصدر ثم حلقوا النصف الباقي بالموسى. . وكان في عنقها طوق أحمر يبدو احمراره بين الخصل المكدسة من تلك الفروة القطنية. .

وكانت بلوتا في تلك اللحظة تمشى الهوينى في خيلاء وتيه كأنها تطلب منا أن نتأمل حسنها في أناة، أو ربما لم يكن في استطاعة المسكينة أن تمشى أسرع من ذلك لبدانة جسمها. . وقد سميت من أجل هذا بلوتا أي الكرة. .

وألفت بلوتا عشرتنا في أقصر مدة، حتى كانت تضايقنا بهذه الألفة. . إذ لم يعد في استطاعتنا أن نذهب الى أي مكان بدونها. وكان في إحدى ضواحي برشلونة متنزه جميل

تتوسطه بحيرة حفت بالأشجار الكثيفة الملتفة فكنا نقصد هذا المكان في أيام الصيف فنتغذى على ضفاف البحيرة، فكانت بلوتا ترافقنا الى هذا المكان. . بل كانت تتقدمنا إليه في المسير. فإذا ما شاهدت الماء جن جنونها فتلقي بنفسها في البحيرة وتظل تسبح طول النهار رائحة غادية في عظمة وأبهة كأنما هي مدرعة تختال فوق عباب الأطلنطيق!

فإذا دعوناها الى الانصراف أبت مغادرة الماء، فكان لابد من الاحتيال عليها لاخراجها منه، وكانت أنجح الحيل معها أن نلوح إليها من الشاطئ بقطعة من السكر، لأنها كانت مولعة بأكله. فإذا خرجت لتلتهمه قبضنا عليها بسرعة!

لشد ما كانت بلوتا تعبد الماء!، إنها لتحملني على أن اصدق الرأي القائل بتقمص الأرواح! فليت شعري في أي نوع من السمك قد حلت روح بلوتا من قبل يا ترى؟

ألفت بلوتا كلاب الحي كذلك، حتى كان لها من بينهن العشاق الكثر. . لأن كلاب الأسبان ككلاب الشرق يملن أيضا الى الأجسام البضة!

وإذا كان لبلوتا (كما تقدم) شكل الأسد، فلم تكن لها أبدا شجاعته، فإنها كانت تولى الأدبار عندما يحتدم الشجار بين عشاقها (من أجلها) وتعود فتختبئ تحت سريري. . والأمر الغريب إن بلوتا كانت على علاقة حسنة حتى مع القطط! كانت مثال التسامح صادقة الإيمان بمبادئ لوكارنو السلمية!

ولما كانت بلوتا بدينة الجسم فقد عولت ذات يوم على أن أجرب على جسمها التمارين الرياضية لاخفف من شحمها المتكدس، فكنت في صباح كل يوم أطرحها على الأرض ثم اشد يديها الى الخلف، ورجليها الى الأمام. . مرارا عديدة. . حتى تئن المسكينة من التعب والالم، وكلما كان والدي يراني منهمكا في ذلك، كان يلومني على عملي صائحا، ما أقسى طبيعة الطفل! أما أنا فكنت أفعل هذا لأنتقم لنفسي على حساب بلوتا المسكينة، مما كنت أعانيه من الشدة في التمارين الرياضية بمدرستي من أستاذها الألماني

ولشد ما كانت بلوتا ذكية أيضا!

كانت لها حجرة نوم تحتالسلم طولها متران في مثلهما عرضا. . وكانت الخادم تأتى كل ليلة الى الصالون حوالي الساعة العاشرة فتأخذها من بيننا لتذهب بها الى تلك الحجرة فتغطيها باللحاف، لأن ليالي برشلونة الشتوية قارسة البرد، فإذا أبطأت الخادم في بعض الليالي في

الحضور، كانت بلوتا تذهب بنفسها الى حجرة نومها ثم تعود الى الصالون وفى فمها غطاؤها، وتظل منتظرة على هذه الحال حتى تحضر الخادمة فترافقها الى مضجعها!.

وكانت بلوتا تعبد الشكولاته! واليك ما صنعته بي ذات مرة: كنتأنا أيضا أحب الشكولاته. . فكنت اشتري منها كل يوم (لدى عودتي من المدرسة) بما قيمته عشرة قروش، لأن مرتبي لم يكن يسمح لي وقتئذ وا أسفاه أن أشتري بأكثر من هذه القيمة. . وكنت آكلها سراً حتى لا يشاركني فيها أحد. . ولكن بلوتا بذكائها الفطري العجيب كانت تدرك الأمر فتقف أمامي حينما تعرف إن القرطاس بجيبي، ولا تبرح مكانها حتى أناولها قطعة منه. . ففي ذات يوم كنت جالسا الى مكتبي، عاكفا على دراستي ولم أعطها في تلك المرة حصتها من الشكولاته، فلم يكن منها إلا أن دست يدها خلسة في جيبي فسرقت القرطاس وذهبت دون أن اشعر، فلما وضعت يدي في جيبي لأخرج قطعة من القرطاس لم أجده، ولكنني عرفت في الحال من هو السارق، فأسرعت الى السرير حيث اعتادت بلوتا أن تختبئ لأنقذ ما يمكن إنقاذه، فوجدتها ويا للأسف قد التهمته كله!. . وكانتالشكولاته قد لوثت ذقنها. . لقد غاظتني في ذلك اليوم لأنه كان يوم عطلة ولم يكن في استطاعتي أن اشتري قرطاسا آخر. . فلما انتهت الحرب الكبرى، وسمح لنا بالعودة الى مصر، أردنا أن نتعجل الرجوع الى الوطن المحبوب فاجمعنا الرأي على أن نركب أول باخرة تغادر أوربا، لذلك قصدنا البندقية لنلحق بباخرة إيطالية كانت تتأهب للسفر بعد أيام قلائل، ولما كان السفر طويلا شاقا على السكة الحديدية من برشلونة الى البندقية، فقد تركنا بلوتو عند بعض الأصدقاء في برشلونة ليرسلها إلينا في مصر على الباخرة التي تسافر من برشلونة مباشرة الى بور سعيد بعد شهر من ذلك التاريخ، وما كان أسعدنا وأسرنا حين جاءتنابرقية تنبئنا بوصول بلوتا الى بور سعيد!. هرع في مساء ذلك اليوم الى محطة القاهرة والدي وأخي وأنا لاستقبالها. . فلما وصل القطار إذا بنا نجد بلوتا سوداء اللون كأنها أحد عمال المناجم، لأن المسكينة قطعت المرحلة ما بين بور سعيد والقاهرة في عربة الفحم!.

عرفتنا بلوتو في الحال. . وكم كان سرورها عظيما! فكانت تارة تقبل أيدينا وطورا تجذب أرديتنا، ومرة أخرى تقفز في الهواء، على رغم بدانتها. . أما ركاب القطار فكانوا ينظرون إليها دهشين. . ولما عدنا بها الى المنزل استطاعت بلوتا بقوة شمها الحاد أن تعرف حجرة

والدتي فقفزت الى سريرها بفحمها وغبارها فايقظتها، ولم تنج بلوتا في تلك الليلة من عقاب محتم إلا لفرط اشتياقنا إليها بعد غيبتها الطويلة!

ولكن مسرات هذا العالم وا أسفاه قصيرة المدى! كما يقول سرفانتس. . فانه لم تمض على بلوتا أشهر قليلة في مصر حتي مرضت مرضا شديدا اضطرنا الى قتلها كي تستريح مما كانت تكابد من عذاب وألم ثم دفناها بالحديقة تحت الشجرة الكبيرة بالقرب من السور الخلفي. . ثم حفرت اسمها وتاريخ ميلادها ووفاتها على شاهد من

المرمر نصبته على قبرها. ومالك تستكثر على بلوتا الوفية الذكية هذا الإكرام وفى الكلاب ناس كما في الناس كلاب؟

بلياس ومليزاند

للفيلسوف البلجيكي موريس ماترلنك

ترجمة الأستاذ حسن صادق

أشخاص القصة:

1. اركل ملك الموند
2. جنفييف أم بلياس وجولو
3. بلياس حفيد إركل
4. جولو
5. مليزاند
6. إينيولد الصغير ولد جولو من زوجه الاول
7. طبيب

الفصل الأول

المنظر الأول:

(غابة في وسطها ينبوع ماء بعيد الغور تجلس على حافته مليزاند - يدخل جولو)

جولو - أقحمني النزق تيه الغابة الكثيفة، وأخاف أن يعييني الخروج منها. . . الله يعلم الى أي مكان قادنيالجواد وهو ضال في جموحه! وقد جمعت فزعيفي يمناي وقدمي، ثم صببته في جروح قاتلة تفتحت في جسمه الملتهب، ولكنه أصر على الجموح وأسرف في الغضب، ولما ضللت الطريق أفلت مني وأمعن في الهرب. فقدت الجواد ويقيني أني هالك في هذا المكان الموحش. . . ستأكل الطير من رأسي وتلغ الضواري في دمي، ولن يعرف كلابي السبيل الي، سأعود الى البيت راجلا إذا اهتديت الى الطريق. . . ما هذا؟ أخرير ماء أسمع أم هنين بكاء؟ آوه! من هذا الراقد على العشب، المطل على صفحة الماء الهادئ؟ فتاة على حافة الينبوع تنوح! (يسعل) إنها لا تسمع صوتي ولا أرى وجهها (يقترب من مليزاند ويلمس كتفها) لم تبكين؟ (تنتفض مليزاند وتنهض مذعورة تريد الهرب). خلي عنك الفزع فلست مارداً وما أنا من الشياطين. لماذا تبكين وحدك في هذا

المكان الموحش؟

مليزاند - ابتعد عنى! لا تقربني!

جولو - لا تخافي ولا تجزعي. لن يصيبك منى سوء. . . آوه! ما أجملك!

مليزاند - إليك عني أو ألقيبنفسي في الماء!

جولو - إني بعيد، بيني وبينك خطوة. أترينني؟ إني باق في مكاني أتحامل على هذه الشجرة. ولا تحزني ولا تخافي. هل أصابك مكروه أم رماك أحد بشر؟

مليزاند - أوه! نعم نعم! (ثم تتنهد تنهده عميقة)

جولو - ومن الذي أشقاك؟

مليزاند - كل الناس أشرار

جولو - وماذا أصابك؟

مليزاند - لا أريد أن أبوح به! لا أستطيع التعبير عنه!

جولو - كفكفي دموعك. أين مقامك؟

مليزاند - لقد هربت. . . نعم هربت!

جولو - أدركت ذلك. ولكن من أين هربت؟

مليزلند - ضللت الطريق. . . واصطلح علي الخوف والحيرة في سكون الغابة. لست من أهل هذا البلد، ولم أولد حيث تراني

جولو - من أي بلد تكونين؟ وأين مولدك؟

مليزاند - من بلد بعيد المزار

جولو - ما هذا الشيء الذي يشع في جوف الماء بريقا؟

مليزاند - أين هو؟. . . آه! إنه التاج الذي أعطاني إياه. . . لقد سقط في الماء أثناء بكائي

جولو - تاج؟! من الذي أهدى إليك تاجا؟ سأبذل جهدي في انتشاله

مليزاند - لا تفعل، لم أعد اشتهيه. تلاشت رغبتي فيه. متمناي الساعةأن أموت
جولو - هين علي انتشاله فانه من حيلتي قريب
مليزاند - ليس لي رغبة فيه، إذا انتشلته، ألقيت نفسي في مكانه
جولو - اطمئني بالا وقري عيناً. . سأنزل على مشيئتك، وأتركه في مستقره، في استطاعتي مع ذلك إخراجه من الماء بلا عناء! إنه رائع بديع! هل مضى على هروبك زمن طويل؟
مليزاند - نعم نعم. . . من أنت؟
جولو - الأمير جولو حفيد أركل ملك ألموند الشيخ
مليزاند - أوه! بدأ الشيب يدب في فوديك!
جولو - بعض شعرات بيضاء نثرها الزمن على رأسي
مليزاند - وعلى لحيتك أيضا. لماذا تحدق في هكذا؟!
جولو - أرنو الى عينيك. . . انك لا تغمضينهما لحظة واحدة!
مليزاند - أغمضهما في الليل.
جولو - مالي أرى الحيرة في لحاظك؟
مليزاند - أمارد أنت؟
جولو - إني بشر مثلك.
مليزاند - لم وطئت هذا المكان؟
جولو - أجهل ذلك الجهل كله. كنت أصيد في الغابة فرأيت خنزيرا وحشيا فانطلقت وراءه بجوادي. ولكني أخطأت الصيد وضللت الطريق. . . ماء الشباب يترقرق في وجهك، ما عمرك؟
مليزاند - بدأت أشعر ببرودة الهواء!
جولو - أتأتين معي؟
مليزاند - كلا سأبقى هنا.
جولو - من ضعف الرأي أن تبقى وحدك في وحشة الغابة ولن تستطيعي قضاء الليل في سكون يروع القلبويفزع النفس. . . ما اسمك؟
مليزاند - مليزاند.
جولو - تعالي نخرج من الغابة.
مليزاند - إني باقية.
جولو - ستخافين وحدك ظلمة الليل. ومن يدرى. . . ربما تكون الغابة ذات وحوش. . . الليل كله، وبمفردك؟! أقلعي عن عنادك وتفهمي قولي. هاتى يدك.
مليزاند - لا تلمسني.
جولو - لن ألمسك فلا تصيحي. سيكون الليل حالك السواد شديد البرد. تعالي معي
مليزاند - إلى أين أنت ذاهب؟
جولو - لا أدري. . . إني ضال مثلك (يخرجان).
المنظر الثاني:
(ردهة في القصر. إركل وجنفييف جالسان يتحدثان)
جنفييف - سأتلو عليك ما كتبه الى أخيه بلباس: (وجدتها ذات يوم عند الغبشتسكب الدمع الغزير على حافة ينبوعفي الغابة، إني اجهل عمرها وأصلها ولا أعرف لها وطنا. ولا أجرؤ على سؤالهالأنها نابية الطبع يستقر في نفسها الذعر الشديد، ويقيني أنها عانت أمرا أدخل على نفسها الاضطراب والهلع. وإذا سئلت عما حدث لها، استخرطت في البكاء دفعة واحدة وملأت الجو بالتنهدات العميقة التي تفرض على السائل الصمت والخشوع. وقد مضى على زواجي منها ستة أشهر، ولا أعرف اليوم من أمرها أكثر مما عرفت في ساعة اللقاء الأولى. ولكنى آمل أن أصل إلى ما أريد بعد وقت وجيز، وليس هذا ما يهمني يا بلياس، يا من أعزه أكثر من شقيق ولو أننا لسنا من صلب واحد، وإنما الذي يشغل بالي ويقض مضجعي هو أمر العودة الى أحضانكم والعيش بينكم كما كنت قبل الزواج. ولذلك أكتب إليك ضارعا أن تعبد لي الطريق. أعلم علم اليقين أن أمي تعفو عني فرحة مستبشرة. ولكنى أخاف إركل على الرغم من طيبة قلبه وسراوة خلقه، لا. . هدمت بهذا الزواج صروح أمله وخيبت فجأة كل خططه السياسية. وأخوف ما أخافه ألا يشفع لي الى حكمته جمال مليزاند وسحرها الحي، فإذا قبل بعد سعيك

الجميل أن يستقبلها في بيته كما يستقبل ابنته، فأشعل مصباحا بعد أيام ثلاثة وضعه في أعلى البرج المطل على البحر، حتى أستطيع رؤيته من السفينة التي أقيم فيها مع زوجي. وإن رفض رجاءك فإني ذاهب الى نية بعيدة ولن تروني). كيف ترى؟
إركل - وماذا أقول؟ إن ما حدث يبدو غريبا لأننا لا نرى دائما إلا عكس ما يهيئه القدر. .
. كان في كل حين يتبع نصحي، وقد اعتقدت أن زواجه من الأميرة (إرسول) يهيئ له أسباب السعادة، ولذلك تقدمت إليه أن يذهب الى أهلها ويخطبها إليهم! لم يكن في مقدوره ان يعيش منفردا، وقد ثقلت عليه الوحدة بعد موت زوجه، وحزت في جلباب نفسه الحزينة. لو تم هذا الزواج الذي كنت أرغب فيه لوضع حداً لحروب طويلة وأحقاد قديمة! لم يشأ ذلك. فليكن الأمر كما أراد. إنى لم أجعل من نفسي قط عقبة تعترض حظ إنسان، وهو يعرف مستقبله أحسن مني. وربما انتج عمله نفعا لا ندركه اليوم
جنفييف - كان في كل أدوار حياته حازما رزينا بعيد النظر، وقد وقف كل حياته بعد موت زوجه على ولده الصغير (راينيولد) لقد نسى كل شئ. . . والآن ماذا نصنع؟
(يدخل بلياس)

الكتب

النجوم في مسالكها. . أدب جديد

للأستاذ محمد عبد الواحد خلاف

ليطمئن دعاة الجديد من كتابنا الأدباء فلست بمقاسمهم فخر نصر أحرزه، ولا بمنازعهم فضل طريق شقوه، وليطمئن أنصار القديم فلست بمنتقص تراثا عزيزا قدسوه، ولا عائب جمالا فتنوا به وألفوه، ولكني مطلعهم على واد جديد من أودية الأدب تلتقي عنده وجهاتهم، ويجدون فيه جميعا ما ينفع غلتهم.

سيجد فيه عشاق المعاني المبتكرة منبعا خصبا، ولا يعوزهم معه امتداد في الخيال أو سعة في التأمل أو عمق في التفكير، وسيجد فيه عشاق الصياغة البارعة، والأنغام الرنانة مشاهد سحرية تتجلى في وصفها بدائع صناعتهم، وآفاق خلابة يطيب فيها ترديد أنغامهم، ومسارح للجمال أشد استهواء وأروع تناسقا من كل ما مر بخاطرهم. ففيه مبعث التفكير ومهبط الوحي لمن كان عصى الابتكار، يضنيه تلمس الخيال، ويجهده أن يلد كل يوم جديد، وفيه ذخيرة الرأي ومادة الوصف لمن كان غنيا باللفظ والصياغة فقير المعاني، هذا الأدب هو ما أسميه أدب العلم.

وقد يبدو غريبا إمكان التزاوج بين العلم والأدب، فقد ألفنا أن نرى العلم سلكا من الحقائق الجافة يؤلف بينها منطق صارم دقيق، وألفنا لغة العلم مضغوطة جافة مشحونة بمصطلحات موضوعة تجعل بينها وبين الغريب عن العلم حجابا، وألفنا الأسلوب العلمي محبوكا لا يكاد يطل عليك من خلف عباراته روح إنسانية تفيض عليه الحياة، فهو جسم سليم الأعضاء تام التركيب، ولكنه ميت لا روح فيه، وهذا شر ما ضيق دائرة العلم وحصره في طائفة المشتغلين به.

والأدب؟ لقد ألفنا الأدب متمردا على مقاييس المنطق الجافة يحمل رسالته للقلوب لا للعقول، هو روح يفيض على كل مادة فيسبغ عليها حياة خالدة، هو نفس الأديب مقطرة تشف من وراء كل عبارة يسطرها، هو موسيقى الإنسانية تتجاوب أصداؤها في كل قلب،

ومن أجل ذلك كان الأدب رسالة عامة يفهمها الناس جميعا ويطربون لها، فكيف التقى الأدب والعلم؟

إن الثقافة الحديثة هي التي قربت بين المتباعدين، وألفت بين المتنافرين، فلقد أنتجت كثيرا من العلماء المتأدبين، أو الأدباء العالمين، وقد وجد هؤلاء من حقائق العلم ما هو أعجب من أوهام الخيال، وبصروا بعين العلم مشاهد ترتد عنها العين غير العلمية كليلة لا تبلغ جمالها ولا تدرك ما فيها من فتنة.

وسمعوا بأذن العلوم موسيقى رائعة دقيقة لا تصل الى الأذان غير العلمية، ووصل العلم بين الماضي والحاضر، والقريب والبعيد، والحياة والفناء، والمادة والطاقة.

وسلك الكل في وحدة (كونية) تضاءلت أمامها الوحدة (الإنسانية) وطلع علينا أدب كوني أسمى وأروع وأبدع من الأدب الإنساني الضيق.

حطم الأدباء العالمون الحواجز التي كانت تعزل العلم عن الجماهير، وأسبغوا مواهبهم

الأدبية على حقائق العلم فكسوها حلة فتانة قربتها للجماهير، فكانت غذاء لعقولهم وشفاء لقلوبهم. . .

وبين يدي مثل رائع لهذا الأدب العلمي هو كتاب (النجوم في مسالكها) الذي وضعه بالإنجليزية العلامة السير جيمس جينز، ونقله الى العربية صديقنا الدكتور أحمد عبد السلام الكر دانى.

هو سياحة في الكون على أجنحة الخيال العلمي، تعبر بك ملايين السنين والأميال وتنقلك الى عوالمه، وتقف بك عند السيارات والكواكب، وتخترق بك الشمس، وتريك أسرار كل هذه العوالم وستنسى نفسك وأنت تسبح مع الكاتب كما نسيت نفسي؛ ثم تؤوب منها كما عدت منها وقد امتلأت يقينا بجلال الله وعظمته، وشعوراً بقدرته وبالغ حكمته، وسترى كما رأيت مبلغ غرور الإنسان وهو ليس إلا هباءة حقيرة في جزء حقير من الكون! وتعجب كيف طوعت له نفسه أن يناصب العداء هذا الخالق العظيم الذي دبر هذا الكون الذي لا ندرك مداه فأحكم تدبيره.

ومالي أقطع عليك بالوصف لذة تلك السياحة وأنت لابد قارئها وواجد فيها ما وجدت.

وفوق ما وجدت، ولقد وفق صديقي (الكر دانى) كل التوفيق في تعريب الكتاب فجاءت عباراته

طلية واضحة دقيقة، ويبدو في كل صفحة من صفحاته مجهود في اللغة يهنأ عليه الأستاذ المعرب كل التهنئة.

ولن ينقص من قيمة هذا المجهود الكبير تلك الحملة الظالمة التي حملها كاتب مقنع في جريدة الأهرام على تعريب هذا الكتاب، وراح يتلمس عثرة للمعرب فلم يجد إلا بضعة ألفاظ عابها عليه وهى مفخرة له.

إن عبارة النقد تنم عن كاتبها وسوء نيته، وإني لأرجو أن يمر بها المعرب وتمر بها لجنة التأليف والترجمة والنشر مر الكرام، وسيجدون من أنصاف القراء وتقديرهم لهذا الكتاب القيم ما يكفيهم عناء الرد عليه.

أكرر التهنئة لصديقي (الكر دانى) وأرتقب مع القراء مجهودات أخرى له في الأدب العلمي الذي نفتقر إليه أشد افتقار.

أربعون يوما من عام 1914

تأليف الجنرال موريس

ترجمة الضابط محمد عبد الفتاح إبراهيم

تأبى حركة الترجمة في مصر إلا أن تكون قوية عنيفةواسعة النطاق حتى تشمل كل نواحي الحياة وشتى ضروب التفكير، فهذه آيات الأدب الغربي الرائعة، وألوان العلم المختلفة تنقل الى اللغة العربية. ويطالعنا المصريون فيشاطرون العالم المتمدن علمه وأدبه، حتى لتكاد العقلية المصرية أن تندمج في العقلية الأوربية اندماجا تاما، ولم تقتصر حركة الترجمة على الآداب والعلوم، ولكنها امتدت فتناولت شعبا وأطرافا متنوعة دقيقة، نعم امتدت حركة الترجمة حتى شملت الثقافة الحربية أيضا! فهذا كتاب (أربعون يوما من عام 1914) وضعه بالإنجليزية الجنرال موريس ونقله الى العربية الضابط الفاضل محمد عبد الفتاح إبراهيم. وأول ما نلاحظه إن المعرب ضابط في الجيش!!

ولست أشك في أن القارئ يسيء الظن. كما كنت أنا أسيء الظن بضباطنا جميعاً من حيث الرغبة في الاطلاع والدرس. فنحن إذن نسجل الثناء للمعرب الفاضل مضاعفاً، فقد اثبت نشاطا أو ميلا الى النشاط العلمي بين ضباطنا، وهو فوق ذلك قد ساهم بكتابه هذا في حركة التعريب الشاملة بنصيب محمود.

والكتاب تاريخ دقيق لأربعين يوما من سنة 1914، تلك السنة التي رفع فيها الستار عن أكبر مأساة شهدها التاريخ، إذ انطلقت صيحة الحرب العظمى تدوي في أرجاء العالم دويا شديدا، فارتج منها رجة عنيفة امحّت في أثرها دول وأنشئت أخرى. ففيه تحليل للخطط الحربية التي رسمها الألمان والفرنسيون، فتشعر حين قراءته بالمهارة البارعة التي كانت تبدو من قواد الفريقين، فهي محاورة طريفة بين الألمان والفرنسيين على الحدود الغربية، أقرب الى مباريات اللهو واللعب منها الى أي شيء آخر. هذا يريد أن يأخذ خصمه على غرة ويحيط بجناحيه أو يغزو قلبه، وذلك يفسد عليه خطته بمهارة فائقة تدعو الى الإعجاب. ويخيل إليك وأنت تقرأ الكتاب أنك بصدد رقعة للشطرنج بين

لاعبين، يكيد كل واحد منهما للآخر وينصب له الأحاييل (ولكن لم تكن وا أسفاه قطع ذلك الشطرنج من خشب أو عاج، وإنما كانت أرواحا بشرية تحصد حصدا بغير حساب)
الكتاب لذيذ ممتع
حقاً، وجدير بكل ضابط وكل مشتغل بالتاريخ ان يقرأه ويقتنيه، ولغة المعرب سلسة، فيها كثير من الدقة في التعبير والشرح، لولا بعض الأخطاء النحوية التي نؤاخذه عليها، وأظنها اكثر من هفوات يجوز أن تجتمع في كتاب واحد. نذكر قليلا منها على سبيل المثل: في صفحة52 وردت هذه العبارة: تسود الجنود روحا غريبة وصحتها روح غريبة. وفى ص 208 لم يكن ذو دراسة، وصوابها لم يكن ذا دراسة. وأمثال هذه الأخطاء كثيرة في الكتاب نرجو المعرب أن يتداركها بالتصحيح في الطبعة الثانية إن شاء الله، كما نرجو أن يكون اكثر دقة في تعريب الأسماء الجغرافية، فيذكرها كما هي شائعة معروفة في الكتب العربية ولا ينقلها حرفا بحرف، فمثلا في صفحة 38 ذكر مدينة باسل وهى تنطق بال بحذف السين، فذلك أكثر نفعا لقراء الكتاب.
ز. ن. م

العدد 15 - بتاريخ: 15 - 08 - 1933
بين النيل والاكروبول
إلى الشباب أسوق الحديث
رحلت إلى بعض بلاد الغرب وإلى بعض أمم الشرق فلم أجد شعبا كهذا الشعب هان وجوده على نفسه، وأنطمس تاريخه في ذهنه، فأعطى الضيم عن يد وهو صابر!! أسرف في اللين حتى رمي بالجبن، وأمعن في التسامح حتى وصف بالبلادة، وأفرط في التواضع حتى نسى الأنفة، وبالغ في إكرام الغريب حتى أصبح هو الغريب!! فليت شعري يا ابن العرب أو يا سليل الفراعين من أين داهمتك هذه الذلة؟! نسب يزحم النجوم، وحسب يَطُول الدر، وماض كالشمس نفذ إلى كل أرض وسطع في كل أفق، وواد كرفرف الخلد زخر بالغنى وفاض بالنعم! فكيف لا يرفع رأسك هذا النسب، ولا ينصب صدرك هذا الماضي؟
مالك تمشي في أرضك خافت الصوت، خافض الجناح، ضارع الجنب، كأن النيل يجري لغيرك، وكأنما الآثار تتحدث إلى سواك؟!
لقد أصبحت في بلدك المنكود تحيا حياة الجسم كما يحيا الأجير والخادم، أما حياة الروح التي ينبض فيها القلب بعزة القومية وصلف الوطنية، فقد أماتها فيك الوباء الوافد من كل مكان!!
إن إخوانك في سورية لا يحبون الغريب إلا صيفا، وان إخوانك في العراق لا يكرمون الأجنبي إلا ضيفا، أما الدود الذي يمتص الدم ويقذي العيون ويغشى النفوس فلا يجد مغذاه ومرواه إلا على النيل!! وليت الذي قاسمنا أنعُمَ الوادي الحبيب يذكر فضيلة الإحسان، ويشكر عطف الإنسان على الإنسان!! إنما يتمتع بخيرنا تمتع الغازي الفاتح، في يمناه سيفه، وفي يسراه قانونه، فإذا عاملناه احتقرنا، وإذا عاتبناه انتهزنا، وإذا ضج المغبون، أو صاح المسروق، أو صرخ الجائع، ضربه (الخواجة) ضربته، ثم استعدى عليه دولته!!
في أي بلد من بلاد العالم اليوم يأتي محام أجنبي، ليدافع عن مجرم من جنسه أجرم على هذا البلد، فيجد له القضاء في قلب قضاء هذا البلد، وقانوناً بجانب قانون هذا البلد، وقوة فوق قوة هذا البلد، ثم يقوم بين يدي قضاة من جنسه فيقول في بلاغة ديمستين وحماسة مَنْ، لا أدري:
أظهروا أيها السادة أنكم قضاة تنشقون هواء الأكروبول، وانكم لا تخوضون في ماء (النيل العكر)
معك الحق كله يامتر بابا كوس! لقد تركت أثينا في اليونان ثم عبرت البحر فوجدت أثينا في مصر!! فالفنادق للروم، والمطاعم للروم، والمقاهي للروم، والمواخير للروم، ودور السينما للروم، وقاضيك من الروم، وجانيك من الروم، وبقالك من الروم، وحلاقك من الروم، وخادمك من الروم! وإذا طلبت الماء، أو أردت الكهرباء، أو ركبت الترام، أو دخلت البنك، أو قصدت المتجر، وجدت كل ذلك في أيدي أقوام سحنتهم غير مصرية، ولغتهم غير عربية!! فإذا سألت (مخالي) عن المصريين قال لك أنهم أجراء

عند (خريمي) في المزرعة، أو سكارى عند (يني) في البار!! معك الحق كله يامتر بابا كوس أن تهين شعبا يسمع إهانته في كل يوم وفي كل مكان فيغضي ثم يمضي! وأي إهانة آلم وأشنع من (الامتيازات) وهي طعن في إنسانيته وقدح في كفايته وتجريح لعدله!! ولكن الحق يبرأ منك حين تقول وأنت وريث أرسطو ومِدْرَهُ أثينا إنك لم تقصد بهذه الجملة إهانة مصر، وإنما هي: (عبارة من عبارات البلاغة التي يستعملها المتكلم عادة) فلسنا من البلاهة بحيث يخدعنا عن جد الجريمة هزل الاعتذار!!

رحم الله أستاذنا المهدي! لقد كان يرى الرجل المتمدن يرمي الرجل المتمدن بالكلمة العوراء يندى لها جبينه، ويغلي منها دمه، فما هو إلا أن يقول الشاتم المتمدن للمشتوم المتمدن (سحبتُها) حتى يجف عرق الجبين، ويكف غليان الدم! فيقول الأستاذ بلهجته العربية:

(!عجيب!! كلمة قيلت كيف تُسحَبْ! ولطمة أصابت كيف تُسترد؟)

لا نريد من شبابنا أن يدفعوا البغي بالبغي، وإنما نريد منهم أن يفهموا الواغلين أن كدر النيل ليس من أهله، وأن الطريق الذي يسفي عليه الغبار والأقذار هو الطريق الذي فتحه لهم الاقتصاد المستعمر، فإذا ملناه ونظفناه عادت إلى نيلنا نقاوته، وإلى شعبنا كرامته

ليس على الأجنبي من حرج في أن يزاحمك في بلدك، فإنما جهاد الدنيا زحمة، وهو حين ينافسك ينافسك في حمى القانون، ويغالبك في حدود الطبيعة، وإنما الحرج كله عليك إذا ظللت تشتري وهو يبيع، وتغرم وهو يغنم!!

نضَّر الله الشباب العاملين!! لقد أخذوا يَجْلون عن وجه مصر الجميل غيرة القرون وذلة

الأحداث وإهانة الدخيل! نزلوا ميدان الاقتصاد جنودا متطوعين، وعمالا متواضعين، فعرفوا أين تكون المعركة الفاصلة بين الاستعباد والحرية، وبين الاستعمار والحق، وشقوا الطريق القاصد إلى إنقاذ مصر من احتلال دولي شديد الخطر قبيح الأثر لإتكائه على العدل واعتماده على القانون

إن (عيد الوطن الاقتصادي) و (مشروع القرى) و (تعاون الشباب) و (تعاون الطلبة) و (جماعة تمصير مصر) وشركات الدخان والألبان والإعلان والجزارة والمقاهي. . . فتح مبين في جهاد مصر الفتاة، وإن تَحَلَّل الشباب المثقفين من ربقة التقاليد وإسار العرف فلا يرون غضاضة في أن يقيموا المشارب والقهوات في مولد النبي ومولد الحسين يكونون فيها الطهاة والباعة والنُّدُل والمديرين، لهو تحلل لحاضر الطموح الناهض، من قيود الماضي القنوع العاجز. وليس على أولئك الشيوخ الذين مكنوا بجمودهم وقعودهم للأجنبي فطغى بيده، وبغي بلسانه، إلا أن يطووا معهم هذه الصفحة المخزية من تاريخ مصر، ويتركوا الشباب يجدد ما بلى، ويدعم ما وهى، ويسد ما خلَّ

إن شطط المبشرين قد انقلب إلى تبشير بالإسلام ودعاية إلى المؤسسات الخيرية، فهل تنقلب سفاهة (الممتازين) إلى إعزاز القومية المصرية، وتحقيق الأماني الوطنية؟؟

احمد حسن الزيات

لغو الصيف

للدكتور طه حسين

أيهما خير ياآنسة؛ أن نفترق الآن لنلتقي غدا، أم أن نظل كما نحن رفيقين في السفر والإقامة؟ قالت: بل أن نفترق لنلتقي بعد شهرين في القاهرة أو بعد شهر في باريس.

وحسبنا أن قد أقمنا معاً أسبوعاً كاملا في هذه المدينة من مدن البحر نلتقي إذا أصبحنا، ونلتقي إذا أمسينا ولا يفرق بيننا إلا الليل، قال: فإنك إذا قد سئمت هذا اللقاء وطال عليك أمده، وأخذت تودين لو فرقت بيننا النوى دهرا طويلا أو قصيرا! وما رأيك في أني بعيد كل البعد عن هذا السأم، كاره كل الكره لهذا الفراق الذي تحبينه وتطمحين إليه؟ قالت: لك أن تفهم رأيي كما أحببت وأن تقدره كما شئت، وأن ترضى عنه أو تسخط عليه، فمن المحقق أني لم أره لك وإنما رأيته لنفسي، ومن المحقق أني لم أعلنه إليك إلا وأنا محتملة لنتائجه عالمة بموقعه من نفسك وتأثيره فيها، ولن يغير من رأيي ما تبدى وما تعيد، فقل لي: إلى اللقاء ودعني أهيئ أمري فقد دنت

ساعة السفر، قال: ما شككت في أن ساعة السفر قد دنت، ولكن الذي أشك فيه هو أن دنو هذه الساعة يضطرنا إلى أن نفترق، فقد نستطيع أن نسافر معا كما أقمنا معا.
قالت: فإني لا أريد. قال: ما رأيت كاليوم ظرفا ولا رفقا ولا حسن مودة للأصدقاء، سنفترق يا آنسة ما دمت حريصة على هذا الفراق فهل تأذنين في أن أصحبك إلى القطار. قالت: ولا هذا فإني لا أحب هذا الوداع السريع البطيء في وقت واحد. ولا أحب أن يفترق الناس لأن قوة غريبة عنهم تكرههم على أن يفترقوا فلنفترق منذ الآن واكتب إلي، ولعلنا نستطيع أن نلتقي في باريس. فان أعيانا ذلك ففي القاهرة متسع للقاء المتصل والحديث الطويل. ثم صافحته في قوة وعلى وجهها ابتسام يشبه العبوس، وفي وجهه عبوس يشبه الابتسام.
ولم يكد يقبل المساء حتى كانت ماضية في قراءتها لا يصرفها عنها شيء، كما كان قطارها السريع ماضيا في سيره لا يقفه عنه شيء وكانت حركة الناس من حولها لا تسكن، وحديث الناس من حولها لا ينقطع، وأصوات الناس من حولها لا تهدأ. ولكن شيئا من ذلك لم يكن ليلهيها عن هذا الكتاب الذي غرقت فيه. حتى إذا انتهت بها القراءة إلى شيء من الجهد والإعياء، ووضعت كتابها لتستريح ورفعت رأسها تجيل الطرف فيما حولها لم يرعها إلا
صديقها الأديب جالسا أمامها جلسة المتأدب الخاضع الذي ينتظر أن يفرغ سيده له ويلتفت إليه. فلما رأته لم تدهش ولم تنكر، ولكنها أظهرت ضيقا به وغضبا عليه، وقالت في لهجة حازمة: أتعلم أني أكره هذا النوع من اللعب، وأنك توشك أن تغيظني وتحفظني وتصرفني عنك إن مضيت فيه؟ قال في صوت خافت غير مطمئن: أعلم ذلك حق العلم وآلم له أشد الألم، ولو استطعت أن أكون عندما تحبين ما أثقلت عليك، ولا ترددت في طاعتك، ولا تحولت عما يرضيك. ولكن ما رأيك في أني لا أحب أن أموت، قالت ولم تملك نفسها من ضحك غالبته فغلبها: لا تحب أن تموت؟ قال نعم لا أحب أن أموت، ألم تفهمي بعد؟ قالت: ومتى رأيتني أحل الألغاز؟ قال: والغريب أنك قد عاشرت الفرنسيين فأطلت عشرتهم وأتقنت لغتهم وآدابهم الرفيعة والشعبية حتى كأنك واحدة منهم. فكيف يغيب عنك ما يتحدثون به كلما هموا برحيل أو فراق، وهل تعلمين شعراً وجد عددا ضخما من الرواة، تختلف طبقاتهم وتتفاوت منازلهم كهذا الشعر الذي ينشده الفرنسيون كلما هموا أن يفترقوا إنما السفر ضرب من الموت بالقياس إلى المحبين، قالت: وقد نسيت غضبها واطمأنت إلى طبعها، وخرجت من التكلف ولاءمت بين حديثها ومظهرها، وبين ما وجدت من الغبطة بلقائه الذي كانت ترجوه، والذي كانت تغضب وتحزن لو لم تظفر به، فأنت إذا تريد إلى هذا اللغو من الحديث، قال أنت تزعمين أنه لغو أما أنا فأراه الجد كل الجد، والحق كل الحق. ولولا أن السفر ضرب من الموت لما كرهه المحبون، ولا سخط عليه الشعراء، ولا تغنوا آلامه وأحزانه. ولولا أن السفر ضرب من الموت حين يفرق بين الناس لما رأيتني الآن في هذا المكان بعد أن افترقنا على أن لا نلتقي حتى يمضي شهر أو أكثر من شهر. ولكني فكرت بعد أن افترقنا، فرأيت أني ميت بالقياس إلى كل الأصدقاء الذين تركتهم في مصر، مهمل بالقياس إلى كل هؤلاء الناس الذين كانوا حولي في نيس، والذين سألقاهم في باريس، وأني لاحتفظ من الحياة إلا بشعاع ضئيل، هو هذا الذي أحسه حين أصحبك وأسمع لك وأتحدث اليك، فشق علي أن أجود بهذا الشعاع، وأن أسلم نفسي للموت المطبق والإهمال المطلق شهراً وبعض شهر، ولولا خوف الموت والضيق بالإهمال ما خرجت عن طاعتك ولا خالفت عن أمرك، ولا عرضت نفسي لهذا الغضب اللاذع وهذه الثورة المهينة. قالت: فقد عدت إلى ذكر الغضب والثورة كأنك تريد أن أنكرهما أو أعتذر منهما أو أنبئك
بأني تكلفتهما تكلفا، واصطنعتهما اصطناعا. قال: لا تنكري شيئا ولا تعذري من شيء، فأنا معترف بأني ملح، وأنا معترف بأني مثقل في الإلحاح، ولكنك تعودت احتمالا لهذا الثقل، وتجاوزا عن هذا الإلحاح، فدعي حديثهما وحديث الغضب والثورة، وحدثيني عن هذا الكتاب الذي لم تكادي تقبلين عليه حتى ألهاك عن كل شيء، وصرفك حتى عن هذه المناظر البديعة الخلابة التي تعرضها عليك الطبيعة عرضا سريعا أثناء سير القطار. قالت: هذا كتاب تعجب إن عرفت أني أقرأه للمرة الخامسة، فأنا لا أعرف كتابا أهون ولا أيسر ولا أمتع ولا ألذ من هذا الكتاب أثناء السفر الطويل، أو حين يلح

على الحزن الثقيل. هذا كتاب من كتب كورتلين، قال: هو كتاب (قطار الساعة الثامنة والدقيقة السابعة والأربعين) قالت: هو ذاك، قال: فإني لم أقرأه خمس مرات، لكني قرأته ثلاثا، ولولا أني علمت أني سأصحبك في القطار لقرأته للمرة الرابعة! فأنا مثلك معجب بهذا الكتاب إعجابا لا حد له، والغريب أني لا أدري بماذا أعجب من هذا الكتاب! بمعانيه أم بألفاظه أم بأسلوبه، أم بهذه الصور الرائعة التي يعرضها علينا في غير انقطاع؟ أم بهذا كله مما أعرفه، وما أحسه دون أن أعرفه، فهذا الكتاب عندي آية من آيات الأدب الفرنسي. قالت: وعند كثير من الفرنسيين أيضا، وإذا لم تكذبني الذاكرة فقد كان أناتول فرانس مشغوفاً به شغفاً عظيما، لست أدري أكان يعده بين آيات الأدب أم لا. وأني لأرجو أنه لم يضعه بين هذه الآيات فقد كان أناتول فرانس يضيق بآيات البيان ويرى أنها ثقيلة مملة، وليس في هذا الكتاب شيء من الثقل ولا الإملال. قال: ومع ذلك فان في هذا الكتاب ألفاظا لا تكاد تحصى وجملا لا يكاد يبلغها العد، وكلها خارج على النحو الفرنسي، مخالف لأساليب البيان المألوف. قالت: فهذا مظهر من مظاهر الجمال في هذا الكتاب، ومصدر من مصادر الإعجاب به، وسبب من هذه الأسباب التي تضطرنا إلى مراجعة النظر فيه. وما رأيك لو أن كورتلين أنطق أبطاله بهذه اللغة الفرنسية الفصحى، وأجرى على ألسنتهم هذه الجمل الأدبية الرائعة التي تجدها في كتب كورتلين نفسه وفي كتب غيره من الأدباء؟. إذا لما وجدت في الكتاب لذة كهذه اللذة التي أجدها الآن، ولعلي أن أعجز عن المضي في قراءته إلى آخره فضلا عن أن أقرأه مرات. إن للغة الفصحى خطرها وقيمتها، وهي مقياس البيان وظرف الأدب، ولكنها قد تسخف وتسمج إذا جرى بها لسان هذا الجندي الذي اتخذه كورتلين بطلا لقصته.

قال: هذا حق ومهما أنس فلا أستطيع أن أنسى هذه الجملة الطريفة التي يرددها جندي كورتلين كلما وقف موقف الحرج أمام الكابتن: ` فلولا هذه اللحنة الظريفة الشائعة، التي تجري بها ألسنة العامة من الفرنسيين والتي أذاعها كورتلين، حتى تفكهت بها الخاصة لما كان لهذه الجملة موقع في النفس حسن، ولا منزل من القلب عجيب. قالت: وكل كلام الجندي وكلام رفاقه ظريف محبب إلى النفوس لأن ما فيه من اللحن والتواء الأسلوب يصور روح الشعب كما هي صريحة مستقيمة لا غموض فيها ولا التواء. قال فأنت إذا من أصدقاء اللغة العامية وأنصارها، وماذا لو عرف أعلام البيان في مصر عنك هذا الرأي؟. قالت: لا أصنع شيئا فليس يعنيني أن يعرفني أو ينكرني أعلام البيان في مصر أو في غير مصر. وما تعودت قط أن أرى الرأي فاسأل نفسي عن حظه من رضى الناس أو غضبهم. قال: قد علمت ذلك حق العلم وجربته حق التجربة، ولم تمض ساعات على هذه التجربة اللذيذة الأليمة معا. ألست قد زعمت لي؟ قالت: لم أزعم لك شيئا! فلا تعبث ولا تفسد علينا بهذا الاستطراد ما نحن فيه من الحديث، لست من أصدقاء اللغة العامية، ولكني لست من أعدائها. وما أذكر أني كتبت شيئا باللغة العامية، وما أظن أني سأكتب بها شيئا؛ لأني لا أحب ذلك، ولو أحببته ما قدرت عليه. ولست أرضى أن تصبح اللغة العامية لغة البيان الأدبي، ولا أعطف على كاتب يتعمد الكتابة بها ويتخذها ترجمانا لما يريد أن يعرضه من الخواطر والآراء، ولكني على هذا كله لا أستطيع أن أمحو هذه اللغة، ولا أستطيع أن أنكر أن لها جمالا تنفرد به أحيانا وتعجز عنه اللغة الفصحى. ولا أستطيع أن أمحوها من قلوب الأشخاص الشعبيين وأضع مكانها اللغة الفصحى، وأوفق مع ذلك إلى تصوير هؤلاء الأشخاص الشعبيين تصويرا صادقا كل الصدق، جيداً كل الجودة، متقنا كل الإتقان. قال وهو يبتسم ابتسامة ملؤها المكر والخداع: ألا تعجبين أن ينتهي بنا الحديث عن كورتلين إلى الحديث عن توفيق الحيكم؟ قالت: ومن توفيق الحكيم؟ ما سمعت به قبل اليوم!. قال: فأنت إذا من أهل الكهف. قالت: وأي عجب في أن أكون من أهل الكهف، ومتى زعمت لك أني أعرف الناس جميعا أو أقرأ للناس جميعا؟!. قال فان أهل الكهف عنوان قصة لتوفيق الحكيم هذا الذي لم تعرفيه ولم تسمعي به، وأؤكد لك أني اكره لك هذا الجهل. فتوفيق الحكيم شاب خليق أن يعرف، ومن العيب كل العيب أن يجهله أديب شرقي. ولكنك قد أقررت على نفسك بأنك من أهل الكهف فلا لوم ولا تثريب. قالت: قد أقررت وأنا خليقة أن ألام فأنبئني عن توفيق الحكيم، وكيف انتهينا من حديث

كورتلين إليه، وأي سبب بين هذا الشاب المصري وهذا النابغة الفرنسي؟ قال: بينهما سبب لا أدري الآن ما هو، ولعله أن صدقت الظنون وتحققت الآمال أن يكون التفوق والنبوغ، ولعل الله قد أذن لمصر أن يكون فيها كورتلين كما كان في فرنسا. قالت: فإني لا أحب الإطالة، ولا أحب الالتواء، فأوضح وأبن عما تريد. قال توفيق الحكيم يا آنسة شاب مصري، ظهر فجأة بقصة تمثيلية أنت أحد أشخاصها. قالت: أنا أحد أشخاصها! ماذا تقول؟ قال: نعم! لأن أشخاصها أهل الكهف، ولست أريد أن أطيل في تقريظ هذه القصة. وإنما أقول أني قرأت في هذا العام قصصا تمثيلية كثيرة ظهر بعضها بالفرنسية، وبعضها بالإنجليزية، وبعضها بغير هاتين اللغتين. وترجم أليهما أو إلى إحداهما، فكانت قصة أهل الكهف هذه خير ما قرأت من هذه القصص كلها وأحسنها موقعا من نفسي، وأشدها إثارة لإعجابي. ولست أدري أمعجب أنا بموضوعها أم بأسلوبها السهل، أم بألفاظها الساذجة أم بتحليلها الدقيق أم بهذا كله، ولست أشك في أن إعجابي بها سيضاعف منذ اليوم لأنك أحد أشخاصها. ومن يدري لعلك برسكا التي صورها توفيق الحكيم! قالت: وقد ضاقت بهذا المزاح: لو كنت برسكا لما جهلت مبدعي! قال: كم بين الناس يعرفون مبدعهم؟ قالت: وقد كتب صاحبك هذه القصة باللغة العامية؟ قال: لا، بل بلغة لا تبعد كثيرا عن العامية. وليست هذه القصة هي التي ذكرت حين تحدثنا عن كورتلين، فان لتوفيق الحكيم قصة أخرى غير تمثيلية سماها عودة الروح. والغريب أن أهل الكهف ظفرت أول الأمر بإعجاب الشباب والشيوخ جميعا. فلما ظهرت عودة الروح تنكر لها بعض أعلام البيان في مصر، ودعا هذا التنكر بعضهم إلى أن يراجعوا إعجابهم بأهل الكهف فيخففوا منه ويقتصدوا فيه. أما الشباب فأضافوا إعجابا إلى إعجاب، ورضى إلى رضى وبدءوا يتخذون هذا الكاتب الشاب قدوة لهم ومثالا. قالت: وماذا ينكر أعلام البيان من عودة الروح؟ قال لغتها، فهي ككتاب كورتلين أبطالها شعبيون فينطقهم المؤلف بلغة الشعب. ولعله يغرق في ذلك بعض الشيء، وأعلام البيان يكرهون ذلك ويحرصون على إلا تظهر آيات البيان إلا في اللغة الفصحى، وهم يضنون بهذا الشاب على أن ينفق جهده الخصب ويضيع وقته العزيز في هذه اللغة

المبتذلة، قالت: ولكن القصة نفسها ما رأيهم فيها؟ فليست القصة ألفاظا خالصة ولا معاني خالصة، وإنما هي قوام من الألفاظ والمعاني، ولا بد من أن يستقيم لها جمال اللفظ وجمال المعنى، فهب ألفاظها رديئة عند أعلام البيان فما حكمهم في معانيها؟ قال: قرأها بعضهم لم يظهر رضى ولا سخطا، ولم يستطع بعضهم الآخر أن يقرأها فعابها لأن لغتها العامية صرفته عن قراءتها. قالت: فهذا بخل بالإنصاف وتجاوز للقصد، وقد شوقتني إلى أن أقرأ هذين الكتابين، ولكن هلا حدثتني عنهما حين كنا في القاهرة. قال ومتى حدثتك في القاهرة عما كنت أريد أن أحدثك عنه، إنما نلتقي فتمضي الأحاديث بيننا كما تريد هي لا كما نريد نحن، ولولا أني سألتك عن هذا الكتاب الذي تقرئين لما جرى بينك وبيني ذكر لتوفيق الحكيم، وهل فرغنا من الحديث عن أنفسنا لنتحدث عن هذا الأديب الجديد. قالت: كم كنت أحب أن اظفر بكتابيه لأفِرَّ إليهما منك ومن نفسي فقد يخيل إلي أنا نسرف في الحديث عن أنفسنا ونغلوا في الإعراض عن غيرنا. وقد يخيل إلي أن بين هؤلاء الكتاب الناشئين من هم أحق بعنايتك وعنايتي من هذا اللغو الذي نخوض فيه كلما التقينا. قال: وعلى ذكر كورتلين وتوفيق الحكيم، ما رأيك في هذا الكتاب الفرنسي الجديد الذي كثر الكلام فيه، واختلف فيه أدباء فرنسا كما اختلف أدباء مصر في كتاب توفيق الحكيم؟ قالت: وما ذاك أيضا؟ قال ماذا، ألم تقرئي كتاب سيلين الذي سماه سياحة في آخر الليل؟ ألم تقرئي ما كتب النقاد حول اللغة التي ألف فيها هذا الكتاب؟ قالت لا، قال وهو يضحك: معذرة فقد أنسيت أنك نائمة، وأنك من أهل الكهف. قالت: وقد رمته بكتابها مغيظة منه محنقة عليه: هبني نائمة فما لك لا توقظني وما اختلافك إلي في القاهرة، وما لزومك لي في نيس، وما مرافقتك لي في هذا القطار على كره مني. قال وقد أغرق في الضحك: إنما رافقتك في القطار يا آنسة لاوقظك، ولأخرجك من الكهف، ولأنبئك بأن في مصر شابا يقال له توفيق الحكيم كتب قصة يقال لها أهل الكهف، وأخرى يقال لها عودة الروح. وبأن في فرنسا أديبا جديدا يسمي نفسه سيلين، وقد أظهر كتابا أسماه (سياحة في آخر الليل) اختلف الناس فيه اختلافا كثيراً. قالت: فيم اختلفوا قال: في لغته فهو أيضا مسرف في

حب العامية، وأنا معجب بكتابه إعجابا شديداً، مبغض للغته بغضا شديداً لأنه يتعمدها تعمداً ولا تدفعه اليها الحاجة ولا الضرورة ولا الرغبة في التصوير الصادق والتعبير الصحيح. وكل هذه الكتب

عندي أستطيع أن أعيرك إياها لتقرئي وتحكمي ثم لنتحدث بعد ذلك. قالت: فابدأ بقصة أهل الكهف فأعرني إياها منذ الآن فسأنفق ليلتي بينها وبين كورتلين. قال: ولكن أليس خيرا منها ومن كورتلين ان ننفق ساعة أو بعض ساعة؛ لا أقول في الحديث فقد يظهر انك سئمته وضقت به؛ وانما أقول في العشاء فإني اسمع جرس الخادم يدعو اليه؟!

الاشعاع

للأستاذ احمد أمين

كتب أخي الدكتور احمد زكي في مجلة الرسالة مقالا ممتعا في الإشعاع في (باب العلوم) تكلم فيه عن اشعاع الشمعة والنجوم والشمس والإشعاع اللاسلكي وموجات الضوء واختلافها، فأوحت مقالته إلي معاني في الإشعاع النفسي.

ان للنفوس والعقول إشعاعات لا تقل جمالا عن إشعاعات النجوم والكواكب، نشعر بها وقد لا نستطيع التعبير عنها، وهي أشد غموضا وتعقدا من الإشعاع الحسي، وهي مختلفة أكثر من الاختلافات بين أشعة الألوان من حمراء وبنفسجية وتحت الحمراء وفوق البنفسجية وما بين ذلك، وهي مختلفة في القوى أشد من اختلاف المصابيح الكهربائية، فلئن كانت قوة المصباح شمعة أو شمعتين أو ألفا أو ألفين فللنفوس قوى تختلف إلى ما لا نهاية له صغرا وضآلة، والى ما لا نهاية له عظمة وسناء

لعلك تشعر معي أنك ترى الرجل أو تحادثه أو تجالسه أو تسمع لمحاضرته فيشع عليك نوعا من الاشعاع يخالف الآخر قد تحسن التعبير عنه وقد لا تحسن، فهذا يشع عليك سرورا وأريحية واطمئنانا، وهذا يشع حزنا ووجدا ورقة وحنانا، وذاك يشع هيبة وجلالا ووقارا، وآخر يشع ضعة وذلة وهوانا، وقد تحس من رجل بنوع من الأشعة تدركه وتستطعمه، ولكنك لا تستطيع وصفه كما إذا أكلت كمثرى وتذوقتها وأردت أن تصف طعمها لمن لم يذقها.

في الناس من إذا جالسته أشع عليك نورا أضاء لك ما بين جوانبك فأدركت نفسك، وأشع نورا على العالم الذي حولك فتبينته وعرفت محاسنه ومساوئه، وأدركت مكانك منه، ورأيت كل شيء حولك صافيا لينا كأنك تنظر اليه من مصباح (المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار).

وفي الناس من يجالسك فتتلقى منه أشعة مظلمة تنقبض لها نفسك وتظلم جوانبها وتحس بميل إلى الفرار منها، وتتنفس الصعداء إذا بعدت عنها ونجوت من ظلامها وخرجت إلى النور.

قديما قالوا: (ان وردة عمر أهيب من سيف الحجاج) ذلك لأن عصا عمر معها يد عمر ومعها نفس عمر، وهي تشع جلالا وعظمة وتخضع أمام أشعتها نفوس الجبابرة، ويحس كل من وقعت عليه هذه الأشعة أنها صادرة من مستودع قوي دونه المصباح الكهربائي، البالغ ما وصل اليه العلم من القوة، وأما سيف الحجاج فمعه نفس الحجاج، وهي تشع من غير شك قوة، ولكنها قوة على الجسم لا على الروح، قوة تخاف وتُرهب ولكن لا تُحترم ولا تحب، أشعة عمر كانت تطاع سرا وعلنا، وأشعة الحجاج تطاع علنا لا سرا، لذلك كفت عمر عصاه، ولم يغن الحجاج سيفه

هذا الاشعاع هو السر في أنك تلي عظيما فيملؤك أثرا ويملؤك قوة، بهيئته، بنبرات صوته، بطريقة تعبيره، بنظراته، بإشاراته، بهزة رأسه، بحركة يديه، فكان في كل عمل من هذه الأعمال يوصل بينك وبينه تيارا كهربائيا قويا يهزك هزا عنيفا. قد لا يحدثك طويلا، وقد لا يكون لكلامه في الواقع قيمة ذاتية، ولكنه يوقظ نفسك ويحيي روحك، وتبقي رنات كلماته في الأذن الأيام والليالي، تعمل عملها في هدوء حينا وعنف حينا، وأصدقك أني لقيت عظيما من هذا النوع يوما فخرجت من عنده مملوءا حماسة وقوة وحياة، حتى إذا بلغت إلى محطة الترام لأركبه إلى مسافة بعيدة عفت الركوب لأنه يبعث على السكون ونفسي ثائرة، والمشي في شدة القيظ ظهر أنسب لها وأكثر اتفاقا لما هي فيه من نشاط وقوة. إذا ذكرت الآن كلامه لم أجده ذا قيمة، وكثير من الناس يتكلمونه ويتكلمون خيرا منه وأسمى وأعمق، ولكن أحدا منهم ليس له هذا

الاشعاع ولا قوته وعظمته. وحدثني من أثق به أن الأستاذ جمال الدين الأفغاني كان يرتطن عجمة، ولم يكن فصيح اللسان ولا سلس القول، ولكن تجلس معه فيشعلك نارا دونها فصاحة الفصيح وبلاغة البليغ، لانها النفس مستودع كهربائي قوي يصعق أحيانا، ويضيء أحيانا، ويدفع للحركة أحيانا

والرجل العظيم، أو الكاتب الكبير، أو المؤلف القدير، يخرج ما ينتجه كتلة من الأشعة من جنس نفسه. ألست تقرأ المقالة أو الكتاب فيشع عليك معاني مختلفة، منها الهادئ الرزين، ومنها القوي المتين، منها المضحك، ومنها المبكي. منها الذي يأخذ بيدك فيحلق بك في السماء، ومنها ما يدفعك إلى الحضيض، وآية هذا الاشعاع أنك تقرأ المقالة أو الكتاب فيبعث عندك من المعاني ما لا تدل عليه الألفاظ، من طريق الحقيقة ولا المجاز، بل ما بين السطور يشع كالسطور نفسها، أولست ترى مقالة الاشعاع في باب العلوم أَشَعَّتْ عليَّ معاني في باب الأدب؟

ليسم هذا علماء النفس تداعي المعاني، أو ليسموه إيعازا أو اقتراحاً أو ليسموه ما شاءوا، فليست الا إشعاعات نفسية من جنس الإشعاعات التي يشعها الأشخاص في كلامهم وحديثهم وحركاتهم فتلقف منها من المعاني ما يقرب وما يبعد. وفي الأماكن كذلك أشعة مختلفة، فشارع عماد اليدن يشع رغبة في اللهو وميلا إلى مسرات الحياة، والمساجد تشع ميلا للعبادة وتمجيدا لله، والبحر الجليل يشع عظمة وجلالا، ونجوم السماء تشع حسنا وجمالا، والبنك يشع حبا في المال، والجامعة تشع حباً في العلم، بل وكل بلد يشع نوعا من الأخلاق، وإلا فلم يذهب المصري إلى إنجلترا وقد اعتاد الفوضى في حياته ومواعيده وصحوة ونومه، فما هو الا أن يطأ أرضها حتى ينقلب خلقا آخر دقيقا في نظامه، دقيقا في معيشته؟ ويذهب المصري إلى ألمانيا فيكون في بيئة علمية فيشرب من مشربهم ويسير سيرتهم، فإذا عاد هذا وذاك إلى مصر عادا سيرتهما الاولى، ما هو الا الجو النفسي تلقى فيه أشعة نفسية مختلفة الاثر، مختلفة الألوان

ومن قوانين هذا الاشعاع النفسي أنه في كثير من الاحيان يعتمد على الفاعل والقابل معاً، واعتماده على القابل أبين فيه من الاشعاع الحسي، فاللون الأبيض أبيض عند كل الناس، والأحمر أحمر عند كل الناس، الا من أصيب بعمى اللون، وليس كذلك الاشعاع النفسي، فالخطيب يخطب وإشعاعه يختلف باختلاف السامعين، والكلمة قد تهدي ضالا وقد تضل هادياً، كما يقول المثل الإنجليزي (إن الليل الذي يغمض عين الدجاج يفتح عين الخفاش) وهذا هو السبب في أنك تستخف روح إنسان وغيرك يستثقله، وتعجب بقول متحدث ومن بجانبك يستسخفه، وتتفتح نفسك لكتاب وغيرك ينقبض منه، ما هذا الا لأن الاشعاع الواحد يختلف باختلاف من وقع عليه الشعاع، وإن هناك تفاعلا قوياً بين مصدر الاشعاع وقابله، ومن أجل هذا قد ترى لصا في مسجد وعابدا في حانة.

وموسى الذي رباه جبريل كافر ... وموسى الذي رباه فرعون مرسل

والأرض يمطرها السحاب، فمنها جنان ناضرة، ومنها صحراء مجدية قاحلة، والنار تضيء للساري فيهتدي وللفراش فيحترق

لقد أثبت العلم الاشعاع اللاسلكي وأصبحنا نسمع الآن من الراديو أصوات الموسيقى في أوربا، وسنسمعها من أمريكا، وسنسمعها من أنحاء العالم، ومعنى هذا أن في جو مصر تموجات من أوربا وأمريكا وأنحاء العالم، وإذا كان هذا في المادة فإشعاع النفوس أبعد مدى، وأنفذ شعاعا، وأسرع سيرا. وإذا كان في حجرتي أمواج هوائية من مناحي العالم يظهرها الراديو، فان في حجرتي ملايين واكثر من الملايين من إشعاعات نفسية تشع من السماء ومن الأرض ومن النفوس البشرية، ومما لا يعلمه الا الله. وما الفكرة تصدر عني، ولا الإلهام ألهم به فلست أعرف له مصدرا وليس يخضع لقوانين المنطق ولا نظريات الاستنتاج، ولا الظواهر النفسية تتعاقب علي فلا اعرف تعليلها من انقباض وانبساط، وسمو وانحطاط، وكدورة وصفاء، وظلمة وضياء الا أثر من هذا الاشعاع

ان وراء هذا العالم المادي عالما روحانيا نفسيا أسنى وأبهى، وإذا كان للأجسام والحواس جو يحيط بها قد امتلأ أشعة من نجوم وكواكب وشموع ومصابيح، فللنفس جو يحيط بها اشتبكت فيه أشعة نفسية لا عداد لها. وإذا كان للعين أفق يختلف

باختلاف النظر قصرا وطولا، فللنفوس أفق يختلف كذلك، فبعضها ينفذ إلى ما وراء الحجب ويستمد منه ما يستخرج العجب، وبعضها قصير المدى قريب المتناول. ولئن كانت قوانين الاشعاع الحسي لما يستكشف منها الا قليل، فقوانين الاشعاع النفسي أشد تعقدا وأكثر التواء غموضا، والعاكفون على دراستها، والموفقون لاستكشاف بعضها أقل وأندر. خضع كل الناس للإشعاع المادي، وخضع كل الناس للإشعاع النفسي، ولكن آمن بالأول كل الناس، وما آمن بالثاني الا قليل.

هل تنبعث من عالم النفس شرارة قوية تضيء جوانب النفوس؟ وهل يبعث العالم النفسي موجة قوية تعم العالم وتهزه هزة عنيفة فينتبه من سباته، ويهب علماؤه لتنظيم الحياة الروحية كما نظموا الحياة المادية، ويتخصص علماء النفس لاستكشاف قوانين الاشعاع النفسي كما استكشف الماديون قوانين الاشعاع الحسي، ثم ينتفعون وينفعون الناس كما انتفعوا بقوانين الضوء وما اليه، وإذ ذاك يكون الناس أسعد حالا وأهدأ بالا وأكثر اطمئنانا؟ من يدري!!!

صور من التاريخ الإسلامي

عمر بن عبد العزيز 62 - 101هـ

للأستاذ عبد الحميد العبادي

3

لم يكن عمر بن عبد العزيز صاحب حق في الخلافة بمقتضى نظام الخلافة الأموية. ولكن ذيوع فضله وسموه الروحي على سائر بني أمية لفت اليه نظر أولي الحل والعقد من صلحاء الشام أمثال رجاء بن حيوة الكندي وابن شهاب الزهري ومكحول الشامي، فلما مرض سليمان بن عبد الملك بدابق مرضه الذي مات فيه ولم يكن له ولد بالغ يعهد اليه، لم يزل به رجاء بن حيوة وأصحابه حتى كتب عهده لعمر بن عبد العزيز، ثم من بعده ليزيد ابن عبد الملك. ثم أمر فأخذت البيعة من بني أمية لمن سمى في عهده دون أن يعينه لهم، فلما قبض سليمان وأعلن الأمر إلى بني أمية جددوا البيعة لعمر على كره منهم (20 صفر سنة99)

شرع عمر في تنفيذ برنامجه الإصلاحي منذ تم له الامر، ولقد كان له من زهده، ومناصرة العلماء له، ومؤاتاة أهل بيته: زوجه فاطمة، وابنه عبد الملك، وأخيه سهل، ومولاه مزاحم، أقوى عون على ما أراد. بدأ عمر بمنصب الخلافة ممثلا فيه فجرده من كل مظاهر الأبهة ورده إلى بساطته القديمة؛ ولا أدل على ذلك من كلام ابن عبد الحكم قال: (ولما دفن سليمان وقام عمر بن عبد العزيز قربت اليه المراكب؛ فقال ما هذه؟ فقالوا مراكب لم تركب قط يركبها الخليفة أول ما يلي. فتركها وخرج يلتمس بغلته؛ وقال يا مزاحم ضم هذه إلى بيت مال المسلمين. ونصبت له سرادقات وحجر لم يجلس فيها أحد قط كانت تضرب للخلفاء أول ما يلون، فقال ما هذه؟ فقالوا سرادقات وحجر لم يجلس فيها أحد قط يجلس فيها الخليفة أول ما يلي، قال يا مزاحم ضم هذه إلى أموال المسلمين، ثم ركب بغلته وانصرف إلى الفرش والوطاء الذي لم يجلس عليه أحد قط، يفرش للخلفاء أول ما يلون، فجعل يدفع ذلك برجله حتى يفضي إلى الحصير، ثم قال يا مزاحم ضم هذه لأموال المسلمين.

وبات عيال سليمان يفرغون الأدهان والطيب من هذه القارورة إلى هذه القارورة،) ويلبسون ما لم يلبس من الثياب حتى تتكسر. وكان الخليفة إذا مات فما لبس من الثياب أو

مس من الطيب كان لولده، وما لم يمس من الثياب وما لم يمس من الطيب فهو للخليفة بعده. فلما أصبح عمر قال له أهل سليمان هذا لك وهذا لنا، قال: وما هذا، وما هذا؟. . . ما هذا لي ولا لسليمان ولا لكم ولكن يا مزاحم ضم هذا إلى بيت مال المسلمين. ففعل، فتآمر الوزراء فيما بينهم فقالوا: أما المراكب والسرادقات والحجر والشوار والوطار فيه رجاء بعد أن كان منه فيه ما قد علمتم، وبقيت خصلة وهي الجواري نعرضهن، فعسى أن يكون ما تريدون فيهن، فان كان وإلا فلا طمع لكم عنده. فأتى بالجواري فعرضن عليه كأمثال الدمى، فلما نظر إليهن جعل يسألهن واحدة واحدة من أنت؟ ولمن جئت؟ ومن بعثك؟ فتخبره الجارية بأصلها ولمن كانت وكيف أخذت فيأمر بردهن إلى أهلهن ويحملهن إلى بلادهن حتى فرغ منهن. فلما رأوا ذلك أيسوا منه وعلموا أنه سيحمل الناس على الحق)

ثم عمد إلى النظام الإقليمي فأصلحه بأن عزل العمال المتشبعين بروح الحجاج، عزل يزيد بن المهلب وحبسه في مال كان للدولة في ذمته، ونفى نفرا من بني عقيل أسرة الحجاج، وولى عمالا جددا لم يحفل في تخيرهم بعصبياتهم ولا بقدرتهم على جمع الأموال كما كانت الحال من قبل، ولكن بحسن سيرتهم وطهارة ذمتهم، فكان من عماله عدي بن أرطاة الفزاري والي البصرة، وعبد الحميد بن عبد الرحمن القرشي والي الكوفة، وعبد الرحمن بن نعيم القشيري أمير خراسان، وأبو بكر بن حزم أمير المدينة، والسمح بن مالك الخولاني أمير الأندلس. وقد شد أزر الولاة بقضاة عدول، فجعل الحسن البصري على قضاء البصرة، وعامرا الشعبي على قضاء الكوفة كما جعل أبا الزناد كاتبا لأمير الكوفة. ولم يكتف عمر بذلك في إصلاح الإدارة الإقليمية بل تقدم إلى العمال في أمر العقوبات ألا يأمروا بقطع أو صلب قبل مراجعته هو أولاً.

ثم ثنى عمر بالمسائل المالية فرد المظالم، والمراد بالمظالم الأموال التي استولى عليها بنو أمية بغير حق، وقد بدأ في ذلك بنفسه فخرج لبيت المال عن كل مال لم يرض سبب تملكه، حتى لم يبق له الا عقار يسير ببلاد العرب يغل عليه غلة يسيرة فوق عطائه الذي كان يبلغ مائتي دينار في العام، ثم أخذ يتتبع أموال بني أمية يرد منها ما ليس مشروع الملكية إلى مستحقه، وقد هاج ذلك سخط بني أمية عليه، وذهبوا ينعون عليه أخذه أموالهم باسم (المظالم)؛ فلم تلن لغامزهم قناته، وأراهم أنه لا يحجم عن بلوغ الغاية في التنكيل بهم

إذا اقتضى الأمر ذلك. يروي ابن عبد الحكم (ان رجلا من أهل حمص أتاه يخاصم روح بن الوليد بن عبد الملك في حوانيت بحمص كان أبوه الوليد أقطعه إياها، فقال له عمر أردد عليهم حوانيتهم؛ قال له روح: هذا معي بسجل الوليد، قال وما يغني عنك سجل الوليد والحوانيت حوانيتهم، قد قامت لهم البينة عليها؟ خل لهم حوانيتهم. فقام روح والحمصي منصرفين، فتوعد روح الحمصي، فرجع الحمصي إلى عمر، فقال هو والله متوعدي يا أمير المؤمنين، فقال عمر لكعب بن حامد وهو على حرسه: أخرج إلى روح يا كعب، فان سلم اليه حوانيته فذلك، وان لم يفعل فأتني برأسه! فخرج بعض من سمع ذلك ممن يعنيه أمر روح بن الوليد فذكر له الذي أمر به عمر، فخلع فؤاده. وخرج اليه كعب وقد سل من السيف شبرا، فقال له: قم فخل له حوانيته! قال نعم! نعم! وخلي له حوانيته)

وسار عمر في إصلاح الشئون المالية على الأساس الشرعي، فالأموال ينبغي أن تجبى من وجوهها وتنفق في مصارفها الشرعية، فمن أسلم من أهل الذمة سقطت عنه الجزية، وقد اسقط الجزية فعلا عن كثير من موالي خراسان وأهل مصر، وقال مقالته المشهورة (إن الله بعث محمدا هاديا ولم يبعثه جابيا) ونهى عن أن تصير الأرض الخراجية أرضا عشرية ابتداء من سنة 100 هـ مع عدم التعرض للحقوق التي اكتسبت من قبل، وألغى وظيفة مالية وظفها أخو الحجاج بن يوسف على اليمن فوق الزكاة، ونهى العمال عن اقتضاء أطلاق مالية لم يرد بها الشرع، وقد جمعها في كتابه إلى عامله على الكوفة فقال (ولا تحمل خرابا على عامر، ولا عامرا على خراب، أنظر إلى الخراب فخذ منه ما أطاق وأصلحه حتى يعمر، ولا يؤخذ من العامر الا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الأرض، ولا تأخذن في الخراج . . أجور الضرابين، ولا هدية النيروز والمهرجان، ولا ثمن الصحف، ولا أجور الفيوج، ولا أجور البيوت، ولا دراهم النكاح، ولا خراج على من أسلم من أهل الأرض)

وقد وسع عدل عمر أهل الذمة من هذه الناحية كما وسع المسلمين، فانه لما شكا اليه أهل نجرانية الكوفة تناقص عددهم إلى العشر مع بقاء جزيتهم على حالها، أمر برد جزيتهم إلى العشر (البلاذري، ص 67) كذلك رد جزية قبرس إلى ما كانت عليه وقت الفتح وألغى ما زاده عليها عبد الملك بن مروان (البلاذري 154) ويروي البلاذري أيضا (ص 422) انه

وفد عليه قوم من أهل سمرقند فرفعوا اليه، أن قتيبة دخل مدينتهم وأسكنها) المسلمين على غدر، فكتب عمر إلى عامله يأمره أن ينصب لهم قاضيا ينظر فيما ذكروا، فان قضى بإخراج المسلمين أخرجوا، فنصب لهم جميع بن حاضر الناجي، فحكم بإخراج المسلمين على أن ينابذوهم على سواء. فكره أهل سمرقند الحرب وأبلغ من ذلك في الدلالة على تحري عمر العدل المطلق ما رواه (وأقروا المسلمين

البلاذري (ص 124) قال (قال ضمرة عن علي بن أبي حملة، خاصمنا عجم أهل دمشق في كنيسة كان فلان قطعها لبني نصر بدمشق، فأخرجنا عمر منها وردها إلى النصارى)
ويروي البلاذري أيضا (ص 125) أن الوليد بن عبد الملك قد أدخل كنيسة يوحنا في مسجد دمشق بغير رضا النصارى (فلما استخلف عمر بن عبد العزيز شكا النصارى اليه ما فعل الوليد بهم في كنيستهم، فكتب إلى عامله يأمره برد ما زاده في المسجد عليهم. فكره أهل دمشق ذلك وقالوا نهدم مسجدنا بعد أن أذنا فيه وصلينا ويرد بيعة، وفيهم يومئذ سليمان ابن حبيب المحاربي وغيره من الفقهاء، وأقبلوا على النصارى فسألوهم أن يعطوا جميع كنائس الغوطة التي أخذت عنوة وصارت في أيدي المسلمين، على أن يصفحوا عن كنيسة يوحنا ويمسكوا عن المطالبة بها، فرضوا بذلك وأعجبهم. فكتب به إلى عمر فسره وأمضاه) ذلك موقف عمر بن عبد العزيز من أهل الذمة. أما ما ينسب اليه في بعض كتب الفقه من تحامل عليهم، وانه كتب إلى عماله بعزلهم عن أعمال الدولة وأخذهم بألوان من الاضطهاد والتضييق عليهم (الخراج لأبي يوسف 73) فغير مؤتلف مع المستيقن من سيرته على فرض صحته، وقد يكون نوعا من العقاب كان يعاقب به ذميو الحدود الإسلامية إذا هموا بمظاهرة العدو على المسلمين.
وكما كان عمر حريصا على جباية الأموال العامة من مصادرها الصحيحة. فقد كان كذلك حريصاً على أن تنفق في مصارفها الشرعية. فمن حيث الفيء، قد فرض لذرية المقاتلة وعيالهم عملاً بسنة عمر بن الخطاب التي ترك بنو أمية العمل بها، وكتب الى عامله في الكوفة (وانظر من أراد من الذرية الحج فعجل له مائة يحج بها). وفرض لعشرين ألفا من الموالي كانوا يغزون بخراسان بغير عطاء. وأظهر استعداده لان يحمل من بيت المال إلى خراسان أموالا إذا كان خراجها لا يفي بعطاء أهلها. ومن حيث أموال الزكاة، فكانت صدقات كل إقليم تقسم على عهده في فقراء أهله، وقد قسم في فقراء البصرة كل إنسان
ثلاثة دراهم وأعطى الزمني خمسين خمسين، وفرض للفقيرات من عوانس النساء، وأعتق كثيرا من الرقاب. وقد كتب إلى أحد عماله (ان اعمل خانات في بلادك، فمن مر بك من المسلمين فاقروهم يوما وليلة، وتعهدوا دوابهم، فمن كانت به علة فأقروه يومين وليلتين. فان كان منقطعا به فقووه بما يصل به إلى بلده) وأمر عماله بقضاء الديون عن الغارمين فكتب اليه بعضهم (أنا نجد الرجل له المسكن والخادم وله الفرس والأثاث في بيته) فكتب عمر (لابد للرجل من المسلمين من مسكن يأوي اليه رأسه، وخادم يكفيه مهنته، وفرس يجاهد عليه عدوه، وأثاث في بيته، فهو غارم فاقضوا عنه) ولما رأى عمر أن ليس للشعراء حق في بيت المال جعل يجزهم من عطائه وماله الخاص على قلته، بالدراهم والدنانير المعدودة، وقد أدرك الشعراء سبب تحرجه هذا فكانوا يقبلون منه العطاء اليسير أو الرد أحيانا بغير عطاء، ولم يقصروا في مدحه وقدره.
على ان أهم ميزة تميز عمر بن عبد العزيز من غيره من خلفاء الإسلام ورؤساء الدول طراً فيما نعلم انما هي رغبته الصادقة في نشر لواء السلم، لا على بلاده وحدها ولكن على العالم بأسره. ولبيان ذلك نقول انه عمد في داخل الدولة الإسلامية إلى الأحزاب التي ناوأت الأمويين منذ قام ملكهم فترضاها وحملها على ما يريد من إيثار السلم والعافية. فالشيعة استجلب مودتهم بان منع سب علي بن أبي طالب على المنابر، وبأن رد على العلويين (فدكا) التي رآها حقا قديما لهم قد غصبوه. والخوارج قد كبح جماحهم من طريق المجادلة بالحسنى والإقناع بالحجة والبرهان. فعندما ظهر شوذب الخارجي بأرض فارس أمر عمر ألا يقاتلوا حتى يسفكوا دما أو يفسدوا في الأرض، وكتب في الوقت نفسه إلى شوذب يطلب اليه المناظرة في دعواه، فأنفذ اليه الخارجي اثنين من فقهاء الخوارج ليناظراه. وقد استطاع عمر أن يهدم كل حجة أورداها الا ما احتجا به من إقراره يزيد بن عبد الملك على ولاية العهد مع ما يعلم من قبح سيرته، وكان من وراء هذه المناظرة الطريفة أن انضم أحد الخارجيين إلى عمر، وأما الآخر فعاد إلى أصحابه وأنهى إليهم على ما يظهر من سيرة الخليفة ما حملهم على السكون طوال عهده. أما الموالي فقد قطع أسباب شكواهم، بأن أسقط الجزية

كما رأينا عنهم، وبأن فرض لمقاتلتهم عطاء. وأما العصبية القبلية من يمنية ومضرية وربعية فقد هدأ من حدتها، بأن ردع الشعراء الذين كانوا يذكون نارها، وبأن اختار ولاته بالنظر إلى كفايتهم لا إلى قبائلهم.

أما من حيث العلاقات الخارجية، فقد سلك عمر بن عبد العزيز في الأمر مسلكا بدعا لم يسبق اليه ولم يلحق فيه. ذلك أنه أقفل جميع الجيوش الإسلامية التي كانت تغزو وراء الحدود، أقفل مسلمة ابن عبد الملك وكان مرابطا حول أسوار قسطنطينية وأعانه على القفول بأموال بعث بها اليه. وأقفل الغزاة بما وراء النهر على كره منهم كما أقفل من كانوا يغزون بالسند. على أن عمر لم يقف في هذا الأمر الخطير عند هذا الحد، بل اتبع العدول عن سياسة العنف بالدعوة السلمية إلى الإسلام. يروي البلاذري أنه لما أقفل الجيوش التي كانت تغزو بما وراء النهر كتب إلى ملوك تلك الجبهة من الترك يدعوهم إلى الإسلام فأسلم بعضهم. ولما انتقض ملوك السند كتب إليهم يدعوهم إلى الإسلام والطاعة على أن يملكهم ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، قال البلاذري (وقد كانت بلغتهم سيرته ومذهبه فأسلم جيشبة والملوك وتسموا بأسماء العرب) كذلك كانت سياسته بازاء بربر المغرب الذين أشجوا الجيوش العربية زهاء ثمانين عاما. يقول البلاذري (ثم لما كانت خلافة عمر بن عبد العزيز ولى المغرب إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر مولى بني مخزوم، فسار أحسن سيرة ودعا البربر إلى الإسلام، وكتب إليهم عمر كتبا يدعوهم بعد إلى ذلك، فقرأها إسماعيل عليهم في النواحي فغلب الإسلام على المغرب. ويذكر المؤرخ اليوناني تيوفان أن عمر كتب أيضا إلى الأمبراطور البيزنطي يدعوه إلى الإسلام.

وكأن عمر بن عبد العزيز قد اطلع بلحظ الغيب على نظمنا الحديثة التي تفرض على الدولة الأشراف على التعليم والعمل على نشره بين أبنائها. فقد أراد تعليم الناس كما يؤخذ من قوله في رواية ابن عبد الحكم (ان للإسلام حدودا وشرائع وسننا. . . . فان أعش أعلمكموها وأحملكم عليها) بل لقد أخذ في ذلك بالفعل فبعث يزيد بن أبي مالك الدمشقي والحارث بن محمد الأشعري إلى البادية ليفقها الناس وأجرى عليهما رزقا. ثم هو أول خليفة أمر بجمع أحاديث رسول الله وتدوينها. نقل السيوطي (ان عمر بن عبد العزيز كتب إلى أبي بكر محمد بن خزم أن انظر ما كان من حديث رسول الله (أو سننه فاكتبه، فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء. وأخرج أبو نعيم في تاريخ أصبهان عن عمر بن عبد العزيز انه كتب إلى الآفاق ان أنظروا إلى حديث رسول الله (فاجمعوا) قال في فتح الباري

يستفاد من هذا ابتداء تدوين الحديث النبوي

وبعد، فماذا كان اثر تلك الجهود كلها؟ لقد أدت إلى الغاية التي كان يرمي أليها عمر. فقد طاف بالأمة الإسلامية اذ ذاك طائف الزهد والورع والتدين اقتداء بخليفتها، والناس على دين ملوكهم كما قالوا قديما. يروي الطبري (وكان الوليد صاحب بناء واتخاذ مصانع وضياع، وكان الناس يلتقون في زمانه، فإنما يسأل بعضهم بعضا عن البناء والمصانه، فولي سليمان فكان صاحب نكاح وطعام، فكان الناس يسأل بعضهم بعضا عن التزويج والجواري، فلما ولي عمر بن عبد العزيز كانوا يلتقون فيقول الرجل للرجل، ما وردك الليلة؟ وكم تحفظ من القرآن؟ ومتى تختم؟ وما تصوم من الشهر؟ وأصبح الناس وقد شملتهم نعمتا الرضا واليسر. قال (كثير) يخاطب عمر ويمدحه:

تكلمت بالحق المبين وانما ... تبين آيات الهدى بالتكلم

وصدقت موعود الذي قلت بالذي ... فعلت فأمسى راضيا كل مسلم

وروى ابن عبد الحكم قال (قال يحيى بن سعيد: بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات أفريقية فاقتضيتها وطلبت فقراء نعطيها فلم نجد بها فقيرا، ولم نجد من يأخذها مني، قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس، فاشتريت بها رقابا فأعتقتهم وولاؤهم للمسلمين)

نعم، لقد أغنى عمر الناس جميعا إلا نفسه وأهله. فلم ير ولي قوم أعف عن مالهم منه، ولم ير أهل بيت أصبر على الطعام الخشن والثوب المرقوع والبيت المتهدم منه ومن أهل بيته. ولقد أراح عمر الناس ولكنه أتعب نفسه، فكان حركة دائمة يعمل ليل نهار حتى ذهبت نضرته واحترق جسمه. وزاده هما فقدانه في آجال متقاربة من عهده القصير أحبابه وأعوانه: ابنه عبد الملك، وأخاه سهلا، ومولاه مزاحما، فلم يقو جسمه

على احتمال العمل والألم، فاسلم الروح بخناصرة في 25 رجب سنة 101 ولما يعد التاسعة والثلاثين من عمره. وقد دفن بدير سمعان قريبا من دمشق.

لا ندري ماذا كان عمر صانعا لو مد له في حياته؟ أغلب الظن انه كان يتلافى موضع الضعف من إصلاحه فيقيم هذا الإصلاح على أساس ثابت لا يتزعزع بمجرد موته. ومهما يكن من شيء فقد فاز عمر بن عبد العزيز بتقدير أنصاره وخصومه على السواء. فهو عند أهل السنة مجدد المائة الأولى وآخر الخلفاء الراشدين، وقد رضى عنه العلويون وأهدى

إلى روحه في أواخر القرن الرابع شاعرهم الشريف الرضي أبياتا من الشعر حارة جميلة، بل ان العباسيين عندما قامت دولتهم احترموا قبره فلم ينبشوه كما نبشوا قبور غيره من بني أمية، على أن أبلغ من وصفه وابنه رجل كان يحكم الظروف السياسية خصمه العنيد بل عدوه اللدود، ذلك ملك الروم أليون الثالث. أخرج ابن الجوزي عن محمد بن معبد قال (أرسل عمر بن عبد العزيز بأساري من أساري الروم ففادى بهم أساري من المسلمين. قال فدخلت على ملك الروم يوما فإذا هو جالس على الأرض مكتئبا حزينا. فقلت ما شأن الملك؟ فقال أو ما تدري ما حدث؟ قلت ما حدث؟ قال مات الرجل الصالح! قلت من؟ قال عمر بن عبد العزيز، ثم قال ملك الروم: لأحسب انه لو كان أحد يحيى الموتى بعد عيسى بن مريم لأحياهم عمر بن عبد العزيز. ثم قال إني لست أعجب من الراهب أن أغلق بابه ورفض الدنيا وترهب وتعبد، ولكني أعجب ممن كانت الدنيا تحت قدميه فرفضها وترهب)

أما نحن فنلحظ فيه خير نزعاته واشرف عواطفه: نلحظ فيه حبه للسلام وسعيه في توفيره في العالم، فهو بحق داعية السلام في القرن الأول الهجري والثامن الميلادي، وكفى بذلك مفخرة في الدنيا، وقربة في الآخرة.

أوراق مالية في القرن السابع الهجري

للدكتور عبد الوهاب عزام

كيخاتو بن أبا قا خان بن هلاكو خامس ملوك المغول المسمين ايلخانية كان كما يقول مؤلف (حبيب السيرَ) أسخى بني هلاكو: كان يفيض جودا في موائده، ولا يقف به حد في الإسراف واللهو.

وقد اختار لوزاراته صدر الدين الزنجاني المعروف بصدرجهان. ولم يكن الوزير مخالفا مولاه في التبذير. فخلت الخزائن واشتدت الحاجة إلى المال، وضاق بالملك الأمر، فبدا للوزير أن يأخذ عن أهل الصين سُنَّة كانت معروفة عندهم في ذلك العصر: هي التعامل بأوراق تغني غناء الحجرين الكريمين أو المعدنين النفيسين: الذهب والفضة. وليس الفرق بين الورَق والورِق ذا خطر.

أمر الوزير بطبع أوراق للتعامل سميت (جاو) وأنشأ في كل ناحية دارا لطبع الأوراق سميت (جاو خانة) وشرع قانونا يحتم على الناس الإقلال من تداول الذهب والفضة جهد الطاقة

وكانت الأوراق كما وصفها رشيد الدين الشيرازي في تاريخه المعروف بتاريخ (وصّاف) والمؤرخون المعاصرون على هذا الشكل:

ورقة مستطيلة عليها كلمات صينية، وفوقها باللغة العربية كلمة الإسلام: (لا إله الا الله محمد رسول الله) اتباعا للمألوف في المسكوكات الإسلامية. وتحت هذا اسم الكاتب ودائرة كتب فيها قيمة الورقة. وكانت القيمة تختلف من نصف درهم إلى عشرة دنانير.

ومما كتب على هذه الأوراق هذه الكلمات الهائلة: (أصدر ملك العالم هذه الجاو المباركة سنة 693هـ، فمن غيرها أو محاها يقتل هو وزوجه وأولاده ويصادر ماله)

وأرسلت إلى المدن منشورات تبين فوائد التعامل بهذه الأوراق، وتبشر الناس أن الفقر والبؤس سيزولان لا محالة ان دام التعامل بها. ومما جاء في هذه المنشورات هذا البيت:

جاو أكردر جهان روان كردد ... رونق ملك جاودان كردد

وترجمته: (إذا راجت في العالم الجاو دام رونق الملك أبدا)

ومما جاء في قانون هذه الأوراق أن الورقة التي تمزق أو تبلى ترد إلى الجاوخانه ويعطى

صاحبها ورقة أخرى تنقص عنها عشر القيمة.
ثار الناس على هذه الأوراق، فيروى أنه جُعل موعد تداولها في مدينة تبريز شهر ذي القعدة 693هـ، فلما جاء الموعد أقفلت الحوانيت ثلاثة أيام ووقفت الأعمال وأبى الناس أن يقبلوا الجاو المباركة.
وكان أعظم رجال الدولة نصيبا من سخط الناس وبغضهم عز الدين المظفر الذي وكل إليه إخراج الأوراق والقيام عليها. ومما قيل فيه:
تو عز ديني وظل جهاني ... جهانر اهستئ تو نيست درخور
أزان كبر ومسلمان ويهودي ... بس أز توحيد حق واللهه أكبر
همى خوانندأز روى تضرع ... بنزد حضرت داراي داور
خدايا بر مراد خويش هركَز ... مبادا درجهان يكدم مظفر
وترجمتها:
أنت عز الدين وظل العالم،=ولكن بقاءك شر على العالم، ومن أجل ذلك ترى) المسلمين واليهود والمجوس بعد توحيد الله وتكبيره يتضرعون إلى الحكم العدل: ربنا (لا تجعله ساعة واحدة مظفرا بمراده
انتشرت الثورة في مدن كثيرة حتى ذهب كبراء المغول إلى السلطان كيخانو فكلموه في أمر هذه الأوراق البغيضة حتى رضى بإلغائها.
رسائل حزينة
القلب المحطم
رسالة إلى صديق
بغير هذا اللون من الصور الشاحبة الحزينة، كنت أود أن أصور لك عواطفي ومشاعري، وبغير هذه السطور التي تترقرق في خلالها دموع البث والشكوى، كنت أحب أن يجري بالكتابة إليك قلبي. ولكني لا أريد أن أخدعك في شأن من شئون نفسي. وما أحسبك تريدني علي أن أصنع لك كلاما عن راحة القلب وهدوء الضمير في الوقت الذي تعصف بي الأحداث فيه عصفا يزلزل كيان النفس، ويزعزع أشد الأفئدة احتراماً لقوانين الأرض، وإيماناً بعدالة السماء، لقد شغلت في مطالع الشباب وبواكر الصبى بما يشبه أن يكون استجابة حارة لرغبات القلب ونوازع الهوى، وألهتني متعة اليوم عن التفكير فيما عسى أن يطلع به الغد، وقنعت بتلك النشوة التي يملأ بها الحب شعاب القلب في عالم تتألق حواشيه بالبسمات والأحلام. وكنت لغفلتي أحسب الحياة ستظل على هذا النحو رخية لينة، وأن الحب ما دام يعمرها ويخلع عليها من مفاتنه سلاما وابتساما ونورا، فثمة ملقى العصا، وغاية الأمل، ونهاية المطاف. فلو أنني أحطت هذه الحياة الأثيرة لديَّ بسياج يكفل لها على الأيام بقاءً واطرادا لما تعثرت في أذيال هذه الخيبة الأليمة. ولما صرت إلى ما أعانيه اليوم من تعس وشقاء.
أيها القلب! لقد سعدت بالحب حلما ذهبياً سلسل في نواحيك الأمل، وأشاع في جوانبك الرجاء، ولكنك شقيت به يقظة رهيبة تكشفت لك في ضوئها عناصر الجريمة من خيانة وغدر وعبث اليم بقداسة العهد والوفاء. فهل تراك يا قلب معتبرا بما أسلفك الحب من تجاربه القاسية الأليمة، فتظل بنجوة عن الوقوع في شرك البسمات المغريات، والنظرات القاتلات، ترسلها العيون الذابلة المريضة؟ أتراك معتبراً بعد أن عرفت أن الحب إنما يصور لك الحياة روضة مسحورة تشدو بلابلها، وتَطرد جداولها، وتتأرج بالعطر الجميل أزاهرها؟ ثم. . ثم تجف الروضة وتغيض الجداول وتصمت الأطيار، وتتحطم الأماني، وتتبدد الأحلام. وإذا الدنيا مناحة قائمة. وإذا الحب الذي سعدت به تلك اللحظات الخاطفة يستحيل إلى حسرة الماضي، وفجيعة الحاضر، ولعنة المستقبل. وإذا تلك الأناشيد الداوية تحور إلى أنين خافت، وآلام دفينة خرساء. وإذن ففيم هذا التهالك العجيب على تلك الشجرة
الملعونة وقد بلوت المر من ثمرها؟ وفيم تلك الخفقات السريعة المتلاحقة كلما رنت إليك غانية بنظرة. أو توامضت لك على شفتيها ابتسامة؟ وهذا الجسم الذي أذبلت زهرته، وأيبست عوده، وعطلت نشاطه، وصرفته عن مثله العليا، وفجعته في أقدس ما كان يرجيه من أمل ويحرص عليه من سعادة، ألا تأخذك فيه عاطفة من الإشفاق والرحمة، فتدعه يفرغ لما تتطلبه الحياة من جهاد طويل الشقة، وعر المسالك، فادح الأعباء. أيها القلب! انك أن تظل سادرا في غوايتك، فإني لأخشى أن أناجيك غداً بقول

الشاعر:
أقول لقلبي كلما ضامه الأسى ... إذا ما أبيت العز فاصبر على الذل
برأيك لا رأيي تعرضت للهوى ... وقولك لا قولي، وفعلك لا فعلي
فان تك مقتولا على غير بغية ... فأنت الذي عرضت نفسك للقتل
عبد الوهاب حسن. قسم النشر. وزارة المالية
منهن ومنهن
للأستاذ عبد القادر المغربي. وكيل المجمع العلمي العربي بدمشق
وإن من النسوان من هي روضة ... تهيج الرياضُ دونها وتصوَّح
ومنهن غُلٌّ مقفل لا يفكه ... من الناس إلا الأحوذي الصَّلنقَحُ
يقول حكيم العرب: إن النساء مختلفات في طباعهن وأمزجتهن وغرائز نفوسهن:
فمنهن امرأة حسنة السجايا طيبة الأخلاق، تشبه الروضة فيما اشتملت عليه من خضرة وزهر، وطيب ماء، ورقة هواء. بل أن الرياض الحقيقية ذات الخضرة والنضرة، قد (تهيج) أي يصفر نباتها و (تَتَصوَّح) أي تيبس أو تذبل أوراقها. أما تلك المرأة فهي روضة لا تهيج ولا تتصوَّح، وإنما تبقى ناضرة الخضرة، طيبة الشذا طول حياتها.
هذه واحدة من النساء يا سعادة مجتمعها بها.
ومنهن واحدة أخرى وصفها الشاعر في البيت الثاني بأنها كالغُلّ. وهو القيد المقفل أي المشدود على عنق الرجل أو يديه، يمنعه الحركة ولا يقدر على فكه إلا (الأحوذيُّ الصَّلَنقَحُ)
(الأحوذي) الحاذق في السَّوق، الذي يعرف كيف يسوق الدابة ويحملها على السرعة في السير. فبينا ترى غيره يقطع بها مسافة عشرة أيام تراه هو يقطع بها ثلاثة أيام. وذلك لأنه (صَلَنقح) أي صيَّاح شديد الصوت. (وصلنقح) كلمة غريبة وثقيلة على السمع، غير أنها قد تروج لدى القارئ المنصف مذ يرى المقام يقتضيها، والسياق يواتيها، والقافية تناديها.
ووصف امرأة السوء بالغل معهود عند العرب، ومنه قولهم: (هي غل قمل. وجرح لا يندمل) ومعنى (قَمل) أن الغُلَّ أحيانا يكون من جلد غير مدبوغ ويكون على الأسير الذي يدوم أسره ويطول عهده بالاغتسال فيتسخ بدنه ويعشش القمل في غله ويأخذ يرعى في تجاليده فيؤذيه ويمنعه طيب المنام وهكذا حال امرأة السوء في البيت الذي تعيش فيه.
قد يعترض معترض على البيت الثاني بأن فيه إحالة، ومعنى (الإحالة) في اصطلاح علماء النقد الأدبي أن يكون الكلام معدولا به عن وجه الصواب
وهنا قد شبه الشاعر امرأة السوء بالغل الموثق المحكم الشد. ثم قال انه لا يفك هذا الغل إلا سائق صيّاح شديد الصوت
ولكن هل من عادة القيود المحكمة الشد أن تفك وتحل عقدها بكثرة الصياح والجلبة؟
ربما كان في هذا الاعتراض شيء من الحق. فماذا كان يجب أن يقال إذن؟
كان ينبغي أن يقال في البيت الثاني هكذا:
ومنهن مُهر شامسُ لا يروضه ... من الناس إلا الأحوذي الصلنقح
فيكون المعنى أن من النساء من تكون كالمهر الشامس (أي الشموس) الذي يكثر شروده ولا يقدر على ترويضه وتليين شكيمته إلا الرجل الذي يعرف كيف يسوسه ويؤدبه بالانتهار ورفع الصوت والصخب عليه.
فتقول: ولكن كلمة (شامس) غير مأنوسة الاستعمال والمعروف (شموس) فماذا يمكن أن يحل محلها من كلمات اللغة؟
أقول يمكن أن يقال في البيت هكذا:
(ومنهن مهر كوسَجٌ لا يروضه. . . الخ).
و (الكوسج) من الخيل: الفرس الذي تريده على السير فلا يسير حتى تضربه.
فيقول القارئ معنى (الكوسج) حسن. ولكن لفظة اشتهر في معنى خفة شعر اللحية فلا أرى استعماله هنا. هات كلمة سواها يا أستاذ
فأقول هاكها:
ومنهن مهر خارط لا يروضه. . . الخ.
و (الخارط) الفرس الذي يجذب رسنه من يد ممسكة ثم يفلت شاردا لا يلوي على

شيء.
ومثل (الخارط) الخَرُوط.
ولذلك تسمى المرأة الفاجرة التي جذبت رسنها من يد أسرتها (خروط)
يقول القارئ: وكلمة (خارط) أيضا قبيحة اللفظ وكفى (بالخرط) قبحا.
على أن استقباح القارئ لكلمة (خارط) في غير محله. وليس معه حق فيه: إذ كيف يستثقل كلمة (خارط) وهذه كلمة (خارطة) بمعنى الأطلس الجغرافي يتلفظ بها كثيرا. ويسمعها من صبيانه وبناته وهم يدرسون في بيته، ومن سائر التلامذة وأساتذتهم يقولونها عشرات من المرات في اليوم. كل هذا لا تستثقل معه أيها القارئ الكريم كلمة (خارطة) وتقوم الآن فتستثقل كلمة (خارط) وتتشاءم بها!!
ومع هذا فدونك كلمة رابعة وهي:
(ومنه مهرٌ ضاغنٌ لا يروضها الخ.)
ومعنى (الضاغن) الفرس الذي لا يعطي كل ما عنده من الجري حتى يضرب، أو هو الفرس الذي إذا مشى كان كأنه يرجع القهقرى. ويمشي إلى الوراء.
وقبل أن يبادرني القارئ بالتأفف من كلمة (ضاغن) أذكره بالأسرة اللغوية التي تنتمي إليها كلمة (ضاغن)، ولو لفظا:
فان تلك الأسرة وجميع سلالتها مقيمة بيننا محببة إلينا. شائعة على ألسنتنا:
فالضغن أم الأسرة ومن نسلها (الأضغان) و (الضغينة) و (الضغائن) و (تضاغن) القوم و (اضطغن) فلان على فلان
فهل بعد هذا يصح للقارئ أن يتجهم لكلمة (ضاغن) ويدعي غرابتها. ويطلب أن يستبدل بها سواها؟
دمشق
في الأدب المصري القديم
النيل والحضارة المصرية (ملخص فصل من كتاب)
للأستاذ (آ. موريه)
كان المصريون أصحاب ألسنة لا تعرف الملل في النطق، على أن ما جاءنا من آثارهم الأدبية هو ثروة قليلة بالنسبة إلى ثمار شعب يحكي عنه منذ أربعة آلاف عام، وفي هذه الأعمار التاريخية قامت مآثر أدبية تختلف صفاتها الاجتماعية والطبيعية. والأدب كما هو في مصر وغير مصر، مرآة تتمثل فيها الحياة الاجتماعية.
نشأت المآثر الأولى في (الدولة القديمة) مصحوبة بأدب ديني صرف مقيد بتعاليم الكهنة، وهذا الأدب هو النصوص الجليلة والآثار المعروفة (بموضوعات الأهرام) والتي تحفظ كثيرا من التاريخ القديم، والديانة القديمة، والحركة العقلية، والجزء الثاني منها هو عبارة عن نصوص منقوشة على حجارة، وحكم هذا الأدب حكم الزخرفة وبقية الفنون، لم يكن المراد منه الا تزيين الهياكل والقبور، ومن الواجب أن يكون خاضعا حتى في مظهره الخارجي لهيئة العمارة، وفي قبور (ممفيس) فصول شعبية لا يتلاءم أسلوبها الحر مع الطقوس والتقاليد، وهذه الفصول الخرافية تطلعنا على اللهجة العامية؛ بل تكاد توحي لنا عن نفسية الشعب. . . .
هذه أغنية قديمة للراعي الذي يسوق قطيعه بين أتلاع الأرض ناثرا بذوره
الراعي هو في الماء مع الأسماك يتناجى مع (صنف من السمك) ويتبادل التحيات مع ((صنف من السمك) يا مغرب من أين جاء الراعي؟ انه من بلاد المغرب)
وهنالك مقطوعة مرفوعة لأوزيريس الملقى في النهر. وقد هشمته الأسماك، وأجزاؤه المتناثرة على الأرض قد أخصبت تلاع الأرض. والذين يحملون، على أكتافهم، الأسياد الضخام؛ يخففون من أتعابهم بأنشادهم.
إن حاملي الهودج هم في سرور)
(ولأن يكون الهودج ملآن خير من أن يكون فارغاً)
وعصر ثان تفتح في عهد الثورة الاجتماعية بين المملكة القديمة والمملكة الوسطى. فازدهرت الفصاحة فيه أيما ازدهار، وترك الأدب الديني محلا للأدب الاجتماعي، فانقضى
عصر الأدب الحجري وأصبح يدون منه شيء على ورق البردي، وبهذا خفف الفكر عنه بانعتاقه من السجن الحجري. فأصبح كل شيء يدعو إلى الملاحظة، ويغري بالتأمل،

وأصبحت العقول المثقفة تشعر بالضيق وتحس بالشك واليأس، والشعب تدفعه عوامل الرغبة إلى المعرفة واللذة، نشوان بنجاح جرأته، وكما يكون الأمر في كل ثورة، تصطدم الحركة العقلية بالقوة الجارفة، فلا يكاد يجد العقل متسعا ولا فراغا للإنتاج، على أنه برغم ذلك قام بعض متأملين معتزلين وألقوا بذورا مثمرة في هذا المجتمع يوم ثورته. وفي عهد ملوك (هيراكليوبوليس) دوَّن المصريون (تعاليم للملك مريكارا) وهجاء الضائع، وأنين الفلاح. وكلها مرايا تنعكس فيها الحالة السياسية التي شرحناها من قبل. وفي العهد نفسه نشأت موضوعات مختلفة (أيام الفوضى) وضعها أصحابها على لسان حكيم هرم أو كاهن، وشكاوي طرحها (مبغض للبشرية) بينه وبين نفسه، وفي كل هذا نرى الشعور الديني قد ضعف شأنه، وهنالك حيث تحطم النظام الاجتماعي الاول نرى التعاليم الاعتقادية قد تقوضت ووهن تأثيرها في النفوس.

في الأسرة الثانية عشرة على أثر الانعتاق من الروابط السحرية التي تلت عصر الثورة، حل شيء من الثقة في النظام، وأصبح المجتمع تسيطر عليه شرائع عادلة، والأدب الجديد الديني المنقوش على الصفائح والتوابيت، وعلى ورق البردي كان يعمل على إنماء الخواطر التي تدفع بالإنسان الفاضل إلى التلذذ بالنعيم الإلهي في العالم الثاني. وفي هذا العصر ازدهرت مدرسة أدبية عنيت بتهذيب اللغة وتنقيح الأسلوب، ونحن مدينون لأصحابه بقصص لطيفة منها (سيروت) و (الغريق) وهذه قصة حادثية تحوي أهواء مسافر طرحته المقادير في صحراء أو ساقته إلى بحار مجهولة. وهنالك مشروع ساعد على تهذيب موظفي الحكومة وتثقيفهم، فنشأ من كل ذلك موضوعات وصفية وعاطفية وقصصية تؤلف أدب ذلك العصر كله، بل الأدب (الكلاسيكي) لمصر القديمة

والأدب، في الدولة الحديثة، فاض معينه، وتوثبت أمواجه إلى شواطئ حرة، وأساليب غير مقيدة. والدولة الحديثة قد حطمت قيودها وفتحت لنفسها ينابيع جديدة (للتحسس) حتى أصبحت الفنون في عهد (العماونه) عالمية.

والأدب الحديث حطم قيود المدرسة الأدبية واستطاع أن يدخل على لغته المختارة بساطة

اللغة العامية. ولم يكن من طريق الاتفاق ما رأيناه في كتابات (ايكوناتون) لأول مرة من التطورات الصرفية والنحوية التي طغت على الأسلوب الخاص ولهجة الشعب بما فيها، وأدخلت (أداة التعريف وأفعال المساعدة، والبناء الصرفي (أو الاشتقاق).

والقصص الصغيرة التي كتبت للأطفال خير مثال لنا، والأدب الديني نفسه قد تطور وتشذب ليدنو من أدب الشعب وروحه: وأغاني (آمون) الذائعة الصيت تبث بسلامة قلب محبة الخلائق المتواضعة.

بعض نصائح أخلاقية من تعاليم (آتي):

يقول: (ضاعف الخبز الذي تحمله لأمك، واحمله لها كما حملته لك، عندما ولدت وبعد ولادتك بشهور، حملتك على حضنها، وثلاثة أعوام ظل ثديها يدر في فمك، فلم يأخذها سأم منك ولم تقل لنفسها يوما: لماذا أصنع هكذا؟ قادتك إلى الكتاب وبينما أنت تتعلم الكتابة كانت تنقل لك من بيتها خبزا ونبيذا. وغدا إذا صرت كبيرا وصار لك امرأة، ووجب عليك تدبير منزلك فأرجع بصرك إلى العصر الذي كنت فيه طفلا على حضن أمك يوم لم تصخب عليك ولم تبسط يدها لله الذي لم يسمع لها أنينا. . .)

ثم يذكر الأخلاقي علاقة الرجل مع المرأة فيقول:

احترس من المرأة الأجنبية المجهولة في مدينتها، هي كالماء الواسع العميق لا يدري) ما تحت أعماقه

واحذر المرأة التي يغيب بعلها، وتتصدى لك كل يوم قائلة لك (إنني جميلة) ليس هنالك من شهود، ولكن الخطيئة عظيمة جدير صاحبها بالموت إذا فشت (!

خليل هنداوي

-

على ذكر الشعر المرسل

الشكل والموضوع حول قصيدة الآنسة سهير القلماوي

في الأدب كما في القانون شكل وموضوع، وكما يرفض القاضي الطعن في حكم ما شكلا ويقبله موضوعا، فقد يرفض القاريء قصيدة ما شكلا وان قبلها موضوعا،

والشكل في الأدب لا يقل في خطره عن الموضوع، فكم من قطعة أدبية أفسد أسلوبها موضوعها، وكم من قصيدة ذهب قبح نظمها بجمال معناها، وكم من قصيدة رقيقة اللفظ جميلة الأداء في كلماتها عذوبة وفي نظمها اتساق، غير أن المعنى الجليل فارق فيها اللفظ الجميل، والخيال السامي بعد فيها عن الأداء الحسن، وهي مع ذلك خالدة على الدهر سائرة كالمثل.

وقد قرأنا للآنسة الأديبة سهير القلماوي في عدد الرسالة الماضي قصيدة نظمتها، فراعت فيها كما قالت خاصتين من خواص الشعر العربي وهما الوزن وتمام المعنى في البيت الواحد، وأهملت الخاصة الثالثة وهي القافية، فعنيت بالموضوع وأهملت الشكل، وكان الأجدر بها وقد أرادت أن تتبع سنة التجديد في الشعر العربي ألا تجيء إلى ركن من أهم الأركان الفنية فيه فتمحوه وتهمله وتقرب الشعر بذلك إلى النثر، فلست أرى الشعر المرسل إلا نثرا موزونا نخشى أن تمتد إليه يد التجديد فتنتزع منه الوزن أيضا. ولو قد أنصفت لأهملت تمام المعنى في البيت الواحد وراعت القافية فهي التي تعد بحق وباطراد من خواص الشعر العربي البارزة التي تميزه من كل شعر سواه، والتي أكسبته روعة خاصة، وأشركت الحس مع العقل فيه، وهيأت له السمع والإدراك، وجمعت للقارئ بين لذة التوقيع ولذة الفكر والفهم، وربما قيل أن التوقيع إنما جاء من الوزن لا من القافية، ولكن اصطدام القارئ بحروف متغايرة في أواخر الأبيات يشعره بفقدان الوزن في ثناياها.

أما تمام المعنى في البيت الواحد فلم يكن من خصائص الشعر العربي، وإنما كان من خصائص الشعراء العرب، فليس يدخل إذن في أصول الفن الشعري التي لابد للشعر منها كالوزن القافية، فقد كان العرب أميل إلى الإيجاز والإلمام بالمعنى في غير توسع ولا إطناب، ومن هنا كان حرصهم على إتمام المعنى في البيت الواحد كبيرا، حتى جرى الكثير من أبياتهم مجرى الأمثال لاحتوائه على المعنى الجليل في اللفظ القليل، ومن هنا جاز لنا وقد تغير العصر وبعد الزمان وتغيرت الأذواق إلا نتبع سنة القوم في ضرورة إتمام المعنى

في البيت الواحد، على أن الشعر العربي لم يخل من قصائد لا يمكننا أن نقف فيها على كل بيت لعدم تمام المعنى فيه، ولكنه خلا تماما من قصيدة لم تنته بحرف واحد.

وقد يقال أيضا أن الشعر إذا أطلق من قيده وأعفى الشعراء من التزام القافية فيه أصبح الأمر مألوفا تقبله الأذواق وتعتاده الأسماع، ولكننا إذا عدنا إلى قراءة الشعر العربي القديم وما نظمه المحدثون من شعر مقفى، وهذا كله كثير ثمين فسنشعر بالفرق بين الشعرين وسنعود إلى القافية نستحسن مراعاتها والتزامها، ولا أحسب أحدا يدعونا إلى ترك الشعر القديم وإهماله لنفسح المجال للشعر المرسل في غير حاجة ملحة ولا ضرورة ملجئة، وإذن فالتجديد في الشعر بإرساله دعوة لا تقوم على أساس من الفن يصلح لأن يطغى على القافية فيمحوها من الشعر العربي

وتشعر الآنسة ان المعنى إذا تم في البيت الواحد لم نحس بإهمال القافية، وهذا صحيح إذا كان الشعر معنى فقط لا دخل للحس فيه، ألا ترى الآنسة أن بعض أبيات قصيدتها وقد راعت فيه القافية كان ألذ للسمع من البعض الآخر الذي أهملتها فيه. هذا قولها:

قد أوهنت عظامه السنين ... وغضنت جبينه العصور
وقسوة المسعى وراء العيش ... قد أفقدته جزءه الإنساني

ألا ترى أن إهمال القافية في البيت الثاني قد جعله نابيا غريبا على السمع، فقبله الإدراك لحسن معناه، ورفضه السمع لاختلافه مع سابقه في مبناه؟ وهذا قولها:

يا سادة العبيد والأراضي ... كيف لقاء الرب يوم الدين؟
يوم مثوله أمام الله ... بعد سكون الساع والسنين

ألا ترى أن مراعاة القافية فيه قد كسبه جمالا وتهيأت له الإسماع والافهام؟ أؤكد للآنسة أن إهمال القافية لا يغني عنه تمام المعنى في البيت الواحد، وان شعور الكاتب نفسه لا يكفي دائما للحكم على آثاره الأدبية.

محمد قدري لطفي. ليسانسييه في الآداب

فلسفة سبينوزا

للأستاذ زكي نجيب محمود

شرحنا في المقال السابق فلسفة سبينوزا الميتافيزيقية التي تتلخص في أن في الكون حقيقة واحدة خالدة، هي عبارة عن قانون عام شامل لا ينقص ولا يزيد. هذه الحقيقة الخالدة، أو هذا القانون الشامل، لا يمكن أن يعبر عن نفسه ويفصح عن حقيقته إلا بواسطة الأجسام المادية، فاتخذ من تلك المادة التي تملأ جوانب الكون، قوالب وأشكالا لكي يبرز عن طريقها إلى عالم الواقع المحسوس، وهذه الصور والأشكال المادية التي تتخذ وسيلة للتعبير عن ذلك القانون الخالد، لا تظل على هيئة خاصة معينة، فهي متغيرة متبدلة أبدا، بل قد تزول وتفنى، ولكن تلك الحقيقة نفسها باقية خالدة لا تفنى ولا تزول، بل لا تنقص ولا تزيد، وهي لا تفتأ تلبس هذا الثوب المادي وتخلع ذاك إلى أبد الآبدين. وذكرنا أن ذلك القانون الأعلى وهذه الطبيعة شيء واحد لا يقبل التجزئة.

ونزيد في هذا المقال أن نتناول بالشرح الموجز فلسفته الأخلاقية والسياسية إتماما للبحث:

الذكاء والأخلاق

للأخلاق فلسفة متضاربة متناقضة، فهذا الفيلسوف يدعو إلى نظام أخلاقي معين، وذاك يروج لنقيضه، وثالث يقف بين بين، يأخذ من هذا وذاك بمقدار. فهذه المسيحية تبشر بفضائل الاستكانة والتواضع، وتدعو الناس إلى العطف والرحمة والإيثار، وتعلم الناس أنهم جميعا سواسية لا يمتاز رجل على رجل، ترد الشر بالخير، وتميل في السياسة إلى الديمقراطية المطلقة من كل القيود، وهي تعتبر المحبة أساس الفضيلة. . وذانكم مكيافلي ونيتشه يدعوان الناس إلى التخلق بأخلاق الرجولة القوية الصحيحة، وينكران المساواة بين الناس، فمنهم الضعيف ومنهم القوي، وفيهم العبقري الفيلسوف وفيهم الغبي الأبله، ويحفزان الناس إلى نبذ السلم والمغامرة في معمعان العراك والقتال ليحرز النصر من هو جدير بالنصر، وليتربع على الحكم من يستحق الحكم والسلطان، والفضيلة عندهما هي القوة، ويميلان في السياسة إلى الاستبداد والأرستقراطية الوراثية، فمكيافلي يصرح في كتابه (الأمير) بكل جرأة: (أن الأمير الذي يريد حفظ كيان دولته، لابد له في كثير من الأحيان أن يخالف الذمة والمروءة والإنسانية والدين) كما يحبذ نيتشه سياسة بسمارك التي تنتصر بالحديد والدم.

وبين هذين النقيضين يقوم نظام أخلاقي وسط بين حب المسيح وقوة نيتشه، دعا إليه أرسطو، ومؤداه المزج بين أخلاق الضعف وأخلاق القوة، ويريد أن يلقى بزمام الأمر إلى العقل المثقف الحكيم، فهو وحده الذي يصح أن يؤتمن على اختيار الأخلاق الملائمة للمواقف المختلفة، فهو يعرف متى يلبس لبوس الحنان والعطف، ومتى يتنمر ليفترس، ومعنى ذلك أن الفضيلة عند أرسطو هي الذكاء، ويميل في السياسة إلى مزيج من الأرستقراطية والديمقراطية

ثم جاء سبينوزا فأخذ ينسج من هذه الصور وحدة خلقية متناسقة. وهو في هذا يسير سيرا منطقيا دقيقا حتى ينتهي إلى نتائجه التي يقدمها، فهو يبدأ بتقريره أن السعادة هي الغرض المقصود من الأخلاق الفاضلة. ولكن ما هي هذه السعادة التي نتجه نحوها ونقصد إليها؟ هي عنده في بساطة لا لبس فيها ولا غموض، وجود السرور وارتفاع الألم. ولكنا نعود فنقول: وما السرور والألم؟ أهما حالتان معينتان؟ أم هما نسبيان يختلفان باختلاف الأشخاص؟ هنا يجيب سيبنوزا بأنهما ليسا حالتين، أي ليس ثمة حالة مستقرة يقف عندها المرء قائلا: هنا السعادة، وهناك الألم. إنما السعادة شعور بانتقال النفس إلى درجة أدنى إلى الكمال، والألم شعور بانتقالها إلى مرتبة أبعد عنه. ولما كان الكمال عنده هو القوة، لا قوة نيتشه الغاشمة العمياء التي تقوم على الغريزة الوحشية، ولكنها القوة العقلية المتزنة. فكلما درجت صاعدا في سبيل هذه القوة العقلية كنت أقرب إلى الكمال، وكنت بالتالي سعيدا مطمئن النفس. ومعنى هذا أن العواطف والمشاعر هي مسالك أو طرق تسير فيها النفس، مقبلة نحو القوة تارة، مدبرة عنها طورا. (لاحظ العلاقة بين كلمتي ووكذلك بين كلمتي ولتدرك العلاقة القوية في اللفظ بين ألفاظ الحركة وألفاظ العواطف والمشاعر. ومثل هذه العلاقة موجودة أيضا في اللغة الفرنسية) فالفضيلة والقوة عند سبينوزا شيء واحد، أي أن الفضيلة هي زيادة فاعلية النفس التي تعمل على حفظ البقاء. وكلما اتسعت مقدرة الإنسان

على حفظ وجوده ازداد ما يتحلى به من فضيلة. وبعبارة أوضح يعتقد سبينوزا أن أساس الفضيلة هي الأنانية المعتدلة التي تعينك على الاحتفاظ بوجودك، وهو لا يرى في حب الشخص لنفسه ضررا يلحق بالآخرين، واذن فلا خير في أن تضحي بنفسك من أجل
غيرك إلا إذا كان في ذلك قوة لك، وهكذا يجب أن يحب كل إنسان نفسه، وان يلتمس كل وسيلة ممكنة تأخذ بيده إلى مرتبة أدنى إلى الكمال
فأنت ترى من ذلك أن سبينوزا لا يبني الأخلاق على الإيثار والخير الطبيعي، ولا على الأنانية البشعة والشر الطبيعي، ولكن على أنانية معقولة لا يجد منها مفرا لحفظ البقاء وعنده أن هذه الأنانية المعتدلة التي يمليها منطق الحياة نفسها لا يمكن أن تباعد بين مصالح الأفراد، أو تبذر بذور البغضاء في النفوس، لذلك تراه لا يتمالك نفسه حيرة في هذا التحاسد والتنابذ والكراهية، وهو يائس من أن يبرأ المجتمع من علله وأمراضه قبل أن يهذب الناس من هذه العواطف ويصلحوها، وهو ينصح لنا أن نبادل أعدائنا حبا بكره، ذلك لأن الكراهية تنمو وتتغذى إذا وجدت لها صدى من كراهية مثلها في نفوس الآخرين. وهو بمحاربة هذا التباغض، ينشد فينا النخوة الحق والرجولة الصحيحة. فأنت حين تشعر بالكراهية نحو غيرك، فإنما يكون ذلك اعترافا صريحا منك بانحطاطك دونه وخوفك منه، لأنك لا تكره عدوا تثق بأنك تستطيع أن تتغلب عليه في سهولة وتدحره في غير عناء.
وإذا كانت عواطفنا الغريزية كما نرى حائرة السبيل يعوزها الدليل الأمين، فلا يجوز إذن أن نلقي بزمامنا اليها، إنما يجب أن يكون الفكر وحده رائدنا، ولكن سبينوزا لا يريد أن نكبح الغرائز جملة واحدة، لا بل نستغلها ونتخذ منها دافعا يسوقنا تحت سيطرة العقل وإشرافه، فتكون هي بمثابة قوة البخار الذي يدفع القطار، ويكون العقل بمثابة السائق الذي يتحكم في سيره ووقوفه، وحجته في عجز الغرائز وحدها عن القيادة، انها متضادة الأغراض متضاربة المقاصد، فإذا ما تركناها على سجيتها، انطلقت كل واحدة تسعى في إشباع رغبتها، دون أن تراعي صالح الكل، وإذن فلابد من رقابة رشيدة تعمل أولا وقبل كل شيء لما فيه خير الشخص كمجموعة متحدة، بأن نكبح بعض الغرائز حينا، ونطلق بعضها الآخر حينا، حسب ما يتطلبه الموقف، ومعنى ذلك كله أن الفضيلة مرهونة بالمعرفة أو الذكاء
والذكاء وحده هو الوسيلة التي نستطيع بها أن نحرر أنفسنا من سيطرة الغرائز التي تفرض عليها سلوكا معينا، وتعمل جهدها لقسرنا عليه، فنحن عبيد لها بقدر انسياقنا لما تمليه علينا، أي أن سلبية العاطفة عبودية للآنسان، وحريته في فاعلية العقل. فالحرية الشخصية متوقفة على المعرفة، وفي ذلك يقول ديوي أستاذ الفلسفة في جامعة كولمبيا بالولايات المتحدة: (إن الطبيب أو المهندس يكون حرا في فكره وعمله بمقدار ما تتسع معرفته في المهنة التي يباشرها، وقد تكون هذه المعرفة مفتاح الحريات جميعا)
بناء على ذلك يكون السوبرمان (الإنسان الأعلى) الذي ينشده سبينوزا هو الذي يستطيع أن يحرر نفسه من سلطان الغرائز، وليس هو الذي يتخلص من القيود الاجتماعية العادلة كما صوره نيتشه. يقول سبينوزا: (ان من يعملون الخير بناء على إرادة العقل، ويلتمسون النفع الذي يدل عليه المنطق الصحيح، هؤلاء في الواقع ينشدون مع خير أنفسهم صالحا للإنسانية عامة) فلأن تكون عظيما لا يعني أن تضع نفسك فوق مستوى البشر لتنشب أظفارك في أعناقهم كما يريد نيتشه، ولكن العظمة هي أن تترفع عن سخف الرغبات الغريزية، التي لا يشرف عليها عقل متزن حكيم، ليست العظمة في أن تحكم الآخرين، وإنما هي في أن تحكم نفسك
هذه الحرية التي تستطيع أن تنعم بها من السيطرة على نفسك هي أشرف مما يسمونه حرية الإرادة، لأن الإرادة مجبرة مسيرة، أو قل ليس ثمة إرادة ما، لأن الإرادة والفكر وجهان لحقيقة واحدة. وهنا يلاحظ سبينوزا أن ليس في جبر الإرادة نقيصة يؤسف عليها، بل هو يهذب الأخلاق ويسمو بها إلى مستوى رفيع، فهو يعلمنا ألا نحتقر انسانا، كائنا ما كان موضعه من المجتمع، لأنه غير مسئول عن ذلك الموضع، إنما كتبت له الإرادة العليا أن يكون حيث هو. والجبر كذلك يوحي إلينا الرضى عما قد يبديه الدهر من قسوة وغلظة، لأننا نعلم أنه إن ظلم وجار في ناحية معينة، فلابد أن يكون ذلك

لصالح الكل، ما دامت الأفراد جزءا من جسم الوجود المتحد
الرسالة السياسية
كان صوت سبينوزا واحدا من تلك الأصوات التي انطلقت تصيح بحرية الإنسان. ففي نفس الوقت الذي كان فيه (هوبز) يدافع عن الملكية في إنجلترا، ويقاوم بنظريته قوة الشعب الإنجليزي التي أخذت تناهض استبداد الملك، كتب سبينوزا فلسفته السياسية، وهي تعبر تعبيرا صادقا عن الديمقراطية التي بدأ يختلج حلمها الجميل في نفوس الناس عندئذ، والتي أخذت تنمو وتنمو حتى بلغت ذروتها عند روسو، ثم تدفقت ثورة عنيفة في فرنسا
يقدم سبينوزا بادئ الأمر هذه البديهية التي لا تحتمل الشك، وهي إن الإنسان في أول نشأته كان يعيش منفردا غير مجتمع، فلا يرتبط مع غيره بقانون ولا نظام، لا يفهم معنى الحق ألا ما يستطيع أن يستولي عليه بالقوة، وإذن لم يكن ذلك الإنسان الأول يدرك معنى الخير والشر، لأنهما عبارتان اصطلح عليهما بعد تكوين المجتمع، إذ أطلقتا على بعض الأعمال التي تواضع عليها الأفراد، أما قبل ذلك فكان الفرد يتصرف حسب ما تملي عليه شهوته، وبالطبع لم يكن مسئولا عن تصرفاته إلا أمام نفسه، ومعنى هذا أن الجريمة لم يكن لها وجود في الحياة الطبيعية الأولى، لأنها لا تدرك إلا في حالة المدنية، حيث يتفق الجميع على تحديد الخير والشر، ويصبح كل إنسان مسئولا عن ذلك أمام هيئة معترف بها هي الدولة
وأنت تستطيع أن تتمثل الحياة الطبيعية الأولى التي لم تكن تفرق بين الخير والشر، أو بعبارة أخرى بين ما يجوز عمله وما لا يجوز، في علاقة الدول بعضها مع بعض، إذ لا يربطها نظام خلقي معترف به في قوة النظام الذي يربط الأفراد، ولا تشرف عليها سلطة عامة نافذة الإرادة كما هي الحال بين الأفراد، لذلك كان الحق في العلاقات الدولية هو القوة (يلاحظ أن اسم الدولة العظمى بالإنجليزية هو وفي هذا إشارة صريحة تؤيد هذا المعنى) إذ لا تفهم الدول على وجه الدقة معنى الخير والشر كما يفهمها الأفراد
كان الناس إذن يعيشون بادئ الأمر كما تعيش الدول الآن، ليس لأحدهم عند الآخر حقوق، ولكن لم يلبث الإنسان أن شعر بحاجته إلى التعاون لدرء ما يتعرض له من الخطر، فاتفق الأفراد فيما بينهم على أن يتآزروا إذا دهمهم داهم من سوء، ومعنى ذلك أن الإنسان ليس مدنياً بالطبع، ولكنه اجتمع لدفع أخطار الحياة. وحسبك دليلا أن تلقى نظرة عجلى على الغرائز الإنسانية، لترى كيف أن الغرائز الاجتماعية أضعف جدا من الغرائز الفردية، فالإنسان يسعى لخيره أولا ثم يسعى لخير الدولة، بل هي الأنانية أيضا التي تدفعه للسعي وراء خير الدولة، لأنها دولته هو، ويريد أن يسعد بسعادتها.
اضطر الإنسان إذن إلى الاجتماع بعد تلك الحياة الفردية، فتواضع الجميع على حدود خاصة لا يجوز لواحد أن يشذ عنها، بحيث يصبح لكل إنسان الحق في أن يتصرف كيف شاء، دون أن يخرج على تلك الحدود المرسومة، أي أن له أن يستمتع بكل ما له من قوة
شخصية دون أن يغير على حرية الآخرين، وبعبارة أخرى اتفق الأفراد على أن ينزل كل منهم عن بعض حقوقه الطبيعية لهذه الجماعة المنظمة، في مقابل أن يأمن ويطمئن على حقوقه الباقية، أي أن قانون الجماعة يجب ألا تزيد وظيفته على الأشراف العام، بحيث يسعى كل فرد حرا، في غير تضارب ولا تنافر بين الأفراد، أي أن القانون الكامل يجب أن يكون للأفراد بمثابة العقل للعواطف: يحسن تصريفها بحيث يزيد نشاطها من قوة الكل، دون أن تتعرض واحدة منها لنشاط الأخرى
فالغرض الأسمى من الدولة إذن، لا أن تحكم الناس، ولا أن تحد من مجهودهم، بل) يجب أن تؤمن الإنسان من كل المخاوف، حتى يعيش ويعمل في طمأنينة تامة. . . الغرض من الدولة أن تدع الناس يعيش بعضهم بجانب بعض، كل يستغل قوته العقلية في صالح المجموعة، حتى لا تتبدد قواهم في التنابذ والتنافر، إذن فالغرض الأسمى (من الدولة هو الحرية
وظيفة الدولة العليا أن تكفل للأفراد حريتهم، ومعنى ذلك أن الديمقراطية هي المثل الأعلى لنظام الحكم، ثم يستدرك سبينوزا بقوله أن ضرر الديمقراطية الوحيد هو ميلها إلى وضع غير الأكفاء في مناصب الحكم، ولذلك ينصح علاجا لذلك أن يتسلم إدارة

. . . .الدولة جماعة من ذوي العقول الجبارة، كي يسيروا بها بعيدا عن مواطن الزلل
وفاضت روح سبينوزا وهو يكتب للناس رسالة الحرية
. . .ياليتني
إذا أطل البدر من خدره ... فإنما يطلع كي تنظريه
وان شدا البلبل في وكره ... فإنما يشدو لكي تسمعيه
وان يفح عطر زهور الربى ... فإنما يعبق كي تنشقيه
يا ليتني البدر الذي تنظرين!
يا ليتني الطير الذي تسمعين!
يا ليتني العطر الذي تنشقين!
أواه لو تصدق (يا ليتني)!
إيليا أبو ماضي
العبقرية. علم وأدب وفن
للأستاذ الحوماني
واختلال نظام الحياة في الجسم مدعاة كبرى لاختلال نظام الحياة في الروح لشدة تلازمهما بشدة امتزاجهما، فإذا كان لمحيطك جزء فيك ولك فيه مثل ذلك بصحبتك إياه زمنا ما، فما قولك بصحبة الروح للجسم أزمانا يقصر العقل دون حدها؟
ولا تنس أنك وأنت تلحظ ما يدفعك اليها مستعرضا ما يحف بها من هذه العوامل، أنك جد عاجز عن لحاظ ما يردعك عنها من مرجحات العفاف.
وهكذا تراك، وأنت تلحظ مرجحات الفعل قاصراً بطبعك أن تلحظ مرجحات الترك، ضرورة أنه يستحيل على المرء أن يفكر في أمرين في وقت واحد فيجمع بين النقيضين، فاحفظ هذه لترجع اليها قريبا.
فالذي يدفعك إلى هذا العمل أو سواه من وراء الإرادة لقوة عوامل الدفع من الخارج في نفسك، والذي يردعك عنه لقوة نقيضها من عوامل الردع، والذي تستعرض به هذه العوامل أو غيرها في المجتمع، والذي يميز هذه الخواطر وهو يتصفحها فيفاضل بينها، والذي يخزنها في إحدى زوايا النفس أو يطبعها على صفحات القلب، والذي يستخرجها عند مسيس الحاجة إليها ويبحث عنها فيما إذا خفيت وراء الضمير، والذي يدرس بها الحوادث الخارجية درساً يستحيل مَلكَة في النفس تعصمها عن الزلل في الحياة، والذي تحس به ما تمسك إليه الحاجة في نفسك أو في بدنك، والذي يلهب جسمك تصوره ويحدم صدرك بما يتأثر به من عامل، والذي يزاوج بين محسوساتك فيستخرج من الحقيقة خيالا عن طريق الإبداع في التصوير، كل ذلك واحد لا تتعدد حقيقته، وجزئي فيك من ذلك المعنى الكلي تتعدد أسماؤه بما يتكيّف به من شكل ولون خارجيتين
فإذا استعرض الحوادث وحاكم بينها ليميز حسنها من قبيحها كان فكراً، وإذا حملك على فعل الحسن لقوة ما يحفه من عامل خارجي كان عقلا. وإذا دفع بك إلى اقتراف الإثم لما تحصّل عنده من ترجيح بسبب ما يحفه من عامل كان هوى، فإذا خزن ما يمر به من خواطر في إحدى زوايا النفس سمي حافظة، ثم إذا هو استخرجها بعد حين أو راح يبحث عنها سمي ذاكرة
وإذا درست به الحوادث فربى فيك ملكه الاستنباط سمى حذقاً ودهاء، وهكذا قد تتصور به مباشرة أو عن طريق حواسك ما تنفعل به نفسك فينتج سروراً أو حزناً ينتجان لذة أو ألما فتدعو ما ينتج عنه عاطفة.
وقد يبدع في التصوير أو يتصور مرغما بدافع الوهم الخارجي فيعطيك على طريق العبث بالحياة أو الخطأ في التصور صورا خيالية ينتزعها من الحقيقة فتسميه خيالا أو وهماً
فالعقل والفكر والحذق والحافظة والذهن والفطنة والذكاء والحلم والهوى النفس الأمارة بالسوء والشيطان، كل ذلك مصدر، واحد لهذا العمل الخارجي، يتلون بالعوامل التي تحف بالعمل محسنه ومقبحه، يلبس لكل مؤثر لونا غير لونه مع مؤثر آخر، ويدعى معه باسم كان قد دعي مع غيره باسم آخر
أما استلزامه في الدين حكم الجبر فذلك مما أرجحه، والدين إنما كان لتربية المجتمع تدريجا ليستحيل الهوى فيه عقلا، ويحول المثل الأدنى فيه مثلا أعلى بحكم التطور، إذ

الخصائص النفسية بعد الإرادة غرائز تكونت من الكسب الاجتماعي، والجبر لا مناص منه قبل هذه الاستحالة وبعدها، فالمرء مع الهوى المطلق مجبر على كونه شيطانا، ومع العقل المطلق مجبر على كونه ملكا.

فعلى هذا يكون مناط المثل الأعلى والمثل الأدنى في المرء واحدا ولكنه باعتبارين مختلفين، ولا عجب في ذلك فالمرء يجمع الأضداد، فبينما هو الحليم الرزين في حالة، إذا هو الأحمق الطائش في حالة أخرى، وبينما هو الشجاع المقدام في مشهد، إذا هو الجبان الرعديد في مشهد آخر، فليس ذلك ناشئا فيه إلا بفضل هذا السر الغامض الكامن في نفسه المتلونة. وربما استقام لنا أن نخص المثل الأعلى بالعقل، ونعزو المثل الأدنى للإرادة، إنما لابد لنا ونحن نمشي مع رغباتنا إلى العمل السيء بعد المحاكمة العقلية وثبوت قبح هذا العمل لدى العقل أن نتساءل أين ذهب عنا ما نسميه عقلا فلا نحصله إذ ذاك إلا بعد أن نلتفت إليه؟

فما هو هذا الذي نلتفت به إلى العقل؟

هل هي الإرادة وهي التي تدفعنا؟

ثم أين يكون العقل ونحن في انغماس بما تحملنا الإرادة على الخوض فيه خلاف العقل؟

فهل نفقده إذ ذاك ويكاد يكون جزءاً مقوما في النفس، والنفس بمجموعها تيار لا ينفك متلاطما، ولا يخبو له نشاط حتى يتعطل ما يمسكه من آلة.

فهل يذهب به إذ ذاك اختلال مركزه العصبي بينما نستطيع استرجاعه بأقل التفات؟

جبل عامر (النبطيه)

بلاط الشهداء بعد ألف ومائتي عام

للأستاذ محمد عبد الله عنان

وبينما قامت الدولة الإسلامية ثابتة وطيدة الدعائم، وقامت في جميع أقطار الخلافة حكومات محلية قوية ومجتمعات إسلامية مستنيرة، وجيوش غازية منظمة، إذا بمجتمع القبائل الجرمانية غزاة رومة من الشمال ما يزال إذا استثنينا مملكة الفرنج على حالته من البداوة والتجوال والتفرق. وكان الفرنج هم قادة القبائل الجرمانية في هذا الصراع الذي نشب في سهول فرنسا وآذن طوره الحاسم بعبور المسلمين إلى فرنسا في ربيع سنة 732، وكان سيل الفتح الإسلامي ينذر باجتياح فرنسا منذ عشرين عاما أعني مذ عبر المسلمون جبال البرنيه بقيادة موسى بن نصير لأول مرة واستولوا على سبتمانيا ثم اقتحموا بعد ذلك وادي الرون واكوتين أكثر من مرة. ولكن مملكة الفرنج كانت يومئذ تشغل بالمعارك الداخلية وتقتتل حول السلطان والرياسة حتى ظفر كارل مارتل بمنصب محافظ القصر، وأتفق أعواما أخرى في توطيد سلطانه؛ بينما كان خصمه ومنافسه أودو أمير أكوتين يتلقى وحده ضربات العرب. فلما استفحل خطر الفتح الإسلامي وانساب نحو الشمال حتى بورجونيا منذ ولاية الهيثم فزع الفرنج وهبت القبائل الجرمانية في أوستراسيا ونوستريا لتذود عن سلطانها وكيانها.

وكان الخطر داهما حقيقيا في تلك المرة لأن المسلمين عبروا البرنيه عندئذ في أكبر جيش حشد وأتم أهبة اتخذت منذ الفتح. وكان على رأس الجيش الإسلامي قائد وافر الهمة والشجاعة والبراعة هو عبد الرحمن الغافقي وهو أعظم جندي مسلم عبر البرنيه. وكان قد ظهر ببراعته في القيادة منذ موقعة تولوشة حيث استطاع إنقاذ الجيش الإسلامي من المطاردة عقب هزيمته ومقتل قائده السمح والارتداد إلى سبتمانيا. وتبالغ الرواية الفرنجية في تقدير جيش عبد الرحمن وأهبته فتقدره بأربعمائة ألف مقاتل، هذا غير جموع حاشدة أخرى صحبها لاستعمار الأرض المفتوحة. وهو قول ظاهر المبالغة. وتقدره بعض الروايات العربية بسبعين أو ثمانين ألف مقاتل، وهو أقرب إلى الحقيقة والمعقول. بل لقد أثارت هذه الغزوة الإسلامية الشهيرة وهذا الجيش الفخم خيال الشاعر الأوربي الحديث، فنرى الشاعر الإنجليزي سوذي يقول في منظومته عن ردريك آخر ملوك القوط:

جمع لا يحصى، من شام وبربر وعرب وروم خوارج. وفرس وقبط وتتر عصبة واحدة.) يجمعها إيمان هائم راسخ الفتوة. وحمية مضطرمة واخوة مروعة. ولم يك الزعماء أقل ثقة بالنصر. وقد شمخوا بطول ظفر. يهيمون بتلك القوة الجارفة التي أيقنوا أنها كما اندفعت حيثما كانوا بلا منازع ستندفع ظافرة إلى الأمام حتى يصبح الغرب المغلوب

كالشرق. يطأطيء الرأس إجلالاً لاسم محمد. وينهض الحاج من أقاصي المنجمد. ليطأ (بأقدام الإيمان الرمال المحرقة. المنتثرة فوق صحراء العرب وأراضي مكة الصلدة ونفذ عبد الرحمن في جيشه الزاخر إلى فرنسا كما قدمنا في ربيع سنة 732م (أوائل سنة 114هـ) واقتحم وادي الرون وولاية اكوتين وشتت قوى الدوق أودوا طبق ما أسلفنا، وأشرف بعد هذا السير الباهر على ضفاف اللوار. وتقول بعض الروايات الكنسية أن أودو هو الذي استدعى عبد الرحمن إلى فرنسا ليعاونه على محاربة خصمه (كارل مارتل). ولكن هذه الرواية مردودة غير معقولة لما قدمنا من أن أودو هو الذي بادر إلى مقاومة عبد الرحمن ورده، وكانت مملكته وعاصمته أول غنم للمسلمين. وكان ملك الفرنج يومئذ تيودريك الرابع، ولكن ملوك الفرنج كانوا في ذلك العصر أشباحا قائمة فقط. وكان محافظ القصر كارل مارتل هو الملك الحقيقي يستأثر بكل سلطة حقيقية وعليه يقع عبء الدفاع عن ملكه وأمته، وكان منذ استفحل خطر الفتح الإسلامي يتخذ أهبته ويحشد قواه، ولكن عبد الرحمن نفذ إلى قلب فرنسا قبل أن يتحرك للقائه. وترد الرواية الإسلامية هذا البطء إلى خطة مرسومة مقصودة فتقول في هذا الموطن (فاجتمعت الفرنج إلى ملكها الأعظم قارله وهذه سمة لملوكهم، فقالت له ما هذا الخزي الباقي في الاعقاب؟ كنا نسمع بالعرب ونخافهم من جهة مطلع الشمس حتى أتو من مغربها استولوا على بلاد الأندلس وعظيم ما فيها من العدة والعدد يجمعهم القليل وقلة عدتهم وكونهم لا دروع لهم. فقال لهم ما معناه: الرأي عندي ألا تعترضوهم في خرجتهم هذه، فانهم كالسيل يحمل من يصادره، وهم في إقبال أمرهم، ولهم نيات تغني عن كثرة العدد، وقلوب تغني عن حصانة الدروع، ولكن أمهلوهم حتى تمتلئ أيديهم من الغنائم ويتخذوا المساكن ويتنافسوا في الرياسة ويستعين بعضهم ببعض، فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر) ونستطيع أيضا أن نعلل تمهل كارل مارتل بقصده إلى ترك خصمه ومنافسه أودو دون غوث حتى يقضي المسلمون على ملكه
وسلطانه فيتخلص بذلك من منافسته ومناوأته.
وعلى أي حال فان عبد الرحمن كان قد اقتحم أكرتين وجنوب فرنسا كله، حينما تأهب كارك مارتل للسير إلى لقائه. وجاء الدوق أودو بعد ضياع ملكه وتمزيق قواته يطلب الغوث والنجدة من خصمه القديم أعني كارل مارتل. وكان كارل قد حشد جيشا ضخما من الفرنج ومختلف العشائر الجرمانية المتوحشة والعصابات المرتزقة فيما وراء الرين يمتزج فيه المقاتلة من أمم الشمال كلها، وجله جند غير نظاميين نصف عراة يتشحون بجلود الذئاب وتنسدل شعورهم الجعدة فوق أكتافهم العارية. وسار زعيم الفرنجة في هذا الجيش الجرار نحو الجنوب لملاقاة العرب في حمى الهضاب والربى حتى يفاجئ العدو في مراكزه قبل أن يستكمل الأهبة لرده. وكان الجيش الإسلامي قد اجتاح عندئذ جميع أراضي أكوتين التي تقابل اليوم من مقاطعات فرنسا الحديثة جويان وبريجور وسانتونج وبواتو. وأشرف بعد سيره المظفر على مروج نهر اللوار الجنوبية حيثما يلتقي بثلاثة من فروعه هي (الكريز) (والفيين) (والكلين)
ومن الصعب أن نعين بالتحقيق مكان ذلك اللقاء الحاسم في تاريخ الشرق والغرب والإسلام والنصرانية. ولكن المتفق عليه انه هو السهل الواقع بين مدينتي بواتييه وتور حول نهري (كلين) (وفيين) فرعي اللوار على مقربة من مدينة تور. والرواية الإسلامية مقلة موجزة في الكلام عن تلك الموقعة العظيمة وليس فيها لدينا من المصادر العربية عنها أي تفصيل شامل. وإنما وردت تفاصيل للرواية الإسلامية عن الموقعة نقلها إلينا المؤرخ الأسباني كوندي سنعود إليها بعد. وتفيض الرواية الفرنجية والكنسية بالعكس في حوادث الموقعة وتقدم إلينا عنها تفاصيل شائقة ولكن يحفها الريب وتنقصها الدقة التاريخية. وقد رأينا أن نجمل وصف الموقعة أولا بما لدينا من أقوال الروايتين ثم نورد كلتيهما بعدئذ بتفاصيلها.
انتهى الجيش الإسلامي في زحفه إلى السهل الممتد بين مدينتي بواتييه وتور كما قدما، واستولى المسلمون على بواتييه ونهبوها وأحرقوا كنيستها الشهيرة، ثم هجموا على مدينة تور الواقعة على ضفة اللوار اليسرى واستولوا عليها وخربوا كنيستها أيضا. وفي ذلك الحين كان جيش الفرنج قد انتهى إلى اللوار دون أن يشعر المسلمون

بمقدمه بادئ بدء، وأخطأت الطلائع الإسلامية تقدير عدده وعدته. فلما أراد عبد الرحمن أن يقتحم اللوار
لملاقاة العدو على ضفته اليمنى فاجأه كارل مارتل بجموعه الجرارة. وألفى عبد الرحمن جيش الفرنج يفوقه في الكثرة فارتد من ضفاف النهر ثانية إلى السهل الواقع بين تور وبواتيه. وعبر كارل مارتل اللوار غرب تور وعسكر بجيشه إلى يسار الجيش الإسلامي بأميال قليلة بين نهري كلين وفيين فرعي اللوار.

في الأدب العربي

عكاظ والمربد

للأستاذ أحمد أمين

المربد

أما المربد، على وزن منبر، فضاحية من ضواحي البصرة؛ في الجهة الغربية منها ما يلي البادية، بينه وبين البصرة نحو ثلاثة أميال. كان سوقاً للإبل، قال الأصمعي: (المربد كل شيء حبست به الإبل والغنم. . . وبه سميت مربد البصرة؛ وإنما كان موضع سوق الإبل) وهو واقع على طريق من ورد البصرة من البادية ومن خرج من البصرة أليها. ويظهر أنه نشأ سوقاً للإبل، أنشأه العرب على طرف البادية يقضون فيه شؤونهم قبل أن يدخلو الحضر أو يخرجوا منه.

وقد كان العرب في بادية العراق قبل الفتح الإسلامي؛ ونزلت فيه قبائل من بكر وربيعة، وكونوا فيه أمارة المناذرة في الحيرة؛ فكان هذا الإقليم معروفاً لهم وكانت الرحلات من البادية إلى العراق، ومن العراق إلى البادية في حركة مستمرة (ومعلوم أن البصرة إنما خططت في الإسلام في عهد عمر بن الخطاب ونزل بها العرب على منازلهم من يمنية ومضرية) ولكن يظهر أن المربد كان قبل أن تخطط البصرة، وكان قبل الإسلام؛ وربما فهم ذلك من قول الطبري: بعث عمر بن الخطاب عتبة بن غزوان فقال له أنطلق أنت ومن معك حتى إذا كنتم في أقصى أرض العرب وأدنى أرض العجم فأقيموا. فأقبلوا حتى إذا كان بالمربد وجدوا هذا الكذان قالوا ما هذه البصرة.

وقال في اللسان (في مادة ب ص ر) وقال أبن شميل: البصرة أرض كأنها جبل من جص وهي التي بنيت بالمربد وإنما سميت البصرة بصرة بها. ولكن أخباره في الجاهلية منقطعة أو معدومة مما يدل على قلة خطره إذ ذاك، إنما كان له الخطر بعد أن فتح العرب العراق وسكنوه وخططوا البصرة، فقد أنشئت فيه المساكن بعد أن كان مربداً للإبل فقط. واتصلت العمارة بينه وبين البصرة حتى قالوا فيه: (العراق عين الدنيا، والبصرة عين العراق، والمربد عين البصرة، ودارين عين المربد)

وقد كان المربد في الإسلام صورة معدلة لعكاظ، كان سوقاً للتجارة، وسوقاً للدعوات السياسية وكان سوقاً للأدب. جاء في كتاب (ما يعول عليه) المربد كل موضع حبست فيه الإبل. ومنه سمي مربد البصرة لاجتماع الناس وحبسهم النعم فيه. كان مجتمع العرب من الأقطار، يتناشدون فيه الأشعار؛ ويبيعون ويشترون وهو (كسوق عكاظ) وقال العيني: (مربد البصرة. . . محلة عظيمة فيها (البصرة) من جهة البرية كان يجتمع العرب من الأقطار ويتناشدون الأشعار ويبيعون ويشترون).

وليس يهمنا هنا أثره السياسي والأدبي، وهما مرتبطان بعضهما ببعض أشد الارتباط. فلا داعي للتفريق بينهما؛ فقد كانت الأحزاب السياسية تنتج أدباً من خطب وشعر، وكانت الخطب والشعر تقوي الأحزاب السياسية وتساعد في تكوينها والحروب بينهما.

المربد في عصر الخلفاء الراشدين

كانت أهم الأخبار في ذلك العصر ما كان بعد قتل عثمان أبن عفان من سير عائشة أم المؤمنين إلى البصرة، فأنها نزلت بفضاء البصرة ورأت أن تبقى خارجها حتى ترسل إلى أهلها تدعوهم بدعوتها، وهي المطالبة بدم عثمان، وبعبارة أخرى الخروج على عليّ؛ وكان معها طلحة والزبير، ثم سارت إلى المربد معهما وخرج إليها من قبل دعوتها، وخرج إلى المربد كذلك عامل عليّ على البصرة، وهو عثمان بن حنيف ومن يؤيده، وأصبح المربد وهو يموج بمن أتى من الحجاز ومن خرج من البصرة، حتى ضاق المربد بمن فيه؛ ورأينا المربد مجالاً للخطباء ممن يؤيد عائشة ومن معها، ومن يؤيد علياً وعامله. أصحاب عائشة في ميمنة المربد وأصحاب علي في ميسرته؛ ويخطب في المربد طلحة ويمدح عثمان بن عفان، ويعظم ما جنى عليه ويدعو إلى الطلب

بدمه ويخطب الزبير كذلك وتخطب عائشة أم المؤمنين بصوتها الجهوري ويؤيدهم في ميمنة المربد، ويقولون صدقوا وبروا وقالوا الحق وأمروا بالحق، ويؤثر قول عائشة في أهل الميسرة فينحاز بعضهم أليها ويبقى الآخرون على رأيهم وعلى رأسهم عثمان بن حنيف، ويخطبون كذلك يبينون خطأ الدعوة وأن طلحة والزبير بايعا علياً فلا حق لهما في الخروج عليه، ويؤيدهم أبو الأسود الدؤلي وأمثاله.

وهكذا ينتقل المربد إلى مجمع حافل، فيه الدعوات السياسية مؤيدة بالحجج والبراهين وفيه

معرض البلاغة من خطب طويلة وجمل قصيرة متينة، وفيه الجدل والمناظرة وبحث أهم الأحداث في ذلك العصر، وهو مقتل عثمان بن عفان، وتحديد المسؤولية في قتله. ولم تفد هذه الحرب اللسانية فانتقلت إلى حرب بالسلاح وأصبح المربد ساحة للقتال.

المربد في عهد بني أمية

كان العصر الأموي أزهى عصور المربد، ذلكم لأن العرب كانوا قد هدءوا من الفتح واستقرت الممالك في أيديهم، وأصبح العراق مقصد العرب، يؤمه من أراد الغنى وخاصة البصرة، جاء في الطبري (أن عمر بن الخطاب سأل أنس بن حجية وكان رسولاً إلى عمر من العراق فقال له عمر: كيف رأيت المسلمين؟ فقال إنثالت عليهم الدنيا فهم يهيلون الذهب والفضة، فرغب الناس في البصرة فأتوها) وكان المربد باب البصرة يمر به من أرادها من البادية، ويمر به من خرج من البصرة إلى البادية، ويقطنه قوم من العرب كرهوا معيشة المدن، ويقصده سكان البصرة يستنشقون منه هواء البادية، فكان ملتقى العرب، وكانوا يحيون فيه حياة تشبه حياة الجاهلية من مفاخرة بالأنساب وتعاظم بالكرم والشجاعة، وذكر لما كان بين القبائل من أحن، فالفرزدق يقف في المربد ينهب أمواله فعل كرماء الجاهلية (حكي في النقائض أن زياد بن أبي سفيان كان ينهى أن ينهب أحد مال نفسه، وأن الفرزدق أنهب أمواله بالمربد، وذلك أن أباه بعث معه إبلاً ليبيعها فباعها وأخذ ثمنها فعقد عليه مطرف خز كان عليه، فقال قائل لشد ما عقدت على دراهمك هذه، أما والله لو كان غالب ما فعل هذا الفعل فحلها ثم لأنهبها، وقال من أخذ شيئاً فهو له، وبلغ ذلك زياداً فبالغ في طلبه فهرب. . . فلم يزل في هربه يطوف في القبائل والبلاد حتى مات زياد.)

وكان الأمويون على وجه العموم يعيشون عيشة عربية ويحتفظون بعربيتهم، أن أخذوا شيئاً من الحضارة صبغوه بصبغتهم وحولوه إلى ذوقهم وكذلك فعل عرب البصرة، أرادوا أن يكون لهم من مربد البصرة ما كان لهم من سوق عكاظ في الحجاز فبلغوا غايتهم. وأحيوا العصبية الجاهلية. وساعد الخلفاء الأمويون أنفسهم على أحيائها لما كانوا يستفيدون منها سياسياً، فرأينا ظل ذلك في الأدب والشعر، ورأينا المربد في العصر الأموي يزخر بالشعراء يتهاجون ويتفاخرون، ويعلي كل شاعر من شأن قبيلته ومذهبه السياسي، ويضع من شأن غيره من الشعراء ومذاهبهم السياسية.

ومن أجل هذا خلف لنا المربد أجل شعر أموي من هذا النوع. فكثير من نقائض جرير والفرزدق والأخطل كانت أثرأ من آثار المربد قيلت فيه، وصدرت عما كان بينهم من منافرة وخصومة. يروي الأغاني أن جريراً والفرزدق اجتمعا في المربد فتنافرا وتهاجيا وحضرهما العجاج والأخطل وكعب بن جعيل ألخ في خبر طويل.

كان كل من جرير والفرزدق يلبس لباساً خاصاً ويخرج إلى المربد ويقول قصائده في الفخر والهجاء، والرواة يحملون إلي كليهما ما قاله الآخر فيرد عليه. قال أبو عبيدة (وقف جرير بالمربد وقد لبس درعاً وسلاحاً تاماً وركب فرساً أعاره إياه أبو جهضم عباد بن الحصين.) فبلغ ذلك الفرزدق فلبس ثياب وشى وسواراً وقام في مقبرة بني حصن ينشد بجرير والناس يسعون فيما بينهما بأشعارهما فلما بلغ الفرزدق لباس جرير السلاح والدرع قال:

عجبت لراعي الضأن في حطمية ... وفي الدرع عبد قد أصيبت مقاتله

ولما بلغ جريراً أن الفرزدق في ثياب وشى قال:

لبست سلاحي والفرزدق لعبة ... عليه وشاحاً كرج وجلاجله

وما زالا كذلك يتهاجيان ويقولان القصائد الطويلة الكثيرة حتى ضج والي البصرة فهدم منازلهما بالمربد فقال جرير:

فما في كتاب الله تهديم دارنا ... بتهديم ماخور خبيث مداخله

من طرائف الشعر
مداعبات شوقية لم تنشر
قصيدة أخرى لم تكتمل، قيلت في مكسويني حصان الدكتور محجوب ثابت أيام الثورة المصرية حين كان الدكتور يرتاد (بار اللوا) وجريدة الأهرام.
تُفدّيك يا مكس الجياد الصلادم ' ... وتفدى الأساةُ النُطسُ من أنت خادم
كأنك إن حاربت فوقك عنتر ... وتحت أبن سينا أنت حين تسالم
ستُجزى التماثيل التي ليس مثلها ... إذا جاء يوم تُجزى البهائم
فأنك شمسٌ والجياد كواكب ... وأنك دينار وهنَّ الدراهم
مثال بساح البرلمان منصَّب ... وآخر في (بار اللوا) لك قائم
ولا تظفر (الأهرام) ألا بثالث ... مزاميرُ داود عليه نواغم
وكم تدَّعي السودان يا مكس هازلاً ... وما أنت مسوَدٌ ولا أنت هازل
وما بك مما تبصر العين شُهبةً ... ولكن مشيب عجَّلته العظائم
كأنك خيل الترك شابت متونها ... وشابت نواصيها وشاب القوائم
فيا ربَّ أيام شهدت عصيبة ... وقائعها مشهورة والملاحم
وهذه قصيدة أخرى لم تكمل قيلت في الدكتور محجوب أيام الثورة أيضاً والشاعر يشير فيها إلى ألفي جنيه كان الدكتور قد أكتنزها وحرص عليها في بنك حسن باشا سعيد
قل لأبن سينا لا طبي ... ب اليوم ألا الدرهم
هو قبل بقراط وقب ... لك للجراحة مرهم
والناس مذ كانوا علي ... هـ دائرون وحُوَّم
وبسحره تعلو الأسا ... فل في العيون وتعظُم
يا هل ترى الألفان وق ... فٌ لا يمس ومَحْرم
بنك السعيد عليهما ... حتى القيامة قيم
لا شيك يظهر في البنو ... ك ولا حواة تخصم
وأعفَّ من لاقيت يل ... قاه فلا يتكرَّم
الغريب
للشاعر الوجداني الرقيق أحمد رامي
يا نسيم الفجر ريّان الندى ... مالذي تحمل من أرض الحبيب؟
فرح الكون بلقياه غدا ... والأسى غَيمانُ في عين الغريب
غرَّد الطير وغنى ... كل إلفْ يتهنى
وأنا قلبيَ حنا ... أرسلَ الشكوى وأنا
آهةٌ تترى ... مقلة شكرى
تيصر الأحباب من بين الدموع ... رائح منهم وغاد
وترى بالظن أيام الربيع ... لخيالي وفؤادي
يا نسيم الفجر
نادياً بالزهر
رنم الدوح ورَن الجدول ... وسرت في الجو أنفاس العبير
وبدا النور فصاح البلبل ... داعياً للشدو أسرابَ الطيور
والنجوم ... في الغيوم
لبست منها نقاب
والشفق ... في الأفق
لونه وردٌ مذاب
كل ما في الكون بشرٌ وهنا! وأنا؟
أنا ما زلت غريباً مفرداً ... في ديار عزّني فيها الحبيب
فرح الكون بلقياه غداً ... والأسى غيمان في عين الغريب
احساساتي
للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي
قال الأستاذ حفظه الله من كتاب خاص:
نزلت قبل أسبوعين تقريباً من السيارة عند باب السوق. أريد مقابلة أحد الكتبيين

فسقطت مغمى عليّ، فحملوني في عربة إلى داري. وبعد انتباهي قلت لعل يومي قد أقترب، ونظمت قصيدة (حساساتي) ورجحت نشرها في رسالتك الغراء.

قد أنَى يا منيتي أن تعودي ... بي إلى حيث كنتُ قبل وجودي
حيث لا أقتني شعوراً يُريني ... كيف أدنو للفوز بالمقصود
حيث لا نبض في عروقي ولا ضر ... بُ لقلبي ولا حراك لعُودي
هوِّني يا نفس فعلّكِ تستطيـ ... عين عن هوة الردى أن تحيدي
ليت أن الحياة ترجع في يو ... م إلى جسم الميِّت الملحود
ليس من هنا الموت يا نفسُ بدٌّ ... فهو للناس من تراث الجدود
يا أمانيّ فارقيني ويا نف ... سُ وداعاً ويا حُشاشةُ جودي
بعد أيام قد تقاربن مني ... أنا يا نفسي وداعاً لا محالة مودي
وسواء عليّ من بعد موتي ... أن تبيدي معي وألا تبيدي
وسواء أكنتُ أحيا سعيداً ... قبل موتي أم لم أكن بسعيدِ
وإذا كنتِ لا تبيدين، نفسي ... تبعاً لي فأستبشري بالخلود
وإذا الشيخ بات يشكو الوَنَى وال ... وهن فالموت عنه غيرُ بعيدِ
سيقولون شاعر غاب في اللح ... د وكم غاب مثله في اللحود
لا تخافي عليَّ فالموت سهل ... لا كما ينعتونه بشديدِ
لا تخافي، فالموت ليس على الأر ... ض ولا في سمائها بجديد
سبقتني إلى المقابر موتي ... أنا في الراحلين غيرُ وحيد
من قضى نحبه فنام بقبر ... لا يبالي طول الليالي السود
غير أني ما سئمت حياتي ... وهبوطي وهادَها وصعودي
فأرى راحة بقبري وان نا ... لت على وجه الأرض مني جهودي
أننا، والفراق صعب، سننقض ... إلى غير ملتقى وشهود
جمع الدهر حقبة شملنا ث ... م رمته يداه بالتبديد
ما بلغنا من اللبانات يا نف ... سي سوى النزر بعد جهد جهيدِ
أنت يا (ليلى) كنت ماثلة لي ... كلَّ يوم في يقظتي وهجودي
أنا ماض إلى لقاء المنايا ... بخُطىً ليس مشيها بوئيد
عانقيني قبل النوى لوداعي ... وضعي الجيد ساعة فوق جيدي
وانظريني بأعين باكيات ... ترسل الدمع مثل دُر نضيد
لهف نفسي على صُبابة عيش ... هو لولاك لم يكن برغيدِ
أبّنيني يا نفس فوق ضريحي ... بقواف رقيقة وأعيدي
غن لي يا هزار أغنية النو ... م على قبري كي يطيب رقودي
ولعلَّ الصبا تمر رخاءً ... فوق ملحودتي فتنعش عودي
لستُ أدري أللفناء سنمضي ... بعد ما قد نموت أم للخلود؟
حبذا لو حظيت من بعد موتي ... بحياتي التي انتهت من جديد
أنني في شك وان ملأ واسم ... عي بوعدٍ يروونه ووعيد
لا تثق بالجمهور يا عقل يوما ... أن رأي الجمهور غير سديد
ولعلي رجوت ما ليس يرجى ... ولعلي حمدت غيرَ حميد
بعد نومي على فراشٍ وثيرٍ ... عن قريب أنام في أخدودِ
لا أنيس ولا نسيم ولا نو ... رٌ يزيل الظلام من ملحودي
آه يا نفس إن ذلك سهل ... لو نسينا ما فيه من تجريد
يوم لا نبصر الربيع ولا نص ... غي لأنغام البلبل الغرِّيد
شاعر الروض يرسل الشدو شجواً ... جاثماً فوق ناعم أملود
يوم لا تطلع النجوم علينا ... باسمات من السماء كخُودٍ
يوم لا يسفر الصباح لنا من ... جانب الشرق قائماً كعمود
يوم أيدي الردى تجردني من ... كل مالي من طارفٍ وتليدِ
أنا يا صحبي واحدٌ كنت منكم ... فاذكروني ولا تنسَوا عهودي
أنا في قبري اليوم عنكم بعيدٌ ... وأنا عنكم فيه غير بعيدِ
خير قبرٍ يسقى تراب حفيري ... هو يا صحبي عبرةٌ من ودودِ
وإذا كان للفقيد بقلبٍ ... خافقٍ مثوى، فهو غير فقيدِ

ولعل البكاء غير ' مُسلٍ ... ولعل البكاء غير مفيدِ
تأكل الأرض كل حيٍّ فلا تُب ... قي على والدٍ ولا مولودِ
اسألوها هل امتلأت تقل من ... شرهِ في الجواب، هل من مزيد؟
أممٌ كلها تبيد فتأتي ... أممٌ أخرى بعدها للبيود
سوف يقفو ركب إلى الموتِ ركباً ... ثم لا أشدو خلفه بنشيدي
إنني إن أهلِك فَمنْ لقريضي ... يتغنى به ومن لقصيدي؟
حشروني والجامدين، على ما ... أخذوا من آبائهم، في صعيد
إنني منذ كنت أشدو بشعري ... كان يُوحي إليَّ بالتجديد
أنا لا أدعي الزعامة فيه ... غير أني أبث فيه وجودي
قلت شعراً فكاد يأكلُ لمّا ... سمعوه كالنار قلب الحسودِ
فدَعوني مقلداً ينظم الشع ... ر كما كان في زمان الرشيدِ
كذبوا أنني إلى اليوم ما قلد ... ت غيري، مالي وللتقليد؟
حبذا الليل والنهار بعيني ... إنني مغرم بكل جديدِ
وجديد القريض قرب ' معاني ... هـ وبعدٌ له عن التعقيد
وشعورٌ كأنه فلق الصبح ... ح إذا فاض ضوءه من بعيدِ
لا تُرد للشعور مني حداً ... فهو شيء يسمو عن التحديد
حبذا النقد لم يكن حين يغزو ... نائلاً من كرامة المنقودِ
لا أغالي، فربما قلت شعراً ... لم أكن في قرضي له بالمَجيد
ليس في الأرض شاعر قد نجا في ... كل ما قاله من التفنيد
منه بكر يطري، ومنه عوان ... لم تحن رتية الكعاب الخريد
قلته لاهياً به في شبابي ... من هموم الهوى وبرح الصدود
يومَ للغيد كنت أصبو ومن ذا ... ليس يصبو إلى الحسان الغيد؟
ثم أرهفتُه فكان سلاحي ... ثم غنيتُه فكان نشيدي
ثم صيّرته مِجَنّاً يقيني ... في (فَروقٍ) من شرّ عبد الحميد
ثم أودعته حقائق تسمو ... فأتى جامعاً لكل مفيدِ
حِكَمٌ تهدم التقاليد قد كا ... نت تُراعي من أهلها للجمود
عاب في الروض العندليب غراب ... قائلاً صه فأنت غير مجيد
فمضى العندليب في شدوه غي ... ر مبالٍ بقول ذاك البليد
قائلاً ليس للغراب بروض ... زهرُه الغضُّ باسم أغرودي
أنا للورد قد تفتَّح أشدو ... فهو إن أصغى تم لي مقصودي
يمّمي يا نفسي السماء فاني ... لا أرى في الثرى طريق الخلود
هي ممتدة لغير تناه ... وهي منبثَّة لغير حدود
اهتدي بالشعرَى وبعد خفاهاً ... من بياض للفرقدين استفيدي
إنما خشيتي ضلالُك في تل ... ك المحاني الكثيرة التجعيد
لا تهابي فلستِ أول روح ... وَغَلت في هذا الفضاء المديد
لا تهابي فأنتِ يا نفس بعدي ... مثل صمصامٍ ليس بالمغمود
ربما جاءوا يمنعونك فيها عن ... وصول إلى المقام الحميدِ
أنهم قد يثبطونك عنه ... بشهاب يلقونه من بعيدِ
فاصدميهم بما لديك من القوة ... في صولة الكَمَيِّ العنيد
وإذا ما قسوا عليك فلاقي ... هم بقلب أقسى من الجلمودِ
وإذا ما والوك فيها فوالي ... وإذا ما عدوا عليك فذودي
ولقد كان الحق في كل جيل ... ضائعاً بين سائد ومسود
إن تلك السماء كالأرض هذي ... حومةٌ تدمى للكفاح الشديد
لا يخيفنّك اللقاء بحرب ... هي بالنار تلتظي والحديد
أنتِ حاربتِ للتحرر أعوا ... ماً طوالاً فحاربي من جديد
أنتِ في الأرض ما تطأطأت حتى ... تخضعي في السماء أو تستفيدي
إنما أنت للتمرد لا لل ... خسف والرسف في ثقال القيودِ
وإذا ما لاقيت سداً منيعاً ... فأخرقيه بجرأة الصنديدِ
أسرعي واجتازي عوالم تحشو ... سُدُماً قد أسرفن في التحشيد

مسرعات إلى التوسع لا ير ... ضين ألا أخذ المكان البعيدِ
ليست الطالعاتُ يفجأن، الا ... رُسلاً جئن من وراء الوجود
إنما مستقر قافلة الأر ... واح في غير العالم المشهود
للذي يبتغي الولوج جريئاً ... ليس باب السماء بالمسدودِ
أنت روح ترقى إلى حيث شاءت ... لا حجاب لها عن التصعيد
لا تخافي هلكاً من الضرب فيها ... أنت روح والروح ليس بمودِ
إنما العز من نصيب الذي يج ... رأ والذل حصة الرِّعديدِ
أنتِ إن تعزمي يَهُنْ كلُّ صعبٍ ... لا ينال المرادَ غيرُ المُريدِ
أحمد البارئ الذي يتساوى ... عنده أيماني به وجحودي
قيل أن الشهيد يحيا لدى الر ... بِ فمن ذا في الأرض غير شهيد؟
إنما هذه حقائق صرَّحْ ... تُ بها صادعاً بلا تمهيدِ
فأسمعيها ولا تبوحي بها لل ... ملأ الأعلى حول عرش المجيدِ
كلنا مؤمن يسبّح للرح ... من في ظل عرشه الممدودِ
إنني ما سجدت يوماً لغير ال ... له فالله وحده معبودي
اسألي الله أن يخفف سجني ... في حفيري وأن يفك قيودي
وسلامٌ عليك يوم فراقي ... وسلامٌ عليّ يوم همودي

في الأدب العربي

الذئب في الأدبين العربي والفرنسي

- 2 -

قص علينا الشاعر الفرنسي (الفرد ده فيني) حديث المعركة التي نشبت بينه وبين الذئب، وانتهت بموت الذئب ميتة سكينة وطمأنينة، بعد أن تظاهر عليه أربعة من الرجال ببنادقهم ومداهم، يشد أزرهم في هذه المعركة كلب من الكلاب الضارية، سقط هو قتيلاً، وأنياب الذئب الحادة في عنقه قبل أن يسقط الذئب قتيلاً برصاص بنادق الصائدين ومداهم. فصور لنا في هذه الحكاية صورة واضحة تمثل إقدام الذئب وجرأته، وثبات الأم ورصانتها، تستبقي لتعلم أولادها تحمل الجوع، وتحيا لتحذرهم من احتمال الخضوع. وتمثل كذلك احتقار الذئب للحياة وزرايته بها، فقد تركها بعينيه الواسعتين، وأستودعها بنظرتين قويتين، أولاهما إلى أعدائه، وثانيتهما إلى أعضائه، ثم أغمضهما ومات ميتة جبار، بل أستاذ في الجبروت يحق أن يتلذذ عليه (فيني) ليلقي عنه هذا الدرس الأخلاقي. فكيف كان أمر شعرائنا مع ذئابهم؟

ذئب الفرزدق:

كان كل ما عرضه علينا الفرزدق من حديثه مع ذئبه أنه عشاه وصرفه:

وأطلس عسال وما كان صاحباً ... دعوت لناري موهناً فأتاني
فلما دنا قلت أدن دونك أنني ... وإياك في زادي لمشتركان
فبتّ أقدُّ الزاد بيني وبينه ... على ضوء نار مرة ودخان
فقلت له لما تكشر ضاحكاً ... وقائم سيفي من يدي بمكان
تعش فان عاهدتني لا تخونني ... نكن مثل من يا ذئب يصطحبان
وأنت أمرؤ يا ذئب والغدر كنتما ... أخيين كانا أرضعا بلبان
ولو غيرنا نبهت تلتمس القِرى ... أتاك بسهم أو شباة سنان
وأنا لترعى الوحش آمنة بنا ... ويرهبنا أن نغضب الثقلان

لا يريد بذلك ألا أن يدلنا على ما عنده من كرم وسخاء، وشجاعة عند اللقاء، لا يصرفه عن طعامه إقبال الذئب عليه ووقوفه بين يديه، فهو الذي قد بينه وبين الزاد، وأناله منه ما أراد،

مع أنه يعرف ما للذئب من طبيعة الفتك والغدر، ولكنه يعتمد ساعد قوي وسيف باتر. فقصيدته أذن قصيدة بدوية ليس فيها غير التمدح بالكرم والشجاعة، والجمال الفني فيها قليل.

ذئب البحتري

أما البحتري فقد قدم لنا قصة سينمائية جميلة عن نفسه وذئبه:

' وأطلس ملء العين يحمل زوره ... وأضلاعه من جانبيه شوىً نهد
' له ذنب مثل الرِّشاء يجره ... ومتن كمتن القوس أعوج منأد

' طواه الطوى حتى أستمر مريره ... فما فيه ألا الروح والعظم والجلد
' يقضقض عضلاً في أسرتها الردى ... كقضقضة المقرور أرعده البرد
' سما لي وبي من شدة الجوع مابه ... بيداء لم تعرف بها عيشة رغد
' كلانا بها ذئب يحدث نفسه ... بصاحبه، والجد يتعسه الجد
' عوى، ثم أقعى فأرتجزت، فهجته ... فأقبل مثل البرق يتبعه الرعد
' فأوجرته خرقاء تحسب ريشها ... على كوكب ينقض والليل مسود
' فما أزداد ألا جرأة وصرامةً ... وأيقنت أن الأمر منه هو الجد
فأتبعتها أخرى فأضللت نصلها ... بحيث يكون اللب والرعب والحقدُ
فخر وقد أوردته منل الردى ... على ظمأ لو أنه عذب الورد
' وقمت فجمَّعت الحصى فاشتويته ... عليه وللرمضاء من تحته وقد

فأرانا ذئبه رؤيا عين، في لونه الأطلس، ومتنه الأعوج المقوس، وجسمه المنهوك، وعظامه المقضقضة، حتى ملأ قلوبنا رهبةً منه، وخوفاً على صاحبه، ثم صور لنا المعركة التي نشبت بينهما حتى كأننا نراها، وكما أنه أجاد في تصوير تلك المعركة وإبرازها إلينا محسوسة مشهودة، لم يقصر في تصوير جرأته وجرأة ذئبه، واستماتة كل منهما في الذب عن نفسه والغيلة على عدوه، حتى جعلنا نؤمن بعظمته وعظمة ذئبه.

كل ذلك في قوالب متينة محكمة في وضوح وجلاء، وفن بديع مونق يملأ البصر والبصيرة، ولعله قد وفق في هذا شعراً إلى ما لم يوفق أليه أديب نثراً.

ذئب الرضي

أما ذئب الشريف الرضي فانه ذئب البحتري نفسه، وأما الرضي فأنه أبو عبادة:

وعاري الشوى والمنكبين من الطوى ... أتيح له بالليل عاري الأشاجع
أغيبر مقطوع من الليل ثوبه ... أنيس بأطراف البلاد البلاقع
قليل نعاس العين إلا غيابةً ... تمر بعيني جاثم القلب جائع
إذا فات شيء سمعه دل أنفه ... وإن فات عينيه رأى بالمسامع
تظالع حتى حك بالأرض زوره ... وراغ، وقد روعته، غير ظالع
ولما عوى والرمل بيني وبينه ... تيقن صحبي أنه غير راجع
تأدب والظلماء تضرب وجهه ... إلينا بأذيال الرياح الزعازع
له الويل من مستطعم عاد طعمة ... لقوم عجال بالقِسي النوازع

أخذ ظاهر، وانتحال بين، وهو مع ذلك قد أفاض على حديثه من جمال الفن ما كاد ينسينا حديث أبي عبادة، فلئن فاته حسن تصوير البحتري للمعركة فلم يفته حسن جمالها وتصويرها في صورة صغيرة في بيت واحد:

له الويل من مستطعم عاد طعمة ... لقوم عجال بالقسي النوازع
دل به على جرأة في مبتداها، وظفر بالعدو في منتهاها.

فإذا وضعنا القصة الفرنسة الحديثة بجانب القصة العربية القديمة وجدنا الفرق بينهما جلياً واضحاً، فالقصة العربية كل الغرض منها التمدح بالكرم والعطاء، والافتخار بالثبات عند اللقاء، وما هذه الصورة المخيفة التي صور بها الذئب إلا لينفذ منها الشاعر إلى ما يريد من مدح نفسه بالشجاعة، فليس فيها صورة خاصة لموت الذئب وساعة نزعه، بل أن الشريط لينقطع عند خبر موته، لأنه لا يهم هؤلاء الشعراء الاسترحام عليه أو الرثاء له، فهو عدو غدار نال حتفه بسيف الشاعر البتار وكفى، فليس بين موت ذئابهم إذن وموت أي حيوان أي فرق.

وأما القصة الفرنسية فهي على وحدة موضوعها وصورة ذئبها الخالدة التي ما تبرح مخيلة القارئ، ولا تنفك تعاوده كلما ذكر الذئب، سامية الغرض جليلة لمغزى نبيلة القصد، فالغرض منها اجتماعي تربيوي ذو شأن، فهو يريد أن ينبه القارئ إلى ما يجب عليه من إجابة دعوة القدر بهدوء وسكون، وتلبية نداء الموت في سبيل الواجب برزانة وصمت،

لأن الصمت هو العظمة، والبكاء والأنين وأشباههما جبن ونذالة.

فقصيدة (فيني) إذن مجلية في الحلية التي أنشأناها، وهي وحدها تقرب من المثل الأعلى، لأن العقلية غير العقلية والعصر غير العصر وثقافة فيني غير ثقافة هؤلاء الشعراء.

سامي الدهان

لعلوم
كيمياء الروح
للدكتور أحمد زكي

الكيمياء علم طوّاف جوّال سلك من العالم مسالك لم يدانه في سلوكها علم، ونزل من الأرض منازل لم ينزل في مثلها عرفان، فطورا تراه في البلقع الأجرد ينقر الصخر وينكت في الترب يستخرج معادنه ويتعرف جواهره، وطوراً تراه في الريف الأخضر يطعم النبات بالقوت الأنسب ويسقيه بالقدر الأوفق، وإذا مرض طبَّبه بصنوف الأدوية وحماه من الحَشَرِ بشتيت العقاقير، وطوراً في المدينة، في الحديقة الفسيحة، وفي الجنينة الصغيرة الأنيقة يعنى بزهرها ووردها وبنفسجها، أو بعنبها وتفاحها وبرتقالها ويوسفيها، عنايته بسنبلة القمح ولوزة القطن في الحقل في ظاهر البلد، وتجده في البيت إما في المطبخ قد سبق الطاهي إليه لا بصنوف الأطعمة المستطابة فحسب بل بالآنية والنار، وأما لدى غانية الدار جلس في متزينها ينتظرها بدقيق الأرز ودهن الحيوان وزيت الأزهار وصبغة الأرض ترطب بها جلداً وتورد خداً وتصبغ رمشاً وتزجِّج حاجباً، ويغنيك عن هذا التعداد المفصل أن تسير في حجرة من حجر البيت، وتنظر إلى ركن من أركانه، بل إلى جدران هذه الحجرات وسقوفها وأرضها، فلن تجد شيئاً لا تدخله الكيمياء. كذلك تجد علم الكيمياء في الشارع وفيما فيه من ذي حركة أو سكون، وفي المصنع تصنع الإبرة الصغيرة أو القاطرة الكبيرة، وفي المستشفيات وفي المقابر، وفي كل مظهر من مظاهر المدنية ومظاهر الحياة من مأكول وملبوس ومركوب، وكذلك في مظاهر الموت.

ولهذا الأتساع انقسمت الكيمياء إلى أقسام عدة: فالكيمياء العضوية وغير العضوية والكيمياء الطبيعية والهندسية والحيوية وهلم جرا. ولكن كل هذه موضوعها المادة، موضوعها الأجسام الملموسة الموزونة، سواء في ذلك الأجسام الجامدة والأجسام الحية، وهي إذا عالجت الأجسام الحية فهي لا تُعنى أو لم تكن تعنى ألا بمادتها الصامتة وهيولاها الجامدة دون حياتها وروحها. ولكن العلم طموح، والكيمياء علم، فكان من هذا أن بدأت تطمح إلى ما طمحت اليه وعجزت عنه القرون، تطمح إلى لمحة وراء المادة، ونظرة تختلسها من خلف ذلك الحجاب الأزلي الكثيف الذي فصل ما بين الجسام وأرواحها، تطمح إلى تفهم

العقل، لا من حيث الخلايا المخية التي هي مركزه، بل من حيث هو اسم لكل مظاهر الذكاء والغباوة والحب والبغض والغضب والحلم واليقظة والنوم، فتكوّن من ذلك أو كاد يتكون علم جديد لا أجد إسما أنسب له من (كيمياء الروح)

وطريقة هذا العلم الجديد كطريقة كل علم، يبدأ بالمعلوم ليتعرف المجهول. والمعلوم هنا الجسم والمجهول النفس، فهو يحدث تغيرات في الجسم ويرقب أثرها في النفس. وليست علاقة الجسم بالنفس بجديدة، فقديماً عرفنا الصيام يشحذ الفكر إلى حين، والطعام الكثير يثلمه حتى يسلم صاحبه إلى النوم. وسمعنا الفلاسفة والمفكرين في قديم الأزمان يعافون الطعام رغبةً في صفاء البصيرة وجلاء الذهن. ونسمعهم اليوم يترسمون في ذلك سنّة السلف، فغاندي يعيش على اللبن والبرتقال، واينشتين يقنع من اليوابس والسوائل بالقليل الميسور الذي لا يقنع الولد الصغير. ولكن هذه ملحوظات يلحظها الإنسان عفوا وهو لا يدري أين يلحظها ولا متى، وإن هي حانت فهو لا يتعمد لحظها ألا إذا ملكت عليه انتباهه.

ولكن هذا العلم الجديد ينتظر الحوادث ويجثمُ على مرقب عال طلباً للفرص التي قد تمر، وهو إلى جانب هذه الحوادث وتلك الفرص السانحة يخلق لنفسه الحوادث ويفتتح مواطن للتجارب يكون هو العامل الأكبر في إحداثها، والمهيمن الأول على إدارتها وتوجيهها.

جاءت الحرب العالمية فأجاعت كثيراً من الخلق في الأمم المختلفة، وكان من أشدهم جوعاً ألمانيا، وكان من أشد أهلها تأثراً بذلك أطفالها، فتهيأت الفرصة للبحث، فجاء هذا العلم يبحث في الغذاء الذي كان كانت تتعاطاه تلاميذ المدارس أيام السنوات العجاف، في مقداره ونوعه وعناصره، ويبحث في ذلك لا في أثر ذلك في أجسامهم فحسب، بل في أثره في عقولهم ونفسيتهم وروحهم، لا إجمالاً بل تفصيلاً، فعاهات النفس كعاهات الجسم، وخلل الروح كخلل المادة التي تتقمصها، أي أنها مثلها تختلف في الكيف كما

تختلف في الكم، ولكل عاهة أسم إن كان الآن فيه كثير من الإبهام، فأنه إبهام ينجلي
لا شك بطول البحث وكثير من الأناة والجلد. وخرج العلم من هذا البحث إلى أن
أربعين في المائة من التلاميذ فقدوا مقداراً كبيراً من طاقتهم العصبية العامة بسب
فقدهم عناصر هامةً في الطعام، وخرج على أن اختلافات خاصة في الشخصية
وتغيرات محدودة في الطبع ترتبط بنقص في بعض جواهر الغذاء الذي كان. ومن
النتائج التي خرجوا عليها علاقة بينة بين مرض
عصبي خاص، مظهره اضطراب وخوف، وبين خلو الطعام من الشحوم الفسفورية
والأحماض الدهنية غير المشبعة، ومن الأستيرولات. وليس معنى هذا أن هذه الشحوم
مفيدة دائماً في كل مرض. فقد درس شارل مرسيه عالم الأعصاب الإنجليزي
المعروف عدة من المرضى بعقولهم فزاد غذائهم من الشحم والسكر والنشأ ونقصه
من اللحم فوجد أن الجمع بين هذه الزيادة وهذا النقص زاد المرضى سوءاً على سوء.
ولم يجد هذا هو الحال في كل المرضى، دليلاً على أن المرض يختلف، ولو جمع
المرضى ظاهر واحد نسميه الجنون. على أننا قديماً قلنا الجنون فنون. ومن الدراسات
الأحدث أثر (الفيتامينات) في نفسية الأصحاء. و (الفيتامينات) طائفة من المواد
الكيمياوية موجودة في الطبيعة في كثير من الأغذية ولا سيما الفواكه ولتشابهها
وتعددها أعطوها حروفاً أ، ب، ج وهلم جراً بمثابة أسماء لها. درسوا الأثر الناشئ من
قلة الفيتامين ج في الغذاء أو انعدامه فيه فوجدوه يسبب في النفس همودا تستتر
وراءه حدة في الطبع وقابلية للتهيج شديدة. وهذه النتيجة تتفق تماماً مع ما لاحظه
رواد القطب الشمالي من المستكشفين لما قلت مواردهم وخف زادهم، وهو زاد قليل
الفيتامينات أو عديمها بطبيعة الحال. فأنهم كانوا دائماً يجدون الكسل في نفوسهم
وحب الشجار في قلوبهم، يثورون أليه للسبب الحقير التافة كأنما يجدون فيه متنفساً
من ضيق.
وهناك نوع من الجنون يصحبه مثل هذا الهبوط في النفس يعتري الرجل وقد أكتمل
نموه وبلغت حيويته أقصاها. دخل هذا المرض في دائرة علم الكيمياء الروحي من
سنوات قريبة واسترعى همة كثير من البحاث، وقد بدأوا يصفونه لا بخلل نفسي محض
بل بخلل في الجسم واضطراب في وظائفه. أي أن ذلك العقل ساء لما ساءت كيمياء
التربة التي أنبثق فيها، وتلك الشخصية الوقورة ضاع اتزانها لما ضاع أتزان بين الغدد
التي تهيمن في الجسم على دخل السكر إليه وخروجه منه واختزانه فيه. ومصداق هذا
أن المرض الذي نحن بصدده يكثر في الأسَر المصابة بالبول السكري، ولعل هذه
الحقيقة هي أول ما لفت البحاثَ إلى تلك الغدد ودرس وظائفها في هذا الصنف من
المعتوهين. والنوم، ذلك الطلسم الذي أعيا سره الأولين والآخرين، بدأوا يسلطون
عليه شعاعات من ذلك العلم الجديد لعلهم يردون أصله الى الكيمياء، وحديثاً نشر
(هرمان زندك) نظرية بناها على دراسات مبدئية
لم تنضج بعد، مؤداها أن الغدة النخامية وموضعها بقاعدة المخ، بها مادة كيميائية
تسمى بالهرمونات، وهي واحدة من عدة مواد توجد في الجسم تسمى بالهرمونات،
وهرمون هذه الغدة به عنصر البروم، فإذا بدأ النوم يخرج هذا الهرمون البرومي إلى
سائر المخ شيئاً فشيئاً حتى يضيع كله، فإذا أستيقظ الإنسان أخذت هذه الغدة تحشد
البروم، حتى إذا تكوَّن فيها بقدر معلوم أتى المرء النعاس، وخرج البروم يسير سيرته
الأولى. بالطبع هذه النظرية في حاجة إلى بحث كثير من غير واحد لتأييدها، ولكنها إذا
تأيدت وأتضح لنا أن النوم ما هو إلا محاولة الجسم إعادة أتزان كيميائي في الرأس
لكان في الإمكان إحداث هذا الاتزان في المعمل والاستغناء عن النوم، وبذلك يتضاعف
عمر العامل المنتج.
لا نريد أن نعدد كل ما صنع هذا العلم ولا كل النتائج التي خرج عليها ولا الظنون التي لا
تزال تساوره ولم تدخل بعد في مضرب الحقائق، فأنه علم وليد، ولكننا نريد أن نؤكد
العقيدة البارزة في كل أعماله وهي أن مظاهر الروح الخارجية وثيقة الارتباط
بالتفاعلات الكيميائية للجسم الذي تسكنه، وأن الإنسان إذا أنصت يفكر في ضحولة أو
عمق، أو تكلم يقرع الحجة بالحجة أو إذا هو سرّ فضحك فزاط وقصف أو تجهم واكتأب
فتجرع الحزن في هدوء وصمت، أو إذا هو أحب أو أبغض أو خاف أو تجرأ، فإنما يفعل
ذلك بجسمه لا بروحه وحدها، يفعل ذلك بالعقاقير الكيميائية التي بدمه ولحمه وغدده

وعصبه وخلاياه جميعاً، وأن هذه الانفعالات تسبب شدتها وكثرتها إجهاداً للمراكز الجسمية التي تصنع هذه العقاقير، وأخص تلك المراكز الغدد التي تقوم بسب العقاقير التي تفرزها بموازنات عدة لتفاعلات متناقضة شتى ينشِأ من اختلالها اختلال الجسم والروح. ولا أدل على هذا من نظرة يلقيها المرء في معترك الحياة التجارية في هذه المدينة الحاضرة حيث تتصارع قوى العيش الهائلة وتصطدم العواصف والآمال تصادم الجبال، أعني بذلك البورصات، فقد دل الإحصاء على أن عدد الإصابات التي سببها تلف يعتري تلك الغدد، كالبول السكري وصنوف معروفة من الجنون، يزداد بعد كل زوبعة من زوابع المضاربات.

وإن كانت انفعالات الروح الطائشة تتلف معمل الجسم الكيميائي الذي في صلاحه صلاحها، كان من الطبيعي إذا اعترى التلف الروح (ذلك السر المعجز) أن نبحث عن سبب هذا التلف في حجرات المعمل، وأن نرد غازات كريهة نشمها ولا نراها تخرج من مداخن

النفس، إلى الأسباب التي سببتها في بوادق البناء وقواريره، وهذا عمل العلم الجديد: (كيمياء الروح).

لقصص

الباسمة

قصة مصرية

للآنسة سهير القلماوي. لسانسييه في الآداب

سكت القوم وكأنهم ينصتون إلى نغم سماوي جميل. وكأن النغم قد حملهم من الأرض الدنسة إلى السماء الطاهرة، واستمرت هي في عزفها تهز أوتار القلوب هزاً ضعيفاً مطرباً ثم أتمت عزفها والتفتت إلى السامعين فإذا كل منهم مشدوه، ألهاه الطرب وأنساه النغم أن يظهر إعجابه أو سروره. ورنت ضحكتها العذبة الجميلة فتنبه السامعون ودوى المكان بالتصفيق الشديد.

كنت في السامعين ولم أكن أعرف عنها ألا أنها عذبة الابتسامة وضاحة المحيا، يشع من نفسها سحر عجيب يملأ ما حولها حياة فرحة نشيطة. سألت عنها فقيل أنها تتكسب بعزفها هذا لتعول طفلها الصغير الوحيد. ورحت أسأل عنها هذا وذاك فعرفت أنها شخصية فذة، شخصية نادرة عجيبة. مات أبوها وهي في سن الطفولة، وفقدت أقرباءها واحدا وراء الآخر حتى فقدت زوجها منذ زمن يسير. ولكن الغريب من أمرها أنها برغم هذا كله كانت مبتسمة ومتفائلة دائما. لقد صغرت الدنيا في عينها ولم يسلمها هذا الاستصغار إلى الألم أو الحزن أو اليأس. فهي لم تكن يوماً ما تؤمل من الدنيا شيئاً حتى يخيب أملها فيها. ثم هي لا توقن بشيء من أمر آخرتها. كل ما تعرفه أنها تعيش وأن الحياة شيء بهيج يجب أن تستمتع بها كل الاستمتاع، فمن يدري لعل نهايتها قريبة! بل لعل ألواناً من العذاب تنتظرها بعد حين!

كانت شديدة الشغف بالطبيعة، تخرج أليها كلما استطاعت تستنشق نسيمها وأريج أزهارها، وكأنما تستنشق حياة جديدة فتزيد حيويتها ويزداد بشرها وسرورها.

منذ ذلك اليوم أصبحنا صديقين تزداد معرفة كل منا بالأخرى، يوماً بعد يوم، فيزداد لذلك حبنا ويستوثق رباطنا. ولقد صحبتها في بعض محاولاتها الأخيرة، فقد حاولت لتزيد كسبها أن تطرق ميدان الأدب ثم ميدان التعليم فطرقتها جميعاً وأخفقت في كل منها إخفاقاً لا ذنب

لها فيه

ولكنها كانت ترجع من كل خيبة وكأنها أول الظافرين وآخرهم! ثم لا يلبث فشلها أن يستحيل سريعاً إلى أمل جميل وعزم وطيد. وفي ذات يوم مرض ابنها مرضاً شديداً فعاونتها على علاجه والسهر عليه رغم إبائها ذلك.

وفي ليلة طاغية شديدة البرد اضطررت إلى تركها بجانب وحيدها العليل. وفي الغد عدت أليها فوجدتها محمرة العينين تنفرج شفتاها عن ابتسامة ساخرة مرة مؤلمة. ترى ماذا حل بهذا الوجه الصبوح المستبشر الذي لم يقو الدهر على قلب ابتسامته أو تشويهها؟ واتجه نظري أولاً إلى الطفل ماذا حل به وأين هو؟ وأخيراً علمت أن طفلها الوحيد الذي كان يربطها بالحياة فارق الحياة أمس مساء. فانهمرت دموعي على رغم ما حاولت من حبسها وأحسست بفراغ حولي وكأنما نار ألهبت رأسي وعيني، فأخذت

أبكي وأبكي وظلت هي تكفكف عبراتي وتواسيني وكأني أنا الثكلى المكلومة، أيمكن أن تكون عديمة الإحساس؟ كلا لقد عرفت من حساسيتها الشيء الكثير، ولعل نظرة واحدة إلى ذلك الوجه الجميل تقنع الناظر بالآلام التي تحاول إخفاءها.

كل المصائب التي توالت عليها لم تغبر ابتسامتها، ولكن موت طفلها غير ملامح وجهها كلها. يا ليتها بكت! يا ليتها استطاعت أن تبكي!

وظلت نحو شهر في صراع بين الحزن وبين طبيعتها المرحة الضاحكة، تحاول بكل ما أوتيت من إرادة وعزم أن تتغلب على مصابها فتبتسم كما كانت تبتسم ولكن ابتسامتها أصبحت مبكية مؤلمة تبعث الشفقة والألم بعد أن كانت تبعث المرح والحياة.

لقد لازمت فراشها منذ أيام وكانت متعبة مريضة خائرة الأعصاب فذهبت أعودها يوماً فلم أجد بالدار أحداً، سألت عنها مرتاعة، وأخيراً علمت أنها فارقت الحياة أمس مساءً، سألت ماذا حل بها وأي أمر جديد انتابها؟ فعرفت أنها لم تصب بشيء جديد، وإنما فارقت الحياة وكأنها الشمعة تحترق. فارقتها شيئاً فشيئاً وقد لاقت ربها وعلى فمها ابتسامة رضا وطمأنينة، مرّ إذ ذاك بخاطري قول الشاعر الأمريكي برانيت، ذلك القول الذي كانت تردده أثر كل فشل أو مصاب، والذي ظلت تردده كثيراً في آخر أيامها:

(هكذا عش، حتى إذا ما نادى منادي الموت لا تسر إليه كالعبد مسوقاً إلى سجنه بل سر إليه بأيمان ثابت وطمأنينة

تامة كمن يسحب غطاءه عليه ليستسلم إلى حلم عذب جميل).

النجوم

للقصصي الفرنسي ألفونس دوديه

عندما كنت أرعى الماشية على جبل (اللبرون) كنت أقضي أسابيع طويلة لا أبصر في خلالها مخلوقاً حياً غير كلبي (لابري) وقطيعي في المرعى، وقسيس جبل (الأور) وبعض عمال (البيامون) مارين من هناك في سبيلهم، تلك الجماعة التي أخرستها الوحدة وشغلتهما عن تسقط أخبار قرى الساحل ومدنه. ولهذا كنت أشعر بالسعادة تمر بي كلما سمعت رنين أجراس بغلنا آتيا يحمل إليّ الزاد كل خمسة عشر يوماً، مرة مع أجيرنا ومرة مع عمتي. فكنت أتلقى منهما أخبار البلد من تعميد وزواج وغير ذلك، وأهتم خاصة بما آلت أليه أبنه سيدي الآنسة ستيفانيث، هذه الآنسة التي فاقت أترابها بجمالها الفاتن، وأستفهم بلباقة عما إذا كانت تكثر من حضور الحفلات العامة أو قضاء الليالي الراقصة، وهل تقدم إلى خطبتها أحد، كل ذلك كنت أقف عليه دون أن أترك لمحدثي سبيلاً يلحظ منه هذا الاهتمام البالغ. ومن يسألني الآن لماذا كانت تعنيني هذه الأمور أجبه بأني شاب في العشرين من عمري وأن الآنسة ستيفانيت أجمل فتاة رأيتها في حياتي.

وفي ذات مرة كنت أنتظر الزاد يوم الأحد فتأخر عن موعد وصوله، فحملت ذلك في الصباح على (حفلة القداس الكبير) وفي الظهر على أن الدابة لم تستطع متابعة سيرها لرداءة الطريق بعد هبوب العاصفة الشديدة، وفي الساعة الثالثة بعد الظهر تماماً، بينما الجو في صفاء أديمه، والجبل يرفل في حلته اللؤلؤية. وخرير المياه يشنف أذني. سمعت رنيناً مطرباً كأنه رنين الناقوس في عيد الفصح، فتحققت أن الدابة التي أنتظرها آتية، ولما تبينتها ملياً لم أر معها لا الأجير ولا العمة وإنما رأيت عليها. . أتعرف من!. . . آنستنا! نعم آنستنا ستيفانيت نفسها، فقد شاهدتها منتصبة على ظهر البغل بين السلال، موردة الوجنتين كأن نقاوة الهواء وطراوة الجو بعثتا في وجهها الحياة.

وقبل أن تطأ قدماها الأرض أخبرتني أن الأجير المسكين مريض لا يغادر فراشه، وأن عمتي (نوراد) غائبة منذ أيام عند أبنائها، ولما سألتها عن سبب إبطائها أجابت (إني ضللت الطريق) ولكن من يبصرها في أبهى زينتها، بشريطها الحريري المغطى بالزهر، وردائها اللماع الحواشي، يحكم بأنها كانت تلهو بالرقص لا بالتفتيش عن الطريق بين الأدغال.

آه ما ألطف هذه المخلوقة التي لم تملها عيناي وما أجملها! كنت بالأمس أشاهدها أحياناً في الشتاء وأنا عائد في المساء من الحظيرة إلى المزرعة لأتناول طعامي، فكانت تدخل غرفتها وهي في زينتها وكبريائها دون أن تكلم أحداً من الخدم. . . حينئذ علمت أني ما تأملتها من قبل في مثل هذا القرب. وبعد أليست الآن واقفة أمامي في هذه الخلوة التامة فلم لا أعانقها؟

ولما أفرغت (ستيفانيت) السلال أخذت تتأمل ما حولها باهتمام ثم نزعت ثوبها الفضفاض، الذي لا ترتديه ألا أيام الآحاد، خوفاً عليه من التلف، ودخلت المراح تريد أن تشاهد المكان الذي أنام فيه، وفراش القش المغطى بفروة الخروف، ومعطفي الضخم المعلق على الجدار، وهراوتي الغليظة، وبندقيتي العتيقة، فكان في هذه الأشياء مسلاة لها.

- إذن أنت تقضي أيامك في هذا المكان أيها الراعي المسكين؟ لا بد أن تكون قد مللت الحياة في هذه الوحشة وتلك العزلة! وإلا فقل لي ماذا تفعل، وفيم تفكر؟

فهممت بأن أجيبها: (أني أفكر فيك يا سيدتي) كما هو الواقع، ولكني كنت في حالة اضطراب شديد، فلم أجد كلمة واحدة أقولها لها. ولما توسمت وجهها لاحظت أنها شعرت بما يجول بخاطري، وكأني بها أرادت أن تزيد في حيرتي وتلعثمي لتتلذذ في قرارة نفسها، فقالت:

- وصديقتك العنزة الذهبية اللون، هل تزورك أحياناً؟ أنا لا اشك في إخلاص هذه الشيطانة التي لا يلذ لها الجري إلا على رؤوس الجبال. . .

ولكن ستيفانيت بوجهها الضحوك، ورأسها المنحني، وإسراعها في العودة إسراعا كاد يجعل في زيارتها إغماضة عين، كانت أشبه بهذه الشيطانة المذكورة.

- أستودعك الله أيها الراعي.

- سلاماً يا سيدتي.

ولم أتم جوابي حتى كانت في طريقها وليس معها غير سلالها الفارغة. ولما اختفت عن ناظري في المنحدر خلت أن الحجارة المتناثرة من حوافر الدابة كانت تقع على قلبي واحدة بعد واحدة.

ومع أنها أصبحت بعيدة عني فقد ظل صوت الحجارة المتناثرة يدوي في أذني. وبقيت حتى أزف المساء كأنني في غفوة لا أتحرك من مكاني خوفا من أن يتبدد هذا الحلم اللذيذ.

ولم أصح الا على صوت يناديني من السفح. وكان الليل بدأ يرخي سدوله والقطيع أخذ يزاحم بعضه بعضاً ليدخل الحضيرة. وبينما أنا أفتش عن مكان الصوت ظهرت أمامي فجأة الآنسة ستيفانيت، ولكن بغير الهيئة التي قابلتني بها في المرة الأولى. قابلتني وهي ترتجف من البرد والخوف، وأثوابها مبللة، فعلمت حينئذ أن فيضان نهر (السورغ) في الوادي بعد تلك العاصفة الشديدة أخذ عليها الطريق، فخافت على نفسها إن هي اجتازته. والأغرب من ذلك أنها ساعة ودعتني ما كان يجب عليها أن تفكر في الرجوع إلى المزرعة، وما كان بإمكاني ان اترك القطيع وحده لأرافقها في طريقها الوعر. ويظهر أن فكرة الإقامة هذه الليلة في الجبل كانت تزعجها ولا سيما عندما كانت تفكر في قلق أهلها عليها. فكنت أهديء من روعها واطمئن بالها بما أستطيع اليه سبيلا. واذكر أني قلت لها أن ليالي يوليو قصيرة، وان السماء يصفو أديمها بعد حين.

وأشعلت النار بسرعة وأخذت أدفئ قدميها وأجفف أثوابها. ثم قدمت اليها شيئا من الجبن والحليب. ولكنها لم تكن لتفكر في الدفء ولا في الأكل تلك الساعة، واسترسلت في النحيب حتى كدت أبكي لبكائها.

ولما أرخى الليل سدوله تماما ولم يبق على قمة الجبل غير شعاع حائل من الشمس، والا قطفة من نور في حواشي الأفق؛ أمسكت بيد الآنسة وأدخلتها المراح لتستريح، فتمددت على فروة ناعمة الصوف كنت قد فرشتها على القش الطري، ثم خرجت من عندها لأجلس لدى الباب متمنيا لها ليلة سعيدة. . .

ويشهد الله أني لم تخامرني فكرة سيئة قط، بالرغم من نار الحب المتأججة في دمي. ولكني كنت فخوراً جداً لأن في زاوية من المراح تنام في حراستي ابنة سيدي كأنها نعجة أثمن من تلك النعاج التي ترمقها بنظرات الاهتمام وأشد منها بياضا.

والحق يقال إنني لم أرَ السماء من قبل بمثل هذا الصفاء الذي رأيتها به في تلك الليلة. ولا النجوم بمثل هذا النور الساطع الذي كانت ترسله. .

وفجأة فتح باب المراح وظهرت منه ستيفانيت. فالغنم كانت تزعجها بأصواتها فتمنع عنها لذة النوم. لذلك أحبت ان تأتي قرب النار. ولما لاحظت منها ذلك وضعت معطفي على كتفيها وأرّثت النار ثم أدنيتها مني. وبقينا مدة جالسين جنبا إلى جنب لا نجد حديثا نفتحه

ولا حادثا نشرحه.
ويعلم الذين قضوا بضع ليال في الفلوات أن عالما خفيا يهب من سباته ساعة ينام الإنسان في هذا الانعزال التام والسكون العميق، في هذه الساعة تستيقظ الطبيعة، فالينابيع تغني بصوتها العذب، وترسل المياه الراكدة بريق لألائها السماوي. وتأخذ الأشباح تروح وتجيء، وترتفع في الهواء أنغام خفية وأصوات كالحفيف، وكأن الأغصان أخذت تمتد والأعشاب تنمو. فالنهار يعطي الحياة للمخلوقات الحية، أما الليل فيعطيها للأشياء الميتة. وهذا مما يرعب الإنسان إذا لم يكن له به سابق عهد أو عادة. . ولهذا كانت الآنسة ترتجف أبداً من الخوف، وتلتصق بي كلما سمعت صوتا كأنها طفلة صغيرة.
وفي ذات مرة تعالت جلبة محزنة من المستنقع في الوادي وارتفعت إلينا تموجاتها مع الأثير. ثم رأينا شهابا جميلا يهوي فوق رأسينا من عل ويتجه نحو ذلك المستنقع كأن الضجة التي كرهنا سماعها تحمل معها بارقة خير. فسألتني ستيفانيت:
- ماذا جرى؟
- نفس دخلت الجنة يا سيدتي.
فرسمنا الصليب على صدرنا ثلاثا وبقيت هي تنظر إلى السماء بنفس مطمئنة، ثم قالت:
- أصحيح ما يقال عنكم معشر الرعاة أنكم سحرة؟
- لا يا سيدتي، إنما نحن اقرب هنا إلى النجوم من سكان السهل، ولذلك فنحن أكثر منهم علما بما يجري فيها.
ثم وضعت يدها على فؤادها وقالت:
- ما أكثر هذه النجوم وما أجملها! أنا في حياتي ما رأيت هذا المنظر. . . . هل تعرف أسماءها أيها الراعي؟
نعم أيتها الآنية. . . . انظري! فوق رأسينا تماما ترين (طريق سان جاك) (المجرة) الممتدة من فرنسا إلى إسبانيا، تلك الطريق التي اختطها (سان جاك دي غاليس) ليري الفاتح العظيم (شارلمان) سبيله عندما كان يحارب (العرب) وعلى مسافة منها ترين محفة الأرواح (بنات نعش الكبرى) بأقطابها الأربعة الساطعة. وعلى مقربة منها (الحيوانات الثلاثة). والنجم الصغير المقابل للثالثة هو (السائق)؛ وانظري من حولها هذه النجوم الهاوية، إنها النفوس التي لم يقبلها الخالق في جنته. . . . وتحتها بقليل ترين (المشط) أو (الملوك الثلاثة) (الجوزاء) التي نستعين بها على معرفة الوقت. فيكفي أن القي عليها نظرة واحدة لأتأكد أن نصف الليل قد انقضى. وعلى مسافة منها للجنوب يلمع (جان دي ميلان) سراج الكواكب كلها (الشعري اليمانية) واليك الحكاية التي يرويها الرعاة عنها:
في ذات ليلة دعيت الشعري اليمانية و (الملوك الثلاثة) والثريا إلى حفلة زواج إحدى صديقاتها النجوم. فتقدمت الثريا رفيقتيها وانطلقت حتى استقرت في أعالي طبقات الجو كما ترينها؛ ولحق بها (الملوك الثلاثة) بطريق أدنى؛ أما الكسول (جان دي ميلان) فقد أخره نومه عن اللحاق بها، فاغتاظ ورماها بعصاه ليقفها في مكانها. ولهذا يطلقون أحيانا اسم (جان دي ميلان) على (الملوك الثلاثة).
ولكن اجمل النجوم وأكبرها قدرا (نجمة الراعي) التي تنير لنا الطريق في الفجر عندما نخرج بالماشية إلى المرعى، وفي المساء عندما نعود بها إلى الحظيرة. ونسميها أيضا (ماغلون) وهي الجميلة التي تمشي دائما إثر (بير دي بروفانس) (زحل) لتتزوج به كل سبع سنوات مرة واحدة.
- ماذا تقول! وهل من زواج عند النجوم؟
- نعم أيتها الآنسة.
ولما أخذت اشرح لها محور هذا الزواج أحسست بشيء ناعم يثقل على كتفي في لطف ورقة؛ فنظرت فإذا برأسها الناعس متكئا علي، وإذا بشرائطه الحريرية وتخاريمه اللطيفة وشعره المجعد يحتك بي إلى أن بدأت الكواكب تصفر في سمائها، وأخذ ضوء الفجر ينبثق في الأفق البعيد ليمحو أثرها. أما أنا فكنت أتأمل الفتاة النائمة بشيء من الحزن الخفيف. لا أفكر في هدأة الليل وصفائه إلا بكل ما هو جميل وشريف. وعلى جوانبنا تتابع النجوم سيرها ببطء وسكوت كأنها قطيع من الغنم. وبين الفينة والفينة

كنت أشعر أن ألطف وأجمل نجمة كانت قد أظلت الطريق فهبطت إلى كتفي فنامت عليه بهدوء. . . .
كيفون (لبنان). محمد كزما
بلياس ومليزاند
للفيلسوف البلجيكي موريس ماترلنك
ترجمة الدكتور حسن صادق
اركل - من القادم؟
جنفييف - انه بلياس وفي عينيه أثر البكاء.
اركل - هذا أنت يا بلياس؟ اقترب مني حتى أراك في النور.
بلياس - تسلمت يا جدي رسالة من صديقي مارسيللوس في الوقت الذي تسلمت فيه كتاب أخي. . . إن هذا الصديق العزيز علي يعاني ألم الاحتضار. وهو يستقدمني إليه ليراني قبل أن يفارق العاجلة. ويقول في رسالته إنه يعرف بالدقة اللحظة التي سيموت فيها، وأني أستطيع الوصول إليه قبل حلول تلك اللحظة إذا شئت. إني ذاهب إليه في الحال.
اركل - يجب عليك أن تنتظر قليلا، على الرغم من ذلك أننا لا ندري ماذا تعده لنا عودة أخيك. ثم هل نسيت أن أباك ملقى على فراشه في الغرفة التي فوقنا، وقد شفه الداء وبراه السقم؟ أليس من الجائز أن يكون أشد مرضا من صديقك؟ ومن أولى برعايتك وعطفك، الوالد أم الصديق؟ (يخرج)
جنفييف - لا تنس أن تشعل المصباح الليلة يا بلياس (يخرجان متفرقين).
المنظر الثالث
(أمام القصر. تدخل جنفييف ومليزاند)
مليزاند - ما هذا السكون المعتم الذي يخيم على الرياض؟ انه يدخل على النفس الرهبة والاكتئاب! وما هذه الغابات الكثيفة الجاثمة حول القصر؟!
جنفييف - لما وطئت هذا المكان أثار هذا المنظر العجب في نفسي وأخذ منها مأخذا شديدا. انه رائع مخوف يغرق كل من رآه في التأمل العميق. توجد أمكنة لا يرى الإنسان فيها نور الشمس ولا ضوء القمر، فإذا ما طال مقامه بها ألفها واطمأن إليها. . قضيت في هذا القصر الموحش أربعين عاما أو تزيد قليلا. . . لو نظرت إلى الناحية الاخرى لرأيت نورا ينبعث من ماء البحر.
مليزاند - أسمع حركة قريبة منا.
جنفييف - نعم. أحد الناس يسير نحونا. . . آه! انه بلياس. .
ما يزال التعب باديا في أسارير وجهه وفي خطواته المتثاقلة. . . لقد انتظركما طويلا.
مليزاند - إنه لم يرنا.
جنفييف - أعتقد أنه رآنا، ولكنه لا يعرف ما يجب عليه عمله، بلياس، بلياس، أهذا أنت؟
بلياس - نعم. إني آت من شاطئ البحر.
جنفييف - ونحن أيضا كنا نبحث عن مكان ينعم بشيء من النور، ولكننا لم نجد مكانا أقل ظلمة من هنا. كنا نرجو أن نجد البحر منيرا فألفيناه قاتماً مكفهرا. . .
بلياس - ستهب الليلة عاصفة كما هبت من قبلها عواصف في الليالي القليلة الماضية. . . ومع ذلك أرى الجو هادئا في هذا المساء، والسماء مصحية والبحر ساكنا لا تعروه رعدة ولا تعلوه موجة، قد يركب البحر الليلة إنسان وهو مطمئن الخاطر مثلوج الفؤاد، حتى إذا بعد عن الشاطئ، دهمته العاصفة، وحطمت السفينة، وابتلعه اليم في جوفه. . .
مليزاند - أرى شيئا يخرج من المرفأ.
بلياس - لا بد ان يكون هذا الشيء سفينة كبيرة. . . الأنوار عالية، وسنرى السفينة بعد قليل حينما تبلغ الموضع الذي فيه أشعة الضوء.
جنفييف - قد يحجبها عن عيوننا الضباب الراقد على سطح البحر فلا نراها.
بلياس - كأني بالضباب يعلو في دءوب وبطء. . .
مليزاند - نعم. . . أرى الآن على البعد نورا ضئيلا لم أره قبل ذلك.
بلياس - هذا هو ضوء منارة. .، توجد منارة أخرى لم نرها بعد.
مليزاند - بلغت السفينة الحيز المضيء. . . إنها الآن بعيدة عن الشاطئ.

بلياس - إنها تبتعد مسرعة وقد نشرت كل شراعها.
مليزاند - وهي التي جازت بي إلى المرفأ. . . إن لها شراعا كبيرا أعرفه حق المعرفة.
بلياس - سيباغتها الليلة هياج البحر!
مليزاند - ولماذا أقلعت في هذا المساء؟. . . اختفت عن الأبصار أو كادت. قد تحل بها كارثة في وحشة الظلام!
بلياس - الليل يبسط على الكون ظلمته في سرعة غريبة (سكوت)
جنفييف - حان الوقت لدخول القصر. بلياس، دل مليزاند على الطريق. إني ذاهبة لأرى (اينيولد) الصغير وامكث بجانبه بعض لحظات (تخرج)
بلياس - لم أعد أرى شيئا على سطح البحر.
مليزاند - أرى أنوارا أخرى. . .
بلياس - إنها المنائر الأخرى. . . أتسمعين صوتا يأتينا من البحر؟ إنه زفيف الرياح وقد مسحت عن عينيها فتور الكرى. . . هاتي يدك. . . الطريق من هنا.
مليزاند - انظر. . . انظر. . . في يدي أزهار كثيرة!
بلياس - اعتمدي على ذراعي. . . ان الطريق كثيرة الالتواء شديدة الانحدار، والظلام حالك متكاثف. . . في نيتي الرحيل غدا.
مليزاند - أوه! لماذا تنوي الرحيل؟ (يخرجان)
الفصل الثاني
المنظر الأول
(عين ماء في الحديقة. يدخل بلياس ومليزاند)
بلياس - تجهلين دون ريب هذا المكان الذي قدتك إليه. . . إني افزع إليه في كثير من الأوقات فرارا من شدة القيظ. . . الحر خانق اليوم، حتى تحت ظل الشجر!
مليزاند - أوه! الماء صاف!
بلياس - وهو بارد منعش كعهدي به أيام الشتاء. . . هذه عين ماء عتيقة أهملت منذ زمن بعيد، وأظنها كانت تأتي بالمعجزات. . . كانت تشفي الأعمى ولذلك ما يزال الناس يطلقون عليها (عين العمى)
مليزاند - ولم تعد تنتج هذا الأثر؟
بلياس - من يوم أن ضعف بصر الملك وشارف العمى لم يعد يتردد على العين أحد.
مليزاند - ما أثقل الوحدة على صدر الإنسان في هذا المكان! إني لا أسمع فيه حسا ولا ركزا!
بلياس - السكون التام الغريب يألف هذا المكان في كل حين ويستطيب صحبته في كل آن. . . انظري إلى الماء، انه في سبات عميق. . . اجلسي إذا شئت على هذا المرمر الذي
يحيط بالعين. . . فوق رأسك شجرة الزيزفون لا تخترقها أشعة الشمس.
مليزاند - سأرقد على المرمر. . . إن شوقاً ملحاً يدفعني إلى رؤية القاع.
بلياس - لم ير قط. . . قد تبلغ العين في عمقها البحر.
مليزاند - قد يرى الإنسان قاعها إذا وضح فيه شيء يلمع.
بلياس - لا تنحني هكذا!
مليزاند - أرغب في لمس الماء.
الكتب
النجوم في مسالكها
هذا هو النقد الذي بعث به إلى الرسالة الأستاذ عبد الحميد سماحة منذ عددين. وكنا على وشك أن ننشره لولا أن رأيناه بروحه ومعناه منشوراً في الأهرام بإمضاء ناقد، فلما كتب الأستاذ في الأهرام انه هو وزميله غير هذا الناقد الحاقد، وأنه ينتظر ظهور نقده في الرسالة ليعلن في الكتاب جملة رأيه، نشرناه اليوم متبوعاً بتعليق للأستاذ الغمراوي حتى لا تحول بين علم الأستاذ وبين جهل المترجمين الذين أقرؤا الكتاب! وحتى تهيئ الفرصة لمن أحسنوا الظن بالأستاذ أن يوازنوا بين نقده وبين نقد (ناقد)
قال الأستاذ سماحة بعد المقدمة:
يبدو لي ان شخصية المؤلف كان لها تأثير شديد على المترجم فالتزم الترجمة الحرفية التزاما في مواضع كثيرة شوهت من جمالها في الأصل الإنجليزي وأخرجتها في بعض

الأحيان عن معناها الحقيقي حتى أصبح من الصعب فهمها دون الرجوع إلى الأصل الإنجليزي.
مثال ذلك: ما جاء من الصفحة الثامنة (وعلى ذلك فلا أقل من 000 , 300 , 1 أرض يمكن أن يزج بها في الشمس، وفي الأصل الإنجليزي 1 , 300 , 000
وما جاء في صفحة 74 (رأى السير اسحق نيوتن ان هذا الانحناء المستمر نحو الأرض في مسار القمر إنما يعين أن الأرض تجذب القمر جذبا مستمرا)
. .
وفي الأصل الإنجليزي ص 69 وفي صفحة 77: (منذ عهد نيوتن برهنت الحقائق الفلكية فوق كل شك غير جزاف صدق ما نقرره) وفي الأصل الإنجليزي:
,
وفي آخر صفحة 94: (وليس هناك نواة تستطيع أن تقبض على كهاربها بقوة في طوقها أن تصمد لمثل هذه الحرارة) وفي رأيي أنها لو وضعت في الصيغة الآتية لكانت أدل على المعنى المقصود: (وليس هناك نواة تستطيع أن تستبقي كهاربها في أطواقها عند مثل هذه الدرجة العالية من الحرارة) وما جاء في صفحة 107: (ولما تكلمنا عن وجه السماء في
الفصل الأول لم تكن النجوم في اعتبارنا إلا وراءاً بعيداً عن نقط ضوئية) فهنا أيضا يكاد يكون المعنى غير مفهوم.
وفي صفحة 42 في آخر الفقرة الأولى جملة مكررة ليست موجودة في الأصل الإنجليزي (فالجو في النجم يتدخل بالتدريج في مادة النجم نفسها لأن النجم وجوه مصنوعان من مادة واحدة، فالانتقال يتم تدريجيا من مادة الجو إلى المادة الأساسية للنجم نفسه لأن تكوينها واحد)
وفي صفحة 55 وضع المترجم شرحا عن عطارد ذكر فيه أن رؤيته بمصر صعبة نسبياً، والحقيقة أن رؤية عطارد ممكنة في مصر.
أما ترجمة بقدر بمرتبة، فلا زلت على رأيي الذي كاشفته به قبيل إصدار الكتاب وهو أن النحت هنا غير جائز بالمرة إذ أن كلمة قدر هي اصطلاح فني يدل على درجة لمعان النجم ويقابلها في الإنجليزية وكلاهما أقدم على الزمن من جينز ومؤلفات جينز وليس لمؤلف أو لمترجم أن يثور على الاصطلاح بغير ما سبب قوي وبمثل هذه السهولة، أما ما أشار اليه المترجم في مقدمة صفحة ح من أنه راجع كتاب محمود باشا الفلكي لمعرفة أسماء النجوم والكوكبات العربية، فالذي أعرفه أن محمود باشا ليس له مؤلفات باللغة العربية أو على الأقل في هذه الناحية من البحث، وأن الكتاب الذي يشير إليه الدكتور الكرداني هو كتاب (الدرر التوفيقية في علم الفلك والجيوديزية) والمؤلف هو إسماعيل بك مصطفى الفلكي وليس محمود باشا، أما ما يصح أن نسميه تمصير الكتاب فقد نجح بذلك المترجم إلى حد كبير، وهو مجهود يستحق الثناء، فأكرر تهنئتي له واشكره على ما نسبه لي في مقدمة الكتاب.
تعليق الأستاذ أحمد محمد الغمراوي
أظن أهم ما في نقد الأستاذ سماحة قوله أن الترجمة في مواضع كثيرة حرفية شوهت من جمال الأصل وأخرجته في بعض الأحيان عن معناه الحقيقي حتى أصبح من الصعب فهمها دون الرجوع إلى الأصل. وهذا النقد لو صح لكان عيباً كبيراً في الترجمة لا يمكن الاعتذار عنه بحال. لكن الأمثلة التي ساقها الأستاذ سماحة توضيحا لرأيه هذا تكفي في ذاتها لنقضه. فقد ذكر أمثلة ثلاثة قرن في كل منها الترجمة بمقابلها من الأصل وأشار في
كل إلى الموضع الذي لم يرضه من الترجمة والى ما يقابله. والذي لم يرضه في كل مثال هو في الغالب كلمة في جملة، وهذا يقرب مسافة الخلف بيننا وبينه إذ لو كانت الترجمة حرفية بالمعنى الذي يزعم لكانت الجملة كلها محل اعتراض لا كلمة واحدة منها أو كلمتان فإذا رجعنا إلى الكلمة أو التعبير الذي أعترض عليه لم نجد لهذا الاعتراض محلا. فالجمل العربية في جميع الأحوال إلا لشخص لا يعرف معنى مثل (يزج بها) و (شك غير جزاف). ولم يدر بخلد المترجم ولا المراجع أن في أي هذين التعبيرين ما يستغلق على أحد اللهم إلا على تلميذ يكون من صالحه عندئذ أن يكشف أو يسأل عما استغلق عليه. ثم الجمل العربية في جميع الأحوال ليست ترجمة للأصل حرفا

بحرف بل فيها من التصرف قدر بسيط ينجيها من الحرفية المكروهة من غير أن يحرمها من الدقة.

على أن يحسن بنا أن ننبه هنا إلى أن الحرفية في الترجمة ليست دائما مكروهة وإنما تكره عندما يختلف الذوق في اللغتين. فإذا اتفق الذوقان كما يحدث في مواطن غير قليلة لم تكن الحرفية شيئا مكروها بل كانت مستحبة أو واجبة لأنها عندئذ تكون أسهل وأدق وأرضى للضمير الذي يطالب بالأمانة المطلقة في الترجمة كما يطالب بالأمانة المطلقة في النقل. فليس بعيب على مترجم أن يلتزم الأصل حتى في التراكيب ما دام مثل هذا الالتزام لا يؤدي في الترجمة إلى ما يأباه ذوق اللغة المنقول إليها أو يخالف معنى الأصل المنقول عنه. وليس في الأمثلة التي جاء بها الأستاذ سماحة ما يمكن ان يدل على أن الترجمة التي نحن بصددها فيها ما يخالف الذوق العربي أو يفيد معنى لا يفيده الأصل الإنجليزي. حتى الجملة التي قال أنها مكررة في صفحة 42 تكررا ليس في الأصل الإنجليزي معناها نفس معنى الجملة التي قبلها وإن اختلفت عنها كثيرا في اللفظ، فلو كان هذا التكرار مقصودا من المترجم لكان فيه ما يشهد بأنه يذهب إلى ما وراء الحرف بكثير إذا رأى ان توضيح المعنى يستدعي ذلك. لكن أكبر الظن أن الجملتين ترجمتان لجملة إنجليزية واحدة كان يراد اختيار واحدة منهما فحال دون ذلك سهو أو شبهة ثم لم يفطن إلى تكرار المعنى عند المراجعة لاختلاف التركيب من ناحية ولأن مثل هذا التكرار قد يلجأ اليه المؤلف لتوضيح أو لتوكيد.

وكون الأستاذ سماحة قد فطن إلى أن التكرار هنا غير موجود بالأصل يقظة منه محمودة

من غير شك كنا نود لو أنها ساعفته حين أراد التعرض للجملة التي أخذها عن آخر صفحة 94 فقد التبست عليه كلمة (طوق) بمعنى الوسع والطاقة بكلمة (طوق) بمعنى كل ما استدار بشيء، فاقترح الجملة التي يراها القارئ في مكانها من نقده. ولو كان هذا هو المعنى المقصود لكانت الجمل هي المثل الوحيد الذي جاء به الأستاذ على سوء الترجمة، لأن الجملة تصبح مضطربة غير مفهومة لو كانت كلمة (طوق) فيها معناها مدار كما فهم الأستاذ سماحة وكما تدل عليه جملته التي اقترح. ولو أن الأستاذ تجشم مراجعة الأصل في هذا أيضا لتدارك قلمه قبل ان يفرط منه ما فرط أو لعل الأستاذ سماحة راجع الأصل واستباح مع ذلك أن يتصرف في ترجمته. هذا التصرف الغريب لأنه من الآخذين بمذهب التصرف الواسع في الترجمة. وهو مذهب له أنصاره لسهولته.

ولأنه يحل شخصية المترجم محل شخصية المؤلف، ولعل هذا هو السر في أن الأستاذ سماحة عاب على المترجم أن سمح لشخصية مؤلف كتاب (النجوم في مسالكها) بالتغلب على شخصيته. ولو كانت المسألة مسألة مغالبة بين شخصيتين لكان هذا عيبا لكننا نفهم واجب المترجم على عكس ما يفهم الأستاذ، نفهمه على انه جهاد في سبيل إظهار شخصية المؤلف كما تتجلى في كتابه، وإخفاء شخصية المترجم تماما إن أمكن. واكبر صعوبة في الترجمة كما نراها هي في ذلك الإظهار وهذا الاخفاء، اذ ليس من السهل أن يتخلى مترجم عن شخصيته ويجتهد في تقمص شخصية مؤلف مكانها ليخرج للناس ترجمة تكون في اللغة المنقول إليها مثل الأصل في اللغة المنقول عنها. هذا مثل أعلى في الترجمة يقترب الإنسان منه كما يشاء من غير أن يبلغه. ويظهر أن الدكتور الكرداني قد نجح في الاقتراب منه إلى حد أن التبس الأمر على الأستاذ سماحة فظن المسألة مسألة شخصية غلبت شخصية، وما هي إلا مسألة مبدأ في الترجمة قائم على الأمانة والتضحية قد أفلح الأستاذ المترجم في اتباعه وتوخيه.

بقيت الملاحظتان الفلكيتان اللتان ذكرهما الأستاذ سماحة. فأما مسألة قدر ومرتبة فإنا نظن الحق معه فيها، وإن كان هذا ليس معناه أن يحرم مثل الأستاذ الكرداني من إبداء رأيه بصورة عملية في مسألة مصطلح من مصطلحات لم يستقر الناس فيها بعد على قرار. وإما مسألة رؤية عطارد فان القول الذي كان قاله الدكتور الكرداني من أنها صعبة نسبيا لا

ينبغي أنها ممكنة كما يقول الأستاذ سماحة. ولعله يحسن هنا إنصافاً للاثنين أن نقول أن الدكتور الكرداني أراد أن يستوثق من الأمر فسأل الأستاذ سماحة فكان رأيه أن رؤية عطارد غير ممكنة في مصر، فراجعه في ذلك حتى اتفقا على خير تعبير هو

(صعبة نسبياً) وقد غيره الدكتور الكرداني بعد إلى (سهلة نسبياً). فإذا كان الأستاذ سماحة يخبرنا الآن أن رؤية عطارد ممكنة يريد سهلة فمرحبا بخبره، لكن كان الأولى أن يقول سهلة أن كان هذا مراده فان لم يكن هذا مراده فقد أقر الرأي الأول ولم يكن في ملاحظته فائدة للناس.

وأما مسألة الفلكي باشا فهو إسماعيل مصطفى باشا لا محمود باشا، فملاحظة الأستاذ سماحة هي في صميمها حق، إلا في ما تفيده من أن المترجم قال انه راجع محمود باشا الفلكي فان ما قاله المترجم في مقدمته لا يفيد إلا انه خالف من غير أن يستلزم انه راجع. وعلى أي حال فان معلومات المترجم التي نسبها للفلكي باشا في صلب الكتاب هي كما أذن لنا المترجم أن نقول مأخوذة كلها عن الأستاذ سماحة وان سماه الأستاذ سماحة إسماعيل بك وسمته نسخة دار الكتب للدرر التوفيقية إسماعيل مصطفى باشا. وهذي كانت إحدى أيادي الأستاذ التي نوه بها الدكتور الكرداني في مقدمته وأراد أن ينوه بها بصورة عملية فطلب إليه أن ينقد الكتاب.

وبعد فقد كنا نود لو قصر الأستاذ سماحة نقده على الناحية الفلكية التي هو من رجالها فاشبع فيها القول، أما الناحية اللغوية فلها رجالها، وكثير منهم من أعضاء لجنة التأليف والترجمة والنشر التي تولت إخراج الكتاب.

العدد 16 - بتاريخ: 01 - 09 - 1933

على الشاطئ. . .!

الشاطئ شاطئ استانلي! واليوم يوم الأحد! والطرقات الجميلة الصاعدة إلى هذا الخليج البهيج تصب فيه أنماطاً من الناس في أنماط من اللباس، وكلهم في سن أهل الجنة! وكنت في هذا التيار الحار المتدفق كأنني السمكة الغريبة تفقد الاختيار وتخشى كل شيء! هبطت مع الهابطين إلى هذا الشاطئ على سلم من سلالمه ثم أرسلت فيه عيني فإذا هو مستدير على صدر الماء استدارة الهلال البازغ على صدر السماء، وإذا النجوم الزواهر من الأنس تختلج في قلب هذا الهلال اختلاج العواطف الرقيقة تتماس في رفق ثم تتفرج عليه في سهولة!! أخذت أخطو وئيدا بين العذارى المتجردات على استحياء وارتباك! فلما لم أجد فيهن حتى من تتقي النظر باليد كما فعلت (متجردة النابغة) حين تسقط نصفيها ولم ترد إسقاطه، أرسلت نفسي على طبيعتها في هذا الحي المباح وذكرت الأستاذ (الثعالبي) وهو يقول لي بالأمس في لهجة جازعة: (اذهب بربك إلى (استانلي) ثم صف لي ما تراه). هاتان عيناي يا صديقي مفتوحتين، وهاتان أذناي مرهفتين! فماذا أرى وماذا أسمع؟؟ أكشاك أنيقة الصنع والوضع تدرجت طبقاتها الثلاث على حضن الشاطئ! ومظلات شتى الألوان قد ركزت هنا وهناك في منحدر الساحل وجمع حاشد عار كسوق الرقيق في ألف ليلة وليلة قد بعثر أمام الأكشاك وتحت المظلات وفوق الرمال وبين المياه،. وصراع لذيذ عنيف بين أفواج البر وأمواج البحر تتخلله صيحات وضحكات كرنين الفضة المصفاة وأحاديث كهمس الأوتار تطير من بين الشفاه البواسم؛ كما تطير أنفاس الصبي الحالم، ولكنها لا تصعد إلى حيث يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح! وبيئة أجنبية ناسها غير ناسنا وإحساسها غير إحساسنا ولغتها لغة فرنسا لا لغة مصر، وسمرتها سمرة الشمس لا سمرة الجنس!! فعلام إذن هذا الجزع الباكي، والقوم إنما يجرون على أعراقهم ويعملون على مقتضى أخلاقهم وبين فتياتنا وفتياتهم من العرف الإسلامي حجاب، ومن الحياء الطبيعي وازع؟! كنت ألقي على نفسي هذا السؤال حين جرجر البحر إحدى موجاته الضخام إلى أعلى الساحل، فجريت إلى فوق أتقي هذا المدَّ المفاجئ فإذا بي واقف إزاء ظُلة جميلة منعزلة، قد انبطحت تحتها فتاة ناهد لم تقع العين منذ الصباح على اكمل منها صورة! وكانذعر السائرين من هجمة البحر قد لفتها لتنظر فلما وقع بصرها عليّ نهضت نهضة الظبي الفزِع تحيي بالعربية أستاذها القديم!

- أوه! فلانه؟!

- نعم! ويسرني أن أراك بعد خمس سنين

- هل أنت وحدك هنا؟

- كلا بل معي أخي. . . وقد أتعبه صراع الأمواج الثائرة فذهب إلى (الكابين)

- وكيف حال البك؟

- الحمد لله خير حال! وما أكثر سؤاله عنك وأشد شوقه إليك! لقد كان جالساً بالكازينو

ثم أنصرف إلى البيت منذ قليل. قالت ذلك تلميذتي الأرستقراطية المسلمة وهي تنصب كرسياً طويلاً من القماش دعتني إلى الجلوس عليه، ثم جلست هي على كرسي آخر، وكانت كأمها حواء لا يستر جسمها العاري الا (ورقتان) خصفتهما عليه، من أمام ومن خلف! فسرعان ما ذكرت ذلك المكتب الفخم الذي كانت تجلس قُبالتي عليه لتستعد لامتحان البكالوريا وهي ملففة بثوبها الأزرق الأنيق المسبل، وعيناها الساجيتان لا تفارقان الصحيفة حياء وخفرا، وثغرها الحَييُّ الدقيق لا يرسل سهل الكلام الا في تلعثم وبطئ!! لم تدعني الآنسة في ذكراي الا ريثما ردت التحية على فتاة في مثل حالها وجمالها، كانت تسير في رفقة شاب شديد السمرة غطى كتفيه شعر كثيف، كصوف الخروف.

- هذه ابنة فلان وهذا الذي معها أخوها، وهذه أبنه فلان وهذا أبن عمها، وهذه المضطجعة في الشمس بنت فلان ومحادثها صديق من أصدقاء أخيها. . . . .

- لولا علمك يا آنسة لحسبت هؤلاء جميعاً أجانب!

- وما الذي يحملك على هذا الحسبان؟

- هيف القد واكتناز اللحم واتساع الحرية

- ذلك من أثر الرقص والرياضة، ستكتب ولا شك عن أستانلي شيئا في الرسالة!

- وهل قرأت ما كتب عنه؟

- قرأته ولم أسغه، لأنه شديد المبالغة سطحي النظر، وأي بأس في أن تمتع المصرية جسمها كله بأشعة الشمس وماء البحر كالغربية؟؟

- لا بأس وأظنها تدرك ذلك كله في شاطئ خاص وفي لباس مناسب

- إن شمس الشواطئ كما تعلم إنما تقصد لخصائص أشعتها، وكلما تعرض أكثر الجسم لها،

كان أكثر انتفاعا بها، والأمر في الشواطئ كالأمر في المراقص والمرايض، يهيمن على الحياة فيها روح رياضية عالية، تُغني كل إنسان بشأنه عن شأن غيره، فالراقص لا يفكر إلا في الرقص، والمرتاض لا يفكر إلا في الحركة والمستحم كذلك لا يفكر إلا في الأمواج والأشعة.

- ابدئي بالمثال قبل القاعدة يا آنسة. أين تجدين الروح الرياضية في هذه المرأة التي علت صدر هذا الرجل لتتعلم فوقه السباحة؟ وأينتجدين الروح الرياضية في هذين الجسمين الراقدين على الرمل يتلامسان بشهوة، ويتناجيان بنشوة، وقد انمحى من حولهما البحر والشاطئ والناس؟؟

أرى يا آنسة أن المرأة تسيء إلى نفسها بهذا التبذل (حتى من الجهة النسوية الخالصة) فإنها متى فقدت سحر المحجوب، وجاذبية المجهول، أصبحت كسائر الإناث من سائر الحيوان.

عفواً يا آنسة إذا اصطنعت في خطابك لهجة الأستاذية، فإنها لا تزال أقوى الصلات التي أمتُّ بها إليك.

ألا تلاحظين أننا في الجد نتطور ببطء موئس، وفي الهزل نتطور بسرعة جامحة؟! لقد كنا بالأمس نتجادل في السفور وها نحن أولاء اليوم نتجادل في العُري!!

أستودعك الله يا آنستي! وأسلم على أبيك وأخيك.

ثم أخذت طريقي على الشاطئ الشهوان وفي نفسي كلام حبسته! على أن من الظلم الموروث

أن الرجل يشارك المرأة في الذنب ثم يفردها بالعقوبة! فالأب يقود ابنته عارية إلى الشاطئ، والزوج يجلس مع زوجه عارية على المقصف؛ والأخ يتعرى مع أخته في الكشك والبحر، ثم يندلع لسان النقد على المرأة وحدها فيتهمها بخنق الفضيلة ويرميها بذبح الخلق!!

يا قوم، لقد فتشتم في الشواطئ كثيراً عن حياة المرأة، ففتشوا فيها ولو قليلاً عن نخوة الرجل!!

أحمد حسن الزيات. الإسكندرية

الأمل اليائس

للدكتور طه حسين

ولدت في آخر القرن السابع عشر سنة 1697. وماتت في آخر القرن الثامن عشر

سنة 1780، وجمعت لنفسها من مزايا هذين العصرين، ما جعلها أبرع الناس أدبا وأشد الناس شكا، وأوسع الناس أملا، وأقتم الناس يأسا، وأظهر الناس فرحا، وأعمق الناس حزنا. ولكني أنسيت أن أسميها. وقد كان يجب أن أبدأ بتسميتها هذا الحديث. فهي ماري دي فيشي شمبرند

التي يعرفها تاريخ الآداب الفرنسية باسم مدام دي ديفان

كان مولدها ونشأتها في هذه السنين القائمة التي ختمت حكم لويس الرابع عشر. وأدركها اليتم طفلة فأرسلت إلى دير من هذه الأديرة التي كان يرسل إليها بنات الأغنياء. وكانت أسرتها عريقة في الشرف والنبل، متقدمة في خدمة الدولة. محتفظة بمكانة رفيعة بين أشراف الأقاليم. وكانت هذه الأسرة من أشراف بورجوني، وأهل هذا الإقليم من فرنسا معروفون بالنشاط القوي وحدة الذهن، وذلاقة اللسان، وحب الحياة، وإيثار ما تقدمه إلى الناس من لذات. فلم يطل مقام هذه الصبية في ديرها الأرستقراطي حتى ظهر من حديثها وسيرتها ما أقلق الأسرة، وأقلق رئيسة الدير. ويجب أن يكون هذا الذي ظهر من سيرتها وحديثها خطيراً جداً. فلم تكن أسر الأشراف لتقلق من شيء يسير. ولم يكن أهل الأديرة ليضيقوا إلا بالشيء الذي لا يطاق. ذلك بأن حياة الناس في ذلك العصر كان قد أخذها الفساد الخلقي، من جميع نواحيها، حتى استهانوا بكل شيء، وتجافوا عما لم يكن يتجافى الناس عنه إلا في مشقة وعنف. وحسبك أن تعلم أن الأديرة كانت قد استحالت في ذلك العصر إلى قصور فخمة يلهو فيها من أبناء الأشراف وبناتهم من لم تسمح له ظروف الحياة بالعمل في السياسة أو في الجيش، ومن لم تتح لهن ظروف الحياة أن يظفرن بالزوج. وكان بنات الأشراف خاصة يتخذن من هذه الأديرة دورا للعبث واللهو، يسترن ذلك بستار رقيق من اسم الدين. ولم يكن ليتحرجن من استقبال الزائرين والزائرات، ولا من إقامة الحفلات الراقصة، بل كان الرقص والموسيقى جزأين أساسيين من برنامج التعليم الذي كان يلقي إليهن فيها: فإذا استطاعت صبيتنا هذه أن تزعج أسرتها، ورئيسة الدير بما أظهرت في سيرتها وأحاديثها من خروج على التقاليد، فيجب أن تكون قد أتت أمراً عظيما. وهي قد أتت أمراً عظيما حقا، فقد كانت تجادل في الدين ولما تبلغ الثانية عشرة، وكان جدالها هذا خطرا مخيفا. لأنها كانت تنكر أصول الدين إنكارا. وقد استعانت الأسرة ورئيسة الدير على جحود هذه الصبية بعظيم من عظماء الكنيسة وخطيب من أبرع الخطباء في عصره وهو فدعي هذا الحبر للقاء هذه الطفلة ومحاورتها، فلما رآها سمع لها وتحدث إليها وانصرف عنها يائسا وهو يقول إنها لظريفة. فلما سألته رئيسة الدير عما تصنع لردها إلى طريق الحق أطال الصمت ثم قال: ضعي في يدها كتابا من أرخص كتب الدين، ثم لم يزد على ذلك شيئا. وذكرت الصبية حين تقدمت بها السن حوارها مع هذا الحبر العظيم، فقالت: إن عقلي قد أضطرب أمام عقله، وقالت أني لم أذعن لحجته وانما أذعنت لجلاله؛ ومعنى ذلك أن الخصمين التقيا فلم يقنع أحد منهما صاحبه. فلما بلغت هذه الفتاة العشرين أو جاوزتها قليلا، زوجت من رجل شريف، عظيم الخطر، من حكام الأقاليم. ولكنها لم تكد تقضي معه أشهراً حتى أنكرته وضاقت به وكرهت عشرته كرهاً شديداً. وكانت تقول عنه إنه يبذل أقصى ما يستطيع ليسؤك ويصرفك عنه. على أنها قد أقنعته بالرحلة إلى باريس. ولم تكد تصل إلى هذه المدينة وتستقر فيها حتى اندفعت في حياة اللهو والعبث، اندفاعاً لفت إليها الناس، وجعلها موضوع الأحاديث في هذه المدينة الباسمة اللاهية. وكان لويس الرابع عشر قد مات، وكان أمر الدولة إلى الوصي الذي أقيم على الملك، الصبي لويس الخامس عشر. وكان هذا الوصي صاحب لهو لا حد له، وصاحب مجون وعبث لا حد لهما أيضاً. وكان الناس قد ساروا سيرته كأنما أرادوا أن يعوضوا ما فاتهم في تلك الأيام الحزينة التي ختمت حكم الملك الشيخ، وما أسرع ما اتصلت صاحبتنا بقصر الوصي واشتركت فيما أقام فيه من حفلات، ثم اتصلت بالوصي نفسه، وأصبحت له خليلة ولكن حبه لها لم يتجاوز خمسة عشر يوماً. على إنها قد ربحت من هذا الحب القصير ستة آلاف من الجنيهات الفرنسية، تصرف لها في كل عام ما امتدت لها الحياة. وأسرفت صاحبتنا في اللهو حتى أنكرها أصحاب اللهو من أهل باريس، وحتى ساءت الصلة بينها وبين زوجها، فافترقا دهراً ثم كان بينهما صلح لم يطل، وعادا إلى الفرقة. ثم كان بينهما

صلح آخر، قوامه أن يلتقيا على الغداء والعشاء. وإلا يعيشا معاً، ولكن هذا الصلح نفسه لم يتصل أيضاً، ففرق بينهما وعاد الرجل إلى قصره في الأقاليم وأقبلت هي على لهوها في باريس لا تدع فناً من فنون العبث إلا أخذت منه بحظ عظيم، على أنها لم تكد تجاوز الثلاثين حتى تبينت أن ما هي فيه من الأمر باطل كله، وحتى سئمت اللهو وعافته، وأخذت تحس انصراف الناس عنها. فآوت إلى أخ لها قسيس أقامت عنده دهراً ثم انصرفت عنه إلى أخ آخر لها في الأقاليم، ثم عادت مرة أخرى إلى باريس. واتصلت بقصر من قصور الأشراف كان يؤوي أكبر من تعرفهم فرنسا وأوروبا من الأباء والفلاسفة، وأصحاب الفن، وفي هذا القصر ظهرت قيمتها الأبية، واستكشفت براعتها في الحديث وتبين الذين عاشروها أنها امرأة ليست كغيرها من النساء، بل ليست ككثير من الرجال، وانما تمتاز بقلب ذكي، وعقل قوي، ولسان فصيح عذب، ومهارة في تصريف الحديث لا تبلغ الإعجاب وحده، ولكنها تبلغ إعجاز المحدثين مهما تكن منزلتهم، ومن ذلك الوقت أخذ أمر هذه المرأة يعظم. وشأنها يرتفع، لا من حيث أنها امرأة جميلة خلابة. تحب اللهو وتسرف فيه، فقد كانت في ذلك الوقت قد بدأت تقصر عن اللهو وتعري أفراس الصبي ورواحله، كما يقول زهير، بل من حيث أنها امرأة أديبة أريبة يستطيع أن يستمتع بحديثها، وعشرتها، وبراعتها ذوو العقول. وقد آثرتها صاحبة القصر إيثارا عظيماً حتى لم تكن تصبر على فراقها، وأحبها فولتير وكلّف بها منتسكيو وأطاف بها أعلام الأب والفلسفة من الفرنسيين يستبقون إلى مودتها، وما هي إلا أن تتخذ لنفسها داراً في باريس وتدعو إليها أصدقائها هؤلاء من الأباء والعلماء والفلاسفة يسمرون عندها يوم الأربعاء من كل أسبوع. ثم تضيق هذه الدار بمن يقصد إليها من رجال فرنسا وأوروبا على اختلافهم فتتحول عنها إلى دار أخرى رحبة تستأجرها في دير من هذه الأديرة الأرستقراطية في باريس. وفي هذه الدار التي استأجرتها كانت تقيم قبلها مدام دي منتسبان خليلة لويس الرابع عشر، تلك التي ملأت حياة الملك العظيم لذة وإثماً، وكلفت رجال الدين من حوله مشقة وجهداً، والتي كانت تؤوي إلى هذا الدير من حين إلى حين تستغفر الله من خطاياها وتضرع إليه في الوقت نفسه أن يحفظ عليها هذه الخطايا. أقامت صاحبتنا في هذه الدار ونظمت استقبالها لأعلام فرنسا مرتين في الأسبوع يتناولون عندها العشاء ويسمرون إلى قريب من آخر الليل، ويتحدثون فيما شئت من أدب وعلم، ومن فلسفة وفن، ومن سياسة وحرب. ولكنها لم تكن تحب أن تشارك الأباء والعلماء والفلاسفة فيما كان يجري بينهم من حوار؛ لأنها كانت تكره الأب والعلم، وكانت تكره الفلسفة خاصة وتضيق بها ضيقاً شديداً، وكانت تعنى بأشخاص زائريها أكثر مما تعنى بما كان عندهم من علم، أو أدب، أو فلسفة. كانت مسرفة في الشك وكان إسرافها في الشك يصرفها عمّا كان يكلف به الناس في عصرها من هذه الفلسفة الحرة الغالية التي كانت تعمل في الهدم أكثر مما كانت تعمل في البناء. وتتقدم السن بصاحبتنا وقد مات زوجها وأصبحت حرة حتى أمام القانون، وقد جدّت بتنظيم حياتها وانصرفت عن اللهو والمجون إلى حياة الجد ولذة الحديث والسمر، ولكنها على ذلك اتخذت لها خليلاً عاشت معه عيشة الأزواج، لم تكن تحبه ولكنها لم تكن تكرهه، إنما كانت تستعين به على احتمال الحياة، كما كانت تستعين بكل شئ على احتمال الحياة، فقلما عرف تاريخ الآداب امرأة ضاقت بالحياة كما ضاقت بها هذه المرأة، بل قلّما عرف تاريخ الآداب رجلاً ضاق بالحياة كما ضاقت بها هذه المرأة. كانت متشائمة كأشد ما يكون التشاؤم، وكانت تردد هذه الكلمة التي تقربها من أبي العلاء: إن شر من ابتلينا به من الشقاء، إنما هو الحياة. وكانت تستعين بإسرافها في المجون والعبث، ثم في الجد والإنتاج الأبي على احتمال الحياة، ولعلها لم تله، ولم تعبث ولم تجد الاّ لتنسى الحياة وتنصرف عن نفسها. فقد كانت تكره العزلة وتخافها خوفاً شديداً، فكانت تسهر الليل، ولا تنام الا قليلاً في النهار، وتنفق وقتها قارئة أو لاهية أو مستقبلة. ولا تكاد تبلغ الخمسين من عمرها حتى يتم الله محنته لها، وحتى يأخذها الشقاء من كل وجه. فهذا حجاب رقيق يلقى شيئاً فشيئاً بينها وبين النور، ثم يتكاثف هذا الحجاب قليلاً قليلاً، وهي تحس ذلك وتجزع له وتلجأ إلى الأطباء والسحرة، والمشعوذين، فلا تجد عند أحد منهم شيئاً. والحجاب يتكاثف ويتكاثف، حتى يستحيل إلى سور صفيق يقطع كل سبب بينها وبين الضوء وإذا هي عمياء.

أفتظن ذلك قد غير من سيرتها أو اضطرها إلى شيء من القصد والاعتدال، ليس من شك في أنها قد حزنت لذلك حزناً عميقاً ولكنه حزن أضيف إلى حزن. حفظته في أعماق نفسها ولم تظهر منه للناس شيئاً. إنما كتبت إلى بعض أصدقائها من أعلام الأب والسياسة تنبؤهم بهذه الكارثة فمنهم من رق لها كفولتير، ومنهم من عبث بها كمنتسكيو، وكلهم قد مضى في

إكبارها، والاختلاف إليها، لم يغير من سيرته شيئا كما لم تغير هي من سيرتها شيئا. فظلت مائدتها تقام يوم الاثنين والأربعاء من كل أسبوع، وظلت تختلف إلى الأوبرا والملاعب، وتشترك في الحفلات كما كانت تفعل من قبل. واتخذت لها رفيقة فتاة من أهل الأقاليم ولدت في أسرة شريفة ولكن مولدها لم يكن شرعيا، وكانت هذه الفتاة مدموازيل لسبيناس ذكية بارعة الذكاء، حساسة قوية الحس، مثقفة واسعة الثقافة، وكانت المودة بينها وبين سيدتها قوية متينة، دامت عشر سنين لم يكدر صفوها مكدر. ثم لاحظت صاحبة الدار أن زوارها أو فريقا منهم إذا انصرفوا عنها لم يخرجوا، وانما أتموا سمرهم عند الفتاة، فغاظها ذلك وكانت القطيعة بين الصديقتين، ولكنها لم تكن قطيعة مألوفة إنما كانت حدثا من أحداث العصر في باريس، انقسم له الأباء والفلاسفة انقساما عظيما، تعصب بعضهم للشيخة وتعصب بعضهم للفتاة، وكانت كثرة الفلاسفة وعلى رأسهم ' أنصار الفتاة وكانت الأرستقراطية المعتدلة والمحافظة من أنصار الشيخة.

ثم استأنفت الحياة المنظمة طريقها عند صاحبتنا، واتخذت الفتاة لها ناديا أو صالونا أدبيا واشتدت المنافسة بين هاتين المرأتين. وصاحبتنا الآن في الثامنة والستين من عمرها قد فقدت البصر منذ ثمان عشر عاما، وعظمت مكانتها في أوروبا حتى لم يكن عظيم من الأوروبيين يزور باريس ألا رأى حقا عليه لنفسه ولمكانته أن يلقاها ويتحدث إليها. وفي أكتوبر من هذه السنة1765 زار باريس رجل من عظماء الإنجليز هو هوراس ولبول كان أبوه روبير وزيرا وكان هو عضوا في البرلمان. فلما مات أبوه ترك السياسة، وانصرف إلى الأب والفن، وكان في الخمسين من عمره. ولم ير هذا الرجل بدا من أن يزور صاحبتنا هذه ويغشي ناديها كما كان يغشي أندية الأب والسياسة كلها في باريس. فلما رأى هذه الشيخة أنكرها، وكتب إلى صديق له يصفها بأنها عجوز عمياء فاجرة العقل. على أن وقتا قصيرا لم يمض على هذه الزيارة حتى تغير الأمر بين هذا الإنجليزي وهذه الفرنسية، وتكررت الزيارة فوقع الإنجليزي من نفس هذه المرأة موقعا غريبا رد إليها الشاب بل رد إليها الصبي فأحبته. وأنا أعني بهذه الكلمة معناها. أحبته وقد أشرفت على السبعين ولم يرفض هو هذا الحب. ومن المحقق انه لم يلق هذا الحب بمثله، ولكنه أضمر لهذه المرأة مودة قوية صادقة لم تغيرها الأيام واظهر بها إعجابا لا حد له. واتصلت أسباب

المودة والحب بينهما ما أقام في باريس، فلما رجع إلى لندرة اتصلت بينهما الكتابة، وكان يأتي إلى باريس من حين إلى حين ليرى حبيبته أو ليرى عاشقته، أو ليرى يتيمته، كماكانت تسمي نفسها، فقد كانت تسمي نفسها يتيمه وتسميه هو وصياً. وكان هو يسميها ابنته الصغيرة. وكان الحنان بينهما كأقوى ما عرف الناس من الحنان بين المحبين. وكانت نتيجة هذا الحب أربع مجلدات نشرت بعد موتها وفيها ثمانمائة من الرسائل التي اتصلت بينهما. وهي آيات من آيات الأب الفرنسي لا أكثر ولا أقل، فيها تصوير لهذه العواطف النادرة، الشاذة، التي لم يألفها الناس والتي تملأ قلوبهم مع ذلك رحمة وبرا، وإشفاقا، وعطفا. وما رأيك في هذه الضريرة التي نيفت على السبعين والتي تكتب لصاحبها رسائل حب وغرام كرسائل الفتيات اللاتي لم يتجاوزن العشرين. على أن صاحبها كان إنجليزيا، ومعنى ذلك انه كان يخافالسخرية، والمزاح، وكانت الرقابة مضروبة على الرسائل في إنجلترا ذلك الوقت. فكان صاحبنا مروعا دائما يخشى أن تفض رسائل صاحبته، وأن يعرف ما فيها من هذا الحب الغريب، فيتندر الناس به في القصر وفي الأندية. فكان يرد صاحبته إلى القصد في تصوير عواطفها الحارة، وكانت هي تخاصمه في ذلك، وكان الأمر يفسد بينهما أحيانا، ولكنه لا يلبث أن يعود إلى خير ماكان. وانقطعت رسائله عنها مرة فكتبت إليه: يظهر انك لا تريد أن تظهرني من أمرك على شيء، فاحذر أيها الوصي أن تصبر على ذلك فاني خليقة إن فعلت أن أرسل إليك سكرتيري وأن أكلفه الإسراع إلى لندرة وآمره أن يلزمك وأن

يرسل إلي بأنبائك، وأن يعلن إلى الناس جميعا وفي كل مكان أني يتيمتك، وأنك وصيي، وأني أحبك، وأن يهيأ لي عندك مكانا فالحق به، وأعلن إلى الناس جميعا ما بيننا، لا أخاف فضيحة مهما تكن، فاختر لنفسك بين الفضيحة والكتابة إلي. ولعلها كانت في بعض الوقت تذعن وتطيع، وترد نفسها إلى القصد ثم تثور فترسل نفسها على سجيتها وتطلق حبها صريحا حراً. وكذلك عاشت هذه المرأة خمسة عشر عاما، استرد قلبها فيها شبابه كله وتبينت هي وتبين هو وتبين الناس في عصرهما، ومن بعدهما أن ما اندفعت فيه هذه المرأة من العبث واللهو، ومن المجون والفساد، ثم من الجد الخصب والنشاط المنتج، كل ذلك لم يكن إلا ضيقا بالحياة وافتقاداً لهذا النور الذي يحببها إلى النفس. وهو الحب، ومصارعة لهذا العدو الفاتك وهو اليأس، فلما بلغت السبعين أو كادت

تبلغها ظفرت بالحب عند هذا الإنجليزي، وظفرت به من غير طريقه كما كان يقول المعاصرون، فان العيون هي أوضح طرق الحب إلى النفوس، ولكن الحب قد يسلك إلى النفوس طريق الآذان كما قال شاعرنا القديم. وأكبر الظن أن صوت هذا الإنجليزي هو الذي حمل الحب إلى نفس هذه الفرنسية فثبته فيها تثبيتا.

وفي سنة 1780 ماتت هذه المرأة وكتبت قبل موتها بقليل جدا إلى صاحبها كتابا تنبؤه فيه بقرب آخرتها. وتنبؤه بأنها لا تأسف لفراق الحياة، لأنها لا ترى في الحياة خيراً بعد أن كتب إليها أن لا تلقاه. وتنصح له بأن يستمتع بالحياة ما استطاع، وتنبؤه بانه سيحزن عليها، فليس من اليسير أن يتعزى الناس عمن كان يؤثرهم بالحب. فلما أتمت إملاء كتابها هم سكرتيرها الشيخ أن يقرأه عليها كعادته، فلم يستطع لأنه كان يقطع قراءته بالبكاء. هنالك أحست هذه المرأة المتشائمة اليائسة التي أسرفت في سوء الظن بالناس؛ أحست أن هذا السكرتير لم يكن يعمل عندها ليعيش. فقالت له بصوت خافت فيه نغمة الموت، وفيه مع ذلك نغمة الرضى والغبطة أكنت تحبني إذا؟

هذه صورة من صور هذه المرأة وهي من غير شك أشد هذه الصور اتصالا بالنفوس، وتأثيرا بالقلوب. ولكن لهذه المرأة صورا أخرى عظيمة الخطر جدا في حياة الأب الفرنسي. فقد كانت ناقدة، ولها في أدباء فرنسا، وفي كبار أدبائها خاصة آراء قيمة تثير الإعجاب لرقتها ولبراعة الصياغة التي كانت تعلن فيها. كانتتؤثر فولتير، وكانت تضيق بروسو فانظر إلى هذه الجملة البديعة التي تنقد فيها أسلوب جان جان: (إن لروسو حظا من الوضوح، ولكنه وضوح البرق، وله حظمن الحرارة ولكنها حرارة الحمى).

واتصلت هذه المرأة بأصحاب السياسة، واتصلت بالعظماء والأشراف وكانت منهم، وقد كتبت إليهم وتلقت منهم الكتب وقد صورتهم وصوروها، فهذه ناحية أخرى من حياتها لها أثرها في توضيح التاريخ السياسي والاجتماعي لفرنسا في القرن الثامن عشر وقبل الثورة الفرنسية الكبرى.

وبعد فلعل أحسن ما كتب عن هذه المرأة إلى الآن فصلان كتبهما سانت بوف في أحاديث الاثنين تستطيع أن تقرأ أحدهما في الجزء الأول، وثانيهما في الجزء الرابع عشر، فان أردت الإيجاز المقنع فاقرأ الفصل الذي نشر عنها في (مجلة العالمين) أول أغسطس، فان

أبيت أن تتكلف القراءة أو تشق على نفسك بالبحث فقدر هذا الوصف الذي كان يصفها به فولتير، وفكر فيه فانه يعطيك منها صورة قوية، تملأ نفسك رحمة وإعجابا. فقد كان فولتير يسميها: (الضريرة المبصرة).

بين اليأس والرجاء

للأستاذ أحمد أمين

صوتان لابد أن يرتفعا في كل أمة ويجب أن يتوازنا حتى لا يطغي أحدهما على الآخر، صوت يبين عيوب الأمة في رفق وهوادة، ويستحث على التخلص منها والتحرر من قيودها، وصوت يظهر محاسنها ويشجع على الاحتفاظ بها والاستزادة منها. والصوتان معا إذا اعتدلا كونا موسيقى جميلة منسقة تحدو الأمة إلى السير إلى الأمام دائما، هي موسيقى الجيش تبعث الرجاء والأمل، وتمنى بالنصر والظفر، فان بغي أحد الصوتين كانت موسيقى مضطربة تهوش النفس وتدعو إلى الفوضى والارتباك، وإذا كان (الدور) في الموسيقى يكون منسجما كله، وشذ أحد أصواته لحظه فيكون (نشازا) يخدش

السمع ويجرح النفس، فما ظنك (بدور) كله (نشاز)؟
مما يدعو إلى الأسف أن صوتا في الشرق علا كل صوت، وهو ليس خير الأصوات وأحبها إلى النفس، هو صوت اليأس والتثبيط يتغنى به كل أصناف الدعاة، فخطيب المسجد تدور خطبته دائما على أن من يخطبهم ليسوا مؤمنين حقاً، فقد ارتكبوا من الأوزار، واجترموا من الآثام ما أخرجهم عن الإيمان الحق، وأبعدهمعن الدين الصحيح، ولو آخذهم الله بأعمالهم لأمطرهمحجارة من السماء، أو خسف بهم الأرض، ثم يصب هذاالمعنى كل أسبوع في قالب، وكل القوالب تختلف أشكالها، ويتحد معناها، ويخرج السامع دائما وقد ملأه اليأس، وانقطع به الرجاء، إلا أن يتداركه الله بعفو ليس جزاء على عمل. ودعاة اللغة والأب يلحون في أن اللغات الأجنبية خير من اللغة العربية، وأن الأبالأجنبي أدب الثقافة والفن والعلم، ولا شيء من ذلك في الأب العربي، وأن من شاء أن يفتح عينيه فليفتحهما على أدب أجنبي ولغة أجنبية، وإلا ظل أعمى، وموجز دعوتهم أن يتحول الشرق في لغته وأدبه إلى الغرب في لغته وأدبه، لا أن يختار من لغة الغرب وأدب الغرب ما تلقح به لغة العرب وأدب العرب.
ودعاة الاجتماع أدهى وأمر، فليس في الشرق كله ما يسر، قد جرده الله من كل حسن، فلا طبيعة جميلة ولا مناظر جذابة، ولا شيء فيه يأخذ باللب ويدعو إلى الأعجاب، والقمر في الغرب أنور منه في الشرق، والبحر الأبيض قد جمل منه ما لامس الغرب، وقبح ما لامس
الشرق، وكل شيء في عادات الشرق وتقاليده تعافها النفس، وينفر منها الطبع، وعلى الجملة فالله تعالى الواهب ما شاء لمن شاء قد جعل الحسن كله في ناحية، وقال له كن الغرب فكان، وجمع القبح كله في ناحية وقال له كن الشرق فكان، وهم إذا لم يقولوا ذلك كله جهاراً آمنوا به أيمانا، وصدرت عنه أفعالهم، واتجهت إليه حياتهم. ودعاة العلم من هذا الطراز، فكتب العلم العربي إنما تصلح لدارس التاريخ أو طعمة للنار، وماذا فيها إلاّ تخريف أو تحريف، قد كانت نتاج القرون الوسطى، ونحن نتاج العصر الحديث (ومالي وللسياسة ودعاتها فلأهربن منها إتقاء لنارها) ومجالسنا صدى لهذا الصوت، فإذا أستثنيت عُشر معشارها فكلها نقد للأخلاق وطعن في حياة الشرق، وتهجم على حال أمتهم، وتجهم لكل ما يصدر منهم، وقلّ أن تسمع صوتاً ينطق بمدح أو يعجب ببطولة، أو يتغنى بعمل مجيد.
هذه نغمة مملولة كانت أجني على الشرق من كل عيوبه، ولن تفلح أمة من غير ذخيرة تعتز بها، ومجد طارف وتليد تعتدُّ به، ونعرة قومية تدعوها إلى الفخر والإعجاب، ولأمر ما قال تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس) وليس عبثاً أن يكون في أناشيد الألمان (ألمانيا فوق الجميع) وأن يعتقد بعض الأمم في أنفسهم أنهم شعب الله المختار، ونحو هذا ممّا ينعش الأمل، ويدعو إلى العمل.
تلك ظاهرة نفسية لا مجال لإنكارها، فاعتقد الغباوة في طفلك وكرّر عليه اعتقادك تقتل كل ما فيه من ذكاء، وأعلن أنه ذكي وشجعه على ما يبدر منه من ضروب الذكاء تستخرج أقصى ما عنده من عقل. وفي المثل الإنكليزي (دَعَوا الكلب عقورا فشنق) يعنون أنهم اعتقدوا في كلب سوءاً وسمّوه عقورا وظلوا يطلقون عليه هذا الاسم حتى صدر منه من أفعال السوء ما أستوجب قتله. وفي أمثالنا العامية (قالوا للفلاح يا حرامي شرشر منجله) ذلك أن الاتهام يحمل على ارتكاب الجريمة من ناحيتين: من ناحية الإيعاز، فمن اتهمته فقد أوعزت إليه واقترحت عليه العمل وأظهرت له الجريمة ماثلة أمام عينه حيناً بعد حين، ومن ناحية أن أكبر ما كان يمنعه من الشر خوفه أن يتهم بالشر، فإذا اتهمته فقد كان ما يخشاه، وأقدم على ما كان يتحاماه، هذا إلى ما يوحيه الاتهام الدائم من شعور باطني يسيره نحو العمل وفق الاتهام، وهذا هو السر في
أن بعض قوانين تسن لمعاقبة بعض أنواع الإجرام فتكون سببا لكثرة الإجرام، ثم ترفع فيقل الإجرام، لأن وجود القوانين كان موعزا بارتكابها، ولعل أنواعا من الآثام زادت بكثرة الكلام فيها من جهلة الوعاظ ممن لم يحسنوا دراسة النفوس وقوانينها. إذا سقط الفتى فأريته أن سقطته قابلة للعلاج، وأخذت بيده لانتشاله، كفّر عن سقطته وعاد إلى حاله، وإن أنت أريته أن سقطته لا تغتفر، وأنه لم يصبح إنسانا استمر يسقط أبدا. وكثير من الساقطين والساقطات لو أحسوا في الناس استعدادا لقبولهم، وشعروا

أنهم يفسحون لهم في صدورهم لعدلوا عن سقطتهم، ونهضوا من عثرتهم.
وبعد فليس الشرق، بدعا من الخلق، إن اعتز أحد بماض فليس أمجد من ماضيه، وإن كان لكل أمة غريبة محاسن ومساو فللشرق محاسنه ومساويه، وإن كانت مساوئ الغرب لم تمنعه من نهوضه فلم تمنع الشرق مساويه من نهوضه؟ ليس أعوق للشرق من هذا الصوت الكريه يصدر من دعاته فيبعث اليأس وينفث السم. أيها الدعاة: كسروا قيثارتكم هذه التي لا توقعإلا نغمة واحدة بغيضة، واستبدلوا بها قيثارة ذاتالحان صنعهاطَب بأدواء النفوس عليم، واكثروا من ألحان تبعث الأمل، وتدعو إلى العمل، وتزيد الحياة قوة، ولا تشهروا برذيلة إلا إذا أشدتم بفضيلة، ولا تسمعونا صوت المعاول، إلا إذا أريتمونا حجر البناء.

ستانلي باي!

لأستاذ كبيرلم يشأ أن يتعرف لقرائنا اليوم

نعم هو ستانلي باي الذي تكتب عنه الآن الجرائد اليومية كل يوم. والذي تكتب عنه المجلات الأسبوعية كل أسبوع000

فما للرسالة لا تساهم في حديثه وقد أصبح حديث جميع من في مصر00؟ أفليس هو الذي يزوره (الأستاذ الصاوي) فيتكلم عنه في (الأهرام) يومين متتاليين؟ أليس هو السر في (قطر الندى) كما يسميه أهل الاسكندرية الظرفاء. وهو نفس ما يسميه مدير السكة الحديدية (قطار البحر)؟ أليس هو الذي حرمته القاهرة فقام فنانوها من مديري المسارح والصالات ينقلون مشاهده إلى مسارح القاهرة؟ أليس هو الذي يشغل بال حكمدار بوليس الاسكندرية ورئيس نيابة الاسكندرية؟ ثم أليس هو الذي استلفت أخيراً نظر رجال الدين، على رغم ما هم آخذون فيه من توزيع (الطوابع) الجديدة التي ابتكروها لاسترداد هيبة الإسلام وإعلاء كلمة الدين؟!

إن الرسالة وقد جعلت مهمتها أن تقاوم حيرة الأمة بتوضيحالطريق كما جاء في عهدها لا تستطيع أن تفتك من قيود التحدث إلى الأمة في هذا الموضوع الذي يشغل الدنيا والدين على السواء! ولقد كان من حق قراء (الرسالة) أن ينتظروا كلمة من بعض أقلامها المعهودة أو تعليقا من حامل شعلتها الوضاءة. ولكن يخيل إلينا أن هذه الأقلام قد استراح كل منهاإلى موضوع فهو لا يفتأ يتقلب فيه، وقد استقل كل منها ببحث فهو لا ينفك يجول في حواشيه، فالدكتور عزام مثلا في محمد اقبال وعبد الحق حامد ونامق كمال. والأستاذ العبادي مابين زرياب وعمر بن عبد العزيز. والأستاذ أمين أخيرا في عكاظ والمربد. والدكتور طه أخيراً أيضا في لغو الصيف ما بين مصر وما وراء مصر000 ولكن لا عن طريق ستانلي باي والسلام!

فلم يبق بعد ذلك الا أن يتقدم الفضوليون الذين لا يريحون ولا يستريحون. وإني أعوذ بالله (وأنا أثير هذا الموضوع) أن أكون أحد هؤلاء000 كنت من رواد هذا الشاطئ منذ نحو عشرة أعوام، وما زلت أزوره كل عام. فأقسم لك صادقا أن لست أدري فيم هذه الضجة التي بدأت تقوم حوله هذه الأيام؟ 000 لقد كان الطريق إليه فيما مضى متعبا متربا. فتعبد واستقام. وكان شاطئه مجهدا مرهقا في السير لغزارة رماله، فقام إلى جانبه افريز ممهد سهل يجعل السير فوقه متعة من متع الحياة. وكانت (اكشاكه) على غير نسق، يقوم فيها الكبير إلى جانب الصغير، والوجيه إلى جانب القمئ، والعالي المشرف إلى جانب المنخفض الوضيع. فتناوله الذوق السليم بالتهذيب حتى أصبح في صورتهالحالية درجات متماثلة بعضها فوق بعض كأنه القلادة الفرعونيه تزين صورةذلك الشاطئ الجميل. هذا هو الشاطئ نفسه ما بين يومه وأمسه000 أما أهله فهم هم أهل (ذلك) الزمان. وأما زيهم فهو زي (هذا) الزمان! فمن أراد أن يثور بالشاطئ فلست أدري لم لا يثور بكافة الطرقات التي تغشاها السيدات؟ وهل أنت ترى فوق ذلك الشاطئ إلا من ترى في الترام وفي غير الترام من مسالك الإسكندرية وشعابها؟ إنهم وحق أبيك ليس فيهم من خلق جديد، ولكنهم يبدون في الطريق بزي الطريق وينزلون إلى البحر في زي البحر. فانظر أية الزينتين أدعى للفتنة وأيتهما أقرب إلى الفجور؟ . . .

هذه سيدة في عربة الترام تراها وثوبها يغطي جسمها (وقبعتها تغطي رأسها) وحذاؤها يغطي رجليها. فهل حقيقة تغطي شيء من ذلك؟ ألست ترى تحت القبعة شعراً مصفوفاً وجدائل بعضها يتدلى فوق الأذن، وبعضها يزين الجبهة. وبعضها يمر فوق الخد

لتلعب ضدية الألوان دورها في إبراز محاسن العنصرين. . . إشراق الوجنة، وفحومة الخصل؟! ثم انظر ماذافعل الثوب بالجسم؟ ألم يفصّله تفصيلاً؟ ألم يلف مفرطحه وينهض بمسترخيه؟ ويضغط هنا وينسدل هناك؟ ثم ينشق فوق الصدر تلك الإنشقاقة الماكرة التي يبدو منها انفلاق الثديين! إنما مثل هذا الذي يفعله الثوب في جسم صاحبته كمثل المعلم الذي يمسك (بمؤشره)

فيؤشر به لتلاميذه على هذا الموقع من الخريطة حيث (مجمع البحرين) وعلى ذلك حيث (مفرق الجبلين) وهكذا. . . .

إن كل قطعة في لباس المرأة العصرية إنما يؤدي اليوم غرضاً واحداً هو إبراز ذات المحاسن التي كان المقصود به أن تسترها.

أمّا اعتبارات الجد والاحتشام وما إلى ذلك من تلك الأغراض التي أتخذ الإنسان الأول من أجلها اللباس فقد انطوت مع أهلها ومع زمانها. . . ثم دعني أعود بك إلى الحذاء. أفلا

يتخذه النساء مخرماً مهلهلاً مثقباً؟ وهو على الرغم من كل ذلك يلبس فوق الجلد بغير جوارب أو نحوها. فحدثني بعد هذه الصورة وكن صريحاً. . أي المنظرين أشهى للعين وألفَت لنظرها؟ أهي القدم الحافية أم المستورة تحت مثل هذا الحذاء المفضوح؟ أهو الجسم الصريح الهادي على علاّته أم ذلك المرائي المتحصّن في كل تلك الغلائل. . . هذه تبرز نهديه. . . وتلك تضغط كشحيه. . . وغير هذه وتلك من الخرق والمزق التي تغريك كل قطعة منها بكشف ما دونها ومعرفة ما ورائها! إن ما يثير الرجل من المرأة ليس هو ظهرها المتجرّد، ولا هي سيقانها العارية، ولكنها نظرتها الساجية التي ترخيها في وجه الرجل كأنما تدافعه عن نفسها وهي إنما تراوده بها عن نفسه! وليست المرأة العارية هي التي تبعث الفتنة، فقد علمنا أن في هذه الدنيا قبائل كاملة يعيش نساؤها عاريات وسط الرجال. فلم نسمع بأن ذلك كان مدّعاة إلى أن يتخطف الرجال بعض هؤلاء النساء. ولا أن تشيع الفتنة والفساد في تلك البيئة بسبب هذا العراء. ولقد علمنا من الجانب الآخر بأن الفتنة على شرما تكون هنا في طرقات القاهرة والإسكندرية حيث (الملاءات) التي تنسدل من الرأس إلى القدم، ومع ذلك فإنها لا شأن لها إلا أن تحسر الأرداف، وتنحسر عن بعض السيقان، تبدى جانباً منها وتضن بالجانب الآخر، إمعاناً في الفتنة واستفزازاً للغرائز.

إني أحدثك صادقاً أن الرجل يكون في البحر أو فوق الشاطئ تموج حوله السيقان، وتصطخب الأثداء، وتتلألأ الظهور، وتترقرق النحور، فلا يشغله كل ذلك بمثل ما يشغله في الطريق وقوف امرأة تميل على جوربها ترفعه، أو انشغال أخرى بذيل ثوبها ترخيه على ساقيها بعد إذ هفا به من فوقهما النسيم. وعلى الرغم من كل ذلك فأن النيابة، والبوليس، والصحافة، ورجال المطافئ، ورجال الدين، كل أولئك يعلنون الحرب عواناً على: (شاطئ ستانلي باي)

مصطاف

أحياء ذكرى ابن خلدون

نشر الأستاذ محمد عبد الله عنان فصولاً في الرسالة أرَّخ فيها العلامة ابن خلدون، فكانت هذه الفصول ولاغرور خير ما كتب في تاريخ هذا العلامة، بيد أن الأمر الذي يرجوه الناس ودعا إليه الصحافي العجوز في مايو سنة 1932 بالأهرام لم يتحقق ولم نصل إليه. دعا هذا الصحافي الفاضل إلى إحياء ذكرى ابن خلدون لكي ينتفع هذا الجيل وما بعده بهذه الذكرى الطيبة، وقام الكتّاب على أثر ذلك يبينون ما نعمل لأحياء هذه الذكرى، وكان من رأي الأستاذ احمد زكي باشا أن ينصب له تمثال، وأن يبحث عن قبره ليشيّد. وكان من الآراء القيّمة النافعة أن يطبع تاريخ ابن خلدون ومقدمته وينشرا على الناس بنفقات طبعهما. وهذا الرأي كان خير الآراء وانفعها، وقد انقضى عام وبعض عام بغير أن نرى أحدا قد نهض لأحياء هذه الذكرى. ولقد كنت قرأت في صيف سنة 1923 للمرحوم تيمور باشا بحثا في الهلال، أبان فيه أنه لا يوجد في ما طبع

من مقدمة ابن خلدون طبعة صحيحة، وأنه رأى بخزانة الأستاذ زكي باشا نسخة مخطوطة صحيحة بقلم ابن خلدون نفسه، فرجعت إلى أحمد زكي باشا لأسأله عما قال تيمور باشا فأجاب بأن لديه حقيقة نسخة مخطوطة مصححة بقلم ابن خلدون، وأنه في سنة 1930أتى بصورتها عن النسخة الأصلية الموجودة بمكتبة عاطف أفندي بالأستانة، وزاد على ذلك بأنه يدعو من يشاء إلى طبعها ونشرها. ولما استيقنت من وجود هذه النسخة أرسلت خطابا إلى رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر، رغبت إليه أن تعمل اللجنة على نشرهذا الأثر الجليل، فرد عليَّ حضرته في أغسطس سنة 1927 بأن اللجنةتضع اقتراحنا موضع البحث، ففرحت بهذا الجواب وجعلته بشرى أذعتها بجريدةالمقطم الغراء بين الناس. وها قد انقضى ستة أعوام كاملة بغير أن يتحقق مارجونا. ولما كان من أغراض اللجنة الموقرة نشر الكتب القيمة، وليس من شكفي أن تاريخ ابن خلدون بمقدمته الموجودة بالخزانةالزكية هو خير ما ينشر من كتب الأوائل في هذا العصر، فاني أعيد الرجاء على صفحات الرسالة إلى هذهاللجنة الموقرة، لتعمل على طبع هذا التاريخ ومقدمته، ويكون ما كتبه الأستاذ عنان تصديرا لهذا التاريخ، وبذلك تكون اللجنةقد أدت للعلم والأبأجل عمل، ولابن خلدون أجمل ذكرى. محمود أبو ريه.

مطالعاتفي التصوف الإسلامي

تمهيد - كشف المحجوب - عوارفالمعارف

- 1 -

يمتاز العصر الذي نعيش فيه بأنهعصر نهضة فكرية تناولت الحياة العامة والخاصة للأفراد والجماعات ويمتاز هذا العصر أيضا بما استحدث فيه الباحثون من مناهج علمية لهاقيمتها وأثرها في كشف الحقيقة التي يقصد إليها كل باحث. على أن هذه النهضة مهماتكن عامة شاملة، وهذهالمناهج العلمية الحديثة مهما تكن دقيقةمنتجة، الا أننا لا نزال نرى أن في تاريخ الفكر الإسلامي ناحية خصبة ممتعة طريفة قد أعرض عنها الباحثون من الشرقيين إعراضاً هو أقرب مايكون إلى الإهمال الشنيع منه إلى أي شيء آخر. على حين ترى الباحثين من المستشرقين قد عنوا بهذه الناحية عناية خاصة فائقة. فكشفوا عن خباياها وأظهروا ما اشتملت عليه من فكر عميق وشعر رقيق. وأحسوا بماتثيره في نفوسهم هذهالآثار من متعة عقلية ولذة شعورية. هذه الناحية التي أهملها الشرقيون وعنى بهاالمستشرقون هي ناحية التصوف الإسلامي وما أنتج فيه من مؤلفات لها مكانتها الأبية، وقيمتها الفكرية بين ما أنتج العقل البشري عامة، والعقل الإسلامي خاصة.

وليس أدعى للأسف ولا أبعث على الحسرة من أنك إذا أردت أن تعرف شيئا عن تاريخ التصوف الإسلامي: نشأته وتطوره، وأن تلم إلماما كافيا بمن ظهر من متصوفة، من شعر ونثروإرشادات وإيماءات تلتمس هذا كله عند المستشرقين في لغاتهم الأوربية المختلفة. وتلتمس هذا كله بصفة خاصةعند ماسينيون في الفرنسية وعند نيكلسون في الإنجليزية. وأنت لاشك واجد عند هذين العالمين ما تطمع فيه من بحث منظم وأسلوب علمي دقيق، وتصوير جميل بديع لهذه الشخصيات الفذة العجيبة التي ظهرت إبان العصور المتعاقبة لتاريخ التصوف الإسلامي. وأنك حين تتصفح كتابامن كتب المستشرقين فليس من شك في أنك ستعجب بمهارتهم الفائقة في البحث وبمقدرتهم الغريبة على جمع الأخبار ولم شعث الآثار وتحقيقها على ضوء المنهج العلمي الحديث بحيث ينتهون من هذا كله إلى الحقيقة الثابتة التي لا يأتيها الشك من بين يديها ولا من خلفها. وليس من شك أيضاً في أنك ستقدر ما بذل هؤلاء القوم من جهد، وما تحملوا من مشقة وألم في سبيل إخراج ما أخرجوا من أبحاث منظمة وأسفار قيمة. وليس أدل على عناية المستشرقين بالحضارة الإسلامية عامة وبالتصوف خاصة من أن أحدهم وهو العالم الكبير والباحث الجليل

المسيو لويس ماسينيون قد قضى أعواما طوالا يجوب فيها البلادالإسلامية المختلفة باحثا عن نصوص صوفية لم يسبق نشرها، وقد وفق فيما قصد إليه توفيقاً عظيماكانت ثمرته هذا الكتاب القيم المسمى (مجموعة نصوص لميسبق نشرها تتعلق بالتصوف الإسلامي) ناهيك بان المسيو ماسينيون قد تعرض إلى بحث شخصية قوية جداً من شخصيات التصوف الإسلامي وأعني بها شخصية الحلاج. فكانت ثمرة بحثه هذا السفر الضخم حقاً، الخالد حقا، في تحليل شخصيةالحلاج ونفسيته، والإبانة عنمذهبه وعن رأي المدارس الإسلامية المختلفة فيه. وليس أدل على عناية المستشرقين أيضاً بهذه الناحية القيمة الممتعة من أنهم قد عمدوا إلى ما أنتج المتصوفة من مؤلفات فأوسعوها درساوتحليلا وما هي الا أن تناولوها بالترجمة إلى لغاتهم وشرحوها وعلقوا عليها. وما هي الا أن طبعوها وأذاعوها في الناس. وما هي الا أن قرأت هذه المؤلفات ونوقشت. وانتهى هذا كله إلى أن اختلف المستشرقون حول هذه الكتب فمنهم من تعصب لها ومنهم من تعصب عليهاومنهم من رأى فيها رأيا غير الذي يراه غيره. ومن هنا كثرت المؤلفات الأوربية في التصوف. على حين أنك إذا أردت أن تعثر على كتاب في العربية يعطيك صورة واضحة جلية لنشأة التصوف وتطوره في الإسلام فانك لن توفق إلى بغيتك، ذلك لأن الشباب المثقف عندنا قد ضاق صدره بكتب التصوف القديمة كما ضاق بغير كتب التصوف منالآثار الإسلامية وغير الإسلامية، فأنت إذا طلبت إلى شاب مصري مثقف أن يطالع كتابا عربيا قديما في التصوف فمن المؤكد أنه لا يكاد يقرأ منه صفحة أو صفحتين حتى تضيق نفسه، ويحرج صدره، ويستولي عليه الملل والسأم، فيلقي بالكتاب إلقاء على أن لا يعود إليه مرة أخرى. ولعل عذره في ذلك هو أن ما تكلفه قراءته وما تحمله مشقة مطالعته إنما هو كتاب مختلط مضطرب لم ترتب أبوابه. ثم هو ضخم طويل إن عرف أوله فقد لا يعرف آخره. وأكبر الظن أن شبابنا حين ينظر إلى الآثار الإسلامية هذه النظرة التي هي أقرب إلى الازدراء منها إلى أي شيء آخر، أقول أن شبابنا مسرف على نفسه وعلى الحضارة الإسلاميةمسيء إلى نفسه وإلى

الحضارة الإسلامية. ولو قد تجمل بالصبر على ما يقرأ وتضرع بالثبات على ما يقرأ. واستعان بالفهم المستقيم لما يقرأ. لانتهى منه إلى ما يشبع رغبته ويرضى حاجته العقلية والشعورية. وإذن فما أجدر شبابنا المثقف أن يعمد إلى هذه النواحي المهملة من تراثنا المجيد فيتناولها بحثاً وتحليلاً، وتفسيراً وتأويلاً، بحيث يخضعها لمناهج البحث الحديث فهي كفيلة بأن تشعره بما في قراءته من لذة قوية ومتاع خصب.

وأحب أن أحدثك في سلسلة من الفصول عن التصوف الإسلامي. فأتناول في بعضها الحديث عن بعض المؤلفات التي أودعها أصحابها مسائل التصوف ونظرياته. وأتناول في بعضها الآخر تحليل بعض الشخصيات القوية التي ظهرت في تاريخ التصوف الإسلامي فكان لها أكبر خطر وأعظم أثر. وبهذا أكون قد قمت بجزء من الواجب على كل شاب مصري مثقف أن يقوم به نحو هذا التراث الإسلامي المجيد. وأحب بعد هذا كله أن أتناول في هذا الفصل كتابين عنى بهما المستشرقون فترجموها إلى لغاتهم، وذلك لأن هذين الكتابين يعدان من أهم الكتب التي تظهرنا على المسائل الصوفية، والإشارات الباطنية، وما ينسب إلى المتصوفة من أقوال في هذه الإشارات وهذه المسائل. هذان الكتابان أحدهما (كشف المحجوب) للهجويرى. والثاني (عوارف المعارف) للسهروردي.

- 2 -

أما مؤلف (كشف المحجوب) فكان معاصراً للقشري الصوفي الفارسي الذي عاش بنيسابور وتوفي عام 465 هـ (1072 م) والذي يعرف بمؤلفه المشهور (الرسالة القشيرية) ولم تكن لكشف المحجوب هذه الروح النقدية المؤسسة على قواعد علمية راسخة، فهو كتاب من هذه الكتب التي يمتاز مؤلفوها بالقدرة على جمع المسائل الصوفية وأخبار المتصوفة، ووضعها في أقسام وأبواب. هذا فضلاً عن أن هذا الكتاب قلما يذكر فيه شيء عن تواريخ الأشخاص الذين يتحدث عنهم.

ولعل أكثر ما يذكر لك عن الشخص الذي يعرض له قولاً أو قولين من هذه الأقوال التي تنسب إليه. وانه ليكتفي بهذا القول أو بهذين القولين فيعمد إليهما بالشرح والتفسير ولكنه شرح غامض وتفسير مبهم. ومن الحق كل الحق ألاّ يثق الباحث

المدقق ثقة تامة بكل ما ينسب إلى المتصوفة من أقوال وما ينسب حولهم من قصص كتلك التي يذكرها الهجويري
في كتابه. وإنما هو مضطر على العكس إلى أن يأخذ هذه الأخبار وهذه القصص وهذه الأقوال إلى البحث العلمي الصحيح فينكر بعضها حين يلزم الإنكار ويشك في بعضها الآخر حين يجب الشك. ويرجح طائفة منها إذا كانت هناك حاجة إلى الترجيح ويؤكد طائفة أخرى حين لا يجد الشك سبيلاً إلى ما يؤكد بحيث ينتهي من هذا كله إلى الحقيقة الثابتة الراسخة التي لا تقبل شكاً ولا تحتمل جدلاً. وإذا كنا نلمس في تضاعيف المؤلفات الصوفية أموراً من شأنها أن تحملنا على التفكير وتدعونا إلى الشك فلا بد لنا من أن نقف من هذه المؤلفات موقفاً إن لم يكن موقف المتشكك المرتاب، فلا أقل من أن يكون موقف المحقق المدقق الذي لا يبغي من وراء تحقيقه وتدقيقه الا وجه الحقيقة خالصاً صافياً لا تشوبه شائبة. ولعل الهجويري نفسه قد قدم لنا مثلاً لما من شأنه أن يحملنا على الشك في صحة بعض ما يذكر في كتب التصوف القديمة. فهو حين يتحدث عن الخلوي يقول: (هو مترجم الأولياء المعروف ولكي يفسر المذاهب الصوفية الأساسية فقد نسب إلى شخصيات عديدة قصصاً ألفها هو. . .). ومهما يكن من شئ فتلك مسألة نتركها الآن لنعرض إلى تلخيص الكتاب الذي نحن بصدده.
يرجع الهجويري بداية التصوف إلى عهد النبي صلى الله عليه وسلّم، كما يذكر تحت اسم (أهل الصفا) فريقاً من الصحابة الذين وقفوا حياتهم على التضحية وكانت معيشتهم أقرب إلى الإعراض عن الدنيا والزهد فيها، منها إلى الإقبال عليها والميل إليها. ولعل أشهر هؤلاء الصحابة رجلان: أحدهما بلال الحبشي والآخر سلمان الفارسي.
أما في الجيل الأول من التابعين فأقوى الشخصيات التي ظهرت وذكرها الهجويرى شخصية الحسن البصري. وليس ثمة شك فيما لهذه الشخصية من أثر قوي وخطر عظيم في تاريخ الحضارة الإسلامية. فأسم الحسن البصري يذكر على رأس دراسات إسلامية متعددة. فهو يذكر في دراسة القرآن والنحو وعلم الكلام وغير ذلك من فروع الثقافة الإسلامية المتنوعة.
ويذكر مؤلف (كشف المحجوب) بعد جيل الحسن البصري أربعة وستين صوفياً أخذ يعددهم حتى دنا من العصر الذي كان يعيش فيه. وانك تراه يذكر فيمن يذكر من هؤلاء المتصوفة أبا حنيفة وابن حنبل وداود الطائي. أما الصوفيون الحقيقيون، وبعبارة أدق (المتخصصون)
فمن بين الذين يذكرهم ذو النون المصري وابن أدهم والبسطامي. وهذه الأسماء الثلاثة كثيراً ما يتردد ذكرها في المؤلفات الصوفية نظراً لما لها من قيمة ولما لعبت من أدوار في تاريخ التصوف الإسلامي. ويذكر الهجويرى بعد هؤلاء عشرة من المتصوفة المعاصرين له أشهرهم القشيري. ثم فريقاً كان لا يزال حياً وقتئذ في الأنحاء المختلفة لبلاد الفرس. ويأتي بعد هذا كله فصل طويل عن إحدى عشرة طائفة صوفية وقد جعل لكل طائفة مقالاً خاصاً تناول فيه ناحية معينة من مذهبها. ويرى السواد الأعظم أن الخلاف الذي شب بين هذه الطوائف لم يكن ذا أهمية وأنه ليس الا وسيلة يستعان بها على تفسير المذاهب المختلفة، فالطائفة الأولى مثلاً تذكر الرضى من بين الأحوال بدلاً من أن تجعله بين المقامات. ويعقب الهجويرى على هذا بمقال عن الرضى. والطائفة الأخيرة تظهرنا على رأي المتصوفة في مسألة فلسفية نفسية ذات خطر. ذلك أنها كانت تؤمن بالتناسخ. ومن هنا ترى مؤلف (كشف المحجوب) يذيل كلامه عن هذه الطائفة بمقال عن الروح. وفوق هذا كله فان المؤلف قد بسط مذهب المتصوفة في صورة أخرى موضوعة في أحد عشر فصلاً مثلها في هذا العدد كمثل الفصول التي سبقتها. وانه ليجعل عنوان كل فصل من هذه الفصول هكذا: (كشف المحجوب الأول والثاني والثالث. . . إلى الحادي عشر) والمحجوبات هنا تقابل المسائل الجوهرية للدين الإسلامي (وحدانية الله - الإيمان - الوضوء - الصلاة. . . الخ) فكل مسألة من تلك لها تفسير صوفي. أو هي بعبارة أخرى تقابل فصلا من فصول التصوف. وأنك لتلاحظ في هذا القسم حرية التفسير والتأويل التي اصطنعها المتصوفة في فهمهم للدين. فأنت ترى مثلافي صفحة (301) من الترجمة الإنجليزية التي وضعها الأستاذ نيكلسون وطبعتها ونشرتها لجنة أحياء ذكرى جب: (الصلاة عبارة عن تعبير يجد فيه المريدون الطريق الموصل لله من البداية إلى النهاية. وفيهتنكشف لهم المقامات.

والطهارة للمريدين هي التوبة. وأنت حين تولي وجهك نحو القبلة معناه انك تخضع نفسك للمدبر الروحي. وأنت حين تصلي واقفامعناه انك تذل نفسك. وتقابل تلاوة القرآن التأمل الباطني. وإطراق الرأس هو التواضع. والركوع والسجود هما معرفة الإنسان لنفسه والتسليم هو الانفصال عن الدنيا. ويحل محل الاعتراف بالإيمان الأنس بالله) وآية ذلك هي أن كل حركة عملية يمكن تأويلها تأويلا صوفيا وأن كل رياضة جسمية تقابلها عاطفة روحية.

ولنترك الآن كشف المحجوبلنقف وقفة قصيرة عند الكتاب الثاني الذي أريد أن أحدثك عنه وأعني به (عوارف المعارف) ويمتاز هذا الكتاب بأنه أكثر تقسيما وأوفر تنظيما من سابقه. ثم هو أقدر على أظهارنا على منشأ العلوم الصوفية والإبانة عن آداب المتصوفة ومذاهبهم وأخبارهم وأقوالهم بحيث يمكن اعتباره كتاباتعليميا بكل معاني الكلمة. وليس أدل على قيمة هذا الكتاب من أن ويلبرفورس كلارك قد ترجمه. ومن أن بعض المستشرقين ينظر إليه كأنه تحفة أدبية لها قيمتهابين الأسفار العربية الكلاسيكية التي تسودها روح المنطق ويسيطر عليهاأسلوب البحث والاستقصاء. ومن أن البارونكارا دي فو قد تكلم عن هذا الكتابفي مؤلفه عن الغزالي ثم أعاد الحديث عنه مرة أخرى في كتابه (مفكري الإسلام). فهذا كله يظهرك على ما للكتاب من خطر وما فيه من غناء.

أما مؤلف الكتاب فهو شهاب الدين السهروردي أحد أعقاب أبي بكر رضيالله عنه. كان تلميذا لعمه أبي النجيب وللصوفي المعروف عبد القادر الجيلي. وكان شيخا لمشايخ بغداد. التف حوله عدد ضخم من المتصوفة والزهاد وله غير مؤلفه الذي نحن بصدده طائفة لابأس بها من الأشعار، مات في بغداد سنة 632هجرية. وأبو النجيب عم المؤلف الذي أشرنا إليه آنفا صوفي أيضا. أورد شهاب الدين الذي ذكرهكثيرا في كتابه فهو يبدأ كل أبواب هذا الكتاب أو جلها بهذه العبارة: (حدثنا شيخنا شيخ الإسلام) يعني عمه.

وقد كتب عنه ياقوت في معجمه مقالا بديعا اعتبره فيه أذكى أبناء سهرورد. سافر في شبابه إلى بغداد حيث درس الشريعة والفقه. ثم إلى أصفهان. وكان يعمل كسقاء ولم يكن يعيش إلا من عرق جبينه. وبعد أسفاره هذه عاد إلى بغداد حيث كان يلقى تلاميذه الذين درسوا عليه الشريعة وحيث تولى رياسة النظامية. ثم قصد بعد هذا إلى دمشق سنة 558 هـ حيث أولاه نور الدين الزنجانى شرفاً كبيراً. وهناك أسس طائفة من الصوفية، ويعقّب ياقوت على كلامه عن أبي النجيب بقوله: أن ابن أخيه مؤلف عوارف المعارف كان من أبرز شخصيات عصره لما له من مواهب، ولما كان عليه من صلاح وتقوى، أجلّه الخليفة الناصر وخلع عليه لقب شيخ مشايخ بغداد. ولهذا الخليفة ألّف شهاب الدين السهروردي

كتابه عوارف المعارف. ويقول عنه ابن خلّكان في وفيات الأعيان انه كان فقيهاً شافعي المذهب تخرج عليه خلق كثير من الصوفية في المجاهدة والخلوة وصحب عمه أبا النجيب والشيخ أبا محمد عبد القادر بن أبي صالح الجيلي. . . . ولد بسهرورد في أواخر رجب سنة 539 هـ وتوفي في المحرم سنة 683 هـ.

هذه ترجمة موجزة لحياة مؤلف عوارف المعارف. أما الكتاب نفسه فقد بلغ من الخصوبة والطول بحيث أنه وضع في أكثر من ستين باباً. ولابد لنا من وقفات عند أهم هذه الأبواب التي بسط فيها المؤلف منشأ علوم الصوفية، وآدابهم وأخلاقهم وإشاراتهم وأحوالهم ومقاماتهم. فكل أولئك مسائل خليقة بالبحث، جديرة بالدرس. وهذا ما أرجو أن أعرض له منذ الفصل التالي بحيث أكوّن لديك صورة صادقة لهذا الكتاب تمكنك من أن تتعرف مكانته وتقدر قيمته وتتبين ما له من خطر وما فيه من غناء.

محمد مصطفي حلمي. ماجستير في الآداب

الزينة عند قدماء المصريين

أناقة الرجال، الزي والحلاقة والحلي، زبرجة النساء، الثياب،

الأصباغ، العطور

للأستاذ حسن صبحي

تلبس ثيابا من الكتان الناعم)

وتركب الخيل وتحمل لهاالسوط الذهبي في يدك
لك سرج جديد شغلته أيدي الشوام
وتجري أمامك العبيد يصدعون بما يؤمرون
يدهن جسمك كبير معطريك بطيب الكيمي
(وفمك مليء بالنبيذ والخمير. . . . . الخ
من قصيدة تحية المعلم. . من الشعر المصري القديم)

يالها من أناقة وفخامة! ثياب من كتان ناعم! وسوط الركوب موشى بالذهب! وسرججديد من صنع أهل الشام! وعبيد سياس يجرون أمام السيد المعلم يفسحون له الطريق ويصدعون لما يأمرهم به! وعطور وطيب يدهن به جسمه! وأية أناقة تعدل هذه الأناقة! وأين هاتيك الأناقة الرائعة، والفخامة في الثياب وفي المركبوفي الخصاصية مما نحن عليه الآن , ومما نظنه منتهى ما وصلت إليه مدنية القرن العشرين بعد الميلاد!

لسنا نحن نصف أزياء المصريين فنتهم بالتحيز لأجدادنا , بل هم المصريون أنفسهم يتحدثون عن أزيائهم في هذا الشعر القديم، ولا يتركون لمتشكك فرصة ما في أن يظن بهم غير ما يصفون، فيخلفون في قبورهم الثياب الكتانية البيضاء الناعمة، والحلي الذهبية المطعمة بالجواهر والأحجار، ويخلفون القفازات. والصنادل الجلدية الفاخرة، ويخلفون السروج المزركشة، بالذهب والفضة، والسياط المنقوشة الموشاة بالذهب والفضة وكرائم الأحجار، وآنية مرمرية وأخرى رخامية تحوي عطوراً فيها السوائل وفيها الصلب وفيها ما بينهما من معاجين ومقشطات، ويخلفون غير هذا وذاك صورا على الجدرانتمثلهم في هذه الثياب الرقيقة، وهاتيك الحلي الثمينة، وتلك الأناقة الرشيقة، وتمثلهم وهم يدهنون، وهم

يعطرون، وهم يتزينون!. . . أفنستطيع بعد هذا أن ننكر على القوم ما كان لهم من (تواليت)!؟ وتواليت دي لوكس أيضا؟!

أناقة الرجال:

نظر المصريون إلى الرجل من نواحي الرجولة التي تبعده كل البعد عن المرأة ونواحي الأنوثة فيها؛ فالرجل يجب أن تبدو منه عضلاته دليلاً على القوة والبأس، ألم يخلق للعمل والحرب؟ إذن: فليترك صدره ليبرز ما عليه من الفورسبس (عضلات الصدر) أمام الأعين، دليلاً على قوة الرجل أو هزاله، وليخلي عن ذراعيه من الثياب ليظهر ما فيها: بايسبس وترايسبس (عضلات الذراعين فوق الرسغ والكتف) فيميز الناس فيه القدرة والعجز، ولتحلى تلك الصدور البارزة القوية بالعقود والمدليات وتلك الأذرع والمعاصم بأساور من ذهب أو ما يشبه الذهب، كي تستلفت العين إلى ما فيها من شدة وبأس وكمال في النمو، هي ما يقترن بلفظ (الجمال) في الرجل، وما يميز جمال الرجل عن جمال المرأة. هذا الجمال في النمو وفي الشكل توجده الطبيعة في الأصل، ولكنها تكل للرجل تعهده والعناية به، فهو لابد مستمر في القيام على إظهاره في أجمل صورة له، وهل يتم له هذا الإظهار إلا لمداومة النظافة والرياضة والعناية؟ والنظافة لم تكن بعيدة المنال على المصريين فقد كان النيل دائماً الأب الرحيم، يغتسلون فيه، وفي ترعه، وفي مياهه يجرونها في قنوات إلى بيوتهم، ونقرأ في قصصهم عن أحواض الاستحمام التي كانت تبنى في القصور، كما نقرأ عن ضرورة الاغتسال قبل الصلاة، لضرورتها لرفع الحدث الأكبر، أي أنها جعلت ركناً من أركان دينهم كما ينص الإسلام على ضرورة الوضوء والاغتسال قبلالصلاة وبعد الحدثين. وإذا عرفت أن المصري القديم لم يكن يأكل ولا يشرب ولا ينام ولا يعمل إلا بعد أن يؤدي صلاته لألهه، وعرفت أن الدين كان في دم المصري القديم إلى حد أن أفقر الناس كان يبني دار دنياه من طين، بينما يبتنى لنفسه في حياته قبراً من أغلى الأحجار التي يستطيع شراءها، ويسمى هذا القبر: (البيت الأبدي) بينما يدعو مسكنه الدنيوي (بيت الاختبار)؛ إذا عرفت هذا كله أدركت مبلغ تدخل الدين في كل شيء، ومكان النظافة الشخصية من نفس كل مصري تبعاً لعقيدته.

الحلاقة

والنظافة عند المصري القديم ليست الاغتسال بالماء فقط، إذ نرى من صورهم الكثيرة جداً، أنهم كانوا يقصون شعور رؤوسهم، ويقصرونها لتميز رؤوسهم عن رؤوس

النساء، ثم كانوا حليقي الوجوه، لا لحى ولاشوارب، ولم يكونوا يكتفون بقصها أوقطعها، ولكنهم كانوا يحلقونها بالأمواس لتكون وجوههم نظيفة خالية المسام، تميزهم عن غيرهم من الشعوب التي كانت ترخي ذقونها وشواربها كشعب فلسطين وشعب ليبيا وغير هؤلاء ممن ظهرت صورهم على الآثار بلحى وشوارب سوداء طويلة. وقد يعجب القارئ إذ يعلم أن المصريين عرفوا أمواس الحلاقة منذ خمسة آلاف عام، لكنها حقيقة خلفوا آثارها لنا، إذ يحوي المتحف المصري طائفة كبيرة من هذه الأمواس مصنوعة صناعة متقنة من شظايا الجرانيت والاردواز والبازلت الصلبة التي تتحمل الترقيق والتشحيذ، وتقاوم استمرار استعمالها في الحلاقة. وإذ نمر بالاغتسال وبالحلاقة بعد الزي، وهي أوليات التواليت، فإننا نصل إلى أقصى مراتب التواليت، وهي ما سميته من قبل (تواليت دي لوكس).

التواليت العالي

لم يكن للرجل العادي نصيب في التواليت العالي، الذي لم يكن يعرفه غير أفراد الطبقة الممتازة. من الملوك والكهنة والوزراء والكتاب والأعيان. هؤلاء كانوا يستمدون من ثروتهم وسلطانهم ما يستطيعون أن يقتنوا به العطور والأدهان يطلون بها أجسامهم كي تطيب رائحتها وينعم جلدها وتبرق بشرتها، فيبدو كل ما فيها من جمال الرجولة وأناقتها. وكانوا يلبسون في أيديهم القفازات، لا يتقون بها البرد، وصدورهم وظهورهم عارية، ولكن ليقبضوا بها على الأقواس ويشدونها حين يطلقون منها السهام، ويكملون بها زينتهم وأناقتهم. ثم يضعون في أقدامهم صنادل أنيقة من الجلد الموشى بالخيوط الذهبية، مبالغة في الأناقة والرفاهية. هذه صورة حقيقية للرجل المصري من الطبقة الممتازة: رجل كامل النمو في جميع أجزاء جسمه، لا يستر منه غير عورته، بسروال قصير من الوسط إلى الركبتين مصنوع من الكتان الأبيض المثني (بليسيه)، يلبس فوق صدره عقوداً وخرزا وفي معصميه أساور من ذهب، حليق الوجه منسق شعر الرأس قصيره، لا يضع على رأسه شيئاً، يلبس قفازا من الجلد وصندلاً من الجلد ويمسك بيده سوطا من الجلد موشى بالذهب يسوق به فرسا يمتطيه وتحوطه مظاهر الفخامة والأناقة والرجولة! هل منكم من يعطيني صورة أكمل لأناقة الرجولة من هذه الصورة بعد مضي خمسة آلاف عام على هذه الأناقة وعلى هذا التواليت؟!

زبرجة النساء

لم تكن المرأة المصرية القديمة محجبة، ولم تكن للرجل مجرد متعة، إذ كانت تشاطره العمل في الملك، وفي الكهانة، وفي الحقل، وتقوم في نصيبها في البيت أيضاً. تربى أطفالها، وتجهز بيتها، وتطهي طعام أسرتها، وتحيك ثياب زوجها وصغارها ونفسها. وكل هذا يضعنا وضعاً صحيحاأمام حالة المرأة المصرية كي نفهم على أي أساس كانت تقوم المرأة بعمل تواليتها في مصر. كانت المصرية (ربة بيت) فثوبها يجب أن يكون طويلاً يستر ذراعيها وصدرها وكعبها، لكنهكان أنيقا ليجاري أناقة رجلها، فهو إذن ثوب يجمع بين الحشمة والأناقة، يستر أنوثتها المغرية، ويبرز أنوثتها الطبيعية غير المثيرة. ثوب طويل ضيق ذو ثنيات (بليسيه) يكون في معظم الأحوال أبيض ناصعا تتجلى فيه نظافتها وأناقتها، يسدل عليه في بعض الأحيان ثوب شبكي من خيوط ذهبية أو فضية، ويتدلى فوق هذا الثوب شعرها الأسود الفحمي الطويل، مصفوفا منسقا في ضفائر ملتوية، هي آية في الأعجاز والأناقة إذا قيست بتنسيق الشعر في العصر الحاضر.

ولم يكن السمن من سمات الجمال المصري، فقد حرص المصريون القدماء على تصوير نسائهن في نحافة ورشاقة كأمثلة ونماذج للجمال النسوي، وامتدحوا نحافة السيقان في أشعارهم وغزلهم، إذ يقولالملك خوفو لكبير أمنائه حين أراد النزهة في قارب: (هيا احضر عشرين فتاة نحيفات السيقان والأذرع، ناهدات الصدور، لم يخلق مثلهن من قبل) من قصة الملك خوفو والسحرة: قصص البردي.

العطور

لم يكن نصيب هذا الجسم المستور الجمال، من العناية والتواليت لأقل من نصيب جسم الرجل، فاتنا نقرأ في النصوص: إن المرأة كانت تطلي جسمها بالعطور والأدهان

لتصقله وتجعله براقا ناعما تحت ثيابها، ونرى في الصور فوق شعر المرأة قطعة من الدهن
العطري الأبيض، ينحل دهنها فوق الشعر شيئا فشيئاً كي يحفظ له طراوته ولمعانه، وفي وصف المرأة في نصوص المصريين كثير يدل على طيب أريج ثيابها وجسمها الأصباغ.
لم يكن بياض البشرة في مصر القديمة يعتبر جمالا، ذلك أن شمس مصر اللافحة تخرج ذلك اللون الخمري البديع، الذي يجعل من بشرة المصريات خلابة وظرفا لاتصل إليه البشرات الأوروبية البيضاء الناصعة، إذن فقد كانت النسوة المبيضات اللون تسعى إلى الوصول للمثل الأعلى في جمال البشرة، فيعمدن إلى الحناء وهي من النبات المصري الأصيل فيصبغن بها أجسامهن ووجوههن لتصبح لهن تلك البشرة النحاسية الخمرية الظريفة. وهذا ما يطابق تمام المطابقة الغرض الذي استعملت فيه (البودرة) الأوربية. أليس منشأ البودرة هو الحصول على بياض يقترب من بياض المثل الأعلى للجمال الأوربي؟
والأحمر؟ فيم تحتاجه المرأة الخمرية اللون؟ المحمرة البشرة بطبيعتها؟ ثم أي جمال تشاهده الآن في تلك الشفاه الحمراء في لون (الطماطم) بين خدود خمرية وشعر أسود في لون الفحم؟ أنها تبعث في العين تنافراً قل أن يرضي أحدا. لهذا لم يعرفه المصريون في زينتهم مع معرفتهم للونه ومسحوقه في تلوين الجدران البيضاء، وفي التصوير على الفخار، وفي الكتابة على البردي. لكنهم عرفوا (الكحل) ووضعوه في عيونهم، وجعلوا منه ألوانا متباينة بين الأسود الفحمي والأخضر القاتم، والأزرق الداكن، والعسلي الغميق، وكلها لتطابق ألوان الشعر والعيون والأهداب، وتتمشى مع تناسق ألوان هذه الأجزاء من الجسم. وإليك صورة جميلة للمرأة المصرية القديمة:
امرأة رشيقة في ثوب رقيق ناعم من الكتان ذي ثنيات طويلة يستر كل جسمها ويدل على مواضع الجمال الطبيعي فيه، ذات وجه خمري يبدو فوق هذا الثوب الأنيق بجماله الطبيعي، خفيفة حمرة الشفاه، بيضاء الأسنان، سوداء العينين مكحولتهما بكحل يطابق لونه لون حبة عينها، ومرسلة الشعر الأسود في ضفائر على كتفيها، ينتشر أريجه وطيبه وعطوره، وتضع في قدميها صندلا رقيقا يزيدها رشاقة وأناقة. .
. . . .!هذه هي مثل الأناقة المصرية، والتواليت المصري منذ خمسة آلاف عام
حي بن يقظان
لمحة عن النظريات والمذاهب الفلسفية التي توحيها مطالعة الكتاب لكتاب حي بن يقظان مقام جليل في تاريخ الفلسفة العربية، سجل لصاحبه شهرة واسعة في القرون الماضية لاسيما في بدء نهضة الإفرنج. ولا نزال نذكر إلى الآن مؤلفه ابن الطفيل كلما طالعنا كتاب لديفو الإنجليزي، فنحن وإن كنا بغير حاجة في هذا (روبنسن كروزو) العصر إلى ما في هذه القصة من نظريات عقلية أو مذاهب عملية نرتب عليها أعمالنا في الحياة، لا نزال نحفظ لمؤلفها فضل الأسبقية في مثل هذا الفن القصي الفلسفي ونريد أن نذكرها كلما أتينا على ذكر ديفو وبطل قصته روبنسن كروزو. ولست أريد من ذلك أن قصة روبنسن هي ككتاب حي بن يقظان قلباً وقالباً ولكن أريد أن أشير إلى شبه في الفكرة ومجانسة في الفن القصصي.
ولننتقل بعد هذه الكلمة إلى ما نحن بصدده من استخراج النظريات والمذاهب الفلسفية من قصة حي بن يقظان لنتبين قيمة هذا التراث الفلسفي الخيالي في أدبنا العربي. لا نريد أن نقول (قبل أن نأتي على تلخيص القصة) أن ابن الطفيل قد ضمنها زبدة التعاليم الفلسفية العربية، والمذاهب العملية وصاغها في قالب خيالي جذاب تستشف من وراءه شخصية الفيلسوف الوادعة، وفكرته الخاصة التي تنهتك سراعاً للخبير، فكان بذلك سابقاً لديفو وإضرابه من الإفرنج القصصيين. فأول ما يستلفت نظرك أيها القارئ الكريم من هذا الكتاب هو عنوانه الرمزي الغريب: حي بن يقظان. فمن هو هذا (حي)؟ وابن من؟ ابن يقظان. . . هذا الاسم رمزي في مدلوله وهو في عرفهم ابن من لا ينام أي الله عزّ وجل. وتفتح الكتاب فإذا هناك مقدمة وجيزة في نقد الفلاسفة الإسلاميين، ونظرة سريعة في الحكمة المشرقية سيشرحها لك مفصلا عند

الحديث على بطله حي.

كل الكتاب نظريات وثبت للمذاهب الفلسفية، فأول ما تفاجأ به أيها القارئ هي هذه النظرية، نظرية التوليد من غير أم وأب، فيدهشك هذا القول من فيلسوف إسلامي ويغضبك خصوصا إذا كنت من أصحاب الإيمان الحار، ويأخذ بك ابن الطفيل في منعرج هذا المذهب الوعر الذي يصعب علينا حله واتباعه، ويستطرد في كيفية تخمر الطينة تحت أشعة الشمس وعلوق الروح بها، فيلذك الاستطراد ولا يعجبك الإِعتقاد، والحق يقال أن هذا المذهب الطبيعي الذي يبني مبدأ الخلق والتكوين على الصدف والتصادف والذي يعتنقه الكثيرون في عصرنا (وما أكثر المذاهب والآراء في هذا العصر) غير مبني على أساس متين ولا براهين جلية بحيث تقتلع من صدرك الإيمان بصحته. فالمذاهب الفلسفية، الأقوال فيها كثيرة ومختلفة، وليس هناك دستور واحد في البحث تتمشى عليه، وحقيقة واحدة تتفق عليها. ففي المسألة الواحدة تجد قولين أو ثلاثة أو أربعة والإنسان عندما يكون مترددا في مسألة ما، تكثر تعاليله وحدسياته. فابن الطفيل مثلا لا يجزم بصحة هذا المبدأ الطبيعي كما هي عادته، فيأتيك بقول آخر أعم وأشهر، ولكنه ليس بنظرية بل تعليل ثانوي لكيفية وجود حي بن يقظان في جزيرة من جزائر الهند تحت خط الاستواء. فقد اختلفوا في وجود هذا الشخص في هذه الجزيرة المنقطعة عن السكان المقفرة من بنى الإنسان. فيقولون أن حياً كان إبناً غير شرعي وأن أمه أخت ملك قد وضعته في صندوق وقذفت به في اليم، فقاده المجرى المائي إلى هذه الجزيرة (الاستوائية) وهذا القول أقرب وأخف وطأة على القارئ من الأول، إذ يعرف أن موسى أيضاً قد قذف به في اليم، ولديه على ذلك نص وهو القرآن.

قد فرغنا من استخراج هذه النظرية وسللناها من طيات هذا السفر الجميل. فاتبعني أيها القارئ الكريم لنستطلع بعد ذلك خبر ما آلت إليه حال هذا الطفل البائس الذي سيكون له فيما بعد شأن يذكر. رمت به الأمواج إلى شاطئ جزيرة تحت خط الأستواء، وكم يكون جزعك على هذا الطفل عندما تعلم أن هذه الجزيرة خالية من السكان. ترى من يغذي هذا الطفل، ومن يشفق عليه ويشمله بحنانه. إذ لا إنسان يعطف عليه ويحسن رعايته ويوفر له أسباب الحياة؛ ولكن كم يكون فرحك عظيماً عندما ترى أن ظبية من بنى الحيوان قد رامت به، ووجدت فيه تسلية وعوضا عن ابنها المفقود، فغدت تغذيه بلبانها وتشمله بحنانها، حتى درج وأصبح قادرا على المشي والعدو مع أمه في البرية، وما أن صار على رأس أسبوع من عمره أي سبع سنين، حتى صار يرافق أمه في غزواتها، يناشدها بأنغامها وتناشده، فإذا سمع تغريدة عندليب حاول تقليده، وإذا سمع فحيح أفعى أو زئير أسد لم يحاول الابتعاد ولم يوجس خيفة، وتكررت هذه الأصوات على سمعه فوعاها، وغدا يرددها فيجيدها. وهنا أيها القارئ الكريم تعرض لنا نظرية غامضة ولكنها جميلة ومشوقة، فلنتئد في درسها وتحليلها قليلا. النظرية هي نظرية النطق والكلام. أخلق الإنسان متكلماً لغة أجاد فهمها منذ البدء أم علمه الله إياها؟ وإذا كان ذلك فلماذا لم تتفق البشر عليها؟ وما تعليل كثرة اللغات واللهجات التي نسمعها وما هو علة هذا الاختلاف؟ كل ذلك، أظن، جدير باسترعاء خاطرك وانتباهك، وهو يوقظ في نفسك حب الاطلاع والتعليل، وتريد أن تفكر وأن تجد تحليلا فلا تجد، فيؤول بك التفكير إلى حدس بحدس. وتخمين بتخمين لا طائل تحتهما ولا جدوى. فابن الطفيل لا يبدي لنا إلا قولا واحدا في كيفية نشوء اللغة عند الإنسان وهو ليس من أرباب الوحي والإلهام الذين يقولون أن الله خلق الكلام وخلق في الإنسان المقدرة والقوة على نطقه. كلا ليس ابن الطفيل في شيء من هذا، وهو على مذهب البعض من المحدثين في القرن التاسع عشر؛ فهؤلاء يعللون نشوء اللغة أي النطق بأن الإنسان في طوره الهمجي طور الغريزة الحيواني يتلقى أصوات الحيوان ويقلدها في جرسها ونغمتها، ويضعون لذلك مقاطع طبيعية دارت على ألسنة البشر أجمع في طور وحشيتهم، توجد في جميع اللغات الحية وهي إد، آر، آد. . . وما أشبه ذلك، على أن الاختلاف الذي نراه ناتج عن سنن التباعد والتقارب في أخلاق البشر وأميالهم الطبيعية.

فأنت ترى أن ابن الطفيل من هذا الرأي وأن (حيا) قلّد الحيوانات في أصواتها ولم يجد التكلم في بدء أمره بدليل أن ابن الطفيل يتيح لبطله حي مصادقة أسال فيعلمه الكلام وأمور الدين. فحياة حي هي إذن نفس حياة البشر في طور وحشيتهم وهمجيتهم.

ولكن ابن الطفيل لا يقف عند هذا الحد، ولا يريد أن يسرح بطله مع الحيوانات بل يرقى به إلى مستوى فكري سام تقصر عنه المدارك، ويريه أشياء لم تقع على سمع أحد (ولا خطرت على قلب بشر). فأنه بعد أن يعلمه الأصوات يريد أنبعلمه الطب كما تعلمه كلية الطب في بيروت لتلامذتها، وأن يطلعه على علم التشريح وما فيه من سر دفين. وماتت الظبية أمه، وقعد للبكاء عليها ولزم الحزن أياما يناديها فلا تعي ولا تجيب، ويندبها فلا تأبه لتحرقه وبكائه

وأراد ان يعرف موطن الآفة في جسد أمه محاولا إنقاذها مما هي فيه، وبطريق النظر والاستدلال يفتح جوفها ويتوصل إلى القلب المركز الرئيسي لجميع الأعضاء، ومنه إلى الدماغ فلم يجد بها آفة حتى إذا ما انتهى من البحث والاستقصاء أتى على علم التشريح بكامله، وتحصل له من ذلك: إن ما يحرك الجسد إنما هو بخار يتولد فيالتجويفات القلبية فيصعد منها إلى الدماغ، وهذا بدوره يحرك الأعضاء. وهذا ما قال به ديكارت معبرا عن هذا البخار بالأرواح الحيوانية. قد يدهشك مثل هذا البحث المنظم الذي يقوده حي بن يقظان، وهذا الاستدلال الثاقب، ويضؤل في نفسك شخص ابن الطفيل القصصي ليتجسم لك في شخص حي الطبيب الحاذق والمشرح اللبق؛ والحق يقال أن ابن الطفيل بعد أن يرتفع بخياله يكبو به جواد هذا الخيال ليحطه إلى الأرض. لذلك كان الفيلسوف الطبيب، ولم يكن الفنانالقصصي بالمعنى الواسع لهذه الكلمة. فمن الغريب أن يكون حي قداستكشف مثل هذه النظريات والتطبيقات العملية في مثل هذه المدةالوجيزة، فإننا نرى فكرا ساميا يتوصل بمحض فكره إلى الحقيقة، لا فكراً وحشياً غريزياً يليقبمثل حي؛ ولكن هي قصة أقرب إلى: (الاوتوبيا) منها إلى الحقيقة الملموسة. ولا نجزم بأنها نظرية، ولا نريد أن نناقشها بل نترك ابن الطفيل وتلميذه يعلمه ما يشاء وكيف يشاء، على أننا نستشف من خلال البحث عن كيفية تعلم حي بن يقظان علىنظرية النشوء والارتقاء في العناصر الطبيعية وفي مدارك البشر، وكيف أنها تنتقل من الملموس إلى المحسوس إلى المعقول، وكيف أن الحواس تتصل بالأشياء الخارجية فتؤثر هذه فيها وتنفعل عنها فتحولها (أي الحواس) إلى دائرة التفكير والتفهم فتصوغ ما أحست بقالب السبب والقانون.

ويفقد حي أمه ويخرج إلى معترك الحياة وحيداً طريداً فكل شيء في قطر وجوده يستلفت نظره ويسترعي انتباهه، فهو كآلة واعية (إذا كانت آلة تعي) وضعت في مكان ما تلتقط كل ما أوحي لها من حيث ألقي أو أوحي. فتسجل حركات الأشياء وتنفعل عنها، وهل الإنسان (كما عرفه بعض علماء النفس) الا مجموعة من المؤثرات الداخلية والخارجية تجمعت فشكلت هذه النفس التي تعي وهذه النفس التي تفهم وتتذكر؟ ويستكشف (حي) النظريات ويستدل بمحض فكره السامي وثاقب ذهنه على وجود (واجب الوجود) وهذه النظرية هي محور القصة بكاملها وهي التي شغلت جميع فلاسفة الإسلام.

ويستكشف (حي) مبدأين: المادة والصورة؛ بواسطتها يتوصل إلى اكتشاف وجود الله، فاعتبر: (أن كل حادث لابد له من محدث) فتلمس هذا المحدث في المحسوسات فلم يعثرعليه، وانتقلت فكرته إلى الإجرام السماوية ورسخ في ذهنه أنها تعقل ذواتها، وأنها صادرة عن فلك واحد وهو الأعلى. وهنا يجب علينا أن نقف قليلا ونشير إلى هذه النظرية التي كانت شائعة عند اليونان والتي اقتبسها العرب ولا سيما ابن سينا، ووسعوا دائرتها. فانهم اعتقدوا أن الإجرام السماوية تعقل وتحيا وفيها العقل الفعال الصادر عن الله عز وجل، وأن الله يعلم ما في الكون بواسطتها وهي أشرف الموجودات. وقديما دعوها أنصاف آلهة. ونتجاوز عن تفنيد هذه النظرية الخرافية التي تعد (إلى جنب المباحث الفلكية العصرية) خرافة من خرافات القدماء.

ولما عرف (حي) حقيقة نفسه وأنها غير جسمانية وبها عرف (الموجود الواجب الوجود) حدث له شوق حثيث إلى معرفة الخالق عساه يراه، فشرع في تفحص الأعمالالتي تقربه إلى الله عز وجل، فوجد أن الطريقة المثلى هي: في ترك المادة وتثقيف الروح التي هي مبدأ روحاني صادر عن الله تعالى، ولما كان يعلم أن الإجرام السماوية تعرف الله، التمس لنفسه الصلاح بالتأسي بها ليتوصل إليه. وهنا يعتنق حيي مذهب الاتصال وترويض النفس والعزوف عن الأشياء المادية كما كان يفعل متصوفة المشرق، الا أن هناك فرقاً كبيراً بين المذهبين يجب أن تنتبه إليه أيها القارئ ألا وهو:

أن المتصوفين يصلون إلى الله عز وجل عن طريق العاطفة الدينية والعلم الإلهي؛ أما حي المتصوف النظري فيتصل بالله عز وجل عن طريقالبحث والنظر، ويجهل تماما طرق الصوفية الدينية، وعلى هذا المذهب مذهب التصوف النظري سار فلاسفة الأندلس فولدوا بذلك نزعة جديدة ضد التصوف الديني الشرقي. على أن ابن الطفيل إن اختلف مذهبا لم يختلف عنهم نتيجة بل أدى به هذا المذهب إلى القول بالفناء والحلول، ولكنه حلول معتدل مغشى بستار القصة الخيالي. فانه عندما يفنى حي في الذات الإلهية ويوشك أن يعتقد أن ذاته لا تغاير ذات الله، وأنه هو الله. يبادر ابن الطفيل ليبدد هذا الاعتقاد، ويقول على لسان بطله (حي): إن هذه الهواجس التي عرضت له وأقنعته أنه ذات الحق، لم تكن الا من بقايا المادة والأشياء الدنيوية. وهذه النظرية هي ما ندعوها بنظرية الشمول ` نريد أننبحث في مثل هذه النظريات الإلهية بل نترك الخوض فيها إلى أولياء الله العارفين، تعالى الله عما يصفون.

فأبن الطفيل إذا يفضل الوصول إلى الله عن طريق البحث العلمي النظري، ويمثل لنا هذه النظرية ويدافع عنها في شخص (حي) وأنه استطاع بنظره وفكره السامي اكتشاف الحق تعالى، بدليل أن ابن الطفيل يدخل في القصة شخص آخر (أسال) وهو العقل المهتدي إلى الله عن طريق الدين والاجتهاد، فيعجزه عن الوصول إلى المقام الذي توصل إليه حي (وطلب حي مقامه الجليل فبلغه واقتدى به أسال حتى اقترب منه أو كاد) فلا ريب بعد ذلك في أن فيلسوف الأندلس يفضل الطريق النظرية على الطريق الدينية؛ وأنه ما استطاع أن ينجو من ورطة هذا القول الذي كثيراً ما جر على آخرين التعذيب والتنكيل، الا بواسطة هذا الوشاح القصصي الذي يلقيه على النظريات والمذاهب الفلسفية في رسالته النفيسة.

على أن ابن الطفيل لم يخل من اللوم، وأرباب الدين يؤاخذونه على أربعة: 1 - بإهماله أمر النعمة وسقوط الطبيعة البشرية. 2 - بتفضيله المعرفة بالعقل على المعرفة بالإيمان. 3 - باعتقاده إن الإنسان قادر على رؤية الله عز وجل في الدنيا. 4 - بأقواله المنتجة مذهب تأليه الكل أو البانتيسم الشمولي.

وما كان أحد ليخلو من عتب أهل الدين ولومهم. ومدار القصة بكاملها هي أن معرفة الله الفلسفية أسمى من المعرفة الدينية , وهذا ما لاقى في سبيله ابن رشد وإضرابه من التعذيب والاضطهاد ما لاقى. هذه لمحة (ربما تكون سطحية في قصة حي بن يقظان) عن النظريات والمذاهب الفلسفية التي تضمنتها، وربما عدنا إلى الموضوع في بحث آخر نفصل فيه العناصر الأجنبية في فلسفة ابن الطفيل وتعاليمه، ونختم الآن هذا الفصل في أن: فيلسوف الأندلس قد أجاد كل الإجادة في سبك قصته الفلسفية وأسلوبه فيها جميل وسهل وجذاب يقرب إلى ذهن القارئ الأقوال الفلسفية، ومع أن إنشائها سهل وبسيط رائق لم تخل أحيانا من التعقيد والغموض. ونتيجة القول أن هذا الكتيب النفيس مشحون بالتعاليم الفلسفية الإسلامية ترفرف عليه روح الافلاطونية الحديثة. ومن يطلع على هذه القصة يوافق الإفرنج على حكمهم: (إنها آية من آيات القصص العربية الحكيمة ومختصر فلسفة العرب).

طرطوس. سوريا. أحمد المحمود

بلاط الشهداء بعد ألف ومائتي عام

للأستاذ محمد عبد الله عنان

وكان الجيش الإسلامي في حال تدعو إلى القلق والتوجس، فان الشقاق كان يضطرم بين قبائل البربر التي يتألف منها معظم الجيش، وكانت تتوق إلى الانسحاب ناجية بغنائمها الكبيرة. وكان المسلمون في الواقع قد استصفوا ثروات فرنسا الجنوبية أثناء سيرهم المظفر ونهبوا جميع كنائسها وأديارها الغنية، وأثقلوا بما لا يقدر ولا يحصى من الذخائر والغنائم والسبي فكانت هذه الأثقال النفيسة تحدث الخلل في صفوفهم وتثير بينهم ضروب الخلاف. وقدر عبد الرحمن خطر هذه الغنائم على نظام الجيش وأهبته وخشي مما تثيره في نفوس الجند من الحرص والانشغال وحاول عبثاً أن يحملهم على ترك شيء منها؛ ولكنه لم يشدد في ذلك خيفة التمرد. وكان المسلمون من جهة أخرى قد أنهكتهم غزوات أشهر متواصلة مذ دخلوا فرنسا، ونقص عددهم بسبب تخلف حاميات عديدة منهم في كثير من القواعد والمدن المفتوحة. ولكن عبد الرحمن تأهب لقتال العدو وخوض المعركة الحاسمة بعزم وثقة. وبدأ القتال في اليوم الثاني عشر أو

الثالث عشر منأكتوبر سنة 732م (أواخر شعبان سنة 114 هـ) فنشبت بين الجيشين معارك جزئية مدى سبعة أيام أو ثمانية احتفظ فيها كل بمراكزه. وفي اليوم التاسع نشبت بينهما معركة عامة فاقتتلا بشدة وتعادل حتى دخول الليل. واستأنفا القتال في اليوم التالي، وأبدا كلاهما منتهى الشجاعة والجلد حتى بدا الإعياء على الإفرنج ولاح النصر في جانب المسلمين. ولكن حدث عندئذ أن افتتح الفرنج ثغرة إلى معسكر الغنائم الإسلامى، وخشى عليه من السقوط في أيديهم. أو حدث كما تقول الرواية أن ارتفعت صيحة مجهول في المراكز الإسلامية بأن معسكرالغنائم يكاد يقع في يد العدو. فارتدت قوة كبيرة من الفرسان من قلب المعركة إلى ما وراء الصفوف لحماية الغنائم، وتواثب كثير من الجند للدفاع عن غنائمه. فدب الخلل إلى صفوف المسلمين، وعبثا حاول عبد الرحمن أن يعيد النظام وان يهدئ روع الجند، وبينما يتنقل أمام الصفوف يقودها ويجمع شتاتها، إذ أصابه من جانب الأعداء سهم أودى بحياته. وسقط قتيلا من فوق جواده، وعم الذعر والاضطراب في الجيش الإسلامي، واشتدت وطأة الفرنج على المسلمين وكثر القتل في صفوفهم، ولكنهم صمدوا للعدو حتى جن الليل، وافترق الجيشان دون فصل. وكان

ذلك في اليوم الحادي والعشرين من أكتوبر سنة 732 م (أوائل رمضان سنة114 هـ) وهنا اضطرم الجدل والنزاع بين قادة الجيش الإسلامي، واختلف الرأي وهاجت الخواطر وسرى التوجس والفزع. ورأى الزعماء أن كل أمل في النصر قد غاض فقرروا الانسحاب على الأثر. وفي الحال غادر المسلمون مراكزهم وارتدوا في جوف الليل، وتحت جنح الظلام جنوبا، صوب قواعدهم في سبتمانيا، تاركين أثقالهم ومعظم أسلابهم غنما للعدو. وفي فجر الغد لاحظ كارل وحليفه أودو سكون المعسكرات العربية فتقدما منها بحذر وإحجام فألفياها خاوية خاليةالا من بعض الجرحى الذين لم يستطيعوا مرافقة الجيش المنسحب، فذبحوا على الأثر. وخشى كارل الخديعة والكمين فاكتفا بانسحاب العدو ولم يجرؤ على مطاردته وآثر العود بجيشه إلى الشمال. هذه هي أدق صورة لحوادث تلك الموقعة الشهيرة طبقا لمختلف الروايات. والآن نورد ما تقوله الرواية الإفرنجية الكنسية ثم الرواية الإسلامية. أما الرواية الإفرنجية الكنسية فيشوبها كثير من المبالغة والتحامل والتعصب، وهي تصف مصائب فرنسا والنصرانية من جراء غزوة العرب في صور مثيرة محزنة، وتفصل حوادث هذه الغزوة فتقول إحداها: (لما رأى الدوق أودو أن الأمير شارل (كارل) قد هزمه وأذله وأنه لا يستطيع الانتقام إذا لم يتلق النجدة من إحدى النواحي، تحالف مع عرب إسبانيا ودعاهم إلى غوثه ضد الأمير شارل وضد النصرانية. وعندئذ خرج العرب وملكهم عبد الرحمن من أسبانيا مع جميع نسائهم وأولادهم وعددهم وأقواتهم في جموع لا تحصى ولا تقدر، وحملوا كل ما استطاعوا من الأسلحة والذخائر كأنما عولوا على البقاء في أرض فرنسا. ثم اخترقوا مقاطعة جيروند واقتحموا مدينة بوردو وقتلوا الناس في الكنائس وخربوا كل البسائط وساروا حتى بواتيو. .)

وتقول أخرى: (ولما رأى عبد الرحمن أن السهول قد غصت بجموعه اقتحم الجبال ووطئ السهول بسيطها ووعرها، وتوغل مثخنا في بلاد الفرنج ومحق بسيفه كل شيء، حتى أن أودو حينما تقدم لقتاله على نهر الجارون وفرّ منهزماً أمامه لم يكن يعرف عدد القتلى سوى الله وحده. ثم طارد عبد الرحمن الكونت أودو، وحينما حاول أن ينهب كنيسة تور المقدسة ويحرقها التقى بكارل أمير إفرنج أوستراسيا وهو رجل حرب منذ فتوته، وكان أودو قد بادر بأخطاره وهنالك قضى الفريقان أسبوعا في التأهب واصطفا أخيرا للقتال ثم وقفت أمم

الشمال كسور منيع ومنطقة من الثلج لا تخترق وأثخنت في العرب بحد السيف). (ولما أن استطاع أهل أوستراسيا (الفرنج) بقوة أطرافهم الضخمة، وبأيديهم الحديدية التي ترسل من الصدر تواً ضرباتها القوية أن يجهزوا على جموع كبيرة من العدو، التقوا أخيرا بالملك (عبد الرحمن) وقضوا على حياته. ثم دخل الليل ففصل الجيشان والفرنج يلوحون بسيوفهم عالية احتقارا للعدو. فلما استيقظوا في فجر الغد ورأوا خيام العرب الكثيرة كلها مصفوفة أمامهم تأهبوا للقتال معتقدين أن جموع العدو جاثمة فيها ولكنهم حينما أرسلوا طلائعهم ألفوا جموع المسلمين قد فرت صامتة تحت جنح الليل مولية شطر بلادها. على أنهم خشوا أن يكون هذا الفرار خديعة يعقبها كمين من جهات أخرى

فأحاطوا بالمعسكر حذرين دهشين. ولكن الغزاة قد فروا. وبعد أن اقتسم الفرنج الغنائم والأسرى فيما بينهم بنظام عادوا مغتبطين إلى ديارهم). وأما الرواية الإسلامية فهي ضنينة في هذا الموطن كل الضن كما أسلفنا ويمر معظم المؤرخين المسلمين على تلك الحوادث بالصمت أو الإشارة الموجزة كما سنرى، غير أن المؤرخ الإسباني كوندي يقدم إلينا خلاصة من أقوال الرواية الأندلسية المسلمة عن غزو فرنسا وعن موقعة تور ننقلها مترجمة فيما يلي: -

في الأدب العربي

عكاظ والمربد

للأستاذ أحمد أمين

وكان لكل شاعر من شعراء المربد حلقة ينشد فيها شعره وحوله الناس يسمعون منه؛ جاء في الأغاني (وكان لراعى الإبل والفرزدق وجلسائهما حلقة بأعلى المربد بالبصرة). وكان الناس يخرجون كل يوم إلى المربد، يعرف كل فريق مكانه فيجلس فيه ينتظر شاعره، فقد روى الأغاني أيضا أن جريرا بات يشرب باطية من نبيذ ويهمهم بالشعر في هجاء الفرزدق والراعي، فما زال كذلك حتى كان السحر وقد قالها ثمانين بيتا في بنى نمير فلما ختمها بقوله:

فغمض الطرف انك من نمير ... فلا كعبا بلغت ولا كلابا

كبر ثم أصبح حتى إذا عرف أن الناس قد جلسوا في مجالسهم بالمربد، وكان يعرف مجلسه ومجلس الفرزدق دعا فادهن ولف رأسه ودعا غلامه فأسرج له حصانا وقصد مجلسهم وأنشدها فنكس الفرزدق وراعي الإبل. ونرى بجانب هؤلاء الفحول أعنى جريرا والفرزدق والأخطل طائفة أخرى من كبار الرجاز يقصدون المربد وينشدون رجزهم، فالعجاج الراجز يخرج إلى المربد عليه جبة خز وعمامة خز على ناقة له قد أجاد رحلها ويقف بالمربد على الناس مجتمعين، ويقول رجزه المشهور: (قد جبر الدين الإله فجبر) ويهجو ربيعة فيأتي رجل من بكر بن وائل إلى أبي النجم ويستحثه على الرد عليه فيخرج أبو النجم ويستحثه على الرد عليه فيخرج أبو النجم إلى المربد ويقول رجزه: (تذكر القلب وجهلا ما ذكر)

ورؤية الرجاز ينشد رجزه: (وقاتم الأعماق خاوي المخترق) ويجتمع حوله فتيان من تميم فيرد عليه أبو النجم في رجزه:

كذلك نرى ذا الرمة يقف بالمربد وعليه جماعة مجتمعة (إذا اصطبحت أربعا عرفتني) وهو قائم وعليه برد قيمته مائتا دينار؛ وينشد دموعه تجري على لحيته: (ما بال عينيك منها الماء ينسكب) وينشد كذلك بعض قصائده فيقف خياط فينقد شعره نقدا شديدا ويسخف بعض تشبيهاته. فيمتنع ذو الرمة عن الذهاب إلى المربد حتى يموت الخياط.

والأمراء والولاة قد يتدخلون فيسكتون بعض الشعراء. وقد يهجون بعضهم على بعض خدمة لأغراض حزبية أو سياسية فعبد الملك ابن مروان يأمر أبا النجم بالمفاخرة مع الفرزدق. وعباد بن حصين (وكان على أحداث البصرة) يعين جريرا على الفرزدق ويعير جريرا الدرع والفرس والسلاح. وهكذا كان المربد في العهد الأموي معهدا كبيرا أنتج أدبا غزيرا من جنس خاص. وكاد هذا الشعر يكون امتدادا للشعر الجاهلي. لاتحاد الأسباب والبواعث، فأما الشعر الغزلي كشعر عمر بن أبي ربيعة وأمثاله فليس له كبير أثر في المربد لأنه فوق النزال والمهاجاة والمفاخرة. فليس مجاله حياة المربد التي وصفناها.

المربد في العصر العباسي:

بقى المربد في العصر العباسي. ولكنه كان يؤدي غرضاً آخر غير الذي كان يؤديه في العهد الأموي. ذلك أن العصبية القبلية ضعفت في العصر العباسي بمهاجمة الفرس للعرب. وأحس العرب بما هم فيه جميعا من خطر من حيث هم أمة لا فرق بين عدنانيهم وقحطانيهم، فقوى نفوذ الفرس وغلبوا العرب علىأمرهم. وبدأ الناس في المدن كالبصرة يحيون حياة اجتماعية هي أقرب إلى حياة الفرس من حياة العرب؛ وانصرف الخلفاء والأمراء عن مثل النزاع الذي كان يتنازعه جرير والفرزدق والاخطل وظهرت العلوم تزاحم الأب والشعر؛ وفشا اللحن بين الموالي الذين دخلوا في الإسلام؛ وأفسدوا حتى على العرب الخالصة لغتهم؛ فتحول المربد يؤدي غرضا يتفق وهذه الحياة الجديدة.

أصبح المربد غرضا يقصده الشعراء لا ليتهاجوا؛ ولكن ليأخذوا عن أعراب المربد الملكة الشعرية، يحتذونهم ويسيرون على منوالهم؛ فيخرج إلى المربد بشار وأبو نواس وأمثالهما، ويخرج إلى المربد اللغويون يأخذون اللغة عن أهله ويدونون مايسمعون، روى القالي في الأمالي عن الأصمعي، قال: (جئت إلى أبى عمرو بن العلاء فقال لي من أين أقبلت يا أصمعي؟ قال جئت من المربد؛ قال هات ما معك، فقرأت عليه ما كتبت في الواحي: فمرت به ستة أحرف لم يعرفها، فخرج يعدو في الدرجة وقال: شمرت في الغريب. . أي غلبتني). والنحويون يخرجون إلى المربد يستمعون من أهله ما يصحح قواعدهم ويؤيد مذاهبهم، فقد اشتد الخلف بين مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة في النحو وتعصب كل لمذهبه؛ وكان أهم مدد لمدرسة البصرة هو المربد؛ وفي تراجم النحاة تجد كثيرا منهم من كان يذهب إلى المربد يأخذ عن اهله، ويخرج الأباء إلى المربد يأخذون الأب من جمل بليغة وشعر بليغ وأمثال وحكم، مما خلفه عرب البادية وتوارثوه عن آبائهم؛ كما فعل الجاحظ؛ يقول ياقوت: إن الجاحظ أخذ النحو عن الأخفش وأخذ الكلام عن النظّام وتلقف الفصاحة من العرب شِفاها بالمربد. وبذلك كان المربد مدرسة من نوع آخر تغير برنامجها في العصر العباسي عن برنامجها في العهد الأموي وأدت رساله في هذا العصرتخالف رسالتها في العصر السابق.

آخر الأخبار عن المربد:

في ثورة الزنج التي ظهرت في فرات البصرة والتي بدأت سنة 255هجرية حدث قتال بالمربد بين الزنج وجيش الخليفة، فاحترق المربد؛ روى الطبري قال: يقول ابنسمعان: فاني يومئذ لفي المسجد الجامع إذ ارتفعت نيران ثلاث من ثلاثة أوجه: زهران والمربد وبنى حمان في وقت واحد، كأن موقديها كانوا على ميعاد، وجل الخطب وأيقن أهل البصرة بالهلاك. وتوالت فيه الحرائق وعوتب شاعر البصرة أبو الحصين بن المثنى على أنه لم يقل شيئا في حريق المربد؛ مع أن المربد من أجل شوارعها، وسوقه من أجل أسواقها، فقال ارتجالا في آخر حريق لها:

أتتكم شهود الهوى تشهد ... فما تستطيعون أنتجحدوا
فيا مربديون ناشدتكم ... على أنني منكم مجهد
جرى نفسي صاعدا نحوكم ... فمن أجله احترق المربد
وهاجت رياح حنيني لكم ... وظلت به ناركم توقد
ولولا دموعي جرت لم يكن ... حر يقكم أبداً يخمد

ويذكر ابن الأثير في حوادث سنة499 م أن سيف الدولة صدقة بن مزيد تقاتل مع إسماعيل فنهبت البصرة وغنم من معه من عرب البر. . ولم يسلم منهم الا المحلة المجاورة لقبر طلحة والمربد. فان العباسيين دخلوا المدرسة النظامية وامتنعوا بها وحموا المربد وعمت المصيبة بأهل البلد سوى من ذكرنا. ويقول ياقوت (إن المربد كان سوقا للإبل، ثم صار محلة عظيمة سكنها الناس وهو الآن: (عاش ياقوت حتى سنة 626هـ) بائن عن البصرة؛ بينهما نحو ثلاثة أميال، وكان ما بين ذلك كله عامرا وهو الآن خراب،

فصار المربد كالبلدة المفردة في وسط البرية). ثم عفا أثر المربد، ولم نعد نجد له ذكرا ذا قيمة، وأخنى عليه الذي أخنى على عكاظ؛ ومات بموته معهدان أدبيان اتصلت حياة الثاني منهما بحياة الأول فقاما نحو ستة قرون يخرجان شعراً وأدبا ونقدا كان من خير تراث العرب.

من طرائف الشعر

ذقته مرتين

للأستاذ بشارة الخوري

أتت هند تشكو إلى أمها ... فسبحان من جمع النيرين
فقالت لها: إن هذا الضحى ... أتاني وقبلني قُبلتين
وفرَّ فلما رآني الدجى ... حباني من شَعره خصلتين
وما خاف يا أم بل ضمني ... وألقى على مبسمي نجمتين
وذوَّب من لونه سائلاً ... وكحلني منه في المقلتين
وجئت إلى الروض عند الصباح ... لأحجبَ نفسي عن كل عين

ناداني الروضُ يا روضتي ... وهمَّ ليفعل كلأولين
فخبأت وجهي ولكنه ... إلى الصدر يا أم مدّ اليدين
ويا دهشتي حين فتَّحتُ عيني ... وشاهدت في الصدرِ رمانتين
ومازال بي الغصن حتى انحنى ... على قدمي ساجداً سجدتين
وكان على رأسه وردتان ... فقدم لي تَيْنِك الوردتين
وخفت من الغصن إذ تمتمت ... بإذني أوراقهُ كلمتين
فرحت إلى البحر للأبتراد ... فحملني ويحه موجتين
فما سرت إلا وقد ثارتا ... بردفي كالبحر رجراجتين
هو البحر يا أمكم من فتىً ... غريق وكم من فتى بين بين
فها أنا أشكو إليك الجميع ... فبالله يا أماتريْن
فقالت، وقد ضحكت أمها ... وماست من العُجب في بُردتين
عرفتهم واحداً واحداً ... وذقتُ الذي ذقته مرتين
حلم
رأيتُ أمسِ حُلمُاً ... روعني في مضجعي
رأيتني مع الحبي ... ب في عتابِ موجع
آلمتهُ من غيرتي ... ظلماً بلا تورع
ثم طلبتُ صفحه ... لكنه لم يسمع
فقد تولّى مُغْضَباً ... ولم يُفد تضرّعي
وعندما أمسكتُه ... من ثوبه صاح: دعِ
لكنني عند انتبا ... هي من منامي المُفْزعَ
وجدتُهُ بجانبي ... مستغرباً من جزعي
يسألني في رقةٍ ... عن حُلُميوأدمعي!
كرمة ابن هاني. حسين شوقي
ليل المعذَّب
هذا عُبابُ الظلام وافي ... يسحبُ فوقَ الثرى خُطاهُ
أعشَى عيونَ الورى عَماهُ ... وأفزعتْ في الكرى رُؤاهُ
ليلٌ كلونِ الغرابِ داجٍ ... غُفْلٌ أغَمُّ اكتسى وقارا //
كأنما النور في حَشاهُ ... عن مستهلِّ الصديعِ جارا
تَحسبهُ لجَّةً غَضوُباً ... كلُّ سَبوُحٍ بها غريقُ
أو مهمهاً موحشاً مُريعاً ... عُمَّارُه الدهرَ لا تُفيقُ
يَزْفِر وجداً به المعنيُّ ... فيستحيل الأسى دموعاً
ويستحيل العذابُ جمراً ... والقلبُ في كهفه صُدوعا
سورية، حمص. رفيق فاخوري
حياة ثانية
أيُّ نورٍ ألقَي عليَّ غرامي ... فاشتريتُ الآمال بالآلامِ
كان ذا الجسمُ عُصبةً من جراحٍ ... تتنزى في هيكل من حطامِ
كان ذا القلبُ شعلةً من عذاب ... وشجون ولوعة وضرامِ
كان ذا الطرف منهلاً سرمَدِياً ... يغمر الروح بالدموع الدوامي
كنتُ واللهِ في شبابي شيخاً ... لاح للناس في مُسُوح غلام
كان ذا الشِّعرُ غنوة اليأس في القل ... ب ونايا أنعى به أحلامي
كان عمري كأنه حلكة اللي ... ل على الدُجَى المترامي
كنتُ لا أعرف التَبَسُّم حتى ... عوَّدتنى المنى ابتذال ابتسامي
شفَتَاي الحزينتان وقلبي ... وعيوني مدينة لغرامي
عالَمٌ أنتِ من جلال وسحرٍ ... وجمالٍ وفتنةٍ وسلامِ
فيك أمر غير الجمال سيبقَى ... أبد الدهر حيرة الأيامِ
فيكِ سحرٌ من السذاجة والطه ... ر يمدّ الشعور بالا لهامِ
قد هجرتُ الكروم والحان والس ... اقى وصوت الكؤوس والأنغام
وأبيتُ الحياةَ الاَّ خيالا ... وعشقتُ الحياة بالأوهام
تساقي بها الكؤوس من الس ... حر ونحيا في روضة الأحلامِ

والأزاهير حولنا تَتَثَنَّى ... راقصاتٍ بغير جرحٍ دوامي
وطيور الخيال فيها تَنَاغَي ... برقيق الغناء عذبَ الكلام
كل شئ حتى الأنين أراهُ ... مستحبًّا مُوَقَّعَ الأنغام
أشربي الكأس واتركي ليَ فيه ... قُبلةً تستقر بين عظامي
قبلَ أن يخطر النسيم فيمضي ... بأمانِ الهوَى ويذروُ حطامي!
صالح جودت
الذكرى
لمن آهاتيَ الحرى ... إذا ما أظلمَ الكونُ //
ودمعةُ مقلة شكري ... يغالبُ سكبَها الجفنُ
ذكرتُ هوايَ مذ شبّا ... مع الأحلام فتانا
فَرُحْتُ أقطع القلبا ... وأذري الدمع هتانا
ذكرتُ شفاهنا تدنو ... وما تفترُ في اللثمِ
كلانا مدنف يحنو ... كأنّ العيش في حلمِ
ذكرت البدر والأفُقا ... ونجمة قلبيَ الدامي
ذكرت بخدها الشفَقا ... وفي العينين أحلامي
ليالي الأنس لم تبْق ... لقلبي غير ذكراها
يعانقُ طيفها عُنقْي ... وثغري لاثم فاها
أشاهد طيفها الباكي ... مع الأدمع جوَّالا
وأسمع صوتها الشاكي ... يذيب القلب منهالا
سلاماً أيها الحبُ ... وإن أورثتني شجوا
يخلد عهدَك القلبُ ... على ما فيك من بلوى
دمشق. م. جميل سلطان
على لسان شاب مصري في الثلث الأول من القرن العشرين
ألاكم مر جيل بعد جيل ... وماضي المجد لا يبغيإيابا
تنقل في بلاد الأرض طراً ... وغادر مهده منه يبابا
إلى أن عاده شوق لأم ... تكابده من تنائيه عذابا
فحياها وأرسلها إليها ... رياحاً قد رددن لها الصوابا
سرين وقد حملنلنا جلياً ... نداء للمكارم مستجابا
كذا قمنا بعزم ليس يخبو ... لنرفع مصر في الدنيا شهابا
نعيد لها الشباب وكان حتما ... علينا أن نعيد لها الشبابا
صحا فينا (الضمير) فماد شعب ... صحا للمجد يطلبه طلابا
يعد الفكر في ثقة سفينا ... لبحر العيش مصطخبا عبابا
علينا الواجبات هناك شتى ... وطرح الضيم أولها حسابا
فما نشطت بذاك العبء قوم ... إلى فضل ولا شرفوا جنابا
بنى مصر الكرام سلام بدء ... إذا ما نلتم العلياء طابا
في الأدب الشرقي
من الأدب التركي الحديث
عبد الحق حامد
للدكتور عبد الوهاب عزام
نشرت في (الرسالة) الماضية ترجمة المقدمة المنثورة التي كتبها شاعر التركالأكبر للمرثية الكبرى التي رثى بها زوجه فاطمة وسماها (المقبر) ووعدت أن أنشر في هذا العدد مثالا من شعر هذه المرثية. ولا أكتم القارئ أنى حين وضعت الكتاب أمامي (وهو زهاء ألف بيت تدفق بها قلب الشاعر الحزين على غير ترتيب) لم أدر كيف أختار: الرسالة لا تتسع للإسهاب، والإيجاز لايفي بالإبانة. ولولا وعد لقراء الرسالة سبق ما كلفت نفسي هذا الشطط. عبرت الكتاب أنتقي من صفحاته، أبدأ ترجمة الفكرة ثم يضطرني إطناب الشاعر إلى الوقوف دون غايتها. وأجد البيتالفرد البديع مكملا ابياتا كثيرة فلا أستطيع أن أترجمه وحده، ولا أن أترجم كل ما اتصل به، على أن في بعض الأبيات إبهاما وغموضا وفي بعضها اضطرابا. وقد وصف الشاعر كتابه في المقدمة

التي يذكرها القارىء، وقد ترجمت عجلان حين ضاق الوقت، حتى أرسلت المقال بالبريد على قطعات، من خوف (الزيات):
أواه لم يبق الحبيب ولا الدار، وبقى قلبي ملؤه الأحزان والأكدار. كانت هنا الآن فصفرت منها اليد؛ جاءت من الأزل وذهبت إلى الأبد.
ذهبتُ وبقيت هي ترابا، وحلت رفاتها قفرا يبابا. أواه إنما بقى من أنس القلب الكريم، قبر في بيروت مقيم.
أين أين أفتش عن هذا الحبيب؟ ومَن أسائل عن هذا الغريب.
ياربَّ! أين أين هي: في الأرض أم السماء؟ ربّ! من قذف بي في هذا الشقاء؟
يقولون: إنس خِلّ الوفاء، فقد سلك طريق البقاء. هل يسع الخيال هذهالحقيقة، وهل ترى العين هذه الفجيعة؟
ما أسرع ما انقلبت بي الحال! انقلابٌ لا يصدقه الفكر والخيال. أرى شيئا، أراه يشبه القبر! ويشبه الحبيب حين أنعم النظر.
تمضي بي على الشك الليالي، ويزيد على مرّها حزني ووبالي. إنها صدمة انقلاب قتّال، فليت شعري هل حُم لي الزوال؟
هلمّ فاطمة أصعدي من اللحد، وارجعى سيرتك التي أعهد.
لاتكتمي عنى هذا السّر. وأفصحى بكلمة. أواه إنما أريد كلمة منك.
ابتسمي ابتسام الورد، وداوي جرح القلب. وأتمي أيام حياتي بنظرة معسولة، أو بسمة ساحرة.
أقبر هذا؟ ما هذا الذي أرى؟ أمكان الحبيبة هذا الثرى؟ إنها لمحنة، إنها لحيلة، إنها لفنائي وسيلة.
أنظر أنظر كيف حال الياسمين المنوّر، وانظر إلى الوجه الوردي كيف اغبرّ: تعسا لك تعسا أيها الجَدّ الأعسر، وياويلتا إلى يوم المحشر.
ربّ ما غاية هذا العيش الأغبر؟ وما غَدُ هذا البشر؟ أبلغ فكري روحها، أو سيِّر روحي إلى ترابها. . . . .
ربّ ما هذا الصفر في الحساب، لكل الأرقام إليه انقلاب. أهو عدم ذو وجود أو قبر في اضطراب؟. . . . . .
لقد تولاّها السقام، وملأت صدرها الآلام، تضحك وضميرها في عذاب، تخفي بضحكتها خفي الأوصاب.
وكم حسبها الناس في سرور، وما سرورها إلا الحزن المكتوم، حتى ملأت باليأس نفسي، وأثارت الفتنة في قلبي.
القبر منتهى هذه الدقائق، وسر عجيب من أسرار الخالق. نور كلما مال للغياب، هبط إلى كومة من التراب.
هذا أعلى الشواهق، وهذا أروع الحقائق، أيها الشقي تلك حقيقة لا تدرك. هذا شأنك، وهذه في الدنيا حالك. . . . . .
لقد كانت شعرا بليغا مهما، كان فكرها شاعرا ملهما. (صحراء وتزر وأشبر) من وحيها وما كنت الا واسطتها. . . . . .
كنت أفهم هذا الوجه الشاحب، الذي منح شعري اللون المعجب. تأبى أفكاري أن يكتب ويُفهَم، وهل تنحت الجبال بقلم؟
اجتمعت ضروب الآلام في صدرها، والناس في غفلة عن أمرها؛ كان كل من رآها يشفق عليها ويحبها، ولا يدرى لماذا؟. وكانت ملكة الخلق الكريم، والفكر السديد. تشعر بخطرات نفسي وتقرأ أسارير وجهي.
وكانت وإن لم تكثر الكتابة ملهمة لاتخطيء الإصابة، وكم فتنت منها بالكلم الدقاق والذكاء العجيب، قد عمر بها شعري الخراب، وتلألأ فيه صنعها العجاب. كانت نجى الأفكار في نفسي خبيرة بالكلمات التي تندّ عنّي.
تذبل الوردة الناضرة فتخلفها وردة أخرى تضئ مكانها وتفترّ، كأن الأولى لم تتغيّر. وتغرب الشمس المنيرة فإذا هي في الصباح مشرقة. ولكن شجرة الورد هذه لن تزدهر. ولكن هذا النجم في غروب مستمّر.
سلكتْ بي الفِكَرُ ألف سبيل وراءك أيها القمرَ فعيّ العقلُ دونك وأقصر. صاعقة ولكن لا يسمع صوتها، ونور يسقط ولكن لا يبين ضياؤه.

يا رب أين أين الحقيقة؟ أجعلت الغم سر هذه الخليقة؟
. . . . . .مهما طال بي الأنين واستمر، فما هو الا كأنين الشجر
لاريب أن حياتي سم أتجرعه، فيدنيني من الموت الذي أرتقبه،
شرِّح هذا الوجود فهو عدم، وقلِّب هذا السرور فهو ألم،
ليت شعري أفي الموت نجاتي؟ ليت شعري ماذا يحبب إلى حياتي؟ قد أنهدمت
خليقتك عليَّ يا رب فكيف تحتها ثباتي؟
حسبي حسبي سموم هذا القهر، حسبي حسبي طغيان هذا النهر. أليس لهذه السيول
تناهي؟ حسبي جرعة واحدة يا الهي.
ما بقائي في الدنيا! أعضو أنا في جسم الدهر؟ أأنا يا رب مرآة جلالك أم أنا شعاع من
. . . . .جمالك؟
أمامي مسجد التوحيد الوضاء، وفي عقلي الشك وفي قلبي الرجاء. وفوقي لقاء
السرمدية وتحتي فناء الآدمية.
أرجو من الخالق خلودا، فيبدو لي التراب والحجر وعيداً وأقول أن الإنسان لا مرية، إلى
الفناء، فتصيح روحي: كلا إنه للبقاء. إن لم يكن للبشر مزية في الوجود، فلماذا توحي
إليه المشيئة الخلود؟ أيها القبر إنما هذا السكوت، خطاب الحي الذي لا يموت.
(يستمر الشاعر يقيم الحجج على خلود الإنسان ثم يرجع إلى خطاب حبيبته ثم يخاطب
الله بين الاعتراض والتسليم إلى أن يقول)
رب كيف لا أشكو؟ ألا يصيح الجريح؟ ما هذا القبر الذي أمامي؟ وضعت فيه حبيبا
جميلاً، وجعلت التراب حدود عقلي، وحبست إدراكي على هذا الحجر. واعتصمت بك
فهويت عليَّ. إن لم يكن للبكاء جدوى فكيف يسكت القلب اللجوج عن الشكوى؟ لماذا
تئن الطيور في الأوكار؟ أليس لقلبي أغنية كهذه الأطيار؟
قالت لى يوما في اضطراب: جئت إلى الهند لأموت في اغتراب. فضحكت من قولها
وتكلفت الثبات، ولكني أحسست أن قلبي قد مات. ثم ودعنا الهند بين الموت والحياة.
جاوزنا القناة في غم وكرب، وليس القوت الا دم القلب. كلما سألت أجاب السعال
الظالم. ذلك الجورب المظلم. حتى إذا لم يبق الا رمق، لاحت بيروت في الأفق. ومر
يوم ولم أدر بما كان وسألتها فإذا النعش عِيَان.
النعش هذا الدليل دليل المقبر، النعش ذلك الهيكل الأغبر، النعش ذلك الخطيب الأصم
الأبكم، النعش ذلك الهمود المجسَّم، النعش هذه السكتة المحيرة، النعش تلك المصيبة
المكررة، النعش ذلك الانقلاب الصموت. ذلك الحدِّ المتحرك للعقل المبهوت. النعش
خرابة الأمل الخامد، النعش ذلك الاغبرار الخالد. النعش ظل المحشر على الأكتاف،
النعش ذلك الموت المتموج ألتفَّت على هذه الروح ألواحه ففتحت ذراعيَّ للموت. . .
أيها التراب المضيء، تراب الحبيب الصامت! أيها النور الأسود الثابت! إن قلبي
ليتحطم من جمودك، وان روحي لتموت من خمودك.
لا لا، ليس ترابا انه موت نابت. لا لا، ليس موتا انه جؤار صامت. لتحرس الملائكة هذا
القبر ولتضيء عليه الثوابت.
ليس تراباً كله قبر الحبيب، أن له قبرا آخر من النسيان الرهيب. النسيان أسفل
المقابر، النسيان مقتل الأكابر. وقبر آخر ذلك القلب الهباء فهو والتراب سواء.
. . .فالحبيب ذلك الملك المسافر، طائر بين هذه المقابر
يارب ما أعظم محبتك التي أرى وما أعظم رحمتك التي تفيض بها الأرجاء كلها! ألا
يفنى في هذا كله الفراق المنبعث من القبر؟ هذه الأنجم ضياء وحدتك، ورحى كذلك
أحد كواكبك، والحبيبة التي كانت ملكا (طارت لاريب) إلى جنَّتك، كلما ذكرتك اتسع
خيالي، وصارت فجرا منيرا هذه الليالي. ما أعظم اسمك أنسا للروح، انه يسير إليك
في صيحات الفؤاد المجروح؛ أقول (الله) فيتفسح المجال، أقول (الله) فيفارقني
الزوال. بحركة هذا الصوت الأعظم، يطير جناحي وإن حَطَمَه الغمُّ، أنتَ أقرب إلى الله
يا محمد، أيها العقل المعظم المؤبد، أنت الذي سلكت بنا السبيل، وكنت إلى الله
الدليل. ليصمت بعدُ هذا النواح، فلا تضيق به الأرواح، هذه الآهة التي تفيض من الروح،
لن يسمعها بعدُ الا قلبي المجروح سأكون في الدنيا قبرها، تطوف فوقي روحها،
سأصمت عن هذا النحيب، لأفرغ للتفكر في الحبيب.

في الأب الغربي
وإذا أتى يوماً؟
قصيدة لموريس ماترلنك
للأستاذ أبي قيس عز الدين علم الدين. عضو المجمع العلمي العربي
بمناسبة ما نشرته الرسالة البارعة في العدد الرابع عشر من رواية بلياس ومليزاند ترجمة الأستاذ حسن صادق، أبعث للرسالة بقصيدة تعد من روائع الأب الرمزي، وقد نقلت إلى معظم اللغات الغربية، وأما شاعر هذه القلادة المروية فهو الأديب البلجى الكبير موريس ماترلنك ولد في غاند سنة 1862، وقد نشأ مفطوراً على حب الأب، فحذق الصناعتين ويعده البلجيون من عباقرة شعرائهم وكتّابهم الخالدين. وقد أدخل في الأب البلجى أسلوباً جديداً وامتازت قصائده بطابع حزن عميق يثير مكنون الأسى، وأما رواياته التمثيلية فإنها تقنع مطالعها بأن حياة الناس خاضعة لعوامل خفية، وأن العالم الأرضي مفضي عليه بقضاء وقدر مضاعف: قدر الحِمام، وقدر الغرام. وأهم آثاره: بيوت الزجاج (1889)، الأغاني الاثنتا عشرة (1897)، الأميرةمالين (1889)، العميان (1890)، بلياس ومليزاند (1892)، العصفور الأزرق (1911)، كنز المتواضعين (1896)، الحكمة والقدر (1898)، حياة النحل (1901). والآثار الثلاثة الأخيرة تدل على براعة ماترلنك وعبقريته، وعلى رسوخه في فلسفة الأخلاق وعلى شاعر يته الجبارة. وأما قصيدته الخالدة الموسومة بعنوان (وإذا أتى يوماً؟) فهي من مرويات أغانيه الاثنتيعشرة، ويعود تأثيرها البليغ إلى تأثير موقفها الفاجع، ولعمري أي أمر أفجع من موقف شقيقتين تحتضر إحداهمافتسألها الأخرى عما تجيب به أسئلة خطيبها إذاما عاد يوماً من دار هجرته إلى دار مهجته، فتجيبها، ولم يبقى من شقيقتها إلا حشاشة، بأجوبة رمزية تشبه غصص المنية، وإليك الآن هذه الأغنية تلتاع القلوب الشاعرة لزفراتها، وتنتزع العقول العبرة من عبراتها. . .

سوإذا أتى يوماً وعاد=فما أقول لمن يعود؟
جقولي له: انتظرتك حتى=فارقت هذا الوجود
سوإذا ألحّ وليس يع=رفني ليكتشف الحقيقة؟
جفتحدثي معه كما=تتحدثينإلىشقيقه
سوإذا تساءل: أين أنت=فما يكون جوابه؟
جأعطيه خاتم خطبتي=الذهبي فهو جوابه
سوإذا إستراب وقد رأى=في المخدع الخالي العجاج؟
جفأريه أن الباب مف_توح مذانطفأ السراج
سوإذا استزاد مروَّعاً=عن حال ساعتك الأخيرة؟
جقولي له: ابتسمت مخا_فة أن تنوحَ على الكسيرة

بوفون

تمخضالعالم عن شخصية (جورج لكلارك قونت بوفون) في مدينة (مونت بار) عام 1707. ولما يفع وترعرع دخل معهد الآباء اليسوعيين، ليحتلب من ضرعيه علوم القرن الثامن عشر؛ ولكن نفسه الجبارة، نزعت إلى الطبيعة الخلابة، فودع بقية العلوم في ذلك المعهد، وراح يضرب في أنحاء إيطاليا وإنجلترا، يتحرى قوانين الطبيعة فيأماكنها، ويدرس طبائع الحيوان والنبات عن كثب، شأنالبحاثة المدقق الذي لا يرضى بما لاح من صيد، ولا يعود من مغامرته بالقشور دون اللباب. فانكب على العلوم الطبيعية، يقتلها درساً وتحقيقاً، حتى ضرب فيها بسهم صائب، وبلغ منها ما أمل وما أراد؛ ولم يَدرُ مع الأرض حول الشمس 26 دورة حتى انتخب عضواً في (أكاديمية) العلوم. وبعد هذا التاريخ بست سنوات عين ناظراً عاماً (لبستان الملك) الذي يطلق عليه الفرنسيون اليوم اسم (بستان النبات). كان (بوفون) إذا أراد الكتابة، اعتزل الضوضاء في غرفة منزوية، وارتدى ثوبه ذا الأكمام الموشاة، والناطق باسم مقامه العإلى، وتقلد سيفه المحلى بحلي ثمينة، ثم جلس إلى مكتبه يتخيرلافكاره أشرف المباني، ولعواطفه أرق التعابير، وحينما ينتهي من كتابته يعيد قراءة ما دبجته براعته، بصوت مرتفع أجش، وجنان تتجاوب في إرجائه عواطف الحماسة والعظمة، حتى إذا ما هذَّب ونقح، وتلا ما كتبه ثالث مرة: غادر مكتبه وماء البشر يترقرق في وجهه، ونشوة السرور تدب في جسمه. اشتغل بوفون مدة خمسين عاماً في تأليف كتابه (التاريخ الطبيعي) جوهرة

ألامس ودرة اليوم، ولكن المنية شعبته فحالت دون تدوين دراسته المستفيضة بكاملها، فظل الكتاب مبتورا تنقصه أبحاث مهمة كالأفاعي والأسماك، والحشرات والنبات، وقد سد هذه الثغرة في هذا الروض الاريض (لاسيد) تلميذ بوفون المخلص، وصديقه الحميم.

ومهما يكن من شيء فان شهرة (بوفون) مازالت تطوي المراحل وتجوب الأمصار، وسمعته ما نفكت تسير بذكرها الركبان، وتتجاوب بصداها المحافل. وقد عرف له مواطنوه نبوغه، فانتخبه المجمع العلمي الفرنسي عضوا فيه، وانعم عليه لويس الخامس عشر بلقب (قونت). ولم تحترمه يد المنون في عام 1788 حتى رأى تمثاله منتصباً في مدخل متحف التاريخ الطبيعى، وقد حفر عليه باللغتين الفرنسية والألمانية: (إن عظمة الطبيعة تساوى عبقريته) ولست لأعرض الآن لأدبه بالتحليل والنقد، فعساي أن أعود إليه في يوم آخر،

ولكنى مترجم هنا آية من آياته الخالدة، في وصف الصحراء العربية.

صحراء جزيرة العرب

تصور بلاداً لا تتنفس عن اخضرار، ولا تترقرق في مآقيها المياه! شمسها تتقد اتقاداً، وسماؤها أشد جفافاً من الضرع الذاوي. تستر الرمال أدُمَ وديانها، وتسيطر جنود الجدب على جبالها!! تطل عليها الباصرة فيضل البصر فيها دون أن ينعم برؤية شيء تتجاوب فيه خطرات الحياة. أرض جر عليها الموت أذياله، قد عصفت فيها أعاصير حاصبة، نزعت عنها غلالتها الرملية، فلا يصطدم فيها نظرك العُقابي، إلابهياكل عظمية، وحصباء منتثرة، وصخور منتصبة، وأخرى مستلقية.

صحراء ليس بينها وبين وهج الشمس من حائل، فليس بمقدور المسافر أن يفيء إلى ظلال بليلة. هنالك لا صاحب فيؤنس وحشته، ولا شيئاً حياً فيذكره بالطبيعة الحية: عزلة مطلقة، وارفة الجناحين، ترعب أكثر من ألف مرة من عزلة الغابات، لأن الأشجار كائنات حية في نظر المنفرد المسكين الضال في هذه المهامه الخاوية، والمتمردة على سلطان الحدود. يتراءى للمسافر حيثما أشاح بوجهه، أن قبره منبوش في هذه الفيفاء: فيرى نور النهار الساطع، أكأب من حلوكة الليل الدامس، لأن هذا النور لا ينبعث الا لينير له عن خوره وارتخاء مفاصله، وإلا ليمثل له هول موقفه وحراجته، ذلك أنه ينأى عن عينيه حدود الخلاء. ويزيد في بسطة هوة الأتساع، تلك الهوة التي تفصله عن الأراضي الآهلة. رقعة واسعة تكفيه مؤونة التطواف، ففيها جوع كاسر للطرف، وفيها ظمأ عاصب للفم، وفيها حرارة قادحة للثقاب. هذه كلها تضغط على ما بقى لديه من لحظات تتردد بين اليأس والموت).

حلب ـ عبد الوهاب حومة

بحر ناعس

لجون فريمان

بحر

كالطفل الغارق في سباته.

يحتفظ

بخوالج وجدانه في نهاره ليرددها على لسانه في ليله

لا تكاد

تطفح لجته المرتفعة حتى تخور فتتراجعفي هوادة وبطء

والبحر

في هدوئه كركود الطفل في غفلته. القمر من هزاله كلهب الشمعة يذوي ويحتضر.

لا صوت

بالبحر كالطفل الحالم وفي سكرة نومه الحادة يئن بخفوت مؤلم. ثم يرسل من أعماق صدره زفرات حارة في تأوهات صامتة. لقد تشابها.

منوف. أحمد محمد البيه

اللقاء العجيب

لأندره شينه

هي: أيها الغاب هل رأيت حبيبي=قرب ماء الغدير عند الغروب؟

كم صباح أتاك بل كم مساءٍ ... عند همس الصَّبا وشَدْو الجَنو

سوف أصغي لكل صوت بعيدٍ ... فلعلِّي أحظى به من قريب
هو: إيه يا موجة الغدير سلاماً=يا عروس الماء النمير السَّكُوب
احملي لي حبيبتي فهي عندي ... زهرة الحب فوق غصن رطيب
!كم لثمت العشب الذي وطئته ... قدماها في الغاب دون رقيب
هي: آه لو يعلم الحبيب بشوقي=وحنيني وحرقتي وشحوبي
هل أراه في الغاب؟ إن خيالي ... لَيراه في ذا المكان الرحيب
سوف أدعوه بابتسام وعطف ... فعساه يكون بعدُ مجيبي
هو: رب هب لى رحماك صبراً جميلاً=إنما الصبر جُنَّة المكروب
هل أتاها أني ليخفق قلبي ... لسماع اسمها الجميل الطروب؟
سأنادي دوماً بصوت جنونٍ ... علَّها أن تجيب صوت الحبيب
هي: آه إني رأيته فأعنيَّ=يا لساني في ذا اللقاء الرهيب
إيه يا ناظري ويا شفتيا ... إهدَآ ساعة اضطراب القلوب
هو: ما لهذه الأوراق تهتز دوني؟ =قد بدا لي ثوب الفتاة اللعوب
إنه ثوبها فيا مقلتيا ... عبرا عن غراميَ المحجوب
هي: أهنا أنتَ؟ إن ذا لعجيبِ=أنا وحدي في ذا المكان الجديب
لم أفكرِ في أن أراكَ ولكن ... جُزْته نحو بيتيَ المحبوب
هو: أنا ألهو برؤية الموج وحدي=وذُرى الزيزفون تجلو كروبي
!لم أفكرِ في أن أراكَ أمامي ... لم أفكرِ في ذا اللقاء العجيب
دمشق. محمد ناجى الطنطاوي

العلوم

نشوء الكائنات الحية على وجه البسيطة

للأستاذ السر آرثر طمسن

خلال الأدوارِ الأولى لتاريخ الأرض لم يكن في مقدور أي مخلوق حي نتصوره أن يعيش وسط تلك الظروف، فقد كانت الحرارة مرتفعة جدا، وكان الهواء والماء معدومين في وجه البسيطة، إذن فلابد من ظهور المخلوقات الحية منذ عصورٍ سحيقة في القدم لا نستطيع معرفة تاريخها؛ أما كيفية ظهور الحياة للمرة الأولى فلا يعلم أحد ذلك بالضبط، وكل ما هنالك احتمالات متباينة نأتى على ذكر أهمها:

منذ القديم كان الاعتقاد السائد ان الحياة نشأت من طينة الأرض بطريقة خارجة من نطاق البحث العلمي، على أن هذا الرأي يفسد علينا فهم المسألة لتسرعه في الحكم عن نشوء الحياة بهذا الشكل، فإذا كنا لا نعتبر هذا الرأي علميا فذلك لأن العلم لا يعطي قرارا جازما ولا يبت في أمور لها من الشك نصيب كبير. وذهب فريق من العلماء وعلى رأسهم الأستاذان (هلمهلتز و (اللورد كلفن إلى ان المخلوقات الحية البسيطة لم تنشأ من صميم الأرض بل جاءت إليها من الخارج محمولة بقطع الشهب المتساقطة أو بواسطة الغبار الكوني، على أن تلك الكائنات ظلت في حالة السبات لعدم ملاءمة الظروف لها حينذاك، وبهذه المناسبة يجب أن نتذكر ان بذور النباتات تستطيع أن تقاوم البرودة والجفاف زمنا طويلا، كما أن (البكتريا) تستطيع احتمال درجات مرتفعة من الحرارة دون أن تفقد حيويتها. وكما يرى الأستاذ انه طالما لا يحدث انحلال جزيئي ففي إمكان الأفعال الحيوية ان تتوقف عن العمل مؤقتا ريثما تعود الظروف الملائمة. إذن فنظرية اللورد كلفن تنسب أصل الكائنات الحية إلى غير الأرض.

وذهبت فئة أخرى من العلماء تقول بان المخلوقات الحية البسيطة نشأت على سطح الأرض من مواد غير حية أى من مركبات كربونية نصف سائلة بتأثير بعض الخمائر. وتعزز هذهالنظرية بما وصلت إليه أبحاث علماء الكيمياء التركيبية الذين نجحوا في تركيب بعض المواد العضويةكحامض الاوكساليك والنيل، وحامض الساليسليك والكافئين، سكر القصب بطرق صناعية بحتة. على أننا لا نعلم بالضبط من يقوم مقام العالم الكيميائي

في مختبرِ الطبيعة!، ومهما كان الأمر ففي المسألة غموض وتعقيد كبيرانِ لا نتخلص منهما الا بنتيجة واحدة وهي أن العلم لا يستطيع إلى الوقت الحاضر أن يقول كلمته فيها.

أول جسم عضوي على الأرض

إن أول ما يتبادر إلى ذهننا التساؤل عنه هو كيفية نشوء المخلوقات الحية الأولى على الأرض أو بالأحرى عن الحياة التي كانت تغطي وجه البسيطة في ابتداء طور تكونها. ولأدراك ذلك علينا أن نستعين بابسط المخلوقات الحية في الوقت الحاضر كبعض أنواع البكتريا أو العضويات الأحادية الخلية وخاصة المسماة منها بالأحياء الأولى التي لايمكن تعيين انتسابها إلى المملكة الحيوانية أو النباتية. لاشك أن الجزم في مثل هذه الأمور يعد تطرفا لا يجيزه العلم: إنما يميل العلماء إلى التسليم بالنظرية القائلة، أن المخلوقات الاولى كانت كريات مجهرية من مادة البروتوبلازم الحية، لا تختلف عن أبسط أنواع البكتريا في الوقت الحاضر الا بكونها تستطيع المعيشة في الهواء والماء والأملاح الذائبة على السواء. ويظن أن العضويات البحرية الأحادية الخلية نشأت من هذا الأصل وكانت قادرة على صنع الكلوروفيل أو ما يشبهه وربما كانت هذه الوحدات الصغيرة الحية محاطة بغلاف سليلوزي. غير أن طاقتها الكامنة عظمت فتمخضت عن ذينبات أو شعيرات صغيرة مكنتها من تسيير نفسها في الماء للتفتيش عن الغذاء. ولا يزال من أمثال هذه العضويات كثير في الوقت الحاضر أغلبها يعيش في الماء والبعض منها (وهي نباتات بسيطة أحادية الخلية) تصبغ سوق الأشجار وحتى الصخور الرطبة باللون الأخضر وتدعى الخزيات ويرى الأستاذ ان البحار التي كانت تغطي وجه البسيطة في مستهل تاريخها كانت مأهولة بهذه المخلوقات المذنبة الخضراء التي وضعت الحجر الأساسي لعالم النبات. ويظن أن الأحياء الاولى ولدت سلسلة أخرى من المخلوقات المفترسة البسيطة لم يكن في وسعها أن تكوّن المادة العضوية (الغذاء) من الهواء والماء والأملاح فكانت تعيش على افتراس ما يجاورها من العضويات. إن هذه الوحدات كانت عديمة الغلاف السيليلوزي بحيث يسهل للمادة الحية أو البروتوبلاسم القيام بالعمليات الحيوية المتنوعة على نحو ما نراه الآن في الأميبا أو في كريات الدم البيضاء وغيرها. من هذه العضويات المفترسة نشأت المملكة الحيوانية بأسرها. نستنتج مما سبق أن الحيوانات الاولى والنباتات الاولى نشأت من الأحياء الابتدائية البسيطة ثم أخذ كل منها يسير في اتجاه خاص.

بداية نشوء النباتات البرية:

من المحتمل جداً أن المياه كانت تغطي وجه الأرض في أدوارها الأولى، وأن ذلك البحر المترامي الأطراف كان مأهولا بالنباتات الابتدائية من ذوات الشعيرات على أن انكماش القشرة الأرضية أحدث مرتفعات ومنخفضات في قاع البحار، واقتربت على أثر ذلك الطبقات الصلبة في بعض الأماكن نحو سطح الماء، فسمحت للنباتات العائمة أن تستقر هناك على مقربة من النور. هذا ما يصوره لنا الأستاذ (شرش) عن مبدأ النباتات وهي خطوة ذات شأن عظيم في سير التطور. ويظن أن أول نجاح صادفته الحيوانات كان بين هذه النباتات القديمة. وقد أخذت اليابسة بالظهور عندما ارتفع قاع البحر في الأماكن الضحلة تدريجيا. إن تلك النباتات الثابتة كانت أسلاف حشائش البحر التي تعيش على الشواطئ البحرية الآن.

الحيوانات الأولى

إن الحيوانات التي هي تحت مستوى (الحيوانات والاسفنجيات تدعى بالحيوانات الابتدائية أو البروتوزوا ومعنى هذه الكلمة الحرفي (الحيوان الأول) وكل ما نستطيع أن نقوله عن هذه الحيوانات أن أبسطها قد ينيرنا عن بساطة تركيب الحيوانات الأصلية الاولى. والواقع أن أغلب الحيوانات الابتدائية المعروفة في الوقت الحاضر هي على درجة من التعقيد لا نستطيع معه أن ندعوها (أولية) بالمعنى الصحيح، ومع أن أغلبها مجهرية الا أن كلا منها حيوان تام قائم بذاته يقوم بنفس العمليات الحيوية التي نقوم بها نحن، وتختلف عن الحيوانات العليا في عدم تكونها من الوحدات التي نسميها (خلايا) فهي إذن خلية واحدة مستقلة عديمة الأنسجة وعديمة الأعضاء (بحسب المفهوم العلمي لهذين الاصطلاحين) على أننا في كثير منها نعثر على تعقيد كبير في البنية الداخلية أكثر مما نقع عليه في الخلايا الاعتيادية التي تبنى منها أنسجة جميع الحيوانات الراقية، وبهذا الاعتبار نستطيع أن نقول أن المخلوقات الابتدائية هي مخلوقات حية تامة لم تكتسب التكوين الجسمي بعد.

بدء تكون الجسم

قال العالم الطبيعي (لويس إن أكبر فراغ وجد في العالم العضوي كان مابين الحيوانات الأحادية الخلية والمتعددة الخلايا وبعبارة أخرى ما بين الحيوانات الابتدائية وما وراء الابتدائية ولكن لم يبق ثمة فراغ بين الفرعين بتطور الاسفنجيات وأمعائية الجوف والديدان البسيطة وظهورها بأجسام للمرة الأولى. فكيف نعلل تكون الجسم وهو في خطوات التطور الكبرى؟. ليس في استطاعتنا أن نعلم كيف حدث ذلك على وجه اليقين إنما يمكننا أن نبسط هذا الرأي المستمد من دراسة عميقة وبحث دقيق، عندما ينقسم الحيوان الابتدائي إلى شطرين أو اكثر (وهي طريقة التكاثر التي يتبعها) تنتشر الانسال وتعيش مستقلة بعضها عن بعض؛ ولكن بعض الابتدائيات لا تنفصل أنسالها بل تبقى مرتبطة مع بعضها فالفولفوكس وهو حيوان كروي أخضر اللون جميل يوجد في بعض الأفنية، ما هو الا مستعمرة لألف أو عشرة آلاف خلية ومن مجموع هذه الخلايا نبدأ بتمييز الجسم. على أن خلايا الفولفوكس هي من نوع واحد بينما نجد في خلايا الحيوانات التي تلي الابتدائية تخصص في العمل مما يدل على رقيها في توزيع الأعمال. فالجسم يبدأ بالتكون من تجمع قسم من المادة الحية حول كل نواة، ويرتقي تكوينه كلما حصل توزيع في العمل وتميزت الخلايا الجرثومية (أو التناسلية) فيه عن الخلايا الجسدية.

اكتسابات عظيمة

إن تناظر الجسم العام في حيوانات كشقائق البحر وقنديل البحر يكون شعاعيا أي لا يوجد له جهة يمنى أو يسرى ويمكن تنصيف الجسم بأكثر من سطح واحد. وهذا النوع من التناظر ملائم جدا لحياة الارتكاز أو الانحراف مع التيار. على أن حياة الديدان كانت تتطلب الحركة فاستدق طرفاها وصار لها جهة أمامية وجهة خلفية وأصبحت أغلب الحيوانات من الديدان إلى الإنسان ذات تناظر جانبي تتميز في جسمها جهات أربع ولا يمكن تنصيفها الا بسطح واحد. لاشك إن هذا النوع الآخر من التناظر يلائم حياة أكثر نشاطا من الحياة التي تستلزم التناظر الشعاعي، لذلك كان في وسع هذه الحيوانات الجانبية التناظر أن تفتش عن طعامها وتتجنب الأعداء وتتربص لاقتناص الزوج أو الزوجة. وقد

رافق هذا التناظر تخصص القسم الأمامي من الحيوان للتحسس بالمؤثرات الخارجية، وهكذا تميز الرأس عن الجسم وكانت تلك خطوة أولى في تكوين الدماغ. ثم ارتقى الحيوان في مدارج التطور خطوات واسعة فكان له رأس نام فيه أعضاء للحس وتكون في جوفه سطوح داخلية واسعة كالجدار الهضمي ومناطق الامتصاص في قناة الطعام، ثم نمت فيه عضلات تتقلص وتنبسط فيه بسهولة، وأخيرا تأسس فيه نظام الدوران الذي جعل الدم وسيطا لنقل الأوكسجين والمواد الغذائية إلى كافة أنحاء البدن وحمل الإفرازات الضارة بالجسم لتفرز خارجا.

الهرمونات

وارتقت الحيوانات العظمية درجة أخرى بتكون غدد الإفراز الداخلي كالغدة الدرقية، والغدة الأدرينالية وغيرهما، وفائدة هذه الغدد تحضير مواد كيمياوية يوزعها الدم على جميع أقسام البدن، ولها أثر كبير في تنظيم العمليات الحيوية. وتعرف المواد الكيماوية التي تفرزها هذه الغدد باسم (هرمونات) التي تزيد في فعالية الأعضاء والأنسجة. إن بعض هذه الهرمونات تنظم النمو وتغير ضغط الدم وتركيبه بسرعة، والبعض الآخر يستدعي بعض أقسام البدن إلى النمو الفعال كغدد الحليب في الأم التي تتنبه بفعل بعض الهرمونات.

الموصل. تلخيص: بشير الياس اللوس

الاقيانوغرافيا

أو تقويم المحيطات

بقلم الدكتور حسين فوزي. مدير إدارة أبحاث المصائد

أرموريك بلاد الأنواء! رابضة في درعها الجرانيتي عند الطرف الشمالي الغربي من فرنسا بين المانش والأطلنطيق. نشأ حول أخاديدها وجوناتها وخلجانها قوم من المجازفة عركوا أهوال البحر جنوبي أسلندة وشرقي الأرض الجديدة. ومن تلك

الخلجان والجونات خليج دوارنينيه تشرف عليه من نواحيه المحمية من الريح الصرصر غابات الصنوبر. وهو في أغلب أنحائه عار أجرد تحف به منازل صيادي السردين قائمة إلى جانب الكنائس البريتونية المنحوتة من الجرانيت. عابسة للمحيط عابس لها. صامدة للعواصف تتلقاها على أسنة أبراجها الغوطية. الوقت منتصف الليل وقد شهدت نسوة الصيادين عند غروب اليوم عودة النوارس فازعة من عرض البحر. فوجفن للعاصفة وارتفعت أبصارهن إلى صور العذراء وتماثيلها في أركان القرية وتحت أعطاف الكنيسة وفوق الأسرة الخشبية يتعوذن بها لتحمي أزواجهن وأولادهن وعشاقهن من هول النوء المهاجم. وفي أشد ما يكون صرير النوء تنصت نساء سانتان دي لايالود وأوديرن ودوارنينيه إلى أصوات نواقيس تتصاعد من أعماق الخليج. تلك نواقيس عاصمة كورنواي الغارقة. (أيس) حاضرة الملك جرالون حامي حمى المسيحية الأولى في أشخاص قديسيها رونان وكورنتان وجينوليه. من دون أبنته داهوت التي ركبت مركب الشيطان ففتحت المغاليق التي تحمي مدينة أيس من الاقيانوس. يصيح سان جينوليه (البحر يا مولاي. بادر إلى جوادك) فيمتطي الملك جواده. وتقفز داهوت خلفه. ويحاول عبثا أن يلحق بالقديس السابح بجواده فوق العباب.

- النجدة ياجينوليه!

- ألق تلك الملعونة في اليم أو أنت من الهالكين.

وإذ تبتلع الأمواج داهوت يواصل الملك سراه حتى يوقفه جينوليه فيتلفت خلفه باحثا عن عاصمة كورنواى فإذا (أيس) لا أثر ولا عين طغت عليها أمواج خليج دوارنينيه. كذا جاءنا حديث الخرافة بخبر مدينة (أيس) الغارقة. وخبر غيرها من المدائن. ليونيس وأسمايدا وسان يرندان.

ولو أن الأمر وقف عند حد الخرافة لارتحنا إلى قصص السندباد. وتهريف بعض كتاب العرب إذ يقصون نبأ الجزيرة التي ينزل إليها النواخذة فما أن يوقدوا نيرانهم حتى تميد بهم وإذا هي حوت هائل يتأهب للعودة إلى الأعماق. ولم نتساءل إن كان هذا حوتا أو تنيناً أو دابة من دواب البحر الأخرى على حد قولهم. ولكن فيلسوفنا له في نفوسنا إجلال وإعظام. هو أفلاطون ردد ما ذكر عن سولون من أنه عرف عن كهنة مصر بأمر جزيرة (أطلانطيس) الواقعة عبر أعمدة هرقليس في البحر المحيط وهي بلاد (أكبر من آسيا الصغرى وليبيا مجتمعين) غزا أهلها جميع شعوب البحر الأبيض الا شعب أثينا من تسعين قرنا خلت قبل ميلاد سولون. وعاد أفلاطون في موضع آخر إلى الإشادة بثراء (أطلنطيس) وحدّث بانخسافها في مياه الأقيانوس الغربي (الأطلنتي فيما بعد) فكانت عائقا للملاحة فيما وراء أعمدة هرقليس. أبى الخلف الذي يجل اليونان وفلاسفتها الا أن يصدق افلاطون فاعتقد بوفون ومونتيني وفولتير بحقيقة تلك البلاد المغمورة. وحاول الكثير أن يثبت أن الجزر السعيدة (الخالدات) هي البقية الباقية من (أطلانطيس) الجنة الأرضية. كذا كان هذا شأن الجزيرة التي قيل بأن القديس برندان عبر إليها المحيط. توجهت إليها بعثات الاستكشاف الأسبانية والبرتغالية حتى أتفق في سنة 1759 على أن جزيرة (سان برندان) لم تكن سوى سراب بحري. ولكم حدثنا جواب البحار بأحاديث بنات الماء معسولات النغم. يغررن بالنوتي فيلقى بنفسه بين أحضانهن فيحملنه إلى قصر ملك البحر في أعماق المحيط. وهو قصر (جدرانه من المرجان ونوافذه من أرق ما يكون القهرمان. سقوفه من أصداف تتفتح عن لآلئ. تظلله أشجار عجاب تسبح بينها أسماك ذات ألوان كأنها طيور لا تعرف الأسجاع).

وإذا كان النواخذة اهتموا بتعرف سطح المحيطات منذ أقدم العصور لأغراض الملاحة، فقد ظل باطن البحر سراً أمعنت في إغلاقه خرافات رواد البحار وأقاصيصهم بل وتلك المخلوقات الغريبة التي اصطنعوها اصطناعا ليدللوا بها على تهريفهم. ولا زلنا نذكر تلك السمكة التي اصطنع لها وجه قرد أو إنسان للتمويه بها على الناس بأنها من عجائب البحار. وقد رأيناها معروضة في متحف موناكو كأثر من آثار تلك العهود. ولم نذهب بعيدا

وما فتئ صياد البحر الأحمر يتحدث إليك عن أسماك ذات أظلاف وشوارب أو شعور وصدر ناهد. وليس العهد ببعيد إن نشرت إحدى كبريات صحفنا صورة وحش بحري كبير لاصقة به سمكة صغيرة قيل عنها بأنها (تقوده لضعف بصره وتسعى لغذائه) وكأني بها تقود أوديب الأعمى خارج أسوار طيبة. ليس من العسير إذن أن نكون صورة

عن رأى الناس في أعماق البحار وسكانها في أواخر القرن الثامن عشر. وبيننا من لا يزال يعتقد (بالنص سمكة والنص بنى آدم) و (الهايشة) وما إليها من مخلوقات تبتلع المدائن في لمحة البصر بلّه الآدميين. فإذا كانت استكشافات الملاحين في القرنين الرابع والخامس عشر قضت على خرافة (أقيانوس) المحيط (باويقومينا) المحيط المتفجر عيونا وغدرانا وانهارا. ورحلات الكابتن كوك في أواخر القرن الثامن عشر أثبتت أن لا وجود لقارة جنوبية تصل أفريقيا بآسيا وتجعل المحيط الهندي بحرا داخليا فقد لبث الناس حتى القرن الثامن عشر جاهلين بأعماق البحار سوى النزر اليسير.

قيل في موت ارسطا طاليس أنه ألقى بنفسه في دوامات مضيق أوريبوس يأساً من تفهم تيارات ذلك المضيق. وهو موت (غير قمين لا بفيلسوف ولا بعالم اقيانوغرافي). الا إننا أقرب إلى احترام الرجل الذي يحمله على الانتحار يأسه من تفسير ظاهرة طبيعية منا إلى احترام بلينيوس وهو يقول منذ نحو الف عام (أي وهرقليس لا يعيشن في البحر ولا في المحيط مهما عظما مخلوق ليس لنا به علم. بل الحق العجاب أننا أعرف بتلك المخلوقات التي غيبتها الطبيعة في الأعماق منا بأي أمر آخر). فهذا الغرور وتلك الحماقة من عالم كبير ينمان عن روح لم يسلم منها بعض العلماء وهي روح خطرة في العلم سيئة الأثر على تقدم العالم. فذاك البلينيوس وهو لم يصف سوى نيف ومائة نوع من الأحياء البحرية (أي أقل مما وصفه أرسطاطاليس قبله) يتمشدق بمعرفته جميع الأنواع التي تعيش في البحار. ما عساه قائل لو علم بالآلاف العديدة من تلك الأحياء التي كشف عنها علماء البحار بعده؟

لم ينتحر هؤلاء العلماء يأسا من تفهم المحيطات كما زعموا عن ارسطاطاليس. ولم تتملكهم صفاقة بلينيوس فيشيدوا بعلمهم الواسع العريض ولكنهم جهزوا البعثات الاستكشافية ورعوا البحار منذ القرن الماضي إلى اليوم، يخرجون منها عجائب ليست من (الاطلانطيس) ولا

في شيء ولا هي من بنات الماء وما إليها من خوارق. ولكنها بدائع ذلك الكوكب (أيس) الذي نحيا على سطحه نسقتها الطبيعة تنسيقا يتفق وما أودعته فيها من قوى وما فرضته عليها من نواميس. وانا لنستسمحن القارئ أن نقدم إليه بعض أولئك الأعلام الذين أقاموا ذلك الصرح البديع بين قصور العلم. أعني صرح الاقيانوغرافيا. ولعل القارئ راغب معنا أن يعرف طرفا مما قاموا به في هذا السبيل.

اكتشافات وأسماء أعلام

كان العالم بواش في سنة 1752 ممن اعتقدوا بالطوفان فقال بأنه إذ غيض الماء كشف عن الجمال فالأودية. ولو واصل الماء هبوطه لظهرت أعماق البحار وديانا تتوسطها جبال أخرى، فالجبال المغمورة بمياه الاقيانوسات تكمل سلسلة جبال اليابسة. وهي تقسم البحار أحواضاً متصلة فوق قممها المغطاة بالماء. هذا النوع من التفكير قائم معظمه على أساس من المنطق ولكنه غير علمي إذ يتعدى ما يمكن استنتاجه من المشاهدات المباشرة. الا أن ما يعجبنا من بواش هو أن الاكتشافاتالاقيانوغرافية أثبتت أن قاع البحار أغوار سحيقة وجبال مرتفعة وأنه قد يمكن اعتبار تلك الجبال حلقات من السلسلة الأرضية. وأن في شواطئ بعض الجزر وانحدارها السريع إلى أعماق بعيدة ما يدعو إلى اعتبار هذه الجزر قناة جبال شمخت برأسها على سطح المحيط. وأن المحيطات مقسمة إلى أحواض تفصلها أسوار جبلية، وأن هذه الأحواض إن ظهرت متصلة فلأن مياهها تغطى أعالي فواصلها الجبلية. قال صيادو المرجان (البحر لا قاع له) فهزأ مراسيمي بقولهم ووعد لوعنى أحد الأمراء بتجهيز سفائن خصيصا لدراسة الأعماق. ومراسيمى رجل فرنسي مفكر يرتكز تفكيره على قواعد الموازنة والتقابل ولما كان مجرد وجود الجبل يعني وجود الوادي فقد استنتج أن الشواطئ الجبلية تعني انحدار الشاطئ عاجلا إلى الأعماق. ولم يقف مراسيمي عند هذا المنطق. بل عنى بدراسة الأعماق القريبة وقسمها بحسب أنواع رواسبها وكان أول من وضع خرائط الأعماق مبينا عليها نوع القاع من صخري ورملي وطيني. ولقد قيست درجة حرارة الماء تحت سطح البحر أثناء رحلات الكابتن كوك التي كشف فيها عن البحار الجنوبية. ولم يكن في المستطاع قياس حرارة الماء إلى عمق بعيد بدقة قبل اختراع ترمومترات النهاية الصغرى والنهاية العظمى وغيرها مما تسجل درجة الحرارة عند عمق

معلوم ثم تبقى على تسجيلها فلا تتأثر بطبقات الماء التي تخترقها وهي عائدة إلى سطح السفينة. الا أن دي سوسور تمكن في سنة 1780من قياس حرارة مياه البحر الأبيض على عمق600و1000 متر بواسطة ترمومتر أحاطه بموصل رديء للحرارة.
تصل بنا هذه الملاحظات التي ترددت بين التخمين والملاحظة المباشرة إلى أوائل القرن التاسع عشر حين انتشر نوع من الهواية هو عمل المجموعات الحيوانية والنباتية. وكان ذلك فاتحة عهد (الطبيعيين في الخلاء) أو أولئك الذين يجوسون بالأحراج والجبال والأودية يلاحظون الأحياء في وسطها الطبيعي وينتخبون منها مجموعات تمثل سكان المنطقة من حيوانات في ذلك العهد استعان دوناتي ومارسيلين على دراسة أحياء القاع الضحل قرب الشواطئ والمجرفة كيس شبكي يحيط بفوهته إطار من حديد ذي أسنه. تسحب على القاع فيجرف الإطار الحديدي حبات الرمل أو الطين ويتلقى الكيس مايجرف من تربة ومن أحياء تعيش على تلك التربة. وانتشرت المجرفة بين علماء أوربا فبدأ مملن أدوار باستعمالها في فرنسا سنة 1830. وفوربس في إنجلترا سنة 1832 وسارس في النرويج سنة 1835.
كان من أثر امتحان الرواسب البحرية بالميكروسكوب في إيطاليا في أواخر القرن الثامن عشر أن لوحظت ظاهرة كان لها أحسن الأثر في استثارة حب الاستطلاع البحري عند علماء القرن التاسع عشر، ذلك أنهم لاحظوا تشابها في الحفريات التي وجدها الجيولوجيون في باطن الأرض على أبعاد كبيرة من البحر. وبين مخلوقات بحرية تعيش قرب الشاطئ. . والحفريات كما يعلم القارئ بقايا أحياء انقرضت في غابر عصور الأرض. وهنا دخل في روع الباحثين أنهم لابد مهتدين في قاع البحار إلى نماذج حية من تلك المخلوقات التي لم يعثروا الا على آثار انقراضها في قطاعات الجبال والأودية، وامتد خيال العلماء (وما حرم العلماء ملكة الخيال) إلى يوم يكشفون فيه عن صورة حية لما كانت عليه الأرض منذ بضع ملايين من السنين. وكاد فوربس الاسكتلندي يقضي على هذا الحلم الشائق إذ أفتى بعد رحلة إلى بحر إيجة: بأنه لا أثر للحياة في البحار بعد عمق600متر.
ومع أن فوربس أدى إلى الاقيانوغرافيا اجمل الخدمات فهو أول من لاحظ بأن الأحياء البحرية تعيش جماعات لكل عمق معلوم جماعة خاصة منها تختلف عن جماعة عمق آخر
ومع انه وصف كثيراً من حيوانات الأعماق الضحلة حول الجزر البريطانية فقد كان خاطئا في زعمه أن لا حياة بعد عمق 600متر. وحصل سيرات على مخلوقات تعيش في البحر الأبيض على عمق 3000متر. وجاء عهد وصل البلاد بالأسلاك التلغرافية عبر قاع البحر فكانت سبباً في سبر أعماق بعيدة. وكان أبعد غور وصل إليه ثقل مقياس العمق في سنة 1840أثناء بعثة سير كلارك روس إلى القطب الجنوبي وهو 6000متر.
وحدث في سنة 1860 أن قطعسلك من أسلاك التلغراف البحري على عمق 2500متر فوجدت عالقة به مخلوقات حية. كان طبيعيا أن تثير أمثال هذه الاكتشافات في جميع الشعوب الحية الرغبة في الاستزادة من تعرف أعماق البحار. وإذ علم ويفيل تمسون الاسكتلندي بأن سارس النرويجي عثر على عمق 600متر في فيورد لوفوتن على حيوان حي من فصيلة كانت تعد من الفصائل المنقرضة، توجه إليه لمشاهدة ذلك الحيوان. وكان ويفيل تمسون من أولئك العلماء الذين بنوا كبار الآمال على اكتشاف مثل حية من الفصائل المنقرضة في الأعماق البعيدة. فارتاد الاطلانطيق على ظهر السفينة (لايتننج) مرة والسفينة (بوركوبين) مرة أخرى. وسبر حتى عمق 4500مترا فوجد فيه مخلوقات حية منها ما يتصل بفصائل انقرضت منذ العهد الثلاثي والطباشيري. طارت شهرت ويفين تمسون في آفاق أوربا وأمريكا نتيجة اكتشافاته ولكنه بلغ قمة مجده حين ألقيت إليه مقاليد أكبر بعثة في تاريخ الاقيانوغرافيا. وهي بعثة (تشالنجر)
تشالنجر: (أعظم البعثات الاقيانوغرافية)
قامت تلك البعثة على ظهر (تشالنجر) وهي سفينة شراعية حمولتها 2306 طن. ذات محركات بخارية مساعدة. خرجت من الجزر البريطانية في سنة 1872 وعادت في سنة 1876 بعد أن قطعت 69000 ميل في الأطلنطيق والباسفيك، وصلت فيهما حتى الحاجز الثلجي للقطب الجنوبي. أسند قيادها إلى ويفيل تمسون وكان من أهم أعضائها

جون موري وبكنان، وقيدت مشاهدتها في 362محطة حصلت منها على مجموعة ضخمة من الأحياء البحرية ونماذج المياه ونماذج القاع وسبرت حتى نيف و 8000 متر. ومهما أشيد بأبحاث من تقدموا (تشالنجر) فقد كانت هذه البعثة فتحا مبينا في دراسة المحيطات. ولا غرور أن تؤرخ الاقيانوغرافيا تبعا لها فيقال عهد تشالنجر وما قبله وما بعده.

استغرقت دراسة النماذج التي جمعتها البعثة 20عاما كانت فيها أدنبرة محط رحال العلماء من كل صوب. يتقاسمون شرف دراسة تلك المجموعات التي وزعت عليهم دون نظر إلى جنسيتهم. لذا ظهرت مجلدات هذه البعثة الخمسين متوجة بأسماء أكبر علماء الحيوان والنبات والجيولوجيا والكيمياء والطبيعة. وبرغم السنين وتقدم الأبحاث الاقيانوغرافية وابتداع الآلات الدقيقة فلا تزال تلك المجلدات مرجعا من أهم مراجعنا. وما تزال دراسة السير جون موري والأب رينار لرواسب المحيطات أكبر عمدة لمن يختصون بهذا النوع من الدراسة. ليس في مكنتنا ونحن نستعرض سراعا بعثات الاستكشاف الاقيانوغرافي أن نقف طويلا ببعثة تشالنجر. وستعرض لنا فرص عديدة للعودة إلى نتائجها. ونكتفي هذه المرة بتلخيص جد مقتضب لتلك النتائج.

بعض نتائج رحلة (تشالنجر)

- وضع خرائط لأحواض المحيطات والقضاء على المبالغات التي شاعت عن أعماقها وكان أبعد عمق سبرته البعثة نيفاً و 8000 متر في شمال الباسفيك
- ثبات أن لا علاقة لحرارة مياه المحيطات بتغير الفصول بعد عمق 200 متر.
- اكتشاف درجة حرارة ثابتة للمياه العميقة في مساحات واسعة من المحيط، من ذلك أن اكتشفت البعثة ثبات حرارة مياه الاطلانطيق الشمالي بعد عمق 4000 متر عند درجة5و2 سانتجراد. كما أن حرارة مياه القاع في الباسفيك ثابتة عند درجة - 83و0 سانتجراد.
- دراسة كثير من تيارات السطح والأعماق في المحيطات.
- محاولة فهم تكوين الشعاب المرجانية. وقد تعارضت نظرية موري (وهي المؤسسة على نتائج بعثة تشالنجر) ونظرية داروين في أصل تكوين هذه الشعاب. ولا تزال المعضلة قائمة إذ لم يصل أحدهما إلى نظرية مقنعة. ولعل بعثة (السير جون موري) في المحيط الهندي تلك البعثة التي تقوم على ظهر السفينة الأقيانوغرافية المصرية (مباحث) توفق إلى تفسير مقنع.
- إصلاح الخرائط الجغرافية فيما يختص بكثير من الجزر والشعاب.
- تقدم المعارف الحيوانية تقدما كبيراً وخصوصا ما عرف عن فصيلة الأحياء ذات الخلية الواحدة من (الراديولاريا) و (الجلوبيجرنيا). واكتشاف مئات من أنواع الإسفنج منها ذلك

الحيوان البديع الذي أطلق عليه اسم (سلة أزاهيرفينوس)

- أثر الأعماق على الحياة. ففي الظلام الدامس الذي يغمر تلك الأعماق تعيش مخلوقات كف بصرها أو لا عيون لها أصلا. وأعاضتها الطبيعة أعضاء فسفورية تضيء سبيلها في الغياهب.

تلك بعض نتائج بعثة (تشالنجر) نمر بها سراعاً على كره منا فقد كانت حادثا له خطره في عالم العلم. وكانت الأقيانوغرافيا في مهدها فنشأت ودرجت وتقدمت بخطوات الرجال في الماضي القريب إلى حد أن الدهشة تعرونا إذ نعلم أن آخر مجلد من تقارير البعثةصدر في سنة 1907 وأن بكنان أحد أعضاء البعثة لا يزال حيا. وان السير جون موري قتل في حادثة سيارة سنة 1914وكان قد حبس مبلغ 20الف جنيه يصرف في سبيل بعثة جديدة. وتشاء الصدف أن يقترن اسم مصر باسم السير جون موري إذ تقوم هذه البعثة على ظهر السفينة المصرية (مباحث) في سبتمبر المقبل رافعة العلم المصري.

بعثات أخرى

كانت (تشالنجر) نتيجة منطقية لتلك الحركة الواسعة التي اتجهت منذ القرن الثامن عشر إلى دراسة الطبيعة. وقد وافق قيام هذه البعثة ونجاحها تلك اللحظة العظيمة في تاريخ الإمبراطورية البريطانية حين بلغت تلك الإمبراطورية في أواخر القرن الماضي أوج عزها وشأو رفعتها. وبعثة (تشالنجر) إن امتازت فلا تمتاز بانفرادها، ولا

بأسبقيتها ولكن بأنها طمحتطموحا كبيرا وحققت مطمحها. بيد أن أمريكا وجهت بعثة إلى الباسفيك معاصرة لتشالنجر. معاصرة لها أيضا رحلة السفينة الألمانية (غزال) حول الأرض. والبعثة النرويجية إلى شمال الاطلنطيق. معاصر لها العلامة الاقيانوغرافية اسكندر أجاسيز. وهو سويسري مولدا ونشأة هاجر إلى أمريكا ورفع علمها العلمي على السفينة (بليك) والسفينة (الباتروس).

ولم تقف فرنسا ولا إيطاليا وراء الصفوف بل قامت الاولى بقسطها العلمي على ظهر (ترافيور) و (تالسمان) في شرق الاطلنطيق من سنة 1880 إلى سنة 1883. وأدت الثانية واجبها نحو البحر الأبيض المتوسط بواسطة السفينة (واشنجتن) وطوفت سفينتها (فيتور بيزاني) حول الأرض.

حتى تلك الأمارة السعيدة. الضاحكة وسط ابتسام الرفييرا قدر لها أن يجلس على عرشها أمير عالم من سلالة الجريما لدى الأبطال. هو البير الأول أمير موناكو. ارتاد المحيطات بين سنة 1885 حتى وفاته في سنة 1922 على يخوته الفخمة (أيروندل) الاولى والثانية و (برنسيس أليس) الاولى والثانية. وهو صاحب الأيادى البيضاء على الأقيانوغرافيا إذ ابتنى لها معهدا في قلب الحي اللاتيني بباريس. ومتحفا على صخرة موناكو العالية هو كعبة القاصدين، سواء من العلماء لدراسة مجموعاته النادرة أو من أهل اللهو فيمونت كارلو لمشاهدة الاكواريوم.

وسواء كانت روسيا بالسفينة (فتياز) التي طافت حول الأرض. أو النمسا بالسفينة (بولا) التي درست الحوض الشرقي للبحر الأبيض واخترقت قناة السويس وجابت البحر الاحمرأو نانسن على ظهر (فرام) في المحيط المنجمد الشمالي. أو الدانمارك بسفينتها (أنجولف) فلم ترض لنفسها دولة من الدول الحية (تلك الدول التي يعتقد كثير منا أننا ساويناها أو نكاد لبضع طرقات فتحناها أو مباني أقمناها أو أعلام وضعناها على غير مسميات) أن تتقاعس في القيام بواجبها نحو نفسها ونحو الإنسانية جمعاء.

كلا لم تتريث بلجيكا عن توجيه بعثتها إلى القطب الجنوبي بين سنة 1897 وسنة 1899. ولم تتوسد ألمانيا أوراق غار هابل بل عادت إلى كتابة اسمها في تاريخ علوم البحار إذ وجهت (الفالديفيا) إلى الأطلانطيق والمحيط الهندي والمحيط المنجمد الجنوبي ما سمحت ثلوجه. كلا ولا هولندة التي أضافت جوهرة إلى تاج العلم ببعثتها على ظهر (السيبوجا) حول جزر الهند الشرقية (سنة 1899 - سنة 1900). وكما اختتم القرن الماضي بتلك الدول وهي في ميدان العلم أفراس رهان فقد افتتح القرن العشرين ببعثات أخرى تحمل أسماء مجيدة. ويكفينا ختاما لهذا المقال أن نذكر أسماء الدول التي اشتركت في دراسة المحيطات منذ أوائل هذا القرن. فهي هي موناكو وألمانيا وفرنسا والولايات المتحدة وإنجلترة والنرويج والد نمارك وهي هي دواما وتكرارا.

القصص

إلى الواحات الخارجية

جنة الصحراء الغربية

في عرف قدماء المصريين (وجزيرة الناعمين)

من الأصقاع الجديرة بالزيارة في مصر الواحات الغربية تلك التي نجهل عنها كل شيء ولا نذكرها الا في مقام التشويه أو العقاب أو النفي كأنها شقة من الجحيم. فكرت في زيارة تلك الناحية المنبوذة لأرى ما فيها من رهبة ووحشة فإذا بي أنتقل إلى جنة يانعة هواؤها رائق عليل، وتمرها وافر عميم، وماؤها دافق غزير، يحف بكل أولئك كثبان من الرمل الناعم النقي تعلو ورائها نجاد صخرية تمتدإلى الآفاق مما جعل الواحة في ظني خير مزار في الربيع وشطر من الشتاء. أقلني إليها القطار من مصر إلى مواصلة الواحات في عشر ساعات وهناك انتقلت إلى قطار الواحات الصغير الذي سار بنا بين ست ساعات وسبع إلى الخارجة فأخذ ذاك القطار يشق طريقه وسط الحقول الزراعية مسافة هي دون خمسة كيلومترات بعدها بدأ يصعد تدريجيا وقد استحال الطمي الراسب على الأرض رمالاً. وعند الكيلو السادس وقفنا بمحطة: القارة وهي محطة عند اتصال الهضبة الصحراوية بالسهول الفيضية الخصبة. بعدها أوغل القطارفي الصحراء صاعدا وسط واد مجدب ظل يختنق تدريجيا وتقارب القطار جوانبه الصخرية المشرفة حتى إذا قاربنا الكيلو 40 كنا فوق هضبة تنتثر بالحصى. وكلما قطعنا ثلاثين

كيلو مترا كنا نقف في محطة موحشة ليأخذ القطار منها الماء ولا يقطنها من الآهلين نفر. وبعد نصف الهضبة دخلنا شبه وادي فسيح غير محدود الجوانب يسميه القوم (وادي البطيخ) لأنه يغص بكرات الصخر المسودة في أحجام مختلفة فتبدو وكأنها البطيخ. وعند الكيلو 146 بدأنا نهوي خلال مجرى جاف جوانبه رائعة وكان الهبوط سريعا وعرا حتى أن القاطرة حبست بخارها فكانت تهوى المسافة كلها بقوة انحدار ليس غير، ولبثنا نتلوى ليات متعاقبة وسط ذاك الصخر المجدب حتى خرجنا إلى سهل أدى بنا إلى محطة: المحاريق: عند الكيلو 165 وهي بدء الوهدة التي تتوسطها الواحات ولذلك كنا نبصر على بعد بقاعا تزينها الخضرة في شبح فاتر.

والمحاريق محلة لابأس بمبانيها. كانت قد اتخذت مقرا للنفي الإداري وكان يرسل إليها المحكوم عليهم من كافة الطبقات حتى علية القوم من المغضوب عليهم وكانوا يتركون أحرارا بعائلاتهم يتجولون إلى حدود معينة ورائها يقف الهجانة لكيلا يتجاوز المجرمون الحدود، والفقير منهم كان يكلف عملا يؤجر عليه خمسة قروش في اليوم، لكن الحكومة رأت في النفي أداة للتشفي والانتقام وبخاصة من العمد الذين كانوا يسعون إلى نفي من يكرهون. هذا إلى المبالغ الطائلة التي تكلفتها الحكومة في الإنفاق على النفي لذلك قررت إلغاءه.

قمنا إلى محطة الشركة: وسميت كذلك لأنها كانت المستودع الرئيسي لشركة سكة حديد الواحات وكانت شركة إنجليزية سعت بمجهود كبير أن تبيع متاعها للحكومة لأنها خسرت خسائر فادحة ولم يسد الخط شيئاً يذكر من نفقاته وتمت الصفقة سنة 1909 ودفعت الحكومة ربع مليون جنيه فأيدت بذلك ما يعلمه الأجانب عن سخائنا العميم. وهي لا تزال تخسر فيها كل عام، إذ من إيرادها البالغ أربعة آلاف جنيه يخص خط الواحات ألف جنيه وهذا المبلغ لا يذكر بجانب النفقات. وجل الإيراد وقف على البلح في شهور الصيف.

أخيرا عند الكيلو 195 دخلنا محطة الواحات الخارجة وقادني الغلام إلى نزل بديع ما كنت أتخيل وجوده في تلك الناحية النائية هو (فيلا) أنيقة تزينها الأشجار الباسقة وتحوطها كثبان الرمل الناعمة. يديرها مصري يدعى (مصطفي عمر) ويقوم على خدمة النزلاء والسائحين خير قيام، ولقد تصفحت سجل الزائرين عنده فكان من بينهم الكثير من الوجهاء، مصريين وأجانب وبينهم بعض الأمراء. على أني أسفت لما علمت أن الرجل لا يكاد يتكسب من وراء عمله هذا شيئاً ولا تكاد تساعده مصلحة السكة الحديد بشيء حتى ولا بزيادة الدعاية لمنطقة الواحات وتخفيض أجور السفر إليها كي يزيد إقبال السائحين عليها كما كانت الحال في عهد الشركة الإنجليزية التي كانت تروج للواحات فكان عدد من يؤمها يفوق المئات سنويا، أما اليوم فلا نكاد نحن المصريين نسمع عن الإقليم شيئاً رغم ما فيه من جاذبية كبيرة.

قمت أتجول في المدينة فبدأت بزيارة آثارها التاريخية فالواحة كانت عامرة أيام قدماء المصريين، وابان حكم الرومان ولعل اجل آثارها: معبد هيبيس الذي بناه دارا الأول في القرن الخامس قبل الميلاد تمجيدا لآمون، والمعبد عظيم الامتداد شامخ العمد فاخر البنيان يكاد يحاكي معابد الكرنك. وهناك مدافن رومانية قديمة بها بضع مئين من المقابر أقامها الروم من اللبن في قباب صغيرة تزينها في البعض صور القديسين وفي البعض الآخر أشباه البوائك والأعمدة. وسكان الواحات يمتون بصلة إلى المصريين القدماء وإلى الرومانيين، وقد لاحظت ذلك في سحنهم المصفرة وتقاطيعهم النحيلة الممطوطة، ولا يزال للعائلات الرومانية الصرفة هناك بقية في اثنتين: عائلة الصنديدية، عائلة الأدارسة. ويمتازون بأدمغتهم المنبطحة من نواصيها. والعجيب أن أهل البلاد اعتنقوا الإسلام جميعا فلا تجد منهم مسيحيا واحدا ويظهرانهم اسلموا مجبرين وكانوا يعتصمون بالصحراء هروبا من أراضى الريف وما أثقلها من ضرائب إبان حكم المماليك، وهم لا يزالون يحتفظون بالكثير من الشعائر المسيحية رغم انهم مسلمون، فمثلا شاهدتهم يعدون سعف النخيل الأبيض لضفره في أشكال عدة احتفالا (بحد الزعف) على نحو ما يفعل إخواننا الأقباط هنا. وبينهممسجد ذو مئذنة قصيرة كان من قبل كنيسة.

ومن أعجب ما راقني مباني القوم ومساكنهم فهي من طابق واحد أو أثنين تبنى باللبن وتتجمع كلها في كتلة واحدة تشقها سراديب سقوفها واطئة لا يستطيع الإنسان السير

فيها الا منحنيا ولياتها من الأعاجيب، ولا تتخللها فتحات أو نوافذ قط، لذلك كانت حالكة الظلام في رائعة النهار، ومنها ناحية يسمونها (الهدرة) أرضها صخرية زلقة مغضنة وعرة. وسط ذاك الظلام الدامس زلقت قدماي فيها مرتين. ولقد كانت تلك السراديب وسيلة من وسائل الدفاع ضد غارات البدو والدراويش الذين طالما باغتوا البلاد بغاراتهم، فكان الواحد من الآهلين يعتصم بتلك المفاوز ليمنع العدو من اختراق حرمة داره، وفوق ذلك فهي تقيهم وهج الشمس المحرقة صيفا، ولما رأت مصلحة الصحة اليوم ما يخلفه ذلك الضيق والظلام من الأوساخ وخطر الأمراض، فتحت خلال الطرق كوى صغيرة في مسافات متباعدة أنارتها اليوم بعض الشيء على إني رغم ذلك كنت أسير في سراديب كأنها السرابيوم أو التيه ظلاما ووحشة، وكثيرا ما كنت اصطدم بالمارة خصوصا عند مفاجآت الثنيات العديدة لتلك المفاوز. وقد استرعى نظري السقامون وكلهم من مكفوفي البصر، يسيرون في تلك الطرق بخفة عجيبة وعلى ظهورهم قرب الماء، ولا يخطئون البيوت ولا تزل أقدامهم أبدا. ولقد أضافني رب بيت من تلك البيوت، فكنت أتوقع أن أوي إلى كوخ صغير أو قاعة وسط تلك المطاوي الحالكة، ثم دخلنا البيت من كوة صغيرة وأشد ما كانت دهشتي عندما رأيتني وسط بيت مشيد البناء طلي بالملاط ورصف بالبلاط على نحو ما نقطن هنا في مصر.

والعيون والينابيع منثورة في الواحات في كثرة لا يكاد يحصيها العد حتى قيل أن في الواحة الخارجة وحدها ثمانمائة عين بين صغير وكبير، وهذا الماء الغزير يتفجر من طبقة من الخراسان الرملي على عمق يتراوح بين 100و150مترا والواحات في وهدة متوسط ارتفاعها عن سطح البحر يزيد على خمسين مترا وتحف بها النجاد الجيرية والطباشيرية من جميع الجوانبتعلو في مدرجات أعلاها فوق أربعمائة متر وبخاصة ناحية الغروب وزرعتلك الواحة 300ك م في الطول وبين 30و80 في العرض. ومن صدوع ذاك الصخرالجيري تتفجر العيون العديدة، وغالب العيون كانت مستغلة في عهد الرومان فكانوا يحفرون حولالعين متسعا إلى عمق كبير ويضعون منقور الخشبوجذوع النخل في شكل الأنابيب لحصر الماء، ثم تطمر الحفرة، ويستدل القوم على وجود العيون كلما رأوا منخفضا رطبا يبدو نزر الماء فيه، وتجاوره ربوة.

بلياس ومليزاند

للفيلسوف البلجيكي موريس ماترلنك

ترجمة الدكتور حسن صادق

بلياس - أخاف عليك السقوط. . . سأمسك يدك. . .

مليزاند - لا تفعل. أريد أن أغمس يدي في الماء. . . من ينظر إليهما، يظن أن بهما اليوم مرضا!

بلياس - أوه! أوه! حذار، حذار من الوقوع في الماء! مليزاند! أوه! شعرك!

مليزاند - (تنهض) لا أستطيع أن أبلغه!

بلياس - شعرك انغمس في الماء

مليزاند - نعم. انه أطول من ذراعي. . . انه أطول منى (سكوت)

بلياس - لقد وجدتك على حافة عين مثل هذه تبكين. أتذكرين؟

مليزاند - نعم

بلياس - وماذا قال لك؟

مليزاند - لاشيء. . . . لم أعد أذكر. . . نسيت كل كلماته

بلياس - وهل دنا منك؟

مليزاند - نعم. وأراد أن يقبلني

بلياس - وأنت؟ هل أرضيت رغبته؟

مليزاند - كلا

بلياس - ولماذا؟

مليزاند - أوه! رأيت في قاع الماء شيئاً يتحرك!

بلياس - كدت تسقطين في الماء!. . . بماذا تعبثين؟

مليزاند - بالخاتم الذي أعطاني إياه

بلياس - لا تلعبي به فوق هذا الماء العميق

مليزاند - يداي لا ترتعدان
بلياس - ما أشد بريقه! لا تقذفيه في الفضاء هكذا!
مليزاند - أوه!
بلياس - هل سقط؟
مليزاند - سقط في الماء!
بلياس - أين هو! أين هو؟
مليزاند - لم أره أثناء وقوعه
بلياس - أعتقد أني أراه يشع في الماء بريقا
مليزاند - خاتمي؟
بلياس - نعم. نعم. . . انظري جيدا
مليزاند - أوه! إنه منا بعيد! لا. لا. ليس إياه. . . لقد فقد وغاب عن البصر. . . لم يعد إلا دائرة كبيرة على سطح الماء. . . ماذا نصنع الآن؟
بلياس - لا تجزعي من أجل خاتم. هذا أمر ضئيل الشأن. سنجده أو نجد غيره
مليزاند - كلا لننجده ولن نجد غيره أيضا! كنت أعتقد أنه في يدي. . . وكانت يدي حريصة عليه، ولكنه وقع في الماء على الرغم من هذا الحرص. . . قذفته في الفضاء بقوة شديدة كأني أردت له أن يبلغ الشمس!
بلياس - تعالي سنعود للبحث عنه في يوم آخر. . تعالي لقد حانالوقت. سيبحثون عنا بعد قليل. . . سمعت ساعة البرج تدق اثنتي عشرة مرة تعلن إلى الناس منتصف النهار، وقد سقط الخاتم في الماء قبل أن تتلاشى الضربة الأخيرة في الهواء!
مليزاند - ماذا نقول لأخيك (جولو) إذا سأل عنه؟
بلياس - الحقيقة، الحقيقة، الحقيقة! (يخرجان)
المنظر الثاني
(غرفة في القصر، جولو راقد على فراش ومليزاند جالسة بالقرب منه)
جولو - آه آه: خلي عنك الجزع فليس ما أصابني بذي خطر إني في حال حسنة ولن يكون لجراحي أثر سيئ. . . ولكن لا أستطيع تفسير ما حدث! كنت أصيد في الغابة مبتهجا هادئا. . . ثم جمح جوادي دفعة واحدة دون أن أعرف السبب. . . هل رأى شيئاً غريبا مخوفا أدخل على نفسه الرعب والفزع؟. . سمعت ساعة البرج تدق اثنتي عشرة مرة تعلن
إلى الناس منتصف النهار، وقبل أن تتلاشى الضربة الأخيرة في الهواء، أقبل الجواد فجأة وجرى كغرير مجنون. . . وظل في عدوه حتى صدم شجرة غليظة. . . وقعت على الأرض، وأعتقد أن الجواد وقع على صدري. . شعرت في تلك اللحظة بأن الغابة كلها تثقل علي وتنتزع مني الحياة في ألم مبرح. . . وأيقنت أن قلبي يتمزق. . . ولكنه والحمد لله سليم في مكانه. . . لا تجزعي ولا تخافي. ستلتئم الجراح وتعود إليّ العافية الشاملة
مليزاند - أتشرب جرعة من الماء؟
جولو - ليس بي ظمأ. شكرا لك
مليزاند - أتريد مصدغة أخرى؟. . . أرى على هذه نقطة صغيرة من الدم
جولو - كلا. لست في حاجة إلى مصدغة أخرى
مليزاند - أصدقني القول يا جولو، هل تتألم من جراحك كثيرا؟
جولو - كلا. كلا. ليست هذه أول مرة تصيبني فيها الجراح. . . خلقت من حديد ودم
مليزاند - أغمض عينيك وتملق النوم. سأقضي الليل كله بجوارك
جولو - جنبي نفسك التعب فلست في حاجة إلى شيء. سأنام كالطفل الوديع. . . ماذا جرى؟ مليزاند! لماذا تبكين دفعة واحدة
مليزاند - (تستخرط في البكاء) إني. . . إني مريضة
جولو - مريضة؟! ماذا بك؟
مليزاند - لا أدرى. . . الحياة هنا تغمز على المرض. . . آثرت أن أقول لك ذلكاليوم. . . لست بسعيدة هنا
جولو - ماذا حدث؟! هل أساء إليك أحد؟
مليزاند - كلا. ليس هذا ما أعنيه. . .

جولو - إنك تخفين عني شيئاً في أغوار نفسك. أنفضي إلى جملة حالك. من الذي يكدر عليك صفو حياتك؟ أهو الملك، أم أمي أم أخي بلياس؟
مليزاند - لا أحد يكدر علي صفو الحياة. إنك لا تستطيع إدراك نفسي. . . شيء أقوى مني. . .
جولو - لا تسلمي زمام نفسك إلى أوهام تبلبل بالك وتشقيك. ماذا تريدين أن أفعل؟! هل
عدت طفلة غرة تتلاعب بلبك أفكار الخيال؟! هل زهدت في زوجك ورغبت في هجره؟
مليزاند - أوه كلا. ليس هذا هو. . أتمنى أن أذهب معك. . . لا أريد أن أعيش هنا بعد اليوم. . . أشعر بأن عمري قصير ولن أستمتع بالحياة طويلاً!
جولو - ولكني أريد أن اقف على علة ذلك. . . سيعتقد الناس إذا سمعوا قولك، أنك فقدت رشدك، أو أنك طفلة يغرر بها حلم ساذج. تكلمي أهو بلياس الذي. . .؟ يقيني انه لا يتحدث إليك كثيرا
الكتب
الفجر - مجموعة من الشعر
يا ويح مصر من الشعر والشعراء! يا ويحها من هذا الشعر الزائف الذي يملأ الصحف والدواوين! فكل من اهتزت في يده يراعة في هذا البلد يريد أن يكون شاعرا، حتى غصت بالشعراء حجرات المدارس!! الشعر في كل أقطار الأرض عبقرية لا يسمو إليها إلا الأقلون، أما في مصر، فهي ألعوبة اللاعب ولهو اللاهي.
عندي أنه إن لم يرتفع ديوان الشعر بقارئه إلى مستو أعلى من مستواه الشعوري والفكري، بحيث لو كان هائما في الأرض حلق به في السماء، وان كان القارئ في السماء الأولى، سما به الشعر إلى السماء السابعة، أقول إن لم يكن الشعر كذلك، فأولى به أن يحبس في صدور قائليه، فلا يجد سبيلا إلى المطابع والمكاتب ثم إلى رؤس القراء. أما هذا الهراء الذي يتردد كل يوم، في كل صحيفة وفي كل مجال، فيجب أن ينبذ، لأن الحياة أثمن من أن تضيع في مثله، وأقسم بالله لو أن الأمر بيدي، لأنزلت العقاب (العقاب الأبى على الأقل) بهذه الفئة المتشاعرة التي ضقنا بها ذرعا.
أقول ذلك بمناسبة الديوان الذي أطلق عليه صاحبه اسم (الفجر)، ودفعه إليَّ الأستاذ الزيات لأقرأه وأعلق عليه، فانطلقت أبحث فيه عن شعور قوي واحد أو فكرة عالية فلم أجد! فيم إذن قيل، وفيم طبع ونشر، لست أدري. استمع إليه حين يقول في استقبال صديق:
مرحبا، مرحبا، بخير صديق ... غاب عنا عاما فخلناه دهرا
مرحبا، مرحبا، بخير صديق ... كان من أصدقائه مزورا
رام بعدا عنا، ورام خصاما ... فجفانا واستبدل الوصل هجرا
بينما نحن لا نطيق فراقا ... لصديق، وان تباعد شهرا
وبعد فأنى أتوجه بالرثاء والاشفاق، لا إلى مؤلف الديوان ولكن إلى قرائه: فهو شعور ضعيف في لفظ ركيك، سيئ الطبع خشن الورق.
ز. ن. م
القصاص
هذه القصة من تأليف الكاتب الإنجليزي المعروف جون جالزورثي وهي من أشهر قصصه إن لم نقل أنها أقوى قصة له على الإطلاق. وقد نقلها إلى العربية الأستاذان صالح بكتاش والسيد كامل الشرقاوي.
يهاجم المؤلف في هذه القصة العدالة كما تفهمها القوانين الصارمة التي لا تحتسب للمشاعر المختلفة والمواقف المتباينة حسابا. فهي مأساةتدور حول زوجة لاقت من زوجها الغليظ عيشة مريرة. ومع ذلك فلا يبيح لها القانون أن تنفصل عنه لتتزوج من شاب آخر أحبها وأحبته. كذلك انتقد المؤلف نظام السجون وبين كيف أنها أقرب إلى إفساد النفوس الطيبة منها إلى إصلاح النفوس الشريرة.
ونحب إن نلاحظ انحرافا في ترجمة عنوان القصة، فقد كان أولى ان يكون العدالة أو القضاء لأنهما أصدق تعريبا من هذا العنوان الحالي.
ز. ن. م
1. القوميات

2. روح المبدأ والوطن
هما مجموعتان من الشعر نظمهما الأديب السوري حسن حفار وهما كما يدل عليهما العنوانان، يفيضان بحماسة الشباب وقوة الوطنية وسمو الطموح، فلا يسعك حين تلاوة ما يحويان من شعر الا أن تحس مع الشاعر نزعة وثابة إلى الحرية والعزة القومية كما تلمح حنينا ظاهرا إلى الأقطار العربية عامة.
ولكننا يجب أن نشير إلى ضعف في اللفظ يسود الكتابين. ونرجو أن يتاح لهذا الشعور المتدفق لفظ يناسبه قوة وجزالة.
ز. ن. م
1
العدد 17 - بتاريخ: 15 - 09 - 1933
الملك الشهيد000!
في ليل يوم الجمعة الماضي سكت في (برن) قلب الملك فيصل! وما كان في حسبان أحد من دنياه أن هذا القلب الذي يجيش بالحياة، وينبض بالأطماع، ويستخف بالأمور الجسام، يسكت في وحدة الغريب ووحشة الليل الرهيب هذه السكتة المفاجئة!!
فلما نعاه البرق إلى الآفاق فزع الناس إلى الشك يدفعون به هول الخطب، ورجم بعضهم بالظنون يعللون بها بغتة الحادث، وتعذر على العقل أن يفهم الموت مقرونا إلى فيصل (صقر قريش) وقد كان إلى أمس يقطع بعزمه الجبار أجواء الشرق والغرب حاملا في يمناه العراق، وفي يسراه سورية، وفي قلبه (دولة العرب)!! ثم انجلى الشك وانجابت الظنون فإذا العراق وإذا سورية وإذا العرب أمام الفاجعة التي روعت النفوس وضرمت الأنفاس وقوضت حصون الأمل!!
لم يجزع العرب حين نعى إليهم فيصل على نفس كسائر النفوس
تغوص في لجج العدم، وانما جزعوا هذا الجزع الهالع على آمال أمة،
وجهود نهضة، ومستقبل فكرة؛ لأن ملك العراق كان مناط هذه الآمال،
ومبعث هذه الجهود، وعدة هذا المستقبل!
ومن العجيب أن يكون مصدر هذا الجزع كثرة الزعماء الأكفاء لا قلتهم! فإن هذه الكثرة كانت دائما وبالا على وحدة العرب إذا لم يقم على رأسها زعيم يعتمد في قيادتها على سلطان الدين وشرف النسب، وقد اجتمع الملك فيصل مع هاتين القوتين عقل كيس، وخلق نبيل، ونفس طموحة، وجاذبية قوية. فلا جرم أنه كان رجل الساعة لهذه الأمة الناهضة يجمع كلمتها حول رأيه، ويوحد وجهتها وراء خطاه!
عرفت جلالة ملك العراق أثناء مقامي ببغداد معرفة وثوق وخبرة. وكانت حال البلاد في ذلك الحين محنة ابتلت بها كفاية الملك النابغ: فالانتداب كان قبل الملكية يعمل في العلن ويحمل التبعة، فأصبح بعدها يعمل في السر ولا تبعة عليه، والحكومة كانت يومئذ بادية البلى ممزقة الجوانب لا تستطيع بخروقها أن تستر العرش، فالملك يحكم الوضع كان يستر الإنجليز، ولكن الوزارة بحكم الضعف كانت تكشفه. فكانت أوزار أولئك وأخطاء هؤلاء تحمل في رأي المعارضة والشعب على الملك، وكانت البطانة بعبثها تنفض ظالمة على جد
البلاط ووقاره شيئا من العبث، والشعب العراقي على اختلاف منازعه وعقائده وأجناسه ناقد متمرد طموح لا يصبر على نقص، ولا يغفل عن خطأ. فقدر في نفسك كيف كان مصير الملك لو كان غير فيصل!
اضطلع الملك فيصل وحده بأعباء الملك والحكم والزعامة في هذه الحال المضطربة، فكفكف بحكمته من شرَّة الانتداب، وخفف بحنكته من عسف الوزارة، ولطف بحلمه من غضب الشعب، وصرَّف شؤون الدولة على قدر ما يسلم الرأي الحصيف من خبث الاستشارة وضعف الوزارة، ثم سهل حجابه لأمراء العشائر ورؤساء الطوائف وزعماء الأحزاب فاستل ما في صدورهم بالقول اللين والعتاب الهين والشخصية الجذابة، حتى كان الرجل منهم يدخل قصره وهو عليه، فلا يخرج منه الا وهو له! ثم نظر خارج العراق فرأى على حدوده دولا يتنزى في صدورها حقد الماضي وطمع الحاضر، فزار تركيا وفرنسا وإيران فأحال عداءها إلى صداقة وجفاءها إلى مودة! ثم اجتمع بملك الحجاز وأوفد إلى امام اليمن فأحكم أواخي المودة بينهما وبينه، ثم هداه تفكيره العملي المرن إلى أن يعالج الانتداب بالمصانعة والموادعة حتى انتهى به إلى نوع من

الاستقلال يحفظ الكرامة ويعين على النهوض. دخل الملك فيصل العراق دخول الإمام الحسين! لا مال أمامه ولا جند خلفه! ولكن الحسين جرى على سياسة علي فهلك، وجرى فيصل على سياسة معاوية فملك! ثم اعتمد في تأثيل ملكه وإنهاض شعبه على الإخلاص العامل والجد النزيه، وتحامل في ذلك على دمه وعصبه وروحه حتى ذهب فيصل شهيد الواجب، كما ذهب الحسين شهيد الحق!!

كان الملك فيصل الأول ملكا من طراز خاص، ولعله كان أقرب إلى خلفاء الصدر الأول منه إلى ملوك اليوم! كان ناصع الظرف، جم التواضع، رحب الأناة، ظاهر الوداعة، زاهدا في أبهة الملك، عازفا عن مظاهر السلطان؛ فلا يخدج بتحية، ولا يمشي في حرس، ولا يتشدد في حجاب.

وكان من أجمل مظاهر ديمقراطيته الأصلية أن تراه غالبا في شارع الرشيد أو في طريق الصالحية يقود سيارته بيده، ويشق طريقه بنفسه، دون ربيئة من خلفه ولا طليعة بين يديه، فيسبقه أي سابق، ويزاحمه أي سائق!!

وقد تبكر ذات صباح إلى مدرستك أو ديوانك فتراه في ذرور الشمس قد طلع عليك بوجهه العربي المسنون، وقده السمهري الممشوق، ورشاقته الرياضية البارعة، فيسلم عليك ويتحدث اليك، ثم يتعهد المكان ويتعرف العمل، ويودعك بابتسامته الرقيقة، وملحوظته الدقيقة!

ودعا مرة مؤتمر المعلمين العراقيين إلى الشاي في حديقة قصره، فكان يجلس إلى كل منضدة من المناضد الكثيرة جلسة يفاكه أهلها بحلو الحديث، ويناقشهم في وجوه الاصلاح، ثم خطبهم في شؤون التعليم خطبة جامعة تمنى في سياقها أن يكون معلما مع المعلمين يؤدي إلى الأمة هذا الواجب المقدس. وفي صباح أحد الأيام غدا على المدرسة المأمونية الابتدائية فقضى ردحا من الزمن فيها، ثم سجل اسمه في ثبت مدرسيها! كان الملك فيصل في العراق ملك دولة، ورئيس حكومة، وزعيم أمة، وهو في الأقطار العربية مؤسس نهضة، وممثل فكرة، ورسول وحدة، وداعية سلام، ومعقد أمل! فإذا هفت النفوس جزعا لفقده، واستولى على العرب الوجوم والحيرة من بعده، فان في منطق الحوادث وطبيعة الأمور ما يسوغ هذا الجزع ويعلل هذه الحيرة. ألهم الله الأمة العربية على جلالة ملكها فيصل أجمل الصبر، وجعل لها في جلالة ملكها غازي خير العوض!

احمد حسن الزيات

ظلم العدالة!

للأستاذ حسن جلال. القاضي بالمحاكم الأهلية ومؤلف حياة نابليون والثورة الفرنسية

أصبح معنى العدالة في البلاد التي لها (قوانين) كمصر غير معناها في البلاد التي ليست لها قوانين مكتوبة كإنجلترا مثلا. ومعنى العدالة في مصر أن تطبق القوانين على الناس بالسواء. ولذلك أمكننا أن نسمع هنا من يقول (إن المساواة في الظلم عدل!)

وكان ينبغي البحث عن وسيلة أخرى لضمان العدالة الحقيقية لا العدالة التي كل أساسها تساوي الناس ولو عند توزيع الظلم. لأن من القوانين ما لو طبق بحرفه لكان الظلم بعينه. وكل حالة من الحالات التي يراد تطبيق القانون عليها لها ظروف خاصة تجعلها تختلف عن غيرها من الحالات. فتطبيق نص القانون حرفياً على كلا الحالين دون مراعاة لهذهالظروف هو الإجحاف بعينه. وإن كان يتسير تحت اسم تطبيق العدالة باتباع نصوص القوانين. ولهذا السبب قال الفرنسيون وهم أئمة القانون المكتوب في العالم: ,

(القانون يقتل بحرفه ويحيي بروحه). والمعنى أن القاضي الذي يطبق نص القانون بالحرف دون مراعاة للظروف قد ينتهي إلى عكس النتيجة التي يصل إليها القاضي الذي ينظر إلى روح القانون ويراعي ظروف الأحوال.

هذه مقدمة جافة ربما كانت غير شائعة عند من لا يهمه الدخول في تفصيلات علمية. ولكني أسوق مثالا للإيضاح يتبين أنه معنى ما أردت أن أصل اليه:

رجل يبيع الفاكهة على عربة يدفعها بيديه يطوف بها الأسواق والطرقات. هذا رمان، وهذا بلح، وذاك عنب، وذلك غير ذا وهذا وذاك. والرجل له زوجة صغيرة السن لم تفرغ

بعد من سلخ عقدها الثاني، وللزوجين طفلة رضيعة تحملها الأم على كتفها لأنها لا تزال في ذلك الدور الذي يكون فيه الأطفال أقرب إلى الطفيليات منهم إلى الكائنات الآدمية المستقلة.

. . .هؤلاء الثلاثة هم أشخاص القصة

أما القصة فتبدأ كما يأتي:

تقدمت للمحكمة هذه الأسرة بأفرادها الثلاثة وتهمتها أن الأبوين أحرزا مادة مخدرة (أفيون) بدون مسوغ قانوني، وطلبت النيابة فيما طلبت تطبيق نص المادة 35 من قانون المخدرات

الجديد الذي قصد به محاربة المخدرات حربا رادعة

ونص المادة المذكورة هو كما يأتي:

يعاقب بالحبس مع الشغل من سنة إلى خمس سنوات وبغرامة من 300 جنيه إلى) 1000 جنيه. . . كل شخص ليس من الصيادلة أو من الأشخاص المرخص لهم بالاتجار بالجواهر المخدرة يكون قد حاز أو أحرز أو اشترى جواهر مخدرة ما لم يثبت أنه يحوز هذه الجواهر بموجب تذكرة رخصة أو تذكرة طبية بموجب أي نص من نصوص هذا القانون)

أما الوقائع فتتلخص في أن جماعة من رجال البوليس الملكي خرجوا على عادتهم يجوسون خلال الأسواق والطرقات يبحثون عمن يتجر في المخدرات أو يتعاطاها لضبطه واتخاذ الاجراءات القانونية قِبَلَهَ. فصادفوا الزوج يتغنى ببلحه ورمانه وفاكهته فدهموه إذ كان يعلم أحدهم أنه ممن يشتبه في أمرهم لسابقة ضبطه ومعه مقدار من الأفيون. وأخذوا يفتشونه فتولى بعضهم شخصه وملابسه. وتولى آخرون أقفاصه وبضاعته. وبينما هم في عملهم إذ أبصر أحدهم زوج الرجل مقبلة من بعيد. فلما رأتهم محدقين بزوجها يفتشونه عادت أدراجها مسرعة، فأوجس رجل البوليس منها ريبة وتبعها في تلصص، حتى دخلت بينها اقتحمه عليها فإذا هي تلقي من يدها شيئا فالتقطه، فإذا هو قطعة من الأفيون فضبطها هي الأخرى وعاد بها إلى زوجها وطفلها على كتفها. واقتيدت الأسرة إلى مركز الشرطة حيث حرر ضدها (المحضر اللازم) وتحدد يوم للمحاكمة، وأحيل المتهمان على المحكمة (بعد أن القي القبض على الزوج وأفرج عن الزوجة بالضمان).

ظاهر القصة ينادي بأن الزوج وهو صاحب المنزل يحرز الأفيون المضبوط، إما لاستعماله الشخصي وإما لأنه يتجر فيه، ولا سيما وقد سبق للرجل أن حكم عليه بسبب إحرازه أفيونا في قضية أخرى.

وكانت المحاكم تجري في أحكامها على إدانة الرجل في مثل هذه الأحوال، وتبرئة الزوجة التي ينحصر كل عملها في محاولة تفادي الاتهام، وهو عمل مشروع من حق كل إنسان أن يأتيه، وفي السعي لتخليص زوجها ورب بيتها من مأزق وقع فيه وتوشك بسببه أن تحرم من حمايته ومعاشرته ورعايته. . .

ولكن محكمة النقض والابرام، وهي القوامة على قضاء المحاكم جميعها، فسرت نص المادة

35 المذكورة تفسيرا آخر أخذت فيه بحرفية القانون، ولها عذرها فيما فعلت: إن الشخص يجب أن يعتبر محرزا تنطبق عليه نصوص المادة 35 متى امتدت يده إلى المادة المخدرة، ولا عبرة بعد ذلك بالباعث له على تناولها، ويستوي في ذلك أن يكون إحرازه لها بقصد تعاطيها، أو الاتجار فيها. أو العمل على إخفائها لتفادي ضبطها معه أو مع شخص آخر قريب اليه.

وزاد الحالة حرجا أن هناك مادةأخرى هي المادة 40 من ذلك القانون الصارم ونصها كالآتي:

لا يجوز الحكم بإيقاف تنفيذ الحبس لمن يحكم عليه في جريمة من الجرائم) المنصوص عليها في هذا القانون، وتكون الأحكام واجبة التنفيذ فورا ولو مع حصول استئنافها. ويحرم المحكوم عليه بناء على هذا القانون من استعمال حقوقه السياسية والانتخابية لمدة خمس سنوات تبتدئ من انتهاء مدة العقوبة)

يعني أن من يحكم عليه بسبب إحرازه مخدرا لا سبيل إلى استعمال الرحمة معه، فالحكم يقع عليه نافذا فورا. ولا يمكن تعليق تنفيذه أو إيقافه بحال من الأحوال، مع أن

السارق والمزور وخائن الأمانة والنصاب كل أولئك وغيرهم أيضا تستطيع المحاكم أن توقف تنفيذ العقوبة التي تحكم بها عليهم إذا وجدت مبررا لذلك من جنس أو سن أو نحوهما.

وقد عرضت تلك القضية التي نحن بصددها على المحكمة فلم يكن أمام قاضيها الا طريق واحد: وهو أن يأخذ الزوجة بإحرازها المادي لقطعة الأفيون المضبوطة، فقضى عليها بالحد الأدنى للعقوبة المقررة وهي حبسها سنة واحدة مع الشغل وتغريمها200 جنيه وشمل حكمه أيضا بالنفاذ. أما الرجل فلما كان لم يضبط معه شيء وكان قضاء محكمة النقض يفيد قصر العقوبة على المحرز أياً كان السبب في إحرازه فقد قضت المحكمة ببراءته!

وهكذا انقلب الوضع!

فأصبح الرجل بريئا، وهو الذي ضبط الأفيون في بيته، والذي يفترض فيه الإحراز بحكم جنسه وبحكم السابقة التي له. أما الزوجة، تلك الصبية الغريرة الساذجة، التي هالها أن ترى زوجها بين يدي الشرطة يوشك أن يمنع من العودة إليها وإلى طفلته. والتي خشيت أن تمتد أيديهم إلى ما في منزل زوجها فأسرعت إليه تخفيه عن أعينهم. والتي لا يفترض

فيها تعاطي الأفيون ولا الاتجار فيه بحكم جنسها وبحكم سنها، والتي كانت يدها وهي تمدها إلى الأفيون المضبوط يدا عارضة لا يقصد بها إحراز ولا حيازة ولا تعاط ولا اتجار، فهي التي أودعت السجن هي وطفلتها تبعا لأنها جزؤها الذي لا يتجزأ. وهي التي سوف تخرج من السجن بعد عام مدموغة بأنها (من أرباب السوابق) وكل ذلك باسم العدالة وباسم القانون!!

ان الإنسان ليفكر مرتين قبل أن يقرر أن القوانين قد كفلت العدالة.

القلب

للأستاذ أحمد أمين

رمتني آنسة في جريدة الأهرام (بأن لا قلب لي، وان كان فليس يخفق) لأني كتبت موضوعا في مجلة الرسالة عنوانه (أدب القوة وأدب الضعف) سميت فيه الأدب الذي يضعف النفس ويمرض العاطفة أدبا ضعيفا مائعا

لك الله يا آنسة أفتدرين أن أشنع سُبّة يسب بها إنسان: أنه لا قلب له؟

وهل المرء ألا قلبه؟

ليس الإنسان جسما بعضه القلب لكنه، قلب غلافه الجسم. لقد قالوا: (إن المرء بأصغريه قلبه ولسانه) ولكنهم بقولهم قد رفعوا من شأن اللسان حتى قرنوه بالقلب، ووضعوا من قيمة القلب إذ قرنوه باللسان، وهل اللسان إلا حاك بكى لأحط حركات القلب وانفعالاته؟ وكيف يعبر المحدث عن القديم؟ أم كيف يحيط المحدود باللامحدود؟ وأين يقع معجم اللغة من معجم العالم؟

إن القلب يقرأ ما رسمه الله على السماء والأرض من أشعار، ولا يسمح منها للسان الا بالقليل التافه، وما الشعر الملفوظ بجانب الشعر المحسوس؟

القلب لا يكذب أبدا واللسان لا يصدقُ الا قليلا، لعلك يا آنسة فتشت عن أعجب ما خلق الله من السماء وفي الأرض لم تجدي أعجب ولا أروع ولا أدق ولا أجمل من قلب الإنسان، تصلح أوتاره فيفيض رحمة وشفقة وحبا وحنانا، ومعاني لطافاً وشعورا رقيقا، حتى يتجاوز في سموه الملائكة المقربين، وتفسد أوتاره فينضج قسوة وسوءا حتى يهوى إلى أسفل سافلين

حوى على دقته كنه العالم! فما أدقه وأجله وما أصغره وأعظمه! يكبر، ولا نرى كبره، فيتضاءل أمامه كل كبير، وسيصغر ولا نرى صغره فيتعاظم عليه كل صغير.

اتحد شكل القلب واختلفت معانيه، فقلب كالجوهر الكريم صفا لونه، وراق ماؤه، يتلقى الإشعاع ويعكسه وهو على أشد ما يكون ضوءا ولمعانا، وقلب كالصخر قوي متين، ينفع ولا يلمع، وقلب هواء، خف وزنه، وحال لونه، وقلب. . . وقلب. . . مما لا يحصيها الا خالقها، إن اتحدت عيون الناس وآذانهم ووجوههم ورءوسهم نوعا من الاتحاد فأن لكل

إنسان قلبا وحده، ينبض بنوع من حب وكره، وقسوة وحنان، وإعظام واحتقار، ورفعة وانحطاط، لا يشركه فيه قلب آخر وبهذا، وبهذا وحده. اختلفت قيم الناس وتعددت

مراتبهم.
يموت القلب ثم يحيا، ويحيا ثم يموت، ويرتفع إلى الأوج، ويهبط إلى الحضيض، وبينما هو يسامي النجوم رفعة، إذا به قد لامس القاع ضعة، وهكذا يتذبذب في لحظة بين السماء والأرض، والطول والعرض، وخير الناس من احتفظ برفعة قلبه، وسمو نفسه.
هو إن شئت فردوس، وإن شئت جحيم، هو إن شئت ملك، وإن شئت شيطان، هو إن شئت نار تتقد بالحب
هل الوجد الا ان قلبي لودنا ... من الجمر قيد الرمح لاحتقر الجمر
هل الحب الا زفرة بعد زفرة ... وحرٍ على الأحشاء ليس له بَرْد
وفيض دموع العين يا مي كلما ... بدا عَلَم من أرضكم لم يكن يبدو
وإن شئت سلا فكان برداً وسلاما
وقلت لقلبي حين لج به الهوى ... وكلفني مالا أطيق من الحب
الا أيها القلب الذي قاده الهوى ... أفق لا أقر الله عينك من قلب
القلب مركز العاطفة، والرأس مركز العقل، وما العقل لولا العاطفة؟ إن العقل أكثر ما ينفع للهدم، والقلب أكثر ما ينفع للبناء، إن القلب يؤمن، والعقل يلحد، والقلب يحب والعقل يحذر
نصحتك علما بالهوى والذي أرى ... مخالفتي فاختر لنفسك ما يحلو
القلب يؤسس العالم، والعقل يسكنه، والقلب يخلق الشيء والعقل يغصبه، سلي التاريخ أليس أعظم بناة العالم قد امتازوا بكبر القلب، وصدق الشعور، وقوة الإرادة، أكثر مما امتازوا بسعة العقل وقوة الإدراك؟
القلب بنى البناء والعقل نقده، والقلب أحيا الشعور والعقل حدَّة، هل تعلمين يا آنسة أن من وجد كل شيء وفقد قلبه لم يجد شيئا، وان من جرد من قلبه لا يعرف صداقة ولا يدين بوطنية ولا يشعر بحنان، ولا ينطوي على إيمان؟
أو تعلمين أن من سُلِب القلب فقد سُلِب الفن والأدب، لأن الفن مناطه القلب، والعلم مناطه العقل؟ وقد سئل مصور ماهر كيف تمزج ألوانك؟ فقال: أمزجها بدم قلبي.
وكذلك الأدب الحق، هو ما كان ذوب القلب.
يا آنسة لقد رميت فأصميت، ولشد ما خفق قلبي لسُبتك، كأنه يريد أن يثبت وجوده!
قبر مفقود
للدكتور عبد الوهاب عزام
قال صاحبي: هذا مسجد النبي دانيال، فولجنا إلى الفناء فإذا جماعة من السؤَّال جالسين إلى الجدار كأنهم موتى أعوزتهم القبور، قال صاحبي: وهذا البناء مقبرة. فملنا ذات اليمين إلى رجل واقف بباب البناء عرفنا من موقفه وأوامره أنه قيِّم المقبرة
- السلام عليكم
- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، هل من حاجة؟
- يا سيدي: شاعر من شعراء الترك ووزير من وزرائهم قدم إلى مصر أيام محمد علي باشا ومات بهذه المدينة ودفن بجوار النبي دانيال. فهل تعرف عن قبره خبراً؟
- أكان وزيراً في مصر؟
- كلا، ولكنه مر بمصر حاجاً ثم عاد إليها بعد الحج فمات بالإسكندرية
- هذه مقبرة لأسرة الأمير عمر، يا محمد! اذهب معهما إلى المقبرة القديمة، أليست مفتوحة؟
- لا يا سيدي ولكن فتحها يسير. فهناك إبراهيم
سرنا وراء الرجل يسلك بنا مضايق في فناء المسجد حتى انتهى إلى زقاق ضيق يفضي إلى باب مرتفع، فنادى إبراهيم وكلمه فجاء يحمل المفتاح، وتقدم نحو الباب ففتحه ثم ألقى خشبة ضخمة على كوم من الحطب أمام الباب فارتقى عليها ودخل فاتبعناه:
سور قصير يحيط بعرصة واسعة فيها ارتفاع وانخفاض وأكوام من التراب وأكداس صغيرة من الأحجار، يبدو بداخلها قبران إلى اليمين عليهما نُصبان من الرخام، وإذا أنعم النظر تبين قبرين دارسين او ثلاثة في أرجاء أخرى
قال إبراهيم: ليس هنا الا القبران اللذان ترى، فتأملت كتابة تركية فقرأت ما في سطور الفناء من عظات وتواريخ وأسماء، فإذا اسمان آخران ودفينان مضى عليهما

زهاء ثمانين عاما. فجلت في أرجاء المقبرة فرأيت قبرا عليه نصب واقع يتضمن اسما آخر، ثم مررت بقبر لا نصب عليه، وبنصب لا قبر له: بطشت يد الزمان العسراء، ببقايا الفناء!

تتخلف الآثار عن أصحابها ... حينا ويدركها الفناء فتتبع

لبثت حينا أسائل القبور والأحجار فلم تحر عن الشاعر جوابًا. فرجعت إلى إبراهيم فقال: كانت هذه الأرض كلها قبور فذهب بها الحفر، قلت أي حفر؟ قال: قلبوا الأرض يفتشون عن قبر الاسكندر. وقد أخرجوا ما ضمنته الأرض من أحجار وعظام إلى عشرين مترا فلم يظفروا بشيء. قلت انها لتعزية: إن فقدنا قبر شاعرنا فقد ضل في ثنايا الأرض وظلمات التاريخ قبر الملك العظيم الفاتح الاسكندر بن فليب، انها لتعزية!

رجعنا إلى صاحبنا الذي أشار بالذهاب إلى المقبرة القديمة فقال:

- هل عثرتم على القبر المنشود؟

- لا. رأينا قبورا قليلة، وقرأنا ما وجدنا من أنصاب فلم نجد قبر عاكف باشا

- هنا مقبرة سعيد باشا. أيمكن أن يكون مدفونا هنالك؟

- ليس بعيدا فقد حدث التاريخ أن محمد علي باشا أحسن وفادته وبالغ في الحفاوة به. فليس بدعا أن يكون قد أمر بدفنه بين قبور الأمراء.

- يافلان (قيّم مقبرة سعيد باشا) وكان بجانبه، أدخل بهما لعلهما يجدان القبر، فأحسبني رأيت هذا الاسم على بعض القبور

- عندي أوراق فيها أسماء القبور كلها فتفضلا معي.

ودخل إلى بهو به مكتب، فأخرج ورقتين فيهما أسماء معظّمة لأمراء وأميرات، أسماء كانت عناوين حياة حافلة بالعظمة والرفاهية، مليئة بخطوب الزمان، ونوب الأيام، وما هي الآن إلا أسماء قبور. ما وجدت (عاكف باشا) بين الأسماء، فشكرت الرجلين وانصرفت.

قال صاحبي: لم تعثر عليه

قلت: أجل، ولكني أعلم أنه في باطن الأرض، فان يكن لابد لشاعرنا من قبر،! فهب الأرض كلها قبره: يا أخي، انما يخلد الناس بالآثار، لا بهذه الأحجار. وقد صدق جلال الدين الرومي إذ قال:

بعد أزوفات ما درزمين مجوى ... درسينه هاي مردم عارف مزار ماست

فلا تطلبين في الأرض قبري فإنما ... صدور الرجال العارفين مزاري

إسكندرية 23 أغسطس سنة 1933. عبد الوهاب عزام

مناظر من موقعة صفين

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

اجتمع في سهل صفين جمعان من العرب لم يشهد تاريخ ذلك الشعب اجتماع مثلهما في موقعة منذ الزمن القديم المعروف في التاريخ، فقد كانت المواقع القديمة لا تزيد على أن تكون معارك بين بضع مئات، فلما كان الإسلام سمعنا عن موقعة حنين وقد أعجبت المسلمين كثرتهم إذ كانوا عشرة آلاف. فلما خرج العرب إلى حروب الروم والفرس زاد عد الجنود فصار إلى عشرات الآلاف. فكان عدد العرب مثلا في اليرموك ستة وأربعين الفا، وكان عددهم في القادسية ثلاثين ألفا، وفي نهاوند كذلك ثلاثين ألفا. واما في صفين فلم يكن جيش علي بأقل من سبعين ألفا. ولم يكن جيش معاوية بأقل من تسعين ألفا.

وكان معاوية السابق إلى النزول في سهل صفين، فاختار لجيشه سهلا فسيحا متصلا بنهر الفرات في مكان يسهل الاستقاء منه. ولم يكن في ذلك الجزء من نهر الفرات الأعلى مكان غيره يمكن الشرب منه، إذ ان النهر يجري هناك في إقليم الجبال فيغلب على مجراه أن يكون عميقا قائم الجوانب سريع التيار.

ولعل معاوية كان يريد السبق إلى اختيار ذلك المكان ليكسب الموقعة قبل أن يلتحم الجيشان. فلما اقبل علي في جيشه رأى عدوه نازلا في خير المنازل وقابضا على ناصية الشريعة، وقد وقفت كتيبة من جيشه لتدافع عن مورد الماء إذا حاول عدوه أن يصل اليه.

كانت خطة علي في حروبه أن يأمر جنده بالكف عن القتال حتى يحاول حل الخلاف بالحجة والمسالمة. حقا لم تفده هذه الخطة في كثير من المواطن، ولكنه لم يخرج

عنها مرة واحدة في حرب من حروبه. وقد كان في هذه الموقعة جاريا على عادته هذه، فانه أمر أصحابه ألا يتعرضوا لأحد من جيش معاوية حتى يراسله فيما جاء له. ولكن العطش ألح على أصحابه، فالتمسوا مكانا على النهر يستطيعون أن يشربوا منه فلم يستطيعوا، فأرسل علي إلى معاوية يطلب اليه إباحة الماء لأصحابه. فلم يكن بد من القتال على الماء قبل محاولة المفاوضة فيما جاء له الجيشان.

وكان بطل القتال في ذلك اليوم الأول رجلا أسمه الأشعث ابن قيس، كثر تردد اسمه فيما بعد في آخر الموقعة. وقد كان من قبل خلافة علي عاملا لعثمان علي أزربيجان، فلما قتل

عثمان دخل في طاعة علي حتى جاء معه لمحاربة معاوية في صفين. ولكنه كان ممن ينظر إليهم بعين الريب في جيش علي. ولا يمكن أن يكون الأمر على غير ذلك لأن جيش علي كان لا يثق بأحد ممن كان يعمل لعثمان، على أن الأشعث كان يطمع في الصدارة والرياسة، وها هي فرصة تهيأت له فتقدم إليها مسارعا، فطلب إلى علي أن يخرجه لقتال القوم على الماء فأذن له علي في ذلك. واشتدت الحرب وتوالت الإمداد من الجانبين وانتصر علي وأصبحت الشريعة في يده، وارتدت جنود معاوية إلى مكان بعيد عن النهر، وتقدمت جنود علي فنزلت في ناحية من السهل الفسيح الذي كانت جيوش معاوية تحل فيه وتملك الانتقال خلاله.

كثر تحدث الجنود والقواد بعد ذلك فيما يظنونه من صنع علي عقب انتصاره، فمن قائل إنه يقابل الإساءة بمثلها، ومن قائل إنه يتفضل على عادته في النيل، وقال عمرو بن العاص: (ما أظنه يمنعنا الماء كما منعناه من قبل. انه قد جاء لغير ذلك) وكان عمرو أصدق المتوقعين، فأن علياً أبى ان يمنع أحداً ورود الماء. وقد يسائل أحدنا نفسه: (ماذا كان يجب عليه أن يفعل؟)

وقد يجيب بحسب ما يظنه الأمثل والأصلح، ولكن لا يشك أحد في وصف ما أتاه علي بأنه نبل.

نزلت جنود علي في سهل صفين في أواخر ذي الحجة، فلما دخل المحرم اتفق الجيشان على الموادعة مدة الشهر الحرام، وكان علي يرجو أن يستطيع في أثنائه حسم الشر والوصول إلى توحيد كلمة المسلمين بغير حرب، غير أنه كان يعلم أن معاوية لا يقصد غير الملك، وما كانت الحجج لتستطيع أن تحوله عن مثل ذلك القصد. غير أنه كان يطمع في أن يستميل بالحجة أهل الرأي ممن مع معاوية، فكانت رسله تختلف إلى معاوية تحمل من الحجج ما هو أشبه بالدعاية السياسية منه بالمراسلة المعتادة بين رئيسي حزبين متعاديين، وكان ينتهز فرصة وفود رسل معاوية لكي يحاول أن يستميلهم بالحجة، وكان إذا وجد من هؤلاء الرسل انصرافا عن حجته وتمسكا بمعاوية أظهر أشد الأسف حتى ليقول مثلا: (انك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين، وما أنت بهادي العمى عن ضلالتهم أن تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) فلما رأى المحرم قد مضى وأيقن

أن تلك المحاولات لم تفده شيئا، أمر أحد قواده أن يعلن استئناف القتال، ولم يرض أن يهاجم أعداءه حتى يعلن إليهم عزمه. فلما غربت شمس آخر يوم من المحرم نادى مناديه بإعلان الحرب معتذرا بأنهم أبوا الإذعان للحجة ولم يلبوا الدعوة إلى الإسلام. وابتدأت المصادمة على شكل مواقع جزئية، وذلك بأن ترسل كتيبة من جيش علي فتلقاها كتيبة من جيش معاوية فتتجاولان مدة نهار حتى يحجز بينهما الليل، وكانت القتلى في مثل هذه المجاولات قليلة العدد. وكان الناس إذا أقبل الليل يضعون السلاح ويدخل بعضهم إلى مخيم بعض فيتحادثون ويتسامرون ويسمع بعضهم قول بعض في غير قتال حتى تستأنف المعركة سيرها في اليوم التالي. وقد استمر الحال على ذلك مدة الأسبوع الاول من المعركة، ثم عزم على المقاتلة بكل جيشه في يوم الأربعاء الثاني مهن شهر صفر سنة سبع وثلاثين للهجرة.

وكان الجيشان مرتبين حسب النظام المتبع حين ذلك. وهو أن يجعل لكل منهما قلب وجناحان، وكان الهجوم يحدث من الجناحين أو من أحدهما ويكون القائد في القلب ومعه أوثق جنوده يهجم بهم وقت الضرورة، أو يمد بهم من يحتاج إلى المدد من الجناحين. وقد بدأ علي الهجوم بجناحه الأيمن وجل جنوده من أهل اليمن، فهبطوا على جناح معاوية الأيسر، وكان قائد ميمنة علي أحد شجعان العرب وقرائهم وهو عبد الله

بن بديل، فكانت الحملة الأولى تيارا قويا تزعزعت له ميسرة معاوية حتى اضطر إلى إمدادها بالشجعان الذين معه في القلب وهم الذين بايعوه على الموت، وعند ذلك قويت ميسرة معاوية وكرت على ميمنة علي حتى ردتها، ولم يبق ثابتا الا القائد مع مائتين أو يزيدون استماتوا في القتال أمام الجموع المتزايدة الجرارة التي تدفقت عليهم، فلما رأى علي أن ميمنته ارتدت هذا الارتداد السريع الذي لم يكن متوقعا عقب الانتصار الأول حاول أن يقابل الهجوم بمن معه في القلب وكانوا من مضر. فلم يستطيع أن يرد بهم ذلك التيار واضطر إلى أن ينحاز إلى ميسرته وكان جنودها من ربيعة. فلما رأت الميسرة ما حاق بالميمنة والقلب وانحياز الخليفة إليها ثارت فيها الحمية وثبتت ثباتاً عظيماً ووقف علي معهم يحارب بنفسه.

رأى أحد قواد علي وهو الأشتر النخعي ما حاق بالميمنة من الهزيمة وكان يمنيا. فتارت روحه القوية وجاشت نفسه الباسلة فأسرع نحو المنهزمين وتمكن بقوة نفسه وشجاعة قلبه وفصاحة لسانه من أن يرجع كثيرا منهم ويذمرهم ويثير فيهم الحماسة حتى التف حوله عدد عظيم ممن كان انهزم من الميمنة. فعطف بهم إلى القتال فأدرك عبد الله بن بديل وهو بآخر رمق من الجهد يقاتل مع أصحابه القلائل المستميتين. فأعاد الكفة إلى الرجحان وما زال يقاتل حتى صار القتال متكافئا بين الفريقين، ولما رأى علي ذلك عاد إلى الميمنة وجعل يشجعهم ويذمرهم.

وأقبل الليل والكفتان متراجحتان بعد، ولم يشأ أحد من الفريقين أن يقف القتال أثناء الليل إذ كان كل منهما يعض على النواجذ من أجل النصر.

وأصبح الصباح فإذا بجنود علي في الميمنة لا يزالون منتصرين مع الأشتر النخعي حتى صرعوا صفوف المعقلين الذين التفوا حول معاوية وقد بايعوه على الموت وعقلوا أنفسهم بالعمائم حتى لا يستطيعوا الانصراف من حوله، وكانت الميسرة كذلك منتصرة قد أوشكت أن تبلغ إلى قلب جيش معاوية وجعلته يفكر في الفرار، وفيما كان الأمر على ذلك ارتفعت صيحة من ميمنة جيش معاوية وما زالت تتزايد حتى بلغت ميسرة جيش علي، فإذا الصيحة ترتفع فيها حتى تبلغ عليا ويأخذ قواده في المجادلة فيما بينهم، ثم تنتقل المجادلة حتى تصبح بينهم وبين الخليفة. وتلك هي صيحة تحكيم القرآن إذ رفع جند الشام المصاحف على الرماح وقالوا: (قفوا تلك الحرب الطاحنة، إلى متى يتطاحن المسلمون؟ لقد قرب المسلمون من التفاني. ومن يكون لحرب الفرس ومن يكون لحرب الروم إذا نحن تفانينا وقتل بعضنا بعضا؟)

تردد عليّ في وقف الحرب وعلم أن تلك خدعة لجأ إليها عدوه عندما رأى كفة النصر تنصرف عنه. ولكن بعض قواده هدده بالثورة عليه. وكان أشدهم في ذلك الأشعث بن قيس صاحب الانتصار العظيم يوم الشريعة. فاضطر علي أن يبعث إلى ميمنته المنتصرة لوقف الحرب. وتردد الأشتر في ترك الحرب وقد وشك أن ينتصر. فأعاد الإمام أمره إلى الأشتر بوقف الحرب وأفضى اليه بنبأ ثورة قواد ميسرته، فاضطر إلى أن يرفع يده وعاد إلى علي محنقا ثائرا ساخطا على إفلات النصر من يده وكان قد ظنه قريبا.

ولم يمض بعد ذلك زمن طويل حتى كتبت صحيفة التحكيم وانصرف الجيشان أولهما إلى الشام وهم فرحون اذ أفلتوا من هزيمة محقة، وثانيهما إلى العراق وهم يتلاومون ويتجادلون ويختلفون وفي قلوبهم أشد الأسى على ما أصابهم من الخذلان بعد وشك الانتصار.

وإنا نسائل النفس عن علة هذا الفشل العجيب ولا نستطيع أن نقنع النفس بأن الحوادث الظاهرة كانت كافية لأحداثه. فأن أمر هذه الهزيمة كان شبيها بعود من الثقاب أشعلته فرأيت من إشعاله انفجارا مدمرا لم يكن ليخطر لأحد ببال. فإذا عزى الانفجار إلى عود الثقاب كان ذلك إهمالا لذلك الغاز الملتهب الذي كان خفيا عن الأعين فأحدث الانفجار المروع عندما اشتعل فيه ذلك العود الضئيل. إن الحرب هي الجهد الأعظم الذي ينتهي اليه الخصام بين حزبين. وفيه يبذل كل جانب أقصى ما عنده من الهمة ليفوز. وقد لا يتورع المحارب عن الكيد بالكذب والدس والتجسس، وقديما أباح الناس أمثال هذه الدنايا في الحروب مع تحريمهم إياها في المعاملة المعتادة.

الشعر المرسل
للآنسة سهير القلماوي. ليسانسييه في الآداب
في مقال الأستاذ قدري لطفي الذي نشر بالعدد الخامس عشر من الرسالة أشياء كثيرة يحسن الاجابة عنها، لولا أني أحببت أن أكتب هذا المقال عن رأيي في الشعر المرسل لا في الرد على الأستاذ. ولكني لا أترك مقال الأستاذ هكذا بل سأطلعك على بعض فقرات ترى منها أني لم أهمل الاجابة عنه لأنها شاقة بل لأنها من السهولة بحيث يعرفها القارئ متى قرأ المقال.
انظر إلى قوله مثلا: (أما تمام المعنى في البيت الواحد فلم يكن من خصائص الشعر العربي وإنما كان من خصائص الشعراء العرب). .!! وخبرني بعد معنى هذا القول ومدى نصيبه من الصحة.
ثم أنظر إلى قوله (ولا أحسب أحدا يدعونا إلى ترك الشعر القديم وإهماله لنفسح المجال للشعر المرسل في غير حاجة ملحة ولا ضرورة ملجئة) وخبرني من ذا الذي يريد للفن أن يخضع للضرورات الملجئات والحاجات الملحات، وخبرني أيضا إذا دعونا إلى الشعر المرسل كان معنى هذا أن نهمل الشعر المقفى، لم لا يجوز وجودهما معا، وكلنا يعلم أن الشعر المرسل في كل لغة وجد فيها لم يمح الشعر المقفى وانما وجد بجانبه.
وأمثال هذين المثلين كثيرة فليقرأ القارئ مقال الأستاذ فهو خير دليل على ما زعم.
ولقد تورط الأستاذ أبان ثورته غيرةً على القافية في غير هذا النوع من الخطأ. فقد زعم أني قلت: (أني لا أشعر بفقد القافية ما دام المعنى كاملا في البيت)؛ زعم الأستاذ أني أريد بذلك حكما أو تأثيرا في الحكم على قصيدتي. وأنا وإن كنت لا ألوم الأستاذ على هذا النوع من الفهم لما يقرأ الا إنني أذكر له أني لو لم أدون فكرتي في هذا النوع من الشعر المرسل الذي نظمت به قصيدتي لأسأت إلى نفسي وإلى قارئي لأني أؤمن تماما أن من واجب الكاتب أن يصور للقارئ فكرته واضحة جلية، ولما كانت فكرتي شيئاً يتعلق بالحس فقد صورت للقارئ شعوري. ولكن الفرق بين طريقتي في التعبير وبين طريقة الأستاذ هو أني دونت شعوري ونسبته إلى نفسي، أما هو فقد دون شعوره وعممه متخذا نفسه مقياسا لكل قاريء، أنظر إلى قوله: (ولكن اصطدام القارئ بحروف متغايرة في أواخر الأبيات يشعره
بفقدان الوزن في ثناياها!!)
ولندع مقال الأستاذ لأدون رأيي في مسألة الشعر المرسل واضحا جليا حتى لا يتورط غير الأستاذ فيما تورط فيه.
الجدال في الشعر المرسل لا يقوم على أساس، فالمسألة ليست من مسائل الحساب أو المنطق، وإنما هي مسألة حس. أنت تسمع نغما فيعجبك، وأنا أسمعه فلا يعجبني، فإذا تناقشنا أعواما ما استطاع أن يقنع أحدنا الآخر. أذني تستسيغ الشعر العربي مرسلا، وقد تكون أذني شاذة، ولكنك لن تقنعني بعدم استساغته. ستقول لي: ولكن المسألة ليست فوضى، فهناك الذوق العام، ولكني وإن كنت أحترم الذوق العام لا أقبل حكمه دائما، وفي كل الأحوال. فالذوق العام له تاريخ في مثل هذه الأحوال يجعلني أتشبث برأيي. فقد يستسيغ الذوق العام غدا ويشغف بما لم يطق سماعه بالأمس، وفي مسألة الشعر المرسل خاصة كان للذوق العام تاريخ يعيد نفسه منذ كان هذا النوع من الشعر بغيضا غير مستساغ أول ظهوره في كل لغة ظهر فيها، فلا ضير أن يكون كذلك في اللغة العربية أيضا.
ثم هناك ناحية أخرى، فالذوق العام لا يستطيع اليوم أن يحكم حكما عادلا في الشعر المرسل لأنه لم يسمع منه الا القليل، وقد لا يكون في هذا القليل شئ جميل رائع كالذي في الشعر المقفى.
وقد تقول لي أخيرا أن طبيعة اللغة العربية لا توافق مثل هذا النوع من الشعر، وأنا وإن كنت لا أستطيع التحدث عن طبيعة اللغة العربية بمثل هذه السهولة الا أني أزعم أنها قد تتحور قليلا فتقبله. وأنت إن استطعت الحكم على الماضي والحاضر فلن تستطيع الحكم على المستقبل. ولكن ما بال طبيعة اللغة قبلت تغيير القافية في القصيدة الواحدة إذا غيرتها كل خمسة أبيات مثلا، ولا تقبلها إذا غيرتها في كل بيت؟. ثم ما بال طبيعة اللغة قبلت تغيير القافية في كل بيت إذا ما راعيت القافية بين

شطري كل بيت على حدة، ولا تقبل تغير القافية دون مراعاة الموافقة بين الشطرين؟
ثم ما بالها أخيراً قبلت تغير البحور في القصيدة الواحدة ولا تقبل تغير القافية ولزوم بحر واحد؟ ستقول ولكن في كل هذا نوعا من القافية كافياً لإحداث تلك الموسيقى المألوفة. إذن أصبحت تقتنع بشيء من القافية بعد أن كان الشعر العربي لا يقنع الا بالقافية كلها متبعة من أول القصيدة إلى آخرها. وإذا قبلت اللغة بعض التغير فاني أزعم أنها ستقبل التغير كاملا.
وما رأيك في أني أرى في الشعر المرسل أنواعا جديدة من الموسيقى يعجز عنها بل قد يفسدها الشعر المقفى؟
الوزن في القصيدة ليس بالنغم الخافت الذي تسمعه الأذن، فهو عندي وأظن عندنا جميعاً أقوى موسيقى في الشعر، ثم هناك موسيقى الألفاظ وموسيقى الحروف، فهل من المحتوم وجود القافية المكررة المحركة بحركة معينة حتى نشعر بأن هناك موسيقى؟
والغريب أنه بينما نحن نتناقش في الشعر المرسل يتناقش الأدباء الأمريكيون الحديثون في الشعر الحديث الذي لا وزن له ولا قافية.
ليطمئن قرائي فسيفنى عمري في الدعوة إلى الشعر المرسل، فهل يتيسر لي أن أدعوا إلى هذا الشعر الحديث الذي لا أستسيغه الآن؟ ولكني لا أعرف، فقد أستسيغه غدا.
وأخيراً أرى كما أسلفت أن المجال ليس مجال جدال وإنما خير رد على خصوم الشعر المرسل هو أن أكتب وأن يكتب غيري من أنصار الشعر المرسل قصائد نستطيع أن نقنع بها الذوق العام الذي نحترمه جميعا، وأن نقنع بها أيضا من يهمنا إقناعهم.
العالم يجري!!
كل شئ يجري في هذا العصر، وكل شئ يسرع. والعالم في إسراعه للأمام، لا يكاد يتلفت يمنة ولا يسرة، وان كان يتجه إلى الخلف في أحيان قليلة، ليرى كم قطع من المسافات.
فالبخار لم يعد يستطيع تلبية هذه الحاجة الملحة للسرعة فخلفه الطيران، والطائرات نفسها تكاد تعجز عن تلبيتها، فتزيد كل يوم في سرعتها، وتقوم المسابقات العالمية لهذا الغرض.
والتليفون والبرق لم يعودا كافيين، فإذا بالراديو وإذا بالتلفزيون لنقل الأصوات ولنقل الصور، بل لنقل المناظر ذاتها لا صورتها. وإذا بالأفلام الناطقة تعرض الصوت والحركة، وتغني بالعين والسمع عن الوهم والخيال!
هذه الظاهرة السيكلوجية الغربية، قد جرفت معها الأدب أيضا، وجرفت الفنون جميعا، وكان ذلك طبيعيا، لأن الفنون هي الظاهرة للنفس الباطنة.
فالفن اليوم لمحات خاطفة، وملاحظات سريعة، لا يقف للدرس العميق، والتحليل الدقيق، لأن طبيعة العصر لا تمهله للوقوف، وإلا سبقته الحياة بآلاف الأميال.
والمجلات العلمية اليوم تكاد تنعدم، والباقي منها أخذته نشوة السرعة أيضا فلم تعد بحوثه مركزة، ومع ذلك فهي لا تجد العدد الكافي من القراء فتضمحل وتذوي، وتدرج في زوايا النسيان.
وأنا على يقين من تبدل هذه الحال، فالعالم الذي يجري الآن بكل قوته، لابد أن يدركه الكلال، ولابد أن تنقطع به هذه النشوة الطائشة، فيتمهل ليعرف ما يحيط به.
وسيضحك العالم من نفسه يومئذ على تلك الحماقة التي ارتكبها، كما يرتكب الأطفال حماقاتهم، ركضا وجريا ووثبا ثم يفيقون من هذه الغمرة عندما يكتمل نضجهم، ويتوبون إلى الرشاد
النشاط شيء، والعجلة شيء آخر؛ وإذا كان النشاط من مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة، فليس للعجلة هذه المزية مطلقا، بل أن لها أضرارا، قد لا تعرف اليوم في أبان هذه النزوة الطائشة؛ وقد تعرف ولكنها لا ترد إلى أسبابها الحقيقية، ولا تعلم علاتها الأصلية!
ويقيني أن هذه الأزمات التي يعانيها العالم اليوم من مالية وسياسية وأدبية واجتماعية، انما منشؤها هذه السرعة، هذا التسابق، هذا الجنون، الذي يعمي الإنسان عما حواليه،

فلا يرى إلا الإمام. دون ما على الإيمان والشمائل. . وحتى حين يصطدم بما حواليه، فهو لا يقف
ليتأمل، أو ليصلح ما أصابه من الاصطدام، بل ينطلق إلى الأمام أيضا، محتملا أثر الصدمة تلو الصدمة حتى يلحقه العطب الكامل. . . فتكون هذه الأزمات!
إن السائق الذي يعرف كيف يسوق ولا يعرف كيف يقف: أو يدري كيف يسرع، ولا يدري كيف يبطيء، إنما هو سائق جاهل، غير مأمون على نفسه ولا على الركاب. وإذا كان للقيادة السريعة لذة في النفس والنشوة؛ فليس معنى هذا أنها أحسن القيادات وأولها بالاتباع
وبعد ففي مصر اليوم دعوة حارة ومخطرة معاً، إلى تقليد الغرب، والجري وراء الغرب، وإن كان الغرب نفسه لا يعرف اليوم وجهته، وهو شارد كالضال في متاهات الحياة، فكأننا سنجري وراء من يجري وهو لا يعرف مبتغاه!!!
وهذه الدعوة مفهومة من الوجهة (السيكلوجية) وقد عرف (ابن خلدون) أسبابها منذ قرون حيثما عللها. بأن المغلوب يميل بطبيعته لتقليد الغالب لاعتقاده أن غلبته له إنما كانت لخصائص فيه.
والسيكلوجية الحديثة تقر ما ذكره ابن خلدون، وتضيف إليه العقل الباطن، إذ يندفع الإنسان في بعض الأحيان، إلى أمور لا دخل لإرادته فيها، ولا لتفكيره، بحكم اندساسها في العقل الباطن، من مخلفات مشاهداته، أو ملاحظاته أو تفكيره التي يغمرها النسيان.
وهذه الدعوة مع أنها مفهومة وطبيعية. ليست مُسَلَّمة؛ ومن الواجب التحذير منها، وإبرازها للنور، بعيدا عن المؤثرات النفسية الغامضة. وإذا كانت الحرب العظمى قد أفقدت العالم الغربي اتزانه وطمأنينته؛ وبعثته من المكامن والخنادق وحفر الموت، مأخوذا، مشدوها، مجنونا. . فليس من الواجب أن يفقد الشرق طمأنينته كذلك، ويجري وراء الغرب المأخوذ المشدوه، دون ما تأمل ولا تفكير!
إن للشرق رسالة قد يكون الآن موعدها، ورسالته هذه ستقوم على خصائصه الأصلية فيه، وستصبح واجبة بل، أصبحت لأن الغرب يكاد يتهالك ضعفا وإعياء لفرط جريه، وكثرة اصطداماته.
نحن لا نكره النشاط كما قلنا. ولكن نكره العجلة. ونريد أن يحتفظ الشرق بشيء من يقينه، ومن عمقه واتساعه، ومن سحره أيضا!، وألا يفرط في تقليد الغرب، ولا سيما والغرب يتخبط، ويئن، ويشكو من الصدمات ولم يوفق بعد لاتقائها، لأن النشوة لا تزال تطيف
برأسه فيجري، وينهكه الجري، ولكنه لا يكف عن الجريان!
سيد قطب
مطالعات في التصوف الإسلامي
عوارف المعارف. منشأ علوم الصوفية وفضلها
وقفت بك في نهاية الفصل الماضي عند ترجمة موجزة لحياة شهاب الدين السهروردي مؤلف كتاب (عوارف المعارف) وأحب أن أقف بك في هذا الفصل عند الباب الأول والثالث من هذا الكتاب حيث يحدثنا المؤلف عن منشأ علوم الصوفية وعن فضل هذه العلوم وما تمتاز بها على غيرها من فروع المعرفة الإنسانية. ولكني أحب قبل هذا أن أعطيك صورة عامة مقاربة لأبواب هذا الكتاب في جملتها. يقع (عوارف المعارف)، في نيف وستين بابا منها المطول المسهب ومنها المختصر الموجز. وفيها الدقيق المسرف في القوة والدقة. والضعيف المهلهل الذي لا يشتمل على فكرة منظمة ولا منطق منسجم بريط أجزاءه ويلم شعث عناصره. ولكن الكتاب في جملته خصب حقا ممتع نافع حقا. وهو من هذه الناحية أقدر على أن يعطينا صورة قوية شاملة لما احتوى عليه التصوف من وجدانيات وإشارات وأحوال ومقامات. ولعل من أنفع أبوابه وأوفاها هذه الأبواب التي تناول فيها المؤلف بيان منشأ علوم الصوفية وفضلها. وماهية التصوف. وسبب تسميتهم بهذا الاسم وأخلاقهم ومعرفتهم لأنفسهم ومكاشفاتهم في ذلك. وشرح الحال والمقام والفرق بينهما. تلك هي أهم الأبواب وأكثرها حظاً من الدقة والغناء. فلنترك إذا هذا الضرب من الكلام العام لنقف عند الباب الاول الذي أبان فيه المؤلف عن منشأ علوم الصوفية. والباب الثالث الذي أظهرنا فيه على فضل هذه

العلوم وذكر نماذج منها
استهل مؤلف (عوارف المعارف) الباب الاول من كتابه بهذا الحديث الشريف: (انما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوماً فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني وإني أنا النذير العريان فالنجاء النجاء. فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا. وكذبت طائفة منهم فاصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم. فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق) ثم عقب على هذا الحديث بحديث آخر هو أبلغ في الدلالة على ما قصد اليه وهذا الحديث هو: (مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً. فكانت طائفة منها طيبة قبلت الماء فانبتت الكلأ والعشب الكثير. وكانت منها طائفة أخاذات أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا. وكانت منها طائفة أخرى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم. ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به)
والغرض الذي يرمي اليه المؤلف من إيراد هذين الحديثين هو أنه أن يستخلص منهما القيمة المعنوية لنفوس الصوفية والإبانة عن أن هذه النفوس كانت أكثر قابلية من غيرها لما جاء به ودعا اليه من الهدى والنور رسول الله (. وان حظها من صفاء السرائر ونقاء الضمائر وذكاء القلب أوفر من حظ غيرها، فنفوس العلماء الزاهدين زكت.
وسرائرهم صفت، وقلوبهم صقلت وتهيأ لها من العلم حظ لم يتهيأ لغيرها من النفوس. وبعبارة أخرى كانت هذه النفوس كأوعية للعلوم كما قال مسروق عن أصحاب رسول الله. وقلوب الصوفية واعية لأنهم زهدوا في الدنيا بعد أن أحكموا أساس التقوى. ومن هنا زكت نفوسهم بالتقوى وصفت قلوبهم بالزهد. فكانت تقواهم عونا لهم على أن تصقل مرايا سرائرهم وتجلى صفحات ضمائرهم. وكان زهدهم عونا لهم على أن ينصرفوا عن الدنيا وعلى أن يقبلوا على الدين اقبالا من شأنه أن يقربهم من الله ويوحدهم معه ويفنيهم فيه.
يأخذ المؤلف بعد هذا في إظهارنا على مكان العلوم الصوفية بين العلوم الإسلامية الاخرى. فذكر من هذه العلوم التفسير والحديث والفقه وأصول الفقه والخلاف والجدل. ثم أخذ يعرض علينا تفاسير مختلفة للآية الكريمة (أنزل من السماء ماء) وانتهى من هذه التفاسير إلى تطبيق ما اشتملت عليه الآية بالنسبة إلى العلماء الذين تخصص كل منهم في فرع من هذه العلوم التي ذكرها آنفا. ثم انتهى من هذا كله إلى أن الماء الذي أنزل من السماء هو العلم وإلى أن أوعيته هي القلوب، فمن هذه القلوب ما سال واديه بالتفسير فكان علم التفسير. ومنها ما سال بحفظ رواية الحديث وسنده وتمييز صحيحه من سقيمه فكان علم الحديث. وعلى هذا النحو من التأويل والفهم يمكنك أن تقول في غير علمي التفسير والحديث ما قيل في كل من التفسير والحديث، وأما علوم الصوفية فنشأت من أن نفوسهم قد أحكمت أساس التقوى وزهدت فيما اشتملت عليه الدنيا من عرض زائل وزخرف حائل. فسالت أودية قلوبهم بما انصب منها من مياه العلوم التي اجتمعت فصارت هذه القلوب أخاذات.
أخذ الصوفية حظاً من علم الدراسة فأفادهم هذا الحظ من ناحية انه أظهرهم على الأحكام الظاهرة للعبادات فعلموها وعملوا بها. ثم تميزوا على غيرهم من علماء الدين بعلم آخر خاص بهم قاصر عليهم هذا العلم هو علم الوراثة. وعلم الوراثة هو علم العالم الزاهد المنقى الذي فقه الدين فقها أبان له عن قواعده وأصوله بحيث يتعرف المعنى الحقيقي للدين. وليس الدين شيئا آخر غير الانقياد والخضوع فهو مشتق من الدون. وكل شئ تضع فهو دون. فعلى هذا يصبح الدين عبارة عن أن يخضع الإنسان نفسه لربه وينقاد لما أمر به. وأفضل مراتب العبادة الفقه في الدين، فمن كان أفقه في الدين وأعرف بأصوله كانت نفسه أسرع اجابة وقلبه أشد انقيادا لمعالم الدين وأصوله.
فأنت ترى من هذه الملاحظات التي ذكرها السهروردي في هذا الباب أن علم الشريعة قد انقسم إلى قسمين متمايزين: قسم اختص به الفقهاء وأهل الفتيا للأحكام العامة والعبادات والمعاملات. وقسم اختص به الصوفية وأهل الباطن اشتمل على ما يتعلق

بهم من مراقبات ومحاسبات، ورياضيات ومجاهدات، وأحوال ومقامات. وما إلى ذلك من الأمور الكثيرة التي نراها منبثة في تضاعيف علومهم ومعارفهم. كتب الفقهاء كتبهم فدونوا فيها الأحكام التي استخلصوها من القرآن والحديث. وكتب الصوفية كتبهم فدونوا فيها مكاشفاتهم ومواجدهم التي انتهوا إليها عن طريق القرآن والحديث، ولكن هناك فرقاً بين فقه الفقهاء وتصوف الصوفية. ذلك أن الفقه هو علم الأحكام الظاهرة للعبادات والمعاملات على حين أن التصوف هو علم المواجد القلبية، والرياضات النفسية، والأحكام الباطنية. وإذن فقد سمي الفقه بعلم الظاهر وسمي التصوف بعلم الباطن.

ويظهرنا مؤلف (عوارف المعارف) بعد ما قدم على كيفية نشأة الشر وكيف أصبحت النفس مأوى لهذا الشر وكيف امتازت نفوس الأنبياء والأولياء على نفوس غيرهم. فذكر هذه القصة التي تتلخص في أن الله بعث جبرائيل وميكائيل ليقبضا قبضة من الأرض فلما أبت بعث عزرائيل فقبضها، وكان إبليس قد وطيء الأرض بقدميه فأصبح بعضها بين قدمين وبعضها الآخر بين موضع أقدامه. ومن هذه المواضع التي مستها أقدام إبليس خلقت النفس فصارت مأوى للشر. ولكن هناك جزءاً من الأرض لم تصل اليه أقدام إبليس ومن هذا الجزء أصل الأنبياء والأولياء. ولما كانت ذرة رسول الله موضع نظر الله من قبضة

عزرائيل لم يمسسها قدم ابليس، ولهذا لم يصبها الجهل، وانما كان رسول الله على العكس موفور الحظ من العلم، والنور، ومن هنا بعثه الله تعالى بالعلم والهدى فانتقل هذا العلم من قلبه إلى القلوب، وانتقل هذا، الهدى من نفسه إلى النفوس. ومن هنا كانت العلاقة بين رسول الله وبين الذين دعاهم إلى الأخذ بما بعثه الله به. وبعبارة أخرى كانت هذه العلاقة بنسبة طهارة الطينة. فمن كان أقرب مناسبة بنسبة طهارة الطينة كانت نفسه أكثر استعدادا لقبول ما جاء به رسول الله. وقلوب الصوفية أقرب مناسبة من هذه الناحية، وهي لهذا قد ظفرت بحظ كبير من العلم فأصبحت بواطنهم أخاذات فعلموا وعلموا، مثلهم في ذلك كمثل الأخاذ الذي يسقي منه ويزرع منه. وهم بعد هذا ومن أجل هذا اجمعوا بين فائدة علم الدراسة وفائدة علم الوراثة بأحكام أساس التقوى. ولما أن صقلت مرايا قلوبهم وصفت صفحات نفوسهم ظهرت لهم الأشياء على حقيقتها وماهيتها. فبانت لهم الدنيا بما فيها من قبح فأعرضوا عنها، وبدت لهم الآخرة بما فيها من حسن فاقبلوا عليها.

وختم المؤلف هذا الباب بملاحظة لها قيمتها وخطرها في فهم التصوف فهما صحيحا مستقيما. هذه الملاحظة هي التي يظهرنا فيها على المعنى الذي تدل عليه لفظة الصوفي. فالصوفي عنده بمعنى المقرب. وهذه اللفظة لم يرد ذكرها في القرآن ولكنها تركت ووضع مكانها لفظة مقرب. ولا يعرف في بلاد الإسلام هذا الاسم لأهل القرب. وانما يعرف للمترسمين. فهناك نفر كبير من المقربين في بلاد المغرب وتركستان وما وراء النهر لا يسمى باسم الصوفية لأن أفراده لا يتزينون بزي الصوفية، ومن هنا انتهى مؤلف (عوارف المعارف) إلى أنه لا يقصد حين يتكلم عن الصوفية في كتابه الا المقربين. وهناك ملاحظة ختامية أخرى ذكرها المؤلف في نهاية هذا الباب، هذه الملاحظة لها قيمتها وخطرها أيضا إذ هي تظهرنا على الفرق بين الصوفي والمتصوف. فالمتصوف هو من تطلع إلى مقام المقربين من جملة الأبرار ما لم يتحقق بحالهم. والصوفي هو من تطلع إلى مقام المقربين حيث يتحقق بحالهم. وأما من هو دون المتصوف والصوفي ممن تميز بزي ونسب إلى الصوفية أو المتصوفة فهو متشبه. ولنمض الآن إلى الباب الثالث حيث يحدثنا السهروردي عن فضيلة علوم الصوفية والإشارة إلى أنموذج منها. ذكر المؤلف في مستهل هذا الباب الحديث الشريف الذي أمر فيه النبي صلى الله عليه وسلم بطلب العلم والذي جعل فيه طلب العلم فريضة على كل مسلم فقد قال رسول الله: (اطلبوا العلم ولو بالصين فان طلب العلم فريضة على كل مسلم). ذكر بعد هذا الحديث الشريف آراء العلماء من المتقدمين واختلافهم في هذه الآراء حول هذا العلم الذي أمر رسول الله بتحصيله وجعل طلبه فريضة على كل مسلم. وقد اختلف القدماء اختلافا قويا حول هذا العلم ماذا عسى أن يكون. فمنهم من قال هو علم الإخلاص ومعرفة آفات النفوس. (وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين). ومنهم من قال هو معرفة الخواطر وتفصيلها، لأن هذه

الخواطر هي مبدأ الفعل وأصله ولا يمكن حدوث
فعل إذا لم يسبقه خاطر. وذهب فريق إلى أنه علم الوقت. وانتهى فريق آخر ومنه سهل بن عبد الله إلى انه علم الحال أي حكم حال العبد الذي بينه وبين الله تعالى في دنياه وآخرته. ورأت طائفة أنه علم الحلال أو أنه علم الباطن الذي يستفاد من مصاحبة العلماء الزاهدين والأولياء الصالحين. وطائفة أخرى أنه علم البيع والشراء، والنكاح والطلاق، أو أنه علم التوحيد. وقد رأى أبو طالب المكي إن هذا العلم هو علم الفرائض الخمس التي بني عليها الإسلام.
تلك هي الآراء المختلفة التي رآها القدماء في هذا العلم الذي طلبه فريضة على كل مسلم والتي استعرضها مؤلف
في شيء من الإسهاب كثير، وانتهى من هذه الآراء كلها إلى أنه (عوارف المعارف) أميل ما يكون إلى رأي أبي طالب المكي، وإلى رأي من قال بان العلم الواجب تحصيله على كل مسلم هو علم البيع والشراء، والنكاح والطلاق إذا أراد الدخول فيه. ومن هنا يستخلص السهروردي ان العلم المقصود في حديث رسول الله انما هو علم الأمر والنهي. والمأمور في علم الأمر والنهي هو ما يثاب على فعله، وما يعاقب على تركه. والنهي في هذا العلم هو ما يعاقب على فعله ويثاب على تركه. والنتيجة التي خرج بها المؤلف من هذا الكلام المستفيض هي أن علماء الصوفية عرفوا العلم المفترض على المسلمين فأقاموا دعائم علم الأوامر والنواهي بترسمهم خطى رسول الله في الاستقامة، مستعينين على إقامة هذا العلم وتدعمه بما منحوا من زهد في الدنيا وحب للآخرة وصفاء في السرائر ونقاء في الضمائر، والاستقامة التي رفع الصوفية لواءها وأثلوا بناءها هي سبيل المجتهد الصادق، والصوفية
حين كرمهم الله بالنهوض بواجب هذه الاستقامة رزقوا سائر العلوم كعلم الحال، وعلم القيام، وعلم الخواطر، وعلم اليقين، وعلم الإخلاص، وعلم النفس، وأخلاقها وشهواتها وما إلى غير ذلك من العلوم المتعددة التي ظفر بها الصوفية وحرمها غيرهم من علماء الدنيا. وهذه العلوم كلها ذوقية وجدانية يستعان في تحصيلها بالذوق والوجدان.
وكم كنت أحب أن أقف وقفة قصيرة عند اختلاف القدماء في أمر هذا العلم المفترض أبين فيها حظ هذه الآراء من الصواب أو الخطأ. ولكن حسبي أن أوجز لك الآن ما اعتزمت إيجازه من أبواب الكتاب إيجازاً يعطيك صورة مقاربة له، على أن أتناول مناقشة بعض ما ورد فيه من آراء مناقشة نقدية سوف اعرض لها في مقال ختامي.
وبعد أن عدد المؤلف أنواع العلوم التي ظفر بها الصوفية. قارن بين علمي الوراثة والدراسة مقارنة تتلخص في أن علوم الوراثة مستخرجة من علم الدراسة. مثلها في ذلك كمثل الزبد الذي يستخرج من اللبن الخالص. فلو لم يكن لبن لم يكن زبد. ثم عرض السهروردي إلى علوم الإسلام فقال ان للإسلام علوما هي علوم مبانيه. والإسلام بعد الأيمان نظر إلى مجرد التصديق: ولكن للإيمان فروعا بعد التحقق بالإسلام. وهذه الفروع مراتب كعلم اليقين الذي يعطيه لنا الدليل. وعين اليقين وهو ما تعطيه المشاهدة، وحق اليقين وهو ما حصل من العلم بما أريد به ذلك الشهود. وهذه قد تقال للتوحيد والمعرفة والمشاهدة. وللإسلام في كل فرع من فروعه علوم، وبالجملة فانك ترى أن علوم الإسلام هي علوم اللسان، وان علوم الإيمان هي علوم القلوب. ولعلوم القلوب هذه وصفان أحدهما عام والآخر خاص. فأما الوصف العام فهو أن علم اليقين يتوصل اليه بالنظر والاستدلال. ومن هنا اشترك في هذا الوصف كل من علماء الصوفية وغيرهم من علماء الدنيا. وأما الوصف الخاص فهو هذه السكينة التي أنزلها الله على قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا على إيمانهم. ومن هنا ترى أن علوم الصوفية اشتركت مع علوم غيرهم في مرتبة اليقين، وهي المرتبة الاولى ثم امتازت عليها بالمرتبتين الأخريين وهما مرتبة عين اليقين ومرتبة حق اليقين.
ويقسم المؤلف الناس طبقات انقسموا بالنسبة إلى نفوسهم وقلوبهم وأرواحهم. فمنهم من كانت نفسه ظاهرة على قلبه. وهذا الفريق يدعوه الله بالموعظة. ومنهم من كان قلبه ظاهرا
على نفسه وهذا يدعوه الله بالحكمة. فأجاب الأبرار الدعوة بالموعظة بذكر الجنة والنار. وأجاب المقربون الدعوة بالحكمة وهي الدعوة بمنح القرب وصفو المعرفة. ولما وجدوا التلويحات بهذا القرب أجابوا بأرواحهم وقلوبهم ونفوسهم. وهم حين

يتابعون الأعمال يجيبون بقلوبهم. وحين يتحققون بالأحوال يجيبون بأرواحهم. فأنت ترى من هذا الفرق بين الصوفية وبين غير الصوفية. فهؤلاء يجيبون بالبعض وأولئك يجيبون بالكل. والصوفية حين يجيبون بالكل يتهيأ لهم بالعلم والمعرفة حظ لم يتهيأ لغيرهم. ومن هنا كانوا أقدر من غيرهم على الوصول إلى اليقين الذي لا يحيطه شك. اليقين يكشف لهم عن حقيقة الذات الإلهية ويظهرهم على ماهية الأشياء. بحيث ينتهون من هذا كله إلى الاتحاد مع الله والفناء فيه اتحاداً يضمن لهم السعادة، وفناء يكفل لهم السلام.

محمد مصطفى حلمي. ماجستير في الآداب

صور من الأدب العربي

سيبويه المصري

للأستاذ احمد أمين

شخصية غريبة كانت في مصر في عهد الدولة الإخشيدية قبل بناء القاهرة، وكان يدوي اسمها في الفسطاط والقطائع وما بينهما قبيل مجيء الفاطميين، كانت شخصية ترهب وتحب، ويضحك منها، ويعتبر بها، إن شئت علما فعالم. أو شعراً فشاعر، أو أدباً فأديب، أو وعظاً فواعظ، أو فكاهة ففكه، أو نقداً مقذعا فناقد، أو جنوناً فمجنون.

ولد بمصر سنة 284هـ وعاش أربعا وسبعين سنة وأتقن النحو حتى لقب بسيبويه ألطف ما فيه لوثة (لحسة) كانت بعقله، هي سر عظمته فقد جرأ على ما لم يجرؤ عليه أحد في عصره، كان معتزلياً يقف في المسجد وفي الشارع فيصرح بآرائه في الاعتزال، ويصيح بأن القرآن مخلوق فيقولون مجنون. ويتركونه يقول ما شاء حيث لا يقول أحد شيئا من ذلك الا همساً أو من وراء حجاب، ويتعرض للناس بالقول اللاذع سواء في ذلك كافور الإخشيد أو وزيره، أو العلماء أو التجار، فيتضاحكون منه ويتقون لسانه ببره والإهداء اليه، سراً وجهراً.

كانت نوادره كثيرة، تتلقفها الألسن، ويتناقلها الرواة، فتشيع في الناس وتكون سلوتهم ومثار ضحكهم.

وقديماً عرف المصريون بالفكاهة الحلوة والنادرة اللطيفة كما عرفوا بالإعجاب بها والجد في طلبها والإمعان في الضحك منها.

من أجل هذا ألف ابن زولاق المصري كتابه اللطيف في نوادر سيبويه، لم يذكر فيه الا قليلا عن علمه ولم يذكر شيئاً عن نحوه ولا عن جده، وانما ملأه كله بفكاهته ولوثته. حذا ابن زولاق هذا حذو مؤلفي العراق في تدوين حوادث ظرفاء الممرورين. وابن زولاق نفسه يقول (لو كان سيبويه بالعراق لجمع كلامه، ونقلت ألفاظه، ولو عرف المصريون قدره لجمعوا عنه أكثر مما حفظوه).

عرف منذ شب بهذه اللوثة، تظهر في حركاته ورمش عينه، وزادت بترديه في بئر أمام بيته، وتهيج أحيانا فيطرح ثيابه ويمشي عريان في الطريق على عورته خرقة، وعلى أكتافه خرقة، وبيده عصا ومصحف ويروح إلى الجامع وهو على هذا الشكل يعظ ويتزهد، وأحياناً تهدأ ثائرته فينادم الأمراء والوزراء ويعجبون بلطفه وظرفه، وتقول زوجه انه انما كان يهيج إذا لم يأكل اللحم والدسم فإذا أكلهما هدأ.

قلت لن لوثته سر عظمته، فإذا هو هدأ سكت ولكنه إذا هاج أتى بالنوادر الطريفة والكلم السيار، ولذلك قالوا فيه أنه (إذا لم يكن له من يهيجه لم يخرج علمه).

سب مرة خازن الإخشيد أو وزير ماليته فأخذه وعذبه ثم أطلقه وأجرى عليه الرزق فكان الصبيان أحيانا إذا رأوه يتصايحون (يا خازن اخرج عليه) فيهيج ما به وينطق بالقول اللطيف.

كان يقول القول عل سجيته لا يرهب أحداً، قد أدخل مرة مستشفى المجاذيب ثم أخرجه كافور الإخشيد، فلما مثل بين يديه قال له سيبويه (ما مثلك يصطنع بعشرين ألف دينار ولا بثلاثين ألفاً إذا كنت عادلا، فأما إذا كنت جائرا فأسود بعشرة دنانير يقوم مقامك)

وكان أكثر قوله سجعاً، ومن ثم كان أكثر دورانا على الألسنة وأسهل حفظاً.

لقى المحتسب وبين يديه أجراسه فقال: (ما هذه الأجراس يا أنجاس، والله ما ثَم حق أقمتوه، ولا سعراً أصلحتموه، ولا جان أدبتموه، ولا ذو حسب وقرتموه، وما هي إلا أجراس تسمع، لباطل يوضع، وإقفاء تصفع، وبراطيل تقطع، لا حفظ الله من جعلك

(محتسباً، ولا رحم لك ولا له أماً ولا أباً).
وكان مخشي اللسان يهرب الوجهاء والأعيان إذا سمعوا صوته من بعيد، حتى لا يقذفهم بقذيفة من لذعاته تسير في الناس، وكان كافور يعجب كيف يسكت المصريون على سبه ويقول: (سبحان من سلط سيبويه عليكم ينتقم منكم وما تقدرون على الانتصار).
وما السبب في هذا الا أنه كان يعمد إلى الرؤساء فيصب عليهم كلماته القارسة تصيب منهم مقتلا، ويسر الشعب من هذا لأنه يعبر عما في نفوسهم، وينتقم من خصومهم ويجرؤ بجنونه على ما لم يجرؤ عليه عقلاؤهم، وكان يستطيع بلسانه أن يصل إلى ما يتحرج من ذكره المتدينون. لقد كان يوماً يؤاكل ابن المادراني الوزير، وعنده هارون العباسي فقدمت هريسة فقال هارون: أكثر منها ياسيبويه فانها تذهب بالوسواس من رأسك، فكف سيبويه عن الطعام وأخذ يفكر، فقالوا فيم تفكر؟ قال أفكر في امتناع إبليس من السجود لآدم، والآن
ظهر عذره: علم ابليس أن هذا في صلب آدم فلم يسجد له، ولو عرض على كلاب اليهود أن تسجد لنسمةٍ هذا في ظهرها ما فعلت.
ونحو هذا من أنواع الهجاء القاسي.
وهو مع هذا أديب ظريف له نظرات في الأدب جميلة يقول: إن أفضل الكلام ما اعتدلت مبانيه، وعذبت معانيه، واستسلس على ألسن ناطقيه، ولم يستأذن على آذان سامعيه.
وقد هجا بعض الناس شيخا من شيوخه فقال سيبويه:
ما يضر البحر أمسى زاخرا ... أن رمى فيه صبي بحجر
وسمع بيت المتنبي:
ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى ... عدواً له ما من صداقته بد
فقال هذا كلام فاسد، لأن الصداقة ضد العداوة ولو قال:
ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى ... عدوا له ما من مداراته بد. . لكان أحسن وأجود
وبلغ المتنبي هذا النقد فذهب إلى سيبويه وسمعه منه فتبسم وانصرف، فصاح سيبويه: انبكم!
ومع هذا فلما سمع قول المتنبي:
ما كنت آمل قبل نعشك أن أرى ... رضوى على أيدي الأنام تسير. . الخ
صاح سيبويه لبيك لبيك! أنا عبد هذه الأبيات.
مما يدل على ذوق حسن ونقد صحيح وتقدير للأدب. ولقد كان عالي النفس، دقيق الحس، يرى الناس كلهم دونه، فلا يذل لعظيم، ولا يهين لكبير، طلبة أنوجور بن الإخشيد أمير مصر لينادمه، فقال على شرط أن أنزل حيث تنزل، وأركب حيث تركب، وأجلس متكئا، فأجابه إلى شرطه.
وكان سيبويه يحدث عظيما فجاء خادم يسر حديثا إلى هذا الجليس فسمع له وقطع الاستماع لسيبويه. فقام سيبويه مغضبا، فسأله إلى أين؟ قال لا تجالس من لا يرى مجالستك رفعة، ولا تحدثن من لا يرى حديثك متعة، ولا تسألن من لا تأمن منعه، ولا تأمرن من لا تأمن طوعه.
ولما ماتت أم سيبويه حضر في جنازتها كل كبير في مصر الا ابن المادراني الوزير، وعاد
والناس حوله، فأخذ سيبويه يطلق لسانه في هجاء أبن المادراني، وما نجاه من لسانه إلا أن لقيه في الطريق يأتي مسرعا ليدرك الجنازة.
على الجملة كان سيبويه طرفة مصر في عصره، علماً وأدباً وفكاهة وجنوناً - كان يقوم فيهم مقام العالم والواعظ والأديب، ومقام الجريدة السيارة الناقدة اللإذاعة، وكان منظره بديعاً، يدور في الأسواق على حماره أو حمار غيره، وما أكثر من كان يتقي لسانه بتقديم حماره!
فبحق قال (جوهر الصقلي) لما دخل مصر وذكرت له أخباره (لو أدركته لأهديته إلى مولانا المعز في جملة الهدية) وبحق لما سمع به (فاتك) ممدوح المتنبي قال: ذكروني به فلعلي أستدعيه فانه نزهة.

في الأدب المصري القديم
النيل والحضارة المصرية (ملخص فصل من كتاب)
للأستاذ (آ. موريه)
وهنا نجوى تبسط لنا شيئا من الحياة الزوجية، يرددها زوج يبكي فقد امرأته، وامرأته، كما يبدو، ما زالت روحها أتبع له من ظله. قال يناجيها:
لماذا أشقيتني حتى غلبت عليَّ هذه التعاسة؟ ماذا صنعت حتى رفعتُ يدك علي دون أن أباديك بشيء؟ سأرفع دعواي لآلهة المغرب التسعة، حتى يفصلوا بيننا.
ماذا صنعت؟ كنت امرأتي حين كنتُ أخطر في برد الشباب ما أزعجتك وما مسستك بسوء. اذكريني عندما كنت عريفاً بين المحاربين في جيش فرعون، تركتهم لأجئ اليك. حاملا اليك منهم هدايا ثمينة، وأنا لم أحفِ عنك سرا طيلة حياتك، ولم أدخل منزلا غير منزلك (بعد الطلاق). وعدما رهنوني في الموطن الذي أنا فيه الآن وجعلوا رجوعي اليك مستحيلا، أرسلت إليك زيتي وخبزي وأثوابي؛ ولم أبعث بها إلى أحد سواك. وعندما مرضتِ جئتك بطبيب، فوصف العلاج، وأتى بكل ما قلت عنه؛ وعندما وجب عليَّ أن أرافق فرعون في رحلته إلى الجنوب لبثت أفكاري متوزعة عندك، وقضيت ثمانية شهور حليف الأسى لا يلذ لي طعام، ولا يسوغ لي شراب. وبعد وفاتك عدتُ إلى ممفيس، ورجوت من فرعون الذهاب إلى بيتك، وهناك وقفت باكياً، وأسعفني أصحابي على البكاء، وأعطيتهم ثيابا للف جثمانك.
واليوم وقد تعاقب ثلاثة أعوام وأنا قابع في عزلتي، ما دخلت منزل أجد، ولا عرجت على أخت من الأخوات اللابثات في البيت).
ثم نشأت قصص صغيرة مشبعة بالروح الشعبية التي تجلت فيها، أضف إلى ذلك مقطوعات غزلية عاطفية، تمثل لنا الحياة الوجدانية والعقلية للمصريين القدماء. ومن هذه القطع مقاطيع بعنوان (أغاني لغبطة القلب) وهي أغاني يجب أن تكون مصحوبة بآلات الطرب، على أن الموسيقى المصرية ظلت مجهولة برغم آلاتها الشائعة عندهم. وجل هذه المقطوعات محاورات بين رجل يدعو المرأة (يا أختي)، وامرأة تدعو الرجل (يا أخي) وكلاهما يتجاذب الأغاريد بلهجة جذابة رقيقة. وتلوح على هذه المقطوعات بعض ملامح
مصرية وأخلاق مصرية تثبت ما قصه علينا المؤرخ هيرودوت إذ قال: (ان المصريات كن أحراراً في مسالكهن وتصرفاتهن في تجارة الحياة وفي مزدحم الأعياد الدينية، وهن اللواتي كن يخرجن من بيوتهن لتدبير البيت والإنفاق عليه، والرجال يقومون بالخدمة المنزلية خلال تغيبهن. وهذه القبور الطيبية تطلعنا على حياة المرح عندهن، وكثير من الحكايات الشعبية تدلنا على أخلاقهن وما أتسمن به من صفات الجرأة، وهذه الجرأة قد تبدو في هذه المقطوعة الغزلية، إذ نرى العاشق كالمتغاني، والعاشقة هي التي تتكلم: يقص علينا العاشق هبوطه إلى ضفاف النيل بحوار ممفيس. وهناك شاهد (أخته) في حديقة طيبة الأريج، (إذا هو لثم شفتيها كان نشوان بغير نبيذ) هو يدنو منها كالعصفور الذي ينقض بنفسه على الشرك (شرك الحب). ولكن حميا الحب أقوى من حميا الخمر.
يقول العاشق: (نزلت المنحدر، وأنا أحمل على كتفي حزمة قصب. وبلغت ممفيس وقلت (لباتا) سيد العدالة أعطني أختي هذه الليلة، فالنهر من خمر، (وباتا) قصبه. و (سبكميت) سدرته، (وأريت) يراعه، و (ينقرنوم) أزهاره.
هذا هو الفجر ومفيس كأس من ثمر، مصفوفة أمام الإله باتا ذي الوجه الجميل.
سأنام في بيتي، وأغدو عليلا، وسيهرع جيراني إلى عيادتي، وإذ ذاك تجئ أختي معهم، وتريني للأطباء لأنها عارفة بدائي.
أرى (أختي) مقبلة، وقلبي يستفزه الطرب وذراعاي تنبسطان لعناقها، وقلبي يخفق في موضعه عندما تجيء.
إذا عانقتها وفتحت لي ذراعيها، كأني ألقيت بنفسي في (بونت) مدينة الطيوب. وإذا لثمت فاها وتفتحت لي شفتاها. فأنا سعيد سكران بدون نبيذ.
أما العاشقة فهي سهلة المأخذ، تنطلي عليها الأساليب المغرية، حبها الدقيق أدنى إلى الندب والشكوى، في حالة الانتظار، تبدي كل مظاهر الدلال، وتقيس ذراعاً كلما قاس العاشق إصبعاً، وهذه (صائدة الطيور) لا تنصب الشباك لمجرد اللذائذ وانما تصبو من

وراء الحب إلى اتحاد الروحين بالزواج وإلى السهر على خيرات عاشقها كأنها صاحبة بيته.
تقول العاشقة:
يا أخي المحبوب! إن قلبي يسعى وراء حبك، انظر ماذا اصنع! قد نصبت فخي بيدي،) إن
عصافير (بونت) هبطت على مصر مخالبها مفروكة بالصبر، والعصفور الذي نزل، في البدء، قد التقط طعمي.
هو ناقل عطره من (بونت)، ومخالبه مفعمة بالصبر الطيب، أرغب منك أن تعمل على إفلاته من الفخ، حتى تصغي أنت إلى أنين هذا العصفور المطيب بالصبر.
ما أجمل وجودك معي عندما أنصب الفخ!
الوزة (العاشق) تشكت عندما ما علقت.
وذاك حبك يستهويني اليك دون أن أستطيع الإفلات منه، يجب علي أن أهجر (حبائلي).
ولكن ماذا أقول لأمي عمن أغدو اليه كل يوم وأنا مثقلة بعصافيري!!!
أنا سجينة حبك! وقبلتك وحدها هي التي تحيي قلبي.
قد وجدت من أحبه، فليت شعري هل يقدر (آمون) على أن يعطيني إياه إلى الأبد. .؟
يا صديقي الجميل! أود ان أرعى خيراتك كصاحبة بيتك؛ وذراعي مسندة إلى ذراعك.
سأقول في نفسي عندما يعاودني حبك؛ أن أخي الكبير بعيد عني هذه الليلة.
(ما أشبهني بالأموات، لأنك أنت عاقبتي وكل حياتي).
وهذه عاشقة أخرى تلوم شاة أيقظتها عند الصباح وهي لا تود أن تستيقظ:
ناجتني الشاة قائلة لي: هذا هو الفجر فاستيقظي، الا تهمين بالخروج؟)
لا لا! يا شاتي: أنت تسيئين إلي!
قد وجدت أخي يتمطى في سريره، فطرب قلبي له وقال لي: لن أتركك أبداً، وهذه يدي في يدك، سنطوف معا كل مكان يحسن فيه التنزه.
اتخذ مني خليلته الأولى. وهو لن يحمل أي هم إلى قلبي). وبعد هذا الحب كله يضعف الهوى وتهب الشكوك ثم تتصاعد أنات العاشقة لخيانة صاحبها إياها واستبداله غيرها بها، فأصبح حب المرأة أدنى إلى العاطفة وأغنى (هوى) من الحب الذي أعلنه الرجل بلسانه.
والشاعر يزين نفثاته بالأساليب الغزلية الرقيقة، فالعاشقة تطوف في حديقة غنية الأزهار والأعشاب، فما من نبتة أو ثمرة الا تذكر بشيء من محاسن المحبوبة أو ترمز إلى سعادتها المتلاشية. الأشجار تتكلم: فهي التي تؤوي إلى أفيائها العاشقين، وتخفي عن العيون فصول غرامهم، فهنا شجرة رمان تشكو وتتوعد من أهملها، وهناك سدرة غرستها كف عاشقة تعلن
رضاءها عن القدر، وهنالك جميزة صغيرة سعيدة بمواقف العاشقين تحتها. وهي تراقب الأزواج بعين خبيثة ولكنها تكتم أسرارهم.
وثمت شيء من الشعر الذي يصف ألوان الجمال النسائي. وهذه هي أهم صفات هذا الجمال المنشود (شعر حالك كالليل، وأسنان اسطع من لمعان الصوان، وقامة رشيقة، وصدر صلب طافح).
وإذا قارنت هذا الجمال بما جاء في تماثيلهم وصورهم عرفت أن المصريين قد أهملوا رقة الصور والأشكال في الجمال، فكانوا على نقيض الشرقيين المعاصرين الذين يحبون (الخط الأهيف في الجمال الفتي) الذي يعدهم في العالم الثاني بامرأة لها شباب خالد.
وفي هذا الأثر الأدبي الذي أبقى عليه الزمن، ترى عمل المخيلة الصافية فيه مهملا، وتعاليم الفن والعلم والأدب التي وضعت لخدمة الدين والدولة جاءت غنية الخطوط، طابعة الحضارة المصرية بطابعها.
أما مصر القديمة فلم تكن الا في القليل النادر بلد البراعة المنزهة عن الغرض، والتي جاءتها من أجل الفن. فعلمها للعلم المجرد، وتفكيرها للتفكير المطلق، وأدبها للأدب النفسي، وأعمالها العظيمة المجهولة الاسم قد وضعها أربابها بدقة ومهارة في سبيل خدمة مذهب فني يسمو إلى غايات اجتماعية ودينية. وهكذا ضيق الجمال المصري باكراً ساحة الإبداع على المبدعين القادرين، ولكنه لم يهن ولم يقصر في تحليل كل ما

يقدسه الشعب ويجله من تعاليم السلطة والصلاح والأدب. فكان أعظم ميزاته وأسمى سماته تمثيله بالرموز معنى النسل. وسهولة فهم مثله الأعلى الشريف، وكل ذلك بأسلوب يستحيل التقليد فيه، وعلاء يصعب السمو اليه.

خليل هنداوي

بلاط الشهداء بعد ألف ومائتي عام

للأستاذ محمد عبد الله عنان

(لما علم الفرنج وسكان بلاد الحدود الإسبانية بمقتل عثمان بن أبي نسعة وسمعوا بضخامة الجيش الإسلامي الذي سير اليهم، استعدوا للدفاع جهدهم وكتبوا إلى جيرانهم يلتمسون الغوث. وجمع الكونت سيد هذه الأنحاء (يريد أودو) قواته وسار للقاء العرب ووقعت معارك سجال. ولكن النصر كان إلى جانب عبد الرحمن بوجه عام فاستولى تباعا على كل مدن الكونت. وكان جنده قد نفخ فيهم حسن طالعهم المستمر فلم يكونوا يرغبون الا في خوض المعارك واثقين كل الثقة في شجاعة قائدهم وبراعته وعبر المسلمون نهر الجارون وأحرقوا كل المدن الواقعة على ضفافه وخربوا جميع الضياع وسبوا جموعا لا تحصى؛ وانقض هذا الجيش على البلاد كالعاصفة المخربة فأجتاحها، وأذكى اضطرام الجند نجاح غزواتهم واستمرار ظفرهم وما أصابوا من الغنائم).

(ولما عبر عبد الرحمن نهر الجارون اعترضه أمير هذه الأنحاء ولكنه هزمه ففر أمامه وامتنع بمدينته. فحاصرها المسلمون ولم يلبثوا أن اقتحموها وسحقوا بسيوفهم الماحقة كل شيء. ومات الكونت مدافعا عن مدينته واحتز الغزاة رأسه. ثم ساروا مثقلين بالغنائم في طلب انتصارات أخرى، وارتجت بلاد الفرنج كلها رعباً لاقتراب جموع المسلمين، وهرع الفرنج إلى ملكهم قلدوس في طلب الغوث، وأخبروه بما يأتيه الفرسان المسلمون من العبث والسفك وكأنهم في كل مكان، وكيف أنهم احتلوا واجتاحوا كل أقاليم أربونة وتولوشة وبردال وقتلوا الكونت. فهدأ الملك روعهم ووعدهم بالغوث العاجل. وفي سنة 114 سار على رأس جموع لا تحصى للقاء المسلمين. وكان المسلمون قد اقتربوا عندئذ من مدينة تور، وهناك علم عبد الرحمن بأمر الجيش العظيم الذي سيلقى. وكان جيشه قد دب اليه الخلل لأنه كان مثقلا بالغنائم من كل صوب. ورأى عبد الرحمن وأولو الحزم من زملائه أن يحملوا الجند على ترك هذه الأثقال والاقتصار على أسلحتهم وخيولهم ولكنهم خشوا التمرد أو أن يثبطوا عزائم الجند واستسلموا لرأي الواثقين المستهترين. واعتمد عبد الرحمن على شجاعة جنده وحسن طالعه المستمر. ولكن الاضطراب خطر خالد على سلامة الجيوش. صحيح أن الجند يحملهم ظمأ الغنم أن يأتوا جهودا لم يسمع بها فطوقوا مدينة تور وقاتلوا حصونها بشدة رائعة حتى سقطت في أيديهم أمام أعين الجيش القادم لإنقاذها وانقض المسلمون على أهلها كالضواري المفترسة وأمعنوا القتل فيهم. قالوا ولعل الله أراد أن يعاقب المسلمين على تلك الآثام، وكان طالعهم قد ولى).

(وعلى ضفاف نهر الأوار (اللوار) اصطف رجال اللغتين والتقي المسلمون والنصارى وكلاهما جزع من الآخر، وكان عبد الرحمن ثقة منه بظفره المستمر هو البادئ بالهجوم فانقض بفرسانه على الفرنج بشدة وقابله الفرنج بالمثل. ودامت المعركة ذريعة مروعة طوال اليوم حتى جن الليل وفرق بين الجيشين. وفي اليوم التالي استؤنف القتال منذ الفجر بشدة، وشق بعض مقدمي المسلمين طريقهم إلى صفوف العدو وتوغلوا فيها. ولكن عبد الرحمن لاحظ والمعركة في أوج اضطرامها أن جماعة كبيرة من فرسانه غادرت الميدان بسرعة لحماية الغنائم المكدسة في المعسكر العربي، لأن العدو أخذ يهددها. فأحدثت هذه الحركة خللا في صفوف المسلمين، وخشي عبد الرحمن عاقبة هذا الاضطراب فأخذ يثب من صف إلى صف يحث جنوده على القتال، ولكنه ما لبث أن أدرك أنه يستحيل عليه ضبطهم فأرتد يحارب مع أشجع جنده حيثما استقرت المعركة، حتى سقط قتيلا مع جواده وقد أثخن طعانا. وهنا ساد الخلل في الجيش الإسلامي وأرتد المسلمون في كل ناحية ولم يعاونهم على الانسحاب من تلك المعركة الهائلة سوى دخول الليل)

(واستفاد النصارى من هذا الظرف فطاردوا الجنود المنهزمة أياما عديدة، واضطر المسلمون أثناء انسحابهم أن يحتملوا عدة هجمات واستمر الصراع بين مناظر مروعة

(حتى أربونة).
وقد وقعت هذه الهزيمة الفادحة بالمسلمين وقتل قائدهم الشهير عبد الرحمن سنة) 115 هـ، ثم إن ملك فرنسا حاصر مدينة أربون. ولكن المسلمين دافعوا بشجاعة (متناهية حتى أرغم على رفع الحصار وارتد داخل بلاده وقد أصابته خسائر كبيرة وأورد المؤرخ كاردون من جهة أخرى في كلامه عن الموقعة فقرة، ذكر أنه نقلها عن ابن خلكان جاء فيها: (لما استولى العرب على قرقشونة خشي قارله (كارل) أن يتوغلوا في الفتح فسار لقتالهم في الأرض الكبيرة (فرنسا) في جيش ضخم وعلم العرب بقدومه وهم في لوذون (ليون) وأن جيشه يفوقهم بكثرة، فعولوا على الارتداد. وسار قارله حتى سهل
أنيسون دون أن يلقى أحدا. إذ احتجب العرب وراء الجبال امتنعوا بها، فطوق هذه الجبال دون أن يدري العرب ثم قاتلهم حتى هلك عدد عظيم منهم وفر الباقون إلى أربونة. فحاصر قارله أربونة مدة ولم يستطع فتحها فارتد إلى أراضيه وأنشأ قلعة وادي رذونه (الرون) ووضع فيها حامية قوية لتكون حدا بينه وبين العرب).
ونعود بعد ذلك إلى الرواية الإسلامية فنقول ان المؤرخين المسلمين يمرون على حوادث هذه الموقعة الشهيرة أما بالصمت أو الإشارة الموجزة. ويجب أن نعلم بادئ بدء أن موقعة تور تعرف في التاريخ الإسلامي بواقعة البلاط أو بلاط الشهداء لكثرة من أستشهد فيها من أكابر المسلمين والتابعين. وفي هذه التسمية ذاتها، وفي تحفظ الرواية الإسلامية، وفي لهجة العبارات القليلة التي ذكرت بها الموقعة، ما يدل على أن المؤرخين المسلمين يقدرون خطورة هذا اللقاء الحاسم بين الإسلام والنصرانية، ويقدرون فداحة الخطب الذي نزل بالإسلام في سهول تور. ويدل على لون الموقعة الديني ما تردده الأسطورة الإسلامية من أن الآذان لبث عصوراً طويلة يسمع في بلاط الشهداء. ونستطيع أن نحمل تحفظ المؤرخين المسلمين في هذا المقام على أنهم لم يروا أن يبسطوا القول في مصاب جلل نزل بالإسلام ولا أن يفيضوا في تفاصيله المؤلمة، فاكتفوا بالإشارة الموجزة اليه، ولم يكن ثمة مجال للتعليق أيضا، ولا التحدث عن نتائج خطب لا ريب أنه كان ضربة للإسلام ولمطامع الخلافة ومشاريعها. وإذا استثنينا بعض الروايات الأندلسية التي كتبت عن الموقعة في عصر متأخر، والتي نقلناها فيما تقدم فان المؤرخين المسلمين يتفقون جميعا في هذا الصمت والتحفظ. وهذه طائفة من أقوالهم وإشاراتهم الموجزة:
قال ابن عبد الحكم وهو من أقدم رواة الفتوح الإسلامية واقرب من كتب عن فتوح الأندلس ما يأتي: -
في الأدب العربي
نابغة من شعراء مصر
الخشاب الشاعر
للأستاذ محمد كامل حجاج
هذا النابغة الذي سأحدثك عنه كان ثاني النيرين وأحد الفرقدين في عصره اذ لم يكن لهما ثالث يجاريهما في حلبة القريض، أو يدانيهما في مضمار الأدب. ولقد خان الحظ شاعرنا في عصرنا هذا حتى أصبح نسيا منسيا لدى الجمهور ولو انه معروف بين الخاصة من الطبقة الراقية في الأدب. ولقد جنت عليه المطابع المصرية إذ لم تنشر ديوانه، وطبعته مطبعة الجوائب بالأستانة مع مجموعة كبيرة أصبحت نادرة جدا).
خدم الحظ البهاء زهير فطبع ديوانه في أوربا ومصر عدة طبعات بيع بعضها بقرشين حتى انتشر وحفظ منه الفقهاء والمنشدون والمغنون كثيرا وغنوه في الحفلات حتى شاع وملأ الأصقاع مع أنه لا يذكر بجانب شاعرنا المترجم به).
وكان ثاني النيرين العالم العلامة والشاعر المجيد الذي ضرب بسهم في مختلف العلوم والفنون الشيخ حسن العطار شيخ الجامع الأزهر. وقد ارتحل عن مصر وقت هجوم الفرنسيين عليها وتجول بين ربوع الشام واشقودره، ولما آب من رحلته مازج المترجم به وخالطه، ورافقه ووافقه، فكانا كثيرا ما يبيتان معا ويقطعان الليل بأحاديث أرق من نسيم السحر، وكثيرا ما كانا يتنادمان في دار صديقهما الحميم الوفي الشيخ الجبرتي ويطرحان التكلف ثم يتجاذبان أطراف الكلام فيجولان في كل فن جولة، وكانت تجري بينهما منادمات أرق من زهر الرياض، وافتك بالعقول من الحدق

المراض، وهما حينئذ فريدا عصرهما، ووحيدا مصرهما لم يعززا بثالث في ذاك الوقت.
كان والد المترجم به نجارا ولما راجت صناعته فتح مخزنا لبيع الأخشاب بجانب تكية الكلشني بالقرب من باب زويلة، وأرسل ابنه إلى الكتاب لحفظ القرآن، ثم طمحت نفسه إلى طلب العلم فذهب إلى الأزهر ولازم حضورالسيد علي المقدسي وغيره من أفاضل الوقت فانجب في فقه الشافعية والمعقول بقدر الحاجة، وشغف بمطالعة الأدب والتاريخ والتصوف
حتى أصبح نادرة عصره في المحاضرات والمحاورات واستحضار المناسبات.
ولدماثه أخلاقه، ولطف سجاياه، وكرم شمائله، وخفة روحه صحبه كثير من أرباب المظاهر والرؤساء والكتاب والأمراء وكبار التجار
يقول لنا الجبرتي إن شاعرنا السيد الشريف أبا الحسن إسماعيل ابن سعد بن إسماعيل الوهبي الحسيني الشافعي كانت له قوة استحضار في إبداء المناسبات حسبما تقتضيه حال المجلس، فكان يجالس ويشاكل كل جليس بما يدخل عليه السرور ويأسر لبه بلطف سمره ومنادمته الجذابة الخلابة
ولما دخل الفرنسيون مصر عين المترجم له محررا لتاريخ حوادث الديوان وقرر له الجنرال جاك منو في كل شهر سبعة آلاف نصف فضة.
علق المترجم به شابا من رؤساء كتاب الفرنسيين وكان جميل الصورة لطيف الطبع عالما ببعض العلوم العربية ويحفظ كثيرا من الشعر، فلتلك المجانسة في الميول، مال كل منهما إلى الآخر حتى كان لا يقدر أحدهما على مفارقة صاحبه، فكان المترجم له تارة يذهب إلى داره وطورا يزوره هو ويقع بينهما من لطيف المحاورةما يتعجب منه، وهو الذي نفح الشاعر بهذه النفحات العظيمة والغزل الفائق.
لم يزل المترجم به على حالته ورقته ولطافته مع ما كان عليه من كرم النفس والعفة والنزاهة والولع بمعالي الأمور والتكسب وكثرة الإنفاق، وسكنى الدور الواسعة، وكان له صديق يسمى أحمد العطار باب الفتوح توفي فتزوج شاعرنا امرأته وهي نصف، وأقام معها نحو ثلاثين سنة ولها ولد صغير من زوجها المتوفى فتبناه ورباه ورفهه بالملابس وأشفق عليه إشفاق والد بولده، ولما ترعرع زوجه وأقام له مهرجانا فخما، وبعد سنة من زواجه مرض اشهرا أنفق فيها كثيرا من المال عليه، ثم قضى الغلام نحبه فجزع عليه جزعا شديدا وأقام له مأتما عظيما، واختارت أمه دفنه بجامع الكردي بالحسينية ورتبت له رواتب وقراء واتخذت مسكنا ملاصقا لقبره أقامت به نحو الثلاثين سنة، وهي مداومة على عمل الشريك والكعك بالعجمية والسكر وطبخ الأطعمة للمقرئين والزائرين كل جمعة على الدوام، وشاعرنا طوع أمرها في كل ما طلبته. وكان كل ما وصل إليه من مال أو كسب ينفقه عليها وعلى أقاربها وخدمها لا لذة له في ذلك حسية ولا معنوية. لأنها في ذاتها عجوز
شوهاء وهو نحيف ضعيف الحركة جدا، ومرض بحصر البول مع الحرقة والتألم وطال عليه حتى لزم الفراش أياما ثم توفي في يوم السبت ثاني الحجة سنة 1230 بمنزله الذي استأجره بدرب قرمز، وُصلي عليه في الأزهر في مشهد حافل ودفن عند ابنه المذكور بجامع الكردي.
وقد اهتم الشيخ حسن العطار بجمع ديوان الخشاب في حياته سنة 1227 لإعجابه الشديد برقته وبلاغته وسمو خياله، أي قبل موته بثلاث سنين، ويؤيد ذلك التاريخ الذي وضعه ناسخ الديوان محمد صالح الفضالي الواقعي المصري إذ انتهى من نسخه في يوم الأحد 11 شوال سنة 1227. وقد عاش المترجم بعد جمع ديوانه ثلاث سنين، ولا يبعد انه نظم فيها شيئا ليس بالقليل، ولأنه لم يترك عقبا امتدت يد الشتات إلى نظمه الأخير.
لا نعرف بالضبط التاريخ الذي بدأ فيه بمعالجة القريض. وأقدم تاريخ في ديوانه سنه 1201 يؤرخ به ميلاد ابن أبي الأنوار السادات، ومن ذلك يعلم انه مكث يقرض الشعر أكثر من ثلاثين سنة
طرق الشاعر عدة أنواع من الشعر وهي الغزل والخمريات والمدح والرثاء والتهاني والوصف والموشحات والأدوار. وإن القينا نظرة عامة في شعره وجدناه صادق الوصف منسجم السياق رشيق الأسلوب يحسن اختيار الالفاظ، موسيقي الأوزان، خفيف الروح فخم التراكيب، مسلسل المعاني متصلها، ولم نر في جميع ديوانه شيئا

من الهجو، وهذا مما يدل على سمو أخلاقه.
ولغزله المكانة الأولى ولا سيما ما قاله في صديقه الفرنسي الذي سبق الكلام عنه، فانه يتأجج بعنيف العواطف والصراحة في القول ورقة التعبير ورشاقة الوصف. ومن أرق قوله فيه:

أدرها على زهر الكواكب والزهر ... وإشراق ضوء البدر في صفحة النهر
وهات على نغم المثاني فعاطني ... على خدك المحمر حمراء كالجمر
وموه لجين الكأس من ذهب الطلا ... وخضب بناني من سنا الراح بالتبر
وهاك عقوداً من لآلي حبابها ... فم الكأس عنها قد تبسم بالبشر

إلى أن قال في آخر القصيدة::

وفوق سنا ذاك الجبين غياهب ... من الشعر تبدو دونها طلعة البدر
ولما وقفنا للوداع عشية ... وأمسى بروحي حين جد السرى يسرى
تباكي لتوديعي فأبدى شقائقا ... مكللة من لؤلؤ الطل بالقطر

وقال فيه أيضا:

علقته لؤلؤي الثغر باسمه ... فيه خلعتُ عذاري بل حلا نسكي
ملكته الروح طوعا ثم قلت له ... متى ازديارك لي أفديك من ملك
فقال لي وحميا الراح قد عقلت ... لسانه وهو يثني الجيد من ضحك:
إذا غزا الفجَر جيشُ الليل وانهزمت ... منه عساكر ذاك الأسود الحلك
فجائني وجبين الصبح مشرقة ... عليه من شغف آثار معترك
في ُحلة من أديم الليل رصَّعها ... بمثل أنجمه في قبة الفلك
فخلتُ بدراً به حفت نجوم دجى ... في حندس من ظلام الليل محتبك
وافى وولى بعقل غير مختبل ... من الشراب وستر غير منهتك

ومن أروع ما قال فيه موشحه الذي عارض فيه موشح الشيخ حسن العطار الذي مطلعه:

أما فؤادي فعنك ما انتقلا ... فلم تخيرت في الهوى بدلا (فأعجب).

وهذا الموشح الذي يسيل رقة ورشاقة مخمس ومرفل. قال رحمه الله:

يهتز كالغصن ماس معتدلا ... أطلعَ بدراً عليه قد سدلا (غيهب)
ريم يصيد الاسود بالدعج
يسطو بسيف اللحاظ في المهج
يزهو لعيني بمظهر بهج
فكيف أبغي بحبه بدلا ... وليس عنه جار او عدلا (مهرب)
وضاح نور الجبين أبلجه
وردي خد زها توهجه
اليه شوقي يزيد لاعجه
فلست أصغي عذلا ... وعنه والله لا أتوب ولا (أرغب)
ألمي شهي الرضاب واللعس
يزري غصون الرياض بالميس
يختطف اللب خطف مختلس
لو يحل الخصر نبتني أسلا ... من رام يوما اليه أن يصلا (يحجب)
قطع قلبي بحبه إربا
وصد عني فلم أنل إربا
أواه أواه منه واحربا!
أصلي فؤادي بخده وقلا ... وذبت وجداً به ولي قتلا (فاعجب)
مجوهر الثغر يلفط الدررا
بدمي فؤادي وخده نظرا
علّم عيني البكاء والسهرا
فانهل دمعي كالوبل وانهملا ... بالدم خدي عندما هطلا (خضب)
مولاي رفقاً بصبك الدنف
قد كدت أقضي عليك من أسف
تلاف روحي فقد دنا تلفي

من ريقك العذب اروني انتهلا ... وهات كأسي وطف بها ثملا (واشرب)
راحا سناها يضيء كاللهب
تبسم عن رطب لؤلؤ الحبب
عطر مازج ثغرك الشنب
بين رياض ومسمع غزلا ... على المثاني إذا شدا رملا (اطرب)
والورق من حسن صوتها الغرد
تميل قضب الرياض بالميد
وتوج الدوح لؤلؤ البرد
تاجاً من الدر نظمه كملا ... فكن من اللهو سالكاً سبلا (وادأب)
ومن درر نظمه خمريته:
أدر السلاف على صدى الألحان ... ودع العذولَ بجهله يلحاني
واستجل بكر الراح في ظل الربى ... بين الرياض تزف والعيدان
شمس لها من فوق خد مديرها ... شفق الصباح إذا بدا الفجران
نور ولكن من سنا لآلائها ... في الخد نارُ فؤادها الولهانِ
نار لها في وجنتيه وكفه ... لهب به أعشو إلى النيران
من كف معتدل القوام كأنه ... قمر يلوح على غصين البان
نشوان من سكر الشباب يهزه ... من خمر فيه وراحه سكران
ومهفهف ماء الحياء بوجهه ... يزري بهي شقائق النعمان
إلى أن قال:
ليث العرين له تلفت جؤذر ... يفتر عن در على مرجان
متلألىء تحت الشعور جبينه ... كحسامة في غيهب الميدان
عربي لفظ أعجمي المنتمى ... هندي لحظ صائل بيمان
غصب النجوم فصاغهن أسنة ... وبفيه نظمها عقود جمان
والقصيدة طويلة والجزء الغزلي فيها يرجع إلى صديقه الفرنسي. ومن الطف قوله قصيدته التي يمدح بها السادات
وصلتك واضحة الجبين المسفر ... من بعد طول تمنع وتستر
قامت فخالست ازديارك قومها ... وتربصت سحراً هجوع السمر
وأنت ترنح كالغصين أماله ... نفس الصبا وتجر فضل المئزر
هيفاء يخجل لحظها وقوامها ... بيض الصفاح وكل لدن أسمر
ما أنس لا أنسى ليالي وصلها ... بين الرياض وحسن نغم المزهر
إلى أن قال:
من سادة ورثوا النبي وجاهدوا ... في دينه حق الجهاد الأكبر
من خير بيت من ذؤابة هاشم ... من معشر أكرم به من معشر
والقصيدة طويلة.
ومن أروع شعره قصيدة فقد مسودتها وراجعه فيها الشيخ حسن العطار فذكر له منها أحد عشر بيتا من وسطها ونسي الشاعر مطلعها وآخرها.
ولرب ليل قد أبيتُ بجنحه ... أطوى هضاب فدافد ووهاد
بأغر أجردٍ ضامر لكنه ... جلد العزائم عند كل جلاد
متعودا وطء الأسّنة في الوغى ... متجشما في الروع هول طراد
ظن السيوف جداولاً وعوامل ... المران أغصان النقا المياد
إلى أن قال:
متقلدا عَوَض السيوف عزائمي ... متسربلا بدل الدروع فؤادي
حتى بلغت أخا السماحة والندى ... وابن السراة السادة الأجواد
لقد فات الجبرتي أن يخبرنا عن ارتباط شاعرنا بعصر المماليك قبل دخول الفرنسيين وفترة الأربع سنين التي تولى الحكم فيها ولاة الأتراك، والعصر الذي عاشه في عهد ساكن الجنان محمد علي باشا.
وللمترجم له من النثر بعض مراسلات وتقاريظ مسجعة كعادة أهل عصره رحمه الله رحمة واسعة وألهم المصريين تخليد ذكره وإعلاء شأنه.

من طرائف الشعر
غرام الشعراء
الغيرة
للشاعر الوجداني الأستاذ احمد رامي. من رواية ينظمها بهذا العنوان
في هذا الموضوع
في دار الولادة بنت المستكفى بقرطبة. الشاعر أبو الوليد احمد بن زيدون يزور الدار)
أول مرة في صحبة صديقه أبي حفص بن برد. بعد التعارف والتفاهم تحتفل الولادة
بقدوم ابن زيدون فتدعو القيان. بعد الرقص والعزف يقبل الوزير ابن عبدوس في
(رفقة نديمه خليفة لزيارة الولادة جريا على عادته
ابن عبدوس: وقد سمع آخر الغناء مخاطبا خليفة.
مطبل وزامر ... فمن يكون الزائر؟
خليفة:
أحسبها توقعت ... حضورنا نسامر
وهذه تحية ... ترسلها المزاهر
أدخل فقد طاب الهوى ... بما يحب الخاطر
ابن عبدوس: (قد اجتاز الباب ورأى ابن زيدون)
من أرى؟
الولادة: (مقدمة اليه)
هذا ابن زيدون
ابن عبدوس: وما لي أراه شارد اللب حزين!
قد عرفناه طروباً ينثني ... مرحا عند سماع العازفين
ابن زيدون: (في لهجة حازمة)
وأراني ربما أحزنني ... من صدى الاوتار شدوٌ أو رنين
ابن عبدوس: (في شئ من السخرية)
هذه حال الذي أودى به ... لاعج الأشواق أو مسُّ الجنون
ابن زيدون:
نعم أهوى ولا أخفي غرامي ... ومن شرف الهوى أني صريح
وأما إن سئُلت من اصطفتي ... سكتّ فما استرحت وما أريح
ابن عبدوس:
ومن لك أن تقول صفا هواها ... وقلب الغانيات مدى فسيح
ابن زيدزن:
وغّرك من عهد ولآدة ... سراب تراءى وبرق ومض
أراك تفوقْ سهم النضال ... وترسلها لو أصبت الغرض!
ولادة:
وما هذا التراشق بالأحاجي ... وما هذا التوثب للهجوم؟
أرى عينيكما رمتا شرارا ... وأخشى النار ترعى في الهشيم!
(بعد صمت)
ألم يجمعكما سبب متين ... على حفظ المودة والأخاء؟
ابن زيدون:
وألفنا على الإخلاص عرشاً ... نفدّيه ونخلص في الفداء
ابن عبدوس:
وهل أخلصت للعرش المفدى ... وقمت على الرعاية والولاء؟
وأنت العمرَ تقضيه هباء ... صريع الكأس أو خِلْبَ النساء
ابن زيدون:
خسئت فان لي القِدْح المعلى ... إذا خفّ الرجال إلى العلاء
تأسس ملك قرطبة وقامت ... دعائمه وكانت من بنائي
وناولت ابن جهور صولجانا ... على جنباته تجري دمائي
ابن عبدوس:
ومن بين الممالك لا يبالي ... بهدم العرش أو هدّ اللواء

ولادة:
كفى ما قلتماه فان داري ... مراح الشعر أو مغدى الغناء
تباعَدَ نازلوها عن حوارٍ ... يجر إلى القطيعة والعداء
ومالي والسياسة وهي بحر ... أتُّي الموج مربدّ السماء
طغت أنواؤه فهوت بأهلي ... وطاحت بالرفاق الأوفياء
(بعد صمت)
يا خليليّ أما كان لنا ... نُدْحة عن ذلك القول الهراء!
ابن زيدون: قد تحداني
ولادة: وماذا قال لك؟
ابن زيدون: قال إني أصرف العمر هباء
ابن عبدوس: بل تصدى لي
ولادة: وماذا قال لك؟
ابن عبدوس: قال يغويني سراب في سماء
ولادة:
وهل الدنيا سوى أخيلة ... من ظلام اليأس أو نور الرجاء
وهل الأيام إلا ساعة ... ينعم القلب بها حيث يشاء
خلّيناالذي فات ولا ... تذكرا الماضي إذا الماضي أساء
وِصلا حبل التصافي واعلما ... أن هذي الدار نادي الأصفياء
ابن زيدون: (في لهجة المعاتب)
درجنا مع الود منذ الصبى ... وكانت رباه لنا ملعباً
وألفنا أمنيات الشباب ... زهت كوكباً وسمت مطلباً
ومرت بنا عاديات الزمان ... فكنا على غدره قُرَّبا
ابن عبدوس:
ومالك أنكرت مني الوفاء ... وقد ذقته صافيا طيباً؟
ولادة:
حنانيكما لا تطيلا الملام ... ولا تسألا القلب من أذنبا
بدت جفوة بين نفسيكما ... ومرَّت كلمح شهاب خبا
وما أجمل الود بعد العتاب ... وأبقى الصديق إذا أعتبا!
(تدخل عتبة وصيفة الولادة)
عتبة: سيدتي!
ولادة: ماذا جرى؟
عتبة: رسول
ولادة: لمن؟ وممن ذلك الرسول؟
عتبة: من صاحب الأمر إلى الوزير
ولادة: (في حيرة) أي الوزيرين عني الأمير؟ ومن يكون حامل الرسالة؟
عتبة: المكّرى حاكم المدينة.
ابن عبدوس: (في لهجة المتشفي)
أحسبني أمنية ابن جَهْوَر ... أتأذنين لي بلقيا المكري؟
يا خليفة!
خليفة: أنا يا مولاي ما بين يديك
ابن عبدوس:
عد إلى الدار سريعاً ... ربما احتجت اليك
(ينصرف خليفة في شيء من اللؤم)
إغفري لي أني أسأت إليكم ... بحضوري فجاءة وذهابي
نازعتني اليك نفسي فأقبلت ... على خلوة من الأحباب
لم أكد اقرأ التحية حتى ... نالني منكم رشاش السباب
(ينصرف ابن عبدوس غاضبا)
ابن زيدون:

هل تبينت كيف نمت عليه ... نظرة الحقد في العيون الغضبان
وسمعت الذي يعبر عما ... ينطوي في ضميره المرتاب
شهر الحرب عامدا وتصدى ... يرسل اللوم في سياق العتاب
ثم ولي يقول نحن بدأنا ... هـ ولم نرع حرمة الآداب

يوم التل

للأديب فخري أبو السعود

وبعد فاني مرسل إليكم قصيدة نظمتها لمناسبة ذكرى الاحتلال الإنجليزي الذي . . . يصدر عدد الرسالة القادم في مثل يوم ابتدائه بالقاهرة 15 سبتمبر وقد اعتاد الكثير من المصريين الاستحياء لذكرى يوم التل الكبير لأن الهزيمة أصابتنا فيه، والأسف لذكرى الثورة العرابية لأن الاحتلال الإنجليزي أعقبها، حتى قال شوقي بك في بعض ما قال:

ولو أن يوم التل يوم صالح ... لحماسة لجعلته إليادي

وقد نظمت قصيدتي قصد القضاء على توهم العار في هذه الذكريات، وإبراز مواضع في تلك الحوادث والوقائع.

وأقل ما في تلك الذكريات من مواضع الفخار أن الثورة كانت أول مظهر صحيح للقومية المصرية التي تنبهت في العصر الحديث، وأن موقعة التل كانت أول معركة قام بها جيش مصري صميم بالدفاع عن أرض مصر، وان المصريين فيها كانوا ينازلون أكبر قوة استعمارية عرفها التاريخ، وأن الإنجليز لم يطمئنوا إلى منازلة المصريين ولم يحرزوا عليهم النصر الا بعد أن استعانوا بكل حيلة.

أعد ذكر ماضي النيل للجيل منشدا ... فما أعذب المجد الأثيل مرددا
وكم مفخر للنيل باق مخلد ... إذا ذكر الأقوام فخرا مخلدا
نتيه بماضينا القديم تفاخراً ... وأحر بأن يروى الحديث فيحمدا
ولم أر يوم التل عابا وسبة ... ولم أره الا أغر ممجدا
أنخجل ان قمنا نذود عن الحمى ... ويسحب أذيال الفخار من إعتدى؟
تدفق من عبر المحيط مهدد ... فما حفلت آباؤنا من تهددا
أبو أن يدينوا للغالب عن يد ... وتلقى مصر في الحوادث مقودا
وقالوا شباة السيف دون عدونا ... وإن يك عرض البر والبحر أيدا
إباء تليد المجد قر له رضى ... وقر له عظم الفراعين ملحدا
وما شهدوا من قبلها عهدهم ... بني مصر جميعا ينهدون إلى العدى
فلما رآى سنوح فريسة ... أقام زماناً دونها مترصدا
ترامت على الثغر الأمين رجومه ... تناصب عزلا في المدينة قعدا
أثار عليهم مائج البحر مرغياً ... وصب عليهم مارج النار مرعدا
تهاوى له الانقاض أيان يرتمي ... وتنتثر الاشلاء في حيث سددا
تمازج لونا النار والدم عندها ... وفار لهيب النار بالدم مزبدا
ولم يألها حتى كساها غلائلا ... من النار حمرا في السموات صعدا
ولم يثنه في الشرق والغرب ضجة ... لأمر أقام الأرض هولاً وأقعدا
منى نالها فلتندب الأرض حسرة ... على العدل ولتبك السماء تلددا
رأت أمم في الشرق والغرب أمة ... يجار عليها جهرة وتعمدا
تعاقب أن قامت تحطم قيدها ... وتبعث تاريخا قديما وسؤددا
وتوأد حرياتها وحقوقها ... ليحكم الاستعمار فيها معربدا
ولما أحال الثغر جحرا مخربا ... تقدم يبغي مستراداً ومهتدي
فأبصر من دون السبيل بواسلا ... جثيا على هام المسالك رقدا
تصدى إليهم كرة بعد كرة ... فأصلوه نيرانا فآب مبددا
فيا من رأى أبناء مصر إذا انبروا ... إلى غول الاستعمار صفا مجردا
على حين ماجت خيله وسفينه ... ولم يبصروا في الشرق والغرب مسعدا
يساقونه كأس الحِمام وأهله ... بمصر كرام في مراح ومغتدى
فلما رأى وعر الطريق ولم يجد ... كما ظن نهجا حيث سار معبدا
تسلل من شرق البلاد محاذرا ... هزيمته في الغرب أن تتجددا
ومال إلى الأعراب والختل طبعهم ... يريد لدى القوم اللصوص مؤيدا

جرى تبره فيهم وسالت سفينه ... تمزق عهداً للقناة مؤكدا
وساق على الأحرار بالتل سفلة ... أتى بهم من كل فج وأعبدا
خميس يسير العار في خطواته ... وتتبعه الأوباء في حيثما اهتدى
كفته خيانات اللئام عدوه ... وما بث من جند الفساد وأرصدا
ولولا جنود الإثم تدفع دونه ... لما مد رجلا للقتال ولا يدا
كذلك كانت في السياسة حاله ... وفي الحرب لم يبلغ به النبل مقصدا
وما نال إلا بالجريمة مغنما ... ولا سل إلا في الظلام مهندا
وأقبل يزهو بانتصار وإنه ... لخزي له يبقى على الدهر سرمدا
خصيمك أنقى في الهزيمة صفحة ... وأكرم في ظلم الحوادث محتدا
وزاد عروس الشرق في تاج ملكه ... يتيه بها فخراً ويخطر سيدا
رويدك لا تحمد مقامك بيننا ... ولا تحسبنه ما أقمت ممهدا
كما جئت في داج من النحس قائم ... سترجع في داج يغشيك أسودا
وأنحى على الأحرار يسكب مقته ... وقد كاد يسقيهم بجهلته الردى
ومن أحرق العذراء يوما تشفياً ... فليس بمستثن مسناً وأمردا
فأرهق بعض في السجون مكبلا ... وفرّق بعض في البلاد مشردا
سلام وريحان أبوتنا على ... ثراكم سلاما ما يزال مجددا
سلام على من قد تصلوا بنارها ... وخاضوا لظاها فإثماً متوقدا
سلام على من مات في حومة الوغى ... ومن مات في قاص من الأرض مبعدا
سلام على قيل تولى زمامها ... أعف الورى قصداً وأنقاهم يدا
أصاب بها نجحا فلما كبا بها ... وأدركه منها العثار تجلدا
وذيد عن الأوطان عشرين حجة ... يبيت على شوق إليها مسهدا
جريرته أن رام مصر عزيزة ... وشاء لها أن تستقل وتسعدا
ورام لها من طغمة الترك معتقا ... وبعدا لعهد الترك أشأم أنكدا
لتحيا كما تحيا الشعوب طليقة ... بعصر يعاف العبد فيه التقيدا
ستذكره مصر الفتية ما ابتغت ... لدى الحق عهداً أو لدى المجد موعدا
عسى ذكرنا رغم الهزيمة أحمدا ... سيبعث فينا للغنيمة أحمدا

في الأدب الشرقي
من الأدب التركي الحديث
احمد حكمت بك

كان الأدب التركي القديم يرسف في اغلال الجمود ويقطع مراحل النهضة بتأخر وبطئ. فظهر أحمد حكمت بك ورفاقه أمثال توفيق فكرت، خالد ضيا، جناب شهاب الدين وغيرهم ممن احيوا الأدب التركي القديم، وكسروا قيود التعصب، وأغلال البطء، وأظهروا للناس نتائج أفكارهم وثمرات عقولهم التي اقتبسوها من المغرب، وألبسوا الأدب ثوبا جديدا بنشرهم المقالات الأدبية الطريفة ونظمهم القطع الشعرية الظريفة.

ولكن اضطر هؤلاء أن يقفوا حينا بنهضتهم، ويخفضوا قليلا من أصواتهم، أمام جور السلطان عبد الحميد وظلمه. وما ظهرت شمس الدستور على يد مدحت باشا حتى قام أصحابنا بنهضتهم وشرعوا يتمون مشروعهم.

يعتمد أحمد حكمت بك في كتابته على الحس أكثر من الخيال، أسلوبه رقيق، ومعانيه سهله، وأفكاره متينة. أكثر كتبه حافلة بالقصص والحكايات. يسعى حين الكتابة لإظهار حقيقة ما يكتب، وهو على عكس رفيقه خالد ضيا، قليل التكلف والصنعة. ولقد صور الأدب الغربي بصورة توافق لغته وبيئته. وله مؤلفات عديدة ومن أهم آثاره كتاب (خارستان وكلستان).

وهذه قطعة من منثوره المثبوت بين كتبه القيمة، فان فقدت جمال الأسلوب وروعة الصنعة فجمال المعنى محفوظ على ما أظن:

ساعةَ خَلْقَ الكَونَ

كانت جلبة وقرقعة في ديجور الظلام الخانق، وكان انقلاب وانفجار وسط الغيوم السوداء المزبدة الحواشي تحيط بذلك الفضاء الواسع. وكانت الرياح تعصف، والأحجار تسيل. واللهب تنشر حرارتها وتذيب الصخر والجلمود. وكانت الجبال تنقلب والبحار تفرغ وتمتلئ، والغيوم تنفجر وتنشق فتولد المئات والألوف من النجوم التي تسبح في

الفضاء كما تسبح اليراعات في الظلمات الحالكة، تارة تذوب. وأخرى تتصادم ثم تنعزل في ناحية من الفضاء اللانهائي. كانت الأمواه تعلو وتنخفض، تغلى وتزبد حول تلك اللهب المتعالية
والنيران المتأججة.
. . . .والكائنات تدور. . . . نعم كانت تدور
وكانت طوائف الملائكة المكلفة بتنظيم الأرض تطير وتنتقل من طرف إلى آخر، منها من تمسك المياه المتجمدة من حوافيها، وتدفع الجبال بأرجلها، وترتب النجوم بأيديها، وتعيد الأنهار إلى فراشها، ومنها من كانت تجر (الدب الأكبر) من ذنبه، وتقود (برج الحمل) من قرنه.
. . . .والكائنات تدور. . . . نعم كانت تدور
بين تلك الغيوم والنجوم والدخان واللهيب كان ملك ضحى بنفسه يطير بسرعة البرق خلف كوكب جميل مضيء، خلف (الزهرة) الشاردة. وبينما يعيدها إلى محورها الأول وقع فوق الصخور الملساء على أثر صدمة قوية كانت سببا في فقده رشده. ولما استفاق من إغمائه سقطت دمعة من عينه انحدرت فوق الصخرة. لقد رأى الخالق الأعظم هذه التضحيات، ووافقته هذه الخدمات، فأراد الا تضيع ذكرى هذه الدمعة فخلق الرجل الأول (آدم).
كانت دورة الأرض تنتظم قليلا قليلا، فالأنهار نامت في فراشها والبحار هدأت في أحواضها، والنجوم انتظمت في محاورها والبراكين خمدت في أماكنها.
وكانت الشمس في كل يوم تبعث الحياة على اليابسة. وكانت الرياح بين آونة وأخرى تساعد الشمس في بعث الجمال والحياة وتطرية هذه الكائنات. وكانت بذور الورود تنتثر من الآفاق وباقات زهور الحب تساقط من الغيوم، وذرات النجوم المتناثرة في تلك القبة الزرقاء تشكل مروجا من زهور البابونج (باباتيه) وحاشية من حواشي قوس قزح تبدو للناظر ذيل طاووس بهيج.
وقد وجدت هذه البدائع لتكون مكافأة للملائكة على جهودهم وخدماتهم. وكانت الحور يتمتعن من هذا الجمال والتجديد، تارة يسرن وأخرى يطرن، يسمعن أغاريد الطيور، ويتهجن من أريج الزهور، ويتراكضن نحو ظلال الأشجار مرحات طربات، وكانت أجملهن وأصغرهن، وأتعبهن جالسة وسط زهرة فتحت صدرها وأوراقها لأشعة الشمس لتشعر بهذا الجمال اكثر من رفيقاتها، ولتتذوق هذه الحلاوة قبل صويحباتها. وهي كجميع المخلوقات تنتظر ظهور المعجزة برشفها أشعة الشمس المشرقة بشفتيها وعينها.
بدا نور وجمال في شفتي تلك الحورية على اثر رؤيتها في كل عصفور ريشة منيرة، وفي كل زهرة لونا جديدا وفي كل شجرة ثمرة حلوة. كان هذا النور وهذا الجمال (الابتسامة الاولى).
وقد رأى الخالق الأعظم هذه التضحيات ووافقته هذه الخدمات فأحب أن تدوم ذكرى هذه الابتسامة فخلق منها المرأة الاولى (حواء).
وانتهى بذلك خلق الكون.
في الأدب الغربي
في ساحة علبين
لأناتول فرانس
رأيت نفسي فجأة في ديار خيم عليها ظلام وهبب صامت، برزت فيه صور وأشباح مبهمة ملأتني خوفا ورعبا، ولقد ألفت عيني بعد حين حلكة الظلام ورأيت بجانب نهر تنساب مياهه في هدوء شبح إنسان رهيب المنظر على رأسه قلنسوة آسيوية، ويحمل على كتفه مجدافا عرفت فيه أوديسيوس الخادع، وكان خداه غائرين وقد غطت ذقنه لحية بيضاء شعثاء
سمعته يقول بصوت خافت ضعيف: إنني جوعان، وأحس بعيني مظلمتين ونفسي كأنها دخان ثقيل يسبح في الظلام؛ ألا من يعطيني جرعة من الدم الأسود لأستعيد ذكرى سفني المنقوشة وزوجتي الطاهرة وأمي!
فلما سمعت هذه الكلمات عرفت إنني قد انتقلت إلى بقاع الجحيم، فحاولت أن أسترشد في خطوي بأوصاف الشعراء ما استطعت إلى ذلك سبيلا، وذهبت إلى مرج

قد أضاءه نور ضئيل. وبعد مسير نصف ساعة انتهيت إلى رهط من الأطياف قد اجتمعت في صعيد واحد وأخذت تتطارح الحديث وهي تضم نفوسا من كل عصر، فرأيت بينها الفلاسفة العظام بجانب الهمج الفقراء، ولقد اختبأت تحت ظلال شجرة من أشجار الريحان، وأنصت إلى حديثهم، فكان أول من سمعت (بيرهون) وهو يسأل في رقة وتوسل وقد أمسك بيديه قدومه كأنه بستاني بحق:
ما هي النفس؟
فأجابته الأطياف التي حوله باهتمام وكلها يريد التكلم دفعة واحدة. قال أفلاطون وفي عينيه نظرة الرجاحة: ان النفس ثلاث، فلنا نفس نهمة في البطن، ونفس محبة في القلب، ونفس عاقلة في الرأس. والنفس خالدة، أما النساء فلهن نفسان وتعوزهن النفس العاقلة. فرد عليه شيخ من أعضاء مجلس ما كون قائلا: انك تتكلم يا أفلاطون كمن يعبد الأوثان، ففي سنة 585 قرر مجلس مكون بكثرة الأصوات اعتبار المرأة ذات نفس خالدة، والمرأة هي الرجل لأن المسيح الذي ولد من عذراء يدعى في الإنجيل بابن الرجل.
فهز أرسطو كتفيه ورد على أستاذه بلهجة الحزم والوقار قائلا: من المرجح عندي يا أفلاطون إن لنفس الإنسان والحيوان خمسة أنواع: النفس الغذائية، والنفس الحساسة، والنفس الدافعة، والنفس الشهوانية، والنفس العاقلة؛ والنفس هي العنصر الذي يتكون منه الجسم، فإذا أهلكت هلك بهلاكها
وطرحت آراء أخرى كل واحد منها يعارض الآخر
أوريجن: ان النفس مادية وهي شئ رمزي
سنت أوجستين: كلا، ليست النفس مادية وهي خالدة
هيجل: إن النفس ظاهرة طبيعية
شوبنهور: ان النفس مظهر وقتي للإرادة
رجل من بولينيزا: إن النفس هي نفس الريح، ولما رأيت أن نفسي صاعدة ضغطت على أنفي لأحفظها داخل جسدي، ولكنني لم أستطع أن أضغط الضغط الكافي فمت.
امرأة هندية: من فلوريدا: لقد قضيت نحبي وأنا في مهد طفلي، فوضعوا يده على شفتي ليمسك نفس أمه من الصعود، ولكن جاء هذا متأخرا فقد انسابت نفسي بين أصابع الطفل البريء
ديكارت: لقد أثبت أخيرا ان النفس كانت شيئا معنويا، أما عن مصيرها فارجعوا إلى الأستاذ ديجي الذي كتب في هذا الموضوع.
لامتري: أين ديجي هذا؟ أحضروه.
مينوس: أيها السادة سأبحث عنه في كل بقاع الجحيم،
البرنس ماجتاس: عندنا ثلاثون دليلا على فناء النفس، وستة وثلاثون على خلودها، فهناك أكثرية ستة أصوات بجانب الخلود
صانع أحذية: إن روح السيد الشجاع لا تموت لا هي ولا غدارته ولا غليونه
رابي ميمونديس: لقد كتب من قديم ان الرجل الشرير سيبيد ولن يبقى منه شيء
سنت أوجستين: انك مخطئ يا رابي ميمونديس، فقد كتب إن المذنب سيذهب إلى النار وسيخلد فيها أبدا.
أوريجين: نعم إن ميمونديس مخطئ، فالرجل الشرير لن يبيد ولكن سيتقلص حتى يصبح
ضئيلا جدا فلا يمكن تبينه، ويجب أن تعلم هذا ممن حلت بهم لعنة الله، أما عن نفوس القديسين فسيكون نصيبها الامتزاج بالله
دنس اسكوتس: إن الموت يجعل الكائنات تمتزج بالله مرة اخرى كأنها صوت يغيب في الهواء
بوسويه: ان أوريجن ودنس اسكوتس يخطئان هنا، فأن ما روي في الكتب المقدسة عن عذاب الجحيم يجب أن يفهم بمعناه الدقيق الحرفي، وهو أن الأشرار سيظلون أبدا تتنازعهم الحياة والموت، وسيخلدون في العذاب لأنهم سيبقون أقوياء لا يموتون، وضعفاء لا يحتملون، ولن يبرحوا يئنون على مقعد من النار مغمورين في مض من الألم لا شفاء لهم منه.
سنت اوجستين: نعم يجب أن نفهم هذه الحقائق بمعناها الحرفي، ونعلم أن أجسام

الأشرار هي التي ستعذب في النار، ولن ينجو من هذا العذاب الشديد الأطفال الذين يموتون عند ولادتهم، أو حتى في بطون أمهاتهم، فهكذا قضت العدالة الإلهية، فإذا رأيت أنه يتعذر عليك تصديق أن الأجسام التي تلقى في النار لن تهلك أبداً فهذا نتيجة الجهل المحض، فأنت لا تعلم أن هناك أنواعاً من اللحم تحفظ في النار كلحم الديك البري، وقد جربت هذا في هدهد، إذ هيأ لي طاه أحد هذه الطيور وخصص نصفه لغذائي، وبعد أسبوعين طلبت النصف الآخر فكان لا يزال صالحا للأكل، فظهر لي أن النار حفظته كما ستحفظ أجسام الأشرار.

سمنجالا: إن كل ما سمعته من أنواع الفلسفة إلى الآن مظلم كظلام الغرب الدامس، والحقيقة أن الأرواح تحل في أجسام مختلفة قبل أن تمتزج بالنيرفانا المباركة التي تضع حداً لشرور الحياة، فقد حل (جوتاسا) في خمسمائة وخمسين شكلا قبل أن يصير (لودا) فكان ملكاً ثم عبداً ثم قرداً ثم فيلاً ثم ضفدعة ثم شجرة من أشجار الدلب وهكذا

قسيس: إن الناس يموتون كما تموت دواب الحقل، ومصيرهم كمصيرها، وكما يموت الناس تموت البهائم أيضا، وكلاهما يتنفس هواء واحدا وليس للناس شئ لا تملكه البهائم.

تاسيتوس: ان هذا الكلام يكون مقبولا مفهوما لو نطق به يهودي خلقت نفسه للعبودية، أما أنا فاني أتكلم كروماني فأقول: إن أرواح الوطنيين المشهورين لا تفنى ويجب أن نؤمن بذلك إيمانا صحيحا، ولكننا نتهم عظمة الآلهة إذ نحسبها تهب الخلود لأرواح العبيد والعتقى.

شيشرون: وا أسفاه يا بني أن كل ما يروون لنا عن بقاع الجحيم انما هو نسيج من الاباطيل، وأني لأسأل نفسي أهناك طريق آخر يكفل لي الخلود الا ذكر عهد قنصليتي الذي سيبقى إلى الأبد؟

سقراط: أما أنا فاني أومن بخلود الروح، فهو فرصة يحسن انتهازها، وأمل يعلل به كل إنسان نفسه

فكتور كوزان: يا عزيزي سقراط إن خلود النفس الذي أوضحته بجلاء لا بد منه للأخلاق والآداب، لأن الفضيلة موضوع مناسب للحطباء، ولو لم تكن النفس خالدة لما كان للفضيلة ثواب.

سنيكا: واعجبا يا فيلسوف الغالي! أهذه مبادئ رجل حكيم؟ ألا فاعلم أن جزاء الأعمال الصالحة هو في تأديتها وإلا فجزاء تثاب به الفضيلة يكون غريباً عن الفضيلة ذاتها.

أفلاطون: ولكن هناك ثواباً وعقاباً إلهياً، فعند الموت تصعد روح الرجل الشرير لتحل في جسم حيوان حقير كحصان أو عجل بحر أو امرأة، أما روح الحكيم فتمتزج بالآلهة.

بابنيان: إن ما يعني أفلاطون هو أن العدل الإلهي سيتولى في الحياة الأخرى إصلاح أخطاء العدالة الإنسانية، والأمر على النقيض من ذلك، فخير للأفراد الذين أصابهم في الدنيا عقاب لا يستحقونه، قضى عليهم به قضاة معرضون في الواقع للزلل برغم جدارتهم بمناصبهم وخبرتهم بالقضاء، أن يظلوا يقاسون الآلام والعذاب في عالم الأرواح، وهذا ما تعني به العدالة الإنسانية التي قد يضعف من شأنها أن تضعها إلى جانب الحكمة الإلهية.

قزم: ان الله يحسن إلى الأغنياء ويسيء إلى الفقراء، لأنه يحب الأولين ويبغض الآخرين، ولحبه الأغنياء سيرحب بهم في جنانن، ولبغضه الفقراء سيصليهم بناره.

صيني بوذي: اعلم ان لكل إنسان نفسين: إحداهما خيرة وهي التي ستمتزج بالله، والأخرى شريرة وهي التي سيحل بها العذاب.

عجوز من تارنت: أيها الحكماء أفتوا شيخا يحب البساتين، هل للحيوانات نفس؟

ديكارت دماليبرانش: كلا، انها آلات

أرسطو: بل هي حيوانات ولها نفس مثل ما لنا، وهذه النفس تتصل بأعضائها

ابيقور: أجل يا أرسطو لقد كان مما مهد لها سبيل سعادتها وهناءتها ما بين نفسها ونفسنا من شبه، فكلتاهما قابلة للفناء معرضة للموت. أما أنت أيتها الأطياف فانتظري في هذه الحدائق الوقت الذي تفقدين فيه الحياة نفسها وبؤسها مع الرغبة فيها ولا الولوع بها، ولتريحوا أنفسكم بالتأمل والتفكير في هدوء لا يكدر صفوه مكدر.

بيرهون: ما الحياة.؟

كلود برنارد: الحياة هي الموت
فسأله بيرهون قائلا: وما الموت؟ فلم يجبه أحد، واختفت الأطياف في سكون كأنها سحاب يفر من الرياح
وحسبتني تركت وحيدا على العشب حتى لمحت منيبوس وقد عرفته بابتسامته التهكمية
فقلت له: كيف تتحدث هذه الجماعة عن الموت يامنيبوس كأن لم يكن لها به عهد؟ وكيف يجهلون مصائر الإنسان كأنهم ما زالوا على الأرض.
قال لا ريب أن هذا يرجع إلى أنهم ما زالوا إنسانيين وفانين إلى حد ما، فإذا ما ولجوا باب الخلود فلن يتكلموا ولن يفكروا، إذ سيصبحون كالآلهة.
حنفي غالي
العلوم
النسل
للدكتور احمد زكي
منذ شهرين قامت ضجة في بلد من بلدان أوربا الوسطى وصل اضطرابها إلى أطراف العالم الحي. ذلك أن حكومة ذلك البلد قاضت جماعة من الأطباء قاموا بطريقة منظمة على تعقيم كل ذَكَر لا يرغب في الانسال، أو أنسل ولم يعد له رغبة في المزيد، أو له رغبة في المزيد تأباها عليه الضائقة الحاضرة، بثت هذه الجماعة دعايتها بين الفقراء من العمال والفقراء من الزراع، ولم تكن غايتها الكسب، فان أجرة العملية كلها على ما أذكر كانت جنيهين ونصفا في ذلك أجرة الطريق أو أجر السفر، وانما كانت غايتها منع النسل عن غير القادرين على رعايته، وتجويد نوع المواليد بالإقلال منهم، على قاعدة أن المائة من الجنيهات قد تنفق على اثنين وقد تنفق على أربع، ولكن إن هي أتتك في الحالة الأولى برجلين فهي تأتيك في الحالة الثانية بأربعة أنصاف من الرجال، وحيث أن الدنيا ضاقت بالعدد الذي لا يجد عملا، فأولى بالناس أن ينصرفوا عن العدد إلى الجودة، وعن الكم إلى الكيف. ولكن الحكومة التي رفعت الدعوى عليهم رأت أن في العدد سلام الدولة، وان للكم الغلبة بين الأمم. ومهما يكن من رأي هؤلاء أو أولئك فالذي نريد أن نسجله دعوى جديدة تدعيها هذه الرفقة، وهي أنهم يقطعون بمشرطهم حبلا فيقطعون ما بين الرجل وذراريه، ثم يصلون بملقط ما قطعوه، فيعود الرجل إلى إنتاجه القديم. ونريد أن نسجل أن بهذا المشرط ولا سيما بالملقط ستحدث أحداث غريبة في العالم ستأتي على رغم الكراهات وبرغم القوانين ولو أبطأت بها الأيام
الإنتاج من قديم فخر الرجل والعقم عاره، ولكن كان هذا والأيام تسير الهوينى والأرزاق كأنها تتنزل من السماء على أنفس قنوعة راضية، أما المدنية الحاضرة مع بوائقها وضوائقها وانعدام العصبية الأسرية فيها إلى حد كبير، فلا تكاد تبقي للإنسان فخارا بخلف أو عاراً من عقم، ولا سيما عقما لا يذهب بمشاعر الحيوانية من الإنسان، دليل ذلك أن الكثيرين يتعقمون اختيارا، وفي مصر من هؤلاء عدد يذكر تعقموا في وضح النهار على سمع الناس وأبصارهم. ولكنهم مهما كثروا قليلون إلى جانب من يرغبون في حبس النسل
أو تقليله، ولكن تأبى نفوسهم وتثور حفائظهم وتقشعر أبدانهم أن تنتزع الرجولة منهم وتقتل الذكورة فيهم، أما الآن وقد وعد الطب بوصل ما يقطع، فلم تعد الرجولة تنتزع ولا الذكورة تقتلع، وانما يقطعان إلى وصل، ويطويان إلى نشر، وفي هذا من الأغراء ما فيه. ومن الممتع اللذيذ للعالم الاجتماعي أن يتابع عن كثب هذا الأثر الجديد للمشارط والملاقط في حياة الأسر، وطاقات الطوائف والأمم، فهما أداتان للخير والشر على السواء، لابد من ضبطهما بأيدٍ مسئولة، ولا سبيل إلى تركهما لأهواء الأفراد طيلة انتسابهم إلى مجتمع منتظم هم من نتاجه
واجتمعت الجمعية الطبية البريطانية اجتماعها السنوي في (دبلن) من أسابيع قليلة عقب الثائرة التي أثارتها تلك القضية، فرأينا أصداءها تتردد حتى في هذه القيعان، فقد قام جماعة من الأطباء ذوي اسم ومكانة ينصحون بتدخل الجمعية في تحديد عدد السكان في الجزر البريطانية وإباحة تلك العملية واتخاذها أداة لمنع الأضرار الاجتماعية التي تتسبب في الأوساط الفقيرة عن ارسال حبل الإنسان على غاربه، ولا سيما في

مناطق التعدين حيث الفقر مدقع والبطالة لا أمل في العثور على علاج لها لا في الحاضر ولا في مستقبل الأيام. وقامت معارضة هادئة الا أنها من صنف المعارضات التي تنجح وتتلقاها آذان السكسونيين دائما بالقبول. قام معارض فقال: إن للمسألة وجوها غير طبية، فلها وجه اجتماعي ووجه آخر خلقي، وليس الطبيب بأهل ان يبحث في الاجتماع أو أن يرسم للناس كيف يتخلقون. وقام طبيب الملك فقال: إن من أنجع الطرق في وقف سير حركة جديدة أو تعطيل اعتناق الناس لمذهب طريف، أن تتدخل فيه بالعنف الرسمي، سواء أكان ذلك بتحكيم القانون أم بتقرير جماعة مسئولة كجماعتنا هذه. كل حركة جديدة أو مذهب طريف، لابد أن يتأهل له الناس. وما التقنين الا صياغة لرغبة عامة وتتويج لإرادة شاملة، فلندع جمهور الأمة يفكر في صمت، في المجالس الخاصة وبين فترات العمل، في راحة ما بعد الغداء، أو اضطجاعة ما بعد العشاء، وفي أثناء التروض على الحشيش الأخضر أو على رمل الساحل، أعطوا الجمهور الزمن ليفكر. ولا تسبقوا أحداث الوجود، فعندئذ يأتيكم هذا الجمهور يطلب منكم النصيحة، وعندئذ تعطونه إياها نصيحة ناجعة سهلة، تصل بكم إلى الغرض بسرعة كبيرة تعوضكم عن الإبطاء الذي كان لابد منه لتفكير الناس واقتناع الجماهير، وكان هذا فصل الخطاب.

أما في ألمانيا الهتلرية فقد جرى النقاش في الموضوع وتقرر القرار وصيغ القانون في ليلة وضحاها. والواقع أننا لم نكد نسمع الا بالقانون وقد صدر، وهو يضيء بالتعقيم الإجباري لكل مريض بمرض يمكن توريثه. وعددوا تلك الأمراض فكان منها ضعف العقل وبعض صنوف الجنون والصرع والتشنج المفصلي والعمى والصمم المؤَّرثان، وكل عاهة يمكن توريثها، وكذلك إدمان المسكرات إذا بلغ حد المرض. وتنصب لجان للتقرير عن حالة المرضى. وللمريض أن يستأنف، فأن قضى الاستئناف بالتعقيم أنفذ بالقوة في مصحات الحكومة. وتقع نفقة كل هذا من قضاء أو تعقيم على أولي الأمر، ويتعهد كل من يتصل بشيء من ذلك بالتكتم والتستر حتى لا يعرف من تعقم. لم يسمح القانون بإجراء العملية على الأصحاء لأسباب اجتماعية مهما كانت تلك الأسباب. ونسمع انهم سيخرجون في القريب العاجل قانونا خاصا بتعقيم المجرمين.

هذه البداية، ولسنا ندري ما النهاية. حرموا النسل على المرضى لخير المجتمع. أو لما يرون فيه خير المجتمع، وفرضوه على الأصحاء لخير المجتمع كذلك أو لما يرون فيه الخير للمجتمع. والروح السارية في هذا كله تقضى بالتضحية بالحرية الفردية لصالح الجماعة، وهي روح تلتئم مع روح العصر المَكنَّى فالجماعة مَكَنَة والأفراد قِطَعها، فهي إن دارت تدور بسرعات مختلفة وفي اتجاهات متباينة، ولكنها جميعا متناسقة متوافقة، تؤدي إلى نتيجة محتمة واحدة. هي دوران المكنة على الدوام وبانتظام. فان شذت قطعة من القطع عن ذلك كان مصيرها رُكام القمائم.

لندن في 17 أغسطس.

دائرة المعارف الإسلامية

ألفها كبار المستشرقين في ثلاثين عاماً، ونقلها إلى اللغة العربية لفيف من خريجي (الجامعة المصرية، وكتب الشروح والتعليقات والردود أعلام الفكر في مصر والعالم العربي)

دائرة المعارف الإسلامية أوفى المراجع للباحثين في الإسلاميات ويعرف المطلعون على ما ظهر من أجزائها أن الكثير من فصولها قد جمع إلى سعة العلم ودقة البحث حسن الطريقة والإرشاد إلى المصادر المعتمدة قديمها وحديثها على وجه يستحق الإعجاب كله والثناء، ولقد همت من قبلكم طائفة من أهل العلم أن تعرب هذا الأثر العظيم فتخاذلت هممهم دونه على عرفانهم لجليل نفعه وتقديرهم لما يعود على النهضة العملية عندنا من فائدة. أما أنتم فيسعدكم شباب في عنفوانه وشوق إلى الدرس والمجد يحده الذكاء ويمده الأمل ويمده فوق ذلك كله الإخلاص في العلم والإخلاص في العمل.

مصطفى عبد الرزاق. أستاذ الفلسفة الإسلامية بالجامعة المصرية.

في رأيي أن هذا عمل جليل تستحقون عليه الثناء لأني أرى من الواجب الاطلاع على آراء المستشرقين وغيرهم من الأجانب في الدين الإسلامي والحضارة الإسلامية فما

كان منها صحيحا تقبلناه بقبول حسن وما كان مخالفا للدين أو للحقائق التاريخية رددنا عليه وبينا خطأه ليكون القوم على بينة من أمرنا وليعرفوا ديننا وتاريخنا حق المعرفة وليعلموا أن بيننا رجالا قادرين على الرد عليهم إذا أخطئوا وعلى إرجاعهم إلى الحق إذا زاغوا.

عبد المجيد اللبان. شيخ كلية أصول الدين بالجامعة الأزهرية

أما وقد شرعتم بنقل (معلمةالإسلام) فالعمل عظيم والفائدة محققة. والواقع أن هذه المعلمة من أجمع ما كتب على بلاد الإسلام ورجاله في هذا العصر. . . وفي المعلمة من المقالات الجيدة ما لم يكتب بالعربية حتى اليوم مثل مقالات الكرد، القبط، مصر، الهند، بلاد العرب، المقوقس، مسجد، منبر، محراب الخ. ومن البلاد التي وصفت والرجال الذين ترجم لهم ما يتعذر إيجاد مصادر له في الشرق العربي.

محمد كرد علي. رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق

أنه لعمل جدير بالتقدير والإعجاب عمل لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية المقدمة على إخراج هذا السفر الجليل إلى اللغة العربية. وإني أترقب باكورة هذا العمل المجيد كما يرقب الصائم هلال العيد.

يوسف رزق الله غنيمة. وزير مالية العراق سابقا.

إذا كانت أمم الشرق الأدنى نامت نوما عميقا في القرون
المتأخرة فها هو ذا صبحها أخذ يتنفس وطفقتم أيها الأبناء
البررة تبنون بالعلم ما هدم الجهل من مجد قديم تعيدون سيرة
آبائكم الأقدمين بإشراق شمس المعارف الإسلامية بعد غروبها.

وإن في ترجمة دائرة المعارف الإسلامية القيام بثلاثة واجبات
واجب ديني وواجب وطني وواجب مدرسي لمعهدكم الشريف.

طنطاوي جوهري

القصص

إلى الواحات الخارجة

جنة الصحراء الغربية

في عرف قدماء المصريين (وجزيرة الناعمين)

للأستاذ محمد ثابت

ولا تكاد تفتح عين جديدة الا رأيت آثار الرومان فيها فيجددون حفرها. والعين ملك لمن جد في البحث عنها وقام بتطهيرها، ويساهم كل فيها بنسبة ما بذل من مجهود ومال، وعلى هذه النسبة يستنبت جزء مما جاورها من الأرض، والحكومة لا تتقاضى الضرائب على مساحة الأرض المنزرعة فالناس أحرار يزرعون ما أرادوا منها، لكن الضريبة تجبى على طاقة العين بغض النظر عما يزرع حولها. فإذا ما ظهرت عين جديدة تشكل لجنة حكومية ثم يسوى مكان عند منفذ العين توضع في نهايته عارضة خشبية بعرض القناة فتعترض الماء الذي يطغى عليها ويتدفق فوقها ثم يقاس عمق هذا الماء فوقها وبحسب غزارته تقدر قوة العين قيراطا أو بعض قيراط والضريبة نصف جنيه عن كل قيراط، ومن العيون ما هو أقل من قيراط ومنها ما يبلغ عشرات القراريط. وفي ناحية باريز أكبر عيون الواحات وقوتها من 58 إلى 60 قيراطا، ويقال انها وحدها تستطيع ري مئات الفدادين، لكن أصحابها لا يستطيعون استغلالها كما يجب، لذلك تجمع من مائها الفائض مستنقع يمتد عشرات الكيلومترات كثر به البط والطير المائي، ولذلك يقصده الكثير وبخاصة الموظفين للهو والصيد.

وتقسيم ماء العين بين الشركاء عجيب أيضا، فان كان الملاك ثلاثة قسموا القناة الخارجة من منفذ العين ثلاثة أقسام، يجب أن تكون متلاصقة خيفة تبدد الماء بالرشح فيجري نصيب كل مالك إلى أرضه التي يشترط أن تكون مجاورة لأرض باقي الشركاء، وألا تزيد متراً واحداً عنهم، ويجب أن يزرع الجميع نوعا واحدا من الغلات، وإذا لم يسعف ذاك التقسيم كل حقل قسموا الري بالساعات، ففلان يروي عددا من الساعات مناسبا لنصيبه، وبعد ذلك يجيء دور صاحبه، وهكذا وإذا أقبل المساء وقف الري خيف على الماء الدافق من التبديد

لذلك يرسل الماء إلى مستودع فسيح يدخر فيه إلى الصباح حين يروي الشركاء منه على النظام السالف إلى أرضهم المنخفضة عن مستوى ذاك المستودع، والأراضي

حول العيون مدرجة الانحدار كي يصبح الري ممكنا، وكثيرا ما كنت أرى المجاري المتقاطعة يسير فيها الماء بعضه فوق بعض مسافات طويلة كل يستمد من عين خاصة به

وكلما مضت السنون على العين ضعفت لكثرة ما يتجمع حولها من رمال فيعاد تطهيرها، وكثيرا ما تقارب العين النضوب او ينفذ ماؤها، والعادة انه كلما خرج نبع جديد أغاض ماء غيره أو أنضبه.

واهم الزراعات: الأرز عماد غذاء الأهلين وهو صغير الحب أسمر اللون لكنه ألذ طعما من رزنا، وهو في الطبخ ينتفخ فيزيد حجمه كثيرا، ولعل أكبر مميزاته محصوله الوفير فمتوسط غلة الفدان بين 20و30 أردبا، وفي الأرض الجيدة يغل أربعين، على أنه يمكث في الأرض سبعة شهور، ولعل جودة ذاك المحصول العجيب راجعة إلى كثرة الجهد الذي يعانيه القوم في خدمته، فزراعته تتطلب عناء عظيما من ذلك: بلّ البذور بالماء الساخن وبذرها ونقل النبت وهو صغير من بؤرة في الأرض إلى غيرها وتلك العملية تتطلب المثابرة حتى يقارب النضج، أضف إلى ذلك استئصال الطفيليات، وفي الشهر السابع يبدأ الحصاد وخلال كل أولئك ينشر الفلاح السماد على الأرض أولاً من روث البهائم، وأخيرا من فضلات المراحيض، فتراهم جميعا يوالون رمي رماد (الفرن) في مرحاض البيت كل يوم وإذا ما انتهى العام جمع كل ذلك سمادا قويا يعاون على إنبات الأرز. وكلما حسنت الخدمة زاد طول السنبلة فحوت بين 90و110 حبة وضوعف المحصول وقد يبلغ الخمسين أردبا ولذلك يجري على ألسنتهم جميعا المثل القائل: (قل زرعك وأكرمه). وبعد تمام ري الأرز ينصرف الماء إلى المنخفضات لاستخدامه في ري القمح وهو الغلة التي تزرع بعد الأرز في الأرض الجيدة وحولها في الأراضي الرديئة يزرع الشعير ومحصولهما محصول أرض الريف.

ولما كانت زراعة الأرز أساسية ومدته طويلة وهو يتطلب ريا مستديما كثرت لذلك النقائع أغلب العام، فعاون ذلك على نشر البعوض وبخاصة في أغسطس وهدد بالملاريا التي كثيرا ما تنتشر هناك، ولذلك حاولت الحكومة منع زراعته والاستعاضة عنه بالأرز

السبعيني لقصر مدته، ولما جربه القوم أنكروه بتاتا وذلك لقلة محصوله.

وكم أعجبت بنزعة القوم إلى التعاون في جل أعمالهم! ففي الزراعة مثلا لا يلجأون إلى إستئجار العمال خصوصا في موسم الحصاد؛ بل ترى فريقا يتنقل بكامل عدده إلى حقل الفريق الثاني وينجزون أعمال الحصاد متعاونين، وهؤلاء يقومون بدورهم في معاونة الفريق الأول إذا حل ميعاد العمل في منطقتهم، وتلك طريقة اقتصادية تبعث على العمل بنشاط وسرعة لا تتوافر في المأجورين، والناس هناك هادئو الطباع معروفون بالأمانة حتى أن صاحب النزل كان يترك الفندق مفتوحا بغير حراس رغم وحشة الليل وبعد المكان عن المدينة لأنه واثق أن ليس بين الناس من يحاول السرقة

غذاؤهم ومشربهم:

وعماد القوم في الغذاء الأرز يأكلونه مسلوقا ويضع الفقير عليه الزيت والغني المسلى وأحيانا يدق الزيتون كله ثم ينخل ويخلط سائله الزيتي الأسمر بالأرز فيكسبه لونا أسود وطعما لذيذا، وكثيرا ما يطبخ الأرز باللبن والملح. والأرز أساس وجبة الإفطار في الصباح والعشاء مساء. وهذه أهم الوجبات لديهم. يطهى في أوان كبيرة من الفخار أو النحاس. أما الخبز فلطعام الغذاء وهي أقل الوجبات أهمية يتناولونها في الحقول خارج بيوتهم.

ومن أشهر الأشياء لديهم الشاي والسكر والطباق. فهم يبتاعونها بالغلال عند بدء حصدها، والتجار يختزنون تلك الغلال ليبيعوها للقوم ثانية إذا نضب معينها عندهم ولقد أسرفوا في تلك العادة حتى قيل أن الشاي أتلف كثيرا من صحتهم ومالهم لأنهم إذا شربوا عمدوا إلى الماء المغلي فصبوه على الشاي الذي يشغل بين نصف القدر (الغلاية) وثلثيه لذلك يصبح منقوعه أسود غليظا ثقيلا ويتناوله حتى صغار الأطفال. وتتكرر تلك العملية في مجلس الشاي ثلاث مرات، والناس يتناولون الشاي أربع مرات في كل يوم: عقب الأكلات الثلاثة مباشرة، والمرة الرابعة عند الأصيل، ولا يروقهم الشاي الخفيف قط، لذلك ترى الواحد منهم يضع قطرة منه على ظفره ثم ينكسه فان سقطت نفر منه ولم يشربه فهو لا يستملحه الا إذا حاكى العسل الاسود، والعجيب

انهم يحلون ذلك بمقادير كبيرة من السكر. وأذكر أني أخذت صورة عجوز وناولتها قرشا فرجتني أن اشتري لها به بعض الشاي والسكر بدل النقود وأرسلت صبيها ليحمل ذلك إليها.

وأجمل مناظر الواحة تتجلى في بساتينها اليانعة تحيط بها أسوار وطيئة من الطين تحفها من أعلاها قحوف النخيل وتتخللها أبواب من الجريد صغيرة وبين تلك البساتين تمتد الطرق وتنساب قنوات الماء الدافق من العيون المجاورة، وأعظم غلات البساتين البلح والمشمش وكذلك البرتقال وهو من أحسن الأنواع حجما وطعما.

ومن أخطر ما يعانيه القومطغيان الرمال على البيوت والبساتينوالينابيع، لذلك تراهم يحتالون لمقاومتها، فالعيون يقام حولها بناء أسطواني، أو في زاوية مدببة حتى لا يتجمع الرمل خلفها ويطمرها. ويغلب أن يزرعوا خلفها صفا من الشجر وبرغم ذلك يغلبهم الرمل، وكلما أحاط بالشجر أو النخل استمر هذا في نموه السريع وعلا حتى إذا ما بلغ نهاية نموه طمرته الرمال فاختفى وعندئذ يهاجر القوم إلى ناحية أخرى، وكثيرا ما حدث ذلك في ناحية (جناح) من بلدانهم، وقد يطغى الرمل على البيت فأن قارب نهاية علوه فتح صاحبه في جداره بعض النوافذ فيتسرب الرمل إلى داخل البيت ويسده ثم يبني الرجل طابقا جديدا فوق الأول ليسكنه، وقد يتكرر ذلك إلى الطابق الخامس والسادس. وقص علي القوم أنه حدث مرة أن سيدة في المكس من قرى باريز أنامت طفلتها داخل البيت ولما عادت وجدت الرمال قد تسربت من ثقب فوقها فطمرتها وماتت. وهناك بعض الكثبان الزاحفة على المدينة قاس الناس سرعة تقدمها فكانت متراً في كل شهر.

ومن الحشرات المخيفة هناك العقارب، فهي توجد بكثرة مروعة على أن ضررها قليل ويظهر أن سمها أخف من سم العقارب التي في بلاد الصعيد، وفي بعض القرى هناك كالمكس لا تكاد ترفع قطعة من الطوب الا وترى أسفلها قد افترش بالعقارب، لذلك ترى الأهلين جميها إذا اقبل الليل خرجوا إلى كثبان الرمل العالية وأمضوا ليلتهم فيها ولا يجرؤ أحدهم أن يدخل الدار طيلة الليل خشية لدغاتها

ومما هو جدير بالذكر وبالاغتباط ما شاهدته من عناية محافظ الواحات بصوالح الناس، فهو دائما يفكر في خدمتهم وزيارة مواردهم، وقد أنشأ قسما مستحدثا في المدينة طرقه نظيفة مرصوفة تحفها الأشجار، وقد افتتح الطريق إلى أسوان لأول مرة، وعاون على فتح الطريق إلى أسيوط فقطعته السيارة في سبع ساعات وهناك طريق معبد إلى الواحات الداخلة تقطعه السيارات في ست ساعات، وآخر يسير شمالا إلى مرسى مطروح.

والمحافظ جاد في بناء مسجد فاخر فسيح الرحاب أحاطه بالمنتزهات.

والمستمد العام لماء الشرب نبع أحاطته الحكومة بالبناء تتخلله الأنابيب والصنابير وذلك محافظة على نظافة الماء أن تلوثه الأوساخ وتعبث الأيدي، يملأ منه السقاءون قربهم والفتيات جرارهم وهي مستطيلة الشكل كي تحملها الفتيات تحت أذرعهن لا فوق رؤسهن. والأواني من أخص صناعتها، وكذلك ضفر الأطباق والآنية من سعف النخيل يزينه نقش من الوبر والصوف الملون الجميل.

ومجهود القسم الطبي هناك عظيم، يقوم الطبيب بالعلاج وبصرف الدواء مجانا ويعالج المرضى في مستشفى كبير زود بأحدث الوسائل وهو في ناحية من المدينة بولغ في تجميلها وتنسيق حدائقها.

ذلك بعض ما شاهدته في الواحات الخارجة التي ستظل ماثلة أمامي أذكرها بالخير دائما. ولقد أسفت لأني لم أستطع زيارة الواحات الداخلة التي يقول عنها جيرانها بأنها أعم خيرا وأفسح مدى، سكانها يناهزون ثمانية عشر الفا، أعني ضعف سكان الخارجة وأني لأرجو أن أوفق زيارتها في يوم قريب.

محمد ثابت

بلياس ومليزاند

للفيلسوف البلجيكي موريس ماترلنك

ترجمة الدكتور حسن صادق

مليزاند: بل يتحدث إلي في بعض الأوقات: إنه لا يحبني وقد قرأت في عينيه. ولكنه يبادلني الحديث حين يقابلني في طريقه

جولو: لا تحقدي عليه ياميلزاند: إن في طبعه بعض الشذوذ والغرابة. . سيغير الزمن
. . .هذا الطبع. . . إنه في معية الصبا وزهرة العمر
. . .مليزاند: ليس هذا إياه
جولو: إذن ماذا؟ أتعجزين عن رياضة نفسك على السكون إلى الحياة التي نحياها في
هذا القصر؟ أحقا انه عتيق معتم يخيم عليه سكون رهيب، والطبيعة حوله حزينة
صامتة، والغابات الكثيفة تحجب عنه نور السماء، ولكن الإنسان يستطيع بالإرادة
الحسنة أن يألفه ويطمئن اليه. . ابتهلي كل فرصة لإدخال الإنس على نفسك وابتهجي
بالحياة كما هي. وتكلمي وأفصحي عن رغبتك. سأسير على حكمك وأقف عند مشيئتك
مليزاند: أني لم أر قط السماء صافية. . . لقد رأيتها لأول مرة في هذا الصباح
جولو: أهذا هو الذي أبكاك يا زوجي العزيزة؟! أتستخرطين في البكاء لأنك لا ترين
السماء؟! كيف ذلك؟! لست في العمر الذي يبكي الإنسان فيه على مثل هذه الأشياء
التافهة. . . جاء الصيف أو كاد، وسترين السماء في كل يوم. . . وفي العام المقبل. . .
هاتي يدك. . . أعطني يديك الصغيرتين (يمسك يديها) أوه انهما صغيرتان أستطيع
سحقهما كما أسحق الأزهار الرقيقة. . . آه! أين الخاتم الذي أعطيتك إياه؟
مليزاند: الخاتم؟
جولو: نعم. خاتم العرس أين هو؟
مليزاند: اعتقد. . أعتقد أنه سقط
جولو: سقط؟: أين؟ هل فقد؟
مليزاند: لقد وقع. . ولكني أعرف أين هو
جولو: أين؟
مليزاند: أتعرف الكهف القائم على شاطئ البحر؟
جولو: نعم أعرفه حق المعرفة
مليزاند: الخاتم فيه. . . لابد أن يكون هناك. . . نعم أذكر أذكر الآن شيء. ذهبت اليه
في هذا الصباح لأجمع بعض القواقع
لأنيولد الصغير. . . في الكهف منها أنواع ذات شكل وجمال. . وأثناء ذلك انزلق الخاتم
على إصبعي ووقع في البحر. . . وحان وقت رجوعي إلى القصر فغادرت الكهف قبل
أن أجد الخاتم.
جولو: هل توقنين أنه حيث تقولين؟
مليزاند: نعم. نعم. شعرت به وهو ينزلق
جولو: يجب أن تذهبي إلى الكهف للبحث عنه في الحال
!مليزاند: آوه! الآن؟ وفي الحال؟! ألا ترى الظلام الحالك؟
جولو: اذهبي في الحال وفي هذا الظلام الحالك. أحب إليّ ان أفقد كل ما عندي من
أن أفقد هذا الخاتم! انك لا تعرفين قيمته ولا تدرين من أين جاء. . . سيعلو البحر الليلة
ويبلغ جدار الكهف ثم يستحوذ على الخاتم دونك. . . أسرعي
مليزاند: لا أجرؤ. . . لا أجرؤ على الذهاب وحدي
جولو: اذهبي. . . استصحبي معك أي إنسان. . . أسرعي. . . تقدمي إلى بلياس أن
يصحبك
. . .مليزاند: بلياس؟! أأذهب إلى الكهف مع بلياس؟! ولكنه لن يقبل
جولو: سيعمل كل ما تسألين إياه. إني أعرف بلياس أحسن منك، اذهبي وأسرعي. لن
أنام حتى استرد الخاتم
مليزاند: آوه! لست سعيدة! ما أعظم شقائي (تخرج باكية)
المنظر الثالث (أمام كهف. يدخل بلياس ومليزاند)
بلياس: (يتكلم وهو مضطرب الأعصاب إلى حد كبير) نعم. إنه هنا. لقد بلغنا غاية
السرى. الظلام حالك يحجب عن الأبصار مدخل الكهف، وكأني به قطعة من الليل
البهيم. والنجوم لا تطل على هذه الناحية المتلفعة بالظلمة الداجية. فلننتظر حتى
يمزق القمر عن نفسه ستر
هذا السحاب الكثيف، وينير الكهف بأشعته الباسمة، فنستطيع الدخول آمنين. ولا يغرب
عن بالك أن من الأمكنة ما هو شديد الخطر، والمستدق ضيق وعمر يقع بين بحيرتين
لم يسبر غورهما بشر. . . ولم يخطر ببالي أن أحمل معي مشعلا أو سراجا منيرا. . .

ولكني أعتقد أننا سنجد على ضوء مسماء هدى. . ألم تلجي هذا الكهف يوما؟
مليزاند: كلا
بلياس: فلندخل. . . يجب أن تملئ عينيك بالمكان الذي فقدت فيه الخاتم كما قلت له ليتسنى لك وصفه إذا سألك عنه. . . إن الكهف كبير فسيح، ورائع بهيج، تموج فيه ظلمات تضرب إلى الزرقة بعضها فوق بعض. وإذا أشعل إنسان فيه مصباحا صغيرا خيل اليه أن القبة مغطاة كالسماء بنجوم وكواكب. . . لا ترتعدي هكذا! خلي عنك الخور فليس هنا من خطر، وسنقف في اللحظة التي يغيب عنا الضوء المنبعث من اليم. ما الذي يفزع جنانك؟ أهو صوت الهواء الضارب في بطن الكهف؟ أتسمعين عجاج البحر خلفنا؟ كأني به غير سعيد الليلة!. . . آه! ها هو ذا النوء!. . (في هذه اللحظة ينير القمر مدخل الكهف وجزء من داخله، ويرى فيه ثلاثة شيوخ بيض الشعور في أسمال بالية، ينامون على الأرض متلاصق ورؤسهم متكئة على صخرة كبيرة)
مليزاند: آه!
بلياس: ماذا جرى؟
مليزاند: أرى. . . أرى. . . (ثم تشير بإصبعها إلى الفقراء الثلاثة)
بلياس: نعم. لقد رأيتهم أنا أيضا
مليزاند: هلم نخرج. . . لنذهب من هنا،
بلياس: انهم ثلاثة شيوخ نيام استبدت بهم الفاقة. . . لماذا فزعوا إلى الكهف يستعدون فيه النوم على الألم؟ بالبلاد قحط ألم. . .
مليزاند: تعال معي نغادر هذا المكان!
بلياس: سكني روعك وتكلمي بصوت خافت حتى لا يستيقظ هؤلاء المساكين. . . إنهم ناعمون في نوم عميق. . . تعالي
مليزاند:. . . دعني، أفضل المسير وحدي. . .
بلياس: سنعود في يوم آخر. . . (يخرجان)
الفصل الثالث - المنظر الأول: (أحد أبراج القصر تطل احدى نوافذه على طريق مستديرة)
مليزاند: (في النافذة تغني وهي تمشط شعرها المرسل)
شعري الطويل يتدلى
حتى يصل إلى أسفل البرج
شعري ينتظر مقدمك
مسبلا على الحائط طول النهار
أقسم بالقديس دانيال وزميله ميشيل
بالقديس ميشيل ومثيله القديس روفائيل
إني ولدت حقا يوم أحد
يوم أحد عند منتصف النهار
(يدخل بلياس من الطريق المستديرة)
بلياس: هيه! هيه!
مليزاند: من المنادي؟
بلياس: إني بلياس. . . هأنذا. . . ماذا تفعلين في النافذة. وأنت تغنين كطير ليس من هذه الناحية؟
مليزاند: أرتب شعري استعدادا لليل
بلياس: أهو هذا الذي أراه على الحائط؟. . . ظننت انه شعاع من نور. . .
مليزاند: فتحت النافذة لأن الحر شديد في البرج. . . ما أجمل الجو الليلة!
بلياس: أرى في السماء نجوما كثيرة. . . لم أر قط مثل هذا العدد الوفير الذي أراه في هذا المساء! ولكن مالي لا أرى البدر؟. . إنه ما يزال مطلا على البحر. . . ابتعدي عن الظل ياملیزاند وانحني قليلا حتى أرى شعرك المحلول (تنحني مليزاند على النافذة)
الكتب
عودة الروح بين العامية والعربية
- 1 -
أشهد أن الأستاذ توفيق الحكيم مؤلف متعب وكاتب ليس بالسهل ولا باليسير، وما

عليك أن لم تلحق غباره أو تلم بجميع نواحيه، ويخيل إلي أنه كقمة افرست الشامخة ترسل إليها البعثات من آن لآن، ويرتادها الرواد من شتى جنباتها يحاولون الوصول إلى ذلك السمو وارتقاء ذلك الارتفاع الشاهق، ويهيئون لذلك الوسيلة ويأخذون للأمر أهبته وعدته، ثم يعودون ليكتبوا عنها المجلدات الضخمة ويضعون في وصفها الأسفار المسهبة. وما يزال أكثرها مجهولا في طي الخفاء، بعيدا عن الثابت من اليقين الذي لا يقبل الشك، وتضيع كل الجهود أمام ذروة هذه القمة هباء

أثارت (أهل الكهف) للأستاذ المؤلف ما أثارت، وأوسع لها النقد الرحاب وهتف لها اكبر الكتاب وأئمة النقاد في البلد، وارتفع توفيق الحكيم كالطود الشامخ في مثل لمح من البرق خاطف، وأصبح اسمه ملء الأسماع والأبصار، ولما يقدم الا رواية واحدة أو قل كتابا واحدا من مجموعة ضخمة يخايل بها الناس ويضن عليهم بها.

ثم نشر قصته (عودة الروح) فدلت على ناحية جديدة من نواحي كفاية هذا الشاب المؤلف، وعلى معين جديد يغرف منه توفيق الحكيم في حكمة ومهارة. ودقة واستنباط، لست تدري كيف تصفها ولا كيف تصورها، صورتها الحق من الجمال والفن و (أهل الكهف) و (عودة الروح) كتابان جد مختلفين، فالأول قصة قديمة، أو قل أقصوصة دينية صاغها المؤلف في حذق ومهارة وأتى فيها بكل طريف مبتكر مما قدره النقد وجعله يرفع الكاتب لأول وهلة إلى عليين. لأنه لم يكن بد مما ليس منه بد.

والثاني شد ما يختلف عن الأول كل الاختلاف ويفترق عنه في جوهره ولبابه، وإن شابهه في تفصيله وحبكه، فعودة الروح قصة مصرية، عريقة في مصريتها، كتبها توفيق الحكيم عن الأشخاص الذين تراهم كل يوم أو تسمع بهم مطلع كل شمس، فقدمهم اليك في صورتهم الحقة التي تعرفها، أو تحسها ولا تكاد تنكرها، بل ما تراها حتى تتعرف إليها وترى فيها الصورة الصادقة التي تتخيلها، وهي ليست الا أشخاصا من صميم المجتمع المصري أدار المؤلف قصته

حولهم، وقدمهم اليك في لباقة ومهارة ونفث فيهم من روحه القوي المؤاتي. كما نفث في أهل الكهف من قبل، وإذا بهم أحياء يسعون ويتحركون. يتعاطون من ألوان الحياة ويعانون من ضروبها ما يمر بالكائن الحي كل ساعة وكل يوم، فإذا هم ليسوا تصوير المخيلة ولا هم القريحة بل أناس من لحم ودم، محببين اليك، مقربين منك، لأنك لا تجهلهم ولست بالغريب عنهم، بل لطالما رأيتهم وتحدثت إليهم وسمعت من أنبائهم وأخبارهم الكثير، وكل ما هناك أن المؤلف انتزعهم من اللحم والدم وضمنهم كتابا من أسطر وكلمات، ولكن ما نزع منهم الروح ولا حرمهم الحياة، فانهم ليحيون حياة موفورة ناضجة، بل انهم استمتعوا بدنياهم مرتين، مرة في الحياة الحقة ومرة بين جلدتي كتاب. وما ندري أي الحياتين كانت عليهم أجدى ولذكرهم أخلد وأبعد أثرا.

على أن (عودة الروح) أثارت لغطا وأثارت نقدا هجاها ونال أو حاول النيل منها. أو قل على الأصح أن لغة (عودة الروح) هي التي أثارت هذا اللغط وأثارت هذا النقد، فما قرأنا حتى اليوم كلمة هجاء أو قدح في الرواية ذاتها، ولعلها فوق أن يتناولها الناقد بالذات، أو أنها تسمو في صميمها عن اللغط، فما كان بد لمن أراد ذلك أن يتناول المظهر ويترك الأصل والجوهر، فلا يطرق بابا يعلم انه لا يستطيع ان يلجه في سهولة ولا في عسر، مهما جهد أو وسعت له الحيلة.

على أن هذا اللغط الذي أثارته القصة كان خليقا أن يثير مناحي من التفكير ليست في الحق جديدة، وليست مما لم يتناوله الكتاب بأقلامهم قبل اليوم، ولكنها تعاد اليوم في صورة رحبة فسيحة الجنبات، وتنتهز لها فرصة هي ولا شك أفشل الفرص وأقربها إلى خيبة المسعى، وأدناها إلى قطع الرجاء. وعندي ان أنصار العامية (وما أعرف موقفي منهم على وجه الدقة) ما كانوا يرحبون بفرصة عارضة كهذه الفرصة السعيدة، تثار فيها قضية العامية والعربية من جديد ويكون مثار النزاع ومركز الشجار حول (عودة الروح)

قرأت هذه القصة منذ شهرين فما طلعت شمس يوم الا وفي نيتي ان أكتب عنها، وما دخل ليل الا وقد هيأت الورق والقلم، ولكن تمر الأيام والليالي وأنا متهيب أو كالمتهيب أن آخذ في حديث عن هذا الكنز فأغفل عن درة من درره، أو تفوتني جوهرة من جواهره، أو كأني وقد شغلني حديث (أبطال القصة) محسن وسنية وسليم وعبده وحنفي وزنوبة ومبروك

طوال هذا الزمن. استطبت الحياة مع هؤلاء الأصدقاء الجدد. واستعذبت حديثهم واسترحت إلى ما يعرضون عليّ من قصتهم وحوادثهم، وألوان شخصياتهم الطريفة البديعة، فنسيت معهم كل شي. أو حرصت على هذا النسيان ولم أشأ لنفسي ان أحرمها هذا الحلم الجميل، فطال وطال حتى لم يكن بد من يقظة ولو مؤخرة.

وكان لزاما عليّ أن أحدث القراء حديث هؤلاء الأبطال وما وقع لهم بالتمام والكمال. . . ولكن هذا اللغط الذي أثار حول لغة الرواية لم يكن ليمر دون أن يثير، كما قلنا، كثيرا من التأمل وكثيرا من التفكير، وكان أولى أن يتقدم فيه القول قبل ان ندلي برأي او كلمة في القصة نفسها، وإني لأسأل على دهش مني وعجب ليس بالقليل: أيهما أحق بالالتفات والنقد. . . المظهر أم الجوهر؟ الثوب أم لابسه؟ القصة أم لغتها؟

أفهم أن يتناول كاتب قصة، ينقدها ما شاء له النقد، ويمدحها أو يهجوها ما ساء له المدح او الهجاء. وما شاء له ذوقه الشخصي وكفاياته وإطلاعه ومقاييسه الأدبية، أفهم هذا وأستسيغه، وإذا ما انتهى الناقد من القصة ذاتها وشاء ان ينقد لغتها وأسلوبها من حيث اللغة نفسها فلا جناح عليه، بل لعله المقصر إن لم يفعل إن كان من الخبيرين بهذه الناحية المشهود لهم بالإحسان فيها، أما أن أدع القصة جانبا فلا أتناولها بخير ولا بشر، ولا أقول فيها كلمة لينة أو عسيرة، ثم أقفز قفزة، يالها من قفزة، فآخذ بتلابيب المؤلف لأنه كتب بالعامية ولم يكتب بالعربية، فهذا الذي لا يفهم ولا يستساغ ولا يكاد الإنسان يلوكه في فمه ويجد له طعما أو مذاقا

أيهما الأصل؟ القصة أم لغتها؟ وأعني اللغة التي كتبت بها القصة كائن حي خارج عن دائرة اللغة لانها أي (القصة) موجودة لها كيانها وذاتيتها كتبت ام لم تكتب، وهذه الحياة التي أحياها أنا وأنت وغيرنا من خلق الله لا يستطيع إنسان (على ما أظن) أن ينكرها، وليست هذه الحياة الا قصة من مئات الملايين من القصص، لا ينقص وجودها ولا يقل من ذاتيتها كتابتها باللغة العامية أو العربية أو الفرنسية أو الإنجليزية أو أية لغة من لغات العالم ولا أستثني الهيروغليفية، فقصة (عودة الروح) ليست الا احدى قصص هذه الحياة التي تزخر بالملايين من شبيهاتها فهل نمحوها من الوجود وننكر الاعتراف بوجودها لأنها لم تلبس لنا ثوب اللغة الفصيحة.

وما قيمة هذه الحياة (هذه الحياة التي تتمثل في أقصوصة) إذا كنا لا نتعرف إليها ولا نعترف بها الا في اسموكنج أو الفراك؟! فإذا طالعتنا في زيها الحق، في ذلك الجلباب الفضفاض والسروال العريض أنكرناها ومررنا بها سراعا غير آبهين أو ملقين النظر؟

ان في حوانيت الحائكين آلافا من هذه البذلات الأنيقة الموشاة بالحرير والدمقس ولكن يعيينا أن تلمس في طياتها حياة أو في أردانها قصة؟! وما علينا بالله لو عنينا بالقصة في ذاتها فهي ليست مما يستطيعه كل إنسان وتركنا هذه البذلة وهي مما في مقدور كل حائك؟!

ما الأصل. . . القصة أم لغتها؟ وندور لنعود إلى سؤالنا الأول. القصة هي الموهبة وهي الخلق، أعني انها نتاج الموهبة وهي الثمرة أي الخلق الذي ينتهي اليه الفنان الموهوب، واللغة اكتساب وتحصيل وأنت واصل بالدرس والمران إلى هذه اللغة ولو طالت الشقة، ولكنك لن توجد من العدم موهبة ولن تخلق من العظام الرميم حياة ولن تهشم رأس إنسان لترفع عقلا سقيما وتضع مكانه عقلا خالقا ولو جهدت ولو استعديت كل قوى البشر، أفما كان الأجدر بك والأمر كما ترى أن تنظر إلى الموهبة لتقدرها قدرها أولاً ثم تنظر بعد ذلك في الاكتساب والتحصيل؟! وهل تحرم على هذا العامي الجاهل يأتيك من عرض الطريق بمحض الفطرة والعقل الخالق بما لا يستطيعه العالم الجهبذ بعد الجهد والإعياء؟! نقول هل تحرم على الأول الخلق لمجرد انه جاءك في ثوبه الطبيعي ولم يحاول أن ينمقه بيد الصناعة؟! وهل تأخذ عليه انه ينبيك الخبر كما وقع ويحدثك بالأمر على لسان أهله كما تحدثوا به؟

لست أتحدث هنا عن مذاهب الفن المتعددة فيما نحن بصدده، وقد أعلم أن الأستاذ توفيق الحكيم قد يحتج بانه ينقل الحياة كما هي ويرد عليه بان الفن ليس في نقل الصور نقلا فوتغرافيا وان يكن لهذا جماله ووقعه، وقد يحتج الأستاذ المؤلف بان أشخاص قصته لم يكن لهم ليتحدثوا غير هذه اللغة التي أراد الحوار عليها لأنها لغتهم الطبيعية، بل ولأن هذه هي اللغة التي تحدثوا بها بالفعل لا أكثر ولا أقل، ويكون من العسير أن تناقش المؤلف في هذا القول، لندع كل هذا الآن ولنحصر الجدل في قضية

واحدة فإننا إذا تفرعنا بالقول هنا وهناك ذهب الاصل، واشتبكنا في فروع وفروع للفروع لا نهاية ولا آخر لها، وضعنا وضاع الحق بيننا. وهذه الدائرة التي نريد أن نحصر فيها القول يجمعها هذا السؤال
ولنكرره للمرة الثالثة ولو أعدناه للمرة الثالثة بعد المليون ما ضجرنا.
أيهما الأصل. . . القصة؟ أم لغتها؟ إن كانت القصة هي الأصل وهي الجوهر وهي مدار الحديث وجب أن تكون عناية النقد موجهة إليها، وان كانت القصة القشور واللغة الجوهر فهذه مسألة أخرى.
ولنفرض يا سيدي ان لغة (عودة الروح) كانت هي الإنجليزية أو الفرنسية أو الفارسية، فماذا؟ ماذا بالله يا أبا الأسود الدؤلي؟ هل أخذت (احتكارا) باللغة العربية فما يكتب إنسان إلا بها ولا يدور حوار ما بين القطبين الا على أوزانها وضروبها ونحوها وصرفها؟ ولنفرض أن العامية من العربية كالفرنسية أو الإنجليزية منها أفلو أن توفيق الحكيم كتب (عودة الروح) بأية لغة من لغات العالم كنا نرفضها ونأبى ان نعترف لكاتبها بجهد أو فضل لمجرد انه كتب قصته بهذه اللغة أو بتلك؟ أفلا نقرأ القصص في لغات العالم فنعجب بها وهي ليست باللغة العربي؟ لست اسأل هازلا أو متندرا بل إني لجاد كل الجد، فإذا كنا نفعل ذلك فما بالنا نقف من قصة بالعامية هذا الموقف؟ ولنفرض يا سيدي أن توفيق الحكيم لا يعرف اللغة العربية أفنكسر هذا القلم الذهبي ونخرس هذا اللسان الحكيم ونقبر هذا العقل الخلاق لمثل هذا السبب؟ بل ولألف سبب مثل هذا السبب؟! وأي أديب سلمت لغته من الشوائب وها هو أحد أئمة النقد يصف أسلوب أحد أئمة الكتاب بانه لا يسلم من الابتذال وكاتب آخر ينال من كاتب معروف ويقول فيه ما لم يقل عشر معشاره في توفيق الحكيم؟!
وأيهما أجدى على الدنيا وأجدى على الأدب، كاتب ذخيرته ألفاظ وكلمات ام كاتب ملء أهابه الحياة وملء جعبته الدنيا يخرج لنا منها عقله الموهوب زادا دسما وطعاما لنا فيه شبع وري؟ لو اجتمع الكاتبان لكانا أمل الدنيا وأنشودة العالم فإذا لم تشأ حكمة أزلية الا أن تفرق بينهما فأيهما نأخذ وأيهما ندع؟
ان الأدب غاية، واللغة وسيلة، وحرام ان نهدم الغاية من أجل الوسيلة، ونغالي من قدر هذه الوسيلة حتى ليتعذر علينا بلوغ هذه الغاية
محمد علي حماد
(الرسالة): - كلام الأستاذ أشبه شيء بالدعابة، فان أكثره لا يجري على قواعد الأدب ولا أصول الفن، ولعمري كيف نستطيع أن نفصل المعنى عن اللفظ أو القصة عن اللغة أو الموضوع عن الشكل وليس لأحد منهما وجود فني في ذاته؟ فالقصة قبل أن تلبس اللغة لا تسمى قصة، والألفاظ قبل أن تؤدي المعاني لا تسمى لغة.
العدد 18 - بتاريخ: 01 - 10 - 1933
فرعونيون وعرب!
عفا الله عن كتابنا الصحفيين! ما أقدرهم على أن يثيروا عاصفة من غير ريح، ويبعثوا حربا من غير جند!! حلا لبعضهم ذات يوم أن يكون بيزنطيا يجادل في الدجاجة والبيضة وأيتهما أصل الأخرى! فقال على هذا القياس: أفرعونيون نحن أم عرب؟ أنقيم ثقافتنا على الفرعونية أم نقيهما على العربية؟! نعم قالوا ذلك القول وجادلوا فيه جدال من أعطى أزمةَّ النفوس وأعنة الأهواء يقول لها كوني فرعونية فتكون! أو كوني عربية فتكون! ثم اشتهر بالرأي الفرعوني اثنان أو ثلاثة من رجال الجدال وساسة الكلام فبسطوه في المقالات، وأيدوه بالمناظرات، ورددوه في المحادثات، حتى خال بنو الأعمام في العراق والشام أن الأمر جد، وأن الفكرة عقيدة، وان ثلاثة من الكتاب أمة، وأن مصر رأس البلاد العربية قد جعلت المآذن مِسلات والمساجد معابد والكنائس هياكل والعلماء كهنة.
مهلاً بنو قومنا لا تعتدوا بشهوة الجدل على الحق ورويدا بني عمنا لا تسيئوا بقسوة الظن إلى القرابة أن الأصول والأنساب عرضة للزمن والطبيعة؛ تواشج بينها القرون وتفعل فيها الأجواء حتى يصبح تحليلها وتمييزها وراء العلم وفوق الطاقة. فاذا قلنا فلان عربي أو فرنسي أو تركي فإنما نعنى بهذا النسبة انطباعه بالخصائص الثقافية والاجتماعية لهذا الشعب كاللغة والأدب والأخلاق والهوى والدين فبديع الزمان عربي

وأصله فارسي وروسو فرنسي أصله سويسري والأمير فلان تركي وأصله مصري لان كلا من هؤلاء الثلاثة اصبح جزء من شعبه ينطق بلسانه ويفكر بعقله ويشعر بقلبه فبأي شيء من هذا يتمارى إخواننا الجدليون وهم لو كشفوا في أنفسهم عن مصادر الفكر ومنابع الشعور ومواقع الإلهام لرأوا الروح العربية تشرق في قلوبهم دينا وتسري في دمائهم أدبا وتجري على ألسنتهم لغة وتفيض في عواطفهم كرامة. لا نريد أن نحاجهم بما قرره المحدثون من العلماء من أن المصرية الجاهلية تنزع بعرق إلى العربية الجاهلية فان هذا الحجاج ينقطع فيه النفس ولا ينقطع فيه الجدل:. . وكفى بالواقع المشهود دليلا وحجة هذه مصر الحاضرة تقوم على ثلاثة عشر قرنا وثلثا من التأريخ العربي نسخت ما قبلها كما تنسخ الشمس الضاحية سوابغ الظلال. . . وذلك هو ماضي مصر الحي الذي يصبح في الدم ويثور في الأعصاب ويدفع بالحاضر إلى المستقبل ثابت الأساس شامخ الذرى عزيز الدعائم.

أزهقوا أن استطعتم هذه الروح وامحوا ولو بالفرض هذا الماضي ثم انظروا ما يبقى في يد

الزمان من مصر هل يبقى غير أشلاء من بقايا السوط وأنضاء من ضحايا الجور وأشباح طائفة ترتل (كتاب الأموات) وجباه ضارعة تسجد للصخور وتعنو للعجماوات وقبور ذهبية الأحشاء ابتلعت الدور حتى زحمت بانتفاخها الأرض وفنون خرافية شغلها الموت حتى أغفلت الدنيا وأنكرت الحياة؟ وهل ذلك إلا الماضي الأبعد الذي تريدون أن يكون قاعدة لمصر الحديثة تصور بألوانه وتشدو بألحانه وتحيا أخيراً بروحه؟ ولكن أين تحسون بالله هذه الروح؟ أن أرواح الشعوب لا تنتقل إلى الأعقاب ألا في نتاج العقول والقرائح. فهل كشفتم بجانب الهياكل الموحشة والقبور الصم مكتبة واحدة تحدثكم عن فلسفة كفلسفة اليونان، وتشريع كتشريع الرومان وشعر كشعر العرب؟ أم الحق أن مصر القديمة دفين فنيت روحه مع الآلهة، وصحائف موت سرها مع الكهنة، والخامد لا يبعث حياة والجامد لا يلد حركة؟!

لا تستطيع مصر الإسلامية إلا أن تكون فصلا من كتاب المجد العربي، لأنها لا تجد مدداً لحيويتها، ولا سندا لقوتها، ولا أساساً لثقافتها ألا في رسالة العرب. أمَّا أنْ يكون لأدبها طابعه، ولفنها لونه، فذلك قانون الطبيعة ولا شان لمينا ولا ليعرب فيه. لأن الآداب والفنون ملاكها الخيال، والخيال غذاؤه الحس، والحس موضوعه البيئة، والبيئة عمل من أعمال الطبيعة يختلف باختلافها في كل قطر. فإذا لم يوفق الفنان بين عمله وعمل الطبيعة، ويؤلف بين روحة وروح البيئة، فاته (اللون المحلى) وهو شرط جوهري لصدق الأسلوب وسلامة الصورة. وقديما كان لون الأدب في الحجاز غيره في نجد، وفي العراق غيره في الشام. وفي مصر غيره في الأندلس، دون أن يسبق هذا التغاير دعوة ولا أن يلحق به اثر! انشروا ما ضمنت القبور من رفات الفراعين، واستقطروا من الصخور الصلاب أخبار الهالكين، وغالبوا البلى على ما بقى في يديه من أكفان الماضي الرميم، ثم تحدثوا وأطيلوا الحديث عن فخامة الآثار وعظمة النيل وجمال الوادي وحال الشعب، ولكن اذكروا دائماً أن الروح التي تنفخونها في مومياء فرعون هي روح عمرو، وان اللسان الذي تنشرون به مجد مصر هو لسان مضر، وان القيثار الذي توقعون عليه الحان النيل هو قيثار أمرىء القيس، وأن آثار العرب المعنوية التي لا تزال تعمر الصدور وتملأ السطور وتغذي العالم، هي أدعى إلى الفخر وأبقى على الدهر، وأجدى على الناس، من صفائح الذهب وجنادل الحجارة. إنما تتفاضل الأمم بما قدمت للخليفة من خير، وتتفاوت الأعمال بما أجدت على الإنسان من نفع. أليس (الخزان) خيراً من الكرنك، والأزهر افضل من الأهرام، ودار الكتب أنفس من دار الآثار؟ وبعد فان ثقافتنا الحديثة إنما تقوم في روحها على الإسلام والمسيحية، وفى أدبها على الآداب العربية والغربية، وفي علمها على القرائح الأوربية الخالصة. أما ثقافة (البردى) فليس يربطها بمصر العربية رباط، لا بالمسلمين ولا بالأقباط

أحمد حسن الزيات.

عدل السماء

للأستاذ حسن جلال. القاضي بالمحاكم الأهلية

!. .الفرق بين عدل السماء وعدل الأرض هو بعينه فرق ما بين السماء والأرض

فأما أهل الأرض فقد سلك كل منهم طريقا لتحقيق العدل في بلاده. فهذه دولة محاكمها تطبق قوانينها على الناس كما هو الحال في فرنسا وفى مصر. وتلك دولة أخرى تجري محاكمها على سنن الأحكام التي أصدرتها المحاكم من قبلها كما هو الحال في إنجلترا. وهؤلاء قوم لهم عادات مقررة وعرف موروث فتنعقد مجالسهم كلما دعا الحال لتحكيم تلك العادات وذلك العرف بين المتقاضين، وهذا هو شأن العرب المقيمين في مناطق الحدود المصرية. وأولئك قوم غيرهم يلجئون إلى السحرة والكهان للفصل في قضاياهم كما هو الحال عند بعض قبائل أفريقيا الوسطى. . . وكل هذه الهيئات إنما تجرى على النظام الذي اختارته، لأنها تعتقد أنه اكفل الطرق للوصول إلى العدل. وليس من شك في أن كلا من هذه النظم له نقائصه. ولكنه على كل حال آخر ما وصلت إليه الهيئة التي اختارته في سبيل تحقيق العدالة بين أفرادها. والخلاصة أن الإنسان لم يصل بعد إلى درجة الكمال في تشريعه، وانه بحاجة إلى موالاة الجهود في سبيل بلوغ هذا الكمال. والسؤال الذي يجيش بالنفس بعد هذه المقدمة هو: هل يستفاد مما سبق أن الظلم يملأ هذا العالم. وان العدالة فيه مستحيلة التحقيق؟ الواقع غير ذلك! بل أن المشاهد في معظم الأحوال أن العدالة محققة في هذه الدنيا. وان الناس راضون عن طريقة توزيعها بينهم. ومهما يكن من أمر الحالات التي يدل ظاهرها أحيانا على إنها لم تتوفر فيها عناصر العدالة فان (عدل السماء) غلاب. وهو الذي يتولى في هذه الحالات إقامة الميزان بين الناس. وما ربك بظلام للعبيد!

حدثني أحد الزملاء المحامين قال: وقعت جناية قتل في البلدة التي أعمل فيها، واتهم في تلك الجناية شاب من خيرة شبانها. ينتمي إلى أسرة من كبار الأسر فيها. فجاءني عمه يوكلني بالدفاع عنه. وأقسم لي أغلظ الأيمان أن ابن أخيه بريء وان أهل القتيل اتهموه لضغينة قديمة بينهم وبين أسرته، وإن القاتل معروف في البلد. وإن أهل القتيل هم أول من يعرفه. ولكنهم إمعاناً في الانتقام يريدون أن يأخذوا في قتيلهم رجلين. . واحداً يأخذه لهم القضاء بحكمه. وواحداً يقتصون منه بانفسهم كما هي العادة عند معظم أهل الصعيد. ولما

كان القاتل الحقيقي هينا عليهم فإنهم استبقوه لأنفسهم وتركوا أمر هذا الشاب للقضاء. قال صاحبي: فلما وقفت على هذه المعلومات حفزني الأمر إلى مضاعفة العناية بالقضية. فاطلعت على أوراقها بكل دقة ويقظة، فوجدت أدلة الاتهام فيها قوية ناطقة. ورأيت جملة من شهود الإثبات تطابقت أقوالهم في محاضر التحقيق، وقد عجز المحقق عن أن يحدث ثغرة فيهم تدل على تلفيقهم. إذ قرروا جميعاً انهم رأوا المتهم وهو يطلق النار على القتيل. وانهم شاهدوه عقب ذلك وهو يفر. ووصفوا اتجاه سيره أدق وصف، ونوقشوا في ألوان ملابسه وفى نوع سلاحه وفى غير ذلك من التفصيلات فكانت أقوالهم دائما واحدة لا تحريف فيها ولا تبديل! إزاء ذلك استولى اليأس على صاحبنا المحامي، ولم يبق له من القوة على الدفاع ألا قوة يقينه هو بان المتهم بريء بناء على تأكيدات عمه. . وحل موعد المحاكمة فتوجه إلى المحكمة. ونودي على القضية، وسئل المتهم عن تهمته فأنكرها بكل شدة. وسمعت أقوال الشهود فاذا هي نفس أقوالهم في التحقيق. فترافعت النيابة فقالت أن القضية لا تحتاج إلى نور جديد وأن أقوال الشهود قاطعة في الإدانة. ونهض الدفاع وحاول أن يثير ما استطاع من الشكوك حول موقف المتهم، ولكن الحكم صدر في النهاية بمعاقبة المتهم بالأشغال الشاقة المؤبدة. . . عاد المحامى في ذلك اليوم إلى مكتبه مكتئبا حزينا على ما حل بهذا الفتى التعس. ولقيه هناك عمه فألفاه على هذه الحال. فابتدره المحامى بالسؤال عن كيفية اتفاق الشهود على كل تلك التفصيلات التي شهدوا بها أن صح ما يدعيه هو من انهم ملفقون. فقال له الرجل: أن الشهود قد شاهدوا القاتل الحقيقي فعلا وهو يرتكب جريمته. واتفقوا فيما بينهم لارتباطهم بأسرة القتيل على أن يرووا كل ما شاهدوه ولكن منسوبا إلى المتهم الحالي بدل أن ينسبوه إلى فاعله الأصلي. ومن هنا جاءت أقوالهم كلها متطابقة، لأنهم إنما يقرون من الوقائع ما وقع فعلا تحت سمعهم وبصرهم! وهنا يقول صاحبي أن ثورة عنيفة أدركت نفسه ضد هؤلاء المزورين الذين تمكنوا من مخادعة القضاء إلى هذا الحد، والتوسل به إلى إنزال العقاب الذي يشاءون على من يشاءون. ولكنه آنس شيئاً من الاستسلام غير عادى يغلب على نفس عم المتهم، بينما هو يعانى من ثورة النفس شدتها وغليانها. فلم يكتم صاحبه ما يجول

بخاطره. وهنا رفع عم الفتى رأسه وقال: الحق يا أستاذ أن الفتى يستحق العقاب الذي أنزله به القضاء فسأله المحامي في دهشة:
وكيف يتفق ذلك مع ما قدرته الآن من أنه لا يد له في هذه الجريمة؟ فقال الرجل: إنه وان كان لا يد له حقيقة في هذه الجريمة ألا انه في الواقع هو الذي قتل (فلانا) من أهل البلدة المجاورة لبلدتنا، ولكنه ظل أمره مجهولا من رجال الحفظ حتى هذه الساعة! فإن كان القضاء قد أدركه اليوم فإنما هو (عدل السماء) قد حققته قدرة الله الذي هو من وراء كل شيء محيط، وبما تخفى كل نفس عليم!

في الخريف

كل شيء في الكون ران وقرا ... وسرى في جوانح النفس سحرا
أسفر الجو وانجلت صفحة الأف ... ق وفاحت مناكب الأرض نشرا
في ربوع يطول عمر شتاها ... إذ يوافي ويقصر الزهر عمرا
نحمد الشمس يوم تطلع فيها ... بضياء، ونحمد الله عشرا
رف فيها الخريف حسنا وطيباً ... فتسامى على الربيع وأزرى
نفضت نومها الحياة وقامت ... بعد طول الحجاب ترفع سترا
أبرزت من جمالها وحلالها ... كل سر فما تكتم سرا
ذهبت تنثر الجمال فلم تس ... تثن في الماء أو على الأرض شبرا
نثرته بلا نظام فأرضى ال ... فن فوضى واعجب العين نثرا
أودعت سحرها هواء وحصبا ... ءً وماءً يسرى وعشباً وصخرا
يسرح الطرف حيث شاء فما يس ... رح ألا من فتنة صوب أخرى
مزج حسن ورقة وبهاء ... الفته لونا وضوءاً وعطرا
هو في العين ما أرقّ وأندا ... هـ وفي الصدر ما ألذّ وأطرى
ترتوي الروح منه نهلاً وعلا ... فهي نشوى أنى تنقل سكرى
كست الأرض خضرةً وتغشت ... ربوةً ربوةً وغوراً فغورا
فزكا النبت في تلاع وقيعا ... ن توالى في الأفق طياً ونشرا
راق منه ما تهادى على الأر ... ض نديا وما تشامخ كبرا
وذكاء وسط الفضاء توارى ... خلف غيم يمر في الجومرا
ثم تبدو فتغمر الكون إينا ... ساً إذا الغيم عن سناها تفرى
في سماء نقية تاخذ العي ... ن إغتراقاً وتفعم الكون بشرا
معرض النور سرت فيه الهوينى ... مطلقاً في الخيال نفسي حيرى
تتملى بدائع الكون أو تن ... ظم في صفحة الخواطر شعرا
عند نهر عذب التسلسل ماتا ... بعته بالمسير ألا اسبطرّا
حفه العشب كاسياً ضفتيه ... مطلعاً حوله قتاداً وزهرا
أرسل العين تجتلى الحسن صفواً ... أو تقصى من سالف العمر ذكراً
فهي في مسرح الطبيعة جذلى ... آنة أو مع التذكر عبرى
ورفيقي في السير سفر بكفي ... لم أطالع مما يحدث سطرا
من تهادي سفر الطبيعة مبسو ... طاً إليه فكيف يحفل سفراً؟

فخري أبو السعود. أكسترا. إنجلترا.

ثروة تضيع

للأستاذ أحمد أمين

هي ما خلفها لنا الجيل الماضي القريب، وتسلمناها منه يداً بيد، ولست اعني ما خلفه من شعر ونثر وكتب في مختلف العلوم والآداب، فهذه قد حفظناهاونشرنا بعضها وعنينا بها إلى حد ما، إنما أعنى ما صدر عنهم من قول وعمل، وما كان يدور في مجالسهم من حديث طريف أو نافع، وما وقع لهم من أحداث، وكيف تصرفوا فيها، وأنماط مجالسهم وأحاديثهم ومجتمعاتهم، ونحو ذلك مما يدلنا على حقيقة شخصيتهم، ويفيدنا في تعرف مجتمعهم، ويعين المؤرخ بعد على رسم صورة صحيحه صادقه لحال المجتمع في ذلك العصر وقدر نابغيه كان لعلى باشا مبارك (صالون) كبير في بيته بشارع المضفر يغشاه عظماء الرجال والشبان وطلبه المدارس. وكان يدور فيه كل ليله من ألوان الحديث وشتى المقترحات ما ينبغي أن يسجل، ومثل ذلك في منزل عبد الله باشا فكري ومحمد باشا قدري ورفاعه بك ومثالهم، وكان نوع أحاديثهم

ومباحثاتهم شيقاً ممتعا يصور عصرهم خير تصوير، ثم كان صالون كصالون الأميرة نازلي هانم (بعابدين) يختلف إليه قاده الفكر وعظماء الرجال في العصر القريب، يتحدثون فيه عن الشرق والغرب، وتثار فيه أفكار لها قيمتها وخطرها، وكان نمطهم في أحاديثهم يخالف ما كان عليه رجال على باشا مبارك وأمثاله. وكان غير هذه الصالونات مجتمعات وأحاديث ونوادر وفكاهات في البيئات المختلفة من بيئة فلسفيه كبيئة السيد جمال الدين، أو دينية اجتماعية كبيئة الشيخ محمد عبدة، أو فكاهية كبيئة الشيخ حسن الآلاتي، أو بيئة المغنين أمثال الحامولي ومحمد عثمان، وكان يجري في جميعها أقوال وأفعال هي أدل على الذوق المصري والخلق المصري من كل ما خلفوا من مؤلفات ومجلات وصحف. هذه الثروة التي لا تقدر، آخذه مع الأسف الشديد، في الضياع، وليس يدون منها فيما أعلم شيء يذكر، واكثر الذين عنوا بترجمة هؤلاء الرجال أساءوا إليهم والى التاريخ كل الاساءة، اذكانت ترجمتهم (ترجمة رسمية) اقتصروا فيها على اسم المترجم له والمولد وتاريخ الولادة، والمعاهد التي تعلم فيها والأعمال التي تولاها، والكتب التي ألفها وغير ذلك مما يعد من الأغراض، فأما الجوهر، واما شخصية الرجل، وأما حياته الاجتماعية التي تدلنا على من هو من قومه، ومن هو في نفسه، فلا يعرضون لها بشيء.

وقد كان السابقون الأولون على تقدم عصورهم، اصح نظراً، وأحسن أداء، وأوفى للتاريخ فبين يدي الآن جزء من كتاب الأغاني فتحته حيثما اتفق فوقع نظري على ترجمة إبراهيم الموصلي، فذكر نسبه ونشأته، وذكر حكايات عدة حدثت له مع غلمانه وجواريه وأصحابه، وما وصل إليه من الأموال وما ورثه أهله، وأحاديث عن مروءته، وأحداثا حدثت له مع الرشيد ويحيى بن خالد، وكيفية تعليمه الغناء للجواري، واتصاله بالخلفاء وسيرته معهم، وعدد الأدوار التي غناها، وعشقه ومن عشق، وأثر أصواته في الناس، إلى آخره مما يستطيع الأديب أو المؤرخ أن يضع له صورة دقيقة تمثله، ويضع لمجتمعه رسماً واضحاً يبينه، وبين يدي كذلك الجزء الأول من كتاب جامع التواريخ المسمى (نشوار المحاضرة) للتنوخي، يقول في سبب تأليفه: انه قد اجتمع قديماً مع مشايخ فضلاء، علماء أدباء، قد عرفوا أحاديث الملل، وأخبار الملوك والدول، وأحاديث البخلاء والظرفاء، والعلماء والفلاسفة، والأغبياء وقطاع الطرق والمتلصصين، (وعدد كل أصناف الناس)، وكانوا يوردون كل فن من تلك الفنون على حسب ما تقتضيه المحادثة، وتبعثه المفاوضة، فلما تطاولت السنون، ومات المشيخة الذين كانوا مادة هذا الفن، ولم يبق من نظرائهم ألا اليسير الذي إن مات ولم يحفظ عنه ما يحكيه، مات بموته ما يرويه، عمد من أجل ذلك إلى تدوين هذه الأحاديث في كتابه، والتزم أن يذكر فيه فقط ما يدور في المجالس مما لميذكر في كتاب ويقرؤه القارئ فيجده يصور عصره أجمل تصوير، وكتب الجاحظ لم تترك صغيرة ولا كبيرة من أخبار عصره وأحداثه، الاجتماعية من الخصيان والغلمان، والبخلاء والظرفاء، والنبات والحيوان، ألا أحصته وشرحته في دقة وإسهاب، ومالنا نذهب بعيداً والعصر الذي نسميه مظلماً أنتج مثل (الجبرتي) الذي دون من الأحداث وتاريخ الرجال في عصره ما لم نفعله نحن لعصرنا أما كتبنا نحن فقد عمدت إلى خيرها وأخرجت منه ترجمه رفاعه بك، فوجدته يسرد ولادته وتاريخها والمدارس التي دخلها ورحلته إلى أوربا، والوظائف التي تولاها بعد عودته، وأسماء الكتب التي ألفها أو ترجمها، وسنة وفاته ولكنك تتساءل بعد قراءتها: من رفاعه بك؟ ما معيشته الاجتماعية؟ ما شخصيته؟، ما علاقته بقومه؟ فلا تجد شيئاً من ذلك. هذا حال رفاعه بك الذي ملأْ اسمه كل مكان، فما بالك بأمثال المغمورينظلماً، أمثال الشيخ حسن الطويل والشيخ حسين المرصفي وأمثالهما بل بالأمس القريب مات

حافظ إبراهيم، وكانت حياته الاجتماعية أغنى ما تكون حياة، كل ليلة، يغشى جمعا أو يغشى بيته جمع، فيملأْ المجلس بأحاديثه العذبة، وفكاهته الحلوة، وهى في كثير منها تفوق ما دونه الأقدمون من ملح ونوادر، ولعلها أن جمعت ودونت أفادت تاريخ الاجتماع اكثر ما يفيده ديوانه، ومع هذا لم ينشط أحد لتدوينها، ولم يلتفت لقيمتها، وسيعفى عليها الزمن الذي عفى على ملح المويلحي والبابلي، وفي ذلك خسارة لا تقدر. ولقد حدثت بعض الأدباء في ذلك ورجوته في هذا العمل، فاعتذر بأن أكثر النوادر إنما تحسن ذا أديت باللغة العامية، وتفقد قيمتها إذا حكيت باللغة الفصحى، ولكن ما هذا

الكبر على اللغة العامية، والسابقون من أعلام الأدب لم يكونوا يتحرجون من ذكر النادرة الحلوة باللغة العامية، إذا لم يحسن الأداء إلا بها، كما فعل الجاحظ في البيان والتبيين، وابن زولاق في أخبار سيبويه، والابشيهي في المستطرف. أن في ذمتنا للجيل القادم عهداً أن نسلم إليه تاريخه كاملاً متصل الحلقات كما تسلمناه، فاذا نحن لم نفعل فقد أضعنا الأمانة وخنا العهد، وفينا بحمد الله رجال شهدوا الجيل الماضي، وكان لهم من المنزاة ما استطاعوا معها أن يخالطوا البيئات المختلفة، ويطلعوا على خفاياها ودخائلها، ولهم من الذكاء وحسن النظر وصدق الرواية وقوة الحافظة وبلاغة اللسان والقلم، ما يمكنهم من الأداء على أحسن وجه، أمثال الهلباوي ولطفي السيد في نوع من الأوساط، والنجار والسكندري في نوع آخر، والسيد محمد الببلاوي وكبار علماء الأزهر في أوساطهم، وهكذا، فهل يشاركوننا في الشعور بما لديهم من ثروة حافلة، وفي الشعور بما عليهم من تبعة، فيقدمون للجيل الحاضر والقادم أثمن عمل تاريخي؟ فأن لم يفعلوا فهل للشبان أن يدركوا قيمة ما عندهم فينشطوا للاتصال بهم، وتدوين ما يأخذون عنهم، قبل أن تضيع الثروة، وتفلت الفرصة، أطال الله في أعمارهم.

العام الدراسي الجديد

مما أملاه علينا أساتذتنا في دروس التربية انه كان الغرض من إنشاء المدارس في مصر أعداد الموظفين الذين تحتاج إليهم الحكومة في دواوينها.

فلهذا أنشئت وعلى هذا كان نهجها. ولقد نجحت مدارسنا في ذلك نجاحا مشكورا.

تخيلت لها الحكومة الموظف الذي ترجوه. فأعدت المدارس للحكومة التلميذ الذي يكون منه ذلك الموظف، تخيلت الأولى في موظفها أن يكون في عمله من غير بصر ولا سمع ولا

إحساس، فجاءت الثانية إلى عين التلميذ ففقأتها. والى أذنه فاصمتها. والى إحساسه فأماتته. حتى أنه ليسير في طريقه على أعين الناس وأفئدتهم، وبين أنينهم وعويلهم ثم تسأله: ماذا رأيت أو سمعت؟ فلا يكاد يذكر لك شيئاً. ذلك لأن مدرسته أخذته بالانقطاع عن كل شيء مهما صادفه. وهو يرجو أن يكون عندها محمودا.

تخيلت الأولى في موظفها حينذاك أن يكون غمرا خاملا جبانا، يرى في رئيسه ما يراه الجهلاء في آلهتها. فجاءت الثانية بحولها وطولها تفرغ فيه كل هذه، إفراغا، مرة باسم الأخلاق! وأخرى بالقهر والعسف. حتى تم لها ما أرادت، وأمتعت تلك الحكومات بهذا النوع من الموظفين. والآن وقد غصت الدواوين بالموظفين وفاض المتخرجون في المدارس، حتى أصبحوا عيالاً على ذويهم. وكلاًّ على أهليهم إلا القليل منهم ممن اشتغل بعمل ما كان يخطر له على بال. فهل آن لرجال التربية والتعليم أن يعلنوا انقضاء أجل ذلك الغرض. وينادوا بالغرض الصحيح الذي يقّوم الأخلاق والعقول والأجسام ليأخذ الأبناء قسطهم من الحياة كاملا، ويؤدوا ما عليهم لبلادهم أحسن أداء؟؟ ذلك ما ننتظره.

إيرادات الدقهلية. إبراهيم مصطفى ناصف

الرسالة الثانية:

من الأستاذ توفيق الحكيم إلى الدكتور طه حسين

عزيزي الدكتور

قرأت الرد، ومرة أخرى أتأمل ما بيمينك. هذه العصا عجيبة التركيب، إنك لا تلمس شيئاً حتى ينقلب إلى الحق، حق كبير يبتلع كل رأي، ويلقف كل حجة. تلك عصا الأستاذية. ما كنت اجهل أنك حاملها في هذا العصر. نحن متفقان. ولا خلاف بيننا في الغاية. وهو مطلبنا. هنالك تفاصيل افترق فيها عن الدكتور ولن أعود اليها. فأنا أفزع من النظر إلى الوراء، خشية أن أتحول إلى تمثال من الملح، أو حتى إلى تمثال من الذهب. نفسي تصدف أحيانا عن الفكرة الجامدة مهما تكن خالدة، ويحلو لي أحيانا أن انثر الأفكار عابثا من نافذة قطار. أن رسائلنا في حقيقتها لا تعني أكثر من إثارة الغبار في أرض ناعمة مفروشة بالحصى. لسنا نصدر أحكاما بهذه الكتب السريعة. إنما نحن نطرح مسائل ونلقى بفروض سوف يلتقطها ويجمعها الباحثون المنقطعون يوم تستيقظ الأجيال. اتفقنا إذن. أو ينبغي لنا أن نتفق على أي حال، حتى ننصرف إلى شيء جديد. أن البحث عن الجديد هو الخليق عندي بالمجهود. ولقد فتح لنا اليوم باب

الجديد الأستاذ احمد أمين. قال لي ذات مساء أنه يضع كتابا في أصول النقد، ويود أن يوليني شرف المشاركة في البحث من بعض وجوهه. النقد؟ لفظ رن في أذني. وذكرت للفور أن رسالتي الأولى للدكتور كان موضوعها (الخلق). وقلت في نفسي ما يمنع من إتمام الكلام في رسالة ثانية يكون موضوعها (النقد) وإذا الأمر ينكشف لي عن قضية كبيرة: أنعد النقد كالخلق خاضعا لسلطان التيارات الفكرية الثلاثة التي ذكرها الدكتور: التيار المصري القديم، والتيار العربي، والتيار الأوربي؟ أم نعد النقد كالعلم لا يخضع لمثل هذه المؤثرات؟ أما أنا فلن أجيب عن فوري عن هذا السؤال. فأنا أكتب ولا أدري أين يحط بي القلم. دعني أولا أنشئ على هذا النغم بعض (تقاسيم) دون أن أعني الآن بالغاية. أن الغاية أحيانا رخيصة بجانب الوسيلة على الأقل في نظر الفن. لأن الغاية في الفن لا تبرر الوسيلة. الحياة كذلك، تلك القطعة الفنية التي أبدعها الخالق، أهي شيء غير وسيلة متينة التكوين؟ ألها معنى في غير ذلك الطريق المبين الذي أوله ضباب وآخره ضباب؟ خط هندسي رسم على لوح الوجود، كيف أبتدأ، كيف انتهى؟ لا يعنى ذلك

علم الهندسة. انه خط بين نقطتين وكفى. ليس لنا أن نسأل عن غاية الحياة، ولا عن غاية الفن، ولا عن غاية العلم. أن الغاية لا تهم. إنما المعنى كله في الوسيلة. الحياة هي الطريق. العلم هو الطريقة. الفن هو الأسلوب. أما الغاية فلا غاية. وهل يترجى من العلم أو من الفن أو من الحياة غاية مطلقة يوما من الأيام؟ محال. ما نحن ألا أسلوب الخالق. ما الكون ألا أسلوب. الأسلوب كل شيء عند كل خالق وفي كل خلق. أن الخالق اعظم من أن يحبس إرادته الخالدة في حدود، غاية، لفظ يدل بذاته على معنى الانتهاء. في اعتقادي أن كلمة (غاية) هي من صنع العقل البشرى الصغير. هذا العقل المحدود الذي يضع كل شيء دائماً داخل حدود، ويأبى ألا أن يكون لكل شيء أول وآخر. إنما الخلود في الأسلوب. لأن الأسلوب لا أول له ولا آخر، فهو شيء كائن دائماً، لا علاقة له بالزمن. أن رجل الفن، وهو المقلد الأصغر للمبدع الأكبر، يدرك أن الفن لا يعيش بالغاية. لأن الغاية فانية كاسمها. وانما يعيش الفن بالأسلوب. لقد انقضت الغاية من تشييد الأهرام، وفنيت الغاية من بناء البارتينون. دفن الموتى أو عبادة الآلهة الغابرين غاية قد ماتت وبقى أسلوب الفن وحده خالداً في الأهرام والبارتينون. خدمة الإنسانية غاية العلم في نظر البسطاء. لو سئل عالم في ذلك لابتسم: (مالي وللإنسانية! إنما أنا أبحث عن سر أسلوب الصانع الأعظم. إنما هي لذة البحث وحدها. إنما هي طريقة البحث وأسلوبه. ولولا ذلك السرور الذي يملأ نفسي إذ ينكشف لعيني الباحثة عن جمال أسلوب الله لما تجشمت النصب في سبيل العلم، ولما كان للعلم هذا المعنى الرفيع.) المخترعات كذلك ليست غاية العلم. هي تطبيق للعلم. إنما العلم هو البحث الخالص المجرد عن كل غاية وعن كل استغلال. لقد كان الإغريق يبحثون ولا يطبقون. فيثاغورس مثل من أمثلة الأسلوب الخالد للعلم الخالص. الأسلوب إذن هو محور النقد كما هو عماد الخلق، وكلمة الأسلوب رحبة عميقة كالبحر، في جوفها كل كنوز المعرفة التي يصبوا اليها البشر. ولعل كل ما أوتيه الإنسان من سليقة سامية منذ أول الأزمان ليس ألا انعكاس أسلوب الخالق في نفس الإنسان. هذا المنطق الذي نشأنا عليه، ونرجع إليه في كل حياتنا، هذا الإحساس بالنتيجة والسبب، هذا الشعور بالتناسق والتناسب، هذا الإدراك للصلة التي تربط الشيء بالشيء، من أين جاءنا هذا نحن البشر؟ أهناك مصدر آخر غير أسلوب الخالق؟ فتحت البشرية عينيها فالفته حولها. فهو موجود

قبلها وقبل الخليفة كما يوجد الرسم والتصميم قبل البناء. أن أسلوب المبدع في صنع الخليقة هو وحدة المنبع الأزلي لهذه الصفات كلها: المنطق، ارتباط السبب بالنتيجة والشيء بالشيء. والجزء بالكل، والتناسق والتناسب. صفات هي بعينها صفات الأسلوب السليم لكل عمل فني عظيم. أسلوب الله هو المعلم الأول والأخير. وما أول صورة رسمها الإنسان على الأحجار وعظام الحيوان سوى إعلان شعوره الخفي بتلك الصفات، أن رجل الفن الأول هو أول إنسان عرف (المنطق) صفة فنية بعد أن كان المنطق سليقة سامية تسبح في أنحاء نفسه ولا يعرف ما هي. أن المنطق الذي شيد الأهرام صورة محكمة لهو المنطق الذي شيد الكون. ما المنطق؟ ما معنى المنطق؟ سره في تلك المرآة العظيمة الصافية التي تحيط بنا كالجدران: الوجود، أجمل مثال

للمنطق في الأسلوب ينبغي لرجل الفن والأدب والعلم أن يطيل فيه النظر. كل شيء في هذا الوجود مصنوع على طريقة واحدة وعلى قاعدة واحدة. ما القاعدة التي بني عليها الوجود؟ هي القاعدة التي بنيت عليها الأهرام. هي قاعدة كل بناء: التماسك بين الأجزاء في كل واحد متسق. هذا التماسك ما علته وكيف يكون؟ قانون أستطيع أن أفرغه كما يفعل الرياضيون في صيغة بسيطة من لفظين: (الأخذ والعطاء). كل شيء في هذا الوجود يحيا على نمط واحد. وكل حياة في هذا الوجود لها مظهر واحد: اخذ وعطاء في حركات متصلة متشابهة: زفير وشهيق عند الإنسان والأحياء، اكتساب وإشعاع عند النجوم والأشياء. الأخذ والعطاء قانون التماسك والاتصال في حياة الفرد والمجتمع والأمة والأمم. وفى حياة الأخلاق والسياسة والاقتصاد. وفي حياة المادة والروح. وفي حياة الأرض والأجرام والسدم. ليس في الوجود شيء لا يأخذ ولا يعطى. وليس في الوجود شيء يعطى ولا يأخذ. كل شيء يعتمد على كل شيء في هذا الكون. بنيان مرصوص يشد بعضه بعضا.

وكل خلق بنيان. ولا بنيان بغير وحدة شاملة، ولا وحدة شاملة بغير تضامن بين الحجر والحجر، وبين الجزء والجزء. هذا التضامن وليد ذلك القانون: (الأخذ والعطاء) وليس هذا كل المنطق في صنع الوجود وانما المنطق في تركيب ذلك القانون. ما قوام الأخذ والعطاء؟ هل يكون اخذ وعطاء إلا بين كائنات متشابهة؟ ما الحال لو أن الخالق أبدع في وجودا آخر على أسلوب آخر، فصنع أناسا يعيشون بالزفير ولا يعرفون الشهيق، ومخلوقات تأكل ولا

تصرف، وأجراما تكتسب الحرارة والضوء ولا تشع؟ أي اتصال يمكن أن يقوم بين كائنات خلقت على غير أسلوب واحد؟ لا اتصال، وحيث لا اتصال لا بناء. لا خلق ولا بناء. أي اتصال بيني وبين أخي وابني لو أن الخالق صنعني من عناصر غير عناصرهما فجعلني من يابس ورطب وجعلهما من نور ونار وغاز وبخار؟ أي ارتباط لو انه جعل كل مخلوق منفردا بمادته وهيئته وعناصره عن كل مخلوق. وأي هرم يمكن أن يشيد بأحجار، أحدها من صخر، وآخر من عجين، والثالث من ورق، والرابع من طين؟ لا ارتباط من غير تشابه وتماثل. ولا تضامن بين أجزاء غير متجانسة في التركيب. إن كل ما نحس بوجوده يتحد معنا في بعض العناصر. بغير هذا ما كنا نعترف له بوجود. إنا نعرف الأجرام لأن أجسامنا تعرف الحرارة والضوء والحديد. التشابه شرط الأخذ والعطاء. الاختلاف كذلك شرط آخر. هل يقوم آخذ وعطاء إلا بين كائنات مختلفة؟ ما الحال لو أن الخالق صنع كل شئ ككل شئ، فجعل كل رجل ككل رجل، وكل جرم ككل جرم؟ طبع واحد، ومنظر واحد، وحجم واحد. أليس هذا التشابه المطلق ينفي الشخصية؟ وحيث لا شخصية فلا أخذ ولا عطاء، ولا تماسك ولا اتصال، وهل من صلة بيني وبين غيري إلا الاختلاف شخصه عن شخص وما عنده عما عندي؟ وهل رابطة الأجرام إلا اختلافها في الأحجام؟ الجاذبية، الحب، هل علتهما اختلاف النسب في القوى والأشكال؟ أن مثل هذا الكون المتماثل لا يمكن كذلك أن يشيد أو يوجد. مثله مثل قصة تمثيلية أشخاصهم لهم عين الاسم والجسم والطبع والحظ، يتكلمون عين الكلام، ويتحركون عين الحركات، ويتصرفون عين التصرفات! أي علاقة يمكن أن تنشأ بين هذه المخلوقات؟ وهل يشعر أحدهم بوجود الآخر؟ وهل يدرك أحد منهم معنى كلمة (أنا)؟ لا بد من بعض الاختلاف بين الكائنات حتى يتميز كل كائن من الآخر. ومتى تميزت الأشخاص والأشياء والأجزاء نشأ بينها الأخذ والعطاء، سر تماسك في كل بناء. .

. ها هنا إذن قوام التناسق: (التشابه لا كل التشابه، الاختلاف لا كل الاختلاف!) بيتهوفن الذي كشف لي منذ ست سنوات عن سر التأليف بين صوتين في عين الوقت. لاحظت انه يجمع بين صوتين متشابهين لا كل التشابه مختلفين لا كل الاختلاف. وأدركت انه لا تناسق بغير هذا. فلو انه جعل الصوتين متشابهين كل التشابه لفنى أحدهما في الآخر. وما يميزنا شيئاً غير صوت واحد. ولو انه جعلهما مختلفين كل الاختلاف لاستحال على الأذن أن تصل بينهما وهما متباعدان متنافران. فأساس (التناسق) في الموسيقى والفن كأساس التناسق في الحياة والكون: ائتلاف بين الأجزاء لا كل الائتلاف واختلاف بينهما لا كل الاختلاف. ملاحظة أخرى داخل القوسين: كلامي عن المصرية والعربية في رسالتي الأولى ليس ألا رغبة مني في فرز خصائص أمم هذا العالم العربي الذي أخشى انحلال آدابه إنما الحب والتضامن في اختلاف ما

عندنا عما عند إخواننا الجيران بعض الاختلاف. إن التشابه مضمون باللغة الواحدة والتراث الواحد. فليبحث كل منا عن شخصيته المميزة في ماضيه الطويل بأكمله. المصري في مصر القديمة وما بعدها من عصور. والسوري في فينيقيا وما بعدها. والعراقي في بابل وما بعدها وما قبلها من تواريخ الخ الخ. . . كل يستخرج من بطن الأرض التي يحيا عليها كل محاسن طبيعتها وكل كنوز ماضيها. أن الفن أبن الأرض. الولد للفراش والفن للأرض. أني أقول بالمصرية والعراقية والسورية الخ الخ لا للانفصال بل للاتصال، لا للتعصب بل للحب. أن اليوم الذي تزهو فيه لكل منا شخصية قوية هو اليوم الذي يكثر فيه التعامل بيننا والارتباط. أما فناؤنا جميعا في شخصية العرب الغابرين فأمر لا يمكن أن يكون، لأنه مخالف لطبيعة الأشياء. أن لكل ارض صفات من التاريخ سابقة على عهد العرب. ماذا نفعل بهذه الصفات؟ أنمزقها كما يصنع البرابرة المتوحشون أم نطالعها ونستخرج منها ما يفيد الإنسانية؟ لا بد أن يكون لكل ارض لون. ولكل ارض اسم ورسم وجسم. ولقد كان الأمر كذلك حتى أيام دولة العرب. فكانت الشام غير العراق غير مصر غير الأندلس. والفن والشعر والأدب اظهر دليل على وجود الفروق الجلية، وعلى صدق ذلك القانون: تشابه بين تلك الأقطار لا كل التشابه. واختلاف بينهما لا كل الاختلاف. فكيف يكون الأمر غير ذلك؟ ونغضب إذ تكون هناك مصر وهناك شام وهناك عراق؟ مثل ما كانت دولة العرب أمس. ينبغي للعالم العربي اليوم أن يكون: (وحدة شاملة وكتلة بنيان في شئون السياسة والذود والدفاع، وشخصيات منوعة الألوان في شئون الفن والخلق والإبداع.) جملة القول عندي أن أسلوب الله في صنع الكون هو وحده منبع الفن، هو وحده مصدر ذلك الإدراك الإنساني للجمال منذُ مبدأ الأجيال. أما نقاد القرن التاسع عشر فلا احسبهم رفعوا أبصارهم إلى هذا الأسلوب مستلهمين. إنما هم قد خروا أمام تمثال العلم ساجدين، أنظارهم
خاشعة ترنو في رجاء إلى شعاعين من الكهرباء صادرين من عدسات عينيه الجامدتين.

القرن التاسع عشر قرن تأليه العلم. فلقد بهر العلم العالم بانتصارات حاسمات متواليات، فاذا الأدب والفن والفلسفة كلها تهرع إليه تقرى له بالغلبة والسلطان. وإذا كل شئ يطلب إلى العلم تفسيرا. وإذا العلم في نشوة الظافر وبسمة الواثق لا يأبى أن يقضى فيما يعنيه وفيما لا يعنيه. وإذا العلم وهو علم المادة يريد أن يتحدث في شئون الروح. وإذا سئل عن الروح قال دونكم هذا الطريق وأشار إلى عين الطرائق التي أدت إلى الفوز في شئون المادة: التحليل والتركيب والتجربة والقياس والاستنتاج والاستقراء الخ. بهت العالم لنظرية النشوء والارتقاء. وآمن الناس أن أصلنا من ماء وخلايا حية وحيوان ظل يسمو في المرتبة على مدى الأزمان حتى بلغ القرد جد الإنسان! نظرية جميلة، خلب جمالها اللب على الرغم من بشاعة ذلك الجد الغول. أما صدقها فجائز من حيث المادة والأجسام. وهنا تبدو قضية: أتصدق هذه النظرية على الروح أيضا وشئون الروح؟ الإحساس بالجمال: أيخضع أيضا للنشوء والارتقاء؟ نعم، نعم، نعم. كذلك قالت المدرسة الإنجليزية (سبنسر، جرانت الن، رسكن). وكان لا بدلهذه العقول التي فتنتها نظرية التطور في المادة أن تبرز للإنسان نظرية التطور في الجمال.

وعجب الناس لنظريات علم طبقات الأرض وعلم الحيوان وعلم الحياة وأبحاث (لامارك) في تأثير البيئة والمناخ وظروف الحياة على طبيعة الأجسام، فقامت المدرسة الفرنسية (هيوليت تين) تخرج للفكر والأدب نظرية للجمال والفن: الوحي فيها والإلهام مقاييس الحرارة وموازين الأحجام! بل إني لأرى إصبع العلم قبل ذلك بقرن يقود المدرسة الألمانية إلى نظريتها في الجمال. ولم يكف العلم هذا التوجيه والتأثير بل تناول بيديه في هذا العهد الحديث جسم الجمال: واعمل فيه المشرط والمسبار (علم النفس الحديث) قضى الأمر، وخرج الجمال من حدائق الفلسفة إلى معامل العلم. .! لست ارزى على طرائق العلم. فهي وسائل البشرية التي لا تملك غيرها. واذكر يوم كنت ارصد وقتا للتفكير في هذه المسائل أني بسطت أمام نفسي هذا السؤال الساذج: الحيوان ما علمه بالجمال؟ حصان بين مهرتين أحدهما جميلة مليئة شهباء والأخرى قبيحة هزيلة عرجاء، إلى أيتهما يميل؟ ما ترددت يومئذ أن أقول في ثقة واقتناع: (إلى الجميلة يميل، ما وجه الترجيح؟ لست أدري، وحبذا

التجربة فهي الحكم الفصل!). لكنى يومئذ كنت أفكر تفكيرا صرفا في قهوة صاخبة اعتقدت أن آوى اليها للتفكير الهادئ، فأين لي بالخيول والأفراس أجري عليها التجاريب؟ فهاأنذا أقر بأن التجربة وسيلة بشرية طبيعية للوصول إلى المعرفة. واقر باني شعرت يوما بالحاجة إلى ممارستها في شئون الجمال. غير أني على الرغم من هذا لا احب أن اعتقد ببساطة أن نظريات العلم في شئون المادة تصدق دائما في شؤون الروح. لا شيء يستطيع أن يقنعني بأن إحساس الجمال وليد تطور ونشوء. بي رغبة أن أصيح بغير دليل في يدي أن إدراك الجمال ولد كاملا في قلب الإنسان منذ رفع بصره وبصيرته إلى أسلوب الله فرعاه. إني أخشى أن نقع في الغلط إذ نطبق نظرية المادة في مسائل الروح، وهل يستطيع الدكتور أن يجيز قول رسكن وجرانت الن في الإلياذة: (. . . ما كان يعنى الأقدمون بالطبيعة ولا بجمالها ألا حين يتصلان بعيش الإنسان. ففي الإلياذة ما كان يوصف منظر طبيعي لذاته، بل لنفعته للإنسان، كان يكون مكانا خصيبا يفيض بالحنطة أو تكثر فيه الجياد. ما كانت الطبيعة سوى إطار للحوادث والاشخاص، لا انها لذاتها محل للوصف. أن الطبيعة لم تحب لذاتها ألا في العصر الحديث، حيث استيقظ الإحساس بها، إحساس صافي خالص لا تشوبه شائبة النفع أو المصلحة. . .) ماذا أقول في هذا الكلام؟ اهو جهل بمشاعر الأقدمين؟ أم تورط في تطبيق نظرية التطور والنشوء؟ أنصدق حقا أن الشعور الرفيع بجمال الطبيعة لم يعرفه القدماء خالصا لدنوهم من الحيوانية؟ أنصدق أن (هومير) لم يحس جمال الطبيعة لذاتها؟ أهذا رسكن يقول هذا الكلام أما أنا فقد مضى كلامي في الطبيعة والقدماء. ورأيي الذي أبديته في رسالتي الأولى أن الأقدمون كانوا أقرب منا إلى الطبيعة والى فهمها. لقد كان الأقدمون يحسون إنهم جزء من الطبيعة ونغم من أنغامها. أما رسكن وألن أو الإنسان الحديث فلا يحس ألا ذاته الآدمية منفصلة عن الطبيعة وعن كل شئ. دليلي فن القدماء من مصريين وإغريق. أهذا فن قوم لا يحسون الطبيعة لذاتها ولا يدركون قوانينها وأساليبها؟! إلى هذا الحد يصل الانقياد إلى النظريات؟ من اجل هذا لا أريد التمكين للعلم حتى يجلس على عرش النقد دون شريك. احب طرائق العلم. لكنى أخشى نتائج العلم. فلنرتفع بالروح قليلا. لست أريد أن أضع الروح تحت مبضع العلم، رهبة منى أن يشقها فيجدها غلافا أجوف. وإني لا أنسى يوم شاهدت تشريح جثة آدمي

للمرة الأولى. أي قلق يومئذ مزق إيماني بقيمة الإنسان! كلا. أني كرجل من رجال الروح لا أريد أن افجع في خير ما أعيش به وله. يريح نفسي دائما أن أقول أني عقل العلم لا يكفي. ولا بد دون إدراك الجمال والروح من العودة إلى القلب. أريد ألا يخرجني العلم من ذلك الإيمان الذي كان يضيء في قلوب المصريين القدماء إيمان قربهم من الخالق، فإذا هم ببصائرهم العميقة العجيبة أول آدميين استطاعوا فهم أسلوب الله والنفوذ إلى قوانين إبداعه. أن أقصى العلم الإيمان. احب ذلك العلم المؤمن الشاعر الذي عرفه أيضا الفلكيون العظام في القرنين السادس عشر والسابع عشر: كوبرنيك، وجاليليه وكبلر، آخر قطرة من ذلك العلم الممزوج بالإيمان كانوا ينظرون إلى الكواكب كما نظر اليها من قبل المصريون الأقدمون. لا بعين العقل، بل بعين القلب أيضا. كانت السماء والنجوم في نظرهم مخلوقات حية. كانوا أيضا يحسون في كتلة النجوم وفي هذا الكون بأكمله الروح الخالقة ويد المبدع الأعظم. ما أروع هذه العبارة من كبلر، فيها تلخيص جميل لكل ما يملأ نفسي: (. . . كل الخليقة ليست إلا سمفونية عجيبة في مجال الروح والأفكار كما هي في مجال الأجسام والأحياء. كل شئ متماسك مرتبط بعرى متبادلة لا تنفصم. كل شئ يكون كلا متناسقا. أن الله قد خلقنا على صورته، وأعطانا الإحساس بالتناسق. كل ما يوجد حي متحرك، لأن كل شئ متتابع متصل. كل كوكب وكل نجم أن هو ألا حيوان ذو نفس. أن روح النجوم هي سر حركتها، وسبب ذلك الحب الذي يربط بعضها إلى بعض وتعليل ذلك النظام الذي تسير عليه الظواهر الطبيعية. .) أولئك رجال ساروا في بيداء العقل دون أن ينسوا دليل القلب. أولئك هم العلماء العظام! أرى الدكتور قد استشف رأيي بعد هذا التمهيد. نعم ولا أخشى أن أجيب ألان عن السؤال فأقول أن التيارات الثلاثة التي ذكرها الدكتور تصدق أيضا في النقد. كما تصدق في الخلق. أما التيار الأوربي في النقد فهو المرتكز على العلم. ولقد وصل إلينا هذا التيار بالفعل وتأثرنا به. وإن بعض كتب النقد التي

طهرت في مصر الحديثة تنم على هذا الاتجاه العلمي. وهو أمر لا بأس به، بل هو واجب محتوم، على شريطة أن نقرن به. نظيف إليه عناصر جديدة ووسائل أخرى مستخرجة من أرضنا وتراثنا إذا أردنا أن ننشئ لآدابنا طريقة شخصية كاملة في النقد.

فأما التيار المصري القديم فهو النقد المعتمد على الذوق، أي سليقة المنطق والتناسق. وهو عند المصريين القدماء

سليقة المنطق الداخل للأشياء والتناسق الباطن أي القانون الذي يربط الشيء بالشيء. أي جمال للأهرام غير ذلك التناسق الهندسي الخفي وتلك القوانين المستترة التي قامت عليها تلك الكتلة من الأحجار! جمال عقلي داخلي. كذلك أسلوب الخالق لا يعني بالجمال الظاهر وحده في خلق الطبيعة. فأي جمال للثعبان والجعران؟ أن الجمال الظاهر نسبي لا يقدره غير الإنسان. إنما المنطق الداخليللأشياء هو كل جمالها الحقيقي. هذا المقياس المصري القديم للجمال ما احسبه قد أثر بعد في حياتنا الفكرية أو في أحكامنا الفنية. أما التيار العربي القديم فهو النقد الذي قوامه ذوق الحس. أي سليقة المنطق الظاهر والتناسق الخارجي. الجمال عند العرب هو الجمال الظاهر الذي يسر العين ويلذ الأذن. أنستطيع أن نتخيل العرب تبني الأهرام أو تقدر فيها جمالا؟ لقد جاء العرب مصر وتحدثوا بجمال نيلها وأرضها وسمائها ولم يروا في الأهرام ألا شيئا قد يحوي نقودا مخبوءة، أما بناؤه فشيء لا يحسب في الفن. إنما الحسن عند العرب حسن الهيئة قبل كل شيء. المساجد كالعرائس تكاد تخطر حسنا بزخارفها، زينة للناظرين. بغير هذا فلا عمارة ولا فن. الشعر رنين لذيذ، وخيال جميل، ومعان لطيفة، وألفاظ مختارة ظريفة، بغير هذا فلا شعر ولا فن. الجمال عند العرب جمال إنساني. والفن عندهم شيء صنعه الإنسان لنفسه وللذته. الفن العربي القديم فن إنساني دنيوي. والفن المصري القديم فن إلهي ديني. لهذا اختلفت المقاييس في الجمال بين الفنين. أحدهما يعنى بالتناسق الذي يروق الإنسان، والثاني يعنى بالتناسق الخفي بغير التفات إلى الإنسان. ولعل المقياس العربي القديم هو في مصر المنفرد حتى اليوم بالحكم في قضايا الشعر والأدب. ولعل اقرب مثل إلى الذاكرة ذلك الحكم الذي أصدره الدكتور على بيت للأستاذ العقاد:

هي كأس من كؤوس الخالدين ... لم يشبها المزج من ماء وطين، ألم يكن مقياس الدكتور في

التقدير ذلك الذوق الحسي وذلك المنطق الخارجي الذي يربط الألفاظ، فوجد اتصالا غير متسق بين الكؤوس والطين سمع له شيئاً كالطنين يشوب صفاء الرنين؟ هذا المقياس العربي ذو الإبرة الدقيقة عجيب في تسجيل كل انحراف عن منطق الألفاظ. إنما هنالك في اعتقادي منطق آخر مستتر أمره يعنى المقياس المصري. ترى لو أن الدكتور رجع إليه أما كان يحكم لبيت العقاد لا عليه؟ أما كان يرى فيه تناسقا داخليا محكما هو كل ما عنى بأدائه

الشاعر؟ إني يوم قلت بمزج الروح بالمادة في آدابنا. كان يجب على أيضاً أن أقول بوضع المقياس المصري في النقد بجانب المقياس العربي. وبعد، فإني ولا ريب قد استأثرت منك ومن وقتك مقدار لاحق لي فيه. غير أنى لولاك ما وضعت أفكاري في رسائل. إنما أنا اكتب لك. أي ضمان أنت في الشرق لحياة الفكر والبيان! وهل أستطيع أن أنسى ما كنت لي وما تكون؟ إني أضع بين يديك كل إخلاص؟

كوم حمادة في 14 سبتمبر سنة 1933. توفيق الحكيم

من فخري بك البارودي. عضو مجلس النواب

بدمشق

إلى الأستاذ احمد أمين

أنت في التاريخ ذخر الباحثين ... (يا احمد أمين) (والضحى والليل)

أنت في الآداب ركن ثابت ... أنت في (الأخلاق) نور المهتدين

أنت مهدت سبيلا واضحا ... كان وعراً مرهقاً للسالكين

أن ما جئت به معجزة ... ذكرتنا معجزات المرسلين

الباسم أحيا أملا ... كاد يذوى في صدور الناشئين (فجرك)

الضاحك اليوم بدا ... مثل بدر في ليالي التائهين (وضحاك)

قل لعبادي وطه تمما ... نشر أجزائكما للقارئين

أن وعد الحر دين فإلى ال ... وعد واشفوا غلة المرتقبين
نحن والإخوان في الشام على ... مثل حر الجمر في المنتظرين
البطل في صورة ملك
للمهندس الشاعر على محمود طه
تألق كالبرقة الخاطفة ... وجلجل كالرعدة القاصفة
مبين من الحق في صوته ... صدى البطش والرحمة الهاتفة
يخوض الغمار دماً أو لظى ... ويركب للمأرب العاصفة
يطير على صهوات السحاب ... ويمشي على اللجنة الراجفة
ويقتحم الموت في مأزق ... ترى الأرض من هوله واجفة
تمزق في جانبيه الرياح ... وتنفطر السحب الواكفة
وتشتجر الرجم الهاويات ... وتعتنق الظلم الزاحفة
عشية لا القلب طوع النهى ... ولا العقل تأسره العاطفة
ولكنها وثبات الجريء ... على عثرات المنى الخائفة
شعوب تعالج أصفادها ... وتأبى الحياة بها راسفة
صحت بعد إغفاءة الحالمين ... على لجة الزمن الجارفة
وحسبك بالدهر من منذر ... كرب يعاقب من خالفه
رأيت السفينة في بحره ... تنازعها اللجج القاذفة
مددت يديك فأرسلتها ... أماناً من الغمرة الخائفة
وخلفك من (يعرب) أمةٌ ... إلى النور فازعةٌ شاعفة
نضَت (فيصلاً) من صقال السيوف ... يُقبِّل فيه الضحى شارفة
أعدت لها مجدها المجتبى ... وبواتها الذروة الشائفة
بناء من السؤدد العربي ... دعمت بتالده طارفه
جلت فيه (بغداد) عهد الرشيد ... وأحيت لياليها السالفة
وارسلتها بعد نسيانها ... حديث النباهة والعارفة
فوا أسفا كيف روعتها ... بفقدك في الليلة السادفه
صحت (برن) منك على نبأة ... تسيل البروق بها راعفه
رمى الغرب بالشرق إيماضها ... فرد الشموس به كاسفه
أناخ على سروات العراق ... فقصف أفنانها الوارفه
طوى فجرها بسمات المنى ... وإسكت أوتارها العازفه
ومصطبحين هوت كأسهم ... حطاماً على الشفة الراشفه
أفاقوا على حلم رائع ... كأن بهم فزع الآزفه
يردون بالشك صوت اليقين ... وتصدقه الأعين الذارفه
وأني لأسمع ما يسمعون ... صدى الويل في صخب العاصفه
وكيف؟ وقد كنت نجم الرجاء ... إذا قيل ليس لها كاشفه
وما عرفوا عنك نقص التمام ... بيع الصحيحة بالزائفه
تحفك ابهة المالكين ... ونفسك عن زهوها صادفة
سرت بالوداعة في بأسها ... سرى النسيم في الليلة الصائفه
وتحمل عنهم من العبءِ ما ... تخر الجبال له خاسفه
وتهزأ من صرعات الردى ... وتمسى على أمرهم عاكفه
إلى أن طوتها وأودت بها ... غوائل تطوى الدجى خاطفه
فراحت ترف على كفها ... رفيف الندى في اليد القاطفه
وما هي ألا دموع الأسى ... همت من جراحاتها النازفه
وما نسيت (دجلةٌ) إنها ... بشطيه حائمة طائفه
تباركهم من سماء الخلود ... وتدعو (لغازيهم) هاتفه.
مناظر من موقعة صفين
للأستاذ محمد فريد أبو حديد
وكان معاوية معروفا بالمغالاة في التوسل بهذه المكائد في سبيل الانتصار، فاذا أردنا أن نعرف سبب نجاح مكيدة المصاحف فلا بد لنل من أن نفترض أن صفوف علي لم تكن خالية من عيون معاوية، وليس التدليل على ذلك ببعيد المنال. فقد ارتفع في أثناء

القتال صوت بعد صوت يحاول إحداث الفشل في صفوف المقاتلين. غيران الظروف لم تكن قد تهيأت لذلك بعد. فقد قام شيخ من شيوخ الأزد في أثناء المعركة فجعل يرثى قبيلته وينعى من مات منها في سبيل نصرة علي وجعل يقول: (والله ما هي إلا أيدينا نقطعها بأيدينا وما هي إلا أجنحتنا نجذها بأسيافنا. . . الخ) غير أن صيحته اضمحلت في حماسة إخوانه وماتت في جلبة المعركة. وكان رئيس ربيعة متهما بالميل إلى معاوية، وقد حدث في أثناء القتال أن انهزم بعض الضعفاء من ربيعة مع ثبات أهل الرايات والشجعان. وقد انصرف ذلك الرئيس منهزما عندما شهد فرار أول المنهزمين، فلما رأى ثبات سائر أصحابه عاد واعتذر عن هربه قائلا انه كان لا يريد إلا إرجاع المنهزمين. فلا بد لنا من أن نفترض وجود هذه التيارات الخفية التي كانت تعمل في جيش على حتى تستقيم الصورة وتصبح ملائمة لطبيعة الأمور. وكان علي لا يحفل بالبحث عن مثل هذه الدسائس. بل لقد كان إذا عرفها ورأى عند صاحبها شبهة البراءة لم يمد إليه يدا بسوء. وكان علي من الشجاعة والاستهانة بالموت في المحل المعروف، وكانت شجاعته هذه تجعله يرتفع عن أن يعبأ بكشف هذه المكائد أو مقابلتها بمثلها. فقد كان رجل كفاح صريح. على أن هذه التيارات الخفية لم تكن بأدعى إلى فشل علي من اضطراب الأهواء تعصف ببعض قلوب من معه، وكان مسلكه الحر لا يكبح هذه الأهواء بل كان يكتفي بأن يشير إلى المبدأ السامي الذي يسعى إليه، ويحض الناس على التمسك به، ويكلهم بعد ذلك إلى نفوسهم ومقدار ما فيها من الإيمان والحرص على الحق. فكان بعض قواده يتنافسون فيما بينهم فلا يعبأ بأن يلتفت إلى تلك المنافسة، بل يحاول أن يصرف حماستهم إلى مقصدهم الأسمى. وإنا ضاربون هنا مثلا بصاحبين من أصحابه كان بينهم تنافس خفي أدى إلى نتائج جليلة في وقعة صفين، ونعني بهذين: الأشعث بن قيس والأشتر النخعي وهو مالك بن الحرث. وكان الأشعث بن قيس

كما تقدم حاكما على أذربيجان في مدة خلافة عثمان، فلما قتل عثمان وتولى علي لم يخرج عليه، بل بقى على عمله وأخذ البيعة له، واما الأشتر فقد كان من أهل العراق وكان رئيسا له شهامة وفيه صرامة، وقد غضب على حكام العراق في أيام عثمان وثار بهم حتى كان يمنعهم من الاستقرار والحكم، ثم سار إلى المدينة مع جماعة من أصحابه فكان من رؤساء الثوار الذين حاصروا عثمان بالمدينة. ولما قتل عثمان كان هو متكلم القوم والساعي في اختيار الخليفة الجديد حتى اختير علي، فكان من أكبر قواده، وكان الأشتر من اصلب قواد علي عودا وأحصفهم رأيا ولعله كان من أكبرهم إخلاصا في رغبة الإصلاح العام والعدل في حكومة الدولة العربية. غير أنه كان صارما لا يقبل هوادة، ولا يداري في رأيه. وكان يأخذ على علي إنه قدم الأشعث بن قيس وجعله من قواده. لأنه كان من أكبر رؤوس الثوار على عثمان فلا يثق فيمن سبقت لهم ولاية الحكم في أيام عثمان. فلما كانت موقعة صفين تقدم الأشعث في يوم القتال على الماء فأبلى أحسن البلاء حتى تصايح الجنود أن الأشعث هو صاحب الفخر في ذلك اليوم، وكان المنتظر بعد ذلك أن نراه في طليعة القوم في كل المواطن. غير إنا لا نكاد نسمع له بعد ذلك ذكرا في مدة القتال العظيم بين الجيشين وقد دام اكثر من عشرة أيام، في حين إنا نجد بطل القتال هو الأشتر مالك بن الحرث، نراه في يمين القتال وقلبه، وأنى سار نجد النصر والحماسة. أكان هذا عفوا غير مقصود؟ إذن فاسمع ذلك الانفجار الذي حدث بين الأشتر والأشعث لتعلم مقدار ما كان في أعماق نفسيهما من الحقد والكراهية. لما رفعت المصاحف وطلب معاوية التحكيم انقسم الرأي في جيش علي. ولسنا بسبيل عرض هذا المنظر وإنما نقصد أن نقول أن الأشعث بن قيس كان من أول القواد الذين رضوا بالتحكيم وإيقاف الحرب، وسعى في ذلك سعيا كثيرا إلى حين كان الأشتر قد قرب بجنوده من قلب جيش معاوية حتى أصبح على وشك الوصول إلى شخصه، وحتى فكر معاوية في الانهزام والهرب، وقد اضطر علي عندما رأى انقسام أصحابه وفشله إلى أن يرسل إلى الأشتر يأمره بإيقاف القتال والانصراف عن العدو، وقد آبى الأشتر وتردد ثم اضطر إلى الطاعة وهو كاره ساخط، فلما عاد الأشتر إلى علي ورأى ما رأى من سعي الأشعث في تضييع النصر من يده ثارت حفيظته وكان بينه وبين الأشعث منظر عاصف. قال الأشتر (أو لستم قد رأيتم الظفر لو لم تجمعوا على الجور؟)

فقال الأشعث حانقا (إنك والله ما رأيت ظفرا ولا جورا) ثم تدارك الأمر بعد ذلك وعلم انه قد أنكر أمرا عرفه الجميع. فخاطب الأشتر موادعا. قال (هلم إلينا فانه لا رغبة بك عنا) فقال الأشتر غاضبا (بلى والله لرغبة بي عنك في الدنيا للدنيا والآخرة. ولقد سفك الله عز وجل بسيفي هذا دماء رجال ما أنت عندي خير منهم ولا أحرم دما) فسكت الأشعث (وكأنما قصع على انفه الحمم) غير إنه استمر على سعيه في إيقاف القتال حتى تم الأمر وأعلن للجند، وكان الأشعث هو الذي سار في إعلانه. ثم أن الأشعث كان له صولة أخرى عند كتابة الصحيفة التي كتب فيها التعهد، والتي ذكر فيها اسم الحكمين، وموقفه ذلك يدل على ما كان في قلبه من الحقد والحفيظة على علي والأشتر. أراد علي أن يختار عبد الله ابن عباس ليكون الحكم المختار من جانب علي فثار الأشعث ومعه جماعة فقالوا لا نرضى بغير أبي موسى الأشعري وهو رجل غير موال لعلي، وليس من الذين نهضوا معه إلى حرب معاوية. فراجعهم علي في ذلك وقال إذا لم ترضوا بابن عباس فأني اختار الأشتر. فثار الأشعث عند ذلك ثورة عظيمة وقال (وهل سعر الأرض غير الأشتر؟ وهل نحن إلا في حكم الأشتر؟) قال علي مراجعا: (وما حكمه؟) قال: (أن يضرب بعضنا بعضا بالسيوف حتى يكون ما أردت وما أراد) لم تكن هذه لغة الأشعث يوم القتال على الماء. فما أشد ما حقد على علي والأشتر في أثناء الإقامة عند صفين. أليست الحرب جهد المستميت؟ وهل يستميت مثل الأشعث إذا كان قلبه مليئا بمثل هذا الغيظ؟ لا نستطيع أن نقول أن الأشعث باع نفسه إلى لمعاوية على إحداث ما كان، ولكنا لا نستطيع ألا أن نلمح ما تولد في قلبه من الحقد والكراهية، فأما حقده فعلى ذلك المنافس الناجح وهو الأشتر، أما الكراهية فكانت للخليفة الذي لم يتح له فرصة التصدر والرياسة بعد أن اطمع في ذلك منذ يوم القتال على الماء. لقد كانت صفين مسرحا لعوامل خفية. وأهواء قوية، لم تذهب هذه العوامل وتلك الأهواء سدى، بل قد عصفت بحزب علي في اشد المواقف وأحرجها.

دراسة في التصوف

الأصل في دراستي لهذا الموضوع، هو الإعجاب المطلق، ولقد أدى بي هذا الإعجاب، ومبعثه شوق روحي غامض إلى إجتلاء بعض الحقائق السامية، إلى التفرغ لدراسة التصوف الإسلامي في كتب عدة لبعض أئمة الصوفيين وأخص بالذكر منهم الأمام أبا حامد

الغزالي والاطلاع على بعض الديانات الهندية وأهمها الديانة الوثنية التي يمثلها نبيهم كرشنا، ولمذهب كرشنا وتعاليمه (بنوع خاص) أثر بارز في دراستي لأصول التصوف. وينحصر مذهب كرشنا في أن الإنسان، يعزف عن الخير لمجرد الوهم والخداع في الدنيا وينصرف إلى الدنيا لأنه لا يعني كثيرا بحقيقة الآخرة. وهو يدعو إلى محاسبة النفس، والقيام بالواجب بدون هوى ذاتي، ومجاهدة الروح، والفناء في محبة الله، وهو يشبه الجسم للروح بالثوب للجسم، ومعنى هذا انه يؤيد فكرة التناسخ. ويقول بأن الروح تنتزع نفسها من الجسم المتداعي إذ لا يعود صالحا لها. لتنتقل إلى جسم جديد، ومعنى هذا أن الروح خالدة. وهو يعزو أعمال الإنسان إلى الروح , ويرى أن ثمة قوة عليا هي التي تحرك الإنسان. . وتسيره، أي أن كل ما يفعله الإنسان مسوق إليه بقدرة الله، وأرادته العالية، ولذلك فأن الإنسان يجب أن يؤدي واجبه دون أن يفكر فيما إذا كان هذا الواجب سيجلب إليه الخير والشر. ولقد عمدت أيضا إلى دراسة الديانة السيخية وأود أن أذكر أن اهتمامي هذا كان مبعثه الأول إلى دراسة التصوف، إحساس روحي عميق، في داخل نفسي، كان يذهب حينا، ثم يعود قويا متجددا فلما تناولت بعض المسائل الروحية بالدرس والتجربة واطلعت على آفاق جديدة في الثقافة الآسيوية، وهي في جملتها روحية أصيلة ألفيت نفسي مقودا إلى استكمال وسائل البحث والدرس. . . وقد يبدو مثل هذا الولع بدراسة المسائل المتعلقة بالروح، شيئا يناهض معنى المدنية القائمة اليوم، وهذا ظن خاطئ فأن المدنية التي ترتكز عظمتها على الآلات ليست كل شيء في سبيل إسعاد الإنسان كما يقول الفيلسوف الروسي ليون شستوف. وهذا الرجل يندد بمساوئ المدنية الحديثة لما فيها من الاندفاع المطلق نحو اجتناء اللذات المادية، حتى صار الإنسان في بعض البيئات الصناعية أشبه بالآلة أو الحيوان أن تجرد من الصفات العليا. وشستوف يدعو إلى تنمية العواطف الإنسانية الكريمة، وتذكية الروح في سبيل الارتفاع بالإنسان، والحيلولة بينه وبين

طغيان الشهوات الدنيا والمطامع الوضيعة حتى لا تفسد روحه وتخمد المشاعر السامية في نفسه. والواقع أن هذه الدعوة ليست سوى ترديد لما يعتلج في صدور الكثيرين ممن سئموا طغيان المادة على الحياة، وعادوا يحنون حنينا قويا إلى العناية بالروح، كما يعني بالجسم؛ فأن الإنسان ليكاد لفرط ما يحفه من مظاهر الترف والإغراء يعبد الجسد عبادة وثنية. وحدث

منذ عامين تقريبا أن اهتممت بالطريقة الروحية التي غاندي في جهاده الوطني، وهي التي يسميها السياسيون بالطريقة السلبية، أقول: إن اهتمامي بفلسفة غاندي جعلني أتجرد لمعرفة قوة الروح والاطلاع على ما يتصل بها وبالجسم. ومن هذه الأشياء التي سبقت، مجتمعة، تكونت عندي فكرة قوية لمعالجة هذا الموضوع، راجيا أن أكون قد وفقت فيه بعض التوفيق بقدر ما يتسنى ذلك في رسالة قصيرة، ولست أستطيع أن ادعي إنني بلغت فيه كل ما أرجو، فأن هذا الادعاء لا قيمة له لنفسي ولا للقارئ، فأنني متصل بهذه الحياة كالآخرين، اتصالا ماديا، هذا الاتصال الذي اشعر بثقله كلما رأيت الإنسان كم يكذب ويخدع، ويحتال، وينافق. . لكي يعيش. أو بمعنى آخر إن قوة المدنية ومادياتها قد طغت على أرواحنا طغيانا جارفا، فأفسد اكثر النواحي الإنسانية فينا، ونمت الروح الحيوانية في سائر أعمالنا، أو كما يقول برناردشو في كتابه الأخير: (مخاطرات الفتاة السوداء) أصبح الإنسان الحديث عبد الخمر والبندقية. ولست في ذلك بالجاحد لقيمة المدنية، فأن التطور الاجتماعي الذي نلمسه في القرن العشرين كنتيجة لجهود العلماء المتصلة لخير الإنسانية قد أفاد الإنسان في حياته فوائد جليلة، ولكن الانتفاع شيء والاستمتاع شيء آخر. . وإطلاق الشهوات هو طريق الانحدار والانحطاط، وأننا لنرى أكثر علماء هذا العصر قد شغلوا جميعا على الرغم من اختلاف اتجاههم في البحث وتباين ثقافتهم بتوحيد القوى الإنسانية، والتغلب على الشهوات التي تثير في النفس التطلع إلى القهر والإذلال والاستعمار والاستغلال والتمرد على الأمم الصغيرة الوادعة كما يتمرد الرأسمالي على العامل. أن التصوف رياضة نفسية عنيفة، وليس من السهل أن يروض الإنسان نفسه عليها، بل أن وضع المدنية لا تكاد يجعلنا نرى في الصوفية المطلقة كل الخير، وخاصة لما تقتضيه الحياة أن يعيش فيها كعضو عامل منتج، إنما يعني اكثر المشتغلين بالتصوف في هذا العصر بإنقاذ الروح كجوهر. وقد قسم العلاقة توماس باتريك هيوز صاحب الموسوعة الإسلامية حدود الصوفية إلى تسعة أقسام أهمها: أن الله في كل شيء، وكل شيء مستمد منه سبحانه وتعالى، وأن كل شيء مرئي أو غير مرئي خاضع لقدرة الله، وان هناك مقاومة بين الروح والجسد ينهيها الموت. فيذهب الجسم، أما الروح فتبقى. وأساس الاعتقاد عند الصوفيين أن الخلود للروح. ولهذا فأنهم يسلكون طريق التعبد والرياضة النفسية تزكية

للنفس والخلق، وتحسينا للشمائل وتبغيضا في الدنيا، واستعداد للرحيل إلى الدار الباقية. . حتى تصفو العقيدة وتنقى السريرة وتصفى من أكدار التكلف والنفاق. ومثل هذه الرياضة تتطلب الخلوة والعزوف عن الأشياء البراقة ومجاهدة النفس وتصعيد الغرائز والارتفاع بالفكر إلى أسمى مكانة، وقد قال الإمام الغزالي في ذلك: (ثم دخلت الشام وأقمت فيه قريباً من سنتين لا شغل لي ألا الغزالة والخلوة والرياضة والمجاهدة اشتغالا بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى، كما كنت حصلته من علم الصوفية، وكنت اعتكف مدة بمسجد دمشق اصعد منارة المسجد واغلق بابها على نفسي، ثم تحرك بي داعية فريضة الحج والاستمداد من بركات مكة والمدينة وزيارة النبي صلى الله عليه وسلم بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه وسلم، ثم سرت إلى الحجاز ثم جذبتني الهمم ودعوات الأطفال إلى الوطن، وعاودته بعد أن كنت ابعد الخلق عن أن ارجع إليه) وللتصوف مراحل لا بد أن يجتازها الصوفي مرحلة وراء مرحلة، وليس من السهل اجتياز كل منها فأنها تحتاج إلى جهد فائق، وجلد كبير، وقوة مدخرة، وأهم تلك المراحل: العبودية والعشق والزهد والمعرفة والوجد والحقيقة والكشف والوصول إلى الفناء. فأذا أشرقت روح الصوفي، ارتفعت به إلى حيث تكشف له السعادة المطلقة، فيبلغ مرتبة الفناء المطلق للفكرة، وتفهم سر الحياة والموت، والصوفي الذي يجتاز تلك المراحل هو الكامل في إخلاصه وتعبده، وقلما يصل اليها متصوف، بل أننا لا نكاد نحصى ألا طائفة صغيرة ممن استطاعوا

السمو إلى هذه المنزلة أولئك الذين خلت نفوسهم من الشوائب وتخلصوا وتطهروا وأقاموا حاجز منيعا بين رغباتهم المادية وغايتهم الروحية العليا. وهناك وسائل يتبعها المجتهدون في التصوف أهمها ثلاث: الانجذاب والعبادة والعروج، ومن يقرأ الشعر الصوفي يذهل لفرط ما يرى. فأن الشعراء الصوفيين يصورون حالتهم النفسية تصويرا رائعاً، ففي شعرهم من الهيام والوجد والعشق ما يكاد يحسبه القارئ لأول وهلة لشاعر أغرم اغراما أفلاطونيا بفتاة. والواقع أن انحدار تلك المعاني لا يكاد يختلف عند الاثنين في شيء ما، فبينما نرى الصوفي يتجه مخلصا نحو ذكر الله بالتوسل والدعاء والابتهال، نرى الآخر يقدس الجمال في معناه الأسمى. لا شك أن الصوفي المنصرف عن الدنيا بكل ما فيها. المتجه إلى الآخرة اتجاها تاما إنما يبالغ في فكرته إلى حد الفناء في اعتناق الفكرة

فإذا أردنا أن ندرس التصوف على انه تزكية للروح وتنقية له من الشوائب فأن هذا حسن، ولكن من الخطأ أن يكون الإنسان سلبيا بحتا، فأن الحياة قوامها العمل والكتب السماوية كلها تحث على العمل والمثابرة والاجتهاد في سبيل العيش بينا نرى التصوف بمعناه الدقيق يدعو إلى الزهد المطلق والانكسار في جهة ضيقة للتعبد والتقشف، وهذا ما في رأينا إخلاص إلى حد الجنون بالفكرة والتعصب لها، فأننا لنرى النبي الكريم عليه الصلاة والسلام وهو روح الحب والحنان والتسامح قد حمل مصباح الهدى ومشعل الحق وجاهد في سبيل الله بلسانه ويده حتى عمت دعوته، لقد كان النبي الكريم يشتغل بالتجارة ولكن ذلك لم يصرفه عن استخلاص نفسه والتوجه نحو الخالق بالعبادة والصلاة دون أن يعتكف في مكان ضيق من الأرض.

وإننا لنرى العلماء اليوم وخاصة من تشربوا بالثقافة السلافية، يدعون الناس مخلصين إلى تطهير نفوسهم وعدم الانغماس في ملذات المدنية تنزيها لجوهر الروح عن الفساد وخوفا على البشرية من الانزلاق في مهاوي الشهوات والترف كما ذهبت في الماضي بعض المدنيات العريقة طعمة لجنون الشهوات والطمع والفساد الاجتماعي.

محمود عزت موسى.

حول الإشعاع النفسي

قرأت بإعجاب هذا المقال الممتع الذي دبجه أستاذنا الكبير أحمد أمين عن النفوس وإشعاعاتها الغامضة المعقدة التي تشعر بها وقد لا نستطيع التعبير عنها، والتي تختلف باختلاف النفوس وتتعدد بتعدد نواحيها وطبائعها، فملك علي هذا البحث مشاعري وألقى بي في ذلك العالم الروحي الذي يقوم وراء هذا الحجاب الكثيف من المادة، حتى خلت نفسي أسبح في عالم من الأرواح أو أن حجرتي كما يقول الأستاذ (ملايين وأكثر من الملايين من إشعاعات نفسية تشع من السماء ومن الأرض ومن النفوس البشرية ومما لا يعلمه إلا الله).

على أنني ما كدت أعود إلى هذا العالم المادي وأقرأ المقال بعين الناقد المتدبر وأتحلل من هذا التأثر العميق بشخصية الأستاذ الكبير حتى أدركت السبب الحقيقي لهذا الأثر النفساني الذي يعزوه الأستاذ إلى أشعة تنبعث من النفوس والعقول لا تقل جمالا عن (إشعاعات النجوم والكواكب) وتختلف في القوة، اشد من اختلاف المصابيح الكهربائية، يقول الأستاذ: (إن هذا الإشعاع هو السر في أنك تلقى عظيما فيملؤك أثرا ويملؤك قوة بهيئته، بنبرات صوته، بطريقة تعبيره، بنظراته، بإشاراته، بهزة رأسه، بحركة يديه، فكأن في كل عمل من هذه الأعمال يوصل بينك وبينه تيارا كهربائيا قويا يهزك هزا عنيفا، قد لا يحدثك طويلا وقد لا يكون لكلامه في الواقع قيمة ذاتية، ولكنه يوقظ نفسك ويحيي روحك وتبقى رنات كلماته في الأذن الأيام والليالي تعمل عملها في هدوء حينا وعنف حينا)، كلام بديع يستهوي اللب ويخلب العقل ولكنك إذا أعملت فيه الروية والعقل وباعدت بين نفسك وبين أسلوب الأستاذ الأخاذ وشخصيته الجذابة أدركت غير ما يدرك، ووقفت على سبب آخر لهذا الأثر النفسي الذي يسميه الأستاذ إشعاعا ونسميه نحن: (شعورا بالعجز والضعة)، وذلك إن الإنسان لا يتأثر بعظمة عظيم، ولا خطابة خطيب، ولا حديث محدث، إلا لسبب واحد لا ثاني له، وهو شعور بعجز نفسه وانحطاطها عن مستوى هذا العظيم، وهذا الخطيب وهذا المحدث، قد يكون عاجزا أو ضعيفا، وقد يكون قويا أو رفيعا، ولكن شعوره بعجزه وضعته هو على كل حال السبب الوحيد في إكباره للعظيم وتقديسه للخطيب وإنصاته للمحدث وتأثره

بغيرهم من الناس.
قد تكون درة عمر أهيب من سيف الحجاج لدى الناس، ولكن السبب في ذلك لا يرجع إلى أن أشعة قد انبعثت من نفس عمر فغمرت الناس بموجة من الجلال والعظمة. وأن أشعة
من نفس الحجاج قد غمرت أجسام الناس بالخوف والرهبة، ولكن السبب هو أن الناس كانوا يشعرون بشيء من الاستكانة أمام بطش عمر وجبروته، فاذا ما ذهبوا يحاولون النيل منه وتلمس سيئاته لم يستطيعوا إلى ذلك سبيلا، لأنهم يجدون فيه الرجل المتمسك بالشريعة الذي لا تصدر أفعاله عن هوى، وإزاء هذا الشعور بالعجز المضاعف أمام هذه الشخصية يحس الناس بشيء من الخشية المشوبة بكثير من التعظيم والإجلال. أما الحجاج فكان الناس يشعرون بكثير من الخوف والهلع أمام سيفه نتيجة لشعورهم بالعجز عن مجاراته في أسباب بطشه للسلطة المخولة له عليهم، ولكنهم من جهة أخرى كانوا يستطيعون إحصاء ما كان يقترفه من السيآت والمنكرات، وما كان يقدم عليه من الإجرام والظلم، وهكذا كانوا يخافونه ويرهبوا جانبه لشعورهم بالعجز عن مقاومته، ولكنهم كانوا في الوقت نفسه يكرهونه ويشتد مقتهم له لاعتقادهم بأنه متخلف عنهم في الرحمة والعدل والإنسانية، وبالجملة فإن عمر والحجاج لم تنبعث من نفسيهما أشعة تؤثر في الناس، ولكن الناس هم الذين خلقوا هذا التأثير بهذا الشعور السلبي الذي استولى على نفوسهم، ولو أن حياتهم الاجتماعية والسياسية كانت تصبغهم بغير هذه الصبغة، ولو أن شعورا بالقوة والعظمة والرفعة استولى على نفوسهم لما ملأت نفوسهم عظمة عمر وجلاله، ولما ضربت عليهم الذلة والمسكنة وانكمشت قلوبهم خوفا ورعبا من الحجاج وسيفه وصولته.
قال الأستاذ: (وحدثني من أثق به أن الأستاذ جمال الدين الأفغاني كان يرتطن عجمة ولم يكن فصيح اللسان، ولا سلس القول، ولكن تجلس فيشعلك نارا دونها فصاحة الفصيح وبلاغة البليغ، لأنها النفس مستودع كهربائي قوي يصعق أحيانا، ويضيء أحيانا، ويدفع للحركة أحيانا) وهذا أيضا ينضوي تحت لواء ما قلناه، فقد كان المصريون في أيام الأستاذ جمال الدين بعيدين عن هذه الحرية الفكرية الغربية، وإن كان بعضهم يطمح إليها ولا يجد في هذا الجو المصري الخانق الرجعي مسعفا له على بلوغ مأربه، فلما حط الأستاذ رحاله في هذا البلد، هرع إليه بعض من هذه الفئة العطشى، ولشعورهم بالعجز في مضمار الفلسفة وما إليها مما كان يلقيه عليهم الأستاذ جمال الدين، ولموقفهم منه موقف الطلبة من أستاذهم كانوا يشعرون برهبة ورغبة في مجلسه، وتبدو لأعينهم وقلوبهم هذه التعاليم الجديدة التي يتلقونها نارا تلهب النفس وتشعلها وتتأجج في جوانبها حتى لتدفع بها إلى
الثورة، ولو كان فيهم رجل يأنس من نفسه قوة تدفعه إلى الوقوف مع الأستاذ موقف الند للند، لا الطالب أمام معلمه لتغيرت الحال وأحجم الأستاذ احمد أمين عن أن يضرب هذا المثل للتدليل على وجود هذا الإشعاع النفسي موضوع مقاله.
وأن اختلاف تأثير الخطيب باختلاف السامعين والممثلين باختلاف النظارة، لينهض دليلا على ما نزعمه من أن تأثير الأشخاص في بعضهم ليس مرجعه إلى قوة نفسية تشع من نفس إلى أخرى فتؤثر فيها تأثيرا قويا أو ضعيفا، حسنا أو سيئا، ولكن هذا يرجع إلى شعور النفس المؤثر فيها بتخلفها (بحكم طبيعتها أو العوامل المحيطة بها) عن النفس التي أثرت فيها في الخطابة أو الكتابة أو ما شاكل ذلك.
من هذا كله نستطيع أن نقول إننا لا نتأثر بعظيم فنرهبه ونرتعد من الخوف بين يديه، أو خطيب فنصفق له ونحمله على الأعناق، أو محدث فنرهف آذاننا له ونعجب به، إلا لأننا قابلنا العظيم وفي قرارة نفوسنا من شعور بسموه عنا، وسمعنا الخطيب ونحن نشعر بأننا عاجزون عن الوقوف مثل موقفه، والتعبير بمثل تعبيره، وأنصتنا إلى المحدث وقد غمرنا شعور بالقصور عن لباقته، أو مجاراته في حججه، أو الإتيان بمثل حديثه الذي يحمل بين طياته من المذاهب الجديدة والعلوم الحديثة ما نجهل. وليس هذا الأثر ناتجا من صدور أشعة من نفس العظيم أو الخطيب أو المحدث إلى نفوس الناس.
وخلاصة القول إننا لا نقول بحدوث تأثير المؤثر من قوة إيجابية تنبعث، ولكنه يكون بشعور سلبي أو قوة سلبية يحس بها المؤثر فيه حتى ليتوهم أنها آتية إليه من خارج

نفسه، والحقيقة أنها تصدر عن نفسه وتنبع منها.
الإسكندرية - عبد الحليم محمد حمودة
(الرسالة)
من أين يأتي شعور العجز والضعة، وقد تلقى الرجل لأول مرة فيثير فيك شعور البطولة والإعجاب، بل قد تراه أو تسمعه وقد سبقت إلى أذنك أخبار وضعت من شأنه، وحطت من قدره، فما هو إلا أن تراه وتسمع له حتى يتغير رأيك ويختلف تقديرك. هل سمعت قول القائل: (تسمع بالمعيدي خير من أن تراه) أو هل علمت أن الناس لما رأوا الحجاج يصعد على المنبر أخذوا الحصى ليحصبوه، فما استهل خطبته حتى تساقط الحصى من أيديهم
وهم لا يشعرون؟ ما ذلك إلا الإشعاع.
لم لا تقول الشعر؟
للدكتور عبد الوهاب عزام
كتبت ألي أيها الأخ الكريم تسألني (لماذا صمتَّ بعد تغريد، ونضبت بعد فيض، وسكنت بعد المرح، واكتأبت بعد الفرح؟ وما هذا الوجوم والإطراق بعد التهلل والإشراق؟ أين قلبك الهدار، وقلمك المكثار؟ وأين شعرك الشاعر، ونظمك الساحر؟ ليت شعري، وقد أمكنك القول، لم لا تقول الشعر؟)
يا أخي بماذا اجيبك؟ لقيت الحياة مبتسما، ونشأت مرنما، أطالع تباشير الصباح مرحا كالأطيار، مترنحا مع الأشجار، تروقني ألوان الأفق، وتدهشني طلعة ذكاء في مواكب الضياء، أراقب الأضواء في الصباح والامساء، وأساير الظلال، بالغدو والآصال. وأخلو إلى القمر أشرب ضياءه، وأحس في نفسي صفاءه، وأقول:
البر والبحر ذوبٌ من سنا قمر ... تردد الطرف فيه فهو حيران
وأتأمل الأزهار في شعاعه، واقبِّل الورد في لآلائه وأساير النيل أجري مع مائه. واضطرب مع أمواجه، وأقف على البحر فرحا بآذيِّه المهتاج، معجبا بسلاسل الأمواج، أرقب العراك المتواصل، بين الماء والساحل.
وكم طربت لزقزقة العصافير في نور الصباح، وتنزيها على متون الرياح، وضحكت لبكور الغراب، سابحا في الضباب.
وكم فتنني الوجه الجميل والخلق النبيل فقلت:
في كل حسن أرى سراً يجاذبني ... نفسي، ومالي بهذا السر عرفان
أرى الجمال فتطبعه زجاجة العين على صفحة القلب فاذا هو على لساني وقلمي. فانطلق قائلا معجبا. ومنشداً مطرباً.
وكل شيء يبعث الأمل، ويحدو إلى العمل، وكأن القضاء طوع الخيال، وليس في الدنيا محال. وكأن الإنسان يستطيع أن ينحت الجبال بقلمه، وينزف البحر بفمه. والمستقبل وضاء، وكل ما في العالم ضياء.
ثم نفذ إلى الفكر إلى ما وراء الظاهر، وتطلع إلى ما في السرائر، وجاوز القشر إلى اللباب، وخاض الضحضاح إلى العباب، وكشف المجاز عن الحقيقة، وطالع ضمائر الخليقة. فأنبهم العالم واستعجم، فاذا كل شيء مبهم، فالفكر فيما وراء الحجب جائل، وكل سر هنالك هائل. الضوء هنالك ضباب، والبصر حجاب.
فامحت الأشكال وخفيت الألوان، وعيّت الريشة في يد الراسم، وحار القلم في بنان الشاعر، وبُهت المنطق دون البيان، وجمد اللفظ على اللسان. ويبقى السر المحجَّب آبيا على كل مطلب، أو يبصَّ من الحقيقة حاجب يعظم عن ضيق الألفاظ ويكبر على سلاسل القوافي والأوزان.
ورحم الله الشاعر سنائي إذ يقول: (رجعت عما قلت إذ ليس وراء الألفاظ معان، وليس لما ندرك من المعاني ألفاظ).
أهم بالأمر الصغير فإذا هو حلقة في سلسلة، وطريق إلى كل معضلة، وجزء من كل حقيقة هائلة.
وأحاول الأمواج فتنفتح عن الأعماق، فيضل الفكر وتزيغ الأحداق. وأعالج حمرة الشفق، فاذا وراءها خبيئات الأفق، وإذا الأفق صلة الأرض والسماء، وكيف بما فيهما من حقائق، وكيف بما أستسر من أسرار الخالق؟
وأهم بالكلام عن الحيوان فاذا أنا في لجة الحياة، وهي السر العجاب، وسطها فوق

الأرض وطرفاها في التراب.
وأريد أن اصف الذرة فاذا هي والشمس سواء، باهرة الحقيقة رائعة الضياء. أنظر إلى الصغير فيكبر، وأعمد إلى الواضح فيستعجم.
والأمل تكسرت أمواجه على صخور الحقائق، وضل سرابه في صحاري الحياة.
يا أخي: ها أنا على ساحل المحيط الأعظم حائر الطرف بين اللجة والشاطئ، مقسم الفكر بين الظاهر والباطن. ولست أدري أأبقى صامتا مبهوتا، أو أهجم على الأهوال، وأغوص في الأعماق، ثم أبين عن عرفاني وجهلي، وإدراكي وعجزي، أو أرجع إلى العهد القديم أصف الألوان والأشكال والضياء والظلال. . . .؟

الحمى داء ودواء

تحت هذا العنوان وفي العدد الرابع عشر من مجلة الرسالة الغراء عقد العالم البحاثة الدكتور النابغة احمد زكي وكيل كلية العلوم بالجامعة المصرية فصلا قيما وبحثا ممتعا. عن الحمى وفوائدها، قال في بدايته (الحمى من قديم الزمان عرض مخوف وطارق مرهوب وكثيرا ما كانت رسول الموت وقائد الحي تحدو ركبه إلى وادي الفناء. ولكن في هذه الأيام القريبة الماضية. نشأت فكرة أخذت تحل محلا ذا بال في رؤوس البحاثة من الأطباء أو في رؤوس القليل منهم الذين لا تزعجهم غرابة الخاطر، ولا يصرفهم عن أمره خروجه عن المألوف، ومحصول هذه الفكرة أن الحمى ذلك العدو القديم للحياة، قد تنقلب، أو يمكن تأليفها وقلبها إلى صديق نصير، فبدل أن تكون عونا على الداء، تصبح عونا على الشفاء، في بعض الأمراض التي عجز عنها الطب وحار فيها الأطباء).
ونحن نقول للدكتور الفاضل بكل تواضع واحترام إن هذه الفكرة التي انتهى اليها الباحثون والأطباء الغربيون اليوم. وقف عليها أطباء العرب من عشرات القرون الماضية، حينما كان آباء هؤلاء العلماء يسكنون المغاور، ويلجئون إلى الكهوف. فقد جاء في الصفحة الأولى بعد السبعين من كتب (زاد المعاد في هدى خير العباد للإمام الحافظ أبي عبد الله بن نعيم الجوزي) ما يأتي:
وقد ينتفع البدن بالحمى انتفاعا عظيما لا يبلغه الدواء، وكثيرا ما تكون الحمى سببا لإنضاج مواد غليظة لم تكن تنضج بدونها وسببا لتفتح سدد لم تكن تصل اليها الأدوية المفتحة. وأما الرمد الحديث والمتقادم فأنها تبريء أكثر أنواعه برءا عجيبا سريعا، وتنفع من الفالج واللقوة والتشنج الامتلائي وكثير من الأمراض الحادثة عن الفضول الغليظة، وقال لي بعض فضلاء الأطباء أن كثيرا من الأمراض نستبشر فيها بالحمى كما يستبشر المريض بالعافية، فتكون الحمى أنفع فيه من شرب الدواء بكثير، فإنها تنضج من الأخلاط والمواد الفاسدة ما يضر بالبدن، فاذا أنضجتها صادفها الدواء متهيئة للخروج بنضاجها فأخرجها فكانت سببا للشفاء).
وفيما تقدم دليل جديد يشهد بما بلغه العرب في الطب من المنزلة العالية والمكانة التي لا تدانى، كما يشهد لهم بفضل السبق إلى كثير من نظرياته الحديثة التي ينسبها علماء اليوم إلى أنفسهم زورا وبهتانا، والفضل كل الفضل للمتقدمين.

والقود. سودان

محمد محمود الجندي. طالب بالتجارة العليا بالقاهرة

أعلام الفلسفة الفرنسية

تين

منذ سنوات خلت، نشرت الصحف خبر احتفال الفرنسيين في بهو السربون، بذكرى الفيلسوف الفرنسي الكبير (تين) وقد كان الاحتفال فخما للغاية، يناسب مكانة الفيلسوف العظيم؛ وقد رأسه المسيو إدوار هريو وزير المعارف والفنون الجميلة، وشرح بمحاضرته التي ألقاها منهج تين في النقد الأدبي، وفي العرض التاريخي. ويرى بعضهم أن مؤلفات تين خير ما أخرج التفكير الفرنسي في النصف الأخير من القرن التاسع عشر، ويرون انه أبرع نقاده في ذلك القرن! وقد كان تين فوق ذلك فنانا بارعا يعشق فن الموسيقى، وأما نظرياته الفلسفية فإنها تميل على الأغلب إلى الناحية المادية.
العبقرية الحق هي التي تعمل ولا تشبع، وتجد في الألم لذة، وفي الموت من أجل العمل حياة، ولا تحسب يوماً أنها وجدت ما تنشد وتصبو إليه! كان تين لا يكل ولا يتعب،

بل كان يقوم في الليل ليستأنف عمله، وكان (اسكوت) الكاتب الإنجليزي الكبير مصنوعاً من العمل، كما كان يقول، وحسب (بتهوفن) انه لم يبرز ما يصبو إليه، ومات (فولتير) وهو معتقد انه لم يعمل عملا واحدا يرضي ذوقه!

العبقرية الحق، هي التي تخلق وتنشئ وتنظر دائما إلى الممكن وإلى المستقبل، هي باذرة بذور الخير والحب والطيبة والجمال في الوجود، والطامحة دائما إلى الأحسن، والآخذة بالناس من الظلمات إلى النور، ومن العبودية إلى الحرية، ويخلد العبقري بقدر ما تترك رسالته من أثر على وجه البسيطة؛ فكلما كانت رسالة العبقري إنسانية كان الإعجاب بها شديداً والثناء عليها قويا.

ولد هيبوليت أدولف تين في 21 أبريل سنة 1828 بفوزييه بمقاطعة الوارون في فرنسا، وكان أبوه من أسرة قليلة المال قصيرة الباع. وكان لأبيه (جان باتيست تين) اتصال بالقضاء، لذلك استطاع تين أن يتلقى عليه النظم والقوانين إلى جانب دراساته بمدرسة (مسيو بيرس) الصغيرة. حتى بلغ الحادية عشرة من عمره، وقد مرض أبوه فأرسله في سنة 1839 إلى مدرسة دينية في (رتل) أقام بها ثمانية عشر شهراً، وبعد وفاة أبيه سافر إلى باريس فالتحق بمعهد (ماتيه) وكان طلاب هذا المعهد يدرسون بكلية بوربون وفيه

ظهرت بوادر كفايته النادرة. لقد امتاز تين لأول دخوله المدرسة بمقدرة على العمل مدهشة، وبجلد متين لا يقل إثارة للدهشة، وكان كثير التحصيل، كثير التعليق على ما يحصل، كثير التفكير فيه، مما جعل له على أصدقائه جميعاً نفوذاً معترفاً به، اعترافهم بفضله ومقدرته على الكتابة نظماً ونثراً في اللغتين الفرنسية واللاتينية. وبعد انتهاء دراسته الثانوية انتقل إلى مدرسة المعلمين ' وفيها قرأ افلاطون، وارسطو، ودرس الإنجليزية فبرع فيها وأتقن آدابها. وقد لاحظ عليه أساتذته مبالغته في الحرص على السلوك بالمنطق مسلكا رياضياً والوصول به دائما إلى قاعدة ثابتة على نحو ما يصل الرياضيون في مسائل الحساب والهندسة والجبر. وقد تنبأ له أساتذته بمستقبل باهر، وقالوا سيكون تين أستاذاً ممتازاً، بل سيكون أكثر من ذلك، وسيكون عالما من الطراز الأول، وسيكون شعاره شعار سبينوزا (يعيش ليفكر).

ومع ما عليه تين من رقة في الخلق عظيمة، ومن طباع غاية في الطيبة، كان لذهنه قوة جبارة لا تلين لا يستطيع ان يكون لأحد على تفكيره أي تأثير. وجماع ما يقال عن (تين) انه ذهنية جبارة منقطعة النظير!

كان تين أقوى أثراً في نشر الفلسفة الواقعية من صاحبها اغست كونت نفسه، وبرغم تثبيته قواعد هذه الفلسفة الوضعية في ذهن أهل عصره والعصور التي خلقته، قد فتح لها ميادين جديدة في الفن وفي الأدب وفي الشعر، وفي صور نشاط العقل الانساني، وفي النفس الإنسانية، مما جعل للعلم الوضعي وللفلسفة الوضعية من متانة الأركان ما لا يزال حتى اليوم وطيدا قويا غاية القوة، برغم موجات الروحية (والتيوزوفية) وغيرها مما سبق الحرب وشجعته الحرب ومما لا يستطيع أن يقاوم (حتى في الميادين الفلسفية البحتة) تيار العلم الجارف، الذي يدل الناس كل يوم على أن العلم إذا اخطأ في تقرير نتائج معينة، فهو وحده قمين بإصلاح هذا الخطأ من طريق الاستقراء والملاحظة والتجارب، وما يترتب على هذه من تبويب ينتهي إلى استنباط القوانين العلمية الصحيحة التي يمكن أن تكون أساسا لارتكاز الفلسفة الواقعية الصحيحة، فهذا الرجل الذي حاول، ونجح في محاولته، هدم الفلسفة الكلامية التي كان الأستاذ فيكتور كوزون عميدها في عصره، والذي حاول ونجح في أن يقر إلى جانب التفكير الواقعي المذهب الجبري وأن يطلق هذا المذهب على

النمسان ويخضعه له، بمقدار ما تخضع له الأفلاك والموجودات كلها، هذا الرجل كان صاحب أسلوب في الكتابة له من البهر ما يسحرك كما لو كنت تستمع إلى ألحان أركسترا بيتهوفن! ولعل أبرع ما كتبه تين في الناحية الأدبية، هو ما كتبه في الوصف والسياحة، ولقد بلغت براعة الوصف فيهما مبلغا قل أن يجاريه فيه كاتب.

وليس فضل تين مقصوراً على فلسفته وأدبه فحسب! فهو إلى جانب ذلك مؤرخ من أكبر المؤرخين لم يقتصر على كتابة تاريخ بلاده، بل تناول عصر ما قبل الثورة، وتناول عصر الثورة والعصور التي بعدها، وتناول بحوثا أخرى في التاريخ القديم وفي التاريخ الحديث، تناولها بدقة في العبارة، ودقة في البحث، وقوة في الأسلوب، جعلت له كل

هذه المكانة التي تسنم ذروتها في عصره، وكل هذا المجد الذي يشهد له به اليوم حتى ألد خصوم نظرياته. ورسائله في التاريخ وفي النقد جعلته منه نقادة معترفاً بنبوغه وبفضله، وقد أقامت له مذهبا في النقد يتسق ومذهبه في الأدب، وفي التاريخ، وفي الفلسفة، وفي كل ما تناوله من مباحث؛ والذي يقرأ كتابه (الفلاسفة الإنشائيون في القرن التاسع عشر) وكتبه (رسائل في النقد وفي التاريخ) يرى اتجاه مجهوده العقلي في السنوات الخصبة من حياته، ويرى المجهود الهائل الذي تناول به بحث اليونانيين القدماء وكتاب فرنسا وفلاسفتها وكتاب إنجلترا ومفكريها، تناول ذلك في دقة وإحاطة قل نظيرهما. يعرض أمامك فكرة كل كاتب وفلسفته وأسلوبه ويحلل ذلك ويرده للبيئة وللجنس اللذين نشأ الكاتب فيهما، ويدلك على ما يراه النقاد ويراه هو في الكاتب وفكرته من قوة ومن ضعف، ومن كمال ومن نقص. ومن دقة في بلوغ الغاية التي قصد إليه الكاتب، أو اضطراب في نهج السبيل إلى تلك الغاية، وهذه طريقته التي سار عليها في النقد، وهي الطريقة العلمية الصريحة التي لا تعرف الميل ولا المواربة، ولا تعرف مذاهب الشك والتردد، والتي تقفك من كل كاتب ومن كل موضوع على خلاصة الموضوع وعلى صورة واضحة من الكاتب على نحو ما رآه تين. أول أستاذ (لتين) أثر في تفكيره أعمق الآثار وهو (كونديلك)، وتين لا يفهم كيف ينسى في فرنسا منهج كونديلك الذي هو (أحد المثل العليا للذهن البشري) ويستبدل بفتات الاقتباس والمزج، ثم هو يأخذ على كوزين وتلاميذه قبل كل شيء انحلال المنطق، لأنهم يرون انهم فلاسفة، ولكنه يرى انهم خطباء يعنون بالأثر الذي يحدثونه اكثر مما يعنون بالحقائق التي

يبحثونها! ثم يقول: انه تجب العودة إلى كونديلك وهو ذهن لا نظير له في الاستنارة والدقة، وقد وهب كل المسائل العظيمة أجوبة ثارت عليها التقاليد الكلامية المبعوثة، ونظريات ما وراء الطبيعة الألمانية في فرنسا في بدء القرن التاسع عشر! بيد أنها سوف تعود بالرغم من كل هذا، ويعود (تين) بدوره قدوة في استئنافها والتمسك بها.

وكما أن تين كان تلميذاً لكونديلك كان كذلك تلميذاً لأسبينوزا وهيجل فقد شعر مثل (جيته) بسمو الفكرة الاسبينوزية، ورأى أن مفكراً لا يستحق أن يسمى بالفيلسوف ما لم تطبع نظريته الخاصة بطابعها. واسبينوزا هو الذي أوحى إليه باعتبار الوجهين: الوجه الطبيعي، والوجه الخلقي، صورتين لحقيقة جوهرية واحدة، وقال تين عن هيجل متحمساً: (ليس بين جميع الفلاسفة من سما إلى ما سما إليه (هيجل) أو من تدنو عبقريته من ذلك الصرح الشامخ! فهو مزيج من اسبينوزا وارسطو). وقد اتسع مدى عمل (تين) الفلسفي والتاريخي بالاستناد إليه.

يقول (تين) عن الفلسفة الإنجليزية أنها قد انتهت إلى اعتبار الطبيعة اجتماعا للوقائع، أما الفلسفة الألمانية فترى فيها مجموعة من القوانين، فإذا كان ثمة مكان بين الأمتين فهو مكاننا نحن معشر الفرنسيين! لقد وسعنا الآراء الإنجليزية في القرن الثامن عشر، واستطعنا في القرن التاسع عشر أن نضبط الآراء الألمانية، ومهمتنا الآن هي تهذيب الذهنين أحدهما بالآخر ومزجهما في ذهن واحد، وأن نصوغهما في أسلوب يتذوقه العالم كله، وان نخرج منهما بذلك الذهن العام.

ولقد عين تين مدرساً في وزارة المعارف بمدرسة (نفير) في أول سنة 1851 الدراسية، لكنه لم يمكث في هذه المدرسة إلا شهوراً نقل بعدها إلى مدرسة دونها في الدرجة، وذلك لأغراض سياسية. ومن ثم نقل إلى (ابوانيه)، ومنها نقل مساعد مدرس إلى بزانسون في سبتمبر 1852. وعلى رغم تنقلاته الكثيرة، قد وضع رسالة عن المشاعر ورسالة لاتينية تقدم بها إلى السوربون لنيل جائزة الفلسفة، ولما كانت هذه الجائزة قد ألغيت فقد أراد تين أن ينال جائزة الأدب العليا - ولكن رسالته لم تقبل، فوضع رسالة عن لافونتين فنال بها دكتوراه الآداب في 30 مايو سنة 1853، وعل أثر حصوله على الدكتوراه اقترحت الأكاديمية الفرنسية موضوعاً لجائزة تمنح في سنة 1855 على احسن رسالة تكتب عن

الكاتب والمؤرخ الروماني الكبير، فعرض لها (تين) وكتبها ثم تقدم بها (تيت ليف) فكانت الأولى بين كل الرسائل التي قدمت!

وكان تين قد رشح نفسه سنة 1862 لتدريس الأدب في مدرسة الهندسة ولكن مسيو دي لموني انتخب بدلا عنه، على أن وزير الحربية عينه في مارس من السنة التالية

ممتحنا في التاريخ وفي اللغة الألمانية بمدرسة سان سير - الحربية. وفي سنة 1864 عين مدرسا لتاريخ الفن والجمال في كلية الفنون الجميلة؛ فكان تعاقبه في وظائف الدولة سببا في إثارة الخوف في نفس رجال الدين، مما دفع المونسينير دوبانلوا إلى كتابة منشور وجهه إلى الشبيبة وإلى الآباء يطعن فيه على تين ورنان ولتريه وندد فيه بنزعاتهم الإلحادية مما كاد يزعزع مركز تين لولا تدخل البرنسيس ماتيلدا وبسط حمايتها عليه. وفي سنة 1864 قدم بعض كتبه إلى الأكاديمية ليحصل على جائزة بوردان. فانبرى له مونسينير دوبانلوا من جديد، واشترك معه آخرون ليحولوا بينه وبين الجائزة. على أن المسيو جيزودافع عن تين بكل إخلاص واستمرت المناقشة أمام الأكاديمية فيمن يستحق الجائزة ثلاثة أيام متوالية، استقر الرأي بعدها على أن الجائزة لا تمنح لأحد ما دامت لا تمنح لتين!. . . على أن هذه الخصومات المتتابعة وهذا التجني على ذلك الكاتب الفيلسوف لم يحل دون حصوله على وسام اللجيون دونور في سنة 1866 وعل شهادة من جامعة اكسفورد بعد محاضرات ألقاها بها عن راسين وكورني في سنة 1871. وتزوج تين في سنة 1868 فلم يغير زواجه شيئا من حياة الجد والعمل التي كان يحياها، على انه منذ سنة 1870 على أثر الحرب الفرنسية الألمانية قد حز في نفسه ألم هزيمة بلاده فأجهد نفسه في أن يقف على أسباب ضعفها، وكان هذا هو الدافع الذي دفعه إلى وضع كتابه الأكبر (أصول فرنسا الحديثة) الذي عمل فيه منذ سنة 1870 والذي اضطر من اجله أن يتخلى عن مهنة التدريس منذ سنة 1884 لينقطع له انقطاعا تاماً. وقد توفي في الخامس من شهر مارس سنة 1893 وهو في الخامسة والستين من عمره.

وقد ألقى الأستاذ ليفي بريل المحاضر بالسوربون خطابا في شرح نظريات تين الفلسفية بمناسبة الاحتفال المئوي لميلاد (تين) نترك الأستاذ نفسه يحدثنا عنه إذ يقول: لنذكر اليوم ألقاب مجده ومناحي نبوغه! ولئن كان علم النفس وعلم الاجتماع قد وصلا بفروعهما

المختلفة في فرنسا إلى ما وصلا إليه من التقدم فان تين هو أحد الذين يرجع إليهم الفضل في ذلك، وقد كان من الممكن أن يترك عمله، ولكن الروح الذي بعثه ما زال يضطرم إلى اليوم، وكان الطريق الذي سنه هو طريق الإرشاد، وأن فضله ليبدو أشد بهاء، إذا ذكرنا الوسط الفلسفي الذي تخرج منه، ولكن تين غلبت عليه روح الفلسفة الحق فاعتزل أولئك المبشرين بأفقر ضروب التحكم، وبحث عن الحقيقة دون أن يعني بادئ بدء بما إذا كانت ستتفق وهذه العقيدة أو تلك، أو هذا الحزب أو ذاك. وبذا وصل تين بين التقاليد الفلسفية للقرن الثامن عشر، وهي التقاليد التي اعتقد الجيل الذي قبله أنها قطعت نهائيا. وهكذا كان مستحقاً لإعجاب كل مفكر حر في عصرنا، فلنحمده لأنه جاهد من أجل مثل أعلى للعالم والفلسفة النزيهة. ولعل هذا خير مديح كانت تتأثر به عزته. ولقد أبى أعز أصدقائه (أميل بوتمي) الذي ساعده على تأسيس المدرسة الحرة للعلوم السياسية والذي كان أمينا لأعمق اسراره، ان يكتب على قبره سوى هذه العبارة البسيطة: (أحب الحقيقة قبل كل شيء).

حلب. صبحي العجيلي

بلاط الشهداء بعد ألف ومائتي عام - 7

للأستاذ محمد عبد الله عنان

قال ابن عبد الحكم وهو من اقدم رواة الفتوح الإسلامية وأقرب من كتب عن فتوح الأندلس ما يأتي:

(وكان عبيدة (يريد والي أفريقية) قد ولى عبد الرحمن بن عبد الله العكي على الأندلس وكان رجلا صالحا فغزا عبد الرحمن إفرنجة وهم أقاصي عدو الأندلس فغنم غنائم كثيرة وظفر بهم. . ثم خرج إليهم غازيا فاستشهد وعامة أصحابه، وكان قتله فيما حدثنا يحيى عن الليث في سنة خمسة عشر ومائة).

ولم يذكر الواقدي والبلاذري والطبري وهم أيضا من أقدم رواة الفتوح شيئاً عن الموقعة وقال ابن الأثير في حوادث سنة ثلاثة عشر ومائة مردداً لرواية ابن عبد الحكم (ثم إن عبيدة استعمل على الأندلس عبد الرحمن ابن عبد الله فغزا إفرنجة وتوغل في أرضهم وغنم غنائم كثيرة، ثم خرج غازيا ببلاد الفرنج في هذه السنة (اعني 113هـ) وقتل سنة أربع عشرة ومائة وهو الصحيح، فقتل هو ومن معه شهداء) وينسب ابن خلدون الموقعة خطأ لأبن

الحبحاب والي مصر وأفريقية فيقول: (وقدم معه (أي بعد الهيثم) محمد بن عبد الله بن الحبحاب صاحب أفريقية فدخلها (أي الأندلس) سنة ثلاثة عشر وغزا إفرنجة وكانت لهم فيهم وقائع وأصيب عسكره في رمضان سنة أربع عشرة، فولي سنتين) ولدينا من الرواية الأندلسية ما قاله صاحب (أخبار مجموعة) عند ذكر ولاة الأندلس وهو (ثم (أي وليها) عبد الرحمن ابن عبد الله الغافقي وعلى يده استشهد أهل البلاط الشهداء، واستشهد معهم واليهم عبد الرحمن) ونقل الظبي في ترجمة عبد الرحمن ما ذكره ابن عبد الحكم عن الموقعة. وقال ابن عذارى المراكشي (ثم ولي الأندلس عبد الرحمن ابن عبد الله الغافقي فغزا الروم واستشهد مع جماعة من عسكره سنة 115 بموضع يعرف ببلاط الشهداء) وقال في موضع آخر، ثم ولي الأندلس عبد الرحمن هذا (أي الغافقي) ثانية وكان جلوسه لها في صفر سنة 112، فأقام واليا سنتين وسبعة اشهر وقيل وثمانية اشهر، واستشهد في أرض العدو في رمضان سنة 114. وقال المقري فيما نقل (ثم قدم عبد الرحمن ابن عبد الله الغافقي من قبل عبيد الله بن الحبحاب صاحب أفريقية فدخلها (أي الأندلس) سنة ثلاثة عشر وغزا الإفرنجة وكانت لهم فيهم وقائع وأصيب عسكره في
رمضان سنة أربع عشرة في موضع يعرف ببلاط الشهداء وبه عرفت الغزوة (ونقل في موضع آخر) وذكر انه قتل (والإشارة هنا خطأ إلى السمح ابن مالك) في الواقعة المشهورة عند أهل الأندلس بوقعة البلاط، وكانت جنود الإفرنجة قد تكاثرت عليه فأحاطت بالمسلمين فلم ينج من المسلمين أحد. قال ابن حيان، فيقال أن الآذان يسمع بذلك الموضع إلى الآن (ونقل عن ابن حيان) قال دخل الأندلس (أي عبد الرحمن) حين وليها الولاية الثانية من قبل ابن الحبحاب في صفر سنة ثلاث عشرة ومائة وغزا الإفرنج، فكانت له فيهم وقائع جمة إلى أن استشهد وأصيب عسكره في شهر رمضان سنة 114 في موضع يعرف ببلاط الشهداء، قال ابن بشكوال (وتعرف غزوته هذه بغزوة البلاط)

هذه الفقرات والإشارات الموجزة التي تكاد تتفق جميعها في اللفظ والمعنى هي ما ارتضت الرواية الإسلامية أن تقدمه إلينا في هذا المقام، وان كان في تحفظها ذاته ما ينم كما قدمنا عن تقديرها لرهبة الحادث وخطورته، وبعد آثاره. وإذا كان صمت الرواية الإسلامية تمليه فداحة الخطب الذي أصاب الإسلام في سهول تور فان الرواية النصرانية تفيض بالعكس في تفاصيل الموقعة إفاضة واضحة، وتشيد بظفر النصرانية ونجاتها من الخطر الإسلامي، وترفع بطولة كارل مارتل إلى السماكين. وتذهب الرواية النصرانية، ومعظم كتابها من الأحبار المعاصرين في تصوير نكبة المسلمين إلى حد الإغراق فتزعم أن القتلى من المسلمين في الموقعة بلغوا ثلاثمائة وخمس وسبعين ألفا في حين انه لم يقتل من الفرنج سوى الف وخمسمائة. ومنشأ هذه الرواية رسالة أرسلها الدوق أودو إلى البابا كريكوري الثاني يصف فيها حوادث الوقعة وينسب النصر لنفسه، فنقلتها التواريخ النصرانية المعاصرة واللاحقة كأنها حقيقة يستطيع العقل أن يسيغها. بيد أنها ليست سوى محض خرافة فإن الجيش الإسلامي كله لم يبلغ حين دخوله إلى فرنسا على أقصى تقدير اكثر من مائة الف والجيش الإسلامي لم يهزم في تور ولم يسحق بالمعنى الذي تفهم به الهزيمة الساحقة، ولكنه ارتد من تلقاء نفسه بعد أن لبث طوال المعركة الفاصلة يقاتل حتى المساء محتفظا بمراكزه أمام العدو ولم يرتد أثناء القتال ولم يهزم. ومن المستحيل أن يصل القتل الذريع في جيش يحافظ على ثباته ومواقعه إلى هذه النسبة الخيالية. ومن المعقول أن تكون خسائر المسلمين فادحة في مثل هذه المعارك الهائلة، وهذا ما تسلم به الرواية الإسلامية ولكن مثل هذه الخسائر لا يمكن أن تعدو بضع عشرات الألوف في جيش لم يزد على مائة الف. وأسطع دليل على ذلك هو حذر الفرنج وإحجامهم عن مطاردة العرب عقب الموقعة وتوجسهم أن يكون انسحاب العرب خديعة حربية، فلو أن الجيش الإسلامي انتهى إلى أنقاض ممزقة لبادر الفرنج بمطاردته والإجهاز عليه، ولكنه كان ما يزال من القوة والكثرة إلى حد يخيف العدو ويرده. على أن خسارة المسلمين كانت بالأخص فادحة في نوعها تتمثل في مقتل عبد الرحمن ونفر كبير من زعماء الجيش وقادته؛ بل كان مقتل عبد الرحمن أفدح ما في هذه الخسارة، فقد كان خير ولاة الأندلس وكان أعظم قائد عرفه الإسلام في الغرب، وكان الرجل الوحيد الذي استطاع بهمته وقوة

خلاله أن يجمع كلمة الإسلام في إسبانيا فكان مقتله في هذا المأزق العصيب ضربة شديدة لمثل الإسلام ومشاريع الخلافة في افتتاح الغرب.
ويعلق النقد الحديث على هذا اللقاء الحاسم بين الإسلام والنصرانية أهمية كبرى، وينوه بخطورة آثاره وبعد مداها في تغيير مصاير النصرانية وأمم الغرب، ومن ثم تغيير تاريخ العالم كله. واليك طائفة مما يقوله أكابر مؤرخي الغرب ومفكريه في هذا المقام:
قال ادوار جيبون: (إن حوادث هذه الموقعة أنقذت آبائنا البريطانيين وجيراننا الغاليين (الفرنسيين) من نير القرآن المدني والديني، وحفظت جلال روما، وأخرت استعباد قسطنطينية، وشدت بأزر النصرانية، وأوقعت بأعدائها بذور التفرق والعطب).
ويعتبر المؤرخ آرنولد الموقعة (إحدى هاته المواقف الرهيبة لنجاة الإنسانية وضمان سعادتها مدى قرون).
في الأدب العربي
من طرائف الشعر
آثار شوقية
- 1 -
كوميديتان لم تنشرا
بقي من المجموعة الشعرية لشاعر الخلود شوقي بك روايتان كوميديتان تهيئان الآن للطبع وهما: (الست هدى) و (البخيلة).
ومن قرأ الشعر الفكاهي للأمير يتصور الروح الخفيفة المرحة التي تشيع في هاتين الروايتين. وفيما يلي منظر من رواية البخيلة يلهب النفوس شوقا اليها:
(الست نظيفة وخادمها حُسْنى، حُسنى تدخل وبيدها شيء)
الست نظيفة: تعالَي يا ابنتي جيئي=بماذا جئتني حُسْنَى؟
حسنى: لقد جئتُ بفنجانٍ=خذيه جربي البُنَّا
السيدة: وهذا شُبُكي. هاتِ
حسنى:=اجل بالعود قد جيتُ
حُسنى: وفي الكيس مع الدخا_ن زنداني وكبريتُ
= السيدة: سَلِمت حُسْنَى يداك
حسنى: أنا مولاتي فِداكِ
السيدة: والآن هل آخذُ خَرْج النهار؟ =امضي خذيه إنه في الكرار
حسنى: هيأته سيدتي؟
السيدة: أجل!
حسنى: وما أخرجتِ لي؟
السيدة: رأسٌ من الثوم وخمسٌ من صغار البصل
حسنى: والسمن مولاتي تُرى
السيدة:=كأمس لم أقلل
أوقية
حسنى: والأرز؟
السيدة: لا. لا يدخلنَّ منزلي
لقد غلا سعراً ولا ... يُعجبني السعرُ الغلي
حسنى: ليتكِ بالزيتِ افتكر_تِ والدقيق والعسل
السيدة: ولِمَ يا حُسْنَى؟ أرا_كِ اليوم عادَكِ الخَبَلْ
نسيتِ أن ههنا ... وتحت هذي الكنبَهْ
العشراتُ من قدي ... م الكعك والغريِّبه
حسنى: لم أنس يا سيدتي
السيدة:=أنت إذن مخربة
حسنى: قد اشتهيتُ لقمة القاضي
السيدة:=اشتهتك عقربة!
السيدة: وما الذي اشتريت يا=حسنى لنا من الخُضَرْ؟
حسنى: الباميا! كأنها الزُ_مرُّدُ الخام الحجر

السيدة: الباميا منذ متى=هذا الخضار قد ظهر
حسنى: جديدة قلتُ عسى=سيدتي بها تُسَرَّ
نادى المنادون علي ... ها منذ أسبوع غبَرْ
ترفُلُ من شوكتها ... وفي شبابها النضر
السيدة: أجل لقد أكلتُها=في منزل الشيخ عمر
كالذهب الإبريزِ ... والثومُ عليها كالدُرَرْ
حسنى: واليوم تأكلينها
السيدة:=أمر من طعم الصَّبِرْ
اشتريتْ غاليةً ... مثل البواكيرِ الأُخَرْ
حسنى: هدية تلك
السيدة: وممن؟
حسنى:=من قريبٍ لي حضر
السيدة: من أين جاء ومتى؟
حسنى:=من الصعيد قد بكر
السيدة: وبم ترى جزيته؟ =بقبلةٍ مستعجلة!
حسنى: سيدتي!
السيدة: امضي اطبخي=دقّيةً مكمّلة
كأنها خليةً ... من عسلٍ مجمّلَة
والثوم فيها لؤلؤ ... وهي به مكللة
والعظم
حسنى: واللحم
السيدة: إحذري يتعبني أن آكله
حسنى: اللحم يا سيدتي في الباميا ما أسهله
السيدة: حُسنى انظري
حسنى: سيدتي
السيدة: على البلاط وسخُ
حسنى: الآن اغسلُ البلا_ط ثم امضي اطبخُ
(وتخرج حسنى الخادم)
- 2 -
جبل الدروز
مشروع قصيدة لم تتم كان ينظمها المرحوم شوقي بك وهو بعالية من لبنان في أسود الجبل وقد اخرجوا من ديارهم ففروا بحريتهم وكرامتهم إلى الصحراء.
ألا بديارهم جنَّ الكرام ... وشفَّهم بليلاها الغرام
بلادا أسفر الميلاد عنها ... وصرَّحت الرضاعة والفطام
وخالط تربها وارفض فيه ... رفات من حبيب أو عظام
بناء من أبوّتنا ألاوالي ... يتمم بالبنين ويستدام
توالى المحسنون فشيدوه ... وأيدي المحسنين هي الدعام
وأبلج في عنان الجو فرد ... كمنزلة السموءل لا يرام
يبيت النجم يقبس من ضياه ... ويلمسها فيرتجل الجهام
له في الأعصر الأولى سمى ... إذا ذكر اسمه ابتسم الذمام
كلا الجبلين حر عبقري ... لدى محرابه ملك همام
أُزيلوا عن معاقلهم فأمسى ... لهم في معقل الصخر اعتصام
الذكرى
مرت بي الذكرى فعا ... ود قلبي المضني أساه
ولمحت عهدا خاليا ... ووجدت في الذكرى شذاه
أيام روضُ اللهو غض ... والهوى دان جناه
والعيش مُخضر الحوا ... شي والمنى تُندى ذَراه
والقلب يمرح هائماً ... نشوان ما يدري هداه
كم لذَّ تقبيل الخدو ... د وشاقه لثم الشفاه

واليوم صوَّحه القنو ... ط فشاخ منضورا صباه
في هدأة الذكرى وأح ... لام الشباب بكى هواه
وطوى بساط اللهو في ... شرخ الصبا وا لهفتاه!!!
أوَّاه من عبث الزما ... ن وآه من كيد الحياة!
دمشق - حلمي اللحام
قلب!
لشاعر الشباب السوري أنور العطار
يا قلب! يا هيكل قدس الهوى ... ويا مطاف الذكريات العِذاب
اضممُ على الحب شراع المنى ... فهو طعام الروح وهو الشراب
تالله لولا حرمةٌ للهوى ... لكنتُ أصليتك مُرَّ العذاب
أمضَّني حملك طفلاً وها ... لما تزل طفلاً كثير الشغاف
تملك أطراف السماء التي ... لم يمتلكها الدهر، طيف التَّباب
تفتُّن في الضحك وما تأتلي ... تلعب حتى يتعايا اللعاب
صبَّرت عنك الروح لكنما ... أضجرها منك مرادٌ عُجاب
أضعت من أجلك زهو الصبا ... فضاع ريحاني، وضاع الشباب
لم يبق لي من مأمل يرتجى ... في راحة الأحلام غيرُ السراب
يَرِفُّ، والروح شديد الصدى ... يُعِله في العمر ماء كذاب
قيثارتي تمعن في نوحها ... ونوحها شطرُ فؤادي المذاب
أشعارها في ذي الدُّنى نفحة ... تائهة في عالم من ضباب
تضيع في غيهب هذا الورى ... ضيعة طفل في فسيح الرحاب
يا غيبُ! هذا الطفل جمُّ الرؤى ... مفضض الأفياء، نضْر الشعاب
مُخْتَطَفٌ، شاردة روحه ... وشارد الروح طويل الغياب
غلغل في دنيا الهوى فارتمى ... حيران قد ضل سبيل المآب
خذه إلى ساحك تغنم به ... أغرودة حالية بالرغاب
أيها النيل
أيها النيل أنت روح البلاد ... ورسول المنى وكل المراد
لست ماء في أرضنا بل دماء ... تتمشى بين الحشا والفؤاد
فاجْرِ يا نيل بالحياة إلينا ... وابعث الخير في بطون الوادي
واملأ القطر من ترابك تبراً ... وابق يا نيل رغم أنف العوادي
أيها النيل لن تذل مدى الده ... ر وفينا ذخيرة للجهاد!
مصر تفديك بالدماء وبالنف ... س إذا عز في الخطوب الفادي
فهي لولاك لم تكن منشأ النو ... ر ومهد الحجى وكهف الرشاد
وهي لولاك لم تكن ذات مجد ... ثابت الأس مستقر العماد
وهي لولاك لم تخلّد بذكر ... في جميع العصور والآباد
وهي لولاك لم تكن منية الغر ... ب حديثاً وكعبة القصاد
أيها النيل بلغ الغرب أنَّا ... قد صحونا من الكرى والرقاد
وسعينا إلى النهوض لنُحْيي ... لك عهد الأبوة الأمجاد
محمد فريد عين شوكة
الوداع الأخير
أغداً يا هاجري موعدنا؟ ... ردَّت الموعد أيامي عليكْ!
ها أنا الساعةَ في مُنعزلي ... أسلم الروحَ وأزجيها إليكْ
كم تمنيتُ إذا أسلمتُها ... لو أتتْ خاتمتي بين يديكْ
يا ضنيناً باللقا. . . . حتى اللقا ... ساعة الموت من الحرمان؟ ويْكْ!
أيها القاتل. . . . إني مشفق ... لك (إن تلق الردى) من ملكيكْ!
بيَ أوجاع قد استعصت على ... حكمة الآسِي. . وما استعصت عليكْ
في سرير الموت جسم دارس ... ذو فؤاد ذائب من ناظريكْ
أيها القلب. . . . سألقَى خالقي ... ما جوابي أن يسل عن قاتليك؟
لست بالخائف في أخراي من ... لهبٍ ألفيْتُه برداً لديك
كنت في الدنيا مجوسياً صبَا ... للهيبٍ موقد في وجنتيك

!لكأني كنت مثلوجاً. . . . وكم ... أدفأتني قبلةٌ من شفتيك
يا شقيق الزهر والطير أما ... سألت نفسك عني أخويك؟
أنا في روضك أرويه بما ... فاض من دمعي مدى العمر عليك
في سرير الموت أغفَى شاعرٌ ... عبقري. . . وحيهُ من مقلتيك
!يا ضنيناً باللقا. . . حتى اللقا ... ساعة الموت من الحرمان؟ وَيْك
صالح جودت
في الأدب الشرقي
من أحدث الشعر التركي
قصيدة لمحمد عاكف بك
للدكتور عبد الوهاب عزام
كنت عزمت على أن أنتقل من الشعر التركي الحديث إلى موضوع آخر من الشعر الشرقي، ولكنني حينما عدت إلى حلوان في آخر الشهر الماضي وجدت الصديق الفاضل محمد عاكف بك قد فرغ من نظم قصيدة طويلة من روائع شعره يتجلى فيها بعض ما يحسه عظماء الشرق، من الآلام والأحزان في أيامنا الحاضرة، فاستحسنت أن اجعلها ختاماً للكلام عن الشعر التركي وكان من توفيق الله أن ظفرنا بمثل هذه الخاتمة.
الفنان
قصة، سمعتها منذ ثلاث سنين فلعل لها سامعاً واعياً.
. . . . فصَل القطار من بوستون بعد الزوال بخمس دقائق. وتفرق المودعون، وآوى إلى المقاصير المسافرون. فها أنا مستبدٌّ بهذه المقصورة الثمانية وقد أمكنت الراحة فما يمنعني أن استلقي فأريح فكري وجسدي. لتدر السماء والأفق والأرض وجداً فلست أبالي ما استقرت بي هذه الزاوية.
لله أي أشجار من الزمرد!. . وأي لجج من المروج!. . أزهور هذه أم قصور؟. . ما هذه القرى في حلل المدن وأبهتها؟. . ما أجمل الطريق وما أبهر مناظرها!. . . وما أكثر هذه المصانع!. . . .
أخذتني سنة فانمحت هذه الخاطرات كلها. وبينما أطفو وأرسب في آفاق النوم إذا أنا مشارك في مقصورتي: وإذا كوكب في ميعة الصبا قد طلع أمامي. كلما طمح البصر إليها أزاغه لألاؤها فخر ساجدا على قدميها. وإلى جانبها (ولا ريب انه حبيبها) رجل نجيب، محبب إلى الرائي، طويل القامة، رزين، مهيب، تشهد كل أسارير وجهه أنه فنان.
أشفقت أن أروع هذين القمريين، فعلقت أنفاسي ولبثت قابعا في زاويتي. ثم شرعت أرقبها إذ لم أر حاجة إلى هذا الإشفاق: أما الفتاة فكانت عيناها الذاهلتان مستغرقتين في حبيبها
حتى لتحسب أن لو انقضَّت أجرام السماء لم تفق ولم تشعر. وأما العاشق (وقد غشى الحزن أسارير جبهته الوقور) فقد غابت نظراته العميقة في اجواز الفضاء البعيدة. كيف يحسَّ ظلَّ وجودك وهو يرمي الغيوب بعينيه وبجانبه ليلاه، وأمامه صورة المستقبل الذي طمحت إليه عيناه؟ فانس نفسك ثم انظر ماذا تقول الفتاة:
أيها الأمير! أرأيت ثلاث القطع الأخيرة؟ إنها لساحرة جدّ ساحرة. ما أصاخ المسرح في حياته إلى مثل هذه البدائع، أرأيت شمس الصيف حين تطعن بأشعتها في السحب فتحرق السماوات نيران البروق الخاطفة؟ كذلك كانت أصابعك التي لم تضرب، بل أحرقت العود النائح تحت خطوات الضياء! لو علمت كيف أنَّت تلك الصدور التي كانت أمامك! ربّ! ماذا كانت هذه النوَّحات الداخنة لحناً بعد لحن كما تدمى وتحترق مئات من قلوب البلابل وأنت تصب شآبيب اللهب على الأوتار كلها جملة واحدة! إن هذا النفس المنبعث إلينا من قلب الصحراء المحترق (هذا الخطاب الذي يحشر الأجيال كأنه نفخة الصور هو أوّل ما سمعه غربنا المدنيِّ، علم الله لقد كنت، وصواعق المضراب تتساقط، أتمثل سراب الماضي، ماضي مصر والعراق، وإيران والحجاز، واليمن وغزنة وبخارى، والسند والهند) كنت أتمثل هذا السراب صاعداً من كل خربة دخاناً بعد دخان!
- ولكن كيف يحتمل عجزي هذه الكلمات؟ إني لأخجل أن أشكرك.

- ماذا تقول؟ إن للتواضع حداً فاعرف قدرك.
- أنا لا أعرف إلاّ قدري:
كلا كلا! حتَّام تخفي نبوغك؟ ألم تر إلى الذين استمعوا لعزفك اليوم؟ وهم شياطين الصناعة في هذا العصر بلا ريب ألم ترهم جميعاً قد أحنوا رءوسهم إكبارا وإعجابا. ولا سيما مشاركة غودسكي في عصفات التصفيق الثائرة بين الحين والحين، وتهنئته إياك وقوله: (أيها الأمير! لا أدري أين نظير هذا الاعجاز، ما أبهر عزفك! أني بك جد مفتون، وإنك اليوم فوق كل ثناء) إنها كلمات أخذت أنفاس الحاضرين.
- لأنه يحب الفقير.
- كلا. إن هذه الديار، ما لم تغير شعارها، لا تحب الفقير أبدا، وإنما تحب الدولار، ولست أعرف ديارك، ولعلها على غير هذا.
- إن يكن بيننا فرق فمقدار رأس فرس في حلبة الرهان.
- نحن إذن شركاء في الفاقة، وأنها لبليَّة.
- ولكن ما كان ينبغي أن يغض من قدر غودسكي، فإن كل قريب يعرف شرف نفسه؛ دع عبقريته التي سيطرت على كل بعيد. فان لم يكن في صدره قلب حساس فانشري على الخليقة كلها كفناً من المعدات.
- حسن! والآخرون؟ أهم كذلك أصدقاؤك؟
- لا!
- هل نسيت ما قالوا: (أيها الأمير! ما سمعنا قط فيولنسل كهذه، قد تسخّر العبقريات الكبيرة، هذه الآلة الثائرة المستعصية التي تزلزل العبقريات الصغيرة، ولكن المعجزة في عودك هذا. نعم إن فيولنسل عندنا آلة أبيَّة مرهفة ولكنها كملت على مر الزمان. وما هكذا عودك، انه آلة ساذجة تأبى كل كمال. إن هذه الأصوات الزاخرة كالشلال لا تفيض من مثل هذا الصدر. كنا نظن هذا فاذا بك قد أخرست الفضاء وظهر بين الحين والحين عودك اللانهائي. . .) أهذه مجاملة؟
- أليست مجاملة؟
- رحماك! أني لأخشى أن يكون تواضعك أشبه بالرياء! لقد آن أن نعترف بنبوغك.
- إن مقاربة الكمال بعيدة عن آمالي فدعي النبوغ الآن!
- ما هذه النغمة الباردة المعادة؟ وهذا القرار المكرر؟
- ذلك إن الفنان لا يعلو بذراعيه، ولا بد للنبوغ من جناح، ولا جناح لي.
- أأنت لا جناح لك! اجهر بصوتك فما فهمت! انك منذ قليل جاوزت شواهق الصناعة ثم حلقت حتى تخطيت حدود الإمكان، أنَّى اهتديت إلى هذه السبل المختلفة للإيغال في هذا الطيران؟ لا ريب انك لم تطوِّف في عالم اللانهاية راجلا. وأن لك في هاتين الآلتين الخافقتين في ذكراي جناحين آخرين. فليت شعري أفي العالم عبقرية كهذه تسمو بها أربعة أجنحة باحثاً خيالها في سماء الالهام؟ إن الدم الذي في عروقك لمن دم الأنبياء، وأن غلياناً في هذا الدم لجدير أن يبعث في الشرق أزكى حماس؛ إن وراءك جدوداً قد تصرف بالدهر سلطانهم، وأن أمامك ذكراً قد ضمن لك المستقبل منذ اليوم، فهل جاء أحد إلى هذه الديار
في هذه السعادة؟
- أهكذا السعادة؟ كلا! لا تخدعي نفسك بالسراب. أجل نشأت في طفولة سعيدة أتبجح في دار كأنها الفردوس. ولكن اكفهر الجو منذ تخطيت عتبة الدار؛ أحاط اللهيب والدخان بالشرق الممزق، وكيف ينهض من تلقفت داره النار فانقضت في التراب كل مفاخره حتى لم تبق خربة من هذا الماضي المجيد؟ وبينما تململ تحت هذه المصائب تقطعت الديار فذهبت واحدة بعد أخرى، فلما نظرت ورائي لم أر داراً ولا ديَّاراً: ذهبت بها جميعاً أيدي الأجانب! فلم يبق في هذه القبة إلا يأس أمة خاسرة!
- أليس هو اليأس الذي كان يئن به عودك؟
كلا! لو أنَّت الكائنات كلها بَلْهَ العود ما ترجم النواح عن ألم متقد في الجوانح. يقول شاعر الهند الفيلسوف محمد إقبال: (احترقت من نغماتي المضطربة قلوب الأصدقاء، وإنما يحترق قلبي من النغمة التي يعجز عنها الغناء.) وكذلك أنا. فما سمع بعد من لسان مضرابي صوت الألم الذي يدوي في قلبي الخرِب! ذلك سموم، فكيف تبين عنه بضع آهات؟ نعم لم تبن عنه فما كنتِ الآن عارفة أمري إذ تغنيت بأغاني سعادتي! فلا

تغضبي إن عجبت لظنك بي. لا تغضبي واعلمي أني نِضْو مصائب، أجالد هذه الأحداث التي تسمى القضاء. وقد عيَّ رأسي وذراعي بالجلاد المحتدم ليل نهار، لا أزال أتحامل وانهض. ولكن الشباب قد انهدم! وا حسرتاه! على أي حين قد انهدم: حين يئست من الظفر ونأى عني أمل النجاة وذهب الهلاك بكل خطوة خطوتها إلى المستقبل. وإلا فأية بلية لم تنل مني؟ أصورة وطني الذي انقلب كثباناً من الرماد؟ أم تعاسة أمتي الهائمة بغير وطن؟ أم عشي اليتيم الذي عصفت به ريح الخريف؟ أم أسرتي المرزأة، التي ذرتها الرياح في الأرجاء؟ أم معابدي ومقابري التي طمسها البلى؟ أم حرم كعبتي الذي أقفر إقفار البيداء؟ أم ديني الذي دمى قلبه دهراً حتى وقع؟ أم نعيب البوم على هذه الخرائب خرائب الإحساس؟

وبعد فأية فاجعة لم أصل بنارها؟ لست اعلم ما طواه لي الغد فهو الآن سر محجب، ولكن إن تسأليني عن مصائب اليوم فأليك إجمالها:

ارتمت بي في اليم سفينة بالية. فاكبر ظني أن لن أعاود الحياة، وكنت أعزي نفسي حين أرى أساطين عشيرتي بجانبي تتقلب بنا الخطوب معاً. فثارت العاصفة ومزقت أضلاع السفينة وتفرقت الأمواج بالألواح، فلتصارع القضاء هذه السفينة التي انقلبت خيالاً، بل لم يبق منها الخيال! لماذا أكافح أنا في هذا البحر؟ قد اعتصمت بلوحين تعسين، وما بقاؤهما في مصارعة جبال من الموج؟ والسماء تحجبها ظلمات من السحب متراكمة: ويجثم على الفضاء اشد الليالي حلكا وهولاً، فأكوام الظلام عن يميني وشمالي وأمامي وخلفي. لا أعرف المكان ولا الغاية ولا الجهة ولا الوجهة، أضطرب يائساً وأدور التمس الفروج فلا أظفر بها، فأراني مسكينا يدفع إلى القبر حياً! حينا تقذفني الأمواج الثائرة! وحينا تهبط بي هوة جهنمية يرعد بها الفضاء! وحينا تنشق السحب عن البرق الخاطف يمزق أحشاء الظلام، فاذا مرأى هائل لا يذر للحياة الرجاء! أقول مرة: (إن القضاء لا يصارع. فان لم يكن من الأجل بُد فما تمسكي بهذين اللوحين؟ حسبي جلاداً وكفاحاً!) وأقول أخرى: (كلا! لا أستسلم! لأصدم برأسي الصخرة ولا أصدم به الانتحار!) ثم أمضي طافياً راسباً.

- ألم أقل الآن أيها الأمير! أن الذي يتحكم في نفسك دم الأنبياء؟

- أجل، أطفو وأرسب وأخالني لا أتقدم، بهذين اللوحين اللذين سميتهما جناحين! بهذين اللوحين وهما البقية من أنقاض شبابي المهدَّم إن تكن له بقية!

- أما كنا نريد أن نشهد الغروب منذ حين؟ واأسفاه قد ذهبت حتى حمرة الشفق! وجثم على الآفاق اليتيمة حزن المساء فانقلبت صدراً حزيناً. ألا تراها؟

- هذه (الآفاق اليتيمة) تمسح عليها الآن يد الشفق؛ فاذا انطفأ الشفق مسحت عليها أيدي النجوم. واما (الصدر الحزين) فان غده مشمس. ولكن آفاق ليلي ليس لها من هذه القبة ضوء ولا صدى، وانما حظها هذا الظلام الصامت، هذا الظلام السرمدي! كلما هبطت إلى ساحة قلبي أخذتني الرعدة والوجل: أرى في كل خطوة أثر غروب. نعم أثر غروب، ولكنه عميق كالعدم! فإنما موعد شموسي الغاربة يوم المحشر!

- ولكن ما هذا الحزن وما هذه الدمعة على وجهك؟ لا تختمي بتعذيب مسافرك أيتها الرفيقة الجميلة! يعلم الله لو أن قلباً قدَّ من صخر ما احتمل انهمار هذه الشآبيب الغائمة في عينيك! لا! لا! إنه ليحرقني أن تحسي آلامي. فدعيني أبكي وتنحي عني! قد قاسيت مصائب الدنيا جميعاً، ولكن دعيني أمضي دون أن أرى هذه الدموع!

العلوم

عيد الكهارب

للدكتور احمد زكي

امتلأت الطرقات وسدت المسالك بالمشاة والراكبين وتكدست العربات الخاصة والعامة من فوق الأرض وتحتها بحمولاتها الإنسانية وكلها وجهتها اوليمبيا، ذلك القصر الواسع في الحي الغربي من لندن حيث يقام كل عام مهرجان كبير، يعرض فيه كل جديد في عالم اللاسلك، وما انتصف النهار حتى أخذ البهو الكبير من القصر السقيف يضيق بمن فيه، وأخذت الخطوات تقصر قي سبيلها بين المعروضات حتى كادت تنعدم الحركة، ولما بلغ الداخلون خمسين ألفا صدر الأمر إلى الأبواب أن تمنع الدخول، وكان على الأبواب الألوف من الناس في صفوف كالجند منتظمة، كل ينتظر دوره واقفا، لا

يزحم رجل امرأة ولا يافع شيخا، ونمت الصفوف ذيولا، وتفرعت الذيول وطال الانتظار، ونفد الصبر، وكان اليوم مشمسا حاراً، فأخذت تشيع في الجمهور الصامت بطبيعته أصوات القلق، وأخذ يتبدل النظام السائد بالهرج، وتبدل الهرج بزئاط صارخ واحتجاج منذر، دوت على أثره في داخل القصر الشاسع ثلاثمائة من نواعق اللاسلك ترجو ممن أتم طوافه بالمعروضات أن يغادر بسلام، وخرج من المعرض ممثلون وممثلات من المشهورين في عالم الراديو والمشهورات يعرضن على أرصفة الطريق من ألعابهن وأغانيهن ما يسلي الجمهور ويطيب خاطره، ولكن القدر كان قد غلى وأوشك أن يفور. وبدرت بوادر العنف. فلما تحطمت ألواح الزجاج من بعض المداخل تُلْفِن البوليس فجاء لساعته بركبه ورجله وملك ناصية الموقف في دقائق، واحتبس رجل واحد. وعُدَّ من بخارج البناء عدا تقريبيا فكانوا خمسا وعشرين ألفا.

دخلنا البناء حيث المعرض فوجدناه يتألف من الصالة الكبرى قد بعد طولها، وامتد عرضها، وسما ارتفاعها، وعلى أرضها موائد متطاولة عليها أجهزة اللاسلكي الكاملة قد صفت في خطوط متوازية تستطيل تارة وتستعرض أخرى، وبينها الناس يسيرون كالنمل في بطء وكثرة. وفي الوجه المقابل للداخل سلم عريض قد تغطى بالزائرين وهم في طريقهم إلى الدهاليز العليا، والشرفات الجانبية حيث اكثر المعروضات للقطع المفردة التي

تتألف منها الأجهزة الكاملة. وقد راعى المنسقون والعارضون جميعا في تفريق الأماكن وتخصيص المناضد، وكذلك في المعروضات وأنواعها وأحجامها وألوانها وزينتها، أن تتألف من الجميع وحدة كاملة جميلة تسترعي عين الزائر وهو لا يزال على الاعتاب، وكأنهم خشوا أن يكون جمال التنسيق ضعيفا فاترا فرسموا بأنابيب الكهرباء الحمراء في قبالة الداخل على الجدار العريض العالي الذي يهيمن على الدار رسما كبيرا عظيما رائعا يجمع إلى الجمال القوة والفتوَّة. وبلغ عدد العارضين نحوا من ثلاثمائة، وبلغت المبيعات نحوا من ثلاثة ملايين من الجنيهات ستجعل المصانع في شغل شاغل مدى أشهر الشتاء القادم.

وامتنع العارضون عن إدارة الأجهزة والتقاط أمواج الأثير خشية أن يتصدع الجمهور بمئات الأبواق فلم يكن لغير الفني في المعروض مأرب، إلا أن يستمتع ببريق الصمامات وجِدَّة المكثفات وسواد الحُوَيَّات ودقة النجارة في صناعة الأبواق والخزانات. أما الفني فلم يكن هناك حد لنهمه فقد امتاز هذا العام بتقدم في كل قطعة من مستقبلات الراديو أفسد على الكثيرين اغتباطهم بالأجهزة القديمة التي لديهم، وحركهم وسيحركهم لا شك، أما إلى استبدال قديم بجديد، وأما إلى الاقتصار على الترقيع لتنال أجهزتهم حظا من الجدة. ولكن في كثير من الأحوال يتناول التجديد أساس الجهاز من حيث النظام الذي بني عليه ونوع الأجزاء التي تستخدم فيه. ففي هذه الحالة قد يتكلف الترقيع أكثر من شراء الجديد. ولعل هذا هو السبب في أن كثيرا من مخازن لندن كانت تعرض قبيل ابتداء المعرض أجهزة كثيرة هي لا شك من الطرازات القديمة بأثمان بخسة بلغت النصف فما دونه. وهذه حال لا تسر مقتني الراديو. ومن المؤسف إنها ستتجدد كل عام ما فتئ العلماء يبحثون وما ظلت الشركات وهي عديدة وغنية تتنافس في تجويد المحصول. إلا أن صنفا من المستهلكين لا يفتأ يجد لذته في هذا التغيير والتبديل بحلول كل عام جديد. ذلك فريق الهواة الذين يركبون أجهزتهم بأنفسهم، ويفقهون كيف تعمل فهؤلاء يرحبون بكل جديد للمتعة التي يجدون في الحل والربط وفي ترقب التحسن الناشئ في استقبال للأثير أدق. والتقاط للكلام والنغم أصفى وأروق. ومن الغريب أن كثيرا من الهواة هَوَاهُم يقف عند هذا الحد. أو إن هو تعداه أصبح رغبة عادية لا يتحرق لها إرَم ولا يغلي معها دم. هواهم في الآلة المعدنية الزجاجية

الخشبية التي تلعب فيها أصابعهم وفي النتائج التي تأتي به من حيث الأداء. أما ما يحمله الأثير من جملة بديعة أو نغمة مشجية فله عندهم المحل الثاني. ولكم سر الزائر الغريب للمعرض أن يرى شبانا هواة لم يعدوا بعد العشرين ينسلون كالسحالي من خلال هذا الزحام يجمعون في أكياس من الورق بأيديهم نشرات العارضين وكتيباتهم وقد حوت كل طريف حادث.

وتتناول التحسينات المعروضة الاستقبال وحده، أي تحسين الآلة من حيث حسن أدائها،

وحمايتها من البيئة التي تعمل فيها. مثال ذلك أن حسّ الآلة زاد، أي أنها تستطيع أن تلتقط أضعف الموجات في الأثير وان تكبرها دون أن تفقد منها شيئاً لا من النغم العالي ولا النغم الواطئ، أو دون أن يضعف هذا أو ذاك، فان قيمة ذلك كبيرة في إذاعة الموسيقى، ولو انه ليس له مثل هذا الخطر في إذاعة الكلام. كذلك زادت في الآلة القدرة على الاختيار، فكثيرا ما أراد الإنسان مناغمة محطة فهوّشت عليه محطة أخرى موجتها قريبة من تلك، فاصبح الآن يستطيع أن يحجب المحطة التي يريد حجبها. كذلك كان السامع يستمع إلى المحطة التي يشاء في اغتباط وهدوء فلا يلبث أن يرى الأصوات تضعف حتى تكاد تنعدم ثم تهجم على أذنه في قوة ثم تتقهقر فلا تترك في نفسه لذة من سماع، فاصبح بالآلات الجديدة في مأمن من هذا يستمتع لنغم ذي قوة مضطردة واحدة. كذلك كانت الآلات تتأثر بما في البيت أو الطريق من الكهرباء، كأن يكون بالمسكن مصعد أو بالشارع ترام، أما الآن فقد حاطوا الآلة (أو الأصوب بعض أجزاءها) بما يصد عنها كل هذا الأذى. حدثني صديق انه الآن لا يجد للمصعد هذا الأذى مع أن جهازه لا يفصله عنه غير سمك حائط. كذلك كنت تتطلب استماع محطة فتدير اللولب فيمر بك على محطات أخرى منها القريب القوي الذي يصرخ في البوق ذلك الصراخ المؤلم المعروف، أما الآن فتضبط الآلة كل هذا من نفسها. بل من الآلات ما لا تسمع له صوتاً وأنت تدور باللولب تطلب المحطة التي تريد. وانما ترى مصباحاً ينير ويظلم كلما مر بمحطة، فاذا أضاء عند موجة المحطة التي تريدها خفضتَ زرا فجاءك النغم والصوت على أشده، هذا إلى كثير من التغييرات التي لا يمكن ذكرها دون الدخول في معقدات الفن، ودون ذلك حوائل منها اللغة العربية، ولقد جازفت في هذا المقال فقلت (المكثف) و (الحَوِيَّة) و (المناغمة) و (المستقبِل) وفي نفسي شك كبير فيم يفقه القارئ من ذلك.

أما من حيث أحجام الأجهزة وشكلها فلم تبق الشركات رغبة لراغب إلا قضتها، فالجهاز الكبير الذي يملأ الحائط كأنه قطعة من الأثاث موجود، والجهاز الصغير الذي تربطه إلى قائم عجلة الإدارة من سيارتك موجود، والجهاز الذي تستقي له من كهرباء المنزل موجود، والذي تستقي له من كهرباء البطاريات موجود، ومهما شئت من أشكال أو ألوان لخزانة الجهاز تتوافق مع شكل الحجرة التي تضعه فيها ولونها فموجود كذلك، ما وُجدت في كيسك الجنيهات. أما الذي خُيِّبت آمالنا فيه بحق فالأجهزة التي تنقل لك صور الرجل المذيع وهو يتكلم أو يمثل أو يغني فقد أقامت شركة ماركوني جهازا كبيرا من تلك الأجهزة عرفناه من بعيد لأنه كان حجر عثرة في سبيل سيل الزحام المتدفق لأنه كان ينجمد هناك. وصبرنا حتى بلغناه وإذا بوسطه لوحة سوداء طولها قدمان في مثلهما عرضا هي التي تركزت اليها الأنظار. أخذنا ننظر مع الناس فلم نر شيئا، وكنا على ساحل الصخرة الآدمية في قبالة اللوحة، وبعد لأي ضُغطنا من حيث لا ندري إلى مكان أحب واقرب، فعندئذ تبينا أشباح الممثلين وتتبعنا حركاتهم وهي متصلة حقا كاتصالها على شاشة السينما، إلا أننا خلناهم من ظلمة المنظر يلعبون في ليلة مقمرة قد حجب بدرها سحاب قاتم. على أنها بادرة حسنة وأول الغيث قطر ثم ينهمر.

لندن في 30 أغسطس 1933

القصص

ابن فرعون يتعلم

للأديب حسين شوقي

كان الأمير الصغير (مري آمون) ولي عهد فرعون (ولم تكن سنه تربو على العاشرة) يتلقى دروسه الدينية في حجرته. وكان معلمه الكاهن الكبير (حوتيب) يشرح له الأسرار السماوية العميقة في أوراق البردي المنثورة أمامه. وكانت لحية الكاهن الطويلة تروح وتغدو في الفضاء كلما تكلم، كأنها الآلة الكهربائية التي تمسح زجاج السيارة أمام السائق في أيام المطر حتى لا يحجب عن نظره الطريق.

كان الكاهن يقص على الأمير كيف تكون العالم وكيف خلق الإله رع هذا الفضاء، ثم الأرض، ثم السماء، ثم النيل، ثم التربة الخصبة، ولكن مري آمون كان يستمع إلى معلمه في سآمة وضجر، ويود لو شارك الأطفال الذين شاهدهم من النافذة يمرحون في الحقول طلقاء سعداء في مرحهم ولهوهم، بينما هو يقضي العمر سجينا بين

جدران أربعة! فاذا ذكر الكاهن جهنم وأخذ يصف الشياطين المكلفين فيها بعذاب من أذنب في الحياة الدنيا، أحس مري آمون برعدة تسري في جسمه الضئيل. . وكان الكاهن يرمقه بابتسامة صفراء كأنه مغتبط لخوف الأمير. . كم ود مري آمون في تلك اللحظة لو دق عنق معلمه!.

وفي أثناء ذلك، ازداد ضجيج الأطفال في الخارج، فنظر الأمير إليهم مرة أخرى من النافذة، فإذا بهم يطاردون جحشاً فر من صاحبه. . عندئذ استولت الحماسة على قلب الأمير، واشتدت به الرغبة في الانضمام إلى أولئك الصبيان، فصاح بمعلمه قائلا: سيدي أرجو منك أن تدعني أهب لمساعدة هؤلاء الأطفال في القبض على الجحش الهارب. . فكان جواب الكاهن أن غلق النافذة واستمر في القراءة كأن لم يقع شيء. .

تقلب الأمير المسكين في سريره تلك الليلة، ولم تذق عينه النوم لأنه كان جد غضبان. . ولو نظر مري آمون وجهه في المرآة في ذلك الحين لشاهد تلك الحمرة الجميلة التي علت خدوده ذات الصفرة الذهبية من جراء انفعاله!. . حقا! لقد مل الأمير الحياة، وسئم استبداد معلمه! صحيح أن بالقصر أطفالا كثيرين من أبناء الأشراف يستطيع الأمير مشاركتهم في ألعابهم، ولكن هؤلاء لا يعاملونه معاملة الند للند بل يهابونه ولا يخاطبونه إلا في كلفة وحياء!.

رب كيف يتخلص الأمير من نير الكاهن حوتيب؟ انه طالما شكاه إلى فرعون والملكة في الأوقات القصيرة التي يسمح له فيها بمقابلتهما ولكن من غير جدوى. . فقد كانا يردانه دائما خائبا كأنه ارتكب جرما. . لم لا يرفع الأمر إلى الآلهة الفخام وهم من أقاربه كما يزعمون؟ ولكن هؤلاء هل يعينونه؟ انه يشك في ذلك، انظر إلى صورهم المخيفة!. ذاك (سوبك) اله الماء، له صورة التمساح الذي يخطف الأطفال على ضفاف النهر، وذلك (أنوبيس) في شكل الذئب وقد أكل في العام الماضي غزال الأمير المحبوب. . وتلك (هاتور) على هيئة بقرة، فهي لا شك بلهاء لا تستطيع نصرته. . إذن من يخف منهم لنجدته؟ ايزيس؟ أجل! هي الأم البرة. كم مرة سكب الأمير دموع الرحمة والحنان إزاء تمثالها وهي جالسة تضم إلى صدرها ولدها المحبوب هوروس! وفي تلك الليلة نفسها دعاها الأمير لنصرته فاستجيب دعاؤه! ربما تكون ايزيس بعيدة النظر في استجابتها دعاء الأمير. أليس مري آمون ولي عهد الملكة؟ لو آل إليه الملك بعد موت أبيه إذن سوف يتذكرها فيفضلها على سائر الآلهة ويبني لها شاهق القصور ويقيم لها أعظم التماثيل، ويغدق عليها الهدايا والقرابين. واليك كيف استجابت دعاء الأمير:

لاحظ الأمير أن من عادة الكاهن ملازمة حجرته في كل احتفال ديني يقام بالقصر، فكثيرا ما بحث عنه الأمير بنظره في مكان الاحتفال فلم يجده فيه، بينما يحضر هذه الاحتفالات الملك والملكة والكهنة الآخرون، وجميع رجال القصر. . فكان مري آمون يتعجب من أمر معلمه ولا يفهم سبب احتجاب الرجل وتخلفه عن حضور مثل هذه الاحتفالات العظيمة. . وفي يوم عيد دفع الأمير حب الاستطلاع إلى أن يختبئ في حجرة الكاهن حتى يدرك السر، ففعل ذلك قبل وصول الكاهن إلى حجرته بقليل، وما كاد حوتيب يدخل ويغلق خلفه الباب حتى ضغط على زر في الحائط فانفتح فيه ثقب دخله الكاهن على الفور. . وقد أراد الأمير أن يتبع حوتيب في الثقب ولكنه أحس الخوف يتملكه، فعاد مهرولا إلى حجرته الخاصة. . وفي المرة الثانية تغلبت الرغبة على الخوف فاستطاع الأمير اتباع الكاهن داخل الثقب فاذا به في دهليز مظلم انتهى منه إلى مكان ضيق يقع خلف الحائط المستند إليه تمثال آمون الكبير القائم في قاعة الاحتفالات، وإذا بالكاهن يقف خلف التمثال المذكور ويتناول من الأرض بوقاً ثم يتكلم منه بصوت متغير مقلداً صوت التمثال، فيردد الألفاظ التي طالما سمعها الأمير في تلك الاحتفالات بنصها، وكان يظن هو وسائر الحاضرين بطبيعة الحال، إنها صادرة عن الإله. . حقاً! إن دهشة الأمير كانت عظيمة بمقدار خوفه، لذلك هرول مسرعا إلى الخارج. . ولكن قلبه كان يفيض سرورا لاكتشافه العظيم الذي سوف يشتريه منه الكاهن بثمن غال. . وفي اليوم التالي انتهز الأمير فرصة غياب الكاهن عن القصر فقصد حجرته، وهناك ضغط الزر ثم دخل في الثقب وعاد منه بالبوق. . بعد ذلك، عندما أزفت ساعة الدرس واقبل المعلم يتهادى في

رزانته المعتادة، دنا الأمير منه قائلا:
سيدي أظن انك فقدت هذا البوق في الثقب! عندئذ أحمر وجه الكاهن حتى عاد (كالطماطم) ثم مد يده ليأخذ البوق صائحا في غضب: أعطني هذا البوق!
ولكن الأمير وضع يده خلف ظهره وقال في ابتسامة الظافر: سوف افعل يا سيدي إذا أذنت لي في اللعب حيث أشاء ومع من اختار من الرفاق. . فتردد الكاهن ملياً ثم قال في يأس، وهو يطأطيء رأسه: لك يا بني ما تريد!.

قصة مصرية

الطامع. . .

لقد واتاه الحظ، ومشى إليه السعد، وحفلت حيلته الجديدة بما تحفل به حياة رجل عظيم!. لم يعد الشيخ (ياقوت) رجلاً عادياً في القرية، بل أضحى رجلاً مرموقاً. فأنت ترى الجلوس في آخر الطريق ينهضون على أقدامهم عندما يبدو في أوله في جبة من الجوخ. وقفطان من السكروتة، وعمامة متقنة يبدو شاشها دائماً ناصعاً مزهراً. وبين أنامله مسبحة من الكهرمان متألقة الحبات، وشفتاه لا تفتران عن تسبيح الخلاق القدير فتنيران وجهاً جميلاً مشرباً بالحمرة.
وإن منظرته لتحفل بالأضياف في الشتاء وتذكو في موقدها جمرات الأثل ويشرق من سقفها على الجالسين نور جميل يرسله مصباح في (فانوس) من الزجاج الملون. وفيها يشيع صوته الحلو الحنون يردد آي القرآن أو فقرات الحديث، وأصوات الأضياف ترتفع بتلك الجملة الأبدية: صدق الله العظيم. . . صلى الله عليه وسلم!
فأذا ما حل الصيف أنتقل المجلس إلى (المصطبة) المستندة إلى واجهة الدار حيث يحلو السمر تحت ضوء القمر، وحيث جرت العادة أن تعقد حفلات الذكر والختان، وحيث كان أصحاب الربابة والمزمار. ومنشدو أبي زيد، والقصاصون يجلسون فيطربون حلقة المستمعين من شيب وشبان، وسيدات جالسات، خلف الأبواب ووراء النوافذ.
لم تكن للشيخ ياقوت هذه المكانة في أول الأمر. كان في المبدأ مأذوناً للقرية. فاذا ما كان يوم الجمعة واجتمع الناس في المسجد وعظهم بلسان فصيح وكلمات زاجرات، وأراهم الطريق إلى الجنة ورغبهم فيها، والطريق إلى النار وحذرهم منها. . . فإذا ما انتهت الصلاة تقدم إليه الجمع يستفتيه في أمور الدين والدنيا ويستلهمه النصح والإرشاد.
ولقد أهم الشيخ ياقوت ضيق رزقه وقلة ما تجديه عليه وظيفته فتفتق ذهنه عن فكرة صائبة. وسرعان ما ظهر في القرية دكان مزين الجدران ترتفع فوق بابه لوحة كتب عليها
(راجي عفو المنان، الشيخ ياقوت عثمان)!. .
ونفقت تجارته، واقبل الناس عليه. فهم يجدون عنده ما لا يجدون في حانوت القرية الآخر، وسرعان ما أخذ الناس يتحدثون عن جودة بضائعه وطرافتها. ويطرون ما عنده من تمباك ودخان. وسور مكتوبة، وأوراد، وتعاويذ تخاط في الاحجبة فتقي الناس شر العين وكيد الحسود!. ولم ينس الشيخ أن يستحضر ألوانا مختلفة من المسهلات، والرشام فلم يعد يتكبد الممعود أو موجوع الرأس أو الأمعاء عناء الذهاب إلى المدينة لالتماس هذه الأشياء.
كان صاحب الحانوت الآخر مستبداً بأهل القرية لا يؤجل لهم ثمن ما يشترون على رداءة بضائعه وشحه، فلم يقو على منافسة الشيخ ياقوت فأدركه الإفلاس. والحق أن الشيخ كان دمث الأخلاق من أرباب السياسة والكياسة. وكان يسخو في البيع ويمهل في الدفع، وهو فضلا عن ذلك من حفظة القرآن فالشراء منه بركة، والتمسح به وهو من أصحاب المراكز فيه نفع لا مضرة. وهو يعطي المشتري المواظب من حين إلى حين شيئا من بخور السيدة الذي أحضره من القاهرة.
وعند الدكان مقعدان طويلان تجدهما أبدا مشغولين بالجلوس من المشترين الذين يرغبون البقاء لاستماع الشيخ وهو يقرأ الجريدة ويقص عليهم الأخبار وما يحدث في بلاد الكفار.
وقد كان اليهودي ينزل القرية بين الحين والحين يحمل بضائعه على كتفه ويصيح

(شيت يا بنات. مناديل. روايح. حراير أمشاط. مرايات يا بنات. . .). لكن هذا الصوت قد اختفى ونفض اليهودي حذاءه من تراب القرية، فقد كرههم الشيخ ياقوت في معاملته، واستحضر لزوجته تلك البضائع. فكانت تبيعها في المنزل بالسعر المعتدل المقسط، وانتشر خبرها في القرية فأصابت من الرزق أكثر مما يصيب الشيخ من حانوته، واخذ الشيخ يكثر من تسبيح الله وترديد اسمه والثناء عليه، وابتدأت الحمرة تنتشر في وجهه. .

ومضى الحول فاذا به يخرج على الناس بمشروع جديد، فقد كبر عليه أن تظل القرية بلا كتاب، فشمر عن ساعد الجد، واشترى الخشب وكان في صباه نجارا فلم يلبث أن سواه مقاعد يجلس عليها صبية (الكتاب) الذي افتتحه.

وكان (الكتاب) بجوار الدكان في الطابق الأول من الدار فأخذ يوزع نشاطه بين العملين ويراوح بينهما في المجهود. وكانت بضائع الحانوت تنفق سريعا، فان أولاد النجوع

المجاورة صاروا يعودون في المساء بعد الدرس بما يحتاج إليهم ذويهم من بضائع الشيخ. فاذا ما كان الصباح وابتدأ الدرس وأخذت عصا الشيخ ترقص في يده ذهبوا إلى الدكان يحاولون الإكثار من ابتياع الحلوى وما اليها ابتغاء مرضاته حتى تقصر عنهم عصاه.

وأثمرت جهود الشيخ الجديدة فصارت القرية تفاخر بعدد من الصبية حفظوا القرآن. وذاعت شهرة الكتاب فوفد إليه أبناء الكفور القريبة يتتلمذون على الشيخ ومضت الأيام فاذا بكتاب الشيخ ياقوت من كتاتيب الإعانة التي تتقاضى تسعة جنيهات في السنة!. .

فتح الله عليه أبواب الرزق فصار يتاجر، ويغامر، ويكسب، ويستأجر الأرض ويزرعها. وجعل يتغنى صباح مساء (وأما بنعمة ربك فحدث) غير أن هماً دفينا كان يقلق الشيخ ويقض مضجعه، فقد مضت خمس سنوات وزوجه لم تعقب له ولدا غير (حسان). وهو رجل يطمع في كثرة النسل ويريد أن يرى أنجاله يرتعون في هذا الرزق الواسع والخير العميم.

أما أن يمني بقلة الذرية فقد كان شيئا ثقيلا على نفسه. كان الناس يتهامسون رثاء له وإشفاقا. والأعداء يشمتون ويودون لو يخطف الموت حسانا فلا يبقى للرجل من زينة الحياة غير المال، والمال بلا بنين كالشجر بلا ثمر.

كلما مر بالشيخ ياقوت هذا الخاطر ارتاع وابتأس. وماذا يدعو إلى الارتياع أكثر من شماتة الأعداء نار الحساد التي لا تجد لها وقودا غير كارثة تلم به وبلاء يقع فيه!. .

كان يفكر أن يتزوج بأخرى، لكنه كان رجلا شهما، تأبى رجولته أن يتزوج على أم حسان، فيؤلم نفسها، ويجزي إخلاصها وصبرها شر الجزاء. كان يحبها حبا خالصا، ويجد فيها الزوجة الصالحة المطواع، والمرأة الجميلة الصبوحة.

كانت أم السعد تشعر بهذا الخطر الذي يهددها وبأيدي السوء التي تدأب على إفساد حياتها الزوجية ووضع النار في بيت هنائها، فكانت تصبر على وشايات أم الشيخ وأخواته اللواتي امتلكتهن رغبة محرقة في أن يتزوج الشيخ من بنت العمدة، فقد وصل رجلهم إلى الدرجة التي تؤهله إلى نيل هذا الشرف. . .

كانت أم السعد تداريهن، وتصبر على ما يصيبها منهن طمعا في أن تظل وحدها حليلة زوجها. أما هن فقد غلون في اضطهادها والإساءة اليها بعد أن عرفن موطن الضعف فيها،

ووقفن على تلك الغيرة المستترة خلف قلبها. وأضحت لهن أمَة ضارعة ذليلة تفزع إذ يلوح لها شبح (الضرة) وتضع إصبعيها في أذنيها حين تسمع كلمة الطلاق، فقد كانت تعرف إنها سائرة إلى أحد الطريقين.

صارت تنذر النذور وتستصرخ الأولياء، وتهب إلى قبور الصالحين تستمد منها البركة. يأتي عليها الليل وينام القوم فتصعد إلى السطح وتكشف رأسها وتسخر كل قوى روحها في التوسل إلى الله أن يرزقها ولداً آخر. وقد تسترسل في بكائها وهي تتذكر آلام النهار والتعيير، والكيد، فلا تمسح دمعها حتى تظهر نجمة الصبح فتعود لتنام عند قدمي زوجها.

فإذا كان شهر رمضان صامته من غير سحور وبذلت الإحسان من غير حساب.

وبلغ حسان العاشرة من عمره والأم لم تظفر بالأمنية. . ونفد صبر الزوج فخطب ابنة العمدة لنفسه.

وابتدأ البيت يمتلأ بالضوضاء ويستعد لاستقبال الأفراح والليالي الملاح. فكانت أم السعد تنسل إلى غرفتها كما ينسل إلى وكره حيوان مضطهد مجروح. . . كانت تعيش من فكرها في مأتم، وكلما اقترب يوم العرس انقطع بين يديها خيط من خيوط الهناء، حتى صارت تفتقد مسرات حياتها فلا تجد بين يديها إلا خرقة مهلهلة.

وماذا بقي لها بعد أن صارت المرأة المنبوذة؟! كيف تطيق أن ترى المرأة التي تتوج بدلها بعد أن كان التاج لها، تتخطر مزهوة مختالة يزري جمالها الفتي الجديد بجمالها الذي فقد الجدة والفتنة. . .!

لقد شادت هي كل شيء وتعبت في كل شيء، فاذا بامرأة غريبة تتسلم البضاعة وتأمر وتنهي! ليتها لم تفعل شيئا. ليتها لم تدبر ولم تقتصد! كانت تشقى في حاضرها لتسعد بمستقبلها فاذا بالمستقبل يضيع وبالأمل يتحطم. . .!

وحسان العزيز! إن أمره ليدمي فؤادها. لقد اشترى له أبوه أثوابا جديدة بمناسبة قدوم العروس، وأمرها أن تخيطها له! إن ثياب الحداد أولى به فقد دالت دولته. ولن يدلل فيما بعد! سيصبح ابن المرأة القديمة. . . . وسيتحول قلب أبيه عنه إلى أولئك الأطفال الصغار الذين طال إليهم اشتياقه. كيف تستطيع احتمال هذا؟ إنها لترسل بصرها في المستقبل فترى ابنة العمدة جالسة في رحبة الدار تخرج ثديها فخورة مباهية لترضع طفلها. كأنها تتعمد

إغاضتها والحط من شأنها! وستنكس هي بصرها خجلا وسيندي جبينها خزيا! إن ثديها العاطل المحروم ليحن للإرضاع! بل انه ليهتز شوقا إلى طفل. وهي تخرجه في وحدتها وتتأمله بحسرة حرّى وعين أسيفة. وتعصره لعله يبض له بقطرة تكون نذيرا بالحمل!. . فلا تظفر بغير الخيبة، ولا يلوح على وجهها غير ظل ابتسامة كسيرة مهزومة. . .

مضى شهر على الزواج الجديد. . . وكانت أم السعد قد سئلت أن تخلي غرفتها للعروس، ووعدها زوجها أن يرد الغرفة اليها بعد أيام، لكنه حنث في وعده، وتركها تقيم مع أوعية اللبن والجبن في هذه الغرفة القائمة فوق السطح. . . وهي الآن جالسة تخطط في التراب وتحدق فيما تخط بعين ذاهلة. وقد مسح الحزن عن وجهها ضياءه وإشراقه. ولم يبق من محياها الجميل غير معارف امرأة محطمة، ناقمة، متجددة السخط والغضب.

وكيف لا يتجدد سخطها وغضبها!. . ها هي ضوضاء الدار تصعد إلى أذنيها فتنبئها أن القوم لاهون بينا هي وحدها تتعذب. والدخان يرتفع من أسفل فيضايقها ويؤذي رئتيها ويحمل إلى خاطرها صورة (الوليمة)، ووجه زوجها وهو يضحك في وجه العروس ويداعبها.

وإذا هي تعض أناملها، حانت منها التفاته فرأت أثواب حسان البيضاء التي غسلتها في الصباح تخفق تحت أشعة الشمس، فقامت اليها متثاقلة وجمعتها. وأخذت تخيط ما بها من ثقوب وفتوق.

وظلت تنتظر عودته من الكتاب لكنه لم يعد. ثم عضها الجوع فقامت إلى الطعام لكنها لم تصب منه غير قليل ثم عافته.

وصعد اليها حسان وفي حجره ألوان من الحلوى، وحدثها انه تناول الطعام مع العروس. . . وثارت نفس الأم، فلطمته ودفعته بعيدا، فتبعثرت حلواه وطفق يبكي. لكن حنانها عاودها فذهبت اليه، ومسحت دمعه وأجلسته في حجرها، وسألته ان يسمعها ما حفظ في يومه. فأنشأ الصبي يرتل، وأسارير الأم تنبسط كأن شعاعا من العزاء يتسلل إلى قلبها، ويبدد شيئا من ظلمته الحالكة.

وأخذه النوم فألقى رأسه الصغير إلى كتفها، وغلبها الحنان فتناولت كفه وأدنتها من شفتيها. لكنها عافت اليد الصغيرة عندما رأت عليها لون (الحناء) الذي أباحت جدة الصبي لنفسها

أن تخضب به يدي حفيدها. فجفل صدرها بالغيظ، وملأ الحقد قلبها وملأ الدمع عينيها. . .

وتبكي الأم بحرقة. ويستيقظ الصبي مرتاعا، ويملأ الدمع عينيه البريئتين وهو يسأل أمه

أن تكف، فتحاول لكن أساها يغلبها، فتعتذر إليه بأن هناك ناراً تسري في احشائها، وتعتلج في صدرها. وتحدثه وهي تحدق في وجهه بجزع وقد وقفت على شفتيها ابتسامة مشلولة: إنها لن تعيش طويلا. لأن تلك النار لم تبق شيئاً. .
من هذا اليوم سقطت أم حسان مريضة وتضافرت عليها أوجاع الجسد والروح. فأخذت تتقهقر من ميدان الحياة على عجل.
أما الشيخ ياقوت فيأبى أن يدعو الطبيب ويزعم انه خبير بدهاء النساء، ويتهم زوجته بأنها تتمارض، ويهددها بأن عصاه كفيلة بمداواة الغيرة التي تأكل قلبها، وينذرها بأنه لن يسمح لها أن تجعل بيته جحيما، وان كلمة (الطلاق) مختبئة خلف شفتيه يلفظها إن سولت لها نفسها الأمارة بالسوء إعادة هذه اللعبة المفضوحة للتنصل من الخدمة!. . .
وتنسحق روح أم حسان تحت عبء هذه الكلمات كما تنسحق قطعة الفخار تحت ضربات المطرقة. وكأنها تؤثر ألا تضايق قرينها فتغادر الحياة بعد أيام قلائل!. . .
كانت هناك نفس واحدة حزينة لفراقها هي نفس حسان، لكن حزنه إنجاب سريعاً كغمام الربيع. . .
لم يطل عهد حسان بالحلوى والتدليل، وتقدمت به الأيام فإذا به يلطم ويزجر! وتنكر له الجميع. وقوي إحساسه باليتم. واكتأبت روحه الظمأى للحنان فذبل كما يذبل لحظ النرجس من كثرة العطش. وفقد النصير. ولم يعد يملك إلا أن يطوف بمقبرة القرية يرمق منزل أمه فيها ويود لو تناديه اليها ليقيم معها.
أما الشيخ ياقوت فقد اطمأن إلى الثروة التي اجتمعت له فأغلق الدكان وأهمل الكتاب، وركن إلى حياة مترفة، لاهية، موزعة بين أحضان الزوجة ودوار العمدة. . .
ومضت الأعوام والزوجة لا تنجب ولداً ولا بنتاً، وثروة الشيخ تتبدد في الإنفاق على القابلات، والزلفى إلى أصحاب الكرامات. وكبر على ابنة العمدة أن تبقى عاقرا، وشعرت أن (أم السعد) وهي في القبر قد غلبتها وهي في الحياة. وخالت أن روح المرأة الشامتة تطوف بها، وتسخر منها!. . .
وذهبت تنشد غاية تفني فيها غيظها فلم تجد أمامها غير حسان، فأنشأت تضطهده وتسخره، وتنكل به.
ويستنصر حسان الأب فيخذله أبوه، وينصر المرأة الجميلة، وتضيق الدنيا في عيني الفتى ويطلب النجاة لنفسه فيهجر القرية.
وتمضي الأعوام ولكن الابن المفقود لا يعود. . . وتستيقظ روح الشيخ ياقوت فلا يجد بين يديه أطفالا يمرحون ويصخبون، ويبلغ به الأسى فيوشك أن ينادي (حسانا) ليعينه على الحياة لكن الكلمة تختنق فوق شفتيه. . .
وضاعت الثروة كما ضاع الشباب وأضحى رجلا مقلا، فلم تعد هناك حلقات ذكر ولا حفلات سمر، وإنما كانت أجنحة الخيبة ترفرف صامتة حول البيت.
فقد الرجل مركزه، فلم يعد الوجه محمرا، ولا الشاش مزهرا، ولا الجبة زاهية. . . ولم يعد الناس يقفون عندما يبدو في أول الطريق، بل صاروا يغمغمون بما يشبه التهكم: (مسكين. سي الشيخ)!. . .
وكان هذا ينال من نفس الشيخ، ويدمي فؤاده، فلا يكاد يقطع الطريق حتى يتهالك على عتبة الدار.
ويطول به الجلوس وهو يتذكر الماضي ويخطط في التراب ويرسل بصره نحو (مقبرة القرية). . .

يوسف جوهر

بلياس ومليزاند

للفيلسوف البلجيكي موريس ماترلنك

ترجمة الدكتور حسن صادق

مليزاند - إن شكلي بشع في هذا الموقف

بلياس - أوه مليزاند!ـ . . ما أجملك!. . . ما أروع منظرك في مكانك هذا!. . . أنحن. . . أنحن. . . دعيني أقترب منك أكثر من ذلك.

مليزاند - لا أستطيع أن اقترب منك اكثر مما فعلت. . . هذا آخر ما أستطيع من الانحناء.

بلياس - ليس في مقدوري أن أرفع نفسي إليك اكثر مما ترين. . . اعطني على الأقل

. .يدك في هذا المساء. . . قبل ذهابي. . . إني راحل غداً
مليزاند - لا. لا. لا
بلياس - نعم. نعم. أني راحل غداً. . . اعطني يدك. . . يدك الصغيرة أضعها على شفتي
مليزاند - لا أجيب سؤالك إذا أصررت على الرحيل
. . .بلياس - اعطني. . . أعطني
مليزاند - أعدلت عن السفر؟
. . .بلياس - سأنتظر. . . سأنتظر
مليزاند - أرى وردة في جوف الظلام
بلياس - أين هي؟. . . أني لا أرى إلا أغصان شجرة الصفصاف التي تفوق في علوها البرج
بلياس - ليست بوردة. . . أني اذهب لأرى حقيقتها بعد هنيهة، ولكن اعطني يدك. . . . .يدك أولاً
مليزاند - ها هي ذي. ألا تراها؟. . . لا أستطيع أن انحني اكثر من ذلك
بلياس - شفتاي تعجزان عن بلوغ يدك
مليزاند - لا أستطيع أن أنحني اكثر من ذلك. . . كدت اسقط. . . أوه! أوه! شعري، امتهدل على حائط البرج
(يسقط شعرها دفعة واحدة وهي منحنية ويقفز بلياس)
بلياس - أوه! ما هذا؟. . شعرك يسعى إلى كل شعرك يا مليزاند سقط من البرج!. . . أني اقبض عليه بيدي. . . وأطبق فمي. . . وألف به ذراعي وعنقي. . . لن افتح يدي الليلة. . .
مليزاند - خل سبيله. . . أطلق سراحه. . . كدت تسبب لي السقوط!
بلياس - كلا. كلا. لم أر قط شعرا مثل شعرك يا مليزاند انظري! انظري! انه يأتيني من عل ويغمرني إلى القلب. . . لقد بلغ ركبتي. . . انه رائع عذب. . . عذب كأنه هبط علي من السماء لم أعد أرى السماء خلاله. أترين لم يعد في مقدور يدي القبض عليه. . امتدت شعرات منه حتى بلغت أغصان الصفصاف. . . انه حي في يدي كالأطيار. . . انه يحبني. . . يحبني أحسن منك ألف مرة!
الكتب
عودة الروح
- 2 -
ما أظن إننا نغالي إذا اعتبرنا قصة (عودة الروح) للأستاذ توفيق الحكيم مؤلف (أهل الكهف) القصة المصرية الأولى في أدبنا المصري الصميم، بل هي في الحقيقة لا نعددها ولا نجد مفرا من الاعتراف بها، فعودة الروح مصرية بأبطالها، بموضوعها، بما فيها من عادات وطباع وخلق مصرية صميمة، بذلك الطابع المصري الصميم الذي يطالعك في كل صفحة منها بل في كل سطر وكل كلمة تضمنتها. وانك لتحس إذ تقرأ هذه القصة وتمضي في القراءة وتمضي فيها انك تعيش في جو تألفه، وبين قوم سرعان ما تشعر بالرابطة القوية التي تربطك بهم، رابطة المصرية المتينة التي تحجبهم إليك وتجعلك تحسهم أحياء يتحدثون ويتحركون، لا أبطال قصة من صنع الخيال من ورائهم المؤلف يفتعل لهم المواقف، ويفتعل لهم الحديث والحركة، وانك لتهم أحيانا أن تشترك معهم في الحوار وتشاطرهم حياتهم ودنياهم الزاخرة بشتى الانفعالات المليئة بألوان من الشقاء واليأس حينا، والسعادة والأمل حينا آخر.
وهذه المصرية الصحيحة، وهذه الحياة القوية الفياضة، هما سمة هذه القصة وطابعها البارز، وهما قد جعلاها في الطليعة بين كل ما كتب من القصص المصري منذ عرف أدبنا القصة إلى اليوم.
يروعك من هذه القصة لأول وهلة دقة تصوير شخصياتها على اختلاف كبير بينهم في النشأة والعلم والاستعداد الشخصي، وانك لواجد في كل منهم شخصية تخالف الأخرى وتفترق عنها في الكثير والقليل، تجمعهم أحيانا وحدة الحادثة، ولكن ما أشد تباينهم تجاهها في الشعور والحس والإدراك الصحيح، وما أشد هذا التباين في الاندماج في الحياة والانفعال بمختلف ما تأتي به من خير أو شر، من رجاء أو خيبة، وتكاد تحس فيهم جميعا طيبة القلب، وسذاجة الفطرة، والتبسط في الحياة، وتقبل ما تأتي به

صروفها من ألم أو أمل، في رضى واستسلام، أو في غضب هو بالرضى أشبه، ولكن كل وحده وكل له بعد ذلك خلقه البارز وطبعه المغاير وشخصيته الفذة التي تترسمها ولا تكاد تخفي على ناظريك
طوال القصة في معالمها الكبرى واسطرها الواضحة، بل في تفاصيلها الدقيقة وما بين هذه الأسطر، وما بين تضاعيف القصة من حوادث وصروف.
كلهم يحب وكلهم يعمر بالأمل قلبه حتى (زنوبة) هذه العانس التي فاتها سن الزواج فما تجد حيلة إلا الاستعانة بالسحر والسحرة في خفاء وحذر، خشية أن يعلم أهلها عليها أمراً لا يناسب الوقار والاحتشام، وما يجب أن تتصف به من الرزانة والأدب، كلهم يحب حتى (مبروك) الخادم أو من هو كالخادم، وما أشبهه بزنوبة في بساطة العقل أو قل في تفاهته، وانه ليسرع في شراء (نظارة) لتتم له الصورة التي تخيلتها له الفتاة التي أحبها الجميع، وساهم هو في حبها ولو بقسط ضئيل. وهذا (محسن) بطلنا الأول، الطالب في مستهل دراسته الثانوية، الناشئ في مستهل شبابه، وفي أول خطى العمر الغض، ما أجدره بالحب وأخلق بقلبه الفتي أن يفتح مصراعيه لأول طارق وأن يصيبه السهم الأول فيدميه ويجرحه جرح الأبد. ذلك هو الجرح الأول الذي لا يفتأ على الأيام يؤلم ويدمي. (محسن) يحب ولكن على استحياء وخجل. وفي صمت وكتمان. فاذا لمح بادرة أمل راح والدنيا لا تتسع لنشوته. وإذا داخله اليأس أفعم نفسه وروحه وضاقت الدنيا في عينيه، لا يعرف مداخل الرجل إلى قلب المرأة، ولا يدري كيف يغزو الغزاة هذا الحصن ويحسنون الطرق على أبوابه حتى تتفتح لهم عن جنات ورياض من الأمل الباسم والسعادة الشاملة، وما أروع هذا الاستسلام يطغى على قلبه، وهذا الألم يحز في قرارة نفسه، وتجده في ضريح السيدة يمسك بقضبان الضريح النحاسية ولا تنفرج شفتاه إلا عن هذه الصرخة المكتومة والضراعة اليائسة وملؤها الرجاء والإيمان المطلق (يا سيدة زينب!) ثم يطفر الدمع من عينه ويبكي ما شاء الله له أن يبكي، وما شاء له الحب اليائس والنفس الحزينة، والأمل المقطوع.
وما ادري كيف كان يمكن أن يشعرك المؤلف بكل ما يختلج في صدر محسن من ألم محض وأسى قتال بأكثر من أن ينطقه بهذا ولا شيء غيره. فنتضمن الجملة القصيرة أو هذه المفاجأة الرائعة إذا أردت، كل ما تسعه المخيلة القوية الوثابة من اليأس والرجاء، والأمل والفشل، ثم الإيمان الذي يعمر القلب ويتغلغل إلى أعمق نواحيه وأغواره.
ولو شئت أن اضرب لك الأمثال على قوة تصوير المؤلف لمواقف أبطال قصته، وعلى دقته في الصور التي يعرضها عليك لشتى ضروب انفعالات النفس الإنسانية، وعلى مهارته الحاذقة في استخلاص الصميم الرائع من حقائق الحياة الخالدة، وتعمقه في تحليل كل ذلك تحليلا صادقاً كل الصدق، دقيقاً بارعاً إلى ابعد حدود الدقة والبراعة، لو شئت أن اضرب لك مثلا على هذا لما تخيرت إلا هذا الموقف. وانك إذ تسمع (محسن) يقول هاتين الكلمتين في ذلك الوقت، تبرز أمام عينيك فجأة صورة ذلك المنكوب الحزين، ذلك اليائس كل اليأس، المكروب كل الكرب، ذلك الذي تألبت عليه النوب واصطلحت عليه الأرزاء، فيرفع رأسه في هدوء وتلمح على وجهه ما يروعك من آيات القنوط وتحس ما يجيش به صدره من الانفعالات ومختلف عوامل النفس الثائرة كأنها الأتون يصهر الحديد أو البركان يقذف بالحمم، ثم لا تسمع منه إلا كلمة (يا رب. . .) وعليها مسحة الإيمان الذي لا حد له ولا وصف يوصف به، وانك لمأخوذ بسحر هذه الكلمة، مأخوذ بروعتها في بساطتها وقصرها، وكأنها تعويذة فيها من الروعة والجلال ما يأخذ على الفكر مسالك الفكر، ولو استمعت إلى شكوى الناس طرا من عهد آدم إلى اليوم لما كان لذلك في نفسك بعض هذا التأثير أو بعض هذا السحر المبين.
وتلك ناحية من نواحي هذا الكاتب القدير توفيق الحكيم لا تخطئها في (عودة الروح).
وأحب لك أن تقرأ الفصل الثالث عشر من القصة عند وداع محسن لسنية فهو من أحسن فصول القصة، وهذا الموقف بين الاثنين من أروع المواقف واصدقها وأدقها0 تصويراً، على أني لا أحب أن تفهم أني أفضل مشهدا في القصة على مشهد ولا فصلا فيها على فصل، فهي كلها قوية رائعة، وفيها كلها تلمس قوة الحبكة ودقة التصوير ومهارة الكاتب وخياله الخصب المؤاتي، وذلك التلوين العجيب لشخصيات أفراد القصة في مواقفهم العديدة المتباينة، ودونك الفصل الرابع والثلاثين عندما يتجه نظر سنية

لقهوة الحاج شحاتة وتتأمل طويلا في مصطفى وما يختلج في قلبها من الانفعالات المختلفة المتضاربة، فليس أبلغ من قوة التحليل في هذا الفصل لقلب العذراء الخلي عندما يداخله الحب وينفعل بالجو الذي يحيطه في أول خطاه في هذه التجربة القاسية، فهو راض حينا، ساخط حينا آخر تتجاذبه عوامل الأمل واليأس، وتلمح كل هذا في الحركة المضطربة، وفي المفاجأة التي لا تترجم عنها الألفاظ، ولكن دقات القلب ونظرات العين ووجوم الوجه، وآية هذا الفصل أسطره الأخيرة التي تقدم لك لوحة من الفن بارعة كل البراعة صادقة كل الصدق، دقيقة أبلغ الدقة.

وبرغمي أن أترك حديث هذه الناحية من القصة لأتحدث إليك عن ناحية أخرى لا تقل عنها بروزا وقوة: وفيها الفكرة الكبرى التي أرادها المؤلف من كتابة قصته وعناها بتسمية القصة (عودة الروح) ودعك من ناحية تمجيده الفلاح، أو بمعنى آخر للمصري الصميم، وإنها لصفحة ناصعة خالدة من صفحات هذه القصة وانك لتحس في تضاعيفها حرارة المصري الصميم يمجد مصر وطنه ويمجد المصري ابن وطنه، ودعك من تلك الصور الصادقة واللوحات الفنية الرائعة عن الريف وأهل الريف وعن حياتهم وعاداتهم والاتحاد القوي المتين بين أفرادهم، وروح الجماعة التي تبرز في شخصياتهم واضحة منيرة، دعك من هذا ودونك فاسمع ما يقوله أوربي عن مصر وعن شعبها في الفصل الخامس والعشرين واقرأ هذه الفقرات وارجع إلى الفصل المشار إليه إذا أردت أن تقرأها كاملة.

(إن هذا الشعب الذي نحسبه جاهلا ليعلم أشياء كثيرة، ولكنه يعلمها بقلبه لا بعقله. . . جيء بفلاح من هؤلاء واخرج قلبه تجد فيه رواسب عشرة آلاف سنة من تجاريب ومعرفة رسب بعضها فوق بعض وهو لا يدري. . . .)

(قوة أوربا الوحيدة هي في العقل تلك الآلة المحدودة التي يجب أن نملأها نحن بإرادتنا، أما قوة مصر ففي القلب الذي لا قاع له)

(إن هذا الشعب المصري الحالي ما زال محتفظا بتلك الروح. . . روح المعبد. . . إن القوة كامنة في هذا الشعب ولا ينقصه إلا شيء واحد. . . المعبود. . . نعم ينقصه ذلك الرجل منه، الذي تتمثل فيه كل عواطفه وأمانيه ويكون له رمز الغاية. . . . عند ذاك لا تعجب لهذا الشعب المتماسك المتجانس المستعذب والمستعد للتضحية إذا أتى بمعجزة أخرى غير الأهرام)

فاذا انتقلنا إلى الفصل الثالث والأربعين قرأنا (في شهر مارس. . مبدأ الربيع. . فصل الخلق والبحث والحياة. . اخضرت الأشجار بورق جديد وحبلت وحملت أغصانها الأثمار. .

(كذلك مصر أيضاً. . حبلت، وحملت في بطنها مولوداً هائلاً. وها هي مصر التي نامت قرونا تنهض على أقدامها في يوم واحد. لأنها كانت تنتظر ابنها المعبود ورمز آلامها وآمالها المدفونة يبعث من جديد. . وبعث هذا المعبود من صلب الفلاح)

وتبرز أمامك فجأة صورة رائعة لثورة مارس سنة 1919، وامض في القراءة.

(ما غابت شمس ذلك النهار حتى أمست مصر كتلة من نار. وإذا أربعة عشر مليونا من الأنفس لا تفكر إلا في شيء واحد. الرجل الذي يعبر عن إحساسها. . والذي نهض يطالب بحقها في الحرية والحياة، قد أخذ وسجن ونفي في جزيرة وسط البحار)

وتبرز أمامك صورة رائعة للمولود الهائل. . . للمعبود رمز الآلام والآمال. . للمعبود الذي بعث من صلب الفلاح. . لسعد

(كذلك اوزوريس الذي نزل يصلح أرض مصر ويعطيها الحياة والنور أخذ وسجن في صندوق ونفي مقطعا إربا في أعماق البحار. . .)

هذه مصر، وهذه ثورتها أو معجزتها الثانية بعد الأهرام، وهذا سعد رمز العبود والقدس، بعض ما يبرزه لك توفيق الحكيم إبرازا قويا واضحا فتكاد يستخفك مجد تليد وتاريخ مجيد فتصيح وتهتف بحياة مصر، الوطن العزيز المفدى، وتكاد من فرط ما يشملك من الفخار والعزة أن تدمي هذه الصفحات المقدسة تقبيلا وإجلالا، وهاك فاسمع ما يقول المؤلف عن لسان ذلك الأوربي، وأن أربعة عشر مليونا ليرددون هذه الجملة وأنها لتصبح وتمسي نشيدهم المختار ومثلهم الأعلى.

(بلد أتت في فجر الإنسانية بمعجزة الأهرام لن تعجز عن الإتيان بمعجزة أخرى. . . أو

معجزات!! بلد يزعمون أنها ميتة منذ قرون، ولا يرون قلبها العظيم بارزا نحو السماء (. . . . .من بين رمال الجيزة! لقد صنعت مصر قلبها بيدها ليعيش الأبد أجل. . . لقد عاشت مصر الأبد، وتخطت القرون والعالم يظنها هامدة ميتة، والنار كامنة تحت الرماد، وما هي إلا نفخة أو شبهها حتى ظهرت النار متأججة، تصهر الحديد وتكوي الجباه، وحتى قام ذلك الفلاح المستكين وأعلن غضبته للعالم أجمع والتفت العالم وأنصتت الدنيا.

وهذا ابن لمصر بار، هذا مصري صميم، هذا توفيق الحكيم جاء فسجل مجد تلك الثورة وأشاد بذكرها.

وبعد، فلنذكر للمؤلف الفاضل هذا الجهد البارز، وهذا العمل الخالد ولنعترف مخلصين بما

بذل وما أوتي من مقدرة فائقة واستعداد هو مبعث التقدير والإجلال.

محمد علي حماد

العدد 19 - بتاريخ: 15 - 10 - 1933

القرية أمس واليوم. . .

كان أكتوبر في الزمن السعيد يقبل على القرية إقبال الربيع، يفَّتق لوز القطن في الحقول، ويشَّقق ورد الصبى في الخدود، ويفتَّح نوّار المنى في القلوي، ثم يمر بيده الذهبية على نصب الفلاح فيزول، وعلى هم المدين فينفرج، وعلى غمرة المكروب فتنجلي، ويرسل الخصب مدراراً على المنازل الجديبة فيرتاش المقلُّ، وينعم البائس، ويتزوج الأعزب!

كنتَ في أكتوبر، شهر الغنى والزواج، ترى مزارع القطن رفَافة الوجوه، بسامة الصور، تنساب بين خطوطها البيض أسراب الغيد بجنين الثمرة الغالية، وهن يغنين الأغاني الجميلة، ويحلمن الأحلام اللذيذة، ويتخيلن هذا القطن الذي يجمعنه الآن بأناملهن، ويضعنه في أحضانهن، وقد اصبح الثوب الزاهي الذي اشتهينه، والقُرط الذهبي الذي ابتغينه، والزوج الحبيب الذي طالما تمنينه! فإذا جئت القرية وجدتها زَّخارة بالحياة، مَّوارة بالحركة، تمرح بحماس الشباب، وتموج بأطياف الحب، وتهزج بأناشيد الأعراس، وتتلقى جزاءها الأوفى على جهادها الصابر طول العام في فلاحة الأرض وخدمة المالك، وإعانة الحكومة.

فالطرق الآتية إليها من الغيط تسيل بالعذارى الأوانس يصفقن بالأكف المخضوبة ويحدون بالأصوات الندية، (والخواجات) يخرجون متعاقبين من بيت إلى بيت يساومون على (المحصول) بالأثمان المغرية، والشباب المرحون يسمرون إلى موهن الليل على الرباب والأرغول في بيوت الأفراح القريبة، وأشعة الخريف الفاترة تبعث في قلوب هؤلاء الخليين طلاقة العيش وجمال الوجود، فلا يشغلون بالهم بالزروع التي تذبل، والأوراق التي تسقط، والطبيعة التي تموت!

ذلك حديث القرية المصرية بالأمس، فهل أتاك حديثها اليوم؟ لم يعد وا أسفاه للقطن تلك القوى السحرية التي كانت ترد البؤس نعيما وتجعل النار جنة! ولم تعد الطرق السالكة إليه شادية بالغناء، ولا الأنامل التي تجنيه مخضوبة بالحناء، ولا الدور التي تحويه ألاقة بالذهب! فقد القطن ولواحقه من سائر الغلات معنى الرخاء فأصبح علاجها عناء خالصا لا روح فيه، وسعيا باطلا لا رجع منه!! وكان الفلاح قد أقام بيته وأدار حياته على هذا الحاصل، فكان يأكل حبوب الأرض ثم يرصده وحده لقضاء الدين وأداء الضريبة ووفاء القسط وسداد العوّز وأكلاف السنة، فلما بخست قيمته الظروف القاسية تزعزع البيت،

واضطربت الحياة، وانتشرت الحال، واستحكمت الازمة، فألحف الدائن في الطلب، وأعنف الصراف في التحصيل، وأسرف البنك في الحجز، حتى انتقص لهم من قوُته، واقتطع لهم من ثوبه، ونزل لهم عن جهده، ولم يغن كل ذلك شيئاً عن بيع ملكه!

تبدلت القرية غير القرية، فلا ليلى تطمح في زينة، ولا أخوها يطمح إلى زواج، ولا أبوهما يفكر في حج! وأصبحت الطريق الذاهبة إلى المدينة تجئ بالمرابي والصراف والمحضر، بعد أن كانت تجئ بالشاعر والزامر والمغني، وغاضت بشاشة العيش في وجوه الشباب فعادت القرية جديبة كالقفر، كئيبة كالقبر، لا يعقد فيها اجتماع لأنس، ولا يقام بها احتفال لعرس! وما أبعد هاتين الكلمتين اليوم عن قوم ندر عندهم الكبريت

!!(الأصفر) حتى اتخذوا الزناد، وغلا عليهم التبغ حتى اشترك ثلاثة في سكارة
لا تزال القرية كما كانت في القرون الخوالي أكواخا متلاصقة من الطين غرقى في المناقع والدِّمن، لا تبصر الشمس، ولا تنشق الهواء، ولا تعرف النظافة، تكومت في قاعها أرواث البهائم وزرق الدجاج، وتراكم على سطحها حطب الوقود وعلف الماشية، وتقاسم الإنسان والحيوان المضاجع في هذه الحظائر المشتركة! ثم راض الفلاح نفسه مرغماً على الطعام الوخيم والشراب الكدر والملبس الرث والقناعة المزرية، حتى مات في حسه إدراك الجمال، وتفه في ذوقه طعم الوجود!
ذلك والعواصم المصرية تعيش في القرن العشرين تأخذ بمدنيته، وتقبس من نوره، وتنعم برفاهه، كأن الصلة بين القرية والمدينة هي الصلة التي كانت بين العبد والسيد، يملك ولكن ملكه لمولاه، وينتج ولكن إنتاجه لسواه!!
تغلغلت المدينة في الأمم الأوربية حتى انتظمت قمم الجبال وبطون الأودية وأطراف السهوب، وسوَّت بين بنيها في مُتَع العيش وحقوق الإنسان، ثم تشوفت إلى الآفاق الغائمة في الشرق تريد أن تهديها طريق الحضارة، ونحن لا نزال قاصرين عن إنقاذ قرانا من الجهل والمرض والفاقة، وهي مصادر القوة وموارد الإنتاج تعول الموظفين بالضرائب، وتغذي الجيش بالجنود، وتمد الحواضر بالأرزاق، وتعين الأحزاب بالمال، وتقيم (الحفلات) بالتبرع إن الفلاح المسكين الساذج يسمع بالوزارات تسقط وتقوم، وبالأحزاب تختصم وتحتكم، وبالمجالس تنتثر وتنتظم، وبالدواوين تفتح وتغلق، وبالأموال تجرى وتنفق،
فيسائل نفسه سؤال الجاهل الذاهل. إلى من هذه الأعمال والأموال إذا لم يكن لي من ثمارها نصيب؟؟
لقد اشترينا بأقوات الريف أبهة العاصمة، وبنينا بأنقاض القرية قصور المدينة، وغسلنا بعرق الفلاح أقدام المترفين، فكنا كمن حفر الجداول، وخطط الحقول، ونثر البذور، وشيد الأهرام، ثم طمر في سبيل ذلك فوهة الينبوع!! احمد حسن الزيات

حول قصيدة

للدكتور طه حسين

في مساء يوم من أيام سنة 1920 دخل الأديب الفرنسي جاك ريفير على صديقه الشاعر العظيم بول فاليري، فرأى أمامه صورا مختلفة لقصيدة أنشأها، أو قل لقصيدة كان ينشئها. فاختلس صورة من هذه الصور، ثم خرج فنشر هذه الصورة في مجلة من المجلات الفرنسية الكبرى.
وهذه القصيدة هي (المقبرة البحرية) ويجب أن تعلم أن بول فاليري لا يتمأثراً من آثاره الفنية وإنما يتركه. وهو يفسر لنا هذا حين يتحدث إلينا في بعض ما كتب من الفصول، بأن الشعراء وأصحاب الفن في العصور القديمة، لم يكونوا يتمون أثراً من آثارهم، وإنما كانوا يعملون فيه ينقحونه، ويهذبونه، ينقصون منه، ويضيفون إليه، ويلائمون بين أجزائه، يبتغون الكمال ما وجدوا إلى ابتغائه سبيلا. حتى إذا أكرهوا على تركه أسلموه إلى النار أو أسلموه إلى الجمهور. فالنار والجمهور عند بول فاليري وعند أصحاب الفن الأقربين سواء. كلاهما يميت الأثر الفني بالقياس إلى مبدعه لأنه يختص نفسه بهذا الأثر فيحرقه تحريقاً ويقطع الصلة بينه وبين صاحبه، ويجعله ملكاً لنفسه، يتمثله كما يشاء أو كما يستطيع ويذوقه، ويفهمه كما يريد، أو كما تمكنه ملكاته الخاصة من الفهم والذوق. وبول فاليري حريص على هذه السّنة الفنية القديمة، فهو لا يتم كما قلت قصيدة من الشعر، ولا فصلا من النثر، وإنما يمضي فيه مصلحاً مهذبا، ساعياً إلى هذه الغاية القريبة التي لا تدرك وهي الكمال. حتى تضطره الظروف إلى أن يدع قصيدته أو فصله أو كتابه لصديق مختلس كجاك ريفير أو لناشر ملح، أو لأي ظرف من الظروف التي تذيع آثار الشعراء والكتاب، وتخرجها من أيديهم إلى أيدي القراء.
وكذلك فرضت هذه القصيدة في صورتها المعروفة على صاحبها فرضاً، ولعله لو خير لاختار صورة أخرى من هذه الصور التي كانت بين يديه، ولكنه نظر ذات يوم، فإذا المجلة الفرنسية الجديدة تنشر له قصيدة (المقبرة البحرية) فلم يكن له بد من التسليم والإذعان.

على أن من العسير جدا أن تظفر في التاريخ الأدبي الفرنسي، بقصيدة كثر حولها الحوار
وأشتد فيها الجدال، وتشعبت فيها الخصومة، كهذه القصيدة التي لا تزيد على أربعة وأربعين ومائة بيت. فقد انفق النقاد الفرنسيون أعواماً يدرسونها، ويحللونها، ويلتمسون معانيها، وأغراضها، ومظاهر الحسن ودخائله فيها. ثم لا يتفقون على ذلك بل لا يتفقون على شيء من ذلك، بل يبلغ بهم الاختلاف أقصاه. فإذا بعضهم يرفع القصيدة إلى أرقى منازل الآيات الشعرية الخالدة وإذا بعضهم ينزل بها إلى حضيض السخف الذي لا ينبغي الوقوف عنده ولا الالتفات إليه. وإذا الأمر يتجاوز المجلات والصحف الأدبية إلى الصحف اليومية الكبرى، ثم يشتد الخلاف وتنظم الخصومة حتى يضطر ناقد من كبار النقاد إلى ان يبدأ بحثا دقيقاً وتحقيقاً بعيد الأمد، فيختار قطعتين من هذه القصيدة، ويعرضهما على الأدباء والنقاد المعروفين يسألهم عما يفهمونه منهما، وما يرونه فيهما من الرأي، ويدعوه ذلك إلى أن يسألهم عن أصل من أصول الفن الشعري، ظهر أنهم لم يكونوا يتفقون عليه بحال من الأحوال. وهو الوضوح أهو ضرورة من ضرورات الشعر الجيد، أم هو شيء يمكن ان يستغني عنه هذا الشعر؟ وإذا شئت الدقة والجلاء فقل أيجب أن يكون الشعر الجيد واضحاً جلياً يفهمه من قريب من سمعه أو قرأه، أم يستطيع الشعر أن يكون جيداً وإن حال الغموض بينه وبين فهم القارئين والسامعين. ولا يكاد يبدأ هذا التحقيق حتى يعود الخلاف حول القصيدة وصاحبها كما كان حاداً عنيفاً متشعباً. وكان بول فاليري في أثناء ذلك قد انتخب عضوا في المجمع اللغوي الفرنسي. فيثير انتخابه حقد الحاقدين وحنق المحنقين، ويزيد الخلاف حدة وعنفاً. وتستطيع أن تقول غير مبالغ ولا مسرف أن المثقفين الفرنسيين جميعاً قد شغلوا بهذه القصيدة وصاحبها أعوام 1927 و 28 و 29
وانتهى أمر هذه القصيدة إلى السوربون، وما أقل ما تعنى السوربون بشعر المعاصرين، وإذا أستاذ من أساتذة الأدب فيها هو مسيو جوستاف كوهين يتخذها موضوعا لدرسه في تفسير النصوص الأدبية. وإذا هو يتخذها موضوعاً لكتاب سماه محاولة لتفسير المقبرة البحرية. كل هذه الحركة العنيفة والشاعر صامت لا يقول شيئا، ساكن لا يأتي شيئاً، أو هو لا يقول ولا يأتي شيئاً يمس هذا الخلاف العنيف حتى اضطر صاحب التحقيق الذي أشرت إليه آنفاً أن يكتب إليه ينبئه بأن كثرة الذين أجابوا إلى ما ألقي إليهم من الأسئلة يعترفون بأن لقصيدته معنى ولكنهم لا يتفقون على هذا المعنى، وإنما يختلفون اختلافا شديداً في
تحصيله، ويسأله أن يبين ما أراد ليقطع الشك ويزيل الخلاف، فلا يجيب الشاعر ويضطر كاتب آخر إلى أن يطالبه في صحيفة من الصحف الكبرى بأن يبين للناس ما أراد أن يقول في هذه القصيدة، ليظهر من أخطأ من النقاد ومن أصاب، ويصفه بالكبرياء، والحرص على أن يغيظ النقاد، ولكنه على ذلك كله لا يجيب حتى إذا ظهر كتاب أستاذ السوربون، نظر الناس، فإذا الشاعر قد قدم بين يدي هذا الكتاب بمقدمة بديعة ممتعة، يصفها بعضهم بأنها مثيرة للدوار، لكثرة ما تشتمل عليه من المعاني والآراء في وضوح لا يكشف الحجاب عنها كل الكشف، وفي غموض لا يريح القراء من التأمل وإطالة البحث والتفكير. فإذا قرأت المقدمة البديعة الممتعة المثيرة للدوار، لم يتبين فيها القارئ جواباً لهذه الأسئلة الملحة التي ألقاها النقاد على الشاعر يتمنون عليه فيها أن يبين لهم ما أراد، وإنما يجد القارئ في هذه المقدمة آراء موئسة من الوصول إلى تحصيل المعاني التي أراد إليها الشاعر حين نظم قصيدته. فهو يقول مثلا: إن الناس يسألونني ماذا أردت أن أقول؟ فأنا لم أرد أن أقول شيئاً وإنما اعمل شيئاً، ورغبتي في هذا العمل هي التي قالت ما يقرئون، وهو يقول مثلاً إن الأثر الفني الذي يصدره الشاعر أو الكاتب أو غيرهما من أصحاب الفن لا يكاد يخرج من يد منشئه حتى يصبح أداة من الأدوات العامة يصرفها الناس كما يريدون أو كما يستطيعون. ومعنى ذلك أن القصيدة إذا أذيعت بين الناس، فلكل واحد منهم أن يفهم منها ما أراد أو ما استطاع. فإما ما أراد الشاعر فأمر مقصور عليه حين نظم، ولعله قد نسيه أو انصرف عنه إلى غيره من المعاني فلا ينبغي أن يسأل عنه ولا أن يطالب بتبيينه للناس.
وأظرف وأطرف أن الشاعر يثني على الكتاب الذي يفسر قصيدته فيقول: انه قرب هذه القصيدة إلى الشبان من تلاميذه، وأحاط بخصائصها التي تتصل بما فيها من

الموسيقى والانسجام. ولكنه يقول: أوفق الأستاذ الشارح إلى تحقيق المعاني التي قصد إليها الشاعر أم أخطأه هذا التوفيق؟

كل هذه الآراء وآراء أخرى للشاعر العظيم في هذه المقدمة الممتعة إن لم تبين المعاني التي أودعها قصيدته فهي تبين شيئاً آخر أظنه أقوم وأجلّ خطراً من هذه المعاني، وهو مذهب الشاعر في فن الشعر، وما ينبغي له من الارتفاع عن هذا الوضوح الذي يفسد الفن افساداً، ويقربه من الابتذال، فهو يرى مثلاً إن جمال الشعر يأتي من أنك تحدد اللذة الفنية

في نفسك، كلما حددت قراءته ومن أنك تستكشف في القراءة الثانية من فنون الجمال ما لم تستكشفه في القراءة الاولى، بل تجد في كل قراءة فنوناً جديدة من الجمال لم تجدها في القراءات التي سبقتها، وأنت لا تجد هذه اللذة المتصلة المتنوعة إلا لأنك خليق أن تستكشف في كل قراءة معنى جديداً يثير في نفسك شعوراً جديداً بالجمال، وهو يرى مثلاً أن للشعر صفات تعصمه من الموت أو تعصمه من الموت القريب، وهذه الصفات تتصل بوزنه وقوافيه وبهذه الصور الخاصة التي لا تجدها في النثر. وموت الأثر الفني عنده يأتي من فهم الناس له، فأنت إذا قرأت كتاباً وفهمته فقد قتلته وقضيت عليه. فهناك إذا جهاد عنيف بين القارئ والمقروء، فإذا فهم القارئفقد غلب. وإنما الأثر الفني الخليق بهذا الاسم هو الذي يغلب قارئه ويعجزه، ولكن دون أن يضطره إلى اليأس والقنوط. ومن هنا يرى شاعرنا العظيم أن النثر بطبيعة تكوينه أقرب إلى الموت وأدنى إلى الفناء، لأنه أقرب إلى الفهم، وأدنى إلى الهضم، لا تعصمه هذه الدروع المتقنة التي نسميها الوزن والقافية، والموسيقى والصور.

فإذا أضفت إلى هذه المقدمة ما كتبه شاعرنا العظيم في مواضع مختلفة، وظروف مختلفة حول الشعر والنثر والأدب عامة استطعت أن تلخص مذهبه في الشعر الخالص أو في الشعر العالي كما يقولون. فالشعر عنده كلام، ولكنه كلام ممتاز، وامتيازه لا يجب أن يأتيه من معناه وحده بل، يجب أن يأتيه من صيغته قبل كل شيء، فحقيقة الشعر إنما تلتمس في صيغته وشكله، تلتمس في وزنه الذي يجب أن يبهر السمع ويؤثر فيه، تلتمس في انسجامه الذي يجب أن يثير في النفس لذة الموسيقى، أو لذة أرقى من لذة الموسيقى لأنها تمس العقل والشعور والسمع جميعاً، ثم تلتمس في صوره التي تروع الخيال وتروع معه الحسن أيضاً ثم تلتمس قبل كل شيء وبعد كل شيء في هذه الصفة التي لا أدري كيف أسميها أو أحددها، والتي تضطرك إلى البحث والتفكير وإلى جهاد ما تقرأ في غير ملل ولا يأس.

وطبيعي بعد أن ثار هذا الخلاف العنيف الطويل حول هذه القصيدة أن تتجاوز حدود فرنسا، ويعنى بها النقاد الأجانب كما عني بها الفرنسيون، كما يعنون بكل ما يصدر هذا الشاعر من الآثار. فقد ترجمت هذه القصيدة أربع مرات في اللغة الإسبانية، وثلاثاً في اللغة الإنجليزية، وثلاثاً في اللغة الألمانية ولكن الغريب أنها ترجمت في اللغة الفرنسية نفسها

شعراً. ترجمها الكولونيل جودشو، وأرسلها إلى الشاعر، فكتب إليه الشاعر يقول: اشكر لك خالص الشكر ما أرسلت إليّ من ترجمة المقبرة البحرية إلى لغة أقرب إلى الوضوح. وسأضيف هذه الترجمة إلى التراجم الإسبانية الأربع، وإلى التراجم الإنجليزية الثلاث، وإلى التراجم الألمانية الثلاث، وإلى تراجم أخرى لهذه القصيدة قد وقعت إلى.

وقد أعجبني جداً ما بذلت من الجهد لما ظهر فيه من الحرص على أن تحتفظ ما استطعت ببعض الأصل، وإذا كنت قد استطعت أن تترجم هذه القصيدة فليست هي إذن من الغموض بحيث يقال. فان قصيدة مظلمة حقاً تحتاج إلى تغيير أعمق من هذا التغيير الذي أحدثته لتصبح ترجمتها أمراً ميسوراً. فأنا مدين لك بهذا الدليل الواضح على أن المقبرة البحرية شيء يمكن فهمه إذا عنى القارئ بعض العناية بقراءتها ورغب بعض الرغبة في فهمها.

وأظن أن السخرية في هذا الكتاب أوضح من أن تحتاج إلى أن أدل عليها، ولعلك تسألني أن أترجم لك هذه القصيدة كلها أو بعضها، ولكني معتذر من ذلك لأمرين. الأول: أني أجد في قراءة القصيدة لذة راقية قوية حقاً، ولكني لا أستطيع أن أقول أني أفهمها على وجهها، وليس على من ذلك بأس ما دام النقاد والأدباء الفرنسيون وهم

أعلم مني طبعاً بلغتهم وأدبهم يختلفون في فهمها إلى هذا الحد. والثاني: أن بول فاليري نفسه يرى أن ترجمة الشعر إلى النثر قتل لهذا الشعر، وتمثيل به ومحو لآيات الجمال فيه، وأعوذ بالله أن أقترف هذه الجناية أو أتورط في هذا الأثم، ولكن في مصر شعراء أو أنا أرجو أن يكون في مصر شعراء يحسنون الفرنسية فهل لهم أن يستبقوا في ترجمة هذه القصيدة شعراً عربياً، وهل لأصدقائنا أصحاب الرسالة أن يجعلوا للفائز في هذه المسابقة من الشعراء جزاء يلائم ما سيبذله من الجهد الذي سيكون عنيفاً حقاً، ولكنه سيضع أمام قراء اللغة العربية نموذجاً من أرقى وأروع نماذج الشعر الحديث.

الرأي والعقيدة

للأستاذ أحمد أمين

فرق كبير بين أن ترى الرأي وأن تعتقده، وإذا رأيت الرأي فقد أدخلته في دائرة معلوماتك، وإذا اعتقدته جرى في دمك، وسرى في مخ عظامك، وتغلغل إلى أعماق قلبك.

ذو الرأي فيلسوف، يقول إني أرى الرأي صواباً وقد يكون في الواقع باطلاً، وهذا ما قامت الأدلة عليه اليوم، وقد تقوم الأدلة على عكسه غداً، وقد أكون مخطئاً فيه، وقد أكون مصيباً، أما ذو العقيدة فجازم بات لا شك عنده ولا ظن، عقيدته هي الحق لا محالة، هي الحق اليوم وهي الحق غداً، خرجت عن أن تكون مجالاً للدليل، وسمت عن معترك الشكوك والظنون.

ذو الرأي فاتر أو بارد، أن تحقق ما رأى أبتسم ابتسامة هادئة رزينة، وإن لم يتحقق ما رأى فلا بأس، فقد احترز من قبل بأن رأيه صواب يحتمل الخطأ، ورأى غيره خطأ يحتمل الصواب، وذو العقيدة حار متحمس لا يهدأ إلا إذا حقق عقيدته. هو حرج الصدر، لهيف القلب، تتناجى في صدره الهموم، أرَّق جفنه وأطال ليله تفكيره في عقيدته، كيف يعمل لها، ويدعو إليها، وهو طلق المحيا مشرق الجبين، إذا أدرك غايته، أو قارب بغيته.

ذو الرأي سهل أن يتحول ويتحور، هو عبد الدليل، أو عبد المصلحة تظهر في شكل دليل، أما ذو العقيدة فخير مظهر له ما قاله رسول الله: (لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أدع هذا الذي جئت به ما تركته) وكما يتجلى في دعاء عمر: (اللهم إيماناً كأيمان العجائز) شعر جديد لقد رووا عن (سقراط) أنه قال (إن الفضيلة هي المعرفة) وناقشوه في رأيه، وأبانوا خطأه، واستدلوا بأن العلم قد يكون في ناحية، والعمل في ناحية، وكثيراً ما رأينا أعرف الناس بمضار الخمر شاربها، وبمضار القمار لاعبه. ولكن لو قال سقراط إن الفضيلة هي العقيدة، لم أعرف وجهاً للرد عليه، فالعقيدة تستتبع العمل على وفقها لا محالة، قد ترى أن الكرم فضيلة ثم تبخل، والشجاعة خيراً ثم تجبن، ولكن محالة أن تؤمن بالشجاعة والكرم ثم تجبن أو تبخل.

العقيدة حق مشاع بين الناس على السواء، تجدها في السذج، وفي الأوساط، وفي الفلاسفة. أما الرأي فليس إلا للخاصة الذين يعرفون الدليل وأنواعه، والقياس وأشكاله. والناس يسيرون في الحياة بعقيدتهم، أكثر مما يسيرون بآرائهم، والمؤمن بعقيدته يرى ما لا يرى

الباحث برأيه، قد منح المؤمن من الحواس الباطنة والذوق ما قصر عن إدراكه القياس والدليل.

الناس إنما يخضعون لذي العقيدة، وليس ذوو الرأي إلا ثرثارين لا يعملون، عنوا بظواهر الحجج أكثر مما عنوا بالواقع، لا يزالون يتجادلون في آرائهم حتى يأتي ذو العقيدة فيكتسحهم.

قد يجود الرأي وقد ينفع، وقد ينير الظلام وقد يظهر الصواب، ولكن لا قيمة لذلك كله ما لم تدعمه العقيدة، وقلَّ أن تؤتي أمة من نقص في الرأي، ولكن أكثر ما تؤتي من ضعف في العقيدة، بل قد تؤتى من قبل كثرة الآراء أكثر مما تؤتى من قلتها.

الرأي جثة هامدة، لا حياة لها ما لم تنفخ فيها العقيدة من روحها، والرأي كهف مظلم لا ينير حتى تلقى عليه العقيدة من أشعتها، والرأي مستنقع راكد يبيض فوقه البعوض، والعقيدة بحر زاخر لا يسمح للهوام الوضيعة أن تتولد على ظهره، والرأي سديم

يتكون، والعقيدة نجم يتألق.
ذو الرأي يخضع للظالم وللقوي، لأنه يرى أن للظالم والقوي رأيا كرأيه، ولكن ذا العقيدة يأبى الضيم ويمقت الظلم، لأنه يؤمن أن ما يعتقده من عدل وإباء هو الحق ولا حق غيره، ومن العقيدة ينبثق نور باطني يضيء جوانب النفس، ويبعث فيها القوة والحياة، يستعذب صاحبها العذاب، ويستصغر العظائم، ويستخف بالأهوال، وما المصلحون الصادقون في كل أمة إلا أصحاب العقائد فيها.
الرأي يخلق المصاعب، ويضع العقبات، ويصغي لأماني الجسد، ويثير الشبهات ويبعث على التردد، والعقيدة تقتحم الأخطار، وتزلزل الجبال، وتلفت وجه الدهر، وتغير سير التاريخ، وتنسف الشك والتردد، وتبعث الحزم واليقين، ولا تسمح إلا لمراد الروح.
ليس ينقص الشرق لنهوضه رأي، ولكن تنقصه العقيدة، فلو منح الشرق عظماء يعتقدون ما يقولون لتغير وجهه وحال حاله، واصبح شيئاً آخر، وبعدُ، فهل حُرِم الأيمان مهبط الإيمان؟

حياة الإنسان

للأستاذ بول جانيت. الأستاذ بالسربون

حياة الإنسان منقسمة إلى أربعة أطوار: الطفولة والشباب، والرجولة والشيخوخة، ولطالما أشتد الجدل وما يزال يشتد بين البشر لمعرفة أي هذه الأطوار يكون الإنسان فيه أسعد حالا وأهدأ بالا وأشد تفاؤلا؟ ويلوح لنا أن الناس يجمعون أو يكادون يجمعون على تفضيل الرجولة على الشيخوخة، والشباب على الرجولة، والطفولة على الجميع، والحق الذي لا مراء فيه أن لكل طور من أطوار الحياة لونا من السعادة يناسبه ويلائمه، ولكل طور نظر إلى الحياة مغاير. . وهب أن ليس هناك ما هو أهنأ من الطفولة المرحة فمن منا يود أن يظل طيلة حياته طفلاً؟ فنحن الذين نغبط الأطفال هناءهم ونذكر في أسى تلك السعادة البريئة الماضية التي تفيأنا ظلالها وأحتسينا راحها ونعمنا بزنبقها وآسها أيام كنا أطفالا نرتع ونلعب، لنرمق في حزن عميق أولئك التعساء الذين تطول بهم الطفولة إلى غير نهاية، وإن سرورهم نفسه ليحرك فينا عاطفة الرحمة والإشفاق. نحن نرثى لهم لأنهم لما يلمسوا ما هم فيه من بؤس وشقاء، فهذه السذاجة التي يطول عمرها، وهذه الغرارة، وهذه الغباوة، وهذا الاستخفاف بآلام الغير ليبدو لنا أعظم الآلام. فليست السعادة منحصرة في قيام لذة او في انعدام ألم، ولكنها في استغلال القوى التي خص بها الإنسان استغلالا مشرفاً معقولاً !!. .
يجهل الطفل الحياة جميعها ولا تكاد تنصب رغائبه إلا على التافه من الأغراض، ومع إننا نعجب بهذا الطور وما حواه من سذاجة ومرح وتدلل فنحن لا نأسف عليه أسفاً حقيقياً، ولا نرضى عن طواعية واختيار أن نستعيده ثانية، ويحب الشباب من الحياة ما يحبه الرجل، ولكنه لا يتبع سبيله، ولا يسلك منهاجه، ومعرفته وآراؤه قريبان من معرفة الرجل وآراؤه، وليس الفرق بينهما عظيماً كما نراه بين الطفولة والشباب، وميزة الشاب عن الرجل أن رغائبه ما تزال في نضارتها وقشوبها، فالمستقبل مفتر له باسط ذراعيه، والأمل لابد ماليء جوانب قلبه، وناشر على أحزانه النادرة طبقة من السرور على أهبة أن تسفر وتتلألأ، وإذ لا عهد له بعقبات الحياة وتكاليفها، فهو أبداً سخي وشجاع، وما لم يكن قد خدع إلا نادراً كان ناصح الدخيلة، سليم الطويلة، يصدق الرواة ويثق بالظروف، ولما كان عمله في المعهد
أو المصنع لا يتجاوز بضع ساع من النهار كان لديه وقت من الحرية والفراغ طال أو قصر يتسنى له خلاله أن يتذوق لذة الاستقلال قبل أن ينوء به عبء التبعة. . . غير أن زمن اللذة قد ولى وأدبر وبدأت حياة الجد والكفاح، وحتى هذا الوقت لم تكن آراء الشباب إلا قضايا عقل وخلجات نفس ينبغي أن تستحيل إلى عقائد وقيود! كان ميله هوى، وصداقته مسلاة، وحبه تلهية من تلاهي الخيال قبل أن يكون حاجة من حاج القلب وضرورة من ضروراته، وكانت علاقاته بالعالم لذة لحظة أو ملال لحظة، ثم استحالت إلى سلاسل وأغلال لا يستطيع المرء أن يتحرر منها دون خطر، ثم تتجمع حول الرجل الكامل المنافع والغايات والحاجات والمنافسات. وتحيط به وتنبسط أمامه فلاة بلقع ليس فيها سوى أهراس وعواسج ومهاو، وقد كان الشاب لا يرى فيها إلا سهولا منبسطة تغطيها رياض بها أطيب الزهر وأشهى الثمر! كل هذا حق، وهل يمكن أن يقال أكثر من هذا في مدح الشباب وذم الرجولة؟ ولكن لم خلق الإنسان؟ خلق

ليكون رجلاً يكافح ويناضل، أما السلام فليس من أطوار هذه الحياة، إن نشدته وجدته أبعد من الفرقدين واعسر من رد أمس الدابر. إن هذه الحياة جهاد ونضال، وحري بالرجل أن يكون كالربان في بحر تحفه الأهوال، وليس أدعى إلى السخرية من شاب في سن الرجولة أو في سن الشيخوخة مثل ذلك الشاب الأبدي يدعو إلى حزننا ورثائنا، وليس الذي نرثى له من أجله هو ذلك التناقض المادي والمعنوي، أو الجسدي والروحي في الشخص الواحد، ولكن ذلك النقص المعيب والخمول المزري، وتلك القوة المعتلة ثم ذلك الوقار الضائع والأهلية المفقودة. . كل هذا ليس إلا ضعفاً هرمياً قبل الأوان، فالطبيعة تثأر لنفسها بشيخوخة مبكرة طافرة مع من لم يعرف كيف يتلقاها ويرحب بها ويتأهب لها وهي تدنو منه في رفق وتريث واتئاد. . .

يَبذُّ الشاب الرجل ببهجته ونضارته وجماله، أي يبذه بشيء ليس إلا عرضاً زائلاً، وعثاً بالياً، وزينة أحرى أن تفاخر بها المرأة، ويبذه الرجل بقوته واحتماله، وعلمه وحزمه ووقاره. يريد الرجل فيعمل، وينتوي فينفذ، ويعد فيصدق، ويكافح فلا ينثني له عنان ولا تلين له قناة. ويقف الشاب من مسرح الحياة موقف المتفرج بينما يلعب الرجل فوقه دوراً تافهاً أو عظيماً. ولربما تطلب أتفه الأدوار جهداً فوق الذي يتطلبه أعظمها، فعول أسرة أشق غالباً من تأسيس مملكة.

يجهل الطفل شؤون الحياة، ولا يكاد يعرف منها كثيراً ولا قليلاً، ويعرفها الشاب أو يعرف منها الكثير فتستهويه وتستميله، غير أنه لا يساهم فيها، ولكن الرجل يمتزج بها ويحاول أن يغيرها، تحنكه التجارب وتوقره الحوادث، ويروضه الزمان ويثقفه الجديدان، وتشحذ قوته العقبات. وتعلى مكانته التبعات، وتوقظ مشاعره الآلام النبيلة، والعبرات الصادقة. . هذا عصر الإنتاج المثمر، والكفاح المجدي، والعزائم التي تولد من عناصر الضعف قوة، ومن ظلام اليأس نور أمل. هذا عصر القيادة والزعامة والابتكار، هذا عصر المجد والنور بل هذا عصر الإنسانية الحقيقي!!

في الطفولة عذوبة وسحر، وفي الشباب نظرة وجمال، ولكن كليهما ليس فيه غناء، لا لصاحبه ولا لوطنه ولا للإنسانية جمعاء، فالأطفال والشبان يعيشون في هذه الحياة كلا على الرجل، فالرجولة وحدها هي التي يؤمل لها أن تبلغ الغاية القصوى، والمثل الأعلى، وهي التي يحق لها أن تطمح إلى الخلود إن كان لشيء في هذه الحياة خلود!!

أما الشيخوخة فمتى كانت مدعمة بالرزانة والحزم، ومجردة من الهوى والأثم، وكان معها توبة من الذنوب وإقلاع عن المعاصي أضحت للذابل طلا وندى، وللفائت ترجيعاً وصدى، وما أشبهها بأصيل يوم ربيعي رق وصفا!

لينسَ الشيخ المعمر لحظة ما وسع من أحزان وآلام، وما أبتلى به من أوصاب وأسقام، وما نزل به من خصاصة، وما حضره من إملاق، وما لقي من عنت وإرهاق، وما صادفه من تعثر وإخفاق، ولينس مع هذا وقبل هذا أن قناته قد اعوجت، وأن عظمه قد وهن، وأن الدهر عاضه من نضارة عوده ذبولاً، ومن سواد عِذَاره قتيراً، وإن استطاع فلينس أيضاً أنه متى حان حينه طوى بساط عيشه، ووافاه حمامه فكحله بمروده، ولفه في مئزره، وأنتزعه من بين ابنة له وابن، ووالدة وخدن. وصاحبة وناي ودن، ليواريه في حفرة قد ضاقت مساحتها وأحلولكت جوانبها. . . فان فعل، وحري به أن يفعل، فثم قصيدة فيها سحر وجمال ومتاع سوف يخلقها له خياله. . قصيدة تبدأ بألاعيب الطفولة المرحة الطروب يتضوع منها شذا الوداعة والعذوبة والإيناس، ويفج منها نور السذاجة والبراءة والعفاف، ويغرد من فوقها البلبل والورقاء والحسون!! وتتصل بها آمال الشباب وأمانيه وأناشيده وأغانيه وتأملاته ونجواه ولياليه وليلاه. . . ثم تعقبها الرجولة بما أخذت من تبعة واحتمال،

وما اضطلعت به من أعباء ثقال، وما بذلت من جهود ونضال، وما ذللت من عقبات، وما جابت من فياف وقفار، وما قضت من لبانات وأوطار، وما نالت من مجد وفخار، وما أنعمت به من زوج وولد وصحاب، وما احتملت من وقدات الهجير ولفحات الزمهرير في طلب رزق أو استجلاء سر، أو ذياداً عن وطن. وتختمها الشيخوخة وقد توسدت الراحة وأخلدت إلى الدعة واعتصمت بالحلم والأناة وارتسمت على وجهها آيات الرضا، وانبعثت من مقلتها أشعة الهدى. فراحت تتفيأ ظلال الذكرى، وكأنما في سني الطفولة والشباب والرجولة تحيا!!

ترجمة: رسلان عبد الغني البنبي

الموسيقى في مصر

للأستاذ محمد كامل حجاج

لا ريب أن الموسيقى من أعظم الفنون الجميلة التي أصبحت من الضروريات عند كل الطبقات، وقد بلغت أوجها عند الأمم الراقية، وتمشت مع التمدن حتى أصبحت معيار المدنية والرقي.

الموسيقى الراقية كالشعر بل هي متممة له، لأن كثيراً من الحالات النفسية العميقة لا يستطيع الكلام أن يعبر عنها، وإني أضرب لك مثلاً سهلاً:

إذا قرأت أمام أمي جاهل مرثية من أروع الشعر الجاهلي فهل يظهر عليه أي تأثر؟ أعد الكرة أمام الرجل نفسه وأسمعه مرثية موسيقية راقية فلا ريب أنها تهزه وتحزنه حتى تقرأ علامات الحزن على وجهه ولربما لا يقوى على ضبط نفسه فيتأوه أو يخونه الدمع إن كان رقيق الشعور.

إن لم تكن الموسيقى واصفة ومصورة لكل ما تقع عليه العين من محاسن الطبيعة، ومعبرة كالشعر عن أسمى العواطف وأرق الشعور والوجدان، فأولى بها أن تسمى لغطاً وجلبة تصدع الرؤوس وتسئم النفوس.

لقد اهتمت مصر بالعلوم والآداب والفنون وأحرزت نصيباً يقارب الضروريات، ولكنها متقهقرة في الموسيقى. ولم نر واحداً من أبناء الأغنياء أولع بهذا الفن وحاول أن يدرسه دراسة تامة تؤهله لخدمة الموسيقى والنهوض بها إلى أوج الكمال. ولا يتأتى بلوغ هذه الغاية إلا بدراسة الموسيقى الإفرنجية، ثم العربية مع نصيب كاف من الثقافة العامة ولاسيما الآداب وتاريخ الفنون الجميلة، لأنهما يثقفان الذوق ويشحذان الخيال ويرهفان العواطف.

إننا بدراسة الموسيقى الإفرنجية بفروعها من سولفيج وأرموني وكونتريوان وتوزيع الموسيقى على الآلات نتمكن من إتقان الإملاء الموسيقي بأن نكتب موسيقى الدور أو القطعة بمجرد سماعها، ونرقى في التلحين إذا نبغنا في الارموني واستطعنا أن نسترشد بها لوضع أرموني تتناسب مع موسيقانا العربية. أما الكونتريوان فأنها تتمشى مع موسيقانا ولا تتنافر معها ولا تحدث فيها أية شائبة.

إن موسيقانا لا تتعدى على الجملة: الضروب والمقامات، وهي لا تؤهل الإنسان للتلحين ما لم يكن الموسيقار قد وهب استعداداً طبيعياً وموهبة فنية وذوقاً سليماً كالشيخ سلامة حجازي وعبده الحمولي ومحمد عثمان، وبهم أسترشد ومنهم اقتبس جميع ملحنينا العصريين. المشتغلون بالموسيقى في مصر هم المحترفون والهواة وصبية رياض الأطفال وصبيات السنتين الأولى والثانية من مدارس البنات الابتدائية والجيش والبوليس والملاجئ وسنتكلم عن كل طائفة منهم.

إن المحترفين من عازفين ومفنين ومنشدين وملحنين يقنعون بالوصول إلى درجة متوسطة أو دونها، وليس عند أغلبهم ميل إلى الفن، والغاية التي ينشدونها هي كسب العيش بدرجة يغبطون عليها من القناعة، والهواة من الشبان يكتفون بحفظ بعض البشارف والسماعيات وجانب من المارشات والأدوار دون أن يهتموا بقواعد الفن وأصوله. وأما الفتيات فأغلبهن يتعلمن منهاج المرحومة ماتيلدة على البيانو، ويقلقن به الجيران إلى ما بعد منتصف الليل، ولا يعزفن نوتة واحدة ويستثنى منهم أفراد قلائل من الشبان والفتيات بلغن غاية عظيمة ويقولون دائماً هل من مزيد؟ ولكن لا يتجاوز عددهم أصابع اليد. اغتبطنا حين رأينا مدة انعقاد المؤتمر الموسيقي أطفال رياض الأطفال ومدارس البنات الابتدائية يمثلون قطعاً استعراضية تمثيلية غنائية في غاية من الرواء والإتقان، ويمثلون أدوارهم برشاقة واسترسال ويغنون ألحانها غناءاً صحيحاً شجياً، وقد أعجب بهم أعضاء المؤتمر أيما إعجاب. ويسرنا أن نرى وزارة المعارف مهتمة بتنفيذ قرارات المؤتمر الذي أوصى بنشر التعليم الموسيقي في المدارس الابتدائية والتجهيزية، إذقررت الوزارة في هذا العام تعليم بنات السنة الثانية من المدارس الابتدائية.

أما موسيقى الجيش والبوليس والملاجئ فقد ترقت كثيراً في السنوات العشر الأخيرة، ولاسيما موسيقى البوليس فأنها تعزف كثيراً من القطع الإفرنجية ومنتخبات الأوبرات المشهورة فضلاً عن القطع العربية الراقية، كما أنهم اهتموا بتوحيد طراز آلاتهم حتى يكون فيها انسجام. وهم يعزفون عليها بلباقة وحسن تعبير ورقة لم تكن

موجودة فيما مضى وإني أورد مثالين يظهران شدة الاهتمام بالموسيقى والتضحية العظيمة في سبيلها.

كلنا نعرف هكتور برليوز أعظم موسيقي أنجبته فرنسا، وكان من أول أمره طالباً في مدرسة الطب، وكان أبوه طبيباً فلم يجد الولد في نفسه ميلاً إلى الطب ورجا والده أن يدخله في معهد الموسيقى فرفض وهدده بقطع مرتبه، ولم يستطع الابن أن يستمر في الطب فدخل الكونسرفاتوار. فما كان من والده إلا أن قطع مرتبه، فأضطر أن يعطى دروساً موسيقية بفرنك واحد للدرس، واستمر في دراسته وهو يغالب الزمن للحصول على قوته حتى نبغ، وهو الذي ابتدع الرومانتيزم في الموسيقى في فرنسا.

والمثال الثاني يبين لنا اهتمام الهمج بالموسيقى بدرجة لا تجدها في المصريين.

كنت في صغري أقضي عطلة المدارس في قريتنا بين أهلي، وكان منزلنا في ربوة عالية تشرف على جميع القرية، وكان في الحي الذي يلينا بيت تسكنه فئة من العبيد يحيون الليل جميعه في الغناء والعزف والرقص إلى أن تطلع الشمس، ثم يذهبون إلى عملهم وهو التجوال في القرى لجمع (البجم) من أشجار الأثل بقصبة طويلة بطرفها شص كبير وهو يستعمل في الصباغة.

كنت في الصغر طلعة أحب الوقوف على كل شيء، وكنت أرقب هذا البيت الصادح الباغم من الأصيل بمنظار، فكنت أرى النساء يكنسن فناء الدار ثم يرشونه ويفرشون الحصر ويصفون الآلات الموسيقية من دلوكات وطبول مختلفة الأنواع والكستلوفون الفطري المصنوع من قطع الخشب الرنانة المختلفة الاحجام، والكيزان الصفيح المحشوة بالحصى الصغير يحملونها في أيديهم ويهزونها لتحدث (دوكة) مخصوصة وقت التوقيع. وحينما يقبل رجالهن بعد الغروب يهيئن لهم ثريد العدس، ثم يصف أقداح البوظة، ثم يدخنون ويتسامرون ساعة إلى أن يأتي وقت الموسيقى فينشطون لها ويأخذ كل منهم آلته الموسيقية ويتهيأ الباقون للرقص والغناء، ويستمرون في لهوهم إلى مطلع الشمس دون أن يناموا، ثم يذهبون إلى عملهم ويقنعون بأن يقيلوا ساعتين بعد الغداء في ظل شجرة.

إن الموسيقى الشرقية كنز زاخر بالجواهر واللآلئ واليواقيت، ولكننا لا نعرف كيف نستخرجها ونبريها بذوق سليم حتى تليق لأن نزين بها تيجان الملوك. إن للموسيقى العربية مائة نغمة (مقام) أو اكثر من مائة وزن (الضروب) ولكن اين النابغة المثقف الذي يحسن التأليف والتلحين.

إن بعض الملحنين ينزعون في تلحينهم إلى اختطاف ألحانهم من الإلحان القديمة، ثم يخلطونها بشيء من الموسيقى الإفرنجية المنحطة التي تسمعها في أفقر المقاهي الإفرنجية ويضنون لسذاجتهم انهم جددوا الفن ونهضوا به، وما دروا انهم شوهوه وفضحوه وهذا جرم كبير لا يغتفر، عيّرنا به كثير من المستشرقين.

كانت الموسيقى المسرحية قد خطت أول خطوة في سبيل النجاح. ولكن القائمين بأمرها لم يحسنوا إدارتها، وكان ينقصهم الحزم والتدبير والذوق الفني، فلذلك فشل المشروع في عامه الثاني واستمرت الموسيقى المسرحية في التمثيل الهزلي، والحمد لله قد نشطت هذه المسارح وسارت في سبيل الرقى لولا ما يصادفها من عقبة لم تذلل وهي ندرة المطربين والمطربات الحائزين للأصوات الجميلة القوية الرنانة والثقافة الموسيقية الصحيحة.

إننا معشر المصريين مقصرون في تجميل بيوتنا وإنعاشها بالفنون الجميلة حتى نسكن إليها بعد عناء العمل، ونجد فيها من وسائل السرور والأنس ما ينسينا آلامنا وينعشنا ويجدد قوانا.

نجد الأسر الإفرنجية تهتم بتعليم أبنائها الموسيقى، وتعنى ربة الدار بنظام الحديقة وتنسيقها حتى تصبح جنة مصغرة ترتاح إليها النفوس المتعبة، وفي المساء تجتمع الأسرة فتحيي حفلات موسيقية ترقص لها القلوب وتنسى فيها الهموم والآلام.

أما بيوتنا التي تجردت من جميع مظاهر الجمال والأنس حتى نفرت منها النفوس ولم يطق الأبناء أن يطيلوا المكث فيها فينصرفون إلى المفاسد من تجوالهم ومعاشرة ذوي الأخلاق الضعيفة فلا يلبثون أن تتسرب إليهم عدوى الرذائل ويضحون في عداد الحشرات المؤذية.

أن الموسيقى لغة القلوب ومهذبة الأخلاق، ومرفقة الطباع ومبددة الهموم والأشجان،

وخير لنا أن نهتم بها في أوقات فراغنا ونسعى في رقيها حتى نعيد عصر زرياب وأسحق الموصلي.
مستقبل الإنسانية
للكاتب الاجتماعي هـ. ج.
تحليل وتعليق شهدي عطية الشافعي
كان عجباً حقاً أن يتخرج ويلز في كلية العلوم الملكية حيث الهندسة والجبر والميكانيكا ليصبح روائياً له مكانته العالمية.
وكان غريباً وهو رجل العلوم والرياضيات أن يتخطى السنين فيحلق على أجنحة الخيال ليكتب عن القمر وسكانه والمريخ وسبيل الوصول إليه. ثم يهبط إلى الأرض فيوجه إلى المجتمع الحديث بما فيه من نظم وأوضاع قارص النقد وشديد اللوم. تثقف ويلز ثقافة علمية صحيحة، وأمعن في القراءة لداروين وآمن بنظريته في النشوء والارتقاء إيماناً لا يتطرق إليه الشك. وتتبع محاظرات هكسلي تلميذ داروين بشغف لا مزيد عليه. والتهم معظم مؤلفات سبنسر. وكان إعجابه شديداً بوليام جيمس عالم النفس المعروف والفيلسوف التجريبي.
ولكنه مع كل هذا كان رجل الخيال الرائع والأحلام الذهبية قبل أن يكون رجل . . . . . المعضلات الحسابية والنظريات الهندسية، وكان لابد أن يتضارب الخيال مع الواقع. وإن تتناقض الدروس التي تلقاها في علم الكائنات الحية وغرامه بالروايات والقصص.
ولكن ويلز كان عقلية خصيبة من هذه العقليات التي تهضم كل شيء حتى لتستطيع أن تمزج الخيالات والحقائق، وتخلط التشريح والعواطف، وتوفق بين الروح العلمية والروح الشاعرة.
ولذا تجده في كتاباته يحيطك بشباك من حقائق علمية لا يمكنك إنكارها. ثم يجرك في رفق وهوادة إلى أشد ضروب الخيال إغراقاً في الخيال، وأكثرها بعداً عن العقل، ولكن لا يسعك إلا أن تسلم بما يقول وتوقن بما يكتب.
إن الإنسان بكل ما فيه من جمال وكل ما وهب من عقل لم يكن يوماً من الأيام إلا قرداً ممسوخاً لا جمال فيه ولا عقل له. هكذا كانت الصيحة التي فوجئ بها البشر من فم رجل قبيح الوجه عرفه الناس باسم داروين.
ولم يكن في هذه الصيحة من جديد. فقد سبقه إليها العالم (لامارك) ولكن داروين زعم أن
هناك سنّة للحياة لا محيد عنها. وقانوناً صارماً لا سبيل للهروب منه: هو قانون تنازع البقاء.
فهذه الحياة تضطرب بملايين من المخلوقات تتباين في نموها وتختلف في تركيبها، ولكن لا تلبث الحياة أن تضيق ذرعاً بها فتقدر لها أن تشتبك في قتال وحشي، ثم لا يبقى منها حياً إلا أقواها وأصلحها.
وإذا كانت القرود قد تمخض عراكها عن إنسان بسود اليوم وجه الأرض. فأي مخلوق جديد سيكشف لنا عنه الغد! تساؤل تملك ويلز تملكاً قوياً وكان محوره: وإلى أين هذه الإنسانية؟ وأي فئة من البشر مقدر لها البقاء؟ وأيها محكوم عليه بالفناء؟
ولقد زعم ويلز إنه مستطيع أن يهتك اللثام عن وجه هذا الغد المجهول فيصور لنا تصويراً دقيقاً رجل المستقبل، جسمه وعقله ونفسيته والمجتمع الذي يعيش فيه! ولكنه كان في كتابه حذراً. فهو يستند دائماً إلى الحقائق الثابتة، ويسترشد بماضي التطور الإنساني، ويعتمد على مجريات الحوادث. مما رفع به إلى مصاف كبار المفكرين. وجعل لرواياته الشيقة صبغة علمية محترمة.
فتراه يدرس الماضي ويحاول أن يستشف منه المستقبل، يستنتجه استنتاجاً ومقدماته في ذلك فروض علمية صحيحة.
واليك مثلاً هذه المحاولة الكبرى من جانب الإنسان في سبيل التحرر من قيود الطبيعة. فها هو قد فك عن نفسه الثقل الذي يربطه إلى سطح الأرضفارتفع في الهواء. وها هو قد تغلب على مضطرب الأمواج، فامتطى البحار، وعلى صعب الأرض فشق في جوفه المسالك والطرقات.
وإذن فمن الطبيعي أن يستمر تطوره في هذه الناحية قوياً. فهو لابد يوماً متخلص تخلصاً تاماً من جاذبية الأرض ليصعد إلى القمر وليسبح منه إلى المريخ وليهبط منه

إلى زحل!
وما دام الإنسان قد أستغل بعض عناصر الطبيعة من كهرباء وبخار فسخرها في أدارة آلاته وتسيير قاطراته، فليس عجيباً ألا يدع عنصراً إلا استخدمه غير تارك في ذلك موج بحر أو نور شمس أو حرارة في جوف أرض.
وما دام البشر قد تغلبوا على بعد الشقة وطول المكان بما أوجدوه من سريع الطيارات،
فليس بعيداً أن يخترعوا آلة يتحكمون بها في الزمان. ماضيه ومستقبله.
فلا يرتبط رجل الغد بزمان أو مكان. قد يكون في شرق الأرض، فإذا به في غربها. قد يكون في السنة الحاضرة فإذا به قد تركها ليعيش في الماضي السحيق أو المستقبل البعيد.
ولن يرضيه وقد تخلص من قيود الطبيعة أن يستمر أسيراً لأغلال الجسد. فهو يركب غذاء يتمكن به أن يكون له من الجسم جباره ومن العضلات مفتولها، فلا يصيبه وهن ولا تعتوره شيخوخة.
وهو يتقدم الطب، وبقليل أو كثير من الرياضة يستطيع أن يتحكم في أعضاء جسمه. فلا يبقى منها على عضو لا فائدة فيه، ولا يدع عضواً نافعاً إلا قواه. فمعدته التي تجر عليه أمراضاً يحتاج لعلاجها إلى ألف طبيب وطبيب. لابد متخلص منها إلى معدة صناعية تقوم بوظيفة الهضم أحسن قيام! وأنفه هذا الذي كثيراً ما يصيبه بالزكام يجب أن يستبدل به أنفاً جديداً لا يتطرق إليه برد ولا تنزف منه دماء!
وهو قد يضايقه الخضوع للنظام الجنسي فتلهمه عبقريته طريقة للتناسل عن طريق غير طريق المرأة فلا يحتاج إليها ولا تحتاج إليه. وطبيعي بعد هذا أن تختفي لديه تلك العواطف الرقيقة من حب وشفقة وحنو. فهي كلها مظهر ضعف لا يليق به، وهو لن يعترف إلا بالعقل يدين له وبالمادة يؤمن بها. وبالقوة يخضع لها أو يناجزها.
سيكون إنساناً جباراً بكل معنى الجبروت، عظيم الخلقة، شديد الذكاء، قوي الإرادة، لا عواطف له ولا قلب. ثم لا مكان له ولا زمان. لا يعرف النوم، ولا بفهم الكلال، ولا يصيبه المرض! ثم ينتقل بك ويلز إلى رسم لا يقل غرابة لحالة المجتمع الذي يمكن أن يعيش فيه البشر غداً.
ولكنه يتأثر في هذا بآراء ماركس. وماركس هو هذا الألماني الذي زعم أن المال يجتمع في أيدي أفراد قلائل يتمتعون بأطايب العيش، بينما هناك ملايين من العمال محرومون لا يكادون يجدون ما يتبلغون به. ثم تنبأ بثورة هائلة تقوم بها الغالبية الساحقة من الطبقات الفقيرة يذبحون فيها الأقلية الضئيلة من أصحاب رؤوس الأموال.
وبذا يسدل الستار عن مأساة كبرى قد تكون خاتمة الحياة الإنسانية أو بدء حياة جديدة هانئة سعيدة.
وقد كان لهذه النظرية أثر عميق في كتابات ويلز عن مجتمع المستقبل إلا أنه ذهب شوطاً أبعد، فزعم أن الفروق بين العمال وأصحاب رؤوس الأموال ستتسع فلا تقتصر على نوع المعيشة بل سيتناول الجسم والعقل فينقسم البشر طائفتين متنابذتين متفاوتتين. طائفة قوية جبارة تسمو إلى أكثر ما يمكن أن يسمو إليه إنسان، فتكون نوعاً بذاته له مميزاته. ثم طائفة أخرى تنحط إلى أقصى حدود الإنسانية. مكانها تحت الأرض. وعملها آلة تديرها، ويكون من نتيجة المعيشة التي تعيشها أن يكيف عقلها فيصبح قاصراً محدوداً ويشوه جسمها فلا يصير قادراً إلا على حركة واحدة يأتيها.
ويشتد هذا الاختلاف وضوحاً. ويقوى هذا التباين ظهوراً، حتى تختفي أوجه التشابه بين الفريقين فلا تمازج بينهما ولا تزاوج ولا عاطفة هناك ولا علاقة، اللهم إلا تحكم قوي في ضعيف.
وهنا يتردد ويلز كثيراً. فهو لا يملك إلا أن يتساءل. أهذا هو الفصل الأخير من رواية الإنسانية؟ أم ذلك بداءة لثورة يثورها سكان ما تحت الأرض يحاولون فيها تخلصاً من ربقة العبودية الثقيلة؟
ويتحدث ويلز عن هذه الثورة ولكنه يتهرب من التكهن بنتيجتها الحاسمة، فهو في شك وأنت تعجب لهذا الشك. فكيف يمكن لقوم قد هزلت أجسامهم وضعفت عقولهم أن يصمدوا لطائفة لها من العقل أرقاه ومن الجسم أقواه؟
ولكن ويلز يعود فيعطيك صورة أخرى لهؤلاء الجبابرة من رجال الغد. فهم بعد أن

استكشفوا ما في السماوات والأرض وبعد أن تسنموا الرقي حتى قمته لا يجدون ثمة عملاً يعملونه، أو معضلة يفكرون فيها، أو شاغراً يصرفون فيه ذكاءهم، فيلجئون إلى الرفاهية والتهتك ينهلون منها الكأس حتى الثمالة. وإلى الترف والخلاعة ينسون بها ما قد يلحقهم من سأم قتال، فتخبوا ملكاتهم وتضعف قواهم وتنحل عظمتهم
ولا شك أن حرباً تقوم بينهم وبين عمال الأرض السفلى هي حرب سجال!
لا يسعك وأنت تقرأ لويلز إلا أن تنسى نفسك فتتحمس إذا ما تحمس وتضحك معه إذا ما ضحك، وتتشاءم لتشاؤمه. وينسيك إعجابك بالقصة وبغرابة أفكارها وروعة خيالها. ينسيك موطن الضعف من ويلز.
فهذه الصور التي صورها عن التطور البشري صور مغرية فيها بعض الحق وناحية من الصواب، ولكنه ليس كل الحق ولا معظم الصواب. فهو قد تجاهل عاملاً هاماً له أثره الخطير. تجاهل هذا التوازن الدقيق الذي نشاهده في قوى طبيعية. فلا يرتفع جزء من الأرض إلا انخفض جزء، ولا يهدم بناء إلا وقام بناء ولا يتشقق صخر إلا التأم آخر.
وهكذا لا يمكن أن يقوى العقل الإنساني إلا على حساب الجسم ولا تتاح للعضلات أن تضخم إلا إذا فقد العقل بعض قوته. وهذه الصورة التي أعطاها ويلز عن إنسان الغد مبالغ فيها إذ يختل فيها التوازن اختلالاً واضحاً.
فها هو الإنسان إنسان منذ العصور التاريخية وليس هناك من يزعم أن مقدرة العقل الإنساني أو قوة جسمه قد زادت زيادة تسمح لويلز أن ينسب لرجل الأجيال القادمة قوة عقل خارقة يصحبها قوة جسدية لا حد لها.
وهذا التوازن ينساه مرة أخرى في الصور التي يبدعها عن مجتمع الغد. فنظرية ماركس القائلة بأن الثروة مصيرها إلى التجمع في أيدي نفر قليل، والتي أخذ بها ويلز نظرية لا يتاح لها أن تتحقق، فالثروات اليوم تتجه إلى التوازن، وعامل اليوم يساهم في الشركات التي تقوم عليها الأمور، والمال يتبدد ويتوزع بين الأفراد، والأزمات المتلاحقة تهدد من كيان بيوت المال الضخمة، ومن كبار الأغنياء أكثر مما تقلل ثروة الفقير أو العامل الأجير.
لذلك نأبى تصديق ويلز فيما ذهب إليه من أن الإنسانية قد تنقسم طائفتين متباينتين. بل نرى عكس ذلك، فالعامل في رقي عقلي يساعده ما يجد من ساعات فراغ كان لا يجدها بالأمس، ويعاونه أتساع مجال الثقافة وانتشار التعليم انتشاراً سريعاً.
ثم أن الفروق الاجتماعية في طريقها إلى الزوال، فالكل قد تساوواليوم في الحقوق والواجبات، والكل قد يتساوون غداً في العلم والثروة. ونظام الطبقات الذي كان يضع فواصل من حديد بين الشريف والحقير هو في سبيله إلى الانهيار ان لم يكن قد أنهار منذ زمان.
ثم شيء آخر نوافق عليه ويلز ونخالفه فيه، نوافقه على ما يكتبه من تطور الإنسان الآلي وتقدمه في إخضاع عناصر الطبيعة. ولكنا نخالفه في أن هذا التطور قد يتجه بالإنسان إلى ناحية مادية لا يخضع فيها إلى قانون ولا يؤمن بدين ولا يعترف بخالق. إن ناساً كهؤلاء لا
يستطيعون مكثاً في الأرض ولا مضياً. فهم بماديتهم وجشعهم وإسفافهم الخلقي لابد متقاتلون، متناجزون، فلا يبقي فرد منهم فردا.
ولا تحسب أن هذه الملايين من السنين التي مضت على تاريخ البشرية ستنتهي إلى مخلوقات ويلز البشعة. فنحن نؤمن أن الطبيعة التي طورت القرد إلى إنسان حسن التكوين، متناسق الصورة قوي الشعور، طبيعة فنانة ذكية عاقلة! وليست هي مجموعة من المصادفات الهوجاء.
ونحن نظن أن الإنسانية التي كانت تسير على غير هدى بالأمس قد أصبحت اليوم شاعرة عاقلة تحس نفسها وتتساءل عن مصيرها، ولقد شارفت الأفول شمس هذا اليوم الذي كان يسير الناس فيه عمياً لا يبصرون، ويخضعون ويتألمون ولا يدرون، لماذا يتألمون. وسيغرب هذا اليوم ليشرق غد عن الإنسانية أكثر استثارة، وأقل حيوانية وأنزع إلى الكمال، وأعرف بمواطن الضعف، وبطرق العلاج.
هذا ما يحملنا على الاعتقاد بأن هذه الناحية من كتابات ويلز الاجتماعي ليست بالناحية الخالدة وان كانت هذه الناحية هي التي برز فيها واشتهر بإتقانها.

لقد طرق ويلز موضوعاً آخر أبدع في علاجه إبداعا لا شك أنه رافع اسمه إلى الخلود. وهذا ما يحدونا إلى الكتابة عنه مرة أخرى؟

. . . شخصية

(لقد سئمت أن أكون على الدوام رجلاً عاقلاً)

(أوليفر جولد سميث)

يتكلف الصدق في أبريل ليصدقه الناس حين يكذبون العالم بأجمعه، ثم يطلق نفسه على سجيتها باقي شهور السنة، فيكذبه الناس حين يصدقون العالم بأجمعه.

وهو يحاول قدر طاقته أن يصوغ حقائقه المكذوبة صياغة صادقة، ولكن مقدرته الفنية على ذلك ليست كبيرة وإن كانت في نظره، ومن غير تصريح، عظيمة بالغة!!

وأؤكد أنه لو شك يوماً في مقدرته على سبك الأكاذيب، لخجل، وكف، واتزن.

ولكنه لأمر ما، غريزي ولا شك، يكذبك دون أن يشعر أنه يكذب حقاً، أو هو يتصور من فرط عنايته بالصياغة أنه يصدقك حين يتكلم إليك. أستطيع أن أفهم هذا من أنه يتألم إذا اتهمته بالكذب، ويغضب لكرامته غضب من يروي لك خبراً صادقاً وأنت تشك في روايته.

وهو يواجه الناس بمقدرة عظيمة على دفع اتهامهم إياه، وينبري لهم ليرد عن نفسه سيل الانتقاد الجارف. وهو بارع في مواجهته لأكثر من شخص في الوقت الواحد.

وهو إذ يروي لك رواية، يهذبها قبل أن يلقيها إليك بقدر ما تسمح مقدرته على التهذيب، ثم هو يعود فيتدارك ما قد يكون فيها من تنافر وتضارب مع بعض الحقائق التي قد تسارع إلى رأس سامعه، فينتظر ريثما يفهم نوع استقبالك لحديثه واستساغتك له، فإذا لم يكن بد من الاستدراك، سارع إلى الاعتذار بقوله: (إنني لم أحسن التعبير) ثم يروح يفكر، ويفكر، ويزيد على الاعتذار السابق قوله: (إنني اقصد بالضبط أن أقول كذا وكذا)

وأنت مضطر إلى أن تقبل الاعتذار عن ضعف التعبير أولا، ثم عن ترقيع الرواية ثانياً، لأنه صديقك، وللصداقة حقها. ثم لسبب آخر غير الصداقة إذا كنت ممن يرون الحياة ثقيلة إذا ظلت دائبة على الصدق، وتحري الحقيقة. . ففي الكذب متسع عظيم للخيال الشارد والخيال المتزن، وفي الصدق تحقيق وتدقيق، وأخذ بأسباب الحقيقة، والحقيقة لا تتعدد، وصاحبنا من أنصار التنويع والتعدد، فهو بما يخترع من الروايات، وما يلفق من الأحاديث، ينتقل بك من الجد الثقيل على النفس إلى جد آخر، من صنعته هو! بلغ فيه عنده حد الإبداع في السبك وحسن الأداء، فإذا ضيقت عليه المسالك، وأخذته من كل ناحية، وأعلمت المنطق في قضاياه، وسلطت الحقيقة المرة على خياله الحلو، انحصرت عن

صاحبنا كل مسعفة من حسن الأداة وبراعة الحبك، وتخلت عنه فجأة شياطين الأكاذيب التي اعتادت أن تواتيه بالهام كلما استلهمها، وفزع إليها.

والحق أن تلك الشياطين كانت أطوع له من بنانه، فلم تكن تشعر أن هناك فترة تمضي بين ضراعته إليها في أحرج مواقفه وبين استجابتها لضراعته، حتى لتكاد تعتقد أنها كانت تلازمه أينما أرتحل، متحفزة لكل نداء، متأهبة لكل تلبية.

وإن أعجب من شئ، فليس ببالغ عجبي من هؤلاء العباقر، ومن اجتماعها على خدمة هذا الرأس الصغير المستدير، ومن مقدرتها على تأليف الصور من الشتات المتنافر، وتركيب الأخيلة من الحطام المتناكر، ثم من عجزها وتخليها فجأة عن النهوض بأعباء المهمة التي أرسلت إليها، حين تهبط ملائكة الحق لتنقذ الموقف. . . فيتعذر إذن أن يجتمع ملاك وشيطان.

فإذا انجابت عن صاحبنا شياطين أكاذيبه، دق موقفه، وتحرج، فمال على محدثه يلتمس عنده المعذرة عن هذا الموقف المتجرد، لا بالقول بعبارة الأسف المألوفة، بل بالانضمام إلى محدثه دفعة واحدة، ومشايعته في رأيه، وفي منطقه، وفي حملته على هذه الأكاذيب الصريحة! حتى لكأنهما يحملان معاً على شخص ثالث!!

فإذا التفتّ إليه التفاتة ذات معنى، تقلص وقطب، ثم هش بغتة، واحمر، ثم غاض الدم من وجهه، وتهدلت شفته السفلى وغمغم، فإذا دققت، فهمت أنه يريد أن يقول ما مؤداه: (وماذا عليّ؟ إني ألفت الكذب ينجي في كثير من المآزق) وهذه هي خلاصة فلسفته التي يصارحك بها في الوقت المناسب.

تردد يوماً ما في قضاء إجازة قصيرة بين بلدته وبين القاهرة.
اعتزم أن يزور بلدته لأن فترة طويلة مضت دون أن يرى أهله وذويه.
واعتزم أن يزور القاهرة لأنه مل حياة الريف الرتيبة المملة، وتاق إلى حياة القاهرة الصاخبة بما تستحدث كل يوم من صنوف المسليات، وأراد أن (يشعر بالحياة) على حد تعبيره.
فلما أعتزم السفر إلى بلدته، كلف بأمر من الأمور التي تمت إلى حياة القرى بصلة.
فلما اعتزم السفر إلى القاهرة كلف من صديق له بأمر من الأمور التي لا يسهل قضاؤها
من غير العاصمة. وحمل النقد الكافي لذلك.
ومضت الإجازة كأن لم تكن. وعاد صاحبنا إلى مقر عمله.
والتقى بمن كلفه مهمة البلدة فابتدره بقوله: (أنا آسف جد الآسف، لأني قد مضيت الإجازة كلها في القاهرة!)
فلما التقى بالآخر كان لزاماً عليه أن يعتذر عن تقصيره، فقال: (أرجو المعذرة إذ قد مضيت إجازتي كلها في البلدة، إذ وردتني رسالة برقية في آخر لحظة تستدعيني إليها على عجل لأمر عائلي).
وكان يلذ لي شخصياً اصطناعه لهذه الأحاديث (أحياناً) فأكون في نظره الصديق الذي ما بعده صديق! وأكون أقرب شخص إلى قلبه، وأقرب فكر إلى فكره، ويكون منطقي طبق الأصل من منطقه! (كذا)
وأنا حين أكون هذا الشخص أجري على حكمة أوليفر جولد سميث (لقد سئمت أن أكون رجلاً عاقلاً)
ولكني كنت أضيق بصاحبي ذرعاً، حين كانت نزعة الحقيقة والعقل تغلب عندي على كل خيال حلو تنتجه قريحة صاحبي، فأقف منه فجأة موقفاً يصفه هو بالعداء، وأصفه أنا بتحري الحقيقة والتزامها ليس غير.
فإذا بلغت الحال بنا هذا الحد من التحرج، بحثت لصديقي عن هنة من هناته التي تمتُّ إلى الكذب الصريح بصلة قريبة.
وحضرني في آخر موقف أن أعنفه على إهماله إرسال بطاقة (المعايدة) التي اعتاد الناس تبادلها في العيد، فابتدرني بهذا السؤال:
- أليس عنوان بيتكم رقم 19 شارع. . . . .؟
- قلت نعم (متخابثاً)
- قال لقد أرسلت لك المعايدة على هذا العنوان.
- قلت وما رأيك إذا كان رقم منزلنا 16 لا 19؟
- فسكت صاحبي سكوتاً أشفقت عليه منه، ومع ذلك لم يمنعني إشفاقي عليه من أن أذكره بفلسفته الخالدة: (إني ألفت الكذب ينجي من المآزق)!!!
- وسألته: إلى أي حد تنطبق فلسفتك على هذا المأزق؟. . وكيف خلاصك منه؟. .

إبراهيم إبراهيم جمعة
(ليسانسييه)
مطالعات في التصوف
عوارف المعارف، ماهية التصوف، أصل كلمة صوفي
- 3 -

لعل حظ كل من البابين الخامس والسادس من الأهمية والقيمة العلمية أكثر من حظ غيرهما. فهذان البابان يدلان دلالة واضحة مستقيمة لا ليس فيها ولا اعوجاج على ماهية التصوف وكنهه وعلاقته بالفقر والزهد، والفرق بينه وبين الفقر والزهد. هذا هو ما يتناوله الباب الخامس من كتاب عوارف المعارف فيما قدم لنا فيه مؤلفه من تعريفات متنوعة للتصوف. أما الباب السادس فأنه يظهرنا على مسألة ليست أقل من سابقتها خطراً. ولكنها على العكس أبعد ما تكون أثراً على أعانتنا على فهم التصوف وما مر به من أطوار فهماً مستقيماً. وأعنى بها مسألة الأصل الذي صدرت عنه كلمة صوفي وتلك مسألة قد عرض لها مؤلف عوارف المعارف في نهاية الباب الأول من كتابه فأشار

إشارة موجزة إلى أن هذه اللفظة لم تذكر في القرآن وإنما تركت وذكر مكانها لفظ المقرب. وإذن فالمألوف يفصل في الباب السادس من كتابه ما أجمل في الباب الأول. وهو يعرض علينا في شئ من الاستطراد الآراء المختلفة التي رآها العلماء المختلفون في الأصل الذي اشتقت منه هذه الكلمة. وهو ينتهي من هذه الآراء كلها على الرأي الذي يلائم طبيعة الاشتقاق اللغوي من ناحية، ويدل دلالة صحيحة على طبيعة الصوفية وماهية التصوف من ناحية أخرى. وبالجملة يمكننا أن نقول أن هذين البابين من كتاب عوارف المعارف أقدر على إعطائنا فكرة عامة شاملة تستطيع أن تظهرنا على لب التصوف.

1 - ففي الباب الخامس يقدم إلينا المؤلف طائفة من التعريفات اختلفت في مبانيها واتفقت في معانيها. وهو يظهرنا من خلال هذه التعريفات على ماهية التصوف والفقر والزهد. ثم هو ينتهي من هذا كله إلى أن هناك فرقاً بين التصوف من ناحية وبين كل من الفقر والزهد من ناحية أخرى. كما أنه ينتهي إلى أن أساس التصوف وقوامه إنما هو الفقر. ولكي أكون لديك صورة صادقة لما أشتمل عليه هذا الباب لابد من أن أقف بك وقفة قصيرة تلم بها بأهم التعريفات التي عرضها علينا المؤلف لتتبين منها ماهية التصوف:

قال رويم: (التصوف مبني على ثلاث خصال: التمسك بالفقر والافتقار. والتحقق بالبذل والإيثار. وترك التعرض والاختيار.) (1)

وسئل الجنيد عن التصوف ما هو. فأجاب بقوله: (أن نكون مع الله بلا علاقة.) (ب)

وقال معروف الكرخي: (التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق. فمن لم يتحقق بالفقر لم يتحقق بالتصوف.) (ج)

وبعد أن ذكر المؤلف هذه التعريفات، تراه قد قدم لنا تعريفات أخرى للفقر والفقير اليك أهمها:

سئل الشبلي عن الفقر فقال: (ألا يستغني بشيء دون الحق) (أ)

وقال أبو الحسين النوري: (نعت الفقير الكون عند العدم. والبذل والإيثار عند الوجود) (ب)

وانتهى مؤلفنا من هذه التعريفات التي قدمت، إلا أن هناك اشتباهاً بين التصوف والفقر. فأنت ترى مثلا أن أشياء بعينها تذكر في معنى التصوف يذكر مثلها في معنى الفقر. وإن أشياء بعينها يرد ذكرها في معنى الفقر يرد ذكر مثلها في معنى التصوف. ومن هناك كان الاشتباه. ومن هنا أيضاً كان لابد من التحقيق الذي يكشف الفاصل بين كل من التصوف والفقر، والفرق الذي يميز ويحدد ماهية كل من التصوف والفقر، وفوق هذا فان الاشتباه ليس قاصراً على التصوف والفقر فحسب وإنما هو قد تجاوزهما إلى التصوف والزهد. وإذن فلابد من التمحيص والتدقيق الذي يبين الفرق بين التصوف والفقر من ناحية والتصوف والزهد من ناحية أخرى. بحيث نلمس الاشتباه الذي يمكن أن يكون بين كل من هذه الأشياء الثلاثة. ونميز الفرق بينها تمييزاً يحدد كلامنا تحديداً من شأنه أن يحول بين اندماج بعضها في بعض أو تشابه بعضها مع بعض. فأنت إذا أنعمت النظر ودققت الفكر في هذه المسألة تبين لك أن التصوف غير الفقر، وان الزهد غير الفقر، وان التصوف غير الزهد. وليس التصوف غير اسم جامع لمعاني الفقر والزهد بإضافة صفات ونعوت لابد منها لكي يكون الرجل صوفياً. فقد يكون الرجل زاهداً وقد يكون فقيراً ولكنه ليس صوفياً. ولكنه لكي يكون صوفياً لابد له بين أن يكون زاهداً وفقيراً.

وليس التصوف زهداً أو فقراً بإضافة صفات ونعوت فحسب، وانما هو شيء آخر أبلغ وأروع من هذا كله واقدر على تهذيب النفس، وتنقية القلب، وتصفية الضمير، هو كما قال أبو محمد الحريري: (الدخول في كل خلق سني، والخروج عن كل خلق دني).

وأهل الشام لا يميزون بين التصوف والفقر. فهم يذهبون إلى أن الله وصف الفقراء بالصوفية. وإلى أن الصوفية سموا كذلك لأنهم فقراء. ولكن مؤلفنا قد تناول هذه المسألة بالدرس والتحقيق فأوضح غامضها وكشف عن وجه الحقيقة فيها بحيث أظهر لنا في وضوح وجلاء الفروق بين التصوف والفقر. وأول هذه الفروق هو أن الفقير في فقره متمسك به، راض عنه، مطمئن إليه. وهو في هذا كله قانع بما سيجد عند الله

من العوض. وهو كلما أمعن في التطلع إلى هذا العوض ازداد إعراضاً عما في الدنيا من أعراض زائلة وزخارف باطلة. وأما الصوفي فلا يرغب عن زخرف الدنيا وعرضها ابتغاء هذه الأعواض الموعودة ولكنه يفعل هذا من أجل الأحوال الموجودة. وثاني هذه الفروق هو أن الفقير حين يتمسك بفقره ويمعن في ترك الدنيا وإعراضها إنما يفعل هذا بإرادته واختياره على حين أنك ترى الصوفي قد تجرد من هذا الاختيار وهو الإرادة. فهو في جميع أحواله قد محيت فيه ملكة الاختيار وفنيت إرادته في إرادة الله فناءً تاماً بحيث لا يصدر في شئ الا عن إرادة الله. ولا يرى فضيلة ما في فقر أو غنى، ولكن الفضيلة عنده كائنة فيما أقامه الله فيه من حال. وليس أدل على أن الصوفي قد فنيت إرادته في إرادة الله، من قول الجنيد الذي عرف فيه التصوف بأنه. (هو أن يميتك الحق عنك ويحييك به) فمن هذا ترى الفرق واضحاً بين التصوف والفقر. كما ترى أن التصوف قوامه ودعامته الفقر بمعنى أن الوصول إلى مراتب التصوف إنما يتوسل إليه بالفقر. على أن الفرق بين التصوف والفقر لا يقف عند هذا الحد، وانما هناك فرق ثالث يمكن تلخيصه في أن الصوفي هو من إذا استقبله حالان حسنان أو خلقان حسنان كان مع الأحسن. على حين أن الفقير والزاهد لا يميزان بين الحالين الحسنين أو الخلقين الطيبين. بل هما يختاران من الأخلاق ما هو ادعى إلى الترك والخروج عن شواغل الدنيا حاكمين بعلمهما. وعلى العكس من هذا ترى أن الصوفي يحكم على الأشياء ويستبين الأحسن بما ألهم من عند الله مستعينا في ذلك بصدق التجائه وحسن إنابته وعلمه بربه. وبعبارة أخرى يمكنك أن تقول أن الصوفي لا يرى في الأشياء إلا ما يظهره الله عليه ولا يحكم عليها إلا بما أوحى إليه. فالتصوف على حد قول رويم ليس إلا استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريد. أو هو كما قال بعضهم أوله علم وأوسطه عمل وآخره موهبة من الله تعالى. والصوفي - كما قال سهل بن عبد الله - هو: (من صفا من الكدر. وامتلأ من الفكر وانقطع عن البشر. واستوى عنده الذهب والمدر)

وخلاصة هذا كله هي أن الفقر أساس التصوف وقوامه. وأن التحقق بأحوال التصوف ومقاماته بني على الفقر والزهد فيما اشتملت عليه الدنيا من زخرف ومتاع. وقد قص علينا مؤلف عوارف المعارف قصة رويت عن ذي النون المصري، ولا بأس من إيرادها فهي تظهرنا على ما انطوت عليه نفوس الصوفية من تمسك بالفقر، وإمعان في الزهد، وإغراق في الإعراض عن ملذات الدنيا وشهوات النفس.

قال ذو النون: (رأيت ببعض سواحل الشام امرأة فقلت: من أين أقبلت؟ قالت: من عند أقوام تتجافى جنوبهم عن المضاجع، فقلت: وأين تريدين؟ قالت: إلى رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله. فقلت: صفيهم لي. فأنشأت:

قوم همومهم بالله قد علقت ... فما لهم همم تسمو إلى أحد

فمطلب القوم مولاهم وسيدهم ... يا حسن مطلبهم للواحد الصمد!

ما أن تنازعهم دنيا ولا شرف ... من المطاعم واللذات والولد

ولا للبس ثياب فائق أنق ... ولا لروح سرور حل في بلد

إلا مسارعة في أثر منزلة ... قد قارب الخطو فيها باعد الأبد

فهم رهائن غدران وأودية ... وفي الشوامخ تلقاهم مع العدد

فهذا الشعر وان كان ركيكا مهلهلا ضعيفا إلا أنه يصور لنا في وضوح نفوس الصوفية وقلوبهم وما احتوت عليه هذه القلوب وهذه النفوس من فناء في الله، وذكر له، واتحاد معه، بحيث أصبحت نفوسهم لا تفكر إلا فيه وقلوبهم لا تنزع إلا إليه. وبحيث انهم تجردوا عن كل شهوة، وخلصوا من كل لذة، وتحرروا من هذه القيود الجسمانية التي تفسد على الإنسان حياته الباطنية وتكدر صفاء سريرته النفسية.

وآية ذلك هي أن الصوفي دائم التصفية والتنقية لنفسه مما يشوبها من الأكدار. وهو فوق هذا دائم الحركة والاضطراب بدوام التجائه وافتقاره إلى ربه. والتجاؤه وافتقاره هما اللذان يهذبان قلبه وينقيان نفسه ويضيئان جوانب هذا النفس وهذا القلب بالمعرفة الصحيحة الصادقة التي تكشف له عن حقيقة الله وماهية الأشياء. وعلى هذا ترى انه لابد للصوفي من دوام الحركة والاضطراب بدوام الافتقار والالتجاء وحسن التفقد لمواطن إصابات النفس.

ولنترك الآن الباب الخامس بعد أن وقفنا عند أهم ما اشتمل عليه ولنعرض للباب

السادس حيث يحدثنا السهروردي عن مسألة لها قيمتها العلمية وخطرها العظيم في تاريخ التصوف وفهم الأطوار التي مر بها فهماً صادقا مستقيما. وأعنى بهذه المسألة مسألة الأصل الذي صدرت عنه كلمة (صوفي) والمصدر الذي اشتقت منه ونسبت إليه، والمؤلف حين يحدثنا عن أصل كلمة صوفي يعرض علينا أهم الآراء التي رآها القدماء واختلفوا فيها اختلافاً تجاوزهم إلى المحدثين من المستشرقين وغير المستشرقين من علماء الشرق.

ولعل مؤلف عوارف المعارف أمّيل ما يكون إلى أن هذه الكلمة ليست إلا نسبة إلى الصوف. وهو يستمد في رأيه هذا إلى أن الصوف كان لباس الأنبياء فقد روي عن النبي (أنه كان يجيب دعوة العبد ويركب الحمار ويلبس الصوف. وحكي عن عيسى عليه السلام أنه كان يلبس الصوف والشعر ويأكل من الشجر ويبيت حيث أمسى. فأنت ترى أن هذا الكلام إن صح كان طبيعياً أن يختار المتصوفة لباسهم من الصوف وكان بديهياً أن تكون نسبتهم إلى ظاهر لباسهم الذي ينسج منه. وهذا الرأي ملائم لما أخذ به الصوفية أنفسهم من زهد في ملذات الدنيا بصفة عامة وميل إلى اللباس الخشن وأعراض عن اللباس الرقيق الناعم بصفة خاصة ناهيك بأنه يلائم ملاءمة تامة طبيعة الاشتقاق اللغوي. فيقال تصوف الرجل إذا لبس الصوف كما يقال تقمص إذا لبس القميص. وفق هذا كله فانه نظراً لتقلب أحوالهم ومقاماتهم ودوام تنقلهم لم يكن هناك أمر يقيدهم ويجمع هذه الأحوال وهذه المقامات المتنوعة. ومن هنا كانت نسبتهم إلى ظاهر اللباس الذي اتخذوه مميزاً لهم مشيراً إلى ما يأخذون به أنفسهم من زهد وتقشف وورع. فكان ذلك أبين في الإشارة إليهم وأدل على حصر وصفهم. إذ أن ليس الصوف كان غالباً عليهم لتشبههم في ذلك بالأنبياء والمقربين. ومن هنا ترى أن نسبتهم إلى الظاهر أوفق وأقرب إلى الإقناع من نسبتهم إلى الباطن. فلو نسبوا مثلاً إلى حال ما، أو إلى مقام ما، كان ذلك أقل دلالة وأدنى إلى الغموض والإبهام في الإشارة إليهم.

فمما تقدم ترى أن نسبة الصوفية إلى الصوف أبين في تفهم حالهم وأدل على زهدهم وأقرب إلى التواضع منها إلى أي شيء آخر. وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن تسمية الصوفية بهذا الاسم راجعة إلى نسبتهم إلى الصوفة وخلاصة هذا المذهب هي أنه لما كان الصوفية يؤثرون الذبول والخمول والانكسار والتواضع مثلهم في ذلك كمثل الصوفة الملقاة، كانت تسميتهم بهذا الاسم نسبة إلى الصوفة. وهذا الرأي فضلا عن انه ملائم للدلالة على ما انطوت عليه نفوس الصوفية من الإذعان والذلة والخضوع فانه ملائم أيضاً لطبيعة الاشتقاق اللغوي.

وهناك رأي آخر يتلخص في أن الصوفية سموا بهذا الاسم لأنهم في الصف الأول بين يدي الله عز وجل لارتفاع هممهم وإقبال قلوبهم على الله تعالى.

ورأي رابع ذهب فيه أصحابه إلى أن تسمية الصوفية بهذا الاسم راجعة إلى نسبتهم إلى (الصَّفة) التي كانت لفقراء المهاجرين في عهد النبي. على أن هذا الرأي وإن كان صحيحاً من ناحية المعنى إلا إنه لا يستقيم من ناحية الاشتقاق اللغوي. فالصوفية يشبهون (أهل الصفة) من حيث أنهم فقراء مؤتلفون في الله مجتمعون في الله. وأصحاب الصفة هؤلاء كانوا نحوا من أربعين رجلاً لم تكن لهم بالمدينة مساكن ولا عشائر. كانوا يصرفون بياض النهار محتطبين ويقضون سواد الليل متعبدين. آثرهم النبي بحبه لهم وعطفه عليهم وبره بهم حتى انه كان يأكل معهم ويحث الناس على مواساتهم. هم الذين نزلت فيهم الآية الكريمة. (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي) والذين نزلت في أحدهم وهو ابن أم مكتوم هذه الآية الشريفة: (عبس وتولى أن جاءه الأعمى.) فكان ذلك عتاباً للنبي ويقال انه كانت توجد في بلاد خراسان طائفة من أهل الصفة لجأت إلى المغاور والكهوف ولم تسكن المدن والقرى. كان يسميهم أهل خراسان (شكفتية) لأنهم يطلقون على الفار لفظة (شكفت) فنسبوهم إليها. أما أهل الشام فكانوا يسمونهم (جوعية).

تلك هي أهم الآراء التي ذكرها السهروردي في أصل كلمة صوفي وقد أخذ بعدها في إظهارنا على أن هذه الكلمة تجمع المتفرق في الأسماء التي ذكرها الله في القرآن وسمى بها طوائف الخير المختلفة فقد سميت طائفة بالأبرار وأخرى بالمقربين وثالثة

بالصابرين ورابعة بالصادقين الخ. . . وأنت إذا أمعنت النظر فيما اشتملت عليه قلوب الصوفية من بر وصبر وصدق وذكر لرأيت أن لفظة الصوفي قد احتوت كل ما تدل عليه أسماء هذه الطوائف.

ويختم المؤلف هذا الباب بذكر موجز لتاريخ كلمة صوفي فيقول أنها لم تعرف في زمن النبي وانما عرفت في زمن التابعين. وأثبت هذا بذكر كلام روي عن الحسن البصري قال فيه: (رأيت صوفياً في الطواف فأعطيته شيئاً فلم يأخذه وقال: (معي أربع دوانيق يكفيني ما معي) على هذا ذهب بعضهم إلى أن هذا الاسم لم يعرف إلى المائتين من الهجرة. فكان أصحاب رسول الله يسمون الرجل صحابياً حتى إذا انقضى عهد النبي سمي من أخذ العلم عنهم تابعيا. ولما أن تقادم عهد النبوة وانقطع الوحي وأقبل الناس على الدنيا وتهافتوا على زخرفها انفردت طائفة بالعبادة والتقوى وأعرضت عن الدنيا فكانت هذه الطائفة هي الصوفية (الاسم سمتهم. والعلم بالله صفتهم والعبادة حليتهم. والتقوى شعارهم. وحقائق الحقيقة أسرارهم).

محمد مصطفى حلمي. ماجستير في الآداب

بلاط الشهداء بعد ألف ومائتي عام

- 8 -

ويقول السير إدوارد كريزي: (إن النصر العظيم الذي ناله كارل مارتل على العرب سنة 732 وضع حداً حاسماً لفتوح العرب في غرب أوربا، وأنقذ النصرانية من الإسلام، وحفظ بقايا الحضارة القديمة وبذور الحضارة الحديثة، ورد التفوق القديم للأمم الهندية الأوربية على الأمم السامية) ويقول فون شليجل في كلامه عن الإسلام والإمبراطورية العربية: (ما كاد العرب يتمنون فتح أسبانيا حتى تطلعوا إلى فتح غاليا وبورجونيا. ولكن النصر الساحق الذي غنمه بطل الفرنج كارل مارتل بين تور وبواتيه وضع لتقدمهم حدا، وسقط قائدهم عبد الرحمن في الميدان مع زهرة جنده، وبذا أنقذ كارل مارتل بسيفه أمم الغرب النصرانية من قبضة الإسلام الفاتكة الهدامة إلى الذروة) ويقول رانكه: (إن فاتحة القرن الثامن من أهم عصور التاريخ، ففيها كان دين محمد ينذر بامتلاك إيطاليا وغاليا، وقد وثبت الوثنية كرة أخرى إلى ما وراء الرين، فنهض إزاء ذلك الخطر فتى من عشيرة جرمانية هو كارل مارتل، وأيد هيبة النظم النصرانية المشرفة على الفناء بكل ما تقتضيه غريزة البقاء من عزم، ودفعها إلى بلاد حديثة). ويقول زيلر (كان هذا الانتصار بالأخص انتصار الفرنج والنصرانية، وقد عاون هذا النصر زعيم الفرنج على توطيد سلطانه لا في غاليا وحدها ولكن في جرمانيا التي أشركها في نصره): (على أن هناك فريقاً من مؤرخي الغرب لا يذهب إلى هذا الحد في تقدير نتائج الموقعة وآثارها، ومن هذا الفريق المؤرخان الكبيران سسموندى وميشليه. فهما لا يعلقان كبير أهمية على ظفر كارل مارتل. ويقول جورج فنلى: (إن أثرة الكتاب الغاليين قد عظمت من شأن تغلب كارل مارتل على حملة ناهبة من عرب أسبانيا، وصَّورته كانتصار باهر ونسبت خلاص أوربا من نير العرب إلى شجاعة الفرنج في حين أن حجابا ألقي على عبقرية ليون الثالث إمبراطور (قسطنطينية) وعزمه مع أنه نشأ جنديا يبحث وراء طالعه ولم يكد يجلس على العرش حتى احبط خطط الفتح التي أنفق الوليد سليمان طويلاً في تدبيرها) ونحن مع الفريق الأول نكبر شأن بلاط الشهداء أيما إكبار، ونرى أنها كانت أعظم لقاء حاسم بين الإسلام والنصرانية، وبين الشرق والغرب، ففي سهول تور وبواتيه فقد العرب سيادة العالم بأسره وتغيرت مصائر العالم القديم كله وارتد تيار الفتح الإسلامي أمام الأمم الشمالية كما ارتد قبل ذلك بأعوام أمام أسوار قسطنطينية وأخفقت بذلك آخر محاولة بذلتها الخلافة لافتتاح أمم الغرب وإخضاع النصرانية لصولة الإسلام، ولم تتح للإسلام المتحد فرصة أخرى لينفذ إلى قلب أوربا في مثل كثرته وعزمه واعتزازه يوم مسيره إلى بلاط الشهداء. ولكنه أصيب قبل وبعد بتفرق الكلمة، وبينما شغلت إسبانيا المسلمة بمنازعاتها الداخلية، إذ قامت فيما وراء البرنيه إمبراطورية فرنجية عظيمة موحدة الكلمة تهدد الإسلام في الغرب وتنازعه السيادة والنفوذ.

محمد عبد الله عنان

المستشرق برجستريسر 5 أبريل سنة 1886 - 18

أغسطس سنة 1933

للدكتور إسرائيل ولفنسون. مدرس اللغة العبرية بكلية الآداب
وقع نظري أثناء مطالعتي في الجرائد اليومية التي وصلتني من ألمانيا على خبر لم يوضع في مكان بارز كأنه ليس من الأهمية في شيء، ورد فيه نعي جوتهلف برجستريسر أستاذ اللغات السامية بجامعة ميونيخ، سقط أثناء رحلة رياضية في جبال الألب من قمة جبل جلوكنر إلى هاوية توفى فيها على الفور، لو وقع هذا الحادث منذ سنوات قليلة لكان قد وضع في مكان أبرز، وعلى حالة تلفت القراء أكثر مما هو في جرائد هذه الأيام، لأن ألمانيا الحالية ليس فيها من يعبأ كثيراً بمن توفي من العلماء المستشرقين، ولكني روعت لهذا الخبر الذي أدمى قلبي وملأه حزناً وأسى.
كان علم الاستشراق قد قطع شوطاً بعيداً في أواخر القرن الماضي في جامعات أوربا على العموم، وفي ألمانيا خاصة حتى وصل ببحوث نولدكه وجولدسيهرويت ويستنفلد وليتش وغيرهم إلى أوج مجده ثم أخذ بعد انتهاء الحرب العظمى ينحدر من قمة الجبال إلى بطون الوهاد ويتضاءل شيئا فشيئا.
ويجب أن يلاحظ أن الحرب العالمية قد أدت إلى انحطاط العلم على العموم في أوربا، لأن التفكير الجدي والقراءة الدقيقة انقطع عنهما الشباب الذي أخذ يميل إلى البحوث السطحية وإلى اكتساب العلم عن طريق الراديو والسينما، كما انتشر في الجامعات توغل جمهرة الطلبة في الشؤون السياسية والحزبية اكثر من توغلهم في البحوث العلمية.
وقد توفي من خيرة الأساتذة المستشرقين (جولدسهر ونولدكه شبيجلبرج وبيجر وهورديتس) دون أن يأتي غيرهم فيملأ الفراغ الذي تركوه في شتى العلوم التي كانوا يضحون حياتهم في سبيلها. وأما الآن فنجد عدداً غير قليل من الأساتذة يملئون أروقة الجامعات في ألمانيا وهم من الذين يناصرون الحزب الذي يقبض الآن على ناصية الحكم في البلاد. . . هذه الأفكار أخذت تقلق بالي في تلك اللحظات التي قرأت في الجرائد الألمانية عن وفاة العالم برجستريسر.
نشأ الأستاذ برجستريسر في أسرة ألمانية مسيحية بروتستانتية وكان أبوه وجده قسيسين في مدينة بلون
من أعمال زكسن بألمانية، ومن هنا يسهل فهم سبب عناية والديه بتربيته الدينية في المدرسة الابتدائية والثانوية، إذ أراد أن يحقق أمنيتهما حتى يكبر تقياً ويصبح صالحاً لرداء الكهنوت ويكون خير خلف لخير سلف، ولكن جوتهلف برجستريسر مال عن هذه الرغبة إلى البحث في اللغات السامية والعلوم الإسلامية حين دخل في جامعة ليبزيج في سنة 1904 وقد درس آداب اللغة العربية عند العالم أوجست فيشر الذي يعتبر إلى يومنا الحالي من قادة النقاد لدى جمهرة المستشرقين، وقد أثرت روح النقد في جستريسر حتى أضحت على كر الزمن من مميزاته البارزة لا في الكتابة وإلقاء المحاظرات فحسب، بل أثناء محادثاته العادية مع محدثيه، كانت لا تفوته كبيرة أو صغيرة دون أن يتعرض لها إذا وجد مجالا للمعارضة أو الانتقاد.
ونذكر بهذه المناسبة إن فيشر، شيخ النقاد، كان على الدوام ينتقد بكل شدة مؤلفات المستشرقين حتى هابه عظماء العلماء في العصر الحاضر، على إن فيشر لم يؤلف المؤلفات الكبيرة كما فعل العلماء الذين انتقد مصنفاتهم بل كان يكتفي بوضع المقالات، وأخذ بعض العلماء يهزءون به ويقولون أن فيشر لا يحب أن ينشر كتبا خوفا من شبح النقد وانتقام النقاد، ومن أكبر عيوب أوجست فيشر أنه بدأ يدون جملة كتب في موضوعات شتى منذ سنين كثيرة ولم ينته منها، إذ من المعلوم انه يعمل منذ ثلاثين سنة في تأليف قاموس عربي علمي دقيق للشعر العربي القديم لم يطبع إلى الآن، وكذلك بدأ في مراجعة جملة مخطوطات لكتاب المغازي للواقدي منذ أمد بعيد وإلى الآن لم ينته منه أيضاً. وكان
كاتب هذه السطور قد التقى بالأستاذ فيشر في مدينة فينا في مؤتمر المستشرقين في سنة 1930 فعرض عليه أن يتم مراجعة بقية الأجزاء من كتاب المغازي للواقدي، فلما سمع فيشر اقتراحه بدا اضطراب على وجهه وسكت طويلا كأنه لم يتمكن من أن يبوح بكلمة، ثم أجاب بعد تفكير طويل: أمهلني حتى أفكر ملياً في هل أكمل الكتاب أم أقدمه إليك مع جميع المخطوطات والصفحات التي بدأت بمراجعتها. . . فلما قصصت حكاية المقابلة مع فيشر للأستاذ يرجستريسر ابتسم ابتسامته الحلوة قال: فيشر لن

. . .يرسل إليك الصفحات التي راجعها أبداً كما لن يخبر أنه عزم على أن لا يتم الكتاب على أن فيشر كان قد درب في جامعة ليبزيج تحت أشرافه عددا لا يستهان به من العلماء حتى أصبحوا من فحول المستشرقين فيما بعد، وكان بينهم الأستاذ جوتهلف برجستريسر.

وبعد أن أتم برجستريسر دراسته الجامعية وقدم رسالة عن حروف النفي وأسماء الاستفهام في القرآن الكريم في سنة 1911 قام برحلة إلى الأقطار الشرقية في سنة 1913 فزار الأناضول وسورية وفلسطين ومصر وما كاد يصل إلى ألمانيا من هذه الرحلة المباركة حتى بدأت الحرب العظمى فدعي إلى ساحة القتال، وظل متنقلا مع الجيش الألماني في أرض بلجيكا وفرنسا إلى أن دعته الحكومة التركية في سنة 1915 لإلقاء محاضرات في جامعة الأستانة، وكان أول عهده يلقب أستاذ، وقد بلغ حينئذ العام الثلاثين من حياته، ولما ذاع صيته دعي لإلقاء محاضرات في جامعات ألمانيا في العلوم الإسلامية واللغات السامية كانت أولها جامعة كونسبرج في سنة 1919 وفي عام 1922 انتقل إلى جامعة برسلو ومنها إلى جامعة هيدلبرج في سنة 1924 ثم دعي إلى مدينة ميونيخ، سنة 1926 التي ظل يدرس بها إلى أن أدركته المنية.

تنقسم مؤلفات برجستريسر إلى أربعة أنواع أصلية، نوع يشتمل كتبه عن اللغة العربية وعلم اللغات السامية، ونوع آخر يبحث في الآرامية ولهجاتها، ونوع ثالث يحتوي على مصنفاته ومطبوعاته في الآداب العربية والعلوم الاسلامية، وأما النوع الرابع فيشمل مقالاته عن علوم اللغة التركية.

على العموم تمتاز كتابة برجستريسر بدقة الجمل القليلة في ألفاظها، الكثيرة في معناها، يعبر عما يجول في خاطره بعد تفكير طويل، وبعد إحاطة بالموضوع من جميع نواحيه،

وإلمام شاق بجميع المراجع الكبيرة والصغيرة مع استعمال الأدلة العلمية الدقيقة، مما يجعل القارئ يحتاج إلى قراءة الكتاب بأناة حتى يقف على النظريات الغزيرة.

ومن أهم ما دون برحستريسر في حياته: كتابه عن قواعد اللغة العبرية، ومما لا شك عندنا أنه اخطر كتاب في موضوعه منذ بدأ البحث في علوم الأمم الشرقية على الطريقة العلمية المألوفة عند الإفرنج، وقد أظهر المؤلف في هذا المصنف أنه وقف على جميع النظريات التي الفت في هذه المادة في جميع العصور بين كتب ومقالات معروفة ومهجورة، وهذا المام يندر أن يوجد بين علماء اليهود أنفسهم.

ومع أن كتابه هذا وضع لجمهرة الطلبة في الجامعات فانه لم يستعمل كثيراً بين هؤلاء لأنهم لم يتمكنوا من فهمه وإدراكه حق الإدراك، لذلك اصبح كتاباً للأساتذة والمدرسين في المعاهد العليا كما هو شأن جميع كتب برحستريسر التي انحصر تداولها بين أيدي الذين نضجت عقولهم وتمرنوا على مطالعة الموضوعات العويصة والكتب الفنية الدقيقة.

وله كتاب آخر سمى المدخل إلى اللغات السامية ويجب أن يلاحظ أنه بعد أن نشر مصنف نولدكه عن اللغات السامية، وكتاب بروكلمان الكبير عن الموازنة بين قواعد اللغات السامية جاء برجستريسر وأضاف كتاباً جديداً في هذه المادة، وكان الناس يتوقعون أنه لا يأتي بجديد، ولكن ظهور الكتاب أزال كل أثر لتلك المخاوف، إذ جاء جديداً في اسلوبه، فياضاً في نظرياته، ثائراً على القديم، يلقي أحكامه الجديدة ويهدم قضايا مألوفة ومعروفة.

وله كذلك كتاب في جغرافية اللغة في سورية وفلسطين وضعه لاغراض عملية لرجال الجيش الألماني في البلدان العربية أثناء الحرب العظمى.

وقد ذكرنا رحلة الأستاذ برجستريسر إلى البلدان الشرقية، وكان قد أقام مدة من الزمن في دمشق بحث فيها بحثاً علمياً دقيقاً عن اللهجة العامية في دمشق، كما وجه عناية شديدة إلى البقية الباقية من الأرهاط السريانية التي تقطن في المعلولة وهي ضاحية من ضواحي دمشق. وصنف رسالتين إحداهما عن اللهجة السريانية عند أهل معلولة والأخرى عن الروايات الخرافية الجديدة عند الآراميين.

على أن الأستاذ برجستريسر وجه جل عنايته إلى البحث في العلوم الإسلامية والعربية،

وكانت باكورة مصنفاته في هذه المواد رسالته عن حنين بن اسحق ومدرسته، ومما لا شك
فيه أن اللذين يكتبون عن الفلسفة اليونانية وأثرها في الفلسفة الإسلامية وعن حركة الترجمة والنقل من اليونانية إلى العربية بواسطة السريان، يجدون في هذا السفر مادة غزيرة لا يمكنهم أن يستغنوا عنها مطلقاً.
وله كتاب آخر وهو عظيم الخطر في العلوم الإسلامية أعني به ما كتبه عن مصاحف القرآن الكريم. كان الأستاذ نولدكه قد ألف في أواسط النصف الثاني من القرن التاسع عشر كتاباً عن تاريخ القرآن كان له الدوي العظيم والأثر البعيد في أندية العلماء في أوربا، ولما احتاج الكتاب إلى تنقيح وزيادات وكان الأستاذ نولدكه قد توغل في بحوث أخرى تناوله الأستاذ شوللى واخرج الطبعة الثانية من كتاب تاريخ القرآن الكريم مع زيادات وملاحظات كثيرة، ولم يكن الكتاب كمل بعد، لذلك أتم برجستريسر ما بدأ به نولدكه وشوللي فدون الجزء الثالث من تاريخ القرآن الكريم وهو كتابه عن المصاحف، وقد رأى الأستاذ برجستريسر أن يبحث في قراءات القرآن وهي مادة لم يكن ليشتغل فيها غيره من كبار المستشرقين، فقضى سنين طويلة يراجع بصبر وأناة كل ما دون في أمهات المصنفات الإسلامية في هذه المادة من كتب مطبوعة ومخطوطة، وكانت نتيجة هذه الأبحاث الطويلة أنه طبع (1) كتاب غاية النهاية في طبقات القراء لشمس الدين أبي الخير محمد الجزري المتوفى سنة 832 هـ (2) كتاب شواذ القراءات لابن خالويه (3) رسالة باللغة الألمانية عن القراءات القرآنية الشاذة في كتاب المحتسب لابن وهو آخر مصنف وضعه الأستاذ برجستريسر في حياته، ومما يلفت الأنظار أن هذا الكتاب مقدم إلى الدكتور طه حسين.
ويجب ألا يغيب عن البال إن الأستاذ برجستريسر قد أتقن ما عدا اللغات السامية: الفارسية والتركية أيضاً، وقد وضع جملة مقالات عن آداب هاتين اللغتين نشرت في مجلات المستشرقين في مناسبات شتى كان الأستاذ أنوليتمان
المستشرق الشهير صاحب المدونات عن الكتابات العربية قبل الإسلام، المعروفة بالخطوط الثمودية واللحيانية (راجع كتاب تاريخ اللغات السامية لكاتب هذه السطور ص 175 - 188) بعد أن ألقى محاضرات في الجامعة المصرية في السنة الدراسية 1928 - 1929 ولم يستطع الرجوع إلى الجامعة بعد ذلك الحين أشار على الهيئات الرسمية بالجامعة
المصرية بأن يدعو الأستاذ برجستريسر لإلقاء محاضرات في الجامعة المصرية.
وقد قوبل الاقتراح ولبى الأستاذ برجستريسر دعوة الجامعة وحضر إلى القطر المصري وكان مجيء برجستريسر حادثاً خطيراً في حياة الجامعة المصرية إذ كان الأساتذة والمدرسون يقبلون عليه ويحضرون مع الطلاب محاضراته النفسية، وكان يلقي في ذلك العام (1930) محاضرات عن التطور النحوي للغة العربية. وكان في محاضراته الأولى كثير العجمة والإبهام في لغته العربية، وكان يقرأ المحاضرة من الورقة المكتوبة التي كانت أمامه، ثم أخذ بعد جملة أسابيع يتحرر شيئاً فشيئاً من الكراس، وأخذ يرتجل الجمل ارتجالاً ويفصح في الكلام افصاحاً، ثم رجع في سنة 1932 إلى مصر وألقى محاضراته عن اللهجات العامية في الموصل. كان يفيض كالبحر الزاخر بلغة عربية فصيحة كانت مفهومة واضحة لجمهرة الطلبة ويجب أن يقال بكل صراحة إن عدد الحاضرين عند برجستريسر كان في بادئ الأمر كبيراً، ثم أخذ ينقص على كر الزمان إلى أن انحصر الحاضرون في طلبة قسم اللغات السامية فقط، والسبب في ذلك يرجع إلى أن محاضرات برجستريسر كانت فنية قبل كل شيء أي إن الذين لم يدرسوا اللغات السامية لم يفهموا كثيراً مما كان يلقي الأستاذ، وفوق ذلك فأن عقلية برجستريسر كانت دقيقة وعميقة وكانت محاضراته موجهة إلى أصحاب الثقافة الراقية قبل كل شيء.
لم يكن برجستريسر أكبر الأساتذة سنا، ولكنه كان أعلاهم مقاما وأغزرهم علما وكانوا يوجهون إليه الأسئلة حتى يقفوا على آرائه في كثير من الموضوعات ومن هنا ادخل برجستريسر في هيئة التحرير في المجلة العلمية الشهيرة في أدبيات وكان مدة من الزمن رئيس التحرير في المجلة الألمانية للعلوم السامية. كان الأستاذ برجستريسر يسرف في إجهاد نفسه حتى أضناه العمل لأنه كان فوق البحث والفحص لتنظيم

محاضراته لطلبة الجامعة المصرية، يمضي ثلاثة أيام كاملة من الصباح إلى الغروب في المكتبة الملكية يجلس إلى مائدة في غرفة منفردة ويراجع مخطوطات في قراءات القرآن، ثم اضطر إلى ملازمة الفراش، فعنفه الأطباء على اجتهاده المفرط الذي ينذر بالخطر وأشاروا عليه بترك العمل في المطالعة والتأليف ولكنه لم يحفل بهم.

وكان برجستريسر يحب الجبال، والرياضة في الجبال، يتنزه أسابيع كاملة على خلوة بنفسه، وفي اليوم الثاني عشر من شهر أغسطس المنصرم صعد جبل جلوكز الشامخ فحدثت الفجيعة العظمى إذ زلت قدماه من ذروة الجبل الشاهق وسقط إلى هاوية فتوفي على الأثر وكان قد بلغ الثامنة والأربعين من عمره حين قضى نحبه.

في الأدب العربي

ابن خلدون ومكيافيللي

للأستاذ محمد عبد الله عنان

بعد وفاة ابن خلدون بأكثر من قرن، وضع نيكولو ميكافيللي المؤرخ والسياسي الإيطالي كتاباً يتبوء في التفكير الغربي مكانه كتلك التي تتبوأها مقدمة ابن خلدون في التفكير الإسلامي. ذلك هو كتاب (الأمير) وهو كأثر ابن خلدون قطعة بديعة من التفكير السياسي والاجتماعي، تمتاز بكثير من القوة والطرافة والابتكار الفائق. وإذا لم يك بين الأثرين كثير من أوجه الشبه المادي، فان بينهما كثيراً من أوجه الشبه المعنوي، وبين الذهنين بالأخص مشابهة قوية من حيث الظروف والبيئة التي تكون كل فيها، ومن حيث فهمه للتاريخ والظواهر الاجتماعية، ومن حيث قوة العرض والاستدلال بشواهد التاريخ.

ونستطيع أن نرجع كثيراً من أسباب هذه المشابهة بين المفكرين العظيمين إلى تماثل عجيب في العصر والظروف السياسية والاجتماعية التي عاش كل منهما فيها. فقد كانت الإمارات والجمهوريات الإيطالية التي عاش ميكافيللي في ظلها تعرض في إيطاليا نفس الصور والأوضاع السياسية التي تعرضها الممالك المغربية أيام ابن خلدون، من حيث اضطرام المنافسات والخصومات فيما بينها، وطموح كل منها إلى افتتاح الاخرى، وتقلب إماراتها ورياساتها بين عصبة من الزعماء والمتغلبين. وقد اتصل ميكافيللي بهذه الدول، وقضى عصراً في خدمة إحداها وهي وطنه فلورنسا (فيرنتزا) وانتدب لمهام سياسية مختلفة؛ واستطاع أن يدرس عن كثب كثيراً من الحوادث والتطورات السياسية التي تعاقبت في عصره، وان يجعل من هذا الدرس مادة لتأملاته عن الدولة والأمير، كما جعل ابن خلدون من الحوادث التي عاصرها واشترك فيها مادة لدرسه وتأملاته.

على أن المفكر المسلم أغزر مادة وأوسع آفاقاً من المفكر الإيطالي. ذلك أن ابن خلدون يتخذ من المجتمع كله وما يعرض فيه من الظواهر مادة لدرسه، ويحاول أن يفهم هذه الظواهر وأن يعللها على ضوء التاريخ، وأن يرتب على سيرها وتفاعلها قوانين اجتماعية عامة. ولكن ميكافيللي يدرس الدولة فقط، أو يدرس أنواعاً معينة من الدول، هي التي يعرضها التاريخ اليوناني والروماني القديم، وتاريخ إيطاليا في عصره، ويدرس شخصية

الأمير والمتغلب الذي يحكم الدولة، وما يلحق بها من الخلال الحسنة أو السيئة، وما يعرض لها من وسائل الحكم. وهذه الدراسة المحدودة المدى تكون جزءاً صغيراً فقط من دراسة ابن خلدون الشاسعة، وهو الفصل الثالث من الكتاب الأول من المقدمة، وهو الذي يدرس فيه أحوال الدولة العامة والملك والمراتب السلطانية. وحتى في هذا المدى المحدود يتفوق ابن خلدون على ميكافيللي تفوقاً عظيماً. ويبتدع هنا نظرية العصبية، ونظرية إعمار الدول، ويتناول خواص الدولة من الناحية الاجتماعية وإن كان ميكافيللي من جهة أخرى يتفوق على ابن خلدون في سلاسة المنطق، ودقة العرض والتدليل، ورواء الأسلوب.

كتب ميكافيللي كتابه (الأمير) سنة 1513 وأهداه إلى لورنزو دى مديتشي (الأفخم) أمير فلورنسا، وهو يشير إلى غرضه من وضع كتابه في قوله للأمير في خطاب الإهداء: (ومع أني أعتبر هذا المؤلف غير خليق بمطالعة محياك، فإني اعتمد جل الاعتماد على عطفك ورقتك في قبوله، فلست أستطيع في إهدائك خيراً من أن اقدم إليك فرصة لتفهم في أقصر الأوقات كل ما عرفته خلال أعوام طويلة، وفي غمار من

المتاعب والأخطار) وفي قوله: (فتناول يا ذا الفخامة هذه الهدية الصغيرة بنفس الروح الذي أرسلها به، وإنك إذا قرأته بإمعان وتأمل، فسوف تعرض خالص رغبتي في أن تظفر بهذه العظمة التي يمنى بها حسن الطالع وتمنى بها خلالك) وإذن فقد أراد ميكافيللي أن يقدم كتابه (الأمير) مرشداً لأمراء عصره يرشدهم إلى أمثل طرق الحكم، وأمثل الوسائل لسيادة الشعوب التي يحكمونها. وميكافيللي يستمد آراءه ونظرياته من حوادث التاريخ القديم. وبالأخص من حوادث عصره التي شهدها وخبرها.

ويرتب عليها أحكاماً وقواعد عامة، كما يرتب ابن خلدون مثل هذه الأحكام والقواعد على دراسته للمجتمع. ويبسط ميكافيللي دراسته في بحوث موجزة ويبدأ بالحديث عن أنواع الإمارات، ووسائل اكتسابها، وعن الوسائل التي تحكم بها المدن أو الإمارات التي كانت تعيش في ظل قوانينها قبل أن تغلب، وعن الإمارات التي تقوم بالفتح وكفايات الأمير الشخصية، وعن تلك التي تغنم على يد آخرين أبطرق الحظ، أو تلك التي تغنم بالغدر والخيانة. وعن الإمارات المدنية والدينية، وعن أنواع الجيوش والجنود المرتزقة، وما يجب أن يعرفه الأمير عن فن الحرب. ثم يتناول بعد ذلك شخصية الأمير، وما يحمد فيه من الخلال وما يذم، وعن الكرم والشح، والرأفة والقسوة

وعن الطريقة التي يجب أن يحفظ بها الأمراء وعودهم، وعما يجب عليهم لتجنب بغض الشعب واحتقاره، وما يجب عليهم لاكتساب الشهرة والمجد، وأخيراً يتحدث عن حجاب الأمير (سكرتارية) وعن وجوب تجنب الملق، وعن الأسباب التي فقد بها أمراء إيطاليا دولهم، وعما يمكن أن يؤديه حسن الطالع في سير الشؤون البشرية؛ ثم يختتم بالحث على تحرير إيطاليا من نير الأجانب أو غزوات البرابرة كما يسميهم.

تلك هي المباحث التي جعلها ميكافيللي قوام فلسفته عن الدولة والأمير. ويبدو بالأخص مما كتبه عن (الأمير) انه يعالج موضوعاً عالجه المفكرون المسلمون قبل ابن خلدون بعصور طويلة، هو موضوع (السياسة الملكية) وهو موضوع يجري منذ القرن الثالث الهجري في التفكير الإسلامي مع بحث أو علم خاص هو علم السياسة على نحو ما بينا في فصل سابق. وقد رأينا مما تقدم أن (السياسة) كانت تفهم عند العرب في العصور الأولى بمعنى ضيق جداً هو شرح الخلال الحسنة التي يجب أن يتصف بها الأمير، والعيوب التي يجب أن يبرأ منها لكي يصلح لرآسة الدولة وتبوء الملك؛ ولكي يستطيع الحكم بأهلية وكفاية. ثم توسع المفكرون المسلمون في فنهم معنى (السياسة) وقسموها إلى عدة أنواع؛ وتناولوا (السياسة الملكية) من الناحية الفقهية وكذا من الناحية الإدارية وبحثوا مركز الأمير من الناحية الشرعية وتحدثوا عن الخطط السلطانية، وظاهر ما يتناوله المفكر الإيطالي من خواص الأمير وخلاله وواجباته هو ضرب مما تناوله المفكرون المسلمون منذ أواخر القرن الثالث الهجري. ومن ذلك ما كتبه ابن قتيبة في كتاب (عيون الأخبار) والماوردي في كتاب (الأحكام السلطانية) والطرطوشي في كتاب (سراج الملوك) والغزالي في كتاب (التبر المسبوك)، ثم ابن الطقطقي في كتاب (الآداب السلطانية). وهو موضوع تناوله ابن خلدون فيما تناوله من أحوال الدول العامة والملك، إذ يتحدث هنا عن حقيقة الملك وأصنافه، وعن معنى الخلافة والامامة، وعن مختلف المذاهب والآراء في حكم الإمامة ثم عن الخطط السلطانية، وحديثه في ذلك يمتاز عن حديث أسلافه بما يتخلل بحثه وتدليله من الملاحظات والتأملات الاجتماعية التي لم يوفق إليها باحث قبله.

على أن ميكافيللي يمتاز في بحثه بروح عملية جافة. وبينما يتحدث المفكرون المسلمون

عن الأمير أو الحاكم كما يجب أن يكون، وعن خلاله المثلى كما يجب أن يكون، إذا بالمفكر الإيطالي ينظر إلى الأمير الأمثل نظرة عملية محضة. فيصفه كما هو في الواقع، ويتصور خلاله المثلى فيما هو حادث بالفعل، ويرتب تدليله ونتائجه على ما أحرز الأمير وأحرزت خلاله من النجاح أو الفشل دون تأثر بما إذا كانت هذه الصور والخلال تتفق مع مبادئ الأخلاق المثلى كما فهمت خلال العصور. ومن هنا تستمد فلسفة ميكافيللي لونها القاتم، وتوصم آراءه ونظرياته السياسية بتلك الصرامة والقسوة والخبث التي جعلتها حتى عصرنا مضرب الأمثال للسياسة الغادرة التي لا ضمير لها ولا وازع، والتي جردت من كل نزاهة وعفة، وتغاضت عن كل المثل الإنسانية

والأخلاقية. وإلى القارئ بعض نماذج من تلك الآراء التي طبعت فلسفة ميكافيللي، وأميره الأمثل بذلك الطابع الأسود.

من طرائف الشعر

آثار شوقية

- 3 -

منظر من رواية الست هدى

السيدة هدى وجارتها زينب تتحدثان في إحدى حجرات منزل السيدة هدى المطل على مسجد أبي الليف بحي السيدة زينب، وقد أخذت السيدة هدى تقص على صديقتها حياتها مع أزواجها التسعة إلى أن قالت عن آخر زوج لازال معها:

الست هدى:

ثم اقترنت بمحام عاطل ... شريب خمر يحتسيها في الضحى

قلَّت دعاويه وقلّ ماله ... وأصبح المكتب منه قد خلا

(عبد المنعم المحامي زوج الست هدى وهو سكران يصعد السلم)

عبد المنعم (منادياً:)

هدى! ضلالْ! أين أنت يا هدى؟ ... أين العجوز؟ أين جدتي هدى

وانكدا زينب! واداهيتاه! ... أتى ولا أعرف من أين أتى

يشتم في السلم:

زينب! خليه دعي ... لا تفرضيه غير سكران هَذَي

رأيته

الست: وكيف؟

زينب: من تحت وقد ... كان من السقف أطل وانحنى

وكانت الحارة منا امتلأت ... فأرسل القيء علينا ورمى

الست: القيء! ماذا قلت؟

زينب: قلت ما رأت ... عيني وما مر على رأسي وما . . .

عبد المنعم وهو بالسلم:

هدى! عجوز النحس، أنتِ قردةٌ ... خطوطك الوحل وكحلك العمى

سمعتِ يا زينب؟

خليه دعي ... لا تفرضيه غير سكران هذى

زينب:

ومرة جاء أبا الليف ضحى ... أذنَّ في الناس يصلون العشا

فضيحةٌ في الخُطّ

الست: وا فضيحتاه! ... ما شهدوا في الحنفيٍّ مثلها

عبد المنعم ولا يزال في السلم:

هدى تعالي يا عتيقة اظهري ... عندي لكِ النعلُ وهذه العصا

الست: سمعتِ يا زينب

زينب: خليه دعي ... لا تفرضيه غير سكران هذى

الست: دعيه يهذي ما شاء=غداً ترين، زينب

ففي غد لي وله ... شأن، غدا يؤدب

زينب: وما الذي عزمت يا=حبيبتي أن تصنعي

الست:

أقذف في القسم به ... وأشتكي وأدعي

إن رجال القسم وال ... نائب والقاضي معي

الست لزوجها:

لتندمن يا لكع ... يا من يقوم ويقع

عبد المنعم وقد سمع صوتها:

ماذا سمعت؟ صوتها! ... أأنت بومتي هنا؟

الآن يا حميزة ال ... خُطِّ أريك من أنا

زينب:

هدى حبيبتي اسمعي ... تعالي اهزلي معي

الست: أنا؟
زينب: اسمعي دعيه
الست: لا
زينب: دعيه يا هدى دعي
زينب:
لا تغضبيه إنه ... ممتلئ ليس يعي
عبد المنعم:
هدى! هدى! أين هدى! ... أين العجوز البالية
خدّاك ضفدعان قد أستَنَّا ... وأذناك عقربان من قنا
وحاجباك والخطوط فيهما ... كدودتين اكتظتا من الدما
وبينَ عينيكِ نفارٌ وجفا ... عينٌ هناك خاصمت عينا هنا
الست:
دعيني أقطع عليه الحذاء ... وأجز الوَقاح على ذنبه
دعيني أضربه حتى يفيق ... فلابد زينبُ من ضربه
زينب:
قد جاء. . هيّا نتقي ... جنونه وهَوَسه
ففي يمينه العصا ... وفي الشمال المكنسة
الست:
سكران يُضرِب ... إذن لنهرب هلم زينب
هذه حجرة نومي ... أسرعي زينب فيها
نحن يا زينب لا نكب ... ح سكران سفيها
(تدخلان الحجرة وتستتران وراء الباب وعبد المنعم يدخل مترنحا)
في الأندلس
أبيات مبعثرة نظمها أمير الشعراء في الأندلس
- 4 -
ويوم من صبا آذار حلو ... فقدناه وما بلغ الشبابا . . .
تصوَّر من حلى النيروز وجهاً ... وجمَّع من زخارفه إهابا
فراق صباحُه صحواً وزهواً ... ولذّ ضحاه حاشية وطابا
تناثر في البطاح حُلى وأوفى ... على الآفاق فانتظم الهضابا
وسالت شمسه في البحر تبراً ... على مثل الزمرد حين ذابا
كأن نسيمه َنَفس العذارى ... طعمن الشهد أو ذقن الخبابا
تمناه ابن عبّاد صبوحاً ... إذا حدثَّ المزاهر والشرابا
وما قَّدرت أن يسجن ظهراً ... ولم تكن القيامة لي حسابا
تشَّعث لمة واغبَّر وجهاً ... ودلَّى مشفراً وافتَّر نابا
وبَّدل حسن ذاك السمت قبحاً ... وأصناف النعيم به عذابا
وضج البحر حتى خيل موسى ... أتى بعصاه أو فرعون آبا
وأبرق في العباب كأن سراً ... بأسطول الجزيرة قد أهابا
كأن شعاعها في الثلج نارٌ ... لفارس حولها ضربوا القبابا
أو الحسناءُ يوم العرس جنَّت ... فمزقت الغلائل والنقابا
فمن سَحَرَ السماء فأمطرتنا ... فكان الدر والذهب الذهابا
تروق العين من بيضاء حال ... كما َترَّبت بالتبر الكتابا
منادف عسجد ظفرت بقطن ... فما تألوه ندفاً وانتهابا
وقطعت الثلوج لكل روض ... وكل خميلة منها ثيابا
فمن صور مجلَّلة فراءً ... وولدان مسربلة جبابا
فتنة الحسن
للشاعر الوجداني احمد رامي
نازعتني إلى اجتلاء الجمال ... فتنة الحسن في بديع المثال
غرة كالصباح رفت عليها ... طرة في سواد جنح الليالي
وعيون تشع بالأمل العذ ... ب وتلقى سحر الهوى والدلال

وفم تبسم الملاحة فيه ... ببريق اللمى وظلم اللإلى
وقوام مهفهف القد ممشو ... ق تهادى في رفق خطو الغزال
طالعتني وكنت أخلس منها ... خطرة الطيف في سنوح الخيال
ثم مرت كما يمر نسيم ال ... روض عبر الغدير بين الظلال
وقضى الله أن أراها أروى ... ناظرى من بهاء تلك المجالي
وسمت الحديث من فمها المفترّ ... عن بسمة الندى في الدوالي
فإذا خفة القطاة إذا اختا ... لت على الماء ساعة الآصال
وإذا رقة النسيم إذا بث ... شكاة المهجور عند الوصال
الأصل والمثال
عجباً أحق ما أحس وما أرى ... أفهذه أنت انبعثت من الثرى؟
هل يرجع الموتى إلى الدنيا ولم ... ينفخ لهم في الصور أو يفن الروى؟
أم صح زعم القوم أن زماننا ... دور تسلسل في العصور مكررا؟
وحياتنا فيه مواسم ثبته ... لا تختفي حتى تعود فتظهرا
لكن، أدار بك الزمان فريدة ... وسها عن الماضين قبلك وازدرى؟
أم قوة الإيحاء بين قلوبنا ... أحيتك، أم هذا خيالك في الكرى؟
لا، لا، فليس يعود من قد ضمه ... قبر ولست بحالم فيما أرى
ولو أن إيحاء يعيدك بيننا ... لاسطاع دفع الموت عنك وأخرا
أفلم تكوني مهبط الإيحاء من ... ألبابنا والموضع المتخيرا؟
ما هذه إلا شبيهتك استوى ... فيها كيانك يوم طاب وأزهرا
طرأت على كطائر متغرب ... لم أدر من أي النواحي قد سرى
أففتنة أخرى ولما استعد ... أمني وقد مال الصبا وتحدرا؟
إن كنت أنت اليوم أنت فأنني ... غيري تداولني الزمان فغيرا
وأعتضت من مرح الصبا هبوبه ... حذرا وتمحيصاً إذا أمر عرا
من ذا الذي دفع الفتاة لموضعي ... لأراك فيها عنوة وتجبرا؟
وأرى عهودك حلوها ومريرها ... بينا المرير بهن كان الأكثرا
هل ضاق وجه الأرض حتى لم تجد ... من أشبهتك سوى طريقي معبرا؟
كم من فراسخ بين قطبيها وكم ... بيدا توارى المشبهات وأبحرا؟
ولم انتحتنى بالرنو ولم أكن ... أعلى الشهود صوى وأروع مظهرا؟
أفليس في هذا دليل تعمد ... لولا مما تك كنت أنت المصدرا؟
ومن الذي يدري؟ فرب إرادة ... للميت فينا دون أن نستشعرا!!
ولعلنا يوماً سنسمع في الثرى ... صوتا ونفهم منه معنى آخرا!!
والآن يا وجها رأيت بضوئه ... آفاق ماض بالظلام تسترا
كن بعض ذا الماضي البعيد ووقني ... ضوءا يضر بمقلتي فتقطرا
محمود عماد
الورقاء
ونائحة من بنات الهديل ... تبث إلى الروض أحزانها
عراها من الدهر غُلْبُ الخطوب ... فهبت تودع بستانها
وفي الصدر من وجدها حسرةٌ ... تكاد تفتت جثمانها
وعز عليها فراقُ الغصون ... وما يملك القلب هجرانها
ففيها مغارس عهد الصبا ... سقتها الغمائم هَتّانها
وفيها سرير الهوى ما يزال ... يحنُّ فيرجِعُ الحانها
فأذرَت مدامعها الغاليات ... وقد خضَّب الدمع أجفانها
وأهوت على النهر تُخفي الدموع ... وتودع جنبيه تحنانها
مواجع تقرؤها في الضلوع ... وتلمح في العين عنوانها
أطافت بها زُمَرُ القانصين ... وأفقدها الدهر أعوانها
فضمت إلى صدرها أفرخا ... أثار التفرق إرنانها
وراحت تؤم فسيح الغياض ... وتبكي مدى العمر أوطانها
دمشق. أنور العطار

. . .!دمر
دُمَّرٌ ماؤها على الدر يهوى ... كمرايا تكسرت من لُجين
سكر الصحب بالمدام وأنى ... نلت بالماء والهوا سكرتين
فحفيف الغصون شاب خرير ... الماء لحناً فألفَّا جوقتين
جلست حول نهر دمر غيد ... صرن والدوحَ حوله جنتين
بردى ما رأيت قبلك نهراً ... يُنبت الغانيات في الشاطئين
ليس عيناي لي بكافيتين ... فوق عيني أبتغي ألف عين
عن يميني وعن شمالي وخلفي ... كل حوراء بضة الساعدين
صرت من دهشتي أدير برأسي ... أتوخى بنظرة نظرتين
دمشق. أحمد الصافي النجفي
العلوم
اكتشاف الكواكب السيار التاسع بلوتو.
للأستاذ عبد الحميد محمود سماحة
تدل كلمة (كوكب سيار) في العربية كما تدل في الأصل اليوناني على صفة نوع خاص من الأجرام السماوية يتحرك في السماء وسط النجوم (الثابتة).
وقد عرف المتقدمون من الكواكب السيارة عطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل وتوهموا طويلاً أن الشمس والقمر كليهما من الكواكب السيارة لتشابه حركتها الظاهرية، فكان المجموع سبعة، وهو (العدد التام) الذي كان له شأن كبير في فلسفة فيثاغورس الرياضية.
ويلاحظ أن اشتقاق أسماء أيام الأسبوع من أسماء الكواكب السيارة، فمثلاً في الإنكليزية يوم الشمس ويوم القمر، ويوم زحل، وما يشابه ذلك في اللغة الفرنسية.
ولما توطدت دعائم نظرية (كبرنكس) عن مركزية الكون (وقد سبق أن تكلمنا عنها هنا في الرسالة) وتمكن السير اسحق نيوتن من تفسير حركة الكواكب السيارة على أساس نظرية الجاذبية المشهورة، تغير وجه المسألة، إذ ثبت أن الشمس ما هي إلا مركز المجموعة الشمسية، وأن الأرض أحد الكواكب السيارة التي تدور جميعها حول الشمس في مدارات دائرية تقريباً.
وإلى ما قبل سنة 1781 لم يكن معروفاً من الكواكب السيارة سوى هذه الستة السالفة الذكر بما فيها الأرض، وفي مساء 13 مارس من هذه السنة رأى السير وليم هرشل أثناء رصده لبعض النجوم جسماً يختلف في شكله عنها، وسرعان ما تحقق أنه ليس من النجوم ولكنه من الكواكب السيارة، فأتم الفلكيون أبحاثهم عنه وحسبوا مداره وحركته في السماء وأسموه (أورانوس) غير أنهم بعد قليل من الزمن لاحظوا أن مواقع أرانوس في السماء تختلف اختلافاً طفيفاً مع ما توقعوه بالحساب على أساس نظرية الجاذبية
ومع أن هذا الاختلاف لم يزد في أية حالة على دقيقتين قوسيتين إلا أنهم لم يستطيعوا أن يغمضوا أعينهم عليه، وكان لابد لتبرير وجوده من أحد أمرين لا ثالث لهما ثم يؤتى بالبرهان العملي عليه.
الأول: أن يكون قانون الجاذبية العام الذي اكتشفه نيوتن والذي حسبت بمقتضاه مواقع اورانوس المستقبلة في السماء قانوناً غير طبيعي أو بعبارة أخرى غير صحيح.
الثاني: أن يكون هناك جسم مادي غير معروف لنا يؤثر في حركة أورانوس بالجاذبية وهو مما لم يعمل حسابه عند حساب مواقع أرانوس المستقبلة.
ومن غرائب المصادفات أن يفترض اثنان من نوابغ الرياضيين وهما جون أدمز الانكليزي، ولافرييه الفرنسي، مستقلا أحدهما عن الآخر، الأمر الثاني وأن يحسبا بمقتضى هذا الفرض مواقع هذا الجرم غير المعروف، ثم يتقدما في وقت واحد تقريباً (أواخر 1845) الأول إلى الأستاذ (تشالز) مدير مرصد كمبردج والثاني إلى الأكاديمية الفرنسية بنتيجة بحثهما النظري.
وفي رأيي أن العلوم الرياضية أو بالأحرى قانون الجاذبية العام لم يسجل في تاريخ البشرية فوزاً مثل هذا الفوز عندما أيدت الأرصاد الفلكية وجود هذا الجرم السماوي بالفعل، وفي نفس الموقع الذي أشار إليه كل من آدمز ولافرييه فقد رآه جال الفلكي المساعد بمرصد برلين في مساء 23 سبتمبر ومن بعده بخمسة أيام الأستاذ تشالز

بمرصد كمبردج وسمى الكوكب السيار الجديد (نبتون).
كان من الطبيعي بعد معرفة مدار نبتون وحركته أن تراقب مواقعه في السماء ليرى هل هي تحقق المستنتج نظرياً فيكون هو آخر الكواكب السيارة، أو هي لا تحققه فيقتضي البحث عن السبب.
وإذا وجد أن هناك اختلافا مثل الذي وجد في حالة أرانوس، أعتقد الأستاذ لويل بمرصد فلاجستاف أنه لابد أن يكون هناك كوكب سيار تاسع يؤثر في حركة نبتون.
وفي سنة 1914 أتم الأستاذ لويل بحثه النظري وحسب مواقع هذا الكوكب السيار الموهوم في أزمنة مستقبلة عديدة غير أنه مات قبل اكتشاف هذا العالم الجديد، فأتم فلكيو فلاجستاف هذا البحث، وأخذوا صوراً متعددة في ليال متعاقبة لتلك المنطقة في السماء التي توهموا وجود الكوكب الجديد فيها، ثم اشتركت مراصد العالم المهمة في هذا البحث حتى تحقق وجوده، وأعلن اكتشافه في 12 مارس سنة 1930 وسمي (بلوتو) لأن (بلوتو) في القصة اليونانية هو أخ كل من المشتري ونبتون وابن زحل وهذا الاكتشاف هو آخر الاكتشافات
الفلكية الحديثة. وربما كان أهم الاكتشافات العلمية في القرن العشرين ولا يقلل من قيمة اكتشافه أن الطريقة التي اتبعت فيه من الوجهة الرياضية هي عينها التي اتبعت في اكتشاف نبتون ولاسيما وأن معرفته من بين النجوم العديدة على الألواح الفوتوغرافية كانت من أشق الأمور حقيقة نظراً لصغر حجمه، ويكفي للدلالة على ذلك أن نذكر أن أصغر النجوم التي ترى بالعين المجردة ألمع من بلوتو بمقدار الف وستمائة مرة.
ويبعد بلوتو من الشمس بما يزيد على ثلاثة آلاف وخمسمائة مليون ميل، ويتم دورته حولها في 250 سنة تقريباً، وقد حسب بعض الفلكيين درجة الحرارة على سطحه فوجدت حوالي مائتين تحت الصفر المئوي، ولم يعرف إلى الآن حجمه بالضبط، ولكن من المحقق أنه من أصغر الكواكب السيارة، وأن حجمه يقرب من حجم عطارد.
ويرى بلوتو في الصورة إلى جانب النجمة الكبيرة رال التوأمين التي هي من القدر الرابع، وبمقارنة الصورتين نجد أن بلوتو وهو المشار إليه بالسهم قد تحرك بين النجوم (الثابتة) في ما بين 19 و 24 مارس 1930 وهكذا تمكنا من معرفته من بين النجوم العديدة الأخرى.
ولا نستطيع أن نقطع من الآن برأي فيما إذا كان (بلوتو) هو آخر الكواكب السيارة أو أن هناك ما هو أبعد منه، غير أن الزمن كفيل بأن يقطع في هذه المسألة مرة أخرى.

مواطن الحياة الأولى

للأستاذ السر آرثر طمسن

ترجمة بشير إلياس أللوس

المواطن الساحلية (1)

في وسعنا أن ننظر إلى عملية التطور السامية من ناحية جديدة، فقد سهلت للحيوان أن يخضع لسيطرته جميع الأماكن الملائمة للحياة، ويجعل المحيط خادماً لمصلحته ومصلحة نوعه.
يظن أن العضويات الحية استوطنت السواحل البحرية أولاً لما في تلك المناطق من ظروف ملائمة للحياة، فهي قليلة الغور غنية بالنور والهواء والغذاء ولاسيما أن الأعشاب البحرية النامية في تلك الأماكن تجهز المواد الغذائية بمقياس واسع. إن هذه المناطق مأهولة في الوقت الحاضر بممثلي جميع أصناف الحيوانات تقريباً من النقاعيات إلى الطيور الساحلية واللبائن.

المواطن البحرية (2)

إن الموطن البحري يشمل جميع سطوح المياه الغنية بالنور عدا المناطق الساحلية القحلة. ويظن أن الحيوانات استوطنت هذه الأماكن لتجانسها ووفرة ما فيها من خزيات مجهرية تصلح طعاماً لها. إن هذه النباتات المجهرية تستمكن في أجسام حيوانات دقيقة كالقشريات البحرية - التي تعتاش عليها الأسماك، وهذه بدورها تصبح طعاماً للسلاحف المفترسة والحيتان ذوات الأسنان. وبهذا الاعتبار يظن أن البحر المكشوف كان المواطن الأصلي للحياة. وقد يكون الأستاذ (شرش على صواب في تصوره أن الحياة البحرية تقدمت على الحياة الساحلية.

أعماق البحار (3)
يظن أن قعر البحار العميقة كان موطناً ثالثاً للحياة؛ ففي ذلك المحيط البارد وفي ذلك الشتاء الدائمي والظلام الدامس الذي لا يضيء فيه غير بريق الحيوانات الفسفورية الضئيل، وتحت ذلك الضغط الهائل - طنان ونصف طن على البوصة المربعة الواحد في عمق 15000 قدم - وبين ذلك السكون العميق وفي تلك الوحدة الرهيبة؛ أجل في تلك الظروف
كانت الحياة تقضي شطراً من أدوارها. وربما جرى استعمار هذه اللجج العظيمة الغور في عصور حديثة العهد نسبة؛ لأن الحيوانات التي نعثر عليها في هذه الأماكن لا تشتمل أصنافاً قديمة جداً؛ ويرجح أن الحيوانات الساحلية هي التي استعمرت هذه الأماكن بتتبعها لبقايا الطعام خلال أجيال عديدة.
المياه العذبة (4)
تشمل المياه العذبة جميع الأنهار والبحيرات والبرك والمستنقعات والغدران، وربما حصل استعمار هذه المياه بهجرة بعض الحيوانات بصورة تدريجية إلى مصبات الأنهار، أو بالزحف المباشر في ساحل البحر إلى الغدير.
استيطان اليابسة (5)
قامت بعض الحيوانات الساكنة في البحر أو في المياه العذبة على مر العصور باستيطان اليابسة تدريجياً، ويجب أن نميز ثلاث غزوات كبيرة قامت بها الحيوانات وهي:
أ - غزوة الديدان: ونتيجتها إخصاب الأرض
ب - غزوة الحشرات: ونتيجتها تأسيس الرابطة بينها وبين الزهور.
جـ - غزوة البرمائيات: ونتيجتها نشوء الحيوانات البرية الراقية ونمو الذكاء والحب العائلي.
وهناك غزوات أخرى أقل من تلك شأناً ولكن جميعها تدلنا على أن الحيوانات المائية تميل إلى احتلال اليابسة وتحاول استعمارها بشتى الطرق. إن للنزوح إلى اليابسة مزايا عظيمة، ذلك لأنه كان بمثابة التوصل إلى محيط فيه مقدار من الأوكسجين أكثر مما هو مذاب في الماء. غير أن التسلط على أكسيجين الهواء أمر صعب نوعا ما، ولما كانت حياة اليابسة تكيف جسم الحيوان فتجعله أكثر صلابة وأفضل وقاية كان لابد من تكون سطوح داخلية في جوف الحيوان تمكن الدم من أخذ الأوكسجين وإيصاله إلى جميع أنحاء البدن وهكذا نشأت الرئتان. في أغلب الحيوانات يذهب الدم إلى السطوح المعدة لاتصال الأوكسجين، أما في الحشرات واتباعها فطريقة أخذ الأوكسجين إلى الدم أو إلى الأنسجة تختلف عن ذلك. ففي هذه الحشرات توجد أنابيب متشعبة تتوزع على جميع أنحاء البدن، ووظيفتها أخذ الهواء من المحيط. يفسر لنا هذا التنفس الكامل مغالبة هذه الحشرات التي تكون دمها نقياً
على الدوام.
إن استيطان اليابسة أدى أيضاً إلى تكيف الحركة الانتقالية في الحيوان على النحو الذي نراه الآن. فصار الحيوان يدفع جسمه إلى الأمام مستنداً إلى الأرض، وتكونت في جسمه سلسلة من العتلات (الروافع) وهكذا تصلبت أجسام معظم الحيوانات البرية وأصبحت تستند إلى الأرض بمنتهيات صغيرة نسبياً (هي الأنامل) حتى لا تدع مجالا لانبطاح الجسم أو تدليه إلى الأرض، فحيوان كقنديل البحر - مثلاً يعيش في المياه ويستطيع أن ينتقل فيها بسهولة، ولكن يتعذر عليه أن يعيش في اليابسة لان تركيب جسمه لا يساعده على الحركة الانتقالية في البر. وربما تبادر إلى الذهن أن بعض الحيوانات البرية تشذ عن التكيف الذي تستلزمه حياة اليابسة - كديدان الأرض وأم الأربع والأربعين والأفاعي. إن شرح الحركة الانتقالية في هذه الحيوانات ليس بالأمر الصعب، فدودة الأرض تحفر طريقها في التربة كما يفعل اللولب، وجسم أم الأربع والأربعين يحمل على عدة أرجل قوية، كما أن الحية تدفع نفسها إلى الأمام بواسطة حراشف بطنية واسعة متصلة بمنتهيات عظمية متشعبة في العمود الفقري.
الضرورة حب الاستطلاع
ويهمنا أن نبحث الآن في مجازفات الحياة على اليابسة، لان ذلك يمكننا من فهم الدواعي التي حملت عددا عظيماً من الحيوانات البرية على حفر أوكارها في التراب،

وعددا آخر منها على تسلق الأشجار، ولماذا رجع بعضها إلى الحياة المائية ولجأ البعض الآخر إلى الهواء، وربما تبادر إلى أذهاننا أن نتساءل لماذا استعمرت اليابسة رغما عما في ذلك من مجازفات ومخاطر عظيمة؟ الجواب على ذلك: (أن الضرورة وحب الاستطلاع هما أبوا الاختراع!) فقد تكون الدواعي التي حملت بعض الحيوانات على ترك الحياة المائية هي من قبيل جفاف الغدران أو ازدحامها بعدد لا تستوعبه من الحيوانات، أو الهرب من الأعداء الكامنة لها بالمرصاد، ولكن يجب ألا نتغاضى أيضاً عن غريزة حب الاستطلاع التي كانت ولم تزل عاملا مهما من عوامل التقدم.

غزو الهواء (6)

وأخيراً لجأت الحيوانات إلى الهواء فنجحت في غزوه الحشرات والعضايا المجنحة القديمة والطيور والوطاويط وأخفقت غيرها في تلك المحاولة كما نرى ذلك جلياً في الأسماك الطائرة التي تقفز في المياه إلى علو بضع ياردات، تساعد على ذلك زعانف كبيرة تنشرها عند القفز، وهذا ما نجده أيضاً في الضفادع الطائرة التي تطير من غصن إلى آخر. وهناك كثير من أمثال هذه الحيوانات التي يستدل منها على محاولة الحيوان في الماضي التغلب على الهواء ذلك الأمر الذي أدركه الإنسان عن بعد بطريقة أوجدها من عنده.

لاشك أن المقدرة على الطيران لها مزايا وفوائد عديدة، فالطير الذي يعتاش على ما في الأرض يستطيع أن يهرب من الكواسر الداهمة بارتفاعه السريع في الهواء، وفي وسعه أن يتتبع الأماكن التي يكثر فيها الطعام والماء مهما كانت بعيدة، وفي إمكانه أن يضع بيضه في مواقع أمينة لا تصل إليها أيدي الأعداء. وقد استطاعت بهجراتها أن تتغلب على الزمان والمكان فكثير منها لا يعرف شتاء طول حياته.

نظام الطبيعة المتطور

وللتطور صفحة واضحة أخرى وهي ميله لربط الأحياء بعلاقات حيوية مهمة، فالزهور مرتبطة بضيوفها من الحشرات ارتباطاً حيوياً وثيقاً فيه منفعة مشتركة للفريقين. وهناك طيور تعتاش على ثمر العليق فتنشر البذور. وهكذا يحافظ على نسل النيتة، ونعلم أيضاً أن الحلزون المائي النحيف يكون مأوى لدودة الكبد (التي توجد في الأغنام) في أدوار حداثتها، وأن البعوض يحمل جرثومة الملاريا وينقلها من شخص إلى آخر بواسطة اللسع.

ونستطيع أن نجد علائم التعاون ظاهرة بين بعض الحيوانات المتشابهة فتكون مستعمرات أو طوائف أو متجمعات كما هو بارز في النحل والنمل واللبائن، وفي كل ذلك مصلحة مشتركة للأفراد المتعاونة.

على أن هناك علاقات تكون فيها المصلحة لجهة واحدة كما هي الحالة في الحشرات التي تفسد العمليات التناسلية لبعض النباتات التي تحط عليها، وزيادة على ذلك أن الحلقات الغذائية تربط مجموعة من الحيوانات كما هي الحالة في سمك القد الذي يعيش على القوقع والقوقع على الدودة والدودة على البقايا العضوية في البحر.

نسيج الحياة

لقد أصبحت العلاقات المسيطرة على النظام الطبيعي متناهية في التعقيد، وكان التطور العامل المشجع الأكبر لذلك التعقيد. فأمست بنية الإنسان أعقد من جميع الكائنات الحية، ويتراءى لنا أن نظام التطور قضى على الوحدة والتشابه، وكون تنوعات جديدة ذات صفات ومؤهلات تختلف في بعضها باختلاف المحيط الذي تعيش فيه، وهكذا سجلت خطوات الارتقاء على لوحة الطبيعة وأصبحت الكائنات الحية في مأمن من النكوص على الأعقاب في سلم التطور.

القصص

زنبل

بقلم الأديب حسين شوقي

إذا كان المسيو هريو الوزير الفرنسي الكبير قد أبدى لدى عودته من موسكو إعجاباً شديداً بروسيا الشيوعية في أحاديثه إلى مندوبي الصحف، فأنني أعرف كائنا ما كان ليشاركه في إعجابه لو كان حياً، وهذا الكائن هو قطتنا زنبل، لأن زنبل كانت أرستقراطية بحقيقة معنى الكلمة، ويحسبها نبلا أنها من مخدرات قصر يلدز. . وإني

محدثك كيف آلت إلينا: كنا في الأستانة بعد خلع السلطان عبد الحميد، وكان أثاث القصر يباع يومئذ بالمزاد العلني، فذهبنا نشاهد ما عرض من طرائف التحف ونفائس الكنوز لأن شهرة يلدز بهذه العجائب لا تقل عند الناس عن شهرة مغارة (علي بابا) في الف ليلة ذهبنا إلى القصر على غير نية الشراء لأن والدي كان يعارض في ابتياع شيء من يلدز احتراماً لذكرى عاهلها المخلوع. وكان يجله ويرى فيه رمزاً لمجد الإمبراطورية العثمانية التي بدأ ظلها يتقلص فعلاً بعد سقوطه، ولكن ما كادت أبصارنا تقع على زنبل القطة الأنقرية الجميلة حتى وقفت لا تريم عنها انصرافاً. وانقسمنا فريقين فريقاً من الصغار (نحن) يتمسك بالشراء، وفريقاً من الكبار يعارض فيه، وانتهى الخلاف طبعاً بانتصارنا، إذ كان لابد من إنقاذ زنبل من الحالة المهينة التي كانت عليها في تلك الساعة، فقد وضعت في قفص ضيق حقير ليشاهدها الرائحون والغادون. . فدفعنا الثمن خمسة جنيهات وحملناها معنا. . أما طرائف القصر الأخرى فكانت عادية لا تزيد على نظائرها في سائر القصور الملكية.

ما زلت أذكر زنبل خلال ضباب الماضي البعيد، وهي جالسة على مقعد من القطيفة في الصالون الصغير بمنزلنا القديم بالمطرية، ترتل أناشيدها في هدوء وطمأنينة. . وكم كان شعر زنبل جميلا يحاكي بياضه الناصع الثلج الذي يجلل جبال الأناضول وطنها العظيم، وكانت نعومة شعرها أشبه شيء بنعومة الزنبق.

. .أما عيناها فكانتا تعكسان ما تشاهده على ضفاف البوسفور من خضرة زمردية بديعة وكان لحم كفيها ناعماً طرياً إلى حد إننا كنا نجد لذة في القبض على تلك الأكف الظريفة. .

كان صيد الفيران والصراصير من الأمور الحقيرة التي لا تتعرض لها زنبل، كما تفعل ذلك القطط الأخرى. .

لأن تسلية زنبل الوحيدة كانت أن تسحب أمامها خيطاً فتجتهد هي أن تقفه بضربات يدها الصغيرة. . وطالما جررنا لها ذيلها لنوهمها انه خيط عادي فكانت المسكينة تصدق ذلك فتوسعه ضرباً. .

وفي ذات يوم وقعت حادثة أدهشت من بالمنزل جميعاً وهي أن زنبل حامل! رباه! كيف زلت زنبل الأرستقراطية؟ كيف خالطت زنبل قطط الحي وهي كلها قطط عادية شعبية لا تمت لأنقرة بنسب؟ ولكن زنبل وكأنها شعرت بالخطيئة الكبيرة التي ارتكبتها ما كادت تضع حملها حتى هجرت صغارها، فاضطررنا أن نغذى هؤلاء الصغار تغذية صناعية. كانت زنبل على حق في هجر أطفالها لأن هؤلاء الصغار كن من الصعاليك لا يليق أبداً أن ينسبن إليها. .!

بعد مرور عامين على هذا الحادث، وعودة زنبل إلى حياتها الأولى الهادئة، عزمنا على قضاء بضعة أشهر في الخارج، فعهدنا إلى أحد الخدم برعاية زنبل، والعناية بوجه خاص بغذائها، وهو دجاجة مسلوقة كل يوم، وكانت زنبل لا تأكل منها إلا اللحم.

ولكن لدى عودتنا من أوربا فوجئنا بخبر وفاة زنبل، على أثر مرض لم يمهلهما . . . طويلا. . كما قال الخادم المكلف بخدمتها. . أما الحقيقة التي عرفناها بعد، فهي أن ذلك الخادم الخبيث كان يأكل دجاجة زنبل ويعطيها عظمها فترفضه زنبل. . وهكذا فقدت حياتها، ولكن في كرامة وأباء! كما يفعل الأرستقراطيون الأصلاء. . .

كرمة ابن هانئ

الحارس

لجى دوموباسان

بعد أن فرغنا من تناول الغداء، كان قد بدأ صديق لنا قديم وهو السيد (بونيفاس) يسرد علينا حوادث ومخاطرات جرت له أثناء الصيد، وهو مشهور بالصيد وشرب الخمر، جلد، بشوش، ذو تفكير ناضج، وشعور حي، وله فلسفة تهكمية تظهر بها نفسيته عند المداعبة القارصة، ولا تظهر أبداً إذا تكلم بحزن. قال لنا فجاءة:

إنني أعرف حادثة صيد، أو بالأحرى مأساة صيد فريدة في بابها، لا تشبه أبداً الحوادث التي نعرفها، وإنني أعلم أني لم أقصها عليكم من قبل ولا على غيركم، لأنها لا تسلي أحداً، فهي ليست عاطفية، أريد أن أقول أنه ليس لها هذا النوع من اللذة التي تشوق السامع أو التي تسحره، أو التي تذهله، وهاكم الحادثة:

كان عمري آنئذ يناهز الخامسة والثلاثين، وكنت اصطاد بقوة الشباب، وكنت قد اقتنيت

في ذلك الوقت قطعة أرض منعزلة في إحدى الضواحي محاطة بالغابات وهي مأوى طيب للأرانب. ذهبت إليها مرة وقضيت فيها وحدي أربعة أيام أو خمسة لأنني لم أتمكن من اصطحاب أحد الأصدقاء. مكثت هناك كالحارس أو كشرطي متقاعد شجاع شديد البأس على باب قلعته، وكنت لا أخاف شيئاً. وكان بالقرب من أرضي بيت صغير منعزل أو بالأحرى كوخ يتألف من غرفتين سفليتين ومطبخ وغرفة للطعام، وغرفتين علويتين، إحداهما صغيرة لا تتسع لأكثر من سرير ومرآة وكرسي وهي التي استأجرتها، وكان يشغل الثانية (كافالييه) الهرم، وقد قال لي أنه وحيد في مسكنه. فأقمت عنده باسم مستعار ثم أسكن معه حفيده. وهو من الأشقياء تبلغ سنة أربعة عشر عاماً كان يذهب من حين إلى آخر إلى القرية التي تبعد ثلاثة كيلومترات وكان يساعد الكهل في أشغاله اليومية.

كان لهذا الشقي الطويل الهزيل المحدودب قليلا، شعراً أصفر اللون خفيف يشبه ريش الدجاجة المقصوص، حتى ان من يراه يحسبه أصلع، وله كذلك قدمان ضخمتان ويدان جبارتان كيدي المارد، عينه حولاء قليلا، وكان إذا مشى لا يرى أحداً فهو إلى الحيوانات أقرب منه إلى الإنسان لأنه يشبه الثعلب.

كان ينام في ثقب صغير في أعلى الدرج وكان يدعى (ماريوس) ولكنه تخلى عنه أثناء إقامتي هناك لامرأة مسنة تدعى (سيليست) كان الكهل قد أتى بها لصنع الطعام.

قد علمتم الآن الأشخاص والمكان فهاكم الحادثة:

نحن في 15 أكتوبر سنة 1854 وهو التاريخ الذي لا أنساه أبداً. خرجت ذات صباح من روان ممتطياً صهوة جوادي يتبعني كلبي (بوك) ذو الصدر الواسع واللسان الحاد والأسنان القوية، التي تخترق الأشواك.

وكنت مردفاً حقيبة سفري وبندقيتي، وكان يوماً شديد البرد، عاصف الهواء رطبه، كثيف السحاب مسرعة، وكنت أرى من الشاطئ وادي السين الواسع الذي يمتد ماؤه حتى الأفق ماراً بأوكار الثعابين على ضفتيه، وكان النظر يمتد على الضفة اليمنى حتى يقف على الشواطئ البعيدة المستورة بالغابات، ثم اجتزت غابة رومار، مبطئاً تارة ومهرولا أخرى حتى كنت في الساعة الخامسة تقريباً أمام البيت حيث كان الكهل والعجوز ينتظرانني.

وبعد عشر سنوات من نفس التاريخ ذهبت بنفس الهيئة وسلمت على نفس الوجوه بنفس الكلمات.

- أهلاً وسهلاً أيها السيد، كيف صحتك؟ ألا تزال جيدة؟

وكان الكهل لم يتغير منظره أبداً، فقد كان يقاوم الزمن كالشجرة المسنة، ولكن (سيليست) كانت قد تغيرت ملامحها منذ أربعة أعوام لا أكثر حتى أنني لم أعرفها لأول وهلة. غيرها الزمان ولكنها مازالت نشيطة. وكانت تمشي بجسمها الطويل منحنية إلى الأمام حتى أن رجليها كانتا تشكلان تقريباً زاوية قائمة.

وكانت هذه المرأة تبذل جهدها في عملها، وكانت تدهش عندما تراني وكانت تقول لي عند كل ذهاب:

- هل هذه هي المرة الأخيرة التي أراك فيها يا عزيزي؟

حقاً أن وداع هذه الخادمة محزن، وأن قنوطها أمام الموت الذي لا مفر منه كان يظهر جلياً في وجهها وعينيها حتى أن وداعها كان يؤلمني ويشعرني بحالة نفسية غريبة.

نزلت عن ظهر الجواد إلى الأرض وكان الكهل الذي صافحته يقود الجواد إلى المأوى الصغير الذي يصلح أن يكون اصطبلا، ثم تبعت سيليست إلى المطبخ الذي يصلح أن يكون غرفة طعام.

ثم تبعنا الحارس، وقد لاحظت للوهلة الأولى أن وجهه ليس كالمعتاد فأن القلق والضيق يظهران عليه فقلت له:

- هل تريد أيها الشيخ أن يسير كل شيء في العالم حسب رغبتك؟ فقال بصوت هادئ:

- إن ما حدث لي اليوم، سبب لي هذا الضيق

فقلت: ماذا حدث لك أيها الكهل؟ هل لك أن تقص عليّ ذلك فأومأ برأسه سلباً، وقال:

- لا، لم يحن الوقت أيها السيد، إنني لا أريد أن يحصل مثل هذا بعد الآن، فألححت عليه، ولكنه رفض أن يبدأ بها قبل الغداء فعلمت أنها قصة مؤثرة. ثم قلت له قطعا للصمت:

- وهذه الجعبة؟ هل لنا فيها شيء؟
فقال: نعم، ستجدون ما تشاءون، الحمد لله! لقد كان نصيبي اليوم وافراً -.
قال هذه الكلمات بشجاعة، ولكنها شجاعة حزينة تبعث على الضحك، فان شاربيه الضخمين الرماديين كانا على وشك السقوط من فوق شفته.
ثم أخبرتهما فجاءة أنني لم أر الحفيد إلى الآن فقلت:
- وماريوس؟ أين هو؟ لماذا لا يظهر الآن؟
فاعترت الحارس رجفة خفيفة ثم التفت ألي بسرعة وقال:
- أريد إذن أن أقص عليك الآن أيها السيد كل شيء، أجل إنني أفضل ذلك، وأن الذي أطويه في سري يتعلق بماريوس.
فقلت أين هو الآن؟ فأجاب:
- إنه بالإسطبل يا سيدي، وأنا أنتظر الساعة التي يظهر بها، فقلت وماذا يصنع هناك؟
قال:
- اسمع أيها السيد. . . ثم تردد برهة وتغير صوته وارتجف وظهرت على وجهه تجاعيد الشيخوخة ثم قال:
- اسمع، لاحظت في هذا الشتاء أن هناك سارقاً في الغابة ولكنني لم أتمكن من القبض عليه. فقضيت هناك بضعة ليال ولكني لم أجد شيئاً. وفي هذه الأثناء أخذ يتزايد المسروق من الغابة؛ فانفجرت غيظاً وحنقاً وطفقت أبحث عن المجرم، ولكن عبثاً.
وفي أحد الايام؛ عندما كنت أنظف سروال ماريوس وجدت في جيبه أربعين قرشاً، فقلت
في نفسي من أين لهذا الغلام بها؟
ولبثت ثمانية أيام أفكر، ثم رأيته يخرج كل يوم عندما أرجع إلى البيت لأستريح، فعندما أخذت أراقبه، ولكن دون أن يرتاب بي. وفي ذات صباح رأيته يستعد للذهاب فنهضت على خلاف عادتي وتبعته وليس أحد يجاريني أيها السيد في التتبع. ثم قبضت عليه.
قبضت على ماريوس الذي كان يسرق من أرضك أيها السيد! نعم هو حفيد حارسك فغلى الدم في رأسي وفكرت في أن أقتله في مكانه بضربة من يدي، آه. نعم ضربته وقلت له أذهب، وأوعدته أنك عندما تكون هنا سأضربه مرة أخرى عقاباً له لأردعه، وقد أثر فيّ الحزن فهزلت كما ترى وأنك تعلم عقاب مخالفة كهذه المخالفة. ولكن ماذا كنت تعمل غير هذا؟ أنه ليس له أب ولا أم وليس من أسرته إلا أنا؛ فكنت أراقبه ولا أقدر أن أطرده، على أني أنذرته أنه إذا عاد إلى هذا العمل فإن خاتمته سوف تكون على يدي. ولن أرحمه أبداً، فهل صنعت حسناً أيها السيد؟
فقلت له ماداً إليه يدي.
- نعم ما فعلت أيها الشيخ! إنك رجل شجاع.
فقال: شكراً أيها السيد، وسأذهب الآن فأدعوه اليك؛ فيجب أن تؤدبه أنت أيضاً ليرتدع.
وكنت أعلم أنه ليس من اللائق أن أرد هذا الشيخ عن قصده، فتركته يفعل ما يشاء، فذهب يبحث عن الشقي ثم رجع به يجره من أذنه.
وكنت جالساً على كرسي من القش بهيئة المستعد للحكم.
فظهر ماريوس أمامي أكبر سناً وأكثر قبحاً من السنة الفائتة، وظهرت يداه الكبيرتان ضخمتين، فدفعه عمه أمامي وقال بصوت المربي:
- اعتذر لصاحب الأرض!
فلم ينبس الغلام ببنت شفة
فقبض عليه عمه من إبطيه ورفعه عن الأرض وأخذ يضربه بقسوة اضطرتني إلى أن أستشفع له فأخذ الولد يصيح
- شكراً، شكراً أعدك أن. . .
ثم ألقاه الشيخ على الأرض وأخذ يضربه على كتفيه وركبته قائلا له: - اعتذر
فقال الشقي أخيراً بصوت متهدج وطرف خاشع: أعتذر، وعندئذ رفعه عمه وأطلقه بركلة دحرجته فوق الأرض فنجا، ولم أعد أراه في المساء.
ولكن ظهر على الشيخ أنه تعب فقال: إن أخلاقه سيئة.
وقال ونحن على مائدة الغداء.
- إنني أحزن له أيها السيد، أنت لا تعلم كم يشجيني أمره.

. . .فحاولت أن أسليه ولكن عبثاً
.ونمت باكراً استعداداً للصيد، وكان كلبي نائماً عند رجل سريري حين أطفأت شمعتي
استيقظت نصف الليل على صياح الكلب، ولاحظت أن غرفتي ملأى بالدخان، فقفزت من فراشي وأشعلت النور وهرولت نحو الباب ففتحته فدخل تيار من الدخان، وكان البيت يلتهب!
فأقفلت الباب بسرعة ولبست سروالي وأنزلت أولا كلبي من النافذة بواسطة حبل مربوط في سترتي، ثم ألقيت ثيابي وسكيني وبندقيتي ونزلت أخيراً بالواسطة نفسها.
وأخذت أصيح بكل قواي: كافالييه! أيها الشيخ! كافالييه!. ولكن الشيخ لم يستيقظ، بل كان نائماً نوم الضباط العميق، وفي هذه الأثناء رأيت من أعلى النافذة أن الطابق الأسفل كالأنون المستعر، ولاحظت أنه مملوء بالتبن الذي أشتعل لتقوية الحريق. .
وعاودت الصياح بشدة قائلاً: كافالييه. . ثم مر خاطر برأسي، فصوبت بندقيتي إلى النافذة وأطلقت رصاصتين فانكسرت الألواح الستة، وفي هذه المرة سمع الكهل ولما رأى النار اعتراه ذهول ودهش فصحت به:
بيتك يحترق، ألق نفسك من النافذة، اسرع، اسرع. . وكان الدخان يخرج من النوافذ السفلية، موازياً الحائط ثم يزحف إلى الشيخ ويحيط به، فألقى بنفسه فسقط على رجليه كالهرة. ثم مضى وقت، وصار السقف يفرقع وكان الدرج أشبه بمدخنة طويلة، وكان لسان النار طويل يتصاعد في الجو ويتمدد، وكانت الشرارات تتناثر حول البيت فقال الشيخ بذهول:
- كيف حصل هذا؟ فأجبت: وضعت النار في المطبخ
فقال: من تظن أنه وضعها؟ فقلت فجاءة: ماريوس! ففهم الشيخ وقال: آه ولأجل هذا لم
يرجع بعد ولكن فكرة رهيبة خطرت لي فقلت: وسيليست، سيليست؟! فلم يجب، ولكن المنزل كان ينهار أمامنا كتلاً من الأحجار لامعة دامية، وكانت المرأة المسكينة قد صارت حجراً أحمر، من اللحم البشري.
إننا لم نسمع صياحاً، ولكن عندما انتقلت النار للسقف المجاور لسقفنا فكرت في جوادي وركض الشيخ ليخلصه.
وتمكن بمشقة من فتح باب الإسطبل فشاهد جسما خفيفاً سريعاً مر بين رجليه ولطمه في أنفه، وكان هذا ماريوس هارباً بكل قواه، فنهض الشيخ ليقبض على الشقي، ولكنه عرف انه لا يمكنه اللحاق به، وأصابه جنون شديد، ولما رأى انه لا يستطيع القبض عليه تناول بندقيتي الموضوعة على الأرض قريباً منه فوضعها تحت إبطه قبل أن تبدو مني حركة واحدة، وأطلقها وهو لا يعرف أن فيها رصاصات عديدة، فأصيب الهارب في ظهره وسقط على الأرض مضرجاً بدمه، فأخذ ينكث الأرض بيديه ورجليه كأنه يريد أن يركض على أربع كالأرانب الجريحة حين ترى الصياد قادماً إليها.
فتألمت، وأخذ الغلام ينازع ثم قضى قبل أن ينطفئ الحريق دون أن يقول كلمة.
وكان كافالييه واقفاً بقميصه وساقيه العاريتين، لا يتحرك وعندما أتى رجال القرية حملوا حارسي وهو كالمجنون.
ذهبت إلى المحكمة شاهداً وسردت الحادث بتفاصيله دون أن أبدل شيئاً، فبرئ، كافالييه، ولكنه ترك البلدة في اليوم نفسه ولم أعد أراه. هذه قصة صيدي أيها السادة.!

محمد ناجي الطنطاوي

بلياس ومليزاند

للفيلسوف البلجيكي موريس ماترلنك

ترجمة الدكتور حسن صادق

. . .مليزاند: خل سبيلي. . . قد يباغتنا أحد
. . .بلياس: كلا، كلا، لن أطلق سراحك الليلة، أنت سجينتي، وستظلين كذلك الليل كله
!مليزاند: بلياس! بلياس
بلياس: لن تستطيعي الفكاك بعد ذلك. . . إني أربط شعرك حول الأغصان. . . لم أعد أتألم وسطه. . . أتسمعين قبلاتي ترقص على امتداده؟ إنها تتسلقه، ويجب أن تحمل كل شعرة إليك قبلة. . . أنظري. . . أستطيع الآن أن أفتح يدي. . . أترين؟ هاتان يداي

مفتوحتين طليقتين، ومع ذلك تعجزين عن هجري والابتعاد عني!
(يخرج من البرج يمام ويطير حولهما)
مليزاند: أوه! آلمتني. . . ما هذه الطير التي تحوم في الفضاء حولي؟
بلياس: اليمام خرج من البرج. . لقد أفزعته فطار
مليزاند: أنه يمامي يا بلياس! اذهب من هنا ودعني وحدي لن يعود إلي يمامي!
بلياس: ولماذا؟
مليزاند: سيضل في الظلام. . . دعني أرفع رأسي. . . إني، أسمع وقع أقدام. . . اتركني بربك. . . إن (جولو) مقبل علينا! أعتقد أنه هو! لقد سمع حديثنا. .
بلياس: انتظري! انتظري! شعرك عالق بالأغصان. . وقد اشتبك في سواد الليل. انتظري!
. . . انتظري!ـ . . التف الكون بالظلام
(يدخل جولو من الطريق المستديرة)
جولو: ماذا تصنع هنا؟
بلياس: ماذا أصنع هنا؟. . . إني. . .
جولو: أنتما طفلان. . . مليزاند، لا تنحني هكذا على النافذة. . ستسقطين. . . أنسيتما أن شطراً كبيراً من الليل قد تردى في هوة الماضي؟. . . كاد الليل أن ينتصفـ. . لا يجوز أن تلعبا في الظلام كما تفعلان الآن. . . أنتما طفلان. . . (ثم يقول في انفعال شديد) أي
طفلين، أي طفلين!
(يخرج مع بلياس)
المنظر الثاني:
(كهوف تحت القصر. يدخل جولو وبلياس)
جولو: أحترسـ. . من هنا من هنا. . . ألم تلج قط هذا المكان؟
بلياس: بلى، مرة واحدة. . . وقد مضى على ذلك زمن طويل
جولو: إذن أنتظرـ. . ها هو ذا الماء الراكد الذي حدثتك عنه. . أتشم رائحة الموت التي تنبعث منه؟ هلم نتقدم حتى نبلغ آخر الصخرة المطلة على الماء، ثم انحني عليها قليلاً. . . ستهب عليك الرائحة وتصدم وجهك. . انحنى ولا تخف، سأشد أزرك. . أعطني لا. لا. . لا أريد يدك. . أخشى أن تفلت من يدي. . أعطني ذراعك. . . أترى الهاوية؟ بلياس؟ بلياس؟
. . . بلياس: نعم. أعتقد أني أرى قاع الهاوية. . . أهو النور الذي يهتز هكذا؟. . . أنت. . . جولو: نعم. إنه المصباح في يدي يهتز. . انظر، إني أحركه لأنير الجدر
بلياس: إني أختنق في هذا المكان. هلم نخرج
جولو: لك حكمك
(يخرجان في صمت)
المنظر الثالث:
(شرف عند مخرج الكهوف)
بلياس: آه! الآن أتنفس بعد ضيق. . . اعتقدت، لحظة؛ أن الدوار سيصرعني في هذه الكهوف الهائلة. . كنت على وشك السقوط. . في ذلك المكان المخوف هواء رطب ثقيل كأنداء من الرصاص، وظلمات كثيفة كعجين مزج بالسموم. . وهاأنذا أملأ رئتي بهواء البحر كله!. . إني لأجد نسيما منعشاً نضيراً، كزهرة تفتحت في هذه اللحظة وسط أوراق صغيرة خضراء. . آه! لقد سقيت منذ قليل الأزهار المغروسة أمام الشرف، والنسيم يحمل إلينا رائحة العشب المبلل ويفوح بشذى الأزهار وعطرها. . حان وقت الظهر أو كاد، وآية ذلك أن ظل البرج قد أدرك الأزهار. انتصف النهار، لأني أسمع دق النواقيس وأرى
الأطفال يجرون نحو شاطئ البحر للاستحمامـ آه! أنظرـ أمنا وميلزاند في إحدى نوافذ البرج
جولو: نعم إنهما لجأتا إلى ناحية الظل يعصمهما من حرارة الشمس. . وبمناسبة ميلزاند أقول لك إني سمعت ما جرى وما قيل أمس مساء. إنه حديث أطفال يلعبون، وأعرف ذلك جد المعرفة ولكن يجب ألا تعودا إلى ما كنتما فيه من حديث ولعب. إنها

رقيقة الحس ورقيقة الأعصاب، وحالها تتطلب معاملة فيها حسن السياسة ولطف الكياسة، لأنها فوق ما ذكرت تحمل في أحشائها جنيناً وستصبح أماً في القريب العاجل. وأقل انفعال قد يصيبها بمكروه. وليست هذه بأول مرة أرى فيها ما يجعلني أظن أن بينك وبينها أشياء. . إنك أكبر منها سناً، ويكفي أن أقول لك ذلك. . تجنبها ما استطعت، ولكن في غير تصنع. . أسمعت؟ في غير تصنع (يخرجان)

المنظر الرابع:

(أمام القصر. يدخل جولو وولده إينيولد الصغير)

جولو: تعالي نجلس هنا يا إينيولد. تعالي. على ركبتي. سنرى من هذا المكان ما يجري في الغابة. لم أعد أراك يا بني منذ أيام كثيرة. أنت أيضاً تهجرني وتزوَّر عني معرضاً! إنك في كل حين عند أمك الصغيرة (يعني مليزاند). . آه! ها نحن أولاء نجلس تحت نوافذها مصادفة. لعلها في هذه اللحظة تؤدي صلاة المساء. . ولكن دعنا من هذا وقل، يا بني: إنها تقضي أكثر وقتها مع عمك بلياس، أليس كذلك؟

الكتب

دار المعارف الإسلامية

الأستاذ احمد أمين

لعل أكبر عمل قام به المستشرقون هو تأليف دائرة المعارف الإسلامية، قصدوا بها أن يجمعوا بحوثهم ومعلوماتهم في كتاب جامع مرتب على حروف الهجاء، يتكلمون فيه عن البلدان والموضوعات التاريخية والفقهية والنحوية واللغوية الخ ويترجون فيه للأعلام.

وقد بدأوا عدتهم في ذلك بنشر الفكرة بين علماء الاستشراق سنة 1899 على ما أذكره، وأخذوا يجمعون المواد ويرتبونها ويوزعونها على العلماء من هولنديين وألمان وإنجليز وفرنسيين وإيطاليين وغيرهم من الشرقيين، وظلوا في هذا الأعداد نحو عشر سنوات، ثم أصدروا الأعداد تباعاً باللغات الثلاث الإنجليزية والفرنسية والألمانية، كل عدد يقع في نحو ثمان وستين صفحة بالخط الدقيق.

واعتزموا إخراج هذا المعجم في أربعة مجلدات ضخام كل مجلد يقع في أكثر من ألف صفحة، وقد أخرجوا إلى الآن مجلدين وأعداداً من المجلدين الثالث والرابع وقد عنوا بتوزيع الموضوعات على المختصين فيها فكثير من الموضوعات المتعلقة بالفقه والأصول كان يكتبها جولذ زيهير والأدبية (هوار) وهكذا.

ولم يستوفوا في كتابتهم كل ما يجب أن يكتب حول الموضوع وإنما اقتصروا على أهمه ووكلوا الإفاضة في ذلك إلى المراجع التي يذكرونها عقب كل مادة ثم يذيلونها باسم من كتبها، ولهم إلى الآن نحو خمسة وعشرين عاماً يوالون إخراج أعدادها، وربما كان أمامهم نحو عشر سنوات أخرى لإتمامها، فهم في كل عام يخرجون عددين أو ثلاثة، وكلما انقرضت طبقة من العلماء والناشرين حلت محلهم طبقة أخرى ينهجون منهجهم ويسيرون في طريقهم وان كان الرعيل الأول أمتن وأعمق من الرعيل الذي خلفه، والكتاب في جملته من أهم الكتب التي تفيد الباحث وترشده إلى أهم ما قيل في الموضوع وتدله على خير الكتب العربية والإفرنجية التي يصح أن يرجع الباحث إليها للاستزادة منها.

وكثيراً ما فكرت لجنة التأليف والترجمة والنشر في تعريبها حتى ينتفع بها قراء العربية في الممالك الشرقية ولكن أكثر ما كان يعوقهم أمور:

(الأول) إن العمل لم يتم بعد، وقد سار المؤلفون في ترتيبها مراعين الكلمة العربية بحروفها الإفرنجية فوضعوا مثال كلمة (عبد) في حروف الألف. وكثير من المواد التي لم تؤلف بعد هي في حرف الألف بالعربية، وان كانوا هم قد أتموا حرف الألف بالإفرنجية فكلمة (أسامة) و (أرجوان) يجب أن توضع في حرف الألف بالعربية وهي توضع في حرف بالإفرنجية فلإتمام كل حرف يجب أن ينتظر إلى إتمام الكتاب.

(الثاني) أن كثيراً من الموضوعات نظر فيها العلماء المستشرقون نظرة خاصة غير النظرة التي ينظرها المسلمون وعالجوا نواحي قد يهم المسلمين غيرها، وبعضهم كان متعصباً فكان يمزج عصبيته ببحثه كما فعل الأب لامانس في بعض ما كتب، وهذا يوجب أن يكتب الموضوع من جديد ومن غير تحيز.

(الثالث) أن بعض الموضوعات قد تغير فيها نظر العلم منذ كتبت، فالكتب التي عثر

عليها في هذه الأعوام الثلاثين،
والنقوش التي استكشفت، وجهود العلماء، جعلت المادة لو كتبت من جديد لكانت أدق وأوفى، وجعلت المراجع التي يجب أن يشار إليها أتم وأكمل.
(الرابع) أن المواد لما وزعت على الأعضاء لم تخرج متناسبة فقد رزقت بعض المواد الحظوة التامة فملأت الكتابة عليها كثيراً من الفراغ على حين أن مادة أهم منها قد لا تذكر بتاتاً أو تذكر في قليل من الإيجاز فخرج الكتاب غير متناسب الأجزاء.
هذا كان تفكير الشيوخ، والشيوخ دائماً حذرون يكثرون التفكير في العواقب ويحسبون لكل خطوة ألف حساب، فما هو إلا أن نهض الشباب ولا راد لنهضته فهزأ بكل العقبات وثابر على العمل وجد واقتنع بأن إخراج العمل مع ما قد يكون فيه من نقص أجدى على العالم العربي من الانتظار، فليخرج ولينتفع به القراء والباحثون ولينتقد ثم ليصلح النقد، وليكن فيه تقصير ولكن هذا التقصير يستدرك، فسنستدركه نحن أو يستدركه غيرنا، هذا خير ألف مرة من التسويف وانتظار الزمن وانتظار الكمال، إذن فلننهض بحمل العبء، وليجد غيرنا في نقدنا وإصلاح ما فاتنا، فمن وراء هذا وذاك عمل مجيد أقل ما فيه أنه عمل يطلع علماء
الشرق على عمل الغرب في مادتهم وعلومهم، ويعلمهم كيف يبحثون ويرتبون معلوماتهم، ويضعونها تحت السبر والاختبار، ويبعث علماء الجيل القادم في الشرق أن يهبوا من رقدتهم فيضعوا بأنفسهم ولأنفسهم معاجم ودوائر معارف يعدونها إعداداً صحيحاً وافياً ثم لا يكونوا عالة يتكففون الغرب.
لعل هذا وأكثر منه هو ما دار في نفوسهم وحفزهم للعمل فتحملوا العناء مبتسمين راضين.
لقد أخرجوا لنا باكورة عملهم في هذا العدد الأول وهو في ورقاته القليلة يدل على ما وراءه من جهد كبير، فهم بلا شك قبل ذلك ترجموا كل كلمات الدائرة ورتبوها حتى تكون متسلسلة محكمة، وهم بلا شك راجعوا كثيراً من النصوص واستفتوا كثيراً من العلماء فيما غمض عليهم، واستعانوا بهم فيما نرى أثره من تعليقات.
قد قرأت هذا العدد وراجعت بعض مواده على الأصل الإنكليزي ووافقت الأستاذ إسماعيل مظهر على بعض وجوه النقد المنشورة في هذا العدد والتي ستنشر في العدد التالي، ولكن أهم ما لاحظته وأود أن يتداركوه في الأعداد القادمة أن الترجمة ينقصها كثير من الصقل، فالقارئ يشعر دائماً أن العبارة مترجمة عن أصل أجنبي مع أن مقياس جودة الترجمة فقدان هذا الشعور وأن يخيل للقارئ أنها كتبت بالعربية ابتداء.
من أمثلة ذلك ما جاء في صفحة 14: (ومن واجب كل مسلم أن يعمل المعروف وأن ينهى عن المنكر) مع أن المألوف في العربية: (أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر)
وما جاء في صفحة 13: (وهم دون أن يجادلوا في شرعية حكم الخلفاء الأربعة الراشدين كما يفعل الشيعة يصرون على أن القدوة الحسنة بعد النبي كانت في أبي بكر وعمر) فمحال أن تصدر هذه الجملة من كاتب يضع كتابه بالعربية، إلى أمثال من ذلك يكاد يجدها القارئ في كل صفحة. فلعل مرونة القلم والصبر على التجويد والرغبة في تحقيق الأكمل يذهب بهذا النقص في الأعداد القادمة.
وأخيراً أحيي في الشباب هذا الجد والنشاط وأكبر هذه العزيمة وأتمنى للمشروع النجاح؟

معجم الحيوان

تأليف الدكتور أمين باشا المعلوف

ليس هذا السفر الجليل مما تجوز معه القراءة السريعة والنظرة العجلى، لأنه ليس لغواً من القول وحشوا من الكلام، بل لابد لك، إن أردت أن تحصل مما فيه شيئاً، من وقفة طويلة يحدوها الصبر الجميل.
ذلك لأنك بصدد بحث علمي دقيق فهو معجم لأسماء الحيوانات بقلم الفريق أمين المعلوف، ذكر فيه لكل حيوان اسمه العربي والفرنسي والإنجليزي فضلاً عن اصطلاحه العلمي. ووصف كل حيوان وصفاً أوجز فيه حيناً وأسهب حيناً آخر، إذا اقتضى الأمر إيجازاً أو إسهاباً.
وليس هذا المعجم وليد اليوم، إنما هو مقالات نشرت في مجلدات عديدة من

المقتطف. بدئ في نشرها منذ أكثر من عشرين عاماً، ولكن الدكتور المؤلف قد توج هذا المجهود العظيم، وأتم على قراء العربية فضله ونعمته، بأن جمعها وبوبها ورتبها في معجم واحد، فملأ بذلك مكاناً شاغراً في المكتبة العربية وأحب أن أسوق إليك مثلاً لدقته في البحث، ما جاء عن ترجمة كلمتي ,؛ فقد كان شائعاً بيننا أن الأولى تطلق على النمر، والثانية على الفهد، ولكنه أثبت خطأ هذا التعريب، وبين أن معناها ببر، وأن معناها نمر، أما الفهد فهو ما يقول عنه الإنجليز ويحسن أن ننقل إلى القارئ نص ما جاء بالمعجم في تعريب كلمة ليرى المراجع التي استند إليها المؤلف: ببر (فارسية معربة) , سبع هندي يعادل الأسد في عظم الجثة والقوة إلا أنه أشد منه بطشاً وهو أبيض البطن والجانبين مع صفرة، ومخطط بخطوط سود.

ولابد لي من الإطالة في الكلام على الببر والنمر والفهد والوشق وعناق الأرض، وذلك لكثرة الخطأ في ترجمة هذه الألفاظ. فالعرب لم يكن عندهم لفظة يعبرون بها عن هذا الحيوان المسمى عند الإفرنج فاستعملوا اللفظة الفارسية ولم يسموه نمراً ولا النمر الهندي، ولا بأس بتسميته بالأسد الهندي كما جاء في محيط المحيط فانه أقرب إلى الأسد منه إلى

النمر. وقد وردت لفظة الببر كثيراً في المؤلفات العربية وفي الشعر العربي والمقصود بها هذا الحيوان المخطط المسمى عند الإفرنج، فقد جاء في كتاب عجائب المخلوقات (الببر حيوان هندي أقوى من الاسد، بينه وبين الأسد معاداة، وإذا قصد الببر النمر فالأسد يعاون النمر) وقال الدميري في آخر كلامه عن الببر: (وذكر في ربيع الأبرار أن الببر على صورة الأسد الكبير وهو أبيض يلمع بصفرة وخطوط سود) وقال الجاحظ: (الفيل والببر والطاووس والببغاء والدجاج السندي مما خص الله به الهند) وقال في محل آخر: (لأن هذه السباع القوية الشريفة ذوات الرياسة كالأسد والببور والنمور لا تعرض للناس إلا بعد أن تهرم فتعجز عن صيد الوحش). وهو ما يقوله الإفرنج الآن عن هذه الحيوانات عندما تضرى بأكل لحوم البشر. ثم قال في محل آخر: (والببر الهندي مثل الفيل أيضاً والكركدن فلا يقوم له سبع ولا بهيمة، ولا يطمع فيه ولا يروم ذلك منه *). وقد وردت هذه اللفظة في كتاب كليلة ودمنة ويفهم من سياق القصة انه من الحيوانات المفترسة، فلو كان المقصود به أحد السباع المعروفة عند العرب كالنمر أو الأسد أو الفهد لما تعذر على ابن المقفع استعمال لفظة عربية حتى أتى بكلمة أعجمية. وقد ترجمت هذه اللفظة في النسخة الإنجليزية من كتاب كليلة ودمنة وورد ذكرها في مفردات ابن البيطار في آخر باب النمر حيث قال: (والببر سبع كبير) وترجمت الفرنسية. وهذه اللفظة مستعملة في بعض أنحاء الهند في وقتنا الحاضر لهذا الحيوان بعينه، وكذلك الفرس فانهم استعملوها بهذا المعنى أيضاً كما ورد في شرح جامع التواريخ لكاترمير، فقد ذكر الشارح كلمة ببر وقال عنها: الخ.

ولشد ما أدهشني هذا الخطأ الذائع الذي لم يجد قبل الفريق أمين المعلوف من يرده إلى صوابه، ولم يقتصر أمر هذا الخطأ على طلاب المدارس والمشتغلين بالترجمة جميعاً، بل تعداه إلى أكبر دائرة فنية في مصر وهي حدائق الحيوانات، فأنا أعلم أن إدارة تلك الحدائق تضع الكلمة العربية (نمر) إلى جانب اللفظة الإنجليزية تعريباً لها، وقد أنبأني صديق منذ أيام أنها أدركت أخيراً هذا الخطأ فأصلحته منذ أمد قصير.

وقد أتيحت للدكتور المعلوف فرصة قل أن تتوفر لغيره، وهي هذا التجوال في أنحاء السودان وبلاد العرب، فجمع من الطبيعة نفسها، ومما سمعه من أفواه الشعوب التي مر بها من المعلومات ما لا يوجد بين دفات الكتب. مثل ذلك كلمة (أصله) التي ورد ذكرها في

أساطير الأولين أنها حية وكفى دون أن يعلم لحقيقتها وجود، فاستطاع أثناء وجوده بالسودان أن يطبق هذا الاسم على مسماه لأنه سمع الأهلين هناك يطلقونه على نوع خاص من الحيات.

لست أريد أن أفصل هنا الخلاف الذي قام بين الفريق أمين المعلوف والدكتور محمد شرف، إلا أنني أميل إلى الاعتقاد بأن الدكتور شرف قد استقى مما نشره الدكتور المعلوف شيئاً كثيراً دون أن يشير إلى ذلك في معجمه، وكان خيراً أن ينسب الفضل لذويه.

ز. ن. محمود

دائرة المعارف الإسلامية
نقد وتقدير
للأستاذ إسماعيل مظهر
العدد الأول من المجلد الأول في 64 صفحة من القطع الكبير محلى بصورة جلالة ملك مصر وصدر بمقدمة في 6 صفحات من قلم، لجنة الترجمة، والورق ممتاز والطبع حسن.

بورك في الشباب! بورك في الشباب عامة والطامحين منهم خاصة. فالشباب روح الأمم وعمادها. والطامحون من الشباب هم بناة المجد وسدنة الحضارة وعمد القوة. والشباب إذا نام خيم على الأمم النسيان وغشيها السكون وهوّم عليها النعاس. نعاس القرون بل نعاس الحقب والدهور. والشباب إذا تيقظ ودارت رحاه قذف بالكرات الواقفة على عجلة الدائرة إلى فضاء العدم، واستخلص من لباب الأمم كرات جديدة تساير رحاه في حركتها وتضيف إليها قوى جديدة يستعان بها على بلوغ الغرض الأسمى والمثل الأعلى. أما الشباب القانع المستنيم للدهر وللاقدار، فلا خير فيه إلا يقدر ما في البذرة الحية من الاحتفاظ بجنينها، لتستلمه إلى الطبيعة حياً عسى أن تكون منه جرثومة تخرج شباب الطموح والاستعلاء والتطلع إلى اللانهاية.

شباب قنع لا خير فيهم ... وبورك في الشباب الطامحينا

ونحن اليوم أمام عمل يقوم به الشباب المتوثب إلى المجد، المتعطش إلى المعرفة، الوثاب إلى المثل والغايات. عمل أقل ما يوصف به أنه أثر جليل من آثار القوة والجرأة النادرة التي تنبأنا بأن عجلة الشباب قد أخذت تدور لتقذف بالكرات الواقفة، وتجمع من حولها الكرات الدائرة. فان ترجمة موسوعة كاملة، في أي موضوع كانت، ومن أي مصدر استقيت، لعمل عظيم. فكيف بموسوعة كدائرة معارف الإسلام وعت ألواناً من التاريخ والفقه والتصوف والفلسفة واللاهوت والترجمة والجغرافية وعلم الهيئة إلى غير ذلك مما وعت حياة العرب قبل الإسلام وبعده. فان العلاقة بين الإسلام والجاهلية لعلاقة شديدة الآصرة تتعارض في نسيجها خيوط من روح الأمم العربية والأمم التي دانت بالإسلام. وكل هذا يزيد من صعاب العمل على المؤلفين، ولا يجعله هيناً على المترجمين. فإننا لم نعن بعد بتبويب ما وصل إلينا من فروع المعرفة التي تلقيناها عن العرب، ولم نفكر حتى

في تصنيف أسماء الكتب التي تعتبر مراجع صحيحة تعود إليها في معرفة أسماء البلدان أو الأشخاص أو الأماكن، أصلية كانت أو معربة عن اللغات الأخرى كاللغات السامية، ومنها السريانية والآرامية. واللغة الإغريقية على الأخص. ولقد كان هذا سبباً في أن يتورط مترجمو هذه الموسوعة في أخطاء هم أبعد الناس عن أن يقعوا في مثلها عن قصد، أو عن حاجة إلى الصبر على البحث أو عن زهد في توخي الكمال المستطاع. ولو أننا أردنا أن نذهب في نقد العدد الأول وهو باكورة هذا العمل الذي يرقبه أديب عراقي (كما يرقب الصائم هلال العيد) مذهب الإطناب لا الإيجاز لاحتجنا إلى الوقت وإلى الفراغ. لهذا نعمد إلى بعض المواد ونتناولها بالمناقشة البريئة من كل غاية إلا أن يتدارك شبابنا الطامح بعض الأخطاء التي نرجح إننا قد نعدها على حق. ونصيحتنا التي لا نرمي من وراءها إلى أي غرض بعيد عن توخي الاصلاح، أن يعيد مترجمو هذه الموسوعة النظر فيما طبع منها وما لم يطبع، وان يستعينوا بذوي التجربة والنظر، وان يترفعوا في عملهم هذا عن فكرة الاعتزال به عمن يستطيعون أن يعاونوا فيه صوناً لسمعة أعمالنا الأدبية أن ينتابها النقص أو تنتقصها الأنانية.

على أنني أريد أن الفت نظر اللجنة المحترمة إلى عبارة وردت في المقدمة جاء فيها: (ومما يغتبط له قارئ هذه الدائرة أن أعلام مصر سواء أكانوا من علماء الأزهر الشريف أو من أساتذة دار العلوم أو الجامعة المصرية قد ساهموا بنصيب وافر في مراجعة الترجمة والتعليق إلى بعض الفقرات، وفي إبداء الملاحظات القيمة والآراء السديدة) هذه هي العبارة وأني لأعجب كيف أن أعلام مصر من علماء الأزهر الشريف وأساتذة دار العلوم الجامعة المصرية قد فاتتهم هنات هينة وأخطاء نحوية مثل قولهم (طبع مرتان) (راجع مادة أبشقة ص 63) وغير ذلك مما نمسك عنه ونكتفي بتوجيه نظر اللجنة إليه.

بيد أنا إن اكتفينا هنا بالإشارة البسيطة فأننا نود أن نعبر عن أسفنا الشديد لإيراد مثل

العبارة التي نقلناها عن المقدمة فان فيها لتفريطاً، وان فيها لمغالاة، وإن فيها لأشراكاً لأعلام مصر أجمعين في أخطاء مثل التي سوف نسوق الكلام فيها.
والآن نبدأ بمادة (أبخاز) وقد وقع عليها النظر إتفاقاً، فاثرنا ألا ننتقل إلى غيرها ومضينا في مراجعتها فبانت لنا الملحوظات الآتية:
(1) جاء في ص 20 نهر 2 (وكان الابخازيون يعرفون قديماً باسم أبسكوي (عند المؤرخ آريان) وباسم أبسجي (عند بلنياس ويذكر بروكوبيوس (في القرن الخامس الميلادي) أن الابخازيين كانوا تحت حكم اللازوي. وجاء في ص 21، نهر1، (وكان سيدرنيوس البيزنطي) الخ. والصحيح في تعريب الأسماء أن نجري فيها على القواعد التي جرى عليها العرب، فلا تقول بلنياس بل بلنيوس، ولا تقول بروكوبيوس بل فروقوفيوس، ولا تقول سيدرنيوس بل قذرنيوس، أما قواعد التعريب فحديث طويل ليس هنا محله.
(2) ولكن الأسباب الجغرافية وحدها تجعل احتلال هذا الإقليم احتلالاً فعلياً بعيد (الاحتمال والأصل الإنجليزي كما يلي (ص20 نهر 2)
والمحصل من الترجمة والأصل أن المترجم وضع كلمة (الأسباب الجغرافية) مقابل والأصح أن يقال (العوامل أو المؤثرات أو الموانع الجغرافية) لأن كلمة الأسباب تتضمن معنى (الناموس) الثابت في حين أن كثيراً من المؤثرات الجغرافية ينتابها التغير إن سريعاً وان بطيئاً على تتالي الأجيال وخضوعاً لسنن يعرفها الفلكيون والجيولوجيون على الأخص. ووضع المترجم كلمة (تجعل) لتقابل والكلمة الإنكليزية معناها (كفت)، ثم أنه ساق الجملة العربية في صيغة المضارع وهي في الأصل بصيغة الماضي لانها تتكلم عن ماض محدود بالزمان. ووضع كلمة احتلال لتقابل في حين أن احتلال معناها في الإنجليزية ولكن معناها إخضاع. والظاهر أن المترجم لم يهتف مرة واحدة بسقوط الاحتلال لا بالإنجليزية ولا بالفرنسية، ووضع العبارة الإنجليزية لتقابل بعيد الاحتمال، والحقيقة أنها وضعت لتدل على أن: العوامل الجغرافية وحدها كفت لان تصرف العرب عن التفكير في إخضاع الإقليم إخضاعاً تاماً. والواقع أن احتلال إقليم قد يجوز أن يكون تاماً ولكن الإقليم لا يكون خاضعاً بالفعل. فان إيطاليا احتلت طرابلس احتلالاً عسكرياً تاماً بأن بددت كل قواه العسكرية، ولكن إخضاع أهل الإقليم لم يتم إلا بعد زمان طويل. والفرق بين الاحتلال والإخضاع لا ينبغي أن يغيب عن ذهن مترجم يكتب في أبحاث تاريخية سياسية. لأن ملاحظة مثل هذه الفروق الدقيقة ضروري لينطبق تصور القارئ دائماً على الحالات التي يريد المؤرخ أن ينقلها إلى مخيلته.
(3) (وقد أخضع جستنيان الإمبراطور الروماني الابخازيين فاعتنقوا المسيحية). (ص20 نهر 2) والخطأ هنا في تعريب اسم الإمبراطور الروماني (يوستنيانوس) لان حرف ينطق (ياء) فأثبته المترجم (جيما) على الضد من كل الأصول المرعية.
(4) وما هي لغة (ومنذ ذلك العهد أصبحت لغة جورجيا لغة الأدب). (ص21 نهر1) جورجيا،؟ المؤلف يقصد هنا لغة أهل الكرج التي عربها المترجم باسم جورجيا حرفياً. في حين أن العرب ومن أتى من بعدهم قالوا الكرج. ومن الأسف أن المترجم جرى على هذا الخطأ في كل الجزء المطبوع. فقال ملك جورجيا وهو ملك الكرج تحقيقاً.
(5) وعند البحث عن أصل موطن البجراتونيين يجب أن نتجه نحو الغرب (نحو جرخ وريون). وفي الأصل الإنكليزي & والمفهوم من العبارة الإنكليزية أن المؤلف يقصد شواطئ نهرين ولو لم أتحقق من ذلك بل أدركه بالسليقة فقال (نحو الغرب على الكرخ والريون. فجاءت الترجمة غامضة بعيدة عن الأصل. وكذلك يجب أن نلاحظ أن المترجم قد اكثر من ذكر الابخاز بصيغة جمع الجمع فقال الابخازيين والبجراتونيين وغيرهم. في حين أن الابخاز جمع كالأعراب. ولا يصح أن تقول أعرابيين أصلاً. أما في البجراتونيين فقد اصطلح مثلاً على أن ندعو القبيلة التي انحدر منها أهل أثينا القديمة (فلاسجة) وأسمها الأصلي في الإنجليزية صيغة عربية مقبولة تجرى على قواعد التعريب المتبعة. فكان الواجب على المترجم إذن أن يقول البجارطة بدل البجراتونيين. هذا إذا لم يكن العرب قد اصطلحوا على تعريب لأسم هذه القبيلة، ولا أتصور أن يكون بعيداً كثيراً عما اذهب إليه.
(6) وورد في خطاب الإمبراطور طرابزون أنه كأنه لأمراء

الأبخاز جيش يبلغ عدده. . . 30 مقاتل (ص21 نهر 2) وفي
الأصل الإنكليزي: 1459 , والفرق بين الأصل
. .والترجمة شاسع. فالترجمة تقول (في خطاب الأمبراطور)
والأصل في خطاب من الإمبراطور. . . . وهنالك فرق لا
يخفى بين خطاب لإمبراطور وخطاب من إمبراطور، فضلاً
.عن أنه اسقط السنة المسكينة (1459) من الترجمة كلية
(7) لم يستطيع الابخازيون أن يتخلصوا من سلطان الترك ونفوذ الإسلام في حين
كانت المسيحية تتناقص في بطء شديد. (ص21 نهر 2) والاصل الإنكليزي ذكر كلمة
خطأ تتناقص والحقيقة تستأصل. لان النقص يعبر عنه في الإنكليزية بكلمة ويقابله
.الزيادة فضلاً عن ركاكة التعبير الذي نحسه في استعمال تناقص ببطء شديد
(8) ومنذ انفصال جورجيا صار يحكم بلاد الابخاز كاثوليكيوها (الذين ذكروا في القرن
:الثالث عشر للميلاد) في بتزند (ص21 نهر2) والأصل الإنكليزي كما يلي
والخطأ هنا فاحش. فان المؤلف لو كان قد أراد أن يقول أن البلاد كان يحكمها
كاثوليكيوها لقال وكأنه من الواجب أن يدرك المترجم أن كلمة تدل على وظيفة كنيسة
كما يفهم بدياً من سياق الجملة ومن سياق الحديثمعا. أما كلمة فقد عربت وأثبتت في
المعاجم العربية ونقلت عنها إلى المعاجم الإنكليزية العربية الكبرى. فجاء في قاموس
(بدجر) الفقيه الإنجليزي المعروف أمام هذه الكلمة (الجثالقة جمعاً مفردها جاثليق).
وجاء في القاموس المحيط للفيروزابادي (هو الجاثليق بفتح الثاء المثلثة رئيس
للنصارى يكون في بلاد الإسلام ويكون تحت يد بطريق إنطاكية ثم المطران تحت يده
ثم الأسقف يكون في كل بلد من تحت المطران ثم القسيس ثم الشماس). (ص217
.مجلد3)
وهذا يدل على أن المترجم قد أخطأ، وأنه أخطأ خطأ فاحشاً من الوجهتين التاريخية
والعلمية فالتاريخ لم يثبت أن الكثالكة كان لهم حكم مدني في بلد من بلاد الإسلام.
والناحية العلمية، كما يدل سياق الكلام في الأصل، تشير إلى أن الجثالقة كان يناط
بهم ان يرعوا أحوال النصارى الشخصية على قواعد الدين النصراني تحت حكم
الإسلام المدني. وعلى هذا يجب أن تكون الترجمة على خلاف ما جاء في (دائرة
المعارف الإسلامية)، ويجب أن تكون كما يأتي (ومنذ الانفصال عن الكرج (لا منذ
انفصال جورجيا لأن الأصل كان للبلاد جاثليقها المقيم في يتزند. أما الجملة المعترضة
التي جاء فيها والتي ترجمها المترجم بقوله: (الذين ذكروا في القرن الثالث عشر
الميلادي) ويقصد بهم الكاثوليك خطأ بعد أن خلقهم من وهمه والوهم خلاق، فيراد بها
أن بقية الحكام الذين يمثلون نواحي الحكم الأخرى كانوا يذكرون منذ القرن الثالث
عشر الميلادي. وإذن يكون تعيين جاثليق يرعى
مصالح النصارى لم يأت إلا بعد أن أمتد نفوذ الإسلام، واحتاج الأمر إلى راع يرعى
.مصالح الأقلية المسيحية في بلاد إسلامية
(9) وفي عام 1462 م (في عهد الملك بحرات الثاني) ثبت أمراء أسرة شروشيد في
:والأصل الإنكليزي كما يلي (مراكزهم
1462
وأنت تتساءل ما هي مراكزهم هذه؟ هي أنهم اعترف بهم أمراء. وهكذا يريد الأصل أن
يقول. ولكن المترجم يريد أن يقول أنهم ثبتوا في مراكزهم لا غير. وعلى القارئ أن
يضرب الرمل ويناجي الودع ليعرف في أي المراكز ثبتوا. ولو تصور أنهم ثبتوا في
.الأرض بالإسمنت المسلح لكان له عذر
العدد 20 - بتاريخ: 01 - 11 - 1933
. . .عدلي
يجب أن يكون الناس قد انتهوا من الحرج والضيق، ومن العسر وسوء الحال إلى حيث
أصبحوا ينكرون أنفسهم ويمرون سراعاً ببعض الأحداث الجسام التي كانوا يقفون
عندها فيطيلون الوقوف، ويفكرون فيها فيطيلون التفكير. ويتذوقون آلامها متمهلين
متعمقين كأنهم يجدون في تذوقها على مهل وفي أناة شيئاً من اللذة يدعوهم إلى
استبقائها ومد أسبابها. فهم كانوا إذا ألم بهم الحدث من هذه الأحداث وجموا له وجوماً
طويلاً ثقيلاً، ثم يذهب عنهم الوجوم شيئاً فشيئاً فيحسون لذع هذه اليقظة المؤلمة، ثم

يفيقون فيقدرون خطر الحدث الذي أصابهم، ويذكرون من أصابهم فيه ويطيلون ذكره، ويتمثلون مواقفه المختلفة، ثم ينظرون إلى حاضرهم ومستقبلهم ويتصورون فقيدهم مواجها لظروف الحاضر والمستقبل، ويسألون أنفسهم عن مواقفه التي كان يمكن أن يقف من هذه الظروف لو امتدت له أسباب الحياة. ويتخذون من هذا التفكير المتنوع الطويل سبلاً إلى الألم متنوعة، ووسائل إلى الحزن متباينة، تأبى نفوسهم أن تقطع الصلة بينها وبين من فقدت، حتى إذا عملت الأيام عملها، وتكاثرت خطوب الحياة على ما يملأ النفوس من ذكرى، فالت أن تسدل عليه من النسيان ستاراً، جاهدت هذه النفوس ما وسعها الجهاد، لتقاوم الظروف، وتمانع النسيان وتستبقي شخص الفقيد ماثلا أمامها تنظر إليه وتحزن عليه وتبكيه أو تبكي أنفسها فيه.

كذلك كان الناس حين كانت حياتهم حياة تستحق هذا الأسم، وحين كانت أيامهم أياما، أما الآن فقد تغير الناس لأن حياتهم تغيرت، وقد تبدل الناس لأن أيامهم تبدلت، فقدت الحياة في نفوسهم قيمتها، فاصبحوا لا يذوقون لذتها وآلامها الا مسرعين. وفقدت الأيام في نفوسهم قيمتها، فاصبحوا لا يقفون عند أحداثها وخطوبها الإلماما. كثرت عليهم الأحداث والخطوب، وثقلت عليهم الأرزاء والمحن، وعجزت أعصابهم عن المقاومة، فعجزت نفوسهم عن الحزن كما عجزت نفوسهم عن الفرح. أصبح كل واحد منهم وكأنه الكرة الخفيفة الوثابة تتدافعها الحوادث، وتتقاذفها الكوارث، فلا تكاد تقع على حادثة أو كارثة، أو لا تكاد تقع عليها حادثة أو كارثة، حتى تثب وتقفز مسرعة، خفيفة، عنيفة، تبتغي حادثة أخرى وكارثة أخرى، أو تبتغيها حادثة أخرى وكارثة أخرى.

وهذا وحده هو الذي يفسر موقف الناس من هذا الخطب العظيم الذي ألم بهم حين نعت إليهم الأنباء عدلي يكن رحمه الله، فقد وقعت هذه الأنباء عليهم وقع الصواعق، فوجموا لها،

ولكنهم أفاقوا مسرعين من هذا الوجوم، لأنهم تعودوا وقع الصواعق في هذه الأيام. أفاقوا وجزعوا، واشتد عليهم الجزع، حتى كاد يشبه اليأس، ولكن جزعهم كان قصيراً محدود الأمد، فلم يمض يوم وبعض يوم حتى شغلوا عن هذا الخطب ولم ينسوه، وإنما صرفوا عنه صرفاً، صرفتهم عنه هذه الضرورات القاسية والآلام الملحة التي لا يعرفون كيف يخلصون منها أو يثبتون لها. وما رأيك في قوم لا يستقبلون النهار إذا أشرقت شمسه إلا بالخوف من بياضه، ولا يستقبلون الليل إذا نشر ظلمته على الأرض إلا بالإشفاق من سواده، يصبحون وهم يجهلون إلى أين يدفعهم النهار المضيء، ويمسون وهم يجهلون إلى أين يذهب بهم الليل المظلم.

كيف تريد من هؤلاء الناس أن يبتلوا مرارة الحزن ولذع الألم، أو يستعذبوا حلاوة الفرح وموقع السرور من نفوسهم؟ لقد فقدوا أو كادوا يفقدون هذه الملكات القوية الرقيقة الحساسة التي كانت تنقل إلى نفوسهم صور الحياة كما هي. فهي تمكنهم من أن يتعظوا بما يبعث العظة منها، ويبتهجوا بما يثير الابتهاج، هاهم أولاء يفكرون في أزماتهم على اختلافها، ويجدون في التخلص من هذه الأزمات أو الإذعان لها، ليس منهم إلا طالب أو مطلوب، ليس منهم إلا غالب أو مغلوب، ليس منهم إلا بائس أو منتظر للبؤس، وليس منهم إلا محرج أو مدفوع إلى الحرج، فهم معذورون إذا صرفتهم الحوادث صرفا عن ذكر هذا الفقيد العظيم، وعن إطالة ذكره والتحدث فيه، وهو مع ذلك مازال في دار الغربة حيث قبضه الله إليه، لم يعبر جثمانه البحر بعد إلى وطنه ليوارى في ترابه، ويدفن في ثراه المقدس.

هم معذورون. وعدلي رحمه الله أشد الناس قبولا لعذرهم هذا، لأنه كان أحسن الناس تقديراً لحالهم هذه. ولأنه أشد الناس عطفا عليهم وبراً بهم، ولأنه كان على امتيازه وأرستقراطيته الظاهرة يشاركهم فيما يجدون، ويقاسمهم ما يشعرون به من الحزن والألم وسوء الحال. والمصريون أكرم على أنفسهم من أن يكون سكوتهم عن عدلي بعد موته بقليل نسياناً له، أو تقصيراً في ذاته، فليس عدلي من الأشخاص الذين يقدر عليهم النسيان، وليس المصريون من الشعوب التي يهون عليها الجميل. ومهما يكن الأمر في ذلك فان ذاكرة التاريخ أقوى وأثبت وأعمق من ذاكرة الناس؛ وسيذكر التاريخ دائماً أن أربعة من المصريين كانوا أئمة

النهضة الوطنية الاستقلالية، أو قل كانوا أئمة الثورة المصرية التي شبت نارها بعد أن خمدت جذوة الحرب، والتي هبت فيها الأمة المصرية تطالب بأن يعرف الناس لها أنها

أمة حرة كريمة تريد أن تعيش في بلد حر كريم. كان هؤلاء الأئمة الأربعة عنوان الحياة السياسية الجديدة في مصر ثم في الشرق كله، وسيظلون عنواناً لهذه الحياة على اختلاف طبائعهم وأمزجتهم، وعلى تباين ميولهم وأهوائهم، وعلى ما بين شخصياتهم العظيمة الفذة من الاختلاف، ولن يستطيع مؤرخ أن يصور حرية مصر وحرية الشرق في هذه القطعة من الزمن التي تبتدئ بعد الحرب دون أن يعتمد في تصويره على هؤلاء الأئمة الأربعة في السياسة: سعد ورشديوثروت وعدلي رحمهم الله!

كان سعد من هذه الثورة المصرية الشرقية بمكان الجذوة القوية المضطرمة التي لا يعرف الخمود إليها سبيلا، والتي لا يمسها شيء إلا اضطرم، ولا يدنو منها شيء إلا التهب. والتي تبعث أشعتها القوية المحرقة إلى أبعد الأماكن منها فتذكي فيها ناراً، وتثير في جوها أواراً، وتخرج أهلها عن أطوارهم، وتدفعهم إلى حب الحياة بعد الموت، والعزة بعد الذل، والاستقلال بعد الخضوع والإذعان.

وكان رشدي من هذه الثورة بمكان الفقيه الذي يعرف كيف يستخرج الحق من الشبه، ويرد إليه حظه من الوضوح الذي لا يدع للشك فيه سبيلا، ثم يدافع عنه بالحجة الساطعة والرهان المستقيم والعاطفة الصادقة الحارة.

وكان ثروت من هذه الثورة بمكان المدبر الماهر ذي الحيلة الواسعة والمدخل الخفي والمخرج اللطيف كلما تحرجت المواقف وتعقدت الأمور.

وكان عدلي من هذه الثورة بمكان العقل الهادئ الرزين الحكيم، الذي لا يقوم إلا على بصيرة، ولا يقبل إلا على ثقة، وبعد تفكير طويل، وروية متصلة، ولا يأتي من الأمر شيئا إلا في أناة ووقار وهدوء، قلما تظفر بمثلها عند الزعماء. . . ولو أن الثورة المصرية الشرقية فقدت واحداً من هؤلاء الأربعة لما كان لها شكلها الذي نعرفها به، ولا طبعت بهذا الطابع الذي يميزها من غيرها من الثورات.

كانت أمزجة هؤلاء الأئمة الأربعة عناصر تكونت منها هذه الثورة المصرية الشرقية. وقد اختلفوا واختصموا، وجاهد بعضهم بعضا جهادا عنيفا. ولكن مزاج الثورة المصرية كان في

حاجة قوية إلى هذا الخصام والجهاد ليحيا ويقوى ويثبت للأحداث، ويبقى على رغم الخطوب. ثم أذن الله لهؤلاء المختلفين أن يعودوا إلى ما كانوا عليه من ائتلاف، ويثوبوا إلى ما كان بينهم من مودة وحب، ومن تعاون واتفاق، فصفا بعضهم لبعض، وسعى بعضهم إلى بعض، ورضى بعضهم عن بعض، ورضيت الأمة عنهم جميعا، ورضى الله عنهم فأثرهم برحمته واختارهم إلى جواره، يسعى بعضهم إلى أثر بعض إلى دار الخلود وقد أدى واجبه، ونهض بما كان ينبغي أن ينهض به من الحق. وكان سعد أسبقهم إلى الخلود، وكان عدلي آخرهم انتقالا إلى دار الخلود. ولقد تحدث الناس عن سعد ورشدي وثروت فأطالوا الحديث، وسيتحدثون، وستكون أحاديثهم أجل وأوضح، وأدل على عظمة هؤلاء النفر كلما بعد بيننا وبينهم العهد، ومضت على وفاتهم الأيام، ولكن الناس لم يتحدثوا بعد عن عدلي لأنه عاش إلى هذا العهد، فكانت حياته مانعة من الحديث فيه، ولأنه مات في هذا العهد فكانت المحن المقيمة صارفة عن إطالة الحديث فيه.

وليس الحديث عن عدلي سهلا ولا يسيرا، فأنت لا تكاد تعرض لخصاله حتى تعجبك كلها، وحتى تدعوك كلها إلى أن تحمده وتثني عليه. وإذا أنت حائر لا تدري ماذا تأخذ منها وماذا تدع، ولكن نواحي ثلاثا من حياة هذا الرجل تفرض نفسها على الكتاب والمفكرين فرضا. فإما أولاها فهي امتيازه الشخصي في حياته الخلقية، وفي ما كان بينه وبين الناس من صلة. فعدلي أقل الناس تعرضا للنقد من هذه الناحية: كان رضي الخلق، وكانت هذه الخصلة أظهر خصاله وأوضحها، ولكنها على ذلك لم تكن تسبق إلى الناس ولا تظهر نفسها لهم، ولا تطمعهم في صاحبها، وإنما كانت تحيط نفسها بسياج من الآنفة والترفع، يحسبه الناس ضرباً من الغطرسة، ولونا من الكبرياء، فيهابونه وينأون عنه، فإذا أتيح لهم أن يدنوا من رجل ويخلصوا إلى نفسه، لم يجدوا غطرسة ولا كبرياء، وإنما وجدوا أنفة وعزة وترفعا عن الابتذال. ووجدوا من وراء هذا كله نفسا صافية نقية، وقلبا طاهرا وفيا، وضميرا كريما حيا. وظهر هذا كله في معاشرة حلوة، وحديث عذب ولسان عفيف، وصلات ترفع الذين يدنون من عدلي إلى حيث هو، ولا تهبط بعدلي إلى حيث يكون المتصلون به والساعون إليه.

والناحية الثانية مذهبه السياسي. فقد كان عدلي كغيره من أصحابه مؤمنا بحق مصر في
الاستقلال، حريصا على أن تظفر مصر بهذا الحق، لم يكن يتهم في ذلك أحد. وكان
عدلي كأصحابه يرى أن المفاوضة مع الإنجليز قد تؤدي إلى الظفر بهذا الحق، وتنتهي
بمصر إلى ما تريد. ولكن طريقه في تنفيذ مذهبه هذا وإخراجه إلى الحياة العملية هي
التي تميزه من غيره، وهي التي تظهر طبيعته ومزاجه، كأوضح ما تكون الطبيعة
والمزاج. فلم يكن عدلي صاحب قوة وعنف، ولم يكن عدلي قادرا على أن يوجد بينه
وبين الشعب على اختلاف طبقاته هذه الصلة القوية التي تجعله مرآة للشعب من
جهة، وملهماً للشعب من جهة أخرى. إنما كان عدلي رجلا يحب الشعب ويؤمن به،
ويحرص على حقه دون أن يلهمه أو يستلهمه. كان يصدر عن عقله وتفكيره الهادئ
الرزين، اكثر مما يصدر عن عواطفه الحارة وشعوره العنيف. وكان لا يحسن الحديث
إلى الشعب، لأنه لم يكن يجد هذه الكلمات والجمل الساحرة التي تنفذ إلى قلوب
الشعب. وكان كل ما يستطيع أن يرى ويسمع ويفكر، ثم يعمل تاركاً لغيره مالا يقدر
عليه من إلهام الشعب واستلهامه. فلما ألف وزارته الأولى وأعلن برنامج هذه الوزارة
متفقاً عليه مع الوفد، كان هذا البرنامج مظهرا واضحا قويا، لطبيعة هذا الرجل
المستقيمة ومذهبه الصحيح في فهم حقوق الشعب وتقديرها. فأنظر إليه يحرص في
هذا البرنامج حرصا شديدا على أمرين: الأول أن يستخلص لمصر حقوقها من الإنجليز
بالمفاوضة، والثاني أن يعرض على الشعب المصري نتيجة المفاوضة لينظر فيها
ويقرها، وأن يكون هذا الشعب ممثلا في جمعية وطنية لا تقف مهمتها عند إقرار
المعاهدة وتنظيم العلاقة بين مصر والإنجليز، بل تتجاوز هذا إلى شيء عظيم الخطر
حقاً وهو وضع الدستور، وتنظيم سلطة الشعب، وتنظيم العلاقة بين السلطة التشريعية
وغيرها من السلطات التي يتكون منها سلطان الدولة؛ ومعنى ذلك أن عدلي كان يؤمن
بأن الأمة وحدها مصدر السلطات، وبأنها ما دامت كذلك فهي التي يجب أن تضع
الدستور وأن تعلنه لا أن تتلقاه. ومن يدري؟ لو أن الظروف واتت عدلي ومكنته من
تنفيذ برنامجه لعل مصر أن تكون قادرة على أن تجتنب كثيرا من الأزمات الداخلية
التي ألمت بها فجرت عليها شرا كثيرا.

ولست أدري لعل موضع الخطأ في برنامج عدلي رحمه الله أنه جعل دعوة الجمعية
الوطنية نتيجة للمفاوضات لا مقدمة لها. فلما لم تنجح مفاوضته لم تدع الجمعية
الوطنية،
وتلقت مصر الدستور ولم تصدره. ولكن أكان عدلي قادرا حقا على أن يدعو الجمعية
الوطنية قبل المفاوضة، وقبل أن يستخلص لمصر حريتها من الإنجليز؟ وماذا عسى أن
تكون قيمة هذه الجمعية الوطنية التي تدعي وتعقد وتشرع الدستور وغير الدستور في
ظل الحماية الأجنبية؟ وماذا يكون موقف هذه الجمعية الوطنية من الإنجليز؟ وماذا
يكون موقف الإنجليز منها إن شجر بينها وبينهم خلاف: مهما يكن من شيء، فقد كان
فهم عدلي لحقوق الشعب وتصويره لهذه الحقوق ملائمين أشد الملاءمة لأرقى المثل
الدستورية العليا.

الناحية الثالثة: وفاء هذا الرجل العظيم لمذهبه في السياسة، ورأيه في حق الشعب،
وثباته على هذا المذهب، وامتناعه أن يتحول عنه مع الظروف، فقد أخفق في مفاوضة
الإنجليز واستقال وعجز عن أن يدعو الجمعية الوطنية، ولكنه قضى بقية حياته مؤمنا
بأن المفاوضة هي أوضح السبل إلى الاستقلال، مؤمنا بأن سلطة الشعب هي القوام
الشرعي الوحيد لكل حكومة، وهي العماد الشرعي الوحيد الذي يجب أن تعتمد عليه
الحكومات فيما تأتى من الأمر في السياسة الداخلية أو الخارجية؛ ولم يكد يصدر
الدستور حتى عرف عدلي كيف يرضي نفسه وضميره في السياسة، فتقدم إلى أمته
في الانتخابات؛ فلما قضت عليه أذعن لقضائها ورضي به، لا يحمل لأمته غلا، ولا يضمر
لها حقدا، ولا ينكر عليها أنها انصرفت عنه إلى غيره، ولم تمنحه ثقتها وهو على ذلك
كله مؤمن أصدق الإيمان بأن هذا الدستور الذي صدر لا يفيد الذين اقسموا على
الإخلاص له وحدهم، وإنما يفيد المصريين جميعا وهو من بينهم. ومن هنا تستطيع أن
تفهم أن عدلي قد أبى كل الآباء بعد صدور الدستور أن يؤلف وزارة، أو يؤيد وزارة أو
يشترك في وزارة لا تعتمد في صراحة وإخلاص على الدستور؛ ومن هنا نستطيع أن

نفهم إسراعه إلى الائتلاف مع سعد حين دعي إليه، وإخلاصه في تأييد هذا الائتلاف، وقبوله رياسة الوزارة في هذا الائتلاف، لأن هذا الائتلاف كان قوامه إرجاع الحياة الدستورية، وكان اعتماده على الدستور، وكان بقاؤه رهيناً ببقاء الدستور؛ ومن هنا تستطيع أن تفهم كيف اعتزل السياسة وانصرف عنها حين وقف الدستور، وكيف أسرع إلى قبول الوزارة حين عرضت عليه ليرد الدستور. ثم من هنا تفهم أيضاً كيف أنكر ما كان من تغيير الدستور القديم، وكيف أسرع إلى الاحتجاج على هذا التغيير، وكيف أسرع إلى التعاون مع المؤتمر الوطني الذي أنكر ما حدث من تغيير،

وألح في أن ترد الأمور إلى نصابها، كيف أنفق بقية حياته عزيزا كريما أبيا يرقب الحوادث وينتهز الفرص وينتظر أن يدعوه الواجب الوطني فيستجيب له. ولكن دعوة الموت سبقت دعوة الواجب الوطني، فأسرع عدلي إلى حيث أراد له من هذه الحياة الخالدة. حياة الكرامة والنعيم. وتريد الأقدار أن يموت عدلي حيث مات صديقه الحميم ثروت في باريس بعيدا عن الوطن، وتريد الأقدار أن يموت عدلي كما مات صديقه الحميم ثروت ومصر في أزمة سياسية عنيفة تعتمد عليه وتعقد به أوسع الآمال. فإذا هي تمتحن فيه وتحرم معونته، ثم تريد الأقدار أن ينتقل عدلي إلى وطنه في نفس السفينة التي نقل فيها ثروت، وهي (البروفيدنس)! أفترى الأقدار قد رعت حرمة هذه المودة الصادقة الخالصة التي كانت بين هذين الرجلين العظيمين، فأرادت أن تلائم بينهما في الموت كما لاءمت بينهما في الحياة؟

طه حسين

النقد والتقريظ

للأستاذ أحمد أمين

أصل كلمة النقد من نقد الدراهم وهو امتحانها ومعرفة الجيد والرديء منها، فهي بهذا المعنى لا تقتصر على ذكر العيوب والتشهير بها، بل تدل على استعراض الشيء والوقوف على محاسنه ومساويه.

وقد تستعمل في معنى الذم والعيب خاصة، ومنه حديث أبي الدرداء: (أن نقدت الناس نقدوك، وأن تركتهم تركوك) فاستعمل الكلمة بمعنى العيب والذم.

وهي بهذا المعنى ضد التقريظ، فالتقريظ مدح الشيء والثناء عليه، مأخوذ من قرظ الجلد دبغه بالقرظ، وقرظه بالغ في دباغه. وسموا المدح تقريظاً (لأن المقرظ يحسن ويزين صاحبه كما يحسن القارظ الأديم) وبهذا المعنى يستعملها الكتاب المحدثون فيعنون بالنقد ذكر المساوئ وبالتقريظ ذكر المحاسن.

ولست أعرض في مقالي هذا للكلمتين من الناحية الأدبية، فلا أعرض لمذاهب النقد الأدبي ومقاييسه، كما لا أعرض لأساليب التقريظ وألوانها، وإنما أعرض لظاهرة نفسية تلفت النظر: هي أن الناس على اختلاف درجاتهم في البداوة والحضارة، والرقي والانحطاط، مولعون بالنقد أكثر من ولوعهم بالتقريظ، ومولعون بالبحث عن العيوب وإظهارها والمبالغة في تصويرها اكثر من ولوعهم بالبحث عن المحاسن وإظهارها وتصويرها، وهم في ذلك بين اثنين: أما ممثل على المسرح يمثل دور الباحث عن العيوب المتجسس على السقطات، يستبشر كلما عثر على خفايا الزلات، ويقيس نجاحه بمقدار ما كشف من أخطاء، وأما مشاهد لهذا المنظر، أكثر ما يهتم له العيب الفاضح والسقطة الشنيعة، يطيل التصفيق لكاشف الزلل ويمنح الإعجاب من أصاب من آخر مقتلا.

ومظاهر ذلك في الحياة كثيرة، فلا تكاد تجد عظيما بأجماع، ولكنك كثيرا ما تجد أصاغر بإجماع، لأن النفوس ترتاح لمنظر الحقير إذ خرج من ميدان المنافسة، ونزل عن مستوى المقارنة، ويضنيها العظيم فتتلمس وجوه النقص فيه، وتخلقها إن لم تكن، وتبالغ فيها إن كانت، لأن العظيم يكلفها العناء في إدراك شأوه وبلوغ منزلته.

ومن مظاهر ذلك أن مجلات عديدة في العالم كله تعيش على النقد، وليس (فيما أعلم)

مجلات تعيش على التقريظ، وقد أدركت هذه المجلات إدراكا صحيحاً هذه الظاهرة النفسية، ورأت أن رواجها يكون أتم كلما ارتفعت نغمة هجوها، وكلما كان نقدها أقذع، وسهامها أنفذ، والجرائد في العالم تبذل المدح بالحبة، والنقد بالقنطار، ومن آية ذلك أن الناس في كل أمة يقدرون (غالباً) جرائد المعارضة أكثر من قدرهم جرائد التأييد،

فإذا تغيرت الحكومات وأصبحت جرائد المعارضة بالأمس جرائد تأييد اليوم، نزلت قيمتها من ناحية أنها لم تعد تروي رغبات الناس وشهواتهم.

ثم، مالنقد الأدبي؟ أليس هو الغالب إرضاء لعاطفة البحث عن الغلط والتشهير به؟ إذا مدح النقاد فبحذر وقدر أكثر مدحهم (طعم) يستدرجون به القراء لإقناعهم بأنهم عدول في تقديرهم، منزهون في ذمهم ومدحهم، حتى إذا اطمأن لهم القارئ بالغوا في النقد وأسرفوا في اللوم، واكثر الناشئين من الأدباء يتطلبون الشهرة من طريق مهاجمة النابغين والتعرض لهم، والتسميع بهم، حتى إذا تصدوا للرد عليهم رفعوا من شأنهم إذ جعلوهم في منزلتهم، وقديماً حكى لنا (بشار بن برد) أنه (وهو ناشئ) هجا جريراً فأعرض عنه واستصغره، ولو أجابه لكان كما يقول أشعر الناس. قد يكره الناس الناقد الجريء، ولكنهم يهابونه ويلتفتون إليه ويشجعونه على أن يبني نفسه من أنقاض ما هدم من غيره.

ومن اكبر مظاهر هذه الظاهرة ارتياح الناس للهازئين الساخرين، وما يصدر منهم من هزؤ وسخرية، على شرط ألا يكونوا هم موضع الهزؤ والسخرية، فأوسع أبواب الظرف والكياسة، وأشد ما يستخرج الضحك والإمعان فيه ما لذع به الناس في أعراضهم وأخلاقهم وملكاتهم، والذي يعدّه الناس لطيف الروح خفيف الظل، بارع الظرف، هو من يومئ الإيماءة الفاتكة ويرشح لسانه باللفظ يقتل به البريء الغافل، ويضحك به اللاهي الماجن.

وقد تقام حفلات التكريم للإشادة بصفات عظيم، أو التنويه بما قام به من عمل جليل، ولكن أكثرها حفلات تأبين، تقام بعد أن اختفى المحتفل به عن المسرح وغاب عن الآنظار، أو بعد أن أعجزته السن وخرج من ميدان العمل والمنافسة، أو هي حفلات تجارية أقيمت لمنفعة المحتفلين لا المحتفل بهم. الحق أن هذه العاطفة، عاطفة البحث عن الخطأ وإذاعته والولوع بالنقد أكثر من الولوع بالتقريظ عاطفة تشارك الإنسان في جميع أدواره.

وتعليلها (على ما يظهر) يرجع إلى غريزة الأثرة وحب النفس، كأن الإنسان يرى أن القول

بعيوب الناس يتضمن القول بتفوقه، والتشهير بأغلاطهم إقرار سلبي بنبوغه، والعمل على تحقيرهم قد ينتج مع الزمن انفراده بالعظمة، والسخرية منهم تستتبع الاعتراف بجلاله وحده.

ولكن المدنية والحضارة، والرقي العقلي والخلقي، تهذب من هذه العاطفة، كما تهذب من سائر العواطف، فالناقد المهذب يكتفي بالتلميح دون التصريح، وبالإشارة دون التجريح، يقول ما في نفسه ولكن يتخير الألفاظ ويتخير المواقف، ويترفع عن ألفاظ الغوغاء وأساليبهم، والمقارنة بين الجرائد والمجلات وأساليب النقد في الأمم المختلفة تؤيد هذا كل التأييد.

ولو سار الأمر على المعقول لخف كثير مما يصدر من لوم ونقد، لأن أساس اللوم إمكان المسئولية، فإذا لم تكن فلا لوم، فلسنا نلوم المرضى إن لم يأتوا بأعمال الاصحاء، ولا نلوم البدوي كما نلوم الحضري، ولا نلوم الجاهل بما نلوم به العالم، ولا نلوم الطفل في المدارس الابتدائية إذا لم يحل معادلة جبرية أو نظرية هندسية.

إنما نلوم الإنسان عندما يكون في الإمكان أن يفعل خيرا مما كان، ولو قدر اللائمون تقديرا حقا ما يحيط بالملوم من حالة عقلية وجسمية وبيئة اجتماعية ومن عوامل حفية معقدة يصدر عنها العمل لخففوا من غلوائهم، ولطفوا من لومهم، ولعلموا أن استحقاق اللوم نسبي يرتبط بالسن وبدرجة الثقافة والمدنية وحالة الفرد في أمته وموقف أمته في العالم.

ولو سار الناقد على المعقول، لوقف موقف المصلح لا موقف الجاسوس، إن الجاسوس يهمه أن يرى الخطأ ليبرهن على كفايته، ويسره أن يرى العيب ليقبض على فاعله، وكلما أوغل في استكشاف العيب الدفين، وتعمق في إظهار جريمة مستورة، كان أدل على قدرته ونبوغه، ويأسف إن لم يكن عيب. كأنه يشعر شعوراً باطنياً أنه إرهاص بأن لا حاجة إليه، والمصلح يستكشف العيب لا ليشهر به، ولكن ليعالجه، وأقصى أمانيه ألا يكون عيب، وإذا كان فأن يداوى، ويعتقد أن مهمته تتم، مع السرور، يوم يزول المرض ويتلاشى النقص، وأنه بنقده ولومه إنما يصف دواء يستأصل الداء،

ويأتي عليه.
أسوأ ما نرى أن يكون الناقد كالفرس الجموح ينال من الناس بهوجه وخبطه، أو أن يقف في نقده موقف الغر يداعب بالنار، أو الطفل يلعب بالسكين.
المعالي. . .
للدكتور محمد عوض محمد
الآن وقد بلغت ربوع الألب أيها الصديق!، فما أجدرك أن تلقي عصاك حينا، ثم تنعم النظر فيما حولك من خلق عجيب، ومن روعة آخذة بالألباب. . . . في هذا الجزء الصغير الجليل من العالم أرادت الأرض أن تسمو وتعلو. . أتراها كانت تريد أن تبلغ السماوات، ثم لم تلبث أن رأت هذا السمو قد أبلغها الزمهرير المهلك القارس، فجمد في صدرها الأمل والطموح، واكتفت من الارتقاء بشيء لعلها تراه قليلا، ونراه نحن جليلا؟. وأيا كان ذلك السر الغامض الذي جاش به صدر الأرض، وأياً كان مطمحها البعيد أو القريب، فحسبي الآن وحسبك ما نتأمله فيها من حسن وما ننعم به من جمال.
في هذه البقعة المباركة رفعت الأرض مناكبها، وأمعنت في الارتفاع، وصعدت أعلامها في الهواء وأسرفت في الصعود. واصطدمت السحب بهذه الأطواد الشامخة فسالت السحب غيثا مدراراً، وانحدر الغيث على جوانبها جداول وأنهارا. ثم اجتمع الماء من كل ناحية في هذه البطائح المطمئنة، ولم يزل يجتمع حتى استحال إلى هذه البحيرات البديعة، وقد نزلت اليوم على ضفاف واحدة منها. فراعك حسنها الهائل، وفتنتك عيونها الساحرة، واستهواك قوامها الرشيق، وخدها الأسيل. . . ولقد بهرك منها بنوع خاص هذا الجمال المتجدد في كل لحظة، إذ تبدو لك الصبح في لون، والأصيل في لون، وتبدل في كل آونة ثوبا. . . أرأيت يا صديقي، كيف حرت في أمرك وأمرها، فما تدري أي ألوانها أحب إلى قلبك، وأي أشكالها أشد امتلاكا لعقلك؟
أمنظرها وقت الشروق، وهي هادئة وادعة، وقد انطبعت في صفحتها البلورية الملساء صورة مبهمة قاتمة للجبال الشاهقة التي تحيط بها، وقد حالت الجبال دون وصول أشعة الشمس. فلم ينفذ إلى البحيرة من نورها سوى ضياء هادئ رقيق، يبدي لك من الكون ما حسن، ويخفى منه ما ليس بالحسن. ولولا أني أخشاك يا صديقي لقلت لك أن البحيرة في تلك اللحظة تشبه الحسناء حين تستيقظ من النعاس، ولكني أحسبك لا تعبأ بمثل هذا التشبيه. . .
أم منظرها وقت الظهيرة، حين تظلها سماء صافية زرقاء، وتبدو الجبال من حولها. وقد زهت بثوبها السندسي الأخضر. . فبدت لك البحيرة في رداء عجيب: في مزيج من فيروز السماء ومن زمرد المروج الخضراء؟
أم منظرها وقد مالت الشمس للمغيب، وقد اشتمل الكون برداء مصفر حزين، وامتدت الظلال وأمعنت في الامتداد؛ وآوت الطير إلى وكورها وخففت من غلوائها. ولاحت لك البحيرة وقد تمثل فيها كل هذا الهدوء الحزين، وعلى محياها ذلك الشحوب الفاتن. في هذه الساعة القصيرة تتبدل تلك الألوان والشكول بسرعة هائلة، فلا تكاد العين أن تقع على منظر حتى يحول ويتغير.
قل لي أيها الصديق! أما استهواك منظر هذه الأطوار التي أحدقت بالبحيرة من كل جانب، وقد اختفى تحت الماء منها شطر وحلق في السماء شطر. فأما شطرها البادي للعيون فقد اكتسى بغطاء محكم من النجم والشجر؛ وأما شطرها الذي غمره ماء البحيرة فانه عار، ومن عناية الأقدار أن غمرته المياه فسترته عن العيون.
ولكن حدثني يا صاح أي هذين الشطرين قد شاقك أمره، فتاقت نفسك إلى إدراك غامضة واجتلاء ما خفي منه؟ هل خطر لك أن تغوص إلى أعماق هذه البحيرة حتى تبلغ أقصى أصول تلك الجبال، فتطلع على ما خفي من سرها، وما أبهم من أمرها؟ أم شاقك منظر هذه القمم الصاعدة في السماء فأردت أن تبلغ ذراها؟ ني لا أظنك تحاول الأولى؛ فقليل من الناس من تستهويه الأعماق البعيدة، فيحاول أن يغوص إليها. ونحن ذوو أحلام ضحلة، لا نجد في البحث العميق إلا عناء ونصبا. وسنبقى مدى الدهر قانعين بالظواهر تخدعنا وتقنعنا.
أما هذه القمم العالية، فأنك تراها أمامك كل حين، تبصرها عندما تستيقظ وتشرف عليك من سمائها النهار كله، وتبدو لعينيك في الليل البهيم مظلمة قاتمة، غامضة

رهيبة، لكنها على هذا كله جذابة أبدا. . . وأحسبك قد استهواك أمرها، وحدثتك نفسك بالصعود إليها. وفي كل نفس دافع ملح يدفعها أبدا إلى المعالي، ويجشمها في سبيلها الصعاب.

وكأني بك، أيها الصديق، وقد جلست فوق صخرة مشرفة على البحيرة وجعلت تتأمل هذه القمم، فتحس شوقا قد تملك قلبك، وضراما متوقدا يستثير همتك إلى صعود هذه الجبال، وبلوغ تلك المعالي. . . أنك تريد أن تسمو حيث يحلق العقاب، ويسبح السحاب، حيث

تنشق ذلك الهواء النقي الزكي، الذي تنشقه البزاة والنسور؛ لا هذا الهواء الأسفل الذي امتلأ بالأدران والأكدار، حيث تنظر من تلك القمم مطلا على هذه الأجساد التي تتحرك على أديم الثرى، فتراها من ذلك الارتفاع الشاهق على حقيقتها، فإذا هي في عينيك دود يزحف، أو حشرات تحبو.

إن بلوغ تلك القمم لخليق حقاً بأن يكون مطمح العين، ومنية النفس. ولا حرج عليك إن كنت قد شغفك حب تلك المعالي وأهمك التفكير فيها. فطوراً يحملك الأمل على جناحيه، ويحلق بك في جو السماء، فتحُال المرام قريبا، وأنه منك قاب قوسين؛ وطورا يثوب إليك الرشد، فتفكر وتقدر، وتقارن بين همتك وقدرتك. . فلا تزال بين ارتفاع وهبوط، وإقدام وإحجام.

ثم كأني أراك بعد ذلك وقد قطبت جبينك، وعضضت على نواجذك؟ فهل صح عزمك على أن تجشم النفس هذا العناء الثقيل وهذا الجهاد الطويل؟ لئن كانت تلك عزمتك التي عزمت، فهل تعلم أي الطرق تسلك كي تبلغ مأربك؟

إن لهذه القمم التي تراها حديثاً شيقاً طليا، سأحاول الآن أن أسر إليك خبره. فلعلك واجد فيه عونا على النجاح أو سلوانا عن الإخفاق. . . .

إن الناس أيها الصديق يبلغون تلك المعالي من طرق ثلاثة، ليس لها رابع: فأما الطريق الأول فسبيل معبد ممهد، تحف به الرياحين، وتجري حوله الآنهار، وقد نبت فيه العشب الندي، وأحاط به الثمر الجني، وأعجب ما في هذا الطريق أن سالكه لا يكاد أن يسير فيه خطوات قلائل، حتى يبلغ مأربه، كأنما الغاية تسعى إليه ولا يسعى إليها، أو كأن الطريق يحمله حملا يبلغه مرامه. فما هو إلا أن يغمض طرفه ثم يفتحه، فإذا الأماني قد تحققت، والمعالي قد دنت ودانت.

وأظنك تعلم يا صديقي أن ليس لأمثالك وأمثالي أن يسلكوا هذا الطريق؛ وأحسبك تعلم أنه مما اختص به أولئك المجدودون، الذين ولدوا في حجر النعيم، ورعتهم نجوم السعد، وحرستهم عين المشتري، وهزت أرجوحتهم يد الزهرة: وفي وسعهم إن شاءوا أن ينزلوا إلى القمة نزولا، حين يحاول الناس أن يصعدوا إليها صعودا. ما من سبيل إلى مجاراتهم أو اللحاق بهم، فلندعهم ولننظر هل لدينا من طريق سواه.

أما الطريق الثاني فلعله أعجب من الأول وأغرب، فهو طريق خفي، شديد الخفاء. غامض كل الغموض، لا ترى له بدءا ولا تعلم له اتجاها. . ملتو غاية الالتواء، معوج شديد الاعوجاج وسالكوه قوم قد رزقوا البراعة والمهارة. فهم تارة يثبون ويقفزون، وتارة يزحفون أو يحبون ويركعون ويسجدون، وطورا يسلكون طرقا مظلمة حالكة، وأحياناً يخوضون في الرجس والدنس. لا تثنيهم رداءة الطريق ولا وعورته، ولا اعوجاجه والتواؤه، وما أنت يا صاح من هذه الشرذمة التي تصل إلى القمة من أقذر السبل. فما أجدرك أن تدع هذا الطريق وتبحث عن سواه.

لم يبق غير سبيل واحد لا مندوحة لك عنه: وذاك هو الطريق الذي يدعوه أهل تلك النواحي (طريق البغال): أسم ستنبو عنه أذنك، وتشمئز منه نفسك. وسترفع رأسك إلى السماء كبرا وأنفة أن تنزل إلى هذا الدرك. أو تنحط إلى هذا المستوى. . . لكن رويدا فليس في الأمر نزول ولا انحطاط، وإنما هو صعود وارتفاع وارتقاء، وقد ينتهي بك إلى القمة التي تنشدها. فلتخفف إذن من غلوائك، واذكر انهم يدعون هذا الطريق بالفرنسية ويسميه الإنجليز - والألمان وأظنك بعد أن تردد هذا الاسم في هذه اللغات جميعا. سيصبح في أذنيك عذبا لذيذا سائغا.

ولئن كان في الاسم ما ينفر السمع، فليس في المسمى ما يبعث على النفور. ولعمري (بل ولعمرك أنت أيضا) انه لأشرف السبل وأمثلها، وأصفاها وأطهرها، وان كان طويلا مضنيا مجهداً. فإذا كنت تريد المضي فيما عزمت عليه، وتحاول الصعود إلى تلك

المعالي، فمحال على مثلك أن يسلك الطريق الأول، وأنت أعف قلبا وأنبل نفسا من أن تسلك الطريق الثاني. إذن لا رأى إلا أن تسلك ثالث الطرق، أو تنثني عن مرامك، وتقنع بالإقامة في السفح، مكتفياً من القمة بالتطلع إليها والتحديق فيها. . .

طريق البغال هذا سكة اختطوها على جوانب الجبال، كي يستطيع الرعاة والزراع أن يسيروا فيها ببغالهم وماشيتهم، وكثيرا ما تصعد فيها البغال منفردة، وهي تحمل للناس أثقالهم من موضع إلى موضع. وقد علمها إلف هذا الطريق كيف تسلكه من غير مرشد يرشدها، أو سائق يسوقها.

في هذا الطريق إذن فليسر من ينشد القمة، وأنا زعيم أنه إذا أوتي القوة والجلد، ورزق الجد والدأب، واستطاع أن يصبر على ما يلقاه من عنت وجهد، وأن يثبت للشدائد التي تنتابه، وللعقبات التي تعترضه، ولم يدع لليأس سبيلا إلى قلبه، وأمدته العناية بشيء قليل من المساعدة، فانه واصل إلى الغاية مهما طال به المسير.

إن هذا الطريق واضح بين المنهج، من سار فيه فلن يضل السبيل. . لكنه على وضوحه وبيانه، ليس سهلاً هيناً، ومتى كان الطريق إلى القمة سهلا يا صديقي؟ فالسائر في هذا الطريق سيجد فيه غلظة وخشونة، فان الأيدي لم تتناوله بالرصف والتمهيد، وحصباؤه خشنة مدببة، لا ترتاح لمسها الأقدام، وقد يصادفك فيه الحين بعد الحين، صخر ناتئ أو شجرة مائلة تعترضك، فلابد لك أن تطأطئ الرأس قليلاً، أو تدور من حول تلك العقبات، أو تحتمل الجرح الذي يصيبك حين يصدمك الصخر الناتئ، أو الجذع المائل، وكثيراً ما يحف بك الشوك ذات اليمين وذات الشمال، فيخدش ساقيك خدشاً ربما أسال منهما الدم قليلا أو كثيرا. . ولا غرابة في هذا كله مادمت تسلك هذا الطريق: طريق البغال!

ولقد تقطع في سيرك الأميال العديدة. فلا تصيب فيه قوتاً ولا شراباً، فتجتزئ بالقليل من خشن الزاد الذي احتقبته، وتصبر على الظمأ والجوع، وفي قلبك من الجلد والإيمان ما يعين على كل هذا الحرمان. . وقد يسعدك الجد بعد طول السير والعناء فتصادف وسط الصخور نبعاً ضئيلاً هزيلاً، فتهش له وتبش وتراه كأنه دجلة أو الفرات، أو الكوثر المقدس. فتبسط إليه كفيك، تتخذ منهما قدحاً تملؤه كي تبرد به لهاتك. ثم ترى أن هذه الوسيلة لا تغني فتنحني نحو الينبوع، ثم لا تزال تنحني حتى ترتمي على يديك ورجليك، وتمد نحو الماء فماً قد جمده طول الظمأ، فلا تزال تعب الماء عبا، وتصبه في جوفك صبا، وتشرب وأنت على أربع حتى تروي غلتك، ولا تسل عن منظرك البديع في تلك اللحظة، ولكن أي غرابة في هذا وأنت تمشي في طريق البغال؟

وقد تكون الطريق في بعض نواحيها سهلة ممهدة يحف بها شجر عال فيه للطير وكور. وكأني بك وقد أطلت عليك من فرع غصينها المياد قبرة صغيرة حديثة عهد بالعالم، ولم تشاهد قبلك إنسانا يمشي على رجلين، فتدهش لرؤية هذا الكائن الغريب في طريق ما رأت به من قبل إلا الدواب، فتسرع إلى أمها وتهيب بها: (أماه! إن بالطريق بغلا جديداً ما رأيت من قبل له شبيها، يمشي على رجليه الخلفيتين، رافعاً رأسه إلى أعلى!. .) فعند ذلك تقول لها أمها العجوز: (ليس هذا يا ابنتي بغلا بل هو من أبناء آدم، فان أبصرته فابتعدي عنه، واختفى عن عينيه، فانه ليس بالمأمون جانبه.).

هذا بعض ما يقال عنك أيها الصديق وأنت بذلك الطريق. ولو كشف عنك الغطاء فأفهمت ما تتحدث به عنك الأرانب في جحورها والوزغ بين صخورها. إذن لتبسمت ضاحكا من قولها كما فعل سليمان، ولأدركت أن مسيرك هذا لا يخلو من عبث ولهو وتسلية.

ولكن حذار يا صديقي مما قد تلقاه من حشرات فتاكة. فان بالطريق أفاعي وعقارب، قد فاضت صدورها حقداً وضغينة، وهي تعشق الأذى حبا في الأذى , فان مسك منها ضر ذهبت جهودك كلها عبثا، أو تخلفت بالطريق زمنا طويلا. فامش إذن في تؤدة واحتراس، لعلك تسلم من حممها وسمومها.

والآن قد وصفت لك الطريق إلى القمة فسر فيه على اليمن والبركة. . . بيد أني لا أريد أن أكتمك أن سالك هذا السبيل قد لا يبلغ من مرامه أو ينال من بغيته إلا قدرا زهيدا. فقد يدركه الإعياء حين يعجز الجسد عن مراد الروح، وتخور القوى والأمل في

عنفوانه. أو قد تعترضه عقبة كؤود أو هوة ليس إلى اجتيازها سبيل. أو قد تناله تلك الحشرات الفتاكة بسوء، فإذا أصابك هذا (بعضه أو كله) فلا تذهب نفسك حسرات على ما لم تبلغ ولم تنل، وحسبك أنك لم تزل برغم الإخفاق موفور الشرف عزيز الجانب، لم ترتكب في سبيل تلك القمة إثما ولم يدنس لك ثوب. . .

وإلا فهل تؤثر البقاء في السفح؟

الديمقراطية

أكثريات وأقليات وتشريع

إن حكم الأكثريات ضرورة لازمة لحكم الجماعات. وأنت ترى الأحكام والشرائع مادامت ترجع في إبرامها إلى إجازة عدد من الناس يخضعون لقانون أساسي، فلا مناص إذن من أن تتقيد الحكومة برأي الأكثرية وتعنو له. ولقد أيدت المحاكم العليا هذا المبدأ حينا بعد حين، وخلال طور بعد طور، على مدى الانقلابات السياسية، وأيده المؤلفون في كثير مما أبرزوا من المؤلفات التي تناولت البحث في النظريات السياسية، كما وضع موضع التنفيذ الفعلي في نظام الحكومات في كثير من دول الأرض. ولا جرم أن حكم الأكثرية الذي يمثل رأي الجماعات له الغلبة حتى الآن في نظام الحكومات الحديثة.

أما في القرون الوسطى فان القول بمبدأ الأكثرية لم يكن أكثر من حيلة لجأ إليها الحكام ليتقوا بها الصراع بين فريقي الشعب كلما بدرت بوادره، بأن يظهروا للناس من طريق الجلاد الفكري مقدار ما يترتب على الصراع البدني في النتائج. وعلى الضد من ذلك ذهب الديمقراطيون في الأعصر الحديثة. فأنهم بعدوا عن التحايل على الناس بالأفكار والنظريات، فأصبح حكم الأكثرية عند بعض المؤلفين عبارة عن (مبدأ عام ثابت له من المسوغات الأدبية والخلقية ما يكسبه مناعة قصوى) كما يقول هنبرج في كتابه (نظريات حكم الأكثرية). ويؤيد الأستاذ (مكيفر) هذا الرأي ولكن بأسلوب آخر فيقول أنه (يجب علينا أن نعتبر أن كل الحكومات التي لا تتجلى في كيانها إرادة الأكثرية صورا بتراء إذا قيست بأنظمة الحكومات الرشيدة) وهذا الرأي يتضمن ضرورة فكرة أن الإرادة العامة هي لدى الواقع إرادة الأكثرية، لا إرادة المجموع كله. ويقول مؤلف ثالث هو الأستاذ (هرنشو) في كتابه (الديمقراطية في مفترق الطرق)، (أن عقيدة الرجل الديمقراطي لابد من أن تحمله على الاعتقاد بأن أكثرية الشعب لا محالة واقعة على الحق يوما مهما طال عليها عهد الخرق والضلال، وإنها لابد من أن تعمل جاهدة يوماً ما على أن تقيم العدل وتضع الحق في نصبا). على ان الأستاذ (هرنشو) مسبوق بهذا الرأي. فان البابا (إنوسان الرابع) في (القرن الثالث عشر الميلادي) قد سبقه إلى القول (بأن استكشاف الحق من طريق الكثرة يكون أهون وأقوم.)

إن الحكم من طريق الأكثرية ليس أكثر من نتيجة منطقية، مقدمتها القول بوجوب المساواة الديمقراطية بين كل الناس. ذلك لأن حكم الأكثرية مضمونه أنه مدام لكل الناس حقوق معلقة في عنق الحكومة، فان (أصواتهم) يجب أن (تعد) لا أن (توزن). وهذه النظرية تختلف تمام الاختلاف عما كان يفهم من معنى الحكومة في العصور الوسطى وفي الدول غير الديمقراطية. فان القاعدة في القرون الوسطى كانت تعطي لمجموع الرعايا المتمتعين بكل الحقوق السياسية حق التصويت العام في المسائل ذات الشأن التي تتعلق بسلامة الدولة. وهذا يتضمن حقيقة تختلف عن مفهوم حكم الأكثرية كل الاختلاف. فان (عدد الأصوات) كان يقترن دائماً بفكرة (الصفة) مقيسة بقيمة الشخص (صاحب الصوت) ومنزلته في المجتمع وكان (مرسيليو البادوي، نسبة إلى مدينة بادوا أقوى من دافع عن هذا الرأي حجة في العصور الوسطى حتى قال الأستاذ (مكلوين) في كتابه (تطور الفكرة السياسية في الغرب) أن (مرسيليو) لم يفكر في حقيقة الفردية الحديثة لتي تنطوي على فكرة تغلب الأكثرية، بل وعى في عقله دائماً فكرة (الشعبية) التي كانت تعطى (للصفة) من القيمة ما (للعدد).

أما النظرية الديمقراطية الحديثة فقائمة على فكرة (بنتام) في أن كل إنسان انما يعمل على الترويج لمصالحه الذاتية، وأنه عندما تتفق أكثرية ما على سياسة معينة، فمن الواجب أن تعتبر هذه السياسة ممثلة غاية ما تنتهي إليه مصلحة العدد الأعظم من الناس. وإلى هذه الغاية ينبغي أن يتجه التشريع. لأنه في ظل هذا النظام تنكمش تلك الميول الشيطانية التي تحاول أن تغلب مصالح (العدد الأقل) من أفراد الجمعية

على مصالح (الكل الاجتماعي) وتضعف تأثيرها إلى أدنى حد ممكن.
على أن هذه النظرية كثيراً ما هوجمت ونقدت. فان (إدموندبرك) الخطيب السياسي المعروف، كثيرا ما تكلم ضد ما سماه (استبداد الأكثريات) فقال: (ان رجحان الأكثرية من حيث العدد لا يتضمن مطلقا رجحانها من حيث الكفاية أو الميل إلى الخير، وحتى لا يتضمن رجحانها من حيث القوة والبطش. والحكمة من نصيب الأقليات إطلاقا، كما أن من نصيبها الإخلاص والاستقامة تغليبا. في حين ان اليأس والسلطان لا يعوزانها في أكثر الحالات) وفي هذا تأييد لقول سير (هنري مين) اذ قضى بحكم قاطع (في أن الأقليات،
التي كانت في بعض الاحيان أقليات ضئيلة، هو الذي كون لإنجلترا صيتها القصي وسلطانها العريض).
ولاحظ الكاتب المعروف (جيمس مارسون): (أنه في كل الحالات التي تربط فيها المصالح المشتركة والشهوات بين الأكثريات تكون حقوق الأقليات في خطر محقق) وقضى بأن الدواء الوحيد هو أن يوسع أفق الحكم وتقسم الجمعية إلى عدد عظيم من الأحزاب والفرق التي تمثل كل منها ناحية من نواحي المصلحة، كي يتعذر بذلك نشوء ما يسمى (إرادة الأكثرية) بحال من الأحوال. ولقد حاول أحد حكام المديريات في الولايات المتحدة أن يطبق هذه النظرية ليتقي بذلك شر تحكم الأكثريات، فاتخذ للتمثيل النيابي قاعدة (الملكية) وقاعدة العدد معا، ولقد نجحت هذه (الحيلة) السياسية بعض الشيء في التوفيق بين رغبة البيض في الحكم المطلق وتمثيل العبيد في مجالس النيابة.
ولكن العقدة الحقيقية لم تحل بهذا وحده. فقد فكر حاكم آخر هو الحاكم (كانون) المعروف بمؤلفاته القيمة في أن يحمي الجمعية لا من استبداد الأكثرية العددية لا غير، بل في حمايتها من استبداد (الأقليات المنظمة) أيضاً قال (كلما كانت المملكة أوسع نطاقا وأوفر في النسمات عددا، وكلما اختلفت حالات الرعية وتنافرت الأغراض والأهواء، كانت الصعوبة التي تحسها الحكومة في معاملة رعايها على مقتضى ما تتطلب فكرة المساواة الديمقراطية أعظم وأعقد، وأصبح من الهين على فريق معين من الجمعية أن يستبد بفريق آخر ويعبث بمصالحه ويسلبه حقوقه). وعلى هذا ينبغي أن يقوم أساس التمثيل النيابي على مراعاة (العدد) ومراعاة المصالح. وسمى الأكثرية العددية (الأغلبية المطلقة) وسمى الأكثرية المصلحية (الأغلبية المشتركة) أو بالأحرى (أغلبية التشارك).
على أن لأغلبية التشارك ميزة على الأغلبية المطلقة، أو بالأحرى الأكثرية العددية، تنحصر في أنها تقلل من متاعب الحكومات بالإقلال من عدد الذين يبرمون المشكلات العامة. ولكن لا يخفى مع هذا أن اختيار الوسيلة التي يجب أن تتبع في تحديد نسبة معينة للتمثيل النيابي، وفي وقاية الحكومة من طغيان المصالح الخاصة، ثم وقاية الأقليات في الوقت نفسه، لمشكلة من أعقد المشاكل التي تواجهها الجمعيات الديمقراطية في العصر الحديث.
ففي ظل النظام الحاضر في الولايات المتحدة مثلا، يقوم التمثيل النيابي على قاعدة الأكثرية العددية. وهذا على ما يظهر من طبيعة الأشياء أدنى صور الحكم النيابي إلى السهولة، وأبعدها عن التعقيد، بل نقول أنه يلوح في الظاهر أنه أقرب أشكال الحكم إلى تحقيق ما تتطلب الديمقراطية من المساواة. ولكن على الرغم من كل ما يلوح في هذه النظرية من البساطة والغرارة، فإنها غير مطبقة في الواقع. فان اختلاف الولايات التي تتمتع بالحكم التمثيلي من حيث السعة، كما ان النسبة التمثيلية التي تحتم الظروف أن يجري عليها انتخاب مجالس التشريع، كلاهما يجعل مناقضة هذه القاعدة والفكاك منها أمراً محتوما. ففي احدى وثلاثين ولاية من الولايات المتحدة تقع على شرائط نيابية تجعل حكم الأكثرية العددية مستحيلاً. خذ مثلا لذلك جزيرة رود فانك تجد ان كل مدينة لا يحق لها أن ترسل الا نائبا واحدا ليمثلها في مجلس

سناتو الولاية. وعلى هذا تجد أن مدينتين مثل (بروفدنس) وتعدادها. . . 250 (وبوتكت) وتعدادها. . . 64 نسمة تهزمها لدى التصويت البرلماني ثلاث قرى إذا اتحدت مثل وتعدادها 367 و (فوستر) وتعدادها 905 و (جرينتش) وتعدادها 759 نسمة. أما في (كونتكوت) فلكل (شارلستون) مدينة ممثلان. وبذلك تجد أن مدائن لا يزيد عددها على 250 نسمة تمتع بنفس النسبة التمثيلية التي تمتع بها مدنا عظيمة يزيد تعدادها على 100000 نسمة. وفي ولاية (اوهيو) خمسة أقاليم صغيرة تعدادها 67282 ولها في الوقت نفسه نفس النسبة التمثيلية التي لغيرها من الأقاليم العظمى مثل إقليم ولا يقل تعداد النسمات فيه عن 359459 نسمة. ثم (فرنكلين) تجد أن أربعة عشر إقليما تعداد نسماتها 226212 يمثلها أربعة عشر نائبا، وإقليما واحداً هو إقليم (كويا هوجا) وتعداده ليس له أكثر من سبعة عشر نائباً، فزيادة نسبة 201842 , 1 العدد في إقليم (كويا هوجا) تبلغ ستة أضعاف ما في الأربعة عشر إقليما الأولى. ولكن قيمة الأضعاف الستة لا تساوي في تشريع الولايات المتحدة اكثر من ثلاثة نواب.

والمحصل من هذا كله إن جماعات الريف في الولايات المتحدة تمنح من السلطان في الحكم والتشريع أضعاف ما تستحق عدديا لينتقص المشرع بهذه الوسيلة سلطان الأكثرية في المدائن العظمى. ولا يمكن أن يقال مع مثل هذا النظام أن التشريع هنالك خاضع لإرادة الأكثرية العددية. وعلى هذا تجد أن مجالس التشريع في الولايات المتحدة غير خاضعة لا لما سميناه الأغلبية المطلقة، ولا لما سميناه (أغلبية التشارك)، ولكنها على الرغم من ذلك (ناقمة) من ناحية انها لا تجعل رأي الأكثرية راجحا على الدوام، وهذا النقص آت من

ناحية عدم مجاراتها لمفهوم النظريات الديمقراطية القائمة على تغليب الأكثرية العددية إطلاقاً وبلا حساب، بل وبلا تقدير لأية نتيجة من النتائج التي تترتب على تغليب الأكثريات تغليبا يؤدي بها إلى الاستبداد. على ان كثيرا من العوامل ذات الأثر في أحكام النظام الداخلي في مجالس التشريع، وفي نظام اللجان، وفي الدور الذي تلعبه الأحزاب بحيلها المعروفة، ووسائلها التمردية يفضي حتما إلى حالة يخضع معها التشريع، ولو خضوعاً نسبيا، إلى الأقليات الصغيرة.

فهل لنا ان نتساءل: هل تحكم الأقليات العالم متسترة بقناع التعبير عن إرادة الأكثريات؟ وهل الديمقراطية على ما نفهمها من الكتب غيرها لدى التطبيق؟ وهل لنا أن نتخيل ان (الوهم) هو الذي يسوق الناس إلى حيث يريد بهم تفاعل قوى إنسانية مسلطة عليهم؟ وهل لنا مع هذا أن نعتقد ان الاختيار لدى الجماعات أضعف أثرا منه في الافراد؟ بل نتساءل هل الفردية هي القوة الشاملة التي تحتكم في نظام الأشياء الإنسانية؟

أ. م

حول مقال (تين)

نشرنافي العدد الثامن عشر مقالا عن (تين) بعث به إلينا من حلب السيد صبحي العجيلي. ولم يدر بخلدنا أن شهوة النشر تدفع بأحد شبابنا إلى أن يطفئها من منهل غير مشروع، حتى أرسل إلينا الفاضل عبد الحليم محمد حموده من أدباء الاسكندرية مقالا عنوانه (لصوص الأدب) يثبت فيه أن مقال العجيلي منقول برمته عن كتاب الدكتور هيكل (تراجم مصرية وغربية) وقد رجعنا إلى هذا الكتاب فوجدنا النقل ظاهرا لا شبهة فيه.

فهل يريد هؤلاء السادة أن نطالع كل كتاب ونطلع على كل صحيفة قبل أن ننشر شيئا في الرسالة؟ ذلك ما لا يضطلع به الجهد ولا يتسع له الوقت ولا يزكو به الأدب.

قصة الحارس

كان الأديب السيد محمد المدني المعلم بمدرسة الصناعات الزخرفية موفقاً في ملاحظته على ترجمة السيد محمد ناجي الطنطاوي الدمشقي لهذه القصة فقد قال إن

المترجم على دقته أخطأ فهم الأصل في كثير من المواضع فجاءت الترجمة شوهاء خاطئة، مثال ذلك أنه
ترجم هذه الفقرة:
? , , , , ,
بقوله: (مكثت هناك كالحارس أو كشرطي متقاعد شجاع شديد البأس على باب قلعته، وكنت لا أخاف شيئاً) والصواب: (وهناك أقمت للحراسة جندياً متقاعداً طيب القلب شديد البأس لا يهاب شيئاً، يحرص كل الحرص على فعل ما يؤمر به، شديد البطش بمن يحاولون الصيد في ارض غيرهم). وترجم بقوله (فأقمت عنده بأسم مستعار) والصواب (أني أسأت التعبير عن قصدي).

من صور بغداد

حديقة. . . .!

كان ألذ ما أتذوقه من جمال بغداد وقفة في حديقة النادي العسكري كل صباح!! فكنت تراني أحرص عليها حرص العابد المتحنث على أداء صلاته، أو العاشق المتوجد على لقاء فتاته، كنت أغشى كل يوم هذا المجتلي الساحر، في رونق الضحى أو في متوع النهار، فأجد الشمس قد لألأت ذوائب النخل وغوارب النهر، وأخذت ترشق بأشعتها الظلال الندية من خلال الشجر، وبنات الهديل يبحثن كعادتهن في عساليج التين وأغصان التوت بأرجلهن ومناقيرهن، وهن يرجعن على التعاقب الحان الخريف؛ والحديقة مطلولة النبات منضورة الزهر تتنفس بالفاغية تنفس الطفل الحالم، والسكون مرهوب الجلال أنيس الوحشة يعمق ثم يعمق حتى تكاد تسمع النبات وهو ينبت!؛ والنادي خلواً من أهله فلا تجد الا بستانياً يعمل في صمت، وغلاماً يكنس في هدوء، وطفلين جميلين يجيئان أحيانا فيجلسان في الشرفة أو يمشيان في الحديقة، فلولا نشوز خادمهما الكهل، ومنظر هندامه الزري الشكل، لحسبتهما زهرتين من زهورها، أو عصفورين بين طيورها،! فأسير في الروضة متئد الخطى مرسل النفس مرهف الحس، تارة بين مماشيها، وتارة فوق حواشيها، فأقف عند كل شجرة، وأحيي كل زهرة، واسأل النبتة الوليدة بالأمس ما حظها اليوم من سر الحياة ونعمة الوجود! ثم أصعد درجة إلى الشرفة، وأنعم ساعة بتلك الوقفة، فأتنسم هواء النهر ملء رئتي، وآخذ جملة المنظر بمجامع عيني،! وأي منظر يسحر اللب ويملك الطرف كهذا المنظر الفاتن؟! الحديقة من ورائي تضوع بالنسيم الأريج وتروق بالرواء البهيج وتروع بالسكون الملهم! ودجلة الخالد من أمامي تتجاوب أصداء الأمم خافتة في لجاجه، وتتهادى خفاف القوارب راقصة بين أمواجه، وأنا بين الشجر والماء كالطائر بين الأرض والسماء، يسبح خاطري في أجواء الماضي القريب والبعيد صاعدا إلى فكرة، أو هابطا على ِذكَره، أو حائماً حول منظر كهذا المنظر تدفق به قلب في قلب، وامتزجت فيه نفس بنفس، وتجمعت الأحلام والأماني كلها فوق رقعة صغيرة من أرضه، وتحت سرحة فينانة من روضه!

لا تظنن هذه الحديقة فيحاء قد تأنقت فيها يد الطبيعة وتألق بها فن الإنسان! إنما هي مربع من الأرض على قدر ما يتسع له فناء كبير في منزل فخم، يشقها ممشيان معروشان قد تعارضا على شكل صليب قسماها إلى أربعة أقسام سواء، وفي هذه الأقسام وما أُلحق بها قام دوح السدر، وبسق سرح الكافور، وانتظمت على جوانب مماشيها أشجار النارنج، وانتثرت على معظم أرضها ألوان قليلة من النَّور الجميل والورد العطر. فسماؤها كما ترى للشجر وأرضها للدهر وجوها للعطر وهي كلها لنوع من الجاذبية يجعلها على بساطتها فتنة الفنان وجنة المفكر!

ليت شعري ما مصدر هذا السحر الذي يشع في عيني ويشيع في نفسي كلما دخلت هذا المكان؟ أهو ذاك البناء المتآكل الذي يقوم في جنوبيه كأنه المعقل البالي أو الدير المهجور، أم هو ذلك النهر الجميل الذي يجري في غربيه كأنه الزمن الدافق أو الكتاب المنشور، أم هو ذلك المزيج العجيب من جلال القدم في المكان وجمال الطبيعة في البستان وعظمة الحياة الماثلة في النهر؟؟

ليس للروح العسكري في هذا المكان الشعري مظهر ولا أثر. فما تعهده من الخشونة

في الثكنات، والعنف في الحركات والقسوة في النظرات والكلمات، يحول هنا إلى ذوق فنان ورقة شاعر وهدوء فيلسوف!

كادت هذه الخواطر الجريئة الملحة تذهلني عن حديقتي واليوم عيد من أعياد الطبيعة برزت فيه عارية من الحلل غانية عن الحلي! والخريف في العراق هو الربيع احترقت غلائله الوردية في لظى يوليو!! فهو على تجرد أرضه من الأنوار والازهار، وتحجُّب سمائه أحياناً بالغيم وأحيانا بالغبار، جميل البسمات عليل النسمات رفاف الأديم. فها نحن أولاء بين أعقاب الخريف وطلائع الشتاء والشمس لا تزال في ثغر السماء ابتسامة حلوة! تضاحك النهر الحبيب فتزيده طلاقة. وتداعب الزهر الكئيب فتكسبه أناقة، وتطالع الجو المقرور فتقبسه حرارة، وتصارع برد الموت في أوراق النارنج وأطراف التوت فتطيل

بقاءها فترة أخرى من الزمن! وهذه اليمامات السواجع، مازلن يأوين إلى أعالي الشجر يمرحن في الضوء وينعمن بالدفء ويهتفن بالأهازيج كأنهن في أَمَنَةٍ من حلول يناير وهو منهن على ليال قلائل!! وهذا دجلة السعيد يتنفس موجه بالنعيم، ويطفح غرينه بالذهب، ويقذف تياره بالغثاء والزبد، بعد ما بخره القيظ فنش حتى انكشف ضميره، وانقطع خريره، وكاد يزحف الشبوط والزورق فيه على القاع! فالبواخر تصعد صافرات في سرعة، والأطواف تنحدر صامتات في بطئ، والقفف تعبر موقرات في هوادة، وقوارب الصيادين وزوارق الملاحين تتعارض وتتحاذى في عباب النهر كأنها الخواطر الحائرة في الفكر العميق، والطيور الصائدة تحوم على وجوه الماء بأجنحتها الشهب حومان الآمال على ستر الغيب الصفيق، والبجعة الملكية تطعن في صدور الموج بمنقارها الطويل العريض وهي تسبح آمنة في حمى البيت العتيق، وأنفاس دجلة اللاهث من عبء القرون تتصاعد إلي حاملة أنين الأمواج وخفق المجاديف وغماغم الكرخ فتختلط بتجاوب اليمام على الشجر، وتناوح الرياح بين الغصون، وحشرجة الاوراق الذاوية على الارض، فتتألف من هذه الأصوات الخافتة موسيقى روحية شجية تبعث رواقد الأحلام وتثير كوامن الآلام وتقطع بين النفس وبين وجودها الحاضر!!

أيه يا دجلة يا سجل الأمم وراوية العصور! لشد ما فنيت في خريرك ضحكات، وامتزجت بنميرك دموع، وخفيت في ضميرك أسرار!! لقد رأيتك بالأمس ضارعا قد لصق خدك بالأرض حتى همّ بخوضك الخائض، وهمدت حياتك حتى أوشك أن يسكن عرقها النابض، ثم رأيتك اليوم وقد غاثك الغيث فجاشت ينابيعك الثرة بالنماء والثراء والقوة، ثم أقبلت كدأبك منذ آلاف السنين داوي الدارات صخاب اللج تعرضها مُلحا على بنيك فيعرضون عنك إعراض البطر، ويؤثرون على فيضك الميمون وذق المطر، ثم يهينون كبرياءك يا أبا الحضارات فيجعلون مبلغ همك حمل الأرماث ونقل القُفف! فهل يعجبون إذا فار غضبك فجرفت السدود وجاوزت الحدود وأصبتهم بالغرق؟. . . . .

أحمد حسن الزيات

نعي هين

ناعٍ سعى بكتاب ودِ من حدب ... على ما حواه لو يواريه!

فقلت لا وجلت نفسي ولا حفلت ... أنا عب أم بشير من ألاقيه

أدّ الرسالةَ لا تُحجم بها َجزِعاً ... فليس يَكربنُي من أنت ناعيه!

أَثم في الناس مَن آسى لفُرقته ... فأرهَبَ الموتَ إذ تعدو عواديه؟

إن الزمانَ رمىَ كبرى مصائبه ... فما أُبالي جديداً من غواشيه

وكيف يخشى الردى من ليس يَكربُهُ ... لو أنّه اليوم مَن سارت مَنَاعيه

مضى الذي حَطّمت قلبي مَنيتّه ... ومن وددتُ بروحي لو أفدّيهَ

من عشت أمرح في شتى مأثره ... مدى الحياة وفي طولى أياديه

ومن ِبرَغمي أني قد حييت وقد ... حواه في الارض جافي الجنب نابيه

ومن ُأردد عمري ذكره وله ... أحيا بقلبٍ ثخينِ الجرح داميه

كنزٌ من الود أقدُر نفاسته ... حتى دهاني محتوم الردى فيه

أمسيت أبحث عن محض الوداد سدّىً ... وكان لي أمس أقصى ما أرجيّه

أقضي مع الناس عمراً خالياً صفِراً ... من الودَاد كمَن في القفر يطويه

فخري أبو السعود

مطالعات في التصوف
عوارف المعارف. معرفة النفس
- 4 -
ليس الباب السادس والخمسون من كتاب عوارف المعارف الذي أريد أن أحدثك عنه في هذا الفصل بابا من أبواب التصوف فحسب. وإنما هو قد جمع إلى المكاشفات الصوفية مذاهب فلسفية ونظريات بسيكولوجية لها قيمتها من حيث إظهارنا على معرفة ماهية النفس والروح والقلب والعقل من ناحية. وفي الإبانة عن علاقة هذه الأشياء بعضها ببعض وتأثير بعضها في بعض من ناحية أخرى.

ويرى مؤلف عوارف المعارف بادئ ذي بدء أن الكلام في الروح صعب المنال. وأن الإمساك عنه خير من التعرض له والإشارة إليه. فقد قال تعالى في كتابه العزيز: (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي) وهذه الآية الكريمة هي التي هبط بها جبريل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم حين سأله اليهود أن يخبرهم عن الروح وعن ذلك كيفية تعذيب الروح التي في الجسد. ولم يكن قد نزل على النبي حتى ذلك الحين شيء في الروح فنزلت هذه الآية. وهي تدلل دلالة واضحة لا لبس فيها ولا غموض على أن معرفة ماهية الروح أمر مقصور على الله وحده. وإذن فكيف يتسنى لمخلوق أن يخوض في هذا الموضوع أو يشير إليه وقد أمسك النبي عنه؟ أليس الأجدر بالإنسان أن يتركه جانبا تشبها برسول الله واستمساكا بتأدبه؟ على أن الفلاسفة والعلماء لم يقفوا عند هذا الحد وإنما عرضوا للروح فتناولوها بالبحث والتحليل وحاولوا محاولات شتى، أرادوا أن يكشفوا بها عن ماهية الروح وكنهها ومصيرها بعد الموت. وهم في محاولاتهم هذه اختلفوا فيما بينهم اختلافاً قويا نلمسه في تضاعيف كتبهم التي أودعوها آراءهم ومذاهبهم. ومن هنا ترى مؤلفنا يقول أنه لم يوجد اختلاف بين أرباب النقل والعقل في شيء كالاختلاف في ماهية الروح. وأنك لتراه يقول ايضاً إن من بين الذين تناولوا هذا الموضوع قوماً ركبوا متن الشطط فخرجوا على الشريعة وخالفوا أصول الدين. على حين أن من بين الذين استمسكوا بالشريعة وتكلموا في ماهية الروح قوماً اعتمدوا في تحليلهم للروح على الاستدلال والنظر. وقوماً آخرين كانت طريقهم طريق الذوق والوجد. ومن هنا خاض علماء الصوفية في موضوع الروح وأرادوا تعرف ماهيتها، وكان الأولى بهم والأجدر أن يمسكوا عن ذلك تأدبا بأدب النبي.

وبعد أن أظهرنا مؤلفنا على ما لمسألة الروح من خطر عظيم ودقة فائقة تعلو على إدراك الإنسان نراه يعمد إلى تدعيم رأيه بذكر طائفة من أقوال المتصوفة رأوا رأيه وذهبوا مذهبه في أن الروح أمر يتعذر إدراكه ويدق فهمه. ومن بين الأقوال التي ذكر قول الجنيد الذي جاء فيه: (الروح شيء أستأثر الله بعلمه ولا تجوز العبارة عنه بأكثر من موجود) وقول أبي عبد الله النباجي الذي يظهرنا فيه على أن الروح جسم يلطف عن الحس. ويكبر عن اللمس. ولا يعبر عنه بأكثر من موجود.

وقد اختلف الناس في الروح هل هو قديم أم محدث. واختلفوا أيضاً في أمر الروح الذي سئل عنه رسول الله. فذهبوا في ذلك مذاهب شتى وأدلوا بآراء تختلف فيما بينها اختلافا ظاهرا قويا. ولعل أهم ما يلاحظ على هذه الآراء انها تدور جميعا حول الروح الذي لبس في الجسد. فأنت ترى مثلا أن فريقا قد ذهب إلى أن الروح الذي سئل عنه النبي انما هو جبريل. وان فريقا آخر قد انتهى إلى أنه ملك. ومهما يكن من شيء فقد اتفقت هذه الآراء على أن الروح الذي هو من أمر الله شيء آخر غير الروح الذي في الجسد والذي يرى مؤلف عوارف المعارف أن الكلام فيه مباح غير محظور.

والروح التي في البدن هي قوامه ودعامته استحق بها أسم الحياة، بها ثبت العقل وقامت الحجة. ولولاها لتعطل العقل ولما كانت له أو عليه حجته. هي جوهر مخلوق ولكنها الطف المخلوقات وأصفى الجواهر. بها تترآى المغيبات ويكون الكشف لأهل الحقائق.

وتنقسم الأرواح إلى أقسام: -

(1) أرواح في البرزخ وتبصر أحوال الدنيا والملائكة. وتسمع ما تتحدث به عن أحوال الآدميين.

أرواح تحت العرش (2)
أرواح طيارة إلى الجنان وإلى حيث شاءت من السعي إلى الله أيام الحياة (3).
وإذا كانت الروح مخلوقة فقد قال بعضهم. انها خلقت من نور العزة وان إبليس خلق من نارها. وقال بعضهم: - قرن الله العلم بالروح فهي للطافتها تنمو به كما ينمو الجسم بالغذاء.
ويتناول مؤلفنا بعد ما قدمت لك أبسط آراء المتكلمين في الروح، وهو يلاحظ أن اكثر متكلمي الإسلام يميل إلى أن الإنسانية والحيوانية عرضان خلقا في الإنسان يذهبهما الموت. وأن الروح هي الحياة بعينها بها صار البدن حيا. فإذا انفصلت عنه أصبح ميتا، ولكنها إذا عادت إليه يوم القيامة عادت إليه الحياة.
وذهب بعض المتكلم إلى ان الروح جسم لطيف مشتبك بالأجسام الكثيفة، وهذا رأي أبي المعالي الجويني.
على أن السواد الأعظم من المتكلمين قد انتهى إلى أنها عرض، ولكن هذا المذهب مردود عليه بالأخبار التي دلت على أن الروح جسم لما فيها من العروج والهبوط والتردد في البرزخ. ومن ثم لا يمكن أن تكون الروح عرضا مادامت قد وصفت بأنها جسم. فليس الوصف الا معنى والمعنى لا يقوم بالمعنى.
وأما مصير الروح بعد خروجها من الجسد فقد حدثنا عنه مؤلفنا فيما أورد من كلام ابن عباس. سئل ابن عباس: أين تذهب الأرواح عند مفارقة الأبدان؟ فقال: أين يذهب المصباح عند فناء الادهان؟ قيل له: وأين تذهب الجسوم إذا بليت؟ قال: فأين يذهب لحمها إذا مرضت؟
وأكبر الظن أن آراء المتكلمين في الروح ومذاهبهم التي أوجزها لنا مؤلف عوارف المعارف تكفي لإعطائنا صورة لا بأس بها لهذا الخلاف الضعيف الذي كان بينهم حول مسألة هي من أدق المسائل وأعوصها إن لم تكن أدق المسائل وأعوصها جميعا. ولعل دقة المسألة وخطورتها آتيتان من حيث أن باحثها هو مضطر فوق هذا إلى أن يلائم بين رأيه وبين ما دعا إليه الكتاب والسنة. ومهما يكن من شيء فقد رأى المتكلمون أنفسهم امام ما يقال لهم من ان الموجودات محصورة. فكل موجود أما أن يكون قديما او جسما أو جوهرا أو عرضا. ومن هنا كان لابد لهم من أن يتعرفوا ماهية الروح ويطبقوا عليها هذا الذي قيل لهم عن حصر الموجودات. فهل الروح قديمة؟ هل هي جسم؟ هل هي جوهر؟ هل هي
عرض؟ تلك أسئلة رأوا أنفسهم مضطرين إلى الاجابة عنها. وقد أجابوا عنها بالفعل. فرأى فريق منهم أن الروح قديمة لانها أمر والأمر كلام والكلام قديم. ورأى فريق آخر انها جسم. وذهبت طائفة إلى انها جوهر، وطائفة اخرى إلى انها عرض كما أشرت إلى ذلك آنفا. ويرى أبو طالب المكي أن الأرواح أعيان في الجسد كما يرى ان النفوس كذلك. فهو يقول ان الروح تتحرك للخير ومن حركتها يظهر نور في القلب يراه الملك فيلهم الخير عندئذ. وان الروح تتحرك للشر فتظهر في القلب ظلمة يراها الشيطان فيقبل حينذاك بالإغواء.
محمد مصطفى حلمي. ماجستير في الآداب
قص الشعر في الأدب العربي
نشرت الأهرام كلمة تحت عنوان (مبتكر مودة قص الشعر) ذكر الكاتب فيها نقلا عن احدى المجلات الإنجليزية أن مبتكر هذه الطريقة هو المسيو سير بليغوسكي البولندي المعروف وهو يقيم الآن بلندن، والذي أعرفه أن هذا النوع نشأ من عصر بعيد. فقد يجد الباحث في الأدب العربي كثيرا من الصور الشعرية يعرف منها كيف نشأت هذه الطريقة في العصور العربية الزاهية أيام سلطان العباسيين بالمشرق وبني أمية بالآندلس، ذلك العهد الذي مال فيه العرب إلى كثير من ألوان الترف واطمأنوا فيه إلى الدعة وخفض العيش. ولقد كان من آثار هذا الإغراق في النعيم والافتنان في أساليبها أن كانوا يعبثون بشكل الفتاة الطبيعي فيقصون شعرها ابتغاء منظر طريف يمتعون به عيونهم في مجالس الشراب، كما كان يجد الشعراء في ذلك لذة فنية تعينهم على اتساع مدى خيالهم الشعري، ويطلقون على هذه الفتاة الصغيرة (جارية غلامية) ولم يك هذا النوع من العبث بالشكل الطبيعي مقصورا على الفتيات، فقد كانوا يصنعون الأقراط في آذان سقاتهم من الغلمان ويطلقون على كل منهم (غلام مقرطق) وسيجد

القارئ في هذه الصورة تأييداً لما ذكرت.
قال عامر بن شهيد أحد شعراء الأندلس يمدح أميرا ينتسب إلى الأسرة العامرية، وقد استهل قصيدته بوصف الخمر وأدواتها والجارية التي قامت على الشراب:

أذن الديك فتب أو ثوب ... وانضح القلب بماء العنب
وتأمل آية معجزة ... ما قرأنا مثلها في الكتب
ركع الإبريق من طاعته ... وبكى فابتل ثوب الاكؤب
ولول المزهر ينفي طربي ... وتطربت فأعيا طربي
وربيب قام فينا ساقياً ... كالرشا أرضع بين الربرب
ظبية دون الظباء قصصت ... فأتت غيداء في شكل صبي
فتح الورد على وجنتها ... وحماه صدغها بالعقرب

والذي ينظر إلى البيت السادس يعرف جيدا كيف كانت (مودة قص الشعر) معروفة بين الأندلسيين، ولعل أول من نقلها إليهم زرياب (المغني المعروف) فقد وفد من المشرق في عهد الرشيد بعد أن حقد عليه أستاذه إسحاق الموصلي فأقام كثيرا من عادات البغداديين في ربوع قرطبة وما جاورها وأحدث وتراً خامساً للعود. فمن المؤكد إذن أن هذه الطريقة
نشأت في الدولة العربية ويرجح انتقالها من بغداد إلى قرطبة لسبق الأولى في الحضارة نتيجة اختلاط العرب بالفرس واليونان ولا سيما بعد الفتح العربي؟
علي شرف الدين. دبلوم دار العلوم
فلسفة ليبنتز
1646 - 1716
للأستاذ زكي نجيب محمود
نظرية ذرات القوة2 - التآلف الأزلي - 1
نظرية المعرفة 4 - الله والعالم - 3

لست أدري كم ندنو من الحق حين نقرر أن لكل أمة طابعا في التفكير يطبع إنتاجها الفكري بوجه عام، ولولا أن ما تبادله الأستاذ الكبير الدكتور طه حسين والأستاذ العقاد لم يجف مداده بعد لزعمت هذا التقييم في يقين لا يعرف الشك. ألا تتميز إنجلترا بالنزعة الواقعية ألمانيا بالنزعة التفكيرية أليست إنجلترا مهدا للأفكار العملية التي تقف عند الواقع المحس (لا تعدوه) بل تكاد ألا تعترف بما وراءه. أليست ألمانيا منبتا خصبا للمجهود العقلي العميق، الذي يضرب فيما وراء الطبيعة، ويوشك ألا يعترف لهذا العالم المادي بحقيقة أو وجود، ثم أليست فرنسا موطنا للنزعة الرياضية؟ ألا يتميز الرجل الإنجليزي بالوضوح الذي أدى به إلى التمسك بالحقائق الواقعة، والفرنسي بالدقة التي طوحت به في بيداء اللاأدرية والشك، لأنه ينشد حقا يبلغ حد اليقين الرياضي فلا يجد. كما يتميز الألماني بالعمق في التفكير الذي انتهى به إلى اعتبار الفكر أصلا للوجود؟ عندي أن هذا كله حق يؤيده تاريخ الفلسفة.

ولم يكن ليبنتز فيلسوفا ألمانيا فحسب، انما كان أب الفلسفة الألمانية الحديثة غير منازع، أفتستطيع إذن أن تصور لنفسك عمق تفكيره وإمعانه في البحث عما وراء الطبيعة؟ وقد شاء له ربك أن يكون مهبطا تجتمع عنده أطراف النقائض، فيمثلها جميعا، ثم يخرجها للناس فلسفة متحدة متجانسة، فهاهو ذا قد تسلم ميراث ديكارت وسبينوزا من ناحية، وباكون ولوك من ناحية اخرى، فالتقت لديه بذلك سلسلتان متضاربتان من التفكير، إحداهما (ديكارت وسبينوزا) تنكر الحقائق الفردية وتؤكد قانونها الخالد: أي أن هذا الإنسان المعين أو تلك الشاة أو ذلك الطائر أو ما شئت من أفراد، ليست حقائق مقصودة لذاتها، انما هي مجرد تطبيق لقانون شامل، فأما هذه الافراد فذاهبة مع الموت، وأما ذلك القانون فخالد لا
يعتريه الفناء. والأخرى (باكون ولوك) تسخر من كل هذا، ولا تعرف الا هذه الحقائق الفردية التي نراها ونلمسها. التقى هذا المذهبان في رأس ليبنتز فوقف منهما، موقفاً وسطا، وأخذ من كل منهما بمقدار، ففرض أن العالم يتكون من ذرات أولية لا تقبل التجزئة وليس لها امتداد، ثم زعم أن كل ذرة منها (يلاحظ إننا نستعمل كلمة ذرة هنا في شيء من التجوز لأن الذرة المادية تختلف عن الذرة التي فرضها ليبنتز في أن للأولى امتدادا وإنها تقبل التجزئة، واما الثانية فروحية تتألف من القوة لا من المادة)

حقيقة متميزة مستقلة الا انها في الوقت نفسه تشمل صورة الكون بأسره في جوفها وتمثله أدق تمثيل. وبقدر دقتها في هذا التصوير والتمثيل يكون دنوها من الكمال، فهي فردية من ناحية وكونية من ناحية اخرى. ولابد لنا لكي نفهم ليبنتز على حقيقته أن نتناول بالشرح نظريته في الذرات ثم فكرته في إئتلافها، كما نلم برأيه في المعرفة وطريقة وصولها إلى الذهن. وسنرى أنها محاولة أخرى للتوفيق بين ديكارت ولوك، فقد مزج بين ما ارتآه الأول من وجود آراء فطرية تولد مع الطفل عند ولادته ولا تجيء عن طريق التحصيل، وما ذهب إليه الثاني من ان العقل يخرج إلى هذا العالم صحيفة بيضاء ثم تخط فيها التجارب ما تشاء.

1 - نظرية ذرات القوة

مم تتكون أجزاء هذا الوجود؟ مم يتكون هذا الرجل وذلك الماء وتلك القطعة من السكر؟ يجيب ديمقريطس أن هذا الوجود على تباين ظواهره إنما يتكون من ذرات اجتمع بعضها إلى بعض، فكونت هذا الشيء أو ذاك، وينكر ديكارت وسبينوزا هذا القول ويؤكدان أن اجزاء العالم على اختلافها إنما تتكون من مادة كونية متحدة لا تنقسم إلى أجزاء لأنها عنصر أولي واحد، ولكن ليبنتز يرد الفكرتين جميعا، فهذه المادة الكونية التي فرضها سبينوزا شاملة للوجود تبرز الكون حقيقة واحدة تتلاشى فيها كل الحقائق الفردية التي نصادفها في الحياة العملية، وتلك الجزئيات التي زعمها جماعة الذريين أصلا للأجسام، لابد ان تكون (نظريا على الأقل) قابلة للتقسيم إلى مالا نهاية، مادامت قطعا من المادة، لأن الذهن لا يستطيع أن يتصور جزءاً ماديا لا يقبل التجزئة، وإذن فهي مركبة ونحن إنما نقصد إلى أيجاد أبسط العناصر التي يمكن اعتبارها أصلا مطلقا للكون. فلابد لنا من الإمعان في البحث حتى ننتهي إلى عنصر لا يقبل التجزئة، ويكون له في الوقت نفسه

وجود حقيقي ملموس. ولا تصلح النقطة الهندسية أن تكون هي العنصر المنشود. لانها تحقق شرطاً واحداً وهو عدم قابلية التقسيم، ولكن لا يتوفر فيها الوجود الحقيقي، كذلك لا يجوز أن نفرض جسما ماديا كائنا ما كان حجمه، لأنه وإن توفر فيه الوجود الحقيقي، لا يحقق شرط البساطة، إذ لا يسعنا الا أن نتصور إمكان تجزئته إلى مالا نهاية له من الأجزاء. يقدم ليبنز هذا الاعتراض، ثم يزعم أن ذرات القوة هي العنصر المنشود. لانها موجودة لا ريب في وجودها. وليست مادية حتى تتهم بإمكان التقسيم. وهي فضلا عن ذلك منبثة في الكون بأسره، هذه القوى الأولية هي التي تتكون منها حقيقة كل شيء، فهي العنصر الذي بنيت منه المادة والروح على السواء. وهي تختلف عن المادة التي فرضها سبينوزا في انها ذرات فردية لا نهائية في عددها وطبيعتها. أما مادة سبينوزا فهي كتلة متحدة متجانسة كما تباين ذرات ديمقريطس في أنها ليست مادة متينة بل مشحونة بالحياة والحركة. وهي ليست مجرد تكرار الصورة بعينها بل متباينة مختلفة إلى أقصى حدود التباين والاختلاف في الكيف والفاعلية. حتى إنك لا تجد في الكون كله ذرتين متشابهتين، لأنه لو كان ذلك لكان خلق إحداهما عبثا لا مبرر له. ولهذه الذرات القوية (نسبة إلى القوة) خاصتان: فهي في آن واحد شاملة للكون ومنعزلة عنه. هي من ناحية وحدات بسيطة مستقلة وليس لها نوافذ تطل منها على العالم الخارجي أو ينفذ لها شيء منه، لا يمكن أن توجد من عدم كما يستحيل أن تعدم بعد وجود الا بإرادة الله. كل واحدة منها عالم صغير يسير بمقتضى طائفة من القوانين كما لو لم يكن في الوجود غيرها سوى الله. وهي من ناحية اخرى شاملة للكون، لانها وإن تكن منعزلة بنفسها مستقلة في سيرها الا أن لها من القوة ما تستطيع به أن تمثل كل ما يحتوي الكون من ذرات قوية، أو بعبارة أخرى كل ذرة ينعكس فيها الكون كله، بحيث لو استطعنا أن نصل إلى فهم واحدة فقد فهمنا الكون بأسره. فكل واحدة تحمل في طياتها ماضي العالم ومستقبله. ويعزو ليبنتز إلى هذه الذرات نوعا من الإدراك يختلف عن إدراك الكائنات المفكرة، أي أن هناك درجات للإدراك لا نهاية لها، ومعنى ذلك أنه لا يعترف بوجود المادة الميتة، إنما أجزاء المادة جميعا ضروب من الأحياء تختلف في كمية الحيوية والتفكير. وبعبارة أخرى يقول: أن هناك درجة من الإدراك الصحيح الكامل، ثم يأخذ هذا الإدراك في النقص والغموض كلما نزلت في سلم الكائنات،

وكلما كان إدراك الذرة واضحاً وتصويرها للكون دقيقاً، كانت أكثر حيوية وأحد نشاطا، والله تعالى هو وحده القادر على ان يكون له إدراكات واضحة لا يشوبها شيء من غموض أو ما يشبه الغموض، وإذن فهو وحده عبارة عن فاعلية خالصة ونشاط مطلق، وكل مخلوق سواه من الإنسان فنازلاً إلى أحط الكائنات، يكون فعالا من ناحية ومنفعلا من ناحية اخرى، وهذا الجانب المنفعل من الذرة، أي الجانب السلبي، هو ما يسمى بالعنصر المادي. أي أن وجود المادة السلبية في الذرة القوية هو الذي يحول دون وضوح إدراكها. وبعبارة واضحة. كلما رجحت في الكائن كفة الجانب الروحي الفعال على العنصر المادي السلبي كان اكثر وضوحا في إدراكه.

وانك لترى العالم مليئا بهذه الذرات المدركة، كل منها مستقل منعزل. ومع ذلك لن تجد بينها فواصل تباعد بينها، بل هي متداخلة بعضها في بعض، متصلة على أشد ما يكون الاتصال، وهذا ما يسميه ليبنتز بقانون الاستمرار. فليس ثمة تناقض أو اضطراب.

أبدأ من المادة الجامدة إلى العقل المفكر تجده طريقا واحدة متصلة يتزايد فيها الإدراك شيئاً فشيئا في تدرج غير محسوس، وسر من النبات إلى الإنسان فسترى انك انما تسلك سبيلا ليس فيها حوائل أو عثرات. بل تعلو بك قليلا حتي تنتهي إلى قمة الجبل دون أن تشعر بالصعود!

ويشير ليبنتنز إلى مراحل ثلاث تجتازها في طريقك من الكائنات الدنيا إلى طبقاتها العليا. فذرات الطبقة السفلى. أي ذرات الجماد والنبات تدرك وكفى. فهي أشبه ما تكون بالأحياء الغافية أو النائمة التي لا يرتفع إدراكها إلى درجة الشعور. والمرتبة التالية لتلك هي ذرات الحيوان، ولها فوق الإدراك ذاكرة. ولكنها لا تسمو إلى درجة العقل، وإدراكها شبيه بالأحلام الغامضة، ثم تجيء الكائنات البشرية فوق تلك المرتبة، وهي التي وهبت عقلا وشعورا بالذات. ويذكر لينتنز ان الله تعالى هو أسمى هذه المراتب جميعا فبينما تراها تتفاوت في إدراكها غموضا ووضوحا، ترى إدراكاته سبحانه وتعالى واضحة كلها.

وليست هذه الذرات مطمئنة إلى مراتبها راضية بمقامها، بل تسعى كل واحدة سعيا متواصلا إلى السمو والارتفاع نحو الكمال لا ترضى به بديلا. فهي دائبة أبداً. لا تدخر وسعا لكي تحقق هذا الكمال الأسمى بانتقالها من مرتبة إلى مرتبة حتى تصل إلى هدفها المنشود، وليس من شك في أن ليبنتنز كان بذلك القول بشيرا بمذهب دارون الذي لا يعدو
جوهره هذا التطور نحو السمو والكمال.

في الأدب العربي
ابن خلدون وميكيافيللي
للأستاذ محمد عبد الله عنان

1. (ليس على الأمير أن يجزع لما يناله من لوم على تلك الرذائل التي لا يمكن دونها إنقاذ الدولة إلا بصعوبة، ذلك أنه إذا بحث كل شيء بعناية، ألفينا أن شيئا يبدو كالفضيلة، إذا اتبع فإنه يؤدي إلى خرابه (أي الأمير)، وألفينا شيئا آخر يبدو كالرذيلة، إذا اتبع فإنه مع ذلك يؤدي إلى سلامه ورخائه).

2. (ليس أكثر تبديدا للمال من الجود والبذخ إذ سرعان ما تعجز عن مزاولتهما، وتعدو إما فقيرا أو محتقرا، أو تغدو إذا أردت أن تجتنب الفقر، جشعا مكروها. ويجب على الأمير أن يحرص قبل كل شيء على أن لا يكون محتقرا أو مكروها. وإذن فخير أن يشتهر الأمير بالوضاعة التي تثير اللوم دون بغض من أن يرغم الإنسان من طريق البحث عن الشهرة بالجود، أن يوصم بالجشع الذي يثير اللوم والبغض).

3. (كان بورجيا يعتبر قاسيا، ومع ذلك فإن قسوته أرضت رومانيا (من الولايات البابوية) ووحدتها، وردت إليها السلام والولاء. ولو تأملت ذلك حق التأمل لرأيت أنه كان أكثر رحمة من الشعب الفلورنسي، الذي أراد أن يتجنب الشهرة بالقسوة فترك بستويا حتى خربت. وإذن فما دام الأمير قادرا على الاحتفاظ لشعبه بالوحدة والولاء، فليس عليه أن يهتم بوصمة القسوة لأنه بذلك يكون أكثر رحمة من أولئك الذي يفرطون في استعمال الرحمة، فتثور القلاقل، ويعقبها القتل والنهب).

4. (وهنا يبدو سؤال: أخير أن يحب الإنسان من أن يرهب أو يرهب من أن يحب؟ ويمكن أن نجيب بأنه من المرغوب أن يكون الآنسان محبوبا مرهوبا، ولكن ما دام

اجتماعهما في شخص واحد غير ممكن، فإنه خير وأكثر سلامة أن يرهب الإنسان من أن يحب إذا وجب أن يتصف بإحدى الصفتين).

5. (لا يستطيع الأمير العاقل ولا يجب عليه أن يحفظ العهد إذا كان مثل هذا الوفاء قد ينقلب ضده، وإذا لم يبق للأسباب التي حملته على قطعه وجود).

6. (وإذن فليس من الضروري أن يتصف الأمير بالخلال الحسنة التي ذكرتها، ولكن من الضروري أن يبدو كأنه يتصف بها. . . ولا يستطيع الأمير، ولا سيما الأمير الجديد، أن يراعي كلالأمور التي يقدر الناس من أجلها، لأنه كثيرا ما يرغم، لكي يحفظ الدولة، على أن يتصرف بغير ما يقضي به الإخلاص، والصداقة، والإنسانية، والدين. وإذن فمن الضروري أن يكون عقله متأهبا ليعمل طبقا لتقلب الريح والحظ).

7. وقال مشيرا إلى سياسة ملك إسبانيا فرديناند الكاثوليكي ضد المسلمين عقب سقوط غرناطة: (إنه ينتحل الدين دائما عذرا للقيام بأعمال عظيمة، وقد ثابر بقسوة صالحة على إخراج المسلمين من مملكته وتطهيرها منهم، وليس ثمة أبدع من هذا العمل وأندر منه).

نستطيع من هذه النماذج الموجزة أن نفهم روح الفلسفة المكيافيللية في تصوير الدولة والأمير. وهي فلسفة تقوم على الحقائق العملية. وتحل هذه الحقائق على رغم جفائها وروعتها المكان الأول في بناء الدولة، وفي سياسة الأمير. فالنفاق والشح والوضاعة، والقسوة والإرهاب، والغدر والنكث بالعهد. وإهدار الإخلاص والصداقة والأمانة والدين، وما إليها مما ينافي المثل الفاضلة وتأباه الأخلاق والإنسانية، ليس مما تنكره الفلسفة المكيافيللية، ولا مما يشين السياسة التي تقوم عليها. ومن ثم كان الأمير أو السياسي الأمثل في نظر مكيافيللي طاغية لجأ في تأييد سلطانه إلى أروع الوسائل وأشنعها مثل البابا اسكندر السادس، وابنه شيزاري بورجيا (دوق فالنتينو). ويتناول مكيافيللي طرفا من حياة شيزاري بورجيا الذي عرفه واتصل به في رسالة خاصة، ويبدي إعجابه بتلك الخطوط والوسائل الدموية التي ابتدعها ودبرها شيزاري للبطش بخصومه من الأمراء والقادة وقتلهم غدراً وغيلة. ومن ثم كان ذلك الطابع الاسود الذي ما يزال يدمغ (السياسة المكيافيللية) إلى عصرنا. بيد أنه من الحق أن يقال أن المفكر الإيطالي يبدي في صوغ فلسفته كثيرا من القوة والبراعة وبعد النظر، وأن هذه النظريات والمبادئ التي قد يحكم عليها من الوجهة النظرية الخالصة، كانت وما زالت على كر العصور قوام السياسات الظافرة، وما تزال إلى يومنا عنوان السياسة العملية القوية.

(2)

يتناول ابن خلدون كما قدمنا موضوع الدولة والملك بإفاضة ويبحثه من نواح أوسع وأبعد مدى، ويتفوق على مكيافيللي تفوقا عظيما في معالجته من الناحية الاجتماعية. ويلتقي

المفكران العظيمان في مواطن كثيرة. مثال ذلك ما يقوله ابن خلدون في فاتحة مقدمته عن قيمة التاريخ في درس أحوال الأمم، ثم أقواله عن آثار البطش والسياسة العاسفة في نفوس الشعب، وعن خلال الأمير وتطرفه أو توسطه فيها، وعن حماية الدولة وأعطيات الجند، وعن منافسة الأمير للرعية في التجارة والكسب؛ وعن تطلع الأمير إلى أموال الناس وأثر ذلك في حقد الشعب عليه، وعن تطرق الخلل إلى الدولة وامتداد يد الجند إلى أموال الرعية، وكذا ما يقوله عن كتبة (سكرتارية) السلطان فهذه كلها نقط أو موضوعات يعالجها مكيافيللي أو يقترب منها سواء في كتاب الأمير أو في كتاب آخر له هو (تاريخ فلورنس) تتخلله تأملات فلسفية واجتماعية كثيرة. وقد لا يتفق مكيافيللي مع ابن خلدون دائما في الرأي، أو في منحى التفكير، ولكن كثيرا مما يقوله المفكر العربي يتردد صداه فيما يقول المفكر الإيطالي. فابن خلدون هو بحق أستاذ هذه الدراسة السياسية الاجتماعية التي تناول مكيافيللي بعده بنحو قرن بعض نواحيها؛ وهو بالأخص صاحب الفضل الأول في فهم الظواهر الاجتماعية وفي فهم التاريخ وحوادثه وتعليلها، وترتيب القوانين الاجتماعية عليها بهذا الأسلوب العلمي الفائق.

قال العلامة الاجتماعي جمبلوفتش: (إن فضل السبق يرجع بحق إلى العلامة الاجتماعي العربي (ابن خلدون) فيما يتعلق بهذه النصائح التي أسداها مكيافيللي بعد ذلك بقرن إلى الحكام في كتابه (الأمير). وحتى في هذه الطريقة الجافة لبحث

المسائل، وفي صبغتها الواقعية الخشنة، كان من المستطاع أن يكون ابن خلدون نموذجاً للإيطالي البارع الذي لم يعرفه بلا ريب) وقال استفانو كلوزيو مقارناً ابن خلدون بمكيافيللي: (إذا كان الفلورنسي العظيم (مكيافيللي) يعلمنا وسائل حكم الناس، فإنه يفعل ذلك كسياسي بعيد النظر، ولكن العلامة التونسي (ابن خلدون) استطاع أن ينفذ إلى الظواهر الاجتماعية كاقتصادي وفيلسوف راسخ، مما يحمل بحق على أن نرى في أثره من سمو النظر ومن النزعة النقدية ما لم يعرفه عصره).

وقد نتساءل أخيرا، هل وقف المفكر الإيطالي على شيء من تراث ابن خلدون واسترشد به، أم وقف على شيء من آثار المفكرين المسلمين قبله في موضوع السياسة الملكية وانتفع بها؟ نعتقد مع العلامة جمبلوفتش أن مكيافيللي لم يعرف حين كتابة (الأمير) شيئا عن ابن خلدون أو عن آثاره، ولم يعرف من جهة أخرى شيئا من آثار المفكرين المسلمين في موضوعه. صحيح أن بعض نواحي التفكير الإسلامي كانت معروفة في إيطاليا قبل مكيافيللي وفي عصره، وكانت ثمة علائق فكرية قديمة بين مسلمي الأندلس وشمال أفريقية، وبين المجتمعات الفكرية في إيطاليا، وكانت آثار إسلامية كثيرة قد ترجمت يومئذ إلى اللاتينية. ولكنا لا نلمح في أثر مكيافيللي شيئا يدل على أنه عرف ابن خلدون أو أي مفكر مسلم في موضوعه. وإذا كانت ثمة وجوه شبه كثيرة بين المفكرين من حيث فهم التاريخ وتحليله، واستقراء الحوادث، وترتيب القوانين الاجتماعية، فذلك يرجع كما قدمنا إلى تقارب عظيم بين الذهنين، وإلى تماثل في العصر والظروف التي عاش فيهما كل منهما، وإلى تماثل في الخبرة السياسية التي اكتسبها كل منهما بخوض حوادث عصره والاتصال بأمرائه وساسته. وربما يكون ميكافيللي قد عرف شيئاً عن ابن خلدون ومقدمته في أواخر حياته بعد أن وضع كتاب (الأمير) بنحو عشرة أعوام أعني حوالي سنة 1523 أو 1524. ففي ذلك الحين كان الكاتب الأندلسي المنتصر الحسن بن محمد الوزان المعروف بأسم ليو الأفريقي يقيم في رومة ويتجول في المدن الإيطالية الشمالية وهو غرناطي ولد حوالي سنة 1495 م. ونشأ في فاس وتولى لبلاطها بعض المهام السياسية، ثم حج إلى مكة سنة 1516، وعاد بطريق قسطنطينية، وفي أثناء ركوبه البحر إلى المغرب أسّرته عصابة من لصوص البحر الصقليين، فأخذ إلى رومه فنصره البابا بأسم (يوهانس ليو) أو يوحنا الأسد. أنقطع للبحث والتأليف، وألف قاموساً عربياً لاتينياً، وألف كتابه الشهير في وصف أفريقية وترجمه بعد ذلك إلى الإيطالية. وكان في مدينة بولونيا بشمال إيطاليا على مقربة من فلورنس سنة 1524 حسبما يقرر في خاتمة قاموسه اللاتيني، الذي توجد منه نسخة في الاسكوريال. ومن الممكن بل لعله من المرجح أن يكون ابن الوزان قد التقى بمكيافيللي وعرفه في رومه باعتباره علما من أعلام التفكير والكتابة يومئذ. وكان مكيافيللي بالفعل في رومه سنة 1525، قصدها ليرفع كتابه (تاريخ فلورنس) إلى صديقه وحاميه البابا كليمنضوس السابع (جوليا نودي مديتشي) ولو صح هذا اللقاء والتعارف، لكان ثمة مجال للقول بأن مكيافيللي قد وقف على شيء من آثار التفكير الإسلامي التي لا بد أن يكون ابن الوزان قد أذاعها وتحدث عنها بين أصدقائه الإيطاليين، ومن المرجح أن يكون ابن خلدون في مقدمة المفكرين المسلمين الذين يشملهم مثل هذا الحديث، لا سيما وقد كان صيته ما يزال قويا ذائعا في أفريقية والمغرب حيث نشأ ابن الوزان ودرس، على أنه مهما كان من شأن هذه الفروض، فلسنا نستطيع أن نقول أن مكيافيللي قد انتفع في صوغ فلسفته السياسية والاجتماعية بشيء من آثار التفكير الإسلامي، فلسنا نلمح في كتابه أثراً لهذا التفكير، ومكيافيللي ذهن مبتدع مبتكر بلا ريب، كما كان ابن خلدون ذهنا مبتكراً مبتدعا. وقد شق كلا المفكرين العظيمين طريقه لنفسه، وألهم وحي نفسه، وكان كتاب (الأمير) فتحاً عظيما في تفكير عصر الإحياء الأوربي، كما كانت مقدمة ابن خلدون فتحاً عظيما في التفكير الإسلامي.

من طرائف الشعر

مداعبة شوقية لم تنشر

براغيث الدكتور محجوب

براغيثُ محجوبَ لم أنسها ... ولم أنس ما طَعِمْت من دمي

تشقُّ خراطيمُها جَوْربي ... وتنفذ في اللحم والأعظمُ
وكنتُ إذا الصيف راح احتجم ... تُ فجاء الخريف فلم أحجم
ترحِّب بالضيف فوق الطريق ... فباب العيادة فالسلم
قد انتشرتْ جوقة (جوقة) ... كما رُشَّت الأرض بالسمسم
وترقص رقص المواسي الحدادِ ... على الجلد والعَلَق الأسحم
بواكير تطلع قبل الشتاء ... وترفع ألوية الموسم
إذا ما ابن سينا رمى بَلْغَماً ... رأيت البراغيث في البلغم
وتُبصرها حول (بيبا) الرئيس ... وفي شاربيه وحول الفم
وبين حفائر أسنانه ... مع السوس في طلب المطعم

العود

وصف دقيق ممتع للشاعر العالم الأستاذ أحمد الزين

لامستْ في النفس أوتارَ هواها ... غادة بالسحر تغزو من غزاها //
كلما مست يداها وتراً ... حسد الآخر ما مست يداها
تمنح الأوتار كفا رخصة ... أشْجت الأوتار من قبل شجاها
ويكاد العود يدمي كفها ... قُبَلا لو أن للعود شفاها
لحنها يبعث في ميْت المنى ... نضرة العهد ومعسول صباها
خفْقات يخفق القلب لها ... هي أنات فؤادي أو صداها
وحنين كاد من رقته ... أن يذيب اللحن في العود مياها
وشجون طالما أخفيتها ... نفذ العود إليها فحكاها
واستشف النفس عن أسرارها ... لم يدع خافية إلا جلاها
صوَّر اللوعة في مكمنها ... كيف تخبو ثم يشتد لظاها
ودبيب الحب في أوله ... والجوى ملتهبا حين تناهى
وفناء النفس في من هويت ... وترى كل وجود في فناها
وشقاء الحب في نعمته ... ونعيم النفس فيه بشقاها
ورضا العشاق من أحبابهم ... بالتفات أو خيال في كراها
كل هذا نطق العود به ... وتناجى هو والنفس شفاها
لغة الأوتار في عجمتها ... تقصر الألسن عن درْك مداها
تسعد المحزون في حرقته ... وتواسي داءه إن قال آها
ألهم العود بكاء المشتكي ... ملهمُ الطير على الأيك بكاها
تحسب الأوتار فاضت أدمعا ... وتباريح الجوى أوهت قواها
يا لها من ناحلات أنحلت ... من جسوم لاعج الشوق براها
وضعيفات وفيها قوة ... تصرع الأسد فلا تحمي حماها
جل من يبعث في الضعف قوى ... أخضعت من بقواه يتباهى
كلما شدَّت على أطرافها ... أمعنت في النفس بالسحر خطاها
لا تسل سمعيَ عن ألحانها ... سبق القلب إليها فوعاها

قبلة!

للشاعر المهندس علي محمود طه

قبلة من ثغرك البا ... سم دنيا وحياةُ!!
تلتقي الروحانِ فيها ... والمنى والصَّبَواتُ
لغة وُحِّدَتِ الأل ... سنُ فيها واللغاتُ
وَحْيُها الحبُّ وما تل ... همُ تلك النظرات
لغة دان الشتيت الش ... مل فيها وتلائم!
وبها الأرواُ في غي ... ر لَجاج تتفاهم
مَنْ تُرى علَّمها بالأم ... س حوَّاَء وآدم
لم تَزُلْ جِدَّتُها ... وهي حديث يتقادم!
قبلة من ثغرك البا ... سم تَنْدَى شفتاهُ
من رحيق لم يُحَرِّمْ ... هُ على الناس الالهُ
كلما أترعَ منها ال ... قلبُ ضَجَّتْ رئتاهُ
مستزيداً وهي إن عُلَّ ... بها زادَ صداهُ!

قبلة من ثغرك البا ... سم تمحو كلَّ ما بي!
وتُواريني عن النا ... س وعن دُنيا العذاب
وتُنَسِّي القلبَ ما جُرِّ ... عَ من سُمٍّ وصاب
قبلة تمزج أنفا ... سَكَ بالقلب المذاب!
رُبَّ ليلٍ مَرَّ أفني ... ناهُ ضمًّا وعناقا
وأدرنا من حديثِ ال ... حبِّ خمراً نتساقى
في طريق ضَرَبَ الزهْ ... رُ حواليه نِطاقا
وتجلَّى البدرُ فيه ... وصفَا الجوُّ وراقا
ولزمنا الصمتَ إلاَّ ... بعيونٍ تتكلمْ
وشفاهٍ عن جراح ال ... قلبِ راحتْ تتبسمْ
صِحْتَ بي رُعْباً وما ... راعكَ قلب يتحطمْ
نبَّأتني النفسُ بالبيْ ... ن غداً! والنفس تُلْهَمْ
ثم كانَ الغدُ ما نُبئ ... تَ هجراً وفراقا
ونسينا قبلةً سا ... غَتْ من الأمس مذاقا
غير أناتٍ صحا القل ... بُ عليها وأفاقا
فالتقينا وافترقنا ... وكأنْ لمْ نتلاقا!!
عزلة!
شاتوبريان .(والعزلة مملكة الأفكار . .)
للشاعر الدمشقي أنور العطار
وعَزْلةٍ بَرَّةِ الأفْياءِ ساجيةٍ ... رفَّافةِ الحُلْمِ تُنْئي كلَّ أتْراحي
طويتُ في صمتها قلباً شجيتُ بهِ ... واعتضْتُ عنه بقلبٍ جدِّ مفراح
يَلقى أخو الهم في أظلال دارتها ... كوناً بكونٍ وأرواحاً بأرواح
تَغيمُ روحيَ إما ثار هاجسُها ... في لامع مثل قرصِ الشمس مُنْداح
غَيبوبة ملؤها الإحسان شاملة ... غسيلة بِشَذًى كالعطر نفَّاح
أصوغُ فيها أناشيدي وأجمعُها ... من عابقٍ دائم الاطياب مسماح
يا فرحةَ الرُّوح! تحدُوها غيابتها ... إلى مطافٍ خصيب الوحي فياح
تنسى به حزَّةً في القلب مُوجعةً ... مشطورةً من أسى كالهمِّ ملحاح
كغصةً ثرّة التعذيب جاهدةٍ ... في صدر طفلٍ منيع الوِرد ملتاح
فأن يقتر عليها الحظ حصتَها ... تظفر بحُبٍّ وإيناسٍ وإسجاح
هَناءةُ العُمْر ما انْساغت مناهلها ... إلاّ لقلبٍ غنيِّ البِشْرِ، ممراح
مفَضَّض الحُلْمِ مغمورِ الشِّعابِ هوى ... أنقى من النُّورِ في أعطافِ إصباح
فاطرَبْ ولذَّ وَطِرْ نشوانَ من فرحٍ ... في عالمٍ خيِّرِ الالهامِ مثَّاح
وأغْتَم سوانح دهرٍ، غير وانيةٍ ... من قبل يومٍ عصيِّ البرءِ لواح
ومرْقبٍ في كفافِ الأفْقِ منفَردٍ ... كأنه كَهفُ نَسْرٍ جدِّ طماح
أسرى إليه خيالي غير مكتَرِثٍ ... لهيكل راجف الأركان طلاح
فعبَّ منه نقيَّ الوحي فانْبَجَسَتْ ... أمواهُهُ من مَعينٍ غير ضحضاح
كأنما ظلَّ يهمي فوق صفحَتِه ... شُؤْبوبُ غيْثٍ هتونٍ السَّكْبِ سحاح
وروضةٍ حليتها العين وانبسطت ... في ظلِّ وادٍ أنيقِ الوشْيِ رحراح
أنشأت كوخاً على غدرانها بهجاً ... موَشَّحاً بتعاشيبٍ وأوضاح
من كل نَوارةٍ ضحاكة جذلا ... وكلِّ زهرٍ نطوف النشر، فواح
وافيتها والمساء الرحْبُ تغمرني ... ظَلالُهُ بخيالات وأشباح
سجا الأصيل وقد رفت لآلئُهُ ... على إطارٍ بهيِّ اللمح وضاح
وصفَّقَتْ مائساتُ الدَّوْح يؤْنسها ... ضحك الجدأول من تلعات أرواح
كأن سرباً من الأطيار يطربني ... تنغيمه بنشيدِ جدِّ مصداح
والشمس خابية الأضواءِ، تنشرُها ... عجْلي وتجمعها في ركبها الواحي
غابَت وأبقتْ على الآفاق أصبغة ... من رسم أروع سامي الصوغ وشَّاح
هذا المساء تجلَّى في مَحفَّته ... نهلان من صورٍ كثرٍ وألواح
يزينه شفق حالٍ بأوشحة ... من مائج غائم الأرجاء طفَّاح
ما بين خابٍ نؤوم ظله، كمد ... وبين ضاح لعوب النور لماح

ترى تطيف به في حلمه ذِكَر ... ترف حيناً ويمحو رفها ماح؟
ليت الزمان مساء ملؤه صوَر ... علوية الصنع موشيات أفراح!
أطوف فيه بروح كلها لهف ... حوامٍ فوق جنات وأدواح
حتى أعيد أمانيَّ التي غبرت ... والدهرُ عنْ مأمَلي سهوان أو صاح!
في الزورق
لست بناسٍ ليلةً ... قضَّيتها في زورقٍ //
البدرُ فيها ماسة ... باهرة التألق
والنيل في مضجعهِ ... كغادة في جوسق
ينصت في غفوته ... إلى حديث الشيق
وللحبيب شَعرٌ ... يموج كالإستبرق
يلمسه النسيمُ لم ... س المستهام المشفق
دارت أحاديث الهوى ... مثل الطلا المعتق
. .ثم افترقنا غلساً ... وبعدها لم نلتق
كرمة ابن هاني. حسين شوقي
في الأدب الشرقي
جحا في الأدب الفارسي
للدكتور عبد الوهاب عزام
قال في لسان العرب: (وجحا أسم رجل) وقال في القاموس: (وجحا لقب أبي الغصن دجين بن ثابت) وقال شمس الدين بك في قاموس الأعلام: (هو من قبيلة فزارة، يضرب به المثل في الحمق، وكان في الكوفة إبان ثورة أبى مسلم الخراساني. وجحا الرومي كناية عن خواجة نصر الدين).
وقد ذكر ابن النديم في الفهرست كتاب نوادر جحا.
وأما جحا الرومي أو خواجة نصر الدين فيرو أنه كان معاصر حاجي بكتاش، ويقال انه عاش في عصر السلاجقة. وتحكى عنه نوادر كثيرة في التركية كنوادر جحا في العربية. وفي جوار أقشهر مكان غير مسور وله باب عليه قفل كبير يقال انه قبر نصر الدين.
وقد شاعت نوادر جحا في مصر وأفريقيا الشمالية كلها كما شاعت نوادر نصر الدين في تركيا. ونقلت نوادر الرجلين إلى شرقي أوربا وجنوبيها. ففي صقلية وبلاد أخرى حرف أسم جحا إلى جوفا أو وفي بلاد اليونان والصرب ورومانيا حرف أسم نصر الدين خواجة إلى
ولا حاجة إلى الكلام عن نوادر جحا ونصر الدين خواجه في العربية والتركية فهي معروفة ومطبوعة في مصر.
بعض هذه النوادر مروي في الأدب الفارسي في لطائف عبيد الزاكاني الشاعر المعروف، ولكنها لا تنسب إلى جحا، ولا يستطيع من يعرف الزاكاني ولطائفه أن يذكر أسمه دون أن يمتع القارئ ببعض حكاياته:
ذهب رجل من قزوين في جيش لغزو جماعة من الإسماعيلية وكان مع الرجل ترس كبير. فلما قارب قلاع العدو أصاب رأسه حجر فغضب وانصرف. فقال بعض أصحابه: ما خطبك؟ قال يا أخي أنا لا أحارب قوما عميا. كيف يرمون رأسي بالحجر وفي يدي هذا الترس الكبير؟!
وأخرى من لطائف الزاكاني: أن رجلا شاهد آخر يؤذن وهو يجري. قال: ما شأنك؟ قال: يا أخي إن الناس يزعمون إن صوتي حسن حين يسمع من بعيد. فأردت أن أخبر ذلك بنفسي.
وقد ذكر جحا في شعر الآنوري بأسم جحي (بكسر الحاء):
أز حسد فتح تو خصم تو بي كرداسب ... همجو جحى كز خدوك جرخه ما در شكست
ان خصمك عرقب فرسه غيظا من انتصارك مثل جحى الذي كسر مغزل أمه من) وذلك أن جحا قص على جلسائه نادرة فلم يضحكوا لها فذهب إلى داره (الغضب مغضبا فكسر مغزل أمه.
وذكر جحا في مثنوى مولانا جلال الدين بأسم جوحي وذلك في ثلاث نوادر الأولى في الدفتر الثاني من الكتاب:
مشى صبي في جنازة والده يبكي ويضرب رأسه ويصيح. يا أبت إلى أين تحمل! أتوضع

تحت الثرى! انك تحمل إلى دار ضيقة مقفرة ليس فيها سجادة ولا حصير، ولا سراج بالليل، ولا خبز بالنهار، ولا فيها أثر من الطعام ولا رائحة، ولا سقف ولا باب ولا جار مؤنس. كيف بعينيك في دار مظلمة خربة، وقد كانتا مقبل الناس؟ دار مخوفة ومكان ضيق لا يبقى على وجه ولا نضرة.

وظل يعدد أوصاف الدار على هذا النسق، ويذرف من عينه دمعا قانيا. فقال جوحي لأبيه: أيها الأريب! والله إن هذا الميت ليحمل إلى دارنا. قال أبوه: لا تكن أبله. قال يا أبت استمع إلى أوصاف الدار. انها لا ريب صفات دارنا: لا حصير بها، ولا سراج، ولا طعام، ولا فناء، ولا سطح، ولا باب!

النادرة الثانية في الدفتر الخامس من المثنوي فيقرأها فيه من يعرف الفارسية فليس يجمل أن تذكر هنا.

وخلاصة الثالثة: أن جحا ألح عليه الفقر فأوعز إلى امرأته أن تشكوه إلى القاضي وتستدرجه إلى بيتها. فرفعت أمرها إلى القاضي وأفاضت في بيان ظلامتها. ثم سألت القاضي أن يزورها في دارها لتحدثه في أمرها. وجاء القاضي إلى الدار فجاء زوجها فأظهرت الخوف وهولت على القاضي الأمر حتى اختبأ في صندوق. ويدخل جحا فيقول قد عزمت على إحراق هذا الصندوق فان الناس يحسبونه مملوءا ذهبا، سأخرجه غداً فأحرقه

على أعين الناس. ولما أصبح دعا حمالا فحمله الصندوق وسار وراءه. فنادى القاضي الحمال؛ والحمال لا يدري من أين يسمع الصوت حتى عرف أنه صوت رجل في الصندوق، فسأله القاضي أن يرسل إلى وكيله ليشتري الصندوق. وجاء الوكيل فسأل عن الثمن. قال جحا: ألف دينار فلما تردد الوكيل عرض جحا أن يفتح له الصندوق ليعلم أنه جدير بهذا الثمن. وانتهيا إلى الاتفاق على مائة دينار فنقدها الوكيل وأخذ الصندوق. وبعد سنة احتاج جحا إلى المال مرة أخرى فأوحى إلى زوجه أن تعيد الحيلة مع القاضي فذهبت ترفع إليه ظلامتها من زوجها، ووكلت امرأة أخرى في الكلام حتى لا يعرف صوتها، فأمرها القاضي أن تحضر المدعي عليه، فلما جاء جحا قال القاضي: لماذا لا تنفق على امرأتك ما يكفيها؟ قال إني فقير لا أملك حتى ثمن الكفن إن حظرني الموت. فقال القاضي، وقد عرفه: نعم لقد لعبت معي عام أول فربحت، وهذه نوبتي في الربح. فإن شئت فالعب مع من تشاء ودع اللعب معي.

وقد اثبت جلال الدين هذه النوادر في شرح آرائه الصوفية والأخلاقية كدأبه في ضرب الأمثال والذهاب بقارئه كل مذهب.

في جامع الحكايات لحبيب الله الكاشاني، الحكايات الثلاث التي في المنتوي، وأربع أخرى من نوادر جحا. أترجم منها واحدة:

جاء جحا يوما إلى شاطئ دجلة فرأى بعض العميان يريدون أن يعبروا النهر. فقال ماذا تجعلون لي إن أبلغتكم الشاطئ الآخر؟ قالوا: يعطيك كل منا عشر جوزات، قال: ليمسك كل منكم بحزام الآخر، وليمسك أولكم بيدي. فلما توسطوا النهر اشتد التيار فذهب بواحد منهم. فصاحوا: ذهب أحدنا يا جحا! قال الآن خسرت عشر جوزات! ثم ذهب التيار بآخر فصاحوا جزعين: وآخر ذهب به الماء! قال يا ويلتا ذهب من يدي عشرون جوزة! وذهب الماء بالثالث فصاحوا: سنغرق جميعا: قال جحا: وما يعنيكم أيها الحمقى! إنما الخسارة علي! أنا الذي أخسر بكل غريق عشر جوزات.

وأخرى من نوادر جوحي في الباب الثالث من كتاب بهارستان لعبد الرحمن الجامي:

كان لرجل على جوحي مائة درهم، فرفع الأمر إلى القاضي فسأله ألك شاهد؟ قال: لا. قال القاضي لجحا فاحلف له. قال المدعي أنه لا يبالي باليمين. فقال جوحي: يا قاضي المسلمين؛ إن لم يثق بيميني ففي مسجدنا إمام تقي صادق القول حسن السيرة فابعث إليه وحلفه مكاني ليطمئن هذا المدعي!

العُلوم

آراء وأنباء

للدكتور أحمد زكي

المزاج التجريبي:

جمعتني المصادفة في بلد ناء بخبير في اللاسلكي أجنبي، وفي إبان المجلس عرض عليه موظف مصري كبير مشروع نظام للإذاعة اللاسلكية يراد أتباعه في مصر حينما

تتم المحطة المصرية الموعودة في يناير القادم. وكان المشروع طويلا عريضا كثير التفاصيل دقيق الأجزاء كثير الفروض، كثير الردود، معجبا في انسجامه، مقنعا في تلاوته، ولا شك أن كاتبه استغرق في مكتبه ساعات عديدة لتدبيره، واستهلك كثيرا من الورق والحبر قبل الانتهاء على صيغته الأخيرة. ولما فرغ صاحبنا المصري من عرضه سأل الخبير رأيه فيه وعن القدر الذي يتاح له من النجاح، فسكت الخبير هنيهة ثم قال: ابدءوا بعشر هذا فستجدون أن معالجة هذا العشر الأول سترسم لكم الطريق إلى معالجة التسعة الأعشار الباقية. لا أدري إن كان خبيرنا المذكور تثقف بثقافة علمية خاصة ولكن الذي أدريه أن عقليته لا شك علمية ورأيه الذي ارتآه صدر عن نفسية مزاجها تجريبي، والمزاج التجريبي وليد المران العلمي. فالعلم يتشكك في كل ما ينتج عن الفكرة الخالصة وعن نشاط الفكر البحت الذي لا يتعدى حدود الجمجمة. والعالِم الحديث كالسفسطائي القديم في فقدانه الثقة بالمنطق الصرف باعتباره أداة كافية لكشف الحقيقة. والعالِم الحديث يبالي بالنتيجة العملية أولا فإن فسرتها النظرية فقد حصل توافق محمود، وإن كان خصام فالنظرية مخصومة مرفوضة. وكثيرا ما تجد هذا المزاج التجريبي في رجال ليس العلم صناعةً لهم، فتجده في التجار وأرباب الصناعة وفي الساسة، وقد يكون طابعا خاصا في أمة، وقد وجدته في الأمة الإنجليزية طابعا لها، لا سيما في رجال تثقفوا بثقافة خاصة كثقافة كمبردج أو أكسفورد، والخبير الأجنبي المذكور من هؤلاء. ولو أنك عرضت هذا المشروع اللاسلكي المنمَّق على مصري ذي ثقافة قاهرية لكان سريعا إلى نقده ونقاشه بكل ما وهب من مزاج نظري ومقدرة فائقة في التخريج المنطقي، ولحَسب بعد الفراغ أنه أتى بنتاج صائب لا يأتيه الباطل من أي جوانبه، إذا هو طبق ونفِّذ فلن تجرؤ قوانين الطبيعة ولا سنن المجتمع أن تعترضه أو تخالفه. ولقد لبسنا معشر المصريين هذا المزاج النظري ضيّقا لِصق أجسامنا حتى ليصعب علينا خلعه، حتى بعض الذين تدرَّبوا منا تدربا علميا خاصا يميل بهم هذا المزاج حيناً فينسون التجربة وخطرها في أمور العلم وأمور الحياة. قص لي صديق عالم مصري أختصه الله من بين العلماء بنعمة الثراء لسر لا يعلمه سواه، فكانت له أرض واسعة مرضت فأتعبه تسميدها فذهب إلى خبير مصري عالم في السماد فسأله رأيه، وبعد أخذ ورد وفحص وصف له الدواء، فذهب صديقنا إلى أرضه بسن ضاحك ورجاء وافر، ولكنه بعد فترة التجربة عاد إلى صاحبه السَّماد بوجه كاشر وأمل خائب، فسأله أعندك أرض، قال لا، قال نصيحتي للدولة أن تفصل من خدمتها كل سمَّاد لا أرض له ثم تولَّى. فقلت لصاحبي لقد كان أقرب إلى الإنصاف وأدنى إلى الإحسان أن تتمنى على الدولة أن تهب أرضا لكل سمَّاد لا أرض له. فنسى صاحبي الأرض وابتسم راضيا عن هذا الحل الموفق.

سفينة في معمل:

والحق أن هناك وجها قد يخفي حتى على من يقضون أصباحهم وأمسائهم في المعامل، فإن تجربة المعمل محدودة وأوجه الشبه التي بينها وبين ظاهرة طبيعية تحدث في العراء الواسع قد تكون قليلة مبتورة، فقد تكون في تجربة المعمل صفات مُنجحة لا تكون في الطبيعة، وقد تكون فيها صفات مخيِّبة ليست في الطبيعة، وقد يكون في الطبيعة ما ليس في تجربة المعمل، وليس من الهين كل حين إدراك هذه الفروق في الصفات ولا سيما في شئون الحياة ومناطق العرفان التي لا يزال العلم يمشي فيها بخطى محذورة ثقيلة، مستهديا في حُلكتها الكثيفة بفتيل ضئيل من زيت قنديل. وكثيرا ما أدرك العلماء هذه الحقيقة إدراكا قويا خرج بهم عن حدود العمل المعروفة وعن طرائقه المألوفة. مثال ذلك أن التفاح من أكثر الفواكه عبرا للمحيطات، وأطولها سفرا وأكثرها اختلافا بين مناطق الأرض الباردة والحارة، فكانت تتلف منه في تلك الأسفار مقادير هائلة، ففحصوا أسباب هذا التلف فاهتدوا إلى أن من أسبابه الحرارة التي تكون في قاع السفينة ولا سيما في الأقطار الاستوائية، فكان من ذلك أن أودعوه مخازن بالسفينة تبرد تبريدا صناعيا طول السفرة. ثم ارتأوا بعد ذلك أن الهواء المحبوس سبب قوي في الفساد الحادث، وإن التفاحة تحيا خلاياها وتموت، فهي مثلي ومثلك في حاجة إلى الأكسجين النقي لتبقى حية صالحة، وكذلك في حاجة إلى شيء من الضياء. فمهدوا للتفاح المسافر وسائل الحياة والترف احتفاظا بحيويته، فنقص مقدار العادم إلى نسبة قليلة هي خمسة في المائة. ولكن التفاح تبلغ

التصديرة الواحدة منه ثلاثة الملايين من الصناديق. فالخسارة في هذه وحدها تبلغ مائة وخمسين ألف صندوق. من أجل هذا اعتزم معهد الأبحاث بـ (إيست مالنج) بمقاطعة (كنت) بإنجلترا أن يقوم بدراسة حاسمة لا هوادة فيها لخلاص تلك البقية الباقية من العدم. (وإيست مالنج) محطة لبحث النبات عالمية لها معامل واسعة تبلغ المائة من الفدادين، ولها في تربية النبات وانتقاء جذور الأشجار ولا سيما أشجار الفواكه سمعة واسعة، وهي فوق ذلك غنية قادرة، فأرادت أن تلم بكل الظروف المحيطة بالتفاح أثناء سفره، فابتنت في معاملها ما يشبه السفينة، وأقامت فيها كل ما يقوم في السفينة، وجهزتها بجهاز يزيد في حرارتها أو ينقصها حسب المراد، وأتت بحمولة التفاح فأودعتها عنبر (السفينة) وأودعت بين صناديق (البضاعة المسافرة) مائتي وخمسين ترمومترا لرصد الحرارة، وبما أن العنبر سيظل مغلقا طيلة (السفرة) فقد وصلوا الترمومترات بأسلاك كهربائية ليستطيعوا رصد الحرارة من بعيد وبخاصة إذا هاج (البحر) نعم إذا هاج البحر فإنهم أحاطوا السفينة بأكياس منفوخة بالهواء تعوم فيها عومها في الماء، وأقاموا على الأكياس آلات دافعات جاذبات تحرك السفينة مثل حركتها بين الأمواج المصطخبة والرياح العاصفة، أو من أثر التيارات الخبيئة تحت سطح البحر الهادئ. وكان هذا الجهد وكل تلك النفقة حرصا على أن تمثل تجربة المعمل تجربة المحيط بحذافيرها وحتى لا يفلت حذفور غير منظور قد يكون له خطره في النتيجة الحاصلة. ولا يزال القوامون على هذه التجربة قائمين فيها، صكوا أبواب العنبر على التفاح وتدرجوا في رفع حرارته وبدلوا له الهواء إلى غير ذلك من أمور، وأهاجوا عليه (البحر) حينا وهدءوه حينا، وستصل البضاعة في يناير القادم إلى غايتها، وعندئذ يفتح العنبر وتمتحن البضاعة. ثم تشحن السفينة بضاعة جديدة وترحل رحلة جديدة تحت ظروف جديدة، وهكذا حتى يصل التفاح إلى مقره الأخير سليما كله من كل عطب، وعندئذ تتعين الشرائط التي لا بد منها لسلامته، وعندئذ يهدم هذا الهيكل الكبير ويباع حطاما رخيصا وسلعة بائرة بعد أن يكون قد أكسب الإنسان سراً من أسرار الطبيعة قد يكون في ذاته هيّنا في العلم، إلا أنه في الاقتصاد خطير، فهو يرد إلى الإنسانية على مر السنين ملايين الجنيهات، وهذه بدورها تمثل طاقة إنسانية تنفق في الزرع والجني وتعهد النبات، وطاقة أخرى طبيعية مما بذلته الأرض من عناصرها والهواء من غازه والشمس من أشعتها، طاقات يعزّ على العلم والعلماء أن يروها تهدر هكذا كاللبن الصبيب والدم المسكوب.

روعة في البرتغال:

في ليلة اليوم التاسع من أكتوبر في بلاد البرتغال تساقطت من السماء السوداء رجوم بيضاء بلغت الملايين فروّعت الناس كأنهم حسبوا أن عقود السماء انفطرت فأخذت النجوم تهوي بغير حساب. وهذه ظاهرة كانت منتظرة في هذا العام الذي نحن فيه وقد تكرر إلى ختام العام.

أما سببها فالمذنَّب المعروف بمذنب (تمبل) وهو من مذنبات أسرة الكوكب السيار (أورانوس) وهذا المذنب يطوف حول الشمس في مسار بيضاوي متطاول يقطعه في ثلث قرن، وبما أنه لا يطوف في دائرة نجده في ساعة ما من سنة ما في موضع أقرب ما يكون من الشمس، ثم نجده بعد هذه الساعة بسدس قرن قد حل أبعد مواضعه منها. ثم ينصرم سدس قرن فإذا به في موضعه الأول الأدنى من الشمس، أعني الأدنى من الأرض، فهو باقترابه من الشمس يقترب منا، وهو كالمذنبات يجر وراءه ذيلا من غاز وتراب وأجسام صلبة منها الكبير ومنها الصغير. والمذنب وذنبه يسيران في الفضاء بسرعة هائلة. فإذا مس هذا المذنب بمادته هواء أرضنا بتلك السرعة المروعة احتك به فاحترق فتكونت من ذلك الشهب التي نراها. وقد أدرك هذا المذنب الأرض ورأى الرقباء شهبه في أكتوبر أو نوفمبر من أعوام 902 و934 و1002 و1101 و1202 و1366 و1533 و1602 و1698 و1799 و1833 و1866 و1901. وتجد بامتحان تلك الأرقام أن الفترات بلغت ثلث قرن أو ثلثين أو قرنا بتمامه، وقد فات الرقباء لا شك ظهور هذا المذنب في السنوات الساقطة من سلسلة السنوات المذكورة. أو لعل الأصح أن نقول أن الذي فاتهم إنما هو رؤية الشهب التي تظهر عنه فتدل عليه، فالمذنب نفسه صغير لا تراه العين أكتشفه مكتشفه

بالتلسكوب عام 1866، وعندئذ، وعندئذ فقط، دُرس هذا المذنب ودرست دورته ودرس زمنها وانكشفت العلاقة بينه وبين شهب سجّل التاريخ حدوثها في الأزمان الخوالي. ومنذ حل عام 1930 والعلماء في ارتقاب الرسول الوافد، رسول العلم، رسول الإيمان في حسابات الرياضة وقواعد الفيزياء، رسول الثقة في العقل البشري بنَّاء لقواعد الإيمان النفسي، وقد أتى الرسول وألقى برسالته، فوقعت هذا العام في البرتغال فارتاع لها الجهال. وقديما خاف الناس الشهب وراعتهم المذنبات. أليس أبو تمام يقول:

وخوفوا الناس من دهياء مظلمة ... إذا بدا الكوكب الغربي ذو الذنب
وصيروا الأبْرُج العليا مرتبة ... ما كان منقلبا أو غير منقلب
تخرصاً وأحاديثاً ملفقة ... ليست بنبع إذا عدت ولا غرب

ليت شعري أي مذنب كان هذا؟ وفي أي سنة ميلادية بالضبط كان؟ وهل هو مما سجله علماء الفلك؟ وهل في حسبان تاريخه التقريبي نفع؟

جماد يبصر حيث تعمى العين

نزلت في الصيف الماضي بضيعة من ضياع الريف بإنجلترا في دار رجل طيب الخلق سمح كريم إلا أنه شديد على كل من مس ماله وثروته، كان يذكر ذلك ويفخر به ويعلله بأنه كسب ما كسب من عرق جبينه، لا عرق جبين والد أو عم. لذلك أغمه وأهمه ونحن نزول عنده أن لصا ماكرا لحوحا ألح على بيت للدجاج له يقع بعيدا عن الدار فكان يحمل منه كل ما وجد به من البيض، وغاظ صاحبنا منه أمران، أولهما أنه كان يختلف إلى بيت الدجاج والشمس في السماء ومع هذا يفلت، وثانيهما أنه كان يلبس حذاء من قش حذَرَ أن تنطبع قدمه في الأرض فتدل عليه. وفي ذات يوم ونحن جلوس إلى المائدة يحدثنا صاحبنا الريفي للمرة العاشرة عن السارق ويشكو، إذا بأساريره تُبرق وعينه تلمع وأسنانه تتحرّق تحرق المغيظ جاءه النصر على غير انتظار. فسألناه عن خطبه، فقال فخ سأنصبه للوغد، وعن قريب تسمعون عن رقم قياسي للبيض سيدفعه هذا الكلب النذل عن كل بيضة سرقها. وفي ذات مساء والشمس تغيب والمطر رذاذ كنتُ عند الباب الخلفي للدار أتفقد السماء، فلمحت صاحبنا يهرول من بعيد، قد انكشفت نواجذه بابتسامة عريضة، وتأبط شيئا صغيرا ملفوفا في جريدة. فلما اقترب سألته عما جرى فقال صدت السارق، فقلت فأين هو؟ قال هنا، وأشار إلى الصندوق الذي تحت إبطه، ثم سألني أتعرف تحميض الصور؟ قلت نعم، قال فهلم إلى معونتي فخبرتي بذلك قديمة منسية. وما كادت تظهر الصورة السالبة على لوح الزجاج الأسود حتى اختطفها يحملق فيها وكأنه تبين ملامح السارق. ولم يُصْح صباح اليوم التالي حتى كان اللص في دار الشرطة ولم يسعه وقد واجهوه بالصورة الا الاعتراف. وخلاصة الأمر أن صاحبنا الفلاح خبأ الكاميرا داخل بيت الدجاج ووصلها بسلك بالباب. وكانت في مواجهة الداخل، فلما دخل اللص فتح الباب فانكشفت العدسة فارتسم المنظر فكانت شهادة لجماد لا تعد لها شهادة الأحياء.

خطر لي بعد هذا الحادث أن مضيفنا كان لا شك رجلا فطنا، وأن صاحبنا اللص كان على حيلته غبيا لأنه خالف عرف اللصوص فزار البيت نهارا، وسألت نفسي وماذا كانت الحيلة لو أنه زار الدار ليلا، وأخذت أداور حلولا في رأسي للتسلية. ثم انتقل فكري من هذا كله حتى كان هذا الاسبوع فوجدت سؤالي يجاب في بعض أنباء العالم، ذلك أن رجلا استخدم لالتقاط الصورة في الظلام مصباحا كهربائيا يشع بالنور البنفسجي المعروف، إلا أنه استبدل بزجاجة المصباح الشفافة زجاجة خاصة سوداء تحجب من الضوء البنفسجي كل إشعاعات الطيف المرئي وهي الشعاعات التي تحسها عين الآنسان وبها تبصر، ولكنها لا تحبس ما فوق تلك من إشعاعات كيميائية تؤثر في الأفلام الفوتغرافية، فأنت إذا نظرت مثل هذا المصباح في حجرة مظلمة فأنت لا تراه، ولكن إذا كان بيدك كاميرا ففتحتها ارتسمت فيها صورته وارتسم كذلك المكان. فلو أن لصا زار بيت الدجاج ليلا وكان به مصباح كالذي نحن بصدده لما أفادته الظلمة شيئا. وإلى جانب هذه الصورة أخذت في الليل بهذه الطريقة، بها السيدة تمثل اللص وإلى جانبها المصباح رأته الكاميرا وضّاءً برغم سواده في العين.

القصَص

الجورب الوردي

للقصصي الروسي تشيكوف
أخذ السحاب الجون يتكاثف حتى حجب السماء، وطبق الأرض، وأرسل المطر هتانة، حتى أصبح إقلاعه بعيداً أمده. فجاء اليوم عابس الوجه. لا ترى في أرضه غير البرد الساقط، وطير الزاغ ويبلله القطر، وفي داخل المنازل امتد غبش الليل واشتد قارس البرد حتى أمسيت تشعر بالحاجة الشديدة لحرارة المدفئة.
كان بافيل بتروفيتش سوموف يروح ويغدو في مكتبه متأففا من الجو متبرما به، فسفعات المطر للنوافذ والظلام الشامل للغرفة حملاه على الاستياء الشديد والتذمر المر، ولقد كان ضجره لا يحتمل وما كان في يديه ما يشغله. . فالجريدة لم تصل إليه حتى الساعة والصيد متعذر حصوله، صعب بلوغه، وما كان الوقت وقت عشاء.
لم يكن سوموف وحيداً في غرفة عمله، فقد جلست إلى مكتبه مدام سوموف وهي حسناء نحيلة في غلالة بيضاء وجورب وردي، وكانت منهمكة في تحبير رسالة، وكان إيفان بتروفيتش عندما يحاذيها في جيئته وذهابه ينظر من وراء كتفيها ما تكتب فيرى حروفا كبيرة ودقيقة وضيقة منمقة غاية التنميق! لها ذيول وبها كثير جدا من الطمس والمسح والتلويث وأثر الأصابع، وكانت مدام سوموف لا تحب الورق المسطر، وكل سطر تكتبه ينحدر بتعرجات قبيحة حتى ينتهي إلى الهامش.
سأل سوموف زوجه حين رآها تبدأ الكتابة في الصفحة السادسة (لمن تكتبين مثل هذه الرسالة الضافية يا ليدوتشكا؟)
- إلى الأخت فاريا
- أوه!. . خطاب مسهب. . أنني ضجر. . دعيني أقرأه
- لك أن تقرأه. . بيد أنه لا يلذك
. .تناول سوموف الصفحات المكتوبة وهو يذرع أرض الغرفة وأخذ يقرأ
ارتفقت ليدوتشكا على ظهر كرسيها وجعلت ترقب ما على وجهه من تعابير. . استطال وجهه بعد الصفحة الأولى وظهرت عليه ملامح الرعب!! وفي الصفحة الثالثة قطب جبينه
وحك مؤخر رأسه، وفي الصفحة الرابعة أمسك عن القراءة ونظر بوجه المرتاع إلى زوجه. . وتظاهر بالتأمل. وبعد تفكير قليل تناول الرسالة ثانية وهو يتأوه وعلى وجهه أثر الارتباك والحيرة ثم الأرجاف والفزع.
لما فرغ من قراءة الرسالة قال متمتما: (حسن!. . هذا لا يجوز! ورمى بالأوراق على المكتب، هذا لا يصدق، ما في ذلك ريب. . .).
فسألته ليدوتشكا وقد امتقع لونها: ما الخبر؟
- ما الخبر؟ تملئين صفحات ستا وتمضين ساعتين في خرفشة لا معنى لها ولا طائل تحتها. . . ولا شيء فيها بالمرة. . آه لو كان بها ولو فكرة ضئيلة! يقرأ المرء ثم يقرأ وفكره مشوش، وذهنه مضطرب كأنما يفك أغلاقا صينية عن صناديق شاي! أوه!
قالت ليدوتشكا وقد ضرج وجهها الحياء: هذا صحيح يا فانا. . كتبته دون عناية
- أجابها: إهمال زائد عن الحد. . ففي رسالة غير منمقة ولا محبرة. . . معان وأسلوب. . وإحساس، أما رسالتك فسامحيني، ان قلت لك بأني لا أتذوق لها طعما. . جمل وكلمات لا إحساس فيها ولا معنى لها. خطابك جميعه. . كمحادثة بين صبيين (عندنا عجة اليوم. . جاء جندي ليرانا. .) انك تكررين المعنى الغث البارد، لك أن تريه وتعيديه بنفسك. أما الفكرة السخيفة فترقص بين السطور كالشياطين ولا حد عندك للبدء من النهاية. . كيف تكتبين هكذا؟
قالت ليدوتشكا تدافع عن نفسها: إذا كنت أكتب بتجويد وعناية. . لا يمكن أن تكون هناك غلطات.
فأجابها زوجها: إنني لا أتكلم عن الأخطاء. . الأخطاء النحوية المروعة. لا يوجد سطر لا يعد إهانة شخصية للنحو. لا وقف ولا علامات ولا هجاء! إنه يأس مريع! إنني لا أمزح يا ليدا فأنا مروع فزع من رسالتك، لا تحزني يا عزيزتي فما كنت أظن في الواقع أنك تجهلين النحو هكذا. . . مع أنك تنتمين إلى بيئة مثقفة ودرجت في بيت علم. فأنت زوجة رجل جامعي وابنة قائد. قولي لي أذهبت إلى المدرسة؟
- نعم لقد تعلمت في مدرسة فون مبكي الداخلية.

فهز سوموف كتفيه واستمر في مشيته متأوها. . . أما ليدوتشكا العالمة بجهلها فتنهدت ثم
نكست رأسها. مرت عليهما دقائق عشر ما نطقا فيها بحرف.
وقف سوموف فجأة أمامها ونظر إلي وجهها برعب وقال: إنك تعرفين يا ليدوتشكا أن الأمر جد! أنك أم!. . . أتفهمين؟ـ . أم!. . كيف تعلمين بنيك إذا كنت لا تفهمين شيئا؟ أنك ذات عقلية خصبة وذهنية نيرة. . . ولكن ما جدوى ذلك إذا كنت تجهلين كل شيء. فلا تعرفين شيئا من الآداب ولا من العلوم على أننا سنغض النظر عن المعارف، لأن الأطفال سيتعلمون ذلك في المدرسة، ولكنك تعرفين ضعفك في الأدب وبلادتك فيه، تستعملين في بعض الاحيان لغة تجعل أذني في طنين!
ثم هز سوموف كتفيه مرة أخرى وجمع إليه ثوبه واستمر في سيره. . . شاعرا بالغيظ والحنق، وفي الوقت نفسه آسفا على ليدوتشكا التي لم تحتج ولم تعترض، ولكنها اكتفت بأن ترمقه من طرف خفي. وأحسا معا بالضيق الجاثم على قلبيهما، والهم المتمكن من نفسيهما، حتى أذهلهما الحزن عن كل شيء فلم يدريا كيف مر الزمن وكيف قربت ساعة العشاء.
ولما جلسا للطعام شرب سوموف المولع بالطعام الشهي الهني قدحا كبيرا من الفودكا وشقق الحديث فأداره على وجوه أخر. وكانت ليدوتشكا تسمع لما يقول مسلمة راضية. بيد أنها وهي تشرب الحساء أخضلت عيونها بالدمع ثم خنقتها العبرات. فنهنهت دمعها بمنديل وقالت: (إنها غلطة والدتي! نصحها جميع الناس بإرسالي إلى مدرسة عالية، ومن هناك كنت على يقين من ذهابي إلى الجامعة).
فتمتم سوموف (الجامعة!. . . مدرسة عالية!. هذا كثير يا بنيتي! ما الفائدة من أن تكوني احدى ذوات الجورب الأزرق! الجورب الأزرق هو الشيطان الرجيم في نار الجحيم!! لا يمسي صاحبه رجلا ولا امرأة، وإنما يكون شيئا بين بين، أني أبغض من كل قلبي الجوارب الزرقاء. . . ولن أتزوج امرأة متعلمة).
فأجابته ليدوتشكا! لا أدري كيف أفهمك؟ تغضب لأني لست متعلمة وفي الوقت نفسه تكره النساء المتعلمات! لقد تنكرت لي وسخرت بي لأن رسالتي كانت خلوا من كل فكرة، فارغة من كل معنى، ومع هذا فأنت تعارض في دراستي ولا تستحسن تعلمي.
- لقد أصبت شاكلة السداد يا عزيزتي. قال هذا سوموف وهو يتثاءب ثم ملأ قدحا آخر من الفودكا.
تحت تأثير الفودكا والطعام الجيد أصبح سوموف أكثر رقة ودماثة. أخذ يرقب باهتمام زائد زوجه الحسناء وهي تعمل التوابل. فغمره فيض من الحنان المحض والحب الشديد، ودفعته عاطفة ملحة إلى النسيان والتسامح، ثم أخذ يحدث نفسه ويلومها: إنها غباوة مني أن أغضب هذه الفتاة المسكينة! ما الذي حملني على الجهر بكل هذه الأشياء الجارحة. إنها غبية، ذلك حق. . غير مثقفة. . سطحية. . بيد إن للمسألة وجهين. . . . . .
ربما يكون الناس على حق عندما يقولون أن سطحية . . . .(.والوجه الآخر مفهوم) المرأة ترجع إلى حرفتها. ومن المسلم به أن من عملها أن تحب زوجها وتربي أطفالها، ثم تصنع التوابل!! فما الذي ترجوه من التعليم؟ لا شيء على التحقيق.
وهنا ذكر أن النساء المتعلمات غالبا مملات يبعثن الضجر والسأم في النفس، ثم هن دقيقات صارمات عنيدات. ولكن ما أيسر توفيقك مع الغبية ليدوتشكا التي لا تشمخ بأنفها. . ولا تصعر خدها ولا تفهم كثيراـ . . أنه السلام والراحة مع ليدوتشكا ولا خطر منها على المرء أبدا: (لعنة الله على أولئك النسوة البارعات المتعلمات! ولخير للمرء وأحسن عقبى أن يعيش مع الساذجات منهن). ثم دار بخلده وهو يتناول صحنا من لحم الفروج من ليدوتشكا أنه في بعض الاحيان قد يشعر الرجل المثقف بالرغبة الشديدة في الحديث ومبادلة الأفكار مع امرأة حاذقة كاملة التعليم. ولكنه قال: (ما هذا) إذا رغبت في التحدث عن موضوعات عقلية. . . فسأذهب إلى (ناتالا أندريفنا) أو إلى (ماريا فرانتسوفنا)، هذا سهل جدا. . . ولكن لا. لن أذهب فالمرء يستطيع البحث فيالأمور العقلية مع الرجال. ثم قطع بهذا أخيراً!!!
محمود البدوي

الشاعر روبنيول
كوميدية في فصل واحد
للكاتب الفرنسي بول برولا
قلت للشاعر والشا ... عر ذو سهم يطيش
أنت إن عشت تمت جو ... عا وإن مت تعيش
جميل صدقي الزهاوي
المنظر: ساحة قرية سانجان ديفين الوحيدة. يرتفع الستار فترى حركة غير عادية) فالأهلون يتأهبون للاحتفال برفع الستار عن تمثال نصفي من المرمر للشاعر فرنسوا روبنيول الذي اختفى في أوائل الحرب الكبرى واعتقد الناس أنه ميت. يرى التمثال وسط الساحة وقد قام على قاعدة حفر عليها أسم الشاعر وتاريخا ميلاده وموته، وعلى جدار أحد المنازل كتب بحروف بارزة التنبيه الآتي: (ممنوع وقوف السابلة) ثم يرى خفير القرية مشغولاً بترتيب المقاعد حول النصب التذكاري استعدادا للحفلة. جموع من العمال والفلاحين والملاك والنساء والأطفال وبعض رجال المطافئ وأحد الشرطة).
المشهد الأول
العمدة. وكيل العمدة
العمدة - (مشرقا من الغبطة) أخيراً حل اليوم السعيد! كاد يفرغ صبرنا ونحن نتعجل هذه الساعة المجيدة!
الوكيل - كل هذا صنع يدك يا سيدي العمدة!. . لقد شاهدتك عن كثب ورأيت بعيني المتاعب الجمة التي تحملتها وحدك لتحتفل بهذا النصب التذكاري!
العمدة - فعلا كدت أرزح من التعب يا وكيلي العزيز وشريكي الفاضل في تهيئة هذا المهرجان الأدبي العظيم. . .
الوكيل - (متواضعا) أوه! شريكك! إن طيبتك الفطرية يا سيدي العمدة لتغالي في تقدير ما قمت به!. . . إني لم أجازف بأكثر من معاونتك و. . .
العمدة - (مقاطعا) حسن! حسن!. . آه يا صديقي. لقد أدرك الكل أخيراً أننا نحمل في أعناقنا هذه الدية المقدسة نحو ذكرى شاعرنا الكبير فرنسوا روبنيول، مجد قريتنا الخالدة سانجان ديفين!. . . بفضل أشعاره الرائعة لم نعد مجهولين بين مواطنينا في أنحاء فرنسا! جميع صحف العاصمة تتحدث عنا وهي تمجد عبقرية فرنسوا روبنيول!. . .
الوكيل - (ينظر في ساعته) الساعة الآن الثانية والنصف وقد تقرر ميعاد الحفلة في الثالثة!. . . حضر وكيل المديرية ولم نعد ننتظر غير حضرة النائب المحترم الذي سيجيء خصيصا من باريس.
العمدة - آه! نعم! حدثني عن حضرة النائب المحترم! تصور يا صديقي أنه لم يكن قد سمع بفرنسوا روبنيول قبل الآن! أما اليوم فهو يشيع في كل مكان أنه أول من اكتشفه!. . .
الوكيل (ضاحكا) لم يفطن أحد إليه ولم يكن بين سكان القرية من يؤمن برسالته!.
العمدة - تخطيء يا صاحبي تخطيء!. . أنا، لم أشك لحظة واحدة في نبوغه!. . نعم، أعرف أنهم كانوا يذيعون عنه (في حياته) أن به مساً من الجنون لقرضه الشعر. . وكان ذلك مدعاة للسخرية منه والهزء به، ولكني الوحيد الذي اكتشف عبقريته الوليدة!
الوكيل - يا لروبنيول المسكين!. من كان يظن أنه سيصبح شهيراً. . بعد موته!. . من كان يتصور أن يقام له تمثال في القرية وأن يطلق أسمه على أهم شوارعها!؟. .
العمدة - في لهجة (خطيرة) انا نتدارك اليوم خطأ فاحشاً!
الوكيل - ونفخر جميعا بشهرته اللامعة!
العمدة (مقتربا من الوكيل يساره) ولو أن الآنسان عندما يتوسم هذا الوجه يصعب عليه أن يميز في سماته كل هذه الكفاءة النادرة!. .
الوكيل - (كمن يلقى حكمة غالية) يا سيدي العمدة لا يعرف قدر عظماء الرجال إلا بعد موتهم!. . (صمت قصير) يخيل الي أني ما زلت أراه سابحا أمامي في خياله. غائصا في لجة أفكاره العميقة كان يتأهب ولا شك لتدوين روائعه الخالدة!. .

العمدة - بينما الناس كانوا يتهمونه بالكسل ويتشككون في رجاحة عقله!. . حتى امرأته التي كانت لا تخفي عنه احتقارها إياه!. .
الوكيل - أما اليوم فقد عادت فخورة بحمل هذا الاسم العظيم!
العمدة - نعم. أصبحت الأرملة الشهيرة التي تشع حواليها هالة المجد!
الوكيل - يقال أنها اعتزمت الامتناع عن الزواج!. . (ساخرا) إلا إذا أتيح لها أن تقترن بأحد الخالدين، إذ مما لا شك فيه أن روبنيول لو امتد به العمر إلى يومنا لأنتخب عضوا في المجمع الأدبي!
العمدة - يجب أن تعترف أن سلوكها الخلقي منذ ما توفي زوجها لا غبار عليه. .
الوكيل - (متخابثا) نعم. . منذ أن توفي!. . أما قبل ذلك. . على كل حال سوف نراها بعد حين في ثياب الحداد. . وكأنها تمثال الأسى الذي لا تنفع فيه تعزية!. .
(يستمران في الحديث ثم يتجهان نحو التمثال حيث يستقبلان الوافدين، مصافحات بالأيدي، تحيات الخ)
المشهد الثاني
العمدة الوكيل. شرطي. خفير القرية. المجهول
(يبدو المجهول فيتوسط الساحة وهو يتأمل الجمع من خلال نظاراته السوداء وقد أرسل لحيته الكثيفة وارتدى لباسا قرويا)
الشرطي - (لخفير القرية) ألم تلاحظ هذا المخلوق الغريب الذي يرود الناحية منذ هذا الصباح! لا يعرفه من أهل القرية أحد ولا أدري من أين جاء!. . .
خفير القرية - يبدو من ملابسه أنه في فقر مدقع! لا بد أن يكون أحد المتشردين!. . .
الشرطي - لن تغفل عيني عن مراقبته!
(يقف المجهول أمام بعض المارة يسألهم ولكنهم يدبرون في غير اكتراث)
الشرطي - ألم يقرأ المعتوه الإعلان الحكومي: (ممنوع وقوف السابلة)؟
خفير القرية - (ضاحكا) ربما كان لا يعرف القراءة!
الشرطي - لم تغفل عيني عن مراقبته! (يبتعد الشرطي مع خفير القرية)
المشهد الثالث
المذكورون. بعض المارين. معلم القرية
(يقترب المجهول من بعض الملاك ويتكلف الحديث بلهجة قروية)
المجهول - عفواً أيها السادة. أرجو أن تتفضلوا عليّ ببعض معلومات بسيطة. . .
أحدهم - ماذا تطلب؟
المجهول - قدمت إلى هنا بمناسبة المهرجان. . . نعم مهرجان الاحتفال برفع الستار عن تمثال فرنسوا روبنيول، وأريد أن أعلم في أية ساعة تحتفلون به؟
أحدهم - في الساعة الثالثة. . . ولا ننتظر إلا أولي الأمر. .
اثنان منهم - (للمجهول) وأنت من تكون؟
المجهول - كنت أعمل أجيراً في إحدى الضياع البعيدة. أما الآن فقد أصبحت عاطلا ولذا ترونني أتنزه.
المالك الثالث - تنزه يا صاحبي تنزه!.
المجهول - (في شيء من التردد والخجل) هل لي أن أسألكم. . .
المالك الأول - سر في طريقك يا رجل! لا نملك وقتا للرد عليك!. لو أن الآنسان أصغى لجميع الناس لما بقي لديه لحظة لنفسه!
(يبتعدون جميعا عن المجهول)
المشهد الرابع
المذكورون. التمثال
العمدة - (وقد وقف أمام التمثال يقول موجهاً قوله للتمثال): في غاية من الروعة والدقة تمثالك يا أستاذ.
الوكيل - طرفة حقيقة! يا للجبين الناصع! يا للرأس الجميل! والعجيب أننا جهلنا نبوغه المشرق!
العمدة - أعد نفسي سعيداً يا سيدي بأن أحمل إليك بشرى سارة: لقد حصلنا لك من وزارة الفنون الجميلة على وسام جوقة الشرف.
التمثال - هذا منك طيبة لا استحقها يا سيدي العمدة. . بل شرف عظيم يبهظ كفاءتي

المتواضعة! لكني مع الأسف أحمله.
العمدة - تحمل ماذا؟
التمثال - (باسماً) وسام الشرف!
الوكيل - يا للخطأ الفاضح!
التمثال - لا. لا داعي للكدر. لن يمنعني ذلك عن حمل وسامين.
(. .يضحكون ثم يحتاطون بالتمثال مصافحين الخ الخ)
التمثال - أشكركم! أشكركم يا أصدقائي الأعزاء! هذا اليوم أجمل أيام حياتي!
(يستمرون في الحديث)
المشهد الخامس
المجهول- معلم القرية
يجيل المجهول الذي ظل مدة من الزمن وحده في جانب من الطريق نظرة فاحصة (حواليه فيبصر بمعلم القرية فيبتسم بسمة خبيثة ويتقدم إليه).
المجهول - تنازل واغفر لي فضولي الملح يا سيدي! هل تسمح لي أن ألقي عليك بعض الأسئلة؟ إنها تختص بشاعركم الكبير فرنسوا روبنيول!
معلم القرية - سل ما تشاء.
المجهول - هل كانت لسيدي معرفة شخصية بروبنيول؟
معلم القرية - (يشب بصدره مفاخراً) لقد كنت في المقاطعة أخلص أصدقائه. بل صديقه الوحيد. كان الناس ينكرون عليه نبوغه. وأنا وحدي فهمت تلك الروح الكبيرة الحائرة وعطفت عليها أستمع إلى نجواها السماوية. لذا اختصني المرحوم بشكاواه المرددة، وبهمس قلبه المعذب. إني معلم القرية!
المجهول - وهل تيقنتم من موته؟
معلم القرية - لو لم يمت لعلمنا بوجوده من خمس سنوات مضت على اليوم الذي اختفى فيه فجأة. . بالضبط في أوائل شهور الحرب الكبرى.
المجهول - و. . شكله؟
معلم القرية - كان ذا وجه صبوح. حليق اللحية والشارب. جبين مشرق. عين حالمة. تأمل تمثاله النصفي. إنه هو تماما!.
المجهول - (متأملا التمثال) في الواقع هذا رأس جميل!. وكيف كان يعيش؟
معلم القرية - في أحلامه دائماً. كانت عاداته وطباعه تنم عن بساطة شديدة. وكان أحب شيء إليه أن يرود قمم الجبال وحيداً، ويفكر ويتأمل. أن النفوس الكبيرة لا تجد قوتها إلا
في الوحدة!
المجهول - هذا حق! (صمت قصير) وكيف تكشفتم عبقريته الدفينة؟
معلم القرية - في ذات يوم كتب أحد كبار نقاد العاصمة بحثاً مستفيضا عن أعمال الشاعر فرنسوا روبنيول الأدبية بمناسبة موته في ميدان القتال. وكان مما كتبه قوله: (لقد نكبت الآداب الفرنسية بخسارة أخرى فادحة) ثم قال بعد ذلك: (إلا أن روبنيول من أولئك النوابغ الذين واتاهم الحظ السعيد فتراهم يحيون بعد موتهم. . أنهم يحيون في أعمالهم الأدبية الخالدة، في شعرهم الذي يجالد القرون المتعاقبة زاهيا وضاء كأول فجر أشرف على الإنسانية. .) هذا البحث الأدبي البديع نقلته جرائد مقاطعتنا عن جرائد العاصمة وعقبت عليه بشتى التقريضات. . وهكذا انتشرت دواوينه الشعرية بيننا وأثارت الكثير من الحماس والإعجاب. . (صمت قصير) كيف أمكننا أن ننكر نبوغ رجل مثل هذا!.
المجهول - (يطرق مفكراً ثم يقول) نعم، أنه لخير عظيم للشاعر أن يموت! (بعد فترة وجيزة) وأرملته؟
معلم القرية - لا تجد إلى التعزية سبيلا!. لن تتوانى عن الحضور. سوف تراها بعد قليل.
المجهول - هل لك أن تقدمني إليها؟
معلم القرية - وهل لك حاجة إليها؟
المجهول - نعم. أود أن أقدم إليها قصيدة من الشعر ألفتها للمناسبة تمجيداً لروبنيول.
معلم القرية - (دهشا) أأنت أيضا شاعر؟

المجهول - (متواضعا) نعم!
معلم القرية - (ضاحكا) حسبتك أحد القرويين.
المجهول - أني قروي أيضا (ضاحكا) الشاعر القروي!
معلم القرية - عجيب وربي! ومع ذلك، لم لا؟. انظر! ها هي الأرملة المجيدة!
المشهد السادس
المذكورون. والأرملة
تبدو الأرملة العظيمة وقد ارتدت كامل ثياب الحداد، بطيئة الخطوة، مرفوعة الرأس،) مهيبة الطلعة، فيحتاط بها الناس ثم تجلس على مقعد كبير. عندئذ يتقدم إليها المجهول
(فينحني أمامها انحناءة عميقة ثم يخرج من جيب ردائه ملفاً من الورق
المجهول - سيدتي! إسمحي لي أن أرفع إلى مقامك السامي احتراماتي. . وهذه الأبيات التي كتبتها إشادة بمجد الشاعر العظيم الذي تحملين أسمه الخالد!
الأرملة - (في عدم اكتراث ظاهر) أكانت لك به علاقة سابقة؟
المجهول - كلا يا سيدتي. . غير أني أحفظ جميع قصائده عن ظهر قلب. . ولا أزال شديد الإعجاب بها.
الأرملة - (متقبلة الورقة التي يقدمها في خشوع) عفواً ماذا تُسمى؟
المجهول - جوزيف. . جوزيف فيليو
صوت - ما أسمج الرجل!. . لقد أطال الحديث!
صوت آخر - يغالي في إستغلال الفرص!
الأرملة - (للمجهول) أتقيم في البلدة؟
المجهول - لا يا سيدتي! مضى زمن طويل على هجرتي منها. . هذا هو السبب الذي جعل الكل ينكرون معرفتي.
(تكونت دائرة من الناس حول المجهول والأرملة)
صوت - ما الذي جاء يفعل هنا، هذا الغريب؟
صوت آخر - تأملوا حذاءه البالي. . تأملوا سترته الممزقة وسرواله المتسخ!. . لا شك أنه شحاذ!. .
صوت آخر - ربما كان لصاً؟
صوت آخر - من الصواب أن يطرد خارج القرية!
معلم القرية - على كل حال لا أراه يزعج أحداً. . وله الحق في أن يعجب بروبنيول كغيره من الناس!
الأرملة - (وقد انشغلت أثناء الحوار الأخير بتلاوة الأشعار)
نعم. . . لا بأس بهذه الأبيات!. . (تقرأ بصوت عال) (لا تحزن فما الموت إلا كلمة جوفاء! عندما توارى في التراب) (وتحجب ظلمة القبر عن عينيك دنيا النور، عندما تشعر) (بجثمانك البارد وقد فارقته حرارة الحياة وبدأت ديدان الأرض تأكله) (فلا تصدق أنك إلى الفناء، لأن قلبك المرتعش ما زال ينبض) (وما زالت في عمق أعماقه نطفة الحياة والخلود!)
(توجه الحديث إلى من حواليها تقول في شيء من التسامح:)
الأرملة - لا بأس بهذه الأشعار! خصوصا والشاعر مبتدئ. . (للمجهول) ربما واتاك النبوغ. . . يوماً ما!. . (تعيد إليه ملف الورق)
المجهول - (في صوت خافت وهو يشير إلى التمثال) نعم مثله. . بعد موتي!
صوت - هذه أشعار تافهة!
صوت آخر - باهتة!
صوت آخر - بائخة!
صوت آخر - ليرحل عنا هذا الشويعر! لقد أتعبنا مرآه!.
المشهد السابع
المذكورون، النائب المحترم. وكيل المقاطعة
حركة عامة وضوضاء فجائية. يدخل النائب المحترم متبوعا بوكيل المقاطعة. يصافحان) الحاضرين ثم يأخذ كل مكانه لبدء الحفلة يجلس النائب المحترم على كرسي الرياسة وإلى يمينه الأرملة وإلى يساره وكيل المقاطعة والعمدة. يسود صمت عميق مدى

(لحظة ثم يقف النائب
النائب - الكلمة لحضرة العمدة!
(يقف العمدة وينحني يمينا ويسارا متكلفا الرزانة والوقار ثم يبدأ بقراءة الخطبة وقد وقف إلى جانبه معلم القرية)
العمدة - حضرة النائب المحترم! سيدي وكيل المقاطعة!، سيدتي، مواطني الأعزاء! إن هذا اليوم ليس يوم حداد. . إننا لا نبكي ميتا. . إذ أن هناك أموات كما قال الشاعر يو. . يو. . (يتوقف عن القراءة لرداءة الخط)
. .معلم القرية (يلقنه) يحطمون
يحطمون بجمجمتهم صخر قبورهم!. . (حركة ارتياح وموافقة من الجميع. يرفع . . . عقيرته)
فرنسوا روبنيول أيها السادة ما زال حيا بيننا! نعم ما زال حياً في ذكريات كل منا. . وسوف يحيا إلى الأبد في ذاكرة البشر لأن العبقرية تهزم الزمن، والفناء لا سبيل له إلى الخلود!
الجميع - جميل جداً! جميل جدا! ليحيا الخطيب!
العمدة - (مستمراً) وا أسفاه! أيها السادة وأنا أستعرض أمامكم صورة هذا المواطن الذي أصبح في الخالدين والذي تشرفت قريتنا المتواضعة بفتح عينيه للنور، تواردت إلى خاطري الحزين كلمة باسكال المأثورة: ما الحياة إلا نوم عميق لا نصحو منه إلا. . . .إلا
معلم القرية - (يلقنه) ساعة الموت!
العمدة - (يعيد بقوة) ساعة الموت!. . . وفي واقع الأمر يخيل إلي أن روح فرنسوا روبنيول كانت تنتظر بفارغ الصبر اللحظة التي تفارق فيها جسده البالي كما تتجلى أمامنا. أيها السادة لقد عبر شاعرنا العظيم وادي الألم هذا مجهولا من الجميع، مجحود الفضل، دون أن يتململ راضياً كفيلوسوف قانع بأسم بما ارتضاه له القدر من حظ عاثر ومكان وضيع فكان بعمله هذا حكيما إذ أن المجد أغلى نعم الدنيا ثمناً! وحم القضاء أيها السادة فتلقفت أيد قدسية أعماله الأدبية المتناثرة وضمتها إلى بعضها في دواوين حفظتها للخلود! هكذا أتيح لصحافتنا ولجريدتين من أمهات جرائد العاصمة أن تدرس أشعاره العلوية وأن تزف إلى فرنسا وإلى العالم المتحضر أبكار معانيه الساحرة وأوزان قوافيه الموسيقية. حينذاك أصغى الناس إلى هذه الأنغام السماوية وشاع الحماس في كل الأوساط فكتب ناقد كبير يقول: (إن فرنسا الشاعرة تضم إلى شعرائها الخالدين شاعراً غنائياً عظيماً، هو منهم في الصدر) أيها السادة إن هذا المجد المتلألئ يضيء اليوم قرية سانجان ديفين التي تذكر لأول مرة في تاريخ الأدبيات الفرنسية. فقد تغنى شاعرنا الراحل بمناظرنا الطبيعية الرائعة في قصائده الخالدة. . . وهكذا أصبح لنا بفضله وجود وخرجت قريتنا العزيزة من دياجير الظلمة والجهل إلى نور الشهرة الباهرة.
(تصفيق حاد عنيف متواصل)
نعم أيها السادة، كان فرنسوا روبنيول بين ذلك النفر الممتاز الذي يحيا وقد (يستمر) مات!
.!لقد صاغ بنفسه هذا المعنى في أبيات كتب لها الخلود
وتحجب ظلمة القبر) (لا تحزن فما الموت إلا كلمة جوفاء! عندما توارى في التراب) بجثمانك البارد وقد فارقته حرارة الحياة وبدأت) (عن عينيك دنيا النور، عندما تشعر وما) (فلا تصدق أنك إلى الفناء، لأن قلبك المرتعش ما زال ينبض) (ديدان الأرض تأكله زالت في عمق أعماقه نطفة الحياة والخلود!)
(تصفيق كهزيم الرعد)
أصوات مختلف - ما أجمل هذه الأشعار! بديع! عظيم! يا للشاعر الفحل! يا للعبقرية! هنا تنفجر ضحكة هائلة فيلتفت الجميع فإذا بالضاحك هو المجهول! هرج ومرج! يندفع) الكل إليه حانقين)
صوت - (في أشد حالات الغضب) من تكون يا رجل؟
صوت آخر - ماذا تعمل هنا؟ لست من أهل الناحية!
سيد - (يأخذ بتلابيبه) اعترف بأنك مرتش من أعدائنا لتثير فضيحة!

أصوات عديدة - ليطرد! ليطرد!
وكيل المقاطعة (للشرطي) أيها الشرطي، فتش هذا المخلوق!
النائب المحترم - سله أن يبرز أوراق إثبات الشخصية!
(موافقة من الجميع)
الشرطي - (يدافع الجمع الحاشد) سأفعل يا حضرة الوكيل! ويتقدم من المجهول ويمسك بذراعه: عجل بتقديم أوراقك!
المجهول - (يخرج من جيبه شهادة ميلاده وأوراقا أخرى)
الشرطي - (لا يكاد يلقي نظرة على شهادة الميلاد حتى يقول مصعوقاً) ما معنى هذا؟ يا للشيطان! تسخر من السلطات الحكومية يا رجل؟
وكيل المقاطعة - (يتقدم هو أيضا ويلقي نظرة جائلة على الأوراق فيصرخ دهشاً): أممكن هذا؟ لا أفهم!
المجهول - لا تفهم؟. . لقد قرأت جيداً! هذه شهادة ميلادي: (فرنسوا روبنيول ولد في قرية سانجان ديفين يوم الأحد 17 يناير سنة 1890) وأنا هو فرنسوا روبنيول. آه يا سادة! أنتم لا تتعرفون سحنتي والحق معكم: تغيرت كثيراً عما كنت عليه قبل هذه السنوات الخمس التي مضت. . فقد أرسلت لحيتي وشاربي. . تأملوني مع ذلك جيدا. . (ينزع منظاره عن عينيه ويرى يميناً وشمالا) ألا تذكرني يا جنتران؟ ولا أنت يا باتاريل؟ وأنت يا جيشو؟ ألا تذكر أيام كنا ننطلق معا إلى الجبل؟. هذا هو مسكني (مشيراً إلى أحد المنازل) (دهشة عامة. يستمر في حرارة متزايدة) لكم آلمتموني! لقد نغصتم علي عيشي فلم أطق الحياة بينكم. . ولذلك اختفيت. ادعيت الموت فعاد علي ذلك بالخير العميم والمجد العظيم. . . (ضاحكا) لأن الناس لا يعدلون إلا مع الأموات! إذن حسبتموني ميتا أيها السادة! وا أسفاه، ما زلت من سكان هذا العالم! وها أنا ذا أقول لكم: انتهت المهزلة. . . . فتعالوا نضحك معا سويا. . .
العمدة - هذا الرجل مخلوق كاذب!
الجميع - كفى! كفى! إنه يريد الهزء بنا! أخرسوه اطردوه.
النائب المحترم - (في هياج شديد) من العار أن نسمح لهذا الدعي أن يسخر منا!
معلم القرية - إنه مشعوذ سخيف!
المجهول - (في صوت جهوري) هنا مع ذلك شخص لا يمكنه أن ينكر معرفتي! (يشير إلى الأرملة) هذه المرأة!. . (غمغمة عامة: فضول!)
الأرملة - (في احتقار) لا أعرف هذا الإنسان!
الجميع - أرأيت؟ أنت مجنون!. . ألقوا به إلى الخارج! اقبضوا عليه!. . إلى السجن! إلى السجن! (يقفز المجهول إلى المنصة ويصيح بين الضحكات والاحتجاجات العاصفة)
المجهول - أيها الحمقى! إنما أقمتم هذا التمثال لأنفسكم. . لغروركم الوضيع. لم يكن فرنسوا روبنيول بالشاعر الكبير. بل كان فنه كاذبا وعبقريته مزيفة. فلو كان عظيما حقا لما فهمتموه! إنكم إما مجدتموه لأنه مرآة نفوسكم الخاملة، وصورة أذهانكم المحدودة. إنه لم يمت، وها هو ذا أمامكم، لا في صورة تمثال من المرمر بل حيا يرزق، وفي استطاعتي أن أبدي فيه رأيا صريحا خيراً من أي واحد منكم. لأنني. أو بعبارة أخرى لأنني كنت. . .
(يصيح الكل: انتزعوه من المنصة) ألقوا به إلى النهر أصبح السخط عاما. يتقدم الشرطي وخفير القرية من المجهول ويستاقانه في غلظة لكنه لا يستطيع الاستمرار فصرخات الاحتجاج تغطي صوته
الشرطي - (يجذبه بعنف) كفاك سفسطة! إلى السجن!. . . لا تعاند! تقدم معي!
(يمضي الشرطي بالمجهول فتصدح الموسيقى بنشيد المرسلين)
النائب - (يقف ويشير إلى الجمع بالصمت) يا أصدقائي الأعزاء! هذا الحادث السخيف الذي أثاره مجنون (أصوات نعم نعم) لا ينبغي أن تمنعنا عن أداء واجبنا المقدس نحو ذكرى شاعرنا الكبير فرنسوا روبنيول!
(أصوات: ليحيى روبنيول!)
النائب - أيها السادة، الحفلة مستمرة. إن مجد فرنسوا روبنيول هو مجد قريتنا العزيزة سانجان ديفين. . . وموته خسارة لا تعوض على العالم المتمدن!. . .

(يستمر في الخطابة بينما يسدل الستار شيئا فشيئا)
فتوح نشاطي
بلياس ومليزاند
للفيلسوف البلجيكي موريس ماترلنك
ترجمة الدكتور حسن صادق
راينيولد - نعم. نعم. إنها تجالد كل الوقت الذي تغيب فيه عن البيت.
جولو - آه!. . . أحد الناس يجتاز الحديقة وبيده مصباح ولكن قيل لي أنهما لا يتحابان. . ويغلب على ظني أنهما يقضيان أغلب الأوقات في جدل عنيف. . . كلا؟ نعم؟ حقا؟ .
إينيولد - نعم. هذه حقيقة.
جولو - نعم؟. . آه! آه!. . . ولكن فيم يتجادلان؟
إينيولد - في شأن الباب.
جولو - كيف؟ في شأن الباب؟ ما هذا الهراء الذي تقصه علي؟ ألق بالك إلي وأفصح. لماذا يتجادلان في شأن الباب؟
إينيولد - لأنهما لا يريدان أن يظل مفتوحا.
جولو - أيهما لا يريد أن يظل الباب مفتوحا؟. . أوه! تكلم. لماذا يتجادلان؟
إينيولد - لا أدري يا أبي. . . النور سبب الجدل.
جولو - موضوع حديثنا الباب لا النور. . . ما هذا؟! لا تضع يدك هكذا في فمك. . .
إينيولد - أبي! أبي! لن أفعل أبداً ما نهيتني عنه. . (يبكي)
جولو - تكلم. علام البكاء؟ ماذا حدث؟
إينيولد - أوه! أوه! لقد آلمتني يا أبي.
جولو - آلمتك؟ في أي موضع؟ لم أشعر بما فعلت ولم أقصد إليه.
إينيولد - هنا. في ذراعي الصغيرة.
جولو - لم أرد إيلامك يا بني. . . كف عن البكاء. . . سأعطيك شيئا غداً. .
إينيولد - ماذا يا أبي؟
جولو - سأهدي إليك قوساً وسهاما. . . ولكن قص علي ما تعرفه من أمر الباب.
إينيولد - أتهدي إلي سهاما كبيرة؟
جولو - نعم غاية في الكبر. . . لماذا لا يريدان أن يظل الباب مفتوحا؟. . . ما هذا الصمت الأليم؟! تكلم. أجب. . . لا. لا. . . لا تفتح فمك لتبكي. . . ليس بي استياء ولا كدر. فيم يتحدثان وقت اجتماعهما؟
إينيولد - بلياس وأمي الصغيرة؟
جولو - نعم. في أي شأن يتحدثان؟
إينيولد - يتحدثان عني. دائما في شأني.
جولو - وماذا يقولان عنك؟
إينيولد - يقولان أني سأصير كبيراً طويل القامة.
جولو - آه! يا بؤس عيشي! إني هنا كضرير يبحث عن كنزه في أعماق اليم!. . . إني هنا كطفل صغير ضل في غابة كثيفة. . وأنت. . آه! لا تكترث لما قلت، فقد كنت لاهيا يا إينيولد. سنتكلم جادا يا بني. ألا يتحدثان، بلياس وأمك الصغيرة، عني في غيبتي؟
إينيولد - يذكران أسمك في الحديث.
جولو - آه! وماذا يقولان عني؟
إينيولد - يقولان إني سأصير كبيراً طويل القامة مثلك.
جولو - وهل أنت دائماً معهما؟
إينيولد - نعم. نعم أقضي معهما كل الوقت يا أبي.
جولو - ألم يطلبا إليك قط أن تغادر الغرفة وتلعب في مكان آخر؟
إينيولد - كلا يا أبي. الخوف يستحوذ عليهما إذا بعدت عنهما.
جولو - الخوف يستحوذ عليهما؟. . وكيف عرفت ذلك؟
إينيولد - لأنهما يبكيان دائما في الظلمة.
جولو - آه! آه!
الكتب
دائرة المعارف الإسلامية

أغلاط الكراسة الأولى
للدكتور عبد الوهاب عزام

لا يماري أحد في أن شباننا الذين شرعوا يترجمون دائرة المعارف الإسلامية جديرون بالإعجاب لعظم مقصدهم، وصدق عزيمتهم، واعتدادهم بأنفسهم في الاضطلاع بعمل بعيد المدى، عظيم الشقة. وإنا لنرجو أن ينالوا من التأييد والإقبال ما يفي بمثوبتهم على هذا العمل الجليل.

منعتني أعمالي أن أبادر إلى قراءة الكراسة الأولى من الترجمة العربية. فلما أتيحت الفرصة منذ أيام أقبلت على قراءتها إقبال المغتبط المتشوق، فقرأت الكراسة كلها في ساعات قليلة ولم أحس ضجرا ولا تعبا.

وقد ألفيت اثناء القراءة أغلاطا كثيرة أعرضها على القراء والمترجمين في الفقر الآتية:

1 - فمن الغلط في أسماء الناس والبلدان:

أرزن روم ص 10. والصواب أرزن الروم. وفي الأصل أرضروم فلم يبق المترجم على الاسم التركي، ولا اهتدى إلى التسمية العربية، ومن ذلك القرم ص 11 والصواب القريم، وكبجاك ص 14. والصواب ففجاق، وأحمد تكدر ص 15. والصواب تكودار، وكتاب قرقد والصواب قورقود كما يكتبها الترك، ومن ذلك أتميدان ص 42. والصواب آت ميداني- وهو ميدان في استنبول كان الرومان يسمونه هيبودرم فسماه الترك آت ميداني أي ميدان الخيل، ومن ذلك إروان أسم مدينة ص 49. والصواب أريوان، ومحمد صقلي باشا ص 56. والأتراك يكتبونه صوقوللي فيحسن أن يكتب بالعربية صوقولي، وججرات أسم مدينة في الهند ص 57. والصواب كجرات، وججتاي أسم لهجة تركية والصواب جغتاي بالغين.

2 - ومن غلط الأسماء الناشئ من الإضافة الفارسية وظن المترجمون أن حرف في الأصل يقابل الياء، وهو كسرة لا غير: آب - ي حياة ص1 والصواب آب حياة، وكتابي قرقد ص21 والصواب كتاب قورقود بغير ياء، وجلزاري إبراهيم ص 35 والصواب جلزار إبراهيم، وسجلي عثماني والصواب سجل عثماني، ومدخلي حقوقي دول ص 55 والصواب مدخل حقوق دول، وتاريخي حقوق بين الدول ص 56 والصواب تاريخ بغير ياء، ونوسالي ثروتي فنون ص 56 والصواب نوسال ثروت فنون، وسالنامي ثروتي فنون ص 56. والصواب سالنامه ثروت فنون، وطبقاتي أكبري ص 57 وفارس نامي ص 60 وواقعاتي دراني ص 24 وتاريخي أحمد ص 24 وحياتي أفغاني ودرى دراني ص 24 والصواب في هذا كله طبقات أكبري، وفارس نامه، وواقعات، وتاريخ، وحيات ودر بغير ياء في الكلمات الأربع، وأفضع من هذا كله دري سعادت أسم استنبول. والصواب در سعادت.

3 - ومثل هذا الغلط في نقل العبارات التركية:

فقد ترجموا (آبازه كوشكي) فكتبوا كيوشكي آبازه ص 10 والصواب كوشك آبازه فإن الياء الأخيرة ياء الإضافة في التركية- فإذا نقل التركيب إلى العربية فلماذا تبقى الياء؟ ثم الياء بعد الكاف في كيوشكي غلط آخر. (وطوب عربجلري ص 51 والصواب طوب عربجيلري بالياء الثقيلة وزيادة ياء بعد الجيم. والناس في مصر يقولون عربجي لا عربج. وأصوب من هذا طوب آرابه جيلري) وايج شاهينجلر ص 45 والصواب شاهينجيلر بزيادة ياء بعد الجيم.

4 - ومن الغلط في رسم الكلمات الفارسية والتركية والكلمات العربية المستعملة في هاتين اللغتين:

سياسة نامه. والصواب سياستنامه أو سياست نامه، وجينليكيوشك ص 31 والصواب جينلي كوشك. وإن أريد الترجمة فالكوشك الصيني، وسياحات ص 31 والصواب سياحت، وأوليه. والصواب أوليا، وخاطيرات ص 56 والصواب خاطرات جمع خاطرة، وخندمير ومير خند ص 60 والصواب خوندمير ومير خوند. وكجوك وبيك ص 50 والصواب كوجك وبيوك، وحياة خان ص 24 والصواب حيات، وآتش كده ص 60 والصواب آتشكده، وقترجي أوغلو ص 10 والصواب قاطرجي، وبيرمي سكز جلبي محمد ص 58 والصواب يكرمي سكز كما تكتب في التركية.

5 - ومن الغلط في تعريب الكلمات:

أرسلان بج. ولطف علي بج ص 60 وأتا بج فارس ص 59 وسليم جراي ص 11.
والصواب في هذا كله بك وأتا بك وكراي بالكاف الفارسية أو بك وكراي بالكاف العربية أن أريد التعريب، فقد عربت من قبل وكتبت بالكاف العربية لا بالجيم.

6 - ومن الغلط في الترجمة: نهر جرجان رود ص 63 والصواب نهر جرجان فإن كلمة رود بالفارسية معناها النهر، وترجمتهم هذه الجملة: ' بهذه العبارة (ينابيع المياه العذبة) وهي لا تفي بالأصل، ومن الغلط في ترجمة الاصطلاحات العروضية ترجمتهم بمقطع والصواب جزء. ولو رجعوا إلى تعريف الابتداء عند العروضيين لأصابوا التعريف الاصطلاحي الصحيح.

7 - ومن الأغلاط الظريفة أن الكتاب الأوربيين ترجموا بعض الكلمات العربية ثم حرصوا على الكلمة المترجمة فوضعوها بين قوسين ليستعين عارف العربية بها على تحديد المعنى. فجاء المترجمون إلى العربية فترجموا العبارة الإنجليزية أو الفرنسية بعبارة عربية وأبقوا الكلمة العربية بين قوسين. وظاهر أنه لا حاجة إلى حبس هذه الكلمة بين قوسين بعد أن ردت إلى لغتها. ومعنى هذا أن الكلمة العربية ترجمت إلى الإنجليزية فلما أريد ردها إلى لغتها وضعت كلمة أخرى مكانها لا تؤدي معناها. وبقيت هي زائدة بين القوسين.

ومن ذلك قولهم: وألف كذلك مصنفاً عن حكمة (حلم) الهندوس ص 16 يستنزلون المطر (استسقاء) ص 23، ادارة أوقاف (متولي) ص 57.

8. ومن الأغلاط المطبعية:

لم يتقدم أكثر جوتز ص 46 وأظن هنا حرف (من) محذوفا بعد أكثر. إبراهيم باشا داماد وزير السلطان أحمد الثالث ص 48 والصواب حذف (داماد)، وثير بالثاء في حاشية الأستاذ محمد مسعود ص 16 والصواب تير بالتاء المثناة. ودراويش جانفرا (جوف) ص 46. ولست أدري من أين جاءت كلمة (جوف) والقوسان المحيطان بها.

9 - ومما يؤخذ على العبارات العربية، وأكتفي بسردها هنا، أجرى لنفسه عملية الختان ص 27: وكان ترتيبه السابع عشر بين سلاطين آل عثمان ص 29 (يسمى أبو بكر ص 35) وكانت حياة هذا الرجل اقرب إلى الأفقية والمجازفة ص 39، ثم أعدمه هناك ص 10 ثار بدوره ص 10، دخل مذهب الخوارج إلى المغرب في صورة الاباضية ص 13 (يضطر المسلمون إلى إقامة خليفة) ص 14 في مكان (يجب على المسلمين الخ)، قراءة خاطئة بدل مخطئة، وفي حاشية الأستاذ مسعود: (الأيام المسترقة (بكسر الراء) ص 16 والصواب فتح الراء. ولو ترك الأمر للقارئ ولم ينص على الكسر بين القوسين لكان أحزم).

10 - ثماني مائة كنيسة ومائة بيعة (بما فيها المعابد الصغيرة) ص21 وما بين القوسين لا تسيغه اللغة.

10 - ومما يؤخذ على رسم الكتاب كتابة أسماء المراجع بحروف كبيرة وتركهم شكل الأعلام والكلمات التي تحتاج إلى الشكل، وتركهم الرموز في الإشارة إلى المقالات فيقولون مثلا:

ولو كتبوا (انظر: عمان) أو (ظ. عمان) لكان أوجز ألخ (انظر مقال عمان).

هذا ما ألفيته أثناء القراءة واستحسنت أن ألفت المترجمين الكرام أن يتجنبوه في الكراسات الآتية.

وينبغي ان يعلموا ان هذه الأغلاط وأمثالها لا تنقص من عملهم، ولا تغض من أقدارهم.

ولعل في التنبيه إلى هذه المآخذ ما يدعو إلى طمأنينة القارئ حين يعلم أن هذه الدائرة العربية لا تقر على أغلاطها، وإن وراءها من ينقدها، ويشفق على قرائها، ويرجو لها كل سلامة.

وبعد فإني أختتم بتكرار الثناء والشكر، ودعوة قراء العربية إلى التأييد والمعاونة ما استطاعوا.

والله يهدينا إلى التي هي أقوم ويسددنا إلى كل عمل صالح.

دائرة المعارف الإسلامية

نقد وتقدير

للأستاذ إسماعيل مظهر

ولكنه كان برغم عقيدته المسيحية محوطا (كذا) بالأتراك (ص 22 نهرا) والأصل (10)

الإنجليزي كما يلي:
. . . ,
والفرق بين الأصل والترجمة شاسع بعيد، لأنك عندما تقول بأن فلانا كان محاطا باللصوص شيء يختلف كل الاختلاف عن قولك أن فلانا اتخذ لنفسه بطانة من اللصوص. والذي يرمي إليه الأصل هو أن فلانا هذا (على الرغم من عقيدته النصرانية اتخذ له بطانة من الأتراك) لأن مجرد أن يكون محاطا بالأتراك لا يؤدي المعنى المدرك من الجملة الأصلية، ويدل في جملة ما يدل عليه أنه كان محاطا بهم ولم لم يكن له رغبة في أن يكونوا من بطانته أو حاشيته؛ وأنه كان محاطاً بهم عنفا وأثرا على الرغم من إرادته. وقد جاء في القرآن: (إلا أن يحاط بكم). وليس شيء في هذا بمحمول في الأصل. ومثل هذا التفريط لا يصح أن يقع فيه شباب مثقفون تصدروا إلى إخراج عمل أدبي عظيم كدائرة معارف الإسلام.
وهنا ننتقل إلى مادة أخرى هي مادة (أباضيون) وقد جاء في هذه المادة (ص 13 (11) نهرا) ما يأتي:
وانتشر بسرعة بين البربر حتى أصبح المذهب القومي لهم، اتخذوه ذريعة لنضالهم مع) أهل السنة من العرب) والنص الإنجليزي كما يلي: -
,
وهنا نلاحظ أولا أن كلمة الإنجليزية لا تأتي مطلقا بمعنى أنتشر. لأن انتشر تؤديها كلمة ولكن الأولى تؤدي دائما معنى التوسع في الشيء أو نشوءه وتطوره. وثانيا أن المترجم قال: (اتخذوه ذريعة لنضالهم مع أهل السنة من العرب) فجاءت الجملة غامضة لأنه لم يفصح عمن اتخذوه ذريعة في حين انها بينة في الاصل، والسبب في هذا راجع إلى أنه أهمل كلمة ولو عني قليلا بالترجمة لقال (اتخذه العرب الأفريقيون ذريعة للنضال مع أهل
السنة) وإذن تستقيم الجملة وتنطبق على الأصل ويزول عنها الغموض.
وجاء في هذه الصحيفة ما يأتي (12):
ولعب أباضيو طرابلس وأفريقية. . . . . .)
. . . . . الدور المهم في ثورة القرن الثاني الهجري التي كادت تجرد الخلافة
والأصل الإنجليزي كما يلي (من أفريقية):
. . . . . .
وبالمقارنة بين الأصل والترجمة تجد وضوحاً في الأولى وغموضا في الثانية. السبب في هذا أن المترجم أهمل كلمة وهي حجر الزاوية في الجملة فقال: (ثورة القرن الثاني الهجري) وكان يجب أن يقول: (ثورة البربر في القرن الثاني للهجرة) لأنك لم تعرف من الذي ثار، ومثل هذا التفريط مفسدة للتاريخ وتعقيد على المطالع لا سبب له إلا التعجل في إبراز الآثار الأدبية. ثم أن كلمة الإنجليزية لا تؤدي معنى الثورة فعلا، بل تؤدي معنى فتنة، لأن الثورة لا بد من أن يعقبها انقلاب حقيقي في نظم الحكم أو في قوام الدولة كالثورة الفرنسية وكالفتنة المصرية. والفتنة لا تؤدي المعنى المقصود في الثورة الفرنسية أو انقلاب روسيا الحديث. والإنجليز شديدو الحرص على مراعاة مثل هذه الفروق. لأن التخليط فيها تخليط في التصور الذي ينتج عنها.
الخ (ص13 نهر21) والأصل (تفرق شمل الاباضيين في صحراء تونس والجزائر) (13) الإنجليزي كما يلي:
,
وأنت تقول تفرق شمل الجيش أو الجماعة ولكنه يجوز أن يجتمع شملهم مرة أخرى، ولكن الأصل الإنكليزي يريد أن يقول على الضد مما أراد المترجم أن الأباضيين عاشوا مشردين (آفاقين) في جماعات مصادفة وأتفاق، وشتان ما بين المعنيين لأن كلمة قد أثبتت في المعاجم الكبرى، وكما تدل حقيقة، وأمامها (أتفاقاً، واقع متفرقاً)، (راجع بدجر ص 1009) وفي هذا تفريط لا يستهان به.
وجاء في نفس الصفحة والنهر: (ولهم أدب ديني تاريخي هام: وجماعاتهم دائمة (14) الاتصال بعضها ببعض تحرص حرصاً شديداً على حماسها المتأجج) والعبارة هنا عبارة فرنسية في كلمات عربية، ولا تمت للأسلوب العربي بأي سبب، ولكن على الرغم من هذا ترجع إلى الأصل الإنجليزي فتجده كما يلي:

والفرق شاسع بين الأصل والفرع، فقد قال المترجم: (ولهم أدب ديني تاريخي هام)
والواقع أن الأصل لا يحتمل هذا المعنى مطلقاً، فأن المؤلف يريد أن يقول برغم المترجم: (لهم مؤلفات، دينية تاريخية ذات وزن) والسبب في خطأ المترجم أنه ترجم كلمة (بأدب) ولكنها في هذا الموضع تدل على المؤلفات والآثار الأدبية كما يقول فلا يصح أن نترجمها (الأدب العلمي) بل نقول المؤلفات العلمية، وقول المترجم (أدب ديني تاريخي) يدل على أن هذا الأدب قاصر على الكلام في الدين من طريق اتصاله بتاريخ نشوء دينهم. والأصل يريد أن يقول (مؤلفات دينية وتاريخية). والفرق ظاهر جلي، ولأن في الإنكليزية حرف عطف يا سيدي المترجم، وعلى الرغم من أن المترجم فصَّل من الجملة الواحدة ثلاث جمل مفككة مما نغضي عنه تجاوزاً، فأنه قال في عرض الكلام عن جماعات الاباضية أنها: (تحرص حرصاً شديداً على حماسها المتأجج) وعلى الرغم أيضاً من أن معنى (الحرص) لا أصل له في الجملة الإنجليزية، بل أن تفيد معنى الاحتفاظ بالشيء في مستوى بعينه، فأنه أردف الحماس بالمتأجج وصفاً له. والمتأجج لا أصل لها في الأصل الإنجليزي. فخرج بذلك عن وظيفة المترجم الأمين إلى وظيفة محرر جريدة يحاول أن ينمق كلامه بالخطابيات. ولو أنه أراد أن يترجم كلمة ترجمة حسنة فيها احتفاظ بالأصل، وفيها ما يريد من تأجج الحماسة لقال (حميتهم) لأن الحمية فيها الحماسة وفيها تأجج الحماسة معاً.

ولقد أنقسم الأباضيون الأفريقيون ثلاثة أقسام سياسية ودينية على السواء (ص) (15) 13: نهر 2) والأصل كما يلي

وكان الواجب ان يلاحظ المترجم أن كلمة لا تترجم بقسم لأن قسم هو يجب أن تترجم بفرقة أو شيعة. وقال المترجم (أقسام سياسية دينية) وهذا بعيد عن الأصل لأن التعبير الأصلي يريد أن يقول (ثلاث فرق أو (شيع) لكل منها لون سياسي وآخر ديني) والله أعلم.

ومن الطبيعي أن يعارض الأباضيون بشدة في اتهام أهل السنة لهم بالكفر (ص) (16) 13
نهر 2) والأصل كما يلي:

ونحن نترك للمترجم الفاضل قوله (يعارض الأباضيون بشدة) لتقابل برغم أنها خطأ. ولكننا لا نستطيع أن نترك ترجمة كلمة بالكفر، لأن كلمة معناها الهرطقة. وبين الكفر والهرطقة فارق ما كان ليجل عن فهم المترجم لو أنه أراد وصبر على مكاره البحث. ذلك لأن الهرطقة درجة من درجات الكفر. والكفر خروج من دين إلى دين آخر، ومن درجاته الهرطقة والزندقة والردة وغيرها فقد يكون الإنسان هرطوقاً أو زنديقاً. ولكنه يبقى مسلماً يحتاج فقط إلى تصحيح دينه، كما يحتاج المترجم الفاضل إلى إصلاح ترجمته، ويبقى مع ذلك مترجماً. ولكن الكفر خروج من الدين. وكلمة هرطوق وجمعها هراطقة، أو أرطوق وأراطقة، من المعربات التي دخلت اللغة العربية وأصبحت صحيحة (راجع محيط المحيط). ولئن غضب الأباضيون على أهل السنة على رميهم إياهم بالهرطقة لا غير؛ فكم يكون غضبهم على المترجم الفاضل على رميهم بالكفر؟ نرجو من الله ألا يسمع الأباضيون خبر ذلك.

وجاء في (ص 14 نهر 2) ما يأتي: (وهذا النقاء سواء أكان عن إخلاص أو تظاهر (17) يجعل منهم كتلة متجانسة متآلفة متمايزة تمام التمايز بسلوكها وأخلاقها وميولها بين أهل السنة من العرب والبربر) في شمال أفريقية والأصل كما يلي:

وأريد الآن أن أختتم هذا النقد حذر أن أطنب وإن كانت ترجمة دائرة معارف الإسلام جديرة بأكثر من هذه العناية.

قال المترجم أن هي النقاء، ولا أعلم كيف جاز له أن يستخدم هذا الاصطلاح المبهم، وحقيقتها (صوفية أو تصوف)، (أنظر بدجر ص 820) ولكنها ليست الصوفية او التصوف كما عرفه العرب؛ لأن صوفية العرب جاءتهم من ناحية الهند تغليباً أو من ناحية الإسكندرية ترجيحاً، بل هي الصوفية كما عرفت عند شيعة كنيسة نصرانية، لأن الكلمة

هنا قد وضعت لتدل على وجه من الشبه بين الفئة التي يتكلم فيها المؤلف وبين فئة ظهرت في ثنايا الكنيسة النصرانية، ونقاء ترجمة حرفية لكلمة ومنها ولكن الخطأ في أن تستعمل
بنصها الأصيل لتدل على مذهب. وإلا لجاز لنا ان نترجم مثلاً اصطلاح بالغموضية أو الإبهامية في حين أنها وضعت لتدل على مذهب الجمود الفلسفي، ووضع المترجم الفاضل كلمة (تظاهر) لتقابل في الأصل كلمة وحقيقتها مراءاة أو نفاق. (أنظر بدجر ص 750).
وقال المترجم (متمايزة بسلوكها وأخلاقها وميولها بين أهل السنة من العرب والبربر في شمال أفريقية) والحق أن المؤلف يريد أن يقول (مميزة بسلوكها وأخلاقها وميولها عن أهل السنة أو بربر شمال أفريقية) فأن استعمال (بين) يدل على خطأ في الجملة يفسد مرماها وقوله (العرب والبربر) خطأ افظع من الأول لأن تترجم (أو) في الإنجليزية وقد أستعمل بدلها حرف عطف هو (الواو) تقابلها في الإنجليزية فأفسد بذلك المعنى.
على أني لا يسعني إلا أن أهنئ لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية من كل قلبي على عملها المجيد راجياً أن تسير فيه موفقة مسددة الخطو بأذن الله.
العدد 21 - بتاريخ: 15 - 11 - 1933
نهضة الشباب. . .
نهضة الشباب اليوم إحدى الظواهر المميزة لهذا الجيل. وهي أجلى ما تكون في الأمم المظلومة أو المهددة بالظلم. كأنما أخفق في سياستها (رأي) الشيوخ، فصمد إلى قيادتها (عزم) الشباب! والواقع أن هذه النخوة القدسية التي تعصف برؤوس الفتيان في إيطاليا وألمانيا وسورية ومصر، إنما هي القارعة التي تُصمُّ والظاهرة التي تخيف، لأن الشباب إذا كان لهم الصف الأول في الحرب، فان لهم الصف الأخير في السلم، فإذا ألجأهم تقلب الصروف إلى تقدم الصفوف، دل ذلك على سياسة عاجزة، أو سِلْمٍ مربية، أو خطر محدق. وعجز السياسة اتهام لحنكة السن، ورياء السلم إيذان بصراحة الحرب، وتفارُس الأهواء إعلان بنزول الغاشية. فا (لفاشيَّة) و (النازية) و (عصبة العمل القومي) و (عيد الوطن الاقتصادي) وغيرها من حركات الشباب وثبات دفاعية بعثتها لإنسانية المهددة بالتفكك والفوضى والهوان والاستعباد والجشع. ولئن كان لكل دولة من هذه الدول، علة أو أكثر من هذه العلل، فان مصر البائسة تكابد هذه النكبات جميعا! فأخلاقها تفككها الحزبية الأثِرَة، وآراؤها تشتتها المطامع الخسيسة، وكرامتها تهينها الامتيازات الباغية، وقوميتها توهنها الأجنبية الموغلة، وحريتها تقيدها القوة المحتلة، وأرزاقها تسلبها (الضيافة) الثقيلة، وأبناؤها (الكرماء) القانعون الخانعون قد ألفوا مضاجع الهون فلا تؤذيهم الفضاضة، ولا تؤلمهم الخصاصة، ولا يبغون حِوَلا عن هذه الحال! ولكن الشباب، وإن أعدهم هذا الحاضر الذليل، قد أعانتهم خصائص الفتوة، وغرائز الفطرة، على أن يدركوا ما نحن فيه من ضراعة الجانب، ووضاعة الشأن، وضيق المضطرب، فهبوا يُعِزُّون النفوس الذليلة، ويمنعون الحوزة المباحة، ويستردون الثروة المضاعة، ويمهدون لهذا البلد العاني طريق الاستقلال الخالص السعيد! ومَن أحقُّ بحماية الوطن وإعزازه من الشباب؟! انهم يعيشون للغد وآباؤهم يعيشون لليوم. فهم يحرصون على المستقبل ويجعلون الحاضر رأس مال، وأولئك يحرصون على الحاضر ويعدون المستقبل تركة! وشتان بين من يعمل لنفسه عن حاجة وبين من يعمل لغيره عن عاطفة.
لقد كان شبابنا ومازالوا أُغرودة الأمل الباسم في فم وادينا الجميل، وسر النشاط الدافق في روح نهضتنا المرجوة، حملوا وما زالوا يحملون لواء الغضبة المقدسة في وجه الدخيل العادي وغسلوا وما زالوا يغسلون أدران الماضي بالعرق الطهور والدم الغالي، ثم رأوا أن مصر المنكودة إنما يقف في طريق حياتها الطبيعية احتلالان لا احتلال واحد: احتلال سياسي يحتل الثكنات ويخادع الحكومة ويغل الحرية ويهين الحق ويؤذي الكرامة، واحتلال اقتصادي يحتل المدائن ويغزو القرى ويأكل الأرض، ويشرب النيل، ويحتكر التجارة، ويجلب الخمور، ويهرب المخدرات، ويتكسب بالمنكرات، ويفتك بالجيوب،

ويلغُ في الأعراض، ويعبث بالمدين، ويحلُّ على الجملة في سبيل المغنم ما حرمته الشرائع والضمائر والعُرف، ثم يتبجح بعد ذلك كله بأنه القيم على المدنية والحرية والعدالة، يبذرها في طريقه، وينشرها في مجلسه، ويمثلها في نفسه! فإذا قلت في رقة المغازل لهذا الضيف المُدلَّل أن ما تعمله يناقض ما تقوله، تجهمت (امتيازات) الدول وَتَزَغَّمت (تحفظات) الإنجليز!!

رأى شبابنا أن جهاد هذين الاحتلالين أمر لا يتحقق خلاصنا بدونه، وأن قَصْر الجهود على أحد الميدانين يمكِّن الحليفين من حشد كل القوى في ذلك الميدان، فأرهفوا النشاط، وارصدوا الأهبَةَ، ولاقوا الواغل في كل طريق. ليس بسبيلنا اليوم أن نعرض فيالق الشباب في مختلف الميادين، فقد أشرنا إلى ذلك في كلمة سابقة، إنما نريد أن نسجل في ثبت المجاهدين فيلقا جديدا جاء يؤكد مرة أخرى أن هذه الأمة الكريمة قد قطعت عزمها على أن تعيش في أرضها حرة وفي ملكها سيدة، ذلك الفيلق هو جماعة عيد الوطن الاقتصادي، وهم فريق من الطلاب العاملين المخلصين البررة، حمَّلوا نفوسهم الرقيقة فوق تكاليف الدرس أعباء الدعاية للتجارة المصرية والمنتجات الوطنية، فهم يُعرضون عن مطالب الصِّبَي، ويصدفون عن مباهج العيش، ويعقلون جهودهم وميولهم في مكاتب العمل من نادي اتحاد الجامعة: يعلنون بالوسائل المختلفة إن المشروع الذي يعدونه، ويدعون إخوانهم إلى التطوع في الجيش الذي يحشدونه، ويتصلون بالتجار ليقنعوهم بالاشتراك في الدليل الذي يصدرونه، ويجمعون الأَهَبَ للمهرجان الفخم الذي يهيئونه، ويزورون المصانع والمتاجر ليحققوا الوجه الذي يقصدونه، ويعانون في سبيل ذلك رهقاً شديداً في النفس والمال والكرامة، أجل أقول والكرامة! لأن كثيراً من تجارنا لا يزالون يتعاطون التجارة على منهج دارس، وطبع ألَفَّ، فهم يتهمون الناصح، ويستغشون المشير، وينكرون التطور ويجهلون الأعلان، ويعتمدون في جلب الحرفاء ورواج السلع على التمائم والأدعية!!.

يكون عيد الوطن الاقتصادي يوم دعاية وإعلان وعرض، وسيقدم للممارين الأدلة التي تصك الأسماع وتطرف العيون على أن مصر الناهضة تسير في طريق مأمونة إلى غاية مضمونة! فمساهمة الشباب بالتطوع، وانضواء التجار بالاشتراك وعطف الجمهور عليه بالتأييد، ضمان للنصر المبين في إحدى المعارك الفاصلة. إن القبعات في الطرقات، اكثر وأخطر منها في الثكنات، واليوم الذي لا ترى فيه على الرؤوس غير الطربوش، ولا تقرأ على جباه الحوانيت الا العربية، ولا تسمع في مختلف المعامل غير اللهجة المصرية، هو اليوم الذي تقول فيه وأنت صادق: لقد صفا النيل، وملك الأصيل، واستقلت مصر!!

أحمد حسن الزيات

بقية من لغو الصيف

للدكتور طه حسين

ليتك لم تأمري وليتني لم أطع. فمن صواب الناس ما يكون خطأ، ومن خطأ الناس ما يكون صوابا. والمرء بخير ما عرف لنفسه قدرها ولم يعد بها حقها، ولم يكلفها الحياة في النجوم، وقد خلقت لتحيا في الأرض. ولقد حاولت في غير طائل أن أعرف ماذا كنت تنكرين من صحبتنا في بلاد الغربة. فقد كنا نلتقي ونفترق لا يكون بيننا إلا حديث نقي بريء فيه ذكر للأدب والأدباء، فما زلت تحبين ذلك وتظهرين كرهه، وما زلت تسرين الرغبة فيه، وتعلنين الضيق به حتى ملأت صدري ضيقا بنفسي، وحرجا بمكاني منك، وخيلت إلي أني أثقل عليك، وأكلفك من صحبتي مالا تطيقين، حتى إذا كان ذلك اليوم وليته لم يكن تقدمت إلي في الرحيل فامتنعت عليك وأسرفت في الامتناع، والحت أنت وأغرقت في الإلحاح، ولم أجد بدا من الطاعة وان كنت لها لكارها، ولم تجدي بدا من المضي في الأمر، وان كانت نفسك لتحدثك في العدول عنه. ولم أكد استقر في باريس، ولم تكادي تستقرين في مدينتك الجامعية الصغيرة حتى اتصلت بينك وبين هذه الكتب

والرسائل التي لا أستطيع أن أصفها بأقل من أنها برهان قوي ساطع.
على أننا نخدع أنفسنا عن أنفسنا. ونتكلف في أرضاء الناس
وأوضاعهم ما لا يحفل به الناس، ولا يلتفتون إليه، وما لا نحتمله
نحن إلا في جهد جاهد وعسر لا حد له.

والآن وقد أضعنا من حياتنا أياما طوالا كنت تترددين فيها على حجرات الدرس في الجامعة، وكنت أتردد فيها على الأندية وملاعب التمثيل أكتب إليك وقد أنىّ لي أن أعود إلى القاهرة. لعلك تإذنين في أن نلتقي مرة قبل أن أعبر البحر. ولست أدري أيقع هذا الكتاب منك موقع الرضى أو موقع السخط؟ ولكني أعلم أن الأيام معدودة علينا في هذه الحياة وان من الحمق أن يستطيع الأصدقاء التلاقي ثم لا يلتقون، ينتظرون أن يتاح لهم ذلك في يوم آخر قريب أو بعيد. فمن يدري لعل هذا اليوم ألا يجيء. ولعل الأحداث والخطوب أن تحول بين الأصدقاء وبين ما كانوا يقدرون من اللقاء فيه. ولو عقل الناس لما تفرقوا إلا حين لا يكون من الفراق بد، ولكن الغرور يغرهم بأنفسهم ويطمعهم في الأيام، فيخيل إليهم أنهم مخلدون وأنهم ليمرون بالحياة كما يمر الطيف بالنائم المغرق في النوم وقد تعجبين حين تعلمين إني لا أكتب إليك من باريس، وإنما أكتب إليك وقد دنوت منك حتى لم يبق بينك وبيني إلا مسير دقائق على الأقدام. فقد وصلت إلى مدينتك الجامعية مع المساء وأنا أكتب إليك وستقرئين كتابي مع الصباح فان أردت لقائي فهذا رقم التلفون، وإن أبيت فان القطار يبرح مدينتك إلى مرسيليا مع الظهر، ولن أراك حتى أعلم بأن رؤيتي لا تؤذيك ولا تثقل عليك، ولا تخيل إليك أنك تخرجين على ما ألف الناس من أوضاع وأطوار.

عجبت للأذكياء وكبار العقول انهم ليأخذون أنفسهم أحيانا بما لا يلائم الذكاء ولا تسيغه العقول.

وكانت تختلف على وجهها الناصع وهي تقرأ هذا الكتاب مظاهر الوفاق والخلاف وآيات الرضى والسخط. فكان وجهها يشرق حينا، وتغشيه ظلمة رقيقة حينا آخر. حتى إذا فرغت من قراءة الكتاب وضعته في رفق أمامها على المائدة ومدت بصرها كأنما تريد أن تبلغ به أقصى الآفاق. لولا هذه الجدران التي تقوم غير بعيد وتقف عينها عند حد محدود وأرسلت نفسها الحرة إلى أبعد مما استطاعت أن ترسل إليه بصرها السجين، وظلت على هذه الحال وقتا لم تعرف أطال أم قصر ثم عادت إلى نفسها وثابت إلى غرفتها من الفندق، وأخذت كتابها برفق، وأعادت النظر فيه، وظلت كذلك تنظر في الكتاب ثم تدعه، ثم تعود إليه. حتى أدارت رأسها عن غير عمد فرأت التلفون، فقامت من غير عمد، وسعت إلى التلفون، ثم تحدثت فيه عن غير عمد، وعادت إلى مكانها، فأخذت الكتاب ونظرت فيه، ثم نظرت
فيه، ثم طوته ثم أخفته، ثم ظهر عليها تردد شديد، كأنها تنبهت لأنها أتت أمرا عظيما وكأنها تراجع نفسها في استدراك ما فات، وإلغاء ما قدمت من الأمر، وكأنها تفكر في أن تتحدث إلى التلفون بغير ما تحدثت به إليه منذ حين.

ولكنها لم تبلغ من ذلك ما تريد لأن طرقا خفيفاً على الباب قد ردها عنه، واضطرها إلى أن تصلح من شأنها على عجل وترفع صوتها إذنة بالدخول. ولم يكد ينفرج الباب عن صاحبها الأديب حتى أقبلت عليه باسمة تحييه وتقول في جرأة متكلفة، واستحياء ظاهر، إن كنت أقبلت للوم والعتاب فعد أدراجك وارجع من حيث أتيت، وخذ قطار الظهر. فان في كتابك من اللوم والعتب والفلسفة والتشاؤم ما يغني عن إضاعة الوقت. قال فان ما أضيعه من الوقت في اللوم والعتب لن يكون شيئا بالقياس إلى هذه الأسابيع الطوال التي أضعتها أنت حين أبيت إلا أن تقيمي هنا، واذهب أنا إلى باريس. قالت فذلك شيء قد كان، وقد مضى بأثقاله وأوزاره وليس إلى استدراكه من سبيل فلست أرى خيرا في ذكره، ولا نفعا لإعادة الحديث فيه، قال أما أنا فأرى في ذلك الخير كل الخير والنفع كل النفع، لأنك لم تستفيدي بما مضى ولن تنتفعي بذلك الفراق الطويل الأليم، قالت وما يدريك؟ قال أرأيتك لو أنبأتك بأني سأقيم معك في هذه المدينة وسأختلف معك إلى دروس الجامعة حتى ينقضي الصيف ونعود معا إلى القاهرة، ماذا تصنعين؟ قالت أو قادر أنت على ذلك وقد انتهت إجازتك، ولم يبق لك بد من القفول. قال فان الإجازات تمد وان الحيل أوسع من أن تضيق وإن رسالة برقية قد ذهبت إلى القاهرة خليقة أن تمنحني من الوقت ما يتيح لي أن اختلف إلى حجرات

العلم بعد أن اختلفت إلى معاهد اللهو والفراغ. قالت كالواجمة أو فعلت هذا؟ قال نعم قالت فعد إلى باريس أو أذهب أنا إليها. قال محزونا لابأس عليك فلن نلتقي في هذه المدينة الا بياض هذا اليوم، ولكن كيف تريدين أن تقضيه؟ وأين تريدين أن تقضيه؟ فما أظن أن غرفتك هذه الضيقة تسع أحاديثنا وخواطرنا التي لاحد لها والتي ينبغي أن تكون حرة كالطبيعة الحرة. ومطلقة كالهواء الطلق. وإني لأعرف من هذه الأرض أكثر مما تعرفين. قالت فإني لا أعرف منها إلا الجامعة والفندق والطريق بينهما. قال أما أنا فلا أعرف الجامعة وإنما أعرف الجبل والسهل وأعرف الربى والوديان، وأعرف الغابات الملتفة والرياضة النضرة، والغدران الجارية، ذات الصفحات النقية، والصوت الجميل، وأعرف

بنوع خاص ربوة بديعة يجرى من تحتها جدول بديع لا تقع القدم فيها إلا على عشب. ولا ترى العين فيها إلا جمال الشجر والزهر، ولا تسمع الإذن فيها الا هفيف النسيم وحفيف الورق وغناء الطير، وقد دارت حولها طائفة من الشجر الباسق الذي ارتفع في الجو كأنه يريد أن يبلغ السماء، والذي مد أغصانه في كل وجه حتى التفت واشتبك بعضها ببعض، وهيأت فوق هذه الربوة الجميلة الهادئة غرفات جميلة هادئة تصلح لتفكير المفكرين، وحديث المتحدثين، والرأي عندي أن نقصد إلى هذه الربوة فننفق فيها بياض هذا اليوم فإني مشوق إلى أن أراها بعد أن فارقتها منذ أعواما وأن أراك فيها بعد أن فارقتك منذ أيام تعدل أعواما وأعواما. قالت لا أرى بهذا بأسا ولكن على أن يسبق منك الوعد باثنتين أما أولهما فان تكف عن اللوم والعتب وما يشبه اللوم والعتب من هذا التجني الذي تحسنه أكثر مما تحسن أي شيء آخر، قال زعموا أن قيمة كل امرئ ما يحسن، فإذا كنت ترين أني ممتاز في التجني لا أكاد أحسن شيئا غيره وتطلبين إلي مع ذلك إلا اقصد إليه ولا أخوض فيه فأنت إذاً تريدين أن تضعيني موضع الذي يقول فيما لا يحسن، ويخوض فيما لا علم له به. قالت ذهابنا إلى هذه الربوة الجميلة الهادئة رهين بهذا الوعد. فلك أن تختار بين الجد الخالص الذي لا عبث فيه ولا دعابة، ولا لوم فيه ولا عتب، ومعه ربوتك الجميلة الهادئة وغرفتك البديعة التي تصلح للتفكير والحديث، وبينما تحب من العبث والخلط تذهب فيهما كل مذهب، وتندفع فيهما إلى غير الطريق، قال أوحرنا في الاختيار، فإني إذن أختار الثانية وأوثر أن نطوف بالعبث والخلط في شوارع هذه المدينة الصغيرة الهادئة، لا يضيق بنا مكان إلا تركناه إلى مكان آخر، ولا نستنفد فنا من فنون السخف إلا عدلنا عنه إلى فن آخر. فإني أصبحت أرى السخف أقوم ما في الحياة. قالت لقد أفسدتك باريس قال بل أفسدتيني أنت حين أكرهتيني على الذهاب إلى باريس، قالت فإني لا أدع لك حرية الاختيار وإنما أفرض عليك الربوة الجميلة الهادئة وحديثها البريء من العبث والتجني فرضا، قال لقد أطعتك حين نفيتني إلى باريس فأحرى أن أطيعك حين تذهبين بي إلى هذه الجنة الخضراء، وأكبر الظن أن طبيعة هذه الربوة الجميلة الهادئة ستكون أقوى منك ومني وستوجه عقلينا وقلبينا إلى حيث تريد هي لا إلى حيث تريدين، ولا إلى حيث أريد. قالت مادمت واثقا بالطبيعة إلى هذا الحد، مؤمنا لها إلى هذا الحد، فلنذهب إلى ربوتك ولنحكم

جمالها وهدوءها فيما ستفيض به قلوبنا من شعور، وفيما ستضطرب به عقولنا من تفكير، وفيما ستجري به ألسنتنا من حديث. وأنتصف النهار وإذا هما في هذا المكان الجميل الذي خلت فيه الطبيعة إلى نفسها فاتخذت زينتها حرة طليقة لا متكلفة ولا خاضعة لعبث الناس. وإذا هما ينظران ويسمعان ويتنسمان هذا النسيم الهادئ القوي وقد أزيلت الحجب بين نفسيهما وبين ما في هذه الربوة من جمال هادئ قوي خصب مختلف الألوان. ولو قد خلي بينهما وبين ما كان يغرقان فيه من هذا الصمت الحلو الذي كان يمزجهما بهذه الطبيعة الحلوة لظلا صامتين هادئين حتى تزعجهما ظلمة الليل، فتخرجهما عما كانا فيه من صمت وهدوء، ولكن الطبيعة نفسها أبت عليهما ما كانا فيه كأنها أحبت أن تسمعهما وكأنها أحبت أن تمتزج أصواتهما بأصواتها. فما هي إلا أن يحسا نبأه تخرجهما من نعيم الصمت والذهول إلى شقاء الحديث والتفكير. أحسا نبأه فريعا لها، وهما أن يتعرفا مصدرها فلم يصلا مما أرادا إلى شيء ولكنهما تساءلا، وسمع كل منهما صوت صاحبه فأغري به واشتدت رغبته فيه، وعادا إلى ما كانا فيه من حوار، قبل أن يبلغا هذا المكان الجميل.

قال، وإذاً فأنت تجدين من المشقة في قراءة القصص التمثيلي ما يرغبك عن هذه القراءة، وينفرك منها، ويحبب إليك قراءة هذا القصص اليسير الذي لا أخذ فيه ولا رد ولا جدال فيه ولا حوار. قالت نعم وان كرهت ذلك ورأيته آية من آيات الضعف ومظهرا من مظاهر القصور. قال وكيف يكون ضعفا ما تحبين، وكيف يكون قصورا ما تكلفين به من الأمر؟ قالت تنبه فإني أراك مقدما على إخلاف الوعد الذي سبق. قال فإني لم أعد بشيء على أني لا أدرى أين يكون هذا الإخلاف. لست عابثا، ولا متجنيا، إنما أقول ما أعتقد، وأصور ما أرى. وإني لأشعر بالنفور من قراءة التمثيل، وبالرغبة في الاكتفاء بهذا القصص اليسير. قالت فانك تكبر التمثيل إكبارا أراك تسرف فيه، فلست أجحد قدره ولا مكانه بين مظاهر التعبير الأدبي، ولكن التمثيل خلق للملاعب لا للمكاتب. وخلق لينفذ إلى النفس من طريق الإذن والعين، لا من طريق العين وحدها. وخلق لينفذ إلى النفس ممتزجا بأصوات المتحاورين وحركات اللاعبين، لا لينفذ إليها كلاما غير منطوق، وعملا لا يأتي به أحد من الناس. قال حجة قوية هذه لا أريد ولا أستطيع أن انقضها وليس من شك في أني أوثر أن أرى التمثيل في الملاعب على أن أخلو إليه في مكتبي، وأوثر أن أرى أشخاص القصة

يذهبون ويجيئون، وأسمعهم يجادلون ويحاورون، ولكن ماذا أصنع إذا حيل بيني وبين الاختلاف إلى الملاعب، لأن ظروف الحياة لا تريد ذلك أو لأني أعيش في بلد لا يزهر فيه التمثيل، ولا يكاد يزوره إلا لماما أو لأن آيات من القصص التمثيلي قد قطعت الطريق بينها وبين الملاعب. أأجهل هذا الفن من فنون الأدب جهلا، وأهمله اهمالا، وأنسى أنه موجود وان فيه للنفوس الراقية متاعا، وللعقول الراقية غذاء، وللقلوب الراقية لذة. قالت وقد أخذها شيء من الدهش كأنما رفع عنها حجاب فرأت نورا باهرا لم تكن تنتظر أن تراه. ماذا تقول! وأين ذهب بي الجدال! وإلى أي حد انتهى بي حب الخصومة. قال إلى حيث تأتين ما لم يستطع الدهر أن يأتي وتصدرين أحكاماً عجز النسيان وعجزت الأيام وعجزت المحن والخطوب، وعجز الجهل والجمود عن أن تصدرها، إلى حيث تمحين من سجل التاريخ الأدبي أعلام الأدب القديم والحديث، إلى حيث تعتبرين ايشيل، وسوفوكل، واوربيد، وارستوفان، وشكسبير.

قالت في شيء من الجزع لا تقل هذا، وكيف السبيل إلى قبر هؤلاء الأعلام ومحو هذه الأسماء، وإهمال لهذه الآيات وان أصحابها لأبقى من الدهر كله وأقوى من الناس كلهم، وأحق بالعناية ممن شئت وممن لم تشأ من أبطال العلم والأدب والفلسفة جميعا. ثم انحدرت من عينيها دمعتان وقالت بصوت رقيق تقطعه العبرة، كيف يمكن أن ينسى قول سوفوكيل على لسان انتيجون في حوار الملك: ولدت للحب لا للبغض.

قال مهلا، فأنا لم نأت إلى هذه الربوة الجميلة الهادئة، ولم ننزل ضيفا على هذه الطبيعة النضرة الباسمة لنسفح الدموع. ونثير في نفوسنا عواطف الحزن، وقد وعدتك أو قد وعدت نفسك بالا نعبث هنا ولا نلهو، ولكني لم أعدك، ولم تعدي نفسك بأن نبكي ونرسل الزفرات ونسفح العبرات. قالت والهدوء يثوب إليها وإشراق الابتسامة الهادئ الخفيف يذود عن وجهها ما غشيها من ظلمة الحزن، والبكاء، لولا شغفك بالجدال وكلفك بالحوار واحتيالك في خلق الخصومات التي لا تنتهي، ولما اضطررت إلى أن أتورط في هذا الكلام الذي لا يمكن أن يوصف ألا بأنه فن من فنون السخف أو لون من ألوان الجحود، قال لست جاحدة، ومعاذ الله أن تكوني جاحدة، ولكني قلت لك أني أصبحت أرى أن السخف أقوم ما في الحياة. قالت فكن سخيفا ما شئت. فأني لا أحب السخف. لا أحب ان أسمعه ولا أحب أن أخوض فيه، ولولا إننا هنا بعيدان عما احب من الكتب لفرضت عليك عقوبة. . . قال وهي أن اقرأ لك فصلا من فصول التمثيل، لأقيم لك الدليل على أن التمثيل يمكن أن يقرأ فيثير اللذة والإعجاب بعيدا عن الملعب، قالت ولمن تريد أن تقيم الدليل وقد عرفت أني أشاركك في الرأي، وإني لم اقل ما قلت ولم أذهب إلى ما ذهبت إليه، الا حين اضطررتني أنت إلى هذا الحوار الذي لا ينقطع، والذي لا خير فيه. قال ماكرا، ومن يدري لعلك إن حاورتك في الشعر أن تقولي انه لا يقرأ. وإنما يسمع من المنشدين. ولعلي إن حاورتك في الموسيقى أن تقولي أنها لا تقرأ، وإنما تسمع من الموقعين.

قالت ومن يدري لعلك أن حاورتني في أي شيء أن تسيء رأيي في كل شيء، وان تردني إلى حيث كان أسلافنا في العصور الأولى، لا يعرفون الترف العقلي ولا يبتغون

لذة العقل والشعور إلا من أقرب الطرق وايسر الوسائل. فقد كانوا يسمعون الشعر ويسمعون الموسيقى ويسمعون التمثيل، لأنهم لم يكونوا يقرؤون فأما الآن فقد نستطيع نحن أن نسمع فان فاتنا الاستماع فقد نستطيع أن نقرأ. وأني لأفكر في هذا فاعجز عن إحصاء نعمة الله على الناس حين ألهمهم الكتابة وعلمهم القراءة. فهذه النعمة هي التي حفظت لنا ما بقي في أيدينا من آيات البيان في العصور القديمة وأتاحت لنا ان نعجب بما كان يعجب به الناس من سحر الشعر والنثر، منذ القرون الطوال. وهذه النعمة هي التي تتيح لنا دائما أن نستبقي آيات التمثيل التي لم يبق بينها وبين الملعب من سبيل، لأن الأذواق قد أصابها من التغير والتبدل ما جعل تمثيل هذه الآيات أمر لا مطمع فيه، فلولا أنها قد حفظت لنا بالكتابة ولولا أننا نستطيع أن نحييها في نفوسنا بالقراءة. لماتت موتا لا نشور بعده وكيف ترى تمثيل ارستوفان، وأي قصصه يمكن أن يظهر في الملاعب الآن وأين الآذان التي تستطيع أن تسمع لحواره وما فيه من تجاوز الذوق الاجتماعي ومخالفة الأدب المألوف. ومع ذلك فكيف يستطيع مثقف أن يجهل تمثيل ارستوفان، إني لأكره كل ما يشذ عن الأدب الذي تواضع عليه الناس ولأرفض كل الرفض أن اقرأ على أحد، أو أسمع من أحد كثيرا من قصص ارستوفان، بل إني لأكره أن أقرأ هذه القصص كما كان القدماء يقرؤون بصوت عال تسمعه الإذن، ولكني على ذلك اعترف باني أطيل النظر في هذه القصص واقرأه المرة بعد المرة واقرأه كلما ضقت بالحياة أو ضاقت بي الحياة، اقرأه بالعين لا بالشفتين

واللسان. قال ومالك تقفين عند ارستوفان وإن في آيات سوفوكل وصاحبيه لما يعجز الملعب عن إخراجه للناس الآن، لأن فن التمثيل نفسه قد تغير وتبدل، ولكن أي حرمان يصيب المثقفين لو قضى عليهم أن لا يقرؤوا غناء الجوقة في شعر هؤلاء الأعلام. وشكسبير أيجب أن يحرم المصريون مثلا لذة الاستمتاع بآياته لأنها لا تمثل في بلادهم، بل أيحرم الإنجليز أنفسهم لذة الاستمتاع بآياته لأنها لا تمثل عندهم إلا بمقدار. قالت بل نستطيع ان نذهب إلى أبعد من هذا فقد نستطيع أن نؤمن بأن القصص التمثيلي فن من فنون التعبير الأدبي يمكن أن يقصد إليه من حيث هو، وان يكتب الكاتب قصة تمثيلية لتقرأ لا لتمثل، قال فأنك لا تذهبين إلى شيء مستحدث وهل كانت كتب أفلاطون كلها الا فنا من فنون التمثيل كتبت لتقرأ لا ليلعبها الممثلون أمام النظارة، قالت بل أنا أجد القراءة تمنحني قوة لا أجدها حين اختلف إلى الملاعب فأنا اخلق الممثلين وأصورهم لنفسي وهم يذهبون ويجيئون ويجادلون، وأخلع عليهم من الصور الفنية ما يعجبني ويلائم طبيعتي، ومزاجي، وفهمي كما اقرأ. قال ولست أخفي عليك إني اكره أن أرى قصة تمثيلية قبل ان اقرأها، ولعلى اقرأ القصة التمثيلية فاعجب بها اعجابا، وافتن بها فتونا. ثم اشهدها في الملعب فيدركني شيء كثير من خيبة الأمل لأن الممثلين لم يؤدوها كما كنت أريد أن تؤدى، أو كما كنت أنتظر أن تؤدى. قالت وكذلك آيات الجمال الفني كلها ترتفع في النفوس حتى تبلغ المثل الأعلى أو تدنو منه فإذا اشتملتها الحياة الواقعة وأخرجها الإنسان إلى الوجود الفعلي نزلت عن مرتبتها لأن طبيعة الجمال الفني كلها ترتفع في النفوس حتى تبلغ المثل الأعلى أو تدنو منه فإذا اشتملتها الحياة الواقعة وأخرجها الإنسان إلى الوجود الفعلي نزلت عن مرتبتها لأن طبيعة الجمال الفني فيما يظهر لا تحب الحدود التي يفرضها الزمان والمكان.

قال في رفق مهلا فقد يخيل إلي إنا نصعد في السماء، ولو مضينا في هذا الحوار لبلغنا هذا السحاب الذي يوشك أن يفسد جمال هذه الطبيعة النضرة الباسمة. قالت ليس إلى إرضائك اليوم من سبيل، لقد كنت تراني منذ حين مقصرة مسرفة في التقصير، وأنت تراني الآن محلقة مسرفة في التحليق. قال أنا معجب بك على كل حال، ولكن ارفقي بي فقد أعجز عن أن أرتقي معك في الجو إلى حيث تريدين، عيشي مع أصدقائك من سكان النجوم إذا خلوت

إلى نفسك فإذا لقيتني، فاذكري قول باسكال واعلمي إني مهما أقوى فلن أستطيع إلا أن أكون إنسان يمشى على الأرض وينظر إلى السماء. قالت ما أبرعك في إفساد الحديث ها أنت ذا تعود بنا إلى عبثك الذي لا ينقضي، الست ترى أن خيراً منه أن ننظر فيما حولنا وان تتحدث نفوسنا إلى نفس هذه الربوة التي لقيتنا فأحسنت لقاءنا.

وهيأت لنا ضيافة لم نكن نقدر أن نلقاها. قال لا أرى بذلك بأسا ولاسيما في يوم وداع فمن يدري لعلنا لا نلقاها بعد اليوم. قالت وما يمنعنا أن نعود إليها غدا وبعد غد فان الإجازات تمد، ورسالة برقية تستطيع أن تذهب إلى القاهرة مساء اليوم فتكفل لك الإذن بالبقاء هنا إلى آخر الصيف. قال وقد استأثرت بنفسه غبطة لا حد لها أو تأذنين؟

شاعر

للأستاذ احمد أمين

شاعرنا اليوم نشأ جاهليا، ونشأ في الطائف. والطائف مدينة في الجنوب الشرقي من مكة تبعد عنها خمسة وسبعين ميلا، اشتهرت بطيب هوائها وجودة مزارعها. وقد اعتاد المترفون من العرب أن يقضوا الربيع بجدة، والصيف بالطائف، والشتاء بمكة. قال النميري يصف أخت الحجاج بالنعمة:

تشتو بمكة نِعمَةً ... ومصيفها بالطائف

أخصبت أرضها، وجرى الماء في وديانها، فكثرت مزارعها، وجادت فواكهها، من نخيل وأعناب، بها جبل يقال له (غزوان) كثرت كرومه، وكان عنبه العذب وزبيبه الحلو مضرب المثل جودة وكثرة، حتى ليروون أن سليمان بن عبد الملك لما حج رأى بيادر الزبيب فظنها حِرَاراً فقالوا ليست حراراً ولكنها بيادر الزبيب. وقد حسدهم العرب على ما هم فيه من نعمة، فسوَّروا بلدتهم وحصنوها من أعدائهم، فصارت ملجأ الهارب وملاذ الخائف، وضرب المثل بمناعتها حتى قال القائل:

منعنا أرضنا من كل حي ... كما امتنعت بطائفها ثقيف

كان يسكن الطائف قبيلة ثقيف، وقد أكسبتهم أرضهم وثروتهم وطبيعة بلادهم وجوهم رقيا في الحياة من الناحية الاجتماعية والعقلية، فاقوا فيهما من حولهم من السكان، وشعروا بعظمتهم فأكثروا من الفخر بأنفسهم، وقال قائلهم:

وقد علمت قبائل جدم قَيسٍ ... وليس ذوو الجهالة كالعليم

بأنّا نُصبح الأعداء قِدْماً ... سِجالَ الموت بالكأس الوخيم

وأنّا نبتني شرف المعالي ... ونُنعشُ عثرة المولى العديم

وإنّا لم نزل لجأ وكهفا ... كذاك الكهل منا والفطيم

وقد أنجبت ثقيف شعراء مجيدين في الجاهلية والإسلام، كما أنجبت ساسة وقادة نبه ذكرهم، وعظم أمرهم، فاشتهر منها من شعراء الجاهلية الشاعر المتدين أمية بن أبي الصلت، وفي العصر الأموي الشاعر الشريف طُرَيح الثقفي، والشاعر الحكيم الأجرد الثقفي. وأشتهر من أمرائها وساستها وقادتها الأمير القوي الحجاج بن يوسف الثقفي، والقائد الشاب محمد ابن

القاسم الثقفي فاتح السند ولما يكتمل العشرين، والذي قال فيه القائل:

ساس الجيوش لسبع عشرة حجة ... يا قرب ذلك سؤددا من مولد

كما أن ثروتهم وحضارتهم استتبعت شهرتهم بالفجور والربا حتى أن رسول الله لما صالحهم كان من شروط الصلح أن يسلموا وألا يزنوا ولا يَرْبوا. كذلك كانت كثرة العنب والزبيب في بلادهم سببا في شيوع الخمر بينهم وولوع أهلها بشربها. وقد كانت الخمر شائعة بين العرب في الجاهلية، ولكن بين خاصتهم لا بين عامتهم، إذ أن عامتهم قد عدموا القوت وحرموا ضرورات العيش أما المترفون فشربوا كثيرا وقالوا في شربها كثيرا. وقل أن نجد شاعرا جاهليا لم يتمدح بشربها وإتلاف ماله في سبيلها. وكانت الخمر تأتيهم من الشام ومن اليمن ومن الطائف، وكان الأعشى الشاعر يتجر فيها، وكان له بقرية في اليمن يقال لها (أثافت) مِعْصَرة للخمر يعصر فيها ما يقدم له من أعناب. ونلاحظ من تاريخ العرب في الجاهلية وتراجم رجالها أن هناك طبقة من الشباب اعتادت أن تتلف مالها في الشراب، هم فئة من أولاد السراة نشأوا في ثروة وجاه، وألَّفت بينهم وحدة النزعة، يجتمعون في المواسم والأعياد والمناسبات فينحرون الجزوز ويهيأ لهم، ويشربون عليه وتغنيهم القيان أو الموالي من الفرس والروم والأحباش، ولكن هذه الطبقة لم تفقد مع شربها ولهوها شرفها وإبائها، فهي مع ذلك كله نبيلة كل النبل شريفة كل الشرف ثارت على كل شيء إلا قانون المروءة، وقانون المروءة يتلخص في الشجاعة والكرم. لا يعبئون بالحياة، يبذلونها في سخاء للإنجاد من أستنجد بهم، ونصرة الضعيف يستصرخهم ويلجأ إليهم، لا قيمة لحياتهم إذا مست كرامتهم أو كرامة قبيلتهم أو اعتدى أحد على جارهم أو حليفهم أو عبدهم، ولا قيمة

للمال يوم يسألهم سائل أو يدعوهم لبذله داع، ولا بأس بالفقر يحل بهم وينزل بساحتهم، ولا ضرر إذا خسروا المال وكسبوا الشرف، وويل لزوجاتهم إذا لمنهم في الاستهتار بالحياة أو أتلاف المال، إذ ذاك يصبون عليهن نقمتهم ويملؤن الدنيا شعرا في لومهن وتأنيبهن. شاعرنا اليوم كان من هذه الطبقة، فتى غني، من ثقيف، من الطائف، شجاع، كريم، يكثر الشراب، ويتلف المال، ويحتفظ بالمروءة ويقول:

لا تسأل الناسَ عن مالي وكثرته ... وسائل الناس عن حَزمي وعن خلقي
القوم أعلم أني من سَرَاتِهم ... إذا تطيش يد الرِّعديدَةِ الفرِق
قد اركبُ الهولَ مسدولاً عساكره ... وأكتم السِّرَّ فيه ضربَة العنق
عف المطالب عما لست نائله ... وأن ظُلمت شديد الحقِد والحنق
وقد أجود وما مالي بذي فنع ... وقد أكرُّ وراء المجحَرِ الفَرِقِ
سيكثر المالُ يوماً بعد قلته ... ويكتسي العود بعد اليبس بالورقَ

ظلت ثقيف على جاهليتها لا تذعن لدعوة الإسلام حتى أسلم من حولها ورأت نفسها بمعزل، فاضطرت إلى الإسلام في السنة التاسعة للهجرة، وسمع شاعرنا بالإسلام وتعاليمه فوقف حائرا، إن الإسلام يدعوا إلى المروءة وهو ذو مروءة، إن الإسلام يدعو إلى الصدق ومكارم الأخلاق وكل هذا حسن (فليسلم) ولكنه يأمر المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم، ولا يمدوا أعينهم إلى غير نسائهم، كما ينهي عن الخمر ويعاقب على شربها، فكيف يسلم وقد ألف الغزل ولا حياة له بغير الخمر؟ وقف قليلا ولكنه أسلم مع قومه وفوَّض إلى الله أمره ولم نسمع عنه في حياة رسول الله وأبي بكر شيئا ولكنا نراه اصطدم مع عمر وهو الشديد في الحق لا تأخذه فيه هوادة، فعاد شاعرنا يتغزل ويشرب. يرى امرأة من الأنصار تسمى (الشَّمُوس) فيحبها ويحاول رؤيتها بكل حيلة فلا يستطيع، فيؤجر نفسه ويعمل في حائط يبنى بجانب منزلها ويطل عليها من كوة البستان ويقول:

ولقد نظرت إلى الشَّمُوس ودونها ... حَرَجُ من الرحمن غير قليل

ويشرب ويقول الشعر في الخمر:

إن كانت الخمر قد عزت وقد منعت ... وحال من دونها الإسلام والحرج
فقد أباكرها صِرفاً وأمزجها ... ريَّا وأطرب أحيانا وأمتزج

فيحده عمر حد الشرب، فيفكر شاعرنا ويطيل التفكير: هل يترك الغزل والخمر؟ لقد كان ذلك قبل الحد أما بعده فلا. إن من العار أن يتحدث الناس أني تركت الخمر خوفا من العقوبة وأنا الأبي الشجاع الذي لا يعبأ بالحياة إذن فلأشرب وليحدني عمر. وفعلا شرب فحده، وشرب فحد، وبلغ ذلك سبع مرات أو ثمانيا، وهو لا يزال على رأيه، مصمم على تفكيره، ماض في غزله وشربه، حتى يئس عمر من علاجه وضاق به ذرعا، فقرر أن ينفيه في جزيرة كانت تنفي فيها العرب في الجاهلية خلعائها، وبعث معه حَرَسيّا يحافظ عليه حتى لا يهرب، وأوصاه ألا يأخذ سجينه سيفا معه، وقد عرف عمر كيف ينتقم، فلم

يألم شاعرنا من شيء ألمه من هذا الرأي. سيكون في جزيرة وحده لا غزل ولا شراب، ولكن ليس هذا ما آلم نفسه وأدمى قلبه، إنما آلمه أن يعيش عيشة الضعفاء المساكين والرجال في غزوات الحرب يقتُلون ويُقتلون وأن يعيش عيشة النساء في خدورهن وهو الفارس الكمي، لا، لا، الموت أهون من هذا. تظاهر شاعرنا بأنه يحمل غرارتين ملئتا دقيقا وعمد إلى سيفه فجعل نصله في غرارة، وجفنه في غرارة، ودفنهما في الدقيق حتى إذا جاوز هو والحرسي المدينة ولقيا من سفرهما هذا نصبا جلسا للغداء، فقام شاعرنا يوهم أنه يخرج دقيقاً فأخرج سيفه ووثب على الحرسي فخرج يعدو على بعيره راجعا إلى المدينة وظل صاحبنا وحده. الآن لا أعود إلى المدينة ووفيها عمر، ولا أطوف في البلاد ألهو فلست بعد اليوم لاهيا، ولكن إلى حيث يحيا الرجال والفرسان حياة النجدة والشهامة إلى مواقع الغزوات، إلى أشدها هولا، وأصعبها مراساً، إلى (القادسية) حيث المواقع الفاصلة بين سيادة العرب وسيادة الفرس. ولكن عمر الساهر على كل شيء في مملكته، لم يخف عليه أمر شاعرنا، فعرف أين توجه، فما، وصل إلى القادسية حتى سبقه كتاب عمر يأمر سعد بن أبي وقاص بحبسه، ففعل ذلك وحبسه في قصره وقيده، فمشى يرسف في قيوده ويستعطف سعدا أن يطلقه فزجره، فذهب إلى سلمى زوج سعد وقال لها: هل لك

إلى خير؟ قالت: وما ذاك؟ قال: تخلين عني وتعيرينني البلقاء (فرس سعد) فلله على إن سلمني الله أن أرجع إليك حتى تضعي رجلي في قيدي، فأبت فقام ثائرا حزينا، يرى القتال على الباب وهو يرسف في القيد، وانطلق لسانه بهذه الأبيات:

كفى حَزَنا أن تطعَنَ الخيل بالقَنَا ... وأترَكَ مشدوداً على وِثاقيا
إذا قمت عَنَّاني الحديد وغلّقت ... مغاليق من دوني تصِمُّ المناديا
وقد كنت ذا أهل كثير وإخوة ... فقد تركوني واحدا لا أخا ليا
هلم سلاحي لا أبالك أنني ... أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا
ولله عهد لا أخيس بعهده ... لئن فَرَجَت ألا أزور الحوانيا

سمعت سلمى هذا الشعر فرثت له ورأت الصدق في قوله فأطلقته، وأقتاد فرس سعد وخرج إلى مواطن القتال وإذا به أمام الناس يقف بين الصفين ويحمل على العدو حملات منكرة حتى عجب الناس من قتاله وأمره، ورأوا الفرس فرس سعد الطاعن لم يشهد الحرب معهم

قبل اليوم، حتى إذا انتصف الليل وتحاجز العسكران رجع صاحبنا إلى القصر وأعاد رجليه في القيد! فلما أصبح الصبح تحدث الناس به وأخبرت سلمى سعدا بما كان منه فأطلقه وعاهده ألا يحده أبدا إذا شرب. الآن ظهرت نفس شاعرنا في شرفها ونبلها وقال لسعد كنت آنف أن أتركها من أجل الحد، فأما إذ بهرجتني فلا والله لا أشربها أبدا. لقد كان مما أخذه عمر عليه قوله:

إذا مت فادفني إلى أصل كرمة ... تروِّي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفنني بالفلاة فإنني ... أخاف إذا ما مت ألا أذوقها

ويشاء قاص من الظرفاء فيروي أنه رأى قبره بنواحي أذربيجان أو جرجان وقد نبتت عليه ثلاث كروم قد طالت وأثمرت واعترشت، وعلى قبره مكتوب:

(هذا قبر أبي محجن الثقفي) أفاض الله عليه سجال رحمته فقد كان رجلاً وكان نبيلا.

أحمد أمين

عيد الوطن الاقتصادي

رأي ونصيحة للدكتور منصور فهمي

وجه أحد شباب المشروع إلى عميد كلية الآداب هذين السؤالين: 1 - ما رأيكم في عيد الوطن الاقتصادي كمظهر من مظاهر الشباب؟ 2 - هل لكم من نصيحة توجهونها إلى الشباب القائم بالمشروع؟ فأجاب الأستاذ عنهما بما يأتي: 1 - لاشك أني أقابل بالعطف والتشجيع كل جهد مخلص في سبيل النهضات الاقتصادية والدعاية اللائقة لها، لأننا نعتقد أن في تلك الجهود ما يعين على خدمة الأخلاق، وذلك أن كل مشروع يوسع مجال العمل قد يضيق حظائر البطالة وما يتسبب عنها من المفاسد والشرور، وطالما بين لنا التاريخ أثر الحياة الاقتصادية في نهضات الشعوب العقلية، وفي نظامها الخلقي، فالإنسان لا يطيب له التأمل والتفكير إلا إذا كان رزقه في يسر وسعة، ومن تضيق به موارد العيش قد يركب صعاب الأمور ويهون عليه إذا لم يكن من الذين تحصنت نفوسهم بالشدة في الخلق، أن يفرط في ما تدعو إليه الأخلاق الفاضلة، وإني إذن اعتمد على ما قدمت لأبارك للشباب جهده في الدعوة إلى خدمة الحياة الاقتصادية بشتى المظاهر الجديدة لشباب مثقف نشط في قدرته أن يحسن الاختيار لأساليب الدعاية البريئة الهادئة. 2_أما أول نصيحة أوجهها للشبان القائمين بالمشروع فهي ألا تأخذهم نشوة الحماسة إلى دعوة محمودة فيعتمدون كل الاعتماد على رأيهم ولوامع خيالاتهم دون ان يرجعوا لآراء المجربين الخبيرين ممن اشتغلوا بالأمور الاقتصادية، لأن مسائل الحياة الاقتصادية في الأمم متشعبة كثيرة الاتصال بشتى المسائل العمرانية، وقد لا يصيبها النجاح المرجو إذا هي لم تعالج في فطنة ودقة، وخبرة وكياسة، ومن أجل هذا أوصيهم بكل شدة أن يقتحموا هذه الأبواب ومعهم زادهم من نصائح كبار الاقتصاديين من مواطنيهم، وتوجيهاتهم لكي تغذي تلك الإرشادات نشاطهم، فيسير إلى حيث يثمر الثمرات الطيبة. وأما نصيحتي الثانية فهي أن تقوموا بعملكم المشروع بنفس زكية لا يداخلها عداء لأعمال غيركم، إنما يداخلها الإيمان بمشروعية عملكم وقيمته وطهارة سبله ونزاهة الوسائل التي تحققه. ويجب ألا ينسيكم العمل المبرور أعمالكم الدراسية لأنها الواجب الأول المباشر في المرحلة التي أنتم فيها، فإذا كان

لديكم فضل من الوقت تروضون فيه أنفسكم على الأعمال الاجتماعية عن طيب خاطر وعن إخلاص وعلى
نحو ما نصحت لكم فإني آمل أن يوفق الله مسعاكم.

بطالة المتعلمين ورأينا في علاجها

للدكتور محمد حسين هيكل بك

لاشيء يعني به شباب مصر في هذه السنين عنايته بالشئون الاقتصادية. وما يزال مشروع القرش ماثلا في أذهان الناس، وما يزال شبان القرش مستعدين للهجوم إذا آن موعده في أول كل عام جديد. وها نحن نكتب هذه الكلمة لعيد الوطن الاقتصادي وأنت حيثما ذهبت لم تكد تسمع شيئا إلا في الاقتصاد والمشروعات الاقتصادية وما إليها، فما عسى يكون السبب في هذا؟ السبب فيما يخيل إلينا هو هذا الذي يسمونه عطلة المتعلمين، فالمدارس فيما يزعمون تخرج عددا أكبر بكثير مما تحتاج إليه وظائف الدولة، ومما تحتاج إليه الأعمال الحرة المعروفة إلى اليوم، فلابد من خلق أعمال حرة جديدة ليقتحم هذا الشباب المتعلم ميادينها ولتبرأ البلاد بذلك من مرض العطلة. وقد يكون هذا صحيحا ولكن هل ينجح مثل هذا العلاج فيوجد عملا لمن تخرجهم المدارس العليا والكليات والمدارس الفنية والخصوصية في كل عام ممن لا يجدون عملا في الحكومة أو في الوظائف الحرة المعروفة؟ وهل ينجح في إيجاد عمل للألوف الذين يحصلون على شهادة الدراسة الثانوية ولا يستطيعون إتمام دراساتهم العالية والفنية؟ نشك في هذا كثيرا. وعلة الشك أن هؤلاء المتعلمين يريدون عملا من طراز معين. يريدون عملا على مكتب من المكاتب ويأنفون العمل اليدوي. وهذا عمل على مكتب لا يتيسر للألوف وعشرات الألوف ممن يتخرجون، فلا طاقة لمشروعات الشباب بمواجهة رغباتهم وبإيجاد أسباب الكسب لهم. وعلاج هذه الحال في رأينا إنما يكون بفتح أبواب التعليم على مصاريعها جميعاً، للناس جميعا وجعل التعليم في متناول الكل، ينهل منه من شاء في حدود طاقته، يوم يصبح الكل متعلمين، ولا تكون طائفة المتعلمين محصورة لا يأنف الإنسان أن يباشر عملا يدوياً أو غير يدوي، ويومئذ يصبح كل عمل شريفاً، ويومئذ يمسك المتعلم بالفأس والمحراث، ولا يرى في ذلك ما يحط من شأنه، ويشتغل المتعلم في الصناعات المختلفة، في صناعة الجلود والأحذية، في النجارة والحدادة، في فلاحة البساتين، في التجارة بمختلف أنواعها، ولا يكون واحد من هذه الأعمال أقل رفعة ومكانة وتشريفا لصاحبه من العمل على مكتب، ولا من منصب الوزارة أو أي منصب حكومي آخر. هذا في رأينا هو الحل العملي المنتج، فعلة بطالة المتعلمين وعطلهم: أنهم يرون أنفسهم طائفة خاصة ممتازة، يجب أن يكون لها عمل خاص ممتاز، فإذا لم يجد أفرادها هذا العمل فضلوا البطالة ولو تكففوا الناس بعد ذلك، فإذا زالت عنهم صفة الطائفة، بأن أصبح الناس جميعا متعلمين وجب على هؤلاء المتعلمين أن يزاولوا كل الأعمال فأصبح بذلك كل عمل شريفا كما قدمنا، وانفسح الميدان لكل من يريد أن يقتحمه. لا يقلل هذا من تقديرنا لمجهود الشبان في الوقت الحاضر. ولكنا نعتقده غير قادر على علاج المشكلة التي دفعت إلى هذا النشاط إلا بمقدار، وبهذا المقدار يستحق الشباب الحمد والشكر.

نداء لسكرتيرة المتطوعات

أخواتي: أقسم الشباب أن يمضي جهاده بعزيمة قوية وهمة فتية يريد لمصر هناءً موفوراً، ورخاء سخياً، ويسراً عريضاً، فهلا ساهمت معهم بوطنيتك وأيدتهم بإخلاصك ووفائك؟ إن الشروع لا يطلب إليك أكثر من أن تؤمني بعقيدة الجهاد في سبيل مصر: ترتدين الرداء المصري الصميم، وتدعين للصانع والتاجر المصري في الوسط الذي تعيشين في أفقه، وتوزعين الدليل الوطني أيام العيد: وتحفين بالموكب في مهرجان مصر، التي نعيش من أجلها، ونجاهد في سبيلها. ولقد حرصت لجنة المتطوعات على أن تعمل بعيدة عن الأفق الذي يجاهد في حدوده إخواننا الشبان، رعاية لتقاليد البلاد، وصونا لسمعة المجاهدات وحرصا على صفاء الجو الذي نناضل في أفقه. . فهيا إلى العمل وليكن شعارنا الذي نفاخر به: (مصر للمصريين)

سعاد حسن

بل مصر مصرية . . .!

بقلم الآنسة مي

هذه الكلمة أقرأها لكم كاتبين، أيها الشبان، وأسمعها منكم .(مصر للمصريين) محدثين. وإنها لكلمة جميلة خصيبة عادلة، لكن ما هو أجمل منها وأخصب وأعدل هو الغرض الذي ترمون إليه في حركتكم الوطنية الاقتصادية: جعل مصر مصرية! المعلوم عن مصر أنها بحكم موقعها الجغرافي بلد دولي حتما. فهي بمقتضى ذلك تفتح بابها لكل شعب، وترحب بكل حضارة، وتستسيغ كل صناعة، وكل ثقافة تجد في مغناها ضيافةً وانتشاراً. ولما كان لكل مقام مقال، فان مصر لم تعدم من ينعى عليها موقفها ذاك. والشعراء، الشعراء البررة القساة، كم استوحوا هذا الموضوع فنمَّقوا المراثي يعرضون فيها جيوش المصائب والمحن الضاربة في هذا البلد الأمين، ويشهدون العالمين (باللغة الفصحى!) على ما معناه أن: (مصر بنت طيبة، ولكنها مظلومة قضاء وقدراً)!. . . ولكم بكى الباكون من جراء وقع هذه البلاغات الشعريات (. . . جمع بلاغة شعرية!) وإن لم يبكوا بدموع تُمسح بالمناديل فلا أقل من زفرات ملتهبة تتسرَّب من القلوب المحروبة حيث الشفاه تردد قول الشاعر: (مصر بنت طيبة، ولكنها مظلومة قضاء وقدراً!). . .

فتيان مصر، فتيان الحياة الجديدة في مصر! بحركة واحدة قمتم انتم قومة رجل واحد. قمتم لأنكم بحميتكم الأبية، وبشبابكم الحار، وبوفائكم البصير، أدركتم أن سلاسل القضاء والقدر كثيرا ما يحبكها المرء لنفسه، وأن البلاد كثيرا ما يهمل أبناؤها أمرها فيكونون لها ظالمين! أمصر ميدان لشتى الصناعات والثقافات والحضارات؟ إذن لتستفيدوا من كل أولئك. وما كان في نظر المتشائمين موضوع رثاء وحسرة ينقلب بين أيديكم موضوع جذل وأريحية وميدان خير عميم! تأخذون من كل قوم ما عندهم من ابتكار ونظام وتدبير، فتطبقونه على قومكم بمقدار ما يتناسب وحاجاتكم. وما انتم بذلك إلا مماشون سنن التاريخ.

فما من صناعة أو ثقافة أو حضارة إلا اقتبست شيئا مما سبقها أو استلهمت شيئا مما يحيط بها. ما هو الفرق بين مصر وبين غيرها من البلدان القوية؟ أول فرق ظاهر أن البلدان القوية تستهلك ما تنتج، وتدفق على غيرها من الأقطار ما يفيض عن حاجتها، في حين أن مصر تنتج قليلا وتستهلك كثيرا مما يقدمه لها المنتجون. وهذا هو النقص الذي قمتم تعالجون! أو تذكرون قول الاسكندر قبل أن يقدم على فتح الأمصار القريبة والبعيدة؟ قال: (أريد أن أرث عن أبي فيليب بلدا صغيرا فقيرا مرتبكا ليكون لي الفخر بان أجعله بلدا فسيحا غنيا تضرب الأمثال بقوانينه وأنظمته وعظمته) أنتم ورثتم عن آبائكم بلدا عظيما غنيا ما زال في حاجة إلى تنظيم في بعض نواحيه. ولتكونوا فخورين بهذا الوطن وخصائصه، ولتكونوا فخورين بحاجته اليكم، وبما لا يروقكم فيه. ولتكونوا فخورين لأنكم وجدتم في هذا العهد الذي تستطيعون أن تقوموا فيه بالخدم اللاَّحَّة! كذلك تسبرون غور مقدرتكم، ومبلغ تأثيركم، وتعرفون مقدار قيمتكم الأدبية أفرادا وجماعة!

عيدكم عيد الوطن، وعيد نشاط الوطن. صيحوا بأصواتكم الفتية بوجوب توزيع إنتاجه من كل نوع وكل صنف وكل فصيلة، اهتفوا في قومكم أن اجعلوا أثوابكم مصرية، وأثاثات منازلكم مصرية، وزينات حياتكم مصرية، لتهيئوا وسائل العمل والرفاهة لملايين الأيدي المصرية. ردِّدوا أن خذوا عن الآخرين، واقتبسوا، وحصّلوا، على أن تمصِّروا كل ما تحصلون وتقتبسون وتأخذون، فينقلب كل منكم اسكندراً خلاّقاً في بابه!

فتيان مصر، فتيان الوادي الأخضر! عيدكم رأس سنة جديدة، بل هو مطلع عهدٍ جديد! هو مطلع العهد الذي تسعون فيه إلى تمصير حاجاتكم. فلا يكفي أن تكون مصر للمصريين، بل يجب أن تكون مصر مصرية!

ولكم الفضل، بلفت البلاد إلى هذا الشأن الخطير. إن لتربة بلادكم هذه خاصَّة سحرية في تحويل كل غريب عنها إلى جزء منها. فكم ذا تصبح هذه الخاصة فعالة إذا ما أنتم عالجتموها بما نراه منكم من ذكاء وإدراك وهمة وحماسة وحيوية! عيشوا تحقيقاً للرجاء الذي يجعل واديكم دائم الخضرة، ويجعل عَلَمَكم دائم الخضرة! ولتعش مصر مصرية!

كيف نحافظ على وجودنا الاقتصادي؟

للأستاذ محمد فريد وجدي

الثروة للأمم (والثروة الاجتماعية تطلق على النقود المسكوكة وكل ما تثمره الأرض وتنتجه اليد العاملة) كالدم الذي يجري في الجسم الحي. ويوزع على كل عضو بل وكل خلية فيه ما يقيم حياتها ويجعلها صالحة لأداء وظيفتها. والطرق التي تجول فيها هذه الثروة لإعطاء كل فرد نصيبه منها تشبه بالشرايين والأوردة من الجسم الحي. وإذا كان لا حياة لجسم بدون دم، فكذلك لا حياة لأمة بدون ثروة. وإذا كانت صحة ذلك الجسم تتطلب دما كافيا حاصلا على جميع مقوماته البيولوجية. فكذلك الثروة الاجتماعية يجب أن تكون كافية لحاجات المجتمع وحاصلة على العناصر التي تتطلبها حياة الاجتماع. وإذا كانت تستتبع قلة مقدار الدم في الجسم الحي وفساد تركيبه أدواء عضالة من الأنيميا والخلوروز وما يجران إليه من العلل المترتبة عليهما، فكذلك عدم كفاية الثروة الاجتماعية تولد لهيئة المجتمع أدواء من الضعف العام ومن الاضطراب في وظائفه يصبح المجتمع معها عرضة لكل ضروب المتالف فيجمد حيث هو، أو يختل توازنه، أو يعتل وجوده، ويصبح لا يغني عن نفسه شيئا. لهذا السبب قام إزاء أطباء الأجسام في كل أدوار الأمم أطباء للاجتماع تولوا تدبير الثروة العامة بضروب شتى من الوسائل. وأطباء الاجتماع اليوم اكثر تبعات مما كانوا عليه في سالف العصور بسبب تعقد المبادلات بين الأمم، ومزاحمة الأسواق بعضها لبعض، وتشابك الصلات المالية بعضها ببعض، أصبح علم الاقتصاد من أوسع العلوم اختصاصا واشدها تركبا. وها نحن أولاء نسمع جؤار الشعوب تحت كلاكل هذه الأزمة العالمية، ونشهد جهاد الاقتصاديين في علاجها بما لم يتفق مثله للبشر في أي عهد من عهودهم، فإذا كنا لا نعتبر بكل هذا فنتوفر على درس هذه الحالة فيما يختص بنا توفرا يناسب أحوالنا الحاضرة فإننا نجني على أنفسنا جناية نحاسب عليها حسابا عسيرا، ونذوق وبال امرنا منها جزاء موفورا.

وأول ما يجب أن ندرسه من مسائلنا الخاصة هو أن نعرف هل ثروتنا العامة التي تثمرها أرضنا وأيدي عمالنا تكفينا الحاجة أم لا؟ وهل هذه الثروة تتوزع على جميع أفرادنا أم لا؟ وهل يتسرب منها شيء إلى الخارج، كان يجب أن يبقى لدينا أم لا؟ هذه المسائل الثلاث يجب أن تشغل كل فرد من أفراد مجتمعنا على السواء، ولا يجوز أن تقتصر على الذين يشعرون بالحاجة المعيشية فقط، لأن الضعف والاعتلال اللذين يحيقان بمجتمعنا لا ينحصران في الطبقات المحرومة من الثروة ولكنهما يعمان الكافة، فيكون نصيب أصحاب الأموال أشد مما ينال صغار الناس منهما. أما ترى اليوم ماذا أصاب أصحاب رؤوس الأموال الطائلة من البؤس والإقلال بسبب الأزمة الحاضرة، حتى أن صاحب مئات الفدادين أصبح لا يجد ما يقوت به نفسه. وتعرضت أملاكه للبيوع الجبرية؟ ومنهم من تجرد من جميع ما كان عنده فأصبح معوزا لا يملك شروى نقير ولا يصلح لأي عمل! وما ظنك لو اشتدت وطأة هذه الأزمة أو امتد عهدها سنتين أخريين أو ثلاث سنين اخرى؟ دع مصر جانبا وانظر إلى أعلى الأمم كعبا في الثروة والمدنية، ألم تجد الأحوال فيها شرا مما نحن عليه. ألم توصد عشرات من المصارف أبوابها. ألم تسد منافذ الارتزاق في وجوه الملايين من أبنائها؟ ألم ينضب معين الثروة في خزائن حكوماتها فاضطرت لضرب الضرائب الفادحة على مموليها؟ ألم يتناول الضغط على نفقاتها مرتبات موظفيها فأسقطت نحو الثلث من مرتباتهم ولا تزال تهددهم بتخفيضات جديدة؟ هذه كلها عبر يجب أن نتأمل فيها، وأن نعمل على تلافيها. وإذا كان الأمر من الخطورة عند هذا الحد أفلا يكون أوجب الواجبات أن نحاول ألا يتسرب قرش واحد إلى خارج بلادنا إلا إذا كان في حاجة ماسة، ولضرورة قصوى؟ وهذا ما تفعله كل أمة وتتشدد فيه اليوم شعورا منها بان دولاب الأعمال مادام معطلا وحركة المبادلات بطيئة، وجب ان ينحصر مال الأمة في بلادها حتى لا ينضب معينه فيها فتصاب بأشد ضروب الإعسار ولا كرامة. وما دمنا قد شبهنا ثروة الأمة في مجموعها بدم الحياة للفرد الواحد، فقد ساغ لنا ان نشبه خروج تلك الثروة من بلادها دون أن تستعيض عنها من طريق المبادلات ما يعادلها، بداء النزيف الدموي. فالأمة التي لا تبالي في مثل هذه الأحوال بتسرب ثروتها إلى خارج ديارها، يكون مثلها كمثل فرد أصيب بالنزيف وحكم عليه فوق هذا ألا يستعيض عما يفقده بتناول المواد المعوضة. ولست أستطيع بعد هذا أن احدد تبعة من يتجرأ على تبديد ثروة البلاد خارجها بالتعويل

على الواردات الأجنبية التي يجد في بلاده ما يقوم بحاجته منها، قد يكون ما يجده منها في بلاده اقل جودة، أولا يفي بمرامه من كل وجه، فهل يجوز أن يحمله ذلك على الانصراف عنه محولا جزءا من ثروة الأمة إلى ثروة أمة أخرى، في وقت هي أحوج ما تكون إلى المعونة والمساعدة، وهل يرضى لنفسه أن يكون فتقا في شرايينها ينزف منه مقدار من دمها هي أحوج ما تكون إليه في ضعفها وقلة حيويتها؟

يخيل إلى أن وطنيا لا يرضى لنفسه أن يكون سببا في هذا الشر المستطير لو وقف على جلية هذا الأمر وأدرك خطورته على أمته وعلى نفسه أيضا. فليحرص كل منا على القيام بواجبه من التعويل على مصنوعات بلاده وترويجها بكل ما أوتيه من قوة، لأننا لا نستطيع أن نحافظ على كيان بلادنا في معمعان هذه الأزمة العالمية الطاحنة إلا بهذه الوسيلة، وهي طوع أرادتنا، ومن مقدورنا، والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه، والسلام.

الصناعة عنوان الحضارة

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

للأمم (معامل) تصنع فيها المصنوعات المعنوية من شرائع وسياسات وأخلاق وعادات كما تصنع فيها المصنوعات المادية من أنسجة وأحذية وألبسة وآلات، ولا تقل هذه دلالة عن تلك على مبلغ أصحاب (المعامل) من الارتقاء العقلي، بل ربما كانت المصنوعات المادية أدق في التعبير عن ذهنية الأمم من المصنوعات المعنوية لأنها محسوسة ملموسة تقبل الموازين، وأما تلك فهي أوضاع ومقاييسها معنوية مثلها.

ولكل عصر من العصور طابع خاص بالصناعة التي راجت فيهو فعصر الفروسية مثلا_وهو من أقرب العصور التي عرفناها امتاز بصنع اللجم والركب والسروج كما امتاز بصنع المحركات للسيارات والطيارات وآلات الزراعة، وقد أحب الفرسان الخيل والعدو على ظهورها وعقدوا بناصيتها الخير فتفننوا في الأدوات التي تلازم ركوبها وأما نحن فقد فتنا بالسرعة واستخراج أعظم محصول بأقل مجهود فبرعنا في عمل (الموتورات). نحن في الشرق من أسبق الأمم إلى عمل المصنوعات بالمعنيين المتقدمين، لكننا تراجعنا فيهما كليهما، فحلقات الدروس وما يجري فيها من بحث عن موضوعات عقيمة سخيفة بالية وهي لا تقاس بما كان عليه السلف في العصر العربي الذهبي، تدل على هذا التراجع كما تدل عليه المصنوعات الهزيلة الخالية من المتانة والذوق والمعروضة في الأسواق والحوانيت. وزيارة واحدة لمكتبة من المكاتب الكبرى في دمشق أو بغداد أو القاهرة وتقليب صفحات من بضعة كتب من الكتب المصفوفة على رفوفها هي مثل زيارة لمتحف من متاحفها وإلقاء نظرة على ما يعرض فيه من النفائس فيها المقنع الكافي على صحة ما قلنا.

وقد دخلنا الآن في دور النهضة ويلوح لي إننا سبقنا إلى مباشرة المصنوعات المعنوية ولكننا من حسن الحظ أخذنا أخيراً في مباشرة المصنوعات المادية أيضا كما تشهد المعامل والمصانع الحديثة المنصوبة في هذا القطر السعيد وما جاوره من الأقطار العربية الشقيقة. ولا اعرف حافزا دفع الأمم الأخذ بالصنائع مثل الحرب العامة. فقد كان من نتائج الحصار الذي عانته الشعوب في غضونها وانقطاع أسباب المواصلات بينها أن التجأ بعضها إلى مصنوعات تكاد تكون من عمل القرون الخالية، ولا أزال أذكر كيف أن انقطاع الثقاب والنفط (الكاز) عن سورية مثلا في سني الحرب العالمية عاد بالاهلين إلى استعمال القداحة وسراج زيت الزيتون، وكان هذا الحافز أشد ظهورا في الحاجات والأدوات يتوقف عليها تسيير دفة القتال كما هو ظاهر من إخفاق روسيا العزلاء في هجومها المتكرر على ألمانيا والنمسا وتركيا وخروجها من الحرب أخيرا على تلك الحالة المزرية منكسة الأعلام. لا جرم أن الأمم التي شعرت يومئذ بنقص مصنوعاتها وتعلقها على غيرها من الأمم وارتباطها بها اقتنعت بعد هذه الدروس الخطرة المملؤة بالكوارث أن لابد لها من الاستقلال الصناعي وهو لا يقل شأنا عن الاستقلال السياسي، بل لا يتم هذا بالمعنى الصحيح من غير ان يتحقق ذاك. لان الأمة التي تنتظر غيرها أن يعمل لها البنادق والمدافع للدفاع عن حوزتها هي أمة غير مستقلة في أهم شؤونها. وزاد الشعور بهذه الحاجة تلك الوطنية الاقتصادية الحديثة التي تحاول أن تصدر كل شيء وألا تستورد شيئا، وما هذه الحواجز الجمركية القائمة بين الشعوب إلا عنوان هذه الوطنية الصارمة، ويكون جزاء الأمة المتساهلة في هذا

الباب إغراق أسواقها بمصنوعات غيرها واختناقها بمصنوعاتها، وعرفت إنكلترا من بين سائر الأمم بالميل في تجارتها إلى (الباب المفتوح) ولكن حوادث الزمن أرغمتها على إغلاقه كما علمت غيرها أن تكون متشددة، وما لم يقم التفاهم مقام التنازع، وهذا مستبعد في الأحوال الحاضرة، فان هذه الحواجز ستشتد وتقوى. إن نهضة مصر الصناعية هي مثل النهضة الصناعية في الأقطار العربية الشقيقة تدل على تغير جوهري في الذهنية العامة وشعور بالحاجة إلى الاستقلال والاعتماد على النفس، وهذا هو
ركن عظيم من أركان الانقلاب السياسي المنشود، لان الحاجة تفتق الذهن وهي أم الاختراع.

البعث

للأستاذ توفيق الحكيم

حوريس: انهض، انهض يا أوزيريس!
. . .أنا ولدك حوريس
جئت أعيد إليك الحياة،
جئت أجمع عظامك.
واربط عضلاتك،
. . .وأصل أعضائك
أنا حوريس الذي يكون أباه.
حوريس يعطيك عيونا لترى،
وآذانا لتسمع، وأقداما لتسير،
. . .وأيادي لتعمل
ها هي أعضاءك صحيحة،
وجسدك ينمو،
ودماؤك تدب في عروقك.
إن لك دائما قلبك الحقيقي،
قلبك الماضي!
الميت: إني حي، إني حي!
(كتاب الموتى)

وحوريس ليس إلا الشباب، يعيد الحياة إلى ماضيه الميت. نعم هو الشباب الذي يكون أباه الوطن. وقد أعطاه بالفعل عيونا يرى بها غابره العظيم في حريته، وحاضره الذليل في قيود الغرباء، وآذاناً يسمع بها ضحكات السخرية من أفواه الجبناء الذين جاءوا يستغلون رقاده ويستلبون خيراته. كما أعطاه أقداما يسير بها كي يثبت لهم أنه حي، وأيدياً يعمل بها على تشييد الصرح المهدوم. إن أعضاء الوطن صحيحة لم ينقص منها عضو. وهاهو ذا جسده يتحرك وينمو، والدم يجري في شرايينه. والشباب على رأسه يصيح: (إن لك دائما
قلبك الحقيقي. . قلبك الماضي!. .) ويخيل إلى أنى أسمع الوطن من كل جانب يلبى النداء ويجيب الشباب الأبناء: (إني حي، إني حي!)

إني دائما أومن بان مصر لا يمكن أن تموت. لأن مصر منذ الأزل ظلت تعمل وتكد آلاف السنين لهدف واحد: مكافحة الموت. ولقد فازت مصر ببغيتها. وكلما ظن الموت أنه انتصر. قام حوريس من أبنائها يصيح: (انهض، انهض أيها الوطن! إن لك قلبك الحقيقي دائما. . قلبك الماضي) وإذا الموت يتراجع أمام صوت داو من أعماق الوطن: (إني حي، إني حي!) لست أعجب الآن لصيحات الشباب ومشروعات الشباب، فهي صيحات حوريس يوقظ أباه. إنما عجبي لأدراك الشباب أن أقوى مظاهر اليقظة هي: النهضة الاقتصادية: هي الدماء السخية التي تجري في جسد مصر قانية قوية. مرحى للشباب! هذا الابن الحق. لقد فهم سر الحياة، كما فهمها حوريس. وبارك الله في عيد الوطن الاقتصادي، فهو اليوم الذي سيردد فيه الوطن، وهو ناهض على قدميه. . وهو ملوح بيديه، صوته الخالد: (إني حي، إني حي!)

حركات الشباب

للأستاذ سلامة موسى

ربما كانت أولى حركات الشباب في هذا القرن حركة الفتيان الكشافة التي ذاعت بين جميع الأمم. وقد تناولت الصبيان إلى سن الشباب وملأت حياتهم صحة أجسامهم وخدمة لبلادهم وثقافة فيما يتصل بحياة الخلاء والتجوال. ثم ظهرت حركة أخرى بين الشباب هي الحركة الفاشية وقد اتخذت منذ بدايتها لونا سياسيا وطنيا. واستطاعت هذه الحركة، على الرغم من عيوب فيها، أن تقوم بالمعجزات في إيطاليا لرفعة الوطن. وظهرت منذ نحو ست سنوات حركة الفتيان الجوالة، وكان منشأها في ألمانيا حيث يخرج الفتى ومعه القليل من الملابس فيجول في أنحاء ألمانيا ويقضي الليل في مأوى ريفي صغير لا يكلفه نوما وفطور اكثر من خمسة قروش. وما يزال في هذا التجوال يزور المدن والقرى والجبال والسهول بضعة اشهر يرى فيها أنحاء ألمانيا فيعرف بلاده معرفة الخبير الذي عاين احسن ما فيها ويحبها لذلك اكثر ويزداد أمانة في خدمتها. وقد فشت عندنا نحن في السنوات الثلاث الماضية حركة أخرى بين الشباب انطبعت بطابع الحاجات الاقتصادية. فقد رأينا أننا مغبونون أمام الأجانب، في التجارة والصناعة، وأننا من الفاقة بحيث أصبح مزارعونا مثقلين بالديون، وان البلاد كلها تعيش بالزراعة وتكاد تجهل الصناعة. وكان شعورنا بالوطنية الاقتصادية ضعيفا، حتى أننا في إحدى السنوات القريبة الماضية اشترينا من الأطعمة ما بلغ ثمنه سبعة ملايين من الجنيهات، وهذا في بلاد زراعية كان عليها على الأقل أن تكفي نفسها طعاما إن لم تصدر ما يفيض منه إلى الخارج. لذلك ما كادت الصيحة إلى إيثار المصري على الأجنبي تعلن إلى الشباب حتى أخذها هؤلاء وجعلوا منها شعلة لن تنطفئ. فرأينا جمعية المصري للمصري ثم مشروع القرش ثم جمعية الاستقلال الاقتصادي ثم مشروع القرش ثم يوم عيد الوطن الاقتصادي. وهذا التنبيه العام إلى الصناعة والتجارة المصريتين يعزى الفضل فيه إلى شبابنا. هؤلاء الشباب الذين يجب على كل منهم أن يكون رقيبا على ثروة البلاد، يراقب نفسه أولا لا يأكل هو نفسه سوى الأطعمة المصرية، ولا يلبس سوى الأقمشة المصرية، ولا يؤثث بيته إلا بالأثاث المصري. وقد نحتاج إلى بعض البضائع الأجنبية ولكن يجب علينا عندئذ ألا نشتريها إلا من التاجر المصري، ثم بعد ذلك يراقب غيره حتى يكون داعية للصناعة المصرية فينصح لأصدقائه ويطلب من زعمائه أن يتخذوا الملابس المصرية.

وعيد الوطن الاقتصادي هو يوم نخصه للدعاية. ولسنا نعتقد أن في البلاد خصما واحدا لهذه الدعاية التي يقوم بها شبابنا لكن يكسبونا كرامة اقتصادية ما أعظم حاجتنا إليها في هذه الأيام السود التي تباع ممتلكات الفلاح فيها بيع السماح بل بيع الجبر في سوق الدلالة.

بين الشرق والغرب

لسكرتير لجنة الدعاية

قرأت لزميل نقدا ممضا مريض الحجة ينصب على الجامعة في غير روية ولا أناة. فما التقيت به حتى أخذت في لومه والعتب عليه مستكثرا منه أن يطعن في معهد يظله ويحتويه. فبرم بموقفي من نقده، واستشاط حماسة وانطلق يقول: إن القلم الذي لا يستطيع أن ينجو بالحقيقة من ضيق العواطف، ويكفل لها ساحة رحبة النطاق، واسعة الأفق، لهو قلم كليل قصير الأجل لا ينتظر له خلود. . واليوم الذي ترى فيه الجامعة طلابها وقد ملأتهم الجرأة في سبيل الحق. وسكن في قلوبهم استقلال الرأي، لهو اليوم الذي يؤمن فيه الناس بأن الجامعة قد أدت رسالتها على اكمل وجه وأتم صورة. . وانطلق الزميل في بسط فكرته تحت تأثير عاطفة قوية وميل جامح. .! فقلت له ان الجامعة موطن علمك ومعين ثقافتك. فمن حقها عليك ان تتولى الذود عنها إن حاق بها اعتداء أو أصابها ضر. فان قعدت عن حمايتها فلا أقل من أن تحجم عن الاشتراك في هدمها. وتتورع عن المساهمة في طعنها والحط من شأنها. ولو صح استقصاؤك لما فيها من سوءات لما جاز لك ان تعلنه على هذه الصورة القبيحة المزرية التي تخفيها تحت ستار حرية الفكر، واستقلال الرأي. . وما إلى ذلك من ألفاظ لها قداستها التي خفيت عنك حدودها. وتوارت عن بصيرتك معالمها. وقداسة الحقيقة يا صاحبي لم تطلب إليك استقصاء السوءات والتغافل عن الحسنات. ولكن الزميل كان في ثورة حماسه لا

يملك إلا الإيمان بفكرته وتسفيه ما يذهب إليه خصومه، فطال بيننا الجدال على غير جدوى. وفي الأسبوع نفسه قدر لي أن أستمع إلى مؤرخ إنجليزي عالمي يحاضر في مواقف مرت بوطنه فيلتمس له
الأعذار في (حرق جان دارك) ونفي نابليون. .!! هذه هي الهوة التي تفصل بين منطق الكثيرين من علماء الغرب الأفذاذ. وذهنية أكثر الناشئين من شباب الشرق المغبون_هوة تعيش فيها آمال عرجاء. وتحيا في ظلامها مطامح جرباء، هناك قد (يخلقون المناسبات) ليملأها دفاعا عن وطنهم. وذودا عن حرمته. وإشادة بمفاخره. بل ربما لا (يتورع) العالم عن أن يتخذ العلم أداة يسخرها لخدمة مآربه القومي وقضاء شهوته الوطنية.!! وهنا يخلق بعض (شباننا) المناسبات ليتناولوا فيها أنفسهم ووطنهم ومعاهد علمهم بالطعن والتجريح.!! وهذا الفرق (فيما أرى) من أعظم العناصر التي تميز بين عظمة الغرب الفتية. . وحالة الشرق المريضة. لهذا ينبغي أن يطرب المصريون لهذه الثورة القومية الوديعة التي يقوم بها شباب عيد الوطن الاقتصادي. لأنها تعالج النقص الذي تنطوي عليه نفوسنا.
كلية الآداب (ت. الطويل)
نشيد
في عيد الوطن الاقتصادي
وطن دعانا فاستجبنا ... وبكم بني مصر أهبنا
جد النزيل وقد لعبنا ... وبكل ميدان غلبنا
وطغى الدخيل على الأصيل
آبائكم سادوا وشادوا ... وعن الحمى درءوا وذادوا
!!زرعوا وفاتكم الحصاد! ... وونت عن الثمر البلاد
!وجنى المغلب والنزيل
في الحق صيحات الشباب: ... لا ننثني حتى تجاب
ولسوف نكتسح الصعاب ... إن سد باب دق باب
ولدى سوانا المستحيل
جولوا بوادي النيل جولة ... وامضوا لمصر أو المحله
فهناك للصناع دولة ... وهناك تلتمس الأدلة
هناك مجدكم الأثيل
المال في يدكم أمانة ... من مصر كدستم جمانة
أنسر إذ تبكي الكنانة ... ونظل لا نولي إعانة
ونقر بالبلد الذليل؟؟
،إنا دعائم الاقتصاد ... ودعاة مصر إلى الجهاد
ندعوا إلى العمل البلاد ... ما دون غايتنا ارتداد
!وإلى الأمام لنا السبيل
الزقازيق. إبراهيم مأمون
نداء اللجنة التنفيذية
للأستاذ عبد الله فكري أباظة. رئيس اللجنة التنفيذية
!بنى وطني
عزم ثابت لا ونية فيه، وحزم نافذ لا رجعة فيه لرأي بعد إقراره. ذلك حال الشباب الذي أخذ على نفسه أن يحيي للوطن عيدا يقيم فيه مهرجانا، يخرج منه موكب، يجمع صناعاتنا المصرية لتستلهموا من رؤيتها العبر. فبلادنا اليوم في عسر شديد. . خرج بها اليأس عن أن يجد بنوها حتى من الدمع عزاء. . ولا من نضال الحياة جزاء. . إلا أن الله القدير جعل لكل عسر يسراً. ولكل ضيق سهلا، وخلق العزائم على قدر المصاعب.
سينطلق في أيام العيد الثلاث حضرات المتطوعات والمتطوعين من أبناء مصر يحملون ما تيسر حمله من صناعة بلادهم، يدعون إليها ويفاخرون بها، فيدلونكم بذلك على تجارة تنجيكم من عذاب أليم. . وسيوزعون عليكم دليلا إحصائيا يحوي أسماء المتاجر والمصانع الوطنية، يكون بين أيديكم هدى ومنارا، وقد أخذت صناعة مصر وتجارتها تحبو تبتغي النهوض بعد أن طال بها الرقاد لتستعيد سيرتها الأولى. أيها المصريون:

قد اجتمع لوطنكم من الخيرات ما تستحقون من أجله الغبطة والحسد. ولكن الأزمة تحيط بكم والضيق يكتنفكم والفاقة تتمشى في بيوتكم، ولا يفوتكم أن الصناعة والتجارة في دورها الاول يهددها البلاء ويرقبها الفناء. إن لم تجد من العون والتعضيد ما يزيدها أملا على النهوض ويبعث إلى روحها القوة والرجاء.

إن يوم العيد بمثابة الناقوس يعلن المخلصين ببدء الجهاد الاقتصادي، ليقبلوا على صناعة البلاد ومنتجاتها، مستعذبين مستمرئين كل جهد وعناء. أيها المواطنون: إن مضمار الوطنية يوم العيد. ومن بعده سباق، فاصبروا في ميدان المصرية صبرا جميلا، واعملوا عملا حثيثا، فيوم العيد يراه القانطون بعيدا، ويراه المؤمنون المثابرون قريبا. .

رسالة المشروع دين المصرية

لسكرتير المشروع

حق أن يدعو عيد الوطن الاقتصادي إلى صناعة مصر وتجارتها، فليس أسمى من دعوة تحمل في طياتها كل ألوان الخير لبلد تتعاون عليه كل أساليب الشر، وحق أن ينشد هذا الغرض ويسعى إلى هذه الغاية بان ينظم لنا عيدا كل عام. وأن يصدر دليلا بأسماء متاجرنا ومصانعنا الوطنية القمينة بتشجيعنا، الجديرة بعطفنا وإيثارنا، وان يقيم مهرجانا صناعيا، تنصب فيه أسواق الصناعة المصرية، وتسعى فيه مواكب الدعاية للصناعة المصرية، ويفسح فيه للقومية المصرية. وحق ان يدعو الشباب المتطوع من جنود الفكرة الأمجاد إلى أن يبدءوا بأنفسهم في إعزاز صناعة بلدهم، فيلبسوا من قطن مصر الخالص لباسا هو رداء الشرف بعينه: بدلة رمادية وأقمشة صافية الزرقة، لا تقتضي اللابس أكثر من قروش معدودات تعلن عن متانة الصناعة المصرية ورخصها، وتفيض على صاحبها راحة في الضمير، وتسكب في قلبه هدوء الاطمئنان إلى أداء الواجب. حق كل هذا، ولكن أي أثر يكون من وراء هذا كله؟ أيقف الأمر عند تشجيع صناعتنا والدعوة إليها؟ رسالة عيد الوطن الاقتصادي اعمق أثرا، وأرحب أفقا، وأوسع مجالا، وما هذا إلا مظهر لما تسعى إليه، إنها تبغي أن تبشر في الناس بدين المصرية الكريمة، وتحملهم على الإيمان بها والاعتقاد فيها، تبغي أن يعيش المصري عزيزا في مصره، فخورا بها، هاتفا لها في كل لحظة وفي كل آن، ولو تضافر عليه باطل هذا الوجود كله يريد أن يسد الفم ويقطع على الصيحة سبيل الانطلاق. . إنها تبغي أن تمكن لمصر من عناصر السيادة والسلطان، بعد أن طال بها القعود على المذلة والسكون إلى الهوان. . . يريد عيد الوطن الاقتصادى، أيها الشبان، أن يتعجل اليوم المشرق السعيد الذي يجب أن تعيش فيه مصر للمصريين. .

علي عبد العظيم. كلية الحقوق

الدعوة إلى الصناعة المصرية

وسائلنا في سبيل ترويجها

للأستاذ جلال حسين وكيل اللجنة التنفيذية

ان اشد ما تشكو منه الصناعة المصرية في الوقت الحاضر روح الانصراف عنها البادية من جانب أبناء الوطن نفسه، وإذا كانت الصناعة المصرية تريد لنفسها حياة فإنما تطلبها من أبناء مصر أنفسهم فانهم أهلها وعدتها. والواقع ان الجيل الحاضر ورث عن الجيل الماضي روح الاستخفاف بصناعة مصر، فقد علق بالنفوس في القرن الأخير أننا أمة لا تجيد الصناعة، فتحولنا عن شرقيتنا ومصريتنا إلى تقليد الأوربيين، وتعاقبت السنوات ونحن عن مصلحة مصر للاقتصادية ساهون، وعن الإيمان بنجاحها الصناعي غافلون. ولقد قامت في مصر صناعات ونمت، ونشأت مصانع وتقدمت ثم أقيمت المعارض فثبت فعلا خطأ الفكرة القديمة وهي استحالة قيام الصناعة في مصر. وقد أيد الواقع الملموس أن في مصر صناعات، وأنه يمكن أن تنشأ صناعات أخرى وتزهو وتزدهر. ومع ذلك كله لا تزال الفكرة القديمة عالقة بالأذهان، ولا يزال الكثيرون منصرفين عن تعضيد منتجات البلاد، بل منهم من لا يزال يتشكك بوجود صناعات بمصر. ولو أن كل مصري ومصرية آمن بوجوب الإقبال على صناعات وطنه، ولو أنه أصر في كل مكان على طلب منتجات بلاده،

لكان هذا الطلب المستمر مدعاة لا حياء صناعات ميتة، وإقامة صناعات جديدة، وتقوية مصانع لا تزال بسبب الإهمال ضعيفة. ونحن إذ ندعو للصناعة المصرية لا ندعى أننا بلغنا فيها الكمال وإنما نشعر بأننا لا نزال في أول الطريق، وان المسير ليس سهلا،

وإن المهمة شاقة، ولكن هذا كله هو الذي يدعو إلى مضاعفة الجهود. ولا سبيل للنجاح الصناعي إذا لم نقبل على الموجود بين أيدينا ونغضي عن عيوبه عاملين على إصلاحها حتى نصل إلى المجد الذي ننشده. فإذا كان هذا هو أشد ما تشكو منه الصناعات المصرية فأول واجبنا وما نسعى إليه محاربة هذه الفكرة السيئة بكل ما أوتينا من وسائل، وها نحن أولاء ننشر الدعوة (1) عن طريق الصحافة التي نذكر لها الفضل الأكبر في مؤازرتنا (2) عن طريق نشرات خاصة نوزعها في كل مكان (3) بواسطة الإذاعة اللاسلكية وقد وجدنا في محطات الإذاعة المصرية عضدا كبيرا. وكل ما ننشده أن نصل إلى أكبر عدد من أبناء مصر المتطوعين يتألف منهم جيش الوطن الاقتصادي. فنحن نبث الدعوة للتطوع في المشروع، ولا يكلف التطوع صاحبه شيئا ماديا قط. ولكننا نطلب إليه أن يعتنق هذه الفكرة
وأن يعطينا موثقا من الله أن يؤثر منتجات البلاد بالتفضيل ما استطاع إلى ذلك سبيلا. وهؤلاء المتطوعون هم الذين يدعون إلى الفكرة في كل مكان، وكلما زاد عدد لمتطوعين زدنا أيمانا برسوخ فكرتنا وثباتها، ومن اجل هذا نطالب كل من يفكر في مصلحة مصر أن يمد يده إلينا، وأن يبادر بالتطوع في المشروع ويد الله مع الجماعة. وقد سمعنا هنا وهناك سؤالا يتردد على شفاه الكثيرين: أين نجد تلك الصناعة المصرية؟ فأن المصانع المصرية لم تؤت إلى الآن من الوسائل ما يساعدها على الإعلان. لذلك استقر عزمنا على أن نصدر دليلا سنويا بأسماء المتاجر والمصانع القائمة في أرض مصر يكون هاديا ومرشدا وسيوزعه المتطوعون بأقل ما يمكن من ثمن حتى يكون في متناول كل يد. وقد سألنا أرباب الصناعات المصرية أن يسهلوا علينا مهمتنا فيتصلوا بنا حتى يأتي الدليل وافيا بالغرض الذي نرمي إليه. فإذا ما تجمعت تلك العناصر جميعا كان يوم العيد. وفي العيد يقام مهرجان عظيم يدعو للصناعة المصرية يشترك فيه من تساعده ظروفه من أصحاب المصانع، ويقوم جيش المتطوعين مرتدين رداء الشرف من القماش المصري بتوزيع الدليل في كل مكان. هذه وسائلنا نعلنها للبلاد مؤملين أن نسير فيها على بركة الله لخدمة هذا القطر وصناعته، راجين أن نشق السبيل لتمصير ثروة هذه البلاد حتى تصبح مصر للمصريين.

جلال حسين

مطالعات في التصوف

عوارف المعارف. معرفة النفس

وأنت إذا أردت ان تقف لمؤلف عوارف المعارف على رأي خاص في مسألة الروح وجدت أنه لا يستطيع أن يقطع برأي في ذلك إذ هو يرى نفسه إزاء أقوال متناقضة ومذاهب متضاربة لا يكاد الإنسان يأخذ بأحدها حتى يأتي الآخر فينسخ الأول ويزعزع رأيه فيه. ومن هنا كان مؤلفنا أميل ما يكون إلى الإمساك عن القطع برأي في هذه المعضلة. عرض المؤلف بعد ما قدمت لك لمسألة الروح الإنساني وغيره من أنواع الأرواح. وموجز قوله في هذا الصدد هو أن الروح الإنساني العلوي من عالم الأمر. والروح الحيواني البشري من عالم الخلق. وهذا الروح البشري هو محل الروح العلوي ومورده. وهو جسماني لطيف حامل لقوة الحس والحركة. وانه لينبعث من القلب الذي هو عبارة عن هذه المضغة اللحمية الموجودة في الجانب الأيسر من الجسد وينتشر في تجاويف العروق الضوارب، وهذا الروح موجود لدى سائر الحيوانات تفيض منه قوى الحواس، ولورود الروح الإنساني العلوي على هذا الروح الحيواني تجنس الروح الإنساني وباين أرواح الحيوانات الأخرى واكتسب صفة أخرى فصار نفسا محلا للنطق والإلهام. ومن هنا نلاحظ أن النفس الإنسانية تكونت من سكون الروح الإنساني العلوي إلى الروح الحيواني، مثلها في هذا السكون كمثل سكون آدم إلى حواء بحيث نشأ بينهما التآلف والتعاشق.

ومسألة أخرى من تلك المسائل الفلسفية والنفسية حدثنا عنها المؤلف في هذا الباب، واعني بها مسألة العقل ومركزه وآراء الناس في هذا المركز. والناس يختلفون في مركز العقل كما يختلفون في غير العقل من الملكات الباطنية. فمن قائل بأن مركز العقل الدماغ. ومن قائل آخر بأنه القلب. ولعل اختلافهم هذا راجع إلى عدم استقرار العقل وبقائه على نسق واحد. فهو ينجذب إلى البار تارة وإلى العاق تارة أخرى. ورد في أخبار داود عليه السلام أنه سأل ابنه سليمان: أي موضع للعقل منك؟ قال: القلب

لأنه قالب الروح. والروح قالب الحياة. وقال أبو سعيد القرشي: الروح روحان: روح الحياة، وروح الممات. فإذا اجتمعا عقل الجسم. وروح الممات هي التي إذا خرجت من الجسد صار الحي ميتا. وروح الحياة هي ما به مجاري الأنفاس وقوة الأكل والشرب وغيرهما. وقال بعضهم (الروح نسيم طيب يكون به الحياة. والنفس ريح حلوة تكون منها الحركات المذمومة والشهوات). ويعمد المؤلف بعد هذا كله إلى الموازنة بين الروح والنفس بحيث يبين لنا من خلال بعض الأقوال، الأخلاق والصفات التي تصدر عن كل من الروح والنفس. فقد قيل أن النفس لطيفة مودعة في القلب منها الأخلاق والصفات المذمومة. على حين أن الروح لطيفة مودعة في القلب منها الأخلاق والصفات المحمودة. ومثل النفس والروح فيما يصدر عن الأولى من أخلاق وصفات مذمومة وما يصدر عن الثانية من أخلاق وصفات محمودة كمثل الحواس في أن العين للبصر والإذن للسمع. الخ. وترجع أخلاق النفس وصفاتها جميعا إلى أصلين، أحدهما الطيش والآخر الشره. وقد نشأ طيش النفس من جهلها ونشأ شرهها من حرصها. ومثل النفس في طيشها كمثل كرة مستديرة على مكان أملس لا تكاد تستقر أو تثبت ولكنها على العكس دائمة الاضطراب والحركة. ومثلها في شرهها كمثل الفراش الذي يساور المصباح فلا يقنع منه بالضوء اليسير ولكنه يلقي بنفسه عليه ليغمره ضوء هذا المصباح حيث يلقي حتفه. ومن الطيش نشأت العجلة وقلة الصبر. ومن الشره نشأ الحرص والطمع وهما هذان الخلقان اللذان ظهرا في آدم حين طمع في الخلود فحرص على أكل الشجرة. وأنت إذا أنعمت النظر فيما يذكر مؤلف عوارف المعارف عن الشره واتخاذه أصلا من الأصلين اللذين تصدر عنهما أخلاق النفس رأيت أن في كلامه تناقضا. وبعبارة أخرى دورا كما يقول المناطقة. فهو يقول أن شره النفس ناشئ من حرصها ثم يعود بعد هذا فيقول أن الحرص والطمع خلقانينشآن عن الشره. وإذن فالشره في بادئ الأمر نتيجة للحرص، ثم هو في آخره مبدأ له. وعلى هذا يكون الدور ظاهر. ومهما يكن من شئ فان النفس على كل حال مصدر للأخلاق المذمومة. فمن عرف أصولها وطبيعتها، وتبين أخلاقها وجبلتها، عرف أن لا قدرة له على كبح جماحها ومغالبة أهوائها وشهواتها إلا بالاستعانة في ذلك كله بباريها وفاطرها.

ولا يتحقق العبد بالإنسانية، إلا إذا دبر في نفسه دواعي الحيوانية وذلك بالعلم والعدل وبمراعاة طرفي الإفراط والتفريط، فبهذا تقوى إنسانيته وتنقى نفسيته ويدرك من نفسه صفات الأخلاق المذمومة بحيث ينتهي إلى كمال إنسانيته.

تعال ولنمض الآن إلى أوصاف النفس. فقد ذكر مؤلفنا أن الله وصف النفس في كتابه العزيز بأوصاف ثلاث: فوصفها بأنها مطمئنة فقال: (يا أيها النفس المطمئنة) وبأنها لوامة فقال: (لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة). وأخيرا بأنها أمارة بالسوء فقال: (إن النفس لأمارة بالسوء) وهذه النفس التي وصفت بأوصاف متباينة واحدة. فإذا امتلأ القلب سكينة ألبس النفس ثوب الطمأنينة لأن السكينة تزيد في الأيمان. وفي هذه الطمأنينة يرقى القلب إلى محل الروح لما منح من حظ اليقين. وحين يتجه القلب إلى محل الروح تتجه النفس إلى محل القلب. وهي في هذا تصيب من الطمأنينة حظا. وإذن فأنت ترى أن النفس والروح يتطاردان بحيث يملك القلب دواعي النفس تارة، ودواعي الروح تارة أخرى، كما ترى أيضا أن الملكات الباطنية عند الصوفية هي الروح والقلب والنفس. وانهم ليضيفون إليها ملكة رابعة اختلفوا في شأنها كما اختلفوا في غيرها. هذه الملكة هي (السر) ويذكر مؤلف عوارف المعارف شيئا عن هذا الاختلاف في أمر السر فيقول إن من الصوفية من جعله بعد القلب وقبل الروح. ومنهم من جعله بعد الروح وأعلى منها وألطف. ولقد قالوا إن السر محل المشاهدة، والروح محل المحبة، والقلب محل المعرفة. ولابد من أن نلاحظ أن السر لم يرد ذكره في القرآن وإنما ورد ذكر الروح والنفس والقلب والفؤاد والعقل. ويرى مؤلف عوارف المعارف انه لما لم يذكر هذا السر في القرآن، ولما أختلف الصوفية فيه هذا الاختلاف فهو لاوجود له وجودا مستقلا في ذاته بحيث يكون ملكة خاصة كالروح أو النفس. وإنما هو وصف زائد تكتسبه الروح حينا، والقلب حينا آخر عندما يتطلع كل منهما إلى مواطن القرب. إذن فليس السر شيئا آخر غير الروح، مكتسبة وصفا زائدا على أوصافها، أو غير قلب مكتسب وصفا زائدا على

أوصافه. ولابد من أن نذكر شيئا عن العقل. فهو كما يقول مؤلفنا - لسان الروح وترجمان البصيرة، والبصيرة للروح بمثابة القلب، والعقل بمثابة اللسان. ولقد شرف الله العقل في حديث قدسي خاطبه فيه بقوله: (. . وعزتي وجلالي، وعظمتي وكبريائي، وسلطاني وجبروتي. ما خلقت خلقا أحب إلى منك ولا أكرم علي منك. بك اعرف وبك احمد وبك أطاع وبك أغنى وبك آخذ وإياك أعاتب ولك الثواب وعليك العقاب. وما أكرمتك بشيء أفضل من الصبر.) واختلف الناس في ماهية العقل. ففريق يرى انه من العلوم. فمن خلا من جميع العلوم لا يوصف بالعقل. وليس العقل كل العلوم إذ أن الخالي من أغلبها متصف بالعقل. وليس العقل من العلوم النظرية.

فمن شرط ابتداء النظر تقدم كمال العقل. وإذن فهو من العلوم الضرورية وليس جميعها. فصاحب الحواس المختلطة عاقل على الرغم من أنه فقد بعض مدارك العلوم الضرورية. وفريق آخر يذهب إلى أن العقل صفة يتهيأ بها درك العلوم كما قال المحاسبي انه غريزة يتهيأ بها درك هذه العلوم. ويقول بعضهم أن العقل عقلان: عقل للهداية مسكنه القلب وهو للمؤمنين الموقنين. وعقل مركزه الدماغ: يدير الأول أمر الآخرة ويدير الثاني أمر الدنيا. ولكنه على كل حال عقل واحد. تلك خلاصة هذا الباب الخصب من كتاب عوارف المعارف ولست أشك في أنك توافقني على ما امتاز به من البحث الدقيق والفكر العميق والجمع بين التصوف وما وراء الطبيعة وعلم النفس جمعا يظهرك على ما بين هذه العلوم من صلة وثيقة تكفي لأن تبين لك ما للتصوف من مكانة فلسفية وقيمة نفسية بين العلوم التي أنتجها الفكر الإسلامي.

محمد مصطفى حلمي. ماجستير في الآداب

نداء إلى أدباء العرب

الاحتفال بمرور ألف عام على وفاة شاعر العربية الأكبر أبي الطيب احمد المتنبي

قتل أبو الطيب المتنبي في رمضان سنة 354 للهجرة وفي رمضان سنة 1354 أي بعد سنتين وشهرين يمر ألف عام على وفاة شاعرنا العظيم. إن مرور عشرة قرون على وفاة أديب كبير لحادث ذو شان في تاريخ الأدب. وإني أناشد الأدباء في البلدان العربية أن يفكروا في إقامة مهرجان عظيم تشترك فيه وفود تمثل الأقطار العربية الشقيقة احتفالا بذكرى شاعرنا الخالد. وإني أرجو أن يترك أمر تأليف لجنة الاحتفال للمجمع العلمي العربي في دمشق أو للمجمع العربي الذي أنشأه جلالة فؤاد الاول ملك مصر أو لهيئة جديدة تمثل فيها جميع الأقطار العربية.

بيروت

فلسفة ليبنتز

1646_1716

للأستاذ زكي نجيب محمود

1. نظرية ذرات القوة 2. التآلف الأزلي 3. نظرية المعرفة 4. الله والعالم

التآلف الأزلي

ولكن إذا كانت هذه الذرات القوية التي يتألف منها الكون بأسره عبارة عن عوالم صغيرة مستقلة، لا يؤثر بعضها في بعض، فماذا عسى أن تكون الرابطة بينها؟ وبماذا نعلل هذا النظام الدقيق الذي يشتمل الوجود؟ يجيب ليبنتز على ذلك بأنه قانون التآلف الأزلي. فقد ركبت تلك الذرات بادئ ذي بدء بحيث تسير الواحدة موازية للأخرى. وعلى الرغم من تفرقها وانفصالها، فهي تعمل جميعا في توافق دقيق، حتى لتبدو كأن بعضها يعتمد على بعض. أليست تسير طوع إرادة إلهية عليا؟ إذن فهي تسير في نظام واتساق لا تناقض

فيهما ولا اضطراب. يقول ليبنتز إن هذا التوفيق بين استقلال الذرات واتساقها في نظام واحد أشبه شيء بجوقة من رجال الموسيقى. كل يقوم بدوره مستقلا، وقد أجلسوا بحيث لا يرى بعضهم بعضا بل ولا يسمعه، ومع ذلك فهم يسيرون في تناغم مستقيم، ما دام كل منهم يعزف وفق المذكرة الموسيقية، فإذا ما سمعهم مستمع في وقت واحد، لحظ في عزفهم تآلفا عجيبا) وبهذه النظرية نفسها قد عالج ليبنتز العلاقة بين العقل والمادة، أي بين الروح والجسد، فالروح يتبع قوانينه الخاصة والجسد كذلك

يتبع ماله من قوانين دون أن يؤثر واحد في سير الآخر، فهما يتلاقيان في تناسق بلغ من الدقة حدا بعيدا يستحيل معه الخطأ، فكل خلجة عقلية يجاوبها وضع من الجسد كما لو كانت العلاقة بينهما علاقة العلة بالمعلول. ولا يمكن تعليل هذا الاتفاق المستمر بين العقل والجسم إلا بإحدى ثلاث، يسوق لها ليبنتز تشبيهه المشهور: فهما كساعتين تسيران معا في دقة تامة، ولا يكون ذلك إلا 1) أن يكون للساعتين آلة واحدة تديرهما معا في آن واحد (2) أو يكون ثمة شخص يعادل بينهما من آن إلى آن بحيث يوفق بين زمنيهما، (3) أو قد تكون الساعتان صنعتا في دقة تامة يستحيل معها الخطأ.

فأما الغرض الأول فمردود لأن العقل والجسم لا يؤثر فيهما مؤثر بعينه في وقت واحد، وأما الغرض الثاني فمردود كذلك لأنه يفرض تدخلا مستمرا في علاقة العقل والجسم، وأما ثالث الفروض فهو ما يراه ليبنتز جديرا بعظمة الخالق وكامل قدرته، أي أن كل شطر يسير في طريقه الخاصة، فلا يكون بين الشطرين اختلال أو اضطراب، وهذا التآلف موجود منذ الأزل، وهو ما يسميه بنظرية التآلف الأزلي. ولكن إذا كانت كل ذرة مغلقة في حدودها الخاصة، لا تستطيع أن تطل على العالم الخارجي كما يستحيل أن ينفذ إلى داخلها شيء من العالم الخارجي، فكيف نعلل إدراكنا لله، بل إدراكنا لكل ما يحيط بنا من أشياء؟ أليس الإدراك ضربا من ضروب الاتصال أو هو كل الاتصال؟ كيف يستطيع كائن أن يصل إلى معرفة الله والعالم إذا لم يكن في مقدوره أن يحطم حدود فرديته؟ هذا تناقض ولا ريب، وأغلب الظن أن ليبنتز قد لحظه عند حديثه عن علاقة الإنسان بالله جل وعلا فأنقذ الموقف بأن زعم أن الروح الإنساني لا يقف عند حد تصوير الكون وتمثيله في شخصه،

كما هي الحال مع سائر الكائنات، ولكن له فوق ذلك مقدرة على إدراك الله وتقليده، ثم معرفة أجزاء العالم عن طريقه، لأنه يعتقد أن الله جل شأنه هو الذرة السامية الكاملة وهي أساس الذرات جميعا، منها تنبثق، كما ترسل الشمس ضوءها، فإذا ما أرادت ذرة أن تتصل بأخرى، كان لزاما عليها أن تتصل أولا بذلك الأساس أو قل (السنترال) لأنه بمثابة المركز الذي تتفرع عنه الطرق جميعا.

نظرية المعرفة:

من أين جاءت إلى الإنسان هذه المعلومات التي تملأ شعاب ذهنه؟ أما (لوك) فرأيه في ذلك معروف. وهو أن كل معلوماتنا إنما جاءت عن طريق الحواس فأثرت في صفحة الذهن التي برزت إلى هذا العالم نقية بيضاء لا تشوبها شائبة، وأما (ديكارت) فيزعم أن الطفل يولد مزودا ببعض الآراء الفطرية التي لا يمكن أن يحصلها بالتجربة، طرفان متناقضان من الرأي، كتب لهما أن ينتهيا إلى ليبنتز الذي لا يعجز عن جمع المتناقضات في وحدة متسعة! ألم يوفق بين مذهبي الفردية والكونية، وأخرج منهما فلسفة الذرات القوية؟ وهاهو ذا كما عهدناه يوفق بين لوك وديكارت في نظرية تحصيل المعرفة! فهو من ناحية ينكر على لوك رأيه في انعدام الآراء الفطرية. ويرى هو أن للعقل أساسا من المعلومات يستحيل أن يحصل بدونه شيئا، فيولد وهو يحمل بين طياته معرفة كامنة بالقوة ولا تصل إلى درجة الشعور إلا إذا أيقظتها التجارب التي تنفذ إليها عن طريق الحواس، فليس من شك في أن الطفل يولد مزودا بميل إلى استطلاع الحقيقة قبل أن يصادف من حياته تجربة ما، ويكفي أن يكون لديه تلك القوة العقلية وحدها ليجوز لنا القول بأن له معرفة فطرية، وإذن فيجب أن نكمل نظرية لوك التي يلخصها في هذه العبارة: (ليس ثمة في العقل من أثر إلا ما تبعثه الحواس) بأن نضيف إليها هذا التعديل: (اللهم إلا العقل نفسه)!! كذلك ينقض ليبنتز رأى ديكارت في الآراء الفطرية، فلا يذهب معه في أن المعرفة التي تولد مع الطفل تكون عند الولادة محددة واضحة، إنما يعتقد ليبنتز إن تلك المعرفة تكون بادئ الأمر سابحة في اللاشعور، وتظل غامضة مهوشة حتى تدركها التجربة فتوقظها من مكامنها وتزيل ما يغشاها من غموض بما تنشره على معالمها من ضوء، فحياة العقل عبارة عن تقدم مطرد مستمر من إدراك مهوش مضطرب إلى إدراك دقيق محدود. شأنه في ذلك شأن كل ذرة في

الكون، حياتها انتقال من الغموض إلى الوضوح في الإدراك. من ذلك نرى أنه وافق ديكارت على وجود الآراء الفطرية، بل لم يرضه أن يقف عند الحد الذي وقف عنده

ديكارت. من أن بعض الآراء فقط تولد مع الطفل وبعضها الآخر تحصله الحواس فادعى هو أنها جميعا تولد فطرية ولا يستحدث منها في الحياة شيء كما وافق لوك على أن التجارب التي تنفذ إلى العقل عن طريق الحواس لها كل الأثر في تكوين المعرفة، والفرق بينهما إن ليبنتز لا يرى هذه المعرفة قد استحدثت بل انتقلت من وجود بالقوة إلى وجود بالفعل، أو قل انتقلت من حالة الخمود إلى اليقظة والنشاط، وهكذا استطاع ليبنتز أن يقرب وجهتي النظر إلى حد الاندماج.

الله والعالم:

كان ليبنتز مؤمنا شديد الإيمان، يصدر عن عقيدة سليمة ودين قويم، فهو يرى لزاما عليه أن يرد بالحجة ما تنطلق به بعض الألسنة من اتهام بالشر والنقص، وأن يثبت للناس أن هذه الدنيا التي نعيش فيها هي أكمل ما يستطاع خلقه من الدنى. أليس الله جل شأنه علة وجود الأشياء جميعا؟ إذن فلابد أن يكون قويا إلى أبعد حدود القوة، كاملا إلى أقصى مراتب الكمال، حكيما إلى أعمق أغوار الحكمة، خيرا إلى أوسع آماد الخير. صور لنفسك هذه الحكمة المطلقة قد تآزرت مع ذلك الخير الأسمى في خلق العالم، ثم حدثني كيف يكون؟ أليس من الطبيعي المحقق أن يجيء على أحسن ما تجيء العوالم؟ هذا حق لا ريب فيه. لأن الله تعالى يصدر عن منطق مستقيم يتفق مع ما له من كمال، ولا يسع ذلك المنطق الكامل إلا أن ينتج عالما أقرب ما يكون إلى الكمال (لأنه إذا أخرج عالما دون ما يستطاع إخراجه، كان في عمله ما يمكن تهذيبه وإصلاحه). هذا الإيمان العميق لم يصادف من فولتير إلا سخرية مرة! فيرد على ليبنتز بقوله إن تجربته في الحياة علمته أن هذا العالم، على نقيض ما وصف، أسوأ ما يمكن خلقه من العوالم. ولو كان فيه ذرة من كمال لأمحى من وجهه هذا البؤس الذي يزهق ألوف الألوف من النفوس الكسيرة، وقد هاج هذا القول من فولتير شابا مؤمنا إلى درجة الحماسة فتصدى له وهاجمه في الصحف هجوما عنيفا، فلم يكن من الساخر العظيم إلا أن رد عليه في رفق هادئ بقوله: (يسرني أن أعلم أنك أصدرت رسالة تهاجمني فيها، فقد أوليتني بذلك شرفا عظيما، ولكن ألا تستطيع يا سيدي أن تحدثني عما يدفع آلاف البشر لجذ حلوقهم في هذا العالم الذي تصفونه بأنه خير ما يستطاع خلقه، وإني لك من الشاكرين). كذلك تصدى هجل لنقد ليبنتز في رأيه هذا عن العالم، واحتج بأنه قد تركه قضية بغير دليل. فلنسلم معه جدلا بأن هذه الدنيا خير ما يمكن خلقه، أفيكون هذا دليلا على خيرها وصلاحها؟ إذا أنت أرسلت خادمك إلى السوق ليبتاع لك شيئا! فجاءك به الخادم سيئا كريها ثم أقنعك أنه خير ما يباع في السوق، أفتحكم على هذا الشيء بالجودة لأنه كذلك؟ كلا ولا ريب فلا يمنع سوءه وشره ألا يكون هناك أحسن منه، كذلك قل في العالم، قل ما شئت من خير ما يمكن وجوده، ولكن هذا لا يبرئه من النقص والشر. وكأنما ليبنتز قد لحظ هذا الضعف فيما يقول فاعترف أن في العالم شرا كثيرا، ولكنه لا يرى ذلك مناقضا لنظريته، بل يتخذ هذا الشر نفسه دليلا على صحتها. فلولا ما تحوى الحياة من بؤس وألم. لما كانت الدنيا خير ما يستطاع خلقه، لأنهما كثيرا ما يكونان سبيلا إلى الخير وسببا في وجوده!! (المرارة القليلة كثيرا ما تكون ألذ مذاقا من السكر الحلو!). ثم يسير ليبنتز بعد ذلك في البحث عن أصل الشر في العالم، فيقرر أن علة وجوده هي هذا الجانب المادي. فقد ذكرنا فيما سبق أن لكل ذرة في الوجود جانبا فعالا، وإلى جواره جانب سلبي منفعل، هو الجانب المادي منها، وبقدر ما ترجح كفة الجانب الفعال كانت الذرة أدنى إلى الكمال، ولذلك ترى كل ذرة لا تفتأ تسعى جهدها لكي تتغلب على جانبها المادي السلبي الذي يقعد بها عن السمو في سبيل الكمال. والإنسان (ككل شيء آخر) لا يدخر وسعا في هذا الجهاد العنيف الشاق. وهذا الجهاد نفسه (الذي لامناص منه بحكم طبيعة التكوين الذري) هو أصل الشر وسبب البلاء فالشر إذن نقص نشأ عن محاولة التخلص من قيود المادة، فكأنه لم يوجد إلا ليكون سلما للصعود نحو الكمال الأسمى. وعلى هذا الاعتبار يكون الشر وسيلة للخير!!

أضف إلى ذلك أن وجود الشر إلى جانب الخير، مما يعمل على جمال الحياة، التي كانت تقل عما هي الآن كمالا وجمالا لو أنها لا تحوي إلا خيرا محضا. ومن ذا الذي يتمنى حياة لا ألم فيها، تجيء على صورة واحدة لا اختلاف فيها!؟ ثم يذكر ليبنتز أن الخير هو الجانب الإيجابي من الحياة، والشر هو الجانب السلبي منها، ولما كان الله

تعالى لم يخلق، بداهة، إلا الجانب الإيجابي، فلا يمكن أن يعد سببا في وجود الناحية السلبية. ولا يمكن أن
يكون الله خالقا لما نرى في الحياة من شرور وآلام.

درس الجيولوجيا

بقلم حسين شوقي

هي أيضا ذكرى من ذكريات الصبا والدراسة، وقعت حوادثها ببرشلونه. عندما دخلت المدرسة الإسبانية، وحضرت درس الجيولوجيا للمرة الأولى، رأيت المدرس قبل البدء في الدرس، يقترح رحلة جبلية في يوم الأحد المقبل ولكني لحظت في استغراب ودهشة أن الطلبة يتهربون منها، لذلك أخذ المدرس يختار لهذه الرحلة من يختار دون رضا ولا موافقة، فقلت للطالب الذي يجلس عن يميني، وهو فتى إسباني من الجنوب (الأندلس)، تدل سمرة جلده على أصله العربي، لماذا يرفضون وإنما يذهبون إلى النزهة وتسلق الجبال الشاهقة؟. فأجابني في ابتسامة خبيثة: أتريد أن تذهب أنت؟ فأجبته على الفور: أجل! ولم لا؟ فرفع زميلي إصبعه مستأذنا في الكلام، فلما سمح له المدرس به أطلعه على رغبتي، فنظر إلى المدرس نظرة الرضا والارتياح وقال: حسن! حسن جدا! ثم سألني في لطف عن اسمي لأني كنت طالبا جديدا فأثبته في القائمة، ثم استفهم عن جنسيتي التي استغربها لأنني الشرقي الوحيد في المدرسة. وعندما عرف الطلبة إني أريد المشاركة في رحلة يوم الأحد عن رضا وطواعية، أخذوا يتغامزون وينظر بعضهم إلى بعض، فاضطربت لذلك ولم أعرف سبب هذا التغامز وا أسفاه الا أخيرا.

وفي يوم الأحد كنت في المكان المعين للمقابلة، قبل الموعد بزمان طويل، لأني كنت مشتاقا إلى هذه الرحلة الجبلية مع رفاقي الطلبة على الرغم مما يحيط بها من الأسرار. ثم حضر المدرس وتبعه الطلبة واحدا بعد آخر. . وكنا جميعا عشرة، فركبنا الترام فخرج بنا في أقل من ساعة إلى ظاهر المدينة. . وكنا أثناء سير الترام وفي غفلة من الأستاذ، نخرج ألسنتنا للمارين، فيمطروننا وابلا من اللعنات والشتائم. ثم أخذنا نتسلق الجبال وبعد جهد جاهد بلغنا أعلى القمة في تلك المنطقة المعروفة بسانتا كروث (الصليب المقدس) وقد قام فيها صليب كبير من الخشب، بركة لعابري السبيل. عند ذلك شاهدنا منظرا للمدينة يملك الطرف ويصبى المشاعر، والبحر الأبيض يموج في جلبابه الأزرق الفضفاض، والجو يعبق برائحة عطرية كأنها تسربت من الفردوس. أما السحاب فكان قريبا منا إلى حد أنني كنت أخشى أن جنيا يبدو منه فجأة فيختطف أحدنا على سبيل المزاح! وإذا كان سروري عظيما بجمال الطبيعة في تلك الساعة، فان فرحي كان أعظم بالفراش الأصفر الكبير الذي شاهدته يتنقل في الخضرة والحشائش من غصن إلى غصن، وكأنه في حسنه زهور (البانسيه)، لأني كنت كرفاقي مولعا باقتناء الفراش وحفظه بالمنزل في علب خاصة غطاؤها من زجاج. ولكن ظهر أني كنت واهما حين ظننتني سأصطاد ما أشاء من هذا الفراش، لأني حضرت إلى درس جيولوجيا في هذا المكان لا إلى اللهو والتسلية! وكان ذلك سبب ضحك الطلبة في الفصل حينما تقدمت من ذات نفسي للاشتراك في تلك الرحلة! إذ أمرنا المدرس بالتقاط ما يصادفنا في الطريق من الحجارة الغريبة وعرضه عليه. . وكان إذا راقه حجر أخرج منظاره ففحصه في شغف كأنه (الحجر القيم). . ثم أمرنا بحفظه معنا. . لهذا أحضر رفاقي أكياسا من الجلد. أما أنا فكنت أضع الحجر في جيبي لأني لم أحضر كيسا، ولما بلغت المدينة كانت جيوبي ممزقة شر تمزيق! وكان أستاذنا إذا أطلعناه على حجر أخذ يشرح لنا أصله شرحا طويلا ويذكر ما كان بالحجر من معادن كالحديد والفحم والخشب المحجر. أما نحن فكنا نوافق على كلامه من غير سؤال ولا مناقشة لعله ينتهي بسرعة من شرحه الممل! ولما رجعنا في المساء إلى برشلونة، كنا نمشي متطرحين من الإعياء، وفي درس الجيولوجيا التالي حينما أخذ المدرس يجمع أعضاء الرحلة المقبلة كعادته قبل السير في الدرس، خاطبني قائلا: شوقي بطبيعة الحال يصاحبنا في هذه الرحلة؟ فقمت على الفور من مقعدي وأجبته في انفعال: شوقي مريض لا يذهب! فامتعض وتأثر ولكنه أراد أن يصرف النظر عن هذا الرد الجاف ليستر على الأقل خجله، ولكن الطلبة ضحكوا ضحكا عاليا من إجابتي، فاشتد حينئذ غضبه علي وعاقبني بالحبس ساعة!

من طرائف الشعر
طاقة الزهر
طرفة أخرى في الوصف للعالم الشاعر الأستاذ أحمد الزين
أهدت إلى النفس ريا نشرها العبق ... والطيب في الزهر يوحي طيب الخلق
رقت رسائلها للكون فاتخذت ... من النسيم بريدا شاع في الأفق
وما رأيت بريدا خف محمله ... مثل النسيم حكى المعنى بلا ورق
أنباؤه كحديث الحب عاطرة ... أو ذكريات شباب ناعم أنق
ظلت تنسقها كف منعمة ... تكاد تحسبها من ذلك النسق
تداعب الزهر في رفق أناملها ... كالنوم داعب جفن الساهر الأرق
كلاهما بالهوى يرنو لصاحبه ... فاعجب لمختلف بالحب متفق
تحنو عليه فتنسيه منابته ... في الروض يندى بمنهل الحيا الغدق
كلاهما زهر في كف صاحبه ... فانعم بزهرين ملثوم ومنتسق
هذا يعيد بريا نفحه رمقا ... وذاك بالوجد لا يبقي على رمق
هذا على الصدر يسبى العين منظره ... وذاك في القلب يذكى لاعج الحرق
كم صور الزهر من معنى يجيش به ... قلب الشجى ويعيى فطنة اللبق
وكم له في الهوى نعمى تقلدها ... صرعى الغرام مكان الطوق في العنق
وكم يحمله العشاق لوعتهم ... صونا لمكنونها عن طائش نزق
كم حملوه إلى أحبابهم قبلا ... يا طيب مصطبح منها ومغتبق
واستودعوه حديثا من صبابتهم ... فصان سر الهوى عن سمع مسترق
وكم روى دمعة عن عين والهة ... وكم حوى زفرة عن قلب محترق
وكم على صفحات الزهر من كتب ... في الشوق يعيا بها ذو المنطق الذلق
كم زهرة وصلت في الحب منقطعا ... وجددت في حبال الود من خلق
وللأزاهير لطف في سفارتها ... كم ألَّفَتْ في هواها كل مفترق
ذكرى العام
الحول يا أماه بعدك حالا ... والقلب في تحنانه ما زالا
والنفس في أسف عليك وحسرة ... تطوى بها الأيام والأحوالا
والفكر نهب للتذكر كلما ... بعث الشجون وأطلق البلبالا
والود لم أر فيه بعد فراقنا ... صفوا كودك سائغا سلسالا
وجذ عليك مساور لم يمحه ... نظمي المدامع فيك والأقوالا
لا كان يوم قد طوى لك طيه ... صرف الحمام عن الحياة زيالا
لله أية نعمة ولى بها ... عني وأي كريم ذخر غالا
ما كان غير صميم ودك من هوى ... أخشى عليه الموت إن هو صالا
فرحلت عن دار الفناء حثيثة ... وامتد عمر من اجتويت وطالا
ونفضت كفك من ضئيل حطامها ... وطرحت ذاك الهم والأشغالا
تجري مقادير وأحوال وما ... تعنيك في ترددها مثقالا
عبرت مواقيت الصلاة فلم تجد ... سعيا لها صبحا ولا آصالا
ولكم نهضت لها الدجى قوامة ... تبغين رضوان الإله تعالى
ومضى الصيام فلم تحي وجهه ... سمحا ولم تستقبليه هلالا
ولكم سعيت له وكنت حفية ... بأبي الشهور مهابة وجلالا
وغفوت عن حالي فلم يكرثك أن ... أمسيت أبدل بعد حال حالا
أوعل للأرواح بعد فراقها ... قربى وإن شط المدى ووصالا
فتغبني الروح الطهور وتنثني ... تضفي علي حنانها هطالا
وتظل ترعاني كسالف عهدها ... أشقيت بالا أم حسنت مآلا
مني إليها ما حييت تحية ... تترى إلى يوم اللقا وتوالى
فخري أبو السعود
والريف (جاردن ستي)
لمن مقاصير خلف الجسر ضاحكة ... يشرقن في العين إشراق الضحى الحالي //
تلهو الهناءة نشوى في مسارحها ... ويمرح الأنس فيها هادئ البال
ألقى النعيم العصا في ظل سرحتها ... وراح يرسل فيها ذيل مختال

ملاعب لبني الدينار ناضرة ... خضراء تنضح آمالا لآمال
فلو رآهن كسرى الفرس لاقتحمت ... عيناه إيوانه في عصره الخالي
تحبو لدات الدرارى فوق عاتقها ... وتطلع الشمس من عرينها العالي
زهراء رفت رياحين الحياة بها ... بيضاء دون سناها ومضة الآل
ترنو عيون الأماني في مشارفها ... ويبسم العيش في بشر وإقبال
إن كانت الخلد تحكيها فوا لهفي ... قد قصرت عن منال الخلد أعمالي
يا أخضر العيش ما للريف تهجره ... كأن قلبك عن أنصافه سال؟!
تركته تستبد الحادثات به ... ويستطيل الأسى في عوده الحالي
كم بالقرى من قلوب سلن من شجن ... قد أوغل اليأس فيها أي إيغال
كم بالقرى من جفون غاض مجمعها ... من طول ما نزفت من دمعها الغالي
مشى نذير الضنى في سندس خضل ... وشوهت صفحتيها أزمة المال
فما الصباح إذا يبدو بمتسق ... ولا الغدير إذا تلقى بسيال
ولا الهزار صدوح في خمائلها ... يشدو لدى الماء في خفض وإرسال
ضاف من البؤس رواها فأترعها ... فغير القوم من حال إلى حال
لا تشهد العين من أبنائها أحدا ... إلا خدين هموم ثوبه بال
يمضي النهار وحر الشمس يلفحه ... رطب الجبين دءوبا غير مكسال
وحوله مثل أفراخ القطا زغبا ... باتوا إلى الفجر في سهد وإعوال
الله يعلم لم أكفر بحكمته ... لكنها خطرات هجن بلبالي
هذا يهاب الصبا تدمى أنامله ... وذاك يعسف في فقر وإذلال
علي شرف الدين
الصدى الساحر
للأستاذ محمود الخفيف
في سكون العشاء سرت وحيدا ... أملأ الصدر من نسيم المساء
أرقب البدر في السماء فريدا ... ضاحك الوجه مستفيض الرواء
زار سمعي مع النسيم غناء ... يصرف السمع عن أرق الأغاني
عاصف تارة وطورا رخاء ... يتلاشى رنينه في ثوان
كروان سمعته يتغنى ... رائق الصوت ساحر النغمات
نائح صادح طروب معنى ... أين من سحره دقيق الصفات؟
نازع هابط بعيد قريب ... مطلق النفس في جمال الوجود
عبقري كأنه مستجيب ... لصدى السحر من جلال الخلود
ليت شعري أصارخ أم طروب ... فسر القول يا خفي المعاني
آدمي؟ فتعتريك خطوب ... وتعاني من الضنى ما أعاني؟
أترى أنت ساخر مستهين ... بحياة يسود فيها الفساد؟
يملأ الرض من بنيها أنين ... وخصام وفتنة وعناد
يا رقيق الغناء صوتك عذب ... جل في الحسن عن غناء الطيور
بارع اللحن رائق مستحب ... يبعث السحر في قرار الشعور
أيها الساحر المحلق رفقا ... بفؤادي فقد ملكت فؤادي
لست أدري أطائر أنت حقا ... أم وسيط من السماء ينادي
نازعتنى بشاشة وقطوب ... مذ ترنمت يا بديع الخيال
من رآني يظن أني طروب ... وفؤادي من الجوى غير خال
مذ ترنمت عاودتني شجوني ... وذكرت القديم من أحلامي
قد تفردت بالهناءة دوني ... وبرى الشوق والهيام عظامي
أنت لا تعرف الجفاء وقلبي ... شفه الهجر والجفا والعناء
أنت لا تعرف الشقاء وحسبي ... من شقاء الحياة هذا الجفاء
أنت يا ابن السماء حر طليق ... لم تجرع لدى الحياة هوانا
أنت بالبشر والهناء خليق ... كيف تبكي أأنت تخشى الزمانا؟
أيها الصادح المغرد زدني ... من أغانيك واتخذني خليلا
ليتني كنت طائرا فأغني ... وأصوغ القريض لحنا جميلا!

وخز الضمير
هي ذكرى كلما مرت على ... خاطري أنشق عن دمع غزير
إيه يا ذكرى ابعدي عني، اعزبي ... اخمدي بين ضلوعي، لا تثوري
حال عيش كان قبلا سكرا ... بك يا ذكرى إلى عيش مرير
آه كم أزفر كيما أشتفي ... منك، لكن ليس يشفيني زفيري
أترى تمحو إلهي عثرة ... تركتني في عذاب وسعير؟
يا خليليَّ دعاني والبكا ... لا أرى آلم من وخز الضمير
محمد برهام
العلوم
تطور العقل
للأستاذ السر أرثر طمس ترجمة بشير الياس اللوس
تبدأ حياة الكائن البشري كحجيرة مجهرية تعرف بالبويضة الملقحة، وهي بالرغم من صغرها المتناهي تضم تراث العصر السحيقة التي مر عليها أسلاف الجنس البشري من قبل. أن طيلة الأشهر التسعة التي يقضيها الجنين في رحم أمه متصلاً بها اتصالاً بايولوجيا وثيقاً، ما هي الأدوار سبات عميق، وليس هناك من يستطيع أن يبسطرأيا مثبتاً فيما يخص بعقل الجنين غير المولود، وحتى بعد الولادة مباشرة، وكل ما يمكن قولة أن نمو العقل يسير ببط كبير. ليس في البويضة الملقحة، أو الجنين الاول، جهاز عصبي قط، ولكنه ينمو تدريجياً من أوائل بسيطة، ولما كانت العقلية لا يمكن أن تستمد من الخارج، ترتب علينا أن نستنتج أن قوتها الكامنة متقمصة في الفرد منذ القديم، وكذلك الفعاليات الخاصة التي نستخدمها في حياتنا المعنوية كالشعور والتفكير والإرادة لابد إنهاء كائنه في تضاعيف الجرثومة بصورة كامنة. وما يقال عن الفرد يصدق على الجنس أيضا - أي أن هناك تطور تدريجيا في تلك الناحية من فعالية المخلوقات الحية التي نسميها (العقل). فلا نستطيع إذن أن نضع إصبعنا في نقطة معينة ونقول: ((لم يكن ثمة عقل قبل هذا الدور)) لان جميع الحقائق الماثلة أمامنا تحملنا على استنتاج بأنه حيثما تكون الحياة لابد من وجود درجة خاصة من العقل. وهذا يصدق حتى في النباتات التي يضح أن لا عقل لها. ويكون استنتاجنا اكثر دقة إذا عبرنا عنه بأسلوب آخر، كأننا نقول أن الفعالية التي نسميها (حياة) يلازمها دائماً، وإلى درجة ما، وجهة باطنية أو عقلية.
الأفعال الانعكاسية: نعثر في الحيوانات المتعددة الحجرات كشقائق البحر - على بداية الأفعال الانعكاسية التي تؤلف القسم الأعظم في تصرف الحيوانات الواطئة أي قد تكون للحيوان أثناء النمو أجهزة معينة من الحجرات عصبية وحجرات عضلية تسهل إصدار أجوبة ملائمة وصحيحة على المؤثرات الخارجية. فدودة الأرض التي قد أخرجت نصف جسمها من الوكر تكون حذرة ومتيقظة بأخف وطأة قدم فتقلص نفسها وتنسل إلى وكرها قبل أن يقول أحدنا (هذا عمل انعكاسي). إن الطريقة التطورية - إذا جاز لنا إطلاق هذا التعبير - أهلت الحيوانات للإجابة على المؤثرات بسرعة كلية، وكلما صعدنا في سلم المملكة الحيوانية وجدنا الأعمال الانعكاسية اكثر تعقيدا واحكم ارتباط مع بعضها حتى أن حدوث عمل ما قد يستعدى حدوث أعمال أخرى. وهكذا نجد سلسلة مستحكمة الحلقات بين الأفعال الانعكاسية أن تصرف النبات المعروف ب ' - عندما ينطبق على حشرة لافتراسها يشبه الفعل الانعكاسي في الحيوانات، على انه ليس للنباتات جهاز عصبي خاص.
الأفعال الاتجاهية وهناك أفعال انعكاسية أخرى أرقى من تلك تسمى (الأفعال الاتجاهية) وهي حركات أو أعمال يقوم بها الحيوان حرصاً على تنظيم بدنه الكلي وأحداث التوازن الفيسيولوجي بالنسبة إلى الجذب والضغط والتيارات والرطوبة

والحرارة والضوء والكهرباء فعندما تمر الفراشة بالقرب من مصباح تستضيء العين القريبة من مصدر النور اكثر من الاخرى فينتج عن ذلك اختلال فيسيولوجي يؤثر في الحجرات العصبية والعضلية، وبالنتيجة تنظم الفراشة طيرانها بصورة تلقائية كما تكون تلك العينين متأثرتين بنفس الشدة من النور، وعملها هذا تحوم حول المصباح، وربما ادى ذلك إلى القضاء على حياتها. إن هذه الأفعال الاتجاهية تلعب دوراً هاماً في السلوك.

السلوك الغريزي وارتقت الحيوانات خطوة أخرى فكان لها سلوك غريزي وصل إلى درجة مدهشة في الكمال في النمل والنحل والزنابير. ويعرف عن هذا السلوك انه يتوقف على مؤهلات فطرية، فلا يحتاج فلا يحتاج إلى تعلم وهو مستقل عن التمرين والاختبار ولو انهما يهذبانه. يشترك في هذا السلوك جميع أفراد النوع من الجنس الواحد على السواء لان الغرائز المختصة بالذكور قد تختلف عن الغرائز) المختصة في الاناث). وهذه الافعال تستهدف حياة الفرد وتضمناستمرار النسل، ولو أن بعضاً منها يحدث مرة واحدة طيلة حياة الفرد. فالفراشة الأنثى إبرة آدم تبرز من الشرنقة عند الطلع المحمول على الأسدية وتجيله بشكل حبة كروية صغيرة تحزنها تحت ذقنها. ثم تطير إلى زهرة يوكا اقدم عهداً من الأولى، وتلقي بيضها في بعض البويضات التي في مبيض الزهرة، ولكن قبل أن تصنع ذلك عليها أن تضع كرة الطلع على جسم المدقة ومن ثم تنفتح كرة الطلع وترسل منها أنابيب تتجة نحو المبيض فتنزل نواة الطلع بواسطة أحد الأنابيب تتجه نحو المبيض فتنزل نواة الطلع بواسطة أحد الأنابيب إلى البويضات وتلقحها؛ وبهذه الطريقة تتكون بذور نبات اليوكالا تختلف عن أترابها في شيء، إلا أن بعض هذه البذور يكون مأوى لبيوض فراشة اليوكا التي حالما تفقس تسير في حياتنا على نفس الخط الذي سارت عليه أسلافها تماماً من غير تلقين أو تعلم، وفي ذلك دليل على أن هذه الحيوانات تضمن استمرار نسلها بسلسلة من الأفعال المنضمة. وهي جزء من تراثها الغريزي. أما من وجهة النظر الفيسيولوجية فالسلوك الغريزي هو سلسلة من أفعال انعكاسية مركبة، ولكن في بعض الأحوال على الأقل علينا أن نعتقد أن السلوك يخالطه شيء من الحذر والاجتهاد، ويجب أن يلاحظ انه كما أن النمل والنحل والزنابير تظهر في اغلب الحالات سلوكا غريزياً بحتاً، وتسير أحيانا على خطة التجربة والخطأ أو الابتكار التجريبي. وكذلك بين الطيور والثديات قد يحل السلوك الغريزي أحياناً محل السلوك المدرك ولعلة لا يوجد سلوك غريزي بدون شيء من الذكاء، ولا سلوك مدرك بدون عنصر غريزي. إن الفكرة القديمة القائلة أن السلوك الغريزي كان في الأصل سلوكا مدركا وان الغريزة نشأت عن الإدراك: لهي فكرة مخطئة لأنها تقوم على فرض غير مثبت، وهي تشير إلى القول بان اكتسابات الفرد تنتقل إلى النسل. وأغلب الظن أن الغريزة وال >كاء سارا على طريقتين مختلفين في حبلة التطور.

الذكاء الحيواني: وتقدم الحيوان في سلم التطور خطوة أخرى فكان له سلوك ينم عن الذكاء والإدراك، ولم يعد في استطاعته أن تستفيد من الاختبار فحسب، بل من التعلم بالتلقين أيضا. إن

هذه الأفعال المنطوية على ذكاء تتنوع بتنوع الأفراد، وهي قابلة للتحوير والتعديل بطرق فلما يصح تطبيقها على الغرائز التي لا يمكن لأي كائن حي أن يستغني عنها بدون أن ترتبك غلية الحياة وتتعقد عليه مشاكلها. فضلاً عن. ذلك فان السلوك الغريزي المدرك غير مقيد بظروف خاصة كما هو شأن السلوك الغريزي، وهناك ادله قاطعة على أن السلوك المدرك ناتج عن علم بقيمة العلاقات الكائنة بين الأشياء. يبدو إننا لم نعثر على دليل واضح يؤكد لنا أن الفعالية الذهنية التي نسميها محاكمة عقلية كائنة في الحيوانات التي هي تحت مستوى الإنسان. والواقع إننا لا نستطيع دائماً، أن نعتبر سلوك الإنسان عقلياً، بل يجب أن نقول أن في وسعه إظهار تلك القابلية متى شاء وحينما يتسنى له ذلك. لا شك أن تطور الحيوانات كان يلازمه دائماً تعقيد في الأعمال، وبراعة في السلوك حتى أصبحت تلك المخلوقات اكثر حرية واعظم سطوة في مجال الطبيعة، وأمست مؤهلاتها النفسية - كالتفكير والتعلم والشعور والإدارة - أكثر فأكثر أهمية.

بشير الياس اللوس (الموصل).

الزمن

أتينا في كلمة سابقة على تطور رأي العلماء بشان القضاء وكيف أن الجزء المعين منه لا يمكن أن يكون له قدر ثابت. ذلك لأننا نقيس الفضاء بحجوم الأجسام المادية التي تشغله، وحجوم تلك الأجسام تتغير بتغير حركتها. فالصندوق الذي حجمه متر مكعب وهو على سطح الأرض لو انطلق في الفضاء بسرعة أكبر من سرعة الأرض نقص حجمه عن متر. ولو تخلف عن الأرض وسار بسرعة اقل من سرعتها زاد حجمه عن متر. ويمكن أن يكون له أي حجم نشاء إذا نحن جعلناه يتحرك بالسرعة اللازمة. فالقول بأن حجم هذا الصندوق متر مكعب هو قول ناقص، ويجب أن نتممه بعبارة وهو على سطح الأرض. والآن نلخص تطوراً آخر بشأن الزمن يشبه من وجوه كثيرة هذا التطور بشأن الفضاء. ذلك لان الزمن أيضا لم يعد له قياس مطلق ثابت ولا سياق معين اللهم إلا في المكان الواحد، فعبارة ساعة من الزمن لا معنى لها إلا إذا قلنا بالنسبة لكوكب كذا كما إن عبارة ماض وحاضر ومستقبل لا يمكن إطلاقها إلا في نفس المكان. وقد انبنى هذا التطور على الحقيقة الآتية: من المعلوم أن الضوء يستغرق زمناً في انتقاله من مكان إلى مكان، فالشعاع الذي ينطلق من الشمس يصل إلينا على الأرض بعد ثماني دقائق من انطلاقه. ومن الأجرام السماوية ما يستغرق ضوءه في الوصول إلينا ساعة أو ساعات، أو يوماً أو أياماً، أو سنة أو سنين أو آلاف السنين أو الملايين السنين بحسب البعد بيننا وبينه. ومن المعلوم أن الإنسان لا يرى الشيء إلا إذا استقبل بعدسة عينة أشعة ضوئية منبعثة من ذلك الشيء تتركز على شبكة العين بهيئة صورة لذلك المرئي تحس بها أعصاب الأبصار، وعلى ذلك فالحادثة التي تقع على الشمس الآن لا نراها نحن إلا بعد ثماني دقائق، وكلما بعد االكوكب أبطأت أخباره في الوصول إلينا. هذه الحقيقة تبدو بسيطة ولكنها تولد مشكلات خطيرة نلخص بعضها فيما يلي: (أولاً) تصور أنك انتقلت فجأة إلى الكوكب يبتعد عن الأرض مسافة يقطعها الضوء في 14 سنة، وانك تستطيع هناك أن ترى ما يجرى في القطر المصري بالتفصيل، فما الذي تراه؟ أنك ترى من جديد حوادث الحركة الوطنية واضطرابات سنة 1919. ثم تمر عليكالحوادث سنة بعد سنة ولا تستطيع رؤية ما هو جار الآن إلا في سنة 1947. فأنت استطعت إذن أن تعيش الآن فيما هو بالنسبة لنا ماض، وذلك لمجرد انتقالك إلى مكان آخر من الكون كما إننا نعيش الآن فيما هو بالنسبة لك مستقبل للأنه لن يمر بك إلا بعد 14 سنة. (ثانيا) تصور انك بعد انتقالك إلى ذلك الكوكب وإشرافك من هناك على الحركة الوطنية المصرية، فضلت العودة إلى الأرض على جناح السرعة. وقطعت المسافة من هناك إلى هنا في ساعة واحدة (على فرض إمكان ذلك) فما الذي يبدو لك؟ انك ترى حوادث هذه ال 1سنة تمر عليك بسرعة وتنقضي كلها في ساعة. معنى ذلك ال 14 سنة في حساباً قد صارت في حسابك

ساعة، وذلك لمجرد تغير حدث في اتجاه حركتك وفي مقدار سرعتك. (ثالثا) تصور انك وأنت على هذا الكوكب فضلت زيادة الابتعاد عن الأرض ومن عليها وركبت شعاعاً ضوئياً يطير بك إلى الناحية الاخرى من الكون، فماذا ترى أثناء رحلتك؟ انك ترى على الأرض شيئاً عجباً: ترى كل شيء عليها قد وقف عن الحركة فجأة وثبت على حالة واحدة، كأنما قد أصاب كل ما عليها ومن عليها شلل تام. لذلك لأنه لم يعد يصل إليك منه ضوء جديد، وصارت تستقبل دائماً موجة واحدة فقط من لحظاتنا. فأنت والحالة هذه تعيش باستمرار فيما نسميه نحن لحظة واحدة. (رابعاً) تصور أن ابتعادك هذا كان بسرعة اكبر من سرعة الضوء، فما الذي تشاهده؟ انك ترى في هذه المرة اعجب العجب. ترى الحوادث الأرضية وقد بدأت يتلو بعضها بعضاً ولكن على غير النظام الذي مرت به علينا، وعلى عكس ذلك النظام. ترى أولا حوادث سنة 1919 ثم حوادث سنة 1918 ثم حوادث سنة 1917 وهكذا ذلك بأنك لا تستقبل الضوء منا بالنظام الذي انبعث به بل تلحق بالتدريج بما مضى منه موجة بعد موجة. وبذلك يستطيع أن تقلب نظام الزمن رأساً على عقب فترى حاضرة قبل ماضية وماضية قبل غابره. (خامساً) تصور أننا هنا على سطح الأرض نرقب كوكباً يبتعد عنا بسرعة كبيرة بحيث تبدأ الحادثة هناك، وفي أثناء وقوعها يكون الكوكب قد ابتعد عنا مسافة أخرى علاوة على بعده الأصلي، وتصور أن حادثة ما تستغرق ساعة من الزمان قد ابتدأت هناك ورأينا بدايتها. ففي الوقت الذي تتم فيه تلك الحادثة يكون الكوكب قد قطع مسافة جديدة يضطر الضوء لقطعها ثانية في زمن معين. وعلى ذلك فان الضوء الذي بدلنا على هذه الحادثة لا يتم تواردة علينا في ساعة بل في اكثر من ساعة من هذه الحادثة من حسابنا يزيد على ساعة. معنى ذلك أن حوادث ذلك الكوكب تبدو لك كشريط سينمائي بطيء كما أن لحوادث على الأرض تبدو لسكان ذلك الكوكب كشريط سينمائي بطيء.

القصص

آلة الزمان بقلم الأستاذ محمد فريد أبو حديد

سأقص حديثاً عجيباً. من شاء يصدقه فأني اشكر مع تقديري انه إما يصدقني لاعتقادي أنني لا اكذب، وإما إذا شاء أحد أن يكذبني فله ان يفعل وهو معذور. فان الناس لا يصدقون مايرونه بأعينهم، ولا سبيل إلى ان أريهم ما رأيت، وقد آثرت أن إذكر في حديثي هذا كل الأسماء على حقيقتها حتى إذا عرف أحد بعض هذه الأسماء ساعده ذلك على تصديقي، إذ ليسمن الممكن أن تبلغ بي الجرأة على الحق أن أذكر أسماء الناس علنا في صحيفة سيارة وأنا اكذب في قولي: أصبت في وقت من الأوقات بضعف في الأعصاب من الجهد المتواصل والهم المضي، فوصف لي بعض الأطباء أنواعاً من الرياضة. ولكن ابى الله ان يمكنني من ذلك العلاج. فقد زهدت في رياضة الصيد إذ رأيت فيها قسوة ومثله ووحشية، ثم زهدت في السباحة لأنني لم أجد مكاناً منعزلا ملائماً انزل إلى البحر فيه في أثناء الصيف، لان جسمي ليس بالجميل، وثياب الشواطئ كما لا يخفي على أحد مهلهلة تصف الأجسام على حقيقتها، ثم مارست ما سوى ذلك من أنواع الرياضة حينا فأصبحت بضعف في رجلي فلم استطع متابعة هذا السعي، لان الرياضي لا يليق به أن يظلع. ولكني جعلت ابحث عن تسلية ملائمة فوقفت إلى اختراع اختراعه الإنجليزي بارع وهو المؤلف المشهور (هـ. ج. ولز). وكان لاختراعه هذا رجة كبرى في الأوساط العلمية، ولكن هذا المخترع يحترف الأدب فأصابته محنة الأدباء فلم يقبل أحد على شراء اختراعه. فغضب حتى حطم النموذج الذي اخترعه وأبى أن يعلنه إلى الناس. غير انه لما بلغة ما أنا فيه من الحيرة بعث إلي بوصف اختراعه، وطلب إلي أن استفيد به ماشئت، ولكنه حرم على اطلع أحد عليه الا بإذنه فلا يطمع أحد في أن يسألني عن سر ذلك الاختراع. ومن شاء فليرسل إلى ذلك العالم وليسأله أن يبيع له الاطلاع على النموذج الذي صنعته أنا لنفسي، وذلك الاختراع بالاختصار هو آله دقيقة الصنع تحتاج إلى مهارة فائقة في الإدارة والاستعمال، كما تحتاج إلى مواهب خاصة فيمن يريد أن يستعملها. واخمد الله إذ كنت ممن منح هذه المواهب الخاصة، وهي مصنوعة من معدن لا يزال عجيب الخواص مجهول الكنه، ومن خواصه التي عرفت إلى اليوم انه شفاف ولا تبصر لاه الأعين في ضوء النهار إلا إذا وضع منظار من نفس المعدن على الأعين. ولهذا يسهل على الإنسان أن يترك الآلة المصنوعة منه في أي مكان بغير حارس ولا يخاف عليهااللصوص أو من عبث المارة.

ولا حاجة بي إلى إطالة في وصف هذه الآلة، ويكفيني أن أذكر اسمها وقد يكون بعض القراء قد سمع به من قبل وهي (آلة الزمان)، واسم هذه الآلة يدل عليها وعلى الغرض منها. ومن أراد التوسع في فهم أغراضها ونظرياتها وطرق أدارتها فعلية ان يستأذن صاحب اختراعها كما أسلفت في أول هذا الحديث. هذه الآلة بالاختصار عبارة عن حجرة صغيرة لها جدران شفافة من المعدن الذي وصفته، وفيها مقعد واحد لا يسمع إلا رجلا واحداً وفي داخلها أمام المقعد مفاتيح كثيرة يتحرك بعضها إلى أعلى وبعضها إلى أسفل وبعضها إلى اليمين والبعض إلى اليسار وهكذا في جميع الأنحاء التي يتصورها الذهن، وفي وسطها عجلة كبيرة تدور إذا قبض عليها الإنسان بيده وضغط عليها قليلاً. فإذا أمال يده نحو اليمين دارت يميناً، وإذا أمالها نحو اليسار دارت يساراً. وهذه العجلة هي أم الآلات في تلك الحجرة. فإذا بالحجرة كلها تدور دوراناً شديداً، ثم إذا بالجالس على الكرسي يعتريه دوار شديد ويفقد الحس حينا من الزمن ثم يصحو فينظر إلى ما حوله فيرى مناظر غير المناظر التي كانت حوله قبل ان يدير العجلة. لا بل انه يرى مناظر ما كان يحلم بوجودها قبل أن يضع يده على تلك العجلة.

والذي يحدث باختصار عند ضغط العجلة إن الإنسان إذا مال بيده نحو اليمين دارت الآلة، وتحرك لسان على لوحة أمام الجالس فهبط إلى اسفل، وعلى تلك اللوحة أرقام كثيرة، وعند ذلك ينتقل هذا الشخص الجالس في الآلة بطريقة عجيبة يطول شرحها - ولا اسمح لنفسي أن أذكرها بغير إذن - فإذا ذلك الجالس ينتقل على السنين نحو الماضي فيذهب إلى العصور الماضية ويرى نفسه يمر على السنوات الغابرة عاماً فعاماً. وكلما انتقل من عام إلى عام قبله تحرك اللسان على اللوحة مشيراً إلى رقم السنة. وأما إذا كان ميل الضغط نحو اليسار فان اللسان يتحرك على اللوحة إلى أعلى، فإذا بالجالس في تلك الآلة ينتقل على السنين نحو المستقبل فيذهب إلى العصور المقبلة ويرى نفسه في غمار الحياة في الأجيال الآتية. ويتحرك اللسان على اللوحة مشيراً إلى رقم السنوات المقبلة. حسبي الآن ما ذكرت من وصف الآلة فاني

أخشى من بعض أساتذة الجامعة في كلية العلوم أن يفطن إذا أطلت الوصف فيعرف سر هذه الآلة من ثنايا قولي بوساطة بعض طرقهم العلمية الماكرةمن الارثماطيقي والماتيماطيقي والفيزنيقي. او غير ذلك من العلوم التي لا علم لي بها. فانهم لو فعلوا ذلك لأوقعوني في ورطة، إذا أكون قد خدعت عن سر لا املكه ولا يحمل بي التصرف فيه. وقد كنت إذا شعرت بالسام يدب إلى نفسي انهض إلى هذا إليه فاجلس فيها وأدير العجلة الوسطى نحو اليمين فأذهب في العصور الماضية لأني شديد الحنين إليها لأنني لست ممن يرتاحون إلى الوقت الحاضر، ولا يرون في الحال المائلة حولنا شيئاً ترتاح إليه النفس أو يطمئن إليه القلوب فالناس فيه: شيوخهم فيهم وهن، وكهولهم فيهم حرص، وشبانهم فيهم طراوة ورخاوة. ولا فائدة في أن أعيد إلى القارئ مناظر تلك العصور الماضية فهي مائلة مصورة في كتب التاريخ إذا كانت غير مائلة مع الأهواء. وكنت أجد ما أحببت من السرور بالتجول في تلك العصور، إذ كنت اشبع كبريائي بما أراه من مجد الآباء والأجداد، وكنت إذا رأيت منظراً يؤلمني في عصر من العصور أسرعت بإدارة العجلة التي أمامي فانتقل مسرعاً حتى ابصر مناظر مجيدة في عصر آخر فأوقف العجلة وانزل من الآلة وأجول في أنحاء ذلك العصر حتى امتلئ سروراً، ثم ارجع وأدير العجلة فأعود إلى عصري ومنزلي خوف أن يقلق أهلي إذا أطلت عنهم غيبتي. وقد وقعت عيني مرة في أثناءعودتي إلى عصري على منظر استرعى انتباهي فأوقفت العجلة مسرعا ثم نزلت من الآلة لأشاهده. فقد رأيت رجلا من عامة أهل الريف واقفاً في وسط ساحة قريبة من (ميدان الأوبرا) وقد اخذ بتلا بية رجل على رأسه قبعة قذرة وهو ضخم الجسم ولكن وجهة بشع المنظر، وله عينان كأنهما عينا ذئب مفترس، وله أظافر طويلة ليست كأظافر بني الإنسان بل هي قريبة إلى أظافر النسور مقصوصة طويلة مدببة، وقد وقف حول الرجلين جماعة من أمم مختلفة، ولكن أكثرهم من أولاد مصر القاهرة ممن يسهل اجتماعهم حول أية ضجة تثور في طريق من الطرق، وهم لا يقصدون بذلك إلا إشباع رغبة الاستطلاع، ولا فرق بيني وبينهم وأنا ممتلئ مثلهم رغبة في الاستطلاع، ولا فرق بيني وبينهم غلا إنني لم اكن عند ذلك مستعدا للدعابة ولا للثرثرة. وبعد هنيهة علمت ان ذلك المبرنط دائن

لذلك الريفي وانه قد استولى على كل ماله في الريف حتى ألجأت إلى أن يهرب إلى القاهرة لاجئا إلى
أزقتها وجدران مبانيها متخذاً الأولى مغدي ومراحا والثانية مأوى. وقد استجدت ذلك الفلاح يوماً رغيفاً فأكل ربعه ودس الباقي في جيب ثوبه المهلل جاعلاً إياه ذخرا يلجأ إليه إذا عضه الجوع في ليلة لم يجد فيها من يطعمه لقمة. فكان جيبه بارزاً إلى أمام يخيل إلى من يراه إنه قد خبأ فيه شيء ذا قيمة وقد أراد سوء حظه أن يلقاه دائنه المبرنط وهو على تلك الحال فأسرع إليه الشك في إنه يخفي في جيبه دجاجة لها بيض ذهبي، وزاد الشك في قلبه وغلى دمه عندما تذكر أنه لا يزال له على ذلك الريفي مقدار من المال. فقال في نفسه (يا للعدالة أأكون دائناً لذلك الريفي ولا أستطيع أن أحصل على ديني منه؟ وهاهو ذا يسير طليقاً وفي جيبه دجاجة تبيض الذهب؟) وما هو إلا أن قال ذلك في نفسه حتى اندفع إليه وأمسك بتلابيبه. وما هو إلا أن فعل ذلك حتى أجتمع من رأيت حولهما من الناس ينظرون ويتكلمون ويمزحون وقد أراد ذلك المبرنط أن ينزع عنه ثوبه المهلهل ليرى ما تحته فأبى الرجل الريفي خجلاً من أن يرى الناس جسمه المشعر عارياً، فتشبث بالثوب وعلا النزاع بين الرجلين حتى بدأ النظارة يتدخلون بينهما ووقفت أنظر ما يؤول إليه أمر هذا النزاع، فما هي إلا برهة حتى رأيت الجميع يتألبون على الريفي حتى نزعوا عنه ثوبه، يبحثون عن الدجاجة ذات البيض الدجاجة. فلما تم لهم ذلك
المسعى لم يجدوا إلا رغيفاً مقطوع الربع مهشم الباقي. فلما راى الرجل المبرنط ذلك لم يرض أن يرجع عن هجومه ذلك خائباً، فأصر على أن يأخذ الثوب المهلهل ويترك الرجل عارياً، ثم فكر في أخذ الرغيف ولكن نفسه عافته، وظن أنه لم يجد له شارياً فتركه وقال: (عليك أن تشكرني أيها المماطل لأني تركت لك ذلك الرغيف تأكله وتملأ به بطنك وتنام في حين أنا لا أتقاضى منك ديني. يا للعدالة!). إلى هذا فهز كثير من الحضور رؤوسهم علامة الإعجاب والموافقة ولم يتكلم واحد منهم بكلمة. ولكني كنت حديث العهد برحلة في عصر ماض من عصور مجد بلادي وكان قلبي ممتلئا كبراً واعتداداً بنفسي. فأنفت أن أترك مواطني في هذا البلاء. فتقدمت نحوه وقد غلبني الغضب على الصمت وقلت للريفي بصوت عال: (هل لك أيها المسكين أن تشترك معي في استرداد ثوبك بالقوة؟) فنظر الرجل إلي نظرة ذات مغزى ثم نظر إلى منت حولنا وسكت فنظرت حيث رأيته ينظر فإذا بالنظارة يمزحون ويضحكون ويقلبون الثوب وهو مع الرجل المبرنط ويهنئونه
بحصوله على شيء من دينه، وكان أعلاهم صوتاً رجال مبرنطون مثله يبلغون العشرة عداً فعلمت من نظرة الرجل إنه يرى نفسه عاجزاً ولو مساعدتي على استرداد ثوبي ورأيت دمعة تسقط من عينيه وجثى على ركبتيه حياء من تعريض جسمه الضخم المشعر للأنظار، وكان فوق ثيابه معطف قديم كنت أحتاطه بلبسه في رحلات فخلعته صامتاً وطرحته فوق منكبيه فكساه إلى ملئت ركبتيه، فنظر إلي صامتاً نظرة كدت أبكي من وقعيها عندما لاقت نظري وتركته مسرعاً وعدت إلى اللآله فأسرعت بها عائداً إلى العصور الماضية أطلب التسلية في مناظرها. حتى إذا ما سرى عندي ما بي من الشجن أدرت العجلة وعدت مسرعاً إلى عصري ودخلت منزلي وكان أهلي قد قلقوا بطول غيبتي، ومنذ ذلك اليوم عاودتني كآبة كانت تظهر في حديثي وتدل عليها ملامح وجهي حتى لقد لاحظها بعض أصدقائي وكان فيهم جماعة من الشبان أولي الهمة فجعلوا يسألونني عن علة ما بي فذكرت لهم قصتي في ذلك اليوم الذي رأيت فيه ما رأيت من المبرنط والريفي. وذكرت لهم في قصتي حديث الالة التي أتجول بها في العصور الماضية طالباً التسلية من هموم الوقت الحاضر. فقال لي أحدهم وأسمه توفيق: (ولكن العجيب أنك لم تفكر يوما في أن ندبر تلك العجلة نحو اليسار) ولم أنتبه قبل الساعة إلى أن عجلة الآلة يمكن أن تدار إلى اليسار فسيكون التجول في عصور المستقبل بدل أن يكون في عصور الماضي. فقلت له وبي شيء من الارتباك (أنني لم أفطن إلى ذلك إلا ألان) فأجابني ذلك الصديق الشاب (أنني أعتقد أن السلوة لا تكون أبدا في العودة إلى الماضي. فان الغنى إذا أفتقر لا يسليه عن فقره أنه كان يوما ما واسع النعمة رافلاً في الغنى بل إن ذلك أدعى إلى أسفه وأسخن لعينه. ولكن الذي يسلي الفقير أن يتطلع إلى المستقبل ليرى أنه سيكون بعد ألمه في راحة وبعد إملاقه

في غنى. وكذلك الحال في السجين، فأنه لا يهدأ قلبه من ذكرى ماضي حريته، بل قلبه يهدأ وألمه يضمحل إذا فكر في قرب يوم الانطلاق) والحق أنني لم أتعلم من أحد مثل هذه الحكمة الصادرة من شاب غير مجرب. وقد شعرت بالخجل إذ رأيت أحد أبنائي في السن يعلمني حكمة غربت عن فكري، ولكني أحمد الله على أني في هذه الأمور أنزل عند الحق ولا تأخذني العزة بالإثم. فقلت له (إني شاكر لك تنبهي إلى هذا يا صديقي وسوف أقص عليك نبأ ما أرى) وما هي إلا ساعة حتى كنت جالساً على المقعد في تلك الآلة

المحبوبة ووضعت يدي على عجلتها وأدرتها ضاغطاً نحو اليسار. فرأيت اللسان يتحرك هذه المرة إلى أعلى وقد أشار إلى أرقام أعلى من رقم 1933. وقد عراني عند دوران الالة دوار شديد لم أشعر بمثله عند تجوالي في العصور الماضية فلم أفق من الدوار حتى كان اللسان قد بلغ رقم (2000) عند ذلك أوقفت حركة العجلة ونزلت من الالة وتركتها علىجانب الطريق الذي وجدت نفسي فيه، ولم أخش أن أتركها حيث هي وأسير إذ أني كنت على يقين من أنها في مأمن من الرقة لأني كنت كل الثقة من أنه ليس في الناس جميعاً من يملك منظاراً من معدن الآلة فيستطيع أن يرها إلا أنا والمخترع الأصلي للآلة وقد سبق لي ذكر أسمه. سرت بعد ذلك في طريق عجيبة لم تقع عيني على مثلها، فهي فسيحة لا يقل عرض أضيقها عن مائة متر. ويحف بها من جانبيها أبنية شاهقة هي أشبه بما نسمع في عصرنا الحالي في أمريكا وهو ما يسمونه (ناطحات السحاب) وكانت حركة الانتقال في تلك الطرق الفسيحة سريعة عنيفة حتى كنت أخطو الخطوة وأنا خائف أترقب، وكانت السيارات من كل نوع ومن صنوف لم أرى مثلها من قبل في عصري الذي أعيش فيه وما كان أشد عجبي عند ما رفعت رأسي إلى قمة هذه الأبنية فوجدت فوقها حركة عظيمة من طيور عظيمة تعدو وأخرى تهبط، ولكني عجبت أن تكون الطيور في مثل هذا الحجم وهي على البعد العظيم الذي بيني وبين قمم هذه الأبنية، وهمت أن أسال بعض المارين عن ذلك، ثم رأيت منطاداً طائراً يشبه ذلك المنطاد الذي آتى به (اكنر) إلى مصر في العام المنصرم في عصرنا هذا، ففكرت في نفسي قائلا: ألاتكون تلك الطيور طائرات ميكانيكية. ولم يطل بي أمد الحدس والتخمين فقد رأيت طائراً من تلك الطيور يهوي من العلو الشاهق إلى أسفل فإذا به يستوي على جانب الطريق وإذا به آدمي قد وضع على ظهره آلة ذات جناحين قد ربطها ربطاً محكماً في كتفيه وأعلى صدره. فما هبط على الأرض حتى حل الأربطة وعالج الآلة حتى أسترت على عجلتين كانتا خفيفتين ثم أدار لولباً في جانب الآلة فإذا بها تعدوا على نمط (الموتوسيكل) في عصرنا الحالي. وعند ذلك فقط عرفت كنه هذه الأسراب الطائرة فوق أعلى الأبنية. ومضيت في سيري وأنا اكثر علماً بأنني في عصر جديد وعهد غير ما عرفت في بلادي. وجعلت وأنا سائر أتلفت حولي تلفت المذهول الدهش كأنني بعض أهل الريف نزل عاصمة كبرى لاول مرة في حياته، فقلت في نفسي إنني أخشى أن أنا بعدت عن موضعي ألا أستطيع العودة إليه فليست هذه المدينة القاهرة التي ولدت فيها وعشت فيها طوال السنين، بل لقد غيرها مر الدهر أي تغيير حتى صارت غير ملائمة لحواسي وأعصابي، وعولت على أن أعود إلى الآلة التي حملتني إلى ذلك العصر المجهول فأحرك عجلتها وأعود من حيث أتيت. بينا أنا أفكر في عصر غير ناظر إلى ما حولي إذا أسرع إلى شاب فاختطفني اختطافاً ودفعني إلى جانب. وما هي إلا ثانية بعد ذلك حتى رأيت طائراً من تلك الطيور الآدمية قد نزل في الموضع الذي كنت واقفاً فيه ولو لم يدفعني ذلك الشاب لكان الطائر قد هوى على وحطم رأسي. فلما أفقت من ذعري خاطبني الشاب بلهجةاللوم قائلاً: ((أما ترى علامة انفتاح الطريق امامك؟)) فنظرت إلى حيث أشار بيده فوجدت إشارة حمراء وسهما مشيراً إلى أعلى فعلمت إن ذلك المكان موضع لرسو من أراد النزول من الطائرين إلى الأرض وان الناس قد اعتادوا إطاعة تلك الإشارات الحمراء وتحاشي تلك المواضيع. فاعتذرت إلى الشاب وشكرته ثم دنوت منه فسألته قائلاً: (أرجو أن تدلني على مكان محطة المترو هنا. فنظر إلى الشاب وتبسم ضاحكاً ثم قال: (لقد عرفت منذ رايتك انك لست من أهل القاهرة) فغضبت لهذا لاني لا اعتز بشيء اعتزازي باني من أبناء القاهرة الصميمين، وقلت له: (إنني منهم ومنزلي في مصر الجديدة في شارع. . .) وما كدت اكمل هذا القول حتى

ضحك وقال (مصر الجديدة! حقاً إنك رجل لطيف. تعال معي إلى هذا المجلس فإنني متعب وقد سرتني دعابتك. فمن أي الأرياف جئت؟). قال هذا وسار بي نحو مقعد عام على جانب الحديقة التي في وسط الطريق. وقد أعجبني من الشاب شهامته وخفة روحة فكظمت غضبي من إصراره على إنني ريفي، وذهبت معه وأنا مسرورة لأنني ووجدت رجلاً من أهل العصر الذي دخلت فيه أكلمه واعرف منه أسرار حياة الناس في أيامه. فلما استقر بنا الجلوس قال

باسماً: (إنت إذن من مصر الجديدة؟) فقلت له متحدياً: (نعم! أنا من هناك). قال: (انيس سمعت بهذا الاسم في التاريخ في أثناء دراستي في الجامعة، ولكن مصر الجديدة اليوم اسمها حي الشركة القديمة.) فقلت - (حي الشركة القديمة؟ ولكن ما معنى هذا؟) فقال إنني كنت ادرس التاريخ الاقتصادي في جامعة حوش عيسى وهناك. . . . .). فلم أتمالك

نفسي أن ضحكت هذه المرة متهكما إذ رأيت فرصة للانتقام. وقلت: (جامعة حوش عيسى؟ يالك من مداعب ماهر! ألا تعرف إنني عشت في إقليم البحيرة ورأيت حوش عيسى؟ جامعة حوش عيسى!) ثم اندفعت اضحك. فقال الشاب متعجباً من ضحكي: (لست ادري لماذا تضحك؟ نعم جامعة حوش عيسى. ألا تعجبك مدينة تعدادها اليوم فوق نصف مليون من الأنفس؟ وهل تسخر من مدينة هي مركز شركات صناعة القطن والحرير والصابون وعجلات السيارات وأجنحة الطيارات؟). فقلت له ضاحكاً: (ما أمهرك في الفكاهة يا أخي! لعلهم قد كشفوا هناك منجماً للفحم.). فقال الشاب: (منجماً للفحم؟ ولماذا؟ إن هناك اكبر مؤسسات استخدام أشعة الشمس. فهل من حاجة مع هذه المؤسسات إلى منجم للفحم؟) فأرجعت شفتي إلى نصابيهما من الجد وعلمت أن قول الشاب لا ينم عن هزل أو فكاهة. فقلت له معتذراً إذ كنت اجهل ذلك، ولكني أرجو أن تخبرني أي شعب له فضل إنشاء هذا المصانع؟). فنظر إلى متعجباً وقال: (الست مصريا؟ فقلت له مرتبكاً: (نعم أنا مصري. وكدت أخون نفسي فافصح له عن سرب حالي وحقيقة أمري ثم تدرعت بالحزم وقلت له: (ولكن أرجو العفو فقد غبت عن مصر مدة طويلة. فالحقيقة إنني انتقلت منها طفلاً ولم اعد إليها إلا اليوم، وكنت احب أن اعرف الموضع الذي كنت أعيش فيه وأنا طفل فسألتك عن محطة المترو لأذهب به إلى مصر الجديدة لذلك الغرض. فقال الشاب: (اعلم إن مصر اليوم لا يسمح فيها لشركة أجنبية ان تقوم بعمل. فهذا محرم في قانونها، ومنذ عشرات من السنين قد أفلست شركة مصر الجديدة لأنها ضاربت في بعض المشروعات الأجنبية، ومنذ أفلست استولت الدولة على مكانها وأطلقت عليه اسم حي الشركة القديمة، وهي حي متوسط بين حي (الملكة نازلي الذي نحن فيه الآن وحي ميدان الطيران الضغر الذي في الطريق المؤدي إلى مدينة السويس، ويمكنك الوصول إليه عن طريق تحت الأرض رقم 105 عن طريق السيارات رقم 50 شمال، وكنت اسمع قول الشاب وأنا في دهشة عظيمة من التغير الذي اعترى البلاد وأردت أن اعلفم علم تلك الشركات التي ذكرها الشاب في عرض حديثة عن مدينة حوش عيسى فقلت له: (ولكنك لم تقل لي لمن تلك الشركات التي تملك مصانع حوش عيسى) فقال الشاب: (هي مثل الشركات التي تملك مصانع بليسون الإسماعيلية وبور فؤاد: ومثل شركات مصانع السيارات والطيارات في أسوان. وشركات

استخراج الراديوم والألمنيوم وسائر المعادن في سواحل البحر الأحمر، ومشركات مصانع الفواكه والمربيات في وادي عربة الواقع في الصحراء في شرق مديريتي بني سويف والمنيا. فكلها شركات مصرية) فلم أتمالك أن اهتززت هزة قوية عندما ذكر الفتى ذلك ورفعت رأسي مباهياً كأنما هذه الشركات قائمة في عصري الحالي وكدت افخر قائلاً أنا من بني مصر هؤلاء. ولكني ذكرت أن فخر ذلك ليس لي فاني من أهل جيل لم يحن لهم أن يفاخروا بمثل هذا. ورأيت الفتى يستعد للقيام فسألته وأنا آسف لفراقه: (إلى أين؟) ولقد وددت أن أبقى معه حتى اعرف كل ما في حياة مصر في عصره من التجديد البديع، ولكنه أجاب إجابة حاسمة: (اعتذر لك لاني ذاهب لسماع خطاب رئيس شركة قناة السويس في البرلمان في موضوع هام خاص برسوم البحارة في تلك القناة) فسألته: (وكيف يكون رئيس تلك الشركة عضواً في البرلمان؟) فنظر ألي متأففاً من غبائي وقال: (ولكن لم تعجب لذلك؟ أليس مصرياً؟)

فخجلت إذ عرفت إنني دائماً أنسى واخلط بين عصري وذلك العصر الجديد الذي نزلت به. ومد الفتى يده إلى
مسلماً وقال: (لعلنا نلتقي بعد!) فسلمت عليه باسماً وشكرته ولكنني لم املك نفسي أن سألته سؤالاً كان يحول بنفسي طول المدة التي جلست فيها معه فقلت: (ولكن ماذا فعل الإنجليز. ألا يزالون على عهدهم) فرفع الشاب رأسه عالياً وشمخ بأنفه وقال لي غاضباً: (حسبك أيها الرجل. ما ظننت انك تبلغ بي إلى هده الإهانة.) فقلت معتذراً: (أية اهانة؟ انني لم اقصد شيئاً من ذلك) فقال وهو يسير: (انك تذكرني بعصر مضى منذ بعيد. قضى على بلادي أن تخضع له حيناً من الدهر أيام كان أهلها فيهم رخاوة وضعف، ولكن ماذا يدخل الإنجليز اليوم في أمورنا ولهم من أمورهم في بلادهم ما يملأ دائرة اهتمامهم؟) قال هذا وسار مسرعاً وتركني وحدي لا املك رأسي ما بها من الدوار. فوضعت منظاري على يميني وجعلت بنظري حتى رأيت الآلة حيث تركتها وأسرعت إليها فأدرتها وعدت إلى عصري ورأيت المناظر التي أعدتها منذ عشت، وعدت إلى منزلي فقضيت ليلة مسهدة بين آمال وهموم. وقد زارني أصدقائي في اليوم التالي فقال لي توفيق: (لعلك رأيت في العصور الآتية ما يذهب عنك الم الحاضر) فقلت: (لن تراني بعد اليوم مقطب الجبين. سوف أسعى بقدر طاقتي لعلي أكون موفور النصيب من بناءس ذلك المجد المقدور. ثم حكيت له قصة ما رأيت وقلت له: (ليحمل كل منا أمانته إلى أبناء الجيل الذي بعده. فهذا مجد محتوم. هذا أمل محقق ان شاء الله)

هاكم قبعة أخرى

تأليف لويجي براندللوا

وترجمة الدكتور محمد عوض محمد.

ولد لويجي بيراندللو في 28 يونيو سنة 1867، في إحدى القرى بجزيرة صقلية) ودرس في روما وفي ألمانيا، ثم عاد إلى روما واحترف أولا مهنة التدريس، وانصرف في جهوده الأدبية أولاً إلى الشعر، ثم إلى التأليف القصصي: ثم المسرحي وقد سلك في بادئ الأمر مسلك جيوفاني فرجا الروائي الصقلي الشهير. فكان يتخذ من قصصه وسيلة لوصف أهل صقلية ومعيشتهم وطباعهم: لكنه ما لبث أن ظهر أسلوبه الخاص. في رواية الشيوخ والشاب وفي قصة المرحوم ماتيا باسكال. واكبر ما يعاب على بيراندللو تغلب العقل على العاطفة في مؤلفاته ونظره إلى الأشياء على غير حقيقتها. وإغراقه في التحليل وتشاؤمه. ولكن براعته ومقدرته كانت موضع إعجاب شديد في جميع أوروبا. وقد ترجمت قصصه وتأليفه المسرحية إلى 15 لغة. ومثلت قطعته المسرحية باللغة الإيطالية في إنكلترا وفرنسا وسويسرة وفي ألمانيا فقوبلت بحماس بعد أن قضى دييجو برونو ساعات (.شديد. وكان المؤلف نفسه يشرف على إخراجها طوالاً يتمشى، بلا قصد ولا مأرب، على ضفاف نهر التيبر، في ذلك الحي الهادئ المسمى براتي دي كابتللي في مسيرة جدران الثكنات، ومبتعداً قدر جهده على ضوء المصابيح، أحس فجأة أن التعب قد نال منع فتوقف هنيهة تحت ظل شجرة، ثم صعد البرابي المطلة على النهر. . وهناك جاس موليا وجهه تلقاء النهر، ومدلياً رجليه من فوق السور. ومن تحته الماء يتدافع في جريانه بصوت مبهم غامض، وقد انعكست على صفحته القاتمة أضواء مرتعدة مضطربة أرسلتها مصابيح الضفة المقابلة وشمل السكون المكان، فلم يكن ينبعث من المنازل المقابلة صوت، ومن وراء تلك المنازل، على
بعد شاسع كان يبدو شبح مدينة روما. وفي السماء قطار يتدافع من السحب الصغيرة، ذات اللون الرمادي الشاحب. وكإنما كانت تهرول مسرعة، لكي تلبي دعوة داع قد أهاب بها من المشرق إلى اجتماع غامض عجيب، وقد اشرف القمر من فوقها كأنه يستعرضها وهي تمر سراعاً بين يديه. جلس الفتى من غير حراك، وقد ولى وجهه شطر السماء، محدقاً في تلك
السحب. التي استطاعت بجريانها السريع أن تكسب الليلة المقمرة نشالها وحركة. لا شك أن هذا أحد الناس. قد وقف ليرقب مثله منظر الليل ولكي يتأمل في تلك السحائب وهي تمضي سراعاً، وإلى القمر في السماء إذ يستعرضها، وإلى تلك المياه المظلمة القاتمة، وما انعكس عليها من شعاع مرتعد مضطرب. ثم تنهد تنهد الحزين،

فان إحساسه وجود رجل آخر ضايقه، وافسد عليه تلك اللذة الحزينة التي يبعثها شعوره بالوحدة، ومن حسن الطالع انه كان يجلس في الظلام، فعسى القادم ألا يراه، والتفت لكي يستوثق من الأمر. وجعل يحدق في هذا الغريب. يا عجباً! ما خطب هذا الرجل وقد وقف جامداً فريداً وحيداً؟ ثم ما هذا الشيء الذي بيده كأنه حقيبة صغيرة؟ لا ليست هذه حقيبة. بل قبعة. . . وبعد فماذا عساه أن يفعل؟ رباه! انه يصعد السور. .

أتراه يريد أن يرتكب. . ويلاه. . ما هذا؟ وتراجع دييجو بغريزته إلى الوراء، مغمضاً عينيه، حابساً نفسه، ومادا يده إلى الأمام كأنما يدفع شراً، وهو يتوقع سماع صوت ذلك السقوط المروع في الماء الذي تحته. حادث انتحار. . . يا عجباً. . كيف يجوز مثل ذلك؟

ثم فتح عينيه، وجعل يحدق في الماء تحديقاً شديداً وهو يحاول أن يخترق ببصره أعماقه السوداء. فلم تقع عيناه على شيء. . . الصمت شامل والهدوء باسط جناحيه. .

لا صياح ولا نداء ولا صوت. فيا عجباً! ألم يره أحد، ولم يسمع صوته إنسان؟ هنالك تحت لجج النهر رجل يغرق، ولعله الآن يكافح في يأس وفي جهد. . . كل هذا يجري وهو جالس في مكانه مرتعداً عاجزاً خائراً!. . . أما يحمل به أن يبادر فيطلب النجدة!

أو يصيح بأعلى صوته ولكن هيهات. . لم يعد يجدي الصياح والاستنجاد! لقد رضي أن يبقى مختبئاً في مكانه المظلم، تاركاً ذلك المسكين يغرق!. . جمد في مكانه كالصخرة الصماء، حابساً نفسه، سائلاً نفسه من آن إلى آن: أحقا قضي الأمر. . قضي الأمر؟ وبعد حين جعل ينظر فيما حوله. . لعل الأمر كله حلم رآه! إن كل شيء باق كما هو لم يتغير: المدينة راقدة تحرسها المصابيح، وسط سكون عميق كما كانت من قبل، والأضواء ترتعد على صفحة الماء القاتمة بأشعة ثعبانية ملتوية. . لم يتغير في هذا المنظر كله سوى شيء واحد: فلقد كان على عمود مصباح من المصابيح قبعة الرجل بقيت هناك حيث تركها، وكان المصباح يرسل عليها شعاعاً شاحباً مشؤوماً. . وكانإليه ،أن تلك القبعة تؤنبه وتتهمه. . فأخذ يرتعد فرقاً. ثم نزل مسرعاً من فوق البرابي وجعل يعدو ومنزله مستتراً بظلام الليل. (دييجو! دييجو! ما خطبك؟) (لا شيء يا أم! وما عساه أن يكون خطبي؟) (لست ادري أيها العزيز. . . غير أني. . . حسبتك. . . لقد جئت متأخراً الليلة فهل أهيئ لك حجرتك الآن؟) فالتفت الفتى إلى أمه مغضباً، وقال: يا عجباً لك! انك! تسألينني هذا السؤال كل ليلة من ليالي عمري!) وكان هذا الرد كأنه سوط يستحثها، فاندفعت العجوز الصغيرة الجسم نحو الحجرة وهي تجر إحدى رجليها.

اتبعها الفتى نظرات قد امتزج فيها الغيظ والكمد ورآها وهي تختفي آخر الدهليز، فتنفس الصعداء إشفاقا عليها، ثم لم يلبث أن عاود الضجر والكمد. وقد بقي ينتظرها - دون أن يعرف للانتظار سبباً، ولا ماذا عساه أن ينتظره - في هذه الحجرة المظلمة، ذات السقف القذر والجدران الممزقة الورق، التي اتخذتها الأم لصناعة الثياب حجرة صغيرة كئيبة قد غصت برخيص الأثاث، وبعدد الحياكة المختلفة: آلة للخياطة، مقص مستطيل، تماثيل سخيفة ذات صدور ضخمة، شريط مقاس، قطعة من الطباشير، أكداس من صور الأزياء ذات الابتسامة الكالحة. . . وكلها أشياء قد ألف دييجو رؤيتها فلم تعد تستلفت نظره. لقد عاد إلى منزله، يحمل

في رأسه صورة كأنها منظر شاهدة في مسرح، صورة تلك السماء العجيبة، تغشاها السحائب الصغيرة الخفيفة. ومنظر النهر القاتم، قد انعكست في صفحته أضواء المصابيح والمنازل العالية على الضفة المقابلة، وذلك الشبح البعيد لمدينة روما، وذلك الجسر الممدود. . ثم تلك الأقنعة! كانت أمامه صور كل تلك الأشياء الجامدة، حاضرة لكنها غائبة. وكذلك هو. . لقد كان حاضراً غائباً. جلس في مكانه المظلم يرقب الرجل وهو يغرق. . فكأنه لم يكن هناك، وكأنه كان غائباً، فلم يحرك ساكناً، ولم يفتح فمه، ولم يستنجد. والآن قد رجع إلى داره وقد ملكته الحيرة، واستولى عليه الذهول، كأنما كان ما سمعه ورآه لم يكن سوى حلم نائم. . لم يلبث أن رأى قطة كبيرة، ذات فروة رمادية ناعمة. وثبت فوق المائدة، وجعلت تنظر إليه بعينين خضراوين خاليتين من كل معنى، هذه قطة الدار، اتخذوها لصيد الجرذان. غير أنها منذ أيام انتزعت من الجدار قفصاً به عصفور جميل. . ثم لم تزل تحتال دائبة، تدفعها القسوة والنهم، حتى استطاعت أن تخرج العصفور من بين القضبان. ثم التهمته. وقد حزنت أمه لهذا حزناً شديداً. . بل انه هو أيضا قد آلمه أن يفترس ذلك

العصفور المسكين على هذه الصورة، أما القطة، فهل تأثرت أو أحست ندماً على ما ارتكبت؟ كلا! بل ها هي ذي جالسة في سكون وطمأنينة، كأن لم تقترف ذنباً ولئن رفعها بعنف على المائدة فإنها لن تعرف لهذا الاضطهاد سبباً. عجباً ألا يستطيع هو أن يكون مثلها؟ إلا يمكنه أن يقترف الإثم كما فعلت هذه الهرة، ثم ينسى كل شيء بعد ارتكاب الجريمة بلحظة؟ إن الآفة الكبرى التي تستحقه وتعنيه هي انه يتذكر. يتذكر أبدا ويعلم أن الناس سيذكرون أبدا. لكنه يخيل إليه انه في هذه الليلة يرى الأمور في ضوء جديد. مثلاً: نظرته إلى أمه. . انه لم ينظر إليها الليلة كأنها أم. . . بل امرأة عجوز كأمثالها من النساء. . ذات جسم ضخم وانف غليظ قد اعوج قليلاً أحد جانبيه. ولها شامة كبيرة في قاعدة منخرها الأيسر، وخداها الشاحبان تغشاهما خطوط زرقاء من الأوردة الدقيقة. وقد تدلى كل خد في ترهل وضعف. . وقد جعلت تنظر إليه بعينين متعبتين خائرتين. وحين حدق في وجهها أطرقت بعينها، وقد ملأها الخجل والعار. . ولكن مم تخجل الأم؟ لقد كان يعرف جد المعرفة سر هذه الخجل، وهذا الشعور بالعار. وأخيراً ضحك ضحكة الساخر. وقال ((عمتي مساءً أماه!)) وانطلق إلى حجرته، واغلق بابها.

جلست الأم إلى مائدة الحياكة، لكي تتم خياطة ثوب، ستحضر صاحبته في طلبه في الصباح. لكنها لم تجلس لتتم عملها فحسب، بل لكي تفكر قليلاً. . ماذا عساه قد جرى لفتاها الليلة؟ طالت غيبته ولم يرجع إلا متأخراً. وكانت تغشاه رعدة. ووجهه شاحب كأنه خرقة بيضاء. . وليس الشراب سبب هذا الاضطراب. إنها لم تنشق من فمه رائحة الخمر وليس دييجو من الشاربين. ومع ذلك، فليس من شك في انه قد ألم به اليوم حادث. أتراه قد التقى من جديد بأولئك الرفقاء الأشرار. الذين كانت صحبتهم وبالاً عليها ودماراً. ذلك ما كانت تخشاه:: نهضت من كرسيها، ومشت على أطراف قدميها حتى وصلت إلى باب حجرته. وأنصتت، فلم تسمع صوتاً لعله إذن قد آوى إلى فراشه وقد غشيه النعاس. . عادت إلى حجرتها. وأخذت تجد في إتمام عملها. كانت من آن لآن تنزع المنظار عن عينيها وتمسحه. لقد كانت من قبل وليس لها مورد رزق سوى ما كانت تمنحه من معاش كإحدى الأرامل. وكانت تجد في هذا كفايتها. أما الآن وقد فقد دييجو منصبه وأضحى بلا عمل. فقد اضطرت إلى السعي والاكتساب. وفوق هذا قد خطرت لها فكرة: وهي أنها تستطيع بفضل جدها واقتصادها أن تجمع من المال ما يكفي لإرسال دييجو إلى أمريكا. إذ لا بد للفتى من فرصة كي ينشد حظه من جديد. أما ها هنا في إيطاليا فقد سدت في وجهه السبل، وهذه البطالة التي اكره عليها إكراهاً توشك أن تأكل روحه وتقضي عليها. أمريكا إذن.

إن أمريكا هي وحدها المكان الصالح له، فلا بد من إرساله إلى أمريكا ولو كان في هذا موتها وفناؤها. لا بد أن يفتح لولدها باب الحظ. . . ولدها هي. . . ذلك الفتى الكريم. . لله ما أطيبه! وما أجمله، بل وما أقدره وما أذكاه! ألم يكن من قبل قادراً على الكتابة والتحرير. حتى لقد نشرت له الصحف بعض ما كتب؟ ثم ما جرمه الذي اجترم، وما ذنبه الذي اقترف؟ لم يكن الأمر سوى ضرب من عبث الشباب، والذنب فيه راجع إلى لأولئك الرفقاء الأشرار، وإلى ذلك الروسي أو البولندي، أيا كان وأيا كانت جنسيته. . ذلك الأجنبي القذر، ذلك السكير المهين، الذي جاء إلى روما لكي يسوق أبناء الأسر الشريفة المبجلة إلى الدمار والعار، فوا أسفاه على أولئك الفتيان البله، كيف ضاع رشادهم، وضلوا عن طريق الصواب، إذ دعاهم ذلك الأجنبي الكثير المال إلى منزله، فطاشت أحلامهم ما بين كؤوس الخمر والنساء وضروب اللهو. . ويصل ذلك الروسي المقامر على أن يأتي بالورق ويلح عليهم أن يلاعبوه، اجل كان يلح عليهم إلحاحا. ولئن كان قد خسر نقوده. فذلك جزاؤه على إصراره وعناده. لكنه بعد هذا يذهب ويا للعار! فيتهم أصدقاؤه بالغش والتزوير. ثم يسعى في مقاضاتهم لكي يجلب إليهم الدمار مدى الدهر. . سمعت الأم صوتاً كأنه صوت بكاء مكتوم ينبعث من حجرة ابنها، فنادته: (دييجو!) فلم يرد جواباً. أنصتت مرة أخرى، وألصقت إذنها بالباب، انه مستيقظ، فما عساه يصنع الآن. انحنت ونظرت من ثقب المفتاح. . رحماك اللهم! انه يقرأ. . عاد إلى مطالعة تلك الصحف الكريهة التي اشتملت على تفاصيل المحاكمة، فلماذا. . لماذا يريد أن يعود إلى قراءتها. . وفي هذه الساعة من الليل؟ ونادته بصوت عال: (دييجو!)

ثم فتحت الباب فالتفت أليها، وهو يثب فزعاً. وقال: (ما الخطب يا أم، ما بالك لم تأوي إلى فراشك!) قالت: (وأنت، ما بالك لم ترقد في فراشك بعد؟) فتكلف الابتسام وجعل يمد ذراعيه. (أنا؟ إني أتسلى قليلاً) فقالت العجوز وهي تعصر يديها عصراً: (دييجو! دييجو! احرق هذه الأوراق! استحلفك أن تحرقها. . لماذا تريد أن تؤذي نفسك؟ ماذا يجديك هذا كله؟ انس ذلك الحادث تماماً!) فنظر إليها وهو يضحك. (شيء بديع!. . كأني إذا نسيت ذلك الحادث فقد ينساه الناس جميعاً! ما أبدع هذا! وما أسهلها وسيلة! ننسى الحادث كلنا في لمحة الطرف! ثم نتساءل هل حدث شيء؟ لا. . . لا. . . لا شيء مطلقاً. . . السجن! كلا لم يكن هنالك سجن. بل كان ما في الأمر أني سافرت. . . في إجازة خارج القطر. . . إجازة بديعة دامت ثلاث سنين) ثم قال مغيراً لهجته: (يا أماه! هذا عبث لا طائل تحته. فلنتكلم في موضوع آخر. ألا ترين أني قد قضى على القضاء المبرم؟ ألا ترين كيف تنظرين - حتى أنت - إلى؟) (لا يا دييجو. . . لا. . . انك على خطأ وكل ما هنالك أيها العزيز إني كنت انظر. . . اجل كنت انظر. . . إلى ثيابك. . . فقد باتت رثة. لا بد لك الآن من بذلة جديدة.) فنظر إلى ثيابه نظرة فحص وتحقيق. ثم ضحك وقال: (إذاً أنت تظنين أن هذا هو السر في تحديق الناس بي كلما رأوني! لست أنكر أن ثيابي قد امتدت إليها يد البلى قليلاً، ولكن هذا القدر القليل ليس بشيء ذي خطر وأنا شديد الحرص عليها. البسها في عناية، وامسحها واكويها. والحقيقة أن مظهري حين البسها لا بأس به مطلقاً. فهو مظهر الرجل الفاضل، الذي يستطيع أن يتخذ مكانه في العالم على غير استحياء ولا خجل. . . فدعى هذا الكلام! فليس ورت‌ءه من طائل!. . أماه ألا ترين انه قد قضى على القضاء الأخير) ثم أشار إلى الأوراق التي بين يديه: (أن البلاء كل البلاء، هنا، في هذه الأوراق وحقيقة الأمر أننا اطلعنا الجماهير على لعبة ورواية مدهشة. فهل تحسبين انهم ينسونها بكل هذه السرعة؟ لا أظنهم جاحدين بهذا القدر. . . ويا لها من رواية تلك التي أريناهم. . . رواية تتمثل فيها الأرواح عارية دنيئة ملوثة، وهي تحاول أن تختفي عن الأنظار، يوم كان كل منا يجذب رداء المحامي الذي يدافع عنه لكي يستر به عاره، اجل كانت رواية مدهشة رائعة. أتتذكرين كيف ارعد الناس ضاحكين في ساحة القضاء حينما سمعوا ما فعلناه بذلك الروسي يوم أن ألبسناه الزي الروماني القديم وألبسناه الخفين، على ما له من انف افطس ووجه منقط، ورأس مستدير، ومنظار ذهبي، ثم جعلنا ندفع ذلك الخنزير السمين دفعاً، ونضرب رأسه بخفيه وكلما أوسعناه ضرباً ازداد طرباً. لأنه قد اخذ من السكر) (دييجو! استحلفك!) (اجل كان سكراناً، ونحن الذين أسكرناه.) (لا. لا. لم تكن أنت الذي فعل هذا، بل الآخرون. . .) (وأنا أيضا. . . أتعلمين يا أماه أن هذا كان كله من سبيل المزاج. لقد كنا نعبث به ونمزح. ثم تناولنا الورق لنلعب، وكان من السهل أن نربح. والرجل قد ذهبت بعقله الخمر.) (دييجو! استحلفك!) (قلت لك إننا كنا نمزح، هذا وحقك يا أماه، هو الصدق الذي لا مرية فيه، ولكني حين ذكرت هذا في دار القضاء ضج الناس بالضحك، اجل حتى القاضي. . بل لقد كان هو أشدهم ضحكاً. . ضحك الجميع من قولي هذا. . الجميع. . حتى رجال الشرطة. ومع ذلك فقد كان هذا هو الحق. فلقد كنا نرتكب الغش، ونحن لا ندري. أو إذا كنا ندري فما كنا نرى أنفسنا إلا مازحين وهل كانت سوى أموال رجل قذر معتوه، وكانت تنصب من جيبه انصباباً، كما انصبت من جيوبنا فيما بعد. حيث كنا نبذرها تبذيراً في بلاهة وجنون، حتى لم يبقى لدين منها درهم واحد.) ثم التفت إلى خزانة الكتب واخرج منها كتاباً. (هذا كل ما بقي لي من تلك الأموال. فقد مررت يوماً ببائع كتب واشتريت منه هذا الكتاب.) ثم التقى بالكتاب على المائدةفإذا هو ترجمة فرنسية لكتاب جون رسكن المعروف (تاج من أغصان الزيتون). وجعل يحدق في السفر مطبقاً حاجبيه. عجباً كيف خطر له في تلك الأيام أن يشتري هذا الكتاب؟ لقد اعتزم إلا يعود إلى المطالعة، وإلا يخط حرفاً أبدا. وما دعي إلى الذهاب لذلك الروسي سوى عزمه على أن يخمد جذوته، وان يقتل في نفسه حلماً كان يملؤها: حلما بأنه سيغدو يوماً كاتباً ومؤلفاً. ذلك كان حلم شبابه. ولكن الفقر الأليم الذي نزل بأسرته جعل تحقيق هذا الحلم أمرا محالاً. ولهذا صح عزمه على أن يقتله قتلاً. وقفت العجوز تتأمل هي أيضاً ذلك الكتاب الغريب، وبعد لحظة قالت في شيء من التردد: (أترى يا دييجو. . . لو انك عاودت

الكتابة) فنظر إليها نظرة كريهة كئيبة، انقلبت لها سحنته وشاهت صورته. لكنها عادت إلى الكلام وقالت: (ماذا يضرك أن تحاول؟ ماذا يدعوك إلى اليأس، وأنت بعد فتى لم تتجاوز السادسة والعشرين ومن يدري لعل لك في الحياة حظاً جديداً ننسى به ما قد مضى. .) فقاطعها، وهو يخاطبها في سخرية وتهكم: (نعم حظ جديد ما اكثر الحظوظ الجديدة اجل ولعمرك لقد أصبت الليلة حظاً جديداً. فلقد شاهدت بعيني رأسي رجلاً يلقي بنفسه في النهر. وجلست في مكاني أراقبه دون أن أحرك ساكناً.) (ماذا تقول يا دييجو؟ أأنت شهدت حادث انتحار الليلة؟) (اجل أنا شاهدت رجلاً ألقى بقبعته على البرابي. ثم صعد وألقى بنفسه في النهر في هدوء وسكون وجلست أنا في موضعي، منصتاً لصوت
سقوطه في الماء، وكنت على بضع خطوات منه، جالساً في ظل شجرة، وكان كل ما فعلته أن جلست في مكاني وتركته يغرق. اجل ذلك كل ما فعلت ثم استولي على الذعر فجأة، حين أبصرت قبعته التي تركها خلفه. فلذت بالفرار) (أنت تعلم يا عزيزي انك لا تعرف السباحة. فاني لك أن تقوم بمساعدته وإنقاذه؟) كان في وسعي أن أصيح واستنجد. أو على الأقل أحاول إنقاذه. فقد كان إلى جانبي درجات من الحجر نازلة إلى النهر، لم يكن بيني وبينها غير مترين. أتعلمين إني رأيت هذه الدرجات. اجل رأيتها في وضوح ومجلاء. . ولكني تجاهلت رؤيتها. ثم لم تك إلا لحظة حتى قضي الأمر وغاب عن الإبصار) (ألم يكن بالمكان أحد سواك؟) (كلا لم يكن بالمكان غيري) (لا بأس عليك يا دييجو وماذا عساك أن تصنع وحدك. فلا تبتئس انك متعب منهوك القوى. ولقد هذا كل ما هنا لك ولقد أخذت ترتعد لسهول ما رأيته الليلة. والآن فلتذهب
إلى فراشك ونم لكي تنسى كل شيء) وتناولت يده في شيء من التردد وجعلت تمسحها بكفها. وأجابها على كلامها بهزة رأسه. وقال لها وهو يبتسم (عمتي مساءً يا أماه!)
لقد اثر في نفسها انه سمح لها بان تمسك يده وتمر عليها بكفها (!نم هانئاً يا بني) مراراً. وجعلت تمسح عينها من خلف مناظرها. ثم أطفأت المصابيح وذهبت إلى فراشها وهي تفكر في تلك اللحظة التي سمح لها فيها أن تلاطفه تلك الملاطفة. لم تمض ساعة حتى كان دييجو برنر في مجلسه الأول على البرابي، في ظل تلك الشجرة. وقد جلس كما كان يجلس من قبل ناظراً إلى النهر، ومدلياً رجليه. وكانت السحائب لم تزل تغشى السماء في لونها الرمادي الشاحب وكأن لم يتغير شيء مطلقاً. . بل لقد تغير شيء واحد: فان القبعة قد اختفت. واكبر الظن أن أحد رجال الشرطة قد رآها في تجواله فأخذها. نزل دييجو فجأة عن البرابي ومشى نحو الجسر. ثم انتزع قبعته عن رأسه. ووضعها في نفس المكان حيث كانت قبعة ذلك الرجل الغريب. ثم تبسم وقال: (وهاكم قبعة أخرى!) وكأنه ما فعل هذا لا ليمزح؛ كأنما أراد أن يمازح رجال الشرطة. وعاد إلى مكانه في ظل الشجرة. وجلس برهة يتأمل القبعة، معجباً بمنظرها وكأنه لم يكن له وجود. . ثم اندفع فجأة يضحك ضحكاً عالياً وحشياً. لقد بدت له القبعة كأنها فأر، وكإنما هو قطة ترقبها. . وجعل يتدلى من البرابي شيئاً فشيئاً. . ملقياً بنفسه إلى النهر على مهل. وقد امسك الحاجز الحجري بقبضتيه. فأحس
بقلبه يثب وشعر رأسه يقف، ثم أحس بقبضتيه. . وقد أخذتا في الارتخاء. وانفرجت أصابعه؛ فهوى من النهر. . إلى الفناء. .؟

الكتب

جان دارك

في سبيل الوطن

تأليف الأستاذ غانم محمد

هذا كتاب ألفه الأستاذ غانم محمد فاخرج به للناس درة من اثمن ما تحوي لجة التاريخ من درر، ونشر صفحة من اسطع ما طوى الدهر من صفحات. وهو بهذا الكتاب قد أذاع في الناس مثلاً أعلى للتضحية والفداء، ونموذجاً ساميا للوطنية المشتعلة الصادقة ممثلة في جان دارك، التي ارتفعت إلى مستوى القديسين وأولياء الله الصالحين. وما قولك في فتاة ريفية ساذجة لم تتجاوز من عمرها ثماني عشرة سنة قضتها في العمل المنزلي ورعي الغنم، تتصدى لإنقاذ الوطن من الاستعمار الإنجليزي الذي انشب

أظافره في الأعناق ولم تكن لتزحزحه جحافل الجيوش. وكأنما أرادت عناية الله تبعث بهل لتخليص وطنها، فبينما هي جالسة في يوم من أيام الصيف في ظل دوحة ترعى غنمها. إذا بأوراق الشجر تهتز والأطيار تطلق أغاريدها عالية في الفضاء، فانتبهت جان من إطراقها ورفعت رأسها نحو الشجرة وأغصانها التي اهتزت فجأة. فشعرت برعدة تمشى في جسمها طولاً وعرضاً، ورأت السماء تنشق عن نور ساطع ينبعث من بينه هاتف يناديها ويردد اسمها ويقول لها في وضوح: (جان! جان! لا تخافي، كوني ابنة طيبة، فسوف تذهبين لنجدة ملك فرنسا) فتقدمت جان في ذهول نحو الصوت، فرأت أن التي تخاطبها هي القديسة كاترين وان التي بجوارها هي القديسة مرغريت، فانتفضت جان وتولد فيها شعور غامض من طرب وذعر، واعتزمت من فورها إنجاز ما تطلبه السماء، فالتمست حاكم

المنطقة تطلب إليه أن يرسلها إلى مليكها لكي تعينه بإذن الله فسخر منها هذا الحاكم ما وسعته السخرية، ولكنها أخذت تطلب وتلح في الطلب لآن أصواتها السماوية أمرتها بذلك وليس لها عن طاعتها مجيد، وما هي إلا أن أرسلها لحاكم في حرس عسكري إلى حيث ولي العهد - وقد مكر به الإنجليز وأقصوه على العرش بحجة عدم شرعيته لضم فرنسا إلى إنجلترا - فلم تكد تظفر جان بالمثول بين يدي الدوفين (ولي العهد) حتى أعلنت رسالتها التي تلقتها من القديسين الاظهار، والتي لم تزل الأصوات المقدسة تأمرها بها كل

يوم وتلح عليها في النهوض بأعبائها، وهي أن ترفع حصار الإنجليز وتتوج ولي العهد ملكاً على فرنسا. فتشكك الملك في أمرها بادئ الأمر، وأرسلها إلى جماعة من العلماء، أخذت تناقشها وتحاورها ثلاثة أسابيع كاملة. ثم أصدرت الحكم الآتي (لقد تحققنا وبهذا نعلن، أن جان دارك المعروفة باسم العذراء مؤمنة صادقة الإيمان وكاثوليكية سليمة العقيدة، ولا شيء في شخصها أو لفظها يخالف الدين، وواجب الملك أن يتقبل ما تعرضه عليه من المساعدة، لأنه إذا رفض معونتها حرم نفسه معونة الله). فلم يسع الملك بعدئذ إلا أن يعين جان دارك قائداً عاماً للجيش الفرنسي!! جمعت جان فلول الجيش الهزيم، ونفخت فيه روحاً جديداً يشتعل جرأة وحماسة، وأخذت - وهي الفتاة الصغيرة الساذجة - تقود الجند من نصر إلى نصر، حتى أجلت الإنجليز وردتهم أذلاء بعد عزة، ومهدت الطريق لتتويج ولي العهد شارل السابع ملكاً على فرنسا. وقد بذلت في هذه السبيل مجهود الجبابرة، وتعرضت لأخطر المواقف، حتى إنها في أثناء الهجوم على حصن (لي توريل) جرحت جرحاً بليغاً بين كفها ورقبتها، وسال منها دم غزير فوقعت على الأرض تبكي بكاءً مراً، وانتهز الإنجليز فرصة إصابتها وتجمعوا حولها قاصدين تمزيقها إرباً إربا، ولكن الفرنسيين قاوموهم وصمدوا لهم، ويقول مارك توين: (دار القتال حولها على أيهم يستولي عليها - وفي الواقع على فرنسا - لان جان في أثناء تلك الدقائق القليلة، كانت هي فرنسا للطرفين، فمن استولى عليها فقد استولى على فرنسا إلى الأبد، وكانت تلك الدقائق العشر هي أهم الدقائق التي دقتها الساعة في تاريخ فرنسا كله في الماضي وفي المستقبل. . .) أنجزت جان دارك رسالتها التي أمرتها بها أصواتها المقدسة، وهي تتويج الملك، وكان لها أن تعود إلى قريتها، ولكن نفسها الكبيرة لم تهدأ، وأصرت على أن تجاهد حتى تظهر أرض الوطن من كل إنجليزي! وبينما هي في جهادها على رأس شرذمة من أنصارها، تمكن منها أحد الأعداء. وكان فرنسياً موالياً للإنجليز، فجذبها من فوق جوادها وألقي بها على الأرض، وبذلك وقع ذلك الملاك الطاهر في الأسر، فسيقت جان إلى السجن، وما هي إلا أن اشتراها الإنجليز من أسرها بالمال، اشتروها بعشرة آلاف من الجنيهات، لينتقموا منها شر انتقام. وبعد أن قضت في سجنها مدة تجلجل في أصفاده، حيث شدت بسلسلة غليظة من الحديد إلى كتلة خشبية، يحرسها خمسة من الجند الأشداء، لا ينون عن توجيه الألفاظ القاسية

والعبارات المخجلة، وهي أمامهم مطروحة ترسف في أغلالها، قدمت بعد ذلك إلى المحاكمة بتهمة السحر والشعوذة والكفر، واستولت المحكمة على مقاعدها - وكانت مؤلفة من ستين عضواً ونيفاً، كلهم من فطاحل العلماء - فاخذ هؤلاء الدهاة يقدحون أذهانهم في نصب الشباك لتلك الفتاة الطاهرة، وهي تصمد لهم، وتفحمهم، ولكن عبثاً حاولت، فلا بد من اتهامها. وبعد مؤامرات وتدبير حكم عليها بالإعدام حرقاً لأنها ضالة

كافرة!! صعدت جان منصة الإعدام بخطى ثابتة، وشد الجلاد وثاقها ثم أشعل النار في الوقود المعد حولها، واخذ الدخان يتصاعد، ولما لفحتها السنة السعير صرخت من أعماقها قائلة: (لست ضالة ولا كافرة! وان ما تلقيته من الوحي كان من عند الله) ولما بدأت النار ترعى جسدها أخذت تصيح: (عيسى! عيسى! مريم! مريم!) وصارت تردد هذه الألفاظ حتى تدلى رأسها وفاض روحها. هذه قصة جان دارك مبتورة مدهوشه، وقد وفق الأستاذ غانم محمد في إبرازها وتصويرها توفيقاً بلغ حد الكمال. فليس هذا الكتاب واحد من الكتب، يتلى ثم يطوى وكأنه لم يكن، كلا! إنما هو فيض من الشعور القوي النبيل سيغمرك ويحتويك حين قراءته، وسيطبعك بطابع هيهات أن يزول أثره ما بقيت على الدهر إنساناً. اشهد أنني قضيت في هذا الكتاب ساعات كانت من أمتع ما جادت به الأيام، فاقل ما نتوجه به إلى الأستاذ المؤلف هو تهنئة تنبعث من الصميم.
1
العدد 22 - بتاريخ: 04 - 12 - 1933
حجاج ودوس. . . .
حلّقا في السماء الغائمة البعيدة! والأمل الطلق يبسم لهما خلال السحاب، والمستقبل الوضاء يشرق عليهما بين الضباب، والاستقبال المنتظر ينثر الأحلام على جناحي الطائرة! فالنسر الحديدي يزف في الهواء الندي زفيف الكوكب، والطيار الشاب وصاحبه يسبقانه بالخيال العجيب إلى أرض الوطن، فيريان البشر الفخور بفيض على جنبات الوادي، والمجد الاثيل ينبعث لهفان من غيابات الماضي، والشعب النبيل يتقاطر مزهوا إلى المطار الحاشد، والأعلام الخضر تخفق بالتحيات خفوق القلوب بالإكبار والحب، والطوائر العشر يهبطن على الثرى الحبيب هبوط المخيلة والعجب، واللقاءالحماسي الهاتف يغمر السرب الأول بالترحاب والإعجاب والشكر، وأكاليل القبل والغار تتوج الجباه المجلية في ميدان البطولة والنصر. . .!
كل أولئك كان يتمثله فؤاد، ويتخيله شهدى، حين غفا الحظ تلك الغفوة المشؤمة فإذا بالقدر الراصد يثب من بين أطباق الضباب فيصرع الأمل الناهض، ويراد النسر الطائر حطام حريق، والمستقبل الزاهر ساعة هول وضيق، والاستقبال الباهر مناحة أمة، وأكاليل الغار أكاليل نعش!!
اللهم لا رادّ لقضائك، ولا معقب لحكمك! جعلت الشهادة روح الجهاد، والتضحية طريق المجد، والفداء عبادة المثل الأعلى! ومصر ذات التاريخ الأزلي والتراث الخالد، قد كتبت هذا التاريخ بدماء شهدائها وأثلّت هذا التراث بجهاد أبنائها، وعرفت السماء قبل أن يعرف غيرها الأرض، فلا يشتد جزعها لهذا الحكم، ولا يرفض صبرها لهذا البلاء؛ وما حجاجٌ ودوس إلا شهيدان كتبت لهما السعادة أن يكونا في أول سجل من نوع جديد.
أن شهداءنا الذين قضوا في سبيل الوطن والحرية والعلم والطيران هم القوة الملهمة للشباب العامل، والحجة المفحمة على النشئ الخامل، والدلالة البينة على أن مصر لا تزال تعرف كيف تموت لتحيا، وكيف تشقى لتسعد! وأن الذين شهدوا أبناءنا يوم جنازة الشهيدين يتسعرون بالحماسة، ويتفجرون بالوطنية، ويهتفون بالتضحية، ليوقنون أن هذه النفوس الحرة التي تظاهرت على كبتها وإذلالها شتى العوامل تأبى أن تتكشف للخطوب إلا عن جوهر خالص وفطرة نقية.
أن الوادي يوم ضم إلى أحشائه بقايا ولديه الصريعين قد قوى في صدره نبض الحياة، ودب
في جسمه دبيب الفتوة، لأن الوطن تميته الدموع وتحييه الدماء! فكلما كثرت القرابين على مذبحة، وفاضت النفوس على ثراه، أزداد قداسة واتقد حماسة وأشتد قوة، فتقريب الفداء المختار نكبة لأسرته وحياة لأمته، ومجد لوطنه!
التضحية بالنفس أو بالمال هي الوطنية الصادقة والزعامة الحق، لأنها أثر الإيمان الصحيح، ودليل الجهاد المخلص، ومتى بلغت النفوس حد الإيثار أعْيَت على الظلم، ونبَت على المذلة، فلا تجد حاكما يجور، ولا عالما يدجي، ولا سائسا يخاتل، ولا قائدا يَهن، ولا غنياً يشح، ولا وطنا يشقى، فهل لسادتنا وكبرائنا أن يكفكفوا ِشّرةَ الحرص في نفوسهم بالتضحية ? ومعاذ الله أن أقصد التضحية بالدم فليست من طبع الكهولة، إنما أقصد التضحية بالتهالك على الرآسة، والتهافت على المنصب، والتكالب على المال، ليصح الخلق المريض، ويأتلف الأمر الشتيت، ويعود الجائر إلى سواء السبيل.

برَد الله بالرضوان ثراكما يا شهيدي الواجب! لقد هززتما للمعالي هممماً توشك أن تهمد، وذكّرتما المجد نفوسا تكاد أن تنسى، وأضفتم اسم مصر إلى أسماء الأمم التي روت بدمائها أصول الخير المشترك! ولئن كان مصرعكما عثرة أليمة في أول الطريق الجديد، فأنه حريّ أن يسدد خطانا فيه، ويظهر قوانا عليه، بحسن الاقتداء بالبطولة، وصدق الاعتبار بالخطأ؛ وما مات من رجالك من أحياك، ولا ذهب من مالك ما علمك.

طأطئوا الرؤوس يا قوم إجلالا لمصرع البطولة!!

إن شهيدينا قُتلا في السماء، وغسلا بالنار لا بالماء، ودُرجا في علم لا في كفن، وحُملا على مدفع لا على نعش، وكتبا في سجل الخلد في دفتر (الصحة). فهل هذه الموته العظمى تفت في الاعضاد وتفل من غرب العزيمة؟

ان الأمة التي لم تكد تأخذ بأسباب الطيران حتى يبادر إلى خوض أهواله فتاة من فتيانها، ويسبق إلى الشهادة في سبيله فتيان من فتيانها، لا يستطيع أن يكسر من ذرعها حادث، ولا يتكاءدها في طريقها إليه عقبة.

سلام الله على أشبالنا في الجهاد، وعلى أبطالنا في الاستشهاد، وعلى شهدائنا في قدس الخلود!

أحمد حسن الزيات

الأساليب

للأستاذ أمين الخولي

المدرس بكلية الآداب

في مصر اليوم أساليب تمتاز بامتياز البيئات، وتختلف باختلاف الثقافات، ويذهب كل أناس بأسلوبهم لا يعدلون به أسلوبا، ولا يرضون منه بديلا، بل لا يرون له مثيلا؛ ونحن بين ذلك كله في حيرة مما نأخذ وندع.

وما أعني الأساليب الأدبية ولا الأنماط الفنية، فلعل الأمر في ذلك هين يسير، إنما أعني أساليب التفكير وطرائق التعقل ومذاهب الناس في تقرير الحقائق، وتقبل ما يقبلون منها ورفض ما يرفضون في مصر اليوم بيئات فكرية متعددة، وطرائق تهذيب مختلفة الأصول متباعدة الأسس، حتى لترى المسلمات المقررة عند فريق، تنكر في عنف بل في سخرية أحيانا عند آخرين، ونحن على هذا في مفترق طرق متشابكة؛ وشباننا الآخذون سبل الحياة في حيرة، لا يجدون معالم واضحة، ولا يدرون أين يذهبون، وحين يلتمس أولئك الشبان الحقيقة من هدأة إدلاء يحملون الأقلام في هذا البلد لا يجدون إلا من يداوى الاختلاف بالفرقة؛ ولا تستقر الحياة الفكرية لأمة هذا شأنها. وإذا كانت مصر قد خلصت من تعدد العناصر، وتكاثر اللغات؛ واختلاف الأديان والنحل فأنها لما تظفر بوحدة المزاج النفسي، وتجانس الأسلوب الفكري؛ وليس ذلك على أمة ناهضة بايسر خطرا وأهون شأنا من النواحي الأخرى في الاختلاف.

وما جردت اليوم قلمي لأكتب سداً لفراغ أو تلبية لطلب كأكثر ما يكتب الآن، بل تأثرا بحالة أشهدها كل يوم حين أغدو وأروح بين الجامعتين الأزهرية والمصرية، وأعانيها كلر يوم مع هؤلاء الشبان الذين لا يكاد يهون معهم التفاهم المنظم، بل يشق ويعسر إن لم أقل يستحيل. أرى في الجامعتين محافظين مسرفين، ومجددين مسرفين، وقد أرى هؤلاء، حيث لا يتوقع أن أراهم، وأجد أولئك حيث لا يدور بخلدي أن تقع عيني عليهم، كما أرى في الناحتين من لم يتجددوا ولم يحافظوا، ولكل أسلوب فكري مضطرب فاسد ينتهي به إلى نتائج تزيد مسافة الخلف بينه وبين الآخرين. وما إدخال القارئ في حاجة إلى شيء من المثال على ذلك، فهو وأجده حيث يرسل بصره، ويصيخ بإذنه جليا واضحا في صحافتنا

اليومية والأسبوعية والشهرية، وفي أنديتنا ومجامعنا، وفي المناقشة تجري بين متعلمين في أي مكان؛ وهي حال لا ينخدع عنها أحد مهما تجاهلها؛ يشعر بها كل ذي أسلوب من تلك الأساليب فتجد صداها في أسف صاحب القديم أسفا عميقا على ما يكون من طيش أولئك الذين لا يبرءون عن الهوى والنزف، ولا يعفون من الاتهام في دينهم ووطنيتهم. كما تجد صورة ذلك الافتراق في ضجر المشتطين وتبرمهم بتلك التقهقرات التي تصيب التدرج العقلي، وتعوق الحرية الفكرية؛ وفي سخطهم على هاتيك الرجعات التي تنتكس بها النهضة ; وكما تجد هذا الافتراق في الأساليب عند المترددين بين الطريقين المحاولين التوسط، حين يقصون من الجديد ويمطون في

القديم، يرجون أن يتقابل هذا وذاك ويتوافقا؛ في كل هؤلاء تجد أساليب من التفكير مختلفة، فتشعر في ألم باضطراب كياننا الفكري، وتجد هذا الاضطراب يزداد شدة وخطورة، حين تتحكم في التفكير نزوة سياسية، أو يصل أصحاب الرأي حبلهم باعتبارات دينية، عند ذلك يشتد اضطراب أسلوب الفكر حتى يصير قلقا مزعجا وانتكاسا عجيبا، والويل كل الويل للحقيقة؛ بل الويل كله لشبابنا خاصة حين يضيع منه جيل وجيل ضحية هذا الاضطراب، وحين يقيع الخائفون من هوى السياسة، ومجازفة أهل الدين، فيسكتون طمعا في السلامة؛ أو يروجون لما هو في سريرتهم خطأ بل ضلال. فتضيع الحقيقة ويضيع الشبان قربانا لهذا الحذر وحب السلامة.

لقد أخشى أن يتلكأ قلمي أو يتوقف حين ثارت ذكرى هذه التهديدات، فيؤثر الإخلاد الوديع إلى الهدوء؛ لكني حامله على إلا يفعل، وماض في نقد تلك الأساليب مهما غضب أصحابها ومصطنعوها مبتغيا وجه الحقيقة وحدها. غير ملوث ما أقول بشيء من هذه المهاترة التي تسود جو المناقشات عندنا فتكون شرا على شر.

في مصر نفر أسلوبهم الفكري أن يضعوا العقل في مكان الإنسان من يد الموت كما يشبهه طرفة بن العبد في قوله:

لعمرك أن الموت ما أخطأ الفتى ... لكأن لطول المرخى وثنياه باليد

يجول العقل في مسارح الكون على أن يظل حبله في يدهم، أويد الدين كما يفهمونه هم لا كما هو في طبيعته وحقيقته، فحيث خلوه سرح، وحيث كفوه انكف، وحيثما هزوا حبله فهو خاطئ. وتقول لهم أن عنيتهم بهذا التحكم في العقل أنه عاجز عن استكناه كل شيء والنفاذ

إلى صميم الحقائق كلها فنحن معكم، لكن دعوا العقل يشعر من نفسه بهذا العجز، ولا تفرضوا عليه العجز فرضا وسيطرة؛ بل دعوه يعرفه، بالتجربة، فيأبون إلا أخذه بالحبل. وتنبئهم أن مسالك العقل في الوصول إلى الحقائق مختلفة، ومنا ما لا سبيل إلى رد نتائجه، ولا حيلة في نقضها، فهو حين يعتمد التجربة ويحدث عن واقع لا خير لكم في مناقشته، ولا سبيل لكم إلى كفه وأن تفعلوا فهو متمرد يخشى عليكم خطره، فيأبون ألا الحبل. تتحدث إليهم مثلا عند تدرج المعارف البشرية وترقيها وما يشاهد من مظاهر ذلك البارزة في طبقات الناس، فيجابهونك بأن آدم أبو البشر قد علمه الله الأسماء (وعلمه الله المسميات أيضا) وهو رسوله، فليس يصح بعد ذلك ما تقولون من هذا التدرج. وليس الأمر عندهم إلا أن رأس الدنيا في قدمها وعقلها في عقبها؛ ولا يجديك أن تفرق بين الخيرية الخلقية النفسية، والمعرفة العلمية؛ ومهما تساهلت أو تنازلت لا تصل منهم إلى رضا واطمئنان. يسمعون أن الكائن المادي والمعنوي يتأثر ببيئته؛ ويتبادل التأثير مع جميع ما حوله؛ فلا يرضون أن يكون الفقه الإسلامي مثلا قد جرى عليه ذلك وإصابته هذه الفضيحة! ويضربون الأرض برءوسهم معلنين أنهم لن يسمحوا بأن يقال ذلك.

مثل هذا الأسلوب خاطئ. يضيع ما يريد الدين أن يخفف به غلواء العقل ونزقه، ويزج أصحابه بالدين فيما ليس من شأنه؛ ويضيعون معالم الأشياء، وحدود الحقائق ليوجدوا تحكما في العقول البشرية، ويبنوا لها محابس ويضعوا عليها إغلاقا؛ وقد طبعها الله وثابة نفاذة متغلغلة محلقة.

وفي مصر قوم أسلوبهم أن يرسلوا العقل، أو قل يرسلون أنفسهم إرسالا، فيقولون بالظنة، ويحكمون بالشبهة، ويقطعون بالبداء، ويجزمون باللمحة؛ هذا إذا كان الحكم لهم، فأن كان من غيرهم طلبوا من الدليل ما لا يطلب، وجعلوا العقلي التجريبي ; في موضع الظني، فتارة يقلبون الحقيقة، فكما يسمون النتيجة التجريبية علما، يسمون النتيجة النظرية علما، ويسمون الفرض الاضطراري علما، ويسون الحل المؤقت الذي يبعثه العجز عن الحقيقة الصحيحة علما، فيزعمون أن ذلك كله من مملكة العقل التي هو فيها حر مسيطر ليس لأحد أن يحد من سلطته. يريدون أن تكون الحقيقة الطبيعية، والنتيجة الرياضية، والرواية التاريخية والخاطرة الفنية، كل أولئك عقليات علميات لا فارق بينها؛ ولها جميعا أن

تضرب وجه الدين، وتصفع قفاه ساخرة في غير حياء ولا تقدير حتى لآداب اللياقة؛ وطورا على أساس هذه التسوية الغريبة يرون أن العلم إذا لم يلمس وجود شيء فليس موجودا ولا يصح لعاقل أن يتحدث عنه، ومادام الإله لم يختبر في المعمل فلا

معبود ولا دين؛ يشكون والشك حق فطري لا ينكر عليهم؛ لكنهم لا يلتمسون الأدلة كما هي الخطوة الأولى بعد الشك، بل يطرحون ما شكوا فيه ويهملونه. وكذلك يفعلون حين يشتبهون ويقوى في تقديرهم الاشتباه، فيعدون اشتباههم آية عجز كل محاولة للإثبات، وفشل كل دليل، فيطمئنون إلى بطلان ما اشتبهوا فيه؛ وتقول لهم ان الأسلوب التجريبي لا يقبل مادون التجربة مادامت مستطاعة، فاحتكموا إليه متى أمكن، وهاتوه إذا ما ادعيتم؛ أولا فأحسنوا تقدير ما دونه من الأدلة فأساليب البحث مختلفة، ولكل فرع أسلوبه؛ ونحن في أساس التجمع، ونظامه، والشريع له، وفي حقبة الحق، وخيرية الخير، وغير ذلك لا نملك التجربةولا المعادلة الرياضية فنثبت بما عداها ونسلم؛ فلا هم مثبتون بالتجربة إذا ادعوا، ولا هم قابلون من غيرهم مثل دليلهم إذا أدعى؛ وتحدثهم عن أن بطلان الدليل لا يستلزم بطلان المدلول، وأن ما تجهل أكثر مما تعلم فيسخرون بهذه العبارات القديمة؛ ويناقضون أنفسهم في تقرير ما يرفضون مثله، ورفضمثل الذي يقررون.

ذلك أسلوب خاطئ؛ لا يحدد قيم المعلومات، ولا يطلب لكل دعوى دليل مثلها، ويضيع معالم الحقائق في النفس، فيخضع الإنسان للفرض والظن إخضاعه إياه للمجرب المطرد فيفسد التقدير، ويسلح أعداد الحرية الفكرية بأغلاط أولئك المتحررين خطأ، ويضيع هيبة العلم. ويعكر ما بينه وبين الدين، بل ما بين العلم والأخلاق مما له أثره العنيف الخطر في حياة الجماعة.

في مصر من أسلوبهم أن يهجموا على مخالفهم في الفكرة قبل تأييد فكرتهم؛ ولو كان هذا المخالف يتناول الموضوع من غير الناحية التي يتناولونه هم منها، وبطريق غير طريقهم؛ فتراهم يوازنون بين الفكرتين ويفاضلون بين الرأيين؛ ولما يبحثوا أو لابد لهم بأن يبحثوا إلا واحدا منهما؛ بل هم لم يفرغوا بعد من بحثهم وتأييد رأيهم، ويزيدون ذلك بالا يجعلوا الموازنة علمية، بل يقلبونها موازنة خلقية أو فنية، فلا يبينون الخطأ ولكن يقولون هذا تغرير أو هذا سخيف وما إلى ذلك مما يغضب ويؤلم، دون أن يقدم نحو الصواب أو

يؤخر. تكون مسألة بحثهم تاريخية او أدبية أو هبها عالمية بحتة قد تولوا درسها على أساس لهم في ذلك فانتهوا إلى نتيجة ما، فهم لا يشتغلون بتقريرها وتأييدها، وتقوية مواضع الضعف فيها، على ما تتطلبه أمانة البحث، ويقضى به نظام الإحصاء والتفرد، بل يدعون ذلك إلى الاشتغال بأن ما تقره ناحية أخرى أو باحث آخر ليس إلا تضلاً مثلا، أو هو خداع أو ما أشبه؛ وهذه الناحية وذاك الباحث قد عرض للموضوع بغير طريقتهم وعلى غير اساسهم، ويزيد النار تأججا أن يكون الموضوع مما للعقيدة مثلا به صلة؛ فنحن نعرف أن الوشائج متصلة بين الدين والفن، وبين الدين والعلم في أشياء كثيرة؛ فالأنبياء والرسل مثلا من حق التاريخ، والقرآن من متناول الأدب والتاريخ فلا جدوى على الحقيقة مطلقا في أن ينتهي باحث في مثل هذه الأشياء إلى رأى استقرائي أو حكم تاريخي فيكون همه تأكيد أن غيره من كلام الدينيين خداع أو اتجار أو نحو ذلك مما يعزز حكما ولا يدعم رأيا؛ بل لا ينفي عنه مظاهر ضعفه على حين يثير المعتقدين في غير طائل؛ ويفقد الحقيقة فرص الظهور والاتضاح، ولو قرر ما يقرر من ذلك في أسلوب سليم وبحث مستقيم ثم لوح ملوح بمخالفة ذلك للدين، لوجب عندي أن يترك لأهل الدين أمر التوفيق او التأويل؛ أو مالهم مخلص فحمل كل عبئه. ولو رؤى وصل الناحتين لا بد مع التزام حدود التخصص، والاحترام الحقيقي للحرية العقلية للزم السعي أولا إلى رال الدين بهذه الشبهة يسألون كشفها ويكلفون دفعها، فعليهم في ذلك واجبهم يحسنونه أو يحرجون بعجزهم، ويمضي العالم او المؤرخ أو الأديب وقد سلم له أنصاره ووقته وبحثه لا يخسر في ذلك شيئا على غير جدوى، ولا يثير إلا مخالفة عاقلة قد تكشف له عن نقص في رأيه أو تثبيت صحته حين تتهاوى السبة عنه.

تلك أساليب بحث وضروب تفكير لها خطرها في تمزيق وحدة الشبان وإفساد الجيل، وقطع أواصر التآلف النفسي والتمازج الروحي قطعاً يعوق التعاون الاجتماعي الذي يتطلبه الوطن ملحا من هذا الجيل، فليست الخسارة من وراء اختلاف تلك الأساليب عقلية فحسب، ولا فنية فحسب، ولا خلقية فحسب، ولا إجماعية فحسب، بل هي كل أولئك مجتمعة، وما أهولها!!

وفي مصر أساليب أخرى فكرية أفردها بمقال آخر؟

أمين الخولي
الذوق العام
للأستاذ أحمد أمين
يظهر لي أن للأمة ذوقا عاما كما أن لها رأيا عاما وعرفا عاما لكل دائرة اختصاص لا يتعداها. فالرأي العام مداره الآراء والأفكار والمعقولات، والعرف العام، مداره العادات أما الذوق العام فمداره الفن والجمال.
وكما أن هناك قدرا مشترك بين المصريين مثلا في لونهم وتقاطيع وجوههم، وملامحهم، فنستطيع في سهولة ويسر أن نميز المصري من الأجنبي حتى في البلاد الأجنبية، وكما أن هناك قدرا مشتركا في الرأي العام المصري في النواحي السياسية والاجتماعية يميزه من غيره من الرأي العام الأوربي، فكذلك الشأن في الذوق العام.
يتجلى هذا في كل أنواع الفنون كالطعوم، فلكل أمة أنواع من الطعوم تستلذها وتغرم بها، هي نتيجة ذوقها، ومن أجل هذا كان طهي كل أمة يخالف طهي الأمة الأخرى، ولا يقتصر هذا على نوع المأكول بل يتعداه إلى كيفية أعداده، وبذا نستطيع أن نحكم على الأمة بأنها تستجيد كذا من ألوان الطعام وأنواعه، على حين أن الأمة الأخرى لا تستسيغه ولا تتذوقه.
ومثل الطعوم غيرها من الفنون، فالذوق العام المصري يقدر الموسيقى المصرية أكثر مما يقدر الموسيقى الغربية، بل لا يستلذها ولا يرى فيها جمالا، كما أن أكثر الغربيين لا يجد في الموسيقى الشرقية طعما، ولا يقيم لها وزنا.
وكذلك أشكال البناء وما يستجاد منها وما لا يستجاد وأنواع الملابس وألوانها وما يستجمل منها وما يستهجن: كلها خاضعة للذوق العام في الأمة. ولكل أمة في هذه الشؤون ذوقها يميزها من غيرها ويضعها في درجة خاصة من سلم الرقي. وهذا الذوق العام في كل أمة هو الذي يقومّ الأدب ويتذوقه، وهو الذي يجعل لكل أمة أدبا خاصا، فالأدب المصري مثله مثل الطعوم المصرية، والغناء المصري والبناء المصري إنما يتذوقه المصريون بذوقهم الهام ولا يتذوقه الغربيون بذوقهم العام، كما لا يتذوقون طعومنا وغناءنا، فالنوادر المصرية التي تعجب المصري حتى تبعثه على أشد الضحك وأعمقه قد لا تحمل الأجنبي على التبسم، والقصص و (الحواديت) المصرية التي تسترق لب المصري وتستهويه، قد لا يأبه لها الأوربي ولا يعيرها التفاتا إذا ترجمت له، نعم قد يعجب المصري بآيات من الآداب
الغربية ولكنه لا يتم له ذلك إلا بعد أن يحور ذوقه ويمرنه تمرينا طويلا على تذوق هذا الأدب، كما يمرن المصري ذوقه على استجادة الموسيقى فيستجيدها بعد طول المران، ولكن هذا ليس من الذوق العام في شيء.
كما لا نستيطع أن ننكر أن هناك نوعا من الأدب عالميا إذا ترجم إلى أية لغة أستجيد كنوع من القصص، ونوع من الأمثال، ولكن سبب ذلك أن هناك قدرا مشتركا بين الأذواق، كما أن هناك قدرا مشتركا بين العقول، فاستجادة المصريين لبعض الأدب الغربي أو الغربيين لبعض الأدب العربي، شأنها شأن اشتراك الناس جميعا في استجادة بعض الطعوم أو بعض قطع الموسيقى، وهذا لا يغير فيما ادعينا شيئا من أن لكل أمة ذوقا عاما خاصا بها.
وهذا الذوق العام للامة يستبد بالأفراد استبدادا لأحد له، فالناس جميعا خاضعون لأنواع شتى من الاستبداد كاستبداد النظم السياسية، واستبداد العقول، واستبداد الرؤساء ولكن هذه كلها محدودة الدائرة، أما استبداد الذوق العام فلا حد له، ولا سلطان يشبه سلطانه، ذلك أنه بجانب الذوق العام للأمة ذوق خاص بالفرد، فكل فرد له ذوقه الخاص يستجيد به بعض الأشياء ولا يستجيد بعضا، ويستحسن به ويستهجن، ويستجمل ويستقبح، ولكنه في ذلك مسلوب الحرية خاضع خضوعا تاما للذوق العام. قد يشتد الحر فلا يطيق الإنسان نفسه، وقد يكون في نوع من اللبس ما يخفف وطأته ويكسر من حدته، ولكن لابد أن تخضع للذوق العام، فتلبس الخناق ورباط الرقبة وما إلى ذلك خضوعا للذوق العام وخشية من استهجانه، فليس إنسان يلبس ما يجب ولا يأكل ما يحب على النمط الذي يحب، ولا يتكلم كما يحب على النمط الذي يحب، إنما هو في كل ذلك عبد أسير ذليل مقيد مغلول، في كل خطوة يخطوها، وفي كل نفس يتنفسه (لقد قيدتنا القوانين بأعمال يجب أن نعملها، وأعمال يجب أن نتجنبها، ولكنها ليست

بشيء بجانب أوامر الذوق العام ونواهيه) وعقوبات الذوق العام سريعة فاتكة متنوعة، فهو يعاقب بالاحتقار والازدراء ويعاقب بالنظر الشزر، والكلمة الجارحة القاسية، ويعاقب بالنقد والتجريح، وهو في كل ذلك لا يسمع دفاعا ولا يقبل عذراً، ولا يؤجل عقوبة، ولا يقبل حكمة نقضا وإبراما، ولا يعرف حكما مع إيقاف التنفيذ، لا شيء من ذلك كله ولكن حكمه حكم صارم، قاس ظالم.

وكذلك الشأن في كل نوع من أنواع الفنون، فإذا أشتهر مغن وأعجب ذوق الجمهور فلا حق لك أن تعيبه، وإذا عبته فعبه سرا، وحذار أن تجهز بذلك فيكون دليلا على فساد ذوقك وضعف حسك.

ومثل ذلك في الأدب، إذا قال الناس أن سحبان وائل خطيب يضرب به المثل في البيان، فيقال أفصح من سحبان فقل مثلهم وإن كنت لم تقف على شيء يثبت فصاحته ويبرهن على بلاغته، وأن فتشت عن كل أقواله فلم تجد إلا اسطرا ثلاثة قال فيها أن الدنيا دار بلاغ، والآخرة دار قرار، الخ ولم تستجد هذا فاتهم ذوقك وكرر قولهم: (أبلغ من سحبان)

وإذا قالوا أن من أبلغ خطب العرب خطبة قس بن سادة: أيها الناس اسمعوا وعوا، وإذا وعيتم فأنتفعوا، الخ، فقل كما قالوا إن لم تتذوق وإذا قالوا إن النابغة الذبياني فضل الشعراء بقوله:

هذا غلام حسنٌ وجهه ... مستقبل الخير سريع التمام
للحارث الأكبر والحارث ال ... أصغر والأعرج خير الأنام
ثم لهند ولهند وقد ... أسرع في الخيرات منه أمام
خمسة آباءهمُ وأماتهُم ... همْ خير من يشرب صوب الغمام

ثم قرأتها ولم تشعر لها بطعم، ولم ترعك ألفاظها ومعانيها فقل أن النابغة فضّل الشعراء بها، وإلا أتهمت في ذوقك ورميت بضعف أدبك.

وكذلك فأخضع دائما لحكمهم وذوقهم، فمن قالوا فيه أنه إمام الأدب أو سيد الشعراء غير مدافع، أو قالوا أنه شاعر متكلف، أو أديب متخلف، فإياك أن تحدثك نفسك بأن تقلب أوضاعهم أو تخالف إجماعهم.

هكذا استبداد الذوق العام، ولست تستطيع الخروج عليه وإعلان استقلال ذوقك عنه إلا بثورة عنيفة على الذوق وتعرض لكل أنواع العقوبات الذوقية.

ثم أن كل ما ترى في الأمة من مظاهر القبح وإقراره فعلته ضعف الذوق العام، فإذا رأيت الأمة تصدِف عما في بلادها من ازدهار، ولا يخفق قلبها لرؤية جمالها وجمال طبيعتها، ولا تتغزل في محاسنها، فأعلم أن سبب ذلك ضعف الذوق العام، وإذا رأيت الأمة لا تقدس النظافة ولا تشمئز من القذارة اشمئزازها من أبغض شيء وأقبحه، فلعل ذلك بضعف الذوق العام، وإذا رأيتنا في المجتمعات لا نرعى نظاما ولا ننصت لفن أو ممثل ولا نتقيد بأدب اللياقة فقل أنه ضعف الذوق العام وهكذا.

ومن الغريب أن هذا الذوق العام الذي يستبد بي في مأكلي وملبسي ومسمعي وأدبي (كما رأيت) لا يستبد في هذه الأشياء، ولا يبدي أي سلطان على هذا النوع من الضعف، فهو لا يحتقر المرء لايقوّم الزهر، ولا يزدري من يسيء في المجتمعات العامة، ولكن يزدريني إذا خرجت من غير طربوش أو رباط رقبة في يوم حار، وسبب ذلك أن الذوق العام لا يعاقب إلا على ما يتذوق، وفي دائرة ما يفهم، فهو إذا قوم مناظر الطبيعة عاقب من لم يتذوقها، وإذا أدرك جمال النظام وآداب المجتمعات عاقب من مسها بسوء، ولما يصل إلى هذه الدرجة.

وبعد فشأن الذوق العام شأن الرأي العام كلاهما قابل للإصلاح والرقي، فالرأي العام ضعيف وسخيف إذا صدر عن أمة جاهلة، ويرقى الرأي العام بانتشار الثقافة وتعميم التربية، ويدل تاريخ كل أمة على أنها في أول أمرها لا يكون لها رأي عام، ثم تمنح أفراد قليلين أقوياء، زعماء مثقفين يوفقون في دعوتهم فيخلقون رأيا عاما، وأن هؤلاء القادة يجب أن يُسبقوا بنوع من الثقافة العامة في الأمة حتى تستطيع أن تفهم قادتها وآراءهم، فيأتي هؤلاء القادة ويكوّنون إرادة عامة للأمة، ويؤلفون بين اتجاهاتها ويكونون منها وحدة. ومما نأسف له أن مجهودات كبيرة بذلت في ترقية الثقافة

العقلية، وبرامج كثيرة وضعت في تعميم التربية العقلية وفي تكوين الرأي العام، ولكن لم توضع برامج لتربية الذوق العام، ولا بذل مجهود في ترقيته ورفع مستواه، فكانا لنا زعماء سياسيون وزعماء عقليون ولكن لم يكن لنا زعماء ذوقيون.

وفي ظني أن الذين يبحثون في ترقية الفنون عامة من موسيقى ونقش وتصوير وأدب مخطئون كل الخطأ، لأنهم يحاولون أن يصلحوا النتائج من غير أن يصلحوا المقدمات، فليس الفنان في الأمة الا صدى لذوقها العام، فإذا صح الذوق صح الفن وإلا فلا ليس الفن والأدب من جنس النباتات التي تنبت من تلقاء نفسها. ولا هو مما يظهر مصادفة واتفاقا وإنما هو نتيجة لازمة لعوامل طبيعية سأحاول أن أبينها في مقال تال.

أحمد أمين

صور من التاريخ الإسلامي

(4)

محمد بن القاسم الثقفي

73 - 96هـ

للأستاذ عبد الحميد العبادي

لو أن من يدرس تاريخ الأمة العربية فتش في ثنايا هذا التاريخ عن شخصية تتمثل فيها سجايا تلك الأمة الكبيرة وعناصر قوتها لما وجد أجمع لتلك السجايا وهذه العناصر من شخصية الفتى الشهيد والفاتح العظيم، والشاعر الحساس، محمد بن القاسم الثقفي الذي شرع في غزو السند في السابعة عشرة من عمره وأتمه لما يتجاوز الثالثة والعشرين فأدخل بذلك في الهند الثقافة الإسلامية التي يدين بها في الوقت الحاضر زهاء ثمانين مليونا من أهلها. أنها شخصية تجمع إلى فتاء السن حنكة الكهولة، وإلى خشونة الجندي رقة الشاعر وإلى الحرص على الدنيا زهد الفيلسوف وطمأنينة الحكيم. وكل هذه صفات أتصف بها العرب في نهضتهم التاريخية الكبرى التي رجت العالم القديم فنبهته من سباته ورسمت للتاريخ وجرى جديداً! وهو محمد بن القاسم بن الحكم بن أبي عقيل الثقفي، فهو من ثقيف المشهورة في الجاهلية والإسلام بقوة الدهاء وسعة الحيلة ومضاء العزيمة، ثم هو أبن عم الحجاج أمير العراق ورجل الدولة الإسلامية في الربع الأخير من القرن الأول الهجري. يلتقي نسبهما في الحكم بن أبي عقيل. ولد حوالي سنة 73هـ، ونقع الحوادث مثار وريح الفتن نكباء، والسيوف يتجاوب صليلها في فارس والعراق والحجاز وأفريقيا، فجعل غلامنا يتنفس في جو مكفهر عابس ولقف صناعة الحرب سماعا وعيانا، ثم شاء ربك رحمة منه بالناس أن يكون إلى جانب هذه الحياة القلقة المضطربة الخائفة حياة أخرى آمنة هادئة هي حياة الأدب الذي يتمثل في الشعر الغنائي الرقيق المأثور عن أبي ربيعة وجميل وكثير والنميري وغيرهم من شعراء ذلك الزمان. فعشا نظر الفتى الثقفي الحائر إلى ذلك النور المشرق. فجاءه واهتدى به، وعفت نفسه العطشى إلى ذلك المورد العذب فورده وارتوى منه، وبذلك أعتدل مزاجه، ورقت حواشي نفسه وأصبح وهو في السابعة عشرة من عمره أشرف ثقفي في زمانه كما يقول صاحب الأغاني، وأقبل الحجاج وهو هو في نقد الرجال وتمييز الكفايات بعقد به آمالا كباراً، ويرشحه على حداثة سنه للأمر الجليل بعد الأمر الجليل.

لم يكد ينتصف العقد التاسع من القرن الأول الهجري حتى كانت الفتن التي صدعت وحدة الدولة الإسلامية من بعد معاويةقد ركدت ريحها، فانتهت ثورة ابن الزبير بالحجاز، وكسرت شوكة الخوارج بفارس، وسكنت العاصفة الهوجاء التي أثارها أبن الأشعث بالعراق. هنالك عاود العرب حبهم القديم للفتح والتغلب، وكان الحجاج واضع سياسة ذلك الاتجاه الجديد ومنفذها، فغزا قتيبة بن مسلم ما وراء النهر وأوغل فيها، وتوطد سلطان الدولة ببلاد عمان وغزا موسى بن نصير المغرب وقرع أبواب الأندلس نفسها. وقد أراد الحجاج أن تأخذ ثقيف بنصيبها من شرف هذه الفتوح الجسام، فأغزى أبن عمه محمد بن القاسم السند التي هي مدخل ذلك العالم الزاخر بالناس والحافل بالخيرات، والذي يسمى بلاد الهند. الحق أن الحجاج لم يبتكر سياسة غزو الهند فقد عرف هذه البلاد عرب شرقي الجزيرة منذ الجاهلية، وطالما ركبوا البحر إلى شواطئها مستبضعين وتجارا، فلما قامت الدولة الإسلامية طمعوا في غزوها وتملكها. يروي

صاحب فتوح البلدان (أن عمر بن الخطاب ولى عثمان بن أبي العاص الثقفي البحرين وعمان سنة 15هـ فوجه أخاه الحكم إلى البحرين ومضى إلى عمان، فأقطع جيشا إلى تانه (قريب من موقع بومباي الحاضرة) فلما رجع الجيش كتب إلى عمر، فكتب إليه عمر: يا أخا ثقيف حملت ذودا على عود، وأني أحلف بالله أن لو أصيبوا لأخذت من قومك مثلهم)، وتتابعت غارات عرب البحرين من عبد القيس وغيرها على شواطئ الهند وجزائرها وخاصة جزيرة سيلان التي كان يقال لها إذ ذاك (جزيرة الياقوت) لحسن وجوه نسائها، فمن هؤلاء العرب من أفلح في المقام بها ومنهم من عاد إلى بلاده وملء يديه السبي الرائع والمغنم الوافر. هذا من ناحية العرب، أما من ناحية الهند أنفسهم فقد (هاجرت منهم في الجاهلية طوائف إلى رأس الخليج الفارسي وخضعت للدولة الفارسية القديمة، فلما مصرت البصرة نزلوهاوحالفوا من بها من العرب.)

فلما كان زمن الحجاج أغزى عماله على مكران ثغر السند فكلهم كان ينكب أو يقتل، وأرض السند عبارة عن حوض نهر السند العظيم تنزلها قبائل عديدة قوية نذكر منها الزط والسيابجة والميد والبرهة. وكان بالسند بلدان كثيرة منتشرة في أهضام الأودية ورؤوس

الجبال منها الديبل، وكانت ثغر السند قبل كراتشي الحاضرة وبرهمنا باذوراور والملتان. وكانت هذه البلدان قوية بمعابدها البوذية القديمة وخاصة معبد الملتان. قال البلاذري (وكان بُد الملتان تهدى إليه الأموال، وتنذر له النذور، ويحج إليه السند، ويطوفون به ويحلقون رؤوسهم ولحاهم عنده، ويزعمون أن صنما فيه هو أيوب النبي صلعم) أما من الناحية السياسية فقد كان يتوزع بلدان السند وقبائلها عدة ملوك متقاطعي الكلمة مختلفي الأهواء وكان أقواهم سلطاناً إبان غزو العرب للسند ملك يقال له داهر، فهو الذي أشجى قواد الحجاج وأذاقهم مرارة الهزيمة المرة بعد المرة. والطريف أن مصرع هؤلاء القواد لم يحمل الحجاج على الجد في قتال داهر بمقدار ما حمله عليه استغاثة امرأة عربية اعتدى عليها وعلى نسوة عربيات كن معها بعض قراصين البحر من أهل السند التابعين لداهر.

وذلك أن ملك جزيرة الياقوت فيما يروي البلاذري، أراد التقرب من الحجاج فأهدى إليه نسوة ولدن في بلاده مسلمات ومات آباؤهن وكانوا تجارا، فعرض للسفينة التي كن فيها قراصين من ميدالديبل فاخذوا السفينة بما فيها، فنادت امرأة منهن من بني يربوع: يا حجاج! وبلغ الحجاج ذلك، فقال يا لبيك! وأرسل من فوره إلى داهر يسأله تخلية النسوة. فأجاب بأنه أخذهن لصوص لا قدرة له عليهم. فأغزى الحجاج اثنين من عماله ثغر السند فكلاهما قتل، فأهتاج الحجاج وتجرد لقتال داهر، وكان قد أعد محمد بن القاسم لغزو الري فلما حدث ما حدث على حدود السند رأى في هذا الشاب من يرأب الصدع ويدرك الثأر، فرده عن غزو الري وعقد له على مكران وثغر السند، وأمره أن يقيم بشيراز حتى توافيه القوة التي أخذ يعدها لقتال داهر.

كانت هذه القوة مؤلفة من جيش وأسطول، أما الجيش فكانت عدته زهاء عشرين ألف مقاتل منهم ستة آلاف فارس من جند الشام الذين كانوا عدة الدولة الأموية ومعولها والذين وطئوا للأمويين أكناف ملكهم شرقا وغربا وشمالا وجنوبا. وأما الأسطول فكان يحمل المشاة والمؤن وعدد الحرب الثقيلة. ومن هذه خمس مجانيق ضخام، يقال لأكبرها (العروس) ويروي البلاذري أنه كان يمد فيها خمسمائة رجل. وبالغ الحجاج على عادته في إعداد الجيش حتى انه (. . . جهزه بكل ما أحتاج من الخيوط والمسال وعمد إلى القطن المحلوج فنقع في الخل الخمر الحاذق ثم جفف في الظل، فقال إذا صرتم إلى السند فأن

الخل بها ضيق فانقعوا هذا القطن ثم أطبخوا به وأصطبغوا، ثم تقدم إلى محمد ألاّ يقطع عنه أخباره بحيث يختلف البريد بينهما مرة كل ثلاثة أيام.

خرج محمد بن القاسم بجيشه من شيراز عام سنةهـ590 فسار مشرقا متبعاً ساحل البحر يطوي الحزون والسهول، ويجوب المهامه والقفار، ويحدوه ما يحدوه الشباب الحي من حب للمجد وتعلق بأسباب المعالي، فتغلب على صحارى كرمان ومكران، وبلغ الديبل سالما. ولم يكد يحط رحاله حتى كان الأسطول قد وافاه بها. فشرع من فوره في مهاجمة المدينة. قال صاحب فتوح البلدان، (فقدم الديبل يوم جمعة ووافته

سفن كان حمل فيها الرجال والسلاح والأداة فخندق حين نزل الديبل وركزت الرماح على الخندق ونشرت الأعلام وأنزل الناس على راياتهم ونصب منجنيقاً تعرف بالعروس كان يمد فيها خمسمائة رجل.) وكان بالديبل (بد) عظيم عليه دقل طويل وعلى الدقل (سهم السفينة) راية حمراء إذا هبت الريح أطافت بالمدينة وكانت تدور. . وكانت كتب الحجاج ترد على محمد وكتب محمد ترد عليه بصفة ما قبله واستطلاع رأيه فيما يعمل به في كل ثلاثة أيام. فورد على محمد من الحجاج كتاب أن انصب العروس واقصر منها قامة، ولتكن مما يلي المشرق، ثم أدع صاحبها فمره أن يقصد برميته الدقل الذي وصفت لي. فرمى الدقل فكسر، فاشتد طرة (جزع) الكفر من ذلك ثم أن محمد ناهضهم وقد خرجوا اليه فهزمهم حتى ردهم أمر بالسلاليم فوضعت وصعد عليها الرجال. . . ففتحت عنوة. . . وهرب عامل داهر عنها. . . واختط محمد للمسلمين بها وبنى مسجداً وأنزلها أربعة آلاف، ثم سار محمد مصعداً مع النهر يريد داهر، وعظم جيشه فاستولى على مدينة الرور صلحاً. وأنضم اليه على اثر ذلك أربعة آلاف من الزط، وصار كثير من قبائل السند عونا له في حربه مع داهر. ثم عبر نهر مهران والتقى بداهر وجيشه. وكان على فيل عظيم ومن حوله الجند على فيلة تنذر محمداً وجيشه بفتك ذريع، ولكن محمدا أنقى شر الفيلة، بقذائف النفط الملتهب يرميها بها فهاجت واحترقت هوادجها بمن فيها من الجند، وانتشب بين الفريقين قتال هائل انجلى عن قتل داهر وتمزق جيشه، وتراجع فلوله إلى مدينة برهمنا باذ واقتفي محمد اثر تلك الفلول فاستولى على مدينة رور فبرهمنا باذ نفسها، ومن ثم زحف إلى مدينة الرور فحاصرها اشهرا ثم دانت له على أن يحقن دماء أهلها وألا يعرض لبدهم، وأن يؤدوا إليه الخراج. وقد وفي لهم بشرطهم وبنى بالمدينة مسجداً. ثم قطع نهر بياس إلى الملتان أعظم بلدان السند العليا فامتنعت عليه أول الأمر ثم استولى عليه بممآلاة رجل من أهلها له. ووضع يده على أموال جسيمة كانت بمعبدها البوذى.

كانت الملتان أقصى ما وصل إليه ابن القاسم من ناحية الشمال، قال البلاذري: (ونظر الحجاج فإذا هو قد أنفق على محمد بن القاسم ستين ألف ألف درهم، ووجد ما حمل إليه عشرين ومائة ألف ألف، فقال: شفينا غيظنا وأدركنا أثارنا وازددنا ستين ألف ألف درهم ورأس داهر).

أخذت الملتان سنة 95هـ وعلى أثر ذلك أتت محمدا وفاة الحجاج فقفل راجعا نحو الجنوب مستولياً في طريقه على مدن لملوك آخرين غير داهر، وكان آخر ما فتح مدينة يقال لها (الكيرج) استولى عليها عنوة سنة 96هـ ثم أتاه نعي الخليفة الوليد بن عبد الملك وولاية أخيه سليمان، فلم يبرح تلك المدينة، وقلب له الدهر من ذلك الوقت ظهر المجن، وأخذ نجمه في الأفول.

لا شك أن الحجاج كان موفقا عندما عهد إلى ذلك الشاب قيادة تلك الحملة الخطيرة. فأن محمداً بحداثة سنه وصدق فروسيته قد ملك زمام أصحابه فلا نسمع أن أحدا منهم حدثته نفسه بخلاف عليه أو عصيان له. ثم أنه بهذه الخلال نفسها وبرجاحة عقله وسعة حلمه اجتذب قلوب السند أنفسهم، فقد قارنوا بينه وبين ملوكهم المترفين المتجبرين المتخاذلين فلم يتمالك كثير من قبائلهم أن إعطاء الطاعة وأخذ جانبه في الحرب كما سبق القول. ويروى أنه عندما شرط عليه أهل المدينة الرور ألا يقرب بدهم وفي لهم بذلك وقال: (ما البد إلا ككنائس النصارى واليهود وبيوت نيران المجوس)، وكانت حكومته اياهم عادلة رفيقة إذا قيست بحكومة ملوكهم وأمرائهم، فقد تقدم إلى عماله بهذه النصيحة: أنصفوا الناس من أنفسكم، وإذا كانت قسمة فأقسموا بالسوية، وراعوا في فرض الخراج مقدرة الناس على أدائه ولا تختلفوا ولا تنازعوا فتشقى بكم البلاد. ثم أنه كان مدركا كل الإدراك أن عليه واجبين عظيمين: عليه أن ينشر في البلدان التي فتحها الثقافة الإسلامية، وأن يصل بين الشرق والغرب الإسلاميين، من أجل ذلك كان إذا فتح مدينة أنزلها بعض أصحابه، وبنى بها مسجداً. ومن أجل ذلك نقل طوائف من الزط والسيابجة إلى العراق فانزل الحجاج بعضهم كورة كسكر بفارس، ووجه بقيتهم إلى الخليفة، فانزلهم أنطاكية وسواحل الشام لينتفع بخبرتهم البحرية في قتال الروم، كذلك أرسل إلى الحجاج فيلة سميت ببعضها مشرعة الفيل التي كانت بواسط، كما بعث إليه بآلاف من الجواميس السندية،

فاطلق الحجاج بعضها في آجام كسكر وكور دجلة، وبعث كثيرا منها إلى الخليفة فاطلقها في الآجام التي بين أنطاكية والمصيصة، واتقى بها سباع تلك الآجام وكانت قد كثرت وأخافت السابلة. وقد نمت هذه الماشية بالعراق على مر الزمن حتى أصبحت من أسباب ثروته الاقتصادية في الوقت الحاضر.

تلك غزوة محمد بن القاسم للسند. أنها لا شك تذكرنا بغزو الاسكندر المقدوني لتلك البلاد نفسها في أخريات القرن الرابع قبل الميلاد. فالغزوتان تتشابهان من عدة وجوه، تتشابهان من حيث أن كلتيهما برية بحرية إلى حد بعيد، ومن حيث حداثة كلا الفاتحين وكفايته، ومن حيث أن كليهما نهج في نشر ثقافته بالسند نفس المنهج الذي نهجه الآخر، ومن حيث أن كليهما كان يهدي إلى أستاذه طرفا من طرف فتوحه ويراسله مستطلعاً رأيه، فالفاتح المقدوني كان يهدي إلى أرسطو ويراسله، والفاتح العربي كان يهدي إلى الحجاج ويراسله مصدراً في بعض المواقف عن رأيه. ولو أن أهل السند الذين غزاهم ابن القاسم، والذين قد يكون منهم من يدين بشرعة التناسخ ذكروا تاريخ بلادهم القديم فربما رأوا في الفاتح العربي الحديث انبعاث روح الفاتح المقدوني القديم.

وبعد فماذا كان مصير ذلك الفاتح العظيم؟ لقد جوزى جزاء سنمار وصار إلى شر مصير، فقد نكبه الخليفة سليمان بن عبد الملك نكبة كان فيها تلف مهجته وبوار نفسه. والمصادر القديمة مختلفة في تعليل تلك النكبة، فالمصادر الفارسية، وهي حديثة نسبياً غير موثوق بها تزعم أن بنات داهر أفضين إلى الخليفة بأن أبن القاسم عبث بهن، فأضطرم الخليفة غيظا وأمر بمحمد فوضع في أديم بقرة ثم خيط عليه الأديم وحمل إلى دمشق ففاضت روحه بالطريق فلما بلغ بنات داهر مصرع الفتى استشعرن الندم وقلن أنهن تجنين على ابن القاسم انتقاما ممن قتل أباهن وثل عرشه، فاشتد غضب الخليفة عند ذلك وأمر بهن فقتلهن شر قتلة: أما المصادر العربية وهي أقدم من المصادر الفارسية وأوثق فلا تذكر شيئا من أمر النسوة، ويؤخذ منها أن الخليفة سليمان بن عبد الملك كان مضطغنا على الحجاج لأنه

كان قد زين للخليفة الوليد ابن عبد الملك خلع سليمان من ولاية العهد: أما وقد فارق الحجاج هذه الدنيا فقد رأى سليمان أن يشفي غيظه من أقربائه متأثرا في ذلك بنظام الثأر عند العرب. وقد أذكى نار الحقد والموجدة في صدره رجلان كلاهما قد وتره الحجاج وكلاهما كان متأثرا بالعصبية القبلية بين قيس واليمن: أحدهما يزيد ابن المهلب وكان أثيرا مكينا لدى الخليفة، والآخر صالح بن عبد الرحمن وقد ولاه سليمان خراج العراق.

عزل محمد عن السند وولى مكانه يزيد بن أبي كبشه السكسكي فأخذ محمدا وقيده وسيره إلى العراق مع رجل من بني المهلب على حال حركت قلوب أهل السند فبكوا عليه وصوره أهل الكيرج بمدينتهم التي كان منها شخوصه، وقد تلقى محمد المحنه صابراً محتسبا ولم يكن في محنته أقل شجاعة وصبرا أو أنفة منه وقت الحرب وحين البأس. والغريب أنه على إخلاص أصحابه له وعطف السند عليه لم تحدثه نفسه بالخلاف والانتقاض. والظاهر أنه أيقن أن قد أدى واجبه وأن الحياة أصبحت بعد ذلك لغوا وفضولا لا طائل فيه. وقد جعل يسري عن نفسه بمقطوعات من الشعر ضمنها آلامه وخواطر نفسه. فمن ذلك قوله مشيرا إلى أنه لو أراد الثورة لشق على أعدائه تهضمه.

ولو كنت أجمعت القرار لوطئت ... إناث أعدت للوغى وذكور
وما دخلت خيل السكاسك أرضنا ... ولا كان من عك على أمير
ولا كنت للعبد المزوني تابعاً ... فيالك دهر بالكرام عثور

ولما صار إلى واسط حبسه صالح بن عبد الرحمن فقال:

فلئن ثويت بواسط وبأرضها ... رهن الحديد مكبلا مغلولا
فلرب قينة فارس قد رعتها ... ولرب قرن قد تركت قتيلا

وعذبه صالح في رجال من أقرباء الحجاج حتى قتلهم، فطفق الشعراء يرثون محمدا ويذكرون فضائله، فمن ذلك قول بعضهم:

أن المروءة والسماحة والندى ... لمحمد بن القاسم بن محمد
ساس الجيوش لسبع عشرة حجة ... يا قرب ذلك سؤددا من مولد

وقال آخر:
ساس الجيوش لسبع عشرة حجة ... ولداته عن ذاك في أشغال
تلك خاتمة فتى فتيان العرب وسيد فرسانهم غبر مدافع. فمن مبلغ مسلمي الأرض عامة والهند خاصة ان الدوحة الإسلامية العالية التي أظلت بلاد الهند طوال العصور الوسطى، إنما كانت غرس ذلك الفتى العربي النبيل؟ فليذكر ذلك الذاكرون فقد تبل الذكرى رفات ذلك الشهيد في قبره، بعد أن عدم في حياته من يحمد بلاده أو يرحم شبابه؟
ثم أرادت أن تجعل منه رجلا 000!
للدكتور محمد عوض محمد
. . .لقد قض الأمر، وزوجت منه!
فيا للعجب! كيف ألم بالدهر هذا الحادث الخطير، والشمس ما برحت في السماء تجري لمستقر لها، والأرض مازالت تدور حول محورها المائل المنحرف، وتطوف من حول الشمس وتمعن في الطواف؟ والقمر ? أجل القمر ولميزل ينتقل بين منازله المقدرة له من الأزل. . فكيف إذن نزل ذلك الخطب؟
أكبر الظن أن القمر المذكور هوسبب تلك النكبة. أجل هو وحده المسئول عن تلك الكارثة. فأن ليلى قد التقت بأحمد من قبل مرار، في وضح النهار، فلم تر فيه إلا فتى حسن الصورة، ولم تحس نحوه ميلا ولا حبا. . لكنها التفت به بعد ذلك على شاطئ النيل، في ليلة يلمع فيها بدر التمام؛ فإذا القمر يوسوس في صدرها، ويثير في فكرها الأوهام، ويريها صورة ذلك الفتى، وكأنها تمثال لكل ما يتوق إليه قلب المرأة التواق من سحر وجمال وشعر وأحلام أما صوته المتكسر الواهي، فكان يرن في إذنيها كالموسيقى العذبة لكنها كانت من طراز موسيقى شوبرت الرقيقة، لا موسيقى وأغنر العنيفة القوية. . ولقد ساورها الشك لحظة، وأرادت أن تسأل نفسها: (أنى لرجل كامل الرجولة أن يكون في صوته كل هذه الرقة وهذا التكسر؟) لكن القمر لم يدعها طويلا تتلاعب بها الشكوك، بل أوحي اليها بسرعة أن ذلك من أثر العشق الذي استحوذ على أحمد، فرقق من صوته وأكسبه كل هذا اللين والعذوبة والغور!. وكان القمر في هذا كاذبا؛ والحقيقة أن أحمد كان من ذلك الجنس الناعم الخائر الذي يبرأ منه الرجال والنساء على السواء.
فلم تنقض تلك الليلة المقمرة الساحرة حتى كان الحب مالئا قلب ليلى؛ وقد جعل على عينيها غشاوة لن يزيلها الا تعاقب الليل والنهار.
وهكذا تم النصر للقمر الماكر! وياليت الزهرة كانت في السماء تلك الليلة، إذن لمحضت ليلى النصح، وفتحت عينيها لما هو محدق بها من الخطر؛ لكن الزهرة لم تكن في السماء. وهل في الدهر سواها نصير للفتيات يرد عنها الغوائل، (ياللاسف!) ويهديهن سواء السبيل، ويأخذ بأيديهن كي لا يترددن في كل هوة مخيفة ? أما القمر فنصير الفتيان، وعلى الخصوص اولئك الفتيان الخائرون المتكسرون، الذين يشبهونه بوجوههم المليحة الناعمة الشاحبة الخالية من كل قوة ونخوة. . ولم تك إلا أسابيع قلائل، حتى زوجت منه وقضي الأمر! والشمس ما برحت في السماء تجري لمستقر لها، والأرض ما انفكت تدور حول محورها المائل المنحرف
ثم كان شهر العسل!
فأما الشهر فلم يكن كشهري وشهرك أيها القارئ، مؤلفا من ثلاثين يوما، أو أحد وثلاثين يوما على أكبر تقدير. بل لقد استطاع الحب (وهو ذلك الساحر البارع) أن يمسه بعصاه، فإذا هو يمتد من أول مايو إلى آخر أكتوبر؛ وإن يوما عند الحب كألف يوم مما تعدون!
هذا ما كان من أمر الشهرّ وأما ما كان من أمر العسل فقد كان أريا شهيا، وشهدا جنيا، وحلاوة وعذوبة ليس وراءهما حلاوة ولا عذوبة، وخمرة سائغة، لم تتناولها بالتحريم شرائع السماء، ولا قوانين الولايات المتحدة.
وظلا غارقين في ذلك البحر الخضم، فلم تنتبه ليلى، ولم تشأ أن تنتبه. وإن كان في الغرقكل هذه السعادة والنعيم، فالويل لمن يفكر في إنقاذ الغرقى!
وسيقول الناس: أن الحب يعمى ويصم، وأنا أربأ بالقارئ أن يكون ممن يرون هذا

الرأي، فأن العمى والصم هما (فيما يقال) عاهتان، وما أبعد الحب (وأبعد به) أن يكون مسببا للآفات والعاهات وإنما الصواب أن نقول أن الحب يضع على العينين عصابة من ذلك الطراز الجميل الذي يعصبون به عيني الثور حين يدور بالساقية، فلا يزال يدور ثم يدور، وهو يحسب نفسه قد طاف حول الكرة الأرضية.

وكذلك قد صور الحب لليلى أنها قد طافت العالم وأحرزت الدنيا بأسرها.

كل هذا، والشمس ما برحت في السماء تجري لمستقر لها، والأرض مازالت تدور حول محورها المائل المنحرف.

ثم لم يكن بد من أن يجيء اليوم الهائل المحتوم بعد أن ولى الربيع، وذهب في أثره الصيف، وأتى بعدهما الخريف الذي لا يدارى ولا يمارى، بل يظهر الحقيقة عارية مجردة جافة.

وفي يوم من أيام الخريف بسط الدهر يديه القويتين فجأة، وكشف الغطاء عن عيني ليلى!

نظرت، فلم تصدق الرؤيا التي رأتها. . أجل وقد حسبتها رؤيا مما يراه النائم الغارق في نومه. وكبر مقتاً عندها أن يكون هذا مما تراه هي. . حتى في الحلم. . . فجعلت تغمض عينيها، ثم تفتحهما، مرارا. . . لا الفارق أنها ليست نائمة، وهذا الذي تراه ليس حلما. . هو الحقيقة إذن ? أجل وليس بمجديها أن تحاول إنكارها. . صحيح إذن أنها رضيت أحمد هذا زوجا، وأنه (يا للهول!) قد شغفها حبا فلم تكترث للناصحين والعذال. . رضيت بذلك الكائن الممسوخ زوجا، ليكون لها في الحياة رفيقا وعدة وذخرا. ذلك المخلوق اللين المتكسر الخائر، الذي ليس في قلبه همة، ولا في رأسه نخوة، ولا مطمح له في الحياة ولا مأرب، ولا عزمة له ولا إرادة! أن الناس تصفه ظلما بأنه يشبه النساء، وهذا كذب، بل كفر، بل شر من الكفر. أن النساء أجل وأكرم من أن ينتسب إليهن هذا المخلوق، هذا اللين المستخذي، هذا الناعم الخائر، هذا التافه ذو الوجه (الكارت بوستال). ذو الصورة السينمائية الفاترة، الخالية من كل روح ومعنى.

أيمثل هذا الشيء تجن هي. . ليلى؟ ليلى التي طالما جشم أبوها نفسه وجشمها كل عناء وبلاء في سبيل تأديبها وتثقيفها، لايألو في ذلك جهدا ولا مالاً ولا وسيلة! ألم يهيئ لها الأسباب لتتلقى العلم في مصر على خير أساتذة مصر، وفي إنجلترة في خير معاهد إنجلترة وأعظمها جميعا؟. . أجل وما أشد سرورها يوم ألفت نفسها، وهي بنت النيل، في نيونهام كولدج تتلقى العلم هي وبنات النبلاء جنبا لجنب؛ وكان نجمها الساطع محلقا في السماء لا يعلو عليه نجم، ولها بين صواحبها منزلة ومكانة وشهرة قد جاوزت نيونهام إلى جميع دور العلم بكامبردج؛ وملأ الإعجاب بليلى المصرية صدور الشباب من الطلبة، والشيب من الأساتذة المحنكين. . ولقد طالما حاول الكثير من كرام الفتيان أن يتقرب إليها، فكانت ترده في حزم ولطف وتواضع لم يزدها إلا سموا وتقديرا.

ثم تلك الرسالة البديعة التي كتبتها عن الفلسفة العربية؛ فكانت نصرا باهرا، وتاجا براقا لتلك السنين الخمس، التي قضتها في جد ودأب لا تعرف الدعة ولا الهوادة.

وهبطت مصر، تزدحم في صدرهم الآمال، وتريد أن تتبوأ مكانها بين قومها لكي تعمل على نصرهم وسؤددهم، بكل ما أوتيت من قوة وهمة؛ ولم تجد بأسا في أن يكون لها في جهادها العنيف رفيق يشد أزرها ساعدها. ولم تكن ليلى من النساء اللواتي أغلقت قلوبهم

دون الحب برتاج غليظ. . ولكن شاءت المقادير العجيبة أن يكون رفيقها الذي تختاره وترتضيه هو ذلك المخلوق الناعم الخائر، ذلك اللين المستخذي، ذا الوجه الكارت بوستال.

والشمس مازالت في السماء تجري لمستقر لها، والأرض ما برحت تدور حول محورها المائل المنحرف.

وجلست ليلى وهي تطل من نافذتها، تنظر إلى النيل إذ يندفع تياره من الجنوب إلى الشمال، وإلى أشجار الصفصاف، وقد تدلت غصونها إلى الماء كأنها عبرات تسيل؟ وإلى السحب الحمراء قد خلفها الغروب. ومن دونها الأهرام قائمة على الأفق، وإلى الزهرة في السماء تتألق وترقص بين السحاب.

أدركت ليلى أنها أخطأت. . أجل أخطأت برغم كل ما وعاه صدرها من علم وأدب

وحكمة وفلسفة، وارتكاب الخطأ حق طبيعي لكل رجل، بل ولكل أمراءه أيضا. . الحيوانات لا تخطيء، لأنها تصدر في أعمالها عن الغريزة، والغريزة معصومة عن الزلل. أما أبناء آدم وبناته فيصدرون عن العقل، وهو كثير العثرات.

إذن ليس ببدع أن تكون ليلى قد ارتكبت خطأ، وليس بعد الخطأ إلا محاولة الإصلاح. . لكن كيف السبيل إلى إصلاح هذا الخطأ؟ ليست الأمراض سواء في قبولها للعلاج، وليست الأخطاء سواء في قبولها للإصلاح.

حاولت ليلى أن تلتمس الإلهام مما تعلمه من حكمة وفلسفة. ولكنها لم تلبث أن تبينت أن ليس هذا بمجديها نفعا. إن للفلاسفة في هذا الموضوع الخطير آراء قلما تسمن أو تغني. . .

إن (نيتشه) الذي تحبه لم يتزوج و (كانت) العظيم عاش عمره الطويل لم يتزوج، وأبو العلاء لم يجن على أحد، و (شوبنهاور) كثيرا ما كان يؤثر صحبة الكلاب على الخلان والأصدقاء، وسقراط وافلارطون؟. . أولى بها ألا تفكر الآن في سقراط وأفلاطون. . . لا. . ليس بنافعها أن ترجع إلى القدماء، كي يحلوا لها مشكلتها الحديثة. . لا بد لها أن تركن إلى نفسها وأن تعتمد على فلسفتها هي. .

أجل وأن لها في هذا الأمر لفلسفة خاصة، ورأيا ستحاول إنفاذه: أنها سوف تصلح أمر أحمد، وسوف تقوم معوجة، وسوف تجعل منه رجلا. . هذا المرام البعيد، الذي يراه الناس

محالا، كانت تحس في أعماق صدرها أنه ليس بمحال، أتراها وفقت إلى العثور على ذلك الحجر العزيز: حجز الفلاسفة فأمست قادرة على أن تحيل الخسيس نفيسا، والدنيء رفيعا؟

كلا! أن ليلى لن تحاول أن تنال بغيتها عن طريق المعجزات بل لقد رأت في أمر زوجها رأيا، حسبته رأيا سديدا، وكان وليد تدبير طويل، وتفكير عميق. . رأت أن أحمد تعوزه الرجولة، في مظهره ومخبره، وفي جسده وفي روحه، في حركاته وتفكيره. وقد عملت أن ليس إصلاح الروح بالشيء اليسير: لكنها تستطيع (على الأقل) أن تكسبه مظهر الرجال. فلتأمره إذن (وهو لها طيع ذلول) أن يلبس الخشن من الثياب: وأن ينعل الخشن من الأحذية: وأن ينطلق إلى ضيعة أبيها فيقيم هنالك شهرين أو ثلاثة أشهر؛ يعمل في حقولها كل يوم، حارثا وزارعا حاصدا، وعليه أن يرسل لحيته وشاربه حتى يغطي الشعر وجهه. . ثم يعود إليها بعد ذلك، وقد لبس حلة الرجولة سابغة شاملة، فمن يد خشنة الملمس، إلى ذراع قوية متينة؛ إلى وجه قد لوحته الشمس يكسوه شارب طويل ولحية مرسلة. أما صوته الناعم الفاتر، فلا بد أن يكتسب شيئا من الخشونة من كثرة ندائه للثيرة، وصياحه خلف المحاريث.

وكانت ليلى تعلم أن هذه كلها ظواهر، ليس فيها نفع ولا غناء، ولكنها كانت مؤمنة بأن إصلاح العرض سيفضي إلى إصلاح الجوهر، الصلاح الإناء وسيلة لإصلاح الشراب؛ وأن أحمد لا يلبث أن يكتسب مظهر الرجولة، حتى تتسرب بعد ذلك إلى لحمه ودمه بفضل ما بين الروح والجسد من رباط متين.

وأحسبها قد اقتبست هذا الرأي من بعض ما درسته من فلسفة وحكمة؛ لكنها كانت أشد أيمانا به من الحكماء الذين قالوا به. وما هي إلا أيام قلائل حتى مضت في تنفيذه، فانطلق أحمد إلى الريف وبقيت ليلى وحدها الليالي والأيام ترقب دورة الفلك؛ والشمس ما برحت في السماء تجري لمستقر لها، والأرض ما فتئت تدور حول محورها المائل المنحرف.

وفي مساء يوم عبوس متجهم من أيام أمشير؛ تلبدت السماء بسحاب أسود قاتم، وكان يعدو من المغرب إلى المشرق؛ طبقات بعضها فوق بعض؛ تحمله في السماء ريح عاصف. . وعلى الأرض زعزع نكباء تثير الموج على صفحات النيل، وتهز جذوع الصفصاف هزا عنيفا، وقد ثارت الزوابع تحمل العثير المطار إلى كل عين وكل أنف. . ومشت ليلى نحو

النافذة فأغلقتها في بطء شديد وحزن شديد، مطأطئة رأسها في كآبة وكمد. ثم سقطت على سرير ممدود وجعلت تسفك العبرات وتعول بالبكاء. . بصوت لولا دوي الريح لأسمع من بالدار. وما أشد حاجتها في ذلك المساء إلى الوحدة وإلى البعد عن الناس وإلى البكاء تطفئ به ذلك الجحيم المستعمر في صدرها وفي أحشائها.

مسكينة ليلى! إن فلسفتها قد خابت، وتجربتها قد فشلت! وكل هذا التقدير والتدبير والسعي والاحتيال لم يصادف إلا حبوطا أليما، وخيبة قاتلة. إن الداء كان عضالا، والسم قد سرى إلى الرأس والأوصال، والعرق والعصب؛ فاستفحل واستمكن، ولات حين علاج، ولات حين شفاء. .

واختلط الحزن في قلبها، وألح عليها من كل جانب، فليس يدرى أي خطبيها أشد وأقتل؛ فشل تلك التجربة وذلك الرأي السديد الذي حسبته زبدة الحكمة وخلاصة الفلسفة، أم كارثتها في هذا المخلوق الذي بات حتما عليها أن ترضاه، وهو دون الرضى، وأن تعتمد عليه في الحياة، وهو ذلك الرطب العاجز المائع.

لقد فشل تدبيرها فشلا ذريعا، فأن المسكين لم يطق الريف، ولم يلبث أن أسأمه وأضناه، فقضى أيامه هناك بين سقم وبين الإفاقة من سقم، حتى أشفقت عليه ليلى وأذنت له أن يعود. أما ذلك الشعرالقليل الذي نبت على خديه وشفتيه، فلم يك الاغشاءً رقيقا تافها، لم يقربه من الرجولة قيد شعرة.

مسكينة ليلى! أن الرزء الذي رزئته لشديد. ولم يبق لها من وسيلة تتوسل بها سوى الصبر، والصبر أوهى الوسائل. . وما أشد حاجتها لأن يكون لديها من هذه الوسيلة الواهية ذخيرة لا تنفذ، ذخيرة تكفيها العمر كله. . لا بد أن يكون في العالم شهداء يحملون الأرزاء، فلا رأى اليوم إلا أن تكون كأحدهم. ولئن كان رزؤها هذا من صنع يديها، فما أحقها بحمله والاضطلاع به. . مدى الحياة.

لقد سخرت منها المقادير، حين أرتها الحياة حلما زاهيا، وزهرا نظيرا، واليوم وقد آن للزهر أن يحول ثمرا وللدوحة أن تؤتي أكلها، إذا الأقدار تسلط عليها هذا السقم العضال يذويها ويفنيها. لم يبق لها بد إذن من أن تودع هذه الأحلام جوف الثرى، في غير رحمة ولا هوادة، وتستقبل هذا العهد الجديد، عهد الشهداء الصابرين في قوة وجلد.

لا جرم أن الانتقال إلى تلك الحال ليس بالشيء اليسير، ولكن لعل أسابيع تقضيها (هي) في الريف، وتفكير، أن تعدها لهذا العهد الجديد، هذا العهد القاسي الشديد.

ونهضت متماسكة من سريرها، وسارت إلى النافذة ففتحتها، وجلست على كرسي صغير بجانبها. . وجعلت تنظر إلى الغيث وقد أخذ ينهمر مدرارا، وإلى الرياح وهي تميله يمنا وشمالا. .

. .ثم أخذ ينهمر على خديها مطر (غزير) لم يكن مما أسقطه السحاب، أو دفعته الرياح والشمس من خلف الأفق تجري لا مستقر لها، والأرض ما برحت تدور حول محورها المائل المنحرف.

فيا عجبا لهذا الكوكب السخيف! كيف آثر الانحراف على الاعتدال، والميل على الاستقامة؟

العرب والفرس قبل الإسلام

للدكتور عبد الوهاب عزام

سأجمل في هذا المقال، ما يعرفه التاريخ وترويه الأساطير من الصلات بين العرب والفرس قبل الإسلام، وعسى أن يكشف التاريخ عن صلات أخرى بين الأمتين، أو يبين عن حقائق تفسر بعض هذه الأساطير.

ويمكن تقسيم الروايات إلى قسمين: ما قبل العهد الساساني وهي أساطير، وما بعده وهي تاريخ أو قريب من التاريخ.

أ. قبل عهد الساسانيين

الأساطير تتفق عليها الكتب العربية والفارسية، وأعظم مصادرها كتاب الشاهنامة للفردوسي، ومنها:

1. أسطورة الضحاك

وأجمالها أن الضحك هذا كان أبن أمير عربي من أمراء اليمن أسمه مزداس تمثل له الشيطان في صورة شاب صبيح وزين له قتل أبيه فقتله. ثم تمثل له في صورة طباخ وأعلمه أنه حاذق في تجويد الأطعمة، خبير بأصنافها، فأتخذه الضحاك طباخا له فطبخ له اللحم، وكان الناس من قبل لا يأكلونه، فاستطاب الضحاك ألوان اللحم التي قدمها له طباخه فقربه وركن إليه.

ثم سأل الطباخ سيده أن يأذن له تقبيل كتفيه، فقبلهما ثم ساخ في الأرض فلم يعرف

أثره، ونبت على منكبي الضحاك سلعتان كأنهما حيتان فذعر لذلك وأستدعى الأطباء فلم يهتدوا في أمرهما إلى دواء، وكان الضحاك يحس لهما وجعا. فتمثل الشيطان في صورة طبيب وأشار على الأمير أن يطلي السلعتين بأدمغة البشر، ففعل وسكن الألم، فدأب على ذلك لا يستريح إلا أن يقتل بعض الناس فيدهن بدماغهم حيتيه.

وكان جمشيد ملك الفرس قد عتا وتجبر وادعى الألوهية، ففزع الفرس إلى الضحاك يستغيثونه، فسار اليهم في جند كثيف وتعقب جمشيد حتى قتله. ثم تسلط على بلاد الفرس وسام الناس ألوان العذاب حتى ثار به جاوه الحداد ودعا الناس إلى تمليك أفريدون. وحارب أفريدون الضحاك فهزمه، ثم أخذه فقيده وسجنه على جبال دماوند. ويقال أن جاءوه

الحداد حينما أزمع الثورة أخذ الجلدة التي كان يضعها على حجره حين طرق الحديد فعلقها في عصا وجعلها علم الثورة، وأتخذها الفرس من بعد لواءً مقدسا سموه (العلم الجاوى) (دوفش كاوباني).

وإذا نظرنا إلى تواريخ الشهنامة وجدنا الضحاك يتملك على إيران قبل الميلاد بألفين وثمانمائة سنة: وذلك يوافق عهد الدولة البابلية. فإن كان وراء هذه الأسطورة حقيقة فهي تسلط الساميين على إيران. ويؤيد هذا أن كتاب الابستاق يجعل مقر الضحاك مدينة بوري، وهي بابل، وكذلك نجد في نزهة القلوب للقزويني أن بابل كانت مستقر الضحاك ونمرود.

وقد أشار إلى قصة الضحاك أبو تمام إذ قال:

ما نال ما قد نال فرعون ولا ... هامان في الدنيا ولا قارون

بل كان كالضحاك في سطواته ... بالعالمين وأنت أفريدون

وأفتخر أبو نواس في قصيدته التي يفخر فيها بقومه القحطانيين:

وكان منا الضحاك يعبده ال ... خابل والجن في مساريها.

2. وفي الشاهنامة وغيرها من الكتب العربية والفارسية أن أفريدون زوج أبناءه الثلاثة (تورا) و (سلما) و (ايرج) من ثلاث بنات لملك من ملوك اليمن، وأفريدون عند الآريين يشبه نوحا عند الساميين، نسل من أبنائه الثلاثة خلق كثير، فتور أبو ملوك توران! وايرج ابو ملوك إيران وسلم أبو ملوك الروم، فالمصاهرة بين أفريدون وملك اليمن تجعل العربأخوال كل من نسل من بني أفريدون.

3. وكذلك نجد في الأساطير الفارسية أن مهراب ملك كابل في عهد الملك منوجهر عربي من نسل الضحاك، وأن (زال) بن سام تزوج بنت مهراب فولدت له رستم بطل أبطال الفرس، فرستم إذن له خؤولة في العرب.

4. ومن الروايات التي هي أقرب إلى التاريخ مما تقدم حرب كيكاوس وملك هاماوران (حمير) وأسر كيكاوس في بلاد اليمن، وتنازع أفراسياب ملك التورانيين، العرب على ملك إيران، ثم ذهاب رستم إلياليمن وتخليص كيكاوس. ويقول أبو نواس في القصيدة التي ذكرتها آنفا:

وقاض قابوس في سلاسلنا ... سنين سبعا وفت لحسابها

وكان الكيكاوس، في القرن العاشر قبل الميلاد في حساب الشاهنامه. وفي بعض الكتب العربية أن ملك اليمن اذ ذاك كان ذا الأزعار أبن أبرهة ذي المنار بن الرائش.

5. ومما تقصه الروايات في هذا العهد عهد الكيانيين، الحرب بين داراب وبين رجل عربي أسمه شعيب بن قتيب. وداراب هذا هو، في غالب الظن، داريوس أخوس (424 - 404 ق. م) وأعظم الحوادث في عهد الساسانيين وهو أقرب إلى التاريخ وكثير من حوادثه واقعات تأريخيه:

ب - بعد عهد الساسانيين

1. قصة سابور الأول (241 - 272م) وملك الحضر، وهو الضيزن بن معاوية القضاعي، أو الساطرون كما في بعض الكتب. وذلك أن الضيزن أغار على فارس وأسر أخت سابور أو عمته، فسار سابور إليه وحاصر الحضر حتى استولى عليه بخيانة بنت الضيزن.

والحضر كان مدينة بالجزيرة الفراتية على أربعين ميلا من دجلة نحو الغرب إزاء تكريت، وعلى مائتي ميل إلى الشمال من بغداد. ولا تزال أطلالها بما كان من عظمها ومنعتها. ويقول الهمذاني في كتاب البلدان:

كانت مبنية بالحجارة المهدمة بيوتها وسقوفها وأبوابها. وكان فيها ستون برجا كبارا.)
ويقول ياقوت (وبين البرج والآخر تسعة صغار:
فأما في هذا الزمان فلم يبق من الحضر إلا رسم السور وآثار تدل على عظمه)
وقد حاصره الإمبراطور تراجان وسفريوس فلم يقدرا عليه (.وجلاله.
وقد روى ياقوت في قصة الحضر شعرا لعدى بن زيد والأعشى وروى الطبري شعرا لأبي دؤاد الأيادي. والشاهنامة تجعل الواقعة في زمن سابور ذي الأكتاف وتخلط بعض الحادثة ببعض.
2. ومن ذلك ما وقع بين أذينة ملك تدمر وسابور الأول أيضا: فقد أغار أذينة على جيش سابور وهو راجع مظفراً من حرب فلريان إمبراطور الروم، فانهزم الجيش الفارسي وتعقبه أذينة. وقد أغتبط الروم بما فعل أذينة فاثابوه ولقبوه (اغسطس).
3. ومن قصة سابور ذى الاكتناف (309 - 379) والعرب.
يروى أن بعض العرب أغار على بلاده فحاربهم في خوزستان ثم عبر الخليج إلى البحرين وهجر واليمامة، ثم سار إلى الشمال فحارب بني بكر وغيرهم، وأنزل بعض القبائل غير منازلهم:
أنزل بني تغلب بدارين والخط، وبعض بكر بصحارى كرمان، وبعض عبد القيس وتميم في هجر واليمامة، وبني حنظلة بالصحارى التي بين الأهواز والبصرة.
ويقال أنه سمى ذا الأكتاف لأنه خرق أكتاف الأسرى من العرب ونظمهم في الحبال.
وكذلك كانت أحداث بين العرب ولا سيما أياد وبين سابور بن سابور ذي الأكتاف. ذكر بعضها المسعودي في الجزء الأول من المروج. وفيها يقول بعض الشعراء:
على رغم سابور بن سابور أصبحت ... قباب أياد حولها الخيل والنعم
ويقول الحارث بن جنده (الهرمزان):
هم ملكوا جميع الناس طراً ... وهم ربقوا هرقلا بالسواد
وهم قتلوا أبا قابوس عصبا ... وهم أخذوا البسيطة من أياد
وتكثر الأحداث بين الفرس وقبائل الشمال عامة ولا سيما ربيعة التي كانت تسمى ربيعة الأسد لجرأتها على الأكاسرة.
4. والصلات بين أمراء الحيرة والفرس منذ نشأت الدولة الساسانية في القرن الثالث الميلادي ليست في حاجة إلى البيان، فحسبي أن أذكر من الحوادث ما يبين عن مكانة المناذرة في دولة الفرس وقوتهم:
عهد يزدجرد (399 - 402) إلى المنذر الأول بتربية ابنه بهرام فنشأ في الحيرة حتى بلغ الثامنة عشرة، وتعلم الفروسية والرماية حتى صار مضرب المثل في الرمي بالنشاب، ثم رجع إلى أبيه فغلبه الشوق إلى الحيرة، حتى توسل برسول ملك الروم إلى أبيه ليأذن له في العودة إلي الحيرة فبقي بها حتى توفي يزدجرد. وأزمع أعيان الفرس ألا يولوا من بني يزدجرد أحدا. فأيد المنذر وأبنه النعمان بهرام وأمداه بالجند حتى أرغما الكارهين على تمليكه.
وفي روايات الأدب الفارسي أن بهرام هذا أول من شعر بالفارسية، أخذ الشعر عن العرب. وفي كتب الأدب شعر فارسي مروى عن بهرام، وكذلك تروى الكتب العربية شعراً عربياً
كما روى المسعودي في المروج:
أقول له لما فضضت جموعه ... كأنك لم تسمع بصولات بهرام
فأني حامي ملك فارس كلها ... وما خير ملك لا يكون له حامي
ويروى المسعودي أبياتا أخرى ويقول. . وله أشعار كثيرة بالفارسية والعربية أعرضنا عن ذكرها في هذا الموضع طلبا للإيجاز.
وقد حارب المنذر الرومان انتصارا للفرس وهزم جيوشهم سنة 421م، وكذلك حاربهم المنذر الثالث ابن ماء السماء وتعقبهم إلى إنطاكية حتى أستنجد جستنيان الحارث الأعرج الغساني، فكانت وقائع بين الأميرين العربيين أسر فيها المنذر إبناً للحارث فقربه للعزى (صنم) وانتهت بقتل المنذر في موقعة عين أباغ أو يوم حليمة.
5. وفي عهد قباذ حينما اضطرب أمر الفرس بفتنة مزدك أغار الحارث بن عمرو الكندي على الحيرة وأخرج منها المنذر أبن ماء السماء، وصادف ذلك هوى في نفس قباذ فأيد الحارث. ويروى أنه أرسله لحرب أحد تبابعة اليمن، فلما ولى كسرى

أنوشروان رد إمرة الحيرة إلى المنذر.
6. وفي عهد كسرى برويز حوالي 610م كانت موقعة ذي قار. وذلك أن كسرى برويز قتل النعمان أبا قابوس. وطلب ودائعه عند هانئ بن مسعود الشيباني فأبى إسلامها، وكان كسرى قد ولى أياس ابن قبيصة الطائي على الحيرة. فسار أياس في جموع من الفرس والعرب: طئ وبهراء وأياد وتغلب والنمر، فلقيهم بنو شيبان في جموع من بكر ووقعت الحرب وتمادت ثلاثة أيام آخرها يوم ذي قار، ودارة الدائرة على الفرس وأنصارهم.
وفي يوم ذي قار يقول أبو تمام يمدح أبا دلف الشيباني:
إذا افتخرت يوماً تميم بقوسها ... وزادت على ما وطدت من مناقب
فأنتم بذي قار أمالت سيوفكم ... عروش الذين استرهنوا قوس حاجب
ويقول مادحا يزيد بن مزيد الشيباني:
أولاك بنو الأفضل لولا فعالهم ... درجن فلم يوجد لمكرمة عقب
لهم يوم ذي قار مضى وهو مفرد ... وحيد من الأشباه ليس له صحب
به علمت صهب الأعاجم أنه ... به أعربت عن ذات أنفسها العرب
هو المشهد الفرد الذي ما تجابه ... لكسرى بن كسرى لاسنام ولاصلب
هذه صلات الفرس وعرب الشمال. وكان للفرس مع هذا سلطان على ساحل الجزيرة الشرقي واليمن:
حاول الحبش الاستيلاء على اليمن في القرن الثاني الميلادي وأتيح لهم أن يستولوا على بعض مدنه في القرن الثالث، ثم أخرجهم الحميريون، فلما تنصر الحبش في القرن الرابع أيدهم الرومان على الحميريين ففتحوا اليمن سنة 374. ويظهر أن الفرس طمحوا إلى اليمن منذ ذلك الحين، فقد كان النزاع الذي شجر بينهم وبين الروم منذ قامت الدولة الساسانية حرياً أن يلفت الفرس إلى اليمن بعد أن تألب عليه أعداؤهم الألداء والحبش. ولسنا ندري من أخبار الفرس في اليمن شيئا قبل القرن السادس الميلادي، إذ تهود تبع ذونواس وأكره النصارى على التهود وعذبهم، فغضب لهم الروم والحبشوأمد الإمبراطور جستنيان الحبش وسلطهم على اليمن، حتى استغاث سيف بن ذي يزن كسرى أنو شروان فأمده بجيش حملته السفن في الخليج الفارسي إلى عمان، ثم سار في البر وانحاز إليه أهل اليمن فهزموا الجيش، وتولى الفرس البلاد وجعلوا عليها أميراً عربياً فقتله حرسه الحبشي فاستقل بأمر البلاد ولاة من الفرس توالوا عليها حتى جاء الإسلام والوالي يومئذ بأذان. وقد أسلم الفرس في اليمن وأخلصوا للإسلام وكانوا عوناً على الثائرين في حروب الردة وهم قتلوا الأسود العنسي، وعرف من رؤسائهم النعمان بن بزرك وفيروز الديلمي ومركبود، وهو أول من حفظ القرآن في صنعاء فيما يقال.
وكذلك كان للفرس سلطان على البحرين وجاء الإسلام وفي اليمن فرس مستوطنون ومرزبان اسمه سيبخت، ويروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم كتب اليه فاسلم، وكان لفيروز المعروف بالمكعبر زعامة في حروب الردة هنالك.
وكانت التجارة تتردد بين بلاد الفرس واليمن في حفارة قبائل لها جعل من ملوك الفرس: قال صاحب الأغاني في الحرب التي كانت بين بني تميم والفرس وأحلافهم: (وأما ما وجد عن ابن الكلبي في كتاب حماد الراوية، فان كسرى بعث إلى عاملة باليمن بعير، وكان بأذان على الجيش الذي بعثه كسرى على اليمن. وكانت العير تحمل نبعا فكانت تبذرق من المدائن حتى تدفع إلى النعمان ويبذرقها النعمان بخفراء من ربيعة ومضر حتى يدفعها إلى
هوذة بن علي الحنفي فيبذرقها حتى يخرجها من أرض بني حنيفة ثم تدفع إلى سعد (من تميم) وتجعل لهم جعالة فتسير فيها فيدفعونها إلى عمال بأذان باليمن)).
هذا خلاصة ما يريه التاريخ والاساطير، ولعله يكون مقدمة لبحث واسع في صلات الأمتين العظيمتين قبل الإسلام.
سؤال. .
إلى الأستاذ الزيات وإلى أدباء الرسالة.
سيدي الأستاذ
أنني (وإن لم أتشرف بمعرفتك) أمت إليك بصلة الرحم. فأنا من صغار أسرة أنت من

كبارها. ولي عليك حق الصغير على الكبير. يسأله ويفيد منه. ويلح في هذا السؤال ويناقش من أجل هذه الفائدة. ويكون فيسؤاله ومناقشته واقفاً عند حد الأدب، متنكباً سبيل التكلف و (الرسميات).

أفتأذن لي في ذلك:

إذن فأخبرني يا سيدي. هل تنشر الآثار الأدبية، إذ تنشرها في رسالتك، لأنها وافقت خطة معروفة اختطتها لنفسها الرسالة في الأدب، وطريقة معينة اتخذتها، أم أنت تنشر كل جيد يبعث به اليك، ولا تبالي منه إلا بشرف القول، وحسن الأداء، والبلاغة في التعبير عن الغرض. وهل تفعل هذا إلى أمد قريب ثم تطلع على الناس بخطتك الأدبية، وتحمل كتابك عليها، أم أنت تفعله أبدا؟ ثم ألا ترى يا سيدي أن الأديب العربي قد شب ولم يعد طفلا يدلل ويرقص، ويكون له عند أهله بكل خطوة حظوة وأن الإيمان به قد خالط قلوب الأدباء. فلم يعودوا من المؤلفة قلوبهم الذين يسترضون ويعطون لئلا يجنحوا إلى الردة بعد الايمان؟ وأن من مصلحة هذا الأدب، بل من الواجب فيه أن يتفق طائفة من شيوخه وقادته على مذهب واحد فيه. ثم يعلنوا هذا المذهب للناس. ليتبعوه ويؤثروه؟

ومذاهب الأدب كثيرة. ولكنا منها بين اثنين: مذهب (الأدب للفن) ومذهب (الأدب للحياة):

أنعمل وغايتنا (الجمال الفني) وحده. وسواء لدينا أكان هذا الجمال في قطعة ماجنة، أم في قصيدة شعوبية، أم في مقالة ملحدة؟ وسواء لدينا أكانت القطعة الجميلة تصور آلام النفس وآمالها. وصور الحياة وأشكالها، فتصدق في هذا التصوير. أم (تخلق) من نفس صاحبها دنيا غير هذه الدنيا وعالما غير هذا العالم؟

أم نعمل وغايتنا تسخير الأدب للقضية الكبرى، واتخاذه عدة على تحقيقها، ووسيلة من وسائل الإصلاح الأخلاقي والسياسي والاجتماعي. وبالعبارة الثانية وسيلة إلى الحياة؟ ثم. . ألا ترى يا سيدي أن هناك حقيقة أسمى من الحقيقة الفنية. . وواجبا أعلى من واجب الفن هو الواجب الوطني. واجب (السعي للحياة وخوض معركة التنازع على البقاء) وأنه لا يجوز لنا أن نقول بمقالة بعض الفرنجة (الفن للفن) لأن هذا هو القياس مع الفارق.

فأن لأولئك مدافع وأساطيل، وأن لهم كيانا واستقلالا، ونحن قوم يبنون لأنفسهم كيانا واستقلالا، فيجب أن نجمع قوانا كلها على هذا البناء، وأن نجعل الأدب في مقدمة هذه القوى، ونجعل الحوادث القومية موضوعا لآثارنا، أو لطائفة من آثارنا الأدبية. وكيف لعمري يهيج الشاعر العربي ويضيق الدنيا عليه حبيب يعرض عنه، وليلة وصل يخسرها، وابتسامة يحتجب عنه نورها، ولا يهيجه ويؤلمه مجد كان ينطح السماء أنهار في الأندلس، وأمل كان يملأ الدنيا ضاع في بواتيه. وأمة بقضها وقضيضها تفنى اليوم في فلسطين.!؟

أيجوز للشاعر وهو قلب الأمة الخافق أن يعيش في نفسه، ويقنع بأحلامه وعواطفه؟ أيعقل أن يعيش قلب منفردا مبتوراً لا تربطه بالجسد رابطة؟

الشاعر قائد في أمته، فهل يجوز للقائد أن يدع جنده، ويترك حربه ويغفل عن النار والحديد، ثم يجلس ليحلم بطيف حبيبه، أو يبكي على أنه لم يمنحه جسمه ساعة من زمان. أو يجلس ليصف (الجمال الفني) في ساحة المعركة؟

الأمة العربية جمعاء في نضال على الحياة. فكيف يفر الأديب من المعركة فيصب وهو الجندي الأول فيها مواهبه وقوته على قدمي امرأة؟

أو لست تعلم يا سيدي أن زعماء الفن الرومانطيقي في أوربا كهوجو ولامارتين، كانوا في رأس الوطنيين العاملين، والخطباء المفوهين، وكانوا إذا جد الجد شمروا عن ساعد العمل، وإذا أمن الناس ووضعت الحرب أوزارها ناموا فحلموا، فكان هذا الأدب مجموعة أحلامهم في منامهم. أن لامارتين نفسه يقول: (ما قيمة الرجل ينفق عمره، في التنقل بين أحلامه الشعرية في حين أن إخوانه يجاهدون بكل ما أوتوا من قوة وأيد في سبيل الوطن والعمران؟ أليس أليق يمثل هذا أن يكون ضحكة (مهرجا) وأن يبعث به مع العدد الموسيقية إلى الفرق العسكرية؟)

وأن الشعر القومي أبعد الشعر أثرا في نفس قارئه، لأن الشعور به مشترك بين أفراد

الأمة جميعا، وأننا نقرأ القصيدة الأندلسية النونية فتبلغ منا على ضعف تأليفها ما لا تبلغه منا أي قصيدة؟
فلماذا إذن لا ينحو بعض أدبائنا هذا المنحي. ويكون لنا ديوان في الأدب القومي، كما للفرنسيس ديوان، وللإنجليز ديوان، وللأتراك ديوان، ولماذا لا تنبذ هذا الأدب الرخو المخدر الذي ينزع الرجولة من نفوس شبابنا ويجعل المثل الأعلى للحياة في آرائهم، أن ينفقوا الحياة في عبادة امرأة يعشقونها، أو يتخيلون أنهم يعشقونها. ويقطع بأساليبه الأعجمية العجيبة الصلة بيننا وبين أدبنا القديم، ويضيع علينا هذا التراث القيم الذي تظاهرت على إيجاده ثلاثة عشر قرنا؟ ولماذا لا يجهر الشيوخ والمصلحون في الأدب العربي، بالدعوة إلى (الأدب القومي) وينقذوننا من هذا الأدب المخدر السام؟ ولماذا لا تكون أنت في الرسالة. صاحب هذه الرسالة؟ ثم. . إلا ترى يا سيدي أن هذا الضعف والخور في غزلنا سخف ماله مبرر، وأن المرأة والرجل إنسان واحد، كلاهما فيه عنصر القوة وعنصر الأنوثة، والحب جامع العنصرين، فالرجل يحب ليكمل قوته بأنوثة المرأة. أي أنه يحب أنوثتها وهي تحب قوته، فإذا أضاع هذه القوة، ولم يحظ بأنوثة المرأة، لم يكن رجلا ولا أمرأة، ولكن مخلوقا شيطانيا بغيضا، وكان كالغراب والقبرة، أو (كصاحبة الماء) لا هي أبقت ماءها. ولا هي أصابت طهرها؟ وما بالرجل من يحب من بأس، ولكن على أن يظل رجلا يقوم على قدميه، ويدل بعضلات من حديد وإرادة من فولاذ، وأمل في الحياة يملأ الحياة، ثم يقول لمن يحب: أنا قوي وأنا أحبك فتعالي لا أن يجيئها ضعيفا مسهدا.
والمرأة لو خيرت لما اختارت على الرجل القوي الحي بأمله ولمستقبله الرجل الأصفر النحيل الباكي البائس الميت من قبل الممات. هذا خليق به القبر وذاك الذي يستحق الحياة.
فالام إذن يثير شعراؤنا على هذا الغزل السخيف، ويغني مغنونا به ويكون لجيل المستقبل سما زعافا؟ . .
هذه هي القضية التي جئت استفتيك فيها. واستفتي أدباء الرسالة؛ وأني لأعتقد أنها من الخطر بالمكان الاسمى. وبين لا ونعم فيها فرق ما بين الحياة والموت؛ لأن الأدب كالسيف القاطع، شتان بين أن تضرب به لترى وميضه في الجو و (الجمال الفني) في هذا الوميض ثم لا تبالي أذراعاك أصاب فقطع أم هو قد أصاب الجدار، وبين أن تجلل به خصما لك فاتكا أو وحشا كاسرا. على إن هذا ضرب وذاك ضرب وهذا أدب وذاك أدب. .
فإذا تفضلتم يا سيدي بنشر هذه الرسالة في الرسالة وتفضلتم بالجواب كان لكم الفضل
والشكر.
دمشق - علي الطنطاوي - ليسانسيه في الحقوق من المجمع الأدبي
يسأل الأستاذ الفاضل أتنشر الرسالة ما تنشر من الأدب لأنه يسير في طريقها المرسومة إلى غايتها المعلومة، أم تنشره لأنه أمتاز بشرف القول وبلاغة العرض وحسن الأداء، ثم يصوغ هذا السؤال نفسه صيغة فنية فيقول: نعمل وغايتنا (الأدب للأدب) أم نعمل وغايتنا (الأدب للحياة) ثم حصر حياتنا اليوم في النضالالمقدس عن القضية العربية الكبرى. وأنحي باللائمة على شعرائنا الغزليين الذين غلبت على طباعهم الميوعة فذابوا على أقدام الغيد، وتركوا جيش الجهاد يسير من غير موسيقى! ثم شرح الأستاذ أسئلته بطائفة من الآراء الحماسية يدعو بعضها إلى جدال طويل. أما خطة الرسالة وغايتها فلعل الأستاذ يذكر أننا رسمناها في استهلال العهد الأول منها، وما نشرنا ولن ننشر إلا ما يساير هذه الخطة ويقابل هذه الغاية بوجه من الوجوه. فنقول بوجه من الوجوه لأن القول بأن: (يتفق طائفة من شيوخ الأدب وقادته على مذهب واحد فيه، ثم يعلنوا هذا المذهب للناس ليتبعوه) قول تأباه الطبيعة وتنكره أصول الفطرة مادام الأدب بمعناه الأخص هو التعبير الجميل عن العواطف والأخيلة والأفكار. وذلك التعبير يختلف بالضرورة في كل كاتب باختلاف تربيته وطبيعته وذوقه. وفي ظننا أن تحديد الغاية من الأدب وتوحيد الطريق إلىهذه الغاية لا يدخلان في حدود الإمكان إلا إذا استطعت أن توجه أهواء النفوس في متجه لا تتنكبه، وتحصر خواطر

الذهن في مضطرب لا تعدوه.
وأما (أن الأدب العربي الحديث قد شب ولم يعد طفلا يدلل ويرقص) فرأي يخامرني فيه كثير من الشك، لأن أدبنا لا يزال يطلب من النقد أن يهدهده كالأم، ويربت على ظهره كالأب، فإذا حذره مزالق الهوى والطيش، بشيء من الجد صاح وأعول ودبدبت رجلاه في الأرض، وراح يرسل السباب ويعلن الشكوى في غير سداد ولا فطنة. هذه جملة قصيرة من الجواب عجل بها إليك مساسها بخطة الرسالة. أما سائر الجواب فستقرأه في العدد المقبل؟

الصهيونية

نشأتها وتطورها

1. قبل عهد بلفور

للأستاذ محمد عبد الله عنان

لفتت حوادث فلسطين الأخيرة أنظار العالم مرة أخرى إلى ذلك النظام السياسي الاجتماعي الغريب الذي فرض على فلسطين تحقيقا لمشاريع السياسة الاستعمارية. ففي فلسطين أمة عربية تعيش في ذلك الوطن منذ آماد بعيدة. ولكنها تجد اليوم نفسها أمام خطر داهم على كيانها القومي، وترى اليهودية تمكن من غزو هذا الوطن بطريقة منظمة مستمرة، تنفيذا لعهد قطعته بريطانيا العظمى على نفسها إبان الحرب الكبرى، بأن تعاون على إنشاء وطن قومي يهودي في فلسطين.

وفكرة الوطن القومي اليهودي قديمة ترجع إلى العصور الوسطى. ولكنها لم تكن في تلك العصور التي كانت بالنسبة لليهودية (عصرها الحديدي) أو عصر الاضطهاد الشنيع أكثر من مثل أعلى أو أمنية مقدسة غامضة. ولكنها منذ القرن الثامن عشر تغدو نظرة سياسية اجتماعية ترمى إلى غايات عملية. وكان أقطاب اليهودية في ذلك العصر وعلى رأسهم رجال ممتازون مثل مندلزون ولسنج يرون أن تتخذ القومية اليهودية صيغة محلية، فيغدو اليهود من أبناء البلد الذي استوطنوه مع احتفاظهم بتراثهم الروحي. ولكن هذه القومية المعتدلة التي أملى بها جو التسامح الذي نعمت به اليهودية يومئذ لم تلق كبير تأييد، ولم يطل أمدها، واستمرت الفكرة القديمة على قوتها وتأثلها. ومنذ أوائل القرن التاسع عشر نجد يهود إنكلترا يعملون على تقويتها وتلمس السبل لتنفيذها بالدعوة إلى إحياء التراث اليهودي وإنشاء المستعمرات اليهودية في فلسطين. ومن ذلك الحين تتجه اليهودية ببصرها إلى فلسطين؛ وتتكرر جهودها لإقناع السياسة البريطانية بإمكان قيام وطن قومي يهودي في فلسطين تحت الحماية البريطانية، وأن قيامه يغدو ضمانا قويا لتأمين طريق الهند البري وهنا تتخذ فكرة القومية اليهودية صبغة سياسية واضحة؛ وتبدو الفكرة الصهيونية في شكلها الحديث. والصهيونية هي القومية اليهودية. اشتقت من (سيون) العبرية أو صهيون وهي الأكمة أو المعقل. وقد أطلقت أولاً على موقع التل الذي بني عليه الهيكل ثم أطلقت على بيت المقدس؛ ثم على الأمة اليهودية كلها، وتراثها الروحي؛ وأصبح معناها الحديث عود القومية اليهودية واستردادها لتراثها الغابر. وبهذا تفهم الصهيونية في عصرنا ولهذا تعمل.

وإذا فالصهيونية الحديثة ترجع إلى أواسط القرن التاسع عشر. وفي هذا الحين نفسه تلقى الصهيونية مادتها وقوتها: ذلك أن خصومة السامية أو نزعة التعصب ضد اليهود قد اضطرمت يومئذ بفورة جديدة في معظم الدول الأوربية، وأسفرت عن مذابح مروعة في روسيا والمجر. وعصفت باليهود في ألمانيا ثم عصفت بهم في فرنسا حيث بلغت الحركة ذروتها في قضية دريفوس الشهرية (سنة 1896).

ورأت اليهودية أنها رغم حصولها على الحقوق المدنية والسياسية في معظم الدول الغربية، مازالت عرضة للبغض القديم الذي أصبح تقليداً راسخا في المجتمعات الغربية. عندئذ بدت فكرة الوطن القومي اليهودي ضرورة يجب تحقيقها لخير اليهودية وسلامها. وأخذ أقطاب اليهودية على إذاعة الفكرة واتخاذ الخطوات العملية الأولى في سبيل تحقيقها. فألفت جمعية لإنشاء المستعمرات اليهودية وزودت بالمال. وبدأت مساعي الماليين اليهود لدى الباب العالي لإنشاء هذه المستعمرات في فلسطين. ثم لقيت الفكرة روحها المضطرم في كاتب يهودي نمسوي فتى هو تيودور هرتسل. وقد ولد هرتسل ببودابست سنة 1860 وظهر في الصحافة والتأليف المسرحي وظهر

بالأخص بكتاباته القوية الملتهبة في سبيل القضية اليهودية. وكان هرتسل يرى أن الوطن القومي ضرورة لليهودية لا أمنية فقط، وفي سنة 1896 أخرج رسالته الشهيرة (الدولة اليهودية) يعرض فيها فكرة الوطن القومي عرضا قوياً، ويرى أن يتخذ هذا الوطن صورة دولة يهودية في فلسطين تكون تحت سيادة الباب العالي وتؤدي له الجزية وتكون البقاع المقدسة منطقة مستقلة ذات نظام خاص، فكان لدعوته وقع عظيم في اليهودية بأسرها، وأيده أقطاب المفكرين اليهود مثل مكس نورداو وإسرائيل زنجويل وغيرهما. وكانت اليهودية على إثر ما عانته من اضطهاد الخصومة السامية في معظم البلاد تتحفز يومئذ للذود عن نفسها، وتستجمع جهودها للقيام بحركة إيجابية منتجة. وسرعان ما انتظمت هذه الحركة تحت لواء هرتسل وزعامته، وفي أغسطس سنة 1897 عقد مؤتمر يهودي عام في بازل (سويسرا) برآسة هرتسل وفيه

وضع برنامج الصهيونية الرسمي وعرفت غايتها ووسائلها على النحو الآتي:

تسعى الصهيونية لتحقق للشعب اليهودي إنشاء وطن في فلسطين، يتمتع بالضمانات) التي قررها القانون العام، لكي يمكن تحقيق هذه الغاية، يرى المؤتمر الوسائل الآتية:

1. أن يشجع استعمار فلسطين بواسطة الزراع والعمال والصناع التشجيع الواجب.
2. أن ينظم العالم اليهودي بأسره وأن يحشد في المجتمعات المحلية أو العامة طبقا لقوانين البلاد المختلفة.
3. أن تقوى لدى اليهود عواطف الكرامة القومية والاعتزاز بالجنس.
4. أن تبذل المساعي التمهيدية اللازمة للحصول على التصريحات الحكومية الضرورية لتحقيق غاية الصهيونية.)

ثم توالت المؤتمرات الصهيونية في كل عام وبدأت مساعي اليهودية العملية واتصل هرتسل بالباب العالي، فاظهر نحو الفكرة ميلا في البداية باعتقاد أن تأييدها يكسبه نفوذا جديدا، حاول أن يجعل من ذلك وسيلة لحل المسألة الأرضية بشروط عرضها على اليهود الإنكليز ولكنه أخفق في هذه المحاولة. وزار هرتسل السلطان عبد الحميد في سنتي 1901و 1902 فآنس منه إعراضا وأخفق في سعيه. فاتجه هرتسل إلى إنجلترا وعرض أن ينشأ الوطن القومي اليهودي في أية منطقة من البلاد الواقعة تحت النفوذ البريطاني، واقترحت خلال ذلك منطقة سيناء المصرية ثم منطقة في الشرق افريقا البريطاني. ولكن أغلبية المؤتمر الصهيوني (سنة 1903) رفضت فكرة التحول عن فلسطين إلى غيرها وعدتها تراجعا وهزيمة للفكرة القومية الأهلية، ثم توفي هرتسل سنة 1904 في عنفوان قوته وجهوده فكانت وفاته ضربة قوية للحركة الصهيونية، ولم تجد الحركة من بعده مدى أعوام من يقودها بمثل قوته ونفوذه. وتزعمها مدى حين فولفزون المالي الألماني، وإسرائيل زنجويل الكاتب الإنكليزي، وجددت المساعي لدى الباب العالي، ولكن اضطراب الأحوال السياسية في تركيا حال دون كل مسعى. وجددت المساعي لدى إنكلترا. واقترحت أثناء ذلك برقة أو الجزيرة في العراق لتكون مركزا، للوطن القومي، ولكن هذه المساعي أخفقت أيضا ففت هذا الفشل المتكرر في عضد الصهيونية وخبت حماستها، فترت جهودها حتى نشوب الحرب الكبرى.

وفي أثناء الحرب سعت اليهودية إلى غايتها بجد ومثابرة، وقدمت إلى الحلفاء كل معونة ممكنة فامدتها بالقروض المالية، والفت فرق يهودية عسكرية تحارب إلى جانبهم. وتولى الزعماء اليهود: لورد روتشيلد والدكتور ويزمان ومسيو سوكولوف تنظيم هذه الحركة والسعي لدى دول الحلفاء وبخاصة إنجلترا في تحقيق مشروع الوطن القومي، وأسدى الدكتور ويزمان، وهو علامة كيمائي ومخترع بارع إلى إنجلترا أثناء الحرب خدمات جلية، بتولي المباحث الكيميائية في المعامل الإنجليزية: واختراع مادة جديدة للمفرقعات القوية. وأسندت إليه منذ سنة 1917 رآسة الهيئة الصهيونية العالمية. وكانت إنجلترا تجد يومئذ هجومها على فلسطين، وأمل اليهودية يبدو على وشك التحقيق. وكانت فرنسا أول من تقدم من الحلفاء لتأييد مشروع الوطن القومي اليهودي بصفة رسمية. ففي يونيه سنة 1917 وجه مسيو كامبون وزير الخارجية الفرنسية إلى مسيو سوكولوف رئيس اللجنة الصهيونية التنفيذية يؤكد فيه عطف الحكومة الفرنسية على القضية اليهودية والوطن القومي، وفي 2 نوفمبر سنة 1917

أصدرت الحكومة البريطانية عهدها الشهير بإنشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين، وعرف هذا العهد باسم اللورد بلفور وزير الخارجية البريطانية يومئذ؛ وتلى في مجلس العموم البريطاني في النصف الثاني من نوفمبر في خطاب رسمي وجه إلى اللورد روتشيلد كبير اليهودية الإنجليزية وهذا نصه:

عزيزي اللورد روتشيلد: يسرني أعظم السرور أن أوجه إليك باسم الحكومة البريطانية التصريح الآتي بالعطف على الأماني الصهيونية اليهودية وهو تصريح عرض على الحكومة البريطانية وأقرته وهو:

(أن حكومة جلالته تنظر بعين العطف إلى إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين: وسوف تبذل ما في وسعها لتحقيق هذه الغاية. ومن المفهوم أنه لن يعمل شيء مما قد يضر بالحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهدوية الموجودة في فلسطين ولا بالحقوق أو المركز السياسي التي يتمتع بها اليهود في أي بلد آخر)

المقبرة البحرية

للشاعر الفرنسي بول فاليرى

تلوت المقالة المنشورة بعنوان (حول قصيدة) للدكتور طه حسين فأعجبت به إعجابي بكل ما تسطره براعة أستاذنا المفكر، فثارت رغبة نفسي في الاطلاع على هذه القصيدة المحاطة بالأسرار والتي اختلف النقاد والأدباء في تفهمها. فرجعت إلى كتبي التي اعتدت أن أتزود بها في سفري، فلم اعثر على القصيد جميعها ولكنني وقعت على قسم منها لعله يكون (خيرها) لأنه أدنى إلى الإفهام ولعله (أسوأها) إن كانت روعة هذه القصيدة تتجلى في ألغازها وطلاسمها، ولكنني حتى في هذا القسم الواضح (لم أقع إلا على ما تتنازع في تفهمه الخواطر فقلت: أمر هذه القصيدة غريب عند أصحابها فكيف عند ما يريدون أن يقرءوها مترجمة وكل مترجم قد أنتحي ناحية قد لا تجمعه بالآخر إلا رموز! ولكن الروعة الغالبة في القصيدة لا ترجع إلى ألوانها القاتمة وصورها الغامضة وإنما تعود إلى فنها. وطريقتها التي جاءت بها.

في القصيدة غموض شامل! وهل كان الغموض سراً من أسرار البيان؟ وهل في استطاعتنا أن نجعل من الغموض مرادفا للبيان؟ ولكن هل كان البيان كله مستوعبا للفن كله ? أليس من الفن الشيء الغامض والشيء المعجب والشيء المثير؟ وهو بعد ذلك كله غامض جد الغموض لا ينفتح على النفوس إلا بقدر استقرائها واستجلائها للخطوط والألوان. . وهل كان اختلاف الناس في تفهم القصيدة الواحدة عيبا من عيوبها البيانية أم قيمة رائعة للقصيدة التي يتشعب من فنها فنون ومن سبيلها الواحد سبل متعددة.

أنا أحب الكتاب الذي يصرع قارئه طوراً وطوراً يصرعه قارئه كما يحبه أستاذنا الجليل. واحب القصيدة التي لا تتركنا إلا بعد أن تموج أنفسنا بشتى أهوائها وميولها، ولكني لا أحب (ولن أحب) أن يرجى الغموض في الفن لمجرد الغموض، لأن الآمر لا يؤول إلا إلى فوضى تعمل على تقويض الفن من حيث نحسب أننا عاملون عل رفعه.

هنالك آثار فنية واضحة كل الوضوح، ولكن المطلع عليها لا يلبث أن يرتد عنها ضيّق الصدر مظلم القلب، وهنالك آثار غامضة كل الغموض لا ينظر إليها الإنسان حتى تملأ نفسه روعة وجلالا. وتفتح أمامه من لانهاية الوجود. ما سر ذلك؟ العل في الفن شيئا غامضاً غموض النفس؟ أما تحديدي لهذا الغموض وهذا البيان فهو أمر لا أقدر على إبداءرأيي فيه بعد أن أثبتت الحياة أننا كلما زدنا قيودها اتسعت آماد حريتها. وكلما قبضنا عليها من مكان أفلتت من أماكن. . ومادام هذا شأن الحياة فليس غريبا أن يكون للفن أيضا مثل هذا الشأن، والفن أسمى ما في الحياة. وإنما روعة الفن في انطلاقه لا في قيوده.

وأخيراً أخذت هذا الجزء اليسير من القصيدة وآثرت ترجمته برغم غموض معانيه، مرتقبا من أحد شعرائنا الأفذاذ أن يؤدي نجوى أستاذنا الدكتور حق تأديتها، لأنها (في الحقيقة) كما فكر الدكتور، ستخلق نوعا جديدا في الشعر يأتي على هذه الألوان البالية الباهتة. ويخلق في الأدب العربي هذه المدارس الجديدة الشعرية التي تحمل طياتها البيان الرمزي وغير الرمزي. وهذه القصيدة نظمها (بول فاليرى) في مقبرة مشرفة على البحر، فكانت خطرة فلسفية تأميلة يصف بها حالة الكون وذاتية العالم المادي الذي يرجع إليه تراب الموتى، وراحة العالم الراقد في (اللاشعور) وحالة القلق

النفسي الذي يعكر علينا صفاء هذا العالم. مريداً من وراء ذلك أن تأخذ النفس نصيبها من هذه اللحظات المتتالية الحينية.
ولا أدري أأحسنت العمل أم كنت سيئا؟ ولكنها جرأة أريد بها أن أستثير غيري ممن هم أمت مني صلة بالقصيدة وصاحب القصيدة.
القصيدة
إنها قدسية، مغلقة ... نارها توقد من غير غذاء . .
خيم الصمت على أرجائها ... وعلى صفحتها رف الضياء
سطعت أضواؤها وهاجة ... وأثارت فيّ أسباب الطرب
فظلال (كالدجى) ممدودة ... وقبور رصَّعوها بالذهب
أرأيت الظل في أكنافها ... حيث يرتج على الظل الرخام
وهناك البحر في غفوته ... قد ترامى قرب أجداثي ونام
هاهنا أمواتنا قد جثموا ... مدفئا أجسادهم هذا التراب
طاوياً أسرارهم في جوفه ... النشر ينطوي هذا الكتاب؟
الوجود ائتلفت أعيانه ... وتآخت فيه ألوان الصور
واستقرت لكمال، وأنا ... قيد تبديل خفي مستمر
وحياة قد طواها ما طوى ... وزعوها في غيابات القبور
جسد يأكله هذا الثرى ... ودماء هي قوتٌ للزهور
أين ذاك الفن في روعته ... عند ناس غالهم صرف الزمان؟
أين أرواح لهم سامية ... أين ما أوتوه من سحر البيان ?
هل علا حيث علت أصواتهم=ومشت روعتهمإلا سكون؟
نثرت كف البلى أبدانهم ... وسطا الدود على تلك العيون
هل لنفس أمل في حلم ... ضاحك. صادقة ألوانه؟
لم يمثله لعيني خادع ... طال في تمثيله بهتانه
وغداً أن ذهبت هائمة ... أتراها تملأ الجو غناء؟
قدك! فالأكوان يطويها البلى ... ووجودي مسرع نحو الفناء
أيها الخلد المعزى للورى ... أنت جهم وجميل كالربيع
توَّجوه لعيون عشيت ... عن هداها، غرَّها التاج الشنيع
حيلة الله ما أجملها ... وأكاذيب ارتدت ثوب التقى
كان في الخلد عزائي فقضى ... وطوى اليأس رجائي في البقا
من درى الأمر ولا يمقته؟ ... يتجلى كله في جمجمة!
كيفما قّلبت أبصرتَ بها ... ضحكة دائمةً مرتسمه
وبقايا ببقايا بُدِّلت ... رب لحد فوق لحد يجثم
خجلت أقدامها من وطئها ... ما أديم الأرض إلا أنتم!
ليس للدود اتصال بكم ... يا جسوما أدرجت في الكفن
هو بالأحياء يحيا أبدا ... هو يحيا فيّ لا يبرحني!
خليل هنداوي
من طرائف الشعر
آثار شوقية
فرديات من المنظر الثاني في الفصل الثالث من رواية البخيلة
تظهر حسنى الخادمة في ثوب أسود على باب حجرة من حجر منزل المرحومة الست نظيفة (البخيلة) حسنى لنفسها تتذكر ما وهبته لها الست نظيفة قبل وفاتها.
عيني أحقٌّ أنني في منزلي؟ ... لا. كان لي فوهبته لجمال
غاليت في شغب الفؤاد بحبه ... حتى وهبت له الثمينَ الغالي
أعطيته ما كان أصبح في يدي ... من مال جَدتَّه فليس بمالي
لم يرض أن أعيش سعيدةً ... ويعيش في بؤس ورقة حال
أتُراه يقدُرُ خدمتي ومحبتي ... أولا يمرُّ له الصنيع ببال
رحمة الله على سيدتي ... وسقى الله ثراها وجزاها
حرمتني الشاش حتى ذهبت ... فكستني الخَزّ في الموت يداها
وحَمتني الماء حتى احتجبت ... فسقيتُ الشهدَ من فيض نداها

صار لي من بعدها منزلها ... والدكاكين وآلت ضيعتاها
ثروةٌ قد نهض الجوعُ بها ... ومشى الحرمانُ فيها فبناها
وهبَتْ لي كل ما قد ملكت ... لم تدع من ذاك شيئاً لفتاها
ثم بعد لحظة:
لا. ذاك مال جمال ... تركته لجمال
وعدتُ ما كنت من قب ... لُ فوطتي هي مالي
أجل أنا الخادم والطاهية ... وما أنا السارقةُ الباغية
ولا على الناس طفيلية ... أجعل أموالهُمُ مالية
سمعت حديث البخل حتى صحبته ... زماناً أراه كل حين واسمع
يروح ويغدو بين عيَّي صورة ... ويأتي حيالي بالحياة ويرجع
سيدتي ونجعلها في ... الحظ سسارا كالمثل
وانتقلت وذكرها ... بالبخل فيه ما انتقل
يرحمها الله فما ... أنسى لها تلك الجمل
في غضب عند الحوا ... ر واضطراب (وزعل)
وما واختلفنا مرة في ... حَمل ولا جمل
لكن لأجل الثوم كا ... ن لخلف أو حول البصل
ولم نكن من الدقي ... ق وتنتهي ولا العسل
يرحمها الله وأن ... لم تأت يوما يحسن
عاشت بثوب واحد ... كالميت عاش بكفن
أما أنا فالشاش أو ... مادون ذاك في الثمن
وبذلتي وفوطتي ... طال عليهما الزمن
وأجرتي عشرون قر ... شاً مع كثرة المهن
البئر لا أبرحها ... خارجة وداخلة
صاعدة كالدلو ك ... ل ساعة ونازله
طباخة أصنع من ... لا شيء شيئاً نأكله
وانحنى على البلا ... ط كل حين أغسله
وكل دكان عليّ ... أجرها أحصِّله
ساعة الرضى
للشاعر الوجداني رامي
أنظري!
هذه دموع البشر جالت في عيوني
أسمعي هذا نشيد الروح فياض الحنين
يا لعينيك إذا أرسلتا ... في فؤادي بارقات الأمل!
ما لخديك أضاءا وهجا؟ ... الرضى! أم بادرات الخجل؟
صارحيني
لم يعد يخفي الهوى ما بيننا ... بعد أن ذقناه هجراً ووصال
نادميني
كم سهرت الليل في نجوى المنى ... وسألت النوم عن طيف الخيال
بادليني بالرضى رضا
أسعديني فالقضا قضى
أنا في دنيا ... المنى هيمان
أنا ولهان ... أنا فرحان
جمعتنا ساعة هفافة ... بجناحين وداد وسلام
هذه روح الهوى رَفافةً ... فاسمعي منها أناشيد الغرام
من الأدب الإنجليزي:
المؤقت هو الكل
لتوملس هاردي
هدتني صروفُ الجَّد (إذا أنا يافع) ... وأحداثُ دهرٍ دائماتُ التقلُّبِ
إلى صاحبٍ في الناس لم أبغ وُدُّهُ ... ولم أتخَيّرهُ ولم أتطلَّبُ

وقرَّ بن أسباب التواصل بيننا ... أظلُّ أراه كُلّ ُصبحٍ ومغرب
ووثقنَ عهدَ الودِّ بيني وبينه ... برغم اختلاف في مرامٍ مشرَبِ
فقلت: أساقيه المودة آنةً ... وأوليه آيات الولا والتحبُبِ
إلى يومَ يأتي الصاحبُ المفرَدُ الذي ... أرى فيه قصدي في الصحَّاب ومذهبي
فأنَ صروفَ الدهرَ شتّى كثيرةٌ ... ومازالتُ ذا عمرٍ مديدٍ مُرحَّبِ
وألقي إليّ الدهر إذ أنا راتعٌ ... أتيهُ وألهو في الشباب واصطبي
بحسناء رودٍ يُعجبُ الظّرفَ حُسنها ... وإن لم يكن يزرى على كُلِّ معجبِ
فقلت: لي بلاغٌ إلى حينَ التقي ... بمن اصطفيها في الحسان وأجتبي
وكنتُ أرجَّى منزلاً طيباً به ... أعيشُ وحيداً عيشةُ المتَّرهب
فأول دارٍ صادفتني سكنتها ... وإن لم تكن في الدور غايةَ مرغبي
وقلت: أدارى العيشَ فيها هنية ... إلى يوم يهديني الزمانِ لأ طيبِ
وإذ ذاك أدلى للورى برسالتي ... وأكشُف عن نور الهدى كُلّ غيهبِ
وحسبي إلى أن يسنح الزمن الذي ... أميطُ به عن كل حقٍ محجَّبِ
فضولٌ من الأشغال شتى طوارقٌ ... أجيل بها حيناً بنان المجرَّبِ
فهاتيك آرائي التي عشت طالباً ... فأينَ حياتي من ِطلابي ومأربي؟
فلا أنا أداني اجتهادي لبغُيتي ... ولا الدهرُ مما عشتُ أبغي مُقرَّبي
وما ُفزتُ من خدنٍ بخيرٍ مِنَ الذي ... لديَّ ومن خودٍ ودارٍ ومطلَبِ
ولم أرَها الا طيوفاً تباعَدَت ... مدى العمر ما تدنو إلى مُترقِّبِ
فخري أبو السعود
(مقرظ لا مقرطق)
نشرت الرسالة الغراء الصادرة في أول نوفمبر سنة 1933 كلمة تحت عنوان (قصة الشعر في الأدب العربي) بقلم الأستاذ علي شرف الدين جاء فيها (. . فقد كانوا يضعون الأقراط في آذان سقاتهم من الغلمان ويطلقون على كل منهم (غلام مقرطق) الخ.
فالأستاذ يريد بهذا أن يقول: أن الغلام الذي يوضع القرط في إذنه يسمى مقرطقاً وهو خطأ منشؤه عدم التفرقة بين القرط والقرطق، وبين المتحلي بالقرط ولابس القرطق. فالمتحلي بالقرط يسمى مقرطاً ولابس القرطق مقرطقاً، والقرطق ملبوس من ملابس العجم يشبه القباء. قال الفيروزأبادى في القاموس: القرطق كجندب لبس معروف معرب كرته، وقرطقته فتقرطق ألبسته إياه فلبسه (أهـ) وفي المصباح القرطق مثال جعفر ملبوس يشبه القباء وهو من ملابس العجم.
فأنت ترى أنهم لم يختلفوا في معنى القرطق فهم متفقون على أنه ملبوس يشبه القباء وإنما الخلاف في ضبطه فجعله صاحب القاموس كجندب وجعله الفيومي في المصباح كجعفر. (وقد حرفه المولدون) في أشعارهم كقول بن المعتز:
ومقرطق يسعى إلى الندماء ... بعقيقة في درة بيضاء
وأخطأ عمر الوداعي فظن مقرطق ذي قراط في قوله:
قلت لهم لمّا بدا ... مقرطق يحكي القمر
هذا أبو لؤلؤة ... منه خذوا ثار عمر
وإنما هو مقرط كما في شرح الفصيح (أهـ) ولعل الخطأ تطرق إلى الأستاذ من الوداعي صاحب هذين البيتين فظن المقرطق ذا القرط كما ظن هو نفسه وعلمت عدم صحته؟
برهان الدين الداغستاني
رواية الأبناء والمحبين
للكاتب الإنجليزي د. هـ. لورنس
نقد وتحليل
أراد د. هـ. لورنس في روايته أن يصور لنا فتى خيالي النزعة دقيق المشاعر في دور الانتقال الأول من حياة الصبي إلى حياة الرجل.
وليس الفتى (بول) في هذه الرواية الا فتى د. هـ. لورنس نفسه، فأبوه عامل خشن من عمال المناجم يعول أسرته بعمل ذراعيه ولا يعرف من لذات الحياة غير المأكل والمشرب ولا سيما الأخير منهما. وأما مسز موريل أمه فامرأة من أسرة من الطبقات

المتوسطة، كان أبوها مهندسا وكان رجلا كبير الجثة جميلا باديالعظمة فخوراً بلون بشرته الأبيض وزرقة عينيه وفخوراً أكثر باستقامته، وقد شابهت جرترود (اي مسز موريل) أمها في ضآلة البنية ولكنها ورثت خلقها بما فيه من تكبر وشدة حساسية من أسرة أبيها.

ومع ذلك تزوجت هذه المرأة المهذبة من ذلك العامل الخشن، فقد قابلت وهي في الثالثة والعشرين من عمرها فتى من وادي أرواش في حفلة من حفلات عيد الميلاد، وكان موريل عندئذ في السابعة والعشرين من عمره، وكان جميل الجسم معتدل القامة ظاهر النشاط ذا شعر أسود متوج لامع ولحية سوداء قوية لم تحلق قط، وتلوح على خديه علائم الصحة، ويلفت النظر فمه الأحمر الرطب لأنه كان يضحك كثيرا ويضحك من أعماق قلبه، وقد وهب، تلك الموهبة النادرة أعني الضحكة القوية الرنانة، ولاحظته جرترود فسحرت به، وكان مليئا بالألوان والحياة ويتنقل صوته بسهولة إلى المضحك الغريب، وكان سريع الخاطر ظريفا مع الجميع، وكان أبوها يميل إلى الفكاهة النازعة إلى السخرية، ولكن هذا الرجل يختلف عنه، ففكاهته ناعمة بعيدة عن التعمق الذهني وحارة فيها نوع من اللعب.

أما هي فكانت على الضد من ذلك ذات عقل دائم التساؤل قابل للمعلومات يجد لذة كبيرة في الإصغاء إلى الآخرين وكانت ذكية في جر الناس إلى الكلام، تحب الآراء وتعتبر مثقفة تثقيفا كبيرا، وتحب بنوع خاص المناقشة في الدين والفلسفة والسياسة مع رجل مهذب، ولكنه لم تكن تمتع بهذه الفرصة كثيرا، لذلك تحمل الناس على أن يتكلموا معها عن أنفسهم وتجد في ذلك لذة كبرى، وكانت في شخصها ضئيلة ورقيقة ذات جبهة عريضة تتساقط

عليها عناقيد من الحرير الأسمر المجعد، وعيناها الزرقاوان مستقيمتان أمينتان باحثتان، يداها جميلتان كسائر أهلها وملابسها دائما ذات لون قاتم فتلبس رداء من الحرير الأزرق الغامق، وتضع سلسلة فضية ذات شكل خاص ودبوس كبير من الذهب المجدول، هذا كل ما تتزين به، وكانت بعيدة عن الأهواء شديدة التمسك بالدين، مليئة بالصراحة الجميلة.

فتن والتر موريل عندما التقى ناظراه بناظريها فكانت عند هذا موضع غرابة وسحر إذ كانت سيدة فهي إذا كلمته نطقت في لفظ جنوبي وفي إنجليزية يرتعش لسماعها.

ليس موضوع الرواية حب ولتر موريل عامل المناجم أو تزوجه من جرترود كوبارد، وإنما موضوعها أجل من ذلك، ولكنن أردنا أن نسوق شيئا من وصف الرواية لهما كي نتعرف إليهما قبل أن نتعرف إلى أبنهما الصبي بول موريل.

وليس بول بكر أولادهما، فوليم موريل كان أكبر الأولاد واليه تحول حب الام حين حل الجفاء بينها وبين زوجها محل الحب الأول، إذ لم تلبث السيدة موريل، وهي المهذبة المثقفة أن أكتشفت حقيقة زوجها ورأت وراء ذلك الجسد الذي سحرها بفتوته روحا خشنة غير مهذبة، وأخذ زوجها كزملائه يقبل على الكأس فلا يذهب إلى البيت إلا ثملاً وإذا كان ثملا، كان جافا تبدو خشونة طباعه.

تحول حب الأم إلى الأبناء ولا سيما الابن الأكبر وليم وصممت بعزيمتها الفولاذية على أن يكون أبناؤها مثقفين بارزين في مضمار الحياة، وكان وليم فتى طموحا يميل إلى التعليم وقد تمكن من أن يجد عمل كاتب في أحد المحال القريبة من قريتهم ثم انتقل إلى عمل في لندن وصارت زيارته للأسرة عيداً من الأعياد.

واحب وليم فتاة من الكاتبات في لندن وعزم على الزواج منها فقدمها إلى عائلته وكانت فتاة كثيرة الأهواء محبة للمظاهر ورأت الام بعين الحنو أنها لا تصلح لابنها ولكن بعين الحنو أيضا سكتت على مضض.

على أن الفتى كان يكتشف حبيبته شيئا فشيئاً، ورفع الستر عن عينيه كما يدل على ذلك حديثه في زيارته الأخيرة لأسرته، وكان ذلك في مساء يوم السبت.

وقد خاطب أمه مرة واحدة ذلك المساء وكان يتكلم عن حبيبته في لهجة الحزن والألم:

ولكنك تعلمين يا أماه لو مت لتألمت شهرين ثم تأخذ في النسيان، وسترين إنها لن تأتي إلى

هذا المسكن لتنظر إلى قبري لن تأتي مرة واحدة.
فقالت أمه: ولكنك لا تموت يا وليم، فلماذا تتكلم عن الموت؟) على أن القدر رسم له أن يموت، فقد عاد إلى لندن في منتصف ليل الأحد وفي يوم الثلاثاء تسلمت مسز موريل برقية بأن أبنها مريض، فأسرعت إلى القطار ولا ريب في أن الام كانت تشعر ذلك الشعور الخفي بالكارثة، ولا ريب في أنها كانت تقاوم ذلك الشعور وتغالبه فلا تستطيع، ووصلت إلى لندن لتراه يموت بين أحضانها دون أن يتعرف على أمه.
أن الصفحات التي وصف فيها د. هـ. لورنس دخول الموت إلى هذه الأسرة من أروع ما كتبه.
تحطمت آمال الأم في وليم فتحولت إلى ابنها بول ونشأ بول كما نشأ جميع أفراد العائلة على حب الأم وعلى أن يعتبر أباه خارجا عن الأسرة، ونجد صورة من ذلك في مرض حدث له وهولا يزال صبيا:
أصيب الغلام بنزلة صدرية ولكن لم يهتم لها كثيرا، فأن ما حدث قد حدث، وليس ثمة) فائدة من مقاومة الأشواك، وكان يحب المساء بعد الساعة الثامنة عندما تطفأ الأنوار ويستطيع ان يترقب لهيب نيران الموقد يبدد ظلام الحائط والسقف، ويرى ظلالاً عظيمة تتموج وتضطرب، وكأن الغرفة امتلأت برجال يتقاتلون في سكون. كان الاب يدخل غرفة المريض قبل أن يأوي إلى فراشه ومن عادته أن يكون في نهاية الرقة إذا مرض أحد في البيت ولكنه كان يعكر جو الغرفة لدى الغلام.
سأل موريل في رفق: هل أنت نائم يا بني؟
فأجاب الغلام: لا! هل أمي آتية؟
أنها انتهت الآن من طي الملابس، أتريد شيئا؟ وكان موريل يخاطب أولاده بلهجة الاحترام.
- لا أريد شيئا ولكن هل تغيب طويلاً؟
- لا تغيب طويلا يا بني
ووقف الاب برهة في تردد فوق الطنفسة المبسوطة أمام الموقد وقد شعر أن أبنه لا يريده، ثم ذهب إلى أعلى السلم وقال لزوجته:
- أن الطفل يريدك! هل يستغرق عملك وقتا طويلا؟
- لن أتركه حتى أنتهي منه، قل له ينام.
فقال الوالد لابنه في لطف: أنها تقول لك نم.
فألح الغلام: أنني أريد أن تأتي.
فنادى موريل من السلملن ينام حتى يراك.
- كفي! فلن آتي حتى أنتهي من عملي، ثم كفاك صياح من أعلى السلم، فأن الاطفال الآخرين. . .
فقال الاب: لن تغيب طويلاً
وظل الاب يجول في الغرفة، وبدأ على الغلام القلق وكأن وجود أبيه زاد من نفاد صبره، وأخيراً وقف موريل أمام أبنه لحظة ثم قال في صوت رقيق: ليلة سعيدة أيها العزيز.
فأجاب بول: ليلة سعيدة ودار بجسمه إلى جانبه الآخر وقد شعر بالارتياح لأنه صار وحيدا.
وكان بول يحب أن تنام أمه معه، ومازال النوم في أكمل حالاته على الرغم من أقوال الأطباء عندما يشترك فيه المحبوب فأن حرارة الروح وطمأنينتها وأمنها والراحة الكبرى في تلامس الجسدين تربط النائم بالنوم بحيث يكون الجسد والروح في غايته وقد رقد بول إلى جانبها ونام وتحسنت حالته، أما هي والنوم لا يزورها سريعا فقد نامت بعد ذلك نوما عميقا أعاد إلى نفسها قوة الإيمان).
ولكن الأمهات لا يلبثن أن يجدن منافسات لهن في أبنائهن، ورواية الأبناء والمحبين، إن هي إلا قصة ذلك النضال الخفي الذي يقوم بين الام وبين تلك التي تريد أن تحول قلب ابنها إليها.
ففي مزرعة ويلي وجد بول حبه الأول: فتاة هي أخت لأصدقائه أولاد أصحاب المزرعة.
كانت مريم ذات نزعة خيالية وكانت كبيرة التعلق بأمها (وكان كل منهما ذات عينين عسليتي اللون، وذات نزعة صوفية؛ فكانت من أولئك النساء اللاتي يكتنزن الدين

ويتنفسنه من أنوفهن، وكانت مريم تظن الله والمسيح شخصاً واحد تحبه حبا شديدا وتخشاه). . . .

وكانت هذه المخلوقة لا تهتم لجمالها الخجل المتوحش المتوقد الحساسية بل لا) تكفيها تلك الروح ذات النزعة الشعرية فكانت، تبحث عن شيء أخر يقوي ما طبعت عليه من

كبرياء، لأنها شعرت بأنها تخالف غيرها من الناس، ولكنها نظرت لبول نظرة أخرى فهي بوجه عام تكره الرجال، على أنه رأته من نوع آخر، سريعا خفيفا رقيقا قد يكون أحيانا آية في اللطف ويتغلب عليه الحزن أحيانا، وهو ذكي يعرف الشيء الكثير وقد طاف الموت مرة بعائلته، ورفعه في عينيها إلى السماء ما حصل عليه من المعلومات الضئيلة. .) أحبته الفتاة وأخذ الفتى ينفتح قلبه للحب، ولكنه كان حبا غريبا خفيا ممزوجا بكل ما فيها من مشاعر الدين والتقوى، وأما حب الفتى فكان فطريا ممزوجاً بتلك العاطفة التي يمتزج بها الحب كثيراً في نفس فتى تحول قريبا من دور الصبي إلى دور الرجل، وقد رأت فيه الفتاة مثلا أعلى للرجل المتصف بأكمل الصفات، أما الشاب ذو الشفة المرتعشة بحرارة الشهوة فكان ينظر إلى الحب من ناحية أخرى. لم يلبث الفتى أن مل هذا الحب، وأراد حبا أكثر إنسانية وأقل تطلعا إلى الملائكة، ووجده عند كلارا التي كان يعمل معها في محل واحد.

تعلق الفتى بها وتعلقت به، وتجاذب النفسان تلك العاطفة تجاذبا، نقرأه بدقائقه في هذه الرواية، ولكن شيئاً واحداً كان يحول بين توافق هذين القلبين كما كان يحول بين توافق بول ومريم. الواقع ان هناك حبا آخر عنيفا محطما كان يعمل دائما على التفريق، وهذا الحب المحطم هو حب الام لولدها، فبول كان شديد التعلق بأمه وأمه شديدة التعلق به والحنو عليه، فلما أن طمحت نفسه إلى حب آخر لم يجد إلى التخلص سبيلا، إنه لم يشعر بذلك لأن هذا الحب كان يجتذبه بخيوط دقيقة خفية لا يراها ولا يستطيع إلا أن يظل فريسة، فعندما تحول حب بول عن مريم كانت الأم تجتذبه، وعندما تحول حبه عن كلارا كانت الأم تجتذبه.

ولم تكن الأم تعمل على إبعاده ولا هي تسعى لذلك سعيا ظاهرا، بل هو تود سعادته وخيره، وتود أن يصل إلى كل ما يرضيه، وإنما نفوذها القوي عليه وحمايتها الشديدة له وعنايتها به منذ صغره وإلى أن مرضت مرضها الأخير وإلى أن لفظت آخر أنفاسها أمامه، هذا النفوذ هو الذي حطمه في صباه وقد يحطمه في رجولته.

فموضوع الرواية الحقيقي قد لا يكون حياة بول وانتقاله إلى الرجولة وتفتح عينيه إلى سر الحياة، وإنما هو: نفوذ الأم وعطفها الذي قد يكون أشد خطراً على حياة الشاب من جميع الأخطار.

وتعتبر هذه الرواية من أوائل روايات (د. هـ. لورنس) ويضعها البعض في مقدمة رواياته لكن أسلوبها المصقول الحذر يتم على يد لم تكن من المران بحيث تطلق عنانها وإن كنا نرى في التحليل النفساني نبوغا لا يقل عن نبوغه في خير رواياته.

حسن محمود

العلوم

نور الشمس في منتصف الليل

للدكتور علي مصطفي مشرفة

في الأقطار القطبية الشمالية لا تغرب الشمس وقت الانقلاب الصيفي (أي حوالي 21 يونية) بل تبقى فوق الأفق طول الأربع والعشرين ساعة. ويذهب حينئذ كثير من عشاق الطبيعة إلى الجزء الشمالي من شبه جزيرة اسكاندوناوه أو إلى اسبتزبرجن لرؤية (الشمس في منتصف الليل) كما يسمونها. ولكي نفهم إمكان حدوث هذه الظاهرة يكفي أن نتذكر أن القطب الشمالي للكرة السماوية (موضع النجم القطبي تقريبا) يرتفع عن الأفق كلما تحركنا شمالاً على سطح الأرض. حتى إذا دخلنا الدائرة القطبية صار ارتفاعه عن الأفق أكثر من 66. 33° أي أكثر من بعد الشمس عن القطب الشمالي عند الانقلاب الصيفي. وبذلك يصير شأن الشمس حينئذ شأن النجوم المحيطة بالقطب والتي تدور في حركتها اليومية في دوائر محيطة بالقطب دون أن تشرق أو تغرب. ومع أن أمر هذه الظاهرة معلوم لدى الخاص والعام إلا أن القليل منا من يعرف أنه من الممكن رؤية الشمس (لا الشمس ذاتها) في منتصف الليل دون أن

نتطرف شمالا إلى أبعد من خط عرض باريس أو جنوب إنجلترا. فالشمس بعد أن يختفي قرصها المنير تحت الأفق تبقى أشعتها مضيئة للطبقات العليا من الهواء الجوي وينشأ عن ذلك نور منتشر هو الذي يعرف بالشفق. ويظهر الشفق كقطعة من دائرة تنخفض مع الشمس في انخفاضها تحت الأفق نحو 18 درجة أي بمقدار القطر الظاهري لقرص الشمس نحو 36 مرة، ويجب أن نميز بين هذا النوع من الشفق وبين نوع آخر ناشئ عن وقوع ظل الأرض على الهواء الجوي، يظهر في الناحية الشرقية للسماء كقطعة من دائرة منيرة ذات لون أزرق قاتم يحيط بها قوس ضارب إلى الحمرة ثم يرتفع تدريجيا ويتلاشى سريعا حتى ينعدم قبل أن يصل إلى سمت الرأس. كما يجب أيضا أن يميز بين شفق الغروب وشفق الشروق الذي يظهر عند الفجر وفيه تبدو جميع مظاهر الشفق بترتيب عكسي لما ذكرناه آنفا.

وفي مصر كما في سائر البلدان القريبة من خط الاستواء تهبط الشمس عند الغروب سريعا ولذا فأن الشفق لا يبقى طويلا، ففي مصر يصل انخفاض الشمس عن الأفق وقت الانقلاب

الصيفي إلى 18° بعد الغروب بنحو الساعة والنصف وعندها يحل الليل ويزول الشفق تماما.

أما في البلاد البعيدة عن خط الاستواء فأن الشمس تنحدر في غروبها صيفا انحدارا بطيئاً فيمتد أمد الشفق. وإذا راعينا أن غروب الشمس ذاته يجيء متأخرا صيفا في البلاد الشمالية أدركنا نتيجة هذين الظرفين مجتمعين في إطالة النهار. وأذكر أنني أثناء إقامتي في إنجلترا كنت أستطيع أن أطالع كتبي وقت الصيف في حديقة المنزل على ضوء النهار إلى ما بعد الساعة العاشرة مساء.

ومن الممكن إذا عُلم خط عرض المكان حساب مدة بقاء الشفق. فعند خط عرض باريس مثلا يمكن بحسبة بسيطة معرفة أن انخفاض الشمس وقت الانقلاب يصل إلى 18° عند منتصف الليل، فأن شفق الغروب يبقى إلى منتصف الليل، وعندها يبدأ شفق الشروق وبعبارة أخرى لا يكون هناك ليل حقيقي في ذلك اليوم. وفي شمال إنجلترا تبدأ هذه الظاهرة بشكل أوضح إذ يمتزج الشفقان ويبقى نور الشمس (المنعكس عند طبقات الهواء العليا) واضحاً طول الليل. وإذا قلنا إن نور الشمس يمكن رؤيته عند منتصف الليل عند خطوط العرض التي تقع شمال باريس فيجب إن نذكر ان هذا النور يكون ضئيلا، ومن السهل أن تكسفه أنوار المدينة أو نور القمر، ولذا يحسن إذا اريدت رؤيته أن يخرج المرء إلى الريف البعيد عن الأضواء الصناعية بشرط أن يكون الشهر القمري في أوائله أو آخره. ومما يساعد على حسن رؤيته وجود أجسام معتمة كالأشجار مثلا على الأفق.

نوبل

للدكتور أحمد زكي

في اليوم الحادي والعشرين من أكتوبر الماضي أحتفل القوم بمرور مائة عام على ميلاد (الفريد برناد نوبي) وما كان العالم في حاجة إلى التذكير بميلاد نوبيل أو بموته فذكراه تتجدد كل عام. تجددها تلك الجوائز السنوية الخمس التي تحمل أسمه والتي أنشأها عند وفاته عام 1896 ووقف عليها ريع ثروته الهائلة. وقد يبلغ الخمسين ألفا من الجنيهات في السنة الواحدة. قال نوبيل في وصيته. . ويقسم هذا الريع هكذا: نصيب للفرد الذي يأتي بأخطر استكشاف في الفيزياء، ونصيب للفرد الذي يأتي بأخطر ابتداع في الكيمياء أو بتجديد خطير لابتداع قديم، ونصيب للفرد الذي يأتي بأكبر جديد في الطب أو في الفسلجة ونصيب للفرد الذي ينتج في عالم الأدب أجل نتاج على أن ينحو فيه صاحبه منحي الادياليين والنصيب الخامس والأخير للشخص الذي زاد أكثر من غيره في إخاء الأمم، وجاهد في أكثر من سواه في إلغاء الجيوش أو في إنقاصها وفي جميع المؤتمرات وزيادتها تحقيقا للسلام. . وأني أعلن رغبتي الصريحة في ألا تكون لجنسية المترشحين أي اعتبار مهما قل عند القرار يمنح هذه الجوائز).

هذا نوبل كما يتراءى في وصيته: رجل حباه الله الثروة الواسعة، ومنحه العقل الذي يدرك به خطر العلوم الطبيعية في تقدم الإنسان واسعاده. ووهبه قلب الشاعر الذي يزهد في صور الكون الواقعة، وحقائقه الراهنة، لقبحها ولنقصها، ويستلذ صورا من خلق الخيال لا حقيقة لها، لأنها تمثل الكون على ما يجب أن يكون، والإنسان على أتم

حال من جمال ونيل، والأشياء على أكمل اتساق وانتظام، فالنتاج الأدبي الذي يجيز عليه يجب أن يكون اديالياً كمالياً لا حقيقياً واقعياً، واتسع هذا القلب حتى وسع الأمم جمعاء فخشى عليها مهالك القتال وأشفق عليها من متالف الحروب.

أما نويل قبل الوصاة، نويل القرن التاسع عشر فرجل عالم مهندس كيميائي، صرف مواهبه في استكشاف بوائق الحروب والتفنن في أساليب الموت وتشجيع القتال بأبحاثه حتى كفل للحكومات الحجة التي لا تدفع في فض الخصومات.

ولد نوبل في استكهولم عاصمة السويد عام 1833 وذهب أبوه به صغيراً إلى عاصمة روسيا حيث أنشأ معملاً لصناعة الطوربيد، ثم عاد به إلى السويد وخلّف أخاه الأكبر قوّاماً على ذلك المعمل فوسعه ومدده. وفي السويد بدأ نوبل بدراسة الناسفات. وكان الوقت ملائماً لهذا الدراسة، فأن النزاع بين الدول كان يشتد وأسباب الخصام تتكاثر، وزادت الريبة وأشكل المستقبل ورأت كل أمة خلاصها من الحرب في العدة للحرب.

ومن الغريب أن العالم لم يكن يعرف ويألف من الناسفات إلى ذلك العصر غير البارود، وكانت الكيمياء الحديثة قد بدأت تشب. والتفاعلات الكيماوية تدرس فتعرف فكان من الطبيعي أن تتجه الأمم في تنافسها إلى الكيمياء علها تجد عندها سلاحاً جديداً أمضى من الحديد، أو مرادفاً أقوى وأفتك من البارود. فدرس الدارسون وأجتهد المستنبطون، تارة يستحثهم المجد، وتارة يغريهم المال، وتارة أخرى تلهبهم القومية وما تتضمنه من ضرورة في دفاع، أو إشباع لأطماع، فكشفوا في النصف الأخير من القرن الماضي عن طائفة من الناسفات طالعنا آثارها في الحروب التي تتابعت من ذلك العهد، رأينا فعلها وسمعنا دويها في الحرب الكبرى الأخيرة التي ذهبت ببضعة ملايين من بني الإنسان.

بدأ نوبل دراسته فوقع على مادة اسمها (النترو - جلسرين) وذلك عام 1864. وهذا المادة كان قد وقع عليها من قبله كيماوي آخر يدعى سبريرو عام 1846 وحضرها بأسترة الجلسرين وحامض الأزوتيك. الا أنه لم يحقق ماهيتها ولم يدرك خطرها في النسف وشدتها عند الإلهاب والطرق. فاتجه نوبل إلى دراستها رجاء إحلالها محل البارود، وإلى تحضيرها جملة، وإلى تعرف أسباب الحيطة لتجنب أخطارها أثناء التجهيز. ونجح في كل هذا بعد أن أصابه من مخاطرها ما لا بد منه، فحضرها مادة مائعة ثقيلة تشبه الزيت، فبدأ يشيع استخدامها في المرافق الحربية والمدنية. وهي إذا تفرقعت استحالت فجأة إلى أحجام كبيرة من غازات أهمها غاز الكربونيك والازوت والأوكسجين وبخار الماء تزيدها حرارة التحلل تمدداً. حسب نوبل مقدار ما ينبعث من غاز فوجد أن الحجم الواحد من الزيت يخرج 1200 حجم من الغاز، هذا باحتسابه في حرارة الجو العادية وتحت الضغط العادي، أما وهو في حرارة التفاعل فيبلغ ثمانية أضعاف ذلك. وعلى ذلك فهذا الزيت أقوى من البارود ثلاث عشرة مرة. إلا أنه لم يكن كالبارود لينطلق بسهولة. ومع هذا كان إحساسه عند الاصطدام كبير. ففكر نوبل ثم فكر، فخال أن يدس فيه شيئاً قليلاً من البارود يصله بفتيل قابل للالتهاب يطيله كيف شاء، ثم يشعله فتسري فيه النار، حتى إذا وصلت إلى البارود في خزانته الصغيرةفانطلق بانطلاقه (النتروجلسرين). وهذه أول مرة عُرفت أطلق فيها ناسف يناسف، وهو احتيال لعب دوره الكبير في الناسفات، ولا يزال يلعبه كبيراً إلى وقتنا هذا، وبه أفلت (النتروجلسرين) من خيبة محققة، إلا أنه ما كاد يذيع حتى ذاعت بذيوعه فواجع ونكبات لوصول أيدٍ غير خبيرة إليه. وزاد في خطرة قوامه المائع ومظهره الرطب الهادئ، فطمأن اليه بلهاء نالوا منه حتوفهم. كان ينقل على عربات تجرّ، فذات مرة صرت العجل وصرّ فما كان من صاحبنا الحوذي الطيب القلب إلا أن شحمها بالزيت الذي يحمل. وكان الحطابون يزيتون به أحذيتهم ويدهنون به أعنة خيولهم، وبعد ذلك يحكونها ويلمعونها. وتكررت الحوادث وتتابعت انفجارات ذهبت إحداها بأخي نوبل، فسنت الحكومات القوانين بتحريم بضاعته، وثار حنق الجماهير على نوبل إذ تمثلوه رجلاً لا قلب له يسعى لصالح نفسه، ويطلب المال مما فيه دمار الناس. عندئذ ضاعف نوبل جهده وحشده قواه ليؤمن الناس من شر تلك النكبات.

فبحث عن جسم صلب مسامّيّ يمتص النتروجلسرين. وبعد تجارب عدة في هذا السبيل وجد أن (الكيزلجور) يمتص أكثر من سواه. والكيزلجور طفيل ذو مسام كثيرة، أصلة نباتات من الطحالب العائمة التي تعيش في البحار والأنهار على السواء ذات

خلية واحدة متسلس جدارها، ماتت فرسيت هياكلها فتكونت منها طبقات كثيرة تُستعدن الآن. وهي في الجلاء وفي أراض أخرى. فخلط نوبل سحيق هذا الطفل بثلاثة أمثاله من النتروجلسرين فتشربه وتكون منها خليط ناسف أسماه (الديناميت) كان أضعف من النتروجلسرين قوة ولكنه كان أكثر أتزانا منه وأقل حسا بالصدمات وآمن في النقل، فأطمئن الناس إليه وذاع أمره في البلاد شرقا وغربا.

الا أن هذه الرخاوة في مزاج الديناميت والهدوء في طبعه لم تعجبا نوبل (وساءه) أن يُحصِّل الأمن بإضاعة شدة الناسف ويشتري الطمأنينة ببيع شيء من قوة الانفجار، فقام لساعته ينقب عن مفجر جديد يجمع إلى شدة النتروجلسرين وأمن الديناميت، يشفع قوة الأول بطمأنينة الثاني، فخرج بعد الكد والصبر والتعرض للأخطار إلى مخلوق جديد أسماه (الجيلاتين الناسف) وهو مزيج من مادتين كلتاهما ناسفة، أولاهما (النتروجلسرين) وأخرهما (النتروسليولوز) وهو القطن بعد معالجته بحامض الازوتيك، ويتألف من خلطهما

جسم كالفالوذج مظهرا، وهو الموت والدمار مخبرا.

وعالج نوبل هذا الفالوذج الجديد (بالسليولويد) أو (الطبخ) فوقع على مفجّر جديد أسماه (باليستيت) من خواصه أنه إذا انفجر لا يملأ الجو بالدخان، وهو من نوع الناسفات الشائعة في الجيوش اليوم. وكان قد أتصل بالحكومة الإنجليزية يعمل معها، فسجلت هذه الحكومة ناسفاً جديداً أسمته (كورديت) كان يشبه (الباليستيت) شبها قويا، فخاصم نوبل عليه وادعاه لنفسه واتفقا معا على رفع الأمر للقضاء والرضاء بما يقسم دون أن يعكر ذلك ما بينهما من صفاء، وكانت قضية فيها تعقد وفيها إبهام، وكان فيها للقضاة لا شك حيرة كبيرة، وأخيراً فازت الحكومة، فغرم نوبل ثلاثين ألفا من الجنيهات، فغاظة ذلك وترك في نفسه أعقابا.

أن الناسفات أداة للدمار السريع الشامل تنزل على البلد ذي الأهل الكثير والسكن المشيد فلا تترك فيه لا أهلا ولا سكنا، وتذهب في ساعات أو أيام بآثار للمدنية ظل المجهود الإنساني يعمل فيه القرون، آثار لا تقتصر على أبنية ضخمة، ومكاتب مشيدة، ودور للتحف مليئة، ومنشآت للصناعات وسيعة، بل تشمل أكبر أثر وأثمن خلف، ذلك الإنسان نفسه، تلك الجماجم البشرية التي تَطيح وبها تراث الأمم وثقافات الأجيال وودائع الدهور. والناسفات كذلك أداة للخير فقد أفادت الإنسان ونفعت العمارة والمدنية بتكسير الصخر وتفكيك الحجر وخرق الأنفاق وثقب الجبال وفي حفر القنوات حيث الأرض صلدة لا ينفع فيها عضل السواعد. والمقدار الذي يستنفد منها في ذلك أضعاف ما يستهلك في الحروب. والمنشآت الهندسية الكبرى كقناة بنما والسكة الحديدية الكبرى في أمريكا الشمالية التي تصل المحيط الأطلسي بالهادي، وبناؤها برغم الجبال العاتية التياعترضت بناءها، وغير ذلك من المستحدثات العالمية الخطيرة شواهد لا تنازع على ما أدت الناسفات من خدمات جليلة يرد نصيب كبير من الفضل فيها إلى نوبل.

استخدم نوبل في شبابه وكهولته رأس الشاب وحيلة الكهل في فك قيود عن قوى للطبيعة عاتية، ولعله رجا ان تكون وسيلة لمغالبة الطبيعة لا مغالبة الإنسان، ثم رأى حقيقة ما صنع شيخاً، وأحس خيبة ما أمل، فصرف أواخر أيامه في بث الدعوة إلى السلام، وتخيل فعلاً للأمم نظاما أشبه شيء بجامعة الأمم الحاضرة وقد ولدت بعد وفاته بربع قرن. وكأنما أراد أن يكفر عن الخراب الذي جاء الأمم على يديه في حياته، والخراب الذي خال أن

يجيئها بما اقترف بعد مماته، فوقف كل ما جمع من صناعة الدمار لدره الدمار، فلنستقبل ذكراه معجبين منه برأس العالم المحتال، وقلب الإنسان النبيل.

العالم النسائي

رسالة المرأة

للآنسة أسماء فهمي

درجة الشرف في الأدب

أختص الرجال بالنبؤة دون النساء، وعد الرجال ذلك الاختصاص بطبيعة الحال بابا للتفاوت بينه وبين المرأة ومبرراً للتعالي عليها، ولكن المرأة، وأن لم تنل هذا الشرف في الأديان السماوية فأنها في الأمم الوثنية القديمة كمصر واليونان قد بلغت من

تقدير الإنسان حد التأليه فعبدها السنين الطوال. . وأقام لها أبدع الهياكل وأجمل التماثيل والنصب، فكانت مثلا المعبودة ايزيس التي عدها قدماء المصريين رمزا للفضائل النسوية من حنان وشجاعة وصبر ووفاء، تنافس الآلهة الآخرين بوفرة قرابينها وكثرة قاصديها. وكذلك عبد افروديت وفينوس ملايين البشر من إغريق ورومان، إذ كانتا رمزاً لصفة مرغوبة في المرأة وهي الجمال، منبع الوحي والإلهام. والعرب الذين لم يقيموا التماثيل للمرأة لا في جاهليتهم ولا في إسلامهم جعلوها حلية في صدر قصائدهم التي لهاما للهياكل المصرية من جلال وفخامة وما للتماثيل الإغريقية من خلود وجمال، فجرت العادة أن يترنم الشاعر باسم المرأة في مطلع قصيدته وإن لم يكن الموضع موضع غزل وهيام، وذلك اعتراف بليغ بما للمرأة من أثر في عبقريتهم وفنهم.

والعالم الحديث يقدر ما في المرأة من قوة الوحي والإلهام بطريقة لا تختلف كثيرا عن طريق الأقدمين. ففي الفن مثلا تستخدم المرأة للتعبير عن العواطف السامية والمعاني الرقيقة فنرى، وات الفنان القدير يمثل الأمل في غادة فتانة تجلس على سطح الكرة الأرضية تحت سماء لا يبزغ فيها غير نجمة واحدة ترسل قبسا ضئيلا من الضوء، تحاول أن تعزف نغما على قيثارة ليس بها غير وتر واحد. . كذلك تشان يمثل الربيع بما فيه من حيوية متدفقة، وأمل باسم، وجمال فاتن في (فلورا) الشهيرة ذات الحسن الرائع. والمثال المصري (مختار) في تمثال نهضة مصر، يمثل مصر الحديثة التي أخذت تلقى جانبا أغلال الخمول بفتاة قروية ممتلئة جمالا ونشاطا ولم نذهب بعيداً في ضرب الأمثلة وبين

أيدينا غلاف مجلة (الرسالة) ترى فيه المرأة حاملة شعلة الوعي والثقافة؟ على أن وحي المرأة ورسالتها لا يقتصران على عالم الفن وإنما يلعبان كذلك دورا خطيرا في الحياة العملية وخصوصا في أشد ظروف الحياة صعوبة وخطرا، فترى المرأة تصحب الجيوش إلى ميادين القتال لا لتضميد الجراح فحسب، بل لتقوية العزائم وبث روح الاستبسال والتضحية في النفوس أيضا.

ذلك هو المكان الرفيع الذي تشغله المرأة في الحياة فضلا عن وظيفة الأمومة التي تستدعي الإيحاء باستمرار إلى الأبناء، والمرأة الصمرية بصرف النظر عن وظيفتها الخاصة تحمل رسالة مزدوجة لبنات جنسها ولأبناء وطنها وهم في فترة التطور الحرجة.

وماذا عسى أن تكون هذه الرسالة التي تضطلع بأعبائها المرأة؟ أن الشهد لا يصنع إلا من رحيق الزهر، ونموذج الفن لا يوحي إلى النفس بالكمال إلا إذا بلغ نهاية الإجادة. . فمن الطبيعي إذن أن تكون رسالة المرأة هي حثها على أتباع ما يجعلها أهلا للوحي والإلهام بان تعمل على تجميل النفس قبل تجميل الوجه والثوب، فإذا لم تسم روح الفتاة وتعل همتها لا تصلح للقيام بمهمتها. فالفتاة العابثة المستهترة التي تكتفي بالقشور من ألف صنف للتمويه والتغرير. والفتاة التي لا تعيش لمثل أعلى بل لا تخرج عن عالمها المادي المحسوس وضروريات الحياة الأولية، لا يمكن ان ترفع إلى سماء الوحي لأن المادة المتغلغلة فيها تقعد بها عن النهوض والسمو.

ورسالة المرأة للرجل تنسجم مع رسالتها السالفة وتتفق مع أغراض وحيها، فتيار المادة في نفس الرجل ونفس المرأة قد طغى وأقام حجابا بينهما وبين المثل العليا. وأصبحنا في عصر قلما يصغي فيه لوحي غير وحي المنفعة الذاتية، ونتج عن ذلك ضعف روح الاستبسال من أجل الوطن والمبدأ والعقيدة، وصرنا نفر من المقاومة إذا أبصرنا الخصم أكثر منا عددا وأعظم عدة، فكأن الغرض مجرد الانتصار لا تأدية الواجب وإراحة الضمير بصرف النظر عن النتائج. فرسالة المرأة في هذه الحال هي الحث على العودة إلى تعاليم الفروسية، لأن أهم ما يفتقر إليه الرجال حقا هو تلك الروح السامية التي أكسبت العصور الوسطى جل مالها من جلال ووقار. فقد كان الفارس يخوض المخاطر ويركب الأهوال في سبيل عقيدته ووطنه، وكان يضع الشرف والكرامة فوق الحياة نفسها، ويرتبط بالعهد

ارتباطه بدينه. وليس معنى الرجوع إلى ذلك العصر هو أمحاء تلك الفضائل في عصرنا، فالواقع أن تلك الصفات تسود اليوم أكثر بلاد العرب، وهي مصدر ما يعتز به من إباء وكبرياء واستقلال وحرية.

وهناك غرض آخر لاختيار ذلك العصر، فقد كان على رغم خشونته وقسوته مدينا بالكثير من فضائله إلى وحي المرأة. إذ قضت التقاليد أن يتطلع كل فارس إلى سيدة شريفة يتوسم فيها العظمة والنبل فيعمل على كسب إعجابها بأن يخوض الغمار باحثا عن المجد مدفوعا بروحها مترنما بذكرها.

فإذا كانت المرأة قد قامت بمثل هذا الدور برغم انحطاط مركزها وفي عصور امتازت بقسوتها وبأن الكلمة العليا فيها كانت للسيف، فهل تعجز المرأة الراقية في عهد الاستقرار والأمن عن أن تلهم أشبال السلم هي التي على ضعفها قد ألهمت أسود الحرب؟

ليلى الاخيلية

آخر منظر من حياتها

للآنسة سهير القلماوي. ليسانسيه في الآداب.

الصحراء هادئة نائمة لا يحرك رمالها إلا ريح خفيفة ناعمة تهب بين آونة وأخرى. والليل ساكن صاف، والسماء سوداء قائمة لولا نجوم تضيء هنا وهناك: وأقبل المسافران يتهاديان على جمليهما، وعلى مسافة منهما سار قومهما. وكأنما كان هذان المسافران رسولي حركة وحياة لهذا السكون المهيب، فقد هبت بقدومهما رياح عنيفة شيئا، فأزعجت رمال الصحراء المستكينة الهادئة.

ولو أن ليلى الاخيلية سلمت ... عليّ ودوني جندل وصفائح

لسلمت تسليم البشاشة أو زقى ... إليها صدى من جانب القبر صائح

المسافران أمراءه وزوجها، والتفت الرجل إلى المرأة وكأنما وجد في هذه الرياح الجديدة سببا يقطع به هذا الصمت الذي لازمهما منذ بدء رحلتهما. ولكن المرأة كانت ساهمة ذاهلة فلم يقو على الكلام. لقد كانت تشع منها قوة عجيبه تضطره بل تضطر كل شيء حولهما إلى السكون والهدوء احتراما لتفكيرها وحزنها. ورفعت المرأة رأسها في هدوء، واتسعت عيناها متجهتين نحو نقطة صغيرة لاحت لها في الأفق القاتم من بعيد. وظلت عيناها عالقتين بهذه النقطة وكأنما ربطتا إليها ربطا. ثم اتضحت هذه النقطة شيئا فشيئافإذا بها أكمة صغيرة. هذه هي الأكمة التي كانت تفكر فيها، هذه هي الأكمة التي كانت تتحرق شوقا للوصول إليها ورنت الأبيات للمرة المائة في إذنيها بصوت عميق هادئ. ترى أيجيب حقا؟ لقد كان صادقا لم تعرف له كذبة قط ولكن من سمع بميت يجيب حياً. .؟ توبة.! لقد مات! نعم مات فبكيته ورثيته. . أأكون حالمة؟ وهل أفيق من حلمي فوق هذه الأكمة؟ نعم سأفيق، سيجيبني، سأخلص من هذا العذاب الذي يحرق أعصابي حرقا. . ولو أن ليلى الأخيلية سلمت. . لسلمت تسليم البشاشة. .

ظلت ليلى تردد الأبيات مفكرة وعيناها عالقتان بالأكمة التي لاحت الآن واضحة ظاهرة، ورأى الزوج الأكمة فعبس وقال لنفسه لن تمر ليلى بهذه الأكمة حتى تصعد إلى قبر توبة. وثارت في نفسه ثورة الغيرة وأخذ يتساءل ساخطا حانقا: أيمكن أن يكون حب كهذا؟ لقد

أحبته فتاة، ولكنه تزوج غيرها وتزوجت غيره فلم يضعف هذا الحب، وهاهو ذا الآن قد مات ودفن ويلي جسمه ولكنها مازالت تحبه، لم أقو أنا على محو ذكراه، لم أقو أنا على ملء فراغ تركه بموته، نعم لم أستطع إزاء هذا الحب شيئا. .

ظل يغلي في ثورته، وظلت هي في تفكيرها الحزين المؤلم، حتى وصلا إلى الأكمة، فاتجهت إليها صاعدة، ولكن زوجها صاح بها حانقا ثائرا. .

- ليلى! إرجعي لن تصعدي

ولكنها أجابته بصوت حزين وكأنها لم تلحظ ثورته

- أتمر ليلى بقبر توبة فلا تجيبه؟ وصاح بها ثانية!

- ليلى! بربك لا تصعدي، لقد مات توبة ولن تجديه تحيتك شيئا.

وصدمتها كلماته صدمة عنيفة. لقد مات توبة ولن تجديه تحيتي! كلا كلا توبة لم يمت! إن روحه حية، إن صوته مازال يرن في إذنيها، فلو أن ليلى الاخيلية سلمت لسلمت. . نعم سيسلم علي، سيجيب.

لم تجبه واستمرت في طريقها صاعدة، ناداها، فلم تجب، وتوسل إليها فلم تسمع، وهددها فلم تحفل له، إن توبة يدعوها من فوق الأكمة ولن يصدها عن دعوة توبة أحد.

وقفت جانب القبر خاشعة حزينة مضطربة تنصت لدقات قلبها وقد خيل إليها أن صداها يملأ السهل، لم تكن تحس الا أن توبة هنا، فهذا قبره حيث رقد من زمن. إن روحه تملأ المكان وصورته تملأ عينيها، وصوته يرن في إذنيها، ستناديه وسيجيب، ولكن لم تقو على فتح فمها. . تجلدت قليلا قليلا ثم استطاعت أن تفتح فاها، وأخيرا أن تقول همساً:

- السلام عليك يا توبة!.

وأنصتت الإذن وظلت هكذا مرهفة، كل ما فيها يترقب، لقد أحست أنها معلقة من علو شاهق ستهبط منه بعد حين. ولكن الصمت طال وبدأت تعود إلى نفسها رويدا، بدأت تحس أن دبيباً موجعاً هو دبيب اليأس. توبة لم يجب! أخذت شفتاها تلفظان دون أي صوت: توبة لم يجب. . ثم التفتت إلى القوم في صوت يائس مخزون وكأنها تحدث نفسها:

- والله ما عرف له كذبة قط قبل هذه! ألم يقل:

ولو أن ليلى الاخيلية سلمت ... عليّ ودوني جندل وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة أو زقى ... إليها صدى من جانب القبر صائح

فما باله لا يسلم عليه كما قال؟

وأحس امجمل بوجود ليلى ووجوم القوم معهما فاضطرب واضطرب الهودج معه. ولكن ليلى لم تحس شيئا، لقد كانت تنتظر في أيمان صادق قوي جوابا من القبر، ولم تستطع الحقيقة أن تقتلع هذا الإيمان بعد. . فهي مازالت منتظرة. . توبة لم يسلم عليها ولكنه لن يتركها هكذا. .

وكانت إلى جانب القبر بومة كامنة، فلما رأت الهودج واضطرابه فزعت وطارت في وجه الجمل فنفر فرمى ليلى على رأسها فماتت من وقتها فدفنت إلى جنبه أن توبة لم يكذب في حياته، فكيف يكذب في مماته؟

النجم أقرب

قال الصغير وقد رأى ... في الليل نجما قد تلهب
أبتي، بربك هاته ... كيما أسرّ به وألعب
فأجابته هذا بعي ... د، ليس كل مناك يطلب
فمشى ولاحت دوننا ... سيّارة للأرض تنهب
روعاهُ يجتذب العيو ... ن كأنها في الأرض كوكب
فدنا وقال: إذن فمر ... كبة كهذي حيث أركب
فوجمت، ثم أجبته: ... النجم يا أبني كان أقرب!!

محمود عمار

القصص

قصة مصرية

تقاليد

للأستاذ محمد سعيد العريان

لم يكن حامد قد أتم دراسته العالية حيث بدأت تقوى صلته بصديقه حسين أفندي، ولم يكن الحديث بينهما كلما تقابلا يتجاوز السؤال عن الصحة والأنجال، والذكريات القريبة عن جهادهما في صفوف الشباب الوطنيين، ولا يذكر حامد أنه زار صديقه حسينا في منزله غير بضع مرات كان في معضمها مريضا، وما أكثر ما يشكو المرض! ومرة دعاه حسين أفندي إلى زيارة منزله فلبى. وكانت هذه أولى زيارات متتابعة قوت بينهما رابطة الإخاء والود، وزادت إخلاصهما تمكينا وقوة.

كانت منيرة بنت حسين أفندي فتاة فارعة الجسم، معتدلة القامة، خمرية اللون، فاتنة النظرة، عذبة نغم الحديث، تبدو في انوثة فاتنة نضجت في شعاع ثمانية عشر ربيعا. ورآها حامد فأعجبه أن يتحدث إليها، وأن تتحدث إليه، وأن يشعر في أثناء ذلك أنه موضوع اهتمامها حين تسأله عن حياته في القاهرة وحيدا أيام الدراسة، وابتدأ أهل البيت يرتاحون لزياراته في ثقة واطمئنان، وابتدأ هو يحس الشوق كلما اخلف موعد هذه الزيارة. وصار من المألوف أن يزورهم كل يوم، وأن يسألوا عنه كلما غاب. وانتهى الصيف وعاد حامد إلى القاهرة يستقبل العام الثاني من دراسته في كلية العلوم، ولكنه لم يشعر بالاستقرار وهدوء البال اللذين كان يشعر بهما في العام

الماضي، وإنما كان كثير الحنين إلى البلد حيث قضى أيام الصيف. أهو شعور السأم من الوحدة في بلد تذوق كل ما حل من لذاته، أو ملل الدارس طال به انتظار الثمرة، والحنين إلى أهله والصفوة من أصحابه في البلد الذي نشأ فيه؟

لم يستطع حامد أن يجيب على هذا السؤال إلا بعد أيام حين وصلته رسالة من صديقه حسين، أودعها شوقه وتحيته، يخبره أن منيرة مريضة منذ أيام. ما كان أسرع صاحبنا حينئذ إلى كتابة جواب هذه الرسالة، على كسله وتوانيه في كتابة الرسائل! لم يذكر شيئا

من رسالة صديقه الطويلة ذات الصفحات الأربع غير مرض منيرة، ولم يكتب شيئا في جوابه غير السؤال عن منيرة والاهتمام بها، والدعاء لها! وفي صندوق البريد ألقى الجواب، ثم خرج منفردا في نزهة وراح يفكر. . . وبدا له انه كان متسرعا كل التسرع، عجلا كل العجلة، فيما ضمن جوابه من عبارات، أي صلة بينه وبين حسين أفندي تسمح له ان يهتم كل الاهتمام ببنته، وأن يصرح بالشوق إليها، والألم الموجع لمرضها في كتاب لأبيها وليس من التقاليد أن يتكلم الشبان عن بنات أصدقائهم بهذه اللهجة الناعمة المفتونة؟ ولكن حامد نفسه لم يكن يعرف لماذا كتب ذلك، ولا كيف اندفع إليه !ونسى التقاليد والأدب اللائق، أكان يحبها وهذا وحي عاطفته ودافع وجدانه؟ ربما بلغته رسالة أخرى من صديقه حسين أفندي، فلم يكن بها ذكر لمنيرة أو نبأ عنها. أكان تجاهلا مقصودا؟ وهل كان ذلك عن أثر رسالته؟ ترى ماذا كتب فيها؟ لقد نسى كل ما جرى به قلمه، ولم يذكر إلا أنها كانت رسالة تجاوز بها التقاليد التي يدين بها حسين أفندي أكثر مما يحرص حامد على نبذها. .

وكأنما انقطعت عنه أخبار صاحبته منذ أمد طويل لا منذ أيام، وابتدأت تغزو فكره مرات في اليوم الواحد، أو أخذ يذكر حديثها ويستعيد الكثير مما ينكره ويردده بلسانه في لحن عذب الإيقاع، وطارت حولها أمانيه، وعقد بها مستقبلة. لقد كانت وهي بعيدة أفتن منها بين عينيه! ولم يشغله فيما تلا ذلك من أيام إلا أن يحصى كما بقى من الزمن ليعود إلى هناك. . .

وكثرت زياراته للبلد: زارها مرتين في الشهر الأول، وثلاثا في الشهر الثاني، وكان في كل زيارة من هذه الزيارات يجد نفسه مسوقا إلى ناحية بيح حسين أفندي، فيقضي هناك بعض الوقت قبل أن يزور أمه وأخوته. ورأى في ترحيب صاحبته به، وسرورها بمقدمه معنى لم تنكره عيناها، واعترفت به ضغط يدها عند اللقاء وعند الوداع. لم تعد به حاجة لأن يسأل نفسه عن سر ذلك، فقد أيقن أنه وأنها. . .

وأضمر أمرا وأسره إلى صديق، فقد كان يفكر في أن يختارها لنفسه زوجة، ولكن أتراه يستطيع أن يقدم على ذلك وهو ما يزال طالبا بينه وبين رجولة الأزواج أعوام ثلاثة؟ وماذا عليه لو خطبها إلى أبيها وطلبه إليه أن ينتظر حتى يتخرج، أتراه يقبل ذلك ويرضاه لها؟

وكيف يبدؤه الحديث، بل كيف يتحدث الناس في هذا الشأن؟ لقد مات أبوه منذ سنوات، والأب هو الذي يستطيع أن يتحدث بأسم ولده في مثل هذه الشئون. . . ولم يطل به التفكير في ذلك، فقد ذاع ما حسبه سراً بينه وبين صديقه حتى وصل إلى مسمع الوالد!

وزار البلد بعد ذلك ولكنه لم يسعد بلقاء حبيبته، فقد حجبوها عنه، وأقاموا بينها وبينه التقاليد، أي أغلقوا دونهما الأبواب وأرخوا الستور. قد تكون أسعد منه الآن. فهي تستطيع أن تزيح السجف لتراه كلما زارها، ولكنه لا يراها وليس إلى لقائها من سبيل! وأبتدأ الدور الثاني من أعراض الحب، وعصف الشوق بقلبه، وعبث بلبه، وسيطر على ذات نفسه. وانصرم العام لا يذكر أنه رآها في خلاله أو استمتع بها غير نظرات كجسو الطير، ما كان أفرحه باجازت الصيف! لقد كان يظن أنه يستطيع في إبانه أن يصل ما انقطع من لذاته باللقاء (عهده الأول) ولكن ما كان أبعد أمانيه. .! وضاقت نفسه بما يجد، وأحس الشوق يفري كبده، والحسرة تشوي قلبه. وانقضى الصيف، وعاد إلى القاهرة لم يتزود بتسليمة مشتاق أو نظرة وداع، وحسب أنه هناك يستطيع أن ينشد السلوة ويلتمس العزاء في جوها الصاخب، فقضى أيامه الأولى بها على شر ما يقضيها العاشق. ولكن شأنا خاصاً دعا صاحبته أن تزور القاهرة وقتئذ، وتنزل في ضيافة بعض ذوي قرباها هناك، فتجدد الأمل عنده، وأحس كأنما نسيم القاهرة أصبح ندياً عبقا بعد

أن كان نارا حامية يصلاها بعيدا عن الأهل والأحباب. . وكان من حظه أن لم تجيء معها التقاليد فتلاقيا غير مرة، وخرجا للنزهة مرات، فلم يتركا بين منازه القاهرة موضعا لم يشهداه على حبهما، ثم عادت إلى البلد وخلفت له الشوق والحنين، وكلما لج به هواه وألح عليه الشوق أنس في وحدته بذكرى تلك الايام القليلة، أو خرج يلتمس العزاء هناك. . . حيث كانا يجلسان، لعله يسمع في همس النسيم صدى ما كان يتناجيان، أو يستوحي عيون الزهر سر ما استودعاه لديها من عهود الماضي، ويتسمع في خرير الماء رسالة ضلت الطريق إليه، او يتفيأ في ظلال الخمائل مجلساً طالما بسط ذراعيه وضم. هيهات! لقد صمت النسيم إلا حنين المهجور، وجف الزهر إلا عبرة الأسى، وخرس الماء إلابكاء الواجد، وسكن الشجر إلا هزة الشيخ حطمته السنون، ليته لم يلقها بعد إذ أيأسه ذلك البعد الطويل، لقد كان من يأسه في راحة!. . كيف تمر الأيام على الغريب أوحشت نفسه وأنقطع ما بينه وبين الناس؟ انه ليخيل إليه أن الزمن عبء ثقيل على كتفيه يجاهد للخلاص منه ولو بالخلاص من الحياة، وكلما عاد بنظره إلى الخلف عجب كيف استطاع أن يقطع كل ذلك الماضي وكيف انصرمت أيامه والحمل لم يخف عن كتفيه، ولم يزل بينه وبين الخلاص أمد لا يمتد النظر إلى نهايته؟

الآن لم يبقى بينه وبين الحصول على إجازة كلية العلوم غير عام واحد يستطيع بعده أن يتقدم في ثقة بنفسه واطمئنان إلى مستقبله ليخطبها إلى أبيها، ولكنه حسب إن هو تعجل الحديث في هذا الشأن تفتحت أمامه الأبواب، وانزاحت الحجب، وانكشفت الستور، واستطاع أن يظفر بلقاء (خطيبته) على عين أهلها وأن يتحدث إليها بينهم. واغتنم فرصة سانحة، وما هي إلا أن استجمع شجاعته، فانطلق يحدث أباها، وأبوها ينصت إليه في هدوء. . لا شك أنه كان ينتظر أن يسمع هذا الحديث منذ زمن طويل، وأنه هيأ في خياله صورة هذا المجلس من قبل، فلم يلبثا أن تصافحا في حرارة وعزم، وقلباهما مفعمان بالسرور، وعلى أساريرهما بشر ناطق.

منذ ذلك اليوم أصبح حامد خطيب منيرة، وان لم تتناقل الأفواه هذا الخبر لأنهما حاولا أن يبقياه سراً بينهما حتى يحين يوم إعلانه، وأحس حامد بعض إحساس الملكية لشيء في هذا البيت الذي كان الناس يرونه كثير التردد عليه، ويدفعهم الفضول إلى البحث عن دواعيه، ولكن لم يتغير شيء مما ألفه حامد ونقم عليه وحاول الخلاص منه من قبل، فلا هو استطاع أن يرى خطيبته أو يتحدث إليها، أو يسأل عنها سؤال الشخص عمن يهمه، لقد زاد الحجاب بينهما. وزاد التكلف، وبدأ حديث حسين أفندي عن بعض شؤونه الخاصة فيه بعض الحذر وبعض التأنق، وهو مالم يكن معهودا بينه من قبل، وأصبح صاحبنا حامد يخجل أن يبدو منه بعض الاهتمام بشأن منيرة، حتى ليتحاشى أن ينطق باسمها، كأنه يحس في اختلاج شفتيه عندئذ لهفة مشتاق، وفي نبرات صوته رنين قبلة مكتومة، وإذا نطق به مرة ففي مثل مناجاة الحالم أو إقرار الخاطئ. ولم يكن حامد ليسره ذلك أو ترتاح إليه نفسه، لقد كان يريد بتعجيل الخطبة أن يكون أقرب اتصالا بصاحبته فإذا هو أبعد مما كان، ولقد صرح عن رغبته مرة أو مرتين فكان اعتذار حسين أفندي مضحكا حين نسب إلى ابنته الخجل والتأبي على ذلك فكأنما تأبى شيئا ترضاه، لقد كان حامد يريد أن يستوثق من حب صاحبته وثباتها على العهد قبل أن يسافر إلى القاهرة، ولعله كان يريد يتزود من حبها بما يقوي عزمه على المضي في جهاده المدرسي مرحلته الأخيرة. عجيب! لقد كان إلى قريب يستطيع ان يراها وأن يبادلها الحديث ولو بابتسامة أو إيماءة على بعد، ولم يكن غير ذلك الشخص الذي يزورهم كثيراً لأنه صديق أبيها، حتى إذا أرتبطا بعهد وثيق على أن تكون زوجته، وأن يكون أقرب الناس إليها حيل بينهما وضوعفت الحجب والستور! تقاليد؟ لو أنه لم يكن قدر رآها من قبل ولم يجلس إليها يتحدثان الساعات، ويمتد تعرفهما السنين لكان من حق التقاليد أن تسيطر على عواطفهما وتمليء أرادتها! تقاليد؟ أن الجهل بعض تقاليد الماضي. . . إن الموتى لا يملكون أن يتصرفوا في شؤون الأحياء!

ولم تنقطع زياراته، ولكنها كانت زيارات جافة مملولة، لقد كان يذهب إلى هناك كل يوم، لا يكاد يرى في الطريق من يحييه، لأنه لا يرى غير صورة واحدة يبتكرها خياله لتصحبه إلى هناك، وحين يعود، ما كان أتعسه! هو آدم، ولكنه هبط من الجنة قبل أن

يذوق الثمرة، على وجهه علائم الخيبة واليأس والسخط والتبرم بكل شيء، ولكنه كان يذهب كل يوم. . .!

وأحس حامد وخزا أليما بين جنبيه حين علم ان التقاليد المعكوسة لا تجعلها تحتجب عن غيره من شبان الأسرة، وحين سمع صوتها تتحدث إلى واحد منهم في الغرفة المجاورة، لم يحرم عليه ما يحل لغيره؟ ألأنها خطيبته؟ لقد كان ذلك أجدر أن يرفع بينهما الحجاب؟ وابتدأت الغيرة تدب في صدره. أليست تخرج من المنزل قليلا أو كثيرا لمثل ما يخرج له الفتيات من لداتها زائرة أو متفرجة؟ أليست تسير في الطريق ينتهب من حسنها كل ذي عينين، ويستمتع بمرآها كل من أسعده الحظ أن تلتقي بها عيناه؟ يحسبه مثل متع هؤلاء: نظرة عابرة، أو نهلة عارضة، ولكنهم يسعدون بما يتمناه وهو به أحق ومنه محروم!!

أي معنى لهذه التقاليد إلا أن يكون من مثل تصرف الأم مع صغارها إذ تمنع عنهم الطعام حرصا على صحتهم، أو حرصا على الطعام. .! ولكن الأم لا تمنع أولادها الطعام إلى أن يشفي بهم الجوع على الهلاك، ولا هي تمنعه لتطعمه قطط الحي وكلابه، ليس قريبها الذي فتحت له الباب ورفعت الحجاب ووقفت تحدثه جديرا بهذه الوقفة على مرمى نظراتها الفاتنة، ومن دون خطيبها الذي يتلهف شوقا إليها أبواب موصدة وحجب مضاعفة، لماذا لم تمتنع عليه قبل أن يهمس القدر في أذنه بأمنية الزواج منها؟ ليته رضى أن يبقى صديق

الأسرة زمنا آخر فلم يخطبها ولم يجر حديث الزواج على لسانه، إذ لبقى كما كان (مأمون الجانب) لا تدق أجراس الحذر لقدمه، ولا تغلق دونه الأبواب! ولا يعرف التقاليد ولا تعرفه. .

ولم يطل حامد مجلس في غرفة الاستقبال بعد، فخرج مغضبا وفي عزمه ألا يعود! ولكنه عاد بعد أيام. . وما دام بينه جنبيه قلبه الواهي فلن يستطيع أن يدبر أمراً أو يحكم خطة.

ومرت أيام، ومحا جديد الشوق ماضي الغضب، وجلس مع أبيها يتحدثان في غرفة على الردهة لا يحتجب من يمر قبالتهما، ودق باب البيت، وفتحت الخادم، وقام أبوها فأوصد باب الغرفة، لقد كانت آتية من زيارة إحدى قريباتها، فأبت التقاليد إلا أن يقوم أبوها فيغلق الباب دونهما حتى تمر، وماذا يكون لو رآها كما يراها آلاف الناس في الطريق؟ بل كما يراها ذلك الساب الذي جاء يشيعها إلى دارها؟ وماذا لو كان هو الذي يصحبها ذاهبة لبعض شأنها أو عائدة؟ تقاليد؟ لتسحق هذه التقاليد قبل أن تسحقه، إن كان لا بد أن يكون أحدهما ضحية، لقد كانت تذهب إلى السينما فأي حرج في أن يكون بجوارها هناك، وهي حين تجلس في مقعدها وترفع النقاب عن وجهها لا تبالي من يجلسون بجوارها، وفيهم الفتيان وفيهم الكهول. وعادت الغيرة تأكل قلبه، وتوقد النار في صدره، وجاهر بغضبه، وعادت تمتمة الاعتذار. وأبوا عليها أن تسافر في موعد خاص حددوه لها من قبل، لأن صاحبنا قد حدد هو أيضا ذلك الموعد نفسه لسفره، وماذا لوعدوه رجلا ككل الرجال الذين تقدر كل مسافرة أن تراهم يرافقونها في القطار؟ وأخلفت موعدها وسافرت وحدها وسافر وحده، حذر أن يراها أو يجلس إليها، كما يراها ويجلس إليها كل الناس!

وقدر حامد أنه لا يستطيع أن يصبر طويلا على ذلك البعد الغيور، ورأى أن يتعجل أمره حتى إذا ظفر بزوجه استطاع أن يقف من هذه التقاليد موقفا آخر. ولكن التقاليد أشارت بسبابتها مرة أخرى ووقفت تعترض الطريق؛ لقد كان هناك بعض أمور لها في رأي رجال الماضي شأن واعتبار تأبى هذا التعجيل، وخضع صاحبنا للأمر مرة أخرى ووقف ينتظر والنار تأكله، والتقاليد تذيبه.

ترى كيف حالها في إسارها بين هؤلاء الذي يحصون عليها النظرة والابتسامة، وهي المشبوبة العاطفة الدقيقة الحس، التي يعلم أنها لا تصبر عن لقائه أكثر مما يصبر؟ لقد

استطاعا مرة أو مرتين أن يتلاقيا على غير رقبة، وعلى غير موعد أيضا، فلما نمت عيناها بمكنون قلبها، وافتضح السر لديهم، كان سؤال فيه إعنات، وجواب فيه حرج، فلم يشفع لها غير الدموع!

لقد مر بعد ذلك سنتان أو يزيد، وموقف صاحبنا لم يتغير، وتأبى التقاليد أن تتزحزح من

موقفها لتفسح الطريق لزوجين يريدان أن يتمتعا بسعادة العيش قبل فوات الأوان والشباب، وشعر أن فؤاده يهرم. وأن ذلك الحب الذي كان يعمر قلبه أبتدأ يتحول إلى ذكرى حزينة بائسة، وصور الماضي الجميل التي كانت ترف ناضرة أمام عينيه تذوى وتتعرى من فتنة الحياة، والمستقبل الباسم الذي صوره لنفسه من أطياف الأمل تطمس رواءه آلام الحاضر العابس، ويئس وقنع من غرامه الأول والأخير بالذكرى يستبعدها ليعيش فيها لحظات. لقد كان يكره التقاليد لأنها صورة الماضي البالية، ولكنه عاد لا يؤمن إلا بالماضي، ولا يرضى إلا أن يعيش فيه .!

أراد أن يروض نفسه على السلوان، وأن يدفن ذلك الماضي في أعماق النسيان، ولكن نارا بين ضلوعه كانت تشعل هذه الذكرى كلما هم أن يطفئها، وقلبه بين جنبيه لا يفتر ينبض، وريشة في الخيال تمحو صورا وتبعث صورا.

أيقن أن سلطان التقاليد أقوى من سلطانه، فكيف يحتال على هذه التقاليد حتى تسلس له قيادها، ويملي فيها إرادته؟ لو كان يدري متى تأذن له أن يحتضن خطيبته إليه لاستطاع أن يحمل نفسه على الصبر، ولكنها تؤجل دائما إلى الغد، والغد لا يتحقق. لقد رأى أختها أمس؛ نهض صدرها، وتحير في خديها ماء الشباب؛ لقد أصبحت هي أيضا عروسا، أصبحت تنظر نظرتها. . ولو فتش فيها وراء هاتين العينين لظهر من خلفهما في مرآة الأمل الزوج الذي أبدعت تخيله وأجادت رسمه. . .

وخطر لها خاطر: لو أن شابا تقدم غدا إلى حسين أفندي يطلب يد (سعاد) ورأى فيه ما يحمله على قبوله، فماذا يكون من أمره؟ ستأبى التقاليد ولا شك أن يزوجها قبل زفاف أختها، وأنه لحريص على التقاليد، وسيأبى عليه أيضا بر الوالد أن يفلت منه هذا الخاطب، وجه التدبير إذن أن يعمل على تعجيل أمر حامد ومنيرة ليخلي الطريق لسعاد، فينتهي من تقاليد ليبدأ تقاليد غيرها. .

ياله من أمل! إذن لاستطاع حامد أن يتغلب على التقاليد بالتقاليد نفسها، بل أن يملي عليها إرادته ويهزأ بها كما أملت عليه إرادتها من قبل هازئة جبارة.!

ومرت أيام، وتلتها أيام. . وفجأة وقعت المعجزة وكان وقعها سعيداً، لقد تقدم الخاطب الوجيه يطلب يد سعاد.

كيف تقدم. .؟ من أين تقدم.؟ من يدري. .؟

وابتدأت التقاليد دورتها في فلك جديد، ترمي إلى هدف آخر، أما حامد أفندي فقد هدأت نفسه، وتفيء ظل الطمأنينة. لقد ظفر بأمنية الحياة. . .!

ولكن. . هل تزوجت سعاد بهذا الخاطب. .؟

الكتب

الأعاصير

نظم الشاعر القروي رشيد سليم الخوري

للدكتور عبد الوهاب عزام

قال عمي الكريم عبد الرحمن عزام؛ قد أهدي إليّ من وراء البحار ديوان اسمه الأعاصير فأحسست في كل حرف منه ناراً، وفي كل بيت إعصاراً، وذكرت قصائده المتنبي الذي يقول فيها

مدحت قوما وأن عشنا نظمت لهم ... قصائدا من إناث الخيل والحصن

تحت العجاج قوافيها مضمرة ... إذا تنوشدن لم يدخلن في إذن

قلت: فأعرنيه لأقرأه. قال: على شرط أن تكتب عنه في الرسالة، قلت: إن وجدته جديراً بالكتابة.

قرأت الديوان كله فإذا قلب ثائر، ونفس طامحة، ألفت عليه العربية فكرها وإحساسها فليس بها إلا الفخر بماضي العرب، والأنفة من حاضر العرب، والرجاء في مستقبل العرب، وإذا الكتاب كاسمه أعاصير ثارت في البرازيل، وأنطقت كقصائد المتبني

إذا سرن عن مقولي مرة ... وثبن الجبال وخضن البحارا

حتى وافت بلاد العرب تذكى في خمودها نارا، وتنفث في كل نفس إعصارا. تتبع الشاعر أحداث حوران ودمشق وفلسطين، فأشاد يذكر أبطالها، ونعى على من خذلوهم، وخص أهل لبنان قومه، بأوفى نصيب من لومه، وهو في شعره كله عربي لا يفرق بين دين ودين وقوم وآخرين. بل هو على مسيحيته يعتز بالعرب المسلمين ويعجب بمفاخرهم. ويعذل المسيحيين على أن لم يساهموا إخوانهم في الثورة على

الباطل، والاستجابة لدعوى الوطن.
والشعر جملته معمود بالمعاني الجيدة. حال بالأسلوب السهل المتين. ولا أطيل على القارئ وصفي، ولكن أدع الشاعر يعرب عن آلامه وآماله. وضع على غلاف الديوان سبع أبيات منها:

إلهي رد مالك من أياد ... على وطني ورد لها الأيادا
خلعتَ على رُباه الحسن فذا ... وألبست القطين به الحدادا
شبول الأرز باتَ الحلم عجزاً ... وبعض الصبر موت إن تمادى
فكونوا النار تحرق أو قذى في ... عيون البطل إن كنتم رمادا

وأهدى الكتاب إلى الشهداء الوطنيين في بيتين:

يا رفاتا تحت الرمال دفينا ... مبعدا عاطل الرموس نسيا
لك أهدي هذا الكتاب لأني ... لم أجد في البلاد غيرك حيا

ويقول في قصيدته (بطل الصحراء) التي ألقاها في حفلة للإعانة أبطال المجاهدين، والخطاب لسلطان باشا الأطرش

يا شريدا عن البلاد طريدا ... أنت في كل معبد من بلادك
كل ما في أقلامنا من مضاء ... مستمد من مرهفات حدادك
كل ما في صدورنا من لهيب ... هو إضرام ورية من زنادك
كل ما في هتافنا من دوى ... هو ترجيع نبضة من فؤادك
كل ما في آثارنا من خلود ... هو تاريخ ساعة من جهادك
أيها المنجد المحاويج عار ... أن تصم الأسماع عن إمدادك
لو فرشنا لك الجفون مهادا ... وجعلنا الأهداب حشو وسادك
ما جزيناك ساعة من ليال ... بت عنا على حراب سهادك
كل حر فداك يا فادي الش ... م وأولاده فدى أولادك

وفي قصيدته التي يصف فيها هجوم سلطان باشا على الدبابة الفرنسية وقتل من فيها:

وثبت إلسنام التنك وثبا ... عجيبا علم النسر الوقوعا
وكهربت البطاح بحد عضب ... بهرت به العدا فهووا ركوعا
كأن به إلى الإفرنج جوعا ... وسيفك مثل ضيفك لن يجوعا
تكفل للثرى بالخصب لما ... هفا برقا فأمطره نجيعا
وفجر للدماء بهم عيونا ... تجارى من عيونهم الدموعا
فخر الجند فوق التنك صرعى ... وخر التنك تحتهم صريعا

ومن قصيدته التي عنوانها (الاستقلال حق لا هبة) يصف فيها مجاهدي حوران:

ولئن نسيت فلست أنسى بينهم ... رجل الرجال وفارس الفرسان
فكأنهم منه مكان قناته ... وكأنه منهم مكان سنان
يرمي بهم قلب الوطيس كأنهم ... حمم الحمام قذفن من بركان
يفني الرجال بأحدب ومقوم ... ضدين في اللبات يلتقيان
ويكاد يفترس العدو جواده ... فكأنه أسد على سرحان

وفي عيد استقلال لبنان:

تروى بدجلة مدمعي وفراته ... يا موطنا لم يبق غير رفاته
خلت المحافل من بلابله فلا ... تقع العيون على سوى حشراته
حسب الحزين عليك أنك مائت ... قد عيدت أحبابه لمماته
شقوا لها الأعلام من أكفانه ... وتبادلواالأنخاب من عبراته
أعلام إذلال كأن خفوقها ... في وجوه لطم على وجناته
ملفوحة بتحسرات سراته ... خفاقة بتنهدات هداته

ومن قوله في لوم قومه:

رضينا للتعصب أن نهونا ... فأغمضنا على الضيم العيونا
نقول المسلمون المسلمونا ... فنرميهم ونحن الخائنونا
نبيع بدرهم مجد البلاد
فتى حوران لا لاقيت ضرا ... لأنت أحق أهل الشام فخرا
لئن لم يؤتك الرحمن نصرا ... فحسبك أن غضبت ومت حرا
ولم تسلس لقيد أو قياد

بربك قل متى لبنان ثارا ... ليدرك من علوج الغرب ثارا
متى نفرت إلى السيف النصارى ... لتغسل بالدم المسفوك عارا
وتحرز مرة شرف الجهاد
ويقول بعنوان (صيحة الجهاد):
ولو لم تكوني فرنجية ... لكنت سعادي قبل سعاد
ولكنني عربي المنى ... عربي الهوى عربي الفؤاد
لعمرك يا مود لولا ذووك ... لما ميز الحب بين العباد
ولا أكرهوا شاعرا أن يق ... ول لهذى البلاد وتلك البلاد
فهم أوغروا بالعداء الصدور ... وهم أضرموا النار تحت الرماد
فلا تعذلي شاعرا زاهدا ... وكم هام بالحب في كل واد
فأني حرام على هواك ... وفي وطني صيحة للجهاد
ويقول في حفلة عيد الفطر التي أقامتها الجمعية الخيرية الإسلامية بالبرازيل:
أكرم هذا العيد تكريم شاعر ... يتيه بآيات النبي المعظم
ولكنني أصبو إلى عيد أمة ... محررة الأعناق من رق أعجمي
إلى علم من نسج عيسى وأحمد ... و (آمنة) في ظله أخت (مريم)
هبوني عيداً يجعل العرب أمة ... وسيروا بجثماني على دين برهم!
فقد مزقت هذي المذاهب شملنا ... وقد حطمتنا بين ناب ومنسم
سلام على كفر يوحد بيننا ... أهلا وسهلا بعده بجهنم!
وفي قصيدة الأطرش والدبابة:
إذا حاولت رفع الضيم فأضرب ... بسيف محمد وأهجر يسوعا
بعضاً وعظنا ... بها فما نجت قطيعا (أحبوا بعضكم)
وبعد فللشاعر القروي رشيد سليم الخوري الثناء والإعجاب من العرب والعربية، والتحية من كل نفس حرة وقلب بالمعالي خفاق.
العدد 23 - بتاريخ: 11 - 12 - 1933
فلسطين. . .
بين حديد الانتداب الذي يأكل الأجسام، وذهب الصهيونية الذي يأكل الأرض، يعيش العربي في فلسطين عيش المحكوم عليه بالقتل أو النفي، إذا سلم له بدنه، لا يسلم له وطنه؛ وما هذه الصرخة التي صرخها فصكت المسامع الصم، وبلغت الضمائر الغلف، إلا العارض المنذر في الحي بالضر يلُوعه، أو الخطر يَرُوعه، أو الظلم يحيق به!
وأن الصرخة للحياة تسلب، أو للديار تغصب، لهي الصرخة التي يدوي فيها صوت الحق، ويمتزج بها أنين العدل، ويضطرب فيها احتجاج الإنسانية على قوم اتخذوها حِيالة لإستعمار الأوطان، ووسيلة لاستعباد الأمم
كانت البربرية في العهود الخوالي تغزو سفارة الوجه، وتنهب ظاهرة اليد، وتقول صريحة العبارة، وتعمل واضحة الغاية؛ فجاءت مدنية اليوم فوضعت اليد الحمراء في القفاز الأبيض، والفريسة بمعاهدات الصداقة ومؤتمرات السلم، وصاغت معاني القوة والغصب في ألفاظ القانون ومصطلحات العلم، وأشفقت على شعور الإنسانية فسمت الاسترقاق تمدينا، والاغتصاب انتدابا، والحماية وصاية؛ وعمَّقت أغوار القلوب السياسية فلا تعرف لماذا حرمت بيع إنسان لإنسان، وحللت بيع شعب لشعب!
هذه أمة من أسبق الأمم قدما في المدنية، وأعرق الشعوب نسبا في الحرية، تسير على دستور رفيع الدعائم أثيل المنبر، ولم يمنعها عرفها الموروث ولا شرعها القائم أن تبيع فلسطين العربية جهراً لنفايات اليهود، وليس العرب من مماليكها، ولا فلسطين من أملاكها! ثم تسخِّر لضمان هذا البيع الباطل قوة الحكومة وسلطان الدستور، وتمثل تحت العلم البريطاني وعلى مواطن المسيح أروع مآسي العدالة!!
سلطوا على البلاد الجوع وأرسلوا من ورائه الذهب! فكأنهم قالوا للعربي البائس: أما الوطن ولا حياة، وأما الحياة ولا وطن! فأما الذين قهرهم الفقر وبهرهم المال فقد باعوا أنفسهم وأهليهم بيع الغبن للدخيل، وأما بقايا السيوف وأحفاد الفاتحين فآثروا أن يدفنوا أعزة في ثراها العزيز، على أن يتركوها أذلة لليهود والإنجليز، فدافعوا الأزمة بالصبر، والانتداب بالعزم، والصهيونية بالمقاطعة، وأروا هذه القوى الثلاث التي حالف

بينها الباطل أن العربي الذي غزا العالم ولا يمسك رمقه إلا قبضة من سويق وشفافة من ماء، لا يُخذل من قلة، ولا يفشل من جوع!

!!لك الله يا فلسطين! لشد ما تكابدين من عسف القوى وكيد الغني وقسوة الظالم

إن دموعك منذ الفاجعة لم ترقأ، وجروحك منذ الواقعة لم تندمل، وصوتك الجازع المكروب لا يزال يجلجل في أعماق الشرق وآفاق العروبة مستغيثا من الخطب الذي ناء بألمانيا وأنقضَ ظهر الدول! ولكن بنيك البواسل يا فلسطين يتنافسون في مجد الموت وشرف التضحية! فهل تخشين أن يعيث في أديمك المقدس عائث، وأنت ترين شبابك الميامين يخوضون غمرة الهول وراء زعيمهم الشيخ، وصدره الواهن مشبوب بعزم آبائه، وشعره الأبيض مخضوب بدم أبنائه؟

الوطن العربي اليوم في البلاء سواء. لأنه فقد الروح الفتية التي كانت تعمره، والحيوية القوية التي كانت تغمره، وأصبح هيكلا متهدم الجرف لا يملك بعضه بعضا.

على إن فزعته الإجماعية لمظلمة فلسطين تبعث الأمل في عودة تلك الروح ورجعة هذه الحيوية. ولعلها فزعة المغيث المسعف لا فزعة النادب الآسف! فان مصاب فلسطين لا ينفع فيه البكاء ولا يدفع منه الخزن

إن فاجعة وادي الحوارث صورة صغيرة لمصير فلسطين إذا استنام أهلها للوعود، وبيعت أرضها لليهود، وقبض العرب أيديهم عن معونة إخوانهم على دفع هذا الخطب.

وان دول الأرض جمعاء لتعجز عن إيفاء وعد بلفور ما دامت الأرض في يد العرب، فإذا ما استنزلوا عنها بأغلاء الثمن وإغواء الذهب شتتهم القانون وحده تحت كل كوكب.

فان اليهودي إنما جاء فلسطين ليشتري وطنا يستعمره، لا حقلا يستثمره، فكل شبر من الأرض يخرج من يد العربي يدخل إلى الأبد في يد اليهودي، ويومئذ لا يرده إلى أهله احتجاج ولا تظاهر.

وما الاحتجاج والتظاهر إلا إعلان للحق لا دفاع عنه.

والدفاع المنتج عن فلسطين أقواه وسيلتان:

أن يأخذ الزعماء والعلماء موثقا من الشعب إلا يبيع المضطر أرضه لغير العربي مهما خدعته المطامع ودلاه الطامع بغرور.

أن يقوموا بدعاية منظمة قوية في الأقطار العربية، وعلى الأخص في مصر، إلى تأليف الشركات العقارية لاستعمار فلسطين.

والعرب الذين فُطروا على نُصرة الأخ، ونجدة الصريخ، ومعونة الضعيف، لا يعرضون عن يد فلسطين التي تمتد، وصوتها الذي يهيب:

فان كنتُ مأكولا فكن خير آكلٍ ... وإلا فأدركني ولما أُمَزَّقِأحمد حسن الزيات

بيير فيلليه

في اليوم الرابع والعشرين من شهر أكتوبر الماضي كان قطار من القطر آتيا إلى باريس من مدينة (كان) فانحرف عن طريقه وسقطت القاطرة ومعها عربات أربع في هوة عميقة، وكثر الجرحى والقتلى، وكان بين الذين حملتهم عربات الإسعاف إلى مستشفى قريب فمات فيه آخر النهار عالم أديب من علماء الفرنسيين وأدبائهم هو الأستاذ بيير فيلليه، ولم تكد الصحف تذيع نعيه حتى وقع من قلوب الأدباء المثقفين الفرنسيين موقعا أليما.

وقد طلبت مجلة العالمين إلى الأستاذ جوزيف بدييه مدير الكوليج دي فرانس وأستاذ الفقيد أن ينعاه في كلمات قصيرة إلى قرائها في العالمين فقبل رغم ما بقلبه من الحزن. وكتب صفحات مؤثرة نترجمها في ما يلي:

كان بيير فيلليه صاحب الآثار الأدبية القيمة ضريراً كما يعلم كثير من الناس، أصابته هذه الآفة بعد مولده بقليل، ولكنه لم يرض قط أن يشير في أثر من مآثره التاريخية إلى هذه الآفة، وكان يكره أن يشير إليها في مقدمة من مقدماته على أنها تعلة من التعلات أو معذرة من المعاذير. وكان يصدر في ذلك عن رأي له فضله في كتابه (عالم المكفوفين). كان يرى في هذا الكتاب عزاء لأمثاله انهم ليسوا بحال من الأحوال مغلقين كما يقول الناس، وان ليس هناك ميدان من ميادين العمل الاجتماعي أو العقلي يؤخذ عليهم ويغلق من دونهم. وان آفتهم يمكن أن تضايقهم ولكنها لا تستطيع أن تعجزهم عن العمل والإنتاج، لا يحتاجون في ذلك إلا إلى أن تكون قلوبهم قوية صلبة. وأن أشد آلامهم، أو قل ألمهم الوحيد، لأنهم لا يرون، إنما يأتيهم من هذا

الإشفاق الظالم الذي يختصهم به المبصرون. وقد أراد دائما أن يعامل في مهنته التي كان يحترفها كغيره من الأساتذة، وفي كتبه التي كان يمليها كغيره من المؤلفين كما يعامل غيره من الناس، فينقد ويحكم على آثاره في غير رعاية ما بأنه ضرير.

أيجب علي الآن أن أطيع أمره وأحترم كبريائه هذه؟ لا. فان الموت قد ألغى هذا الأمر. وإذا كان من الحق أن آفته هذه هي التي بعثت في نفسه أقوى الفضائل وأحقها أن تكون قدوة ومثلا، فأني أستطيع أن أقول أن هذه الآفة نفسها هي التي منحت حياته وآثاره نصيبهما الموفور من الجمال، وكل من قرأ هذه الكلمات سيشعر بأني لا أقول هذا إشفاقا وعطفا، بل حنانا وإكبارا.

ولأجل أن أجد في نفسي أصول هذا الحنان والإكبار يجب أن أرجع بالذاكرة إلى عهد بعيد.

دخل بيير فيلليه مدرسة المعلمين العليا في سنة 1900، وكنت حينئذ معلما فيها. كان قبل ذلك تلميذا ينشأ في معهد العميان الأهلي، ثم اختلف إلى غير مدرسة من المدارس الثانوية في باريس. ثم أقتحم المسابقة لدخول مدرستنا على نفس القواعد والشروط، وفي نفس المواد التي يستبق فيها غيره من المبصرين، لا يميزه منهم إلا أنه كان يستعين بغلام أقل منه ثقافة وعلما، فكان هذا الغلام يبحث له في المعاجم، ويكتب ما يملي عليه. فنجح نجاحا حسنا. ونستطيع أن نتصور ما أدركنا نحن الأساتذة من القلق، وما أدرك رئيسنا الطيب القلب جورج بيرو. كنا نتساءل ماذا نصنع بهذا الغلام الحدث الذي كان يحسن فنون البيان في أكبر الظن، ولكنه كان ضئيلا نحيلا ضريرا. إلى أي نحو من أنحاء العلم نوجهه؟ والى أي غاية نسيره؟ ولا سيما وقد كان يقول أنه لا يحب إلا التاريخ وتاريخ الآداب خاصة، ولكن كيف كان يعرف هذا النوع من العلم؟ كنا ننظر إلى كتبه المكتوبة بالخط البارز والتي أصطحبها حين أقبل إلينا، فكنا لا نجد إلا ديوان فرجيل وبعض الآثار الفرنسية الكلاسيكية، وبعض كتب النحو، ومع أن هذه الكتب كانت تزحم غرفته فإنها لم تكن في حقيقة الأمر إلا شيئا يسيرا جدا مما يستعين به التلاميذ. ماذا كان يتصور من أمور البحث التاريخي ومصاعبه؟ ألم يكن حقا علينا أن نوجهه إلى نحو من أنحاء هذا البحث العقلي الذي يمكن أن يعتمد فيه الباحث على تفكيره الخاص، فان صاحب ما بعد الطبيعة أو الأخلاق أو المنطق أو فقه اللغة، يستطيع إلى حد ما أن يعتمد على نفسه. فكان علينا إذن أن نبين له إلى أي حد يعرض نفسه لخيبة الأمل إن مضى في طلب التاريخ، وأن نمحو هذه الآمال التي كان يعلل نفسه بها. ولكني رأيت إلحاحه وحزنه، فاعتزمت سرا أن أخضعه لامتحان لا يعلم به أحد.

فكلفته أن يهيئ بحثا عن أسطورة من أساطير لافونتين، وهي أسطورة الطحان وأبنه والحمار، ليلقيه في محاضرة قريبة. فقبل محزونا لأني كنت قد كلفت رفاقه بأبحاث أخرى أوسع من بحثه وأعظم خطرا، وكان يحس أني كنت أريد أن أحصره دائما في التمرينات المدرسية التي كان قد شبع منها حتى أدركته التخمة قبل أن يدخل مدرسة المعلمين، ولم يكن يطمئن إلى هذا الموضوع إلا حين أنبأته بأن أستاذي جاستون باري قد خصص له صفحات عشرا في بحثه المعروف عن القصص الشرقي وأثره في الأدب الفرنسي. وكنت

أكلفه أن يدرس هذه الأسطورة، لا في صورتها الكثيرة التي اختلفت عليها. ولم أدله إلا على هذا المرجع ثم انتظرت:

وبعد ستة أسابيع أو بعد شهرين ألقى الدرس الذي طلب إليه. فيا له من دهش عم رفاقه في قاعة المحاضرات! ويا له من فرح ملأ قلبي! فأنه لم يكتف كما كان غيره يكتفي بالتفكير في هذه النصوص الخمسة أو الستة التي رواها جاستون باري: فقد اهتدى لا أدري من أي طريق إلى مجلة (بنفى) (الشرق والغرب) حيث كان (جودوك) قد أخذ منذ سنة 1860 يسجل مجموعات من الأساطير الشعبية، وما هي إلا أن أراه قد استطاع أن يستكشف نصوصا عشرة أهملها جاستون باري عمدا أو خطأ. هنالك أعلنت مكيدتي وهي أن أعرض على هذا الطالب الجديد أيسر بحث في ظاهر الأمر، هذا البحث الممهد المطروق لأتبين من أمره ما أريد، ولأعلم أيكتفي بإعادة ما قرأ، أم يحاول أن يأتي بشيء جديد، وبينت لرفاقه مصاعب هذا البحث عن الأساطير. وقد كان الناس كلفين به في ذلك الوقت، وبينت لهم ما يحتاج إليه الباحث المجد من الجهد

والاستقصاء لاستكشاف الصور المختلفة لهذه الأساطير في كتب غامضة مهجورة، ثم أنبأتهم بأن جهدا خصبا منتجا للاستقصاء العلمي قد ظهر في هذا اليوم.

وما لي أطيل الوقوف عند هذه القصة كأني أريد أن أتحدث عن نفسي، ذلك لأبين أولاً كيف كانت الحياة قديما في مدرسة المعلمين، كيف كانت صورة من صور التعاون بين الأصدقاء، يعطي الأساتذة فيها من أنفسهم أكثر ما يستطيعون إعطاءه، ولكنهم يأخذون من طلابهم مثل ما يعطون، ثم لأن بيير فيلليه كثيرا ما كان يذكرني بهذه القصة فيما بعد، في ذلك اليوم أعلن بعض الطلبة المتقدمين الذين لم يسبقهم كثيرون أنه مؤمن بهذا الشاب الضرير واثق بفوزه في هذا النوع من البحث الذي يميل إليه.

ولكن هذا الشاب - بيير فيلليه - وجد في الوقت نفسه بين أساتذته ورفاقه من أعانه على قطع هذه الطريق. وكان منهم الظريف (بيير موريس ماسون) والجاد (جبرييل ليرو) وكلامها سقط في ميدان الشرف أثناء الحرب الكبرى، ومنهم بول ازار، وأوجين البرتيني، وتراشيه، وموريت، وبيير كومير، ولويس ريو، وألكسندر جوانو، واميه برتو، وجاك شيفالييه. . . وكم أحب أن أسميهم جميعا هؤلاء الأصدقاء الذين كانوا مثله في سن العشرين، والذين أعطوه وأخذوا منه أحسن المثل وأقومها. بهذه التجربة وبتجارب أخرى أمثالها اثبت بيير فيلليه أثناء الأعوام الثلاثة التي قضاها في المدرسة أنه كان قادرا على النهوض بأعباء الاستقصاء العلمي وبأثقلها وأشدها تعقيدا.

ومن هنا دهشت البيئات العلمية، ولم ندهش نحن حين أظهر في سنة 1908، بعد أن ظفر بإجازة الأجر بجاسيون - وبعد أن أتم دراسته في معهد تيير في ظل أميل بوترو الذي لقيه أحسن لقاء - كتابه الأول الذي عرض فيه مصادر كتاب - تطور فصوله.

وكان قد فكر في هذا الكتاب أثناء إقامته في مدرسة المعلمين وشجعه على ذلك الأستاذ جوستاف لنسون، ولأجل أن يبلغ من هذا البحث ما يريد، بدأ فنسخ كتاب مونتيني بيده خطا بارزا فكانت نسخته تبلغ عشرين مجلدا. ثم وضع حكم مونتيني وتجاربه في قصاصات من الورق، وكانت هذه القصاصات التي رتبها على حروف المعجم تملأ صندوقا ضخما لم يفارقه أعواما طوالا. وكذلك تسلح بهذه الأدوات وحفظ كتاب مونتيني عن ظهر قلب على اختلاف نسخه، ثم أخذ يبحث عن مصادره. فمن أراد أن يقدر هذه المحولة فليلاحظ ما أحاط بها من الظروف. فقد كان يجب أن يقرأ عليه كل المؤلفين الذين نقل عنهم مونتيني، وكل المؤلفين الذين كان يرجح أن مونتيني قد عرفهم في التراجم اللاتينية التي كانت معروفة في وقته، مثل سكستوس امبيريكوس، كزينوفون، ديوجين، لارس، أفلاطون، وفي التراجم الفرنسية المعروفة في ذلك الوقت تيودور الصقلي، هيرودوت، اريانوس، وفي النصوص الأولى من لوكريس إلى فاليريوس مكسيموس، أي كل ما كتبته روما القديمة تقريبا. ثم ما كتبه علماء النهضة من ارسم إلى جوست ليس. وإذنفقد بذل بيير فيلليه جهده هذا في قراءة ألف من الكتاب، ويمكن أن نقدر غنيمته المادية من هذا الجهد إذا نظرنا في الجزء الرابع من طبعته لكتاب مونتيني التي ظهرت سنة 1920 ورأينا المراجع وقد رتبها على حروف المعجم بثمانية آلاف مرجع تتصل بأربعمائة من المؤلفين كتبوا باليونانية واللاتينية والإيطالية والفرنسية.

وبنحو هذه الطريقة وبمعونة طائفة من القراء كانوا يعيرونه أبصارهم إعارة آلية استطاع أن يتتبع تأثر المؤلفين والكتاب بمونتيني. فأظهر كتاب مونتيني ولوك وروسو، ثم مونتيني وبيكون، ثم مونتيني والألاهيين الإنجليز. هذه عنوانات لطائفة من أبحاثه ظهرت كتبا أو رسائل. وهذا النحو من إظهار استعارة المؤلفين بعضهم من بعض أو تقليد المؤلفين بعضهم لبعض لا يعني أصحاب الاستقصاء من العلماء وحدهم، وإنما يمكن أن يقال في كتبه كلها ما قاله أميل بوترو حين قرأ كتابه الأول: (انه يظهر في هذا الكتاب مفكرا مرويا، ماهرا، نفاذا، فيلسوفا، يمس بدقة غريبة أخفى الفروق. وما بين الأفكار والآراء من صلات)

ولكن أتراه أنفق جهده الضعيف الخصب كله في درس مونتيني؟ ألم ينته إلا إلى طبعه كتاب مونتيني التي ظهرت سنة 1922 والتي وصفها أخصائي ماهر هو المسيو هنري شمار فقال إنها توشك أن تبلغ الكمال. كلا. فلنذكر كتابه الذي سماه مصادر الآراء في

القرن السادس عشر، أو كتابه عن المصادر الإيطالية لمقالة الدفاع عن اللغة الفرنسية الذي يظهر فيه بين ما أظهر من الغرائب أن القسم الذي يثبت فيه دبيلليه مساواة اللغة الفرنسية للاتينية واليونانية ليس إلا ترجمة من كتاب سبرون سيروني ألفه في مدح اللغة التسكانية. ولنذكر أبحاثه عن دوبينيه وأبحاثه عن مونلوك، وأحدث كتبه الكبرى (مارو ورابليه). فهو قد عنى بروضته وهي هذه الروضة النضرة روضة النهضة الفرنسية، فلم يهمل منها شيئا. ثم هو لم يكتف بخدمة الآداب، وإنما أنفق أعظم جهده المادي والعقلي والشعوري في الإحسان إلى أصدقائه المكفوفين. فعاش كما عاش فالنتان هاوى، وبراي، وموريس دي لاسيزيران. وقد أستحق من المكفوفين تقديس ذكراه بكتابه (عالم المكفوفين) وكتابه (تربية المكفوفين) وبإحسانه إليهم في غير انقطاع.

أما حياته الخاصة، أما المعونة التي وجدها عند زوجه بنت أميل بوترو التي تأثرت بوفاء أمها لأبيها، فلم تفارق زوجها يوما واحدا والتي كادت تموت معه يوم 24 أكتوبر، فلا أستطيع أن أشير أليها إلا في خفة وسرعة، وحرص شديد على ما ينبغي من التحفظ. ولكن جميع الذين عرفوا بيير فيلليه وأحبوه يرون من الخير والعدل أن أقول فيه ما قاله مونتيني حين تحدث عن صديقه ايتين دي لابويسي: (إني أعرف كثيرا من الناس يمتازون بأنحاء من الخير والجمال، هذا يمتاز بالعقل، وهذا يمتاز بالقلب، وهذا يمتاز بالمهارة، وهذا يمتاز بالضمير، وهذا يمتاز بالحديث، وهذا يمتاز بعلم، وهذا يمتاز بعلم آخر، أما هذا فقد كان حقا ذا نفس مليئة وكان يستقبل الأشياء كلها أحسن استقبال: نفسا من تلك النفوس التي وسمها القدم بسمة العتق والرقي الصحيح).

جواب عن سؤال

للأستاذ أحمد أمين

وجه الأستاذ علي الطنطاوي في العدد الماضي إلينا وإلى أدباء الرسالة سؤالا ملخصه: أنعمل وغايتنا الأدب للأدب؛ أم نعمل وغايتنا الأدب للحياة؟ ثم سأل لماذا ينصرف أدباؤنا عن الأدب القومي الذي يعالج (القضية الكبرى) إلى ذلك الأدب الغزلي الضعيف؟ وقد أجبنا أجمالا في ذلك العدد عن بعض هذا السؤال، وتفضل صديقنا الأستاذ أحمد أمين فأجاب تفصيلا عن البعض الآخر (المحرر)

لك الحق (كل الحق) يا أخي أن تصرخ ونصرخ معك في وجه زعماء الأدب العربي طالبين أن يلتفتوا إلى الأدب القومي ويكثروا القول فيه، فالعالم العربي كله يجيش صدره بآلام وآمال، والأدب يجب أن يعبر عن هذه الآلام والآمال، بأسلوبه الرشيق، وعواطفه القوية، وخياله الرائع؛ وإذ ذاك يجد الناس غذاءهم فيما يقرأون، ولذتهم ومتعتهم فيما يسمعون وينشدون، والناس في كل عصر يتطلبون من الأديب أن يكون موسيقاهم التي تناسب عاطفتهم، فأن كانوا فرحين مرحين كانت الموسيقى فرحة مرحة، وان كانوا باكين محزونين كانت الموسيقى حزينة باكية، ومن السماجة أن توقع الموسيقى نغمة فرحة في مأتم، أو نغمة باكية في عرس، وقد كان الناس يقصدون إلى الشعراء يشرحون إليهم عواطفهم ويطلبون منهم شعرا يناسبها ويرويها.

كان بيت بشار في البصرة مقصدا لهذا النوع من الناس، يذهب إليه الغزل الذي تجيش في صدره عاطفة الحب ولا يستطيع أن يعبر عنها ليجد بشار من فنه ما يعبر عما في نفسه، وتذهب إليه النائحات لينشدهن شعرا يستنزف الدمع ويبعث الشجا والشجن وكل عصر له مطالبه وكل أمة لها مواقفها وعواطفها، ولا خير في الأدب إذا لم يصف الحياة، ويغذ العواطف، ويجد الناس في كل موقف يقفونه قولا أدبيا قوياً يشرحه، وشعرا

جميلا يعبر عنه

والعالم العربي الآن له عواطف قومية جديدة لم تكن لديه قبل سنين، هي نتاج التيار الحديث الذي غمر أوربا وسار منها إلى الشرق، فملأ مشاعرها ألما مما هي فيه، كما ملأها أملا في حياة خير من الحياة التافهة التي يحيونها، ثم التفتوا إلى الأدب القديم فلم يجدوا فيه غذاءهم كافيا، ليس فيه شعر يتغنى بالحرية كما نود، ولا بالقومية كما نحب وإنما هي أبيات مبعثرة مجملة، قيلت لوصف مشاعر غير مشاعرنا وفي مواقف

غير مواقفنا. وتلفتنا إلى الأدب العربي الحديث فوجدناه ناقصا كأخيه، لم يسد الفراغ، ولم يكمل النقص، قد أفرط القدماء في الغزل فأفرط المحدثون فيه، وقصر القدماء في وصف المناحي الإجماعية والنزعات القومية فقصر المحدثون فيه، وأصبح ناشئنا لا يجد الغذاء الكافي في القديم ولا في الجديد، فلك الحق أن تطلب من الزعماء وأن تطلب من الرسالة أن تدعوا الكتاب والشعراء أن يلتفتوا إلى وجوه النقص فيكملوها، حتى إذا احتاج الشباب إلى نشيد أو أناشيد وجدها، وإذا وقف موقفا يتطلب قصيدة في معنى من معاني القومية أو الحرية أنطلق بها لسانه، وإذا طرب لمنظر طبيعي في بلاده وجد القصائد قد قيلت فيه واستوفت محاسنه، وهكذا، ولك أن تطلب من كتاب الروايات أن يبحثوا عن نواحي الضعف في الحياة الإجماعية الشرقية، فيجلوها ويعالجوها، وأن يكون لهم نظر صادق في تعرف نفسيات الأفراد والجماعات فيحللوها، وأن يتجه الكتاب الاجتماعيون فيدرسوا أمراض قومهم، ويستخدموا الأدب في الخطب والمقالات تثير مشاعر الناس وتهيجهم، ليتخلوا عن رذيلة، ويستكملوا فضيلة، ويعالجوا نقصا، وينشدوا كمالا

لك الحق أن تنعى على الأدباء أن أكثرهم في الشرق لم يتجه هذا الاتجاه إلا قليلا، وانهم بين أن ينظموا في الأغراض القديمة ولا يحسنوها إحسان القدماء، وبين أن ينقلوا من الأدب الغربي ما فقد روحه، أو لم يتناسب وروحنا. وإلا فأين هو أدبنا القومي؟ وأين التغني بمناظر طبيعتنا؟ وأين الروايات الاجتماعية تصفنا؟ لا شيء من ذلك إلا القليل الذي لا يتناسب ونهضتنا الحديثة

أنا معك في هذا كله - ولكن لست معك في إنكارك: أن يكون الفن للفن، والأدب للأدب، ولست معك في أن تطلب أن يكون الأدب للحياة - فليس من شك في أن القطعة متى استوفت عناصرها الأدبية كانت أدبا، مهما كان موضوعها الأخلاقي، وليس أحد ينكر أن قصائد أبي نؤاس الفاجرة الداعرة أدب، كما لا ينكر أحد أن الصورة العارية إذا أجيد تصويرها فن جميل، وان لم ترض عنها الأخلاق. فالأدب للأدب والفن للفن، ولكن هذا لا يمنع أن تكون سلطة المصلحين فوق سلطة الأدباء؛ فإذا رأى المصلحون أن ضربا من الأدب يحل الأخلاق ويفك عرى المجتمع، حاربوه بكل ما استطاعوا من قوة، وإذا رأوا أن ضربا من الأدب في الأمة ضعيف ويجب أن يقوى، طلبوا الإكثار منه بشتى الوسائل، وشجعوا عليه ومهدوا له السبل، وهذا هو موقفنا بالضبط. فقد كثر فينا ما نسميه بالأدب المائع كثرة تحل الأخلاق وتضعف الرجولة، وهذا الأدب المائع من غير شك أدب، وقد يكون أدبا راقيا، ولكن يصح أن نخضعه لنظر المصلح. فإذا كان المصلح الاجتماعي قويا ضرب على هذا النمط من الأدب ولو إلى زمن محدود، حتى تستكمل الأمة قوتها ورجولتها. ومثل الأدب في ذلك مثل العلم، فالأدب للأدب كالعلم للعلم - فان أردت بقولك أن الأدب لا يكون أدبا إلا إذا خدم الحياة فأنا مخالفك، وان أردت أن المصلحين والدعاة يجب أن يخضعوا الأدب لأغراض الحياة الصحيحة فإني موافقك.

وبعد - فقد غلوت يا أخي في رأيك، فلم ترد أن يكون في الأدب حب إلا من نوع خاص، وأردت من الأدب أن يكون قويا وقويا فقط، وبعبارة أخرى تريد أن تكون حياة الأدباء حياة حربية ليس فيها إلا القوة وما يبعث على القوة، ليس فيها زهرة جميلة ولا غزل ظريف، وأنا أخشى أن الأدب باقتصاره على القوة يفقد القوة، فان للنفوس سآمة، ويحسن أن يكون بجانب صوت المدفع والقنابل صوت العود والقانون. ولقد كنت أكتب في هذا الموضوع حتى إذا وصلت إلى هذا الموضوع شعرت بملل، فما هو إلا أن سمعت نغمة رقيقة من بيانو فأصغيت إليها حتى استكملتها فعادة نفسي إلى نشاطها - ألا يكون في هذا مثل صالح للحياة الأدبية؟ فجد وهزل، وتغن بالحرية، ونعي على الاستبداد، وتغزل في زهرة، وفكاهة حلوة. هذا يا أخي أصلح حتى من الناحية الجدية، فمن لم يله أبدا قصرت حياة جده وتقبضت نفسه، ولم يتحمل طويلا مرارة العمل، وأن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهراً أبقى. أحب أن تكون الحياة الأدبية كفرقة الموسيقى: لا طبلا فقط، ولا نايا فقط، بل هما وغيرهما، وعيب حياتنا الأدبية الحاضرة أنها رخوة فقط، فيجب أن يضاف إليها نغمات

القوة، لا أن تحل النغمات القوية وحدها محل النغمات الرقيقة، فأنا إن فعلنا ذلك كان الأدب أبعث على الحياة، وأحفظ للقوة، فطمئن نفسك ولا تأس على شاعر طال ليله

وأرق جفنه حبيب أعرض عنه وابتسامة احتجب عنه نورها، فمن يدرينا لعل الحب كله من واد واحد، فمن أحب فتاته أسرع استعدادا لأن يحب أمته، ويحب ربه، ومن تحجر قلبه لم يبك على شيء.

وبعد فموقف (الرسالة) كما أفهم من مبادئها يجب أن يكون الدعوة إلى تكميل النقص في الأدب العربي، وحث قادته على أن يطرقوا من الأبواب ما نحن في أمس الحاجة إليه حتى يكون أدبنا صورة تامة لنا، وحتى يكون غذاء كافيا لمختلف عواطفنا، يجب أن يكون موقفها - فوق الموقف الأدبي، موقف المصلح، فترفض أن تنشر الأدب الساقط المرذول، المضعف للخلق، المفسد للرجولة، ولكن يجب كذلك أن تفسح صدرها لنوع من الأدب لا هو بالقوي الذي تتطلب الاقتصار عليه، ولا هو بالضعيف المائع، هو أدب الحب العف، والفكاهة الحلوة البريئة، والهزل يشف عن جد، والمزح مبطنا بعظة، ونحو ذلك، ففي التزام الجد خروج إلى الجفاء، وانحدار إلى الجمود.

هذا إلى أن الرسالة يجب أن تكون بجانب دعوتها إلى الإصلاح سجلا للنزاعات الأدبية على اختلاف أنواعها ما لم تكن النزعة مستهترة، تميط قناع الحياء، وتخرق حجاب الحشمة.

وأخيرا لك الشكر (يا أخي) على ما حوى كتابك من غيرة صادقة، وعاطفة نبيلة، وما أثرت من موضوع يستحق العناية، ويدعو إلى طول التفكير.

أحمد أمين

حول (الوضوح والغموض)

للأستاذ عباس فضلي خماس

روى لنا الدكتور طه حسين في مقالة (حول قصيدة) حادثة طريفة عن قصيد المقبرة البحرية للشاعر الفرنسي بول فاليري، وكان غرضه من استعراض ما دار بين أدباء فرنسة وشعرائها بعد ذيوع هذه القصيدة أن يطرق باب بحث طالما اشتاق الأدباء إلى طرقه وهو (مقياس فهم الشعر والأدب). وكان بحث الدكتور حائما حول هدف أساسي وهو (هل يحسن بالشعر أن يكون واضحا لا خلاف فيه، أو إن بعض الغموض فيه مغتفر بل مطلوب؟ وهذا المطلب في نظري جدير بالبحث والتمحيص إلى حد بعيد، ولعل المضي في استقصائه يؤدي إلى إظهار حقائق جديدة في عالم الأدب، تقلب أوضاعنا الراهنة رأسا على عقب، ويلوح لي أن التوسع في بحث هذا الموضوع بحثا مستفيضا دقيقا ربما انزل بعض أمراء الشعر وملوك البيان الذين اعتلوا في أذهان الناس العروش إلى الحضيض، وربما رفع بعض خاملي الذكر من الشعراء والأدباء إلى تلك العروش وقدم إليهم معتذرا صولجان الشعر والأدب الذي شاءت الأقدار أن يغتصب منهم اغتصابا.

لقد كتب علينا نحن أبناء هذا الجيل أن ندرس الأدب درسا آليا كدرس المعادلات الرياضية والرموز الكيمياوية. وقد ترتب على طرز دراستنا هذه أن نكون آليين في نظرنا إلى الشعر، آليين حتى في فهمنا إياه، بل وفي طريقة تفهمنا. وهذه النتيجة خلقت فينا نزعة التقليد لا في مزاولة الشعر والأدب فحسب بل في طريقة تفكيرنا وفي أساليب محاولتنا فهم أغراضه ومراميه. مبتعدين في ذلك عن السنن الطبيعية الابتعاد كله.

فليسمح لي الأستاذ الكبير بشيء من الحرية فيما أعرض له.

الغموض في الشعر والأدب

للغموض في الشعر والأدب أسباب معينة واضحة؛ أولها ضعف الأسلوب في التعبير عن الشعور، وثانيها غرابة التعبير وعدم انطباقه على الطريقة المألوفة عند جمهور القراء. وثالثها نقص جزء مهم في الصورة التي يتخيلها الشاعر ويريد إبلاغها إلى النفس. ورابعها ازدحام جملة من الصور الفكرية وتداخلها في رقعة واحدة ضيقة بحيث يتعب العين تبينها دفعة واحدة ويجهد الذهن تصور علاقة أجزائها بعضها ببعض. وخامسا إظهار القطعة الفنية قبل نضوجها في الفكر، وقبل اختمارها في النفس. وسادسا ابتعاد الصورة التي يرسمها الشاعر عن تصور الجمهور ومداركهم مما هو مألوف عندهم ومعهود لديهم في معارفهم ومشاعرهم الماضية والحاضرة، حتى في معارفهم ومشاعرهم التخيلية؛ وأجزاء الصورة الخيالية التي ترتسم في ذهن الإنسان تتكون في الحقيقة في المواد التي تتألف منها معارفه ومشاعره الماضية والحاضرة عينها

هذه هي العوامل الأساسية لغموض لغة الشعر والبيان إذا كنا نستند في بحثنا إلى الحقائق الصريحة. أما إذا أردنا أن نموه على القراء فنستطيع أن نقول ما يخرج عن نطاق هذه العوامل ونستطيع أن نرغم الناس على أن يتصوروا في القطعة المعقدة بسبب من الأسباب الآنف ذكرها غموضا ينطوي على إبداع فني، ونقول لهؤلاء الناس إن أذواقكم الفنية أحط من أن تصل إلى رؤية هذا الإبداع، وان مستوى شعوركم وتفكيركم، أوطأ من أن يدرك هذا الفن البديع المتلفع بهذا الغموض. .

لقد جاز الشعر والأدب أدوارا غريبة، ووجد الشعر والأدب في ظروف عجيبة، وكان العامل في هذه الغرابة وهذا العجب النقدة من الكتاب والأدباء، فقد لعب بعضهم أدوارا طمس فيها الحقائق وأبرز إلى الناس الغث سمينا وأرغمهم على اعتبار السمين غثا.

ولولا شعوذة هؤلاء النقدة ومهارتهم في تصريف الكلام ومقدرتهم في البيان لكان جمهور الناس يرون في ترتيب طبقات الشعراء والأدباء غير ما يرونه الآن. نعم لو ترك هؤلاء الكتاب الناس وشأنهم يقرأون الشعر بصورة طبيعية ويفهمونه كما هو المقصود منه، لما كنا الآن مرغمين على أن نؤمن بالأحكام الثابتة في المفاضلة والموازنة بين شاعر وشاعر أو بين أديب وأديب.

ولكن اعتدادهم بأنفسهم ساقهم إلى أن يقولوا مثلاً إن الشاعر الفلاني أراد بقوله كذا. . . كيت وكيت - ولم يقصد كيت وكيت.

ولعل أقوى حجة يتذرع بها من يرون تحت الشعر الغامض إبداعا فنيا، هي إن الإنسان إذا

جابه منظرا رائعا في ثوب جمال من مناظر الكون يرى في المرة الثانية فيه ما لم يره في المرة الأولى ويلتذ بما يراه في المرة الثالثة اشد من التذاذه بما رآه في المرتين الأولى والثانية. أما أنا فاعتقد أن هذه الظاهرة لا يصح على الإطلاق اتخاذها دليلا على اعتبار الغامض من الشعر ذا قيمة فنية.

فكل بديع في هذا الكون من منظر إلى صوت إلى شعر يلازمه الوضوح كيفما تكيف وتطور وتصور. والوضوح جوهر الجمال الحقيقي، أما (الغموض) بمعناه الذي يعرفه الناس فلا يجتمع مع الإبداع أو الجمال في صعيد واحد، وقد يجهد الإنسان نفسه ويكد ذهنه إذا سمع قطعة شعرية فيها شيء من الغموض، وقد يجد في هذا الإجهاد والكد لذة التوصل إلى الصورة الذهنية المقصودة. فليس من الضروري أن تعتبر هذه اللذة ناشئة من تلمس الإبداع، وإنما هي ناشئة من التوصل إلى نتيجة بعد إجهاد وكد.

لقد ذكر الأستاذ العقاد جملة عبارات يؤيد بها أن وراء الغموض في الشعر والأدب إبداعا فنيا، وكان من جملة ما ذكر أن الإنسان قد يقرأ كتابا غير مرة فيجد فيه كل مرة من المعاني ما لم يره في القراءات السابقة. وعندي أن تفسير هذهالحقيقة الراهنة هين، وعلتها واضحة لا غامضة. هذا إذا لاحظنا أن معارف الإنسان التي تنمي فيه شعوره وذوقه ومداركه تتبدل على الدوام وتتكيف حسب الظروف المختلفة التي يكون فيها. فالأثر الذي يتركه مطالعة كتاب في نفس الإنسان في وقت ما ذو علاقات متنوعة بشعوره وذوقه ومزاجه في ذلك الحين، وان الانطباعات التي تتولد في نفسه من معاني ذلك الكتاب تتناسب مع ما ذكرناه في ذلك الحين فقط. أقول في ذلك الحين فقط، لأن الشعور والذوق والمزاج ظواهر نفسية تتبدل وتتطور بالنظر إلى الظروف المحيطة بالإنسان. فليس ثمة غرابة إذا وجد الإنسان في مطالعاته المتوالية لكتاب ما معاني جديدة لم يكتشفها في مطالعاته السابقة. ولا ينبغي أن تعتبر هذه الصفة في الكتاب غموضا، لأن تبين جميع المعاني والمرامي المقصودة في الكتاب دفعة واحدة أمر مستحيل، ولا يتمكن الذهن من استيعاب جملة معان دفعة واحدة. والذهن مثل العين أو سائر الحواس. فكما إن عينك إذا وقعت على رقعة تحتوي على عدة أشكال لا تحيط بها جميعا دفعة واحدة ولكنها تتمكن من ذلك بتوجيه البصر إلى كل شكل بصورة خاصة، وكما أن الأذن إذا سمعت ألحانا مختلفة لا يمكنها أن تؤلف بين هذه الألحان إلا إذا أنصتت لكل لحن على حدة، كذلك الذهن لا يتمكن من الوجهة السيكولوجية أن يدرك كل ما أودع في كتاب من معان دفعة واحدة، وهذا ما يجعل الإنسان يكتشف في قراءته المتوالية لكتاب واحد معاني جديدة.

ولكن الخاصة من الأدباء يأبون إلا أن يخترعوا لهذه الظاهرة الطبيعية النفسية

اصطلاحا أدبيا وهو ما رمى إليه الأديبان طه والعقاد فأسموه: (بالغموض) فسرد لنا الأول قصة (المقبرة البحرية) للشاعر الفرنسي بول فاليري وتبسط في وصف ما دار حولها من مناقشات وآراء في غموضها وعدم اشتمالها على معان واضحة. فقال من جملة ما قال أن: (كل هذه الآراء وآراء أخرى للشاعر العظيم في هذه المقدمة الممتعة إن لم تبين المعاني التي أودعها قصيدته فهي تبين شيئا آخر أظنه أقوم وأجل خطرا من هذه المعاني، وهو مذهب الشاعر في فن الشعر وما ينبغي له من الارتفاع عن هذا الوضوح الذي يفسد الفن إفسادا ويقربه من الابتذال).

ولكن! إذا لم تتمكن القصيدة من بيان المعاني التي يودعها الشاعر فيها فهي إذن ليست قصيدة، ولك أن تسميها ما شئت.

إن لم تستطع أن تودع المعاني التي تريدها الألفاظ التي تقولها فأنت والصامت أو الهاذر سواء.

وما هو هذا - الشيء الآخر - الذي يظنه الدكتور أقوم وأجل خطرا من هذه المعاني؟: (هو مذهب الشاعر في فن الشعر)

لا ريب في أن مذهب الشاعر في فن الشعر أجل خطرا من المعاني باعتبار أن العناية بالمذهب هي التي تقوي المعاني وتصقلها فتظهرها ناضجة واضحة براقة، ماضية في نفوذها إلى النفس.

ولا أدري كيف نوفق بين هذين النقيضين: ألا يتمكن الشاعر من إيداع المعاني التي يريدها في قصيدته، وهو بعد ذلك يستطيع أن يظهر مذهبه في فن الشعر.

ويظهر أن الدكتور بعد أن يصل به القلم إلى عبارة (ويقربه من الابتذال) يدرك أن ما أورده (غامض) للتناقض الظاهر فيه فيستدرك الأمر بأن يقول: (فهو يرى مثلا أن جمال الشعر يأتي من أنك تجدد اللذة الفنية في نفسك كلما جددت قراءته، ومن أنك تستكشف في القراءة الثانية من فنون الجمال ما لم تستكشفه في القراءة الأولى، بل تجد في كل قراءة فنونا جديدة من الجمال لم تجدها في القراءات التي سبقتها)

هذا صحيح إذا تمكن الشاعر من إيداع قصيدته الصور الذهنية التي تخلق للقارئ هذا الجمال، والصور الذهنية في الواقع سداها الألفاظ ولحمتها المعاني التي تبرز تراكيب هذه الألفاظ في عبارات وجمل

فجمال الشعر إذن يأتي من طريق مذهب الشاعر في فن الشعر إذا كان هذا المذهب خليقا بأن يظهر المعاني المقصودة بحلل قشيبة جذابة، ومذهب الشاعر في فن الشعر ليس أجل خطرا من المعاني إلا إذا تمكن الشاعر من أن يودع قصيدته المعاني أولا.

وبتعبير آخر لا يمكننا أن نعترف للشاعر بمذهب (خاص كان أو عام) إن لم يودع القصيدة التي ينشئها المعاني التي يقصدها.

فإذا أنشأ الشاعر قصيدة وجاء الناس يتساءلون منه ماذا أراد أن يقول بهذه القصيدة، فهذه القصيدة أما أن تكون خالية من المعنى وأما أن يكون صاحبها عند نظمها مرتبك الأفكار والخواطر مزعزع الحس والشعور إلى حد انه لم يستطع أن يودع قصيدته معنى معينا. فإذا كنا نسمي هذا شاعرا ويعتبر ما يودع في منظوماته من أفكار مشوشة غير معينة ولا مفهومة (غموضا) ثم نتحرى تحت طيات هذا الغموض إبداعا فنيا يزينه إلينا خيالنا المحض، فيجب أن نعتبر عوام الناس طرا شعراء مبدعين بكل ما تمر بين شفاههم من عبارات مرتبكة يسوقونها عندما تثار نفوسهم ببعض الظواهر والمشاعر. ويجب أكثر من ذلك أن نعتبر الجمل المرتبكة المتقطعة المبهمة التي يتمتم بها الطفل عندما يجابه منظرا غريبا أو حادثا جديدا غموضا ينطوي على إبداع فني.

وبهذا نكون قد أسرفنا في الإساءة إلى الفن والى الإبداع والى الشعر والبيان إساءة عظيمة

بغداد الآنف ذ

رسائل حزينة

هل كان حبهما خطيئة. .؟

أصحيح أنني ألقيت بهذا اللون من الرسائل الحزينة ظلالا شاحبة كئيبة على حياتك الباسمة بين أحضان الريف. وتحت سمائه الصاحية الجميلة. فان يكن ذلك حقا؟ وانك قد أصبحت تضيق ذرعا حتى بهذا القدر التافه من العزاء الذي أجده في الكتابة إليك

ترويحا لقلب عان ونفس ثائرة مضطرمة، فقد ينبغي لك أن تعلم أن الشجرة التي انتصبت في الفضاء، تهزأ بالأعاصير والأنواء، ساخرة متحدية، حتى عريت من أوراقها وتحطم الكثير من أغصانها، ما يزال في جذعها الضخم العنيد، وأعراقها الراسخة القوية، ما يعينها على الصبر إلى نهاية المعركة، حتى ينجلي ليل محنتها قليلاً قليلا. ثم يطالعها في أعقابه فجر باسم حالم، ينبت فيها أوراقا بأوراق، وينشئ لها أغصانا بأغصان. ويومئذ تفيء الطيور إلى ظلها الوارف الظليل: لتملأ هذه الأجواء الحزينة شدوا شجى النغم حلو الرنين، يعيد إلى هذا القلب الذي هانت عليه آلامه فيضا دافقا من حلاوة المنى ولذة الأمل. وإذن فسأحتجن هذه الآلام من دونك بعد اليوم في صدري: فما يزال فيه قدرة على احتمال المزيد منها. وسأدير الحديث إليك في هذه الرسالة حول شخص لا تعرفه، قد آخت بيننا سهمة من الألم المشترك، وسأنفض إليك جملة حاله وجماع قصته علني أقف منك على رأي تراه له، لأنني - وأنت تعرف رأيي في المرأة - تحرجت من إبداء رأي قد يفسده ما أحسه اليوم في قلبي بسببها من جراح وندوب. والحق أنها قصة تعتبر تصويرا صحيحا لمشكلة من مشاكلنا الاجتماعية. أو قل إنها ثورة عنيفة على بعض تقاليد الأسرة المصرية وتحطيم لها. أو قل أنها استجابة حارة لهتاف الروح ودعوة القلب، وهي لهذا الذي أسلفت لك جديرة بشيء من العناية غير قليل.

انحدر إلى هذه الدنيا وحيدا لأبوين رزقاه على وجد للبنين بعدما كادت الأيام تشرف على ربوة العمر. فتهيأت له من هذه الناحية طفولة ناعمة مدللة أسلمته إلى دار من دور التعليم جعل يتخطى سني دراستها غير وان ولا متخلف، حتى وصل إلى السنة الثانية من دراسته في كلية الحقوق بالجامعة المصرية. وعندئذ بدأ الجدول العذب الذي كان يتسلسل في طريقه سهلا رفيقا يتحول إلى طريق ملتوية مليئة بالجنادل والأحجار. فقد توشجت بينه وبين زميلين من رفاقه بالجامعة أواصر الصداقة والمودة. واتفقا معه في نظرهما إلى الحياة من ناحيتها العابثة الماجنة. فكانت لهم في ظلال الليل متع سعيدة بسامة. ينهلون من خمرين: ريق ورحيق، ويتساقون من كأسين: آونة من فم الإبريق، وأخرى من خلال شفاه وردية في حمرة العقيق، وجعل في هذه الغمرة المجنونة لا يدع واجبا مدرسيا إلا أهمله حتى فوجئ بالفصل من الجامعة بعد رسوبه في اختبار النقل عامين متواليين. وكانت الصدمة عنيفة قوية. والحسرة على ضياع مستقبله الجامعي لذاعة أليمة. وأخذت آماله التي كانت تضيق بها الدنيا تتضاءل وتنكمش حتى وسعتها مدرسة البوليس على كره منه ومضض. . وتخرج في هذه المدرسة ضابطا يختال بنجمته اللامعة ويلقى من التحية ألوانا كلما مر في طريقه بواحد من أولئك الجندالمساكين. . وعاوده الحنين إلى المرأة غلابا قويا. وأخذت جوارحه تهتف بنداء الجنس فيستجيب لها في جنون وشغفإلى أن وضعت الأقدار في طريقه تلك المرأة التي أنا بسبيل من الحديث عنها الآن.

كان الفصل شتاء، والسماء عابسة يدوي في جوانبها الرعد، مظلمة يلتمع في حواشيها البرق، والليلة باردة الأنفاس، مقرورة النسمات، وكان الفتى على موعد مع رهط من أصدقائه في حفلة غنائية ذهب يشهدها، فاتفق له أن يجتاز في طريقه ميدانا صغيرا من ميادين القاهرة، فلمح على هامش الطريق فتاة تعبث الرياح الغاضبة بثيابها الفضفاضة عبثا منكرا قبيحا، تتململ في وقفتها الضارعة الذليلة. وترعش أوصالها تحت أضواء هزيلة يرسلها على الطريق مصباح باهت شاحب. فعرف أنها طريدة من طرائد الليل قد أتاحتها له الفرص السعيدة في هذه الليلة العصيبة. فمشى إليها جريئا يختال بنجمته اللامعة وسمته الرائع الجميل، وسدد إليها تلك النظرة التي تعرف المرأة وحدها سر ما تنطوي عليه. فأغضت حياء وقد اصطبغ وجهها بلون الورد في زمن الربيع. . واستقل معها عربة إلى مسكنه الخالي إلا من خادم ريفي يتوفر على خدمته والعناية بشأنه. وهناك في تلك الخلوة التي تهيج في المرأة أشجانها المستورة، وتثير عواطفها المكمودة، ترقرق الدمع في مآقيها وجعلت تفضي إليه بودائع قلبها الدامي الجريح في لهجة محزونة تنتزع من أصلب القلوب ألوانا من العطف والإشفاق والرثاء. . . عرف أنها واحدة من تلك الضحايا البريئة التي غلبت على أمرها في خلوة مجنونة عابثة. مأخوذة بمعسول الأماني وبواسم الأحلام. زين

لها لص من لصوص الأعراض سحر الخطيئة. فأكلت من الشجرة الملعونة ثم تنكر لها. وعلم أهلها بعارها فنبذوها، وعضها الجوع وأذلتها الحاجة، فخرجت إلى الطرقات دامعة العين مصدوعة القلب غير مستعصية على طالب متعة لقاء ثوب تلبسه، وفضلة من طعام تأكلها. ولقد هتفت بكل ما فيه من رجولةورحمة أن يستبقيها في بيته خادما ترعاه وتعبده، وأن يمسك عليها تلك البقية الباقية من شباب ذبلت زهرته، وحياء كادت تأتي عليه عوادي الليل وأحداث النهار. . . . . فتجمعت الدموع في عيني الشاب عطفا عليها ورثاء لها. وبدأت تخامر قلبه من نحوها عاطفة مجهولة غامضة. عاطفة إن لم تكن حبا فهي قريبة من الحب. وأجمع أمره على أن يعصمها من السير في هذه الطريق الشائكة الملتوية. وسيشعرها في جواره هناء الحياة ولين العيش. وحسبها تكفيرا عن زلتها ما لاقته من أهوال وخطوب.

ولبثت في بيته عاما كاملا لا تكشف الأيام منها في خلاله إلا عن كل ما يملك القلب وبأسره، خلق رضي كالماء رقة وعذوبة ووفاء يسمو إلى حد التضحية. وعرفان للجميل أحبته من أجله حبا هو أشبه بالعبادة والتقديس منه بأي عاطفة أخرى. وأحس الشاب إحساسا عميقا بهذا كله فبادلها حبا بحب، ووفاء بوفاء. وأقدم على الزواج منها زواجا رسميا ترامت أخباره في الريف إلى أبويه وهو وحيدهما. فجن جنونهما وثارا به ثورة عنيفة لم يجد في تهدئتها توسل ولا رجاء. وآذناه بالقطيعة والحرمان من ثرائهما العريض إن هو لم يفصم تلك الروابط التي تربطه بهذه المرأة الآثمة كما نقل إليهما خادمه الريفي الذي هجره من عهد قريب.

وبعد. . . فهل يهدم الشاب هذا العش الجميل الذي يتذوق فيه السعادة خالصة والنعيم محضا ليجدد على أنقاضه مودة أبوية. وليرضي تقاليد الأسرة العريق التي ينتمي إليها، ويرسل تلك المرأة التي تعبده الآن وتسعده، لتحيا من جديد حياة كلها عار ورجس ودنس. أم تراه يمسك عليه زوجه ويدع للأيام أن تبلي غضب أبويه كما يبلي في هذه الحياة كل شيء. . . . هذا هو الموضوع. ويسعدني أن أشرك معك أيها الصديق في إبداء الرأي كرام الكاتبين من قراء (الرسالة) العظيمة.

عبد الوهاب حسن

مذهب النشوء وإخوان الصفا

نشوء الكائنات (الأحياء الدنيا تنشأ أولا) التخصص في الأعضاء دليل الرقي (الوظيفة توجد العضو) تنازع البقاء ووسائله (الغريزة الجنسية وحفظ النوع) الحواس وحفظ الذات (الجمال مسخر لحفظ النوع) البقاء للأصلح (تنازع البقاء وسيلة للرقي) التعاون وسيلة للرقي.

لم يكن دارون أول من اهتدى إلى مذهب النشوء وتوابعه، ولم ينفرد وحده بالتنبه إليه. فاليونان وغيرهم من الأمم القديمة قد لمحوا إليه وبحثوه بقدر ما كانت تساعدهم معارفهم ووسائلهم العلمية. وتنبه إليه العرب، فطبقه ابن خلدون في مقدمته على نشوء العمران وانحلاله.

وشعر المعري بما يدعونه تنازع البقاء فحفل بالإشارة إليه شعره.

وأخيرا إخوان الصفا فجاءونا بما يجعل هذا الفصل خليقا بهذا العنوان

جاءنا إخوان الصفا بأن هذه الكائنات المختلفة من معادن ونبات وحيوان هي سلسلة متماسكة الحلقات شديدة الإندغام بعضها في بعض. وانه ليس ثمة حدود فاصلة أو مراحل متقطعة بين الحلقة وتاليتها. (المعادن متصل أولها بالتراب وآخرها بالنبات، والنبات أيضا متصل آخره بالحيوان، والحيوان متصل آخره بالإنسان، والإنسان متصل آخره بالملائكة) وهم في هذا على أشد ما يكون من الإقتناع. ورسائلهم حافلة بهذه الفكرة يبدئون فيها ويعيدون كأن الإشارة المفردة عندهم لا تنيلهم ما يصبون إليه من إقناع

كذلك يقول إخوان الصفا - وقولهم حق -: (إن الحيوانات الناقصة الخلقة متقدمة الوجود على التامة الخلقة بالزمان في بدء الخليقة، وذلك أنها تتكون في زمان قصير. والتي هي التامة الخلقة تتكون في زمان طويل لأسباب وعلل يطول شرحها) هنا لا يختلف إخوان الصفا عن نشوئي هذا العصر القائلين بأن الحياة قد بدأت بأحط أنواع الأحياء وأبسطها تركيبا. والقائلين أيضا بأن الطبيعة تصرف على الحيوانات الراقية

جهدا فوق ما تصرفه على الحيوانات الدنيا، ولذا فأنسال هذه كثيرة وأنسال تلك قليلة.
ويشير إخوان الصفا إلى أن التخصص في الأعضاء دليل على الرقي في سلم النشوء، ويطبقون ذلك على النبات والحيوان فيقولون: (وأما النخل فهو آخر مرتبته النباتية مما يلي الحيوانية، لأن بعض أحواله مباين لأحوال النبات. ذلك أن القوة الفاعلة فيه منفصلة عن القوة المنفعلة، والدليل على ذلك أن أشخاص الفحولة منه مباينة لأشخاص الإناث. ولأشخاص فحولته لقاح في إناثها كما يكون ذلك الحيوان)
ثم يقولون: (أعلم أن أدون الحيوان وأنقصه هو الذي ليس له إلا حاسة واحدة وهو الحلزون. . . وهكذا أكثر الديدان التي تكون في الطين في قعر البحر وعمق الأنهار ليس لها سمع ولا بصر ولا ذوق ولا شم)
وإذ يقر إخوان الصفا هذه الحقائق يتقدمون خطوة أخرى جريئة ويساهمون دارون في أن الانتخاب الطبيعي يفني كل عضو لا فائدة للجسم منه، ويوجد الأعضاءالتي تفيد الجسم في تنازع البقاء: (لأن الحكمة الإلهية لم تعط الحيوان عضوا لا يحتاج إليه في جر المنفعة أو دفع المضرة، لأنه لو أعطاها ما لا تحتاج إليه لكان وبالا عليها في حفظها وبقائها)
ويزيدون هذه الفكرة جلاء فيأتونها من ناحية أن الوظيفة توجد العضو فيقولون: وأما السباع الآكلة اللحمان فأن خلقتها وطباعها وتركيب بعض أعضائها الظاهرة والباطنة وأمزجتها وشهواتها مخالفة لما عليها الحيوانات الآكلة العشب. وذلك أن الباري لما خلقها وجعل غذاءها من اللحمان جعل لها أنياباً صلاباً ومخالب مقوسة، قوية وأزنادا أيد متينة، ووثبات خفيفة تستعين بها على قبض الحيوانات)
بعد هذا يتقدم إخوان الصفا بجرأة ويقررون: (إن شهوة البقاء وكراهية الفناء هما أصل وقانون لجميع شهوات النفوس المركوزة في جبلتها، وأن تلك الشهوات هي أصول وقوانين لجميع أخلاقها وسجاياها) وهكذا يبين إخوان الصفا في هذه الجملة الفذة أن جميع الغرائز الحيوانية هي أداة التنازع على البقاء الذي يظهر في شطريه: التنازع على حفظ الذات، والتنازع على حفظ النوع: ليس هذا فقط بل يرجعون بالأخلاق والسجايا الإنسانية إلى هذين الحافزين الأكبرين. وهي في الحقيقة نظرة في الغاية من النفوذ والإصابة، فالأخلاق والمزايا الإنسانية ما كانت لتنشأ وتشتد لو لم يكن التنازع على البقاء وحفظ النوع أقوى الحوافز الإنسانية. واليك جميع الفضائل والأخلاق الإنسانية، افحصها فحصا مدققا وجردها من النظرة التيولوجية فتجد أنها جميعها تمت إلى حفظ النوع وحفظ الذات بسبب شديد
وإذا ما انتهى إخوان الصفا من تقرير هذا القانون على ذلك النحو من الشمول والإجمال عادوا إلى التفصيل فقالوا: (أما علة شهوة الجماع المركوزة في الجبلات فهي من أجل التناسل، والتناسل من أجل بقاء الصورة في الأشخاص المتواترة. .)
وهم - كعلماء النشوء - لا يبالون أن ينزلوا بإحساس الجمال من منزلة الرفيع ويحسبوه أداة تسخرها القدرة لحفظ النوع، فيقولون على لسان الحيوان معارضاً ومناظراً الإنسان: (وأما الذي ذكرت أيها الأنس من حسن الصورة وافتخرت بهعلينا فليس فيه شيء من الدلالة على ما زعمت بأنكم أرباب ونحن عبيد، إذ كان حسن الصورة شيئا مرغوبا فيه عند أبناء الجنس الواحد من الذكور والإناث ليدعوهم ذلك إلى الجماع والتناسل لبقاء النسل، وذكر أننا لا نرغب في محاسن إناثكم ولا إناثنا في محاسن ذكرانكم، كما لا يرغب السودان في محاسن البيضان). ولا يفوتنك في آخر القطعة الطريفة إشارة الأخوان إلى أن الجمال أمر نسبي يقدره الناس تقديرا متباينا. ونظرية نسبية الجمال نظرية مشهورة يقول بها كثيرون من الباحثين في فلسفة الجمال
وكما يحسب الإخوان أن الغريزة الجنسية مسخرة لحفظ النوع كذلك هم يقررون أن الحواس مسخرة لحفظ الذات فيقولون: (قصد الله وغرضه في الحيوانات ليس عقوبة لها وعذابا بل حثا لنفوسها على حفظ أجسادها وصيانة لها، ولو لم يكن ذلك كذلك لتهاونت النفوس بالأجساد وخذلتها وأسلمتها إلى الهلاك. . . فلهذه العلة جعلت الآلام والأوجاع للحيوان لتمكنه من البقاء أما بالحرب أو بالهرب)
وبعد أن يفرغ إخوان الصفا من هذا القانون - قانون تنازع البقاء - وذكر وسائله وأدواته يعودون فيقولون: إن هذا التنازع لا يكون الفوز فيه إلا للأصلح، أما الضعيف فيجب أن يفنى أمام القوي: (لأنه لما كان بعض الحيوانات أتم خلقة وأكمل صورة جعلت النفس

الناقصة خادمة ومسخرة للتامة، وجعلت أجسادها غذاء ومادة لأجساد الناطقة منها وسببا لبقائها لتبلغ أتم غاياتها). أما الغرض من ذلك كله (فهو النفع الكلي والصلاح العام، وان كان يحصل في ذلك أضرار جزئية. مثال ذلك أن الشمس تشرق وتغيب للمنفعة العامة، ولكن قد يكون في ذلك ضرر يقع على أناس مخصوصين) إلا أن إخوان الصفا لا يقفون عند هذا الحد ولا يكتفون بالقول بأن قانون التنازع وحده أداة

الرقي والنشوء أيضا، بل هم كعلماء النشوء يحسبون أن التعاون لا يقل شأنا في مضمار التقدم والنشوء عن التنازع. فهم يقولون: إن ما جعل في طباع بعض الحيوانات من الألفة والأنس والمودة هو ليدعوها إلى الاجتماع والمعاونة لما فيه من صلاحها وكثرة منافعها.

هذه لمحة موجزة في آراء إخوان الصفا النشوئية، وهي على كل حال لا تمثل إلا ناحية ضيقة من هذه الآراء التي يبثها إخوان الصفا في رسائلهم المعروفة. والذي لا يزال حريا بالدرس من آرائهم هو شيء كثير. وإنني لعلى رجاء بأن تغري هذه الصفحات قارئها بالنظر في رسائل الإخوان. فأنه - وأنا الكفيل - سيأخذ أجوره نقدا صحيحا لا زيف فيه. لست أنكر أن قسما كبيرا من هذه الرسائل صحراوات لافحة لا ظل فيها ولا ماء. ولكنني، من جهة أخرى، أستطيع أن أقول: أن الواحات تنتشر في هذه الصحارى انتشارا كبيرا، فلا يعدم القارئ في سيره واديا هنا أو واحة هناك يستظل أفياءها ويتبرد بنسيمها وينهل من مائها فيستجمع قواه ويعاود السير كأقوى ما يكون. وبذا يفيد فائدتين: فائدة أنه يأخذ نفسه برياضة تعوده السير الطويل المتعب، وأخرى أنه يشهد آفاقا لا عهد له بها ولم تطأها قدماه من قبل فيما نعتقد.

ولعلنا، إذا أفسحت لنا (الرسالة) الغراء صدرها، عائدون إلى إخوان الصفا ومفصلون لك آراءهم في كثير من المسائل كعلم النفس والتربية والأخلاق، فأن لإخوان الصفا في هذه النواحي آراء هي في الغاية من الطرافة والإصابة.

شرق الأردن. أديب عباسي

قلوب تتقلب!

نشأت في كنانة حول الطائف ومكة، وقد باكرها النعيم فشبت صحيحة جميلة، ورضعت أفاويق البلاغة من قومها، فنشأت فصيحة بليغة، خطبها سيد قرشي، من أشراف مكة وعصبة النبي، وبنى بها فطاب حالهما، وصفا عيشهما. وقرأ في المدينة زمنا أسعدهما الله فيه بغلامين كانا بهجة النظر وأمنية الفؤاد.

اختار (الأمام علي) زوجها ليكون عاملا له على (اليمن) يجبي خراجها، ويقوم بشعائر الدين فيها، فابتهجا بالمنصب الرفيع والحظ المقبل، وانتقلت الأسرة إلى مقرها الجديد إلى اليمن، واليمن جنة العرب وروضة الجزيرة. هواءها رخي وتربها ندي، وفاكهتها كثيرة، وجدا فيها مجالا للمتعة، ومراحا لطفليهما العزيزين يطلقانهما في الصباح لينعما بشمس الشتاء الضاحية، ويتمتعا بمناظر الوديان، ومظاهر الجنان، وقد حل فيهما من بهجة الأزهار، ونغمة الأطياف وانعطاف الأغصان، وانسجام الظل، مشابه؛ فاستحار جمالهما، وتمت آدابهما، واستوليا على كل قلب، واختطفا النظر من كل عين.

غاب أبوهما عن مدينته لبعض شؤونه، وخرجا كعادتهما يتنزهان وإذا رجل يقبل عليهما مسترق الخطى، ويتلطف بهما ويغريهما بالسعي معه، وإذا به يقبض عليهما ويكم أفواههما، واذا به قد انتضى سكينا مرهفة وقضى عليهما، ثم أطلقها ضحكة عالية قائلا: (الآن تمتع بالحياة يا عبيد الله!)

انتظرت (جويرية الكنانية) ولديها يؤوبان إليها مع الغداة، ولكنهما تأخرا على غير عادتهما، فتربصت طويلا، منصتة إلى بابها لعل طارقا يطرقه، وكلما لعب به الريح هرولت إليه وفتحته باسطة ذراعيها، ولكنها في كل مرة تعانق الهواء، ولما فرغ فؤادها دفعت خادمتها لتقصهما، وما كادت الخادمة تسير خطوات حتى اندفعت وراءها سافرة حائرة، وطافت بمعاهد البلد وملاعبه، وكل فتى تتوسمه فتاها، وكل ندي تظنه قد حواهما، ولبس الأصيل ثوبه المعصفر، وزحف الليل بسواده وما رجعت بطائل غير هم ملأ قلبها وأسى قلقل كيانها، ومضى يوم ويومان وثلاثة وهي تطوف وتقول:

ألا مَنْ بيَّنَ الأخويْ ... ن أُمُّهُمَا هي الثكلى

تسائلمنرأى ابنيها ... وتستبقيفماتبقى
فلما استيأست رجعت ... بعبرةوالهٍحَرَّى
تتابع بينولولةٍ ... وبين مدامعٍ تترى
وفي كل يوم تزيد شدتها وتذكو سكرتها ويضيق أفقها. وفي ساعة اقتحمت عليها السبيل فتاة، وأخبرتها بما سمعت عن فعل (بسر ابن أرطاة) بولديها. فأن معاوية أخرجه لينكل بشيعة علي، فمضى في سبيله حتى انتهى إلى اليمن، ولما لم يجد عاملها يتلقى عقارب كفه اقتص من ولديه وذهب بشفرته.
وكان هذا كافيا لفقدان وعيها، وطيران عقلها، ولكنها أبت أن تصدق، وألا فكيف يموت عزيزان في لحظة، ثم هامت على وجهها، تناشد المواسم والمجامع بقولها:
يامَنْأحسّ بُنَيَّاللذيْنهما ... كالدرتيْنتشظّى عنهماالصدفُ
يامَنْأحسّ بُنَيَّاللذيْنهما ... سَمعْي وطرفي فطرفي اليوم مختَطَف
يامَنْأحسّ بُنَيَّاللذيْنهما ... مُخُّ العظامفمخي اليوممزدهف
نُبِّئْتُ بُسْراً وما صدّقت ما زعموا ... من قولهم ومن الأفك الذي اقترفوا
أنحبعلىودَجَىطفليّ مرهفةً ... مشحوذةًوعظيمالإفكيقْتَرَف
مَنْ دَلَّ وآلهةًحريّ مُفجَّعَة ... على حبيبيْن غاباإذ مضى السَّلَف
أما عبيد الله بن العباس فقد انتزع منه حشاه، عزف عن الدنيا وأحس زخرفها شوكا ففارقته الهناءة كما تنبأ بسر بذلك.
آه لو ملك القاتل! إذن لنبش عن قلبه وان لم يكن من قبل فظاً. آه من معاوية ورهطه! قوم غرب الإيمان من قلوبهم واشتروا دنياهم بدينهم. آه! وآه على نجمين قد أفلا في ساعة من نهار. هذا ما يثور بفؤاده.
تبدل برجل آخر سقيم الجسم دقيق العظم مشتعل الرأس. وشاطره همه ابن عمه علي ولعن القاتل ودعا عليه بالجنون والمروق وأجاب الله دعوة وليه، فإذا بسر مخبول يهذي ممسكا بسيف من خشب وزق من جلد منفوخ ما يفتأ يضربه بسيفه حتى تهن قواه، وكان خبله يقوى تارة ويضعف أخرى
مضت سنوات ودخل بعدها عبيد الله على معاوية أبان ملكه، وكان عنده بسر، فقال له عبيد الله: (أأنت قاتل الصبيين أيها الشيخ؟) قال بسر: (نعم أنا قاتلهما) فقال عبيد الله: (أما والله لوددت أن الأرض أنبتتني عندك) قال بسر: (فقد أنبتتك الآن عندي) قال عبيد الله: (ألا سيف؟) فقال بسر: (هاك سيفي). فلما أهوى عبيد الله إلى السيف ليتناوله أخذه معاوية ثم قال لبسر: (أخزاك الله شيخا، قد كبرت وذهب عقلك، ذاك رجل من بني هاشم وقد وترته وقتلت ابنيه، تدفع إليه سيفك؟ انك لغافل عن قلوب بني هاشم. والله لو تمكن منه لبدأني قبلك.) فقال عبيد الله: (أجل والله وكنت أثني به.)
أحمد أحمد التاجي
الصهيونية
نشأتها وتطورها
بعد عهد بلفور - 2
للأستاذ محمد عبد الله عنان
أصدرت الحكومة البريطانية عهدها بإنشاء الوطن القومي اليهودي (عهد بلفور) في الثاني من نوفمبر سنة 1917 كما قدمنا، بينما كانت القوات البريطانية بقيادة لورد اللنبي في طريقها إلى بيت المقدس. وفي التاسع من ديسمبر استولى الإنكليز على بيت المقدس؛ وبدأت سيادة إنكلترا على فلسطين من ذلك التاريخ، وبدأ تنفيذ مشروع الوطن القومي اليهودي بصورة عملية. وتلا عهد بلفور صدور تصريحات ووقائع رسمية من مختلف دول الحلفاء بتأييد أماني الصهيونية، ومشروع الوطن القومي اليهودي في فلسطين
وفي مؤتمر سان ريمو سنة 1920 وزع (الانتداب) على بلاد الشرق الأدنى التي سلخت عن تركيا. فكانت فلسطين وشرق الأردن والعراق من نصيب بريطانيا العظمى. وفي سبتمبر سنة 1922 صادق مجلس عصبة الأمم على صك الانتداب على فلسطين متضمنا في ديباجته المصادقة على عهد بلفور بإنشاء الوطن القومي اليهودي؛ ونص فيه على إنشاء هيئة يهودية ذات صفة رسمية يحق لها أن تسدي الرأي

لحكومة فلسطين وتتعاون معها في جميع الشؤون الاقتصادية والاجتماعية وغيرها مما يتعلق بإنشاء الوطن القومي اليهودي ومصالح اليهود في فلسطين، وتتخذ بالاتفاق مع الحكومة البريطانية جميع الإجراءات اللازمة لتحقيق التعاون بين جميع اليهود الذين يريدون الإشتراك في إنشاء الوطن القومي اليهودي (المادة الرابعة). ونص على تسهيل الهجرة اليهودية واستعمار اليهود للأراضي (المادة الخامسة) كما نص على جعل اللغة العبرية لغة رسمية في فلسطين إلى جانب العربية والإنكليزية (المادة الثانية والعشرون) واستثنيت منطقة شرق الأردن وجعلت منطقة خاصة لا يطبق عليها شيء من النصوص المتعلقة بالوطن القومي اليهودي.

وفي سنة 1923 تنازلت تركيا في معاهدة لوزان عن كل حق على فلسطين وغيرها من الأراضي التي وضعت تحت الانتداب، واعترفت بالانتداب البريطاني على فلسطين، وتمت بذلك سلسلة الوثائق الدولية التي تؤيد السيادة البريطانية على فلسطين، وتؤيد إنشاء الوطن القومي اليهودي فيه.

ولنر الآن كيف عملت الصهيونية في فلسطين بعد أن مكنت من غزوها، وكيف نفذ مشروع الوطن القومي اليهودي، والى أين وصل وإلام ينتهي اليوم؟

كان برنامج مؤتمر بازل الذي أتينا على ذكره دستور الصهيونية عملت على تنفيذه في فلسطين عن طريقين: الأول الاستعمار الزراعي والاقتصادي، والثاني إحياء تراث اليهودية الروحي والفكري. والأول سلاح اليهودية المادي لغزو فلسطين والاستقرار بها. وقد بدأت بإعداده واستعماله منذ بعيد. فمنذ أواخر القرن الماضي أنشئت في فلسطين بعض المحلات والمستعمرات الزراعية اليهودية بسعي بعض الماليين اليهود. . . ومنذ سنة 1901 أنشئ (الاعتماد القومي اليهودي) في لندن ليجمع الأموال من اليهود في جميع أنحاء العالم. ومنذ عهد بلفور يسير الاستعمار اليهودي لفلسطين بخطوات سريعة. وتعتمد الصهيونية في ذلك على هيئتين ماليتين قوميتين الأولى (الاعتماد القومي اليهودي) المذكورة، ومهمتها شراء الأراضي الزراعية في فلسطين. والثاني (الكرن هيسود) ومهمتها أن تقدم الأموال اللازمة للمهاجرين لتسهيل الاستعمار والاستقرار والتربية وما يتعلق بها. وتطبيقا لعهد بلفور وصك الانتداب فتح الإنكليز أبواب فلسطين على مصاريعها للهجرة اليهودية، فوفد عليها اليهود آلافا مؤلفة من جميع أنحاء العالم، واشترى اليهود مساحات شاسعة من الأراضي في جميع أنحاء فلسطين، وأقيمت عليها المستعمرات اليهودية الزراعية والصناعية. وقامت (اللجنة التنفيذية الصهيونية) في بيت المقدس لتنظم الاستعمار اليهودي بمعاونة حكومة فلسطين تطبيقا للمادة الرابعة من صك الانتداب، واستأثرت لدى الحكومة بكل نفوذ، واستولى اليهود على معظم المناصب الهامة؛ وعلى الجملة استطاع اليهود في أعوام قليلة أن يستأثروا بأعظم قسط من مرافق فلسطين الجوهرية اقتصادية وغيرها هذا، وقد بذلت الصهيونية جهودا عظيمة لأحياء تراث اليهودية الفكري والروحي، فأنشئت في ظاهر بيت المقدس منذ سنة 1925 جامعة عبرية كبيرة تعمل على إحياء هذا التراث؛ وأنشئت مكتبة يهودية عظيمة، كما أنشئت طائفة كبيرة من المدارس اليهودية في جميع أنحاء فلسطين، جعل التعليم بها باللغة العبرية؛ واتخذت العبرية إلى جانب العربية والإنكليزية لغة رسمية للتخاطب والمعاملات، وأنشئت عدة صحف يهودية عبرية، وبذلت على العموم مجهودات عظيمة لأحياء الثقافة والتقاليد اليهودية

وهكذا سارت الصهيونية في إنشاء الوطن القومي اليهودي بفلسطين بخطوات سريعة تسدد كل خطوة منها الملايين الطائلة، والسياسة الإنكليزية من ورائها تؤيد جهودها وتحمي مرافقها ومشروعاتها.

وقد بلغ الاحتشاد اليهودي في فلسطين مبلغا عظيما؛ فقبل عهد بلفور لم يكن عدد اليهود بفلسطين يزيد على بضعة آلاف معظمهم من اليهود المحليين، ولكن عددهم حسب إحصاء سنة 1922 بلغ 87، 794 من مجموع قدره 757 ألفا؛ وبلغ حسب إحصاء سنة 1929 - 149، 554 من مجموع قدره 794، 906 آلاف - ويبلغ اليوم حوالي مائتي ألف من مجموع قدره مليون نفس. وأعظم احتشاد يهودي في (مدينة) تل أفيف وهي مدينة يهودية محضة أنشئت على الطراز الأوربي، ويبلغ سكانها اليوم

زهاء ستين ألفا. والهجرة اليهودية ما زالت تتدفق على فلسطين بنسبة مزعجة ولا سيما عقب حوادث ألمانيا الأخيرة، حيث اضطرمت خصومة السامية من جديد ولقي اليهود نوبة اضطهاد جديدة شاملة.

وقد يلوح مما تقدم أن الصهيونية قد أحرزت نجاحا لا شك فيه، وان الوطن القومي اليهودي يقوم اليوم في فلسطين على أسس ثابتة، وان حلم هرتسل في قيام دولة يهودية موحدة يسير نحو التحقيق. ذلك أن الصهيونية قد استطاعت من الوجهة الدولية أن تحصل على العهود والمواثيق اللازمة للاعتراف بالوطن القومي اليهودي كوحدة سياسية ذات وجود، وعلى الضمانات الكفيلة بتأييده وحمايته، واستطاعت من الوجهة المادية أن تقوم في فلسطين بطائفة كبيرة من الجهود المادية والإنشائية لإقامة هذا الوطن القومي طبق ما فصلنا. ولكن الحقيقة التي لا ريب فيها هي أن الحركة الصهيونية تقوم من الوجهة التاريخية والدولية على أسس وبواعث فاسدة مضطربة، وجهودها في سبيل إنشاء الوطن القومي اليهودي تسيرها في الواقع عوامل مصطنعة. ثم هي بعد هذه الجهود كلها لا تستطيع أن تطمئن لمصيرها في فلسطين، ولا تستطيع أن تغفل إرادة العرب بعد أن تجلت هذه الإرادة أكثر من مرة قوية متقدمة بتحطيم هذا الصرح اليهودي المصطنع. ذلك أن الصهيونية الحديثة لم تكن مستقلة النشأة، وإنما كانت بالأخص نتيجة لخصومة السامية أو حركات الاضطهاد ضد اليهود في أوربا، وكانت وما زالت تتبع هذه الخصومة قوة وضعفا، فإذا اضطرمت خصومة السامية، اضطرمت الصهيونية بفورة مؤقتة من الحماسة، وإذا خبت فتر روح الصهيونية المعنوية. وفكرة الوطن القومي اليهودي تقوم من الوجهة التاريخية على أن أرض فلسطين كانت قبل ألفي عام وطن الشعب اليهودي ومهاد مجده، وإنها ما زالت برغم كر الأحقاب مثوى تراثه الروحي وذكرياته المقدسة. وهي فكرة ظاهرة الخطل والإغراق؛ ففلسطين عربية إسلامية منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا، ولم تعرف خلال هذه الآماد الطويلة من أثر اليهودية سوى ذكرى التاريخ؛ ولو كانت ذكرى التاريخ تصح سندا لاستعادة الأوطان الغابرة لما كان لشعب أن يبقى اليوم في الأرض التي يحتلها. واليهودية لا وطن لها منذ ألفي عام؛ وقد استقرت منذ الحقب أشتاتا في سائر أنحاء الأرض، وفقدت لغتها وكثيرا من خواصها ومميزاتها القومية؛ ولم تبق اليهودية جنسا موحدا، وإنما هي دين فقط. وقد كان مزجها بين فكرة الدين والجنس من أهم عوامل اضطهادها، لأنها برغم نزولها في مختلف الأوطان وتأثرها بمؤثرات الإقليم والوسط، تأبى إلا أن تعيش دائما في معزل، وتنكر دائما جنسيتها المكتسبة بتعاقب القرون، وتتخذ دائما من الدين جنسية مستقلة. وقد كان هذا الفهم الخاطئ لنظرية الجنسية موضع الإنكار والنقد من بعض مفكري اليهودية الممتازين مثل مندلزون ولسبخ، فقد رأوا أن تتخذ اليهودية أوطانها القومية حيثما حلت مع احتفاظها بتراثها الروحي.

هذا، ومن جهة أخرى فان الصهيونية لم تحسب حساب العرب؛ وقد رأت بالأدلة المادية أن التأييد المسلح الذي أخذته بريطانيا على نفسها لا يكفي لسلامة الوطن القومي اليهودي، وان إرادة العرب أصحاب البلاد يجب أن يحسب لها أكبر حساب. وقد ظهرت هذه الإرادة قوية مضطرمة في حوادث أغسطس سنة 1929؛ ثم ظهرت في حوادث فلسطين الأخيرة التي جاءت أقطع حجة على أن فلسطين العربية ما زالت تجيش بقوى معنوية لا تقدر. وهذه الانفجارات القومية القوية التي تضطرم بها فلسطين من وقت لآخر هي وثبات شعب يريد الذود عن حياته وكيانه. فقد رأينا كيف نزعت أراضي العرب من أيديهم، وكيف سلبوا كل مرافقهم ومصالحهم الجوهرية، وكيف فتحت بلادهم لتلقي سيل الهجرة اليهودية تنفيذا لعهد بلفور وصك الانتداب. وقد أقرت لجنة التحقيق البريطانية التي انتدبت على أثر حوادث سنة 1929 عدالة كثير من المظالم التي نزلت بالعرب، ولا سيما مسألة الأراضي ومسألة الهجرة اليهودية. ولكن السياسة البريطانية لم تغير شيئا من مسلكها، وما زالت تؤيد غزو الصهيونية لفلسطين بكل قواها. وقد وصل اقتناء اليهود لأراضي العرب في العهد الأخير ووصلت الهجرة اليهودية إلى حدود خطرة، وشعر العرب بالضغط عليهم وعلى مرافقهم يشتد إلى الغاية، فكان الانفجار الأخير؛ وكان أن أثبتت فلسطين مرة أخرى أنها ستقاوم هذا الغزو البربري المنظم بكل ما وسعت من قوة؛ وشعرت اليهودية مرة أخرى أن الوطن القومي اليهودي إنما هو لعبة خطرة لا تزال تنقصها كل

عناصر السلامة والطمأنينة؛ وكان لحوادث فلسطين الأخيرة وقع عميق في العالم العربي والإسلامي كله؛ فعرفت اليهودية مرة أخرى أن فلسطين لا تقف وحيدة في ميدان النضال، وان من ورائها الأمم العربية والإسلامية كلها تشد أزرها بجميع قواها المعنوية؛ وعرفت اليهودية مرة أخرى أن الوطن القومي اليهودي لا يقوم في قلب فلسطين فقط، وإنما يقوم في قلب العالم العربي والإسلامي كله على بركان من الخصومة المشتركة، وان عليها إذا أرادت البقاء في فلسطين أن تتأهب لمنازلة العالم العربي والإسلامي كله.

الشافعي واضع علم أصول الفقه

للأستاذ مصطفى عبد الرزاق

أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية الآداب

الشافعي هو أحد الأئمة الأربعة الفقهاء: أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي المتوفى سنة (1500هـ - 767م) وأبي عبد الله مالك بن أنس الأصبحي المدني المتوفى سنة (179هـ - 795م) وأبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي المكي المتوفى سنة (204هـ - 820م) وأبي عبد الله أحمد بن حنبل البغدادي المتوفى سنة (241هـ - 855م)

وهؤلاء الأئمة هم اللذين استقرت مذاهبهم في الفقه الإسلامي بين جمهور المسلمين منذ نحو ألف عام.

وتلاشى ما عداها من المذاهب كمذهب (الحسن البصري) المتوفى سنة (161هـ - 777م) ومذهب (سفيان الثوري) المتوفى سنة (161هـ - 777م) ومذهب (عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي) المتوفى سنة (240هـ - 854م) ومذهب (محمد بن جرير الطبري) المتوفى سنة (310هـ - 922م)

وطالت مدة المذهب الظاهري الذي أسسه (داود بن علي الأصفهاني)) المتوفى سنة (270هـ - 883م) وزاحم المذاهب الأربعة ودرس بعد القرن الثامن

والتنافس بين المذاهب الأربعة على الغلبة والانتشار والسلطان قديم يرجع إلى عهودها الأولى، ولعل بعض آثاره لا تزال باقية إلى اليوم والآن كان هذا التنافس قد أدى في بعض الأحايين إلى إثارة أحقاد وفتن بين العامة فانه في أكثر أمره كان سبب حياة عقلية ونشاط فكري وتسابق إلى الإتقان والكمال في البحث العلمي فان أهل كل مذهب كانوا لا يفتأون يتفننون في جعل مذهبهم ميسراً لإفهام الناس وأذواقهم، متسعا لما يتجدد من حاجاتهم، متميزا بلطف الاستنباط وحسن التخريج، وكثرة الجمع للمسائل، وجودة التأليف حتى أصبحت علوم الأحكام الشرعية أكمل مظهر للمجهود العقلي العظيم في الإسلام بوفرة أبحاثها ومؤلفاتها التي لا يحصى عديدها وبما في كثير من هذه المؤلفات والأبحاث من ابتكار وإبداع

لا جرم كان التراث الفقهي الإسلامي من أنفس ما ادخر البشر من مباحث المتفقهين. ولا

نزاع في أن لأشخاص واضعي المذاهب أثراً في رواج مذاهبهم وإقبال الناس عليهم وتغلبها على ما عداها. وقلما تمتاز عند الجمهور مقالات المفكرين عن صورهم وأشخاصهم.

ومن أجل هذا كان من وسائل أهل المذاهب الأربعة لنشر مذاهبهم والدعوة لها: وضع المصنفات في مناقب الأئمة أصحاب هذه المذاهب، وفي الترجمة لحياتهم على وجه يبرز فضائلهم ويبين مزايا مذاهبهم وقد تفرد الأئمة الأربعة بكثرة ما دون من المؤلفات في تراجمهم حتى ليقول (أبو زكريا النووي) المتوفى سنة 676هـ - 1277م في شرحه للمهذب المسمى بالمجموع: (وقد أكثر العلماء من المصنفات في مناقب الشافعي رحمه الله وأحواله من المتقدمين كداود الظاهري وآخرين.، ومن المتأخرين كالبيهقي وخلائق لا يحصون)

ويقول أبو حفص عمر بن أبي الحسن الشافعي المعروف بابن الملقن في كتابه (العقد المذهب في تاريخ المذهب) المؤلف في القرن الثامن الهجري: (وترجمة الشافعي حذفناها في هذا المؤلف لأنها أفردت تأليفا فبلغت نحو أربعين مؤلفا)

على إن كثرة هذه المؤلفات وان وفرت للمؤرخ مراجع البحث فإنها تقوم في الغالب على العصبية لإمام على إمام، فلا تخلو من سرف في المدح وسرف في الذم، وجدل

فيما ينسب لهذا من المناقب وما ينسب لهذا من الهنات، ولا تخلو من اعتماد على روايات ظاهرة البطلان وعلى الأحلام والرؤى.
ومن أمثلة ذلك: ما ورد في كتاب مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان لمحمد بن شهاب المعروف بابن البزاز الكردي صاحب فتاوي البزازية المتوفى سنة 827هـ 1423م، من عقد فصل لصفة الإمام في التوراة.
وقلما تجد كتابا في مناقب الأئمة ألا وفيه باب لما رأى الإمام المترجم له في المنام وما رؤى له.
نعم لكل ذلك وزنه ودلالته في نظر الباحث، لكن التقصي لهذه المقالات في مصادرها والمقارنة بين رواياتها المختلفة واعتبار حجج المثبتين لها والمزيفين مما لا يدخل في غرضنا ولا يتسع له المقام.
غرضنا من هذا البحث أن ندرس ما يتعلق بأثر الشافعي في تكوين العلم الإسلامي.
ولما كان وصف الأثر العلمي للأمام يستدعي تصوير شخصيه التي صدر عنها هذا الأثر، فأنى اجعل هذا البحث قسمين:
- ما يتعلق بالشافعي في خاصة نفسه من نشأته وسيرته.
- ما يتعلق بأثر الشافعي في وضع علم (أصول الفقه) وأتناولهما على هذا الترتيب.
أ - نشأة الشافعي وسيرته
يقول أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري المالكي المتوفى سنة 463هـ في كتابه (الانتقاء في فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء: مالك، والشافعي، وأبي حنيفة رضي الله عنهم) لإخلاف علمته بين أهل العلم والمعرفة بأيام الناس من أهل السير والعلم بالخبر والمعرفة بأنساب قريش وغيرها من العرب، وأهل الحديث والفقه أن الفقيه الشافعي رضي الله عنه هو محمد بن إدريس بن العباس ابن عثمان بن شافع بن السائب بن عبي ابن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف ابن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن قهر بن مالك بن النضر بن كنانة، ويجتمع مع النبي صلى الله عليه وسلم في عبد مناف بن قصي، والنبي صلى الله عليه وسلم (محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف).
والشافعي محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع، وإلى شافع ينسب، وقد تقدم انه شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد ابن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف بن قصي.
فالنبي صلى الله عليه وسلم هاشمي، والشافعي مطلبي، وهاشم والمطلب أخوان ابنا عبد مناف، ولعبد مناف أربعة بنون: هاشم والمطلب ونوفل وعبد شمس (ص66) وهذا الذي لم يكن يعرف فيه ابن عبد البر خلافا من نسب الشافعي قد حدث فيه الخلاف.
قال فخر الدين محمد بن عمر الرازي المتوفى سنة 606هـ - 1209م في كتابه في مناقب الإمام الشافعي:
وطعن الجرجاني وهو واحد من فقهاء الحنفية في هذا النسب وقال: إن أصحاب مالك) لا يسلمون أن نسب الشافعي رضي الله تعالى عنه من قريش، بل يزعمون أن شافعا كان مولى لأبي لهب فطلب من عمر أن يجعله من موالي قريش فامتنع، فطلب من عثمان ذلك ففعل، فعلى هذا التقدير يكون الشافعي رضي الله تعالى عنه من الموالي (لا من قريش).
ص5
وعرض الرازي للرد على هذه الدعوى بما لا نرى حاجة للإطالة به ما دام صاحب الطعن يعزوه إلى أصحاب مالك، وقد نقلنا عن أمام من أئمة المالكية ما ينقض هذه الدعوى التي يقول في أمرها الرازي: (واعلم أن الجرجاني إنما أقدم على هذا البهتان لأن الناس اتفقوا على أن أبا حنيفة كان من الموالي، ألا انهم اختلفوا في انه كان من موالي العتاقةأو من موالي الحلف والنصرة، وطال كلامهم في هذا الباب وأراد أن يقابل ذلك بمثل هذا البهت، وما مثله في إلا كما قال الله تعالى: (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون)) ص7 و8
وقد يكون اصل هذه الحكاية ما ذكره الخطيب البغدادي في ترجمة للشافعي من أن أم شافع أم ولد.
فالشافعي من جهة أبيه قريشي مطلبي ليس في ذلك نزاع يقام له وزن، وان كانت أم

جده ليست من العرب.
وقد ذكر الكثيرون ممن ترجم للشافعي: إن جده السائب اسلم يوم بدر، وكان صاحب راية بني هاشم مع المشركين فأسر ففدى نفسه وأسلم وروى: انه اشتكى فقال عمر: اذهبوا بنا نعود السائب ابن عبيد فانه من قريش، قال النبي صلى الله عليه وسلم: حين أتى به وبعمه العباس: هذا أخي.
أما ابنه شافع فلقي النبي وهو مترعرع، فالسائب بن عبيد صحابي، وابنه شافع صحابي، وأخوه عبد الله بن السائب والي مكة صحابي.
وروى ابن حجر العسقلاني الشافعي المتوفى سنة (852هـ - 1448م) في كتاب (الإصابة في تمييز الصحابة) عند الكلام على عبد يزيد بن هاشم بن المطلب روايات قال على أثرها:
وعلى هذا فيكون في النسب أربعة أنفس في نسق من الصحابة: عبد يزيد وولده) ج8 ص193 (عبيد، وولده السائب بن عبيد، وولده شافع بن السائب
ويظهر أن بيت الشافعي كان بيت حكم وعلم في مكة. فقد رأينا أن عبد الله بن السائب أخا شافع بن السائب كان واليا لمكة.
وقال ابن حجر العسقلاني في كتابه (توالي التأسيس بمعالي ابن إدريس): (وأما عثمان بن شافع فعاش إلى خلافة أبي العباس السفاح) وله ذكر في قصة بني المطلب لما أراد السفاح إخراجهم من الخمس وأفراده لبني هاشم، فقام عثمان في ذلك حتى رده على ما كان عليه في زمن النبي صلى الله عليه وسلم) ص45
وذكر ابن عبد البر فيمن أخذ عن الشافعي علمه من أهل مكة أبا إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن العباس بن عثمان بن شافع قال: (وهو ابن عمه، وروى أيضا عن ابن عيينة وغيره وكان، ثقة حافظاً للحديث ولم ينتشر عنه كبير شيء في الفقه، وكان منشؤه بمكة وتوفي بها سنة سبع وثلاثين ومائتين، وحدث عن جماعة) ص104
ولسنا نعرف من أمر إدريس والد الشافعي إلا انه كان رجلا حجازيا قليل ذات اليد، وانه خرج مهاجرا من المدينة حين ظهر فيها، بعض ما يكرهه، أو خرج من مكة إلى الشام لحاجة في رواية اخرى، وأقام بغزة أو بعسقلان من بلاد فلسطين ثم مات بعد مولد الشافعي بقليل.
أما أم الشافعي فهي أزدية في ارجح الروايات، وهي الرواية المشهورة المعزوة إلى الإمام نفسه، وذكر بعض المؤرخين أن كنينها (أم حبيبة الأزدية).
ونقل بعض أصحاب التراجم أن أم الشافعي هي فاطمة بنت عبيد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب.
وقيل: فاطمة بنت عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي.
وقالوا: إنهم لا يعلمون هاشميا ولدته هاشمية إلا علي بن أبي طالب والشافعي.
ورجح هذا القول ابن السبكي في كتاب (طبقات الشافعية الكبرى) لكن الفخر الرازي يرى: إن هذا القول شاذ، ويقول ابن حجر العسقلاني: انه لم يثبت ويرده كلام الشافعي نفسه. قال ابن السبكي: (ولله درها من أي قبيلة كانت!).
قال ابن حجر: (ومن ظريف ما يحكى عن أم الشافعي من الحذق: إنها شهدت عن قاضي مكة وهي اخرى مع رجل. فأراد القاضي أن يفرق بين المرأتين، فقالت له أم الشافعي: ليس لك ذلك، لأن الله سبحانه وتعالى يقول: (أن تظل إحداهما فتذكر تحداهما الأخرى) فرجح القاضي لها في ذلك. وهذا فرع غريب واستنباط قوي).
ولو أن أم الشافعي كانت بهذه المثابة من دقة التفريع وقوة الاستنباط لعرف التاريخ على الأقل اسمها وعرف أين وافاها حمامها وفي أي زمن.
هذه السيدة التي يختلفون في نسبها ويختلفون في اسمها هي التي كفلت طفلها يتيما غريبا فقيراً، ولم تزل ترعاه بعنايتها وتتولاه بهديها حتى أصبح بين المسلمين إماماً.
خرج إدريس بن العباس والد الشافعي من مكة مهاجراً يفر من الظلم أو يفر من الفقر أو يفر من كليهما، وقد يكون في طريقه إلى فلسطين أقام في المدينة زمنا، فقال بعض الرواة: إن هجرته كانت من المدينة ثم نزل في غزة أو في عسقلان، وهما ثغران من ثغور فلسطين متجاوران، وعسقلان هي المدينة، وأقام هناك مع زوجه التي وضعت له طفلا ذكرا لم يكد يتنسم الحياة حتى أدرك الموت أباه.

هذا مولد الشافعي، ولا خلاف بين الرواة في أن الشافعي ولد (سنة 150 هـ - وهي السنة التي مات فيها أبو حنيفة على الصحيح كما ذكر ابن حجر وغيره.

جنون الشباب

أفْدي بروحي الْغَانيا ... ت المائسات قُدُود هنَّهْ
الخالعاتِ عَلى الحيا ... ةِ روَاءها بجمالِهِنَّهْ
النَّاعمات الْغيدِ يُرْ ... شَف كالْمُدامَةِ ريقهنَّهْ
الْباعثاتِ بِكلِّ قَلْـ ... بٍ وَجْدَهُ ألْحَاظهنَّهْ
يَمرْحْنَ في ظِلِّ الشَّبا ... بِ فَتَرْقصُ الدُّنيَا لهنَّهْ
خطَوَاتهنَّ عَلَى الفؤا ... دِ كأنَّها وقْع الأسنَّهْ
الشِّعْرُ والسِّحْرُ الحلا ... لُ وفتنة الألبابِ هَنَّهْ
وإذا أرَدْنَ جَعَلْنَ مِنْ ... صَحْراءٍ هذا العَيْشِ جنَّهْ
لِلّهِ يَوْمٌ كُنت في ... هـ صريعَ نَبْلِ جفونهنَّهْ
ما أعْذَبَ الألمَ الَّذي ... يَصْلاهُ قَلْبي عِنْدَهنَّهْ!
آمَنْت بالحُسنِ المبي ... نِ وهِمْتُ مِنْهُ بكلِّ فتنهْ
لَوْلا الْجَمال لكانتِ الدُّ ... نْيا كأسْدافِ الدُّجهْ
ياطيبَ أحْلامَ الصِّبى ... مِنْ بَلْسَم يا طيبهنَّهْ!
إنَّ الحياةَ هي الشَّبا ... بُ فان تولى فَهْيَمحْنَهْ
رقَّ النسيمُ ورجَّع الْ ... غريدُ في الأغصان لَحْنَهْ
فاغْنَمْ ربيعَ العُمْرِ غضّ ... اً، فالشَّباب هوىً وجِنَّهْ

دمشق. حلمي اللحام

راعي الغنم

يا ليتني راعياً غنما ... في البر أقضي الحياة منفردا
لي أمة أينما ذهبت معي ... تذهب لما ارتضتهدايهدى //
أمة ضأن قد ارتضيت بها ... أهلا كما اخترت ولدها ولدا
فكل صبح نمضي إلى وطن ... وكل يوم نبني لنا بلدا
موطننا حيثما يطيب لنا ... وكل أرض عشنا بها رغدا
آنس فيها اما وجدت أسى ... أو تلتجي لي إمارات أحدا
حينا تراني كالفيلسوف بها ... يضرب في الكون ناظري صعدا
وتارة شادياً أردد في ... لحني وأصغي إذ تستعجل صدى
تهيج نايي النعاج ثاغية ... مثال جوقين بالغنا اتحدا
وتارة أغتدي لها ملكاً ... تطيعأمري مهما رفعت يدا
وكيف أرضى بذبحواحدة ... منها وقد أغدقت علي ندى
تأكل عشبالثربوترضعني ... دَراً وتكسو بالصوف لي جسدا
عمري عيشي في الضان لأعمر ... يذهبينالوربعلى سدى

أحمد الصافي النجفي

الكروان

ألاَ أيها الكروان صَحَّتْ لك الرُّبَى ... وطابت مَجانيها ففيمَ تَصيحُ
أراكَ كأن الوَجْدَ أشجاكَ والأسى ... رماكَ فتَغْدو وَالِها وتروح
كأنك والأشجارُ أعوادُ مِنْبرٍ ... خطيبٌ لأرباب الهوَى ونَصيحُ
ألا غنِّني وأنشدْ فُؤاداً أضلَّهُ ... عُيونُ المَها عَلَّ الفُؤاد يلوحُ
وآسِ بِما توحيهِ قلبي فَربَّما ... تَفَرَّح قلْبُ المَرْءِ وهو صحيحُ

محمد محمود الرافعي

في الأدب العربي

الطبيعة في شعر ابن خفاجة

1

في سنة 450 للهجرة ولد الشاعر أبو إسحاق إبراهيم بن خفاجة في الأندلس في جزيرة شقر ونشأ فيها كما ينشأ غيره حسب نظام الحياة في تلك العصور على أخذ اللغة العربية عن الرواة والنحويين، وعلى تلقن أحكام الفقه عن الفقهاء والمعلمين، حتى كانت له في الفقه مكانة لم ينكرها معاصروه فلقبوه بالفقيه.

ربما خطر ببالك أننا سنأخذ بعد هذه المقدمة في وصف حياة الشاعر بعد زمن التعلم، وربما لاح لك أن حياته بعد أن صارت له بالفقه تلك المكانة ستكون مملوءة بالأحاديث العلمية والمجادلات الدينية وانه سوف لا يخرج من مجلس علماء إلا ويدخل في مجلس فقهاء، ربما لاح لك أن حياته ستكون بعد أن لقب بالفقيه حياة مدرس جاد أو قاض عادل، أو انه سيسلك سبيل المناصب في الدولة من أمارة أو وزارة، ربما لاح لك ذلك على وجه الظن إن لم يكن على وجه التحقيق، لأنه نتيجة محتومة لحياة التلمذة التي قضاها بين الجد والدرس، وبين مسائل الفقه وأحكام الدين، وبين كتب الكوفيين وكتب البصريين، فنحن نجيبك عما خطر ببالك بالإيجاب، وعما لاح لك بالسلب، ونقول فيه انه كان في طبيعة أبي نؤاس وفي حالة فقيهان غلب عليهما الشعر، وعالمان غلب عليهما الظرف والدعابة

عاش ابن خفاجة في الأندلس وهي يومئذ جنة الله في أرضه، أكسبها موقعها اعتدال المناخ ورقة الهواء، وسقاها الغمام من دموعه، في أكثر أيام السنة، وتفجرت أرضها بالينابيع والجداول في كثير من وديانها، ونبتت الأعشاب والأزهار حول هذه المياه، وقامت فيها الأشجار فلا ترى إذا سرت فيها إلا مياها قوية دافقة، وظلالا وارفة واسعة، في أيام استتب الأمن فيها على يد العرب الفاتحين، وعملت يدهم فيها فأقاموا الجسور وشيدوا القصور وبنوا المدن، ثم خططوا الرياض والبساتين وغرسوا بها الأشجار والأزهار والرياحين، وأسالوا إليها مياه الأنهار والجداول، وأقاموا فيها البرك الجميلة، والبحيرات الواسعة، والمجاري الكثيرة، فدنت قطوفها وكثرت خيراتها، وتحولت من حقول خربة واسعة وأحراش كثيفة إلى بلاد عامرة، ورياض زاهرة، وقصور مشيدة، فتحولت من ملك مضطرب قبل الفتح إلى ملك ثابت وطيد بعده، وتحولت حياتها من حياة ريفية مقلة، إلى حياة مترفة ساحرة

وكان من الطبيعي أن يكون لسكان تلك الأرض عواطف رقيقة ونفوس جميلة لما للطبيعة الماثلة في كل وقت وفي كل مكان أمام أعينهم من أثر، ولما في حياتهم من ترف ونعيم

وابن خفاجة في حياته يمثل لنا الرجل الأندلسي الذي عاش في تلك العصور أحسن تمثيل، وفوق ذلك كان لا يميل إلى مناصب الدولة ولم يكن له عمل من الأعمال العامة، وإنما عاش كما وصفه الأستاذ الزيات في كتابه تاريخ الأدب العربي (عيشة الفنانين خيلع العذار طليق الإسار) وكان له من طبيعته خير مساعد على الهرب بنفسه من بين كتب الفقه والنحو، ومن بين جدران قاعات الدروس والمجالس العلمية، فاقتصر في حياته على مشاهدة طبيعة بلاده الساحرة ومناظرها الزاهية، في اجتماعاته على مجالس الأدباء والشعراء في بياض يومه، وحضور ليالي اللهو والخمر تحت أشجار الأراك بين الأباريق والأقداح وبين الورد والريحان، حتى يمسح الصبح كحل الظلام (فامتلأت عينه ونفسه من جمالها، وراح يبرز هذا الجمال المعنوي في حلل شعرية)

الممنا في المقدمة السابقة إلمامة قصيرة بوصف طبيعة الأندلس، وطبيعة ابن خفاجة، فالأولى كانت جميلة المناظر، زاهية الألوان، والثانية كانت كوجه البحيرة صفاء وركودا ينعكس فيها كل مشهد من مشاهد الكون جميلا جذابا، وقلنا إن طبيعة ابن خفاجة أحبت طبيعة بلاده حبا بلغ به حد الغرام حتى هجر حياة الدرس وحياة العمل واقتصر على حياة كحياة الفنانين الذين ينقطعون إلى مشاهدة مناظر الحياة التي تتعلق بفنهم، ولعلك ترانا محتاجين إلى مثل هذه المقدمة، فان الموضوع الذي كلفنا أنفسنا بحثه يحتاج إلى مثل هذه المقدمة، إذ كل ما نقصد من هذا الموضوع أن نقدم بين يديك الصور التي اجتلاها بن خفاجة عن الطبيعة.

ترى الطبيعة في شعر ابن خفاجة ماثلة واضحة، تقرأ له القطعة فترى وتسمع وتشم. ترى الناظر واضحة جلية، وترى خضرة الأشجار، وحمرة الأثمار، وبياض الحباب، وصفرة الشمس، وترى ذهب الأصيل ولجين الماء وزرقة السماء، ثم تسمع نشيد المغني ووقع الرباب وغناء الحمام، ورنين المكاء وخرير الماء، وتشم عرف الروضة الغناء، وأريج

الأزهار البيضاء، ورائحة الورد الحمراء، ثم تقرأ له من التشبيه الساحر والطباق الدقيق، والكتابة اللطيفة ما لا يخرج عن الربا الخضراء والوهاد الشجراء والأدواح اللفاء، وما لا يخرج عن العنبر والعرار والسوسن والأقحوان. إن بلاداً يصفها الشاعر فيما يصف فيقول:

يا أهل أندلس لله دركمو ... ماءوظلوأنهاروأشجار
ماجنةالخلدإلا فيدياركمو ... ولو تخيرت هذا كنت أختار
لا تحسبو بعد ذا إن تدخلوا سقرا ... فليس تدخل بعدالجنة النار

وان حياة يحياها الشاعر كما وصفها فيقول:

إنما العيش مدام أحمر ... قاميسقيهغلامأحور
وعلى الأقداح والأداوح من ... حبنور وتبرأصفر
فكأن الدوح كأسأزبدت ... وكأن الكأس دوح مزهر

إن تلك الأرض وهذه الحياة لدليل واضح على صفاء نفسه ودقة حسه، وعلى تأثيره بمشاهد أرضه إلى حد يشبه جنون الفنانين فقد كان يذكر الطبيعة في مواقفه التي وقفها راثيا باكيا وفي مواقفه التي وقفها زاهدا متململا، وفي مواقفه التي وقفها معاتبا ممضا، وفي مواقفه التي وقفها مادحا يمدح الإخوان والقضاة، وفي مواقفه مداعبا إخوان الود ورفاق اللهو والسمر

لقد كان للطبيعة في لطف نفس الشاعر ورقة حسه أثر، وكان للطبيعة في شعره ظل، وكان للطبيعة في كل أغراضه التي قال بها الشعر ذكر، فهو (شاعر الطبيعة ومصورها) كما قال الأستاذ الزيات

2

نفس الشاعر:

لأبن خفاجة في شعره صورة صادقة من طبيعة نفسه ففي قوله:

إنما العيش مدام أحمر ... قام يسقيه غلام أحور

إلى آخر الأبيات صورة لتلك النفس التي لا ترتاح إلا إلى خمرة حمراء من يد جميل أحور في ظل الدوح المزهر

فهو لا يرى في الحياة شيئا غير هذا، أو كأنه لا يريد أن يرى في الحياة شيئا غير ما ذكر،

أو قل أنه يضع بذلك نموذجا للحياة اللذيذة كيف تكون، ألا ترى أنه كيف عكف على رشف الكؤوس الحمراء ومراقصة الأغصان الخضراء:

عاظر إخلاءك المداما ... واستسق للأيكة الغماما
وراقص الغصن وهو رطب ... يقطر أو طارحالحماما

فهو لا يرى للحياة أن تنهك الأذهان بالتفكير فيها، ولا يرى لها أن تهلك المرء بالعمل لها، وليس للحياة أن نجعل من الإنسان عبداً ذليلا للجد والعمل. ولكنه يرى أن تكون الحياة ألهية جميلة يتلهى بها الإنسان عن مشاقها، ويتسلى بها عن أحزانها، ويرتاح لها، ولا يرى في الحياة ألذ من رشف الكأس الوردية، ولا أروح للنفس من مراقصة الأغصان الرطبة، ولا ألذ في السمع من مطارحة الحمام ولا أجمل في العين من ألوان النور في الصباح والمساء في الروضة الغناء، فابن خفاجة لا تطيب له الحياة إلا عند شواطئ الجداول والينابيع وتحت ظلال الأدواح، وبين الأباريق والأقداح انظر إليه كيف يقول:

أمالديك حلاوة ... أما عليك طلاوة
طايب وداعب ولاعب ... واترك سجايا البداوة

فكأن حياة الجد وطبيعة الانقباض والوحشة لا توافق مذهبه أو قل لا تتشابه ولا تتجانس مع طبيعته التي تتعشق السرور ونفسه التي تحب اللهو والعبث.

لم يبق بعد هذا من شك في أن طبيعة الرجل كانت طبيعة سرور وطرب، بل كانت فوق ذلك طبيعة متفائل يهزأ بمصاعب الحياة وليس من شك في أن نفسه كانت تميل إلى الهزل وتميل إلى العبث، بل ليس من شك في أن حياته كانت حياة مستهتر يهرب من وجه الحياة العابس إلى وجهها الضاحك، فلم يتول عملا من الأعمال العامة. ولم يتصد لمدح الأمراء والوزراء والملوك على كثرة تهافت العلماء عليهم، وعلى حاجة الملوك إلى أمثاله.

هنالك ملاحظة أخرى: هي أن ابن خفاجة كان على علمه وفقهه لا يشتغل بالعلم ولا بالفقه، ولعله كان يعتقد أن للعلم فضيلة في ذاته وان على الإنسان أن يتعلم العلم لا ليجعله آلة تدر عليه المال، بل كان يعتقد أن العلم جمال لأهله وزينة لهم. ومثل هذا الاعتقاد نجده في قوله:

درسوا العلوم ليملكوا بجدالهم ... فيها صدورمراتبومجالس
وتزهدوا حتىأصابوافرصة ... في أخذ مال مساجد وكنائس

فهو ينعى على أولئك الذين يجعلون العلم وسيلة لتصدر المجالس، ولنهب المساجد والكنائس، ويعيب عليهم ذلك. ولعل هذا هو السبب الذي دعا ابن خفاجة إلى أن يعرض عن مجالسة علماء عصره وأن يصدف عن مجالس العلم ومسائل الفقه، وأن يقتصر في مجالسه على مجالس الأدباء والشعراء، وأن يقتصر في أحاديثه على ذكر المتنزهات، وأن يقتصر في شعره على وصف الطبيعة:

هذه هي الصورة الواضحة التي نراها للرجل في شعره. نفس تميل إلى السرور والبهجة وطبيعة تهرب من الجد إلى الهزل، ومن الانقباض إلى الانشراح، ومن اللذة الآجلة إلى اللذة العاجلة، ومن التحجب والحياء والتكلف إلى اللهو والعبث والمجون. فليس بغريب أن تميل هذه النفس وتلك الطبيعة إلى مجالس السرور والطرب وإلى معاطاة المدام، وليس بغريب بعد هذا أن يصف ابن خفاجة في شعره مجالس أنسه، وأن يصور لنا بمقطوعات رائعة الأنهر الفياضة والضفاف الخضراء والرياض الفيح.

- وصف الطبيعة:

وفي وصفه مناظر الطبيعة وفي تشبيهه إياها بمناظر وأشياء تشابهها لا يخرج في كل هذا عن الطبيعة في شيء. فيشبه النهر المتعطف والأزهار النابتة حوله بمجرة السماء.

متعطف مثل السوار كأنه ... والزهر يكنفه مجر سماء
ويشبهه أيضا وقد حفت به الغصون بأهداب العين الزرقاء
وغدت تحف به الغصون كأنها ... هدب يحف بمقلة زرقاء

ويصف موقد قد اشتعلت فيه النار فيقول:

منقسم بين رمادأزرق ... وبينجمرخلفه يلتهب
كأنما خرت سماءفوقه ... وانكدرت ليلا عليه شهب

فهو في وصفه الطبيعة لا يخرج عن الأوصاف والتشبيهات التي تحتويها الطبيعة: فالنهر المتعطف والأزهار النابتة حوله، وزرقة النهر وأغصان الأشجار القائمة على شاطئيه، والموقد المشتعل، والرماد الأزرق والجمر الأحمر، كلها مناظر طبيعية؛ كذلك مجرة السماء والمقلة الزرقاء والسماء المتساقطة، والشهب المنكدرة كلها مناظر طبيعية، من هذا يمكنك
أن تلاحظ إلى أي حد بلغ غرام ابن خفاجة بالطبيعة وحبه لها. وأنظر إليه كيف يصف ما فعل بهم الطرب وكيف يشبه الهلال بالطوق المذهب:

واهتز عطف الغصن من طرب بنا ... وأفتر عنثغرالهلالالمغرب
فكأنهوالحسنمقترنبه ... طوق على برد الغمامة مذهب

فهو يشبه اهتزازهم من شدة الطرب وقت المساء الساحر بالغصن يهتز وينعطف، ثم شبه الهلال الذي ابتسم عند المغرب بطوق ذهبي على برد الغمامة. وقال يصف الصباح الرائع:

والصبح قد صدع الظلام كأنه ... وجه مضيء شف عنه قناع

فقد شبه نور الصبح حين ينتشر فيمحو ظلمة الليل بوجه وضاء شف عنه قناع رقيق. ويصف الصباح في غير موضع فيقول:

وقد مسح الصبح كحل الظلام ... وأطلع فود الدجى أشيبا

فكما أن الصبح المضيء والدجى المظلم من مناظر الطبيعة فكذلك كحل الظلام وفود الدجى الأشيب صورتان عن الليل المظلم والصباح المنير، ويقول في تشبيه الظلام بالكحل والقطر بالعبرات

يجول للغيم كحل ... فيه وللقطر عبره

فلم يخرج في تشبيه الغمامة الدكناء والأمطار الهاطلة عن كحل الكاحل وعن العين المستعبرة، ويشبه خيوط الشمس الذهبية في المساء، ولون الماء الصافي فيقول:

والريح تعبث بالغصون وقد جرى ... ذهب الأصيل على لجين الماء
والذهب الأصفر واللجين الفضي كلها ألوان طبيعية: فكأن ابن خفاجة يحتقر الصناعة ويحتقر ألوانها، فلا يشبه مناظر بلاده التي يراها إلا بمناظر وألوان طبيعية، ولا يصور الطبيعة إلا بألوان وأدوات طبيعية، أو قل أنه رأى أن الصناعة والحياة الاجتماعية أقل مناظر وأقل ألوانا من الطبيعة، فمال عنها إليها يمتع الطرف ويقول الشعر ويصف الشيب والشباب فيقول:
فأحسن من حمام الشيب عندي ... غراب شبيبة ألف النعيبا
فهو يشبه الشيب المخضب بالحناء بالحمام، ويشبه شعر رأسه الأسود في زمن الشباب
بالغراب، ثم يقول: إن نعيب الغراب المشؤوم أحسن عندي من هديل الحمام المحبوب.
ونختم كلامنا الآن بهذه المقطوعة وهي تصف عشية من عشيات الأنس، ولاحظ إذا شئت فيها أنه لا يخرج في تشبيه مناظر الطبيعة عن الطبيعة:
وعشي أنسأضجعتني نشوة ... فيه تمهدمضجعي وتدمث
خلعتعليبهالأراكة ظلها ... والغصن يصغي والحمام يحدث
والشمس تجنح للغروب مريضة ... والرعديرقبوالغمامة تنفث
عبد الرحمن جبير. أدلب
من الأدب الغربي
من كتاب الحب
للكاتب النرويجي بيتر نانزن
نقلا عن الترجمة الألمانية
حبيبتي أشهى النساء إلى النفوس، لقد وهبني غيرها من النساء حبهن فكن يذهبن ويجئن، بعضهن مرة وبعضهن مراراً، أنني أشكر لهن جميعاً، ولكني كنت أنساهن حين يجاوزن عتبة الدار.
على أنني كنت دائما مشغول الفكر بواحدة أخرى، أفكر فيها حتى وأنا مع غيرها، لأنها كانت المثل الذي أقيس عليه الأخريات فلا تستطيع إحداهن أن تكونه.
هي واحدة ليس غير! كنت دائما أرجو أن أظفر بمرآها داخلة من الباب، فان جمالها كان يتجدد في كل مرة أراها.
هي واحدة لا أكثر! كنت أرغب أن أحيا في ظلها، لأن العيش معها يفرغ على الحياة الجمال كله، ويبعث في أفقها أشعة شمس جديدة.
هي واحدة لا أكثر! كنت أشتهي معها الموت، لأني وأنا بجانبها لا أعرف الخوف.
اسم حبيبتي مارية، وهي أجمل النساء.
لست أبالي الثناء الذي يضفي الشاعر حلته على حبيبته الوحيدة، لأن حكمه كحكم الفلاح الجاهل. وغالباً ينطق كل شيء بأنها لا تستحق كل تلك الكلمات الجميلة التي أغتصبها من اللغة لأجلها.
إن الرجل الذي لا يعرف إلا لوناً واحداً ثم يزعم أن هذا اللون - وليكن الأحمر أو الأزرق أو الأصفر - هو أجمل الألوان، فان حكمه وإن اختلف عن حكم الأعمى، لا يعدو حكم الأعشى.
ولو أن لي عشيقة تطمئن إلي وأنا أقول لها انك أول من أحببت، وأنت أنت الوحيدة التي أحببتها، وانك أجمل إنسانة. لو أنها اطمأنت إلى هذا القول لهانت علي وسللت ثوبي من ثوبها، إذ لو كانت على ثقة من قدرها، أو يعنيها أن يزداد حبي لها، لقالت: اتخذ لنفسك عشر عشيقات أو عشرين، واختر منهن من يقتتل عليها الرجال، فإذا ما ملكتهن جميعا ثم
رجعت إلي تصفني بأنني أجمل امرأة في الدنيا فعندئذ أفخر بذلك وأكون سعيدة.
فأنا إن قلت لمارية أنها أجمل من أظلهن الأفق فليخفق قلبها خفقات السرور، فإني ما كنت الأمين في حبها إلا ساعة أيقنت أني أقول الحقيقة. ما عرفت أني جهرت بالحقيقة إلا حين شعرت بأني سأفقدها إلى الأبد.
إنها تجربة الحب التي أرجو أن تقع لكل إنسان، إنها تجربة تبعث الألم لأنها من نار الألم يفصح ويثمر، الحب الذي يذوي بالنزق، ينمو بالألم ويترعرع. فبوركت أيها الألم

لأنك ثبّت في قلبي حب مارية.
عرفتها وهي كالطفلة الغريرة الساذجة، وإني لأراها في ذلك اليوم وهي على ثقة من نفسها، فكانت تحاول أن تظهر كالمجربة، فكانت تتحدث عن الحياة كأنما سبرتها إلى الغور، ولاقت من التجاريب ما كشف لها عن الحياة وزورها، ووقفها على فتنتها وغرورها، فملّت كل شيء وكانت تؤكد - وهي تنظر بعينيها الصافيتين كعيون الأطفال - أنها تفكر حقا في الالتحاق بالدير، لأنها تعلم أن حياة التجرد الهادئة تعينها على احتمال البقية الباقية من الحياة التي فرضها عليها القضاء، فإنها كما كانت تؤكد، ترى أن السعادة في الحب، وقد فرغت من هذا الأمر منذ زمن وقالت: (لقد أحببت خطيبي، وكان طالباً، ولكني الآن أحتقره وأمقت عبارات الحب التي كان يقولها، إنني لا أصلح للحب)
كانت تقول هذا بصوت خافت وقد احمرت وجنتاها وبرقت عيناها، وفي حياء المرأة التي لا تصلح إلا لشيء واحد. . . هو الحب.
عندما وقفت تلك الفتاة الرشيقة أمامي تقص علي تجاريبها المحزنة شعرت بأنني أصبحت عاشقا.
ما كان أجملها وعلى وجهها سمات الألم البريئة، وما كان أحلاها في ثوبها الجميل!
لن أنسى ثوب مارية الجميل ساعة عرفتها لأول مرة. لقد جاء وقت كان فيه لمارية كثير من الثياب. ولكنها أجمل ما تكون في ذلك الثوب الذي كان وحيدها يومئذ. انه ثوب بسيط نصفه الأعلى صدار أبيض موشى له لمعة الحرير وإن لم يكن حريراً وتزر طوقه حول عنقها بمشبك دقيق مموه بالذهب.
كانت ككل فتيات المدن الصغرى يخرجن يوم الأحد للنزهة فتسفر وجوههن عن الجمال و
تنم ثيابهن عن معرفة أمهاتهن بقواعد الاقتصاد
كان هذا الصدار بسيطا ومقبولا لدى الذوق، ولشد ما كانت تحرص على ألا يعلق به قذى. ولما أبى القدر القاسي إلا أن تقع عليه بعض قطرات من النبيذ نشطت في حماسة تغسل تلك البقع (الرذلة) متظاهرة بعدم المبالاة كأن لديها الكثير من الثياب الجميلة الغالية.
يا لك من فتاة صغيرة جميلة لا تحسنين الكذب، فما كان أيسر على المرء أن يستشف قرارة نفسك وأنت منهمكة في التنظيف تؤكدين أنه لم يحدث ضرر لأن الثوب عتيق!
هذا الثوب العتيق هو ثوبك الوحيد. . . . تكاد الدموع تبتدر من عيني كلما خطر ببالي ذاك الخاطر. فمن خلال هذا الصدار الرقيق تروحت لأول مرة شذى جسمك الطيب وشعرت بدقات قلبك المضطربة
في ذلك الوقت كنت أشعر بعطف على تلك الفتاة الصغيرة ذات الصدار الموشى التي كانت تتكلم كذوات السن من النساء، وأعتقد أن لهذا الصدار أثراً كبيراً في ليني ورقتي لمارية، هذا الصدار الذي كان مملكتها الوحيدة والذي كانت تحرص ألا يبلى يقف الرجال غالبا من النساء مواقف الأغبياء لأنهم يكثرون من الحرص والحذر، فالمرأة لا تريد أن تخدع بالكلام ولكنها تحب أن تؤخذ بالقوة فإنهن بلا استثناء يشعرن غريزة بأنهن الجنس الضعيف المغلوب ويردن أن يشعرن بإرادة الرجل وقوته مسيطرة عليهن، وتراهن لسبب لا يستطعن إيضاحه يحتقرن الرجل الذي يتذلل للحصول على رضاهن وهن يعتبرن الرجل الذي يرتد أمام فضائلهن غبياً، لأن هذه الفضائل، في رأيهن، ما عزت إلا لتخضع لليد القوية.
لم أذهب مع مارية ذلك المذهب الحاد لأنني كنت واثقا من أنه سيأتي اليوم الذي ترتمي فيه من تلقاء نفسها بين ذراعي لأن هناك مكانها الطبيعي وقد عرفت ذلك من انكسارها أمام نظرتي وضغطها يدي، عرفت ذلك من أول يوم، إذ وقفت وراءها وهي لا تراني ولا تسمعني وإذا بجسمها يضطرب وتسري فيه الرعدة من فرع إلى قدم.
لم تكن طريقة الهجوم هي الطريقة التي تتبع مع مارية، وقد رقق الصدار الموشى قلبي حتى أنني لم أرغب في أن أمتلكها على غرة.
وكما أن البستاني يفرح بزهرة نادرة ويظل يرقبها يوماً بعد يوم وهي تنمو وتتفتح، فلا يلمسها بيده ولكنه يزيل من حولها العشب والأوراق التي تكتنفها وتضيق عليها، ويعرضها للضوء والحرارة ويتعهدها بالماء والعناية، هكذا ظللت أرقب مارية وهي تنمو

وتتكون امرأة ويشتد غرامها.
كان طبيعيا أن يأتي اليوم الذي تسقط فيه الزهرة بين يدي البستاني الذي ظل ينتظرها بصبر وأناة.
طال صبر البستاني. وفي بعض الأوقات كانت مارية تجتذبني من ذراعي وقد ضرجت وجنتيها الحمرة وتقول لي وقد ملأتها سخرية بنات حواء: (هل أنت غبي؟)
تظن المرأة أنها تتمتع باحترام الرجل لها وإعجابه بها إذا هي ظلت إلى اللحظة الأخيرة تمثل دور المستغواة، ويجمل بالمرأة ألا تتورط في استعمال هذه الألاعيب مع المجربين من الرجال.
ربما كان لهذه الألاعيب تأثير في الذين يرون أنفسهم لصوصا حين يستحوذون على امرأة، ولكن هذه الخدع، التي لا تتنوع ولا تتغير، قد تهيج نفوسنا وتضطرنا إلى الغلظة في الكلام أو المعاملة، وهذا ينتقص الجمال الكامل ويشوه مظهره ويفقد المرأة كثيراً من الذكريات الجميلة في حياتها.
مارية!! يا أرق إنسانة شعوراً! أشكرك لأنك أعفيتني من هذه الخدع والمهازل، من الحياء المتكلف، من الخوف المموه، من الدموع الكاذبة.
مارية كانت لي! ولكني لم أكن لها، أو على الأقل كنت أعتقد ذلك وكانت هي تعرف هذا حتى أنها لا تطمئن إلى خروجي من الباب. إنني أعرف رأيها فقد صارحتني به مراراً ولم أحاول تفنيده لأنها كانت تعجبني كثيراً وهي تبدي رأيها.
كانت شديدة الغيرة، ولكن بذكاء وروية وتسامح.
كانت تعتقد أن لي في اليوم عشر عشيقات.
أيتها الفتيات الصغيرات! إنكن تبالغن في مقدرة الرجل إلى حد بعيد، وتندفعن دائما وراء خيالكن.
في هذه النقطة لم تكن مارية في شيمة غير شيمة بنات جنسها. كانت تزورني لا أقل من ست مرات في كل أسبوع وكانت تجدني كل مرة في انتظارها باشتياق، وبالرغم من هذا
كانت تؤكد، وكذلك يقول كل الناس، أن لي عشرات العشيقات.
لست أنكر أنني كنت أخون مارية في الحين بعد الحين ولكن كنت لها أكثر مما تظن. أما ما يقوله الناس فلست أباليه.
كل الناس!
عبارة أشمئز منها، ديدان تنساب إلى حياتنا المنزلية من ثقب الباب أو من فرجته وتجر معها شيئا من قاذوراتها.
أحكموا إغلاق النوافذ والأبواب، حصنوا حياتكم الخاصة بالحديد والفولاذ، فأنكم بالرغم من ذلك ستجدون (كل الناس) واقفين ينظرون من الخارج ويظنون ظنون السوء ويعلق الوضر بأبوابكم أو نوافذكم.
كل يوم أرى على زجاج نافذتي ذبابة تنفس بها العمر تبدو ضعيفة كأنها لا تستطيع الحراك، ولكني لا أكاد أقترب منها حتى تكون قد طارت بسرعة.
إني أسمع طنينها واصطدامها بالزجاج فأفتح النوافذ جميعها وأطاردها بالمنشفة، فإذا بها تختفي فجأة تحت السرير أو وراء المرآة أو على إطار صورة حيث تقف لا تبدي صوتا.
إنها لا تتركني وتلحق القذى بفراشي وأسمع طنينها المقلق فوق سريري كل يوم.
وذات مساء بينما كانت مارية تنضو عنها ثيابها أمام المرآة وإذا بتلك الذبابة القبيحة تقع على جسمها الأبيض.
أحمد شكري
من الشعر الإنجليزي:
إلى الحرب
للشاعر الأسترالي هيلز يدعو الإنجليز إلى إشراك قومه في حرب جنوب أفريقية
مَاذَا غدَوْتَا؟ أسوُقاً لا تَرَوْنَ لهَا ... لَولاَ تِجارَتُكُمْ قَدْراً ولا شَانا؟
أمْ نَحْنُ بَعضُ بني ذَا المُلْكِ ما بَرحُوا ... مُنَظَّمِينَ بِهِ خَيْلاً ومُرَّانَا؟
فَإنْتَكُنْسنعيشُالدَّهرَفيرَحمٍ ... كالابْنِو الأمِّإخلاصاًوإيمانا

فلْنَحْتَمِلْ مَعَكمْ عبَءالجهاديداً ... ولْنشهدِالرَّوْعأنجاداًوأعوانا
فماأربالشعبَ شعباً يوممَفْخَرهِ ... وَلاَ أَحِسُّ لهعِزَّاوسلطانا
حتى تَزُفَّ بنيها كلُّ والدةٍ ... إلى الرَّدَى مُسفِراً في الرَّوْع عُريانا
ها قد دعتْأَسْتُرالْيافَلْتلبِّ لهَا ... إنْجلتْراو لْتُجيبُواالْيومَ نَجوانا
مِنَّاابْتِسامٌإلى مَنآبَفيغَدِهِ ... لَنَا ودمعُعلَى مَن في الوَغى حانا
سَنَمْتَطي الخيلَ مَع أفذاذِ مَنْ نَجَبَتْ ... إنكلتراوَنخُوضُ الهَوْلأَقْرَانا
لانَبتغيغيرمَيدانٍلِعَسْكرِنَا ... رَحبٍ ومَدْفَنٍ أجْنادٍلقتلانا

فخري أبو السعود

شهيدا الطيران

للأستاذ عبد المغني المنشاوي

هاضت الأقدار للنسر جناحاً ... فتردَّى من علاه في الحُفَرْ
وبكاه ملكَ الموت فصاحا ... كل شيء بقضاء وقدر
كنتَ يا بدرُ سميرَ المَلَكِ ... مَنْ سمير القبر وَهْناً يا تُرَى؟
طرتَ يا حجاجُ فوق الفلكِ ... هل تطير اليوم في جوف الثرى؟
هتفَ الناعي فقلنا كذبَا ... كيف يَهْوى من سماه كوكبُ
أطلعته مصرُ يَروى نسبا ... في علاَها فحواهُ المغربُ
طار يبغي وَكرَهُ مقتحما ... كلَّ لُجٍّ لا يبالي الغَرقا
واحتواه شوقه مضطرما ... فتلظَّى قلبُه فاحترقا
شيَّعوهُ يا لَه مِن كوكب ... كان ملء العين والقلب ضياَء
سارتْ الدنيا له في موكِب ... زلزل الأرض وكم أبكى السماَء
إن غداً جُسمانُه في العَلَمِ ... فهو نَجْم في هلال ونجومْ
أو بدا في الموت كالمبتسم ... فسجينٌ فَرَّ من دار الهمومْ
لا تَشُقِّي مصرُ جيباً بعده ... يفزع الأبطال من شق الجيوب
بل فشقّي كل قلب عندهُ ... ثم قومي فادفنيه في القلوبِ
انثرى الأزهار من بين يديه ... فهو يهوَى في مُنى مصر المنايا
وارتدي صبرك لا تبكي عليه ... إن مجد الشعب تبنيه الضحايا
حبس القبرُ لديه جثةً ... ثم رفَّت روحها كيما تطيرا
فانشَقُوها بيننا ريحانةً ... والمحوها فوقنا بدراً منيرا
صوِّرُوا طائرةً فوق الضريحْ ... وأشهدوا الأنسرِ تهوى للفرارْ
قدمت أرواحها وهو طريح ... فديةً لو صحَّ في الموت الفرارْ
يا نسوِّرَ النيل طيروا في علاهْ ... ورِدوا الكوثر إن عزَّ الورودْ
منحتكم مصرُكم سرَّ الحياهْ ... فامنَحوها كل شيء في الوجودْ
هل رأيتم؟ هذه كفُّ العَلاءِ ... تكتب التاريخَ يا جند الشبابْ
سطرت سفْر الضحايا بالدماءِ ... فادرسوا العلياَء في هذا الكتابْ

العلوم

نذير وبشير

للدكتور أحمد زكي

كل إنسان يحمل داءه، وكل حي يتضمن فناءه، إن فاته المرض، أدركه الكبر وحسبك بالكبر داء، والخلية الصغيرة من نبات أو حيوان، فيها البروتوبلازم، وهي معدن الحياة، ولكنها كذلك معدن الموت، تظل تنشط ما دبت الروح في الجسم، فإذا فارقته نشطت في التلف، في التفكك والتحلل، بمثل نشاطها في الحياة

وجماعات الأحياء على هذه الأرض كالأجسام تصحو حينا وتمرض حينا، وهي مثلها فيها أسباب الفناء، فهي لكي تفنى ليست بحاجة إلى أن ينقضّ عليها نجم أو تهوي من سمائها شمس، بل إن في الأرض كفايتها من أسباب العدم. والحياة على هذه الكرة رهينة بموازنات شتى بين أجناس الحيوانات والنباتات من إنسانها ودوابها وطيرها وحشرها وجراثيمها وطحالبها وفطرها أو حزازيِّها وسرخسيِّها وبذريِّها، موازنات عماده التقاتل المستمر بين هذه الأجناس جميعا، والتآكل الذي لا ينتهي، فما من قبيل إلا يأكل قبيلا، وما من قبيل إلا يأكله قبيل، وقد يزيد حظ هذا القبيل من الحياة وقد ينقص حظ ذلك منها، ولكن الحياة المطلقة في مجموعها ثابتة في هذا النضال. وهو نضال سجال،

لا يغلب فبه غالب كل الغلبة، ولا ينغلب مغلوب كل الانغلاب، إذ لو كان هذا، لاختل التوازن بين جماعات الأحياء، وهو سر استمرار الحياة على النحو الذي نعرفه على سطح هذه البسيطة

والجمعية الإنسانية لا تشذ في ذلك عن جمعيات سائر الخلائق الحية، والتوازن الذي بين الإنسان وبينها لا بد أن يستمر ليعيش هو وليعشنَ هنَّ، فنحن نأكل الحيوان والنبات لنعيش، ونموت ليأكلنا الحيوان والنبات بالتباشر أو بالواسطة، فيعوضا بذلك ما فقدا، ولو أننا أكلنا منهما ثم أكلنا واستمررنا مع ذلك في حياة صريحة لا يخالطها عدم لفني، المأكول ففنى الآكل

إلا أن هذا التوازن قد يختل اختلالا يذهب بجماعة من جماعات الأحياء أو يكاد، وقد حدث في التاريخ أن انقرضت أجناس لا نجد الآن منها غير آثارها. وسؤالنا اليوم هل يجوز على الجمعية الإنسانية ما جاز على تلك الأجناس المنقرضة؟ هل يفسد هذا الاتزان في

ناحية من نواحيه فيهوي بالإنسان إلى فناء محتم، أو على الأقل ينزل به في نظام الأرض إلى منزلة وطيئة وضيعة، تنقصه عدده، وتقل عدته، وتفقده هذه السيطرة المطلقة الحاضرة على سكان هذه اليابسة؟

هذا ما ينذر به (السير ملكولم وتسن) رئيس معهد رس الصحي بلندن، وهو رجل إذا قال استُمِع له، فهو يقول في مقال قريب انه لا يبالغ إذا ارتأى أن المدنية قد تنتهي باضطراد الزيادة في طرق المواصلات اضطرادا سريعا يسبق العلم في مكافحته النتائج السيئة التي تنجم عن صلات قريبة بين مناطق الأرض التي لم تصلها إلى الآن روابط وثيقة. واتخذ مضربا لمثله الحمى الصفراء، وهي حمى فتاكة، تبلغ الوفيات منها 60 في المائة، وقد بلغت في بعض الوافدات 94 ?، وهي تنتقل من فرد إلى فرد بواسطة جنس خاص من البعوض اسمه السليم بعد عضة البعوضة المعدية له لا يظهر عليه المرض في الستة الأيام الأولى ولا يكون عندئذ مصدراً للعدوى، فإذا ظهر عليه المرض كان مصدرا لها في الثلاثة الأيام الأولى فقط من ظهور المرض، فلا بد للبعوض السليم أن يعضه لكي يُعدى المريض في خلال هذه الأيام الثلاثة فحسب.

وهذه البعوضة ذاتها بعد دخول المرض فيها لا تُعدي بالعض إلا بعد عشرة أيام من ذلك، ولكنها خلافا للإنسان تحمل العدوى طول عمرها.

والحمى الصفراء تستوطن الآن غرب أفريقيا من السنجال إلى أنجولا، وبين هذه المنطقة الوبيئة وما جاورها من سائر أفريقيا حواجز طبيعية منيعة، فبينها وبين شمالها الصحراء الكبرى، وبينها وبين غربها جبال منيعة، وفي كلتا الحالتين يستغرق الإنسان للخروج من هذه المنطقة إلى بقية الدنيا أسابيع طويلة مشيا على القدم أو ركوبا على الدواب، فإذا أصاب المسافر عدوى وسافر عقبها فالموت يدركه أو الشفاء، قبل أن يصل إلى غايته شمالا أو غربا. كذلك البعوض المصاب لا يصمد لهذه السفرة الطويلة.

وأما وقد أمكن الآن أن يصل الإنسان إلى تلك المنطقة أو يخرج منها بالسيارة أو القطار أو الطائرات في تسعة أيام فما دونها فقد أصبح من المحتمل أن يُعضّ المسافر في السنجال ويبلغه المرض في مراكش أو تونس أو في مصر. وجنس هذا البعوض موجود في تلك البلاد، فما هي إلا أن يحل بها المريض فيعضه البعوض فتعم البلوى على أن البعوض السنجالي نفسه في

استطاعته أن يسافر على الطائرات، وقد ثبت ذلك فعلا فقد امتحنت مائة طيارة بعد سفر 1250 ميل فوجد أن منها اثنتي عشرة تحمل بعوضا.

وإذا دخل المرض أفريقيا الشمالية والشرقية فلن يقف عند هذا الحد، فهو لابد سائر إلى جزيرة العرب فالهند فالشرق الأقصى، إما أرضا وإما على السفن بحراً وإما في الطيارات جوا، وإذا هو أدرك آسيا انتشر انتشار النار في الهشيم لزحمة السكان، ولوجود هذا البعوض بكثرة لا سيما في المناطق الاستوائية منها، ففي كولومبو بحثوا المنازل بحثا منظما فوجدوا البعوض في 98 ? منها. وكذلك الحال في الملايا

وإذا طغى المرض على أفريقيا وآسيا هذا الطغيان فقد طغى على أكثر من نصف المعمورة فأنقض صرح التجارة وامتنع التبادل بكل أنواعه بين الشرق والغرب ووقفت السفن واعتلت الحياة واهتزت أسس المدنية اهتزازا ينذر بالتداعي.

هذا حلم لا شك مريع يقصه علينا السير (وتسن) لا نريد بروايته إلا التمثيل بما يمكن

أن يحدث للمجتمع الإنساني من جراء قبيل دنيء من الأحياء إذا أعطيت له الفرصة للسيطرة على قبيل الإنسان: جراثيم صغيرة فتاكة صغرت حتى مرَّت في المرشحات البكتريولوجية، ودقت حتى لا تراها الميكروسكوب العادية. ولكن الإنسان بطبيعته يقظ لكل اختلال في اتزان يقع بينه وبين أي قبيل من قبائل الأحياء، ولا أدل على هذه اليقظة من إنذار السير (وتسن) نفسه، ومن إنذارات مثلها سبقته حدت برجال العلم، وهم جنود البشر في هذا النوع من الكفاح من زمن بعيد إلى دراسة هذه الحمى، أصلها، وموطنها، وناقلاتها، وطرق الوقاية منها، ووسيلة علاجها، وقد خطوا في هذه السبيل خطوات واسعة تدلنا على أن النصر تراءى ولو من بعيد. ففي الشهر الذي ينذرنا فيه عالم بالدمار، يبشرنا علماء آخرون أن الأمل كبير في وقاية السليم بالتطعيم. ذلك أنه بادئ بدء استكشفوا أن ميكروب الحمى الصفراء إذا عُرّض للهواء أو لفعل مواد كيمياوية كالفرمالين والفينول والجلسرين يفقد بالتدرج شيئا من حدته، فإذا حقن به السليم عندئذ لا تظهر عليه أعراض المرض الإكلينيكية ولكنه يكتسب بذلك حصانة ضد العدوى. وقد استخدم هذا اللقاح بنجاح في مكافحة وافدة هذه الحمى في عاصمة البرازيل عام 1928. لكنهم وجدوا أن تحضير هذا اللقاح لا يخلو من خطر، فانهم إذا أطالوا تعريض الميكروب للمواد الكيمياوية المذكورة بلغ به الضعف أنه لا يكسب حصانة، وإذا قصروا تعريضه كان من القوة بحيث لا يؤمن شره، وفوق هذا فاللقاح بعد تحضيره سريع العطب حتى إذا أختزن في الثلاجات العادية. عند ذلك اتجهوا في التفكير وجهة جديدة فذكروا أن المريض إذا نجا اكتسب بمرضه حصانة فلا تأتيه العدوى مرة أخرى ولو تعرض لها، فطلبوا الوقاية في دم هذا المريض الناقه فاستخلصوا منه مصلا حقنوا به الأصحاء فأكسبهم حصانة ضد الداء، ولكنها لم تدم سوى أسابيع قليلة بعدئذ جمعوا الاثنين معا، اللقاح والمصل، فوجدوا مدة الحصانة تطول، ولكن لم يزل بذلك الخطر من استخدام لقاح قد يحتوي الميكروب في تمام حدته. فكان لابد من كشف طريقة جديدة لأضعاف الميكروب إضعافا يذهب بسورته دون الذهاب بحيويته فبلغوا الغاية من ذلك بامرار الميكروب بمخ الفئران بضع مرات متعاقبة، وحصلوا على ميكروب لا بالضعيف ولا بالقوي، يحقن به الإنسان فيتحصَّن ضد الداء بمقدار ما يتحصن من عاناه. إلا أن ملاحظات جديدة أظهرت أن الخطر لم يزل تماما، وأهم من ذلك أن دم المحقون بهذا اللقاح الجديد يحتوي الميكروب الحي فهو مصدر خطير لعدوى البعوض. عندئذ فكروا في الجمع مرة أخرى بين هذا اللقاح الجديد وبين مصل الناقهين، لأن هذا المصل يزيد حصانة المحقون عقب الحقن فيقاوم فعل اللقاح إذا زاد على الحد، وظُنّ فيه كذلك أنه قد يمنع وجود الميكروب الحي في الدم. وقد دلت النتائج على أن الجمع بين هذين يزيد في حصانة المرء زيادة كبيرة دون أن تظهر عليه عقب الحقن أعراض المرض، أو يظهر الميكروب الحي في دمه فيكون سببا في عدوى البعوض فالناس.

والعقبة الوحيدة التي باتت رهينة التذليل هي صعوبة الحصول على المصل من دماء الناقهين من بني الإنسان. وحتى هذه يظهر أنها ذُللت بما أُعلن في نشرة علمية في مايو الماضي من أن الخيل إذا حقنت مرارا متتالية بميكروب الحمى اكتسب دمها القدرة على مقاومة الميكروب، وإذن ففي الاستطاعة إبدال دم الخيل بدم الإنسان هذا ما يختص بالبحث في زيادة حصانة الناس حتى لا تفجأهم العدوى وهم غافلون، ولكن لعل أهم من هذا أن يُستأصل البعوض الذي ينقل العدوى. وقد جرت أبحاث في ذلك، ولكن عادات هذا البعوض وطريقة معيشته وأسلوب إفراخه أعجزت البحاث، فالبعوض يُفرخ في الماء ككل البعوض، إلا انه يفرخ في كل ماء حتى في الحُفَن الصغيرة منه والاسآر القليلة،

في شقوق الشجر أو فلقات الحجر، وفي الكوب والزير وسائر ما يحمل الماء في البيوت. وقد استخدموا الزيت يضعون منه على الماء المكشوف فيمتد فِلْما رقيقا على سطحه فيمنع الأفراخ، ونجح هذا بالطبع، ولكن كم من أرباب المنازل في المدن الصغيرة والكبيرة يركن إليه في القيام بهذا، وكيف تصل يد الإنسان بالزيت إلى كل فجوة وكل نقرة في الأصقاع عامرها والياب. وجربوا كذلك السمك الصغير يضعونه في مستودعات مياه الشرب في المناطق الحارة، فيأكل العلق قبل أن يستحيل بعوضا. وقد قدر لهذه الوسيلة بعض النجاح أما المرض وقد أصاب المريض فليس له

دواء. أمامك المريض يتضور من الألم الشديد، ويقيء الدم الأسود الصديد، قد اصطبغ جلده صفرة، وعلت وجهه وعيناه وخياشيمه حمرة، ولا حيلة لك فيه غير التمريض بتخفيف الأعراض بالثلج وأشباهه ثم الصبر حتى يقضي قضاء الله، كل هذا وأنت نفسك معلق بين الموت والحياة

ولكن مع كل هذا، وبعد كل هذا، أليس يحق للإنسان أن يظل يتساءل: أفي الإمكان اختلال الاتزان بين قبيل الإنسان، وقبيل من سائر الأحياء، ولو دنيئا كالذي نحن بصدده، اختلالا يذهب بسيد الحيوان ويمسح آثاره من رقعة الوجود؟

الدكتور أميل رو

(1853 - 1933)

-

للدكتور محمد عوض محمد

في اليوم التاسع من الشهر الماضي شهدت باريس حشدا هائلا يعلوه الحزن، وتخيم عليه الكآبة؛ فان فرنسا في ذلك اليوم كانت تشيع جثمان عالم جليل منأكبر علمائها وهو الدكتور أميل رو، خليفة باستور ومدير المعهد الشهير باسمه زهاء الثلاثين عاما. وقد سار الموكب الخطير، يتقدمه رئيس الجمهورية والوزراء والسفراء والعلماء حتى وصل إلى كنيسة نوتردام، حيث أقيمت مراسم الحزن على الفقيد العظيم، ثم نقل النعش بعد ذلك إلى معهد باستور حيث أودع مؤقتا ذلك السرداب الذي يحوي قبر باستور نفسه، وذلك ريثما يقام له ضريح خاص في حديقة المعهد

ولد أميل رو في 17ديسمبر سنة 1853في مقاطعة شارنت وبعد أن أتم دراسته الأولى ونال البكلوريا في العلوم، ذهب يدرس الطب في مدينة كارمان فران أولاً ثم في باريس. وقد اجتذبه إلى هنالك وجود أستاذه الذي تلقى عليه علم الكيمياء وهو الأستاذ دلكاو وجعل يشتغل محضرا في معامل أستاذه هذا، وفي عام 1878 كان الأستاذ باستور يلتمس مساعدا له ممن درسوا الطب. فبادر الأستاذ دلكاو بترشيح رو لهذا المنصب ومن تلك السنة بدأت صلته بالأستاذ الأكبر، تلك الصلة التي لم تزدد على الأيام إلا توثيقا، والتي لم يقطع حبلها سوى الوفاة

لم يمض زمن حتى أصبح رو ألصق الناس بباستور، وجعل هذا يشركه معه في تجاربه عن النبيذ، وفي أبحاثه في هيضة الدجاج، والجمرة الخبيثة التي تصيب الماشية، وفي سنة 1883 أرسله مع بعض مساعديه إلى القطر المصري لدراسة الهيضة (الكوليرا) الآسيوية التي انتشرت في بعض أقاليم مصر. وبعد عودته اشترك مع أستاذه في الأبحاث التي كان باستور يقوم بها عن مرض الكلب

وفي السنوات التالية أخذ رو ينشر أبحاثا هامة عن مرض الجمرة الخبيثة وبعض الأمراض التي تصيب الخنازير وفي عام 1887 وفق إلى اكتشاف خطير وهو اكتشاف التوكسين (أي المادة التي يفرزها المكروب) فانه استطاع أن يبين للعالم أن المكروب لا يؤثر تأثيره بنفسه بل بواسطة مادة يفرزها. وانه في كثير من الأحيان يمكن عزل هذه المادة. وهذا الاكتشاف أوصله إلى اختراعات خطيرة تتعلق بمعالجة بعض الأمراض بواسطة المصل، ولهذا يعتبر رو مبتكر العلاج بالمصل يلبث أن وصل إلى إيجاد الأمصال ضد مرض الكزاز وضد الطاعون وضد سموم مكروب الالتهاب الرئوي. ولعل أكبر اكتشافاته جميعا هو اكتشافه لتوكسين الدفتريا، فقد كان هذا هو الخطوة الأولى في سبيل إيجاد المصل الشافي والواقي من هذا المرض.

في عام 1895توفي باستور ودفن في المعهد العظيم المسمى باسمه بالقرب من سان كلو. فخلفه في إدارة المعهد الأستاذ دلكاو، وكان الدكتور رو نائبا للمدير الجديد، إلى أن توفي هذا عام 1904 فتولى رو إدارة معهد باستور. وقبل هذا بسنوات أنتخب رو عضواً لأكاديمية الطب، ثم عضوا لأكاديمية العلوم، وقلد جميع وسامات اللجيون دونير بجميع طبقاتها.

وقد بقى لمعهد باستور رونقه ونشاطه تحت إدارة أميل رو. بل لقد تقدم واتسعت أعماله وانتشرت فروعه. غير أن أعمال رو الإدارية كانت كثيرة ومجهدة، فاستغرقت منه كل وقته ولم يكن بوسعه في السنين الأخيرة من حياته أن يتفرغ لأبحاثه كما كان يفعل من قبل. لكنه كان أكبر مرشد للباحثين، وكان كثير التشجيع للعلماء، ومن غير شك كان له فضل في كثير من الاكتشافات التي صدرت عن المعهد أثناء إدارته دون

أن تنسب إليه.
وقد قضى رو حياته كلها في خدمة العلم والإنسانية. وعدا جهوده العلمية لم يكن في حياته حادث يستحق الذكر، فانه لم يتزوج ولو أنه كان كثير العطف على أخواته وأقربائه. وكان شديد التواضع إلى درجة إنكار الذات. ومما يؤثر عنه في هذا الصدد أنه عندما أريد تقليده وسام اللجيون دونير من درجة أوفسييه أبدى امتناعا شديدا وصاح بالحاضرين: (إن شرف الاكتشاف يرجع إلى الأستاذ بهرنج.) ولكن الرئيس أمسكه من ردائه بعنف وقلده الوسام بالرغم منه.
إن أجل شيء قام به رو هو من غير شك اختراعه العلاج بالأمصال، وبنوع خاص اكتشافه لتوكسين الدفتريا عام 1887. وهذا الاكتشاف انتفع به الأستاذ الألماني بهرنج في
إيجاد مصل ضد الدفتريا، ولهذا أراد رو أن يعزو شرف الاختراع كله لبهرنج على أن رو نفسه قد استطاع في سنة 1894 أن يستخرج المصل المضاد للدفتريا بطريقة في غاية الإتقان، وذلك بحقن الخيل بتوكسين الدفتريا واستخراج المصل من دمها. وقد عرض طريقته هذه على المؤتمر الصحي العالمي في بوادبست سنة 1894 فأثر في سامعيه أبلغ التأثير. وقد منح بعد قليل هو وبهرنج جائزة نوبل. وقد تهافتت عليه الطلبات من مختلف الممالك من أجل ذلك المصل؛ ولم يكن بوسعه أن يجيب كل هذه الرغبات. لكنه لم يلبث أن استعان ببعض أصدقائه على نشر الدعوة في فرنسا لمساعدة المعهد وتوسيع نطاقه. وقد نجح في هذا كل النجاح. وفي إسطبلات المعهد اليوم ما لا يقل عن 400 رأس من الخيل من أجل استخراج مصل الدفتريا، الذي بلغ ما أنتجته منه في السنين الأربع الأخيرة زهاء 12 طنا أو ما يكفي لعمل خمسة ملايين حقنة.
ومنذ زمن طويل تنبه رو إلى أهمية المصل كوسيلة للوقاية من المرض لا لمجرد العلاج منه. فقد كتب في سنة 1889 إلى بعض زملائه يقول:
(. .لعل من الممكن قريبا الانتفاع بالتوكسين باستخدامه في الوقاية من المرض)
حقا لقد فقدت فرنسا في رو عالما كبيرا، وفقد العالم خادما مخلصا. ولم يكن بعجيب أن قررت حكومة فرنسا أن تحتفل بجنازته احتفالا وطنيا
(ملخصا من مجلة الستراسيون)
العالم المسرحي والسينمائي
إلى القراء
من ناقد (الرسالة) الفني
وفجأة. . . يتضخم بريد (الرسالة) الغراء ويتلقى الأستاذ محررها في مطلع كل يوم عشرات الرسائل، بعضها من مصر، وأكثرها من الأقطار العربية الشقيقة، يجزع فيها كاتبوها من قراء (الرسالة) وصفوة المفكرين ممن يغارون على هذه المجلة ويطمعون أن تبقى دائما تحمل إليهم رسالة الثقافة والأدب العالي، جزعوا عندما أعلنت (الرسالة) أنها ستدخل على أبوابها أبوابا جديدة، وبين هذه الأبواب ما يختص بالمسرح والسينما. .
وتسألني فيم إشفاق الأدباء وعلام جزعهم الواضح في رسائلهم؟ يشفقون ويجزعون أن تنهج (الرسالة) في هذين البابين، المسرح والسينما، نهج ما يقرأون في بعض الصحف والمجلات الأخرى، مما لا يتناسب مع مستوى (الرسالة) ولا يتلاءم مع ما تنشره في الأبواب الأخرى من ألوان الثقافات العالية والآداب الرفيعة.؟ وأسأل: أهل الفن الذي سطرت صفحاته أمثال سوفوكليس وأوربيدس وشاكسبير وموليير وكورني وراسين، وابسن وجوته، وكين وتلما وسارة برنار، وهنري ارفنج، وجمعت مكتبته أعمالا خالدات يكاد بعضها ينزل مكان القداسة من النفوس، هذا الفن الذي شب في أحضان الآلهة عند اليونان وكان وسيلة الزلفى إليها والتقرب منها، هذا الفن الذي يقبس من السماء ليؤدي رسالتهم على الأرض، ما خوفنا منه وما إشفاقنا من الحديث عنه؟ أجل، إن لم نهب هذه القداسة فماذا نهاب؟ وان لم نخش أن تنتهك هذه الحرمة الغالية فماذا نخشى؟
كذلك فن السينما أصبح ولا ريب ركناً قويا من أركان الثقافة العامة، وهو والمسرح من أقوى العوامل اليوم في تهذيب الجمهور وتثقيف الناشئة فلا يزكو بمجلة راقية أن

تغفل هذين العاملين وتهمل أثرهما الصالح في خدمة الإنسانية
للقراء الكرام العذر إن أشفقوا على الرسالة أن تعالجهما من النواحي التي يعالجهما
منها بعض الصحف ولكننا نؤكد لهم أن الأمر لا يمكن أن يسير على ذلك المنهج
سنكتب ونرجو أن نوفق إلى إرضاء قراءنا بقدر ما تحيط به جهودنا، وأن نبدل هذا
الجزع اطمئنانا، وهذا الإشفاق ثقة، وإني لسعيد فخور إذ أتحدث إلى قوم ألمس فيهم
هذا الاهتمام،
وأجد في نفوسهم هذه المكانة لهذا الفن الرفيع.
محمد علي حماد
فلم (الوردة البيضاء)
مجمد عبد الوهاب. . . . . محمد جلال
سميرة خلوصي. . . . . رجاء
دولت أبيض. . . . . فاطمة هانم
محمد عبد القدوس. . . . . خليل أفندي
سليمان نجيب. . . . . إسماعيل بك
زكي رستم. . . . . شفيق بك
توفيق المردنلي. . . . . الشيخ متبولي
إخراج: محمد كريم
عرض في الأسبوع الماضي في سينما رويال فلم (الوردة البيضاء) وهو بلا شك أول
فلم غنائي ناطق من نوعه، ويعد خير الأفلام المصرية التي ظهرت إلى اليوم، ومن
المظنون أنه سيحتفظ بمرتبته هذه طويلا، وقد لقي من النجاح والإقبال ما لم يلقه فلم
من قبله، وهذه العاطفة الجياشة المتدفقة التي قابل بها الجمهور بطل الفلم الأستاذ
الموسيقار محمد عبد الوهاب أثناء العرض، وهذه الهتافات الحارة ومظاهر التقدير
والإعجاب لفناننا الشاب، هي بعض ما يستحقه، وعبد الوهاب يتمتع بمكانة في نفوس
الشعب يغبط عليها، وقد نالها عن جدارة وكفاية وموهبة سامية رفعته درجات في
سماء المجد والشهرة، ولم يزل الموسيقار العبقري في مقتبل العمر ونضرة الشباب
يمتاز هذا الفلم بأشياء كثيرة أولها: أن به قطعة للمغفور له أحمد شوقي بك أمير
الشعراء وهي قطعة (النيل) آخر ما وضع شوقي من الأغاني لعبد الوهاب، وكأن القدر
شاء أن تبقى هذه الطرفة الغالية في مخبئها الأمين حتى تظهر في أول أفلام عبد
الوهاب فتضفي عليه من جلالها جلالا ومن سحرها سحراً. وكأني بأمير الشعر يأبى إلا
أن يلازم أمير الغناء حيا وميتا، ويأبى عبد الوهاب إلا أن يظهر إلى جانب إحدى صور
الفقيد العظيم في مشاهد هذا الفلم. ويحمد له الناس هذا الصنيع الكريم الذي يتضمن
من معاني الاعتراف بالجميل أسماها وأبقاها على الزمن.
كذلك ينفرد هذا الفلم بما أبداه عبد الوهاب من التقدير لمن سبقه من رجال الفن
بإظهار صورهم، وتسجيل أصواتهم في فلمه الأول، فرأينا على الشاشة عبده الحمولي
والشيخ
سلامة حجازي والشيخ سيد درويش، وقد أدرك الجمهور بحاسته الصادقة ما في هذا
الصنيع النبيل من تقدير عبد الوهاب للسابقين الخالدين من رجال الفن، فقدره قدره
وأولاه من أجله ما يستحق من الثناء والحمد الجميل. وعبد الوهاب خليق بالشكر لهذا
الشعور الذي لا يصدر إلا عن فنان حق.
ومن مميزات هذا الفلم أنه يعطي الجمهور (في ثنايا القصة) صورة رائعة عن خلق
الفنان وشهامته ونبله، وكيف تتسع روحه الكبيرة للتضحية العظيمة عن رضى وكرم،
في سبيل فكرة أو في سبيل عاطفة صادقة من الإقرار بالجميل والاعتراف به. وما
أروع هذا الموقف الذي نرى فيه (جلالا) وهو يعد، وعد فنان، أن يقطع صلاته بحبيبته
(رجاء) ثم يكون عند وعده
وهذه الصورة النبيلة التي أرادها عبد الوهاب (لجلال) الفنان. . قد تبرر ما يؤخذ على
القصة في هذه النقطة، والشخصيات التي نتخيل فيها مثلنا العليا لا تحدها الاعتبارات
المألوفة والغايات القصار المدى. ولا شك أن (جلالا) كان مثلاً أعلى في التضحية
السمحة الكريمة فرفع شأن رجل الفن وأعلى من مكانته، وجعله في مركز أسمى من
كل هذه الشخصيات التي ظهرت إلى جانبه في القصة، وكلها مترفة تنعم بالجاه

والمال، وتلقى أينما حلت الاحترام والإجلال، أما هو فليس أكثر من جلال أفندي. . . ولكنه فنان، وحسبه ذلك فخرا وكفى.

أما ميزة الفلم الكبرى بظهور عبد الوهاب فيه فهذا ما أر جيء الحديث عنه الآن. قصة الفلم بسيطة، لا تعقيد فيها ولا تشعب، يتتبعها المشاهد في سهولة ويسر، وأعتقد أنها توافق تماما الغرض الأول الذي رمى إليه من وضع هذا الفلم ومن إسناد دور البطل فيه إلى عبد الوهاب الموسيقار، فشخصية (جلال) هي الشخصية البارزة وتجري حوادث القصة حولها متخذة من الشخصيات الأخرى بطانة وحاشية لها. على أن القصة تسير في بطئ، وكان يمكن تفادي ذلك في وضع السيناريو أو في التقطيع (ديكوباج) وهذا ما سنفصل الحديث عنه بالكلام عن الإخراج.

قام الأستاذ محمد عبد الوهاب بتمثيل دور (جلال) الشاب الوديع، الهادئ، الوقور. . . وفي عبد الوهاب نفسه كثير من شخصية جلال من هذه النواحي، ولذلك كان فيه طبيعيا جهد استطاعته. على أن شخصية عبد الوهاب كموسيقار قد طغت على هذه الناحية وخلفتها وراءها وكانت موضع اهتمام الجمهور، فلا عجب إذا أولاها الناقد القسط الأوفى من عنايته.

والآن. . . هل أنا في حاجة إلى الحديث عن عبد الوهاب الموسيقار، الملحن، والمغني؟ لا يستطيع أحد أن ينكر على عبد الوهاب الملحن ما أدخله وابتكره في الموسيقى من الألوان الجديدة الطريفة، وهذه ألحانه وأغانيه تشهد له بالنضوج الفني الكامل، والذوق السليم، وان له ملكة الفنان الحق، الفياضة، المتدفقة، التي يغترف من معينها الذي لا ينضب، ويستقي من نبعها الصافي السلسبيل، أنغاما تشجي القلب والفؤاد، وتبث في النفس ألوانا شتى من العاطفة الحية القوية، فأنت معه: إن بكى أبكاك، وان طرب أطربك، وان وصف خلت أنك ترى بالعين ما تسمع بالأذن، وان شدا حلق بك في سماء من النشوة أنت فيها هانئ سعيد، وملأت موسيقاه روحك بخيالات الأمل وأحلام الشباب، وتنقل بك ما شاء أن يتنقل بين عواطف القلب وميول الفؤاد، وأنت تنهل من موسيقاه في مثل نبع سائغ عذب حلال.

ولقد جدد عبد الوهاب في موسيقى التخت الجامدة، فأدخل عليها بعض الآلات، كما وضع لألحانه توزيعها الموسيقي (أوركستراسيون) فأضفى عليها ثوبا قشيبا من التجديد له خطره وله جلاله. وعبد الوهاب المغني حبته الطبيعة بصوت مرن، يعلو حتى يكد العازف في تتبعه، وينخفض حتى لا يكون أكثر من همس الخاطر، أو مناجاة العاشق، على خوف من الرقباء والعاذلين، وقد أحسن عبد الوهاب استخدام هذه المرونة كالصانع الحاذق يشكل ما في يديه كما يشاء، ويلون في تموجات صوته معاني ما ينشد من الألحان، فيكسب اللفظ جدة وروحا، ويبرز لك المعنى بروزا قويا صريحا، وقد تقرأ اللحن فلا تجد فيه شيئا، فتسمعه من عبد الوهاب فكأنما صاغه من جديد صياغة الماهر اللبق، وما أذكر أني سمعت عبد الوهاب مرة إلا وأخضلت عيناي بالدموع

يلقي عبد الوهاب في الفلم ثماني قطع غنائية، منها قطعة (الرومبا) التي وضعها على نسق هذا النوع الطريف من الموسيقى الإفرنجية، فأتى فيها بمعجزة، ولست أقتصد في القول ولا أتهيب أن أقدم لعبد الوهاب أبلغ آيات الإعجاب على توفيقه في تلحين هذه الأنشودة. كذلك كانت القطعة الختامية التي ينشدها على مقربة من منزل حبيبته ليلة عرسها، والأسى يقطع

قلبه، والألم يحز في نفسه. وتراه من خلف القضبان الحديدية متشبثا بها كغريق يتعلق بأمل أخير، فلا تسمعه ينشد، وإنما يبكي ويسفك الدمع في اللحن والأغنية حتى لتكون أشبه بنواح بلبل جريح.

وهذا المشهد من الفلم أروع مشاهده، وما تستطيع أن تملك دمعك فيه ولو كان عصيا، وقد رفعه عبد الوهاب بأنشودته إلى أسمى ذروة من الفن الغنائي والسينمائي معا، ولو لم يكن لعبد الوهاب من أثر في الفلم كله إلا هذه القطعة، وهذا المشهد لكفى لنعترف له مخلصين بالكفاية النادرة والموهبة المؤاتية الجبارة التي يتفرد بها ملحنا ومطربا. وباقي القطع ليست أقل من هذه فكلها من صنع عبد الوهاب وكفى.

طال بنا القول ولما ننته، ومن الخير أن نكتفي بهذا القدر اليوم على أن نعود الحديث عن الفلم من ناحيته الفنية المحضة في مقال آخر. ولكن لنهنئ ممثلي الفلم قبلا على

ما أبدوه من كفاية في مواقفهم جميعا، وما لاقوه من نجاح في أداء أدوارهم، أما المخرج فلينتظرنا قليلا، على إننا نكتفي اليوم بأن نشد أذنيه في غير عنف ولا قسوة، ترقبا للمعركة القادمة فليأخذ أهبته وليعد السيف والترس فسنجول معه جولة لعله لا يصاب فيها بكثير من الجراح والخدوش.

الحركة المسرحية والسينمائية في الخارج

بوخارست

وضع طبيب روماني يدعى ميهاي نايليمينو رواية مسرحية في أربعة فصول أسماها (أمواج العقل) بطلاها غليون الثاني قيصر ألمانيا السابق وبرناردشو الكاتب الإنجليزي المعروف. ويقع أحد مشاهدها في قصر من قصور بروسيا وفي غرفة للتدخين نسقت على أحدث طراز عصري. وهذه هي الرواية الأولى لهذا الطبيب إلا إذا صدقت تلك الإشاعة التي تقول إن الرواية لكاتب مسرحي معروف اختار أن تظهر روايته تحت اسم مستعار لأسباب خاصة.

بونس آيرس

زار في شهر أكتوبر الماضي بيراندللو الكاتب الإيطالي الشهير مدينة بونس آيرس في أمريكا الجنوبية للأشراف على إخراج إحدى مسرحياته المعروفة هناك. وقد نجحت الرواية نجاحا كبيرا. وقد ألقى بيراندللو في الليلة الأولى لتمثيل الرواية محاضرة عن (المسارح قديما وحديثا)

نيويورك

كاد ينتهي أوجين أونويل الكاتب الأمريكي الشهير من وضع رواية جديدة، وقد اتبع في كتابتها طريقة مبتكرة، فبدلا من تقسيمها إلى فصول، قسمها إلى أربع روايات مختلفة تحتوي كل منها على عدة مشاهد ومناظر، وتمثل على أربع حفلات متتابعة في أربعة أيام متعاقبة. وتجمع الأربع روايات وحدة الموضوع والفكرة والشخصيات وتكاد تشابه بذلك طريقة الحلقات المعروفة في عالم السينما

- ألقى مستر ويل هايز من أكبر مديري الشركات السينمائية في أمريكا محاضرة في الشهر الماضي في وشنجطن ذكر فيها بعض الأرقام التي تتعلق بصناعة الأفلام السينمائية. ونظرة بسيطة على هذه الأرقام تستطيع أن تكون منها فكرة عن ضخامة هذه الصناعة التي تعد من أهم الصناعات في أمريكا اليوم. وقد جاء في أقواله أن ثماني شركات من التي يشرف عليها تستخدم 49 , 000 شخص تبلغ مرتباتهم السنوية 27 , 000 , 000 جنيه

ورأس المال المستخدم في هذه الشركات يبلغ 135 , 000 , 000 من الجنيهات وتدفع شركات السينما الأمريكية مبلغ 20 , 000 , 000 جنيه في السنة كضرائب للحكومة

باريس

مثلت في منتصف أكتوبر الماضي في (تياتر دي باري) بباريس الرواية الجديدة (الرفيق) التي وضعها المؤلف المسرحي المعروف جاك ديفال وتقع في ثلاثة فصول وأربعة مناظر وقد نجحت نجاحا كبيرا. وموضوع الرواية روسيا البولشفية ونظام الحياة فيها اليوم. وقامت بالدور الأول الممثلة الفير بوبسكو وساعدتها لهجتها السلافية على إعطاء نبرة أصلية تماثل لهجة الشخصية التي تمثلها. ومن الممثلين الذين اشتركوا في الرواية أندريه ليفور الذي اشتهر في رواية (توباز) المعروفة

القصص

سنشيتا الأسبانية

بقلم حسين شوقي

الأسبانية بطلة القصة حسناء تبيع برتقالا على عربة، يعاونها في عملها (سنشيتا) (بدرو)، وليس هو البطل الآخر للقصة وإنما هو شقيقها، وهو صبي لم يعد العاشرة، أما البطل الحقيقي فهو الشاب (خوان) خاطب (سنشيتا)، وهو صياد بارع يضارع في قوته (نبتون) اله البحر، ولكنه جميل الوجه. . أما أقارب (سنشيتا) فلم يعش منهم غير (بدرو) وغير الأم التي تقوم على إدارة المنزل. وكانت (سنشيتا) في آخر النهار إذا ما فرغت من البيع تدفع العربة أمامها في طريق الدار، يعاونها في ذلك (بدرو) و (خوان). وكانت هذه المهمة تستغرق وقتا طويلا على قرب البيت، لأن ذلك الطريق القصير كان

يقطع في مغازلة مستمرة بين الخطيبين، فتارة يقارن (خوان) ما بين البرتقال وخد الفتاة في الحمرة والنضرة، وطورا تكون ابتسامة رقيقة ذات معان تبعثها (سنشيتا) إلى (خوان). . ومرة ثالثة، ملاحظة وقحة من (بدرو) الصبي على أعمال العشيقين، تثير غضب الفتاة، ولو في الظاهر. .

وقد خطب (خوان) الفتاة منذ ثلاث سنين، والخطوبات الطويلة المدى من العادات المألوفة عند الأسبانيين. .

اتفق المحبان على الزواج لدى عودة (خوان) من رحلة يزمعها بعد أيام قلائل إلى بعض الجزر النائية حيث يكثر السمك، وكانت نية الفتى أن ينقطع عن عمله مدة بعد عودته من تلك الرحلة التي سوف تعود عليه بالربح الوفير، يقضيها إلى جانب زوجه المحبوبة في هناء وسعادة. .

أزف الرحيل وكان يوما قاتما، كأن الطبيعة تشارك الخطيبين الحزن، وبكرت الفتاة في الذهاب برفقة شقيقها إلى المركب الشراعي الذي يبحر عليه خطيبها، وهو مركب قديم يندر وجوده الآن إلا في أشرطة السينما عن القرصان، وكانت الفتاة تحمل سفطا ممتلئا بالبرتقال أخذت توزعه على (خوان) ورفاقه، أقلع الشراع ولم تكن إلا هنيهة حتى غاب عن نظر (سنشيتا) الحاد. .

صارت الفتاة تتردد في غيبة خطيبها إلى غابة منعزلة كان يقصدانها أحيانا أيام العطلة، فتبث شكواها إلى أشجار الصنوبر الزاومة، وتعيد على سمعها في صوت عال وسط هذه العزلة التامة، تلك الكلمات الرقيقة التي كانت تسمعها من (خوان)، وأحيانا ولا سيما في الليل كانت تخرج إلى الشاطئ لتشاهد الأنوار العديدة الخافتة المنبعثة على صفحة الماء من زوارق الصيد التي تروح وتغدو على مقربة. وفيما هي تعود إلى المنزل بعد جولة من تلك الجولات الليلية وجدت شقيقها (بدرو) جالسا إلى المائدة يطالع في شغف كتابا مصورا، فلما رآها التفت إليها قائلا: (سنشيتا يحسن إلا تتركي خطيبك يتنقل في البحار لأنهم يقولون أن حور البحر يخطفن البحارين الحسان!) فابتسمت الفتاة لهذا القول وقبلت أخاها قبلة طويلة في جبهته. وفي ذات يوم دقت الأجراس في القرية على غير عادة، فعجبت لذلك (سنشيتا) وكانت إذ ذاك في حجرتها منهمكة في ارتداء ثيابها لتخرج إلى السوق. . رباه! لماذا تقرع الأجراس، وليس اليوم من أيام الأعياد؟ وإذا (بدرو) يدخل عليها الحجرة بغتة هاشا مسرورا فينبئها بالخبر العظيم. . بعودة (خوان)، وبأن هذه الأجراس إنما تقرع تحية له ولرفاقه الصيادين الذين عادوا من رحلتهم الطويلة. . خرجت الفتاة إلى الشاطئ وأراد (بدرو) أن يرافقها إليه، ولكن الأم احتجزته معها في المنزل ليساعدها في تنسيق مائدة الطعام إكراما للخطيب المحبوب. .

بلغت الفتاة الشاطئ فوجدت السفن راسية والصيادين يعانقون أهليهم وذويهم، ولكن. . (خوان)!. . أين (خوان)؟ أين (خوان) الجميل؟ خوان لم يؤب فقد ابتلعته الأمواج في ليل عاصف، وهو في طريق العودة إلى الوطن. . ثم دنا أحد الصيادين من (سنشيتا) قائلا: (انتظري سنشيتا سأعطيك نقود خطيبك التعس). . ولكن (سنشيتا) لم تنتظر بل قفلت راجعة إلى المنزل. . وعندما بلغت عتبة الدار وجدت شقيقها (بدرو) ينتظر متطلعا، ثم سألها في لهفة:. . (ولكن أين خطيبك؟) فأجابته في هدوء: (لقد احتفظت حور الماء بحارنا الجميل يا بدرو)!

كرمة بن هانئ

مثلت فأتقنت التمثيل

للآنسة سهير القلماوي

ليسانسييه في الآداب

لقد ألفت البكاء بعد فقد وحيدها واستبدلت بالرقص التنهدات وبالغناء النحيب. كانت تعمل في أحد المسارح راقصة ومغنية، فأصبحت تعمل في مسرح الحياة نائحة وباكية.

في سنة 1776 قامت أمريكا تطالب باستقلالها وأعوزتها الجيوش فأرسلت تستنجد فرنسا. أرسلت فرنسا المدد إليها بقيادة القائد لافاييت ذلك العظيم الذي أصبح فيما بعد من زعماء الثورة الفرنسية. نالت أمريكا استقلالها وظلت مساعدة فرنسا لها دينا في عنقها تترقب الفرص للوفاء به. ولكن الأعوام توالت وما زال هذا الدين غلا في عنق أمريكا.

وفي سنة 1914 انفجرت الحرب العظمى في أنحاء أوربا وقامت لها الدول وقعدت.
وأخيرا أرسلت فرنسا تطالب بدينها وتلح في طلب المدد. تذكرت أمريكا لافاييت وجيشه فأرسلت جيشها وفاء دين، وتحية إجلال، لروح ذلك البطل الخالد.
وشاعت الأنشودة المشهورة (جئنا إليك يا لافاييت) في أمريكا بين صفوف الجند وفي المسارح والمقاهي. أنشدها القوم لحث الشباب على التطوع في الجيش المرسل مددا لروح لافاييت ممثلة في فرنسا، ولكم ألهبت تلك الأنشودة من قلوب، ولكم أثارت من حمية الشباب ودفعت بهم زرافات إلى صفوف الجيش الراحل إلى وطن لافاييت وفاء دين ورد جميل.
شهرت تلك ألأم بإنشاد هذه الأنشودة واشتهر وحيدها بأنه أول من تطوع في هذا الجيش. كانت الأم تغني تلك الأنشودة وهي ترقص رقصة الجندي المقتول، رقصه تمثل وقوع الجندي الباسل في ميدان القتال فداء الوطن وضحية النصر فكانت تلهب قلوب المتفرجين حماسا وإقداما. وأنشدتها لآخر مرة ليلة رحيل الجيش في المعسكر، وكان ابنها من اكبر المعجبين بها، والمتحمسين لها. هذه آخر مرة رأت وحيدها وفي الصباح رحل الجيش.
رجع الجيش ولكن وحيدها لم يرجع فقد قتل في ميدان الحرب شهيدا كما أملت عليه تلك الروح التي ألهبتها الأم بأنشودتها. لم يمت في ساحة الوطن وإنما قتل في ساحة الوفاء
وأنشد الجند (وجئنا إليك يا لافاييت) احتفاء برجوعهم إلى وطنهم فتقطعت نياط قلب الأم
حسرة وكمدا. وتمثلت لها الحرب بأبشع مظاهرها. فهزأت من الجند الساذج الذي يسير إلى الموت فرحا مستبسلا مضللا بكلمات جوفاء كالوطن والحرية والوفاء والشهامة. وازدرت أناشيد الحرب وأعلام الحرب، وكل ما يمس الحرب، لأنها كلها ليست إلا وسائل إغراء الشباب ليقدم على الموت فتنال الأمة مطامعها. وهكذا لابد من ثمن لكل نصر.
بزغت الشمس هذا الصباح فتململت الأم في فراشها وانحدر الدمع على صدرها سخينا ملتهبا فتنهدت قائلة (رباه، أما في دنياك من جديد؟) ليس هناك جديد لك أيتها الثكلى، فقد حرمت ثمار غرس تعهدته وسهرت عليه فجنى الموت ما كنت إليه تتطلعين، وتمتع الفناء بزهر تعهدته وسقيته دم القلب. ليس لك سوى أنشودة تعيدينها ليل نهار هي كل مالك من ذكرى. نعم ليس هنالك سوى أنشودة الذكرى فرديها كلما غنت الطيور، ورديها طلوع شمس ومغربها. رديها ما بقي فيك صوت ينشد، رديها، ولتكن آخر ما يسمع من صوتك العذب الرقيق.
صحت الأم في ذ لكاليوم يملؤها شعور خفي، إنها ستلاقي وحيدها ولكن أين؟ وكيف؟ لا تدري. لقد دعاها الجند اليوم وتوسلوا إليها لتحضر احتفالهم بمرور عام على وفاة وحيدها. ذهبت ولكنها كانت ذاهلة عن كل ما حولها. يكلمها هذا ويعزيها ذاك فلا تشعر بشيء ألا أنها ستلاقي وحيدها اليوم.
وعزفت الموسيقى بأنشودة (جئنا إليك يالافاييت) فاندفعت ألأم نحو المنبر بشعور غريب وبدأت تغني وترقص رقصة الجندي المقتول، كما كانت ترقصها ليلة ترحيل الجيش. تسمع الجند أليها بقلوب باكية، وعيون ينهمر الدمع منها انهمارا. لقد رأى كل منهم الموت بعينه فما بكى، ورأى أصدقائه يترنحون قتلى في ساحة الحرب فما ذرفت عينه نصف ما ذرفت لمنظر تلك الأم الثكلى ترقص رقصة تمثل وحيدها يقع قتيلا في الحرب. سمعوا المدافع والطبول وسمعوا الأنين وحشرجة الموت فما هلعت قلوبهم ولا وجلت مثلما وجلت لسماع صوت الأم وهي تنشد أنشودة دفعت ثمنها غاليا.
وترنحت ألأم في رقصتها استعدادا لسقطة الموت الأخيرة، سقطة تمثل سقطة الجندي الباسل مقتولا في ساحة الحرب. وهنا رأت وحيدها! نعم رأته يسير أليها بطيئا مهيبا! يسير أليها هي بعد أن قام من بين صفوف الجند مادا ذراعيه نحوها. فصرخت صرخة مروعة
(ولدي. . . . ولدي. . . ألي يا ولدي)
وسقطت كما يسقط الجندي المقتول في ساحة الحرب.
-

صه!
للقصصي الروسي تشيكوف
يعود إيفان كراز نوكين، وهو محرر متوسط في صحيفة يومية، دائما لمنزله في ساعة متأخرة من الليل مكتئبا حزينا، على سحنته الوقار وفي مشيته الجلال. وأحيانا تراه جامعا أشتات فكره مستغرقا بكليته في تصوره كأنما يترقب أن يفتش أو يفكر في الانتحار. ذرع عرض غرفته، ثم توقف ونفش شعره وقال في لهجة (لابرتس) منتقما لأخته (إنني حائر تعب ملتاع إلى ابعد قرارات النفس. إن الحزن يجثم على قلبي، ويهيمن على جسمي، ومع هذا فلزاما علي أن اجلس لأكتب. . وهذا ما يسميه الناس العيش)
ليت شعري لم يصف كاتب حتى اليوم هذا الخبل الذهني المؤلم، وهذا الاضطراب الفكري الشديد الذي يعذب روح المؤلف ويؤلم نفسه.
فعندما يكون حزينا حزنا يذيب لفائف القلب، يجب عليه أن يبعث الجمهور على الطرب المستخف والسرور العظيم. وعندما يكون فرحا يثلج الصدر ويبهج القلب يجب عليه أن يرسل الدمع الهتان وينفث الحزن الدفين.
أجل! يجب علي أن أكون مرحا مستهترا لا أكترث لشيء ولا أحفل به. مليح النكتة بارع الدعابة عندما ينوء بي الهم ويقتلني الحزن. حتى إذا كنت (دعني أقول) مريضاً. . . إذا كان طفلي في نزعه الأخير. . . وكانت زوجي تنهشها الأحزان وتفترسها الآلام لما فرغ من قوله هز جمع يده وأدار حماليقه. ثم دلف إلى المخدع وأيقظ زوجه. وقال: (ناديا!. . سآخذ في الكتابة. أرجو أن تحرصي على ألا يقاطعني أحد أو يمنعني من العمل إنسان. فما أستطيع الكتابة والجدي ينب والطاهي يغط! ثم قدمي أيظاً بعض الشاي وشريحة من اللحم، إذا أمكن، فأنت تعرفين أني لا أوفق إلى الكتابة إلا إذا شربت شايي، فالشاي وحده هو الذي يبعث في القوة على العمل.)
أخذ سمته إلى غرفته وخلع معطفه وصدريته وحذاءه. نضا عنه ثيابه بتأن تام. ثم كون ملامح وجهه حتى أصبحت تعبر عن الإنسان البريء المعذب (وجلس إلى مكتبه) على هذا المكتب لا تقع عين الإنسان على حقائر الأشياء اليومية وصغائرها. فكل الأشياء وأتفهها تنقلب ذات معنى، ويظهر عليها برنامج عابس! هنا تماثيل نصفية وصور شمسية لمؤلفين عظيمي الشهرة ذائعي الصيت. وهناك كوم من المخطوطات ومجلد بمؤلفات بلينيسكي ومنه صفحة مقلوبة. ثم عظام رأس تستعمل محبرة وصفحة من جريدة طويت كما يتفق، بيد أنها تعرض عمودا معلما عليه بالقلم الأزرق بالخط العريض (جبان) وهناك جمهرة من الأقلام المبرية حديثا وريش بأسنان جديدة حتى لا يمكن لأي سبب خارجي أو حادث عارضي أن يمنع التحليق السامي لهذه المخيلة المبدعة!!
ألقى كرازنوكين نفسه على كرسيه المريح وراح يفكر في موضوع فسمع زوجه تضرب الأرض بخفها تشقق قطع الخشب (للسيماور) وخيل إليه أنها مازالت وسنانة لأن غطاء السيماور أو رجله كان يسقط من يدها بين آونة وأخرى. ووصل إلى سمعه نشيش المغلاة وأزيز اللحم المقلي، وزوجه مازالت تشق الخشب مفرقعة قرب الموقد. مغلقة بشدة باب الفرن مرة، وأخرى النافذة الهوائية، وآونة أخرى باب المدفئة. فأرتجف كرازنوكين، وفتح عينين يملؤهما الرعب ويتطاير منهما الشرر. وأخذ ينشق الهواء ويلهث (رحمتك الهم!. . . دخان الفحم؟. . . هذه المرأة التي لا تطاق عزمت على خنقي. . قل لي بالله كيف أوفق للكتابة في حالات كهذه؟)
جرى إلى المطبخ يولول وينوح، وبعد برهة عادت زوجه تمشي على أطراف أصابعها مقدمة له قدحا من الشاي فوجدته جالسا على كرسيه الطويل كما كان من قبل! لا يبدي حراكا ولا يحرك جارحة غارقا في موضوعه، فلم يتحرك، وأخذ ينقر بخفة على جبهته بأطراف أصابعه متظاهرا بأنه لا يلاحظ وجودها ووجهه يعبر مرة ثانية عن: (البريء المعذب)
قبل أن يكتب العنوان أخذ يتملقه ويدلله مدة طويلة! كأنه عذراء أهداها بعض الناس مروحة جميلة! آونة يمر بيديه على صدغيه وأخرى يرتجف ويهتز جميعه ساحبا قدمه من تحت كرسيه كالمتألم. مغلقا نصف عينيه بفتور كقطة على فراش.

. . . .وأخيرا بعد تردد دنا من الدواة وسطر العنوان وكأنه يوقع صك الموت
سمع صياح ابنه (ماما!. . قليل من الماء)
فأجابته أمه (صه!. . بابا يكتب. . . صه!)
كان الأب يكتب بسرعة مدهشة دون توقف، دون أن يمحو حرفا أو يشطب كلمة
وليس عنده من الوقت ما يتسع لقلب الصفحات أما التماثيل النصفية والصور
الشمسية لمشهوري المؤلفين فكانت ترقب يراعه الجوال وقلبه السيال وكأنها تفكر
(اها. . . أخواه استمر. . . .)
خدش القلم (صه)
فجلجل المؤلفون وقد اهتزوا بدفعة من ركبة الكاتب (صه) عاد كرازنوكين إلى نفسه
ووضع قلمه وتسمع. فسمع همسات متزنة لا تنقطع. وكان ذلك صوت فوما نيكوليتش
الساكن معهم وهو يصلي في الغرفة المجاورة.
فناداه كرازنوكين (أعرني سمعك!. أما تستطيع الصلاة بأسرع من هذا؟. . انك تحول
بيني وبين الكتابة)
فأجابه فوما نيكوليتش بحياء ووداعة (أستمحيك العفو يا سيدي) (صه!)
بعد أن كتب صفحات خمساً تمدد ونظر إلى الساعة وتأوه. (يا للسماء!. . الساعة
الثالثة!. . الناس جميعا مستريحون نيام. . . وأنا وحدي. . أنا. . يجب علي أن أعمل)
بعد أن استفرغ العمل جهده وأفنى قوته أخذ طريقه إلى المخدع ضارع الجسم، واهن
القوى ورأسه ساقط على عاتقه. أيقظ زوجه صائحا بها مكدود الصوت (ناديا. . . قدحاً
آخر من الشاي. . . إني. . . إني أشعر بضعف)
كتب إلى الساعة الرابعة وود لو استمر في كتابته إلى الساعة السادسة بيد انه أنجز
عمله وفرغ من موضوعه
زهوه العجيب وفرحه الغريب بهذه الأعمال الجامدة ولا بصيرة عنده ولا فراسة له!
استبداده وجوره، عسفه وظلمه، في مسكن النحل الصغير التي خولت له الأقدار
السلطان عليه وأعطته مقاليد الأمر فيه. هذه عنده أطايب الحياة وزبدة ما فيها.
كم يشابه هذا الاستبداد الذي تراه في المنزل هذه الأجناس الذليلة الصامتة التي
يخالط كلامها التورية والتي اعتدنا رؤيتها في مكاتب الصحف.
قال لنفسه وهو ذاهب لفراشه (إني تعب جدا حتى يخيل إلي إنني لن أستطيع
النوم. . .
فعملنا الجهنمي الذي لا نلاقي منه جزاء ولا شكورا لا يجهد الجسم كما يجهد القريحة،
على إنني سأتناول مقويا. . والله يعلم لو لم يكن هذا لخير الأسرة لنفضت منه
يدي. . . . . أه. . انه مرعب أن يكتب الإنسان ويجبر على العمل هكذا!!)
استغرق في سبات عميق. . . فنام حتى الساعة الواحدة أو الاثنتين بعد الظهر، وما
الذي كان ينامه أطول أو يحلمه ألذ. . إذا كان مؤلفا مشهورا أو محررا بارعا. أو حتى
ناشرا؟
همست زوجه بوجه مرتاع (كتب سحابة الليل!. . صه!)
ما جرؤ أحد على الكلام أو السير أو التصويت فنومه مقدس ومن يذنب فيقطع هذا
السكون ويشوش هذا الهدوء، فعليه أن يدفع عن هذا غاليا.
(!صه!. . . . صه)
ورن هذا الصوت في جميع الحجرات
محمود البدوي
الكتب
على هامش السيرة
للدكتور طه حسين
مقدمة
هذه صحف لم تكتب للعلماء ولا للمؤرخين، لأني لم أرد بها إلى العلم، ولم أقصد بها
إلى التاريخ. وإنما هي صور عرضت لي أثناء قراءتي للسيرة فأثبتها مسرعا. ثم لم أر
بنشرها بأسا، ولعلي رأيت في نشرها شيئا من الخير. فهي ترد على الناس أطرافا من
الأدب القديم، قد أفلتت منهم وامتنعت عليهم. فليس يقرؤها منهم إلا أولئك الذين
أتيحت لهم ثقافة واسعة عميقة في الأدب العربي القديم. وانك لتلتمس الذين يقرأون

ما كتب القدماء في السيرة وحديث العرب قبل الإسلام فلا تكاد تظفر بهم. إنما يقرأ الناس اليوم ما يكتب لهم المعاصرون في الأدب الحديث بلغتهم أو بلغة أجنبية من هذه اللغات المنتشرة في الشرق. يجدون في قراءة هذا الأدب من اليسر والسهولة ومن اللذة والمتاع ما يغريهم به ويرغبهم فيه، فأما الأدب القديم فقراءته عسيرة وفهمه أعسر، وتذوقه أشد عسرا. وأين هذا القارئ الذي يطمئن إلى قراءة الأسانيد المطولة والأخبار التي يلتوي بها الاستطراد وتجور بها لغتها القديمة الغريبة عن سبيل الفهم السهل، والذوق الهين الذي لا يكلف مشقة ولا عناء.

ذلك إلى أن الأدب القديم لم ينشأ ليبقى كما هو ثابتا مستقرا لا يتغير ولا يتبدل، ولا يلتمس الناس لذته إلا في نصوصه يقرئونها ويعيدون قراءتها، ويستظهرونها، ويمعنون في استظهارها. إنما الأدب الخصب حقا هو الذي يلذك حين تقرأه لأنه يقدم إليك ما يرضي عقلك وشعورك، ولأنه يوحي إليك بما ليس فيه، ويلهمك ما لم تشتمل عليه النصوص. ويعيرك من خصبه خصبا، ومن ثروته ثروة، ومن قوته قوة، وينطقك كما أنطق القدماء، أو لا يكاد يستقر في قلبك حتى يتصور في صورة قلبك، أو يصور قلبك في صورته. وإذا أنت تعيده على الناس، فتلقيه إليهم في شكل جديد يلائم حياتهم التي يحيونها، وعواطفهم التي تثور في قلوبهم، وخواطرهم التي تضطرب في عقولهم.

هذا هو الأدب الحي، هذا هو الأدب القادر على البقاء. ومناهضة الأيام. فأما ذلك الأدب الذي ينتهي أثره عند قراءته فقد تكون له قيمته، وقد يكون له غناؤه، ولكنه أدب موقوت يموت حين ينتهي العصر الذي نشأ فيه. ولو أنك نظرت في آداب القدماء والمحدثين، لرأيت منها طائفة لا يمكن أن توصف بأنها آداب عصر من العصور أو بيئة من البيئات، أو جيل من الأجيال، وإنما هي آداب العصور كلها والبيئات كلها والأجيال كلها. لا لأنها تعجب الناس على اختلاف العصور والبيئات والأجيال فحسب، بل لأنها مع ذلك تلهم الناس وتوحي إليهم، وتجعل منهم الشعراء والكتاب والمتصرفين في ألوان الفن على اختلافها.

وليس خلود الإلياذة يأتيها من أنها تقرأ فتحدث اللذة، وتثير الإعجاب في كل وقت، وفي كل قطر، بل هو يأتيها من هذا ومن أنها قد ألهمت، وما زالت تلهم الكتاب والشعراء، وتوحي إليهم بأروع ما أنشأ الناس من آيات البيان. ولقد كان ايسكولوس أبو التراجيديا اليونانية يقول: أنه إنما يلتقط ما يسقط من مائدة هوميروس، وما زال القصاص، وشعراء التمثيل والغناء في الغرب خليقين أن يقولوا الآن ما كان يقوله ايسكولوس منذ خمسة وعشرين قرنا، ولم تكن قصص ايسكولوس وغيره من شعراء التمثيل اليوناني أقل خصبا من الإلياذة، بل هي قد ألهمت من الكتاب والشعراء قديما وحديثا، وما زالت قادرة على أن تلهمهم إلى اليوم والى غد. وإني لأذكر أني قرأت منذ أعوام قصة تمثيلية هي الثامنة والثلاثون من نوعها وقد سماها صاحبها (جيرود) وبهذا الرقم. فوضع لها هذا العنوان (أنفيتمريون رقم 38) كانت أسطورة تتصل بمولد هيرقل، فصورها سوفوكل قصة تمثيلية في القرن الخامس قبل المسيح. وما زال الشعراء والكتاب من اليونان والرومان والأوربيين المدنيين يتأثرونه ويذهبون مذهبه في تصوير هذا الموضوع حتى انتهت القصص التي كتبت فيه شعرا ونثرا إلى هذا العدد الضخم، ولم يحجم فحول التمثيل عن طرق هذا الموضوع لأنهم سبقوا إليه، بل زادهم ذلك حرصا عليه، ورغبة فيه، وكان بين الذين طرقوه الشاعر اللاتيني بلوت، والشاعر الفرنسي موليير. ثم لم يشفق جيرودو من أن يطرق موضوعا سبقه إليه الفحول من شعراء التمثيل في العصور القديمة والحديثة. فصور قصته هذه الثامنة والثلاثين وعرضها على النظارة في باريس سنة 1929، فكان فوزها عظيما وإعجاب النظارة والقراء بها لا حد له.

وفي أدبنا العربي على قوته الخاصة، وما يكفل للناس من لذة ومتاع، قدرة على الوحي، وقدرة على الإيهام. فأحاديث العرب الجاهلين وأخبارهم لم تكتب مرة واحدة، ولم تحفظ في صورة بعينها، وإنما قصها الرواة في ألوان من القصص، وكتبها المؤلفون في صنوف من التأليف، وقل مثل ذلك في السيرة نفسها، فقد ألهمت الكتاب والشعراء في أكثر العصور الإسلامية وفي أكثر البلاد الإسلامية أيضا. فصوروها صورا مختلفة تتفاوت حظوظها من القوة والضعف والجمال الفني، وقل مثل هذا في الغزوات والفتوح. وقل مثل هذا في الفتن والمحن التي أصابت العرب في عصورهم

المختلفة. ولم يقف إلهام هذا التراث الأدبي العظيم عند الكتاب والشعراء الذين ينمقون النثر ويقرضون الشعر في اللغة العربية الفصحى، بل تجاوزهم إلى جماعة من القصاص الشعبيين الذين تحدثوا إلى الناس في صور مختلفة وأشكال متباينة بما كان لآبائهم من مجد مؤثل، وبما أصاب آباءهم من محن مظلمة، وفتن مدلهمة، عرفوا كيف يثبتون لها ويصبرون عليها، ويخرجون منها كراما ظافرين، ولا خير في حياة القدماء إذا لم تلهم المحدثين ولم توح إليهم بروائع البيان شعرا ونثرا، وليس القدماء خالدين حقا إذا لم يكن التماسهم إلا عند أنفسهم، ولا تعرف أنباؤهم إلا فيما تركوا من الدواوين والأسفار، إنما يحياالقدماء حقا، ويخلدون حقا، إذا امتلأت بصورهم وأعمالهم قلوب الأجيال مهما يبعد بها الزمن. وكانوا حديثا للناس إذا لقي بعضهم بعضا، وكنوزا يستثمرها الكتاب والشعراء لأحياء ما يعالجون من ألوان الشعر وفنون الكلام.

إلى هذا النحو من إحياء الأدب القديم، ومن إحياء ذكر العرب الأولين قصدت حين أمليت فصول هذا الكتاب. ولست أريد أن اخدع القراء عن نفسي ولا عن هذا الكتاب، فإني لم أفكر فيه تفكيرا، ولا قدرته تقديرا، ولا تعمدت تأليفه وتصنيفه كما يتعمد المؤلفون، إنما دفعت إلى ذلك دفعا، وأكرهت عليه إكراها، ورأيتني أقرأ السيرة فتمتلئ بها نفسي، ويفيض بها قلبي، وينطلق بها لساني، وإذا أنا أملي هذه الفصول وفصولا أخرى أرجو أن تنشر بعد حين.

فليس في هذا الكتاب أذن تكلف ولا تصنع ولا محاولة للإجادة ولا اجتناب للتقصير، وإنما هو صورة يسيرة طبيعية صادقة لبعض ما أجد من الشعور حين أقرأ هذه الكتب التي لا أعدل بها كتبا أخرى مهما تكن، والتي لا أملّ قراءتها، وآنس إليها، والتي لا ينقضي حبي

لها وإعجابها، وحرصي على أن يقرأها الناس. ولكن الناس مع الأسف لا يقرئونها لأنهم لا يريدون، أو لأنهم لا يستطيعون. فإذا استطاع هذا الكتاب أن يحبب إلى الشباب قراءة كتب السيرة خاصة وكتب الأدب العربي القديم عامة، والتماس المتاع الفني في صحفها الخصبة، فأنا سعيد حقا موفق حقا إلى أحب الأشياء إلي وآثرها عندي.

وإذا استطاع هذا الكتاب أن يلقي في نفوس الشباب حب الحياة العربية الأولى، ويلفتهم إلى أن في سذاجتها ويسرها جمالا ليس أقل روعة ولا نفاذا إلى القلوب من هذا الجمال الذي يجدونه في الحياة الحديثة المعقدة، فأنا سعيد موفق إلى بعض ما أريد.

وإذا استطاع هذا الكتاب أن يدفع الشباب إلى استغلال الحياة العربية الأولى واتخاذها موضوعا قيما خصبا، لا للإنتاج العلمي في التاريخ والأدب الوصفي وحدهما بل للإنتاج في الأدب الإنشائي الخالص. فأنا سعيد موفق إلى بعض ما أريد.

ثم إذا استطاع هذا الكتاب أن يلقي في نفوس الشباب أن القديم لا ينبغي أن يهجر لأنه قديم، وأن الجديد لا ينبغي أن يطلب لأنه جديد، وإنما يهجر القديم إذا بَرِيء من النفع وخلا من الفائدة، فان كان نافعا ومفيداً فليس الناس أقل حاجة إليه منهم إلى الجديد فأنا سعيد موفق إلى بعض ما أريد.

وأنا أعلم أن قوما سيضيقون بهذا الكتاب لأنهم محدثون يكبرون العقل، ولا يثقون إلا به، ولا يطمئنون إلا إليه، وهم لذلك يضيقون بكثير من الأخبار والأحاديث التي لا يسيغها العقل ولا يرضاها، وهم يشكون ويلحون في الشكوى حين يرون كلف الشعب بهذه الأخبار، وجده في طلبها وحرصه على قراءتها والاستماع لها، وهم يجاهدون في صرف الشعب عن هذه الأخبار والأحاديث واستنقاذه من سلطانها الخطر المفسد للعقول، هؤلاء سيضيقون بهذا الكتاب بعض الشيء لأنهم سيقرؤون فيه طائفة من هذه الأخبار والأحاديث التي نصبوا أنفسهم لحربها ومحوها من نفوس الناس، وأحب أن يعلم هؤلاء أن العقل ليس كل شيء، وأن للناس ملكات أخرى ليست أقل حاجة إلى الغذاء والرضى من العقل، وأن هذه الأخبار والأحاديث إذا لم يطمئن إليها العقل ولم يرضها المنطق ولم تسعها أساليب التفكير العلمي، فان في قلوب الناس وشعورهم وعواطفهم وخيالهم وميلهم إلى السذاجة واستراحتهم إليها من جهد الحياة وعنائها ما يحبب إليهم هذه الأخبار، ويرغبهم فيها ويدفعهم

إلى أن يلتمسوا عندها الترفيه على النفس حين تشق عليهم الحياة. وفرق عظيم بين من يتحدث بهذه الأخبار إلى العقل على أنها حقائق يقرها العلم وتستقيم لها مناهج

البحث، ومن يقدمها إلى القلب والشعور على أنها مثيرة لعواطف الخير، صارفة عن بواعث الشر، معينة على إنفاق الوقت واحتمال أثقال الحياة وتكاليف العيش وأحب أن يعلم الناس أيضا أني وسعت على نفسي في القصص ومنحتها من الحرية في رواية الأخبار واختراع الحديث ما لم أجد به بأسا إلا حين تتصل الأحاديث والأخبار بشخص النبي أو بنحو من أنحاء الدين، فإني لم أبح لنفسي في ذلك حرية ولا سعة، وإنما التزمت ما ألتزمه المتقدمون من أصحاب السيرة والحديث ورجال الرواية وعلماء الدين.

ولن يتعب الذين يريدون أن يردوا فصول هذا الكتاب القديم في جوهره وأصله، الجديد في صورته وشكله، إلى مصادره القديمة التي أخذ منها، فهذه المصادر قليلة جدا لا تكاد تتجاوز سيرة ابن هشام، وطبقات ابن سعد، وتاريخ الطبري. وليس في هذا الكتاب فصل أو نبأ أو حديث إلا وهو يدور حول خبر من الأخبار، ورد في كتاب من هذه الكتب، فإذا اتصل الخبر بشخص النبي فإني أرده إلى مصدره ليستطيع من شاء أن يرجع إليه، لا أحتمل في ذلك تبعة خاصة لأني لا أذهب فيه مذهبا خاصا إلا أن يكون تبسطا في الشرح والتفسير، واستنباط العبرة، والوصول بها إلى قلوب الناس.

فلييسر الله سبيل هذا الكتاب إلى النفوس، وليحسن الله موقعه في القلوب.

العدد 24 - بتاريخ: 18 - 12 - 1933

من لغو الصيف إلى جد الشتاء

للدكتور طه حسين

كنا نلغو أثناء الصيف، فلنجدَّ أثناء الشتاء، وماذا كان يمنعنا من اللغو أثناء الصيف، وفي الصيف تهدأ الحياة ويأخذها الكسل من جميع أطرافها فتوشك أن تنام ولا تسير إلا على مهل يشبه الوقوف، وفي أناة تضيق بها النفوس. كل أسباب النشاط مؤجلة إلى حين، غرف الاستقبال مقفلة، وملاعب التمثيل مغلقة أو كالمغلقة، ولا تذكر الموسيقى والغناء، فمن للموسيقيين أو المغنين بهذا الجو القوي الحي الذي يبعث النشاط والخفة والمرح في النفوس والقلوب، وفي الألسنة والأيدي، جو ثقيل يستتبع فتوراً ثقيلاً، يضطر الناس إلى أن يغدوا على أعمالهم فاترين، ويروحوا إلى بيوتهم مثقلين، لا يكادون ينظرون إلى المائدة حتى ينصرفوا عنها، تنازعهم نفوسهم إلى النوم، وتنازعهم أجسامهم إلى أمهم الأرض، فلا يكادون ينظرون إلى سرير أو شيء يشبه السرير حتى يسرعوا اليه، ويلقوا بانفسهم عليه، وإذا هم يتصلون به ويتصل بهم، وإذا هم يمتزجون به ويمتزج بهم، وإذا هم يصبحون مثله شيئاً جامداً خامداً لا حركة فيه ولا حياة، إلا هذه اليقظة الفاترة البطيئة الثقيلة السمجة التي تلم بهم من حين إلى حين، حين يثقل عليهم الحر، ويشتد عليهم القيظ، فيفيقون أو يهمون بالأفاقة، ثم يغرقون في النوم ليفيقوا، ثم ليعودوا إلى الغرق فيه. ثم ينحسر النهار عن الأرض بشمسه المحرقة الملتهبة، ويقبل الليل متثائباً، يبعث في الجو أنفاساً حارة، كأنها أنفاس العاشق الولهان المحروم قد أوقد الحب الخائب في قلبه ناراً مضطرمة قوية اللظى فلا تكاد أطراف هذا الليل الكسلان تمس الأرض حتى تبعث في الناس نشاطاً كسِلا يدفعهم إلى حركات متخاذلة، فيخرجون من بيوتهم متثاقلين قد ضاقوا بالدنيا وضاقت بهم. فهم يهيمون إن حملتهم أقدامهم يلتمسون مكاناً نضراً لعلهم يجدون فيه فضلاً من نسيم قد صافح الماء، وأطال عشرته بعض الوقت، فيحمل إلى وجوههم وإلى قلوبهم شيئا من هذا البرد الخفيف اللطيف الذي يردهم إلى شيء من الدعة والهدوء.

هنالك يريدون أن يخرجوا من أنفسهم وأن ينسوا أشخاصهم، فيعمدون إلى اللغو يقبلون عليه كما يقبل المريض على الطعام، لا يكادون يذوقونه إلا على كره وفي مضض، ولعل الجو أن يعتدل، ولعل الجو أن يرق، ولعل هذه الأشربة الباردة المثلوجة أن تخفف بعض

هذا اللظى الذي يجدونه في نفوسهم وفي أجسامهم فتنطلق الألسنة من عقلها بعض الشيء، وتستطيع النفوس أن تحرك أجنحتها قليلاً وأن تصعِّد في الجو بعض التصعيد ويستطيع المرح الهادئ أن يبعث في القلوب شيئاً من الراحة والابتهاج. ثم يتقدم الليل ويذكر الناس أن الصبح سيشرق بعد حين ومعه الأعمال والأثقال، والتكاليف والحر والضيق، وإذا هم مضطرون إلى أن يعودوا إلى بيوتهم ويسعوا إلى مضاجعهم كارهين.

كذلك نقضي الصيف في بلادنا إن لم نكن من المترفين الذين لا يكادون يحسون

الصيف حتى ليعبروا البحر إلى حيث يحيون حياة اخرى، أو لا يكادون يحسبون الصيف حتى يسرعوا إلى ساحل البحر، فيحيون حياة خير منها ما نحن فيه من كسل وفتور، ومن تقصير وقصور، فلغو الصيف شيء طبيعي ملائم أشد الملاءمة لحياة الصيف. أما الشتاء فشيء آخر كله فرح ومرح، وكله حركة ونشاط، وكله حياة خصبة عذبة منتجة، تجد فيه النفوس أقصى لذاتها، وتجد فيه الأجسام أقصى قدرتها على الاستمتاع. أكل كثير، وشرب كثير، واضطراب في الأرض كثير، وإقبال على العمل. ونسيان الكسل، وحياة مملوءة إلى حافتها، تفيض أو تكاد تفيض بما يفعمها من الآمال والأعمال. ثم ضيق بالحياة، لأن الحياة تضيق بما نريد. وتعجز عن أن تسع كل ما تسعه آمالنا ورغباتنا وشهواتنا، وقد كدت أنسى واجباتنا. وهل للواجبات مكان في حياة الشتاء هذه التي يفعمها الجنون؟ مسكينة هذه الواجبات! يطاردها فتور الصيف ويطاردها نشاط الشتاء فحظها من عنايتنا قليل دائماً. ولعمري إنّا لمعذورون، أما عذرنا في الصيف، فلا يقبل جدالاً ولا مراء، ومن ذا الذي يستطيع أن يكلف الناس أن يعملوا وهم عاجزون عن العمل، أو يكدوا وهم مصروفون عن الكد. والله عز وجل لا يكلف النفوس إلا وسعها، ولا يحمل الناس ما لا طاقة لهم به، واما في الشتاء فعذرنا أبلغ منه في الصيف، وكيف تريدنا على أن نفرغ للعمل، ونخلص للإنتاج، ونؤدي واجباتنا مشغوفين بها، مقبلين عليها، وحولنا من المغريات ما لا تقاومه إلا نفس سقراط أو أشباه سقراط،. ومن يدري لعل سقراط لو عاش في أيامنا، واضطراب في بيئتنا، لكان رجلاً مثلنا تصرفه المغريات عن أن يعرف نفسه بنفسه، وعن أن يولد نفوس محاوريه ويخرج منها كل ما احتوت من حقائق العلم والحكمة، وفنون المعرفة وألوان الخير.

وقد زعموا أن امرأة سقراط كانت مسلطة عليه، وانه كان يخافها خوفاً شديداً، ويشفق منها إشفاقاً لا حد له، فلو عاشت امرأة سقراط في مدينة القاهرة وفي القرن العشرين لاتخذت لها يوماً في كل اسبوع، تستقبل فيه الزائرين والزائرات، فلا تكاد تطلع الشمس حتى تهيئ وتضطر زوجها إلى أن يهيئ معها غرف البيت لاستقبال الزائرين والزائرات، وحتى تسعى وتضطر زوجها إلى أن يسعى معها إلى حيث تشتري ألوان الحلوى وفنون الزهر وصنوف الفاكهة، حتى إذا تقدم النهار ودنت الساعة الرابعة قامت واضطر زوجها إلى أن يقوم معها لاستقبال الأصدقاء وغير الأصدقاء، من هؤلاء الذين يغشون غرف الاستقبال لأنهم يَكلَفُون بغشيانها، أو لانهم يكرهون غشيانها. تكرههم عليه امرأة سقراط وأمثالها، لان امرأة سقراط لا تغفر لفلان وفلان من العلماء والأدباء وأصحاب الفن أن يهملوها، أو ينصرفوا عن غرفة استقبالها، وهي تصر أشد الإصرار على أن يظهروا في بيتها مرة في كل اسبوع، حتى لا يقول صديقاتها أن غرفتها ليست حافلة بأعلام الفن وأفذاذ الأدب، ورجال المال والأعمال، فإذا فرغت امرأة سقراط وفرغ زوجها من الاستقبال وما فيه من حديث مختلف مؤتلف، معوج مستقيم، واضح غامض، خصب جدب، خطر بريء، فلم تنته امرأة سقراط ولم ينته سقراط من كل شيء، وانما ابتدأ شيئاً لا سبيل إلى أن ينتهي، فهؤلاء الزائرون والزائرات لابد أن ترد لهم الزيارات، لأنهم كسقراط وامرأة سقراط مضطرون إلى أن يستقبلوا كما كانوا مضطرين إلى أن يزوروا، وكذلك تقضي امرأة سقراط ويقضي معها سقراط مساء كل يوم متنقلين من دار إلى دار، ومن غرفة استقبال، يقولان كلاماً، ويسمعان كلاماً، يصدِّقان ويكذِبان، وويل لسقراط إن أدركه الكسل أو أصابه الملل أو شغلته الفلسفة أو صرفه عن زيارة من هذه الزيارات حوار مهما تكن قيمته، ومهما يكن المحاورون، فأفلاطون وكسنوفون، وفيدون، وفيدر، كل هؤلاء يستطيعون أن يلقوه في داره يوم استقباله. أو في دار من هذه الدور التي تستقبل من الساعة الرابعة والثامنة من كل يوم، وإذا لم يكن بد من الحوار في الطبيعة أو في أي شيء من هذه الأشياء التي تنجم من الأرض، أو تهبط من السماء، فليدبر لهم سقراط وقتاً من هذه الأوقات التي يمكن فيها اللقاء دون أن تصرفه عن واجباته الاجتماعية وتعرضه للغضب، وأي غضب؟ غضب السيدات!

فإذا فرغت امرأة سقراط وفرغ معها سقراط من الاستقبال والزيارة وأقبل الليل، فالويل كل

الويل للفيلسوف العظيم إن دعته نفسه إلى أن يعرفها، أو يحقق ما كان مكتوباً على معبد دلف (اعرف نفسك بنفسك) وأين يجد سقراط الوقت الذي يخلو فيه إلى نفسه

إذا جنه الليل؟ فالليل لا يلقي على الأرض أستاره المظلمة ليأوي الناس إلى بيوتهم بل ليخرجوا منها، وكيف تريد، أن يأوي سقراط إلى بيته أو يخلو سقراط إلى نفسه، وهذه الأوبرا قد فتحت أبوابها، ومدت أسبابها، وأقبل عليها الممثلون والمغنون يعرضون بدائع التمثيل وآيات الغناء.

وهذه دور السينما تعرض في كل يوم جديداً، وهذه قاعة (يورت) يوقع فيها فلان، وقاعة (الليسيه) يوقع فيها فلان، وقد يجمع سقراط شجاعته كلها ويقول بقلب متردد ولسان متلعثم انه لا يحب ما يمثل الليلة، أو ما يوقع، أو ما يغنى، وأنه يؤثر الراحة أو الانقطاع لبعض العمل، ولكن ويل لسقراط من هذه المقالة! فمن زعم له انه سيشهد التمثيل أو يسمع الغناء لأنه يحب أو لا يحب، ولأنه متعب أو مستريح، انما يشهد التمثيل ويسمع الغناء ويختلف إلى دور السينما لأن الناس يجب أن يروه في هذه المشاهد كلها، وإلا فليس هو من أهل القاهرة، ولا من ذوي المكانة فيها، وقد تظن أن سقراط حين يذهب إلى الملعب أو إلى دار من دور السينما أو إلى قاعة من قاعات الغناء يستطيع أن يفرغ للفن أو يستمتع به، فاطرد عن نفسك هذا الظن، واذكر أن هناك (الانتراكت) ومقابلات الانتراكت، وأحاديث النظارة والمستمعين عما رأوا وما سمعوا ويا لها من أحاديث تبغض الفن إلى أحب الناس للفن، يجب أن يكون لكل واحد من هؤلاء النظارة والمستمعين رأي يراه، وكلمة يقولها فيما رأى وما سمع، وقد يكون هذا الرأي سخفاً، وقد تكون هذه الكلمة جهلاً، وهما كذلك في أكثر الأوقات، ولكن سقراط مضطر إلى أن يسمعهما ويقرهما، أو يجادل فيهما مجادلة المقر الذي لا ينكر. وهناك ما هو أثقل من ذلك، فيجب أن يكون لسقراط رأي يقوله وكلمة يقولها وإن لم ير شيئاً، وإن لم يرد أن يقول شيئاً ذلك أنه إذا لم يقل كلمته اتهم بالجهل، أو وصف بالكبرياء، وكلاهما لا يليق بالحيوان الاجتماعي الذي ذكره ارستطاليس في كتاب السياسة، والذي يتألف منه ومن أمثاله سكان مدينة القاهرة، كما يتألف منه ومن أمثاله سكان باريس.

حتى إذا تقدم الليل عاد سقراط إلى بيته متعباً مكدوداً فأوى إلى مضجعه ولم يلبث أن يأسره النوم. ولعلك تظن أن تكاليف سقراط تقف عند هذا الحد، فما أشد إغراقك في الوهم! وأين

أنت من المحاضرات؟ وما أدراك ما المحاضرات؟ محاضرات الجمعية الجغرافية، وأخرى في الجمعية الاقتصادية، وأخرى في قاعة يورت التذكارية، وأخرى عند جروبي، وأخرى في الكونتننتال، ولا بد لأسرة سقراط من أن تشهد هذه المحاضرات لتكون ظريفة متلطفة، مجاملة للمحاضرين والمحاضرات، ثم لتظهر أيضاً، أو لتظهر قبل كل شيء. والمحاضرون قوم قساة لا يحفلون بالناس ولا يحفلون بانفسهم، وانما يحفلون بالمحاضرات، فهم يحاضرون في غير رفق، وهم يحاضرون في غير حساب، وهم يتنافسون في المحاضرات وقيمتها وحظها من الجودة، بل في عدد المحاضرات وعدد المستمعين. والإعلان في الصحف؛ وقد تسوء الحال فيلقي محاضران محاضرتيهما في وقت واحد وفي مكانين مختلفين طبعاً، ويومئذ يضطر سقراط إلى أن يشهد إحداهما، وتضطر امرأته إلى أن تشهد الأخرى، فلا بد من ظهور أسرة سقراط في المحاضرتين جميعاً فإذا انتهى كل من المحاضرين تقدم اليه نصف الأسرة فهنأه وحياه واعتذر له عن النصف الأخر لأنه مشغول بمحاضرة فلان. يا لهذا الفصل: فصل الشتاء! انه يشغل الوقت، ويصرف الناس حتى عن الحياة، وقد تعطف الظروف على سقراط وتؤثره الأيام بخير ما عندها من اللذات والمتاع. وإذا هو مضطر إلى أن يستمتع رغم أنفه بتناول الشاي عند فلان، ثم بالاستماع لمحاضرة يلقيها فلان في الساعة السادسة، وأخرى يلقيها فلان في الساعة السابعة، ثم يخطف عشاءه خطفاً، ويلقي ملابس النهار ويتخذ ملابس الليل ليسرع إلى الأوبرا، ويل لسقراط إن لم يكن من أصحاب السيارات! وويل للسيارة وسائقها ان كانت لسقراط سيارة، من هذه الأيام العذاب الكذاب أيام الشتاء، ثم حدثني بعد ذلك كيف يستطيع سقراط أن يفرغ لفلسفته ومعرفة نفسه وحوار تلاميذه إذا كان الصباح، وأين له القوة التي تمكنه من أن يفلسف أو يفتش عن نفسه أو يحاور أصدقاءه بعد هذا الجهد العنيف الذي أنفقه أو الذي احتمله منذ أقبل المساء إلى أن انقضى الليل أو كاد ينقضي، ومع ذلك فلا بد لسقراط من أن يعنى بفلسفته، ويبحث عن نفسه، ويجاور أصدقاءه، لأنه بذلك يعيش، ولذلك

يعيش، زمن ذلك يعيش؟ أرأيت أن سقراط لم تظلمه الأيام حين جعلت حياته في القرن الخامس قبل المسيح في ذلك الوقت الذي لم تنشأ فيه الصالونات، ولم تكثر فيه المحاضرات، ولم تتعدد فيه ملاعب التمثيل وقاعات الغناء، ولم تظهر فيه دور السينما، لقد كان سقراط سعيداً حقاً، كان

يشهد التمثيل أياماً في العام، مرة في الربيع حين يكون فصل التراجيديا، ومرة في الخريف حين يكون فصل الكوميديا. وكان يختلف إلى بعض الدور: إلى دار بيركليس مثلاً، ليسمع بعض السفسطائية، وليحاور أو ليستمتع بجوار هذه المرأة الجميلة زوج بيركليس. وكان ينفق ما تبقى من وقته، وهو أكثره من غير شك، متنقلا بفلسفته في شوارع أثينا، أو باحثاً عن نفسه في حمام أثينا وملاعب الرياضة فيها. وأنا واثق بان سقراط لو خير بين حياتنا الحلوة العذبة، وبين سجنه الثقيل وما تناول فيه من السم لآثر السجن والسم على هذه اللذات الطوال الثقال التي نتحملها نحن في فصل الشتاء.

أرأيت أن الصيف هو الفصل الذي يحسن فيه اللغو، وأن الشتاء هو الفصل الذي لا يحسن فيه إلا الجد، ولايمكن فيه إلا الجد، ولعلك تظن ان ما حدثتك به هو كل ما في الشتاء من جد، فُذد عن نفسك هذا الوهم، ففي الشتاء جد آخر مر كله، لا حلاوة فيه، فأنت توافقني على أن الزيارة والاستقبال، والاختلاف إلى المحاضرات، وشهود التمثيل والاستماع للمغنين والموقعين، كل ذلك يحتاج إلى نفقات، فثياب الشاي غير ثياب التمثيل، ولكن ماذا أريد أن أقول؟ ومالي أدخل بك في هذا الحديث الذي لا فكاهة فيه ولا متاع؟ أهذا كل ما يحمل إلينا الشتاء من الجد؟ كلا ففي الشتاء جد آخر، جد خصب حقاً، جد نافع حقاً، جد نعيش منه، ونلهو به، ولا يجني منه أصحابه إلا حياة كلها خشونة وشظف وحرمان، هو جد هؤلاء الفلاحين الذين يعملون في الأرض، لا يحفلون بالبرد ولا يحفل بهم البرد، وفي الشتاء جد آخر، جد يمزق القلوب، ويعذب النفوس، ويبعث اللوعة والأسى في أفئدة الذين يعرفون الرحمة واللين، ويذكرون حين يلهون إن في الأرض قوماً آخرين يعذبهم الجوع، ويلح عليهم البرد، فيقضون ليالي خير منها ظلمة القبور، في الشتاء هذا الجو المظلم القاتم، المرهق المحرق الذي تصوره اجمل تصوير وابلغه تلك الأغنية المشهورة أغنية الإحسان التي ما استطعت أن استقبل الشتاء منذ عرفتها دون أن اسمعها مرة ومرة:

هذا الشتاء يقبل، ومعه حاشيته الحزينة، إن الأشقياء ليألمون كثيراً في الشتاء، إن من الحق علينا أن نحميهم من هذا الشقاء، إن البرد لشديد في دورهم المقفرة!

كيف يرقى الأدب

للأستاذ احمد أمين

أشرت في مقال سابق إلى العلاقة بين الذوق العام ورقي الأدب، ووعدت القراء أن أعود إلى هذه العلاقة، أزيدها بسطاً وايضاحاً، وذلك ما أحاوله في هذا المقال.

يذهب بعض المفكرين إلى أن الفنون (ومنها الأدب) ترتقي وتنحط، وتعلو وتسفل، وتتقدم وتتأخر، في الأمم اعتباطاً من غير أن يكون لذلك أسباب. أو على الأقل أسباب ظاهرة، فالناظر لتاريخ الفنون في العالم يرى أن أمة في عصر من العصور قد ترقى في فن من الفنون، كالموسيقى أو الحفر أو التصوير أو الشعر، على حين أن أمة أخرى ترقى في فن آخر من هذه الفنون، ثم بعد رقي عظيم تنحط الأمة في هذا الفن ويحل محل الفن فن آخر. أو لا يحل محله شيء، وتتبادل الأمم ذلك من غير أن يكون لهذا التقدم وهذا التأخر علة مفهومة، وشأن الفنون شأن النابغين، فقد ينبغ النابغ في أمة ولا نعرف لم نبغ وكيف نبغ، وتحاول الأمة أن تخلق نابغين فلا ينخلقوا. بل ترى الأمر عجباً، فقد يوجد النابغة والأمة على أسوأ ما يكون من ضعف في الخلق، وضعف في العقل، ثم ترقى الأمة عقلاً وترتقي خلقاً، وكان مقتضى هذا أن يكثر عدد النابغين فيها ويزدادوا نبوغاً بازدياد الأمة رقياً فينعكس الأمر حتى لتجد الأمة وأعضاؤها قوية ولا رأس، بينما كان لها في حال ضعفها رأس قوي ولا أعضاء، ما ذاك إلا لأن النابغة يوهب ولا يخلق. وقد قال هؤلاء إن الفنون في ذلك ليست كالعلوم، فالرقي في العلوم سبيله ميسور ممهد، وتستطيع الأمة أن تضع لها خطة تسير عليها لترقى في الطبيعة أو الكيمياء أو الرياضة. فإذا هي جدت في ذلك وصلت إلى درجة من الرقي تناسب جدَّها واستعدادها، ولكنها لا تستطيع أن تضع خطة تسير عليها للرقي في الشعر والموسيقى

والتصوير، لأن ذلك نوع من الإلهام، والإلهام بيد الله يمنحه من يشاء كيف شاء متى شاء. ولعل الكاتب يشعر بهذا تمام الشعور في نوع ما يكتب، فهو إذا أراد أن يكتب بحثاً علمياً أو يحقق لفظاً لغوياً أو يحرر حادثاً تاريخياً، فهو في اكثر أوقاته مستعد لذلك، ما لم يكن مريضاً أو مهموماً، ولكنه وإذا شاء أن يكتب قطعة فنية أدبية إنشائية لا يستطيع ذلك إلا في حالة نفسية صافية، ومزاج يتناسب والقطعة الفنية التي ينشئها، من حزن أو سرور، وحلم أو غضب، ويصادفه وقت هو كما يسميه الصوفية وقت تجلٍّ، يجيد فيه ويغزر ويسمو فيه ويصفو، ويعجب كيف أجاد وكيف غزر، ثم هو - يحاول بعد مراراً أن يخلق مثل هذا التجلي، فيفشل ثم يفشل، ويحار في تعليل ذلك، وتعليلها هو ما قاله علماء الكلام (ولم تكن نبوة مكتسبة) هو في العلم مالك وقته يصرفه كما يشاء وهو في الأدب ينتظر الإلهام.

وقالوا إن رقي الأمة في الأدب لا يرتبط بدرجة ثقافتها، ولا برقيها العقلي، ولا بأي سبب من الأسباب، فالأمة المصرية قديما رقيت في فنون النحت والنقش والبناء رقياً بديعاً جعلها من أساتذة العالم في هذا الباب، وخلّفت على مر الأزمان ثروة لا تقوّم، ولا تزال قبلة الفنانين تستخرج إعجابهم وتلهم أذواقهم، والمصريون الآن ليسوا أساتذة في الفن، حتى ولا تلامذة، مع أن أحداً لا يستطيع أن يقول أن المصريين القدماء كانوا أرقى منا عقلاً وأعلى ثقافة. وكذلك يشكو كثير من الأوروبيين من أن الفن (ما عدا الموسيقى) أخذ يتدهور من القرن السادس عشر مع أن انواع العلوم في رقي مستمر. وعقليات الأمم في تقدم دائم، ولو كان الأمر بالعلل والأسباب المنطقية لوجب أن يكون المصريون اليوم أعلى فناً وأكثر نبوغاً، ولكان الفن الأوربي الآن أسمى وأتم منه في القرون الوسطى، فأما وقد عجز المنطق عن تقديم مقدمات ونتائج صحيحة فليس إلا الإلهام، وليس للأمة إلا أن تنتظر ما يأتي به القدر.

هكذا قالوا، أو حالوا أن يقولوا، وبهذا احتجوا، أو حاولوا أن يحتجوا ولكن هل هذا صحيح؟ إن في هذا الرأي غلواً مفرطاً، انه يخرج الأدب عن دائرة الإرادة ويجعله مجرد انتظار للوحي والإلهام، ومن الحق أن للأدب خطة تنتهج كمنهج العلم، وأن من نعده للأدب يجب أن تثقفه ثقافة خاصة كالذي نعده للعلم، ولكن من الحق أيضاً إننا لا نخلق الأديب ببرنامجنا، بل لابد أن تكون قد هيأته الطبيعة ومنحته استعدادات خاصة وكفايات ممتازة، وتهيؤا لقبول الإلهام، ولكنه في كل ذلك كالعالِم، فبرنامج العلم لا يخلق نابغة في العلم انما يعده، والعالم لابد أن يكون مهيأ للإلهام كالأديب، واكثر المخترعات والمستكشفات في العالم كانت نتيجة الهام اكثر منها نتيجة لمقدمات منطقية وتجارب عملية، وانما التجارب تهيئ للإلهام وتحقق ما يأتي به، وتبين صحيحه من فاسدة وتسمى هذه الإلهامات فروضاً.

ويظهر أن اتجاه هؤلاء الباحثين هذا الاتجاه سببه عقيدة سادت بين علماء الفن وعلماء الجمال عهداً طويلاً وهي (ان الذوق لا يعلّل) فالناظر ينظر إلى الصورة فيستجملها أو يستقبحها، فإن أنت سألته لم أستجملها أو لم استقبحها لم يحر جواباً، وإذا أجاب أجاب بكلمات منمقة ولكنها جوفاء لا تحوي علة ولا توضح سبباً، وانما هي نفس الدعوى بألفاظ رشيقة جميلة، وإذا رأيت طاقة من الزهر قلت ما أجملها ولكن إن سئلت لم كانت جميلة قلت انها منسقة، انها بديعة الألوان، أن نفسي لترتاح إلى رؤيتها، انها لتسر النظر، وتبهر العقل، وأنت غنى بعدُ عن أن أقول لك إن هذه الألفاظ وجمل قد ترضي البلاغة ولكن لا ترضي المنطق وقد تعرض صورة أو يظهر إنسان امام جمع من النظارة فهذا يستحسنه وذاك يستقبحه، وثالث لا يستحسنه ولا يستقبحه، فإذا سألت من استحسن لم استحسن ومن استهجن لم استهجن، ومن حايد لم حايد، كانت الإجابات مثاراً للعجب وموضعاً للضحك، وقد ترى إنساناً كل عضو من أعضائه على انفراد جميل، ولكنه ليس جميلاً ككل، فما الذي كوّنه هذا التكوين؟ وما الذي وضعه هذا الوضع؟ ولم استحسنته مفرقاً ولم تستحسنه جملة؟ لا شيء في الحقيقة إلا الذوق الذي لا يعلل، وهذا هو الشأن في الأدب، وأظهر مثل لذلك ما فعله عبد القاهر الجرجاني في أسرار البلاغة ودلائل الأعجاز، فماذا صنع؟ انه يأتي بالبيت الجميل ثم يقف ويتساءل فيم كان جماله، فما هو إلا أن يصوغ لك جملاً رشيقة فيقول: إن هذا اللفظ يروقك ويؤنسك، وغيره يثقل عليك ويوحشك، وهذا الوضع يبهرك جماله، وهذا النظم يأخذ بلبك ما فيه من نسج وصياغة، ووشي وتحبير، ويعلل سبب ذلك أحياناً

بالتقديم والتأخير، وأحياناً بالفصل والوصل , وكلها علل لا تصلح، فأنا كفيل بأن آتيك بتقديم يحسن، وتقديم مثله يقبح، وفصل يروعك وفصل مثله يسوءك وقد حاول أن تفرق بينهما فلا تستطيع، ثم تسلم سلاحك وتكتفي بأن تقول هذا جميل، وهذا قبيح، وهذا يحسن في ذوقي وهذا لا يحسن، وبذلك تكون قد قطعت شوطاً بعيداً، ثم في آخر الأمر عدت إلى النقطة التي بدأت منها سيرك، وما علوم البلاغة كلها إلا محاولة لتعليل الذوق الأدبي، ولكن هل أفلحت في التعليل؟ إنا لنخشى أن تكون قد دارت حول نفسها، ولم تأت بشيء (لأن الذوق لا يعلل).

وإذا كان الذوق لا يعلل فكل ما ترتب عليه لا يعلل، وإذا كان الفن وليد الذوق فالفن لا يعلل، ولا يعلل كيف ظهر وكيف قوى وكيف ضعف.

هكذا ايضاً قالوا أو يصح أن يقولوا. وهذه الآراء وإن كان فيها شية من الحق ليست حقاً كلها، وليست حقاً في أساسها، وقد بذل بعض العلماء المحدثين مجهوداً حميداً في بيان ما فيها من حق وباطل وحاولوا أن يفلسفوا الذوق، ويفلسفوا الجمال ووضعوا للذوق والجمال علماً وعدوه فرعاً من فروع الفلسفة، وحاربوا الفكرة السائدة: (إن الذوق لا يعلل)، ووضعوا قواعد لتعليله نجحوا فيها أحياناً وفشلوا أحياناً، ولا يزال مجال البحث أمامهم فسيحاً، وكان لهذا الاتجاه الجديد في عالم الجمال أثر كبير في خلق نظريات في الأدب، ووضع أسس جديدة للبلاغة والنقد الأدبي مما ليس هذا موضعه.

والذي أميل اليه أن الفن نتيجة الذوق لا محالة، وأن الذوق يمكن تربيته وترقيته، فالطفل إذا لفتَ نظره إلى الأزهار وجمالها تكوّن فيه الميل إلى حبها والاستمتاع بها، فإذا كان يعدُ أديباً اتصلت حياته الأدبية بها، وظهر في نتاجه الفني هذا الحب وهذا التقدير.

والذوق العام للأمة في قوته وانحطاطه، ليس يظهر فجأة ولا نتيجة المصادفة البحتة، انما هو نتيجة لكل ما يحيط بالأمة من ظروف وأحداث، هو نتيجة النظم السياسية، والحياة الاقتصادية والاجتماعية، والثقافة العقلية وغير ذلك، وإن شئت فقل أن ذوق الأمة هو تعبيرها عما تُقوِّم، فالأمة إذا قَوّمت المناظر الطبيعية تذوقتها، وإذا قومت جمال الأزهار تذوقته، وإذا لم تقوم نظام المجتمعات لم تتذوقه ولم يجرح ذوقها تهويش على محاضر أو مغن أو ممثل والفنان ليس إلا معبراً عن ذوق الأمة، والأديب ليس إلا الموقع للأصوات التي تستلذها الأمة.

ومن أهم الأسباب ضعف الأدب العربي مسألتان تتصلان بهذه الحقيقة: الأولى أن الأدب العربي لا يتصل بالذوق العام للأمة اتصالاً وثيقاً، لأنه يصاغ بلغة غير لغة الشعوب، ولا يتصل إلا بذوق خاص وهو ذوق محترفي الأدب، ومن تكون ذوقهم تكّوناً كلاسيكياً , ولا أمل في نجاحه إلا أن نعمل بأي شكل كان على ان نصل الأدب أو أكثره بالذوق العام، والثانية تتصل بالأولى. وهي أن الآداب في أكثر الأمم كانت أرستقراطية النزعة يوم كانت القوة في يد الأرستقراطيين، فلما انتشرت الديمقراطية تبعها الأدب، فأصبح ديمقراطي الموضوع، ديمقراطي النزعة، أما الأدب العربي فقد أصبح أرستقراطيا منذ العهد الأموي، وأصبح أهم انواع الأدب إنما ينشأ حول قصور الأمراء والأغنياء، وفي الموضوعات التي

تناسبهم من مديح لهم وهجاء لاعدائهم، فلما عمت النزعة الديمقراطية العالم لم تؤثر في الأدب العربي أثرها في غيره من الآداب، بل ظل محتفظاً إلى حد ما بأرستقراطيته، وهذا قلل من غير شك اتصاله بالذوق العام للأمة. وقد نعود إلى توضيح ديمقراطية الأدب في مقال تال.

على كل حال لا وسيلة لترقية الفن ومنه الأدب إلا بترقية الذوق، وربط الفن به، ولذلك وسائل:

من أهمها التأذين في الناس بصوت عال يهزهم هزاً عنيفاً حتى يشعروا بأن أذواقهم مريضة، لا يشعرون بالجمال كما ينبغي ولا يهيمون بالحسن كما يجب، ولست اعني جمال الوجوه وحدها، ولكن جمال الأزهار، وجمال الطبيعة، وجمال الموسيقى، وجمال الحركة، وجال النظام، وجمال النظافة، وجمال المعاني، ويجب أن لا يقتصر دعاة الفن على الدعوة لجمال الكرنك وأنس الوجود والمساجد الأثرية بل يجمعون إلى الدعوة لجمال الماضي وجمال الحاضر. وهذا أكثر وضوحاً في الأدب فدعوة الأدباء دائماً وقول الأدباء دائماً انما هو إلى الماضي وفي الماضي، وهذا حسن لدرجة ما ولكن يجب أن

يقرن به الدعوة القوية أيضاً إلى النظر إلى أنفسنا والقول في أنفسنا.
يجب أن نغير تسعيرة الأشياء، ونضع تسعيرة جديدة لما يدور حولنا، ونضع أمام ناشئتنا قيماً جديدة لما يقع عليه نظرهم، فإذا كانت بيوتنا تعنى بكمية الأكل وتعطيها أكبر قيمة، وجب أن نرفع قيمة الكيفية فنضع قيمة كبرى للأزهار على المائدة ولجمال الترتيب والنظام ولجمال الحديث.
يجب أن نوجه إرادتنا في ترقية الذوق كما نوجه إرادتنا لترقية العلم وترقية النظام السياسي، ونضع للذوق برامج كالتي نضع لبرامج التعليم.
إنا إن فعلنا ذلك تمخض المجتمع عن فنان ماهر، وأديب قادر.
حب العرب في مناجم الذهب
للعلامة الشيخ عبد القادر المغربي- عضو مجمع اللغة العربية الملكي
(دَرَى) الصيد يدريه إذا توارى عنه وما زال به حتى أمسكه. فدَرَى هذه بمعنى خَتَل. ولها أخت مشهورة بيننا: وهي (دَرَى المسألة) بمعنى علِمها وأدركها. وبعضهم جعل (دَرَى) هذه من بابة (دَرَى) الصيد، فاشترط في دراية المسألة الوصول اليها بضربٍ من الحيلة.
ولم لا أقول في (أدرك) كما قالوه في (دَرَى)؟ فيكون إدراك المسألة وتعقلها بعد سعيٍ وجهد. كما أن إدراك الصيد واعتقاله بعد جريٍ وجهد.
ولا تقل أيها القارئ أن (دَرَى) بمعنى (خَتَل) لا عهد لنا بها. بلى! فإننا نستعمل حتى في لغتنا تخاطبنا أختاً لها: وهي كلمة (دَارى) من (المفاعلة) ونريد بها أن يُلين الشخص القولَ لآخر، ويسارع إلى هواه، ويتجنب سخطه، فنستعملها بمعنى المجاملة، وإن كان اشتقاقها في الأصل يدل على معنى الخديعة والختل.
اما شاهد (دَرَى) الصيد بمعنى ختله فهو قول الشاعر:
فإن كنتُ لا أدري الظباء فإنني ... أدُّس لها تحت التراب الدواهيا
فالشاعر يريد بقوله (أدري الظباء) أنه يختلها ختلاً إذا أراد اصطيادها، حتى إذا عجز عن ختلها وإمساكها باليد، فانه يصيدها بالفخاخ والحبائل يدسّها لها تحت التراب. فالدواهي إنما أراد بها هذه الفخاخ؛ كما أن المراد بالظباء ظباء الوحش. ويبعد أن يكون أراد بها ظباء الأنس: أعني الحسان من النساء بدليل الرواية الأخرى وهي (أدسُّ لها تحت العِضاه المكاويا) و (العِضاه) شجر عظام في البادية، تأوي اليها الظباء عند اشتداد الهجير فتقيل تحتها، وتعطُو إلى أوراقها و (المكاويا) جمع مكواة: آلة الكي المعروفة، وأراد بها هنا الفخاخ نفسها.
ولكلمتي (دَرَى) و (دارى) أختان هما (ادَّرى) الصيد من الافتعال- و (تَدَرَّى) الصيد من التفّعل) وكلتاهما بمعنى (خَتَل) أيضاً.
أما شاهد (ادَّرى) بتشديد الدال، فبيتٌ من الشعر كلنا ينشده هكذا:
وماذا يبتغي الشعراء مني ... وقد جاوزتُ حدَّ الأربعين
وهو لسُحَيْم بن وثيل الرياحي. وصواب الرواية:
وماذا يدَّري الشعراء مني الخ
بتشديد الدال من (ادَّرَى) الصيد ختله حتى اصطاده. أي لا يظن الشعراء أنهم (يدَّرى) قادرون على ختلي وخديعتي بعد أن بلغت سن الكمال والأستحصاف.
هذا شاهد (ادَّرى). أما فعل (تَدَّرى) بتشديد الراء (من التفعُّل) فله شاهد عجب، من أنباء حب العرب، في معادن الذهب. وهو قول شاعرهم:
كيف تراني أدَّرى وادَّرى ... غِرّات (جُملٍ) وَتَدرَّى غِرِرَى
على أن هذا البيت شاهد لكل من الفعلين: (ادَّرى) (من الأفتعال) و (تَدَّرى) (من التفُّعل).
أما (اذَّرى) بالذال المعجمة فليست من معنى الختل في شيء. وإنما هي من تذرية الحَب ونحوه في الهواء، فيذهب القشر والتراب، ويبقى الحب واللباب.
وأصل (ادَّرى) (اذترى) من الأفتعال. كما أن اصل (اذَّكر) أي تذكر (إذتكر)، وثلاثيه ناقص وأو: يقال ذَرَا فلان حَبّ بيدره. و (ذَرَّاه) من التفعيل، فاذَّرى في بيت الشعر المذكور هو بهذا المعنى.
والفعلان الأخران (ادَّرى) و (تَدَّرى) بالدالين المهملتين هما بمعنى خَتَل الصيد.
وقائل البيت لم يرد أنه ادَّرى وختل ظبيةً من ظباء الوحش وإنما كان غرضه أن يختل

ظبيةً من ظباء الأنس وهي (جُمل) الحسناء. فهو يقول: قد كنت أنا و (جُمل) نعمل في تحصيل الذهب وتنقيته من التراب، وكنت أعمل أنا في تذريته وتعريضه لهبوب الريح فيتطاير التراب والشوائب هنا وهناك، وتقع ذرَّات الذهب وقطعه الصغيرة على الأرض.
أما (جُمل) فلها وظيفة غير وظيفتي: وظيفتها (التحصيل). فأنا (المذرِّى) وهي (المحصِّلة).
قال ابن فارس: أصل معنى التحصيل استخراج الذهب من حجر المعدن.
وقال علماء اللغة: (المحصَّلة) كمحدِّثة المرأة التي تحصّل تراب الذهب أو تراب المعدن. ومعنى تحصيله تخليص الذهب منه. والتحصيل في الذهب كالتصويل في الحنطة ونحوها.
وقال ابن بّري: المحصَّلة هي التي تميز الذهب من الفضة.
وجميع أرباب المعاجم لم يذكروا (اسم فاعل) التحصيل إلا بصيغة المؤنث (المحصَّلة) ولا يكادون يقولون (المحّصل) بالتذكير، إلا على سبيل بيان الاشتقاق القياسي. أما (المحصلة) الأنثى فقد أصبح وصفاً غالباً على امرأة ذات عمل خاص بها هو تحصيل الذهب وتنقيته.
ومما يحسن التنبيه اليه أن فعل (اذّرى) التي هي بمعنى التذرية في قول الشاعر المذكور لم يقل أحد من علماء اللغة أن المراد بها تذرية حب الحنطة مثلاً، بل أجمعوا على أن مراد الشاعر تذرية الذهب وتنقيته من التراب فيظهر أن البيت من قصيدة حكى فيها الشاعر حادثة جرت له مع الحسناء (جُمل) وهما يعملان في معدن (حِلّيت) على وزان (سِكّيت) في بلاد نجد أو غيره من مناجم جزيرة العرب التي كثر التحدث عنها في الآونة الأخيرة.
وكما استفدنا من علماء اللغة أن (المحِّصلات) هن المشتغلات في المعادن، وأن (التحصيل) من أعمال النساء الخاصة بهن أو الغالبة عليهن، استفدنا ذلك ايضاً من شعراء العرب. فقد قال أحدهم:
اإلا رجل جزاه الله خيراً ... يدلُّ على محِّصلةٍ تبيت؟
وهذه الدلالة في مغزاها تشبه الدلالة في قول الأخر:
يا من يدلُّ عَزَباً على عَزَبِ
وإذا كانت وظيفة المرأة العربية في معادن الذهب ما ذكرنا، فتكون الحسناء (جُمل) بينا هي منهمكة في تحصيل الذهب وتخليص شذراته، كان الشاعر الذي قال: (كيف تراني أذَّرى وأذَّرى الخ) كان يذَّرى تراب الذهب ويلاعب المذراة أو المنسف بيديه، أما عيناه فكانتا تلاعبان عيني (جُمل)؛ فكان يختل (غرَّاتها) جمع (غرَّة) أي غفلتها، فإذا غَفلت رنا اليها. فيكون بذلك قد ختلها، أي خدعها مذ أوهمها أنه لا ينظر اليها مع أنه ينظر. ولم تكن (جُمل) بأقل كلفاً وحرصاً على مسارقته النظر، فكانت هي في نوبتها أو في دورها (كما يقولون) (تَدَرَّاه) أي تختله وتخدعه فتوهمه أنها لا تنظر اليه، ثم تتحَّين (غِرَره) جمع (غِرة) أيضاً أي غفلته حتى إذا سنحت لها غرة من غرره نظرت اليه معجبةً أو متفرّسة إن كان يصلح لها بعلاً أو لا.
ومحصّل القول أنه كان للعرب معادن ذهب يجتمعون نساء ورجالاً، أحراراً في عملهم، أو مأجورين لصاحب (رأس المال) رومي أو فارسي يشغلهم على حسابهم. وإن النساء كان عملهن التحصيل، أي تنقية ذرّات الذهب وشذراته، بينما الرجال الأشداء كانوا يقومون بأعمال أخرى أشق من أعمالهن كالتذرية وتفتيت الصخور بالمعاول ونحو ذلك.
ويظهر من لهج شعرائهم بذكر (المحصّلات) أنه كان لهن من تجمعهن في ذهابهن إلى المعدن وإيابهن، أو من زيّهن وشكل لبوسهن، أو من حديثهن ونوع تظّرفهن، كان لهن من ذلك حالة خاصّة لفتت عيون الشبان إاليهن، وحملتهم على ذكرهن وتمني معاشرتهن.
وهذا كما هو الحال في نساء المعامل وفتيات المخازن في أوربا اليوم.
الحركة القومية الارلندية منذ نشأتها إلى اليوم
للأستاذ محمد عبد الله عنان.
- 1 -
المسألة الارلندية من أخطر واعقد مشاكل الإمبراطورية البريطانية. وخطورتها اليوم تبدو بنوع خاص، حيث تتأهب ارلنده لتحقيق الغاية التي تعمل لها منذ أحقاب. وهي

التحرر من كل فروض التبعية البريطانية وإعلان نفسها جمهورية حرة موحدة، وأيرلندة اليوم من الوجهة الدولية دولة مستقلة ذات سيادة، ونعتها الدولي هو: (دولة ارلنده الحرة) ولكنها ما زالت طبق نصوص المعاهدة التي أنشأتها دولة حرة، تدين ببعض فروض الولاء والتبعية لبريطانيا العظمى.

وإذا كانت ارلنده تعتبر من الوجهة الجغرافية إحدى الجزر البريطانية، وتجاور إنكلترا واسكتلنده مجاورة قوية، فهي مع ذلك وحدة جنسية وتاريخية مستقلة. فالشعب الارلندي لا يمت بنسب أو صلة للشعب الإنكليزي، بل يرجع إلى أصول جنسية أخرى، وله خواصه ومميزاته وتقاليده الخاصة. وله أيضاً لغته الخاصة الجايلقية أو الارلندية القديمة التي غدت لغة رسمية لدولة ارلنده الحرة، وعاطفة الاستقلال قديمة راسخة في الشعب الارلندي. فمنذ القرن الحادي عشر كانت ارلنده مملكة مستقلة قوية تهدد جيرانها بالغزو والسيادة ولكن إنكلترا أدركت منذ البداية خطر استقلال ارلنده وقوتها على استقلالها وكيانها، وعملت الملكية الإنكليزية منذ أواخر القرن الثاني عشر على فتح هذه الجزيرة القوية واستعمارها، فغزاها هنري الثاني وافتتحها (1172م) وبدأ الإنكليز باستعمارها؛ وتوالت حملات ملوك إنكلترا على الجزيرة الثائرة لاستقلالها. ولكن ارلنده لم تهدأ لها من ذلك الحين ثائرة. وتاريخ ارلنده حافل منذ القرن السادس عشر بأخبار هذه الثورات القومية العديدة التي كان الشعب الارلندي يضرم لظاها من آن لآخر طلباً لحريته واستقلاله، والتي كانت إنكلترا تسحقها دائماً بمنتهى الشدة والقسوة. وكانت إنكلترا تحكم ارلنده طوال هذه القرون بيد من حديد، ولكن لم تفلح قط في كسب محبة الشعب الارلندي أو التأثير في عواطفه الوطنية وصرفه عن طلب استقلاله.

ولما رأت السياسة الإنكليزية بعد عدة قرون أن وسائل الشدة فشلت نهائياً في حكم هذا

الشعب العريق في وطنيته واستقلاله جنحت إلى نوع من اللين والمودة. وفي سنة 1800، أصدرت الحكومة البريطانية قانون الاتحاد الارلندي، وبمقتضاه اعتبرت ارلنده جزءاً من (المملكة المتحدة) (بريطانيا العظمى) تمثل في البرلمان البريطاني بثمانية وعشرين عيناً وأربعة أساقفة، ومائة عضو في مجلس العموم. وتدفع ارلنده للخزينة البريطانية مبلغاً معيناً. ولها حرية التجارة، وحرية الاحتفاظ بنظمها القضائية والتنفيذية الخاصة. وكان لهذه الخطوة أثرها في تهدئة الشعب الارلندي. ولكن الحركة الاستقلالية لبثت قوية تتحين فرص العمل. ولم يصف قط كدر العلائق بين بريطانيا وارلنده. على أن حركة قومية جديدة معتدلة ظهرت: قوامها المطالبة بالحكم الذاتي أو الحكم الداخلي لارلنده وقويت هذه الحركة في أواخر القرن التاسع عشر بقيادة الزعيم الوطني بارنل، وغلب هذا الاتجاه في الحركة الوطنية الارلندية حيناً. وحاول حزب الأحرار أن ينتهز هذه الفرصة المعتدلة لتحقيق الأماني الارلندية وكسب صداقة الشعب الارلندي، فقدم غلادستون رئيس الحكومة يومئذ إلى البرلمان مشروع الحكم الذاتي الارلندي، ولكنه رفض مرتين (سنة 1886 و 93)، وعاد الأحرار لاستئناف السعي قبيل الحرب، فقدم مستر اسكويث رئيس الوزارة مشروع الحكم الذاتي الارلندي وصودق عليه سنة 1914. ولكن نشوب الحرب الكبرى حال دون تنفيذه. وهنا تبدأ مرحلة جديدة في حركة الاستقلال الارلندية.

- 2 -

وفي بداية الحرب بذل الزعماء الارلنديون وعلى رأسهم (جون ردموند) كل جهد لمعاونة بريطانيا العظمى، وتطوع كثير من الارلنديين في الجيش البريطاني. ولكن الأحقاد القومية القديمة ما لبثت أن اضطرمت، ووثبت الحركة الاستقلالية مرة أخرى، وقامت ثورة أيرلندية جديدة في سنة 1916 كان مدبرها حزب (السين فين) الجمهوري الذي أسس قبل ذلك بقليل ليعمل على استقلال ارلنده، فأخمدها الإنكليز بشدة، وفي نهاية الحرب توفي جون ردموند، فزادت علائق البلدين سوءاً واضطراباً، وقامت الجمعيات السرية الاستقلالية في جميع أنحاء ارلنده، وبرز حزب السين فين في الطليعة.

وهنا نقف قليلاً للتعريف بحزب السين فين هذا الذي غدا روح الحركة القومية الأرلندية، وكتب لنفسه في سير الجهاد الوطني صحفاً خالدة. ففي سنة 1915 أسس فريق من

الزعماء الارلنديين حزباً أو هيئة وطنية جمهورية باسم (السين فين) ومعناها (نحن فقط)؛ وغايتها تحرير ارلنده تحريراً مطلقاً، وفصلها عن بريطانيا العظمى فصلاً تاما.
وكان شعار هذه الحركة منذ البداية الجرأة، والتضحية. فأعلن (السين فين) انهم (الحكومة المؤقتة للجمهورية الارلندية) وانشئوا قوة وطنية أطلق عليها (المتطوعة الارلنديون) ونظموا ثورة سنة 1916. ولبث (السين فين) أثناء الحرب يناصبون بريطانيا العداء. ولكن إنكلترا استمرت أثناء الحرب تحكم ارلنده بمنتهى الشدة، وتطارد الحركة القومية بمنتهى العنف. ولكن دعوة (السين فين) ما زالت تزداد قوة وانتشاراً حتى عمت سواد الشعب الارلندي. وظهرت قوة الحركة في انتخابات سنة 1918 إذ سقط معظم الزعماء القدماء أنصار فكرة التوفيق والحكم الذاتي؛ وفاز السين فين فوزاً باهراً. ورأت السياسة البريطانية نفسها في مأزق حرج لأن السين فين رفضوا مشروع الحكم الذاتي بقوة وتمسكوا بالاستقلال التام، وانشئوا (حكومة الجمهورية الارلندية) والبرلمان الارلندي الوطني.
وهنا تدخل المسألة الارلندية في طور جديد، وتضطر السياسة الإنكليزية مرة اخرى للبحث عن سبيل لإرضاء ارلنده، أو بعبارة أخرى لتخدير حركتها القومية. وكان الحكم يومئذ ما يزال في يد الأحرار، وهم الذين سعوا إلى حل المسألة الارلندية بمنح الحكم الذاتي لارلنده. ففي سنة 1920 اتخذت الحكومة البريطانية برآسة لويد جورج في المسألة الارلندية خطوتها الجديدة فأصدرت (قانون الحكومة الارلندية) بمنح الاستقلال الذاتي لارلنده الجنوبية واستثنيت ألستر أو ارلنده الشمالية لاختيارها البقاء مع بريطانيا العظمى.
ولكن السين فين رفضوا هذا القانون ورفضه البرلمان الارلندي الوطني (الديل ايران) بقوة واضطرمت ارلنده بثورة جديدة، وشهر السين فين على إنكلترا حرباً عنيفة، ونظموا العصابات المسلحة في أنحاء ارلنده، وتوالت حوادث الفتك والاغتيال على كبار الإنكليز والموالين لهم في ارلنده، وأبدى رجال السين فين بسالة وتضحية نادرتين. وقابل الإنكليز الاعتداء بمثله وارتكبت حوادث قسوة عديدة، وهلك من الفريقين في تلك الحوادث عدد من الزعماء والرجال البارزين. ولم تبد الحركة الارلندية قط بمثل هذا العنف، ورأت الحكومة البريطانية رجالها وجندها يسقطون تباعاً في ارلنده، ورأى فريق من الزعماء الارلنديين
ان العنف صائر بالبلاد إلى الخراب والدمار، فاتفق الفريقان بعد نحو عام من تلك الحرب المضطرمة على عقد هدنة يحاولان خلالها التفاهم والمفاوضة، فهدأت البلاد حيناً، وعقدت عدة مؤتمرات للمفاوضة بين ممثلي السين فين وممثلي إنكلترا، وانتهت في ديسمبر سنة 1921 بعقد معاهدة عرفت بمعاهدة لندن؛ وبمقتضاها اعترفت إنكلترا باستقلال ارلنده الجنوبية ومنحها نظام الدومنيون (الأملاك المستقلة) مع احتفاظ بريطانيا ببعض رسوم السيادة على ارلنده: كفرض يمين الطاعة للعرش، وجعل استئناف الأحكام النهائي امام مجلس الملك الخاص، وتعيين حاكم يمثل التاج.
ووافق البرلمان الارلندي (الديل) على المعاهدة في يناير سنة 1922، ولكنها لم تصادف قبولاً من الجناح الجمهوري المتطرف الذي يقوده الزعيم دي فاليرا، فرفض المعاهدة واستقال دي فاليرا من رآسة البرلمان احتجاجاً عليها، فخلفه آرثر جريفث في رآسة البرلمان وأتم مع زميله ميخائيل كولنس المفاوضات مع إنكلترا. وعلى اثر عقد المعاهدة انسحبت القوات البريطانية من ارلنده الجنوبية، وأقيمت حكومة مؤقتة برآسة ميخائيل كولنس، وقامت دولة ارلنده الحرة طبقاً لنصوص المعاهدة. وأجريت في يونيه انتخابات جاءت بأغلبية في صف المعاهدة، ولكن الجناح الجمهوري المتطرف لبث على موقفه يعارض المعاهدة بكل شدة، ودب الخلاف في صفوف (السين فين)، واخذ كل فريق يرمي الآخر بالمروق والخيانة، واستعملت الحكومة الجديدة العنف في قمع خصومها، فرد هؤلاء بالعنف والعدوان، واغتيل كولنس في أغسطس وتوفي جريفيث قبله بأيام، فتولى الزعيم كوزجريف رآسة الجمهورية، وشدد على الجمهوريين
ووضع الدستور الارلندي الجديد في دائرة معاهدة لندن، ونص على أن الشعب الارلندي هو مصدر جميع السلطات، وعلى أن البرلمان قوامه الملك ومجلسان هما (الديل) ومجلس الشيوخ، وعلى أن اللغة الارلندية (الجايلقية) هي لغة الدولة. وأنشئ جيش ايرلندي وطني. وعين الزعيم الارلندي هيلي حاكماً عاماً (ثم خلفه الزعيم

ماكنيل) ليمثل حقوق التاج.

استطاعت السياسة البريطانية ان تجعل من المعاهدة الارلندية أداة لتمزيق الحركة القومية الارلندية، وشطر السين فين إلى فريقين خصيمين وفق ما قدمنا، ولبث فريق الأغلبية وهو

الجناح الذي قبل المعاهدة وعمل لتنفيذها قابضاً على ناصية الحكم بزعامة مستر كوزجريف رئيس الحكومة الارلندية مدى أعوام، ولبث فريق الأقلية بزعامة مستر دي فاليرا موضع الاضطهاد والمطاردة، وسارت دولة ارلنده الحرة في الطريق الذي رسمته معاهدة لندن، والتحقت بعصبة الأمم منذ عام 1923. ولكن حزب السين فين الجمهوري لم يفتر عزمه ولم يتحول عن سياسته، وكان الاضطهاد الذي يلاقيه من عوامل تقويته وازدياد أنصاره، وجاءت الانتخابات سنة 1927 مؤيدة لقوته ونفوذه، فنالت الحكومة فيها أقلية، ونال الجمهوريون أغلبية، ولكن الرئيس كوزجريف استطاع ببعض التدابير السياسية والبرلمانية أن يحتفظ بالحكم أعواما أخر. وفي فبراير سنة 1932 حصل الجمهوريون على أغلبية جديدة، فانسحب كوزجريف، واستولى الجمهوريون بزعامة دي فاليرا على الحكم؛ وبدأ عهد جديد من النضال الرسمي بين إنكلترا وارلنده هو الذي نشهده اليوم.

ويجب أن نذكر كلمة عن دي فاليرا زعيم ارلنده الحالي. فقد ولد ايمون دي فاليرا سنة 1882 في نيويورك من أب إسباني وأم أيرلندية، ودرس في معاهد ارلنده، وتخصص في العلوم الرياضية ونال عدة إجازات جامعية، وتولى التدريس حيناً، ثم انتظم في الحركة الوطنية وخاض غمار السياسة، وانضم إلى حزب السين فين، وظهر في زعامته بسرعة، وكان من زعماء ثورة سنة 1916، فأسر وقضي عليه بالإعدام وخفف الحكم إلى الأشغال الشاقة المؤبدة. ثم أفرج عنه عند صدور العفو العام في سنة 1917 وعاد فتزعم حركة السين فين وأصبح قائدها ورأسها المدبر، وانتخب رئيساً (لجمهورية ارلنده) فاعتقل ثانية، ثم فر في سنة 1919 إلى أمريكا وعاد بعد عامين إلى ارلنده، واشترك في مفاوضات معاهدة لندن، ولكنه لم يقبل النتائج التي انتهت اليها؛ وشهر الخصومة على المعاهدة منذ عقدها؛ وأعلن الثورة على دولة ارلنده، فقبض عليه في أغسطس سنة 1923، وافرج عنه بعد عام، فعاد إلى النضال السياسي، ودخل البرلمان سنة 1927 على رأس كتلة جمهورية قوية، وتولى رياسة الحكومة الارلندية منذ أوائل سنة 1932.

وأبدى دي فاليرا مذ قبض على ناصية الحكم عزمه على تنفيذ البرنامج القومي الجمهوري، وخلاصته العمل على تحقيق الاستقلال التام لارلنده الموحدة في ظل النظام الجمهوري؛ وإلغاء كل ما فرض عليها من رسوم التبعية البريطانية. ذلك لأن معاهدة لندن شطرت ارلنده

إلى شطرين: ارلنده الشمالية أو ألستر وأعمالها، وقد بقيت في حوزة بريطانيا العظمى؛ ويبلغ سكانها مليون وربع نسمة؛ وتشمل أغنى بقاع ارلنده وبها أهم المراكز الصناعية وهي بروتستانتية المذهب. وارلنده الجنوبية وهي التي تناولتها المعاهدة وجعلتها دولة حرة؛ ويبلغ سكانها ثلاثة ملايين؛ وهي بلد زراعي؛ وتسودها الكثلكة. فمعاهدة لندن تمزق الوحدة الارلندية في الواقع. ولكن يرد على ذلك أن ارلنده الشمالية قد استعمرها الإنكليز منذ بعيد وهي تود البقاء كجزء من المملكة المتحدة، وهذا ما لا يسلم به الشعب الارلندي.

واما فروض التبعية البريطانية التي يراد إلغاؤها فهي: (1) يمين الولاء والطاعة للتاج البريطاني (وقد ألغي، بالفعل بقانون أصدرته حكومة دي فاليرا) و (2) استئناف أحكام المحكمة الارلندية العليا إلى مجلس الملك الخاص و (3) حق الحاكم العام في تحديد الأبواب التي تنفق فيها الأموال العامة، وحق التصديق على القوانين. وأخيراً يراد إلغاء الديون الزراعية التي تلزم ارلنده بأدائها لإنكلترا، وتراها ارلنده ظالمة مرهقة ولا يحق أداؤها لأن الأراضي التي تؤدى عنها ملك للشعب الارلندي.

وقد شهدنا الفصل الأول من هذا النضال الذي تشهره اليوم ارلنده على بريطانيا العظمى حينما قدم دي فاليرا قانون إلغاء يمين الطاعة إلى البرلمان الأرلندي، وامتنع عن أداء الأقساط الزراعية وقام بين البلدين من جراء ذلك جدل سياسي عنيف،

واتخذت بريطانيا اجراءات اقتصادية شديدة ضد ارلنده؛ وعمد دي فاليرا إلى المثل.
واليوم نشهد فصلاً آخر؛ فان دي فاليرا يريد إعلان الجمهورية في ارلنده؛ وقد وجه بالفعل مذكرة رسمية بذلك إلى الحكومة البريطانية يطلب فيها إيضاح موقفها فيما لو تم هذا الأجراء، فردت عليه الحكومة البريطانية بأنها لا ترى إبداء الرأي في احتمالات لم تقع وتستبعد وقوعها لأنها تكون خرقا للمعاهدة المعهودة.
ولكن دي فاليرا ماض في طريقه، مصر على سياسته، وإن كان يجد معارضة لهذه السياسة من فريق كوزجريف، وفريق الجنرال (أو دوفي) (القمصان الزرقاء) اذ يخشيان عواقب هذا العنف على مصير ارلنده ومصالحها الأقتصادية، وهذه المصالح أشد ما تكون ارتباطاً ببريطانيا العظمى وتوقفاً عليها.
فهل ينجح دي فاليرا في تحقيق برنامجه القومي المتطرف، وإنشاء ارلنده الجديدة مطلقة
الاستقلال والحرية في ظل النظام الجمهوري؟
هذا ما سيكشف المستقبل القريب عنه.

ذات القميص الأزرق أو فتاة الريف

عيني على رمانتي صدر! ... أو مهجتي يا عين لا أدري
يا للبروز أدق ما وجبا ... يا للحجاب أرق ما حجبا!
أفذاك غصن أثمر العجبا؟
أم أنت يا قرويةٌ تسري ... مثل النسيم على قرى مصر
هذا جمالك صنعه اللهِ ... آهٍ لفتنة سحره آهِ!
يا سمرةً في وجهك الباهي!
سحرت عيون البيض والسمر ... وهفا الجميع للونكِ (الخمري)
هذا قوامكِ يا أبنة الريف ... أخزى قدود الخرَّد الهيف
في إسكندرية أو بني سويفِ
أو في (الزمالك) أو على الجسر ... والنيل تحت عيوننا يجري
هذا قميصك ساذج حال ... لون السماء بلونه الغالي
عند الضحى أو في الدجى الخالي
بنت الطبيعة أنت والدهر ... والشمس والجنات والنهر
أغرى قميصك فنَّ (مختار) ... فبرزت فيه بثوبك العاري
يمناكِ توقظ ذلك الضاري
بو الهول كان كمُغرَق البحر ... فإذا بكفك طلسم السحر
ما عبقرية حسنك البادي! ... شبه المهاة وأنت في واد
تصحين قبل الطائر الشادي
وعلى ضفاف الترعة الخُضر ... ترديين بين عرائس الفجر
لو تعلمين لكدت تلقينا ... شغفاً بنفسك بين أيدينا
كالورد يعتنق الرياحينا
والأختُ عند مغيب القبر ... ألقت بروعة ذلك الصدر
لكننا نهفو اليك هوى ... لا الطرفُ زاغ ولا الفؤاد غوى
يا للجوى إن كان ذاك جوى!
أو يا لصَون الطرف عن عهر! ... حاشا لنا وحيائك العذري
يا بنت (قاسم) حيثما كنتِ ... أنت الوحيدة بنته أنتِ
ما عز قط سواكِ من بنتِ
لم تسفرين وأنت كالبدر؟! ... علّمت حتى ربة الخِدر
ماذا أصابك حين أسفرت؟ ... جارت عليك الأرض أم جرتِ
أم من سفورك قد تأخرت؟
أم أخرتك طبيعة الخير؟ ... وغريزة في العيش كالطير
يا أختَ أين شعاعك الماضي؟ ... وحمية خلقت لإنهاض؟
لم يبقى منها غير أنقاض
من أطفأ اللهب الذي يسري ... في الليل مثل محلّق النسر؟
أيزيس أنتِ وأنتِ نفريتي ... لكِ في ذرى التاريخ ما شيتِ

يا جذوةً من غير كبريتِ
دفنوكِ تحت ركائم الغمر ... حتى نسينا حمرة الجمر
يا أختَ هبّي فانفضي عنك ... رَجَماً أحالك حالة الضنكِ
سيبث في أرواحنا منكِ
فإذا أعيدت شعلة الصدر ... فهناك حقّتَ ليلة القدر
كوني فتاة الغاب والأسدِ ... يا بنت مصر الروح والجسدِ
وتضرمي فينا إلى الأبدِ
شعلاً تفك سلاسل الأسر ... وتنير فوق الكوخ والقصرِ
قليوب. ابراهيم ابراهيم علي المحامي

أمريكا بين الحظر والإباحة

في اليوم الخامس من هذا الشهر ختمت في أمريكا تلك المحاولة الخطيرة التي أطلقوا عليها بحق (التجربة النبيلة): أي محاولة تحريم الخمور في جميع الولايات المتحدة بأمريكا، والآن ونحن نشهد ختام هذه التجربة يجمل بنا أن نقف لحظة لنفكر في أمرها، كيف بدأت وكيف انتهت، فإننا ونحن نعيش في أقطار إسلامية يحرم دينها شرب الخمر ويحظر بيعها وشراءها، لا يجوز لنا أن نمر بهذا النبأ الخطير كأنه أحد الأنباء العادية. بل يجمل بنا أن ننعم النظر فيه قليلا.

ليست الولايات المتحدة دولة كسائر الدول، بل يميزها أمور عديدة: منها حجمها الهائل، فانها تكاد تعدل أوربا في المساحة. وهي وحدها عالم قائم بذاته. ثم سكانها، وهم يربون على مائة وعشرين مليونا من الناس، أكثرهم يمت إلى أصل سكسوني، ولكن بينهم جماعات كبيرة من الاسكندنافيين واللاتين والسلاف وخليط من شعوب الأرض جميعاً، هذا عدا الزنوج الذين يزيدون على عشرة الملايين، وقد جيء بهم فيما مضى عبيداً لكي يعملوا في الحقول، ثم أصبحوا اليوم (أحراراً) لهم من الوجهة النظرية، ما لغيرهم من الحقوق.

ثم هنالك أمر آخر يميز نظام الحكم في الولايات المتحدة، وهو أن لكل من الثماني والأربعين ولاية التي تتألف منها الدولة نصيباً كبيراً من الاستقلال الداخلي، ولهذا كانت في الولايات المتحدة دائماً سلطتان: السلطة المحلية ومركزها عاصمة كل ولاية، والسلطة الاتحادية ومركزها واشنطون. وهي التي تدير الأمور التي تهم الدولة كلها. ونظراً لحرص كل ولاية من الولايات على حقوقها واستقلالها، فان دستور أمريكا يوضح تماماً ما هو داخل في اختصاص الحكومات المحلية، وما هو داخل في اختصاص الحكومة الاتحادية كل هذا لابد لنا من تذكره كي نستطيع أن ندرك الصعوبة التي كابدتها حكومة أمريكا من أجل تنفيذ قانون التحريم. فان هذا القانون بقي حبراً على ورق، لأن معاقبة المجرمين من أجل جرائم التهريب والاتجار في الأشياء المحرمة كان من اختصاص كل ولاية وليس من اختصاص الدولة. وهذا يفسر لنا أن مجرما خطيرا مثل آل كابوني لم تستطع الدولة أن تحاكمه من أجل الجرائم العديدة التي ارتكبها في سبيل تجارة الخمور المحرمة، بل حاكمته من أجل تقصيره في دفع ضريبة الدخل. اذ كان من اختصاص الدولة أن تحاكمه من أجل هذا الجرم الخفيف نسبياً، لا من أجل الجرائم الكبرى التي هي من اختصاص الولاية.

ولابد لنا أن نتساءل عن المؤثرات والقوة التي دفعت بالولايات المتحدة نحو التحريم، اذ ليس من السهل أن نفهم هذا الانقلاب الهائل في الرأي العام، فان الأمة التي نادت بالحظر الشديد في سنة 1919 هي بعينها التي تنادي اليوم بالإباحة. إن هذا القانون لم يفرضه الحكام على الناس فرضا، بل لقد فرضته الأمة على نفسها بعد انعام النظر وطول التجربة. وقد كانت في الولايات المتحدة قوى كثيرة تعمل بنشاط لتحريك الرأي العام وتحويله نحو التحريم. وهذه القوى كانت موجودة دائماً تنتظر الفرصة الملائمة، وكان لها تأثيرها قبل سنة 1919. ونرى هذا واضحاً في أن اكثر من الثلاثين ولاية قد حرمت الخمر من تلقاء نفسها قبل سنة 1919. ولكن هناك فرق كبير بين أن يحرم الشيء في كل ولاية على حدة، وبين أن يحرم بقانون من الدولة؛ ففي الحالة الأولى تراعي كل ولاية مصلحتها الخاصة ويسهل عليها تعديل وإلغاء الأحكام، ويمكن لمن لا

يرضيه قانون أن ينزح إلى ولاية مجاورة (وهذا هو الحال مثلاً فيما يتعلق بقانون الطلاق). أما قانون الدولة فيفرض على جميع الولايات بمجرد موافقة ثلثيها. فيفرض على الراغبين والكارهين على حد سواء، ويصبح كل فرد ولا مفر له من الإذعان أو العصيان، ثم تجرد جميع قوى الدولة لتنفيذ هذا القانون بكل ما تقدر عليه الدولة من الشدة والصرامة.

ولهذا كله فان تحريم ثلاثين ولاية للخمور لم يكن له تأثير ذو شأن، ولكن التحريم في الدولة كلها كان حادثاً ذا شأن خطير.

كان اهم الراغبين في التحريم رجال الصناعة في الشمال، ورجال الزراعة في الجنوب. فالأولون (ويمثلهم المستر هنري فورد) قد رأوا أن الخمر تذهب بقوى العمال وتضعف صحتهم وتقلل من جهودهم، فلا يستطيع صاحب المعمل أن يحصل من عماله على الجهود التي يرجوها في مقابل الأجور التي يدفعها. أما أصحاب الزراعة في الجنوب فيعتمدون في زراعتهم على الزنوج، وهؤلاء كانت تذهب الخمر بألبابهم وتقعدهم عن العمل، وتتركهم

في حالة زرية. والزنجي أقل قدرة على ضبط نفسه والوقوف في الشراب عند حد.

وكان هناك غير هؤلاء جماعات من محبي الخير الذين يكرهون الخمر لذاتها، ويريدون أن يخلصوا الناس من شرورها، مؤمنين بأن في هذا رفعاً لشأن بلادهم، وإعلاء لكلمتها، ويمثل هذه الجماعة المستر جون ركفلر الصغير وزمرته. وقد انتشر في الولايات المتحدة قبل التحريم نوع من الحانات أطلقوا عليها اسم الصالون قد أصبح على مضى الزمن بؤرة فساد وموبقات. وقد كبر بغض الناس لهذه الصالونات حتى دفعهم إلى المطالبة بالتحريم. مع أن إبطال هذه الأماكن قد لا يستدعي هذا العلاج الصارم.

بذلت هذه الجماعات كلها جهوداً جبارة ومالاً كثيرا من أجل استمالة الرأي العام. وساعدتهم الحرب العامة التي استدعت تحريم الخمر في بعض الولايات، والتقليل من شربها في البعض. وتم لهم النصر في يناير سنة 1919 حين حرمت الخمر في جميع الولايات بإجماع 46 ولاية من الثماني والأربعين التي تتألف منها الدولة، وحرم بيعها وصنعها والاتجار بها واستحضارها من الخارج. وجهزت الدولة جيشا هائلا وأسطولاً قوياً لتنفيذ هذا القانون. الذي أعطى شكل تعديل في الدستور وأطلق عليه اسم التعديل الثامن عشر، ومن الغريب أن دستور الولايات المتحدة لم يعدل يوما بمثل هذا الإجماع وهذا الاقتناع وتلك الأكثريات الساحقة.

لقد وصفت الولايات المتحدة بأنها معمل هائل للتجارب الاجتماعية، ولكن لا يعرف في تاريخ العالم كله تجربة اجتماعية ضخمة كهذه التي أقدمت عليها أمريكا في تلك السنة. فان المعمل الذي أجريت فيه هذه التجربة ليست بلدا صغيرا كفنلنده، بل دولة مساحتها تزيد على ثلاثة الملايين من الأميال، وسكانها يربون على المائة والعشرين مليوناً مختلفي الجنس والثقافة والميول. وان البلاد الإسلامية نفسها هي أولى من أي بلد في العالم بإجراء مثل هذه التجربة لم يعرف عنها يوماً أنها حاولت بذل مثل هذا الجهد في أي عصر من العصور من أجل تنفيذ أحكام الشريعة.

ولهذا دهش العلم كله يوم أقدمت الولايات المتحدة (حرة مختارة) على هذه التجربة الخطيرة. وإننا اليوم (وقد أصبحنا عقلاء بعد أن وقعت الواقعة) نستطيع أن نقول أنه كان الأفضل أن تترك مسألة الإباحة والتحريم إلى كل ولاية تتصرف فيها بما تشاء بدلا من أن

تصبح مسألة الدولة بأجمعها، ولكن في سنة 1919 لم يكن من شك في أن أكثرية الأمة في جانب التحريم. وقد أقدم نحو ثلاث وثلاثين ولاية على تحريم الخمر.

على كل حال سارت التجربة في طريقها أول الأمر، وأنظار العالم كله تتطلع إلى أكبر دولة في العالم، وهي تحاول اكبر تجربة اجتماعية في التاريخ. وكان الكثير من الناس يبدي عطفهم على أمريكا وكأنما الكل واثق من نجاح التجربة في النهاية برغم ما قد تلاقيه من الصعوبات، وجعل بعض المصلحين يحلمون بان سنّة التحريم ستنتشر من الولايات المتحدة إلى سائر الأقطار.

ولكن كانت هنالك قوى تعمل للشر، وإن لم يتوقع احد أن سيكون لها كل هذا الخطر، فنهضت هذه القوى الشريرة لتنظيم الاتجار بالخمور بكافة انواعها؛ مما قد يصنع خلسة في داخل البلاد أو يستورد من الخارج. وسرعان ما أنشئت أساطيل لا عمل لها غير

هذه التجارة المحرمة؛ واتسع نفوذ هذه الجماعات حتى أصبح لها نفوذ كبير (بل أحياناً النفوذ الأكبر) في كل ولاية، حتى كانت لها الكلمة النافذة في تنصيب رجال الحكم.
وانتشر الأجرام بين هذه العصابات ومن يعترضها في أعمالها، وكذلك فيما بين العصابات المتنافسة نفسها؛ وأصبح أمرها حديث النوادي والصحف وموضوعاً للصور السينمائية؛ وبطريق العدوى تجاوز الأجرام دائرة تجارة الخمور، إلى الأجرام في نواح أخرى كالاختطاف والسلب والنهب وما إلى ذلك.
بات من الواضح للعالم كله أن تلك التجربة الهائلة قد فشلت فشلاً تاماً. فأن الحصول على الخمر برغم التحريم كان أمرا في غاية السهولة. ولئن كانت الحانات القديمة (الصالونات) قد أغلقت، فقد نشأ مكانها حانات خفيفة اشد خطرا واكثر وزرا. وهذه أطلقوا عليها اسماً غريباً وهو ويؤكد أكثر الكتاب أن شرب الخمر في زمن التحريم كان أوسع انتشاراً مما كان عليه قبل التحريم.
وبرغم فشل التجربة الذي كان واضحاً لكل ذي عينين، بقي في الولايات المتحدة جماعات كثيرة تنادي باستمرار التحريم، وبتجديد المراقبة والضرب على أيدي المجرمين. غير أن هذه الجماعات أخذت تضعف على مضي الزمن. حينما انتشرت في طول البلاد وعرضها جرائم منكرة من نوع اختطاف طفل لندبرج، فأيقن الناس أن التحريم قد أوقع البلاد في
حال من الفوضى والاختلال هي شر من الخمر التي أريد تحريمها.
ومن أكبر مظاهر التحول في الرأي العام ذلك الخطاب الشهير الذي كتبه المستر جون ركفلر الصغير في صيف سنة 1932 يبدي فيه أسفه الشديد لأنه (وهو من اكبر دعاة التحريم) مضطر إلى الاعتراف بان التجربة النبيلة قد فشلت فشلاً محزناً.
وهكذا أخذ الرأي العام يتحول حتى استطاع المستر فرانكلين روزفلت أن يستميل الأمة إلى صفه، حينما أعلن في شجاعة وصراحة أن من مبادئه إلغاء التحريم. ومنذ انتخب للرآسة في أوائل هذا العام وهو يسير بالبلاد نحو الإلغاء حتى تم له في أول هذا الشهر ما أراد، بأن حصل على موافقة ست وثلاثين ولاية على إلغاء التعديل الثامن عشر.
والأن وقد انتهى التحريم، فما عسى أن يكون المستقبل؟
إن الذين نادوا بإلغاء التحريم، لم يفعلوا ذلك برغبتهم في شرب الخمر وحبهم لها؛ بل أن أكثرهم قد فعل ذلك أملاً في أن الإباحة تقضي على تلك الشرور التي ولدها التحريم. فتنتهي بانتهائه. ولكن من الصعب أن يتنبأ المرء بشيء. فأن بضع عشرة سنة تقضيها عصابات الأجرام في نشر الأجرام والفساد في جميع أنحاء البلاد، لا يتصور أن تنتهي آثارها في عشية أو ضحاها. ومما لاشك فيه أن البلاد اليوم في حال انتقال شديد الخطورة فقد تفيق بسرعة من تأثير هذه السنين العصيبة، وقد تبقى تحت ظلها القاتم زمناً طويلاً، خصوصاً إذا ذكرنا أن عدد الذين يشربون الخمر قد ازداد ولم ينقص أثناء التحريم. وأن الإباحة الجديدة لابد ان تؤدي زمنا ما إلى الإسراف في أمر محبوب كان ممنوعا فاصبح مباحا. ومن غير شك أن الحكومة تعزي نفسها بانها ستجني من الإباحة ضرائب تقدر بنحو خمس مائة مليون دولار. (أي نحو مائة مليون جنيه).
على كل حال لا يستطيع المرء أن يملك نفسه من الأسف الشديد على فشل هذه التجربة الشريفة التي لم تكن ترمي إلا إلى اشرف المقاصد واسماها وهو إعلاء شأن الإنسان وإسعاده.

م. ع. م

. . .وحدة الوجود

كثير من المناحي الفكرية، والمذاهب العقلية، والطرائق الرياضية، ترمي إلى (وحدة الوجود) وكلها تتباين في طرق التفكير، ونهج الفلسفة، ولكنها متفقة مجمعة على حقيقة واحدة، تلك الحقيقة هي أنه بين غير المتناهي والمتناهي علاقة يتأدى بها إلى اتحاد الطرفين.
وكما اتفقت تلك الفرق في اختلافها على هذه الحقيقة، اتفقت في وجهة النظر التي سارت بهم على ضوء المقدمات حتى انتهت بهم إلى هذه النتيجة. فهم متحدون في المصدر والمورد مختلفون في الطريق الذي بينهما.
فالكثرة الغالبة من فلاسفة الصوفيين في الإسلام يعتبرون أن الحق موجود قبل كل

موجود (وهذا صحيح) ثم يقولون وقد وجدت الكائنات بعد أن لم تكن، ولما كان غير معقول أن يوجد شيء من لا شيء لزم بالبداهة أن يكون الوجود هو عين الموجود، وأن ليس وجود إلا وجود الحق يصور أحوال ما هي عليه الكائنات، فالله ظاهر في المظاهر، والمظاهر هو على ما هي عليه.

وهذا بعينه هو ما انتهى اليه (هيراكلت) الفيلسوف اليوناني إذ استنتج أن الكائن الإلهي يتخلل صور الأشياء المتناهية، والمتناهي نفسه لا يوجد إلا في الله.

وتكاد تكون عين ما وصل اليه (تولاند) أول من أطلق اسم الاتحاد في أوربا. حيث زعم أن العالم ليس منفصلاً عن الله الأ في وهمنا فقط.

وقديما تساءل الناس من اين جاءت الروح، ومم نشأ الجسم؟ ثم قالوا إذا كان واجب الوجود غير متناه وجب إلا يوجد شيء خارجاً عنه، لأن غير المتناهي يستغرق كل موجود.

وإذا تقرر أن الأرض وما تتبع ليست إلا مجموعة صغيرة حقيرة من مجاميع لا عدد لها تسير بقانون في فضاء لا يتناهى.

إذا تقرر هذا جاء العقل فقال إن شيئين غير متناهيين لا يوجدان معا، فإذا كانت الكائنات غير متناهية، والخالق غير متناه، وجب أن أحدهما هو الأخر.

وعلى ضوء هذا الفكر مشى العقل طفلاً يحبو إلى الاتحاد، فلما أن شب واستطاع أن يمشي على ساقي الاعتقاد بافتراض الشك جرى إلى المذهب ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

سرى هذا المذهب إلى الإسلام في القرن الثالث، ومشت به الفلسفة ممثلة في أساطين
الفكر، وكبار الصوفيين، وإذ كانت الفكرة جديدة، وكل جديد (في الغالب الأعم) منظور اليه بنظرات الخوف والحذر، إذ كانت الفكرة كذلك لقى أصحابها الشيء الكثير من الإيذاء فقتل البعض، ومثّل به، وربما حرقت جثث البعض وهرب البعض إما من وجوه أولئك المتفقهين، وإما من النظرية ذاتها، وعمد البعض إلى الرمز في الكتابة يعبر به عما يريد في عبارة مشكلة مطاطة تلين مع التأويل والتخريج. فخرجت في تأليفهم كثير من المعميات، يقول بعضهم: جلست عن ابن سبعين من وجه النهار إلى آخره، فجعل يتكلم بكلام تعقل مفرداته، ولا تعقل مركباته. . .

وغلبت هذه الدندنة في كتبهم الكبيرة، فأنت إذا قرأت الفتوحات لابن عربي أو الفصوص مشيت في سهل وحزن، ومرت بك مأمن ومجاهل، ومثل هذين فيما قلنا كثير من كتب رجالات التصوف القدامى.

وتبدو هذه الظاهرة قوية في أشعارهم، لأن النثر يبنى على البسط والإيضاح الذي لا يقبله كله الشعر، ولهذا عمدوا إلى النظم فألقوا فيه بآرائهم ملفوفة رمزية لتقبل التأويل كلما حزبهم من المتفقهة حازب.

لم نستطع ان نتعرف بالضبط متى نشأت (وحدة الوجود) إطلاقا، ولا أين، أما الكيفية فمنطق الصوفيين فيها أبلج. وقديماً كان لوحدة الوجود أثر كبير في الأديان القديمة (غالبها) فمست خرافات الهند القديمة أطرافها مساً رفيقا وشديدا على اختلاف الأساطير بعدا عنها وقربا منها، وذهب بعض اليونانيين القدماء إلى أن اصل العالم يجب أن يكون مادة لا وصف لها، ولا تقبل الفناء، وأشرنا إلى قولهم أن غير المتناهي يستغرق كل موجود.

وتلك هي بعينها فكرة ابن سبعين ومنطقه القائل: أن واجب الوجود كلي وممكنة جزئي، ولا وجود للجزئي إلا في كلي، كما لا يتحقق وجود الكلي إلا بجزئياته.

ولابن عربي في الباب تسع وعشرين ومائة في ترك المراقبة؛

لا تراقب فليس في الكون إلا ... واحد العين، فهو عين الوجود

ويسمى في حالة بالله ... ويكنى في حالة بالبعيد.

وشعر الصوفية طافح بالوحدة الوجودية منغمس فيها في تلميح أو تصريح، ومازال القوم يرددون قول الغزالي، أو ما قيل انه قاله (ليس في الإمكان أبدع مما كان) وقالوا بعيداً عن
التأويل نعم. لأن المخلوق صورة الخالق وليس أكمل منه تعالى.

ووقف لهم جماعة بالمرصاد توفروا على تفنيد أقوالهم، ومناقشة آرائهم، ثم التشهير

بهم، والنيل منهم، وهذا ابن تيمية يعلن عليهم في الفتاوى حربا شعواء، وقديما قال، ما أظن الله بغفل عن المأمون لأباحته الفلسفة (!!).

عرج قوم بالفلسفة في أيام العباسيين على الدين وحاولوا أن يوفقوا بينهما، فرجعوا يحملون عبء الهزيمة ثقيلا، ومشت وراءهم الحكمة القائلة (سلم وأنت أعمى) تلوح لهم ظافرة بهم، ظاهرة عليهم.

وجاء صاحب جلاء العين فكان كابن تيمية فيما أراد وقال، ثم جاء صالح المقبلي في كتابه العلم الشامخ فسخر بهم، وفسق كلامهم، وعراه من الحقيقة، وامتدت كلماته إليهم فأصابت منهم مقاتل.

أعيا المتصوفون أمرهم فقام الجيلي يقول: (صح لنا هذا كشفاً فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر).

وبدهي ان دعوة الجيلي هذه كاذبة، وإلا فما هذا المنطق يقدمونه بين يدي كل قضية؟ وما هذه المقدمات التي تتكئ عليها النتائج؟

على أنهم لم يعدموا نصراء يدافعون عنهم ويدفعون، وهذا القزويني يعقد في كتابه (درر الفرائد) باباً في ذكر مصطلحات القوم. قال: أتطمعون في فهم كلامهم وهو انما يعرف بالذوق لا بالمنطق؟ (من ذاق طعم شراب القوم يعرفه. .) ثم أخذ يفسر رموزهم، ويستدل عليها فناقض نفسه.

ويقول غلاة المنتصرين: إذا ظهر كلام الصوفية خارجا عن ظاهر الشريعة فهو مقول في حال سكرهم، والسكران سكرا مباحاً غير مؤاخذ، فان لم يكن كذلك فلابد أن يكون له تأويل ظاهر، فان لم يكن فله تأويل باطن لا يعلمه إلا الله والراسخون.

فأنت ترى أنهم يريدون أن يبرئوهم (إذا كان هناك جرماً) على أي حال، ومهما كانوا، ولنا عليهم أن نقول لو كان كلام الصوفيين موافقا للشريعة الظاهرة ففيم الرمز وفيم الإبهام؟

وبعد، فهذا مذهب وحدة الوجود في اظهر مناحيه، ولعلي مستطيع أن أعود اليه فيما بعد؟

طاهر محمد أبو فاشا

الشافعي واضع علم أصول الفقه

للأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرزاق. أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية الآداب

- 2 -

والمروي عن الشافعي: انه قال: انه حمل إلى مكة وهو ابن سنتين من غزة أو عسقلان.

وفي كتاب (معجم الأدباء) لياقوت: وفي رواية أن الشافعي قال: ولدت باليمن فخافت أمي على الضيعة فحملتني إلى مكة وأنا يومئذ ابن عشر أو شبيه ذلك. وتأول بعضهم قوله (باليمن) بأرض أهلها وسكانها قبائل اليمن، وبلاد غزة وعسقلان كلها من قبائل اليمن وبطونها.

قلت: وهذا عندي تأويل حسن إن صحت الرواية وإلا فلاشك انه ولد بغزة وانتقل إلى عسقلان إلى أن ترعرع، ج6ص318.

ويقول ابن حجر في توالي التأسيس ص49: (والذي يجمع الأقوال أنه ولد بغزة عسقلان، ولما بلغ سنتين حولته أمه إلى الحجاز ودخلت به إلى قومها وهم من أهل اليمن، لأنها كانت أزدية، فنزلت عندهم، فلما بلغ عشراً خافت على نسبه الشريف أن ينسى ويضيع فحولته إلى مكة).

وليس من رأيي التوفيق بين الروايات المتضاربة قويها وضعيفها على هذا الوجه، فتلك طريقة ليست من التمحيص التاريخي في شيء، بل يجب تخير الروايات الصحيحة السند التي يرجحها ما يحف بها من القرائن والذي تدل عليه الروايات الراجحة أن الشافعي ولد بغزة ومات فيها أبوه كما مات بها من قبل هاشم جد النبي عليه السلام.

ثم حملته أمه إلى عسقلان وهي من غزة على فرسخين أو أقل. وكان يرابط بها المسلمون لحراسة الثغر منها. وكان يقال لها (عروس الشام) وفي كتاب (أحسن التقاسيم) للمقدسي المعروف بالبشاري: (أن خيرها دافق، والعيش بها رافق).

وكل هذه الاعتبارات جديرة بأن تجعل الأيم الفقيرة تختارها سكنا لها ولطفلها اليتيم

الغريب.
فلما بلغ الطفل سنتين وترعرع وأصبح يحتمل السفر حملته أمه إلى مكة لينشأ بين قومه
من قريش، ولعلها كانت تريد أن تستعين على تكاليف العيش بما ينال الطفل من سهم ذوي القربى باعتباره مطلبياً.
على أن حظ الطفل من خمس الغنائم لم يكن ليرفه من عيشه فنشأ في قلة من العيش وضيق حال. قال الرازي:
وذكروا أن الشافعي رضي الله عنه كان في أول الزمان فقيرا، ولما سلموه إلى) المكتب ما كانوا يجدون أجرة المعلم، وكان المعلم يقصر في التعليم إلا أن المعلم كلما علم صبيا شيئا كان الشافعي رضي الله عنه يتلقف ذلك الكلام، ثم إذا قام المعلم من مكانه أخذ الشافعي رضي الله عنه يعلم الصبيان تلك الأشياء، فنظر المعلم فرأى الشافعيرضي الله عنه يكفيه من أمر الصبيان أكثر من الأجرة التي يطمع بها منه، فترك طلب الأجرة واستمرت هذه الأحوال حتى تعلم القرآن كله لسبع سنين (و ص15 16.
ويروى عن الشافعي: انه كان يحدث عن طفولته فيقول: (وكانت نهمتي في شيئين؛ في الرمي، وطلب العلم. فنلت من الرمي حتى كنت أصيب من عشرة عشرة. وفي رواية من عشرة تسعة، وسكت عن العلم، فقال عن بعض من كان يستمع اليه: أنت والله في العلم أكثر منك في الرمي).
ويروى عنه أيضا: أنه قال: كنت ألزم الرمي حتى كان الطبيب يقول لي: (أخاف أن يصيبك السل من كثرة وقوفك في الحر) تاريخ بغداد ج6 ص59، 60.
ويظهر: أن حب الرماية لم ينزعه من بين جوانب الشافعي جلال السن وجلال الإمامة.
عن المزني قال: كنت عند الشافعي فمر يهدف، فإذا رجل يرمي بقوس عربية،) فوقف عليه الشافعي وكان حسن الرمي فأصاب سهاما، فقال له الشافعي: أحسنت، وبرك عليه، قال لي: ما معك؟ فقلت: ثلاثة دنانير، فقال: أعطه إياها واعذرني إذ لم يحضرني غيرها (توالي التأسيس) ص67.
قال الشافعي: (لما ختمت القرآن دخلت المسجد أجالس العلماء وأحفظ الحديث والمسألة، وكان منزلنا بمكة في شعب الخيف، وكنت فقيرا بحيث ما أملك ما أشتري به القراطيس، فكنت آخذ العظم أكتب فيه وأستوهب الظهور من أهل الديوان وأكتب فيها) - الرازي ص16.
أبيات للمنفلوطي
كان المرحوم السيد مصطفى لطفي المنفلوطي يجلس في جمع من أصدقائه منهم: المرحوم حافظ إبراهيم وإمام العبد والشيخ الكاظمي والشيخ منصور، وكان هذا الشيخ من أشهر لاعبي الشطرنج لا يكاد يبزه أحد وكان مجلسهم في مقهى (كتكوت) (بحي الحسين).
فحدث يوما أن تغلب غلام في الرابعة عشرة من عمره على الشيخ منصور فكانت هذه الحادثة موضوع تنادر الجماعة مدة طويلة وقد قال كل منهم فيها شعراً فمما قاله المنفلوطي هذه الأبيات:
وظبيٍ سقيم الطرف حلوٍ مهفهفٍ ... تُميت وتُحيي كيفما شاَء عيناهُ
يداعب في الشّطرنج كلّ ملاعب ... فلا ينثني إلا وقد قتل الشاهُ
فو الله ما يدرى الحروبَ وإنما ... رماه بسهمي مقلتيهِ فأرداهُ
في الأدب العربي
الطبيعة في شعر ابن خفاجة
- 3 -
وصف الآلات والأدوات: - كان علينا أن ننتقل بك في هذا الفصل إلى وصف الخمر ووصف مجالسها في شعر ابن خفاجة، وأن نريك الطبيعة الماثلة في ذلك النوع من الشعر؛ ولكنا رأينا أن نذكر شيئا عن تشبيهه الآلات والأدوات، ووصفه للخيل والذئاب، قبل أن نذكر لك شيئا من أقواله في الخمر، ومن تشبيهه إياها، خوفا عليك من أن تنتشي وتطرب فلا تعود تصغي إلينا.
وهو في وصفه السيف والرمح والقوس والكأس والزورق، وفي وصفه للفرس الأشقر،

والكلب والأرنب، لا يخرج في كل هذا عن الطبيعة في شيء، ولا يشبه تلك الأدوات إلا بما يماثلها في الطبيعة. فيقول في السيف:
ومرهف كلسان النار منصلت ... يشفى من الثار أو ينفى من العار
فهو يشبهه بلسان النار الملتمع. ثم يقول:
تخال شعلة نار منه طائرة ... في عارض من عجاج الخيل موار
يمضي فيهوى وراء النقع ملتهباً ... كما تصوَّب يجري كوكب سار
وهو يشبه قول بشار:
كأن مثار النقع فوق رءوسنا ... وأسيافنا ليل تهاوي كواكبه
ويقول أيضاً في وصف كأس أهديت اليه:
ومثلك مد يمين الندى ... بعلق يطيل عنان النظر
بأزرق سالت به صفرة ... كما طرز البرق ثوب السحر
يقول إنه كأس ازرق قد سالت به صفرة فبدا كسماء أبرقت في ليل مظلم.
ويقول كذلك في الرمح:
وأسمر يلحظ عن ازرق ... كأنه كوكب رجم وقد
يعتمد العين اعتماد الكرى ... وينتحي القلب انتحاء الكمد
فان السمرة والزرقة وكواكب الرجم المتوقدة والكرى والكمد كلها صور لأشياء طبيعية،
شبه بها عود الرمح الأسمر، وسنانه الأزرق، ولمعانه وقت الطعن.
وأجمل ما قاله في وصف الإله وصفه القوس فهو يقول:
عوجاء تعطف ثم ترسل تارة ... فكأنما هي حية تنساب
وإذا انحنت والهم منها خارج ... فهي الهلال أنقض منه شهاب
فلم يخرج في تشبيهها ووصفها عن حيوان الطبيعة وعن أفلاكها.
ويقول في صفة كلب وأرنب:
وأطلس ملء جانحتيه خوف ... لأشوس ملء شدقيه سلاح
فهو يشبه الأرنب الهاربة امام الكلب بالذئب للتشابه الموجود بين لونيهما، وللتشابه الموجود بين حاليهما، لأن الذئب يهرب من وجه الكلب، ويعبر عن الكلب بالأشوس، وهي حال ضم الجفنين للتحديق والنظر، ويشبه انيابه التي كشر عنها بالأسلحة التي يحملها الصياد.
ويقول في صفة فرس أشقر عليه حلى لآلئه:
بسام ثغر الحَلْي تحسب أنه ... كأس أثار بها المزاج حبابا
فهو يشبهه بكأس من الخمر قد مزجت بالماء فبدت صفراء اللون وطفا عليها حباب ابيض.
واقرأ هذه المقطوعة في وصف نزهة ركب اليها زورقا:
وانساب بي نهر يعب وزروق ... فتحملتني عقرب وحباب
نجلو من الدنيا عروساً بيننا ... حسناء ترشف والمدام رُضاب
ثم ارتحلت وللسماء ذؤابة ... شهباء تخضب والظلام خضاب
تلوى معاطفي الصبابة والصبا ... والليل دون الكاشحين حجاب
حيث استقل الجسر فوق زوارق ... نسقت كما تتراكب الأحباب
لم تستبق وكأنها مصطفةً ... دُعم تنازعك السباق عِراب
فقد شبه أولاً الزورق الأدهم بالعقرب لانحناء مقدمه إلى الأعلى، وانحناء متوسطه إلى الأسفل، وشبه ماء النهر الثائر المائج المزبد بالحباب. ثم شبه ثانية اصطفاف الزوارق باصطفاف الخيل العراب للسباق.
إلى هنا انتهى كلامنا عن وصف ابن خفاجة للآلات والأدوات، وقد أريناك تشبيهاته وأوصافه التي أتى بها ولم يخرج فيها عن حبيبته الطبيعة التي يرى بها كل ما موجود، وكأنه لا يرى في الحياة إلا الطبيعة، فلا يتكلم إلا عنها ولا يشبه إلا بها.
فان كان البحتري قد أثر فيه حب علوة الحلبية فقال الشعر الغنائي الرقيق، ورسم الصور الشعرية الجميلة، وأخذ في كل هذا على نفسه ألا يبوح باسمها.
وسميتها من خشية الناس زينباً ... وكم سترت حباً عن الناس زينب
فان ابن خفاجة أثرت فيه الطبيعة فهام بها وأحبها حتى كان يذكرها في شعره واصفاً

أو متغزلاً، صاحياً أو نشوان.
وكأنه وهو نشوان أقدر على وصف الطبيعة والتشبيه بها، أو كأن حبه لها يهيج فيه قريحته الشعرية حين يجلس إلى الشراب ثم لا يرى بداً من ذكرها لأنه مفتون بجمالها مسحور بمناظرها.
أقواله في الخمر: - يصف ابن خفاجة الخمر ويصف كؤوسها ويشبهها فيتفنن في التشبيه والوصف، فإذا أردنا أن نقايس بينه وبين أبي نواس في وصفها، فهو بلا شك دون منزلة أبي نواس. لأن أبي نواس يقصد إلى الخمر قصداً، فينشئ القصيدة على ذكرها ويجعلها موضوعاً من الموضوعات الشعرية، ولكن ابن خفاجة في مقطوعاته التي يذكر فيها الخمر يجعلها أحد المواضيع التي ينشئ فيها المقطوعة. فأكثر مقطوعاته الخمرية ينشئها على ذكر نزهة جميلة مع إخوان صدق في ظلال الأدواح يشربون ويسمرون، أو على ذكر مجلس إخوان وأصدقاء يقرضون الشعر ويصفون فيه مجلسهم واعتكافهم على الخمر، أو يصف الخمر أثناء تغزله، وفي كل مقطوعة من مقطوعاته التي فيها للخمر ذكر لا نرى الأ البيت والبيتين. قال من وصف يوم أنس وفكاهة:
وجاء بها حمراء أما زجاجها ... فماء، وأما ملؤه فلهيب
فهو يقول: انها خمرة حمراء كأنها لهيب النار المتوقدة في كأس كأنه الماء صفاء وشفافية:
ويصف الخمر بيد حبيب له فيقول:
مشمولة بينا ترى في كفه ... ماء، ترى في خده الهوبا
فهو يقول: انها باردة الطعم لهبوب الشمال عليها كأنها الماء صفاء، وانه محمر الخدين كأنهما لهيب نار مستعرة، وقال ايضاً:
فجاءت بحمراء وقادة ... تلهب في كأسها كوكبا
فقد شبهها بالكوكب المتوقد وهو يشبه قول ابي نواس:
إذا عب فيها شارب القوم خلته ... يقبل في داج من الليل كوكبا
ويشبهها بالفرس الأشقر فيقول:
وقد جاء من كاس السلافة أشقر ... يسابقه من جدول الماء أشهب
ويقول في وصفها أيضاً وهو يتغزل:
حيا بها ونسيمها كنسيمه ... فشربتها من كفه في دره
منساغة، فكأنها من ريقه ... محمرة، فكأنها من خده
إلى هنا لا نرى في وصف ابن خفاجة الخمر وفي تشبيهه إياها شيئاً يخرج عن الطبيعة؛ فقد شبهها بلهيب النار المشتعلة وشبه كأسها بالماء الصافي الرائق، ثم شبهها بالكوكب المتوقد، ثم شبهها بالفرس الأشقر للونها الأشقر، ثم شبهها وقال انها منساغة فكأنها من ريق الحبيب الخصر العذب، وإنها حمراء كأنما قد عصرت من خده الوردي.
واقرأ هذه المقطوعة يداعب بها الساقي الأسود، وانظر كيف يصف الخمر الحمراء والكؤوس البيضاء، ثم ينبري فيصف لنا المكان الذي جلسوا به، والوقت الذي شربوا فيه، ولاحظ إذا شئت تشبيهاته وأوصافه التي لا يخرج بها عن مناظر الطبيعة وعن أوصافها:
رب ابن ليل سقانا ... والشمس تطلع غره
فظل يسود لونا ... والكأس تسطع حمره
كأنه كيس فحم ... قد أوقدت فيه جمره
إلى أن يقول:
فظلت آخذ ياقو ... تة واصرف دره
حتى تثنيت غصنا ... واصفرت الشمس نقره
وارتد للشمس طرف ... به من السقم حسره
يجول للغيم كحل ... فيه وللقطر عبره
فهو يقول: إن عبداً اسود يسقينا منذ طلوع الشمس، وكأنه وهو يدير علينا الخمر في كؤوسها الحمراء كيس من فحم قد أوقدت فيه جمرة ملتهبة، وظللت على هذه الحال

أتناول الكأس مملوءة حمراء كالياقوتة وأعيدها فارغة بيضاء كالدرة، حتى تثنيت من شدة السكر
كالغصن تثنيه الرياح، وحتى اصفر لون الشمس وارتد طرفها إلى الغروب كما يرتد طرف الناعس من النعاس، وكانت الغمامة دكناء كأن بها كحل كاحل، وكانت ممطرة كأنها عين باك مستعبر.
وقال أيضا يصف متفرجا. ويصف في أثناء ذلك الخمر:
ومجر ذيل غمامة قد نمقت ... وشى الربيع به يد الأنواء
ألقيت أرحلنا هناك بقبة ... مضروبة من سرحة غناء
وقسَمت طرف العين بين رباوة ... مخضرة وقرارة زرقاء
وشربتها عذراء تحسب أنها ... معصورة من وجنتي عذراء
حمراء صافية تطيب بنفسها ... وغنائها وخلائق الندماء
أدلب. عبد الرحمن جبير
من طرائف الشعر
وداع
للشاعر الوجداني الرقيق أحمد رامي
أيها الفُلك على وشك الرحيل ... إن لي في ركبك الساري خليل
رقرقت عيناي لمّا ... قال لي حان الوداع
وبكى قلبي ممّا ... ذاع في الكون وشاع
غابت الشمس وراء الأفقِ ... ثم ذابت في مسيل الشفق
لهف نفسي! كاد يخبو رمقي
حين حيانّي حبيبي ... وتبادلنا الوداع
وانطوى منه نصيبي ... عند تصفيق الشراع
أيها الفلك على وشك المغيب ... قف، تمهل! إن لي فيك حبيب
لا أذوق النوم حتى نلتقي ... والضحى يغمر وجه المشرق
فأحييه بقلب شيّق
شارحاً وجدي شاكياً ... سهدي في الدجى وحدي
وأناجيه بحبّي ... بين ضمٍّ واعتناق
ناسياً الأم قلبي ... طول أيام الفراق
الشعر والشاعر
للدكتور عبد الوهاب عزام
سيدي صاحب الرسالة:
خطرت لي خطرة من الشعر في احدى الليالي منذ سبع سنين فأخذت القلم وكتبت الأبيات الآتية، ثم ألقيتها بين أوراقي. وكنت أقلب أوراقا منسية منذ أيام فعثرت عليها، وتذكرت اذ ذاك قوله تعالى: (وإذا الموؤدة سئلت بأي ذنب قتلت.) فأردت أن أحمل صاحب الرسالة تبعتها فأرسلتها اليه، وله الخيار أن يئدها كما كانت، أو ينشرها:
هو وحيٌ في شعاع القمر ... يملأ القلب ضياء وسلاما
أو حديثٌ في حفيف الشجر ... أفشت الريح له سرّاً فهاما
أو بكاء في حنين الوتر ... ملأ الأنفس وجداً وغراما
هو طل الفجر فوق الزَهر ... يملأ الروض دموعا وابتساما
ثم يبدو مثل قَدحْ الشرر ... بين خفق القلب والهّمِ صداما
أو تراه كالوصايا العشر ... بين ومض البرق والرعَد كلاما
ذلك الشعر إذا ما تَرجما ... عن خفايا وحيه اللفظُ المبين
رب شعر وحيه قد كُتما ... أبلغ الأشعار ما لا يستبين
يخلق الشاعر خلقاً آخراً ... من خيال حائر فيه المدى
يجعل الليل غراباً طائراً ... خاف نسر الصبح لما أن غدا
ويرى النجم شريداً حائراً ... هام يبغي في الدياجي موردا
ويفيق الناسِ عنه ثائراً ... فيرى القصة خلقاً مسعداً
يبرأ الأبطالَ فيها ساحراً ... فتراهم في البرايا خُلّدا
مثلا في البِرِّ يبقى سائراً ... أو حليف اللعن يبقى أبدا

كم هدى الشاعر قبلا أمما ... وحدا فيها إلى العز المكين
وبنى للمجد فيهم سلّما ... فإستقاموا للمعالي صاعدين
وجه من يهواه روض ناضر ... أُلِّفتْ فيه من السحر معاني
ومن الطرة ليلٌ كافر ... ضُلِّلَتَ فيه دموع وأماني
دولة الحسن، عليها ساهر ... نابل من طرفه والحاجبان
ومن البحر جحيم ساجر ... ومن الوصل فراديس الجنان
غضبة الشاعر ليل زافر ... جلل الأرض بنار ودخان
ورضا الشاعر صبح سافر ... ملأ الأرض بنور وأمان
يصبغ العالم ما شاء كما ... لعبت باللون أيدي الراسمين
فإذا شاء أراه مأتما ... وإذا شاء فعُرس الفرِحين
ويلف السحب من نيرانها ... في إهاب الغيظ والحقد المَكين
ويسل البرق من أجفانها ... سيف ثأر مُصلتاً للظالمين
ويقود المزن من أرسانها ... بيد الريح شمالا أو يمين
ويعد الرعد من تحنانها ... حين يروي الأرض بالغيث الهتون
أو يرى فيه صدى طغيانها ... ردّدته رهبة للسامعين
ويقيم الطير في أفنانها ... شاديات باكيات كل حين
ويرى النهر دموعا ودما ... من عراك الدهر والقلب الحزين
أو يرى الصفحة سرا محكما ... نسجته الريح بين الناسجين
ويرى الورد ضحوكا طَربا ... إذ تُحليه من الطل درر
فإذا الورد ذوى واكتأبا ... وإذا الطل هو الدمع انتثر
ويرى البانة قدّا معجبا ... ماس في الروض دلالاً وخطر
ويرى الجدول صّلا هاربا ... في ظلال الأيك أعياه الوزَر
ويظن الريح دارت لعبا ... في ذرى الأشجار تلهو بالطرر
ويخال الطير غنّى مطربا ... يقرأ الحسن بصفحات الزهر
ضاق هذا العيش إلا حلما ... راق في الأهوال نومَ الكادحين
تضحك الآمال فيه كلما ... أبكت الآلام عيش البائسين
صاح والشاعر في نظراته ... يخرق الستر إلى سر الضمير
فيرى الآمال في طياته ... ودبيب الحزن فيه والسرور
يكشف المحزون في أتّاته ... اذ يراه الناس في ثوب الحبور
ويجلي الخبِّ من سوءاته ... وجميع الناس منه في غرور
ويرى المحسن في هيئاته ... حين يُخفى فضله كل كفور
فشعاع الشعر في وهجاته ... كاشف للناس عن ذات الصدور
يقرأ الشاعر ما قد أبهما ... في ضمير الدهر آلاف السنين
ويرى الغائب مشهودا كما ... يَصُر الهدهد بالماء المعين
أو تراه مثل باز مدمر ... ملأ الدَّوح صياحا وصيالا
يجهد الشاعر طول العُمر ... فيرى الآمال يأسا ومحالا
فتراه مثل ليث هيصر ... عض في الأسر قيودا وحبالا
أو تراه كحمام هَدِر ... رتّل الحزن نشيدا فأطالا
ثم يلهو بجمال الزهَر ... فَكأنْ في الصدر غما ووبالا
فتراه عَنْدَليبَ الشجر ... واصفا في الروض حسنا وجمالا
صاح ما الشعر سبيلا، إنما ... هو صهر القلب في نار الشجون
صاح ما الشعر كلاما، انما ... هو ذوب النفس أو ماء العيون

في سينما الحياة

للأستاذ الشيخ إبراهيم الدباغ

ليس المعين على بغى بمشكور ... ولا القوي على ظلم بمنصور //
قل للألى ضربوا من حكمة مثلا ... للقوم والقوم عند الأفك والزور
تغاير الناس في سعي لمهلكة ... وما لهم من حذار عند تحذير
إني أراهم وقد أنذرتهم طمسوا ... نهج الهدى أين أنذاري وتبشيري؟
أنا الرشيد ولي في كل مملكة ... أمرأ جرد فيه سيف مسرور

يبقي على الخير من قول ومن عمل ... حر فيمحق فيها كل شرير
وأنشر العدل أعلاما إذا خفقت ... أمنت من كل مطوي ومنشور
واجعل الدين والأخلاق لي هدفا ... الدين ديني والدستور دستوري
يا سائلي عن هوى نفسي وبغيتها ... من الحياة وقد غصت بتكدير
هواي تحرير أهل الأرض من ملأ ... من الهداة وأقطاب الدساتير
فكل نفس لها من سعيها أمل ... ولن تنال مناها دون تحرير
هل تمنع النفس من آمالها جدة ... لغيرها وهي منه دون تقدير
يا ثاني الغصن دع للغصن نضرته ... وخل قامته من ذام تكسير
وخل للروض والأغصان زينتها ... وغادها بين مشموم ومنظور
كم وردة جرحت جان بشوكتها ... وزهرة مزقت أحشاء هيصور
روض الحياة وروض الموت أجدره ... بالحر ما كان بيتا غير مهجور
ورد الحياة ابتدر من صفوها خلسا ... البؤس في السوق والآلام في الدور
والأرض شر مقيل للنسور إذا ... طغت وأشقى مراحا للزرازير
تضرى الذئاب وتبدو في مصاولة ... في مسك شاة توارت خلف تحضير
ينام حارسها عنها فينذره ... موت، ودنياه منها أجر ناطور
وللحياة نوال من سلامتها ... لو انها لم تشب صفوا بتكدير
تحلو وتبنى بها اللذات ما هدمت ... منها وتدرك تدميرا بتدمير
في سينماها خيال من حقيقتها ... فردية حولها شتى التصاوير
طلاسم تحت ارقام يفسرها ... عيث الخرافة في لوح الفوازير
فيا حقول (ابيقور) وشيعته ... لا ضقت ذرعا بقطعان الخنازير

في الأدب الغربي

مارسلين أو (مدام ديسبور دفالمور) 1786 - 1895

للأستاذ خليل هنداوي

في الحياة أزاهير تقضي أعمارها منثورة هنا وهنالك، لا يكاد يشعر إنسان لها بوجود، متواضعة في أرضها، منعزلة عن الأعشاب الطويلة والأزهار المنتصبة. تعطر الفضاء بانفاسها، فهو أنم عليها من الصبح!

وهنالك شعراء يعيشون في أجواء عواطفهم في عزلة نائية عن الناس، إذا ترنموا فإنما ليطربوا أنفسهم، وإن بكوا فإنما يبكون لتصيب أدمعهم زهرات أمانيهم، كما تصيب الروضة قطرات الطل، هؤلاء لا يعرفهم الناس لأنهم ما شاؤا أن يعرفوهم، فهم (وأنفسهم تسكب الألحان) كالأزاهير المنسية، وقد ملأت الفضاء أريجا.

ومن هؤلاء الشعراء صاحبة هذه الترجمة وهذا الشعر الوجداني، من شاءت ان تقضي حياتها هامسة بأنغام نفسها، ليس في قلبها وبين الوجود إلا ترجمان الحس والعاطفة: هذه هي مارسلين. . .

ولدت في (دواى) في بيت تسود جوه روح الفاقة، ويغلب على قلوب أصحابه شيء من الأيمان الذي يضحي بكل شيء إلا بنفسه، فيبعث هذا الأيمان في صدورهم من الراحة والطمأنينة والرضا ما لا تبعثه مظاهر الثروة الضخمة، على أن (أمها) جربت أن تنقذ الأسرة من مرارة الفقر، فركبت وابنتها إلى (بوردو) حيث تنتظرها ثروة قريبة. فاتخذت مارسلين الصعود إلى المسرح مهنة، ترضى بأجرها اليسير، ولكن الحظ أبى إلا أن يسود الصفحة الأخيرة، لأن هذه الثروة الموهومة قد تدهور أمرها قبل أن يدركا قريبتها، فأصابت أمها (حمى صفراء) أودت بحياتها، فآبت الابنة على الأثر، وعوامل اليأس والخيبة تطغي عليها.

الحياة!! كيف تعمل على تأمين أسبابها؟ فتذرعت (بالخياطة) مهنتها الأولى، وامتزجت مع الممثلين والممثلات، تقف عليهم صناعتها، فجدد هذا الاختلاط رغبتها الباطنية في العودة إلى المسرح، فعادت اليه ونالت كثيرا من مظاهر الاستحسان والتصفيق على مسرح الفنون في (روان) ولكن ما عسى تجديها هذه المظاهر؟ وهي التي كتبت في مذكراتها (ما أكثر ما تنهمر عليّ باقات المعجبين بي؟ وأنا أكاد أموت جوعا دون أن أصارح أحداً بأمري).

ثم كفلها أحد اصحابها، فألحقها بمسرح جديد، لا يتجاوز أجرها فيه الثمانين (فرنكا) طيلة الشهر. وفي عام (1817) شاهدها عارفوها في (بروكسل) متأبطة ذراع الممثل

(فرانسوا بروسير) مرتبطين برابطة الزواج، وما حل عام (1823) حتى كفت مارسلين عن الحياة المسرحية، وسعت وراء نفسها مستلهمة ما توحيه اليها، بعد أن تلمست شيئاً غير قليل من الظفر الشعري في ديوانها الأول (أغاني ومراثي) ولكن حياتها ظلت (برغم عوامل المدح الطافية عليها) طافحة بالكآبة، وقد أصابها الدهر بابنتيها خلال حياتها، ثم غزاها سرطان داخلي لم يمهلها كثيرا. ومارسلين على رغم هذه البواعث على الياس والقنوط لبثت صامتة راضية بأحكام القدر، لا تلوث ديوانها بشيء من الهجو لمعاصريها وأصدقائها، وذلك ما دعا (أناتول فرانس) إلى القول عنها أنها حقاً امرأة قديسة.

اما مارسلين فقد كان وجهها المشرب بشيء من الصفرة جميلاً جذابا، ونفسها مشبوبة العواطف، متعددة اللواعج، وحيثما قلبت في ديوانها تبد لك آثار هذه النفس المشتعلة التي تذوقت الحب، ورضيت به مرهقا للروح، ومنهكا للقوى. لأن الحب عندها هو ربيع الحياة. . وقد حار النقاد في العاشق الذي ظلت مارسلين تلهج باسمه وبصفاته في قصائدها حتى أدركها الموت، وطبيعي أن يجر خلاف النقاد إلى اعتبارنا هذا الاسم المتردد اسما شعرياً ترمز به صاحبته إلى اسم حقيقي.

اما موقف معاصريها من نقاد وأدباء فقد اعترف أكثرهم بما يثور في صدر مارسلين من عاطفة متقدة يؤول اليها سر براعتها الشعرية. (ولسانت بوف) فصول درس بها فن الشاعرة. رفعت كثيراً من قدرها وبراعتها، أضف إليها فضولاً ومقاطيع متعددة لكبار الأدباء يرفعون بها شهرتها: وهذا (شيرر) يقول (ان مجد مارسلين شيء لا جدال فيه لأنه مجد كثير الإحساس) وهذا (اميل مونتيكو) يكتب في (معرض العالمين) ان مكان الشعر العطفي يقاس بمقياس العاطفة الشخصية، فان مارسلين هي اكبر شعراء العاطفة على الإطلاق.

والشاعر (ملارمي) كانت تستخفه اسباب الطرب عند ما يتلو على أصدقائه قصيدة مارسلين الخالدة (حياة اليمام وموته) وأي قلب (أوتى الحاسة الفنية) يسعه الأ يحس هذه

العاطفة التي يتغلغل فيها معنى الشعر الحقيقي، ورحم الله (اناتول فرانس) فقد كان يستظهر قصيدتها الإكليل المنثور ويقول عنها انها من قصائد العبقرية النادرة.

وديوان مارسلين يطفح بروح المرأة المحبة التي يخرجها الحب عن نفسها، وهو أثر واضح لدرس نفس المرأة وترددها وضعفها حين تطغي عليها عاطفة الحب، لأن مارسلين لم تتقيد بالتقاليد التي لو لم تعمل على قتل عاطفتها لخففت من عوامل بؤسها وحدتها، وجدير بأدبنا أن يطلع على مثل هذا الشعر، وعلى مثل هذا الحب، وعلى مثل هذه العاطفة.

العلوم

حقيقة التطور

للأستاذ السر آرثر طمسن

ترجمة بشير الياس اللوس

يرى علماء التطور ان الأصناف المختلفة للنباتات والحيوانات الوحشية انحدرت في أسلاف أبسط تركيبا وأعم صفات، وقد جرت عملية التطور هذه في وقت طويل جدا وبتأثير عوامل مشابهة للعوامل المؤثرة في الوقت الحاضر، ونشأت خلال تلك العملية تنوعات جديدة تدرجت في سلم الارتقاء، فعاش منها من استطاع ان يكيف نفسه للمحيط، وانقرض الأخر الذي لم يستطع ذلك.

نظرية التطور في الوجهة المنطقية

وهنا ينشأ هذا السؤال: ما هو نصيب نظرية التطور العامة من الإثبات المنطقي إذا لم نبحث الآن في العوامل التي لعبت دورا مهما في هذه العملية؟ وقبل الإجابة على هذا السؤال يجب ان نعترف أن هذه النظرية لايمكن إثباتها تجريبيا كنظرية الجذب، ولا نستطيع البرهنة عليها كي نبرهن على صحة نظرية حفظ الطاقة فهي تتناول الماضي السحيق، ويمكن وضعها من الوجهة المنطقية في صعيد واحد مع الفرضية السريمية التي تخبرنا عن تكوين الشمس وسياراتها. لا يستطيع أحد أن يعكس الشريط الكوني ليرينا عن كثب الحوادث التي جرت في سالف العصور، ومع ذلك يجب ان نتذكر ان في السماء سدماً تسلك نفس السبيل الذي يظن الفلكيون أن السديم العظيم سلكه

في العصور القديمة فولد نظامنا الشمسي الحاضر. وهكذا نعثر في التطور العضوي على عمليات جارية تمثل ما حدث في القديم كنشوء الطيور في أرومة الزحافات، أو نشوء البرمائيات في الأسماك.

كيف نشأ عالم الحياة

أن الجواب العلمي الوحيد لهذا السؤال يستمد عناصره من التطور الذي يقرر اساليب التغيير والتطوير. نشأت جميع افراد المملكة الحيوانية بطريقة مماثلة لنشوء أنسال الحمام الداجن المعروفة من حمام الصخور - الذي لا يزال يعشش على الجروف حول بريطانيا

العظمى، وكذلك نشأت افراد المملكة النباتية بطريقة مشابهة لنشوء كرنب الحدائق والقرنبيط والخضراوات من الكرنب الوحشي النابت في السواحل البحرية. وهكذا تتضمن فكرة التطور العضوي العامة نوعا من البرهان يستند على المقابلة والمشابهة. إذن فتلك الحالات القليلة التي يعلمها الإنسان عن نشوء حيواناته ونباتاته الداجنة تنير له طرائق العلم بحدوث النشوءات العظيمة خلال العصور السحيقة في القدم.

لذلك لا نرى مسوغا لما يطلب من الأدلة على التطور ما دام يمكن اتخاذ كل حقيقة من حقائق علوم التشريح والفسلجة والمتحجرات والأجنة دليلاً قويا على التطور إذا ألممنا بشيء كاف منها. وكل ما في الأمر أنه يجب أن نفتش عن حجة تمهد لنا سبيل الاهتداء إلى كيفية استعمال حقيقة التطور لفهم جميع المغلقات والألغاز التي نجابهها في درس البيولوجيا.

أثر الإنسان في التطور

كان لدارون ولع شديد بدرس مساعي الإنسان لتدجين الحيوانات والنباتات وتربيتها على السواء، وغير خاف علينا ما وصلت اليه جهود الإنسان في الحصول على ضروب متعددة من الحمام الداجن وذلك مهد لدارون أن يضع فكرته على النمط الأتي: لما كان في وسع الإنسان أن ينشئ في زمن قصير أنسالاً عديدة قويمة التهذيب فلماذا لا يعقل أن الطبيعة قامت بذلك العمل نفسه في زمن طويل جداً؟ وكيف يقوم الإنسان بتلك العملية؟ لاشك أنه ينتقي الأنواع التي تروقه أو تلائم حاجاته ويدعها تتزاوج مع بعضها على قدر الإمكان ويستأصل من النسل الجديد الأفراد التي لا يرغب فيها ومن ثم يقوم بتهذيب وتربية الأفراد التي يريد الاحتفاظ بها، فعمليته تقوم على أمرين مهمين: الاستئصال والتوليد. فيستأصل الرديء ويولد الجيد. وبسعيه المتواصل في (عملية الانتخاب الصناعي) هذه وصل الإنسان إلى نتائج مدهشة، فكان له ضروب عديدة من الخيول والمواشي والكلاب والحمام والدجاج الخ، وضروب كثيرة من النباتات كالحنطة واللفت والبطاطا والورد والبانسيه الخ. . . ومن السهل أن تذهب إلى المعارض الزراعية لتحصل على أمثلة واضحة من التطور لا تزال تعمل بقوة.

لاشك أن هناك أمثلة عديدة أكثر تعقيداً من نشوء الحمام لأنه يصعب علينا عندئذ تحديد الأسلاف الوحشية كمعرفة أصل الكلاب مثلا. ولكن ذلك لا يقلل شيئا من قوة الحجة القائلة إذا تمكن الإنسان من إيجاد ضروب عديدة من الحيوان والنبات في وقت قصير فكيف لا تستطيع الطبيعة ذلك في وقت طويل جداً؟. . . والآن يجب إلا نغفل عن أمرين مهمين: أولهما أن الإنسان لا يبتدع الضروب الجديدة بل ينتظر ظهورها، وثانيهما أن القوى المؤثرة في الطبيعة التي تماثل عمل الإنسان في الاستئصال والتهذيب هي التناحر على البقاء ونزوع المخلوق إلى الحياة.

مصدر القوة

عندما يمضي العالم الطبيعي في تمحيص انواع مختلفة من الحيوانات القريبة من بعضها حسب الظاهر يجد تغايرات مدهشة جداً، وسرعان ما يلاحظ أن بعض العضويات وحتى بعض الأعضاء هي أكثر عرضة للتغاير من البعض الأخر. وتدلنا جميع الحقائق المستقرأة بالمشاهدة على أن قابلية التغيير هي من أميز صفات الكائنات الحية. والواقع إننا لا نستطيع ان نجد طائرين يتشابهان تشابها تاما بحيث يعسر علينا تفريق أحدهما عن الأخر. فالأخوان يختلفان عن بعضهما بالرغم من تولدهما من أرومة واحدة. ويذكر لنل البروفسور لوتسي انه رأى في متحف (ليدن) نحوا من 200 ضرب من طيور الباز لا يوجد بين اثنين منها تشابه تام. وكذلك نعرف عن بعض المرجان المركب أن بنية الأفراد فيها تختلف باختلاف الأغصان في المستعمرة الواحدة. على أن مصدر

التغيير كائن في الماكينة العضوية دفين بين تضاعيفها. ويجب على الباحث ان يميز الفروق الخارجية التي يمكن إرجاعها إلى خصائص المحيط أو الغذاء عن الفروق الداخلية أو الموروثة التي يظهر انها تتقدم من الباطن، ويطلق على الأخيرة فقط تعبير (التغايرات) أو (التغيرات الفجائية) إذا نشأت بصورة فجائية.

ارتقاء الحياة

من المحتمل أن كائنات حية كانت تعيش على اليابسة وفي المياه إلى مدة تزيد على المائة مليون سنة، ولكنها لم ترتق في ذلك الوقت كثيرا لأسباب ترجع أولاً إلى المحيط. إن تقدم الحياة مشهد بليغ وصفه لوتز وهو احد علماء الحياة ايضا، بقوله (انه كالنغمة المطربة

التي يعلو صوتها كلما تقدمت واقتربت من السامع).

لم توجد خلال عصور عديدة حيوانات عظمية أو فقرية بل أن جميع الحيوانات التي كانت عائشة آنئذ كانت رخوة لا عظمية أو لا فقرية. ولكن الأسماك كانت موجودة في البحار السيليورية ومرت عصور عديدة ظهرت خلال أحدهما وهو العصر الرملي الأحمر القديم البرمائيات بعد أن اجتازت خطوات من التطور عظيمة كاكتساب الأصابع والرئتين الحقيقيتين والأوتار الصوتية واللسان المتحرك والقلب الثلاثي المخادع الخ. . كان هذا التقدم واضحا ولو ان هذه الحيوانات ظلت ضفدعية الخواص حتى عندما وصلت عصرها الذهبي في العصر الفحمي

وبعد مضي عصور أخذت الزواحف الملونة تظهر في العصر البرمي والتي نرى فيها التغاير والتنوع والتقدم بمقاييس كبيرة. فبعضها كانت بحرية وبعضها برية وبعضها هوائية والبعض الأخر يعيش بين الأشجار. وكان بعضها عظميا هائلا والبعض الأخر صغيرا دقيقاً. وهكذا حصلت تنوعات كثيرة بين الزحافات القديمة. على انها جميعا لم تكن قد وصلت إلى درجة تامة في النمو العقلي بل كان فيها استعداد عظيم لذلك. ويظهر ان كثيرا منها اصبح في منتهى الاختصاص كالتنين الطائر أو البتيرودكتل لأنها انقرضت بدون أن ترقى أكثر من ذلك.

ان بعض الزحافات القديمة لا تزال متمثلة بالتماسيح والضبياب وفصائل اخرى موجودة في الوقت الحاضر، ولكن البعض الأخر أصبحت أنسالاً منقرضة وأفضت غيرها إلى نشوء الطيور واللبائن وهما الصنفان اللذان نستطيع إرجاعهما إلى الأجداد الداينوسورية ولكن الحقيقة التي نعتقدها هي أنه في خلال العصور ظهرت صنوف تدرجت في سلم الارتقاء حتى وصلت إلى الإنسان وهو أرقى الحيوانات في الوقت الحاضر. يضاف إلى هذه الحقيقة العظيمة جميع السلالات النسبية المحفوظة بين الصخور كسلالات الخيول والفيلة والجمال والتماسيح. ومن ينقب يقرأ سجلات التطور بين ثنايا الصخور.

هل للعلم قيود ترفضها الأخلاق؟

للدكتور هنسن أسقف درهام بإنجلترا

ترجمها بتصرف الدكتور أحمد زكي

بدا شيء من القلق في منطوقات رجالات العلم ارتاع له الناس. وكيف لا يرتاع) الرجل العادي وقد أنذر رؤساء ثلاثة لرابطة العلوم البريطانية في سنوات ثلاث متعاقبة بالخطر الذي يحيق بالمجتمع المتدين من جراء التقدم السريع الجاري. أن رجل العلم في العصر الحالي كساحر للقرون الخوالي يبعث الشياطين فلا يلبث أن تفلت من من خطبة قريبة (قبضته، وتتحرر من سلطته، فتعبث في الكون إفسادا وتخريباً.

العقل العلمي

كلنا متفق على أن العقل العلمي يجب أن يكون خلوا من كل غرض، بعيدا عن كل شهوة، إن هَوِى صاحبه فلن يتأثر بهواه، وإن أبغض فلن يتأثر ببغضه، فهو عقل يطلب الحقيقة للحقيقة وحدها، وهو يطلبها في هدوء وثقة واتّزان ورجاحة، لا يزعجه اصطخاب تثيره التقاليد حوله، ولا يهزه اضطراب يبعثه العرف السائد من جراء ما تكشفه له، وهو يطلبها في قناعة وعفة ونبل، فلا تحدثه نفسه بما قد تؤدي له الحقيقة المكشوفة من نفع، وما قد تدر عليه من مال، وهو يطلبها لحاجة شديدة في نفسه تدفعه دفعا إلى علم ما لم يعلم، كما يندفع الهالك الظمآن إلى الرِّي والماء، وهو لا يفرق بين الحقيقة الصغيرة الحقيرة، والحقيقة الكبيرة الهامة، ولا بين الحقيقة تأتيه

هوناً، وبين الحقيقة يأتي بها الجهد الجهيد، فلكل مكانه من الخريطة العامة، وهي لا تتم إلا بتمام أجزائها، وهو لا يجد لنفسه عوضاً كافياً من هذه الجهود، ولا جزاء وفاقاً على متاعب البحث ومصابرة التنقيب، كالعلم الذي تحصله تلك الجهود والأبحاث. وبعد فليس بمستغرب أن من يطلب العلم لذاته دون مراعاة شيء غيره ولا مجاملة أحد سواه يصطدم بكل سلطان قوي الدعائم قديمها، ومن ذلك سلطان الدين.

العلم والدين

وقد اشتبك الدين والعلم في معارك بدأت في أواخر العصور الوسطى وامتدت إلى وقتنا هذا. ولاشك أن من أكثر اسباب هذا العراك سوء فهم للدين، وعدم التمييز بينه وبين علم اللاهوت التقليدي الموروث. وقد خلف لنا هذا العراك سجلات عديدة من مساجلات ومناظرات امتلأت بها رفوف عديدة بدور الكتب، ولكنها لا تجد الآن قارئا إلا دارسا متشوقاً يأتي اليها الفينة بعد الفينة، مناظرات لم تولد غير كراهات غاشمة أفسدت الأذهان وأساءت إلى التفكير الخالص في كلا المعسكرين على السواء، نظر فيها رجال الدين بأعينهم إلى الوراء، إلى السنوات الزاهرة الذاهبة حين المجد للدين وحده، والجبروت للعقيدة وحدها، والسلطان الذي لا يدافع لرجال الكنيسة وحدهم بلا منازع ولا متحدٍّ، فعز عليهم أن يسلموا كل هذا وان يعترفوا للعلم بكثير أو قليل.

على أن الخصام الذي بين العلم والدين قل في العصور الحديثة، أو على الأقل هدأت حدته، وذلك أن أهل اللاهوت تعلموا ولو في كثير من التباطؤ، وأذعنوا ولو في كثير من التلكؤ، واهتدوا أخيراً إلى التوفيق بين تعاليمهم وتعاليم العلوم الطبيعية من فلك وجيولوجيا حتى علم الحياة وكان أصعبها توفيقاً.

العلم والأخلاق

وما دام العلم يشتغل بملاحظة حقائق الوجود عن كثب، وبتدوين أحداث العالم المادي في أمانة ودقة، وما دام يخرِّج النتائج من الفروض تخريجاً صحيحاً، فقد جاز أن يصطدم بعقائد المسيحية التقليدية، وقد أصطدم فعلاً. وليس من الضروري (ما حبس نفسه في هذه الحدود) أن يصطدم بالأخلاق ما توجبه وما ترتضيه. ولكن عندما يبدأ العلم يطبق طرائقه التطبيقية على جسم الإنسان وبدنه فانه بذلك يخرج عن حدوده الأولى، ويبدأ يمس رأي الناس في أنفسهم وأعمالهم، وبدل أن يكون الخصام بين العلم والدين، يصبح خصاماً بين العلم وقانون الأخلاق العام وهو قانون يشد أجزاء المجتمع بعضها إلى بعض، كما يشد الملاط آجرَّ البناء، وعند ذلك يصبح قانونا مزعزع الأساس مشكوكا في سلطانه، ويصبح قضاؤه غير مبرم. ثم يتقاصر ظله ويتقاصر حتى يصبح عبداً للعلم خاضعا لنتائجه، مأموراً بعد ان كان آمراً؛ وعندئذ ينظر الإنسان بعين جديدة إلى الطبيعة البشرية، ويصبح الواجب البشري ذا سيطرة، ولكنها محدودة مشروطة.

وهُنا يتساءل: هل يكون للمعمل فتاوي أخلاقية خاصة يتحلل بها أصحابه من القانون الأخلاقي العام الذي يتبعون أوامره ونواهيه عن طيب خاطر حيثما ساروا في الدنيا الوسيعة حتى إذا هم دخلوا المعمل أغفلوها جميعا؟ أيجوز استخدام التجربة، ذلك السلاح الرهيب دون مراعاة صالح غير صالح المعرفة للمعرفة ذاتها؟ إلا ينقلب رفض العلم لمراعاة اعتبارات الحياة الأخرى سببا إلى اقتراف كثير من الأثام؟ وجملة الأمر هل تتقيد الطريقة العلمية بقيود خلقية أم تترك طليقة؟ وإذا هي تقيدت فما هي تلك القيود؟

قال هكسلي: (إن كل الفلسفات وكل الأديان تقريبا متفقة على أن الحقيقة والجمال والخير غايات ثلاث يطلبها الإنسان لذاتها دون ما عداها؛ أو على الأقل تتفق الفلسفة والأديان على ذلك نظريا، أما عند التنفيذ فتظهر اختلافات وتلوح مصاعب).

ومع ذلك فهكسلي لا يتنازل عن شيء للتنفيذ، ولا يجود بشيء مما يتطلبه العمل من الضرورات. فهو يقول: كثيرا ما يقال إن من الأشياء ما يعلو على الفحص والتمحيص لقداسته، ولكن الرغبة الشديدة في المعرفة الخالصة إذا ملأت رأس الإنسان لم تجز له تمحيص كل شيء فحسب، بل تحتم عليه ان يتتبع مباحثه غير آبه لأي المواضع قادته، غافلا عن كل صفات الأجسام المبحوثة ما دامت قابلة للبحث والفهم، فأن العقل الممحص لا يرى أن بحث الشيء يمنع منه قدسيته، وفضلا عن هذا فان التجربة دلت على أن المعرفة التي تنال من أجل نفسها عن هذا الطريق، تقع من النفس

منزلة لا تنزلها هي نفسها لو أنها أصيبت عن طريق غير هذا.
قال هكسلي ذلك وهو يعرض للدين أكثر من عرضه للخلق، ولكن كلامه يمكن تمديده حتى يسع الأخلاق. وهكذا يصبح السؤال: هل يصح لنا أن نفترض أن (الغايات الثلاث التي يطلبها الإنسان لذاتها دون ما عداها) متوافقة في جوهرها كل التوافق حتى أن من يطلب الواحدة يحصل في النهاية على الجميع. يقول عميد كاتدرائية سانت بول: (يجب علينا إلا نفارق بين القيم الثلاث أو نخاصم بينها. فكلنا نتسلق الجبل في طريقنا إلى الله. ولكن من طرق ثلاث تؤدي كلها إلى قمة الجبل. ومن المحتمل أن نجد من هذه الطرق واحدة هي أيسرها في الصعود).
أنا لا أعُنى الآن بالنهاية التي تؤدي اليها القيم الثلاث، ولكن عنايتي الحاضرة بالنتائج العملية التي تنشأ عنها. أن استعارة العميد نفسها تتضمن انفصال الثلاث في سبيلها من
الجبل، وهذا الانفصال هو بيت القصيد. فلنسلم جدلاً بأن النزاع القديم بين الفن الجميل والأخلاق أكثره سوء في فهم هذا، أو فهم ذلك، أو فهمهما كليهما، ولكن السؤال: هل للفنان أن يغمض بحق عينه عن الاعتبارات الخلقية وهو يعمل في دار فنه؟ هل دراسة الفن للفن قضية رصينة مقنعة؟ . . .
شرائط العلم ثلاث
أنا أقول إن الطريقة العلمية مشروطة بشرائط ثلاثة، أولها الواجب الذي تفرضه الأخلاق على دارس العلم بحكم رجولته، ذلك الواجب الذي لا يستطيع أن ينسخه أي مأرب من مآرب العلم مهما كان. وثانيهما قيود لا بد من تقيد الطريقة العلمية بها، تحتمها حقوق أولئك الذين تؤثر فيهم تلك الطريقة، وثالثهما قيود يفرضها نوع النتاج المقصود من التجربة.
القصص
من غير عنوان
للقصصي الروسي تشيكوف
كانت الشمس في القرن الخامس عشر تشرق كل صباح وتغرب كل مساء كما هي اليوم. وحينما تقبل أشعتها الأولى ندى الأرض تنفض هذه عنها غبار الكرى، وتشيع في الدنيا البهجة وتحلو الأماني! وتعود الأرض في المساء إلى سكونها ثم تغوص في غياهب الليل. وقد ترى أحياناً سحابة راعدة تلوح، ويقصف الرعد وهو يزمجر، أو تهوى نجمة من شاهق وهي وسنانة، أو يقبل راهب حثيث الخطى شاحب اللون ليخبر رفاقه بأنه رأى نمراً قريبا من الدير. كان هذا كل شيء، ثم تعود ثانية الأيام تشابه الأيام، والليالي تحاكي الليالي.
كان الرهبان يصلون ويعملون: أما رئيس الدير فيعزف على الأرغن، ويقرض الشعر اللاتيني، ويؤلف النغم الموسيقى. وكان للكهل الحلو الوديع ذكاء نادر وسجايا حميدة. فهو يعزف على الأرغن ببراعة، حتى أن معظم الرهبان القدماء الذين يضعف سمعهم كلما قربت نهاية حياتهم ما كانوا يستطيعون أن يحبسوا دموعهم كلما هفا صوت أرغنه من صومعته. وعندما يتكلم ولو عن الشؤون العامة كالشجر والوحوش الضارية والبحر الخضم، لا يسمعه إنسان دون أن ترى دمعة تترقرق في عينيه، أو بسمة ترتسم على شفتيه، فيخيل اليك أن الأنغام التي تتجاوب في الأرغن هي بعينها التي تعتلج في نفسه. وحينما يهيجه غيظ متمكن، أو يأسره فرح شديد، أو يتحدث عن أشياء مروعة تأخذه نشوة قوية، ويتسايل الدمع من عينه اللامعة، وتضرج وجهه الحمرة، ويدوي صوته كالرعد. هنا يحس الرهبان المستمعون أن أرواحهمتذيبها عظمته وأنها تفنى فيه.
لقد كانت قوته في هذه الدقائق العظيمة العجيبة لا تحد، فلو أمر شيوخ الدير أن يقذفوا بانفسهم في البحر لاستبقوا اليه مسرعين.
كان موسيقاه وصوته وشعره الذي يمدح به الله منبعاً لسرور الرهبان لا ينضب. ففي مدة حياتهم الرتيبة تنقلب الأشجار والأزهار والربيع والخريف إلى أشياء مملة، ثم يقلقهم هدير اليم الزاخر، ويصبح شدو الطير مملول النغم مرذول الجرس. ولكن سجايا رئيسهم كانت
لهم بمثابة القوت المحيي والقوة المجددة.
كرت السنون ومازالت الأيام تشابه الأيام، والليالي تحاكي الليالي وما دنا من الدير أحد

اللهم إلا ضواري الوحش وجوارح الطير. وكانت أقرب المساكن الإنسانية بعيدة جداً. ولا تصل اليها من الدير أو تصل إلى الدير منها حتى تعبر صحراء ذرعها مائة ميل. والذين يجرءون على القيام بهذا هم أولئك الذين لا يجعلون للحياة قيمة ولا يقيمون لها وزناً، والذين نبذوها وراءهم ظهرياً ونفضوا أيديهم منها جملة. يولون وجوههم شطر الدير وكأنهم يسيرون إلى القبر.

ولشد ما كانت دهشة الرهبان عند ما قرع بابهم في ليلة من الليالي رجل برهن لهم على أنه من سكان المدينة: وكان هذا الرجل أكثر الناس ارتكاباً للإثم وحبا للحياة. وقبل أن يصلي أو يرجو رئيس الدير أن يباركه طلب طعاما ونبيذا.

فلما سألوه عن سبب قدومه من المدينة إلى الصحراء قص عليهم قصة طويلة: خرج يطلب الصيد ومعه شراب كثير فضل الطريق، وعند ما أشاروا اليه أن الواجب عليه أن يمسي راهباً أجابهم في ابتسام: (لست لكم بصاحب!)

شرب واكل ملء بطنه، ثم رفع بصره إلى الرهبان الذين يقومون بخدمته وهز رأسه لائماً وقال:

(إنكم معشر الرهبان لا تعملون شيئا، كل ما تعنون به هو طعامكم وشرابكم، هل هذه هي الطريقة لخلاص أرواحكم؟ فكروا الآن! بينما أنتم تعيشون في هدوء هنا، تأكلون وتشربون وتحلمون بالخيرات والبركات إذا بإخوانكم هناك قد كتب عليهم عذاب الجحيم، انظروا ما الذي يحدث في المدينة! بينما بعض الناس يموتون جوعا، إذا بالآخرين لا يعرفون أين يبذرون الذهب، ينغمسون في الدعارة ويهلكون فيها كما يهلك الذباب في العسل، ثم لا صدق ولا إخلاص بين الناس. من الذي يجب عليه انتشالهم مما هم فيه؟ أأنا الذي أروح صريع الكأس من الصباح إلى المساء؟ هل أنعم الله عليكم بالخلاص، ومنَّ عليكم الحب، وحباكم بالقلوب الرحيمة، لتجلسوا هنا بين هذه الجدران الأربعة ولا تعملون شيئا؟!).

ومع أن كلام الرجل السكير كان ينطوي على الجرأة والقحة فقد أثر تأثيراً غريبا في رئيس الدير فنظر هو والرهبان بعضهم إلى بعض ثم قال رئيسهم بوجه شاحب (إخواني انه محق. فصحيح أن الحماقة والضعف البشري جرفا الإنسانية التعيسة في تيار الجحود والإثم فأهلكاها وقضيا عليها. وها نحن أولاء لا نريم من هذا المكان كأن لا عمل لنا ولا واجب علينا. لماذا لا أذهب إليهم فاذكرهم بالمسيح الذي نسوه؟).

نالت كلمات رجل المدينة من نفس رئيس الدير، ففي اليوم التالي أمسك بعكازه وودع إخوانه، وركب الطريق إلى المدينة، فأمسى الرهبان لا ينعمون بموسيقاه ولا بحلو حديثه ولا برائع قريضه.

ترقبوه شهراً ثم شهرين فما عاد، وأخيرا في نهاية الشهر الثالث سمعوا نقر عصاه المألوف فخف الرهبان لملاقاته وأمطروه بالأسئلة، ولكنه بدلا من مشاركتهم في حبورهم بكى بكاء مراً وما نبس ببنت شفة. رأى الرهبان أنه أصبح نحيلاً وأن أعراض الكبر قد بدت على ملامح وجهه.

فما تمالك الرهبان وقد رأوا منه ذلك أن أجهشوا بالبكاء وسألوه عما يبكيه، فما أجابهم بكلمة وغادرهم موصدا عليه بابه ومكث في صومعته. لبث فيها خمسة أيام ما شرب فيها شرابا ولا طعم طعاما ولا عزف على الأرغن. ولما طرق الرهبان عليه بابه وألحوا عليه في الخروج ليشاركوه في أساه كان جوابه الصمت العميق.

خرج من معتكفه أخيرا وجمع حوله الرهبان وأخذ يقص عليهم ما حدث له خلال الشهور الثلاثة التي خلت والدمع ينضح وجهه والألم يأكل قلبه، ثم هدأت نفسه وتهللت أساريره حينما أخذ يصف لهم رحلته من الدير إلى المدينة. غنى الطير وخر الجدول على جوانب الطريق، وجاش صدره بالأماني الحلوة والآمال المعسولة. شعر بانه جندي يتهيأ لاقتحام الموقعة والوصول إلى النصر المحقق. سار حالما يقرض القصيد ويصوغ النشيد، وسرعان ما وجد نفسه في نهاية الرحلة. على أن عيونه أومضت باللهب، ونفسه جاشت بالغضب، وصوته ارتعش عندما بدأ يحدثهم عن المدينة والإنسانية. ما كان رأى ولا تخيل قبل اليوم كل ما رآه وأحصاه في قلب المدينة. رأى وفهم لأول مرة في حياته سلطان إبليس وسيادة الجور وضعف القلب الإنساني الخاوي. هنا خمسون أو ستون رجلا جيوبهم مترعة بالمال يقصفون ويشربون النبيذ دون حد. أخذوا وقد

تملكتهم نشوة الراح يرفعون عقائرهم بالغناء الساقط، وينوهون في شجاعة بأشياء جارحة لا يجرؤ إنسان يخاف الله جل سلطانه أن
يشير اليها. فهم أحرار سعداء شجعان لا يخافون الله ولا يخشون الجحيم ولا يهابون الموت. يقولون ويفعلون ما يشاءون، ويذهبون إلى حيث تسوقهم رغباتهم الجامحة.
اما النبيذ فصاف صفاء الكهرمان! وهو أيضا ذكي الرائحة لذيذ الطعم، لأن كل من يعب منه يطفح وجهه بالبشر ويرغب في الشراب ثانية. وهو يجزى على ابتسام بابتسام، ويتهلل غبطة كأنه يعرف أي ضلال جهنمي يختبئ تحت حلاوته.
غلى مرجل غضبه، وبكى أحر البكاء وأشجاه. ثم استطرد يقص عليهم ما رأى: (وقفت امرأة نصف عارية على منضدة وسط القاصفين، ويصعب عليكم أن تتصوروا شيئا اكثر فتنة وسحرا منها، صبى ناصر زاهر، وشعر طويل جثل، وعيون سوداء لامعة، مكتنزة محمرة، ثم سفاهة وجرأة وقحة. هذه البهيمة تبتسم فتفترعن عن أسنان بيضاء كالبرد كأنها تقول: (انظروا إني جميلة، ومستهترة. . . .) وتتدلى من عاتقها الملابس الحريرية البديعة المشجرة. على أن جمالها لا تخبئه ملابس، لأنه بشره يفسح لنفسه الطريق بين طيات ثوبها. . . . كأنه الأعشاب الصغيرة وهي تشق لنفسها الطريق في الأرض زمن الربيع. وتشرب المرأة التي لا تستحي النبيذ، وتغني الأغاني، ثم تستسلم بعد ذلك للمعربدين. . . .).
لوح الرجل الكهل بذراعيه حانقا ثم استمر يصف لهم سباق الخيل، وصراع الثيران، والملاعب، وحوانيت الفنانين، حيث يعرض هيكل المرأة العارية مرسوما بالزيت أو منحوتا من الصلصال.
كان الرجل في حديثه لسِناً ملهماً جهوري الصوت حلو الجرس كأنه يعزف على آلة موسيقية لا تقع عليها العين. والرهبان ذاهلون عن أنفسهم غائبون عن رشدهم وقد أسرتهم كلماته وسحرهم بيانه، فهم يلهثون من فرط السرور. ولما فرغ من وصف إغواء إبليس وفتنة الفسوق وسحر المرأة لعن إبليس ثم غادر المكان واختفى وراء بابه.
فلما خرج من صومعته في صباح اليوم التالي لم يجد راهبا واحدا في الدير. فقد انطلقوا جميعاً مسرعين إلى المدينة!!
محمود البدوي
صديقها عشيقها
رواية مصرية عصرية في فصل واحد
للكاتب الروائي الأستاذ محمد خورشيد
أشخاص الرواية
فايد بك عمره 28 سنة. فتى راق وارث بيت مجيد وثروة واسعة
إحسان بك25 سنة. صديق فايد ذكي متهكم ماكر
مختار بك60 سنة. أعزب. صديق حكمت الصدوق
حكمت هانم27 سنة. أرملة رجب باشا. فتاة راقية غنية
سميرة هانم25 سنة. صديقة حكمت من عهد الدراسة
خادم فايد بك. . . . . .
غرفة المكتب بمنزل فايد بك يصلها في الصدر ببهو المنزل، وإلى اليسار باب آخر يفضي إلى باقي الغرف. إلى اليمين مكتب فاخر ومكتبة زاخرة بالكتب المجلدة تجليدا ثمينا، وأمامهما كنبة لثلاثة، وأمام هذه الكنبة منضدة عليها صندوق سجاير ومنفضة من الفضة، وحولها كراسي، جميع القطع من خشب (الموجنة) مكسوة بالقطيفة الحمراء. وفي وسط الغرفة سجادة، والطابع العام الأناقة واجتناب الكظة وحسن الجمع بين الألوان.
الوقت عصر.
المنظر الأول
يرفع الستار عن مختار وإحسان واقفين في جهة اليمين بين الكراسي وفايد واقفا (جهة اليسار قريبا من باب مفتوح قد وقف بعتبته خادم).
فايد: (يخاطب الخادم) ضع الملابس التي ذكرتها لك في الصندوق، ولما تصل إلى الأشياء الصغيرة: أربطة الرقبة والمناديل وما يشابهها، اخبرني لأجيء واختار منها ما

أريد.
الخادم: سمعا وطاعة سيدي. (يخرج ويغلق الباب خلفه).
فايد: (وقد ذهب إلى حيث إحسان ومختار) أهلا مختار بك! مساء الخير! مساء الخير يا إحسان! تفضلا.
(يردان تحيته ثم يجلس ثلاثتهم. يقدم فايد صندوق السجاير فيأخذ كل منهما سيجارة ويشعلها، ويأخذ هو سيجارة لنفسه ويشعلها.)
(يبدأ مختار الحديث فيقول:)
مختار: أخبرني إحسان بك أنك ستسافر هذا المساء إلى استامبول، فاستغربت، أولا لأنك كنت قد قررت إلا تسافر هذه السنة، وثانيا لأن فصل الصيف أوشك أن ينتهي. نحن الآن في أواخر شهر يوليه، خير إن شاء الله! ما الداعي للسفر بغتة؟
فايد: شعوري بضعف، وحاجتي إلى تبديل الهواء.
إحسان: لا ضعف هناك ولا خلافه. لابد أن هناك سبب تخفيه وأظنني أدركته.
فايد: (ينظر إلى إحسان نظرة عتاب ويقول:)
قد يعتقد مختار بك الآن ان لسفري سببا أخفيه، مع أن الحقيقة هي ما ذكرت. نعم كنت قررت إلا أسافر هذا العام، ولكن حر الصيف فوق المألوف فأضعفني وشعرت بضرورة الفرار منه، لذلك عزمت على السفر إلى استامبول لأمكث بها شهري أغسطس وسبتمبر، ثم أعود في أوائل أكتوبر حين يصبح جو القاهرة محتملا. وقد حجزت لي محلا بالباخرة التركية التي ستبرح الإسكندرية غدا. . .
مختار: ومنعك استعدادك للسفر عن الحضور ليلة أمس لقضاء السهرة بمنزل حكمت هانم، فسألتني عنك فأجبتها انك لابد حاضر، ولكنك كذبتني ولم تحضر.
فايد: أرجو المعذرة، كنت عازما على الحضور ولكن خانني الوقت. فلم أكد أفرغ من ترتيب أموري مع الكاتب والخدم أثناء غيابي عنكم حتى كان الليل قد انتصف.
مختار: كنت أظنك مغتبطا بصداقة حكمت هانم التي رحبت بك وخصتك بكثير من عطفها، وكانت دائما تدعوك إلى سهراتها البديعة البهيجة. كنت أظنك مثلي قد بلغ بك الإخلاص في الود إلى درجة لا تستطيع معها فراقها، ولكن يظهر أن قلبك لم يقدر صداقتها كما يقدرها قلبي، لذلك سمح لك أن تسافر وتحرم رؤيتها شهورا عدة، بينما لا يمكن لقلبي أن يسمح لي أن احرم منها يوما واحدا. ولكن لا بأس في ذلك، فلكل منا ميله وشعوره، وكل ما ألومك عليه أنك لم تحضر عندها ليلة أمس ولم تستأذن منها في السفر. لا تؤاخذني يا فايد بك. أنا الذي عرفتك بها وقدمتك اليها كولدي العزيز وأنت تعلم مكانتها عندي.
فايد: إني آسف اشد الأسف لأني لم أتمكن من الذهاب اليها ليلة أمس وتوديعها وشكرها
على ما غمرتني به من عطف، وسأمر اليوم في طريقي إلى المحطة وأترك لها بطاقة اذكر فيها أسفي وشكري ووداعي.
مختار: هذا حسن، ولكن الأحسن منه أن تذهب اليها بعد نصف ساعة. لأنها ستنتظرني للشاي في الساعة الخامسة والنصف والسعة الآن الخامسة: فتعال بعد نصف ساعة نشرب الشاي معها ثم تستأذنها في السفر وتنصرف. لديك من الوقت متسع، فان القطار الذي سيقلك إلى الإسكندرية يتحرك في تمام الساعة السابعة.
فايد: أسفي لا يقدر! لأني في انتظار من لابد لي من مقابلتهم قبل سفري. أرجو أن تشرح لها عذري، وان تحتفظ لي بصداقتها التي لها عندي أرفع منزلة. وإن وجدت بعد عودتي أن مكانتي عندها لم تتغير، أعدك إني حينئذ أبذل قصارى جهدي لأكسب عطفها ورضاها.
مختار: ليكن، سأجتهد في فعل ما تريد.
إحسان: تصريحك يا مختار بك بأن لابد لك أن تراها كل يوم يبرهن على أن لصداقتها مكانة رفيعة عندك.
مختار: صداقتها هي غاية حياتي، هي قوتي، هي هنائي. نتقابل كل يوم اما للغداء أو للشاي. هذا إذا لم أقض سهرتي في مجلسها السعيد.
إحسان: أقديمة معرفتك بها؟
مختار: عرفتها منذ خمسة أعوام عندما تزوج منها صديقي المرحوم رجب باشا،

فاستولت على قلبي بصراحتها وسامي عواطفها. فلما توفي الباشا زوجها شاركتها في أحزانها، وبذلت جهدي في التخفيف من آلامها. ودأبت على خدمتها في خضوع وإخلاص حتى اتخذتني صديقا لها وكشفت لي عن قلبها فرأيت العفة والكمال والطيبة وحسن الخصال والعطف والحنان، والآن مضى على عامان وأنا سعيد بصداقتها واثق من إخلاصها ووفائها.

إحسان: إلا ترغب هي في الزواج؟

مختار: كلا. وقد صرحت لي انها ستبقى وفية لذكرى من أحبته وأحبها ولن يكون لها زوج غيره.

إحسان: إذن لابد لها من عشيق تهواه.

مختار: ما هذا الكلام؟! حكمت هانم يكون لها عشيق؟! هي مثال العفة والفضيلة؟!. . .

إحسان: لكنها يا بك في عنفوان الشباب وكمال الصحة. وللحب على الشباب نفوذ، كما أن للطبيعة على الصحة سلطانا.

مختار: الصداقة عندها قهرت الحب، والعفة تغلبت على الطبيعة.

فايد: إحسان يجهل قوة الصداقة وسلطانها على القلوب. أنه فتى مادي، فلا تتعب نفسك معه.

إحسان: على كل حال لا يستطيع مختار بك أن ينكر انها ذات دلال. وإني وإن لم أكن من أخصائها لي بها معرفة، وقد سبق أن زرتها ورأيت بعيني دلالها.

مختار: لا أنكر انها ذات دلال، ولكن دلالها حلو: دلال كله طيبة، دلال خلا من المكر والخداع. دلال النساء قوامه الدهاء عادة، دلال يخفي أغراضاً مقصودة، دلال أثيم، دلال مصطنع؛ اما دلال حكمت هانم فقوامه الصراحة، لا غرض له سوى ملاطفة الأخصاء. دلال بريء، دلال طبيعي. خلقت ذات دلال فلا يجوز لإنسان أن يلومها على دلالها، كما لا يجوز له أن يلوم وردة على عطرها.

إحسان: أن إعجابك بها لا حد له، لكن أصغ لي. كل فتاة في مثل جمالها ودلالها لابد أن يكون لها عشاق كثيرون، فكيف تعتقد انها بغير عاشق؟.

مختار: قد يكون لها عشاق، لكني واثق من انها لم تعشق أحداً منهم. الا تعلم يا إحسان بك أن ذوات الدلال لا يفرطن في عفتهن مطلقا. وأن كل واحدة منهن تسعى بدلالها وراء غرض واحد، هو أن تحوز الإعجاب وتستثير الرغبة. لذلك لا تجود حتى بقبلة واحدة لتبقى دائما موضع الإعجاب ومثار الرغبة.

إحسان: نظريتك غريبة أتحرم نفسها الحب لتبقى مرغوبا فيها؟

مختار: شاءت المقادير أن تتكلم ذوات الدلال على عتبة الحب والباب المغلق!

إحسان: وان فتح الباب؟

مختار: لا يفتح لهن أبدا!

إحسان: لنفرض انه فتح

مختار: تكون معجزة

إحسان: فلتكن. ألا تعلم يا مختار بك أن الحب قادر على هذه المعجزة؟ الحب هو الذي يشفيها من الدلال.

مختار: سبحان الله يا إحسان بك! قلتلك إنها لا تحب ولن تحب، وستبقى وفية لذكرى زوجها الذي أحبته، إني أكثر علما بها وبعواطفها منك ومن كل الناس. لقد استعاضت عن الحب بالصداقة، ووجدت خلا وفيا وصديقا صدوقا. يا للساعات السعيدة التي نقضيها معاً!! ساعات تتجلى فيها الصداقة بأعلى واجمل معانيها. ذكاؤها وسرعة خاطرها لا يعادلان جمالها ودلالها، حديثها ينم عن طيبة قلبها ووفائها، ولصوتها رنات عذبة هي أشبه بنغمات روحانية تبعث الأمل في الفؤاد. إذا تحاورنا تتم فكرتي بنفس الألفاظ التي تحوم حول شفتي، أو تجيبني بما يولد في نفسي طائفة من الأفكار الطريفة. نصف كلمة منها تنبئني أكثر من جملة من غيرها، لأننا تعودنا أن نفكر معا. تعلم كل ما يجيش بصدري من شعور. وأدرك كل ما يتخلل نفسها من إرادة. نحن مخلوقان يتمم كل منا الأخر.

إحسان: لا نزاع في ذلك. صداقتكما لا ينكرها إلا مكابر.

فايد: ولا نزاع في أن الصداقة عاطفة اثبت من الحب، لأنها ترتكز على أنقى ما في النفس على الجزء الروحاني منها.

مختار: (وقد نظر إلى ساعته): أزف الوقت. اسمح لي يا فايد بك. أريد أن اذهب إلى مكتبة سكر لاشتري كتابا طلبته مني حكمت هانم ثم آخذه معي اليها. سأحضر إلى المحطة هذا المساء لوداعك.
فايد: (وهو يشيعه إلى الباب). لا تكلف نفسك. أرجوك
مختار: لا. . . . هذا واجب.
إحسان: (وقد لحق بمختار ومد له يده). إلى الملتقى
مختار: (وقد اخذ يده) إلى الملتقى.
ثم يحيي إحسان قائلا: إلى هذا المساء. . . (يخرج))
المنظر الثاني
فايد، إحسان
إحسان: يا له من غبي! غبي تماما سابح في خياله، غارق في أحلامه
فايد: ما لك وما له؟ دعه في اعتقاده. صداقة حكمت هي نبراس حياته. في سنه تلعب الصداقة دورا هاما.
إحسان: دورا يعمي! النهاية، دعنا منه. . بلغني انك غاضبتها. أصحيح؟
فايد: غاضبت من؟
إحسان: غاضبت الحبيبة المحبوبة، غاضبت حكمت هانم.
فايد: كيف علمت ذلك؟
إحسان: كل القاهرة تعلم ذلك. كل القاهرة إلا واحدا. . . سعادته. (وهو يشير إلى الباب الذي خرج منه مختار)
فايد: كل القاهرة؟ اشكرها على اهتمامها بشأني. آه! فهمت الآن لماذا أتيت. جئت تدرس نفسي لترى وقع الألم عليها. لكن يا عزيزي، صدقني إني لا أتألم. لا أتألم الآن. ربما تألمت غدا. وربما بعد ساعة، لكن الآن لا اشعر بأقل ألم. بلغ ذلك من فضلك كل القاهرة.
إحسان: يصل. . .!
فايد: بل إني أشعر بسعادة. نعم إني لسعيد الآن. حريتي ردت إلى. أصبحت طليقا اذهب حيث أشاء متى أشاء ومع من أشاء. أصبحت غير مضطر إلى تقديم بيان عن جميع حركاتي وسكناتي يوما بعد يوم وساعة بعد ساعة غير مقيد بموعد لا يمكنني أن اخلفه ولا أن أتأخر عنه، لا. . . لا. . . كنت مستعبدا. . .!
إحسان: ضعفك أمامها هو الذي مهد لها سبيل التسلط عليك، أين ذهبت قوة إرادتك؟
فايد: ألمن يحب قوة ارادة؟ لابد انك أحببت يا إحسان وتعلم. . .
إحسان: أحببت مرة واحدة. كنت في الخامسة عشرة من عمري. والتي أحببتها كانت خادمة في بيتنا تدعى خضرة. عيناها الناعستان سحرتا فؤادي. خصرها النحيل أطار لبي، فأصبحت طوع أمرها، تسلطت علي ففقدت إرادتي. صدقت يا فايد! يستحيل على من أحب ان يعصي لحبيبته أمراً. لكني كنت في دور المراهقة، ومنذ أصبحت رجلا لم أحب مطلقا.
فايد: ذلك من حسن حظك.
إحسان: ربما! لكني على كل حال لست فارغا للحب. . . مثلك. إني اهتم كثيرا بالعلوم والفنون الجميلة.
فايد: الحب علم وفن وله فائدته وجماله.
إحسان: أبداً لا فائدة من الحب ولا جمال، اللهم إلا إذا اعتبرت الألم فائدة والمنكر جمالاً.
فايد: وماذا يدري عن الحب من تنحصر معرفته به في حبه لخادمة؟ مسكين يا إحسان! لم تحب فتاة راقية. لم تحب على الأخص فتاة تبادلك الحب. وإلا لعرفت أن الحب هو هبة النفس كلها. . . كلها. . . بلا ترو ولا تبصر. هو اندماج تام لنفسين. هو ائتلاف كامل لقلبين. هو صلة بديعة عذبة تمزج بين روحين وتشرق عليهما لا يفصلهما شيء مطلقا.
إحسان: كيف؟ والشرائع والعادات؟
فايد: الحب يثور على كل شيء. ينسف كل شيء كما يغفر كل شيء.
إحسان: والضمير والواجب؟

فايد: من أحب لا يعقل
إحسان: هذه فوضى.
فايد: هذا هو الحب (يدخل الخادم من الباب الذي إلى اليسار قائلا:)
الخادم: وضعت الملابس جميعها. ليتفضل سيدي فيختار أربطة الرقبة والمناديل ما شاء.
فايد: انتظرني من فضلك يا إحسان. سأعود اليك بعد قليل
إحسان: وهو كذلك.
(يخرج فايد من الباب الذي إلى اليسار ويتبعه الخادم)
العالم المسرحي والسينمائي
فلم (الوردة البيضاء)
لناقد (الرسالة) الفني
- 2 -
أفضنا في الأسبوع الماضي في الحديث عن موسيقى عبد الوهاب في فلمه الأول (الوردة البيضاء) لأنها العماد القوي الذي رفع هذا الصرح الشامخ عاليا وأناله هذه المكانة الرفيعة من النجاح والتقدير. وهذه الألوف التي تزاحمت لمشاهدة الفلم انما جذبتها موسيقى عبد الوهاب وألحانه القوية الفياضة التي يصوغها من روحه فتخرج ملؤها الحياة، تعمر جوانبها، وتفيض في نواحيها، وكأن عبد الوهاب يضع فيها من نفسه ومن حاسته، ويفرض عليك عند سماعها ألوانا شتى من العواطف والاحساسات لا قبل لك بدفعها أو الفرار منها، وانك لتسمع الحان هذا الشاب بقلبك وجوانحك قبل أن تسمعها بأذنك.
شغلتنا موسيقى عبد الوهاب إذن عن الحديث في النواحي الأخرى من الفلم، وما ينبغي أن نغمط الممثلين الأكفاء الذين اشتركوا في تمثيل هذا الفلم ما أبدوه من الكفاية في أدوارهم جميعا. ونبدأ بالأستاذ محمد عبد القدوس (خليل أفندي) وكيل الدائرة، فقد كان الممثل الكامل، وليس للناقد عليه من سبيل، إذ أدى دوره على أحسن ما يكون، في بساطة وسهولة ويسر، وفي كثير من الدقة والأمانة للشخصية التي يمثلها، وهو ما اشتهر به عبد القدوس في تمثيله السهل الممتنع. وعبد القدوس لا يمثل، ولكنه يعيش الدور الذي يقوم به. وهذا هو المثل الأعلى لفن التمثيل.
والأستاذ سليمان نجيب في دور (إسماعيل بك) والد رجاء كان كثير التوفيق في مشاهده المختلفة، غير أن نزعته المسرحية كانت تبدو واضحة في حركاته وإشاراته وحديثه. ولو حاول قليلا أن يتخلص منها لما كان ما نأخذه عليه. ويبدأ سليمان جملته قوية، في صوت مرتفع واضح، وما يزال يخافت بها حتى يتلاشى صوته في النهاية فلا نسمع الكلمات الأخيرة التي تخرج أشبه ما تكون بالهمس أو المناجاة. وهذا العيب لا يغتفر في المسرح فمن باب أولى في السينما. على أن مظهر سليمان نجيب بقامته المديدة، وطلعته الوضاحة،
وأناقته المعروفة، مما يكسبه دائما طابعا خاصا يجعله بارزا، ويكسب الشخصية التي يمثلها اهمية خاصة، ويحيطها بجو ملائم لها مما من الترف والنعيم. وسليمان يعد بحق في مرتبة الممثلين المجيدين بين الهواة والمحترفين على السواء. وكم كنت أود أن أراه في موقفه من جلال عندما يطلب منه قطع علاقاته بابنته رجاء، خيرا مما رأيته، وقد كان ذلك في وسعه.
وشخصية (شفيق بك) التي مثلها الأستاذ زكي رستم مضطربة بعض الشيء، وأنت لا تستطيع أن تفهمها من سياق القصة تمام الفهم، ويبدو التناقض في تصرفات هذا الشخص وفي أعماله طول الرواية، وتستطيع أن تقول عن شفيق بك انه رجل لا طعم له ولا لون، وهذه الشخصيات التي لا تجد لها معالم أساسية واضحة من الصعب أن تحاسب الممثل على أدائها حسابا دقيقا. على أن زكي رستم استطاع بجهده انه ينقذ بعض المشاهد. وليس الذنب ذنب الممثل إذا كان المؤلف لم يخرج الشخصية واضحة محدودة المعالم والمظاهر.
وقد أدى الأستاذ توفيق المردنلي دوره (ناظر العزبة) بتوفيق يغبط عليه، وكان فيه طبيعيا لا تلمح في مشاهده أثراً للتكلف، بل كان صورة صادقة للفلاح المصري الطيب القلب السليم الفطرة الصادق في خدمه مولاه، وبرغم قلة مشاهده استطاع أن يبرز

شخصيته ويجعل منها مكانة واضحة.
مثلت الآنسة سميرة خلوصي دور (رجاء) وهي المرة الأولى للآنسة التي تظهر فيها على الشاشة، كما أنه لم يسبق لها مران على مهنة التمثيل، وإنها ولا شك خطوة جريئة أن تمثل دورا له هذه الأهمية في الفلم، ولا يكاد يخلو منه مشهد من مشاهده. ولذلك كان التقصير الذي يبدو من الآنسة انما يلام عليه المخرج، وهو في هذه الحالة المسئول الأول عن رجاء، لأنه هنا يعمل في عجينة لدنة يشكلها كيف شاء، ويدربها جهد ما تستطيعه مقدرته، وما تتحمله موهبتها واستعدادها. وقد استطاعت الآنسة سميرة أن تجتاز بعض مشاهد الفلم موفقة، كما بدت في مشاهد اخرى كالطفل الخائف الذي ينفذ أوامر بنصها خوفا من (العلقة) التي تنتظره إذا حاد عن هذه الأوامر قيد شعرة. ولذلك كانت تبدو حركاتها أحياناً وفيها بعض التكلف، وتحس باضطرابها تحت نظرات المخرج الواقف لها بالمرصاد في احدى الزوايا. وبرغم كل هذا نستطيع أن نقول انها نجحت في دورها ووفقت في اداء بعض
مشاهده توفيقا كبيرا. وفي صوت الآنسة رنة مستحبة، عذبة الوقع في الأذن، ساعدتها كثيرا على أن تجد لها مكانا رفيعا في قلوب النظارة، فكسبت بذلك عطفهم وإعجابهم، وبين الاثنين خطوة قصيرة المدى، وأريد أن أهنئها على ذوقها السليم في اختيار ملابسها التي ظهرت بها في الفلم: كلها أنيقة بديعة التنسيق تناسب جسمها وتلائمه.
قامت السيدة دولت بدور زوجة إسماعيل بك والد رجاء. وكان من سوء الحظ ان بدت ممتلئة الجسم إلى درجة كبيرة أضاعت عليها كثيرا من رشاقتها المعروفة، ولم يبذل المخرج جهدا في ملافاة هذا العيب. والسيدة دولت ممثلة معروفة، فلست بحاجة إلى الإفاضة في هذه الناحية، غير إني آخذ عليها أنها أسفت بشخصيتها كثيرا في المشهد الذي تشتم فيه (رجاء) فقد أتت فيه من الحركات ما لا يتفق والاحترام الذي نحمله لشخصية الدور، وما لا ترتجله سيدات الطبقة الراقية مهما كانت الظروف.
ولا أنسى الأستاذ ادمون تويما في مشهده القصير الذي قام فيه بتمثيل دور المستأجر الأصم، فقد كان من مشاهد الفلم الموفقة. أخطاء الإخراج كثيرة في الفلم، وعلى الأستاذ محمد كريم أن يتقبل نصيبه من اللوم بشجاعة وسعة صدر، فلا يزال إلى اليوم في خطاه الأولى، ونرجو له إذا تفرغ لدراسة هذا الفن، فن الإخراج السينمائي بنواحيه المختلفة وأبوابه المتعددة، أن يكون في المستقبل أكثر توفيقا وإلماما بعمله.
أول ما آخذه على المخرج أن مشاهد (جلال) وخصوصاً الغنائية منها لم تظهر في المستوى الفني الذي كان يجب أن تظهر فيه، وقد حد بذلك من حرية عبد الوهاب ولم يهيئ لبعض أغانيه الجو الذي يلائمها فيزيدها جلالاً وسحراً ويضاعف تأثيرها في النفوس، وشتان بين المشهد الختامي والمشهد الذي يغني فيه عبد الوهاب (جفنه علم الغزل) وبين مشاهد (يا وردة الحب) و (سبع سواقي) ومشهدي التخت.
وقطعة النيل كان في مقدور المخرج النابه أن يستفيد مما فيها من حركة وحوار ووصف، وكان يمكنه أن يخرج منها مشهداً رائعاً. فالنيل في ضوء القمر على مقربة من الأهرام، وبعض المراكب الشراعية تسير على مهل، ورجاء وجلال في قارب منها، وفي خلوة رقيقة بين أحضان الطبيعة، هذا وأنغام اللحن الشجي تنساب في مثل رقة النسيم وخرير الماء؛ فأية روعة كانت تكون لهذه القطعة؟ ولكن المخرج حبس جلالاً بين اربعة جدران
وهو يغني أنشودته الجميلة، ولم يحاول حتى أن يستفيد من وجود (رجاء) في الغرفة المجاورة، فقد كان في وسعه أن يتنقل بين الغرفتين، فنرى جلالاً يغني، ثم نرى (رجاء) مأخوذة بسحر صوته، وتبين على وجهها ملامح الانفعال والنشوة والطرب، مما يكسب القطعة حياة. وأي فارق بين هذا المشهد كما أخرجه كريم وبين أن نسمع هذا اللحن من الحاكي؟!
وفي مشهد (يا وردة الحب) اضطر عبد الوهاب أن يقف ويدور، ويجلس تارة على الكرسي، وتارة على المنضدة. وأن يتكلف في الجملة كثيراً من الإشارات والحركات حتى ينتهي من اللحن، كما أن إنشاده لقطعة (سبع سواقي) في مكتب العمل لم يكن طبيعيا مطلقا، وكان يمكن أن يهيأ الجو المناسب للقطعتين.
وإني لأعنى اكبر عناية بمشاهد الغناء في الفلم لانها الأساس فيه. ولذلك أطلت الحديث عنها عامدا. وكنت أود أن تكون عناية الأستاذ كريم بها اكبر، وتوفيقه في

إبرازها أقوى واظهر. وقد كانت ميداناً صالحاً لإبراز الكفاية والموهبة والذوق الفني للمخرج.

ومما يعاب على الفلم القفزات التي فيه من ناحية الحوادث، والتي لم يمهد لها المخرج تمهيدا كافيا، ثم بساطة الإخراج في مجموعه مما يجعله اقرب إلى تسجيل الحوادث على طريقة مخبري الجرائد اليومية منه إلى الإبراز الفني الصحيح الذي يطبع الرواية بطابعه، ويجعل لها قيمة فنية تكسبها ذاتية خاصة. وكان في الوسع الاستغناء عن بعض مشاهد الفلم واختزال البعض الأخر. وكان يفيد ذلك في اضافة مشاهد جديدة تستقيم بها الحادثة، أو إطالة بعض المشاهد الموجودة التي تبدو كأنها مبتورة.

ومن المشاهد التي ضاعت تماما وكان يمكن أن تكون من المشاهد الفنية القوية التي لا ينساها المتفرج ابدا، مشهد إسماعيل بك عند زيارته لجلال يطلب منه كوالد قطع صلاته برجاء.

ولست أدري كيف غابت أهمية هذا المشهد عن المخرج، مع انه يكاد يكون أهم مشاهد الرواية، وهو نقطة التحول فيها. كان مشهدا فاتراً عليه مسحة التكلف وقد يكتفي مخرج نابه قدير بخلق موقف كهذا في سياق القصة ليبني عليه مجده وشهرته، وليضفي عليه من فنه حياة وقوة، لما فيه من أهمية الحادث وصراع العوامل المختلفة، مما يجد فيه المخرج
مجالاً لإبراز كفايته.

وكان يستطيع المخرج بفنه وبما يظهره في ثنايا المشهد من العراك القوي العنيف بين إسماعيل بك وجلال وما ينتاب كلا منهما من مختلف عوامل النفس، وشتى الانفعالات، واضطراب جلال وألمه الدفين، وقسوة إسماعيل بك وإلحاحه إلى غير ذلك من المواقف التمثيلية التي يخلقها المخرج، كان يستطيع بذلك أن يقوي نقطة الضعف في الرواية من قبول جلال للتضحية دون مسوغ أو مبرر، بل كان يمحوها محوا، ويخلق الرواية خلقا جديدا.

ولم يلاحظ المخرج التلاؤم بين الأضواء والأشخاص في بعض مناظر الفلم، كما فاته أن يلائم بين ملابس الممثلين وألوان المنظر والأثاث، كما أن ساعات الليل والنهار امتزجت امتزاجا كبيرا بحيث كان يصعب علينا أحياناً أن نحددها: فترى مثلا ضوء النهار، ثم مصباحا كهربائيا منارا في نفس الوقت.

وقس على ذلك كثيرا من الأخطاء المنثورة هنا وهناك، على أن هذا الفلم يعد خيرا من فلمي (زينب) و (أولاد الذوات) اللذين إخرجهما كريم من قبل فلنهنئه إذن.

الحركة المسرحية والسينمائية في الخارج

فينا

يعد ماكس رينهاردت من اشهر رجال المسرح في العالم اليوم، وقد عرف بنظرياته الحديثة في الفن والإخراج المسرحي. ووضع احد كبار النقاد كتابا عن فنه ومسرحه يقع في عدة اجزاء، ويعتبر من اهم المراجع في الفن المسرحي الحديث. وكان لرينهاردت مسرحه الخاص في ألمانيا وإلى جانبه مدرسته لتلقى أصول الفنون الجميلة، وشهرتها معروفة في العام اجمع، وقد اضطر إلى هجر عمله في ألمانيا عقب قيام الحركة الهتلرية الأخيرة التي ناصبت اليهود العداء.

ورينهاردت يهودي، وهو يقيم الآن في فينا وسيبرحها قريبا إلى باريس للإشراف على إخراج احدى المسرحيات المعروفة. ثم يقصد استكهلم فكوبنهاجن، وسيخرج في كل من المدينتين بعض الروايات المسرحية. وفي مارس القادم سيرجع إلى فينا للعمل في احد مسارحها الكبرى ثم يبرحها إلى أمريكا في رحلة يطوف فيها اشهر مدنها. وقد أرسل اليه السنيور موسوليني ليتفق معه على ان يتولى إخراج رواية (المائة يوم) في أمريكا. وهي الرواية التي كتبها السنيور موسوليني عن نابليون وظهرت في جميع عواصم أوروبا في الشتاء الماضي وتدور المفاوضات مع رينهاردت، على أن يتولى إخراج رواية (المحراث والنجوم) للكاتب المعروف سان أوكنزي في كوبنهاجن في موسم الشتاء الحالي.

ميلان

وضع رينالتو ليللي من الكتاب المعروفين في إيطاليا درامه غنائية، تدور حوادثها حول حياة ريشارد وجنر الموسيقار الشهير. وقد اقتبس لها كثيرا من الحان وجنر في أوبراته

المعروفة.
دون كيشوت
تعد قصة (دون كيشوت) لسرفانتس الكاتب الأسباني الشهير من احسن القطع الأدبية المعروفة، ولها شهرتها ومكانتها في العالم اجمع، وقد ترجمت إلى جميع اللغات وأخرجت في العام الماضي على الستار الفضي، ومثل فيها شاليابين المغني الروسي الشهير (دون كيشوت) وعمل من الفلم عدة نسخ بلغات مختلفة. ولقي نجاحا كبيرا عند عرضه في عواصم أوربا، غير ان النقاد في لندن اختلفوا في الحكم عليه، فناقد السنداي اكسبريس يرى ان الفلم ليست له قيمة فنية. ويقول سيدني كارول من النقاد المعروفين في سنداي تيمس انه ممل، وان المخرج فشل في اخراجه، بينما يعده ناقد نيوز كرونكل من احسن الأفلام العظيمة التي أخرجت على الشاشة. وقال بعض النقاد ان هذه القصة لا تصلح للعرض على الشاشة، لان قوتها وبلاغتها في اسلوب الكاتب وفي دقة وصفه، وهو ما لا تستطيع السينما ان تنجح في إخراجه.
لندن
تعمل الآن على مسرح (دوق أوف يورك) فرقة من الممثلين الألمان اليهود من اللذين طردوا من ألمانيا عقب قيام حركة هتلر الأخيرة، وتعرض الفرقة اشهر روايات شيلر وزدرمان المؤلفين الألمانيين الشهيرين، وقد اهتم النقاد الإنجليز بالكتابة عن هذه الفرقة وعن رواياتها. ونالت حفلاتها كثيرا من النجاح.
هوليود
يخرج الآن في هوليود فلم بطله الهر هتلر رئيس الحكومة الألمانية وزعيم حزب النازي. وقد أطلق على الفلم اسم (كلب أوربا المجنون) ويمثل دور البطل فيه شخص لم يسبق ظهوره على الشاشة الفضية ويشبه الهر هتلر تمام الشبه.
الكتب
على هامش السيرة
تأليف الدكتور طه حسين
للدكتور محمد عوض محمد
إذا ذكرت كلمة (السيرة) في هذه الأقطار الفسيحة التي يظلها الإسلام، فإنها لن تنصرف إلا إلى معنى واحد، إلى سيرة واحدة: هي سيرة محمد بن عبد الله. . وهيهات أن يكون في الدهر كله سيرة أطيب نشرا وأعذب ذكراً من سيرة هذا النبي الأمي، الذي نشأ وسط الصحراء المقفرة المظلمة فلم يلبث أن ملأ العالم خصبا ونورا.
وإني إذ اجلس لأقول كلمتي الضعيفة في هذا الكتاب الذي بين يدي تعود إلى خاطري ذكرى عهد بعيد، حين كنت اطلب العلم في مدرسة المعلمين، وكنت اكثر من الاختلاف إلى دار الكتب المصرية؛ حيث اعتكف على مطالعة الأسفار التي لها صلة بسيرة هذا النبي الكريم. وكنت اكثر على الخصوص، من مطالعة ما كتبه المستشرقون عن الإسلام، وعن الرسول عليه السلام. فكنت أحياناً أجد ما يطفئ الغلة، وتبرق له الأسارير، وينشرح له الصدر. فانطلق إلى الدار راضيا، تملأ قلبي الغبطة والسرور. وأحياناً كنت (يا للأسف!) أقرأ ما يبعث في القلب حنقا وكمدا، فانصرف إلى منزلي حزينا كئيبا مكلوم الفؤاد. ولست ادري تماما ما الذي كان يجذبني إلى كتب المستشرقين في تلك السنين، مع انها كتبت في لغة غير لغتي، وكنت أجد في مطالعتها عسرا ومشقة. . . لعلي كنت اقبل عليها اذ يشوقني الإنصات إلى شهادة غير المسلمين بفضل الإسلام، لكني كنت ارجح الآن هناك سبباً آخر أدق وأخفى، وهو إني كنت التمس سيرة محمد بن عبد الله في تلك الكتب غير العربية لان ما كتب فيها (على علاته) سهل التناول، منسق الوضع، ولهذا لم تنته أيام دراستي في ذلك العهد حتى طالعت، مثلا، مؤلفات السيد أمير علي الإنكليزية ولم استطع أن اقرأ جزءاً واحداً من سيرة ابن هشام. وكان اكبر ما ينفرني من هذه الكتب القديمة ذلك الإكثار من الأسانيد، وإدخال الحديث في الحديث، بحيث يختلط الكلام على غير من تعود مطالعة هذه الأسفار.
ولقد شكوت إلى الأستاذ طه حسين إني بت مضطرا، قبل ان ابدي رأياً في كتابه الجديد، إلى مطالعة هذه الأسفار القديمة وإني ساعياً بكل هذه الأسانيد الطويلة

العريضة، وهذه الأخبار المتداخل بعضها في بعض. وما أظن دراستي القاصرة ستساعدني على تذوقها والاستمتاع بها.

فقال الأستاذ: إن ألذ شيء عندي في كل ما أطالع واقرأ هو هذه الأسانيد التي تنفر منها. وليس شيء احب إلي من أن أنصت إلى الخبر أو الحديث وأتتبعه من أول الرواية إلى أخرها.

فعجبت أولاً كيف يتسنى لإنسان ذي ذوق سليم أن تحلو له قراءة العنعنات التي لا تكاد تنتهي. لكني لم البث أن أفهمت أن المرء متى عرف الرواة جميعا وعلم من أمر كل منهم شيئاً، فان هذه الأسماء تصبح مجرد أسماء، بل أشخاصاً تعرفهم يتحدثون اليك، وتعلم أيهم تستطيع أن تركن إلى كلامه وروايته.

وبعد ان شرح لي الأستاذ هذا الأمر الذي أشكل علي، تبينت، أو على الأقل ثبت لدي ما كنت أتوهمه من أمره وما أكاد أثبته. ان ثقافة الدكتور طه حسين الحقيقية هي ثقافة أزهرية متينة قوية الأسس، ضخمة الدعائم، وطيدة الأركان. وان ليست ثقافته الغربية، التي نسمع عنها الشيء الكثير، إلا رواء وطلاء أن بهر العين منظره فانه لا يذهب إلى غور بعيد. وقديما قال نابليون في الروس: انك إذا حككت الروسي بدا لك التتري، وفي وسعنا أيضا ان نقول إذا حككت طه حسين، برفق، بدا لك الأزهري القح الصميم بكل ما تحمله هذه الكلمة من فضل وعلم.

وقد استطاع طه حسين (على غير عمد) ان يصرف الناس عن حقيقة أمره بحديثه عن اليونان والرومان والسكسون واللاتين، واثارته هذه الزوابع التي برع في إثارتها أثناء كلامه عن اشخاص مثل ديكارت وليبنتز وبودلير، وعن التجديد، وما أدراك ما التجديد. فلعل أصدقاء طه حسين ان يحمدوا للشخص الضعيف كاتب هذه السطور أن كشف لهم أمر صديقهم ما خفي طوال هذه السنين.

وبعد، فان بين يدي كتاباً ليس موضوعه جديداً على قراء هذه الصحيفة. فان الفصول الثلاثة الأولى قد ولدت مع الرسالة، وظهرت في إعدادها الأولى، واعرف ان الكثير من قرائها قد راقهم من الموضوع جدته وطرافته. ولست اشك في ان يهم شوقا للاستزادة من تلك الفصول. فها هو قد أتمها اربعة عشر فصلا، وما ظن، وما أرجو، أن سيقف بها عند هذا الحد.

ان كتب الدكتور طه حسين من صنفين: الأول كتب أدبية بحتة والثاني كتب في نقد الأدب وفي تاريخه. وهو نفسه ينعت هذين النوعين بالأدب الإنشائي والأدب الوصفي، ويمثل الأول كاتب مثل شكسبير، ويمثل الثاني كاتب مثل سنت بوف. وأولى بنا أن ندعو النوع الأول بالأدب؛ والثاني بالنقد والضرب الأول هو الأسمى والأشرف، وكثير من الناس يستطيع أن يستحسن أو يستهجن وأن يبحث ويقرر. أما الابتداع فلم يتح إلا لقليل من الناس. ولقد حاول سنت بوف أن يكون شاعرا فلم يأت بعظيم، فانقلب إلى النقد ولسان حاله يقول: من استطاع فليكتب، ومن لم يستطع فلينتقد!

في هذه العبارات شيء من التحامل على الناقدين، وقد أوردناها على هذه الصورة عمدا لأننا نريد أن نتحامل على طه حسين الكاتب الناقد، وأن ننتصف منه لطه حسين المؤلف الأديب. فقد رأينا في الأستاذ أحياناً ولعاً بالانصراف إلى النقد وإلى المؤلفات النقدية مثل حديث الأربعاء وحافظ وشوقي والأدب الجاهلي. ولقد تعجبه هذه الضجة التي تبعثها كتاباته، ويغتبط بهذا العثير الذي يثيره في الفضاء ويملأ به الجو حيناً من الزمان. والحقيقة التي نرجو أن يدركها الأستاذ قبل فوات الأوان هي أن الصفحة الواحدة من كتاب (الأيام) أبقى على الزمن من كتاب الأدب الجاهلي كله.

ليس لطه حسين إذن في الأدب البحت سوى كتب ثلاثة: (الأيام) و (في الصيف) و (على هامش السيرة) الذي بين أيدينا.

ويمتاز هذا الكتاب الجديد من سابقيه بأن المؤلف لم يلجأ هنا إلى حوادث حياته الخاصة، بل انصرف إلى الأخبار القديمة، فالتمس وحيه بين صفحاتها. . والذي يدهش له القارئ أن يرجع إلى تلك الكتب القديمة ثم يعود إلى (هامش السيرة) فيرى امامه شيئا مبتدعا مخترعا، وجدة جذابة، وطراقة معجبة. ومع هذا كله لا يرى خروجا عن الأصول التي استوحاها المؤلف واستلهمها.

اعتمد طه حسين على الكتب القديمة كما اعتمد شكسبير على قصص فلوطرخوس وأمثاله،

وشتان بين السبيل التي سلكها شكسبير وبين الأصل الذي استرشد به. . وكذلك كان طه حسين يتناول الحادث الذي يمر به قارئ السيرة عجلا، دون ان يلفت نظره منه شيء، يتناوله ثم يأخذ في تصويره وتحليله وإبرازه وإظهاره وتقليبه على نواحيه، حتى يثب امام العين وثوبا، ويبدو ما في الحادث البسيط من حكمة وشعر، ومن قوة وسحر. واكبر شيء ساعد طه على تأليف كتابه هذا مقدرته على تبين الموقف الذي ينطوي على شيء كثير من الحكمة ومن الشعر، فيختار هذا الموقف ثم لا يزال به بصقله ويجلوه حتى يبديه للعين رائعا مجسما ملموسا. وقد خدمه التوفيق في الكتاب كله، فان الفصول، وان تفاوتت أحياناً، فإنها جميعا تشهد بحسن الاختيار، والإبداع في التصوير.

وقد أصبحت أشخاص هذا الحديث، وليست أسماء مجرة وألفاظاً مسطورة؛ بل كائنات حية بارزة نكاد ان نحسها ونراها تتحرك بين أي أيدينا: وقد أبدع طه أيما إبداع في وصف شخصية عبد لمطلب ووصف حياته منذ أن اخذ في حفر زمزم، إلى التقائه بابرهة الأشرم، إلى رقاده رقدة الموت بين الأبناء والأحفاد. يصف طه هذا كله فنرى الصور امام أعيننا ماثلة قوية لا لبس فيها ولا إيهام.

في الكتاب الشيء الكثير الذي يستثير الإعجاب ولكن اكبر ما يعجبنا فيه هذا الإبداع في تصوير الأشخاص عامة وشخص عبد المطلب خاصة، ثم هذه الحياة التي تنتظم المناظر والمواقف، بحيث يرى القارئ نفسه وقد نقل نقلا إلى ذلك الزمن وتلك الأمكنة.

وقف المؤلف في هذا الكتاب على (هامش) السيرة. لم يقف في وسطها ولا بعيدا عنها بل على هامشها. وقد كان من حسن التوفيق أن اختار هذا الموقف الذي مكنه من أن يبتعد عن السيرة أحياناً إذا دعا إلى ذلك داع: ثم يعود اليها بعد أن يطوف بالأفاق، معرجا على بلاد الروم والأحباش واليمن. وقد اضطر إلى أن يبتعد عن السيرة قليلا لكي يشرح لنا ماذا دعا ابرهة الأشرم إلى الإغارة على البيت الحرام في العام الذي قدر للعالم فيه أن يستقبل اكرم أبنائه وأشرفهم. فلقد جاء ابرهة من الحبشة إلى اليمن لكي يؤدب يهود اليمن على اضطهادهم للمسيحيين اللذين استوطنوا بعض جهاتها. . . وهذا كله اضطر المؤلف إلى أن يرينا كيف حلت اليهودية محل الوثنية، وكيف انتقلت اليهودية إلى بعض نواحي جزيرة العرب وكيف حملها (تبع) ملك اليمن وإلى صنعاء إلى اليمن. ثم كيف اخذت النصرانية

تنتشر وسط الاضطهاد والمذابح، في مختلف الأنحاء: في مصر وبلاد الحبشة وفي نجران من بلاد اليمن. وكيف قام يهود اليمن فذبحوا نصارى نجران. وجاء الأحباش إلى اليمن ليثأروا من اليهود. وكيف بقى ابرهة الحبشي حاكما على اليمن، ثم حاول أن ينشر النصرانية فيها وفيما جاورها من الأقطار. وهكذا اقبل على الحجاز بجيشه وفيلته. وأراد أن يدمر الكعبة فرده الله ودمره هو وجنوده. وفي تلك السنة ولد الصبي اليتيم محمد بن عبد الله.

كان لابد للمؤلف أن يبتعد عن السيرة قليلا، لكي يشرح لنا كل هذه الحوادث، واضطر لان يقوم بهذا الشرح في خمسة فصول (من السادس إلى العاشر)، تحس أثناء قراءتها أن المؤلف يكتب في شيء من السرعة والإيجاز، كأنما يخشى أن يطول غيابه عن مكة وأهلها، وعن السيرة وما يحيط بها. فهو يريد أن يسرع بالعودة اليها. وهو لهذا إلى أن مضطر يلخص الحوادث، على خطورتها (تلخيصا) ويكتفي في بعض المواضع بأن يلم بها إلماما. ولقد هممت بأن أؤاخذه على هذا لولا أني ذكرت أن المقام لا يحتمل الإطناب، وأن الإسراف في نقش الإطار يحجب جمال الصورة ويضعف تأثيرها.

برغم ذلك كله فأن في هذا الوصف العجل للحالة الروحية في الشرق قطعا هي آية في دقة الخيال والتصوير. وإن كان لابد من الاستشهاد فلنذكر للقارئ على سبيل التمثيل تلك القطعة التي يعرض علينا فيها آلهة اليونان فيرينا أوبولو والمريخ وأرتيمس وأثينا، وقد اجتمعوا لينظروا فيما عساهم يفعلون؛ فلم يلبثوا أن أجمعوا أمرهم على أن يرحلوا عن الديار التي سادوا فيها زمنا طويلا، وتحكموا في أهلها قرونا، وقد آن لهم أن يتراجعوا أمام هذه الآيات السماوية الجديدة التي محتهم ونسخت دينهم.

بمثل هذا الحوار الشعري الجميل يصف لنا المؤلف كيف زالت الوثنية اليونانية وحلت محلها اليهودية والنصرانية. وهذه القطعة وحدها تشهد بأن المؤلف قد رزق النصيب

الأوفر من خصوبة الخيال، والمقدرة على إلباس الحادث العادي ثوباً شعرياً رائعاً.
وهناك فائدة أخرى استفادها المؤلف في موقفه (على الهامش) ذلك أنه استطاع إلا يتقيد بالترتيب الزمني للحوادث؛ فإذا بدا له أن يسهب في وصف شخصية راقته وأعجبته اندفع في وصفها إلى النهاية، لا يلفته عن ذلك حادث أو خطب. فقد اعجب، مثلا، وحق له ان
يعجب، بشخصية أم أوفى حاضنة النبي، فلم يزل يصف حياتها منذ ولادة محمد بن عبد الله إلى أن شهدت عهد أبي بكر وعمر وعثمان، ثم يعود بعد ذلك إلى حديث الرضاعة ووفاة عبد المطلب.
وهذه الخطة التي الزم بها المؤلف نفسه قد تبدو غريبة وربما اعترض عليها بانها تدفع بالقارئ من أول السيرة إلى عصر الخلفاء الراشدين ثم تعود به مرة اخرى إلى بدء السيرة. ولا تزال بالقارئ هكذا ذهابا وإياباً، ومع أن لهذا النقد وجاهته التي لاشك فيها، فان للمؤلف عذره بان الذي يريد ان يكتبه ليس حديث السيرة بالذات بل دراسات مستقل بعضها عن بعض، وفي وسع القارئ أحياناً أن يطالع الفصل متقطعا من الكتاب فلا يكاد يفتقر إلى ما سبقه.
بقيت كلمة لا بد منها عن أسلوب الكاتب، أي عن طريق الأداء عن المعاني والإبانة عما في صدر المؤلف.
ان لطه حسين من السيطرة على اللغة العربية التي لا تضارعها لغة في قوتها وفصاحتها، كما لا تضارعها لغة في شدتها ومنعتها، أن لطه حسين من السيطرة على هذه اللغة وعباراتها المتينة الرصينة ما لا يعرفه إلا اللذين عاشروه من كثب وراقبوه وهو يعمل في قوة ونشاط. ومتى وفق إلى اختيار الموضوع الذي يرضاه؛ وهداه خياله الواسع إلى طريقة معالجته، فقد هان الأمر وسهل كل شيء ومضى في الإملاء كما يتدفق النهر الجاري.
غير إننا إذا كنا نشكو شيئا فأنا نشكو هذه القوة بعينها. وهذه السيطرة التي تطغى أحياناً فتدفع بالكاتب إلى التعسف، وإلى الابتعاد عن الطريق التي يسلكها الناس جميعا، انظر اليه مثلا اذ يحدثك عن الدمع الذي يتساقط غزيرا من العينين فيقول لك أنها دموع غلاظ. ويكفي أن يعلم طه ان الناس جميعا يقولون دموع غزار، لكي يقول هو دموع غلاظ.
هذا الشيء، والقليل مثله مما قد يصادفنا في الكتاب، سنة من سنن القوة والسلطان رأيناها من قبل في مثل ابي تمام وابي الطيب المتنبي الذي كان يتعمد قول الشيء الغريب النافر ولأنه قوي ولأنه مدل بقوته، ولأنه لا يبالي بالأرض ومن عليها. وما احسن المثل العامي الشهير (العافية هبله!).
على أن المؤلف في هذا الكتاب قد أدى معانيه بلغة فيها بلاغة وإبداع يفوقان حتى الذي
ألفناه منه وتعودناه. والسبب في هذه الإجادة سهل إيضاحه: فأن الموضوع الذي يعالجه هنا موضوع عربي صميم، والبيئة عربية خالصة. والمتكلمون من قريش وغير قريش من الناطقين بالضاد. وهذا كله قد أتاح للمؤلف فرصة لأن يتدفق نهره العربي الفصيح الذي لا تشوبه عجمة اللاتين ولا التواء السكسون. فانطلقت سليقته العربية حرة طليقة واكبر الظن أنه هو ليس مدركا لهذا الأمر. ومع ذلك فأن في الكتاب قطعا قد بلغت في الأسلوب الشعري منزلة يصعب أن نجد لها ضريباً. حقيقة أن أمثال تلك القطع ليس في كل مكان من الكتاب، ولكنها في كثير من المواضع، بحيث يصبح من العبث أن نستشهد هنا بقطعة أو قطعتين. ولابد للقارئ من الرجوع إلى الكتاب كله. ولابد له من قراءته في تأمل وتمهل وتذوق لهذه الفصول الرائقة التي يسمو فيها النثر حتى يضاهي الشعر، ويؤثر في النفس تأثيراً شعريا خالصا.
وللمؤلف شغف بالوضوح والبيان، فهو لا يحاول أن يستر معنى ولا فكرة بستار أو غشاء. وما حاجة الوجه الجميل إلى الستر؟ فهو ليس من عشاق الغموض، بل انه ليسرف في حبه للوضوح والجلاء إسرافا، ولهذا نراه يكثر من هذا التكرار الذي يعرفه قراؤه دون أن يدركوا له سرا. بل ربما لم يدرك هو نفسه سر هذا التكرار. وقد يعده الناس من ضرورات النثر المنسجم ولهم في هذا بعض الحق؛ ولكن أكبر الحق في هذا أن الذي يدفعه إلى تكرار لفظ من آن لآن هو رغبته في أن يفهم عنه ما يقول من غير

لبس ولا إبهام.
والآن، وقد أوشك هذا النقد أن يختم، يتردد في النفس سؤال: سؤال من ذلك الطراز الذي يدفعنا اليه الفضول الأدبي. وهو من أي انواع الأدب هذا الكتاب الذي بين أيدينا؟ اهو رواية قصصية تاريخية؟ اهو من نوع المقامات أم مجرد مقالات؟
ولست ادري ما ولع النقد بتصنيف كل شيء وتسمية كل أثر؟ ولئن كانت الفاكهة لذيذة شهية، فهل يضرنا أن نجهل اسمها؟ أن الفكر البشري ما برح مولعا بأن ينسج على غير منوال. لكن إذا اجتهدنا أن نجد لهذا المؤلف شبيها بين المؤلفات، فلعل اقرب شيء يشبهه هو تلك الملاحم التي تصف العصور الغابرة، وتجمع بين القوة والإعجاز.
العدد 25 - بتاريخ: 25 - 12 - 1933
رمضان
نعم رمضان! ولا بد من رمضان بعد أحد عشر شهراً قضاها المرء في جهاد العيش، مستكلِب النفس، مستأسِد الهوى، متنمر الشهوة، ليوقظ رواقد الخير في قلبه، ويرهف أحاسيس البِر في شعوره، ويُرجع روحه إلى منبعها الأزلي الأقدس فتبرأ من أوزار الحياة، وتطهر من أوضار المادة، وتتزود من قوى الجمال والحق ما يُمسكها العامَ كله على فتنة الدنيا ومحنة الناس.
فرمضان رياضة للنفس بالتجرد، وثقافة للروح بالتأمل، وتوثيق لما وَهى بين القلب والدين، وتقريب لما بعد بين الرأفة والمسكين، وتأليف لما نفر من الشمل الجميع، وتنديةٌ لما يبس من الرحم القريبة، ونفحة من نفحات السماء تفعِم دنيا المسلمين بعبير الخلد وأنفاس الملائكة!
ورمضان كله عيد وطني شامل، تفيض بالسرور أنهاره، وتغرق في النور لياليه، وتفتَرُ بالأنس مجالسه. فالرجال يحيون أماسيه في محافل القرآن أو منازل اللهو النزيهة، والنساء يوزعن الوداد والأنس على الأبهاء الكثيرة، والأطفال الهازجون يزينون الطرقات بفوانيسهم الملونة الصغيرة، والبيوت الباقية على العهد تتقرب إلى الله بالذكر والصدقات، والمساجد المقفرة طول العام تعج بالوعظ والصلوات، والمآذن الحالية بالمصابيح، الشادية بالتسابيح، ترسل في أعماق الأبد نور الله وكلمته!
وكل شيء في رمضان جذلان مغتبط، ما عدا الرومي في الحان، والشيطان في كل مكان!
ورمضان مظهر قومي رائع، يعيد إلى القاهرة عز القرون المواضي، فيصبغ لونها الاوربي الحائل بصبغة الشرق الجميلة، ويرفع صوتها الخافت بشعائر الصوم الجليلة، ويبرز شخصيتها الضائعة في زحمة الاجانب بالمظاهر الرسمية للحكومة، والتقاليد العرفية للشعب. وما أروع القاهرة في سكتتها عند الإفطار، وجلبتها عند السحور، وهزتها ساعة انطلاق المدفع!
ورمضان بعد ذلك كله رباط اجتماعي وثيق، يؤكد أسباب المودة بين أعضاء الأسرة بالتواصل والتعاطف، وبين أفراد الأمة بالتزاور والتآلف، وبين أهل الملة بذلك الشعور السامي الذي يغمرهم في جميع بقاع الأرض بأنهم يسيرون إلى غاية الوجود قافلة واحدة، ممتزجة الروح، متحدة العقيدة، متفقة الفكرة، متشابهة النظام، متماثلة المعيشة.
ولكن رمضاننا الأول واأسفاه لم يخفَّ على طبع المدينة الحديثة! فرمته بقلة الإنتاج وكثرة الإهلاك وشل الحركة وقتل الصحة، ونفته إلى إحياء العمال وقرى الفلاحين، واتخذت لنفسها من بقاياه رمضان آخر رقيق الدين، خفيف الظل، باريسي الشمائل، يبيح النظرة المريبة والكلمة العارية والأكلة الدسمة والسيجار الغليظ، ولا يسألهم من ظرفه إلا إن يجعلوا العشاء عند الغروب وبعد طلقة المدفع! وإذا كان في بيوت المحافظين قارئ يقرأ القرآن، وذاكر يذكر الله، فليكن في بيوت المتجددين (راديو) يرجِّع أصوات الغناء، وحاك يردد أهازيج الرقص!
وهكذا تُجِدُّ الليالي ونحن نلعب! كأنما كتب علينا أن نأخذ الحياة من جانبها الفضولي العابث فنتأثر بها ولا نؤثر فيها، وكأنما همنا ان نعيش صعاليك على تقاليد الامم دون أن تميزنا خصيصة من قومية، ولا شعيرة من عقيدة! وكأنما الشعائر التلمودية القاسية عاقت اليهود عن المغامرة والنبوغ والتقدم!
أما رمضان القرية فلا يزال يحل من أهلها محل النور من العين والمهجة من القلب!

تجسمت في خواطرهم صورته حتى جعلوه رجلا له حياته وعمره وأجله. . يذكرونه على شهرين من مقدمه. فيحسبون حسابه! ويهيئون أسبابه، حتى إذا دب إليهم من غيوب الآباد دبيب الهرم سُلسِلت الشياطين، وأُرسِلت الأملاك. وهبطت الأرواح، ودرَّت أخلاف الخير، واغدودقت أصول النعم! هنالك يملك القرية شعور تقي هادئ خاشع، فلا تعود تسمع لغواً في حديث، ولا عنفاً في جدل، ولا بغيا في خصومة! فإذا أذهل أحدهم الغضب فرفع صوته ندم عجلان واستغفر ثم قال: اللهم إني صائم! ذلك لأن رمضان يُرجع الفلاح نقيا كقطرة المُزن، طاهراً كفطرة الوليد، فلا يقتل ولا يسرق ولا يشهد الزور ولا يقول الهُجر ولا يأتي المنكر. وما أجمل أن ترى فاتك الأمس ناسك اليوم! يمشي من البيت إلى المسجد في ثوبه النظيف وئيد الخطو، غضيض الطرف، ولا تترك المسبحة يده، ولا يفتر عن التسبيح لسانه، فإذا قابل القروية الجميلة وعلى رأسها الجرة، اتحد جمالها في نظره، بجمال الخير في نفسه، فأمعن في التسبيح واستغرق في الله، لأن إبليس في رمضان سجين، وباب الغواية مغلق!

يقضون صدر النهار في تصريف أمور العيش، ثم يجلسون على المصاطب في أشعة الأصيل الفاترة يستمعون القصص أو الوعظ. حتى إذا تضيَّفت الشمس جلسوا في الطريق أمام بيوتهم فمدوا الموائد على الأرض، ودعوا إليها عابري السبيل وطالبي الصدقة، ثم لا يلبث الأخاء المحض أن يجعل الموائد المتعددة مائدة واحدة، يصيب منها من يشاء ما يشاء!

أما ليلهم فاستماع للقرآن، واستقبال للإخوان، ومسامرة مشتركة ساذجة تجمع أفنانا شتى من شهي الحديث، وكلما انقضى نهار من رمضان تَغَضَّن سرار من وجوه القوم، حتى إذا لم يبق إلا الأربعة الأخيرة تمثلوه محتضرا يكابد غصص الموت، فندبوه في البيوت والمساجد، ورثوه على السطوح والمآذن، وبكوه يوم (الجمعة اليتيمة) أحرَّ بكاء.

فإذا كان المغرب الأخير ولم يبق من رمضان إلا بقية روح، خامرهم الخوف من انطلاق الشياطين السجينة، فجلس الصبيان على أبواب الغرف يكررون البسملة ويضربون حديدا بحديد، ليحفظوا البيت من دخول شيطان مَريد!

ذلك رمضان كما تدركه الفِطر السليمة والقلوب المؤمنة، وهو وحده الباقي لفلاحنا من غفلات العيش ولحظات السعادة! ولكن وا أسفاه! لقد أفسدت الأزمنة رمضان القرية، كما أفسدت المدنية رمضان المدينة!

احمد حسن الزيات

وقفة على جسر إسماعيل

للأستاذ عبد الحميد العبادي

إذا حق لبغداد أن تباهي في غابر أيامها بلدان العالم بجسرها الأكبر الذي كان معقوداً فوق دجلة، والذي يقول فيه علي بن الجهم:

عيون المها بين الرصافة والجسر ... جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

وإذا كانت (فروق) عاصمة الترك من آل عثمان تذوب حياء وخجلا كلما أنشد قول شوقي في جسرها المتهدم المتساقط:

أمير المؤمنين رأيت جسرا ... أمر على الصراط ولا عليه

فمن حق القاهرة أن تسحب الذيل تيها وافتخارا بجسر إسماعيل فهو من غير شك أعظم من جسر بغداد وأروع، وهو لم يظفر بمثله بلد عظيم ظل متبوع مصر أحقابا طوالا.

أنشدتك الله أيها القارئ، إلا ما وقفت مرة بذلك الجسر في أي وقت شئت، وعلى أي حال كنت. قف بكرة، أو ضحى، أو أصيلا. قف في الهزيع الأول أو الثاني من الليل. قف صيفا، أو خريفا، أو شتاء، أو ربيعا. قف فتى مقتبل السن، أو كهلا قد توسط الحياة، أو شيخا نالت منه السنون، فأنا زعيم لك بأنك وأجد جمالا يملأ الجوارح، وحسنا يستغرق العقل. هنا الجمال! هنا الروعة! هنا الفتنة! هنا قطعة من رياض الجنة، أهبطها الله الأرض ثم أباحها الناس جميعا، يستمتع بها الغوي والمهتدي، والمقتصد في أمره، ومن كان على نفسه مسرفا. جسر رشيق التكوين، موزون الأبعاد، يساير الشمس من مشرقها إلى مغربها، والقمر من لدن بزوغه إلى أفوله. فان غابت الشمس وأبطأ القمر فللمدلج الساري عوض عنهما في السرج الوهاجة القائمة على جانبيه ترسل

نورا هادئا لينا لا يفرق البصر ولا يحسره. حتى كأن الكواكب قد دنت فتدلت، فاختار منها مهندس ذلك الجسر ما شاء، ثم نظمه سمطين على حافتيه.

ثم هولا تهدأ عنه الرجل ساعة من ليل أو نهار. ففي النهار ترى أفواج الساعين في الأرض تتدافع فوقه بالمناكب والمراكب. فإذا تصرم النهار، وطفلت الشمس للغروب، رأيت المستروحين المتنزهين يغشونه زرافات ووحدانا، يلتمسون طيب الهواء، وجمال المنظر، وبهجة الخاطر. فإذا اختلط الظلام وأرخى الليل سدوله بات الجسر مستردادا ومذهبا

لقصاد الجزيرة من العابثين اللاهين، والعشاق المدلهين. سيماهم حديث مغمغم، ورؤوس متساندة وأصابع مشتبكة، وخطى مضطربة، قد لفهم الليل من نور القمر أو المصباح في مثل الكلة المخرمة تبين ما اشتملت عليه وتستره، وتخفيه وتظهره، على أن كلا آمن مطمئن كأن تلك الأسود المقعية عند طرفي الجسر أرصاد موكلة بحراسة الجسر ورواده.

ثم ارم ببصرك ذات اليمين وذات الشمال. فهذا النيل اكثر انهار الأرض بركة، وأحفلها بالذكرى، ينساب مترفقاً، يصافح متنه نسيم الشمال فيحيله وشياً منمنماً، وتصب عليه الشمس أشعتها الفضية والذهبية فتحيله تارة لجيناً سائلا وأخرى ذهبا مذابا. حتى إذا غربت الشمس وتألق الأفق وانعكست فيه صور النجوم والمصابيح التي تكتنفه من كل نواحيه، رأيت المجرة بين يديك، إن شئت خضتها خوضا، وان شئت لججت فيها تلجيجا. وهذه الجزيرة تعترض الأفق الغربي بنخلها الذاهبة في السماء، وأشجارها الجاثمة على الأرض، وبنورها الضاحك وطيرها الصادح كأنما هي حجة بليغة على ما بقبالتها من معاهد وديار يهيب بها كل ما حولها أن (ليس هذا بعشك فادرجي) ومع ذلك فقد أعدت هذه الدار والمعاهد عدوى الحسن المجسم أمامها فأكسبتها رقة مدنية، وخلعت عليها مسحة من جمال تعرفها في الدار والديار.

كل جزء من أجزاء هذا المنظر الفخم يسر إليك نجوى، ويتلو عليك نبأ. فهذا الجسر يصور لك الحياة معرَّفة بين نكرتين، ومعلوما بين مجهولين. وهذه الخلائق التي تتصرف فوقه آناء الليل وأطراف النهار، عملا، واستراحة، ولهوا، كأني بها تحدثك بأن لا بأس علينا من أعمالنا متى صدرت مطاوعة لحاجات نفوسنا. وهذه الجزيرة التي يبدو لك بالنهار نخلها وشجرها عرائس تونق العين وتفتن القلب، فإذا أظلم الليل تراءت فوق الأفق شخوصا وأشباحا توحشك وتروعك، كأني بها تفضي إليك بان للظواهر دون الحقائق الأثر الأقوى في توجيه حكمنا على الأشياء. وهذه الثكنات الغاصة بالجند والملأى بالسلاح، ما عبرتها وما بيانها؟ استمع إليها تخبرك لمن كانت أمس، ولمن هي اليوم؟ وتنشدك قول شجرة عدي بن زيد:

رب ركب قد أناخوا عندنا ... يشربون الخمر بالماء الزلال

عصف الدهر بهم فانقرضوا ... وكذاك الدهر حالا بعد حال

أما النهر الدافق، والجو الرائق، والنجوم اللامعة، والشمس الساطعة، فتلك كلها السنة تهتف بأن العزة والدوام لله وحده.

الأحنف بن قيس

للأستاذ احمد أمين

ضئيل الجسم، صغير الرأس، متراكب الأسنان، مائل الذقن، ناتئ الوجنة، غائر العينين، خفيف العارضين، أحنف الرِّجل، ليست خصلة تدل على قبح المنظر إلا وهو آخذ منها بحظ، تنبو عن مرآة الإحداق، وتتفادى من شخصه الأبصار، وهو مع هذا سيد قومه، سيد تميم، وهي ما هي في العظمة، إن غضب غضب لغضبته مائة ألف سيف لا يسألونه فيم غضب. خطير النفس، بعيد المرمى، ما زال يسود حتى بلغ مرتبة لا يسمو إليها أمل، ومنزلة لا يتعلق بها درك، إذا أوفد وال وفداً إلى خليفة فالأحنف أحد الوفد أو رئيسه وخطيبه، وإذا اختلف الأمراء على الخلافة فالأحنف من أول من يفكرون في اصطناعه، وإذا حزب الأمر، وعظم الخطب، فالأحنف من يفزع إليه في المشورة. دوى اسمه بين المسلمين في الأحداث الأولى للإسلام، وخرج منها على كثرتها وتعقدها واضطراب الأهواء فيها، نقي السيرة، يقر بعظمته من كان له ومن كان عليه، وظل اسمه علما رفيعا في نواح مختلفة على مر الأزمان، إن أرِّخت الحروب الإسلامية فأحد قادتها وغزاتها، وإن ذكرت الأخلاق فأحد أشرافها ونبلائها، وان أرخ الأدب والخطب

والحكم والأمثال فهو ابن بجدتها.
ولد قبل الإسلام ولكن لم ينل شرف الصحبة لرسول الله (، ووقف من أول أمره وهو فتى موقفا يدل على قوة عقله وصدق نظره، فان رسول الله (أرسل رجلا إلى بني سعد رهط الأحنف فجعل يعرض عليهم الإسلام، فقال الأحنف لقومه: إنه يدعو إلى خير، ويأمر بخير، فلم لا نجيب دعوته، وسرعان ما ساد تميما وهي قبيلة من أعز القبائل وأقواها وأشرفها، كانت تسكن مساحة كبيرة من جزيرة العرب تشمل نجداً وجزءاً من البحرين وجزءاً من اليمامة، وانقسمت تميم لكثرتها إلى فروع كثيرة كانت تتعادى أحيانا وتتحالف أحيانا، ولذلك لم يكن عجيباً أن يتهاجى الفرزدق وجرير شر هجاء، وكلاهما من تميم، ولكنهما من فرعين مختلفين. حاربت تميم نفسها ومن حولها في الجاهلية، وشغلت حروبها أياما كثيرة من أيام العرب. وكان لتميم راية في الحروب خاصة على صورة العقاب، كما كانت راية بني أسد على صورة الأسد، ثم أسلمت وحسن إسلامها، ولكنها ارتدت أيام الردة
إلى أن ردها خالد ابن الوليد إلى الطاعة، وكفرت عن ردتها بما بذلت من جهود في الفتوح، حتى إذا تم الفتح سكن بعضها الكوفة وبعضها البصرة، وكان الأحنف بن قيس سيد تميم البصرة. وقد ظلت تميم في الإسلام وفيها من ألوان البداوة، ومن هذا النوع من البداوة ما بدا من نزعتهم الخارجية، فقد كثر الخوارج من تميم، وكان قطريّ بن الفُجاءة وكثير ممن تبعه من الازارقة من قبيلة تميم.
وأنجبت تميم كثيرا من نوابغ الشعراء لا يعنوننا الآن، كما أنجبت كثيراً من السادة والأشراف والعظماء، وكانوا سلسلة كسلسلة الذهب متصلة الحلقات يتعلم بعضهم من بعض خلق السيادة كما يتعلم العلم على الأساتذة، وكان أستاذ الأحنف ابن قيس في السيادة (قيس بن عاصم) المنقري التميمي الذي قال فيه رسول الله (لما رآه (هذا سيد أهل الوتر) وقد قيل لقيس هذا: صف نفسك، فقال أما في الجاهلية فما هممت بملأمة، ولاحُمتُ على تُهمة، ولم أر إلا في خيل مغيرة أو نادي عشيرة، أو حامي جريرة، وأما في الإسلام فقد قال الله تعالى (ولا تزكوا أنفسكم) وقد نزل في البصرة كتلميذه الأحنف، وتعلم الأحنف من الحلم، ولما مات قال فيه القائل:
عليك سلام الله قيس بن عاصم ... ورحمته ما شاء أن يترحما
وما كان قيس هلكه هلك واحد ... ولكنه بنيان قوم تهدَّما
خلف الأحنف قيسا في السيادة، وكان أبو موسى الاشعري واليا على البصرة فبعث بوفد منها إلى عمر بن الخطاب فكان الأحنف أحدهم وخطب بين يدي عمر يسترعيه النظر لأهل البصرة. فاعجب به عمر وقال (هذا والله السيد!) فدوت هذه الكلمة في الأنحاء.
أكثر الواصفون في ذكر الأحنف ومزاياه وسيادته، والسيادة أنواع، وقد ترى لكل سيد طعماً لا تجده في سيد آخر، ولكل سيد نقطة تتركز فيها عظمته قد لا يشترك فيها سيد آخر، فسيدٌ عظمته في شجاعته، وسيد عظمته في سخائه وسيد عظمته في قول الحق يجهر به والسيف على رأسه، فان نحن سئلنا عن مركز العظمة في الأحنف، فعظمته كانت تتركز في خصلتين تتصل إحداهما بالأخرى اتصالا وثيقا: انه منح نظرا صائبا يتعرف به المحاسن والمساوئ، ومعالي الأمور وسفسافها، وقلَّ أن يخطئ في ذلك، ثم منح إلى ذلك إرادة قوية يحمل بها نفسه على ما أدرك من معال ومحاسن مهما كلفه من مشقة وحمله من جهد، فلو
علم أن الماء يفسد مروءته ما شربه؛ وهي (كما ترى) نقطة ارتكاز يحمل فوقها كثير من الفضائل، على حين أن نقطة الارتكاز عند كثير من السادة لا تتحمل إلا فضيلة واحدة.
وهذا يفسر كل ما روي عن الأحنف، كان لا يعبأ بالمال، وكان لا يعبأ بالحياة، وكان يفر من الشرف والشرف يتبعه، وكان يخضع للحق إذا لزمه خضوع الذليل المستخدي، وإذا كان الحق بجانبه دافع عنه دفاع المستأسد الضاري، يقف أمام علي وأمام معاوية وأمام زياد بن أبيه فيجهر بالحق الصريح من غير مجمجمة ولا مواربة ولا يبالي ما بعده.
تولى في زمن عمر بن الخطاب فتح خراسان فدوخ الفرس وملكهم يزدجرد ولقي من الحروب ما تشيب من هوله الولدان، ولكنه صبر وظفر، وأنجد ملك الفرس الترك وأهل فرغانة والصغد فلم يكن فيهم أمام الأحنف وجنده غناء.

ووقف الأحنف العربي البدوي وليد الصحراء في شملته يطارد يزدجرد المتوج ربيب النعمة، وعصارة المدنية، وسليل الأكاسرة، ونتاج الحروب المنظمة بين فارس والروم، في العدد والعديد، والجنود والبنود، فظفر التميمي بسيد فارس وطارده حيثما حل حتى جاوز حدود بلاده وخرج منها لا إلى رجعة، (وأقبل أهل فارس - كما يقول ابن الأثير - على الأحنف فصافحوه ودفعوا إليه الخزائن والأموال وتراجعوا إلى بلدانهم وأموالهم، على أفضل ما كانوا عليه زمن الأكاسرة، واغتبطوا بملك المسلمين)

فلما نشبت الحرب بين علي ومعاوية رأى الحق في جانب علي فانضم إليه بقومه، وأعان عليا بسيفه ورأيه، فاشترك معه في حرب صفين ونصحه إلا يكون أبو موسى الاشعري حكما، وظل مخلصاً له العمل والقول حتى قتل علي. ودانت البلاد لمعاوية فأطاع معاوية في شمم وإباء، فقد دخل عليه يوما فقال له معاوية: أنت الشاهر علينا سيفك يوم صفين، فقال له يا معاوية لا تذكر ما مضى منا، ولا ترد الأمور على أدبارها، فان السيوف التي قاتلناك بها على عواتقنا. والقلوب التي أبغضناك بها بين جوانحنا، والله لا تمد إلينا شبراً من غدر إلا مددنا إليك ذراعا من ختر، وان شئت لتستصفين كدر قلوبنا بصفو من عفوك. فقال له معاوية فإني أفعل، ثم استرضاه ومن معه.

ولما أراد معاوية أن يبايع لأبنه يزيد أخذ الناس يتكلمون مدح يزيد والثناء عليه، ويمدحون معاوية على عمله والأحنف ساكت، فقال له معاوية، مالك لا تتكلم يا أبا بحر وكانت كنيته

فقال قولته المشهورة: (أخاف الله إن كذبت وأخافكم إن صدقت) فكانت كنايته أبلغ من التصريح.

ويظهر أنه بعد أن قتل علي رأى من المصلحة للمسلمين أن يشايع الأمويين، فان هذا أقرب إلى الوحدة وأدعى إلى الألفة حتى مع ما هم فيه من ظلم أحيانا وطغيان أحيانا، يدل على ذلك تاريخه وقوله فقد استنصر به الحسن بن علي علىمعاوية فلم يجبه وقال (قد بلونا حسنا وآل حسن فلم نجد عندهم ايالة الملك ولا مكيدة الحرب) وكان بينه وبين عبد الله بن الزبير جفاء. فلم يشايعه في الخروج. ورأيناه ينصح قوما من تميم أرادوا أن ينضموا إلى ابن الزبير إلا يفعلوا.

ولكنه كان يطيع الأمويين وولاتهم طاعة الحازم العاقل، ينقدهم فيما يرى ويمحضهم النصح في صدق وإخلاص، وله كموقف مع زياد من خير المواقف أثراً في تاريخ الإسلام، فقد هم زياد أن يقتل الموالي لكثرتهم ومزاحمتهم العرب فاستشار الأحنف فقال، إن ذلك ليس لك، إن رسول الله (لم يقتل من الناس من قال لا إله إلا الله وشهد أن محمدا رسول الله وانهم غلة الناس، وهم الذين يقيمون أسواق المسلمين، أفتجعل العرب يقيمون أسواقهم قصابين وقصارين وحجامين؟ فأذعن زياد لرأيه ونزل على إشارته، ويقول الأحنف انه ما بات ليلة أطول منها خشية أن ينفذ زياد فكرته.

ووقف في البصرة موقفا بديعا يصلح بين القبائل المختلفة المتعادية من الازد وبكر وعبد القيس، ويبذل من ماله ديات لما يقع من القتل حتى يلتئم صدعهم ويجتمع شملهم ويعيشوا في البصرة عيشة هادئة مطمئنة.

لقد عابوا عليه انه ذُكر أمامه الزبير بن العوام عندما ترك القتال يوم الجمل ومر ببني تميم فعابه الأحنف وقال جمع الزبيريين الناس يقتل بعضهم بعضا ويريد أن ينجو إلى أهله! فتبعه رجل سمع هذا القول فقتله، فقال الناس إن الأحنف قتل الزبير بكلامه.

كما عابوه بأنه كان سميعا مطيعا لجاريته (زبراء) حتى كان الناس يكنون عن وقوع الحرب بقولهم (غضبت زبراء) لأنها إذا غضبت غضب الأحنف، وإذا غضب الأحنف شرعت الأسنة وانتضيت السيوف.

ولكن أي عظيم لا يعاب؟ وكفى الأحنف نبلا أن كانت عيوبه من هذا القبيل لا تخدش شرفا

ولا تجرح عرضا

وللأحنف ناحية أخرى بديعة هي ناحية أدبية غزيرة أمدت كتب الأدب العربي بغذاء صالح قوي، هو ما روي عنه من جُمل حكيمة جمعت إلى حسن اللفظ وقوته، جودة المعنى وصحته، ونضحت عليها صفات الأحنف النبيلة الشريفة وكانت خلاصة لحياة حافلة بالتجارب. كانت هذه التجارب والمعاني في دماغ ارسطو اليوناني الفيلسوف فصاغها صياغة علم وفلسفة، وكانت في دماغ الأحنف بن قيس العربي البدوي فصاغها

في شكل حكم وأمثال وجمل موجزة، تحمل معاني
غزيرة، فكان لكل مزايا منهجه في النظر ومنهجه في القول
لقد وصل الأحنف في الإسلام ما بدأ به أكثم بن صيفي من الحكم في الجاهلية، وزاده الإسلام غزارة وفيضا، وكانت حياته العملية من حروب واتصال بالسلطان والولاة وخبرة بالناس ونزاعهم وأنظارهم، وسيادته وكثرة سؤال الناس له عما سوده مددا صالحا يستقي منها حكمه وأقواله، من مثل قوله: (انصف من نفسك قبل أن يُنتصف منك، ثلاثة لا ينتصفون من ثلاثة، شريف من دنئ، وبر من فاجر، وحليم من أحمق. لا خير في قول إلا بعقل، ولا في منظر إلا بمخبر، ولا في مال إلا بجود، ولا في صديق إلا بوفاء، ولا في حياة إلا بصحة وأمن ومن حق الصديق أن تحتمل له ثلاثاً: ظلم الغضب، وظلم الدالة، وظلم الهفوة، الخ وله أقوال في الولاة وفي الصداقة وفي السؤدد وفي مكارم الأخلاق ملئت بها كتب الأدب، تدل على صدق نظر، وصحة التجربة، وقدرة على صياغة ذلك في جمل رصينة
من أجل هذا كله نال عند الناس منزلة قل أن يطمع فيها طامع، يعجب الناس بعقله حتى يقول سفيان: ما وزن عقل الأحنف بعقل أحد إلا وزنه، ويعجبون بسيادته وهيبته حتى يقول القائل:
إذا الأبصار أبصرت ابن قيس ... ظللن مهابة منه خشوعا
فلله الأحنف قائدا في الحروب لا يبارى، ولله الأحنف سيدا في قومه مطاعا، ولله الأحنف حكيما مجربا، ولله الأحنف بليغا مفوها، ولله السعدية إذ رثته فقالت: (نسأل الله الذي ابتلانا بموتك، وفجعنا بفقدك أن يوسع لك في قبرك، وأن يغفر لك يوم حشرك، فلقد عشت مودوداً
حميدا، ومت سعيداً فقيدا، ولقد كنت رفيع العماد، وارى الزناد، ولقد كنت في المحافل شريفا، وعلى الأرامل عطوفا، ومن الناس قريباً، وفيهم غريبا، وإن كانوا لقولك مستمعين، ولرأيك متبعين. رحمنا الله وإياك).
لقد عمر طويلا ومات سنة 69 هـ ودفن بالكوفة فرحمة الله عليه.
فلسطين
بقلم كنيث وليمامس
سياسة الانتداب في فلسطين سياسة غير عملية، وقد فشلت. وسوف تعاني بريطانيا العظمى منها المتاعب ما بقيت تسير عليها.
هذا رأي وضعي، واقعي، تنبؤي معا، والحقائق أسهل الأشياء إثباتا. وقليل من الإنكليز العارفين بالمسألة الفلسطينية يجادلون في هذه النبوءة. وقد جاءت حوادث أكتوبر الماضي مؤيدة لها. بيد أنه لم تقم قرينة حقيقية على أن سياسة الانتداب مذ بدئ بها سنة 1920 قد قبلتها أغلبية السكان الفقراء، بل لقد غص العرب دائما بذلك العهد الذي احتواه الانتداب بالعمل على تسهيل إنشاء وطن قومي يهودي في فلسطين؛ وليست هناك وسيلة أو ظاهرة من الفوائد المادية التي تزعم الصهيونية أنها تغدقها على فلسطين يمكن أن تحمل العرب على قبوله، فالعرب لا يريدون الانتداب بكل بساطة.
ولكن الساسة الإنكليز لا يؤمنون بهذا، أو على الأقل يتظاهرون بعدم الأيمان به، ويقولون إن عرب فلسطين أقلية ضعيفة ممزقة، وليس لها مميزات عقلية من الوجهة السياسية، ومن هم حتى يجرءوا على مقاومة الانتداب الذي أخذته بريطانيا العظمى على نفسها، والذي حصلت من أجله على مصادقة عصبة الأمم. ثم يقولون إن العرب شعب مشاغب، يشغفون بالتظاهر وإرسال الوفود السخيفة إلى لندن، ويقولون أخيراً: نحن نعرفهم جيداً، فاحكموهم بحزم، ودعوهم يستفيدون من الذهب اليهودي، والزمن كفيل بانضوائهم إلى رأينا.
ولكن ساستنا يخففون من غلوائهم أحيانا، فقد صرح وزير المستعمرات في 31 اكتوبر الماضي بقوله: (أريد أن أتحدث إلى الشعب الفلسطيني بجلاء. إن الانتداب يحمل واجبا للعرب واليهود، وسوف نؤدي هذا الواجب تاما عادلا دون خوف أو تحيز. . . وسوف تضع السياسة البريطانية نصب عينها دائما أن تعمل على خير فلسطين كلها).
ولا يستطيع وزير المستعمرات أن يزعم أن في كلماته طرافة، فهي على صحتها ودقتها خالية من التعمق وبعد النظر. وقد قال مثلها كل وزير للمستعمرات، ولم تثمر

كلها شيئا. ولماذا؟ لأنك لا تستطيع اليوم أن تخدع العرب بالوعود والشروح، فهم يعرفون كل تدليل يمكن أن تقدمه الدولة المنتدبة أو الصهيونية لتأييد التعاون بين العرب واليهود في فلسطين، أو القول بأن
قيام الوطن القومي اليهودي في أرضهم فيه خير لهم.

وقد نفهم وان كنا لا نستسيغ ما نفهم، أن يلقي كل وزير للمستعمرات كلما وقع اضطراب في فلسطين، نفس الكلمات القديمة، أقول لسنا نسيغ هذا، لأن الحقيقة الواضحة هي أن السياسة البريطانية في فلسطين قد أظهرت أنها تتأثر بعوامل الخوف والتحيز، فكل إنسان يذكر كيف أن الاضطرابات التي وقعت في ايرلنده بعد الحرب قد انتهت بعقد المعاهدة الإنكليزية الأيرلندية، وكيف أن ثورة العرب في الجزيرة (العراق) قد أحدثت تغييرا جوهريا في السياسة البريطانية في العراق، وكيف أن الاضطرابات التي وقعت بمصر بعد الحرب قد انتهت بإعلان استقلالها سنة 1922 (تصريح فبراير) وهكذا. الواقع أن السياسة البريطانية تقلبت في فلسطين تقلبا ظاهرا ومن الصعب أن نقول إن الإدارة العسكرية التي قامت في فلسطين منذ الهدنة إلى سنة 1920 رحبت بالصهيونيين الذين سمح لهم بدخول فلسطين تطبيقا لعهد بلفور، فقد كان عطفها على العرب ظاهرا، ولكن حكومة لندن لم تكن تعنى كثيرا بشأن العرب، وكانت بالعكس تعنى ليل نهار بأماني الصهيونيين ومقاصدهم. وكان مستر لويد جورج وقت رآسته للوزارة قبل الحرب، قد عقد الصداقة مع الدكتور ويزمان الزعيم الصهيوني، فادى ويزمان للحلفاء خدمة جليلة باختراع المفرقعات القوية، وكانت هذه الصداقة نواة تصريح بلفور واصله، حسبما يصرح مستر لويد جورج في مذكراته.

ويمضي الكاتب بعد ذلك في الحديث عن الإدارة الإنكليزية في فلسطين، فيقول أن عهد السير هربرت صمويل أول مندوب سام كان حسنا، وانه ترك فلسطين سنة 1925 في حالة يسر وان لم ينجح في إقناع العرب بقبول الانتداب. ولم يعن خلفه اللورد بلومر بالمشكلة السياسية، ولكنه عني بالعمل على توطيد أركان الأمن والسلامة. وسادت السكينة في عهده حتى أنه نصح بتخفيض عدد القوات المحتلة. بيد أن هذه السكينة ترجع إلى اغتباط العرب بما آلت إليه الصهيونية من الاضطراب، وما عانته من أزمات جعلت اليهود يغادرون فلسطين بكثرة. وفي عهد خلفه السير جون تشانسلور وقعت اضطرابات سنة 1929، فاقتضت تعزيز القوات المحتلة وإرسال لجنة برلمانية للتحقيق (لجنة شو)، ولجنة لبحث مسألة الأراضي والهجرة. وألقت تقارير اللجنتين ضوءا جديدا على قضية العرب؛

ونوهت بضرورة إعادة النظر في طبيعة الانتداب وتوجيه السياسة البريطانية في فلسطين توجيها واضحا. ولما صدر الكتاب الأبيض سنة 1930، شعر العرب أن قضيتهم تسير في سبيل الفوز.

ثم يقول: ولكن اغتباط العرب بالكتاب الأبيض لم يطل أمده؛ فقد بذلت الصهيونية جهودا عظيمة مقرونة بالوعيد لنقض الكتاب الأبيض، فعاد مستر مكدونالد يفسر الكتاب الأبيض في خطابه الشهير إلى الدكتور ويزمان في فبراير سنة 1931؛ فكان الكتاب مثلا محزنا جديدا على ضعف الحكومة في المسألة الفلسطينية. وليس مثل هذا الضعف مما يرضي، بل ليس عادلا ولا متفقا مع الكرامة. ولن يستتب السلام في فلسطين إلا إذا أعيد النظر في مسألة الانتداب؛ ومن الواجب أن توضع سياسة جديدة على أسس التصريحات الرسمية السابقة في الموضوع، وتجري عليها كل الوزارات البريطانية، ويجب أن يستشار زعماء الأحزاب البريطانية الثلاثة، وان يقنعوا بضرورة إخراج المسألة الفلسطينية من معترك السياسة الحزبية؛ والسير فيها على خطة لا يحيد أحد عنها. ولا يستطيع سياسي بريطاني أن يزعم أنه قد وضعت بعد قاعدة لسياسة مرضية في فلسطين؛ والأمر يقتضي شجاعة أكثر لمواجهة الحقائق، فزمن المعجزات في فلسطين قد مضى.

واستمرار السياسة الحاضرة ليس في صالح اليهود ولا العرب ولا الإمبراطورية البريطانية. فانظر إليها من الوجهة اليهودية مثلا: هل يبقى الانتداب إلى الأبد؟ وهل نتصور أن يقنع الصهيونيون إلى الأبد بالاعتماد على الحراب البريطانية؟ لا ريب أن الدولة المنتدبة لم تكسب عرفان الشعب اليهودي بسياستها في فلسطين

أما معارضة العرب للانتداب فلا حاجة إلى ذكرها، ويزعم البعض أن هذه المعارضة من

تدبير أقلية مغرضة من (الافندية) الذين يفقدون نفوذهم السابق بين الفلاحين بسبب ازدياد الرخاء الذي يحدثه الصهيونيون. وهي قصة سخيفة، لا يؤمن بها غير أولئك الذين يعتقدون بقيامأية ثورة شعبية في أي بلد. وسواء أكان الحكم الذاتي نعمة أم لا، فلا ريب أن عرب فلسطين قد تطلعوا إليه، ولكن على غير طائل. ثم إنا نجد الدليل على أن العرب إنما يعارضون سياسة الانتداب في مظاهرات اكتوبر الماضي التي لم توجه إلى اليهود كما كان يحدث من قبل، ولكنها وجهت إلى الدولة المنتدبة ذاتها.

وإذا لم تتفق الأحزاب البريطانية على اتباع سياسة جديدة في فلسطين، فان خير سبيل تسلكه الحكومة البريطانية هو أن تتقدم إلى عصبة الأمم، وتقترح عليها أن ترد إليها الانتداب الذي منحته. وهو رأي سيعترض عليه بمنتهى الشدة، وينعت بالخيانة، وضياع الهيبة. ولكن الهيئة تعرف أن الانتداب (قسم 2) يراد به السير بالشعوب ذات الشأن إلى الاستقلال. وإذا لم يكن ثمة ريب في أن على بريطانيا واجبا أدبيا في حماية اليهود الذين دخلوا فلسطين، فان أولئك اليهود لا يقيمون أي دليل على انهم يستميلون أهل البلاد، فهل تحمل بريطانيا في مثل هذه الحالة واجبها إلى الأبد؟

وإذا القي مثل هذا الاقتراح إلى عصبة الأمم فهي إما أن ترد بان تطلب إلى بريطانيا استئناف سياسة الانتداب، وهنا تستطيع الدولة المنتدبة أن تضع بنفسها شروطها، وأما أن تقبل العصبة نزول بريطانيا عن الانتداب. ولو قبلت العصبة هذا النزول فماذا يكون؟ هل في ذلك ما يضير الإمبراطورية البريطانية؟ إن الصهيونيين يتحدثون كثيرا عن أهمية فلسطين للدفاع عن قناة السويس، ولكن الدفاع عن القناة إنما يكون على يد القوى المعسكرة على ضفافها، ثم يقولون إن ميناء حيفا الذي افتتح منذ أسابيع سيغدو قاعدة عظيمة للأسطول البريطاني. ولكن أين هي القوات البحرية التي يمكن أن تهاجم الأسطول البريطاني في مياه الليفانت؟ والخلاصة أن الحاجة اشد ما تدعو إلى انتهاج سياسة عملية حقيقية في الشرق الأدنى. فقد خرجت العراق من الدائرة الإمبراطورية، وما اتخذ هنالك من الإجراءات لضمان المواصلات الجوية يمكن اتخاذه في أي مكان آخر، وسوف تحذو سورية عاجلا أو آجلا حذو العراق. والبلاد العربية في تقدم، وهذا التقدم يزيد المسألة الفلسطينية تعقدا، فإذا لم يمكن الاحتفاظ بالانتداب طبق شروطنا المعدلة، فليس من الحكمة أن نحتفظ به. فلسنا بسياستنا الحاضرة نكسب عرفان اليهود ولكنا نكسب غضب العالم الإسلامي، والعالم العربي بوجه خاص.

التفاؤل والتشاؤم وهل لهما أسباب تاريخية؟

بعض غرائب الخرافات عند الغربيين والشرقيين

على الرغم من انتشار الحضارة في مدن الغرب والشرق وتأصل المدنية والمعرفة فيهما منذ عشرات السنين فلا يزال الكثيرون في بعض مناحي تفكيرهم واعتقاداتهم مقيدين بأغلال خرافية يؤمنونبالتفاؤل والتشاؤم على نفس النمط الذي كان يعتقد به من عاشوا في عصور ما قبل التاريخ وبعده.

ما اعجب هذا الإنسان. .! خضعت له عناصر الطبيعة وطمأنت من كبريائها أمام جبروته، ودفع بسفينته إلى المحيطات الثائرة تشق عبابها آمنة لا تهاب غدرها، وبعقله الجبار دانت له العلوم وتفتحت الأسرار، ومع ذلك ما زال هذا الإنسان على ما بلغ منسيادة ومدنية وحضارة وثقافة يستمسك ببعض الأوهام الخرافية التي استمسك بها أسلافه وقد كانوا اقل منه حضارة وتعلما واستنارة، وسيظل عبدا لها مهما قرأ وتثقف.

إن الحضارة لن تقضي على الخرافات مطلقا، وكل ما هنالك أن الناس يستبدلون خرافة بخرافة تحت ضغط المدنية، ولكنالأساس واحد والأصل لا يتغير.

من العجب أن الغربيين يعتقدون أن الشرق (مهد الخرافة) وان أهله هم اكثر الشعوب تعلقا بالخرافات وإيمانا بها، ويعزون هذا التعلق وذاك الإيمان إلا أن هؤلاء لا يزالون في ضلالات الجهل. ومعنى ذلك أن الغرب بما وصل إليه من الحضارة ورقي العلم والأدب قد تجرد عن مثل هذه الأوهام، ولكن الواقع غير ذلك فما زال قوم منهم من أرقى الطبقات يعتقدون أحط الخرافات التي لا تقوم على أساس علمي.

ولئن صدق هؤلاء المتقولون وانتحلوا للشرقيين عذرا من الجهل فماذا يقولون عن أنفسهم وهم الذين يدعون سيادة الشرق استنارة وحضارة. . .؟!

فقد سألت إدارة إحدى كليات المعلمين لمقاطعة (ونكونسن) الأمريكية 488 طالبا أن يذكروا الخرافات التي يعرفونها والتي سمعوا بها، فأجمعت ردود الطلبة على خرافات

بلغت زهاء 1225 خرافة.
وهناك في الغرب طائفة من الكتب بمختلف اللغات مقصورة على البحث في الخرافات والمعتقدات المختلفة.
يقول الدكتور كلارك ويسلر وهو من العلماء العاملين في متحف التاريخ الطبيعي في نيويورك: (يظهر أن المدنية وقد درجت وتطورت من مهد الجهالة لا زالت ذات صلة بطريقة التفكير التي تسيطر على العقول البدوية في الجاهلية الأولى، فالسحر والخرافات يلعبان الى الآن دورا كبيرا في الحياة العصرية).
ويقول أحد علماء النفس من الفرنسيين: (إن الخرافات لم تنج منها أمة في الزمن الغابر ولا في العصر الحاضر وإن تأصل عادة التفاؤل أو قلة ظهورها لا علاقة لها بحالة الشعوب ومبلغ رقيها وتقدمها في الحضارة.)
ووجه الدكتور ا. باودن مدير كلية المعلمين بولاية (مكسيكو) الجديدة بالولايات المتحدة وأحد كبار علماء النفس الأمريكيين سؤالا إلى جمهرة من الناس ولفيف من المعلمين هذا نصه:
إذا كنت ذا تعلم جيد وصحة طيبة تشتغل بجد وضميرك مرتاح. . . أتظن أن هناك قوة تحيد بك عن سوى الصراط وتميل بك قسرا إلى تغيير سبيلك المرسوم؟) فكانت إجابة 77 في المائة من تلك الجمهرة من الناس (نعم) و 62 في المائة من المعلمين.
فزهاء ثلثي الأمريكيين تقريبا من المعلمين يؤمنون بالتفاؤل والتشاؤم.
إن للبيئة والإقليم والدين شيئا من التأثير في الطباع وفي الأجسام، ولكن التأثير الأعظم للوراثة.
للخرافات الشائعة أصول تتفق وعقلية الإنسان الأول، وسبيلنا إلى فهمها أن نعرف أحوال المتوحشين الآن وعقائدهم وكيفية تعليلهم للأشياء والحوادث، لأن المشابهة تكاد تكون تامة بين المتوحش الذي يعيش الآن في أواسط أفريقيا واستراليا، وبين الإنسان الأول، بل يمكننا أن نقول إن المتوحشين هو أسلافنا المعاصرون الآن.
إن معظم الخرافات التي ترجع إلى التفاؤل والتشاؤم ليست كلها ناشئة عن أسباب تاريخية وحوادث وقعت في الأزمنة الماضية، فكم من خرافات عاشت دهورا بلا سبب، ويرجع هذا إلى ما جبل عليه الإنسان من سرعة تصديقه بكل ما يسمعه.
لا تجد أمة تخلو من اعتقادات خرافية راسخة في عقول أهلها ولكن بعض الخرافات تكاد تكون شائعة بين معظم الشعوب، وقد جمعنا في هذا المقال من أوثق المصادر طائفة من
الخرافات الكثيرة الشيوع مع تعليل اصلها وفقا لآراء الباحثين.
البوم
أول ما يلفت النظر من الخرافات هو البوم، فمعظم الناس يتشاءمون منه، ويقولون إن رؤيته تجلب المصائب وتجر النوائب، فهو طائر الشؤم وناعي الخراب، وان الأوربيون يتشاءمون من صوت البوم ويتطيرون منه أيضا. فالمشهور عنه انه يتخذ الأماكن الخربة المهجورة والمحال المظلمة مأوى له، ولذلك قرنت في ذهن الإنسان صورة الخراب مع البوم، ومن هنا نشأ التشاؤم، وهو يقيم في الأماكن الخربة ليأكل ما يجده من الفيران والجرذان والحشرات والبعوض وغيرها.
إن البوم غالبا يعشش في أجواف الأشجار، ولكن بعضها يعشش بين الصخور وعلى الرمال وفي البيوت الخربة ومن ذلك قول بعضهم:
يا قصر جمع فيك الشؤم واللؤم ... متى يعشش في أركانك البوم
ومن أنواع البوم الهامة وهي مشهورة في قصص العرب؛ والصدى وهو الوارد في قول توبة:
ولو أن ليلى الاخيلية سلمت ... عليّ ودوني جندل وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة أو زقا ... إليها صدى من جانب القبر صائح
وقد جاء في كتاب سراج الملوك إن عبد الملك بن مروان أرق ليلة فاستدعى سميراً له يحدثه، فكان فيما حدثه به أن قال يا أمير المؤمنين (كان بالموصل بومة وبالبصرة بومة، فخطبت بومة الموصل إلى بومة البصرة بنتها، فقالت بومة البصرة: لا افعل حتى تجعل لي صداقها مائة ضيعة خراب، فقالت بومة الموصل: لا اقدر على ذلك الآن ولكن إن دام والينا سلمه الله علينا سنة واحدة فعلت لك ذلك.)

الغراب
ومن الخرافات الشائعة التشاؤم من الغراب، ويعرف في الشام بالزاغ والقاق، وفي العراق بالزاغ والغراب.
وكان الرومانيون يقولون: إذا طار الغراب عن يسار إنسان أنبأ بالشر وجلبه عليه. وانه يسبق المقاتلين إلى ساحة الوغى ينتظر وقوع القتلى. وإذا طار فوق بيت فلا بد أن يموت أحد فيه. وإذا وقع به أذى انتقم ممن آذاه ولو بعد موته. وكثيرون من الإنجليز يعتقدون أن نجاحهم في الدنيا نتج عن حمايتهم لغراب عشش في بستانهم، وانه إذا قتل قصدا فلا بد أن يموت أحد من الأسرة على اثر ذلك. ويقول أهالي اسوج إن الغربان التي تنعق في المستنقعات ليلا هي أرواح القتلى الذين قتلوا غيلة، ولذلك حمي الغراب من الأذى في كثير من البلدان الشمالية.
وكان العرب يتشاءمون من الغراب، قال أبو الفرج المعافى ابن زكريا في كتاب الجليس والأنيس: (كنا نجلس في حضرة القاضي أبي الحسن فجئنا على العادة فجلسنا عند بابه وإذا إعرابي جالس كانت له حاجة فوقع غراب على نخلة في الدار فنعب ثم طار، فقال الإعرابي: إن هذا الغراب يقول أن صاحب هذه الدار يموت بعد سبعة أيام، قال فزجرناه فقام وانصرف ثم خرج الأذن من القاضي إلينا، فدخلنا فوجدناه متغير اللون مغتماً، فقلنا له مالخبر؟ قال رأيت البارحة في النوم شخصاً يقول:
منازل عباد بن زيد ... على أهليك والنعم السلام
وقد ضاق صدري لذلك. فدعونا له وانصرفنا، فلما كان في اليوم السابع من ذلك اليوم دفن)
قال القاضي أبو الطيب الطبري: سمعت هذه الحكاية من لفظ شيخنا أبي الفرج المذكور.
وقال يعقوب بن السكيت: (كان أمية بن أبي الصلت وهو شاعر مسيحي مشهور من فحول شعراء الجاهلية، في بعض الأيام يشرب، فجاء غراب فنعب نعبة، فقال له أمية: بفيك التراب! ثم نعب أخرى فقال له أمية: بفيك التراب! ثم اقبل على أصحابه وقال: أتدرون ما يقول هذا الغراب؟ زعم أني اشرب هذه الكأس فأموت، وأمارة ذلك انه يذهب إلى هذا الكوم فيبتلع عظما فيموت. قال فذهب الغراب إلى الكوم فابتلع عظما فمات، ثم شرب أمية الكأس فمات من حينه)، وهذه الحكاية من أقاصيص العرب.
والتشاؤم من الغراب ربما يرجع إلى سواده، والسواد رمز للحزن حتى أن العرب يسمون السود منهم (أغربة العرب) مثل عنترة وغيره؛ ويقول محيط المحيط: إن الحاتم أي الغراب الأسود سمي كذلك لأنه يحتم بالفراق في اعتقاد العيافة، وزاد على ذلك قوله: إن الغراب سمي غراب البين لأنه إذا بان أهل الدار للنجعة وقع في موضع بيوتهم فتشاءموا به
وتطيروا منه، فقالوا في المثل أشأم من الغراب إذ كان لا ينزل منازلهم إلا إذا بانوا (أي بعدوا) عنها. وربما يرجع أيضا إلى علاقة لفظية بين اسمه وبين الغربة والغراب أي النزوح عن الوطن والأهل والأحباب.
وعلل الجاحظ تطير العرب من الغراب في كتاب الحيوان فقال: (وأصل التطير إنما كان من الطير إذا مر بارحا أو سانحا (أي عن اليمين أو عن اليسار) ورآه المتطير يتفلى أو ينتف ثم صاروا إذا عاينوا الأعور من الناس أو البهائم أو الأعضب أو الأبتر زجروا عند ذلك وتطيروا كما تطيروا من الطير، فكان زجر الطير هو الأصل اشتقوا منه التطير ثم استعملوا ذلك في كل شيء، والغراب لسواده إن كان اسود، ولاختلاف لونه إن كان أبقع، ولأنه غريب يقطع إليهم، ولأنه لا يوجد في موضع خيامهم يتقمم إلا عند مباينتهم لمساكنهم ومزايلتهم لدورهم، ولأنه ليس من شيء من الطير اشد على ذوات الدبر من ابلهم من الغربان؛ ولأنه حديد البصر قالوا عند خوفهم من عينيه الأعور، كما قالوا غراب لاغترابه وغراب أبي لأنه عند بينونتهم يوجد في دورهم.
وقال ولإيمان العرب بباب الطيرة عقدوا الرتائم وعشروا (أي نهقوا عشر مرات) إذا دخلوا القرى تعشير الحمار. والغراب اكثر من جميع ما يطير به في باب الشؤم. لكنهم لم يكونوا في ذلك سواء، بل نفى بعضهم التطير، قال سلامة بن جندل:
ومن تعرض للغربان يزجرها ... على سلامته لابد مشؤوم

وقال غيره:
يا أيها المزمع ثم انثنى ... لا يثنك الحادي ولا الشاحج
بينا الفتى يسعى ويسعى له ... تاح له من أمره ذائج

إبراهيم تادرس بشاي

فلسفة ديكارت

للأستاذ زكي نجيب محمود

تمهيد

وثبت الفلسفة في عهد الإغريق وثبة جريئة، كانت من غير شك شذوذا نابيا لا يستقيم مع طفولة العقل عندئذ، ولا يتفق مع سير الإنسانية الوئيد المتثاقل. وما ظنك بثلاثة من قادة الفكر وأفذاذهم البارزين الذين لا تزال فلسفتهم إلى هذا اليوم موضوعا للبحث والدرس، واغلب الظن أنها ستظل موضوعا للبحث والدرس إلى غد وبعد غد! ما ظنك بهؤلاء الجبابرة ينشرون تلك الفلسفة العالية وذلك الفكر الرفيع في أوساط من الناس يستحيل على عقولهم الفجة الساذجة أن تتسع لأشباهها، أو قل لا تدنو من عشر معشارها! ما ظنك بسقراط وأفلاطون وأرسطو، أولئك العباقرة الفحول ينتجون هذه الفلسفة في القرن الخامس قبل ميلاد المسيح، أي منذ خمسة وعشرين قرنا! لم تسغها العقول وقتئذ، إذ لم تقو على هضمها وتمثيلها، فكان طبيعيا أن يكون نصيبها الطي والإهمال، حيث استقرت في بطون أسفارها قرونا وقرونا، تنتظر العقل الناضج الرشيد، تنتظر هذه الإنسانية المتلكئة في سيرها حتى تسمو وترتفع إلى حيث هي، وعندئذ تستطيع أن تنشر صفحاتها المطوية وتخرج إلى شمس كنزها الدفين.

ولكنها وقفت تنتظر حينا طويلا من الدهر حتى سئمت الانتظار! وحق لها أن تمل وتسأم، فقد أقبل الناس على عصر بل عصور، اصطلح المؤرخون على أن يطلقوا عليها اسم العصور الوسطى كانت مظلمة شديدة الظلام، تتخبط في ديجور من الجهل، لا يكاد ينفذ فيه قبس واحد من نور، كأنما أصاب الدهر سنة من النوم أو إغفاءة من السهو، فبدل في مواضع الأزمان، حيث قدم ما كان يجب أن يؤخر، وأخر ما يجب أن يقدم!! في تلك العصور سيطرت الكنيسة على العقول إلى أقصى حدود السيطرة، وحرمت على الناس كل ضرب من ضروب التفكير الحر الطليق، كما حضرت عليهم كل دراسة لا تمت إلى الدين بسبب وثيق. اسمع إلى البابا غريغوري الأكبر، رئيس الكنيسة الأعلى، كيف ينحو باللائمة المرة، والتقريع اللاذع، على رجل من رجال الدين، وشى به إليه انه يصرف شطرا من زمنه في قراءة الآداب القديمة فيقول:

(لقد وصل إلى علمنا ما نخجل لذكره، ذلك انك تدرس الآداب القديمة لأصدقائك فامتلأ قلبنا غضبا منك، وازدراء بك، وحسرة عليك، فان لسانا ينشد مديح المسيح، لا يستطيع أن يتغنى بالأدب القديم)

ولكن هيهات أن تصاب الإنسانية بالجمود دون أن تمضي في سبيلها قدما، لا تتقهقر خطوة إلا لكي تتحفز للوثوب الفسيح، فبالرغم من هذا الستار الصفيق الذي اسدلته الكنيسة في العصور الوسطى دون العقول، لتحول بينها وبين التفكير في مظاهر الوجود، فقد نفذ إلى النفوس بصيص من نور، فساورها القلق من هذا الاستسلام المطلق للكنيسة ورجالها. وهنا بدأ الشك يتسرب إلى العقيدة الراسخة شيئا فشيئا، حتى قال (ابيلار) في جرأة الثائر: (يجب إلا نؤمن بمذهب لأنه من عند الله، بل لأن الدليل العقلي قائم على صحته. فان الشك يدعونا إلى البحث، والبحث يوصلنا إلى العلم الصحيح)

ثارت النفوس إذن ثورة عنيفة هدامة، وتناولت بالتحطيم تلك الأغلال الثقيلة التي فرضتها عليهم الكنيسة فرضا؛ والتي كبلت عقولهم حينا طويلا، فحبست عنها الحياة والنور: وكانت فورة الغضب حامية جارفة، اكتسحت أمامها الحدود والسدود، وقوضت العقائد المتأصلة في النفوس، وزلزلت بمعول الشك تلك الآراء التي بلغ يقينها درجة تدنو من التقديس. كانت العصور الوسطى تفرض على ساكنيها التسليم بكل شئ، فجاءت هذه النهضة الفكرية تحتم الشك في كل شئ::

ولم يكن ذلك الشك هداما وكفى، لم يكن يريد أن يقوض البناء، ثم يهمل أنقاضه مركومة بغير تشييد، كلا بل أراد أن يهدم باطلا ليقيم صرح الحق قويا متينا. ذلك ما

قصدت إليه الفلسفة في فجر العصر الحديث، ولكن أين عساها أن تجد اللبنات التي تقيم بها ذاك الحصن الجديد؟ أتلتمس ذلك في فلسفة العصور القديمة، أم تلتمسه في فلسفة العصور الوسطى؟ لقد مزجت بينهما جميعا، وكان لها من هذا المزيج ما تريد. فقد كان القدماء ينشدون الحكمة الفلسفية، أو أن شئت فسمها حكمة دنيوية، وكان أهل العصور الوسطى يبحثون عن الحكمة اللاهوتية، فجاءت الفلسفة الحديثة واعترفت بالمطلبين، ثم ألفت بينهما، واتخذت منهما غرضا واحدا. فكان لابد لها أن تأخذ بالحياتين الأولى والآخرة في وقت معا. لابد لها أن تميل بأسرها نحو هذه الحياة الواقعة، وأن تتجه بكليتها نحو الغريب المرقوب على السواء.

فقد كانت الوثنية الأولى تعتد بالعالم الكائن فحسب، وكانت مسيحية العصور الوسطى تعنى بالعالم الآخر فحسب، ثم تبع ذلك مرحلة انتقال ظهرت فيها النزعتان جنبا إلى جنب: النزعة الوثنية المطبوعة بالطابع الدنيوي، والنزعة الدينية الزاهدة في الحياة الدنيا، ثم جاء العصر الحديث فكان ما أسلفنا من تآلف بين الوجهتين،، وجمع كل رجل في نفسه كلا الجانبين. وذلك إنما يكون بأن نخلق من روحك عالما تعيش فيه عيشة مطمئنة راضية، لا تقف عند الحياة الدنيا محصورا في حقائقها المحسة الضيقة، وكذلك لا تقصر نفسك على الحياة الروحية، فتمر عليك الحياة، أو على الأصح تمر أنت على الحياة، دون أن تشق عبابها وتخترق غمارها. لا تنصرف بالأولى عن الآخرة، ولا تصدفنك الآخرة عن الأولى. لا تعن بالجسد وتهمل الروح، ولا تعن بالروح وتزدري الجسد، بل أجمع بينهما في وحدة متآخية، وأنا أظن أن ذلك ما يدعو إليه الإسلام في الحديث النبوي الشريف: أعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، وأعمل لأخرتك كأنك تموت غدا. . . مزج بين الروح والمادة، بين الدين والدنيا.

نعم ينبغي ألا تكون ماديا فتنكر هذه القوة التي يفيض بها الوجود، كما يجب ألا تكون صوفيا زاهدا، يزوّر عن هذه المادة التي تملأ جوانب الكون. ولتكن (أيها الإنسان) موضعا يتصافح عنده الطرفان المتخاصمان، ونقطة يلتقي لديها الشطران النقيضان. . . ألست تريد أن تمجد الطبيعة المادية إلى أقصى حدود التمجيد، مفتونا بدقائقها المتناغمة؟ ثم ألا تريد أن تكون مع ذلك لاهوتيا يعبد الروح الأعلى الذي يستغرق الوجود بقوته؟ أو بعبارة جلية موجزة، ألا تريد أن تسرح فكرك في الطبيعة وما فوق الطبيعة على السواء؟ أذن فأبحث الإنسان: تناول الإنسان بالتحليل والدرس، فهو جماع الحكمتين، وملتقى الجانبين. التمس عنده الطبيعة المادية في أدق ترتيب وأحكم تصوير، والقوة الروحية في أروع مظاهرها وأسمى مجاليها. أنه الإنسان الذي أنزله الله في الأرض، ليكون لسانا ناطقا بحكمته، وترجمانا يفصح عن قوته، ورسولا أمينا يصل ما بين الله والعالم المادي، وأذن فقد بات طريق الفلسفة واضحا معبدا. . . فإذا أرادت الحق، فلتبدأ سيرها من النفس، نفس الإنسان، ثم تسلك سبيلها، راسخة القدم موطدة اليقين، حتى يصل بها البحث إلى معرفة الله والعالم المادي. . . لقد انعكس الوضع، وانقلب المنطق نتيجةً لمقدمة، فقد كانت الفلسفة في بادئ أمرها. تفتح سيرها ببحث القوة والمادة، أعني الله والطبيعة، لكي تنتهي إلى الإنسان؛ أما الآن فهي تبدأ جهادها بدراسة النفس الإنسانية ثم تنتقل منها إلى العالم الخارجي.

بذلك الشك حطمت الفلسفة الحديثة كل ما نزل عند القدماء منزلة اليقين، وعلى هذا الأساس الجديد من توحيد المادة والروح في الإنسان، واختصاصه بالبحث أولاً، ثم الانتقال منه إلى العالم الخارجي، قام البناء الجديد.

وكان أول من وطد ذلك الأساس وشيد عليه البناء فيلسوفنا رنيه ديكارت فلسفته

1 - العقل يثبت وجود نفسه:

أن هذا الرأس الصغير الذي تحمله فوق منكبيك، ليفيض بالآراء ويزدحم بالعقائد، وتعمره شتى المعلومات، التي تقطر إلى ذهنك من هنا وهناك. فهذه الطائفة من المعارف قد رأيتها بعينيك وتلك سمعتها بأذنيك، وثالثة لم تسلك إلى ذهنك طريق الحواس، ولا أوحي إليك بها إنسان آخر، إنما نبعت من نفسك الباطنية، فأنت توقن ولا ريب أن النار محرقة لأنك لمستها بيديك، ولا يخامرك شك في أن رجلا أسمه نابليون

كان يعيش في أوائل القرن التاسع عشر، لأن إجماع الرواة يؤكد ذلك، ولا تتردد في أن تحكم بأنك ما دمت موجودا في حجرتك، يستحيل أن تكون أنتفي نفس الوقت جالسا في المقهى، لأن عقلك يعلم ذلك بالضرورة. . . وهكذا تستطيع أن تستعرض معلوماتك جميعاً، فتراها قد سلكت إليك هذا الطريق أو ذاك، فهي إما نفذت إليك من الخارج بواسطة الحواس، أو لدنية نبعت من ضرورة عقلية، ومع ذلك فكثرتها الغالبة تقع عندك موقع اليقين الذي لا يحتمل الشك والجدل.

ولكن ألا يجدر بك أن تثوب إلى نفسك فتعسر معها الحساب على هذا الاطمئنان السريع والتصديق العاجل بصحة هذه الحقائق مع أنها قد تكون خطأ كلها؟ أليست هذه الحواس التي تركن إلى أمانتها، خادعة في كثير من الأحيان، فتوهمك مثلا أن القمر لا تعدو مساحته القرص الصغير، وهو ليس كذلك؟ وهذا العقل الذي تعتمد على أحكامه، ألا يقدم لك صورا وأفكارا بعضها وهم خاطئ؟ هذا صحيح لا ريب فيه. فأفرض منذ الآن أن تطمئن

إلى ما يقدمانه إليك من الحقائق، تقبلها بالشك ولا تجزم بصحتها، وإذن فهذه معلوماتك جميعا قد هدمت من أساسها. . . فما يدريك أن هذه الأجسام المادية موجودة حقيقية؟ وما يدريك أن الله موجود؟ ثم ما يدريك أنك أنت نفسك موجود؟ ستقول العقل أو الحواس: كلا، لا تفعل. فقد تبين لك أنهما كثيرا ما يكونان مبعث الخطأ والزلل، ولا يحتمان الحق واليقين. . إذن فلا تتردد في أن تنزع من نفسك جميع العقائد والآراء والأفكار، وأفرض أن كل ما يصادفك باطل ليس له وجود، ولا تصدق ما تمدك به الذاكرة الكاذبة والحواس الخادعة؛ وأدَّع أن الجسم والصورة والامتداد والحركة والمكان كلها من خلق الخيال. فما الذي يبقى من الحق بعد؟ لا شئ: اللهم ألا حقيقة واحدة، ستصمد لهذا الشك الجارف، وتظل ثابتة لا تميل أمام عاصفة الأفكار والجمود، لا بل تزداد يقينا كلها أمعنت في الشك والإنكار، تلك هي أن هناك شخصا يشك!. . أرفض الحقائق، وشك في صحتها ما وسعك الرفض والشك ولكنك لن تستطيع أن تشك في أنك تشك.

نعم مهما شككت فلست أنكر أني أشك، ولما كان الشك ضربا من ضروب التفكير، أذن فلا شك أني أفكر. وبديهي أي لو لم أكن موجودا لما فكرت، وأذن فأنا موجود وليس في وجودي شك

تلك هي القاعدة الأساسية التي اتخذها ديكارت أساسا قديما (أنا أفكر فأنا إذن كائن) أقام عليه فلسفته بأسرها. ويلاحظ أن إثبات الوجود هنا لا ينصب إلا على العنصر المفكر من الإنسان ولا يتعداه إلى الجسم، ذلك لأنه أثبت وجوده بناء على وجود تفكيره، أي عقله، ولم يقم الدليل بعد على وجود الجسم. ولكن مالنا وللجسم الآن؟ هانحن أولاء قد حصلنا على العقل وأيقنا بوجوده، وهو أساس المعلومات جميعا، وحسبنا ذلك لنهتدي عن طريقه إلى معرفة الحقائق التي ننشد، وهكذا بدأ ديكارت بالشك إلى حيث انتهى إلى اليقين. وقد قال قائل: (كلما فكرت ازددت شكا) فعارضه ديكارت بقوله: (بل كلما شككت ازددت تفكيرا، وازددت بالتالي يقينا بوجودي).

حقا لقد انتزع ديكارت من غمار الأنقاض التي ركمها الإنكار والشك، يقينا لا يأتيه الباطل، ذلك أنه هو موجود لا ريب في وجوده. ثم يقرر أن كل حقيقة يستطاع إثباتها بمثل هذا اليقين القاطع، لا يجوز له أن يتردد في اعتبارها حقا لا يقبل الشك. ثم يستطرد قائلا أن

الإنسان يخرج إلى هذا العالم وفي فطرته طائفة من هذه الحقائق اليقينية الثابتة التي تحتمل الإنكار أو الشك، وهي لا تأتي عن طريق التحصيل، كالحقائق الرياضية مثل2و2 تساوي4، فهذه حقيقة مؤكدة، وليست تجيئك عن طريق الحواس، إنما هي مفطورة فيك منذ الولادة، وقل مثل ذلك في كل البديهيات العقلية كأن تقول أن الجزء أصغر من الكل وما إلى ذلك مما هو معروف معلوم.

إثبات وجود الله - 2

يتضح مما سبق أن ديكارت بعد أن أنكر كل شئ، عاد فأثبت وجود نفسه، ثم أتبع ذلك بالاعتراف بوجود بعض الحقائق الفطرية الثابتة، كالتي قدمناها مثلا. . . فنحن إذا زعمنا أن شيئا لا يستخرج من لا شيء، فإنما نقرر حقيقة لا تقل يقينا عن حقيقة وجود العقل المفكر، لأنها واحدة من تلك البدائة التي لا تحتمل الرفض والإنكار. إذ لا بد أن

يكون الفرع مستغرقا في أصله، والنتيجة في مقدمتها. ومن ذا الذي يستطيع أن يصدق أن الجبل الشامخ قد خرج من ذرة حقيرة، وأن البحر الخضم قد اشتق من قطرة صغيرة؟. يستحيل أن يكون ذلك لأن الذرة لا تلد إلا ذريرة أصغر منها، بناء على البديهية التي أسلفنا ذكرها وهي أن شيئا لا ينشأ من لا شيء

أذكر هذه البديهية جيدا، ثم أستعرض ما يحويه رأسك من صنوف المعارف، قلب النظر فيما يدور بخلدك من أفكار، فماذا ترى؟ ترى أن لكل فكرة أصلا أعم منها وأشمل، وهذا طبيعي لأن الصورة لا يمكن أن توضح أكثر من أصلها، أو قل تجيء على مثاله على أكثر تقدير، كذلك ترى أفكاراً فطرية نشأت معك منذ ولدت ولم تستمدها من العالم الخارجي. ولكنك في هذا البحث الذي تستعرض به أفكارك وتردها إلى أصولها، ستصادف بينها فكرة ممتازة، هي فكرة الكائن اللانهائي، أي أنك تتصور كائنا لانهاية له ولا حدود، فمن أين جاءتك هذه الصورة؟ يستحيل أن تكون قد سبقت من فطرتك، لأنها أوسع منك، فأنت على نقيضها كائن محدود، وبديهي - كما أسلفنا لك القول - ألا تجيء الصورة أشمل من أصلها، ومحال أن يتفرع شيء من لا شيء، وبالتالي محال أن يتفرع الكائن اللانهائي المطلق من كائن نهائي محدود. تستطيع أن تعترض على هذا القول بأن تزعم أنك قد تستخرج من الواحد الصحيح عداً لانهائيا بالطرح المستمر، فتسير في العد سلبا، ناقص واحد، ناقص اثنان، ناقص ثلاثه. . . . . ناقص لا نهاية. وبذلك تكون قد حصلت على عدد غير محدود من رقم محدود. ولكنك نسيت حين تقدمت بهذا الاعتراض، إنها عندئذ تكون سلبية، في حين أني أتصور لا نهاية إيجابية، كالمكان اللانهائي والزمان اللانهائي وما إليهما.

أتستطيع أذن أن تحدثني من أين جاءتك هذه الفكرة، بعد أن وثقت معي أنها لم تتفرع عن فطرتك؟ لا أحسبك مترددا في أن توافق ديكارت فيما ذهب إليه من أن هذه الفكرة اللانهائية الكاملة لا يمكن أن تنبعث عن الطبيعة البشرية الناقصة، بل لابد لها من أصل يوازيها كمالا وعظمة، لضرورة التكافؤ بين العلة والمعلول، ومن هنا أصبح حتما علينا أن نسلم بوجود اله جامع لكل صفات الكمال، وهو الذي خلق في الإنسان هذه الفكرة وألهمه إياها، وأذن فالله موجود وليس في وجوده شك.

3 - إثبات وجود العالم الخارجي

لقد رأيت فيما سبق كيف حمل ديكارت معول الشك، وقوض به كل فكرة ورأي، وأنكر الوجود بأسره، بل وأنكر نفسه، خشية أن يكون مخدوعا متورطا في خطأ أوحى به إليه فقابله بالتسليم، ثم سار في طريق المنطق السليم حيث انتهى إلى إثبات وجوده، ثم رتب على وجود نفسه وجود الله، وهاهو ذا يستنتج من وجود الله وجود العالم الخارجي. . . أليس الله هو ذلك الكائن اللانهائي، المطلق القوة، الذي لا تحده الحدود؟ أليس هو علة وجود نفسه وهو خالق الكون؛ أذن فلا ريب في أنه كائن كامل لا تشوبه شائبة من نقص، لأنه ما دام قادرا، مطلقا في قدرته، فمن الطبيعي أن يكون عمله مثلاً أعلى للكمال، لأن ذلك في حدود استطاعته، وما دام حائزا ضروب الكمالات المختلفة، فهو إذن متصف بالصدق الذي لا يخالطه ذرة من خداع، ومعنى ذلك أنه يستحيل على الله أن يكون سببا في تضليل الإنسان وخداعه. فقد منحنا عقلا مفكرا، وضمن لنا أن نصل به إلى معرفة الحق إذا أحسن استعماله، فلا نعتبر حقا ألا ما يحكم العقل بصحته حكما يقينا قاطعا لا يقبل الشك.

وإذن فقد أصبح من اليسر أن نقيم الدليل على وجود العالم الخارجي، فقد كنا شككنا في وجوده، لجواز أن تكون عقولنا خادعة تصور لنا الباطل حقا، فأما وقد أقمنا الدليل على وجود الله، وأثبتنا له جميع صفات الكمال، ومن بينها الصدق، فيجب ألا يعثر بنا الشك في وجود الكائنات الخارجية، إذ لو كانت وهمية، لترتب على ذلك أن يكون الله خادعا، لأنه هو الذي أمدنا بتلك العقول الخادعة، وهو الذي يصدر لنا جميع ما ندرك، وإذن فالعالم الخارجي موجود وليس في وجوده شك.

ولنوجز ما أسلفنا في حلقات منطقية متتابعة، نقول: أنا أفكر، فأنا موجود، وليس في وجودي شك. ومادمت أشتمل على فكرة الكائن اللانهائي، وهذه لا يمكن أن تشتق من طبيعتي المحدودة، فلا بد أن تكون ناشئة عن سبب خارجي يتكافأ معها، وهو الله.

ومادام الله حائزا لجميع ضروب الكمال، فيستحيل عليه أن يضللنا، ولابد أن يكون ما وهبنا من عقل أداة صالحة، وأن ما ندركه حق واقع، وإذن فهذا العالم الخارجي الذي تصوره لنا عقولنا موجود لا ريب في وجوده، وبعبارة أوجز، نقول إن ديكارت بدأ بإثبات نيته، ثم رتب عليها وجود الله، ثم استنتج من وجود الله وجود العالم الخارجي.

4 - ولكن ما هو لك العالم الخارجي؟ ومم يتكون؟ يحدثنا ديكارت أننا نستطيع أن نرد مظاهره إلى أصلين، أو فكرتين وهما الامتداد والفكر، أو بعبارة ثانية القوة والمادة. فهما شطران منفصلان لا يعتمد الواحد منهما على الآخر بأية حال من الأحوال، وهذا هو مبدأ ثنائية الوجود، أي شطر الكون إلى عنصرين متميزين، أما أحدهما وهو المادة وصفته المميزة هي الامتداد طولا وعرضا وعمقا، إذ لا نستطيع أن نتصور مادة بغير امتداد. وأما الثاني وهو العقل، فخاصيته المميزة هي الفكر، فهو يفكر تفكيرا متصلا لا ينقطع لحظة، كما ينبعث الضوء عن الشمس والدفء عن الحرارة. أي أنه في وعي مستمر دائم، حتى أن ديكارت لم يستطع أن يتصور الجنين وهو في أحشاء أمه بغير تفكير! ويظهر من هذا أن خلافا جوهريا يفصل بين شطري الوجود: المادة والروح، وبالتالي بين جسم الإنسان وعقله، فهما نقيضان مختلفان في الجوهر والعرض على السواء، وان كان ذلك كذلك، فكيف أمكن اتصالهما، وكيف يؤثر أحدهما على الآخر؟ هنا لا يتردد ديكارت في أن ينكر العلاقة بين عنصرين هما على أشد ما يكون التباين بينهما، ويعتقد أنها إرادة الله وحدها التي تشرف عليهما، وتدبر حركاتهما: فأما الجسم فخاضع لما تخضع له كل الأجرام المادية الاخرى من قوانين، وليس للعقل من القوة ما يستطيع بها أن يدفع الجسم إلى الحركة، اللهم إلا إذا وافقت إرادة الشخص إرادة الكائن الأعلى. إذن فالوجود عند ديكارت ينحل إلى عنصرين أساسيين، أو مادتين أوليتين، فكل أجزاء المادة، كائنة ما كانت صورها، مركبة من مادة متجانسة. وكل ما يحتوي عليه الوجود من قوة، أو بعبارة أخرى من روح، أو بعبارة ثالثة من عقل، فهو مركب من مادة متجنسة كذلك. ويشرف على العنصرين أو المادتين اله قادر حكيم.

ومما يجدر ذكره أن سبينوزا، وقد جاء على أثر ديكارت، لم يطمئن إلى هذا التقسيم الذي لا مبرر له، وصهر الجميع في وحدة متجانسة لا إنفصال فيها ولا اختلاف. وقد عجب من ديكارت، وتساءل: لماذا تقصر القوانين الآلية على الجسم وحده دون الروح؟ أما هو فلا يحجم عن أن يمد من نطاقها حتى تشمل العناصر الثلاثة: الله والعقل والمادة، استغفر الله، بل ليس ثمت عند سبينوزا من تثليث للعناصر، إنما الجميع عنصر واحد متجانس، يسير وفق قانون شامل لا يتبدل ولا يفنى.

جواب رسالة حزينة

للأستاذ مصطفى كامل

أترى في الناس أحداً ينفر من إنسان كان مريضاً بداء خبيث ثم بريء منه؟ وإن نفراً يقره الناس على هذا الخوف السخيف أم يستحمقونه؟ ثم مالفرق بين المرض الجسماني وبين السقطة الخلقية وكلاهما مرض قد يبرأ منه المريض؟

ثم ما ذنبه؟ أيمكن أن إنساناً يطلب المرض بمحض اختياره أم ترى أن المريض ضحية بائسة لا تتمنى على الله شيئا في الدنيا إلا البرء منه؟ ولو أن إنسانا ترك لمناه وهواه لما طلب إلا أن يكون صحيح الجسم سليم النفس

ثم ما فضل السليم على المريض أو الذكي على الغبي؟ وما فضل الكريم على اللئيم؟ هل يمكن أن يكون أحد من الناس من عمل نفسه، أم هو من عمل الأسلاف والبيئة والأجواء والتعليم والثروة وظروف الحياة؟ أليس الفرد نتاج ملايين من العوامل المتفاعلة التي تكوننا وتجعلنا في الصورة التي نحن عليها؟

أترى أحداً استطاع أن يكون ملكا ولم يرض، أو نبيا ولم يفعل؟ أو ثريا ولم يقبل؟

فوالله لو أن أمور الدنيا في مكنة الناس لكانوا ملائكة جميعاً

طبعت على ما فيَّ، غير مخير ... هواي، ولو خُيرت كنت المهذبا

كلما عرضت لي في أمور الحياة مثل حال هذه الفتاة، خطرت ببالي جملة رائعة ما أزال أذكرها (لبول بورجيه) في كتابه (التلميذ) قال: (أيمكن أن نحترم لاعب الروليت الذي يلعب عشر مرات متوالية على الأحمر والأسود، ألا إنما الفضيلة والرذيلة هما الأحمر والأسود، والفتاة الشريفة، واللاعب المحظوظ سواء في المواهب)

ألا إنما الفاضل من الناس فاضل بسبب الظروف التي عصمته، والمجرم من الناس مجرم بسبب الظروف التي أضعفته.
ولو أن المجرم وضع مكان العالم الورع الشريف وله نفس العوامل في الماضي، ونفس الحوادث في البيئة وأوضاع الحياة، لما كان إلا الرجل الفاضل الورع الشريف، ولو أن امرأة شريفة عرضت لها نفس عوامل المرأة التي سقطت لما ظلت امرأة شريفة، وإذن فما فضل إنسان على إنسان؟ الا أننا كلنا من عمل ما لا نملك في نفوسنا مما قد يرجع إلى ما قبل وجودنا.
لقد كنت في إحدى القهوات مرة، فلمحت مربياً معروفاً خالس الناس وأخفى بيبة منسية في جيبه، وهو مع ذلك رجل معروف كان يجب أن يكون له من تربيته حصانة فلا يتدنى، ومن رزقه حائل فلا يسفل، ولو لم يكن من ظروف هذا الرجل ما يحميه من الإسفاف لما كان إلا من طريدي القانون.
وإذن فما ذنب مريض قد مرض برغم انفه، ثم بعد ذلك قد بريء، ومع ذلك فما معنى أن نجعل الماضي رجسا للحاضر ودنسا للمستقبل، لقد مات هذا الماضي ولم تعد له من علامات الحياة وا أسفاه إلا ذكريات من عمل الرؤوس وخيالات النفوس.
ليمض هذا الصديق في حبه، فليس في الدنيا كافة ما يعدل القلب المفعم بالحب بهجة ولذة وسعادة، ولينبض قلبه بهذا الحب قبل أن تسكن نامته، وليملأ بيته وعشه الجميل قبل أن يوحش قبره، ولينعم حياته بالأمل والحب والجمال قبل أن تجف الحياة.
الشافعي واضع علم أصول الفقه
للأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرزاق. أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية الآداب
- 3 -
وكان الشافعي في أول أمره يطلب الشعر وأيام الناس والأدب. قال الشافعي: (وخرجت من مكة، يعني بعد أن بلغ قال: فلزمت هذيلا بالبادية أتعلم كلامها وآخذ اللغة وكانت أفصح العرب) ابن حجر ص50.
ثم توجه الشافعي إلى الفقه يدرسه وقد اختلفت الروايات في سبب توجهه إلى الفقه أو تكاد ترجع كلها إلى نصح الناصحين له: إن يصرف جهده وذكاءه في علم تكمل به سيادته من غير خطر على دينه ولم يكن يومئذ إلا الفقه سبيلا إلى ذلك
ويعبر عن روح الوقت من تلك الناحية: ما رواه الخطيب البغدادي في تاريخه عن أبي يوسف قال: قال أبو حنيفة: لما أردت طلب العلم جعلت أتخير العلوم وأسأل عن عواقبها فقيل لي: تعلّم القرآن، فقلت: إذا تعلمت القرآن وحفظته فما يكون آخره؟ قالوا: تجلس في المسجد ويقرأ عليك الصبيان والأحداث ثم لا تلبث أن يخرج فيهم من هو أحفظ منك أو يساويك في الحفظ فتذهب رياستك، قلت: فان سمعت الحديث وكتبته حتى لم يكن في الدنيا أحفظ مني، قالوا: إذا كبرت وضعفت حدثت واجتمع عليك الأحداث والصبيان ثم لم تأمن أن تغلط فيرموك بالكذب فيصير عاراً عليك في عقبك، فقلت لا حاجة لي في هذا، ثم قلت: أتعلّم النحو، فقلت: إذا تعلمت النحو والعربية ما يكون آخر أمري؟ قالوا تقعد معلما واكثر رزقك ديناران إلى الثلاثة، قلت وهذا لا عاقبة له، قلت: فان نظرت في الشعر فلم يكن أحد أشعر مني، ما يكون من أمري؟ قالوا: تمدح هذا فيهب لك ويحملك على دابة أو يخلع عليك خلعة، وأن حرمك هجوته فصرت تقذف المحصنات، فقلت: لا حاجة لي في هذا قلت: فأن نظرت في الكلام فما يكون آخره؟ قالوا لا يسلم من نظر في الكلام من شنعات الكلام فيرمى بالزندقة، فأما أن يؤخذ فيقتل، وأما بسلم فيكون مذموما، قلت: فأن تعلمت الفقه؟ قالوا: تسأل وتفتي الناس وتطلب للقضاء وإن كنت شابا، قلت: ليس في العلوم شيء أنفع من هذا، فلزمت الفقه وتعلمته) - تبييض الصحيفة - ص11و12
وتفقه الشافعي أول أمره على (مسلم بن خالد الزنجي) مفتي مكة سنة 180هـ 796م مولى بني مخزوم، وقد اختلف النقاد في أمر مسلم فقيل: ثقة وقيل ضعيف وقيل: ليس بشيء، وقال البخاري: منكر الحديث
ونقل: انه كان يرى القدر ولعل هذا هو سر تضعيفه
ويقولون: أن مسلم بن خالد الزنجي قال للشافعي: أفت يا أبا عبد الله فقد آن لك أن

تفتي، وكان الشافعي حينئذ دون عشرين سنة.
وأخذ الشافعي في مكة عن: (سفيان بن عيينة الهلالي) المتوفى سنة 198هـ 813م أحد الثقاة الأعلام، روي عن بعضهم: أنه اختلط سنة 197هـ 812م.
ثم رحل الشافعي إلى المدينة ليطلب العلم عن (مالك بن أنس) فقرأ الموطأ على مالك بعد أن حفظه عن ظهر قلب في مدة يسيرة وأقام بالمدينة إلى أن توفي (مالك) سنة 179هـ 795م.
وخبر رحلته إلى مالك مروي على وجوه مختلفة تتفق كلها في أن الشافعي كان فقيرا لا يملك نفقة السفر على فرط شوقه إلى الأخذ عن إمام دار الهجرة.
ثم يسر الله له أسباب الرحلة، وأحسن مالك لقاءه لما تفرس من نجابته وفضله.
وتلقى الشافعي في المدينة عن غير مالك كإبراهيم بن أبي يحيى الذي يقول الرازي: اتفقوا على أنه كان معتزليا.
وخرج الشافعي إلى اليمن بعد موت مالك.
قال الشافعي: لما مات (مالك) كنت فقيرا، فاتفق أن والي اليمن قدم المدينة فكلمه) بعض القرشيين في أن أصحبه فذهبت معه واستعملني في أعمال كثيرة وحمدت فيها الرازي ص 18 (والناس أثنوا علي.
وكادت الولاية تشغل بالشافعي عن العلم حتى نبهه بعض شيوخه فانتبه
قال الشافعي: كنت على عمل باليمن واجتهدت في الخير والبعد عن الشر، ثم قدمت المدينة فلقيت ابن أبي يحيى وكنت أجالسه، فقال لي: تجالسوننا وتسمعون منا فإذا ظهر لأحدكم شيء دخل فيه. ثم لقيت ابن عيينة فقال؛ قد بلغنا ولايتك فما أحسن ما انتشر عنك، وأديت كل الذي لله عليك ولا تعد
قال الشافعي رضي الله عنه: موعظة ابن عيينة أبلغ مما صنع ابن أبي يحيى - الرازي ص 20
وقد أخذ الشافعي عن جماعة من أهل اليمن منهم مطرف بن مازن الصنعاني المتوفى سنة 191هـ 806م
وقد كذبه يحيى بن معين وقال النسائي ليس بثقة، وقال غيره كان قاضي صنعاء، وكان رجلا صالحا وعمرو بن أبي سلمة المتوفى سنة 214هـ 829م وهو صاحب الاوزاعي
ويقولون إن الشافعي جمع كتب الفراسة من اليمن واشتغل بها حتى مهر فيها
ارتفع شأن الشافعي في اليمن (ثم أن الحساد سعوا إلى هارون الرشيد، وكان باليمن واحد من قواده فكتب إليه يخوّفه من العلويين وذكر في كتابه: إن معهم رجلا يقال له: محمد بن إدريس الشافعي يعمل بلسانه ما لا يقدر المقاتل عليه بسيف، فإن أردت أن تبقي الحجاز عليك فاحملهم إليك. فبعث الرشيد إلى اليمن وحملوا الشافعي مع العلوية إلى العراق) الرازي ص18.
وتلك هي المحنة التي اقتضت دخول الشافعي العراق. وفي حديث هذه المحنة اختلاف كبير وقد يكون أسلم هذه الروايات من الحشو وأدناها إلى الاعتدال والقصد: ما رواه ابن عبد البر في كتاب (الانتقاء) قال:
حمل الشافعي من الحجاز مع قوم من العلوية تسعة وهو العاشر إلى بغداد وكان الرشيد بالرقة، فحملوا من بغداد إليه وأدخلوا عليه ومعه قاضيه (محمد بن الحسن الشيباني) وكان صديقا للشافعي وأحد الذين جالسوه في العلم وأخذوا عنه فلما بلغه أن الشافعي في القوم الذين أخذوا من قريش بالحجاز واتهموا بالطعن على الرشيد والسعي عليه، اغتم لذلك غما شديدا: وراعى وقت دخولهم على الرشيد قال: فلما أدخلوا على الرشيد سألهم وأمر بضرب أعناقهم: فضربت أعناقهم إلى أن بقى حدث علوي من أهل المدينة وأنا، فقال للعلوي: أأنت الخارج علينا والزاعم أني لا اصلح للخلافة؟ فقال العلوي: أن أدعى ذلك أو أقوله قال: فأمر بضرب عنقه، فقال العلوي: أن كان لابد من قتلي فأنظرني أكتب إلى أمي بالمدينة فهي عجوز لم تعلم بخبري، فأمر بقتله فقتل.
ثم قدمت و (محمد بن الحسن) جالس معه فقال لي مثل ما قال للفتى فقلت: يا أمير المؤمنين لست بطالبي ولا علوي وإنما أدخلت في القوم بغياً علي؛ وإنما أنا رجل من بني المطلب بن عبد مناف بن قصيولي مع ذلك حظ من العلم والفقه والقاضي يعرف ذلك. وأنا محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان ابن شافع بن السائب بن عبيد بن

عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف. فقال لي: أنت محمد بن إدريس؟ فقلت: نعم يا أمير المؤمنين قال: ما ذكرك لي محمد بن الحسن ثم عطف على محمد بن الحسن فقال: يا محمد ما يقول هذا هو كما يقوله؟ قال: بلى وله من العلم محل كبير، وليس الذي رفع عليه من شأنه، قال: فخذه إليك حتى أنظر في أمره، فأخذني محمد وكان سبب خلاصي لما أراد الله عز وجل منه ص - 97 - 98.

ويقول ابن حجر في كتاب (توالي التأسيس) ص71 (وأما الرحلة المنسوبة إلى الشافعي المروية من طريق عبد الله محمد البلوي فقد أخرجها (الابرى) و (البيهقي) وغيرهما مطولة ومختصرة وساقها (الفخر الرازي) في مناقب الشافعي بغير إسناد معتمدا عليها وهي مكذوبة وغالب ما فيها موضوع، وبعضها ملفق من روايات ملفقة، وأوضح ما فيها من الكذب، قوله فيها: أن أبا يوسف ومحمد بن الحسن حرضا الرشيد على قتل الشافعي، وهذا باطل من وجهين: أحدهما أن أبا يوسف لما دخل الشافعي بغداد كان مات ولم يجتمع به الشافعي

والثاني أنهما كانا أتقى لله من أن يسعيا في قتل رجل مسلم لاسيما وقد أشتهر بالعلم، وليس له إليهما ذنب إلا الحسد على ما آتاه الله من العلم، هذا ما لا يظن بهما وان منصبهما وجلالتهما، وما أشتهر من دينهما ليصد عن ذلك.

والذي تحرر لنا بالطرق الصحيحة: أن قدوم الشافعي بغداد أول ما قدم كان سنة 184هـ800م. وكان أبو يوسف قد مات قبل ذلك بسنتين، وأنه لقي محمد بن الحسن في تلك القدمة، وكان يعرفه قبل ذلك من الحجاز وأخذ عنه ولازمه.

وممن أخذ عنهم الشافعي في العراق (وكيع بن الجراح بن مليح الرؤاسي أبو سفيان الكوفي الحافظ) المتوفى سنة 190هـ 805 - 806م و (حماد بن أسامة الهاشمي الكوفي) المتوفى سنة 210هـ - 852م، و (عبد الوهاب بن عبد المجيد البصري) المتوفى سنة 194هـ 809 - 810م. وقد قرأ الشافعي كتب (محمد بن الحسن الشيباني المتوفى سنة 189هـ
م ولازمه وأخذ عنه805 - 804.

ولم نر فيما بين أيدينا من تراجم الشافعي ذكر مدة مقامه في بغداد في هذه القدمة. وقدم الشافعي بعد ذلك إلى بغداد سنة 195هـ 810 - 811م فأقام سنتين واشتهرت جلالة الشافعي رحمه الله في العراق وسار ذكره في الآفاق وأذعن بفضله الموافقون والمخالفون. وعكف عليه للاستفادة منه الصغار والكبار من الأئمة والأحبار من أهل الحديث والفقه وغيرهما، ورجع كثيرون منهم عن مذاهب كانوا عليها إلى مذهبه وتمسكوا بطريقته كأبي ثور وخلائق لا يحصون. . . . وصنف في العراق كتابه القويم ويسمى (كتاب الحجة) ويرويه عنه أربعة من جلة أصحابه وهم: أحمد بن حنبل، وأبو نور، والزعفراني، والكرابيسي) (شرح المذهب للنووي) ج1 ص9

ثم خرج الشافعي إلى مكة وعاد إلى بغداد في سنة 198هـ 813 - 814م وأقام بها أشهراً، ثم انه خرج إلى مصر في هذه السنة كما في معجم الأدباء ويقول ياقوت في موضع آخر (ويقال: إن الشافعي رضي الله عنه قدم إلى مصر سنة 199هـ 814 - 815م في أول خلافة المأمون وكان سبب قدومه إلى مصر أن العباس ابن عبد الله بن العباس بن موسى بن عبد الله بن العباس استصحبه فصحبه وكان العباس هذا خليفة لأبيه على مصر) ج6 ص 394. وفي شرح المهذب: (وقال الربيع قدم الشافعي (مصر) سنة مائتين ولعله قدم في آخر سنة تسع جمعا بين الروايتين)

وصنف كتبه الجديدة كلها بمصر وسار ذكره في البلدان وقصده الناس من الشام والعراق واليمن وسائر النواحي للأخذ عنه وسماع كتبه الجديدة) ص9

وفي ابن خلكان: (ثم عاد إلى بغداد سنة ثمان وتسعين ومائة فأقام بها شهراً ثم خرج إلى مصر وكان وصوله إليها سنة تسع وتسعين ومائة وقيل إحدى ومائتين)

وأقام الشافعي بمصر إلى أن مات سنة 204هـ و819 - 820م كان في آخر عمره عليلاً شديد العلة من البواسير حتى قالوا: أن صدره أصبح ضيقا، وأنه كان يقول أني لآتي الخطأ وأنا أعرفه يعني ترك الحمية

وفي كتاب (توالى التأسيس) لابن حجر: (قلت: قد اشتهر أن سبب موت الشافعي: أن فتيان بن أبي السمح المالكي المصري وقعت بينه وبين الشافعي مناظرة فبدرت من فتيان بادرة

فرفعت إلى أمير مصر فطلبه وعزره فحقد ذلك فلقي الشافعي ليلا فضربه بمفتاح حديد فشجه فتمرض الشافعي منها إلى أن مات ولم أر ذلك من وجه يعتمد) ص86
لم تقتل الشافعي شجة (فتيان) المزعومة إنما قتل الشافعي ما بذله من جهد عنيف في السنين الأربع التي أقامها بمصر ما بين تأليف وتدريس ومناظرة وسعي في بث مذهبه ومدافعة كيد خصومه، هذا إلى مرضه المنهك، وقد كان في ذلك العهد مصابا بنزيف من الباسور.
قال الربيع تلميذه: (أقام الشافعي ههنا أربع سنين فأملى ألفا وخمسمائة ورقة، وخرج كتاب (اللام) ألفي ورقة وكتاب (السنن) وأشياء كثيرة كلها في مدة أربع سنين، وكان عليلا شديد العلة. . .) ابن حجر ص83، وكان يلازم الاشتغال بالتدريس والإفادة في جامع عمرو. .
وكان يجلس في حلقته إذا صلى الصبح فيجيئه أهل القرآن فيسألونه، فإذا طلعت) الشمس قاموا وجاء أهل الحديث فيسألونه عن معانيه وتفسيره، فإذا ارتفعت الشمس قاموا واستوت الحلقة للمناظرة والمذاكرة. فإذا ارتفع النهار تفرقوا وجاء أهل العربية والعروض والشعر والنحو حتى يقرب انتصاف النهار ثم ينصرف إلى منزله (ابن حجر ص92
واخرج أبو نعيم من طريق ابن حسين البصري سمعت طبيبا مصريا يقول: ورد الشافعي مصر فذاكرني بالطب حتى ظننت أنه لا يحسن غيره، فقلت له أقرأ عليك شيئا من كتاب أبقراط فأشار إلى الجامع فقال أن هؤلاء لا يتركونني. ابن حجر ص66
وقد يكون الشافعي درس الطب فيما درسه من العلوم في العراق حينما جاءها أول مرة
وقد يكون درس علوم التنجيم أيضا هناك، وأنهم ذكروا أن الشافعي اشتغل بعلوم التنجيم؛ وكل ذلك يدل على ما كان شغف للإمام بالعلم كله.
وقد يكون هذا الجلوس المتوالي في الجامع من أسباب ما أصيب به الإمام من المرض. وذكر الأستاذ مصطفى منير أدهم في رسالته ورحلة الإمام الشافعي إلى مصر، أن أهل الإمام ذهبوا إلى الوالي في صباح الليلة التي توفي فيها، وكان الوالي هو محمد بن السري بن الحكم، وطلبوا إليه الحضور لتغسيل الإمام كما أوصى، فقال لهم الوالي: هل ترك الإمام دينا؟ قالوا نعم، فأمر الوالي بسداد ذلك الدين كله، ثم نظر إليهم وقال لهم هذا معنى تغسيلي له ص41.
وان صحت هذه القصة التي لم يذكر راويها لها استنادا فهي تدل على أن الشافعي خرج من الدنيا فقيراً كما دخلها فقيراً ولسنا نشك في أن الشافعي مات فقيراً، لكنا نشك في أمر استدانته، فقد روي ابن حجر في (توالي التأسيس) عن ابن أبي حاتم عن أبيه عن عمرو بن سواد السرحبي قال: قال لي الشافعي أفلست ثلاث مرات فكنت أبيع قليلي وكثيري حتى حلي ابنتي وزجتي ولم أستدن قط ص67.
وتزوج الشافعي (حميدة) بنت نافع بن عنبسة بن عمرو بن عثمان ابن عفان فولدت له (أبا عثمان محمدا) وكان قاضيا لمدينة حلب (وفاطمة) (وزينب).
في الأدب العربي
الطبيعة في شعر ابن خفاجة
- 4 -
ثم لاحظ في هذه المقطوعات أنه يتعرض للمكان الذي شرب عنده الخمر بالذكر، فيصفه ويصف الغمامة الدكناء والشمس المريضة. فإذا لاحظت ذلك فانك لابد واجد الاختلاف البين بين خمريات أبي نواس المطولة وبين خمريات ابن خفاجة القصيرة. فلعلك ترى أن ابن خفاجة لا يجعل الخمر ولا غيرها موضوعا يقول فيه الشعر، ولكنه يجعل مناظر الطبيعة ومتفرجاتها موضوعاً يتكلم عنه ويصفه، ثم يتعرض في أثناء وصفه إياه إلى الخمر الحمراء والى كؤوسها البيضاء بالوصف، ويتعرض إلى الساقي والشاربين بالذكر، فيكون من ذلك صورة قوم عاكفين على الشراب في أخريات النهار أو في رائعة الصباح على ضفاف الجداول في ظل الأدواح وبين العرار والاقاح.
هذا هو الفرق، تدركه حين تعلم أن أبا نواس كان مغرما بالخمر وان ابن خفاجة كان مغرما بالطبيعة، وان أبا نواس كانيقصد إلى الخمر قصدا فينشئ القصيدة فيها، وان ابن خفاجة كان يقصد الى الطبيعة قصداً فينشئ المقطوعة فيها، وحين تعلم أن أبا

نواس في خمرياته يقصد إلى خمارة البلد فيدخلها ويشرب ويصف مجلسه فيها والخمر التي يتناولها والكؤوس التي يرشف منها، وان ابن خفاجة كان يقصد إلى المتفرجات والمناظر فيصفها ويصف مجلسه فيها، وحين تعلم أن أبا نواس كان يشرب ويكثر من الشرب في الحانات أو في المنازل في كل وقت حتى يسكر وتميل به الكأس، وان ابن خفاجة لا يشرب إلا حين يدعوه جمال المنظر ورقة النسيم واعتدال الإقليم.

فأبو نواس حين يصف الخمر كابن خفاجة حين يصف الطبيعة، وابن خفاجة كأبي نواس في الإقلاع عن الخمر وفي التوبة عنها يحسنان وصفها ويجيدانه: فيقول أبو نواس:

وقلت لساقيها أجزها فلم أكن ... ليأبى أمير المؤمنين واشربا
فجوزها عني سلافا ترى لها ... إلى الأفق الأعلى شعاعا مطنبا
إذا عب فيها شارب القوم خلته ... يقبل في داج من الليل كوكبا

ويقول ابن خفاجة:

يا حبذا نادى المدام ومجتلي ... سر السرور به ومسلى الأنفس
ولئن كففت عن المدام فان لي ... نفساً تهش بصدر ذاك المجلس
لولا الحياء من المشيب لقبلت ... ثغر الحباب به وعين النرجس

فهو يتأوه ويقول: يا حبذا نادى المدام حيث السرور وحيث الطرب، ولئن كنت قد كففت عن الشراب وأقلعت عنه فأن لي نفساً تهش إليه مع الصدور، وتحن إليه على البعد، ولولا حيائي من المشيب لقبلت ثغر الحباب، وحضرت مجالس الأحباب، ويقول كذلك:

صحا عن اللهو صاح عافه خلقا ... فقام يخلع سربالا له خلقا
وعطل الكأس من شقراء سابحة ... ألا كفاها بريعان الصبا طلقا
ورب ليلة وصل قد لهوت بها ... مغازلا فلقا أو شاربا شفقا

فهو يقول: لقد صحوت عن اللهو وعفته. وقمت أخلع سرباله الخلق الرث، وقد عطلت الكأس من الخمر الشقراء بعد أن كانت في ريعان الصبا طليقة غير معطلة، ومقربة غير مبعدة، وموصولة غير مقطوعة: إلى هنا يمسك نفسه عن تذكر الماضي ولكنه بعد ذلك لا يرى بداً من ذكره فيقول، ورب ليلة قد أجتمع لي فيها خمر حمراء ووجه جميل، فكنت أقضيها بين مغازلة صباح وضاء، وبين رشف شفق أحمر.

وهو في القطعة الأولى جعل لأحباب ثغراً وأنه لولا المشيب لقبله، وفي القطعة الثانية شبه الخمر بالشفق الأحمر؛ والثغر والشفق منظران من مناظر الطبيعة.

هذا ما وعدناك به في هذا الفصل، فهل ارتحت إليه وهل أعجبت بشعر ابن خفاجة حين يذكر الخمر ويذكر معها جمال الوقت واعتدال الزمان فيسكرك بوصفه الخمر ويطربك بوصفه الطبيعة: (له رشفها دوني ولي دونه السكر)

وكأني بك تتمايل من شدة الطرب وتترنح من شعر ابن خفاجة كما ترنح العباس بن الأحنف حين سمع قول ابن الدمينة يتشوق إلى نجد:

إلا ياصبا نجد متى هجت من نجد ... لقد زادني مسراك وجداً على وجد

إذا كان ذلك فاسمع إذن هذه المقطوعة في الخمر:

ندى النسيم فما ارق وأعطر ... وهفا القضيب فما أغض وانظرا
فزففتها بكراً إذا قبلتها ... ألقت على وجهي قناعا احمرا
ورفلت بين قميص غيم هلهل ... ورداء قد تمزق اصفرا
والريح تنخل من رذاذ لؤلؤاً ... رطبا وتفتق من غمام عنبرا

الطبيعة في الغزل: -

قرأت قولنا في خمريات ابن خفاجة ورأيت أقواله في الخمر، ولابد لنا حتى تزول عنك تلك النشوة التي أصابتك من جمال وصفه ومن جودة تشبيهه من أن نورد على مسامعك هذه الأبيات:

وابتع بكيس كأس مشمولة ... واسحب ذيول اللهو واخلع وهب
واستضحك المجلس عن قهوة ... قد نبهت للصبح هدءا فهب
نارية اللذعة نورية ... في صفرة فاقعة أو صهب
وهز من عطفيك عن نشوة ... غضا إذا ما نفس الصبح هب
بأبيض كالماء مستودع ... ما شئته من أحمر كاللهب
لو ذاب هذا لجرى فضة ... أو جمدت تلك لكانت ذهب

فإذا صحوت من نشوتك فاصغ إذا شئت إلى قولنا في غزله والى وصفه الطبيعة في ذلك الغزل.

وانك بعد أن نورد على مسامعك غزله الرقيق ووصفه الأعضاء وتناسقها، والليالي وجمالها، والطيف وزيارته، ستجد في كل هذا وصفا للطبيعة لم يبلغه الكثير من أساطير الشعر. قال يتغزل:

فتق الشباب بوجنتيها وردة ... في فرغ أسحلة تميد شبابا
وضحت سوالف جيدها سوسانة ... وتوردت أطرافها عنابا
بيضاء فاض الحسن ماء فوقها ... وطفا به الدر النفيس حبابا

فهو يقول: إنها شابة فتق الشباب بوجنتيها وردة حمراء، كأن قامتها الهيفاء شجرة الأسحل تميد نضارة وشبابا، وكأن سوالف جيدها البلوري سوسانة، وكأن أطراف أصابعها عناب، وهي إلى ذلك بيضاء كأنما الحسن ماء فاض فوق جسمها فطف عليه حباب أبيض: يشير بذلك إلى أنها مطوقة بقلادة من الدر. ثم يختم تغزله بهذه الأبيات:

بين النحور قلادة تحت الظلا ... م غمامة دون السحاب نقابا
نادمتها ليلا وقد طلعت به ... شمسا وقد رق الشراب سرابا
وترنمت حتى سمعت حمامة ... حتى إذا حسرت زجرت غرابا

ثم اقرأ قوله:

ومهفهف طاوى الحشا ... خنث المعاطف والنظر
ملأ العيون بسورة ... تليت محاسنها سور
فإذا رنا وإذا مشى ... وإذا شدا وإذا سفر
فضح الغزالة والغما ... مة والحمامة والقمر

ولاحظ بعد ذلك ما يمكنك أن تلاحظه: فلعلك ترى أن غزل ابن خفاجة لا يشابه غزل غيره من الشعراء: فهو غزل أشبه شيء بوصف مناظر الطبيعة: فهو حين يقف أمام محبوبته فيتغزل بها يكون كأنه واقف أمام منظر من مناظر الطبيعة، وكأن غرامه بالطبيعة وبمناظرها يغلب على شعره حتى في أوقات الغزل، فيشبه حمرة وجنتيها بالوردة الحمراء، وقامتها بشجرة الأسحل، ثم يرى من سوالفها السوداء فوق جيدها البلوري، ومن أطراف أصابعها التي خضبتها الحناء ما يذكره بالسوسن والعناب، ويشبه حسنها بالماء الصافي، وقلادتها اللؤلؤية بالحباب، وفي القطعة الثانية يشبه محبوبه بحيوانات الطبيعة: يشبه رنوه بالغزالة، ومشيه بالغمامة، وشدوه بالحمامة، ووجهه السافر بصفحة القمر المنير،

ولعلك تلاحظ أيضا أن غيره من الشعراء يقف في غزله موقف الولهان فيمعن في وصف محبوبه. وفي وصف حاله، ثم ينبري فيبدي شكواه ويتألم ويتوجع ويصف عاطفته المهتاجة ونفسه الملتاعة.

ألا ترى إلى ابن الدمينة كيف يبث في مقطوعته لواعج نفسه وكيف يبوح بوجده الذي يسره لمحبوبه حين يهب عليه ريح الصبا فيذكره بديار الحبيب:

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد ... لقد زادني مسراك وجداً على وجد
أإن هتفت ورقاء في رونق الضحى ... على فنن غض النبات من الرند
بكيت كما يبكي الوليد صبابة ... وشجوا وأبديت الذي لم تكن تبدي
وقد زعموا أن المحب إذا دنا ... يمل وان النأي يشفي من الوجد
بكل تداوينا فلم يشف ما بنا ... على أن قرب الدار خير من البعد
على أن قرب الدار ليس بنافع ... إذا كان من تهواه ليس بذي ود

وانظر إلى البحتري كيف يبكي على فراق علوة الحلبية بما يثير العواطف والشجون:

قضت عقب الأيام فينا بفرقة ... متى ما تغالب بالتجلد تغلب
فإن أبك لا أشف الغليل وإن أدع ... أدع لوعة في الصدر ذات تلهب
ألا لا تذكرني الحمى أن ذكره ... جوى باطن للمستهام المعذب
أتت دون ذاك العهد أيام جرهم ... وطارت بذاك العيش عنقاء مغرب
ويالائمي في عبرة قد سفحتها ... لبين وأخرى مثلها للتجنب
تحاول مني شيمة غير شيمتي ... وتطلب مني مذهبا غير مذهبي
وما كبدي بالمستطيعة للأذى ... أسلو، ولا قلبي كثير التقلب
ولما تزايلنا من الجزع وانتأى ... مشرق ركب مصعد عن مغرب

تبينت أن لا دار من بعد عالج ... تسر، وأن لا خلة بعد زينب
ولكن ابن خفاجة لم يكن له من ذلك حظ قليل ولا كثير لأنه لم يكن له حبيب يبكي على فراقه ويطلب الشفاء مما قد ساهمه حبه ولم يكن له من لائم يلومه ويكلفه ما لاطاقة له به.
يكلفني عنك العذول تصبراً ... وأعوز شيء ما يكلفنيه
وإنما كانت حبيبته الطبيعة، والطبيعة ماثلة في كل مكان وزمان قريبة الوصال هينة اللقاء، ولأنه كان يرى أن كل ما في الحياة مجلس إخوان ود في بستان أو على ضفة جدول يقرضون الشعر، ويرشفون الخمر، ويمتعون أنظارهم بجمال الطبيعة الساحر، فلم يك في غزله إلا وصافاً للطبيعة، ولم يك في غزله ولهان، ولم يكن في غزله مفحشا. هذه ملاحظات قليلة خلاصتها انه لم يتفنن في غزله تفنن المحبين المغرمين أمثال ابن الدمينة والبحتري وغيرهما، ولم يفحش في غزله فحش أبي نواس.
أدلب. عبد الرحمن جبير
من طرائف الشعر
بعد 25 سنة
للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي
تذكر الشاعر الكبير أخاه المرحوم عبد الغني الزهاوي فهاجته الذكرى ودفعته إلى زيارة قبره فبكى عليه ما شاء له الحزن أن يبكي، ثم نظم قصيدته هذه متأثرا كأن أخاه قد مات بالأمس
أخي إلى الموت سلكْ ... أخي قضى، أخي هلكْ
دار عليه بِرَحا ... هـ طاحناً له الفلك
أخي عن النور تولّى ... راحلا إلى الحَلَك
ليس طريقا للرجو ... ع ماله أخي سلك
ما دلّكتْ شمس النها ... ر إنما أخي دَلك
أخي أخي أني أنا ... ديك ولا جواب لك
أخي أخي ماذا من ال ... أسباب عني شغَلك
ليت إله الطب وا ... فاك فدواى شللك
قد زرتُ قبرك الذي ... ترابهُ قد شملك
من ذا بهذا الجدَث الفد ... نك أخي قد جعلك؟
من ذا عن الحراك في ... هذا الحفير كبَّلك
درستَ يا قبر وقد ... زرتك ابكي طلَلك
لم يبق غيرُ الحزن لي ... أما دموعي فهي لك
كيف وجدت يا أخي ... في جوف قبرٍ منزلك!
وعندما دخلت من ... هـ البابَ من ذا استقبلك؟
من ذا نضا عنك الثيا ... بَ البيضَ من ذا دلّلك؟
من ذا من الأموات حيّا ... ك ومن ذا قبّلك؟
والخير أن تجهل في ... ملحودة مستقبلك
لا تخشَيَن من أبدٍ ... سوف يلاقي أزَلك
مالي أراك ذا صُمو ... تٍ غير مُبدٍ جذَلك
آخرك المثير لل ... حزن ينافي أوّلك
ابكي عليك كلما ... ليَ الخيال مثلك
ابكي لذكراك كما ... بكيتُ يوم مُتَّ لك
ابكي خلالك التي ... سمت وابكي جُمَلك
يا يوم في صبحك أظ ... هرت لعيني طفَلَك!
يا موت أشرعتَ على ... صدر شقيقي أسَلك
يا ليل أحزاني من ... بعد أخي ما أطولك!
ويا نهار كنت بساماً ... فمن ذا بدلك؟
يا طرف اهرق من دمو ... عك البواقي وشلك
يا همُّ إنَّ ما جرى ... من ادمعي ما غسلك
يا قلبُ لا يرجع مَن ... أحببت فاقطع أمَلك

يا شعر قل مؤرخا ... (عبد الغنيّ قد هلك)
(1326)
غربة النبوغ
للعالم الشاعر الأستاذ احمد الزين
مَن لثاوٍ في الأهل يشكو اغترابه ... سئم العيش عَذبه وعذابَه
ودَّ لو تطفئ المنون وميضاً ... من حياةٍ بُرُقُها خلابة
راحَ في الليل يعِقد الأمل الضخ ... م فلمّا بدا الضياءُ إذابة
كلَّ يوم أمانيُّ تَفنى ... ورجاءٌ تُذوي الليالي شبابه
تتهاوى الآمال منه فتهوى ... فَلَذاتٌ من نفسه الوثابة
جحدوا عنده المواهبَ حتى ... لم يبالوا أن يجحدوا وهّابه
يرسلُ النّورَ في عيون الخفافي ... ش فتأبى العيون إلا احتجابه
ويسوق اللحن الشجيَّ إلى الص ... م فتأبى الأسماعُ إلا نُعابه
ويفيض العذبَ الشهيَّ على أف ... واه مرضى لا تستسيغ شرابه
ولكم نفحةٍ من الروض صدّوا ... عن شذاها واستروحوا أحطابه
أكثر الإنس لا تحس لديه ... من صفات الإنسان إلا إهابه
حاملٌ في أديمه نفسَ عَجما ... ء وفي الشكل مشبهٌ أضرابه
يالجهدٍ قد كان يذكو التهاباً ... أخمد الغبنُ والعقوق التهابه
وفؤادٍ قد كان مَهدَ الأماني ... صار لحداً تسقى الدموعُ ترابه
وذكاءٍ يُجزى عليه جحوداً ... حين يجزي الغبيُّ منهم ثوابه
ونبوغٍ يضيع بين جهولٍ ... وحَسودٍ بالضغن ضل صوابه
تملأ الشمسُ عينه فيراها ... وعليها من الحقود ضبابه
كم دعيٍّ قلدتموه خطير الأم ... ر فيكم وذدتمو أربابه
وغبيٍّ يحيا سعيداً ويعزو ... نَ إليه من كل فنٍّ لبابه
حين يشَقَى أخو الذكاء ويطوي ... فيكم العمرَ حاملاً أوصابه
لم ينافق فيستحقَّ لديكم ... رَغَدَ العيش مُحكِماً أسبابه
علّموه الريآء ممّا علمتم ... وخداعَ النهي فيَقرع بابه
بل دَعوه وشأنه لن تروه ... بائعاً نفسه ولا آدابه
إن سفك الدماء أوهى حسابا ... من دم الفضل تَحملون حسابه
إنما العبقري روحٌ من الل ... هـ أمينٌ يوحي إليكم كتابه
إن قتل النبوغ قتلٌ لشعبٍ ... وعناد لله فيمن أنابه
-
ساجعة
وساجعة في السدر والليل ساكن ... سوى نسمة في الروض تستقبل الفجرا
ترجع أنات الحنين بغصنها ... فتحسب رجع الصوت من شجوها جمرا
وتدعو جناحا لا يلبي نداءها ... أبى البين إلا في مفاصله كسرا
يرف الخميل الطلق غصناً وزهرة ... فما نظرت غصنا ولا رمقت زهرا
إذا ذرفت من لاعج الشوق دمعة ... أجابت هواها في محاجري الأخرى
وما خضبت كفا ولكن أدمعاً ... تكفكفها ردت أناملها حمرا
هو البين يا ورقاء كدر صافياً ... من العيش فاستبدلت من حلوه المرا
تعالي خذي حر الأسى عن مجرب ... حوى اللحظ أسيافاً وعالية سمرا
له كبد كالربع ضاعت سطوره ... سوى أثر فيهن لم يبلغ السطرا
تظل عيون الشوق تنشد رسمها ... إذا ما دعتها في جو انحى الذكرى
وعين هتون الدمع غشى جفونها ... قروح على أيامها أبداً عبرى
جفاها الكرى إلا غراراً فنومها ... كحسو القطا تلوى مناقيرها ذعرا
يزيد محولا خدها كلما همت ... وما أن عهدت الجدب لا يحمد القطرا
سقا الريف من (دمياط) هتان ديمة ... وحيا الصبا فيه ملاعبنا الخضرا
تركت بنانا في رباها مخضبا ... كأن على أطرافها الورق النضرا
عجبت لنفسي يوم ودعت كيف لم ... أمت شجنا أو تحترق كبدي الحسرى
علي شرف الدين. دبلوم دار العلوم

مختارات من شعر الشاعرة الفرنسية مارسلين
ترجمة الأستاذ خليل هنداوي
- 1 -
حياة اليمام وموته
يا بنات الهديل!
ايه! لله دركن فانتن ... اللواتي تحسن حفظ الوداد
المعري
هذا هو شأن الورشان الأمين بين سراب اليمام!
يطير في الغابة، لا يستهويه القعود، ليظل هافياً حول محبوبته.
ولا يقدر على أن يأوي الا إلى الوكنة التي سكن فيها الهواء،
حيث جناح محبوبته الملتهب يدفئ جسده دائماً
دعواالقلبين المؤتلفين يخفقا ويضطرما،
فما حياتهما الا خيط ذهبي تربطه عقدة سرية،
بربكم! لا تفصلوا بينهما! فانهما يموتان
هما لا يبغيان الا قليلا من ساري الهواء، وقليلا من وارف
الظل، ومتكأ على ساقية ندية تروِّح عن قلبيهما!
ولا يريدان - من كل السماء والأرض - الا عشا جميلا مظلما
يتقاسمان فيه أسباب الحياة، ويواري سعادتهما.
إذا لم تعد عيناك تلمحان - يمامة الغابة - يلمع نصفها الأبيض في الفضاء
وهي تجوز عبر الشاطئ، فلا تقل: هجر أحدهما رفيقه
فانهما - وهما يحبان دائما - لم يعرفا الحب الا مرة واحدة.
دع شكوك نفسك واتبع آثارهما الضائعة
- فانك واجد في الوكنة - في الضريح الصامت
أربعة أجنحة مسوطة تغمر قلبين هامدين
سيضطرمان حبا في السماء!
- 2 -
اليقظة
هل في استطاعتي أن أتذوق النوم الشهي، على هذا السرير القصبي؟
أنا أشعر بالهواء يطيب شذاه حين يهفو من حولك
لأن تغرك زهرة طافحة بالعبير!
فتعال يا كنزي! ولا تضرم سواي!
وتيقظ! ألا تتيقظ!
لكن هذه النفحة الغرامية
هذه القبلة التي أتمناها، لا أجرؤ على طبعها على شفتيك،
وهي تضاعف لي أيام حياتي إذا سمح بها قلبك،
ولكن نعاسك يطول! وأنت تميتني
وأنا لا أجرؤ على طبعها!
تعال! إننا سنجد ظلا وارفا تحت شجرات الموز
والعصافير ستستأنف تغريدها إذا لمحتنا غارقين في الحب
والشمس غلبت عليها غيرتها، فتوارت وراء الغيوم
وأنا لا أبحث عن نور الضحى الا في عينيك!
ألا تعال! وابسط على الحب نوراً
لا لا! أنت لن تنام، أنت تقاسمني لواعجي
وقبلاتك هي الأرى الذي تمنحه لنا الأزهار،
لماذا يتنهد قلبك؟ هل تفتش عن نفسي؟
إن نفسي تطفو على ثغري، وتهم بان تجفف دموعك،
ألا وارني تحت الأزهار!
من الأدب الغربي
الشعر

محاضرة للشاعر الكبير (بول فاليري). عضو المجمع الفرنسي

مترجمة بقلم الأديب عبد الرحمن صدقي

منذ أسابيع عرض الدكتور طه حسين على صفحات هذه المجلة لرأي (فاليري) في) الشعر، ومنذ أسبوع حاضر فيه جمهرة حاشدة من سامعيه، ونحن ننتهز هذه المناسبة لترجمة محاضرة للشاعر الفرنسي عن الموضوع بعينه إتماما للفائدة. ولما كان موضوع البحث دقيقا فقد حرصنا على دقة الأصل، ولم نستحل لأنفسنا - بحجة التوضيح والتبيين - تحريف الكلم أو الإضافة إليه أو الاقتضاب منه. ويعذر القراء إذا المترجم (.نحن أوصيناهم أيضا بالتدقيق في مطالعته واكتناه مراميه.

جئنا اليوم نحدثكم عن الشعر فهو موضوع العصر. وعجيب أن عصراً يجمع بين العمل واللهو المسرف معا - وقد يعد بعيداً عن سبحات التفكير والتأمل النظري عامة - يهتم هذا الاهتمام كله بالشعر، ولا يقف عند الشعر ذاته، بل يتعدى اهتمامه أيضا الى نظرية الشعر.

إذن: أستبيح لنفسي اليوم أن أسبح قليلا في النظر التجريدي، وعذري أني بهذه السبيل أستطيع الإيجاز في القول.

وأنا مقترح عليكم فكرة عن الشعر، ونيتي مجمعة على ألا أذكر غير ما كان من قبيل المقررات البحتة، وما كان في إمكان الناس أجمعين أن يلحظوه في أنفسهم أو بأنفسهم أو على الأقل يجدونه باستدلال هين ميسور.

وسأبدأ من البداية. والبداية (في هذا المعرض من الآراء في الشعر) هي بالضرورة تناول الاسم نفسه بالنظر. كما يجري على الألسنة في الكلام المعتاد.

كلمة الشعر

نعرف لهذه الكلمة مدلولين، أعني وظيفتين بينهما فرق بعيد، فهي تعني أولاً نمطاً من الخوالج النفسية، أو حالة عاطفية خاصة تثيرها أشياء شتى أو ظروف جد مختلفات. فنحن نقول عن منظر من المناظر الطبيعية أنه شعري. ونحن نقولها عن طور من أطوار الحياة، وأحيانا نقولها عن شخص. ولكن هناك محملاً آخر لهذا اللفظ. ومدلولاً ثانياً هو أخص من الأول. والشعر على هذا الوجه الثاني يذهب بأذهاننا الى أحد الفنون، الى صناعة عجيبة غرضها أن تعيد كرة أخرى إنشاء هذه العاطفة التي يدل عليها الوجه الأول للفظ. فاستعادة العاطفة الشعرية عند القصد وبواسطة افانين اللغة دون الظروف الطبيعية التي تولدت فيها عفوا، هو مطلب الشاعر، وهو هو الفكرة المقترنة بكلمة (الشعر) في مفهومها الثاني، وفيما بين هذا التصور وذاك يوجد من العلائق والفروق مثل ما بين أرج الزهرة وبين عملية الكيميائي العاكف على تأليف العطر من كافة الأجزاء.

على أن الناس يخلطون في كل لحظة بين هاتين الفكرتين، فتنجم من ذلك طائفة من الأحكام والنظريات فضلا على المصنفات، فاسدة في أساسها للإطلاقها كلمة واحدة على شيئين هما على ارتباطهما جد مختلفين.

العاطفة الشعرية

ولنجعل أول كلامنا على العاطفة الشعرية! أي عن الحالة العاطفية الأصلية.

تعرفون ما يخالج معظم الناس من شعور يتفاوت قوة وصفاء. بين يدي مشهد طبيعي رائع، فمناظر الغروب؛ والليالي القمراء، والأحراج الشجراء، والبحر، تطربنا وتحرك عواطفنا، وعظائم الأحداث وأزمات الحياة النفسانية، وأشجان الحب، وتذكر الموت كلها مناسبات أو أسباب مباشرة لما يقع في الوجدان من تجاوب وأصداء داوية، بالغة في الشدة أو غير بالغة، قوية التنبه أو ضعيفته. وهذا اللون من خوالج الإنسان يتميز من سائر خوالجه الاخرى. فبم يتميز؟ ذلكم ما يعنينا بحثه في مطلب اليوم، فيهمنا أن نقابل بكل ما يستطاع من الوضوح بين العاطفة الشعرية والعاطفة العادية، والتفريق بين هذين عمل جد دقيق. إذ هما لم ينفصلا قط في الحياة الواقعة. فتجد الانفعال الشعري الأصلي مشوبا على الدوام بالحنو أو الأسى، بالغيظ أو الوجل أو الأمل، ولا تبرح مصالح الشخص وعلائقه الخاصة متحدة بهذا (الإحساس بالكون) الذي يتميز به الشعر.

الإحساس بالكون

قلت (الإحساس بالكون) وأعني أن الحالة أو العاطفة الشعرية قوامها (فيما أرى) إحساس ناشئ متولد، أو بعبارة أخرى، ميل الى الإحساس (بعالم) أو نظام مستكمل من النسب، ذواته وكائناته، وحوداثه وفعاله، وان شابهت واحدة واحدة ما يعمر به عالم الحس ويتألف منه وهو العالم المباشر الذي هي مستعارة منه، إلا أنها ذات صلة محكمة لا يحدها الوصف بأساليب حساسيتنا العامة ونواميسها. ومن ثم فهذه الذوات وهذه الكائنات المعهودة تتغير قيمها ومعانيها بوجه من الوجوه. فهي تتداعى وتتوارد ويلابس بعضها البعض على وجه يخالف كل المخالفة ما يجري في الأحوال العادية. فإذا هي (مدوزنة) إن جاز لي هذا التعبير، وإذا هي قد أصبحت متناسبة القياس متجاوبة. وعالم الشعر بهذا الوصف فيه مشابه كبيرة بعالم الحلم.

صورة الشعر وأطياف الحلم

وإذ تطرقت كلمة (الحلم) الى مقالي، فإني أذكر لكم في كلمة عابرة انه في العصور المتأخرة من عهد مذهب المجازيين في الكتابة حدث خلط جل خطبه وإن هان تفسيره بين تصور الناس للشعر وتصورهم للحلم! فليست الأحلام ولا حالة النفس الحالمة شعرية بالضرورة. وهي قد تكون كذلك. ولكن صوراً تكونت بالمصادفة لا يمكن أن تكون صوراً ذات سياق وانسجام الا بالمصادفة.

بيد أن (الحلم) لشيوع معالجتنا له وتكرارها يساعد على تفهيمنا كيف أن الوجدان يمكن أن تطغى عليه وتفعمه وتجبله مجموعة من شتى ما تحدثه الانفعالات والمدركات العادية. فهو يضرب لنا مثلا متعارفاً عن (عالم محصور) تتراءى فيه سائر الأشياء الواقعة وتشكل بتشكل حساسيتنا العميقة، وعلى هذا النحو تقريباً تستقر الحالة الشعرية في أنفسنا وتنمو وتتحلل، أي أنها لا تجري بالضبط على قياس، وإنها متقلبة وغير اختيارية وسريعة العطب. وإننا نفقدها كما نحصل عليها عرضا. وفي حياتنا فترات لا ينجلي فيها هذا الإحساس الشعري، ولا تتبدى فيها هذه التوليدات المحببة، بل لا يخطر لنا إمكانها في بال، فالصدفة تهبنا إياها والصدفة تستردها منا.

الخلود رسالة الفن

ولما كان الإنسان إنسانا بما له عزيمة وقدرة على استنقاذ ما يهمه من حكم العفاء الجاري على الأشياء، واحتفاظه بما ينقذ وإصلاح حاله وإقامة صرحه، فقد صنع الإنسان لهذه العاطفة الرفيعة ما صنعه أو عالج صنعه لسائر الأشياء التي يدركها الزوال مأسوفا عليها. فبحث واهتدى الى الوسائل التي يثبت بها وينتحي بسرها كيف يشاء أجمل أطواره النفسية وأصفاها، والتي يستطيع بواسطتها أن يعرض وينقل ويصون على تطاول الحقب أنماط أريحيته وهيامه وجيشان وجدانه. ثم كان من حسن العقبى أن اختراع وسائل البقاء هذه أتاح للإنسان الفكرة والقدرة معا على تعهد ما تمن به سليقته عليه أحيانا من قطع الحياة الشعرية بما ينميها اصطناعيا ويزيد في زينها وغناها. فتعلمّ أن ينتشل من مجرى الزمن وان يستخلص من الظروف هذه التواليف وهذه المدركات العجيبة العارضة التي قد كانت ذاهبة بلا رجعى لو لم يبادر فينا الكائن المتفنن الأريب الى معونة الكائن الوقتي ويسعف بمخترعاته النفس المحسة.

ولقد نشأت الفنون طراً لكيما تخلد أو تبدل (كل فن بحسب جوهره) لحظة من لحظات النعيم الزائل الى حقيقة راسخة من لحظات ممتعة لا انتهاء لها. فالعمل الفني ليس الا أداة مادية لهذا الإكثار أو التوليد المستطاع.

اللغة

والموسيقى والتصوير والعمارة أساليب شتى تتناسب مع اختلاف المعاني. وهي كلها وسائل لإنشاء عالم شعري أو لإعادة إنشائه، وهي تهيؤه بحسن التنظيم للبقاء، وتفسح بالعمل المدبر نطاقه وتوسع رحابه. إلا أن أقدم هذه الوسائل وأقربها مساساً وإن تك أشدها تعقدا هي اللغة. ولكن اللغة، بسبب طبيعتها المجردة وتأثيرها على الأخص في الفكر تأثيرا غير مباشر، وبسبب نشأتها الأولى ووظائفها في الشئون العملية، تورد الفنان الذي يمارس تنسيقها وصرفها الى الشعر مورداً معقداً عجيب التعقيد.

وما كان يكون في الدنيا شعراء لو أن الإنسان تمثل في وعيه المشكلات المطلوب حلها. (وما كان إنسان يستطيع تعلم المشي لو أستلزم المشي منه أن يتمثل ويستحضر في خاطره صوراً واضحة لجميع العناصر في أقل خطوة من خطاه)

ولسنا هنا - بحمد الله - في مقام قرض الشعر، بل نحن إنما نعالج النظر في الأشعار كأنها شيء مستحيل صنعه، وذلك لكي نكبر جهود الشعراء إكبارا صافيا مبينا، ولكي ندرك مبلغ أقدامهم وكدهم وركوبهم الصعاب، ونتصور فضائلهم، ونعجب فلا نقضي العجب من قوة فطرتهم.

وسأحاول بوجه الإجمال أن أعطيكم فكرة عن هذه الصعاب:

ذكرت لكم منذ هنيهة أن اللغة آلة وأداة، أو بالأحرى هي مجموعة أدوات وعمليات صاغها العمل وسخرها لخدمته. فهي وسيلة جافية غليظة لا محالة، يستخدمها كل شخص، ويوقفها لحاجاته الراهنة، ويمسخها بحسب الظروف، ويطابق تفصيلها على كيانه الجسماني وتاريخه النفساني.

وأنتم تعرفون ما نسلطه على اللغة أحياناً من التجاريب والمحن. فان المدلولات ومعاني الكلمات وقواعد تأليفها ومخارجها وتقييدها هي ألد عيب لنا وآلات تعذيب معا. ولا مشاحة أننا نراعي بشيء من الاعتبار ما يقرره المجمع اللغوي، ولا مشاحة أن رجال التعليم ونسق الامتحانات وعلى الأخص غرور الناس يقيم بعض الحوائل دون تصرف كل فرد في اللغة على هواه. فضلا عن أن الطباعة في العصور الأخيرة كانت عاملا قويا للمحافظة على أوضاع الكتابة.

ومن ثم أبطأت الى حد ما تعديلات الإفراد، إلا أن أهم مزايا اللغة عند الشاعر هي كما لا يخفى خواصها أو طاقتها الموسيقية من ناحية، ومن الناحية الاخرى مدلولاتها المعنوية التي لا حصر لها (وهي القائمة على تكثير المعاني المشتقة من معنى واحد). واللغة من هاتين الناحتين أقل امتناعا على هوى الإفراد وابتكاراتهم وتصرفاتهم ونزعاتهم. وإن لهجة كل شخص وذخره الوجداني الخاص ليدخلان على تداول اللغة عنصر لبس، ومظان وهم، ومكامن بغتة، كلها لامناص منها ولا معدى عنها. وأرجو أن تلقوا بالكم جيدا الى هذين الأمرين: أولهما أن اللغة فيما عدا استعمالهافي أبسط لوازم العيش وأعمها ليست على الإطلاق أداة تحديد، بل هي على النقيض من ذلك، وثانيهما أنه فيما عدا بعض الاتفاقات التي لا تجيءإلا في النادر جدا وفيما عدا بعض تعابير ميمونة مفلحة اقترنت بقالب مفرغ محسوس، فليس في اللغة ما يجعلها وسيلة للشعر

وجملة القول أن حظ الشاعر العاثر المتناقض قد فرض عليه أداة شائعة الاستعمال ممتهنة ليستخدمها في أغراض غير اعتيادية وغير عملية. فلا مندوحة له من استعارة هذه الوسائل وهي نكرات إغفال كأرقام التعداد، ليؤدي بها مطلبه من سمو بالنفس وتعبير عن أخص ما فيها وأزكاه.

العلوم

هل للعلم قيود تفرضها الأخلاق؟

للدكتور هنسن أسقف درهام بإنجلترا

ترجمها بتصرف الدكتور أحمد زكي

قيد الكاتب البحث العلمي في المقال السابق بقيود ثلاثة، أولها الواجب الذي تفرضه) الأخلاق على دارسالعلم بحكم رجولته، وثانيها شروط تحتمها حقوق أولئك الذين تقع (عليهم التجربة العلمية ذاتها، وثالثها أمور يفرضها نوع النتاج المقصود من التجربة

القيد الاول

أما فيما يختص بالقيد الاول فلا حاجة بنا فيه الى الإفاضة الكثيرة. ان البحث العلمي يتطلب المزاج العلمي، وان يباشره الباحث بإخلاص للحقيقة، وولاء مطلق لها، وإغفال تام لصالح الباحث ونفعه الشخصي، واستسلام صريح للعمل المضني، واحتمال غير شاك للآلام في سبيل الطلب.

ورجل العلم لا يدعي حظا من العلم أكبر مما بين يديه، ولا يحاول أن يفيد من جهل الجمهور بعلمه ومن ثقة اعتاد أن يوليها العلماء ضرورة أو اختيارا، وهو لا يستخدم سلطان العلم فيما يحط ويزري، ويعمل كل هذا لأنه واجبه الواضح البين باعتباره إنسانا، ولأنه في علميته لا يستطيع أن يتنصل من إنسانيته، فمُثل الإنسان العالية هي مُثل العالِم العالية، والغايات النبيلة لهذا هي عينها غايات تلك، وموقف الاثنين جميعا من الواجب العام هو الذي حدّث عنه غلادستون حين قال: (أنا لا أبالي أن أسأل كم في الناس سَقَط، وكم فيهم من حُثالة هربت من الأخلاق فحاق بها ما حاق. . . وإ ' نما

أنا اعتقد أن الواجب قوة حيّة، تصحو معنا في الصباح، وترقد معنا في الليل، وتصحب كل عمل يصدر في يقضتنا عن ذكائنا الإنساني. الواجب ظل يتبعنا إنما سرنا في مدارج الحياة، ولا يتركنا إلا عندما نغمض الجفن الى الأبد عن نور هذه الشمس)

إن إخضاع العلم للأخلاق بهذا المعنى مبدأ اعترفت به الدنيا قديما وآمنت عليه القرون. وضع أبقراط حلِفه المشهور وحدّد به مسلك الطبيب، واحترمته الأجيال على السواء، فاحترمه العرب المسلمون، واحترمه إليهود، واحترمه المسيحيون. ولا يزال الى يومنا هذا أول عمل يأتيه الطبيب قبل ممارسة طبه. وهو عهد لا يختص به علم الطب وحده، فكل شعبة من شعب العلم لا شك تقبل ما يتضمنه من هيمنة الخُلُق على جميع مناشط الإنسان.

القيد الثاني

الى هذا الحد ليس هناك خلاف، فليس من ينكر أن العلم لا يستطيع تحرير رجاله باعتبارهم أناسي من الشروط الأخلاقية التي تضبط سائر الرجال والتي بدونها تضيع ثقة الناس بالناس. ولكن عندما ننتقل من رجل العلم الى طريقته ندخل أرض الفتاوى والمحللات، وهي دائرة يكثر فيها الجدل ويطول الحجاج، وهنا قد يسرف العلم ويغلو كما أسرف الدين من قبله وغلا. فالعلم الحديث يشغل من الدنيا الحديثة مكانا أشبه بالمكان الذي كان يشغله الدين في العصور الوسطى من الدنيا القديمة، ففي تلك العصور كان التفكير الإنساني ينبت في أرض طينتها دينية، وهي اليوم طينة علمية. كان هوى الناس في الدين وكان تقديسهم لقساوسته، فصار اليوم هو أهم للعلم وتقديسهم لأساتذته. ومن طلب الدليل على ذلك وجده في الذوق العام، فعظات الأحبار لا تقرأ إلا قليلا، وكتب رجال العلم المبرزين تشترى بكثرة وتطلب بلهفة.

وهنا يتساءل المرء، وقد نزل الدين عن عرشه للعلم، أيخضع هذا المتوج الجديد للغواية كما خضع المتَّوج القديم، وهل يستدرج استدراجه ليؤول الى مثل مآله. ليس في التاريخ ما هو آلم من تاريخ (الافتاء) في النصرانية، ولا أزرى منه ولا أكثر تحييرا وإرباكا، وهو مع ذلك موضوع للمتأمل خصيب. انه مليء بمناقضات من الجسامة بحيث لا يتصورها العقل. أنحى القديس بول على الفتوى التي تقول (دعونا نفعل الشر ليكون منه الخير) ومع هذا لم يؤثر هذا الأنحاء شيئا في أفعال القسيسين ولا في نظريات الأخلاقيين، وكان كل سؤالهم (في أي الظروف والى أي حد يجوز لنا فعل الشر ليحصل منه الخير؟)

هل يكون من العلماء يسوعيون كما كان من أهل الدين يسوعيون؟ وهل يكون لهؤلاء ناقد ساخر في القرن العشرين كما كان لأولئك في شخص بلايز باسكال في القرن السابع عشر؟ كان من مبادئهم أن لا عهد لهرطيق، ولا ذمام لزنديق، وان الكذب والتزييف مباحان في سبيل حماية العقيدة وانتشارها، وان التعذيب والقتل مشروعان في صالح الكنيسة، هذه ومبادئ أخرى قبلها رجال مسيحيون استحلوا بها أشنع الجرائم التي سجلها مداد واحتواها قرطاس.

فهل يتطور العلم في هذه الناحية مثل تطور الدين؟ هل يسيطر الاعتبار الخلقي على الطريقة العلمية، أم هل يتغلب صالح العلم المزعوم على هذه الاعتبارات جميعا؟ هذا هو المحور الذي يدور عليه كثير من النقاش الذي يمس التجارب العلمية الحديثة، ومنها تشريح الحيوان الحي الذي كثر اللغط فيه وتطاول الحجاج في السنوات الأخيرة. قال قوم انه عمل حلال أمَنّ عليه القانون واطمأن فيه الى أن العلماء إنما يأتونه خدمة للمعرفة، وقال آخرون انه عمل محرم، تحرمه الإنسانية لأنه يتضمن ألماً لحي، وقال غير هؤلاء: إن تحليله وتحريمه منوطان بمقدار الألم الذي يعانيه الحيوان. والحق أن المسألة لها طرفان أولهما يتعلق بالغرض الذي من أجله يجري التشريح. وثانيهما يتعلق بالحي الذي يشرَّح. أما الغرض فيجب أن يكون من الكفاية بحيث يتزن مع التضحية ويستأهل الآلام. جميل أن نصيح (أن العلم للعلم)، ولكن هل نقبل هذه الجملة على إطلاقها أم لابد من الحذر الشديد عند تطبيقها؟ أي المعارف يجب أن نقصد إليه، وهل كل معرفة جديرة بالعرفان؟ يفرّق الأستاذ (وايتهد) بين الطلب يطلبه المرء في سبيل العلم، والطلب يطلبه حلاً لقضية رخيصة أخطرها بالبال الخيال السائب اللاهي. أما فيما يتعلق بالحي الذي يشرح، بالحيوان الأعجم الذي ينطق، فأمره يتوقف على

النظرة التي ينظرها به الإنسان، وهنا نجد العلم الحديث نفسه سلَّح أعداءه في هذا الصدد بسلاح قاطع ماض، فان البيلجة الدرونية أزالت الحاجز الذي وضعته الفلسفة بين الإنسان والحيوان، واعتبرت الحياة العضوية ظاهرة فردة واحدة مهما اختلفت أوضاعها وتعددت مظاهرها، وبهذا استوى الإنسان بالحيوان أو قارب، وبهذا جاز على الإنسان ما يجوز على الحيوان، والإنسان يأبى تشريح الإنسان حيا، فلا بد أن يأبى تشريح الحيوان حيا. أم هو يجيز التشريح على إطلاقه ثم يتنصل منه باعتبار ان الإنسان له (شخصية) تكسبه حقوقا لا تكون لغيره من الحيوانات لانعدام (الشخصية) فيها. أن الغرض مهما طاب ومهما خطر لا يبرر التجربة التي تخل بمسلك الإنسان الخلقي. حكوا فيما يحكى عن الإمبراطورفردريك الثاني انه دعا رجلين الى الغداء وأطعمهما حتى امتلأ، وبعث بأحدهما لينام، وبعث بالآخر ليصيد، وفي المساء أمر فشق بطناهما ليعلم أيهما
أسرع هضما، الذي نام فاستراح، أم الذي ظل نهاره يجري وراء الصيد؟ وقضى أطباؤه بالفوز للذي نام. لا يقول أحد أن رغبة فريدريك في المعرفة لم تكن مشروعة، ولا أن اتجاهه الى تحقيقها بالتجربة العلمية لم تكن محمودة، ولكن الذي يدم ان التجربة لم تخضع لشروط المسلك الخلقي العام.

القيد الثالث

قرأت حديثا مقالا افتتاحيا في (مجلة تحسين النسل) تناول فيها محررها موضوع الدعوى الحديثة في استكشاف طريقة علمية جديدة يتعين بها النسل قبل ولادته. فبعد أن تشكك الكاتب في المكتشف قال:. . ومهما يكن من الأمر فلا بد ان نتهيأ لأن نسمع يوما ما بأن قد انكشفت طريقة صحيحة مؤكدة للتنبؤ بالنسل أو التحكم فيه. فان وقع هذا، وهو لابد واقع وإن تأخر يومه، فقد وقعت اكبر ثورة في تاريخ البشر، فعندئذ يتجه الناس لا محالة في الانسال اتجاهاً يخل التوازن بين الذكر والأنثى اختلالا لن نختلف في نوعه وان اختلفنا في مقداره، فيصبح عدد الذكور عشرة أضعاف الاناث أو خمسة عشر أو عشرين ضعفا، وعندئذ كيف تكون الحال، لا أجسر أن أقول، ولا يجسر ذو الخيال الرائع ان يقول، وحسبنا أن نقدر أن أول ما يذهب من مُثُل الإنسان عفة المرأة وحرمة الزوجية، فهل من الحكومات حكومة تنظر الى الغد فتعد لهذا الانقلاب عدته؟ لعل أقرب من ذلك أن نرجو أن يتفق البيلجيون فيما بينهم، أن يتفقوا من الآن، على أن يحفظوا هذا السر عن الناس إذا هي تمخضت عنه الأبحاث، لأنه حدث سيكون أوخم عاقبة على المجتمع مما عرف من الأحداث. بالطبع ما من سر إلا افتضح على الأيام، ولكن سيكون قد انقضت مهلة قبل افتضاحه قد تمكّن أولي الأمر وذوي السلطان من رفع الحواجز وإقامة السدود في وجه هذا السيل الداهم
فلنفترض ان ما يقوله المحرر حق، وان العلماء باتوا على مقربة من كشف هذا السر، وأن هذا السر إذا انكشف للناس فعلوا كالذي خاله الكاتب، فما يكون موقف العالم البيلجي عندئذ وما واجبه؟ أينصرف عن أبحاثه خشية ما تجره نتائجها؟ أيقف في السبيل وقد قارب النهاية احتفاظا بالعفاف الجنسي، ام يقول ان المنشط العلمي من حقه أن يتحلل مما قد لا تستطيع أن تتحلل منه مناشط الحياة الاخرى، وأنه رجل علم فهو بمعصم من المبدأ القائل
بأن الرجال مسؤولون عن أعمالهم وما يصدر عنها من شر تأكدَ أو ترجّح. أن التقدم الحديث في العلم يتجه اتجاهات لم تكن قديما في الحسبان. حتى أن أكثر المفكرين تفاؤلا، وأسرعهم إجابة إذا دعا العلم، بدءوا يتشككون في تفاؤلهم الكثير، ويرتابون في فرضهم القديم، أن زيادة المعرفة لن يكون منها غير خدمة الإنسانية، والسيطرة على الطبيعة لن يكون منها غير خير المجتمع. قال السير الفريد ايونج ائذنوا لي كدارس قديم للميكانيكا التطبيقية أن أعبر عن بعض خيبة أحس بها الآن،) وأنا في اعتزالي منتحيا مع النظارة جانبا من الطريق أتفرج على موكب العلم يسير في عظم وفخامة، وأتسلى مع المتسلين بركائب المخترعات تتعاقب في أبهة وضخامة. الى أين يسير هذا الركب الكبير؟ وما أثره الأخير في مستقبل الأسرة الإنسانية؟. . لاشك أنه يحمل للإنسان هدايا تجعل حياته أملأ وأوسع وأصح وأغنى وأهنأ، تلك الهناءة التي تجلبها المادة الجامدة. ولكن كثيرا مما أهداه المهندس الباحث أسيء استخدامه ويساء وبعضه يحمل في أحشائه مآسي لم تنمخض عنها الأيام بعد. إن

(الإنسان لم يتهيأ بعد أخلاقيا ليتقبل تلك المنح الكبرى
وجملة الأمر أن العلم وبال على الإنسانية إذا هو أطلق من القيود التي تضبط مسلك الإنسان بقصد إسعاده فردا ومجتمعا.

العالم النسائي

نظرة في الحركة النسائية

للآنسة أسماء فهمي- درجة شرف في الآداب

بدأت النهضة النسائية في أوائل هذا القرن، إلا أنها لم تصبح (حركة) إلا عند نشوب الثورة المصرية سنة 1919 إذ نشطت المرأة نشاطاً كبيرا وسرت إليها روح الحماس الفياض فلبت نداء الوطن، وساهمت بنصيب وافر في الحركة السياسية، فاشتركت في المظاهرات معرضة حياتها لما كان يتعرض له الرجل من مخاطر، والفت اللجان لبث الدعوة الوطنية وتنظيم حركة المقاطعة، وظهرت في الاجتماعات الهامة. ولكم كانت لها مواقف مشهودة في تلك النهضة المباركة!

ولما هبطت درجة الحماس القومي بسبب الانشقاق بين صفوف العاملين أخذت الحركة النسائية تتجه اتجاها جديدا فاهتمت العاملات بتحسين مركز المرأة الاجتماعي، وعلى ذلك تألف الاتحاد النسائي سنة 1923 تحت زعامة السيدة الجليلة هدى هانم شعراوي، ووجه عناية كبيرة إلى المشاكل الاجتماعية التي تمس المرأة كمسألة الطلاق وتعدد الزوجات وعدم تحديد سن الزواج للفتيات، ونجح في حمل البرلمان على الاهتمام بتلك المسائل. كذلك ظهر في ذاك الوقت من بين النساء من تطالب باشراك المرأة في التمثيل النيابي.

على أن تلك البداية الحسنة سرعان ما تعرضت للضعف بدورها وانكمشت في دائرة محدودة لا تتناسب مع مطامع المرأة بدل أن تنمو وتتسع ويصبح لها فروع تهتم بمعالجة نواحي النقص كلها، فلم نعد نسمع تلك الأصوات الجريئة الفتية التي تدافع عن قضية المرأة، كما أفلس معظم الجمعيات النسائية التي كان ازدهارها قصير المدى، وهكذا خلا الميدان مرة أخرى ولم يبق إلا عدد قليل من المجاهدات يثابرنشأن الأبطال متجاهلات المتاعب والنقد.

ولكن ذلك السكون في ميدان النهضة لم يكن إلا كسكون الطبيعة في الشتاء الذي فيه تتجدد القوى برغم التجرد والعراء، فقد دخلت الحركة النسائية على الرغم ذلك السكون الظاهر في طور خطير هو طور الانتقال الهام الذي فيه اتسع نطاق تعليم المرأة فانتشرت مدارس البنات ووحدت مناهج تعليم الذكور والإناث بعد بصلاحها وتوسيعها، فأصبحت الفتاة التي

كان تعليمها قاصرا على مبادئ القراءة والكتابة وقشور اللغات وبعض الفنون المنزلية تتعلم كما يتعلم الفتى، بل وتفوقه في الإقبال على العلم واستساغته.

وفي سنة 1928 سمح للبنات الحاصلات على شهادة إتمام الدراسة الثانوية بدخول الجامعة المصرية. بينما كثرت إرساليات البنات في تلك الفترة إلى الخارج للتخصص في مختلف العلوم والفنون.

وما زالت حركة تعليم البنات سائرة بنشاط رغم سوء الحالة الاقتصادية وما يوضع في طريقها من عقبات، وهذا لاشك أعظم انتصار اكتسبته المرأة، وأقوى سلاح في يدها، ولم يبق إلا أن تستغله إلى أبعد مدى ممكن.

والآن وقد تكاثر عدد المتعلمات وظهر من بينهن من يمتزن برغبتهن الحارة في الاصلاح، فستنتعش ولاشك الحركة النسائية. وان احتفاء زعيمة الاتحاد النسائي بأولى خريجات الجامعة المصرية والجامعات الأخرى في 16 ديسمبر سنة 1933 لمبشر بقرب الوصول إلى هذه الغاية، إذ لا يفيد الحركة النسائية أكثر من جمع تلك العناصر النشطة مبدئيا تحت سقف واحد وأحداث التعارف بينهن وتشجيعهن وتذكيرهن بحقوقهن وواجباتهن نحو المجتمع، وبنات جنسهن، وبالجملة أصبح لدى الحركة النسائية أهم العناصر الأساسية اللازمة للنجاح، وهي الشعور بالنقص، والرغبة في الإصلاح، وعدد لا بأس به من السيدات الناهضات، كما أن لديها أيضا مؤازرة عدد كبير من أفاضل الرجال.

على أن مجرد وجود تلك العناصر لايكفي لاحداث الأثر المطلوب بل لابد من اتحاد تلك العناصر واستغلال جهود الناهضات بان تصبح لهن جماعات منظمة، فالحركات القوية

الناضجة ذات الأثر الخالد والمشروعات العظيمة قامت بواسطة الجماعات والتعاون، لا بمجهود الأفراد. والحركة النسائية في حالتها الراهنة الخاملة أحوج ما تكون إلى مثل تلك الجماعات المنظمة التي تدرس وجوه النقص في مركز المرأة وتبسط فيها الآمال والآراء، وتكون نواة لظهور الخطيبات والباحثات اللاتي يوجهن أذهان الناشئات إلي مكانتهن الهامة في الحياة، والى أهمية عهد الانتقال الذي يجتزنه، وإلا أصبح تطور المرأة تطورا غير واع شبيه بتطور النبات والحيوان: يسير بمحرك التقليد لا بناء عن التفكير والانتخاب والتفضيل. والواقع أصبح يخشى طغيان عامل التقليد على الحركة النسائية بسبب قلة

المرشدات والباحثات فكثير من النساء اللاتي سفرن مثلا واختلطن بالرجال فعلن ذلك تحت تأثير (الموضة) وتقليد الغربيات لا بمقتضى مبادئ ثابتة ولا بناء عن تدبر وتفكير. والنهضة إن لم تبن على مبادئ متينة ويكن لها مثل أعلى يوجهها في اتجاه خاص فلا أمل في بقائها، لأنها عرضة للتقلبات والأهواء كسحابة الصيف.

ثم أنه لا يمكن لغير تلك الجماعات المنظمة القوية القيام بأعباء قضية المرأة والدفاع عن حقوقها أمام التقاليد الجائرة، فالمرأة في مصر ما زالت محرومة من حقوقها السياسية، تلك الحقوق التي تمتعت بها المرأة المصرية في أقدم العصور، وتستمتع بها المرأة في كثير من الأمم الراقية لخير المجتمع. ثم هناك التشريع الذي لم يتطور مع روح العصر، والذي يعطي الرجل امتيازات يستعملها بمثابة سلاح يشهره في وجه المرأة كلما هزته شهواته ونزعاته، وهناك أيضا القيود التي تغل تقدمها العلمي، فلم تفتح أمامها بعد جميع أنواع التعليم والدراسات. هذا الحق الذي سلم به شيخ الفلاسفة سقراط الذي تعد تعاليمه لب النهى والحكمة. والذي نأخذ عنه وعن تلاميذه كثيرا من مبادئ السياسة والاجتماع والأخلاق.

كل هذه الأشياء التي تعدها المرأة حقا طبيعيا لها والتي لم تحصل عليها بعد، تبين بجلاء مبلغ خطورة القضية ومبلغ الحاجة إلى توحيد الصفوف وإنهاض جميع الهمم، فالمرأة في الواقع لم تقطع إلا جزءا يسيرا من مرحلة شاقة طويلة، فالأمل معلق على تكوين تلك الجماعات القوية التي بيدها مستقبل المرأة.

أم عربية

للآنسة سهير القلماوي. ليسانسييه في الآداب

مكة أرض الله المقدسة في حصار الكعبة بيت الله الحرام يروح فيها الجند ويجيئون. ألوية هنا ورماح هناك، أسلحة وآلات وجنود داخل المدينة، قائدهم رجل في السبعين هو عبد الله بن الزبير خليفة الحجاز. وجنود حول المدينة كفاهم قوة انهم جند الشام، وكفاهم رهبة أن قائدهم شاب في الثلاثين هو الحجاج بن يوسف الثقفي. جو مكة كله هلع والتياع وكأنما كل شيء يوحي إلى أهلها إن استسلموا فالحرب ضروس والموت على الأبواب.

ماجت مكة بكثرة الوافدين عليها ليؤدوا فريضة الحج. ولكن جند الشام لم يترك مكانه، وجند مكة لم يبرح محاصرا لا يستطيع خروجا. لم يستطع الحجاج ولا جنده الطواف بالبيت بل ظلوا محرمين مكانهم لابسين الدروع فوق الإحرام ولم يستطع ابن الزبير الخروج إلى عرفة فنحر هديه في مكة. جاء جند الشام فافسد على الحجاز كل شيء، سلي الأمن أهلها، وشوه شعائر الدين المقامة بها، وبشرها بأفول مجدها السياسي بتحول مركز الخلافة عنها. الشام الفتية جاءت لتضطر الحجاز الهرمة إلى أن تقنع بما يقنع به الهرم من الحياة.

هدأت الحركة في مكة بعض الشيء منذ رجع الحاجون إلى أوطانهم. ولكن نفوس أهلها في حركة وأي حركة، هلع وخوف وقلق. لقد طال بها الحصار وضاقت نفوس أهلها فلا يستطيعون احتمال المزيد، طال الحصار واشتد الضيق، وصعب الامتحان وكلما صعب الامتحان قل عدد الناجحين: كل يوم يسير فوج إلى القائد الشاب طالبا الأمان. التفت الزبير فإذا هو قليل الأعوان قليل العدة، شيخ تربطه بالحياة خيوط واهية. ما مصيره؟ الموت. وما مصير آماله وهي آمال قطر وآلام شعب؟ ألم يكد يتم له الأمر لولا ظهور مروان في الميدان؟ ألم يكن العراق خاضعا له بآلام بعد أن قتل مصعب المختار؟ ولكن مصعبا قتل، وبقتله أفلتت العراق من يد الزبيريين، وغدا سيقتل هو ويفلت الحجاز من يد الزبيريين بعد أن لم يبق بها إلا هو.

أما والله إنا لا نموت حتف انفنا كميتة آل أبي العاص، وانما نموت فعصا بالرماح وقتلا) (تحت ظلال السيوف
هكذا خطب الناس بالأمس لما نعى إليه أخوه مصعب. هو لا يخاف الموت، وإنما آمال لا يمثلها إلا هو، آمال كاد أن يصل إليها وما زال يأمل في الوصل إليها، آمال شيعة له في جميع الأقطار العربية، من يقوم بها من بعده؟
خمسون ليلة وأهل مكة يعانون من الحصار كل ضيق. لابد من انفجار، لابد من حدث حاسم، فلقد كادت أن تزهق الأرواح. جند الشام لا يضيرهم استمرار الحصار، ولكن أهل مكة، أهله وشيعته ورعيته يعانون من الأهوال. صمم ابن الزبير على القتال، أبناء حمزة وحبيب لا يزالون معه، فتيان من خيرة الفتيان أحدهما يقود فريق، والآخر يقود الفريق الآخر. وخرج ابن الزبير من بيته في الليلة الخمسين ليلقي على ابنيه تعاليم معركة الغد.
(. .!حمزة!. . حمزة!. . حبيب!. . حبيب)
ولكن أحدا لم يجب. وبدأت الحقيقة تتكشف لناظره الحزين قليلا قليلا، فإذا هي أبشع مما كان يقدر. حمزة وحبيب ابناه تركاه في هذا الضيق! والى أين؟ إلى عدوه، إلى من حاصره، وأذاقه هو وأعوانه كل كرب وضيق. وتلاشت صورة القلة من أل أعوان أمام هذه الخيبة. أي ألم؟ أي يأس؟ أي حسرة؟ لم يعد شيء يرجى.
بينما اليأس يحرق قلب الشيخ حرقا إذا بعروة الزبير يناديه. ماذا يريد منه عروة؟ عروة يناصر عبد الملك وهو في أمان من هذا الحصار وهذا الجند. ماذا يبغي عروة منه في ساعة اليأس هذه. عروة رسول أمل جديد جاء ليعرض عليه الأمان بشروط مرضية. هم يعطونه كل ماله: املاكه، سلامته، حريته التامة، كل شيء إلا الخلافة. وفي ساعة اليأس يرى اليائس بصيص النور ضياء ساطعا وهاجا، ولكن السن أملت عليه التدبر فليترو قليلا وليستشر. ولكن من يستشر؟
في ركن من أركان بيت عبد الله بن الزبير قبعت عجوز في المائة من سنها عجوز لها من تجارب الحياة ذخر ثمين. ولها من الصحة ورجاحة العقل رغم هرمها ما شهرت به، ولكن لها فوق هذا كله منزلة في نفس عبد الله لم يبلغها أحد. هي أمه هي أسماء بنت أبي بكر الصديق. فليستشرها هي.
واقترب الابن من أمه الوالهة التي جثم الحزن على قلبها طويلا. لقد فجعت حديثا في ابنها مصعب بعد أن ملأ ذكره الآفاق، بعد أن استولى على قطر من أهم الأقطار العربية وهو
العراق، بعد أن قاتل فقتل في ميدان الجهاد كريما شريفا شهما شهيدا. ولكن حزنها لم يشفع لها لدى الدهر فما زال الدهر يلوح لها بين حين وآخر، يسلب ابنها عبد الله أعز أولادها وأطيرهم ذكرا وأكثرهم جهادا. دنا ابنها منها وسألها:
- كيف تجدينك يا أماه؟
- إني لشاكية
فقال لها وكأنه يحدث نفسه اليائسة:
- إن في الموت راحة. فأجابته:
- لعلك تمنيه لي وما احب أن أموت حتى يأتي على أحد طرفيك، إما قتلت فاحتسبك، وإما ظفرت فقرت عيني بك.
صدمه جواب أمه، وكأنما كان جواباً عما أتى يستشيرها فيه، كيف يسألها؟ ولكنها لا تعرف عما عرضوه عليه شيئا، وفي صوت متهدج قال لها:
- أماه لقد خذلني الناس حتى ولدي وأهلي ولم يبق معي إلا اليسير، ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة. والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا. . فما رأيك؟ وجاشت في صدر الأم عواطف ونوازع شتى كلها تتزاحم فلا يتاح لأحدها فرصة التغلب أو الظهور - حنان، شفقة، خوف، شجاعة، حب لولدها، حب لوطنها، حب لربها وللحق ولرسول الحق ولتعاليم الحق. ظلت كل هذه تتصارع في صدر العجوز صراعا عنيفا، وظلت الأم تعاني آلام هذا الصراع حينا وآلام الهزيمة لكل عاطفة تهزم منها، كل عاطفة جزء منها فصراعها يؤلمها وهزيمتها تكاد تقتلها.
ولكن حميتها العربية انتصرت أخيرا وتغلبت من كل هذه العواطف: العواطف الخلقية بأسماء بنت أبي بكر الصديق.

وفي صوت ملؤه اليقين قالت لولدها:
- أنت اعلم بنفسك، إن كنت تعلم انك على حق وإليه تدعو فامض له، فقد قتل عليه أصحابك ولأتمكن من رقبتك غلمان بني أمية، وان كنت إنما ردت الدنيا فبئس العبد أنت، أهلكت نفسك ومن قتل معك. . كم خلدوك في الدنيا؟ القتل أحسن.
القتل أحسن ولكن ماذا بعد القتل؟ لن يتورع الجبار من ارتكاب شيء، لن يردعه دين ولن
يردعه خلق، فقال وكأنما الحقيقة تمثلت له قبل وقوعها.
- أماه! إني أخاف إن قتلني أهل الشام أن يمثلوا بي
ورفعت ستر المستقبل المغيب عن عين الأم فرأت ابنها مصلوبا، وتمثل لها ما سيلاقيه المصلوب من احتقار وتشهير وضحك واستهزاء، ولكن الحق. الحق وروح من سفكت دماؤهم في سبيله أملت عليها الجواب
- الشاة المذبوحة لا يؤلمها السلخ. فامض على بصيرتك واستعن بالله.
سرت روح الأم إلى ابنها فقشعت من صدره كل يأس وكل خوف، وظلت كلماتها تتردد في نفسه كوجيب قلبه، القتل أحسن، القتل أحسن، حلت الشجاعة محل اليأس، وحل جلال الحق محل الخوف من الموت والمثلة. لم يعد يألم لشيء إلا لتلك الثكلى التي ستفقده بعد فقد أخيه بالأمس.
- أماه إني مقتول يومي هذا فلا يشتد حزنك وسلمي الأمر لله، إن ابنك لم يتعهد إيثار كفر ولا عمل بفاحشة، ولم يجر في حكم الله، ولم يغدر في امان، ولم يتعهد ظلم مسلم أو معاهد، ولم يبلغني ظلم من عمالي فرضيت به بل أنكرته، ولم يكن شيء عندي آثر من رضى ربي.
ثم رفع رأسه إلى السماء قائلا:
- اللهم لا أقول هذا تزكية لنفسي ولكن أقول تعزية لأمي حتى تسلو عني
خيم الصمت على الأم وولدها وقد أحست أنها ستراه لآخر مرة كما أحس هو بذلك. وترقرق الدمع حارا ملتهبا في عين العجوز. الدمع الذي ظل محتبسا من أهوال الأيام الأخيرة انفجر في الموقف الذي يجل عن كل دمع.
بدأ ابنها يحس شيئا من الإحجام بعد أن صمم على القتال والاستشهاد، وخاف أن يستولي عليه هذا الشعور إن لم يسرع بتنفيذ ما صمم عليه. وكأن الأم ما زالت بروحها تدفعه إلى الاستشهاد كما حضته بقولها منذ قليل فأسرع نحو الباب بعد أن قبلها قائلا
- (أماه لا تدعي الدعاء لي)
- وكأنها تريد أن تذكره فقالت (لا ادعه لك أبدا)
- (فمن قتل على باطل فقد قتلت على حق)
خرج ابن الزبير من عند أمه فإذا الفجر لاح والمؤذن يدعو إلى الصلاة فليذهب إلى المسجد إذن، عسى أن يبعث الله إلى القلب طمأنينة يجتاز بها قلاقل اليوم
صلى ابن الزبير صلاة حارة أرسل بها إلى ربه ما وسعه من الشكوى، وما استطاع من الرجاء، وأحس بان روحا من العالم الأعلى حلت في نفسه من جديد، فلم يعد شيخا ضعيفا بل أصبح شابا مندفعا في ميدان الاستشهاد.
ظل ابن الزبير بعد الصلاة في المسجد طويلا ترن كلمات أمه في أذنه حينا، ويصلي إلى ربه حينا آخر فيقول:
يا رب إن جنود الشام قد كثروا ... وهتكوا من حجاب البيت أستارا
يا رب إني ضعيف الركن مضطهد ... فابعث إلي جنودا منك أنصارا
لم يطل الزمن بابن الزبير حتى هاجمه جند الشام من كل فوج. لاذ بأستار الكعبة ملاذه وملاذ غيره من قبل، ولكن الحجاج لا يردعه عن غايته رادع مهما عظم، فرمى الكعبة بالمجانيق وحميت المعركة الفاصلة لا بين المؤمنين والمشركين وإنما بين المؤمنين يمثل كل فريق منهم رأياً جديداً وسياسة جديدة. كانت معركة بين سياسة الشام الفتية، وسياسة الحجاز الهرمة، بين الخلافة كما كانت، وبين الخلافة كما تكون، بين النظم السياسية القديمة، وبين النظم السياسية الحديثة، هي معركة القديم والحديث يكررها التاريخ فلا يمل من تكرارها. معركة القديم والحديث، هل يفوز بها إلا الحديث.

القصص
صديقها عشيقها
للكاتب الروائي الأستاذ محمد خورشيد
رواية مصرية عصرية في فصل واحد
- 2 -
المنظر الثالث: إحسان وحده
إحسان - (يقف ويسير على المسرح ذهابا وإيابا وهو يقول)؛ صدق فايد لم تحبني إحدى الفتيات الراقيات مع إني أجيد مغازلتهن. كما إني لم احب فتاة أبدا. . نعم لم احب حبا حقيقيا. . أريد أن احب فتاة راقية وان تبادلني الحب. نعم أريد ذلك. . . أريد أن أتذوق الحب مرة. . . مرة واحدة. . لأتذوق الاندماج والائتلاف والاتصال البديع و. . . نعم يجب أن أحب. . . لكن من؟. . . من التي سيقع عليها اختياري؟
(يفتح الخادم الباب الذي في الصدر ويقول لفتاة رشيقة تدخل منه إلى المسرح):
الخادم - تفضلي يا هانم، سيدي إليك سيحضر حالا.
(عندما يراها إحسان يقف ويلتفت إلى الجمهور ويقول): هاهي التي يجب أن احبها وتحبني. (ثم يسرع إليها)
المنظر الرابع
إحسان وسميرة
إحسان - أهلا. أهلا سميرة هانم. كنت مشتاقا إلى رؤيتك (ويقبل يدها)
سميرة - كيف حال إحسان بك؟ أين انت؟ لم انقطعت عن زيارتي؟ لم أرك منذ زمن طويل. ما السبب؟
إحسان - إني أتألم
سميرة - ممه؟
إحسان - من القسوة
سميرة - والحنان؟
إحسان - قد زال
سميرة - من أين؟
إحسان - من قلبك
سميرة - قلبي أنا؟
إحسان - نعم قلبك
سميرة - قلبي يحمل لك اخلص صداقة
إحسان - الصداقة هي نصف الطلب
سميرة - آه، له نصف آخر؟
إحسان - طبعا وهو النصف المهم
سميرة - لكن الصداقة أهم والاهم يفضل المهم
إحسان - الصداقة أهم من الحب في أي شرع؟
سميرة - في شرع العقلاء
إحسان - وفي شرع المجانين؟
سميرة - يتساويان
(وتشير بإصبعين متلاصقين وتضحك)
إحسان - أبدا في كل شرع الفرق بين الحب والصداقة كالفرق بين الليل والنهار
سميرة - خصصت الليل بالحب والنهار بالصداقة، يالك من حاذق ماهر!
إحسان - ليس في قولي مكر أو حذق. صداقتك سوف تملأ نهاري ولكن ليلي سيبقى خالياً. وما أطول الليل الخالي من الحب!
سميرة - كفى مغازلة لا طائل تحتها يا إحسان بك. إني احب زوجي كما تعلم
إحسان - لكنك تحبينه منذ أربعة أعوام يا هانم. هذا كثير. . كثير
سميرة - أربعة أعوام كثيرة؟ والذين مضى على زواجهم عشرون عاما؟. . .
إحسان - على زواجهم لا حبهم. . . أما أنت فقد تزوجت منذ أربعة أعوام، وللآن لا تزالين تحبين زوجك. هذا شيء كثير يا هانم، غريب لا سابقة له. . الحياة الزوجية تصبح على مر الأيام فاترة مملة محتاجة إلى نجدة من الخارج تنعشها وتلهب حرارتها التي

ضعفت
سميرة - لي صديقة تزوجت قبلي وللآن لم تضعف حرارة حبها لزوجها
إحسان - هذا لا يمكن. حرارة الشمس نفسها قد ضعفت عما كانت عليه
سميرة - من قال ذلك؟
إحسان - علم الفلك
سميرة - ضاحكة: دعنا منه انه كعلم الركة لا أول له ولا آخر (يدخل فايد من باب اليسار قائلا)
المنظر الرابع
فايد. إحسان. سميرة
فايد - مساء الخير يا هانم. أرجوك المعذرة. كنت أتمم عملا مستعجلا، والآن تجديني تحت أمرك
سميرة - مساء الخير فايد بك. أريد محادثتك على انفراد
إحسان - اسمح لي بالانصراف يا فايد إني على ميعاد
سميرة - إلى اللقاء يا صديقي
إحسان - سأحضر إليك غدا يا هانم، لنتمم حديثنا وسوف أقنعك (يقبل يدها)
سميرة - إني قانعة بحبي لزوجي. ولا أستطيع أن اصدق نظرياتك
إحسان - أنا طويل البال يا هانم. والأيام بيننا، إلى اللقاء يافايد (يصافحه)
فايد - متى أراك؟
إحسان - سأعود بعد ساعة (يخرج)
المنظر الخامس: فايد وسميرة فايد - تفضلي اجلسي يا هانم (تجلس ويجلس هو قريبا منها)
سميرة - إني آتية من عند حكمت. أتعلم أنها حزينة؟
فايد - وأنا لست بفرحان
سميرة - أنت تغضبها كثيرا ولا تشفق عليها
فايد - هي تغضب من لاشيء، دعيك من غضبها ماذا قالت لك؟
سميرة - تخاصمتما أول أمس فخرجت غاضبا ولم تعد إليها حتى الآن.
فايد - نعم تخاصمنا ولكن هل تعلمين فيم كانت الخصومة؟
سميرة - فيمه؟
فايد - كانت في أني ذهبت إلى الجزيرة الصغيرة
سميرة - ولم ذلك؟
فايد - الجزيرة الصغيرة من الأمكنة المحرمة علي لأنه يحتمل أن أقابل فيها إحدى الغانيات الجميلات فتفتنني رؤيتها أو إحدى الهوانم المستهترات فأهيم بحبها
سميرة - ومن قابلت بالجزيرة الصغيرة؟
فايد - لم أقابل أحدا. إنما حدث بينما كنا أنا وإحسان في طريقنا بالسيارة إلى فدق مينا هاوس أن رجاني أن نعرج على صابر بك في ذهبيته ونأخذه معنا، وذهبية صابر راسية بالجزيرة الصغيرة فخشيت إن أنا صرحت لاحسان بان حكمت تأبى علي الذهاب إلى الجزيرة الصغيرة أن يهزأ بي ويجعلني مضغة في الأفواه، لأنه كما تعلمين مستهزئ متهكم. لذلك اضطررت رغما عني أن أجيب رجاءه وأذهب معه. ولكن إحدى صديقات حكمت كانت لسوء الحظ تتنزه هناك في تلك اللحظة فرأتني وأخبرتها. هذه كل جنايتي التي تخاصمنا من أجلها. عندما ذهبت إليها أول أمس أمطرتني وابلا من الأسئلة فأخبرتها بالحقيقة كما ذكرتها لك، لكنها لم تصدقها وصممت على رأيها أني إنما كنت على موعد مع فتاة لي بها علاقة، وطلبت مني أن أذكر اسمها، فأقسمت أن لا علاقة لي بغيرها وأني لا أحب سواها. أخذت ألاطفها وأهدئ روعها حتى خيل إلي إني أفلحت في إقناعها، لكنها ما لبثت أن عادت تلح على أن اذكر لها اسم الفتاة فعدت أقسم وأؤكد وهي مصرة لا تتحول حتى عيل صبري ولم أتمالك نفسي فتخاصمنا وخرجت غاضبا. هذه حال لا تطاق. تغضب من لاشيء. لا تصدق لي كلاما، ترتاب في كل أعمالي. تشك في جميع أقوالي.
سميرة - إنها تحبك وهي ككل امرأة تحب، مستبدة غيورة
فايد - لكن يا هانم للغيرة حدود

سميرة - آه لو رأيتني مع زوجي في مطعم أو في دار تمثيل أراقب حركاته في يقظة، وأتتبع نظراته باهتمام، حتى إذا ما أتى بحركة (أشتبه فيها) أو رمى ببصره جهة معينة يتحول في الحال نظري إليها، والويل له لو كانت هناك امرأة، أغمره بأسئلة لا تنتهي، لا
أصدق له كلاما، وأستمر اسأل وأحقق وأقول وأعيد حتى أنغص عليه عيشه، لكنه برغم كل ذلك الرجل الوحيد الذي أحببته والذي لا أزال أحبه، أسبب له الحزن والكدر ثم أعود فأتودد إليه وأسترضيه حتى إذا ما عانقني ألجأ إلى صدره وأنا أسعد المخلوقات، كلنا هكذا عندما نحب صدقني.
فايد - (لا يجيب وإنما يطرق برأسه إلى الأرض)
سميرة - لا يجوز لعاشقين أن يفترقا من اجل نزاع غرامي
فايد - لا. يجب أن نفترق أو تغير طبعها
سميرة - وكيف تغير طبعها وهي تحبك؟ انك لا تطلب من سيارة ألا تسير، فكيف تطلب من امرأة ألا تغير؟ يجب أن تتساهل يا فايد بك؟. يجب على الرجل أن يتحمل
فايد - تحملت كثيرة سميرة هانم سميرة - تحمل هذه المرة أيضا
فايد - هي التي أرسلتك أم حضرت من تلقاء نفسك؟
سميرة - هي التي أرسلتني ولكنها رجتني أن أخفي عنك ذلك، إنها تحبك وتتألم لبعدك. لا تكن قاسياً
فايد - لست بقاس يا هانم
سميرة - حكمت لا مثيل لها ذكاء وظرفا وطيبة ووفاء
فايد - إني واثق من ذلك
سميرة - إذن. . . اذهب الليلة إليها وصالحها
فايد - سأسافر الليلة إلى استامبول
سميرة - تسافر؟. . تسافر دون أن تقابلها وتودعها؟
فايد - يجب ألا أقابلها الآن. أريد أن أفكر على انفراد في حبنا. . في مستقبلنا
سميرة - لكنها ستحزن. . . أيرضى قلبك أن تسافر وتتركها هكذا حزينة؟
فايد - قلبي مطمئن عليها لأني سأتركها معك. أخبريها أني مازلت احبها وان غيبتي لن تطول
سميرة - لا يمكنني. لتعلم بسفرك من غيري. ولكن ماذا أقول لها؟ إنها في انتظاري
فايد - (يفكر قليلا ثم يقول) قولي انك لم تجديني
سميرة - حسن. افضل أن اكذب عن أن ابلغها ما يحزنها، مع السلامة يا بك، عد إلينا سريعا (وتقف)
فايد - (ويقف ويقول) سلمت يا هانم، وشكرا على جميل سعيك (يقبل يدها)
سميرة - حكمت صديقتي من عهد الدراسة ولها مكانة خاصة (تقول وذلك وهي خارجة مع فايد)
المنظر السادس: فايد وحده
ستحزن كما قالت (يعود فايد ويجلس إلى المكتب ويرتب أوراقا في أدراجه وهو يقول) سميرة، ستحزن لأنها تحبني، إني واثق من حبها. . وأنا احبها. . آه لو لم تكن غيورة. . تباً للغيرة كم تعذب وكم تشقي!. . إنها الآن تتعذب. . وأنا. . امصيب أنا في سفري أم مخطئ؟
هل في استطاعتي البقاء شهرين بعيدا عنها محروما من رؤية وجهها النضر وعينيها الناعستين وفمها العذب؟. . . أخشى ألا أستطيع. . أشعر أني لا أستطيع. . لقد منعتني عزة نفسي عن العودة إليهما مغتنما فرصة إرسالها سميرة. . أصبحت ولابد لي من السفر. . نعم لابد. . ما باليد حيلة. (هنا تدخل حكمت؟)
المنظر السابع
فايد وحكمت
فايد (يقف ويسير إلى حكمت قائلا (أنت؟ أنت؟)
حكمت - نعم أنا، جئت لأنك رفضت المجيء عندي. جئت عندما علمت من سميرة بنبأ سفرك، ولم تمنعني عزة نفسي. أحقا ستسافر الليلة؟
فايد - نعم

حكمت - لو لم أجيء كنت سافرت دون أن تراني؟
فايد - كنت سأكتب إليك واشرح. . .
حكمت - (متهكمة) مادمنا قد تقابلنا تكلم. قل ما كنت ستكتب، أشرح كما تشاء، كن مطمئنا لا نزاع ولا خصام. ولو أن النزاع قد اصبح من مستلزماتي أني أصبحت أنغص عليك
عيشك
فايد - لقد نقلوا إليك الكلام محرفا كالعادة. عزمت على السفر دون أن أحظى برؤيتك خوفاً من نفسي لا منك
النفس والرقص
للكاتب الشاعر الفرنسي العظيم بول فاليري
ترجمة الدكتور طه حسين
استكشف صديقي الدكتور محمد عوض محمد في نقده القيم الظريف لكتابي على هامش السيرة أن وراء هذا الطلاء الرقيق الذي أظهره من الثقافة الغربية أزهريا قحا. فحق عليّ أن أهنئه بهذا الاستكشاف وأن اشكره له، فقد دلني على نفسي أظهرني على حقيقة أمري. ولعله يأذن لي في أن اهدي إليه هذه الترجمة اعترافاً بفضله ومكافأة له على جهده الخصب العظيم.
وأحب أن اقدم بين يدي هذه الترجمة ملاحظات لابد منها
الأولى: إنني حرصت اشد الحرص على أن تكون الترجمة دقيقة تشبه الحرفية، لأنقل إلى القراء صورة إن لم تكن مطابقة فهي مقاربة لما أراد الكاتب أن يقول والكاتب نفسه غامض. فهذا النحو من الترجمة يزيده غموضا ولكني سأجتهد في توضيحه بتعليقات قصيرة تبين ما يريد.
الثانية: أن الكاتب زعيم من زعماء الرمزيين فهو يطلب الاستعارة والمجاز فالتشبيه والتمثيل، ويبعد فيها ويصل بهذا الأبعاد إلى إشراك القارئ معه في لذة التفكير والاستنباط، فلا ينبغي إذن أن يضيق القارئ بما سيرى من غرابة، وإنما يجب عليه أن يصبر على هذه الغرابة ويروض نفسه على مواجهتها حتى يألفها ويطمئن إليها فيصبح صديقا للكاتب ومحبا لآثاره.
الثالثة: إن هذا الكتاب حوار بين سقراط واثنين من تلاميذه في آخر وليمة من ولائم العشاء، فليلاحظ القارئ هذا وليلاحظ أن سقراط وأصحابه كانوا وثنيين، فهم يتحدثون لغة الوثنيين، يذكرون آلهة عدة، لا إلهاً واحداً.
الرابعة: أن عنوان هذا الكتاب وموضوعه قد يؤذيان سمع المتحرجين من الشرقيين، ولكنهما لا يؤذيان سمع الفرنسيين، ومن المحقق أن بول فاليري لم يكتب كتابه لنا، ولو أنه فكر فينا وقدر أنا قد نترجم كتابه لكان من الممكن أن يتخذ لكتابه موضوعا وعنوانا غير الرقص. ومن يدري لعله كان يحس أن الأسباب بينه وبيننا مقطوعة غير موصولة، وانه قد يعجز عن أن يكتب لنا، وقد نعجز نحن عن أن نقرأه.
وليس هذا الكتاب ما يسوء، وليس فيه ما يغضب المتحرجين، إنما هو أثر من الآثار الفنية أراد صاحبه أن يصور في وضوح وقوة ما بين النفس والجمال الخارجي من صلة. فهو إلى أن يكون رسالة في علم الجمال أدنى منه إلى أي شيء آخر.
والآن نستطيع أن نأخذ في الترجمة.
أركسيماك - أي سقراط إني أموت!. . اعطني شيئا من الروح! صب لي الفكرة!. . قدم إلى انفي ألغازك الحادة! هذا الطعام الذي لا رحمةفيه يتجاوز كل رغبة معقولة في الطعام، وكل ظمأ جدير بالثقة!. . يالها من حال، حال الذين يعيشون بعد جيد الألوان ويرثون عنها هضما!. . لم تعد نفسي إلا حلما تصنعه المادة التي تجاهد نفسها! أيتها الألوان الجيدة المسرفة في الجودة إني آمرك أن تمضي. . !
وأحزناه! مازلنا منذ وجبت الشمس فريسة لخير ما يوجد في الأرض، هذا الخير الهائل يضاعفه امتداد الزمان، يثقل محضره على النفوس حتى أني لتهلكني رغبة شاذة في أشياء جافة، خالصة للعقل. . . إيزن أن أجيء فأجلس إلى جانبك أنت والى جانب فيدر، موليا ظهري في جرأة لهذه اللحوم التي تتجدد دائما، ولهذه الأقداح التي لا تنضب، دعني أمدد لكلماتك، هذه الكأس العليا كأس عقلي، ماذا كنتما تقولان؟

فيدر - لم نكن نقول شيئا بعد. إنما ننظر إلى أمثالنا يأكلون ويشربون.
اركسيماك - ولكن سقراط لا ينقطع عن التفكير في شيء ما. . . . وهل استطاع قط أن يخلو إلى نفسه وأن يظل صامتا إلى أعماق النفس! لقد كان يبسم في حنان لشيطانه على الحافة المظلمة لهذه المأدبة. بم تغمغم شفتاك أي سقراط العزيز؟ . . .سقراط - هما تقولان لي في هدوء أن الرجل الذي يأكل هو أعدل الناس.
اركسيماك - هذا هو اللغز وهذه هي شهوة العقل التي خلق اللغز ليثيرها.
سقراط - تقولان أن الرجل الذي يأكل يغزى ما فيه من خير وشر. كل لقمة يجدها تذوب وتتفرق في جسمه تقدم قوة جديدة إلى فضائله، كما تقدم قوة جديدة إلى رذائله دون تمييز وتنقسم في بعض الأنحاء بين الشهوة والعقل، وهي تقيم أود آلامه كما تنمي آماله. يحتاج إليها الحب كما يحتاج إليها البغض. وان فرحي وحزني وذاكرتي وهمي لتقتسم كما الاخوة
ما في اللقمة من غذاء. ما رأيك في هذا يا أبن اكومين؟
اركسيماك - رأيي إني أرى ما ترى
سقراط - يالك من طبيب! لقد كنت أعجب في صمت بأعمال كل هذه الأجسام التي تتغذى. كل واحد منها يعطي على غير علم لما فيه من قدرة على الحياة، أو جرثومة للموت، حظه العادل من الغذاء. هي لا تعرف ما تأتي ولكنها تأتيه كأنها الآلهة.
اركسيماك - لقد لاحظت منذ زمن بعيد أن كل ما يمتزج بجسم الإنسان يمضي بعد ذلك بوقت قريب كما يريد القضاء. كأن برزخ الحلق عتبة للضرورات الجامحة والألغاز المنظمة. هنا تنقطع الإرادة وينتهي الميدان المحقق للمعرفة. ولهذا أعرضت في ممارسة فني عن كل هذه الأدوية المضطربة التي يفرضها عامة الأطباء على مرضاهم المختلفين وأخذت نفسي في غير تسامح بأدوية بديهية مرتبة كل واحد منها بازاء الآخر
فيدر - ما هذه الأدوية؟
اركسيماك - هي ثمانية؛ الحار والبارد، الحمية ونقيضها، الهواء والماء والسكون والحركة؛ هذه هي.
سقراط - أما النفس فليس لها إلا دواءان يا اركسيماك
فيدر - وما هما؟
سقراط - الصدق والكذب.
فيدر - وكيف ذلك؟
سقراط - أليست الصلة بينهما كالصلة بين اليقظة والنوم؟ الست تلتمس اليقظة وصراحة الضوء حين يؤذيك حلم رديء؟ أليست الشمس نفسها تبعثنا من مراقدنا؟ أليس حضور الأجسام الصلبة يقوينا؟ ثم على العكس من ذلك ألسنا نطلب إلى النوم والى الأحلام أن تفرج همومنا وان تقف آلامنا التي تتبعنا في عالم النهار؟ وإذن فنحن نهرب من أحدهما إلى الآخر وندعو النهار في أثناء الليل. ثم ندعو الظلمة حين نستمتع بالنور، تشوقنا المعرفة، ويسعدنا الجهل، نبحث فيما هو موجود عن دواء لغير الموجود، ونلتمس فيما لا وجود له راحة مما يوجد، يتلقانا الحق الواقع تارة، ويتلقانا الوهم تارة أخرى. والنفس في آخر الأمر لا حلية لها إلا في الصدق الذي هو سلاحها، والكذب الذي هو وقاؤها.
أركسيماك - حسن! حسن!. . ولكن ألا تظن أي سقراط العزيز أن لخاطرك هذا نتيجة
سقراط - أي نتيجة
أركسيماك - هذه: وهي أن الصدق والكذب يرميان إلى غاية واحدة. فشيء واحد يستطيع من طريقين مختلفين أن يجعلنا صادقين أو كاذبين، وكما أن الحر والبرد يهاجماننا حينا ويحمياننا حينا آخر، فان الصدق والكذب والإرادرت المختلفة التي تلائمهما، تنفعنا حينا وتضرنا حينا
سقراط - ليس شيء أوكد من هذا ولا حيلة لي فيه. إنما هي الحياة تريد هذا، وانك لتعلم اكثر مني إن الحياة تستخدم كل شيء. كل شيء حسن عندها يا أركسيماك، ثم هي لا تنتهي بشيء إلى غاية ما، ومعنى ذلك أنها لا تنتهي إلا إلى نفسها. أليست هي هذه الحركة الخفية التي تحولني دائما إلى نفسي بفضل كل هذه الحوادث التي تطرأ ثم تردني سريعة إلى شخص سقراط لألقي نفسي فيه ثم لأكونه لأني أتخيل أني سأعرفه من غير شك - إنما هي امرأة ترقص ولو استطاعت أن تمضي في وثبتها حتى

تبلغ السحاب لتنزهت عن أن تكون امرأة، وكما أننا لا نستطيع أن نمضي إلى غير نهاية لا في الحلم ولا في اليقظة فهي أيضا تعود دائما إلى نفسها وتخرج عن أن تكون ثلجا منثوراً أو أن تكون طائراً، أو أن تكون فكرة، أو أن تكون أي شيء أراد المزمار أن تكونه لأن الأرض التي بعثتها تدعوها وتردها متعبة إلى طبيعتها الأولى طبيعة المرأة، ثم إلى صديقها.

فيدر - يا للمعجزة!. . . يالك من رجل عجيب. . يكاد ما أرى أن يكون معجزة حقا! لا تكاد تنطق حتى تخلق ما لابد منه. . . لا تستطيع الصور التي تحدثها أن تبقى صورا. . انظر محققا كأنما فمك الخالق قد انشأ النحلة والنحلة. انظر إلى الجوقة ذات الأجنحة تتألف من الراقصات الشهيرات!. . . إن الهواء ليدوي مرجعا ما سيتكشف عنه فن الرقص!. . . كل المشاعل تستيقظ! وغمغمة النائمين تتحول، وعلى الجدران التي يهزها اللهب المضطرب تذهل وتشفق الظلال العريضة ظلال السكارى. . . انظر إلى هذه الفرقة التي تجمع بين الخفة الظريفة والجد الحازم! - هن يدخلن كأنهن الأرواح

سقراط - لله ما أوضح هؤلاء الراقصات؟. . يالها مقدمة حية رشيقة لأفكار أدنى إلى الكمال!. . أن أيديهن لتنطق وكأن أقدامهن تكتب - كم من دقة في هذه الكائنات التي تجتهد

في أن تستخدم موفقة مالها من قوى ناعمة. كل مصاعبي تهجرني، وليست هناك الآن مسألة تجهدني، إنما أطيع سعيدا حركة هذه الأشكال! إنما اليقين هنا لعب، كأنما المعرفة قد وجدت نفسها، وكأنما العقل يستجيب فجأة للجمال الظريف الذي لا تكلف فيه انظر إلى هذه الفتاة أشدهن نحافة وأكثرهن فناء في الاستقامة الخالصة. . . من تكون؟ أنها لصلبة في عذوبة، وأن مرونتها لتعجز الواصفين. . إنها لتسلم أنها لتستعيدانها لتؤدي الوزن في دقة حتى لو أغمضت عيني لرأيتها كما هي بمسعى أني لاتبعها، إني لأجدها وليس إلى أن افقدها من سبيل ولو قد سددت أذني ونظرت إليها كما هي وزن وموسيقى لكان المستحيل ألا اسمع القيثارة!

فيدر - هي رودبيس هذه التي تخلبك

سقراط - إذن فما اجمل اتصال أذن رودبيس بكعبها. . . ما أدقها. . . إنها لترد إلى الزمن الشيخ شبابه

اركسيماك - كلا يا فيدر!. . . . . رودوبيس هي هذه الأخرى التي تلاطف بطرفها إلى غير حد في عذوبة وسهولة.

سقراط - وإذن فمن هذه النحيفة ذات المرونة الشاذة؟

اركسيماك - هي رودينا

سقراط - ما أجمل اتصال إذن رودينا بكعبها!

اركسيماك - على أني اعرفهن جميعا واحدة واحدة وأستطيع أن اسميهن لكما فأسماؤهن تنتظم انتظاما حسنا في شعر قصير يسهل حفظه: نبس، نفويه نيما - نكتيريس، نيفيليه، نيكتيس - رودوبيس، رودينا، بتليه. . . أما هذا الراقص القصير الدميم فيسمى نتاريون. ولكن ملكة الجوقة لم تدخل بعد.

فيدر - ومن تملك على هذه النحل؟

طه حسين (يتلى)

العدد 26 - بتاريخ: 01 - 01 - 1934

الرسالة في عامها الثاني

في مثل هذا الأسبوع من عامنا المنصرم أخذت الرسالة طريقها الصامت إلى المطبعة. ثم خرجت منها إلى الناس تخطو خُطى الوقار في عِطاف الحشمة، لا يَجذب الطرف ظاهرها المتبرج، ولا يخلب اللب باطنها الفكِه. وكانت منذ انطلاقها من عقال التردد نتظنن في عواقب الجرأة على لقاء الجمهور بهذا المزاج في هذا الزي، فلا تدري أيصّدق ظنّها أم يكّذبه، ويحقق أملها أم يخيبه.

فلما بش لها بشاشة الزهر، وأقبل عليها إقبال الدهر، تبدلت لهذا الشعب الكريم صورة مكان صورة، ونشأت عنه فكرة بدل فكرة، وأيقن الذين رموا عقليته بالاعتلال، وثقافته بالهزال، وأدبه بالعبث، إن وراء هذا المظهر المزور عقلا قويما يلذه التفكير، وذوقا سليما يروقه الجد

والواقع أن الرسالة كانت صرخة الحق في ضجة الباطل، دلت على العمق الصحيح

لثقافة الكتاب، والاتجاه الصادق لهوى القراء، والمستوى الحق لرقي الأمة، وكان لها أن تزعم - إذا استجازت الفخر - بأن مجموعتها سجل مضبوط لألوان الأدب العربي في هذا العصر

لم تلبث الرسالة على قرب عهدها بالوجود ان عقدت أسباب المودة بينها وبين القلوب العربية في أقطار الأرض، فظلوا يخالصونها الولاء، ويصادقونها النصح، ويواضعونها الرأي، ويربأون بها أن تسف أو تخف أو تشغل مكانا منها بإعلان؛ وظلت هي على العهد الذي قطعته تتحرى وجوه الرشد وتتوخى سبيل القصد، وتحدوا أهواء النفوس إلى الغاية التي يتوافى عليها الاخوة، وتلتئم عندها الوحدة، والله يعلم ما لقيت الرسالة في طريقها من عنَت الشهوات، ورَهَق الحوادث، فما خنست لها همة، ولا انقبضت لها عزيمة، لان المؤمن الصادق لا يُفْتَن عما يعتقد، ولاَ يُخدع عما يرى، ولا يُؤفك عما يقصد

لم تكن الرسالة متجنيَة على الحق يوم أخذت على نفسها الموثق بأداء هذا الواجب، فأن القائمين بها كانوا يعملون من دلائل الحال ان الأدب الصحيح الناضج إنما يتجلجل داويا في أعماق أهله، ثم لا يجد السبيل إلى الخارج لتسلط الوساوس التي ذكرناها في صدر العدد الأول من الرسالة. فكان كل أديب موهوب يقصر الحان قلبه على سمعه، كأنه الينبوع الشادي في خلوة الوادي، لا يقع شدوه في إذن، ولا يتصل نشيده بنشيد.

فكان سبيل الرسالة إذن أن تضم الأشتات إلى الأشتات، وتوفق بين الأصوات والأصوات،

ثم تؤلف من هذه الآلات المفردة جوقة موسيقية متحدة تسكب في مسامع الوجود، أناشيد الخلود!

ولانت للرسالة بحمد الله أعطاف الأمور فنجحت في هذا التوفيق، وكانت كما ترى في فهارس سنتها الأولى صدى حاكيا لتلك الأصوات الصوادح بالمجد العربي والأدب العربي في العراق وسورية ولبنان وفلسطين ومصر والسودان والمغرب

نضّر الله بالحمد وجوه اؤلئك الأدباء البررة الذين استجابوا دعوة الوطن الأكبر فساهموا في تبليغ الرسالة، وأعانوا على تأدية الأمانة، وأضافوا خيرهم الفَمْر إلى تراث آبائنا الخالد!

في السنة الأولى للرسالة هنات يصيبها المتعقب ويُخْطِئها الكريم، ولم يكن في مقدور المبتدئ ولا تقديره أن يتسلف النظر إلى كل الطوارئ، وقد اكتسبنا بفضيلة الصبر خبرة في العمل وقدرة على صعابه، نرجو أن يظهر أثرهما في هذه السنة، فيحسن الطبع، ويجود الوَرق، ويدق التصحيح، وتتسع الأبواب، ويكبر الحجم، ويكمل النقص، وتزداد في كل ذلك العناية

وقد استقبل القراء صدور الرسالة أسبوعيا بأريحية السرور وهزة الأمل، واستهال الأمر بعض الأصدقاء فأشفقوا على الرسالة أن تقوض العجلة ما بنته الروية من هيكلها المتين وسَمكها العالي

وأنا لنشكر للمتفائلين الفرح، ونحمد للمتشائمين الخوف، ونؤكد لهؤلاء أن الرسالة تمضي بعون الله قُدُما إلى الغاية، فلا يمكن أن تهبط عن مستواها، ولا أن تقصر عن مداها وأنا لنجدد للقراء عهد الرسالة ونحن أقوى ما نكون اعتماداً على فضل الله، واطمئنانا إلى عطف الأمة، واتكاء على عون الشباب، واعتداداً بإخلاص العمل

وإذا كنا قد قطعنا موفقين أول العهد، والرسالة رسالة فرد، والمجهود مجهود نفر، فكيف يتلكأ الحظ ويتعثر الأمل، وقد أصبحت الرسالة رسالة أمة، والمجهود مجهود شعب؟!

احمد حسَن الزيات

النفس والرقص

للكاتب الشاعر الفرنسي العظيم بول فاليري

ترجمة الدكتور طه حسين

اركسيماك - هي المدهشة، هي البالغة غاية الإبداع في الرقص (اتكتيه)

فيدر - ما أعرفك بهن!

اركسيماك - لكل هؤلاء الحسان أسماء كثيرة أخرى بعضها يأتيهن من الاسرة، وبعضها يأتي من الاخصاء

فيدر - أنت أخص هؤلاء الأخصاء!. . تعرفهن اكثر مما ينبغي!

اركسيماك - أنا اعرفهن اكثر جدا من المعرفة الحسنة، ومن بعض الأنحاء أحسن مما يعرفن أنفسهن. أي فيدر! الست أنا الطبيب؟ عندي وبي تستحيل أسرار الطب كلها، أسرارا تشترى بها كل أسرار الراقصة! هن يدعونني لكل شيء، يدعونني لالتواء القدم، وللدمل، والذهول، ولما يمس القلب من حزن، وللأحداث المختلفة التي تصيبهن من الصناعة (وهذه الأحداث الجوهرية التي تنتج في سهولة من مهنة شديدة الحركة) وضبقهن الخفي، حتى الغيرة سواء أكان مصدرها الفن أو الغرام، وحتى للحلم. . أتعلم انه يكفي ان يسررن إلى ببعض ما يقلقهن من الأحلام لاستنبط من ذلك ان في بعض أسنانهن فساد؟

سقراط - يالك من رجل خليق بالإعجاب يعرف الأسنان بالأحلام! أتظن إن أسنان الفلاسفة كلها فاسدة؟

اركسيماك - لتحمني الآلهة من عض سقراط؟

فيدر - دع هذا وانظر إلى هذه الأذرع والسوق التي لا تحصى! عدد ضئيل من النساء يظهر ألف شيء ألف مشعل، ألف رواق معمد قليل البقاء، عروشا، عمدا. . الصور تذوب تنمحي. إنما هي جماعة من الشجر حسان الغصون يهزها نسيم الموسيقى! أترى يا اركسيماك أن هناك حلما يصور من الألم واضطراب العقل اكثر مما يصور هذا الذي نراه الآن؟

سقراط - ولكن هذا الذي نراه إذا حققت ابعد الأشياء عن الحلم أي فيدر العزيز

فيدر - ولكني أنا حالم. . حالم بالعذوبة تضاعف نفسها بنفسها إلى غير حد بما يكون بين

هؤلاء العذارى من التلاقي ومن تبادل الصور. حالم بهذا التماس الذي لا يوصف والذي يحدث في النفس بين الأزمنة، بين بياض الأذرع واشتباكها بمقدار، وأصوات هذه الأنغام المؤتلفة الخافتة والتي يظهر عليها كل شيء كأنه مصور محمول. تنفس اختلاط هؤلاء الفتيات الساحات كأنه شذى مسكي مركب، ويهيم محضري في هذا الظرف المختلط حيث تضل كل واحدة منهن مع رفيقة ثم تظهر مع رفيقة أخرى

سقراط - إن نفسك لمفتونة باللذة، إن ما تراه لنقيض الحلم لا أثر للمصادفة فيه. . ولكن نقيض الحلم ما هو يا فيدر؟ إنما هو حلم آخر! حلم تنبه ويقظة يحلمه العقل نفسه! - وماذا يمكن أن يحلم العقل؟ لو حلم العقل صلبا قائما مثلج العين مطبق الفم كأنه سيد شفتيه - فالحلم الذييراه هل يكون إلا شيئاً كالذي نراه الآن - هذا العالم من القوة الدقيقة والتخيل المتعمد في عناية وإتقان! حلم، حلم، ولكنه حلم يملؤه التناسق كله نظام، كله فعل وغناء. . من يدري أي القوانين المقدسة تحلم هنا الآن وقد اتخذت وجوها نضرة واتفقت على أن تظهر للناس كيف تستطيع الأشياء الواقعة وغير الواقعة والمعقولة ان تمتزج وتأتلف حسب ما لآلهة الفن من مقدرة؟

اركسيماك - من الحق يا سقراط ان كنز هذه الصور لا يقدر. . ألا تظن أن فكرة الآلهة هي بالضبط ما نرى وان هذا التشابه الفخم إلى غير حد. هذا التداور والتقابل والتقاطع التي لا تنتهي والتي تظهر لأعيننا ينقلنا إلى عالم المعرفة الإلهية؟

فيدر - ما أجمله ما أظرفه هذا المعبد الصغير الوردي المستدير الذي يؤلفنه الآن والذي يدور في بطء كأنه الليل! انه ليتفرق فتيات أن الأردية لتتطاير وكان الآلهة قد غيروا من تفكيرهم

اركسيماك - إن الفكرة الإلهية الآن هي هذه الجماعات الكثيرة المختلفة الألوان من الوجوه الباسمة. أنها تبدئ المعاد من هذه الحركات الحدة وهذه العَواصف اللذيذة التي تتألف من جسمين أو ثلاثة أجسام ثم لا تستطيع أن تفترق. . لقد وقعت إحداهن فيما يشبه الأسر فلن تخرج من سلاسلهن السحرية!

سقراط - ولكن ماذا يصنعن فجأة؟. . . إنهن ليختلطن، ثم يمضين مسرعات!. . .

فيدر - هي يطرن إلى الأبواب، ينحنين ليستقبلن

اركسيماك - أي اتكتيه! أي اتكتيه!. . يا للآلهة!. . اتكتيه الخافقة!

سقراط - ليست شيئاً.

فيدر - هي طائر صغير

سقراط - شيء لا جسم له!

اركسيماك - شيء لا ثمن له!

فيدر - أي سقراط! كأنها تطيع إشكالا لا ترى!
سقراط - أو تذعن لقضاء جليل!
اركسيماك - أنظر! أنظر! أترى أنها تبتدئ بمشي الاهي؛ مشي يسير مستدير. تبتدئ بأرقى ما عندها من الفن، تمشي في يسر على ما انتهت إليه من القمة! طبيعتها الثانية هذه أبعد ما تكون عن طبيعتها الأولى، ولكن يجب أن تشبهها، حتى تخدعنا عنها.
سقراط - إني لاستمتع إلى أقصى حد بهذه الحرية. أن صاحباتها الآن لمستقرات كأنهن مسحورات. وأن الموسيقيات ليسمعن لأنفسهن دون أن يحولن أبصارهن عنها. . . يمتزجن بها كأنما يلححن في كمال التوقيع.
فيدر - إحداهن كأنها المرجانة الوردية قد انعطفت على نفسها وهي تنفخ في قوقعة عظيمة.
اركسيماك - صاحبة المزمار هذه العالية في الطول ذات الفخذين النحيفتين كأنهما المغزلان، قد لفت إحداهما على الأخرى، ومدت قدمها الظريفة التي تخفق إبهامها بوزن الموسيقى. . . أي سقراط ما ترى في هذه الراقصة؟
سقراط - أي اركسيماك هذه المخلوقة الصغيرة تدعو إلى التفكير. . أنها تجمع على نفسها أنها تحتمل جلالا كان مفرقا فينا جميعا وكان يحل غير مشعور به كل الذين يشتركون في هذا اللهو. مشي يسير، وإذا هي الآهة، وإذا نحن جميعا كأننا الآلهة!. . . مشى يسير ايسر التسلسل كأنها تأجر الفضاء بأعمال جميلة متساوية وتضرب بعقبها حركات كالدنانير ذات الرنين. كأنما تعد وتحصي في قطع من الذهب الخالص ما ننفقه نحن غافلين نقدا عاديا من الخطوات حين نسعى لأي غاية من الغايات
اركسيماك - أيها العزيز سقراط. إنها تعلمنا ما نعمل، مظهرة لنفوسنا في جلاء ما تأتي أجسامنا من الحركات، تظهر لنا ساقاها حركاتنا كأنها المعجزات. ثم هي تدهشنا بمقدار ما ينبغي أن ندهش
فيدر - في أي شيء تمتاز هذه الراقصة عندك بشيء سقراطي، فتعلمنا من المشي كيف نعرف أنفسنا بأنفسنا خيراً مما كنا نعرفها،
اركسيماك - في هذا بالضبط وهو أن خطواتنا تبلغ من اليسر والألف حدا لا نشرفها معه بملاحظتها في أنفسنا ومن حيث هي أعمال غريبة إلا أن يكون أحدنا مقعداً أو مريضاً فيضطره العجز إلى الإعجاب بها - وإذن فهن يحملننا كما يعرفن، ونحن نجهلهن، وهن يختلفن باختلاف الأرض والغاية والأخلاق والأحوال بل وضوح الطريق، ونحن ننفقهن في غير تفكير.
ولكن انظر إلى هذا المشي التوقيعي الكامل. تمشيه اتكتيه على ارض لا عيب فيها، وهي حرة صريحة تكاد تكون مرنة تضع في تناسق على مرآة قوتها قدميها متتابعتين، عقبها يصب جسمها نحو مقدمة رجلها، ثم تمر رجلها الأخرى فتتلقى الجسم وتصبه إلى امام، وهكذا على حين تخط قمة رأسها البديعة في الحاضر الأبدي جبهة موجة متثنية
وإذا كانت الأرض هنا كأنها مطلقة قد برت من كل عوج مفسد للتوقيع أو دافع إلى التردد فهذا المشي العظيم الذي لا غاية له إلا نفسه، والذي برئ من الوان الفساد على اختلافها يصبح نموذجا عاما
انظر أي جمال، أي أمن شامل للنفس ينشأ من طول خطواتها الفخمة، هذه (الخطوات الممتلئة ملائمة لعددها الذي يلائم الموسيقى ولكن عدد الخطوات وطولها ملائمتان من ناحية أخرى لقوام الجسم
سقراط - انك لتحسن الحديث عن هذه الأشياء أيها الخبير اركسيماك حتى أنى لمظطر إلى أن أرى كما تتفكر. إني لأنظر إلى هذه المرآة التي تمشي وتثير في نفسي شعور السكون لا اعني إلا بما لحركاتها من المساواة. . .
فيدر - إنها لتقف بين محاسنها التي لا تنتهي. .
اركسيماك - ستريان!
فيدر - إنها تغمض عينها. .
سقراط - إنها كلها في عينيها المغمضتين وحيدة مع نفسها في إفناء عنايتها الخاصة. تشعر كأنها أصبحت شيئاً حادثا جليلا.
اركسيماك - انتظرا، ان. . . الصمت الصمت!

فيدر - يالها لحظة حلوة! هذا الصمت تناقض. كيف السبيل إلى إلا أصبح. الصمت!
سقراط - لحظة عذراء حقا. ثم لحظة نحس فيها كأن شيئا يجب ان ينقطع في النفس
وفي الانتظار وفي الجماعة. . شئ ينقع ولكنه في الوقت نفسه كأنه يتصل.
طه حسين
كلمات في الحياة
من الأدب العربي والأدب الغربي
للأستاذ احمد أمين
إنما الحياة الدنيا لعِبٌ ولهوٌ
(قرآن كريم)
خطَّ رسول الله (ص) خطا وقال هذا الإنسان، وخط إلى جانبه خطا وقال هذا أجله،
وخط آخر بعيداً عنه وقال هذا الأمل، فبينما هو كذلك إذ جاءه الأقرب.
(حديث)
لما رجع رسول الله (ص) من غزوة غزاها قال: (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد
الأكبر)
الدنيا حلم، والآخرة يقظة، والموت متوسط، ونحن في أضغاث أحلام.
(الحسن البصري)
الدنيا شوك، فانظر أين تضع قدمك
(حكيم)
الدنيا بيت له بابان، دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر
(حكيم)
أدرْها علينا مُزَّةً بابِلِيَّةً ... تخَيَّرَها الجاني على عهد قَيْصرا
فما الطَّيْشُ إلا أن تراني صَاحياً ... وما العيش إلا أن ألَذَّ فأسكَرَا
(أبو نواس)
هل العيش إلا أن تَرُوح مع الصَّبَا ... وتغدو صريعَ الكأس والأعين النُّجْلِ
(صريع الغواني)
أصاحِ هي الدنيا تشابه مَيْتَةً ... ونحن حواليها الكلابُ النوابح
(أبو العلاء المعري)
وما العيش إلا عِلَّةٌ برؤها الرَّدَى ... فَخلَّ سبيلي أنْصَرِفْ لِطِيَاتي
(أبو العلاء)
وما الأرض إلا مثْلنُا، الرَّزْقَ تبتغي ... فتأكُلُ من هذا الأنام وتشربُ
(أبو العلاء)
عاقر الخمر فإنها مُلْكُ محمود، واسمع القيثارة فإنها لحن داود، ولا تذكر إلا الحاضر
فذلك هو المنشود.
(عمر الخيام)
خذ كأسا وإبريقا وتجول في الرياض الناضرة على شاطئ الأنهار، فان هذا الفَلَك طالما
جعل من قدود الغانيات كؤوسا، وجعل منها أباريق
(عمر الخيام)
ليست الحياة أن تتنفس، ولكن أن تعمل
(ليكوغوس)
إن الحياة طويلة لمن عرف كيف يستخدمها
(سينكا)
إذا أردت أن تعيش سعيداً فعش ليومك
(بلوتوس)
إنما يسيطر على الحياة الحظ لا الحكمة
(بوبليوس سيروس)
الحياة نسيج آراء
(ماركوس أوريليوس)
الحياة دمعة منسكبة تبتلعها الأرض
(اليارذي)

كثير من الناس لا يتمتعون بالحياة لأنهم لا يجدون نقطةَ تَوَازُنِها
(تارشتي)
حياة الإنسان كاليوم، فجره ميلاده وصباحهِ طفولته، وظُهْره إيقاعه، وغروبه موته
(بوب كليمان)
الحياة سباق إلى الموت
(دانتي)
حياة الإنسان تكيَّفُها عواطفه
(بلزاك)
الحياة أُغْنِية وكل نَفْس لحن
(لامارتين)
الحياة أن تستخدم كل أعضائك ومشاعرك وملكاتك وكل قوة فيك حيى تشعر أقصى شعور بوجودك
(روسو)
أكثر الناس يستخدمون شطر حياتهم لتنغيص الشْطر الآخر
(لابروبير)
الحياة بين أن تحارب وأن تستعد لان تحارب
(أري شفر)
الحياة حروفُ تعجب واستغاثة وندبة، ومجموعة من آه والله وأحّ وبخ
(بيرون)
وسئل فيلسوف ما رأيك في الحياة فهز كتفيه وانصرف لوجهه
الحياة عمليات حسابية مختلفة الأرقام نتيجتها صفر دائماً
أحمد أمين
إلى سيدي الأستاذ العبادي
وقفة أخرى على جسر إسماعيل
أما أنا فقد وقفت أيضا بالجسر ولكني أشهد أنه لم يثر في نفسي إلا الأسى وحده، ولقد قطعته غير مرة ذهابا وجيئة، أرسلت الطرف في كل طريق، واسترسلت في التفكير العميق، لعلي أجد شيئا يرفع عن نفسي الحزن، أو يدفع إلى حسي قليلا من السرور، فارتد إلى البصر دامعا وهو حسير
لست أنكر ان الجسر كان يوما مهبط الفخر ومسقط السحر ولكن متى؟
ذلك يوم كانت أسده طليقة من إسار الذل، أما اليوم وهي غريقة في بحاره فليس يستطيع السائر هناك أن يمسك دمعه أن يهلك لوعة
سيدي: اسمح لي أن أقول إن وقفتي بجسر إسماعيل أعقبتني ندما وألما، وأنها ردتني إلى شيء من الحسرة والحيرة لا حد له، فلقد كنت أسمع في همس موجه، وجرس لجة، طنين تلك الأرواح الهاتفة من الماضي الزاخر بالمجد، وأنين هاتيك الأشباح الطائفة من الشهداء تبكي أسى على استقلال زال، واحتلال ما حال. . .
سيدي، لقد كان لي فيما رأيت من منظر النهر ما أغرقني في فيض من الهم، فأغرقت في تفكير مرير ولم أفق إلا على صوت - البوري - فرفعت رأسي إلى المعسكر الأحمر وتحاملت على نفسي ومضيت دامع العين دامي القلب
واليوم قرأت مقالك فانسابت الذكريات سراعا تباعا فنكأت الجرح بعد أن كاد يندمل، وطاب لي أن أمسح حول هذا الجرح فوجدت في ذلك شيئا من اللذة مصدرها الثقة في الله والأمل في المستقبل، وأنا الآن أكتب إليك هذا في الثالثة صباحا بينما تقرع إذني طرقات متواليات من طبلة (السحور) فتشيع في نفسي ألوانا من الإيمان، وتجعلني أرفع يدي إلى السماء في ضراعة وأهتف:
(اللهم لا تمتني قبل أن أشهد مصر حرة)
البكري القلوصناوي
الجامعة المصرية. كلية الحقوق
الحبس=الإعدام
للأستاذ حسن جلال
من أنباء الصحف اليومية:

أن المدعو محمد فضل الله الحمري دخل ذات ليلة بيته فوجد أحد أصدقائه ويسمى) محمد خليفة الكاجاوي مع زوجته فأخرج مديته وأغمدها في صدره فقضى عليه لساعته، فقبض عليه رجال البوليس وحقق معه، ثم أحيل إلى المحاكمة الجنائية وشكلت له محكمة وطنية برياسة المستر بمفري المفتش بمديرية غرب كردفان وعضوية الشيخ بانقا مهيدي والشيخ الشرقاوي حماد عبد الكريم، ولما سئل الجاني اعترف بجريمته وقال أنه ارتكبها عامدا بسبب ما أثار حفيظته من تلك الفعلة الشنيعة التي ارتكبها المجني عليه، فأصدرت المحكمة أخيرا حكمها وهو يقضي بإعدام القاتل محمد فضل الله الحمري.)

والذي يلفت النظر إلى هذا الخبر أن مثل هذه الفعلة الشنيعة إذا قابلها الزوج في مصر بمثل ما قابلها به (المدعو) محمد فضل الله الحمري لا تصدر المحكمة - أخيرا - حكمها عليه بالإعدام بأي حال من الأحوال، لان المادة 201 من قانون العقوبات المصري تنص على ما يأتي:

من فاجأ زوجته حال تلبسها بالزنا وقتلها في الحال هي ومن يزنى بها يعاقب بالحبس) بدلا من العقوبات المقررة في المادتين 198 و200

أما المادة 198 المشار إليها فهذا نصها.

من قتل نفسا عمدا من غير سبق إصرار ولا ترصد يعاقب بالإشعال الشاقة المؤبدة أو) المؤقتة. .) والمادة 200 نصها كالآتي:

كل من جرح أو ضرب أحدا عمدا أو أعطاه مواد ضارة ولم يقصد من ذلك قتلا ولكنه) أفضى إلى الموت يعاقب بالإشعال الشاقة أو السجن من ثلاث سنوات إلى سبع. . .)

والمفهوم من مقارنة هذه المواد أن الأصل فيمن قتل نفسا عمدا ولكن من غير أن يكون قد بيت النية على قتله بل يكون القتل قد جاء مثلا نتيجة مشادة أو مشاجرة أو نحوهما - الأصل فيمن فعل ذلك أن يكون جزاؤه الإشعال الشاقة المؤبدة أو المؤقتة. كما أن الأصل فيمن ضرب أنسانا ولم يكن يريد قتله ولكن الضرب أفضى إلى موته يكون جزاؤه الأشغال

الشاقة أو السجن. .

بيد أنه روعي بعد ذلك أن الشخص الذي يفاجئ زوجته بين أحضان رجل آخر فيعتدي على غريمته بالقتل أو بالضرب الذي يفضي إلى موته لا يمكن أن تعتبر جريمته مثل جريمة غيره. ولوحظ أن الظروف الخاصة بهذه الجريمة تبرر وقوعها نوعا ما، ولذلك خفف الشارع على مرتكبها في العقاب وجعل جزاءه الحبس بدل الأشغال الشاقة أو السجن. .

على أن هناك نصا آخر في قانون العقوبات المصري تصح الإشارة إليه في مثل هذا المقام وذلك هو نص المادة 57:

لا عقاب على من يكون فاقد الشعور أو الاختيار في عمله وقت ارتكاب الفعل إما) لجنون أو عاهة في العقل وإمالغيبوبة ناشئة عن عقاقير محددة أيا كان نوعها إذا أخذها قهرا عنه أو على غير علم منه)

وأول ما يتبادر إلى الذهن أن الرجل الذي يفاجئ زوجته وشريكها في حالة تلبسهما بالجريمة المنكرة فيقتلهما لابد ان يكون قد فقد شعوره نوعا ما، فلماذا لا تطبق عليه المادة 57 ويعفى من العقاب بتاتا؟

والجواب على ذلك أن المادة 57 قيدت فقدان الشعور المنصوص عنه بقيدين. فما لم يكن فقدان الشعور بسبب (الجنون) أو بسبب (العقاقير المخدرة) فلا يقبل كظرف مانع من العقاب وعذر الشارع في هذا التقييد واضح، وهو الإعفاء من العقوبة لو جعل نتيجة مطلقة لفقدان الشعور لوجد الدفاع عن المتهمين ما يقوله دائما في كل جريمة قتل لأثبات أن المتهم ما أدم على فعلته إلا بعد أن افقده الشر شعوره إما لاحتدام الخصومة بينه وبين غرمائه، وإما لأن المنهم حصل له من الاستفزاز ما لم يعد يدرك معه ما يفعله، وإما لغير ذلك من الأسباب

ولسنا الآن بصدد البحث في المادة 57 ولكننا ألممنا بها لما لها من المساس بموضوعنا من قريب أو من بعيد.

ولنعد إلى المقارنة بين مركز الزوج في حكم القانون المصري وفي حكم القضاء

السوداني، فقد رأينا أن الفعلة الواحدة لا تذهب بصاحبها في مصر إلى ابعد من الحبس بينما هي في
السودان قد ساقت صاحبها فعلا إلى المشنقة، هذا هو الذي أردنا ان نوجه نظر القارئ إليه ليتمعن فيه ويستخلص لنفسه منه ما شاء
أما الأسئلة التي تهاوت على رأس كاتب هذه السطور عند مطالعة الخبر في الصحف فهذا بعضها:
1 - ماذا كان يجب على الزوج أن يفعل بدلا من أن يغمد مديته في صدر (صديق الطرفين)؟!
2 - إن كان لابد من ارتكاب جريمة قتل (حتى يسلم الشرف الرفيع من الأذى) فمن هو أحق الثلاثة بالمدية تغمد في صدره؟
أهي الزوجة الخائنة، أم هو الصديق الغادر، أم هو الزوج الخائب؟
2 - هل يمكن أن يكون الزوج (غير فاقد الشعور) وفي حالة (جنون) فعليه إذا ما وقعت عينه على هذا المشهد؟
3 - هل يكونمن المستحسن إعادة النظر في أمر العقوبة التي يجب توقيعها على الزوج القاتل في مثل هذه الأحوال؟
5 - هل يفهم من حكم المحكمة السودانية الوطنية أن الزوجة في السودان هينة على زوجها وعلى المجتمع إلى حد يجعل غيرة الرجل عليها أمرا غير معقول. وذياده عن نكبة شرفه فيها أمرا غير مقبول؟
الخ. . . .الخ. . . . .
حسن جلال
المقامة الهرمية بين الهرم الأكبر وناطح السحاب
للدكتور محمد عوض محمد
أصبح عيسى بن هشام شيخاً فانياً خَرِفا، لم يبق منه الدهر سوى جلد ذابل، على عظم ناتئ. غير أن مر السنين لم يَزده إلا ولعا بسرد القصص ورواية الأخبار:
لكن حديثه أصبح كحديث كل شيخ يَفَنٍ كبير، قد اشتمل على شيء
كثير من الخرافات والخيال. مما يجهد العقل، ويعيا به اللب، ويكاد
حبل الفهم أن يْنبَتَّ دون إدراكه.
أنْصِتْ إليه اليوم إذ يتحدث إلى جُلاسَّه عن الهرم الأكبر وناطح السحاب فيقول:
كان الهرم الأكبر راقداً، غارقا في رقاده، نائما يغط في نومه. وقد وسد رأسه ترابا لينا ورملا ناعما. وقد وُطِّئ له الفراش. ومهُدَّ له الثرى. فمضجعه سهل وثير ويغشاه لحاف غليظ تِرب، قد أكل عليه الزمان وشرب. لكنه كان يجد تحت هذا الغطاء الكثيف الراحة والدعة، وهما أجل ما يتمناه.
ولهذا بقى راقدا غارقا في رقاده، نائما يغط في نومه عصفت به العواصف، وأهابت به الأحداث. وثارت من حوله الأعاصير. واهاجت الرياح رمال الصحراء حتى امتلأت بها طباق الهواء. واحتجبت النجوم عن العيون، ولمع البرق وقصف الرعد، وملئت السماء حَرَسا شديداً وشهُبُا. . . ثم زلزلت الأرض زلزالاً عنيفاً مخيفاً. فمالت إلى اليمين ثم مالت إلى اليسار! وأخذت ترتجف وترتعد، وتعلو وتهبط.
فهل حرك الهرم الجاثم؟ هل فتح جفناً أو حرك طرفا؟ هل أيقظته هذه القوارع الملمة والكوارث المحدقة من كل جانب؟
انه بقى راقداً، غارقا في رقاده، نائما يغط في نومه
وفي يوم من أيام البلاء أتى إليه رجل فرنسي قصير القامة، دميم الصورة. مُقَشَّر الوجه. قد ملأ الغرور قلبه، وأعمى الوهم عينيه. . جاء هذا الفرنسي فنصب مدافعه أمام الهرم وصوبها إلى رأسه، يريد أن يوقظه من رقاده الطويل. فجعل يلقي بقذائفه: قنبلةً خلف قنبلة، وقذيفة إثر قذيفة.
فهل تحرك الراقد أو التفت؟
إنه - والله! - لم يزد على أن رفع الرأس قليلا، وبصق في وجه ذلك المغرور. ثم عاد إلى سباته العميق.
وظل راقداً، غارقا في رقاده، نائما يغط في نومه.
ولهذا الغطيط الدائم ضوضاء هادئة حينا، عنيفة أحيانا وقد ألفتها الأسماع فهي قلما

تزعج أحداً أو تقلق كائنا. . غير أن أبا الهول قد أصبح ذا مِزَاج عصبيٍّ حساس. وقد استيقظ مرة فخيل إليه أنه لم يعد يطيق تلك الضوضاء. فالتفت مرة إلى الهرم في ليلة حالكة الظلام، وخاطبه بصوت أجش، فيه حدة وفيه عنف وشدة. وقال: أما كفاك رقاداً أيها الشيخ الهرم، الذي طال نومه وأظلم يومه، وخمد فهمه، وطاش سهمه؟ ألم يأن لك أن تفيق، وتكف عن الغطيط؟ لقد فضحني في الملأ الأدنى وفي الملأ الأعلى بنخيرك هذا الذي ليس له غاية، ورقادك الذي ليس منه إفاقة. حتى أصبحت مضرب الأمثال في الكسل والجمود وغدوتَ لي سُبَّةً وعارا. . فوا الذي نفس خوفو بيده، لولا بقية حلم ووقار لَلَكْزُتك لكزاً، أو سفعتك سفعا ولأطرت النوم عن عينيك أنهضتك من هذا الرقاد الشائن. . .

قال عيسى بن هشام: هكذا أهاب أبو الهول بالهرم، هكذا صاح المسكين، وأمعن في الصياح، حتى انتفخت أوداجه، وجاشت مناخره، واحمرت عيناه وجف ريقه. . فلا والله ما تحرك الهرم ولا تحول. وما زاد على أن تثاءب، ثم عاد إلى سباته العميق.

وهكذا ظل راقداً، غارقا في رقاده، نائما يغط في نومه

حتى إذا كان الشتاء الماضي شهد العالم مشهداً غريبا، وحادثا عجيبا: ذلك أن الهرم تحرك. . أجل وأبيكم - بل وأبي أنا أيضا - لقد تحرك الهرم، ومدَّ يده إلى عينيه فدلكهُما دلكا عنيفا، ومسحهما مسحا شديداً. . ثم رفع رأسه قليلا. . وأخذ يحرك شفتيه بالكلام، فإلى من كان يتحدث؟ . .

. . .ذلك هو السر الخطير، والخطب الكبير! إنه كان يتحدث إلى بعض نواطح السحاب ولا تعجبوا أنْ وُفِّق هذا الناطح إلى إيقاظ الهرم، حين أعيت فيه سائر الحيل. ذلك أن النظير أبداً يجذب النظير، والحجر العظيم يلين للحجر العظيم، ولا يفل الحديد إلا الحديد، وسيد أبنية الغرب جاء قاصداً سيد أبنية الشرق، لا زائراً أو حاجا، بل سائحا ومطلعا. فأبى السخاء الشرقي والكرم الشرقي إلا أن يتحرك له الهرم الأكبر بعض الشيء، ويكرم وفادته بعض الشيء.

ولو تبين الهرم حقيقة أمر هذا الزائر وما امتلأ به قلبه من غرور؛ لأشاح عنه بوجه، وأعرض عنه كل الإعراض. ولعمركم ولعمري! متى جاء من الغرب شيء يسر القلب؟ سعى هذا الناطح إلى الهرم سعيا حثيثا. فلم يزل يسبح فوق البحار، ويجتاز القفار حتى أسْلمه طول المسير إلى رحاب الهرم الكبير. وربما سألوني لماذا جشم الناطح نفسه كل هذا العناء، وسط هذه الصحاري المحرقة المُنْصبة. وهو ربيب النعمة، حليف النعومة، ولقد تحسبون أنه ما جاء إلا ليلتمس الحكمة من منبع الحكمة، أو يطلب النور من حيث يطلع النور. أو يبغي إيقاظ الهرم الراقد، إذ عز عليه أن يطول رقاده. . ولكن الحق انه ما جاء لشيء من هذا كله. بل ساقه إلى الهرم الأكبر ذلك الفضول، ذلك الشغف بالاطلاع والاستطلاع، والذي هو من غرائز العجماوات. . ثم لكي يستطيع ان يقول للنواطح الأخر إنه طاف بالهرم الأكبر وحظي بالمثول بين يديه، بل قد يزعم أنه غالبه فغلبه، وسابقه فسبقه

لم يكد يستقر المقام بناطح السحاب حتى انفتح منه الطابق الأعلى، وأخذ يخاطب الهرم وفي صوته تلك الغنةَّ التي امتاز بها أهل امريكا، كأنما يسدون أنوفهم إذ يتكلمون. . وقال له: عم صباحا يا عزيزي أبا الأهرام. إن الهواء ها هنا جاف حار، وقد طال سيرى في البيد، وبلغ مني الظمأ، ولا أجد في هوائكم سحابا يجلل هامتي، ويبرد أو أمي

قال الهرم: عم صباحا ناطح السحُب! هل لك في الجلوس لتستريح قليلا من قطعك البحار في القفار؟

قال: هيهات لمثلي الجلوس! أني لا أقضي حياتي جاثما فوق أديم الثرى، بل ناهضا قائما، أحمل هذه الطباق السبعين بين جدراني.

قال الهرم: أجل وفي طيها هذه الكائنات الغريبة من كل ما هب ودب!

قال: إن في باطني، وبين جوانحي إحياء ملؤها الحركة والنشاط، أما أنت فلم تشتمل إلا على أجساد هامدة.

قال الهرم: تأدب يا ناطح! إن جسد خوفو الذي أضم بين جوانحي لأعز على الدهر من كل هذه الأحياء التي انطوت عليها طباقك السبعون.

قال: ان بلادك تحيا حياة جمود.
قال الهرم: ليست حياة الجمود بِشَرٍّ من جمود الحياة
قال الناطح: أرجوك ألا تكلمني، بلغة الكهان القدماء واذكر أننا في عصر البخار والكهرباء، وفي القرن العشرين بعد الميلاد. لا قبل الميلاد منذ أربعة آلاف من السنين، كان فرعونكم يسأل كاهنه عن الأمر العويص. فلا يحير الكاهن جوابا. فيُلْجئه العجز إلى هذه العبارات المبهمة والاسجاع الغامضة. أما أنت فما أخرك أن تخاطبني بلغة العصر، وان تحدثني في صراحة ووضوح.
قل لي: انك لست إلا قبرا. ومع ذلك فأنت رمز لهذه الأمة القديمة. فكيف ترضى أمة حية ان يكون رمزها الذي يدل عليها قبراً من القبور.
قال الهرم: أنا رمز الخلود، رمز البقاء: رمز السَّرْمَدية التي تنتظم الوجود. ما هذه الآلاف السنين التي تذكرها غير حباب يطفو على موج الأثير الأزلي، وما أنت والنواطح أمثالك، وما بخارك وكهرباؤك سوى ذرات في هباء تذروها رياح الأبد. وما كيانكم وأقداركم وحظوظكم سوى اهتزازات في أطراف جناح الدهر الخفاق. .
لقد شغلتكم الحياة عن التفكير في الحياة. وأعماكم النور عن رؤية ما وراء النور، وألهاكم الوجدُ عن حكمة الوجود. . ولعمرك ماذا تستطيع في الدهر، وماذا تنال من الأزل شرارة لا تكاد تذكو حتى تخبو، ولا تكاد تبدو حتى تختفي؟
فأطرق الناطح مليا ثم قال: ان الحياة أعز لدي من سر الحياة، والوجود أحب إلي من حكمة الوجود. فدعني من أزليتك وأبديتك! ان ساعة واحدة من حياتنا الأمريكية الممتلئة حركة وجدا ونشاطا، أشهى إليَّ من آلاف السنين أقضيها مثلك رابضا فوق التراب في همود وخمود، وسبات ورقاد. إنني ضَحَّيتُ بالدهر من أجل الساعة، وأعرضت عن الأزل من أجل اللحظة.
قال عيسى بن هشام: ولم يكن الهرم يوما ممن يُطيلون الجدل، فحينما أبصر في محدثه كل هذا التمادي والغرور أعرض عنه لحظة. ثم حدجه بنظرات حداد. فإذا المغرور يرتعد وينتفض، ولم يكن إلا مقدار ما يسقط الشهاب، أو يلمع البرق، فإذا الناطح تندك أركانه، ويتداعى بنيانه، وتتساقط طباقُه السبعون بعضها فوق بعض، فأضحى هشيما منثورا. وأثراً
من بعد عين.
أما الهرم الأكبر فلم يلبث أن عاوده السكون وغشيه الهدوء، وكأني سمعته حين أغمض عينيه ينشد شعرا غريبا، بل أكاد أجزم أني سمعته يتمتم، في صوت غامض مبهم، بهذه الأبيات الغامضة المبهمة:
العيش مستعذب عذاب ... والعمر تلهو به سراب
والناس تبني. وما بناءٌ ... إن كان في أسه الخراب؟
في إثر فوج يروح فوج ... فهل لذى روحة إياب؟
مهدٌ يضم الورى ولحد ... فهل هما البدء والمآب؟
الناس تجري على سفين ... في بحر وهْم له حباب
فلا سرور ولا صفاء ... ولا انتحاب ولا اكتئاب
ولا شقاء ولا نعيم ... ولا ابتعاد ولا اقتراب
للمرء من دهره سؤالٌ ... ما بالهُ راعه الجواب؟
ثم عاوده سباته العميق. وظل راقدا غارقا في رقاده، نائما يغط في نومه.
لم يكد عيسى بن هشام أن يبلغ هذا الموضع من حديثه، حتى هاج سامعوه وماجوا. وأخذوا يتصايحون ويتصارخون، وقال قائل منهم: اشهد يا ابن هشام لقد أدركك الخرَف ولم تعد تحسن الحديث. فما أحراك أن تمتنع عن التحدث إلى الناس! أو تكف عن الإدلاء بمثل هذه الترهات. أو قل إنك رأيت هذا في المنام، وإنه أضغاث أحلام.
ثم انصرفوا. ولبث عيسى بن هشام في مكانه، حزينا كئيبا، يندب جده العاثر، وبأسف على مجده القديم، حين كان يتحدث، فترهف لحديثه الإذان، وتميل نحوه الأعناق. ولا يكاد الناس يملكون أنفسهم من الإعجاب.
علم النفس والتربية والأخلاق عند إخوان الصفا
فلسفة اللذة والألم - كيف تحس وكيف تتجمع التذكارات في الدماغ غاية التربية - الطفل صحيفة بيضاء - واجبات المتعلم والمعلم - فعل البيئة - الوظيفة بحسب

الاستعداد. . . منشأ الأخلاق التساهل - أسباب التعصب - فوائد التعصب - الدين العملي - اختبار الأصدقاء -. . .
في رأي الأخوان أن الحيوانات في اكثر الأحيان تحس باللذة والألم (لأن أبدانها مركبة من الأمهات الأربعة ذات الطباع المتضادة: وهي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة. وهي دائمة التغيير والاستحالة والزيادة والنقصان. فهي تخرج المزاج تارة من الاعتدال إلى الزيادة في أحد الأخلاط والطباع، أو إلى النقصان في واحد منها. واللذة هي رجوع المزاج إلى الاعتدال بعد أن يكون خارجا عنه. فمن أجل هذا لا يحس الحيوان باللذة إلا بعد أن يتقدمها ألم. وكل محسوس يخرج المزاج عن الاعتدال فأن الحاسة تكرهه. وكل محسوس يرد المزاج إلى الاعتدال فأن الحاسة تحبه)
تأمل هذه الأفكار فأن لها - على سذاجتها - حظاً كبيراً من الصدق والإصابة.
أما كيف تصل المحسوسات إلى الدماغ فهو انه ينتشر في مقدم الدماغ عصبات لطيفة لينة، وتتصل بأصول الحواس وتتفرق هناك وتنسج في أجزاء جرم الدماغ كنسيج العنكبوت. فإذا باشرت كيفية المحسوسات من أجزاء الحواس، وتغير مزاج الحواس عندها وغيرتها عن كيفياتها، وصل ذلك التغيير في تلك الأعصاب التي في مقدم الدماغ فتتجمع كلها عند المخيلة كما تتجمع رسائل أصحاب الأخبار عند صاحب الخريطة الذي يوصل تلك الرسائل كلها إلى حضرة الملك. ثم ان الملك يقرأها ويفهم معناها ثم يؤديها إلى القوة الحافظة لتحفظها إلى وقت التذكار.
هذا رأي الأخوان في تفسير الإحساس واختزان التذكارات في الدماغ. وللقارئ أن يتناول كتابا في علم النفس الحديث ليرى كيف يفسرون هذه الظواهر النفسية كالإدراك والإحساس والتذكر، ثم ليقابل ذلك بما يبثه إخوان الصفا من رأي صائب في هذه القطعة الطريفة الساذجة. بيد إنني لا احب أن يستقر في روع القارئ أن رسائل الأخوان كلها أو جلها على هذا النحو، وفي هذا الحد من الابتكار والإصابة. فان فيها من السخف والضحولة الشيء الكثير. ولهذا كان حتما على المطالع لهذه الرسائل ان يوطن النفس على ما فيها من تجاوز
بين الفكرة الملهمة العميقة والفكرة الغثة المضحلة إذا شاء أن يمضي في هذه المطالعة ويواصل المجهود إلى النهاية.
أما التربية فغايتها ومثلها الأعلى، في رأي الأخوان، هما الغاية والمثل الأعلى اللذان كانا لها في القرون الوسطى حينما كانت الأديرة والكنائس وما إليها هي معاهد التثقيف الوحيدة في أوربا. ولعلك تعلم ان نظرية القرون الوسطى هذه هي أن هذه الحياة دار فناء، والآخرة دار بقاء، فالسعيد السعيد هو الذي كانت حياته عدة وسلماً يرقى عليها مبراً من كل وزر إلى دار البقاء. واليك ما يقوله الإخوان في هذا الشأن، وان لم يكن صريحا في الدلالة على قصدهم كل الصراحة، قالوا:
وأما رتبة الإنسانية التي تلي رتبة الملائكة، فهي أن يجتهد الإنسان ويترك كل عمل أو خلق مذموم ويكتسب أضداداها من الأخلاق الجميلة حتى يكون إنسانا خيراً فاضلا. فإذا فارقت روحه جسده عند الموت صارت ملكا بالفعل، وعرج بها إلى ملكوت السماء، ويرى أخوان الصفا - كما رأى غيرهم - أن الطفل صحيفة بيضاء قابلة لكل ما يطبع عليها من تأثيرات. ومتى لوثت هذه الصحيفة مرة أو سودت كان من الصعب جلاؤها وإماطة السواد عنها (لانه إذا كتب فيها شيء حقاً كان أم باطلا فقد شغل المكان ومنع أن يكتب فيه شيء آخر ويصعب حكه ومحوه)
لهذا فالإخوان لا يطمعون في إصلاح المشايخ الهرمين (الذين اعتقدوا من الصبي آراء فاسدة وعادات رديئة وأخلاقا وحشية. فأنهم يتعبونك ولا ينصلحون، وان صلحوا قليلا فلا يتعلمون. ولكن عليك بالشباب السالمي الصدور الراغبين في الآداب المبتدئين بالنظر في العلوم
وهم يحددون واجبات المتعلم والمعلم تحديداً صريحاً إذ يقولون: (ان ما يحتاج إليه المتعلم من الأخلاق الجميلة والخصال الحميدة هو فصاحة اللسان والتواضع للمعلم والتعظيم له ومعرفة حقه. أما المعلم فواجب عليه الشفقة على تلاميذه وعد الضجر من إبطاء فهمهم، وقلة الطمع في اخذ العوض، وقلة المنة عليهم)
ويدرك أخوان الصفا ما لفعل الوسط والقدوة من أثر في تربية الطفل فيقولون:

وأعلم أن كثيراً من الصبيان إذا نشأوا مع الشجعان والفرسان يتخلقون بأخلاقهم) ويصيرون
مثلهم. وهكذا أيضا كثير من الصبيان إذا نشأوا مع الصبيان والمخانيث فانهم يكتسبون أخلاقهم، وعلى هذا القياس يجري حكم سائر الأخلاق التي ينطبع عليها الصبيان منذ الصغر)
وإخوان الصفا يوصون بأن يدأب المعلم (ولفظهم صاحب الشريعة) في دراسة تلاميذه والتفطن إلى احوالهم، والانتباه إلى أخلاقهم وسجاياهم واحداً واحداً (حتى يعرف كل واحد منهم، ما اسمه وما نسبه وما صناعته وما هو سبيله في أمر معاشه وما هو الغالب عليه من الطبع الجيد والرديء وحتى يثق بهم علما ويتبين منازلهم، ويستعين بكل واحد منهم في العمل المشاكل له، ويستخدمه في الأمر اللائق به)
تقرأ هذا فيخيل إليك أن إخوان الصفا مطلعون على فلسفة التربية الحديثة التي تصر على وجوب دراسة الطلاب دراسة دقيقة منظمة تقضي إلى فهم كفايات كل طالب ليعطي من الدروس والأعمال ما يتلاءم وأعظم هذه الكفايات بروزاً وأكثرها خيراً مأمولا.
والأخلاق عند إخوان الصفا خاضعة لفعل الوراثة ولفعل الوسط الطبيعي والوسط الاجتماعي ولشيء آخر هو فعل الكواكب فيهم يقولون:
اعلم يا أخي إن أخلاق الناس وطبائعهم تختلف من أربع جهات: أحدها من جهة أخلاط) أجسامهم ومزاج أخلاطها، والثاني من جهة ترب بلدانهم واختلاف أهويتها، والثالث من جهة نشوئهم على ديانات آبائهم وعادات معلميهم وأساتيذهم ومن يربيهم ويؤدبهم، والرابع من جهة موجبات أحكام النجوم في أصول مواليدهم، وقد تكلم إخوان الصفا في الأخلاق كثيراً ولا نستطيع أن نعطيك رأيهم إلا في النذر القليل.
يعجبك حقا من إخوان الصفا اقتناعهم اقتناعا عميقا بفائدة التساهل. فلسفتهم الانتخابية قد بنوها على هذا المبدأ. فالأديان والشرائع كلها عندهم سواء. وليس لدين فضل على دين إلا بمقدار ما فيه من صدق وإصابة. ولذا فهم ينصحونك بان تخضع دائما للحق وتحترمه أنى كان مصدره. واليك ما يوصون به:
لا تتمسك بما أنت عليه من دين ومذهب واطلب خيراً منه، فأن وجدت فلا يسعك) الوقوف على الأدون، ولكن واجب عليك الأخذ بالأخير. ولا تشغلن بذكر عيوب مذاهب الناس، ولكن انظر هل لك مذهب بلا عيب؟
وهم يعتقدون أن للتصلب في الرأي والتعصب للعقيدة أسبابا جمة منها: (شدة تعصب المرء فيما يعتقده بقلبه من غير بصيرة، وأخرى إعجابه بنفسه في اعتقاده، وأخرى اعتقاده أصولا خفي فيها خطأه بين ظاهر الشناعة في فروعها. ولهذا فهو يلزم هذه الشناعات في الفروع مخافة أن تنتقض عليه الأصول، فيطلب لها وجوه المراوغة عن إلزام الحجة عليه: تارة بالشغب، وتارة يموه وتارة يروغ في الجواب والإقرار بالحق ويأنف أن يقول: (لا أدري)
على أن أخوان الصفا لا يمقتون التصلب في الرأي كل المقت لأنهم يرون فيه فوائد تغطي على بعض مضاره. يرون أن اختلاف العلماء في آرائهم وتعصبهم لها يدعوان إلى شحذ الافكار، لان كل فريق يحاول أن ينصر مذهبه على مذهب غيره مما يدعو إلى الغوص على المعاني الدقيقة، والنظر إلى الأسرار الخفية، فيكون ذلك سبباً في يقضة النفوس.
كذلك هم يرون أن اختلاف العلماء يدعو لي نشر معائبهم، إذ يكون هم كل واحد تبيان مساوئ الآخر وإظهار رذائله، فيكون ذلك حاثاً للجميع على ترك الرذائل.
ويرون أيضاً أن هذا الاختلاف في الآراء والمذاهب يوجد مضطرباً أوسع في أمور الدين وممارسة شعائره.
وقد قادهم تساهلهم إلى هذا الدين العملي: وهو اعتبارهم: أن العبادة ليست كلها صلاة (وصوماً، بل عمارة الدين والدنيا معاً، لان الله يريد أن يكونا عامرين
وللإخوان رأي جميل في اختيار الأصدقاء والوفاء للصداقة الصادقة فيقولون:
ينبغي لك إذا أردت أن تتخذ صديقاً أو أخاً أن تنتقده كما تنتقد الدراهم. واعلم بأن) إخوان الصدق هم نصرة على دفع الأعداء، وسلم للصعود إلى المعالي، فان غبت حفظوك، وإن تضعضعت عضدوك. والواحد منهم كالشجرة المباركة تدلت أغصانها

بثمرها إليك، وأظلتك أوراقها بطيب رائحتها، وسترتك بجميل فيئها. فإذا أسعدك الله يا أخي بمن هذه صفته فابذل له نفسك ومالك وق عرضه بعرضك، وافرش له جناحك، وأودعه سرك، وإن هفا هفوة فاغفرها له، وإن زل زلة فصغرها في عينيه).

هذا بعض ما في رسائل الإخوان من طرافة في التفكير، وهدى في البحث، وجدة في التعليل والتفسير. وعسى أن يتاح لهذه الرسائل من يكشف كشفاً أعم وأشمل عما استتر فيها

من لؤلؤ وغاب من در.

شرق الأردن

أديب عباسي

من الأدب الفارسي

إيوان كسرى بين التاريخ والشعر

للدكتور عبد الوهاب عزام

المدائن أو مدائن كسرى اسم لطائفة من المدن قامت على جانبي دجلة في عهد الدولة الساسانية. أعظمها على الشاطئ الشرقي طيسفون، وتخص باسم المدائن في التاريخ الإسلامي. وهي محلتان: المدينة العتيقة إلى الشمال وهي مدينة قديمة قامت قبل عهد الساسانيين وكان بها القصر الأبيض الذي بناه بعض المتأخرين من الاشكانيين أو الأوائل من الساسانيين، والمحلة الجنوبية تسمى اسفانبر وكان بها القصر الذي عرف عند العرب باسم (إيوان كسرى) ويظن أن بانيه سابور الأول (241 - 272 م)

وقد اضمحلت المدائن على مر الزمان حتى لم يبقى منها في القرن السابع الهجري إلا قرية صغيرة حملت هذا الاسم العظيم، يقول ياقوت: (فأما في وقتنا هذا فالمسمى بهذا الاسم بليدة شبيهة بالقرية بينها وبين بغداد ستة فراسخ. وأهلها فلاحون يزرعون ويحصدون والغالب على أهلها التشيع على مذهب الإمامية) وليس في موضع المدائن الشرقية اليوم إلا قرية صغيرة جداً فيها مسجد سلمان الفارسي رضي الله عنه على نحو 30 كيلو إلى الجنوب الشرقي من بغداد.

وعلى مقربة من هذه القرية التي تسمى (سلمان باك) أي سليمان المطهر، يرى اليوم (طاق كسرى) وهو الذي سماه العرب والفرس في العهد الإسلامي إيوان كسرى أو إيوان المدائن. وهو بقية من بنية عظيمة بناها سابور الأول وعمرها كسرى أنوشروان وتدل الخرائب حول هذا الطاق أن البناء كان 400 متر في عرض 300، ويظن أن البناء كله بقى إلى عهد العباسيين، وأن المنصور أو الرشيد حاول أن يهدمه ثم كف عنه. ثم تعاورته غير الزمان حتى لم يبق منه في القرن السابع الهجري إلا الإيوان. يقول ياقوت في الكلام عن الإيوان: (رأيته وقد بقى منه طاق الإيوان حسب) وقد بقى هذا الطاق وجناحان من البناء على جانبيه يمتدان زهاء مائة متر إلى زمن قريب. ثم انقض الجناح الشمالي (5 أبريل سنة 1888 م) وبقى الإيوان وجناحه الأيسر. وظاهر من بقية هذا الجدار أن علوه كان نحو 25 متراً وأن القصر كان ذا ثلاث طبقات. وقد سقط بعض سقف الطاق وجداره

الخلفي وبقى معظم العقد والجداران الجانبيان في علو وجلال يرتاع لهما كل زائر، وقد زرت بقية الأحداث من هذا الإيوان يوم الاثنين 22 رمضان سنة 1349 في بعثة كلية الآداب من الجامعة المصرية فشهدت جلاد الزمان والإنسان، وتخيلت الطاق نسرا قشعما أنحت عليه الخطوب فحصت ريشه وذهبت بجناح، وهاضت الآخر ولكنه بقى متجلدا مستكبرا يقلب عينيه في لوح الجو محاولا أن يسمو إلى ملكه الواسع في عنان السماء. وصدقت قول البحتري:

فهو يبدي تجلدا وعليه ... كلكل من كلاكل الدهر مرسى

وأما القصر الأبيض أو أبيض المدائن فقد هدم في عهد المكتفي بالله العباسي سنة 290 وبنى بأنقاضه قصر التاج، ولكن كثيرا من المؤخرين يخلط بين الإيوان والقصر الأبيض كما يتبين من معجم البلدان وغيره

رويت في إيوان كسرى أشعار ذكر بعضها ياقوت في معجم البلدان. ومنها بيتان خطهما على الإيوان الملك العزيز جلال الدولة البويهي:

يا أيها المغرور بالدنيا اعتبر ... بديار كسرى فهي معتبر الورى

غنيت زمانا بالملوك وأصبحت ... من بعد حادثة الزمان كما ترى
وأعظم ما نظم في الإيوان قصيدتان: قصيدة البحتري وقصيدة فارسية نظمها الخاقاني الشاعر الفارسي المتوفى سنة 595 والبحتري يذكر في قصيدته ثلاثة أسماء: أبيض المدائن، والإيوان. والجرمان. والظاهر ان ابيض المدائن في شعره غير الايوان، وإن خلط المؤرخين بينهما، وكأن هذا الخلط كان بعد عصر البحتري وبعد أن هدم الخليفة المكتفي القصر الأبيض سنة 290. فالبحتري يصف في قصيدته أبنية عدة لا بناء واحدا.
وقراء العربية يعرفون سينية البحتري، فلا حاجة إلى إثبات بعضها هنا. وحسبي أن أترجم قصيدة الخاقاني. ويرى القارئ أن الشاعر اقتصر منها على الرثاء والبكاء ولم يصف وصف البحتري وقد حذفت منها بضع أبيات بنيت على جناسات، ورموز مألوفة في الفارسية ولا يمكن نقلها إلى العربية نقلا معجبا:
هيا أيها القلب المعتبر أنعم النظر، فما إيوان المدائن إلا مرآة العبر. عرج عن طريق دجلة إلى المدائن للذكرى، وأسل على تراب المدائن دجلة أخرى. إن دجلة لتبكي حتى تحسبها
مائة دجلة من الدمع القاني - وانه لدمع نقطر به الاهداب نارا. هذه دجلة تضرم قلبها الحسرات، فهل سمعت بماء تحرقه الجمرات؟ أسعد دجلة بالبكاء كل حين، واجعل لها زكاة من دمعك وان يكن البحر يأخذ الزكاة منها. لو مزجت دجلة آهاتها بحرقة قلبها لا نقلب نصفها جمدا، ونصفها للنار موقدا هلم فناد الإيوان بلسان الدمع حينا بعد حين فلعل قلبك يستمع جواب الإيوان الحزين. ان هذه الشرفات لا تفتأ ترسل إليك العظات فأصخ واحسن الاستماع إليها: إنها تقول: أنت من التراب، ونحن هنا من ترابك، فامنحنا بعض خطواتك، ولا تبخل علينا بعبراتك. إن برءوسنا صداعا من نعيب البوم فهات من دمعك الجلاب، وخفف عنا هذه الهموم. قد كنا مجالس للعدل وقد أصابنا من جور الزمان ما ترى، فكيف بقصور الجائرين ماذا أعد لها من النوائب؟ ما الذي نكس هذا الإيوان الذي يحاكي الفلك؟ احكم الفلك الدائر، أم قضاء مدير الفلك القادر؟
أيها الضاحك من عيني الباكية! تقول ما يبكيه ها هنا. إن العين التي لا تبكي هنا جديرة أن يبكى عليها. هلم فتمثل الإيوان والكوفة معا، ثم سعر من القلب تنورا وأفض من العين طوفانا. . . ذلك الإيوان الذي نقشت خدود الرجال على تراب عتبته جدارا من الدمى والصور. وتلك هي السدة التي كان يقف بها ملوك الديلم وبابل، والهند والتركستان. تصور ذلك العهد، وانظر بعين الفكر تر الصفوف مترادفة، والمواكب متزاحمة.
لا تعجب فليس عجبا أن ترى في بستان هذه الدنيا أسراب البوم بعد البلابل، وزفرات البكاء بعد ألحان الغناء. . . . سكرى هذه الأرض، فقد شربت مكان الخمر دم قلب أنوشروان في كأس من رأس هرمز. تقول أين ذهب أصحاب التيجان واحدا إثر واحد. فانظر فهذه الأرض حبلى بهم إلى الأبد. . . ان دم قلب شيرين هذه الخمر التي تشربها، وهذا الدن الذي يضعه الدهقان ماء برويز وطينته. كم ابتلع هذا التراب من أجساد الجبابرة ثم لا يزال نهما لا يشبع .!!
إن القادمين من السفر يأتون بالهدايا لإخوانهم. وهذه القصة هدية إلى قلوب الأخوان. يا خاقاني استجد العبرة على هذه الأبواب ليقف الخاقان مستجديا على بابك. اهـ
عبد الوهاب عزام
الحركة الوطنية الاشتراكية الألمانية
كيف نشأت بعد الحرب - 1
للأستاذ محمد عبد الله عنان
شهدت أوربا في العصر الأخير طائفة من الحركات والثورات القوية، السياسية والاجتماعية، التي قلبت نظم الحكم والمجتمع، وغيرت مناحي التفكير والعواطف، وأثرت في سير السياسة الدولية اعظم تأثير
ولا ريب أن الثورة الفاشستية الإيطالية، والثورة الوطنية الاشتراكية الألمانية أو الحركة الهتلرية أو النازية، هما اعظم هذه الحركات والثورات البعيدة المدى والآثار في مصاير أوربا القديمة والمجتمع الأوربي القديم. والثانية وليدة الأولى في معنى من المعاني، وشبيهتا في بعض الغايات وفي كثير من الوسائل والإجراءات. ولكنها تختلف عنها في البواعث والظروف التي نشأت فيها، وفي الغايات الجوهرية التي تعمل لها، ثم تختلف

عنها في طوالعها، وفي الآثار التي أحدثتها ومازالت تحدثها في سير السياسة الدولية وفي الرأي العالمي

ولعل اعظم ما تتفق فيه الحركتان الإيطالية والألمانية انهما عملتا معا لسحق الشيوعية، ولتحطيم النظم الدستورية والديمقراطية كلها، والقضاء على الحريات العامة وكثير من الحريات الفردية بوسائل متماثلة ولغايات متماثلة. وقد كان تفاقم الفوضى الاشتراكية والشيوعية في إيطاليا عقب الحرب الكبرى اكبر عامل في وثوب الفاشستية الإيطالية. ولكن اكبر عامل في وثوب الحركة الوطنية الاشتراكية الألمانية هو معاهدة الصلح (معاهدة فرساي) وما فرضته على ألمانيا من صنوف التمزيق والذلة والمغارم، وما بثته شروطها وفروضها الفادحة في الشعب الألماني من يأس وتفكك وانحلال. ويكفي أن نذكر أن معاهدة فرساي قضت باقتطاع الألزاس واللورين، ووادي السار، وسيليزيا العليا، ودانتزج، وقسما من شلزفيج من ألمانيا؛ وقضت بإنشاء الممر البولوني داخل أرضها ليمزق بروسيا الشرقية إلى شطرين؛ وقضت بتجريد ألمانيا من سلاحها وسحق عسكريتها التاريخية، وتحطيم أسطولها الضخم وجعلها من حيث الدفاع القومي كأصغر دولة ثانوية؛ وقضت على ألمانيا بتحمل مسئولية الحرب الكبرى ومن ثم بإلزامها بتعويضات مالية فادحة استنزفت مواردها

وقوى شعبها، واحتل الحلفاء من اجل ذلك بعض مناطق الرين الألمانية مدى أعوام، وجردت ألمانيا من جميع مستعمراتها. واستمر الحلفاء بعد الحرب مدى أعوام يعاملون ألمانيا بمنتهى العسف والشدة والكبرياء؛ ولم يكن لألمانيا في تلك الأعوام العصيبة سلاح تشهره للمقاومة أو الاحتجاج المجدي ولم يكن في وسعها إلا التسليم واللاذعان في معظم الأحوال

لبثت ألمانيا مدى أعوام وهي تتخبط في غمر من الصعاب والأزمات الفادحة. ثم كانت نكبة هبوط المارك سنة 1923، وجاء التضخم النقدي كالسيل فقضى على معظم الثروات، وقضى على الطبقات الوسطى بنوع خاص، ودفعها إلى حضيض البؤس والفاقة، وبث إلى التعامل فوضى لم يسمع بها؛ وهبت على الشعب الألماني ريح قوية من الدمار واليأس كادت تذهب بما بقى له من أمل وقوى معنوية وكانت الدعوات الثورية التي تثب دائماً في غمر اليأس والانحلال تعمل من جهة أخرى عملها، فاشتد ساعد الشيوعية، واخذ شبح البلشفية يساور ألمانيا ويهدد مصايرها، وكان الشعب الألماني في تلك الأيام السود يعيش في نوع من الاستسلام لا يكاد يرى طريقا للخلاص من هذه المصائب المتعاقبة والظلمات الكثيفة

ولكن ألمانيا استطاعت منذ سنة 1924 أن تشعر بشيء من الأمل والثقة، ذلك أن الحلفاء أنفسهم أدركوا أن العمل عل إرهاق ألمانيا وخرابها لا يعاون ألمانيا على الوفاء بشروط الصلح بل يدفعها إلى براثن البلشفية المتحفزة. والبلشفية خطر داهم على كل الدول الغربية. وألمانيا هي حاجزه من الشرق. ثم أن فرنسا اقتنعت مذ أقدمت على احتلال وادي الروهر في خريف سنة 1923 لكي ترغم ألمانيا على أداء أقساط التعويضات، أنها ارتكبت خطأ فادحا ولم تفعل سوى أن أثارت في المانيا التي جنحت عندئذ إلى المقاومة السلبية روحا جديدا من النضال والتضامن، وان باقي الحلفاء ولاسيما إنجلترا لا يؤيدونها في هذه السياسة العنيفة، وإنها ستتحمل وحدها تبعات سياسة خطرة، وهنا تبدأ مرحلة جديدة في تاريخ ألمانيا المعاصر، وتنحسر الظلمات من حولها نوعا، وتجد في تلك الآونة العصبية رجلها المنقذ في شخص الدكتور جوستاف شتريزمان الذي تولى رآسة الحكومة عندئذ (أغسطس سنة 1923) ثم غادر الرآسة بعد قليل ليتولى وزارة الخارجية في

الحكومات المتعاقبة مدى أعوام. وكان شتريزمان سياسيا وافر البراعة، استطاع أن يقود ألمانيا خلال هذه الغمار الكثيفة بذكاء وجلد، وان يحررها من كثير من فروض معاهدة الصلح، وكانت مسألة مسئولية الحرب التي سجلت على ألمانيا في معاهدة فرساي واتخذت أساسا لفرض التعويضات والمغارم الفادحة علها موضع الجدل المستفيض، وكانت الوثائق والمذكرات والبحوث المختلفة في ألمانيا وإنجلترا وأمريكا تلقي عليها الضياء تباعا، ويبدو للرأي العالمي شيئا فشيئاً ان القول بمسئولية ألمانيا وحدها عن إثارة الحرب، نظرية خاطئة مغرضة، فكان الأساس الذي بني عليه إلزام ألمانيا بتعويضات الحرب ينهار شيئا فشيئاً، وبذا أعيد النظر في مسألة التعويضات

وسويت لأول مرة بمشروع داوز ثم بمشروع يونج، وكانت ألمانيا تظفر في كل خطوة بتخفيضات وتسهيلات جديدة، ولكن المغارم التي بقي على ألمانيا أن تؤديها لبثت مع ذلك فاتحة تحطم موارد أغنى الشعوب. وفي سنة 1925، انتهت جهود شتريزمان الجلدة إلى عقد ميثاق لوكارنو بين ألمانيا وفرنسا وإنجلترا وإيطاليا وبلجيكيا وبه ضمنت سلامة فرنسا وحدود ألمانيا الغربية كما قررتها معاهدة الصلح ضمانا متبادلا تشترك في تأييده كل الدول الموقعة، أكدت ألمانيا بذلك إنها تركت التفكير نهائيا في مسألة الألزاس واللورين وصفا الأفق الدولي بذلك نوعا، ودخلت ألمانيا عصبة الأمم في سبتمبر سنة 1926 - وجلست في كرسيها الدائم إلى جانب أعدائها بالأمس، وبدأ عهد جديد من التفاهم والتقرب من بين فرنسا وألمانيا، وكان شتريزمان رجل ألمانيا في تلك المراحل، كما كان استريد بريان رجل فرنسا. وكان كلا السياسيين العظيمين يؤمن بقضية السلام وعقد الوفاق والتفاهم بين الأمتين. واستمرت هذه السياسة حتى توجت بظفر جديد لشتريزمان: هو حمل فرنسا على الجلاء عن مناطق الرين المحتلة في خريف سنة 1929 قبل الموعد الذي حددته المعاهدة. وكان ذلك آخر ظفر للسياسي العظيم، إذ توفي بعده بقليل في أكتوبر سنة 1929

وكانت وفاة شتريزمان خسارة فادحة لألمانيا إذ فقدت بذهابه اعظم سياسي أخرجته بعد الحرب وضربة جديدة لسياسة الوفاق والتفاهم التي جرت ألمانيا عليها مدى أعوام وجنت ثمارها كما تقدم. وقد حاول الساسة الذين خلقوا شتريزمان في تولي مصاير ألمانيا مثل فون ملير زعيم الحزب الاشتراكي الديمقراطي ثم برينتج، ان يتابعوا سياسته ولكن دون نجاح.

أولا لان حالة الاستقرار النسبي الذي تمتعت به ألمانيا بضعة أعوام اخذ يضطرب نظراً لاشتداد ساعد الحركات والأحزاب المعارضة لهذه السياسة، وتفكك الأحزاب التي تناصرها، ونهوض الحركة الوطنية الاشتراكية بالاخص، وثانيا لان نفوذ بريان في فرنسا اخذ في الضعف، أخذت الجبهة التي كانت تناصره تشعر بعقم سياسته أخذت الجبهة العسكرية القوية من جهة أخرى تقاوم كل تساهل جديد مع ألمانيا، وتندد بخطر هذه السياسة على سلامة فرنسا. وتفي بريان بعد ذلك بعامين (أوائل سنة 1933) وكان اضطراب أفق السياسة الأوربية يزداد شيئاً فشيئاً. وظهرت ميول ألمانيا قوية في التحرر من أغلال معاهدة الصلح في مسألة التعويضات. ونزع السلاح، ومسائل الحدود التي تعتبرها ألمانيا جوهرية، لسلامتها، أصرت فرنسا على التمسك بنصوص المعاهدة بحجة المحافظة على سلامتها، وبدأ عهد من النضال الواضح بين الدولتين هو الذي نشهده اليوم في ذروة عنفه وأهميته.

هذه خلاصة موجزة لتاريخ ألمانيا بعد الحرب، وهذه هي نفس الحوادث والظروف التي نشأت في مهادها الحركة الوطنية الاشتراكية. فمنذ نوفمبر سنة 1918، أعني مذ نشبت الثورة التي انتهت بإعلان الجمهورية واختفاء الإمبراطورية من الميدان. وقيام الحكومة الشعبية الأولى برآسة ايبرت لتقبل شروط الهدنة؛ ومذ عقدت الجمعية الوطنية في فيمار (6 فبراير سنة 1919) لتضع دستوراً ديمقراطيا لالمانيا؛ ظهرت في الميدان أقلية تصم بالخيانة العظمى تلك الكتلة الاشتراكية الديمقراطية التي أيدت الثورة واستولت على مقاليد الحكم، وقبلت الهدنة ثم معاهدة الصلح. وكان قوام هذه الأقلية بالأخص جمع من القادة والضباط القدماء أنصار الإمبراطورية: وكانت أثناء تلك الأزمات العصيبة التي غدت ألمانيا فيها فريسة الحرب الأهلية بين الديمقراطيين والشيوعيين بينما كان العدو الظافر يملي عليها شروطه ويثقل كاهلها بفروضه وأغلاله، ترقب مصاير ألمانيا في غمر من الحسرات واليأس؛ ولم تكن يومئذ قوية ولا ومنظمة، ولكنها كانت منذ الساعة الأولى تتلمس السبل لإنقاذ ألمانيا مما اعتقدت أنه منحدر الخطر والانحلال. وكان مركزها بالأخص في بافاريا، في مدينة ميونيخ التي لم يجرفها تيار الدعوة الاشتراكية كما جرف العاصمة البروسية (برلين). وكان التمزق الذي يسود جبهة اليسار (الديمقراطية والشيوعية) يفسح بعض الأمل لهذه الجبهة (الوطنية) الناشئة. ففي مارس سنة 1920 بدأت أول محاولاتها على يد الجنرال فون لتفتز والدكتور فون كاب واستولت على مقاليد الحكم، ولكنها لم تثبت سوى أيام قلائل؛ وفشلت هذه الوثيقة الأولى ولكنها كانت بداية ذلك الصراع الذي شهرته الجبهة الوطنية المحافظة على الجمهورية الفتية؛

وكانت بالأخص دليلا على أن الجمهورية ليست من المناعة بحيث يستحيل غزوها وتحطيمها.

وكان بين الجماعات الوطنية المحافظة التي اتخذت ميونيخ مركزاً لها، حفنة من الرجال المغمورين عرفت باسم (حزب العمال الألماني) وزعيمها صف ضابط فتى يدعى (ادولف هتلر). وكانت تضم ستة رجال فقط في سنة 1919 حين انضم إليها هتلر. ويقول لنا هتلر في كتابه (جهادي)، انه حين هبط ميونيخ في ذلك الحين لم يكن ينوي أن ينظم إلى أي حزب قائم، بل كان يريد أن يؤسس لنفسه حزبا جديداً، ولكنه انضم إلى هذه الجماعة المتواضعة، وغدا منظمها وزعيمها ومن ذلك الحين يظهر اسم هتلر على مسرح التاريخ الألماني المعاصر، كزعيم وداعية وطني متطرف، وتسير عصبته المغمورة إلى ميدان الحوادث والظهور، وتزداد في العدد والنفوذ بسرعة، وتشق طريقها بعزم وجلد

ويجب قبل أن نتقدم في تتبع هذه الحركة الوطنية المحافظة أن نعرف القارئ بادولف هتلر، ذلك الفتى المغمور الذي شاء القدر أن يغدو اليوم زعيم المانيا، وسيدها المسيطر على مصايرها

ولد أودلف هتلر سنة 1889 في بلدة براونا ومن أعمال النمسا العليا على مقربة من الحدود البافارية في أسرة نمسوية متواضعة، فهو إذن نمسوي الجنس والنشأة. وكان أبوه موظفا صغيراً في الجمارك، فتلقى تربية عادية. وتوفي والداه قبل أن يتجاوز الحداثة. وفي السابعة عشرة ألقت به يد القدر إلى العاصمة النمسوية فنزل بها وحيداً بائساً لا عائل له، أو على قوله: (لا يحمل سوى حقيبة من الملابس، ولكن يحمل في قلبه عزما لا يقهر) وأراد هتلر أن يدرس التصوير فلم يوفق لفقره؛ ورمت به المقادير إلى صناعة البناء يدرسها ويكسب منها قوته. فاشتغل مدى حين صبي بناء يعيش في ضعة ومسغبة، فلما لم يبسم له الحظ في العاصمة النمسوية، نزح إلى ميونيخ يبحث وراء طالعه؛ ولما نشبت الحرب الكبرى التحق بفرقة بافارية بإذن خاص من حكومته. وقاتل مع الجيش الألماني في

الميدان الغربي، وظهر بأقدامه وشجاعته وكوفئ بوسام (الصليب الحديدي). وأصيب في أواخر الحرب من الغازات الخانقة فحمل عليلا إلى ألمانيا: ولزم فراشه حتى انتهت الحرب وعقدت الهدنة. ويقول لنا هتلر انه بكى حزنا وتأثرا حينما سمع بخبر الهدنة. كما أنه شكر الله حين نشبت الحرب، وما كاد يبرأ من علله حتى عاد إلى ميونيخ وانضم إلى أولئك الستة الذين أطلقوا على أنفسهم (حزب العمال الألماني)، فلم يلبث أن غدا قائدهم وزعيمهم، واتخذ للجماعة اسما آخر هو (حزب العمال الوطني الاشتراكي الألماني)

محمد عبد الله عنان

في طريق المنفى

للأديب حسين شوقي

هي ذكرى مؤلمة من ذكريات الصبي حدثت في بداية الحرب العالمية.

عند مغادرتنا محطة القاهرة في طريق المنفى، جاء أقاربنا يودعوننا وكانوا يعتقدون أن الحرب سوف تنتهي قريبا لأن الفيالق الألمانية المظفرة كانت وقتئذ عل أبواب باريس، فكان من المفروض أن فرنسا سوف تضطر إلى التسليم، وعلى هذا نرجع من المنفى بعد أشهر قليلة، ولكن اخطأ مع الأسف هذا الحساب لأننا بقينا في الخارج خمس سنوات، كما أن بعض هؤلاء الأقارب الأعزاء أدركتهم المنية قبل عودتنا إلى الوطن.

قصدنا بعد ذلك السويس حيث ركبنا سفينة أسبانية قادمة من جزر الفلبين، وتقصد برشلونة (أسبانيا)، ولم تكن السفينة متينة ولا كبيرة، ولكن لم يكن لنا وقتئذ الخيار في ركوب سفينة أخرى وقديما قالوا ان المضطر يركب الصعب من الأمور وهو عالم بركوبه. وفوق هذا لم تشفق أمواج المحيطات الهندية على هذه السفينة في طريقها إلى السويس، فخلفتها في حالة سيئة.

انقضت الأيام من الرحلة في هدوء تام، وقد تعرفت أسرتي بمعظم المسافرين وأغلبهم أسر ألمانية ونمساوية اعتقل رجالها في مصر. وكم كان محزناً حال هذه الأسر وهي مدفوعة إلى مصير مبهم مجهول بلا مال ولا نصير! ولولا أمل هؤلاء القوم في النصر لما استطاعوا أن يصبروا على ما كانوا فيه من بؤس وشقاء.

أما أنا فقد تعرفت على الفور (قبل أقاربي) بالركاب الذين هم من سني، لأن الديمقراطية الحق هي التي تسود علاقات الأطفال
وكنا - هؤلاء الأطفال - وأنا - بطبيعة الحال غير شاعرين بالمأساة الكبيرة التي تمثل على مسرح العالم، بل العكس كانت فرصة لنا لنمثل معارك كالتي كانت ناشبة بين الألمان وخصومهم
ولكننا كنا نجد بصعوبة من يرضى منا ان يقوم بدور العدو لأن هذه الوقائع كانت دائما تنتهي بفوز ألمانيا، وبضرب الجنود المفروض أنهم أعداء ضربا مبرحا. وكان معنا على ظهر السفينة قسيس ألماني منفي من مصر، وكان يلومنا على عملنا ويدعونا إلى المحبة والوئام، ولكن لعمري هل كان الكبار وقتئذ ينصتون إلى مثل هذا القول حتى ينصت إليه
الصغار؟
وكان على ظهر السفينة - غير هذه الأسر الألمانية - عشيقان أسبانيان قادمان من الفلبين، وكانت حالهما أشبه بحالنا - معشر الأطفال - في عدم الاكتراث بما يقع في الدنيا من حوادث جسام، إذ كانا يقضيان الأيام في غزل متواصل، كان لهما على ظهر السفينة كرسيان طويلان متلاصقان، فكنت إذا مررت أمامها قطعا الغزل، فإذا انصرفت استأنفاه، فأغضبني هذا التصرف منهما، وأقسمت أن أفاجئهما متلبسين بالجريمة، من اجل هذا وضعت كرسي بالقرب منهما ثم اضطجعت عليه، وغطيت وجهي بشال من الصوف متظاهراً بالنوم، فلما أستأنف العاشقان الغزل فزعت من مقعدي فجأة وضحكت ضحكة عالية لأنني كنت أرقبهما من ثقب صغير أحدثته بأسناني في الشال!
ثم كان هناك راكب اختل عقله من طول السفر، إذ مضى عليه أربعون يوما وهو في السفينة، وكانوا يسمحون له بالنزهة على ظهر المركب في حراسة بحار حتى لا يلقي بنفسه في اليم، ولكن جنون هذا المجنون كان من حسن حظنا هادئا. وكان بعضهم يزعم أن مثل هذا الجنون وقتي يذهب لدى نزول صاحبه على الأرض. ثم كانت معنا في السفينة شحنة من الثيران مرسلة إلى أسبانيا ليمثل بها - المسكينة - (في الكوريداس)، ولكن قبل وصولنا إلى برشلونة بيوم، هبت عاصفة شديدة لم أذكر أني شاهدت في حياتي مثلها، فكانت أمواجها الصاخبة تهاجمنا، وكأنها في بأسها قبائل الهون المتوحشة، وكانت تصيح أثناء الهجوم صياحا شديدا، فإذا كان غرضها إذ ذاك أن ترعبنا فأنها أدركت حقاً بغيتها، إذ كانت حالنا جميعاً سيئة جداً كما أن أضلاع سفينتنا كانت تئن من جراء هذه الصدمات أنين الشيخ الهرم عند أزمة (لومباجو) حادة. . . وقد أمر القبطان بإلقاء الثيران في البحر حتى يخفف عبء المركب، ولا زلت أذكر ذلك المنظر البشع برغم عهده البعيد! كان يلقى بالثيران الواحد تلو الآخر وهي تصرخ كأنها تشهد السماء على جبروت الإنسان!
وقد أخرتنا هذه الزوبعة - التي ما زالت إلى اليوم أعجب من نجاتنا منها - يوما كاملاً عن ميعاد الوصول. .
ولما بلغنا في النهاية برشلونة، وتراءت لنا المدينة عن بعد، لم يكن فرحنا إذ ذاك يقل عن فرح (كرستوف كولومب) حين شاهد (سان سلفادور). . وقبل أن ينزل إلى البر، اقترب
مني أحد أصدقائي الصغار، وهمس في إذني قائلا: أتعلم لماذا نجونا من العاصفة؟ ان القسيس كان يصلي من أجلنا طول الليل. فلما نقلت هذا الحديث إلى والدي ابتسم وقال: بل هي دعوات جدتك يا بني!. . أما أنا فأرى ان العناية لم تشأ ان يموت هذا الشاعر قبل أن يتم رسالته، ويغني على قيثارته حضارة العرب الفخمة بالأندلس!
حسين شوقي
الشافعي واضع علم أصول الفقه
للأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرزاق أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية الآداب
- 4 -
أ - الدراسات الفقهية إلى عهد الشافعي. ب - أهل الرأي وأهل الحديث. ج - الشافعي بين أهل الرأي وأهل الحديث وآثاره وكتبه. د - وضع الشافعي علم أصول الفقه

أ - الدراسات الفقهية إلى عهد الشافعي
1 - كان التشريع في عهد النبي عليه السلام يقوم على الوحي من الكتاب، والسنة. وعلى الرأي من النبي ومن أهل النظر والاجتهاد من أصحابه بدون تدقيق في تحديد معنى الرأي وتفصيل وجوهه وبدون تنازع ولا شقاق بينهم
ومضى عهد النبي عليه السلام وجاء بعده عهد الخلفاء الراشدين من سنة 11م5هـ - 632 إلى سنة 40هـ - 660 وقد اتفق الصحابة في هذا العهد على استعمال القياس في الوقائع التي لا نص فيها من غير نكير من أحد منهم، وفي هذا العهد أخذت تبدو الصورة الأولى من صور الإجماع بما كان يركن إليه الأئمة من مشاورة أهل الفتوى من الصحابة، وكان أهل الفتوى من الصحابة يومئذ وهم المعتبرون في الإجماع قلة لا يتعذر تعرف الاتفاق بينهم في حكم من الأحكام
ولم يكن يفتي من الصحابة ألا حملة القرآن، الذين كتبوه وقرءوه وفهموا وجوه دلالته وناسخه ومنسوخه، وكانوا يسمون (القراء) لذلك، وتمييزاً لهم، عن سائر الصحابة بهذا الوصف الغريب في أمة أمية - لا تقرأ ولا تكتب -
ثم كان عصر بني أمية من سنة 40هـ - 660م إلى سنة 132هـ - 749م وتكاثر الممارسون للقراءة والكتابة من العرب، ودخلت في دين الله أمم ليست أمية فلم يعد لفظ القراء نعتا غريبا يصلح لتمييز أهل الفتوى ومن يؤخذ عنهم الدين، هنالك استعمل لفظ العلم للدلالة على حفظ القرآن ورواية السنن والآثار وسمي أهل هذا الشأن (العلماء) واستعمل لفظ (الفقه) للدلالة على استنباط الأحكام الشرعية بالنظر العقلي فيما لم يرد فيه نص كتاب ولا سنة
وسمي أهل هذا الشأن (الفقهاء) فإذا جمع امرؤ بين الصفتين جمع له اللفظان أو ما يراد فهما
وفي طبقات ابن سعد (كان ابن عمر جيد الحديث غير جيد الفقه، وكان زيد بن ثابت فقيها في الدين عالما بالسنن
وقد كان كثير من الصحابة والتابعين يكره كتاب العلم وتخليده في الصحف كابن عباس، والشعبي، والنخعي، وقتادة، ومن ذهب مذهبهم، وهؤلاء كلهم عرب طبعوا على حفظ جبلة العرب
قال ابن عبد البر: من كره كتاب العلم إنما كرهه لوجهين:
أحدهما - ألا يتخذ مع القرآن كتاب يضاهي به، ولئلا يتكل الكاتب على ما يكتب فلا يحفظ فيقل الحفظ. (مختصر جامع بيان العلم ص24)
ولما انقرض عهد الصحابة ما بين تسعين ومائة من الهجرة وجاء عهد التابعين، انتقل أمر الفتيا والعلم بالأحكام إلى الموالي إلا قليلا (عن عطاء قال: دخلت على هشام بن عبد الملك فقال: هل لك علم بعلماء الأمصار؟ قلت: بلى قال: فمن فقيه المدينة. قلت: (نافع) مولى ابن عمر، وفقيه مكة (عطاء بن رياح) المولى، وفقيه اليمن (طاوس) بن كيسان المولى، وفقيه الشام (مكحول) المولى، وفقيه الجزيرة (ميمون) بن مهران المولى، وفقيها البصرة (الحسن، وابن سيرين) المولیان، وفقيه للكوفة (إبراهيم) النخعي الغربي، قال هشام: لولا قولك عربي لكادت نفسي تخرج) مناقب الأمام الأعظم للبزاز جـ1 - ص57
عندئذ تضاءلت النزعة العربية إلى خطر التدوين وصارت كتابة العلم أمراً لازما (عن سعد بن إبراهيم قال: أمرنا عمر بن عبد العزيز المتوفى سنة 101هـ - 720م بجمع السنن فكتبناها دفترا دفترا فبعث إلى كل بلد له عليها سلطان دفترا) مختصر جامع بيان العلم ص33
وقد بدت مخايل نهضته في التشريع الإسلامي منذ ذلك العهد فحصل تدوين بعض السنن وبعض المسائل ولم يصل إلينا من تلك المدونات إلا صدى
ويقول (جولد زيهر) في مقاله عن كلمة (فقه) في دائرة المعارف الإسلامية: (وينبغي ألا يعطى كبير ثقة لما نسب لهشام بن عروة من أنه في يوم الحرة حرقت لأبيه كتب فقه، ولا
يمكن أن يتصور بحال أنه في ذلك العهد البعيد كانت توجد كتب بالمعنى الصحيح وإنما هي صحائف متفرقة، وتوفي عروة سنة 94هـ - 712 التي كانت تسمى (سنة الفقهاء) لكثرة من مات فيها من الفقهاء)

وبالجملة: فانه إذا كان دون شيء لضبط معاقد القرآن والحديث ومعانيها في عهد بني أمية، فان التدوين في الفقه بالمعنى المحدث لم يكن إلا في عهد العباسيين.

هذا هو الرأي الذي كان مقررا بين الباحثين لكن (جولد زيهر) يذكر في المقال الذي أشرنا آنفا ما يأتي: (وقد اكتشف (جرفيني) بين المخطوطات القيمة في المكتبة (الامبروزية) بميلانو الخاصة ببلاد العرب الجنوبية مختصرا في (الفقه) اسمه (مجموعة زيد بن علي) المتوفى سنة 122هـ - 740م وهو منسوب إلى مؤسس فرقة (الزيدية) من الشيعة، وعلى ذلك تكون هذه المجموعة أقدم مجموعة في الفقه الإسلامي، وعلى كل حال ينبغي أن يوضع هذا الكتاب موضع الاعتبار فيما يتعلق بتاريخ التأليف في الفقه الإسلامي. وإذا صح: أنه وصل إلينا من بطانة (زيد بن علي) وجب أن نعترف بأن أقدم ما وصل إلينا من المصنفات الفقهية هو من مؤلفات الشيعة الزيدية

على أن البحث الذي أثير لتعيين مركز هذا الكتاب بين المؤلفات الفقهية لم يكمل

ومن أسف ان هذا البحث لم يثره مسلمون ولا أثير في بلاد أسلامية

وقد ذكر صاحب (الفهرست) عند الكلام على (الزيدية) ما نصه: الزيدية الذين قالوا بإمامة زيد بن علي عليه السلام، ثم قالوا بعده بالإمامة في ولد (فاطمة) كائنا من كان بعد أن يكون عنده شروط الإمامة، وأكثر المحدثين على هذا المذهب مثل: (سفيان ابن عيينة) و (سفيان الثوري). . . ص187

وعلاقة هذين الإمامين بنهضة الفقه عند أهل السنة تجعل للبحث الذي يشير إليه (جولدزيهر) شأنا خطيرا

وجاء عهد العباسيين منذ سنة 132هـ و749 - 750م وشجع الخلفاء الحركة العلمية وأمدوها بسلطانهم، فكان طبيعيا ان تنتعش العلوم الدينية في ظلهم، بل كانت حركة النهوض أسرع إلى العلوم الشرعية لأنها كانت في دور نمو طبيعي وتكامل

وهناك سبب آخر يذكره (جولدزيهر) في كتابه (عقيدة الإسلام وشرعه) هو: أن حكومة الأمويين كانت متهمة بأنها دنيوية فحلت محلها دولة دينية سياستها سياسة ملية

كان العباسيون يجعلون حقهم في الإمامة قائما على: أنهم سلالة البيت النبوي، وكانوا يقولون: انهم سيشيدون على أطلال الحكومة الموسومة عند أهل التقى بالزندقة نظاما منطبقا على سنة النبي وأحكام الدين الإلهي

ويلاحظ أن المثل الأعلى للسياسة الفارسية، وهو الاتصال الوثيق بين الدين والحكومة، كان برنامج الحكم العباسي

(وقد اقتضى ضبط أمور الدولة على منهاج شرعي، جمع الأحكام الشرعية، وتدوينها)

مِن طرائف الشِعر

نشيد النيل

للأستاذ محمود الخفيف

طالما سرت وقد طاب النسيم ... في بهاء الصبح أو صفو الأصيل

أجتني اللذات من روض النعيم ... حيث يجري النيل في الوادي الظليل

وأرى الشاطئ رفَّاف الأديم

يسحر الأعينَ مرآه الوسيم

سندس طلق وماء سلسبيل

مسرح للعين والقلب معا ... رائق الآصال وضاح البُكَر

قامت الأطيار فيه سُجَّعا ... وزكت فيه أفانين الزَّهَر

وبسلط الروض يبدو ساطعا

يمرح الشاعر فيه راتعا

بين دوْح ونخيل ونَهَر

ينجلي النيل لديه رائقا ... رائع الأقبال موفور الجلال

كجنين الصبح يبدو مشرقا ... في معاني الحسن مفقود المثال

ساقه الله فراتا دافقا

طافح البشر نميرا مونقا

آية في الكون من آي الجمال

يا وريد القلب في الوادي الخصيب ... أنت يا من وهب الوادي ثراه

سر تدفق أيها النهر الحبيب ... يا عبابا يبهر الفكرَ مداه

يا جديدا وهو للدهر ضريب
يتجلى فيك لي معنى عجيب
فطن القلب إليه فوعاه
أنت كالمصريِّ في نزعته ... زاخر بالخير فياض المعين
خالد تحكيه في فطرته ... وداع تنساب في خفض ولين
حالم كابنك في رقته
ولقد تحكيه في غضبته
باعتكار ثم تصفو بعد حين
أنت في الوادي تراث الأزل ... لم تنل منك تصاريف الزمن
وستبقى مستدام الأجَلِ ... ليس يعروك فناء أو وَهَن
ذاكراً للناس عهد الأول
باعثا في مصر روح الأمل
حافزا للجد أشبال الوطن
إيه يا رمز المعالي والخلود ... قد شهدت المجد والدهر غلام
وصحبت العز في كل العهود ... في هجير الحرب أو ظل السلام
قِرَّ عينا أيها النهر الودود
قد صحونا بعد أن طال الهجود
وجمعنا بين رأي واعتزام
أيها النيل سلام عاطر ... ما أضاء الصبح أو أمسى المساء
لك يا نيل وفاء ظاهر ... وصفاء لم يكدره الجفاء
قد دعانا منك عزم صابر
لا روانا بعد فيض غامر
ان صدفنا اليوم عن هذا الدعاء
تحية الرسالة في مستهل عامها الثاني
للأديب فخري أبو السعود
حيَّ الرسالة في أولى مراحلها ... وودِّع العام عنها خير توديعِ
أوْفَتْ على عامها الثاني فلا برحت ... تسير للنَّجح سيراً غير مقطوعَ
تحية الشعر يهديها لأروعَ ذي ... ماضٍ مكينٍ وفضل غير مدفوع
صافي النسيج إذا ما راح يحْكِمُه ... ورصّع اللفظ فيه خير ترصيع
عف المقالة لم تهمم يراعته ... يوما بهجوٍ ولم تعمد لتقريعِ
ضمتْ جهابذةَ الفصحى رسالتُه ... في حُسنِ سمْطٍ نضيدِ النَّظم مجموعَ
ومهَّدتْ لحصيف النقد مخلصه ... ونَوَّهَتْ برصين الشعر مطبوع
فجال فيها جِيادُ النثر واستَبَقَتْ ... ورَّجع الشعر فيها أي ترجيع
وصال فيها أساطينٌ الو هِمَم ... مِنْ كلْ ذي قلم للعلم مشروع
يُبَسطُّون بها للدرس منهجه ... على طراز عزيز النَّدِ ممنوع
أئِمة الضادِ من عِشرينَ نَعْرِفهمْ ... في منتدًى للحجى والفضل مرفوع
قد أترعها بنبع من قرائحهم ... ومِن مَعين اللغى الأخرى بينبوع
ترضي صحافة مصر عن رسالتهم ... وعن جهاد لها بالنجح مشفوع
قد احتوتْ في قليل من صحائفها ... كل الفنون وجابت كل موضوع
وأشرقت كلْ شهر مرتين لنا ... واليوم تشرق فينا كل أسبوع
حلم
للشاعر الدمشقي أنور العطار
ذَوبْتُ في رَوْعهِ الامْسَاءِ أنْرَاحى ... وَصُغْتهَا نَغَمَات ذَاتِ أفْرَاح
أعيذُ أشعْاريَ الصَّحَّاك مَبْسِمُها ... منْ كُلِّ مُسْتَرْسِلِ الأعْوَالِ نَوَّاح
مَاَ قيمةُ العَيش نمضيهِ مُرَوَّعةً ... أحْلاَمُنّا بخَيّالاَت وأشْبَاح
يَسْمُو بِكَ الكَونُ إمَّا زدّتَهُ مَرحاً ... وَالكَوْنُ ملكُ لعُوبِ الْحُلْم مِمْراحِ
إغْفَاءةٌ تَعْدلُ الدُّنْيَا بمَا نِهلتْ ... أفْيَاؤهِا مْن نَعِيمٍ غَيْرِ مِنْجَاحِ
فَغطَّ فَيِ حُلْمِكَ الفِضِّيِّ مُطّرحاً ... إسَار عَيْش طَويل الهَمِّ مِلْحَاحِ
فقِي غيَابَتِهِ تغفى موَاجُعنا ... كَأنَّمَا قَد مَحَا آثَارَهَا مَاحِ

يا غيْبُ! مهدٍّ لِرُوحي فيكَ معتكَفا ... رحبَ الاعاليلِ خصْباً جِدَّ مَنَّاحِ
مُجنَّح الحُلْم مبثوثَ الأطار رُؤىً ... كالفجرِ ما بينَ تعتيمٍ وإصباحِ
يُعِله النورُ أو تَعرى مَحِفته ... كأنها زهرةٌ في كفِّ سباح
تِغيم بالزَّبد الواهي غِلالتُها ... فتنجلي عن جبينٍ مُشْرقٍ ضاح
وإن تَضِع في مطافٍ جاهد عسِرٍ ... تظفرْ بفيءٍ وأمواهٍ وأرواح
هذى سماؤك فانظمْ في روائِعها ... شعرَ الخلودِ بتَبيانٍ وأفصاح
يعيرُك الشفق الرَّجراجِ قافيةً ... من كل مؤتلقِ الألوانِ لماح
ففي الغيوم أناشيد وأخيلةٌ ... صبَيغةٌ بسَنا كالفجرِ وضَّاح
يا زورقَ الشعرِ جُزْ يَمَّ الدنى فرِحا ... لأنتَ في غُنيةٍ عن كل ملاَّح
رُبَّانكِ الحبُّ، لا تثنيه غاشيةٌ ... عن السُرى في سماء ذاتِ ألواح
الخلود

للأستاذ خليل هنداوي

وساقية راعها قائل ... (نجئ، ونذهب كالساقيه)
فقالت - وآلمها قوله ... متى أدركت روحه شانيه؟
خرجْت من الأرض دفَّاقة ... وودَّعتُ أرض الحمى باكيه
ما كان معنى خريري سوى ... بكائي على نفسي الفانيه
هويتُ إلى البحر مضطرة ... لي الله من قطرة هاويه!
فما غمرتني - سوى برهة - ... من البحر أمواجه الطاغيه
فحُمَّلْت فوق متون السحاب ... وعدت إلى وطني ثانيه
فأدركتُ بخلود الوجود ... فتسمعني إذن واعيه
وقد أدرك الروض هذا الحديث ... فلم يبك أزهاره الذاويه
وقد فهمتهُ طيور المروج ... فما أسلمت روحها شاكيه
وان تبك لا تبك إلا على ... مظاهرَ قد بُدِّلت ثانيه
مظاهر تسمو بقدر الطموح ... وتسفل في الأنفس الدانيه
فمن وردة رجعت شوكة ... ومن شوكة. . . وردة ساميه
ومقياس ذلك في رغبة ... تقود إلى المثل العاليه
رويداً! فأنت هنا خالد ... تروح وترجع كالساقيه. .

دير الزور

احب السماء

أحبُّ السماَء إذا ازَّينتْ ... بأنجهما وأطل القمرْ
وماجتْ بموكبها في الظلام ... كبحرٍ تَلاَمَحُ فيه الدُّرَرْ
أحِبُّ السماَء إذا أبرقتْ ... بليلٍ وجَلْجَلَ فيها السحابْ
وغارت بها الانجم الزاهراتُ ... كما غَيَّبَ الهامدينَ التراب
وعمَّ الدُّجَى واكفهرَّ الغمامُ ... كوجهٍ تلبَّدَ فيه الأسَى
وهَبَّتْ تعربد ريح الشتاءِ ... وضَلَّ شريدُ القضاء الحمَى
أحبُّ السماء إذا ما الربيعُ ... كساها من الورد أبهى وشاح
وأضحت مجالا لأنفاسه ... ومهداً عليه الأصيلُ استراح

حمص

رفيق فاخوري

الوردة الذابلة

قالت وقد ألفْت على وجها ... لفحة سقم لم تكد تنجلي
إن تذبل الوردة ظلّت لها ... بقيةٌ من عطرها الأوّل
قلنا وطيّ النفس ماطْيها ... لو شاءت الوردة لم تذبل
لو شاءت الوردة كنا لها ... ندى إذا الأنداء لم تنزل
لو شاءت الوردة كنا لها ... شوكا يقيها عبثَ الأنمل
لو شاءت الوردة كنا لها ... أرضا مُوَّطاة على جدول
لو شاءت الوردة كنا لها ... شمسا تريقُ الضوء في معزل
فظلّ للوردة ما أعطيت ... من ناضر الحسن وغالي الحلي
لكنها اختارت لها مغرسا ... بمثلها في الورد لم يجمل

حيث الثرى سمٌّ وحيث الندى ... هم وحيث الضوء لم يُرسل
فكان حقا أن ترى حسنها ... يذوي وأن لا تُعجب المجتلى
وإن تعّزتْ ببقايا الشذى ... فهو عزاء الكحل للأحوال
محمود عماد
استدراك
كتب إلينا الأديب محمد حسنين احمد يلاحظ على عبارة وردت في مقالة (فلسطين) المنشور في العدد الماضي بقلم مستر كنيث وليمامس، يستفاد منها أن مستر لويد جورج كان رئيسا للوزارة البريطانية قبل الحرب، ويقول ان الحقيقة ليست كذلك، والواقع ان هذه العبارة وردت بنصها في مقال الكاتب الإنجليزي ونقلتها الرسالة مترجمة كما وردت. وهي سهو من الكاتب بلا ريب، لان لويد جورج كان قبيل الحرب وزيرا للمالية في وزارة مستر اسكويث، ثم كان في بداية الحرب وزيرا للذخائر في هذه الوزارة أيضا ولم يتول الرياسة إلا في ديسمبر سنة 1916. والمرجح ان كاتب المقال يقصد (أثناء الحرب) (لا قبل الحرب)
العلوم
في النبات، وحشة وأنيسة
للدكتور أحمد زكي
كلما كثر السكان وضاقت المناطق العامرة بالناس، نزحوا عن أوطانهم طلب الوسعة في الأرض وما يستتبعها من الوسعة في العيش، والاستعمار دأب الإنسان من قديم. إلا أن صفات العصر وأساليب الوقت في مرافق الحياة كانت تؤثر فيه فيتئد حينا ويسرع حينا. فلما كانت الدواب وسيلة التقلب في جَنَبات اليابسة، والشراع حامل الإنسان على ظهر المائعة ودفاع الإنسان لما يلقى من وحش جائع وناب كاشر سيفاً ورمحا، وأدائه في تذليل الأرض مِعولا وفأسا، وسقايته لها رهينة بما يجد عفوا من نبع يتفجر أو نهر يزخر، أو مطر يهطل حينا ويمتنع حينا، وعلمه بزراعتها علما يسيرا علمته إياه التجربة المبتَدَهة والأخطاء المتكررة، كان استعماره للأرض بطيئا، وانتشار الجنس الإنساني على هذه الكرة محدودا. وكان يزيد في بطئ استعماره وقلة انتشاره ما في طبيعته من حب ارتباط بأرض ألفها ومهابط اعتادها، وذكرى لماضيه أوثقها بحاضره، وعادة يسرت حاضره فأمل اضطرادها في تيسير مستقبله، أما وقد تغيرت صفات العصر وتبدلت أساليب العيش، فأصبح البخار دابته على اليابسة والمائعة، والبنزين مطيته يشق به الأرض ويفلق الهواء،
واصبح دفاعه الحديدَ الصارخ والجمر الطائر، وأداته في تذليل الأرض المكنات الكثيرة تديرها الأكف القليلة، وسقايته لها ترتبط بإرادته أكثر من إرادة الماء، وترتهن بهندسته أكثر نم ارتهانها بالأمطار والانواء، وصار علمه بزراعتها علماً غزيراً علمته إياه التجربة المقصودة والأبحاث المنتظمة، فقد أسرع الاستعمار إسراعا لم يعهده التاريخ، حتى ليُنذر بأن لا تبقى رقعة من الأرض لا تطؤها قدم مستعمر. حتى الروابط التي كانت تربط الإنسان بأرضه الأولى، فتمنعه، أن ينزح النزحة الأولى، قد هانت بسهولة المواصلات وسرعتها لانه إذا هو استبدل جديداً بقديميستطيع الآن إلى حد كبير ان يجمع بين موطن عتيق وموطن مستحدث، ويمد خيوطه طويلة ميسورة إلى سلف وراءه وخلف أمامه، ويؤلف في سهولة بين ما استدبر من أمسه واستقبل من غده جميلٌ أن يرى الإنسان الحضارة تعم الأرض، ومعجبٌ مُزهٍ أن تلفّ العمارة المعمورةَ لفَ الهواء لها، ولكنها خسارة كبرى كذلك أن تذهب هذه الحضارة والعمارة بكل حيوان يَستأْنس، وبكل نبات لا يخضع لترويض الإنسان. لقد ضاع من أمثال هذا الحيوان ما ضاع، أو قلّ حتى إذن بالضياع، وانقرض من النبات ما انقرض، أو إذن بالانقراض وارتفعت أصوات في العصور القريبة تنبه إلى ذلك وتطلب حماية المستوحش من الحيوان، والنبات على السواء، وانعقدت أخيرا بلندن جمعية غرضها حماية الأصقاع الأفريقية الوسطى من التعمير وحفظها من عبث المدينة، وصيانتها صيانة الأثر الحي الخالد، وهي صيانة بالسلب، وحفظبالترك، فلا تكلف دينارا ولا درهما. وفي الحق كيف تجوز علينا صيانة المعابد ورعاية الهياكل والاعتزاز بصحاف من خزف ودوارق من صلصال وهي جميعا من صنع الإنسان المتحضر، فلا تزيد أعمارها عن قليل من آلاف السنين، ثم لا نصون آثارا أذهب من هذه في القدم وأبعد في العراقة من الإنسان. تلك

يستعاض عنها إذا افتقدت، ويقام على أنقاضها إذا تهدمت، أما هذه فما ذهب منها فلغير رجعة، وما فني فلغير إيجاد. تلك تعيدها الصناعة، وهذه لا يعيدها إلا الخلق، والخلق ليس من عمل الإنسان.

وفوق هذا فالحيوان المستوحش والنبات البريّ، ان رثت صلتهما بالإنسان في نظام الخليقة العام. وتباعدت منابتها عن منبتة في جدول الاجناس، فان بينهما صلات قريبة وبين ما

استأنس الإنسان منهما فكل حيوان مستأنس كان متوحشا يوما ما ونحن الذين أنّسنَاه، وكل نبات كان مستوحشا كذاك يوما ما ونحن الذين ألفناه، ولا يزال يوجد في الوحشي من الحيوان والنبات أشباه ونظائر لتلك التي تعيش بيننا في رخاوة ودعة، ولكن هذه النظائر كانت قليلة فزادت قلّة، وهذه الأشباه كانت نادرة فزادت ندرة، فإذا نحن إذنا للعمارة أن تمتد بلا حدّ فقد قطعنا آخر الخيوط الواهنة التي تربط حاضر الأحياء بماضيهم، وطمسنا في رقعة الأحياء الخانات القليلة الباقية التي فاتها الطمس، وجئنا على آخر الأدلة الحية على أصل الإنسان والحيوان والأواصر التي بينهما

متى كان تأنيس النبات وأين كان؛ ومن أول من قام به - كلها أسئلة لا يستطيع إجابتها إلا بالحدس والظن وإعمال الخيال. والخيال إذا أصاب مرة أخطأ مرارا، ولكن مما لا شك فيه أن هذا كان والإنسان في حداثته الأولى، قبل التاريخ المعروف، وقبل العصور التي سّجل أحداثها الحجر. ففي مقابر المصريين فيما قبل عصر الأسر وفي العراق في منازل عريقة في القدم. وكذلك في الحفائر عن بقايا سكان مناطق البحيرات السويسرية والإيطالية كشفوا عن حبوب من القمح في درجة عاليه من التقدم النباتي ما كان يبلغها لولا تدريب سبق، طال حتى ضاع أصله في الأحقاب القديمة وامتد إلى الوراء حتى اختفى في حلوكة العصور الأولى. ان مكتشفات الإنسان كثيرة واختراعاته الخطيرة عديدة، وكلها كان لها نصيب في تقدم الانسان، وقد تختلف في المفاضلة بين هذا المخترع وذلك المبتدع، ولكن قليل من يماري في أن أكبر اكتشاف وأخطر ابتداع ساق قدم الإنسان إلى أول الدرجات من سلم الرقيّ الذي نراه اليوم، ذلك الاكتشاف الذي امحي أصله بإمحاء الحياة الأولى، وضاع سره مع سر الإنسان القديم، ذلك إمكان تأنيس النبات - تلك الحقيقة التي فطن إليها آباؤنا الأولون من أن بعض النباتات يمكن ترويضها وتمريضها وتَنْشِئتها وهدهدتها فتعطي ثمرات كثيرة وغلاّت وفيرة تكون غذاء مأمونا مضمونا يسكن الإنسان إليه في المكان الواحد العام بعد العام؛ لا يقلقه الترحل ولا تتلاقفه السهول والجبال. تلك الحقيقة التي خلقت أولى الصناعات وأكثرها تأصلا وعراقة، تلك الزراعة التي كانت وما زالت أس المدنيات جميعها،

إن النباتات القابلة للتأنيس قليلة، وقليل من هذه ما يعطي حبا أو ثمراً يصح أن يتخذ غذاء

أساسيا كافيا للإنسان، وهذه متفرقة على سطح البسيطة، وهي كالحيوان لها مواطن خاصة من سطح الأرض، فمنها الأفريقي والآسيوي والأمريكي، وفي هذه المواطن دون سواها نشأت المدنيات البائدة، حتى ليكاد الفكر والبحث يردّ كل مدنية قديمة إلى حب أساسي، وكل حضارة بائدة إلى ثمر أصلي. فالمدنيات الأمريكية قبل كولومبس تركزت في الأصقاع الاستوائية وامتاز كل منها بغلة كانت أساسا لمدنية، فغلة المكسيك الذرة، وغلة بوليفيا واكوادور وبيرو البطاطس، فحضارة المكسيك العتيقة التي كشفت عنها الحفائر الحديثة حضارة ذرويه، وحضارة أمريكا الجنوبية بطاطسية وليس معنى هذا أن تلك البلاد لم تنتج من النباتات غير الذرة والبطاطس، فقد أنتجت أنواعا من الخضر والفواكه لكنها ثانوية في تغذية الإنسان. وفي الدنيا القديمة، أو التي لا نزال نسميها الدنيا القديمة على الاعتبار الخاطئ، ان أمريكا لم يكن لها حياة مسرفة كذلك في القديم قبل أن (اكتشفها) كولومبس، تركزت فيها المدنيات حول المناطق التي تنتج أغذية أساسية لحياة الإنسان. وهي القمح والشعير والقرطم والشيلم وتنبت فيما حول البحر الأبيض المتوسط وآسيا الصغرى والجانب الجنوبي الغربي لآسيا، والأرز في الهند والصين. ولا نزال اليوم نجد نوعا من الأرز البري ينبت (شيطانيا) في الهند وفي جنوب الصين؛ وهو لا شك جَدٌّ لأنواع الرز الحديثة. كذلك نجد في آسيا الصغرى وفي الجنوب الغربي لآسيا أنواعا من النبات تمتّ إلى القمح والشعير والقرطم بوشائج من الرحم على بعدها بيِّنة واضحة

ومن المدهش أن نباتات أمريكا فيما قبل (كولومبس) أي عام 1500 ميلادية تختلف كل الاختلاف عن نباتات الدنيا القديمة. فلم يكن بينهما نبات مشترك واحد. كان في أمريكا الذرة والبطاطس والبطاطا وأنواع من الفول والطماطم والفلفل والفول السوداني والأناناس والجوافة والكاكاو وغير هذه من أجناس أخرى غير مشهورة لدى الناس. ولم يكن في أمريكا في تلك العهود من حيوانات الدنيا القديمة غير الكلب. وكان في الدنيا القديمة من النباتات المستأنسة القمح والشيلم والشعير والقرطم والدخن، والأرز وكلها حبوب أساسية في تغذية الانسان، واللفت والبصل والسبانخ والخس والحمص والعدس والسمسم وغيرها

قال العمدة النباتي (ألفونس دي كندول) في كتابه الأثري (أصل النباتات المزروعة) عام 1882: (وفي تتبع تاريخ هذه النباتات لم أجد أثرا لصلة كانت بين سكان الدنيا القديمة وقال العالم الأحدث فافيلوف ((وسكان الدنيا الجديدة فيما قبل العصر الكولومبسي 1931): (ان الزراعة في أمريكا قبل العهد الكولومبسي نشأت نشوءاً مستقلا عن الزراعة في الدنيا القديمة، فإذا نحن قلنا مع أغلب البحاث ان سكان أمريكا القديمة أتوا من آسيا وجب أن نقول أيضا أنهم أتوا فارغة أو طابهم من كل نبات أسيوي. ومعنى هذا إن النبات في الدنيا الجديدة استأنست عن أجناس وحشية نبتت في تلك الأصقاع ذاتها) ولكن لما فتح كولومبسي أمريكا للعالم القديم، وصح عند الناس أن بلداً كبيرا واسع الغنى خبيئ الثورة قد انكشف، ركبوا إليه أفواجا بأهلهم ومتاعهم وحملوا معهم ما عرفوا من الحيوان وما ألفوا من النبات وبذوره. وبذلك نقلوا المستأنس من الحيوان والنبات إلى ذلك البلد الجديد، ورجعوا إلى بلدهم القديم بنبات تلك القارة الجديدة الواسعة وبحيوانها. ودارت الأفلاك بالسنوات والأحقاب. والإنسان دائب في مزج أحياء المشرق بأحياء المغرب غير متعمد ذلك ولا قاصد إليه، حتى ضاعت المواطن الأولى لتلك النباتات وأمحت قوميتها، وتأقلمت فاستترت سيماء الأجنبية منها، واستعربت فاختفت مظنة العجمة فيها. أو استعجمت فذهبت العروبة عنها، فالمصري يزرع الذرة والبطاطس ويحسب أنها مصرية وهي أمريكية، والأمريكي يزرع الأرز والموز وجوز الهند ويحسب أنها أمريكية وهي أسيوية. وما جرى بين أمريكا والدنيا القديمة جرى لا شك بين تلك القارات فيما بينها وبين أصقاع القارة الواحدة اختلطت نباتات الأرض فاستبهمت أصولها، وانتشرت حيواناتها في البلاد فأصبحت كل أرض بلدها، فهل يكون للإنسان، وهو جنس واحد من الحيوان. مثل هذا المآل؟

احمد زكي

البلجاء

للآنسة سهير القلماوي ليسانسييه في الآداب

ظلت العراق شوكة في حلق الدولة الأموية إلى أن جاءها منه ما قوض أركانها وهدم سلطانها. وظلت العراق موطنا لكل خارج على الدولة الأموية تأوي كل من يرى فسادا فيما آلت إليه الحال وكل من يحس سخطا على القائمين بالأمور. آوت العراق أهم فرقتين كانتا ساخطتين على خلفاء بني أمية وسياستهم وهم الشيعة والخوارج.

كان هم كل وال جديد على العراق أو أحد مصريه الكوفة والبصرة، أن يحارب هاتين الفرقتين حربا تختلف قوة وضعفا باختلاف شدة معارضتهما أيام ولايته وباختلاف طبيعته الشخصية وما تحتمل تلك الطبيعة من منظر سفك الدماء وإزهاق الأرواح ما كاد العراق يتنفس في شيء يسير من الراحة بعد موت زياد حتى ابتلاه معاوية بمن هو إلى السر أسبق ولو في تهور، وإلى سفك الدماء أسرع ولو في ظلم وعدوان - ابتلاه بعبيد الله بن زياد

أما الشيعة فكانت تصطنع الاستكانة شيئا ما، وما زال عهدها بزياد قريبا وما زال مقتل حجر بن عدي وصحبه يتمثل لها فترتجف لهوله القلوب ويثور من اجله في النفوس شيء من السخط. ولكنه سخط مستسلم أو قل هو سخط يستعد ويدبر للثورة والانتقام

وأما الخوارج فما زالت دعوتهم قوية لا تعرف تسترا ولا رفقا كانت شعلة تحرق ما يقف في طريقها كانت نارا مقدسة من الإيمان الجارف القوي تلهبه القلوب وتلهبه الضحايا البريئة الطاهرة التي كانت تقدم في كثير من التنكيل والإسراف قربانا على

مذبحه.
أصبحت البصرة منذ مقدم ابن زياد مرجلا يغلي بما فيه من خوف وقلق واضطراب، كل يتستر بعقيدته، يجتمع وصحبه ولكن في حذر كل الحذر. كل يبث دعوته ولكن في حيطة دونها كل حيطة. عرف أهل البصرة في وإليهم الجديد نوعا من البطش قلل في نظرهم شيئا من بطش زياد على قرب عهدهم به. هذا البطش الجديد لم يكن يقف عند حد، لم يكن يعرف شيئا من الأناة في تنفيذ اشد العقوبات وانكاها، لم يكن يعرف هوادة ولا تريثا وإنما كان قوة تكتسح أمامها كل شيء، لا تعرف إلا إنها قوة وإلا إنها يجب ان تندفع.
نال الخوارج من هذا البطش ومن هذا النكال النصيب الأوفر فقد قتل منهم عدد غير قليل
ولم يكن قتلا عاديا وإنما كان قتلا يقصد به الردع والإرهاب كأشد ما يمكن ان يكون الردع والإرهاب كان صلبا، كان تقطيعا للأيدي والأرجل في الساحات العامة، كان قتلا لا ككل القتل، كان القتل صبرا ولم تكن الضحايا فرادى وإنما كانت جماعات.
عرف الخوارج منذ أول ظهورهم بشجاعة نسائهم وجهادهن معهم. ويذكر الخوارج في تاريخهم عددا غير قليل ممن استشهدن وحاربن بل ممن قاتلن وتبارزن في سبيل نصرة المذهب الجديد. ولقد غاظ زياد أمر هؤلاء النسوة، ماذا يفعل بهن لقد نهى الرسول عن قتل نساء المشركين أثناء حروبه معهم فكيف بنساء المسلمين. ولكن أمر هؤلاء النسوة لم يكن يسيرا. لقد كن ينشرن الدعوة فتسير كالنار في الهشيم لابد لهن من عقاب رادع، لابد لهن من شيء فوق طاقتهن حتى يعدن إلى ما خلقن له حتى يدعن الجهاد لمن هم به أولى وعليه أقدر. وتذكر فعل الوالي قبله. لقد قتل زياد خارجية وعراها وعراها في الميدان العام فلم تظهر خارجية بعدها أمرها أيام زياد. لقد خفن العار وإن لم يخفن الموت. أتتحسبن انه لن يقدر على هذا، كلا فوالله لو ظفر بإحداهن ليجعلها عبرة لمن بعدها.
وبسط هذه القلاقل كان أبو بلال مرواس زعيم الخوارج إذ ذاك يجتمع بصحبه كل مساء يتدارسون مذهبهم ودينهم ويتدبرون حالهم وما يستطيعون أمام هذا السلطان العاتي. يفكرون في أمور الدولة وأعمال الوالي الجديد ويدبرون خططا جديدة لبث الدعوة وتيسير السلطان لمذهبهم.
كان بين هؤلاء الصحب امرأة تعرف بالبلجاء فإذا ما جلس أبو بلال جلست إلى جواره تستمع إلى حديثه في شغف وتلتقط الكلام من فم هذا الذي كادت تؤلهه الجماعة كأنما كلامه قطرات ماء وكأنما إذنها قد أعياها طول العطش. وكان أبو بلال سمح الطبع قوي الإيمان فاستراح لقرب تلك السامعة، وحفظ لها في قلبه مكانة عظيمة. لقد أعجبه منها إيمانها وتعلقها بالمذهب، تسأل عما أشكل عليها فيه فلا تمل سؤالا. ولم يكن هو ليدخر جهدا حتى يوفق في إجابتها إلى الجواب المقنع الشافي.
ظلت البلجاء هكذا زمنا إلى ان آمنت بالمذهب الجديد إيمانا لا يرتضى سكوتها وهدوءها. فبدأ الإيمان يملي عليها العمل والتضحية في سبيله شأن كل إيمان يتم نضوجه ويعم القلب نوره. قامت البلجاء بدورها تبث الدعوة بين أهل البصرة فيلبي دعوتها الكثير. ولكنها ما
زالت تختلف إلى مجلس أبي بلال بعض الليالي تأنس بالشيخ وبصحبه فينمو إيمانها في هذا الجو المشبع إيمانا ويقوى جلدها على احتمال أتعاب النهار وأخطاره
جلس أبو بلال ذات ليلة وانضم حوله الصحاب متشوقين إلى سماعه، فما عرفوا لديه إلا الصواب، متلهفين إلى حجمه وآيات إيمانه، فقد كانت لقلوبهم وعقولهم خير غذاء في هذا الجو المكفهر المضطرب. ولكنه ما كاد يلتئم جمعه ويبدأ حديثه حتى قام إليه أحدهم وهو غيلان بن خرشة الضبي وقال: (يا أبا بلال أني سمعت الأمير البارحة عبيد الله بن زياد يذكر البلجاء واحسبها ستؤخذ.)
وجم المجلس وفكر الشيخ طويلا. فالبلجاء كانت من خير أعوانه، وكان الذين دخلوا على يديها في المذهب الجديد غير قليلين، فلابد إذن أن ابن زياد عرف هذا ولابد أنه بعد أن عرف قدر وفكر، ولابد انه من بعد أن قدر قرر، ويا عظم ما قرر! وتنازعت نفسه عوامل عدة ولكن أقواها كان الخوف على البلجاء، خوف العار لا خوف القتل.
ولم يستمع القوم لأبي بلال هذا المساء فقد كان فكره مشغولا وعقله مضطربا. ينتظر

البلجاء فلا تأتي، ويطول الانتظار. وما كاد المجلس يخلو حتى عدا إليها مسرعا. وفي الطريق قدر رغم إسراعه وفكر. ماذا يقول لها؟ ثم يصحها؟ لقد كان يذكي إيمانها كل يوم فيسره هذا الإذكاء، أيطفئ اليوم هذا النور بيده أو يداريه فيحجب شعائه، ولكن بطش زياد عظيم وانه لجبار عنيد.

وصل إلى بيت البلجاء فوجدها قد آوت إلى فراشها من تعب النهار ولكنها ما كادت تسمع صوت أبي بلال في الفناء حتى قامت إليه مسرعة وقلبها يكاد يحطم صدرها من اضطرابه ما سر هذه الزيارة المتأخرة؟ وماذا عند أبي بلال وقد آوى الناس إلى فراشهم إلا القليل؟ ولكن أبا بلال لم يطل عليها الاضطراب فقد قر رأيه ولم يعد لديه إلا قولا واحد يقوله لها

- إن الله قد وسع على المؤمنين بالتقية فاستتري فان هذا المسرف على نفسه، الجبار العنيد قد ذكرك.

وكان موقف البلجاء جليا واضحا فلم يكن ذكر ابن زياد لها أمرا مستبعدا ولم يكن خوف أبي بلال عليها شيئا غير منتظر ولكن آلام يدعوها أإلى اليقين وهل عرف التقية ذوو الإيمان القوي؟ ورنت في إذنها الآية (إلا من اكره وقلبه مطمئن بالإيمان) أي رحمة، أي

شفقة، أي تقدير للإنسان أي فهم لضعفه ولنواري ولكن الإيمان النار القوية الملتهبة ما هذه الحشرات التي تدنو منها الخوف؟ أخوف الموت؟ أعار التعرية؟ والنار القوية تحرق كل حشرة تدنو منها فتزداد بهذا الاحتراق قوة ولهبا وهؤلاء الذين دعتهم فلبوا أيشهدون خبو هذه النار التي مسهم شررها فآنسوا إليه؟ كلا كلا وايم الله!

- أن يأخذني فهو أشقى أما أنا فما احب أن يعنت إنسان بسببي.

السوق هائجة مائجة والناس تروح فيها وتغدو وعلى وجوههم غبرة قاتمة حاسرة. كل وجه عليه مزيج من علائم الحزن والاضطراب والاشمئزاز والسخط ماذا في السوق ما الذي يثير كل هذه العوامل في نفوس الناس فتغير من ملامحهم تغييراً أليما منكرا:

جاء أبو بلال إلى السوق والفى القوم على تلك الحال ولكن لم يتساءل فقد وجد أبصارهم عالقة بشيء منصوب عن بعد فما لبث أن رفع هو بصره إليه، مإذا؟ أجسد امرأة قطعت يداها ورجلاها؟ ومن تكون تلك التي أثارت حفيظة الأمير فنكل بها هذا التنكيل البشع؟ الجواب يضطرب في صدره ولكنه لا يقوى على تصديقه والمرء إزاء المصائب اعزل لا سلاح له إلا محاولة إنكار الواقع أيكون حلما؟ أأكون مخدوعا؟ والمصائب ثابتة في عالم الحقيقة تهزأ بهذا الإنكار.

دنا أبو بلال من أحدهم وفي نفسه أمل ضعيف خائر وهمس في إذنه من تكون؟

- البلجاء

واقترب أبو بلال من الجسد المنصوب وعيناه عالقة به ونفسه كليمة حسرى. ما اعجب الحياة وما أمر هزء الحقيقة إذا ما انتصرت على كل إشفاق من حقيقتها.

وأملت البلجاء على أبي بلال درسا عوض كل ما ألقاه عليها من دروس. ما هو؟ ما قيمته؟ وما قيمة تعظيم الجماعة إياه امام هذه في عليائها؟ ما أعظمها! ما اجلها! وما أحلى رضائها عن نفسها! وعض الشيخ على لحيته وقال لنفسه:

لهذه أطيب نفسا عن بقية الدنيا منك يا مرداس.

سهير القلماوي

العَالم المسرحيّ والسّينمائِي

أزمة المسرح في مصر

لناقد (الرسالة) الفني

أصيب المسرح المصري في السنوات الأخيرة بضربات شديدة قضت عليه أو كادت. وانه ليحتضر الآن. ولا مفر من أن نشيعه عاجلا أو آجلا إلى مثواه الأخير لنعيد خلقه من جديد إذا وسعتنا الحيلة، وتوفرت الوسيلة، وتهيأت الأسباب التي تؤدي بنا إلى هذه الغاية.

وانظر كيف أصبح اليوم، وماذا كان بالأمس، وها نحن أولاء في أواخر ديسمبر والموسم المسرحي لم يبدأ إلا منذ أيام، ويالها من بداية فاترة لا تبشر بخير ولا تسفر عن عظيم. ولا نرى من الفرق القديمة إلا فرقة رمسيس، ثم إن هناك فرقة دار التمثيل العربي التي ألفت هذا الموسم وما نظن أن العمر سيمتد بها كثيرا لفقرها

المادي والمعنوي وان كنا نرجو مخلصين للأستاذ عزيز عيد كل توفيق ونجاح، فقد خدم المسرح في السنوات الأخيرة خدمات كثيرة لا شك في قيمتها ونفعها، ولقد كان وما يزال من أهم العوامل البارزة في المسرح.

وهذا الفشل الذريع الذي أصيب به المسرح يرجع إلى عوامل عدة، يتصل بعضها برجال المسرح أنفسهم، وبعضها بالحكومة والبعض الآخر بظروف لم يكن في الوسع التغلب عليها إلا بتضافر القوى والجهود وهو ما لم يحدث مع الأسف.

وأعتقد مخلصا ان رجال المسرح هم الذين يحملون العبء الأكبر من المسئولية في هذا الانحطاط الذي وصلت إليه حالة المسرح اليوم. وأذ أقول رجال المسرح إنما اعني في المقدمة مديري الفرق لأنهم الرءوس المفكرة والأيدي العاملة، ثم هم الممولون الذين يتحكمون في كل شيء بحكم سيطرتهم المإليه فعليهم تقع التبعة الكبرى، ولا مناص لهم من مواجهة الحقائق والاعتراف بخطئهم.

قام نزاع شديد بين النقاد وبين مديري الفرق حول تقدير ذوق الجمهور الفني وتذوقه لبعض الأنواع من الروايات وإقباله عليها. فمديرو الفرق يقولون أن الميلودراما هو النوع المفضل عند الجمهور وان الروايات الفنية التي يطلب النقاد تمثيلها، لا يتذوقها المتفرجون ولا يقبلون على مشاهدتها الإقبال الذي يضمن لمدير الفرقة نفقاته التي تكبدها فضلا عن الربح

الذي ينتظره كغيره من أصحاب رءوس الأموال. وطال النزاع بين الفرقين وكل يصر على رأيه، على أن مديري الفرق اندفعوا يخرجون على مسارحهم الروايات الميلودرام المليئة بالمشاهد المفزعة، المثيرة للأعصاب، وحذرهم النقاد من مغبة الأمر ولكنهم مضوا في طريقهم غير آبهين لشيء.

والآن. . . ها هو الزمن يقول كلمته الحاسمة في الحكم على الفريقين أيهما كان أهدى سبيلا وأبعد نظرا، وهذا الفشل الذي مني به المسرح أخيرا دليل صادق وحجة قاطعة على إن مديري الفرق كانوا على ضلال، وان النقاد كانوا على حق في تحذيرهم. فلو أن الجمهور كان يتذوق حقا الميلودراما لكان مديرو الفرق اليوم من أثرياء العالم المعدودين، فقد ظلوا لا يخرجون إلا هذا النوع من الروايات، ولكان حال المسرح اليوم غير هذه الحال، ولكن هذا الفشل الذي أصيب به المسرح، وصيحات الاستغاثة التي يصم بها مديرو الفرق آذاننا، دليل قاطع على انهم لم يجدوا في الميلودراما كنز قارون الذي كانوا يتوهمون.

على أن جريرة مديري الفرق لم تقف عند هذا الحد فقد أبعدوا عن المسرح خير الكتاب والأدباء الذين خدموا هذا الفن الجليل منذ نشأته بأقلامهم وروايتهم فرفعوا من شأنه، ووجهوا أنظار الشعب إليه، وجعلوا له مكانة محترمة ومنزلة سامية في النفوس، وانفض هؤلاء الكتاب عن المسرح وما يزال مكانهم شاغرا إلى اليوم، وخسر المسرح بابتعادهم خسارة لا تعوض.

ومن الحق ان نذكر ان الحكومة ينالها من المسئولية فيما يصل إليه حال المسرح الشيء الكثير، فسياستها حياله كانت دائما سياسة ملؤها التردد والحيرة، وطابعها البارز الاضطراب والفوضى. فقد بدأت بأن أقامت مباراة للمثلين، ثم أوفدت أحد المبرزين فيها في بعثة فنية إلى أوربا؛ وكان المظنون أنها ستتبع هذه الخطة الحميدة في السنين التإليه، ولكنها عدلت عنها حتى اليوم وبقى الأستاذ زكي طليمات عضو البعثة الوحيد. على ان الوزارة عدلت عن طريقة المباراة السنوية وألفت لجنة تمر على دور التمثيل طوال السنة وفي نهايتها توزع مبالغ متفاوتة من المال على مديري الفرق وعلى الممثلين في حدود المبلغ المخصص لذلك.

وقامت الوزارة بإنشاء معهد لفن التمثيل، ثم ما لبثت أن الغته واستعاضت عنه بما سمته قاعة المحاضرات، ووضعت في السنة الماضية شروطا دقيقة لتوزيع إعانتها السنوية على مديري الفرق ولكنها لم تتقيد هي نفسها بالشروط التي وضعتها.

ولا ننسى قبل كل شيء أن ننوه بالمبلغ الضئيل المخصص لاعانة المسرح المصري إذ لا يتجاوز عشر المبالغ التي تصرف على دار الأوبرا وتقدم للفرق الأجنبية التي تفد للتمثيل على مسرحها في موسم الشتاء.

من هذا، ودون أن ندخلفي تفصيلات دقيقة أخرى، نرى مبلغ التردد وعدم الاكتراث في سياسة الوزارة حيال فن التمثيل حتى هذه المبالغ الضئيلة التي تقدمها للممثلين كل

سنة على سبيل (الإعانة) لم يكن لها أثر، لضآلتها أولا، ولان الوزارة لم تشرف على نفاقها ثانيا، ومن يدرينا لعلها صرفت في أغراض شخصية لا تتصل بالفن في كثير ولا قليل؟

ومن العبث على ما أرى أن نطيل الحديث مع الوزارة فأنها إلى اليوم لم تنظر إلى المسرح وإلى فن التمثيل نظرة جدية، وأغلب الظن أنها إذ تقدم هذه المبالغ الزهيدة لرجال المسرح في نهاية العام تقول: (إنما نطعمكم لوجه الله، لا نريد منكم جزاء ولا شكورا) وما دام هذا هو يقين الوزارة فكل حديث معها عبث محض وضياع للوقت فيما لا طائل تحته.

بقيت بعد ذلك بعض الظروف الطارئة التي كانت عاملا من العوامل التي ساعدت على اشتداد أزمة المسرح، منها هذه الأزمة التي اكتسحت مصر في السنوات الثلاث الأخيرة وشدت عليها الخناق، ومنها طغيان السينما الناطقة ونجاحها هذا النجاح الباهر الذي نراه ونلمسه كل يوم، ثم رخص الأجور في دور السينما عنها في المسارح مع فخامة ما نراه هناك على الشاشة الفضية، وضآلة ما نشاهده هنا.

ولعل من اشد العوامل التي كان لها اكبر أثر في المستوى الذي هبط إليه المسرح إخراج الأفلام المصرية وما لاقته من النجاح والإقبال مما ساعد أصحابها على موالاة الجهود وزيادة الإتقان في العمل ولفت أنظار الآخرين إليها، حتى رأينا بعض مديري الفرق أنفسهم ينصرفون إلى هذه الناحية الجديدة ويخصصون لها من المال والجهد أضعاف ما ينفقون في مسارحهم.

والجهد الذي يجب أن يبذل للنهوض بالمسرح لابد من أن يتناول كل هذه النواحي التي الممنا بها في مقالنا وكل هذه العوامل المختلفة إذا أردنا أن يكون لعملنا أثره ونفعه المنتظر، فمن الخير أن يعود مديرو الفرق إلى رواياتهم الأولى التي كانوا يغذوننا بها من سنوات، والتي عدلوا عنها لغير علة إلى توع الميلودرام الذي يقوم على محض الافتعال وارتجال المواقف الكاذبة ارتجالا قد يكون له أثره الوقتي، ولكن سرعان ما ينقضي دون أن يخلف في نفس المتفرج شيئا له قيمته أو خطره،

ومن الخير أن نجتذب كبار الكتاب والأدباء ليعودوا إلى خدمة المسرح والكتابة له كما كانوا يفعلون

ومن الخير أن تجد الوزارة في موقفها حيال المسرح وترصد لأعانته ألوف الجنيهات سنويا على أن تشرف عليه إشرافا فعليا وتتحرى أوجه الصرف بحيث لا تتعدى النواحي الفنية التي يكون لها أثرها في تقدم المسرح والنهوض به

على أن المسرح يتطلب دما جديداً يغذيه وينشر فيه روحا فنية خالصة، أساسها الثقافة والموهبة والدراسة الحقة، وقد كان معهد فن التمثيل هو النبع الذي سنستقي منه هذا الجديد، فإذا أصرت وزارة المعارف على غلق أبوابه فلنفكر إذن في إيفاد بعثات فنية إلى أوربا من الشبان الذين تؤهلهم لذلك ومواهبهم الشخصية وميولهم، على أنه يجب قبل هذا أن تعد سياسة إنشائية إيجابية لخدمة المسرح يقوم بتنفيذها أعضاء بعثتها عندما يرجعون، أما أن يعودوا ليأكلوا أنفسهم من اليأس وخيبة الأمل وتجاهل الوزارة لثقافتهم واستعدادهم، وعدم إفساح المجال أمامهم للعمل، فهذا يكون عبثا وسخفا وخير للوزارة أو تكتفي بعضو بعثتها الذي لم تحاول أن تستفيد من كفاءته واستعداده، ولا خير لها ولا للمسرح في أن تزيد صفوف الساخطين المتذمرين

الحركة المسرحية والسينمائية في الخارج

لندن

يعد الآن في لندن فلم سينمائي عن (مارشال هول) من أشهر رجال المحاماة والقانون في إنجلترا، وهو الذي تولى الدفاع عن قاتلة المرحوم علي فهمي كامل وفاز لها بحكم البراءة، وسيتولى خراج هذا الفلم المخرج العالمي هتشكوك

يعد الآن تحت إشراف مصلحة البريد في إنجلترا فلمان الأول ترى فيه كل الخطوات التي يمر بها خطابك من ساعة ان تكتبه حتى يصل إلى يد مرسله وسيكون هذا الفلم شاملا لكل التحسينات التي أُدخلت من عهد حمل البريد بواسطة العربات التي تجرها الجياد إلى العهد الحاضر، ويعرض مختلف الطرق التي كانت تستخدم لهذا الغرض بكل تفصيلاتها. أما الفلم الثاني فسيكون خاصا بإظهار شبكة الأسلاك التلفونية التي تربط بريطانيا ويبلغ طولها 9 , 000 , 000 ميل وترى فيه كل العمليات والخطوات التي

تتخذ أثناء المحادثات التلفونية وقد أعلن مدير مصلحة البريد في إنجلترا انه يسترشد في إعداد هذين الفلمين بآراء لجنة من رجال الفن السينمائي الأخصائيين
والآن. . . هل لنا أن نقترح على مصلحة البريد المصرية إعداد فلم يجمع بين هذين الغرضين بمناسبة انعقاد مؤتمر البريد الدولي في القاهرة وتعرض فيه الطرق التي كانت تستخدم في نقل البريد في مصر في عهودها المختلفة؟!

مستر دنيس جوزيف كلارك من اشهر رجال المسرح في إنجلترا وله صيت ذائع في أوربا كلها، وهو يدير عدة مسارح في (بركنهد) كما يتولى بنفسه إخراج بعض الروايات المسرحية ثم هو فوق ذلك عضو المجلس البلدي في بركنهد منذ أربع وعشرين سنة، وقد عرض عليه حزب العمال الإنجليزي ان يتولى منصب محافظ بركنهد بمناسبة انتهاء مدة المحافظ السابق. ومن عادة الأحزاب الإنجليزية أن يتولى أحدها كل عام مهمة اختيار المحافظ الجديد على التناوب، وكان من حق حزب العمال هذا العام اختيار المحافظ، على إن أعضاء هذا الحزب تنازلوا عن هذا الحق، الذي يسمح لهم بطبيعة الحال أن ينصبوا رجلا من أنصارهم إذا وافق مستر كلارك على إسناد المنصب إليه مع انه من حزب المحافظين. ولا شك أن تنازل حزب العمال عن حقه وتنصيب رجل في هذا المركز الكبير من غير رجال حزبه شرف عظيم لمستر كلارك وشهادة لها خطرها بما له من المكانة والاحترام، وقد كان هذا الحادث مثار اهتمام الصحف الإنجليزية، كما أثار عاطفة الفخر والكبرياء في الأوساط المسرحية في إنجلترا وعده رجال المسرح الإنجليزي من دواعي مجدهم الفني وسيقيمون حفلة كبيرة لتكريم الرجل

باريس

انتهى موريس روستان نجل أدمون روستان الشاعر الفرنسي المعروف من وضع رواية مسرحية عن (أسكار وايلد) الكاتب الإنجليزي الشهير. وليس بين شخصيات الرواية سيدات وسيقوم الممثل الفرنسي كونيه بوييه بتمثيل دور البطل

بودابست

أسم لاستعراض مسرحي حديث أخرج أخيراً في بودابست اشترك (مجموعة اللآلئ) فيه أكثر من ثلاثمائة قروي بملابسهم الوطنية الزاهية الألوان وبرقصاتهم الريفية الجميلة مما جعل الإقبال على هذا الاستعراض منقطع النظير. وبرغم ضخامة عدد الممثلين والممثلات وتكاليف الاستعراض من مناظر وملابس وغيرها، فسيجني مدير المسرح ربحا طائلا لأن هؤلاء الريفيين الهواة لا ينظرون إلى الناحية المادية ولا يأبهون لمسألة المرتبات التي يتقاضونها إلى جانب الفخر الذي نالوه بظهورهم على المسرح ولجدة الحادث بالنسبة لهم. ولعلها المرة الأولى التي تحاول فيها مثل هذه التجربة فتلقى هذا النجاح الكبير. ولا شك أن رواد المسرح سعداء بهذه الفرصةالتي أتيحت لهم مشاهدة رقصات حقيقية. يرقصها أصحابها لا ممثلين يدربون عليها، فلا يجيدونها مهما بذلوا من مقدرة كما يجيدها أصحابها أنفسهم. وأثناء الرقص يلقي هؤلاء القرويون أناشيد القرية وأغانيهم الساحرة ليكون لها أشد وقع في النفوس

القصص

قصة شاءول بن شمويل اللاوي

للأستاذ محمد فريد أبو حديد وكيل مدرسة القبة الثانوية

قد كان لي ولع بالتجوال في البراري، ففيها كان الهواء مما يلذ امتلاء الصدر منه، وفي سمائها صفاء يروق الأبصار لا تدانيه زرقة البحر إلا في أيام الخريف الوادعة، ورمال الصحراء أخاذة باللب في لآلئها واختلاف لون حصاها، فإذا ما جرت عليها قطرات من الغيث في الشتاء غسلت عنها ما يغشاها من التراب، فإذا هي تزري باليواقيت وللآلئ، وإذا أسعد الإنسان الحظ فجاس خلال تلك الرمال في عقب سيل لا تزال منه بقية تجري في جدول رأى منها المعجب والفاتن حتى ليتمثل العذراء الحإليه وقد راعها ذلك الحصى فلمست جانب عقدها النضيد. وقد جمع حب ذلك التجوال بين قلوب مختلفة الأصول متباينة الطباع، يرضعون جمعيهم معا من ثدي تلك الطبيعة الجميلة حتى لقد نما في قلوبهم إخاء هو أقوى من الإخاء المعتاد إذ قد عرف كل منهم أخاه وكشف عن مخبوئه في تلك المعاشرة الطويلة، واعتاد كل منهم أن يكون مستعدا لان يبذل كل شيء حتى حياته ذاتها في سبيل الإخلاص لصديقه. لا عجب أن تكون الصحراء مهد

جلائل الأمور!
وقد قصدت يوما مع صديق من الانجليز، وهو ممن يهيمون بالصحراء هياما، وقصدنا معا إلى برية سيناء نقطع الفيافي بمركبة القرن العشرين ونطوي أميالها مرحلة بعد مرحلة، فكانت صحبة عجيبة من كل الوجوه.
قلت له في فترة من فترات ما بين التفكير المتصل: كأني بك من أبناء الصحراء يا مستر لي. فأن حبك للصحراء وصبرك على مشتقاتها ينمان عن بدوي في اصله (فقال لي باسما (إن البدوي وجواب البحار أخوان، فإذا لم يكن في دم البدوي فان في بغير شك دما من جوابي البحار)
قال لي ذلك وهو يحدق بنظرة في ناحية من الصحراء إلى يسارنا ونحن نطوي مراحلها، ثم قال لي:
انظر إلى هذا الموضع. كأني به فناء بيت من بيوت الجان، إنني اشعر بانجذاب عجيب نحوه. ألا ترى أن نقف هنا قليلا؟ أن التمتع بالصحراء لا يكون إلا إذا سرنا فيها كما كان يسير البدو على الإبل أو الحمير أو ما سوى ذلك من وسائل السير الوئيد. أما هذه السيارات السريعة فليست هنا إلا دخيلة غريبة. إنها تدخل السرعة والعجلة والقلق إلى ارض خلقها الله لتكون وادعة متئدة مطمئنة
قال هذا وعرج إلى الموضع الذي أشار إليه وأوقف دولاب السيارة والقينا عصا السير وجلسنا إلى جانب صخرة قائمة كأنها المائدة، واعددنا عدة الطعام إذ كان وقته قد أظلنا، وكان سمرنا على ذلك الطعام حديثا أوحاه إلينا الموضع. وأي حديث لمن يسير في برية سينا أقرب من حديث قوم موسى؟ لقد كان المكان يوحى به وحيا فاستغرق خيالنا حتى كأننا كنا نعيش في ذلك الوقت ونحس بما كان ينبض به قلب أهله
كان ذلك الموضع متسعا من الأرض تحيط به تلال من كل نواحيه إلا من جهة الغرب المائل إلى الشمال، وكان متدرجا في العلو من خارجه إلى داخله، ولا يكاد تمر عليه ساعة من النهار وليس في ناحية منه ظل ممتد. وكانت الرياح كلها محجوبة عنه إلا الرخاء التي تتهادى إليه من الشمال الغربي. فجلسنا به جلسة هنيئة زادت حديثنا اطمئنانا واستغراقا.
وخاطبت صاحبي في شيء من الدعابة قائلا (كم شهدت هذه البقعة من مناظر جليلة! أترى قد شهد موضعنا هذا بعض مواقف بني إسرائيل يحرجون صدر موسى بذكريات عدس مصر وفولها؟ فأجاب صاحبي (لقد كنت أفكر في هذه اللحظة في أن مكاننا هذا لابد قد وطئته أقدام من خرجوا من مصر مع موسى) وكنا قد فرغنا عند ذلك من أكلنا فقمنا نمشي رويدا ونتحدث. وحدث أن ضربت بقدمي حجرا من الأحجار على عادة كانت بي منذ صغري كنت اعتدتها في عبث الصبا، وما كان اشد عجبي إذ رأيت أن ذلك لم يكن حجرا بل كان قطعة من عظام جمجمة آدمية.
إذن لقد شهد ذلك الموضع حادثة إنسانية! وإذن فان لذلك الموضع قصته! فوقفت حيث كنت وملت إلى الموضع لأفحص موضع تلك العظمة فإذا بي أبصر عظمة أخرى قد طمرها الرمل. فتناولت حجرا وجعلت أحفر ما حولها لاستخرجها فرأيتها تتصل بهيكل إنساني. فاعتراني انقباض شديد، واسترجعت ثم ألقيت الرمال التي كنت استخرجتها لكي أعيد لتلك العظام مدفنها، وفيما أنا في ذلك إذ بدا لي سطح من الخشب الصقيل. فتركت ما كنت فيه وأقبلت على ذلك الخشب أفحص أمره، وإذا به غطاء صندوق صغير طوله نحو نصف
متر في عرض اقل من ذلك بقليل وعمق أقل من عرضه، وكان صديقي عند ذلك قد بدأ يقبل على مساعدتي إذ رآني قد عثرت على شيء يستحق الاهتمام، فاستخرجنا الصندوق من مكانه ونفضنا عنه الرمال، ونزعنا عنه غطاءه فإذا فيه مجموعة من الجلود الرقيقة وقد دب إليها شيء من الفساد من اثر البلى. وكانت على تلك الجلود كتابة يميل لونها إلى السواد، وكانت بقلم غريب
انتهى بنا السير بعد ذلك إلى غايتنا، ثم عدنا وكان ذلك الصندوق قطب حديثنا في رجعتنا إلى القاهرة. ففرضنا فيه الفروض المختلفة وتناقشنا في قيمة ما فيه حتى بلغنا نهاية رحلتنا، فكان أول هم لنا أن نطرق باب صديق من علماء الآثار ليساعدنا على كشف ما وراء ذلك الطلسم.
نظر صديقنا العالم إلى صحيفة منها نظره الفاحص ثم قال: (إن هذا خط كاتب

مصري. وهذا المداد مما كان يستعمله الكتاب في عصر الإمبراطورية الثانية في المحابر النحاسية التي كانوا يضعونها في مناطقهم. وهذا هو الحرف (الديموطيقي) الذي كانوا يكتبون به في الدواوين عند ذلك

قال هذا ونظر إلى أول سطر من الصفحة طويلا ثم علت وجهه ابتسامة الظفر وقال: (لم يكن كاتب هذه السطور مصريا بل هو (شاءول اللاوي) أحد بني إسرائيل الذين خرجوا مع موسى من مصرفي أيام (منفتاح) فرعون مصر، وقد كتبها بلغة قومه العبرانيين كاتب بارع

ولأخذ يترجم لنا الصحائف واحدة بعد واحدة فإذا هي آية العجب وفريدة الصدف وها هي:

أنا شاءول بن شمويل بن شمعون اللاوي من عشيرة اللاويين قادة إسرائيل) وساداتهم. كنت بمصر مع قومي وكنا في أرض جاشان مهد أبي وجدي، والأرض التي دفنت فيها عظامهما. كنت في أول الأمر صاحب خاتم الأمير (راحا ترع) ثم حدثت الحوادث المشئومة المعروفة فطردت كما طرد كل قومي من خدمة المصريين، ووضعت على رقابنا العبودية. وكنت أنا ممن حشروا لعمل اللبن من الطين لبناء مدينة (بيثوم) تسوقنا سياط المقدمين ورؤساء العمل ذوي الأيدي الصلبة والقلوب التي مثل خشب السنط.

وكانت مشقة العمل تزيد من يوم إلى يوم، وكلما مر شتاء علينا جاء شتاء آخر أشد منه برداً، فامتلأت نفوس الشعب الإسرائيلي من الغيظ والحقد. وبدءوا يسأمون حياتهم،

ويتخلصون منها بضرب المقدمين ورؤساء العمل المصريين. وكان الذي يضرب منهم أحد هؤلاء يموت تحت السياط، وهذه ميتة أهون من الحياة الشاقة التي كان أبناء إسرائيل يحيونها.

وقد جاء رجل من أولاد عمي بني لاوي اسمه (موسى) كان هاربا من مصر من زمن. وقد عرفته كما عرفه كثيرون من أبناء أعمامي. وكان رجلا رحيما يبكي كلما رأى أحد بني إسرائيل يضرب ويصيح وتجري الدماء من جسمه، فكان في أول الأمر يزورنا في الليل ليواسينا، ولا يظهر في النهار مخافة أن يراه أحد فيعرفه، فاحبه الشعب المسكين وصار كل فرد منه يرضى أن يقتل في سبيل حمايته. وأقام سنين وهو على تلك الحال، وجعل يفهم الشعب أن وراء البرية أرضاً فسيحة يقدر أن يعيش فيها حراً ويجد فيها ماء وطعاماً. ولكن الشعب كان يخاف من البرية ولا يرضى أن يخرج من أرض مصر التي فيها عظام آبائه.

ولكن فرعون مصر عرف من جواسيسه أن هناك رجلا عبرانيا يحرض العبرانيين على العصيان والخروج. وقال له خدمه وعبيده إنه السبب في تجمع الإسرائيليين وتجمهرهم ومطالبتهم بعبادة إلههم على طريقتهم الخاصة. وقالوا له ان العبرانيين يتظاهرون بأنهم يريدون أن يسمح لهم بالخروج إلى البرية لتقديم الضحايا لألههم بعيداً عن أرض مصر، والحقيقة أنهم يريدون الذهاب إلى أرض الفلسطينيين والحيثيين لمساعدتهم على غزو مصر

فقال لهم فرعون: (وماذا ترون؟) فقال له عبيده (نرى أن تشغلهم وتضيق عليهم الخناق، فمر بمنع التبن عنهم حتى يضطروا لجمع الأعشاب الجافة ليصنعوا بها اللبن وطالبهم بأن يقدموا كل يوم ما اعتادوا ان يقدموه من قبل من اللبن اللازم للبناء) فأمر فرعون بذلك ومنع خدمه من صرف التبن للشعب المسكين، وطالبهم بأن يقدموا له كل يوم نفس المقدار الذي كانوا يصنعونه من قبل من اللبن، مع قيامهم بجمع الأعشاب الجافة لاستعمالها بدل التبن الذي منع عنهم. فكان هذا الأمر غير ممكن.

فعصا الشعب وامتنع وتجمهر وصاح بفرعون وخدم فرعون. وكان ابن عمي موسى يحرضا على العصيان ويأمرنا بالخروج معه إلى البرية، ولكنا كنا نخاف من ذلك فالموت مخيف. وإن كانت العبودية صعبة.

وكثر التعذيب والضرب والقتل فينا حتى أننا ضجرنا وفزعنا، وسمعنا كلمة موسى وقمنا لنخرج إلى البرية جميعا نساؤنا وأطفالنا على الحمير، وقد لبس النساء الحلي التي استعرنها من جاراتهن المصريات. وفي الليلة الموعودة خرجنا نغطي وجه الأرض نحو البرية.

وكان الخوف يملأ قلوبنا من جنود فرعون أن تلحق بنا، فعبرنا إلى الصحراء من أقرب طريق، وخضنا في البحر بإذن الله وبركة ذلك الرجل المبارك (موسى). وتنفسنا الصعداء عند العيون التي حولها النخيل، عندما رأينا جيش فرعون قد عجز عن اللحاق بنا وعاد أدراجه بعد أن غرق منه عدد كبير. ويقال ان فرعون نفسه كان من الذين غرقوا في المياه. غير أن الحرية لا تعطي طعاما ولا ماء. فلما أكلنا الزاد الذي كان معنا بدأنا نفكر في موقفنا، وخرجنا إلى (موسى) نطلب منه أن يعطينا خبزا ولحماً. أعطانا موسى كل ما معه، وقال لنا اقتصدوا ولا تأكلوا كثيرا ولكنا لم نقدر أن نمنع الأطفال والنساء من الأكل والشرب، ولم نقدر أن نمنع بكاءهم عندما نفذ ما كان معنا من الزاد، فقمنا بعد أسبوع من الجوع والعطش وطلبنا من (موسى) أن يطعمنا. وصرخنا له (أعدنا إلى مصر. أعدنا إلى العبودية. الإنسان قد يحيا مع العبودية. ولكنه يموت حتما بلا طعام. نريد الحياة ولو مع العبودية. لا نريد الموت في هذه الحرية وسط الصحراء).

لقد غضب موسى وظهر عليه الغيظ، وكلمنا كثيرا ولكن لم يكن لقوله ذلك الأثر الذي اعتدنا أن نجده في نفوسنا عندما كنا نسمع ألفاظه. وزاد صراخنا وعزم بعضنا على الرجوع.

وفي الصباح التالي ذهبنا إلى موسى لنخبره بأننا سنعود إلى مصر لنأكل من طعامها، فوجدناه يصلي ثم أقبل علينا ووجهه يتهلل وقال (اذهبوا إلى ذلك الوادي) وأشار بيده إلى جهة الشروق. (وهناك تجدون كثيرا من الحب على الأرض. فاطحنوه وكلوا منه فانه مثل الحنطة إذا عجنت بالزيت) ثم أشار إلى السماء وقال (انظروا إلى هذه الطيور الكثيرة الآتية من البحر. أنها تقع على الأرض عند أول وصولها إلى البحر فاذبحوا منها وكلوا فان هذا رزق حلال قد أرسله الله إليكم)

سرنا بعد ذلك في البرية نأكل من هذا الطعام ولكنا كنا كل يوم أشقى مما كنا في اليوم الذي قبله. فأين طعام مصر؟ وأين زيتها الكثير وأعشابها الخضراء المسمنة؟ وأين ماؤها العذب.

وخيراتها العميمة؟ حقا لقد كنا فيها معذبين، وكنا عبيداً نسام الخسف والذلة، ولكن الجوع والموت كانا أفظع في نظرنا من الذل. أقمنا أكثر من سنة في البرية ننتقل من مكان إلى مكان ومن واد إلى واد حتى ذهبنا إلى (رفيديم) في جوار الجبال العاليه التي تغطيها ثلوج الشتاء وقد بلغ بنا الحنين عند ذلك إلى مصر مبلغا عظيما وأشتد غضبنا على ذلك الزعيم الذي أخرجنا منها.

فهل الحرية تستحق أن نسعى إلى الفقر من أجلها؟ وهل الذل والعبودية يستحقان أن يهرب منهما إلى الموت؟ لقد كرهنا كل شيء في تلك البرية حتى اسم الحرية، وذكرنا مصر بالحنين بما كان فيها من طعام وشراب، حتى لقد بلغ بنا الحنين إليها ان نحن إلى ما كان فيها من ذل وخسف، ثم حننا إلى النيران التي كنا نوقدها ليلا ونرقص حولها فرحا في أعياد (رع) و (هاتور) لا بل لقد مالت قلوبنا إلى تلك الآلهة المرحة، ووددنا لو أقيمت لنا تماثيلها الذهبية لنعبدها بدل الآله الذي لا نراه ولا تقام له الأعياد المرحة على شراب البلح والحنطة.

فما كاد (موسى) يصعد على عادته إلى الجبل العالي الذي تغطي قمته الثلوج حتى اجتمعنا وصرخنا إلى (هرون) وتجمهرنا واجتمعنا حوله، فلم يستطيع أن يمنعنا من أن نصور تمثالا (لأبيس) من الذهب الخالص، وأقمنا حوله الأعياد والأفراح ونادينا بالعودة إلى مصر. غير أن (موسى) عاد بعد قليل فرآنا على تلك الحال فغضب وحطم التمثال، وأوقع بالرؤساء، ولم يقدر أحد منا أن يقاوم أو يراجع.

وجعل يعنفنا على ما ارتكبناه من الذنب العظيم، وكنا لا نستطيع أن نرفع أعيننا نحوه. وكأنه أراد أن يعاقبنا على ذلك عقاباً شديداً فما مضت أيام حتى أمرنا بالتأهب لغزو بلاد (مواب). بلاد مواب؟ أنستطيع أن نحارب جنود (مواب)؟ وهل خرجنا من مصر لكي نحارب؟ أي معنى لهذه الحرية وأي معنى لهذا الخلاص؟ إننا لم نفهمه ولم نفكر في شيء سوى ما كنا فيه من الحرمان. أنحارب، لا، لا إننا لن نستطيع الحرب مع أحد فلنعد إلى مصر

غضب (موسى) غضباً شديداً وصاح بنا (أيها العبيد، انكم قد نشأتم في الذل وعشتم

في الخسف، ان دمكم قد تلوث بالعبودية فليس يحمى وليس يغضب. إنكم لا تعنون إلا بالطعام،
كلوا واشربوا وعيشوا في الذل والخسف؛ فما أنتم إلا مثل الأنعام لا تعبئون إلا بما يملأ بطونكم. لقد حكم على جيلكم أن تظلوا عبيدا لا تهتمون إلا ببطونكم حتى تنقرضوا ويفنى كل جيلكم، فإذا نشأ جيل آخر لم تسممه العبودية استطاع أن يفهم الحرية والكرامة ستبقون في البرية أربعين عاما حتى يموت آخركم فيها، ثم ينهض الجيل الجديد الذي يقدر له أن يفهم حياة الأحرار ويغزو معي بلاد مواب) سمعنا ذلك القول ولم نستطع جوابا، ولكن قلوبنا كانت تغلي من الغيظ، ولم يكن موسى سوى أبن عم لي أنا شأول بن شمويل اللاوي. فذهبتّ تلك الليلة إلى مضجعي ولم أستطيع أن أجد النوم، وسألتني امرأتي أن أخبرها بما يقض مضجعي فأخبرتها. فقالت لي لماذا لا نعود إلى مصر؟) ولم أكن أنتظر أكثر من ذلك، فعولت على الخروج ليلا والعودة إلى مصر في الطريق الذي أتينا منه. وفي الليلة التإليه كنت في طريقي إلى بلاد فرعون. قضيت في سيري هذا ثلاثة شهور من هلال أول السنة إلى هلال الشهر الثالث، وكانت هذه الشهور الثلاثة عقابا عادلا على كل ما وقعت فيه من البطر والاعتداء لقد هربت خوفا من الجوع وعدت بنفسي لكي أعرض ظهري إلى سياط عبيد فرعون وأضع يدي في قيود الذل والظلم لكي أشبع جوعي، وأطعم امرأتي وأبنائي، ولكني لم أجد ما ابتغيت. فقد قبض علي (منحوتب) قائد رميد وأرسل أبنائي وامرأتي ليكونوا عبيدا لفرعون، ووضعوني في السجن لانتظر الموت، وهنا في هذه الحجرة أبقاني في انتظار حكم فرعون.
وإني في هذه الحجرة المظلمة أجلس الآن في انتظار الهلاك، ويمر بخاطري كل ما حدث في حياتي من الحوادث، يمر كل ما كان في أيامي الماضية كما تمر حوادث الماضي أمام عين الغريق إذا اشرف على الموت وقد رأيت أن أكتب قصة تلك الحياة لكي أخلف صرخة لمن يجئ بعدي. لقد كنا نهرب في كل أيامنا من الموت، وهاهو يجئ أخيراً ويلحق بنا مع طول هربنا منه. ونرضى بالذل في سبيل الحياة، ونرضى بالعبودية والخسف في سبيل الحصول على القوت، مع أن الحياة لا تستحق أن يحياها الإنسان إذا كانت حياة ذل وعبودية. ها قد تنبهت أخيرا إلى أن (موسى) كان عظيما حين دعانا إلى البرية وفضل الجوع والموت على حياة الشبع والذل. ولكن كنا قد مشى دم العبيد أجيالا في دمائنا، فلم يحم ذلك الدم في عروقنا غضبا للكرامة والحرية، ولم نفهم صرخة زعيمنا على وجهها، بل
اندفعنا وراءه هربا من ألم السياط؛ فلما رفع عنا ألم السوط عدنا إلى بذل أنفسنا الذليلة. لقد أحرجنا صدره كثيرا بنفوسنا الوضيعة، وهربت أنا منه خوفا من الموت والجوع وفضلت أن أعود إلى ذلي في مصر لكي اشبع بطني، فوجدت الذل والأسر، ولكني لم أجد الطعام الذي يملأ البطن. وهاأنذا انتظر الموت الذي استحقه. حقا لقد فهمت الآن قول موسى إذ قال لنا عند سفح جبل سيناء إننا من جيل مسمم، وانه سيصبر حتى يهلك ذلك الجيل كله في البرية، حتى ينهض جيل جديد يفهم معنى الحرية (الكرامة. إنني الآن اسمع ضجةعند باب سجني وهاهو مفتاح الباب يصر في ثقبه
إلى هنا انتهت القصة التي عثرنا عليها في الصحراء وحقا قد كان ذلك المكان الذي عرجنا إليه جديرا بأن يكون طلل بناء قديم حصين، لم يبق منه اليوم إلا تلال الرمال، ولا تزال تحتفظ بالروح الرهيبة التي خلفتها حوادث الماضي في ثنايا الأطلال.
صديقها عشيقها
رواية مصرية عصرية في فصل واحد
للكاتب الروائي الأستاذ محمد خورشيد
(تتمة)
حكمت - (في عطف) لا تمكث مرة أخرى يوما كاملا بعيدً عني ولا تحرمني رؤيتك المحبوبة. اني أحبك يا فريد من أعماق قلبي. أحبك بكل ما أملك من قوة وعاطفة.
فايد - قلبي يؤمن بحبك ويترك لقلبك تقدير حرارة، حبه ومن القلب إلى القلب رسول
حكمت - (تقترب منه وتحوطه بذراعيها في حنان وتقول) ألم تكن لنا ساعات، هنيئة ذكراها السعيدة لا يمكن أن تزول؟
فايد - نعم. نعم

حكمت - تعال اجلس بجانبي ولا تتكلم، لأن صمت المحبين هو نغمة الحب. فلنستمع ترنيم قلوبنا في سكون.
(يجلسان متقاربين برهة ثم يتعانقان، وبينما هما يتبدلان القبلات إذا بالباب يفتح ويدخل مختار فيراهما على هذه الحال فيقف مصعوقا. فيفترقان ويقفان، تتقدم حكمت إلى مختار وتقول.)
المنظر التاسع
حكمت، فايد، مختار
حكمت - لا تلمني يا أعز الأصدقاء. كن كريما وسامحني. لم أتمكن من الدفاع عن صداقتنا القديمة لأني فوجئت بهجوم حب جديد أخذ بمجامع قلبي. غلب سلطانه عزيمتي. قهرت قوته إرادتي. فأصبحت لا حول لي ولا قوة، وخضعت لأمره ومن يتحكم الحب فيه يصبح غير مسئول. . . فعفوا فعفواً. أعذرني يا صديقي وكن رحيما.
مختار - أني مذهول. حكمت هانم أنبل وأشرف فتاة تأتي إلى عشيقها كأي النساء؟! أراها بعيني بين ذراعيه؟ تصرح أمامي بشدة حبها له، تعترف لي بأنها ضحتني أنا صديقها الوفي لأجله هو؟ كنت أعلم أن أغلب النساء يفعلن ذلك، ولكن أنت! أنت! ما كان يخطر ببالي. أفكرت فيما سيذيعه الناس عنك؟ (إلى فايد) وأنت وادعاؤك السفر. لم كل هذا
الخداع؟. أهذا جزائي أنا الذي احبك وأعزك كولدي؟ ألا يؤنبك ضميرك على تلويث سمعتها.؟
فايد - (يقترب منه ويقول) تأن ولا تلم. إني عند حسن ظنك بي لقد أحببت حكمت واحبتني، وعقدنا النية على الزواج فلا خوف على سمعتها.
حكمت - لكن يا فايد. . .
فايد - (يقاطعها قائلا) تمهلي، سأقول ما يجب، وما أقوله سيكون. أريد ألا يكون بحبنا ما ينتقد (يقول ذلك وهو ينظر إليها نظرة كلها رجاء) لم ادع السفر يا مختار بك. أني سأسافر فعلا ولكن لست مسافرا وحدي. سنسافر معا. وما أخفيت عنك أمر سفرها الأبناء على طلبها خشية ان تحزن لفراقها. وقد اتفقنا على أن نبادر بالكتابة إليك بمجرد وصولنا إلى أستانبول لنخبرك بكل ما حدث. وبما ان القدر شاء غير ما شئنا وحضرت والتقينا، فهاأنذا قد أخبرتك بالحقيقة كلها.
مختار - (لحكمت) أحقا ما يقول؟
حكمت - (تنظر إلى فايد وتقرأ في عينيه الرجاء الحار فيقول) نعم
مختار - إذا ستسافرين معه وتتركيني. ألا تفكرين؟ ألا تفكرين قليلا فيما ستكون عليه حياتي أثناء غيابك؟
فايد - لم يبق أمامنا سوى ساعة واحدة. سأذهب إلى منزلك لأحض خادمَك على الإسراع في الحقائبِ لا تطيلا الحديث. فالوقت قد أزف. (ويخرج)
المنظر العاشر
حكمت، مختار
مختار - إذا ستسافرين معه وتتركيني عرضة للهلاك! إلا تعلمين ان حياتي رهينة تلك اللحظات التي كنا نقضيها معا يوميا في هناء الصداقة والوفاء تلك اللحظات افقدها وكانت كل ما احب في الحياة، ستتركني فريسة للوحدة القاتلة، للحزن المؤلم المضني
حكمت - هدئ روعك يا صديقي. لا تدع الوهم يتغلب عليك. تنبه للحقيقة. ليس بها من الخطر ما تراه، ولن يكون لها من العواقب ما تخشاه. سأعود إليك بعد غياب قصير، وستعود لنا أيام الصفاء.
مختار - أيام الصفاء. تعود لك وله لا لي أنا. صفاء أيامي كان في صداقتك التي فقدتها إلى الابد، لأنك أعطيته كل ما بنفسك ولم تبق منه على شيء، والبرهان استخفافك بمصابي وعدم رثائك لحالي.
حكمت - لا تحور الحقيقة ولا تبالغ. لم يغضبك حبي له؟. أيمنع ذلك أن يكون لي أصدقاء؟ كل خطأي ينحصر في أنني لم أشترك في أمر الزواج. وما منعني إلا عطفي عليك وخوفي على أعصابك من تأثير المفاجأة. والآن وقد وقعت برغم تدبيري فتأثيرها هو الذي أذهلك

مختار - أنا الذي أذهلته المفاجأة أم أنت التي أذهلك الحب حتى أصبحت لا تعين ما تقولين؟ أينحصر خطأك حقا في أنك لم تستشيريني في أمر الزواج؟ أين ذهبت تصريحاتك بأنك لن تحبي ولن تتزوجي أبداً وأنك ستظلين وفية لذكرى حبك الأول؟ وماذا فعلت بتأكيدك لي أن صداقتنا قد أخذت بمجامع قلبك فأصبح لا يرضى عنه بديلا؟
حكمت - نعم لقد أخطأت ولكن. . . النهاية سامحني يا صديقي. . . المسامح كريم
مختار - أنا لا أسامحك أبداً
حكمت - أتوسل إليك
مختار - أبداً أبداً
حكمت - حسن! أفضل أن أتركك غاضبا على أن أتركك متألما (وتسرع بالخروج)
مختار - (يبقى في ذهول لحظة وهو لا يكاد يصدق أنها خرجت ثم يصرخ): حكمت.
حكمت هانم حكمت هانم (ويندفع نحو الباب ويفتحه ويلقي نظرة سريعة ثم يعدو إلى المسرح قائلا) ذهبت لقد ذهبت.
(ثم يتمالك نفسه ويقول في هدوء أولا ثم في انفعال):
حقا أن من تصل به السذاجة إلى حد أن يؤمن بصداقة امرأة ليستحق درساً قاسياً كهذا ان المرأة لا تتخذ لنفسها صديقا إلا إذا خلا قلبها من الحب، ولا تزيد صداقتها عن سد الفراغ بين حب انتهى وحب منتظر. صديقها عشيقها. هذه هي الحقيقة.
ينزل الستار
الكتب
هدية الكروان
مجموعة أشعار للأستاذ عباس محمود العقاد
كلمة تقدير ونقد للأديب عبد الرحمن صدقي
بات العقاد يصغي لهتفات الكروان في الليالي الحسان السواحر، ويتطلع إلى مجال الربيع من زهر وعطر، ويتملى بجمال الحياة من حب وحسن، ويخف لشباب النفس من عطف وبشر. ومن هذه جميعا اقتبس مجموعة أشعاره الجديدة (هدية الكروان). وهي وان لم تكن جميعا منظومة في مناجاة الكروان، إلا أنها في موسيقيتها كأنما تعارض الكروان وتساجله.
هذه خلاصة قولي في الديوان الأخير. وهذه الخلاصة نفسها مقتبسة من مقدمة الديوان نفسه نظما ونثرا! ولا عجب فالعقاد جبار لا يكاد يدع بعد مقاله مجالاً لقول قائل
ولقد عرض الشاعر في مقدمته المنثورة لطائره الصيدح في كلمات مشرقة ناصعة البيان، رخيمة الحواشي مصقولة الأطراف كحب الجمان، غنية بالمعاني الصادقة. قال: (تسمعه الفينة بعد الفينة في جنح الليل الساكن النائم البعيد القرار، فيشبه لك الزاهد المتهجد الذي يرفع صوته بالتسبيح والابتهال فترة بعد فترة، ويشبه لك الحارس الساهر العساس الذي يتعهد الليل بالرعاية بين لحظة ولحظة. وينطلق بالغناء في مفاجأة منتظرة أو انتظار مفاجئ فلا تدري أهي صيحة جذل أم هي صيحة روعة وإجفال. ولكنك تشعر بالجذل والروعة والإجفال تتقارب وتتمازج في نفسك حتى لا تتفرق. كأنك تصغي إلى طفل يرتاع وهو جذلان، ويجذل وهو مرتاع، ويطلب الخطر ويشتهيه لأن الخطر في حسه طرافة وحركة، فهو من عالم التفاؤل والإقبال لا من عالم التشاؤم والنكوص
ويطلع عليك بهتافه من هنا وهناك وعن اليمين وعن الشمال وعلى الأرض وفوق الذرى. فيخيل إليك أنك تستمع إلى روح هائم لا يقيده المكان ولا يعرف المسافة، أطلقوه في الدنيا على حين غرة فسحرته فتنة الدنيا وخلبته محاسن الليل فهو لا يعرف القرار ولا يصبر في مطار)
فأنت تتلقى من صوت هذا الطائر الأليف النافر عالما من معان وأشجان يتجاوب فيها تقديس المصلي القانت وحدب الحارس الأمين وروح الطفولة ومناجاة الخطر المقبول وهيام الروح المنهوم بالحياة والجمال: عالم لا نظير له فيما نسمع من غناء الطير بهذه الديار)
هذا الوصف الرائع من العقاد لا يفوقه موسيقية وجيشانا، ولا يدق عنه معنى واحساسا، ولا يزيد عليه تصرفا وافتنانا إلا نظم العقاد.

وأشعار (هدية الكروان) كسابقها في وحي الأربعين، تنزع إلى الموسيقى في تقطيع أوزانها وعذوبة نظم ألفاظها ولطف وجدانياتها. تخلق حولك جوا من الموسيقى الرفيعة الساحرة تشيع روحها وتشيع حتى تملأ عليك الفضاء وتملك منك المشاعر، وحتى لتحس ان الموسيقى ليست لشعره أداة تعبير فحسب، بل هي عنصره الصميم وأظهر ما تظهر هذه الميزة في أنشودة (ما احب الكروان) فقد افترق الشاعر وصاحب له فتراه يواعده النجوى واللقاء على البعد عند سماعها هتفات الكروان:

ما أحب الكروان!
هل سمعت الكروان؟
موعدي يا صاحبي يوم افترقنا ... حيث كانت جيرة أو حيث كنا
هاتف يهتف بالأسماع وهنا ... هو ذاك الكروان! هو هذا الكروان!
الكراوين كثير أو قليل ... عندنا او عندكم بين النخيل
ثم صوت عابر كل سبيل ... هو صوت الكروان! في سبيل الكروان
لي صدى منه فلا تنسى صداك ... هو شاديك بلا ريب هناك
فإذا ما عسس الليل دعاك ... ذاك داعي الكروان، هل أجبت الكروان؟
مفرد لكنه يؤنسنا ... ساهر لكنه ينعسنا
واحد أو مائة ترجعه ... عندنا أو عندكم مطلعة
ذاك شيء واحد نسمعه ... في أوان وبيان، هو صوت الكروان
واحد بين عصور وعصور ... نحن نستحي به تلك الدهور
لم يفتنا غابر الدنيا الغرور ... في أوان الكروان، ما احب الكروان

وقد ألم الشاعر ببضع لمسات من ريشته المنغومة في خفة وإيجاز بليغ بحركة الكروان وطفراته في مطاره، وسرعة انتقاله هنا وهناك في الفضاء الداجي، فلا تكاد تسمعه من بعيد إلا ويصبح أقرب قريب، ولا تكاد تقول مع الشاعر: هو (ذاك) الكروان حتى تردف كما أردف: هو (هذا الكروان وحتى تجمل معه هذين معاً فتقول: هو صوت عابر كل سبيل

ولما كانت هذه الأنشودة من مستوحيات الإلهام في لحظاته النادرة، فقد اجتمع فيها ما توسع الشاعر في تنويعه وترجيعه في غيرها من القصائد الجزلة والأناشيد المطربة. وتطيب لنا الإشارة إلى مواضع هذا الترجيع تنويها بطبيعة الشاعر المطبوع الذي يعيش في معانيه! وتعيش معانيه في منبت مريع التربة خصيب فهي لا تني فيه أبداً متفتحة نامية، وأنفاسها أبداً خفاقة مرددة، وحرارتها أبداً مذكوة متجددة.

فلا غرو إذن إذا رأيت هذه الإشارة إلى طفرات الكروان يرددها الشاعر بين آن وآن، موضحا موكداً:

بينا أقول هنا، إذا بك من هنا ... في جنح هذا الليل أبعد باعد
لوددت يا كروان لو ألقيت لي ... صوتين منك على مكان واحد

وكما المع الشاعر في أنشودته إلى أنك لا تدري عند سماعك هتافات الكروان المتقطعة المنتقلة المتشابهة، أهو واحد أو مائة، فقد ترنم بهذا المعنى في مقطوعة صغيرة هزجة النبرات متجاوبة الأصداء

ألف صدى لهاتف ... منفرد على الذرى؟
أم ألف شاد رددت ... هتافها مكررا؟
أم ذاك روح أطلقو ... هـ في الدنى محيرا
فردوها مستغربا ... وطافها مستبشرا
فلا يقال مقبل ... حتى يقال أدبرا؟
هن كراوين الليا - لي أو فقل هو الكرا

وفي عزلة هذه الليالي الساجية يساهر شاعرنا هذا الطائر الساهر، ويأنس به ويصغي لدعواته، وقد يهفو أحيانا على جناح الفكر، فيذكر الطيور المغردة في الفجر فيجري على لسانه:

لهجت طيور بالضحى وتكفلت ... بالليل حنجرة المغني الخالد

ثم تأخذ الشاعر النشوة وأي نشوة، ويهز أعطافه الطرب وأي طرب، فيغني طائره المغني أمتع الغناء وأعذبه:

الليل يا كروان=بشراك طاب الأوان
بشراك؟ بل أنت بشرى ... تهفو لها الإذان
ان كان في السمع طيف ... فأنت يا كروان
صوت ولا جثمان ... لحن ولا عيدان
كأنه هاتف في ... فضائه حيران
أو رجع صوت قديم ... يعيده الحسبان
ليل الطبيعة صمت ... وأنت فيه لسان
وظلمة الليل سر ... فاقرأه يا ترجمان
واملأ من الليل نفسا ... عزيزة لا تهان
لا هتفة فيه تبقى ... إلى غد أو إذان
الليل يا كروان ... والعالم الغفلان
ونسمة الصيف تسري ... وفي يديك العنان
والصبح أول مرسى ... يرتاده الركبان
الليل يا كروان! ... الصبح يا كروان!

وهنا يحسن بي الصمت هنية تاركا في سمعي ومسامع القراء، وفي نفوسنا المتضعضعة السكرى جميعا، هذه الأصداء المشجية والمعاني السرية المجلوة ننتقل بعدئذ إلى بقية الديوان، لا للكلام عنه - فأن الشعر الغنائي حظه الأجدر به الإنشاد والتطريب، لا المبالغة في الدرس والتنقيب - وإنما لنومئ إيماءة المعجب المسحور بطرف البنان، إلى بعض المقطوعات الغرر الحسان، أمثال: - جمال يتجدد - بما فيه من فلسفة للحب عميقة الأثر غنية. .، - واليوم الموعود - للمحب المشوق إليه شوق لاعج يتعجله الأيام، ولو اختلت سيرة الشموس، وانفرط نظام الدهر. . . .، و - الثوب الأزرق - وهو آية في الطلاوة وظرف الهندام وملاحة القالب،. . . و - الحب المثال - وقد خلعت المحبة بقدرتها الخالقة على كيان المحبوب شتى السمات والشكول، كلما اقترح الخيال المتفنن،

وهفت بدوات الهوى المتقلب، وخيلت مقادير الأحلام. .، و - قبلة من غير تقبيل - ما للمجتمع عليها من رقابة، ولا له إليها من سبيل. . .، وذلكم الإحصاء المنمق البديع بعنوان - تسلم - وبمقتضاه يسلم الشاعر المهجور محاسن الدنيا ومجالي فتنتها لهاجره، ويسردها بين يديه، في يوم عودته كما خلفها يوم قطيعته، فالشاعر لم يفد منها متعة ولا معنى، ولم يعرف لها استعمالا، كأنما كانت الدنيا هامدة واقفة الحركة أثناء هذه الغيبة المريرة. .، ثم - حلم اليقظة - و - كلماتي - و - بلدي - و - سريان روح - و - صنوف الحب - وهذه جميعا كما ترى أغاني حب ترى فيها الشاعر عاكفاً على الجمال كأنه العابد المتبتل، يمسح بيده الملتهبة على تمثاله، ويتدله في لثمه وتقديسه، ومع هذا الاستغراق من الشاعر في حسه، وتهالكه على حبه، فليس في غزله أثر للترقق المخنث، والاسترخاء المهين والتباكي الهازل، كما أن هذه العبادة الوثنية في الشاعر للأشكال المحسوسة والصور المفرغة، مقرونة على الدوام بالتصعيد المعنوي والتجريد الروحي، فلا محسوس عنده إلا يشف عن معنى ويقوم رمزا على فكرة، ولا معنى عنده إلا يبرز في محسوس ويتجسد فيه

وهاكم ما يقوله صاحبنا نفسه في ما يسميه - الفن الحي أو الحياة الفنية -:

خذ من الجسم كل معنى، وجسم ... من معاني النفوس ما كان بكرا
حبذا العيش يبدع الفكر جسما ... ويرى للحياة فناً وشعرا
ويرى الفن كالحياة حياة، ... ويرى للحياة فناً وشعرا
ضل من يفصل الحياتين جهلا، ... واهتدى من حوى الحياتين طرا

ونحب، ونحن بمعرض الإشارة إلى أغاني الغزل، أن نعرض تحت أنظار شاعرنا الكبير أن بعض المقطوعات كالمنديل والفنجان والرقية وساعي البريد لا تقع في نفوسنا موقع سائر أغانيه، ولسنا نجهل أن من بين شعراء الشرق والغرب من عالجوا أمثال هذه العادات الشعبية والمواضيع الدارجة في شعرهم ولكنها بعد دون العقاد، وتناولها على هذه الصورة فيه ترخص ظاهر

ونزيد بهذه المناسبة - أن بالديوان منظومة عن البيرة على لسان طفل، وهي في وهمنا وبحسب ذوقنا محسوبة على الفكاهة ولا فكاهة فيها، وليست من الفكاهة في

قليل ولا كثير،. ونحن نعرف للعقاد غيرها كثيرا أبدع في نوعه منها وأفكه، وقد ترفع الأستاذ عن
نشرها وحق له هذا الترفع.
ونحسب في تعليل ما تقدم أن سهولة النظم، وسرعة استجابة اللفظ، ولين أداة التعبير في قبضة صناع اليدين مثله، جعلته ينظم كل خاطرة ترد على ذهنه في شتى المناسبات. ولو أنه يعاني في النظم صعوبة وعنتا لأدخر الجهد الناصب لما هو أولى به من موضوعات وأحاسيس احتضنها ورخم عليها طويلا كعهدنا به أبدا. على أنه من حق الشاعر الكبير الذي يرضينا بنيف ومائة وخمسين صفحة أن يكون له رأيه وحريته في بضع صفحات، إذا هي لم ترعنا فلعلها ترضي الآلاف من قرائه ذوي الفضل، وترضيه هو من ناحية فنية لم نعرفها بعد، أو لما يعلق بها عنده من ذكريات شخصية غإليه بقيت كلمة إعجاب بقصيدتين إلى صديقين يوجه في إحداهما تهنئة وفي الأخرى تقريظا وفي هذه الأخيرة يقول في وصف نفس صديقه:

جبلت كالفراش في أمة الط - ير خفوقاً بين الندى والضياء
واستوت في الحياة فوق جناح ... مستطار الخطى رقيق الغشاء

ولا شك في انه لم توصف نفس بأجمل من هذين البيتين بغض النظر عمن قيلا فيه كما ان قصائد (تجريبي) و (يوم شتاء) و (القديس) تلفت قارئ الصفات والتأملات كل منهما بصفة متميزة، لاسيما (القديس) فهي مطوية على ليل سر عميق. وأخيراً (ليالي رأس البر) وهي من القصائد الخوالد تنبه فينا تلك الحالة النفسية الغامضة، التي نحس فيها اتصال مشاهد هذا العالم المشهود بمعاني العالم المستور، وقد اختار لها الشاعر وزناً طويلا، وقافية كأنفاس الحالم الممدودة فكأنما يسري القارئ منها في عالم النسيان والرضوان

حقاً هو كتيب صغير ولكنه ديوان كبير

عبد الرحمن صدقي

المآسي في الجمال والشعر والحب

للأستاذ الحوماني

قبل أن أتحدث عن هذا الكتاب القيم يجدر بي أن أتقدم بالشكر إلى الأستاذ الجليل صاحب الرسالة فقد هداني به إلى نوع من الأدب طالما تمنيت أن يجري على لسان عربي وإلى لون من الجمال والفن كثيراً ما نزعت نفسي إليه، حتى ألقيته اليوم بين دفتي هذا السفر الجليل.

ترى الكتب أنماطا مختلفة، فمنها ما يعتمد على زخرف القول ويستند إلى الدجل والتمويه، فلا تكاد تظهر حتى يذهب الزمان بما حوت من بهرج زائف، فتصبح كأن لم تكن بالأمس، كالفقاقيع لا تكاد تظهر حتى تنطفئ. ومنها ما يصدر عن القلب فيفيض بخلجات النفي، ويجيش بنزعات الوجدان ويزخر بخطرات الضمير: ومصير هذا النوع إلى الخلود، لأنه والحياة شيء واحد فيبقى ما بقيت الحياة.

وكتاب الأستاذ الحوماني من هذا النوع الخالد فهو مرآة صافية رفعها الكاتب الفذ فانعكست فيها الطبيعة، بما حوت من ضروب الفن وضروب المذاهب.

يقع بصرك على الكتاب فتحس أن له شخصية ممتازة، فهو مطبوع طبعا جيداً، وهو كما ترى من عنوانه سلسلة من المآسي، ولقد حليت زوايا غلافه بخطوط عريضة سوداء قوية الإشارة واضحة الدلالة، وتوسطت هذا الغلاف الأنيق صورة نقشتها ريشة ماهرة لفتاة بارعة الجمال تنحدر الدموع من عينيها الواسعتين الضارعتين وقد اشتبكت يداها على صدرها في شكل يحرك القلب ويثير الشجن. أما الوجه فانه مزيج مدهش من الجمال البارع والعفاف الوادع والالم اللاذع، وتحت هذه الصورة نقش اسم (أمل) بطلة القصة ومحور الجمال فيها.

وهي قصة قوية إذا بدأتها فلن يشغلك عنها شاغل ولن تضعها حتى تتمها، وهي إلى جانب ذلك مؤثرة إلى أقصى حدود التأثير، لا يتمالك ذو العاطفة الحساسة دمعة حين قراءتها ومؤداها أن خالدا ذلك البطل العربي، رحل عن بلاده الشام حين عافت نفسه الأبية أن تقيم على الضيم، فهبط الحجاز وأقام هناك زمناً في ضيافة عربي كريم هو الشيخ أبي وسيم، ولقد كان هناك موضع حفاوته وحفاوة ابنه وسيم. وسرعان ما أحب

وسيما واحبه وسيم.
ماتت زوجه وهو بعيد عنها وبقيت ابنته أمل تعاني بؤس الحياة، وكانت تحب ابن عمها (ناظما) وكان يحبها، ولكنه كان فتى طائشا يطلق العنان لشهواته ويفهم من الحب غير ما تفهم أمل، فحبب إليها المجون ورغبها في التبرج والخلاعة، ولكنه فشل في إغرائها ورحل
إلى بيروت حيث اللهو والمجون فلما علمت بذلك ابنة عمه تبعته لترى بنفسها ما ينغمس فيه من المفاسد، فرأته هناك من حيث لا يراها يغازل فتاة من بنات الهوى تدعى جوزفين فبرح بها الألم وكتبت إليه تلومه، ولكنه رد عليها ساخرا، وكرر الدعوة إليها لتحيا معه هذه الحياة. وفي تلك الأثناء كان أبوها في طريقه إلى بلده دمشق فقضى نحبه على مقربة من العقبة، ولقد ترك خطابين أحدهما لابنته والثاني لوسيم، وأوصى بأن يسلما إليهما في وقت واحد، وهرعت أمل إلى قبر أبيها هالعة جازعة والتقت هناك بوسيم واكبا على القبر يبكيان فلما أفاقا وجد كل منهما في صاحبه ضالته فربط الحب قلبيهما برباط وثيق. وحملها وسيم إلى التهامي. وأخذ ناظم يرسل إليها الخطابات يستحلفها ويعلن التوبة بين يديها فسافرت لتراه قبل موته وهو على فراش المرض فلم تكد توافيه حتى اسلم الروح وبكته ابنة عمه ولبست الحداد وأقامت بدمشق أياما. وهنا شبت نار الحرب بالبلاد العربية واشترك فيها وسيم، وجعل يدون مذكراته عن حبه وبشاء القدر الساخر أن يذهب ضحية الزلزال وهو يبحث عن أمل بعد أن وضعت الحرب أوزارها فحملت مذكراته إلى أمل البائسة.
أخاف أن يذهب هذا التلخيص بجمال القصة وأدعو الشبان مخلصا إلى قراءتها في إمعان. فليس جمالها في حوادثها فحسب بل فيما، تفيض به من دروس وعبر، وأحاديث عن الجمال والشعر والحب ووصف شائق للكون والطبيعة، كل ذلك في تعمق وخبرة وبعد نظر أما أسلوب الحوماني فهو ذلك الأسلوب العربي المتين، دقيق العبارات موسيقي الوقع مشرق، الألفاظ؛ قوي المبنى، واضح المعنى حتى ليعد في ذاته ناحية هامة من نواحي الجمال في الكتاب ولو ضيق المقام لأوردت بعض عبارته على أنني لو فعلت ذلك لاضطررت إلى إيراد الكتاب كله، فهو قطعة متسقة من الفن.
أما بناء القصة فقد سار فيه المؤلف على نهج فريد، فابتدأه بأن ترك كل فرد يتناجى ونفسه بعيدا عن بقية الأشخاص، ثم أخذ بعد ذلك يسرد الحوادث حتى اختتم الكتاب، بمذكرات وسيم وبتلك المفاجأة المؤلمة التي حملتها فريدة الوصيفة إلى سيدتها أمل. ولقد أضاف هذا إلى الكتاب قوة ونجاه من السامة الملل.
وأني أتقدم بخالص التهنئة إلى الأستاذ الحوماني راجيا إياه ان يزيد الأدب من نفثاته الرائعة التي تعد مفخرة للعربية وأهلها
محمود الخفيف
الوصية
هذه القصة التمثيلية التي تقع في فصل واحد ذي ثلاثة مناظر والتي ألفها ج. م. باري، قد نقلها إلى العربية الأستاذ خطاب عطيه
أما القصة فهازلة، تريك رجلا يصطحب زوجته إلى مكتب محام ليوصي لها بكل ما يملك بعد موته، مع انه لا يملك شيئا. ولكن شاء الدهر أن تنمو ثروة الرجل وتطرد في النمو، وكلما ازدادت نماء سارع إلى تعديل الوصية حتى تلائم موقفه الجديد، وظل كذلك يحرص على تأكيد الوصية بما له إلى زوجته حتى رزاءه القدر بموتها! وإذن فلابد أن يقلب الوصية رأسا على عقب، ولكن من ذا عسى أن يظفر بتلك الثروة الضخمة؟ انه يفكر أن يوصي بها إلى ستة رجال كانوا قد نازلون في ميدان الجهاد فصرعهم! ولكن ظرفا طارئا قد انعرج به عن هذا التفكير السقيم، واعتزم من فوره أن يبذلها في سبيل المرضى الذين يذهبون ضحية الفقر والإهمال. وهكذا أراد الكاتب إلا تكون الوصية لأشخاص الفناء، بل انتهى بها إلى عمل الخير لأنه خالد لا يزول
والأستاذ خطاب يشكر لنقله هذه القصة إلى العربية لأغذاء قراء العربية بمحصول جديد، كما أعان طلاب السنتين الرابعة والخامسة الثانويتين لأنها مقررة في منهجهم الدراسي. ولكن هل يسمح لنا بأن نأخذ عليه عبارته الركيكة الضعيفة التي بلغت من الإسراف في الركة والضعف حد الارتباك والتعقيد وحتى تمنيت في كثير من المواضع أن يكون إلى جانبي الأصل الإنجليزي لأستعين به على فهم الترجمة العربية! ولا شك

في انه قد أساء بذلك بعض الشيء إلى الأدب الذي نقل عنه واللغة التي نقل إليها
ز. ن. محمود
العدد 27 - بتاريخ: 08 - 01 - 1934
لطيفة النادي. . .!
منذ أسابيع استشهد في ميدان الطيران حجاج ودوس! فتقاطرت في هذا المكان عبرات الأسى سوداء من هذا القلم، وتصاعدت زفرات الأسف حارة من هذه الصحيفة، وقلنا أن الأمة التي لم تكد تأخذ بأسباب الطيران حتى يسبق إلى الشهادة في سبيله فتيان من فتيانها، ويبادر إلى خوض أهواله فتاة من فتياتها، لا يستطيع أن يكسر من ذراعها حادث، ولا يتكاءدها في طريقها إليه عقبة.
كنا نقول ذلك والقدر الذي فتح لهذين الفتيين في السماء باب الخلود، كان يشق لهذه الفتاة في الأرض طريق المجد! فماكاد يعثر بنا الحظ في الجو الُمِصَّب الغريب، حتى نهض عجلان في جونا الضَّحيان العجيب، وكان يوم نهوضه الأغر يحلق في سماء مصر الجديدة ثمانية وعشرون من نسور أوربا القشاعم! يستعدون للسباق في سمائنا المشرقة الطليقة، ويستَنوَّن للرهان استنان الجياد العتيقة، ويظنون أن مصر التي فكرت في الطيران آخر الأمم لا يمكن أن تكون إلا مطارا لكل طائر، ومائدة لكل زائر! أما أن تكونِ قرنا يغالب، وموتورا يطالب، فذلك ما لم يقع في وهم ولم يَدُر في خَلَد!
ولكن مجدنا الذي تحدى القرون وغبَر وجه الفلك لا يزال جياش الغضب على غدرة الجو بشهيديه في فرنسا! فهو يُدمَث لنسوره مثوى الضيافة، ويعقد غيب ضميره على الثأر، ولا يثأر إلا بطريقة تليق بماضيه ونزكو بأصله!! نفث في روع حمامة من حمائم الوادي أن تسابق هذه النسور في حَلْبَة الهواء إلى الأمد! فصفَّت الحمامة المصرية في الجو جناحها الهشّ وريشها الناعم، ثم نظرت نظرة التحدي إلى النسور المحوّمة، فتوقدت صدور الكواسر غضبا من هذه الجرأة، وشق على ملوك الهواء وجبابرة السماء أن يشعروا بهذه الحمامة وقالوا ممتعضين: ريشة تواثب الريح، وهامة تعاجز الثور، ونملة تناجز القدر! وقال (ضيوفنا) الأعزة أصحاب (النشرة البذيئة)، والفخر المتعصب يثنى اعناقهم، والزهو الساخر يلوى أشداقهم: (يا لغَرور (أبناء العرب)! متى دخلت (الحمير) مضامير السباق؟ ومتى سامت وحوش (البهائم) سوابح الطير! ألم تكفهم فضيحة (الجنديين القذرين) حجاج ودوس؟
وكانت عيون مصر حينئذ تشخص إلى السماء مغرورقة بالأمل، ومحركات الطوائر الدولية تهزم في الجو الصافي هزيم الرعود، والأجنحة المعدنية تضرب في الهواء الساكن إلى الإسكندرية، ولطيفة النادي تتقدم بطائرتها الصغيرة السرب المتعاقب المثار إلى قصبات
السبق!! ثم غابت الأصوات في مطاوي الفضاء، واستولى على المطار اللجِب سكون وصمت، حتى إذاأزف موعد الرجوع سَرَحت العيون في الجو، وسبحت النفوس في الخيال، وتجاذبت أمم أوربا حبل الأمل في الظفر! هل هي فرنسا؟ هل هي إنجلترا؟ هل هي المانيا؟ ولم يقل أحد لا منا ولا منهم هل هي مصر؟ ولكن القدر على الغيب منا ومنهم قالها! وكان الجواب الحاسم عند لطيفة النادي!
من كان يخطر بباله منا - ولا أقول منهم - أن الآنسة لطيفة بنت الخدر العربي، وذات الخفر المصري، تباري أساطين الطيران ذوي الماضي البعيد والمران الطويل والخبرة الواسعة وهي لم تقض في علاج هذا الفن غير ستة شهور، فكيف يقع في الظن أن تسبق سابقهم وتهبط الأرض قبله بدقيقة كاملة؟
هنالك طفر المصريون من الفرح، ومادَ الأجانب من الذهول، واقبل المحكمون على الطائرة المُجَلِّيَّة، يعصرون يدها من الإعجاب والدهشة، ويقولون والعرق البارد يتألق فوق الجباه الزُّهر، كما يتألق رشح الرطوبة فوق الرخام الأبيض: يا آنسة قبلنا سبقك موضعاً ورفضناه شكلاً!! لان هناك على ساحل البحر (خيمة) أخرى لم تدوري حولها، والخطأ خطأ المنظمين لأنهم لم يضعوها في مكانها!
ثم منحوا المصلى الفرنسي جائزة المال، ومنحوا السابقة المصرية جائزة الشرف!
وهل تبتغي مصر غير ذلك؟ ليقل لنا أصحاب (النشرة البذيئة) ما رأيهم في هذا الشعب؟ إلا يرون أنهم جحدوا فضله كما غمطوا حقه؟ إلا يجدربربائب المدنية وللعلم أن يفهموا أن عجز القيادة وتردد السياسة وطغيان الدخيل، إنما تخمد الشعور إلى

حين، وتضعف الأخلاق إلى حد؟ وأن الأمم الحرة بطبيعتها، لا تلبث أن تنفي الزغل عن حقيقتها، فتظهر مجلوة الصفحة نقية الأديم؟ أفلا ينظرون إلى المصري في الميادين الحرة كيف سبقت قدمه وعلت يده؟ ألسنا في الرياضة والسباحة والغناء والأدب والطب أبطالا عالميين أو شبه عالميين؟

أن أسوأ الآراء الأوربية في مصر ربما كان عن المرأة، فانتصار البطلة لطيفة في هذا الميدان الخطير يصحح الخطأ في العقول المنصفة، ويُقر الحق في النفوس الكريمة، افتحوا لنا باقوم طريق الحياة، وأفسحوا لنشئنا مجال العمل، وخلوا بين نفوسنا وبين الحرية، ثم انظروا بعد ذلك ماذا يفعل الفتى، كما رأيتم بعيونكم ماذا فعلت الفتاة!

احمد حسن الزيات

من دار إلى دار

للدكتور طه حسين

قال أستاذ البيان لتلميذه: زعموا أن البيان يعين صاحبه على أن يؤدي المعنى بعبارات مختلفة فيها الحقيقة والمجاز، وفيها التشبيه والاستعارة، وفيها الكناية والتمثيل وفيها ما نعلم وما لا نعلم من الوان الجمال اللفظي، هذه التي عن قصد، وتأتي على غير عمد، كأنما يوحي بها إلى الكتاب المبين. ولكنك تعلم أنا لا نذهب في فهم البيان هذا المذهب، ولا نقصد به إلى هذا النحو، وإنما نذهب به مذهبا اعم من هذا واشمل، كان يذهب إليه القدماء حين كانوا يتخذون البيان وسيلة إلى أداء ما يعرض للكاتب من الأغراض والمعاني في أشد الألفاظ ملاءمة لأغراضه ومعانيه، ولعلك تذكر انهم كانوا يذهبون في تعليم الطلاب فن البيان مذهبا طريفا كثيرا ما كان يضيق به المتكلفون من أصحاب الأخلاق، والذي لا يعلمون إلا ظاهرا من الفلسفة. قال التلميذ: نعم هو هذا المذهب الذي كان يحمل الأستاذ على أن يطرق أمام تلاميذه ويحمل تلاميذه على أن يطرقوا أشد الموضوعات تناقضا وأعظمها اختلافا فيؤدوها كأنهم يؤمنون بها أقوى الايمان، ويقتنعون بها أشد الاقتناع. وكانت هذه بدعة استحدثها السوفسطائية ثم ورثها عنهم أصحاب البيان فلم يغيروها، وإنما أمعنوا فيها إمعانا. وكتاب أرسططاليس في الخطابة حافل بذلك. وقد أبلى الجاحظ في هذا النحو من تعليم البيان بلاء حسنا، وقد ألف أساتذة اللغة والبيان في هذا النحو من الأدبكتبا لا تخلو من لذة ومتاع، فيها مدح الشيء الواحد وذمه، وفيها مدح النقيضين وذم النقيضين، وفيها. . . . قال الأستاذ حسبك، فقد أرى أن أشهر الصيف وما كان فيها من ارتحال وطواف، ومن اختلاف البيئات عليك وترامي أطراف الأرض بك لم تنسك ما أنفقنا فيه من أشهر الربيع من الدرس والبحث، فأنا نريد الآن أن نبتدئ من حيث انتهينا، ونمضي من حيث وقفنا، ونعود إلى ما كنا فيه من التمرين. فاختر لنا موضوعا واحدا يثير الضحك ويثير الرثاء. يثير الشماتة ويثير الرحمة. يبعث في النفوس مرحا وابتهاجا ويملا القلوب كآبة وحزنا، وهو على ذلك كله واحد لا يتغير، وإنما يتغير وجهة النظر إليه ونحو التفكير فيه، وأن الشيء الواحد قد يخالف نفسه ويباينها باختلاف الجهات التي تنظر إليه منها، والطرق التي تسلكها إلى فهمه والوصول إليه. قال التلميذ فأني لست في حاجة إلى أن أجد وأكد، أو ألتمس واختار، لأن الموضوع ماثل أمامي شهدته أمس فأثار في نفسي هذه العواطف، المختلفة، وبعث في قلبي هذه الألوان المتباينة من الشعور، وكان المتعمقون في البيان يسرفون على أنفسهم وعلى تلاميذهم وعلى الفن حين كانوا يجتنبون ما يحدث بين أيديهم من الحوادث، ويختلف عليهم وعلى أمثالهم من الخطوب، ويلتمسون الموضوعات من عند أنفسهم يخلقونها خلقاً، فيصيبون حيناً ويخطئون أحيانا، ويعيشون في عالم الخيال على كل حال، مع أنهم لو نظروا فيما حولهم من الأحياء والأشياء لما احتاجوا إلى هذا الكد والجد، ولما بعدوا بأنفسهم وتلاميذهم عن مواضع الحق والصدق والصواب، ولما نقلوا الأدبمن هذا العالم المعروف الذي يضطرب فيه إلا الوهم، ولما قطعوا الصلة بين الأدب الذي يجب أن يكون صورة الحياة وبين الناس الذين يجب أن يتخذوه مرآة يرون فيها أنفسهم وحياتهم كما هي أو كما يحبون أن تكون، أو كما يكرهون أن تكون قال الأستاذ: هات موضوعك ولا تمعن في الاستطراد، فقد علمت وقد أنبأتك بأني علمت أن أشهر الصيف لم تنسك دروس الربيع. قال التلميذ: فان الموضوع الذي شهدته أمس موضوع ويثير من المعاني ما لم تشأ، ويلهم ما أحببت من الخواطر ما لا تحب، يبعث الابتسام

أن شئت أن تبتسم، ويبعث العبوس أن أحببت أن تعبس، وقد يكرهك على الابتسام وأنت عابس، وقد يكرهك على العبوس وأنت مبتسم، وقد لا يقف بك عند الابتسام، بل يغرقك في الضحك إغراقا، وقد لا يقف بك عند العبوس بل يدفعك إلى البكاء دفعاً، وقد يقفك من الابتسام والعبوس ومن الضحك والبكاء موقفا بين ذلك، فيه هدوء وعجب، وفيه رضى وسخط يضطربان في النفس ولا تظهر آثارهما على الوجه قال الأستاذ كفكف من هذا السيل اللفظي المتدفق، واقصد بنا إلى ما نريد. فقد علمت أن أشهر الصيف لم تنسك دروس الربيع في المعاني، وقد علمت أيضا إنها لم تنسك دروس الربيع في الألفاظ، وقد علمت أنك ما زلت قادراً على أن تجيد هذا الفن الذي يمكن الكاتب أو المتكلم من أن يقول فيطيل دون أن يؤدي معنى أو يدل على شيء. قال التلميذ: وكأنك تنكر هذا الفن أو تسخر منه أو تزعم أن جمال الكلام لا يأتي من الكلام نفسه، وأن الألفاظ ليست على حظ من الجمال الذاتي الذي يأتي من اتساقها والتآمها وانسجامها، قال الأستاذ: دعنا من كل هذا العبث واقصد بنا إلى ما نريد فقد نعود في يوم آخر إلى حديث الألفاظ والمعاني وما يجب أن يكون بينهما من صلة، وما يجب أن يقسم بينهما من الجمال.

ولكن اذكر أن كنت نسيت أنك شهدت أمس موضوعا واحداً يثير الضحك ويثير الرثاء فحدثني عن هذا الموضوع، كيف أثار الضحك؟ وكيف أثار الرثاء؟ قال التلميذ: وكيف أنسى موضوعاً لا يمكن أن يعدو عليه النسيان؟ وما رأيك في أديب خلق ليكتب، ويقول فيقضي عليه فجأة إلا يكتب ولا يقول؟ خلق ليفكر ويرقى بتفكيره إلى السماء فيجذب إلى الأرض جذباً، ويكره على البقاء فيها إكراها، ويؤخذ بالحياة مع أهلها أخذاً، خلق ليقرأ فيقضى عليه فجأة إلا يقرأ، خلق أطول الناس بالكلام لساناً، وأجرأهم بالقلم يداً، وأسرعهم إلى المعاني نفسا، وأخصبهم بالخواطر ذهنا: فيعقد لسانه وتغل يده وتقيد نفسه ويجدب ذهنه. خلق واضح الجبين باسم الثغر مبسوط الأسارير، تضطرب في نفسه الغنية معان غزيرة فيظهر اضطراب هذه المعاني على وجهه، فإذا هو متحرك الهيئة دائماً لا تكاد تنظر إلى محياه حتى ترى له شكلا جديداً يصور معنى جديداً، يضطرب في تلك النفس التي لا تهدأ ولا تستقر فيقضي على هيئته أن تسكن، وعلى وجه أن يتخذ صورة بعينها جامدة مستقرة لازمة لا تتحرك ولا تنتقل ولا تزول.

قال الأستاذ وماذا تنكر من أمر هذا الأديب؟ إنما هو صورة من صور برومثيوس الذي كان حركة متصلة منتجة خصبة، سريعة لبقة، تعلم الناس في غير انقطاع. وتسلك إلى تعليمهم كل السبل، وتبتغي إليه كل وسيلة، حتى لم تتحرج من أن تختلس نار الآلهة اختلاساً فتهديها إلى الناس وتمنحهم بذلك الحضارة والعلم والفن وتغنيهم أو تكاد تغنيهم عن (زوس) وأصحابه من سكان الأولمب، فغضب عليه زوس وضاق به وأزمع أن يعاقبه على ما جنى، فشده إلى صخرته تلك في القوقاز وقضي عليه أن يظل طوال الدهر مغلولا. وقد كانت الحركة جوهره عاجزاً، وقد كانت القدرة حقيقة لا يملك لنفسه ولا للناس شيئاً، لا يدفع عن نفسه ولا عن الناس شيئاً، يزوره النسر الذي وكل به من حين إلى حين، فينهش كبده نهشاً، وهو يرى ذلك ويألم له أشد الألم ولا يستطيع له دفعاً، يدعو الحرية فلا تستجيب له، لأن زوس قد كفها عنه، يدعو الموت فلا يستجيب له، لان الأقدار قد كتبت له الخلود. وقد صور ايسكولوس حال برمثيوس هذا تصويراً بديعاً ألهم من جاء بعده من الكتاب والشعراء، والمثالين والمصورين والموسيقيين. وقد أثار ايسكولوس في تصويره ضحك الذين قست قلوبهم، ورثاء الذين رقت نفوسهم كما أثار معاني أخرى أقوم وأخصب وأبقى من الضحك والرثاء. قال التلميذ: لم أقصد إلى برومثيوس ولم أفكر فيه، وهل تضن أني رأيته أمس ولم أذهب إلى القوقاز وإنما أنا معك في القاهرة، ولعلي أن ذهبتإلى القوقاز فلا أرى الصخرة ولا قرينها فلم يحدثنا عنهما أحد من الذين زاروا تلك البلاد بعد ايسكولوس. قال الأستاذ فهي صورة من صور برومثيوس قصدت إليها واتخذتها نموذجا لهذا النحو من البيان كما كان يفعل القدماء. قال التلميذ لم أفكر في برومثيوس ولم اقصد إلى تقليد ايسكولوس، وإنما هو شيء شهدته أمس. قال الأستاذ وماذا شهدت؟ قال التلميذ شهدت صديقنا فلانا وقد أرادت له ظروف الحياة أن ينتقل من دار إلى دار. قال الأستاذ وقد اغرق في الضحك ما ابعد هذه الصورة التي تحدثني عنها من تلك الصورة التي كنت أذكرك بها! وأين يكون صديقنا فلان حين تنقله

الظروف من دار إلى دار، من بروميثيوس حين يشده كبير الآلهة إلى صخرة القوقاز، قال التلميذ فقد أثار صديقنا فلان في نفسك الضحك لأن صورته ذكرتك بتلك الصورة الضخمة العظيمة التي نصبها أبو التراجيديا للناس فلما انحدرت منها إلى هذا الشخص الضئيل النحيل الذي كان يقيم في طرف من أطراف القاهرة فأنتقل إلى طرف آخر لم تملك نفسك أن أغرقت في الضحك إغراقا. ومع ذلك فلو قد رأيته أمس كاسف البال كئيب الوجه محزون القلب معقود اللسان مقيد الرجل مغلول اليد، محصورا بين طائفة من الأثاث وأدوات البيت، مختلفة اشد الاختلاف، متباينة اشد التباين، فيها الكبير والصغير، فيهاالأنيق والدميم، قد جمعت حوله تجميعا، وكدست حوله تكديسا، وقد وضع هو بينها وضعا على كرسي أو شيء يشبه الكرسي، وقيل له أقم لا ترم حتى يأذن الله أو يأذن العمال لك بالانتقال، وهو مقيم لا يريم، لا يستطيع أن يقول شيئا، ولا ينبغي أن يقول شيئا، لأنه لا يفهم مما حوله شيئا، يريد أن يخلو إلى نفسه ويعيش مع خواطره، وإذا هو مصروف عن ضميره صرفا بهذه الأصوات العنيفة المختلفة التي تأخذ من كل مكان، والتي تؤلف من حوله نوعا فجا فظا غليظا من الموسيقى، فيه أصوات العمال على اختلافها، واصطدام الاثاث، ووقعه على الأرض، وهذا الصوت الذي يغيظ ويهيج الأعصاب ويأتي من جر الأشياء على الخشب حينا وعلى الحجر حينا آخر، وخفق الأقدام وتداعي الخدم، وتناهي الحمالين وما شئت مما يحصر وما لا يحصر، من هذه

الضوضاء الغريبة التي يمتلئ بها البيت حين تفارقه الحياة، ويمتلئ بها البيت حين تدخله الحياة.

قال الأستاذ محزونا مشفقا، وكم قضى المسكين من وقت على هذه الحال؟ قال التلميذ يوما كاملا نصفه في ذلك البيت الذي كان يخلو، ونصفه في هذا البيت الذي كان يعمر. ولقد فهمت أن اتحدث إليه في الانتقال من دار إلى دار، وأن اذهب معه مذهب الادباء في هذا الحديث، فأخذت أذكر له وقوف الشعراء على الاطلال واحيائهم لما يثير هذا الوقوف في نفوسهم من الذكرى وما يسفح على خدودهم من العبرات، وذهبت اروي له: قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل. . وانشده: لخولة اطلال ببرقة ثمهدي . واتغنى له بدمنة ام اوفى. . واروى له ما قال ذو الرمة في ربع مية. واستطرد به إلى ما قال أبو تمام في عمورية بعد أن دمرها المعتصم تدميرا فلم أجد منه نشاطا ولا انبساطا وإنما قال في صوت المحزونولهجة المتعب المكدود وما أنا وذاك؟ لقد تنقلت في حياتي بين دور كثيرة من حوش عطى، إلى درب الجماميز، إلى شق الثعبان، إلى مونبلييه، إلى باريس، إلى السكاكيني، إلى الحوياتي، إلى هليو بوليس، إلى الزمالك، فأقسم ما وجدت ساعة الانتقال لحظة من هذه اللحظات الحلوة التي يغنيها الشعراء غناء جميلا في شعر جميل اودع فيها دارا احببتها وبلوت فيها الحلو والمر من الوان الحياة، واستقبل فيها دارا لا اعرفها ولا أ ' رف ما ستتكشف لي فيها الايام عنه من الاحداث والخطوب. إنما هو الضجيج والعجيج وازدحام الادوات والاثاث، وصياح العمال والحمالين وخفق الاقدام، وجر الاثقال، ومجلس ضيق كهذا المجلس الذي ترى وساعات طوال ثقال كهذه الساعات التي رأيت، ثم وصل لما انقطع من الحياة، وسعى فيما أهمل من العيش، وانغماس في هذه الحركات العنيفة التي لا موضع فيها للشعر ولا مكان فيها للغناء. هنالك عدلت به عن النحو من الأدبالنو آخر. فأخذت اتحدث إليه عن قول ابي تمام

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ... ما الحب إلا للحبيب الاول

كم منزل في الارض يألفه الفتى ... وحنينه ابدا لاول منزل.

واخذت أساله عن احب منازله إليه وآثرها عنده فلم يحتج إلى تفكير ولا تقدير، وإنما قال في صوت حزين يشوبه الابتسام احب دار واثرها عندي إنما هي تلط التي درجت فيها

طفلا في قرية من قرى الريف، وهذه الدار التي نشأت فيها شابا في حوش عطى، ثم هذه الدار التي أقمت فيها طالبا للعلم في شارع من شوارع الحي اللاتيني في باريس ولكن بشرط إلا أعود إلى الاقامة والحياة في وحدة منها، هي حبيبة إلى كريمة اثيرة عندي حين اذكرها وحين ألم بها الألمامة القصيرة اليسيرة، فأما أحب الدور إلى وآثرها عندي الآن فهي هذه التي تراها مضطربة مختاطة مملوءة بالضجيج والعجيج والصياح

من كل نوع، وتراني فيها اسير سجيا بين هذه الادوات المختلطة المكدسة حولي لا أستطيع حركة ولا انتقالا لانها ستستقيم لي بعد أيام، وستحمل الي فيها ساعات الحياة من الوان العيش ما لم اذق بعد. ويكفي أن اذكر تلك الدور كلها وكيف انتقلت من احداها إلى تلك التي تليها حتى انتهيت إلى هذه الدار لتعلم اني كغيري من الناس خليق إلا امنح تلك الدور من نفسي إلا هذه الدار الذي يقترن بالذكرى، مومن يدري لعلي أن انتقل من هذه الدار التي تراها إلى دار اخرى أوثرها عليها واختصها بالتفضيل، إنما نترك في كل دار نسكنها قطعة من قلوبنا، ولكنك تعلم أن قلوبنا لا تنقص بما نفرق من أجزائها بين الدور، وإنما تكمل وتستكثر من الثروة بهذه الذكريات التي نحملها معنا إلى أن يأتي هذا اليوم الذي ننتقل فيه إلى منزل آخر لا نؤثره ولا يؤثرنا، لا نحبه ولا يحبنا، لا نسعى إليه ولا يسعى الينا، وإنما نكره عليهاكراها، ويكره هو علينا اكراها. . .

هنالك أحسست مرارة الحديث فهممت أن اتحول بصاحبي إلى حديث آخر، ولكن أمور الدار وترتيبها كفتني مؤونة هذا. الانتقال، فقد اقبل المقبلون يرفعون هذا وذاك، يتصايحون ويتبادلون بينهم الامر والنهي. قال الأستاذ لا بأس بهذا الموضوع ولكن على أن تعالجه علاجاً آخر وتعرضه عرضاً فنيا يثير الضحك ويثير الرثاء وإنما يأتي ذلك حين تقصد إليه قصد صاحب الفن وتبث فيه جزءا من اجزاء نفسك يمنحه شيئا من الحياة.

طه حسين

ملق القادة

للأستاذ أحمد أمين

لست أعني بهذا العنوان أن يتملق الجمهور لقادتهم فيظهرون لهم الود والعظام بحق وغير حق، فذلك شيء قليل الخطر، فاتر الأثر، وإنما اعني أن يتملق القادة للرأي العام فيسيرون على هواه ويجرون مجراه، ويأتون ما يحب، ويذرون ما يكره، فهذا هو الداء الدَّويّ والعلة الفادحة ومن أسوأ ما أرى في الشرق في هذه الأيام هذه الظاهرة: ظاهرة أن يحسب القادة حساب الرأي العام أكثر مما يحسب الرأي العام حساب القادة هذه الظاهرة جلية واضحة في قادة العلم، فهناك أوساط تقدس العرب كل التقديس، وتعتقد أنهم في حكمهم عدلوا كل العدل، ولم يظلموا أي ظلم، فقادتهم يتملقونهم ويستخدمون معارفهم للوصول إلى هذه النتائج التي ترضيهم، سواء رضى العلم أم لم يرض، وسواء أوْصَل البحث إلى هذه النتائج أو إلى عكسها، وهناك أوساط تعبد كل غربي من عادات وتقاليد وآداب، فقادتهم يختارون اللفظ الرشيق، والأسلوب الأنيق لتأييد هذه الآراء، ولا عليهم في ذلك أن كانوا يحقون الحق أم يؤيدون الباطل

وهي ظاهرة في قادة الأدب، فأن أحب الجمهور روايات الحب والغرام ألفّوا فيها أكثر منها، وأن أدركوا أن تصفيق الجمهور يكون أشد، كلما كان الحب احد، تسابق الأدباء إلى أقصى ما يستطيعون من حدة وعنف، ومهروا في أن يستنزفوا دموع المحبين، ويهيجوا عواطفهم، ويصلوا إلى أعماق قلوبهم، وأن كره الناس أدب القوة من الأدباء، هو سمج، وهو جاف، وهو لا قلب له، وأن كان الجمهور لا يقبل إلا على الأدبالرخيص فكل المجلات أدب رخيص، لانه كلما أسرف في الرخص غلا في الثمن، وأن بدأ الجمهور يتذوق الجد تحولوا إلى الجد وداروا معه حيث دار

وهي ظاهرة في دعاة الإصلاح، فهم يرون - مثلا - أن الشباب قوة فوق كل قوة، وهم عصب الأمة الكسير الحياة، وفي استطاعتهم أن يرفعوا من شاءوا إلى القمة ويسقطوا من شاءوا إلى الحضيض، فهم ينظمون لهم الدار في مديحهم وإعلاء شأنهم، وملئهم ثقة

بأنفسهم، فهم رجال المستقبل وعماد الحياة، وهم خير من آبائهم، وستكون الأمة في منتهى الرقى يوم يكونون رجالها - وقد يكون هذا حقا، ولكن للشباب أغلاطه الجسيمة التي تتناسب وهمته، وله غروره واندفاعه، وله تهوره وإفراطه في الاعتداد بنفسه - فكان على المصلحين أن يكثروا القول في المعنيين على السواء، فيشجعوا وينقدوا، ويبشروا وينذروا، ويرغبوا ويرهبوا حتى تتعادل قوى النفس، وحتى يشعروا بمحاسنهم ومساويهم معا - ولكن هؤلاء القادة - مع الأسف - وقعّوا فقط على النغمة التي تعجب الشباب وتحمسهم ولم يجرءوا أن يجهروا بعيوبهم، ولا أن يقولوا ولو تلميحا - في

مواضع النقص من نفوسهم - فكان لنا من ذلك شباب استرسلوا في الأيمان بقول الدعاة إلى أقصى حد، واعتقدوا انهم كل شيء في الحياة وانهم فوق أن يسمعوا نصيحة ناصح أو ناقد - وكان هذا نتيجة لازمة بعد أن وقف القادة منهم هذا الموقف - وقد يكون هذا رد فعل للماضي أيضا - فقد كان طالب العلم في الجيل السابق يقدس قول أستاذه، وهو وأستاذه يقدسان ما في الكتاب الذي يتلى، وكان الشاب يجل الشيخ في قوله وفعله، ولا يرى أن له صوتا بجانب صوته، ولا رأيا بجانب رأيه، فكان سلوك هذا الجيل انتقاما من الجيل السابق، وذهابا في الإفراط يعادل إفراط آبائه، ولكن أظن أنا وصلنا إلى حد يجعلنا نفكر جديا في تثبيت هذه الذبذبة ووقفها الموقف الحق أن وقوف القيادة من الجمهور موقف الملق قلب للوضع، فالعالم إذاقال برأي للناس لم يكن لعلمه قيمة، والمصلح إذادعا إلى ما عليه الناس لم يكن مصلحا إني أفهم هذا الوضع في التاجر يسترضي الجمهور لأن نجاحه في تجارته يتوقف على رضاهم، وأفهم هذا في المعنى يقول ما يعجب الناس لأنه نَصَب نفسه لإرضائهم، واستخرج إعجابهم، ولكني لا أفهم هذا في قائد الجيش، فان له مهمة أخرى، وهي أن يظفر بخصمه، فلو كان همه أن يسترضي جنده لا أن ينتصر على عدوه لما استحق لقب القيادة لحظة، ولكان الوضع الحقيقي أن الجند هم القادة والقادة هم الجند كذلك الشأن في قائد العلم وقائد الأدب، والمصلح الاجتماعي فلكل منهم غرض يرمي إليه في علمه أو أدبه أو إصلاحه، وله خطة يريد أن يحمل الناس عليها رضوا أم كرهوا بل لا يعد المصلح مصلحا حتى ينبه الناس من غفلتهم، ويحملهم على أن يتركوا ما ألفوا

من ضار، أو يعتنقوا ما كرهوا من صالح وهو في أغلب أمره مغضوب عليه ممقوت، واصطلاح الجمهور والمصلحين ليس علامة تبشر بخير، بل هي في الغالب تدل على تراجع من المصلح وانتصار للعامة وقد كان المصلحون في الشرق إلى عهد قريب أشد الناس تعبا في الحياة، وأكثر تبرما بالجمهور وأقربهم إلى عهدنا جمال الدين ومحمد عبده وقاسم أمين، لقوا في دعوتهم من العذاب الوانا، ولم يوفوا حقهم إلا بعد أن وافاهم الموت، أما اليوم فلست أرى حركة عنيفة بين القادة والرأي العام، ولا بين المصلح ومن يراد اصلاحه، وربما كان سبب ذلك أن القائد ينظر إلى نفسه أولا وقبل كل شيء وآخر كل شيء، قصد إلى أن يصفّق له أكثر مما قصد لخدمة الحق، وقد وصل إلى درجة من إعجاب الجمهور يريد أن يزيدها أو يحتفظ بها، قد خلع ثياب القائد، وارتدى لباس التاجر، يبحث عما يعجبهم ليقول فيه شعره أو يكتب فيه مقالته، أو يطنب في وصفه، ويبحث عما يسوءهم ليحمل عليه حملة شعواء بقلمه أو لسانه كما يبحث تاجر الأزياء عن آخر طراز في الزي يقبل الناس على شرائه

تلك أشد حالات الانحطاط في القيادة، فأول درس يتلقاه القائد أن يكون قليل الاهتمام بشخصه، كثير الاهتمام بالغرض الذي يرمي إليه في الإصلاح، سواء أكان إصلاحا لغويا أو أدبيا أو اجتماعيا أو دينيا، وأن ينظر إلى كل ما يجري حوله في هدوء، لا يسره إلا أن يرى الناس اقتربوا من غرضه ولو بسببه، ويضحي بالشهرة فتبعته الشهرة، ويضحي بالحظ فيخدمه الحظ، بل سواء عليه عُرف أم لم يعرف، وسواء عليه لعن الحظ، بل سواء عليه عُرف أم لم يعرف، وسواء عليه لعن أم كرّم، ما دام سائرا على المنهج الذي رسم، لا يشعر بأريحية إلا أن يصل إلى غرضه، أو يقرب منه، يحب المنتصرين لرأيه ويرحم الناقمين عليه، يرفض أن يلبس تاج الفخر إلا أن يكون من نسيج ما سعى إلى تحقيقه - أن كان هذا أول درس يتعلمه القائد فهو آخر درس أيضا.

أخشى أن يكون قادة الرأي فينا قد ملوا المقاومة فاستسلموا، وأن يكون قد استصعبوا الغاية فاستناموا، وأن يكونوا قد وقفوا مترددين قليلا بين عذاب الضمير وعذاب المعارضة فاحتملوا الأول، وأن يكونوا لطول ما لقوا قد رغبوا عن النظر إلى الأمام والتفتوا وراءهم إلى الرأي العام فساروا أمامه في الطريق الذي يحبه هو لا الذي يحبونه هم، أن كان هذا

فيالها من هزيمة.

أنى لنا بقادة في الرأي لا يتملقون إلا الحق.

الحرية

للأستاذ الشيخ إبراهيم الدباغ

غلت فغلى في كل حي وجيبها ... ولست لها! أن كان غيري مجيبها
صريع هواها لا يواسى بنظرة ... وجرحى أساها لا يلين طبيبها
بدت واختفى فيها جمال تزينه ... فهبت أعاديها ونام حبيبها
وكم مزقت ستر العفاف لصونها ... بحر يناجيها وعبد يعيبها
حديقتها قد فتحت كل زهرة ... تضل النهى أنفاسها وضروبها
شكت غربة في أهلها ولداتها ... وأمسى على بلواه يبكي قريبها
وكم أكلت نيرانها قلب جاحد ... وإني لأرجوا أن يزيد لهيبها
وكم عملت في نفس حر ومنصف ... وحسب الأماني أن يخف شبوبها
يشرفها في كل شروق شروقها ... وتغرى بها في كل غرب غروبها
مطالعها في الشرق والغرب لم تعد ... إلى الأفق حتى ضاق ذرعا رقيبها
تعود منها المستبدون هدنة ... وسلما، وردتهم لرشد حروبها
وكم من غراب ناعب في رياضها ... صباحا وقد أحيا الدجى عندليبها
سقاها الحيا بالأمس واليوم عذبت ... فيا ليت شعري في غد ما يصيبها!
وهل للعوالي رغبة في مثوبة ... تبارك معطيها وجل مثيبها
وكائنْ لها من مهجة مثل صخرة ... تذيب الليالي والليالي تذيبها
مضت في الكرى واستعجلت يقظة الوغى ... وساحتها أم فأين ربيبها؟
ممنعة لا تبتغي عند أمة ... موزعة أهواؤها وقلوبها

وأخيراً النون

للعلامة الشيخ عبد القادر المغربي عضو مجمع اللغة العربي الملكي

كان بيني وبين بعض الفضلاء نزاع طويل حول كلمة (انسكلوبيدي) اليونانية الأصل واختيار كلمة عربية تقوم مقامها

والانسكلوبيدي لفظ وضعه الإفرنج للدلالة على المعجم الذي يتضمن كل فن ومطلب من مطالب ثقافات الأمم، ومقومات حضارتها: ففيه كل شيء ما عدا اللغة، فان كلماتها تكفل ببيانها معجم آخر يختلف اسمه باختلاف اللغات.

ولما وضع العلامة البستاني معجمه العربي الجامع لكل فن ومطلب وضع له اسما عربيا مفردا، ثم بدا فغيره إلى اسم آخر مركب من كلمتين. وتتابعت الأسماء والأوضاع على هذا النمط.

(1) الكوثر؛ بطرس البستاني (سورية) سنة 1876م
(2) دائرة المعارف؛ بطرس البستاني (سورية) سنة 1876م
(3) لغات تأرخية وجغرافية؛ أحمد رفعت أفندي (الأستانة) سنة 1882م
(4) مصور دائرة المعارف؛ علي سيدي ومحمد عزت وعلي رشاد (الأستانة) سنة 1914م
(5) موسوعة؛ إبراهيم اليازجي (سورية)
(6) كنز العلوم واللغة؛ فريد وجدي (مصر) سنة 1907
(7) دائرة معارف القرن العشرين؛ فريد وجدي (مصر) سنة 1923
(8) محيط المعارف؛ أمر الله أفندي (الأستانة)
(9) معلمة؛ الأب انستاس الكرملي (بغداد)
(10) النون

واشتد الجدل في اختيار أفضل هذه الكلمات وأحقها بالقبول، ثم اتفقنا على إهمال ما كان مركباً منها كدائرة المعارف، أما المفردات فالكوثر لا تدل على المراد من (الانسكلوبيدي) كما لا يخفي، و (موسوعة) مختلف في أصلها وسلامة عروبتها، فلم يبق إلا كلمة (مَعْلَمَة) التي تدل على معنى (وعاء العلم)

ثم عادت المناقشة فاشتدت حول قبول (المعلمة) وعدم قبولها، وحجة رافضيها إنها إنما تدل

على كتاب فيه علم ولا تدل على معنى الشمول والإحاطة كما هو المقصود من فرد هذا الاعتراض بان (المعلمة) تدل على معنى الكثرة لكونها مصوغة على وزن مَأسَدَة و (مسَبْعَة) ومَذَبَّة، و (مَقشأة) و (مَلَصَّه) أي أرض كثرت فيها الأسود والسباع والذباب والقِثَّاء واللصوص. وقال الأب أنستاس (المْعلمة) فيكون قد أراد إنها كتاب كثر فيه العلم.

فبقى بعض الأخوان مصراً على رفض (المعلمة) مستدلا بان كلمة (مسبعة) وأخواتها الدالة على الكثرة إنما هي صيغ خاصة وقعت للعرب في وصف الأرضيين والأماكن وحدها، حتى أن ابن سيده عقد لهذه الكلمات في مخصصه - جزء 3، ص 205 - بابا عَنْوَنَه بقوله (باب مفَعْلة من صفات الأرضين). فكيف يصح لنا أن نجعلها من صفات الكتب؟ فلم يبق إلا أن تكون صيغة - معلمة - كصيغة - مقلمة - بالقاف بمعنى وعاء - الأقلام. وهذا يضعف من أمر اختيارها لتحل محل - انسكلوبيدي

فقال بعض الأخوان: أن الياس بك القدسي (عضو مجمعنا العلمي العربي بدمشق) كان أشار بوضع كلمة (النون) في مقابل الانسكلوبيدي مستدلا بما جاء في معجم المستشرق المشهور (كازيمرسكى) مترجم القرآن إلى الافرنسية - من أن (النون) في اللغة العربية تكون بمعنى (الانسكلوبيدي) الأعجمية.

فعجبت من قوله، لأن (النون) أن كان المراد بها حرف الهجاء فلا علاقة لها بمعنى (الانسكلوبيدي) وأن كان المراد بها كلمة (النون) التي من معانيها السيف والحوت والدواة فأنها أيضا لا علاقة لها ظاهرة بالانسكلوبيدي

ولم يتيسر لي أن أراجع معجم (كازيمرسكى) العربي الفرنسي، حتى وقعت لي نسخة منه منذ أيام، فوجدته يقول ومن معاني (النون) خلاصة جميع العلوم ولم يذكر كازيمرسكى صراحة أن النون تطلق على الانسكلوبيدي، فعلمت أن الياس بك (رحمه الله) إنما استنتج كلمة الانسكلوبيدي من قول (كازيمرسكى) استنتاجا. فبقى عالقا في حفظه أنه من قول (كازيمرسكى) نفسه. وحق له هذا الاستنتاج لأن كلمة (النون) إذاكانت بمعنى خلاصة علوم البشر كانت جديرة بان تطلق على الكتاب الذي يضم بين دفتيه خلاصة علوم البشر.

وقد ازددت حرصاً على معرفة المصدر الذي اعتمد عليه كازيمرسكى فيما ذهب إليه. فلم أظفر بشيء في المعاجم اللغوية العربية، لكني رأيت (السيد الجرجاني) يقول في كتاب

التعريفات ما نصه: (النون هو العلم الإجمالي. يريد به الدواة، فان الحروف التي هي صور العلم موجودة في مدادها إجمالا. وفي قوله تعالى (ن. والقلم) هو العلم الإجمالي في الحضرة الاحدية. والقلم حضرة التفصيل اه)

ففي هذا القول رموز لغة وتفسير وعقيدة وتصوف، ألف بينها لحام دقيق يمكن تفكيكه على هذه الصورة:

أن حرف (ن) في الآية أريد به إجمال أو خلاصة للعلم البشري وأن (القلم) الذي ذكر بعد (ن) هو الكفيل بتفصيل ذلك العلم الإجمالي. وأن حرف (ن) إنما جاءه معنى العلم الإجمالي من كونه حرفاً من حروف الهجاء. وحروف الهجاء يتركب منها جميع الكلام الذي يدل على علوم البشر التي إنما يصورها الكاتب بمداد الدواة. فعلوم البشر مدمجة في الدواة، والدواة رمز يذكر بمجموع علوم البشر وثقافاتهم في التمدن القديم، كما أن (المطبعة) رمز يذكر بمجموع علوم البشر وثقافاته في التمدن الحديث ثم تراجع كتب اللغة والتفسير فنجد بعض المفسرين يفسر (ن) في آية (ن، والقلم وما يسطرون) - بحرف النون الهجائي، كما فسروا بقية الحروف الهجائية في مفتتح السور الأخرى. ونجد الحسن البصري يفسر (النون) بالدواة. فتفطن إلى أن الحسن رضى الله عنه لم يرد بالنون حرف النون الهجائي، وإنما أراد كلمة (النون)، ولكن الحسن البصري السلفي العظيم الذي عاش مع فصحاء العرب وبلغاء الصحابة رضوان الله عليهم - يفسر (النون) بالدواة من دون أن يكون له دليل يستند إليه نبحث فنجد أن الحبر ابن عباس رضى الله عنه يفسر النون في الآية بالحوت وهو سمكة البحر، كما هو أحد معانيها اللغوية. فنتفطن أيضا إلى أن تفسير (النون) بالدواة - وهو ما ذهب إليه الحسن البصري - إنما من جهة تفسير ابن عباس لها بالحوت

ويبقى في المقام إشكال: وهو ما هي علاقة الحوت بالدواة؟ نراجع المفسر النيسابورى فنجده يقول في صدد تفسير الآية: انه بروي عن بعض الثقات أن أصحاب السحر (ويريد بهم أصحاب الصناعات الخفية أو الدقيقة) يستخرجون من بعض الحيتان شيئاً أسود كالنقس (أي الحبر) أو أشد سواداً منه يكتبون به أهـ

ولا يخفي أن الأخطبوط أو غيره من حيتان البحر يستخرج منه سائل كان الأقدمون

يعالجونه ويَليقونه بما يجعله صالحاً للكتابة به
وهكذا نرى ابن عباس يفسر النون في الآية بالحوت، ولكن أي حوت؟ ذهب بعض المفسرين الذي يحبون الأغراب في كلام الله تعالى إلى أن المراد به (الحوت) أخو (الثور) اللذان كانا وما زالا يَئُوآن بحمل الارضين السبع!!
غير أن الحسن البصري رضى الله عنه ما كان من قصاص المساجد أن يذهبوا في تفسير الوحي الإلهي هذا المذهب في الأغراب والتهويل. إذ أن التسامح في ذلك بقصد التأثير في نفوس الدهماء من العامة إن سر عاجلا فانه يسوء آجلا.
وهذا ما حمل الحسن البصري على تفسير (النون) بالدواة تأييداً لابن عباس رضى الله عنه في تفسيره للنون بالحوت.
أما إطلاق (الحوت) وْإرادة الحبر منه فله شواهد كثيرة من اللغة العربية التي يتسع صدرها لأمثال هذا الإطلاق. بل ربما كان له شواهد أيضا في اللغات الأخرى، وها نحن اليوم نقول فيتيل (المدينة الفرنسية) ونريد ماءها المعدني الذي ينبع فيها - وكولونيا (المدينة الألمانية) ونريد ماءها المعطر الذي يصنع ويجلب منها - وجنيه (بلاد غينيا) ونريد الدينار المصري الذي استخرج ذهبه من معادنها - ويقول العرب (نون) أي الحوت، ويريدون الحبر الأسود الذي يستخرج سائله - وأنزل القرآن بلغة العرب وعلى مناحيهم في أساليب البلاغة، فافتتحت السورة بالقسم على براءة النبي صلى الله عليه وسلم مما قاله المشركون فيه وتنبيه المخاطبين إلى عظيم فضل الله على البشر مذ هداهم إلى التسطير والكتابة، والى استخدام أدواتها من حبر وقلم. فكان ذلك سبباً لما بلغوا إليه من علم وحضارة وثقافة.
ولم أرد أن أحقق هنا معنى الآية الكريمة، ولا ما هو الأصح المعتمد في تفسيرها، فان ذلك مبين في تفسيري على (جزء تبارك) المهيأ للطبع - وإنما أردت أن أبين المصدر الذي استقى منه (كازيمرسكى) القول بان النون تدل على خلاصة علوم البشر حتى رأى الياس بك القدسي إنها تصلح لان تقوم مقام الانسكلوبيدي
ولا سيما أن في الإمكان تناول مشتقات مختلفة منها: فيقال مثلا (نّون تنويناً) (منّون) (منّونون) وتؤنث فيقال (النونة) الفرنسية (والنونة الألمانية) والنونة العربية وينسب إليها فيقال فلان صاحب نون ونوني
دمشق
المغربي
الفن والروح
للأستاذ الحوماني أستاذ الأدبالعربي بكلية طرابلس
الفن في الأثر بدعة، وفي المؤثر بدعة وإبداع
فهو في قول إحدى جواري العباسيين وهي تقلب تفاحة أهداها إليها سيدها
يا رب تفاحة خلوت بها ... تشعل نار الهوى على كبدي
لو أن تفاحة بكت لبكت ... من رحمتي هذه التي بيدي
هو بدعة أنشأها الفكر بين عاطفة الحب ودقة التصوير، وإما الفن في الشاعرة نفسها فهو بدعة الجمال وإبداع الخيال
ففي الطبيعة في الإنسان جمال تام، وفي غيره جمال ناقص
والفن في الزهرة مثلا شكل ولون وعطر، إذاصح أن العطر في الزهرة مقابل الروح في الفنان، وهذه كل ما في الزهرة من جمال، ولكن الفن فيك - إلى هذه الثلاثة - فكرة تخلق الزهرة في نفسك جميلة الشكل واللون والعطر
الفن في المرئيات نتيجة الفكر والجوارح، وإما هو فيما وراء ذلك فقد يكون وليد الفكر كالفن في الشعر، وقد يكون نتاج الفكر والجوارح أيضا كالموسيقى والخطابة ونحوها تستطيع أن تتصور حبيبك تصورا تاما، وإما أن تصفه للسامع وصفا دقيقا، أو أن تتناول الريشة وترسم ما تتصور فذلكما ليس في طوقك ما لم تكن فنانا في الشعر والرسم.
من ذلك يتضح لديك الفرق بين العلم والفن، فنواة العلم أن تتصور، وإما نواة الفن فأن تتصور ثم تتصور. فتصورك المسألة علم، ثم تصورك إياها فن. من ذلك تدرك فضل الفن على العلم وأنه احفل منه بالخلود
فالأثر الذي ينشأ عن الفكر وهو يكشف عن حقيقة ستار الجهل هو دون الأثر الذي ينشأ عن الفكر وهو يخلق الحقيقة خلقا

فليس للحكمة أن تهب الخلود للشعر وهو عار عن الفن، ولعل النظم الفصيح القاصر على الحكمة بعيد عن حظيرة الشعر للفرق بين قوله:

كبير النفس تلقاه ... هزيل الجسم من سقم

وقول الآخر في معناه:

إذا سمنت همة في الضلوع=فآيتها البدن الناحل

فليس الجمال في بيان أن هزال الجسم في عظام الرجال ينم على كبر نفوسهم، فقل من تأخذه الروعة لهذه البيان، إذ هو حقيقة مجردة، والعلم بالحقيقة المجردة أزلي في النفوس، ولكن إلباس هذه الحقيقة لونا من الخيال يجعلها حقيقة ثانية لم يسبق لها وجود في النفس فتظهر بها في مظهر الروعة والجلال.

فقد لحظ الفكر في البيت الأخير بعد تصوره المعنى الحقيقي الثابت وهو استلزام كبر النفس إجهاد الجوارح، واستلزام هذا نحول الجسم. . . لحظ الفكر ما يقابل النحول وهو السمن، فشاء أن يجعل السمن الذي هو مقابل النحول علة له وهو من الغرابة بمكان، ثم لحظ الهمة التي هي مناط الطموح المفضي إلى إجهاد النفس فاسند إليها السمن بجامع العظمة بينه وبين الكبر، فصح له إذ ذاك أن يعلل به النحول، فكان من المجموع ذلك خيال يوهم النفس انه حقيقة جديدة فيستهويها بما يبتدعه من خلق ما لم يكن وإيهامها انه قد كان

وإما الفكر في البيت الأول، فقد مر بالحكمة فأبرزها عارية من جمال الفن، فكانت بعيدة عما يصعد بها إلى سماء الشعر، ثم يطبعها على مرآة النفس حية خالدة فالشعر البسيط المعنى، هو بجمال فنه اعلق بالنفس الشاعرة منه بجلال معناه، وهو بعيد عن جمال الفن

والنفس بطبعها ميالة إلى البحث عما تجهل (حب الاستطلاع) من اجل ذلك يستهويها الغريب فتعلق به حتى إذا الفته وأحاطت به هجرته وملت صحبته، فهي والحقيقة الراهنة قيد حواسها، تتشوف إلى ما وراء الحقيقة، فإذا أخفقت فزعت إلى الفكر فراح يعبث بها ويملأ زواياها إعجابا بما يصوره من أخيلة تتراءى لها حقائق جديدة

فإذا علمت أن الحياة إنما هي حكمة وفن، وأن الحكمة نواميس يسنها في الطبيعة المبدع الأول، وفي الاجتماع المبدع الثاني، وأن الفن هو ما فيهما من جمال، وأن مناط هذه الحكمة العقل، والعقل عرضة للزوال، ومناط ذلك الفن الروح، والروح الخالدة؛ إذا علمت ذلك علمت أن الفن إنما هو قوام الحياة الأسمى، فلم نكن لنرتاد المروج والحدائق لو لم تؤخذ العين بسحر ما في زهورها وشجرها وثمرها من جمال الفن، ولا لندخل منزلا لم تسبغ عليه يد الفن جمالا يستهويك بين آرائك تتخللها المناضد، تعلوها الآنية على احدث فن

يجلل الجدار بالرسوم، والأرض بالفراش والرياش

وقد يستهويك ما تسمع وترى من جمال الفن فيك فيخلق فيك فكرة الإبداع، فيسوغ لك إذ ذاك أن تقول: أن الفن في الأثر بدعة وإبداع ايضا، على انه إبداع الفن في النفس، يؤول إلى إبداع النفس في الفن آخر الأمر

ثم أن للفن في المسموع لطف وقع على السمع، وبعد اثر في أعماق النفس، لن يتوفر في الفن المنظور من حيث تراك وأنت تسمع الصوت الجميل فتهتز، تتصور جمال العازف وهو بعيد عنك بجسمه، وقريب منك بروحه الموقعة على الأوتار ينقلها إليك الحاكي، أو يبعثها إلى روحك توقيع الفنان من وراء الستار، فيتوفر لديك مؤثران: الفن الذي نحسه، وجمال الفنان الذي تتخيله ضرورة انك لا تلحظ الصوت وأنت ترى الشخص الجميل، بينما لا تسمع الصوت الجميل إلا وتتصور جمال الشخص من ورائه

الروح في الفن

في كل كائن ثلاث ميز: جنسه، ونوعيته، وذاته؛ ففي الإنسان مثلا ما يميزه من العجماوات وهي إنسانيته، ثم ما يميز من غيره من أبناء نوعه وهي شخصيته.

والشخصية هنا هي ما يميز الشخص من أفراد نوعه في شكله لا في روحه، فالروح لا تلمس إلا بآثارها، ولا يمكن للرسام وهو الشاعر الصامت أن يصورها وهي متصلة بالروح (سر الحياة الغامضة) ولكنه يستطيع إبراز شخصية النوع كآثار النفس الناطقة لما يدل عليها من أمائر تبدو على أسرة الوجه، ورسم الأعضاء على كيفية تشير إلى النفسيات بما عودت الناظر عليه في حقيقة الحي قبل رسمه

فريشة الرسام لا تتناول رسم الأعضاء بما يميز الشخص في جنسه أو نوعه فحسب حتى تتناول شخصيته أي تميزه من غيره من أفراد نوعه، ومناط التفاضل بين أولي الفن إنما هو في إبراز هذه الشخصية مشفوعة بميزة النوع

فإذا لم تقرأ في الرسم ما يقفك عل خصائص نوعه كآثار النفس الناطقة في الإنسان من حيث تفكيره وعواطفه، ثم نسبة هذه الخصائص الكلية في النوع إلى الخصائص الجزئية في الشخص، فلن تستطيع أن تقف من هذا الرسم على روحتلمس من وراءها جمال الفن فيه

فالروح في فن التصوير هي أن تجمع إلى خصائص النفس النوعية فيما تصور خصائصها الشخصية التي يمتاز بها الفرد من غيره من أبناء نوعه

فإذا توفرت هذه في الرسم خلق في نفسك - وأنت تراه - الروعة بما يمثل لك من حقيقة في الخارج حتى كأنك تلمسها بروحك

وهكذا هي - أي الروح - في تصوير الأشياء: جمال في الرسم يلمسك حقيقة ما أوخذ عنه لما تجدك معه معجبا بما تنصفح من خيال رائع

أما الرسوم الخيالية (كاريكاتور) كرموز الآلهة وصور الشياطين ونحوها فمناط الإبداع فيها انفعال نفس الناظر إليها بما خلقت له كالجمال والحب والخير والشر في رسوم الآلهة، وكالإرهاب والتفكهة والحمل على السخرية فيما عداها من الرسوم فروح هنا هي تأثير الرسم في النفس بما رسم له ليصح معنا أن الروح في كلا الأمرين: نقل الحقيقة وخلقها، إنما هي إلماس الرائي حقيقة ما ينقل الراسم أو حقيقة ما يتخيل والروح الفنية تختلف باختلاف فنونها، فالروح في فن الرسم هي غير الروح في فن النظم، والروح في هذين غيرها في فن الموسيقى، فهي في الرسم منتزعة من المرسوم، وإما في المنظوم فهي منتزعة من الناظم. إذ الشاعر يصور غيره في طريقه إلى تصوير نفسه، وإما الرسام فيصور نفسه في طريقه إلى تصوير غيره، فنظم الشاعر مرآة تريك نفسه ونفس الرسام مرآة تريك رسمه

وبأوضح من هذا إنك وأنت تدرس فن الرسم تتلمس روح الفن من حيث اتصالها بالمرسوم قبل الراسم، وفي درسك فن الشعر تتلمس روح الفن من حيث اتصالها بالشاعر قبل ما يشعر به، من أجل ذلك تراك شديد الحرص على معرفة الشاعر لدى سماعك قطعة من شعره هي غاية في الإبداع، بينما ترى الصورة الجميلة على الجدار فتفتتن بها من حيث فنها، ثم لا تجدك شديد الميل إلى معرفة من أبدعها. فلحاظك الشاعر وهو يستهويك بشعره، فوق لحاظك الرسام وأنت تعجب بما يرسم على أن الفرق بين روحي فن الرسم وفن الشعر جد دقيق، لدقة الفرق بين الرسام والشاعر، ولعل الرسام شاعر صامت

فالرسام وهو يصور لك الحقيقة في الخارج تصويرا حقا هو ابلغ أثرا في الفن منه وهو يخلق حقيقة ما يرسم، وإما الشاعر فمناط خلوده أن يخلق ما يصوره من الحقائق، لما مر بك من أن الفن إنما هو إبداع، على أن كليهما مبدع كما سيجيء

فليس للفنان في الرسم مهما أبدع في خلق الصور الخيالية (كاريكاتور) ما للفنان في الشعر وهو يتخيل فينتزع لك من الصور الحقيقة صورا خيالية يوهمك إنها حقيقة جديدة وإذا قصرنا إبداع الفنان في الرسم على تصوير الحقيقة الخارجية تصويرا بالغاً فليس معنى ذلك أن الفنان لم يأت بجديد فيكون هذا القول معارضاً لما سبق من أن الفنان يخلق الحقيقة خلقا، لانا نعتبر تصويره البالغ للحقائق هو خلقا جديدا لها، إذ يوهمك انه عين ما يصور من حقيقة، فيكون هذا الإيهام إبداعا يشير إلى حقيقة ثانية خلقها فكر الفنان.

فالحقيقة التي يخلقها الفنان إما أن تكون متحققة في الخارج مادة وشكلا ثم يصورها لك بشكلها ومادتها حتى كأنك تحس بها حقيقة فيثير فيك الإعجاب لما يوهمك من إنها هي فكأنما قد خلقها خلقا، أو أن الحقيقة التي يخلقها هي نفس الإيهام مشفوعا بما يبعثه فيك من الروعة ولإعجاب

وأما أن تكون تلك الحقيقة المخلوقة متحققة في الخارج مادة لا شكلا كالخيال الذي يبدع الشاعر فانه ينتزع من صور الحقائق الخارجية حقيقة جديدة يوهمك إنها موجودة في الخارج كما في قول ابن خفاجة في نارنجة

وحاملة من بنات القنا ... أما ليد تحمل خضر العذب

وتندى بها في مهب الصبا ... زبرجدة أثمرت بالذهب
فالزبرجد والأثمار والذهب كل منها موجود في الخارج، ولكن الشكل الذي أبدعه الخيال منها وهو أثمار الزبرجد بالذهب هو غير موجود في الخارج ولكنه من خلق الخيال.
فالإيهام أذن لا يفارق الفن في الشعر والرسم، فمناط الإعجاز في فن الرسم هي الحقيقة الأولى، ومناط الإعجاز في فن الشعر هي الحقيقة الثانية، وقد يعجز الشاعر في تصويره ما في الخارج من حقيقة كما قد يعجز الرسام في إبداع ما يخلق من حقيقة ليس لها وجود في الخارج
والروح في فني الشعر والموسيقى مصدرها واحد وهو العاطفة، على أن الروح في فن الرسم مصدرها الفكر والخيال، والفرق بين الروح الشعرية وروح الفن الموسيقى هو أن
مظهر هذه هو الصوت من حيث توقيعه وترجيعه، ومظهر تلك هو اللفظ من حيث يبعث في نفسك ما انفعلت به نفس الشاعر وهو يلفظه، وهذه الروح التي نفرق بينها وبين روح الفن الموسيقى، إنما هي الروح التي تقابل الفن والعلم في الشعر لا الروح التي هي داخلة في قوام الفن في الشعر، فان في الشعر روحين أحدهما داخلة في قوام الشعر وهي هذه المعبر عنها بالتأثير النفسي المنتقل باللفظ من نفس الشاعر إلى نفس السامع أو المطالع كما تنقل الأوتار تأثيرات الموقع عليها إلى سامعها وثانيتهما داخلة في مفهوم فن الشعر وهي المعبر عنها بالذوق الشخصي في الشاعر ينقلها اللفظ من حيث تصويره للحقائق منقولة أو متخيلة، وهذه تتفق مع الروح في فن الرسم من حيث المصدر، فكلتاهما تصدر عن الفكر والخيال
فالروح في فن التصوير تتفق مع الروح في فن الشعر من حيث مصدرهما وهو الخيال والفكر , وتختلفان من حيث إعجازهما في الإبداع؛ فالأولى إنما تعجز في نقل الحقائق، والثانية إنما تعجز في خلقها
والروح الشعرية التي تقابل العلم والفن تتفق مع الروح في فن الموسيقى من حيث المصدر الذي هو العاطفة، وتختلفان من حيث المظهر، فان مبعث التأثير في نفسك من الأولى هو الصوت من حيث التوقيع والترجيع، ولا مدلول له إلا انفعال النفس من ورائه، وإما مبعث التأثير من الثانية فهو اللفظ من حيث نقله التأثير إليك بواسطة حروفه لا صوته
فمدلول الصوت طبيعي من حيث يتناول ما يختلج في الصدر بلا واسطة، ومدلول اللفظ وضعي يتناول روح اللافظ بواسطة مدلوله الخارجي
فلا بد لنا أذن من العود إلى أن نعيد قولنا في الشعر من أنه علم وفن وروح، فقوام العلم الفصاحة، وقوام الفن الخيال، وقوام الروح العاطفة
الحوماني
الحركة الوطنية الاشتراكية الألمانية
مرحلة الكفاح وبداية الظفر للأستاذ محمد عبد الله عنان - 2
لم يشهد التاريخ الحديث ثورة ضئيلة في نشأتها، عظيمة شاملة في نتائجها كالثورة الوطنية الاشتراكية الألمانية؛ فان تلك الجماعة المغمورة التي قامت في ميونيخ باسم حزب العمال الوطني الاشتراكي بزعامة ادولف هتلر والتي لم تتجاوز السبعة، كانت أول حجر في صرح الحركة الوطنية الاشتراكية الألمانية التي أخذت تغمرألمانيالأعوام قلائل من ظهورها، والتي تواجه اليوم مصير الشعب الألماني.
قامت هذه الجماعة في ميونيخ سنة 1919 على نحو ما بينا وانتظم فيها الضابط الصغير والبناء النمسوي السابق ادولف هتلر، ليتولى بعد قليل زعامتها وتنظيمها، فماذا كانت ترجو وعلام كانت تعتمد؟ من الصعب أن نعتقد أن هذه الزمرة من رجال لا ماضي لهم ولا عصبة، وليست لهم أية كفاحات خاصة، كانت يوم انتظامها تؤمل أن تفوز في ميدان الكفاح السياسي بتلك السرعة المدهشة، لتفرض برنامجها بعد ذلك على الشعب الألماني كله. ولكن تأذى لا ريب فيه أن ظروف ألمانيا عقب الحرب الكبرى، وما سرى إليها من عوامل الانحلال واليأس والفوضى، كانت تفسح مجالا

للظهور والمغامرة؛ وكانت أية دعوة إلى الخلاص والنهوض والأمل تلقى في هذه الغمار المظلمة قبولا.

وقد كانت الحركة الوطنية المحافظة التي كانت ميونيخ مهدا لها، تتخذ شعار العمل على إنقاذ ألمانيا من ويلات الهزيمة، ومن براثن الفوضى الاشتراكية والشيوعية؛ فكانت عصبة هتلر تحمل لواء هذه الدعوة، وتعمل في جو من العطف الذي يتمتع به أبان اليأس العام كل من ألقى كلمة الخلاص والأمل. وفي هذا الجو استطاع هتلر أن ينظم حزبه وأن يجمع له الأنصار. وكانت المهمة شاقة، ولكن هتلر استطاع بكثير من العزم والمثابرة والجلد أن يحول عصبته الصغيرة إلى حزب سياسي هو: (حزب العمال الوطني الاشتراكي

الألماني). ووضعت مبادئ الحزب الأساسية في فبراير سنة 1920 في ميثاق وطني يتألف من خمس وعشرين مادة ترمى إلى أغراض خمسة: (الأول) الاستيلاء على الحكم والسلطة. (الثاني) سحق الحركة الماركسية (الاشتراكية والشيوعية). (الثالث) صبغ ألمانيا كلها بالصبغة الوطنية الاشتراكية. (الرابع) تحقيق وحدة الشعوب الجرمانية (المتكلمة بالألمانية). (الخامس) تنقية الجنس الألماني وتطهيره من كل شخص يجري في عروقه دم يهودي أو دم آخر غير آري. ولهذه الغاية الأخيرة التي صيغت في المادة الرابعة من الميثاق، أهمية خاصة؛ لان فكرة الإيثار الجنسي لم تبد من قبل في برنامج أي حزب من الأحزاب السياسية بمثل هذه الصراحة؛ وسنرى إنها غدت منذ استيلاء الحزب الوطني الاشتراكي على السلطة من أخطر المشاكل الاجتماعية والسياسة التي تواجهها ألمانيا، والتي مازالت تعاني من جرائها كثيرا من المتاعب والصعاب.

سار الحزب الوطني الاشتراكي الجديد في طريق التقدم بسرعة، ولقي برنامجه كثير من العطف والتأييد؛ وألفى في حوادث سنة 1923 (مثل نكبة العملة واحتلال الروهر) وما بثته في ألمانيا من البؤس واليأس مهادا خصبة لدعوته، وبلغ أعضاؤه يومئذ نحو ألفين. وأيده جماعة كبيرة من القادة والضباط القدماء وعلى رأسهم الجنرال لودندورف؛ وأيده كثير من رجال المال والصناعة الذين خشوا عواقب تقدم الحركة الشيوعية ولم يدخروا وسعا في مقاومتها؛ وأخذ هتلر يجمع الأنصار حول علمه ذي الصليب المدبب (سفاستكا) وانشأ لحزبه قوة شبه عسكرية لتحفظ النظام أثناء الاجتماعات وغيرها من المناسبات وهي التي غدت فيما بعد جناح الهجوم الشهير وانشأ حرسا من خاصة أعوامه وأنصاره لحمايته وحماية زعماء حزبه وهو المعروف بفرقة الحماية وبهذا اتخذ الحرس الوطني الاشتراكي لونا عسكريا قويا؛ وألفى هتلر في هذا الوقت نفسه (ربيع سنة 1923) في حوادث بافاريا فرصة للقيام بأول محاولة عنيفة. وكانت بافاريا تضطرم يومئذ بحركة رجعية قوية ترمي إلى إسقاط حكومة برلين الجمهورية وإعادة الملكية في بافاريا، على رأسها فون كار رئيس وزارة بافاريا السابق والجنرال فون لوسوف مبعوث (الريخ) - حكومة برلين - العسكري والكولونيل سايزر مدير البوليس. فتفاهم زعماء هذه الحركة مع الجبهة الوطنية الاشتراكية التي يتزعمها هتلر ولودندورف لان الحركتين ترميان إلى غرض واحد؛ واتفق الفريقان على أن ينظما الزحف على برلين وإسقاط الحكومة؛ ولكن فون كار تخلى عن الوطنيين الاشتراكيين في آخر لحظة، ونظم هتلر وأصدقاؤه الحركة وحدهم، وبدأ الثورة بأن أطلق رصاص مسدسه على سقف محل للبيرة في ميونيخ في اجتماع حافل، وأعلن أن الثورة الوطنية قد بدأت ضد (حكومة برلين اليهودية). ولكن السلطات البافارية كانت على أهبة؛ فقتل عدة من رجال النازي، وجرح الكابتن جيرنج أخص أصدقاء هتلر وساعده الأيمن ولكنه حمل خلسة إلى إيطاليا؛ وقبض على هتلر ولودندورف. وصدر قرار بحل الحزب الوطني الاشتراكي ومنع اجتماعاته - نوفيمبر سنة 1923 - . وبرئ لودندورف ولكن هتلر قضى عليه بالسجن في قلعة لخمسة أعوام - أبريل سنة 1924 - . وزج إلى قلعة لانجسبرج فبقى فيها ثمانية أشهر كتب أثناءها كتابة المعروف (جهادي) وفيه يقص حياته ويشرح مبادئ الحركة الوطنية الاشتراكية وغايتها ويرد على خصومه اليهود. وهو مؤلف لا طرافة فيه ولا قوة، ولا ينم عن مواهب فكرية أو أدبية ممتازة، بيد أنه ينم عما تضطرم به نفس هتلر من عزم وجلد. ثم أفرج عنه. وكان حزبه قد تفرق؛ ولكنه عاد إلى جمعه وتنظيمه بنفس عزمه وهمته، وظهر يومئذ في الجماهير بمقدرته الخطابية وذلاقته وقوة تأثيره. وكان هذا

التأثير ومازال اعظم خواصه ومواهبه. وكان يعمل عمله في صفوف الشباب بنوع خاص، إذ كان هذا الشباب الطامح يعانى من صفوف الشقاء واليأس والفاقة أشدها، ويتطلع دائما بحماسة ولهفة إلى طريق الخلاص المنشود. وظهر تقدم الدعوة الوطنية الاشتراكية واضحا في انتخابات مايو 1924، إذ نال حزب هتلر نحو مليوني صوت تخوله في الريخستاج 32 كرسيا. ثم فتر هذا التقدم خلال الأعوام التالية، أولا لتحسن الأحوال الداخلية ولا سيما الحالة الاقتصادية وانتعاش الآمال نوعا، وثانيا لان الحكومة المتوالية أخذت تشتد في مقاومة الحركة لما رأته من تقدمها وخطورتها. بيد أن الحزب الوطني الاشتراكي استمر في كفاحه، وعادت دعوته بعد وفاة شتريزمان وانهيار سياسة الوفاق واضطراب حكومة برلين من جراء ذلك، تسري في الجموع بسرعة، حتى بلغ أعضاؤه في سنة 1931، أربعمائة ألف؛ ونال في انتخابات ديسمبر سنة 1930 نحو ستة ملايين ونصف مليون صوت تخوله في الريخستاج 107 كرسيا؛ ووصل ذروة ظفره في انتخابات يوليو سنة 1932 حيث نال نحو أربعة عشر مليون صوت تخوله 230

كرسا، وهو ما يقرب من خمس أعضاء الريخستاج، وأضحى بذلك أقوى الأحزاب البرلمانية، وقوى أمله في انتزاع الحكم. ورشح هتلر نفسه في ذلك الحين لانتخاب رآسة الجمهورية ضد المارشال هندنبورج فلم يفز المارشال أمام منافسة القوى إلا في الدورة الثانية. وبذلت حكومة فون بابن القائمة وقتئذ جهودا عنيفة لوقف تيار الحركة الوطنية الاشتراكية، وحلت الريخستاج وأجرت انتخابات جديدة في نوفمبر سنة 1932، فنال الوطنيون الاشتراكيون فيها مع ذلك 196 كرسيا. وأضحى الرئيس هندنبورج وحكومة برلين أمام الأمر الواقع؛ وأضحى واضحا انه لا يمكن لأية قوة أن تقف في وجه هذا التيار الجارف، وأن الوسائل المصطنعة لا تجدي في المقاومة، وأن السلطة صائرة إليه بلا ريب. وكان الرئيس هندنبورج قد دعا هر هتلر عقب انتخابات يوليه ليفاوضه في إمكان اشتراكه في الحكم، ولكن هر هتلر أصر على تولى السلطة كاملة غير منقوصة. وهذا ما أباه الرئيس هندنبورج مدى حين. وكان المارشال يبدي في الواقع تردداً في الثقة بالوطنيين الاشتراكيين ويخشى وجودهم في الحكم وقد ظهر ذلك واضحا في موافقته على حل البرلمان أكثر من مرة خلال أشهر قلائل، وفي تفويضه للهر فون بابن ثم من بعده للجنرال فون شليخر، أن يتذرع بالسلطة المطلقة وأن يحكم بمقتضى قوانين الطوارئ، وذلك لأن أحداً منهما لم يتمتع بثقة الريخستاج، ومع ذلك فانه لم يمض على انتخاب البرلمان الجديد شهران حتى كانت حكومة فون شلخير في دور النزع وحتى كان الرئيس الشيخ يفاوض هتلر في تولى الحكم. وقد كان هذا التطور الفجائي في موقف المارشال ومستشاريه مثار دهشة عامة، خصوصاً إذا ذكرنا أن الحزب الوطني الاشتراكي لم يكن يومئذ في ذروة قوته، ولم تكن له في البرلمان سوى أقلية، وكانت قد نضبت موارده وخبت قواه. ومن الغريب أن يكون رجل هذا التطور ومدبره فون بابن لم يدخر أثناء حكومته وسعا في سحق هتلر وحزبه وقد فسر هذا التطور يومئذ بان استدعاء هتلر إلى الحكم لم يكن إلا وسيلة لتحطيم نفوذه وتمزيق حزبه، وأن هذا الاضطلاع بأعباء الحكم ومسئولياته سيصهره ويكشف عن ضعفه، وانه من جهة أخرى لن يتمتع بالسلطة كاملة، وستتخذ الضمانات الكفيلة بكبح جماحه ومنعه من إطلاق العنان لمشاريعه المتطرفة التي كانت تعتبر يومئذ خطرة على مستقبل ألمانياومصالحها ومركزها الدولي. وعلى أي حال فقد وقع الانقلاب

الحاسم أخيراً، وعهد المارشال هندنبورج إلى الهر أدولف هتلر بتولي رياسة الحكم في 30 يناير سنة 1933 ودخل الوزارة معه من أقطاب حزبه الكابتن جيرنج وزيراً للداخلية. ولكن أعطيت وكالة الرياسة ورآسة وزارة بروسيا للهر فون بابن، ووزارة المالية لزعيم الحزب الوطني الهر هوجنبرج، ووزارة الخارجية للبارون فون نويرات ووزارة الدفاع لقائد مسئول مباشرة لدى الرئيس هندنبورج، وبذاأعطيت السلطات الهامة لرجال يثق المارشال بفطنتهم واتزانهم وحسن تقديرهم

على أن هذه الضمانات التي أريد أن يحاط بها حكم الوطنيين الاشتراكيين كانت نظرية، وكان هر هتلر بالعكس يعتقد أن هذه الخطوة إنما هي تحقيق للشطر الأول من برنامجه، وهو الاستيلاء على السلطة؛ ويجب أن يكون هذا الاستيلاء عمليا كاملا.

وسرعان ما تدفق تيار الوطنية الاشتراكية منذ المساء الذي تقلد فيه الزعيم (أي هتلر) رآسة الحكم، وهرعت فرق الهجوم ذوي الأردية السمراء آلافا مؤلفة تحي الزعيم في مكتب الرآسة وتهتف له حتى منتصف الليل. ومنذ تلك الليلة ظهر الحزب الاشتراكي في ذروة قوته، وشعر زعماء ألمانياالسابقين وشعر الشعب الألماني كله بان عهدا جديدا سيفتتح. ثم توالت الحوادث بسرعة فوقع حريق الريخستاج في 27 فبراير؛ وكان الريخستاج قد حل مرة أخرى لان هتلر لم يثق بمجلس ليست له فيه اغلبية قوية، ولم يرد أن يبقى تحت رحمة حلفائه اعضاء الحزب الوطني وحزب الوسط الكاثوليكي؛ وتحدد للانتخابات الجديدة يوم 5 مارس فوقع حريق الريخستاج قبله بأيام قلائل، ونسبت الحكومة الجريمة إلى الشيوعيين واتخذتها ذريعة لسحق كتلة اليسار أعني الديمقراطيين والشيوعيين فقبضت على زعمائهم وصادرت مراكزهم وأموالهم وطاردتهم بمنتهى العنف والشدة؛ وصرح الهر هتلر وزملاؤه يومئذ بان لديهم الأدلة الحاسمة على أن الجريمة إنما هي بدء فقط لثورة دموية مخربة واسعة النطاق يدبرها الشيوعيون لقلب الحكومة. ولكن حريق الريخستاج لبث مع ذلك حادثاً غامضا مريبا ولم يقتنع الرأي الخارجي بهذه التأكيدات؛ ووجهت بشأنه شكوك وتهم خطيرة إلى الحزب الوطني الاشتراكي ذاته وعلى أي حال فقد ساعد هذا الحادث على ظفر الهتلريين في الانتخابات فخرجوا بأغلبية قوية وفاز الديمقراطيون مع ذلك بنحو مائة وثلاثين كرسي والشيوعيون بنحو ثمانين وعقد الريخستاج الجديد في 23 مارس؛ ولم يشهد
النواب الديمقراطيون والشيوعيون لأنهم كانوا جميعا في السجن أو المنفى، وفي هذه الجلسة حصل الهر هتلر على تفويض بالحكم المطلق والتشريع لمدة أربعة أعوام، ولم يبق له حاجة بعد ذلك إلى موافقة الرئيس هندنبورج أو توقيعه، وتحققت بذلك الدكتاتورية المطلقة التي ينشدها الحزب الوطني الاشتراكي، ولم يمض سوى قليل حتى انتزع هتلر الوزارات التي كانت بيد حلفائه وشغلها بأصدقائه ومعاونيه، وتوارى جميع الزعماء والقادة الآخرين من الميدان؛ وأضحى هتلر سيد ألمانياالمطلق ومن ورائه حزب زاخر قوامه اليوم خمسة ملايين.

(يتبع)

محمد عبد الله عنان

مشكلات التاريخ

نكبة البرامكة

للسيد مصطفى جواد

لعل أغرب ما وهم المؤرخون فعمي عليهم سبب تدمير الرشيد للبرامكة أنهم عدوا بني برمك دعاة للعلويين ومذيعين لمذهب التشيع في البلاد، والمشكلة التاريخية إذا استبهم جانب منها تشعب فيها الظنون واختلفت الآراء واضطربت الأحكام. ولو علم المؤرخون أن البرامكة كانوا يتقربون إلى الرشيد بالسعي على العلويين والسعي بهم وتبغضيهم لوجدوا إلى سبب تلك الفتكة الهاشمية سبيلا، وعلى الجلية دليلا، ولعلموا أنهم لما حق عليهم العذاب دمرهم الله تدميرا،

لم يكن استئثارهم بالحكم وحده سبب هلاكهم، ولا غزارة ثرائهم مدعاة إلى النقمة عليهم، ولا الزواج الذي اختلقته الشعوبية موجبا لاستئصالهم، ولا إلحادهم منبها على عقابهم، وإنما الندامة التي ندمها الرشيد بعد أن استدرجوه إلى تشريد بني عمه العلويين واستحلال دمائهم الزكية وتعذيب الأبرياء منهم العذاب الهون؛ لم يكن الرشيد ملحداً حتى لا يندم، ولا بليداً حتى لا ينتبه، ولا شقيا حتى لا يتوب، ولا مقصراً حتى لا يتدارك. من شفيعهم إليه وقد ولغوا في دماء بني علي وطلبوا الزلفى بتعذيبهم، وأعلوا مراتبهم بخفض العصبية الهاشمية واجتثاث الشجرة النبوية؟ ولقد جرؤوا بالحادهم وسوء سيرتهم أن (جعفرهم) حز رأس حبيسه العلوي (عبد الله الشهيد بن الأفطس) في يوم النوروز، وأهداه إلى الرشيد في طبق الهدايا، فلما رفعت المكبة من فوق الطبق ورأى الرشيد في الطبق رأس ابن عمه استعظم ذلك، فقال له جعفر: ما علمت أبلغ سرورك من حمل رأس عدوك وعدو آبائك إليك، وكان الرشيد قد حبسه عند جعفر وأمره بان يوسع عليه. وقال ذات يوم: اللهم اكفنيه على يدي ولي من

أوليائي وأوليائك، فلم يجد هذا الشقي الكفاية إلا بقتله صبراً لا سيف معه يذود به عن نفسه، ولا بنو علي حوله يحيطونه ويكلأونه، ولا شفيع يرد عنه لؤم الزنادقة، وهو الذي شهد وقيعة (فخ) متقلداً سيفين ينفح عن حق كان يراه مبزوزاً، ويكافح عن سيد كان يرى نفسه محلاً عن مكانته، فلما أسر أخذه الرشيد وحبسه عند جعفر - على ما قدمنا - فضاق صدره بالحبس وكتب إلى الرشيد رقعة يشتمه فيها شتما قبيحا، فلم يلتفت إلى ذلك لأنه عالم بالعزة العلوية والاستبسال الهاشمي، ولم يأمر إلا بالتوسيع عليه والترفيه عنه، فكان من أمره مع جعفر ما كان.

وقال السيد نعمة الله الجزائري في سبب هلاك البرامكة على يد الرشيد (وقد ذكرنا أن السبب فيه ظاهرة حكاية العباسة أخت الرشيد، وإما السبب الحقيقي فهو دعاء أبي الحسن الرضا - ع - على آل برمك في موقف عرفة لأنهم سعوا بالكاظم - ع - وكانوا أقوى الأسباب في شهادته وهذا التعليل وأن أورده الجزائري على حسب اعتقاده وتربيته الدينية؛ ففيه رد شديد على القائلين بأن هوى البرامكة كان مع العلويين؛ وبلغ الطيش ببعضهم أن جعلوا كل حركة للفرس دعوة للعلويين وطلاباً بحقهم، وانتصاراً لهم، ونشراً لمذهبهم، وأين الزندقة من صريح الإسلام؟

وقال بهاء الدين أبو الحسن علي بن فخر الدين عيسى الأربلي الكردي في ترجمة الإمام موسى بن جعفر الكاظم ما صورته (وكان السبب في قبض الرشيد على أبي الحسن - ع - وقتله ما ذكره أحمد بن عبيد الله بن عمار عن علي بن محمد النوفلي عن أبيه. عن مشايخهم قالوا: كان السبب في أخذ موسى بن جعفر - ع - أن الرشيد جعل ابنه في حجر جعفر بن محمد بن الأشعث فحسده يحيى بن خالد بن برمك على ذلك وقال: إن أفضت إليه الخلافة زالت دولتي ودولة ولدي، فاحتال على جعفر بن محمد - وكان يقول بالإمامة - حتى داخله وأنس به، فكان يكثر غشيانه في منزله فيقف على أمره ويرفعه إلى الرشيد ويزيد عليه في ذلك بما يقدح في قلبه، ثم قال لبعض ثقاته: أتعرفون لي رجلا من آل أبي طالب ليس بواسع الحال يعرفني ما أحتاج إليه، فدل على علي بن إسماعيل بن جعفر بن محمد، فحمل إليه يحيى بن خالد مالا، وكان موسى - ع - يأنس بعلي بن إسماعيل ويصله ويبره، ثم أنفذ إليه يحيى بن خالد يرغبه في قصد الرشيد ويعده بالإحسان اليه، فعمل على ذلك، فأحس به موسى - ع - فدعا به وقال له (إلى أين يا ابن أخي؟) قال إلى بغداد. قال وما تصنع؟ قال علي دين وأنا مملق، فقال له موسى: أنا أقضي دينك وأفعل لك واصنع.

فلم يلتفت إلى ذلك، وعمل على الخروج، فاستدعاه أبو الحسن - ع - وقال له: أأنت خارج؟ قال: نعم لابد لي من ذلك، فقال له: انظر يا ابن أخي واتق الله ولا توتم أطفالي: وأمر له بثلثمائة دينار وأربعة آلاف درهم. فلما قام من بين يديه، قال لمن حضره: والله ليسعين في دمي ويوتمن أولادي. فقالوا: (جعلنا فداءك، وأنت تعلم هذا من حاله وتعطيه وتصله؟ قال: نعم، حدثني أبي عن آبائه عن رسول الله - ص - أن الرحم إذا قطعت فوصلت فقطعت قطعها الله، وإنني أردت أن أصله بعد قطعه، حتى إذا قطعني قطعه الله، قالوا فخرج علي بن إسماعيل حتى أتى يحيى ابن خالد فتعرف منه خبر موسى ابن جعفر - ع - فرفعه إلى الرشيد، وسأله الرشيد عن عمه فسعى به إليه وقال له: إن الأموال تحمل إليه من المشرق والمغرب وأنه. . .) حتى قال (ثم خرج يحيى بن خالد على البريد حتى وافى بغداد، ثم دعا السندي بن شاهك فأمره في موسى بن جعفر بأمره فامتثله، وكان الذي تولى به السندي قتله جعله سما في طعام قدم اليه، ويقال إنه جعله في رطب فأكل منه موسى وأحس بالسم ولبث بعده ثلاثاً موعوكا ثم مات في اليوم الثالث. . . واخرج ووضع على الجسر ببغداد. . . فأمر يحيى بن خالد أن ينادي عليه عند موته: هذا موسى بن جعفر الذي تزعم الرافضة أنه لا يموت فانظروا إليه)

فهذا الدليل الثاني على خطأ من نسب البرامكة إلى التشيع والإمامة، فلقد كانوا حربا على الإمامة وعيونا على التشيع وراءها الفتك والزندقة، ومحاربة الإسلام بلأمته، ونقل علي بن عيسى الأربلي المذكور أن محمد بن الفضل قال: (لما كان في السنة التي بطش هرون فيها بالبرامكة وقتل جعفر بن يحيى وحبس يحيى بن خالد ونزل بهم ما نزل كان أبو الحسن (علي بن موسى الرضا) واقفا بعرفة يدعو ثم طأطأ رأسه فسئل عن ذلك فقال: إني كنت ادعوا الله على البرامكة فقد فعلوا بابي ما فعلوا، فاستجاب

الله لي فيهم اليوم فلم يلبث إلا يسيرا حتى بطش هرون بجعفر وحبس يحيى وتغيرت حالهم)
فهذا الخبر كالذي أورده السيد نعمة الله الجزائري مضارة بن برمك لبني علي، ولكنه أقدم منه نقلا - كما نعرف من تاريخ المؤلفين - وكلاهما نظر فيه نظراً دينيا، ومع ذلك يدلان على كره الإمام الثامن من الأئمة الاثنى عشر للبرمكة ودعائه عليهم ربه، وقال محمد تقي التبريزي (من الأغلاط المشهورة ما اشتهر من أن البرامكة كانوا من المتشيعة حتى أن
أيدمر بن علي الجلدكي، ذكر في كتاب نهاية الطلب في شرح المكتسب بتقريب: أنه كان سبب بطش هرون الرشيد بهم ما اشتم منهم أنهم يريدون تحويل الدولة من آل العباس إلى آل علي، وذلك كله غلط نشأ من قلة التتبع، فان البرامكة - لعنهم الله - هم الذين سعوا في قتل موسى عليه السلام فان يحيى بن خالد هو الذي بعث علي بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن أخي موسى على السعاية بموسى عند هرون لداع دعاه إلى ذلك مذكور في كتب الأخبار، والفضل بن يحيى هو الذي بعث بالسم إليه فقتله بأمر هرون وبيد السندي بن شاهك، بل روى أن يحيى لم يكتف بذلك حتى أراد أن يغري هرون بقتل الرضا، فقال هرون: أما يغنينا ما صنعنا بأبيه؟ أتريد أن نقتلهم جميعا؟ وقد رواه الصدوق في العيون (عيون اخبار الرضا) عن صفوان بن يحيى وذكر في آخره أن البرامكة كانوا متعصبين على أهل بيت رسول الله - ص - مظهرين العداوة لهم، وبالجملة الذي يظهر من الأخبار المعصومية أن الله لم يغير ما بالبرامكة من النعمة إلا من جهة سعيهم ومباشرتهم قتل موسى، فكيف يجري فيهم هذا الاحتمال؟) عن صحيفة الأبرار (396: 2)
وهذه شهادة من أقوى الشهادات، فان محمد تقي التبريزي هذا شيخي المذهب فارسي الأصل والبرامكة من جنسه، ولكن الحق عزيز على أهله فلا يضيعونه ولا يفارقونه، وحل هذه المشكلة التاريخية (إن البرامكة إذ أدخلوا الرشيد سياسة البغي واستدرجوه إلى قسوة الحكم وقتل السادة الأبرار الأبرياء من بني عمه تلقفهم بالرأي الحازم الحاسم ووضع فيهم السيف وعراهم بالمصادرة والعذاب، فعفى على آثارهم وبئست عاقبة القوم المكذبين بالدين الساعين في قتل السادة العرب وحفظة الإسلام وأهل الهدى والتقوى، ولو لم يكن لهم من المساعي الخبيثة النتائج إلا قتلهم موسى بن جعفر لاستحل خليفة الزمان قتلهم، فكيف وقد ضحوا بكثير من العلويين وغيرهم من بهاليل العرب؟ فالرشيد أذن قد ندم على ما كان من الغفلة وأسف على أرواح أولئك الأبرياء وفطن لما يريد بنو برمك به وبالإسلام وسادات العرب، فانتقم وتدارك واستغفر، وهل من دليل على ذلك أقوى من قوله ليحيى - وقد نقلناه (أما يغنينا ما صنعنا بأبيه؟ أتريد أن نقتلهم جميعا؟) ومن أنه لما أرسل مسروراً الخادم لقتل جعفر بن يحيى قال له جعفر: بم يستحل أمير المؤمنين دمي؟ فقال له مسرور (قال أمير المؤمنين: بقتلك ابن عمه عبد الله بن الحسن بن علي بغير إذنه. فهذا دليل أصرح ما يكون
على الندم والتوبة وبه تسقط آراء كثير من المؤرخين في نكبة البرامكة، وحسبنا بهذا أننا كشفنا غمة تاريخية بالأدلة الناطقة والبراهين الصادقة، فاستقام بها مجرى من مجارى التاريخ كان متعرجاً ملتويا لا تطرد فيه الحوادث ولا تسترسل فيه الآراء
مصطفى جواد
حول (الوضوح والغموض)
عقد الأستاذ عباس فضلي فصلا طويلا تحت هذا العنوان، تكلم فيه عن غموض الشعر وأسبابه وقيمته، وانتهى في حزم إلى أننا يجب أن نرفض كل شعر غامض لأن الغموض والجمال لا يجتمعان في صعيد واحد، ويظهر أن الأستاذ إنما يريد هذا النوع من الغموض، الذي يتجلل من حنادس الليل بحجب وأستار، فإذا أعملنا فيه عقولنا وأجهدناها ما وسعنا الأعمال والاجهاد، لم نتبين شيئا غير الظلام الموحش، والحلوكة الدامسة، وليس هذا هو الغموض الفني أو الشعري الذي يجعله الدكتور طه حسين سببا من أسباب جمال الشعر، وإنما يريد الدكتور - فيما أفهم - غموضا آخر جميلا، لا تنفر منه النفس ولا تستوحش، وإنما تقبل عليه، وتهش له، وتجد فيه لذة ومتاعا كبيراً، وهو أشبه ما يكون بالظلال لا تحجب النور ولكن ترسله بقدر، ومهما كثر هذا الغموض

وفاض فلن يحول بيننا وبين التأثر الجميل بالقطعة الشعرية وما يغمرها من سحر وإبداع، بل ربما كان هو مثار إعجابنا وتقديرنا، ومبعث سرورنا وغبطتنا، هو غموض حقا، ولكنه غموض ذو بهجة، تقر به النفس، ويسر به الذهن، وما أشبهه بهذه السدول الرقيقة التي يرخيها الضباب على الطبيعة، فلا يزيدها إلا سحراً وجمالا، ولا يزيدنا إلا إعجابا واستحسانا.

وهذا الغموض الشعري له أسباب مختلفة، ولعل كثيراً منها يرجع إلى فقر اللغة وقصورها في الإفصاح عن عواطف الشعراء النفسية، وميولهم، ورغباتهم، فكثيرا ما تعجز اللغة عن أداء المعاني التي تضطرب في صدورهم، وحتى هذه الألفاظ التي ظفرت بالإفصاح عن بعض هذه المعاني، لم توفق في القيام بمهمتها الشاقة توفيقا كبيرا، وذلك لأن المعاني تفصح عنها لا تخضع لشيء خاص محدود يعرفه الجميع، فالمعاني ليست مادية محسوسة، وإنما الألفاظ هي المحدودة بحروف معدودة وفراغ مخصوص، ومما يزيد الموضوع خطرا، أن كل كلمة من هذه الكلمات التي يستعملها الشعراء تعبر عند كل واحد منهم عن حالة مخصوصة لا يشركه معه فيها أحد مشاركة تامة، وما هذه الكلمات إلا حيل وتدابير يستعملونها للإفصاح عن هذه المعاني التي تزفر بها نفوسهم، ولا شك في أن بها كثير من التسامح، كما أن بها كثيرا من الإبهام والغموض، ويخطئ كثيرا من النقاد فيظنون أن لا خلاف بين الحياتين العقلية والنفسية، الواقع أن هناك اختلافا كثيرا، فالحياة العقلية قد درست واستطاع العلماء أن يعرفوا مقدماتها وطرق استدلالها، فكان علم المنطق، أما الحياة النفسية فلا تزال على أشد ما تكون إبهاما وغموضا، ولهذا كان تحليل الحادثة الشعرية إلى عناصرها، من إحساس، وشعور، وخيال، وعاطفة منشأ غموض كثير ينتشر بين أجزاء القصيدة الواحدة، ومن هنا كان الخلاف كثيرا ما يقوم بين النقاد في فهم القطع الشعرية المختلفة، لأنهم لا يعتمدون على مبدأ معروف للمناقشة والمقارنة، فهم لا يستنيرون بتحليل واضح سابق مشابه للحوادث الشعرية التي يتناقشون فيها، وعلماء النفس أنفسهم يقولون أن الشعور مصدر الإبهام، فما بالنا بالحياة النفسية كلها وما تنطوي عليه من رغبات وعواطف، وميول وشهوات، لا سبيل إلى حدها وحصرها، وإذا كانت هذه هي الحياة النفسية وهي على أشد ما تكون التواء وتعقدا أفلا نسمح لما يخرج منها أن يحمل شيئا من آثار إبهامها ما دام جميلا نشغف به، ونعجب بحسنه وجماله

والواقع أن الأمر لا يحتاج منا إلى إصدار حكم ليفارق الشعر الغموض ويقاطعه، بل إن ذلك يرجع كما رأينا إلى الحياة النفسية ذاتها، وسواء أرضينا أم غضبنا فيستمر الغموض مسيطرا على الشعر حتى تنضج الحياة النفسية، ولا سبيل إلى هذا الإيضاح الآن وتاريخ الشعر يؤيد أن هذا الغموض لازم الشعر منذ نشأته الأولى، فقد كان الإنسان - قبل أن يتحول محيط عواطفه إلى جليد تسطع عليه أشعة الأفكار والألفاظ - يعبر عن هذه الحياة الصاخبة في نفسه بأصوات مبهمة، ولما أخذت الأفكار والألفاظ تقوم بتجسيم هذا التعبير رأى الشاعر الأول إنها عاجزة عن القيام بمهمتها قياما تاما فأضاف إليها الوزن الشعري عله يكمل بنغماته المعنى الذي يريد الإفصاح عنه، وللموسيقى الشعرية شأن كبير في الشعر، وذلك لأنها إذا ارتقت إلى أسمى درجاتها، استطاعت أن تؤثر في نفوس السامعين بدون حاجة إلى فهم الأفكار التي تحملها، فلا يكادون يسمعونها حتى يجدوا لذة جميلة لا يستطيعون أن يرجعوها إلى مصدر سوى هذه النغمات السحرية التي يبثها الشاعر في آثاره الشعرية

وغموض الشعر لا يأتي دائما من الشاعر وشعره بل كثيرا ما يأتي من القارئ وقراءته، فالناس يختلفون في فهم القصيدة بل في فهم البيت الواحد، ولا سبيل إلى كبح جماح هذا الخلاف، لأنه يرجع إلى حوادث سيكولوجية، فأن كل صورة في الشعر أو فكرة فيه حين ينقلها من عالمها الخارجي إلى عالمنا النفسي الداخلي تصادف مناطق من الشعور تختلف

باختلاف القراء، ولهذا ينتهي كل قارئ غالبا إلى صورة أو فكرة لا يشترك معه فيها غيره، ولكي يكون حكم القارئ للشعر صحيحا، يجب أن يكون ماهرا، في إخراج نفسه من كل ما يؤثر فيه، بارعا، في فهم الحالات العقلية التي تلائم الموضوع الشعري الذي يقرأ فيه، كما يجب أن يتخلى عن كل النزاعات فلا يؤثر شيئا لقدمه، وبقائه، ولا يحتقر

شيئا لجدته وحداثته
والإبهام كثيرا ما يأتي مما ترمز إليه الفكرة الشعرية، لان الفكرة الفنية لا تلهم القارئ دائما برموز محدودة، فمثلا إذا صور إنسان فتاة رامزا بها إلى الأنوثة ولم يعرف الناس ماذا أراد، رأيتهم يختلفون فيما بينهما اختلافا شديدا، هذا يقول إنه يرمز إلى الجمال، وذاك يقول إنه يرمز إلى الدلال، ويقول ثالث بل إلى الجلال، وقلما يهتدون إلى الرمز الحقيقي الذي أراده الرسام لصورته، وكذلك المناظر الطبيعية فهي لا تملي علينا فكرة محدودة، وهذا هو الذي يجعلنا نقول إن الإنسان يرى من الجمال في المرة الثانية ما لم يره في المرة الأولى، أي إنها توحي ألينا بألوان مختلفة من الأفكار العذبة والصور الساحرة، كلما نظرنا إليها وأمعنا فيها، وليس الأمر كما يظن الأستاذ فضلي من أنه يرجع إلى أننا لا نفهم الجمال مرة واحدة، إذ الجمال ليس مسألة حسابية يعوزها الفهم، ولا تمرينا هندسيا ينقصه البرهان، وإنما هو معين لأفكار كثيرة، لا مقطوعة ولا ممنوعة، ولن ينضب من هذه الأفكار الساحرة إلا إذا فنيت لا - قدر الله - حياتنا النفسية، ويتبين جمال إطلاق الشعرية من قيود التحديد في كثير من الآثار الشعرية، كما نجد في رواية هملت، فأن الناس يختلفون اختلافا كثيرا في شخصية هملت نفسه، ولا يكاد ينتهون إلى رأي واحد معين، ولكنهم مع ذلك يتفقون على أن هذه الرواية من أعظم أعمال شكسبير إن لم تكن أعظمها، وربما كان يستحسن - لهذا السبب - أن يعتمد الشعر على الإيجاز حتى يصبغ أفكاره بشيء من الإبهام والغموض يسمح لنا أن نستوحي من أفكاراً مختلفة جميلة، ولا يضع الإيجاز من قيمة الشعر بل هو على العكس يرفع منه ويسمو به إلى الأفق الأعلى، وإنما الذي يضع منه حقاً هو الإطناب الذي لا يزال بالفكرة حتى يظهرها عارية أمامنا، فسرعان ما نبتذلها ونحتقرها وإذن فالغموض الشعري يجب أن نقدره التقدير اللائق به، فلا نغالي في ازدرائه وتحقيره، يجب أن نعرف أنه من أهم أسباب جمال الشعر وحسنه، ومن يدري؟ ربما كان من أهم
أسباب خلود الشعر وبقاءه، فان الآثار الشعرية تشرق عليها الحياة في العصور المختلفة، بينما تبلى القطعة العلمية بمرور الزمن، وتنطمس معالمها، وأكبر ظني أن هذا يرجع إلى وضوح القطع العلمية، فالشيء الذي يتضح أمام الإنسان لا يفكر في ترديده وتكرار النظر فيه. وأي حاجة تستدعي ذلك؟. أما الآثار الشعرية فإنها لا تنضج أمام الإنسان جملة واحدة، ولهذا نحن نقرأها مرة ومرتين وثلاثاً، وقد نحفظها ونكررها ولا نحس بضجر ولا بملل، بل نحن نجد في ذلك لذة مغرية ومتعة طيبة
والغريب كل الغرابة أن الأستاذ فضلي يدعي (أن كل بديع في هذا الكون من منظر إلى صوت إلى شعر يلازمه الوضوح كيفما تكيف وتطور وتصور) ثم ينتهي إلى أن (الوضوح هو جوهر الجمال) وما أعرف أن أحداً يستطيع أن يوافق الأستاذ على دعواه، بل إن نقاد الفنون المختلفة يكادون يجمعون على أن الوضوح إذا عرض للآثار الفنية أفقدها كثيراً من روعتها وجمالها، والدلالة على ذلك كثيرة فنحن نعجب بنور القمر أكثر من إعجابنا بنور الشمس، وما هذا إلا لأن نوره أكثر إبهاما وأوفر غموضا، وكذلك نحن نعجب بالمناظر الطبيعية تتراءى لنا في ثياب أضواء الفجر الغامضة، أكثر من إعجابنا بها وهي متبرجة في أضواء الهاجرة، ونحن أيضا لا نطلب في الموسيقى انكشافا ولا وضوحا فمشاعرنا تتهيج بالسماع فقط، وليس من الضروري أن نفهمها، بل إن كثيرين يتأذون من فهمها، ويقلقون من وضوحها، والشعر لا يخرج عن بقية الفنون الجميلة، فهو كلما كان أكثر وضوحا، كان أقل قيمة وأدنى درجة لأنه لا ينطق حينئذ إلا بظاهر من القول وضحل من التفكير، نعم هناك مسألة مهمة يجب أن يأخذ الأدباء لأنفسهم الحذر من شرها، وذلك أن كثيرا من شعرائنا افسدوا أذواقنا في حكمنا على الشعر فجعلونا نضن أن بين الجمال والوضوح علاقة وثيقة، لأننا نجدهم يحسون بالضوء أكثر من إحساسهم باللون أو أي شيء آخر، فإذا وصفوا لنا روضا لم يشاءوا أن يصفوه إلا والسماء مصحية، وقرص الشمس يلتهب التهابا، وقلما تحدثوا بشيء عن هذا الروضإذا تنفس الصبح أو بزغ القمر، ولو تدبر شعراؤنا لعرفوا أن الجمال لا يبدوا عاريا مكشوفا أمام العيون، وإنما يتخذ دائما سرابيل تقيه شر الوضوح والابتذال سواء في الطبيعة، أو في الشعر، أو في أي شيء آخر.
شوقي ضيف

بكلية الآداب
مدينة زائفة!
للدكتور عبد الوهاب عزام
قال صاحبي، وأنا أسايره في شارع الكورنيش ليلة من ليالي الصيف: (ما أجمل هذه المدينة! أنظر هذا المهيع الممهد ما بين رأس التين والمنتزه مشرفا على لجة يمعن فيها البصر والفكر إلى غير غاية. وأنظر هذه الأبنية الهائلة الشامخة تزحم السحاب بذراها، وتقابل السماء بمثل نجومها، وتنسج في الأمواج أشعتها، وتأمل هذا العقد من المصابيح الكبيرة، يطوق هذا الخليج الجميل. والسيارات تطوي الأرض ذات اليمين وذات الشمال، فيها المصطافون قد أخذوا من الحياة متعتها، واهتبلوا من الأيام فرصتها، والحان الموسيقى تتدفق من هذه الأندية والمراقص فتموج في الهواء، حتى تختلط بأمواج الدأماء. وهذا البحر الزاخر من الناس، والمحافل المزدحمة بشتى الأجناس يحوطها النظام، ويهيمن عليها القانون والسلطان، ويرقبها الشرط والعسس، كل آخذ بحقه مأخوذ بعدوانه، يا أخي لقد استبحر العمران، وشمل الناس الأمان، وأمكنهم العيش السعيد، واسلس لهم الزمان العصى، وأطلعت لهم المدنية من النعيم ألوانا، وأنبتت لهم من اللذات أفنانا - يا أخي إنها لمدينة . . .
ثم صمت صاحبي، وتمادى بنا المسير حتى ملنا ذات الشمال إلى محطة الرمل فمررنا بباب القنصلية الايطالية، فرأيت بجانب الجدار شبحين ضئيلين فاقتربت أنعم النظر فيهما فإذا طفلان نائمان، جلس أحدهما القرفصاء واعتمد بجانبه على الجدار، وتمدد الآخر على الأرض عرضة لأقدام السابلة، قلت: وا رحمتاه! طفلان شريدان ألجأهما الشقاء إلى هذا الجدار! ويعلم الله ما بهما من السغب والنصب وما لقيا في يومهما وأمسهما، وما يلقيان في غدهما. قال صاحبي: (لا تعجب فأمثال هذين كثير يعثر بهم السائر حيثما ذهب) فأنقلب الأسى في نفسي غضبا على صاحبي قلت: (أرأيتك مدينتك هذه العظيمة، وطرقها المعبدة، وقصورها الشاهقة، ومصابيحها المتلألئة، وسياراتها الخاطفة، ومصطافيها الناعمين، ومراقصها اللاهية، وأنديتها الحافلة!! - أرأيتك القانون والسلطان، والنظام والشرطة والعسس، وهذا العمران المستبحر، والسعادة التي شملت الناس، وألوان النعيم التي طلعت بها المدنية، والعيش الخفض، والزمان المواتي، ومدنيتك الرائع الفاتنة! أليس في هذه المدينة العظيمة لهذين الطفلين سعة؟ أليس في هذا العمران لهذين الطفلين مأوى؟ أليس في هذه القوانين لهذين الطفلين حماية؟ أليس في هذا النظام لهذين الطفلين موضع؟ أليس في هذه المدنية لهذين الطفلين لون واحد من الحياة؟ أليس في هذه القلوب لهذين الطفلين مرحمة - يا صاحبي! حسبك حسبك! لا تحدثني عن المدنية ونعيمها، لا تخدعني بالمدنية وقوانينها!
أنها لمدنية زائفة!
عبد الوهاب عزام
عام جديد!
بين عام مضى وعام آتى ... موقف للمنى والذكريات
يهتف الشيخ بالقديم وداعاً ... ويحي الجديد في السنوات
ويرى الكهل في الشباب مراحا ... حفلا بالجمال والصبوات
لم يزل طيره على الفنن المن ... ضور يدعو إلى متاع الحياة
ويغني الشاب بالأمل المعسو ... ل دنيا خلابة البسمات
أيها العام ما حسابك أيا ... مٌ تقضت في يقظة وسبات
رب يوم يمر في البؤس عاما ... وسنين تمر كاللمحات
أيها العام كن على مصر خيرا ... طال عهد الشقاء والأزمات
فانشر النور والسلام على الوا ... دي وأطلق سواحر النغمات
يس عبد الله
الشافعي واضع علم أصول الفقه
للأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية الآداب

أ - الدراسات الفقهية إلى عهد الشافعي. ب - أهل الرأي وأهل الحديث
ج - الشافعي بين أهل الرأي وأهل الحديث وآثاره وكتبه
د. وضع الشافعي علم أصول الفقه
وفي صدر العهد العباسي تمكن الاستنباط واستقرت أصوله وجعل لفظ (الفقه) ينتهي بالتدريج إلى أن يكون غير مقصور على المعنى الأصلي أي الاستنباط من الأدلة التي ليست نصوصاً واصبح المعنى الأول للفقه هو: (الأحكام الشرعية العملية المأخوذة من أدلتها التفصيلية) نصوصا كانت أو رأياً وسمي أهل هذا الشأن بالفقهاء ونشأ التأليف في الفقه بهذا المعنى وانقسم الفقه إلى طريقتين طريقة أهل الرأي والقياس، وهم أهل العراق، وطريقة أهل الحديث وهم: أهل الحجاز
ب - أهل الرأي وأهل الحديث
ومقدم جماعة أهل الرأي الذي استقر المذهب فيه وفي أصحابه هو: (أبو حنيفة) المعتبر أبا لمذهب أهل العراق، أسسه وأعانه على تأسيسه تلميذاه الجليلان: (أبو يوسف) القاضي المتوفي سنة 182هـ - 797م و (محمد بن الحسن) الشيباني المتوفي سنة 189هـ - 804 م
ولئن كان حماد بن سليمان الكوفي المتوفى سنة 120هـ - 737 و738 م هو أول من جمع حوله طائفة من التلاميذ يعلمهم الفقه. مع ميل غالب للرأي. وكان (أبو حنيفة) من هؤلاء التلاميذ فان حماداً لم يترك آثراً علميا مكتوبا. أما أبو حنيفة فيقول صاحب (الفهرست)؛ وله من الكتب (كتاب الفقه الأكبر) - كتاب رسالته إلى اليسقى - كتاب العالم والمتعلم - رواه عنه مقاتل - كتاب الرد على القدرية - والعالم براً وبحراً، شرقا وغربا، بعداً وقرباً، تدوينه رضى الله عنه) ص 202
ويذكر الموفق بين أحمد المكي الحنفي في كتابه (مناقب الأمام الأعظم) آثر أبي حنيفة في
الفقه بقوله جـ1 ص 136، 137: (وأبو حنيفة أول من دون علم هذه الشريعة، لم يسبقه أحد ممن قبله لأن الصحابة والتابعين لم يضعوا في علم الشريعة أبوابا مبوبة ولا كتبا مرتبة إنما كانوا يعتمدون على قوة فهمهم وجعلوا قلوبهم صناديق علمهم فنشأ أبو حنيفة بعدهم فرأى العلم منشرا فخاف عليه الخلف السوء أن يضيعوه ولهذا قال - صلعم -: أن الله تعالى لا يقبض العلم انزاعا ينتزعه من الناس وإنما ينتزعه بموت العلماء فيبقى رؤساء جهال فيفتون بغير علم فيضلون ويضلون فلذلك دونه أبو حنيفة فجعله أبوابا مبوبة وكتبا مرتبة. فبدأ بالطهارة ثم بالصلاة ثم بسائر العبادات على الولاء ثم بالمعاملات ثم ختم بكتاب المواريث
وإنما ابتدأ بالطهارة ثم بالصلاة لأن المكلف بعد صحة الاعتقاد أول ما يخاطب بالصلوات لأنها أخص العبادات واعم وجوبا، وآخر المعاملات لأن الأصل عدمها وبراءة الذمة منها وختمه بالوصايا والمواريث لأنها آخر أحوال الإنسان فما احسن ما ابتدأ به وختم وما أحذقه وأفهم وأفقه وأمهر وأعلم وأبصر
ثم جاء الأئمة من بعده فاقتبسوا من علمه واقتدوا به وفرعوا كتبهم على كتبه، ولهذا روينا بإسناد حسن عن الشافعي - رح - أنه قال في حديث طويل: (العلماء عيال على أبي حنيفة في الفقه)
وروى عن ابن سريج - رح - أنه (سمع رجلا يتكلم في أبي حنيفة فقال له يا هذا مه، فان ثلاثة أرباع العلم مسلمة له بالإجماع والرابع لا نسلمه لهم،
قال: وكيف ذلك؟ قال: لان العلم سؤال وجواب، وهو أول من وضع الأسئلة فهذا نصف العلم، ثم أجاب عنها فقال بعض: أصاب، وبعض: أخطأ، فإذا جعلنا صوابه بخطئه صار له نصف النصف الثاني والربع الرابع ينازعهم فيه ولا يسلم لهم. . . ولأنه - رح - أول من وضع كتابا في الفرائض وأول من وضع كتابا في الشروط. والشروط لا يستطيع أن يضعها إلا من تناهى في العلم وعرف مذاهب العلماء ومقالاتهم لأن الشروط تتفرع على جميع كتب الفقه ويتحرز بها من كل المذاهب لئلا ينقضها حاكم بنقض أو فسخ. . . وقد قيل بلغت مسائل أبي حنيفة خمسمائة ألف مسألة وكتبه، وكتب أصحابه تدل على ذلك)
وجملة القول: أن مذهب أهل الرأي هو الذي رتب أبواب الفقه، وأكثر من جمع مسائله في

الأبواب المختلفة وكان الحديث قليلاً في العراق فاستكثروا من القياس ومهروا فيه فلذلك قيل: (أهل الرأي)
وإنما كان أهل الحجاز أكثر رواية للحديث من أهل العراق لأن المدينة دار الهجرة، ومأوى الصحابة ومن انتقل منهم إلى العراق كان شغلهم بالجهاد وغيره من شؤون الدولة أكثر.
ومذهب أهل العراق كان يقصد إلى جعل الفقه وافيا بحاجة الدولة التشريعية فكان همه: أن يجعل الفقه فصولا مرتبة يسهل الرجوع إليها عند القضاء والاستفتاء، وكان همه أن يكثر التفاريع حتى تقوم بما يعرض ويتجدد من الحوادث. لا جرم كان مذهب أهل الرأي مذهب القضاء، وكان أئمة قضاة كأبي يوسف، ومحمد. وكان أهل الحديث يعيبون أهل الرأي بكثرة مسائلهم وقلة رواياتهم
وسئل رقبة بن مصقلة عن أبي حنيفة فقال: (هو أعلم الناس بما لم يكن، وأجهلهم بما قد كان، وقد روى هذا القول عن حفص بن غياث في أبي حنيفة: يريد أنه لم يكن له بآثار من مضى) عن كتاب مختصر جامع بيان العلم
ويروى ابن عبد البر في كتاب (الانتقاء) ص 147 (عن الحكم بن واقد قال: رأيت أبا حنيفة يفتي من أول النهار إلى أن يعلو النهار، فلما خف عنه الناس دنوت منه فقلت: يا أبا حنيفة لو أن أبا بكر وعمر في مجلسنا هذا ثم ورد عليهما ما ورد عليك من هذه المسائل المشكلة لكفا عن بعض الجواب ووقفا عنه. فنظر إليه وقال: أمحموم أنت؟ يعني مبرسما)
أما أهل الحديث - أهل الحجاز - فإمامهم (مالك بن أنس) وكانت طريق أهل الحجاز في الأسانيد أعلى من سواهم وامتن في الصحة لاشتدادهم في شروط النقل من العدالة والضبط، وتجافيهم عن قبول (المجهول الحال)، في ذلك
وكتب (مالك) كتاب (الموطأ) أودعه أصول الأحكام من الصحيح المتفق عليه ورتبه على أبواب الفقه
وفي كتاب (تبيض الصحيفة): أن (مالكا) في ترتيبه للموطأ متابع لأبي حنيفة، ومن العسير إثبات ذلك، فان أبا حنيفة ومالكا كانا متعاصرين، وإن تأخر الأجل بمالك وأقدم ما حفظ من المجاميع الفقهية المؤلفة في عصور الفقه الأولى بين السنيين هو (موطأ مالك)
ويقول صاحب الفهرست في سرد كتب مالك:. . وله من الكتب؛ كتاب (الموطأ - كتاب رسالته إلى الرشيد - ص 199
وكانت وجهة أهل الحجاز كوجهة أهل العراق تدوين الأحكام الشرعية مبوبة مرتبة، إلا أن اعتماد أهل الحديث على السنة أكثر من اعتمادهم على الرأي، بل هم كانوا يعتبرون الرأي ضرورة لا يلجأون إليها إلا على كره وعلى غير اطمئنان
وقد روى عن مالك: انه قال في بعض ما كان ينزل فيسأل عنه فيجتهد فيه رأيه: (أن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين) مختصر جامع بيان العلم ص 192
وكان أهل الحديث يكرهون أن يتكاثر والناس بالمسائل كما يتكاثر أهل الدرهم بالدراهم، وكانوا يكرهون السؤال عما لم يكن، قالوا: إلا ترى أنهم كانوا يكرهون الجواب في مسائل الأحكام ما لم تنزل، فكيف بوضع الاستحسان والظن والتكلف وتسطير ذلك واتخاذه دينا!
وفي (الانتقاء): قال (الهيثم بن جميل): (شهدت مالك بن أنس سئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال في اثنتين وثلاثين منها: (لا أدري)
ولم يكن أهل الحديث مع ذلك ينكرون اجتهاد الرأي والقياس على الأصول في النازلة (تنزل عند عدم النصوص
ح - الشافعي بين أهل الرأي وأهل الحديث
ظهر الشافعي والأمر على ما وصفنا من نهضة الدراسة الفقهية في بلاد الإسلام نهضة ترمي إلى الوفاء بالحاجة العلمية في دولة تريد أن تجعل أحكام الشرع دستوراً لها
ومن انقسام الفقهاء إلى أهل رأي يعتمدون في نهضتهم على سرعة إفهامهم ونفاذ عقولهم وقوتهم في الجدل. وأهل حديث يعتمدون على السنن والآثار ولا يأخذون من الرأي إلا بما تدعو إليه الضرورة
كان أهل الرأي يعيبون أصحاب الحديث بالإكثار من الروايات الذي هو مظنة لقلة التدبر

والتفهم (حكي عن أبي يوسف قال: سألني الأعمش عن مسألة وأنا وهو لا غير، فأجبته، فقال لي: من أين قلت هذا يا يعقوب؟ فقلت: بالحديث الذي حدثتني أنت. فقال يا يعقوب أني لأحفظ هذا الحديث من قبل أن يجتمع أبواك ما عرفت تأويله إلى الآن. مختصر جامع بيان العلم ص 182

فأصحاب الحديث كانوا حافظين لأخبار رسول الله، إلا أنهم كانوا عاجزين عن النظر والجدل، وكلما أورد عليهم أحد من أصحاب الرأي سؤالا أو أشكالا بقوا في أيديهم متحيرين. الرازي ص 38

هم ضعاف في الاستنباط وفي القدرة على دفع المطاعن والشبهات عن الحديث (يتبع)

صفي الدين الحلي

هـ750 - 677

(شاعر أتى بما أخجل زهر النجوم في السماء، كما قد أزرى بزهر الربيع في الأرض)

هكذا يصف (ابن شاكر) صاحب فوات الوفيات بلبل الحلة وحماة والقاهرة: صفي الدين. وكأنه إذ يفاخر به الطبيعة في جمال أرضها وسمائها على ما حوى ذلك الجمال من نور وشذا وألوان وسحر، يريد أن يسجل لنا باعترافه دليلا دامغا على أولئك الذين يزعمون أن الأدبالعربي قد أخذته الصيحة يوم حطم التتار عرش المستعصم في بغداد!

نعم هناك أناس يعتقدون أن الأدبالعربي بعد سقوط بغداد قد أجدبت أرضه وهوت نجومه، فأصبح لا ينتج إلا دنئ النبات، ولا يستضئ إلا بخافت الذبالة، وإنه قد ظل عن منابع الوحي فانزوى تحت قبة ذلك العصر المظلم المغمور الذي يسمونه عصر المغول والأتراك أو عصر الدول المتتابعة، ولكن هذا الزعم مبني على نظرية مخطئة ذاعت في مبدأ دراسة الأدب، ثم أخذت معاول الآراء الحديثة تهدمها من كل جانب، وهي التي كانوا يعبرون عنها بقولهم الأدبظل السياسة، فحيثما ولت السياسة وجهها تبعها خيالها، وكلما ألم بها سقم تقاسمته مع خدينها، ولهذا جعلوا عصور الأدبمن حيث القوة والضعف مطابقة التقسيم لعصور السياسة، كأن الأدبشخص قابع تحت عرش الملك يحين أجله إذا انقض عليه العرش فهشم أضلاعه!

لم يمت الأدببعد أن ماتت بغداد، وإنما ألجأته السياسة فقط إلى الفرار من مجال الفوضى والوهن، فهام على وجه قليلا، ثم ألقى العصا في معاقل حصينة يستطيع فيها أن ينصب رايته وينشر بساطه بعد ذلك اللغب والإعياء. كانت هذه المعاقل منبثة في الأقطار العربية ولكنها ترجع جميعا إلى ثلاثة مراكز قوية: مصر كما تمثلها القاهرة، والشام كما تمثلها حماة، وجزيرة العراق كما تمثلها ماردين. وبين هذه المراكز ظل الأدبالعربي يتنقل طليقا حيا معلنا عن نفسه بأفذاذ نوابغ لا يقل بعضهم عن أعلام العصر العباسي في ريعان شبابه، ومن هؤلاء أبن نباتة المصري وصلاح الدين الصفدي، وابن حجة الحموي، وعلاء الدين بن الأثير، وصفي الدين الحلي الذي نتكلم اليوم عنه من حيث هو شاعر.

نشأ صفي الدين بالحلة من مدن العراق مهد الوحي الشعري الغامر شاعرا بفطرته: يحب الشعر ويطرب لما فيه من موسيقى وانسجام، فأكب على حفظ كثير من مقطوعاته وهو لم

يزل بعد غلاما غض الإهاب، وأخذ ينظم كثير من مقطوعاته وهو لم يزل بعد غلاما غض الإهاب، وأخذ ينظم من أمثاله ما توحيه خواطره وميوله في غير تصنع أو كلفة كما يقول هو عن نفسه (كنت قبل أن أشب عن الطوق، وأعلم ما دواعي الشوق، بهجا بالشعر نظما وحفظا، متقنا علومه معنى ولفظا، وامقا بسبك القريض، كارها للكسب بالتقريض) فكانت هذه الفطرة أول عامل في إيجاد تلك القوة الشعرية النابغة، وأكبر مؤثر في توجيه نفسه بعد إلى التفني بالعواطف الصادقة الطبيعية المتصلة بأعماق النفس ورغبات الحياة. ثم اجتمع له عامل آخر شحذ هذه الفطرة وعاونها على السير في اتجاهها وهو ولادته من أسرة راقية ذات قدم في المجد نفخت فيه من روح العظمة فجعلته يهتف بمآثرها ويغرد بمفاخرها، وربته كما ينشأ ولد النبلاء آخذا بقسط وافر من الثقافة العربية السائدة في ذلك الوقت، أو بالأحرى من الثقافة العباسية، لأن تراث الفكر العباسي كان لا يزال هو المثل الرفيع الذي يحتذيه كل من أراد أن يرتوي من مناهل العلم والأدب بالرغم مما أصابه من القضاء السياسي. وإلى هذين العاملين

كان هناك سبب ثالث ساعد كثيرا في بناء ذلك الصرح الشعري الباذخ وهو ما ألجأته الحياة إليه من التنقل بين عواصم البلاد العربية: فقد فارق الحلة وهي مسقط رأسه حول عام سبعمائة من الهجرة إلى (ماردين) اكبر قلاع الجزيرة حيث نزل على صاحبها الملك المنصور نجم الدين غازي ثم أبنه الملك الصالح، وهما من أمراء البيت الأرتقي الخاضع لسيادة مصر في عهد السلاطين، ورحل بعد ذلك حول عام 727 إلى مصر نفسها فنزل بالملك الناصر قلاوون، ثم عاد إلى حماة بالشام فاتصل بالسلطان المؤيد عماد الدين الأيوبي وهو المؤرخ الشهير بأبي الفداء وابنه الأفضل، وقد كانا واليين من قبل سلطان مصر أيضا، وذهب إلى الحجاز مرارا لأداء فريضة الحج والزيارة، فكان لهذه الرحلات آثار قوية في إحياء شعره واستغلال قريحته وفي تنمية ثقافته ومقدرته الأدبية. وإذا كان الرجل قد اجتمع له نقاء الغاية ورقي الأسرة وملاءمة البيئة فماذا تنتظر من إلا أن يكون شاعرا فحلا يرفع منار الأدبويحتل له من الخلود مكانا؟!

هكذا كانت دواعي الشعر مهيأة لصفي الدين، فأخذ يصعد إلى قمته حتى أشرف على الغاية وصار أمير الشعر بلا منازع في أقطار الشرق ما عدا مصر التي كانت معتزة إذ ذاك بأميرها الذي لا يباري وهو: (ابن نباتة)، ولما كان العصر الذي نشأ فيه الحلي هو الوارث

لآثار الفكر العباسي بالعراق، وثمرات العصر الأيوبي بمصر، فقد ظهرت طوابع هذين العهدين في شعره، واصبح مرآة حاكية لصورتيهما، ونستطيع على ضوء هذا الحكم أن نعرف الخصائص التي تميز بها شعره من ناحية الأسلوب وناحية المعاني.

أما أسلوبه فقد كان على نمط كبار الشعراء العباسيين في العصر الثاني متين الديباجة شديد الأسر مصوغا من الألفاظ القوية الرنانة المألوفة التداول، إذ كان يواجه كثيرا من عنايته إلى الناحية اللفظية، ويأبى إلا أن يعارض المتنبئ والطغرائي والحمداني وأضرابهم من الفحول، فلا يقصر خطوه عن مداهم ولا يقع دون علاهم. وقد احتذى مع ذلك طريقة القاضي الفاضل التي نشرها بمصر وسرت منها إلى الأدبالعربي جميعه، فملأ شعره بالطباق والجناس والتورية والاقتباس وغيرها من أنواع الصناعة البديعة حتى كاد أسلوبه يعد مثلا كاملا لهذه الطريقة، وأوشك كل محسن بديعي على كثرة فروع هذه الأنواع أن يأخذ حظه من شعره.

ومن الحق أن نقرر أن هذه الظاهرة كانت تعد في ذلك العصر من الأمثلة العليا للشعر، بحيث تقاس منزلة الشاعر بقدرته على تطبيقها واستخدامها في كلامه وخلق المناسبات لها كلما استطاع، كما يتضح لنا ذلك من كتب النقد التي ألفت حينذاك، كخزانة الأدبلابن حجة الحموي، والوافي للصفدي وغيرها، ولهذا لا يجوز لنا أن ننظر إلى تلك الصناعة نظرة فتور أو سخط، بل على العكس ينبغي أن نحكم على كل شاعر بروح عصره ونقيسه بمقياس زمانه لئلا نصدم القديم بالجديد، ونخلط الماضي بالحاضر. وعلى هذه القاعدة يمكننا أن نحكم لصفي الدين بأنه شاعر قدير مفتن استطاع أن يتلاعب بالألفاظ في مجال البديع بمهارة يفوق بها كثيرا من نابهي الشعراء الذين عاصروه أو سبقوه، بل أن الباحث العصري قد لا يملك نفسه أحيانا من الإعجاب بهذه الصناعة التي ينعى عليها لما يبدو له من لطف التقابل والتطابق واللمح والإيماء في معان منسجمة وخيال منتظم. وإذا شئت فانظر إلى قوله:

وما ذاك إلا أن يوم وداعنا ... وقد غفلت عين القريب على رغم
ضممت ضني جسمي إلى ضعف خصرها ... لجنسية كانت له علة الضم
ربيبة خدر يجرح اللحظ خدها ... فوجنتها تدمى وألحاظها تدمى
إذا ابتسمت والفاحم الجعد مسبل ... تضل وتهدي من ظلام ومن ظلم
تغزلت فيها بالغزال فأعرضت ... وقالت لعمري هذه غاية الذم
وكم قد بذلت النفس أطلب وصلها ... وخاطرت فيها بالنفيس على علم
فلم تلد الدنيا لنا غير ليلة ... نعمت بها ثم استمرت على العقم!

وقد بلغ من قدرته وتجليته في هذه الحلبة أنه ألف قصيدة طويلة عدتها مائة وخمسون بيتا تشتمل على مثل هذا العدد من أنواع البديع المختلفة كأنها كتاب علمي وضع لضبط هذا الفن بالقاعدة والمثال، ومع ذلك فهي قطعة أدبية قيمة تجمع بين الغزل الرقيق والمدح الرائع والاستعطاف والوصف في سياق مخاطبة الرسول (ص) الذي يتوسل إليه الشاعر بعد مرض عضال شفاه الله منه! ومن أبياتها هذه الأربعة التي جمع فيها

أنواع التوشيح والمقابلة واللف والنشر والتذييل والالتفات:

هم أرضعوني ثدي الوصل حافلة ... فكيف يحسن منها حال منفطم؟
كان الرضا بدنوي من خواطرهم ... فصار سخطي لبعدي عن جوارهم
وجدي حنيني أنيني فكرتي ولهي ... منهم إليهم عليهم فيهمُ بهمِ
لله لذة عيش بالحبيب مضت ... فلم تدم لي وغير الله لم يدم!

ومع أن صفي الدين عارض كثيراً من الشعراء في العصرين الجاهلي والأموي، وشاهد كثيرا من مظاهر حياتهم في البادية أثناء رحلاته الطويلة، فإننا لم نره يتناول الأوصاف الجاهلية الغريبة أو يختار غير الشائع في عصره من الألفاظ السهلة الجارية على الألسن الفصيحة، متأثرا في ذلك شعراء العصر الأيوبي في مصر، وأن كان لم ينزل معهم إلى الذوق الشعبي العام، فكأنه وقف وسطا بين الأسلوب القديم الغامض، والأسلوب الحديث الواضح، ومن أجل موقفه هذا رماه أحد النقاد في عصره بسهم حاد إذ عاب عليه ضعف شعره من الوجهة اللغوية وقلة استخدامه للألفاظ الغريبة، فأخذ يرد عليه بهذا البيان القوي الحاسم:

إنما الحيزبون والدردبيس ... والطخا والنقاخ والعلطبيس
والحراجيج والشقحطب والصع ... قب والعنقفير والعنتريس
لغة تنفر المسامع منها ... حين تروى وتشمئز النفوس
وقبيح أن يذكر النافر الوح ... شي منها ويترك المأنوس
أين قولي: هذا كئيب قديم ... ومقالي: عقبقل قد موس؟
لم نجد شاديا يغني: (قفا نب ... ك) على العود إذ تدار الكؤوس
لا ولا من شدا (أقيموا بني أم ... ي) إذا ما أديرت الخندريس
خلي للأصمعي جوب الفيافي ... في نشاف تخف منه الرءوس
إنما هذه القلوب حديد ... ولذيذ الألفاظ مغناطيس

فهذه دعاية ثائرة للتجديد تدل على أن شاعرنا لم يكن يحب التقليد الأعمى للأقدمين، وإنما يرى من الواجب أن تتحول اللغة إلى أشكال شتى بحسب ما يقتضيه العصر ما دامت محافظة على قواعدها الأساسية، وقد ذكرنا أن هذه الدعوة ليست إلا صدى لمذهب الشعر المصري سرى في بلاد الشرق العربي حين كان منضويا تحت لواء مصر السياسي والاجتماعي في عهد الأيوبيين والسلاطين.

(يتبع)

ضياء الريس

مِن طرائف الشّعر

وصف القلب

وهي قطعة من عبقريات الوصف ورائعة للعالم الشاعر الأستاذ احمد الزين

مَن لقلبٍ بين الجوانِح عانِى ... جَمَع اليأسَ والمنى في مكانِ
شاعر في الضلوع يَخفق بالمع ... نى فيعيا عنه بيانُ اللسّان
كم خيالٍ له يضيق به اللف ... ظُ فيسمو إليه بالخفقان
وأمانيَّ فيه كالزَّهر منها ... ما ذَوَى والقليلُ في رَيَعان
فهو راثٍ لما ذَوَى من أماني ... هـ ومستبشرٌ بباقي الأماني
باكياً شجوَه وآناً نراه ... يتغنى بأعذب الألحان
فهو كالعُود في يد الدّهر يشدو ... بالذي شاء دهرهُ من أغاني
قَطَعَ العيشَ بين خوفٍ وأمنٍ ... ورجاءٍ ناءٍ وآخَرَ داني
فتراه حينا يَلجّ به الوج ... دُ وحينا يلوذ بالسُّلوان
وتراه يَسيل كالماء لطفا ... وتراه كالنار في التَّوَران
صامتٌ وهو لا يِني عن حديثٍ ... مطمئنٌ في ثَوْرَةِ البرْكان
يا لسلطانِه القويِّ ولا شَيْ ... ء عليه في الأرض ذو سلطان
لا تلمني إذا تبعتُ هواه ... هو بعضي وآخِذٌ بعِناني
كم حداني إلى هوًى لم يَدَعني ... فيه أُصغي لفكرتي وَجناني
قادني للهوى ولو كان يدري ... ما يلاقيه في الهوى لنهاني
لَجَّ فيه فكان شرّا عليه ... ليتني قد عصيته إذ عصاني
عَصَفَ الحُبُّ بالقلوب فقلب الْ ... لَيْث في حربِه كقلب الجبان

مُضْغةٌ في الضلوع يؤلمها المَسُّ ... غدت نهبةً لصَرف الزّمان
فوق موج الآلام تذهب حَيْرَى ... كسفين تسرِى بلا رُبّان
فهي بين الأحزان تفَنَى ويحييها ... خيالُ التعليل والنَّسيان
جَل من صاغَها مُيولا وأهوا ... ءً ولم يَعْدُ طينةَ الإنسان
وبَرها من الملائكُ نُورا ... تتراءى في صورة الجُثْمان
فهي بين الضّلوعِ لا تملأ الكفَّ ... وفيها صحيفةُ الأكوان
موعظة الغاب!
للأستاذ خليل هنداوي
رحتُ للغاب، عليِّ أتسلى ... عن حظوظ ساءت بمرأى الغاب
هائم الروح في ضواحيه، ناس ... حزني، حاسد طيور الروابي
تملأ الجو بالغناء، ونفسي ... لحنها لحن شقوة واكتئاب
والأزاهير ناشرات شذاها ... في ربيع من الهوى والشباب
قلت يا روحيَ الكئيب تعزَّىْ ... واستراح، يا فؤاد، بعد العذاب
وانف عني يا غاب بعض شقائي ... وأرِحْ عانياً من الأتعاب
قال ليْ الغاب وهو يسخر مني ... والصدى كان منه رجع جوابي:
(أنا أشكو الذي تشكَّيت منه ... من قضاء يرمي بِزرُق الحراب)
(لا سلام - كما تصورت - عندي ... كلنا في تنازع وغلاب)
(لا يغرنْك ما ترى من سكون! ... ضمَّ هذا الكون كل اضطراب)
(ذاك معنى الحياة في كل صُقع ... من لحوم النعاج قوتُ الذئاب)
(لا تغرنْك زهرة في ربوعي ... تتسامى فوَّاحة الاطياب)
(لا يغرنْك طائر راح يشدو ... في الروابي بلحنه المطراب)
(فارتقب! هل ترى يُتمّ غناه؟ ... والقضاء القاسي له في ارتقاب)
(لو تأملتَ في ربوعي لأبصر ... ت نضالا في الطير والأعشاب)
(كم زهور راحت ضحايا زهور! ... وعقاب فريسة لعقاب؟)
(فصراع الحياة فوق التراب ... وصراع الحياة تحت التراب)
قلت يا غاب! ما رأيتك تشكو ... أنت راض عن القضاء المرابي
قال هل تنفع الشكاة فأشكو ... قَدر لا يرى طريق الصواب!
فتعلم مثلي السكوت فأني ... قاهر بالسكوت كل مصاب
أعطه ما يريد، فهو عنيد ... لا يُداري، وفز ببعض الرغاب
عدتُ والهم عالق بفؤادي ... عدت والغاب زاد في أوصابي
فتراني - إذا رأيت - صموتاً ... فتخال الهناء ملء إهابي
غير أني واريت بالصمت همي ... وبقلبي دفنت صمت الغاب
دير الزور
خليل هنداوي
البريد الأدبي
الحياة الأدبية
حفلة جائزة نوبل العالمية
يعلم القراء أن جائزة نوبل الأخيرة في الأدبقضت بها لجنة التحكيم للروائي الروسي المهاجر إيفان بونين. وقد وقعنا في البريد الأخير على وصف للحفلة التي أقيمت في القصر الملكي السويدي لتسليم جوائز نوبل للفائزين.
ولما كنا نحب أن نسجل في هذا الباب كل حدث أدبي كبير، فنحن ننقلها تنويهاً للأدب، الروسي خاصة، وبمكانة الأدبوالأدباء في العالم المتحضر عامة، وحضاً على رفع الفنون فوق كل اعتبار جنسي أو سياسي
أرسلت الدعوة الرسمية إلى المدعوين قبل يوم الحفلة بأيام عدة، وهي محرر على النحو الآتي:
المرجو من حضرات الفائزين الحضور إلى قاعة الحفلات الموسيقية يوم 10 ديسمبر) سنة 1933 في الساعة الرابعة والدقيقة الخمسين على الأكثر لتسلم جائزة نوبل، وسيشرف صاحب الجلالة تتبعه الأسرة الملكية وسائر الحاشية، في الساعة الخامسة تماما لشهود الاحتفال، ويسلم جلالته شخصيا الجوائز المذكورة إلى كل من الفائزين.

(والساعة المشار إليها توصد الأبواب ويبدأ الاحتفال
وأهل السويد شديدو المحافظة على المواعيد، فلا يستحب عندهم التبكير عن الموعد المضروب ولا يجوز مطلقاً التأخر عنه
فكان يرى الرائي في الساعة الخامسة إلا عشر دقائق رتلا ممتدا من السيارات وقوفا على مدخل قاعة الحفلات الموسيقية في القصر الملكي باستكهلم. وإذا بسيارة فخمة تقل إيفان بونين - وقد تفضل بإعارتها إياه أحد الأصدقاء، تقف أمام درك الباب الخارجي في الدقيقة المحدودة. وكانت الجموع الحاشدة تزداد احتشادا حول القصر وما يجاوره، وكانوا يعرفون الفائز بجائزة الأدباذ شهدوا صورته منذ إعلان فوزه مراراً في جميع الصحف وفي زجاج المكاتب، وهتفوا له متحمسين، وتنحوا مفسحين له الطريق في احترام ومحبة. وارتقى إيفان بونين الدرك بنشاط، وكان يضيئه سنا المشاعل الأحمر الخفاق. ثم أفضى من دهليز طويل إلى غرفة صغيرة ملاصقة للمنصة التي تعزف عليها الموسيقى عادة في القاعة الكبرى لحفلات البلاط.
وكان قد سبقه إلى هذه الغرفة زملاءه الفائزون هذا العام من العلماء الجهابذة وكلهم من الانفعال محتقن الوجه أو شاحبه، وهم بالقياس إليه في ريعان الشباب لا يكاد يتجاوز أكبرهم الخامسة والثلاثين من عمره، والى جانبهم إيفان بونين في الثالثة والستين، بشعره الأشيب، ومعارف وجهه الكهل الممطوطة النبيلة، مما جعله أروع طلعة وأكثر هيبة
ولم تكد تنقضي دقائق معدودات حتى غصت القاعة، وتوزع في رحابها كالأشباح المتحركة ألفان من المدعوين هم أعلام العاصمة السويدية، وذاك في سكون ونظام لا تشوبهما شائبة، وكانت بذلة السهرة محتمة بلا استثناء، فالرجال في الزي الرسمي والسيدات في أبهى زينة
وكانت المنصة مغمورة بضياء ناعم لين، مزدانة بأزهار لا عداد لها سويدية الموطن وردية اللون، تتخللها أزهار وأفنان غريبة المنابت مجلوبة. وفي الصدر، لصق الحائط تقريباً، يقوم تمثال نصفي للملك من الشبه يجلله العلم السويدي وأعلام الأمم التي ينتمي إليها الفائزون هذه السنة، والظاهر أن حالة (بونين) الخاصة أثارت في البداية بعض المشاغل، ذلك أن الفائز الروسي خارج على البلاشفة وفي عداد من لا وطن لهم، والسويد معترفة بالدولة السوفيتية. فما العمل؟ لو رفع العلم القيصري القديم لترتبت عليه لا محالة تعقيدات سياسية، كما أنه لا يمكن النظر في رفع الراية الأخرى برمز المطرقة والمنجل. وأخيراً قرر القائمون على الاحتفال تخلصاً من هذه الورطة زيادة علم قومي يمثل صليبا أصفر في ساحة زرقاء
وقبل بدء الحفلة بدقائق قلائل احتل أعضاء المجمع السويدي الجانب الأيمن من المنصة، أما الجانب الأيسر فكانت فيه أربعة مقاعد ضخمة، خلت مؤقتاً، وهي مخصصة للفائزين الذين يتلهفون شوقاً إلى الظهور.
دقت الساعة خمساً، ونفخت الأبواق، ودوى صوت من ركن من الأركان يتعذر تحديده:
- صاحب الجلالة الملك!
ودخل القاعة الملك جوستاف الخامس، نحيف القامة، رشيقاً للغاية، يعرفه الرياضيون في الخافقين. وفي أثره جميع أفراد الأسرة المالكة، والأمراء والأميرات قادمين من أطراف
المملكة، وكبار رجال البلاط. فوقف جميع الحاضرين كرجل واحد، وانحنوا في احترام عميق، بينما كانت موسيقى غير منظورة تعزف النشيد القومي ويترنم معها الحاضرون أجمعون.
حتى إذا جلس الملك استوى الجميع في مجالسهم بخفة ولطف، ثم ما لبثوا أن قاموا بعد لحظة وقوفاً، وأصوات الأبواق تعزف، والسعداء الأربعة الفائزون يدخلون، وكان إفان بونين خاتمة الموكب وإلى جانبه السكرتير الدائم للمجمع السويدي. وبعد أن حيوا الملك ثم شهود الحفلة جميعاً، أخذوا أماكنهم
وهنا في الحقيقة يبدأ الاحتفال
قام أحد أعضاء المجمع، وبنظرة منه ساد الحاضرين صمت مطلق، وألقى خطاباً يعدد فيه مناقب الفائزين من جهابذة العلوم الطبيعية. ودوت الأبواق وملأت القاعة بأنغامها

الجميلة. ونزل أحد العلماء الشباب الجهابذة من المنصة إلى القاعة، ودنا من الملك. فصافحه الملك مصافحة قلبية قوية، وعاد الفائز متأثراً ظاهر التأثر إلى مكانه يحمل شهادة، ونوطاً منقوشاً لتكريمه خاصة. وتعالى التصفيق عاصفاً قاصفاً. وتكرر هذا ثلاث مرات للعلماء الثلاثة. وأخيراً جاء دور بونين.

ولقد قضت التقاليد المريعة من سنوات عدة أن تعطى جائزة نوبل في الأدب آخر الحفلة. فهي ختامها. وكذلك كان الحال هذا العام. فلما أن عاد الفائزون الثلاثة الأولون إلى مقاعدهم على المنصة قام سكرتير المجمع - وهو الذي قدمه إلى لجنة التحكيم - قام في تؤدة، وأصلح في شيء من التعالم والتفيهق رداءه، وتوسط المنصة، وتلا بصوت خالجه الانفعال، ثم أخذ يتمالك شيئا فشيئا قراره وجهارته، خطابا باللغة السويدية عن القصصي الروسي، منوها بما بينه وبين تولستوي من واشجة قرابة فنية، مبينا بالتحديد الدقيق مكانته بين كبار المؤلفين الروس المشهود لهم. فلما فرغ من كلمته ترك لغته الاصلية، والتفت إلى إيفان بونين وخاطبه بالفرنسية قائلا:

- إيفان الكسيفيتش بونين، تفضل بالنزول إلى القاعة لتتسلم من يد صاحب الجلالة جائزة نوبل في الأدبالتي منحك إياها المجمع السويدي.

وكانت هذه اللحظة بالبداهة أروع اللحظات في الاحتفال وأشجاها تأثيرا. فقد قامت القاعة كلها على قدم واحدة من تلقاء نفسها. واجتاز إيفان بونين المنصة، رافع الرأس، ولكنه شاحب اللون من التأثر. وعزفت الموسيقى لحنا مطربا. وطفق الجمع يصفق تصفيق من فاض به شعوره وجن جنونه. وقبل أن يبلغ إيفان بونين إلى موقفه بين يدي الملك تماما كان الملك قد وقف، ومد إليه يده بأريحية عامرة بالمحبة، فانحنى إيفان بونين انحناءة عميقة أمام الملك المعظم يسمع النطق الكريم:

- (أهنئك من كل قلبي! وأني لمبتهج معك بنجاح الأدبالروسي) فأجاب الفائز وصوته لا يخلو من رجفة خفيفة:

- (يا صاحب الجلالة أرجو أن تتقبل مني أجل شعائر العرفان وأعمقها)

وعندئذ ناول الملك إيفان بونين الشهادة في غلاف نفيس، ونوطا من الذهب نقش عليه أسم المؤلف ثم صافحه مرة أخرى

هذا والقاعة لا تني عن التصفيق كأنما تساجل بحماسها الموسيقى وهي تعزف النشيد القومي.

ورفعت الجلسة، ويمم الملك وحاشيته شطر الباب في وسط التهليل والهتاف الحار. ولما أن برح الملك المكان انطلق الجميع معجلين بالخروج لانه لا تمضي ساعة واحدة حتى تبدأ حفلة العشاء الكبرى لجائزة نوبل في حديقة الشتاء بالفندق الكبير

وقد أقيمت حفلة العشاء لثلاثمائة مدعو، في منتصف الساعة الثامنة تماما. فدخل ولي العهد الملكي جوستاف ادولف إلى القاعة والى جانبه مدام إيفان بونين واتجه بها إلى حيث أجلسها في صدر الوليمة في وسط المنضدة الرئيسية. وعلى مقربة من ولي العهد جلس بونين صاحب الجائزة بين الأميرة اينجريد، والامير اوجين من أنجال الملك والموسيقى تعزف أثناء ذلك أعذب الأنغام

وبدأت الوليمة كالمعتاد بشرب نخب الملك ثم الهتاف له عاليا. وبعد تناول العشاء الفاخر، ألقى بونين بالفرنسية كلمة استغرقت عشر دقائق. وقد طالت الوليمة وامتد بها الوقت إلى ساعة متأخرة من الليل. وفي صبيحة اليوم التالي في تمام الساعة التاسعة توجه الكاتب الروسي إلى لجنة نوبل وتسلم حوالة بمبلغ 170 , 331 كورونا سويديا، أو بعبارة أخرى نحو 8000 جنيه وهي اكبر قيمة أصابها كاتب روسي على آثاره الأدبية

(صدقي)

مسئولية القصص عن أشخاص قصته

هل يحتمل الكاتب القصصي مسئولية ما من جراء ما ينسبه لأشخاص قصته من الأعمال والأقوال؟ يحدث أحيانا أن يتصور شخص ما انه لظروف ومشابهات خاصة هو المقصود بالتعريض والتجريح في صورة بطل من أبطال القصة، فهل يؤخذ الكاتب القصصي في تلك الحالة بما كتب؟ أجاب القضاء البلجيكي على ذلك بالإيجاب في قضية أدبية تثير اليوم في الأوساط الأدبية والمسرحية الفرنسية والبلجيكية اعظم

الاهتمام
فقد ظهرت أخيرا للكاتب البلجيكي الكبير بيير اوبرمون قصة عنوانها: (تشجع يا مونترشان!) يصف فيها سير المعركة الانتخابية في إحدى نواحي الريف، فلم يمض على ظهورها قليل حتى رفعت عليه قضية من خمس أشخاص يقولون انهم عرفوا أنفسهم في أشخاص القصة وانهم هم المقصودون فيها بالتعريض والتجريح وطلبوا الحكم بالتعويض على الكاتب، فقضت لهم محكمة (هنيو) عليه بتعويض قدره واحد وعشرون ألف فرنك
وقد تناول الكاتب الفرنسي الكبير جورج دوهامل هذه المسألة في مقال يحتج فيه على هذا المبدأ بقوة ويقول: (لعلنا نلزم غدا كما ألزم اوبرمون أن ندافع أمام ثورة المتهوسين والحمقى، ثم أمام القضاء عن كتبنا ومخلوقاتنا، وأبناء عنائنا وتأملاتنا، وربما أرغمنا على أن ننكر نفس مبادئ هذا الفن الذي تغذيه الحقيقة)
فليعلم قضاة بربان (بلجيكا) والعالم اجمع أن القصصي الحق لا يصور فلانا أو فلانة) لكي يغضب أفاضل الناس، ولكنه يقصد ما هو ارفع، فهو يقدم بذلك نصيبه في تاريخ الرجل وتاريخ المرأة. فإذا صور فلانا في صورة ما، أو نسب إليه قولا ما، فانه يؤدي واجبه كشاهد، فلا تطلبوا إليه أن ينظم العالم إذا لم تسمحوا له أن يحكم على المناظر، ولا تلوموه أن يرى بوضوح وأن يسمع الحق، فإنما تؤاخذونه إذا رأى شيئا أو سمع شيئا؛
ان جميع القضايا المماثلة قد أعيد النظر فيها على يد الجيل اللاحق، وقد أعاد النظر) فيها دائما وهو يبتسم)
جائزة جونكور
جائزة (جونكور) من أشهر الجوائز الأدبية في فرنسا لا من حيث قيمتها المادية، فهي خمسة آلاف فرنك فقط (نحو ستين جنيها)، ولكن من حيث قيمتها الأدبية. وقد نالها عن سنة 1933، الكاتب الفرنسي اندريه مارلو، وهو كاتب شاب أمتاز بروعة التصوير وقوة الأسلوب؛ وله عدة مؤلفات معظمها في تصوير الحياة الآسيوية التي درسها أثناء رحلاته في فارس وتركستان والهند الصينية. منح له جائزة (جونكور) عن كتابُه (حالة إنسانية)، فارتفع بذلك إلى ذروة الشهرة، وأضحى عضوا في (أكاديمية جونكور)
وقد انشأ هذه الجائزة الأديبة الشهيرة ادمون لوي جونكور باسمه واسم أخيه الأصغر جول جونكور. وكان الأخوان من اعظم الشخصيات الأدبية في فرنسا أيام الإمبراطورية. وكانت لهما مواهب بديعة في الكتابة والخيال فاشتغلا معا بكتابة عدة روايات تاريخية اشتهرت بقوة خيالها ودقة تصويرها. وكانت لهما آراء ونظريات خاصة في كتابة القصة ذاعت في فرنسا في أواخر القرن الماضي، وكان لها أثر عظيم في توجيه التأليف القصصي في هذا العصر، وولد ادمون سنة 1822 وأخوه جول سنة 1830، وتوفي جول سنة 1870، ولكن ادمون عاش حتى سنة 1896، وفيها وضع وصيته بإنشاء الجائزة الشهيرة، تمنح في ديسمبر من كل عام لأحسن مؤلف أدبي.
ولأكاديمية جونكور التي تتألف من الكتاب الذين نالوا هذه الجائزة، والذين يمنحونها للفائزين، مركز أدبي ممتاز في فرنسا، وقد رفعت إلى سماء الشهرة عدة كتاب منهم دوديه، واوكتاف ميرابو، وبول مرجريت، وجستاف جوفردي، والإخوان روزني وكثيرون غيرهم
جائزة فيمينا
ومنحت جائزة (فيمينا) وهي أيضا من اشهر الجوائز الأدبية في فرنسا، وقيمتها خمسة آلاف فرنك إلى كاتبة هي مدام جرمين فوكونييه من اجل قصتها (كلود) ومما يذكر أن هذه الجائزة لم تمنح لسيدة منذ خمسة أعوام
الشاعر الألماني شتيفان جورج
نعت أنباء ألمانياالأخيرة الشاعر الألماني الكبير شتيفان جورج. وهو من أعظم كتاب ألمانياوشعرائها المعاصرين؛ ويعتبر في الشعر والنقد الأدبي من الطبقة الأولى. ولد في
مدينة ريدزهايم سنة 1868. وأنشأ مجلة (صحف الفن) الشهيرة وجمع حوله لفيفا من كتاب ألمانياالبارزين. وامتاز بقوة نقده وروعة شعره؛ وأنشأ مذهبا أدبيا خاصا شعاره التحرر من قيود الماضي؛ وكان أستاذه ومثله الأعلى في التفكير والأدب الفيلسوف

نيتشه. وكان لجهوده وجهود زملائه وتلاميذه اثر عظيم في توجيه الأدبالألماني قبل الحرب، وله عدة دواوين شعرية شهيرة منها (سنة الروح) و (الأغاني) (أغاني الحلم والموت) (أيام الحرب وأعمالها) الخ.

المؤرخ الفرنسي كاميل جوليان

توفي في الثاني عشر من ديسمبر المؤرخ الفرنسي الكبير كاميل جوليان عضو الأكاديمية الفرنسية بعد مرض طويل. وقد ولد في مرسيليا سنة 1859، وتخرج في مدرسة المعلمين الشهيرة (النورمال) حيث كان أستاذه المؤرخ الأشهر فوستل دي كولانج؛ وهو الذي قدر مواهبه ووجهه نحو دراسة التاريخ. وبعد أن نال شهادة العالمية، وإجازة مدرسة رومة عين أستاذ للتاريخ في كلية الآداب بجامعة بوردو، وتخصص في تاريخ جنوب فرنسا ودراسته، وأخرج عنه عدة كتب ورسائل تعتبر أعظم حجة في موضوعها، بيد أن أشهر جهوده وأعظمها هو كتاب (تاريخ غاله) الذي أنفق في وضعه عشرين عاما. وهو من أمهات كتب التاريخ الفرنسي، وانتخب عضوا في الأكاديمية الفرنسية منذ سنة 1924، ونال عدة جوائز أدبية كبرى

دراسات أدبية

ايفان بونين صاحب جائزة نوبل في هذا العام

بقلم محمد أمين حسونة

لم يكن ايفان بونين بالكاتب المغمور أذاع صيته وأنبه ذكره في عالم الأدبفوزه بجائزة نوبل، بل هو من أقدم الأدباء الروسيين المعاصرين، وهو يمثل تلك العبقرية المثالية التي نعرفها في تولستوي وتورجنيف وديستويفسكي

وقد تجلت هذه العبقرية في سمو تفكيره وفي نزعته العاتية بالحياة، وإذا كان مكسيم جوركي يتزعم اليوم الحركة الأدبية في داخل روسيا، فان ايفان بونين يتزعمها في خارجها، تدل على ذلك مؤلفاته القصصية التي نقلت إلى معظم اللغات الحية، ومركزه الأدبي الممتاز الذي يحسده عليه حتى مواطنوه.

ويعد بونين في طليعة كتاب القصة في العالم، ويقوم فنه - كما يصفه جيروم تاردو - على الابتكار والافتنان في الصورة التي بمخيلتنا، وبالأصوات والكلمات التي تطرق آذاننا، والإشادة بتلك العاطفة التي يبررها السرور المنبعث من القلب، وحيث لا تتجاوز أهمية الخير والشر غيرهما مما يحدث في الحياة.

وقد جاء بونين بفكرة كانت تعد غريبة من قبل، وهي أن الفنان يجب أن يكون إلها، لا تحاسبه إلا نفسه، فحياة الفن تتجاذبها عوامل شتى، يتحارب فيها الجميل والدميم، وليس للفنان إلا أن يسمو بفنه فوق هذه العوامل دون أن ينقاد إلى إحدى الطريقتين، وعليه أن يجعل حياته سعيدة طافية.

وتكاد هذه الفكرة التي يدين بها بونين، تبرز من خلال فنه الرائع الذي يبدو قويا في أشكال واضحة بديعة، كما إنها خلاصة أفكاره التي يطالعنا بها في مؤلفاته الخالدة، وقد كتب الجزء الأكبر من هذه المؤلفات بعيدا عن بلاده، وهي تحمل إلى جانب عاطفته المشبوبة وحبه لوطنه، طابع الإنسانية وتحقيق المثل الأعلى، وفي هذا دلالة واضحة على الحيوية الكامنة في ذهنه

وقد اعترفت بهذا الأكاديمية السويدية وقدرت هذه العبقرية الحية فذهبت تجوس خلال العالم وتفتش في قرية صغيرة في جنوب فرنسا لتخرج منها إلى الناس الفنان الذي عرف كيف يواجه الخطوب ويصمد زمناً في وجه العاصفة فيحتفظ - برغم فاقته المادية بتلك البهجة الموسيقية التي تواتينا رنانة خفاقة، والتي أمكنها بها أن يثبت للعالم أن العبقرية الروسية لم تغرق بعد وأن كانت السفينة قد غرقت بجميع ما فيها!

ظهرت أول أعمال بونين الأدبية في روسيا، عام 1901 وهي عبارة عن مجموعة أشعار نال عنها (جائزة بوشكين الأدبية) وانتخب بعد ذلك بأربعة أعوام عضوا (بالأكاديمية الروسية) حيث جلس مكان تولستوي وجوركي ودستويفسكي وغيرهم من أعلام الأدبالروسي.

وهو يجيد الإنجليزية إجادة تامة، وقد تعلق بدراسة الأدبالإنجليزي منذ حداثته، وترجم إلى الروسية أشعار كبلنج وتينسون وغيرها من الشعراء الإنجليز

وقد فر على أثر قيام الثورة البلشفية وتسجيل اسمه في القائمة السوداء إلى فرنسا

حيث يقيم مذ ذلك الوقت في قرية (جراس) التي يخلص لها الحب برغم انتفاء المشابهة بينها وبين مسقط رأسه كما يقول!

ولأيفان بونين مسحة أرستقراطية في كتابته، ويستوي في أسلوبه الغموض والإبهام احيانا، ويتسم أدبه بدقة الملاحظة واستقصاء الفكرة، وانسجام الخيال، والتواء التعبير، وإسهاب الوصف مما قد يضجر القارئ ويدفعه إلى الممل والتبرم، وهو إلى جانب هذا؛ واقعي، كثير التهكم خاصة عندما يتعرض لوصف غباء الفلاحين من أبناء وطنه كما في روايته (القرية)، واكثر ما نلاحظه في فنه (ترديده ذكر الموت، ووصف الموت وحياة العزلة وروح التصوف التي يطالعنا بها بين سطور رواياته.

وايفان بونين اقرب إلى بوشكين في آدابه منه إلى تولستوي أو ديستويفسكي، ولذا يرتسم خطى بوشكين ويعده أستاذه، ونراه يعترف بهذا فيضع تمثاله الهادئ المفكر على عتبة روايته الجميلة (سر الحب المقدس)

وقد أشار إلى هذا الناقد الفرنسي جيروم تاردوفي خطابه عن (علاقة الأدبالروسي بالأدب الفرنسي المعاصر)، وذلك في الحفلة التي أقامتها أخيرا الجالية الروسية في باريس لتكريم

ايفان بونين بمناسبة فوزه بجائزة نوبل فقال:

منذ أن أصدر مليتور دي فوجويه كتابه عن الفن الروائي الروسي، تجلت أمام أعيننا - نحن الفرنسيين - آدابكم الخالدة، وكنا قبل ذلك في حالة جهل ساذج لا نعرف ماذا يكتبون وكيف يفكرون في بلادكم، لا نعلم بوجود تلك العبقرية النادرة التي يمثلها في بطرسبرج وفي موسكو كتاب ومؤلفون ألموا بمختلف نواحي الأدب، وكان من جراء هذا الحدث التاريخي أن تطور الأدب الفرنسي وانتحى ناحية جديدة، فهل هناك روائي فرنسي يستطيع أن يؤكد لنا أنه لم يتأثر بهؤلاء العباقرة في دائرة قوته وذوقه الأدبي لقد جاءنا تولستوي بأشياء كانت مجهولة عند أمثال موباسان وفلوبير وستندال، وهي) أنه من المستطاع تشييد عمل فني حول مشكلة أخلاقية، وعلمنا دستويفسكي أن في الإنسان شيئا آخر غير الشعور العام الذي أوضحه الأدب الفرنسي في القرن السابع عشر، بل أنه يوجد في كل فرد منا عالم خاص من الشعور الغامض المظلم دفعنا دستويفسكي إلى أن نستكشفه ونتبينه، أما دروس تورجنيف فلم تكن ثمينة إلى هذا الحد، لانه كما يظهر تتلمذ على الأدبالفرنسي ولكن فنه الرائع كشف لنا عن عقليتكم وشعوركم وطبيعتكم.

وإلى جانب هذه الأسماء العظيمة، يجب أن أضيف اسما آخر، فليس كتاب دي فوجويه) وحده هو واسطة التعارف التي بيننا وبين هؤلاء الكتاب، فهناك بريميه الذي يحدثنا عن بوشكين ذلك الفنان الملهم والشاعر الروسي المحبوب، الذي اتضح لي بعد قراءته أن هناك صلة وثيقة بين فنه وأدب ايفان بونين، ذلك الفن الذي يذكرنا - نحن الذين تسممنا بأفكار علماء النفس وعلماء الوعظ - بأنه لا حاجة بنا مطلقا إلى خلط الخير (بالشر

كتب ايفان بونين إلى الآن نحو عشر روايات كلها تفيض بالنزعة الانسانية وتحقيق المثل الأعلى، منها: كأس الحياة، والليل ورجل من سان فرنسسكو، وسر الحب المقدس، ثم (القرية) التي يقول عنها مكسيم جوركي إنها (خير ما كتبه الروائيون عن الفلاح الروسي) والتي أنصف فيها بونين هذا الفلاح - الذي لم تغيره النظم الحالية - خير إنصاف، لأنه إذا كانت القيصرية قد ظلمته، فان البلشفية غمطت حقه وازدرته في الوقت الذي شادت فيه ورفعت من شأن العامل هناك.

وقد أخرجت المطابع في الفترة الأخيرة، رواية بونين الخالدة (حياة ارسنيف) ومن المؤكد

أنه نال بها وحدها (جائزة نوبل)، وقد وصفها أحد النقاد بأنها عبارة عن حياة بونين نفسه، ولكن بونين يدفع هذا يقول:

ان (حياة ارسنيف) تشبه إلى حد ما تاريخ حياتي، ولكنها في نظري اقرب إلى الرواية الحقيقة، ومع ذلك فإني إذا كتبت فإنما استقى فني من ذاكرتي، وهذا ما يجعل بعضهم يظن أني سردت تاريخ حياتي في هذه الرواية. ومما يشجعني على العمل أن المرئيات التي صقلت في ذهني بمرور الزمن هي التي تدفع بي دائما إلى ترديد ذكريات عن الطفولة والشباب والكهولة.

ويمكن لأي كاتب تعرض لنقد (حياة ارسنيف) أن يطلق عليها اسم (حياة دورانت) أو) (حياة ديبون) أو حياة أي شخص آخر، فهي حياة فقط، وحياة رجل في دائرة ضيقة جاء إلى العالم يبحث عما كان بين الملايين من لداته، فهو يعمل ويشقى ويحب ويريق دمه ويجاهد من أجل سعادته فينهض أو يرزح تحت حمل الحياة).

وليس لايفان بونين اتجاه أدبي آخر، بل هو يردد ما سبقه إليه جيته عندما سئل من أنت؟ فأجاب: لا أعلم. . . وأنا سعيد بذلك، فأنا رجل حر وحسب. . . نعم إنني لست جيته، لكنني رجل حر مثله، ومحب لمهنتي، برغم الصعوبات المحيطة بها، إذ إنها تتيح لي حرية العمل والإنتاج وحرية امتلاك نفسي، وقد سافر بونين في أوائل هذا الشهر إلى استكهلم حيث تسلم جائزة نوبل، وسيعود بعد ذلك إلى قرية (جراس) التي ينوي إلا يتركها حتى ينتهي من كتابة الجزء الثاني من (حياة ارسنيف).

العلوم

البحوث الروحية

للأستاذ عبد المغني علي حسين خريج جامعة برمنجهام

هل يصل العلم الحديث إلى استنباط وسيلة للتخاطب مع أرواح الموتى؟ لا مبرر للقول بأن هذا مستحيل. ويكفي أن نستعرض تاريخ العلوم في العهد الأخير لنرى كم حققت لنا من ضروب المستحيلات. فإذا امتد أجل المدنية الحاضرة، وواصل رجال العلم بحوثهم في هدوء واطمئنان، فقد يتحقق على أيديهم كل حلم وخيال، بل وما لا يخطر ببال.

قد يقال أن العلم الحديث لا شان له بالأرواح. لأن اختصاصه ينحصر في المادة ومحيطها. ولما كانت الأرواح غير مادية فهي من العلم كالثريا من سهيل هي شامية إذا ما استقلت ... وسهيل إذا استقل يماني.

هذا القول يبدو صحيحا في ظاهره. ولكن الواقع أن عددا كبيرا جدا من البحوث العلمية في الوقت الحاضر يتعلق بأشياء بعيدة في ذاتها كل البعد عن المادة. خذ المجال المغنطيسي مثلا. فهو عبارة عن دوائر في الأثير تحيط بقطعة الحديد الممغطسة. دوائر غير مادية في وسط غير مادي. خذ أمواج الراديو ومويجات الحرارة والضوء وأشعة أكس، كل هذه أيضا ظواهر غير مادية في وسط غير مادي.

قد تسلم معي بأن هذه الظواهر في ذاتها غير مادية، ولكن تقول أن يد العلم لم تكن لتصل إليها إلا عن طريق تأثيراتها في الأجسام المادية. فالمجال المغنطيسي غير المحسوس لم يكن العلم ليعترف بوجوده لولا تحريكه لقطع الحديد وأدارته لإبرة البوصلة. وأمواج الأثير لم يكن العلم ليقر وجودها لولا تأثيرها في آلات الراديو أو في الألواح الحساسة. فالعلم أذن لن يعترف بوجود الأرواح المجردة عن المادة إلا إذا استطاعت التأثير في جهاز مادي.

هذا صحيح. ولابد للأرواح المجردة قبل أن تصبح حقيقة علمية من أن تحدث أحداثا محسوسة ظاهرة. وهذا هو السبيل الذي سلكه (سر ألفر لدج) ومن قبله (سر وليم كروكس) و (الفرد رسل ولاس) وحاولوا منه إثبات وجود العالم الروحي إثباتا علمياً، ثم العمل على الاتصال به بوسائل علمية في متناول كل إنسان.

فما هو الجهاز الذي ركبه أولئك العلماء وهيأوه لتستخدمه الأرواح؟ أنه مع الأسف ليس بآلة حديدية أو خشبية أو زجاجية، وليس مما يصنع أو يباع. هذا حلم لم يتحقق بعد، وأن لم يكن مستحيلاً. الأرواح لا يناسبها إلى اليوم غير الجهاز المخي العصبي العضلي وهو الجسم البشري. ولذلك لا تستطيع أن تتصل بنا إلا باستخدام جسم بشري لشخص يسمونه الوسيط.

فما هو الوسيط؟ وهل يستطيع كل إنسان أن يكون وسيطاً؟ أم هل الوساطة وقف على أفراد معينين؟ يقولون أن الوساطة صفة مجهولة السبب. وأنها من ضروب العبقرية، كالقدرة على الغناء الشجي عند المغني الموهوب، وكالبراعة في الشعر عند الشاعر الفحل. وكما أن كل واحد منا لا يستطيع أن يكون مغنياً أو شاعراً ممتازا، فكذلك لا يستطيع كل منا أن يكون وسيطا. والوساطة كالغناء والشعر متى وجدت بذرتها في الشخص يمكن تقويتها وتغذيتها وإنماؤها بالتعليم والمران، كما يمكن أضعافها وأماتتها بالإهمال والكبت والانصراف عنها إلى غيرها. وهم يقولون أن الوساطة موجودة في عدد من الناس أكبر بكثير مما نتوقع، ولكنها تهمل في الأغلبية

العظمى من الحالات. فتموت من تلقاء نفسها إذا كانت ضعيفة، وتحسب شذوذا نفسانيا أو خلقيا أو مرضاً عصبيا إذا كانت قوية
الوسيط كعامل التلفون تذهب إليه وتطلب منه أن يصلك بالعالم الآخر فينيلك ما تريد.
كيف يقوم الوسيط بهذا العمل الغريب وعلى أي صورة يؤديه؟ الوسطاء يختلفون في أداء مهمتهم، فمنهم من وهب القدرة على الكشف البصري فهو يرى الأرواح كما يرى الأشباح. ومنهم من لديه خاصة الكشف السمعي فهو يسمع حديث الأرواح وينقلها إلى الأحياء. ومنهم من تستولي الروح على يده وتكتب بها ما تريد دون أن يكون لفكر الوسيط دخل فيما يكتب. ومنهم من يغيب عن رشده ويسلم جسمه كله للروح فتستخدمه كما كانت تستخدم جسمها في حياتها الأرضية.
والوسيط يتناول بطبيعة الحال أجرا لقاء ما يؤدي للناس من خدمة يصرف فيها الوقت والمجهود. لأنه ككل الناس لابد له من أن يعيش. بل هو جدير بالأجر الحسن والعطاء السخي. ولكن أنى لنا أن نثق بصدقه ونطمئن إلى صحة دعواه الخطيرة. ولم لا يكون محتالاً ماكرا يعيش بالادعاء على الموتى وتغفل الأحياء.
لا شك أن مجال الاحتيال واسع في هذا الميدان، وهناك حتما مدعون للوساطة يكسبون من
خدع البسطاء عيشا سهلا. ولكن هذا الصنف في الغالب يعمل في الخفاء، وينفرد سرا بالسذج والأغبياء. أما القول بأن وسيطا يزاول عمله في جمعية علمية سنين متوالية ويجتمع به كل يوم رجال أذكياء اعتادوا البحث العلمي المنطقي المنتظم يكون مدعيا ومحتالا، فقول بعيد جدا عن المعقول وهو مرفوض بالبديهة.
الواقع أن جمهور العلماء اليوم يعترف بوجود أفراد لهم مواهب نفسانية غريبة تمكنهم من أن يدلوا إليك بمعلومات جمة عن نفسك وأسرتك، ومن مات من معارفك، مما يستحيل أن يكون قد وصل إليهم علمه من طريق طبيعي معتاد، والخلاف بين العلماء ينحصر في تعليل هذه الظاهرة، وهل هي اتصال بكائنات حية غير منظورة مما نسميه الأرواح أم لها سبب آخر
هناك تعليل آخر يصح أن تعزى إليه هذه الظاهرة وهو قراءة الأفكار أو ما يسمونه بالتلباثي فقد ثبت بالتجارب العلمية الصحيحة أن بين الناس من يستطيع استطلاع ما في فكر الآخرين دون أن يحتاج في ذلك إلى إشارة أو لفظ. وقد اجرى العلماء في ذلك تجارب عديدة، فإذا طلب من أحد الحاضرين حصر فكره في شيء معين استطاع هذا الموهوب بعد فترة من السكون أن يعرف ذلك الشيء، فيمكن القول أذن بأن ما يدلى به الوسيط وينسبه إلى الأرواح يحصل عليه كله من أفكار الحاضرين.
ولكن الوسيط يدلي أحيانا بمعلومات ليست في ذهن أحد من الحاضرين في ذلك الوقت، فكيف نعلل هذا؟ يكمن تعليله بأن الوسيط يقرؤه من العقل الباطن لأحد الحاضرين. إذ لكل إنسان عقل باطن تستقر فيه ذكرياته وكل ما مر به مما لا يفكر فيه في وقته الراهن. فلعل لدى الوسيط القدرة على ولوج هذه الناحية العجيبة من العقول ليستخرج ما يشاء منها كلما شاء.
ولكن ما قولنا فيما يدلي به الوسيط أحيانا مما لا يمكن أن يكون قد مر بذهن أحد من الحاضرين يوما ما؟ أن الوسيط ينسب أصله إلى الأرواح التي تخاطبه، فهل نسلم معه بهذه الدعوى الخطيرة، ونتخذ من ذلك دليلا علمياً على صحة وجود العالم الروحي والحياة الآخرة؟ أن بعض العلماء يميل لهذا الفرض. . ولكن البعض يميل إلى فرض آخر وهو القول بأن الميت أثناء حياته كان قد فكر فيما ينسبه إليه الوسيط فانتقلت أفكاره إذ ذاك إلى
عقول الأحياء بطريق التلباثي واستقرت في عقلهم الباطن، ثم استطاع الوسيط أن يستخرجها من عقلهم الباطن بطريق التلباثي.
أي الفرضين يا ترى هو الصحيح؟ أظن أن الفرض الثاني هو محاولة بعيدة وتعلق بالقش لإنقاذ الفلسفة المادية من الغرق بعد أن غاصت تحت الماء.
سنواصل هذا المبحث الواسع المتشعب في فرص أخرى أن شاء الله.
تأزين الهواء
دخل الشتاء وبدخوله تسد المنافذ وتغلق الأبواب منعا للبرد، وتزدحم الحجر بالناس طلبا للدفء، فيفسد هواؤها وتسوء رائحتها ويثقل جوها، ويعتري أهلها استرخاء وهمود،

فإذا سألتهم عن سر هذا قالوا: فسد الهواء، وإذا سألتهم عن علاجه قالوا فتح الشبابيك، وهم في تسبيبهم وتطبيبهم مصيبون، ولكنها إصابة مبهمة أدركتها الفطرة دون العلة، وساقتهم إليها البديهة التي لا يعرفون لها سببا

زعم الفسلجيون يوما أن إخمام الحجر وثقل جوها يرجع إلى سببين: أولهما زيادة غاز الكربون في الهواء بالتنفس، وثانيهما زيادة حرارة هذا الهواء. وكلاهما علة خاطئة حسب ما أجمع عليه علماء اليوم وذلك أن غاز الكربون يوجد في الهواء الطلق العادي بنسبة جزء من كل 1100 جزء من الهواء، وقد أجروا تجارب على الإنسان فوجدوا أنه يستطيع العيش بلا ضيق ولا تأفف في هواء نقي يحمل 3 % من غاز الكربون، أعني يحمل ثلاثين قدرا مما يحمل الهواء الطلق. كذلك وجدوا أن الإنسان يستطيع المكث ساعات في الحمامات العامة الحارة المسماة بالتركية، دون أن يحس بشيء مما يحس به في الغرف الخامَّة المزدحمة بالخلق، بل على النقيض هو يستمتع بدفئها وقد تبلغ حرارتها الخمسين

السبب الأول في اخمام الحجر ليس غاز الكربون، وليس ارتفاع درجة الحرارة، وأن كان لهما حظ في تسبيبه فهو حظ ضئيل لا يتناسب مطلقا مع شائعة السوء التي شاعت عنهما. إنما يرجع سبب هذا أو أكثره إلى دقائق صغيرة من مواد عضوية تنبعث في الهواء من الرئتين والجسم على السواء، دقائق ولكنها فعلها جسيم، فهي مواد سامة مهيجة تُعل الهواء فتحدث في الجسم علة مبهمة يعبر عنها باختلال المزاج. ولهذه المواد فوق ذلك فعل في الجهاز العصبي. فهي تسكنه وتمهده، وبخاصة بسبب ما تحمل من رائحة كريهة، وبتفتر الجهاز العصبي يعجز الجلد عن أداء وظائفه التي منها تبريد الجسم، وعندئذ تكون حرارة الحجرة ضغثا على ابالة، تزيد في ضيق الإنسان وحدة مزاجه

وعلاج هذه الحالة هو بالطبع في التخلص من هذه المواد، وأيسر طريق للتخلص منها في حيز محدود يكون بأكسدة هذه المواد لتستحيل إلى أجسام أبسط لا ضرر فيها. وهذه طريقة الطبيعة ذاتها في التخلص من هذه المواد، فهي تستخدم الأزون لأكسدة هذه المواد. وهو غاز تصنعه الطبيعة من أكسجين الهواء، وهو يتكون فيها كلما تبخر ماء أو تكهربت سماء،

لا تلك الكهربة الصامتة التي تحدث البرق والرعد، بل تلك الكهربة الصامتة التي تتفرغ بين السحاب والسحاب ولا يحس بها أحد. وهذا التفرغ الصامت للشحن الكهربائية هو الذي يستخدم في تأزين الهواء في الصناعة، أي بحالته إلى أزون، وهو عمل أشبه شيء بالتكثيف، فجزيئ الأكسجين يتركب من ذرتين من الأكسجين، أما جزيئي الأزون فيتركب من ثلاث ذرات، وهو لذلك ليس له استقرار الأكسجين، فهو لذلك فعال، لا يلبث أن يلتقي بأمثال تلك السموم التي نحن بصددها حتى يهاجمها فيعدمها، لا يعدمها بالمعنى الدراج، بل هو يحيلها إلى ما لا ضر فيه

وقد وجدت الصناعة في هذه الأيام واهتمت حتى بهذه الناحية، بإصلاح الهواء بعد فساده دون فتح النوافذ والتعرض لأخطار الهواء البارد والتيار اللافح الباغت، فخلقت مؤزناً سهل الحمل تضعه في حجرتك أو مكتبك أو صالة استقبالك أوفي أي مكان به رئات عديدة جادة في التنفس، وتصله بمنبع الكهرباء من الحائط، فيتؤزن لك الهواء فيظل مع انحباسه طاهرا نقيا. وهو فوق ذلك جهاز رخيص، فهو يعمل 200 ساعة ولا ينفق غير وحدة من الكهرباءة واحدة

(ز)

استدراك

فاتنا أن نذكر الجمل الشارحة تحت الأشكال الثلاثة التي نشرت في العدد الأخير بموضوع (في النبات وحشية وأنيسة) للدكتور أحمد زكي، واستدراكا لذلك ننشر هذه الجمل ليرجع إليها قارئ المقال في فهم هذه الأشكال. يكتب تحت الشكل الأول (طريقة حصاد القمح الأمريكي بالآلات في ولاية وشنطون) وتحت الشكل الثاني (إناء جنائزي في شكل بطاطستين من قبر في شنبوطي في بيرو بأمريكا الجنوبية) وتحت الشكل الثالث (آله الذرة عند أهل بيرو القدماء وكان يدفن في الحقل وسيلة لنمو المحصول. وهو يصنع من مطر الذرة (كيزان الذرة))

القصص
الحقيقة
للآنسة سهير القلماوي ليسانسييه فى الآداب
(هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟)
(قرآن كريم)
تململت في فراشها وظلت تنظر ذات اليمين وذات الشمال ثم تغمض عينيها وتفتحهما ثانية وتفكر أين هي هيه. . . أين هي؟. . . آه! هي في المستشفى، وقد جاءت إليها منذ أيام؟ منذ أسابيع؟ منذ شهور؟ لا تدري. ولكن لم جاءت؟ يقولون إنها مصابة بمرض عقلي أنهك أعصابها. وحياتها في خطر من جرائه. ها ها! مضحك! أهذا كل ما في الامر؟. . . ولكن أين أختها؟ لقد كانت جالسة هنا منذ حين، ولقد أوصتها أن تكتب كل ما تمليه عليها، ولكن الظاهر انه لم يكن هناك ما يملى فقامت. وضحكت ضحكة عصبية عالية. ها ها! الساذجة! إلا تدري إن رحلاتي في عالم الأرواح اصبح يحوطها جو من غريب، جو يقبض الأنفاس فلا أستطيع التحرك ولا التكلم ولا. . . ولا التفكير. . ترى هل أوفق؟ أعينيني أيتها القوى الخفية، أعينيني، ارحميني، فما في مطالبي إجحاف ولا ظلم ولا طمع. كل ما أريده هو أن اعرف الحقيقة.
دخلت الأخت ودلائل السهر بادية عليها: اصفرار في الوجه، وورم في العينين، وخمول ووهن في الأعصاب.
(أين كنت؟ آه من لي بهذا الاطمئنان، بل هذا البرود الذي يسود حياتك. أنت لا تعرفين عما أريد أن أعرف شيئا، ومع هذا أنت لا تأبهين بشيء. إيمان مطلق وهدوء تام. ثم هؤلاء الأولاد، أولادك ماذا علمتهم عن الحياة، عن الموت، عن الله، عن الحساب، عن الروح. . . لا شيء، لا شيء، لأنك لا تعلمين شيئا، ولا ترديـن أن تفكري لتصلي إلى شيء)
(كفاك أختاه ما أنت فيه من وهن الأعصاب. أريحي رأسك قليلا. لقد شغلت هذه المسائل رؤوس آلاف الناس قبلك، وستشغل رؤوس آلاف الناس بعدك. ولن يوفق فصاحت فيها (.إليها أحد لأن الله أراد ذلك، وإرادة الله ليس لها مرد
(لم بنه الله عن البحث والتفكير، ولم يأمرني إلا اعرف شيئا عن هذه الاشياء، اقتربي هنا، ماذا كتبت؟ لا لا أريد شيئا من هذا، اكتبي ما أمليه عليك كله، اكتبيه رسالة مني إلى أهل هذا العالم كلهم، سأعرف الحقيقة اليوم، ستقودني إليها قوة خفية لا أعرف عنها شيئا الآن ولكني سأعرفها بعد حين. إياك أن تفوتك كلمة واحدة أو إشارة واحدة. أفهمت؟)
(نعم اختاه، سأكتب كل شيء)
لقد كانت دائمة الصمت كثيرة التفكير. اتسعت دائرة تفكيرها على مدى الأيام حتى شملت اعوص ما فكر فيه الإنسان وأغمضه. ولم تصل إلى العشرين من عمرها إلا وشغل تفكيرها هذا الكون بما فيه من قوى خفية. قوى تتلاعب بالإنسان كيفما شاءت، وهو لا يدري من أمرها شيئا. يحاول ويحاول ولكن سرعان ما يعرف ضآلة المرحلة التي اجتازها أمام ذلك الخصم المظلم من الأسرار والخفايا.
أشفقت عليها أمها مما هي فيه، وحاولت أن تدخل إلى تلك النفس المفكرة الصامتة الحزينة بعض ما يسليها أو يريح فكرها، ولكن نصيبها كان الفشل المؤلم.
وهاهي ذي الأيام تجري سريعة والأم يزداد اشفاقها، وخوفها والفتاة يزداد نحولها وضعفها، ويزداد احتقارها لكل شيء في العالم إلا ما تفكر فيه. كل متعة تنظر إليها كما ينظر الشاب إلى ألاعيب صباه، وإذا ما رغبها أحد في أي لذة أو سلوة هزت كتفيها وقالت:! (لست أدري ما هذه السذاجة؟ لقد القي إليكم مدبر هذا الكون بهذه الألاعيب لتلهوا بها عن اللذة الكبرى: لذة العلم، لذة معرفة الحياة وما بعدها.)
ساءت حالها على مر الأيام فأرغمت على ملازمة الفراش في مستشفى الأمراض العقلية، ولكن ذلك لم يمنعها من مواصلة التفكير. وكثيرا ما قرأت في كتب الدين، وكثيرا ما قرأت القرآن، تقف عند بعض آياته فتسترسل في التفكير العميق، وكثيرا ما وقفت عند الآية (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وحملت الآية أكثر ما يمكن من معاني الاستهزاء والسخرية (وهؤلاء الناس لا يعلمون شيئا، ولكنهم لا يجتهدون في أن يعلموا شيئا. قنعوا بما لهم وفسروا العلم بتلك المحاولات التافهة التي

يقضون العمر في تحصيلها وكأنها هي العلم، لقد انشغلوا عن العلم الحق، عن أهم ما يتشوقون إليه. لقد خدعوا أنفسهم والبسوها ثوبا من الإيمان والاطمئنان وهم يعلمون في قرارة نفوسهم انه ليس إلا مبردا للنار المتقدة،
(وملطفا لهذا التطلع الغريزي
جلست الأخت قرب سرير أختها وأخذت تلاحظها وتدون بعض هذه الملاحظات، وانتظرت والقلم في يدها أن تكتب ما تمليه عليها كما وعدت، ولكن النعاس غلبها فنامت. لم يطل نومها حتى قامت فزعة مذعورة على صوت أختها المحشرج وهي تصيح صيحة منكرة قائلة (لن تفتر عزيمتي مهما سرت، فسر بي أيها النور، سأتبعك، سأتبعك فوق الجبال، في أعماق الانهار، في السماء، في جوف الأرض تعلو وتنخفض ولكني اتبعك. لن ارجع كما رجعت قبل يوم، ولن انظر إلى نفسي فتشغلني عنك، سر أنا وراءك.)
كتبت الأخت واستمرت هي تقول (بدأت افهم، نعم عرفت، ولكني لا أقوى على التعبير عما اعرف، لماذا!؟. . . . كلا لن أفكر في هذا، سر، سر، أيها النور إني وراءك، آه ألهذا إذن نموت ولهذا إذن نحيا، نعم ولهذا يجب إلا نعرف، فهمت، عرفت، ولكن يجب أن اعرف أشياء اخرى، يجب أن اعرف السر الأعظم سر سر، إني وراءك.)
نعم لقد عرفت كل هذا ايضا، ولكن كيف أعبر عنه؟ فلأحاول فلأحاول، لا، لا أقوى) سأعبر عندما أعود إلى هذا، إلى ماذا اسميه؟ إلى هذا الملعب، إلى روضة الاطفال، إلى ما يسمونه العالم. ها! ها!
لقد أعياني السير، أما آن لي أن اعرف الله، أن اعرف القوى المهيمنة على كل) شيء، على كل ملاعب الأطفال هذه، ما اكثر عددها وما اشد اعتداد كل منها بنفسها! . . .كأن ليس هناك سواها. لقد عييت، ولكن كلا كلا، سأسير، سر إني وراءك
رهبة شلت حواسي، لقد امتزج هذا النور الذي انبعه بالظلام حوله، ولقد كانا قبل يزيد) كل منهما في قوة الآخر. . جو غريب لا هو ظلام، ولا هو نور، شيء ثقيل ينزل على رئتي، الكلام عسير، والتنفس شاق. . . . .
ستار هائل عظيم أمسكت بطرفه يد خفية. سيزاح هذا الستار دون شك ووراءه الحقيقة الكبرى. كل ما في ينبض بذلك. ازداد الثقل على رئتي. . . لا أستطيع التكلم، الستار يزاح، التنفس عسير عسير، لقد قضي كل شيء، سأعرف سأعرف، سينزل الستار، هو ينزل بالفعل قليلا. . قليلا، سأعرف سأعرف، قليلا، بطيئا، لقد عر. . . فت. . . . آه.
ودوت صرختها قوة كالرعد مرعبة محشرجة، ثم ساد الصمت، صمت عميق، عميق رهيب مخيف، وقفت الأخت عن الكتابة فزعة مذعورة ولكنها لم تقو على تحريك رأسها ناحية أختها المريضة، حاولت أن تنادي فلم تفلح، وأخيرا أدارت رأسها فصرخت هي الأخرى صرخة مروعة، أمامها عينان جاحظتان خيل إليها انهما فصلتا من الرأس، وانهما كل شيء على الفراش، وحولهما عروق نافرة زرقاء متوترة مشدودة أغمضت عينيها وفتحتهما مرة ومرتين، وأخيرا استطاعت بعد لأي أن تمد يدها لتلمس الجسد أمامها، فردت يدها قشعريرة شديدة مكهربة، ودوى صوت هائل رن في أذنيها. تبينته فإذا هو ضحك استهزاء، ضحك غريب الصوت متواصل، وكأن آت من عالم آخر، ليس لها به عهد، ضحك، بل إغراق في الضحك، ثم ماذا؟ صوت كلمات، صوت هادئ رزين ولكنه مسموع برغم هذه الضحكات الهازئة العالية المتواصلة. ماذا يقول؟ ماذا؟. (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟)
سهير القلماوي
وجه صالح للسينما
للكاتبة الألمانية فيكي بوم مؤلفة (الفندق الكبير)
كانت من المصادفات النادرة الوقوع أن شاهد جوهانس فيليب المخرج السينمائي، من خلف الصحيفة التي كان يطالع فيها وهو في عربة الترام. تلك المرأة العجوز الجالسة أمامه فإذا بجسمه يضطرب اضطرابا ظاهرا وإذا البرودة تسري إلى أطرافه.
كانت هذه المرأة، واسمها دريجالسكي - المادريجالسكي - من اللاتي تراهن فلا تستطيع أن تقدر لهن عمرا، تراها فكأنك ترى تمثالا للشقاء والبؤس، وكأنها الفقر عاريا متجردا في صورة إنسان

ولم يكن شعرها الذي فقد لونه المنسدل حول وجهها النحيف الشاحب هو كل ما أثر في نفسه؛ بل أثرت فيها تلك التجاعيد التي لا عد لها والتي تملأ وجهها، تجاعيد حول فمها الغائر، وتجاعيد خطت سطورا متقاطعة فوق جبينها، وحفر قاتمة مظلمة تحت عينيها، اثر في نفسه منظر يديها النحيلتين اللتين برزت عظامهما ممسكتين كيسا من الجلد وضعت فيه ما أحضرته من السوق، وحذاؤها الذي لم يبق منه طول العهد غير الأثر، ثم تلك الأسمال النظيفة البالية التي ترتديها.

لكن أشد ما تأثرت به نفس المخرج السينمائي هو ما بدا على المرأة من إهمال وقلة مبالاة، وملامح اليأس والتعس والقنوط التي تنم عليها عيناها تحت حاجبيها النحيلتين وأغمض عينيه لحظة ليخفف الأثر الذي فعلته في نفسه، وهنا في تلك اللحظة - مر خاطر بباله، وكأنه يرى امامه، منظر الجماهير المحتشدة في أحد المناظر التي يعدها للشريط السينمائي الجديد الذي اعتزم إخراجه ويريد أن يضع له عنونا: صرخة من (الأعماق)

وخيل إليه انه يرى جمعا من النساء، وكأن كل واحدة منهن تشبه تلك التي امامه، رآهن جميعاً يتزاحمن ناحية سلم كبير وكأن بينهن تلك الجالسة أمامه الآن، إلا إنها انتحت بعيدا عنهن جميعا ثم سارت يبدو عليها البؤس والأسى

وفتح المخرج السينمائي عينيه، وذكر انه في عربة الترام، فقام من مجلسه وتقدم نحو المرأة قائلا

- هل لك يا سيدتي أن تحضري يوما إلى الرجل الذي أعطيك عنوانه الآن؟ وأحسبه يدفع لك أجرا طيبا.

ومرت فترة حتى بلغت كلماته إدراك دريجالسكي، ولكنها لم ترفع إليه بصرها برغم إنها فهمت ما يريد، وربما كانت متعبة فلم تستطع أن تجلي فيه بصرها، أو حال الألم البادي في عينيها دون أن تنظر إليه، وأخيرا فتحت فمها المطبق وقالت:

- أأعمل عمل غسالة؟

- كلا، بل عمل سهل واجر طيب، وسوف يشرحون لك كل شيء إذا ذهبت إليهم،

وأجابت وقد اهتزت عربة الترام فكادت المرأة تسقط من مقعدها

- أسمع!. . أني كنت أغسل. . وكنت أتناول سبعين (بفننج) اجر ساعة واحدة في اليوم، ولكن هذا العمل قد انتهى الآن، والمحل الذي كنت اشتغل فيه أغلقت أبوابه. . . على أي حال افضل أن أكون غسالة.

- لا أظنك سعيدة في حياتك؟ . . .

وبعد أن توقف قليلا، قالت:

كانت الأمور سائرة سيرها الطبيعي قبل تلك النوبات التي أصبحت تنتاب زوجي، نوبات فظيعة تصيبه فيستحيل وحشا حتى ليعجز أربعة رجال عن تهدئته ووضعه في فراشه، وهو عاطل لا يعمل. . . ينام أغلب وقته. . . ولكن حين تعود إليه النوبة!. . .

كان عاملا في مصانع بوش وزابيش، فسقطت قطعة من الحديد فوق رأسه. . . غير أن الطبيب يقول ليس هذا وحده ما سبب له هذه النوبات. . . بل لأن زوجي كان سكيراً. . . ربما أصاب الطبيب. . . كذلك ولدي، عقله غير كامل. . . لسوء حظه. . . لم يكن بهذا القدر من السوء وهو صغير، كان يجلس هادئاً فوق مقعده الصغير، فلما بلغ السادسة عشرة أصبحت تصيبه نوبات شديدة. . . وذلك من سوء حظه أيضاً. . . فأنا التي أقوم بكل ما يحتاج إليه البيت.

من عهد قريب كنت سائرة في الشارع فسقطت على الأرض. . . ونقلت إلى أقرب محل للإسعاف. وقال الطبيب. إنها ليست مريضة إنما قلة تغذية. . . ماذا تفعل بضعة دريهمات أمام أجور الغاز. . . وأجرة البيت؟

كانت تتكلم بصوت ضعيف خافت كأنها تخاطب نفسها، وانحنت قليلا فوق الكيس بين يديها. لا بأس. . . إذهبي وقابلي الهر ثوربج فقد يصلح حالك فيما بعد، وألح عليها في الذهاب ما استطاع، ثم ترك العربة وهزت دريجالسكي رأسها وهي تفكر كيف يمكن أن يصلح حالها.

وهكذا بدأت المادريجالسكي مجدها السينمائي العظيم

ومضت إلى استوديو (هالفا) وكأنها شبح ينتقل في هيكل من عظام، وسألت عن هر

.ثوربج - رناتس ثوربج، كاتب السيناريو الذي كان شاعراً قبل أن يشتغل بهذا الفن
وكاد ثوربج يجن فرحا ودعا إليه غيره من زملائه وقد شاركوه إعجابه. أما دريجالسكي
فظلت واقفة وسط الغرفة دون أن تدرك شيئا ومع ذلك لم يبد عليها اثر من الدهش
فقد علمها الشقاء إلا تأبه لشيء
وطلب إليها أن تسجل أسمها لدى الكاتب المختص بذلك في الأستوديو، وذكروا لها إنها
ستتناول عشرة ماركات في اليوم،
فكان كل ما بدأ عليها إنها عجزت عن تصديق ذلك.
كان الأستوديو غاصا بنساء كثيرات يرتدين أسمالا كتلك التي ترتديها دريجالسكي،
وحول عيونهن تجاعيد كتجاعيدها إلا إنها تجاعيد زائفة من دهانات وأصباغ. وألقوا بها
بين الأخريات فكانت بينهن كأنها ليست منهن، بوجهها الطبيعي وسط الوجوه
المصبوغة بالطلاء وشقائها الحقيقي الذي لا تمثيل فيه. وأثرت الأضواء القوية في
عينيها حتى سالت منهما الدموع.
وفي الساعة الواحدة كانت واقفة تحت مصباح كبير بين النساء الأخريات، وصاح رجل
كان واقفا فوق منصة عالية طالباً منهن جميعا أن يرفعن رؤوسهن ويلتفتن إلى جهة
أشار إليها. . . وكان هذا آخر مناظر الموقف.
وذهبت جميع النسوة إلى مطعم الأستوديو إلا دريجالسكي فلم تشاركهن، بل انتحت
ناحية بعيدة وجلست فوق مقعد تأكل قطعة من الخبز أخرجتها من كيسها. وثوربج لم
يحول بصره عن هذا الجسم الذي يبدو كأنه بقية إنسان. . . وهو يفكر - لو أنه ظل
شاعراً لنظم في صورتها قصيدة رائعة، أما وقد أصبح مؤلفا للسينما. . .
وحان وقت العمل للتصوير فعادوا جميعا، واستمر العمل حتى كانت الساعة الثامنة
مساء،
والمخرج واقف فوق سلم أمام النسوة، ومن ورائهن رجال آخرون يلقون عليهن
الأوامر من الأبواق المكبرة للصوت. وأخيرا أمرهن أن يسرن إلى الأمام.
وقيل لدريجالسكي أن تبتعد عن زميلاتها، وأن تتقدم وحدها لتصعد السلم، وأن تفعل
ذلك حين تسمع كلمة: (الآن! سيري.) وما عليها إلا أن تسير في مشيتها الطبيعية
المعتادة، وحين سمعت الإشارة تباعدت عن زميلاتها وسارت ثم رفعت يدها لتحجب
عن عينيها النور الذي اثر فيهما، فلم تعد تبصر شيئا. . . والمصور واقف فوق منصته
يدير آلة التصوير وقد أخذ الإعجاب كل مأخذ منه، فكان يصيح: ما اعجب هذا!. . ما
أبدع هذا!. .
وقال ثوربج لدريجالسكي قبل أن تمضي تعالي غدا لأخذ منظر آخر، وصورت في اليوم
التالي وهي تحمل طفلا، وصورت في اليوم الثالث ثم قدموا لها ثلاثين ماركا!
وسألتهم: متى أعود ثانية؟ فأجاب الرجل الذي نقدها أجرها وهو يمزح - سنكتب إليك
حين نحتاجك، فليس العمل منظما هنا كعمل الغسالات!
وعادت دريجالسكي متهالكة من التعب، لم تدرك شيئاً من كل ما حدث، عادت إلى -
بيتها في انتظار أن تدعى مرة أخرى
واستدعيت المادريجالسكي مرات كثيرة في الأشهر التالية.
وكان منظر المرأة في بساطته وصدقه قد أعجب كل من رآه، ولهج النقاد بذكره
كثيراً، وبلغ إعجاب الجمهور به مداه، وطلب إلى دريجالسكي أن تقوم بدور آخر في
رواية جديدة، ومنحت عشرين ماركا أجر هذا الدور. وسألت شركة سينمائية أخرى عن
عنوانها وأرسلت إليها تستدعيها، وهكذا تسابق إليها المخرجون، فكان مظهرها يكسب
الموقف لوناً طبيعيا رائعاً: لون الألم والبؤس الصحيح الذي لا أثر للصناعة فيه.
وخرجت دريجالسكي من عزلتها التي كانت فيها، فتعرفت إلى غيرها من النساء اللاتي
تستخدمهن شركات السينما، وعرفت منهن أن تتردد على مكاتب الأستوديو إذا طال
عليها الأمد ولم يستدعها أحد؛ ولكنها برغم ذلك كله لم تدرك من الأمر شيئاً، وكان كل
ما عرفته أن أجرها يزيد خمس ماركات إذا صورت وحدها عما لو صورت بين جمع من
النساء. وقد تعلمت الطمع والجشع فكانت تبذل جهدها لتحذق عملها الذي تؤمر به
حتى يزيد أجرها
صرفت دريجالسكي أول نقود نالتها في أجرة طبيب. ثم صرفت ما كسبته بعد ذلك في

جنازة زوجها ودفنه. وتحسنت الأحوال بعد موت هذا الزوج. فقد كانت تخشى أن تترك أبنها المعتوه في البيت لئلا يعبث بالكبريت. أما الآن فقد اصبح في وسعها أن تودعه مصحة للأمراض العقلية، ولم يبق معها بعد ذلك إلا القليل من النقود ومع هذا فقد استشعرت الراحة والاطمئنان لقد كانت مدفونة تحت أطلال حياتها التعسة وأحست اليوم إنها تستنشق الهواء، وهجرت مهنتها الأولى كغسالة. ومع ذلك فقد ساق إليها حظها الجديد رجلا يستأجر غرفة في بيتها وهو انتون بوش الأعزب الذي كان يبيع المثلجات في الشارع وكانت دريجالسكي ترى فيه رجلا ظريفا، وحسدها الجيران لنجاحها في فن السينما، واعتزت بنفسها إذ أدركت منهم ذلك الحسد. وكان الهر بوش يدفع لها اثني عشر ماركا في الشهر ويدفع نصف أجرة الغاز وكان كريما شديد الإخلاص، لها وقد ابتاع لها فستانا من الحرير الأزرق وكانت تطهي له الطعام بنفسها وتقدم له شطائر ليتناول منها طعامه في جولاته. وانك لتدرك من ذلك أن غذاءها هي نفسها قد تحسن كثيرا وزالت التجاعيد عن وجهها شيئا فشيئا وقد بلغت الآن قمة النجاح واصبح اسم دريجالسكي اسما يردده المخرجون!

التتمة في العدد القادم

محمود عزى

الكتب

العراق

نقد لكتاب جغرافية العراق

تأليف الفريق طه باشا الهاشمي

بقلم الدكتور محمد عوض محمد

صديقنا الفريق طه الهاشمي باشا مدير معارف العراق سابقا ورئيس أركان حرب جيشه حالا به نسيج وحده اليوم في الجمع بين أدب السيف وأدب القلم، توفر علي الإصلاح المنتج الصامت من طريق التعليم والتأليف، ورضي من سعادة العيش ومتاع الحياة بشرف الدفاع عن الوطن ولذة الجهاد في سبيل العلم، فلم يدخل في فتنة، ولم يساهم في حزبية، ولم يوزع همه وجهده إلا على مكتب في وزارته، ومكتب في بيته. ومن يطلع ثبت مؤلفاته في التاريخ والجغرافيا وفنون الحرب لا يسعه إلا إكبار هذا الرجل. وهذا كتاب جديد أسفر عنه عزمه في جغرافية العراق سيحدثك عنه صديقنا الدكتور محمد عوض، والدكتور عوض أستاذ هذا العلم كان في الجامعة المصرية ثم في مدرسة التجارة العليا، فحديثه عن الكتاب نفق، وشهادته للمؤلف الفاضل أصدق

المحرر

إن حديث العراق يثير في النفس أحاسيس لا سبيل إلى دفعها، وظمأ لا سبيل إلى ريه. ويبعث أمام العين صوراً قوية جذابة، ويحرك في القلب شجناً وأي شجن. ويثير في الخاطر ذكرى عهود وأي عهود!. فهات الحديث أذن عن الزوراء وعن هيت، وعن سامراء وتكريت، وعن الموصل وكربلاء وعن البصرة والكوفة! أو اعد بهذا الحديث ذكرى ذلك العهد الجليل - كان عهدا جليلا للناطقين بالضاد، وكان عهدا جليلا لبني الإنسان كافة - أيام كان الوطن العربي كتلة واحدة، كأنه العقاب الهائل باسطا جناحيه على المشرق والمغرب، أيام كان هذا الوطن العربي هو في العالم كل شيء وما سواه ليس بشيء، أيام لم يكن في العالم نور سوى ما ينبعث من نبراسه، ويضئ أرجاءه. ولم يكن في الدهر كله راية أسمى، ولا منار أرفع من هذه الراية الإسلامية التي تظل تلك الأقطار الفسيحة

المنتشرة، من المحيط الأطلسي إلى أقصى بلاد الصين، حين كان سائر العالم في - دياجين من الجهل لا يعرف لنفسه منها مخرجا

في ذلك الزمن كان السائح المتجول ينتقل من القطر إلى القطر ويتجول في الإقليم بعد الإقليم، وما ينتقل من وطن إلا لينزل في وطن، فحيثما سار، وأينما حط رحاله، لن يخرج عن الوطن العربي الفسيح، سواء أصعد أم أسهل، وأتهم ام أنجد.

وكانت هذه الأقطار كالعقد المنظوم، انبسطت حباته على محيا البسيطة ينتظمها جميعا سلكان ذو قوة ومتانة برغم أنف الزمان، وهما الدين الإسلامي واللسان العربي وليس من شك في أن للعراق في هذا العقد منزلة خاصة. ولئن لم أنه واسطة ذلك العقد، لأننا لسنا في مقام المفاضلة. فلا أقل من أن نؤكد أن العراق جوهرة ثمينة

براقة في ذلك العقد النظيم الذي لم يشهد الدهر له ضريبا.
على أن صورة الدولة الإسلامية ليست الصورة الوحيدة التي يثيرها حديث العراق. هذه صورة يهتم لها العالم الإسلامي، والناطقون بالضاد. ولكن هنالك صورة أخرى تعني العالم كله، لا فرق بين شرقه وغربه، ومسلمة وغير مسلمة. وهي صورة العراق أيام كان مهد الحضارة الأولى. في أقدم عصور التاريخ. فهنا، في سهول دجلة والفرات، نهضت حضارة سومر وأكد قبل ميلاد المسيح بأربعين قرنا، أيام لم يكن في العالم كله ثقافة ولا حضارة، اللهم إلا في الوادي الشقيق الذي نعيش فيه.
إن هذه الحقيقة وحدها لكافية لأن تثير في قلب كل إنسان شغفا بالعراق الذي كان مهد لكل هذه الحضارات، والذي ظل عامرا زاهرا كل هذا الدهر الطويل، الذي يتضاءل بجانبه عمر هذه الدويلات المحدثة، التي ملأت عصرنا هذا عجيا وضوضاء
إذن هنالك أسباب عدة لأن نعني بدرس جغرافية العراق دراسة خاصة. وأخلق بنا - نحن مدرسي الجغرافيا - أن نذكر هذا أبدا، وأن نكون دائما على استعداد - في مقام التمثيل والاستشهاد- لذكر البلاد الشرقية والديار العربية فإذا كنا نتحدث عن الأنهار وجغرافيتها، فلا ننسى أن نذكر انهار الشرق، دجلة والفرات، وسيحون وجيحون والأردن والعاصي، ولا نكتفي بذكر الرون والرين، والطونه والسين.
على أن الكتب العربية الحديثة التي وفت هذه الموضوعات حقها من البحث قليلة جدا، والمشتغلون بالجغرافيا في البلاد العربية - وعلى الأخص في مصر - قلما يكتبون ابتغاء وجه العلم، بل يكتب أكثرهم ابتغاء عرض الحياة الدنيا. ولهم في ذلك أعذار مقبولة وأخرى غير مقبولة، وعلى كل حال لقد أصبحنا في مصر - مثلا ولدينا عشرات من الكتب (المقررة) للمدارس الابتدائية وغيرها، وليس لدينا كتاب واحد حديث يفصل لنا جغرافية مصر تفصيلا علميا متقنا
لهذا كانت دهشتي عظيمة حين تناولت كتاب (جغرافية العراق) تأليف الفريق طه الهاشمي باشا، رئيس أركان حرب العراق. فرأيته يتناول جغرافية العراق بالبحث المفصل الواضح، لم يغادر ناحية من نواحي علم الجغرافيا إلا عالجها في قدرة فائقة تشهد بالفخر لمن كانت حرفته الجغرافيا. فكيف والكتاب من إنتاج رجل حرفته الأولى تعبئة الجيوش، ورسم الخطط الحربية، وتدبير المعارك الحاسمة؟
ولئن كنا مضطرين إلى إكبار هذا الجهد الفائق وإلى الإعجاب الشديد به، فانه يحق لنا أن نعجب كيف بدأ التأليف الجغرافي بالعراق ناضجا كاملا على هذا النحوت من غير إرهاصات ولا مقدما. ولا دون نشوء ونمو. اللهم إلا تكون هنالك مؤلفات سابقة ليس لنا بها علم.
وكل مطلع على هذا الكتاب بمن له أقل خبرة بالتأليف الجغرافي لابد أن يدرك ما عاناه المؤلف في جمع كل هذه الإحصائيات الدقيقة، وفي إخراج هذه المصورات المتقنة. خصوصا إذا ذكرنا أنه يطرق أبوابا جديدة، ويعالج أمورا لم يعالجها المؤلفون قبله. ويسير في سبيل لم تمهد ولم تعبد
ان العراق هو أشد أقطار العالم شبها بمصر ولقد تكون أمطاره في بعض نواحيه أغزر منها في وادي النيل، غير أن العراق يعتمد قبل كل شيء على ماء أنهاره كما تعتمد مصر على نيلها. والعراق نهران يكاد ذكر اسميهما أن يكون من الفضول: دجلة (الفتاة) التي تجري في شطره الغربي، والفرات (الفتى) الذي ينساب في الجانب الغربي. كلاهما يبدأ مجراه في جبال أرمينيه. وكردستان وليس بين منابعهما مسافة كبيرة. فأما دجلة فتنحدر مسرعة أو متسرعة - كسائر الإناث لا تلتفت يمينا ولا يسارا، بل تجري معجلة إلى البحر (خليج العجم). وإما الفرات فيسيل مغربا حتى يدنو من بلاد سورية. وكأنما كان يريد أن
يتجه إلى البحر الأبيض ثم غير رأيه، أو كأنما أراد أن يطل على القطر الشقيق ليقرئه السلام، ثم يلتوي بعد ذلك في هدوء ورزانة، ويولي وجه شطر العراق، ولا يزال يجري هو أيضا حتى يصل إلى خليج العجم، لكن في شيء من التؤدة والتأني، وفي منتصف الطريق بين المنبع والمصب يشتاق الفرات إلى دجلة فيأخذ في الاقتراب منها، وفي هذا الجزء الأوسط من العراق يقترب النهران حتى ليظن انهما سيجتمعان. فلا يفصلهما غير مسافة أربعين كيلومتر. وفي هذا الموضع قد احتشد كثير من مدن العراق الشهيرة قديما وحديثا. فهنا نجد آثار بابل ومدائن كسرى، ونشاهد بغداد

الزاهرة وكربلاء المقدسة. كلها في هذه المنطقة التي يتدانى فيها النهران، على أن اجتماعهما لا يتم بعد، بل يتباعدان مرة أخرى - ثم يلتقيان بعد لأي عند القرنة، فيتكون منهما نهر واحد هو شط العرب الذي ينحدر إلى خليج فارس.

هذان النهران هما رأس مال العراق وينبوع ثروته فمنهما ما} هـ الذي يسقيه، ومنهما تربته الخصبة التي يعيش أهله من ريعها ولقد تكون سهل العراق الفسيح مما حملة هذان النهران من الروساب والطين. فاستطاع السهل الخصب أن ينمو ويمتد إلى البحر، حتى أصبح خليج فارس أصغر مما كان عليه حتى في العصور التاريخية. ولا يعرف في العالم كله سهل نهري يزداد نموه بسرعة تعادل سرعة نمو سهل العراق. فهنا يتقدم البر وينكمش أمامه البحر بسرعة معدومة النظير، ولهذا كانت أرض العراق في عصر السومريين أصغر مما هي اليوم. بحيث كانت المدن السومرية القديمة: أور واردو ولاجاش واقعة على البحر أو قريبة منه.

وهكذا يعرض المؤلف أمام أعيننا صورا شائقة ممتعة لجغرافية العراق. ويعرضها في ترتيبها المنطقي المتسق. فتراه في الفصول الأولى يشرح موقع البلاد بالنسبة لما جاورها من الأقطار ثم يأخذ في شرح التكوينات الجيولوجية، وكيف تكونت أرض العراق في الأزمنة الجيلوجية، ثم ينتقل إلى وصف تضاريس البلاد وما بها من سهول مطمئنة، وجبال شاهقة تفصل ما بينه وبين بلاد الترك والفرس. ثم يصور لنا كيف يفيضان، ومقدار ما يجري فيهما من الماء، وفي أي الشهور يفيض، أو يغيض الماء ثم ينتقل بعد ذلك إلى دراسة المناخ والحيوان. . .

وبهذا يكون المؤلف قد أكمل الصورة الطبيعية للبلاد في كافة نواحيها، وهنالك يصبح ذهن القارئ مهيأ لأن ينتقل من البيئة إلى السكان، ومن الجغرافيا الطبيعة إلى الجغرافيا البشرية

والناحية البشرية تحتل الشطر الأكبر من الكتاب، ويحق لها أن تنال كل هذه العناية، فنرى المؤلف يمعن في ذكر القبائل وموطنها، وحاضرها وباديها. وكيف تنتقل من موطن إلى موطن، وبعضها قد يتنقل من العراق إلى فارس أو تركيا أو سوريا في بعض الشهور، ثم يعود إلى العراق في شهور أخرى.

ومن أفضل أبواب الكتاب تلك الفصول التي يشرح فيها المؤلف الجغرافيا الاقتصادية في العراق، ويبين للقارئ طرق الزراعة والري والمعادن والتجارة، وطرق الموصلات على كافة أنواعها.

ولن يتسع المقام هنا للإفاضة في ذكر فصول الكتاب. وحسب كل مشتغل بعلم الجغرافيا أن يعلم أنه قد بات في متناوله اليوم كتاب واف عن جغرافية بلاد نحن في أشد الحاجة إلى أن نلم بجغرافيتها إلماما صحيحا دقيقاً.

وسيجد القارئ المصري صعوبة في فهم بعض المصطلحات العلمية. لأنها في كثير من المواضع قد تخالف ما اصطلح عليه المشتغلون بالجغرافيا في مصر. ولكن لن يلبث القارئ طويلا حتى يعتاد لغة الكتاب ومصطلحاته. وإنا لنرجو على مدى الزمن أن تزداد المؤلفات الجغرافيا العربية، فنستطيع بمبادلة الرأي أن نوحد المصطلحات العلمية في اللسان العربي.

ولابد لنا أن نذكر بشيء كثير من الثناء ما اشتمل عليه الكتاب من خرائط ملونة وغير ملونة. وكثير منها من نوع فريد لا يسهل العثور على مثله. ولنذكر على سبيل المثال الخرائط التي تبين مناطق الزراعة، وكثافة السكان، والأجناس والشعوب والقبائل. والكتاب مفعم بالصور توضح جميع نواحي البحث في الكتاب كله.

ونحن نهنئ المؤلف الفاضل بجهوده المثمرة. ولا نشك في أنه ماض في عمله الجليل، حتى يشق في بحثه الجغرافي سبلا جديدة. وتزداد مؤلفاته الجغرافيا عددا واتقانا على إتقان. . أن رجال الجيش طالما أدوا إلى علم الجغرافيا خدمات، جليلة ومن ذا الذي لا يسره أن يرى اسم هذا القائد العربي بين أسماء من خدموا وأحسنوا إلى المشتغلين بها.

عوض
العدد 28 - بتاريخ: 15 - 01 - 1934

من جد الشتاء

الدكتور طه حسين

من جد الشتاء أن تهنئ الزيات بعيدين يطلع بهما عليه فجر يوم واحد، هو هذا اليوم الذي تظهر فيه الرسالة للناس، وتشرق بهما عليه شمس واحدة هي شمس يوم الاثنين، ويستقبل فيهما ابتسامتين ما أعرف أن في الحياة شيئاً أحب إليه ولا أحسي في نفسه وقعاً، ولا أجمل في قلبه صورة، ولا أشد إحياء في الأمل واستدعاء للغبطة، وإثارة للابتهاج منهما، إحداهما مقصورة عليه أو كالمقصورة عليه. استغفر الله، بل هي مقسومة بينه وبين شطر نفسه وشريكته في الحياة، وهي ابتسامة ابنه (رجاء)، والأخرى شائعة بينه وبين أصدقائه وأحبائه وخصومه وأعدائه في مصر كلها، وفي الشرق العربي كله، وفي كل طرف من أطراف الأرض تقرأ فيه اللغة العربية ويذاق فيها الأدب العربي، وهي ابتسامة بنته (الرسالة). فقد رزق الزيات في مثل هذا اليوم من العام الماضي هذين الوليدين العزيزين، فسعد بأولهما في نفسه وأسرته، وسعد بثنتيهما في نفسه وأمته، وأنفق عامه كله معنياً بنتشئ رجاء وتنمية الرسالة، يقصر جهد عقله على هذه، ويختص بفيض قلبه ذاك. ويجني من هذه كما يجني من ذاك هذه الثمرات الحلوة المرة، اللذيذة المؤلمة، التي يجنيها الأحياء من حب الأحياء والعناية بهم والانصراف إليهم عن كل شيء.

يبتسم رجاء للحياة فيبتسم قلب الزيات وتنعم نفسه، وتبتسم الرسالة للحياة فيبتسم عقل الزيات وينعم ضميره، تعرض الآم الحياة لرجاء فيكتئب قلب الزيات، ويأرق ليله وينغص نهاره، وتظلم الحياة في وجهه، وتعرض المصاعب للرسالة فيبتأس عقل الزيات ويقلق ضميره وتضيق به الأرض ويضيق هو بالأرض، لا يطمئن ولا يستريح ولا يتذوق لذة العيش إلا إذا استقبل النهار في بيته، وبابتسامة الرسالة خارج البيت. أليس من الجد أن نهنئ صديقنا إذا استدار العام وأقبل يوم الاثنين، فإذا رجاء يقبل على الحياة مبتسماً لها، مغتبطاً بها، آخذاً منها بهذا الحظ الحلو، الجميل الصفو، الخالص من كل شائبة، الذي لا يتاح إلى للأطفال، والذي أتيح لنا جميعاً في وقت من الأوقات، ثم محته من نفوسنا وقلوبنا وذاكرتنا هذه الأيام التي تمضي وهذه الليالي التي تتبعها، فإذا نحن لا نذكره ولا نقدره، وإنما نأسى عليه ونود لو استطعنا أن نحقق المستحيل فنسعد لسذاجته النضرة، ونحتفظ مع ذلك بمصدر ما نكره من الألم والحزن، ومن الكآبة والشقاء، وهو العقل والضمير.

أليس من الجد أن نهنئ الزيات إذا استدار العام وأقبل يوم الاثنين، فإذا الرسالة تستقبل الحياة واثقة بإقبال القراء عليها وتأييدهم لها، وحرصهم على أن يستقبلوها كلما دار الأسبوع قوية نشيطة، ممعنة فيما هي فيه من تصوير الحياة الأدبية الشرقية، والآمال الأدبية الشرقية بما فيها من جد وهزل، ومن قوة وضعف، ومن أمل ويأس، ومن نور وظلمة، ومن نشاط وخمول. بل أن من الجد كل الجد أن نهنئ صديقنا بهذا اليوم السعيد لقلبه وعقله معاً. وأن نتمنى لصديقنا أن يستدبر الأعوام والأعوام، وأن يستقبل هذا اليوم كلما أتم الفلك دورته بهاتين الابتسامتين اللتين تملان قلبه وعقله وضميره وغبطة واطمئناناً لأداء الواجب واستعداداً للنهوض بأعباء الحياة.

ومن جد الشتاء أن نذكر لهو الناس بلذات الشتاء، وما أكثر لذات الشتاء وما أعذبها، وما أشد تنوعها واختلافها، وما أحسن موقع بعضها من القلوب، وما أجمل أثر بعضها في النفوس، وما أقل حظنا من الرغبة في خيارها والإقبال على طيباتها. أما دور السينما فحافلة والحمد لله في جميع ليالي الأسبوع، وفي جميع أيامه، كثيرة ولكنها على ذلك مزدحمة بالمختلفين إليها، مكتظة عليها تعرض عليهم كثيراً من السخف وقليلاً جداً من القيم المفيد، وهم بذلك راضون، وفي ذلك راغبون، لأنهم لا يبتغون إلا هذه اللذة اليسيرة القصيرة التي تلهيهم عن هموم الحياة وأثقالها ساعات من ليل، أو ساعات من نهار، وأما دور التمثيل فالأمر فيها مختلف، منها العربي الذي يعيد ما يبدئ، ويبدئ ما يعيد، يصاحب الحياة دون أن يحيا، ويستقبل الأيام والليالي، لأن الأيام والليالي تمر به وتغمره كما تمر بكل شيء، وكما تغمر كل شيء. لا يحدث جديداً ولا يبتكر طريفاً، والناس مع ذلك يغشون هذه الدور في كسل، وفتور لأنهم تعودوا أن يغشوها كما تعودوا أن يغشوا الأندية والقهوات ينفقون فيها ساعات فارغة من حياة فارغة. ثم يعودون إلى بيوتهم بنفوس فارغة وقلوب فارغة وأجواف ممتلئة. والله يعلم بأي نوع من أنواع الطعام والشراب، وأنك لتسأل نفسك وتسأل الناس وتسأل الأدباء، وتسأل النقاد عن القصة الطريفة من قصص التمثيل والآية البديعة من آيات الفن التي

استقبلنا بها فصل الشتاء، فلا تظفر إلا بهز الرءوس ورفع الأكتاف وابتسامة فيها السخرية وفيها الحزن، وفيها اليأس من الحياة والازدراء للحياة والانصراف عما يجعل للحياة قيمة أو يجعلها خليقة بالتفكير والتقدير.

ومنها دار الأوبرا الملكية التي تنام تسعة أشهر، وتستيقظ ثلاثة أشهر من كل عام، تنام لأنها في بلد يحب النوم، وتستيقظ لأن قوماً من الأجانب يوقظونها كلما انتهى الخريف وأقبل الشتاء، وهم يوقظونها لأنهم يدعون إلى ذلك ويرادون عليه. تدعوهم إلى ذلك الدولة. لأنها لا تريد أن ننام طول العام، أو لان يظن بنا الناس أننا ننام طول العام، أو أن يزورنا السائحون فلا يجدوا عندنا ما يلهيهم ويريحهم من تعب النهار. ويدعوهم إلى ذلك ضيفنا الأجانب الذين لا ينامون لا في الصيف ولا في الشتاء، ثم أيقاظ في بلادهم إذا أقبل الصيف، وهم أيقاظ في بلادنا إذا كان الشتاء، هم يلهون في بلادهم على حساب أنفسهم إذا أقبل الصيف، وهم يلهون في بلادهم على حسابنا نحن إذا أقبل الشتاء، والغريب أننا نلهيهم ولا نلهو معهم. وحق الضيافة على أقل تقدير يقضي علينا بأن نشاركهم فيما نقدم لهم من اللهو. ولكن أحصيت لي الطرابيش التي كانت في الأوبرا يوم الاثنين الماضي. فلم تبلغ العشرين. فأما العمائم فما لها وللأوبرا؟ وكيف يظن بها أن تختلف إلى هذه الدار؟!

النفس والرقص

للكاتب الشاعر الفرنسي العظيم بول فاليري

ترجمة الدكتور طه

- 3 -

أركسيماك - أي أتكتيه! ما أشد إتقانك للقرب!

فيدر - كأن الموسيقى تستردها في هدوء، كأنها ترفعها . . .

أركسيماك - إنما تغير الموسيقى نفسها

سقراط - أي آلهة الفن، إن قوتكن لبالغة في هذه اللحظة التي تريد أن تموت. يا له من تعليق حلو للأنفاس وللقلوب. . . إن الثقل ليسقط تحت قدميها، وهذا الرداء العظيم الذي يسقط في غير صوت ينبئنا بذلك. لا يرى جسمها إلا متحركاً.

أركسيماك - لقد عادت عيناها إلى الضوء.

فيدر - لنستمتع بهذه اللحظة الحلوة التي تغير فيها إرادتها! كأنها الطائر الذي يصل إلى حافة السقف نفسها ثم يقطع ما بينه وبين المرمر الجميل من صلة، ويسقط في طيرانه.

أركسيماك - لا أحب شيئاً حبي لما يريد أن يحدث، حتى في الحب لا أجد ألذ من الشعور الأول. والفجر أحب ساعات النهار إلي. لهذا أريد أن أرى في شيء من الحنان ظهور الحركة المقدسة على هذه الفتاة الحية. أنظر. . .! إنها تنشأ من هذا اللحظ المنزلق الذي يجذب في قوة رأسها ذا الأنف الحلو إلى كتفيها المضيئتين، وهذا العصب الجميل كله، عصب جسمها الصريح القوي، يظهر ويلتوي شيئاً فشيئاً من العنق إلى العقب. ثم تمضي الرعشة في كل شيء. ويصور في بطء مولد وثبة. ويحظر علينا أن نتنفس حتى تنبع هذه الوثبة ملائماً في تقدير خفي مفاجئ لطرق الصنج الذي يمزق الهواء.

سقراط - ما أعجبها! هاهي ذي تدخل في الاستثناء وتمضي في غير الممكن. إن نفوسنا لمتشابهة أيها الصديقان أمام هذا السلطان الذي هو واحد كامل بالقياس إلى كل واحدة منها. . . إنها لتشرب معاً كل ما هو جميل.

أركسيماك - إنها لتستحيل كلها إلى رقص وتفرغ كلها للحركة الكاملة.

فيدر - كأنها قبل كل شيء تمحو بهذه الخطوات التي يملؤها العقل من الأرض كل تعب وكل حمق. وهاهي ذي تتخذ لنفسها منزلاً يرتفع قليلاً فوق الأشياء كلها، وكأنها تهيئ لنفسها عشاً في ذراعيها الناصعتين. . ولكن ألا يظن الآن أنها تنسج لنفسها بقدميها بساطاً من الاحساسات لا يكاد يحد. هي تلائم وتخالف وتنسج الأرض بالزمن. ياله من أثر بديع هذا العمل القيم تأتيه بإبهاميها العاقلتين اللتين تهجمان وتختلسان، وتعقدان وتحلان، وتتطاردان، ثم تطيران. . . ما أرعهما! ما أنشطهما هاتين الماهرتين في إنشاء اللذة التي ينفق فيها الوقت الضائع!. . . إن هاتين القدمين لتتناغيان وتختصمان كأنهما حمامتان. إن نقطة من الأرض لتثير بينهما من الخصومة ما تثيره

الحبة بين الحمامتين. ترتفعان معاً ثم تصطدمان في الهواء أيضاً. إني لأقسم بآلهة الفن ما اشتهت شفتاي قط قدمين أكثر مما تشتهيان هاتين القدمين.
سقراط - وكذلك تحسد شفتاك هاتين القدمين البارعتين على فصاحتهما البالغة، وتود لو أعارتا كلماتك جناحيهما ولو زينتا ما تقول بوثباتهما.
فيدر - أنا؟. . .
أركسيماك - لم يكن يفكر إلا في أن ينقر حمام الأقدام. وهذه نتيجة لعنايته الحادة التي يختص بها منظر الرقص. أي غرابة في هذا يا سقراط؟ أي شيء أدنى إلى السر الساذج الجميل، إن صديقنا فيدر مسحور بهذه الحركات الحفية الظاهرة المضيئة التي تزدهي بها إبهاماً (اتكتيه) هو يلتهمهما بعينيه، هو يمد إليهما وجهه، هو يظن أنه يحس على شفتيه جرى أظفارهما السريعة. لا تعتذر أي فيدر العزيز، لا يأخذك اضطراب ما. فأنت لم تشعر بشيء إلا وهو مباح غامض أي ملائم كل الملازمة لطبيعة الناس، ألسنا عبثاً منظماً؟ وتأليفنا الحي أليس اختلاطاً نعمل في نظام، واضطراباً يحدث آثاره؟ أليست الحوادث، والرغبات، والخواطر تتغير في نفوسنا على أشد الأنحاء ملاءمة للضرورة ومباعدة للفهم. . . أي اختلاط من العلل والآثار.
فيدر - ولكنك وضحت بنفسك أحسن التوضيح ما شعرت به أنا شعوراً ساذجاً. سقراط أيها العزيز فيدر في الحق أنك لم تتأثر بغير سبب. وكلما نظرت أنا إلى هذه الراقصة التي لا توصف تحدثت إلى نفسي عن الأعاجيب وأسالها كيف استطاعت الطبيعة أن تودع هذه
الفتاة النحيلة الضئيلة مقداراً ضخماً من القوة والسرعة إلى هذا الحد؟ أتوجد أسطورة لهرقل وقد استحال إلى طائر؟ وكيف يستطيع هذا الرأس المحدود كأنه قبضة الصنوبر أن يثير آلافاً من المسائل والأجوبة بين أعضائه وهذه المحاولات المذهلة التي تحدثها - متخلصة منها دائماً متلقية إياها من الموسيقى ثم رادة لها في سرعة الضوء.
أركسيماك - وأنا إنما أفكر في قوة الحشرة التي تستطيع بهذه الحركات التي لا تحصى في أجنحتها أن تقيم صوتها وثقلها وشجاعتها.
سقراط - هذه تضطرب في شرك لحظنا كأنها الذبابة الأسيرة، ولكن عقلي الطلعة يجري في أثرها ويريد أن يلتهم ما تحدث!
فيدر - أيها العزيز سقراط! ألا تستطيع إذن أن تستمتع إلا بنفسك؟
سقراط - أيها الصديقان ما حقيقة الرقص؟
أركسيماك - أليس الرقص ما نرى؟ وأي شيء أوضح في تعريف الرقص من الرقص نفسه؟
فيدر - صديقنا سقراط لا يرضى حتى يصل إلى نفس كل شيء بل إلى نفس النفس.
سقراط - ولكن ما الرقص وما عسى أن تقول الخطى؟
طه حسين
أحدث المبادئ الاجتماعية؟!
للأستاذ حسن جلال
المنظر الأول
(شابان - فتى وفتاة عليهما سيما الجد الذي يقارب العبوس، يدخلان)
(ثم يتقدمان إلى صدر المكان حيث تجلس العاملة (المكتب)
(المنوطة بأعمال المكتب فتدور بينهما المحاورة الآتية التي تبدأها العاملة عادة)
فتاة المكتب - زواج أم طلاق؟
الفتى - طلاق
- هل لكما أبناء؟
- كلا!
- وما اسمك أيها السيد؟
- اسمي. . . . .
- وما اسمك أيتها السيدة؟
- اسمي. . . . .
- هاكما الأوراق
(يستلم كل من الشابين ورقته ولكنه يظل واقفاً في مكانه كأنه لا يصدق أن كل ما

كان بينه وبين صاحبه قد انتهى على إثر هذا الحوار البسيط. . . وتتنبه فتاة المكتب فتدرك ما هما فيه وتقول:
- لقد انتهى كل شيء.
- أليست هناك إجراءات أخرى؟
- كلا. لقد أصبح كل منكما حراً. إن شاء بقي كما هو وإن شاء تزوج بمن يشاء!
- شكراً. (وينصرفان)
المنظر الثاني
زوج آخر من الشبان. ولكنه فتى باسم وفتاة باسمة. يتقدمان أمام فتاة المكتب ليحلا محل الزوج السابق)
- زواج أم طلاق؟
- زواج!
- ما اسمك أيها السيد؟
- اسمي. . . . . .
- وما اسمك أيتها السيدة؟
- اسمي. . . . .
- دونكما الأوراق. أرجو لكما وقتاً سعيداً!
شكراً (وينصرفان هذه المرة بسرعة)
هذه هي العملية التي يقال إنها تتكرر اليوم عشرات المرات في (مكاتب الزواج والطلاق) في روسيا الحمراء. وهي لا تشبهها في سرعتها وبساطة إجراءاتها إلا عمليات تناول الطعام في محلات (السندوتش) الرشيقة التي تملأ القاهرة اليوم. قضمة من بعدها أخرى، ثم كوب الماء ودفع القرش. وتنتهي العملية هنا أيضاً مما تنتهي به عادة في بلاد السوفيت:
- شكراً (وينصرف)
ترى أهو لصالح الجماعة هذا النظام، أم هو هادم لكيانها؟ أما أنصاره فيقولون إن (الزواج) كما يعرفه العالم اليوم لم يزد على أن يكون إحدى العادات المدنية التي اعتادها الإنسان فخرجت به عن فطرته الأولى حيث الحرية التامة وعدم التقيد بأي قيد. وإنه لجدير بإنسان الجيل الحاضر أن يتحرر من هذا القيد كما تحرر من كثير من أمثاله. لقد خبر الناس نظام الزواج أجيالاً من بعدها أجيال، فهل سعدت الإنسانية باتباعه أم شقيت؟ وهل استراح الإنسان في حظيرة الأسرة وارتقى مستواه. أم فقد تحت أثقالها حيويته، وتبددت داخل أسوارها مطامعه وآماله، وناء بأعباء العيش وتربية البنين ورعاية البنات؟
ثم يقولون وما شأن هذا النظام بالحياة الفاضلة التي ينشدها الإنسان؟
أليست جريمة الزنا وليدة هذا النظام؟
وهل في العالم اليوم جريمة أوسع انتشاراً من هذه الجريمة التي يمارسها الملوك والصعاليك على السواء؟
وإذا كان هذا النظام هو الذي طوح بالجماعة إلى هذه النهاية المحزنة التي أصبحت الرذيلة شعارها. أفليس من العقل أن يعدل الإنسان عن هذا النظام؟
ثم يتساءلون متى كانت صلة الرجل بالمرأة صلة دائمة في طبيعتها حتى يحتم لها الإنسان هذا الدوام في صورة عقد الزواج الحالي؟ ألم يثبت عن تجربة أن صلة الرجل بالمرأة لا يمكن أن تدوم حية إلى أبعد من بضع سنوات؟ ألم تنته هذه الصلة عند ملايين الناس في كل زمان ومكان إلى الفتور والبرود؟ ألم تعالج بعض الأديان هذه الحالة بوضع نظام آخر فيه معنى التجديد. وحاولت التخفيف من قيود الزوجية لا بتيسير الطلاق وحده بل بإباحة تعدد الزوجات؟ ففيم التقيد إطلاقاً بنظام الأسرة؟ إن انهيار نظام الملكية الفردية في روسيا يؤدي حتماً إلى زوال السرقة، وكذلك انهيار الأسرة الحالي يؤدي حتماً إلى زوال جريمة الزنا ويمهد الطريق لأن تنتشر في الكون حياة فاضلة سعيدة!
هذا ما يقوله الأنصار
فاسمع ما يقوله المعارضون:

لا شك أن السرقة جريمة شنيعة تتنافى مع طبيعة الأمن الذي ينشده كل إنسان سواء أكان من أنصار هذا المذهب أم ذاك. ولا شك في أن الزنا جريمة مرذولة لأنها أقسى أنواع السرقات. أليس لصها يسرق القلوب؟ وهل المرء إلا قلبه! ولكن أليس أقرب إلى الهزل منه إلى الجد أن يعالج الإنسان داء السرقة في المجتمع بإباحة أموال الناس عامة؟ وأن يعالج داء الزنا بهدر الأعراض؟ وهل الشيوعية إلا هذه الإباحة والهدر. فالمال فيها مال الدولة والأبناء فيها أبناء الدولة ولا شيء فيها إلا هو للدولة!
الدولة أبوكم!
الدولة أمكم!
الدولة دينكم!
هذه هي صيحات الشيوعية وتعليماتها لأهلها! وهذا هو المذهب الذي يدعو إليه الخارجون على نظام الأسرة الحالي. فهم في سبيل مكافحة الفقر عند المعسرين يفقرون الأغنياء. وفي سبيل إخفاء معالم جريمة الزنا يريدون أن يجعلوا من العالم كله ماخورة واحدة!
وبعد
فقد شهدت منذ قليل رواية جميلة عنوانها ` وترجموها بقولهم (مخالفة الشريعة) والرواية تسير حوادثها هكذا:
يقبل من أقصى الأرض فتى وفتاة يريدان الالتحاق بإحدى الجامعات (الروسية) الحديثة. والشابان زوجان. ويرد الشاب أن يلتحق بكلية الطب فيصادف فيها الأستاذ ر - وهو ركن من أركان السوفيتية. فينفث في الطالب من روحه، ويتأثر الطالب بنفثاته، لأنه يعجب بعلمه ومقدرته في فن الجراحة الذي يدرسه عليه، وتكون من تعليمات الأستاذ لتلميذه أن (الحب حر) وأن رباط الزوجية معطل للنبوغ مقيد للمواهب. ويضرب له المثل بنفسه فيريه أنه هو غير متزوج، ولكنه يعاشر فتاة يحبها حباً كثيراً، وأنعه يسعد بهذا الحب أضعاف السعادة التي يمكن أن يشعر بها الأزواج. وتنسكب هذه المعاني انسكاباً في قلب الفتى الغض: فتفتر همته في حب زوجته الشابة لأنها ظللتها تلك الغشاوة التي نسجها من حولها أستاذه، وتحس الفتاة بما جد على فتاها من التطور والتحول. وتدرك أن أستاذه هو السبب في ذلك. فتتوجه إليه وتستغيث به في أزمتها التي تهدد حياتها، وتتوسل إليه أن يقوم طباع تلميذه وان يخفف من تلقينه هذه المبادئ التي توشك أن تهدم هناءهما. فيقول لها الأستاذ في جمود:
- وماذا عليك إن تركك فتاك؟
- أن أحبه
- سوف تنسين!
- إن الحب لا ينسى!
- أنت طفلة ينقصك علم كثير وخبرة كثيرة، كل شيء يا بنيتي يستطيع الزمن أن يجر عليه ذيل النسيان
- ولكنني لا أطيق أن أراه يعلق بفتاة غيري.
- هي الغيرة إذن! لقد أصبحت هذه العاطفة عتيقة عندنا يا صغيرتي! ونحن نعمل على مطاردتها من صدور الناس لأنها سر شقائهم. ثم ما بالك أنت لا تعلقين بفتى آخر فينسى كل منكما صاحبه في جو حياته الجديدة؟ إن الحب حر في هذه البلاد!
وتنصرف عنه الفتاة يائسة
وتشاء المصادفة، أن ترتاح في الوقت نفسه رفيقة الأستاذ إلى طلعة الطالب وفتوته فتعمل على إغوائه حتى يتم لها ذلك. وعندئذ توعز إليه أن يطلق زوجته الأولى ليتزوجها هي، ويقبل الفتى على ذلك متأثراً بروح أستاذه وتعليماته. وبجمال معشوقته وفتنتها وإغوائها ويتم بينهما الزواج.
ويتلمس الأستاذ فتاته فلا يجدها، فيظل يبحث عنها في كل مكان حتى يهتدي إليها أخيراً بين ذراعي تلميذه. .
وهنا ذروة القصة ونقطة انقلابها!
ماذا ترى يكون موقف الأستاذ إزاء هذا المشهد البديع؟
لقد كانت تقضي تعليماته أن يدير ظهره ويذهب من توه يبحث عن فتاة أخرى ينسى عندها حبه الأول.

ولكنه بدل أن يفعل ذلك وقف يحدق ثم يحدق ثم صر أسنانه وهو يوجه القول إلى فتاته:
- ماذا تصنعين هنا؟
- الحب حر! أليس هذا من مبادئك؟
ولم يكن من الأستاذ إزاء هذا الجواب المفحم إلا أن تسللت يده في حركة خفية فأخرجت مسدسه من جيبه. وكانت طلقتان أصابت إحداهما الطالب المسكين فصرعته، وأصابت الأخرى عروسه فطرحتها إلى جانبه!
وكانت هذه الخاتمة المروعة هي التطبيق العملي البديع لنظريات الأستاذ الخلابة في (حرية الحب) وفي مقدرة (ذيل الزمن) على نشر النسيان بين الناس، وفي بيان ما أصاب عاطفة الغيرة من الهزائم على يد هذه المذاهب الحديثة!

حسن جلال

الشعر

للشعر أثر كبير في تاريخ الحياة الإنسانية، ولا يستطيع أحد أن ينكر ما أفادها بنغماته السحرية الجميلة، وموسيقاه الناطقة المؤثرة، وإذا كان العلم يعطينا مدداً نافعاً، وفوائد جليلة، فإن الشعر يمنحنا هبة أعظم شرفاً، وذلك لأنه يفتح على أرواحنا النوافذ المغلقة فيصلها بالحياة التي تجري أمامها، والنور الذي ينتشر حولها، ثم هو يعرض أمام أنظارنا الجمال الهاجع في الكون مجلواً في أبهى حلله، ذلك الجمال الذي هو زهرة الحياة الدنيا وفتنتها فما هو هذا الشعر الذي يقدم لنا كل هذه الهبات؟

أما أساتذة مدارسه التي أخذت تعلمه في الشرق فقد اهتدوا منذ القرون الأولى للهجرة إلى تعريفه بأنه (الكلام الموزون المقفى) ولا شك أن هذا تعريف قاصر لأنهم تناولوا به السور الخارجي الذي يحيط بمدينة الشعر فقط، أما المدينة نفسها وما تضج به من حياة وحركة، وما تموج به من حسن وجمال، فلم تسترع أنظارهم، ولم تجذب انتباههم، ولعل رواية الشعر الجاهلي هي التي ورطتهم في هذا التعريف الأبتر، فقد كان الشعر الجاهلي يروى سواء أكان بسيطاً أم لم يكن، وسواء أكان مؤثراً أم لم يكن، وسواء أكن مفهوماً أم غير مفهوم، وكان الرواة لا يطلبون في الشعر إلا أن يطن بالوزن والقافية، وأما المعنى الذي هو روح الشعر فلم يلق منهم عناية ولا دراية إلا في الأقل القليل، فلما أخذت المدارس تعلم الشعر وتقننه فهمت أن الوزن والقافية هما كل شيء فيه، واستن لها السنة الخليل بن أحمد أستاذ المدرسة الأولى فقد قال: والشعر هو ما وافق أوزان العرب، فمادام الكلام قد ارتدى برداء الوزن فهو شعر ولو لم يكن فيه روح تنبض، ولا حياة تخفق، والذي يدعو إلى الدهش هو أن هذه الفكرة السقيمة في الشعر استمرت قائمة في هذه المدارس طوال العصور المختلفة كأنها قضية منطقية مسلم بها، ولم يفكر الأدباء في الخروج عليها. نعم أتيح للجاحظ أن يتأثر بالمدرسة اليونانية فيقول: (إنما الشعر صياغة وضرب من التصوير) ولكن للأسف لم يعن هو نفسه بهذا المعنى فيما جمع من الشعر بكتابه البيان والتبيين، وعلى الرغم من أن ابن خلدون انتقد المدارس السابقة في تعريفها للشعر، استمرت عند فكرتها، ولم تحاول أن تعتق نفسها من رق هذا الخطأ، ولا أن تطلق عقولها من أغلال هذا التقصير.

والأمر في تعريف الغربيين للشعر على خلاف هذا، ولنلم بطرف من تعاريفهم، ولعله يلقي على الموضوع أشعة توضحه، يقول مستر بلوك: إنه لا يمكن تعريف الشعر بشيء سوى السحر، وكان أجدر به أن يعدل في كلامه فيقول إنه لا يمكن تشبيه الشعر بشيء سوى السحر، ومهما يكن فتعريفه لا يعطينا شيئاً أكثر من فكرة أولية لا تقبل التحليل، وقال مستر تيفر: إن كلمة الشعر ككلمة الجمال من الكلمات المبهمة التي تشمل مجموعة من الأشياء المختلفة تمام الاختلاف بالنسبة لاختلاف المنتجين، وانتهى إلى أنه يمكن تعريف الشعر بأكثر من هذا التعريف الرديء لمعاجم اللغة، واعترف مستر لمبورن بأنه لا يمكن تعريف الشعر إلا إذا عرفنا الحياة والحب، اللذين يترجم عنهما.

وهكذا نجد النقاد من الإنجليز مضطربين أمام تعريف كلمة الشعر، فبعضهم يعرفها

تعريفاً ناقصاً، وبعضهم يعرفها تعريفاً مبهماً، ويحجم كثير عن تعريفها لأنه لا يمكن تعريفها، أو لأنها ككلمة الجمال لا يمكن تحديدها، وبمعنى أوضح لأن الشعر عمل فني، وكأنما كتب على كل عمل فني ألا تحيط به التعاريف إحاطة تامة، وأياً كان فكلمة الشعر تعني شيئاً موجوداً أمامنا، يشرح خواطرنا، ويخاطب قلوبنا، ويؤثر في نفوسنا تأثيراً جميلاً، وإذا كنا لا نستطيع أن نحدد الشعر تحديداً تاماً يبين ماهيته فليس من العسير أن نقف على أساسه، ولعل أقدم من تكلم في هذا الموضوع كلاماً مستفيضاً هو أرسطو فقد قال: إن الابتكار أساس الشعر، فالشعر عنده صورة مخترعة يخلقها الشاعر بقوة خياله، والوزن عنده شيء إضافي يلحق بالصورة حين يتم خلقها في قلب الشاعر، وماذا؟ أيخترع الشعراء الأوزان التي ينظمون عليها كلامهم؟! وهل يخلق الشعراء الألفاظ التي يوقعون عليها نغمات عواطفهم؟ إن الوزن واللفظ ملك للغة، ليس لأحد أن يدعي شيئاً منهما لنفسه وإنما الذي يستطيع الشاعر أن يعزوه إلى نفسه فيصدق هو الصورة الطريفة التي يبتدعها، وهذه النظرية جميلة في ظاهرها، ولكنها ليست دقيقة كل الدقة، وعلى الرغم مما يظهر فيها من المغالاة في تقدير الشعر استمرت محتلة أفكار النقاد مدداً طويلة، حتى جاء المؤرخ اليوناني صاحب الأبحاث البلاغية الشهيرة، فعلق على الأوديسا تعليقاً انتهى فيه (ديونيسيوس) إلى أن أساس الشعر إنما هو الأسلوب، وقد تبعه كثير من النقاد في أوائل العصر الحديث، كل منهم يخطئ نظرية أرسطو، ويبرهن على أن الأسلوب والوزن لهما أثر كبير في صناعة الشعر والواقع أن الشعر عمل فني يقوم على أشياء لا على شيء واحد، فلا بد له من الصورة الفنية، والموسيقى الجميلة، والخيال البارع حتى يستطيع أن ينهض من الأرض فيحلق فوق رءوسنا في السماء.

وقيمة الشعر ترجع إلى أنه يترجم عن احساسات الإنسان محاولاً أن يوقظ العواطف المقابلة في قلوب الآخرين، ومادامت هذه هي قيمته، فكل منا شاعر إلى حد ما، لأن كلاً منا يملك إحساساً، وقوة بها يترجم للآخرين عما يجيش بصدره، ولكن يجب أن نعرف أن هؤلاء الذين نسميهم شعراء هم في الواقع أرق من الشخص العادي شعوراً وألطف منه وجداناً، وهم أقدر على التعبير عما يحسون ويتأثرون، قد انقادت إليهم أعنة الكلام واستسلمت لهم شوارد الأوزان، فسهل عليهم تصوير ما في قلوبهم وإخراج ما تطفح به صدورهم، والذين يعنون بدراسة الشعر ونقده يجدون مواطن كثيرة لا يجذب جمالها قلوبهم، ولا يسترعي حسنها عقولهم، يلفتهم الشاعر إليها بصوره الساحرة التي يعرضها، وموسيقاه الجميلة التي يغني بها، ولقد أحسن كيتس حين قال: (ربما جعل الله لك يا بني هذا العالم جميلاً في نظرك كما هو جميل في نظري) وحقاً أن الشاعر يتراءى له العالم جميلاً أو قبيحاً أكثر مما يتراءى لنا، وكثيراً ما يجعل الأشياء التي تبدو لنا قليلة القيمة أنيقة معجبة بما يصور من جلالها وما يظهر من جمالها.

وأول محاولة في الشعر هي ترجمة العاطفة الثائرة في قلب الشاعر، فقياس الشعر ليس هو المنطق، وإنما هو العاطفة، ونحن لا نسمع لشعر الشاعر، ولا لغنائه لأنه أكثر عقلاً من غيره، بل لأنه يجعلنا نشعر بحياة قلوبنا وأحاديث وجداننا، والتعبير العاطفي هو الشعر ولكن إذا حمل لباساً جميلاً، وشكلاً أخاذاً وموسيقى بارعة، فإذا لم يحمل ذلك لم يكن شعراً بالمعنى المعروف، لأن الشعر لا يتطلب حياة عاطفية فقط، بل هو يتطلب إلى ذلك الأسلوب الجميل والموسيقى المؤثرة، ويجب أن تكون الموسيقى قوية، وطبيعية، وحرة، لتستطيع عواطف الشاعر وأفكاره أن تبقى خالدة على وجه الدهر، أما إذا كانت الموسيقى ضعيفة واهنة، أو نافرة جامحة، أو أسيرة سجينة، فإنها تفسد على الشاعر شعره، والموسيقى الشعرية لا تستطيع أن تحيا بدون التعبير العاطفي لحظة من الزمن، بخلاف التعبير العاطفي فإنه يستطيع أن يحيا، بدون الموسيقى فيكون نثراً أدبياً، وبقوة تعبيره وجمال تصويره تكون قيمته في هذه الحياة الفنية التي وقف عندها.

ويجب أن تكون لغة الشعر سلسة عذبة، جميلة في مرأى العين وسمع الأذن، لا يعوزها الحسن ولا ينقصها الرواء، كما يجب أن يكون الأسلوب متماسكاً متراكباً ليعبر تعبيراً واضحاً مسرعاً عن غايته، وحسن البيان ضروري في الشعر حتى لا يقعد به سوء التعبير عما يريد الإفصاح عنه، والواجب أن يهتم الشاعر بهذه الأشياء جميعها لأنها

اللباس، وكثيراً ما يدل اللباس على صفات لابسه.
وكل العواطف صالحة لأه تكون موضوعاً للشعر يترجم عن مستورها ويفصح عن خبيئها، ولكن ليست العواطف كلها في مرتبة واحدة غير متفاوتة، بل منها القوي ومنها الضعيف، فإذا ترجم عن عاطفة ضعيفة فأن شعره يتدلى معها إلى أسفل فتنقص من حسنه وتغض من روعته، ويجب أنه يكون القلب الذي يعبر عن هذه العواطف سليماً غير مريض، فأن القلب هو الذي يمثل مرض الإنسان، أما القلب المريض فلا يجد من يحمله، وما أشبه العواطف بجداول مياه تنساب من لقلب فيميلها كيف يشاء.
وخير العواطف ما كان يبعث على الحياة والقوة كعاطفة الإعجاب التي تملأ قلب الشاعر فتجعله يصف الأسد مثلاً، وسمو هذه العاطفة راجع إلى أن القوة مظهر الحياة، وهي تعجب الإنسان أكثر من أي مظهر آخر، فالإنسان دائماً يعتز بقوته ويخفي سوأة الضعف التي قد تتراءى له في زوايا نفسه، يتجاهلها، ويتعامى عنها، ويبعدها عن نفسه كلما ألمت به، ولهذا كانت العواطف التي تبعث على الحزن ضعيفة، لأن الألم والبكاء تنفر منهما النفس وتفر بطبيعتها إذ الإنسان لا يرضى أن يعترف بضعفه، وإذا اعترف لم يبق على هذا الاعتراف طويلاً، ومن العواطف الضعيفة عاطفة المدح فإنها عاطفة شخصية تتصل بنفس الشاعر وذاته، ولا تعبر عن شيء عام يشترك فيه الجميع. نعم إن تخلصت من ذاتيتها، فمدحت المروءة أو حضت على خلق كريم تغير حالها، وعلت مرتبتها، لأنها حينئذ تفصح عن شيء يشترك فيه الجميع ويقدره.
والعاطفة، ليست وحدها كل شيء في الشعر بل يجب أن تضاف إليها الفكرة التي تنظمها وتهيئها للحياة والظهور، وكل الفنون ماعدا الموسيقى لابد فيها من الفكرة حتى تتلذذ العاطفة، وليس من الواجب أن تخترع الفكرة، وإنما الواجب أن تظهر في معرض جديد يوضح عمل صاحبها وقوة إيمانه بها، والشعر قد يكون فكراً خالصاً فيبحث في أعمق المسائل التي تشغل عقول الفلاسفة من مثل طبيعة الخير والشر، وحينئذ لا يكون شعراً بالمعنى الصحيح إلا إذا امتزج بالقلب فأصبح عاطفة قوية تفيض منه لا من العقل , تخاطب الشعور والوجدان قبل أن تخاطب الأفكار والأذهان , ولقد أحس قدماؤنا حين قالوا (الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان).
والشعر في الواقع رسالة كرسالة الأنبياء، فهو يقوم على الإلهام أكثر من أي شيء آخر، والأيمان بالفكرة ووضوحها هما الملكان اللذان يوحيان إلى الشاعر بالمعاني الجميلة المعجبة، والصور الفريدة المعجزة، فيخرج للناس أفكاره نيرة واضحة، كأنها وهج الحريق في الليل البهيم، فر تجد تكلفاً ولا تعملاً، وإنما هي زهور جميلة ينثرها الشاعر على رغمه كما ينثر الزيتون زهوره، وما أشبه الفكرة القلقة يقولها الشاعر بالعصفور المضطرب الحيران التائه من عشه، ويجب أن تكون الفكرة قوية، ليكون الشاعر مبدعاً، رائعاً حتى إذا أراد أن يحلق في السماء انتهى إلى أعلاها فكان نجماً زاهراً بين نجومها، وللأسف نجد الشعر العربي تعوزه القوة في كثير من الأحيان، ولعل هذا هو السر في أن الشاعر العربي إذا أراد أن يحلق فوقنا ارتفع ارتفاع السحاب في السماء الدنيا ولم يستطع الارتفاع إلى أعلى أكثر من ذلك، لأن أجنحته ليست قوية، على أنه سرعان ما يدنو إلينا وينزل من سمائه إلى أرضنا.
والعواطف والأفكار لا تكون وحدة الشعر بنفسها، وإنما الذي يصنع ذلك هو الخيال الشعري، فهو المنظم للأفكار والعواطف وهو المخرج لها، هو الذي يجمعها وينفحها بروح من لدنه فتستوي ناطقة معبرة نشخص لها ونعجب بجمالها، وإذا شاهد شخص حديقة جميلة في مكان وجاء يقول: لقد رأيت حديقة بها أزهار وأشجار ومياه لم يكن هذا شعراً، وإنما الشعر حقاً هو الذي يحمل للناس أبهة الخيال فيظهر للناس في وحدة جميلة بديعة تسترعي الأنظار، وتخلب الألباب، وأي خيال أجمل من قول كيتس (يوجد الغد مبرعماً في نصف
الليل)

شوقي ضيف
بكلية الآداب
الحركة الوطنية الاشتراكية الألمانية
البرنامج الداخلي في طور التنفيذ - 3

للأستاذ محمد عبد الله عنان

رأينا كيف نشأت الوطنية الاشتراكية الألمانية واستمدت قوتها من عوامل اليأس والفوضى التي غمرت الشعب الألماني عقب الحرب، ومن مختلف المصائب والمتاعب التي توالت عليه من جراء شروط الصلح وأعبائه، ومن تفاقم الخطر الشيوعي، وفشل الديموقراطية والنظم البرلمانية في معالجة الحالة وتسيير الشؤون، من تفاقم العطلة والأزمة الاقتصادية؛ هذا من الناحية السلبية، وأما من الناحية الإيجابية فإن وعود الوطنية الاشتراكية في العمل على تحقيق وحدة ألمانيا وسلامها ورخائها؛ ومكافحة الخطر الشيوعي وحل مشكلة العطلة، وإنهاض الزراعة والصناعة والتجارة ومعالجة الأزمة الاقتصادية بوجه عام؛ ثم في تحرير ألمانيا من عسف الظافر ومن أعباء معاهدة الصلح؛ كانت كلها تبث الأمل والانتعاش في الجموع وفي الشباب بنوع خاص، وتحشد خول علم الوطنية الاشتراكية ملايين الأنصار.

والآن لنر كيف عملت الوطنية الاشتراكية لتنفيذ برنامجها الداخلي منذ قبضت على مقاليد الحكم في 30 يناير الماضي.

لم تمض أسابيع قلائل حتى استأثر الهر هتلر وحزبه بكل سلطة حقيقية، وغمر تيار الوطنية الاشتراكية ألمانيا من أقصاها إلى أقصاها، وبدأت ككل حركة ثورية تنفذ برنامجها بمنتهى العنف والسرعة. فوجهت ضرباتها الأولى إلى الشيوعية والديموقراطية؛ سحق الشيوعية أو الماركسية من غاياتها الرسمية كما بينا، ولكنها اتجهت إلى سحق كتلة اليسار كلها باعتبارها مسئولة عن كل مصائب ألمانيا منذ خاتمة الحرب؛ وجدت في مطاردة الحزب الشيوعي فمزقته أبلغ تمزيق وصادرت مراكزه وأمواله وصحفه ونشراته، واعتقلت كل زعمائه ونوابه وأنصاره، وسحقت دعايته بكل ما وسعت، ومزقت الحزب الديموقراطي الاشتراكي أعظم الأحزاب البرلمانية منذ نهاية الحرب، ونكلت بزعمائه ونوابه وأنصاره، واعتقلتهم كالشيوعيين آلافاً مؤلفة، وصادرت كل مراكزه وصحفه، واختفت الشيوعية والديموقراطية من ألمانيا بسرعة مدهشة، في الظاهر على الأقل؛ وحققت الوطنية الاشتراكية الألمانية في ذلك ما حققته الفاشستية الإيطالية يوم قيامها، بيد أنها كانت أشد عنفاً وقسوة؛ وكانت وسائلها أشد إثارة وإغراقاً، ولا ريب أن سحق الوطنية الاشتراكية للشيوعية كانت عملاً جليلاً، بل لعله أجل خدمة أدتها إلى ألمانيا وإلى الدول الغربية كلها، ذلك أن البلشفية (الشيوعية) خطر اجتماعي على النظام والمدنية كلها، وكانت قد تقدمت في ألمانيا إلى حدود مروعة، وكانت تحمل أكبر تبعة فيما أصاب ألمانيا من الاضطراب والخراب والفوضى، وكانت ألمانيا ومازالت حاجز البلشفية من الشرق، بيد أن الوطنية الاشتراكية كانت متطرفة مغرقة في مطاردة الديموقراطية، وكانت تقصد بسحقها إلى غايات حزبية لا إلى غايات قومية، بل لم يقف الحزب الوطني الاشتراكي عند سحق كتلة اليسار، ولم يطق أن يرى إلى جانبه أي حزب آخر في ألمانيا مهما حمدت مبادئه ووسائله، فمال على الحزب الوطني الألماني، وحزب الوسط الكاثوليكي؛ وهما الحزبان اللذان حالفاه وعاوناه على استخلاص الحكم والسلطة المطلقة؛ وانتهى بحلهما وإدماج أنقاضهما فيه، وبذلك اختفت كل الأحزاب البرلمانية السابقة من ميدان السياسة الألمانية، واستطاع هر هتلر أن يفرض الوطنية الاشتراكية على ألمانيا كلها.

ولما كانت الوطنية الاشتراكية حركة طغيان مطلق، وقد بدأت بتعطيل الحياة الدستورية، فقد كان طبيعياً أن تعمل على إخماد جميع الحريات الدستورية حتى لا تقف عثرة في سبيلها. ولم تكتف في ذلك بمطاردة خصومها السياسيين إلقائهم في ثكنات الاعتقال آلافاً مؤلفة دون أية تهمة، وإصدار القوانين الاستثنائية المختلفة بل عمدت إلى الصحافة مظهر الرأي الحر فسحقتها وأخضعتها لرأيها ووحيها، وجعلتها تابعة لوزارة الدعاية التي أنشأتها؛ وعطلت كل صحيفة مخالفة في الرأي، وجعلت مهنة الصحافة نوعاً من المهن الرسمية. وكما أنه لا يستطيع اليوم إنسان في ألمانيا أن يرفع بالاعتراض على شيء من أعمال الحكومة، فكذلك لا توجد صحيفة ألمانية واحدة تستطيع أن تقول رأياً غير رأي الحكومة، ووزارة الدعاية (ووزيرها الدكتور جبلز) هي التي ترسم للصحافة كلها خططها وتلقي إليها أوامرها ووحيها. والشعب الألماني لا يعرف من سير الحوادث والشئون في ألمانيا إلا ما تذيعه صحافته الرسمية. ولم تفعل

الوطنية الاشتراكية الألمانية في ذلك سوى أن حذت حذو البلاشفة في روسيا والكماليين في تركيا والفاشست في إيطاليا. ومن الطبيعي أنه حيثما قام الطغيان المطلق تنعدم كل ألوان الحرية الفردية. وهذا ما وقع في ألمانيا. ويفسر لنا أنصار النظام الهتلري ذلك بأن ألمانيا قد أصبحت كلها تدين بمبادئ الوطنية الاشتراكية وغاياتها وتؤيد سياستها ووسائلها بكل ما وسعت؛ ولكن كيف يمكن استجلاء الرأي العام إذا جرد من كل وسائل الإعراب والإفصاح؟

هذا وأما من جهة تركيز السلطة فقد خطت الوطنية الاشتراكية في ذلك خطوة جريئة؛ وأصدر المستشار هتلر مرسوماً يقضي بإلغاء استقلال الحكومات والمجالس الاتحادية ويخضعها بطريقة مباشرة لسلطة الحكومة المركزية ويجردها من لك سلطة معارضة؛ وتلك بلا ريب خطوة هامة في سبيل تدعيم الوحدة الألمانية؛ وتدعيم هذه الوحدة كما رأينا من أخص غايات الوطنية الاشتراكية. ونستطيع أن ندرك أهمية هذا الانقلاب متى ذكرنا كيف كانت الحكومات المحلية في بعض الولايات القوية (مثل بافاريا) تقاوم في كثير من الأحيان سياسة الحكومة المركزية وأعمالها. وكيف كانت الدسائس الأجنبية تتسرب إليها لتنظم فيها دعوة الانفصال (مثلما حدث في منطقة الرين أيام احتلال الحلفاء) تمزيقاً لوحدة ألمانيا وأضعافاً لها. وقد حقق هر هتلير في ذلك غاية جليلة، وأتم العمل العظيم الذي بدأه بسمارك في سبيل الوحدة الألمانية. وثمة خطوة أخرى اتخذت في سبيل تركيز السلطة السياسية هي إلغاء نظام النقابات القديم وتنظيمها طبقاً لدستور جديد يحرم عليها كل عمل سياسي ويجعلها بما تضم من ملايين عديدة خاضعة للحكومة من حيث توجيهها الاقتصادي والاجتماعي؛ وهذا أيضاً تقليد من جانب الوطنية الاشتراكية للفاشستية الإيطالية التي عرفت قوة النقابات فنظمتها واستخدمتها لغاياتها.

وقد بذلت الحكومة الوطنية الاشتراكية جهوداً لا بأس بها لمكافحة العطلة وإنعاش الزراعة والتجارة؛ وحذت حذو الفاشستية في العناية بأخلاق النشء ومطاردة ألوان الفساد الاجتماعي والجنسي، وتعزيز الميول الرياضية والأخلاق المحافظة؛ وفي الحد من حرية المرأة وتدخلها في الشئون العامة، وتوجيهها إلى المنزل والأسرة. وتلك من عناصر قوتها وتقدمها.

والآن ننتقل إلى مشكلة من أخطر وأدق المشاكل التي أثارتها الوطنية الاشتراكية الألمانية: تلك هي مشكلة الجنس وتطهيره وتفوقه، أو بعبارة أخرى هي المسألة اليهودية: ونحن نعرف أن سحق اليهودية الألمانية غرض أساسي من أغراض الوطنية الاشتراكية، وأنه

أدمج منذ الساعة الأولى في برنامج الحزب الوطني الاشتراكي في مادة خاصة هذا نصها:

(لا يحق لغير أعضاء الأمة أن يكونوا موظفين في الدولة، ولا يحق لغير أولئك الذين ينحدرون من دم ألماني مهما كان مذهبهم أن يكونوا أعضاء في الأمة: وإذن فليس يخصص هر هتلر في كتابه :(المادة الرابعة) (ليهودي أن يكون عضواً في الأمة (جهادي) حيزاً كبيراً لنظرية الجنس؛ ويشرح بإفاضة خطر الجنس اليهودي وخواصه المنحطة؛ ويعتبر الجنس الآري وحده أهلاً لإنشاء الحضارة، والجنس اليهودي أشد الأجناس هدماً للحضارة؛ وإن الحضارات الإنسانية العظيمة لا تفنى إلا لأن الجنس المنشئ لها يفنى بامتزاج الدم وتسممه، وأن تاريخ الأمم الآرية يدل على أنها تنحط وتتدهور كلما انحرفت عن مبدأ فصل الأجناس وامتزجت بالشعوب المغلوبة؛ ويعدد هتلر مزايا الجنس الآري، ثم يتحدث عن خواص الجنس اليهودي، فيقول أنه جنس يضطرم بالأثرة، وأنه ذكي ولكنه مقلد مجرد من الابتكار والطرافة، وأنه لم يخلق لنفسه أية حضارة خاصة، ولا يحدوه أي مثل أعلى: ثم يصف الطرق التي يتبعها اليهودي في دخول المجتمعات الجرمانية، فيقول أنه يحل في أثر الجيوش الأجنبية، ويتقدم كتاجر ويشتغل بالوساطة والربا الخطر، ويحتكر التجارة ويرهق الفلاحين؛ ويجتمع اليهود في أحياء أو مجتمعات خاصة، وينشئون بذلك دولة داخل الدولة، ثم يملقون رجال السلطة والأمراء ويمدونهم بالمال، ويستظلون بنفوذهم وحمايتهم، ويسيطرون على البورصة والإنتاج؛ ثم يملقون الشعب ويبدون له في ثوب محبي الإنسانية وأصحاب النظريات الحرة، ويتكلمون الألمانية ولكنهم يحرصون كل الحرص

على نقاء جنسهم، ويستعملون لتعزيز نفوذهم أداين قويتين هما الصحافة والبناء الحر (الماسونية). هذا من الناحية الاجتماعية، وأما من الناحية السياسية، فإن هتلر يعتبر الشيوعية (المركسية) يهودية في أصلها وفي غاياتها؛ ويقول لنا إن الوطنية الاشتراكية تؤمن بزعامة الجنس وأهمية الفرد وتجل الزعامة والفكرة الارستوقراطية، ولكن المركسية ديموقراطية حرة تحل مكان الفرد فكرة الجماعة وتتخذ من ذلك وسيلة لتمكين اليهودية من الاستئثار بالنفوذ العالمي.

وليس فيما يقوله هر هتلر عن اليهودية شيء جديد. وإنما هو ترديد فقط للنظرية الألمانية القديمة التي قامت عليها خصومة السامية الحديثة. وكان الكاتب الألماني كرستيان لاصن

أول من نوه في منتصف القرن الماضي بأهمية الفوارق الجنسية بين الجنس الآري والجنس السامي، وبتفوق الآريين في الذهنية والخواص الجنسية على الساميين، وتبعه المؤرخ الفرنسي رينان في التنويه بانحطاط الأجناس السامية. وقد كانت ألمانيا منذ أواخر القرن الماضي مهداً خصباً لخصومة السامية (أ. حركة اضطهاد اليهود) وكان بسمارك قبل قيام الإمبراطورية يصادق اليهود ويعتمد عليهم في تحقيق سياسته لأنهم كانوا بين الأحرار قوة بارزة، وكان الأحرار يؤيدون وحدة ألمانيا، فلما تحققت الوحدة الألمانية انقلب بسمارك لمحاربة الأحرار واليهودية ووجد في خصومة السامية سلاحاً قوياً، وتفاقمت الحركة غير بعيد، وأيدها المحافظون ورجال الدين وسرت الصحية بأن اليهود خطر على ألمانيا والفت صداها في الرأي العام بقوة. وعرض اليهود إلى صنوف الاضطهاد والزراية واقترح بعض النواب إبعاد اليهود عن الوظائف والمدارس، ونظمت الجهود لمقاطعة التجارة اليهودية، وكادت الحركة تضرم في ألمانيا نار الحرب الأهلية لولا أن رأى جماعة من العقلاء والمفكرين وعلى رأسهم ولي العهد (الإمبراطور ولهلم الثاني فيما بعد) خطورة الحركة وسوء عواقبها، فأذاعوا منشوراً وقعه كثير من أعلام العصر شرحوا فيه أخطار هذه الخصومة القومية، ووصفوها بأنها وصمة في شرف ألمانيا، وناشدوا الشعب أن يخلد إلى السكينة والاعتدال فهدأت الحركة واضمحلت بسرعة وانصرف عنها معظم العقلاء والمعتدلين،

وهذه نفس النظرية - نظرية الخصومة السامية - التي نقلها هر هتلر وصاغها في برنامج حزبه كمبدأ أساسي يجب أن تعمل الوطنية الاشتراكية مذ تولت مقاليد الحكم لسحق اليهودية بمنتهى العنف والقسوة والسرعة، فطاردت اليهود في كل مناحي الحياة العامة بشدة، وقضت الحكومة الهتلرية بطرد جميع الموظفين غير الآريين (اليهود) من وظائفهم في جميع مصالح الحكومة المركزية والمحلية، وإقصاء جميع المستخدمين والعمال اليهود عن أعمالهم في جميع الجهات والهيئات والأعمال، وعزل جميع القضاة وأساتذة الجامعات والمعلمين اليهود، وقضت بطرد الأطباء اليهود من جميع المستشفيات العامة وشطب أسمائهم من سجل الأطباء والجمعيات الطبية، وفرضت عليهم في مزاولة العمل الخاص قيوداً تستحيل معها مزاولة المهنة، وحرمت على معظم المحامين اليهود مزاولة مهنتهم،

وحرمت على اليهود في المستقبل مزاولة المهن والأعمال التي تقتضي درجة عالية من التعليم، وجعلت للطلبة اليهود في المدارس الثانية والعالية نسبة ضئيلة، وحددت نسبتهم في، المستقبل بواحد في المائة، ونظم الحزب الوطني الاشتراكي من جهة أخرى مقاطعة التجارة اليهودية في سائر ألمانيا، ونفذها بطريقة رسمية يوم أول أبريل الماضي رداً على دعوة اليهودية في الخارج إلى مقاطعة التجارة الألمانية، وعلى الجملة فإن الحكومة الألمانية لم تترك حقاً مدنياً أو سياسياً لليهود إلا سلبته ولم تترك لهم وسيلة مشروعة للحياة والعيش والعمل إلا سحقتها، وصيغ ذلك كله في طائفة من القوانين الاستثنائية التي لم يسمع بها، ونفذ في غمر من المناظر المروعة، وارتكبت خلال تنفيذه سلسلة من الاعتداءات والجرائم المثيرة كانت لها في الرأي العالمي أشد وقع، واتخذت ذريعة لحملات شديدة على الوطنية الاشتراكية الألمانية وعلى مبادئها ووسائلها.

ولا نقف طويلاً عند هذه الحوادث المعروفة، ولكن يحسن أن نلخص الأسباب والحجج التي تبرر بها الوطنية الاشتراكية موقفها. فهي تقول إن اليهود يبلغون في ألمانيا نحو واحد في المائة فقط من مجوع الشعب الألماني (نحو سبعمائة ألف من 65 مليوناً)

ومع ذلك فقد استطاعوا في ظل الحكومات الديموقراطية أن يحصلوا على أعظم قسط من النفوذ والسلطان في دوائر الحكم والمالية والثقافة والمهن الحرة والفنون والتجارة والصناعة، وكل مقومات الحياة العامة، وأنهم بلغوا في بعض هذه، الميادين نسباً لم يسمع بها، مثال ذلك أن نسبة الأطباء اليهود في برلين بلغت 52 في المائة من المجموع وبلغت أكثر من ذلك في المحاماة، وبلغت نسبتهم في دوائر البورصة تسعين في المائة، ووصلت أيضاً في دوائر التعليم إلى حدود مزعجة، مثال ذلك أنه كان بجامعة برزولا سنة 1931 من الأساتذة اليهود 25 في المائة في كلية الفلسفة و 47 في المائة في كلية الحقوق و45 في المائة ف كلية الطب. وأما في الدوائر المالية فقد كان نفوذهم فوق كل نفوذ، مثال ذلك أنه في سنة 1928 كان خمسة عشر يهودياً يسيطرون على إدارة 718 شركة ألمانية وهكذا. وتزيد الوطنية اشتراكية أن كثيراً من اليهود الذين تقصدهم بالمطاردة ليسوا من اليهود الألمان، ولكنهم وفدوا على ألمانيا عقب الحرب من أوكرانيا وغاليسيا وبولونيا وأنهم من العناصر المنحطة التي يخشى منها على سلامة الجنس الجرماني. بيد أن مطاردة اليهودية في ألمانيا كانت عامة شاملة كما تقدم.

والواقع أن الوطنية الاشتراكية الألمانية لا تقف في صوغ نظرية تفوق الجنس وفهمها عند هذا الحد، بل تذهب في ذلك إلى أبعد مدى. فهي تنادي بتفوق الجنس الآري على جميع الأجناس الأخرى لا على الجنس اليهودي وحده، وترى أن الأجناس غير الآرية كلها أجناس منحطة، وتعتبر شعوب البحر الأبيض الجنوبية والشعوب السامية والشرقية بوجه عام كلها من الشعوب المنحطة التي يجب أن يستعبدها الجنس الآري، ويجب أن يحرص على نقائه من الامتزاج بها. وهذه نظرية تستحق منا نحن المصريين والشرقيين عامة تأملاً خاصاً. ولسنا في حاجة لأن نقول إنها لا تقوم على سند من العلم أو البحث أو التفكير السليم، لأنها ليست إلا مظهراً جديداً لما تجيش به الشعوب الغربية نحو الشرق من أثرة وتحامل وليست إلا عنواناً جديداً لتلك النزعة الاستعمارية الغربية التي ترى في الشرق أبداً فريسة يجب التسابق لاقتسام أشلائها. على أن إغراق الوطنية الاشتراكية في نزعتها الجنسية وما أثارته باسمها من ضرام الخصومة السامية، وما لجأت إليه في تنفيذ سياستها من العنف والبطش. انتهت إلى نتائج لم تكن تتوقعها، فقد اتخذت كما قدمنا مادة لحملات شديدة على ألمانيا في معظم دول العالم، وكان لذلك أثره في هيبة ألمانيا وسمعتها ومصالحها الخارجية، وكان أكبر عامل في تحول الرأي العام في إنكلترا وأمريكا عن مناصرة ألمانيا في ميدان السياسة الدولية.

هذا ما فعلته الوطنية الاشتراكية الألمانية لتنفيذ برنامجها الداخلي وسنرى في الفصل القادم كيف سارت في تنفيذ برنامجها الخارجي.

محمد عبد الله عنان

وقفة ثالثة على جسر إسماعيل

أما أنا فلم أقف على هذا الجسر. . لأن مشيتي عليه كانت أقرب إلى العدو منها إلى الوقوف. . . . إن شيئاً فقد مني فكيف تطلب مني أن أقف. . .؟ دعني أسير لأبحث عنه. . ودع قلبي يسبق بصري إلى ما وراء الجسر. . . والجسر. . . ما وراؤه. . .؟ إنني لم أجد شيئاً. . . إن نفسي كانت حائرة. . . ولكن الحيرة لم تتطرق إلى بصري. . . فقد كان ساهماً جامداً مصوباً إلى ما وراء الجزيرة، إلى ما وراء الأفق. . . الشفق البعيد، ففيه قتمة من قتمة الليل. . وفيه ظلام من ظلم البشر. . .

فكيف كنت تطلب مني يا سيدي أن أقف. . .؟ لقد كان (بافنوس) آثماً في بحثه عن (تأسيس). . لذلك كانت وقفاته كثرة. . أما أنا فلماذا أقف. . .؟ إن هرم (خوفو) بعيد عن الجسر. . فإذا وصلته فقمته بعيدة عن القاعدة. . . فإذا أدركتها فالفضاء وسيع فسيح. . .

وقف أستاذي على جسر إسماعيل فتمهل وتريث. . . للجسر جمال. . . للطير تغريد. . . للماء بريق. . .

أما أنا فلم أقف، لأن الأعمى لا يسر ناظريه ما قد يكون حوله من جمال أو بهاء أو رواء. .

أما أنا فلم أقف لأن الأصم لا يطربه تغريد البلبل. . . والأذن المصلوم لا يزينه قرط. .

أما أنا فلم أقف لأن المشرف على الغرق لا يتغزل في جمال الطبيعة ولا يستهويه

خرير الماء أو تلاطم الأمواج
إن النيل الذي يجري تحت الجسر لو خلبه سحر المنظر لوقف في مكانه يا سيدي كما وقفت. . . ولكنه مثلي مثقل بالهموم، مقيد بالأوهام، محمل بالأرزاء، لذلك يهرول باحثاً عن البحر. . . ليلقى فيه الغرين الذي يثقله. . . وليدفع عنه الشاطئ الذي يقيده. . وليذيب أرزاءه في صفائه، ويمزج سكونه في اضطرابه. . . . . والفرق بيني وبين النيل. . . أن النيل بجد بغيته، أما أنا فلا أجد. . .
ثم وقف صديقي على جسر إسماعيل فتأوه وتأسى. . . فالأسد نائم. . . والثكنات متيقظة. . .
حقاً يا صديقي إن من يرى دمعك ينهمل. . . لا تمهله دموعه. . . ولكن. . . . . اعذرني يا صديقي لأنني لم ألق لك بالاً. . . ولم أسمع أنين قلبك وأنت واقف على جسر إسماعيل. . . لأن أنين قلبي قد طغى على نفسي فلم أر ولم أسمع. . .
يا أستاذي. . . في نفسي قبس. ولكن بصري عليه غشاء. . . يا صديقي
في قلبي. . . من قلبك شعلة. ولكن خافقي مريض. . . . . لقد بحثت عن حبيبتي في كل بقع الأرض فلم أجدها. . . . . من أجل ذلك رأيتني أسير مهرولاً على جسر إسماعيل محدقاً ببصري إلى ما وراء الجسر. . إلى ما وراء الأفق. . . إلى الشفق البعيد. . ففيه قتمة من قتمة الليل، وفيه ظلام من ظلم البشر. . . . .
جورج وغريس
كيف اختار المنصور موقع بغداد
دالت دولة الأمويين وقامت على أثرها دولة بني العباس تسندها كواهل الفرس وتؤيدها سيوفهم، وكان لابد للدولة الجديدة من عاصمة جديدة، إذ يرى المتتبع لتاريخ العرب أن تغير العاصمة لابد منه عندما تتولى الحكم أسرة جديدة، ففي بدء الإسلام هاجر النبي (ص) من مكة واتخذ يثرب مقراً له فانتقل بذلك المركز السياسي لجزيرة العرب من مكة المدينة التجارية القديمة إلى يثرب التي سميت بعد مدينة الرسول، والتي أصبحت عاصمة الإسلام ومركز الحكومة، وبقيت كذلك في حياة النبي (ص) والخلفاء الراشدين الثلاثة من بعده أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، فلما آلت الخلافة إلى علي عليه السلام اتخذ الكوفة مقراً، وحدث النزاع بينه وبين معاوية منافسه الذي مرت عليه عشرون سنة وهو أمير الشام. قد وطد فيها أمره وأسكن أقرباءه وأتباعهم، حتى إذا ما انتهى هذا النزاع بشهادة الإمام الحسن أصبحت دمشق حاضرة الإسلام، وكان موقعها مناسباً لأن تكون عاصمة حكومة الأمويين العربية، فهي واقعة وسط إقليم خصب، وهي قريبة من مكة والمدينة مركزي القوة الدينية كما أنها تقع على تخوم الصحراء العربية التي يتخذ الخلفاء من سكانها جنوداً يهاجمون بلاد الروم القريبة من دمشق أيضاً، ولم يكن يقلل من أهمية موقع دمشق أنها لم تكن واقعة على نهر صالح للملاحة، لأن تجارة المسلمين كانت حينذاك بسيطة تتبع طريق القوافل وتحمل على الإبل.
وإذا ما صلحت دمشق لأن تكون حاضرة الأمويين، فإنها لا تصلح أن تكون حاضرة بني العباس، فهي مأهولة بأتباع الأمويين ومناصريهم وهي بعيدة عن بلاد فارس، مصدر قوة العباسيين ودعامة ملكهم، وفضلاً عن ذلك فقد أصبحت مهددة بالروم الذين اغتنموا فرصة ضعف الأمويين، فأخذوا يشنون الغارة تلو الغارة، كي يثأروا لاندحارهم القديم، فالعاصمة الجديدة إذن يجب أن تتجه نحو الشرق قريبة من بلاد فارس، ثم إن التبسط التجاري يقضي أن تكون على ماء يصلها بالبحر ومن هذا تعين أن يكون موقعها إما على الفرات وإما على دجلة، حيث لم يتردد العباسيون أن يجعلوها هناك.
لما انتهى السفاح من حروبه ومذابحه ابتنى الهاشمية بجوار الأنبار المدينة الفارسية القديمة، واتخذها مقراً له وتقع هذه الهاشمية على ضفة الفرات الشرقية، حيث يتفرع منه النهر الكبير الذي عرف فيما بعد باسم نهر عيسى، وفيها توفي السفاح سنة 136 هجرية. وبعد قليل من تبوئ المنصور كرسي الخلافة شرع في بناء مقر له سمي بنفس الاسم، وتقع هذه الهاشمية الثانية بين الكوفة والحيرة على الجانب الغربي من الفرات، في مجل لا يبعد كثيراً عن البطائح، مصب الفرات في القرن

العاشر الميلادي وتقول رواية أخرى أنها كانت قرب مدينة ابن هبيرة القريبة من الكوفة. ومدينة ابن هبيرة هذه غير قصر ابن هبيرة. لم يكن موقع الهاشمية الثانية مناسباً ليكون عاصمة بني العباس لقربها من الكوفة مركز شيعة العلويين ولأن القبائل التي تقطنها كانت لا تفتأ تثور وتشاغب، وقد تركها المنصور بعد ثورة الراوندية الذين تظاهروا بتقديسه وكادوا يفتكون به.

وإذا ما انتقلت العاصمة إلى العراق فمن الواضح أن فائدة بقعة على دجلة خير منها على الفرات لأنها تكون وسط إقليم خصب فقد كانت مياه الفرات تسقي الأرض التي بينه وبين دجلة كما كانت مياه هذا الأخير تروي الأرض الواقعة شرقيه، وفضلاً عن ذلك فإن القسم الأسفل من دجلة كان أصلح للملاحة من الفرات.

وقد قام المنصور برحلات عدة للتفتيش على موقع لائق بالعاصمة فسافر من جرجايا إلى الموصل، متبعاً شاطئ دجلة ووقع اختياره أولاً على موقع قرب باريما جنوب الموصل عند الموقع الذي يعرف اليوم باسم الفتحة، حيث يقطع نهر دجلة جبال حمرين ولكنه تركه حين علم بغلاء المرة وقلتها فيه وأخيراً اختار قرية بغداد الفارسية الواقعة، على ضفة دجلة الغربية، شمال مصب نهر الصراة تماماً وأسس فيها عاصمته الجديدة سنة 145 للهجرة (762 للميلاد).

ويظهر من الاستكشافات التي قام بها السير هنري رولنصن سنة 1848 للميلاد أنه قد كان

في هذا المحل مدينة من المدن القديمة جداً فقد وجد آجراً مكتوباً عليه سم بختنصر ولقبه، كما وجد في خرائط الآشوريين الجغرافية اسماً لمدينة يقرب من اسم بغداد.

وقد كانت تقام في قرية بغداد الفارسية أثناء حكم الساسانيين سوق شهرية اشتهرت كثيراً في صدر الإسلام، إذ هاجمها المسلمون سنة 13 للهجرة وغنموا كثيراً من الذهب والفضة ثم لم يعد يظهر اسم بغداد في التاريخ حتى سنة 145 للهجرة حين أخذ المنصور يفتش عن موقع لعاصمته الجديدة، وقد كان في هذا الموقع لذلك الحين عدد من الأديرة وخاصة أديرة الرهبان النسطوريين، ومنهم عرف المنصور خلو هذا المحل من البعوض الذي يكثر في المحلات الأخرى من دجلة، وأن لياليه باردة حتى في الصيف وكانت هذه المميزات بلا شك مما أغرى المنصور على اختيار هذا المكان موقعاً لعاصمته.

وقد أطنب مؤرخو العرب وجغرافيوهم، في الكلام عن فوائد موقع بغداد المتعددة، فيذكر لنا المقدسي مثلاً أن الخليفة انتصح بقول ساكني هذا المحل، ولخص في الأسطر التالية الكلام الذي خوطب به المنصور (الذي أرى يا أمير المؤمنين أن تنزل أربعة طساسيج (مقاطعات) في الجانب الغربي طسوجان، وهما قطربل وبادرايا، وفي الجانب الشرقي طسوجان، وهما نهر بوق وكلواذى فأنت تكون بين نخيل وقرب الماء فإن أجدب طسوج وتأخرت عمارته، كان في الطسوج الآخر العمارات، وأنت يا أمير المؤمنين على الصراة تجيئك الميرة في السفن من المغرب في الفرات، وتجيئك طرائف مصر والشام، وتجيئك الميرة في السفن من الصين والهند والبصرة وواسط في دجلة، وتجيئك الميرة من أرمنية وما اتصل بها في تامرا حتى تصل إلى الزاب، وتجيئك الميرة من الروم وآمد والجزيرة والموصل في دجلة. وأنت بين أنهار لا يصل إليك عدوك إلا على جسر أو قنطرة، فإذا قطعت الجسر وخربت القناطر لم يصل إليك عدوك، وأنت بين دجلة والفرات لا يجيئك أحد من المشرق والمغرب إلا احتاج إلى العبور، وأنت متوسط للبصرة وواسط والكوفة والموصل والسواد كله، وأنت قريب من البر والبحر والجبل).

إن التبصر الذي أظهره الخليفة المنصور في اختيار موقع بغداد يظهر جلياً في تاريخ بغداد الأخير، فقد توسعت هذه المدينة توسعاً كبيراً حتى كانت المدينة الثانية بعد القسطنطينية في العصور الوسطى ولم يكن لها نظير في جلالها وعمرانها بين مدن آسيا الغربية، ولم

تستطع الحروب والحضارات وانتقال الخلافة منها إلى سامراء، وحتى تخريب المغول لها، كل هذه لم تستطع أن تحط من مركز بغداد وكونها عاصمة ما بين النهرين، فاتخذها الأتراك مقراً لهم، والآن بعد أن مر عليها أحد عشر قرناً، أصبحت عاصمة

الحكومة العراقية.
سليم محمود الأعظمي
من صور الحياة
. . .صديق
إلى تلك النفس الظلوم
قلبي الساعة مجال لصراع عنيف بين عاطفة من الحب والوفاء، وعاصفة من شيء يشبه المقت وأنا بينهما حائر مضطرب:
لي صديق لا يزال حياً، ومع ذلك فأنا أميل إلى الاعتقاد بأنه مات، لأني كفنته في أثواب الإهمال، ودفنته في زوايا النسيان، ولأن أباه قضى، ووفاءه مضى، وليس بعد فقد الآباء والوفاء معنى للحياة.
إذن مات صديقي بالنسبة لي على الأقل. ولكنه أورثني فيما خلف لي من تركته المثقلة بالهم، جروحاً لا يزال الدم يقطر منها ولكم وددت لو أن الأيام عقدت حول اسمه ورسمه سحباً من النسيان لا ينفذ إليها شعاع من الذكرى وطالما جاهدت نفسي في أن أجعل بيني وبينه من التناسي أستاراً صفيقة، وأسواراً منيعة، فلا يسعى إلي ولا أصل إليه، فلم أوفق. ولا تزال ذكراه تلم بي وتحوم حولي، ولا أزال أتردد على رسائله وصوره كما يتردد العابد إلى محرابه ولقد يتفق لي أحياناً أن أصادف هذا الصديق الميت الحي، فأقف أمامه مضطرب العاطفة إنه يشبه صديقي في جماع شكله، إلا أن صديقي كان صفي النفس وفي القلب نقي الضمير، وليس هذا الإنسان من تلك الصفات في قليل ولا كثير! لقد أتممت اليوم قراءة الصفحة الثانية بعد العشرين من كتاب حياتي، وعاشرت الناس بقدر ما اتفق لي أخياراً وأشراراً فلم أر شيئاً أوقع في النفس من خيانة الصديق. وكنت ولا أزال أحتقر نوعاً من الصحاب يصادقون شهراً وينافقون دهراً، ثم يتقلصون أخيراً عن الصاحب فإذا هو عندهم منكر الطلعة كأن لم يكن بينهما من أسباب الود القديم ما يربط أحدهما بالآخر. . . وصديقي من صميم هذا النوع. قطعت معه في طريق الحياة أشواطاً لم يقف الأمر خلالها بيننا على ما يكون بين الصديق صاحبه من المجاملة، بل نشأ بيننا لون من الضب العميق الوثيق لم تعبث به الأغراض، ولم تفسده الأعراض فأخلصت له كما يجب أن يخلص الصاحب، لا أبتغي على ذلك جزاء ولا شكوراً إلا أن يأخذ نفسه بشيء من الإخلاص، فأعطاني على ذلك الموثق وأقسم جهد أيمانه ومضى يزعم أن شيئاً في الوجود لا يستطيع العبث ثم إذا هو أخيراً يتكفل بنقض دعوى نفسه وترجيح الشك فيها على اليقين.
على أني مع ذلك لست أكرهه، ولست أطمع كذلك في رجعته، فإن النفس الجاحدة أثبت على الباطل ولكن ما أخوفني أن يفيق ضميره في الفينة بعد الفينة كما يفيق المجنون! فربما حاسب نفسه فأحس أنه أساء إلي، وربما يحس في أغوار نفسه مرارة الحسرة وحرارة الندم، ولست أحب أن يمسه شيء من ذلك:
فبعض الظالمين وإن تناهى ... كهى الظلم مغفور الذنوب
أي صديقي الميت الحي!
عزيز علي أن تكون هذه صورتك! ولكن الله يشهد أني لم أزد على الأمانة في رسمها للناس، ومهما أكن حريصاً على رضاك فإني على رضا الحق أحرص.
البكري القلوصناوي
الطفلة الراقصة
للآنسة سهير القلماوي
ليسانسيه في الآداب
كان اليوم يوم عيد الأطفال فأخذ أهل المصيف يتوافدون على فندق كبير وكل معه طفل أو طفلان. وقد ارتدت الأطفال أزياء مختلفة جميلة. فهذا الطفل من سكان الجبال، وذاك راجات الهند، وهذه شريفة، روسية، وتلك راقصة إسبانية. وهكذا اجتمعت للمتفرجين مجموعة طريفة جميلة من أزياء مختلفة يزيد جمالها أن ممثليها كلهم أطفال تقل أعمارهم عن العشر سنوات.
وصدحت الموسيقى الراقصة وحملت نسمات البحر أنغامها إلى الآذان فهزت القلوب هزاً لذيذاً مطرباً. واندفع الأطفال في حماس بريء يرقصون ويضحكون ويهللون. وكانت هي بينهم طفلة في السابعة أو الثامنة من عمرها. مرتدية لباس راقصة حديثة

لونه أخضر جميل. وقد بدت منه تقاطيع جسمها جميلة منسجمة بديعة التكوين. وما كاد نصف الأطفال ينأى عن مكان الرقص ليستريح حتى اندفعت هي إليه ترقص رقصاً فنياً رشيقاً مدهشاً. واتجهت إليها الأنظار كلها. وخجل الأطفال من رقصهم البسيط الفطري فانتحوا ناحية يفسحون المجال لتلك الطفلة الراقصة.

ما دهشت لرقص قدر ما دهشت لرقصها، وما هزني الطرب لمنظر أعجبني قدر ما اهتززت لمنظرها، أي جمال! أي فن! أي طفولة مرحة بريئة ساذجة! هذه هي الحياة عندها: رقص وموسيقى، فرح ومرح، حب وإعجاب، لقد دوى التصفيق في أذنها مراراً فاتسعت له حدقتا عينيها اتساع النشوة والرضى، وأغراها التصفيق بالمزيد، بل بالتفنن في المزيد، فمازال بها ظمأ إلى الإعجاب والاستحسان. ترى أتظل الحياة لها هكذا؟ أتظل هي هي مرحة، طروباً لاهية، راقصة؟ أم ستضطرها الحياة إلى تذوق ألوان أخرى منها؟ أستعرف الألم، أستعرف العذاب؟ أستنسى المرح؟ أستظل راقصة أم سيبدل الدهر رقصها نحيباً مشجياً؟

لهفي عليك، طفلتي يوم تودين الرقص فلا تستطيعين! لهفي عليك نوم تذكرين أيام طفولتك بالحسرة اللاذعة والألم الأليم! ترى أستظل نظرتك كما هي إلى تصفيق الناس وإعجابهم

بك؟ أستظلين ظامئة إليهما تسعين إلى المزيد ولا ترضين إلا به، أم ستستتفهين هذا الإعجاب وتزدرين هذا التهليل والتصفيق؟ ترى أتظلين حريصة على رضى الناس عنك أم ستعلمك الأيام أن رضاءهم أرخص من أن تسعى إليه؟ كم أخاف طفلتي هذا الإعجاب، كم أخافه على أخلاقك وعلى حياتك المستقبلة. ستتعودينه، وستفقدينه وستتألمين أمض الألم لفقده، ثم سترينه يكال لغيرك كيلاً، ولكن الحياة ستسلمك إلى نوع من الرضى اليائس، ستعرفين بعد أن تصهرك الآلام أن الأيام دول وأن الدوام نقيض الحياة، ستؤمنين بكل هذا ولكن بعد دروس ودروس. دروس لا كدروس الرقص التي تعلمتها فرحة لذيذة منعشة. ولكنها دروس قاسية مؤلمة موئسة.

ودوى التصفيق فانحنت الطفلة الراقصة وكم كانت رشيقة في حركاتها الشاكرة الراضية، كم كانت الغبطة تشع من عينيها بريقاً لامعاً. وانتحت الطفلة ناحية ثم عزفت الموسيقى دور رقص روسي، فقامت طفلة أخرى في لباس رقص روسي وأخذت ترقص رقصة صعبة بديعة. وكال لها المتفرجون التصفيق كيلاً، فأدرت رأسي أبحث عن الطفلة الأولى. كانت في ركن بعيد تنظر إلى الراقصة الجديدة نظرة المتعجب المعجب الفرح، وتتبع حركاتها حركة حركة فتصفق لها كلما قامت بحركة صعبة فأتقنتها، كانت أشد المعجبين بالراقصة الجديدة حماساً وأخثر المتفرجين تصفيقاً لها. يا للطفولة البريئة الطاهرة! لم تخط الغيرة بعد سطراً من سطورها ولم يخط الحسد كلمة من كلماته. يا للطفولة المرحة الطروب ما أجملك وما أطهرك!

وصدحت الموسيقى ثالثة فقامت الطفلة راقصة لاهية طروباً، ودوى لها التصفيق وانتشت بنشوة الإعجاب بها من جديد، تفننت في رقصها وأبدعت. فلمت نفسي على أوهامي وخيالي. حصن الطفولة مازال حصيناً لم ينفذ فيه سهم من سهام الدهر بعد. ليتك تظلين طفلتي هكذا. ليت الحياة تدعك كما أنت عصفورة من عصافير جنتها تغنين وترقصين وتلهين. ليتك لا تعرفين للحياة معنى غير ما تعرفين الآن. أبقي طفلتي كما أنت راقصة. فرحة مرحة إلى ما شاء الله. الحياة الحياة ما هي؟؟: رقصة. فأرقصيها لاهية.

سهير القلماوي

الشافعي واضع علم أصول الفقه

للأستاذ الشيح مصطفى عبد الرازق

أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية الآداب

- 6 -

الدراسات الفقهية إلى عهد الشافعي. ب - أهل الرأي وأهل الحديث -

جـ - الشافعي بين أهل الرأي وأهل الحديث وآثاره وكتبه

د - وضع الشافعي علم أصول الفقه

وكان أهل الحديث يعيبون أهل الرأي بأنهم يأخذون في دينهم بالظن، وأنهم ليسوا للسنة أنصاراً ولاهم فيها بمتثبتين، فان أصحاب أبي حنيفة يقدمون القياس الجلي على

خبر الواحد وهم يقبلون المراسيل، والمجاهيل - أي الحديث المرسل الذي أسنده التابعي أو تابع التابعي إلى النبي خلى الله عليه وسلم من غير أن يذكر الصحابي الذي - روى الحديث. أما المجاهيل فهم مجهولو الحال من الرواة
ثم لا يقبلون الحديث الصحيح إذا كان مخالفاً للقياس، ولا يقبلونه في الواقعة التي تعم فيها البلوى: الرازي ص250، 251
كانت الحال على ما ذكرنا حين جاء الشافعي، وقد تفقه الشافعي أول ما تفقه على أهل الحديث من علماء مكة، كمسلم بن خالد الزنجي، وسفيان بن عيينه، ثم ذهب إلى إمام أهل الحديث (مالك) ابن أنس في المدينة فلزمه، ولقي من عطفه ومن فضله ما جعله يحبه ويجله (عن يونس بن عبد الأعلى أنه سمع الشافعي يقول: (إذا ذكر العلماء فمالك النجم، وما أحد أمن علي من مالك بن أنس) الانتقاء ص23
على أن نشأة الشافعي لم تكن من كل وجه نشأة أهل الحديث، ولا استعداده استعدادهم.
لقد توجه في أول أمره إلى درس اللغة والشعر والأدب وأخبار الناس، ولم يقطع صلته بهذه العلوم حين وصل حبله بأهل الحديث الذين كانوا لا يرونها من العلم النافع (حكي عن مصعب الزبيري قال: كان أبي والشافعي يتناشدان، فأتى الشافعي على شعر هذيل حفظاً وقال: لا تعلم بهذا أحداً من أهل الحديث فانهم لا يحتملون هذا، معجم الأدباء ص380)
وكان الشافعي بطبعه نهماً في العلم، يلتمس كل ما يجده من فنونه، وقد ذكر من ترجموا له: أنه اشتغل بالفراسة حين ذهب إلى اليمن، وعالج التنجيم والطب، وربما كان درسهما في إحدى رحلاته إلى العراق، حيث كان التنجيم يعتبر فرعاً من فروع العلوم الرياضية، وكان الطب فرعاً من العلم الطبيعي، والعلم الرياضي، والعلم الطبيعي قسمان من أقسام الفلسفة التي كان مسلمو العراق أخذوا يتنسمون ريحها، وكان الشافعي مغرى بالرمي في شبابه ولم يكن في كهولته يأنف من الوقوف عند مهرة الرماة يدعو لهم ويمدهم بالمال، ويظهر أنه لم يكن شديداً في جرح الرجال كعادة أهل الحديث، وقد نقل صاحب كتاب (طبقات الشافعية الكبرى) حكاية تدل على سخرية الشافعي من تزمت المزكين.
قال الشافعي - رضي الله عنه - حضرت بمصر رجلاً مزكياً يجرح رجلاً فسئل عن) سببه وألح عليه فقال: رأيته يبول قائماً، قيل وما في ذلك؟ قال: يرد الريح من رشاشه على بدنه وثيابه فيصلي فيه، قيل هل رأيته أصابه الرشاش وصلى قبل أن يغسل ما أصابه؟ قال: لا ولكن أراه سيفعل؟ حـ - 1 - ص 194، 195
وكان في العلماء المعاصرين للشافعي: بل أهل الرأي منهم بله أهل الحديث من لا يراه ممعناً في الحديث (عن أبي عبد الله الصاغاني يحدث عن يحيى بن أكثم قال: كنا عند محمد بن الحسن في المناظرة، وكان الشافعي رجلاً قرشي العقل والفهم، صافي الذهن، سريع الإصابة، ولو كان أكثر سماع الحديث لاستغنت أمة محمد به عن غيره من العلماء (ابن حجر ص59)
ولما ذهب الشافعي إلى العراق استرعى نظره تحامل أهل الرأي على أستاذه مالك وعلى مذهبه، وكان أهل الرأي أقوى سنداً وأعظم جاهاً بما لهم من المكانة عند الخلفاء، وبتوليهم شؤون القضاء، ذلك إلى أنهم أوسع حيلة في الجدل من أهل الحديث وأنفذ بياناً، ويمثل حال الفريقين من هذه الناحية، ما روي عن أمامي أهل الرأي وأهل الحديث: أبي حنيفة ومالك.
روى ابن عبد البر المالكي عن الطبري قال: وكان مالك قد ضرب بالسياط، واختلف فيمن ضربه وفي السبب الذي ضرب فيه قال: فحدثني العباس بن الوليد قال: خبرنا ذكوان عن مروان الطاطري أن أبا جعفر نهى مالكاً عن الحديث: (ليس على مستكره طلاق) ثم دس
إليه من يسأله عنه فحدث به على رؤوس الناس (الانتقاء ص43، 44)
أما أبو حنيفة فينقل في شأنه الموفق المكي في كتاب (المناقب) (عن معمر بن الحسن الهروي يقول: اجتمع أبو حنيفة ومحمد ابن إسحاق عند أبي جعفر المنصور، وكان جمع العلماء والفقهاء، من أهل الكوفة والمدينة وسائر الأمصار لأمر حزبه وبعث إلى أبي حنيفة فنقله على البريد إلى بغداد، فلم يخرجه من ذلك الأمر الذي وقع له إلا

أبو حنيفة، فلما قضيت الحاجة على يديه حبسه عند نفسه ليرفع القضاة والحكام الأمور إليه، فيكون هو الذي ينفذ الأمور ويفصل الأحكام، وحبس محمد بن إسحاق ليجمع لابنه المهدي حروب النبي - ص - وغزواته قال فاجتمعا يوماً عنده وكان محمد بن إسحاق يحسده لما كان يرى من المنصور من تفضيله وتقديمه واستشارته فيما ينوبه وينوب رعيته وقضاته وحكامه، وسأل أبا حنيفة عن مسألة أراد بها أن يغير المنصور عليه، فقال له ما تقول يا أبا حنيفة في رجل حلف ألا يفعل كذا وكذا أو أن يفعل كذا وكذا ولم يقل إن شاء الله موصولاً باليمين، وقال ذلك بعدما فرغ من يمينه وسكت، فقال أبو حنيفة لا ينفعه الاستثناء إذا كان مقطوعاً من اليمين، وإنما كان ينفعه إذا كان موصولاً به، فقال وكيف لا ينفعه وقد قال جد أمير المؤمنين الأكبر أبو العباس عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن استثناءه جائز ولو كان بعد سنة، واحتج بقوله عز وجل (واذكر ربك إذا نسيت)؟ - فقال المنصور لمحمد بن إسحاق: أهكذا قال أبو لعباس صلوات الله عليه؟ قال نعم! فالتفت إلى أبي حنيفة - رحمه الله - وقد علاه الغضب، فقال تخالف أبا العباس فقال أبو حنيفة لم أخالف أبا العباس، ولقول أبي العباس عني تأويل نخرج على الصحة ولكن بلغني أن النبي - ص - قال (من حلف على يمين واستثنى فلا حنث عليه). وإنما وضعناه إذا كان موصولاً باليمين، وهؤلاء لا يرون خلافتك. لهذا يحتجون بخبر أبي العباس، فقال له المنصور كيف ذلك؟ قال: لأنهم يقولون إنهم بايعوك حيث بايعوك تقية وإن لهم الثنيا متى شاءوا يخرجون من بيعتك ولا يبقى في أعناقهم من ذلك شيء قال هكذان قال: نعم فقال المنصور: خذوا هذا يعني محمد بن إسحاق فأخذ وجعل رداؤه في عنقه وحبسوه) ج1 ص142 - 144

كان طبيعيا: أن يجادل الشافعي عن أستاذه وعن مذهب أستاذه وقد نهض الشافعي لذلك قوياً بعقله، قوياً بعلمه، قوياً بفصاحته قوياً بشباب في عنفوانه، وحمية عربية، وقد رويت لنا

نماذج من دفاع الشافعي عن مالك ومذهبه: (عن محمد بن الحكم قال: سمعت الشافعي يقول: قال لي محمد بن الحسن: صاحبنا أعلم من صاحبكم يعني (أبا حنيفة ومالكاً) وما كان على صاحبكم أن يتكلم وما كان لصاحبنا أن يسكت، قال فغضبت وقلت نشدتك الله من كان أعلم بسنة رسول الله (صلعم) مالك، لكن صاحبنا أقيس، فقلت: نعم ومالك أعلم بكتاب الله تعالى وناسخه ومنسوخه وسنة رسول الله (صلعم) من أبي حنيفة فمن كان أعلم بكتاب الله وسنة رسوله كان أولى بالكلام) الانتقاء ص 24

كان هذا الحجاج عن مذهب مالك، في قدوم الشافعي إلى العراق أول مرة، وأقام الشافعي في العراق زمناً غير قصير ودرس فيه كتب محمد بن الحسن وغيره من أهل الرأي فيما درس في العراق ولازم محمد بن الحسن ورد على بعض أقواله وآرائه نصيراً لأهل الحديث.

ولاشك أن الشافعي في ذلك العهد كان متأثراً بمذهب أهل الحديث ومتأثراً بملازمة عالم الهجرة فهو كان يدافع عن مذهبه يدافع حميته لأستاذه وأنصار أستاذه المستضعفين.

أما البزاز الكردري فهو يروي في سبب اختلاف الشافعي على محمد بن الحسن روايات يقول فيها: (عن عبد الرحمن الشافعي: لم يعرف الشافعي لمحمد حقه وأحسن إليه فلم يف له. وعن إسماعيل المزني قال الأمام الشافعي: حبست بالعراق لدين فسمع محمد بي فخلصني فأنا له شاكر من بين الجميع. وعن ابن سماعة قال: أفلس الشافعي غي مرة فجاء إلى محمد أصحابه فجمع له مائة ألف فكان فيه قضاء حاجته ثم أفلس مرة أخرى فجمع له سبعين ألف درهم ثم أتاه الثالثة، فقال: لا أذهب مروءتي من بين أصحابي، لو كان فيك خير لكفاك ما جمعت لك ولعقبك وكان قبل هذا مولعاً بكتبه يناظر أوساط أصحابه ويعد نفسه منهم، فلما أتى محمداً الثالثة أظهر الحلاف) المناقب - ج2 - ص150، 151

والشافعي نفسه يرد على ذلك، فقد أخرج الحاكم من طريق محفوظ بن أبي توبة قال: سمعت الشافعي يقول: يقولون. إني إنما أخالفهم للدنيا، وكيف يكون ذلك والدنيا معهم؟ وإنما يريد الإنسان الدنيا لبطنه وفرجه، وقد منعت ما ألذ من المطاعم ولا

سبيل إلى النكاح، وعني لما كان به من البواسير ولكن لست أخالف إلا من خالف سنة رسول الله. ابن حجر ص76
ولما عاد الشافعي إلى بغداد في سنة 195هـ - 810 - 811م ليقيم فيها سنتين اشتغل بالتدريس، والتأليف وروى البغدادي في كتاب (تاريخ بغداد):
عن أبي الفضل الزجاج يقول: لما قدم الشافعي إلى بغداد وكان في الجامع إما نيف) وأربعون حلقة، أو خمسون حلقة فلما دخل بغداد مازال يقعد في حلقة حلقة ويقول (لهم: قال الله وقال الرسول وهم يقولون قال أصحابنا حتى ما بقي في المسجد غيره ص68، 69
واختلف إلى دروس الشافعي جماعة من كبار أهل الرأي كأحمد بن حنبل وأبي ثور فانتقلوا عن مذهب أهل الري إلى مذهبه، ويروى عن أحمد ابن حنبل: أنه قال (ما أحد من أصحاب الحديث حمل محبرة إلا وللشافعي عليه منة) فقلنا: يا أبا محمد كيف ذلك؟ (قال إن أصحاب الرأي كانوا يهزؤون بأصحاب الحديث حتى علمهم الشافعي وأقام الحجة عليهم) الانتقاء ص76
ووضع الشافعي في بغداد كتاب: (الحجة) (روى ابن حجر عن البويطي: أن الشافعي قال: اجتمع علي أصحاب الحديث فسألوني أن أضع على كتاب أبي حنيفة فقلت: لا أعرف قولهم حتى أنظر في كتبهم، فكتبت إلى كتب محمد بن الحسن فنظرت فيها سنة حتى حفظتها ثم وضعت الكتاب البغدادي يعني (الحجة) ص76
ويظهر من ذلك: أن مذهب الشافعي القديم الذي وضعه في بغداد كان في جل أمره رداً على مذهب أهل الرأي وكان قريباً إلى مذهب أهل الحديث.
وروى البغدادي عن حرملة: أنه سمع الشافعي يقول: (سميت ببغداد ناصر الحديث) ج 2 ص68
ونقل ابن حجر عن البيهقي: أن كتاب الحجة الذي صنفه الشافعي ببغداد حمله عنه الزعفراني، وله كتب أخرى حملها غير الزعفراني منها: كتاب السير، رواية أبي عبد الرحمن أحمد بن يحيى الشافعي) وفي كتاب كشف الظنون:
الإمام الشافعي، وهو مجلد ضخم ألفه بالعراق إذا أطلق القديم من مذهبه (الحجة)) (يراد به: هذا التصنيف، قاله الأسنوي في المبهمات ويطلق على ما أفتى به هناك أيضاً
ثم انتهى الشافعي إلى مصر فآزره تلاميذ مالك حتى إذا وضع مذهبه الجديد وأخذ يؤلف الكتب رداً على مالك تنكروا له وأصابته منهم محن
قال الربيع: سمعت الشافعي يقول: قدمت مصر لا أعرف: أن مالكاً يخالف من) أحاديثه إلا ستة عشر حديثاً فنظرت فإذا هو يقول بالأصل ويدع الفرع، ويقول بالفرع ويدع الأصل.
ثم ذكر الشافعي في رده على مالك: المسائل التي ترك الأخبار الصحيحة فيها بقول واحد من الصحابة أو بقول واحد من التابعين أو لرأي نفسه
ثم ذكر: ما ترك فيه أقاويل الصحابة لرأي بعض التابعين أو لرأي نفسه وذلك: أنه ربما يدعى الإجماع وهو مختلف فيه
ثم بين الشافعي أن ادعاء: أن إجماع أهل المدينة حجة، قول ضعيف. الرازي ص26
ويروي بعض الرواة: أن الشافعي إنما وضع الكتب على مالك لأنه بلغه أن بالأندلس قلنسوة لمالك يستسقي بها وكان يقال لهم: قال رسول الله (صلعم) فيقولون: قال مالك، فقال الشافعي: إن مالكاً بشر يخطئ فدعاه ذلك إلى تصنيف الكتاب في اختلافه معه وكان يقول استخرت الله تعالى في ذلك. ابن حجر ص76
ومذهب الشافعي الجديد الذي وضعه في مصر هو الذي يدل على شخصيته وينم عن عبقريته ويبرز استقلاله
سئل أحمد ما ترى في كتب الشافعي التي عند العراقيين أهي أحب إليك، أم التي) بمصر؟ قال: عليك بالكتب التي وضعها بمصر فإنه وضع هذه الكتب بالعراق ولم يحكمها ثم رجع إلى مصر فأحكم تلك كما يرويه الذهبي في تاريخه الكبير (هامش الانتقاء ص77)
(يتبع)
صفي الدين الحلي

هذه هي الناحية اللفظية، وأما خصائص معانيه فإنها تتمثل في شدة اتصالها بعلوم البيان من كثرة التشبيه واستعمال المجاز والكنايات، وقد ساعده على الإجادة في ذلك ما وهبه من قوة الخيال ودقة المشاهدة كما سنعرف ذلك حين التحدث عن وصفه.
وتتمثل أيضاً في طغيان الإشارات والمصطلحات العلمية عليها إذ تراه يستغل معارفه في علوم الفقه والحديث والفلسفة والتصوف في استعارة معانيه لأي موضوع شاء، وكثيراً ما يضرب الأمثال بحوادث التاريخ أو يستشهد بالقصص العامة الشائعة كأنه يدرك قاعدة التربية الحديثة في إظهار المعقول بثوب المحسوس.
وتعد معانيه فوق ذلك من النوع الممتلئ الدسم، فهي تتدفق قوية في طريقها إلى الغاية من غير تفكك أو فضول أو تدنس بالمعاني العامية المبتذلة، ويحس قارؤها بروح الصدق سارية بين أجزائها في أغلب الأغراض لأنالشعر كان قطعة من نفس صفي الدين لا علماً يحرك به لسانه، أما في غير الغالب فقد كان يقحم نفسه في أغراض متكلفة لا صلة بينه وبينها غير حب المحاكاة والصنعة كما أنه انحدر إلى أعماق الابتذال حين خاض في المجون. .
وقد قال صفي الدين بهذه المعاني في جميع الميادين التي عرفها الشعر العربي إلى وقته، حائزاً قصب السبق في كثير منها فتناول الفخر والمدح والوصف والغزل، وهي أركان شعره الكبرى ثم الحكم والخمر والزهد والألغاز والمجون، وهي العمد الثانوية، ونحب قبل أن نستعرض هذه الميادين أن نسجل هنا شهادة أحد المعاصرين له وهو صاب (الفوات) المتقدم ذكره إذ قال: تعجبك ألفاظه المصقولة ومعانيه المعسولة ومقاصده التي كأنها سهام راشقة وسيوف مسلولة)! وما أثمنها شهادة من معاصر كان أجدر به الجحود والنكران
لم يكن صفي الدين شاعراً قوالاً فحسب، وإنما كان بطلاً مغواراً يعرف كيف يكتب بالسيف على الرقاب كما يخط بالقلم على الطرس، وذلك لأنه نشأ من أسرة نبيلة قوية كانت هي صاحبة الولاية على (الحلة) وبعض بلاد العراق المحيطة بها، وكان بجانبها أعداء وحساد كثيرون يحاولون أن ينزلوها من المكانة السامية بكل الوسائل من غدر دنيء أو قتال
صريح، حتى أن أحد أخوال هذا الشاعر قد قتل وهو بين يدي ربه في المسجد العام فكان هذا الموقف الخطر داعياً إلى تنشئة أبناء الأسرة نشأة حربية باسلة ليستطيعوا أن يأخذوا من أعدائهم بالثأر ويردوا في نحورهم كيدهم ولهذا كان أول الدواعي التي حدت بشاعرنا إلى الشدو والغناء ذلك الشعور اقوي الذي كان يجيش في خلايا قلبه شعور العزة القومية والمجد والكرامة، وقد غرس فيه هذا الشعور طموحاً وثاباً إلى مشارف العلا فظل يضرب على وتر الفخر والحماة بأروع الأغاني الشجية التي تبرئ صدر الجبان وتلهب عزيمة الشجاع المقدام، فشعره في ذلك مثل من أمثلة الأدب الحي القوي الذي ننشده اليوم في عصر انحلال الزائم وخمود الشهامة! وإذا شئت فترنم معه وهو يشيد بذكر قومه:

قوم إذا استخصموا كانوا فراعنة ... يوماً وإن حكموا كانو موازينا
تدرعوا العقل جلباباً فإن حميت ... نار الوغى خلتهم فيها مجانينا
إذا ادعوا جاءت الدنيا مصدقة ... وإن دعوا قالت الأيام آمينا
إذا جرينا إلى سبق العلا طلقا ... إن لم نكن سبقاً كنا مصلينا
تدافع القدر المحتوم همنتا ... عنا ونخصم صرف الدهر لو شينا
عزائم كالنجوم الشهب ثاقبة ... مازال يحرق منهن الشياطينا

ولم يقصر الشاعر همه على مجرد الفخر بهذه الإرادة التي تدافع القدر المحتوم وتخصم الدهر؛ بل كان بين قومه في منزلة الشاعر الجاهلي في قبيلته يشترك عملاً في تدبير سياستهم ويحرضهم قولاً على الحرب إذا ثلمت كرامتهم وينعى عليهم لو أحجموا يوماً عن أداء الواجب، وكأنما كان شعره جريدة (الحلة) القومية تشير عليهم كل آن بسديد الرأي وماضي العزم وفي نار هذه المواقع المشبوبة تلقى الشاعر دروساً من الحكمة جديرة أن توضع بين عيني كل من يحلم بالمجد أو يطمح إلى العلياء، فهو رجل عملي لا يؤمن بالحظ والخيال الكاذب، ولكنه يرى طريق النجاح مرصوفاً بالكد والعناء لا تذلله إلا الإرادة الجبارة والنفس التي لا تلين. وهو رجل نستنكف أن جري ماء الحياة بين جنبيه ثم لا يسعى ويقدم ويصعد حتى يدرك قمة

الشرف والسمو، وكم يسخر ويثور على هؤلاء القوالين الذين يقتنعون بالألفاظ الرنانة والأصوات الجوفاء، ألا تراه يقول

لست ممن يدل مع عدم الجد ... بفضل الآباء والأجداد
ما بنيت العلياء إلا يجدي ... وركوبي أخطارها واجتهادي
وبلفظي إذا نطقت وفضلي ... وجدالي عن منصبي وجلادي
غير أني وإن أتيت من النظ ... م بلفظ يذيب قلب الجماد
لست كالبحتري أفخر بالشع ... ر، وأثني عطفي في الإيراد
وإذا ما بنيت بيتاً بختر ... ت كأني بنيت ذات العماد
إنما مفخري بنفسي وقومي ... وقناتي وصارمي وجوادي

ومن منا لا يحفظ قوله السائر:

لا يمتطي المجد من لم يركب الخطرا ... ولا ينال العلا من قدم الحذرا
ومن أراد العلا عفواً بلا تعب ... قضى ولم يقض من إدراكها وطرا

وله غير ذلك الشعر الجيد المصقول يصور فيه همته وتفضيله الموت على الذل والنفور من اليأس حتى في ساعة الفشل والاستهزاء بالعدا والأخطار، ويالها من مبادئ يبتسم لها المجد

ولكنه ما كاد القرن الثامن يذر في الأفق حتى أحاطت بالعراق خطوب وفته بانشقاق أهله على أنفسهم وبإيغال المغول في أنحائه فاتحين متجبرين، فاضطرت الولايات الصغيرة التي لا تستطيع الدفاع عن نفسها إلى الاجتماع بما حولها من الدول الحصينة القوية. وهكذا اعتمدت أسرة الحلي على الدولة الارتقية المقيمة بماردين وعلى رأسها الملك المنصور نجم الدين غازي وقد كانت تتمتع باستقلال داخلي وراثي، ولكنها تعترف بسيادة مصر، وفي عاصمتها هذه يقول (ياقوت في معجمه: (إنه ليس في الأرض أحسن من قلعتها ولا أحصن ولا أحكم)، فدخل الشاعر إلى بلاط هذا الملك يحرصه بادئ الأمر على مساعدة قومه والانتصار لهم على أعدائهم، ثم ما لبثت أن صار شاعراً رسمياً له، يهتف بمناقبه وينث ذكراه. وعند ذلك ابتدأ ظهور النوع الثاني من شعره وهو المدح.

حدث صفي الدين الحلي عن نشوء هذا الانقلاب في شعره فقال: (كنت عاهدت نفسي ألا أمدح كريماً وإن جل، ولا أهجو لئيماً وإن ذل، ولكن الحوادث ألجأتني إلى هجر عريني. . فحططت رحلي بفناء فخر الأواخر والأوائل ملوك ديار بكر بن وائل فمذ ثبتوا بالإحسان قدمي، وصانوا عن بني الزمان وجهي ودمي، حمدت لقصدهم مطايا الآمال، وقلت لا خيل عندك ولا مال، فليسعد النطق إن لم تسعد الحال) فمن ذلك الحديث نرى أن مدحه لم يكن نفاقاً أو رياءً يتخذه وسيلة للاستجداء والسؤال، وإنما كان نتيجة عاطفة محمودة هي عاطفة الشكر وعرفان الجميل. ويدل كذلك على أنه كان يفهم غاية الشعر حق الفهم ويؤمن بقدسيته الفنية، فكان يربأ به أن يكون عبد الغرض ورسول الحاجة ولا غرو فقد عرفنا صفي الدين شاعراً مطبوعاً لا مصنوعاً.

وإذا أحصينا المدائح التي نظمها وهي كثيرة مستفيضة ألفيناها تكاد تنحصر في أربعة مسالك: مدح الرسول وآله، ومدح الأسرة الارتقية المذكورة، وبني قلاوون، وبيت المؤيد، وكلها تسير على نمط متحد في عدم الوصول إلى المدح إلا بعد مقدمات طويلة في موضوع آخر يسترسل فيها ثم يبذل جهده في اختراع وسائل التخلص إلى غرضه. غير أنه كان يتصرف في أنواع هذه المقدمات بألوان شتى، فتارة تكون غزلاً وأخرى وصفاً لرحلة فتارة تكون فخراً أو خمراً، وقد تكون رسماً لمنظر طبيعي جميل، فكأن كل قصيدة منقسمة إلى شقين لكل منهما غايته وصورته ولا يلتقيان إلا بذلك الرابط الواهن الذي يسمونه (حسن التخلص)

وأوضح ما نراه في معاني المدح النبوي ظاهرتان تشير إحداهما إلى مذهبه والأخرى إلى خلقه: فقد عهدناه محباً مخلصاً لآل البيت والسلالة العلوية يذكرهم كلما ذكر النبي تقرباً إليه بأهله، ويناضل تحت لوائهم كل من عرض لهم بمذمة أو نقيصة، مردداً أنهم أجدر الناس بالخلافة، مسجلاً على بني العباس طغيانهم واغتصابهم لذلك الحق الثابت. وقد سأله نقيب الأشراف بالعراق أن يجيب عبد الله بن المعتز عن قصيدته التي غض فيها من قدر العلويين، فأجابه بقصيدة دامغة الحجة كأنها جدال علمي لولا ما فيها من

صور العاطفة الثائرة. وهذه العاطفة الشيعية تدل على حقيقة تاريخية كبيرة، هي أن العلويين كانوا لا يزالون يثيرونه دعاتهم في العراق أملاً في أن يخلفوا العباسيين بعد زوال دولتهم.

أما الظاهرة الثانية فهي اعترافاته الخطيرة أمام النبي (ص) بما جنى في حياته من عبث وجور على الشريعة يصفها بأنها جرائم تندك منها الجبال، ولا نحسبها مبالغة منه لأنا نعرفها حقيقة ثابتة في خلقه، إذ كان حي لشيطان واهي الزمام في بيداء هواه يعطي لنفسه ما تشتهي ثم يعود إلى ربه معتقداً دائماً أن الله غفور رحيم، ولذا نظن أنه لم يفكر في هذا

الندم إلا بعد أن وخطه المشيب وآذنت شمس حياته بالمغيب.

وأما مدائحه في بني أرتق فبحسبنا أن نقول عنها إنها جمعت كل ما انبتت القرائح في الأدب العربي من أوصاف الخلق الحميد، ففيها كرم حاتم ووفاء السموءل وحكمة لقمان وشجاعة خالد وهكذا حتى تطوف على ذرى الفضائل الإنسانية، فهي مليئة حقاً بالمبالغة والإغراق إلى أبعد مدى. ويظهر أن الشعراء كانوا لا يعدون بلاغة المدح في تصوير الحقيقة الواقعة وإنما يقبسونها بعظم المثل الأعلى الذي يتخيله الشاعر ثم يرسمه في شعره. وهذه القصائد قسمان: قسم متفرق مرتبط بالمناسبات العارضة، وقسم آخر مجتمع الأجزاء كديوان مستقل يحتوي على تسع وعشرين قصيدة كل منها تسعة وعشرون بيتاً وقد أسماه (درر النحور في مدح الملك المنصور)

(له تكملة)

ضياء الريس

من طرائف الشعر

عصفورة الوادي

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

لقد رقد السُّمارُ حتى خلا النادي ... ولم تبق يقظى غير عصفورة الوادي //
شدت في هدوء الليل تندب غائباً ... وفي شدوها شجو لسامعه باد
تردده في خير لحنٍ سمعتُه ... وتنشده شعراً على خير إنشاد
فيا حسن شعرٍ مطربٍ معاً ... ويا حسن لحنٍ ثم ي حسن ترداد
فبِتُّ وعيني لحظُها يخرق الدجى ... وسمعي على بعدٍ إلى الطائر الشادي
قد انتبهت في ليلها فتذكَّرت ... أليفاً غداً عنها ولم يَعُد الغادي
وبرَّحت الذكرى بها فترنَّمت ... ترنُّمَ ثكلى قد أصيبت بأولاد
وقالت تناجي نفسها ما لصاحبي ... تأخر عن ميعاده غير معتاد
وقد كان وجهُ الليل ميعادَ عوده ... وذلك للأطيار آخر ميعاد
فما عاد عصفوري إليَّ لشقوتي ... وكان إليه في حياتيَ إخلادي
أأبعد عن مثواه في طيرانه ... فضلَّ طريقَ العود من بعد إبعاد
وكيف تضلّ الطيرُ عن مستقرّهَا ... وكل كثيبٍ في الطريق لها هاد
أم احتازه الصيَّادُ في شَرَكٍ له ... أم اختطفه برثنُ الأجدل العادي
أم التقفته هِرَّةُ البَرّ بغتة ... أم ابتلعته حيةٌ بعد أرصاد
لقد كانم لي إغرادة خير سلوةٍ ... كما كان يُسليه عَن الهمّ إغرادي
وكنا إذا طرنا معا لرياضة ... نُخلِقُ في جوٍّ من الصبح ورَّاد
وبعدئذٍ نهوِي معا في هوادة ... إلى فَنَنٍ غَض من البان ميَّاد
وكنا على الأيام زوجين في رضىً ... فأفردني دهري وأوحش إفرادي
بقيتُ لأرزاء الزمان وحيدة ... بعشٍّ نضيدٍ من هشيم وأعواد
وكنا بنيناه معا فوق أيكةٍ ... تُظلّ على ماءٍ وعشبٍ وأوراد
بنيناه حتى تَمَّ نجهد نفسَنا ... لنحيا معا في غبطةٍ ثم إرغاد
يقيم بقربي ثم في العشّ واضعا ... إذا ما غفا ألغَادَه فوقَ ألغادي
ولكن إلفي قد تخطفه الردى ... فأفسد عيشي بعد أيّ إفساد
فيا ليت إلفي كان قد ظلَّ سالما ... وإني بريشي والحياة له فاد
ذهبتَ ولم ترجع فهل كان واقفا ... لك الموت في جنب الطريق بمرصاد
بربك عُدْ لي أو على الموت دلّني ... فإني إلى كأسٍ شربت بها صاد

جميل صدقي الزهاوي

بني مصر!
للأستاذ فخري أبو السعود
إلامَ تغيب عنا وتطلعُ ... ونلعب في ظلّ الحياة ونرتعُ؟
رضينا بخفض العيش والذلُّ حوله ... وما الذل إلاَّ حظٌّ من بات يقنع
نَهِيمُ بهزلٍ لا نهيم بغيرِهِ ... ونهرب مِن جِدَّ الحياة ونفزع
ونحجم عن أخطارها وصعابها ... وتنهبنا لَذَّاتها والتمتع
وإن نبتغ العليا ترانا كأنما ... نُساق إليها كارهين ونُدفَع
نسير على رِسْل ولِلعصر حولنا ... مواكبُ في طُرْق العلا تتدفَّع
أساغَ بنو الشرق الحياةَ ذليلةً ... وعيشُ بني الغرب العلا والترفُّع
هُمُ قادة الدنيا ونحن وَرَاءهمْ ... فُضُولٌ وأذيالٌ تجَرُّ وتَتْبَعُ
رضينا بأن نحيا على الغرب عالةً ... كأن ليس فيما دون ذلك مَطْمَعُ
نُدِلُّ ونستعلي بمخترعاتهم ... ولا كاشفُ منا ولا ثَمَّ مُبدِع
ونفخَرُ بالعلم الذي هُمْ عُيُونهُ ... ولم نَكُ إلاَّ شَرْبَهُ حيث ينبع
ونَرْفلُ في أعطافها مِن حضارةٍ ... وما نحن نَبْنِيها ولا نحن نَصْنَعُ
وكم تائهٍ منَّا بثوبٍ منمَّقٍ ... وأحرَى به منه الرَّدِيمُ المرقَّع
وكم مستعيرٍ بَاسَهُمْ وبخاله ... بقوَّته فينا يصول ويَدْفع
لهمْ حاضرٌ دالٍ وماضٍ مؤثَّل ... وسعيٌ إلى مستقبل المجد أرْوَع
إذا ذَكَروا أوطانهم فَخرُوا بها ... ويا حبَّذا فخراً ذمار ممنَّع
يطولون بالجاه العزيز تفاخُرا ... ونطرق من ذلّ الإسار ونخشع
ونَشحَذ من لآبائنا وجدودنا ... فخاراً على أعقابهم ليس يُخلع
همُ دوننا أهلُ الفخار ولم يكن ... عُلوُّ أبٍ في حِطَّةِ الوُلْدِ يَشْفع
نتيهُ بتاريخ لهم ومآثر ... قِيامٍ على الأيام لا يزعزع
وما هي ما نَحْنى إلا صحائفُ ... بَوَالٍ وأطلالٌ خَوَالٍ وأرْبُعُ
وفيمَ تبَاهينَا بعزٍّ ورفعةٍ ... وحاضِرُنا قَفْرٌ من العز بلقع؟
تَبَرّأ ماضي المجد منه ولو دَرَى ... للاشَ له خُوفو وأُذْهِلَ خَفْرَع
وريعَ الفراعينُ العِظامُ وأجفلوا ... وهالَهُمُ هذا التراث المضيَّع
رأَوْا أُمةً تمشي وراء زمانها ... وقد عرفوها في الطليعة تطلع
وتقنع من حظّ الحياة بدونها ... وقد تركوها في الذرى تتربع
وأوغل فيها الأجنبي نيُوبهُ ... وقد عهدوها النجمْ أو هِيَ أمنعُ
وهالهُمُ خيلٌ بمصرَ ورايةٌ ... إلى راية النيل المفدَّاةِ ترفع
كأنِّي أُصغِي من علاهم إلى صدَى ... يَشقُّ القرون الداجيات فَيُسْمِع
يقول: بني مصر الحياة أو الردى ... ومالكُمُ من دونِ هذين مَشْرع
فليست حياة الشعب إلاَّ سيادة ... تَرُدُّ طِماع الطامعين وتَرْدَعُ
وليس الردى إلا حياة مَهينةً ... يَقرُّبها الشعب الذليل المضعضع
أيرضخ شعب النيل للغير راضياً ... بما بات يأباه من الزِّنج أوكعُ؟
هلموا إلى جد الحياة وَنفضُوا ... بقية هذا النوم فالعصر مسرع
فما الأمر لو تدرُون إلا عزيمة ... تصارعِ شدات الحياة فَتَصْرَعُ
تَعافُ ذلول العيش قد لان ملمساً ... وتضرب في وعر الحياة وتقرع
وأنَّى سلكتم فاجعلوا مصر قِبلةً ... وحول علاها الملتَقى والتجمُّعُ
شريكتم في سِرِّكم وجهاركمْ ... وحين تغيب الشمس عنكم وتطلع
وولوا إلى الأعمال لا القول همكم ... فما القول بالمجدي ولا الزعم ينفع
وإن فاتكم منها الجنَاة ففي غدٍ ... ستزهِرُ للجيل الجديد وتونِعُ
بائع حصير
جاء طفل يروم بيع حصير ... زخرفته بالنقش أيدي الصين
فيه بحر يبدو، وفي البحر فلك ... وعلى الفلك بضع حورِ عين
وعليه نوتية من غوان ... جادفات فيه بكل سكون
فتمنت نفسي الركوب بفُلك ... يتحلى بلؤلؤ مكنون
سعد البحر في حشاه وفي أع ... لاه در مكلَّل للجبين
وكأن الفلك الذي ضم غيداً ... صدف قد طفا بدر ثمين

جاءني الطفل وهو يحسب أني ... ذو نقود تغري وكنز دفين
ثم قال اشتر الحصير وزيّن ... لك بيتاً يليق بالتزيين
قلت مالي بيت أزيِّنه أو ... أي بيت فناؤه يحويني
كل هذا الوجود بيتي ومالي ... فيه نيت عند الدجى يؤويني
كل ليل آوي لبيت كراء ... بي لا يرتضي ولا يرضيني
لست أشري الأثاث، كل أثاث ... لعيوني يلوح، ملك عيوني
كل هذا الوجود بيتي وفيه ... من بديع الأثاث ما يكفيني
فأثاث البيوت ليس بأبهى ... من رياض الأقاح والياسمين
صوروا البحر في الحصير لكي يش_رَى ويقني والبحر يزخر دوني
وإذا صوروا الغواني بفلك ... فخيالي مصوِّر ذو فنون
صوَّروا الكائنات تزهو وعندي ... صور فُقْنَ عالم التكوين
وإذا كنت ما اقتنيت أثاثاً ... فخيالي أبهى الأثاث يريني

دمشق

أحمد الصافي النجفي

الشعر والموسيقى

للشاعر الكبير بول فاليري

عضو المجمع الفرنسي

مترجمة بقلم الأديب عبد الرحمن صدقي

خير عون على إدراك ما في عمل الشاعر من مشقة وصعوبة، أن نقارن بين ما في يديه من عتاد البداية، وبين العتاد الذي يتصرف فيه الموسيقار. فانظروا هنيهة ما هو مبذول لهذا وما هو مبذول لذاك وهما مقبلان على العمل، وقد خرجا من حيز النية إلى حيز التنفيذ

فما أسعد الموسيقار! إن تطور فنه قد هيأ له حالة كثيرة المزايا. فوسائله معينة مفصلة، ومادة تأليفه موضوعة وضعها المحكم من قبله. وقد يصح تشبيهه بالنحلة حين لا يصبح لهغا هم غير عسلها، حين تكون أقراص الموم المنتظمة ونخاريب شهادها مصنوعة قبلها. فمهمتها مقدورة مقصورة على إخراج خير ما عندها. ذلكم حال الموسيقار. بل إنه ل

يصح القول بأن الموسيقى قديمة الوجود، وأنها كانت تنتظر الموسيقار. وقد مضى عليها وهي تامة الوضع دهر دهير.

فكيف كانت للموسيقى أوضاعها؟ نحن نعيش بالسمع في عالم الضوضاء، ومن جملة هذه الضوضاء تنفصم مجموعة من ضوضاء لها بساطة خاصة انفردت بها، بحيث تتميزها الأذن وتقوم لها بمثابة المعالم. وتلك عناصر لها فيما بينها علائق بديهية. وهذه العلائق الصحيحة الملحوظة بين العناصر ندركها إدراكنا للعناصر نفسها. فالفترة بين نغمتين نحسها مثل إحساسنا بالنغمة

ومن ثم فهذه الوحدات ذات الرنين، هذه النغمات، قمينة بأن تتركب منها تلكم التواليف المطردة، وتلكم المنظومات المتتابعة أو المتحدة في الزمن، التي تطلع لنا فتروعنا ببنائها وسياقها وتواشجها وتقاطعها.

ونحن نميز حق التمييز بين النغمة والضوضاء، ويومئذ ندرك التباين بينهما، وهذا إحساس له خطورة كبرى، لأنه التفريق بين الخالص وغير الخالص، ويستطرد ذلك إلى التفريق بين النظام والفوضى، وهذا أيضاً يرجع إلى أحكام قوانين ذات أثر فعال. ولكننا نكتفي بهذا

القدر.

وهذا التحليل أو التمييز للضوضاء قيض للإنسان إيجاد الموسيقى على أنها عمل قائم بذاته، واستغلال لعالم الأصوات. والفضل في إنجاز هذا أو على الأقل في ضبط سيره وتوحيده وجمع قوانينه، يرجع إلى علم الطبيعة، الذي صار استكشافه هو ذاته بهذه المناسبة وعرف بأنه علم المقاييس. وقد استطاع هذا العلم من قديم الزمان الملائمة بين القياس وبين الإحساس، وأمكنه البلوغ إلى نتيجة كبرى وهي إحداث الإحساس بالصوت على نحو دائم متماثل بواسطة آلات. وما هذه المعازف في حقيقتها إلا آلات للقياس!

فالموسيقار يجد في حوزته مجموعة وافية من الوسائل المحدودة المفصلة تقابل بين الاحساسات والنغمات أتم المقابلة. عناصر عزفه حاضرة بين يديه، محصاة العدد، مرتبة الصفوف. وهذه الإحاطة الدقيقة منه بوسائله بحيث لم يقف عند الإلمام بها بل نفذ إلى كنهها وتزود بها في صميم نفسه، تمكنه من التقدير والتدبير، ومن البناء والتركيب، من غير أن يشغل خاطره بمادة عمله، وميكانيكية فنه بوجه عام.

ويحصل من ذلك، أن يكون للموسيقى مجال خاص بها، هو مجالها على الإطلاق. وإذا عالم الفن الموسيقي، أي عالم الأصوات، ظاهر الانفصال عن عالم الضوضاء. وبينما أن حركة من الضوضاء لا تبعث في وعينا إلا حدثاً مفرداً، فإن نقرة واحدة من النغمات تبعث وحدها كل العالم الموسيقي. وهذه القاعة التي أحاضر فيها والتي تحسون فيها لغط صوتي أو غيره من شتى العوارض المسموعة، إذا أنتم سمعتم فيها على حين غفلة نغمة من النغمات، إذا اهتز وتر أو نبضت آلة منغومة.

فإنه لا يكاد هذا الصوت الفذ الذي لا يخلط بغيره من الأصوات العادية يمس أسماعكم، حتى تحسون فيه فاتحة واستهلالاً وحتى ينشأ في الحال جو آخر، وتخيم على الجميع حالة انتظار خاصة، ويؤذن بالظهور نظام جديد بل علام جديد، وتتهيأ نفوسكم الصاغية لاستقباله، بل إن بها لجنوحاً من تلقاء نفسها إلى توسيع مقدماته؛ وإلى توليد احساسات لاحقة بالإحساس الوارد على نفوسكم، وعلى شاكلته وفي مثل صفائه.

وكما توفر لنا الدليل طرداً فهو متوفر عكساً

فإذا وقع في قاعة من دور السماع، والألحان ترن فيها وتسودها، أن هوى مقعد، أو سعل

ساعل أو اصطك باب، فسرعان ما تشعر بانقطاع لا تدري ماهيته وبأن شيئاً لا يمكن وصفه، أشبه بالسحر، قد بطل أو بالزجاج، قد تكسر أو انشعب.

وحاصل القول أن هذا الجو، هذا السحر القدير الوشيك العطب، هذا العالم من الأصوات ميسور لأهون مؤلف موسيقي وذلك بطبيعة فنهن وبما يفيده مباشرة من هذا الفن.

وبخلاف هذا حالة الشاعر، فإن ما أوتيه أقل حظاً من صاحبه بما لا يحد. فتراه يعالج مطلباً لا يختلف كبير اختلاف عما يرومه الموسيقار وهو محروم مما تقدم بيانه من المزايا العظيمة. فهو ملزم بأن يخلق مبدئاً ومعيداً في كل دقيقة، ما يلقاه الآخر جاهزاً مهيئاً.

يلقى الشاعر الأمور على شر حال من السوء والفوضى. فبين يديه هذه اللغة المعتادة، هذه المجموعة من الوسائل الجافية الغليظة التي يطرحها كل علم مضبوط لكي يبتدع لنفسه أدوات التعبير عن أغراضه. فالشاعر لابد له من استعارة هذه الطائفة من الألفاظ والقواعد المأثورة المنقولة غير المعقولة التي صاغها من صاغها غريبة في استعمالها، غريبة في تفسيرها، غريبة في قيد أحكامها.

واقل الأمور صلاحاً لمقصد الفنان، هو هذه الفوضى الأصيلة التي ينبغي له في كل لحظة أن يستخلص منها عناصر النظام المنسوق الذي يريد استحداثه. ولم يرزق الشاعر بعالم من علماء الطبيعة فيحدد له الخصائص الدائمة لعناصر فنه، ويعين علائقها ونسبها والأحوال المتماثلة لإصدارها. وليس لديه مفتاح للدوزان! ولا ميزان لضبط حركة الأصوات ولا واضعون للسلم الموسيقي ولا متنطسون في أصول تركيب الأنغام! وليس يصح عنده علم يقين، اللهم إلا العلم بالتموجات الصوتية المعنوية في اللغة، إلى أن هذه اللغة لا ترد مورد النغمة في اتجاه واحد على السمع وهو الحاسة المثلى للتوقع والإصغاء، بل اللغة بعكس ذلك، خليط من المنبهات الحسية والنفسية غير متماسكة، ولك كلمة هي مجموع وقتي من المؤثرات لا رابطة بينها، فالكلمة تجمع صوتاً ومعنى، بل أخطأت، فإن كل كلمة هي عدة أصوات وعدة معان معاً، أجل، عدة أصوات، أصوات عداد ما في الوطن الواحد من أقاليم، بل عداد ما في كل إقليم من أناس، وهذا ظرف عصيب على الشعراء، إذ يفسد الوقع الموسيقي الذي دبروه، وتشوه معالمه بتصرف القراء. ثم، عدة معان، لأن الصور الذهنية التي توحيها لنا كل كلمة لا تخلو بوجه عام من اختلاف وصورها الثانوية التابعة جد مختلفات.

فالقول شيء مركب، وهو مجموع خصائص مرتبطة بالفعل ومستقلة بطبيعتها في آن

واحد. والكلام يمكن أن يكون منطقياً عامراً بالمعنى ولكنه خلو من الإيقاع خلو من الوزن، وقد يكون عذب الورود على السمع وهو سخف ولغو، وقد يكون واضحاً وفارغاً، غامضاً ولذيذاً. . . .

ويكفي لتصوير ضروب الكلام وكثرتها العجيبة، أن نعدد سائر العلوم التي نشأت للتوفر على بحث هذا التنوع، وليستثمر كل علم عنصراً من عناصرها. فالواحد منا يستطيع دراسة نص من النصوص على وجوه شتى كل منها مستقل بذاته، فيمكنك الرجوع به دواليك إلى علم الصوت، وفقه اللغة، وتركيب الكلام والمنطق والبيان - وزد عليهما الوزن والاشتقاق.

وهو هو ذا الشاعر يصارع هذه المادة غير المستقرة وغير الخالصة إلى حد بعيد. فهو مضطر إلى النظر طوراً فطوراً في رقة الألفاظ وفي معناها، واستيفاء الانسجام وتنغيم الفقرات، فضلاً عن شتى المطالب الفكرية والمنطق والنحو وموضوع القصيد وأفانين البديع والوشي بله المتواضع عليه من القواعد.

فتأملوا مبلغ الجهد الذي تقتضيه معالجة الإتقان لكلام يجب أن تتوافر فيه، بمعجزة من المعجزات، جميع هذه المطالب دفعة واحدة.

العلوم

سمك البكلاه

للدكتور أحمد زكي

السماكة كالزراعة صناعة من أقدم الصناعات، بل هي أقدم من الزراعة لأنها صناعة صيد، والإنسان كان صياداً قبل أن كان زراعاً، يصطاد طعامه على الأرض وفوق الدوح وكذلك في الماء. وكانت طريقته في صيد ما على ظهر الأرض وما في الهواء مسك ما يمسك، وقذف ما يفلت بالحراب مصنوعة من الحجز والخشب ثم من الحديد. ولكن هذه الطرائق التي أساسها القوة لم تغنه في صيد أحياء البحار إلا قليلاً؛ لأن البحر غير الأرض، لم يخلق لحمل الرجل والحافر، والإنسان لم يؤت زعنفة ولا ذيلاً، وهو إن عام فاصطناعاً وتكلفاً، وفوق ذلك فالماء إذا سمك تعثر البصر فيه فلا ينفذ إلا يسيراً لذلك غير الإنسان طريقة الهجوم وعمد إلى الحيلة، إلى الختل والخديعة، فعقف إبرة ربطها بحبل أمسكه بيده، ثم كساها بما يصلح أن يكون طعاماً، ثم في الماء دلاها فجاءت تالسمكة المسكينة تسعى كالناس للرزق فلما وجدته وجدت تفيه حتفها. وطمع الإنسان في غلة من البحر كبيرة، والبحر أبو الخيرات، كثير الفيوض، فعمد إلى الحبل الطويل يمده بين السفينتين تتدلى منه الحبال تحمل الصنارات الكثيرة تخفت تحت ألوان من الطعام شهية لم تبذل عن سخاء. ثم جاء دور الشباك، ثم امتدت هذه وطالت حتى بلغت قيمها مئات الجنيهات. وجاء البخار فاستبدلت السفن الشراعية بسفن بخارية، وارتقت طرق الصيادة وأحكمت، فكثر المصيد وتعددت أنواعه واتسعت تجارته فأثرت الأمم وأغنتها.

ومن الدول من يعتمد في أكثر ريعه واتزان ميزانيته على الدخل الذي يأتيها من السماكة. ولما كانت هذهالدول تصيد الأقل لنفسها، وتصيد الأكثر الكثير لغيرها من الأمم البعيدة النائية، وكان السمك قريب التحلل سريع العطب، عمدت إلى تحليله وتقديره، فأصبح يختزن منه بنسبة لا تختزن بها اللحوم، وصار ما يصاد في القطب يؤكل في خط الاستواء، ومن ذلك سمك البكلاه الذي نحن بحديثه اليوم.

والبكلاه إسبانية معناها سمك الحوت، وهو سمك يقطن المناطق الشمالية من البحر الأطلسي ويقطن بحر الشمال والبلطيق؛ ويوجد كذلك في شمال المحيط الهادي، وتتحدد

أخص مناطقه بخطي عرض 0 و 75

وهو لا يوجد في البحر الأبيض المتوسط. ويسكن من البحر أعماقه على مسافات تتراوح في الأغلب بين العشر قامات والمائة قامة، ولو أنه غوري في سكناه وعادته إلا إذا آن أوان إنساله غادر الأعماق الكبيرة ورحل في قطعان هائلة إلى أماكن من البحر يترجح عمقها بين 20و30 قامة يكون فيها أقل استهدافاً للمهالك، فإذا هو بلغها ألقى بيضه فطفا في الماء، ويحدث هذا غالباً في يناير وفبراير ومارس، فإذا فقس البيض وتبدل واستتم خلقه تدرج في النزول إلى الأغوار الأعمق وعندئذ يبدأ يعيشكما عاش آباؤه، فإذا بلغ من العمر سنة استطال حتى ليبلغ ثمانية من البوصات، ثم يزداد في

الطول عاماً بعد عام، حتى إذا استتم عامه الرابع أدرك فاستطاع أن يكون أباً أو أماً، ويكون طوله عندئذ نحو قدمين، وإذا امتد به الأجل عاش إلى أن يطول إلى خمسة أقدام وبلغ ثمانية من البوصات، ثم يزداد في الطول عاماً بعد عام، حتى إذا استتم عامه الرابع أدرك فاستطاع أن يكون أباً أو أماً، ويكون طوله عندئذ نحو قدمين، وإذا امتد به الأجل عاش إلى أن يطول إلى خمسة أقدام وإلى أن يزن خمسين رطلاً.

وتبيض الأنثى من الحوت بيضاً يتذبذب عدده بين المليون والعشرة الملايين في الفصل الواحد تبعاً لحجم الأنثى وزنتها. ويبلغ قطر البيضة جزءاً من عشرينمن البوصة، وليس كل البيض بفاقس، فأكثره يذهب طعمة لغادي السمك ورائحه، وكثير منه يهلك فلا يستتم إنضاجه بسبب مؤثرات فيزيائية لا طاقة له بها، وقد عرفت الطبيعة منه ذلك فزادته عدداً لكي يفلت منه المقدار الذي لابد منه لاضطراد وجوده.

وأكثر صيد الإنسان للحوت يكون في فص إنساله، ذلك لأنه فص التجمع فالترحل إلى سطوح من قيعان البحر أقرب إلى يد الإنسان. وأشهر هذه السطوح مواضع ثلاث، ساحل النرويج، وجزيرة أسلن وجزيرة نيوفوندلند وهي لذلك أشهر مصايد الحوت. وعدادها قيعان ضحلة ببحر الشمال بين بريطانيا والقارة الأوربية.

أما مصايد النرويج فقد هيأت لها الطبيعة ساحلاً متعرجاً، يدخل فيه البحر تارة ويدخل هو فيه تارة أخرى، وينحدر شاطئه في الماء انحداراً باغتاً كبيراً. وفي قبالة هذا الساحل سلسلة جزائر اللوفوتي في حذاء الشاطئ النرويجي وتستدير قليلاً مع استدارته، تنحو عليه، كأنما

تحميه من أنواء البحر الطلق وأمواجه. وعدا هذا تأتي الشاطئ التيارات المائية الدافئة من خط الاستواء من حرارته فتقل نحواً من عشرين درجة عن حرارة أي نقطة من الكرة الأرضية على خط عرضه. ولهذا لا تتجمد البحار النرويجية في الشتاء، فهي تهيئ بقيعانها وطيب جوها مناخاً مستطاباً لقبائل الحوت تنزح إليه لتؤدي في كنف الحب واجب الحياة الأول.

أما مصايد جزيرة نيوفوندلند فأوفقها منطقة تتكون من سلسلة جبال علاها الماء نحواً من ثمانين قامة، قممها تحت الماء من رمل وطين، يرحل إليها الحوت في جماعاته فيجد عندها مسكناً ومستقراً إلى حين. ويزيد في صلاح هذه المنطقة تياران بحريان يلتقيان هنالك، يحملان معهما مقادير لا حصر لها من أحياء متعضونة صغيرة ومن الفطريات، غذاء طيب لا للحوت ولكن لأسماك قشرية وأخرى رخوة يعيش الحوت بدوره عليها.

كذلك لجزيرة أسلن وللبحر الشمالي ميزات من ضحولة واسستار عن هائجات المحيط تجعل الحوت يقصدها.

وتعود السفن بحمولاتها من الحوت، فيشق ويغسل باطنه ثم يملح. وبعد استكمال ملوحته يجفف إما في الشمس إن كانت. وأما في حجرات سخن هواؤها بالفحم، وذلك إلى أن يبلغ درجة من الجفاف معروفة. وقد يجفف بلا تمليح. ثم يصدر هذا القديد، وهو المعروف عندنا بالبكلاه، إلى أوربا الجنوبية ومصر والقارة الأفريقية. أما كبد الحوت فتعالج بالبخار وهي صبيحة فتدر بزيتها المشهور. ولحم الحوت أبيض لذيذ الطعم وهو طازج، سهل الهضم إلا أنه قليل التغذية نسبة إلى غيره وذلك لقلة دسمه، حتى كأنما تركز دسمه في كبده فافتقدته سائر الأعضاء. أما زيته فغذاء طيب كسائر الزيوت ويمتصه الجلد سريعاً فيغذي به الأطفال في بعض الأمراض بدعك بطونهم به. وكشفوا فيه عن فيتمين من الفيتمينات التي تذوب في الدهن فطلبه الطب فغلا ثمنه. والزيت النقي له طعم جميل كطعم الزبدة لا رائحة للسمك فيه، ولكنه سريع العطب بالتأكسد وينشأ عن هذا التأكسد طعمه الكريه، والزيت يتأكسد ولو احتجب عن الهواء لأن به أكسجيناً ذائباً يكفي لإفساد نكهته. والطريقة الحديثة لوقايته من ذلك تتلخص في تفريغ ما فوق الزيت من هواء كائناً ما كان، فينبعث منه كل غاز مذاب، ثم يطلق في الفراغ الحاصل غاز الكربون فيحل في الزيت محل الهواء.

ويقدر الحوت المصيد في السنة بما بين 300و400 مليون حوتة، ثمنها دون دون الزيت خمسة ملايين من الجنيهات والطازج منه كثير في إنجلترا فقد قصد صيادوها بعد الحرب العالمية إلى منافسة الأمم في اصطياده فبرزوا عليهم. والطازج منه

رخيص في إنجلترا، كنا ندفع في الرطل منه ستة بنسات أو دون ذلك. أما القديد فثمن الرطل منه دون هذا.
والحوت له المحل الثاني في جدول أسماك العالم الاقتصادية أما المحل الأول فلسمك الرنكة المعروف بالرنجة ولا نراه في مصر إلا مملحاً أو مدخناً.
وقد بدأ القلق يظهر خشية على الحوت والرنكة وغيرهما من الأسماك أن تنفد من المحيطات وذلك لإمعان الإنسان في اصطيادها ولتحسن العدة التي يستخدمها في ذلك، فهو بتحسنها يأتي بالمحصول الأكثر لقاء مجهود أقل وزمن أقصر. وهم يحاولون اتقاء هذا بإغلاق المصايد أحياناً، وبإنشاء المرابي الصناعية أحياناً أخرى. ويظهر أن الطريقة الأولى هي الوحيدة الناجعة، إذ لابد من أن يتباطأ الصيد حتى يتمشى مع سرعة إنسال السمك فلا يصيد الإنسان غير المزيد. أما الطريقة الثانية فتقليد للطبيعة عسير، وقد دلت التجارب على أن تلك المرابي يأتي أكبرها في العام من الخلف بالمقدار الذي يأتيه بضع مئات فقط من الحوت الطليق في المحيط.
ومصر، مصر الواقعة جنوب البحر الأبيض؛ وغرب البحر الأحمر، وكلاهما مزرعتان تناهضان في أمل الثراء ضياع الدلتا والصعيد، ما دخلها مما أحاطها الله من بحاره؟ لا أدري. إنما الذي أدريه أنها في يوم عيدها القومي تأكل سمك البكلاه، وهو لا ينزرع في بحرها الأبيض، إنما يأتي من أصقاع بعيدة نائية.
أحمد زكي
العالم المسرحي والسينمائي
الدرامة والحياة
لناقد (الرسالة) الفني
من الجلي الواضح أننا قبل أن نطرق بحثاً كهذا، علينا أن نتريث برهة نسائل فيها أنفسنا ماذا نعنيه تماماً بكلمة (درامة) - أو بمعنى آخر - ما هو التعريف الذي نستطيع أن نضعه لفن الدرامة إذا ما قورن بالفنون الأخرى كالشعر والتصوير والقصص؟ من الواضح أن الدرامة فن، ولكن أي القيود نستطيع بها أن نحدد صفاته الخاصة التي تميزه عن الفنون الأخرى؟ ولقد يبدو هذا عند النظرة الأولى سهلاً ميسوراً ومطلباً هيناً لا عسر فيه ولا عناء، ولكن قليلاً من التفكير يكشف لنا عن الصعاب التي تواجهنا، وتقد يكون من الخير لنقدر دقة هذا المطلب العسير أن نرجع خطوة أو خطوات إلى الوراء فنمر سراعاً عاجلين بتلك المحاولات التي بذلها أقطاب هذا الفن في تاريخه الطويل ليجيبوا على هذا السؤال وليضعوا لفن الدرامة تعريفاً واضحاً وصريحاً.
من أولى النظريات التي وضعت في هذا الصدد ومن أكثرها ذيوعاً وانتشاراً، تلك النظرية التي نستطيع أن نسميها (نظرية التقليد) والمحاكاة. ولعل من الخير أن نذكرها في أبسط صورها كما جاءت في أقوال (شيشرون) الخطيب الروماني المعروف، فالدرامة عنده (نسخة للحياة، مرآة للعادات، انعكاس للحقيقة) وهذا التعريف، إذا صح أن نسميه كذلك، قال به كثير من النقاد المتعاقبين مئات من السنين، واتخذ أساساً لأبحاث فنية لا عد لها، خصوصاً في عصر النهضة (رنيسانس). بل لقد وجد حتى في العصور الأخيرة أنصاراً وأشياعاً لأنه يتمشى مع أغراض الكتاب الواقعيين (ريالست) في القرن التاسع عشر.
ومن أنصار هذه النظرية في تعريف الدرامة زولا الكاتب الفرنسي المعروف وبومارشيه رجل المسرح الشهير. ومن المقدمة التي وضعها الأول لروايته (تيريس راكوين) ومن كتاب الثاني عن الفن المسرحي نستطيع أن نستخلص الكثير من العبارات التي ندلل بها على أن المثل الأعلى للمسرح عند الاثنين أن يكون (مرآة الحقيقة وصورة مطابقة لما في الحياة)
فإذا أخذنا بهذا الرأي وبحرفيته قلنا أن الدرامة اقتباس من الحياة. وهذا معناه أن المؤلف
المسرحي الحق يجب أن يضع نصب عينيه أن يكتب لنا مشاهد للمسرح تطابق قدر المستطاع ما يحدث في الحياة أو يمكن حدوثه فيها حتى لتجيء هذه المشاهد كالصور وخيالها في المرآة أو كالنسخ المتعددة المتطابقة للشيء الواحد. وتكون محاورات أبطال الرواية الأروع والأجمل إذا كانت تنقل لنا نفس الحديث، بل الكلمات والألفاظ للحوار الذي يقع بين الأحياء كما ينقله الحاكي دون نقص أو زيادة، ويكون اجمل ما في

الرواية صدقها وأمانتها للحقيقة.

وإذا نظرنا إلى هذه الآراء في مجملها قد نغرى بأن نصدق أن ثمة ما يمكن أن يقال للدفاع عنها أو تأييدها، ولكن لو فكرنا قليلاً لتبين لنا زيفها وخطؤها. وبغض النظر عما إذا كان في مقدور المرء أن يعتبر أن المؤلف المسرحي ليس أكثر من حاكي يسجل ما يسمع وينقله حرفياً إلى المسرح، فإنه من السهل أن نتبين أن هذا المثل الأعلى للدرامة مستحيل لأن الرواية المسرحية لا يمكن أن تكون صورة مطابقة تمام المطابقة للحياة. وحتى إذا فرضنا أن المؤلف في أحد مشاهد روايته نقل نفس الألفاظ التي تحدث بها فعلاً الأشخاص الذين اتخذهم كنماذج لأبطاله، فإن الحقيقة الواقعة من أن هذا المشهد فصل عما سبقه أو تلاه من المشاهد الأخرى تجعله شيئاً صناعياً محضاً، أو بمعنى آخر تكسبه الصبغة الفنية. وإذا لم يستعين لمؤلف بالآلات الميكانيكية المسجلة للأصوات، فإنه لا يستطيع أن يطمع في نقل الحوار الذي دار في الحياة الحقة بألفاظه وحروفه وتفصيلاته نقلاً دقيقاً غاية الدقة لا تحريف فيه. فإذا كان المؤلف هو الذي خلق المشهد وخلق أبطاله، كما يحدث على الأغلب، لكان من السخف أن نتخيل أن هذا المشهد لو أنه حدث حقاً في الحياة، لتحدث هؤلاء الأبطال، لو أنهم أحياء من لحم ودم، بنفس هذه الكلمات ولدار بينهم هذا الحوار دون زيادة أو نقنص. فمطابقة الحياة في الدرامة شيء مستحيل ومطلب عسير فالريالزم الحق لا وجود له، ثم هو بعد ذلك ليس من عمل الفنان، لأنه ليس من الفن. ولم يكن في يوم من الأيام مطمح كبار الكتاب الخالدين بآثارهم المعروفة، ولا المثل الأعلى الذي حاولوا تحقيقه بأعماله وكتاباتهم ونحن إذا أخذنا بهذه النظرية في معناها الحرفي وحدودها الضيقة طرحنا من مكتبة الفن أحسن ما فيها من أعمال رجال الأدب والمسرح وألقينا بمخلفات أشيل وارستفان وشاكسبير وموليير وأندادهم طعمة للنار.

فإذا أردنا أن نتحرر من هذا الحرج وأن نأخذ هذه النظرية، نظرية التقليد أو المحاكاة، بمعنى أوسع وأرحب، كان لنا أن نعود إلى أرسططاليس الذي جعل أساس آرائه أن الفن في مجمله ينطوي على عنصر التقليد، وأظن أننا في غنى أن ندخل في بحث مستفيض في هذا الصدد وحسبنا أن نقول أن أرسططاليس قد ذكر أن التقليد هو أصدق تمثيل للحقيقة إلا في النادر القليل.

ومن المعروف أن النصوص التي وجدت ونسبت إلى الفيلسوف اليوناني القديم والتي يتحدث فيها عن فن التراجيديا والشعر القصصي اتخذت مرجعاً لرجال الفن ونقاده في شتى العصور وكانت لها مكانة القداسة في عصر النهضة وأطال مناقشتها وبحثها كثير من النقاد في العصر الحديث. ومن الخير أن نلم بهذا كله قدر المستطاع وهو ما سنحاوله في القريب العاجل إن شاء الله.

ونعود إلى بحثنا لنكرر ما قلناه في أسطر سلفت من أن نظرية التقليد وجدت في العصور الحديثة مشايعين وأنصاراً ولكن في معناها الشامل الرحب، وهناك فيكتور هوجو الذي قال في المقدمة التي وضعها لرواية كرمويل (لقد قيل إن الدرامة مرآة تنعكس فيها الطبيعة. ولكن إذا كانت هذه المرآة عادية، مسطحة لامعة، فإنها لا تقدم لنا إلا صورة ضئيلة للأشياء التي تعكسها دون أن تبرزها، صورة صادقة ولكن لا روح فيها، ومن المعروف أن اللون والضوء ينعدمان في الانعكاس البسيط. فالدرامة على ذلك يجب أن تكون مرآة تتركز فيها المرئيات، وبدلاً من أن تضعفها تجمع الأشعة وتكثفها وتطغى عليها قوة التركيز فتجعل من القبس شعاعاً، ومن الشعاع لهيباً وهاجاً، وبهذا وحده تستحق الدرامة أن تكون فناً له خطره وقيمته).

وهذه العبارة في وضوحها وقوتها لها أهميتها الكبرى فيما نحن بصدده، وتتمشى معها كلمة سارسيه من أكبر نقاد المسرح الفرنسي إذ (يقول إن الطبيعة المجردة على المسرح لا تثير اهتمام الجمهور بل تبدو له فضلاً عن ذلك مزيفة كاذبة). ويضيف (في رأيي أن الحقيقة إذا أظهرت على المسرح بصدق وأمانة بدت مزيفة للجمع الحاشد من المتفرجين. إننا نعد فن الدرامة الخلاصة التي تمثل الحياة على المسرح ونعطي الجمهور عن طريقها خيال الحق).

وقد لمس بعض النقاد في عصور متقدمة هذه الحقيقة ولكن في صورة غامضة مبهمة وذكرها هيدلين الناقد الكبير في قوله (إن المسرح لا يمثل الأشياء كما هي، بل كما يجب أن تكون) وشبيه بهذا ما يقوله جوته (إن من يعمل للمسرح عليه أن يدرسه،

ويتفهمه حق الفهم، وأن يلم بتأثير المناظر المسرحية والإضاءة والألوان من نواحيها المختلفة، وليترك الطبيعة في مكانها اللائق بها)
وما نستطيع أن نلخص هذه النظرية بأصدق وأوجز مما لخصها به أحد كبار النقاد الذين يعتد بهم حيث قال: إن الدرامة ليست نسخة من الطبيعة ولكنها تقليد ومحاكاة لها) وإذا رجعنا إلى الآراء التي مررنا بها في هذا المقال لماماً وجدنا أن أجداها وأثمرها ذلك الذي يتحدث عن الدرامة كمرآة مركزة تجعل من القبس شعاعاً ومن الشعاع نوراً وهاجاً. وإنا لنلمس صدق هذا التحليل إذا ما درسنا الأعمال الفنية الخالدة، لأن الكاتب الموهوب، عندما يقتبس لمحة من الطبيعة، لا يقنع بعرضها مجردة من الروح والحياة، بل يسبغ عليها من وحي فنه وعبقريته ما يسمو بها إلى قمة الخلود ويجعل منها مشاهد قوية مثيرة تلهب الحواس والشعور وتصيغ العمل ذاته بالصبغة الفنية الحقة. وهذه إحدى خصائص الفنان الحق.

الحركة المسرحية والسينمائية في العالم

نيويورك

نعت أنباء أمريكا أخيراً هوراس ليفريت من أكبر الناشرين المعروفين في الولايات المتحدة وهو صاحب الفضل الكبر في إظهار أوجين أونيل الكاتب الأمريكي الشهير فقد كان أول ناشر قبل أن يطبع كتاباً له في مستهل حياته الأدبية ونجح الكتاب أكبر نجاح مما ساعد أونيل على الاستمرار حتى وصل إلى ضهرته التي يتمتع بها اليوم. وكان من رأي هذا الناشر ان الكتب الأولى للمؤلفين الشبان المبتدئين يجب أن تعطى فرصة طيبة للظهور تشجيعاً لهم. وربما كان وراء هذا الشاب الحدث عبقي نابغ وكان هذا الناشر يحارب الرقابة الأدبية التي تفرضها الحكومات على الكتب والروايات بكل ما يملك من نفوذ ومال. وأشتهر هذا الناشر أيضاً كمخرج مسرحي ومن أشهر أعماله في هذه الناحية أخرجه في سنة 1925 على أحد مسارح نيويورك الشهيرة رواية (هاملت) بملابس عصرية.

ونذكر بهذه المناسبة أن أوجين انتهى من رواية جديدة دعاها (الوحدة) وستمثل في الموسم القادم على مسرح (جلد) بنيويورك

لندن

عقد في لنده من أمد قريب الاجتماع السنوي (لجمعية الدرامة الإنجليزية) وهي جمعية من أغراضها نشر الدعاية للفن والمسرح في جميع أنحاء إنجلترا، في مدها وأطرافها النائية، وكثير من الكتاب الإنجليز المعروفين بدأت شهرتهم بين أحضان هذه الجمعية وظهرت أعمالهم الأولى على مسارحها. وقد ألقى مستر برنادشو خطاباً قيماً في هذا الاجتماع عن (الهواية والاحتراف) نرجو أن نقدمه لقراء (الرسالة) في عدد قادم.

- مس ميني رينر من أشهر ممثلات المسرح الإنجليزي المشهود لهن بالكفاية والمقدرة ويبلغ عمرها اليوم 64 عاماً وقد التحقت بالمسرح وهي في سن الحادية عشر ولم تنقطع عن العمل خلال هذه المدة الطويلة. وفي إحدى حفلات الأسبوع الماضي أعلنت - بمناسبة عيد ميلادها - أنها اشتركت في 10 , 000 حفلة مسرحية وهو رقم قياسي جديد في عالم الفن يعد الأول من نوعه.

روما

سيتولى بيترو ماسكاني الموسيقار الإيطالي المعروف رئاسة مسرح الأوبرا الملكية في روما. والمعروف عن هذا الموسيقار أنه يكره التقيد بالمناصب الثابتة ولكنه رضي أخيراً بهذا المركز بعد أن ألح عليه شخصياً السنيور موسوليني. وستظهر على مسرح هذه الأوبرا أربع أوبرات جديدة في الموسم القادم أولها (نيرون) لماسكاني نفسه وبعدها (الشعلة) الأوبرا الجديدة لرسبيني، ثم (سيسليا) للوسيان رفيس، والرابعة أوبرا جديدة لمؤلف حديث لم نجد اسمه في برنامج الأوبرا الرسمي، وإذا أتم مالبيير والموسيقار المعروف الباليه الذي يضعه والذي اقتبسه من أحد كتب بيراندللو فسيكون القطعة الخامسة التي ستعرض على مسرح الأوبرا. وفي حديث لماسكاني مع أحد الصحفيين صرح أنه يعتزم أن يجعل من روما عاصمة العالم الموسيقي وقطب الرحى فيه.

القصص

الوردة الحمراء

كوميدية عصرية في فصل واحد
لجاستون سوربيه والبريك كاهويه.
ترجمة فتوح نشاطي
صالون على الطراز الحديث. . نافذة عند صدر المنظر وباب على كل من جانبي) المسرح. . . بعض خور عائلية وأسلحة تاريخية تزين جدران الحجرة. فوق مكتب صغير تتألق باقة من لورود الحمراء داخل آنية شافة. . عند رفع الستار يرى جاستون جالساً على ديوان وثير، مطرق الرأس، حزيناً وقد تناهبته هموم مبرحة. . بعد فترة وجيزة ينتصب فجأة ويتجه نحو النافذة. . . يمر في طريقه بالورود الحمراء فيقف متردداً. . يرنو إليها ثم ينشق في رفق عبيرها العاطر ويمضي إلى النافذة فيلقي منها نظرة سريعة وجلة بعود بعدها إلى باقة الورد يتأملها، مشتت الفكر. وما يلبث طويلاً حتى يقترب ثانية من النافذة ويظل يتردد هكذا بين الورود والنافذة إلى أن يسئمه الانتظار فيحاول إشعال سيجارة لكنه يخفق فيرمي بها إلى الأرض، حانقاً يضغط على زر الجرس فيبدو الخادم فرنسيس)
المشهد الأول
جاستون - فرنسيس
فرنسيس - سيدي. .؟
جاستون - ألم يجئ أحد؟
فرنسيس - كلا يا سيدي.
جاستون - ويريد الساعة الرابعة؟
فرنسيس - لم يصل بعد
جاستون - (مشعلاً سيجارة) والمسيو شنسيريل؟
فرنسيس - لو أنه جاء. . .
جاستون - (مقاطعاً وقد فهم) حسناً. . . (يلقي في حركة آلية بسيجارته إلى الأرض) ألم
ترد برقية؟
فرنسيس - لا ياسيدي
جاستون - والتلفون؟
فرنسيس - لو أن أحداً سأل عن سيدي بالتليفون لسمع سيدي رنين الجرس. .
جاستون - في الواقع. . . (وهو يشير حواليه، ضجراً) أعد عض النظام إلى الحجرة يحاول جاستون من جديد إشعال سيجارته في عصبية مضطردة بينما يرتب فرنسيس) في صمت الأوراق المبعثرة المتراكمة على المكتب. عندما ينتهي الخادم من عمله يقترب من باقة الورود فيجمع أوراقها الذابلة المتناثرة على أرض الغرفة وحوالي الآنية الشفافة وإذ يحاول المضي بها.)
جاستون - ماذا تصنع؟
فرنسيس - (على أهبة الخروج) أمضي بهذه الورود. .
جاستون - (مستوقفاً إياه) لماذا؟
فرنسيس - لأنها. . . بدأت تذبل
جاستون - لكنك تعلم جيداً أنني لن أستبدل بها غيرها، بعد اليوم
فرنسيس - طبعاً لا. . بما أن سيدي. .
جاستون - (موقفاً سيل التوضيحات) إذن؟ (يعيد فرنسيس الورود إلى مكانها الأول)
جاستون - (مرهفاً سمعه فجأة) ألم يقرع الجرس؟
فرنسيس - ما أظن يا سيدي (يعود جاستون إلى النافذة. هنا يدوي رنين الجرس)
جاستون - (مرتعشاً) أما قلت لك؟
فرنسيس - (مبهوتاً) رن الجرس الآن فقط
جاستون - حسناً!. . اذهب وافتح (يخرج فرنسيس ويعود في الحال مصطحباً شنسيريل)
المشهد الثاني
جاستون - شنسيريل

جاستون - آه! يا صديقي. كاد ينفذ صبري في انتظارك!
شنسيريل - يبدو عليك في الواقع سيما الاضطراب الشديد
جاستون - أقابلت جانين؟
شنسيريل - نعم. ولو أنها لم تتوجه اليوم إلى محل عملها
جاستون -. و. . كيف وجدتها؟
شنسيريل - حزينة جداً
جاستون - يا للصغيرة المسكينة!
شنسيريل - (مشعلاً سيجارة) كلفتني عملاً شاقاً اصاحبي! صدقني لن أحمل نفسي بعد اليوم عناء استنطاق الفتيات التعيسات اللائي هجرهن عشاقهن. . . ساعة القطيعة. .! النهاية. . .
جاستون - عجل، قص علي ما حدث
شنسيريل - لم أمكث بجوارها أكثر من لحظة. لكن. . يالها من لحظة مشئومة!
جاستون - نعم، أقدر حالتها النفسية. . . كانت واجمة دون شك من هول الخبر، مضعضعة الحواس، يائسة. .! الواجب كان يحتم عليك أن تشجعها، أن تهون عليها. . . لكنك فضلت النكوص على عقبيك
شنسيريل - تسمح لي بالجلوس؟
جاستون - إن شئت. . . لكن حدثني. . . أوضح لي. . هل انتزع منك الكلمات انتزاعاً؟ ماذا قالت لك؟
شنسيريل - لا شيء في البدء. شاءت الحديث، لكنها لم تستطع. . شبهت على أولئك الأصدقاء الذين نواجههم بعد كارثة ألمت بهم. . نراهم صامتين، نحسبهم متماسكين صابرين. . نمد لهم يد العزاء. . فإذا بهم يجهشون بالبكاء. . ذكرت لها أني حضرت أتسقط أخبارها. . فاستفسرت عما إذا كنت قد جئت من قبلك. . .
جاستون - وأجبتها؟. .
شنسيريل - إجابة غامضة. .
جاستون - عندئذ؟
شنسيريل - شاهدت وجهها الصغير المعتم تتناهبه سمات التفكير والألم والعزم. . ثم قامت فخطت لك هذا الخطاب
جاستون - (يتناول الخطاب في لهفة وقد بدا عليه التأثر لكنه يقلبه بين يديه دون أن يجسر على فضه)
شنسيريل - يا صديقي لو تسمح لي نصحتك بإرجاء قراءة هذا الخطاب إلى غداة يوم زواجك (يجفل جاستون) لأنك صممت على الزواج
جاستون - بالتأكيد. بما أني قطعت كل علاقة لي بعشيقتي السابقة مع ذلك لكم أجبتها جانين!. . لقد كانت نعم الصديقة الحنون، النموذج الكامل لشريكة الحياة القانعة المحبة. الودود. .
شنسيريل (في ابتسامة) التي تغني بمحاسنها شعراء الشباب والربيع!
جاستون - نعم يا عزيزي روجيه، عشنا معاً قبل الحرب سنتين مترعتين بأجمل ذكريات حياتي!. .
شنسيريل - (ساخراً) أحمد الله على أنك الوحيد الذي يخرج من دنيا الغرام بذكريات سعيدة!
جاستون - غير أن هذه العاطفة الوهاجة. . لم تكن لتدوم إلى الأبد. . جانين التي تعرف دقة مركزي لم تكن لتجهل أن علاقتنا لابد آيلة إلى تلك النهاية المنطقية: الزواج، نعم الزواج الذي كان قد بات حتماً على، وقد أصبحت مضطراً أن أهجر مسكني هذا لألتجئ إلى برج العائلة، هناك في مقاطعة بريتانيا أعيش من أرضي دون إسراف. كان ذلك منذ ثلاث سنين. . إذ كنت أعتزم البعد عن باريس وعن جانين بالطبع، عندما وقعت الكارثة
شنسيريل - أية كارثة؟
جاستون - الحرب الكبرى!
شنسيريل - آه! عفواً! كدت أنسى أننا نصلاها! بالاختصار؟
جاستون - بالاختصار رغماً عن رتبة الضابط التي وصلت إليها ونياشيه الشرف الحربية

التي أحملها وجراحي الباهرة التي حصدتها في المعارك لم يكن مركزي المادي قد تحسن عندما. . ساق إلي القدر العطوف. . .
شنسيريل - اللؤلؤة النادرة. . . داخل علبتها الذهبية!
جاستون - لا تمزح. . . فالمدموازيل دي شاليني فتاة نبيلة جديرة بكل إخلاص ومحبة وأقر أني أحببتها في الحال تقريباً. . .
شنسيريل - بهذه السرعة؟
جاستون - نعم في الحال. . . أحببتها. . . لا كما أحببت جانين التي عبدتها عبادة. . . بل كما أتصور أن يحب الإنسان المرأة التي اصطفاها ليجعل منها رفيقة العمر، الشريكة التي يعقد وإياها ضد الحياة وللأبد معاهدة هجومية دفاعية. . . فهذا الحب يختلف عن الآخر كل الاختلاف. . . ربما كان أقل مرحاً وظرفاً وتوثباً. . . لكنه أثبت وأعمق وأبقى!
شنسيريل - يا للجحود!
جاستون - تخطئ يا صاحبي! لم أنس شيئاً. صورة جانين مازالت مطبوعة في خاطري، ومازلت أشعر نحوها. . . بعطف ممزوج بعرفان الجميل وإني لمصمم على رعايتها وتهوين مصاعب حياتها المعيشية. . .
شنسيريل - (ساخراً) لا شك أنها تعتمد عليك في ذلك كل الاعتماد!
جاستون - أؤكد لك أنني معذب لعذابها! حاولت كثيراً تخفيف وقع الخبر عليها وتوطين قلبها لتلقى هذه الصدمة القاسية فلم أقطع صلتي بها إلا عندما أصبح الأمر محتماً. . . البارحة فقط بعد بضع ساعات من تبادلنا خاتم الخطوبة أنا ومرجريت. . . عندها وجدتني مضطراً أن أصارح جانين بحقيقة موقفي وأن أقطع كل علاقة لي بها خصوصاً وقد كاشفتني خطيبتي البارحة برغبتها الملحة في أن تراني داخل إطار مسكني. . عش العزوبة كما تسميه مداعبة. فتصورها يا صديقي وقد جاءتني صحبة مربيتها واتفق وجود. . . الأخرى! أية مأساة!
شنسيريل - فعلاً!
جاستون - تلقاء هذه الزيارة المهددة لم أتمالك من أن أبوح لجانين بكل شيء! هكذا ودعنا بعضنا وداعاً مؤثراً أظهرت خلاله رباطة جأش نادرة، حتى لقد استفهمت مني عما إذا كانت خطيبتي شقراء. . .
شنسيريل - (متشككاً) سيجارة!
جاستون - (رافضاً) شكراً (يفض خطاب جانين الذي كان يقلبه بعصبية بين يديه حتى هذه اللحظة)
شنسيريل - أما زلت مصراً على قراءة هذا الخطاب؟
المشهد الثالث
فرنسيس - فريسة اضطراب شديد) سيدي!
جاستون - ماذا تريد؟
فرنسيس - جاءت مدموازيل دي شاليني. . . مع مربيتها. . .
جاستون (إلى شنسيريل) وقع ما كنت أخشاه! (إلى فرنسيس) أدخلها (بعد خروج الخادم) لا مفر من استقبالها!
المشهد الرابع
جاستون - شنسيريل - مرجريت
جاستون - أنت مرجريت؟ (يقبل يدها)
مرجريت - (مبتهجة) نعم أنا. . . تذكر! أخطرتك أني سوف أزورك صحبة مربيتي. . . (تلمح شنسيريل) أوه! صباح الخير يا سيدي!
جستون - (مقدماً) أعز أصدقائي، روجيه شنسيريل، خطيبتي، مدموزيل دي شاليني
مرجريت - (في ظرف) نأمل أن نحظى برؤيتك قريباً في قصرنا يا مسيو شيسيريل. على شريطة ألا تبوح برؤيتك إياي هنا (تضحك) لأني أجد زيارتي هذه ولو بصحبة مربيتي الإنكليزية بعيدة عن كل لياقة.
شنسيريل - ثقي مدموازيل بتكتمي التام (منسحباً) يا صديقي العزيز. . .
جاستون - (متضايقاً) تنسحب؟
مرجريت - (لشنسيريل) بل ابق يا سيدي لن أطيل المكوث. . . مربيتي إنسانة ظريفة لكنها عصبية المزاج وأراهن أن معين صبرها قد فرغ. . .

جاستون - ما أظرف الخاطرة التي دفعت بك إلى هذه المفاجأة السارة. . . (يختلس نظرة قلقة إلى الساعة)
مرجريت - نعم الخاطرة التي جعلتني. . . أخاطر بسمعتي لأراك. . . بل نعم. . . لا تعترض. زيارتي اليوم شاذة ولا يبعد أن تثير تقولات عديدة. غير أن روح المخاطرة تغلبت على العقل وتركتني عزلاء عن مقاومة رغبتي الحادة في رؤية خطيبي داخل مسكنه الخاص وسط الأشياء التي اعتادها في ساعة من ساعات حياته اليومية. . لكن. . . ما حل لك؟ أراك مأخوذاً مشرد الفكر. . حتى لقد سهوت عن تقديم مقعد لجلوسي. . .
جاستون - أرجو العفو يا مرجريت. . .
مرجريت - على أني في غير حاجة إلى مقعدك. فليس أمامي من الوقت متسع. . . أولى لك أن تضع جانباً هذه الورقة التي تجعدها أصابعك وتقف على خاطرك الحائر. . (يجفل جاستون لقولها، يتردد لحظة ثم يخفي الخطاب في جيبه. تلقي مرجريت نظرة جائلة حواليها) ما أبدع مجموعة السلاح التي تملكها! (تجلس في خفة على ذراع مقعد)
جاستون - هذه أسلحة أسرتي يا مرجريت
مرجريت - (في اهتمام) ويرجع تاريخها إلى أي العهود؟
جاستون - إلى عهود مختلفة، فهذا الحسام الثقيل. قاتل في سبيل الملك لويس الثالث عشر وقضى في مبارزة على أحد أعوان الكردينال الأحمر: ريشيليو، فتسبب موته في ترحيل جدي الأكبر إلى غيابة الباستيل، أما هذا الرمح فقد كافح في معركة رينان ليحمي زمار الملك. الشمس ويبقي على العرش مجد ذريته. وقد وجد بعد المعركة على ما يظهر بجوار جثة صاحبه!
مرجريت - يروقني أن أضم إلى صدري هذه الذخيرة المقدسة!
جاستون - أما هذا السيف الرقيق الناعم، سيف البلاط المزركش فلكم تخطر على ساق صاحبه وسط حفلات الملكة غير المتوجة مدام لابومبادور في رحبات القصر الملكي! (لا يتمالك نفسه عن اختلاس نظرة عجل إلى الساعة)
مرجريت - والأسلحة الأخرى؟
جاستون - هذا الصارم البتار ناضل تحت أمره القائد روشامبو في سبيل استقلال الأميريكيين، ثم دافع عن الملك التعس (لويس السادس عشر) لكنه رفض المهاجرة إلى خارج فرنسا وقاد الصفوف في معركة واترلو. أما هذا الرمح الدقيق الصنع فقد قاتل أبهر قتال في حروب أفريقيا
مرجريت - (أثناء الحوار الأخير تقدمت من المكتب، وعبثت ببعض ما عليه من الكتب. تلمح الورود الحمراء فتنحني عليها) يا للأزهار الجميلة!
جاستون - (جافلاً) مرجريت!
مرجريت - (تهم بقطف) تسمح؟ (يشير جاستون بالنفي) لا؟
جاستون - لا
مرجريت - لمه؟
جاستون - (بالغ التأثر) لأن هذه الزهور. . . قاربت الذبول ولم تعد تصلح للزينة. . .
مرجريت - ليكن. أتخلي لك عن زهورك، لكن ما الذي دهاك فجأة؟ أأكون قد أغضبتك، عفو الخاطر؟
جاستون - مرجريت. . لا تعتقدي. . .
مرجريت - كأني بك مللت رؤيتي! أأكون تمطفلة؟ (ينظر جاستون إلى الساعة) والبرهان أنك تخالس الساعة النظر. . . (في حزن) الوداع إذن. أخطأت في مجيئي، أعذروني أيها السادة. سألحق بمربيتي (تخرج)
المشهد الخامس
جاستون - (يتنفس الصعداء) أوف! هذا الخطاب كان يلهب أصابعي!
شنسيريل - لا تتردد إذن. . . وأقرأه (يقرأ جاستون الخطاب واضطرابه يزداد فقرة بعد فقرة ثم يناوله لصديقه)
شنسيريل - (بعد قراءته) فهمت الآن سبب اضطرابك! يا للمخبولة! تريد أن تراك للمرة الأخير، وإذا لم تلمح الساعة الخامسة الإشارة المعتادة، هذه الباقة من الورود الحمراء التي اعتدت أن تضعها عند النافذة أيام كنت تنتظرها. . .

جاستون - سوف تطيع وساوس اليأس!
شنسيريل - وعلام عولت؟
جاستون - لو أنك مكاني ما الذي كنت تفعل، أنت؟
شنسيريل - أنا لا أؤمن بالانتحار العاطفي على أني لو خيرت بين أهون الشرين لفضلت أن أستقبلها. . .
جاستون - أخشى أن تكون هذه المواجهة مشئومة العاقبة. لا أذكر لنا (أنا وجانين) إساءة تبادلناها طوال مدة علاقتنا ويحضرني أني أبكيتها يوماً. فإذا شاء القدر أن يريني تتألم هنا بين سمعي وبصري. . فما يدريني إذا ظللت وقتها متمالكاً نفسي؟ . . .
شنسيريل - إذاً لا تستقبلها
جاستون - وإن كانت قد صممت حقيقة على الانتحار. . . (فزعاً) أوه! عندها يلازمني تقريع ضميري مدى الحياة!
شنسيريل - إذاً استقبلها وعجل فالوقت يمر (يخف جاستون إلى باقة الورود لكن ما إن يتناولها حتى يسمع نقراً خفيفاً على الباب ثم تدخل مرجريت فجأة متبوعة بفرنسيس)
المشهد السادس
مرجريت - معذرة أيها السادة أرجوكم. . . نسيت قفازي! يالي من طائشة! يا عزيزي جاستون أخشى أن تكون في نفسك فككرة سيئة عن امرأتك المقبلة! (تنظر يمنة ويسرة وفجأة وقد وجدت ما تبحث عنه) هاهو! (تلاحظ مظهر القلق البادي على جاستون) أوه! جاستون - ما بك؟ أراك تخفي عني شجناً ما.
شنسيريل - هذه المرة انسحب. تسمحين يا آنسة؟
مرجريت - تفضل يا سيدي
جاستون - (لشانسيريل وقد أوشك على الخروج) أيها الخائن أتتخلى عني وأنا في أشد المواقف حاجة إليك؟
شنسيريل - يا صديقي سوف أعود (يخرج)
مردجريت - والآن. . حدثني لا تنكر. أراك في حالة اضطراب شديد ومن غير المعقول أن يكون وجودي هو الذي يصعب عليك إلى هذا الحد
جاستون - أوه!
مرجريت - (ملحة) خبرني. إني أكاد أكون زوجتك. . إن كنت تعاني ألماً أو تقوم في نفسك رهبة مرتقبة فلي الحق أن أطالبك بنصيبي
جاستون (متأثراً) مرجريت!
مرجريت - يخيل لي أن شيئاً تبدل في عينيك وفي قلبك
جاستون - فضلت أنك لم تجيئيني اليوم!
مرجريت - إذاً لأدعك لنفسك
جاستون (في لهفة) تحسنين صنعاً
مرجريت - ألا تقتضيني أكثر من ذلك، لتستعيد صفاء نفسك لا تكذبني الحقيقة. جاستون. عهدي بك أجهر صراحة وأخلص نية. (لا يجيب) صدقني. تشرف حبنا لو أنك تفضي إلي بما يعذب قلبك
جاستون - أنت على حق. . لكن يساورني وسواس أسود إذ أعتزم أن أفتح بين يديك مغاليق روحي الحائر. مع ذلك أقسم لك أني ما تصورت يوماً موقفاً مثل هذا ممكناً وأن تتزاحم الظروف أو تترى. . . دافعة بي إلى موقف التردد بين واجبين
مرجريت - واجبين؟ ماذا تعني يا صديقي؟
جاستون - لا تحمليني على أكثر مما قلت
مرجريت - قلت أكثر مما يجب كي لا تتم. . . إن القلق الذي يساورك خف إلى قلبي وليس من مصلحة مستقبلنا أن تدعني أتخبط فيه. تكلم!
جاستون - (تعد أن يلقي نظرة محمومة إلى الساعة يخرج من جيبه الخطاب ويدفعه إليها بعد تردد قصير) إذن، إقرأي!. .
مرجريت - (تقرأ مرتعشة وقد تهالك جاستون على مقعد ثم تقول في صوت أبح) هذا هو السر!

جاستون - (متأثراً) عفواً (تكاد مرجريت تهوي إعياء فيحاول أن يسندها) مرجريت
مرجريت - (تدفعها عنها في رفق) لم يصبني أذى. . أرجو العفو. . . لكني أحس ألماً ممضاً. . .
جاستون -! مرجريت أخطت إذ بحت لك. . .
مرجريت - (مقاطعة) بالمرة، جاستون. لي سؤال واحد: هذه الإنسانة، مدموازيل. . . (تعود إلى الخطاب) جانين له هي جديرة حقاً بالـ. . . بالاهتمام الذي حملته لها مدى عامين؟
جاستون - نعم يا مرجريت
مرجريت - آه! (تندفع إلى باقة الورود وتضعها على منضدة أمام النافذة.)
جاستون - (في لهفة) ماذا تصنعين؟
مرجريت - أعطي الإشارة
جاستون - كيف؟ تجيزين لي استقبالها؟
مرجريت - أنت؟ لا. . بل أستقبلها أنا
جاستون - أنت؟ لكن هذا محال. .
مرجريت - لم؟ أتخشى على حياتي؟
جاستون - كلا، أخاف عليك مما ينتظرك من عميق التأثيرات. . .
مرجريت - أعنف التأثرات شعرت بها وأنا أقرأ هذا. . (تشير إلى الخطاب) والآن دعني أعم ما يتراءى لي
جاستون - لكن. .
مرجريت - لا تعاند (يسمع رنين الجرس ويدخل فرنسيس على الأثر) أدخل السيدة، فرنسيس (يدهش الخادم لكنه ينحني ويختفي) إن مقاديرنا الساعة في كفتي ميزان. صدقني جاستون. يجب أن أواجه الآن هذه الفتاة. . أحس حاجة ملحة في أن أستوضح أشياء. . دعنا أرجوك، سوف أرجوك، سوف أدعوك في الوقت المناسب
جاستون - (يحاول إقناعها وهي تقوده إلى الباب) مرجريت. . لا أحتمل أن أتصورك. . أنت خطيبتي. . زوجتي
مرجريت - خطيبتك نعم!. . أما زوجتك، فلم أصرها بعد. ينسحب جاستون منهزماً (تبقى مرجريت وحيدة فريسة اضطراب بالغ وقد لفت وجهها تجاه الباب متكئة بيد إلى المكتب)
المشهد السابع
مرجريت - جانين
جانين - (تدخل مندفعة) آه! عفواً. مدام. . أبحث عن جاستون (مستدركة) لكن. . . من أنت؟ آه!. . . حزرت من تكونين!. . . ووجدت من نفسك الشجاعة على اقتحام باب عشيقي؟! (تندفع نحو الباب فتهزه في عنف جنوني)
مرجريت - (صارخة) ابقي!. . (تلتفت جانين إليها، دهشة فتقول لها في لهجة أرق) أتوسل إليك!. . .
جانين - (دهشة) تتوسلين إلي؟
مرجريت - نعم، إن دعى الحال. . . لأستبقيك.
جانين - والداعي؟
مرجريت - لأعلم إذا كان الخطاب الذي وجهته إلى. . . المسيو كيرولون.
جانين - (ثائرة) وأطلعك عليه؟. . .
مرجريت - لم يطلعني عليه بدافع عاطفة الزهو التي تتصورين.
جانين - قبل أن نخوض غمار هذا الحديث الشاذ، خبريني. . ماذا تصنعين في هذا البيت، أنت ما من ليس مكانك هنا؟
مرجريت - أتعرفينني؟
جانين - حدثني عنك بما فيه الكفاية!
مرجريت - إلى هذا الحد؟
جانين - لقد تابعت خيالك الممقوت في نظراته الشاردة، في فترات صمته الحالم بل وفي كل همسة وحركة. . . . آه! لكم عذب قلبي وأضناه (تلتفت حواليها) ألهذا السبب بات الآن يخشى مقابلتي؟

مرجريت - تخطئين، مدموازيل. . لك أن تقابليه إن رغبت. . . على أني شئت قبلها أن أحادثك وبما أن الصدف الأليمة تسوق بين يدي هذه الفرصة السانحة
جانين - لا أطمع في شفقتك، مدموازيل!
مرجريت - وأنا لا أسمح لنفسي بها. . ولكن ألا يمكنني أن أحاول تهوين وقع . . .
جانين - مصابي؟ وكيف؟ أتعشم أن لا يكون ذلك بتقديم. . ما في مكنة الوارثات السريات أمثالك أن تقدميه من مال. . . ما أهون الثمن!
مرجريت - أسفاه
جانين - لا تشتكي، فلولا مهرك لما فزت بالزواج من جاستون
مرجريت - هل ألقى جاستون في روعك أنه يقترن بي طمعاً في ثروتي؟
جانين - (هازة كتفيها) لو أنه صارحني بذلك لما صدقته . .
مرجريت - إذن؟. . . آه!. . فهمت ما يجول بخاطرك وهو أسمى مما نطقت به؛ تتصورين أن مالي سيساعد بلاستول في جهوده المقبلة، لكنك تتناسين، أنه في مقابل ذلك يحمل إلي كنزاً لا يقوم بثمن من التقاليد المجيدة والأفكار المبتكرة التي تفوق في قيمتها جميع أموال العالمين. واتفقت معي من برهة على أن جاستون يشعر نحوي بعض العطف وأنا، من جهتي. . لا لا. عفواً:
جانين - أنت تحبينه، حزرت ذلك
مرجريت - إذن. . ألا تجدين ارتياطنا طبيعياً؟
جانينن - لو أنني أملك ثروتك لفكرت مثلك، على أنك محقة في النهاية، خذي إذن جاستون، امضي، وثقي أنه أسعد منك حظاً: سوف تكونين ملكاً له بكليتك. أما هو فلن ينالك منه أكثر مما تركت لك من فضلات. .
مرجريت - لم توجهين إلي هذه العبارات القاسية؟
جانين - إنني أحمل في قلبي سنتين من أجمل سني شبابه بما فيهما من فتوة حارة. . . ونشوة فياضة. . .
مرجريت - أوه! صمتي!
جانين - (متهالكة على المقعد) أضحي بالحزن يعميني حتى ليدفع بي إلى الشر والأذى
مرجريت - مدموازيل. . .
جانين - دعيني وشأني.
مرجريت - جانين، هل لك أن تجيبيني على سؤال أخير يجمع تذكاراتك الحية، يجمع قلبك المعذب في صراحة تامة؟
جانين - وهل أملك من الجهد ما أجيبك به على سؤالك؟
مرجريت - قد يبدل ردك حظوظنا نحن الثلاثة. أتفهمين؟ إذن أجيبي. هل وعدك جاستون يوماً ما. . بالزواج؟
جانين - وعدني بالزواج؟. . كلا لم يعدني بشيء!
مرجريت - (تتنفس) و. . سامحيني إن كنت لح، لكني في أشد الحاجة إلى استيضاح الحقيقة كاملة. . ألم يحاول جاستون أن يعللك بيوم مقبل تصبحين فيه زوجته دون أن يقطع على نفسه عهداً صريحاً بالزواج؟ أقسم لك بأعز من أحب لو أنه بذر في قلبك مثل هذه
الفكرة لأكونن على استعداد تما للابتعاد عنه إلى الأبد دون أمل في الرجوع. . (ترفع جانين رأسها في بطء) وتطيل النظر لحظة إلى مرجريت ثم تطرق من جديد) لم لا تجيبين؟
جانين - وما الفائدة؟. . ألا تحسين أني ما عدت آمل شيئاً؟
كلا لم أحب جاستون إلا حباً خالصاً لا يداخله وعد ولا أمل. . إني لم أكن اجسر على المجيء إلى هنا إلا عندما كنت المح من الشارع قرب النافذة هذه الباقة من الورود الحمراء. . فهل كان في مكنتي أن أحلم بمشاركته يوماً في حياته النبيلة، أن أحيا بقرب هذه المجموعة من الأسلحة الأثرية , , أمام هذه الصور العائلية التي يطالعني منها الأشراف والقواد العظام، أنا ابنة الشعب البائسة؟ صدقيني يا مدموازيل. . مثل هذا الحلم الباهر لم يقم بخاطري. . على أني لا أملك نفسي عن الشعور بأن كل شيء قد انتهى. . (تنكي)
مرجريت - (في تأثر بالغ) وهل أنا التي أهجت في قلبك هذا الألم الممزق؟. . آه عفواً!

يا صغيرتي جانين
جانين - ليس في مقدورنا الآن أن نبدل شيئاً!
مرجريت - من يدري؟
جانين - لو أنك شئت إعادة جاستون إلي لما استطعت. . لن يعود بعد اليوم. . . انتهى. . . على أني أفضل الآن وقد عرفتك أن تكوني أنت التي تمضين به لا امرأة أخرى. . . لكن عفوا!. . . عيوني مازالت تغص بالدموع. . . مدموازيل! اغفري لي أقوالي الطائشة التي فهمت بها منذ لحظة. . . كنت مجنونة. . . لم أك أتوقع رؤيتك هنا. . . أسأت إليك، فعفواً! والآن، وداعاً!
مرجريت - ألا تفضلين رؤيته قبل الرحيل؟
جانين - (بسرعة) كلا.
مرجريت - إذن، قبيل أن نفترق، يا جانين، عديني بأن ما ورد في خطابك قد تبخر. . . أتسمحين لي أن تكوني جد شجاعة؟ (تسير جانين) مهما تصورتني بعيدة عنك فثقي أن لك في صديقة حبيبة. . .
جانين - الوداع يا مدموازيل (تجيل بصرها في أنحاء الحجرة) أبحث عن تذكار. . . هذه الورود. . . (تنزع الزهور في لهفة من الآنية) إنها ملكي هذه الورود! كل ما أملك من متاع العالم! (في يأس دامع) على أن الزمن العاتي سينويها عن قريب! (تضم باقة الورد إلى قلبها وتختفي) (تتابعها مرجريت في نظرة أليمة ثم تسقط باكية على مقعد أمام المكتب)
المشهد الثامن
مرجريت - جاستون
جاستون - (مقبلاً) أأنت وحدك؟
مرجريت - (ترفع رأسها دون أن تنظر إليه) فضلت ألا تراك، على أنها وعدني ألا تستسلم إلى اليأس
جاستون - مرجريت
مرجريت - يا للصغيرة المسكينة لن تبرح خاطري صورتها وهي تمضي إلى حال سبيلها، وحيدة، باكية
وقد ضمت إلى صدرها تلك الباقة من الورود الحمراء. . التي تشبه قلبها الدامي.
جاستون - مرجريت! كأني بك لم تعودي تحبينني. أتجدينني مذنباً
مرجريت - لا يا جستون. إني لا أتهمك. لقد دفعت عنك جانين لم تكن تلك خطيئتك، بل خطيئة المقادير، خطيئة الحياة، الحياة التي تجعلنا بالرغم منا قساة إلى هذا الحد
ينزل الستار
وجه صالح للسينما
للكاتبة الألمانية فيكي بوم مؤلفة الفندق الكبير
(تتمة)
وفي صباح أحد الأيام التقى بها رناتس ثوربج وهي صاعدة إلى غرفة الملابس في الأستوديو لتأخذ الشال الذي تضعه على كتفيها أثناء التمثيل. وسألها قائلاً: صباح الخيرز يا دريجالسكي. كيف حالك؟
- بخير يا سيدي ونظر إليها ثوربج ملياً ثم قال:
- بخير نعم. أراك تحسنت كثيراً. .
وكأن في صوته ما يدل على عدم رضاه لأنها بخير. . . وفكرت دريجالسكي فيما تحمله قلوب الناس من حقد وحسد!
(عند عودتها اشترت زهوراً وآنية جديدة للزهور. واشترت طعاماً تحمله إلى ولدها في المصحة إذ كانت تزوره كل أحد. وكان سعيداً في تلك المصحة مسروراً بتلك العصي الحمراء والزرقاء التي كانوا يقدمونها له هناك ليلهو بها.
كانت دريجالسكي تبتسم كلما فكرت في ولدها. وهاهي تفكر فيه وتبتسم وتنظر إلى خيالها في المرآة - وكانت قد اشترت مرآة - وابتسمت أيضاً وقد اطمأنت إلى شكلها في مرآتها الجديدة.
وكانت أعدت طعاماً فاخراً لهر بوش، واشترت دهاناً لشعرها وزينت رأسها، واشترت غطاء جديداً للمائدة التي كانت تتناول عليها وهر بوش القهوة، وقد بدأ هر بوش يفكر

فيها وفي أنها تصلح قرينة له.
جاء شهر أكتوبر، ولأول مرة أحست دريجالسكي أن القوم في الأستوديو غير راضين عنها. وكان ما طلبوه منها سهلاً بسيطاً. إذ كان عليها أن تعبر شارعاً ثم تقف قليلاً تحت المصباح وتسعل ثم تمضي في طريقها في بطء. . . ولكنها أخطأت في كل حركة قامت بها، وقد استقام ظهرها وزال الانحناء الذي كان يزيدها ضعفاً، وجفت عيناها، وقد تعودتا النظر إلى الضوء الساطع وأعاد المخرج المنظر ثلاث مرات، ولكنها لم تفلح فطردها وعادت إلى بيتها.
وفي المرة الثانية جاءت في ثوبها الأبيض ومعطفها الأزرق الجديد، فتلقوها بشيء كثير من العنف وقدموا لها ملابس بالية ولكنها لم تظهر في صورتها الحقيقية الأولى، وأمرت في قسوة وحدة أن تحضر دائماً مرتدية تلك الأسمال البالية التي جاءت بها الأستوديو لأول مرة، ولكنها لم تدرك قط ما يريده أولئك الناس وقد أصبحت الآن تخجل من لباسها القديم، ولماذا يسمح لغيرها من النساء أن يظهرن في أثواب جميلة، ويأبون عليها ألا أن تظل في مظهرها التعس؟
ومر شهر نوفمبر ولم تدع للعمل إلا قليلاً؛ وكانت تصور في يوم من أيام ديسمبر بين جمع من الناس في رواية (الأشقياء) ولم تدرك أن هر فيلب المخرج كان يشير إليها حين كان يصيح بعماله لماذا تركتم هذه المرأة من غير تزيين وجهها؟ ما هذا الإهمال؟ ومد أحدهم يده وجرها من ذراعها إلى غرف التزيين وقام العامل بطلاء وجهها وتصوير التجاعيد عليه، تجاعيد الفقر والجوع التي فقدتها من شهور مضت.
جاء فيليب إلى غرفة ثوربج فوجد امرأة تبكي بكاء مراً وسأل ما الخبر، فأجابه ثوربج
- هذه دريجالسكي جاءت تشكو لأننا لم نستدعها من عهد بعيد، فأجابت وهي تنتحب
- كنت أقول. إنه ليس من العدل ألا أدعى إلى العمل وقد أصبح في وسعي الآن أن أحضر في ثياب لائقة، ويخيل إلي أنكم ترونها جريمة من عاملة مثلي أن تأكل وتتغذى، إني أستطيع بتلك الدهانات التي يصبغ بها الوجه أن أسدي لكم ما تريدون. ولا أحسبكم تريدون مني أن أظل جائعة في أسمالي البالية، فكل ما في الأفلام غير حقيقي، وقد رفضتم عودتي إلى العمل لا لسبب إلا لأن غذائي قد تحسن. فأجابها فيليب وحدة وغضب:
- لا، يا سيدتي فأنت مخطئة. إننا نريد في الأفلام شيئاً أكثر من التمثيل نريد حياة، الحياة الحقيقية. وإذا كنت تريدين لنفسك عيشة راضية فلا شأن لنا بك.
قال ذلك وسكت وترك الغرفة، ثم قال ثوربج وهو يفكر:
- نعم، إنه على حق يا دريجالسكي، إن الفن شاق وقاس، عودي إلى حياتك الأولى، أنهكي قواك في العمل، لا تفري من الشقاء، أقضي الليالي ساهرة، وأعيدي إليك ولدك، وعندئذ ندعوك ثانية، هل فهمت الآن؟
لا، لم تفهم درجالسكي قط، وخرجت من الغرفة وكأنما انحنى ظهرها قليلاً مرة أخرى، خرجت وقد استحال عليها أن تفهم شيئاً
وكانت تسائل نفسها؛ علام كل هذا؟ أيدفعون نقوداً لكي أظل جائعة؟ فإذا كسبت من النقود ما يكفي لأحسن طعامي طلبوا إلي أن أعود إلى الجوع، وإذا وجدت من الغذاء ما يكفيني طردوني من العمل! سأحدث بوش عن هذا كله. ربما كان خيراً لي أن أعود إلى عملي، غسيل الملابس، يخيل لي أنهم هنا في الأستوديو كلهم مجانين

محمود عزي

الكتب

ابن خلدون وتراثه الفكري

تأليف الأستاذ محمد عبد الله عنان

أصدر الأستاذ المؤرخ الكبير محمد عبد الله عنان كتابه القيم، (ابن خلدون، حياته وتراثه الفكري) فأدى به واجباً طالت بنا الأيام ونحن عاجزون عن أدائه. ولئن كان أهل الأدب ورجال العلم والتاريخ قد قابلوا هذا الكتاب بما يليق به من الترحيب والتقدير لما رأوا فيه من ترجمة وافية لحياة العالم المؤرخ الفيلسوف عبد الرحمن بن خلدون الذي شهد له كبار رجال الغرب بالعبقرية وقدروه حق قدره، واعترفوا بأنه واضع أصول علم الاجتماع وفلسفة التاريخ، فأني قد قابلت هذا الكتاب النفيس لا بما قابله الناس فحسب، وإنما قابلته كذلك بفرح وغبطة، ذلك بأنه قد حقق أمنية لي طالما تمنيتها

وناديت بها على صفحات الصحف وهي أن نعمل على إحياء ذكرى مؤرخنا الفيلسوف العظيم حتى يعلم المسلمون خاصة والشرقيون عامة مقدار علو مقامه، وليقفوا على مدى سمو علمه فيجعلوه مفخرة لهم وينتفعوا بعد ذلك بتراثه الفكري العظيم.

وإذا كان الأستاذ الكبير محمد عبد الله عنان قد أرضى العلم والتاريخ بترجمة حياة عالمنا ومؤرخنا الفيلسوف بعد أن كان لا يعرف من حياته ألا ذرو يسير لا يحيط به إلا القليلون، وأطلع جيلنا على عظمة هذا الرجل ومبلغ أثره الفكري، وكشف عن فضله على العلم والتاريخ والأدب، فإنه قد بقي أمر ذو خطر لم يسع حضرة المؤلف نفسه إلا أن يتحدث عنه ويشيد هـ، ذلك هو مقدمة تاريخ ابن خلدون، تلك المقدمة التي حملت نتاج عبقريته وكانت سبب عظمته التي بهرت علماء الغرب جميعاً وجعلتهم يشهدون له بالنبوغ والألمعية، فإن طلاب الأدب والعلم الذين ناشدهم الأستاذ عنان أن يعكفوا على دراستها والانتفاع بها لا يجدون بين أيديهم نسخة صحيحة منها يرجعون إليها، ذلك بأن كل ما طبع منها قد مسه التحريف، وناله التصحيف، وقد ذكر لنا الأستاذ أحمد زكي باشا أنه لما استيقن من وجود المسخ والتحريف والتصحيف فيما طبع من هذه المقدمة ظل يسعى حتى أسعده التوفيق بالعثور على نسخة خطية من هذه المقدمة مصححة بقلم ابن خلدون نفسه وعلى أنه قد أنفق في سبيل نقل هذا الأثر النفيس نحو ثمانين جنيهاً فإنه يأسف جد الأسف إن لم يجد أحداً من رجال العلم أو من أصحاب المطابع قد سعى في طبعها ونشرها، ولا يزال هذا الكنز مدفوناً بالخزانة الزكية

فإذا كان الأستاذ الكبير محمد عبد الله عنان قد قام بهذا الفرض الكفائي فأرخ حياة ابن خلدون فإنه لا يزال عليه فرض آخر لا يتم الفرض الأول إلا به، ذلك أن يعمل على طبع نسخة صحيحة من مقدمة ابن خلدون فيحظى بالحسنيين ويتم بذلك عمله الخالد وحبذا، لو تولت لجنة التأليف والترجمة والنشر طبع هذه المقدمة ووقف على تصحيحها مع الأستاذ عنان الأستاذان الجليلان أحمد أمين وأحمد حسن الزيات فيؤدوا بذلك أجل عمل للأدب والعلم والتاريخ

إني أناشد حضرات الأساتذة الأجلاء عنان وأمين والزيات بحق العلم الذي يعملون له مخلصين أن يجعلوا من عملهم للعلم طبع مقدمة ابن خلدون ولتجعلها لجنة التأليف والترجمة والنشر من حسناتها في (نشر) الكتب القيمة والأسفار النافعة.

محمد أبو ريه

العدد 29 - بتاريخ: 22 - 01 - 1934

من أحاديث العيد. . .

للدكتور طه حسين

ابتسم الصبح فابتسمت معه الثغور، وأرقت الشمس فأشرقت معها الوجوه وغنت الطير فتغنت معها النفوس بالآمال والأماني وبالأهواء والميول وتغنت معها نفوس أخرى بالأحزان اللاذعة، والآلام الممضة، والعواطف التي تفطر القلوب وتسفح الدموع. وأندفع قوم إلى السرور العريض، واندفع قوم آخرون إلى الحزن العميق، وتردد قوم بين هذا وذاك يأخذون من كليهما بحظ معتدل، ويؤلفون لأنفسهم منهما مزاجاً لا هو بالمشرق المبتهج ولا هو بالمظلم القاتم، وإنما هو شئ بين ذاك، فيه مكان للذة والأمل، وفيه مكان للألم والذكرى. وأضطرب الناس أيام العيد بين دور الأحياء ودور الموتى، يتحدثون إلى أولئك ويفكرون في هؤلاء.

وكثير من حديث الناس الأحياء، وكثير من حديثهم عن الموتى، خليق أن يسجل ويتخذ موضوعاً لألوان مختلفة من الأدب والفن. ولكن هذه الأحاديث تقبل مع أيام العيد، وتذهب معها كأنها لم تكن. تترك آثارها في نفوس الناس ولكنها لا تترك آثارها فيما ينشئون ويكتبون. لأنهم لا ينشئون ولا يكتبون، ولأنهم إن أنشأوا أو كتبوا فقلما يقفون عندما يشعرون أو يجدون، إنما يلتمسون موضوعاتهم في السماء حيناً، وفي السحاب حيناً، وبعيداً عن حياتهم إثما. فأن مسوا حياتهم فهم لا يمسون إلا ظاهراً منها، وهم يمسونه في رفق أقرب إلى الجدب الموئس منه إلى الخصب الذي يحيي النفوس ويغدو القلوب.

أما أنا فقد كنت أتحدث إلى نفسي وإلى أصدقائي في أيام العيد أحاديث مختلفة، منها الباسم ومنها العابس، فيها الجد وفيها الهزل. ولكني كنت أحتفظ لنفسي بأشد هذه

الأحاديث مرارة ولذعاً. لأني أعلم إن الناس يكرهون في أيام العيد وفي غير أيام العيد مرارة الحزن ولذع الألم. وأشهد لقد استقبلت يوم العيد بحزن عميق لأني استعرضت صوراً تعودت أن أستعرضها كلما أقبلت الأعياد، وفكرت فيمن أزوره ويزرني، وفيمن أسعى إليه ويسعى إلي، فإذا كثير من هذه الصور قد محي من صفحة الحياة ولم يبق له إلا رسم في صفحة القلب، قوي عند قوم، ضعيف عند قوم آخرين. محيت هذه الصور من صفحة الحياة فلن أسعى إلى أصحابها، ولن يسعى أصحابها إلي، إما لأن أصحابها قد نقلوا من هذه الدار التي نضطرب فيها بالألم والأمل إلى دار أخرى، لا تعرف الحركة ولا الاضطراب، وإما لأن أصحابها ما يزالون يضطربون معنا في هذه الدار، ولكن ظروف الحياة وأسباب العيش قد نقلت أهواءهم عنا إلى قوم آخرين ليسوا منا ولسنا منهم الآن في شئ، لقد كنت أبدا زيارات العيد بهؤلاء النفر من الأصدقاء الأعزاء أكون معهم ليلة العيد، فإذا تنفس الصبح فكرت فيهم، وإذا ارتفع الضحى سعيت إليهم، فلقيتهم وكأننا لم نلتق منذ دهر طويل، وقضيت معهم ساعة قصيرة ضيقة لم أفرغ لهم فيها، ولم يفرغوا إلى كثرة المقبلين والمنصرفين. ولكنها على ذلك ساعة عريضة خصبة لكثرةما فيها من هذا الود الذي ينتقل إلى قلبك مريحاً عذباً لا لشيء إلا لأن اليد صافحت اليد ولن التحية الهادئة البريئة من التكلف قد مست الإذن فملأت النفس حياة وغبطة وسروراً. فإذا قضيت مع هؤلاء الأصدقاء هذه اللحظة القصيرة الخصبة خرجت من عندهم وقد ادخرت من الغبطة والسعادة ما يعينني على احتمال أثقال العيد فذهبت إلى دار عدلي ثم دار ثروت ثم إلى دار فلان وفلان. وقد أخذت الأيام تتخطف هؤلاء الناس واحداً واحداً حتى لقد زرت هؤلاء الأصدقاء فقضيت معهم ما قضيت من الوقت، ثم خرجت فإذا أنا أنصرف إلى كوكب الشرق لا إلى دار عدلي ولا إلى دار ثروت ولا إلى دار فلان وفلان من أولئك الذين كنت احب أن أسعى إليهم واغتبط حين يسعون إلي أو حين يرسلون إلي تحياتهم مع البريد وكنت لا أكاد أتهيأ للخروج يوم العيد حتى ينبئني المنبئون بأن فلاناً وفلاناً وفلاناً من الأصدقاء قد أقبلوا وهم ينتظرون، منهم من يريد أن يبدأ العيد بلقائي لأن لقائي كان أحب شئ إليه يوم العيد، ومنهم من يريد أن يصحبني في زيارات العيد لأنه يجد في هذه الصحبة لذة ويسراً فأما الآن فأني أنبأ بأن قوماً آخرين قد أقبلوا وبأنهم ينتظرون، أما أولئك الذين كانوا يقبلون وينتظرون قد أنقطع إقبالهم وانقطع انتظارهم إلى حين، لأنهم يخشون الأحداث ويخافون الظروف ويشفقون من الجواسيس ويربأون بأنفسهم من غضب السلطان. هم أحياء ولكن ظروف الحياة قد قطعت ما بينهم وبيني من الأسباب، كما إن ظروف الموت قد قطعت ما بين الموتى وبيني من الأسباب. ولم تكن أيام العيد تنقضي حتى أزور داراً من الدور في ناحية من نواحي القاهرة فألقى فيها ابتسام الزهرة النضرة، والشباب الغض، والحياة التي تبتسم للحياة. وقد انقضت أيام هذا العيد فلم أزر هذه الدار لأنها محزونة لا تحتفل بالعيد، ولأن زهرتها النضرة قد اجتثت منها اجتثاثا، وانتزعت منها انتزاعاً، وحملتها الريح إلى حيث لا ينظر الزهر ولا تبتسم الحياة للحياة. لم أزر هذه الدار ولم أنعم بتلك الابتسامة ولم أسمع ذلك الحديث ولكن الله يشهد إني قضيت أيام العيد كلها، ويظهر إني سأقضي أياماً طويلة أخرى وأن صوتاً من الأصوات سيتردد في نفسي جافاً خشناً متعثراً موئساً كما تتردد النغمة من الأنغام في القطعة الطويلة من الموسيقى، وتسألني عن هذا الصوت الذي تردد في نفسي منذ أشهر وسيتردد فيها أشهراً وأشهراً وأعواما، فهو صوت ذلك النعش حين خرج الحاملون به من الصلاة في مسجد من مساجد القاهرة وهم يعالجون إثباته على سيارة من سيارات الموتى وهو يأبى عليهم بعض الإثم يطيعهم ويستسلم لهم، وإذا خفقة جافة كأقفال الباب، وإذا النعش قد استقر، وإذا أزيز ضئيل نحيل يرتفع في الميدان ثم يتسع ويضخم، وإذا السيارة تنطلق كأنها السهم إلى ذلك المكان الذي لا يعود منه من استقر فيه. وإذا نحن نتبعها كاسفين ونعود كاسفين، وإذا الحياة تتصل بنا وتضطرب خطوبها حولنا، وتصرفنا عن أنفسنا وعن الناس، ولكن ذلك الصوت الجاف الخشن المتعثر يعود إلي من حين إلي حين فيذكرني بذلك اليوم الثقيل الذي شيعت فيه فقيدين عزيزين في اقل من ساعتين.

بهذا وأمثاله كنت أتحدث إلى نفسي أيام العيد، فإذا سألتني عما كنت أتحدث فيه إلى

الناس وعما كان الناس يتحدثون فيه إلى حين كنا نلتقي، فيا للبؤس! ويا للفقر ويا للشقاء! ويا لجدب الحياة وإفلاس الاحياء، كنا نتحدث عن الأزمة المالية، وكنا نتحدث عن السياسة، وكنا نتحدث عن غدو المندوب السامي مع الطير يوم العيد وما يحيط بغدوه ذلك من أسرار وأخبار ومن تأويل وتعليل. ثم كنا نتحدث عن بعض هذه الأشياء الممتازة التي ظفرت بأحاديث الناس وشغل الصحف وعناية رجال الأمن: كنا نتحدث عن ذلك الخاتم الذي اضطرب له رجال الأمن وعطلت له دار من دور التجارة، واتصل حوله تحقيق طويل ودقيق ولم تبح صحيفة مصرية عربية أو غير عربية لنفسها أن تعرض عنه أو تطوى أخباره عن قرائها، ثم اصبح الناس يوم العيد فإذا الصحف تنبئهم بأن سيدة التقطته أمام مدرسة من المدارس فظنت جوهره من الزجاج ولم تعلم انه حجر نفيس، وان مدينة القاهرة مضطربة له اشد الاضطراب، وان قيمته تربى على ألف من الجنيهات. وكنا نتحدث عن

هذا الدبوس الذي افتقدته صاحبته فلم تجده فارتاعت لفقده وهم أصحابها أن يقولوا قصة كقصة الخاتم، ولكن شابا لم يلبث إن التقطه فرده إلى صاحبته، فلم يضطرب رجال الأمن ولم يحتج رجال التحقيق إلى النشاط، ولم تزد الصحف على أن روت الخبر رواية يسيرة قصيرة في مكان غير ظاهر ولا ممتاز. وكنا نقارن بين قصة الخاتم وقصة الدبوس وبين حظ الخاتم وحظ الدبوس. وكنت أقول لأصدقائي وهم يبتسمون ويضحكون ويفلسفون: على رسلكم أيها السادة، فلو قد سألتم ذلك الخاتم أو ذلك الدبوس عما يعرفان من التاريخ، ولو قد أراد الخاتم وأراد الدبوس أن يقص عليكم بعض ما يعرفان لما ابتسمتم ولا ضحكتم ولا أغرقتم في الفلسفة هذا الإغراق. فليست قيمة الخاتم والدبوس في هذه الجنيهات التي تربى على الألف أو تبلغ المئات فحسب، ولكن قيمتها فيما يحملان من ذكرى وما يصوران من حياة، وفي هذه الصلة التي تصل بينهما وبين القلوب والنفوس. قال صديق ماكر: فحدثنا إذا عن خاتمك الذي فقدته، فقد يظهر انك فقدت خاتما أيضاً وان أمره قد ارتفع إلى رجال الشرطة ثم هبط إلى الصحف ثم ذاع بين الناس. قلت وانك لتتحدث عن هذا الخاتم هازلا كأنما تغض من أمره وتزدريه. فهل تعلم إني حزنت عليه حزنا شديدا! وهل تعلم انه ليس اقل خطرا ولعله اعظم خطر عندي من ذلك الخاتم وهذا الدبوس؟ وهل تعلم أنه يمتاز من ذلك الخاتم وهذا الدبوس بان له الحياة المصرية العامة آثاراً باقية، به اصبح قوم دكاترة. وبه أدرك قوم آخرون إجازة الليسانس، وبه صرف كثير من أمور الدولة، وقضى في مصالح كثير من الأستاذة والطلاب أعواما، فحدثني أين يقع من هذا كله اثر ذلك الخاتم وهذا الدبوس في حياة المصريين؟ ومع ذلك فلم تبلغ قيمته ألفا ولا مائه، ولا عشرة من الجنيهات، استغفر الله، بل لم تبلغ قيمته عشرة من القرش، وإنما كانت قيمته قرش ونصف قرش ليس غير، اتخذته حين كانت الأشياء رخيصة، في ذلك الزمن، الذي كنا نستطيع أن نبلغ فيه بالقرش كثير من المآرب والحاجات، اتخذته في باب الخلق، خارج ذاتيوم من دار الكتب، وكنت في الرابعة والعشرين من العمر، وكنت أريد أن أسافر إلى اوربا، واظهر لي هذا السفر إني شخص من الأشخاص، يجب أن اذكر مولدي، واعرف سني، واقدر ما آتي من الاعمال، في ذلك الوقت بحثت عن شهادة الميلاد وكانت ضائعة، فعرفت سني وكنت أجهلها، وفي ذلك الوقت قيل لي من أتى عملا أو قالقولا وجب عليه أن يمضيه، فاتخذت

هذا الخاتم، صنعه لي رجل كان يصنع الخواتم قريبا من المحافظة، ثم عبر معي البحر، وصحبني في فرنسا طالبا، وصحبني في الجامعة أستاذاً، عمل معي في أعمال الدولة، وأمضى معي عن أمور الدولة، وكان صديقا أميناً، لست ادري، كيف قبلت فراقه حينا، وأتمنت عليه صاحبي، حتى اقبل ذات يوم ينبئني انه افتقده فلم يجده، هنالك ضقت به وضقت بالناس، وضقت بالحياة كلها وقتا غير قصير، ثم زعم لي زاعم إن الأمر يجب أن يرفع إلى الشرطة فرفع اليها، وهبط إلى الصحف، ولكن الشرطة تلقت أمره باسمه، لكن الصحف نشرت أمره مداعبة، ولكن الأصدقاء تحدثوا عنه حين، أفرأيت إن قيم الأشياء، تختلف لا باختلاف آثارها، ومكاناتها ولكن باختلاف أصحابها، فلو كنت رئيس الوزراء، لما ابتسم الشرطي، ولما داعبت الصحف لأني فقدت خاتما، ولكني لست رئيس الوزراء فيبسم الشرطي، ولا يأتي حركة وتداعب الصحف، وتمزح أنت

ويمزح هؤلاء بهذا وامثاله، كنا نتحدث أيام العيد.

طه حسين

لحظات التجلي

للأستاذ أحمد أمين

لكل إنسان - وخاصة العقليين - والروحانيين - لحظات تضيء فيها نفوسهم، حتى كأنها المرآة الصافية، أو الشعلة الملتهبة، كل جانب فيها مضيء، وكل العالم منعكس عليها، يراه فيها كما يرى السماء في الماء.

يحس بهذا الأديب، فتراه حينا وقد غزرت معانيه وتدفقت عليه من كل جانب، حتى ليحار في الإختيار، ماذا يأخذ وماذا يذر، وبم يفضل بعضها على بعض، وحتى كأنه يغترف من بحر، أو يملي عن حفظ، ويصدر عنه إذ ذاك القول السلس والمعاني الغزيرة، والشعر المتدفق، هذه اللحظات عنده هي (لحظات التجلي)، وتأتي عليه أوقات وقد جمدت قريحته، وأجدب فكره، يعاني في البحث ما يعاني، ثم لا يأتي إلا بحمأة وقليل من ماء، ويصعب عليه القول كأنه يمتح من بئر، أو يستنبط من صخر، وقد عبّر الفرزدق عن هذا المعنى فقال (أنا أشعر تميم، وربما أتت عليّ ساعة ونزع ضرس أسهل عليّ من قول بيت) ونتاجه في مثل هذه اللحظات بارد جاف، لا يستسيغه الذوق، ولا تألفه الروح، أشبه شيء بقطع الجلاميد، وبأجدال الحطب.

ويحس بهذا الفيلسوف، فيشعر بلحظات تنكشف فيها حقيقة هذا العالم، فيراه ويستلذها، ويود أن تدوم، بل يود أن تعاوده الفينة بعد الفينة، ويتمنى أن يشتري عودتها بكل مالك، وينفق في ساعة منها كل متع الحياة الدنيا، يشعر في هذه اللحظات بذكاء في الفهم، وصفاء في النفس، ولطافة في الحس تكفيه في فهم هذا العالم الإشارة، وتجزئه الإيماءة، يستشف العالم من وراء مظهره، ويلمحه من رموزه، ويشعر إذ ذاك بسمو في العقل، ورقي في الروح، لا يعدل لذتهما شيء في الحياة. ثم تذهب عنه لحظات التجلي على الرغم منه، فإذا به في بعض أوقاته مظلم الحس، متخلف الذهن، بليد البصيرة، لا ينتبه للحن، ولا يفطن لمغزى، تستعجم عليه المدارك الظاهرة، وتَخْفَى عليه الأشباح المائلة، وتختلف لحظات التجلي عند الفلاسفة ولا صوفية كثرة وقلة، كما يختلف مدى التجلي بعداً وقرباً، حتى ليحكى عن افلوطين) الفيلسوف الروحاني المشهور أنه حظي بهذه اللحظات بضع مرات في حياته. وحظي بها تلميذه (فورفوريوس) مرة واحدة.

وتعرض للفنان فيلهم معنى يصوره بريشته أو يوقع به على قيثارته، فتَمّ الإبداع والجمال الرائع، والحسن البارع، ذلك يملأ العين حسناً بصورته، وهذا يملأ السمع والقلب عذوبة بنغمته، ثم تأتي على هذا وذاك أوقات ينضب فيها معينها، ويفتر عنهما وحيهما.

وترى العلماء من رياضي وطبيعي وكيمياوي، ى يرزق أحدهم الخطوة بلحظة من هذه اللحظات، يلهم فيها فكرة يكون من ورائها مخترع عجيب، أو استكشاف خطير، عرض له أثناء بحثه، وقد لا تكون هناك علاقة ما بين ما يحدث وبين ما ألهمه، بل قد لا تكون هناك مقدمات منطقية مطلقاً لما ألهم، ويقف العلم حائراً لا يستطيع أن يعلل كيف نشأت في ذهن هذه العالم تلك الفكرة، وكيف فطن لها، بل يحار المستكشف نفسه كيف عرضت له وكيف ألهم بها.

وبعد فهل يمكن أن نضع قوانين لهذه اللحظات، وهل هناك عوامل معروفة إذا استوفيت أمكننا اقتناؤها والحظوة بها؟ وهل يمكن أن نجمع هذه الشروط في زر كهربائي أو زر روحاني نفتحه فتنفتح علينا لحظات التجلي إن شئنا؟

لو استطعنا هذا لتضاعف الإنتاج الأدبي والعلمي في هذا العالم أضعافاً مضاعفة، ولسهل على الأديب أن يستوفي الشروط فما هو إلا إن يمسك بقلمه فيغزر ماؤه، ويسيل إتيهُّ، وتنثال عليه الألفاظ والمعاني إنثيالاً.

لقد حاولوا من قديم أن يستكشفوا قوانين (التجلي) فقالوا إن مما يعن عليه جودة الغذاء، وفراغ البال من هموم الحياة، وصحة البدن، وطمأنينة النفس واستعانوا على نيل لحظات التجلي بمختلف الألوان، فقد قيل لكثير عزة يا أبا صخر، كيف تصنع إذا عسر عليك قول الشعر؟ قال أطوف في الرباع المخلية، والرباع المعشبة، فيسهل

علي أرصنه، ويسرع إلي أحسنه، وقال الأحوص
وأشْرَفَتُ في نشز من الأرض يافِع ... وقد تَشْعَف الأيْفاع مَنْ كانَ مقْصِدَا
ولجأ الأدباء من قديم إلى الأزهار والرياض، والمياه الجارية والمناظر الجميلة، كما لجأ بعضهم إلى الخمر يستلهمها ويستوحيها، وتكاد تكون لكل أديب عادة يرى أنها علة غزارته، ومفتاح إنتاجه، وأنه يستنزل بها العصم من الأفكار، ويستسمح بها الأبي من المعاني، ولكن هل نجحت كل هذه المحاولات في استكشاف قوانين التجلي.؟ أظن إن نظرة بسيطة تكفي للقول بأنها لم تنجح، فقد تستوفي كل الشروط التي قالوها، فالصحة في أجود حالاتها، والغذاء خير غذاء، والكاتب أو الشاعر مطمئن النفس، هادئ البال، بين الرياض المزهرة، والمياه الجارية، والوجوه الناظرة، وهو مع هذا أجدب ما يكون قريحة، وأنضب ما يكون معيناً، ثم هو يكون على العكس من ذلك كله فيواتيه شيطانه، وتتزاحم في صدره المعاني، وتتبارى على قلمه الآراء والأفكار والألفاظ.
ثم هذا أديب أو شاعر يجود قوله وتتجلى نفسه، في الأماكن الخالية والسكون العميق وذاك لا يأتي له هذا الموقف إلا في الأوساط الصاخبة والحركة المائجة. وأديب لا ينتج إلا إذا امتلأ جيبه واطمأنت نفسه لحاجات الحياة، على حين إن الآخر لا يجد إلا إذا فرغ وطابه. وعضه الفقر بنابه، وتكاثرت عليه الهموم.
فأين قوانين التجلي إذا كان يحدث في البيئة وضدها، والظروف وعكسها؟ قد تكون كل المظاهر وكل ما يحيط بالنفس مع ذلك فياضة جياشة متجلية، وقد تكون المظاهر كلها تدل على نفس متفتحة للعمل، مليئة بالفكر فإذا هي مجدبة متقبضة، وترى الآراء القيمة والمعاني السامية قد تنبع من بيئة قائمة، ونفس مظلمة كما تخرج الزهرة من طين أو كما يخرج الذهب من الرغام، والحرير من الدود، وقد حكي لنا عن أدباء آخرجوا روايات هزلية تستخرج الضحك من أعماق القلب وحالتهم النفسية وقت تأليفها كان يسودها الحزن، ويشيع في جوانبها الألم والبؤس.
أخشى أن يكون الذين قد وضعوا هذه القوانين وأمثالها للحظات التجلي قد تسرعوا في وضعها، فالإنسان معقد كل التعقيد، ولئن كان جسمه معقداً مرة فنفسه وروحانيته وعقله معقدة ألف مرة بل آلافاً، وإن العوامل التي تؤثر في نفسه وروحانيته ليست الحالة البدنية، ولا الغذاء الصالح، ولا المناظر الجميلة، ولا الغنى والفقر، وحدها، بل هنالك عوامل أدق وأعمق واغمض، الإنسان لا يعيش في بدنه وحده، ولا في محيطه فقط، بل إنه ليعيش في أصدقائه الأقربين والأبعدين، وإنه ليعيش في ذريته الذين كانوا وسيكونون، وإنه ليعيش في أحلامه وآلامه وآماله، ويعيش في شبكات من تموجات نفسية دونها بمراحل شبكات
التلغرافات والتليفونات وتتسلط عليه أنواع من الأشعة لا عداد لها لعلنا لا نستطيع أن نكتشف قوانين التجلي إلا إذا عرفنا نوع النفس التي تتلقى هذه الأشعة، وعلمنا كل هذه المؤثرات، وهيهات!!
أحمد أمين
حنجرة
للدكتور محمد عوض محمد
اشهد إن الطبيعة قد تمنح، فتسرف في المنح، وتعطي فتجزل في العطاء وتنسى نفسها أحياناً، فتكيل السعادة لمن رضيت عنه بمكيال هائل، وتبذير منقطع النذير. وكان ذلك شأنها يوم أفرغت على الرجل العجيب (أنطون سو كيلوف) أسجال الهبات: بأن منحته تلك الثمينة الرائعة!
أجل وان المرء لتأخذه الدهشة عن يمينه وشماله، ومن ورائه وأمامه، ومن فوقه ومن تحته، حين يفكر في الوسائل المختلفة العديدة، التي تتوسل بهاالآلهة، لكي ترفع من تحبه على الناس درجات، وتحلق به في ملكوت السماوات: - ترضى عن هذا فتمنحه المال عن وفر وعن سعه، وتحب هذه فتكسوها أثواب الجمال: ثوباً فوق ثوب - كأنها ورق الكرنب - ويحلو للآلهة أن تنعم على ذلك فإذا هو ذو جاه عريض طويل، عميق غليظ.
ولكن اغرب شيٌ تهبه الآلهة هو مهن غير شك - تلك المميزات الجسدية: تلك القطع من اللحم والعظم والغضروف والجلد - يجري فيها الدم أحياناً؛ وأحياناً لا يجري فيها الدم مطلقاً. وطوراً يكسوها الشعر، وكثيراً ما تكون صلعات عارية من الشعر - تلك

الأجزاء الجثمانية؛ التي يحسبها الجهال من مصادفات الولادة، أو من غلطات الولادة وفي الحق هي السر الباتع الذي يحرك الفلك، وتدور له الكرة الأرضية من الغرب إلى الشرق.

وما على الذي يشك في صحة هذه الدعوى، أو يريد أن يتهمنا بالغلو والمبالغة، إلا إن يلقي نظرة يسيرة على التاريخ المكتوب وغير المكتوب، ويكفي أن يلقي النظرة على عجل وهو مغمض العينين، ليرى كم من صلعة لامعة قد ساست الممالك، ودوخت الجيوش، وكم من ذقن غليظ استطاع إخضاع القطار وتسخير كل جبار. وها نحن نسوق للقارئ أمثلة لا تحتمل الشك أو الإنكار.

هذه كيلوباطرة! بأي سلاح وبأية قوة استطاعت أن تخضع يوليوس قيصر، وتلفه حول إصبعها الخنصر؟ إبالقنابل والاساطيل؟ أما بالجيوش والدبابات، ام بالغازات الخانقة وغير الخانقة؟ لا بهذه - لعمرك - ولا بتلك. بل بقطعة انف مستدق مستطيل: خارت أمامها عزمة العأهل الروماني الهائل، الذي فتح الغال وبلاد الأسبان واستولى حتى على بريطانيا

العظمى - التي لم تكن عظمى في ذلك الوقت.

ثم شمشون: الجبار شمشون، الذي استطاع أن يقتل ألفاً من الفلسطينيِّين وما بيده سلاح سوى عظمة الفك الأسفل لحمار نفق حديثا، والذي استطاع أن يقبض على العمودين اللذين يمسكان الهيكل الأكبر - وقد احتشد فيه أعداؤه آلافا مؤلفة - أمسك عموداً باليمين، وعموداً بالشمال، ثم مال بالعمودين وهو يقول: (على وعليهم يا رب!) فإذا الهيكل يتداعى والسقف ينقض بمن عليه، والبناء يندك بمن فيه. وإذا الآلاف المؤلفة تقبر، بما فيهم دليلة الخائنة الماكرة.!

ألا رحم الله شمشون! أنى جاءته كل هذه القوة وهذا الجبروت؟ ذلك هو السر الخطير، الذي أدلى به إلى دليلة الخائنة، حين أنبأها إن قواه كلها كاملة في تلك الشعارات التي نبتت في رأسه كما تنبت الأشعة في رأس الشمس.

وهكذا كان عضو بسيط من أعضاء الجسم سبباً في تحويل سطح الأرض، وفي قلب مجرى التاريخ. . .

إذن لماذا نعجب من إن الآلهة حينما أرادت أن تغدق النعم على (انطون) لم تزد على إن وهبته حنجرة؟. لم تهبه مالاً ولا عقلاً، ولا ذكاء ولا فهماً، ولا طرفاً ناعساً ولا وجهاً وسيماً. بل كل ما منحته وحبته به: حنجرة.

نفس عصام سودت عصاما
وعلمته الكر والإقدام
وصيرته ملكاً هماما

هذا جائز في عصام المذكور. أما (انطون سو كيلوف) فلم تكن له نفس تستحق الذكر، ولم يكن شجاعاً ولا هماماً ولا يعرف كراً ولا إقداماً. ولم يكن صاحب علم ولا جاه، بل صاحب حنجرة فحسب. يملكها وتملكه، وليس له من حطام الدنيا شيُ سواها، وليس لها من حطام الدنيا شيُ سواه وكانت هي سر سعادته؛ واستطاع هو أيضاً أن يجعلها سعيدة منعمة.

ليس على فضل الآلهة من حَرَجْ
إن شاء ضاق الأمرُ، أو شاء الفرجْ
ويدرك العلياءَ من به عرجْ
وترتقى حنجرةٌ أعلى الدَّرَجْ!!

إن سر النجاح في الحياة هو ما قاله سقراط: أن تعرف نفسك: وهكذا فعل انطون. فقد خلا إلى نفسه يوماً، وجعل يجهد فكره الكليل في معرفتها وفي الكشف عن أمرها. لعله إن يرى في ركن من أركانها كنزاً مخبوءاً، أو قوة مدفونة. فهداه طول التفكير، والتدبير الكثير، إلى إن له حنجرة ليس لها في العالم نظير. أجل وإنها لجديرة بأن ترفعه ويرفعها إلى المقام الأسمى والسِّماك الأعلى. وان ينفض بواسطتها غبار الفاقه الذي يوشك أن يقبره ويقبرها.

وكانت ساعة إلهام أدرك فيها انطون إن برلمان إنكلترا - أبو البرلمانات جميعاً - هو ميدانه الوحيد وميدان حنجرته العزيزة. . . عجباً كيف لم يوفق إلى هذا الكشف الهائل من قبل، فيقضى على عيش الضنك والفقر الذي لازمه طوال هذه السنين؟.

وفي مساء ذلك اليوم الخطير كان انطون جالساً - وحنجرته - إلى رئيس (المحافظين) يحدثه حديثاً شائقاً طليا. والصوت يدوي من حنجرته دويا - ولولا إن الريح في ذلك المساء كانت تهب من الجنوب، لسمع أهل فرنسا صدى تلك الحنجرة تنبئ الساكنين على ضفاف السين. إن على ضفاف التايمز رجالاً.

وأدرك رئيس المحافظين - ويا سرعان ما أدرك! - إي كنز قد ظفر به، وأي ذخر ثمين قد قدمنه الآلهة له ولحزبه! انهم بفضل هذه الحنجرة الرعدية لن يلبثوا طويلا حتى يتربعوا على دست الحكم، ويتحكموا في الدولة التي لا تغرب عليها الشمس.

ولم يبرح انطون مجلس الرئيس إلا وقد حمل في صدره - وفي جيبه - ألف دليل على إن نجم نحسه قد اودع في بطن الثرى وان نجم سعده قد اشرق في السماء لامعاً صاعداً.

كان انطون من رعايا الروس، وقد حاول السنين الطوال أن ينال الجنسية البريطانية، فلم تلق جهوده إلا الفشل. إن الجنسية البريطانية أجل وأثمن من أن تمنح للصعاليك أمثاله أما اليوم فقد جاءته تلك الجنسية تجرر اذيالها، وهي تمشي على استحياء، نزلت عليه من المحل إلا رفع من بعد طول تعزز وتمنع.

وفتحت بين يديه نوادي المحافظين، المفرطين في أرستقراطيتهم، وفي عزلتهم. فجعل يفشاها هو وحنجرته التي كان صداها يدوي في تلك الحجرات الهائلة، فتمتلئ بها الآذان وتميل نحوها الأعناق.

ولم تمض أسابيع قلائل حتى أخليت له دائرة من دوائر البرلمان، وحتى اقسم يمين الطاعة للملك ولدستور الدولة العظمى التي قلما تغرب الشمس عليها.

هنالك بدأت معجزته الهائلة تقرع الأسماع، وتأتي بكل إبداع، يوم تبوأ مقعده في (وستمنستر) وقد لف على الحنجرة العزيزة كوفية من الدمقس الخالص، براً بها، وعطفاً عليها. وهي بهذا لعمري جديرة بعد أن أصبحت ينبوع ثورة، ومبعث قوة وصوله، وعماد حزب ودولة.

ولم يك إن جالت هذه الحنجرة جولةً أو جولتين حتى سقط (الأحرار) المساكين، صرعى لا حراك بهم، وسقطت حكومتهم، التي كانت تحسب أنها باقية على الدهر، فإذا هي تندحر وتندثر وتمزَّق كل ممزَّق.

ثم أذَّنَ مؤذن بالانتخابات الجديدة للبرلمان الجديد، فإذا حنجرة أنطوان تكتسح كل شئ أمامها، وتجوب البلاد من جنوبها إلى شمالها، فتندك أمامها المعاقل والحصون، وتعنو لها الرقاب والأعناق، وتنجلي معارك الانتخاب عن فوز ساحق ماحق يفوزه المحافظون، ويعودون إلى البرلمان، يجرون ذيول التيه، ويبرمون شوارب الخيلاء.

وفي اليوم التالي غدا أنطوان إلى شركات التأمين فأمن على حنجرته بمائة ألف من الجنيهات.

إن اللآلهة قد تمنح، فتشرق في المخ، وتعطي فتجزل العطاء

الحركة الوطنية الاشتراكية الألمانية

البرنامج الخارجي في طور التنفيذ - 4

للأستاذ محمد عبد الله عنان

لم يكن أثر الثورة الوطنية الاشتراكية الألمانية في سياسة ألمانيا الخارجية أقل منه في شئونها الداخلية. ولكن الثورة الوطنية كانت في ميدان السياسة الخارجية أكثر توفيقاً، لأنها الفت الميدان عند قيامها ممهداً صالحاً للعمل القوي الجريء، ولأن الشعب الألماني يرى المسألة الخارجية مسألة قومية محضة ويؤيد الثورة الوطنية فيها تأييداً قوياً صادقاً، على إن هذا التوفيق الذي لقيته الوطنية الاشتراكية في بعض نواحي السياسة الخارجية كان مقروناً من جهة أخرى بتطورات ونتائج لم تكن صالحة ألمانيا، ولكنها كانت نتيجة لما أبدته الوطنية الاشتراكية في وسائلها من ضروب العنف والاندفاع.

تولى الوطنيين الاشتراكيون الحكم وألمانيا ما زالت من الوجهة الدولية في المركز الذي وضعت فيه بمقتضى معاهدة الصلح (معاهدة فرساي) وهو مركز لا يجعلها على قدم المساواة مع باقي الدول العظمى من حيث الحرية في تدبير وسائل الدفاع عن نفسها وتنظيم مواردها الاقتصادية طبقاً لمصالحها، وهو مركز يرى الوطنيون

الاشتراكيون بحق أنه لا يليق بألمانيا كدولة عظمى ولا يلائم كرامتها القومية. وكانت ألمانيا تجاهد منذ دخلت عصبة الأمم (في سنة 1926) في سبيل الانتصاف لنفسها في مسألة الدفاع القومي لأنها جردت بمقتضى معاهدة الصلح من سلاحها، وفي سبيل التحرر من أعباء التعويضات الفادحة التي فرضت عليها لأن هذه الأعباء لبثت بعد الذي أدته منها خطراً داهماً على مواردها القومية ونشاطها الصناعي والتجاري، ولأنها فرضت على أساس مسؤولية ألمانيا في إثارة الحرب الكبرى، وقد ثبت فيما بعد بما صدر من تحقيقات ووثائق دولية مختلفة إن هذا الزعم باطل، وإن مسؤولية ألمانيا في الحرب ليست أكثر من غيرها، وقد سويت مسألة التعويضات غير مرة، ولكن ألمانيا لبثت تصر على وجوب التحرر منها، وقالت كلمتها الرسمية في ذلك منذ سنة 1932 في عهد حكومة الهرفون بابن، وانتهت جهودها في هذا السبيل بعقد مؤتمر لوزان في صيف سنة 1932، وخرجت ألمانيا من المؤتمر ظافرة بتقرير وجهت نظرها، ووافقت دول الحلفاء في البروتوكول الذي عقده المؤتمر على مبدأ إلغاء التعويض نظير قدر محدد تؤديه ألمانيا لا يتجاوز عشر ما كان مطلوب منها، وألقت ألمانيا في ذلك الحين أيضاً دعوتها إلى نزع السلاح الحقيقي طبقاً لما نصت عليه معاهدة الصلح، أو إنها تعمد من جانبها إلى تسليح نفسها تحقيقاً لمبدأ المساواة ومقتضيات الدفاع القومي.

كانت مسألة التسليح إذن أهم مشكلة دولية تواجهها ألمانيا عند قيام الحكومة الوطنية الاشتراكية، ومسألة الدفاع القومي من أهم المسائل التي أثارتها الوطنية الاشتراكية وخصتها بكثير عنايتها، والوطنية الاشتراكية أشد ما تكون بغضاً لمعاهدة فرساي واحتجاجاً على نصوصها وفروضها الظالمة، وهي تعتبرها مصدر كل مصائب ألمانيا، متاعبها، وترى وجوب إلغائها أو تعديلها على الأقل تعديلاً يتفق مع كرامة ألمانيا وحاجتهاالقومية، وألمانيا تجاهد في هذا السبيل منذ أعوام، وقد استطاعت في الواقع أن تظفر بتعديل كثير من نصوص المعاهدة، ولكنها لم تستطع أن تحقق شيئاً في مسألة نزع السلاح والدفاع القومي.

ولألمانيا في مسألة نزع السلاح نظرية تستمدها من معاهدة الصلح ذاتها، ذلك إن معاهدة الصلح قضت بتجريد ألمانيا من سلاحها، وحددت جيشها العامل بمائة ألف، وحصرت حقها في اقتناء الذخائر والأسلحة في أضيق الحدود، وحرمت عليها أنواع الأسلحة الضخمة، وأنزلت أسطولها إلى وحدة بحرية ضئيلة وحرمت عليها إنشاء الطيارات الحربية، وقضت عليها بإلغاء الخدمة العسكرية الإجبارية، وحرمت عليها إنشاء أية تحصينات على حدودها الغربية عل بعد خمسين كيلو متراً من شرق نهر الرين، وغير ذلك من الفروض المرهقة التي تجعل ألمانيا من حيث الدفاع القومي أضعف من أية دولة ثانوية، وتجعلها غير قادرة على الدفاع عن نفسها إزاء الطوارئ. (معاهدة فرساي - القسم الخامس - المادة 149 وما بعدها). ولكن ميثاق عصبة الأمم الذي هو قطعة من معاهدة الصلح ينص من وجهة نظر أخرى على إن أعضاء العصبة يعترفون بأن تأييد السلام يقتضي تخفيض التسليحات القومية إلى الحد الذي يتفق مع السلأمة القومية وتنفيذ التعهدات الدولية. . . وعلى (أن مجلس العصبة ينظم وسائل هذا التخفيض) (المادة 8)، ونص من جهة أخرى في ديباجة القسم الخامس من المعاهدة وهو الخاص بتجريد ألمانيا من سلاحها، إن هذا التجريد إنما هو وسيلة لتمكين تنظيم تحديد السلاح تحديداً عاماً بالنسبة لجميع الأمم، وقد أنشأت عصبة الأمم لجنة نزع السلاح ومؤتمره منذ عشرة أعوام تنفيذاً لما يقتضي به ميثاقها، واشتركت ألمانيا في أعمال المؤتمر نزع السلاح منذ دخولها في العصبة، وجاهدت بكل ما وسعت في سبيل تخفيض السلاح؛ ولكنها لم تظفر بأية نتيجة، لأن دول الحلفاء وفرنسا بنوع خاص، لا تريد أن تجري في تسليحاتها أي تخفيض يذكر، ولهذا تقول ألمانيا اليوم إنه ما دام إن نصوص المعاهدة في شأن تخفيض السلاح لم تنفذ، وما دام إن تجريدها من السلاح كان مقروناً بوجوب إجراء هذا التخفيض، فهي من جوانبها في حل من أن تسترد حقها كاملاً في تسليح نفسها وتنظيم دفاعها القومي، وهذا منطق سليم واضح، ولألمانيا فيه كل الحق، ولكنه قوبل من فرنسا بأشد اعتراض؛ وأبت فرنسا وبريطانيا العظمى على ألمانيا كل حق في المساواة الفعلية في التسليح، واقترحتا وضع رقابة دولية على موقفها ورأت أن تختم هذا الجدل العقيم،

فانسحبت من مؤتمر نزع السلاح ومن عصبة الأمم في منتصف أكتوبر الماضي، وكانت خطوة جريئة ولكن موفقة من جانب الحكومة الاشتراكية؛ وكان لها أكبر وقع في سير السياسة الدولية، وفي نفس اليوم الذي أقدمت فيه الحكومة الألمانية على هذه الخطوة الحاسمة، أستصدر هر هتلر مرسوما بحل الريخستاج وإجراء انتخابات جديدة ليستفتي الأمة في سياسته الخارجية؛ وأجريت هذه الانتخابات في 12 نوفمبر الماضي وخرج منها هتلر بما يشبه إجماع الشعب الألماني على تأييده في العمل لاستعادة مركز ألمانيا الدولي كدولة عظمى والاعتراف لها بحق المساواة في الدفاع القومي وسائر الحقوق القومية الأخرى واضطرت فرنسا إزاء هذا التطور أن تدخل في مفاوضات مباشرة مع ألمانيا لبحث الموقف. وتجري هذه المفاوضات منذ أسابيع. وتحاول إنجلترا وإيطاليا أن تقوما بدور الوساطة والتوفيق. وبينما تؤيد إيطاليا وجهة النظر الألمانية إذا بإنجلترا تتراوح بين التأييد والمعارضة، فهي لا تريد أن تبقى فرنسا محتفظة بزعامة أوربا
العسكرية، وتخشى من جهة أخرى أن تعود ألمانيا إلى زعامتها العسكرية القديمة. وقدمت الحكومة الألمانية مقترحات في هذا الشأن خلاصتها أن يرفع عدد الجيش الألماني العامل إلى ثلاثمائة ألف، وأن تعاد الخدمة العسكرية، وأن يكون لألمانيا حق استعمال وسائل الدفاع المختلفة، وأن ينقح دستور عصبة الأمم لكي تكون أداة صالحة محررة من كل ضغط ونفوذ. وقد ردت فرنسا برفض هذه المقترحات باعتبارها مناقضة لمعاهدة الصلح، وقالت بأن تسوية مسألة التسليح لا تكون بزيادته وإنما تكون بتخفيضه، وأن تخفيض السلاح لا يمكن أن ينظم إلا في جنيف وعلى يد عصبة الأمم طبقاً لمعاهدة الصلح، وما زالت المفاوضات تجري بين باريس وبرلين من جهة، وبين لندن وباريس ورومة من جهة أخرى، ولكن الذي لا ريب هو إن ألمانيا قد كسبت أول مرحلة في المعركة، وأنها تتقدم في سبيل غايتها من تحطيم الأغلال التي فرضتها معاهدة فرساي على دفاعها القومي، بل نعتقد إن ألمانيا قد بدأت تعمل بالفعل في هذا السبيل دون انتظار لرأي فرنسا وحلفائها.
وتثير ألمانيا إلى جانب مشكلة الدفاع القومي عدة مشاكل أخرى ترى أنها تمس مصالحها القومية. من ذلك مسألة وادي السار الألماني الذي انتزعته فرنسا لتستغل مناجمه الغنية حتى سنة 1935؛ فألمانيا تطالب برده أو يجري الاستفتاء المنصوص عليه في المعاهدة؛ ومنها مسألة المستعمرات الألمانية التي وزعت بين فرنسا وبريطانيا العظمى فألمانيا تطالب الآن بردها لأنها تضيق بسكانها، ومصالحا الاقتصادية الحيوية تقتضي أن يكون لها مستعمرات؛ ومنها مسألة الممر البولوني الذي يمزق بروسيا الشرقية إلى قسمين، فألمانيا ترى أنها لا تستطيع الصبر على هذا التمزيق إلى الأبد، وإن كانت اليوم على تفاهم مؤقت مع بولونيا.
على إن الوطنية الاشتراكية الألمانية لم تكن موفقة في ناحيتين خطيرتين من نواحي السياسة الخارجية، هما المسألة النمسوية، ومسألة العلائق الألمانية الروسية.
فأما في المسألة الأولى فقد حاولت الحكومة الألمانية أن تتدخل في شئون النمسا بطرق شتى. ووجهت الوطنية الاشتراكية الألمانية إلى النمسا كثيراً من ضروب الوعيد والتحدي، وحاولت أن تبث في دعوتها وأن تصبغها بصبغتها. ونذكر أنالعمل على اتحاد الأمم الجرمانية من الغايات الأساسية التي ترمي إلى تحقيقها الوطنية الألمانية. والنمسا هي الأمة
الجرمانية المقصودة بهذا النص، وهي ترتبط مع ألمانيا بكثير من الروابط الاقتصادية والاجتماعية. وكانت النمسا تضطرم من قبل بدعوة قوية إلى الاتحاد مع ألمانيا سياسياً واقتصادياً ولهذا أرادت الوطنية الألمانية أن تقوم بمحاولاتها الأولى في سبيل هذا الاتحاد.
ولكنها لجأت كعادتها إلى الاندفاع والعنف، وحاولت أن تعامل النمسا كدولة تابعة وأن تملي عليها أرادتها ووحيها، وأن تثير فيها القلاقل والإضطراب، وأن تؤثر فيها بجميع وسائل الضغط والإرغام. ولكن هذه السياسة القصيرة النظر انتهت إلى عكس ما أريد بها. فقد أذكت في الشعب النمسوي عواطف العزة القومية، فنسي خلافاته الحزبية والتف حول حكومة المستشار دلفوس التي أبدت في مقاومة الوطنية الألمانية حزما يثير الإعجاب وأعلنت النمسا أرادتها صريحة في إنها لا تريد أن تكون تابعة لحكومة

برلين، وقمعت الحكومة النمسوية كل شغب أثارته الدعوة الألمانية بمنتهى القوة وطاردت دعاة الوطنية الاشتراكية بلا رأفة، وأنهارت في الوقت نفسه دعوة الاتحاد (الآنشولس) وأنفض عنها أنصارها بعد أن رأوا ألمانيا تفسرها بالقضاء إلى الإستقلال النمسوي واستطاعت حكومة فينا أن تجعل من المشكلة النمسوية مشكلة دولية وأن تغتنم تعضيد إنجلترا وفرنسا وإيطاليا في الدفاع عن وجهة نظرها ضد ألمانيا.

وأما في مسألة العلائق الروسية فقد ارتكبت الوطنية الاشتراكية الألمانية أيضاً خطأ فادحا. وكانت ألمانيا منذ خاتمة الحرب تعمل دائما على توثيق صلاتها السياسية والتجارية بروسيا السوفيتية، وتتخذ من هذه الصلات دعامة لسياستها الخارجية؛ وكانت روسيا أعظم سوق للصناعات الألمانية بعد لأن أغلقت في وجهها الأسواق الغربية؛ وكان التفاهم بين الدولتين محور التوازن السياسي في أوربا الشرقية حيث تطوق ألمانيا بدولتين خصيمتين هما بولونيا وتشيكوسلوفاكيا، ولكن الوطنية الاشتراكية لم تراع هذه السياسة التقليدية، ولم تفرق في كفاحها للشيوعية بين الاعتبارات الداخلية والخارجية، فألقيت تصريحات شديدة ضد روسيا السوفيتية من المستشار هتلر وبعض زملائه، وردت الصحافة الروسية هذه الحملات بمثلها، وكان لموقف حكومة برلين وقع سيئ في حكومة موسكو؛ وظهر أثر هذا التوتر في علائق البلدين واضحاً في إتجاه السياسة الروسية إلى وجهة جديدة. وانتهزت فرنسا هذه الفرصة فعملت على توثيق علائقها مع روسيا باتفاقات جديدة؛ واعترفت الحكومة الأمريكية لأول مرة بحكومة السوفيت. ونظمت المبادلات التجارية بين البلدين؛ واتجهت بريطانيا العظمى إلى توسيع نشاطها التجاري في روسيا؛ وفقدت ألمانيا بذلك دعامة سياسية قوية ومصالح اقتصادية خطيرة. وكان في وسع الوطنية الاشتراكية أن تحرص على علائق ألمانيا وروسيا من الجهة الخارجية، وأن تمضي في نفس الوقت في كفاحها ضد الشيوعية داخل ألمانيا على نحو ما فعلت الفاشية الإيطالية، ولكن الظاهر إن الوطنية الاشتراكية الألمانية لم تعرف بعد أن تفرق نزعاتها الشخصية وبين مصالح ألمانيا العامة، وأنها لا تتمتع بذلك الإتزان الذي تمتاز به الفاشستية الإيطالية رغم صرامتها.

هذه خلاصة الظروف والأدوار التي تقلبت فيها الوطنية الاشتراكية الألمانية. وهي تعمل حتى اليوم كثيراً لألمانيا، ولكنها عملت كثيراً لإثارة الأحقاد الجنسية والقومية، وسحق الديمقراطية والحريات العامة. وقد أثارت بذلك كثيراً من الخصومات على ألمانيا، وأساءت بوسائلها المثيرة إلى هيبة ألمانيا وسمعتها، وأفقدتها كثيراً من العطف العالمي، وجمعت كلمة الديمقراطية ضد ألمانيا في خصومة موحدة مشتركة، وبدت الفاشستية الإيطالية للعالم اليوم، بعد الذي شهده من جموح الوطنية الاشتراكية الألمانية وعنفها، أجدر بالتقدير والاغضاء والتسامح من وليدتها.

تم البحث

محمد عبد الله عنان

الفن المصري القديم

- 1 -

تمهيد

تؤلف الكتب، وتحبر الأوراق، يتبارى في آخراجها أبناء الأمة ذات الفن أو التاريخ. ومصر، أم التاريخ، التي نهل منها جميع الوجود، ومصدر الفن والذي غذى بنعمته ونوره العالم من مبدأ الحياة. مصر، التي هي البقعة الوحيدة التي هبط عليها طائر الفن الجميل، ونزل على أرضها وحي العظمة والعرفان، أفقر الأمم جميعا. اعتزازا بفنها وتاريخها.

وكم مجهود من مجهودات المصريين الحاضرين بذل في سبيل تحقيق تلك الغاية وتمجيدها؟! وكم هو عدد المؤلفات التي وضعتها أيدي مصرية عن الفن المصري القديم؟! وهذه جهود الإفرنج تملأ مصر بحثا ودرسا، وتغشى أرضها تنقيبا واستكشافا. ثم هذه مؤلفاتهم عن الآثار المصرية وما فيها من فن وقدرة وجمال تغمر الدنيا جميعا. بل إن في متحفنا المصري وحده مكتبة تجمع نحو تسعة عشر ألفا من بعض الكتب التي وضعت بلغات مختلفة عن آثار مصر.

الأجانب هنا وهناك، هم الذين يأخذون وحدهم بشؤون تاريخنا. وهم الجادون في دراسة

حضارتنا القديمة، ينشرون بحوثهم فيها على العالم ما كان لمصر في التاريخ القديم من فضل. ونحن، نحن الذين كنا أولى من غيرنا بتلك الدعاية واجدر من كل الناس دراسة لآثارنا وأخذاً لمعالم تاريخنا، لا نتقدم إلى الميدان بأقصر يد. ولا ننهض لاعتزاز بمجدنا بأيسر حال.

أليس هذا من بواعث الأسف؟ ثم أليست حالنا في ذلك أدعى إلى النقد والسخرية؟ نعم هناك بعض جهود مصرية، لا ننكرها. وبعض أيادٍ وطنية، على التاريخ المصري، لا يجب أن نجحدفضلها. ولكنها بضعة ضئيلة. أملنا أن تتجسم وتتضاعف، حتى تفيض على الناس خيرا.

ولعلنا جميعا، نوقن في أنفسنا بأننا مهما بذلنا في خدمة وطننا الجهود، ومهما ملأنا الأرض جدا وسعيا، ووصلنا أركان القطر ذكريات وأثارا، فلن نبلغ إلى غاية الخلود والعظمة ما بلغ أجدادنا المصريون القدماء، الذين بهروا العالم إعجاباً وإعجازاً ولقد نفخر بهم، ونعتز

بمخلفاتهم، ونشير إليهم كلما أعوزتنا الحقيقة إلى إثبات شخصيتنا، وأخذتنا النشوة بالتيه. نفخر بهم، ونتحدث بمجدهم، ولا نخجل من أنفسنا لا يكون لنا، نحن أبناء الحاضر، في ذلك فضل. بل نقف موقف الغراب الذي لبس ريش الطاووس فما كان ذلك يرفعه عن أن يظل غرابا. . .

أولئك الأجداد العظام النابهون، لهم علينا ذمة، ما أحرى بنا أن نفى دينها، ونؤدي حقوقها. فهم لم يتركوا لنا ما تركوا ليلزمونا الفخر بهم جزافا، ونحن قعود. ولكن لنكون جديرين بأن نرث عنهم ذلك المجد، وبررة بجميل ذلك التراث الموهوب فحبذا لو نعمل جميعا لوصل حلقات هذه العظمة، واضعين نصب أعيننا دائما هذه العبارة الخالدة

إن سئلنا ما تركنا ... بعدهم ماذا نجيب؟

مصدر المدنيات

كان فريق من علماء الغرب ينسبون الأسبقية في تاريخ الفن الجميل إلى الإغريق. وإنها المصدر الذي تدرجت عنه ثقافات البشر وقلما كان يعترفون بفضل لمصر.

وبالرغم من إن البحوث الأثرية والاستكشافات قد نشرت على الأفكار نورا بان الإغريق إنما أخذت قسطا كبيرا من ثقافتها عن مصر التي سبقت حضارتها حضارة الإغريق بأكثر من ثلاثة آلاف عام، فان بعض آراء المتعنتين نحو مصر ظلت إلى حين، على نكران فضل مصر وعدم اقتباس الأمم عنها.

وقد يكفي أن ندلل على ذلك بتلك الكلمة النزيه التي انصف بها مصر (السير دنيسون روس) مدير مدرسة العلوم الشرقية بانجلترا، في الكتاب الذي قدمه علماء الإنجليز إلى حضرة صاحب الجلالة فؤاد الأول ملك مصر، بأسم (الفن المصري في جميع العصور، والتي دحض بها تلك الآراء العتيقة. حيث قال: - (مصر هي مهد الفنون. ولولا بقاء كثير من آثارها الأولى حتى يومنا هذا، لقامت معلوماتنا عن التاريخ الأول للفنون على الحدس والتخمين. وكلما زدنا علما بأعمالها الجليلة تبين لنا ما تدين به الفنون المتآخرة لمصر، وزاد جلاء، خذ مثلا الأبحاث الأخيرة التي جرت في صقارة، فإنها أثبتت نهائيا إن العمود المزماري (الذي يشبه الناي أو المزمار) - تطور ووضعت فكرته بواسطة الفنانين المصريين (1) ومن جهة أخرى فان تأثير مصر في آراء البشر وأفكارهم ليس اقل شأنا

من تأثيرها في عالم الفنون وسجلاتها تعتبر اقدم كنز في تاريخ الإنسانية بأجمعها (وحينما بدأت مصر تسترعي انتباه الغرب كان شارحو مدنيتها هم رجال اللغة والمؤرخون. وأما قيمة آثارها، وما فيها من معان، فكانت من الأشياء التي تكاد لا تعرف. وقد حلت رموز الكتابة الهيروغليفية وقرأت. ولكن ما كان عندنا من تعصب موروث من ثقافتنا القديمة وتفكيرنا الحديث، عاقنا عن أن نقدر فنا كهذا الفن، كل ما فيه غريب علينا. ولقد كان حتما على عالم الفنون أن يجاهد زمنا طويلا، كي يتخلص من براثن الفكرة الإغريقية، ويقترب من آثار الفراعنة البديعة، ويلقي عليها نظرة بريئة خالية من التحيز).

وإليك كلمة أخرى، للأميرة بيبسكو، وقد يذكر القراء اسم سموها حيث تردد ذكره في مؤتمر الطيران الذي عقد بمصر أخيراً. وهي عقيلة رئيس المؤتمر - في رسالة لها

بعنوان (يوم مصر) ' إذ قالت عند ذكرها للعمود المزماري في سقارة الذي سبق الكلام عنه:

لقد وجدت مهد الفن الإغريقي. فان (إمحتب) وهو مهندس الملك (زوسر) أول من) وجاء بين كتابات المصريين القدماء إن هذا الفنان .(استعمل الحجارة الرملية في مصر رفع إلى صفوف الآلهة لقيامه ببناء الهياكل. وليس هناك ما يدعو للدهشة في ذلك، لان عليها مسحة قدسية، ولأنها اجمل بكثير من تلك المشاهدة في الاكروبول، التي تشابهها. وقد تفوقها من أنها أتم تهذيباً. ويرجع تأريخ هذه الأعمدة المصرية إلى ما قبل (فدياس) بثلاثين قرنا. (وإني لاحس، عندما انظر اليها، بذلك الصلف الذي كان يركب رؤوس ما سبقونا. وها مصر قد فازت أخيراً بقصب السبق. أما هؤلاء الذين تحيزوا للفن الإغريقي ضد الفن المصري، فيجب أن يخفضوا رؤوسهم من الخزي بعد استكشاف أعمدة صقارة).

مقدمة الأعاصير

للشاعر القروي رشيد الخوري

تعليق

كانت نفسي تجمجم منذ شهرين بكلمة تريد أن تعلن بها إلى جمهور القارئين صدور هذا الديوان منذ دفع إلي لأكتب عن كلمة في (مجلة الشباب المسلمين) - وقد أهداه صاحبه إليها -، لان بمقدمتها آراء أدين بها، واحب أن يدين شعرائنا وكتابنا بين يدي زمانا هذا؛ ولكن التواني في آخراج الفكرة حين ولادتها وحرارتها، طالما جر إلى موتها ونسيانها وخمود دواعيها، وهذا ما حدث لي بشأن الكلام عن هذا الديوان.

بيد إن كلمة الأستاذ الكبير عبد الوهاب عزام، عن هذا الديوان في عدد مضى من الرسالة قد جددت في نفسي حرارة الأفكار التي في مقدمته، مما تقاضاني أن أسرع إلى الكتابة عنها.

ولئن كانت كلمة الدكتور عزام كافية في إعطاء القارئ صورة عن وطنية صاحب (الأعاصير) وعروبيته وتساميه. . الخ. فأني أرى جمهور قراء الرسالة بحاجة إلى أن يعلن إليهم عن الأفكار التي في مقدمته النثرية، فان فيها دعوات ثائرة، من العار ألا يتردد صداها في نوادي الأدب في الشرق العربي وسط عصر الجهاد والفداء والزلزلة! وليس من الإنصاف للذي هتف بها على بعد الدار ونأى الشقة، أن نمر بها كما نمر بأية فكرة أدبية، فأننا نعتد ذلك عقوقا لهذه النفس البرة التي لم تتطرف عينها خوالب الدنيا الجديدة ولم تشغلها عن النظرة الراثية الآسية للوطن الأول. . .

وعجيب أن يكون القلب الخافق بهذه الوجيعة، والبوق الهاتف بأصواتها التي سيسمعها القارئ خلال ما ننقله من السطور، نزيل ديار فاتنة بافانين حياتها وحريتها، مما يجر إلى نسيان الوطن الأول. بينما نجد الكثرة الراقدة بين فكي الحوادث وتحت مناسمها من أدبائنا الذين يأخذ أمتهم الضغط والاضطهاد مصبحة وبالليل، نجدهم كما يقول صاحب الأعاصير: (بين متهافت على وظيفة يخسر نفسه ليربحها. . وعابد بغيا يسفح شبابه على أقدامها. . و (علاك) أوزان تمر به القوافل الحياة قطارا تلو قطار، رازحة بعبر الدهر وعظات الأجيال، وهو واقف إزاءها وقفة الغر الأبله يتلهى بتشطير أو تخميس! أو يباري في وصف ساعة

معلقة على جدار كأن ليس فيمل يجري خلفه وبين يديه من ساعات الهول وأهوال الساعة ما يحرك له خاطرا أو يهيج له شاعريه. .! أو ليس من الغبن الفاضح ومن دواعي اليأس القاتل أن يموت في الأمة شاعر فتصبح الأمة بأسرها شعراء ترثيه وتبكيه، وتموت بأسرها فلا تجد لها شاعرا يرثيها؟!) أجل أيها الأخ النازح! انه لغبن فاضح وجهل بحقوق الأمم في أعناق الرجال، وغفلة عن رسالة الشعر والأدب، وعن وصايا الأدباء على أممهم، أن يهمل المتأدبون ناحية الجهاد في هذه الحقبة من تاريخ العرب، وان يعكفوا على أدب الخليين الذين يذهبون إلى إشباع الحاسة الفنية فيهم لا غير. . . وإني لأفهم قلم الشاعر والكاتب، ولسان الخطيب، في عصرنا هذا، يجب أن تشيع في منتوجه ألوان من آلام أمته، وأن يخلد من وقائع جهادها صورا تتيح للأجيال المقبلة أن ترى فيها حياة الألم الذي يأكل إحساس الجماعة المثقفة في هذا العصر لأنهم بشاعريتهم المصقولة، واحتكاكهم بالزمن، وتيقظهم لمروره يعكسون صور من يدركون من الحوادث بوضوح واستيعاب، فإذا حولوا هذه الحساسية المصقولة إلى

حياة المتاع واللهو والخلو، فقد تضيع معالم هذه الحقبة من تاريخنا أو تنبههم، فضلا عما يصيب إحساسنا القومي من تبلد ونزوع إلى حياة المتعة حيث الكتابات الداعية إليها تأخذ على عين القارئ مسالك الصحف. وفي هذا خسران الروح المعنوية في عصر الجهاد، وفي ذاك خسران أيضاً لأننا في جيل انتقال أحوج ما نكون إلى تسجيل الأحداث مع المشاعر التي تصاحبها ولن يسجل المشاعر إلا شاعر.

ولن يستطيع الداعون إلى بناء الوطن العربي أن يخلقوا في نفوس الشباب حرمة له ما لم يأتوا إليهم من طريق الجد والمرارة! فانهم يستطيعون حينذاك يشيدوا البناء بنجوم السماء!

والآن أضع بين يدي الرسالة نص مقدمة (الأعاصير) لتنتقي من أفكارها ما تتسع له صفحاتها ومنهاجها، ولو إن الأمر إلي لوضعتها كاملة تحت عين القارئ ليرى ذلك القلب الخافق رحمة لأمته، والصوت الصارخ لآلامها، والقلم الوفي لقضيتها.

أما بعد فأني كتبت ما تقدم قبل أن اقرأ المقال الذي كتبه صديقي الأستاذ الأديب علي الطنطاوي الدمشقي في عدد مضى من الرسالة والذي ينعى فيه على أدبائنا الذين لم يعرفوا حتى القومية في عصر الجهاد والذين اعتنقوا الأدب للفن لا للحياة. . وقد عجبت لهذا التوافق في ظهور هذه الأفكار بينه وبين صاحب الأعاصير.

ويلوح لي إن الأمر جد، وان زمان ظهوره قد شأنه المقادير، وان هذه الدعوة يجب أن يلقى التبشير بها ما له الاعتبار عند أدباء العربية، وانه يجب أن ترسم الخطة التي ينبغي أن يتجه إليها أدب أمة تتنزى ألما في السياسة والاجتماع.

وإني لاستقبل المغرب وأرسل للشاعر القروي تحيتي حارة خالصة لا يطفئ من حرارتها عبور ما بيننا وبينه من ديار وقفار وبحار. ثم استقبل المشرق فاحيي صديقي الأستاذ الطنطاوي تحية طيبة. ومنى نفسي أن يكون لهذين الصوتين المنبعثين من مشرق الشمس ومغربها، صدى بالغ إلى القلوب قراء الرسالة.

المقدمة

هذه الأعاصير! وهي مختارات من شعري الوطني، نحيتها عن سائر أشعاري لتعصوصف في جو وحدها. إنها خواطر جامحة، وأفكار ثائرة، بلورت من صراعها في صدري مع أخواتها الوادعات، ما أشفقت معه أن اجمع بينهن في كتاب، يسمنه من تنابذهن وحراشهن ما سمني من عذاب. ولم أخصها بالنشر، على ما فيها من شدة وعُرام، قبل مختلف المواضيع التي يشتمل عليها ديواني، إلا لاعتقادي أننا إلى ما يبعث فينا الأثرة ويقوي العصبية، أحوج منا إلى ما يزيدنا حباً للإنسانية، وإصلاحا للبشرية.

هذه آيات أنبيائنا وأسفار حكمائنا، تشهد بان لنا من فيض العاطفة الاجتماعية، وحرارة الروح الإنسانية وسطوعها، ليس لسائر الأمم بعضه، ولكن هذا الذي أردنا به السلام للعالم يعمل به أحد سوانا فلم يهد الناس شيئاً وعاد علينا نحن وبالاً شديداً فلقد وزعنا الحب على أهل الدنيا، حتى لم يبق لنا منه فضلة لذواتنا، ولقد بلغنا من إنكار النفس والتطوع بخدمة الغرباء مبلغا جاوز بنا رياض فضيلة الكرم، وشرف التضحية إلى سباخ التمرغ والذل والدناءة. إننا اسلس المطايا قياداً، والينها شكيمة، واحنها ظهرا، وأتعسها مركبا، بل نحن صيد شهي سائغ، ليس اقرب منه منالاً ولا اسهل منه مأخذا، فبدلا من أن يتكلف القانصون مشقة نصب الفخاخ لنا أو مطاردتنا ووهقنا، باتوا وجهادهم محصور في كيف يتقون تهافتنا عليهم، ووقوعنا على اقدامهم، كما يدفع الرجل كلبه عنه حذرا منه على لباسه، لفرط ما يرى من تحببه إليه وتوثبه عليه.

أما والله لو كنت شاعرا فرنسيا أو إنكليزيا لحبست النفس على التبشير بالسلام، ووقفت القلم على الدعوى إلى الرافة والحنان. لأن الرافة والحنان زينة الأقوياء. أما وأنا سوري، ومن لبنان، فإني لا غرض لي في الحياة اشرف من دعوة شعبي إلى بغض الشعوب، ولا مثل عندي أعلى من استنهاض أمتي لمحاربة الأمم. وانه لبغض أسمى من الحب! وإنها لحرب اقدس من السلم! فما دمنا عبيدا ضعفاء فدعوتنا العالم إلى الإسلام ليست من الفضيلة في شئ اكثر من فضيلة العفو بغير اقتدار، حجة الذليل اللئيم! فلنصافح السيوف! فإذا تحررنا فلنصافح الأعداء! نحن نحب أوربا، ولذلك يجب أن نبغضها أولاً! نبغضها لنحاربها، ونحاربها لنتحرر منها، ونتحرر منها لنستطيع خدمتها بأحسن مما تخدم نفسها. نحن اصح الخلق أبداناً وأرجحهم عقولاً، وأحسهم أرواحاً، فلو

فكت عنا أغلال القوة الغاشمة لسبقنا العالمين في مضامير العمران، ولأسبغنا على العلم من دماثة أخلاقنا ما يروض أوابده ويصرف أعنته على اكمل وجوه الخير والصلاح. ولكننا، دون هذه الأمم الحرة أمة شلتها قيود التقاليد الرثة والتعصبات المقيتة، كلما فتحنا عيوننا على عيوبنا وحاولنا تحطيم أصفادنا لتسري فينا الدماء، ونعود فنعد في الأحياء، احكم الظلم وثاقنا، وضاعف إرهاقنا وألقى بنا في مطارح الخسف والهوان، طرحك الخرق البالية في القمامات!

فيا أبناء وطني - لكم تجدون بينكم من دعاة الاستعمار، نفرا يدعون الحكمة ويتكلفون الوقار - يجلس واحدهم جلسة الوثن متر صنا جامدا، كأنما ركز المصور أو المزين رأسه على شكل لا ينحرف عنه. ثم يبسط كفيه على ركبتيه، ويزوي بين عينيه، ويقول خافضا صوته: - مالكم ولهؤلاء الشعراء، إن هم إلا صبية أغرار، يحرضونكم على المطالبة بالحرية، ولا سلاح لديهم غير ألسنتهم وأقلامهم، فيجلبون عليهم النقمة ويسوقونهم إلى الهلاك. . . إلا اعرضوا عنهم! كلوا أمركم إلى ولية الأمر فيكم، إنها أمكم الحنون، وحاشا لامكم الحنون أن تريد بكم شرا. . . إنها تهي لكم خيرا جزيلا. تدربكم على الحرية، فإذا صرتم لها أهلا وهبتها لكم لوجه الله لا تبغي أجراً ولا شكورا، فأسعفوها في إصلاح نفوسكم تستقلوا، فالاستقلال رهن بأهليتكم، ووقف على استحقاقكم. إلى ما شاكل من عظات تخثر النفوس وتوهن العزائم، وتطفئ جذوة الحماسة في الصدور - أما أنا فأقول لكم: يا أبناء وطني لا يؤهلكم للاستقلال إلا الاستقلال نفسه. نفوسكم ضائعة. نفوسكم مغصوبة.

جدوها أولاً واستردوها ثم أصلحوها! فانتم مسؤولون عما لا تملكون؟

إن هؤلاء المضللين يلهونكم عن السعي إلى تحقيق مطلبكم الأسمى، ببهرج من وعد، وزيف من رجاء، لتلبثوا حيث انتم أو تمشوا القهقري. انهم يحاولون إقناعكم بأن العبودية وسيلة إلى الرقي، والرقي وسيلة إلى الاستقلال. انهم يعدون الجائع بقميص، ويمنون العاري بكأس ثليج، أرأيتم منطقا أسد من منطق المستعمرين؟ يا أبناء وطني! الاستقلال رهب من حمام، وطب من سقام، كما إن النقه درجه بين الداء والصحة، هكذا الحرية مرحلة بين العبودية والمجد. الاستقلال غاية بالنسبة إلى الرقي الذي انتم فيه، ووسيلة بالنظر إلى الرقي الذي تنشدون، فمزقوا هذه العصائب وحطموا هذه القيود ثم رودوا نجع الإصلاح، وحاضروا في أشواط الفلاح، فلا هدى للعميان، ولا عدو لمقعدين.

ولقد يقول الناقدون، ما شأن السياسة في الشعر؟ إن الشعر لأرفع من هذه الأباطيل. انه تنكب عن أغراض الدنيا وأعراض عن سفساف الحياة، وتلمس للمثل الأعلى. ثم يقولون من ناحية أخرى؛ - الشعر الحقيقي هو ما مثل الحياة اكمل تمثيل، والشاعر العظيم هو صورة محيطة الناطقة. هو دليل أمته الذي يتقدمها كعمود النور في ليالي محنتها رافعا لواء الحق. هو بشيرها في الشدة ينعشها في الرجاء. ونذيرها في الرخاء يقيها مزالق البطر. فنقول لحضرات الناقدين: - أنا إذا وإياكم لجد متفقين، ولا خلاف بيننا إلا أن ما نسميه نحن وطنية أخطأتم انتم فدعوتموه سياسة. إننا في هذا الشعر لم نخض معارك انتخاب، ولا تدخلنا في أحزاب، ولكننا جهرنا بالحرية وناديناً بالاستقلال، وطالبنا بالحق ونشدنا العدل والحرية والحق والعدل ليست من أباطيل الحياة كما تزعمون، ولكنها من اشرف مبادئها وانبل غاياتها ولقد عبرنا في شكاوينا المحرقة عن اعمق جراحات امتنا المطعونة في صميم عزتها وإبائها، وأعربنا في صيحاتنا عن أسمى ما تغامر بلادنا في سبيل استرداده من شرف مروم، كما فوق النجوم، فبات سحيقا تحت أقدام الغزاة وسنابك خيل الغاصبين.

أما ذلك الشعر الذي تضحك فيه الحياة، وترن قوافيه بالحان الحب والغزل، وتعبق أنفاسه بنفحات الشباب، فله ساعات تخلص فيها النفس من أعبائها وتتناسى إلى حين ما هي فيه من شقاء، وقد اتفق لنا منه قدر معلوم سننشره في كتاب وحده، ولكنه على كل حال ليس

بالشعر الذي يتسم به أدب أمة مقهورة كأمتنا الراهنة، انه لدولة مرفوعة لواء المجد ممدودة رواق العز كدولة أجدادكم في الشام وبغداد والأندلس لا كدولة الانيار التي تحتها ترزحون، والأصفاد التي حديدها ترسفون.

إن صراخ سوريا وعويلها يكاد يقض مضاجع النائمين في المريخ ودخان غيظها يوشك

أن يبطن القبة الزرقاء بقبة سوداء، أفتريدون منا أن نخرج المعجزات فنسمعكم همس الأزهار وسط هذا الضجيج، ونصور لكم ألوان الشفق وراء هذا القتام إن لم نكن غرباء الشعور عن هذه الأمة وإن لم تكن بعيون غيرها نبصر، وبآذان غيرها نسمع، ومثل غيرها ننشد؟ ألا على رسلكم أيها الناقدون! فأما أن تأتونا بغير هذا الإفلاس الوطني آية وإلا فحسبكم تضليلا.

وهبوكم لا تؤمنون بغير الأرض وطنا، وغير الإنسانية عشيرة، أفتعتقدون إن الأرض قد صارت جنة والناس فيها ملائكة ينعمون؟ وإذا كنتم ولا شك تشعرون بفقرها إلى الإصلاح فلماذا لا تباشرونه من اقرب أقطارها إليكم؟ إن الذي يغضب لحق هضم في الصين أولى به أن يناضل لدفع حيف نزل ببلاده، والذي ينفر إلى نصرة مظلوم في آخر الدنيا لحري أن يذود عن ضعيف يصرعه البغي بين شماله ويمينه! إن الحرية هي الحياة بمعناها الشريف وهي أول حقوق الإنسان، فهل من شروط حبكم للإنسانية أن تنكروا الحياة على اقرب أبناء الإنسانية إليكم؟ ألا فاشتروا لوجوهكم براقع أيها المراؤون أو فاستروها بأكفكم خجلا! إن الذي لا يستطيع أن يحب نفسه وأهله فلن يحب من الناس أحداً.

يا أبناء وطني! ويقول لكم صنائع المستعمرين نحن مثلكم نحب الحرية ولكن اين عدتكم للحرب والصدام؟ أين مدافعكم وأساطيلكم وطياراتكم وغازاتكم الخانقة؟ فأقول للرعاديد لا تحتجوا بحاجتكم إلى السلاح فانتم إلى الآباء وعزة النفس أحوج! اشعروا أولا بهوانكم واغضبوا لكرامتكم فإذا فعلتم فأنا الكفيل بأنكم تجدون غير هذه الجبانة جواباً لمن يسألكم أين عدتكم للحرب والصدام! فوالله إنكم بطول نومكم على هذا الضيم واستكانتكم لهذا الذل قد برهنتم على إن اصبر الناس على الكريهة! فلماذا تتقون الحرب؟ أو تخافون موتا شرا من الموت الذي انتم فيه؟!

أفأنتم أكلف بالسلام من مسيح السلام؟ أأنتم أودع من حمل الجلجلة؟ أما غضب فانهال

بالصوت على الصيارفة وباعة الحمام يطردهم من الهيكل غيرة على بيت أبيه؟ فبربكم أيها الشياطين الأتقياء كونوا آلهة أشرارا ولو مرة واحدة وذودوا عن بيوت آبائكم وأجدادكم! وإذا كان يشق على أيديكم الحريرية الناعمة أن تجلد بالسياط أو تضرب بالسيوف فحاربوا بسعف النخل وأغصان الزيتون! حاربوا بالسهام! حابوا بالغندية! إن الشريف لا يعدم سلاحا ينافح به عن الحق، أما الجبان فيموت الحق شهيدا بين سمعه وبصره وهو في غاب من بنادق وحراب. ألا ليت الجبان كان لعينا يزجر الطير ويفزع الثعالب فان هذا اللعين يخاف كل شي ولا يخيف أحداً!. . . . . الشاعر القروي.

إبرة المغناطيس

للدكتور عبد الوهاب عزام

جلست إلى مكتبي البارحة، فوقع بصري على (بيت الإبرة) فانفتحت أمامي سبل من الفكر لا تحدها غاية. واني إذ أحاول أن أقيد هذه الفكر على القرطاس لمَحاول أن أسلسل بهذه الأحرف خطرات الفكر الخاطفة التي تطوي الأجيال والأقطار في لمحات. وتجمع السماء والأرض في طرفة عين:

قلت ما اعجب هذه الإبرة! إنها هادية لا تضل، عارفة لا تخطئ. تنتحي الشمال مهما أدرتها عنه، ولا تنسى عهد المغناطيس مهما أبعدتها منه. ومهما جمعت عليها من الحجب والظلمات، وأضعفت لها في المسافات، فهي مولية وجهها شطره محسة جذبه، موصولة به، خبيرة بوحيه، لا تنساه ولا تشرك في هواه. ليت شعري أأهدى من الإنسان هذه الإبرة الصغيرة! اجل إنها لتهدي الإنسان في البر والبحر والسفر والحضر.

أحسست حينئذ خفقان قلبي يذكرني إن في صدر الإنسان إبرة أخرى مرشدة هادية، تتوجه شطر معدنها أبداً ولا يصدها عنه تطاول الأمد وبعد المدى.

ألم تهد هذه الإبرة الأمم في ظلمات الجاهلية، وغيابات القرون، فعصمتهم على العلات من الهلاك، وأخرجتهم إلى النور على تكاثف الظلمات ولا تزال هادية بصيرة بالغاية، خبيرة بالسبيل إليها - كم عبدت الإنسان شهواته؛ وأضلته عن الخير مطامعه. فما زالت هذه الإبرة تضطرب في صدره حتى اهتدى سبيل النجاة، ووضع على هداها منار الطريق. كم طغت بالإنسان ضغائنه وأحقاده، فما زالت هذه الإبرة تخفق في جوانحه حتى عرف إلى الحب والألفة والمودة السبيل، واستقام على النهج لا يميل. وكم غلا

الإنسان في ظلمه وعدوانه، فما زالت تتحرك في أضلاعه حتى أشعرته نفسها ثم ردته إلى خطة للعدل محمودة، وسبيل إلى الإنصاف رشيدة. وكم غدر الإنسان ثم اهتدى بها إلى الوفاء فندم على ما قدم، واغتبط بما اهتدى. وكم أجرم الإنسان فوخزته فأفاق، فكأنما صور خلقا آخر ينفر من الإجرام، ويركن إلى السكينة والسلام. وكم سفلت بالإنسان سجاياه، فعملت في صدره حتى سمت به إلى العلياء، وطارت به من الحضيض إلى عنان السماء. وكم وقفت بالإنسان همته فدفعته هذه الإبرة العجيبة فمضى قدما إلى العمل، وهمزته فداب لا يعرف الكلل. وكم اظلم على الإنسان طريقه، وعميت عليه أرجاؤه. وأطبقت عليه سحائب سوداء، وأحاطت به ظلمات لاشية فيها من الضياء، فنظر إليها فإذا هي إلى الغاية دليل، وإذا هي على الظلمات قد استقامت على السبيل - وكم حارت بالإنسان آراء مظلة. وأفكار غائلة، وأقوال ساحرة، ملما هلك أو كاد، ودارت به الحيرة والإلحاد، أحس اضطرابها في نفسه فسكن، فتهافت الآراء وتهاترت الأقوال، وثاب إليه هداه فوجد أمامه الله.

إيه أيتها الإبرة الهادية! ضل الإنسان في صباه وهرمه، وجهله وعلمه، وسعادته وشقائه، ووحدته واجتماعه، وحله وترحاله، لولا هداية من الله فيك. وبصيص من نوره في نواحيك، وصلة به لا تنقطع، وشعور به لا يضل، وجذوة من حبه لا تخمد.

وأما الذين أضلتهم الأهواء، فعميت عليهم الانباء، وتخطفتهم في الحياة المآرب، فتذبذبوا بين شتى المذاهب. وشرق بهم مطمع وغرب آخر، وتلونت لهم غيلان من الآمال والأعمال، والذين فقدوا أنفسهم وهم لايشعرون، وظل سعيهم وهم يحسبون انهم مهتدون، والذين يلبسون كل يوم دينا، ويبدلون كل حين رأيا، ويلبسون لكل دولة وجها، ولكل سلطان زيا، ويتخذون لكل ساعة لسانا، ولكل فرصة وجدانا، فأولئك اغفلوا النظر إليك فحرموا الاهتداء بك، بل أولئك في إبرتهم خلل قد عرض، أو أولئك في قلوبهم مرض.

عبد الوهاب عزام

الجمال الطبيعي والفني

للأديب الإنجليزي كلاتون بروك

-

عن كتابه (مقالات في الفن

للطبيعة جمالها وللفن جماله، وقد بذلت مساع كثيرة لإيضاح الفرق بين الجمال الفني والجمال الطبيعي؛ لكن نظرية (سيجنرجروس كثيرة الأنصار اليوم، وهي تقول: (إن الطبيعة تمد الفنان بالمواد الأولية فقط، وان الشعور بجمال الطبيعة هو مبدأ التدرج الفني، وان عقل الفنان موجد الترتيب والتناسب في الطبيعة المهوشة، وان الناس جميعهم قادرون على إيجاد هذا الترتيب ولكن بدرجة محدودة. أما الفنان فيظهر هما اكثر جمالا وكمالا، الفنان قوي الإحساس يستطيع أن يصنع الجمال الذي يحسه، الاحساس جزء من الصنعة).

ويقول جروس: (إذا كان الفنان يصنع جمال الطبيعة بشعوره به، وإذا كان من الممكن أن يتولد هذا الجمال بعمل عقله، يكون جمال الطبيعة حينئذ من نفس الجمال الذي يظهر في فنه، ثم إذ ظهر لنا أن فن الفنان يختلف عن جمال الطبيعة فما ذلك إلا لأننا أنفسنا لم ننظر جمال الطبيعة كما نظره الفنان. ولأننا لم نحول كل التهويش إلى ترتيب. واعلم إن هذا الاختلاف بين عمل الفن وعمل الطبيعة ليس اختلاف نوع بل اختلاف قدر، وانه لا اختلاف في الحقيقة بين جمال الطبيعة وجمال الفن لا في النوع ولا في القدر. إن ما يصنعه الفنان يرى، وما يراه يصنعه، كل الجمال فني، وان حديثك عن جمال طبيعي حديث خرافات).

رغما عن (جروس) وكل حذقه وما في نظريته المتطرفة من حق لا يمكن أن نعتقد أننا نصنع الجمال حينما نراه، وان الفنان يصنعه حينما يحسه، ولن نعتقد إن الجمال الذي يصنعه هو من نفس طبيعة الجمال الذي شعر به، ولا هو مثلنا ـ يقدر الجمال الذي يحسه حق قدره لأنه يعلم إن لابد له من صنعه، وانه شئ مستقل عن نفسه. الفن ليس اكثر من تأثر عقل الفنان

بجمال الطبيعة، وعلى قدر ما في العمل الفني من عاطفة وإحساس يكون ما فيه من جمال.

إذا عرف الفنان إن الجمال الذي يحسه هو نتاج عقله، لا يستطيع بعدها أن يقدره حق قدره، وانه إذا تمسك بنظرية (جروس) خرج عن كونه فناناً واصبح ذا صفة أخرى ; لا شئ يقتل الفن مثل الجري وراء إيجاد جمال من نفس طبيعة الجمال الذي نراه في الطبيعة. نشاهد في جمال الطبيعة في الإتقان، وأنها كذلك غاية في الإتقان ; لأنه لا يوجد في الحقيقة ثمة صنعة، الأشياء الطبيعية لم تصنع وإنما ولدت، اعمل الفنالتي صنعت والأشياء التي ولدت، ثم بين جمال هذه وجمال تلك.

لابد وان يظهر في كل من الأعمال الفنية جهد الصنعة ونقصها وخشونتها، وان هذا الجهد والنقص والخشونة إنما هو في الحقيقة روح جمال الأعمال الفنية وانه هو الذي يميزها من جمال الطبيعة، وحالما يمتنع الناس عن فهم ذلك ويستخفون هذا الجهد والنقص والخشونة، تراهم على الغالب لا يظفرون حين يطلبون من الفن الجمال الطبيعي بغير جمال ميت.

يمكننا أن نفهم احسن فهم الفرق بين نوعى الجمال إذا نحن تدبرنا كيف ينسل الجمال في اللغة، هذا الفن الذي نمارسه جميعنا قليلاً أو كثيرا، والذي يصعب فيه الم يكن مستحيلاً تقليد غاية الجمال الطبيعي؛ لا يوجد جمال في جملة: (سينال المعتدين جزائهم) لأنها تؤدي المعنى المراد تماما بلا زيادة ولا نقصان، ويوجد جمال في مثل جملة (ليال سرقناها من الدهر. . .) لان فيها، وان كانت تظهر أيضاً غاية في البساطة، يحاول الشعر إن يقول اكثر بألف مرة مما يستطيع أن يقوله، إن السعي في عمل ما هو خارج عن طاقة الكلمات هو الذي يحمل الجمال إلى الكلمات؛ تلك هي طبيعة الجمال الفني التي بها يتميز من الجمال الطبيعي، الأعمال الفنية هي دائماً وليدة السعي لتمام المستحيل، لإتمام ما يعرفه الفنان انه مستحيل، وانه حينما لا يوجد هذا السعي، حينما يكلف الفنان نفسه عملاً في وسعه اتمامه، عملاً لا يدل على غير المهارة، حينئذ يخرج عن كونه فناناً. يقول (جروس) إن شعورنا بالجمال يتوقف علىقوة إحساسنا بعظمة الأشياء، هذا صحيح؛ غير إن قوة إحساسنا هذه تبقى قوة إحساس غير قادرة على صنع ما تحسه! إن الفن ليس مجرد اتساع طريق الشعور كما يزعم (جروس)، وإنما هو تجربة عمليه لإظهار مقدار شعور رجل الفن. فن الفنان جواب لجمال الطبيعة وعبادة له.

الفن إيضاح حالات خاصة، حالات إعجاب وتقدير، هو التسليم ببعض أشياء اعظم من الإنسان وحيث لا يوجد هذا التسليم يموت الفن.

إن هذا الفرق بين جمال الطبيعة وجمال الفن لا يرى في الجمعية التي تعتقد أنها تستطيع إن ترفع سماء بمهاراتها وعلمها وحكمتها، إن الفن في مثل هذه الجمعية يفقد كل خواص جمالة. إن الرجل الذي يتطلع إلى الكمال في الفن إنما يخدع نفسه إذ الكمال لله وحده، ولا ريب إن من عرف الله حق المعرفة اصبح شبيها به وأمكنه أن يكون الجمال مثله، ولكن أبى للإنسان ذلك، بل إن العجز ليجعله غير قادر على إتمام موضوعاته التي توحي إليه بها معرفته الله، معجبا بسمو لا يد له فيه؛ وهكذا نرى النقص باديا في كل جمال فنى ليس في الفكر فحسب، بل في العمل أيضا، وأنه لنقص يحسبه خيبة وشناعة أولئك الذين يتطلعون إلى مسمى الجمال الطبيعي في الفن والى الواقع رؤيته نظريا لا صنيعاً، مثل هؤلاء.

يفشلون أبداً في العمال الفنية العظيمة لما يعروهم من قنوط وكد وجهد؛ انهم موازين قدرة الإنسان واعترافه بالعجز في إن واحد؛ بيد إن هذا الاعتراف القائم على الصدق والإخلاصإن هو إلا الجمال بعينه، وأن الصفاء ليبدو في جمال الفن أبداً ولكنه صفاء الإذعان لا صفاءالرضى، صفاء القداسة، وليس لصفاء التجمل، إن العظمة غير المحدودة في كل ما يأتي به الفن ليست سوى اثر مهارة يلدها سعي الفنان الدائم ليعمل اكثر مما يستطيع. ليس للفنان أن ينشد مجرد الثناء وتصفيق الاستحسان بل يجب أن يعبد أيضاً وان يبدع ما يقدمه بين يدي عبادته، ذلك خير وأبقى، ليس الرعاة وحدهم الدين تقدموا إلى قبر السيد المسيح بل الحكماء أيضاً جاءوا يحملون إليه كنوزهم، وفن الإنسانية إنما يكون بآثار حكمائها، بل هو عبادة المجوس اكثر الناس بساطة في عبادتهم.

ايها الحكماء لقد قطعتم كل طرق المعرفة وانتهى بكم المطاف إلى حيرة الراعي؛) التي عندما تقف حائرة وتتوجه معرفة الإنسان (ولكنها الحيرة التي لا تذهب بالحكمة ومهارته وكامل شعوره إلى الإقرار لما هو اعظم من الحكماء أنفسهم يكون ذلك الإقرار هو الفن، له من الجمال ما يفوق جمال الطبيعة القدسي.

الحقيقة. . . والخبز!

للأستاذ علي الطنطاوي

كانت ليلة باردة. تزأر فيها الرياح زئيرا مرعبا - ويهبط فيها البرد مجنونا، فيصطدم بالنوافذ والجدران. ويكون لوقعه على نافذة النادي الوطني في تورينو (في بيه مونت) صوت كصوت الطبل. وكان النادي خاليا تلك الليلة إلا من نفر جاءوه على رغم هذا البرد. . وتجمعوا حول الموقد يحتسون الخمر، حتى إذا كان اكثروا من الشراب، واثقل رؤوسهم جو النادي الثقيل، المليء بالدخان، استرخت أعضائهم، وتمددوا في كراسيهم، يتجاذبون أطراف الأحاديث في فوضى واضطراب. ولم يكن فيهم مصغ، بل كانوا جميعا متحدثين صاخبين. .

ورأى خادم النادي تثاقلهم عم الذهاب، فعلم انهم لا ينوون براحا قبل الصباح. فمشى إلى الباب على حذر، ثم أغلقه دونهم وخرج وهو يذهب عنقه في كتفيه، ويتنفس الصعداء. وهرول يريد بيته وعياله.

ولبث القوم على صخبهم حتى صاح منهم (دافئ):

- هو. . . ألا ترون هذه الفوضى مضجرة؟

وكأنما نبههم بصياحه فأنصتوا. وقال صولين

- وماذا تريد؟

- أريد أن اشرب قدحا آخر على روح الدكتور!

فتبسم صولين ضاحكا من قوله، وانبرى له بيبر بحدة كالذي لدغته عقرب وقال:

- أتعود إلى ذكره؟ لقد ذهب إلى الشيطان!

- ولكنه كان مخلصا

- نعم، كان مخلصا للنمسا (عدوة الوطن) للنمسا التي عاش سبعة اعوام يتلقى العلم في جامعاتها، ويتلقى معه بذور الخيانة للبلد الذي أنشأه، حتى إذا عاد أنكر هذا البلد الذي غادره، طيعا هادئا؛ يؤثر السلم والطمأنينة، ولو في ظل الأجنبي الغاصب، على الجهاد في سبيل الحرية، فوجده حين عاد متيقظا قد غمرته الروح المقدسة، روح الجهاد من اجل الوحدة الإيطالية، وانتشرت فيه كالسيل الجارف الذي لا يقف أمام شيء، قد آمن بها الرجال جميعاً، وتخطت جدران المنازل فاعتنقها النساء، وجازت أبواب المدارس فاستقرت في نفوس الأطفال، ودخلت قصور الحكومة فأحست بها، ووقفة منها موقف الصديق المرحب، آملة أن ترفع لها راية حمراء، تقود الشعب تحتها لانتزاع حرياتها من فم الأسد، من النمسا! وجد الدكتور ذلك فهاله وعمل على محاربته، فسقط في الميدان صريع خيانته.

- لا تقل خيانة. إن إلقاء محاضرة علمية عن قيمة الإمبراطورية الرومانية لا يعد خيانة. وحسب الدكتور أنه أرضى ضميره العلمي. وأظهر تاريخنا للناس مجردا من ثوب الغرور الوطني.

- انه خالف الحقيقة. فروما سيدة العالم لا يمكن أن تكون من عنصر العالم. هي من أسمى. هي أم الشعب المختار.

- لو كانت كذلك، لما انقرضت، الصلح يبقى أبداً. . .

وعلت الأصوات. حتى صارت المناقشة ضجة جوفاء. . فأسكتها صولين. . وقال بهدوء.

- وماذا يعنيكما من الحقيقة حتى تتقاتلا من اجلها. مهما تكن حقيقة الإمبراطورية الرومانية (فالغرور الوطني) خير منها. ما دام هو السبيل إلى حياتنا واستقلالنا.

فصاح به دافي:

- هذه أراء خطرة؟ قل لي من ذا الذي لا تعنيه الحقيقة؟

- الجائع المشرف على الموت ان الحقيقة الواحدة هي في النظرة الرغيف، ورغيف يابس ابلغ لديه من كل حوت مكتبة روما.

- قد يكون ذلك، ولكن الحقيقة تبقى لها قيمتها.

عند من تبقى لها هذه القيمة؟ انك لم تفهم ما قلت؟ إن الحقيقة يهتم بها ويفكر فيها - من يشبع من الطعام. كما يفكر في الحلوى ويتشهى الفاكهة. أما الجائع المشرف على الموت فينكرها. لا يحس بوجودها. يصبح عقله في معدته. أفهمت؟
ولاحت على شفتي ابتسامة تهكم خفية، إغتاظ منها دافي فقال بحنق:
- وماذا تعني؟
ثم بدا له إن هذا الحنق انهزام منه فتكلف الوقار وقال:
- وضح كلامك من فضلك.
- كلامي واضح، فإذا لم تتبنه فليس الذنب على. اعني انه يجب على الإنسان أن يعيش ثم يتفلسف. كما قال المثل اليوناني. وكذلك الامه، لتستقل أولاً وتبن لها كيانا قائما ثم تبحث عن الحقيقة. أما البحث عن الحقيقة أولاً فجريمة!
- ولاكن إذا لم نراع المبادئ الأخلاقية في بنائنا كياننا قام على مبدأ الوحشية. وارتكز على عظام غيرنا، أفنبني كياننا على عظام الأبرياء؟
- إذا لم يوجد غيرها. فلم لا؟ إذا لم يكن بد من قتل أحدكما فكن أنت القاتل.
- ولماذا؟
وظن انه سيعجزه بهذا الاعتراض. وخالطه الاشمئزاز من آراء صولين والشعور بأنه يفوق علما وذكاء فمط شفته السفلى متهكما وردد:
- ولماذا بالله؟
لماذا؟ لأن حياتك اثمن من كل شيء. ولأن تنال حيات وحشية خير لك من أن تعدم الحياة.
- ولكن الفضيلة.
- لا دخل للفضيلة في أمر الحياة - إن الفضيلة والعدل والحقيقة والجمال الفني - كل أولئك وسائل ابتدعها الإنسان إلى ترف الحياة واستمرارها قوية، فإذا استحالت وسيلة إلى فقد الحياة فلتذهب إلى لعنة الله.
- وماذا تقول في مبدأ الإنسانية؟ وكيف يتفق ودعوتك إلى قتل إخواننا من البشر؟
- أنا لا أدعو إلى قتل أحد. ولكن من أراد قتلك فلا تقف منه مكتوف اليدين، أما مبدأ الإنسانية فلا أنكر انه من اجمل (السخفات) التي اخترعها الأقوياء لتكون قيدا جميلا، يقيدون به الضعيف.
- أتقول انه (سخافة)؟ يا لله! لست أطيق سماع أرائك الشاذة.
- أولاً تظنها كذلك؟
- من؟ أنا؟ أبداً!
- وتراها حقيقة؟
- طبعا
- وترى البشر كلهم إخواننا؟
- بلا شك
- إذا فأنت أيها الإيطالي أخو النمساوي الذي غلبك على بلادك ونازعك على خبزك واتخذك عبدا له؟ لا أحسبك من البلاهة بحيث تقول إن الجلاد الذي يعذب السجين ويشوي جلده بالسياط هو أخوه
- انك تهدم الأخلاق من أساسها!
- ذلك خير من أن تنهدم أمتي التي تبني الآن. ولست من رأي الدكتور الذي بحث عن الحقيقة في شعب يبحث عن الخبز. وقد يأتي يوم يصبح فيه من الشهداء. ينصب له تمثال. أما الآن فليس إلا خائنا.
ولم يعد يطيق البقاء بين هؤلاء السخفاء الذين يذبحون أمتهم بسيف من الذهب. فخرج من النادي والسماء تهبط على الأرض في رعد وبرق، ففتح فاه ونشق الهواء الطلق، وصاح صيحة النشوان:
- بهذه الثورة السماوية، تكون حياة الأرض. .

قد يكون من بعض الأسباب التي يقوم عليها عذر أولئك المنكرين لفضل الفن المصري على انه أساس الفنون الأخرى، إن الفن المصري هو فن فذ، ذو أسلوب فريد يختلف عن بقية الفنون، يجعله كما يعتقدون - أو يتوهمون - جافا ليس حرا. أو انه فن محلى بحت لقيامه على قواعد وشروط خاصة، أو غير متوافق مع مزاج كل أمة لشذوذ عن المعروف عندها. بخلاف الفن الإغريقي. فهو فن متفق مع جميع الفنون الأخرى في الغرض والأسلوب. أو هو فن دولي، فهو لذلك الفن الجدير الصادق. ولهذا أغضوا عن الفن المصري القديم، وقام في أعينهم مكانه الفن الإغريقي كأساس لكل فنون العالم، وذهبت هذه الفكرة الواهية بمعالم الحقيقة.

وسأحاول أن أدافع عن هذه الحقيقة، وأقاوم تلك الفكرة التي لا ينبغي أن تلبس العقول. وقد أتمنى أن أوفق لإثبات الجدارة للفن المصري القديم، وللتدليل على انه الاساس، إن لم يكن لكل تلك الأساليب من الفن التي يبهر بها الغربيون أعيننا الآن، فلا اقل من أن يكون صاحب الفضل على جميع أقوام العالم في تدريبهم على كيفية رسم المجسات وعلاج الألوان. أو أن يكون قد وضع النموذج المبدئي في كيف ترسم اليد جسم الإنسان رسما صحيحا، وكيف تتقن تصوير أعضائه وتمثيل عضلاته. ثم كيف بعد ذلك ينتخب ذوق الإنسان الألوان التي تنساق وتتفق تحت العين.

ارتباط الفن بالدين

ان فنون العالم، وقد بدأت كلها حياتها في خدمة الديانات، وفي تحقيق أغراضها المختلفة تدرجت الحال بها كلما تقربت الأمة إلى فهم معاني الجمال، وتوغلت في أساليب المدنية إلى طرح التقاليد الدينية جانبا. وتخطتها إلى التعبير عن الأغراض الدنيوية، والكشف عن أسرار الطبيعة بما فيها من جمال وروعة. فاتفقت كلها على أن تعطينا أخيراً تلك الخلاصة البارعة فيما نتمتع به اليوم من مبدعات الفن.

إلا الفن المصري القديم. فانه ظل للديانة المصرية خادما أميناً، محافظاً على غايته وأغراضه مدى الخمسين قرنا الطويلة التي عاشها في التاريخ ولم يخن عهوده يوما ما، ولم

يتزعزع عن خدم الديانة حتى في انشط أدواره، في غضون عصر الأسرة الثامنة عشرة عندما جنحت الفكرة بفن تل العمارنة إلى الإغراق في تزويق القصور.

ومن ذلك كان الفن في كل أدواره مرتبطا مع الدين برباط وثيق. يتأثر تبعا للانقلابات الدينية، أو الحركات العبادة ذاتها. أو قل إن الكهنة كانوا غالبا يسيطرون على دفة الفن، فيوجهونها حيثما شاءوا، بحسب العقيدة والأهواء الدينية. لما كان للكهنة من سلطة عظيمة في البلاد، تقارب سلطة الملك ذاته، بل إن سلطته كانت في بعض الأحيان، تفوق سلطة الملك.

ولكن الفن الذي تركه لنا أولئك القدماء، أعطانا، مع ذلك، افخر ما يشهد بقدرتهم وكفايتهم، واصدق ما يعبر عن نضوج أذهانهم واكتمالها. بل أعطانا في كل أسباب شواهد لا تحصر من البراعة والسمو والإبداع مع وفر من الرشاقة والجمال. في حين انى كل فن، قام أو يقوم بخدمة الديانة بعده، وقف طويلا في طريق الجمود.

ومصر لا يجب أن تعتبر وثنية بكل المعنى. لأنها في كل أدوار تاريخها كانت متغلغلة في أسباب الديانة، مراعية للخير والصلاح بكل دقة، تقدر الحساب والعقاب، وتعمل للآخرة، حتى طبعت أرضها بطابع ديني. يقرب كثيرا في بعض الأحيان من الحقيقة. وفنها من اجل ذلك، في مسحته القدسية، يجعلنا بعيدا عن الحقائق الأرضية، بما يفوق الفن الإغريقي. ولكنه في الوقت نفسه نابض بكل معاني المقدرة والرزانة، متواضع مع الأفكار البشرية، مخلص كل الإخلاص في التعبير عن الإنسانية الأولى.

إلى الآنسة لطيفة النادي

صور خالدة من بطولة المرأة العربية

نسيبة بنت كعب المازنية

سيدة امتلأت كرما ونبلا وفاضت شجاعة وحماسة وازدانت بكل ما يزين المرأة من قلب رقيق وحساسة قوية وعطف شديد، كما تحلت بإقدام الرجال وحزمهم.

خرجت هي وزوجها زيد بن عاصم وولداها عبد الله وحبيب في ذلك النيف والسبعين من الأنصار يوم العقبة الثانية يريدون رسول الله المصطفى يبايعونه مستخفين لئلا يؤذيهم الجاهلون، فبايعوه والناس نيام في ثلث الليل الأخير في اليوم الأوسط من أيام

التشريق من السنة الثالثة للبعثة؛ وعادوا إلى المدينة ووجوههم تطفح بالبشر بما نالوا من خير، وقلوبهم ترقص طربا بما نفحهم الحق سبحانه من نوره، من نعمة الإيمان ونور الهدى.

كان يوم أحد - يوم تلك الغزوة التي كاد أن يقضى فيها على المسلمين - فأظهرت نسيبة - رضوان الله عليها - من رباط الجأش والاستبسال في القتال ما لم يكن للأبطال المذاويد من فرسان العرب المغاوير.

فقد التحم الجيشان وكانت الدائرة - أول الأمر - على المشركين فمال المسلمون على الغنائم وشغلتهم الأسلاب؛ فتجمع المشركون ثانية وزحفوا عليهم زحفة أطارتهم كل مطار ولم يبق حول رسول الله إلا نفر قليل فيهم أبو بكر وعمر وعلي وسعد وطلحة والزبير ونسيبة هذه وزوجها وابناها. وما رأت نسيبة دم المصطفى يسيل على وجهه، ورباعيته قد كسرت ودخلت حلقة المغفر في رأسه حتى طرحت قربتها التي كانت تسقي منها العطاش وانتضت مهندا تقاتل دون الرسول ببسالة وإقدام فائقين حتى قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيها (ما التفت يمينا وشمالا إلا وأنا أراها تقاتل دوني).

ولقد جرح ابنها عمارة في عضده اليسرى ضربه رجل كأنه الرقل (النخلة) ومضى عنه فجعل الدم ينزف فقال رسول الله، اعصب جرحك فأقبلت أمه ومعها حقائب في حقويها قد أعدتها للجراح - والنبي واقف ينظر فضمدت جرحه وقالت انهض بني فضارب القوم! فجعل النبي يقول (ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة) وإذا بضارب ابنها يظهر فقال المصطفى (هذا ضارب ابنك) فاعترضت له وضربت ساقه فبرك فابتسم الرسول وقال (استقدت يا أم عمارة) ثم أخذت تعل الرجل بالسلاح حتى أتت عليه. فقال الرسول (الحمد لله الذي ظفرك واقر عينك من عدوك وأراك ثأرك بعينك). وقد جرحت اثني عشر جرحا وهي لا تعنى حتى ضربها ابن قمئة ضربة غائرة في عنقها، فنادى رسول الله (عمارة أمك! أمك، اعصب جرحها بارك الله عليكم من أهل البيت، مقام أمك خير من مقام فلان وفلان) فلما سمعته قالت (ادع الله أن نرافقك في الجنة) فقال (اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة) فقالت (ما أبالي ما أصابني في الدنيا).

ولنستمع إليها تحدثنا عن بلائها ذلك اليوم: (قالت خرجت أول النهار وأنا انظر ما يصنع الناس ومعي سقاء فيه ماء فانتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في أصحابه والدولة والريح للمسلمين، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقمت أباشر القتال عنه بالسيف وارمي عن القوس حتى خلصت الجراح إلي) قالت راوية الحديث فرأيت على عاتقها جرحا أجوف له غور فقلت من أصابك بهذا؟ قالت (ابن قمئة أقمأه الله لما ولى الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اقبل يقول دلوني على محمد فلا نجوت إن نجا، فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير وأناس من ثبت مع رسول الله فضربني بهذه الضربة ولقد ضربته ضربات ولكن عدو الله كانت له درعان).

وهناك موقف آخر من مواقف بطولتها الخالدة يوم خرج خالد بن الوليد في جيش فيه ولداها لقتال مسيلمة الحنفي. فأسر مسيلمة ابنها حبيبا فعذبه وأراد فتنته عن دينه، ولكن أنى لهذا الشهم الكريم سلسل تلك السيدة الكريمة الباسلة التي غرست فيه الشمم وقوة الإيمان يوم إن أرضعته. أنى له أن يفتن في دينه أو يصبأ عن عقيدته.

روى ابن هشام في السير ما نص (. . . وابنها حبيب الذي أخذه مسيلمة صاحب اليمامة فجعل يقول له أتشهد أن محمدا رسول الله فيقول نعم، فيقول أفتشهد إني رسول الله فيقول له اسمع فجعليقطع منه عضواً عضواً حتى مات في يده لا يزيد على ذلك: إذا ذكر رسول الله آمن به وصلى عليه، وإذا ذكر مسيلمة قال له اسمع، فلما بلغها هذا خرجت إلى اليمامة مع المسلمين فباشرت الحرب بنفسها حتى قتل الله مسيلمة ورجعت وبها اثنا عشر جرحاً ما بين طعنة وضربة).

هذه هي نسيبة بنت كعب التي كانت مثلا عاليا في التضحية والإقدام، والبسالة والنبل. على أنها ما كانت لتقتصر على هذا فقد كان لها نصيب وافر من العلم فقد روت عن النبي

وحدثت كما في الإصابة.
فهلا تحذوها أوانس اليوم اللائى نسين واجباتهن وفرطن في كل شي عدا زينتهن وترفهن.
فلتأتس الشابات الكرائم بنسيبة ذلك العصر، ولطيفة هذا الوقت ليقمن بما عليهن لهذا البلد الأمين فينشئن له من فلذات أكبادهن رجالاً أولي قوة، شداداً صلاباً ينقذونه مما هو فيه.
أسعد طلس
التعليم العالي للنساء
للآنسة أسماء فهمي
درجة شرف في الآداب
ما زال التعليم العالي للنساء في مصر وليداً في المهد، ولم تتهيأ أغلبية العقول بعد للإقلاع عن المبدأ القديم الذي يقول إن المرأة لم تخلق إلا للدار وإنجاب الأطفال ويكفيها لقضاء مهمتها الخاصة اقل قسط من التعليم. وتحت تأثير هذا الزعم كان قبول الفتيات بالجامعة المصرية سنة 1928 بطريق الاحتيال والتآمر كما ذكر أحد رجالات التعليم في مصر في حفلة تكريم أولى خريجات الجامعات بدار الاتحاد النسائي في الشهر الماضي. والواقع، ما زال التعليم العالي للنساء في بلادنا نبتا يخشى عليه من تقلبات الجو السياسي وزوابع الآراء الرجعية بالرغم من إن النساء في البلاد الأوربية الراقية التي تحذو مصر حذوها في كثير من نواحي حضارتها، قد حصلن على هذا الحق منذ أكثر من ثمانين عاما.
ولما يخامر النفس من شكوك ومخاوف، على مستقبل التعليم العلي للمرأة المصرية، رأينا أن نتأهب للدفع، بعرض قضية المرأة اليوم على بساط البحث بادئين ببيان الغرض من التعليم العالي ثم يترتب عليه من نتائج بالنسبة للمرأة والمجتمع يمتاز التعليم العالي والصحيح الذي يتحرر فيها الطالب من كل القيد بكونه يهيئ مجالا واسعا لتكوين الشخصية ولإظهار المواهب بما إن من أول شروطه البحث المستقل والاطلاع الواسع والاعتماد على النفس في تكوين الآراء والوصول إلى النتائج تدعمها الحجج القوية والبراهين. كما إن من مزايا هذا التعلم أيضاً فيما لو سار على أسسه الصحيح، الاتصال بالمجتمع ودراسة أزمانه وظواهره المختلفة من سياسي واقتصادي وتدريب النشء على أعمال الجماعات والقيادة بان يشتركوا في تكوين الجمعيات الصغير للبحوث والألعاب والأغراض المختلفة التي تنشأ في ظل الجامعة. وبهذه الطريقة يعتادون العمل المشترك والتعاون وتضع فيهم النزعات الأنانية. وبذلك يصبحون أعضاء نافعين للمجتمع والإنسانية.
والمرأة أحوج ما تكون إلى مثل هذا التعليم الذي يتضمن كل هذه المزايا فلها عقل كعقل الرجل هو الفارق بينهما وبين الحيوانات غذاؤه الطبيعي العلومونموه وصقله في استقلالها واستثمارها وبما إن المرأة إنسان فلا يصح أن تمنعها الأمومة أو الحياة المنزلية من إن
تستكمل أول ميزات الإنسان بان تستمتع بالتعليم العالي الوافي الطليق. . ثم إن المرأة في حاجة أعظم من حاجة الرجل إلى الناحية الاجتماعية من هذا التعليم فهي بسب انزوائها الطويل في عقر دارها وحرمانها من الاختلاط الحر وتناول الآراء قد عجزت عن تنمية الصفات الاجتماعية في نفسها. تلك الصفات التي يمتاز بها الرجل المثقف وهي الميل. إلى الأعمال المشتركة، وسعة الصدر في المناقشة والتفكير المتواصل الرصين ولو تحلت المرأة بتلك الصفات فوق ما تمتاز به من حنان ورقة لارتفع ولا شك مستوى المجتمع. لهنأت الحيات المنزلية. وتلك الصفات يمهد السبيل لا كتسابها التعليم العالي أو الجامعة، ففي أثناء هذا التعليم تختلط المرأة بأناس مختلفي الطباع والنزعات.، متنوعي الأفكار والمذاهب، فيداوي ما بها من نقص ونظرة محددة متأثرة بالمرغبات الشخصية إلى الأمور. . والواقع إن الحياة الاجتماعية في الجامعة لا تقل أهمية عن الحياة العلمية بما أنها تعد الطلاب للحياة العملية الراقية ولذلك اهتمت بها كل الاهتمام الجامعات العريقة مثل اكسفورد وكمبردج التين أخرجتا للعالم مهرة الساسة والمصلحين. . وقد يعترض معترض: وما شأن المرأة بهذه الأمور وهي لا ينتظر أن تكون من الأحكام أو الساسة الماهرين؟ حقاً إن المستقبل القريب لا يبشر

بمثل هذا التقدم وان كنا لا نيأس من حصوله في وقت ما بلادنا أسوة بالبلاد الأخرى المتدينة ولكن الفتاة المصرية كما بينا تفتقر إلى الصفات الاجتماعية وفوق ذلك تعدها الحياة الجامعية الصحيحة لأن تقوم بنصيبها في ميدان الإصلاح وليس هنالك من يجهل نواحي النقص الكثيرة في بلادنا وقد جمع أحد مفكري الأمريكان الغرض من التعلم العالي للجنسين في قوله (إن من يصرح بان الثقافة وتحرير المواهب الفردية هما غرض التعليم الاعلى، لا يذكر في الواقع غير نصف الحقيقة فالتعليم يكون ناقصاً مبتوراً إذا استمر منفصلا عن معالجة الشؤون الاجتماعية، فهل بعد ذلك تحرم المرأة من التعليم العالي الذي ينمي مداركها ويجعلها أداة نافعة لإصلاح المجتمع خصوصا وأنها مطبوعة على التضحية، شديدة الحساسية، تؤثر فيها أثيرا بليغا مظاهر الشكوى والألم؟

تلك هي أغراض التعليم العالي ولم يبق إلا أن نذكر شيئا عن بعض نتائجه التي يتخذها أنصار التردد والهزيمة حجة ضد التعليم العالي للنساء: فهم يقولون مثلا: أو ليس من نتائج التعليم العالي للفتيات إذا صدقت الإحصائيات إن اكثر من 50 في المائة من المتعلمات

تعليما عاليا في أوربا وأمريكا يحجمن عن الزواج ويفضلن حياة الإنتاج والكسب والاستقلال على الحياة المنزلية التي لا تهيئ لهن الميدان الكافي لاستثمار معلوماتهن بالذات فيقل عدد النسل ويضمحل إذ تترك تلك العملية الهامة لأغلبية من غير المتعلمات؟ ثم ألا تصبح أولئك المتمردات على الحياة البيتية عامل خطرا من عوامل الأزمات الاقتصادية إذ ينافسن الرجال في ميادين الأعمال فيزداد عدد العاطلين والمعوزين من الأسر؟.

إن مجرد النظر السطحي إلى مثل هذه الاعتراضات يظهر المرأة بمظهر الخارج على القوانين الطبيعية العامل على فناء النوع الإنساني ومضاعفة أخطار الأزمة الاقتصادية. ولكن الموضوع اخطر من أن نكتفي بالنظر السطحي إليه. لنسلم جدلا بان اكثر من 50 في المائة من خريجات الجامعات يحجمن عن الزواج عندما يجدن لذة كافية في الأمور العلمية واستثمار تعليمهن العالي. ولكن تسليمنا بذلك ما هو إلا تسليم بجانب من الحقيقة فقط، ويجب أن نذكر إنصافاً للمرأة وإقراراً للحق إن المرأة التي لا تتزوج تخدم المجتمع في الغالب بطريق مباشر، طريق الإنتاج والعمل وإصلاح المساوئ الاجتماعية فعمل المرأة البيولوجي لا يصل وحده بالمجتمع إلى الرقي والرخاء وإنما الإنسانية بحاجة إلى مجهودها الموفق واستغلال مواهبها خارج المنزل كما هي بحاجة إلى عملها الخاص داخله. أما ما يقال عن نتاج من يتزوج من المتعلمات تعليما عاليا وان كن الأقلية فهو أن العبرة بالنوع لا بالعدد، وبالكيف لا بالكم. فلو لم تتعلم النساء هذا التعلم لكنا حقا اكتسبنا زيادة في عدد الأطفال ولكنا من ناحية أخرى كنا نفقد الإضافة إلى الإنتاج العقلي والثروة المعنوية، والأطفال الممتازين الذين لا ينجبهم غير الأمهات المتعلمات تعليما عاليا.

أما المشكلة الأخرى وهي زيادة مزاحمة المرأة للرجل فيما لو تعلمت تعليما عاليا فيكفي أن نقول لهدم هذا الاعتراض انه ناتج عن أنانية الرجل فلو لم يكن الرجل أنانياً حقا لما عمل تضحية المزايا المعنوية التي تترتب على تعليم المرأة تعليما عاليا في سبيل الاستئثار بالمزايا المادية بأبعاد المرأة عن ميدان العمل بل هو قد يقدم على اكثر من ذلك فيعمل على أن يحرمها متعة التعليم العالي واللذة الروحية حتى يضمن عدم منافستها المادية في أحد الأيام. إن مثل هذا الاعتراض لا يتفق مع شهامة الرجولة ولا مع إقدام الرجل.

الشافعي واضع علم أصول الفقه

للأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرزاق

أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية الآداب

- 7 -

أ - الدراسات الفقهية إلى عهد الشافعي. ب - أهل الرأي وأهل الحديث

ج - الشافعي بين أهل الرأي وأهل الحديث آثاره وكتبه

د - وضع الشافعي علم أصول الفقه

ومذهب الشافعي الجديد وصل إلينا فيما ألفه بمصر من الكتب وقد سرد البهيقي

المتوفى سنة 458هـ - 1065 - 1066م كتب الشافعي ولخصها عنه ابن حجر في ص 78
(الرسالة القديمة، ثم الجديدة - اختلاف الحديث، جماع العلم - أبطال الاستحسان - أحكام القرآن - بيان الفرض - صفة الأمر والنهي - اختلاف مالك والشافعي - اختلاف العراقيين - اختلافه مع محمد ابن الحسن - كتاب علي وعبد الله - فضائل قريش - كتاب الأم -. . .)
وعدة كتب الأم: مائة ونيف وأربعون كتاباً وحمل عنه حرملة كتابا كبيرا يسمى (كتاب السنن) وحمل عنه المزني كتابه (المبسوط) وهو المختصر الكبير والمنثورات وكذا المختصر - المشهور - قال البهيقي: وبعض كتبه الجديدة لم يعد تصنيفها وهي: الصيام - والصداق - والحدود - والرهن الصغير - والأجارة - والجنائز فانه أمر بقراءة هذه الكتب عليه في الجديد وأمر بتحريق ما يغاير اجتهاده قال: وربما تركه اكتفاء بما نبه عليه من رجوعه عنه في مواضع أخرى.
قلت: وهذه الحكاية مفيدة ترفع كثيرا من الإشكال الواقع بسبب مسائل اشتهر عن الشافعي الرجوع عنها وهي موجودة في بعض هذه الكتب.
ثم نقل ابن حجر: إن لأصحاب الشافعي من أهل الحجاز والعراق عنه مسائل وزيادات قال: وهذا يدل على إن (كتبا أخرى حملها عنه هؤلاء لان هذه المسائل ليست في الكتب المقدم ذكرها) وقد ترك ابن حجر في تلخيصه: كتاب (مسند الشافعي) ولا ندري: إن كان
البهيقي قد تركه أيضاً أم لا؟ ويقول الرازي (ان كتابه المسمى (بمسند الشافعي) كتاب مشهور في الدنيا، ص146) كان اتجاه المذاهب الفقهية قبل الشافعي إلى جمع المسائل وترتيبها وردها إلى أدلتها التفصيلية عندما تكون دلائلها نصوصا.
وأهل الحديث لكثرة اعتمادهم على النص كانوا اكثر تعرضا لذكر الدلائل من أهل الرأي.
فلما جاء الشافعي بمذهبه الجديد كان قد درس المذهبين ولاحظ ما فيهما من نقص بدا له أن يكمله واخذ ينقض بعض التفريعات من ناحية خروجها عن متابعة نظام متحد في طريق الاستنباط.
وذلك يشعر باتجاهه في الفقه اتجاه جديدا هو اتجاه العقل العلمي الذي لا يعني بالجزئيات والفروع.
ويدل على إن اتجاه الشافعي لم يكن إلى تمحيص الفروع: ما نقله ابن عبد البر في (الانتقاء) من: إن احمد ابن حنبل قال: (قال الشافعي لنا: أما انتم فاعلم بالحديث والرجال مني فإذا كان الحديث صحيحا فأعلموني أن يكون كوفيا، أو بصريا أو شاميا اذهب إليه إذا كان صحيحا) ص75.
وطريقة علاجه لمسائل العلم تدل على منهجه قال أبو محمد بن أخت الشافعي عن أمه قالت: ربما قدمنا في ليلة واحدة ثلاثين مرة أو اقل أو اكثر المصباح بين يدي الشافعي، وكان يستلقي ويتذكر ثم ينادي الجارية هلمي مصباحا فتقدمه ويكتب ما يكتب ثم يقول: ارفعيه، فقيل لأحمد: ما أراد برد المصباح؟ قال: الظلمة أجلى للقلب. مفتاح السعادة ج2ص91.
وليس هذا النوع من التفكير الهادئ في ظلمة الليل تفكير من يهتم بالمسائل الجزئية والتفاريع.
بل يعني بضبط الاستدلالات التفصيلية بأصول تجمعها، وذلك: هو النظر الفلسفي.
قال ابن سينا في الشفاء (إنا لا نشتغل بالنظر في الجزئيات لكونها لا تتناهى وأحوالها لا تثبت وليس علمنا بها من حيث هي جزئية تفيدنا كمالا حكيما أو تبلغنا غاية حكيمة، بل الذي يهمنا هو النظر في الكليات).
- وكان احمد يقول: الشافعي فيلسوف في أربعة أشياء: في اللغة - واختلاف الناس والمعاني - والفقه (الرازي ص35)
وقد حاول الشافعي: ان يجمع أصول الاستنباط الفقهي وقواعدها علما ممتازا وان يجعل الفقه تطبيقا لقواعد هذا العالم.
وبهذا يمتاز مذهب الشافعي من مذهب أهل العراق وأهل الحجاز.
د - وضع الشافعي لعلم أصول الفقه.

إذا كان الشافعي هو أول من وجه الدراسات الفقهية إلى ناحية علمية فهو أيضا: أول من وضع مصنفا قي العلوم الدينية الإسلامية على منهج علمي بتصنيفه في أصول الفقه، قال الرازي: اتفق الناس على: إن أول صنف في هذا العلم - أي علم أصول الفقه - الشافعي وهو الذي رتب أبوابه وميز بعض أقسامه من بعض وشرح مراتبها في القوة والضعف.

وروى: أن عبد الرحمن بن مهدي التمس من الشافعي وهو شاب أن يضع له كتابا يذكر فيه شرائط الاستدلال بالقران والسنة، والإجماع والقياس، وبيان الناسخ والمنسوخ ومراتب العموم والخصوص فوضع الشافعي رضى الله عنه (الرسالة) وبعثها إليه.

فلما قرأها عبد الرحمن بن المهدي قال: ما أظن أن الله عز وجل خلق مثل هذا الرجل ثم قال الرازي: واعلم: أن نسبة الشافعي إلى علم الأصول كنسبة (ارسططاليس) إلى علم (المنطق) وكنسبة (الخليل) بن احمد إلى علم (العروض).

وذلك لأن الناس كانوا قبل (أرسططاليس) يستدلون ويعترضون بمجرد طباعهم السليمة لكن ما كان عندهم قانون مخلص في كيفية ترتيب الحدود والبراهين.

فلا جرم. كانت كلماتهم مشوشة ومضطربة فأن مجرد الطبع إذا لم يستعن بالقانون الكلي، قلما أفلح. فلما رأى (أرسططاليس) ذلك اعتزل عن الناس مدة مديدة واستخرج علم (المنطق) ووضع للخلق بسببه قانونا كليا يرجع إليه في معرفة الحدود والبراهين.

وكذلك الشعراء كانوا قبل (الخليل بن احمد) ينظمون أشعارا وكان اعتمادهم على مجرد الطبع فاستخرج (الخليل) علم (العروض) فكان ذلك قانونا كليا في معرفة قانون الشعر ومفاسده فكذلك هنا الناس كانوا قبل الإمام الشافعي يتكلمون في مسائل (أصول الفقه) ويستدلون ويعترضون، ولكن مكان لهم قانون كلي مرجوع إليه في معرفة دلائل الشريعة وفي كيفية معارضتها، وترجيحاتها، فاستنبط الشافعي علم (أصول الفقه) ووضع للخلق

قانونا كليا يرجع إليه في معرفة أدلة الشرع 00 ثم يقول الرازي: واعلم إن الشافعي صنف كتاب (الرسالة) ببغداد ولما رجع إلى مصر أعاد تصنيف كتاب (الرسالة) وفي كل واحد منهما: علم كثير ص 89 ـ102

ويقول (بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي) المتوفي سنة 749هـ 1391 ـ1392 في كتاب في أصول الفقه المسمى بالبحر المحيط (فصل): الشافعي أول من صنف في (أصول الفقه) صنف فيه كتاب (الرسالة) وكتاب أحكام القرآن واختلاف الحديث وأبطال الاستحسان وكتاب (جماع العلم ـ كتاب القياس ـ الذي ذكر فيه؛ تضليل المعتزله ورجوعه عن قبول شهادتهم)

ثم تبعه المصنفون في علم الأصول، قال احمد بن حنبل (لم نكن نعرف الخصوص والعموم حتى ورد الشافعي)

وقال الجويني في شرح الرسالة: لم يسبق الشافعي أحد في تصانيف (الأصول) ومعرفتها، وقد حكي عن ابن عباس (تخصيص عموم) وعن بعضهم (القول بالمفهوم) ومن بعدهم لم يقل في الاصول شئ ولم يكن لهم فيه قدم فانا رأينا كتاب السلف من التابعين وتابعي التابعين وغيرهم فما رأيناهم صنفوا فيه (من نسخة خطية بالمكتبة الأهلية بباريس)

ويقول ابن خلدون في المقدمة: (وكان أول من كتب فيه أي في (علم أصول الفقه) الشافعي رضي الله عنه أملى فيه (رسالته المشهورة) تكلم فيها في: الأوامر والنواهي، والبيان، والخبر، والنسخ، وحكم العلة المنصوصة، من القياس ثم كتب (فقهاء الحنفية) فيه، وحققوا تلك القواعد وأوسعوا القول فيها، وكتب المتكلمون أيضاً) ص 397

وفي كتب (طبقات الفقهاء) للقاضي شمس الدين العثماني الصفدي: وابتكر الشافعي ما لم يسبق إليه من ذلك (أصول الفقه) فانه أول من صنف (أصول الفقه) بلا خلاف ومن ذلك: (كتاب القسامة ـ وكتاب الجزية ـ وكتاب قتال أهل البغي) من نسخة خطية بدار الكتب الأهلية بباريس

ويقول صاحب كتاب (كشف الظنون): وأول من صنف فيه (الإمام الشافعي) ذكره الأسنوي في التمهيد وحكى الإجماع فيه ص 334

والباحثون في هذا الشأن من الغربيين يرون في (الشافعي) واضعاً (لأصول الفقه) يقول (جولد زيهر) في مقالته في كلمة (فقه) في دائرة المعارف الإسلامية: (واظهر مزايا محمد بن إدريس الشافعي): انه وضع نظام الاستنباط الشرعي من أصول الفقه وحدد مجال كل أصل من هذه الأصول وقد ابتدع في (رسالته) نظاما للقياس العقلي الذي ينبغي الرجوع إليه في التشريع من غير إخلال بما للكتاب والسنة من الشان المقدم ريث الاستنباط من هذه الأصول ووضع القواعد لاستعمالها بعدماكان جزافاً).
على أنا نجد في كتاب الفهرست في ترجمة (محمد بن الحسن) ذكر كتاب له يسمى (كتاب أصول الفقه).
ويقول الموفق المكي في كتابه (مناقب الإمام الأعظم) نقلا عن طلحة بن محمد بن جعفر؛ إن ابا يوسف أول من وضع الكتب في (أصول الفقه) على مذهب أبي حنيفة ج 2 ص245 ونقل ذلك طاش كبري زاده في كتابه (مفتاح السعادة) ج 2 ص 102 ولم يرد كتاب في هذا العدد فيما أورده صاحب (الفهرست) لأبي يوسف من الكتب وإذا صح. إن لأبي يوسف أو لمحمد كتاباً (في أصول الفقه) فهو فيما يظهر كتاب لنصرة ما كان يأخذ به أبو حنيفة ويعيبه أهل الحديث من الاستحسان.
وقد يؤيد ذلك، إن صاحب (الفهرست) ذكر في أسماء كتب أبي يوسف. كتاب الجوامع ألفه ليحيى ابن خالد يحتوي على أربعين كتاب، ذكر فيه اختلاف الناس والرأي المأخوذ به ولم يكن فيه طبيعة مذهب أهل الرأي الذين كان من همهم؛ إن يجمعوا المسائل ويستكثروا منها، النزوع إلى تقييد الاستنباط بقواعد لا تتركه متسعا رحبا على إن القول بان أبا يوسف هو أول من تكلم في (أصول الفقه) على مذهب أبي حنيفة لا يعارض القول بان الشافعي هو الذي وضع (أصول الفقه) علما ذا قواعد عامه يرجع إليها كل مستنبط لحكم شرعي وقد لا يكون بعيدا عن غرض (الشافعي) في وضع (أصول الفقه): إن يقرب الشقة بين أهل الرأي وأهل الحديث ويمهد للوحدة التي دعا إليها الإسلام.
صفي الدين الحلي
- 3 -
(تتمة)
كانت مصر إذ رحل إليها الشاعر في عهد زاهر مثمر من اكثر نواحي الحياة، فهبط إليها كما يهبط الطائر الصادي على الروض الندى اليانع؛ ينهل من موارده في شوق ويتنقل على دوحاته في طرب، ثم ينثني عنه وقد ارتوى إلى وطنه شاديا مترنما!
فقد أصبحت بعد إن شل المغول عرش بني العباس وأسدلوا على بغداد الستار، مركز الثقافة الإسلامية الأكبر وموئلها الحصين، تنهض فيها جامعة الأزهر والمدارس الأخرى بأعباء الرسالة العظمى للعلم والأدب، وتشترك سلاطينها بأيدٍ عاملة نشيطة في تعضيد هذهالحركة وتغذية روحها بعوامل القوة؛ بما تحدثه من المدارس وما تغدقه في كرم على العلماء والأدباء من هبات وصلات.
وكان عصر السلطان الناصر بن قلاوون من خير عهود دولة السلاطين الأولى؛ إذ كان السلطان نفسه كما يقول السير وليم موير - (مثقفاً ثقافة عالية، درس علوم الفقه والقانون ونال شهادة فيها فكان يحب العلم والعلماء ويشاركهم في كل أمر يفيضون فيه) وكثيرا ما يكون الملوك المثقفون نعمة على رسل الثقافة لما يملكون من حسن التقدير لأعمالهم، وصدق الشعور بحلاوةثمراتهم، وقد روي عنه انه اقطع أبا الفداء المؤرخ الشهير ولاية حماة تقديراً لمكانه وجزاء لما قدمه إليه من معونة في بعض الحروب. وفي عهده كانت مصر تنعم بشيء من راحة الظافر بعد أن شلت حركات المغول وأنقذت الشرق العربي من بين براثنهم المسمومة، وبعد أن طاردت حملة الصليب المستكلبين في هدم الإسلام والشرق، وقذفت بهم في قوة إلى البحر! ولكنها مع ذلك لم تكن تغفوا عن حراسة هذا الملك وقطع أذناب العدو كلما امتدت اليه، وهو ملك شاسع مترام يمتد ما بين الفرات والحجاز وآسيا الصغرى وجنوب النوبة، ولما كانت إذ ذاك لا تزال طريق التجارة والرحلة بين أوربا والشرق قبل أن يكشف رأس الرجاء الصالح، وعرفت مصر كيف تستغل هذا المورد الثرى أحسن استغلال، وكانت تجبى إليها ثمرات تلك (العاهلية) الكبرى، فقد حازت من المجد المالي ما يمكنها من مواصلة السير في طريق مجدها العلمي والحربي.

لذلك لا نعجب أن نرى القاهرة حينذاك تموج بوفود رجال العلم والأدب فتحسن وفادتهم، وان نسمع صفى الدين وقد أقبل إليها فانتظم زمنا في حاشية الملك الناصر يصوغ آيات المدح لمصر ومليكها، ويعود إلى وطنه فيلهج بأجمل الذكريات لما لقي فيها من روعة الكرم وحسن الضيافة. وقد اتصل أثناء أقامته في مصر بحلقاتها الأدبية التي كان يمثل زعامتها الكتابية (علاء الدين بن الأثير) رئيس ديوان الإنشاء، وزعامتها الشعرية (جمال الدين بن نباتة) الأديب الشهير، وتوثقت بينهم جميعا روابط الصداقة والإخلاص، فلم يفتأ بعد رحيله يتراسل معهم في مساجلات أدبية ممتعة تعبر عن عواطف الشوق ويعترف في إحداها بزعامة ابن نباتة لجميع الشعراء

والآن نستعرض إحدى قصائده التي تجمع بعض هذه الأمور، وقد قالها يوم احتفال مصر بيوم الخليج وابتدأها بوصف الربيع في مصر:

خلع الربيع على غصون البان ... حللا فواضلها على الكثبان
وتتنوجت هام الغصون وضرجت ... خد الرياض شقائق النعمان
وتنوعت بسط الرياض فزهرها ... متباين الأشكال والألوان
والظل يسرق في الخمائل خطوه ... والغصن يخطر خطرة النشوان
وكأنما الأغصان سوق رواقص ... قد قيدت بسلاسل الريحان

واستمر هكذا في أوصافه الجميلة التي يعبر بها عما أودعته طبيعة مصر الفاتنة في نفسه حتى قال:

إني وقد صفت المياه وزخرفت ... جنات مصر وأشرق الهرمان؟
واخضر واديها وحدق زهره ... ونيل فيه ككوثر بحنان
وبه الجواري المنشآت كأنها ... أعلام بيد أو فروع قنان
نهضت بأجنحة القلوع كأنها ... عند المسير تهم بالطيران
والماء يسرع في التدفق كلما ... عجلت عليه يد النسيم الواني

وأخذ بعد ذلك يصف السلطان بقوة والفصاحة والسيادة على جميع الملوك، وليس الملوك في الحقيقة إلا مظاهر للأمم من أكثر الوجوه، فإذا كانوا أقوياء أو كرماء فما ذلك إلا فيض أممهم ومنحة رعاياهم، وإذن فكل مدح للملك إنما يتجه إلى الأمة التي أكسبته أسباب المدح

ووهبته ما يتيه به من أثواب المجد. ونود أن نشير هنا إلى أن مصر لم تكن تنظر إلى سلاطينها الذين كانوا في الأصل مماليك إلا بعين التجلة؛ لأنها كانت إذ ذاك تفهم معنا الوطنية كما يقرره الإسلام، دينها الذي تعتز به، وهو دين ديمقراطي حر يأمر أهله ألا يأنفوا من الحاكم المسلم العادل ولو كان عبد حبشياً. كذلك لم يكن هؤلاء السلاطين في نظر مصر إلا جنداً مسلمين تربوا في أرضها ودافعوا طويلاً عن مجدها ثم ارتقوا باستيلائهم على شؤونها الحربية إلى عرش الملك، فرضيت بهم وعهدت إليهم بتمثيل قوتها في السياسة والعلم والحرب، فمثلوها احسن تمثيل، ثم لما فرغ دورهم أرخت عليهم السدول وبقيت مصر هي مصر الخالدة.

ومما قاله صفي الدين في أحدهم وهو الناصر المذكور:

لا عيب في نعماه إلا أنها ... يسلو الغريب بما عن الأوطان
شاهدته فشهدت لقمان الحجا ... ونظرت كسرى العدل في الإيوان
وشهدت منه فصاحة وسماحة ... أعدى بفيضهما يدي ولساني
ملك إذا اكتحل الملوك بنوره ... خروا لهيبته إلى الأذقان

وقال:

أبقا قلاوون الفخار لولده ... إرثاً وفازوا بالثناء مكسبا
قوم إذا سئموا الصوافن صيروا ... للمجد أخطار الأمور مراكبا
عشقوا الحروب تيمنا بلقا العدا ... فكأنهم حسبوا العداة حبائبا
وكأنما ظنوا السيوف سوالفا ... واللدن قدا والقسيّ حواجبا
يا أيها الملك العزيز ومن له ... شرف يجر على النجوم ذوائبا
أصلحت بين السلمين بهمة ... تذر الأجانب بالوداد أقاربا
وحرست ملكك من رجيم مارد ... بعزائم أن صلن كن قواضبا

كان لصفي الدين قدرة فائقة في رسم المناظر الأخاذة بدقة الفني وتأثر الشاعر، وذلك لما وهبه من ميزتين عظيمتين: إحداهما دقة النظر وصدق المشاهدة، والأخرى

قوة الابتكار والتخيل. فقد كان يدرك بالأولى جزئيات الأمور ونواحي المناظر التي تخفى على غير الموهوب، ثم يتولى خياله ما أدركه فيحكم نسجه ويضفي عليه الوانه، ويزيد فوقه نقوشه،
فإذا بوصفه قطعة فنية رائعة تثير الإعجاب.

قام الشاعر برحلات عدة كما ذكرنا قبل، في صحاري العرب والشام ومصر، وانتظم أزمنة طويلة في حواشي الملوك الذين كان لهم غرام وشغف بالنزه الخلوية في أودية حماة والحلة وماردين فكان ذلك داعيا لشدة قربه من الطبيعة ومذكيا حبه لها، ولما كان بفطرته يملك نفسا شاعرة فقد استجاب دعوة الجمال واخذ يرصد الطيور حائمة في الجو، والوحوش هائمة في الصحراء، والحيوان الأليف والسائم ينقش صورها جميعا في شعره نقش المصور الماهر، وفي ديوانه أمثلة كثيرة لكل هذه الأوصاف.

ومن مظاهر أوصافه الدقيقة أيضاً وصفه للخمر ومجالس الندامى، فان الصفي كان رجلا طروبا متهافتا على موارد اللهو والسرور، يشرب من لذائذه الكؤوس الدهاق: يعاقر الخمر ويعشق النساء والولدان ويختال بين الرياض، ويتجول في الصحراء؛ غير آبه لما حرم من اللذة أو حل، وذلك لأنه اتخذ لنفسه مذهبا خاصا في فهم أحكام الدين يطاوع هواه كل المطاوعة، وقد عبر عن هذا المذهب بقوله:

فارتكب اجمل الذنوب لنفع ... واعتقد في ارتكابه التحريما
ثم تب واسأل الإله تجده ... لذنوب الورى غفورا رحيما!

وتمادى في هذا المذهب حتى احل الخمر صراحة فقال:

نهى الله عن شرب المدام لأنها ... محرمة إلا على من له علم
وذاك بقدر الشاربين وعقلهم ... ففي معشر حل وفي معشر حرم
ولو شاء تحريما على كل معشر ... لقال رسول الله لا يغرس الكرم!

ولو صدق هذا المنطق المموه لكان العلم رخصة مؤذنة لأهله أن يرتكبوا كل لذة أثيمة، ولأنه قد مارسها فعلا واغتبق من كؤوسها واصطبح، عرف كيف يتغزل في محاسنها ويصف آثارها بمهارة تشهد له بالقدرة الفنية. ومما قاله:

سلاف تميت العقل في حال شربها ... وتنعش منها الروح والجسم والقلبا
محجبة وسط الدنان ونورها ... يمزق من لألاء غرتها الحجبا
إذا مسها وقع المزاج تألمت ... وأزبد منها الثغر وامتلأت رعبا
واعجب من بكر لها الماء والد ... وترجع إني رام تقبيلها غضبى
هي الشمس إلا أنها في شروقها ... إذا مزجت في كأسها اطلعت شهبا
يعض عليها التائبون بنانهم ... ويندب كل منهم عقله ندبا

وعلى كل فلا يتردد المرء بعد أن يقرا أوصاف الحلي أن يحكم له بان مرتبته في الصف الأول من شعراء الوصف في الأدب العربي أما الغزل فقد كبا فيه جواده وخانه ذكاؤه إذ العقل لا يغني وحده في هذا الميدان، وإنما مرد الأمر إلى القلب الخفاق والعاطفة المشبوبة، وشاعرنا لم يكن من فئة المحبين الذين يؤمنون باتصال الوجدان ويظلون في نجواهم باكين من هول الذكرى وألم الهجر وإنما كان رجلا حسيا يعترف حقا باللذائذ المادية ليس غير.

لهذا كان غزله قسمين متباينين، أولهما الغزل النسائي المألوف، والثاني غزل الولدان أو ما يسمونه بالغزل المذكر، ونأسف إذا نقول إن النوع الثاني كان ارق وأصفى وأدل على الصدق من الأول، ولكنا لاندهش كثيرا إذا ذكرنا مبادئه الخلقية التي وصفناها قبل؛ ويلوح لنا إن هذا الانحلال الخلقي لم يكن قاصرا عليه وحده وإنما كان ظاهرة عامة للولاة والأمراء الذين يستقلون في أطراف المملكة ببعض المناطق؛ لان وفرة المال وتحقق أسباب النعيم مع قلة الشواغل الادارية، كانت تغريهم بالعكوف على الملاهي والتمادي في الإباحة. أما غزله الأول ففيه جفاف وتكلف وترى عليه سمات التقليد واضحة ومما قاله في مذهبه:

خلياني من فترة النسوان ... وانعشاني بنشطة الغلمان!
ليس يصبو لربة الخال قلبي ... بل برب الأقراط جن جناني!

تلك هي الأغراض البارزة التي تستحق الدراسة في شعر صفي الدين، أما الأغراض الأخرى فهي لا تخرج عن السبل التي طرقتها إخوتها، وجملة القول فيها إن الزهد والألغاز ليسا إلا مثلين من التقليد والتكلف، لان الرجل كما عرفنا كان متهتكا مسرفا،

وإنما أراد إن يعارض قصائد ابن الفارض وأمثاله من المتصوفة المخلصين، ولان نوع الألغاز ابعد ما يكون عن معنى الشعر. وهو، وان أجاد في الرثاء حقا، وأبدع في تصوير فجائع الموت!، نستطيع أن ندرك إجادته فيما درسنا من مدحه، لان معناهما واحد وان اختلفا في مناسبة كل منهما مع الحياة أو الموت. غير انه أتى في باب الحكمة بكثير من التجارب الصادقة وآداب الاجتماع، فلم يبقى إذن غير المجون وهي ما نستميح القارئ أن يعفينا منه صونا لحياء القلم وحرصا على وقار (الرسالة).

فهذه شخصية كبيرة تجمع بين الوسامة والدمامة، ولكنها في جملتها جديرة (وبعد) بالخلود، على أنها آية بينة تقرر إن الأدب العربي قد ظل بعد موت بغداد يتنسم الحياة قويا ناظرا؟

دار العلوم

ضياء الريس

من طرائف الشعر

النشيد!

للشاعر الوجداني علي محمود طه

عندما ظلَّلني الوادي مساء ... كان طيفٌ في الدجى يجلس قربي

في يديه زهرةٌ تقطر ماء ... سَمِعَتْ أذني بها أنَّاتِ قلبي!

قلت من أنتَ؟ فلباني مُجيبا ... نحن يا صاحِ غريبان هنا!

قد نزلتُ السهلَ والليلَ الرهيبا ... حيث ترعاني وأرعاك أنا!!

قلت يا طيفُ أثرت النفس شكا ... كيف أقبلت وقلْ لي من دعاكا؟

قال أشفقتُ من الليل عليكا ... فتتبعتُ إلى الوادي خطاكا!

ودنا مني وغنَّاني النشيدا ... فعرفت الصوت واللحن الشجيا

هوَ حبِّي هام في الليل شريداً ... مثلما هِمْتُ لنلقاك سويَّا!

وتعانقنا وأجهشنا أنيناً ... وانطلقنا في حديثٍ وشجونْ

ودَنا الموعدُ فاهتجنا حنينا ... وتنظرناكَ والليلُ عيونْ

أقْبَلَ الليلُ فأقبَلَ مَوهنا ... والتمس مجلسَنَا تحت الظلالِ

وافِنِي نصدحْ بألحان المنى ... ونعُبُّ الكأسَ من خمر الخيالِ

أقبِلِ الليلةَ وانظر واسمعِ ... كلَّ ما في الكونِ يشدو بمزاركْ

جِئتُ بالأحلامِ والذكرى معي ... وجلسنا في الدجى رهن انتظاركْ

سترى يا حسنُ ما أعددتُه ... لك من ذخرٍ وحسن ومتاعْ

هو قلبي في الهوى ذوبتهُ ... لك في رفَّافِ لحنٍ وشعاعْ

وهو شعرٌ صَوَّرَتْ ألوانه ... بهجةَ الفجر وأحزانَ الشفقْ

ونشيدٌ مَثَّلَت ألحانهُ ... همساتِ النَّجم في أذن الغَسق

ذاك قلبي عارياً بين يديك ... أخذتْه منك روعاتُ الإله

فتأملْه دماً في راحتيك ... وذَماءً منكَ يستوحي الحياه

باكيَ الأحلامِ محزونَ المنى ... ضاحك الآلام بسَّامَ الجراح

لم يكن إلاَّ تقيَّا مؤمناً ... بالذي أغرى بحبيكَ الطماح

يتمنى فيكَ لو يفنى كما ... يتفانى الغيمُ في البحر العُباب

أو يُلاشي فيك حياً مثلما ... يتلاشى في الضحى ومض الشهاب

زهرةٌ اطلعها فردوسُ حبك ... استمدت نورَها من ناظريك

خفقت أوراقُها في ظلِّ قربك ... وسرت أنفاسُها من شفتيك

هي من حسنكَ تحيا وتمون ... فاحمها يا حسنُ إعصارَ المنون

أولِها الدفءَ من الصدر الحنون ... أو فهبها النورَ من هذي العيون

دمعُها الأنداءُ والعطر الشَّجا ... وصدى أناتها همسُ النسيم

فاحبُها منكَ الربيعَ المرتجى ... تصدح الأيامُ باللحن الرخيم

لو أمكنتني فرصة!

ريان من ماء الحياة ... وسرها في وجنتيه

كالجدول المفتون في ... وشى الرياض أنبيه

غنَّى بلحن مسكر ... وبلابل الوادي لديه

لا يرتوي منه الظما ... ء ولا ترى طيراً عليه

ومن العجائب أن ترى ... ناراً تشب بوجنتيه
فتثير نيراناً بقلبي ... كلما أرنو إليه
لو أمكنتني فرصة ... أطفأتها من شفتيه
شرق الأردن
حسني فرير
إبليس
للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي
أسرفتَ يا إبليس في الوسواس ... فأعوذ منك بربِّ هذا الناسِ
أغويتني من بعد ما استدرجتني ... مستحوذاً حتى على أنفاسي
حسَّنت في عيني الشرور فجئتها ... وضممتُ أرجاساً على أرجاسِ
ونفذت في أعماق قلبي فاتحا ... حتى ملكت منافذ الإحساس
فتعاورتني للشكوك وساوس ... سودٌ وعافت مجلس جُلاّسي
أفرغت قلبي من رِضى يقينه ... وملأت بالشكّ المبرّح راسي
من بعد ما جرَّعتني مر الأسى ... أترعت بالمصل المخدر كأسي
إبليس ما أشركتني في صفقة ... إلا قضيت عليَّ بالإفلاس
إبليسُ أنت وليُّ كل ذوي الهوى ... إبليس انك في الولاية قاس
لم يبقى مما كان لي قبلاً سوى ... ثوب كخائبة المُنى أدراس
تُلقِي العداوةَ موغراً بين الورى ... فتثير أجناسا على أجناس
لو اعتقدتَ بهم شعوراً في الردى ... لتبعتَهم تغوى إلى الأرماس
تُذكي الحروب وأنت فيها سالم ... مما يضر بالنفس الأحلاس
أتعستَ أقواماً لتسعد غيرهم ... والشر كل الشر في الإتعاس
كوخٌ حقيرٌ ثم قصرٌ شاهقٌ ... ومآتمُ في جانب الأعراس
لا تسترح وأنت عنهم في غنًى ... حتى توسوس في صدور الناس
مالي سوى دمعٍ يفيض ندامةً ... ما سوف أكتبه على القرطاس
ذكريات في الجزيرة
للأستاذ الحاج محمد الهراوي
لي في الجزيرة ذكريات كلما ... خطرت تهز من الحنين فؤادي
فلقد لبست الغيّ في شرخ الصبا ... ومضيت طوع مراده ومرادي
وشربت من كأس الهوى وأبحته ... وعصيت فيه رويتي وسدادي
أيام انعم بالشباب وبالمنى ... ولقاء من أهوى على ميعاد
نلهو ونمرح، والهوى ما بيننا ... نجوى يراوح بيننا ويغادي
تتحدث العينان في لحظيهما ... عما يحز الشوق في الأكباد
متجاذبين ما حديث صبابة ... ولذيذ وصل بعد طول بعاد
متبادلين على الشراب ونقله ... قبلات شوق في عناق وداد
فوق الغدير وبين أزهار الربى ... في ظل غصن الدوحة المياد
نخشى النسيم تشي بنا خطرات ... إن مر بالعذال والحساد
مستأثرين نغار من عبث الصبا ... ونخاف جامحة الزمان العادي
متعانقين نهيم في وادي الكرى ... متيقظين على الحمام الشادي
متساقيين من الرضاب، وانه ... خمر الهوى في غيه المتمادي
تمضي بنا الساعات لا ندري لها ... كيف انقضت في يقظتي ورقاد
فدع الهوى العذري بعد زمانهم ... ما مر من زمن فغير معاد
جمح الشباب وما ثنيت عنانه ... وجرى، وما من وازع أو هاد
فإذا الغواية موبقات كلها ... تأتي على الأرواح والأجساد
فغسلت بالحج المبارك حويتي ... ورجعت حين رجعت في الزهاد
ولقد مررت على الجزيرة لا كلما ... عهدته في غي مع الوراد
فإذا بها وكأنها حجت معي ... أو أننا عدنا معاً لرشاد
بين الموسيقى الشرقية والغربية

تقوم الآن حركة طيبة في الأوساط الموسيقية، غايتها النهوض بالموسيقى الشرقية

إلى المستوى الذي يلق بها كفن له آدابه وأوضاعه وأصوله. وكان طبيعيا أن تتشعب الآراء، وتنوع الأفكار، والمدار هو الكيفية التي بها ترتفع الموسيقى الشرقية إلى مكانتها.

وسمعنا أثناء ذلك اسم الموسيقى الغربية تلوكه الألسن وتتجه إليه الأفكار كأنه الغاية التي إليها نتجه، والمستوى الذي إليه نرتفع، غير إن هناك السناً لم تنطق به وأنظاراً لم تتجه إليه، بل بقيت رابضة في وكرها لا تحيد عنه. وبين هذه وتلك تقف الفكرة الأساسية مترددة محجمة، وان سارت ففي خطى بطيئة متمهلة.

وقد رأيت أن اجمل في نقط بسيطة غير مركبة، أهم الاختلافات التي بين الموسيقى الشرقية والموسيقى الغربية، وذلك بأن أضع أمام القراء صورة حقيقية للأصل الذي أتكلم عنه، وان اقسم تلك الفوارق التي بينهما تقسيما منظما صحيحا لتكون أمام من يطلع عليها صورة مرتبة غير مشوشة، مع اختصاري قدر ما اصل إليه.

فمن رأى هذه الكلمة خلوا من الإفاضة والشرح فليعذرنا فلسنا نكتب كتاباً ليحفظ ويكون حجة ومرجعاً، وإنما هو مقال يجمع بين الفائدة والترويح، وعلينا العهد عندما نريد أن نكتب كتاباً أن نراعي الدقة جهدنا وان نختصر فيه أو نجمل.

تنقسم الفروق بين الموسيقى الشرقية والموسيقى الغربية إلى ناحيتين رئيسيتين، الناحية الأولى: وهي الناحية العامة، وفيها تظهر روح كل موسيقى وترتيبها وموافقتها لأخيلة وأمزجة مؤلفيها، ومناخ البلاد التي وضعت فيها وما لها من رقي وانحطاط، وهذه الناحية قد يكتب فيها الأديب المطلع كما يكتب الموسيقي، ولعل الأديب يكون اكثر توفيقاً في الشرح والوصف. أما الناحية الثانية فهي التي تتناول الناحية الفنية من بحث الأغراض التي يذهب إليها التأليف إلى اختلاف الأنغام إلى طريق التلحين، ثم إلى شرح الأوزان والمقاييس وما إلى ذلك من أقسام تتصل بالموسيقى من ناحيتها الفنية. وهي الناحية التي أرجو أن اقصر عليها عنايتي وان أستطيع توضيحها وتقريبها إلى الإفهام.

الموسيقى كأدب اللغة صورة ناطقة حية للعصر الذي وضعت فيه، والأمة التي نشأت منها،

وتكاد أغراض الموسيقى تشابه الأغراض التي يذهب إليها أدب اللغة في كثير من الحالات، (فالموسيقى الحماسية) هي التي توضع إما لتعبر عن عاطفة قومية وطنية أو لتثير الحمية والإقدام في النفوس، وهي تكون تلحينا لأناشيد كنشيد المرسليين الافرنسي ونشيد اسلمي يا مصر. المصري ونشيد الجمهورية التركية، أو تكون في موسيقى صامتة في (مسير الحرب) لشوبرت أو (مسير الحرية) لصوصة ولعل هذا النوع من الموسيقى الصامتة في الموسيقى الشرقية غث لا قيمة له لا يكاد يبعث حماسة أو يوقد حمية إذا استثنينا بعض المسيرات الحربية التركية. يلي هذا النوع من الموسيقى، موسيقى اللهو والمراقص، وهي التي تعزف في الحانات ودور اللهو والتي يرقص على أنغامها الراقصون والراقصلات، وهذا النوع من الموسيقى هو أساس الموسيقى الشرقية قديماً وما زال متصلا بها إلى الآن وإن كان التهذيب قد ادخله في كثير من نواحيه. أما في الموسيقى الغربية فالتطور عكسي فبعد أن كان هذا النوع في بدء النهضة الموسيقية راقياً فنياً من نوع الكلاسيك صار يتدهور حتى الحرب العظمى فسقط سقوطاً شنيعاً واصبح خلواً من أي شاعرية أو فن والآن أتكلم عن الموسيقى الدينية فهي في الموسيقى الغربية أساس باقي الانواع، فمن معابد روما وهياكلها انتشرت الموسيقى الدينية قي العالم الغربي، وكان رجال الدين في أول أمرهم يقاومون تسرب موسيقاهم إلى الخارج بكل شدة، وكانوا يحافظون عليها كل المحافظة ولكنها ذاعت وانتشرت رغم كل حيطة أو صد، وكل من حملوا علم النهضة الموسيقية كانوا في بدء اشتغالهم بالموسيقى يدخلون الكنائس منتظمين في سلك المنشدين أو لاعبي الأرغن وبعد مضي مدة على اشتغالهم وتمرينهم كانوا يخرجون فينشرون تلك الروح التي تأثروا بها في فجر حياتهم الفنية، واذكر من هؤلاء النوابغ شوبرت مؤلف أوبرا فيرا براس، فقد كان أحد المنشدين بكنيسة ليتشتنتال وهاندل مؤلف (نيرو) و (الميرا) و (وراد ميستر) كان عازفا على الأرغن في كنيسة جويرتزبرج ونشأ هايدن في كنيسة القديس اسطفان بفينا. وكانوا جميعا عندما تنضج أرواحهم وتكمل فيهم بوادر النبوغ، يتمردون على الكنيسة ويخرجون إلى العالم الحر الطليق لتحلق أرواحهم في فضائه متحررة من القيود التي فرضت عليها في المعابد. واعظم

القطع الدينية هي (الأوراتوريو) التي منها نشأت (الأوبرا)ـ أما في الموسيقى الشرقية فكيان الموسيقى الدينية
متهدم لا أساس له، هذا باستثناء الهند والصين فان لموسيقاهم الدينية طابع من الرهبة العميقة والتأثير ومن اكبر مؤلفيهم الموسيقيين (تاجور)، أما في الإسلام فالموسيقى تكاد تكون بدعة لا تحليل لها وان كان هناك شيع وطرق تقيمها في أذكارها فهي منظور إليها نظرة بغيضة، وان كنا لا نستطيع أن نغفل ذكر (المولوية) ومركزهم الموسيقى بين موسيقى الأتراك القدماء. وأما الديانة القبطية فللكنائس تراتيلها وأناشيدها ولكنها على حال من السذاجة الفطرية لا تجعل لها أهمية من الوجهة العملية وإن لم تخل من خطرها في التاريخ الموسيقي فهي اصل موسيقى العالم إذا وصلنا موسيقى القبط بموسيقى الفراعنة. ننتهي من الموسيقى الدينية لنتكلم عن الموسيقى التمثيلية، فهي ركن هام من أركان الموسيقى لا يشتغل به إلا منأوتي قدرة واستعداداً خاصا، فكثيرون من نوابغ الموسيقيين الغربيين من أوتوا في أنواع كثيرة من الموسيقى حظاً وافراً ولكنهم لما وصلوا إلى الموسيقى التمثيلية رأوا انهم لا يستطيعون أن يضربوا فيها بسهم وخير مثال لنا هو (بتهوفن) الخالد فقد حاول محاولة واحدة في الموسيقى التمثيلية هي (اوبرا فيدليو) رأى بعدها انه ليس من رجالاتها فرجع إلى السينفوني والسونات واعظم من وضع في الموسيقى التمثيلية الغربية هو (فاجنر) اله الأوبرا و (لوهنجرين) (ودانهوزر) ومقطوعاتهم تشهد لما نقول أما في الموسيقى الشرقية فلم يعرف هذا النوع إلا حديثا وما زال في مهده لم يشب عن الطوق. بقي أمامنا بعد ذلك آخر قسم وهو قسم الموسيقى التصويرية وهو في رأينا اجل الأقسام أخطرها ويكون عادة موسيقى صامتة تصور وتشرح مختلف العواطف والمناظر والمؤثرات ومن أوائل من بدأوا بعمل السيمفوني التصويرية (هايدن) ثم (موزارت) ثم سيدهم أجمعين (بتهوفن) وفي الحق يمكننا بوجه عام اعتبار كل أنواع الموسيقى تصويرية، إذ الموسيقى كالشعر يعبر كل بيت منها أو قصيدة عن فكرة أو يصف موضوعاً، ويستثنى من ذلك (الدراسات) الخاصة وهي التي يطلقون عليها اسم فإنها تكون عادة لدراسة النغم في دائرة قواعده وأصوله
والموسيقى الشرقية خلو من الموسيقى التصويرية، وما جلها إلا دراسات الأنغام ولا يمكن اعتبار البشارف والسماعيات والبستات إلا نوعا من تعبر عن فكرة أو تصف موضوعا
ولعل معترضاً يقول، أو ليس ذلك الراعي الجالس على حافة الغدير أو وسط المراعي ينقل
أصابعه على مزماره وهو يرعى غنمه فيبعث أنغاماً هي السحر تأثيراً؛ أليس يصور بأنغامه ما يجيش بصدره من عواطف وآمال وما يتلاعب بفؤاده من أميال وافكار؛ واليس يصور بأنغام مزماره ذلك الغدير بعذوبته وتلك المراعي بخضرتها ونضارتها، وما إلى ذلك من تصوير. هذا هو الحق ولكنه تصوير ساذج ضعيف إلا أن جعلنا من مصوري القرية الذين يرسمون صور عودة الحجاج وما شابه ذلك مصورين لهم خطرهم وأهميتهم ولكن في الموسيقى الشرقية الحديثة، هناك من قام بمحاولات في هذا النوع علها تسير إلى التقدم بعد في مهدها.
والآن نتكلم عن الفروق بين الموسيقى الشرقية والموسيقى الغربية من الوجهة العامة فأول ما نلاحظه هو تعدد النواحي التي ذهبت إلى التعبير عنها الموسيقى الغربية واقتصار الموسيقى الشرقية على نوع يكاد يكون واحد، ويشبه ذلك شعر أمتين، تناول في الأول كل ما تذهب إليه أغراض الشعر من وصف وغزل ومدح وهجاء ورثاء. . .، واقتصر الثاني على غرض واحد لا يتعداه من تلك الأغراض.
كذلك الأمر في الموسيقى الشرقية. لم تعد كونها موسيقى لهو ومرقص وهي تكاد تقصر نفسها على هذا اللون فقط لا تبدله ولا تنهض عنه بينما نجد إن للموسيقى الغربية مذاهب وأغراضا متعدد متلونة لا يكاد ينتهي منها الباحث. ولعل ذلك راجع كما أرى إلى إن نشأة الموسيقى الشرقية لم تكن بالنشأة اللائقة بها كفن سام له آدابه، فهي قد نشأت في بلاد الفرس والعرب بين الموالي والقيان وفي الحانات التي كان ارتيادها محرما على ذوي المكانة الأدبية ـ مع إن بعضاً من الخلفاء قد اهتموا بأمر الموسيقى وعطفوا على المشتغلين بها فان ذلك كان ليرفهوا عن أنفسهم في مجلس

شراب وانس لا مجلس جد واحترام وظل الأمر كذلك حتى انتقلت الخلافة إلى الأتراك فابتدأت الموسيقى ترفع رأسها لتحل محلها الذي كان ينبغي لها إن تحله من قبل.
وكان ذلك باشتغال سلاطين آل عثمان أنفسهم بالموسيقى وما زال (سوزدلار بيشروي) - تأليف السلطان سليم - خليفة المؤمنين آية من آيات الموسيقى الشرقية.
وما يؤسف له حقاً، إن التراث الفني للموسيقى العربية قديما مفقود، إذ لم تكن الحروف الموسيقية (النوتة) متداولة، أو لعلها كانت متداولة إلا إن ما وصل إلينا منها كالطلاسم لا
حل له ولا بيان. وكانت النتيجة إننا لم نرث عنهم سوى الناحية الأدبية وهي كما قلنا لا تشرف في قليل ولا كثير، بل لعلها قد أثرت أثرها السيئ في الإفهام.
بقيت الآن ملاحظة ثانية على الفروق بين موسيقى الشرق وموسيقى الغرب، تلك هي ضعف الأولى وخلوها، وامتلاء الثانية وقوتها، وهذا فيما أرى يرجع لسبب لا نملكه.
ينشأ الموسيقي الغربي بين جبال وصخور وبحار عظام تمثل قوة الطبيعة وعظمتها وتهب عليه العواصف وتنقض الصواعق وترعد في سمائه الرعود فعندما تجول في مخيلته الموسيقية فكرة نراه تأثر فيها بتلك المؤثرات التي أحاطت به والتي تكيفت بها عاقلته ومخيلته. فنراها في صوته الأجش القوي وفي موسيقاه الممتلئة الضخمة.
أما نشأة الموسيقي الشرقي فعلى ضفاف نهر عذب تسطع عليه شمس صافية وتهب من حوله نسمات تتهافت في الرقة واللطف، وشد ما قاساه من قسوة الطبيعة وبطشها لفحة حر أو قرصة برد لا تلبث حتى يصفوا الجو ويعتدل النسيم.
ذلك ما يحيط بالموسيقي الشرقي وذلك ما يوحي إليه بفكرة موسيقاه وهذا ما ترتاح إلى سماع التعبير عنه أذاه وهذا سر تلك الرقة التي نشاهدها في موسيقاه وهي ليست منقصة أو عيباً ولكن الضعف هو ضعف التعبير عن الفكرة كالبيت من الشعر يصف البستان النظر والمنظر الجميل في أسلوب ضعيف وفكرة غنة وليس العيب فيها عيب الموصوف بل عيب القصور في التعبير وضعف شاعرية الشاعر.
ورقة الموسيقى ليس معناها ضعفها من الناحية الفنية، بل لعلها تكون قوية كل القوة وهي تسيل رقة ولطفاً، ولعل من يسمع لبتهوفن يمكنه أن يفهم ما اعنيه تماما بقوة الموسيقى ورقتها مجتمعين معا.
بقي الآن الحديث عن تركيب الأنغام في كلتا الموسيقتين والأوزان والتآلف فيهما، وارجوا أن تتاح لي الفرصة قريبا للكلام عنهما في أعداد قادمة من (الرسالة).
مدحت عاصم

العلوم

جراحة المخ

للدكتور فريدرك دامرو

استخلصها الدكتور احمد زكي

تقدمت جراحة الأبدان تقدما كبيراً ألفه الناس ففتر إعجابهم به إلا فيما تستجد الأيام منه، وكان طبيعياً أن يأتي دور الرأس، ذلك العضو المخوف المرهوب، لتظهر الجراحة فيه من المهارة والبراعة مثل الذي أظهرته في سائر الأعضاء.
وقد بلغ التقدم في هذه الناحية في العصر الحاضر مبلغا قمينا بإعجاب العلم، هواته ومحترفيه، إعجابا قد يبلغ حد الهلع إذا لمح اللامح بعينه داخل حجرات العمليات فرأى تلك الجرأة التي يأتيها الأطباء في تناول المخ الحي حتى كأنه بعض الأحشاء، ورأى كذلك شدة استمساك المخ نفسه بالحياة رغم ما تلعب به تلك الأيدي اللبقة وتقطع منه تلك (المشارط) و (المكاشط).
في عام 1931 بمدينة كليفليد بالولايات المتحدة، اقتطع الدكتور جيمس جاردنار النصف الأيمن كله من المخ، ومع ذلك صحت المريضة وقامت بعافية! وكانت امرأة في الحادية والثلاثين، ولها ولدان صغيران، عانت داء الصرع عشر سنين، وانتهى بها إلى أوجاع مريعة في الرأس، والى بصر اخذ يتضاءل، حتى أوشك يضيع، كل هذا بسبب خراج داخل جمجمتها كان ينمو فيزداد ضغطه فيكاد يقتلها ألماً. حلق النصف الأيمن من رأسها، ثم أزال الدكتور جاردنار جزءاً من الجمجمة قطره أربع بوصات ونصف، وقطع بطانة المخ فتراءى له شئ غريب نام كالقرنبيط، امتد وتفرع كالسرطان حتى عم النصف الأيمن كله من المخ. أما النصف الأيسر، فقد كان صحيحا سليما، وهو النصف

الأخطر لاحتوائه مراكز الكلام والكتابة فضلاً عن سيطرته على النصف الأيمن من الجسم.

كان الدكتور جاردنار يعلم إن حذاقاً من الأطباء قبله حاولوا إزاحة النصف الأيمن من المخ لبعض المرضى، وان الموت كان نتيجة مؤكدة في كل حالة، ومع علمه هذا اقدم على ما اقدم عليه لانه كان المختص الوحيد الذي بقي للتعيسة المسكينة. وبيدين بارعتين لبقتين

عقد الشرايين والأوردة باناشيط محكمة أوقفت نزف الدماء، ثم اخذ يكشط المادة المخية بما فيها الخراج حتى افرغ نصف الجمجمة، وعندئذ ملأ الفراغ بمحلول دافئ من الملح، ثم رد العظمة إلى موضعها، فسد الرأس. ثم أثبتها بالحرير ولم أطراف جلدة الرأس فخاطها، وانتهت العملية بسلام.

وبعد ساعات أفاقت المريضة فتعرفت أصدقاءها وتحدثت اليهم، واسرع شفاؤها، وكانت في نقاهتها تقرأ وتكتب، وذهبت عنها أوجاع الرأس ونوبات الصرع. مع وان ذراعها ورجلها اليُمنيين ظل بهما شئ من تيبس وصلابة، إلا أنها استطاعت أن تمشي، وبعد ثلاثة اشهر ونصف من يوم العملية كانت من الصحة بحيث استطاعت أن تعود إلى ما كانت عليه من العناية بولديها بنفسها.

إن من اغرب خصائص المخ الإنساني مقدرته على الاستفادة من عثرات تخال قاضية. اذكر حادثة من حوادث الحرب الكبرى: جئ بجندي من خط النار، وكانت مقدمة رأسه مرصعةبشظايا قنبلة، فأخرجنا قطعة منها قطرها بوصتان سكنت من المخ مسكنا عميقا بين فصيه الأماميين ولم نجرؤ أن نمس بقية القطع لتباعد ما بينها، ومع ذلك شفي المريض شفاء معجزاً. لم يشل. ولم تصب حواسه بسوء، وكل ما بقي عنده بطء في الكلام ونسيان للمواعيد.

وفي الرابع من يوليو عام 1930 وضع يافع في الثامن عشرة من عمره صاروخين مشتعلين في اسطوانة مضخة هواء من تلك التي تستخدم لنفخ إطارات العجلات، فانسفا بشدة عظيمة قذفت بعود المضخة الحديد في رأس الشاب، دخل من قرب عينه اليمنى واخترق مخه حتى برأ من ناحية الرأس الأخرى وجاءه الدكتور (جويل سوانسون) فأعطاه سمماً يقيه كزاز الفك وعقم مانتا من طرفي العود باليود، ثم انتزعه. واشتفى الشاب واستكمل سنة في دراسته الثانوية ولم يتأثر عقله من الحادث أي تأثر ظاهر.

وفي إحدى المصحات الأوربية تسجلت حادثة أخرى غريبة: رجل حذّاء انتابه جنون وفي أثناء إحدى النوبات أراد أن ينتحر فدق المسامير في رأسه وجيء به إلى المستشفى وبرأسه خمسة مسامير طول الواحد منها بوصتان كلها غائرة في المخ. فانتزعها الجراح فصح المريض بعدها وغادر موفور العافية. واغرب من هذا كله قصة فاعل عاش عشرين

سنة من بعد أن نفذ في رأسه قضيب سمكه بوصة بسبب انفجار دخله من دون عظمة الصدغ الأيسر ومر في العين اليسرى ففقأها، وبجزء كبير من المخ فأتلفه، ثم خرج من قمة الجمجمة. استعاد هذا العامل صحته واستمر يعمل في الحقل حيناً ويشتغل حوذياً حيناً ويحيد في كلا العملين على السواء فلم تكن منه يوماً شكاة على اختلاف مستأجريه.

لقد أفادت هذه الحوادث العلم، وقعت اتفاقاً فأعانت الأطباء على تفهم هذا العضو الخطير من الجسم، فاخذوا شيئاً فشيئاً يجمعون عنه الحقائق بما يأتيهم عفواً من هذه الإصابات وبما يقصدون من دراسته في مرضاهم، وبتشريحه وفحصه بعد الموت إذا خاب العلاج، وكذلك بتهيجة مراكزه بتيارات الكهرباء في رؤوس القردة والكلاب.

في الحرب الفرنسية البروسية استخدم الكهرباء طبيبان ألمانيان (جوستاف فرتش) و (ادوارد هتسج) استخدماها في تنشيط أمخاخ الجرحى واحدثا لأول مرة حركة في الجسم الإنساني بواسطة التيار والجسم فاقد الشعور. مسا بقطب التيار موضعاً من المخ فتحرك الرجلان، ومسا موضعاً آخر فتحرك الرأس. ثم مسا ثالثاً فتحركت الأصابع. وزاد في إيضاح العلاقة التي بين مراكز المخ وأعضاء الجسد تجارب أمثال تلك، أجراها العلماء على الكلاب والشامبانزي، فاصبح الطبيب اليوم يستدل بأعراض الجسد على موقع الفساد في المخ فيشق الرأس حيث اصل الداء بلا حدس ولا

تقريب، فجراحة الرأس لا تحتمل حدساً ولا تقريباً.
أنت نفسك تستطيع أن ترسم على رأسك خريطة تدلك على مواضع تلك المراكز. ابدأ بأصل انفك عند ملتقى الحاجبين، وارسم خطاً يمر بانتصاف جبهتك ويعلوا إلى أعلى جمجمتك ثم يمتد خلفاً إلى بصلة رأسك، بعد ذلك نصف هذا الخط، واذهب نصف بوصة وراء هذا المنتصف. ومن هذه النقطة ارسم خطين يميلان عن الخط الأول إلى جانب رأسك بزاوية قدرها سبعون درجة، وبذلك تكون انقسمت الرأس إلى خانات اربع، ففي الخانتين الأماميتين توجد المراكز التي تهيمن على الحركة في الجسم، في الخانتين الأخريين توجد المراكز التي تضبط الاحساسات التي يتعرض لها الجسد.
ووراء جبهتك توجد مراكز التفكير، فان كان هذا الموضع من رأسك عظيماً فاعلم انك مفكر كبير، وان وجدته في رأس غيرك صغيراً ضئيلاً فاعلم عكس هذا منه. وفي الإنسان
المستوحش وفي البسطاء تتراجع الجبهة إلى الوراء. انضماراً لان هذا الجانب من المخ لديهم لا يستكمل نماءه. ومن العجيب المستغرب إن هذه المراكز إذا أصابها تلف بخراج أو سلعة نهض جانب آخر من المخ ليتولى التفكير مكانه.
ولقد ورث كثير من العبقريين رؤوسهم من بعد موتهم للعلم ليفحصها رجل الطب. من أولئك الكاتب الفرنسي الكبير اناتول فرانس، كانت لفات مخه عظيمة وخلاياه السمراء كبيرة كبراً غير عادي. كذلك لينين، مؤسس الجمهورية الروسية وواضع البلشفة، جزئ مخه 31000 جزءاً، فحصت جميعها.
كذلك (ترجوينف) الروائي الروسي كان له مخ من اكبر الأمخاخ المقيسة، كانت زنته اكثر من أربعة أرطال. ومع هذا فحجم الرأس ليس مقياساً دقيقاً مطرداً للذكاء، دليل ذلك إن من الأمخاخ المعروفة مخين زادا وزناً عن مخ (ترجوينف) وكان أحدهما لأبله. وإذا زاد مخ عن مخ فليس معنى هذا زيادة في عدد وحداته فالوحدات سواء وإنما تزيد الوحدة عن أختها حجماً ووزناً.
وفي النصف الخلفي للرأس توجد مراكز الإبصار، فإذا نمت فيها نامية أو أصابتها اصابة، سببت العمى. وجزء المخ المجاور للأذن يحكم السمع، وأمام الجزء الأسفل لمراكز الحركة يوجد مركز الصوت، فنحن نسمع الكلمات مقولة بجزء من المخ، ونراها مكتوبة بجزء آخر، ونقولها بجزء ثالث
وإذا حدث اضطراب لأي من هذه المراكز، حدثت أحداث غريبة. كان أستاذ يحسن اللغتين الإغريقية واللاتينية، فأصيب في حادث بضربة على رأسه فلما أفاق واشتفى مما أصابه وجد انه فقد اللغتين جميعاً وعبثاً حاولت أن تسترجع ذاكرته كلمة من ايهما، وذلك إن خلايا مخه التي تختزنهما أصابهما التلف لا إصلاح لها.
وفي حادث آخر انسد شريان دقيق يحمل الدم إلى بعض الخلايا المخية بمنطقة الإبصار من رأس امرأة مثقفة، وما أمسى الليل وانفلق النهار بالنور حتى وجدت هذه المسكينة أنها عجزة عن القراءة وأصبحت الكتب لا تحمل إليها من المعاني اكثر مما تحمله إلى الفلاح الأمي. كانت تنضر إلى الكلمة فتراها رسما لا صلة له باللغة. أصابها عمى الكلم وعلى هذا المثال يحدث صمم الكلم. تصاب الخلايا الخاصة به فيسمع المنكوب كل الأصوات،
ويسمع الكلمات، ولكن خلوا من المعاني.
ومنذ اشهر قليلة حدث حادث عجيب في (لوس انجلس) بأمريكا الشمالية. فتاة مكسيكية دخلت مستشفاها العام للعلاج فقاس الأطباء فيما قاسوا درجة حرارتها فكانت 43 , 3والمعروف في الطب إن درجة 42 قاتلة. واستمرت هذه الحرارة عالية شهراً من الزمان. فحصها المختصون فاجمعوا على إن سلعة درنية نمت من مخها في المنطقة التي تضبط درجة الحرارة في الإنسان فساء ضبطها.
إن الجراح يستطيع اليوم أن يرسم خريطة للمخ كاملة يتبين فيها خلايا المخ وما تخص به من وظائف أعضاء الجسم المختلفة فهو إذا أتاه مريض عرف من أوجاعه وأعراضه أي مناطق الرأس اختل فيذهب إليها قدماً فلا ينحرف عنها قيد إصبع
اذكر رجل شفيناه من الصرع استهداء بتلك الخريطة كانت تبدأ الرجفة في وجهه فعرفنا من هذا إن اصل الداء واقع بمنطقة الحركة بمؤخر المخ. وأردنا زيادة التحقق ودقة في تحديد الموضع، فخرقنا ثقبين في مؤخر الرأس، وغرزنا في مادة المخ إبرتين

جوفاوين ومصصنا من سائله بعضه، ثم ملانا الفجوة التي خلت بالهواء، ثم أخذنا صورة سينية أرتنا إن تلك الفجوة غير منتظمة وان شكلها استطال في ناحية وابعج في أخرى بسبب ضغط سلعة لم تتراجع مع مادة المخ تحت ضغط الهواء المحقون. . بهذا الكشف الجديد تعرفنا على موضع السلعة التي لكأنما رأيناها رأى العين، ثم أزلناها.
ويختلف حس المخ اختلافا كبيرا تبعا للموقع الذي يحصل الفساد فيه، فقد لا تتعدى البثرة رأس الدبوس حجما فتحدث أعراضا مريعة هائلة، ثم قد تبلغ في موضع آخر قبضة اليد حجماً قبل أن تحدث حدثاً خطيراً.
منذ أعوام جاءني صديق يهوى لعبة التنس يشكو من ذراعه انه لا يتجه بالكرة الجهة التي يريدها وانه عبثاً حاول استرجاع الأصابة التي كانت له منذ حين، وهذه كانت كل شكاته. فامتحناه فتبين إن سبب ذلك سلعة بقدر البندقة فأزلناها وبذهابها رجعت إليه رمايته الأولى. رجل مبخوت هذا الصديق الذي نحن بحديثه، فلولا ملاحظته الدقيقة لما فطن أحد إلى دائه الخبيء، ولزادت سلعته حتى لنشق استأصالها أو استحال. وقد اصبح أطباء العصر من اجل ذلك وأمثاله حريصين على تعرف السلع في المخ ولما تكبر ويستفحل أمرها
منذ أعوام كانت خراجات المخ تحتسب من العلل الوبيلة التي لا رجاء فيها، وكانت جراحات المخ تنتهي بالموت بنسبة لا تقل عن 85 في المائة. أما اليوم فقد تحسنت طرقها واحكم تفصيلها وجد الطب في استبانة عللها قبل أن تشب، فزاد عدد الناجين من الموت الذي كان محققا بالأمس زيادة تطرد على السنوات.
وقد ثبت إن 10 في المائة من المجانين يختل صوابهم من جراء إصابات تقع لرؤوسهم. وقد ثبت إن رجالا محترمين موقرين استحالوا أشراراً مجرمين بسبب صدمة أو دقة على رؤوسهم آذت أمخاخهم. ومن الغريب إن نتائج هذه الصدمات قد لا تظهر إلا بعد أسابيع من وقوعها. مثال ذلك إن رجلا من أهل السواد أصابته رصاصة ضلت سبيلها ودخلت من مؤخر رأسه، فأسرعوا به إلى المستشفى وكان أول ما يعمل لفحصه بطبيعة الحال تصوير رأسه بأشعة س، ولكن كان وقع بالمستشفى حريق في أيام قريبة سابقة فقضى على جهاز الأشعة، فلم يجرؤ الجراح على سل مشرطه وهو لا يعلم موضع الرصاصة، فتركت حيث كانت وتعافى المرض ظاهرا وغادر المستشفى، ولكن بعد سبعة أسابيع اخذ بصره يضعف وآذن بالعمى، فعاد إلى المستشفى فصوروا رأسه فتراءى لهم إن الرصاصة صارت في المخ رويداً حتى حلت منه في موقع الأبصار، ولما انتزعوها عاد إلى الكفيف بصره
وغير هذا ما حكاه السير (وليم هويلر) الجراح الايرلندي الشهير، ذكر إن الرصاصة دخلت راس رجل وضلت هناك أربع سنوات حتى سكنت من المخ حيث تترابط الأفكار فأصابت ذاكرته وبصره وسمعه وأخرجت فعادت إليه كل هذه جمعاء.
ومن ذلك قصة طفل في الشهر الحادي عشر من عمره، سقطت على رأسه لَبِنة فكسرت جمجمته، فكانت تأتيه لهذا السبب ارتجافات عنيفة، ثم انقطعت. ولما بلغ عامه السابع عشر أخذ ينتابه صرع شديد اشتفى منه بإحدى براعات الطب أتاها الدكتور (شارل هرِس) من (تكساس) بأمريكا. ذلك أنه ارتأى أن الصرع جاء من ضغط العظم الصديع على المخ، ففتح الجمجمة فتحة أطالها وراء الرأس من الأذن إلى الأذن على شكل حذاء الفرس، ثم رفع الجمجمة، وقطع شريحة دهنية من فخذ المريض فوضعها تحت عظام الرأس حيث الصدع لتفعل فعل الوسادة فتلقى الضغط دون المخ. وقد نجحت العملية نجاحاً تاماً وزال الصرع وعاد الشاب إلى مدرسته يستعد للحياة استعداد أقرانه، ويأمل منها مثل آمالهم عمراً مديداً وعيشاً رغيداً.

القصص

نشيد الكرنك

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

لقد كانت أياماً مليئة بالحياة. جادها الغيث إذا الغيث همى
جلسنا بعد سير طويل عند مدخل البهو ذي الأعمدة، واخذ بعض الرفقة ينطقون أوتار المزهر والكمان والقانون فترتفع مقاطعها المتآلفة المتناسقة بأحسن الأنغام وأطيب الألحان ثم تجاوبت الأصداء العجيبة من نواحي ذلك البهو الفسيح، فإذا الجو له يطن

بأمواج مختلفة القوة من أصوات عذبة ساحرة، واستلقيت على مسافة من الجمع إذ كنت من أكثرهم تعبا، ولكن وان عزبت عن الضجة والصخب لم تفتني نفحات الموسيقى الحلوة وقد صفاها البعد ونقاها

وفيما أنا كذلك إذا بي وقد تمثل ذلك الهيكل منذ كان في شبابه، ورونقه، وقد قامت فيه الأعمدة باسقة تحمل تيجانها النيلوفرية وتكسوها النقوش البديعة الذهبية، وفي مداخلها المسلات النحيلة الرشيقة تلمع رؤوسها النحاسية في ضوء الشمس المائلة إلى الغروب، ثم تمثلت منظر الهيكل يوم عيد عظيم وقد ازدحم بالكهنة يصطفون للقاء فرعون وهم ينشدون نشيد الترحيب والتكريم، حتى إذا ما اقبل خروا إلى الأذقان ركعاً لابن الآلهة وسليل حوريس. فخيل إلي وأنا وسط هذه التأملات إن ذلك الصوت المنبعث إلى آذاني من موسيقى أصدقائي هو صوت هؤلاء الكهنة يتردد بين جدران المعبد القائم الجديد. وغرقت في خيالي وإذا بي وقد لف الظلام ما حولي. وإذا بي أرى من خلال الظلام عالماً سحرياً عجيباً ينشر من بين هذه الأطلال الهرمة:

رأيت (فرعون) مقبلاً يحمل في يداه عصا مذهبة وعلى رأسها تاج تحف به من أسفله الحية الملكية.

فخر الوقوف ساجدين وتعالت في جنبات المعبد أصداء موسيقى بديعة بالنشيد الملكي وألقى في روعي إن معناه

لاح حورماخيس يملأ الأرض بأنوار الصباح

يا ابن اوزيريس روحك الأقدس من روح بتاح

وكان (فرعون) نحيل الجسم قصير العود تعلو وجهه الأسمر صفرة كصفرة النرجس الذابلة. ولما رأيته وتبينت ملامحه لم املك نفسي إن صحت صيحة مكتومة هائلة. (أتعرف توت عنخ آمون؟) إذا كان صاحب الصورة التي ألفنا رؤيتها منذ كشف المقبرة المشهورة.

وقد كان المنظر الذي حولي يدعوني إلى الخشوع والرهبة. غير إني مع ذلك وجدت من نفسي كبراً أن اسجد لمخلوق، فلم اسجد مع الساجدين، وكنت أخشى أن يمسني من ذلك سوء. غير إني تعجبت إذ رأيت الحاضرين لم يزعجهم ذلك بل كأنهم لم يلحظوا شيئا.

فتجرأت وقمت أسير وراء موكب الملك بين صفوة المتقربين وهامات رجال الجيش وكبار الكهنة.

وسار (فرعون) في سبيل مرسومة إلى أن بلغ قدس الأقداس خلال الأغصان الملتفة والأوراق المتعانقة المتراقصة. كأنها الرقراق من جدول يجري بعد الترويق، أو النسيم يسري من تعدد المسارب والثنيات، فكانت إذا بلغتني تتوارد هينة مصقولة فتخلف عنه القواد وسجدوا إيذانا بالوقوف عند حد الحرم الممنوع، ولكني دخلت وراء الموكب ولم يبقى فيه إلا الملك والكاهن الأعظم وبعض كبار الكهنة يحملون في أيديهم هدايا الملك إلى إله طيبة الأعظم (آمون). فلما أن بلغوا المذبح وضعوا ما بأيديهم وانحنوا إجلالا، ثم وضعوا البخور في المجامر وعلا صوتهم بنشيد قدس الأقداس:

أأمون بارك سليل العلا ... ومن فيه يجري دم الاقدسين

ولكنهم وقفوا حيث انتهى بهم السير، ودخل الملك وحده إلى الحرم الأقدس يتبعه الكاهن الأعظم، فترددت قليلا ثم عاودتني الجرأة فسرت وراء الملك إلى قلب ذلك المكان المحرم، ولكني عجبت إذ لم يمنعني أحد ولم تلتفت إلي عين. ولقد راعني الأمر وهالني مخافة أن أكون أقدمت على انتهاك حرمة جزاء الاعتداء عليها الهلاك. فقد كنت اعرف إن ذاك الحرم لا يحل دخوله إلا للملك ولرئيس الكهنة، وان الموت هو العقاب لمن يدخله من غيرهما. غير إني مع ذلك لم الو على شيء، بل سرت قدماً وسط الظلام الدامس الذي لا تضيء فيه إلا ذبالة ضئيلة في زجاجة حمراء لا يكاد الإنسان يتبين فيها إلا أشباحاً كأنها الظلال المتحركة.

ولما صار الملك هناك وحده مع الكاهن، أقول وحده لان كل الأدلة تدل على انه لم يلحظ

وجودي - استلقى على مقعد استلقاء المجهد السقيم وان أنة المتوجع المكلوم.

وسمعت صوت الكاهن الهادئ يخترق ذلك الظلام بنبرات خفية متزنة ولست اذكر ألفاظه ولكني كنت افهم ما اسمع بإلهام عجيب: قال (أي بني! شملتك رحمة آمون).

فصاح الملك صيحة مكبوتة (أيها الشيخ! نحن هنا وحدنا)
فقال الكاهن (اعرف ذلك ولهذا اطلب لك رحمة آمون)
فقال الملك بالصيحة ذاتها (ليتني كنت لا اعرف! ليتني كنت أستطيع أن اصدق!)
فقال الكاهن (أي بني! انك لا زلت شاباً وقد يغتفر للشاب أن يشك أحياناً)
فصاح الملك (اشك؟ إنني لا اشك. إنما انطق عن عقيدة. فلماذا يكون لتمثال مصنوع من الذهب في قلبي من الاحترام؟)
فقال الكاهن بلهجة مرة (ولكنك ملك. وان كنت لا تستطيع أن تصدق فعليك أن تصدق.)
فقال الملك محتدا (ماذا اصدق؟ هل اصدق إن آمون اله يرحم، أو جبار ينتقم؟ نحن هنا وحدنا فلا بأس أن تقول الحقيقة مجردة. ليس آمون هو الذي يتطلب مني الإيمان والخضوع بل هو (آي) الكاهن الأعظم وليس هو آمون الذي يرضى أن يسخط بل هم الكهنة الذين يحملون رمزه ويقومون على سدانة تمثاله الأخرس. هم كهنة آمون اللذين يطلبون مني الخضوع والعبادة) فقال الكاهن بهدوء (ثم ماذا؟) فقال الملك (ومع ذلك فقد كنت صريحا مع نفسي ورضيت بتغيير اسمي من (توت عنخ آتون) إلى (توت عنخ آمون) فتركت الإله الواحد القادر وآمنت بإله مزيف وأنا عالم بأنني إنما أؤمن بإله مزيف ولكي اضلل وأزيف.
فقاطعه الكاهن وقد بلغ الغضب على هدوءه وسخريته المرة قائلا:
فصاح الملك (ساكاي!) (حسبك يا ساكاي)
فأجاب (آي) (نعم ساكاي. انك لا تمت إلى الملوك إلا بصلة النسب والاعتقاد. وقد بطل ذلك الاعتقاد الفاسد في إلهك (آتون) منذ مات ذلك المجرم الذي كان يحكم في (آختاتون) وأما علاقة النسب فمن السهل البحث عن علاقة أقوى منها واجدر بالملك) وعند ذلك لاح شبح الملك وهو ينهض غاضباً ويرفع رأسه متحدياً. ولكنه لم يقل كلمة واحدة بل بقى واقفاً وصدره يزدحم بأنفاسه. ونهض الكاهن كذلك ووقف أمامه واستمر في
قوله، وكان في حماسته يحرك رأسه ولحيته الطويلة بشي من العنف ويرفع رأسه عالياً مع ما في ظهره من انحناء الشيخوخة: قال (لا تغضب من الحق.) وان شئت أن تغضب ففكر في العاقبة قبل أن تخطو في سبيلك خطوة واحدة. إنني أحذر. إنني انذر. والبلاد كما ترى في اشد حالات الاضطراب والفوضى وقد صارت كالنسر المجرد من ريشه أو الأسد الذي قلمت أظافره).
فعاد الملك إلى مقعده وأن أنة أخرى اعمق من الأولى واشد مرارة ثم استمر الكاهن فقال:
ومع ذلك فأسمع قصة قصيرة قد تكون مغنية عن قول كثير. إننا نحتفل اليوم بعيد) اختيار آمون لجد زوجتك الملكية، الملك تحوتمس الثالث. ولقد كان ذلك الملك العظيم كما تعرف غير مرشح للملك لانه ابن محظية لا تجري في أمه دماء الآلهة. ولكن آمون رضى عنه ومال إليه في أول دورة، ووقف أمامه في يوم احتفال كهذا. فاظهر بذلك ارتياحه إليه وصار المُلك من ذلك اليوم اليه، فتنحى أبوه عن الملك وتنحى أخوه بل (لقد تنحت أخته نفسها وهي التي تجري في عروقها دماء الآلهة. أتعرف هذا؟
فتمتم توت عنخ قائلا (نعم. اعرفه) فقال الكاهن (وإذاً فلك الخيار. سأقول اليوم كلمتي إذا ما خرجنا من هنا على مسمع من رجال الدولة والكهنة والأمراء. وإذا شئت فارفض ما أقول)
قال هذا ثم نهض رافعا رأسه واتبعه الملك الصغير مطأطئ الرأس حزيناً ولما مر (توت عنخ) على مقربة مني وقعت على وجهه شعاعة من ضوء الذبالة فإذا على وجنته دمعة تترقرق وتلمع في الضوء الخافت.
ولما بلغ الكاهن الأعظم مكان المحراب عرج عليه لكي يؤدي فرضاً من الفروض المرسومة وألقى بعض البخور في المجامر المتقدة ثم سار وراء الملك حتى بلغا الفناء الفسيح في وسط الهيكل، وكان هناك الحشد الحافل من أهل الدولة والكهنة والقواد والأمراء فخروا جميعا للأذقان سجداً يتلقون الملك والكاهن الأعظم، ثم جلس الملك على عرش منصوب في الصدر، وقام الكاهن الأعظم فألقى كلمة قصيرة قال فيها:

(أيها القواد العظام والأمراء الكرام! لقد دخل الملك العظيم ابن الآلهة إلى قدس الأقداس وتجلت له أسرار آمون وظهر من إيمانه وبره ما جعل الإله العظيم يتجلى له. ولكن تجلى
آمون للملك العظيم. فالشكر لامون)
فسجد الجميع، مرة أخرى وقام الملك سائرا نحو الكاهن الأعظم وكانت خطاه مترددة مضطربة. ثم قال بصوت مختنق متهدج (المجد لآمون) فعلت عند ذلك ضجة من الجمع الخاشع كأنها ضجة التهليل والتسبيح.
وارتفع صوت الكهنة بنشيد الملك: (لاح حودماخيس، يملأ الأرض بأنوار الصباح) ثم حمل الكهنة تمثال آمون الذهبي وداروا به حول الفناء أمام الحضور حتى أتوا أمام عرش الملك فوقفوا واقبل التمثال محمولاً على الأعناق لكي يبارك الملك المحبوب المؤمن.
لقد تجلى آمون (لتوت عنخ) ورضى عنه لما في قلبه من الإيمان، وقام الملك بعد ذلك يتعثر في مشيته وقد زاد وجهه شحوبا على شحوبه وغارت عيناه وترددت فيهما قطرات تكاد تعيشهما. وعند ذلك علا صوت الكهنة مرة أخرى بنشيد
(أآمون بارك سليل العلا)
فتجاوبت به الأصداء بين جدران المعبد وتماوجت نغماته وكان بعضها يفنى كما تفنى الموجة إذا اتسعت دائرتها وبلغت مداها وتجددت من أعقابها موجة أخرى لا تلبث أن تبلغ مداها.
وعند ذلك انجلى الظلام وأسفر المنظر فإذا بإخواني ينشدون نشيدهم على آلات الكمان والعود والقانون. وإذا بي لا زلت منتحيا منهم ناحية راقدا على جانب حجر مكتوب الصفحات.
محمد فريد أبو حديد
العدد 30 - بتاريخ: 29 - 01 - 1934
. . .إلى الأقصر
- 1 -
كان لا بد للآغب أن يستجم، وللصائم أن يعيد، وللمجادل في مجد الفراعين أن يزور الأقصر.
وكان (قطار الآثار) قد جرأ الجيوب الهزيلة على أن تباري الجيوب الأمريكية في (وادي الملوك)! وقطار الآثار كقطار البحر فكرة سديدة، تنفذها إرادة رشيدة. .
ولكن حرف (لكن) لا يزال وا أسفاه أكثر أخوات (إن) استعمالاً، وأشدها بحياتنا اتصالاً! فأنا مضطر أن أقول: ولكن هذا القطار لا يصلح إلا لأقوياء البنية، أشداء العصب، ممن يستريحون على الوقوف، وينامون على الرفوف، ويغمضون على ضيق المكان، وكظّة الديوان، وحرج الأسِرة. أما أخو الجسد المهدود، والعصب المجهود، فلا مناص أن يقضي ليله كما قضيت: مقسم النفس بين القلق والأرق، ولا يجد نفسه ولا يملك قلبه!
سار بنا القطار المثقل في منتصف الساعة التاسعة من مساء يوم الاثنين أول أيام أمس العيد، وكان المفروض على راكبه أن يبيت قائماً في الممشى، أو نائماً على (الرف)، أما الجلوس لو أراد، فلا سبيل إليه إذ لا محل له! وكان من الميسور تلطيف هذا المقدور بشيء من لهو الحديث ولو جمعنا الحظ العنيد برفقة من أهل الأنس، ولكنني كنت أنا وصديقي بين أربعة لا يصل أحدهم بالآخر سبب من جنسية أو لغة، فحملونا مكرهين إلى الفراش النابي والوساد القلق. . . ولا أريد أن أثقل عليك وعلى إدارة القطار بذكر ما أعقب ذلك من أزمة الصدر، وضمة القبر، وإزعاج الصحب، وإغاثة الإسعاف، وقضاء الليل الطويل قابعاً أمام الباب لا يخدع في عيني نعاس، ولا ينفس عن صدري فرج، فان علاج ذلك كله إعداد عربة للجلوس يتنفس فيها الساهد المكروب باللهو والسمر.
القطارالجاهد يخوض في أحشاء الليل المظلم، والهواء البارد يسفي غبار الطريق الخانق، والركب المترجح يغط في النوم غطيط الخلي، والكرى الجائر قد غلبني على أخوي فأوى بهما إلى المضجع! وأنا وحدي في هذا القفص الطائر أرعى نجوم الكهرباء في سمائه المحصورة الرفيعة، وأقول في آخر ليلة من ليالي رمضان المحتضر: متى يا اله الناس يصبح هذا الليل؟!

وأخيراً، أخذ نور المصابيح الزاهر يشحب قليلاً فقليلا، وستر الظلام الصفيق يرق عن جوانب القطار شيئاً فشيئا، وأنفاس الفجر الندية تخلص إلي من خلال النوافذ، وكنا حينئذ نمر على الجسر الحديدي (بنجع حمادي)، ففتحت الشباك القريب وأرسلت طرفي الكليل في شمال الوادي، فرأيت رءوس الشجر الرفيفة، وذوائب النخل الرفيعة، طافية في سيل من الضوء المشوب المبهم، وتبينت القرى الجاثمة على الضفاف الخضر تستيقظ مطلولة الجنبات مع الطبيعة، والصبح الوليد يهتك عن مهده الوردي كلّة السحر الداكنة، وأبصرت من وراء (قنا) خطاً من ذائب المرجان قد ارتسم على قمم الجبال اللوبية، ثم أخذ ينتشر رويداً على الظلال المتخلفة من بقايا الليل حتى غمر الوادي، فاستبانت في سهوله الخصيبة حقول القمح والفول والعدس يكللها الطل، ويهفو فوقها رقيق الضباب.

أشرقت الشمس علينا كما كانت تشرق منذ آلاف السنين على سيتي ورمسيس، فهي وحدها المخلوق الذي شهد ضخامة الماضي، ويشهد الآن ضآلة الحاضر! فليت شعري ماذا تقول ذكاء في هؤلاء الأقزام الذين يحجبون اليوم (طيبة) مختالين على مركب ليس في صنعه قسط من حديد أو خشب؟ ماذا تقول ذكاء وقد رأت ملوكنا العماليق وهم في طفولة البشرية ينقلون قطع الجبال من أدنى الشمال إلى أقصى الشلال على عجلات وآلات من خلق عقولهم وصنع أيديهم، ثم ترانا معشر الأعقاب نلوك الفخر أمام الغربيين بعظمة الأقدمين، ونتبجح أمام الأقدمين بعبقرية الغربيين، فنحن كخلفة الدوحة العتيقة تنبت رخوة على جوانب الجذر الثابت، ثم يقعد بها الوهن عن مطاولة الجذع، فلا هي في رسوخ الأصل وقوته، ولا هي في سموق الفرع وإشرافه!!

لا يكاد الصعيد يختلف اليوم عما عهده الفراعين منذ أربعة آلاف سنة! فالشمس المعبودة هي الشمس، والنيل المقدس هو النيل، والقمح الذي خزنه (يوسف) هو القمح، وجوارح الطير التي تحوم فوق ساحلي النهر هي بأنواعها وأشكالها وألوانها التي كانت تحلق في أجواء (طيبة)، لأن الحيوان والنبات قلما ينالهما التغير. أما الذي نال منه الحدثان، وغير من حاله الزمان، فهو هذا الإنسان المسكين، فإنسان النيل لم يعد ذلك الذي قارع الدهر، وصارع البلى، وحاول الخلود، وقدس القوة، وأخضع العراق والشام وفلسطين والسودان والحبشة، وإنما أصبح من فعل القرون وإلحاح الجور شيئاً من المتاع تابعاً للأرض، يُملك ولا يَملك، وينتج ولا يُهلك!

على أن القبس الإلهي العربي الذي بعث الضوء في شبابه الكادي، والحرارة في جسمه المنحل، لا يزال قديراً على إحياءه، جديراً برفعه.

وإذا كان البحر يتعاوره الجزر والمد، والشمس يتعاقبها الغروب والشروق، والطبيعة يتناوبها الخريف والربيع، فأن مصر الناهضة تشارف بثروتها المد، وتطالع بقادتها الشروق، وتستقبل بشبابها الربيع!

ضحت الشمس واستطاع النظر القصير أن يجمع الوادي في نظرة! وهيهات لابن (الدلتا) الفسيحة أن يفهم معنى الوادي إلا في أعالي الصعيد! فهناك تتقارب السلسلتان بما ورائهما من موات وجدب، وينساب بينهما النهر العظيم بما يحمل من حياة وخصب، ويشعر المصري الذي يرى هذا المنظر أول مرة فيجد واديه كله في عينه وفي قلبه، بنوع من الغبطة لم يحسه من قبل، ويستغرق في نشوة من الذكريات والأماني لا يخرجه منها إلا وقوف القطار في محطة الأقصر. . .

احمد حسن الزيات

ربع مية. . .

للدكتور طه حسين

يا دار مية بالعلياء فالسند ... أقوت وطال عليها سالف الأمد
وقفت فيها أصيلاً لا أسائلها ... عيت جواباً وما بالربع من أحد

ولم يكن ربع مية بالعلياء فالسند، وإنما كان في صحن الأزهر، وعند القبلتين القديمة والجديدة، حيث كانت الحركة المتصلة في الليل والنهار، وحيث كان ذلك الدوي الغريب الذي لم يكن ينقطع إلا في أوقات الصلاة العامة. والذي كثيراً ما فكرت فيه وسألت نفسي عن هذه الأجزاء التي لا تحصى، والذرات التي لا تعد، والتي كانت تؤلف جوهره وتكون مزاجه، وتجعل منه وحدة لا يظهر فيها الاختلاف، ولا يحس فيها التباين، فإذا

حللتها رأيت اختلافاً لا حد له، وتبايناً ليس له آخر: رأيت أصوات قوم يتحدثون في متاع الدنيا ولهوها، وأصوات قوم آخرين يتحدثون في جد الحياة وآلامها، وقوماً يذكرون الله، وقوماً يدرسون العلم، وقوماً يتلون القرآن، وقوماً يقرأون ما يخطر لهم وما لا يخطر لك على بال، وقوماً يخوضون فيما تظن وما لا تظن من فنون الحديث، ومن هذه الأصوات كلها ينعقد صوت واحد قوي ضخم عميق عنيف متحدٍ يملأ فضاء الأزهر منذ تدخله إلى حين تخرج منه، ويملأ فضاء الأزهر من أي باب ولجته، إلى أي باب تجاوزته، ويملأ فضاء الأزهر في جميع أرجائه وأنحائه على كثرة ما فيها من الانحناء والالتواء والانعطاف.

نعم في هذا الربع الذي لم يكن يخلو في نهار ولا في ليل، ولم يكن يهدأ في شتاء ولا في صيف، ولم يكن يشعر بالحاجة إلى الحياة لأنه كان حياة كله. وكان حياة كأشد ما تكون الحياة قوة وحركة وإنتاجا. في هذا الربيع وقفت كما وقف النابغة في ربع مية، ولكني لم أقف أصيلاً وإنما وقفت بعد صلاة العتمة ففهمت هذا النحو من شعر القدماء، أو قل أحسست هذا النحو من شعر القدماء، فما أكثر ما نفهم الشعر القديم والحديث دون أن نحسه كما يحسه قائلوه. ودون أن نتأثر به كما يتأثر به الشعراء.

وكانالأزهر كربع مية، خلا بعد عمران، وسكن بعد حركة، وأعيا عن جواب السؤال حين وجه إليه السؤال، وكان الأزهر كربع مية قد طال عليه الأمد وبعد به العهد. طال عليه الأمد أكثر مما طال على ربع مية فما أضن أن ذلك الأمد الذي ذكره النابغة والذي طال

على ربع مية كان طويلا مسرفا في الطول يكاد يبلغ ألف سنة كهذا الأمد الذي أذكره حين حين أتحدث عن الأزهر والذي ذكرته حين تحدثت إلى الأزهر منذ أسبوعين. وكان الأمد بين الأزهر وبيني قد طال. فما أذكر أني دخلته منذ بضع عشرة سنة، وما أذكر أني طوفت فيه منذ أكثر من عشرين عاما، ولكني حملت في نفسي دائما للأزهر صورة حية قوية شديدة الحركة عظيمة النشاط رائعة الدوي عسيرة التحليل) وكنت أسعى إلى الأزهر منذ أسبوعين وإن قلبي ليخفق سعادة واغتباطاً وحنينا إلى هذه الصورة التي صحبتني ربع قرن وطوفت معي في أقطار الأرض واستقبلت معي الوان الخطوب لم تضعف ولم تفتر ولم تتضاءل. والتي كنت أسعى بها إلى أصلها الأصيل في صحن الأزهر وعند القبلتين لتستمد قوة إلى قوتها وحياة إلى حياتها، فلما بلغت الربع - وليتني لم أبلغه - نظرت فإذا الصورة أقوى من الأصل، وإذا الأزهر الذي أحمله في قلبي أشد حركة وأعظم نشاطا وأقوى حياة من الأزهر القائم هناك في حي القاهرة.

قال أصحابي وكلهم مثلي أبناء الأزهر الذين بعد عهدهم به وطال فراقهم له: وما يمنعنا أن نختم رمضان بزيارة قصيرة للأزهر نحيي بها العهد القديم ونذكر بها أيام الشباب. قلت وأني في ذلك لراغب، وأني إلى ذلك لمشوق. ومضينا إلى الأزهر ونحن نقدر أن سنجد فيه تلك الصورة التي الفناها، وأن سنسمع فيه ذلك الدوي الذي عرفناه، وأن سنختلط به اختلاطاً، ونمتزج به أمتزاجاً، ونقف فيه كما كنا نفعل أيام الشباب وقفات فيها الجد الخصب، وفيها هزل يشوبه الحب والعطف. نتنقل بين هذه الحلقات المنبثة في أرجائه نسمع لهذا الشيخ وهو يقرأ الحديث أو التفسير أو يقص قصص الوعاظ فيعجبنا صوته وإلقاؤه وفهمه وإفهامه فنعجب به ونبسم له. ونتجاوزه إلى ذلك الشيخ فيضحكنا صوته أو القاؤه أو لازمة من لوازمه أو بعض ما يدفع إليه من الخطأ في الفهم أو السخف في الإفهام فننصرف عنه ضاحكين متفكهين، حتى إذا قضينا من هذا كله إربا خرجنا وقد ذكرنا أنفسنا وسعدنا بلقاء تلك الأيام العذاب.

كنا نقدر هذا كله فلما دخلنا الأزهر لم نرى إلا وحشة ولم نحس إلا صمتاً، لم نعرف شيئاً ولا أحدا، ولم يعرفنا شئ ولا أحد. وإنما كنا أشبه شئ بالأشباح أو الأطياف تمضي في مكان خال موحش لا حياة فيه ولا عمران، وأشهد لقد لقينا خدم الأزهر باسمين لنا محتفين

بنا، يسعون بين أيدينا ومن حولنا، كأنما نحن جماعة من السائحين الذين لا علم لهم بالأزهر ولا معرفة لهم بخفاياه، فهم يهدوننا ويدلوننا ويرفقون بنا في الحديث. ويحكم! فأنا أعلم منكم بالأزهر وأعرف بمعالمه، وإنا لم نأت لنلقى منكم هذا الرفق، وإنا لنفضل أن تلقونا بما كان يلقانا به أسلافكم من ذلك العنف الذي كانت تحبه نفوسنا وان أظهرنا منه النفور. أين الجبلاوي وأعوان الجبلاوي؟ اين تلك العصي التي كانوا

يهزونها فتسمع لها أصوات خفيفة ولكنها مخيفة؟ أين الغراب وأيام الغراب؛ وأين رضوان وجنود رضوان؟ أين الجندي وأعوان الجندي؟ أين هؤلاء جميعا وما كان يحيط بهؤلاء جميعا من جلال كنا نزدريه وكنا نضيق به، وها نحن أولاء نذكره الآن فتذهب نفوسنا في أثره حسرات. ولست أدري من هذا الذي عرفنا فأسرع بأسمائنا إلى رجل كريم من أصحاب الفضيلة المفتشين. وإني لأطوف مع صاحبي في الأزهر يتحدث إلي وأتحدث إليه بهذا الصوت الهادئ الخافت الذي نصطنعه إذا خلا أحدنا إلى صاحبه. كأنما نحن في دار من الدور أو في بيعة من البيع التي يحسن فيها الهمس لا في الأزهر الذي لم يكن يحب ألا الجهر ورفع الصوت، وما راعنا إلا صاحب الفضيلة وقد أقبل علينا طلق الوجه باسم الثغر مبسوطالأسارير يحينا تحية الرجل الكريم، ويدعونا إلى ضيافته ويلح علينا في أن نصعد معه إلى حيث يتلى القران ويشرب الشاي . .

وكنا نود لو استطعنا أن نخلو إلى هذه العمد القائمة لنجدد عهدنا بها، ولنبثها ذكرى تلك الايام، ولنسألها عما ألم بها من الحوادث وأختلف عليها من الخطوب منذ فارقناها، ونظفر منها بهذا الصمت الذي هو أفصح من الكلام وأبلغ منه أثراً في النفوس، ولكن الشيخ دعى فلم يكن بد من أن نستجيب، فمضينا مع الشيخ إلى حيث أراد، وصعدنا معه إلى غرفة من تلك الغرفات التي كنا نذكرها أيام الصبا فتمتلئ قلوبنا لذكرها مهابة وإجلالا ورهبة وإكبارا. في تلك الغرف كان يستقر شيخ الأزهر ومفتي الديار. وفي تلك الغرف كانت تدبر أمور الأزهر وتصرف شؤون العلماء والطلاب، وحول تلك الغرف كانت تتطاير طائفة من الأحاديث والأساطير عن حياة الشيوخ وأقوالهم وأعمالهم. وكانت هذه الأحاديث تصل إلينا فنعجب بها ونبسم لها ونلتمس فيها العبرة والعضة والفكاهة. وكنا نتنقل بهذه الأحاديث إلى بلادنا في الريف فنقصها على آبائنا وإخواننا فيعجبون بها ويكبرون أصحابها ويتخذونها ذخراً لما يعقدون من مجالسهم إذا أشرق الصبح أو أقبل المساء.

صعدنا مع الشيخ إلى تلك الغرفات ونحن نسأله عن الأزهر ما خطبه، وعن هذا الصمت ما مصدره. والشيخ صامت كالأزهر لا يستطيع رجع الجواب. ثم انتهينا مع الشيخ إلى طائفة من أصحابه كرام مثله لقونا لقاء حسنا، وحيونا تحية حسنة، كما لقينا الشيخ وكما حيانا، ونسألهم عن الأزهر ما خطبه؟ وعن هذا الصمت ما مصدره فإذا هم صامتون كالأزهر، وإذا هم صامتون كالشيخ، وإذا هم لا يستطيعون رجع الجواب.

ثم تدور علينا أكواب الشاي، ثم تتلى علينا آيات الله في صوت عذب ولهجة حلوة وقراءة صحيحة مستقيمة نقية تصل إلى أعماق القلوب. ولكن من القارئ؟ من أين جاء؟ ما شكله؟ وما زيه؟ انه رجل مطربش قد اتخذ زيا غير زي الأزهر، لأنه ليس من أهل الأزهر وإنما هو من عمال العنابر. تبارك الله! رجل من غير الأزهريين يتلو القرآن بين الأزهريين! هذا خير، هذا خير كثير ولكنه غريب لم نكن نقدر أن نلقاه في أيامنا تلك. وكنا نحب أن نلقاه الآن والأزهر معمور يموج بالناس وترتفع فيه أصوات الشيوخ بقراءة القرآن. ولكن الأزهر ساكن صامت، وهذه الطائفة الكريمة من العلماء الواعظين قد استمعوا وأنصتوا لتلاوة القرآن الكريم تخرج من رأس عليه طربوش. هذا خير ما في ذلك شك. ولكن هذه الصورة ما زالت غريبة في أنفسنا، وما زال موقعها من قلوبنا شاذا قلقا، ومع ذلك فقد يقال إن الشيوخ محافظون، وإننا نحن من أصحاب التجديد. ثم انصرفنا محزونين مستيئسين، جئنا نزور الأزهر فلم نر الأزهر، وإنما رأينا أطلاله ولم نستطع أن نطيل عندها الوقوف. قلت لأصحابي: ولكن ما هذا الصمت وكيف انتهى الأزهر إليه؟ وأيكم كان يظن أن ذلك الصوت العظيم يقضى عليه في يوم من الأيام أو في ليلة من الليالي بهذا الخفوت المنكر المخيف. قال أصحابي فانك تنسى أن الأزهر قد كان جامعاً فاصبح جامعة. وإنك تنسى أن الجامعة إن استيقظت في النهار فهي تنام في الليل، وأنك تنسى ان للجامعة نظام يحد حظها من الحركة وحظها من النشاط. فأذكر هذا كله وأذكر أنك تخطئ اشد الخطأ إن ظننت ان التجديد مقصور على الجامعة وأصحاب الجامعة، فالتجديد أقوى وأنشط وأوسع سلطاناً مما تظن. أنظر إليه كيف وصل إلى الأزهر فعلمه كيف يكون الكلام في النهار والصمت في الليل. وقد كان الأزهر متصل الكلام في الليل والنهار. قلت لأصحابي يا بؤسي للتجديد إذا

انتهى بالأزهر إلى هذه الحال! كم كنت أوثر أن يظل الأزهر جامعا وإلا يمسخ جامعة.
طه حسين
منطق اللغة
للأستاذ أحمد أمين
قال صديقي: ألا تنظر إلى هذه الظاهرة الغريبة؟ أنا في مجلس يتجادل أحيانا فيما يعرض عليه باللغة العربية، وأحيانا باللغة الإنجليزية، فإذا تجادل باللغة الإنجليزية فالحجة تقرع بالحجة في إيجاز، وداخل حدود معينة. قل ان يكون هناك استطراد، وقل أن يكون لعب بالألفاظ، وقل أن يكون خروج عن الموضوع، وقل أن يكرر المجادل نفسه فيما يقول. فما أن يأتي بحجة جديدة وأفكار جديدة، وأما أن يسكت. وما هي إلا هنيهة حتى يؤخذ الرأي، ويفصل في الأمر. وذا تجادلنا باللغة العربية فهناك يطول الجدل، ويكثر الحديث، وكثيراً ما تقرع الحجة لا بأختها، ولكن بنت عمها، وكثيراً ما يستطرد من موضوع إلى موضوع لأقل مناسبة أو بدونها، وبعد طويل من الزمان يعودون إلى ما بدءوا فيه، وتثار مسائل كثيرة لا يفصل في واحدة منها، ويقول المجادل الآن ما قال من قبل، فيرد عليه صاحبه بمثل ما رد من قبل، وتتشعب الآراء حتى يصعب حصرها. وحتى ينسى أخيراً ما بدئ به أولا، ثم يؤخذ الرأي وقد مل المتجادلون، وسئموا الجدل، وودوا أن يفصل في الأمر على أي شكل. ولذلك قد يكون الرأي يؤخذ أخيرا شرا من الرأي يؤخذ أولا، بل قد يكون الرأي الذي قرر لا علاقة له بالمسألة التي أثيرت من قبل.
نعم يا صديقي. أنا أعتقد أن لكل لغة منطقا يخالف منطق اللغة الأخرى، وإن المسالة لا ترجع إلى عقلية المتجادلين وحدها، فقد يتجادل جماعة - كما ذكرت - باللغة الأجنبية، ثم هم أنفسهم يتجادلون باللغة العربية فيكونون في الأولى أكثر توفيقا، وليس من الصحيح أن ترجع هذا إلى ضعفهم في اللغة الأجنبية. وقوتهم في اللغة العربية، فهذا القول ينطبق تماما على من أجادوا اللغتين، وحذقوا اللسانين
وتعليل ذلك قد يبدو غريبا، فأن أول ما يتبادر إلى الذهن أن اللغة ليست إلا وسيلة للتعبير عن المعاني، وليست إلا مظهرا من مظاهر العقلية، فإذا كان التفكير صحيحا سليما كان التعبير عنه كذلك مادام صاحبه يجيد التعبير ويتقن اللغة، وإذا كان التفكير فاسدا كان التعبير عنه فاسدا متى وفق صاحبه للتعبير عما يريد، ولكن يظهر لي أن المسالة أعمق من ذلك وأن هناك تفاعل بين اللغة والتفكير، فاللغة المنظمة تعمل في تنظيم الفكر، والفكر
المنظم يعمل في تنظيم اللغة - وكذلك العكس - وان المتكلم إذا تحدث باللغة الإنجليزية أو الفرنسية خضع لمنطقها وطرق تفكيرها كما يخضع لاختيار كلماتها، واختيار أساليبها وكيفية معالجة الموضوع، فيؤثر ذلك كله في تفكيره وجدله وحججه، وعلى الجملة فهو يحاول أن يكون إنجليزيا أو فرنسيا في تفكيره كما هو إنجليزي أو فرنسي في لغته - يشعر هذا تمام الشعور من أجادوا لغتين أو أكثر، فهم إذا تكلموا بلغة أجنبية راقية شعروا مثلا - بأن هناك غرضا محدوداً واضحا يرمون إليه في حديثهم وحججهم وانهم يضعون لذلك خططا ثابتة معينة تشبه خطط الحرب يضعها قادتها لتسلم كل خطوة إلى التي تليها، أو كالخطط التي يضعها، لاعب الشطرنج الماهر إذا لعب لعبة علم ماذا يريد منها وما هي الألعاب التي تترتب عليها فتنتج الفوز، وهو هو إذا تكلم باللغة العربية لم يتضح القصد له وضوحه باللغة الأجنبية، ولم يرتب حججه ذلك الترتيب الذي يرتبه باللغة الأجنبية - ومن أوضح الأمثلة على ذلك أن مجيد اللغتين كثيرا ما يفكر باللغة الأجنبية، ويترجم تفكيره إلى اللغة العربية، وقلما يعكس، مع أن اللغة العربية هي لغته الأصيلة، وهي التي نشأ عليها وتربى في أحضانها، فكان معقولا أن تكون هي لغة تفكيره فإذا عبر بلغة أجنبية نقل تفكيره إليها - وليس من الهين تعليل هذه الظاهرة، ولكن يمكن أن يقال أن السبب في ذلك أن اللغات الأجنبية الراقية قد استكملت أدواتها، من حيث الألفاظ الموضوعة لكل آلة مخترعة ولكل معنى مستكشف، كما استكملت أدواتها من حيث أساليب التفكير وصياغة المعاني صياغات مختلفة، أدخل في الذهن، وأقبل للعقل، وأجمل في الذوق، وأن اللغة العربية أبطأت في تاريخها الحديث ولم تسرع في السير، برغم ما يقوله الدعاة من أنها أغنى اللغات وأجمل اللغات، ثم ينامون على ذلك من غير أن يعملوا على تكميل نقصها، ومعالجة

ضعفها، وكيف يعمل على معالجة الضعف من لم يشعر بألم المرض؟ وكيف يعمل على تكميل النقص من لم يشعر بنقص؟ - لهذا كان فكر المفكر إذا أجاد اللغتين يتبع - من غير اختيار - أرحبها صدراً وأغزرها مادة وتعبيراً.

وسبب آخر: وهو أن الأمم الأجنبية الراقية قد مرنت طويلاً على المجالس النيابية والمناظرات المدرسية والجامعية، وتكونت لها مع طول الزمن تقاليد معروفة مألوفة غير مكتوبة، وأثرت في جدلهم ومناظراتهم ومجالسهم أثراً كبيراً، كما أثرت في طرق تفكيرهم ولغتهم التي يتبعونها في الجدل والمناظرة.

ثم - مما لا شك فيه - أن هناك ارتباطاً قوياً بين اللغة والخلق، فلست تجد في لغة أجنبية من ألفاظ الملق وعباراته ما تجده في اللغة العربية مما أدخله عليها الفرس والأتراك، ولا تجد من عبارات الحشو التي تدل على الذل والخضوع ما تجد في لغتنا العربية الحديثة كانت اللغة ديمقراطية شريفة نبيلة يوم كانت اللغة العربية لغة العرب الديمقراطيين الذين لا يفرقون كثيراً بين مخاطبة الأمير ومخاطبة بعضهم بعضاً، ثم أصبحت لغة العبيد يوم تسرب إلى أهلها الذل والعبودية - لقد جلست أول أمس إلى رجل يحدث (باشا) فكان ما أحصيت في حديثه من (سعادة الباشا) أكثر من كلماته في الموضوع - ومالي أذهب بعيداً - مدلول الكلمة في اللغة العربية أصبح غير مدلوله في اللغة الأجنبية، فإذا قال الألماني أو الإنجليزي (نعم أفعل) لم تدل على نفس المعنى الذي يقوله المتكلم باللغة العربية (نعم أفعل) (فنعم أفعل) العربية تدل على قد يفعل وقد لا يفعل - والسامع إذا سمعها شك في مدلولها (هل يفعل أو لا يفعل) فاحتاج إلى أن يكرر عليه الطلب والرجاء. واحتاج المتكلم أن يعيد (نعم أفعل) وربما أقسم، وربما استعمل كل صيغ التأكيد، وهي بعد هذه الأيمان وهذه التأكيدات كلها لا يزال مدلولها أنه قد يفعل وقد لا يفعل - وهو إذا لم يفعل لم يخجل، لأنه حقق وجهاً من وجوه الجملة - بل المتكلم الشرقي إذا قال (سأفعل) باللغة الأجنبية كانت أقوى في نظره وأكثر التزاماً مما إذا قالها باللغة العربية، والمتكلم هو هو، لم يتغير في الكلمة إلا التعبير عنها بإحدى اللغتين، فإذا قالها العربي لأجنبي كان لها أشد احتراما ولتنفيذها أشد رغبة وأقوى إرادة - أليس في هذا كله دليل على شدة الارتباط بين اللغة والعقل واللغة والخلق، وأن العقل واللغة والخلق كلها تتفاعل، فإذا رقيت اللغة تبعها - نوعاً ما رقي العقل والخلق، وإذا رقي العقل تبعه - نوعاً ما - رقي اللغة والخلق، وهكذا. ومن هذا تنتج معادلات جبرية معقدة الحل.

إن الغيرة القومية والنهضة الشرقية تتطلبان أن يعنى قادتها بهذه المظاهر، وأن يضعوا للأمة تعاليم جديدة في اللغة والتفكير، فهم مطالبون بكل الوسائل أن يميتوا ألفاظ الملق من اللغة العربية ويحيوا ألفاظ الأدب النبيل، وأن يربطوا أشد الربط بين الألفاظ ومدلولاتها، فلا يسمحوا أن يضيعوا مدلول الألفاظ كما هي ضائعة اليوم - وأن يضربوا الأمثال للناشئين في الجدل والمناظرات فيعلموهم كيف تؤدي المعاني على وجوهها، وكيف تلتزم حدود الجدل فلا تتخطى، وكيف يرسم الغرض الذي يرمي إليه الباحث، وكيف يختط السبيل اليه، وكيف يوفر الزمن إذا هو التزم ألا يقول إلا جديداً في المعنى، وكيف يصل إليه من أقرب طريق.

ولو فعلنا ذلك لوفرنا على المجالس زمنها وتفكيرها ولوصلنا في مسائلنا إلى نتائج خير مما نصل إليه الآن، بل عندي أن السرعة مع الخطأ أحياناً خير من الإبطاء الممل والتفكير الراكد مع الصواب دائماً.

أحمد أمين

!أحاديث الناس؟

للأستاذ حسن جلال

المنظر الأول

(في الطريق)

رجلان يسيران إلى جانب الطريق. فيصادفهما ثالث يعرف أحد الرجلين دون الآخر فيستوقفه. ويدور بينهما الحوار الآتي بينما ينتحي الرجل الآخر ناحية ريثما ينتهي صاحبه من الحديث.

1 - أين أنت يا رجل؟ لا نكاد نراك إلا مرة في كل عام!
2 - أنا (تحت الأنظار) يا فندم!
1 - كن فوقها واظهر!
2 - ها. ها!
1 - سلامات!
2 - أوحشتنا!
1 - طيبون!
2 - الله يحفظك!
1 - إلى أين؟
2 - أرافق صاحبي هذا (ويشير إليه)
1 - طيب يا أخي (أروفوار)!
2 - مع السلامة يا عزيزي!
يتصافحان بشدة ويعود الرجل إلى صاحبه الذي كان ينتظره ويقول:
روح الله لا يرجعك. إنك ثقيل!
الصاحب - من هذا؟
- والله لست أعرف اسمه!
- ظننت من حرارة حديثكما أنه أحد أقاربك المقربين!
- على العكس. فإني لم أره في حياتي قبل هذه المرة إلا مرة واحدة. وكان ذلك في (قطار البحر) هذا الصيف حيث كنا نحن الاثنين في طريقنا إلى الإسكندرية فقطعنا الطريق في الحديث ولكني لم أقابله بعد ذلك إلا الآن
(ينصرفان وهما آخذان في مثل هذا الكلام)
المنظر الثاني
(في التلفون)
رجل يعزي صاحباً له في وفاة والده
2 - آلو. فلان؟
2 - نعم أنا فلان!
1 -
2 - آلو! آلو!
1 -
2 - ماذا تقول؟
1 - أقول!!
2 - لست أسمعك جيداً!
1 - ألم يتوف المرحوم والدك؟
2 - نعم مات.
1 - إني أعزيك. البقية في حياتك!
2 - متشكر يا أخي. أبقى الله حياتك!
1 - أنا تألمت جداً. ولكن هذا حال الدنيا!
2 - أي نعم. ربنا يلهمنا الصبر!
1 - أنت. والبركة فيك (برضو) (شد حيلك)!
2 - بارك الله فيك. أنا متشكر لسؤالك.
1 - العفو يا حبيبي!
ويضع السماعة في ضجر وهو يقول:
جاتك داهية في أبوك مطرح ما راح!
المنظر الثالث
(في النادي)
جماعة من الأصحاب يجلسون حول منضدة يتحدثون:
1 - ألم يعد يأتي (فلان) إلى النادي؟ إني لم أره هنا منذ زمان.
2 - أعوذ بالله من غضب الله! أنا عارف إيه اللي فكرك (باللهو الخفي) ده دلوقت؟
3 - سبحان الله يا أخي ما تفهمش ليه أنا كمان ما أقبلوش الجدع ده! أهو تجدني

أكرهه كده لله في لله!
4 - جات دا داهية في غلاسته بعيد عنك!
1 - آه. أفتكرنا القط جانا ينط!
2 - أتفرج يا سيدي داخل نافش ازاي زي الديك الرومي
يقبل (فلان) ويدخل عليهم
الجميع - أهلا. . . . . ن وسهلاً فلان بك!
1 - اتفضل هنا.
(ويقدم له مقعد)
2 - لا والله. تعال جنبي أنا هنا!
أيها القارئ:
صدقني لقد حضرت هذه الأحاديث جميعها بنفسي. وسمعتها بأذني. ولست أظنك إلا سمعت لها أشباهاً ونظائر كثيرة. فأنا إنما أذكرك بها الآن لأهمس في أذنك قبل أن أتركك:
ما هكذا تكون (أحاديث الناس) الطيبين! وخليق بذي الوجهين الذي يستقبل (الوجوه)) بلسان، ويشيع (الأقفية) بلسان آخر، أن يعقد لسانيه، إن كان لا يملك أن يتخلى عن أحد وجهيه(!)
حسن جلال
الروضة
بحث طريف لم ينشر
للعلامة المغفور له أحمد باشا تيمور
الروضة جزيرة بها مقياس النيل واقعة بين مصر القديمة والجزيرة، وملخص تاريخها أنها من الجزر القديمة الحادثة قبل الفتح الإسلامي ولكن لا يعلم زمن حدوثها. وبسبب قربها من قاعدة الديار المصرية وطيب هوائها وموقعها ظلت في كل جيل مطمح أنظار الملوك والأمراء وذوي اليسار، وتعاقب عليها حالان فكانت تارة تجعل حصنا للدولة وأخرى متنزها حاويا للبساتين والدور والمساجد والحمامات كما يأتي.
الحصن القديم والحصن الطولوني:
لما فتح الله على المسلمين مصر وملكوا الحصن الشرقي المعروف بقصر الشمع لجأ المقوقس وقومه إلى حصن كان بهذه الجزيرة، وبعد تمام الفتح خرب الأمير عمرو بن العاص بعض أبراجه وأسواره ثم نما عمرانها بعد ذلك فكانت في ولاية عبد العزيز بن مروان على مصر عامرة بالدور المشرفة على النيل من كل جهة، وكان بها خمسمائة عامل معدة لحريق يطرأ أو هدم. وفي إمارة أحمد بن طولون بنى بها حصناً ليحرز فيه حرمه وماله وذخائره لما بلغه مسير موسى بن بغا من العراق قاصداً مصر ثم أهمل بعد الدولة الطولونية فأخذه النيل شيئاً فشيئاً.
المختار والروضة:
وكانت بها الصناعة لعمل السفن الحربية فلما تولى محمد بن طغج الإخشيد على مصر نقل الصناعة إلى ساحل الفسطاط وأنشأ موضعها بستاناً سماه المختار وبنى فيه قصراً وأماكن له ولغلمانه، وكان يفاخر به أهل العراق، وبقى بعده فكان يتنزه فيه المعز الفاطمي وابنه العزيز، ثم في أيام استيلاء الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش بدر الجمالي على وزارة الفاطميين وحجره على الخليفة أنشأ في شمالي الجزيرة مكانا نزها سماه الروضة وبنى فيه المناظر البديعة، فمن حينئذ عرفت الجزيرة كلها بالروضة وكانت تعرف في أول الإسلام بالجزيرة وبجزيرة مصر ثم بجزيرة الحصن.
هذا قول عامة المؤرخين، وقال ابن المتوج
انم سميت بالروضة لأنه لم يكن بالديار المصرية مثلها. وبعد قتل الأفضل بنى بها المأمون البطائحي الوزير منظرة بقيت إلى آخر الدولة الفاطمية، ويذكر المؤرخون انه بناها مكان الصناعة بعد أن نقل الصناعة إلى مكانها القديم بالفسطاط، ولا يخفى أن نقلها أول مرة من الجزيرة كان زمن الإخشيد كما تقدم، ولم نرهم ذكروا أنها أعيدت إليها ولا رأينا منهم من تنبه لذلك غير الإمام السيوطي في كوكب الروضة فانه علق على هذا الخبر بقوله (وهو يدل على أن الصناعة أعيدت إلى الروضة بعد أن نقلها الإخشيد إلى ساحل مصر حتى نقلت ثانياً).

الهودج:
ولما تولى الآمر بأحكام الله الخلافة أنشأ بها قصراً على النيل بجوار البستان المختار سماه الهودج وأسكن به زوجته الغالية البدوية، وسبب ذلك أنه كان مغرما بالجواري العربيات فبلغه أن بصعيد مصر جارية من أكمل العرب وأظرف نسائهم جميلة شاعرة فأرسل إلى أهلها وخطبها وتزوجها، فلما نقلت إلى القصر انقبضت نفسها من حيطانه واشتاقت إلى تسريح طرفها في الفضاء على ما اعتادته فبنى لها الهودج على شاطئ النيل بالجزيرة في شكل غريب وصار يتردد عليه إلى أن قصده رابع ذي القعدة سنة 524 فلما بلغ رأس الجسر مما يلي الروضة وثب عليه قوم من النزارية كانوا كامنين له هناك وضربوه بالسكاكين حتى أثخنوه فحمل إلى منظرة اللؤلؤة بشاطئ الخليج وقد مات. قال ابن سعيد وقد أكثر الناس من ذكر الآمر والبدوية وابن عمها حتى صارت رواياتهم كأحاديث البطال وألف ليلة وليلة وما أشبه ذلك. فمما روي عنها أنها بقيت متعلقة الخاطر بابن عم لها ربيت معه يعرف بابن مياح فكتبت إليه من قصر الخليفة الآمر:

يا ابن مياح إليك المشتكى ... مالك من بعدكم قد ملكا
كنت في حي مطاعا آمرا ... نائلا ما شئت منكم مدركا
فأنا الآن بقصر موصد ... لا أرى إلا خبيثاً ممسكا
كم تثنينا كأغصان النقا ... حيث لا نخشى علينا دركا
وتلاعبنا برملات الحمى ... حيثما شاء طليق سلكا

فأجابها بقوله

بنت عمي والتي غذيتها ... بالهوى حتى علا واحتبكا
بحت بالشكوى وعندي ضعفها ... لو غدا ينفع منا المشتكى
مالك الأمر إليه يشتكى ... هالك وهو الذي قد أهلكا
شأن داود غدا في عصرنا ... مبدياً بالتيه ما قد ملكا

وبلغت الآمر الأبيات فقال لولا أنه أساء الأدب في البيت الرابع لرددتها إلى حيه وزوجتها به. قال القرطبي وللناس في طلب ابن مياح واختفائه أخبار تطول. وكان من عرب طيء في عصر الأمير طراد بن مهلهل، فلما بلغته قصة الآمر مع الغالية قال:

ألا أبلغوا الآمر المصطفى ... مقال طراد ونعم المقال
قطعت الأليفين عن ألفة ... بها سمر الحي بين الرجال
كذا كان آباؤك الأكرمون؟ ... سألت فقل لي جواب السؤال

فقال الآمر لما بلغته الأبيات جواب سؤاله قطع لسانه على فضوله وأمر بطلبه في أحياء العرب ففر ولم يقدر عليه فقالت العرب ما أخسر صفقة طراد! باع أبيات الحي بثلاثة أبيات. وفي خطط المقريزي أن الهودج بقي متنزهاً للخلفاء الفاطميين بعد الآمر إلى أن خرب وجهل مكانه بالروضة.

قلنا ما أشبه الليلة بالبارحة فقد وقع لوالي مصر عباس باشا الكبير المتولي سنة 1264 مثل ما وقع للآمر في بدئه ونهايته فانه كان مشغوفاً بإحدى البدويات أيضا فتزوجها وأسكنها قصرا في ضاحية من القاهرة وصار يتردد عليه خفية ثم كانت نهاية أمره أنه قتل غيلة في قصره بينها سنة 1270. قتله مملوكان من الجركس بإغراء رجال الدولة العثمانية على ما قيل لأنهم آنسوا منه ميلا للخروج عن طاعتهم والاستقلال بمصر، وقد أدركنا الناس في مصر يلهجون بحديث البدوية ويروون فيه روايات شتى، وسمعنا العامة يلوكون أغنية قيلت في ذلك الزمن أولها (يا حالي ع البدوية) وقليل من أهل مصر الآن من يعرف هذا الخبر وهو من غريب ما يتفق وقوعه لملكين في مملكة واحدة.

القلعة الصالحة:
وفي أواخر الدولة الأيوبية بنى الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل محمد قلعته بهذه الجزيرة وأنشأ بها الدور والقصور وغرس الأشجار وبنى بها جامعاً وعمل لها ستين
برجاً وأنفق عليها أموالاً جمة فعرفت بالقلعة الصالحية وبقلعة المقياس وبقلعة الروضة وبقلعة الجزيرة واحتاج بسببها إلى هدم أماكن كثيرة من دور وقصور ومساجد ليدخلها فيها وخرب الهودج والمختار، ويقال إنه قطع من الموضع الذي أنشأها فيه ألف نخلة

مثمرة كان رطبها يهدى لملوك مصر لحسن منظره وطيب طعمه، ولما كملت جعلها مقر ملكه وسرير سلطانه وأسكن بها جنوده البحرية وشحنها بالأسلحة وآلات الحرب وما يحتاج إليه من الأقوات خشية محاصرة الإفرنج فانهم كانوا حينئذ عازمين على قصد البلاد المصرية. وكان سور هذه القلعة الشرقي مطلاً على فرع النيل الشرقي الذي بين الجزيرة ومصر وكان بها الإيوان الملكي العديم المثال، وفيها يقول ابن سعيد الأندلسي (وكنت أشق في بعض الليالي بالفسطاط على ساحلها فيزدهيني ضحك البدر في وجه النيل أمام سور هذه الجزيرة الدري اللون ولم أنفصل عن مصر حتى كمل سور هذه القلعة وفي داخله من الدور السلطانية. ما ارتفعت إليه همة بانيها وهو من اعظم السلاطين همة في البناء وأبصرت في هذه الجزيرة إيوانا لجلوسه لم تر عيني مثاله ولا أقدر ما أنفق عليه وفيه من صفائح الذهب والرخام الأبنوسي والكافوري والمجزع ما يذهل الأفكار ويستوقف الأبصار ويفضل عما أحاط به السور أرض طويلة وفي بعضها حاظر حظر به على أصناف الوحوش التي يتفرج عليها السلطان وبعدها مروج تنقطع فيها مياه النيل فينظر بها أحسن منظر، وقد تفرجت كثيراً في طرف هذه الجزيرة مما يلي بر القاهرة فقطعت فيه عشيات مذهبات، لم تزل لأحزان الغربة مذهبات) انتهى. واستيعاب ما قبل في محاسن هذه القلعة يطول ويخرج بنا عن المقصود.

ولما ملك المعز أيبك التركماني أول ملوك الدولة التركية البحرية أمر بهدم هذه القلعة ليعمر منها مدرسة المعزية واقتدى به ذوو الجاه فأخذوا كثيرا من سقوفها وشبابيكها وغيرها، ثم لما ملك الظاهر بيبرس البندقداري اهتم بإعادتها كما كانت فأصلح بعض ما تهدم منها، ولما تولى المنصور قلاوون نقل منها ما يحتاج إليه في بناء البيمارستان والقبة المنصورية، ثم نقل منها ابنه الناصر محمد ما احتاج إليه في أبنيته فدب إليها الخراب إلى أن ذهبت كأن لم تكن قال المقريزي وبقي من أبراجها عدة قد انقلب أكثرها وبنى الناس فوقها دورهم المطلة على النيل. قلنا أما موضعها بالروضة فقد صرح ابن اياس (ج 1 ص 83) أنها بنيت بالقرب من المقياس أي في الجهة الجنوبية للجزيرة، ونقل الإمام السيوطي في كوكب الروضة في كلامه على جامع الريس المعروف اليوم بزاوية البسطامي نصوصا من التوقيع الذي كتبه الملك المظفر بيبرس الجاشنكير لمنشئه يعلم منها أن هذا المسجد بني موضع برج الطراز أحد أبراج هذه القلعة. وقال ابن دقماق في انتصار بناه الرئيس صدقة على أول برج من أبراج قلعة الروضة. وذكر السيوطي أيضا في كلامه على جامع المقياس المعروف اليوم بجامع عبد الرحمن بن عوف أن الملك الصالح عمره بقلعة الروضة ونرى في المصور الملحق بهذه المقالة أن كلا المسجدين في في الجهة الجنوبية من الجزيرة. وقد ظهر لنا من هذا ومما استخلصناه من أقوال غيرهم من المؤرخين أن هذه القلعة كانت في الثلث الجنوبي للجزيرة آخذة من مقياس النيل في المواضع الشمالية منه إلى زاوية البسطامي الواقعة في موضع برج الطراز أول برج من أبراجها من الشمال وأنها كانت مطلة من الشرق والغرب على فرعي النيل الصغير والكبير، ومما يدل أيضا على إشرافها على النيل من الجانبين قول ابن سعيد الأندلسي في وصفها (وركبت مرة هذا النيل أيام الزيادة مع الصاحب محيي الدين بن ندا وزير الجزيرة وصعدنا إلى جهة الصعيد ثم انحدرنا واستقبلنا هذه الجزيرة وأبراجها تتلألأ والنيل قد انقسم عليها فقلت:

تأمل لحسن الصالحية إذ بدت ... وأبراجها مثل النجوم تلالا
وللقلعة الغراء كالبدر طالعا ... تفرج صدر الماء عنه هلالا
ووافي إليها النيل من بعد غيبة ... كما زار مشغوف يروم وصالا
وعانقها من فرط شوق لحسنها ... فمد يمينا نحوها وشمالا

فانه أبان بتشبيهه ماء النيل بالهلال عن استدارته بطرفها الجنوبي، ثم أبان عن امتداد في جانبيها بتشبيهه بمشوق يعانقها باليمين والشمال وإذا عرفنا ذلك وعرفنا فيما تقدم أن المختار والهودج كانا مطلين على النيل وأن الملك الصالح خربهما ليدخلهما في القلعة كسائر ما خربه من الأماكن، تبين لنا أنهما كانا في الجهة الجنوبية أيضا. والغالب على الظن أنهما كانا على الفرع الكبير للنيل الذي بين الجزيرة والجيزة أي في أحد

المواضع الواقعة بين المقياس وجسر عباس لأن المختار أنشئ موضع الصناعة ويستبعد أن تكون الصناعة على الفرع الصغير الشرقي.

قصر نجم الدين:

ذكر الفرنسيس في كتابهم وصف مصر (ج15 ص 450و465) أنهم أدركوا زمن الاحتلال بقايا قصر بالمقياس ملاصق له من الشرق ومطل على الفرع الشرقي للنيل يعرف بقصر السلطان الملك الصالح نجم الدين ولم يكن باقياً منه وقتئذ غير قاعة كبيرة تتصل بها عدة أماكن أكثرها خرب، وهو بلا ريب من قصور القلعة الصلاحية، ولعل الذي حفظه من الدثور عناية الدول في كل جبل بالمقياس وأبنيته، ولكن يظهر لنا أن الذي أدركوه منه لم يكن من الأبنية الصلاحية القديمة بل كان مما جدده فيه السلطان الغوري من القاعات والمساكن. ومما يذكر عن هذا القصر نزول السلطان سليم العثماني به مدة مقامه بمصر فانه لما تم له فتحها وصفا له الوقت بعد قتل السلطان طومان باي استطاب السكنى بالروضة فانتقل إليها ونزل بالمقياس. قال ابن اياس في حوادث ربيع الثاني من سنة 923هـ (وفي يوم الاثنين سادسه أشيع أن ابن عثمان عدى إلى المقياس وكان في ذلك اليوم رياح عاصفة فكاد يغرق، فلما سلم من الغرق أقام بالمقياس ونقل وطاقه إلى الروضة ومصر العتيقة، ثم أن أمراءه طردوا السكان الذين بالروضة وبمصر العتيقة وسكنوا في دورهم فحصل للناس الضرر الشامل بسبب ذلك فأعجبه المقياس فأقام به مدة أيام). ثم إنه أنشأ منظرة من خشب فوق المقياس جعل إقامته بها وهي التي سماها ابن إياس بالقصر فقال عنها في حوادث جمادى الثانية من هذه السنة (وفيه أشيع أن السلطان سليم شاه أنشأ له قصراً من خشب بالمقياس من فوق القصر الذي أنشأه السلطان الغوري فوق بسطة المقياس وصار يجلس به في اليوم الحر وأحضر جماعة من النجارين والبنائين وشرع في بنائه حتى فرغ منه في أيسر مدة). قلنا وفي هذه المنظرة حاول (قانصه العادلي) أحد أمراء الجراكسة قتله انتقاما لطومان باي وقومه ذكر ذلك ابن زنبل الرمال في تاريخ فتح السلطان سليم لمصر فقال معبراً عن هذه المنظرة بالطيارة (فدبر في نفسه أن يلبس مثل العرب ويأخذ معه جماعة من أهل القوة وينزل إلى مركب ليلا ويسير بها تحت المقياس ويجعل له سلم تسليم ويصعد عليه وينزل إلى داخل المقياس ويقتل السلطان سليماً ويأخذ بثأر قومه وما علم أن الحي ما له قاتل ثم إنه فعل ذلك حتى وصل إلى الطيارة التي فوق المقياس وهي محل السلطان فوجد الحراس مستيقظين) الخ وعبر عنها الإسحاقي في تاريخه بالكشك متابعة للأتراك فقال (وكان مقام السلطان سليم بالروضة وبنى له كشكاً فوق قاعات المقياس وهو مشرف على بحر النيل والروضةوالمقياس، ولما رحل السلطان سليم منه أقفل ومنع من يجلس فيه حرمة لمولانا السلطان سليم). وروى قطب الدين الحنفي في تاريخ مكة المسمى بالاعلام أنه راى بيتين من الشعر كتبهما السلطان سليم بخطه على رخامة بهذا (الكوشك) مدة مقامه به فقال (ورأيت بيتين بالعربي بخطه الشريف كتبهما في علو المقياس في (الكوشك) الذي أمر ببنائه لما افتتح مصر وسكن الروضة وقد انمحى لطول الزمان مداده، ومال إلى لون البياض سواده، وكان هذا (الكوشك) محترما مقفلا لا يصل إليه أحد لعظمة بانيه، ولا يبتذل بالدخول إليه تعظيما لراعيه، فلما قدمت مصر في سنة 943 وكان يوم كسر النيل السعيد ففتحوا هذا الكوشك لبكلربكي) مصر يومئذ خسرو باشا وكنت مصاحبا لمعلمه مولانا عبد الكريم العجمي فطلع وأطلعني معه في صحبة خسرو باشا المذكور فرأيت مكتوبا على الرخام الأبيض كتابة خفية لا تكاد تظهر إلا بتأمل، هذين البيتين وهما

الملك لله من يظفر بنيل غني ... يردده قسراً ويضمن منه ما أدركا

لو كان لي أو لغيري قدر أنملة ... فوق التراب لكان الأمر مشتركا

وتحتهما ما صورته (كتبه سليم) بذلك الخط وذلك القلم ولعمري أن كان هذان البيتان من نظم المرحوم فهما غاية في البداعة، ونهاية التمكن من الصناعة، فيدل على تمكنه رحمه الله أيضا في اللسان العربي لأنهما من أعلى طبقات الشعر العربي الفصيح لبليغ المنسجم وإن كان قد تمثل بهما وهما لغيره فهذه أيضا مرتبة عالية في حسن التمثيل ولطف الاستحضار لفهم الأشعار العربية والذوق لها وهذا القدر يستكثر على علماء الروم وعلماء العجم المكبين على علوم العربية فضلا عن سلاطينهم المشغولين

بضبط الممالك) انتهى. قلنا البيتان معروفان لأبي العلاء المعري في لزوم ما لا يلزم وصحة العجز في البيت الأول (يردده قسرا وتضمن نفسه الدركا)، وأما القصر وما يتبعه من الأبنية فلم يبق لها أثر ودخلت كلها في قصر حسن باشا المناسترلي وحديقته.

الجزيرة في حكم الأسرة المحمدية العلوية:

في زمن العزيز محمد علي أنشأ ولده العزيز إبراهيم في خرطوم الجزيرة الشمالي بستاناً كبيراً جلب له الأشجار الغريبة من البلاد البعيدة وبنى به منظرة عالية ومغارة مجللة بالودع، وقد أدركنا بقايا ذلك. وكان من مزايا هذا البستان احتواؤه على أنواع كثيرة من الأشجار والنباتات المحتاج إليها في الطب، ومن طالع كتاب المادة الطبية للرشيدي المسمى عمدة المحتاج يرى عجباً مما كان فيه من هذه الأنواع، وكان قصد العزيز إبراهيم رحمه الله الاستغناء بها عن جلب العقاقير من البلاد الإفرنجية بقدر المستطاع.

وقد أنشأ أمراء ذلك العصر وسراته القصور والبساتين الأنيقة بالجزيرة، وكان للخديو إسماعيل بن العزيز إبراهيم قصر بديع في وسطها على الشاطئ الشرقي تحيط به حديقة غناء ثم أهملت من بعدهم وهجرت فدب إليها الخراب وأدركناها جميعاً وهي خاوية على عروشها، وانحط شأن الجزيرة إلى أن أنشئت فيها الجسور الثلاثة: جسر محمد على، وجسر الملك الصالح بينها وبين مصر القديمة، وجسر عباس بينها وبين الجيزة، فعاد إليها الانتعاش وأقبل الناس على البناء بها فهدمت قصورها وبيعت أراضيها قطعاً وامتلأ الثلث الجنوبي بالدور الصغيرة والكبيرة ولكن على الطراز الإفرنجي الجديد وقطع ما كان بها من الشجر والنخل وحطمت عروش الكروم فعريت من الظلال وزالت عنها مسحة الملاحة القديمة بعد أن كانت ببساتينها وحقولها قرة للعيون وفرجة للمحزون.

أبو عبد الله آخر ملوك الأندلس

للأستاذ محمد عبد الله عنان

- 1 -

مأساة شهيرة في التاريخ الإسلامي، هي مصرع غرناطة آخر معقل للإسلام بالأندلس، وشخصية محزنة هي شخصية آخر ملك أندلسي مسلم، طويت على يده تلك الصفحة المجيدة الباهرة التي افتتحها موسى وطارق في تاريخ الإسلام بإسبانيا قبل ذلك بثمانية قرون.

لبث الإسلام في إسبانيا خلال هذه القرون الثمانية يغالب النصرانية وتغالبه، والإسلام مذ انهار صرح الدولة الأموية دائم الخلاف والتفرق، سائر أبداً في طريق الضعف والانحلال؛ والنصرانية تجتمع دائماً على غزوه ونضاله، وتنتزع منه تباعاً قواعده وثغوره، حتى إذا جاء القرن الثامن لم يبق من دولة الإسلام الشامخة بالأندلس سوى مملكة غرناطة الصغيرة، تواجه وحدها داخل الجزيرة عدوها القوي. وسطعت هذه الأندلس الصغيرة مدى حين، ولكنها لم تنج من خطر التفرق؛ وإسبانيا النصرانية أثناء ذلك متربصة بها تكاد تلتهمها من وقت إلى آخر، لولا أن كانت صولة الإسلام في الضفة الأخرى من البحر - في المغرب الأقصى - تروعها وتردها. وكانت مملكة غرناطة كلما تبينت شبح الخطر الداهم تستغيث بجارتها المسلمة القوية فيما وراء البحر، دولة بني مرين. ولكن بني مرين لم يستجيبوا دائما إلى دعوة الإسلام المحتضر بالأندلس، وكانت لهم أحياناً مطامع ومشروعات في الأندلس ذاتها. وكانت إسبانيا النصرانية كلما استيقنت تصرم العلائق بين الشقيقتين انقضت على الأندلس فاقتطعت منها ثغراً أو قاعدة جديدة. وكان رجالات الأندلس يستشفون من وراء ذلك خطر الفناء المحقق، بل لقد استشعر به ابن الخطيب وزير الأندلس وكاتبها الكبير قبل تحققه بأكثر من قرن، وصرح به في إحدى رسائله إلى ملك فاس إذ يدعوه إلى غوث الأندلس ونجدتها ويقول: (ولاشك عند عاقل أنكم إن انحلت عروة تأميلكم أو أعرضتم عن ذلك الوطن استولت عليه يد عدوه) وهكذا نرى الأندلس منذ أوائل القرن التاسع الهجري تسير بسرعة في طريق الانحلال والفناء، حتى إذا كانت أواخر هذا القرن لم يبق للإسلام في إسبانيا سوى مملكة غرناطة الصغيرة وفيها مدن وثغور قلائل تتربص

بها النصرانية وتعد العدة لسحقها.

وكان على عرش غرناطة يومئذ السلطان أبو الحسن علي بن سعد النصري الأحمري. ولي الملك سنة 871 هـ (1466م)، ولكنه لم يستخلص الملك لنفسه إلا بعد نضال عنيف بينه وبين منافسيه وعلى رأسهم أخوه أبو عبد الله المعروف (بالزغل). وكانت الحرب الأهلية تضطرم في مملكة غرناطة كلما لاحت فرصة للتنازع على العرش. فلما استقر أبو الحسن في عرشه، أبدى همة فائقة في تحصين المملكة وتنظيم شئونها، وبث فيها روحاً جديداً من البأس والطمأنينة، واستطاع أن يسترد عدة من الحصون والقواعد التي افتتحها النصارى، ولاح للنصرانية أن الأندلس المحتضرة تكاد تبدأ حياة جديدة. بيد أن هذا البعث الخلب لم يطل أمده. ذلك أن عوامل الخلاف الخالدة عادت تعمل عملها، وبذر أبو الحسن حوله بذور السخط والغضب بما ارتكبه في حق الأكابر والقادة من العسف والشدة، وبما أغرق فيه من صنوف اللهو والعبث. وكان أبو الحسن قد اقترن بالأميرة عائشة ابنة عمه السلطان أبي عبد الله الأيسر، ورزق منها ولدين هما محمد ويوسف. ولكنه عاد فاقترن بنصرانية رائعة الحسن تعرف في الرواية العربية (بثريا الرومية). وتقول الرواية الإسبانية أن (ثريا) هذه كانت ابنة عظيم من عظماء إسبانيا هو القائد (سانكو كمنيس دي سوليس) وأنها أخذت أسيرة في بعض المعارك وهي صبية فتية، وألحقت وصيفة بقصر الحمراء، فهام أبو الحسن بجمالها حباً، ولم يلبث أن تزوجها واصطفاها على زوجه الأميرة عائشة المعروفة (بالحرة) تمييزاً لها من الجارية الرومية أو إشادة بعفتها وطهرها ولم يكن اقتران السلطان بنصرانية بدعة، ولكنه تقليد قديم في قصور الأندلس، وقد ولد كثير من خلفاء الأندلس وأمرائها العظام من أمهات من النصارى مثل عبد الرحمن الناصر وحفيده هشام المؤيد. وكان لهذا التقليد أثره السيئ في انحلال عصبية الدولة الإسلامية، بيد أنه كان أشد خطرا وقت الانحلال العام. وكان وجود أميرة أجنبية في قصر غرناطة تستأثر بالسلطان والنفوذ في هذا الظرف العصيب، عاملا جديدا في إذكاء عوامل الخصومة والتنافس. ذلك لأن (ثريا) أعقبت من السلطان أبي الحسن ولدين، وأرادت أن يكون العرش لأحديهما، وبذلت كل ما استطاعت من الإغراء والدس لإبعاد خصيمتها الأميرة عائشة عن كل نفوذ وحظوة، وحرمان ولديها محمد ويوسف من كل حق في الملك، وكان أكبرهما محمد ولقبه أبو عبد الله ولي العهد المرشح للعرش، فنزل أبو الحسن عند سعي حظيته وأعصى عائشة وولديها عن عطفه ورعايته: ولا زالت ثريا في سعيها ودسها حتى اعتقلهم أبو الحسن في أحد أبراج الحمراء وضيق عليهم وأخذ يعاملهم بمنتهى الشدة والقسوة، فأثار هذا التصرف غضب كثير من الكبراء الذين يؤثرون الأميرة الشرعية وولديها بعطفهم وتأييدهم، وانقسم القصر وانقسم الزعماء والقادة إلى فريقين خصيمين، واضطرمت الأهواء والشهوات والأحقاد، واشتد السخط على أبي الحسن وحظيته التي أضحت سيدة غرناطة الحقيقية، واستأثرت بكل سلطة ونفوذ.

وكانت الأميرة عائشة امرأة وافرة العزم والشجاعة فلم تستسلم إلى قدرها الجائر، بل عمدت إلى الاتصال بعصبتها وأنصارها، وأخذت تدبر معهم وسائل الفرار والمقاومة. وفي ذات ليلة استطاعت أن تفر من الحمراء مع ولديها محمد ويوسف بمعاونة بعض الأصدقاء المخلصين. وتقدم الرواية إلينا عن هذا الفرار صورا شائقة، فتقول إن الأميرة استعانت بأغطية الفراش على الهبوط من نوافذ البرج الشاهق في جوف الليل، وأبدت في ذلك من الجرأة والشجاعة ما يخلق بأبطال الرجال. وكان ذلك في ليلة من ليالي جمادى الثانية سنة 887 هـ (1482م). واختفى الفارون حيناً حتى قويت دعوتهم وظاهرهم فريق كبير من أهل غرناطة، وظهر الأمير الفتى محمد أبو عبد الله في وادي آش حيث مجمع عصبته وأنصاره ونشبت الثورة وانقضت العاصفة على أبي الحسن، وكانت عصبته أقلية ففر إلى مالقة وكان بها وقتئذ أخوه الأمير أبو عبد الله محمد بن سعد (المعروف بالزغل) يدافع عنها جيشا جرارا من النصارى سيره ملك قشتالة (فرديناند الخامس) لافتتاحها. وجلس أبو عبد الله محمد بن السلطان أبي الحسن مكان أبيه على عرش غرناطة (أواخر سنة 887 هـ) وأطاعته غرناطة ووادي آش وأعمالهما وبقيت مالقة وغرب الأندلس على طاعة أبيه. وكان أبو عبد الله يومئذ فتى في نحو الخامسة والعشرين.

وكان ملك قشتالة يرقب سير الحوادث في مملكة غرناطة بمنتهى الاهتمام. فلما اضطرمت بنار الحرب الأهلية ولاحت له فرصة الغزو والفتح، سير جيشه إلى مالقة لافتتاحها ولكن المسلمين تأهبوا لرد النصارى بعزم وقوة وهزموهم في عدة مواقع فيما بين مالقة وبلش (فيليز وهزم النصارى في ظاهر مالقة هزيمة ساحقة وقتل وأسر منهم عدة آلاف بينهم
عدة من الزعماء والأكابر (صفر 888 هـ - مارس 1483م) وكان منظم هذا الدفاع الباهر الأمير أبو عبد الله (الزغل) فانتعشت آمال المسلمين نوعاً وسرت الحماسة إلى غرناطة واعتزم ملكها الفتى أن يحذو حذو عمه الباسل في الجهاد والغزو وأن ينتهز فرصة اضطراب النصارى عقب الهزيمة. فخرج في قواته في ربيع الأول من هذا العام (أبريل 1483) متجهاً نحو حصن قرطبة شمال شرقي غرناطة؛ واجتاح في طريقه عدداً من الحصون والضياع، ومزق النصارى في عدة معارك محلية؛ ثم ارتد مثقلاً بالغنائم يريد العودة فأدركه النصارى في ظاهر قلعة اللشانة (لوتشينا وكان يزمع حصارها: ونشبت بين الجيشين معركة هائلة ارتد فيها المسلمون إلى ضفاف شنيل والنصارى في اثرهم، فهزم المسلمون هزيمة شديدة وغرق كثير منهم في شنيل. وقتل وأسر كثير من قادتهم وفرسانهم، وكان بين الأسرى السلطان أبو عبد الله محمد نفسه، عرفه الجند النصارى من الأسرى أو عرفهم بنفسه خشية الاعتداء عليه وأخذوه إلى قائدهم الكونت كابرا، فاستقبله بحفاوة وأدب وأنزله بأحد الحصون القريبة تحت رقابة حرس قوي) وأخطر في الحال ملكي قشتالة بالنبأ السعيد؛ وعاد المسلمون إلى غرناطة دون ملكهم، فارتاعت غرناطة للنكبة واضطرب الشعب؛ واجتمع الكبراء والقادة وقرروا استدعاء أبي الحسن السلطان المخلوع ليجلس على العرش، ولكن أبا الحسن كان قد هدمه الإعياء والمرض وفقد بصره ولم يستطع أن يضطلع طويلاً بأعباء الحكم، فنزل عن العرش لأخيه محمد أبي عبد الله (الزغل) حاكم مالقة وارتد إلى المنكب فأقام بها حينا حتى توفي، وجلس (الزغل) على العرش يدير شئون المملكة وينظم الدفاع عن أطرافها.
أما السلطان أبو عبد الله بن أبي الحسن فلبث يرسف في أسره عند النصارى وأدرك ملك قشتالة في الحال ما للأمير الأسير من الأهمية، وأخذ يدبر أفضل الوسائل للاستعانة به في تحقيق مآربه في مملكة غرناطة. وبذل أبو الحسن حين عوده إلى العرش مجهوداً لافتداء ولده لا حباً فيه وشفقة عليه، ولكن لكي يحصل في يده ويأمن بذلك شره ومنافسته، وعرض على فرديناند نظير تسليمه أن يدفع فدية كبيرة وأن يطلق عدداً من أكابر النصارى المأسورين عنده فأبى فرديناند وآثر أن يحتفظ بالأسير إلى حين، وبذلت الأميرة عائشة من جهة أخرى مجهوداً آخر لإنقاذ ولدها بمؤازرة الحزب الذي يناصره، واقترحت على ملك
قشتالة معاهدة خلاصتها أن يتولى أبو عبد الله الملك في طاعة ملك قشتالة، وأن يدفع له جزية سنوية، وأن يطلق كل عام عدداً معيناً من النصارى، وأن يدفع مقابل إطلاقه فدية كبيرة وأن يفرج في الحال عن أربعمائة من أسرى النصارى يختارهم ملكهم، وأن يقدم المعاونة العسكرية كلما طلبت اليه، وأن يقدم ابنه الوحيد كفالة مع عدد من أبناء الأسر الكبيرة ومع أن عقد هذه المعاهدة كان خطوة كبيرة في سبيل القضاء على مملكة غرناطة، فإن فرديناند رأى قبل عقدها أن يستغل أسر ملك غرناطة وأن يستعين به على تنفيذ برنامجه الحربي. وكان أبو عبد الله أميراً ضعيف العزم والإرادة، قليل الحزم والخبرة، كثير المطامع والاهواء. ولم يكن يتمتع بشيء من تلك الخلال الباهرة التي امتاز به أسلافه وأجداده العظام بنو الأحمر، وكان الملك والحكم غايته يبتغيها بأي الأثمان والوسائل. وقد ألفى ملك قشتالة القوي في ذلك الأمير الضعيف المستهتر بحقوق أمته ودينه، أداة صالحة يوجهها كيفما شاء، فاتخذه وسيلة لبث دعوته بين أنصاره ومؤيديه في غرناطة وغيرها، وليقنع المسلمين بأن الصلح مع ملك قشتالة خير وأبقى، وسير ملك قشتالة في الوقت نفسه قواته في أنحاء مملكة غرناطة لكي تنتزع أثناء الاضطراب العام كل ما يمكن انتزاعه من القواعد والحصون الإسلامية، فاستولت على عدة منها، ونشبت من جهة أخرى في غرناطة حرب أهلية لم تكن بعيدة عن وحي أبي عبد الله وحزبه، وقامت (البيازين) ضاحية غرناطة بدعوته، وشغل ملك غرناطة (أبو عبد الله الزغل) بإخماد الثورة عن مقاتلة النصارى. وفي نفس هذه

الآونة العصيبة أطلق فرديناند سراح أبي عبد الله بعد أن ارتضى عقد المعاهدة التي عرضت عليه مع تعديل يسير في بعض نصوصها، وبعد لقاء تم بين الملكين في قرطبة أعلن فيه أبو عبد الله خضوعه وطاعته لملك قشتالة، واتفق أن تكون الهدنة لعامين وأن تطبق في جميع الأنحاء التي تدين بالطاعة لأبي عبد الله. وظهر أبو عبد الله يبث دعوته في الأنحاء الشرقية والحرب الأهلية قائمة في غرناطة (أوائل سنة 891هـ - 1486م) وبدأت المفاوضة بينه وبين عمه (ملك غرناطة) في الصلح. ولكن حدث أثناء ذلك أن هاجم النصارى مدينة لوشة جنوب غربي غرناطة واستولوا عليها (جمادى الأولى سنة 891هـ) وكان موقف أبي عبد الله ' ثناء هذه الحوادث مريباً؛ وكان يمزج الدعوة لنفسه بالدعوة لملك قشتالة، وشيد بمزايا الصلح المعقود معه، ولم يكن خافياً أنه يستظل بمظاهرة النصارى وفي شوال سنة 891 ظهر أبو عبد الله في (البيازين) فجأة واجتمع حوله أنصاره، وأعلن الثورة على عمه؛ ونشبت بينهما الحرب في ظاهر غرناطة، وأمد فرديناند حليفه أبا عبد الله بالجند والذخائر والمؤن. واستمر القتال بينهما مدى أشهر. وفي ربيع الثاني سنة 892 (1487م) سير فرديناند قواته إلى بلش مالقة (فيليز مالاجا) الواقعة على مقربة من ثغر مالقة ليفتتحها تمهيداً للاستيلاء على مالقة، وأدرك أبو عبد الله الزغل أهمية بلش الحربية فهرع إلى الدفاع عنها مع بعض قواته، وترك البعض الآخر لقتال أبي عبد الله وأهل البيازين ولكن إقدام الزغل وعزمه وشجاعته لم تغن شيئاً، وسقطت بلش في يد النصارى (جمادى الأولى 892 - أبريل 1487) وعاد الزغل بجنده ميمماً صوب غرناطة، ولكنه علم أثناء مسيره أن غرناطة قامت أثناء غيابه بدعوة أبي عبد الله، وأنه دخلها وتبوأ العرش مكانه (جمادى الأولى)، فارتد إلى وادي أش وامتنع بها، وانقسمت بذلك مملكة غرناطة الصغيرة إلى شطرين يتربص كل منهما بالآخر: غرناطة وأعمالها ويحكمها أبو عبد الله محمد، ووادي آش وأعمالها ويحكمها عمه أبو عبد الله الزغل، وتحقق بذلك ما كان يبتغيه ملك قشتالة من تمزيق شمل البقية الباقية من دولة الإسلام بالأندلس تمهيداً للقضاء عليها.

(للبحث بقية)

أطلنطس القارة المفقودة!

للدكتور محمد عوض محمد

في زعم طائفة من الكتاب أن المحيط الأطلسي الشمالي لم يكن في جميع العصور بحراً خالصاً، بل كانت تحتله قارة عظيمة تصل ما بين العالم القديم والعالم الجديد. وهذا الزعم هو ما نريد أن نعرض له في هذا المقال.

من أهم ما يمتاز به المحيط الأطلسي - في وقتنا هذا - أنه قليل الجزر. فإذا صرفنا عن الجزائر الملاصقة للسواحل، مما يعده الجغرافيون جزءاً متمماً للقارات، فان هذا المحيط عبارة عن مساحة هائلة من الماء، ليس فيها من الجزر سوى الشيء القليل جداً.

هذه حالة المحيط اليوم، لكن هذه لم تكن حالة المحيط في كل عصر وزمن. فان تعاقب الماء واليابس على الجزء الواحد من سطح الأرض، من الحقائق الجيولوجية المسلم بها. وليس هنالك خلاف في أن أمريكا الشمالية كانت متصلة بأوربا، وأمريكا الجنوبية بأفريقية في زمن جيولوجي قديم.

غير أن القائلين بوجود جزيرة عظيمة أو عد جزر كبيرة في وسط المحيط الأطلسي ما بين ما هو اليوم أمريكا، وبين ما هو اليوم أوربا وأفريقية، أطلقوا عليها اسم قارة اطلنطس - هؤلاء الكتاب يزعمون أن هذه القارة لم تكن موجودة في زمن جيولوجي قديم، يرجع إلى ملايين السنين، بل إلى عهد حديث جداً، عهد نشأة الإنسان واستعماره لسطح الأرض. ولقد يسرف بعضهم فيزعم أن هذه (القارة) كانت موجودة قبل العصر التاريخي، بحيث كان المصريون القدماء يعلمون من أمرها الشيء الكثير.

من المهم إذن أن نقرر أن الاتصال بين شرق المحيط وغربه في زمن جيولوجي قديم، ليس موضع البحث، وليس هو بالأمر الذي يعنى به هؤلاء الكتاب، بل الذي يعنيهم وجود اليابس في هذه المساحة العظيمة التي لا نرى فيها اليوم سوى الماء، وذلك في عصر حديث شهده الإنسان في أول نشأته.

والآن نتساءل: هل هناك من شاهد على صحة ما ذهب إليه أولئك الكتاب؟

قبل أن نعرض لآراء أصحاب هذا المذهب يحسن بنا أن نكون على حذر من أمرين:

أولهما أن وجود هذه القارة أمر يرتاح إليه الخيال البشري المولع دائماً بالغريب المدهش
من المسائل العلمية. وكثير من الكتاب في هذا الموضوع يبدأون بحثهم وفي نفوسهم رغبة في أن يثبتوا وجود هذه القارة المزعومة. كالقاضي الذي يبدأ تحقيق الحادث وفي قلبه رغبة في أن تثبت التهمة على المتهمين. وهذه الرغبة قد تصبغ الأدلة الضعيفة بصبغة قوية. وتحمل الباحث على التغاضي عن مواطن الضعف فيما يعرض له من الحجج.
الأمر الثاني الذي يجب أن نحذره، هو أن وجود مثل هذه القارة أمر مرغوب فيه جداً من الوجهة العلمية. . . لأنها تصبح مرجعا نرجع إليه في كثير من المسائل التي صعب علينا فهمها أو تعليلها. فإذا رأينا - مثلاً - في أوربا أو في أفريقية شعباً أو جماعة لا نعرف لها مصدراً، أمكننا أن نقول بكل بساطة إنها بقية من سكان القارة المفقودة - فالرغبة في التخلص من بعض المسائل العويصة قد تجعلنا في اشتياق لأن نسلم بوجود هذه القارة المزعومة وأن نقبل من أجل هذا كثيراً من الاقتراحات الواهية الضعيفة.
إن أول من ذكر قارة أطلنطس فيما بين أيدينا من الكتب هو أفلاطون. فقد حكى في كتابه (طيماوس) رواية عن أحد أجداده أن صولون حكيم اليونان الأشهر لما قدم إلى مصر، وتحدث إلى كاهن من كهنتها، أخبره هذا الكاهن أنه كان في المحيط الأطلسي إلى غرب عمودي الهرقل (بوغاز جبل طارق) جزيرة عظيمة تزيد في الحجم على ليبية (أفريقية) وآسيا الصغرى معاً. وأنها كانت عامرة يسكنها شعب قوي ذو بأس وصولة، استطاع أن يبسط سلطانه على جميع قارة أطلنطس وعلى ما جاورها من الأقطار في أفريقية وأوربا. وأن سلطان هؤلاء (الأطلنطيين) قد امتد حتى بلغ إلى مصر وبلاد اليونان. غير أن اليونان استطاعوا أن يردهم على أعقابهم.
وهذه القارة العظيمة كانت عرضة للزلازل العنيفة والبراكين الثائرة، فلم تلبث أن أخذتها الرجفة فهبطت تحت سطح الماء واختفت. وذلك قبل عهد صولون بنحو تسعة آلاف من السنين!
هذه هي القصة التي ذكرها أفلاطون نقلاً عن أحد أجداده. وليس هنالك ما يثبت أن هذه القصة قد رواها صولون حقيقة، وأنها ليست من اختراع أفلاطون نفسه. وعلى كل حال، وأياً كان مصدر هذه القصة، فان مجرد روايتها على هذه الصورة، لا يفيد الباحث عن أمر هذه القارة شيئاً.
إن اختفاء جزيرة صغيرة تحت سطح الماء بسبب هبوط في قشرة الأرض ليس بالشيء المستغرب، وقد يكون اليونان أنفسهم قد شهدوا مثل هذا الحادث في بلادهم الكثيرة الزلازل، وهذا وحده كاف لأن يوحي إليهم بأن جزيرة قد وجدت ثم اختفت في وسط المحيط، ولهذا فان أكثر الباحثين لم يكن يرى في حديث هذه القارة أكثر من أنه أسطورة جميلة. غير أن كثيراً مما كان يراه العلماء مجرد أساطير قد أثبت البحث العلمي وجوده. وقد أخذ الباحثون يهتمون حديثاً بتحقيق أمر هذه القارة.
إن هبوط جزء عظيم من سطح الأرض واختفاءه تحت سطح الماء ليس بدعاً في الحوادث الجيولوجية الطويلة المدى، التي تستغرق عشرات الملايين من السنين. وكذلك ليس بعجيب أن تختفي جزيرة صغيرة تحت الماء في زمن وجيز بسبب حادث بركاني خطير. لكن الأمر الذي يصعب تصوره هو أن كتلة هائلة من اليابس تهبط نحو ثلاثة آلاف متر في زمن يعد وجيزاً جداً بالنسبة إلى ما يستدعيه مثل هذا الانقلاب الخطير في سطح الأرض. وبالطبع ليس إثبات هذا الأمر بالشيء السهل، لأن أكثر الأدلة مقبور تحت غمار البحار، في أعماق يصعب جداً الوصول إليها.
ولننظر الآن في الأدلة التي يدلي بها القائلون بصحة هذه الأسطورة.
لعل أول جهة يجب أن يتجه إليها البحث أن نتساءل: هل في قاع المحيط الأطلسي أو في جزء من قاعه ما يدل على أن هذا القاع أو هذا الجزء من القاع كان أرضاً ظاهرة فوق سطح الماء في زمن حديث يقدر بنحو عشرة آلاف من السنين؟ وهل في السواحل الشرقية والغربية للمحيط ما يدل على أنها كانت إلى وقت قريب متصلة؟ يجب أن نجيب أو أن نحاول الإجابة على هذين السؤالين. ولكن يجب علينا أن نحذر فلا نخلط بين الاتصال الجيولوجي القديم، وبين الاتصال الحديث بواسطة قارة أطلنطس

المزعومة.
من المعلوم أن قاع المحيطات ليس أرضاً مستوية. بل فيه المرتفعات والمنخفضات والسهول والجبال. وقد أصبح ثابتاً ان في وسط المحيط الأطلسي جبال طويلة جداً تمتد من شماله إلى جنوبه، وفي بعض الأحيان تظهر طائفة من قمم هذه السلسلة فوق سطح الماء فتتألف منها جزر مثل جزر الأزور. في الشمال وجزيرة الصعود في الوسط. وجزيرة
في الجنوب. وفي زعم القائلين بوجود القارة المفقودة أن جزر الأزور (ترستان داكنها) هي البقية الباقة منها. وأن الجزء الأوسط من المحيط الأطلسي قليل العمق لأنه هبط حديثاً.
كذلك يشير أصحاب هذا الرأي إلى التشابه العظيم بين السواحل الشرقية والغربية للمحيط الأطلسي، مما يدل على اتصال الساحلين في زمن قديم. وليس من شك في هذا التشابه، لكنه يرجع إلى اتصال في الأزمنة الجيولوجية القديمة. ولا فائدة لأنصار هذا الرأي من الرجوع إلى هذا الدليل الذي لا يفيدهم في قضيتهم شيئاً.
أما الأبحاث الخاصة بقاع المحيط الأطلسي، والتي أريد بها إثبات أن هذا القاع كان إلى وقت قريب بارزاً فوق سطح الماء، فهي على قصورها أقوى البراهين - أو على كل حال أقلها ضعفا - التي يدلي بها القائلون بوجود هذه القارة العظيمة.
وخلاصة هذا الدليل أنه في عام 1898 كانت إحدى السفن تبحث عن سلك تلغرافي قد انقطع في وسط المحيط الأطلسي، وفي أثناء بحثها عن هذا السلك كانت تستخرج من قاع البحر قطعاً من الطين والصخر، وقد فحصت هذه المواد فتبين أنها مما تقذفه البراكين الثائرة، وأن هذه الصخور البركانية كانت مادة منصهرة ذائبة ثم تجمدت وكان تجمدها فوق سطح الأرض لا تحت سطح الماء كما هي حالها اليوم. وذلك لأن حمم البراكين (اللافا) إذا تجمدت في الهواء كان لها شكل خلاف شكلها إذا تجمدت في الماء.
والنتيجة التي يراد الوصول إليها من هذا، هي بالطبع أن هذه البراكين هي براكين قارة أطلنطس وأن هذه اللافا قد تجمدت على سطح القارة المفقودة قبل أن تختفي تحت عباب الماء. لكن لابد لنا للوصول إلى هذه النتيجة الخطيرة من أن نثبت أن هذا الجزء من قاع المحيط الأطلسي الذي استخرجت منه هذه المواد قد كان في وقت حديث - أي منذ نحو اثني عشر ألف سنة. بارزاً فوق سطح الأرض.
ولاثبات هذا الأمر يقول بعض الحتاب أنه في نظر كثير من الجيولوجيين لا يمكن اللافا أن تبقى تحت سطح الماء اكثر من 15000 سنة، لأنها في هذه المدة تتحلل عناصرها تماماً فلا يبقى لها أثر. إذن فاللافا التي استخرجت من قاع المحيط والتي ثبت أنها قد تجمدت فوق سطح الأرض. لابد أن تكون قد غمرتها المياه حديثاً - أي أن هبوط القاع حدث في وقت حديث لا يتجاوز الخمسة عشر ألف سنة!
هذه من غير شك أقوى حجة طبيعية يستند إليها القائلون بوجود قارة أطلنطس، ولكنها للأسف لا تخلو من شيء من الضعف. ذلك أنه - على فرض أن ماء البحر يحلل اللافا ويذيب عناصرها في مدة لا تتجاوز الخمسة عسر ألف عام - يجب أن نذكر أن اللافا عادة تتراكم طبقات بعضها فوق بعض، ذات غلظ عظيم. وقد يتحلل الجزء الأعلى ويبقى الجزء الأسفل والذي يليه وهكذا. ولابد لها من مئات أو آلاف الأزمنة التي ذكرت قبلاً - لكي يتم تحللها جميعاً.
فهذه الحجة اذن - وإن لم تخل من قوة - فإنها لا تثبت إثباتاً قاطعاً سوى أن قاع المحيط الأطلسي في بعض جهاته كان يوماً ما قطعة بارزة من اليابس ثم هبط تحت سطح الماء. ولازلنا في حاجة إلى دليل أقوى من هذا يثبت لنا أن هذا الهبوط كان منذ زمن حديث مقدر بعشرة آلاف من السنين.
كذلك التشابه الذي يشاهد اليوم بين أنواع من الحيوان في شرق المحيط وغربه، دليل على وجود قارة أطلنطس، بل على اتصال قديم جداً في أزمنة جيولوجية غابرة، بين طرفي المحيط شرقاً وغرباً.
فالأدلة الطبيعية قليلة الغناء، ولا يبقى بعدها سوى الأدلة البشرية أو الأنثروبولوجية، أي التي تتصل بالإنسان جنساً أو لغة أو ديناً وتقاليد أو ما شابه ذلك.
وتتلخص هذه الأدلة البشرية فيما يأتي:

1 - جنس القديم الحجري العصر في ظهر قد أنه
الصورة في وقت الهامة حسان عظام القامة طوال الناس من
جماعات من جنس ذي صفات منحطة سوى أوربا في يكن لم
العظيم الجنس هذا على العلماء أطلق وقد دنيئة.
اسم جنس (كرومانيون) - وجدت بها في فرنسا إلى ناحية
نسبة
هذا من أفراد كاملة عظيمة هياكل
الجنس). ولا يعرف أحد
على وجه التحقيق من أين جاء هذا الجنس، الذي ظهر في
أوربا فجأة فاحدث في ثقافتها ثورة هائلة.

والآن يريد أصحاب قارة أطلنطس أن يخبرونا أن هذا الجنس إنما جاء من قارتهم المفقودة!

افتراض جميل سيخلصنا من مشكلة عويصة وهي نشأة هذا الجنس الذي لا نعرف تماماً أين نشأ! ولكن هل من العقل أن نتخلص من مشكلة لكي نقع في مشكلة أعظم منها؟

إن القائلين بأن هذا الجنس مصدره القارة المفقودة يزعمون أن هنالك شبهاً بينه وبين جنس قديم منقرض وجدت بقاياه قي البرازيل. وهذا الزعم لو صح لكان من غير شك حجة قوية لا تدحض. ولكن أكثر علماء الأجناس لا يرى مطلقاً وجه شبه بين هذا الجنس البرازيلي القديم الذي وجدت بقاياه في لاجواسانتا وبين جنس (كرومانيون).

2 - في أوربا شعب اسمه شعب الباسك يعيش على حدود
فرنسا وإسبانيا. في الإقليم الملاصق لخليج غسقونية. هذا
الشعب القديم يعيش شطره في فرنسا وشطره في إسبانيا ويتكلم
لغة ليس لها نظير في لغات العالم كلها. وفي زعم أصحاب
نظرية القارة المفقودة أن الباسك هم بقية الأطلانطيين الذين
هاجروا من قارتهم إلى أوربا قبل الميلاد بعشرة آلاف سنة.
وأن لغتهم تشبه لغات سكان أمريكا الأصليين بينما هي تختلف
عن سائر لغات أوربا.

وهذه الحجة البراقة لا تستند هي أيضاً على أساس متين، لأن لغة الباسك لا تزال عقدة العقد. وقد رأى فقهاء اللغات فيها آراء متناقضة متضاربة، ولم يبلغ العلم في أمرها إلى حل مقبول. وليس القول بأنها تشبه لغات أمريكا بأقوى من الرأي الذي يرى شبهاً بينها وبين لغات البربر في أفريقية ولغة المصريين القدماء.

3 - أما الأدلة البشرية الأخر التي يوردها أنصار قارة
أطلنطس، فتنحصر في وجود تشابه حقيقي أو موهوم بين
بعض العقائد الدينية والعادات والتقاليد والآلهة في العالمين
القديم والجديد، ومجرد ذكر هذه الأمور كاف لأن يثبت للقارئ
أن هذه الأدلة ليست بالشيء الذي يسهل الركون اليه، ولا
نستطيع أن نستند إليها في القول بأن تلك الأشياء المشتركة
مصدرها واحد وهو هذه القارة المفقودة، التي انطلق منها
فريق إلى الشرق وآخر إلى الغرب فنشروا آراءهم وعقائدهم
وآلهتهم في عالمين بينهما الآن آلاف من الأميال.

وهكذا يرى القارئ أن فكرة قارة أطلنطس لا تزال مفتقرة إلى دليل أقوى بما بأيدينا اليوم، ولكنا على كل حال يجب أن نرتاح إلى أن موضوعها أصبح اليوم معرضاً للبحث العلمي بالأساليب العلمية بعد أن كان مجالاً للظن والخيال. ولهذا يسرنا، أن نسمع الخبر الذي رواه أحد الكتاب في عدد الشهر الحالي من مجلة فورتنبتلي من أن بعثة ألمانية قد سافرت حديثاً إلى إقليم جزر الأزور لتفتش في قاع البحر عن أدلة جديدة عن هذه القارة المفقودة.

محمد عوض محمد

الشعر والفن

يتمتع قليل من الناس بإحساس راق مهذب، ينفعل انفعالا قوياً حينما يشهدون جمال الطبيعة أو يتأملون أسرارها، وهذا الإحساس السامي لا يصلون إليه من كثرة القراءة والاطلاع، ولا من كثرة الحفظ والاستظهار، ولا من تأبط الدواوين والكتب، وإنما يأتيهم

من تدريب احساساتهم وتمرينها على التأثر بجمال الطبيعة والتأمل فيما يغمرها من أسرار، ويشرق عليها من نظام، وما يزالون يدربون احساساتهم، ويتعهدونها بالتمرين، وحتى إذا أوفوا من ذلك على الغاية، وضاقت قلوبهم عن حبيس ما يجيش فيها من عواطف وانفعالات، اضطروا اضطراراً إلى إخراج هذا الفيض القلبي متدفقاً في هذه الأنهار الجميلة التي نسميها فناً، من موسيقى ورسم ونحت وعمارة وشعر، وما أشبه قلوب هؤلاء الناس بالبؤرة الصالحة ترد إليها أشعة الاحساسات الصادرة عن صور الطبيعة المختلفة، فتحلل فيها، ثم تنعكس فكراً جميلة، وصوراً بديعة، وسرعان ما يجد الفنان نفسه مضطراً إلى إبرازها وإظهارها لأنه لا يستطيع أن يؤويها في نفسه، ولا يمكنه أن يخفيها في زوايا قلبه، فيقدمها للناس في هذه الثياب الساحرة، ثياب الفن الجميل فتسترعي ألبابهم، وتستهوي أفئدتهم.

والفنون جميعها تعبر عن عواطف مشتركة، وتسعى إلى غاية واحدة هي إظهار ما في الكون من جمال، ولهذه الصلة الواضحة بين أنواعها كان لزاماً على من يخصص نفسه في فرع من فروعها أن يتزود ما أمكن بالفروع الأخرى، وأن يتثقف بها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وقد فقه الغربيون ذلك وعرفوا قيمته فراح شعراؤهم يدرسون الفنون الجميلة، ويمدون شاعريتهم بما يلذ لها من صنوف طعامها، وألوان رحيقها، وبينما هم مجدون في ذلك مبالغون فيه، نجد كثيراً من شعرائنا قد استناموا إلى حياة شعرية غريبة، حياة كلها تقليد وقطيعة للفنون، فهم لا يستمدون غذاء شاعريتهم إلا من فتات مائدة، هي هذه الدواوين الشعرية التي ورثوها عن الأقدمين، يحفظون ألفاظها، ويجودون أساليبها ويبتغون مثلهم العليا في معانيها وصورها، فترى الواحد منهم إذا أراد أن يقول شعراً راجع ما قاله القدماء، والتقط ما نثروه من ألفاظ وأساليب، ونطقوا به من معان وصور، حتى إذا اجتمعت إليه مجموعة لا بأس بها من هذا كله، سلكها في هذه السلاسل التي يسميها أوزاناً شعرية، وقد نشأ عن ذلك أن قل الابتكار في الشعر. وأصبحنا لا نكاد نتأثر أو نحس به لأنه موسيقى متكررة توقع من حين لآخر على نغمة واحدة، وشاعت السرقات الشعرية عن هذه

الطائفة من الشعراء، فاستباحوا حمى أسلافهم الأقدمين وأغاروا على دواوينهم، واجتلبوا منها سبايا الأساليب والصور، ولكنها سبايا باردة جامدة لا تنبض قلوبها بحرارة ولا بحياة، والشركات كثيراً ما تعقد في هذه السبايا، ولكن الشعر للأسف لا يرج منها إلا ألفاظاً لا غناء فيها ولا قيمة لها ولو كان للشعر العربي حكومة لأخذت على أيدي هؤلاء المتشاعرين الذين لا يقعون منا إلا موقع الضوضاء الممقوتة المنكرة، فحرمت عليهم اجتراح هذا الإثم، أيا كان لونه، وأياً كان شكله، وإذن لاستراح الشعر العربي من عبء ثقيل يتعبه ويشقيه، ويمرضه ويضنيه.

ومما يدعو إلى العجب أن بعض النقاد أخذ يهيب بهؤلاء الشعراء، ويضع أيديهم على ما هم فيه من عيب ونقص، علهم يصلحونه أو يتخلصون منه، ولكنهم يعرضون عنه، ويصرون على ما يجلل آثارهم الشعرية من عيب، وما يسومها من نقص، وتضيع من وقت لآخر هذه الدعوات المخلصة، وتذهب كأنها نفخة في رماد، لا تبعث لهيباً ولا توقد ناراً، أو صحة في صحراء، تضيع في متسع الاجواء، وتفنى في منفسح الآفاق، ولو أنصف هؤلاء الشعراء أنفسهم لأصاخوا إلى هذه الدعوات المباركة واستجابوا إليها، وهل يحسن بهم أن يؤثروا العقم على الإنتاج، أو يستحبوا التقليد على الحرية؟ إنهم لو تدبروا لسارعوا إلى تخليص أنفسهم من ذل الجمود ورق التقليد، ففكوا عن أعناق شعرهم هذه الأفعى التي تحاول أن تخنقه على أن هذه الحياة الجديدة التي نأمل فيهم أن يستبقوا إليها، لن تكلفهم مشقة كبيرة. فان السبيل إليها سهل ميسر، وما عليهم إلا أن يلقوا محبة من نفوسهم على عوالم الفن الأخرى، فيثقفوا بها، ويجدوا في ذلك التثقيف، حتى يدربوا احساساتهم، حاسة حاسة، تدريباً طويلاً، وأكبر ظني أن هذا هو السبيل الواضح الذي يصل بهم على عجل إلى غايتهم المنشودة، ولعل من أمس هذه العوالم الفنية بالشعر، عالم الخطوط والحركة، أو ما يسمونه باسم (الرسم) ففي هذا العالم يستطيع الشاعر أن يمرن احساساته تمريناً تاماً كاملاً على التأثر بجمال الطبيعة والانفعال بمشاهدها الرائعة ومظاهرها الساحرة، ويظن كثير من الناس أن جمال الصورة يتركز في ألوانها وأضوائها، ولو كان الأمر كذلك، لكانت الصورة قليلة الجدوى،

والواقع أن جمالها البديع يتركز في الخطوط وحركاتها واتجاهاتها، تلك الخطوط التي تعدل الصورة وتقومها وتنتهي بها إلى
شكلها الفني الجميل، أما الألوان فهي شيء إضافي يلحق بالخطوط بعد تكونها ووجودها، والشاعر كالمصور لا يختلف عنه في شيء إلا في المادة التي يصور بها، وان في الصورة المجتمعة، وندرة العناصر، وتناسب الجمع، لنوعاً سامياً من القوة الإلهية كما يقول فلوبير، وأهمية الصورة في الشعر ترجع إلى أنه لا يعبر عن الحقيقة كما هي وكما نجد عند النثر، وإنما يتخذ للإفصاح عنها طريقاً آخر، هو تمثيلها وتخييلها، وعرضها في صور خلابة ورسوم ساحرة، وهذا هو الذي حدا باليونان منذ القدم إلى أن يخصوا الشعر ببرهان قائم بنفسه، برهان لا يقوم على اليقين ولا يتخذ مقدماته من المنطق، وإنما يقوم على الإقناع والتمثيل، ويتخذ طريقه من التأثير والتخييل، ونحن نلحظ مع الأسف أن الشعر العربي لا يهتم بالصورة الاهتمام الواجب، وإنما يضع همه كله في الألوان والأضواء، ولا نكاد نجد فيه الخطوط الكثيرة التي تخلق الصورة خلقاً، وتبتكرها ابتكاراً، وتعمر قلبها بالحرارة والحياة، فمعظم شعرائنا يقف همهم من الصورة عند هذا النوع التافه الذي يسمونه مجازاً أو كناية، وما عرفوا أن هذه الأشياء هي أقل أنواع الصور قيمة بل هي في الواقع لا تزيد على أنها طريق من طرق التعبير، أما الصورة الصحيحة فهي أسمى من ذلك وأرفع، ولا بد فيها من تحضير لمواد طويل، وجمع للعناصر كثير.
وعلاقة الشعر بالرسم علاقة قوية شديدة، ولكن يظهر أن علاقته بالموسيقى أقوى منها بأي فن آخر، فقد نشآ معاً، ولكن تقدم الفنون فصل بعضهما عن بعض فاستقل كل منهما بوظيفة خاصة، على أن الموسيقى لا تزال تحتل الشعر ولا يزال أثرها واضحاً فيه، والشاعر في الواقع ليس إلا موسيقياً ساحراً يلعب بأنامله على قيثارته الشعرية فيطربنا بأنغامه، ويشجينا بألحانه، ويأخذنا بفيض وحيه وقوة إلهامه. والواجب على شعرائنا أن يدرسوا الموسيقى، وأن يعنوا بدراستها عناية كبيرة، فكثير من الألوان التي يؤديها الشعر ترجع إلى الموسيقى نفسها، ولقد استفاد اليونان قديماً من هذه الدراسة فوجدوا طريق الشعر في العقيدة كلها، بل في الرواية التمثيلية على طولها، واختلاف أشخاصها خلا الشعر الغنائي الذي كان يتخللها، ولقد كان الرومان يفهمون الشعر على أنه غناء أكثر منه شيئا آخر حتى تجوز بعضهم فسمى الشعراء باسم الموسيقيين، ويقول بعض النقاد أن الموسيقى هي سر السحر في الشعر وهي نفس صناعته، وكيفية تأثير الموسيقى الشعرية فينا يختلف فيها النقاد اختلافا كثيراً، ومهما يكن فهي تحدث تغيرا في أسلوب الوجدان، وكل نغمة تصلنا منها تؤثر في ادراكنا، وترتفع معها نغمات عاطفية في نفوسنا، ولا ينكر أحد ما لموسيقى الألفاظ من قيمة في الشعر، فهي ذلك الجمال الخفي الذي يستمد من غير المنظور مؤثرات ساحرة بديعة، ولقد كان شاكسبير يعنى بها عناية فائقة، حتى قيل انه يحب الألفاظ من أجل الألفاظ، لكن ينبغي أن ننبه إلى أن موسيقى كل لفظة موجودة معها في اللغة قبل وجود الشاعر، ولكن لا ننس أنه هو الذي يختار الألفاظ، ينتقيها ويجمعها في سلك واحد فلا نحس تنافراً ولا شذوذاً، وإنما نجد جمال التناسب والتوافق يتجلى فوقها ساحراً بديعاً، واللغات نفسها تهتم بموسيقى الألفاظ، ويتضح هذا في اللغة العربية في ألفاظ الاستغاثة والندبة والتعجب فان قدماءنا قلبوا ياء المتكلم التي تنتهي بها ألفاً حتى يشبعوا النغمة في هذه الألفاظ ويستتموا بها التأثير في الوجدان، وقد زادوا في ذلك فجعلوا لبعضها حرف نداء مخصوصاً هو (وا) ليزيدها قوة في الصورة، ويتناسب مع شدتها في المنطق، وهم قد فعلوا هذا كله ليدلوا على الانفعال الوجداني ويكون التأثير في قلب السامع أوفى وأقوى.
وليس من شك في أن تتابع المقاطع والأصوات وصور النبرات يجعل العقل مستعداً لنغمة خاصة، وينقل القلب إلى حالات وجدانية متماثلة، ويتبين هذا في أننا نصبح بعد قراءة بيت أو بيتين من الشعر مهيئين لسماع ما يوافق هذه الحالات الوجدانية التي هيجتها فينا الأصوات والنبرات الأولى، فإذا فوجئنا بمقاطع ونغمات جديدة أحسسنا بالفرق الظاهر والانتقال الواضح، على أننا يجب ألا نبالغ في ذلك، فان التأثير الذي يفد إلينا من الشعر لا يأتي من الضغط والمقاطع وتشديد الصوت وقوته، نعم تؤثر فينا هذه الأشياء تأثيرات مختلفة، ولكن هذه التأثيرات ليست كل شيء في الشعر فان قراءة

الشعر ليست نغماً خالصاً، ولا شكلاً غنائياً تاماً.
شوقي ضيف بكلية الآداب
التفاؤل والتشاؤم وهل لهما أسباب تاريخية
بعض غرائب الخرافات عند الغربيين والشرقيين
- 2 -
نباح الكلب في الليل
من الخرافات الفاشية عند أكثر الأمم وبين الفلاحين عندنا، التشاؤم من إهلال الكلب، أي الصياح بين الأنين والنباح الغير العادي في الليل، ويسميه أهل الشام (العواء المقلوب) وفيه يقف الكلب وقفة منكرة ينظر فيها إلى القمر، ويشرع في عوائه الغريب الذي يكاد يقرب من عواء الذئب، فيظن من يراه على هذه الحالة أنه يدعو على أحد، ويناجي القمر لعله يساعده على جعل هذه الدعوة مستجابة، فيتشاءمون من هذا الصوت ويقولون أنه نذير شؤم يقع منه موت لأحد الناس. وأسلافنا المصريون هم في الأغلب الأصل في هذه الخرافة، فقد كانوا يؤمنون أن عزرائيل يتشكل في شكل ابن آوى، وكانوا يرسمونه في حفلات الجنازة والموت والحساب، وابن آوى يشبه الكلب كثيراً في هيئته، وربما كان له وللكلب قديماً اسم واحد، أو ربما كان الاعتقاد سائداً بأن الكلب يتلاقح مع ابن آوى، فلما زالت عقائد المصريين من الناحية الدينية الرسمية بقيت بين الفلاحين وانتشرت بين عامة الأمم الأخرى.
وربما يرجع هذا التشاؤم إلى الاعتقاد بأصل النجاسة التي يوسم بها الكلب عند العرب، ولكن يجب ألا نبالغ في الاعتقاد بنجاسة الكلب فان من العرب من كان يجله ويرعاه، ويعرف له فضله في الأمانة والحرص على مصالح مولاه. وقد قال كتاب (فضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب)، تصنيف الإمام أبي بكر بن خلف المرزبان في سنة 381 هجرية:
والكلب أيدك الله منافعه كثيرة فاضلة على مضاره بل هي غامرة لها وغالبة عليها.) ولم تزل القضاة والفقهاء والعباد والولاة والنساك الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر لا ينكرون اتخاذها في دورهم، وهم مع ذلك يشاهدونها في دور الملوك. فلو علموا أن ذلك يكره لتكلموا ونهوا عن اتخاذها. بل عندهم أنهم إذا قتلوا الكلب كان فيه عقوبة.)
وعلى هذا النسق مضى المؤلف يعدد فضائل الكلال، وأتى في الكتاب بطائفة من الأقوال البارعة والأبيات اللطيفة التي قيلت في الكلاب ومنها يتبين للقارئ نظر العرب لهذا الحيوان.
القط
يتشاءم بعض الناس بأن القط الأسود مجلبة للشر وطالع نحس وعنوان كل كارثة مقبلة. . . ويتطير الغربيون بالقط الأسود إذا عبر طريقهم. وكان الإنجليز حتى عهد قريب يحتفلون سنوياً بمدينة (شرفتيد) بالإتيان بقطة سوداء، رمز الظلام، ويضربونها بالسوط حتى تموت.
وربما يرجع هذا التشاؤم إلى سواده، والسواد رمز للحزن أو ربما يرجع إلى عقائد قديمة كانت شائعة عند القدماء بشأن سواد القط.
ولا يزال الايطاليون والهنغاريون يعتقدون بان القطة التي تنب فوق سطوح المنازل لابد أن تكون قد تقمصتها روح ساحرة شريرة. والبراهمة على العموم يعتقدون بحلول أرواح البشر في القطط. وذلك أيضاً هو اعتقاد أهل السيام الذين يقدمون للقطط على سبيل الهدية أقفاصاً من ذهب يضعونها في المعابد، وقد شوهدت قطة سوداء في موكب الاحتفال بتتويج ملك سيام في سنة 1926.
وكثيراً ما كانت القطة في القرون الوسطى سبباً في قتل صاحبتها من العجائز لاتهامها بالسحر وكانت القطة تعتبر دليلاً على ممارسة العجوز لهذا (الفن الأسود) في الخفاء لمساعدة الأرواح العديدة التي تسكن جسم القطة.
ومن الخرافات المصرية التي شاعت في العالم أن للقطط سبع أرواح أو تسعاً. وقد يعزى إلى هذه الخرافة بعض القسوة في معاملة القط، ولكن أصلها يرجع إلى حرمة القط بل إلى تقديسه، فقد كان قدماء المصريين يقدسون هذا الحيوان ويحنطون جسمه ويشيدون له المقابر، وكانت (بشط) ربة مصرية لها رأس قطة، وكان

المصريون يعتقدون أن لها تسع أرواح.
وذكر المؤرخ اليوناني (هرا بللون) أن الإغريق كانوا يصنعون تماثيل القطط بمعبد الشمس بمدينة هليوبوليس، لأن عين هذا الحيوان تتبع الشمس في انتقالها في الأفق وقد عثر المنقبون في سنة 1890 على مقبرة كبيرة بجهة بني حسن موجودة بها جثث القطط
المحنطة موضوعة في صفوف منظمة، ولسوء الحظ أن الفلاحين تشاءموا من وجودها فأحرقوها.
وبدأ الناس في فجر المسيحية يمقتون آلهة الأقدمين فاعتبروا القطة رمزاً للشيطان ومجلبة للشر.
قتل الثعبان
من أغرب العادات عند بعض سكان مصر أنه لا يرضى بقتل ثعبان البيت ويتشاءم من هذه الفعلة إذا حدثت، وقد كان الثعبان مؤلهاً عند أسلافنا. فالحرمة التي يحوطه به بعضنا الآن هي في الحقيقة حرمة دينية نسينا أصلها وغايتها وبقي رسمها.
نعل الفرس
يتفاءل الناس بنعل الفرس ويعلقونها على الحوانيت وأبواب المنازل لتجلب السعد لساكنيها. ومن وجد نعلاً في الطريق عد ذلك حظاً حسناً يستأنس به طول يومه بل طول عامه.
وأصل هذا الاعتقاد، أن نعل الفرس كانت في الزمن القديم رمز الربة (عشتروت) فكان كل نم بجد نعلاً يتفاءل بها كأن الربة عد أهدتها إليه، وربما يرجع أيضاً إلى أنها تشبه الهلال.
ونعل الفرس حديثة العهد في التاريخ لأنه لا يمكن أن يعدو تاريخ الحديد المصنوع منه. والحديد لم يعرف إلا منذ ثلاثة آلاف سنة. ولذلك قد يتوهم الإنسان أن الاعتقاد في حسن الحظ من النعال هو من مبتكرات المتمدينين الذين عرفوا الحديد، وأن المتوحشين لا علاقة لهم بهذا الاعتقاد، ولكن الحقيقة أن هذه الخرافة آتية من المتوحشين نزلت منهم إلى المتمدينين. فنعل الفرس تشبه الهلال الجديد. والمرجح أن الإنسان كان يصنع هلالاً من خشب أو عظم للتيمن، فلما ظهر الحديد صار يصنعه من الحديد. ثم لما عرف نعال الخيل استغنى بها الإنسان عن الأهلة القديمة وصار يعلقها على الأبواب والحوانيت بدلاً منها، للمشابهة، وبدلاً من أن يرسم الهلال. والأوربيون يتفاءلون بها مثلنا ويتعلقون بهذه العادة أكثر منا.
إبراهيم تادرس بشاي
يتبع
المعتصم بن صمادح على فراش الموت
للدكتور عبد الوهاب عزام
الأندلس في أمر مريج، زال عنها سلطان الخلافة فاضطربت، وفقدت رواسيها من بني أمية فمادت. وأصبحت كرقعة الشطرنج يتغالب الملوك على كل بيت فيها. كل قوي يحوز ما وسع حوله وهمته، والعيش غلاب. (والبر أوسع والدنيا لمن غلبا).
في هذا المعترك ملك محمد بن أحمد بن صمادح التجيبي (مدينة (وشقة) وملك بنو عمه مدينة (سرقسطة). ثم غلبوه على مدينته.
ثم ملك ابنه معن بن محمد مدينة (المرية) غصبها من عبد العزيز بن أبي عامر. وخلفه ابنه أبو يحيى المعتصم بالله وهو في سن الرابعة عشرة. نشأ في ملك ضيق الرقعة، فاستعاض منه سعة الخلق وبعد الهمة، وحلية العلم والادب، والسخاء الشامل، والجود العمم، حتى طاول المعتمد بن عباد كبير ملوك الطوائف ونافسه، وحتى قال أمير المسلمين يوسف بن تاشفين حينما لقيهما بالأندلس (هذان رجلا هذه الجزيرة).
قال ابن خلكان:
(وكان رحب الفناء، جزيل العطاء، حليماً عن الدماء، طافت به الآمال، واتسع في مدحه المقال، وأعملت إلى حضرته الرحال، ولزمه جماعة من فحول الشعراء)
وقال الفتح بن خاقان:
(ملك أقام سوق المعارف على ساقها، وأبدع في انتظام مجالسها واتسقها، وأوضح رسمها، وأثبت في جبين أيامه وسمها. لم تخل أيامه من مناظرة، ولا عمرت إلا

بمذاكرة أو محاضرة. . . وكانت دولته مشرعاً للكرم، ومطلعاً لهمم، فلاحت بها شموس، وارتاحت فيها نفوس. ونفقت فيها أقلام الأعلام، وتدفقت بحار الكلام، كإجادة ابن عمار وإبداعه، في قوله معتذراً من وداعه.

أمعتصماً بالله والحرب ترتمي ... بأبطالها والخيل بالخيل تلتقي
دعتني المطايا للرحيل وإنني ... لأفرق من ذكر النوى والتفرق
وإني إذا غربت عنك فإنما ... جبينك شمس والمرية مشرقي

وكان المعتصم، كالمعتمد بن عباد، شاعراً مجيداً. كتب إلى الوزير الشاعر بن عمار؛

وزهدني في الناس معرفتي بهم ... وطول اختباري صاحباً بعد صاحب
فلم ترني الأيام خلاً تسرني ... مباديه إلا ساءني في العواقب
ولا قلت أرجوه لدفع ملمة ... من الدهر إلا كان إحدى المصائب

طوى الأمير أربعين عاماً في إمارته، شاع فيها ذكره ونبه اسمه، وحلب الدهر أشطره، ورأى أحداثه وعبره. ثم حم القضاء وبعث ابن تاشفين جنوده على ملوك الطوائف تثل عروشهم، وتعفي على آثارهم. ولقي (رجلا الجزيرة) الصدمات الأولى فدارت على المعتمد الدائرات، فإذا هو أسير أغمات، وللمعتمد بن عباد قصة ملؤها العبرات والزفرات.

وعلم ابن حماد بما أصاب صاحبه فملكه الغم، وناء به الحزن، وكان أسعد من صاحبه جداً، نجاه الموت من الإسار، وأنقذه الحمام من المذلة: رب عيش أخف منه الحمام.

ولله ابن بسام حين يقول: (وكان بين المعتصم وبين الله سريرة أسلفت له عند الحمام يدا مشكورة. فمات وليس بينه وبين حلول الفاقرة به إلا أيام يسيرة، وفي سلطانه وبلده، وبين أهله وولده).

دع ما نمق الكتاب، وأنشد الشعراء، ودع أربعين طواها الزمان كأنها أحلام، وانظر المعتصم ليلة الخميس لثمان بقين من شهر ربيع الأول سنة أربع وثمانين وأربعمائة - الليلة التي طلع عليه بالردى فجرها - هاهو ذا على فراش الموت في قصره بالمرية، ومعسكر ابن تاشفين على مقربة من المدينة ترى خيامه، وتسمع ضوضاءه. ويسمع المعتصم وجبة من الجيش اللجب، والجند المصطخب، فيقول كأن لم ينعم بالملك والجاه أربعين عاماً!

لا إله إلا الله! نغص عليها كل شيء حتى الموت، قالت (أروى) إحدى جواريه:

(فدمعت عيني، فلا أنسى طرفاً إلي يرفعه، وإنشاده لي بصوت لا أكاد أسمعه)
(ترفق بدمعك لا تفنه ... فبين يديك بكاء طويل)

عبد الوهاب عزام

الحرص على الحياة

للعلامة الأمير مصطفى الشهابي عضو المجمع العلمي العربي بدمشق

لكم تساءل الإنسان عن هذه الحياة ومعناها، ومبدأها ومنتهاها، ولكم أجهد نفسه بلا جدوى للحصول على جواب مقنع تسكن إليه نفسه الكليمة من أحاجي هذا الكون. وهو بين الأزل والأبد يمر في هذه الحياة الدنيا كأسرع من إيماضة كهربائية تطوي الأرض في أقل من ثانية!.

ما هي هذه الحياة الكامنة في جنين بزور النبات، وكيف تحتفظ بعض البزور المجففة بخاصة (الانتاش) عشرات من السنين، حتىإذا زرعت وابتلت دبت فيها الحياة فضربت (نتشها) عن الأرض وأبرزت سداها فوق التراب يتلمس الشمس والهواء وهو أحرص على الحياة من الشيخ الفاني والهم البالي. وراقب جذور هذه النبتة كيف تخترق ذرات التراب وتتغلغل فيها سعياً وراء الماء اللاصق بها حيث تجد غذاءها مذاباً صالحاً لامتصاص. والغريب أنك كيفما أدرت ذلك الماء دارت الجذور معه وسعت إليه كأنها تدرك أن لا حياة لها إلا به. وإذا ما وضعت حاجزا معدنيا بينها وبين ذرات التراب المبتلة دارت حوله حتى تتخطاه، وان أعياها الأمر أرزت حوامض تذيبه، حتى إذا ثقبته دخلت في الثقب كما يفعل الكماة عندما يخرقون سور المدينة الحصينة، ويدخلون من الخرق فيستولون عليها وينعمون بها.

وانظر إلى الأزهار الموضوعة في نافذة غرفتك كيف تميل إلى الخارج تستقبل الضياء حتى لكأنها تفر من الظلام إلى النور. والحظ الأشجار المغروسة بجانب أحد الجدران

كيف تبتعد عنه بأغصانها النوامي فتبدو عريانة فيما يليه كان قضبانها اللدنة لا تلتذ برغد العيش إلا حيث يتماوج النور ويتلاعب الهواء. وهذه زهرة تدور مع الشمس من مبزغها إلى مغربها حتى سموها عبادة الشمس. وتلك ورقة مركبة تفتح وريقاتها في النهار وتضمها في الليل مرتقبة شروق الشمس في اليوم التالي وهي أحرص ما تكون على الانتفاع من شعاعها المتناثر. واعجب لتلك النبتة الحساسة التي يسمونها (مستحية)، وخجولة إذ تنطبق أوراقها عندما يمسها الإنسان، وتنكمش أغصانها وتتدانى كأنها تشعر بالخطر المحدق بها فتبتعد عنه، وكأنها تستعد لمغالبة ذاك الذي جاء ينتزع منها الحياة. وأغرب منها قواتل الحشرات التي تنطبق أزهارها على الذباب فتميته وتعصره وتغتذي بعصارته بعد أن تحتال عليه بشتى الحيل لئلا يفلت منها فيفوتها رزقها وتفوتها الحياة.

أما الحشرات فلها أفانين وأعاجيب في التشبث بالحياة والتعلق بها ولا سيما بواسطة أنسالها. والذي يتاح له أن يربي مثلي بعض أنواعها ويتابع سير حياتها بالمجهر أو بالعين أو بالعدسات يذهل من أساليب التلاقح والتسافد بين الذكر والأنثى ومن ضروب الحيل والقسوة التي ربما أدت بأحدهما إلى الهلاك في سبيل حفظ النسل وضمانة بقاء النوع حياً. وما من أحد إلا وله معرفة بخلية النحل ويعسو بها، وقرية النمل وأنابيرها، وخيوط العناكب ومصايدها، دع الحيوانات العليا وما تفتقه قرائحها من ضروب الحيل إما في اتقاء عدو أو تلمس قوت أو إخلاف نسل. والنتيجة في كل ذلك واحدة وهي بقاء أنواع ببقاء الحياة فيه.

لكن ابن آدم الذي سمت مداركه، كيف تلذ له الحياة على ما فيها من شرور وآثام وآلام مبرحة، ولماذا ترتعد فرائصه من الموت، ويقف شعره لشدة فزعه منه؛ وما هذه الشهوة الشديدة التي تدفعه إلى الأنسال، وتلك العاطفة الغريزية التي تجشمه أشد المتاعب وأضناها في تربية الأبناء وإعدادهم للحياة. تخر كل هذه الأسئلة في خاطر الإنسان فلا يحير لها جواباً لأنه لا يفقه شيئاً عن ماهية الحياة ولا عن الغاية نمها. وإذا بأصحاب مذهب العدم أي العدميين ينتصبون قائلين: أما والحياة ليست سوى مجموعة من الآلام التي لا حد لها ولا نهاية، فما علينا إلا أن نقضي عليها بقتل كل حي على هذه الكرة الأرضية الحمقاء. فيضحك العالم من هذا الرأي ويجيب: هبوا الناس قبلوا رأيكم هذا وعملوا به، فماذا يحصل بعد أن تفقد الحياة على هذه الكرة؟ هل تظل الأرض خالية من الأحياء، تدور أن يدرك أحد دورانها، ويتعاقب الليل والنهار دون أن يحص أحد تعاقبهما؟ هذا ما لا يقبله العقل السليم. والراجح أن العلة التي أوجدت الحياة ستعيدها سيرتها الأولى مهما تعددت آراء الصحاب الأديان والمذاهب والفلسفات المختلفة والعقائد المناقضة والعلوم الحياتية المحدودة في تفسير هذه العلة وفي تحديد ماهيتها. وعندئذ تعود الحياة إلى ما كانت عليهن ويعود الأحياء إلى التكاثر والتنوع والتناحر والتفاني وتكون نتيجة العمل برأي العدميين وقف الحياة بضعة ملايين من السنين، وهي بعد لا تعد شيئاً مذكوراً في هذه الدهور الأبدية، والكائنات السرمدية.

مسكين أنت أنها الإنسان! ما أشقاك بهذه الحياة! عقل قاصر وجد عاثر، وإدراك بسيط، وحواس محدودة. تأتي إلى هذه الحياة وأنفك راغم، فتعيش بأوهامك وأخيلتك الشعرية التي لا ظل للحقيقة فيها، ثم تجالد وتكافح وتتألم وتشقى وتتوهم السعادة أحياناً، لكنك سرعان ما تهلك مقهوراً مدحوراً، فلئن كانت لك أمنية في حياتك هذه فأجلها أن يسمو العقل البشري حتى يصير قادراً على اكتناه أحاجي هذا الكون الغامض.

من طرائف الشعر

شوقية لم تنشر

نظمها شاعر الخلود شوقي بك في الطلاب المصريين الذين يتعلمون في أوربا

قف حيّ شبان الحمى ... قبل الرحيل بقافيه
عوْدتهم أمثالها ... في الصالحات الباقيه
من كل ذات إشارة ... ليست عليهم خافيه
قل يا شباب نصيحةً ... مما يزوّد غاليه

هل راعكم أن المدا ... رس في الكنانة خاويه
هجرت فكل خليَّة ... من كل شهد خاليه
وتعطلت هالاتها ... منكم وكانت حاليه
غدت السياسة وهي آ ... مرة عليها ناهيه
فهجرتمو الوطن العز ... يز إلى البلاد القاصيه
أنتم غداً في عالم ... هو والحضارة ناحيه
واريت فيه شبيبتي ... وقضيت فيه ثمانيه
ما كنت ذا القلب الغلي ... ظ ولا الطباع الجافيه
سيروا به تتعلَّموا ... سرّ الحياة العاليه
وتأملوا البنيان وادّ ... كروا الجهود البانيه
ذوقوا الثمار جنية ... ورِدوا المناهل صافيه
واقضوا الشباب فان سا ... عته القصيرة فانيه
والله لا حرج علي ... كم في حديث الغانيه
أو في اشتهاء السحر من ... لحظ العيون الساجيه
أو في المسارح فهي بالن ... فس الطيفة راقيه
المحزون!!
لشاعر سورية الأستاذ خليل مردم بك
أعِن اللهم من صوّ ... رته من حَزَن
ألف الحزنَ فلو فا ... رقه الحزنُ بكاه
وجفا اللهو فلو وا ... صله اللهو شكاه
نفسه ليس لها غي ... ر الأسى من سكن
الأسى في مقلتيه ... قد محا كل ضياء
جاعل في مسمعيه ... كل صوت كالبكاء
إن ما يبصر أو يس ... مع داعي الشجن
درج الطفل إليه ... ضاحكاً مستبشرا
ناشراً كلتا يديه ... كالمصلي كبرا
أو كطيرٍ همَّ بالاس ... فاف عن غُصن
ضمه المحزون لا يم ... لك رد العبراتِ
ذاكراً يوماً وإن طا ... ل التراخي فهو آت
تصدع الشمل به جو ... راً صروف الزمن
لو تراه والتي ها ... م بها عند التلاقي
خلْته يلفظ روحاً ... بلغت منه التراقي
مغمض الجفنين للغص ... ة لا للوسن
قال: لا آسى إذا لا ... قيت يوماً مصرعي
إنما أخشى على حبي ... أن يودِي معي
فاحفظ اللهم هذا ال ... حب واحرس وصُن
وإذا قبلي ماتت ... ما عساني أصنع
هل يؤدي حق حزني ... أن بفيض الأدمع
لا وربي دون أن نم ... سي معاً في كفن
ورأى الظالم لا ير ... قب في المظلوم ذِمه
فبكى حزناً لمن عُرَّ ... ي من عدل ورحمه
وعلى من بشديد ال ... جور والظلم مُني
قال: يا ذا المال ما في ال ... مال لي من مطمع
أي شيء هو أغلى ... من لآلي الأدمع
هل رأت عيناك دراً ... غيرها في الأعين؟
فأنا أملك منها ... ثروة لا تنفد
وأنا، إلا بها في ... كل مال أزهد
وحدها كم كشفت ... عني ظلال المحن
لا ترد مني شعراً ... ولو أن الشعر سحر

كلما أنشدت شطراً ... فاض من روحي شطر
يا لروح بين أبيا ... ت له مرتهن
نبذ الأديان يعتد ... بها كل غبي
وجفا الإسلام لو لم ... يك دين العرب
فهمو لو عبدوا الأو ... ثان أمسى وثني
ما أحب العرب إلا ... منذ لاقوا المحنا
فهم قد زرعوا ... لكن سواهم قد جنى
كم لقوا سوءاً بصنع ... قدموه حسن
ضاق بالأحزان ذرعاً ... فانتحى الروض النضير
يتغنى بنشيد ... مثل أسجاع الطيور
نفسه قد نشزت مَعْ ... هـ ولما تنثن
وهزار مع ورقا ... ء عليه عكفا
قال للورقاء ما با ... ل أخي البلوى غفا؟
قالت الورقاء بل ير ... حمه الله فنى!

السكك الحديدية تحت الأرض
للأستاذ فخري أبو السعود

خَلَصْت من زحمة الدنيا وضجتها ... إلى طرائق تحت الأرض تنسرب
جَرتْ مفاوزها في كل ناحية ... فلم تزل تتلاقى ثم تنشعُب
ظلماء جونٌ كأحجار الأراقم قد ... مدُّوا لها سببا في إثره سبب
تجري بها مركباتٌ ما يزال لها ... تحت الثرى والدياجي مسلك عجبُ
سَرَى بها دافع للكهرباء فلم ... تَقذفْ دخاناً ولم يزفر بها لهب
شتيمةَ الوجه إذ تنسل ساربة ... مثل الثعابين في أنيابها العطبُ
ترى على سَفَر طوّل المَدَى فإذا ... حُوَاتها صَفَروا سالت بها القضب
إن يبتغوا انطلقت أو يبتغوا وقفت ... لم تشكُ أَنْياً ولم يعلق بها لغبُ
تظل ذاهبة منهم وآيبة ... تمضي مولولةً صْخبى وتنقلبُ
يرمي بها نفقٌ داج إلى نفق ... وينطوي سَرَبٌ من بعده سرب
كأنما هي سعلاة بها كَلَبٌ ... أو أنها طالب قد شقَّه الطلبُ
تجري النهارَ وما تدري له وَضَحاً ... ودَاجَى الليل لا تبدُو له شهبُ
تظل تقطع أنحاء المدينة لم ... يشعر على الأرض من جاءوا ومن ذهبوا
وتنثني في الدياجي غير حافلة ... بمن مَشَوْا في ضياء الشمس أو ركبوا
فكلُّ نَهْجٍ لها أنى مَضَتْ جَدَدٌ ... وكل قاصٍ إذا رَامَتْهُ مقترب
-

إلى شباب العيد
للأستاذ محمود الخفيف

جددوا العزم فالزمان أهابا ... وخذوا الحذر واستحثوا الركابا
ألبسوا العيد روقة وجلالا ... قد ظمأنا إليهما أحقابا
واملأوا مهرجانكم كبرياء ... وطموحاً وعزة وغِلابا
وانشدوا المجد بكرةً وأصيلا ... وذكروا مصر جيئة وذهابا
وابعثوا في البلاد صوتاً قويا ... فستلقون صوتكم مستجابا
وأفيضوا من الحماس علينا ... فسينصب في القلوب انصبابا
وانظموا العزم والوفاء كتابا ... وانشروا في الجموع ذاك الكتابا
واتركوا الكيد والخصام لقوم ... لا يرون الجهاد الا سبابا
أيها المنكر الحياة غلينا ... أقصر اللوم هل رأيت الشبابا؟
انظر اليوم كيف قاموا بأمر ... يملأ الشرق كله إعجابا!
رأوا النيل راسفاً في قيود ... صاغها الجور تستذل الرقابا
جنة الأرض أصبحت نهب قوم ... أخذوا الشرق عنوة وانتهابا
يشرب الرَّنق أهلها في هوان ... ويبيتون في حماها سغابا
يمرح الطامعون فيها اختيالا ... ويقاسي الأحرار فيها اغترابا
فأبت نخوة الشباب عليهم ... أن يناموا ومصر تلقى العذابا

فسعوا للكفاح سعياً حثيثا ... أرأيت الشبول هبت غضابا؟
نَضَّرَ الله وجه مصر بقوم ... مسحوا عن جبين مصر الترابا
أجمعوا أمرهم وساروا جموعا ... يتخطون بالثبات الصعابا
لهم المجد تالدا وطريفا ... والمعالي وراثة واكتسابا
كل يوم لهم بمصر نداء ... ولهم عزمة تذيب الصلابا
اسألوا مصر عنهمو يوم قاموا ... لا يخافون بطشة أو عقابا
يرفعون اللواء صفاً ويمشو ... ن سهاماً إلى الردى أسرابا
زمر تبدل النفوس وتحدو ... ضاحكات لدى المنون طرابا!
كتبوا صفحة العزاء لمصر ... بدم كان كالعباب انسيابا
يا شبول العرين في مصر هيا ... أبعدوا عن ربوع مصر الذئابا
لست أدعوكمو لكيد ولكن ... أبتغي الرشد عندكم والصوابا
نافسوا الطامعين بالجد وامضوا ... قد كفانا تصايحاً واعتصابا
لا تقولوا ضيوفنا بعد هذا ... أسمعتم عواءهم والسبابا؟
نحن أولى إذا أردتم ملاما ... فاصرفوا اللوم عنهمو والعتابا
وأهيبوا بقومكم أن أفيقوا ... إن للمحسنين منكم ثوابا
قد سئمنا تردداً ونكولا ... وخنوعاً وغفلة وارتيابا
سبل العيش مهدوها وسيروا ... في حمى النيل جحفلاً غلابا
أنتم اليوم للبلاد عتاد ... وغدا سوف تدركون الطلابا

الموسيقى الشرقية والموسيقى الغربية

- السلم الموسيقي -

- 2 -

هل توجد حقاً فروق بين الموسيقى الشرقية والموسيقى الغربية؟ يقول الموسيقيون الغربيون بوجود هذه الفروق ظاهرة واضحة لا سبيل إلى إنكارها أو الشك فيها، ويؤمن الموسيقيون الشرقيون بهذا الرأي، ويذهبون إلى أبعد حدود الفكر، ثم تقوم القائمة بين مفكريهم، في هل تظل هذه الفروق على ما هي عليه أبداً، أم نقرب بينهما لفائدة الموسيقى الشرقية ونهضتها. ولكل رأي أنصاره ولكل رأي الداعون إليه بقوة وإيمان.

أما من أين نشأ هذا الخلاف، وهل كان منذ أن عرف العالم شيئا اسمه موسيقى، أم أنها كانت واحدة في بدئها ثم انقسمت إلى فرق وشيع باختلاف أذواق من اشتغلوا بها والمؤثرات التي أحاطت بهم. للجواب على هذا السؤال يلزمنا أن نمهد له بذكر شيء يسير من تاريخ الموسيقى ونشأتها وتطورها والنواحي التي اتجهت إليها.

يقول التاريخ إن أقدم حضارة عرفها العالم هي في الأمة المصرية القديمة، وان أقدم موسيقى عرفها التاريخ هي موسيقى قدماء المصريين. لا يخالفنا في ذلكم مخالف، غير أن بعض من بحثوا في تاريخ الموسيقى من الغربيين يميلون إلى نسبة الموسيقى القديمة إلى فلاسفة الإغريق، وأنهم أول من وضعوا قواعدها وأصولها، ولعل في ذلك روحاً من تعصبهم في البحث وعدم إيرادهم الحقيقة في كثير منها ما دام الفضل سيعود من ورائها إلى الشرق وأهله. أم لعل ذلك راجع إلى أن أقدم ما عثروا عليه من كتب الموسيقى، هو لفلاسفة اليونان القدماء.

ومما لا شك فيه أن الموسيقى كانت تدرس عند قدماء المصريين وكانت لها قواعدها وآدابها، ففي الحروب كانت تذكي نيران الإقدام والبسالة، وفي المعابد كانت تبعث الخشوع والإيمان، وفي قصور الملوك وفي دور النبلاء كان للموسيقى المكان الأسمى.

ذلك ما تدلنا عليه آثارهم المحفورة في المعابد والهياكل والقبور. وأقدم الآلات التي عرفها التاريخ هي الناي والمزمار والليرة وهي من صنع قدماء المصريين. ويقول هيرودتس المؤرخ القديم. . إن أعظم الاحتفالات المصرية، الاحتفال بعيد الإله أزوريس، فكان الكهان

يحملون تماثيل الإله من الذهب الخالص، وفريق منهم ينشد الأغاني الدينية وفريق منهم يعزف على الناي.

وأخذ بنو إسرائيل الموسيقى عن المصريين، ونبغ منهم أفراد، وفي أقاصيصهم عن سحر مزمار داود وأثره في الطير والحيوان الكثير. وعند خروجهم من مصر نشروا في مختلف البطاح والوديان ما عرفوه من العلوم الموسيقية، ولعل أقدم نشيد عرفه

التاريخ هو نشيد مبيريام الذي أنشد عند عبورهم البحر الأحمر.
وأخذ الإغريق الموسيقى وأصولها عن المصريين والعبرانيين، وتدرجت الموسيقى في الغرب من المعابد إلى قصور الخاصة ثم إلى المحافل العامة وتطورت بتطور المجتمع الغربي وتأثرت بما تأثر به من مختلف التأثيرات. وانتشرت في الشرق من بلاد الفرس إلى العرب إلى ما يجاورها من بلاد الشرق وتأثرت بما تأثر به المجتمع الشرقي من عادات وأخلاق وطبائع، وعرفنا نحن من هذا أن أصل الموسيقى في العالم واحد وأنها كانت في بدايتها ولا اختلاف فيها ولا تقاسيم. ولنتكلم الآن عن أول تقسيم للسلم الموسيقي عرف في التاريخ وهو المسمى سلم فيثاغورس وتقسيمه كما يلي من اليسار إلى اليمين
دوسلاصول فا ميريدو
_____ _____ __
ليما مسافة كبيرة مسافة كبيرةمسافة كبيرة ليما مسافة كبيرةمسافة كبيرة أي أنه مقسم إلى مسافتين صوتيتين كاملتين ثم نصف مسافة صوتية ناقصة ثم ثلاث مسافات صوتيات كاملات ثم ليما. وهذا السلم يكاد يقابل سلماً شرقياً لنغمة (عجم عشيران) من حيث نسب المسافات الموجودة بين مقاماته وترتيبها كما يلي من اليسار إلى اليمين تصاعدياً:
عجم. . . حسيني. . . نواه. . . جهاركاه. . . كرد. . . دوكاه. . . راست. . . عجم عشيران وهذا ما يطلق عليه بالاصطلاح العربي الحديث اسم السلم الكبير وأول سلم شرقي عرف هو السلم الفارسي العام وترتيب درجاته كما يلي:
هفتاه. . . ششكاه. . . بنجكاه. . . جهاركاه. . . سيكاه. . . دوكاه. . . يكاه
ولما استعملت الاصطلاحات الموسيقية الفارسية في المجتمعات العربية حصل بعض تعديل
في أسماء المقامات فتغير اسم هفتتكاه إلى اوج واسم ششكاه إلى حسيني وبنجكاه إلى نواه ويكاه إلى رصد واستعمل اسم مقام يكاه للمقام الأول في ترتيب أوتار العود وهي نغمة قرار النواه.
المسافاة الصوتية العامة.
- - - - - - - - -
- 1 - المسافة الصوتية العامة
- 2 - 6553659049
- 3 - نصف المسافة الكاملة
- 4 - 256243 الناقصة
- 5 - الفرق بين المسافة الناقصة والمسافة الكاملة وتسمى
531441524288 كوما
ولتفهيم معنى بلك القيم الكسرية للمسافات، نفرض أن هناك نغمتين متتاليتين الأولى اوالثانية ب، وأردنا أن نعرف قيمة المسافة الصوتية الموجودة بينهما. لذلك نضبط وتر الصونو متر (جهاز يستعمله علماء الطبيعة لقياس الأصوات بواسطة الأوتار) حتى يصدر النغمة افيكون طوله عبارة عن مقام الكسر، ثم نحرك ضابط الصونو متر المتحرك على الوتر حتى يصدر النغمة ب فيكون طوله حينئذ عبارة عن بسط الكسر ويصبح عندنا كسراً حسابياً يدلنا على قيمة المسافة الصوتية بين نغمتي اوب (وهذا باعتبار أن نغمة اأوطأ من نغمة ب).
تلك المسافات هي المقاييس الصوتية العامة سواء كانت للموسيقى الشرقية أم الغربية، ولكن الموسيقيين الغربيين لا يتبعون الآن في تقسيم سلمهم إلا المسافة الكاملة ونصف المسافة المقرب وهو يساوي عددياً 1615 ويطلقون عليه اسم السلم المقرب مسافاته كما يلي
1615. . 98. . 98. . 98. . 1615. . 98. . 98
بينما يتبع السلم الموسيقي الشرقي في مسافاته وتقسيمه العام هكذا
. . 98. . 21872048. . . . 6553659049. . . . 98.
. . . 21872048. . . . 6553659049. . . . 98. .

ومن هنا نشأ خلافان أساسيان أولهما أن السلم الغربي لا يستعمل المسافة الناقصة، وثانيهما أن نصف المسافة الثانية في السلم الغربي يقع آخر مسافة، بينما في السلم الشرقي يوجد نصف المسافة الثانية بين المقامين السادس والسابع.

تقسيم المسافات الصوتية في السلم الغربي الحديث

قسم الموسيقيون الغربيون المسافة الصوتية إلى قسمين متساويين فالمسافة بين مثلاً دو، ري يقع في منتصفها تماماً نصف مقام يسمى عند نسبته تصاعدياً دو دييز وعند نسبته تنازلياً ري بمول وفي التقسيم العلمي الصحيح نجد أن علامة دييز تكون لرفع المقام الذي تنسب إليه خمس كومات كاملة، وعلامة بمول لخفضه خمس كومات كاملة، ولما كانت المسافة الكاملة مقسمة إلى تسع كومات وهو التقسيم الذي يقر به فيثاغورس، إذا أصبح موقع دو دييز غير موقع ري بمول، أي أننا عندما نريد تقسيم المسافة بين دوري بحساب علامتي الدييز والبمول، يلزمنا تقسيمها إلى ثلاثة أقسام كما يلي:

دو . . . دو دييز . ري بمول . . . ري

غير أن علماء الصوت والموسيقى يحتجون بأن الأذن لا يمكنها التمييز بين نغمتين الفرق بينهما كومة واحدة، ولذا استغنوا عن ذلك التقسيم الصحيح الدقيق واعتبروه نظرياً بحتاً، وأصبح لا يوجد فرق بين دو دييز وري بمول وأصبح موقعهما واحداً كما في البيان. وإن كان هناك بعض الموسيقيين اللملاسيك ممن لا يخضعون لهذا التقسيم ولا يستعملون الآلات ذات الدرجات الثابتة.

تقسيم المسافات الصوتية في السلم الشرقي

ظل الموسقيون الشرقيون القدماء يستعملون التقاسيم الدقيقة في سلمهم الموسيقي، وما زالت المسافات الصوتية في السلم الشرقي هي الخمس المسافات التي بيناها وهي المسافة الكاملة والمسافة الناقصة ونصف المسافة الكاملة ونصف المسافة الناقصة ثم الكومة، وسنبين الآن كيفية التقسيم ليتضح لنا عظم الفرق بين التقسيم الشرقي ودقته، والتقسيم الغربي وبساطته.

1 - 98 المسافة الصوتية الكاملة

تقسم إلى أربعة أقسام، فمثلاً بين الرصد والدوكاه توجد النيم زير كولاه، وبعدها عن مقام الرصد عبارة عن نصف مسافة ناقصة ثم تليها الزير كولاه تبعد عن الرصد نصف مسافة كاملة، ثم التيك زير كولاه وبينها وبين الرصد مسافة ناقصة ثم الدوكاه وبعدها عن الرصد مسافة كاملة.

رصد . . . نيم زير كوله . . زير كوله . . تيك زير كوله . دوكاه

2 - 6553659049 المسافة الصوتية الناقصة

تقسم إلى ثلاثة أقسام فمثلاُ من الدوكاه إلى السيكاه يوجد الكردي وبعده عن الدكاه نصف مسافة صوتية ناقصة ثم التيك كردي ويبعد عن الدوكاه نصف مسافة كاملة، ثم السيكاه

دوكاه . . . كردي . . . تيك كردي . . . سيكاه

3 - 21872048 نصف المسافة الكاملة

تقسم إلى ثلاثة أقسام، فمثلاً من السيكاه إلى الجهاركاه، يوجد البوسلك وبعده عن السيكاه كومه واحدة ثم التيك بوسلك وبعده عن السيكاه نصف مسافة ناقصة ثم الجهاركاه وبعده عن السيكاه نصف مسافة كاملة

سيكاه . . . بوسلك . . . تيك بوسلك . . . جهاركاه

وعلى ذلك يكون ترتيب الرباعي الأول ولثاني اللذان يكونان السلم الشرقي هكذا

الرباعي الأول

رصد 98 دوكاه 6553659049 سيكاه 21872048 عراق 6553659049 عشيران 98 يكاه

الرباعي الثاني

رصد 98 دوكاه 6553659049 سيكاه 21872048 جهاركاه

ومن هذين الرباعين يتكون السلم الموسيقي الشرقي العام مع إضافة مسافة صوتية كاملة بعد الجهاركاه ليختتم السلم بجواب مقام اليكاه وهو النواه. ويصبح ترتيبه كاملاً كما يلي

دوكاه 6553659049 سيكاه 21872048 جهاركاه 98 نواه

رصد 21872048 عراق 6553659049 عشيران 98 98
يكاه
بقي بعد توضيح الفوارق بين تقسيم السلمين الشرقي والغربي أن نذكر شيئاً عن الأنغام والأوزان في كلتي الموسيقتين، وأرجو لو سنحت فرصة قريبة إن شاء الله على صفحات من الرسالة المقبلة.
مدحت عاصم
العلوم
العنصرية
للدكتور أحمد زكي
قامت النازية الألمانية على مبادئ عدة، منها السياسي ومنها الاقتصادي ومنها الإداري، ولكن لعل أخطر من هؤلاء جميعاً وأكثر وروداً على ألسنة خطبائها، وأسرع إذكاءً لحمية مستمعيهم، ذلك المبدأ الغالي الذي يعتمد على القومية الخالصة والدم الصريح، في استنهاض الشعب الجرماني إلى كل ما تقول به النازية وتدعو إليه من العقائد والأعمال.
لو أن النازية قصدت إلى تمجيد قومها، وغالت في ذلك ما شاءت وشاءت لها الدعاية، لما شكا أحد مما تقول، ولو أنها غالت حتى ألهتهم، لنظرت إليها الأمم بابتسامة عريضة يستتر وراءها اغتباط هادئ من تذوق فكاهة هائلة، في عالم يحسن أن تكثر فيه الملح والنكات. أما وقد أرادت أن تمجد قومها بتجريد غيرها من الأقوام، وأن تزيد في أولئك بانتقاص هؤلاء، فقد أثارت حفائظ الأمم، وأيقظت عزة الأجناس البشرية، فاستقاموا في جلستهم يستمعون لجد حسبوه مزاحاً، وتقطبت من جباههم أسارير للتفكير، بعد أن كانت قد انبسطت وجوههم بالبشر، وذلك لما رأوا المهزلة تستحيل إلى مأساة، ووجدوا النازية تطرح على كتفيها روب الأستاذ العالم الأنثروبولوجي، ينظر في أصول الأمم، ويقدر قيم الأصلاب، ويضع الخلق في منازل تعلوها جميعاً تلك النطف الجرمانية التي ادخرتها الآلهة على الأجيال، لتنحدر إلى الوجود في القرن العشرين فتكون للناس سادة أمثالاً، وتكون هدى وبشرى للعالمين. وكل ذلك باسم العلم.
لذلك تصدى للرد على هذه النظرية التي اتخذت صورة علمية رجال من رجالات العلم، ولعل أكثر هؤلاء اعتدالاً رجل متحدر هو نفسه من أصلاب جرمانية، ذلك هو (ملكولم بيسل) الأستاذ بجامعة كاليفورنيا. قال:
قل من يخالف في أن الجنس الجرماني جنس عظيم، وأما أنه أعظم جنس كان في كل زمان ومكان، وأن كل مدنية كانت وتكون، اعتمدت وستعتمد على هذا الجنس، فذلك ما لا تحتمله أكبر المخيلات إسرافاً، ولا تتسع له أكثر الحلوم رخاوة وسماحة. ومثل هذه المغالاة، لاسيما إذا استعير لها لسان العلم، ستظل دائماً نذيراً بأن الإنسان لا تزال عواطفه
سيدة عقله، وهواه حاكم صوابه. يدخل الأمر نفوسنا ويستأذن في لطف على قلوبنا، فيجد كل أهوائنا توافقه، وكل ميولنا تناصره، فنألف هذا الأمر، ثم نعتقده، ثم من بعد ذلك نتطلب الحجج على أنه الحق. نعتقد صواب شيء، نعتقد أن الجرمانيين سادة الجناس لأننا نحن جرمانيون، أو أن النصرانية أقوم الأديان لأننا نحن نصرانيون، أو أن هذا الحزب أصدق الأحزاب لأننا له متحزبون، ثم من بعد هذا، ومن بعد هذا فقط، ننظر في الأدلة لنصرة معتقدنا، ونخرج في سهولة أو يسر تلك البراهين التي تعزز مذهبنا، وتلك الأدلة لا شك آتية، وتلك البراهين لا شك غير مستعصية وبذلك نحسب أن عملية التخريج تمت، وأن العلاقة بين السبب والمسبب استبانت، فيتأكد بذلك معتقدنا ويزيد به إيماننا، ونحن نتبع أسلوب هذا المنطق الطريف غير شاعرين ولا متيقظين اليه، ويتبعه العلماء كما يتبعه السوقة بمثل تلك الغفلة، فهو أسلوب متستر خفي، أخطر ما فيه تستره وخفاؤه.
ليس في دعاوى النازية اليوم من جديد، فهي تكملة للدعوى التي بدأت في القرن التاسع عشر، وهي مثل من أمثلة عدة لم يسلم منها قرن من القرون ولا شعب من الشعوب فالشعوب دائماً تميل للسيطرة على الشعوب بدعوى تفوق الجنس، وتستغلهم بحجة قوة الدماء وخلوصها، وتبعث فيهم حساً بحقارة أنفسهم لفقر وخلط في دمائهم، وخسة في أصولهم، فهي إذن دعاوى للعيش وأسباب للغلبة، أكثر منها

دعاوى في العلم وقضايا في المنطق.

ليس مذهب الجرمانية إلا فرعاً من مذهب الآرية، وكان من أكبر دعاة هذا المذهب وشارحيه، الكونت (جوزف دي جوبينو كان فرنسياً أرستقراطياً مات عام 1882 ادعى جوبينو أن الآريين خلقوا ثم أمدوا بالروح والعمر كل ما هو جميل وعظيم في الحضارة. ونسي أن يثبت وجود هؤلاء الآريين كجنس واحد نقي خالص. ان فكرة الآرية نشأت من دراسة لغات بعض الأمم الأوروبية وبعض الأمم الآسيوية، والاهتداء إلى وجود أشباه بين تلك اللغات، أدى إلى افتراض أنها جميعاً مشتقة من لغة واحدة هي الآرية، وذلك فرض علمي لا شبهة فيه. استنتج جوبينو وأشياعه من وجود لغة آرية وجود شعب آري قديم عزا إليه حضارات الأزمان الخوالي، وزعم أن هذا الجنس الآري هاجر إلى شمال أوروبا فتحدرت منه الشعوب التيوتونية والانجلو سكسونية، فهي لذلك سبب الحضارات الحالية

والعلة في استمرار وجودها. وفات جوبينو أن وجود لغة واحدة ليس بدليل قاطع على وجود جنس واحد، وأن اتحاد اللغات في أمتين أو أمم، ليس بحجة على اتحاد الأصلين أو الأصول فقديماً ما أعارت الأمم اللغات واستعارت، فوجود جنس آري كالذي تحسبه النازية اليوم، لم يقم عليه أي دليل.

والعنصر الجرماني نفسه مجهول الأصل، وفوق هذا فلا يستطيع أحد أن يدعي له أرومة خالصة. إنه عنصر شديد قوي، ولا شك أن اختلاط دمه بدماء أوروبا الوسطى والجنوبية كان له أثر كبير فيما حدث هناك من التقدم والارتقاء، ولكن ما يقال في العنصر الجرماني يقال في سائر العناصر، فكثيراً ما أدى اختلاط عنصرين إلى عنصر جديد أشد وأكثر حياة من أصليه.

على أن العلم إلى اليوم لا يستطيع بثقة أن ينسب إلى أية مجموعة بشرية، خصالاً خاصة عتيقة ثابتة فيها، لأنه إلى اليوم لا يدري كيف يقيس هذه الخصال برغم ما أسموه (مقاييس الذكاء)، فتلك مقاييس ثبت مراراً وتكراراً أنها لا تقيس الذكاء وحده وإنما تقيس معه آثاراً من البيئة والثقافة لا يمكن عزلها عنه. ومع هذا لا نفتأ نسمع الخرافة الجرمانية تلوكها الألسن، وتردد على الأسماع، فمجد الإغريق كان بسبب غزو الجرمان، وروما دام عزها وبقي سلطانها ببقاء دمها الجرماني خالصاً صريحاً، فلما اختلط حاق بها ما حاق، وإسبانيا لم تستيقظ إلى ما استيقظت إليه إلا بسب ما دخل عروقها من الدم التيوتوني، (والنهضة) الأوروبية نفسها لم تكن إلا ظاهرة جرمانية صرفة.

يقولون أن الرومان والإغريق كانوا وهم في أوج عزهم جرمانيين صرحاء. ليس من السهل الحكم على ما كانت تتألف منه أمم قديمة كالإغريق والرومان، ولكن من الثابت أنه في العصور التي سبقت، كانت حروب وكانت فتوح، وكانت غلبة وكان انغلاب، وكانت هجرة وكان تشتت، فلم يرتبط قوم بأرض، ولم ينعزل جنس بسبب ذلك عن جنس، فلم يكن في عصر الإغريق ولا في عصر الرومان دم لم يختلط، ولا عنصر لم يتلقح، فكل ما يقال عن خلاص السابينن والاترسكانيين وحتى عن نقاء الرومان والأغريق، لا يمكن تدعيمه على ما هو معروف اليوم في علم الأجناس. قالوا وشادوا بان الإسبرطيين جرمانيون خلصاء ومع ذلك أدخلهم (دكسن) في عداد الألبيين وقالوا وشادوا بأن الاترسكانيين

جرمانيون خلصاء ومع ذلك قال عنهم هرتس مؤلف (الشعوب والمدنية) أنهم لم يكونوا من المجموعة الهندية الجرمانية، وأن هذا ثابت ثبوت يقين.

ان العنصر له أثر لا ينكر في أحداث المدنيات وتنشئ الشعوب ولكن هناك أمور أخرى لا تقل آثارها عن أثره، ولا نتائجها عن نتائجه، وهي تلك التي ينكرها لمتصلفون من دعاة العنصرية وغلاتها. ليس من العلم في شيء أن ننسب عظمة الإسبان مثلاً إلى دخول الدم الجرماني إليهم، وسقوطهم إلى دخول دماء أخرى غير جرمانية، ثم نغفل العوامل التاريخية والجغرافية الكبرى التي كان لها أثر كبير في تلك الرفعة وهذا الهبوط. وإذا عزونا كل مدنية إلى الدم الجرماني وكل تقدم إليه، فكيف نفسر تلك المدنية العربية التي ازدهرت يوماً ما في الأندلس وطالت ما حولها من المدنيات الأوروبية طولاً كبيراً.

إن إبطال الدعوى الجرمانية بل تسخيفها عمل يسير هين. ولكن العمل الشاق الذي

يتعب الإفهام ويجهد العقول، إنما هو تسبيب نشوء المدنيات، وتسبيب انحطاطها أو زوالها. الناس تجنح دائماً كما يجنح الألمان اليوم إلى جعل العنصر العامل الوحيد في ذلك، الذي تتضاءل دونه العوامل، والسبب الذي لا تستأهل سائر الأسباب إلى جانبه ذكراً. خطأ كبير تغذيه العاطفة، وسهولة في تبسيط القضايا لا تسيغها العقول العلمية الهادئة. من بدء أزمان لا تقدر، إلى ما قبل قرون قلائل كان الجنس الجرماني يكن شمال القارة الأوربية، وكان جنساً غير مذكور ولا مأبوه له، وكان أحط الأمم الأوربية سكاناً، فأين كانت خواصه الإلهية، وصفاته السماوية كل تلك القرون؟ أكان عاجزاً عن خلق مدنية لنفسه؟ أم هي المدنية نشأت عند غيره وقريباً منه، ومع ذلك خاب برغم قرب المساس عن اقتباسها واستعارتها؟ أم الحقيقة هي التي نقول، أن العنصر وحده غير كاف لخلق المدنيات واستنباط الحضارات.

بدأت الحضارات في مصر والعراق والهند وشرق البحر الأبيض، ومشى التاريخ قدماً فانتقلت مراكزها إلى أواسط هذا البحر ثم إلى غربه، ثم مشى التاريخ خطوات أخرى فبلغت الحضارة بحر الشمال والمحيط الأطلسي، وعندئذ، وعندئذ فقط، بدأ العنصر الجرماني يظهر في التاريخ، فان كان العنصر وحده قميناً بكل شيء فكيف ظل الجرمان ابرة كل الأحقاب بينما كانت العناصر الأخرى، وهي وطيئة في زعمهم، تخترع الحروف وتبتدع الأرقام وتخط البحار بالتجارة وتبني الدول وتقيم الحضارات.

إن الجزر البريطانية تألفت سكانها في القرن الثاني عشر من نفس العناصر التي تتألف منها في القرن العشرين، إلا في اليسير الحقير، وقد كانت في أوائل القرن السادس عشر جزراً لا شأن لها ولا خطر، ولم يمض على ذلك العهد غير قرنين حتى وجدناها قوة عظيمة في دول العالم، فكيف جاءها هذا الشأن وذلك الخطر، والعنصر هو هو لم يتغير؟ أليست العوامل التاريخية والجغرافية إذن أبعد أثراً من كل ما عداها؟ كانت الجزر البريطانية في طرف أوربا، والحضارة متركزة في شرق البحر الأبيض أو وسطه، فلم يكن لبريطانيا ذلك المساس الذي لا بد منه لاشتعال الثقاب، لذلك لم يكن لها في الحضارة قول كبير ولا عمل خطير، ثم استكشفت أمريكا، وبين عشية وضحاها انقذفت بريطانيا في وسط المسرح العالمي، فلم يكن لها بد من تمثيل دورها، وانتقل مركز المدنية إلى غرب أوربا حيث بقي ويبقى سنين طوالاً، حتى أصبحت لفظة الغرب علماً على المدنية، وأصبحت إنجلترا قائدة الأمم، وإن كان لعنصرها الجرماني أثر في هذا الانقلاب، فهو لا يقارب في شدته الأثر الذي للحوادث والتاريخ والجغرافيا معاً.

ولنفس تلك الأسباب زالت عن إيطاليا تلك السيادة التي كانت لها يوم تربعها في وسط المسرح العالمي، في وسط البحر الأبيض المتوسط حينما كان هذا البحر عظيماً لوقوعه في الطريق إلى الشرق وأممه، ولكن كشف أمريكا قذف بإيطاليا حفيدة الرومان من بؤرة الرقعة إلى طرفها، وفي الوقت نفسه كشفوا عن طريق الهند الآخر، فلم يكن بد من نزول إيطاليا حفيدة الرومان عن قوتها وثروتها وجاهها نزولاً سريعاً كسرعة الحوادث في ذلك المكان الغربي النائي من سطح الأرض. فهل ننسب هذا النزول إلى العنصر وهو الذي إليه نسبنا الصعود في سالف الدهور؟

ثم المخترعات الحديثة وعلى رأسها البخار، أحدثت في العالم السياسي والاجتماعي والاقتصادي أحداثاً أين منها أثر العنصر؟ أن التاريخ في القرنين الفائتين كتب بالفحم الأسود والحضارات قيست بعدد الأحصنة البخارية التي للأمم، حضارات بنيت على الفحم والحديد، فالفحم والحديد عاملان جغرافيان أين منهما أثر العنصر؟ فلو لم يكن في صخور إنجلترا وأمريكا ذلك الذخر الكبير من الوقود الصلب والسائل لكان للتاريخ الأخير مجرى غير الذي كان برغم العنصرية ودعاتها.

إن الأمم كالأفراد يتألف نجاحها من عاملين، عامل الوراثة وعامل البيئة، ومن عوامل البيئة العوامل الجغرافية التي ذكرنا مثلاً منها، ولعوامل البيئة هذه أثر لا يناهض في تقدم الإنسان أو تأخره، وهي على الأقل تضع حداً جازماً لتقدمه لا يمكنه تجاوزه. والحضارات أنتجت إنسانية نادرة نشأت من الأرض في بقاع متفرقة، كانت كلها نتيجة انفعال الإنسان لبيئته وتفاعله معها وتغيير نفسه وحاله وفقاً لها، وعلى هذا لا يمكن مقارنة مدنية ولا مقدرة شعب بشعب الا إذا قارنا بيئتيهما وهذا جد عسير، ودون هذا لا تمكن إقامة الدعوى على أن قوماً غير أهل لمدنية لأنهم وهم في بيئة خاصة خابوا فيما حاولوه. إن المایاس واليوكاتان قبيلان من الناس كبيران كانت لهما مدنيتان زاهرتان

في أمريكا الوسطى قبل الفتح الكولومبسي بقرون فلو أنك قرنتهما بالإغريق فربما خرجت بأنهما دون هؤلاء عنصراً، لأنهما لم يأتيا بمثل ما أتى الإغريق. ولكن إذا علمت أن هذين القبيلين كانا يعملان في عسر من الطبيعة شاق، فقد حرمتهما الدواب وحرمتهما الحديد، فلم يعرفا لهذه رسماً ولا لهذا اسماً، وامتحنت بعد ذلك ما خلفا لوقعا من نفسك موقعاً قد يناهض موقع الإغريق أو يعلوه.

أحمد زكي

العالم المسرحي والسينمائي

مسارحنا في الأعياد

لناقد (الرسالة) الفني

جرت تقاليد المسارح الكبرى، ودور اللهو في أوربا عامة، وفي إنجلترا خاصة، على إعداد برامج حافلة في مواسم أعياد الميلاد ورأس السنة، تعنى بعرض مشاهد مسلية يجد فيها الأطفال متعة ولهواً بريئاً يثير في نفوسهم الغضة ألواناً من السعادة والجذل، ويجعلهم ينعمون بأمسيات طيبة في ليالي العيد، تبهج قلولبهم، وتبعث فيها الحياة والمرح.

وتزدحم المسارح في أيام العيد بروادها من الأطفال مع أهلهم الذين يصحبونهم يشاركونهم اللهو والسرور جذلين فرحين بأن ينعم أبناؤهم بما أعدوه لهم من مباهج العيد ومسراته في المنزل أو في المسرح على السواء.

وتستمر حفلات الأعياد في المسارح قرابة شهر، وأكثر البرامج من نوع (البانتوميم) الذي يمثل بعض الخرافات الشائعة، أو القصص الصغيرة المسلية، التي لا يعيا ذهن الطفل الحدث في تفهمها ومتابعتها، وتصحب بالموسيقى والأغاني الرقيقة التي يسهل على الطفل حفظها وترديدها بلفظها الجزل، ولحنها السهل، ونغمها الشجي العذب.

وهناك بعض الروايات على المسرح الإنجليزي، تعد خصيصاً لحفلات أعياد الميلاد ورأس السنة، وقد أصبح تمثيلها من التقاليد الموروثة التي لا مندوحة عنها، وبعضها يرجع تاريخ ظهوره إلى حوالي نصف قرن، ولكنها تظهر كل عام في مظهر أنيق، فتعد لها الملابس الجديدة الزاهية، والمناظر الدقيقة الجميلة، وقد تضاف إليها بعض الأناشيد والأغاني لتجعل لها لوناً جديداً جذاباً.

وأشهر الروايات التي عرضت هذه السنة على مسارح لندن في مواسم الأعياد (سندرلا) و (الأطفال في الغابة) و (ديك وتنجتن) و (علاء الدين) ويرجع تاريخ ظهورها إلى سنة 1893، أعني إلى واحد وأربعين سنة مضت.

ومن أحسن الروايات التي عرضت هذه السنة، ولها تاريخ ماض طويل، رواية (بيتربان) التي يحتفظ بطلها بنضارة الصبا على مدى الحياة، وهو خالد على مر الدهور لأنه يمثل روح الشباب الخالدة أبداً.

ومثلت رواية (هانسل وجريثل) على مرح كامبردج، وقد ظهرت لأول مرة على مسارح لندن سنة 1895 حيث مثلتها فرقة كاروزو. وتعد بموسيقاها من أحسن الروايات الغنائية، ولها شهرتها البعيدة في إنجلترا وألمانيا على السواء، بل في القاهرة أيضاً وقد كتبت قصتها للأطفال خاصة.

ومن الروايات القديمة التي تمثل في هذا الموسم في رواية (أين ينتهي قوس قزح) التي يرجع تاريخ ظهورها إلى حوالي عشرين سنة مضت، وهي رواية وطنية تثير في الطفل الإنجليزي ألواناً شتى من العاطفة القومية، وموضوع القصة خرافي ولكنه من موضوعات الشائقة التي يكون لها في قلب المشاهد أبلغ الأثر.

وبعض هذه القصص والروايات تمثل في لندن وفي كثير من المدن الإنجليزية الكبرى في وقت واحد أثناء أعياد الميلاد. ولا نريد أن نمضي في هذه الناحية من الحديث إلى غير نهاية، فإنما أردنا بذلك أن نمهد لما نريد أن نقوله للمشتغلين بالمسرح في مصر، وإنا لنرى منهم إهمالا تاماً وعدم احتفاء بأعيادنا القومية أو الدينية وإنها لتمر عليهم كغيرها من سائر الأيام، فلا يعدون لها برنامجاً خاصاً ولا روايات معينة، بل يحشدون فيها رواياتهم القديمة المعروفة فلا جديد في أيام العيد ولا ما يشبهه، وما يعنون بإعداد مشاهد مسلية طريفة يستطيع أطفالنا أن يجدوا فيها متعة ولهواً، ويكون في مقدورنا أن نصحب صغارنا إلى دور المسارح مطمئنين إلى أنهم سوف يلقون قصصاً تبهجهم وتسعدهم وتناسب عقليتهم الساذجة البسيطة.

وبينما يجد الطفل الإنجليزي في العيد من الروايات والمشاهد ما يحي في قلبه عاطفة قوية أو يبث في نفسه الحمية الوطنية، أو يدفعه إلى حب الخير وينمي فيه حاسة العطف على الفقير والبائس والمحروم، أو يريه من نواحي الفضيلة ما يحببه فيها، ومن صور الرذيلة ما يزهده في اقترافها، ومن معاني تقدير الآباء واحترامهم، وتجيل الأهل وإيتاء ذوي القربى، ما ينشئه نشأة صالحة طيبة، بينما يجد الطفل في إنجلترا وفي غيرها من الممالك الأوربية هذه الروايات الطيبة التي تسليه وتربيه معاً، ويراها يوم عيد ونفسه أحسن ما تكون استعداداً لتلقي ما يلقى إليها من المعاني السامية والأغراض الجليلة، لا يجد طفلنا شيئاً من هذا، وأنه ليمضي نهاره وليله حبيس غرفته وقد نمضي به إلى حديقة أو إلى زيارة بعض الأقرباء، وليس في كل هذا جديد عليه.

ولست أدري من ألوم. المؤلف المصري أو مديري الفرق التمثيلية؟ فلو أن مؤلفاً كتب قصة من هذه التي تماثل ما ذكرنا من قصص المسرح الإنجليزي التي تعرض في مواسم الأعياد هل كان يجد الفرقة التي تقبلها وتعرضها؟ إن مؤلفنا لا تنقصه الموضوعات إن شاء وفي كثر من الخرافات الشائعة مجال واسع لقلمه إن أحب، وأنه ليستطيع أن يخلق من بعض هذه الخرافات التي يتلقاها الأطفال في المنزل وتفسد عليهم تفكيرهم البريء موضوعات شائقة تنقلب بها الخرافة من النقيض إلى النقيض وتزيح عن عقل الصغير شيئاً ما نظنه بالهين ولا باليسير.

وهذا (البعبع) الذي خلقته العجائز لإخافة الطفل وإفزاعه أما نستطيع أن نعيده رجلاً طيباً يحنو على الأطفال ويحبهم ويهبهم ليلة العيد العطايا والمنح الطيبة من اللعاب والحلوى، أسوة ببابا نويل الذي خلقته الخرافة في الغرب فجعلت منه معبوداً للأطفال الصغار؟! و (أبو رجل مسلوخة) ما ذنب المسكين في سلخ رجله، وما ذنب أطفالنا نقيمه لهم مخافة ومفزعاً؟ أما في مقدورنا أن نضع حول خرافته قصة لطيفة مسلية نبرزه فيها الرجل الطيب الذي يحب الأطفال الذين يحترمون أباءهم ويبجلون أساتذتهم، ويهب النشيطين منهم والمكبين على الدرس الهدايا واللعب الحلوى، وننتزع بذلك تلك الصورة المشوهة التي نلقيها في ذهن أطفالنا وندفعهم إلى التقرب منه عن طريق حبه ورجاء خيره، بدل أن نفزعهم بصورته البشعة ورجله المسلوخة؟

وفي العيد الكبير ألا تصلح قصة كبش الفداء موضوعاً لرواية سهلة يرى فيها أطفالنا أصل هذه العادة الإسلامية التي تدفعنا إلى ذبح الكباش يوم العيد وتوزيع لحومها على الفقراء والمعوزين؟

إننا نستطيع أن نخلق عشرات الروايات من تاريخ مصر القومي ومن تاريخنا الإسلامي تدور حول موضوعات تبث في قلوب الأطفال حب الوطن وتقدير تاريخهم المجيد، كما تبذر فيهم بذرة طيبة صالحة من الخلق القويم والأدب الرفيع، غير ما ندخله على نفوسهم من ألوان المرح والسرور بهذه القصص الشائقة المسلية، ونجعل العيد متعة لهم ومبعث سعادة وفرح، ونجعلهم مشوقين إليه جد الشوق، يحسبون مبلغ عنايتنا بالترفيه عنهم وإدخال السرور على نفوسهم، ونجعل من العيد حياة زاخرة قوية، ومن أيامه أفراحاً وأعراساً للصغار وللكبار على السواء ونقيم فارقاً بين ساعاته التي يجب أن نملأها نعيماً وهناء، وبين أيام السنة التي تمضي بين الجد والعمل، وتمر فاترة مملولة.

وبعد. . . هل تجد هذه الكلمة أذناً صاغية من مؤلف أو مدير فرقة؟ لقد مرت فرصة العيد الصغير ولكن ما يزال في الوقت فسحة للعيد القادم، فلعل صغارنا يلقون فيه بعض ما يلقى صغار الأمم والشعوب يوم العيد.

محمد علي حماد

القصص

أمير النوبة

بقلم الأديب حسين شوقي

عاد أمير النوبة إلى (نباتا) بعد أن قضى سنوات طويلة في مصر، على زعم أنه يتلقى الدروس بجامعة (عين شمس) الدينية العظيمة، ولكن الواقع هو أنه قضاها في مغازلة وصيفات الإله (رع) الحسان، وما كاد الأمير يرجع إلى وطنه حتى شعر بحنين شديد إلى مصر، وطنه الثاني، فتذكر في حسرة شوارع منفيس الواسعة، وحوانيتها الفخمة،

وبائعاتها الرشيقات، ومراقصها. . أما هنا في (نباتا) فكل شيء يضايقه: فقصر أبيه الملك لا يزيد شأناً على الأعشاش التي يقيمها بعض وجهاء المصريين - في المصايف - على شاطئ البحر، والنساء كلهن بدينات متزينات بالريش والودع، دميمات المنظر مثل (سحمت) الإله المصري الذي يلتهم المذنبين في العالم الثاني. . أما أصدقاؤه من النوبيين فكلهم خشن الطباع، يلتهمون الطعام بأيديهم في وحشة وقذارة. . إنه يؤثر عليهم العزلة ليخلو إلى خياله فيتذكر أصدقاءه المصريين المرحين في (عين شمس) الذين قضى معهم أياماً سعيدة في قصورهم الشامخة على ضفاف النيل. ما أبهج تلك الليالي التي قضاها معهم في احتساء (الجعة) اللذيذة المخصصة لقرابين الإله رع، والتي كانوا يحصلون عليها خفية!. أما النوبيون فكانوا لا يميلون اليه، بل كانوا يسخرون من عاداته التي اكتسبها من مصر، ويرمونه بالخنوثة. .

حقاً! إنآلام الأمير النفسية كانت شديدة، خصوصاً وهو لم ينس قط (تايا) الحسناء بنت معلمه الكاهن (منتو)، كم ود أن تصحبه هذه الفتاة إلى (نباتا)، ولكن ماذا يعمل أمام رفض والدها الكاهن وهو رجل يحافظ على التقاليد. لم يرض أن تتزوج ابنته من أجنبي دنس في نظر الدين. .

وبينما هو سابح في هذه الأحلام، يذكر هذه المناظر المصرية خلال الدخان المتصاعد من (غليونه)، إذا بأبيه الملك يدخل عليه فجأة فيقول:

ولدي! أتحب أن تعود إلى مصر؟

فأجاب الأمير وقد تهلل وجهه:

ما أشد سروري بذلك يا أبت! هذه غاية مناي

الملك - ولكنك ستعود هذه المرة طالباً ملكهم لا علمهم!

فستقود الجند الذين سيزحفون على مصر في الغد، لأن الوقت مناسب لهذا الهجوم، أما أنا فصحتي لا تسمح لي بالسفر، أنظر إلى ساقي، إن ورمهما يزداد كل يوم. . هذا بلا شك أهر لسحر تلك الجارية التي طردتها في الأسبوع الماضي، آه من السحر! كان يجب أن أدق عنقها بدلاً من أن أطردها، ومع ذلك فأنت تعرف مصر جيداً، ولا بد أنك مغتبط بهذه المهمة. .

قال الأمير (في غضب) - كلا يا والدي! لا أريد أن أذهب إلى مصر جلاداً. .

فصاح الملك متعجباً ماذا تقول يا ولدي؟ من علمك هذه الترهات؟

إني آمرك بذلك. أفهمت؟

قال الأمير - إني آسف يا والدي إذ لا أستطيع أن أرافق جيشك في هذه الغزوة!

فصاح به الملك - (في غضب) - إني آمرك حقاً لقد أخطأت في إرسالك إلى مصر لتتعلم، إن القوم مهرة في علم السحر، فهم قد سحروك. .

الأمير - أجل! إنهم سحروني بحضارتهم!

الملك - (يضحك بصوت عال) - حضارتهم! أين هي؟

أتسمي حضارة هذا (الغليون) الذي يكتم أنفاسي بدخانه؟

الأمير - ولكن يا أبت ما الفائدة التي نجنيها من هذه الحرب؟ إن المصريين أقوياء وجيشهم مجهز بأحدث الأسلحة. .

الملك - ولكنهم منقسمون، يحارب بعضهم بعضاً، إنها فرصة ثمينة لغزوهم الآن. .

الأمير - ولكن ألا تخشى غضب آلهتهم العظام؟

الملك - (يضحك) - ليست آلهتهم إلا ضفادع المستنقعات وقطط الحيطان. . (ثم قال في جد) كفى الآن مزاحاً، إذهب! فارصد أهبتك للرحيل

الأمير - لن أذهب يا أبت!

الملك - (محتداً) - بل ستذهب أنها الولد العاق!

غادر الملك الحجرة فشعر الأمير بعد أن هدأت ثورته بحزن عميق، لأنه لا يستطيع بحال أن يحارب المصريين الذين تعلم في ديارهم، وتثقف بثقافتهم، واتخذ من بينهم أصدقاء كثيرين. . انه لا يستطيع أن يتصور النيل مصبوغاً بالدماء، ورياضه وخمائله جرداء، وقصوره تلتهمها النيران. . كلا! هم ان المصريين لم يعتدوا من جانبهم على النوبة حتى يكون هناك مبرر لهذا الزحف، كلا! هذا أمر فظيع! إنه يؤثر عليه الموت. .

ألقى الأمير بنفسه على السرير واخذ يبكي طويلاً، ثم نهض فتذكر قنينة السم التي

أعطاها إياه معلمه الكاهن (منتو) عندما ذهب ليودعه يوم سفره، كما تذكر قول الكاهن وقتئذ:
ولدي! إن في الحياة أوقاتاً يفضل الموت فيها، وأنتم معشر الملوك والأمراء معرضون لأخطار كثيرة كالأسر أو المنفى، ثم إن هذا السم لا يحدث ألماً وإنما يشعر شاربه كأنه في الفردوس. .)
قصد الأمير دون تردد زاوية من الحجرة حنث كانت حقيبته التي صحبته في رحلاته إلى مصر، فنظر بعين ملؤها العطف إلى البطاقات الكثيرة التي تحملها الحقيبة من الفنادق الكبيرة في منفيس وطيبة والحجر، فأخرج منها قنينة السم ثم شربها جرعة واحدة وتطرح على السرير. .
وفي صباح اليوم التالي خاء خادمه لإيقاظه من النوم كالعادة، ولكنه امتنع هذه المرة عن تأدية هذا الواجب لأن وجه سيده كان يفيض بشاشة، فلم يشأ أن يعكر عليه أحلامه اللذيذة. .
حقاً! إن الكاهن (منتو) لم يكذب حين قال أن شارب سمه يحلم بالفردوس، ولكن الواقع أن روح الأمير كانت فعلاً في الفردوس، لأن الآلهة أرادوا مكافأته على تضحيته وإنقاذه مصر فردوسهم الثاني في هذه الأرض. .
حسين شوقي
أسطورة جاهلية
أساف ونائلة
حدث السادن (تيم) من (جرهم) يروي قصة (أساف) و (نائلة) للذين مسخا صنمين، فعبدتهما قبيلتا (قريش) و (خزاعة) ومن حج الكعبة من بعدهما، قال: كان (أساف بن يعلى) من أشراف (جرهم) ومن أشجع فرسانها، وكان مليح الوجه ظريفاً عظيم النفوذ بين العرب، وكانت (جرهم) تهابه أكثر مما تحبه، وقد أوتي حكمة الشعر والكهانة، وجمع إلى المال قوة العماليق، شيد له صرحا في اليمن كعش النسرن ولم يسكنه إلا بعد أن أخذ بثأر أبيه المقتول، ونحر على قبره، واحتفر للغنائم من حوله، حفراً ختمها بالحديد هذا الجبار الذي كان يتلهى بقتل عبيده في أوقات الفراغ، وقع أسر حب (نائلة بنت زيد) من (جرهم)، وكانت من أجمل نساء العرب، وأكثرهن ذكاء. تنشد الشعر، وتترك النار مشبوبة حول بيوتها للضيفان، وكان ربما خرج (أساف) للصيد والقنص، فصادف جواري يستقين، فينشدنه من أشعارها ما يطربه، وما كان (أساف) ليأنف أن يقف للناس في الأسواق وهو الزعيم القوي البأس لكي ينشدهم شعره في نائلة، فاشتهر عشق البطل لربة الجمال، وتغنت به الركبان في أرض اليمن وكان من عادة العرب، التفريق بين العاشقين، فكان طبيعياً أن يحرم العاشق لذة اللقاء، وأن يذوق حرارة البعد، ومرارة الفراق، وأن تفكر المعشوقة في خلها طول النهار، وطرفاً من الليل، وأن يتحين العاشقان فرصة اللقاء، ليرتشفا كأس الحب، فلما أقبلت نائلة من اليمن تحج البيت، كان أساف قد سبقها إليه، وكانت العرب تعظم الكعبة، وتبالغ في حبها والتبرك بها، وكانت تضع في جوفها أصنامها المعبودة.
والتقى أساف بنائلة حول ذلك البيت المقدس حاجين، وما كان أشد اشتياق البطل لمعشوقته، فطافا مراراً، ثم دخلا الكعبة يتبركان بأصنامها، فاتفق أن وجدا غفلة من الناس، وخلوة في البيت، فتقدم البطل إلى ربة الجمال، وأسلمت نفسها له في خفة، ورقة ولين، فضمها العاشق إلى نفسه، وتبادلا قبلات فيها شغف ولهفة، وفيها، وجد وجنين، وإذ ذاك صدرت في الحال همهمة مروعة، من أجواف الأوثان، أخرجت العاشق من لذة القبل، فغضب، وسب الأصنام ولعنها، فلما أصبح الحجاج وجدوهما صنمين على صورتهما من العقيق الأحمر، فعدت قريش مسخهما فضلاً من الآلهة ورحمة، واحتفلت خزاعة بهما، ونصبتهما
للعبادة في أرفع مكان بالكعبة، وكانت تتقرب إلى عبادتهما بالهدايا والقرابين، وتنحر عندهما، وكلما حجت العرب الكعبة تمسحت النساء بالصنم (نائلة) وتمسح الرجال بالصنم المعبود (أساف) وطافوا من حولهما. وبالغت قريش في تقديسهما فأقامت لهما منحراً ينحرون فيه الهدايا من النوق العتاق، والشياه السمان، واختارت سدنتهما من مشايخها. وكانت بنات (نائلة) السادنات يرسلن شعورهن، وينتظرن ظهورها على قارعة النخل مرة كل عام. وكانت نائلة تظهر مرة كل عام في صورة شيطان، رائعة

الجمال، مرسلة الشعر، يركض بها جواد أشهب، إلى مقر الكعبة، فإذا بلغتها اختفت، وسمع من الصنمين صوت القبلات المتبادلة، وربما يكون العربي الحاج في هذه الفترة على بعد ألف فرسخ من مقر زوجته أو أمه، فيشعر كأنه قد قبلها وقبلته.

سليمان متولي

في الكتب

حياة نابليون

تأليف الأستاذ حسن جلال

يقول الإنجليز (لا ينجح مثل النجاح) وهذا ما أردده حين أتعرض للأستاذ حسن جلال، فقد أخرج من قبل كتابه (الثورة الفرنسية) فكان توفيقه باهراً، ثم طلع علينا أخيرا بكتابه (حياة نابليون) فكان بحق مثار الإعجاب والدهشة.

نعم، الكتاب جدير بإعجابنا وتقديرنا، فها هي ذي كتب التاريخ الكبيرة بين أيدينا نقرؤها من غير شهية، وهذا في اعتقادي ناشئ من أن الكاتب لم تتشبع روحه بالموضوع ولم يهضم مادته هضماً يمكنه من جعل الحقائق غذاء سائغا لقرائه؛ وأستاذنا من هذه الناحية يحب تاريخ الثورة الفرنسية وعهد نابليون ويعجب به، ولعل الكثير من تلاميذه لا يزال يذكر مقدار توفيقه في تدريس هذه المادة، الحق أن الأستاذ بلغ في هذا منتهى ما يصل إليه الخيال من حدود التوفيق، ذلك لأنه كان يقبل على عمله بعاطفة، ولعل هذا يفسره إخراج هذين الكتابين.

فإذا كان الأستاذ قد أحب هذه الصفحة من التاريخ الفرنسي، وصرف شطرا من عمره يبحثها وتشبعت روحه بها، فلا أقل من أن يضع بين يدي طلاب الثقافة عصارتها، ومن ثم كان الكتاب سهلاً سائغاً يحبه القارئ وتلذه قراءته ولا يفرغ منه إلا ليقرأه من جديد.

هناك نقطة أخرى، هي الحقائق لا أكثر ولا أقل، يسود المؤلفون بها صحائف الكتب ويلقونها على تلاميذهم دون أن يحاولوا استخلاص الآراء التي تحتجب وراءها، أو بمعنى أخر دون أن يعلقوا عليها التعليق الذي يجعلها تفيض نضارة وحياة وقوة. إلى هذا كله فطن الأستاذ حسن جلال، فلم يكن يهمه في كتابه أن يعلم القارئ أن مئات الحوادث قد وقعت، ولكن يهمه أن يصل بالقارئ إلى ظروف حدوثها وكيف كان يفكر أبطالها، ثم إلى أي حد كتب لهم التوفيق ولماذا أصابهم النجاح أو ضرب عليهم الفشل، ونرى في (حياة نابليون) أن الأستاذ المؤلف يوجه القارئ بواسطة المعلومات التي ساقها في مهارة ولباقة فائقين، إلى سبل التطور وتتبعها، وتفهم الأصول الاجتماعية والسياسية والخلقية والعقلية والاقتصادية التي أحاطت بالعصر الذي عاش فيه نابليون.

أما مادة الكتاب فلم يكن الأستاذ مخترعاً لها، فالتاريخ إنما يستخلص من المراجع، ولكنا نجد بعض المؤلفين ينقلون صحائف برمتها من هذه المراجع، ثم يكتبون صحائف أخرى بأنفسهم، فلا نجد انسجاماً بين أجزاء الكتاب الواحد. والقارئ لكتاب الأستاذ جلال يلمس مهارة المؤلف في اختيار مادة كتابه، ويلمس كذلك الترتيب المنطقي للمعلومات، وتبدو شخصية المؤلف الذارة وروحه الخفيفة قويتين بحيث لا نميز خلالهما روح مؤلف ممن رجع إليهم، كل هذا برغم أن الكتابة عن الأشخاص في نظري أبعد أنواع الكتابة التاريخية منالاً.

وليس عجيباً أن يكون الأستاذ هادئاً بطبعه، ولكن العجيب أن يكون هادئاً حتى وهو يكتب هذه الحياة العاصفة، لا يميل مع الإنجليزي الذي يمثل نابليون أفعى نفثت سمومها، ولا مع الفرنسي الذي يصور الرجل من قادة البشر إلى الجريمة والإخاء والمساواة، بل يجلس الأستاذ بينهما مجلس القضاء.

ومهارة الأستاذ في القصص، تفوق مهارته في التاريخ، فأنت حين تقرأ وصفه للقاء نابليون بجزفين بعد عودته من مصر، تنسى التاريخ وتنسى كل شيء إلا ذلك التصوير الرائع، ولكنك لا تكاد تنتهي منه حتى تصدمك عنوانات تاريخية جافة (حالة فرنسا في غياب بونابرت - انقلاب برومير - دستور 1799) فتوقظك من ذلك الحلم وتعيدك إلى حظيرة

التاريخ مرة ثانية؛ ذلك نصادفه كثيرا في كتاب الأستاذ؛ فهل نعتبر الكتاب قصيدة منثورة أو نعتبره قطعة من التاريخ؟ أما رأيي فهو أن الكتاب تاريخ شعري، وما أحوج التاريخ إلى أن يكون سائغاً جميلاً، ولاسيما إذا تنبهنا إلى أن الأستاذ لم يكتب لنا مؤلفاً

نضعه في عداد المراجع التاريخية، أو سفراً له قيمة السجلات الرسمية، ولكنه صاغ حلقة من سلسلة المعارف العامة التي تعنى لجنة التأليف والترجمة والنشر بوضعها بين أيدي طلاب الثقافة. وآخر كلمة أقولها بعد أن قرأت (حياة نابليون) أن الأستاذ المؤلف قد عرض المؤرخين الذين ترجموا لهذا البطل صفاً صفاً، استملاهم جميعا فأفرغوا ما كان يملأ جعباتهم (من وحي الهوى وتصوير الإعجاب وإملاء المقت وصدى الحفيظة) ثم ناقشهم الحساب العسير حتى عرف البواعث التي أملت ما قالوا، وأخيراً قال كلمة العدالة التي عصبت عينيها، ورفعت الميزان في إحدى يديها، وأمسكت بالأخرى سلاحها، فكانت كلمته فصل الخطاب.

عبد الفتاح السرنجاوي

العدد 31 - بتاريخ: 05 - 02 - 1934

في الأقصر. . .

- 2 -

وقف القطار ضحى على محطة الأقصر. وأخذ الحجيج المدني يخطو على أفرزيها ذابل الأجفان، خاثر الأبدان، من تكسير السهاد أو تفتير الوسن. وكان قوم يستقبلون زوار الآثار، وقوم يستقبلون أطباء المؤتمر، فتدفق الركب المتجمع لدى الباب في وجهتين مختلفتين، وذهب بنا أولياء القطار إلى موائد الإفطار، فأصاب منها من أراد على قدر شهوته، ثم قسمونا إلى قسمين: قسم يزور (طيبة الأحياء) في الشرق، وقسم يزور (طيبة الأموات) في الغرب. وهل بقي لعمري في طيبة اليوم أحياء أو أموات؟! لقد ذهب الموت منذ بعيد بأحيائها إلى القبر، وذهبت الحياة منذ قريب بأمواتها إلى المتحف! فلم يبق منها على عدوتي الوادي غير أنقاض طفت على وجه القرون، وأبعاض بينها وبين الفناء صراع لا يفتر!

الأقصر مدينة رقيقة الحال تقوم على أطلال طيبة منا تقوم أعشاش الطيور على شُم الصخور! تسير في شوارعها القروية، وبين منازلها المتنافرة، فلا يستبي طرفك منظر فاتن، ولا يزدهي لبك مظهر غريب، فإذا استثنيت (ونتربالاس) وما تألق من الفن في فنائه وأبهائه، ومرفأ النهر وما ترقرق من الحسن في ظله ومائه. وشارع السلطان حسين وما تنسق على حفافيه من نخله وكهربائه، والجو الفاتر وما شاع من القوة في شمسه والحياة في هوائه، وجدت بلداً كأحقر بلاد الناس يعيش حاضره على ماضيه، وتذهب عينه على آثاره! ولكن وَلِّ ظهرك حضارة الأحداث، وتعال نسر وراء العم (ضاوي) في طريق الكرنك. وبين الأقصر والكرنك مدى من الزمان والمكان يتسع فيه الخيال ويسبح في أعماقه الخاطر. ومن الذي يستطيع أن يجول في مسارح الجبارين دون أن يتمثل هذا الفصل الذي افتتح به الأزل رواية العالم؟

فهنا منذ بضعة آلاف سنة نبتت في ظلال هذه الجبال إنسانية باكرة ترسل النظر الثقيل البطيء في هدوء واستقامة وبعد. ويصور لها عقلها الطفل ألوان التعاجيب والتهاويل من قوى الطبيعة الخفية، فتنحت الجبال قبورا، وتبتني الصخور قصورا، وتقيم لآلهتها الغلاظ من صم الجلاميد تماثيل ومحاريب يتضاءل أمامها الفن الحديث؛ وهنا منذ أربعة آلاف سنة كان الفكر الإنساني يقطع مرحلته الأولى بينما كان الرقاد الأزلي يغشى سائر الأرض، ويطير متثاقلاً عن جفون يونان وآشور.

وهنا سجل الزمن الواعي على ملس الغرانيت أولى صحائف الفكر، فألهمت اليهود والإغريق في الدين والفن والجمال في شتى ضروبه وصوره. وهنا كانت لبني الإنسان بداية حسنة، لولا أن طغيان الفرد المتحكم، وسلطان الدين المتعسف، قد جعلا لهذه البداية نهاية من الجور والإرهاق محزنة! فها نحن أولاء بين صفين من الكباش المسيخة الجاثية أمام معبد آمون. ومعبد آمون يتلو عليك وحده ان شئت نبأ القوم! فهو أكداس هائلة من ضخام الصخر تنافس في نقلها وركمها الجبابرة في خمسة عشر قرناً منذ سيتي الأول! منها أبواب وحجر، ومنها محاريب وتماثيل، ومنها مسلات وعمد؛ ومن ذلك كله ما هو قائم يتحذى بطوله السماء، وما هو نائم يفدح بثقله الأرض!

أنظر إلى هذه الغابة الكثيفة المخيفة من الأعمدة أتظن الشمس منذ أوقدها الله أشرقت على مثلها في الضخامة والبساطة؟ إلا يذكرك هذا العمود الذي تتفتح فوق هامته زهرة اللوتس العجيبة على علو خمسة وعشرين متراً بصرح (تيتان) الخرافي وأخوته؟

من الذي قطع هذه الأطواد، ووضع هذه الأوتاد، وشاد هذه الأروقة، ونحت من الصوان هذه الآلهة البكم، وخلد الملوك على هذه الحجارة الصم؟؟ هو شعب النيل الذليل البائس! بناها وبنى سواها على قفار الخبز وألهوب السوط ونزع الروح، ولا تستطيع أن تصدق وأنت ترى هذه المعجزات أن مصر كانت في مدى ثلاثين قرناً تعمل غير ذلك.
استعبدت فكرة الخلود عقول الفراعنة فاستعبدوا في سبيلها جسوم الشعب، وملكهم حب الآخرة فسخروا له حب الدنيا، وفتنهم متاع السماء فرصدوا له متاع الأرض، وأغرقوا في إعزاز النفس وإيثار الحياة وتقديس العظمة. فأنكروا حرمة العامة، وجحدوا قدرة الموت، وجهلوا معنى الضعة، وخلفوا لأجيال الأبد من يطمح كالملوك، يطمع كالكهنة، ويخضع كالسوقة!
لقد كنا نتجمع حول دليلنا الهاذي في أروقة هذا المعبد المحطم، نطن في أجوافه طنين البعوض باللحون المختلفة: نذكر أوائلنا الذين ارتجلوا للناس لفظ المجد، واقتحموا على الدهر باب الخلد فنزهى ونصلف؛ ونذكر أسلافنا الذين قامت على أشلائهم هياكل أمون،
وفاضت بدمائهم بحيرة أوزيريس فنأسى ونأسف، ونذكر أمام ذلك الماضي الخالد حادز الكرنيش وحائط المحكمة المختلطة فنمضي ونضحك!!
أحمد حسن الزيات
النفس والرقص
للكاتب الشاعر الفرنسي بول فاليري
ترجمة الدكتور طه حسين
- 4 -
فيدر - لنستمتع لحظة أخرى في سذاجة بهذه الأعمال الحسان!. . . كأمها تقدم الهدايا عن يمين، عن شمال، إلى أمام، إلى وراء، إلى فوق والى تحت، من الطيب ومن البخور ومن القبل، وحياتها نفسها تهديها إلى كل مكان في الكرة والى قطبي الكون.
إنها ترسم ورداً وشباكاً، ونجوماً من الحركات، وأسواراً سحرية. . . . إنها تثب فتتجاوز الدائرة التي لا تكاد تغلق. . . إنها تثب وتجري في أثر الأشباح. . إنها تجني زهرة لا تلبث أن تستحيل إلى ابتسامة. . . ما أعجب ما تنكر وجودها في خفة لا تنقضي!. . . إنها لتضل بين الأصوات ثم يردها إلى الهدى خيط ضئيل. . . هو المزمار المعين الذي أنجاها! يا لعذوبة اللحن!. . .
سقراط - كأن ما حولها ليس إلا أشباحاً. . . . إنها تلد هذه الأشباح وهي تهرب منها، ولكنها إذا التفتت فجأة تخيل إلينا أنها تتراءى للآلهة الخالدين!. . .
فيدر - أليست هي روح الاساطير، وما ينفذ من جميع أبواب الحياة!
أركسيماك - أتظن أنها تعلم من هذا شيئاً؟ أو أنها تفاخر بأنها تنتج شيئاً إلا هذه الحركات التي تأتيها حين تغلو في رفع قدميها، وهذا التوقيع وهذه الالتواءات التي أتقنتها في مشقة حين كانت تتعلم الرقص.
سقراط - من الحق أننا نستطيع أن نلاحظ الأمر تحت هذا الضوء الذي لا سبيل إلى إنكاره. . . . فالعين الهادئة تنظر إليها في يسر كما تنظر إلى مجنونة. هذه المرأة التي اجتثت من اصلها اجتثاثاً غريباً، والتي لا تنفك تنزع نفسها من صورتها على حين قد جنت أعضاؤها فهي تتنازع الأرض والهواء، وعلى حين يستلقي رأسها فيجر على الأرض شعراً مفرقا، وعلى حين تظهر إحدى ساقيها كأنها أخذت مكان الراس، وعلى حين تخط صبعها في التراب علامات لا أدري ما هي!. . . . وبعد، فلم هذا كله؟ - يكفي أن تثبت
النفس وان تمتنع فإذا هي لا تلاحظ إلا ما في هذا الاضطراب من غرابة تدعو إلى الاشمئزاز. . فلو أردت يا نفس كان كل هذا سخيفاً.
أركسيماك - وإذن فأنت تستطيع حسب استعدادك أن تفهم وإلا تفهم، وان ترى الشيء جميلاً أو تراه سخيفاً كما تحب وتهوى؟
سقراط - يجب أن يكون ذلك كذلك. . . .
فيدر - أتريد أن تقول أيها العزيز سقراط أن عقلك ينظر إلى الرقص كأنه شخصغريب يحتقر لغته ويرى أخلاقه شاذة بل مؤذية بل فاحشة كل الفحش.
أركسيماك - يخيل إلي أحياناً أن العقل هو الملكة التي تمتاز بها نفساً والتي تمنعها

من أن تفهم جسمنا بأي حال من الأحوال!
فيدر - أما أنا يا سقراط، فان ملاحظة الرقص تمكنني من أن أتصور أشياء كثيرة وأتصور الصلات بين أشياء كثيرة. وهذه الأشياء تصبح فوراً فكرتي الخاصة وتكاد تفكر مكان فيدر. واجد ضوءاً ما كنت قط لأجده في الخلوة إلى نفسي وحدها. ولقد كانت اتكتيه منذ حين تخيل إلى أنها تصور لي الحب. - أي حب؟ - لا هذا ولا ذاك، ولا أي مغامرة سخيفة! - لم تكن تصور شخص الحبيبة من غير شك. . . لم تكن تخيل، لم تكن تمثل! كلا. كلا. لم تكن تخترع الخيال. . . ولم نتكلف أيها الصديقان حين نستطيع أن نتصرف في الحركة وفي المقدار وهما خير ما في الحقيقة من الحق؟. . كانت إذن حقيقة الحب ولكن ما هذه الحقيقة؟ ومم هي؟ وكيف تحديدها أو تصورها - ونحن نعلم أن روح الحب إنما هي الفرق الذي لا يقهر بين العاشقين، على حين أن مادة الحب الرقيقة إنما هي اتحاد رغبتهما فيجب إذن أن يلد الرقص بدقة معالمه، وبجمال وثباته، وبرقة وقفاته، هذا الكائن الكلي الذي ليس له جسم ولا وجه، ولكن له منحاً وأياماً ومصائر ولكن له حياة وموتاً بل ليس هو إلا حياة وإلا موتاً، فان الرغبة إذا نشأت لم تعرف نوماً ولا هدنة.
ولهذا تستطيع الراقصة وحدها أن تظهره للعيان بأعمالها الحسان. كلها يا سقراط، كان الحب!. . . كانت لعباً وبكاء وتكلفاً لا غناء فيه، سحر، سقوط، منح والمفاجاءات، ونعم ولا، وكل هذه الخطى الضائعة في حزن. . كانت تحتفل بكل أسرار المحضر والمغيب، وكأنما كانت أحياناً تمس الكارثة التي لا تمحي. . . ولكن الآن انظر إليها تقرباً إلى أفروديت. أليست تظهر فجأة كأنها موجة من موج البحر؟ طوراً أثقل؛ وطوراً أخف من جسمها، تثب كأنما تفصل عن صخرة، ثم تسقط في هدوء. . . هي الموج.
أركسيماك - مهما يكن من شيء فان فيدر يزعم أنها تصور شيئاً.
فيدر - ماذا ترى يا سقراط؟
سقراط - في أنها تصور شيئا؟
فيدر - نعم. أترى أنها تصور شيئا؟
سقراط - لا شيء أي فيدر العزيز. ولكن كل شيء أي اركسيماك - تصور الحب كما تصور الحياة نفسها وكما تصور الخواطر والآراء. . . إلا تشعران بأنها خلاصة التحول؟
فيدر - أي سقراط الملهم انك لتعلم أي ثقة ساذجة نادرة قد توثقت بنورك الذي لا نظير له منذ عرفتك. لا أسمعك إلا صدقتك، ولا أصدقك إلا استمتعت بنفسي التي تصدقك. ولكن القول بان رقص اتكتيه لا يصور شيئاً ولا نكون فوق كل شيء صورة لقوة الحب وظرفه قول لا أكاد أطيق الاستماع له.
سقراط - لم اقل - إلى الآن شيئاً يبلغ هذه القسوة! - أيها الصديقان إني لا أزيد على أن أسألكما ما الرقص، وكلاكما يظهر علماً بالجواب، ولكنكما تعلمانه على اختلاف بينكما! أحدكما يقول إن الرقص هو ما هو، وانه ينحل إلى ما ترى أعيننا هنا. والآخر يؤكد انه يصور شيئا، وإذا فليس هو كله في نفسه وإنما هو في أنفسنا قبل كل شيء. أما أنا أيها الصديقان , فما زلت احتفظ بشكي كاملا!. . خواطري كثيرة، وليس هذا علامة خير!. . . كثيرة مختلطة ومزدحمة حولي على السواء. . .
أركسيماك - أتشكو من الثروة!
سقراط - إن الثروة تضطر إلى السكون، ولكن رغبتي حركة يا اركسيماك. . . أنا محتاج الآن إلى هذه القوة الخفيفة التي تمتاز بها النحلة، كما تمتاز بها الراقصة. . . يحتاج عقلي إلى هذه القوة، وهذه الحركة المركزة اللتين تعلقان الحشرة فوق جماعة الزهر وتجعلانها حكما ناطقا فيما بين رحيقها من اختلاف. وتقدمانها كما تحب إلى هذه أو إلى تلك، إلي هذه الوردة البعيدة بعض الشيء وتسمحان لها بان تمسها أو تتركها أو تمعن فيها. . . هي تنأى فجأة عن الزهرة التي فرغت من حبها. ثم تعود إليها إذا أحست الندم لأنها تركت فيها
بعض الرحيق الذي ما تزال ذكراه تتبعها، وما تزال لذته الماضية تنغص عليها طيرانها. أو يحتاج عقلي يا فيدر إلى هذا التنقل الدقيق الذي يتاح للراقصة، والذي إذا انسل بين خواطري أيقظها في رفق واحداً اثر واحد، وأخرجها من ظلمة نفسي وأظهرها لضوء عقليكما، في خير نظام بين النظم الممكنة!

فيدر - تكلم، تكلم. . إني لأرى النحلة على فمك والراقصة في نظرتك.

طه حسين

صفحة سوداء

بقلم الأستاذ أحمد أمين

رووا أن عمرو بن العاص كتب إلى عمر بن الخطاب في وصف مصر أن: (نيلها عجب، وأرضها ذهب، وهي لمن غلب).

ورووا أن عتبة بن أبي سفيان كان عاملاً لأخيه معاوية على مصر، فبلغه أمور عن اهلها، فصعد عتبة المنبر مغضباً وقال: (أيا حاملين ألأم أنوف ركبت بين أعين، إنما قلمت أظفاري عنكم ليلين مسي إياكم، وسألتكم صلاحكم لكم، إذ كان فسادكم راجعاً اليكم، فاما أد أبيتم إلا الطعن في الولاة والتنقص للسلف، فوالله لأقطعنَّ على ظهوركم بطون السياط، فان حسمت داءكم وإلا فالسيف من ورائكم).

وقبل هذا وذاك، جاء فرعون (فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى)

وجاء أبو نؤاس مصر بعد ذلك فقال:

محضتكم يا أهل مصر نصيحتي ... ألا فخذوا من ناصح بنصيبَ

رماكم أمير المؤمنين بحية ... أكول لحيات البلاد شروب

فان يك باق إفك فرعون فيكمو ... فان عصا موسى بكف خصيب

واشتهر المصريون عند المؤرخين بالانهماك في الشهوات وعدم النظر في العواقب، ولما رآهم ابن خلدون على هذه الحال قال فيهم: (كأنما فرغوا من الحساب) يريد انهم لا يحاسبون أنفسهم على ما يصدر منهم، ولا يخافون من عاقبة أعمالهم، كأنما فرغوا من الحساب.

وظل مؤرخو العرب يرمون المصريين بالذل، وقبول الضيم في كل ما كتبوا - وكان من أشدهم المقريزي في أول خططه، فقد عقد فصلاً في أخلاق المصريين قال فيه: (وأما أخلاقهم فالغالب عليها اتباع الشهوات، والانهماك في اللذات، والاشتغال بالترهات، والتصديق بالمحالات، وضعف المرائر والعزمات، ولهم خبرة بالكيد والمكر، وفيهم بالفطرة قوة عليه، وتلطف فيه، وهداية إليه). ثم رماهم بالذل، واخذ يحصي الأقوال في ذلك: فروي عن كعب الأحبار أن (الخضب قال: أنا لاحق بمصر؛ قال الذل: وأنا معك. وقال الشقاء: أنا لاحق بالبادية. فقالت الصحة وأنا معك). وروى ان ابن القرية وصف أهل مصر فقال:

(عبيد لمن غلب، أكيس الناس صغرا، وأجهلهم كبارا).

وجاء بعده السيوطي فلم يخجل من أن يضع في كتابه (حسن المحاضرة) فصلاً عنوانه (السبب في كون أهل مصر أذلاء يحملون الضيم) وقد جاء فيه (إن الشيخ تاج الدين كان يقول: إن الحكماء وأهل التجارب ذكروا أن من أقام ببغداد سنة وجد في علمه زيادة، ومن أقام بالموصل سنة وجد في عقله زيادة، ومن أقام بدمشق وجد في طباعه غلظة، ومن أقام بمصر سنة وجد في أخلاقه رقة وحسنا) والرقة والذل قريب بعضهما من بعض. وقال القاضي الفاضل: (أهل مصر على كثرة عددهم، وما ينسب من وفور المال إلى بلدهم، مساكين يعملون في البحر، ومجاهيد يدأبون في البر).

ويذكرون الذل على انه حقيقة ثابتة، ثم يختلفون في السبب في ذلك، فمن قائل إن المصريين غاظوا يوماً سعد بن أبى وقاص، فدعا عليهم أن يضربهم الله بالذل؛ وسعد عرف بإجابة الدعوة.

انو كان ذلك فالخطب هين، فمن الممكن أن يجتمع صلحاء مصر وورعاؤها فيقرءوا الفواتح والدعوات وما تيسر من القران الكريم، ويهبوها لروح سعد ويطلبوا إليه ان يعدل عن دعوته، ويطلب إلى الله تعالى ان يرميهم بالعزة بعد الذل. وما أظن سعداً يصر على دعوته، وقد عرف في حياته بالسماحة والسؤدد.

ومن قائل: إن فرعون لما غرق كان معه أشراف القوم وأعزتهم، فلما غرقوا معه، فلم يبق إلا الحثالة، فأتى من نسلهم الجبناء الأذلاء. وهل ينتج الذليل إلا الذليل؟ وهذا القول أيضاً سهل رده، فالمصريون قد نزل بين أظهرهم كثير من سادة اليونان والرومان، وسادة العرب وسادة الأتراك، وذابوا في مصر واختلطوا بأهلها؛ فلم يغلب الذل العزة وعهدنا دائماً غلبة الأعزاء؟

أخطر الأسباب ما يلمح إليه الماكر (المقريزي) فهو يريد أن يبعث في النفوس اعتقاداً

بان هذا سبب طبيعي يرجع إلى الإقليم والى الجو، والى طبيعة الأرض، هو يريد أن يقول إن ذلك خلقة فيهم، بل هو في كل شيء حولهم فيقول (إن هواء مصر يعمل في المعجونات وسائر الأدوية ضعفاً في قوتها، فأعمار الأدوية - المفردة المركبة، المعجون منها وغير المعجون - بمصر اقصر منها في غير مصر) واشد من ذلك وأصرح قوله (ان قوى النفس
تابعة لمزاج البدن، وأبدانهم سخيفة سريعة التغير، قليلة الصبر والجلد، وكذلك أخلاقهم يغلب عليها الاستحالة والتنقل من شيء إلى شيء، والدعة والجبن. . . ومن اجل توليد أرض مصر الجبن والشرور الدنيئة في النفس لم تسكنها الأسد، وإذا دخلت ذلت ولم تتناسل، وكلابها اقل جرأة من كلاب غيرها من البلدان، وكذلك سائر ما فيها أضعف من نظيره في البلدان الأخر، ما خلا ما كان منها في طبعه ملاءمة لهذه الحال كالحمار والأرنب)
قول قاس أيها المؤرخ! ولو صح ما قلت لكان حكماً أبدياً صارماً، فان لنا طاقة بتغيير كل شيء إلا الجو والإقليم فماذا نصنع فيهما، لو كان صحيحاً قولك لاستوجب اليأس في الإصلاح، فما تفلح أمة ضرب عليها الذل والخضوع، بل لوجب الرحيل من بلد يسمم جوها دائماً أخلاق أهلها:
وقد قال الشاعر:
(وإذا نزلت بدار ذل فارحل)
أخشى أن تكون متأثراً بآراء شيخك ابن خلدون وقد كان في طباعه حدة وعنف، وفي المصريين دعة، فنظر إليها بطبعه الحاد نظرة فيها إفراط وفيها مبالغة - لو كانت نظريتك صحيحة لما تعاقبت الذلة والعزة على الأمة الواحدة فتعز بعد ذلة، أو تذل بعد عزة، والجو واحد والإقليم واحد - وان في تاريخ مصر نفسها صفحات بيضاء تجلى فيها العزة بأجلى مظاهرها، الحق - يا سيدي - إن الإقليم عامل، ولكن ليس كل عامل، فإذا كان الجو سماً فالتربية والتعليم ترياق، إلا ترى إلى مثلك نفسه، فقد ذكرت أن الأدوية والمركبات والمعاجين يسرع إليها الفساد في مصر لسوء الجو - لو عشت إلى عصرنا لعلمت كيف تغلب العلم على الإقليم، وصار من المستطاع في يسر وسهولة أن يحفظ الدواء - بأبسط المعالجات - في مصر كما يحفظ في أوربا وان التربية كذلك تفعل في النفس الأعاجيب، وكل ما نستطيع أن نستفيده منك انك نبهتنا أنت وأمثالك من المؤرخين على أن في مصر جبناً وفي مصر ملقاً، إلى هنا نقبله منك ولكنا لا نستسلم له، ولا نقر انه طبيعي فينا. ولكن لنريك الأمثال على خطأ تعليلك ولننبهك على نظرية ثبتت حديثاً وهي: أن الأمم المبتدية الساذجة هي اكثر استسلاماً للطبيعة وشؤونها، والأمم المتحضرة تستطيع بعلمها وتربيتها
وقوة عقلها أن تسخر الطبيعة لمصلحتها، لا أن تخضعها الطبيعة لأمرها، فنحن نستطيع أن نستفيد من وداعة الطبيعة فنكون وديعين إلى حد، فإذا أرادت ان تتجاوزه إلى نفاق وملق وجبن قالت التربية (لا) بملء فيها، وحق للتربية إذا قالت (لا) أن يكون (لا) وعبت كلاب المصريين بالضعف، ويظهر انك لم تر كلاب (ارمنت) وما هي عليه من بسطة في القوة والجسم، ولو قدر عليك أن ينبحك واحد منها ما سلمت بجلدك، ولغيرت حكمك.
لقد أحسست بان تعميم نظريتك خطأ بين، فاستدركت وقلت (ومن المصريين من خصه الله بالفضل وحسن الخلق وبرأه من الشرور) أليس هذا - يا سيدي - نقضا لقولك.
أبو عبد الله آخر ملوك الأندلس
للأستاذ محمد عبد الله عنان
تبوأ أبو عبد الله عرش غرناطة للمرة الثانية بعد أن قضى في أسر ملك قشتالة زهاء ثلاثة أعوام. وكانت الخطوب والفتن التي توالت على مملكة غرناطة قد مزقتها حسبما بينا، فلم يبق منها بيد الإسلام سوى بضع مدن وقواعد متناثرة مختلفة الرأي والكلمة ينضوي بعضها تحت لواء أبي عبد الله والبعض الآخر تحت لواء عمه محمد بن علي (الزغل). وكان واضحاً أن مصير غرناطة يهتز في يد القدر بعد أن نفذت جيوش النصرانية إلى قلبها، واستولت على كثير من قواعدها وحصونها الداخلية، ولم يكن الملك الصغير (أبو عبد الله) طبق المعاهدة التي عقدها مع فرديناند سوى تابع لمملكة

قشتالة. يدين لها بالخضوع والطاعة، وكان ملك قشتالة يحرص من جهة أخرى على المضي في تحقيق خطته لسحق البقية الباقية من دولة الإسلام في الأندلس قبل أن يعود إليها اتحاد الكلمة، فيبعث إليها روحاً جديداً من العزم والمقاومة، فبدأ بغزو القواعد الشرقية والجنوبية التي يسيطر عليها مولاي الزغل لأنه كان في صلح مع غرناطة يمتد إلى عامين، وقد أراد أن يسبغ على عهوده مسحة غادرة من الوفاء، ولأنه أراد أولاً أن يعزل غرناطة، وأن يطوقها من كل صوب. وزحف فرديناند بادئ بدء على مالقة امنع ثغور الأندلس وعقد صلتها بالمغرب، وطوقها بقوات كثيفة من البر والبحر وسقطت مالقة رغم دفاعها المجيد في شعبان سنة 892هـ (أغسطس 1487م). ثم استولى فرديناند على المنكب والمرية (أواخر سنة 894هـ 1489م) ثم على بسطة (المحرم 895هـ ديسمبر 1489) ثم قصد إلى وادي آش آخر معقل لمولاي الزغل، ورأى الزغل رغم شجاعته وبسالته انه يغالب المستحيل وان جيوش النصرانية تحيط به من كل صوب، فانتهى إلى الاذعان والتسليم، ودخل فرديناند وادي آش في صفر سنة 895هـ (يناير 1490م) واتفق بادئ بدء أن يستمر (الزغل) في حكم قواعده باسم ملك قشتالة وتحت حمايته، وان يلقب بملك اندرش، وأن يمنح دخلاً سنوياً كبيراً، ولكنه لم يلبث أن رأى انه يستحيل عليه الاستمرار في ذلك الوضع الشاذ، فباع حقوقه لفرديناند مقابل مبلغ كبير، وجاز البحر إلى المغرب واستقر في تلمسان يقضي بها بقية حياته في غمر من الحسرات والعدم، وجاز معه كثيرون من الكبراء الذين أيقنوا أن نهاية الإسلام بالأندلس قد غدت قضاء محتوما.

ثم جاء دور غرناطة آخر معقل للإسلام بالأندلس، وكانت جميع قواعد الأندلس الأخرى: مالقة والمرية ووادي آش والحامة وبسطة فد غدت نهائياً من أملاك مملكة قشتالة وعين لها حكام من النصارى، وتدجن أهلها أو غدوا مدجنين يدينون بطاعة ملك النصارى، وذاعت بها الدعوة النصرانية فارتد كثير من المسلمين عن دينهم حرصاً على أوطانهم ومصالحهم، وخشية الريب والمطاردة؛ وجازت ألوف أخرى ممن خشوا على أنفسهم ودينهم إلى المغرب وتفرقوا في ثغوره، وهرعت ألوف أخرى إلى غرناطة تلوذ بها حتى غدت المدينة تموج بسكانها الجدد. وكان سلطان غرناطة أبو عبد الله يرقب هذه الحوادث جزعاً ويشعر أنها تسير إلى نتيجة محتومة هي سقوط غرناطة في يد العدو الظافر، وكان قد تخلص بانسحاب عمه الزغل من الميدان من منافسه القوي، ولكنه فقد في نفس الوقت أقوى عضد يمكن الاعتماد عليه في الدفاع والمقاومة، وسرعان ما بدت طوالع الخطر الداهم، وبعث فرديناند إلى أبي عبد الله يطلب إليه تسليم الحمراء والبقاء في غرناطة في طاعته وتحت حمايته مثلما وقع لعمه الزغل؛ فثار أبو عبد الله لذلك الغدر، وأدرك - وربما لأول مرة - فداحة خطأه في محالفة الملك الغادر؛ وجمع الكبراء والقادة، فاجمعوا على الرفض والدفاع حتى الموت عن وطنهم ودينهم؛ ودوت غرناطة صيحة الحرب؛ وحمل أبو عبد الله بعزم شعبه على القتال والجهاد، وخرج في قواته نحاول استرداد القواعد والحصون المسلمة المجاورة؛ وثار أهل البشرات وما حولها على النصارى؛ ووقعت بين المسلمين والنصارى عدة مواقع ثبت فيها المسلمون، واستردوا كثيراً من الحصون والقرى في تلك المنطقة (أواخر سنة 895هـ)، وعاد أبو عبد الله إلى غرناطة ظافرا، وانتعشت قلوب الغرناطيين نوعاً بذلك النصر الخلب، وأخذوا يتأهبون للدفاع بعزم. وغضب فرديناند لتلك المفاجأة التي لم يكن يتوقعها واعتزم أن يقوم بضربته الحاسمة في الحال؛ فخرج في ربيع العام التالي (896هـ) في جيش ضخم مزود بالمدافع والذخائر الوفيرة؛ وسار تواً إلى غرناطة ونزل بمرجها الجنوبي وأنشأ لجيشه في تلك البقعة مدينة صغيرة مشهورة سميت سانتافي (شنتفي) أو الإيمان المقدس رمزاً للحرب الدينية، وهي تقوم حتى اليوم وبدأ حصار غرناطة في جمادى الآخرة سنة 896هـ (مارس 1491م).

ولسنا نقف طويلاً عند حوادث هذا الصراع الأخير بين الإسلام والنصرانية في الأندلس؛ فهي تملأ فصولاً طويلة مؤثرة في الروايات العربية والإفرنجية؛ ويكفي أن نقول أن غرناطة دافعت عن نفسها دفاعاً مجيداً، ولم تدخر لاجتناب قدرها جهداً بشرياً؛ وان فروستها الشهيرة بذلت بقيادة زعيمها موسى ابن أبي الغسان أشجع فرسان عصره، ضروباً رائعة من البسالة، وخرج المسلمون من مدينتهم المحصورة غير مرة واثخنوا

في النصارى. ولكن الضيق كان يشتد بالمدينة المحصورة يوماً فيوماً، وتقل مؤنها شيئاً فشيئاً، ويتساقط جندها تباعاً. وكانت مدى الربيع والصيف تستمد بعض المؤن من جهة البشرات من طريق جبل شلير فلما دخل الشتاء غطت هذه السهول والشعاب بالثلج الكثيف؛ وازدادت غرناطة ضيقا، واشتد بأهلها الجوع والمرض، وهم أبو عبد الله بمفاوضة فرديناند في التسليم غير مرة لو أن كان يمنعه موسى بن أبي الغسان وتحمله الحماسة العامة، فلما اشتد الخطب تقدم حاكم المدينة أبو القاسم عبد الملك، وقرر أن المؤن تكاد تنفد، وان الجوع أخذ يعصف بالشعب، وان الدفاع عبث لا يجدي؛ واتفقت كلمة الزعماء والقادة على التسليم؛ وتم الاتفاق على أن تسلم غرناطة بشروط كثيرة أهمها أن يؤمن المسلمون على أنفسهم ودينهم واموالهم، وانتمس مساجدهم وشعائرهم وشرائعهم وتقاليدهم؛ وان يجوز منهم إلى المغرب من شاء وهكذا أذعنت غرناطة وسلمت، وانتهت دولة الإسلام بالأندلس (صفر 897هـ ديسمبر سنة 1491) وطويت إلى الأبد تلك الصفحة المجيدة الرائعة من تاريخ الإسلام، وقضى على تلك الحضارة الأندلسية الشامخة وآدابها وعلومها وفنونها وكل ذلك التراث الباهر بالفناء والمحو، ودخل النصارى غرناطة في الثاني من ربيع الأول سنة 897 (2 يناير 1492) واحتلوا حمراءها وباقي قصورها وحصونها وخفق علم النصرانية ظافراً فوق صرح الإسلام المنهار.

أما الملك التعس أبو عبد الله فقد قضت معاهدة التسليم ان يغادر غرناطة مع أسرته إلى البشرات وان يحكم هذه المنطقة باسم ملك قشتالة وفي طاعته وان يكون مقره في قرية اندرش. ولما ذاعت أنباء التسليم اضطرم الشعب غضباً وسخطاً على أبي عبد الله واعتبره مصدر كل مصائبه ومحنه؛ فبادر أبو عبد الله بالأهبة للسفر مع أسرته وخاصته وحشمه، وبعث بأمواله ونفيس متاعه إلى مقره الجديد في اندرش. وفي نفس اليوم الذي دخل

النصارى فيه غرناطة، غادر أبو عبد الله قصره وموطن عزه ومجد إلى آبائه الأبد؛ وخرج للقاء عدوه الظافر في سرية من الفرسان والخاصة، فاستقبله فرديناند في محلته على ضفة شنيل. وتصف الرواية هذا المنظر المؤثر فتقول إن أبا عبد الله حين رأى فرديناند، هم بترك جواده، ولكن فرديناند بادر بمنعه وعانقه بعطف ورعاية؛ ثم قدم إليه أبو عبد الله مفاتيح الحمراء قائلا: (إن هذه المفاتيح هي الأثر الأخير لدولة العرب في إسبانيا. وقد أصبحت أيها الملك سيد تراثنا وديارنا وأشخاصنا. هكذا قضى الله، فكن في ظفرك رحيماً عادلاً). وسار أبو عبد الله بعد ذلك صحبة فرديناند إلى حيث كانت الملكة إيزابيلا , فقدم إليها تحياته وخضوعه، ثم انحدر إلى طريق البشرات ليلحق بأسرته وخاصته.

وهنا تقول الرواية إن أبا عبد الله اشرف أثناء مسيره في شعب تل البذول (بادول) على منظر غرناطة فوقف يسرح بصره لآخر مرة في هاتيك الربوع العزيزة التي ترعرع فيها، وشهدت مواطن عزه وسلطانه؛ فانهمر في الحال دمعه وأجهش بالبكاء، فصاحت به أمه عائشة: (أجل فلتبك كالنساء ما لم تستطع أن تدافع عنه كالرجال). وتعرف الرواية الإسبانية تلك الأكمة التي كانت مسرحاً لذلك المنظر المحزن باسم شعري مؤثر هو: (زفرة العربي الأخيرة) وما تزال قائمة حتى اليوم يعينها سكان تلك المنطقة للسائح المتجول.

ثم تقول الرواية أيضاً إن باب غرناطة الذي خرج منه أبو عبد الله لآخر مرة قد سد عقب خروجه برجاء منه إلى ملك قشتالة وبني مكانه حتى لا يجوزه من بعده إنسان.

لم يطل مكث أبي عبد الله بمقره الجديد في اندرش، ولم تمض اشهر قلائل حتى أدرك كما أدرك عمه من قبل انه يستحيل عليه البقاء في هذا الوضع الشاذ كعامل لملك قشتالة، وكان فردنياند من جانبه ينظر إلى وجوده بعين الريب ويخشى مثار الفتنة؛ فعول أبو عبد الله ان يحذو حذو عمه في الجواز إلى أفريقية، ونزل لفرديناند عن حقوقه نظير مبلغ كبير، ثم جاز بأسرته وماله ومتاعه من ثغر المرية إلى المغرب الأقصى في سفن أعدت له (1493م) ونزل أولاً بمليلة، ثم قصد إلى فاس واستقر بها، وتقدم إلى ملكها السلطان محمد شيخ بني وطاس الذين خلفوا بني مرين في الملك، مستجيراً به، مستظلاً بلوائه ورعايته، معتذراً عما أصاب الإسلام في الأندلس

على يده، متبرئاً مما نسب إليه، وذلك في كتاب طويل مؤثر كتبه عن لسان كاتبه ووزيره محمد بن عبد الله العربي العقيلي، وسماه
وقد افتتحها .(الروض العاطر الأنفاس في التوسل إلى المولى الإمام سلطان فاس)
بعد الديباجة بقصيدة رائعة هذا مطلعها:
مولى الملوك ملوك العرب والعجم ... رعياً لما مثله يرعى من الذمم
بك استجرنا ونعم الجار أنت ... لمن جار الزمان عليه جور منتقم
حتى غدا ملكه بالرغم مستلب ... وافظع الخطب ما يأتي على الرغم
حكم من الله حتم لا مرد له ... وهل مرد لحكم منه منحتم
كنا ملوكاً لنا في أرضنا دول ... نمنا بها تحت أفنان من النعم
فأيقظتنا سهام للردى صبت ... يرمي بأفجع حتف من بهن رمى
فلا تنم تحت ظل الملك نومتنا ... وأي ملك بظل الملك لم ينم
وهي طويلة جدا، يمتدح فيها ملوك فاس وشيد بعلائقهم القديمة مع بني الأحمر:
ويشير أبو عبد الله بعد ذلك إلى حوادث الأندلس، ويعتذر عن نكبته؛ ويعترف بخطاه.
زمن قوله في ذلك: (اللهم لا بريء فأعتذر، ولا قوي فأنتصر، ولكني مستقيل، مستنيل، مستغيث، مستغفر؛ وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء) بيد أنه يدفع عن نفسه تهم الزيغ والتفريط والخيانة بشدة، ويقول: (ولقد عرض علينا صاحب قشتالة مواضع معتبرة خير فيها، وأعطى من أمانه المؤكد فيه خطه بإيمانه، ما يقنع النفوس ويكفيها؛ فلم نر ونحن من سلالة الأحمر مجاورة الصفر، ولا يسوغ لنا الإيمان الإقامة بين ظهرانيالكفر، ما وجدناه على ذلك مندوحة ولو شاسعة) ثم يرثي ملكه بعبارات مؤثرة منها: (ثم عزاء حسناً وصبراً جميلاً، عن أرض ورثها من شاء من عباده معقباً لهم ومديلاً، وسادلاً عليهم من ستور الإملاء الطويلة سدولاً، سنة الله التي قد خلت من قبل، ولن تجد لسنة الله تبديلا. فليطر الطائر الوسواس المرفرف مطيراً كان ذلك في الكتاب مسطوراً. لم يستطع غير مورده صدوراً. وكان أمر الله قدراً مقدوراً).
واستقر أبو عبد الله في فاس في ظل بني وطاس، وشيد بها قصوراً على طراز الأندلس رآها وتجول فيها المقري مؤرخ الأندلس بعد ذلك بنحو قرن (1037هـ - 1628م)، وقضى أعواماً طوالاً في غمر الحسرات والذكريات المفجعة، وتوفي سنة 940هـ (1534م). ودفن بفاس، وترك ولدين هما يوسف وأحمد، واستمر عقبه متصلاً معروفاً
بفاس مدى أحقاب، ولكنهم انحدروا قبل بعيد إلى هاوية البؤس والفاقة، ويذكر لنا المقري أنه رآهم سنة 1037هـ فقراء معدمين يعيشون من أموال الصدقات وفي بعض الروايات الأسبانية أن أبا عبد الله توفي قتيلاً في موقعة نشبت بين السلطان أحمد الساطي وبني سعد الخوارج عليه في وادي أبى عقبة وقاتل فيها أبو عبد الله جانب أصدقائه بني وطاس وذلك سنة 943هـ (1536م) بيد أنها رواية ظاهرة الضعف لان أبا عبد الله يكون في هذا التاريخ قد جاوز السبعين ومن الصعب أن نصدق انه يخوض مثل هذه المعارك الطاحنة بعد أن هدمه الإعياء والهرم، هذا إلى أن الرواية الإسلامية في هذا الموطن ادعى إلى الترجيح والثقة.
ويعرف أبو عبد الله آخر ملوك الأندلس بالملك الصغير (وبالأسبانية تمييزاً له من عمه أبي عبد الله الزغل، ويلقب بالزغيبي، أو عاثر الحظ تنويها بما أصابه وأصاب الإسلام على يده من الخطوب والمحن.
هذه قصة مصرع الأندلس، وقصة آخر ملوكها
وصار ما كان من ملك ومن ملك ... كما حكى عن خيال الطيف وسنان
تم البحث
محمد عبد الله عنان
المشتهى
بحث طريف لم ينشر
للعلامة المغفور له أحمد تيمور باشا
ذكره المقريزي في خططه في كلامه على متنزهات الفاطميين، ولكن الذي ورد عنه في النسخ التي اطلعنا عليها لا يعد وهذه الجملة المقتضبة (وكان من مواضعهم التي أعدت للنزهة المشتهى) وبعدها بياض متروك، غير أن السيوطي نقل عنه في كوكب

الروضة مانصه: (قال المقريزي كان من مواضع الخلفاء الفاطميين التي أعدت للنزهة المشتهة بالروضة وكانوا يركبون إليه يوم السبت والثلاثاء فيعم الناس من الصدقات أنواع ما بين ذهب ومآكل وحلوى وغير ذلك) ولا ريب في أن هذه الزيادة من كلام المقريزي، لأن السيوطي أعقب العبارة بقوله (انتهى). وذكرها الشيخ عبد الغني النجدي النابلسي في رحلته المسماة بالحقيقة والمجاز عن المقريزي بهذا النص أيضا، فالظاهر أنهما نقلاها عن نسخة من الخطط بها هذه الزيادة أو عن تاريخ المقريزي المسمى بالسلوك. ثم أوردا بعدها بيات الشيخ شرف الدين عمر بن الفارض التي منها:

وطني مصر وفيها وطري ... ولعيني مشتهاها مشتهاها

وقال الشيخ عبد الغني النابلسي في شرحه لديوانه: المشتهى الثاني اسم مكان في مصر تدخل إليه فرقة من ماء النيل وهو متنزه مشهورا. وله ذكر في الأشعار المصرية في حسن المحاضرة وغيره من كتب الأدب والتاريخ انتهى. قلنا نعم أكثر الشعراء من ذكره وأورد السيوطي في كوكب الروضة وحسن المحاضرة كثيراً من مقطعاتهم فيه، ومنها قول ابن الفارض أيضاً مشيراً إليه والى المقياس والروضة وكان كثير التردد على المسجد الذي فيه أيام النيل.

لقد بسطت في بحر جسمك بسطة ... أشارت إليها بالوفاء أصارع

فيا مشتهاها أنت مقياس قدسها ... وأنت بها في روضة الحسن يانع

ولكن الغريب إلا ترى في كتب التاريخ ذكراً لموضعه بالروضة ولا نعرف من خبره غير القليل الذي رواه المقريزي، ولولا السيوطي والنابلسي ما وصل إلينا هذا القليل أيضاً. وطالما تلمسنا مزيداً من العلم به فلم نكن نحلو بطائل، فقصرنا الجهد على تحقيق موضعه

وعولنا في ذلك على الوسيلة الباقية لدينا وهي مراجعة ما كتب عن آثار الجزيرة وتتبع ما وقع في أسمائها من التغيير جيلاً بعد جيل إلى زماننا هذا رجاء ان نرى في الباقي منها ما له صلة بهذا المتنزه تهدينا إليه. ولابد لنا في الوصول إلى ذلك من قطع المراحل الثلاث الآتية.

المرحلة الأولى

كان أول ما تنبهنا إليه في هذا البحث أننا تذكرنا رباطاً يسمى برباط المشتهى مر بنا اسمه أثناء المطالعة فقلنا إن ظهر أنه بالروضة فلا ريب في أنه لم يشتهر بذلك إلا لكونه بنى في موضع من هذا المتنزه وقد تكون له بقية تهدينا إلى موضعه. ثم بادرنا إلى خطط المقريزي فرأيناه يقول عنه (رباط المشتهى. هذا الرباط بروضة مصر مطل على النيل وكان به الشيخ الملك بهاء الدين الكازوني ولله در شيخنا العارف الأديب شهاب الدين أحمد بن أبي العباس الشاطر الدمنهوري حيث يقول:

بروضة المقياس صوفية ... هم منية الخاطر والمشتهى

لهم على البحر أياد علت ... وشيخهم ذاك له المنتهى

ثم رأينا السيوطي ذكره في كوكب الروضة فنقل هذه العبارة عن الخطط، ونقل عن تاريخ المقريزي (أي المسمى بالسلوك) أن بهاء الدين الكازروني المذكور توفي بهذا الرباط ليلة الأحد الخامس من ذي الحجة سنة 774هـ ثم نقل ترجمته عن إنباء الغمر للحافظ ابن حجر ونصها (محمد بن عبد الله الكازروني الشيخ بهاء الدين قدم مصر فصحب الشيخ أحمد الحريري صاحب الشيخ ياقوت الحبشي تلميذ أبي العباس المرسي وانقطع بعده بالمشتهى من الروضة وكان الناس يترددون إليه ويعتقدونه، وكان الشيخ أكمل الدين شيخ الشيخونية كثير التعظيم له، واقطع إليه البدر البشتكي وكتب له أشياء من تصانيف الشيخ محي الدين بن العربي، وكان يكثر الثناء عليه، وكانت وفاته في ذي الحجة، وأرخه ابن دقماق ليلة الأحد خامس ذي القعدة) انتهى. قلنا وقد وقفنا على ترجمته أيضاً في الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة للحافظ بن حجر المذكور فرأيناه أرخ وفاته بسنة 773 أي بنقصان سنة واحدة عن قول المقريزي.

ولم يزل لهذا الرباط بقية إلى اليوم، وذكره علي مبارك باشا في موضعين من خططه أحدهما في مساجد الروضة باسم زاوية المشتهى (ج 18 ص 14) فنقل عبارة المقريزي والسيوطي ثم قال (وفي زماننا هذا يعني سنة إحدى وتسعين ومائتين وألف،

الزاوية المذكورة مشهورة بزاوية الشيخ الكازروني وموضعها غربي سراية الخديو إسماعيل وبنتها سعادة والدة باشا والدة الخديو المذكور، وأقام بها الشيخ علي القشلان أحد المشاهير من رجال الطريقة القادرية ومعه سبعة دراويش ورتبت بها مولداً سنوياً، وفي كل شهر ثلاثمائة قرش ديوانية ورتبت لها من الشمع والبن والفحم والزيت ما يلزم لها يوميا). والثاني في كلامه على الربط (ج6 ص53) فذكره باسم رباط المشتهى ونقل عبارة المقريزي المتقدم ذكرها ثم قال (وهذا الرباط يعرف اليوم بجامع المشتهى وقد ذكرناه في كتابنا المسمى مقياس النيل فارجع إليه إن شئت) انتهى. قلنا لم نر أحداً يعرفه النوم بذلك بل هو معروف بزاوية الكازروني كما ذكر في عبارته الأولى. وقد زرنا هذه الزاوية فرأيناها تلاصق السور الغربي لقصر الخديو إسماعيل وحديقته، وكان القصر بينها وبين النيل، ولا ريب في أنها بقية الرباط وأن سائره كان ممتداً في جزء من موضع القصر حتى يكون مطلاً على النيل كما ذكروه عنه في التواريخ، والباقي من هذا القصر الآن أطلال ماثلة شرقي الزاوية وفي حائطها الجنوبي قبة مدفون بها الكازروني، وعلى قبره تابوت من الخشب مغطى بستر أخضر من الجوخ عملته له أم الأمير حسين ابن الخديو إسماعيل، وفي الجانب الغربي من هذا الستر رقعة حمراء مكتوب فيها بالبياض (هذا مقام سيدي محمد الكازروني) وفي جانبه الشرقي رقعة مثلها مكتوب فيها (جددت هذا الستر دولتلو فادن أفندي والدة دولتلو حسين كامل باشا ثاني نجل حضرة الخديو حالا 1289) انتهى بنصه ورسمه. وليس بالزاوية اليوم إلا خادم واحد وأما الشيخ علي القشلان القادري شيخ صوفيتها فقد دفن في الإيوان الشرقي بالزاوية القادرية المسماة قديماً بالزاوية العدوية والمعروفة الآن بجامع سيدي عُلَيّ (بالتصغير) خارج باب القرافة، وقد فصلنا الكلام على هذا الجامع وما به من القبور في ص 29 - 38 من رسالتنا (اليزيدية ومنشأ نحلتهم) ولما زرناه وقت تأليف الرسالة سألنا خدمته عما يعرفونه عن هذا الشيخ فأخبرونا أنه الذي كان مقيماً بالمنيل في زاوية الكازروني ومات من نحو خمس وأربعين سنة.

وموقع هذه الزاوية في وسط الجزيرة بقرب شاطئها الشرقي، وكان المتنزه المسمى بالمشتهى ممتداً منها إلى جهة الشمال كما سنبينه في المرحلة الثانية وربما كان ممتداً في الجهة الجنوبية منها أيضاً.

المرحلة الثانية

وفي هذه المرحلة نترك زاوية الكازروني أو رباط المشتهى ونسير شمالاً حتى نصل إلى قرية صغيرة تعرف الآن بكفر قايتباي فنرى في شماليها مسجداً ملاصقاً لدورها يعرف بجامع قايتباي قد نقش على بابه اسم السلطان الملك الأشرف أبي النصر قايتباي وهو ثالث تغيير وقع في اسمه، فقد كان قديماً يعرف بجامع الفخر باسم منشئه القاضي فخر الدين محمد بن فضل الله ناظر الجيش المشهور بالفخر، وكان نصرانياً ثم أسلم وحسن إسلامه ومات سنة 732. قال السيوطي في كوكب الروضة ثم جدده الصاحب شمس الدين المقسي فصار يقال له جامع المقسى ونسي اسم الفخر، ثم جدده سلطان عصرنا وزماننا الملك الأشرف أبو النصر قايتباي وابتدأ فيه سنة 886 وعمل فيه ناعورة على وضع غريب بحيث تدور بحمار ينقل قدميه وهو واقف من غير أن يمشي ولا يدور وركب عليها طاحوناً فصار يسمى جامع السلطان ونسي اسم المقسى كما نسي اسم الفخر ثم زاد فيه سنة 891 وأنشأ حوله الغراس والعمائر الحسنة فعمرت تلك البقعة وأحييت الروضة بعد ما كادت تدرس محاسنها انتهى المراد منه. قلنا ثم نزل به جلال الدين السيوطي المذكور أو سكن قريباً منه فعرف به ثم عاد إليه اسم قايتباي لبقاء اسمه منقوشاً على بابه، وفي تاريخ الجبرتي (ج3 ص 191 طبع بولاق) خبر حريق وقع بهذا المسجد سنة 1216 يقول عنه في حوادث يوم الجمعة 13 ربيع الأول (وفي ذلك اليوم احترق جامع قايتباي الكائن بالروضة المعروف بجامع السيوطي، والسبب في ذلك أن الفرنسيس كانوا يصنعون البارود بالجنينة المجاورة للجامع فجعلوا ذلك الجامع مخزنا لما يصنعونه فبقي ذلك بالمسجد وذهب الفرنسيس وتركوه كما هو وجانب كبريت في أنخاخ أيضاً فدخل فلاح ومعه غلام وبيده قصبة يشرب بها الدخان وكأنه فتح ماعونا من ظرف البارود ليأخذ منه شيئا ونسي المسكين القصبة بيده فأصابت البارود فاشتعل جميعه وخرج لهصوت

هائل ودخان عظيم واحترق المسجد واستمرت النار في سقفه بطول النهار واحترق الرجل والغلام). وقد ذكر علي باشا مبارك هذا المسجد في ثلاثة مواضع من خططه أولها في الجزء الخامس ص67
باسم جامع الفخر في كلامه على جوامع القاهرة عامة في حرف الفاء، والثاني في ص 69 من هذا الجزء في حرف القاف باسم جامع قايتباي بالروضة، والثالث في الجزء الثامن عشر ص13 في كلامه على جوامع الروضة خاصة وقال في الموضع الثاني عن الحريق الذي وقع به ما نصه (ثم بعد مدة جدد ما احترق منه وأقيمت شعائره إلى الآن وكان يعرف أيضا بجامع السيوطي لإقامة الشيخ جلال الدين السيوطي فيه أيام نزوله بالروضة) انتهى.

قلنا وقد وصلنا في هذه المرحلة إلى ان مسجد قايتباي كان يعرف بجامع السيوطي لنزوله فيه أو لتردده عليه بسبب سكناه بجواره وإذا رجعنا إلى مترجمي هذا الإمام نراهم متفقني على إقامته في أواخر أيامه بالروضة ووفاته بها بعد أن مرض أسبوعاً وصرح الأسدي في طبقات الشافعية بوفاته سنة 916 بالروضة بالمشتهى وعلى هذا فمسجد قايتباي والأماكن المجاورة له كانت داخلة في حين هذا المتنزه أيضاً وكذلك ما بينها وبين زاوية الكازروني من المواضع غير أن قول الأسدي كما يحتمل أيضاً أن يكون مراده بالمشتهى رباط المشتهى المعروف بزاوية الكازروني على تقدير أن يكون السيوطي انتقل إليه وسكنه قبل وفاته وتوفي به ولكنا نرجح الأول لبعض مرجحات اطمأننا إليها: منها أنه الأشبه بما كان عليه هذا المتنزه من العظم المظنون في أمثاله من متنزهات الخلفاء الفاطميين إذ لا يعقل أنه كان محصوراً في بقعة ضيقة لا تتعدى الجهة الجنوبية لهذا الرباط وهو ما سنعالج تحقيقه في المرحلة الثالثة.

المرحلة الثالثة

إذا تركنا زاوية الكازروني وسرنا في الجهة الجنوبية منها فانا نصل إلى زاوية تعرف بزاوية الأباريقي واقعة على فيد غلوة منها شمالي قصر علي باشا شريف بجانب السور المحيط بحديقته وكانت قديما مسجداً جامعاً أنشاه قائد القواد غبن أحد خدام الحاكم بأمر الله الفاطمي فعرف به كما في كوكب الروضة للسيوطي قال وقد صار يسمى الآن جامع الأباريقي بولي مدفون بجواره ونسي اسم غبن فلا يعرفه الآن أحد إلا من له نظر في التواريخ. انتهى. وذكر علي باشا مبارك في خططه أن هذه الزاوية بنيت على جزء من جامع غبن وجددها أخيراً علي باشا شريف ابن شريف باشا. قلنا وقد زرناها فرأينا على بابها كتابة منقوشة في الحجر نصها: (مقام سيدي أحمد الاباريقي، أنشأ هذا المسجد سعادة
عبد الحميد بك شريف في غرة شهر شعبان المكرم من سنة 1327 هجرية) وبداخلها من الغرب قبة على حجرة بها ضريح الشيخ وعليه ستر أخضر عمله له عبد الحميد بك المذكور سنة 1328، ثم توفي بعد ذلك بقليل وهو ابن علي باشا شريف المتقدم ذكره وقد يكون المراد بإنشائه هذا المسجد إصلاح ما تشعث فيه من بناء والدة. وفي هذه الزاوية صلوا على الإمام السيوطي لما شيعوا جنازته من الروضة إلى حوش قوصون قال الأستاذ الشعراني في ترجمته بذيل طبقاته (ثم بعد شهر سمعت ناعيه ينعى موته فحضرت الصلة علوه عند الشيخ أحمد الاباريقي بالروضة عقب صلاة الجمعة وفي سبيل المؤمنين عند الجامع الجديد بمصر العتيقة).

فيتضح مما تقدم ان زاوية الكازروني المسماة قديما برباط المشتهى واقعة بلا ريب في موضع من هذا المتنزه ويعلم من موقعها انه كان في وسط الجزيرة على الشاطئ الشرقي منها ويدخل فيه ما في كمالي هذه الزاوية من المواضع إلى جامع قايتباي، ثم إذا صح أن هذه الزاوية واقعة في وسط المشتهى كما يغلب على الظن كان أيضاً ممتداً في الجهة الجنوبية منها أي زاوية الأباريقي أي فيكون موقعه فيما بين الأباريقي وجامع قايتباي وربما كان زائداً عن ذلك جنوباً وشمالاً والله أعلم.

تتمة

في توضيح أماكن ذكرت أسماؤها بالمصور منها جامع عبد الرحمن بن عوف فان العامة تزعم أن القبر الذي به للصحابي المشهور أحد العشرة المبشرين بالجنة رضي الله عنهم والصواب انه مدفون بالبقيع وبهذا المسجد قبر آخر دفن فيه حسن باشا المناسترلي الذي كان كتخدا مصر زمن عباس باشا الكبير أي وزيراً للولاية وهو من

المساجد القديمة بالروضة أنشأه بدر الجمالي زمن المستنصر الفاطمي وكان يسمى جامع المقياس ثم جدده الصالح نجم الدين أيوب ثم هدمه المؤيد شيخ ووسعه ولم يتمه فأتمه بعده الظاهر جقمق ثم عمره قائصوه الغوري ثم خرب وانتهك الفرنسيس حرمته زمن احتلالهم لمصر ثم جدد حسن باشا المناسترلي البناء القائم منه الآن على الجزء الشمالي منه ولما توفي دفن فيه وكان في الأصل كبيراً ممتداً من الجنوب إلى الشاطئ ومتصلاً بالدرج التي كانت على النيل وهي التي تزعم العامة أن موسى عليه السلام قذف منها بتابوته في اليم، ويرى الفرنسيس في كتابهم (وصف مصر) أن أبا جعفر النحاس رمى من هذه الدرج في النيل لما جلس عليها يقطع بيتاً من الشعر لظنهم انه يسحر النيل.

ومنها زاوية أبي يزيد البسطامي فان العامة تزعم أيضا انه مدفون بها والصواب انه مدفون ببسطام وقبره معروف بها كما في معجم البلدان لياقوت، واسمه طيفور ووفاته سنة 261 أو 264 كما في وفيات الأعيان لابن خلكان. وإنما نسبت هذه الزاوية للبسطامي لان بانيها من ذرية وهو الشيخ محمد بن أصيل بن مهدي الهمذاني ثم جعلها فتح الدين صدقة بن زين الدين أبي بكر رئيس الخلافة جامعاً في حدود سنة 770 فعرفت بجامع الريس وهي معروفة اليوم بزاوية البسطامي.

ومنها جامع الديريني وهو الشيخ عبد العزيز الديريني المتوفى سنة 694 فانهم يزعمون انه مدفون به والصواب انه مدفون بديرين وقبره بها معروف يزار كما في المنهل الصافي وطبعات الشعراني.

ومنها مقام الأربعين ولا مقام بهذا المكان وإنما هي شجرة سدر تعتقد العامة فيها ذلك، وقد وضع سدنتها بجوارها زيراً وأكوازاً لشرب الزوار والسابلة.

ومنها شجرة المندورة وهي من الجميز وللعامة فيها اعتقاد ومزاعم غريبة والظاهر ان اسمها عن المنذورة بالذال المعجمة والمراد المنذور لها والله أعلم.

عثمان بن أبي العلاء

الرجل الذي غزا الأسبان 732 غزوة

للدكتور عبد الوهاب عزام

ملك بني مرين يعم المغرب الأقصى، ويرث دولة الموحدين. وهذا سلطانهم السادس يوسف بن يعقوب بن عبد الحق (685 - 706هـ) يسير الجحافل لتمكين ملكه، ويجتهد ليكسو الدولة المرينية رونق الحضارة، ولكن جماعة من بني مرين حسدوا بني عمومتهم على السلطان، ونفسوا، وزعموا أنهم أحق منهم بميراث عبد الحق فثاروا على السلطان يوسف، اعتصموا بجبال ورغة، فأنزلهم السلطان من صياصيهم وألحمهم السيف. فأشفق أعياص بن مرين على أنفسهم ولحقوا ببني الأحمر بالأندلس سنة 686

ثم رجع إلى المغرب بعد سنين أحدهم: عثمان بن أبي العلا إدريس بن عبد الله بن عبد الحق، لينازع بني عمه السلطان، فثار في جبال غمارة فاشتملت عليها ناره واستطارت منها ثورته، فعمت بلاد كثيرة، ولجأ إليه كل مخالف من بني مرين وغيرهم.

ومات يوسف وعثمان في ثورته فخلفه ابنه أبو ثابت (706 - 708) فسير الجحافل إلى عثمان فهزمهم، ومد على رغم أبي ثابت سلطانه إلى بلاد أخرى فنهض أبو ثابت نفسه في جنود لا قبل لعثمان بها فخلى البلاد واعتصم بسبته، وهي يومئذ في قبضة بني الأحمر

ومات أبو ثابت فخلفه أخوه أبو الربيع سنة 708 واصطلح بنو مرين وبنو الأحمر فضاق المغرب على عثمان بن أبي العلاء فولى وجهه شطر الأندلس فيمن تبعه من قرابته.

لم يكن للمسلمين في الأندلس إلا مملكة غرناطة الضيقة وقد ألح العدو عليها وصمم على محوها. واستمات في الدفاع عنها المسلمون إذ كانت الملجأ الأخير، والوزر الذي ليس وراءه إلا الموت أو الاستعباد. وكان بنو مرين يرسلون جيوشهم مدداً لبني الأحمر حيناً، ويسيرون إلى الجهاد بأنفسهم حيناً. وكان أولو النجدة والصرامة، كأبي العلاء، يفدون على الأندلس مجاهدين مرابطين غضبا لدينهم، وحمية لإخوانهم.

جاء عثمان الأندلس فتولى (مشيخة الغزاة) وحسن بلاؤه، وعظمت مكانته فكان شجى في حلوق الأسبان، وكان غصة لبني الأحمر شاركهم في سؤددهم حتى كان يستأثر

بالأمر دونهم وهو من قبل خصم قومه ملوك المغرب، ثار عليهم وزلزل دولتهم زمانا. لم يكن
عثمان ملكا ولكنه:
كان من نفسه الكبيرة في جيش، وكم كبرياه في سلطان تولى زعامة الغزاة ثلاثاً وعشرين سنة فما وهن عزمه، ولا فل حده، ولا أغمد سيفه، ولا خط سرجه، وما كان إلا النار في كل موضع تثير غباراً في مكان دخان والنفس الكبيرة تستهين بالصعاب، وتطرق على المنايا الأبواب. وما الجيوش الجرارة، والحروب المستعرة في همة الرجل العظيم إذا صمم.
فأثبت في مستنقع الموت رجله وقال لها: من تحت أخمصك الحشر حسبي من الإفاضة في وصف عثمان، والإشادة بذكره أن أنقل هنا ما كتبه أصحابه الغزاة على قبره:
(هذا قبر شيخ الحماة، وصدر الأبطال والكماة، وأحد الجلالة، ليث الأقدام والبسالة، علم الأعلام، حامي ذمار الإسلام، صاحب الكتائب المنصورة، والأفعال المشهورة، والمغازي المسطورة، وإمام الصفوف، والقائم بباب الجنة تحت ظلال السيوف، سيف الجهاد، وقاصم الأعاد، وأسد الآساد، العالي الهمم، الثابت القدم، الهمام الماجد الأرضى، البطل الباسل الأمضى، المقدس المرحوم أبي سعيد عثمان أبن الشيخ الجليل الهمام الكبير الأصيل الشهير المقدس المرحوم أبي العلاء إدريس بن عبد الله بن عبد الحق. كان عمره ثمانياً وثمانين سنة أنفقه ما بين روحة في سبيل الله وغدوة، حتى استوفى في المشهور سبعمائة واثنين وثلاثين غزوة، وقطع عمره مجاهداً مجتهداً في طاعت الرب، محتسبا في إدارة الحرب، ماضي العزائم في جهاد الكفار، مصادما بين جموعهم تدفق التيار، وصنع الله تعالى له فيهم من الصنائع الكبار، ما سار ذكره في الأقطار، أشهر من المثل السيار، حتى توفي رحمه الله وغبار الجهاد طي أثوابه، وهو مراقب لطاغية الكفر وأحزابه. فمات على ما عاش عليه، وفي ملحمة الجهاد قبضه الله إليه، واستأثر به سعيدا مرتضى، وسيفه على رأس ملك الروم منتضى، مقدمة قبول وإسعاد، ونتيجة جهاد وجلاد، ودليلاً على نيته الصالحة، وتجارته الرابحة. فارتجت الأندلس لبعده، أتحفه الله برحمة من عنده. توفي يوم الأحد الثاني لذي الحجة من سنة ثلاثين وسبعمائة. رحمه الله).

صحائف المجد والخلود

الفن المصري القديم

- 3 -

مصر ملتقى ثقافات العالم:

مرت بمصر في مدى نيف وسبعة آلاف من السنين، من عهد ما قبل التاريخ حتى يومنا هذا، أربع مدنيات عظيمة: المدنية المصرية أو الفرعونية. وهي عصر قدماء المصريين وملوكهم حتى دخول الإغريق مصر واتخاذهم الإسكندرية مقراً للحكم، والمدنية الإسكندرية. وهي عصر الإغريق والرومان الذين كانت الإسكندرية في عهدهم عاصمة البلاد. والمدنية المسيحية (أو القبطية البزنطية) وهي عصر خضوع مصر للديانة المسيحية وظهور الأقباط. ثم المدنية الإسلامية، وتبدأ بدخول العرب وتغلب الديانة الإسلامية على البلاد.

ومن ذلك تجمع مصر لنا في آثارها أعظم سجل للحضارات البارزة، وأجل كتاب يقرأ عن العصور المتعاقبة في تاريخ الإنسانية. دع عنك ما شهدت مصر من مختلف الشعوب التي تتابعت على أرضها في الفتوح المتوالية، وما تركت هذه الدول في وادي النيل من صور للثقافات المتباينة. حتى لتكفي مصر وحدها أن تعطي لمن يرغب في دراسة الفن كل شيء، وتكفية المؤونة في كل ما يريد عمله. وإننا إذا وضعنا تحت عيني القارئ بأن أديم مصر قد كان مسرحاً كبيراً لغالب الأمم التي عرفها التاريخ، مثلت فيه كل واحدة دورها، وصرعت عليه أمة بعد أمة. وإذا أشرنا إلى أن كل أمة من هذه الأمم تركت على هذا الأديم أثراً من ثقافتها، وأثراً من نفسيتها، إن كان كبيراً أو ضئيلاً. فقد تكون مصر وحدها أجدر دول التاريخ بالدراسة. فضلاً عن أنها المصدر الأول للمدنيات جميعاً.

ويكفي لنقرر كيف جمعت مصر في أرضها حضارات العالم بأجمعه بان نشير إلى

العناصر التي دخلت فيها من الحروب والفتوح، مدى التاريخ القديم حتى يومنا هذا. فقد تعاقب على مصر من عناصر الأمم المختلفة: الساميون. والهكسوس (البدو الرعاة). واللوبيون. والأتيوبيون (النوبيون). والآشوريون. والفرس. والإغريق. والرومان. والعرب. والمغاربة. والأكراد. والشراكسة. والأتراك. والفرنسيون. والإنجليز. وقد احتك بها فوق ذلك من الأمم الأخرى: الحثيون. والكلدانيون. والفينيقيون. فلا عجب أن تكون مصر خير أمة يجب دراسة تاريخ الفن فيها. بل ما أجدرها أن تجتمع حولها الدنيا الحديثة لترقب في آثارها وسجلاتها صوراً خالدة من الدنيا القديمة. وتقرأ في مظاهرها المتباينة جليلا من كتب المجد لم تجمعه أمة غير مصر.

وقد يجب أن تعتبر مصر ملتقى ثقافات الشرق بالغرب. بل إن ثقافة مصر ذاتها نشرت على البلاد المجاورة لها نوراً كان له الأثر الأهم في حضارتها وتفكيرها.

ونأخذ دليلاً على ذلك فتوح مصر القديمة على يد جيوش (تحوتمس الثالث) و (رمسيس الثاني) مثلاً. فان أمثال هذه الفتوحات قد ترك في كل مكان، من الغرب للشرق، ومن المال للجنوب، أثرا، لا تزال بقاياه تشاهد في الآثار الموجودة حتى أقصى الفرس، وحتى أقصى بلاد المغرب، وحتى أواسط أفريقيا.

ولكن مصر ظلت مدى هذه التطورات التي مرت بها محافظة على قومية خاصة في فنها لم تعرف لها ظاهرة في أي أمة أخرى. ففي عهد المدنيات الأربع المتعاقبة على تاريخها، التي ذكرناها، وفي عهد الاقتباسات الفنية القليلة التي دخلت على الفن المصري في بعض فترات من التاريخ، كان للفن عندها طابعه الخاص. لا يخطئ قوميته أو روحيته الملازمة له. فهي إن كانت في إبان المدنيات الأربع قد انتقلت من عصر إلى عصر، يكاد يكون كل واحد منه غريباً عن أخيه في ثقافته ونظامه، حتى ليظهر جديداً كل الجدة عما كان مألوفاً من قبل. وان كانت الحياة قد تطورت عندها، من مصرية فرعونية، إلى إغريقية ورومانية، إلى مسيحية وقبطية، إلى إسلامية، إلا أن الفن في إبان هذه الثقافات الطارئة كان مصرياً. مصري الشخصية والروح. أو أن البلاد تمصر فيها الفن، أو هي مصرت فن كل مدينة من تلك المدنيات، وذللته ليلائم طبيعة مصر، ويتمشى مع ذوقها.

وان كان من شاهد يطلب على ذلك، فقد نشير إلى آثار الفن في العصر الذي حكمت في مصر فيها الإغريق والرومان مثلن ونقارنه في نفس الوقت بما كان من اثر الفن الإغريقي والروماني في بلاد الإغريق والرومان ذاتهما. فلاشك سيظهر ذلك الفرق واضحاً بين روحية الفن في المكانين في الإغريق والرومان متشحاً بذلك الوشاح الظاهر من الإجهاد والتعمق. وفي مصر بسيطاً وديعاً رشيقاً.

وكما نطبق هذه الحال على العصر الإغريقي والروماني، نطبقها أيضاً على العصر المسيحي القبطي، الذي كان فاشياً فيه نوع الفن البيزنطي. فان نفس تلك الظاهرة التي بيناها ستفرق ما في مصر عما كان مألوفاً في ذلك العهد من نفس نوع الفن في القسطنطينية مثلاً، مهبط الفن البيزنطي.

وهكذا أيضاً الفن الإسلامي. فقد يكفي بلا كبير عناء مقارنة ما في مصر من آثاره بما هو موجود في بلاد المغرب مثلاً التي نقلت إلى مصر الأسلوب الفاطمي. أو ما هو موجود منه في بلاد العراق وسوريا اللتين ارتبطت مصر في طويل من الزمن معهما في عصر من الأسلوب والشكل. فقد خضع الفن الإسلامي نفسه في جو مصر لمزاج أهل مصر، وللروح المصرية. في حين أن له في كل مكان، وفي بلاد الإسلام جميعا، صبغة عالمية. فاضطر الفن لذلك أن يتكيف في الأرض المصرية بالطابع الذي تتميز به مصر دائما، وهو طابع الاحتشام والبساطة والرقة الذي يعطي مع ذلك أروع وألطف ما يكون من التأثير.

وحينئذ فقد بقي لمصر فنها الخاص بها، المنطبع بالطابع المصري الصميم، الذي لم يخطئ غرضه، ولم يشذ عن طريقه، منذ أخذت مصر مكانها تحت الشمس. وفي ذلك سر من أسرار عظمة مصر الفنية التي نعترف لها بها التاريخ.

وإذن فالفن المصري جدير بالدراسة قبل كل الفنون الأخرى. إذ هو فضلا عن كونه فنا محليا غير مقتبس في اصله من أي بلاد أجنبية، بخلاف غيره. وفضلا عن انه الفن الوحيد الذي احتفظ مدى التاريخ بشخصيته الخاصة التي اقترنت باسم مصر. فانه المرأة التي تعكس علينا ثقافات الأجيال المتعاقبة مجتمعة في سجل واحد، هو الآثار

المصرية القديمة.
ودون ذلك يجب إلا ينسى فضل الفن المصري على فنون العالم، في انه المصدر أو المدرسة الأولى التي تلقنت عنه دروس الفن أمم الأرض جميعا.
(يتبع)
أحمد يوسف
بالمتحف المصري
من الصميم
يا أختاه. . .
إلى الفتاة المصرية:
صحراء الحياة موحشة يا أختاه، تشيع في شعابها المخاوف وتتحفز على هضابها الوحوش، وتكمن في كهوفها الحتوف، وتحوم في سمائها العقبان. . .
ومرحلة الجهاد طويلة. . .
ونحن المدلجين في صحراء الجهاد ينقصها رفاق يحملون عنا بعض ما ننوء به حتى لا يأخذ منا الياس، ويحملون أمامنا المشاعل حتى لا نأخذ على غير الطريق.
نحن بحمد الله أقوياء ما سلبنا الألم الأمل وان طال وغلا، وما غلبنا اليأس على بعد الشقة واتصال المشقة. . . ولكن:
إذا الحمل الثقيل توازعته ... أكف القوم هان على الرقاب
في عنقك الجميل دين يا أختاه، وعلى عطفك الرقيق تبعة هائلة؛
إن كنت تؤمنين بحق الوطن فاستعدي لتعدي لمصر جيلا جديدا أمينا على الميثاق، متينا بالأخلاق قويا لا يهاب في سبيل مصر الموت، مؤمنا لا يرتاب في حق بلاده وصدق جهاده.
إن كنت أما: فعلمي طفلك الدين أولا، ثم حدثيه عن مصر، اقرئي له صحف المجد الأولى، صحف أجداده من سادة الزمان، وقادة العالم وشادة الهرم، لقنيه تاريخ الأبطال فربما نفعت الذكرى، حديثه عن (مصطفى كامل) المجاهد المؤمن الشاب كيف جاهد ولما يتخط العشرين فتداولته الوان العسف وتناولته ضروب الإرهاق، فلم يصرفه ذلك عن السبيل ولم يصدفه عن الغاية، حدثيه عن (محمد فريد) كيف ضحى في سبيل مصر بالمنصب والراحة والصحة والمال وكيف مات غريبا واهتفي معه: لتحيى الضحية!
فإذا فرغت من تاريخ إشراق النهضة فحدثيه عن انبثاق الثورة ففيها من روائع آيات التضحية وبدائع صفحات الوطنية ما يهز نفوس المخلصين فخرا، ويحفز نفوس الناكصين في طريق المجد. . هناك (سعد زغلول) حمل الراية في أعصب الظروف وقد تساقط من حولها المجاهدون وكان له في مناهضة الاحتلال ومعارضة أهله جولات لا يزال يذكرها الذاكرون.
وشيء آخر أحب أن تلفتي نظر بنيك إليه:
في الألزاس واللورين نوعان من (الشيكولات) أحدهما مر والآخر حلو، والوالدة تبدأ فتعطي لطفلها المر منهما، فإذا بكى أفهمته أن هذه ألمانيا. . . سبب هذه المرارة ثم أعقبت فأعطته القطعة، الحلوة فيصفو ويبسم فتفهمه أن هذه فرنسا. . حلوة كهذه القطعة، هنا قياس طرفه الثاني محذوف للظروف فاستخلصي منه النتيجة والحكمة والموعظة إن كنت مدرسة.
فرسالتك مهمة، ومجالك متسع، وأثرك بعيد، وخطرك شديد، ودورك يبتدئ. حيث ينتهي دور الأم: لقد أعدت لك التربة، ومهدت لك منها ما جفا فاغرسي فيها الأصول الطيبة بالموعظة الحسنة والقدوة الحسنة، علمي تلميذتك كيف تفني في الحق وتغضب للكرامة وتثور للوطن وتستشهد في العقيدة والواجب في أسماء بنت أبي بكر يوم ساقت ابنها عبد الله إلى الموت، وفي الخنساء يوم فقدت بنيها الأربعة، وفي المرأة الإسبرطية يوم صرخت في ولدها الجندي (عد بترسك أو محمولا عليه) في كل أولئك صور من الفناء في الحق والواجب. . وأخيرا: ملاحظة لست أرفع القلم دون أن أثبتها.
قابلت في قطار الصعيد فتاة مدرسة في القاهرة ومعها طالبات لا تقل صغراهن عن

ست عشرة سنة فاتصلت بيننا أسباب الحديث وتشققت نواحيه، فكان من رأيهن جميعا أن المرأة لا تقع في الذكاء والعقل دون الرجل، وزادت المدرسة أنه يجب أن يباح للمرأة من الحريات والأعمال ما يتاح للرجل، وكنت أعتقد أن هذا لا يخرج عن كونه نقاشا ومكابرة! وراعني ان تخرج المدرسة (علبة سجائرها) أمام طالباتها وتقدم لي سيجارا!! أفي هذه الوجوه وحدها تطلبين المساواة؟ أنا مسلم يا أختاه أن رسالة المرأة في الحياة لا تقل أهمية عن رسالة الرجل، ولكن كل ميسر لما خلق له، ولو شاء ربك لجعل الناس جنسا واحدا رجالا أو نساء، ولكنه خلق المرأة لتكون كالظل يسكن إليها المجهود، فيجد في أحضانها مقيلا ينسى فيه لفحات الشقاء وسفعات الحياة. . . لتكون كالشاطئ يعود إليه الملاح بعد اضطراب الموج وثورة الزوابع. لم يخلقها لتحترف التنس والجولف. خلقها لتزين العش لا لتوزع وقتها بين الحدائق والزيارات والسينما. خلقها لتشارك الرجل في السراء والضراء
لا لترهقه من أمره عسرا. خلقها لتعد بنفسها أبناءها، لا لتتركهم لعناية الخدم والمربيات. . . تلك يا أختاه رسالة المرأة، أما ما عدا ذلك فباطل.

محمود البكري القلنصاوي

فلسفة سبنسر

للأستاذ زكي نجيب محمود

تمهيد

تستطيع أن تصور لنفسك الحركة الفكرية في أوربا في القرن الماضي بند ولا يتذبذب من طرف إلى طرف، ونقفز من النقيض إلى النقيض، وليس في ذلك نبو أو شذوذ، إنما هي الطبيعة الإنسانية، أو إن شئت فقل هي طبائع الأشياء جميعا، إذا ما تطرف بها الموضع، لا تستطيع أن تتوسط في مقر معتدل مطمئن قبل أن تجذبها الدفعة إلى أقصى الطرف الآخر. وهكذا خضعت الفلسفة في القرن التاسع عشر لما تخضع له الأشياء جميعا، فاهتزت بها الأرجوحة بين طرفي النقيض. ففي أوائل القرن الماضي طوح بها هجل في بيداء الغيبيات والتجريد فلا تكاد تقرأ شيئا منه، حتى تضل في عالم وراء هذا العالم المحس الملموس، فليست الطبيعة عنده شيئا، وما وراء الطبيعة هو كل شيء. ولكن لم يكد ينسلخ من القرن نصفه الأول ويضرب الناس في أحشاء النصف الثاني حتى نفر العقل الإنساني من ذلك الفكر المجرد، وسئم تلك الميتافيزيقا المعقدة الموحشة، وأعياه هذا العبء الثقيل. فألقاه عن كاهله غير أسف، وقفز الفكر إلى النقيض الآخر، فنهضت فلسفة جديدة تنكر غيبيات هجل وأشياع مذهبه، وتنتقل بالإنسان إلى ضرب آخر من ضروب الفكر، فبعد أن كانت تتناول بالدرس حياة لا يربطنا وإياها إلا الخيال الشارد، أخذت تعالج مظاهر هذا العالم الواقع المحسوس. نعم انتقلت الفلسفة إلى المعرفة اليقينية الإيجابية. وكان حامل اللواء في هذه الحركة أوجست كنت في فرنسا، ثم دارون وسبنسر في إنجلترا.

وكان طبيعيا أن تنشا هذه الفلسفة الإيجابية في فرنسا، لأنها موطن اللا أدرية والشك، وهما طريق لا بد أن تؤدي يوما إلى الإيمان واليقين مهما امتد بها الزمان، ثم كتب لهذه الحركة الإيجابية أن تصل بتيار الفكر في إنجلترا الذي استمد روحه من الصناعة التي تدوي أرجاؤها في كل ربع من ربوعها، والتي تقوم على العلوم أولا واخرا، فليس عجيبا أن يصوب الفكر الإنجليزي ناظريه نحو الحقائق التي هي المعين الذي تستنبط منه العلوم بأسرها وان يضرب بكل ما وراء الطبيعة عرض المحيط. . وقد كان بيكون أول من انتحى بقومه ذلك النحو من التفكير، ثم تأثر خطوه من جاء بعدهفلاسفة الإنجليز: هوبز
ولوك وهيوم.

عني الإنجليز إذن بدراسة ما حولهم من أحياء وأشياء. حيث آمنوا إيمانا قاطعا أنها هي الحقائق التي لا حقائق بعدها، فنتج عن هذه الدراسة علوم الطبيعة والكيمياء وسائر العلوم جميعا، بما في ذلك علم الحياة الذي كانت نظرية التطور ثمرة من قطوفه. وقد فصلها دارون في كتابه اصل الأنواع تفصيلا ضافيا، فكان لها دوي ارتجت له أركان الجامعات ومجامع العلم في أنحاء العالم، ثم جاء على الأثر فيلسوفنا سبنسر حيث استوى على ذروة بلك الموجة الفكرية فتناول مبدأ التطور وأخذ يطبقه على كل ناحية من نواحي التفكير. وها نحن أولاء نورد لك خلاصة موجزة لأهم ما جاء في كتبه من

آراء.
1 - الحقيقة المغلقة، أو ما لا يمكن معرفته
يقدم سبنسر بين يدي كتابه (المبادئ الأولى) قضية لا يرتاب في صدقها، وهي أن كل دراسة تقصد إلى البحث في حقيقة الكون واستقصاء علتو، لابد أن تنتهي إلى مرحلة يقف حيالها العقل عاجزا لا يستطيع أن يدرك عندها من الحق شيئا، سواء سلك إلى ذلك سبيل الدين أو العلم أو ما شئت من سبل
ابدأ بالدين وانظر كيف يعلل ك الكون: هذا ملحد يحاول أن يقنعك بان العالم إنما وجد بذاته، لم يتفرع عن علة وليس له بدء ولا ختام، فلا يسعك أمام قوله هذا إلا أن تمط شفتيك جحودا وإنكارا، لان العقل لا يسيغ معلولا بغير علة، وموجودا سار في الحياة شوطا لا بداية له. . . ثم استمع إلى هذا الناسك المتدين، ها هو ذا يقص عليك علة الكون وكيف كانت نشأته، فخالق الكون عنده إنما هو الله العلي العظيم، ولكنك صلب عنيد، سترى انه لم يفسر من المشكلة شيئا، ولم يزد على صاحبه سوى أن أرجعها خطوة إلى الوراء، وكأني أسمعك تسائله في سذاجة الطفل ومن أوجد الله؟. وإذن فالدين بجانبيه - الإيمان والإلحاد - لم يستطع أن يقدم لك تعليلا واضحا معقولا.
خذ العلوم، فلعلك واجد عندها ما يرد حيرتك. . . سائل العلم: ما هذه المادة التي أراها والمسها والتي تغص بها جوانب الكون؟ انظر! ها هو ذا يحلل لك المادة إلى ذرات ثم إلى ذريرات أدق. ثم إلى أخريات اكثر منها دقة، ثم ماذا؟ هنا يقف العلم بين اثنتين، فهو إما أن يعترف بان المادة قابلة للتجزئة إلى ما لا نهاية له من الأجزاء، وليس من اليسير أن تسيغ
هذا القول، وإما أن قرر بان ثمت حدا يقف عنده التقسيم، وهو ما يستحي عليك أن تقنع به. . . ثم سائل العلم عن القوة ما هي؟ فلست أحسبه يستطيع جواباً. . وأذن فالعلم كذلك عاجز عن شرح حقائق الكون.
وأي غرابة فيما يصادف الذكاء البشري من إبهام لا يقوى على معرفته؟ انه اعد لكي يفهم ظواهر الأشياء، ولا يعدوها إلى ما خفي وراء أستارها، ولكنا في الوقت نفسه لا نستطيع أن ننكر هذا الشعور الذي تضطرب به نفوسنا من أن وراء هذا الغشاء الظاهر حقيقة كامنة، حسب العقل أن يدرك وجودها، إما إذا هم نحوها بالتحليل والتعليل خر صريعا عاجزا.
وعلى هذا الأساس من وجهة النظر، يصبح التوفيق بين العلم والدين هينا ميسورا، فليقصر العلم دائرة بحثه على ظواهر الأشياء دون أن يورط في البحث عن حقائقها المستورة. له أن يتناول المادة تحليلا وتركيبا دون أن يبحث في ماهية المادة، وله أن يستنبط قوانين الحرارة والضوء والصوت وما إليها من مظاهر القوة دون أن يعلم ماهية القوة، لان هذه وتلك فوق مقدوره، وكل محاولة له في هذا السبيل ضرب من العبث. . . أما الدين فخير له أن يترك هذا العقل المعاند الملحاح، الذي لا يركن لغير الحجة المنطقية، خير له إن يترك هذا العقل يسبح في غروره وان يناشد العقل من الإنسان، لأن من طبعها إلا تلزم بالحجة العقلية. . قل للعلم أن يكف عن إثبات الله أو إنكاره فليس اللاهوت ميدانه الذي يصول فيه ويجول، وقل للدين أن يكف عن مناشدة العقل لأنه لا يستقيم مع نهجه في التفكير، تر الدين والعلم أخوين متصافحين لكل منهما حلبة ومجال.
ترى من هذا أن سبنسر يعتقد اعتقادا لا يلين للشك بان وراء ظواهر الأشياء حقيقة مغلقة لا يستطيع العقل البشري أن يعلم من أمرها شيئا، ولكني أريد أن أتقدم هنا إلى سبنسر في تحفظ أن يعلم عنها شيئا، قول يهدم نفسه بنفسه لأنه يتضمن اعترافا بان العقل قد ألم بها فعلا بعض الإلمام فقد أدرك وجودها على اقل تقدير، ثم سار في بحثها شوطا أيقن بعده أنها فوق مقدوره المستطاع، إذ لو كانت مغلقة دون العقل إغلاقا تاما، لما علم وجودها فضلا عن علمه بقدرته على إدراكها أو عدم قدرته.
2 - التطور
ولكن مهما يكن من أمر فهاهي ذي الفلسفة - أي العقل - قد ألقت سلاحها معترفة بقصورها وعجزه عن إدراك تلك الحقيقة الكامنة وراء ظواهر الأشياء وبادرت فألقت بهذا العبء الذي اثقل كاهلها طوال العصور إلى الدين نبحثها ما شاءت له طرائقه، ولتقنع الفلسفة بالبحث فيما تستطيع له فهما وإدراكا، ولتكن مهمتها منذ اليوم تلخيص

النتائج العلمية وجمعها في وحدة شاملة. فقد بدأت المعرفة بأشتات متناثرة من المعلومات، ثم امتدت إليها يد العلم بشيء من الربط حتى تركزت في طائفة من العلوم. أفلا يجدر بالفلسفة أن تؤاخي بين أفراد هذه الجماعة من العلوم المختلفة. فتسكب المعارف الإنسانية جميعا في وحدة متماسكة؟ حقيق بها إلا تدع سبيلا للبحث حتى تهتدي إلى قانون عام ينتظم التجارب الإنسانية جميعاً، كائناً ما كان لونها. . . ترى هل توفق إلى الهداية في هذه الطريق الملتوية الوعرة، فتنتهي إلى قانون واحد يفسر هذا الشتيت المتضارب مما يقع تحت حسنا؟ ويضم تحت لوائه المفرد كل هذه البنود المتباينة مما تضم صدورنا من تجربة وعلم؟

يجيب سبنسر أن نعم، إلا يتلخص تاريخ الكائنات جميعا في ظهورها من بدء مجهول ثم اختفائها في نهاية مجهولة؟ إذن فلا بد ان يكون ذلك القانون المنشود شاملا للتكوين والانحلال. . . إلا وهو التطور. وهنا يضع سبنسر قانونا للتطور شرحه في مجلدات عشرة واستغرق من زمنه عشرين سنة كاملة، هاك نصه: (التطور هو تجمع لأجزاء المادة، يلازمه تشتيت للقوة والحركة، وفي خلال ذلك تنقل المادة ن حالة التجانس المطلق إلى حالة التباين المحدود) ولشرح هذه العبارة نقول:

لقد تكونت الجبال الشامخة من ذرات الحصى، وامتلأت المحيطات الفسيحة بقطرات ضئيلة من الماء، واجتمعت عناصر دقيقة من الأرض فكونت الأدواح العالية، ووجبات متعاقبة من الطعام تشيد أجسام الرجال، وتآلفت طائفة من المشاعر والذكر فألفت فكرا ومعرفة، ثم تأخت جزئيات المعرفة فأنتجت علماً وفلسفةً، لقد تطورت الأسرة إلى القبيلة، ثم إلى المدينة والجنس، ثم إلى الدولة، ثم إلى تحالف بين دول الأرض قاطبة. . . كل هذه أمثلة لأجزاء المادة المتناثرة كيف تأتلف ويجتمع بعضها إلى بعض. ومن جهة أخرى يسبب هذا التالف حدا من حركة الأجزاء وشلا لقوتها، فقوة الدولة مثلا تحد من حرية الافراد، والحبة من الهباء حرة الحركة وهي منفصلة، مشلولة مقيدة إذا ما اجتمعت مع

أخواتها في صخرة أو جبل. . ولكن تجمع الأجزاء يستتبع نتيجة أخرى هي التنوع والتنافر في العمل الذي نؤديه كل منها، فقد كان السديم الأول مركبا من مادة متجانسة يشبه بعضها بعضا ولكنها سرعان ما تنوعت في غازات وسوائل وأجسام صلبة. . أنظر فهذه قطعة من الأديم قد افترشت سندسا أخضر، وتلك الجبال قد اكتست ثوبا ناصعة البياض، وذلك البحر قد تسربل بلباسه الأزرق. . . أنعم النظر في هذه الخلية الواحدة المتجانسة وما سينشأ عنها من مختلف الأعضاء: هذا للغذاء وذاك للإفراز ثالث للحركة ورابع للإدراك. . . اللغة الواحدة لا تكاد تسري في بطاح الأرض حتى تتنوع في السنة ولهجات لا يفهم بعضها عن بعض. . العلم الواحد يتفرع عنه عشرات من العلوم، المنظر أو الحادثة توحي صورا من الفن والأدب ليس إلى حصرها من سبيل. . . كل هذه أمثلة على التنوع والتنافر اللذين يعقبان التشابه والتجانس.

وهكذا أسطورة الحياة: تجمع وتفريق، تآلف وتنافر، تأتلف الأجزاء وتجتمع في وحدة لا تزال تطرد في النمو حتى يدركها تنافر الأجزاء، ثم يشتد حتى تتلاشى وتنحل. . . سنة الوجود هذا الانحلال والتكوين، ولكنه بين جذبة المد ودفعة الجزر يلتمس التوازن لكي ينتهي إليه. . . فكل حركة تعاني من المقاومة ما يؤدي بها البطء ثم إلى السكون عاجلا أو آجلا. . . الكواكب السيارة يضيق فلكها شيئا فشيئا. . . حرارة الشمس وضوؤها يقلان كلما تقادم عليها الدهر. الأرض تتلكأ في سرعتها عهدا بعد عهد الدماء في عروقنا سيصيبها البرودة والبطء. . . وهكذا سيسعى الوجود نحو الانحلال، أو سيسعى الانحلال إلى الوجود خطوة خطوة، وهي خاتمة محتمة للتطور: سينحل المجتمع وتتفرق الشعوب، ونذوب، وتذوب المدن. وبمثل هذا تتم دورة التطور والانحلال ولكنها ستبدأ السير ثانية وثالثة إلى ما لا نهاية له من المرات، وكل تكوين جديد لا بد أن ينتهي بالفناء والموت.

وهكذا كان كتاب (المبادئ الأولى) مأساة مروعة تروى لنا قصة العالم صعود وهبوط، تكوين وانحلال، حياة وموت، تطرأ متتابعة على الأحياء والأشياء. . . أفيكون عجيبا أن يقابل هذا المؤلف عند إخراجه وأذاعته في الناس ثورة عنيفة لأنه لم يدع مجالا للعقيدة والأمل؟!

رأيت فيما سبق أن التطور عند سبنسر هو القانون الذي تنشده الفلسفة لكي تضم بين دفتيه
علوم الإنسان بأسرها. فمهما قلبت النظر في مظاهر الكون وجدتها تسير في سبيل التطور أي من البساطة إلى التعقيد ومن التجانس إلى التباين. ويجدر بنا أن نورد في هذا المقام نقدا للفيلسوف المعاصر برجسن على هذا القانون، فهو يقول إن سبنسر بقانونه هذا إنما يقدم لنا صورة الطبيعة كما هي، وليست هذه مهمة الفيلسوف، بل يطلب إليه أن يفسر هذه الصورة التي اكتفى بسردها سردا.
ويختم سبنسر كتابه هذا برأيه في الحياة بأنها تافهة حقيرة لا تستحق البقاء، فأصاب بهذا الرأي ما أصاب الفلاسفة جميعا من محنة النظر البعيد، إذ ألقى ببصره إلى الأفق النائي، فمرت صور الحياة الخلابة تحت أنفه دون أن يراها!!
ولنقف من الأمر عند هذا الحد على أن نعود في مقال تال إلى تتمة الموضوع.
زكي نجيب محمود
من طرائف الشعر
أغنية ريفية
للشاعر الوجداني علي محمود طه المهندس
إذا داعبَ الماءُ ظلَّ الشجر ... وغازلت السحب ضوء القمر
ورددت الطير أنفاسها ... خوافق بين الندى والزهرْ
وناحت مطوقةٌ بالهوى ... تناجي الهديلَ وتشكو القدرْ
ومرَّ على النهر ثغرُ النسيم ... يقبلُ كلَّ شراع عَبَرْ
وأطلعت الأرض من ليلها ... مفاتنَ مختلفات الصورْ
هنالك صفصافةٌ في الدجى ... كأن الظلام بها ما شعر!
أخذت مكاني في ظلها ... شريد الفؤاد كئيب النظر
أمر بعيني خلال السماء ... وأطرق مستغرقا في الفكر
أطالع وجهك تحت النخيل ... وأسمع صوتك عند النهر
إلى أن يمل الدجى وحشتي ... وتشكو الكآبة مني الضجر
وتعجب من حيرتي الكائنات ... وتشفق مني نجوم السحر
فأمضى لأرجع مستشرفا ... لقاءك في الموعد المنتظرْ!!
الزورق الغريق
للشاعر الدمشقي أنور العطار
(ولكن إذا رجع بك القدر دون ما قصد إلى أثر لحب منسي، فان هذه الحصاة . . . تقفك ويؤلمك أنها صدمتك. وتصيح حينذاك أن الحياة حلم، وتظل مكتوف اليدين كما لو انتبهت من إغفاءة، فتحزن وتضطرب، ذلك لان الأكذوبة المفرحة لم تدم إلا لحظة!)
(ألفريد دوموسيه)
أنيري ظلام الروح فالحب زورق ... متى يعترضه طائف اليأس يغرقه
يحوم على شط النجاة مروعا ... فتحبسه الأمواجقربان متق
علالة مغلوب تعايا رجاؤه ... فلم يبق منه غير أنَّة مشفق
وفاضت من المجداف حسرة خائب ... حبيس التشكي خافت النوح مرهق
وعاصفة هوجاء كالموت صولة ... رمت بشراع خافق متمزق
فطاحت أمانيه وافضى به الردى ... إلى حالك جهم السرائر ضيق
قسوت على قلبي وشردت حلمه ... وخلفتني مثل الغريق المعلق
فلا اللجة الربداء تخطف روحه ... ولا هو من مر العذاب المعلق
حنانيك ردي النفس من عالم الأسى ... إلى عالم حلو الأعاليل مونق
فينتعش القلب الذي مضه الجوى ... ويمرح في كون من الحب مورق
أسيت له كم يقطع العمر موجعا ... ويحيا بحب يائس منك مقلق
متى تلتمع ذكراك في ساح حلمه ... يضج كطفل واهن الصبر محنق
يود لو آن الله ألقاه موجة ... بصدرك أن يخنق به الوجد تخفق
خذي بيدي فالحب لم يبق لي يدا ... أرد بها كيد الحياة وأتقي
أضعت ملاذي في هواك وليتني ... ظفرت بحب طافح منك مغدق
كأن الهوى قد بدل القلب طائرا ... وعلمه نوح الحمام المطوق

يحلق في موج السماء مغلغلا ... ومن يضنه الحب البريء يحلق
هل الحب إلا بعض اصبغة الصبا ... متى ما توش القلب يخفق ويعشق
يعيد إلى خابي الحياة شعاعها ... فتندى بنور ساطع متألق
أفيضي عليَّ الحب تلمع على المدى ... خيالات ماض ضاحك الحلم مشرق
يرف سناه وهو نديان بالرؤى ... كموجة نور في غلالة زنبق
تعاودني ذكراك والقلب عاطش ... وإما يساوره التذكر يشرق
إذا اغدر الورد الذي كان صافيا ... فلا بد من كرع المرير المرنق
أيا نهر النسيان غيب صحيفتي ... وهرق بها في الغيب كل مهرق
فما نور هذا الكون إلا عماية ... إذا كان حظ الحب غير موفق
أماني كثر والهوى يستثيرها ... ولكنها بنت الخيال المنمق
يزين لي أفق الأعاليل حاليا ... فأيان يبد الحلم نضرا اصدق
ويغري فؤادي بالرؤى وهي ضلة ... وما كان حلم القلب بالمتحقق
أفقت وقلبي لا يروم إفاقة ... ومن تحتجب عنه الأماني يزهق
فيالك من قلب كحلمي طائح ... شتيت كدمع الفجر نهب مفرق
سنمضي ويبقى الحب لهفان باكيا ... يموج كسر في السموات مغلق
إذا طفحت هذي السماء بحبنا ... فهل تحفظ النجوى إلى يوم نلتقي
وقفت عليك الشعر أسوان دامعا ... بقية ومض من فؤاد محرق
فصوني نشيدا ضم أحلام شاعر ... مضاع شرود اللب ولهان شيق

آية الجزر

للأستاذ فخري أبو السعود

جزيرة قد إشاحتها يد القدر ... عن الشطوط فقامت آية الجزر
قد استوت وسط أمواج تلاطمها ... نصب الرياح ونصب البرد والمطر
إذا الشتاء أتاها لم يرم حولا ... عنها وفشى فجاج الأرض بالكدر
قريب ما بين أطراف النهار وما ... يزهو برونق آصال ولا بكر
يأتيك في كل يوم من تحوله ... شأن جديد وأمر غير منتظر
يا رب يوم شرود جاء مزدهيا ... بشمس ونسم لين عطر
تلاه آخر رواها وأترعها ... بوابل مستمر الوكف منهمر
فجاء صبح حديد البرد قارسه ... يكوى الوجوه بوخز منه كالإبر
فجاء من بعد صبح أبيض يقق ... كاس بثلج كزغب الطير منتشر
نغشى المنازل والأشجار ناصعة ... كسكر فوق حلوى العيد منتر!
يكاد يزلق عنه غير منتبه ... من لم يطأه بنعل الخائف الحذر
فجاء صبح يلف الأرض في سدف ... من الضباب كثيف اللون معتكر
يكاد يفتقد الإنسان راحته ... إذا تعرض بين الراح والبصر
يطوي معالمها في طي غيهبه ... فلم يدع ثم منظورا ولم يذر
إذا أقام ثلاثا في جوانبها ... نسيت كيف مسير الشمس والقمر
إذا تراءت شتاء وهي كالحة ... شوهاء عاطلة من معجب الصور
دجناء مربدة الآفاق حائلة ... جدباء ذاوية الأزهار والشجر
عجبت كيف يزور الوحي واديها ... وكيف ينطق فيها الشعر بالغرر
وكيف يونع حسن في كواعبها ... يتهن في ريق منه وفي نضر
لكن شاعرها سارت نباهته ... في الخافقين وجابت سالف العصر
وقومها في أقاصي الشرق قد رفعوا ... والغرب راية رب السبق والظفر
سادوا بكل أديم راق منظره ... وكل واد قشيب الوشي والحبر
وسخروا اليم واعرورو أواذيه ... بقاهر حيث جاب اليم منتصر
الله يشهد ما جاءوا بمعجزة ... في العالمين ولا بدع من الخبر
لكنه الجد تنقاد الأمور به ... للطالبين ويدنو عازب الوطر

في 14 نيسان 1933

(هدية إلى صديقي الشاعر الملهم أحمد رامي)

احبك في القنوط وفي التمني ... كأني منك صرت وصرت مني
أحبك فوق ما وسعت ضلوعي ... وفوق مدى يدي وبلوغ ظني

هوى مترنح الأعطاف طلق ... على سهل الشباب المطمئن
أبوح إذن فكل هبوب ريح ... حديث عنك في الدنيا وعني
سينشرنا الصباح على الروابي ... على الوادي على الشجر المغني
أبوح اذن، فهل تدري الدوالي=بأنك أنت أقداحي ودني
!!أتمتم باسم ثغرك فوق كأسي ... وارشفها كأنك أو كأ ني
نعيم حبنا فانظر بعيني ... وعرس للمنى فاسمع بأذني
كأن الصحو يلمع في ظنوني ... ويخفق في ضلوعي ألف غصن
على الوتر الحنون خلعت شوقي ... وماج هواي في آه المغني
ففي النغم العميق إليك أمشي ... وأسلك جانب الوتر المرن
بيروت
أمين نخلة
دراسات أدبية
بلاسكو ايبانيز
نقل رفاته من منفاه إلى مسقط رأسه
بقلم محمد أمين حسونة

رأت الجمهورية الأسبانية وقد تحققت أطماع رجالها السياسية واستقرت حركتها الانقلابية الدستورية، أن تمجد الرجل الذي تقدم الصفوف ونفخ في بوق الثورة، فذهب ضحية مبادئه، بعيدا عن البلاد التي لبث نصف قرن ونيفا يخلص لها الحب، حتى كانت (إسبانيا) آخر كلمة لفظتها شفتاه، وهو يعاني الآم الموت في منفاه. فلم تجد أليق من أن تعبد رفاته إلى وطنه ليضمه ثرى (بلنسية) وهي البلدة التي انبثق من نواحيها فجر هذه العبقرية الفذة التي نتحدث عنها.

فمن أسابيع خلت، احتفلت الحكومة الأسبانية رسميا بنقل رفات الكاتب الشهير (بلاسكوايبانيز) من مدينة (منتون) بفرنسا، على ظهر بارجة حربية حملته إلى مسقط رأسه، وقد كان الاحتفال بوصول رفاته يوما مشهودا في تاريخ إسبانيا، ساهم الشعب فيه بإظهار عواطفه السامنة، نحو الرجل الذي لبث يجاهد ويناضل ويذكي في وطنه من حرارته وفتوته، لتظل فوهة البركان أبدا مشعلة وهاجة!

عاش ايبانيز طيلة حياته متمرداً ثائراً، لا يهدأ ولا يستقر ولا يعرف لبدنه عليه حق، كأنه موكل بتسخير قوى الطبيعة لخدمتة حتى قيل: إنه سحابة من نار.

طالع في فجر شبابه كل كل ما كتب عن الثورة الفرنسة، وكان يشبهها (بالهرة) عندما تجوعلا تلبث أن تأكل صغارها، ولكن الثورة لم تأكل صغارها، بل أكلت زعماءها: دانتون، ومارات وروبسبير. وكان مفتوناً بروسو وفولتير، يعجب بهما ويقول: هما اللذان مزقت أفكارهما وثائق العبودية، وبفضل مبادئهما اشتدت روح الثورة، غذاها الاول من ناحية القلب، والثاني من ناحية العقل.

ولد بلاسكو فيسنت ايبانيز في 29 يناير سنة 1876 بمدينة بلنسية، وهي حاضرة المقاطعة المسماة باسمها، وقد اشتهرت بكتدرائيتها الأثرية ومنها خرجت طائفة من اعظم فناني

إسبانيا في القرن الرابع عشر، وقبل أن يبلغ العشرين من عمره، اصدر صحيفة أسبوعية كانت تبث المبادئ السياسية المتطرفة في ذلك الوقت، كالجمهورية، والدعوة إلى الاشتراكية ونحو ذلك، وحدث أن قدم ايبانيز إلى برشلونة - مهد الثورة - ليخطب في حفل سياسي، فتناول في خطابه الجمهورية والملكية، وأخذ يفاضل بينهما، فقبض عليه رجال البوليس، ولكنه قاومهم واعتدى عليهم فحكم عليه بالسجن، غير أنه خرج من السجن وقد ازداد إيمانا بمبادئه وتحفزاً إلى تحقيقها، فكون (الحزب الجمهوري الحر) وتقدم في ضوء هذه المبادئ إلى الانتخابات، ففاز بالإجماع وانتخب نائبا في البرلمان الإسباني عن مقاطعة (بلنسية) ولم يمنعه اشتغاله بالسياسة من ان يتفرغ للأدب والكتابة، وهو بلا شك أعظم كاتب ظهر في إسبانيا إلى اليوم، خلف وراءه ثروة أدبية زاخرة، تبلغ الثلاثين كتابا، كل صفحة منها مشرقة إشراق النجم!

أم تقتصر ثورته على الأوضاع السياسية التي كانت تشكو منها بلاده فحسب، بل عرف أنه كان هداما في دائرة الأدب أيضاً، ليبني على أنقاض القديم وجموده، أدبا جديدا حيا له طابعه ومميزاته الخاصة، والحقيقة أن العصر الذي بدأ فيه ايبانيز حياته الأدبية، كان

في حاجة إلى من يقوض أركانه، وكان يقول: نحن في حاجة إلى الثورة الأدبية التي تدفعنا إلى كشف مواطن الجمال وتؤدي بنا إلى النور.

ولكن هل أثرت تعاليم ايبانيز حقا فأخرجت الأدب الأسباني من الظلمة إلى النور؟ أن من يتذوق ذلك الفن العميق الرائع الذي خلده ايبانيز في قصصه الممتعة، أمثال: في ظل الكنيسة، وامرأة (جويا) العارية، وفرسان الرؤيا الأربعة، وفاجعة البحيرة، وبحرنا، وزهرة مايو، وأعداء المرأة، ورمل ودم، والأراضي المجهولة الخ، ذلك الفن الذي كان يعتمد في إبرازه على جمال التنسيق ودقة الوصف، وإرهاف العاطفة ويكسوه بإشعاع الروح الدرامي الغامر، حتى يجتهد في أن يجعل من أدبه مرآة صافية لفنه الجميل، تنعكس عليها مختلف الصور والأحاسيس، فتشعر وأنت تطالع قصة له أن شعورك ووجدانك مرتبطان تماما بحوادثها، وأنها تمثل بلاده ونفسيتها أبلغ تمثيل، وقد لا يصرفه كلفه باللوحة ومحاولة إظهار مكامن الفتنة في الصورة، عن العناية بالإطار نفسه، فتجده يقتنص المعاني ويصقل الألفاظ كما يصقل النحات الأحجار قبل البناء، وولعه بالطبيعة يدفعه إلى ان يجاري (زولا)

فيرسم أبطاله وهم يعيشون بين مهادها بعيدين عن تلك العاطفة الزائفة التي تولدها الحياة المصطنعة في المدن، كما أن، إعجابه بالبحر المتوسط - مهد جميع البطولات والأديان - يوحي إليه أن يمجد من أعمال رجاله. عوليس، وبركليس، وهنيبال، والاشادة بشجاعة فرسانه، ولك في قصته الخالدة

لفت ايبانيز أنظار العالم الأوربي إلى فنه خاصة والى الأدب الإسباني عامة، فترجمت مؤلفاته إلى اللغات الحية وأولع الفرنسيون بقصصه فقلدوه وسام (جوقة الشرف)، وهتف له شيوخ النقدة، فوصفه كورتوس النقادة الألماني (بأن فيه عباره عن مأساة الخير والشر)، وقال أحد القصصيين الأمريكيين (لقد بدأ ايبانيز ينافسنا في صناعتنا، والاوفق أن نحطم أقلامنا ونبحث عن صناعة غير الأدب لنعيش)!

وقد غرست مبادئ فولتير في نفسه كراهية رجال الدين والسخرية من أعمالهم، ففي قصته المسماة ' (في ظل الكتدرائية)، يصور لنا مفكرا اشتراكيا هو (جبريل لونا)، يطالب بالإصلاح الاجتماعي فيكون نصيبه الاضطهاد من الكنيسة، فيثور على رجالها ويحتج ويغادر بلده بعد ان يؤمن بأن لا كرامة لنبي في وطنه! ويطوف باوربا ليبشر بمبادئه، غير أن السلطات تطارده أينما حل، فيعود أخيرا إلى بلده مقصوص الجناح كسيرا، ويضطر إلى ان يعيش متخفيا مع أخيه الذي يعمل خادما (بالكتدرائية)، أي يعود فيأكل من خبز الكنيسة التي يضمر لها البغض، حتى إذا ما اشتد ساعده اخذ يكفر بنعمتها ويؤلب الجموع عليها، يتخذ من خدامها تلاميذ له، ويبث مبادئه بينهم، فلا تلبث هذه المبادئ أن تسري كالسم في أبدانهم، يحملهم على سرقة أموالها وتحفها، ولكنهم في خلال السرقة يقتلونه ويمثلون به اشنع تمثيل!

ولعل فن ايبانيز يبدو قويا واضحا، وأفكاره مستوية ناضجة في القسم السادس من القصة، عندما يحمي وطيس المناقشة بين جبريل واحد اتباعه، فيبسط أمامه حالة إسبانيا وجمود الكنيسة، ويتعرض للفترة الذهبية من تاريخها، فيذكر ان الإسبانيين اعظم من اليونان والبيزانطين، فهم الذين اهدوا البشرية (الدنيا الجديدة) وهم أرستقراطية الشعوب وسادة البحار، قادوا الرواد في سياحاتهم حول الكرة وجابوا الآفاق وبعثوا المدنية من مرقدها، ولو أنصف التاريخ لجعل بلادهم وطن العالم الأول!

أما في قصته (رمل ودم) فهو المتهكم اللاذع، صاحب الأسلوب المتدفق الفياض، يرسم لنا في لياقة وسحر، حياة مصارعي الثيران فلم يحاول أن يقلل من خطر هذه المصارعة الوحشية، ولكنه هاجم الأرستقراطية التي تبني مجدها وتسليتها على شقاء هؤلاء المصارعين الذين يطلقون عليهم اسم (التربادور). فبطل هذه القصة (جوان جالا رادو)، فتى يخرج من صفوف الشعب ليشق طريقه إلى المجد بقوة ساعديه فيتمرن على مصارعة الثيران ولا يلبث أن يبذ أقرانه ويتألق هجمه، وتمكنه شهرته وحياته الجديدة من ان يستمتع بكل ما كان يصبو إليه في صغره، يحارب الفقر والجوع وينعم بالزواج ووفرة المال، ولكن القوة والشهرة لا تدومان، فهو يخشى ان يفقدهما عندما يقف في ساحة المصارعة حاملا حياته بين ذراعيه، ويرسم ايبانيز إلى جانبه صورة أخرى يحملنا على التهكم والازدراء بها: صورة (كورنتيس) وجدانية الحس متقلبة الأهواء تدعى (دوناسول)، بعد أن تنتزع (جالارادوا) من أحضان زوجته، تحبه، وتعبده

كبطل وتحاول أن تقرن نجمها بمجده وشهرته، ولكن عندما تحس بالفارق بينهما كامرأة أرستقراطية تنحدر أصلاب الأشراف، وبينه كرجل من عامة الشعب. تحتقره وتتخلى عنه، فيهوى نجمه ويفقد توازنه وهو في ساحة المصارعة فينشب الثور قرنيه في صدره ولا يلبث أن يقع مضرجا على الأرض حيث تسيل دماؤه وتمتزج بالرمال، يحملونه إلى الخارج جثة هامدة ولكن الجمهور لا يلبث بعد قليل أن يصفق ويصيح طالبا مشهدا جديدا ليشبع نهمته ويرضى غريزته التي طبعت على ذلك، منذ أن شهدت الدماء الأولى وهي تجري على الأرض: دماء هابيل.

وايبانيز قوي الإيمان بروح الحضارة العربية التي سادت إسبانيا وظلت ترفرف فوق ربوعها زهاء ثمانية قرون؛ تلك الروح المتوقدة التي نفذت إلى الغرب فعلمته كيف يخلق من الحب أدبا عاليا ومن المرأة صنما معبودا، ما برحت تمد المعجم الإسباني بريع مفرداته وان تشع أنوار خيالها فتلهب قرائح كتابها وتسعر بحرارتها دماءهم فتدفعهم إلى كتابة، دون كيشوت، وكونده لوكانور، وغيرهما مما نرى آثار الفروسية العربية كامنة بين سطورها، بل أن أثر هذه الروح ليبدو واضحا تماما في مؤلفات وأشعار سلفادور، رويدا، والفريدو بلانكو، وبيرس فالنتي وغيرهم ممن نراهم متأثرين بالخيال العربي الباهر.

لقد صهر بلاسكو ايبانيز بنار عاطفته المشبوبة تخيلاته عن حضارة أجداده العرب، فأودعها في بعض قصصه ودافع عنها في حماسة ويقين، فهو وان كان يكتب بلغة أسبانية، إلا انه كان يفكر قبل كل شيء بروح عربي، وقد خلف وراءه أنصارا يحاولون اليوم جهدهم تحقيق ما كان يصبو إليه من إعادة الحضارة العربية إلى (الفردوس الإسلامي المفقود) كي تنتعش النهضة الحاضرة من تراثها الخالد، وإعادة التعليم باللغة العربية - مفتاح الثقافة الإسلامية في إسبانيا - ونشرها بين الجامعة ودراسة آدابها العالية؛ وسوف يكون شأنهم بالنسبة لها في أوربا شأن الموارنة عندما خدموها في الشرق خلال العصور الغابرة.

ينشر ايبانيز ظلال أفكاره هذه على صفحات روايته (في ظل الكنيسة) فتراه يمجد من شأن هذا الروح العربي ويصف شعوره على لسان أحد أبطال قصصه فيقول:

(إن تاريخ إسبانيا الباهر لم يأت إليها من الشمال ولا من الكنيسة، بل من الجنوب ومن العرب، هؤلاء الرجال سمر الوجوه الذين وصلوا إلى شواطئنا في القرن الثامن من شمال أفريقيا بعد أن سيطروا في انتصاراتهم على أرقى الشعوب، حملوا إلينا الحضارة والتمدن، حضارة أجيال امتزجت ببعض، قوامها فلسفة الهند وثقافة الفرس وآداب اليونان وفن البيزانطيين وأشياء أخرى من الشرق ومن الصين.

احتضنت إسبانيا العرب، ومكنتهم في مدى عامين من أن يستولوا على حضارة سبعة) أجيال، رحب الشعب بهم لأنهم فكوا وثاقه من استبداد ملوكه السابقين، وكان استعمارهم استعمار الحضارة والنور والتسامح الديني لا استعمار الوحشية والسلاح!

في العصر (وعندما استوطن العرب إسبانيا، جعلوها. . كالولايات المتحدة الأمريكية) الحاضر، تعيش فيها جميع الأديان في حرية ومساواة، من غير تحيز ولا تعصب، وفي الوقت الذي كانت شعوب الشمال تعيش في ظلمات الجهالة وتتطاحن في الحروب الدينية وتختلط بالأقوام البربرية، كان العرب والإسبان واليهود، يعيشون كتلة واحدة في وئام، يعملون في سبيل إسعاد إسبانيا ورفاهية شعبها، فتأسست دور العلم والجامعات وازدهرت الفنون وارتقت العلوم ونشطت الموارد الاقتصادية وبدأت إسبانيا تستيقظ لتشهد أنوار فجر جديد!

وماذا عمل ملوك الكثلكة الذين أتوا إلينا من الشمال بعد ذلك؟ نشروا الإرهاب) ومحاكم

التفتيش، أجلوا العرب واليهود، طردوا العبقرية والحضارة، واحلوا مكانهما: الدين والتعصب، أطفأوا مصابيح العلم التي كانت تضاء من المساجد الإسلامية والبيع اليهودية، ليضعوا مكانهما قناديل الجهل والجمود وخرافات رجال الكنيسة، وعندئذ بدأت إسبانيا تتلاشى من العالم وتموت).

يتشعب بنا الحديث لو شئنا ان نتحدث عن ايبانيز لنوفيه حقه، وخير لنا أن نرجئ هذا إلى فرصة يكون فيها المجال أكثر اتساعا، وإنما نختم هذه الكلمة بان نقول، انه لما شبت نار الثورة الإسبانية الأخيرة التي انتهت بإعلان الجمهورية، كان ايبانيز في مقدمة

من يثيرون الخواطر ضد دكتاتورية الجنرال بيمودي رفيرا، فاشتدت الخصومة بينهما، وكان ايبانيز عزوفا عن الضيم فاتهم الملكية في وطنيتها، وكان هذا هو السبب في إبعاده عن إسبانيا ونفيه.

محمد أمين حسونة

بين الشك والإيمان:

(شيلر)

للأستاذ خليل هنداوي

حتى في ظلمات الشك التي رانت على قلبي، وفي الغم الذي غشى نفسي، تعلم - يا إلهي - بأنني قد تحريت النور. . . أراني - دائما - أكثر هدوءا. . .!

(شيلر)

بين كل شعراء الأدب الألماني تجد (شيلر) هو أشقى من طغى عليهم الشك. وبرح بهم التشاؤم المعذب.

درج (شيلر) من مهده، يغمره حنان أم هي رمز التقوى ومثال العطف. وأب دعا له حين احتضنه بذراعيه - (ربي! امنح طفلي هدى العقل، واهده السبيل الذي أخطه له) وهكذا كانت مظاهر طفولته محاطة بالإيمان العميق. وقضى الشاعر نشأته الأولى مولعا بالكتب. وهائما في الطبيعة يشيع ما يثور في نفسه من الأهواء الشعرية.

دخل المدرسة وأخذ العلم يطغى على شاعريته وإيمانه، ولكن (شيلر) كره العلم والعلماء، وكان يجد ألذ ساعاته ساعة ينفرد بنفسه ويتلو توراة (لوثر) أو (المسباد) ولكن روح الشك كانت تتسلل إلى نفسه من حيث لا يشعر. وفجأة تيقظت هذه الروح فيه فغدا صاحب شك وقلق - وظل في دوره الأول - بين عاملين يتساجلان الغلبة عليه، فطورا يقهر القلب المتردد روحه الصافية. وتارة تغلب روحه الصافية قلبه المتردد: فينشد متألما

(حتى في ظلمات الشك التي رانت على قلبي، وفي الغم الذي غشى نفسي: علمت - يا إلهي - بأنني قد تحريت النور.

أنت أردت لي هذه الأيام السوداء، التي تبرز فيها الأوهام المغرية من ناحية، ويبرز الإنكار - من ناحية أخرى - ضاحكا ضحكة الساخر

هانذا - تجأر فوق رأسي العاصفة! والقصبة سترتجف إذا لم ترحمني يا الهي!

احرس قلبي في هذا الهدوء، في هذا الهدوء المقدس وأنا سائر إلى الحقيقة.

فالشمس لا تعكس أشعتها في اللجة الثائرة، ولا تبسط شعاعها إلا على صفحة الماء الرقراق.

. . . إنني اسمع صلصلة الناقوس الذي يهتف بي إلى الهيكل: فأغدو إليه حاملا إيماني (ألا أفتح قلبي لإدراك الحقيقة، حتى أستطيع أن أعانقها، فأغدو سعيدا.)

في هذه المقطوعة الصغيرة يظهر لنا شك الشاعر، ومرارة قلبه، وتوقان روحه إلى الحقيقة، والطريق التي انتقاها ليستعيد الهدوء والإيمان. ولكن الله لم يجاور قلب شيللر كثيرا. لأن الشك تسرب إليه ظافراً وملك عليه نفسه ولما يتجاوز الثمانية عشر ربيعا، فعاد شاعر هذه المقطوعة الطافحة بالإيمان شاعراً شاكاً ما علمنا سر انقلابه! ولكن هل كانت المذاهب الفلسفية إلا تاريخ قلب الإنسان؟ وهل كان الشك والجمود والسلب إلا ثورة من ثورات النفس المتعطشة إلى معرفة المجهول. وإذا بشيللر يقول - متحديا الدين بلهجة من يؤله الطبيعة (إن الإله الواحد إنما هو كل الكائنات. الطبيعة والآلهة هما قوتان متساويتان. الطبيعة هي اله يتعدد ويتقسم إلى ما نهاية) وفي الاجتماع، يؤمن بمذهب (روسو) القائل: إن الإنسان يولد صالحا ولكن المجتمع هو الذي يفسده.

- 2 -

ليدرس الشاعر، نفسه وقلبه وعواطفه في رسائله وفي قصائده، لأنها هي صورة نفسه - إذا توخينا صورتها الصادقة.

إن شقاء شيللر لم يكن شقاء شعريا خياليا فحسب، بل كان شقاء مصدره نفسه التي غشيها منه ما غشيها! فهو في بعض أحيانها يتنازعه عاملان: ثورة حواسه، وتعنيف ضميره له تعنيفا أراد أن يحطمه الشاعر فعجز عن تحطيمه، ويتمثل أنينه هذا في مقطوعة (القتال)

(لا لا. . . سوف لا أتحمل طويلا هذا القتال. . القتال الطاحن الذي يقوم به الواجب،
فإذا لم تقدري على كبح أهواء قلبي أيتها الفضيلة، فلا تطلبي مني التضحية. . . هذا
. . .إكليلك ليظل - كل الأيام بعيداً عني
(!خذيه. . . وذريني وحدي أتلاشى
وفي بعض أحيانه قد يجد الشاعر في نفسه جرأة على الفرار، الذي يتجلى فيه
الانتصار. فيأوي إلى ملجأ (مانهايم)
(في حالة هم وغم، أكتب لكم - يا أصدقائي - بأنني لم أعد أستطيع البقاء هنا - فأنا
خلال اثني عشر يوما أحسست مع نفسي كل مكان داخل نفسي وخارج نفسي، طالباً
الخروج من
(. . .هذا العالم، فالناس والسماء والأرض كلها غدت عندي قبيحة. أنا هنا فاقد نفسي
وهناك لحظات نرى وطأة الحاضر والمستقبل والعالم والناس تثقل عليه حتى تحطم
قلبه، فيقول يائسا:
إنني عانقت الإنسانية بحرارة وشوق ملتهب ولكن - وآ أسفاه - لم أجد نفسي إلا بين
(ذراعي كتلة من جليد
إن النفوس التي نشأت في كنف الله، تجد - عندما تنعتق منه - ما لا نجده غيرها من
أصناف الألم، وضروب التوجع، لأن هذا الفراغ الذي كان يملؤه الله ينقلب إلى ظمأ
.شديد لا يرويه شيء ولا يطفئه شيء
هذه هي المرحلة الأولى التي قطعها شيللر ومن ورائها مراحل، والآن أصبح يظهر
تردده كمذهب في كتابه (رسائل فلسفية من جول إلى روفائيل) فما كان جول إلا
الشاعر نفسه، وما كان روفائيل إلا صديقه الشاعر (كرونر). ففي (جول) تجلى نفس
!فتية ينتابها الشك، وهي لا تستطيع أن تفر من أسفها على إيمان فقدته
قال: (يا لها من أيام سعيدة! تلك الأيام السمارية، حين كنت أتبع مورد الحياة بعينين
مغمضتين. كنت مستسلماً لعواطفي وكنت سعيداً. علمني روفائيل أن أفكر. وهأنذا
الآن أكاد أذري دموع الندم على هذا الاستكشاف. أنت سلبتني الإيمان الذي كان يودع
الراحة في قرارة نفسي، وأوحيت إلى أن أزدري كل ما كنت أحترمه فكم من أفكار
.كانت عندي مقدسة فنزعت حكمتك (الحزينة) عنها رواءها. وأذهبت بهاءها
كلما رأيت الناس وهم يرددون صلاة واحدة بلحن واحد قلت لله هذه الشريعة التي
.استمسك بها الناس! فبعثت في قلوبهم الراحة والسكون
عقلك قد أطفأ هيامي النفسي. أنت قلت لي: لا تؤمن إلا بعقلك. ولا مقدس غير
.الحقيقة، ولا حقيقة إلا ما يتقبله عقلك - وهكذا أطعتك وصرفت عني أبهى أفكاري
والآن عقلي وحده ظل معي ليكون وحده دليلي يحملني إلى الله. إلى الحقيقة
والأبدية. فتعساً لي إذا وجدت ما يخالف تفكيره. أو عراني شك في معرفته، أو غزاه
(داء تركه مشلولاً
فروفائيل يمثل أصحاب المذهب العقلي القائلين بأن لا حكم إلا للعقل كما يذكر جول:
(أنت قلت لي: لا تقبل شاهداً غير العقل، إذ لا مقدس إلا الحقيقة. والحقيقي هو
الشيء الذي
تعرفه بعقلك , قد أطعتك وضحيت بإيماني وغدوت كالظافر اليائس الذي أحرق كل
سفنه وقطن في الجزيرة الجديدة قاتلاً منه كل جاء بالرجوع. فعقلي هو الآن كل شيء
وهو وحده يحملني إلى الله ويفتح لي أبواب الحقيقة والأبدية! ولكن تعساً لي إذا ضل
دليلي الطريق فالعادة لا بد أن تغادرني. وويل لي إذا شاء القدر أن تتقطع أوتار هذه
.(القيثارة، فتضطرب ألحانها، وتكثر أشجاني وأشجانها
وفي فترة ثانية يكتب جول هذه الرسالة لروفائيل:
(إن مذهبك قد خدع كبريائي، كنت سجينا وأنت جذبتني من عجلتي لتقودني إلى ضوء
النهار. فالنور الذهبي والفضاء الفسيح قد لامسا جفوني. بالأمس كان يرضيني من
المجد الوضيع ان أكون ابنا صالحاً وصديقا فاضلا ورجلا نافعاً لبلده، أما أنت فقد
.(صيرتني رجلاً إنسانيا
قال لي روفائيل: المملكة الوحيدة في العالم الروحاني هي مملكة العقل
وفجأة ترى الشاعر يحس حقارة الإنسان إزاء عظمة الوجود فيجعله إحساسه هذا في
شك من نفسه فيقول:

في أي مكان حيثما حولت أنظاري يا روفائيل يبدو لي الإنسان محدود العقل، وان هوة عظيمة تفصل بين تأملاته وبين الحقيقة لا تغبطه على النوم الذي يستريح فيه ولا توقظه! فالعقل هو مشعل في عجلة ينير لحظة فوق رأس السجين ثم يتركه في ليل أكثر حلوكة. إن فلسفتنا هي رغبة (أوديب) في المعرفة رغبة يحوطها الألم. ولا تنتهي من الإلحاح والسؤال حتى يجيبها مجيب (هل تستطيع أن تعلمني من أنت؟) ولكن الشك أخذ يحز في قلب جول وجول يصيح ويتألم فتخمد جذوته المشتعلة، فيقول مؤنبا (روفائيل) بلهجة النادم:

هل تعيد إلى حكمتك ما سلبته مني؟ وإذا لم يكن - لديك - مفتاح تفتح لي به السماء) فلماذا طردتني من الأرض؟ وإذا كنت تعلم أن سبل الحقيقة وراء حفائر الشك المخيفة فلماذا ألقيت صاحبك في هذه الشعب الملتوية؟

أنت هدمت كوخا حقيرا لتشيد على بقاياه قصرا منيعا ولكنه قصر فارغ ويا للأسف! روفائيل!! أطلب منك نفسي، فأنا لست بسعيد.

(قد فقدت شجاعتي، ويئست من قوتي. ويدك وحدها تستطيع أن تشفي جراحي.

وروفائيل يجيبه: (عزيزي جول:

أتريد أن تنصب عليك السعادة من السماء بدون انقطاع؟ هذا كثير على نصيب الإنسان. داء الشك الذي وقعت فيه لن تشفى منه إلا بنفسك، وبرغم أن يقظتك تعسة فإنني لا أملك علاجا أنقذك به من خيالك واحلامك؛ أنا لم أضع شيئا للنفوس التي هي أمثال نفسك إلا أنني لقحتها بالاضطراب الذي لا مفر منه

(أيها الجاحد! قد لعنت العقل ونسيت النعم التي حباك بها.

وها هو ذا روفائيل يحاول أن يقود صديقه إلى الحقيقة فيكتب له:

ما الشك - يا صديقي - إلا حدة العقل الإنساني في ثورته. على أن الهزة الشاذة التي) تصيب النفس النامية يجب إلا تؤول بها إلى تأييد صحتها، وتثبيت وجهتها، وكلما كان الخطأ بعيدا كان الظفر بالحقيقة أكثر خطراً. وكلما كثرت عوامل الشك في الإنسان (كان أكثر لجاجة في تحري اليقين

وكتاب روفائيل الأخير يقر بتأثير مدرسة (كانت) الفيلسوف. وفي تلك الأثناء كان شيللر يقف أجدر ما كتبه (كونسبرغ) بالمطالعة من تصانيف فلسفية. فقرأ فيها بان أفكارنا وآراءنا التي نراها، قد يمكن إلا يكون لها خارج عقلنا حقيقة مدركة. ومثل هذا المذهب يوافق كل الموافقة مذهب شكه، بل يذهب شيللر إلى أبعد من ذلك، فبينما كان (كانت) يحرص على شيء من الحكمة في (العقل المكتسب) إذا بشيللر يسلخ عن (الكانتيسم) هذه النتيجة التي تجعل الواجب شيئاً مجرداً والفضيلة حلماً.

والآن فلنتل بعض مقطوعاته نر فيها هذا الشك بارزاً بألوان مختلفة يفيض على جنباتها، ونرى الجمال الفني أسمى صفاتها. أما المثل الأعلى فأنت مجهد نفسك باطلا لتقف عليه. لأنه هو حلم , يقول: (لقد خمدت تلك الشمس التي كانت تضئ أيام فتوتي. وذهبت رسوم ذلك العالم الكامل الذي كان يهجس به ضميري. وضاع إيماني الجميل بتلك الأشياء التي كانت تخلقها لي أحلامي الوادعة الإلهية.)

كان الشاعر يسأل. ما هو الوجود؟ وأين يذهب؟ وما يحول؟ والإنسان نفسه ما هو؟ هو في بعض أحيانه:

كحاج في ربيع أيامه، وقف في الطريق يستخفه الطرب فسمع صوتا يهتف به: سر) وثابر

على سيرك حتى تبلغ الأفق، حيث يغدو ما هو أرضي ترابي سماوياً لا نهائياً. هذه كانت أنشودة الفجر:

ولكن - وا أسفاه - قدم المساء وحالت الجبال والأنهار دون سيره، فترامى على البحر لكي يبلغ غايته! ولكن الغاية كانت تفر دائما دون أن يدركها.

وقف الحاج في النهاية قائلا! (وا أسفاه! لا طريق تقودني إلى الغابة، والسماء لن تلتقي مع الأرض. والمكان الذي أنا فيه ليس هو بالمكان الذي يجب أن أكون فيه.)

وهو في بعض أحيانه الأخرى (كالهارب) الذي يسأل نفسه. (أين يجب علي أن أمشي حتى أجد الهدوء؟ أنا متكئ على عصاي! والأرض الضاحكة بربيع شبابها ما هي - لي - إلا كالضريح.

فاصعد يا لون الصباح! ولون الشفق والقبل الملتهبة هذه الإحراج والغابات. وانزل أيها

المساء، وسكن بهمسك الجميل هذا العالم الذي سكنت منه الحياة
أنت أيها الفجر لا تنير إلا حقلا للأموات، وأنت أيها المساء لا تهز بهمسك الجميل إلا نعاسا طويلا.)
ولكن أية أحلام يريدها الشاعر في قصيدتة (آلهة اليونان) ففي هذه المقطوعة يظهر الهدف الذي سعى إليه، ووضعه نصب عينيه. فهو يتغنى بالشك ويتباهى به، لأنه يقدس من اليونان الأقدمين ما يريد أن ينشره من عبادتهم الوثنية فهو يعظم خلقهم البسيط، وبكرم أساطيرهم الحساسة. بل هو يأسف على ذهاب العصر الذي كانت تحكم فيه مجموعة آلة لطيفة تسيطر على العالم. وتقود الناس وراءها إلى إلهات اللذائذ والمسرات ويختم هذه القصيدة بقوله:
سرعان ما تبدل كل شيء! في كل الخليقة يجري سلطان الحياة المطلق)
أما النبات القديم، والوقار الحزين فقد طردتها من عبادتك الصافية. وكل القلوب يجب أن تخفق سعيدة مغتبطة لأن السعداء كانوا حلفاءك، ولا شئ إذ ذاك مقدس غير الجمال) أما وقد قطع هذه الرحلة فليدن خطوة أخرى! أليس هو معتنقاً مذهب الشك وناصراً مذهب اللذة فلماذا لا يؤمن بالعدم ويتغنى به؟ وهذه قصيدة (الخضوع للقدر)
إن إنسانا مخلوقا للسعادة يتمثل لنا في يومه الأخير. كان زاهداً في كل طيبة من طيبات
دنياه، راجيا منه العالم الثاني أن يحتسب له هذه التضحية. سفك الدمع الكثير ولم يتمن إلا وعداً إلهياً حتى يكمل إلى النهاية غلبته على قلبه، وأخيرا دنت الساعة التي ينال فيها ثوابه. فانتصب الرجل الأمين أمام عرش الله ليذكره بالوعد الذي ضحى في سبيله بكل ملذة.
فكان الجواب:
إنني احب كل أبنائي على السواء. أنت تأملت فكان التأمل ثوابك، وآمنت فكان الإيمان سعادتك، أنت تستطيع أن تستفهم العقلاء وهم سيقولون لك (أن الأبدية لن تعيد إليك ما فرطت في ملذاتك.)
(البقية في العدد القادم)
العلوم
البحوث الروحية
للأستاذ عبد المغني علي حسين
خريج جامعت برمنجهام
سبقت لنا كلمة بهذا العنوان في الرسالة. وفيها أشرنا إلى أن أفراداً من أساطين رجال العلم الحديث جمعوا من اختباراتهم وتجاربهم باستخدام الوسطاء أدلة جديرة في اعتبارهم باسم العلم تبرر القول بأن العالم الروحي جزء من النظام الكوني، وأن الاتصال به في حيز الممكنات.
ونود بعد ذلك أن نورد طرفا من تلك الاختبارات والتجارب، ونزنهابالميزان العلمي، لنرى مبلغ صلاحيتها كدعامة لهذا الزعم الخطير، الذي إذا صح فأن كل كشف علمي سابق يعتبر بجانبه من محافر الأمور. لما لا، والعلم لم يمهد لنا إلى اليوم غير سبيل المادة، والمادة لا نمكث في محيطها إلا قليلا، ونرتحل عنها وشيكا. أما عن الخلود بعد الممات فلم نسمع أن العلم الحديث كلمة، الهم إلا كلمة إنكار من بعض الذين ينتسبون إليه.
نعم، نسمع إنكاراً صريحا من بعض رجال العلم، وافتراض وجود الأرواح غير المنظورة أبغض شئ إلى رجل العلم الحديث وليس هذا بغريب، فالبرق الذي أعتبره الأقدمون لمع سيوف الآلهة في السماء قد ثبت اليوم أنه شرر كهربائي. والرعد الذي حسبوه زمجرة غضب الآلة ليس سوى فرقعة ذلك الشرر. وقوس قزح الذي ظنوه سلما تمده الآلة ليهبط على درجه رسولهم ليس سوى طيف ضوئي ناتج من تحلل أشعة الشمس بانعكاسها وانكسارها في قطرات ماء المطر. والمرض الذي توهموه فعل أرواح شريرة وطاردوها عبثا بالتمائم والتعاويذ ليس سوى فعل ذر دقيق يرى بالمجهر ويعالج علاجا صحيحاً بالمحقن. لا حد لما كان ينسبه الأقدمون إلى الأرواح. ولا شك أن تاريخ العلم الحديث يكاد يكون سلسلة حرب مع الارواح، فهو يجليها كل يوم عن مركز في العالم المادي، ويقيم على أعقابها نظما وقوانين يتسع بعضها بعضا ولا أثر فيها لروح

ما.
لا بدع إذن أن نرى رجل العلم يرفض الاستماع لكل زعم بوجود أرواح للموتى مهما كان مصدره. ويعتبر ذلك رجوع القهقري، وعوداً إلى عهد الخرافات البغيض، واستسلاماً لحب البقاء، وطمعا في لقيا الاعزاء، وذرعاً من الفناء. ولا بدع أن نراه يعتبر تعليل الظواهر بالأرواح عجزاً عن التعليل، ويفضل عليه أن تبقى الظواهر بلا تعليل.
هذا الموقف السلبي تراه كثرة المفكرين هو الجدير بالروح العلمية الصحيحة، التي لا تعرف الآمال ولا المخاوف. ولكن بعض المفكرين يرونه تطرفا وتنعتا. لأن الروح العلمية التي لا تعرف الآمال والمخاوف، لا تعرف أيضا البغض والحب. يجب أن نستمع لكل رأي مهما كان بغيضا. وأن لا نرفض الاشتراك في تجارب تجري إلى النمط العلمي مهما بدا موضوعها سخيفا والأمل في جدواها ضعيفا. إذا لم نفعل ذلك فنحن كالذين رفضوا النظر في تلسكوب غاليلو (سر الفر جوزيف لدج) أستاذ إنجليزي في علم الطبيعة، وشخصية علمية عالمية فذة. نيف اليوم على الثمانين من عمره، ولا يزال نشيطا عاكفا على البحث العلمي في معامله. كان أستاذا بجامعة ليفربول، ثم قضى حقبة طويلة مديراً لجامعة برمنجهام. وكان رئيسا للمجمع العلمي البريطاني، ولجمعية رنتجن، ولجمعية الطبيعة، ولجمعية الراديو. ولديه من ألقاب الشرف العلمية الشيء الكثير. وله فضل معروف في تحقيق التخاطب اللاسلكي ويعتبر دائما حجة في كل ما له علاقة بالأثير
لم تقتصر جهود هذا العلم الكبير على الطبيعة، بل امتدت إلى ما فوق الطبيعة. والذي دفعه إلى هذه المخاطرة العلمية أمران: أحدهما بحوثه في الأثير، التي أوصلته إلى أن الأثير هو الحقيقة الأساسية في العالم المادي، وانه الوسط الشامل، وان منه تصاغ المادة نفسها. ثم نظر فرأى الأثير الجزء الأهم في كياننا الجثماني نفسه. أليس الجسم البشري ككل جسم مادي يتألف من كهارب دقيقة بينها فراغ شاسع بالسبة لحجومها المتناهية في الصغر؟ أليس الجزء الأكبر من الجسم البشري فراغا يملؤه الأثير؟ هذا الأثير إذن هو الثوب الحقيقي لعنصر الحياة الذي يميزنا من الجماد والذي نسميه الروح. أما الذرات المادية فهي مجرد آلة تمكننا من العيش برهة في عالم المادة. أن الدقائق المادية نفسها لا تتلامس قط بل يوجد بينها دائما فراغ يملؤه الأثير. فنحن إذن لا نمس شئ إلا عن طريق الأثير. ولا نسمع شيئا إلا بتوسط الأثير. ولا نرى شيئا إلا باستخدام الأثير. والتفكير وكل الظواهر العقلية والنفسية لا شأن لها البتة بالذرات المادية. بل تنشأ أول في الأثير المتخلل لأجسامنا. وهذا الأثير بكيفية مجهولة يحرك ذرات المادة التي تتألف منها أعضاؤنا الظاهرة. فننسب نحن كل شئ لذرات المادة وننسى الأثير الرابط لها والضابط لكل ما تأتيه من حركات.
هل يتحتم إذن أن يكون موت الفرد زوال كل أثر لذاتيته من الوجود؟ إذا كانت الحياة من خواص الأثير الجثماني فهناك كل أمل في بقائها بعد الممات. إذ قد علمتنا دروس الطبيعة أن الظواهر الأثيرية تبقى ما بقى الدهر، ولا نتشتت أيدي سبا، شأن ذرات الجسم المادي. الموت إذن هو طرح ذرات المادة والعيش بعد ذلك في ثوب الأثير الجثماني، وفي عالم أثيري لا يحجبه عن حواسنا الحاضرة إلا عجز تلك الحواس وقصورها. لقد كشف العلم عن ظواهر أثيرية لم تكن من قبل محسوسة، مثل الإشاعة الخارجة عن حدود المنظور، فلم نستنكر أن يكشف العلم عن حياة في الأثير؟
هذا ما يقوله (لدج). وظاهر أنه رأي فلسفي أكثر منه عمل علمي. وإذا كانت هذه هي كل حجته فقد أتى بغير جديد. إذ النقاش الفلسفي في المادة والروح والفناء والخلود فاضت به الكتب وكاد يصبح مفروغا منه. لذا لا نرى التبسط في حجته هذه رغم ما تستحقه من تقدير. وننتقل إلى اتصاله الفعلي بتلك الكائنات الأثيرية وكيف أمكن أن يكون.
- وضع (لدج) كتابا اسماه (كيف ثبت في خلود النفس البشرية) مهد له بما يأتي: القول بخلود النفس البشرية بعد الممات، وبأن الموت طرح للجسد المادي ليس غير،) هو قول قديم، وجد منذ وجد البشر. أما الحجج التي تؤيد هذا القول فبعضها ديني قائم على التسليم بوجود خالق رحيم عاقل، وبعضها حيواني يرجع إلى نفور النفس الغريزي من فكرة الانعدام، والقول بأن الغرائز البشرية تنم حتما عن حقائق واقعة. أني في

هذا الكتاب لا أعتمد على أحد هذين النوعين من الحجج، وأن كنت أحترمهما وأقدرهما قدرهما. بل لست أنوي أن أحاج أو أجادل، فنظريتي قائمة على أساس من الاختبار الفعلي، وعلى قبول طائفة من ظواهر يمكن لكل إنسان أن يشاهدها بنفسه إذا تجشم عناء التجريب. إني أعرف خطورة كلمة (حقيقة) من الوجهة العلمية، ومع ذلك أقول دون أدنى تردد أن بقاء ذاتية الفرد بعد الموت هو عندي حقيقة قام عليها الدليل الحسي. لقد وصلت إلى هذا اليقين بدراسة خصائص نفسية غامضة لم يلتفت إليها العلم حتى الآن، ولا يرتاح لها فيما أظن رجال الدين. لذا أرى لزامنا على أن أذيع من آن لآن ما يبرر مثابرتي على هذه البحوث ويعبر عن اقتناعي التام بصحة ما وصلت إليه.

ولا حاجة بي إلى القول بأن كلمة (خلود) الواردة في العنوان لا يقصد بها الخلود أبد) الآبدين فهذا ما لا علم لي به. كل ما أطمع في تقريره هو بقاء ذاتية الفرد بعد الموت. الموت هو الحادث الذي نرى عنده انقطاع حبل الحياة فإذا كنا نعيش بعد هذا الحادث القاصم فبعيد أن نلتقي بعده بحادث أشد منه وأعظم خطرا. لست أعرف ما يكون من شأننا في المستقبل القاصي، وكل ما استدللت عليه هو بقاء ذاتية الفرد منا بعد مغادرة هذا الجسد المادي. والمستقبل البعيد خليق بأن لا يشغل بالنا الآن. وحسبنا العلم أن هذه الحياة الأرضية ليست كل نصيبنا من الوجود كأفراد، وإننا إذا استخدمناها كما ينبغي فهي المرحلة الأولى من عيش طويل كله فرص للخدمة التي تتفق مع طبيعتنا الحقيقية وفيها سعادتنا الصحيحة.)

هذا ما كتبه (لدج) تمهيدا للكتاب. وسنتناول ما تضمنه الكتاب من تجارب ومشاهدات في كلمة أخرى إن شاء الله.

عبد المغني علي حسين

خريج جامعة برمنجهام

في النسبية

بين أستاذ وتلميذه

التلميذ - كأنك تريد أن تقول إنالأطوال تنكمش بالحركة

الأستاذ - يظهر انك لم تفهم ما أعنيه بالضبط. سأضرب لك مثلا. تصور طائرة الآنسة لطيفة مبتعدة عنا بسرعة مائتي كيلو متر في الساعة. وأنك ترصد - وأنت على الأرض - قائمة علم مثبتة عمودية على هيكل الطيارة في اتجاه حركتها تريد قياس تلك القائمة. ثم لنفرض انك - باستعمال ما تعلمنه في مدرستك من أصول حسابات المثلثات وما تحت يدك من دقيق آلات القياس قادر على إيجاد طول تلك القائمة الثبتة في الطيارة مضبوطا إلى أجزاء من ألف مليون من الميليمتر. فان العلم الحديث يؤكد لك انك ستجد انكماشا في طول القائمة المذكورة. . .

التلميذ - أي أنني أجد طولها أقل منه عندما كانت ساكنة أمامي على سطح الأرض.

الأستاذ - نعم. ولكن ليس هذا كل ما هناك. فان الآنسة لو رأت القيام بتجربة مماثلة وهي في طائرتها. وكان معها أجهزة دقيقة مثل التي عندك. ثم حاولت قياس ارتفاع قامتك وأنت على ظهر الأرض. لرأتك أقصر قليلاً مما كنت وهي أمامك قبل أن تبدأ الطيران.

التلميذ - أقصر! لا شك أنك تريد أن تقول أطول

الأستاذ - لا. بل أريد أن أقول أنها تراك أقصر. فهنا موضع الدقة في النظرية الجديدة. ذلك لأن الحركة والسكون نسبيان. وإذا كنت تعتبر الآنسة وطائرتها مبتعدتين عنك بتلك السرعة بينما ترى نفسك ساكنا. كذلك هي. فأنت والأرض التي تحملك - بالنسبة للطائرة - في حركة ابتعاد عنها بسرعة مائتي كيلو متر في الساعة. أما هي فتعتبر نفسها ساكنة.

التلميذ - ولكن أترى الآنسة محقة في اعتبار طائرتها في حالة سكون وكل ما عداها مبتعد عنها بتلك السرعة الكبيرة.

الأستاذ - هذه وجهة نظرها. صحيح أن وجهة نظرك أنت على الضد من ذلك. ولكن هذا لا يمنع أن تكون أنت أيضا على حق من وجهة نظرك. أي أن كليكما على حق في اعتبار نفسه ساكنا والآخر متحركا. ولا شك أنك تذكر قطار السكة الحديدية عندما سار

بك لأول مرة. وكيف أنه كان يخيل لك كأن الأرض تبتعد عنك. وأن القطار لا يتحرك. وهذا ما
يحدث أيضا للمسافر بالطيارة. فالأستاذ البشري عندما ركب الطيارة لأول مرة ووصف شعوره في مقال له بالأهرام- أبان كيف أنه خال الطائرة لا تحرك أكثر من كيلومترين كل ساعة بينما هي تقطع مائة. ولعله لو أغمض عينيه وتجاوز عن بعض العوامل الآلية التي تحيط به في الطائرة كأزيز محركها مثل. لما شعر بحركة ما.

وما دمنا قد قررنا هذا المبدأ - نسبية الحركة والسكون - فيمكننا أن نعيد نظرة على مسألة انكماشا لأطوال المتحركة. أيمكنك أن تخبرني الآن أيهما ينكمش في الطول. قائمة العلم في طائرة الآنسة المبتعدة: أم قامتك أنت وأنت واقف على ظهر الأرض؟

التلميذ - يخيل لي مما سمعته الآن أن كليهما ينكمش طولا. فقائمة العلم بالنسبة لي تتضاءل وتصغر، وكذلك قامتي إذا حاولت الآنسة رصدها.

الأستاذ - تعبيرك الآن مضبوط. أزيد عليه بأن كلا الاثنين أيضا ثابت الطول. فقائمة العلم طولها لم يتغير في نظر الآنسة. وكذلك قامتك في اعتبارك أنت ثابتة. إذ مادامت الحركة نسبية فالانكماش نسبي أيضا.

التلميذ - فهمت أن مثل هذا الانكماش النسبي - لو وجد - ضئيل جدا. وأظن أن كشفه بالآلات مستحيل، فما الذي دعا أينشتينلفرض وجوده.

الأستاذ - ليس هو أينشتينأول من قال بوجود مثل هذا الانكماش. فمنذ اكثر من مائة عام وعلماء الطبيعة يجرون تجارب على الضوء والأثير؛ فيجدون نتائج مخالفة لما يتوقعون، وقد وجدوا أنفسهم مضطرين إزاء تلك النتائج غير المنتظرة إلى البحث عن تعليل لها؛ وكان أوفق الفروض التي اهتدوا لها فكرة انكماشا لأطوال المتحركة- وبواسطة هذا الفرض أمكن إصلاح ما فسد من النتائج- ثم قامت المحاولات لتعليل انكماشا لأطوال بالحركة، ووضعت النظريات العلمية على أسس معقدة، حتى جاء أينشتينفعرض تفسيرا بسيطا سهلا لهذا الانكماش معتبرا إياه كقوس قزح، أنت تراه موجودا وغيرك لا يراه بتاتا.

وليست الأطوال هي المقاسات النسبية فقط، فهناك الكتلة والزمن، فهذان أيضا نسبيان. الكيلو جرام من المادة في نظرك هو أكثر من كيلو جرام في نظر الآنسة الطائرة. والساعة من من الوقت عندك. . . .

التلميذ - مهلا. مهلا. فان ما قلته الآن يتنافى تماما مع ما علمناه في المدرسة عن الكتلة.

أليست هي مقدار ما تجمع في الجسم من المادة، فكيف تقول إذن إنها تتغير. ومن أين تجيئها تلك الزيادة وهذا التغيير؟

الأستاذ - ومن أين يجيء التغيير للأطوال؟ وفوق ذلك فالتعريف الذي أعدته أمامي للكتلة قابل للانتقاد. والتعريف الذي يمكننا أن نقبله لها هو التعريف الذي يبين طريقة الوصول لتقديرها. وما دامت الكتلة لا تصل لتقديرها إلا عن طريق تغير في (كمية تحرك) أو (عجلة) سببتها قوة. فالسرعة والأطوال لهما دخل دائما في تقديرها. والأطوال والسرعة كما علمت نسبيان. فلماذا لا تكون الكتلة نسبية أيضا؟

وأريد أن أزيد الآن على ما قلته عن الكتلة كلاماً يشبهه عن الزمن فالدقيقة من الزمن ليست كذلك في كل زمان ومكان.

التلميذ - أرجو أن تعلم أن النسبية تطلق الآن على نظريتين: النظرية الخاصة والنظرية العامة. والأولى قال بها أينشتين سنة1905 أما الثانية فلم يكملها إلا سنة 1917. وكل ما سمعته الآن من النتائج مأخوذ من النظرية الخاصة. التي تبحث فيما يحدث للأقيسة أثناء الحركة المنتظمة في خط مستقيم , وهي تبدأ من فرض أبانت التجارب العلمية صحته. وهو فرض ثبات سرعة الضوء. فالمسافة التي يقطعها الضوء في الثانية هي عدد محدود من الكيلومترات لا يزيد ولا ينقص باختلاف الأمكنة والأزمنة. وقد استغل اينشتين هذا الفرض. واستنتج رياضياً بواسطته وبواسطة مبدأ النسبية الخاص. مقدار التغير في الاقيسة نتيجة الحركة النسبية.

والنظرية العامة لا تقتصر في بحثها على الحركة المنتظمة في خط مستقيم، بل تتناول الحركة الدورانية ومجالات القوى. وهذه النظرية طبعاً أعم من الأولى وأشد تعقيداً: ورياضياتها تظفر بمن يتقن فهمها، ولذا فهي سيئة الحظ مع جمهور الكتاب بعكس

شقيقتها.
تسألني إلى أي مدى عززت المشاهدات والتجارب النظرية
النسبية وسأجيبك مقتصراً على النظرية الخاصة. 1 - فأنت
تعلم أن فرض انكماش الأطوال نتيجة الحركة احتاج العلماء
له لتفسير نتائج غير متوقعة في تجاربهم. وما دام هذا الفرض
مقررا بوضوح ومبينا على أسباب معقولة في النظرية النسبية
فالنظرية لم تأت إذن إلا بما دعمته التجارب وقررته.
2 - وأنت تذكر من غير شك الالكترونات السالبة التكهرب
المنبعثة من المواد المشعة (كالراديوم مثلاً). هذه الالكترونات
تحرك بسرعة كبيرة تقرب من سرعة الضوء. وقد وجد أنها
تختلف في السرعة باختلاف مصدرها أحيانا. ووجد أيضاً ان
كتلتها تختلف باختلاف سرعة تحركها.
والنظرية النسبية كما رأيت تقول بذلك. فالكتلة مثل الطول شيء نسبي تختلف
باختلاف السرعة. والنظرني تعطينا مدى تغير الكتلة بتغير السرعة. وهو ما يتفق مع
المشاهد الملحوظ.
3 - كان هناك رأي قائل بأن النجوم المتحركة للأمام، ضغط
الإشعاع على سطحها الأمامي أكثر منه على سطحها الخلفي.
وهذا مما يعمل على تقليل سرعتها بالتدريج حتى تصل لحالة
السكون في وقت ما. وقد استنتج الفلكيون من ذلك أن النجوم
القديمة لا بد ان تكون أسرع حركة من النجوم الحديثة. ولكن
من الأسف لم تعزز المشاهدة هذا الاستنتاج الواضح.
ولقد جاءت النظرية النسبية في الوقت المناسب لتسعف العلماء وتنقذهم من هذا
التناقض فأبانت لهم أن السرعة ليست إلا شيئا نسبيا. فلا يوجد ما يسمى بحالة
السكون المطلق. والنجم المتحرك بالنسبة لنا ساكن بالنسبة لنفسه. فلا داعي لان
نبني على حركته المزعومة
ما بنينا من النتائج.
لعلك تعفيني الآن من ذكر نتائج أخرى هامة للنظرية. فإني أخاف أن تعجز عن متابعتي
فيها بمثل ما فعلت من الصبر حتى الآن ولعلنا نناقشها في فرصة أخرى.
طنطا
محمد محمد السيد
القصص
إلى خراسان
للأستاذ الرحالة محمد ثابت
من رحلة قام بها الأستاذ عام 1933 إلى تركية والعراق
وإيران وأفغانستان
اعتزمت القيام من (طهران) إلى (خراسان) حيث مقر الإمام الرضى أحد أئمة
الشيعة، وضريحه في (مشهد) ثانية مدن فارس، وأولى البلاد المقدسة. . تعد عن
طهران مسافة نائية هي فوق مائة وستين فرسخا. والفرسخ - وهو وحده القياس
عندهم - نحو ستة كيلومترات، فالمسافة كلها نحو ألف كيلومتر أو تزيد. كان القوم
يقطعونها على متون الإبل والبغال والحمير قبيل الحرب الكبرى، فيما بين أربعين يوما
وستين، وهي اليوم بالسيارات بين يومين وثلاثة. أخذت مكانا أماميا في سيارة كبيرة
من ذوات العجل المزدوج برفقة ركب من الحجاج يناهز الخمسة والعشرين بين رجال
ونساء، وشيوخ وشبان، وبدأنا السير ليلاً، وكلهم إيمان صادق لا يبتغون من وراء
متاعبهم تلك ونصبهم هذا إلا زيارة قبر الإمام الرضى ومعهم زادهم، أما أنا فكنت
أعتمد على المحاط وما فيها من وسائل ساذجة للنوم والطعام، آونة وأخرى كان يصيح
القوم قائلين: (لاهم سل آلي مهمد آل مهماد) وأخذنا نمر بالمحاط التي يسميها القوم
مسافر خانات أو (كرفان سراي) وهناك نجد أمكنة تحكي الفنادق بها حجرات فقيرة
الأثاث، وغذاء بسيط كنا نتزود منه ونأخذ قسطنا من الراحة، ثم نستأنف السير ولم
تكن تقوى القوم لتنسيهم ملاذهم، فقد كان الفريق الأكبر منهم يحمل الغلايين لتدخين

الأفيون فينتحون جانبا من المكان ويمر الغليون عليهم جميعا , وكان في جواري إلى جانب السائق أحد علماء كربلاء بعمامته السوداء الضخمة، ولحيته المرسلة، وسحنته الناحلة، وكان يتيه على الآخرين بعلمه وبأنه من سلالة هاشمية ومن نسل العلم والعلماء، ولأولئك على الناس حق العطاء ويسمونه هناك (حق الخمس)، يقصدون الأغنياء كلما أعوزهم المال ليأخذوا منهم حقهم هذا لأنهم من السادة سلالة الرسول.

جد السائق في السير على ضوء القمر وقبس مصباحه، فخانه نظره فما نسعر إلا والسيارة

تنحدر بنا عن الطريق، وتنزل هوة من دونها واد سحيق، فكادت تنخلع لرجاتها قلوبنا، وصاح الجميع، وارتطم هذا بذاك، وذاك بجانب من السيارة، ثم كانت صدمة عنيفة وفرقعة أصمت آذاننا، وإذا هي صخرة كبيرة ناتئة في منحدر الوادي توقف السيارة قبل أن تنقلب، وقد أصيب من الركاب كثير، ونالني من ذلك شج بين العينين سال منه الدم سيلاً وصدمة شديدة في الركبة اليمنى أحدثت بها كسرا لا أزال أعانيه، فقفزت من السيارة ونمت على الصخر تائها حتى الصباح فرأيت العجلة قد كسرت من أساسها، ولولا لطف الله لكنا اليوم في عالم غير الذي نحن فيه. أمضينا يوما كاملا في تلك البرية المقفرة ولم يكن لدى السائق ومعه بديل عما كسر، وكان قد رجع إلى طهران ثم عاد إلينا وأصلح ما أفسدت غفلته، واستأنفنا سيرنا شاكرين الله ان أنجانا من خطر الموت في بلك الناحية النائية وكم من سيارة خانها الحظ العاثر فهوت وهلك من ركابها الكثير في تلك الطرق الوعرة. ولقد عزا القوم سلامتنا إلى رضى الإمام عنا. وما كدنا نسير بعيداً حتى وفقت السيارة فجأة وتبين أن البنزين قد نفد، ولم يكن لدينا منه شيء، فلبثنا مكاننا حيارى ساخطين جزعين أربع ساعات حتى مرت بنا سيارة أخرى أعارتنا بعض البنزين والسيارات الكبيرة تمر تباعا ذهابا ورجعة في كثرة هائلة، تحمل جماهير الحجاج، ويقولون بان هذا الخط على وعورته أكثر الخطوط حركة في نقل المسافرين لأن (مشهد) خير لديهم من مكة المكرمة تغنيهم عن حج بيت الله الحرام في زعمهم فترى الفاني منهم والفقير المدقع يدخر أجر السفر ليصل إليها ويود لو يموت بها ليدفن في أرضها الطاهرة.

لبثنا نسير وسط الربى وصعدنا منها ما هو بالغ الوعورة في طرق لياتها متعاقبة، وكلها مجدبة عريت عن النبت إلا في بعض بطون من الأودية، حيث كنا نرى سيلا من الماء يتلوى وتقوم القرى على جوانبه بأبنيتها الوطيئة من اللبن والطين، وبعد يوم ونصف دخلنا سهولا غالبها صحراوي وتلك بداءة أرض خراسان.

استوقفت السيارة قليلا في قرية (نيسابور) مثوى رفات (عمر الخيام) الذي عاش في الربع الأخير من القرن الحادي عشر وأوصى ان يدفن في بقعة تظلها الأشجار ويكسوها ورقها الذابل مرتين كل عام. زرت مقبرته وسط الحقول، تظلها حقاً أدواح عالية قديمة، ويزورها من الأجانب خلق كثير لأنه قد خلد له ذكرا بما كتب في رباعياته التي ترجمها الناس إلى

جميع اللغات، ولقد أبى عليه علماء الدين تشييد مدفنه لاتهامهم إياه بالزندقة لأنه كان إباحيا في شعره.

عادت الربى فتسلقناها وأشرفنا على (مشهد) وهي في حجر الجبال بعد أن لبثنا في الطريق ثلاثة أيام وأربع ليال كاملات قاسينا خلالها كثيرا. هنا وقف السائق ونبه القوم أن هاهي مشهد فارقبوها تبركا فأخذوا يحاولون رؤية القبة الشريفة وسط الضباب والدخان المنبث وكل من لمح منها قبسا قرأ آيات التبرك وعمد إلى قطع الأحجار يجمعها في كومة، ثم أقبل على السائق يهبه من أنعامه ما تيسر.

دخلنا مشهد تحوطها المزارع والبساتين ثم أخذنا نخترق طرقا فسيحة يحفها الشجر وتقوم عليها المباني الحديثة الوطيئة، وقد كانت من قبل أزقة مختنقة كسائر بلاد فارس، لكن يد الإصلاح تناولتها اليوم على نحو ما فعلت في طهران، وقد استرعى نظري بناء القنصلية البريطانية بعظيم امتداده وهو أثر من آثار النفوذ الإنجليزي الذي كان يسيطر على البلاد بجانب النفوذ الروسي. حتى حدث مرة أن حاول بعض الناس أن يعلو ببناء بيته الملاصق لتلك الدار فمنعه القنصل إذ لا يجوز كشف حرمة الدار الإنجليزية أما اليوم فلا يكاد يكون لذاك النفوذ ظل أبداً.

قصدت زيارة ضريح الإمام الرضى، الذي بدت لنا قبته الذهبية البراقة من أميال، وإذا

المسجد والحرم فاخران إلى حد كبير. مداخلهما عدة، الباب تلو أخيه في زخرف جذاب وفن شرقي بديع بالقيشاني والبلور والمرمر والرخام، وأمام كل واجهة رئيسية بهو مربع تحفه الحجرات المزركشة أقيمت لطلاب العلم في طابقين وتتوسطه قناة الماء يغترف منها الجميع للشر والغسل وتنظيف الملابس والأحذية ومآرب أخرى، والباب الرئيسي للضريح مكسو كله بالذهب الخالص في فجوات وتعاريج جذابة، وفوق الضريح قبة مكسوة بالذهب الخالص وللمسجد مئذنتان دقيقتان، عليهما غشاء من ذهب. أما عن العالم المتراص كالموج المرتطم هنا وهناك فحدث في دهشة فائقة.

كنت أسيراً ولا أكاد أشق لي طريقا بينهم، ومنهم المثقف أنيق الهندام والمتسول البائس في الخرق البالية والأقذار التي ينبعث منها مكروب المرض فيوشك أن يخترق أجسادنا. هذا إلى العلماء في عباءاتهم وعمائمهم السوداء للشرفاء منهم، والبيضاء لغير الشرفاء يخضبون لحاهم بالحناء جميعاً، ومن زوار الأجانب خلق كثير، عراقيون وهنود وأفغان ومن كافة العالم الإسلامي، وعلى الجدران يرتمي الكثيرون في خمول زائد وجلهم ممن أضناهم المرض وشوه البؤس أجسادهم، ويتوسط أحد الأفنية سبيل مذهب في داخله نافورة حولها السلال تحمل القعاب للمحتسين ويشرف عليهم كهل توقد حوله الشموع صباح مساء وبين آوية وأخرى يمد مغرفة يحرك بها الماء والسعيد من استطاع أن يتذوق هذا الماء الطاهر: أخيرا دخلت الضريح الفضي وإذا المدفن وسط شباك الفضة والذهب ترصعه الجواهر الثمينة وقد أتممت تطوافي حوله في ثلث ساعة كدت أختنق خلالها من كثرة الزحام وهنا رأيت عجباً: نواح وصياح ولطم وتقبيل واستلقاء على الأرض ولمس للأعتاب بالخدود وما إلى ذلك مما تقشعر له الأبدان. هنا أسرع شيخ يطوف بي وناولني أدعية مطبوعة يجب أقرأها وأركع أسجد وأقبل، فأسرعت بالتخلص منه بفضل زميل فارسي عرفته، فخاطب المطوف قائلا بأنني عالم قارئ بكل أولئك، وقد علمت بعدئذ أنني لو رفضت الإذعان للأمر وحدي لظن أني ملحد ولكان ما لا تحمد عقباه، وبجانب الضريح قبر هرون الرشيد غير أنه منبوذ في ناحية غير طاهرة وقد وضعوه بحيث يلمسه الزائرون بأدبارهم عندما يطوفون حول الرضى وذلك احتقارا لشأنه وكثير منهم يلعنه بعد الزيارة ويركله برجله ووجهه مقابل للأمام ويقول (لعن الله المأمون وأباه) وذلك لأنه سني أولاً، ثم لأنه والد المأمون الذي اتهم بدس السم للإمام، وقد سافر الرشيد إلى هناك في حملة ضد أحد الحكام الذين مالأوا بني أمية، فوافته منيته هناك فأوصى بأن يدفن في هذا المكان الذي أقام عليه الاسكندر المقدوني علماً، ونبأ بأنه سيكون مدفن رجل عظيم، ولما جاء المأمون ولى الرضى حاكما على تلك البلاد من قبله، ولما عاد إلى بغداد وتم له الأمر دس للرجل فمات ودفن إلى جوار الرشيد. خرجت إلى الفناء وإذا في كل ركن من أركانه عالم يرتقي منبرا وحوله خلق كثير جلوس على الأرض في وجوم وشبه ذهول وهو يقص عليهم أنباء الإمامين علي والحسين وجميعهم يبكون، وكلما أشار في قوله إلى الفاجعة صاحوا ولطموا جباههم وخدودهم في فرقعة مؤلمة ومنهم الطفل والمراهق والسيدة والعجوز والكهل الفاني والمتفقه والأمي الجاهل، وذاك التبشير يضل سحابة اليوم في جميع أركان الأفنية. ولما أوشك الغروب سمعت من شرفة الباب الأوسط طبولا تقرع في نقرات مثلثة ثم أعقبها صياح وتلا ذلك نفخات في أبواق طويلة

مزعجة، وظل هذا حتى غربت الشمس فكأنهم يودعونها كما يفعل المجوس بذاك الذي يدخل الرهبة ويلقي الرعب في القلوب. فقلت في نفسي أهكذا يلعب رؤساء الدين بأذهان البسطاء لا ابتغاء مرضاة الله بل لملء جيوبهم هم وذراريهم الذين لا يحصيهم عد؟ تأخر معيب وتدهور يعطي الأجنبي عن البلاد أسوأ الفكر؛ وحتى تقضي حكمة الشاه على كل أولئك، سيظل هذا حجر عثرة في سبيل تقدم البلاد.

والذي شجع الفرس على اتخاذ (مشهد) كعبة مقدسة، الشاه عباس أكبر ملوك الصفويين هناك وكان عصره ثالث العصور الذهبية في فارس. صرف قومه عن زيارة مكة لكراهتهم للعرب ولكي يوفر على قومه ما كانوا ينفقون من مال طائل في بلاد يكرهونها، فاتخذ (مشهد) كعبة وجه الشعب إليها ولكي يزيدها قدسية حج إليها بنفسه ماشيا على قدميه مسافات تفوق ألف كيلومتر ومائتين فتحول الناس اليها، ويندر من

يزور الحجاز منهم اليوم وهم يحترمون كلمة (مشهدي) عن كلمة (حجي) لان من زار مشهد لا شك أكثر احتراما وطهارة ممن زار مكة في زعمهم!

حبيشة

- 1 -

عذراء، فاتنة، ناطقة الملامح، تبسم عن ثغر نقي مؤشر. فوهاء ولكن جمالها في ذلك الفوه. حوراء، تتراءى نفسها اللطيفة رقصة في عينيها، ما تلقى عليها نظرة إلا ثبتت في قلبك بصورتها المرحة، وبسمتها الوادعة، مأنقة في ملبسها من غير تبرج، متألقة في خفرها بلا تكلف،

وكانت فتاتنا في ريعان شبابها، بدأ عودها يثمر، وأخذت حركتها تنتظم، ونظرتها تستقر ونغمتها تلين. قضت أيام طفولتها ترعى البهم، وكانت محبوبة من لداتها وصواحبها، مشهورة المواهب بينهم، يتهافتون على صحبتها ويجمعون على مودتها، ويقنعون منها بكلمة طيبة أو بسمة عذبة. وكان لابد للطفولة من نهاية، وقعدت في بيتها تاركة رعيتها للصغار من اخوتها وابتدأت حياة جديدة.

- 2 -

أنبأت (عبد الله) أمه برغبتها في زيارة بيت من حيها. وكان غلاما يفعه، فاستبان وجهتها وإذا به بيت (حبيشة) رفيقة صباه فوثبت صورتها توا إلى مخيلته، وبدا وجهها الطلق يناديه وصوتها العذب يناغيه. فدعاها لأن تتريث حتى يمضي معها، ليكسر عنها كلاب الحي الضارية وأكبرت الأم شهامة فتاها، وحستها عاطفة حقاً لأمومتها. فرجل جمته، وطيب ثيابه، ومشى يختال كالطاووس، ويترنح كالعروس، ومن مثله سيقدم على وجه صبيح طالما انتظر لحظات رؤيته؟ والآن قد أمكنته الفرصة. نعم سيراها، وفي بيتها، وتحت رقبة أهلها، ويشبع نفسه من حسنها فيروي قفره، ويبل صداه.

دخل عليها، وشد على يديها، ونظر نظرة فيها، فإذا هي غيرها بالأمس، جمال يتولد ومحاسن لا تنفد.

تحمل الفتى بسهامها، وخرج من دارها، تحدثه أمه فيغمغم، يهيم في مهامه فكره، قد أطرق برأسه وشرق بنفسه، وبعد حين زفر كالمهجور، وانتظمت أنفاسه كلمات خافتة خاشعة.

وما أدري، بلى إني لأدري ... أصوب القطر أحسن أم حبيش؟
حبيشة والذي خلق الهدايا ... وما عن بعدها للصب عيش

سمعته أمه، وفطنت لدائه، ولكنها تغافلت عن همه، ومشيا يلفهما الصمت، حتى اعترضهما ظبي نعطو إلى سلمة فوق رابية، رآه مقدودا كتمثال، ولمح في جيده وعينه ليلاه، فانطلق لسانه من عقاله، وجهر بصوته:

يا أمتا! أخبريني غير كاذبة ... وما يريد مسول الحق بالكذب؟
أتلك أحسن أم ظبي برابية؟ ... لا، بل حبيشة في ظني وفي أرب

وماذا تخبره أمه؟ صبت عليه ذنوبا من الملامة، وقرعته على خوره واستخذائه، وحذرته أن يتمادى في عمايته، ثم فكرت في صرف هواه إلى بنت أختها، التي عمدت تزينها، وتبدع في تجميلها علها تقع من قلبه موقعا، ولكن حب حبيشة كان قد واتى والنفس فارغة فاستحكم، وان غابت عنه تركت ربعه خاويا، وقبله وارياً

إذا غيبت عني حبيشة مرة ... من الدهر لم أملك عزاء ولا صبرا
كأن الحشى حر السعير، يحشه ... وقود الغضى والقلب مستعر جمرا

وكان عبد الله ككل الشعراء، وضع قلبه على طرف لسانه، أحب فشبب، ولذ له ذلك، فلقي أهلها منه كل بلاء، وعملوا كيدهم لصرفها عنه، فأرادوها على أن تعده موعدا، وفيه تصارحه بزهادتها فيه، وكراهتها إياه، وهم عن جنب منها يسمعون. فلما أقبل انخرط اللؤلؤ متهالكا، والتفتت حيث أهلها كامنون، ففطن لنظرتها، ورجع من حيث أتى، وقال:

لو قلت ما قالوا لزدت جوى بكم ... على أنه لم يبق ستر ولا صبر
ولم يك حبي عن نوال بذلته ... فيسليني عنه التجهم والهجر
وما أنس م الأشياء لا أنسى دمعها ... ونظرتها حتى يغيبني القبر

وظل على حبه، يقنع باللمحة، ويتعلل بالخيال حتى وقعت الواقعة.

- 3 -

وجه النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد بعد فتح مكة إلى ما حولها من القبائل يدعوهم. إلى الله عز وجل فنزل ببني جذيمة من عامر ولم ينزلوا على رأيه، فأسر من استطاع منهم، وحكم السيف فيهم وكان من أسراه (عبد الله بن علقمة الكناني) صاحب حبيشة، ولما هموا ليقتلوه استوقفهم لحاجة في نفسه وطلب من آسره أن ينزل معه إلى أسفل الوادي، حتى يودع ظعنه، ولما كان منهن قاب قوسين، نادى بأعلى صوته: أسلمي يا
حبيش، عند نفاد العيش) فقالت وأقبلت عليه: وأنت فأسلم على كثرة الأعداء، وشدة البلاء، ولبث معها برهة، تزود منها بقبلة، تقويه على سفره الناصب، وشقته البعيدة، ثم أنشدها
إن يقتلوني يا حبيش فلم يدع ... هواك لهم مني سوى غلة الصدر
وأنت التي أخليت لحمي من دمي ... وعظمي وأسبلت الدموع على نحري
وبعد أن قضى لبانته، دفع لصاحبه هامته، وكان ما كان.
أحمد أحمد التاجي
دبلوم دار العلوم
الكتب
كتاب ابن خلدون
للأستاذ محمد عبد الله عنان
لقد ظهرت للأستاذ عنان مؤلفات شتى في اللغة العربية تختلف في موضوعاتها، وتجول في أنحاء مختلفة من نواحي الأدب، ولكنها جميعا تنضوي تحت لواء واحد، وهو لواء البحث، وتقصد إلى قصد واحد وهو إحياء التراث القومي العربي، وإغناء التأليف في اللغة العربية.
ولعل الأستاذ من أغنى المؤلفين المصريين إنتاجا، فله كتب في الأدب، وأخرى في التاريخ، نذكر منها كتب: قضايا التاريخ والمحاكمات الكبرى، وكتاب (مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام) وكتاب (تاريخ الخطط المصرية) وكتاب (تاريخ الأندلس) وها نحن اليوم نتلقى منه كتاب (ابن خلدون) في ترجمة حياة ذلك المؤلف العربي الكبير وأثره في الحياة الفكر العالمية.
وليس لأحد أن يبحث في السبب الذي دعا الأستاذ إلى تأليف كتابه الجديد، فليس من العجيب أن يوجد في اللغة العربية كتاب في ترجمة حياة ذلك العالم الإسلامي العظيم، وإنما العجب أن تكون اللغة العربية خالية من مباحث شتى فيه وفي تحليل آرائه ودراسة مؤلفاته. فعلى أهل العربية شكر الأستاذ عنان على أن قام بأداء ذلك الغرض وكان أداؤه له أداء كريماً.
ولقد بين الأستاذ في مقدمة كتابه الدافع الذي دفعه إلى تأليف الكتاب فقال (أن هذه الدراسة التي أقدمها اليوم للتعرف بابن خلدون وتراثه، إنما هي وفاء التلميذ لاستاذه، التمست لكتابتها هذه الذكرى الستمائة لمولد المؤرخ والفيلسوف العظيم).
وقد قسم الأستاذ كتابه إلى أقسام: كل منها يتعلق بناحية من نواحي دراسته. فأولها يتعلق بحياة أبن خلدون وتطورها في مختلف الظروف والتقلبات وفيه ذكر للدول التي كانت له بها علاقة. وقد أفاض في وصف حياته في مصر وأثره في مجتمعها. والقسم الثاني وصف لما خلفه أبن خلدون من المؤلفات ولا سيما مؤلفه الأكبر (المقدمة) والقسم الثالث عرض
لآراء الغربيين في أبن خلدون وأثره في مؤلفات أوربا في العصور الوسطى.
وقد حرص الأستاذ عنان في القسم الأول من كتابه على أن يصور المؤرخ الإسلامي الكبير تصويرا دقيقا تلمح فيه تفاصيل الملامح، ودقائق الأوصاف فتحس وأنت تقرأ وصفه أنك حيال رجل حي ينبض قلبه بأقوى المشاعر وتتحرك نفسه مع عوامل الحياة المضطربة حوله، ويفكر في كل مواقفه تفكيرا متناسقا متوافقا منطقيا مع نفسيته.
وانه لمن الأمور المعتادة في كتابة المترجم أن يقع الكاتب في خطأ المبالغة إذا كان بمن يترجم له، فان الكاتب إذا كان معجبا بالرجل الذي يصف حياته كان من السهل عليه أن يؤول كل أعماله وكل آرائه تأويل المعجب. ولكن الأستاذ عنان كان فوق هذه المرتبة، فان إعجابه بعقل ابن خلدون وقوة تفكيره لم يحمله على أن يتغاضى عن وزن مسلكه الخلقي في حياته، فكان في حكمه عليه من هذه الناحيه قاضيا غير

محاب، لا يحمله الإعجاب على الإغراق والمبالغة. ومن ثم نراه يصفه بعد النقد والتمحيص وصفا فيه اللوم إذا كان في مسلكه ما يدعو إليه فيقول مثلا: (فكانت كسابقتها دليلا على ما تجيش به نفسه من الأثرة ونكران الصنيعة وانتهاز الفرص السانحة مهما كان انتهازها ينافي الوفاء والولاء والعرفان. كان ابن خلدون ينطق في خططه وأعماله عن احتقار عميق للعاطفة والأخلاق المرعية، وكان يسيره مثل ذلك الروح القوي الذي اعجب به ميكافللي فيما بعد الخ) غبر أن الأستاذ عنان وأن لم يحمله الإعجاب على المبالغة لم ينس أن يعطي ابن خلدون حقه في التقدير الفكري فكتب فصلا بديعا في وصف عزلته ومؤلفاته وآخر في وصف ولاية للتدريس والقضاء. ويمكن أن يعتبرا آية من آيات التأليف الحر والبحث الدقيق. ثم ختم بحثه بفصل بين فيه أثر ابن خلدون في التفكير المصري صور فيه صورة واضحة للرجل والعصر حتى ليكاد الإنسان يرجع حيا إلى ذلك العصر، ويحس ما كان الناس يحسونه فيه من تنازع في العواطف بين صديق معجب وحاسد كاره وناقد متجن وهو في كل ذلك يبين الأسباب التي تحت المظاهر ويرد الأمور إلى عللها وأساسها. وقد عاد الأستاذ عنان بعد تحليل شخص ابن خلدون إلى تحليل آرائه فختم بحثه بالكتاب الثاني وهو في وصف تراث ابن خلدون الفكري والاجتماعي، فبين مجمل آرائه ووجهة نظره فيها، ثم بحث تطور آرائه الاجتماعية فتتبعها فيما كتب المؤلفون من قبله، ثم عقب بما كتب من بعده في الموضوع
نفسه. وكانت خاتمة هذه البحوث فصل طريف عن رأي النقد الحديث في ذلك المؤلف وهو باب قلما يعني به الكتاب عند كلامهم على مؤلفي الإسلام.

ولعله لم يسبق أحد إلى الإفاضة في المقارنة بين آراء ابن خلدون وآراء ميكافيللي الإيطالي مؤلف كتاب (الأمير) المشهور وقد خرج من تلك المقارنة إلى رأي طريف في مقدار الصلة التي بين المؤلف الأوربي والمؤلف العربي الذي سبقه بنحو قرن من الزمن.

فكتاب الأستاذ عنان كتاب شامل على صغر حجمه دقيق على سهولة مأخذه وسلامة أسلوبه. وإنني لأهنئ الأستاذ به وأرجو منه المزيد في هذه البحوث التي ظهر فيها فضله إلى هذا المدى.

م. ف

العدد 32 - بتاريخ: 12 - 02 - 1934

في الأقصر. . .

- 2 -

كان (ترجماننا) الأمي (ضاوي) يشرح للأساتذة الجامعيين والثانويين حديث تحوتمس الثالث مع أخته العاشقة، ووجوه التماثيل الواجمة غارقة في صمتها الناطق، تتراكم على قسماتها أنظار الخليقة، وتجثم على شفاهها أسرار القرون، ورءوس الأعمدة القائمة ناتئة في أشعة الشمس كالمزولة الهائلة، ترسم بظلالها الوريفة تعاقب الساعات منذ آلاف السنين! وكانت عيناي الحالمتان قد وقفتا على تمثال من تماثيل رمسيس الأكبر، يخطو إلى الأمام خطى المصمم الواثق، وبإحدى يديه مفتاح الحياة يجتاز به موت الساعة إلى خلود الأبد
والخلود حلم الفراعنة الدائم وهواهم الملح، أخطره ببالهم قبل الناس ما مُتِّعوا به من فيض الحيوية وخفض العيش ونفوذ السلطان واكتمال اللذة، فلو أنهم عاشوا على جدب من الإقليم، وحرب مع الطبيعة، وهوان على الدهر، لاستشرفت نفوسهم للبلى، واستهلكت عقولهم للعدم

خلّد الله الروح وحاول الفراعين تخليد الجسد! وما يدريك لعلهم كانوا يظفرون بهذا الخلود لو خلى الناس بينهم وبين الزمن. لقد قهروا الفساد والدهر وقهرهم اللص والفاتح! فمنذ خمسة وعشرون قرنا ما برحت يد الإنسان تبعث بهذي الجسوم والجروم! جرب القدر عليها حقد قمبيز، وعبث الاسكندر والقيصر، وورع تيودوسيوس وعمرو، وزهو المأمون ونابليون، وعلم مسبيرو وكارتر، فقطع بعض الرقاب، وقوض بعض الأنصاب، ونبش بعض القبور، ولكن بسمة رمسيس لا تزال كما أراها تناجز الفناء وتعاجز القدر!! وأي سبيل بعد ذلك إلى بِلاها ومسلاتها في العواصم الأوربية، ومخلفاتها في المتاحف الأثرية، باقية ما بقيت الأرض؟!

صعد بنا الدليل باب المعبد في سلم جانبي حديث يقوم عن شماله، ولو قلت لك البرج بدل الباب لقربت إليك وصفه! فهو سطح عريض من ضخام الجلاميد تكدس بعضها فوق بعض كما ترى في الهرم، أشرف من شرقه على ما بقى من صخور السقف فوق الأساطين، وتراءى من النصب خلال الاواوين، وطعن في السماء من أسنة المسال؛ من غربه على طريق بين صفين متوازيين من الكباش الرابضة في حجم البقر، يسايره النظر والفكر إلى

مرفأ كان ولا شك ينتهي عنده قبل أن يأخذ النهر من الساحل الغربي ألف متر في هذا الطريق كانت تخرج الجنائز الملكية من المعبد إلى نهر الحياة فتعبره إلى مراقدها الصخرية الآبدية في جوف الجبل، وفي هذا الطريق كان يسير موكب أمون السنوي إلى النهر، أمامه زُمَر المهرجين والمشعوذين يدورون على الارجل، ويمشون على الأيدي، بين أخلاط من باعة الفاكهة وشواة الإوز والبط، ثم يلي هؤلاء جوقات الموسيقى تصدح بالأهازيج، وطبقات الكهنوت تعج بالأناشيد، وحاملو الأصنام والبنود يسيرون بها وئيدا في خشوع ورهبة، حتى إذا بلغوا المرفأ تقدموا بامون فجعلوه في فُلكه الذهبي، وبالآلهة الأخر فوضعوا كل إله وكل الآهة في زورق خاص، ثم يسير الفلك بالاله الأكبر متنزها على النهر، تتهادى من ورائه زوارق الآلهة على الماء، وتهلل من حوله جموع الناس على الشاطئ!

من العسير على النفس الشاعرة ان تعيش في حاضرها بين هذه الأخيلة والصور! فحيثما أرسلت طرفك أو نقلت خطاك وجدت حجرا يكلمك أو أثرا يلهمك! هذا التمثال الذي تراه أمامك، أتراه أمامك، أتدري كم مرة طالعته الشمس، وكم نظرة نظرته الناس، وكم وقفة وقفها الناس عليه أقوام من قبلك بعضها لتقديس، وبعضها للتدنيس وبعضها للعبرة!!

أنك لتغرق من هذا الماضي الحاضر من فيض التأمل العميق الهادئ، يقطعك عن الدليل، ويفردك من الجمع، فلا تجد - متى عدت لحظة إلى نفسك - الدليل الذي كان يخطب، ولا الحشد الذي كان يسمع، ولا العربة التي كانت تنتظر!

خرجت فيمن تخلف في المعبد من الأصدقاء الشعراء وأخذنا نسير الهوينى في طريق الرمل حتى أدركتنا في بعضه عربة أقلتنا إلى الفندق

وفي الأصيل المونق من هذا النهار المشرق خرجنا نشهد وداع الشمس الغاربة لأطلال معبد الأقصر

ومعبد الأقصر كذلك أجمة من العمدان الباسقة المتشاجنة نتأت على سيف النهر في طول ثلثمائة متر بمشيئة آل أمينوفيس ورمسيس الاكبر!

وأول ما يملك عليك عقلك وقلبك فيه منظر يجمع تاريخ الوادي ويختصر أطوار العقيدة: ذلك منظر المسلة في المعبد، والبرج في الكنيسة، والمأذنة في المسجد! تجاورت هذه الثلاثة في هذا المكان منذ قرون تجاور الخصوم اللدِّ، لا يسفر بينها سلام، ولا تقطع حروبها هدنة!

ومن الغريب المعجز أن تصمد هذه الأوثان لهجمات المسيحية والإسلام، صمودها العجيب لعاديات الليالي والايام!. .

أحمد حسن الزيات

لحظات

للدكتور طه حسين

أتعرف هذه اللحظات القصار المفاجئة التي تعرض لك من حيث لم تكن تقدر ان تلقاها كأنما كانت تكمن في بعض أنحاء الزمن، حتى إذا قربت من مكمنها خرجت عليك بما يملؤها من قوة وحدة، وبما تستطيع ان تثير نفسك من حزن عريض عميق أو أمل واسع مبتسم. فوقفتك في طريقك الزمني واضطرتك بعد وقفة قصيرة إلى أن ترجع إلى الماضي البعيد والقريب تستحضر ما كان فيه من أحداث وتحس ما ترك في نفسك من ذكرى، أو تضطرك إلى أن تثب وثبة بعيدة إلى مستقبل الأيام، فإذا أنت تشيد القصور وتتخذ من الخيال أحلاما حلوة تحبب إليك الحياة وتملأ قبلك بالصفح عما جنت عليك من السيئات.؟

أتعرف هذه اللحظات القصار المفاجئة الخصبة التي لم تكن تقدر في وقت من الأوقات أنها ستعرض لك أو أنك ستعثر بها، ولكنك خرجت ذات يوم من دارك تسعى

فيما يسعى الناس فيه من جدة الحياة وهزلها، وتبلو ما يبلو الناس في سعيهم من حلو الحياة ومرها، فإذا لحظة من هذه اللحظات قد سقطت عليك كما يسقط الجدار على الغريب الذي مر به مصادفة وهو يميل إلى السقوط. أو عنت لك ثم مثلت أمامك كما يعن الشيء النفيس لبعض المارة ثم يمثل بين أيديهم حين يصلون إليه، وإذا هم وقوف أمامه قد أخذتهم الحيرة ثم غمرهم السرور؟ أتعرف هذه اللحظات القصار المفاجئة التي يضمرها لك الغيب ويخفي عليك بوادرها وطوالعها ثم يفجأك بها على غير انتظار، كما يلقاك الرجل تعرفه أو لا تعرفه فيلقي إليك نبأ من الأنباء لا يرى له خطراً ولكنك لا تكاد تسمع له حتى يحدث في نفسك أعمق الآثار وأقواها، وأبلغها وادعاها إلى الحزن والابتئاس أو إلى الفرح والابتهاج؟

إنك تحسب هذه اللحظات حين تلقاها أو حين تلقاك قصاراً لأنك تحصيها بالدقاق والثواني، وما هي بالقصار لأنها تحمل في وعائها الضيق الضئيل من العواطف والأهواء، ومن الأمل والذكرى، ومن اللذة والألم، ما يضيق به كثير من الساعات بل كثير من الأيام. إنك تحسب هذه اللحظات مفاجئة لأنها عرضت لك أو لأنك عرضت لها على غير انتظار ولا تهيؤ منها ولا منك وما هي بالمفاجئة. فان قوى أخرى غير قوتك وغير قوتها قد عملت منذ أزمان بعيدة في تهيئتك لها وتهيئتها لك، وفي دفعك إليها ودفعها اليك، حتى التقيتما عن

مفاجأة في ظاهر الأمر، وعن قضاء مدبر وقدر مقدر في حقيقة الأمر. وإذا كلاكما قد صنع لصاحبه وقدر له تقديراً.

هذه اللحظات القصار الطوال المفاجئة المدبرة لا تسنح للناس جميعا، ولا تسنح للناس في كل وقت، ولو عرفت وسيلة إلى أن تتبين كيف تسنح للناس ومتى تسنح لهم، ولأيهم تسنح لكنت من أكبر المستكشفين والمخترعين. وكيف برجل يفضح سر القدر ويهتك أستار الغيب؟! ولكنت بعد ذلك محسناً إلى كثير من الناس لأني أعلمهم كيف يتقون كثيراً من الشر، وكثيراً من الألم اللاذع والحزن المضني للنفوس والقلوب. ومسيئاً إلى كثير من الناس لأني أعلمهم كيف يفقدون لذات قلما يظفر الناس بمثلها، وكيف يصدهم العلم عن ضروب من السعادة لا ينعم بها إلا الجهلاء، ولحرصت أشد الحرص على أن أجهل هذا العلم وأغلق نفسي من جميع أنحائها دون هذه القوانين، لأني لا أعدل بهذه اللحظات القصار الطوال المفاجئة المدبرة كثيراً من أجزاء الزمن مهما تطل، ومهما تقصر، ومهما تمتلئ ومهما تفرغ، وأي حزن ممض مرمض يشبه في اللذة المحرقة اللاذعة، وفي السعادة المظلمة القاتمة هذا الحزن الذي حملته لحظة من هذه اللحظات في ليلة من الليالي فوضعته في قلبي ثقيلاً خشناً شاقاً، ولكنه على ذلك كله حلو، ولكني على ذلك أحببته وكلفت به. ولكني على ذلك حمدت هذه اللحظة القصيرة المفاجئة التي حملته حتى إذا بلغت قرارة نفسي وضعته فيها هادئة مطمئنة إلى من أقصى الزمن، وأقبلت به متباطئة متثاقلة كما توضع الصخرة الثقيلة في مكان من الأمكنة في غير عنف ولا سأم ولا كلال.

كنت مع جماعة من الأصدقاء نشهد التمثيل ونسمع الموسيقى والغناء في الأوبرا. قد فرغنا لما نشهد وما نسمع، وتركنا أعباء الحياة وأثقالها جميعاً في تلك العربة التي كانت تنتظرنا بالباب، وقد حفظت لكل واحد منا ما ائتمنها عليه من الودائع لترده إلينا متى عدنا إليها، ولم تكن ودائعنا تلك التي ائتمنا عليها العربة وتخففنا منها قبل أن ندخل الأوبرا إلا حياتنا اليومية وما فيها من مشقة ولين، ومن مودة وبغض، ومن يأس وأمل، ومن ألم ولذة، ومن نشاط وخمود. تخففنا من هذا كله وسللنا نفوسنا منه إلى حين كما تسل السيوف من أغمادها، وخلصنا بقلوبنا ونفوسنا نقية صافية مصقولة كأنها المرآة نعرضها للممثلين لينعكس فيها ما يبدعون من مظاهر الجمال الفني في التمثيل والغناء. وكنا لا نحس الا ما

نشهد ونسمع، ولا نفكر الا فيما نشهد ونسمع فإذا وقف التمثيل وتفرقنا في أبهاء الدار أو لبثنا في أماكننا لم نتحدث الا بما شهدنا وسمعنا نصفه ونستمتع به، والإ بما سنشهد ونسمع، نتوقعه ونتنبأ بما سيحمل إلينا من اللذة والمتاع. وهل ينبغي أن يدخل الناس دور الفن إلا على هذا النحو، قد خلصوا للفن من كل شيء ومن ذكرى كل شيء، وفرغوا للفن لا يشركون معه في نفوسهم شيئا، وإني لجالس في ناحية من نواحي الدار مع أصدقائي نتحدث بما كان في الملعب ونتوقع ما سيكون، واذا صوت يخرج

أصدقائي ويخرجني مما كنا فيه. . صوت لم أسمعه منذ أعوام وقد كنت أسمعه كل يوم، صوت قد بعدت آماد الزمان والمكان بينه وبين سمعي حتى تقطعت بينه وبيني الأسباب، وحتى كدت أنسى نبراته، وكنت أفكر فيه تفكيراً بعيداً نائياً حين كان يحدثني عنه المتحدثون. ثم دنا هذا الصوت ودنا، ثم امتدت يد فامتدت إليها يدي. ثم كانت مصافحة ثم كانت تحية. ثم كان استئذان في الجلوس، وأذن به، ثم كان وجوم من صاحب الصوت، ووجوم ممن كان يبلغه الصوت لم يطل، ولم يكن من اليسير أن يلحظ، ولكنه مع ذلك كان طويلاً ثقيلاً. ثم كان حديث قصير في أشياء لا تغني ولا تفيد ولا تدل على شيء، ثم شرب القهوة واحرق السيجارة، ثم تحية الوداع، ثم الافتراق.
لست أدري أذاق أصدقائي لذة التمثيل بعد ذلك أم شغلوا عنه؟ أما أنا فأعلم أني لم أذق للتمثيل بقية الليلة طعماً، إنما كانت الأصوات تبلغ أذني ثم لا تصل إلى نفسي وإنما تقف من دونها وقوفا لأني كنت أفكر في غير التمثيل، ولأني صرفت عن الغناء والفن صرفاً، لم دنا اليّ هذا الصوت، وكان قد بعد وأمعن في البعد؟ لم مد إليّ هذه اليد وكانت قد قبضت عني قبضاً؟ لم اتصل الحديث بين صاحب الصوت واليد وبيني كانت قد انقطعت بينه وبيني الاحاديث، بل كانت قد انقطعت بينه وبيني الصلات إلا أن نضطر إليها اضطراراً حين تجمعنا المجامع، أو نلتقي على غير موعد ولا انتظار. ثم لا نستطيع أن يهدي بعضنا إلى بعض ما ينبغي من الإعراض في مثل ما نحن عليه من الجفاء. لم دنا لي هذا الصوت؟ ولم امتدت الي هذه اليد؟ ولم اتصل بيننا هذا الحديث؟
لقد كان الحياء يترقرق في هذا الصوت الذي كان يدنو الي مأخوذاً حزيناً ولقد كان الحياء يضطرب في هذه اليد التي كانت تصافحني مترددة مرتعشة بعض الشيء. ولقد كان الحياء يملأ هذا الحديث فيضطره
إلى الفراغ مما يعني أو يفيد. ومع ذلك فشهد الله ما شككت في أن هذا الصوت قد دنا الي صادقا، وفي أن هذه اليد قد امتدت الي صادقة وفي أن هذا الحديث قد اتصل بيننا خالصا من كل رياء.
وا رحمتاه للناس! إن الضعف الإنساني ليحمل نفوسهم آلاماً ثقالا. وا رحمتاه للناس! إنما في الحياة من إعراض زائلة ترغبهم في الخير العاجل، وتخوفهم من الشر العاجل، لتحمل نفوسهم آلاما ثقالا. وا رحمتاه للناس! ان أجسامهم لتطغى على نفوسهم وان أهواءهم لتطغى على عقولهم، وان منافعهم لتنسيهم حقوق الصداقة والصديق، وا رحمتاه للناس! ان رهبة السلطان والرغبة في جاهه والحرص على قرب المكان منه لتفسد عليهم من لذات الحياة الخالصة الصافية ما لا ينبغي أن يفسد، وا رحمتاه للناس ان لهم على هذا كله لنفوساً لم تطبع على الشر، ولم يحل بينها وبين الخير، وان هذه النفوس التي تضعف حتى تتورط فيما لا ينبغي لها، لتختلس الفرص إلى القوة والخير اختلاساً، وتختطفها اختطافا، وتنعم منها باليسير الضئيل في اللحظة القصيرة المفاجئة، لم تكن تنتظر ولم يكن يدبر السعي لها تدبيراً، وإنما سنحت فاقتنصت كما يسنح الصيد وتمكن منه الفرصة فيقتنص. وا رحمتاه للناس! لو علموا أن منافع الحياة وأعراضها وأغراضها وما فيها من رغبة ورهبة، ومن مكانة وجاه لا تزن كلها لحظة قصيرة مفاجئة يصفو فيها الود، ويخلص فيها النصح، ويفرغ فيها الصديق للصديق، لغيروا من حياتهم ومن سيرتهم الشيء الكثير.
عرضت لي هذه اللحظة القصيرة المفاجئة في ليلة من ليالي الأوبرا، وما أكثر ما تعرض هذه اللحظات القصار المفاجئة لكثير من الناس في هذه الأيام السود، فاللهم، ارفع عن الناس مقتك وغضبك واللهم هيئ للناس حياة لا يخاف الصديق فيها لقاء الصديق، ولا يختلس الصديق فيها لقاء الصديق، ولا يقطع الصديق فيها أسباب الود والحب، لا لشيء الا لأنه يخاف بأس السلطان أو يرجو رضى السلطان.

طه حسين

جريمة. . .

للدكتور محمد عوض محمد

- 1 -

في صباح يوم من تشرين الأول كان الضباب ضاربا بجرانه على شوارع (ليفربول) فلا تكاد العين أن تستبين السبيل الا عن كثب. . والمصابيح لم تزل موقدة كأنما حسبت أن الضباب بقية من الليل، وأن النهار لم يطلع بعد. . .

في تلك الساعة الباكرة أخذ الشطر العامل من أهل المدينة يتحرك، وجعلت الأبواب تتثاءب، فيخرج منها العمال أفواجا، ينشدون عملهم ويجرون وراء خبزهم وزبدهم_لأن العامل في مصر قد يقنع بالبحث عن الخبز؛ أما هناك فلا بد له من الخبز والزبد.

هذه الحركة الباكرة في بعض أحياء المدينة قد تلاها سكون؛ لأن الشطر الثني من المدينة لم يستيقظ بعد. . وكأنما كانت الحركة الأولى بمثابة الفجر الكاذب، أضاء لحظة، ثم ساد من بعده الظلام - ولكن سرعان ما انقضت ساعة الهدوء هذه، وأخذ ذلك الغطاء الكثيف من الضباب يرق شيئا فشيئاً. وبدا في أقصى الشرق على الأفق شيء غامق مبهم يدعونه في تلك البلاد الشمس. . ولقد تستطيع العين المصرية - بشيء كثير من المران - أن ترى فيه من الشمس شبها، وأن له بها صلة.

وبعد لأي، تثاءبت الأبواب في الأحياء الوسطى، وخرجت منها أفواج من الحضريين (البورجوا) الذين يشتغلون في دور التجارة. فيعملون بها ساعات قلائل، ولكن أجرهم أعلى، ومقامهم في المجتمع أسمى. وهم ايضاً ينشدون الخبز والزبد. ولكنهما من صنف أرقى وأرفه من خبز العمال وزبدتهم.

وهكذا تحركت في المدينة أحياؤها السفلى والوسطى، ولم يبق مغموساً في عسل الرقاد سوى أحياء (العاطلين)، الذين يعيشون من أموال تأتيهم من وراء البحار: من الهند ومن استراليا ومن سائر أنحاء الدولة التي لا تغرب الشمس عليها. . هؤلاء لا يتحدثون عن خبز ولا زبد، بل يأتيهما الخبز والزبد طائعين يجررانِ الذيول. . .

وليس يعنينا اليوم من أمر هؤلاء شيء، وانما تعنينا الآن تلك الأحياء الوسطى التي لم يكد أبناؤها وبناتها يخرجون. . . كل إلى عمله، حتى فتحت الأبواب مرة أخرى، وخرجت من

كل باب امرأة نصف في ثياب رثة زرية، وهي تحمل في يمينها خرقة بالية، وفي يسارها سطلاً فيه ماء دافئ.

هؤلاء النساء لسن بخادمات كما قد يتبادر إلى الخاطر العجل، بل ان كلا منهن ربة دار، وصاحبة الأمر والنهي فيها. وهي تنتظر ريثما يخرج من بالدار من بنين وبنات، ثم تأخذ في الجد والعمل، من غسل وطهي وخبز وعجن، ولا تكاد تهدأ ساعة من الصباح إلى المساء، بادئة عملها حيث يجب أن تبدأه: من عتبة الدار ودهليز البيت. . . ولقد تجد الواحدة منهن في غسل العتبة لذةً خاصة، ولعل أحب الأعمال جميعاً إليها. . لأنه يتيح لها فرصة قد تكون الوحيدة في كل يوم لان تتحدث إلى جارتها، وتقص عليها من كل شيء، بل ومن عدة أشياء أخرى. . .

وفي هذا اليوم من تشرين الأول خرجت السيدة نلسن من المنزل رقم 15 في ساعة باكرة، وأخذت تمسح عتبتها في شيء كثير من النشاط، لكنه كان نشاطا يشوبه القلق والاضطراب، وكانت من آن لآن تنظر إلى منزل جارتها السيدة هرفي صاحبة المنزل رقم 17، وكأنها تود بفارغ الصبر لو خرجت هذه السيدة لمسح عتبعها، كي تحدثها في الامر الذي أهمها وأزعجها؛ والذي كانت ترتعد من أجله الخرقة التي بيمينها. والسيدة هرفي هذه أرملة ورثت عن زوجها منزلا يفضل عن حاجتها وحاجة أسرتها، فكانت تسعفي تأجير شطر منه لقاء مال يسير تستعين به على تكاليف الحياة. ولم تكن جارتها ترى في هذا بأساً، ما دام نزلاؤها رجالا ذوي فضل. لكنها لاحظت بالأمس من خلال النافذة رجلا أسود الوجه خارجاً من المنزل رقم 17؛ فما شكت في أنه النزيل الجديد، الذي تريد السيدة هرفي أن تؤويه في دارها. . . . يا عجباً لهذه المرأة التي لا تتورع من الخروج على كل عرف، وانتهاك كل حرمة. والنزول بهذا الحي الراقي، وهذا الشارع الطاهر، إلى الدرك الأسفل. . . ماذا يكون مصير هذا الحي يوم يرى سكانه هذا الأسود رائحاً غادياً، بوجه المزعج وسحنته المنقلبة؟. . إن العاقبة ستكون من غيب شك وخيمة والمصير أليما. فلن يلبث سادة الحي وأشرافه حتى يهجروه وينأوا عنه؛ لكي لا تقذى أبصارهم برؤية هذا الوجه الكريه. . . ان وجها واحداً من هذه الوجوه السود لكفيل بأن يلوث حياً بأسره، وأن ينغص على أهله صفاء الحياة وطيب الرقاد. . . . والويل لفتيات الحي ان صادفن هذا الوجه المنحوس في ليلة حالكة الظلام، عند أوبتهن من المرقص والمسرح: ان الرعب الذي يستحوذ عليهن في تلك اللحظة لخليق بان يورثهن سقماً يلازمهن مدى الحياة. . . كلا. . ان السيدة هرفي - مهما كان حبها للمال - يجب أن تعلم أن مثل هذا الشيء لا يجوز. . . ومن

حسن الحظ أن الفتى لم يأت بأمتعته بعد. . . ولم يزل في الوقت متسع لمنع هذه الكارثة من أن تلم بهذا الحي الآمن المطمئن، ولئن كانت السيدة هرفي قد نسيت ما عليها من واجب تلقاء الحي وأهله، فأحرى بجارتها مسز نلسن أن تريها الرشد من الغي، وأن تردها عما هي سائرة إليه من الوبال. . . .

ولم يطل بها الانتظار، بل فتح باب المنزل رقم 17 وخرجت السيدة هرفي، وهي في نهاية العقد الخامس من العمر؛ وفي يمينها خرقة كبيرة وفي يسارها سطل كبير. ثم بدأت جارتها بالتحية.

- عمي صباحاً، مسز نلسن، عمي صباحاً.

- نعم صباحك، مسز هرفي.

- أن الهواء دافئ صحو، والشمس مشرقة في السماء. أرجو أن تكوني بخير.

- انك خرجت اليوم متأخرة على غير عادتك.

أجل لقد كان لدي اليوم عمل كثير، وكان علي أن أعد الحجرة السفلى، والغرفة الأمامية من أجل ضيفنا الجديد فانه سيأتي بأمتعته قبل الظهر بساعة وقد يبقى بالمنزل إلى وقت الغذاء.

أتعنين إذن انك رضيت بذلك الزنجي الدموي نزيلا عندك؟

- هل أنبأك بأمره أحد؟

- رأيته أمس من خلال النافذة خارجاً من باب بيتك، ففتحت عيني من الدهشة، وأنا لا أكاد أصدق ما أراه. وخشيت أن تكوني قبلت أن تسكنيه بيتك. والآن قد صدقت أسوأ ظنوني فبالله يا صديقتي، إلا تدبرت الأمر قليلا، قبل أن تنزلي بهذا الحي الآمن هذه النكبة الفادحة.

- وأي نكبة في هذا؟ أن للفتى حجرته يجلس فيها، وغرفته ليرقد فيها، ولن يكون له سبيل إلى أحد من الحي، ولا لسكان الحي سبيل إليه. فهوني عليك فليس في الأمر ما يدعو لكل هذا الاهتمام. .

- اللهم لطفا. .! إنك لا تبالين - إذا ظفرت بالمال الذي تبغين - أن يشقى الحي وأهله برؤية هذا الزنجي الكريه المنظر،

- إنه ليس بزنجي، بل هو مصري.

- وما الفرق بين هذا وذاك؟ أو ليسوا جميعا من أهل آسيا؟

- لست أدري أية آسيا تعنين. . . غير أني حادثت هذا الشاب، فرأيته يتكلم بلساننا كأحسن أبنائنا. ورأيت في حركاته وسكناته ما ينم عن حسن الأدب وكرم المحتد.

ذاك لعمري العسل الذي يخفي السم الزعاف. وكأنما نسيت ذلك الهندي الزنيم الذي كان نازلاً في بيت مسز براون. لكم كانت تكرمه الأم وتجله، وتسمح له أن يصحب ابنتها دورا إلى بيوت الرقص واللهو. فكان جزاؤها أن خان الأمانة وخفر الذمة، ثم اختفى من المدينة فلا يعرف له أحد مستقراً ولا مقاماً.

- ما أحسب الناس أشراراً كلهم، وفي أبنائنا البيض من يرتكب ما هو شر مما ارتكبه الهندي. وعدا هذا فاني ليست لي ابنة فأخاف عليها، وقد زوجت بناتي جميعاً، ولله الحمد.

ونحن؟ أما تحسبين لنا ولبناتنا حسابا؟ انك من أجل بضعة الجنيهات التي سينقدك إياها لا تبالين بنا ولا بما قد يحل بنا ولا بالحي وما يدنسه ويحط من شأنه.

لكني قد وعدت هذا الشاب أن أسكنه الحجرة السفلى والغرفة الأمامية، ولا بد أن أبر بوعدي.

- يا لهذي السذاجة البديعة! كأنما يفهم هؤلاء السود ما الوعد وما الوفاء بالعهد!. . . ولقد كان ذلك بالهندي شديد الوفاء لدورا المسكينة يوم تركها في تلك الحال الأليمة، واعتصم بالفرار. .!

وفي هذه اللحظة خرجت الحارة الأخرى من المنزل رقم 19 وانضمت إلى جارتيها وانتقل الحوار من الحديقة إلى داخل المنزل وقد صحت نية الجارتين إلا تركا صاحبتهما حتى تذعن لرأيهما، وتنزل عند إرادتهما.

- 2 -

في صباح ذلك اليوم من تشرين الأول استيقظ (حسن) من رقاد كان مملوءا

بالأحلام. . . وكانت أحلامه عن مصر وعمن بمصر، وعن منزله المطل على النيل، حيث خلف والدين
آلمهما فراقه، وأحزنهما أن سيكون بينهما وبينه هذا البحر الفسيح وهذا البر العريض، وأن يهزهما إليه الشوق، فلا يستطيعان إليه سبيلا، ويحترق الصدر وجداً وهيهات الشفاء. . . في هذه الليلة رأى حسن أخته في المنام، ولقد غادرها في مصر حليفة السقم. . أما اليوم فقد ابتسمت إليه حين رآها، وطلبت منه أن يعود إليها رجلا عظيماً. . . عجب كيف حالهم اليوم، وهل يختلف الجديدان عليهم بالسعادة أو النعيم، أم بالشدة والشقاء؟. . . وهل اعتادت الأم فراق الابن الوحيد، الذي لم يفترق عنها منذ أن رزقته بعد يأس، فكان قرة العين، وشفاء ما بالصدور. . .
وها هو ذا قد اضطر لأن ينزح عن داره، وأن ينزل هذه المدينة الداوية الصاخبة، وقد التحق بجامعتها، وأخذ يجد في طلب العلم ومضى عليه تحت هذه السماء الرمادية اللون أسبوعان، لم يكتسب فيهما صديقاً جديداً، ولم يحاول أحد أن يتعرف به أو يتقرب اليه. . . كان كذبا ما زعمه المتشدقون من أصحابه في مصر: أن الناس في هذه البلاد يقبلون على الغريب، ويجدون في إرضائه واكتساب صداقته. . لقد كان الناس يجيبون على سؤاله إذا سأل بجواب هادئ قصير، لا يحمله على المضي في الحديث بل سرعان ما أشعر أن بينه وبينهم سوراً غليظاً وعراً، هيهات له أن يجتازه. ولم تطل به الحال حتى اعتاد أن يقابل البعد بالبعد والصد بالصد. . . وهكذا أمسى وأصبح وحيداً غريباً، وسط هذا المزدحم الزاخر من الناس.
واستيقظ في صباح هذا اليوم ونهض من فراشه في شيء من النشاط. . وكان ذاك آخر أيامه في هذا (البنسيون) الذي قضى فيه هذين الأسبوعين، وكان عليه اليوم أن يبادر بإعداد حقائبه وجمع ما تناثر من أمتعه. وكان مغتبطا ناعم البال، لأنه وفق أخيرا إلى هذا المسكن الجديد في المنزل رقم 17. . فمنذ اليوم سيكون له حجرتان: حجرة يجلس فيها ويطالع أسفارها ويتناول طعامه. والأخرى لنومه وراحته، ولقد كان من حسن الطالع أن غرفة نومه تطل على تلك الحديقة الغناء، فيستطيع أن يطالع من نافذته ابتسام الربيع وقهقهة الصيف، وهدوء الخريف ووجوم الشتاء. . . أما هذا البنسيون في (اكسفورد ستريت) فلم يكن له فيه سوى غرفة صغيرة، ولم تكن إقامته فيه إلا ريثما يتحول عنه. . ومع هذا فان صاحبته اليهودية لم يرضها منه أن يغادر البنسيون، فلم تكن تلقاه - منذ
علمت قرب انتقاله - إلا عابسة غاضبة، فكان أنفها البارز المحدب ينتفض ويضطرب، وعيناها البراقتان يتطاير منهما الشرر، إذا طلب قليلا من الماء الساخن ليستعين به على حلق لحيته. . والويل له ان تخلف عن موعد الطعام قليلا: فانه كان يجد المائدة قد رفعت؛ فإذا نظر إلى ما حوله ألفى وجوهاً عابسة تنذره بالشر المستطير إن هو حدثته نفسه بالحصول على شيء من القوت الذي فاته. . فكان نؤثر الصمت وينسل إلى غرفته في سكون وهدوء.
ان هذا الاضطهاد العجيب كثيراً ما كان يضحكه؛ وكثيراً ما سأل نفسه أيمكن أن تقسو عليه هذه اليهودية كل هذه القسوة لا لسبب سوى أنه يؤثر أن يسكن في ظاهر المدينة حيث الهواء الطلق والسكون الشامل؟ إن أحد الناس أخبره فيما بعد أن هذه اليهودية لم تظلمه ولم تضطهده إلا لكي تثأر منه: لما جناه أجداده الفراعنة في الزمن القديم على بني إسرائيل، حيث كانوا يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم. . . وكثيراً ما أغرب حسن في الضحك كلما خطر له هذا الرأي الظريف. . .
ومهما يكن من أمر، فان هذا اليوم من تشرين الأول هو آخر أيام الاضطهاد وأول أيام الحرية. فلن يطالبهم اليوم بالماء الساخن؛ واذا قدم اليه الشاي بارداً والبيض فاسداً في طعام الفطور، فانه لن ينبس بكلمة. . . ثم أخذ يعد أمتعته ويحزم حقائبه. وقبيل الظهر بساعة كان قد أعد العدة للرحيل. . .
ومشى على استحياء إلى ربة المنزل، فحيته في تكلف وفتور. أما هو فابسم لها ابتسامة ظنها ابتسامة الظفر؛ وقدم لابنتها الصغيرة (سارة) صندوقاً جميلاً مفعماً بالحلوى؛ ونفح الخادم بضعة شلنات أنطقتها بالشكر.
ثم انطلقت به السيارة وبأمتعته وحقائبه تلقاء ذلك المنزل، رقم 17 المطل على الحديقة الغناء؛ وصدره مملوء غبطة لم يحس مثلها منذ نزل على ضفاف (المرزي)

وأخرج من جيبه مرآة صغيرة فأصلح الرباط الذي يحيط بعنقه، والذي تزعزع كثيراً أثناء نقله لحقائبه من الغرفة العليا إلى التاكس. .
لم يكن حسن قبيح الصورة، ولكنه من غير شك كان أسمر اللون. وقد أخذ يحس احساساً مبهما إن هذه السمرة قد تكون من جملة الأسباب التي أغلقت دونه أبواب القلوب. . . لكنه
كان بعد في شك من هذا الأمر. . . ولم يكن قد وقر في نفسه بعد واصبح عقيدة راسخة. . . فكان في يومه هذا باسما مستبشرا.
ها هي ذي السيارة قد وقفت لدى لمنزل رقم 17! وقد أوشك أن يقلب صفحة جديدة من صفحات حياته. . . فلتنتظر السيارة قليلا ريثما ينزل ويستاذن أهل الدار في الدخول. . هم يأخذ في دق الجرس. . . . عجبا ليس من مجيب. . . ان السيدة قد ذهبت - دون شك - إلى بعض شأنها وليس بالدار أحد. . . فلينتظر قليلا. . . ولكن. . أي شيء هذا؟. . ان النافذة تفتح وهذه مسز هرفي نفسها. . ولكنها تنظر إليه بوجه عابس متجهم. . . إنها تبدي أسفها الشديد لأنها لا تستطيع أن تقبله في منزلها. . . . أجل. . . ولا يهمها أن تكون قد سبقت كلمة منها إليه. . إنها لا تقدر أن تؤوي لديها أحدا من أهل آسيا، فليرجع بسلام. .
آسيا؟ ولكنه ليس من أهل آسيا. . . إنه من أهل مصر! سيان لديها، من أية الجهات مصدره، مادام أهل الحي لا يروقهم شكله ومنظره. . فليرجع إلى أحد فنادق المدينة فانهم سيرحبون به هناك. أما منزلها هذا فليس إليه سبيل. . .
ويطأطأ حسن رأسه ويمشي إلى سيارته مطرقاً واجماً. ويهمس في أذن السائق اسم أحد الفنادق ويرتمي في مقعده مجهدا متعبا. وتحين منه ألتفاته إلى يديه وبشرته السمراء، فيدرك أن في العالم بعد جريمة هائلة دونها كل أثم وكل جرم، وأنه_ويا للأسف - لا سبيل إلى الخلاص منها، ولا إلى الابتعاد عنها. . .

فضائح المالية العليا في فرنسا

للأستاذ محمد عبد الله عنان

- 1 -

تشغل فرنسا منذ أسابيع بإحدى هذه الفضائح المالية الكبرى التي لا تقف آثارها عند اختلاس مئات الملايين ونكبة آلاف الضحايا، ولكنها تتغلغل في جميع نواحي الحياة العامة، وتثير في الشعب روحا جديدا من السخط والريب في سلامة النظم القائمة التي تحدث في ظلها أمثال هذه الفضائح المروعة. والحادث الذي نعنيه هو فضيحة ستافسكي التي يتتبع الشعب الفرنسي، والرأي العام العالمي تفاصيلها وتطوراتها بمنتهى الدهشة، والتي كان من خطورتها وفداحة آثارها أن سقطت وزارة مسيو شوتان بعد أن حاولت عبثا أن تغالب العاصفة وأن تهدئ روع الرأي العام.
ولا بد قبل أن ندخل في تفاصيل هذا الحادث العجيب أن نشير إلى أن هذه الفضائح المالية الكبرى لم تبق في عصرنا حوادث شخصية أو فردية يسئل عن تدبيرها أفراد معينون، وتحصر نتائجها وآثارها في حدود معينة، بل غدت بالعكس ظاهرة بارزة في سير المالية العليا، وظاهرة من ظواهر الحياة العامة حيثما تبلغ النظم الاقتصادية ذروة التعقيد والتقدم. وتقع في جميع الأمم الأوربية من آن لآخر حوادث من هذا النوع، وتحدث دائما آثارها السياسية والاجتماعية؛ ولكن هنالك حقيقة واضحة: هي أن هذه الحوادث تكثر في فرنسا بنوع خاص وتمتزج امتزاجا قويا بحياتها العامة، وتتخذ فيها صورا هائلة مثيرة، وتلقى دائما سحبا من الريب على كثير من الرجال المسئولين. ونستطيع أن نمثل لذلك بأمثلة عديدة من حوادث العصر الحديث؛ من ذلك فضيحة شركة باناما التي أسسها فردينان دي لسبس سنة 1881 لتقوم بحفر قناة باناما، ثم انهارت دعائمها لأعوام قلائل بعد أن اتسعت أعمالها اتساعا هائلا وكثرت قروضها وعجزت عن الوفاء بتعهداتها، وكشف التحقيق القضائي عن اشتراك كثير من النواب والشيوخ في أعمالها والدعوة إلى تعضيدها اشتراكا مريبا، وأحيل بسببها وزير سابق وبعض الشيوخ على محكمة الجنايات سنة 1892، وقضي على الوزير بالسجن. ووقعت في أوائل هذا القرن بفرنسا عدة فضائح مالية أخرى، بيد أنها لم تكن بمثل هذه الخطورة. ووقعت منذ أعوام قلائل فضيحة (الجازيت ده فرانك)

التي اتهمت فيها مدام هانو الكاتبة الصحفية باختلاس مئات الملايين، واتهم فيها عدد من أكابر الصحفيين والكتاب بالمعاونة في التستر على مشاريعها المريبة والترويج لها في صحف كبيرة محترمة. ثم وقعت منذ ثلاثة أعوام فضيحة شركات أوسترك فكانت من أعظم الكوارث المالية التي عرفت، حيث أفلست من جرائها عدة بنوك كبيرة واختلس نحو مليار فرنك (يومئذ نحو عشرة ملايين جنيه)، وألقيت بسببها ريب خطيرة على وزيري المالية والحقانية وإدارة بنك فرنسا، وانتهت بسقوط وزارة مسيو تارديه (أواخر سنة 1930)، وقد كان أوسترك بطل هذه الكارثة خادما في مطعم ثم انتهى إلى صف أعظم رجال المال وأسس بنوكا وشركات عديدة قامت علت التزوير والنصب والدعوة، ونكب انهيارها مئات الألوف من أصحاب الودائع، وكان كل جزائه بعد تحقيقات طويلة معقدة أن قضى عليه بالحبس عاما واحدا!

وليست فضيحة ستافسكي التي تشغل فرنسا اليوم إلا مثلا جديدا مروعا يؤيد هذه الحقيقة. فهي كسابقاتها تقوم على اختلاس مئات الملايين، ونكبة مئات الألوف، وهي كسابقاتها تلقي كثيرا من الريب الخطيرة على الرجال المسئولين، وقد سقطت بسببها وزارة قوية تستند إلى أغلبية كبيرة في البرلمان. بيد أنه يمكن أن يقال أن هذه الفضيحة الجديدة تفوق سابقاتها في التغلغل إلى صميم النظم والحياة العامة، وفي التدليل على فسادها، وفي آثارها السياسية والاجتماعية. وقد شهدنا نتائجها الأولى في سقوط وزارة مسيو شوتان وقيام وزارة مسيو دلادييه، ولكن من الصعب أن نتنبأ الآن بما يمكن أن يتلو هذا الانقلاب الأول، خصوصا وان الفضيحة مازالت تتمخض كل يوم عن حوادث وأسرار جديدة، ومازال الرأي العام يضطرم سخطا ودهشة، ويتطلب أجراء العدالة بمنتهى القسوة واصلاح هذا الفساد الدفين بسرعة حرصا على سلامة النظم الجمهورية، وتوطيد للثقة العامة التي زلزلت أركانها.

ولنر الآن ما هي هذه الفضيحة المروعة التي تقيم شعبا بأسره ولنر من هو ستافسكي هذا الذي غدا بطلا من أعظم نكبات العصر.

أن هذه الشخصية المدهشة، شخصية - ستافسك - مازالت تبدو خلال التحقيق الذي تقوم به عدة جهات قضائية وادارية لغزا مغلقا؛ وكان مصرع ستافسكي أو انتحاره عاملا في ازدياد هذا الغموض؛ فمن جهة نرى ستافسكي الفتى الأنيق الجواد الذي ينثر المال أينما حل بسخاء لم يسمع به، ورب الأسرة الوفي الذي يعبد زوجته وولديه، والمالي الذكي الساحر الذي لا يفتر نشاطه والذي يتقدم كل يوم لإنشاء مشاريع وشركات مالية جديدة ظاهرة القوة والنجاح، إذا بنا نرى من جهة أخرى ذلك الأفاق البارع الخطر الذي لا يفتأ يرتكب جرائم التزوير والنصب والاختلاس تباعا، والذي يحيط نفسه بعصابة مريبة من كبار المزورين، ويشتري ذمم جميع الرجال المسئولين الذين يوجدون في طريقه ويستخلص لنفسه مئات الملايين من أموال الأرامل واليتامى وصغار المودعين، ثم ينفقها على ترفه وبذخه المجرم دون ضمير ولا وازع، ونرى آثار مشاريعه الخيالية الجهنمية تتغلغل في صميم المالية العليا والحياة ت العامة، ونرى أعين السلطات والمحققين تغضي عن تتبع جرائمه مع العلم بها، تلك هي شخصية ستافسكي.

ولد سرج الكساندر ستافسكي سنة 1886 في سبودكا من أعمال روسيا؛ ونزح إلى فرنسا بعد الحرب وتجنس بالجنسية الفرنسية، وبدأ حياته المالية في باريس وسيطا في تجارة الجواهر والحلي. ثم نشط إلى تأسيس الشركات المالية المختلفة، فأسس شركة لصنع اللحوم المقددة، وأخرى للسينما، وثالثة لبيع بعض الأجهزة الطبية وهكذا: ولكن هذه الشركات كانت مريبة، ولم تكن سوى ستار لسلسلة من جرائم التزوير والنصب ارتكبها ستافسكي، واستولى بواسطتها على ملايين عديدة. وكانت أعظم وسائله اذ ذاك تزوير قيم التحاويل المسحوبة لإذنه. واستطاع بهذه الوسيلة أن يحصل خلال سنتي 1925و1926 على ستة ملايين فرنك، وهنا اكتشف أمره وصدر الأمر بالقبض عليه بناء على عدة شكاوى قدمت في حقه من البنوك، فاختفى مدة ولم يستطع البوليس أن يقبض عليه الا بعد أشهر. وقضى ستافسكي في الحبس الاحتياطي حينا ثم استطاع أن يحصل على قرار بالإفراج عنه ريثما تتم المحاكمة. وقدم إلى المحاكمة بتهم النصب والتزوير والاختلاس مع آخرين. ولكن هذه المحاكمة لم تتم قط منذ سنة 1926، ولا زالت حتى اليوم معلقة للنظر امام محكمة الجنح. وكانت مدى

أعوام ثمانية تؤجل في كل مرة إلى آجال طويلة لأتفه الأسباب؛ وظهر فيما بعد أن ذلك يرجع إلى نفوذ مؤثرات معينة، وأن الأفاق استطاع أن نؤثر عن طريق أصدقائه الأقوياء على سير القضاء كما استطاع أن يؤثر في عمل البوليس، ولما ظهرت هذه الحقيقة المدهشة أخيرا كانت مثار السخط والريب في نزاهة القضاء. وكان ستافسكي طريد القضاء أثناء ذلك يعيش في بذخ لم يسمع به في داره الفخمة بحي الشانزليزيه مع زوجته الحسناء أرليت سيمون التي تزوجها منذ سنة 1922، وولديه الصغيرين، وكان يظهر في المسارح والأوساط الرفيعة وفي ملاهي الليل وميادين السباق وأندية المقامرة بأعظم مظاهر الغنى والترف، وينفق الملايين الطائلة في كان ومونت كارلو وبيارتز وغيرها من مدن المياه، كل ذلك باسم (مسيو آلكس) وقد ظهر من التحقيق فيما بعد أن كثيرين ممن اتصلوا به لم يكن يدور بخلدهم أن مسيو آلكس هذا أو آلكس الجميل هو نفسه الكساندر ستافسكي بطل الفضيحة الكبرى.

وفي سنة 1930 وقع ستافسكي في مازق جديد وافتضح أمره مرة أخرى، ذلك أنه قدم إلى بنك التسليف البلدي باورليان طائفة كبيرة من الجواهر الزائفة واستطاع برهنها أن يحصل على سندات للخزينة قيمتها عشرة ملايين فرنك، وأن يقطع هذه السندات ويحصل على قيمتها ولكن هذا التزييف الهائل اكتشف غير بعيد، وظهر أن الجواهر المودعة كلها زائفة لا تساوي أكثر من عشرة آلاف فرنك، بيد أن ستافسكي فطن في الحال للخطر الذي يهدده، وبادر بتسوية المسألة ورد قيمة السندات المسحوبة، وبذا أسبل الستار على الفضيحة بسرعة، وأنقذ ستافسكي مشاريعه من خطر الانهيار وأنقذ نفسه من ظلام السجن.

ولم يمض على ذلك أشهر قلائل حتى استطاع ستافسكي أن ينفذ مشروعه الجديد، وهو انشاء بنك التسليف البلدي في مدينة بايون. وهذه البنوك المحلية الصغيرة تنشأ في عواصم الأقاليم طبقا لقانون خاص، وتقوم بمهمة التسليف برهونات منقولة مثل الجواهر والحلي، وهي تنشأ عادة برؤوس أموال صغيرة، ولكنها تستطيع متى اتسعت أعمالها أن تزيد في رأسمالها باصدار سندات على الخزينة بالاعتمادات اللازمة، وهذه السندات تتمتع بنوع من الضمان الحكومي، لأنها تصدر بمصادقة السلطات المحلية فضلاً عن ادارة البنك، وتمثل السلطات المحلية في إدارة البنك على يد مدير المقاطعة وعمدة المدينة، وتمنح هذه السندات عادة ربحا حسنا لا يقل عن خمسة في المائة، وتعفى من ضريبة الدخل، وهي لذلك تجد إقبالا من شركات التأمين وغيرها من شركات الادخار فتسارع إلى اقتنائها كوسيلة حسنة لتوظيف المال. وقد رأى ستافسكي في الحال أنه يستطيع أن يجعل من إصدار هذه السندات وسيلة سهلة مدهشة لاختلاس عشرات بل مئات الملايين. بيد أنه حرص بادئ بدء أن يتمتع مصرفه الجديد بسمعة حسنة؛ واستطاع أن يجعل منه مؤسسة ناجحة متسعة العمل. ثم عمد بعد ذلك إلى إصدار السندات تغطية لاعتمادات يريد البنك تحقيقها، ويسدد قيمتها متى حلت آجالها، فأخذ يصدر منها الملايين ثم عشرات الملايين ثم مئاتها؛ وكان اختلاس هذه الأموال الطائلة يجري بالصورة الآتية: يصدر البنك سندات قيمتها عشرة ملايين مثلا، ثم يعرضها في السوق المالية للقطع، فتشتريها إحدى شركات التأمين بقطع مرغب جدا (5 في الماية مثلا) لكي تقبض قيمتها متى حل أجل استهلاكها وتستفيد بذلك من القطع ثم من الأرباح. وقد بذل ستافسكي لترويج هذه السندات جهودا مدهشة، واستعان في ذلك بالجهات الرسمية وبالدعوة الصحفية. ومن الغريب أنه استطاع بواسطة النائب جارا عمدة بايون، أن يستصدر من وزير المالية ووزير التجارة منشورا وجه إلى شركات الاستثمار المختلفة يحثها على اقتناء سندات بنوك التسليف المحلية باعتبارها أوراقاً ثابتة مضمونة ووسيلة حسنة للاستثمار، وذلك طبقا لما نصت عليه بعض القوانين المالية، فكان هذا التعضيد الرسمي أداة قوية في يد ستافسكي ومشجعا للشركات على شراء سندات مصرفه، وكانت هذه الملايين الطائلة بدلا من أن تودع خزينة البنك تذهب توا إلى جيب ستافسكي يبددها على بذخه المدهش وينفق منها على شركائه وأعوانه. ولم تكن هذه الملايين ترصد في سجلات البنك لان السندات كانت زائفة تصدر دون مرجع أو سجل، وقد استطاع ستافسكي كما أثبت التحقيق أن يبيع من هذه السندات المزورة إلى مختلف الشركات والأفراد بما يساوي نحو خمسمائة مليون فرنك (أو نحو ستة ملايين جنيه) في أقل من ثلاثة

أعوام! هذا إلى طريقة أخرى للاختلاس لجأ اليها ستافسكي، وهو أنه في فرص كثيرة كان يقدم إلى البنك بعض الجواهر المزيفة باعتبار أنها جواهر ثمينة ويسحب عليها مبالغ طائلة، وفي أحيان كثيرة كان يستخرج الجواهر الثمينة التي أودعها عملاء البنك في خزائنه رهنا للقروض ثم يضع مكانها جواهر زائفة، ويحصل بهذه الوسيلة على عشرات الملايين.

والآن، لنر كيف اكتشفت هذه الاختلاسات الهائلة. ومن المحقق أنه كان من المستحيل أن يمضي ستافسكي في جرائمه طول هذه المدة، وعلى هذا النحو المدهش لو لم يكن مستظلا بحماية الرجال المسئولين آمنا مطاردة البوليس والقضاء. على أن حادثا فجائيا أدى إلى اكتشاف الحقيقة المروعة، وهو أن إحدى شركات التأمين، كانت قد اشترت من السندات الزائفة ما قيمته ثمانية ملايين حل أجل استهلاكها في أغسطس الماضي، فتقدمت إلى البنك بطلب هذا المبلغ فطلب مدير البنك تسييه رجل ستافسكي وشريكه مهلة للدفع، فرأت الشركة من باب الاحتياط أن توقع حجزاً على بعض المبالغ المطلوبة للبنك، فدهش مراقب الضرائب في بايون لهذا الحادث وارتاب في الأمر لأنه لا يعقل أن مصرفا كبيرا محترما مثل بنك بايون يتوقف عن الدفع بهذه الصورة، وتصادف عندئذ أنه فحص بعض السندات المسحوبة فلم يعثر لها على أثر في سجلات البنك أو حساباته، فأخطر الجهات المختصة، وكان ذلك في يوم 23 ديسمبر الماضي. ولما رأى مدير البنك تسييه أن الأمر قد افتضح ذهب إلى مدير البوليس، واعترف له بطرف من هذه الجرائم، وفي الحال تدخلت النيابة، وقبض على تسييه وبدأ التحقيق في الفضيحة الكبرى وسنرى في فصل تال ماذا كشف التحقيق عنه، وماذا كانت خاتمة هذا الأفاق البارع وماذا كانت آثار هذه الجرائم المثيرة في سير الحياة الفرنسية العامة.

محمد عبد الله عنان

الأدب والخلود

بدت في أفق الوجود منذ أقدم العصور أنواع كثيرة من الحيوان والنبات، ظلت تتصارع مع إرادة البيئة وعوامل الموت والحياة حقبا طوالا، حتى فرق بينها قانون (تنازع البقاء) بكلمته الحاسمة، فسكنت رحى الحرب وأسفرت تلك الوقائع عن خطوط متباينة لكل نوع منها عن الآخر: فمنها ما كان ضعيف الايد فقير العدة لم يستطع أن ينجو من نار هذا التنافس المستعر فالتهمته ألسنتها وأسدلت على كيانه وذكراه حجاب العدم إلى الأبد، ومنها ما جاوزته هذه النيران وقد أبقت منه هيكلا هشيما أو بقايا منثورة لم تزل مطمورة تحت أطباق الثرى حتى عثر عليها رجال الآثار والحفريات فنشروها في صدور المعارض والمتاحف، ووهبوها بعثا جديدا لحياة الذكرى. وكان هناك غير هذين ما وهبته الطبيعة أمضى الأسلحة للوقاية أو السطوة، فكان هو الصامد للهول الصائل في المجال حتى خرج مظفرا منصورا رافعا لواء الحياة!

كذلك في أفق الفنون والآداب نرى مثل هذا الصراع العنيف دائر الرحى بين أنواعها المختلفة، وبين مؤثرات العدم والوجود، كأنها كائنات حية شاخصات الجثمان تحكم بينها قوانين النشوة والبقاء. ولئن كانت حرب الأنواع المادية قد خمدت نارها منذ آماد لتؤول إلى نضال آخر بين فصائل النوع الذي ظفر بالبقاء، فأن صراع منتجات العقل وبخاصة ما كان في دائرة الأدب لما يزل حامي الوطيس مشتعل اللهيب منذ أخذ الفكر وأخذت العاطفة تفتح عيونها على الكون، وتتعرف ما فيه من ظواهر وأسرار إلى اليوم. وسيضل هكذا يزداد أواره احتداما كلما نما العقل واتسعت شعاب الحياة أمام العواطف، وكلما ارتقت مثل الإنسانية وآمال المجتمعات والأفراد في سماء الحضارة الرحيبة الآفاق، فكل أدب واهن القوى أو فاقد الأداة لا بد أن يكون مصيرهكمصير ذلك الكائن الضعيف إما فناء أبديا أو فناء يتخلله البعث للذكرى في خزائن الكتب، أو شوارد التاريخ أو على جدار المعابد، وكل أدب موفور القوة موهوب المناعة لابد أن يغالب الزمان ويبقى على الحدثان. هكذا توزعت الجدود على أنواع الأدب في كل عصوره الماضية وكذلك سيبقى نظامها، وقد تكون تلك الظاهرة ملحوظة في جملتها قريبة الإدراك بشكل عام عند من يتنبهون إلى حقائق الموت والحياة في المعنويات كما يعرفونها في الحسيات، ولكن الغموض وسوء الإدراك إنما

يقعان في تحديد معاني هذه الحقائق، ودقة الإحاطة بمدلول كلمات الضعف والقوة والغلبة
والهزيمة، وفي العثور على محور التنافس والنزاع، وكشف القوانين التي تعمل من وراء هذا كله لترجيح كفتي الفناء أو الخلود إحداهما على الأخرى. فكثير من متناولي الأدب من يقف اليوم خاشعا أمام تراثنا الأدبي القديم، مستلهماً نفحات الخلود من سطوره وكلماته لأنه قديم باقي منذ مئات الأعوام إلى اليوم برغم الغير والأحداث، دون أن يفرق بين أدب لا يجدر به أن يحفظ إلا ليؤدي مثل وظيفة تلك البقايا الحفرية تسجن في غرف المتاحف فتذكر بنوع باد وانقرض، وبين أدب خالد وثيق الصلة بعناصر الحياة فهو باق بأصله وأثره ولو اندثرت ألفاظه، وليس من سبب لهذا النظر الواهم إلا عدم الإحاطة بدائرة الخلود وتنور الأسس التي يشاد عليها صرحه وما يؤدي إليه هذا الإبهام من قصور عن إدراك الفارق الكبير بين مدلول كلمتي (الخلود) و (البقاء) في العرف الأدبي الدقيق.

ليس الخلود في الأدب هو مجرد البقاء، وإن أوضح ما يبدي الفرق بينهما هو ذات هذا التباين الذي أدركناه بين بقاء الآثار والعاديات وبين بقاء الكائن الحي الخالد، ويمكن أن يعبر عن تلك الميزة الكبرى بأن خلود هذا الكائن إنما هو بقاء مقرون بالتأثير والتأثر، أو هو بقاء قابل فاعل، أو هو الحياة، فالأثر الأدبي كالأثر المادي سواء في أن كلا منهما لا تتحقق له صفة الخلود إلا إذا امتاز بصفات وخواص تؤهلهلان يظل مشتركاً مع دوره هذا الكون الحي بآثار يحدثها فتزيد في قوة تلك الدورة، أو بطواعية ولطف تقبل لما يوحي به الكون من غايات، وما يتطلبه من نظم، وبقدر ثروته من هذه الخصائص تتعين له منزلته من درجات الخلود المتفاوتة السمو، غير أن الكائن المادي يؤدي وظيفة حياته هذه بالفعل أو الترك، والأدبي إنما يؤديها بما فيه من أفكار ووجدانات.

وإذا كانت مؤهلات الخلود للنوع المادي هي في هذا التكوين الدقيق المنظم من عناصر
متجانسة متوافقة، انتخبت من جنس عناصر الكون الخالد، لتشترك باتحاد ذروتها واتساق تركيبها في تأدية سلسلة مترابطة من الغايات، حتى تنتهي إلى الغاية الكبرى من تكون الكائن كله بجميع أجهزته وأعضائه، وهي الاتصال المباشر بدورة الحياة وبالنشاط والحركة والعمل والإنتاج والإهلاك والإدارة بنوعيها من سلب وإيجاب - كذلك مؤهلات الخلود للنوع الأدبي إنما هي في تكوينه من لباب من المعاني، مأخوذ بمهارة من صفحة الكون الزاخر بالحقائق والأحلام، متسق العناصر والأجزاء بدقة وتفنن وابتكار، حتى يبدو في شكل وحدة متلائمة كلها أفكار ووجدانات، تؤدي غايتها العظمى، مؤثرة تارة في الحياة ببعث الحق فيها والخير والفضيلة والكمال، أو متأثرة بها تارة أخرى بتقديس ما بها من جمال وعبادة ما وراءها من أسرار وامتزاج بما فيها من روح!

ذلك هو الشرط الخلود بحدوده العامة، وليس هو قيدا نبتكره ونمليه نحن على الأدب وأهله، وإنما هو فيما نرى قانون ثابت أملته طبيعة الحياة من قبل على الكائنات المادية، ونفذت أحكامه عليها بعنف وقسوة، وهي تمليه اليوم وتطبقه على الكائنات المعنوية بعد أن اشتد تنافسها وكثرت أنواعها، وبعد أن أصبح للآداب كيان ظاهر في الحياة الإنسانية يسعى إلى مثل ويتجه إلى مقاصد، أو كما يقول النحاة بعد أن أصبح (عمدة) لا (فضلة).

ولقد ظهرت آثار هذا القانون بجلاء منذ بضعة قرون في الحياة الأدبية لأمم أوربا الراقية حين أخذت آدابهم تنمو وتستقل وتقوى شخصيتها وتتحدد غاياتها، فنشأت عندهم مذاهب النقد وطرائق البحث التي تعمل كلها في ضوء هذا القانون حتى لا تمنح رتبت الخلود إلا لما أحتوى على عناصره وتحقق فيه شروطه، وهاهو ذا تراثهم الأدبي تجد فيه سجل الخلود منشورا واضحا لا يجمع إلا أمثال أسماء شكسبير وملتون وشلي وبيرون وتنيسون وسكوت في انجلترا وموليير وروسو وفولتير وهوجو في فرنسا ولسنج وشلر وجيته في ألمانيا، وغيرهم ممن يظاهيهم أو يقاربهم مرتبين في درجات مختلفة من الخلود بحسب ما حاز كا منهم من عناصره. أما نحن فلا تزال حياتنا الأدبية

ناشئة حديثة، وقد كانت إلى عهد قريب حائرة ضعيفة الإدراك لا تدري أي سبيل تسلك ولا على أي مرفأ ترسو. لأن الشعور بالحياة كان ضيق الدائرة ضئيلا، وكان سوء التقدير وفساد الفهم لغايات الأدب ومعاني خلوده يحاصر هذا الضيق ويأبى عليه أن يكتسب مرونة أو اتساعا. ولكنها الآن قد

أخذت تنهج طريقة أختها الأوربية وتفتح عينها على الحياة وترشف من رحيق أسرارها ومثلها، معتزة بوجودها، مكتسبة كل ما يزيدها نموا وارتقاء، وبهذا حق عليها أن تدفع ثمن هذه الحرية غاليا، وتتقبل راضية أو كارهة قانون الحياة الدائم، فلا خلود إلا لمن ظفر بشرطه وأوفى على غايته. نعم لم يعد يسيرا في هذا العصر لأثر أدبي أن يظفر بالخلود، لأن التنافس يزداد شدة كلما تقدمت الحضارة خطوة، ولأن ذوق الجمهور قد أخذ يدق وسمو حتى ليكاد يصبح ناقدا عاما، ووجدانه قد بدأ يزخر بالآمال والعواطف حتى يأبى إلا أن يحتسي كأس الحياة حتى الثمالة، وأرادته ايضا قد غدت حرة قوية مؤثرة حتى لا تقنع إلا بنشدان المثل العليا. وهذه كلها نتائج طبيعية لنشر وسائل التهذيب من تعليم وصحافة وأقاصيص وتمثيل وخيالة، ولحياته بروح الدساتير الحديثة التي تكفل له الحرية وتسيغ له الاشتراك في الحكم والدولة، ولشدة أمتزاج الشعوب اليوم بعضها ببعض وسرعة تبادل الأفكار والمشاعر، فهل يقنع هذا المجهود الطامح المهذب إلا بأدب يمثل قانون الخلود فقرة فقرة؟ لابد إذا لوجود هذا الأدب السامي من أديب يملك بفطريه نفسا شاعرة نبيلة دقيقة الحس كميزان الذهب، تتلقى الإلهام والوحي من محيط الوجود كما يتلقى الجارس (الراديو) موجات الأثير حاملات الأغاني لا يشعر بها غيره، وعقل صافياً كالعدسة المكبرة تواجه الشيء فيتجلى فيها بخفاياه وحذافيره، قد صقلته التربية ووسعت أفقه التجارب والثقافة المحيطة، وقدرة ماهرة على التنسيق والتنويع وحسن الصياغة بابتكار واستقلال.

وندع الآن مشكلة اللفظ وما تنتجه من مسائل الفصاحة والبلاغة فإنما نحن نتحدث عن الجوهر لا عن العرض، ونبحث في القانون الثابت المطرد لا الأمر العارض النسبي، ولسنا نعني بذلك ان نهمل البتة ناحية اللفظ فنكسو الحسناء الجميلة ثوباً خلقا مهلهلا، بل الذي إليه نقصد أن سر خلود الأدب أصالة إنما هو في معناه، ثم تأتي مسألة اللفظ بعد ذلك مختلفة باختلاف اللغات متفاوتة بتفاوت الأذواق، فكم في اللغات العامية من معان رائعة حية الأثر تتداولها الألسنة رواية لا تدوينا، وبداهة لا تعليما، وهي خالدة على مر الأجيال في معزل عن اللغة الفصحى بل في نفور منها أن تشوه جمالها، وكم في اللغات الأعجمية من آثار خالدة أيضاً لم تدرك لغتنا الفصحى شأوها بعد ولا يضيرها أن تؤدي برطانة الأعجام! فمسألة الخلود في الحقيقة مسألة المعنى وهي الأمر الثمين النادر، أما اللفظ فيسير

الثمن بتعلم اللغة والاطلاع على أساليبها. وكأننا بهذا نعكس رأي علماء البلاغة الأقدمين إذ كانوا يقولون: ان المعاني منثورة في الطريق يعرفها الفصيح والمفحم والعالم والأمي والبدوي والحضري، ولكن الفرق كله بين هؤلاء في اختيار اللفظ وحسن التركيب!

ولعمري ما أشبههم في ذلك بمن يقولون إن الذهب والفضة مطروحة في الطرقات، ولكن المشكلة المعضلة حقا إنما هي: كيف يحمل الفقير تلك الكنوز؟!

وبنظرة نرددها بين غاية الخلود البعيدة المدى، وبين أدبنا الحديث، نستطيع أن ندرك كيف ينحرف هذا الأدب عن الهدف الذي يجب أن يقصد؛ ثم إذا تتبعنا خط الميل عن الجادة المستقيمة لم نلبث أن نقف على نقطة الانحراف أو رأس المفترق، وليست هي فيما أرى الا حيث يتدفق سيل التقليد الجارف، فيكتسح أدبنا أمامه ويحول بصره عن الهدف إلى صحراء العصور الخالية، ولقد سار أدبنا منذ نشأته في هذا الطريق المنحرف مراحل واسعة، ثم جاء الأدباء المجددون والشباب المثقف الحديث فحاولوا أن يمسكوا بزمامه ويردوه إلى غايته، فإذا به يستقيم ويعدل سيره في أنوارهم وهو حقيقة يوشك ان يعتدل. بيد ان انكساره القديم قد ترك في بصره بعض الزيغ وفي هيكله بعض الاعوجاج!

كانت الروح الفردية هي عماد الأدب القديم، وما زالت هي أيضا عماد أدبنا الحديث، فكما كان رجل الصحراء ينشد أدبه الغنائي في حدود نفسه معتزاً بشخصيته دون غيرها، حين يصف حبه وهيامه وحوادث غرامه أو حين يصف ناقته وفرسه أو يفخر

بشجاعته وبأسه، كذلك نحن لا نبرح مقيدين بخطته مقتفين أثره لا نعني أكثر ما نعنى إلا بالتغني بهذه الأغراض الفردية الضيقة من حب شخصي وحزن وسرور ورثاء ومدح لا تعدو حدود النفس، ولست أدري كيف نمهد لنا عذرا عن هذه الأثرة التقليدية إذا وضحت أمامنا أعذار الرجل الصحراوي وقد كانت طبيعة بيئته ونظام حياته لا يسمحان ببناء مجمع مترابط ممتزج بل تلحان على كل فرد أن يكون هو مجتمع نفسه وحكومة شخصه؟

وهل تلك الحياة المفككة هي حياتنا اليوم؟ أليست دعامة هذا العصر المتحضر هي قوة روح الاجتماع وتشييد بناء الوحدة وتربية الفرد ليفنى في المجموع؟ إذن فلن ينطلق أدبنا من رجعيته الا إذا جارى العصر وساير الحياة فاندمج في المجتمع بما فيه من سياسة ودين وتربية وأخلاق وغاص إلى أعماقه وترجح على أمواجه؛ متشربا العواطف الإنسانية لا

على إنها نزعات فردية من شخص لآخر، ولكن على انها ظواهر اجتماعية لها آثارها في المجتمع ولها أحوالها وخواصها المتأثرة به المتغيرة بتغير، وناظراً منصتاً لا في منطقة شخصه ولكن في رحاب المجتمع الطليق يراه كيف يجد ويلعب وكيف يفكر، وكيف يشعر، ويسمعه بأي لحن ينطق ويغني ويئن ويهتف، ضاربا معه على أوتار أفراحه وأحزانه؛ صاعداً إلى سماء الآمال أو منحدراً إلى أرض الهوان، صارخا في ثورته، نائما في رقدته.

وكان الأدب القديم نسيجا من خواطر وأحاسيس هي بنت ساعتها، ووليدة حادثتها، توضع متراصة مسرودة دون أن ينظمها سمط من العلم أو رباط من العقل، وما زال أدبنا الحديث أيضا نسيجا من مثل هذه الخواطر والاحاسيس؛ لا يحاول أن يتقرب إلى العلم أو يصافح الفلسفة أو يمد يده إلى علم النفس، بل كثيرا ما يقف منها موقف الاضداد، فإذا كان منشأ هذا النقص عند أدباء القرون الماضية هو فقرهم من هذه الثروة الفكرية العظيمة؛ وفهمهم الأدب على أنه منفذ للشعور الفردي الوقتي كيفما كان لا كما نفهمه نحن اليوم من أنه دعامة من دعائم الحضارة وأسس الاجتماع المهذب الراقي - فبأي سبب غير عماية التقليد نعلل وجود هذا النقص في أدبنا إذن ونحن في عصر يفهم الأدب على هذا الوجه، ثري بما فيه من منتجات الفكر؟

ولعل هذه الروح الجديدة التي نحاول أن نشربها أدبنا ليتصل بالعلم والاجتماع، تدل بنفسها على أنها لا تستطيع أن تحيا وتنمو وراء هذه الأسوار الضيقة التي كانت تحاصر الأدب القديم: أسوار الشعر الغنائي والحكم المقتضبة والأمثال الموجزة، والفصول الكتابية والأراجيز النظمية تعقد لبيان الأخلاق والنصائح والعظات في قواعد وقضايا آخذ بعضها برقاب بعض. وإنما هي يريد قبل أن نفكر في استلهامها أن نهدم هذه الأسوار ونخرج إلى ميدان القصة والملحمة والرواية الرحيب الجوانب فننثر في فضائه ما نريد من حكم ووصف وعظات وما نشاء من وحي الفكر والوجدان.

أجل، فان ذروة الخلود سوف تدنو من صروح القصة والرواية وما حكاهما، وسوف تكون هذه الأنواع أقوى أنواع الأدب وأكبرها اثرا في تأدية وظائفه في الحياة الإنسانية بين الجماعات والافراد، وستندمج في ثناياها تلك الأنواع الصغيرة التي لا تحتوي الا على خطرات محدودة من مشاعر الحب والانتقام والهجاء والفخر والحماسة والمثل والوصية

والمراسلة وما جرى مجراها، فلا يبقى منها مستقلا إلا ما ترشحه رقة نغماته ووحدة موضوعه وصدق شعوره ليجيب بعض نداءات الحياة القصيرة التي لا تتحمل أعباء القصة ولا تستطيع تغذيتها. وفيما خلا ذلك تنهض القصة بدعوات الحياة الكبيرة وتخض معارك الاجتماع وترتوي من منابع العلم فتصبح صورة صادقة ناطقة للإنسان والكون وما بينهما من أسباب وصلات.

وحري بنا ألان وقد جرت معنا ألفاظ الغاية والهدف والقصد إلى جانب الأدب أن ندفع ما قد يدور بخلد ظان من أننا نريد أن تكون الغاية هي التي تخلق الأدب وتتحكم فيه، فلا يكتب الأديب أو ينظم إلا لغاية قد تعمدها ونصبها أمامه، فان مآل هذا أن يصبح الأدب صناعة لا فنا وأن يصير الأديب مصنوعا لا مطبوعاً، وإنما نحن ننسب الغاية إلى الأدب على سبيل المجاز، ونريد في الحقيقة أن يصدر الأدب عن نفس تشربت من قبل بالغايات والمبادئ حتى ذابت فيها وتحولت إلى وجدان حي ورغبة فنية دافعة،

فهي لا تكتب بعد ذلك ناظرة إلى غاية منفصلة، وإنما هي تعبر عن شعورها المتصل بها وفكرها الذي أصبح ملكا لها إرضاء لطبيعتها الفنية وفطرتها الأدبية، فكأن للأدب غاية لا ترى لا بعد صدوره بالفطرة.

وللخلود في الأدب مناطق تختلف سعة وامتدادا. فقد يسري حتى يعم العالم بأجمعه ويصير أدبا عالميا، وقد يقتصر على أمته وشعبه فيكون أدباً قومياً. وحولهما درجات، والسر في هذا إنما يرجع إلى اختلاف موضوعاته: فإذا كان متناوله النفس الإنسانية من حيث هي لا باعتبار الأجناس والأنواع فهو جار مع النفس الإنسانية في كل مكان. وكذلك إذا كانت وجهته الكون والطبيعة والمعاني الكلية التي لا تحدها الأمكنة، ولا تطغى عليها البيئات. ومن أظهر الأمثلة لذلك أدب المعري وابن الرومي والخيام في الشرق، وشكسبير وروسو وهوجو في الغرب. أما إذا كان موضوعه مصبوغاً بصبغة البيئة وألوان المكان وأغراض الشعوب والأجناس فهو خالد في حدود من يصورهم ويتحدث بلسانهم. ومن أمثلته بعض أدب حافظ وشوقي مما يغذي الوطنية في مصر، ورديارد كبلنج في إنجلترا، وجميع الآداب القومية التي يعتز بها اليوم كل شعب. وليس يعني هذا التفاوت في سعة النفوذ تفضيلاً في الرتبة بين خلود وآخر، لان الأديب قد ينتج النوعين وينبغ في الناحيتين معا، ولكنه يقال

كقاعدة عامة في هذا العصر الذي أصبحت القومية روح وجوده أنه لا بد لكل شعب من أدباء قوميين يغذونه بالأدب الرفيع الخالد.

محمد ضياء الدين الريس

فلسفة سبنسر

للأستاذ زكي نجيب محمود

- 2 -

تطور الحياة

يبدأ سبنسر كتابه عن تطور الحياة بتعريف الحياة نفسها بأنها التوفيق بين الكائن الحي وبيئته، ويتوقف كمالها على كمال هذا التوفيق. فهذا حيوان يكتسي بالفراء ليتقي لذعة البرد، وذلك قد أعد لاختزان الطعام لما عساه أن يصادفه من قحط وإجداب، وثالث يستطيع أن يتلون بلون الأرض التي يدب فوقها حتى لا يبصره العدو فيفتك به، إلى آخر هذه الوسائل التي زودت بها الطبيعة الأحياء، أو بعبارة أصح، التي قسرها الأحياء قسرا على أن تزودهم بها للذود عن حياتهم، مما يعلم القراء جميعا. وبديهي أن هذه الملاءمة لم تبلغ ولن تبلغ درجة الكمال ما دام الحيوان مخلوقا ناقصا يعتريه الضعف والموت، ولكن مهما يكن من أمر فهو دائب لا ني عن السعي الحثيث في زيادة هذه الملاءمة شيئا فشيئا، بان يكمل هذا النقص تارة وذاك طورا، وينقح من أعضائه حتى تتمكن من مجاوبة الطبيعة ومقاومتها، ومعنى ذلك أن الكائن الحي يشعر بالحاجة أولا ثم ينطلق في سعيه جيلا بعد جيل يستمد من الطبيعة عضواً يسد له ما أحس من نقص، فهو مثلا يشعر بحاجته إلى النظر لكي يتبين ما يحيط به في دقة ووضوح فيكون لنفسه على مر الدهر عضوا للإبصار وهكذا قل في سائر الأعضاء،

وليست الحياة إلا هذا التوفيق الذي لا تنقطع أسبابه، ولا تقتصر هذه المحاولة على أفراد الحيوان، بل تعدوها إلى الأنواع، إذ يسعى كل نوع باعتباره كل الملاءمة بينه وبين البيئة. ويرى سبنسر توافقا عجيبا بين تكاثر الحيوان وما يحيط به من الظروف الطبيعية، فهو يرى أن الأصل في التناسل هو تخلص الكائن الحي من زيادة في حجمه لا تتناسب مع جهازه الهضمي، أي أن كتلة الكائن الحي إذا اطردت في النمو، تصل إلى حد لا تستطيع معه المعدة أن تسد حاجتها في الغذاء، وعندئذ يضطر الحيوان إلى ان يقف نموه عند حد معين، وكل زيادة تجيء بعد ذلك يتخلص منها بان يخرجها نسلا. وتطبيق ذلك، أن الإنسان، ذكرا كان أم أنثى، يأخذ جسمه في النمو إلى حد محدود ثم يقف نموه إذا ما جاءت

مرحلة التناسل، ولذا نرى أن عدد النسل يتناسب تناسبا عكسيا مع درجة النمو، فكلما كبر حجم الحيوان كان نسله أقل عددان فبينما تنسل الذبابة مثلا عشرات الذباب لا يلد الفيل إلا واحدا. كذلك يتناسب عدد النسل مع مقدرة الحيوان على مقابلة الاخطار. فان كان ضعيفا عاجزا عن صد ما يتهدده من الكوارث لجأ إلى كثرة النسل ليعوض فناء أفراده الناشئ من ضعف المقاومة وإلا تلاشى النوع. والعكس صحيح، أي إذا كان

النوع قادرا على الاحتفاظ ببقائه، وجبت قلة النسل، والا رجحت كثرة العدد على كمية الطعام. ومعنى ذلك بعبارة أخرى أنه كلما ارتقى النوع في سلم الحياة، كان أقدر على الأحتفاظ بوجوده، وكان بالتالي قليل النسل. وهذه القاعدة صحيحة إلى حد كبير حتى في الأفراد، أي إذا ارتقى الفرد في عقليته وذكائه كان أقل نسلا. ومما هو جدير بالذكر أنه كلما ازدادت عند الفرد كمية الاستهلاك العقلي أي التفكير - قل عدد النسل أو انعدم. ولعل أبلغ آية لذلك عقم الفلاسفة. وقد يشير هذا الدليل إلى إن الإنسانية تسير في تطورها نحو مرحلة تزيد فيها القوة العقلية ويقل عدد النسل.

وعلى الرغم من ان الطبيعة ساهرة على هذا التوفيق بين نسبة التناسل وحاجة النوع. فقد يظهر إنها أخطأت الحساب ومالت نحو الإكثار من السكان، بغض النظر عن كمية الغذاء، وحق لملتوس أن يجهر بدعوته إلى ضبط النسل لما لاحظه من زيادة السكان على مواد الغذاء.

تطور المجتمع

ليست دراسة الاجتماع باليسيرة الممهدة، بل يعترض سبيلها من العقبات والصعاب ما لا يستطيع التغلب عليها إلا الأفذاذ الفحول، فقد حدث مرة ان ارتحل رجل فرنسي إلى إنجلترا يقضي بأرضها بعض الوقت ترويحا للنفس وحبا للاستطلاع فلم يكد ينقضي علت إقامته بها أسابيع ثلاثة حتى اعتزم ان يصدر كتابا عن انجلترا، اذ خيل اليه انه قد درس شعبها فأتقن الدراسة، فلما انقضت شهور ثلاثة، هم بوضع كتابه، ولكنه أدرك أنه لم يتقن الدراسة بعد بحيث يستطيع أن يخرج الكتاب الذي يريد، وآثر الروية والاناة، فلما انقضت سنوات ثلاث، اتسع شعوره بالعجز والقصور، وأيقن أنه لا يعلم من موضوعه شيئا. . . وهذا صحيح، فقد يخيل للإنسان للوهلة الأولى ان دراسة المجتمع سهلة ميسورة، ولكنه كلما ازداد علما بدقائقه، ازداد يقينا بجهله وعجزه.

فما بالك بالجهود التي بذلها سبنسر، وهو لا يريد أن يدرس شعبا بعينه فحسب، بل يقصد إلى دراسة المجتمع الإنساني باسره وكيف تطور كيانه م حالة إلى حالة؟ فهو يرى أن المجتمع كائن عضوي له أعضاء للتغذية وله دورة دموية، وفيه تعاون بين الاعضاء، وله فوق ذلك تناسل وإفراز، شأنه في كل ألوان الحياة شأن الأفراد سواء بسواء. . . فهو ينمو، وكلما ازداد نموه اشتد تعقداً، وكلما تعقد ازدادت أجزاؤه استقلالا. وحياة المجتمع باعتباره كلا طويلة جداً بالنسبة إلى حياة أجزائه التي يتألف منها. والمجتمع كالفرد يتعاوره التكوين والانحلال وهما وجها التطور: فنمو الوحدة السياسية من الاسرة إلى الدولة ثم إلى عصبة الامم، ونمو الوحدة الاقتصادية من الصناعة المنزلية الصغيرة إلى نظام الشركات ثم إلى الاحتكار، ونمو وحدة السكان من القرية إلى المدينة. . . كل هذه ظواهر للتجمع والتكوين، ولكنك من جهة أخرى ترى تقسيم العمل وتعدد المهن والصناعات، وتنوع الانتاج بين الريف والمدن، وبين أمة وأمة. . . وهي دلائل تشير إلى التنوع والتنافر. . وتستطيع كذلك أن تلمس التطور بشطريه - تألف الأجزاء في وحدة، ثم تنافرها داخل تلك الوحدة - في كل جانب من جوانب المجتمع: في الدين والحكومة والعلم والفن وغيرها.

فقد كان الدين أول الأمر عبادة طائفة من الآلهة والأرواح، فأخذت هذه تتجمع وتأتلف حتى تركزت في إله واحد. . ثم عاد التوحيد فتفرع إلى جملة من الأديان وطائفة من العقائد، ولم يتحور الدين في شكله فقط، بل تبدل موقعه من النفوس كذلك. فقد كان الجمهور الذي تدور حوله رحى الحياة بأسرها، ذلك لأنه ألقى في روع الإنسان الأول ان هذه الحياة الدنيا غرور ولهو، ويجب أن يربأ بنفسه أن تنغمس في حمأتها أو تتلوث بأدرانها ولتكن الآخرة وحدها محطا لآماله ومعقداً لأمانيه فهي خير من الأولى وأبقى، ولكن ما لبثت وجهة النظر أن تطورت، وتوجه الإنسان بشطر من عنايته نحو هذه الحياة التي يعيش فيها. وأخذت تلك العناية تزداد شيئا فشيئا كلما اتسع نطاق العمل الصناعي.

أما نظام المجتمع فلعل أبلغ ما طرأ عليه من تغيير، هو الانتقال التدريجي من النظام الحربي الذي ساد أوربا إبان العصور الوسطى إلى النظام الاقتصادي الصناعي، ويتقد سبنسر أن تقسيم الحكومات إلى ملكية وأرستقراطية وديموقراطية وما إلى ذلك، ان هو الا

عرض تافه لا يمس الجوهر والصميم، وأما الحد الفاصل الذي يميز دولة من دولة، فهو أساس بنائها الاجتماعي. هل يقوم علت النزعة الحربية أم يصطبغ بصبغة الصناعة، وبعبارة أخرى تنقسم نظم الاجتماع نوعين: جماعة تعيش من أجل النزال والقتال، كما كانت الحال في نظام الاقطاع، وجماعة لا تجد في الحياة هدفا تتجه صوبه وتحيا به ومن أجله سوى العمل، فتلك تحارب من أجل الحياة، وهذه تعمل من أجل الحياة.

وللدولة الحربية صفات تلازمها، منها ان السلطة تتركز في قبضة الحكومة وحدها، ويغلب أن تكون حكومة ملكية لا تدخر وسعا للتفريق بين الشعب الواحد إلى طبقات بعضها فوق بعض، فتكون الحرب والفروسية صناعة الأشراف، وللسوقة الصناعة وفلاحة الأرض. . . كذلك تعظم في الدولة الحربية سيطرة الرجل في الأسرة، ذلك لأن الرجال هم عماد الحروب، وأين منزلة الرجل في حومة الوغى من منزلة المرأة قابعة في عقر دارها؟! ويمقت سبنسر هذا الضرب من الاجتماع الذي تدور حياته حول قطب الحرب، لأن مصلحة الفرد تذوب وتتلاشى في صالح المجموع، ولأن الدولة لا تقوم الا على القتل والسرقة، ونحن إن كنا نصم الإنسان الأول بالوحشية لأنه كان يلتهم لحوم البشر، فما أجدرنا أن نزدري هذه الدول التي تأكل شعوبا بأسرها في وجبة واحدة!

ويعتقد سبنسر ان رقي الإنسانية مرهون بإلغاء الحروب، وهو لا يرى سبيلا لتحقيق هذا المثل الأعلى سوى أن تقطع الأمم شوطا بعيدا في الصناعة لأنها تعمل على المساواة والسلام، وهي تقسم السلطة بين أعضاء المجتمع جميعا ولا تركزها في أيدي الحكومة وحدها، وفضلاً عن ذلك فهي تشحذ العقول وتدفعها إلى الابتكار، وهو المعول الهدام الذي يكفل لنا تحطيم التقاليد الوراثية التي تقوي من شوكة الحكومة. . . وستصبح الوطنية في ظل الصناعة حبا للوطن لا كراهية الأوطان الأخرى، ثم إذا اطرد نموها، فستؤدي حتما إلى ازالة الحواجز الجمركية التي تفصل الدول بعضها عن بعض، وعندئذ تورق دوحة السلام وتمتد فروعها حتى يتفيأ ظلها أبناء الإنسانية جميعا. . . وإذا ما خفقت راية السلام وأمحت الحروب، زالت دولة الرجل، ولا يعود له في أسرته سلطة الحجاج التي ينعم بها، ويرتفع قدر المرأة حتى تقف معه كتفا إلى كتف، لتشابه ما يؤديان من عمل، وعندئذ فقط يتحقق تحرير المرأة الذي تنشده.

ولما كانت الصناعة تستقي ماء حياتها من العلوم، فلا ريب في أن تقدمها وانتشارها ينتجان تربية التفكير العلمي وصحة الاستنتاج للأسباب والمسببات، ولن يلجأ الإنسان بعدئذ إلى قوى الطبيعة الخارقة والأبالسة والشياطين يعلل بها أحداث الحياة. . . وفوق هذا كله سينقلب التاريخ رأسا على عقب، فستزدهر صحائفه بذكر الرجال العاملين بدلا من الملوك المحاربين، وسيفسح في مجاله للمخترعات والأفكار. . . سيزداد الشعب سلطانا وقوة، وتتقلص سطوة الحكومة وتنكمش، وسيبطل ذلك الوهم العتيق البالي الذي يفرض على الفرد أن يحيا من أجل دولته، وأن يضحي بنفسه في سبيلها، وسيعلم الناس حقا ان الدولة إنما وجدت وأنشئت لصالح الفرد، وان كان هذا هكذا فلا يجوز أن تضحي الحياة من أجل العمل، بل يجب أن يكون العمل أداة تستغلها الحياة في تحقيق السعادة والهناء.

تطور الأخلاق

على أي أساس نشيد مبادئ الأخلاق؟ وبأي مقياس نزن الخير والشر؟ أما سبنسر وأتباعه فلا يترددون لحظة في إخضاع الأخلاق، كأي شيء آخر، إلى قوانين التطور وانتخاب الطبيعة، وبعبارة أخرى يريدون أن نلقي بزمام الإنسان فقي يد الطبيعة نفسها تختار من أخلاقه ما تشاء. وقد ناهضهم طائفة كبيرة من العلماء والكتاب، يربأون بأخلاقنا التي تواضع المجتمع عليها أجيالا متعاقبة، أن توضع بين مطرقة الطبيعة وسندان التطور، يفعلان بها كيف شاء لهما الهوى وفي ذلك يقول هكسلي: إن علم الحياة لا يصلح دليلا خلقيا بأية حال من الاحوال، اذ كيف نترك مصيرنا في كف الطبيعة العمياء، وهي كما قال عنها تنسون الشاعر الإنجليزي (ملطخة بالدماء ناباً ومخلباً)!! نعم، كيف نذر الطبيعة تصب في قوالبها ما يطيب لها من أخلاق وهي كثيراً ما تمجد الوحشة والمكر والخداع وتمقت الرحمة والعدل والحب؟!

ولكن تحدث بهذا المنطق لغير سبنسر! لابد أن تخضع مبادئ الأخلاق للانتخاب الطبيعي وتنازع البقاء، وليبق من أخلاقنا ما يصمد لهذه التجربة القاسية، وليفن منها ما تذروه هذه الريح العاصفة. . . الأخلاق - كأي شيء آخر - تعود على الإنسان بالخير أو بالشر

بمقدار ما تساوق أغراض الحياة (والخلق السامي هو ذلك الذي يسير مع الحياة ويشاطرها فيما ترمي إليه) فلنقبل من الأخلاق ما يلائم الحياة، ولنرفض منها ما يعترض سبيلها

ومجراها، أو بعبارة أخرى يجب أن تكون الأخلاق بحيث تعاون الفرد على البقاء في مضطرب الأهواء المختلفة المتنازعة التي تصدر من أعضاء المجتمع. ولما كانت هذه الملاءمة بين الفرد والمجتمع تختلف باختلاف الزمان والمكان، كانت بالتالي فكرة الخير تختلف عند الشعوب أوسع اختلاف. ويرى سبنسر أن الطبيعة قد زودتنا بمقياس دقيق نميز به الطيب من الخبيث، وهو مقياس السرور والألم، فإذا صادف سلوكنا من أنفسنا ارتياحا ورضى، كان ذلك دليلا على ملاءمته للحياة الكاملة، لان ذلك الاطمئنان الباطني علامة على أن الطبيعة قد اختارت ذلك السلوك ليكون سبيلا إلى حفظ الحياة. فأنت تستطيع إذن أن تفرق بين الخير والشر، بما يبعثه العمل المعين من سرور أو الم لأنهما دليل ساقته الطبيعة نفسها للتفريق بين هذا وذاك.

نعلم مما تقدم أن الأخلاق يختلف لونها باختلاف البيئة الطبيعية أو الاجتماعية، لأن الأولى صدى الثانية وانعكاسها، ولما كان نظام المجتمع في العصور الوسطى أخذ يتطور في كثير من أسسه وقواعده، كان حتما أن ينشأ عن هذا التحوير انقلاب في فكرة الأخلاق. فقد كانت أكاليل المجد والفخار لا تعرف موضعا غير هامة الفرسان المقاتلين، فأما هؤلاء الذين يقضون نهارهم في الزراعة والصناعة فعبيد أرقاء حقب عليهم الذلة والهوان، ولكن وجهة النظر أخذت تتطور منذ حلت الصناعة ورسخت قدمها، لانها تعتمد كما قدمنا على القوة العقلية، فأضحى العمل أشرف ما يمارسه الإنسان. لأنه عماد المجتمع وسنده. . . ولما كان هذا العمل لا ينمو ولا يستقيم إلا تحت ظل العدالة، وهذه بدورها لا تورق أو تزدهر إلا في جو من الحرية؛ كانت هذه الحرية أول واجب في عنق الدولة، وقد عرف سبنسر العدالة بان: (كل إنسان حر في أن يفعل ما يشاء، على شريطة ألا يتعارض ذلك مع حرية إنسان آخر له ماله من حقوق).

ولا يستقيم هذا النص مع نزعة الحرب، لانها تعبد سلطان القوة وتفرض الطاعة العمياء، ولكنه شرط أساسي لنجاح الصناعة لأنها تعتمد على السلام والحرية في الراي والابتكار.

تلك هي حقوق الإنسان الأساسية عند سبنسر. حق الحياة وحق الحرية، فأما شكل الحكومة فلا يقيم له وزنا، فلتكن ملكية مطلقة أو دستورية أو ما شئت من نظم، فما لنا ولها ما دمنا نتمتع بالحرية والحياة؟ وفي هذا يسخر سبنسر من النساء اللائي يلححن في طلب الحقوق

السياسية، لأنها في رأيه وهم باطل لا يسمن ولا يغني من جوع، فضلاً عن أنه يتوجس من المرأة خيفة ان هي وثبت إلى مقاعد النيابة والحكم، اذ يخشى ان تدفعها غريزة الإيثار إلى تقوية الضعيف الذي يجب أن يرك للطبيعة تسحقه، فلا تذر من الاحياء غير الاقوياء. نعم يجب أن تتحكم الأنانية وان تظل أساسا لأعمالنا بحيث لا تلين لعاطفة الإيثار، فهي أسبق منه إلى الوجود، وهي أصلح للحياة والبقاء. . . . وهل الإيثار إلا أثرة في لبه وصميمه! أليست الأبوة حباً صريحاً للنفس؟ والوطنية ما هي؟ ألا تراها أثرة مجسمة؟ فأنت لا تنتصر لهذه البقعة من الأرض إلا لأنك تعيش بين أرجائها!

وخلاصة الرأي عند سبنسر أن المثل الأعلى للأخلاق هو مزيج متزن بين الاثرة والإيثار_الإيثار الذي يشبع الأنانية ويغذوها.

زكي نجيب محمود

في تاريخ الأدب العربي المصري

ابن قلاقس 532 - 567هـ (1138_1172م)

- 1 -

في ثغر الإسكندرية، مهبط الوداع واللقاء. حيث تجلب السفن قوما وتذهب بآخرين، وتحمل أناسا إلى أوطانهم، بينما تذهب بغيرهم إلى بلاد غير بلادهم وآل غير آلهم، وحيث البحر الأبيض يحمل عبابه السفن، مهتدية بمنار الثغر، فتحط اليه أو ترحل عنه، وفي رابع ربيع الآخر عام اثنين وثلاثين وخمسمائة ولد لعبد الله بن مخلوف بن علي ولد سماه نصبر الله، وكناه أبا الفتوح، ولقبه الناس بعد ذلك بالقاضي الاعز، وشهر في كتب الادب بابن قلاقس، وأرجح ما نراه سببا لكنيته الأخيرة أن أحد الأجداد في عمود

نسبه يسمى بقلاقس، فحمل حفيده الشاعر النسبة إليه، (وقلاقس بقافين. الأولى مفتوحة والثانية مكسورة جمع قلقاس، وهو معروف) ولسنا ندري السبب الذي من أجله سمي جده بهذا الاسم.

ولد هذا الطفل الذي كان على ما يظهر نحيفا ضئيل الجسم، وظلت صفة النحافة ملازمة له، لم تبرحه طوال حياته حتى قال حينما كبر يحدثنا أن ضآلة الجسم لا تحول بينه وبين العلا:

جوهر المرء نفسه وبها الفض ... ل، وما غير ذاك فهو فضول
والصغير الحقير يسمو به الس ... ير فيعنو له الكبير الجليل
فرزن البيدق التنقل حتى ان ... حط عنه في قيمة الدست فيل

ويروي بعض الرواة أنه لم تكن له لحية، ولكن شعره يحدثنا أنه كان خفيف العارضين يقول:

لا تغرنك اللحى من أناس ... درجوا كالحمير تحت المخالي
ولئن خف عارضاي فاني ... لا أبالي بكل وافي السبال

يلبس على رأسه عمامة كالتاج، وذلك كل ما تستطيع ان تصل اليه إذا أردت أن تعرف شيئا عن خلقه وزيه، فإذا أردت أن تدرس أسرته وأن تعرف شيئا عن أبيه وأمه فانك غير مهتد إلى ما يشفي غليلك، اللهم الا أنه يرجع في نسبه الاول إلى قبيلة عربية هي قبيلة لخم ان صح ما يقوله النسابون عن نسبه.

- 2 -

الحياة العملية لابن قلاقس يشوبها العموض، فلسنا ندري على وجه اليقين كيف تعلم، ولا ماذا تعلم، ولا على يد من تخرج، وان كنا نعلم انه درس في الازهر، وربما يكون قد طالت مدة دراسته حتى صح أن ينسب ويقال له الأزهري، كما إننا نعلم أنه صحب الشيخ الحافظ أبا طاهر أحمد بن محمد السلفي وهو أحد الحفاظ الذين رحلوا في طلب الحديث، ولقي المشايخ الأعلام ودرس الفقه على مذهب الشافعي، ثم ألقى عصا التسيار بالإسكندرية، حيث قصده أهل العلم من البلاد النائية، ويقال أنه لم يكن في اخر زمانه مثله، ولقد بنى الوزير المصري وزير الظاهر العبيدي له مدرسة بالإسكندرية وكل أمرها إليه، فقام بأعبائها.

أتصل ابن قلاقس بهذا العالم وانتفع بصحبته كثيرا، وان شعره الذي مدحه به يدلنا على ما كان بينهما من أواصر المودة وقوة العلاقة، كان السلفي رجل حديث فلا بد أن يكون ابن قلاقس قد درس عليه الحديث، وكان رجل فقه ولغة وأدب فلا بد أن يكون صاحبنا قد تأثر بفقهه وأدبه، وإذا كان الشاعر يهضم دراساته كلها ثم تأبى إلا أن يظهر أثرها في شعره فكذلك كان صاحبنا؛ فانك ترى في شعره بعض اصطلاحات علمية تدلنا على دراسته وما تلقاه، وأتنصت إليه يقول:

البدر في العرض الضياء وأنت قد ... جمعت بجوهر ذاتك الاضواء

ألا يذكرك ذلك باصطلاح المتكلمين حينما يتحدثون عن العرض والجوهر والذات، ويقول:

وأنت ورثت الأكرمين علاهم ... وعالت على قوم سواك الموارث

ويقول:

ملك شاعر الحماسة يأبى ... أن يمل التسهيم والتقسيما

فهو يشير إلى الميراث والعول والتسهيم والتقسيم التي هي من الاصطلاحات الفرضيين واستعمالاتهم، ويقول:

وجدي بنحوك لا عطفا ولا بدلا ... فانظر إليه تجده الكل توكيدا

ويقول:

خفضت بها الأشعار حتى كأنها ... وإن رفعتني الآن من أحرف الجر

ويقول:

وأحسن بالرفع رفع الحدي ... ث وإظهاره للجوى المضمر

فهو في كل هذه الأبيات يشير إلى قواعد النحو من عطف وبدل وتوكيد وخفض ورفع وحروف جر وإظهار وإضمار، وهي كلها اصطلاحات نحوية تلوكها ألسنة النحاة، كما كان في البيت الاخير يحدثنا عن رفع الحديث الذي هو من مصطلحات المحدثين كما قال:

لوارث الحمد يرويه ويسنده ... إلى مناسب أجداد وآباء

إذ هو يشير إلى الرواية والإسناد اللذين يجريان على ألسنة المحدثين. ويقول:
حيث الدماء عقار يستحث على ... ما شئت من رمل للخيل أو هزج
ففي رمل وهزج تورية ببحري الرمل والهزج اللذين يعرفهما علم العروض ويقول:
وأراك تريف الجمال بوجهه ... فانظر إلى ألف العذراء ولامه
تلك هي العلوم التي نستطيع استنباط أنه درسها من شعره، واذا شئت أن تجملها قلت إنه درس الدين وعلومه واللغة العربية وعلومها كما أنه قد أخذ بحظ كبير من دراسة أدب الشعراء الغابرين وحفظ الكثير من أقوالهم، يدلنا على ذلك معارضته لهم في أشعارهم وقصائدهم واقتباسه الكثير من أفكارهم وتعبيراتهم، وإن شعر شاعرنا ليدلنا حقيقة على اطلاع واسع وثقافة متغذية بأشعار السابقين له: جاهليين وإسلاميين، وسوف نتحدث بعد عن اقتباسه ومعارضته حينما نحدثك عن شعره. قلنا انه صحب الحافظ السلفي، ونقول، ان التاريخ لم يحفظ من أسماء أساتذته إلا هذا الاسم، وقليا ان العلاقة التي كانت بينهما متينة العرى وثيقة الصلة تلمسها في شعره، وتقرؤها في المدح الذي يفيض قداسة وحبا، كما تلمس فيه بلك الدرجة العظيمة التي وصل اليها السلفي، وتلك المنزلة السامية التي كان يضعه فيها أهل عصره، وحسبك أن تسمع قوله فيه:

نجم علا نوره فكاد بأن ... تقبض بالضوء عين من جحده
سائل به من رمته هيبته ... فمات من خوفه، وما عمده
ألم تزره كواكب ضمنت ... رجم شياطين كيده المرده
وأصبح العاضد الإمام به ... في دولة بالسعود معتضده
وابتسم الثغر عن مفضله ... بما ارتضى الله جده وده
خر له الناس ساجدين فلو ... شئت عددت النجوم في السجده

وشعره فيه كثير جدا يوجد في ديوانه. وكان السلفي كثيرا ما يثني عليه، ويقدره حق قدره.

- 3 -

عاش ابن قلاقس طوال حياته في عهد الدولة الفاطمية، تلك الدولة التي جعلت مصر سيدة لإمبراطورية ضخمة تمتد من المحيط الأطلسي إلى نهر الفرات، غير أن شاعرنا كان في آخر عهودها، وبعبارة أخرى كان في عهد ضعفها وانحلال قواها، إذ لم يكن الأمر والسلطان فيها للخليفة: يصرف الأمور ويدبر الشئون؛ ولكنهما كانا في أيدي الوزراء يفعلون ما يفعلون، ويدعون ما يدعون، ويولون الخلافة من يشاءون، فقام التنافس على الوزارة. كل يرجوها لنفسه ويصرف في سبيل نيلها ما شئت من مال وجند، مما كان مدعاة لأن توجه مصر قواها إلى نصر بعض بنيها على بعض لا إلى عدو آخر مغير، ولهذا كان تاريخ الدولة الفاطمية في آخر عهدها تاريخا للنزاع الذي كان قائما حينذاك بين الوزراء، ولعل ضعف سلطة الخليفة في أكثر المدة التي عاشها ابن قلاقس هي التي لم تدعه إلى السعي للاتصال به، بل هو لم يتصل بأحد من رجال السياسة المصرية المبرزين إلا بشاور الذي تغلب على خصمه رزيك وانتزع منه الوزارة، ولا زال الغالب يجد النصير ويجد المادح؛ لهذا تسمع ابن قلاقس يقول له:

يا آل شاور أنتمو دون الورى ... للملك كالأرواح في أشباحه
والى معاليكم إشارة خرسه ... والى أياديكم ثناء فصاحه

ويقول حينما انتصر على بني رزيك:

بك الاسلام قد لبس الشبابا ... وكان سناه قد ولى فآبا
وهز الملك عطفيه بملك ... تقلد فهمه، وكفى، ونابا
وقد لبست به الدنيا حلاها ... جلاها حسنها خودا كعابا
وقالوا: أطول الاملاك باعا ... فقلت: نعم، وأنداهم جنابا
سلوا عنه بني رزيك لما ... أفاد الحرب منهم والحرابا
فان جعلوا الظلام لهم مطيا ... فكم جعل النجوم لهم ركابا
ليهن الملك أن أمسى مصوناً ... عشية راح غيرهم مصابا

وكذلك له شعر يحدثنا عما قام بين شاور وشيركوه الذي قدم لمساعدته ثم أبى شاور أن يفي له بما عاهده فاضطر شيركوه إلى الانسحاب من مصر مؤقتا؛ ويقول في ذلك ابن قلاقس:

عارض الصفح في يديك الصفاحا ... ورأى البأس أن تطيع السماحا
فرفعت الجناح عن جارم الذن ... ب بعفو خفضت منه الجناحا
ووضعت السلاح حين أراك ال ... حزم والرأي ان وضعت السلاحا
أي ثغر سما اليه أبو الفت ... ح فلم يبتدر اليه افتتاحا
بخيول طارت بأجنحة النص ... ر فراحت بها تباري الرياحا
شاركت شيركوه في النفس والما ... ل وصاحت به فصاحا فصاحا
طلب الأمن، فاستجيب، وما يع ... رف منك الطلاب إلا النجاحا
بعد ما ضيق الحمام عليه ... سبلاً غودرت لديه فساحا
فليطل تعدها الفخار، فقد را ... ح طليقا لبيضكم حيث راحا

وبغير شاور لم يتصل شاعرنا بسياسي مبرز في السياسة المصرية اللهم إذا استثنينا القاضي الفاضل الذي توصل بجده ومهارته إلى أن يثب على كرسي ديوان الإنشاء عوضا عن الموفق بن الجلال الذي كان أستاذا له، وكان يشغل هذا المنصب قبله، وإذا أنت قرأت شعر ابن قلاقس في مدح القاضي لحظت فيه تأنفا واجتهادا في استعمال المحسنات اللفظية، ولا غرو فالقاضي الفاضل زعيم طريقة عرفت به وعرف بها: هي طريقة الجمال والتزيين اللفظي، فكان من حسن الذوق أن يجتهد مادحه في السير على نهجه واتباع مذهبه لان في ذلك إذاعة لطريقة يريد أن يذيعها، ويقولون: إن أول قصيدة قالها فيه هي التي أولها:

ما ضر ذاك الريم ألا يريم ... لو كان يرثى لسليم سليم

ومنها:

من لفظه راح، وأخلاقه ... روح، وتلك الدار دار النعيم
فارشف بأسماعك من قهوة ... ما أحدثت من ندم للنديم
بلاغة جرت جريرا، ولم ... تدع حطاما بيد ابن الحطيم
رأى به الديوان ديوانه ... مطرزا باسم شريف وسيم
وقال يا عبد الحميد ادرع ... من بعد هذا اليوم ثوب الذميم
علامة السؤدد معروفة ... جسم نحيف وعلاء جسيم

وله فيه مدح كثير، وثناء على أخلاقه، وطريقة انشائه، وصاحبنا مع فخره بشعره يقف أمام القاضي الفاضل فيقول له:

أتينا بقرى الأشعا ... ر نهديها إلى المدن
إلى من بحره الزا ... خر لا يعبر بالسفن
إلي من لفظه يط ... رب كاللحن بلا لحن

وهذان العظيمان شاور والقاضي الفاضل أكبر من اتصل بهما شاعرنا في الديار المصرية.

يتبع

أحمد محمد بدوي

من طرائف الشعر

الى زوجي الفاضل

قصيدة طريفة من الأدب النسوي الجميل

للسيدة منيرة توفيق حرم الصاغ محمد ماهر رشدي مأمور بندر الزقازيق

طالَ السهادُ وأرّقت ... عيني الكوارثُ والنوازل
لما جفاني من أح ... بُّ وراحَ تشغلهُ الشواغل
وطوى صحيفة حبنا ... وأصاخ سمعاً للعواذل
يا أيها الزوج الكري ... م وأيها الحب المواصل
ما لي أراك معاندي ... ومعذبي من غير طائل
لم ترع لي صِلةَ الهوى ... وهجرتني والهجرُ قاتل
هل رمُتَ ان تغدو طلي ... قاً لا يحولُ هواكَ حائل
أو رمتَ غيري زوجةً ... يا للأسى مما تحاول
ان تبغ مالاً فالذي ... تدريه انَّ المال زائل
أو تبغ أصلا فالتي ... قاطعتها بنتُ الأماثل

أو تبغ حُسناً فالمحا ... سنِ جمةَّ عندي مواثِل
أو تبغِ آداباً فأش ... عاري على أدبي دلائل
أنا ما حَفِظتُ سوى الوفا ... ءِ ولا ادَّخرت سُوى الفضائل
وأنا وَلي شرفُ العفا ... فِ أَعَدُ مفخرة المنازلْ
فَجَزَيتني شرَّ الجزا ... ءِ وكنتَ فيه غيرَ عادِل
أنسيتَ عهداً قد مضى ... حُلوِ التَّواصُل والتراسل
أيام تبذل من وسا ... ئل أو تنَّمقُ من رسائل
وتبثُ معسولَ المُنَى ... وتمدُ أسباب التحايُل
ولبِثتَ تُغريني بما ... تبديه من غرِّ الشمائل
فحسبتُ أن الدهر أن ... صفني وأن السعد ماثل
ظناً بأنك لم تكن ... لا بالعَقوق ولا المُخاتل
ماذا جرى فهجرتَني ... والحُب شيمته التساهل
عاشَرت أهل السو ... ء فاقتنصوك في شر الحبائل
ومَضيتَ تطلب بينهم ... عيش المقيدَّ بالسلاسل
ورضيت هجر حليلةٍ ... لمَّا تزل خير الحلائل
والله ما فكرت يو ... ما في جفاكَ ولم أحاول
فجفوتَ يا قاسي الطبا ... ع ولم تُدار ولم تجامل
فاعلم بانك قاتلي ... والموت فيما أنت فاعل
أين المسائل والموا ... صل في العشي وفي الاصَائل
أين المودةُ في الهوى ... بيني وبينك بالتبادُل
أين الحديثُ العذبُ من ... ك وأين ولَّى سحرُ بابِل
أني أسائلُ أين عه ... دك في الهوى إني أسائل
أعلمت ما فَعل النوى ... بي من ضنى أم أنت ذاهل
فاربأ بنفسِكَ وانهها ... وارجع إلي زين العقائِل

منيرة توفيق

الذكرى

للشاعر الدمشقي أنور العطار

تهبطُ الذكرى على قلبي فيحيا ... ثم تنأى عن حِماهُ فيموت
غَلبَ اليأسُ على مأمله ... وطوى ضجته الكبرى السكوت
فهو كالبلبل غنَّى بُكرةً ... ولدى الامساء وافاه الخفوت
رُبَّ ذكرى غلغلت في ساحه ... هي عندي أبد الآباد قوت
نعشَت رُوحي منها نفحةُ ... مثلما ينعشك المسكُ الفَتيت
يا سرباً لم أزل أنشُدُه ... طول عمري وهو عن عيني يفوت
بينما الأمر جميع فإذا ... عشيَ المنضورُ منهوبٌ شتيت
وحياتي نهرٌ معتكرٌ ... غيبته فلوات ومرُوُتُ
أعشبَ الشوكُ على أعطافه ... ولقد يزهو بها آسٌ وتوت
الدنا بعدكِ قفرٌ وحشةٌ ... ما بها مأوى لقلبي ومَبيِتُ
خلتِ الأكوانُ من بهجتها ... وامحت منها صفاتٌ ونُعُوت
لا تظني شجوها يكرُبني ... إني في الألم العاتي ربيت
كلُ ما لاحَ لعيني رائعاً ... هو عندي بعد ما غبت مقيتُ
زهِدَ القلبُ الأماني كلها ... وثوى يصدفُه عنها القُنوتُ
غير ذكرى صورةٍ اعبُدها ... أنا منها في عذابِ ما حَييت
الرّزايا رصَّنتني خِبرةً ... والرزايا قد تربى وتقيتُ
كلما حرَّقني جرحُ الهوى ... صاح قلبي: إن جرح الحبِ صيت
يالهِّم مُستفيض إن يغِب ... ملكوتٌ منه يطلعُ ملكوت
لكِ في قلبي طيفٌ ماثلٌ ... هو في عيني تمثال نحيت
غلَّف الأجفان ما يبرحُها ... مُشرق الساحة بحلوه الثُبوتُ
الم أكن أرضى بأفراح الورى ... وأنا اليوم بأوجاعي رضيت
تُنشد الروحُ إذا طفت بها ... وإذا غِبت تولاَّها الصُموت

أنا كالشارد من فرطِ الأسى ... مضنًّى هم على العيشُ مُميِت
نَسَج الدهر لحظِّى دارة ... رُبما أربت عليها العنكبوت
الأماني الحائرة
لله كم من أمان بت أرقبها ... فيها يحاربني دهري وأيامي
تراكمت فهي أكوام مكدسة ... ليست تعد بأقلام وأرقام
أحدث النفس عنها كل آونة ... وما أحدثها في غير أوهام
لهفي عليها وقد راحت تقاذفها ... يد المقادير من عام إلى عام
ما أن نظرت اليها وهي حائرة ... إلا أنثنيت بقلب صارخ دام
الا تحقق لي الايام أمنية ... حتى أودع أشجاني وآلامي
لكم أجِّمعُها حولي وأندبها ... بكل أنشودة حرَّى، وأنغام
مأرب كبياض الفجر باسمة ... حفت بعاثر جد غير بسام
يا حسنها من أمان لو يحققها ... دهري، وما رجفت أضغاث أحلام
دار العلوم العليا
محمد برهام
الساعة
وآلة تقطع الأيام سائرة ... لا تبصر العين من تسيارها أثرا
أرى عقاربها اللاتي، تدور بها ... عقاربا كل حين تلدغ العمرا
كأنها تبصر الأوقات راسمة ... لها وما ملكت كفا ولا بصرا
تهاجم العمر دوما وهي ساكنة ... والعمر يركض منها خائفا حذرا
نعدها من جماد وهي مدركة ... من وقتنا ما اختفى عنا وما ظهرا
تطوى السنين وتجري وهي ثابتة ... وتمنح الناس - لكن لم تفه - عبرا
فأن يكن أي سير في المكان يرى ... ففي الزمان مسير جاوز النظرا
ان صاغها من جمادات حجى بشر ... فقد ترقت فأضحت ترشد البشرا
كأن دقاتها في كل آونة ... دقات قلب خفوق بالنوى صحرا
كأن في جوفها قلاب الزمان غدا ... يدق مستعجلا من نفسه ضجرا
يقطع الخفق منه كل آونة ... جزءا فتحسبه بالخفق منتحرا
بالخفق نحيى وذاك الخفق ينقصنا ... جزءاً من العمر من أرواحنا أنبترا
كأن دقاتها في السير حشرجة ... للدهر يلفظها جزء قد أحتضرا
كأنما هي أنفاس يرددها ... دهر تأوّه أو ذو علة زفرا
كأن توقيعها المرنان وقع خطى ... للدهر في موكب نحو الفنا عبرا
يبغى الفرار من الساعات عقربها=خوفا على العمر ممن تتلف العمرا
لكن يعود اليها مكرها جزعا ... كساكن قفصاأو موثق أسرا
ليت القلوب من الساعات قد وقفت ... أو ليت عقربها الجرار قد كسرا
حتى تمر بنا الأوقات سانحة ... ما أن نحس لها طولا ولا قصرا
وكي تمر بنا الأوقات عابرة ... جسر الحياة وهذا البرزخ الخطرا
ما العمر إلا منام طال أم قصرا ... فلا تقطع مناما في الرقاد سرى
من يصح من نومه لم يلقى غير أسى ... وفاز بالسعد من في حلمه سكرا
دمشق
أحمد صافي النجفي
قصر الأحلام
في عالم الأحلام قد ... شاهدت أعجب الرؤى
رأيتُ قصراً شاهقاً ... بين الكواكب استوى
أبراجه من ذهبٍ ... مؤتلقٍ مثل الضحى
أشجاره تحكي الزمر ... دَ الكريم في النقا
ينبوعه يرسل ما ... ءً كاللجين في الصفا
بلغته في مركب ... يجره بعض القطا
ثم دخلتُ ساحةً ... كهالةٍ من السنى
تضم حوراً قد رفا ... ن في الحرير والحُلى
وقيل لي ذلك قص ... ر الخلد لو شئت البقا

أصحابه قد وهبوا ... صعدا على طول المدى
لكن حبيبي لم أجده ... بين هاتيك الدُمى
فعدتُ أدراجي الى ... دنيا الزوال والفنا
أبحث عن خليّ بها ... هناك في عشّ الهوى
حسين شوقي
. . .يا أم
قد مزّقتْ صدرَها النبالُ ... وهَّدها السُّقم والهُزالُ
لبيكِ يا مصرُ، لا تراعى ... فِدًى لك المالُ والرجالُ
يا أم لا تجزعي، فأنَّا ... نَقضي، ليبقى لك الجلالُ
من نيلك الكوثر أحتسينا ... سُلافة سكرها حلالُ
تطوف بالفكر في فجاج ... يقصرعن نقشها الخيالُ
وتدفُع الروح في صعيد ... من عالم الوَهم لا ينالُ
أروع ما قد لمست فيه ... حرية صاغها الجمالُ
لبيكِ يا أم هاكِ قلبي ... آليتُ لن يَهَدأ النضالُ
هيا إلى الموت يا فؤادي ... أو يُصرع الظلمُ والظلالُ
. . .ما أكثر الأمنيات عِندي ... تجري وما ضمها مجالُ
!!. .يضيقُ دهري عن رجائي ... ايسرُ ما أنشُدُ المُحَالُ
مختار الوكيل
بين الشك والأيمان
(شيللر)
للأستاذ خليل هنداوي
تتمة ما نشر في العدد الماضي
- 3 -
في عام 1790 كتب شيللر إلى صديقه (كاربز) الأمين (ما أحوجني إلى رفيق يقيم معي، ويقدر على إسعادي، وتبديد وحشتي ونفي همومي وتجديد أيامي) وكأن الأقدار رغبت في تحقيق رجائه فوهبته امرأة ما كان أدناها من هذا الصاحب الذي تمناه، وفيها يقول (غوته) إن الجمال النقي يرتسم على ملامحها، وأشعة الظهر تلمع في عينها. هي كثيرة الإحساس بكل ما هو خير وجميل في الحياة، وتغلب على مشاعرها الرقة والإيناس. وكان تأثير هذه الصاحبة الأمينة في حياة شيللر شديدا، فقد نفحت روحه بالأمل الذي هو سر الحياة، وكتب إليها قبل زواجه منها (أصبحت أرى نفسي متفتحة لكل ما هو خير وجميل. قد وجدت نفسي. . .) وبعد زواجه كتب (الآن غلب على مزاجي الاعتدال. وأيامي تنقضي خالية من ثورة الأهواء، صافية هادئة. وقد عدت إلى أعمالي بنفس ملؤها الطمأنينة كعادتي السابقة) وهذا الذي عرفناه ثائراً، شاكاً، ناقماً على نفسه وعلى الناس تميل روحه للاستسلام وتغلب عليه السكينة، فإذا ما عراه داء شكر ربه لأن يداً فوقه تبدي له من العطف أضعاف ما يحس من الألم. وقد منحته السماء طفلاً فقال (أحس بأنني أرى مشعل حياتي الذي بدأ ينطفئ، يشتعل في غيري. إنني راض عن القدر) ويتجه قلبه إلى أمه الكهلة التي يضطرم قلبها عليه حباً وحناناً فكتب إليها (كل ما يجعل حياتك سعيدة يجب أن يكون لك يا أماه! وأن الواجب يقضي علي أن أنقذ روحك من كل ملل. بعد تلك الأتعاب التي أرهقتك يجب أن يكون مساء حياتك صافياً هادئاً. . . .)
استشاره رجل يريد أن يقبل على ذلك العلم الخطير (الفلسفة) فراح يصرفه عنه بقصيدة تصف مخاطر هذا العلم وطريقه الملتوية.
هل أنت متأهب مع سلطان برهانك الكئيب؟
هل أنت ناضج الفكر لتظهر في الهيكل الذي يحرس. . . كنزه الخطير.
وهل أنت شاعر بما سترى؟ وبأي ثمن سوف تشتريه؟
وهل أنت موقن بأنك تبذل شيئا لا تملكه لقاء شيء أكيد؟
وهل تحس أن قواك كافية لمعركة هي أشد المعارك هولا! تلك المعركة التي تثور بين القلب والروح والعاطفة والفكر؟
وهل تملك جرأة وشجاعة تسعفانك في قتال (ثعبان) الشك الخالد، الكامن في

داخلك؟
ألا فر، وأمعن في الأرض فراراً، إذا لم تكن واثقا كل الثقة بالدليل الذي تحمله في صدرك. فر من هذه الشواطئ المغرية قبل أن تلتهمك الهاوية. . . كثيرون هم أرادوا أن يمشوا نحو النور فوقعوا في ظلمات فوقها ظلمات.
(!ألا أن الطفولة تؤول حقا بصاحبها إلى نور الشفق
أن هذه المقطوعة تبين أن الشاعر قد نقم على الفلسفة وسئم معنوياتها. واستغنى عن هدايتها. وكان موفقا كل التوفيق في ممثليه مخاطرها.
ولكن هل كانت الفلسفة كلها شكا يعذب ويؤلم؟ هل تكون الحياة - وجميع أبوابها مغلقة - إلا هذا الشك المؤلم؟
والشاعر يبدي رأيه أكثر وضوحا في هذا النوع من الفلسفة في مقطوعته (صورة سايبس المحجوبة)
وهذه هي المقطوعة:
هجر الدار، ولم يعبأ بما ... ستذوق النفس من برح الألم
جاعلاً وجهته مصر، لكي ... يفهم الأسرار ممن قد فهم
هذه (سايبس) قد أرخت على ... وجهها ألف حجاب تلتثم
كل من يطلب يوماً ان يرى وجهها ... يبلى بأنواع السقم
لم يزد صاحبنا الا جوى ... زاد في القلب لهيبا وضرم
غافل الكهان عنها ليلة ... وتوارى تحت أسدال الظلم
رفع الأستار عنها ورأى. . . ... (هل رأى حين رأى غير عدم)؟
لم يقل عما رآه وثوى ... بخشوع تحت أقدام الضم
فبراه السقم حتى شفه ... وتردى جسمه حتى انهدم
قال: ويل للذي يطلبها ... بطريق منكر: ثم وجم!
وفي هذه القصيدة غموض يحاكي غموض الحقيقة. والفقرة الأخيرة منها تدل على ما ساور الشاعر من الندم الممض والألم العنيف. ولكن لماذا الندم؟ هل على معرفة الحقيقة؟ ولكن هل هي الحقيقة الكامنة وراء الحجاب عرفها؟! كنا نود أن نعرفها كما عرفها، ونتذوق بعد ذلك ما تذوق الرجل في سبيل معرفتها - ولكنني أخشى من إن الرجل لم ير - وراء التمثال_إلا ما يحمل عادة التمثال! والوثنيون إنما يعبدون من التمثال ما نسجت قلوبهم وراء ملامحه من أقداس وطهارة. ولو أنهم تمثلوا ما يعبدونه بعقولهم لما رأوا إلا حجارة مسندة لا تضر ولا تنفع. وهؤلاء وغيرهم ممن ينشأون في كل عصر إنما يعبدون ما تصوره لهم قلوبهم وترسمه نفوسهم، وهل تساوي اثنان من شريعة واحدة في عبادة واحدة؟ ذلك يتمثل في صلاته شيئاً لا يتمثله الآخر، مع أن الصلاة واحدة والوجهة واحدة. وسر هذا الخلاف يعود إلى ما يتمثله هذا القلب المباين لذلك القلب في كثير من ضروب التفكير والشعور. وما أكثر أولئك الذين إذا منعتهم عن عبادة تمثالهم المقدس! وأريتهم حقيقة عارية، تقتل أمانيهم وتهدم حياتهم، فيودون لو بقوا في جهالتهم سادرين ناعمين!!
هذه الحقيقة التي تكاد تمثلها هذه النقطة هي حقيقة العدم! ولكن هل أراد الشاعر أن يصل إلى هذه الحقيقة؟ انه وصل إليها طوعاً أو كرهاً، ولكنه ندم لانه أضاع قيمة حياته! وهو إنما يريد أن يعرف شيئا من الحياة هو أقدس وأسمى من حقيقة الفناء!
ما كان أدنى شيللر بهدوئه وكآبته الصامتة في أيامه الأخيرة من هذا الرجل الذي أخذ يتلاشى بعد معرفته الحقيقة، فقد أخذت حوادث الدهر وصور الموت تجوز إلى نفسه، وهذه مقطوعة (الناقوس)
في فناء الكنيسة تتهادى رنات الناقوس! تلك الرنات العالية التي ترافق أغاني القبر.) تنبئ عن عبور المسافر الذي مضى إلى ملجئه الأخير. وا أسفاه!! هذا المسافر هو زوجة عزيزة! أو أم اختطفها الموت من حضن زوجها، ومن بين أولادها الذين منحتهم السعادة والغبطة، وأرضعتهم بمحبة ورفق. هذه الروابط الجميلة تقطعت إلى الأبد (!لأنها نزلت إلى مثوى مظلم عميق. . . هذه الأم
كانت هذه القصيدة بعد ثلاثة أعوام لسان حال شيللر في الحوادث التي تتالت عليه، فقد

غادرت أمه الوجود، هذه الأم التي كانت كلما ازدادت عمرا، ازدادت عطفاً على ولدها. كتبت له في كتابها الأخير (لا يوجد ولد - كمثلك - في الوجود) وأخذت صورة ولدها قبل أن يغتالها الموت وضمتها إلى صدرها ضماً شديداً، وأشبعتها لثماً وتقبيلاً، وماتت يشرف على قبرها صليب حجري نقش عليه هذه الكلمة (أم شيللر)

أما الشاعر فقد تسرب إليه اليأس، وزادت عليه الأسقام حتى خرب صدره وخارت قواه وفسدت رئته. وهو_برغم ذلك_يريد أن يغلب على هذه المحن ناظراً إلى غده الزاهي. ولكن المرض المبرح ضن عليه بكل شيء حتى بنعمة الأمل. ففي شتاء عام 1805 استسلم للألم صامتاً راضياً هادئاً. ولكن ثورة الشك في اللحظات الأخيرة طغت على نفسه وروحه، أقلقها تساؤلها عن العالم الثاني، سمعه بعض عواده في أغرأقة من إغراقات الحمى يهتف (أهنالك جحيمك؟ أهنالك سماؤك؟ ولكن السكون المغمور بالملل والتعب غلب عليه فاستسلم، وما الموت إلا استسلام، وفي الأمسية الأخيرة سألته أخته القائمة على سريره (والآن كيف أراك؟ فأجابها بصوت خافت: (أراني دائما أكثر هدوءاً) فكانت هذه الجملة هي آخر ما لفظت شفتاه، ثم سكنت ملامحه، وارتعش رأسه ارتعاشة واحدة، ثم سكن منه كل شيء وهو في الخامسة والأربعين.

ما كان أقدس هذه الكلمة؟ وما كان أكبرها باعثا للهدوء في النفوس المضطربة. ولكننا لا نعلم: أهو هدوء الإيمان، أم هدوء الملل والقنوط.

هذه الكلمة وحدها تمثل كل حياة الشاعر وهي:

(أراني دائماً أكثر هدوءاً)

دير الزور

خليل هنداوي

العلوم

نباتات التربة المجهرية

للأستاذ يونس سالم ثابت مدرس النبات بكلية العلوم

لا شك في أن التربة هي مصدر الحياة، واليها المرجع، وهي ليست آهلة فقط بمختلف النبات الذي نراه في غدونا ورواحنا، ولكنها تعج بكثير من دقيق النبات الذي لا يرى إلا بالمجهر.

وتنتمي النباتات المجهرية في التربة إلى الطحالب والبكتيريا والفطر، فالطحالب تحتوي أجسامها على مادة الخضير (الكلوروفيل) وهي المادة التي تكسب النبات اللون الأخضر والتي تساعده على أخذ المجهود اللازم لنموه من غاز الكربون الجوي عند تعرضها لضوء الشمس.

وطحالب التربة صغيرة الحجم مختلفة الشكل بسيطة التركيب تنتشر على سطح الأرض وتكسيها أحيانا لوناً أخضر أو بنياً داكناً وقد تعيش داخل التربة بعيدة عن ضوء الشمس، وفي هذه الحالة تستمد غذاءها الكربوني من مصادر غير الهواء الجوي.

والطحالب تساعد كثيراً على تهوية الأرض فعندما تقوم بعملية التمثيل الكربوني تأخذ غاز ثاني أكسيد الكربون من التربة وتطرد غاز الأؤكسيجين وبذلك تصبح التربة أكثر صلاحية لنمو الكائنات الأخرى - ويشاهد ذلك بنوع خاص عند زراعة الأرز. فقد شوهد أن وجود كميات وافرة من الطحالب في مياه حقول الأرز يجعل الماء مشبعا بالأوكسجين، ووفرته ضرورية لتنفس جذور الأرز. فإذا قلت كميات الطحالب قل المحصول.

والطحالب تزيد المادة العضوية في التربة وتقوم أحيانا بتفتيت الصخور.

أما البكتيريا فيظن كثير من الناس أنها ان هي إلا كائنات مجهرية تسبب معظمها أمراضاً، فهي كثيرة الضرر قليلة الفائدة، ولكن الحقيقة هي أنها في التربة على عكس ذلك حيث نرى إن نفعها فيها أكثر من ضررها. والبكتيريا أجسام دقيقة جداً لا يرى أكبرها حجماً إلا بالمجهر حيث يكون طوله حوالي 1100 من المليمتر، وهي تختلف في الشكل من كرية إلى عضوية أو حلزونية وكثيراً ما توجد لها أهداب غاية في الدقة تساعدها على الحركة.

والبكتيريا تقوم بأعمال شتى في التربة، فمنها ما يحول المواد العضوية نباتية كانت أو

حيوانية إلى مواد أخرى بسيطة التركيب. ومن بين هذه الأخيرة غاز ثاني أكسيد الكربون الذي ينتشر في الجو، وكذلك غاز النشادر ذو الرائحة النفاذة الخاصة، وغاز النشادر لا يصلح غذاء لمعظم النباتات الخضراء وعلى ذلك يقوم نوع خاص من البكتيريا بتحويله إلى حمض الازوتوز، وهذا المركب الأخير يتناوله نوع خاص آخر من البكتيريا ويحوله إلى حمض الأزوتيك، وأملاح هذا الحمض (الازوتات) هي الغذاء الصالح للنبات الأخضر.

وكذلك يعلم الزارع تعد طول تجربته أن نباتاً كالفول أو البرسيم أو الترمس وأشباهها إذا زرع في أرض زاد من خصوبتها، ولذلك فهو يراعي دائماً هذه الظاهرة عند ترتيب الدورة الزراعية للمحاصيل. أما سبب ازدياد الخصوبة فهو ناتج من نشاط نوع من البكتيريا تسمى بالبكتيريا العقدية ينفذ من التربة إلى أنسجة جذور نبات الفول مثلا ويعيش هنيئا في تلك الأنسجة.

وهذا النوع يمتص غذاءه الكربوني من الجذر وغذاءه الأزوتي من الهواء الجوي الذي يوجد بين الأنسجة أي أنه لا يتغذى من الأزوت الموجود في التربة. وتكون نتيجة هذه العملية ظهور انتفاخات صغيرة أو عقد على جذور الفول. فبعد الحصاد تتحلل الجذور بما عليها من العقد فتزداد في التربة كمية الازوت المركب.

أما الفطر فهو عبارة عن خيوط دقيقة متفرعة لا لون لها تعيش بين أنسجة النبات الراقي أو بين المواد العضوية الموجودة في التربة وهي منتشرة في الطبقات السطحية ويقل وجودها في الطبقات العميقة. والفطر تقوم بتحويل المواد الكربوادراتيه (كالخَلَوُوز وغيره) إلى مواد بسيطة التركيب، واليها فقط يعزى مثل هذا العمل النافع في الأراضي الزراعية.

وفضلا عن ذلك فهي تقوم بتحويل المواد العضوية الازوتية إلى مواد أبسط منها تركيباً كالنشادر. وتساعد أيضا على إذابة المادة المعدنية الموجودة في التربة وربما فاق عملها في هذه الناحية عمل الشعيرات الجذرية في النباتات الراقية.

وهناك ظاهرة أخرى أخذت تثير كثيراً من الاهتمام في السنين الأخيرة وهي أن بعض الفطر الموجود في التربة يكون مع جذور بعض النباتات أجساما غريبة تسمى جذورا فطرية وهذه تتكون من أنسجة الجذور ومن خيوط الفطر.

ويعيش كلا الفردين (الجذور والفطر) عيشاً رغداً ما داما مجتمعين ولكن في كثير من الأحيان لا ينمو أحدهما نموه العادي إذا أقصته الظروف عن رفيقه. ويقوم الفطر في الجذر الفطري مقام الشعيرات الجذرية أي أنه يمتص المادة المعدنية من التربة ويرسل بها إلى الجذر وفي مقابل ذلك يمد الجذر خيوط الفطر بالمادة العضوية اللازم لها. فنرى اذن أن المنفعة بينهما متبادلة. فضلاً عن القيام مقام الشعيرات الجذرية فأننا نجد أن كثيرا من خيوط الفطر تهضمه خلايا الجذر وبذلك يكون الفطر مورداً داخليا لغذاء الجذر.

يونس سالم ثابت

شذرات

صعدة في الجو جديدة

في عام 1932 أطلق ريجنر بالونات من المطاط تحمل أجهزة علمية تسجل من ذات نفسها فبلغ علوا قل الضغط عنده إلى 22م. م. وصعد البالون الروسي الحديث يحمل بروكوفييف ورفاقه فبلغ حسبما قدروا علوا قدره 61000 قدم أي ما يعدل ضغطا قدره 50 م. م.

وفي الخريف الماضي ارتفع أمريكيان ببالونهما إلى ضغط قدره 645 م. م. أما البلجيكيون كوسينس وكبفر فأقل ضغط سجلوه بلغ 83م. م. واليوم تأتي الأخبار بان محاولة جديدة ستكون يرجى فيها الصعود إلى أعلى من 68000 قدم وهي الطبقة التي بلغها الروس.

في الصعدات القديمة كان الطائرون يغلقون أنفسهم في حجيرات مكورة محكمة السد. أما في هذه المحاولة الجديدة فسيركب الطائرون في سلة البالون العادية المفتوحة ولكنهم سيلبسون بذلة من المطاط الرخص تغلف أجسامهم تغليفاً تاماً فلا تتصل بالجو الذي يبلغون. وبما أن هذا الجو سيكون قليل الضغط وبما أن هذا سيؤدي إلى انتفاخ تلك البذلات لما بها من هواء صعدوا به من سطح الأرض لذلك ستتفرع تلك

البذلات من تعض هوائها، وذلك إلى الضغط الذي يحتمله جسم الإنسان في أثناء تنفسه من الأكسجين. والطائر على هذا الحال سيستطيع الحركة والتنقل في شيء كثير من الحرية واذن سيتمكن من معالجة أجهزته وتسجيل ملاحظاته عن الجو بها وهي ذات مساس بالجو نفسه لا محجوبة عنه كما كان الحال في الصعدات السابقة. وباستخدام السلة المفتوحة مكان القارب المغلق الثقيل سيخف الوزن كثيراً فيزيد لاشك العلو الذي يرجى بلوغه.

ومما يذكر عن الرحلة الروسية أنهم اكتشفوا أن تركيب الهواء في تلك الطبقات العالية هو نفسه الهواء على سطح الأرض، وأن الرطوبة نقصت على حدود الاستراتوسفير 42 في المائة وقد كانت 92 على سطح الأرض، وفي الصعدة الجديدة المزمعة سيحملون معهم جهازاً لقياس الطيف لتسجيل نور الشمس هناك وضوء السماء وجهازاً لتقدير حرارة الشمس وأجهزة لأخذ عينات من الهواء وكمرات وكل هذه الأجهزة لتشغل بالأيدي الطليقة في الجو الطلق لا في داخل الحجيرة الحبيسة كما كان الحال. ولكن مما يؤسف له ان العين

والأذن لابد من تغطيتهما فلا ترى الأشياء ولا تسمع إلا من وراء الزجاج. فاللون البنفسجي الغميق الذي رآه الطيارون البلجيكيون والروس سوف لا يراه الطيارون الجدد إلا من دون الزجاج.

ولعل أرجى ما يرجى في هذه الرحلة الجديدة سيكون مما اقترحه الدكتور لوسينس من استخدام خزانة ولسن في أخذ صور فوتوغرافية لأشعة ب العالمية هذه الأشعة الأخيرة لا يزال مجهولاً.

أزمة الضباب

من متاعب الملاحة الضباب لا سيما في البحار الشمالية، ومن آخر ما حاولوا في التغلب على مصاعبه: استعاضة الكمرة

عن العين رجاء أن تنفذ عين الكمرة في طبقاته الكثيفة إلى أبعد مما تصل عين الإنسان. ففي الأيام الأخيرة ركبوا في السفينة الأمريكية الكبيرة (منهاتن كمرة تحس أفلامها أشعة ما دون الأحمر، وفي هذه الكمرة وسيلة مكنية تتوضح الصورة بها وتتثبت من نفسها فتخرج تامة كاملة بعد دقيقة من كشف الكمرة. والى الآن لم تصادف السفينة العظيمة المذكورة حالة جوية لإجراء التجارب المقصودة، فإذا هي صادقت هذا الجو فلا شك أن النتائج ستكشف القناع عن الدرجة التي بها يستطيع الملاحون الاهتداء بالكمرة مكان العين والنهار حالك والبصر كليل.

العالم المسرحي والسينمائي

كلمة صريحة حول الإعانة الحكومية للمسارح

لناقد (الرسالة) الفني

لم تكن للحكومة - إلى سنوات قلائل - أية صلة بالمسرح المصري وبالعاملين فيه. وكانت دار الأوبرا الملكية ملحقة بوزارة الأشغال فكأنها كانت في نظر الحكومة بناية من المباني لا داراً للفنون والآداب.

وبقي الأمر على هذا المنوال حتى وزارة الوفد الأولى التي كان يرأس المغفور له صاحب الدولة سعد زغلول باشا فرأى مرقص حنا باشا وزير الأشغال أن يولي المسرح في مصر قسطاً من عنايته واهتمامه، فكانت المباراة الأولى التي اشترك فيها مديرو الفرق والممثلون والممثلات، وكانت هذه المباراة هي أول اتصال مباشر بين الحكومة والمسرح.

وقد ذكرنا في كلمة لنا (حول أزمة المسرح في مصر) كيف اضطربت سياسة الحكومة في اتصالها بالمسرح فعدلت عن طريقة المباراة بعد أن أقامتها عامين متواليين على ما نذكر إلى سياسة الإعانة السنوية، وألفت في وزارة المعارف - بعد أن الحقت بها دار الأوبرا وأصبحت هي الوزارة المشرفة على الشؤون الفنية - لجنة تتفقد المسارح وتقدر للفرق وللممثلين المبالغ التي تمنح لهم في حدود الإعانة المقررة.

وسارت الوزارة في هذه الخطة سنوات برغم ما ظهر من فسادها وعدم جدواها، وبرغم صيحات الاستنكار التي رددها الكتاب والنقاد طوال هذه السنين. ويكفي أن نلقي نظرة عجلى على حالة المسرح المصري اليوم لنرى أن النقاد كانوا على حق

في انتقاد هذه الطريقة، فلقد سار المسرح من سيء إلى أسوأ في هذه السنوات الأخيرة رغم ما بذلته الحكومة من إعانات سنوية، فلو أن هذه الطريقة كانت مجدية لاعانت على النهوض بالمسرح وعلى انتشاله من الهوة التي تردى بين جنباتها، ولكن حال المسرح قبل الإعانة
كان خيراً منه بعدها، وفي ذلك ما يدعو للعجب حقا ولكنها دلالة حاسمة على أية حال على فشل طريقة الإعانة.

وكأن الوزارة ولجنة الإعانة تنبهتا أخيراً إلى هذه الحقيقة بعد أن ظهر جليا أن الإعانة لم تثمر الثمرة المنشودة، وأن المسرح قد هوى إلى الحضيض وانصرفت الجماهير عنه حتى اضطرت الفرق إلى إغلاق دورها حيال الكساد الذي منيت به. تنبهت الوزارة أخيراً إلى الحق إذ صدمت بالواقع الملموس فرأت أن تعدل عن خطتها القديمة إلى خطة أخرى، وقد نمى الينا أن لجنة الإعانة في اجتماعها الأخير في الأسبوع الماضي فكرت في تكوين فرقة من جميع المشتغلين بالمسرح من رجال وسيدات تحت اسم فرقة اتحاد المسرح المصري) وقد عرضت الفكرة على مديري الفرق الذين حضروا الجلسة فوافقت أغلبيتهم عليها وأبدوا استعدادهم للانضمام أليها وشكلت لجنة فرعية لتضع تفاصيل المشروع بالاتفاق مع مديريالفرق على أن يبداء في الحال وعلى أن تختص وزارة المعارف هذه الفرقة بالإعانة السنوية كلها.

ونحن نسجل هنا أولا عدول الوزارة عن خطتها القديمة، وهذا اعتراف صريح منها بفشلها، وهي خطوة طيبة على أية حال. أمافكرة تأليف فرقة تضم جميع المشتغلين بالمسرح فمن العسير أن نكون لها أو عليها قبل أن نطلع على تفاصيل المشروع وعلى النظام الذي سيوضع لهذه الفرقة. والفكرة من حيث هي لا بأس بها، بل لعلها العلاج الوحيد لانتشال المسرح من الوهدة التي سقط فيها، وتضافر هذه القوى مجتمعة له خطره ولا شك، وهذه الفرقة إن تحقق وجودها ستجذب الشعب ايها ما في ذلك ريب، وستكون تحت تصرفها بطبيعة الحال طائفة صالحة من الروايات لتمثلها.

وأعني الروايات ألا نموذجية التي ترجمها بعض الأدباء تحت إشراف الوزارة عن شاكسبير وابسن وموليير وراسين وغيرهم من أقطاب الفن المسرحي في العالم، كما أن مبلغ الإعانة سيكون العماد الذي يمون الفرقة بما تشاء من وسائل الاستعداد المسرحي في المناظر أو الملابس أو الأدوات المسرحية جميعا على اختلافها وتنوعها.

وفي النهاية نستطيع أن نقول أن هذه الفرقة تتوافر بين يديها من القوى المادية والمعنوية، ما ينهض بها إلى الذروة الفنية التي نطمع فيها وينشدها أنصار المسرح وهواته في مصر.

قلنا أن الفكرة من حيث هي فكرة حسنة لا بأس بها في مجملها، ولكنها ككل فكرة في العالم قد لا يعدو جمالها الخاطر والفكر فإذا لم تخرج للناس في ثوب القشيب الذي يلائم جلالها وخطرها بدت شوهاء ووئدت في مهدها وكان الفشل نصيبها المحتوم وهذا ما نخشاه.

على أن الزوارة إذا أخذت بالحزم ووضعت لهذه الفرقة نظاماً داخلياً محكماً يضع الكل على قدم المساواة وعهدت بتنفيذه إلى أيد مخلصة قديرة لا تعرف الأغراض سبيلاً أليها ولا الأهواء مدخلاً إلى قلوبها، وأعلنت أنها ستأخذ بالشدة والعنف كل من يحيد عن هذا النظام وتقصيه عن العمل وتحرمه حرماناً مطلقاً من إعانتها، لو أحس القوم هذه النية الصادقة وهذه الإرادة القوية والعزم النافذ من الوزارة، لسارت الأمور على أحسن ما يرام ولرجونا لهذه الفكرة النجاح والتوفيق. وأخوف ما نخافه أن تلين قناة لجنة الإعانة ويجد فيها البعض مغمزا يهدمون عن طريقه هذه الفكرة، أو لعلهم ينتظرون حتى يخرج المشروع إلى حيز الوجود وتبدأ الفرقة عملها فيضربون ضربتهم.

على أن من الخير أن تعلن الوزارة من الآن في لهجة حاسمة إنها عدلت نهائيا عن خطتها القديمة ولن تتبع سياسة توزيع الإعانة بين مديري الفرق والممثلين بأية حال؛ وأن هذه الفرقة (فرقة اتحاد المسرح المصري) هي التي ستخصها بإعانتها كلها، فإذا لم تتألف هذه الفرقة فلن ينال أحد مليما واحدا من الوزارة. وأني لأعتقد - في رأيي الضعيف - أن كلمة كهذه من الوزارة سيكون لها صداها في جميع الأوساط، وستكون من أكبر العوامل في إنجاح المشروع، وأشد ما أخشاه أن تنكص لجنة الإعانة، إذ تصطدم في خطاها الأولى لتحقيق مشروعها الجديد ببعض العقبات فتفضل العافية

والراحة على الجهد ومقاومة الصعاب، وتقرر صرف الإعانة على النحو المتبع في السنوات الماضية. وأن تفعل لتكونن قد أجرمت في حق الفن وفي حق هذا البلد الذي يطمع أن يكون له من مظاهر الثقافة الحقة ما لغيره من سائر البلدان.

سيناريو سينمائي

لبيت أمير الشعراء أحمد شوقي بك

نظرة، فابتسامة، فسلام ... فكلام، فموعد، فلقاء

من وضع ناقد (الرسالة) الفني

1 - منظر مقرب لعدسة منظار. . يظهر في العدسة شبح فتاة جالسة، المنظر يبتعد قليلا قليلا فتظهر أجزاء المنظار المختلفة.

2 - منظر مستدير لفتاة على شرفة منزل جالسة مطرقة ورأسها إلى الضوء نهارا. . المنظر يبدو أولا من بعيد جداً. . ثم يقترب ويقترب حتى يملأ الأرض تطرز. . الشاشة.

3 - شاب وراء نافذة وهو مغلق الشيش وينظر من خلفه بحذر وبلهفة. . بيده منظار.

4 - كيوبيد إله الحب معه جعبة سهامه. . يخرج سهما ويرشقه.

5 - الشاب لا يزال ينظر من خلف الشيش. يتراجع قليلا إلى الوراء ويضع يده على قلبه.

6 - الفتاة لا تزال تطرز. . تستريح وتضع الشغل جانبا. . ترفع رأسها. . تظهر علائم الخجل على وجهها. . تجمع شغلها في ارتباك ظاهر وتجري مسرعة إلى الداخل.

7 - الفتاة من الداخل أمام شباك الشرفة وهي تقفله. . . قبل أن ترد المصراع نهائيا تنظر إلى الخارج نظرة أخيرة في خلسة وحذر. . فجأة ترد المصراع في غضب ظاهر ولكنه مفتعل. . . بعد قفل المصراع تعطي ظهرها له وتقف مسندة اليه. . . النور كله محصور في الوجه. . . على ملامح الوجه الاستنكار ولكن في شيء من مظاهر الطفولة. . . يخف هذا الاستنكار شيئاً فشيئاً ويتحول بعد قيل إلى شيء من الرضا. . . تبتسم. . . يضاء الجسم كله. . . تظهر عند قدميها وردة. . تنظر اليها على مهل. . . تنحي وتأخذها. . . تتأملها. . . تشمها. . . تقبلها. . . فجأة كأنها خجلت من نفسها فتضع الوردة في صدرها وتجري حيث تختفي.

8 - باب الشرفة حيث كانت الفتاة واقفة. . . النور يغمره. . . يخفت النور قليلا قليلا. . . يظهر شبح كيوبيد يبتسم. . . يأخذ سهما من جعبته ورشقه في الاتجاه الذي سارت فيه الفتاة. . . النور يخفت قليلا قليلا. . . المنظر يبتعد ويرى كيوبيد يضحك في انشراح.

9 - على شاطئ النيل. . . أناس متفرقون. . . قليلون. . . شبان. . . فتيات. . . يمشون على مهل. . . يتنزهون.

10 - الفتاة آتية من بعيد مع طفل صغير يشبه كيوبيد. . . تقف أمام النيل ساهمة

11 - الشاب قادم من بعيد يمشي على حذر كأنه يتبع إنسانا ما. . . يسرع في مشيته. . . يتمهل. . . ينظر أمامه. . . كأنه رأى من يريد فيسرع في المشي

12 - الفتاة تتحرك وتمشي على مهل. . . والى جانبها الطفل. . . تلتفت فجأة خلفها. . . ثم يظهر عليها الارتباك. . . تمسك بيد الطفل وتسرع في المشي. . . يسقط منديلها من يدها دون أن تشعر.

13 - المنديل على الأرض. . الشاب يسرع لالتقاطه. يقف لحظة. . . ويسرع في المشي.

14 - الفتاة والطفل. . يمشيان بشيء من العجلة. . . الشاب يتقدم نحوهما في هيئة المتردد. . الفتاة تنظر خلفها. . . فتراه. . . يزيد ارتباكها تريد المضي في سيرها. . . الشاب يسرع أليها. . . يمد يده بالمنديل. . . الفتاة تنقل النظر بين الشاب وبين يده الممدودة بالمنديل. . . تمديدها على مهل لتأخذ المنديل. . . تحني رأسها علامة الشكر. . . الطفل يتقدم نحو الشاب ويمسك بيده ويجره للمشي معهما. . الثلاثة يمشون سويا. . . الارتباك ظاهر على الشاب وعلى الفتاة بينما يضحك الطفل الصغير في خبث. . . يمشون صامتين. . . يبدأ الشاب بالحديث مع الفتاة. . . كلمات قليلة. . . ترد عليه ورأسها إلى الأرض. . . يمشون قليلا وهم يتحدثون. . . يظهر عليهم التبسط في الحديث. . تظهر الألفة. . فجأة تقف الفتاة وتمد يدها مودعة للشاب الذي يمد يده. .

بالسلام. . الطفل يمد يده للشاب مسلما. . الشاب ينحني ويقبله. . تمضي الفتاة مع الطفل. . . الشاب واقف في مكانه يتبعهما بنظراته. . . تختفي الفتاة والطفل.
15 - الشاب وحده واقف يفكر. . . يبتسم. . . ينظر أمامه. . . يمشي في هدوء
16 - الوقت ليل. . . ضوء القمر يغمر كل مكان. . . حديقة زاهرة. . . النسيم يميل الأغصان في لطف. . . صوت غناء هادئ جميل من بعيد. . . يتخلله صوت خرير مياه
17 - الفتاة في شرفتها واقفة ورأسها مسند إلى النافذة وعيناها تنظران في الفضاء. . ضوء القمر يغمرها .
18 - نافذة يلمع من ورائها نور كهربائي. . . يطفأ النور ويعم الظلام
19 - الفتاة في موقفها في المنظر (17) تستيقظ من غفوتها وأحلامها وتنظر أمامها. . إلى بعيد. . . نظرة ساهمة حالمة. . . تتقدم إلى سلم الشرفة .
20 - سلم الشرفة الهابط إلى الحديقة. . . الفتاة تنزل عليه بهدوء وحذر وهي تتلفت خلفها
21 - أقدام رجل تمشي في الحديقة على مهل. . . تمشي. . . تقف. . . تدور. . تمشي
22 - أقدام سيدة تمشي على مهل. . . تقف. . . تتقدم منها أقدام الرجل. . . الأقدام الأربعة أمام بعضها على مسافة قصيرة. . . تقترب. . . تقف وهي مواجهة. . تتقدم أقدام الرجل إلى محاذاة أقدام السيدة. . . وقوف لحظة. . تمشي الأقدام الأربعة معا. . . يسمع صوت ناي من بعيد. . . خرير مياه .
23 - مقعد حجري وسط الحديقة تحت خميلة جميلة. . يظهر خلفه سور الحديقة. . . القمر يعمر المكان بالنور. . . الأقدام الأربعة متجهة نحو المقعد. . . تظهر تحته وكأن صاحبيها جالسان عليه
24 - في الشارع. . . إلى جانب سور الحديقة خفير يمشي ذهابا وإيابا. . . ينظر إلى داخل السور. . . يمعن النظر باهتمام شديد. . . يبتسم. . . يبتسم ببلاهة مضحكة. . . يبتعد على مهل. . . وهو ينظر خلفه ويبتسم ويبرم شاربه
25 - لأقدام تحت المقعد. . . تتساقط عليها بعض الورورد منثورة ورقا.
26 - كيوبيد من بعيد يضحك وهو سعيد جداً وظاهر عليه الفرح الشديد. . . المنظر يقترب رويداً رويداً. . . جعبة سهامه إلى جانبه على الأرض. . . يمد يده فيأخذها. . . يحملها على كتفه. . يمشي. . . يختفي. . . الضوء يخفت قليلا قليلا.

محمد علي حماد

التناسل في فيراكروز

في ديسمبر سنة 1932 صدر قانون الأنسال في مقاطعة فيراكروز بالمكسيك، وهي أكثر المقاطعات سكانا. وبهذا القانون تأسس مكتب للتناسل وصحة العقول، واندمج في مصلحة الصحة فاكتسب بذلك من قوة الحكومة والسلطان الشيء الكثير. وبتأسيسه افتتحت مراكز لضبط النسل وتعقيم من ليسوا أهلا للأنسال، سواء لضعف في الأبدان أو العقول. وهذا الإصلاح حلقة في سلسلة بدأها حاكم تلك المقاطعة منذ تولاها، فقد أغلق (الصالونات) وجعل تعليم التناسليات إجبارياً في المدارس، وعلاج الأمراض الجنسية كذلك، وأمر الأطباء أن يتدخلوا في الزواج قبل أن يتم، وفي الطلاق كذلك، فيكون له قوة على العقد وقوة على الحل إذا تعارض ما انعقد والصالح الخاص أو العام. وهكذا نجد من الأمم الأقل من هو أسبق إلى الإصلاح وأجرأ عليه من الأمم ذات القدم الراسخ في الحضارة والمكان المستقر من المدنية.

القصص

عنترة

مأساة شعرية في خمسة فصول لفخر الشرق المرحوم شكري غانم

ترجمة الأستاذ محمد كامل حجاج

ينتمي هذا الشاعر العبقري إلى أسرة عظيمة لبنانية، وقد نبغ في الشعر الفرنسي وله ديوان فرنسي ظهر حوالي سنة 1900، وروايتان مثلتا بالاوديون سنة 1905 في فصل واحد وهما (وردة) أو (زهرة الحب) و (ربع ساعة من الف ليلة وليلة) ورواية قصصية كبيرة تسمى (دعد) وأهم رواياته التمثيلية عنترة وقد أبت عليه قوميته إلا أن يبتدئ بتمثيلها على مسرح شرقي فاختار الأوبرا الملكية المصرية ولحسن حظه كانت فرقة

الكوميدي الفرنسية في ذلك الوقت مؤلفة من أعظم الممثلين الذين يسود على مجموعهم الانسجام والتوافق وفي مقدمتهم الممثلة القديرة مرجريت مورينو وقد تقدمت بها السن إلى أن أصبحت تمثل دور
العجائز وقد قامت بدور عبلة، وداراجون وقد توفي بالانفلونزا منذ بضع سنين وقد قام بدور عنترة، ومونتو وقد مثل دور وزر المعروف بالأسد الرهيص.
ومن الغريب المدهش أنهم حفظوا الرواية وأخرجوها وأعدوا مناظرها في خمسة عشر يوماً وقد سحروا الجمهور بابداعهم النادر وكانت الرواية موفقة من جميع الوجوه.
اشتهرت مورينو بحسن القائها ونبرات صوتها الموسيقي وكانت تلقي الشعر بسهولة وهي تقلد ساره برنار وتضيف إلى ذلك قدرا كبيرا من شخصيتها الخاصة وعواطفها المتأججة وحركاتها الخالية من كل تكلفن، ورشاقتها النادرة وظرفها في الحديث. وقد مثلت دور ابن نابوليون في النسر الصغير وروكسان في سيرانو دوبرجيراك. وقد فتنت النظارة في هذه الروايات الثلاث ولم يستطع أحد من الأجواق أن يحرز هذا النجاح من سنة 1909 إلى الآن.
مثلت رواية عنترة للمرة الأولى بمسرح الأوبرا الملكية. ثم مثلها مسرح الاوديون بباريس في 12 فبراير سنة 1910 فلاقت إعجابا شديداً ونجاحا باهراً وقرظتها أغلب الجرائد الفرنسية الشهيرة مثل الفيجارو والجولوا والاكلير والديبا والطان واللبيرتيه ومجلة التياتر المصورة والاوبنيون كما قرظتها وذكرت ملخصها دائرة معارف لاروس في ملحقها الشهري سنة 1910. وهي تستحق أكثر من هذا لبلاغتها النادرة وتفكيرها العميق وتحليلها الأخلاقي ومناقشاتها الطلية وعواطفها المشتعلة ورقتها ومواقفها الفنية الرائعة.
ومن سمو أخلاق شاعرنا النابغة ونبل عواطفه أنه أنبأ في القطعة التي أوردناها عن اقتراب ظهور النبي (ص) وما سيكون له من شأن خطير كما نوه بإعجابه الشديد ببلاغة القرآن بعبارة تستعصي بلاغتها على أي شاعر مع أنه مسيحي فجزاه الله خيراً ورحمه رحمة واسعة.
المنظر الثالث من الفصل الرابع
عنترة. ثم شيبوب. ووزر بن جابر الملقب بالأسد الرهيص
(يدخل عنترة في الحال)
هل هو عربي؟ لا. . . كان الخائن مختبئا في الظلام وراء هذه الصفاة كالذئب، ولا بد أن يكون أجنبياً
(يسمع صوت شيبوب من بعيد)
هاهو شيبوب، هل يقوده؟ لأني أرى شبحين
شيبوب (يتكلم بصوت مرتفع)
تقدم!
(ثم ينظر شيبوب وهو يجر وزرا من يده)
لقد قطع الخوف ساقيك! وعز عليك البقاء فودع اذن الحياة
(مخاطبا عنترة الذي يقترب منهما)
لا جدال ولا ريب! فانه يستر وجهه! وعيناه لا تخترقان حجب الظلام إلا لرمي السهام، وسيطفئ الموت شعلتيهما بعد قليل
يجره بجانب عنترة وهو جالس على صخرة وكان شيبوب يتكلم وهو سائر حتى يصل (إلى عنترة)
لا تبصران الصخور ولا الخمائل ولا الجحور حتى أنني كدت أن أحمله
عنترة - لكنه يحسن الهرب!
شيبوب - لا، انه لم يهرب وكان جالسا على مقربة من صفاة، وقد طعن نفسه بسهم عندما اقتربت منه؛ وترى هنا قليلا من الوضوح فانظر!
(ثم يزيح شيبوب اللثام عن وجهه ويحدق فيه)
آه! وزر!!
عنترة - وزر! أتحلم؟ كلا!
شيبوب - هو بعينه

عنترة - الفارس المختال الذي عرفته من قبل؟ (ثم يحدق به هنيهة) نعم نعم، كيف تكون خائنا؟ أقبلت في الليل الدامس لتقترف إثما ملؤه النذالة والصغار، ولم ير مثله في البلاد العربية! هل بلغت بك السفالة أن تفعل فعلتك هذه؟ ماذا عملت بقناتك وحسامك؟ لقد أحسنت بستر وجه دمغ بميسم النذالة والجبن. ما أبشع هذا الوجه الدميم. أتنهض وترفع عينين باردتين ملؤهما الخجل والخزي؟ أم يتلهفان لاقتراف جرم آخر؟ تكلم.

وزر - عيناي فارغتان وقد استعضت عنهما بقلب مليء حقداً!

عنترة - ولم؟ وعلى من تحقد؟

وزر - لا تتجاهل وما هو إلا عليك!

شيبوب - ماذا تقول؟

عنترة - دعه! ويلزم أن يوضح هذا الرجل. أجب!

وزر - أنظر إذن! هاهو جوابي! هاتان العينان الخامدتان المفقوأتان كأنهما حجران أسودان كئيبان! آه! إنك تسميني النذل يا عنترة وما النذل الا أنت!

شيبوب - قد بلغ السيل الزبى!

عنترة - (وهو يزيح شيبوب عن وزر)

إنني أجهل أمرك، ولقد أسرتك من قبل وأنا راع صغير الشأن وأنت فارس مدجج بسلاحك ثم سافرت في مساء ذلك اليوم وسلمتك إلى غيري ولا أعلم ما فعلوا بك في غيبتي وأنت أسير

وزر - ألم تك أنت الذي أمرت أن يفقأوا عيني؟

عنترة - (وقد غير لهجته شيئاً فشيئا)

كلا! فاني لا أعرف أن أسيء إلى ضعيف. أما كنت أستغرب ما حصل لك منذ هنيهة؟ وكيف لي وأنا الذي ما زلت أحارب ورائدي الشرف ومبدئي النبل أن تعزو ألي هذا الجرم الفظيع دون عذر أو مبرر. أو يتهمني به عدو مقهور موتور نهش صدره الحسد. إنني فتنت بالحروب وهي صناعة كثير من الملوك ذوي الحول والطول وغيرهم من السادة الأمجاد الذين لا يستطيعون أن يشقوا لهم طريقا إلى الأفئدة ويعتقدون أنهم بالغوها بظبأ البيض الصفاح، وهذا خطأ ظاهر وما فتئ الإنسان عرضة للخطأ أيترك الإنسان حنقه ليبطش بالمقهورين ويخفي أرواحهم من أعماق جفونهم ويسلبهم حقهم في هذا النور حتى يجعلهم أمواتا وهم أحياء كلا! ثم كلا! وأقسم بهذا الهلال الصيرفي الذي بزغ في السماء، انني لا أستطيع أن أقترف مثل هذا الإثم. إنهم يريدون أن يلوثوا اسمي بمثل هذه الريبة ويجردوني من الخير الوحيد الذي يقود إلى المجد والفخار وهو الطيبة. . . فهل تثق بي إذن؟

وزر - أثق؟. . . نعم!. . . أود أن لا أثق، إنني أبحث في قلبي وأفتش في ذاكرتي لان عندي أسبابا أخرى أهم وأقوى تبرر بغضك!. . . مهلا!. . . (يناجي وزر نفسه على مسمع من عنترة) (ان كان ترك لك عينيك ولم يكن لك جلاداً فهل كف أن يكون خائناً لكل عربي نحب حريته واستقلاله. انه يريد أن يبيع ويسلم بلاده إلى الفرس) وهذا ما أعرفه منذ أكثر من عامين، لقد كبر وعظم جرمك (ثم يوجه الكلام إلى عنترة) حتى برر كل اعتداء واغتيال وسحب ذيل النسيان على الجريمة التي كنت ضحيتها، والعربي لا يحفل بفقد عينيه ومته في سبيل إنقاذ بلاد العرب!

عنترة - هل نصبت نفسك حكما؟

وزر - (وقد اطمأن شيئا فشيئا) لقد حكمت نفسي بكل الوسائل من سلاح وقول وكل ما يصلح للقتل والانتقام، أما تراني ادن جريئا سفاحا؟

عنترة - عجبا لك! كيف يعرفون أن يشوهوا الحقيقة الحسناء! يخفون صورة الجمال تحت كثيف البراقع والأصباغ كالعجائز ينقشن وجوههن بالوشم ويتكحلن ويصبغن خدودهن بالحمرة. يريدون أن يزيدوا الجمال حسنا فيشوهونه. يجب أن تغمره الشمس وهو في صحة عربة فيتركونه في بساطته ووداعته ويزيلون هذه الصبغة الدميمة التي تحجبه.

أصخ لي يا وزر: فاني سأجعل جمال الحقيقة ولونها الوضاح يخترقان جسمك إلى أن يبلغا نفسك السوداء وسوف أقتل فيك الريب والشك بكلمة: أما كنت فيما مضى صديقا للملك المنذر

وزر - أنا؟
عنترة - نعم أنت! وتعلم جيدا مقاصد هذا الملك
وزر - (بلهجة مرة)
عنترة - ما هو الآن بحلم
وزر - وكيف؟
بلى، وهي وحدة العرب في يد ملك فرد، وهذا صحيح، ولكن ذلك لم يكن إلا حلما لذيذا
عنترة - لقد تخلص وتحرر من نير الفرس وسأنضم إليه الآن. . .
وزر - تنضم إليه؟
عنترة - وستظهر حكمة فرد آخر كطلوع الفجر ويؤيده الله بقوته فينشر قوله الأبدي. إلا
تشعر بالأرض وهي تميد قبل انتشار هذا القول الذي سيمليه على الناس رب قوي عظيم. لقد زلزلت الأرض زلزالها واهتز النخل في الصحراء من عبث رياح السماء اللواقح، وأصبحت آمال الإنسان تتتابع مسوقة بنسيم الصبا كأسراب هائلة من نبات الهديل تنشد أيكا تحط عليه لتريح أجنحتها المتعبة فلا تعثر عليه. تسير تلك الأسراب حيارى مترددة لا رائد لها إلا المصادفات: ولكن المغرب سيتوهج شفقه بزخرفه وقد اقترب الزمن الذي ستتصل فيه الأرض بالسماء حتى يسمع أهل الدنيا كلام الله الكريم، كلاما ذهبيا في إطار الألفاظ اللجينية، وستهب قبائل العرب من كل فج عميق من فيافيهم المترامية الأطراف وقت طلوع هلالهم الفضي المتألق. . .!
(ينوه في هذه الفقرة عن ظهور النبي (صلى الله عليه وسلم) ونزول القرآن)
وزر - أواه! إنني لاشعر باستنارة إمارتي بالسوء باحمرار الفجر وضوء اللهب! صبت عليكم اللعنات يا من خدعتموني! لقد قطع سهمي خيط حياته الذي تتعلق به آمال أسلافنا وهذا الخيط الذي انتظمت فيه حبات المستقبل! يا لكم من خونة مجرمين! وان قبره ستدفن فيه بلادي! عفوا وغفرانا!
عنترة - لقد عفوت عنك وسامحتك ولكن هذا الجرم سيقع على من حللوه وأن إثمك قد خط فوق الرمال وسرعان ما تمحوه الرياح، ولكن المجرم المحرض سيلاقي جزاءه في القريب العاجل إن امبد الأجل، وإني أحمد الله وأمجده وآمل أنيكون الجرح خفيفا. . .
وزر (بلهجة قوية وأنفاس مضطربة)
ماذا تقول! هل أصابت طعنتي؟
عنترة - لقد أصابت ذراعي وليس لها أقل تأثير
وزر (وهو هائج)
انها لعظيمة خطيرة! فاسحقني بحجر من هذه الأحجار كما تسحق العقارب والأفاعي! ادفعني بقدمك بكل ازدراء واحتقار فانني لا أستحق أية رحمة ولا شفقة! إنني لتعس شقي! وإن جرمي لعظيم لم يخط فوق الرمال. لقد نقش نقشا عميقا فوق جسمك الكبير الذي يماثل النحاس بصلابته بآلة الحقد والحفيظة! فاسحقني سحقا!
عنترة - ولم هذا اليأس؟
وزر - إنني خائف!
وزر - هل أسود الجرح؟
شيبوب (وهو يزيح الثوب عن الجرح) نعم قد اسود!
وزر - (وقد كشف عن صدره لشيبوب) انظر هل اسود جرحي مثله؟
شيبوب - لا يفترق عنه
وزر - (وهو خائر القوى) هذا هو المنظر! ولا يغني حذر من قدر، أي عنترة! قد اشتريت جرمي بحياتي وأني أريد نجاتك ولا أستطيعها لأن سهمي يحمل السم الزعاف بين أسنانه. . .
شيبوب - ويل لك من شقي! ألا تجد له دواء؟. . .
وزر - هيهات هيهات!
شيبوب - ولو يقف سير السم
وزر - لا ينجع فيه دواء
شيبوب - ولكن الأدوية كثيرة جداً

وزر - كلا! إن سمي لا دواء له وهو يندفع كالسيل وهو هو الذي يقتلني. أنني أعالج سكرات الموت يا عنترة فاصفح عني وسامحني!
عنترة - مت بسلام واطمئنان!
وزر - ما العمل الآن؟ ويل لي من شقي! لقد نسيت! أسرع عنترة وفوت مالك وزوجك ورجالك من هذا المضيق، فان عمارة الوغد الذي قادني إلى هذا المكان يتربص لقتلك. . . ومعه مائتان. . . وسيمرون من هنا
عنترة - إنني مازلت قويا قائما على رجلي فقل لي أين هم؟
وزر - كلا، فلات ساعة لحاق يا عنترة والأفضل الهرب. . .
عنترة - الهرب؟
وزر - ليس لك! فلا فائدة لك منه ترتجى. . . ولكن الآخرين فهربهم وإن ساعدك لكفيل بتهريب زوجك وعشيرتك. . . فعجل دون أن تنتظر أن يكفر موتي عن حياتي. . . شيبوب - اواه؟ إنك لن تموت
عنترة - لم يرد الموت ان يدركني في الحروب!
شيبوب (مهددا جثة وزر) ويل لك أنها الخائن!
عنترة - (يمنعه) ولم هذه الإساءة للموتى؟ فلينم بدعة وسلام! وان موتي لم يختلف عنه في الأجل والشكل وسيموت كلب ضال وهو في عنفوان قوته دون أن يثب الوثبة الهائلة ليصل إلى الماء وينهل الحياة. ولما شحب لونه وأسلم روحه الصغير ومن يعلم لأي جلاد؟. . مات من غلته أمام خرير الماء. كلا فاني سأثب هذه الوثبة مهما حل وحصل! وسأحيا!!! وسأحيا!!! إذ لابد أن أحيا. أوقد النار يا شيبوب واصهر حد السيف أو الرمح فان السم مهما بلغ أمره فلا يقوى على الحرق إذا ما تعدى الجرح وان مت فسأموت مختالا فخورا. ويخيل ألي وقتئذ إنني قتلت بالحديد
(وقد أسرع شيبوب في إيقاد النار بقطع من الخشب ثم وقعت عيناه على جثة وزر) ولكن الآخر مات بنفس الجرح وقد سرى السم في جسمه واصبحت جثته بمثابة نذير! إلهي انما أنا عبدك وخادمك! إنني أسعى وأعمل لك فلا تمتهني هذه الميتة بل على الأقل في الموضع الذي ينتظرني فيه الحصار! يالهذه الجثة! إنني وجل! وعيناي تطرفان أمام الموت كما تطرف أجفان المولود الجديد من الضوء. ما انتابني قط الخوف فكيف حل بي الآن. وإذا كان الإنسان في الحروب مقداما فهل يكون دائما في كل المواقف؟
هل تمكنت من مشاهدة عبلة وتطمينها؟ (ثم يسوق الكلام إلى شيبوب)
شيبوب - إنها نائمة وتنتظرك وهي واهية القوى من وعثاء الرحيل والتأثر والفضل لسلمى في تهدئتها
عنترة - ما أعزك علي يا عبلة
شيبوب - لقد احمر النصل
عنترة - يجب أن تضع النصل المصهور في الجرح دون اضطراب وارتعاش فان حياتي معلقة به
شيبوب - وا أسفاه! ستتألم كثيرا
عنترة - كلا! احرق! احرق فاني لا أحب أن أموت (ثم يعري عنترة كتفه فيكوي شيبوب الجرح)
ثم ينزل الستار
الفصل الخامس
عنترة وشيبوب
يأتيان من المعسكر والوهن باد على عنترة وهو متوكئ على كتف شيبوب
شيبوب - نعم، لقد بدد صوتك الشك عندهم والباقون سيستعدون لموالاة سيرهم
عنترة - ولكن هذا يوم الراحة الذي وعدوا به
شيبوب - لم أقل عنه شيئا البارحة، وقد أرجأت البت فيه إلى هذا الصباح
عنترة - ألا يدهش أحد من هذا السفر السريع؟
شيبوب - كلا وفضلا عن هذا فلا يعلم القريبون منا ولا البعيدون بمصابك. . هل تشعر بتحسن؟
عنترة - إن نسيم الصباح يطفئ قليلا الحمى؛ والكي وحده الذي يؤلمني هل دفن ميت

البارحة؟
شيبوب - أجل، هناك بجانب تلك الخميلة
عنترة - ان الموتى مهما بلغ أمرهم لهم الحق في الراحة. ولننتخب الآن المكان الملائم لمشروعي. . . هناك! لا. . بل بجانب تلك الهاوية فاتها مكان مكشوف قليلا. . . ويجب أن يتمكن العدو حينما يصل من رؤية عنترة حيا أو ميتا. والآن أيها الرفيق والأخ يجب أن نفترق في هذا المكان ولنرجع من هذا الطريق الذي كان بالأمس طريق الأمل؛ أما أنا فسأتمم حياتي وواجبي
شيبوب - ألا تريد إذن أنوب عنك
عنترة - ولم يا شيبوب يحدث موتي ارتباكا في سير الأمور؟ وتصيح عبلة وسط هذا الاضطراب دون أن تتمكن من الوصول إلى الملك؟ لا! بل يجب أن ينفع حتفي رجالي وعشيرتي ومجدي ويترك نقطا من الابريز الوهاج في صفحات تاريخي!
شيبوب - ولكنني سمعت أن المنذر من علماء الطب فتعال! تعال! ومن يدري؟
عنترة - لقد فات الوقت، إذ بيننا وبين المنذر ثلاثة أيام ولقد مات وزر بسرعة ولا مرد للقضاء
شيبوب - نستطيع أن نؤخره بجهد عظيم!
عنترة - لا يمكن تأخير ساعة الموت، ولم هذا الجشع الذي ينقص الكرامة ويسقط الاعتبار. وصباح حافل بالحوادث خير من يوم عظيم خال . . . . . .
أتبكي؟ ومتى كانوا يبكون فارسا سقط عن جواده في ميدان المجد والفخار؟
شيبوب - إني أبكي قومنا جميعا، أبكي بلادك وأمتك وكل ما سيموت بموتك. عفوك اللهم وغفرانك!
عنترة - إن مستقبل الأمة والبلاد لا يتوقف على فرد ولو كان فارس الزمان أو كان ملكا دانت له الدنيا من أقصاها إلى أقصاها ولا شيء يقف تقدم أمة. انني أراها ترقى وتتقدم من المشرق إلى المغرب في ازدهاء كسف الكوكب الذهبي في فلكه. ولا يهم النسور المختالة حتى الخطاطيف ريشة تزيد أو تنقص من أجنحتها القوية!
شيبوب - كلا يا عنترة! فان هذه الفكرة لا تنطبق على ذويك!
عنترة - حتى ذوي! إذ سيكون ألمهم شديدا ينفذ إلى سويداء قلوبهم. وكل شيء في الدنيا يتألم حينما يولد أو يخلق حتى الحبة تتعفن قليلا قبل أن تنبت وما الحياة إلا ثمرة شجرة الموت. اذهب وارحل فلربما رأيتني في يوم قريب وسأظهر لك مرة ثانية في الخيط الأسود الذي يخطه موتى في الموضع الذي مر فيه الزارع. وستنبت تحت قدميه الحبة التي بذرها
سافر واسهر عليها واحرسها أيها الصديق والحارس الأمين، ومن يدري ماذا سيكون شان المولود الذي ستلده
شيبوب (وهو ناظر إلى جهة المعسكر) اذهب وكن على رأس الجند ومر من المضيق!
عنترتي لقد فهمت كل) (عبلة آتية من المعسكر وهي تعدو وشيبوب وراءها. أواه) شيء وحدثني به قلبي. لا تمكر على فان قلبي لقلب بطلة ولو انه تألم كثيرا ولكنه يستطيع أن يستمر في ألمه
(ثم تقع على قدميه)
إنني لا أتألم إذا شاطرتك حظك، أما أنا ظل ارتبط بظلك؟
عنترة (وقد غالب آلامه)
هذه زهرتي المسكينة قد أضجعها إعصار وهي مثقلة بماء السماء. انهضي فان الشمس ستشرب وهي منحنية عليك عبرات حبك. لقد بدد الحديد المصهور كل خوف أني لاشعر بخفة وطأة الموت وأكاد أفلت من مخالبه. وانك تستطيعين يا عبلة أن تذهبي وأنت مطمئنة مرتاحة البال (ثم يقول بلهجة حنان وتأثر) هذا واجب عليك، وان لك غرضا يجب أن يكون نصب عينيك ستبتهج له نفسك وهو أمل عظيم يتوج المرأة ويولد الغد من أسراره الخفية. . . وحبذا لو نضجت ثمرة حبنا يا عبلة. وان مت وجب عليك أن تضاعفي حبك لهذا المخلوق الصغير (ثم يبتسم) ولكن ما العمل؟ وكأني أحزنك وأقطب جبينك واسعد عبراتك، ولكن كل شاعر حزين الفؤاد ولو من غير ما داع ولا سبب
عبلة (تنهض وهي منهوكة القوى مصعدة الزفرات) سأرحل ولكنك لا تخدعني، واعلم

أن كل لحظة أو خطوة تبعدني إلى الأبد عن وجهك ونظرك المملوء بالعطف والحنان، ولا تقل عنك شجاعتي وسأذهب طائعة، وأتمنى أن ألد ولدا يثأر وينتقم لأبيه! وإني أحب الحياة لأجلكما وهل يساعدني الحظ على نيل هذه الأمنية؟
عنترة! إنني كالسكران من هذه الضحية وذلك الألم. فالوداع الوداع! وآمل أن لن تلين عبراتي من قناتك (ثم يتعانقان)
عنترة_الوداع الوداع يا ابنة الأمير النبيل سلالة الأبطال الأماجد الذين يقابلون الأهوال بعيون كعيون النسور القشاعم، أن دم أسلافك لا يكذب كما يصدق دم راعيهم القديم الذي نال الشرف اليوم
(ثم يصطحب شيبوب عبلة)
اذهبي ولن ترحلي وحدك يا عبلة، ان نفسي لتشيع خطواتك وسأجعل نصب عيني الساعات والأيام التي نسجت منذ طفولتنا خيوط حبنا وسأبذرها في الهواء لتكون ذرات حياتي هذه لك بمثابة حرس عظيم! ثم أحرسكم جميعا فيما بعد من أعالي السماء
(ثم يعود إليه شيبوب)
شيبوب - يا لك من مسكين.! يجب أن تلحق بها في أقرب وقت. هيا بنا فأنني تام العدة والسلاح، وهذه آخر واقعه أخوضها ويلزمني أن أستعد لها كالفوارس البواسل وأتلقى
الطعنات إلى أن أقع مضرجاً بالدماء
شيبوب! يا أخي وزميلي في الحروب! لنتعانق دون ضعف أو أسف لا يجدي ولا ينفع، وعيون جامدة لا تعرف أن تدمع
(ثم يطيع شيبوب إشارة عنترة وهو يكظم زفراته ويذهب)
سأموت الآن بغير شهود ونعم ما فعلت. أنني أستطيع الآن أن اعبر آلامي ويتسنى لعيني أن تبكيا دون أن تسيل عبرات الآخرين. لقد خارت قوي ولكني ضاعفت قواكم ولن يرى أحد منكم ضعفيوآلامي. (ثم يخترق شعاع من الشمس المشرقة سحب الضباب المربد وينير وجه عنترة)
والشمس لا تفترق عنا إذ تولد ثم يراها الناس وهي تموت. أيتها الشمس اذهبي إلى ذوي وانضمي إلى موكبهم وقولي لهم بأني أحميهم في الحياة والممات. الوداع يا أمان الحب والمستقبل الزاهر أواه! أنني اشعر أن البرد يغير علي شيأ فشيأ وقد اضطربت عيناي، ماذا دهاني! هل هذه وطأتك أيها الموت! مهلا مهلا! فاني أنا الذي أهاجمك واشد عليك دون وجل. لامتط الجواد والريح في يدي كما كنت من قبل! سأجبرك أن تخضع لامري وسيقود ذراعي سيرك الأعمى الأحمق
والآن تفتح روحي جناحيك فطر وحلق. يخيل (ثم يعلو جواده وهو في الرمق الأخير) إلى أني أنام نوما هادئا وأرى سربا من الطير آتيا من الشرق!. . . يقترب مني ويحيط بي ثم يذهب ويعود. ولكنه حياتي بأجمعها التي تضمني كأكفان نسجتها الأيام التي عشتها. أيام الأمل والحب والحرب، أن الماضي يعرض أمامي وأرى أول الكفن: أي أيام الطفولة! إن خيوطك لمن خز وعسجد وانت وحدك اللامعة الزاهية! إننا ننسج بأيدينا أكفاننا، وهذا كفني يطويه الموت بإصبعه! وهو يدفنني في طيات حياتي!. . . لا تتحرك يا عنترة. . . بجب ان يراك العدو حينما يقبل مستعدا للكفاح. . .
ثم يسلم النفس الأخير ويميل رأسه ويبقى جسمه منتصبا معتدلا مستندا ذات اليمين) إلى رمحه وذات اليسار إلى الصخور القائمة وفي هذه الآونة يأتي الرجال شاهرين رماحهم وسيوفهم وعلى رأسهم عمارة بن زياد فيلمح على حين غفلة عنترة وقد أضاء وجهه شعاع الشمس المشرقة فلمع سلاحه وهو راكب جواده)
عمارة - آه! إنه لحي لم يمت!
الباقون (وهم يولون الأدبار مذعورين) حي!
ينزل الستار
محمد كامل حجاج
الكتب
أهل الكهف
قصة مسرحية للأستاذ توفيق الحكيم بحث وتحليل ونقد بقلم

الأديب عبد الرحمن صدقي
تتمثل حياة الشرق في كتابين: القرآن الكريم، وحكايات ألف ليلة وليلة. فالأول يهدي إلى ما يجب أن يكون، والثاني يصور ما هو كائن واقع. يعالج أحدهما من طريق الوحي الديني علائق الإنسان بالله والمحدود باللا محدود وموقف البشر حيال المسائل الخالدة التي تفوق مداركه ولا تني تعذبه. ويستعرض الآخر لعياننا وأخلادنا صوراً حية تترى وتترى، مؤنسة كل الإيناس مؤثرة أبلغ التأثير، لزحمة الحياة، والوان المجتمع على اختلاف شياته وتعدد أصباغ نسيجه، وأنماط الناس، ومطالب العيش، ودوافع الغرائز المعقدة المتضاربة، ومسارب الأحاسيس العميقة الغامضة.
وقد عمد الأستاذ الحكيم إلى هذين المرجعين من الحكمة الإلهية ومن الحكمة البشرية. فاستوحى من الأول قصته المنشورة عن أهل الكهف، واستأنف من الثاني قصته التي لم تنشر بعد عن شهرزاد. فكان اختيار المؤلف (الحكيم) أول عناصر نجاحه.
وسيقصر كلامنا هنا بطبيعة الحال على القصة المنشورة (أهل الكهف)
عمل الفنان
لأجل أن نرد ما لقيصر لقيصر وما لله لله، نسوق ملخصا لشرح البيضاوي للسورة الكريمة. وظاهر من هذا الشرح أنه كل ما اعتمد عليه مؤلفنا في قصته التمثيلية البعيدة الغور.
هم فتية من أشراف الروم، أرادهم دقيانوس الجبار على عبادة الأوثان والشرك بالله؛ فأبوا وهربوا إلى الكهف، وقد مروا في هربهم بأحد الرعاة فتبعهم وتبعه كلبه، وكان دخولهم الكهف غدوة وألقى الله عليهم سباتا سنين عدة: اختلف الناس في عدتها، فقالوا ثلاث ماية، وزادها غيرهم تسعا، والله أعلم بما لبثوا. وظلوا على الحال التي كانوا بها تحسبهم أيقاظا وهم رقود وكلبهم باسط ذراعيه بالوضيد. ثم قضى الله انبعاثهم، فانتبهوا ظهيرة وظنوا أنهم
في يومهم أو اليوم الذي بعده، فلما نظروا طول أظفارهم وأشعارهم التبس عليهم الأمر وأعياهم علمه. فأخذوا فيما يهمهم، وبعثوا أحدهم إلى المدينة ليأتيهم بطعام على أن يتخفى ولا يشعر بهم أحدا لخوفهم أن يظهر رجال دقيانوس عليهم فيرجموهم أو يرغموهم على الشرك. فلما دخل المبعوث السوق وأخرج الدراهم وكانت مضروبة باسم دقيانوس اتهموه بأنه وجد كنزا فذهبوا به إلى الملك وكان نصرانيا موحداً، فقص عليه القصص. فقال بعضهم ان آباءنا أخبرونا أن فتية فروا بدينهم من دقيانوس فلعلهم هؤلاء. فانطلق الملك وأهل المدينة من مؤمن وكافر وأبصروهم وكلموهم. ثم قالت فتية الكهف للملك نستودعك الله ورجعوا إلى مضاجعهم فماتوا. فدفنهم الملك في الكهف وبنى عليه بيعة. والأقوال مختلفة في عددهم فمنهم من قالوا ثلاثة رابعهم كلبهم، ومنهم من قالوا خمسة، ومن قالوا سبعة. ويروى أن أسماءهم يمليخا ومكشلينيا ومشينيا وهؤلاء أصحاب يمين الملك ومرنوش ودبرنوش، وشاذنوش أصحاب يساره، وكان يستشيرهم. والسابع الراعي الذي وافقهم واسم كلبه قطمير. واسم مدينتهم أفسوس وقيل طرسوس.
هذه هي المادة الأولية التي أتيحت للمؤلف فانظروا كيف صارت في يديه، وكيف نحت فيها هذه المجموعة من التماثيل الحية وأقام منها هذا الأثر القصصي.
لقد شاء له الفن أن يأخذ بقول الزاعمين أن فتية الكهف ثلاثة وآثر الاقتصار عليهم حتى لا يتوزع اهتمام القارئ أو الناظر، فيضعف التأثير وتقل المتعة فحسب الفن اثنان من مستشاري الملك والراعي. وارتأى أن تتقدم السن بأخذ هذين المستشارين ويكون الوزير الأول، أما الثاني فيكون فتى في ميعة الشباب وريعانه. ثم يشاء الفن القدير أن يجعل للوزير زوجة وولداً كان يخفي أمرهما، وأن يجعل للفتى حبيبة في الخفاء هي ابنة الملك ووحيدته. وقد اعتنق الرجل دينه الجديد حباً في زوجته المسيحية، كما أن حب سليلة الأباطرة للفتى المسيحي حبب اليها دينه. فإذا فأما من سباتهما وقد تفترت من طول الرقاد أوصالهما، كان لهما من العلائق القلبية ما يذكرانه فتنازعهما النفس إلى طلب الخروج من الكهف، ويختلفان فترى الفتى نزقاً كعادة العاشق المشوق، أما الزوج فحذر كظيم شأن رب الأسرة المسئول. ويشاء الفن أيضا أن تكون ابنة الملك

في عصر انبعاثهم شبيهة كل الشبه بابنة دقيانوس حتى يطول وهم صاحبها وأما الراعي فلا تطول خديعته، فما هو إلا أن
افتقد غنمه فلم يجدها، ورأى أبناء هذا الجيل على غير عهده بهم سمتا ولهجة وزيا، حتى اتضحت له الحقيقة، وثقلت عليه الحياة فعاد زاهدا فيها إلى رقدة الكهف. ثم تبعه الوزير ثاكلا متفجعا باكيا وقد علم موت زوجته ومصرع ولده كهلا منذ دهر طويل في حومة الوغى وميدان الشرف. وأخيرا الفتى العاشق وقد تبددت أحلامه، وبدت لناظريه هوة الزمن السحيقة تفصله عن المرأة التي يحبها.
وهكذا دخل الفن على العبرة القصصية فخرج منها - كما يرى القراء - بآية فنية.
التحقيق التاريخي
لم يقصد المؤلف بروايته وجه التاريخ. ولا أظن به طمعا في أن يكون مؤرخا. وهيهات أيضا لكاتب هذه السطور أن يدعي لنفسه هذه الدعوى العريضة. بيد أنه لما كانت القصة التي نحن بصددها لها صلة بالتاريخ، فلا مراء في أن الدراسة التاريخية هي على الأقل من مستلزماتها.
ولقد راجعت القليل من المراجع في التفسير، ومن معاني التاريخ الموضوعة في العربية، ثم انتقلت إلى غير الكتب العربية مما هو موضوع في تاريخ الإمبراطورية الرومانية ونشأة المسيحية بغض النظر عن مؤرخي الكنيسة ورجالها. فإذا مؤلف أهل الكهف لم يسلم من نقص في هذه الجهة وأخطاء قد لا يكون لها خطر في صميم الفكرة، بيد أنه كان من المستحسن على كل حال تداركها ولو تكلف قاصنا المسرحي اليسير من العناء في التحقيق التاريخي
فقد زعم أن العاهل دقيانوس هو صاحب عصر الشهداء أي ديوقلاسيانوس لتقارب النطق واحتمال التحريف في تعريب الاسماء الأعجمية عند العرب. والحقيقة أن دقيانوس هو ذوقيوس كما يلفظها البعض أو دسيوس عاهل الرومان الذي حكم من عام 249 إلى عام 251 بعد الميلاد. وكان مع بسالته وحسن تدبيره شئون الملك شديداً على النصارى، فنقض ما كانوا فيه من أمان وسكينة، وأجمع العزيمة على سحق المسيحية. فكان شديد الكراهية للبطارقة وكان كل مؤمن في ملكه الواسع رهنا بالسجن والتعذيب، وقد شاع لعهده التفنن في التعذيب بالجوع والعطش. واشتد اضطهاداته في سنة 250 ميلادية فلم تعد وقائع مفردة بل أمور عامة وتدابير منظمة.
ولعل فتية القصة هربوا إلى الكهف في هذه السنة
ثم إن أكبر فتية الكهف هو مكسلمينا. والأجدر بالمؤلف اتخاذه بدلا من مرنوش. كما أن أجملهم وأجلدهم تمليخا فلا محل لإطلاق اسمه على الراعي وحسب الراعي أن يدعى راعيا
كذلك لا نستسيغ تسمية الوادي الذي به الكهف في ظاهر المدينة بالرقيم. لأننا أميل إلى قول المفسرين بأن الرقيم إشارة إلى لوح من الحجر أو الرصاص عمد إليه رجلان مؤمنان من بيت الملك، فكتبا فيه شأن الفتية ورقما أسماءهم وأنسابهم، وأودعاه في تابوت من نحاس مختوم بخاتم من فضة، وجعلاه على باب الكهف
وأما المدينة التي كانت مسرحا لوقائع القصة فليست طرطوس كما استحسن المؤلف استنادا إلى قول في البيضاوي بل هي مدينة كما ذكر ذلك البيضاوي نفسه وعليها أجمع المؤرخون والمفسرون من المسلمين ورجال الدين من النصارى، ولا عبرة بوهم واهم من المفسرين زعم (أن مدينة أفسوس هي طرطوس وكان اسمها في الجاهلية أفسوس فلما جاء الإسلام سموها طرطوس) فقد ساقه إلى هذا الخلط جهله بتلك المدينة الداثرة إطلاقا، واقتصار علمه على طرطوس التي فتحها العرب، ولقد عمد في حيرته إلى قطع العقدة بدلا من حلها، فقطع بأن المدينتين واحدة، وشتان مابينهما في موقعها الجغرافي وماضيهما التاريخي
ومدينة أفسوس قديمة، وبها للمشركين هيكل لإحدى آلهتهم أرتميس (أو ديانا وحرم لتمثالها المقدس. وهذه الربة هي الأم العذراء للحياة والانتاج. وكان لأهل المدينة ولع بعلوم السحر والكهانة حتى بعد انتشار النصرانية فيها. وقد اشتهرت بأوليائها وشهدائها. وقد زعم القوم أن مدينتهم كانت الموطن الأخير لمريم العذراء وأنها دفنت بها، ومع هذا فأن اعتقادهم في أرتميس الأم العذراء أيضا لم يزل قائما قويا. وقد كان من حق أفسوس على الأباطرة الرومان أن تكون أول مدينة ينزل بها ولاتهم على آسيا وأن

يتقلدوا فيها مقاليد الولاية. وأفسوس معروفة بكثرة ما خلفته من نقودها المضروبة المتنوعة وما على سكتها من بديع النقوش وطوابع الحكام.

وأخيراً يحسن تعيين الملك الذي ابنعث على عهده أهل الكهف وهو إمبراطور الدولة الشرقية المسيحي تاودوسيوس الصغير 2وحكمه من عام 408 إلى عام 450 ميلادية.

وكانت قد فشت في زمانه بين الناس بدعة القائلين ببعث الارواحدون الاجساد، فجاءت معجزة الكهف تفنيداً لهم وآية على قدرته تعالى وكان هذا الملك في أول حكمه قاصراً يدير الدولة باسمه القاضي أنتيميوس ثم تولت القوامة عليهأخته بولكيريا فدرج بعنايتها على الصلاح ودماثة الخلق والنزاهة وحسن الفكر والروية. وبولكيريا أسم تاريخي يصلح بدلا من بريسكا في رواية المؤلف بعد تبديل بسيط

ونقف عند هذا الحد لنقول أن الرواية لا تخسر بهذا التحقيق التاريخي شيئا. ولعل الأستاذ الحكيم لو اطلع على معظم التفاسير والتواريخ من عربية وغير عربية في هذا الموضوع وحوله، لصدقنا فيما نذهب إليه من أن روايته الكبيرة تكسب عظمة من وجود هذه المواد في يدي صناع مثله، وأنه كان بهذا التشبع بالتاريخ قميناً بأن يفرغ عليها إلى جانب ذلك السنا الفلسفي والضرام العاطفي والروح الإنساني لوناً محليا ظاهراً يصبغها في غير تكلف منه أو تعمل، بطبيعة المناخ الآسيوي، وبذلك المزيج من الحس الوثني، والتصوف المسيحي.

(له بقية)

عبد الرحمن صدقي

العدد 33 - بتاريخ: 19 - 02 - 1934

. . .في الأقصر

لا تجد في معبد الأقصر ما تجد في معبد الكرنك من ذلك الاستغراق الذهني الذي يمحو الوجود من ناظرك، ويعفو الحاضر في خاطرك، ويحييك مع أمينوفيس ورمسيس في دهر واحد! فأن هذا المعبد يقع في جبهة المدينة ونزهة الناس فلا تنفك وأنت فيه بين نظرة خادعة من مفاتن النهر، وزفرة صادعة من بواخر كرك، ولفظة صاخبة من لغط المار؛ ولن تستطيع وعيناك تضطربان بين الهيكل والكنيسة والمسجد وقصر السلطان وونتر بلاس، ان تحصر ذهنك في موضع، وتقصر فكرك على موضوع. فكل صورة من هذه الصور الموائل يمثل فكرة وييسجل نهضة ويؤرخ حقبة؛ أما معبد الكرنك فظل بنجوة من تيار الزمن الجارف، ينعم بسكونه الشعري في اعتزاله، ويتمتع في جوه الفرعوني باستقلاله

فتننا سحر الأصيل عن شعر المعبد، فذهبنا فيي طريق السلطان حسين نشهد أروع مجالي الجمال في الطبيعة. ومن حدثك أن بلداً من بلاد الله غير مصر يتمتع في يناير بدفء يستجيش العرق والبهر، وضوء يغمر القلب والنظر، وصحو يدوم النهار والليل، فهو ولا ريب لم ير الأقصر! وأي منظر تألقت به قدرة الله، وتأنقت فيه يد الطبيعة، كمنظر الغروب في طيبة؟ فالشمس المصرية تغرب في جلال وراء الجبل، وأشعتها الفاترة قد تجمعت حولها من سهول الوادي، فلم يبق منها الا غرر تلمع في أجنحة الطير وسعف النخل ورؤس الهضاب، وشفقها الوهاج قد شب في أطراف السلسلة اللوبية حريقا بارد اللهيب ايذانا بالمغيب، والمشتون من سراة أوربا وأمريكا يطالعون في شرفات الفندق أجمل ما خطته يد البارئ المصور في صفحة الوجود، وأنا وأصدقائي الثلاثة نسير الهويني على الشاطئ الضاحك، يشيع في دمائنا مجد هذا الماضي، وفي أعصابنا عظمة هذا الوادي، وفي أخلاقنا صراحة هذا الجو، وفي مشاعرنا جمال هذه الطبيعة، فنكاد من فرط الزهو نقول لمن نلقى من السائحين االغربيين: نحن تلية هذا المجد، وصنيعة هذه الشمس، وصورة هذا الجمال، فهلا ترونا اخلص الناس جوهرا. واصدقهم مظهرا، وازكاهم أرومة؟

وكان حديثنا في هذه الساعة الجليلة نغمة منسجمة في هذا اللحن السماوي الذي تنشده الكائنات كل يوم عند الغروب، وما ظنك بحديث نقي الحواشي يشققه أستاذ في كلية الآدب، واستاذ في كلية العلوم، واستاذ في كلية الحقوق، وكاتب صغير من كتاب الرسالة؟

كان صباح اليوم العيد موعد (المقابلة الملكية) فعبرنا النهر في رهط من أطباء المؤتمر، ووقفنا بالضفة الأخرى نتحسس الآثار الهوالك، فلم نجد أمامنا غير الحقول

الزمردية تكسو السهل، والجبال الوردية تسد الأفق. وكانت هذه الضفة الخلاء في دهرها الغابر حيا من أحياء طيبة يسكنه محنطو الجثث وصناع المومياء، فما كان يومئذ يموت انسان أو ينفق حيوان الا أتوابه هذا الحي فيمضي فيه أهله (عملية) الخلود!!

انطلقت بنا السيارات بين الزروع الخضر أرتالا يسفى بعضها الغبار في وجوه بعض، فمررنا بالقرنة وقد خرج أهلها في زينتهم يعيدون فوق المقبرة! وأكبر الظن أنهم بقايا ذلك الحي البائد، فهم يسكنون الجحور كبنات آوى، وينبشون القبور كلصوص الموتى. وينحتون التماثيل كصانعي الآلهة، ويخدعون بالتمائم كدهاة الكنهة!

وقفت بنا الحقول فجأة، ثم أسلتنا الى قفز من الأرض بعضه مرمل وبعضه مترب، فسرنا فيه بين أعلام من الحجارة المنضودة، حتى دفعنا الى شعب في الجبل تكثر على جانبيه الغيران الموحشة والفجوات العميقة، فنحسبها بادئ ذي بدء من أثر الوحوش الحافرة، ولكنك تدرك بعد هنيهة أنها من أثر الانسان الذي نكبت به هذه الأرض منذ أربعة آلاف سنة فلم يرفع معموله عنها الى اليوم!!

شقها فدفن بها الملوك! ثم شقها فسلب فيها الملوك! ثم هو يشقها اليوم دائبا ليخرج منها الملوك!

أخذت طراءة النسيم تتخلف عنا رويداً رويداً حتى انقطعت، وهب يناوحنا من فجاج الوادي الملكي جو ثقيل كجو مايو، وأصبحت سلسلة الجبال فوقنا بعد ان كانت أمامنا، ثم انعطفت الطريق الصاعد بغتة فاذا السيارة أمام باب من الخشب، وبواب من الناس، وقائل يقول: هنا جبل الخلود وحرم الملوك ومثوى توت عنخ آمون!!

الجبل من أعلاه إلى أسفله قطعة واحدة من الحجر الجيري الصلد لا تجد فيه صدعا ولا فرجة! نقرت يد الانسان القديم في أصله فتحة مربعة دخل منها الدليل ودخلناها على أثره، فاذا سلم حادر يهبط بك قليلاً أو كثيراً الى بئر عميقة تضلل اللصوص: ثم يعود فيهبط الى قاعة فسيحة تجمع أشتات المتاع، ثم يعود فيهبط الى حجرة تضم جثمان الملك! وسقوف الحجر محلاة بصور من جماعات الكواكب، وجدران الانفاق مغشاة بسور من كتاب الموتى: فالبرزخ الفاصل بين الحياة الفانية والحياة الباقية مصور كله في وضوح ودقة! فهنا الميزان، وهناك الصراط، وهنالك المطهر، وفيما بين ذلك عقبات هائلة وحيات قاتلة لا يفلت منها الا من حمل جواز الأمان وعرف كلمة السر!!

وقفنا حيال فرعون وهو راقد في أكفانه الذهبية رقدة الضراعة والهون! يشمت به الفناء، ويسخر منه البقاء، ويصيح في أذنيه القدر:

لقد علوت في الأرض، وغلوت في الجبروت، وسخرت الزمان لتخليدك، والانسان لتمجيدك، ثم كانت عاقبتك يا فرعون هذه العاقبة المضحكة!! فصاحب اذنك خادم حقير، وكبير أمنائك (ترجمان) أجير، وشعبك العابث يحضر (التشريفة الكبرى) يوم العيد في غير حلة رسمية، ولا هيئة جدية، وجلالتك الالهية كلها لم تقو إلا على الدود، ولم تحظ إلا ببسمة ساخرة من ثغر الخلود!!

أحمد حسن الزيات

السياسة وعلم الاجناس

للدكتور محمد عوض محمد

يود الذين يشتغلون بعلم من العلوم لو أدرك الناس ان لكل علم حرما يجب ألا يدنو منه غير أهله إلا بشيء كثير من الحذر. ومع ذلك فان من الشائع المألوف ألا يكتفي للناس بالدنو والاقتراب من حرم هذا العلم أو ذاك، بل ان الكثيير منهم ليقتحم عليه الباب ويخترق الساحة، ويستبيح الحمى. في غير رفق ولا حذر، ودون ان يستأذن أو يسلم

وهذا الاعتداء قد يكون من عامة الناس وجهلتهم. فلقد ترى الواحد من هؤلاء يصف للمريض الدواء الشافي والعلاج الناجع في جرأة قلما نراها في الطبيب المحنك الذي وعى في صدره طب الأولين والآخرين. ولكن هذا الاجتراء على حرم العلم قد يكون أيضا - ويا للاسف - من رجال ينتسبون إلى الثقافة وإلى العلم، وربما رأينا المثقف يعتدي - فيي جرأة واعتداء بالنفس - على حرمة علم لم يدرسه ولم يلم به، فيتحدث عنه حديث من أحاط بأطرافه وتوفر على درسه.

ولعل هؤلاء أشد خطراً من جهلة الناس وعامتهم. لأنهم مثقفون، ولأنهم ألموا ببعض

العلوم إلماماً حسنا. فأكسبتهم ثقافتهم وعلمهم مكانة بين الناس ومقدرة على الافصاح عن آرائهم ليست للأمي الجاهل، فهم اذا تحدثوا عن علم غير ما اختصوا بدراسته، أخذ الناس عنهم أقوالهم من غير جدال، لما لهم من المقدرة في البيان ومن المكانة في النفوس.

والذين راقبوا هذه الظاهرة بين رجال الثقافة قد أدهشهم أن يروا هؤلاء يتكلمون في جرأة وفي ثقة، عن أمور لا يتحدث عنها الاخصائيون الا في حذر شديد. فيصدق فيهم المثل الانكليزي:

(يمعن السفهاء في الجري والاندفاع، حيث تخشى الملائكة أن تمشي الهويني)

أثارت هذه الخواطر في نفسي مقالة للدكتور أحمد زكي في الرسالة عنوانها (العنصرية). وقد رأينا فيها ما يعانيه علم جديد وهو علم الأجناس من رجال السياسة ممن لن يلموا به إلماماً صحيحا، ولا جشموا أنفسهم مشقة مطالعة سفر واحد مما ألف فيه. وقل أن يكون بين العلوم علم لقي من هذه الناحية مثل ما لقيه علم الأجناس.

فلقد كان من الشائع جدا أن المتكلم عن الأجناس البشرية يخلط بين الثقافة واللغة والدين في تقسيم الناس إلى أجناس، وبين صفاتهم الجثمانية البحتة كاختلافهم في اللون والقامة وشكل الرأس والشعر. . وهي الصفات التي يجب أن تكون الأساس العلمي الاكبر - بل الوحيد - لتقسيم الناس إلى أجناس.

هذه الاختلافات الجثمانية أمرها قديم جداً. وللأسف لم ينشأ علم ولا علماء يعنون بمعالجة هذا الموضوع ودراسة السلالات البشرية دراسة علمية صحيحة إلا في عصر حديث جداً، ومما يؤسف له أن كثيرين ممن أوتوا حظا وافراً من الثقافة لا يزالون - بسبب حداثة هذا العلم - جاهلين حتى بمبادئه الأولية.

ولهذا قد نرى كثيرا من المسئولين من رجال الأدب والسياسة ينطق بألفاظ وعبارات عن الأجناس وأهميتها وأفضلية جنس على جنس في صور لا تنم عن دراسة حقيقة للسلالات البشرية ولعلم الأجناس.

واختلاط السياسة بعلم الأجناس من أيسر الأمور. فان الدول كثيرا ما تصبح في مقام المنافسة والمناظرة من أجل استنهاض همة الناس أو تقوية الروح القومية فيهم.

فليس أسهل للوضوال الى هذه الغاية من أن يفهم الناس أن سلالتهم أعظم السلالات، وجنسهم ارقى الأجناس. وقد يتدخل رجال العلم في هذا الأمر، وينزلون عن عرش علمهم الى درك المنافسات القوية. وهذا أمر يستدعي الأسف، ولكنه كثير الحدوث، ولم تختص به المانيا النازية: كما يزعم خصومها. بل إن أشهر الكتاب فيه من غير الألمان

إن علم الأجناس لا يرى فضلا لسلالة على سلالة ولا لجنس على جنس. حتى إن بعض المؤلفين (راجع مثلا كتاب وقد يخصص جزءا غير قليل من كتابه في دحض الآراء الشائعة عن الأجناس، فهو لابد له أن يهدم الخطأ قبل أن يبنى الصواب.

الاجناس كلها متساوية في نظر العلم، ولكن أكثر الناس قد وقر في نفسه غير هذا. ومن قديم الزمان جداً يفخر كل شعب بأنه هو الشعب الأعظم. وما سواه أمم بربرية.

وهذا بالطبع لم يكن سوى صورة من صور الأثرة القومية. فاليونان كانوا يقسمون سكان العالم الى قسمين: اليونان والأمم البربرية. وهكذا يقول هرودوت في مقدمة كتابه إنه سيقص فيه الحوادث العجيبة التي حدثت للهلينيين (اليونان) وللأمم البربرية.

وكذلك كان الرومان يعتقدون أن ما سواهم شعوب بربرية. ومن الغريب أن أهل الصين أيضاً كانوا الى منتصف القرن التاسع عشر ينظرون الى الانكليز ومن اليهم بأنهم بربرة. والكلمة الصينية التي تفيد هذا المعنى: معناها الحر في الاشخاص الذين يجلسون القرفصاء على الأرض: أي أنهم من الوحشية بحيث لا يتخذون كراسي لجلوسهم. وهكذا كان كبار رجال الدولة الصينية يخاطبون سفراء الملكة فكتوريا وكانوا يدعونها ملكة البرابرة حتى لقد كان هذا مما أحفظ الأنكليز؛ وكان من جملة الأسباب التي دعت الى اثارة حرب الأفيون.

ولئن كان الجرمان يفخرون بجنسهم اليوم. فكذلك كان يفعل الروس قبل الحرب، فقد كانوا يمجدون الجنس السلافي ويزعمون أنه أرقى الأجناس جميعاً.

ولعله ليس في العالم شعب قد غلا - من هذه الناحية - الغلو كله مثل الشعب

اليهودي، الذي لم يكتف بأن ينادي بأنه الشعب المختار، بل لقد أصبحت هذه العقيدة جزءا من الدين اليهودي لا سبيل الى فصلها عنه.

هذه النعرات القومية، قد تكون من ضروريات السياسة، ومن وسائل النهوض بأمة في وقت من الاوقات. ولكن الواجب يقضي علينا بأن نفرق صريحا بين صيحات السياسة ونظريات العلم.

هنالك نظرية أو رأي اثنولوجي خاطئ شاع في الزمن الحديث، ولا يستند على أساس على ولا تاريخي، بل يحلو لأصحابه أن يتجاهلوا التاريخ تماما. وهذا الرأي هو القائل بأن الجنس الشمالي أو التيوتوني - الذي يمتاز بالشقرة والقامة الطويلة والعيون الزرقاء، وغير هذا من الصفات الجسدية - هو أرقى السلالات البشرية. وأنه لولاه لما كانت حضارة ولا رقى في أي عصر من العصور.

هذا الرأي الجرئ لا يجوز ان ينسب الى الالمان ولا الى الهتلريين، بل ان المؤمنين به في أمريكا مثلا أكثر من القائلين به في المانيا. ومن الغريب أن أول من قال بهذا الرأي الكونت جوبنو الفرنسي في كتابه:

'

وفي هذا الكتاب يزعم المؤلف ان التيوتونيين هم أرقى الاجناس البيضاء جميعا، وأفضل السلالات البشرية على الاطلاق من حيث قدرتهم على خلق الحضارة بجميع عناصرها المادية والأدبية.

وقد شاع كتاب جوبنو هذا في وقت كانت فيه المنافسة بين فرنسا وألمانيا بالغة منتهى الشدة (بين عام 1860 وعام 1870) ولما كان أكثر الشعب الفرنسي من غير التيوتونيين، وأكثر الالمان منهم فقد كان كتاب جوبنو هذا بمثابة الفضل الذي شهدت به الاعداء.

وقد رد على جوبنو ودحض مزاعمه كثير من الكتاب، ولكنا لا نزال الى وقتنا هذا نرية كتبا تنشر في انكلتره وفي أمريكا خاصة، ولكها في تمجيد الجنس التيوتوني وتفضيله على سائر الاجناس. ومن شاء الاطلاع على شيء من هذا فليراجع كتاب الاستاذ ماديسون جوانت وعنوانه وكتاب الاستاذ ماكدوجال وهو من كبار علماء النفس في الولايات المتحدة وعنوانه

وكلاهما ينادي في مؤلفه بضرورة الحرص على الجنس الشمالي والاكنار منه لانه العماد الاكبر لحضارة أمريكا؟

ومن الغريب أن الولايات المتحدة حين سنت قانون المهاجرة منذ نحو عشر سنين سمحت بالمهاجرة الى بلادها لعدد عظيم من سكان البلاد التي يسود فيها الجنس التيوتوني. مثل اسكندناوه والمانيا وانكلترة وهولندة. ولم تسمح الا بعدد قليل من المهاجرين من الأقطار الأخرى.

وهذا مثال خطير لتطبيق نظرية لا تقوم على أساس في مسألة دولية خطيرة. وبرغم الاحتراس الشديد الذي يبديه علماء الأجناس أنفسهم، لا نزال نرى الكثيرين يتحدثون في موضوع الأجناس من غير تدبر ولا حذر.

محمد عوض محمد

قيمة الثقافة

للأستاذ أحمد أمين

للثقافة قيمة مالية مقررة. فالليسانس والدكتوراه والدبلوم وما الى ذلك من الأسماء، هي عنوان للثقافة، أو بعبارة أخرى تتويج لمجهود سنين قضيت في تحصيل العلم، وتأتي (المالية) بعد فتقدر هذه الدرجات بالجنيه والمليم، وتجعل لكل منها قيمة مالية خاصة، ولها العذر في أن تخالف بين الدرجات، وتسوى بين حاملي الدرجة الواحدة وإن اختلفوا في مقدار الثقافة، لأنه لم يخترع الى الآن مقياس دقيق يوزن به الفكر ومقدار استعداده وزناً صحيحاً. ولو اختراع هذا الميزان لألغيت الدرجات، واكتفى بوزن الكفايات؛ ولكن من لنا بذلك وقد عجزت المدنية الحديثة عجزاً تاماً عن اختراع هذا الميزان.

وللثقافة كذلك قيمة اجتماعية، فالثقافة ترفع من كان من طبقة وضيعة، الى ان يكون

أحياناً مساوياً لمن كان من طبقة رفيعة، فحامل الشهادة العليا يرى نفسه - وقد يرى الناس معه - أنه صالح لأن يتزوج من طبقة راقية، مهما كان منشؤه ومرباه. وقديماً قال الفقهاء في (باب الزواج): إن شرف العلم فوق شرف النسب - والمثقف الراقي له الحق أن يكون عضواً في الأندية الراقية من غير أن يسأل عن نسبه وحسبه - بل له أن يُدِلّ على أبناء الطبقة الأرستقراطية إذا نال درجة لم ينالوها، وعرف من أنواع الثقافة ما لم يعرفوا، وله من حرمة الناس في المجتمعات والأندية ما لا يناله غير المثقفين، وإن كانوا من بيت خير من بيته، وفي نسب خير من نسبه.

ولكن لا أريد أن أتحدث في شيء من هذا ولا ذاك، فليست تعنيني الآن الناحية المالية للثقافة، ولا الناحية الاجتماعية لها - وإنما أريد أن أتسأل: ما القيمة الذاتية للثقافة؟ إن المال واحترام الناس عرض خارجي، فما القيمة الثابتة التي تتصل بنفس المثقف ولا تفارقها في فقر أو غنى، وفي جاه وغير جاه؟

أهم قيمة - في نظري - لثقافة المثقف هي كيفية نظره الى هذا العالم. ذلك بأن عيون الناس في نظرها الى الأشياء وحكمها عليها ليست سواء، فعيونهم الحسية وإن اتفقت في الحكم على الألوان بالسواد والبياض والحمرة والصفرة، وإن اتفقت في الحكم على الأبعاد قرباً وبُعداً، وإن اتفقت في الحكم على الأحجام كبراً وصغراً، فان العيون النفسية لا تتفق في نظرها ولا حكمها، فالشيء في نظر الأبله غيره في نظر الفيلسوف، وبين هذين درجات لا حدّ لها، وليس للشيء الواحد معنى واحد، بل معان متعددة تتسلسل في الرقي، والناس يدركون من معانيه بحسب استعدادهم وثقافتهم وأذواقهم.

وقد حكموا أن عيسى عليه السلام مرّ هو وأصحابه بجيفة فقالوا: ما أخبث رائحتها! وقال هو: ما أحسن رياض أسنانها! ونظر الرجل العادي الى حديقة مزهرة غير نظر الاديب الفنان، هذا ينظر اليها فيقرأ فيها من المعاني والجمال ما يمتزج بنفسه، ثم يسيل على قلمه كأنه قطع الرياض - وذاك ينظر اليها نظرة مبهمة، لا تُسفر عن معنى، ولا تُعْرف لها وجهة، نظرة بليدة جامدة، لا يسعفها ذوق ولا تخدمها قريحة.

ومثل هذا في كل شيء يعرض على العين، فكل شيء في السماء وفي الأرض لا يحمل معنى واحدا بل معاني متعددة، وقيمة الثقافة ان تنقل العين من أنظار سخيفة ومعان وضيعة الى أنظار بعيدة ومعان سامية. فالاديب اذا لم ينظر في المرأة الا الى حسن جسمها وتناسب أعضائها لم يكن أديباً مثقفاً وقلنا له كما قال المتنبي

وما الخيل الا كالصديق قليلة ... وان كثرت في عين من لا يُجرّب

اذا لم تشاهد غير حسن شياتها ... وأعضائها فالحسن عنك مغيب

ففرق كبير بين ان تنظر الى المرأة كشيطان وان تنظر اليها كأنسان وان تنظر اليها كملك - وفرق كبير في كل شيء في الوجود يعرض على أنظار الناس

وكل انسان له نظراته في العالم من اسفل شيء إلى أرقى شيء، من مادة تحيط به ومال يعرض عليه وأعمال تتعاقب أمام نظره واله يعبده - هو في كل ذلك قد يكون سخيفا في نظراته، وضيعا في رأيه، وضيعا في حكمه وقد يبلغ في ذلك كله من السمو منزلة قل أن تنال. وعمل الثقافة ان تنتشله من تلك النظرات الوضيعة الى هذه النظرات السامية

وليست نظرات الانسان الى الحياة قوالب من طوب، كل قالب مستقل بنفسه، محدود

بحدوده، انما هي كسائل لطيف اذا لوَنْتَ نقطة منه بلون مشع اللون في سائر السائل، واذ سخنت جزءا منه وزع حرارته على السائل كله حتى يتعادل - بل الرأي والنظرات ألطف من ذلك وأدق وأرق. فاذا رقى النظر الى شيء أثر ذلك رقيا في سائر النظرات. فكل نظرات الحياة متأثرة بنظرك الى نفسك والعكس، بل نظرك الى الله تعالى متأثر بنظركُ الى عالمك المحيط بك - وهذا ما يجعل الثقافة في أية ناحية من النواحي الأدبية والعلمية يؤثر أثراً كبيراً في النواحي الأخرى حتى ما تظن أن ليست له صلة به. وقد أصاب صديقي يوما اذ كان يقول (ان رقى الامة في الموسيقى وتذوقها الصوت الجميل والغناء الجميل يجعلها تتعشق الحرية وتأنف الضيم وتأبى المذلة) فمحيط المخ والعقل والشعور محدود، كل ذرة فيه تتأثر بأقل شيء وتؤثر بما تأثرت - والفكرة الجديدة قد تدخل في الفكر فتقلبه رأساً على عقب وتجعل من

صاحبه مخلوقاً جديداً يقل وجه الشبه بينه وبين ما كان من قبل، فتجعله في أعلى عليين أو أسفل سافلين.

ان كان هذا صحيحاً، وكانت قيمة الثقافة الذاتية في مقدار ما رفعته في المثقف من وجهة النظر الى الاشياء وتقويمها قيما جديدة اقرب الى الصحة، أسلمنا ذلك الى نتائج خطيرة - فدين خير من دين بمقدار ما تحاول تعاليمه من رفع مستوى النظر الى الله تعالى والى الحياة - وعلم خير من علم باعتبار ما يؤدي اليه من نظر راق صحيح - وثقافة الانسان لا تقدر بمقدار ما قرأ من الكتب وما تعلم من العلوم والآداب ولكن بمقدار ما أفاده العلم، وبمقدار علو المستوى الذي يشرف منه على العالم، وبمقدار ما اوحت اليه الفنون من سمو في الشعور وتذوق للجمال.

أحمد أمين

بل. . . صفحة بيضاء!

للأستاذ حسن جلال

كتب الأستاذ الكبير - أحمد أمين - تحت عنوان (صفحة سوداء) مقالا عن مصر كما يراها بعض مؤرخي العرب.

فكمع كثيراً مما قاله القوم في المصريين وفي طبيعة بلادهم. وكيف أن أرض مصر (تولد الجبن والشرور الدنيئة في النفس حتى أن الأسد لم تسكنها - وهي إذا دخلت أرضها ذلت ولم تتناسل! وكلابها أقل جرأة من كلاب غيرها من البلدان، وكذلك سائر ما فيها أضعف من نظيره في البلدان الأخرى) أهـ

وقد تفضل الأستاذ فرد على هذه التهم ولا سيما التهمة المسندة إلى كلاب مصر فانه أبدع في تفنيدها وأشاد بذكر أرمنت وما يستطيع أن يفعله كلابها بجلد المؤرخ الذي فرط منه ذلك القول ونحن نشكره هنا. . بلسان أرمنت وما فيها!

ولكن بقيت بعد ذلك تهمتاه نريد أي نقول نحن أيضاً فيهما كلمتين: أما التهمة الأولى فهي الخاصة بأرض مصر وأن الأسد لا تسكنها، وأنها إذا سكنتها ذلت ولم تتناسل فيها لأنها ترث الجبن عن هذه الأرض، وهذا قول عجيب، فكأن التناسل من أعمال الشجاعة في نظر ذلك المؤرخ الذي يحيط علمه الواسع ولا شك بما قال الشاعر من أن (بغاث الطير أكثرها فراخا)

والحقيقة الواقعة أن التناسل لا دخل له بالقوة ولا بالضعف ولا بالجبن ولا بالشجاعة.

على أننا نكتفي في هذا الصدد بأن نحيل حضرة المؤرخ المحترم - كما يقول البرلمانيون - الى حدائق الحيوان بالجيزة فهي كفيلة وحدها بالرد على دعواه. وفي (بيت الأسود) فيها من الاشبال الكثيرة التي نبتت على أرض مصر وتحت سمائها ما يكفي لتنفيذ مزاعمه!

والآن بقيت تهمة أرض مصر بأنها تفسد أهل مصر وتجعل ما في مصر أضعف من نظيره في البلدان الاخرى. وهذا ما نريد أن نقول فيه كلمة قصيرة. ونحن نطمع في أن يتصدى للادلاء بالقول الفصل في هذا الموضوع رجال هم أقدر منا على ذلك بحكم عملهم ووقتهم واطلاعهم. على أنا نرى الموضوع لا يكفي فيه رد واحد يطلق في صحيفة واحدة ثم تنطوي الصفحة وينسدل الستار، ونبقى نحن على ما عشنا فيه من الاتهام بالذل

والضعف حتى من بعض مؤرخي العرب كأن لم يكفنا ما نلقاه نحن وهم على يد الافرنج من التجني إذ يقولون عنا - ويقصدون بهذه اللفظة المفردة كل ما تنطوي عليه الفاظ الوحشية والهمجية والتأخر من المعاني!

ولعل الوقت الحاضر أنسب الاوقات للأكثار من البحث في هذا الموضوع ورد الحق الى نصابه والأشادة بمكانة المصري ومقدرته وما يمكن أن يأتيه من جلائل الأعمال لو تهيأت له الظروف. فلقد رأينا أخيراً أن هذه الدعوى التي رمانا بها مؤرخو العرب وغيرهم قد بات يحلو ترديدها في قم بعض المصريين أنفسهم عن يقين منهم بصحتها. وتلك آفة الآفات والنكبة التي ما بعدها نكبة لهذه البلاد، فان الايحاء أفعل من السحر. وانك لتستطيع أن تستأنس النمر الشرس لو أتيح لك أن تفهمه أنه هر أليف، ثم تمضي تردد على سمعه هذا القول الهراء. فلينظر الذين يحلو لهم ترديد مثل ذلك القول المنكر إلى أين يهبطون بأنفسهم وبجيلهم يهرفون بما لا يعرفون!

لقد قالوا إن الشعب المصري شعب ذليل بحكم سمائه وارضه. كذبوا، فان سماء مصر

وأرضها لا تنبتان الذل وانما تنبتان العزة والقوة والقدرة على الاستذلال. وإني لأستنكف أن أذكر الفراعنة في هذا الصدد حتى لا يقال احتمى بمجد أمة ماضية، ولاذ بعزة قوم غابرين. ولكني أكتفي بأن أنظر الى ما عليه مصر الآن. فان هذه البلاد العجيبة لما ينقض على نهضتها الأخيرة ربع قرن، ومع ذلك برز من بين أبنائها أبطال عالميون في مختلف ميادين الحياة. لقد ظهر فيها اسماعيل سرى المهندس، وعلى ابراهيم الجراح، وخليل عبد الخالق البيولوجي، ونبتت فيها لطفية النادي الطيارة، ومحمود مصطفى المصارع، وسيد نصير الرباع، ونشأ بين أرضها وسمائها طلعت حرب المالي الكبير. ولست أذكر رجالا ظهروا في مستهل هذه النهضة ففتحوا الشام وهزموا الوهابين واستعمروا السودان. فكل أولئك وغيرهم ما كادوا يلجون ميادين أعمالهم حتى تخطوا كل قرنائهم في أنحاء العالم. وحملوهم على التنحي لهم عن الصدر فتبوأوه ورفعوا راية مصر عالية فوق رؤوس الجميع.

فما هو مدلول هذه الظاهرة عند كل ذي عينين غير أن الأمة التي أنجبت كل هؤلاء الأبطال في جيل واحد - وفي هذه الظروف القاسية التي تجتازها مصر الآن - لا يمكن أن يكون معدن أهلها كمعدن أهل غيرها من بلاد الله. وأنها لابد تمتاز على من عداها في حسن فطرتها وقوة ملكاتها وسلامة استعدادها.

ولئن كانت قد طغت على هذه البلاد موجات من الضعف والتأخر فهذه هي سنة الطبيعة في كل شيء. فما من شعب يدعى اضطراد سيره في سبيل التقدم والرقي منذ خلقه الله، وأنه لم يطرأ عليه من عوامل الضعف ما جعله فريسة لغيره من الشعوب (وتلك الايام نداولها بين الناس)

ولئن صح ما يقال من أن دولا كثيرة إستعمرت مصر، فصحيح أيضاً أن مصر من دون البلاد التي استعمرت كانت هي التي تأكل مستعمريها وتطبعهم بطابعها قبل أن تنطبع هي بطابعهم!

لقد حكم الاتراك مصر واشتهرت تركيا بفخامة مساجدها وعظمة قصورها. وأن هذه المساجد وتلك القصور لتشهد للصانع المصري بأنه هو الذي زينها ووشاها، ورفع سمكها وسواها.

ولقد ولى (محمد على الكبير) أمر مصر ولم تك إلا نفخة قوية من صدره الشديد حتى انجاب عن جمرة مصر رمادها الذي خلفه عليها عجز المماليك، فتوهجت هذه الجمرة ونضنض لهيبها ثم اشتعل واندلع لسانه طويلا فلف فلسطين والشام والحجاز والسودان وكاد يحرق استامبول نفسها، وروعيت أوربا من طغيانه نحوها، وأشفقت على سلطانها في الشرق أن تلفحه هذه النار، فاجتمع العالم الغربي كله ليقف في وجه مصر ليكبح جماح المصريين يوم أن أفاقوا من سباتهم وتفتحت أعينهم من جديد على النور!

هذا هو الشعب المصري الذي لا يمكن إلا أن يكون عظيما لأن العظمة في دمه ولحمه. في ماضيه وحاضره. في أرضه وسمائه!

وحق مصر: لو لم أكن مصريا لوددت أن أكون مصريا!

حسن جلال

فضائح المالية العليا في فرنسا

للاستاذ محمد عبد الله عنان

(تتمة)

حدثت في فرنسا، مذ كتبنا مقالنا الاول، تطورات سريعة خطيرة لم تكن في حساب أحد؛ فان وزارة مسيو شوتان أو وزارة (الفضيحة) لم تستطع أن تواجه غضب الرأي العام أو أن تهدئ روعه؛ ووقعت في باريس وفي الأقاليم مظاهرات ومصادماات دموية خطيرة قتل فيها مئات وجرح ألوف: وشحنت حامية باريس بالجند المدجج تحوطا للطوارئ، ولاح مدى لحظة أن فرنسا ستغدو فريسة الحرب الأهلية، أو يتحكم فيها النظام الجمهوري لتقوم مكانه دكتاتورية مطلقة. ولكن وزارة دالادييه استقالت في الحال؛ واستدعى مسيو دومرج رئيس الجمهورية الاسبق ليؤلف وزارة ثقة قومية، وقد وفق مسيو دومرج الى تأليف وزارته من شخصيات قوية بعيدة عن ريب الفضائح الأخيرة، وهدأ الرأي العام نوعا، ووقفت المظاهرات مؤقتا. ولكن فرنسا ما تزال مترقبة جزعة، ومن المستحيل أن يتنبأ انسان بما قد يقع بعد هذا الهدوء المؤقت من

الحوادث أو التطورات.
كانت فضيحة ستافسكي المالية التي فصلنا حوادثها وظروفها روح هذه التطورات الخطيرة وباعتها الأول. ويندر أن نجد في صحف التاريخ الحديث جريمة أو جرائم مالية كالتي ارتكبها ستافسكي، تحدث في سير الحياة العامة لامة عظيمة كفرنسا مثل هذه الآثار الفادحة، فتهدد سلامة نظام عريق بأسره كالنظام الجمهوري، وتدفع شعباً عظيماً إلى نوع من التوراة أو الحرب الاهلية. ولكن فضائح ستافسكي كانت في الواقع وصمة للنظام باسره، وكانت دليلا ساطعاً على أن عوامل الفساد والانحلال قد سرت الى جميع واحي الحكم والادارة والحياة العامة الفرنسية كلها، وقد شهد الشعب الفرنسي في روعة وسخط كيف يكشف التحقيق تباعا عن أن من بين وزرائه وحكامه وقضاته ونوابه رجالا يلحق الريب بذممهم ونزاهتهم، وكيف أن المجرمين الذين يدبرون اغتيال أموال الشعب يستطيعون بالرشوة أن يشتروا أولئك الذين اختارهم الشعب للسهر على أمواله ومصالحه، وأن يستظلوا بحماية أولئك الذين عهد اليهم بقمع الجريمة، وان يجعلوا من القانون والقضاء اداة مشلولة. وقد رأينا مما تقدم كيف أن ستافسكي، وهو متهم بعدة جرائم نصب وتزوير،
استطاع مدى ثمانية أعوام أن يتفادى نظر القضاء لقضيته، وان يفوز بتأجيلها تباعا عشرات المرات، وانه لبث أعواما يمرح في جرائمه واختلاساته مع أنه معروف لدى دوائر البوليس، ولم تكن جرائمه سراً من الاسرار، فأي دليل أسطع على فساد القضاء وتدهور القانون والأمن والنظام؟
وقد حاولت وزارة مسيو شوتان التي ظهرت في ظلها هذه الفضائح ان تقمع الفساد بسرعة، فأبعد منها الوزيران اللذان اتجهت اليهما الشبه، وهما مسيو دالامييه وزير المستعمرات ووزير العمل السابق، ومسيو رينالدي وزير الحقانية، وقدمت الى البرلمان مشاريع قوانين بمعاقبة الرشوة والمواظفين المرتشين بأشد العقوبات، وقبض على مدير البوليس القضائي وبعض زملائه ليحقق معهم، وقبض على النائبين جارا وبونور اللذين ثبت انهما تلقيا مبالغ طائلة من الافاق ستافسكي وعاوناه في مشاريعه لدى الرجال المسؤلين، وأحيل عدة قضاة من رؤساء الدوائر وأعضاء النيابة الى المحاكمة التأديبية لأنهم تهاونوا في نظر قضية ستافسكي فتركت معلقة عدة أعوام دون أسباب معقولة، ولكن هذه الاجراءات كلها لم تقنع الشعب ولم ترضه. وبدا للشعب بحق أن الجريمة أوسع مدى مما ظهر، وأن الداء أشنع وأبعد أثراً مما صور، وكان من اصراره وسخطه واضطرامه ان استقالت الوزارة (الملوثة) واستقالت من بعدها وزارة دالالدييه، لأنها تستند الى نفس الأحزاب التي ينتمي اليها الرجال (الملوثون)؛ وجاشت باريس وفرنسا كلها بموجة ثورية، كادت تكتسح في طريقها كل شيء لولا أن تذرع الرجال المسئولون ببقية من الشجاعة والحزم، وتقدم الرئيس الشيخ دومرج ليضطلع بأعباء الحكم في هذا المأزق العصيب؛ فألف وزارة ثقة قومية ارتضتها البلاد واستطاعت أن تبث نوعاً من الطمأنينة.
والآن لنعد الى ستافسكي بطل هذه الفضائح المروعة التي كادت تبث الى فرنسا ضرام الحرب الأهلية
لقد شرحنا فيما تقدم طرفا من الحياة المالية العجيبة التي خاض غمارها هذا الافاق البارع، وكيف انه ارتفع من العدم الى صف أعظم رجال المال، وانشأ شركات وبنوكا عديدة، وانتهى بأن انشأ بنك التسليف البلدي في بايون، واتخذه مع شركائه اداة لاصدار سندات مزورة بمئات الملايين كان يستولي على قيمتها ويبددها على بذخه ولهوه، وشرحنا طرفا
من الوسائل والاجراءات التي كان يتبعها لاختلاس هذه المبالغ الطائلة، وكيف اكتشف أمره أخيرا وقبض على شريكه ومساعده الاول تسييه مدير بنك بايون، فبادر بالاعتراف وقص على المحققين كيف كان هذا الاختلاس الهائل يدبروينفذ مدى هذه الاعوام، والقى كل مسئولية فيه على ستافسكي وزعم أنه ضحية نفوذه وإكراهه المعنوي.
وكان اكتشاف الحادث في يوم 22 ديسمبر، ففي نفس اليوم غادر ستافسكي مسكنه الفخم بحي الشانزليزيه بباريس وودع زوجه وولديه، وقال انه مسافر الى فينا لاعمال هامة. ثم اختفى في نفس الوقت الذي صدر فيه أمر قاضي التحقيق بالقبض عليه،

وابلغ هذا الامر الى جميع مراكز البوليس والنيابة في فرنسا، والى جميع سلطات الحدود، وطير الامر بواسطة الراديو واللاسلكي الى جميع البواخر الراسية في الثغور الفرنسية والمسافرة في عرض البحر، فلم يكن ثمة وسيلة لأن يغادر ستافسكي فرنسا أو يجتاز الحدود الى أي بلد أجنبي، وأطلقت في أثره مئات من رجال البوليس السري في جميع المواطن التي يظن أنه قصد اليها، ولكن ستافسكي ظل مختفياً عن العيان، ولم يظفر انسان بأثره، وأصرت زوجته على أنها لا تعرف شيئاً عن مصيره ومكان اختفائه ولم تهتم قط بأن تعرف شيئاً عن اعماله المالية.

على أن ادارة البوليس كانت على ثقة من أن ستافسكي لم يغادر فرنسا وأنه لا زال مختفيا بها بمعاونة بعض أصدقائه وقد اسفرت تحرياتها المتواصلة في النهاية عن تأييد هذه الحقيقة، واستطاع بعض رجال البوليس السري بعد أسبوعين من البحث والتنقيب أن يعثروا بآثار بعض أصدقاء ستافسكي في مدينة (شوموني) احدى مدن الجنوب الجبلية، وأجتمعت لديهم القرائن والأدلة على أن الهارب قد التجأ الى هذه الناحية القاصية. وكان ستافسكي قد فر الى هذا المكان بمعاونة اثنين من موظفيه السابقين الذين كان يغدق عليهم عطفه وعطاءه، واستاجر له أحدهما في (شوموني) منزلا صغيراً منعزلا باسم مستعار، ولجأ اليه ستافسكي مع صديقيه باسم مستعار أيضا، ولزم غرفته ولم يغادرها، فحاصر رجال الشرطة هذا المنزل بعد أن وثقوا من أنه هو المقصود، وأن ستافسكي موجود فيه بلا ريب. ثم صعد بعضهم الى الطابق الأعلى، وطلبوا الى ستافسكي أن يسلم نفسه، وكان معتصما بغرفته، فلم يجبهم أحد، فاستمروا في البهو الخارجي حينا يطلبون التسليم دون جدوى. وأخيراً دوت من الغرفة المحصورة طلقة نار، وهوى جسم على الارض، فكسر رجال البوليس باب الغرفة في الحال، فالقوا ستافسكي بعينه ملقى على الارض مضرجا بدمه في النزع الاخير وقد اخترقت الرصاصة رأسه. وكان ذلك في الثامن من شهر يناير الماضي.

هذا هو البيان الذي قدمته إدارة البوليس عن مصرع ستافسكي بطل الفضيحة الكبرى، ورددته معظم الصحف الفرنسية. ولكن ثارت حول هذا البيان ريب وشكوك خطيرة، وأنكرت بعض الدوائرصحته. وأكدت أن ستافسكي لم ينتحر، ولكن البوليس قتله قتلاً لكي يخرس بذلك لسانه الى الأبد فلا يفضيي إلى المحققين بشيء من الاسرار التي يعرفها، ولا يفضى بالاخص باسماء شركائه ومنهم كثير من الرجال المسئولين، وبذلك يسدل الستار على أهم جوانب الفضيحة. وقد رددت هذه التهمة بقوة، وقذف بها في مجلس النواب في وجه الوزارة، وأهتم لها الرأي العام. ويدلل أصحاب هذا الاتهام على صحته بقرائن شتى، منها أن ستافسكي لو كان ينوي الانتحار لانتحر منذ البداية، ولم يتكبد مشاق الفرار والاختفاء وان رجال البوليس حينما داهموه في مخبئه انتظروا نحو ساعة قبل أن يحاولوا القاء القبض عليه، وأن رئيسهم اتصل أثناء ذلك تليفونيا بادارة البوليس في باريس مع أنه كان يحمل أمراً صريحاً بالقبض على ستافسكي، ثم يقولون أيضاً إن ستافسكي ترك بعد مصرعه طريحاً ينزف الدم منه نحو ساعة ونصف ساعة قبل أن يسعفه الطبيب وسمح للمصورين أن يصوروه وهو في هذه الحالة الخطرة، وأن المقصود بذلك كله أن يهلك ستافسكي قبل أن يستطيع الافضاء بشيء وهذه أقوال لها قوتها بلا ريب. ونحن من جانبنا نرجح مقتل ستافسكي لا انتحاره، خصوصاً وانه ثبت من التحقيق أن البوليس كان يتستر على ستافسكي، وان بعض أكابر ادارة الشرطة الباريسية وفي مقدمتهم مسيو جيشار مدير البوليس القضائي كانوا يتلقون منه الاعانات الطائلة، هذا الى أن الاختام القضائية لم توضع على مسكن ستافسكي الباريسي، وعلى مكاتبه الا بعد عدة أيام من فراره، ولما فتشت لم توجد بها أوراق تفيد التحقيق في شيء:

هكذا كانت خاتمة سرج ستافسكي أعظم أفاق ومختلس في العصر الحديث، بيد أن هذه الخاتمة لم تنجع شيئا في تهدئه اضطراب الرأي العام، ولم تفعل سوى أن أثارت على وقائع الفضيحة وظروفها ظلاماً جديداً. هل قبض على جميع المجرمين المسئولين عن تبديد أموال الشعب بهذه الجرأة المثيرة؟ أم بقى الاكابر المرتشون المتسترون كالعادة في الظلام؟ هذا ما يتساءل الشعب الفرنسي عنه اليوم. والظاهر أن الشعب

الفرنسي لم يقنع بأن ما اتخذ من اجراءات القبض والتحقيق يكفي للقمع ذلك الفساد الذي يقضم النظم والحياة العامة كلها. فقد سقطت وزارة دالادييه أمام غضب الشعب وسخطه، ولكن وزارة دومرج التي قامت مكانها ما تزال تصطدم بهذا السخط، وما تزال العاصمة الفرنسية تضطرم بمختلف المظاهرات، وما يزال العاصمة الفرنسية تضطرم بمختلف المظاهرات، وما يزال الجو فياضاً بمختلف الاحتمالات والرأي العام لا يقف عند المطالبة بمعاقبة المجرمين المغتالين لأموال الشعب أياً كانت مراكزهم وصفاتهم، ولكنه يطالب أيضاً بتطهير الحياة اللعامة من تلك الادرلان المشينة ووضع الضمانات الكفيلة بطمأنينة الشعب على أمواله وثقته بأن وزاءه ونوابه وموظفيه ليسوا شركاء للصوص والمختلسين، بعد أن دل التحقيق في كل فضيحة من هذه الفضائح المالية الكبرى أن هنالك وزراء ونوباً ومواظفين يشتركون مع اللصوص والمختلسين، ويمرحون معهم في تبديد اموال الأرامل وصغار المودعين والمستثمرين، ويعانونهم في اجتناب سطوة القانون والعدالة. والواقع أن هذه الفضائح المالية الشاملة لم تبق في فرنسا حوادث فردية، بل غدت ظاهرة قوية في سير الحياة العامة. واذا تتبعنا تاريخ الجمهورية الثالثة وجدناه فياضاً بتلك الكوارث المالية الفادحة التي يدبرها افراد اذكياء بمعاونة الرجال المسئولين، وتسفر دائماً عن اختلاس مئات الملايين ونكبة مئات الالوف. وقد كانت هذه الحوادث في بدء الجمهورية الثالثة تعتبر من مخلفات الامبراطورية، لانها ظهرت وتفاقمت في أواخر عهدها، وان توطد النظام الجمهوري سوف يقضي عليها ويطهر الحياة العامة من ادرانها. ولكنها استمرت تتعاقب قوية مروعة في ظل الجمهورية؛ ودلت كثرتها وتفاقمها في الاعوام الاخيرة، حسبما بينا، على أن النظام الجمهوري او بعبارة أخرى على أن الديموقراطية تحتضنها وتسيغها. ويخشى اليوم أولئك الذين يقدسون النظم الديمقراطية، أن هذا الفساد الدفين الذي لم توفق الحكومة الديمقراطية الى قمعه، قد يصرف الشعب عن عبادة الجمهورية والديمقراطية، ويجعله أكثر قبولا لقيام النظم الفاشستية والطغيان المطلق. والديمقراطية تعاني اليوم ازمة شديدة، بعد أن سحقت في ايطاليا والمانيا؛ وهي تهتز اليوم في فرنسا ويخشى ان تنهار دعائمها اذا لم تتداركها الايدي القوية الماهرة، بيد أنا نستطيع أن نقول ان تطور الحوادث الأخيرة في فرنسا كان ايضاً ظفراً حقيقياً للديموقراطية فقد استطاع الشعب بقوة رأيه وارادته أن يسقط في اسابيع قلائل وزارتين لم يثق بهما ولم يرتض حكمها: وان يقدم الدليل القوي على انها ما زال في ظل الديمقراطية سيد نظمه ومصايره.

محمد عبد الله عنان

حول الغموض والوضوح أيضاً

للاستاذ عباس فضلي خماس

(هل يحسن بالشعر أن يكون واضحا حتي لا خلاف فيه أم أن بعض الغموض فيه مغتفر بل مطلوب) - ط. ح -

يذكر قراء الرسالة ان الدكتور طه حسين كان قد عقد فصلاً ممتعاً حول غموض الشعر ووضوحه، وكان خلال بحثه يرمي الى غاية، وهي ان الشعر الغامض قد ينطوي على ابداع فني. ويذكرون ايضا انني علقت على الموضوع بكلمة ذهبت فيها الى ان الجمال والغموض لا يجتمعان في صعيد واحد، وانتهيت الى ان كل بديع في هذا الكون من منظر الى صوت الى شعر يلازمه الوضوح كيفما تكيف وتطور أو تصور، وأن الوضوح هو جوهر الجمال.

وكان لي من تعليقي على مقال الدكتور غرض جوهري لم يخف على القارئ الاديب كما كان لي من ورائه امل في ان ينشط الادباء للكتابة حول الموضوع بالنظر لما أعتقده فيه من خطورة. وقد تحقق شيء من هذا الأمل بتعليق الاديب الفاضل شوقي ضيف على مقالي حول الغموض والوضوح بما يعرفه القراء الذين تتبعوا هذا البحث. يتساءل الدكتور طه حسين (هل يحسن بالشعر ان يكون واضحاً حتى لا خلاف فيه) نعم يحسن بالشعر ان يكون واضحاً حتى لا خلاف فيه اذا كان هم الشاعر ان يضمنه صوراً جميلة، وسوانح رائعة، لأن القارئ لا يستطيع ان يتبين الصورة الجميلة اذا كانت مغمورة في حجب الغموض الكثيفة ولا تتأثر نفسه بروعة السوانح الفكرية، والخوالج النفسية اذا كانت متلفعة من الشعر الغامض بأستار مظلمة.

الشعر الفاظ وتعابير، يستعين بها الشاعر على وصف مشاهد الكون وتصوير الحادثات، والانفعالات والانطباعات النفسية المتكونة من تأثير المحيط الخارجي في نفسه. فهو اذن وسيلة وليس غاية. والشعر بالفاظه وتعابيره واصطلاحاته واوزانه وقوافيه للشاعر كالقيثارة أو الكمان أو البيان للموسيقى. يجلس الموسيقى على شاطئ بحر في ليل عاصف، فتتأثر نفسه بصفير الرياح وهزيم الرعد وتلاطم الامواج، فيحاول ان يصور تأثير نفسه
بانغام يتخيلها اولاً، ثم يؤلف بين متصاعداتها ومُتنازلاتها، ويوفق بين تموجاتها مستعيناً بآلاته الموسيقية حتى يهتدي الى تأليف قطعة موسيقية تتضمن من الانغام، ما لو سمعها الانسان لشعر بنفس التأثير الذي تأثر به الموسيقي ولخيل اليه انه في مجلس ذلك الموسيقي من شاطئ البحر في تلك الليلة:
ويجلس الشاعر مجلس هذا الموسيقي، ويتأثر بنفس ما تأثر به زميله، فيحاول ان يصف تأثره ويصور انفعالات نفسه بتخير الألفاظ والتعابير التي تحمل تلك التأثيرات الى نفوس السامعين ليجسم لهم الخيال المتولد من تأثير هذه الالفاظ والتعابير، صفير الريح وهزيم الرعد، كما يجسم لهم شعور الاستيحاش من الظلام الذي يشمل الطبيعة في ذلك الموقف
هذا اذا كان الأول يملك من الآلات الموسيقية ومن القابليات الفنية الخاصة بالموسيقى ما تمكنه من بلوغ غاية نفسه.
واذا كان الثاني ذا نفس شاعرة حساسة دقيقاً في تصوره، متقناً في تصويره، مالكاً زمام الالفاظ والتعابير يحسن استعمالها في مواطنها، حاذقاً في أسلوبه، عالماً بنفسيات الناس وما تتأثر به والى غير ذلك من الصفات التي يجب ان تتوفر في الشاعر.
فاذا لم يتصف الموسيقى بما مر ذكره، أسمعنا ولا شك قطعة مزعجة في نغماتها، لا تناسب ولا وئام بين تموجاتها، فلا تولد في النفس التأثير الذي قصد الموسيقى اليه. وكذلك االشاعر اذا لم تتوفر فيه الصفات التي ذكرنا بعضها انشدنا كلاما غامضاً لا نكاد نتبين منهقصده، واذا لم يتبين الانسان قصد الشاعر بما نظم فأين يا ترى يكون موضع الجمال ومحل الابداع، وموطن الروعة من شعره؟
لكي يفلح الشاعر في وصف الجمال او القبح وتصوير اللذة او الالم وغيرها من الحادثات النفسية يجب ان يكون صافي الذهن والنفس، واضحاً في تعابيره واصطلاحاته. استعرض مناظر الكون جمعاء، تحت نور الشفق القاني الأدكن، وتحت أشعة الهاجرة المتوهجة، أو تحت نور الأصيل الذهبي الفاتح، وتحر الجمال وابحث عن الروعة في هذه المناظر، تجد نفسك مهتدياً اليهما دون أي عناء، وتراك تنجذب الى مواطنهما كما تنجذب الفراشة الى الورود والازاهير الزاهية بالوانها الفياحة باريجها. فالجميل يكهرب حواسك، والبديع يمغطس مشاعرك، فيجذبك اليه فتنجذب. وما ذلك الا
للتناسب الظاهر بين اجزائه وللنظام المسيطر على تراكيب تلك الاجزاء والاشكال، وهذا هو سر الوضوح.
استعرض دواوين الشعر ديواناً، واقرأ قصائدها واحدة بعد واحدة، تجد نفسك تعرض عن قراءة بعضها بينما تقبل على قراءة بعض آخر، ابحث في نفسك عن سبب اعراضك وتلمس دواعي إقبالك، تجد أنك في الحالة الأولى لا تستطيع أن تهتدي تحت جنح ظلام الغموض الى الجمال واللذة اللتين تنشدهما نفسك كما تجد أن نور الوضوح في الحالة الثانية ينير نفسك فتهتدي الى الجمال وتلمس اللذة.
اما أن يكون هناك غموضان أو نوعان من الغموض كما يرى الاديب الفاضل شوقي ضيف، فهذا ما لا أتفق معه عليه ولا إخال أحداً من الأدباء يوافقه في مذهبه.
فالكلام إما أن يكون واضحاً وإما غامضاً، ولك ما نرى أو نسمع أو نلمس، وكل ما تتأثر به أنفسنا بطريق الحواس: إما أن يكون واضحاً بتأثيره في النفس، وإما أن يكون غامضاً، ففي الحالة الأولى تتلذذ به لأن نفسنا تستطيع أن تلمس جماله، وتعانق ابداعه، وتحتضن روعته، وفي الحالة الثانية نشمئز منه وننفر؛ فنفسنا لا تتأثر به، لأنها لا تلمس منه إلا شيئاً واحداً، وهو الألم الذي تعانيه من معالجة حل رموزه وطلاسمه. فاذا كانت ثمة نتيجة من قراءة الشعر الغامض، فهي ليست حينئذ لذة من تلمس أثر

جمال أو روعة، وإنما هي شعور بألم الخيبة، ولذة الراحة بعد العناء.
ومثل الذي يعالج استنباط المعنى أو الغرض من الشعر الغامض، كمثل من يتوهم أن في بقعة من الأرض ركازاً، فيظل ينبش أرض تلك البقعة الى أن يعييه الاجهاد، ولما لم يجد ما يتوهم وجوده يطرح بمعوله جانباً وهو يلهث كما يطرح بنفسه على الأرض وهو غير مفلح إلا بشيئين: ألم، ولذة. أما الأول فناشئ من شعور الخيبة في العثور على كنزه الموهوم. وأما الثاني فشعوره الناشئ من لذة الراحة بعد التعب والعناء.
أما الأديب الفاضل شوقي ضيف فقد أوجد غموضين (فجلل) الغموض الأول (من حنادس الليل بحجب وأستار) فجعله بذلك مشتملا على ظلام موحش وحلوكة دامسة.
أما الثاني فقال عنه إنه غموض جميل (لا تنفر منه النفس ولا تستوحش، وإنما تقبل عليه وتهش له وتجد فيه لذة ومتاعاً كبيراً، ثم راح يشبه غموضه الجميل بالظلال التي لا (تحجب النور)
وارتأى أنه لا يحول بين المرء وبين التأثر الجميل بالقطعة الشعرية، وأنه منار للاعجاب ومبعث للسرور، وما إلى ذلك.
والعجيب كل العجب أن الأديب الفاضل لم يبتعد كثيراً عن غموضه الجميل الذي شبهه بالسدول الرقيقة التي يرخيها الضباب على الطبيعة، حتى أخذ يسرد لنا أسبابه ويشرح علته، فقال: إن كثيراً من الغموض يرجع أسبابه الى فقر اللغة وقصورها في الافصاح عن عواطف الشعراء وميولهم؛ ثم أردف هذه الأسباب بأخرى وهي تعقد الحياة النفسية وإبهامها وغموضها، ثم انتهى الى أن هذا الغموض سيظل مسيطراً على الشعر حتى تتضح الحياة النفسية.
أما قصور اللغة في الافصاح عن بعض الحوادث النفسية الدقيقة فأمر لا ننكره ولا ينكره أحد من الناس، ولكن ذلك لا يعني بأن الشعر الغامض يجب أن يكون منطوياً على جمال رائع، وفن بديع، ولا يسوغ لنا أن نعتبر الكلام المرتبك الغامض شعراً كما أنه لا يجوز لنا أن نعتبر الناظم الذي لا يوفق لتصوير خوالج نفسه وعواطف روحه وانفعالاته شاعراً مبدعاً
واذ القيت نظرة متأمل الى ضروب الشعر الوجداني والعاطفي تبين لك أن بين هذا الشعر ما قد تمكن من أن يصف لك أعمق العواطف البشرية وأدقها بأبرع اسلوب وأتم بيان، ومنه ما كان بالفاظه وتعابيره أشبه بالاحاجي والالغاز منه بالكلام المفهوم وقد يجوز أن تجيش في نفس الانسان بعض الخواطر البديعة والمشاعر الرائعة، وقد يجوز أن يحتدم جيشانهما في أعماق نفسه فيضطرب شعوره بها ويظهر هذا الاضطراب ويفيض من جوانحه الى جوارحه فيصبح على أشبه ما يكون بثورة نفسية، ولكنه مع ذلك لا يستطيع أن يظهره لغيره، ما تكنه نفسه لأنه ليس بشاعر ليتمكن من التوفيق بين الكلمات والتأليف بين التعابير والمصطلحات اللفظية التي تحمل الى نفوس الناس وافهامه ما خالج نفسه وما أثار شعوره وإحساسه، أو لأنه ليس برسام ليستطيع أن ينقل بريشته الوان تلك الصور والأشكال التي تأثرت بها نفسه، أو لأنه ليس بالفنان الذي يستطيع أن يستخدم وسائل فنه لتصوير ما جاشت به نفسه ووصف ما اضطرب له حسه.
فان شعوره ولا شك يبقى مطموراً في باطنه، ولا يمكن البتة أن يتأثر احد سواه بما تأثر به
هو، ومثل الشاعر الغامض الذي ينظم قصيدة فيقرأها الناس ولا يفهمون ما اراد بها وما قصد، فيضطرون الى ان يسألوا منها عن مراده وقصده - كمثل كل انسان اعتيادي بما يشعر به تجاه مظاهر الكون وحوادثه.
والسبب الثاني الذي اورده الاديب الفاضل شوقي ضيف على غموض الشعر هو تعقد الحياة النفسية وابهامها، ولعله قاصد بهذا التعقد والابهام عجز الانسان عن تبين ماهية بعض من ميول نفسه ونزعاتها ورغباتها وانفعالاتها و. . . الخ
نعم ان الحياة النفسية معقدة بالرغم من مجهودات البشر العلمية في تحليلها الى ابسط ما يمكن، وستظل معقدة بل سيزيد تعقدها وابهامها كلما تقدمت جهود الانسان العقلية في البحث عن كنه النفس واسرار حوادثها.
اما ان يظل الشعر يلازمه الغموض ما دامت الحياة النفسية غامضة فهذا حكم غير صائب، ولعل الاديب الفاضل قد تورط اضطرار في هذا الحكم وذلك لأنه ضيق على

نفسه بيده مجال البحث فناط بالشعر وحده دون سواه من الفنون الجميلة اماطة اللثام عن اسرار هذه الحياة النفسية.

لا يا أخي شوقي! ما كان الشعر في جميع أدوار حياته، ولن يكون وحده الكفيل الضامن للنهوض بهذا العبء الثقيل، فقد وجدناه في سالف العصور ونجده الآن يمد يده الى اخوته، الفنون الجميلة مثل الرسم والنحت والموسيقى حتى الرقص يستعين بها على بلوغ هذه الغاية.

فهناك بعض الحوادث النفسية لا يستطيع الشعر أن يصفها بما لديه من وسائل، وتستطيع ريشة الرسام أن تبرزها واضحة، فعدم استطاعة الشعر في مثل هذا الموقف يجب ألا نعتبره عجزاً منه وتقصيراً بل هو في الحقيقة تكليفه بالخروج عن نطاق اختصاصه وقابليته كما أن هناك بعض الخوالج النفسية يعجز عن ابلاغها إلى النفوس كل من الشاعر والرسام والمثال والموسيقي، ولكن راقصة رشيقة فنانة تتمكن بحركات خاصة أن تعبر عنها وتجسم تأثيرها في النفوس.

فمطالبة الشعر وحده يكشف أسرار الحوادث النفسية ووصفها وتصويرها على اختلاف أنواعها وضروب تأاثيراتها هو السبب الذي حدا ببعض المفكرين أن يرموه بعلة الغموض،

هذه العلة التي راحوا بعد اختراعها يتحرون بين طياتها الجمال الموهوم والابداع المزعوم.

بغداد

عباس فضلي خماس

في محكمة التاريخ

الوزير مؤيد الدين بن العلقمي

هل غدر بأمته وخليفته؟

إن موضوع الخيانة العظمى التي تتهم جمهرة المؤرخين هذا الوزير بها موضوع دقيق، اذ ليس لدى من يعرض لهذا الحادث التاريخي المهم الادلة الكافية التي تخرجه بنتيجة حاسمة لا جدل فيها ولا مغالطة، وكيف يتسنى لكاتب ان يصل لحقيقة تحيط بها الشكوك وتكتنفها الظنون؟ لأن ما يظهره بعض من كتبوا او قل تعرضوا لهذا الأمر الخطير من ميل مع هوى النفس وخضوع للعواطف يزيد في التحير والتشكك. زد على هذا وقوع هذا الحادث في فترة فوضى واضطراب استولى الرعب فيها على مشاعر الناس، وكيف لا وهي فترة تقتيل وتشريد وتحريق وتدمير. وفي احوال كهذه يجب الشك، ويلزم الحذر والتنبه لاكثر ما يروي عما يقع عادة في خلال هذه الاحوال المضطربة، لأن الفزع والذعر يخرجان المرء عن الطبيعة الهادئة المتروية التي تتطلبها رواية الحوادث ولا سيما الهامة منها، فالاضطراب والتشويش صنوان متعانقان فضلاً عن رواج سوق الشائعات، ولا سيما الباطلة منها في اوقات الانقلابات والاحداث السياسية المهمة. وسأضع الآن بين أيديكم ما تقوله المصادر الأولية عن هذا الحادث، مبتدئاً بالمصادر حسب اوليتها، وبعد ان افرغ من ذلك سأحاول جهدي المقابلة بين المصادر، ثم نقد مواطن الضعف في كل مصدر. وأبدأ بما يقوله ابن الطقطقي في صدد الكلام عن مخامرة الوزير (ونسبة الناس انه خامر. وليس ذلك بصحيح. ومن أقوى الأدلة على عدم مخامرته سلامته في هذه الدولة، فان السلطان هلاكو لما فتح بغداد وقتل الخليفة سلم البلد الى الوزير وأحسن اليه وحكمه، فلو كان قد خامر على الخليفة لما وقع الوثوق اليه).

وبعد أن ينتهي من هذا البرهان يذكر لنا روايته عن تصلب الوزير واصراره على عدم الخروج الى هلاكو. ويروي المؤرخ هذه الرواية عن ابن أخت الوزير، ومأدها أن الخليفة طلب وزيره وقال له (قد أنفذ السلطان بطلبك، وينبغي أن تخرج اليه، فخرج الوزير من ذلك، وقال يا مولانا اذا أخرجت فمن يدير البلد ومن يتولى المهام؟ فقال له الخليفة لابد من أن تخرج. قال فقال السمع والطاعة، ثم مضى الى داره وتهيأ للخروج ثم خرج. . فلما حضر بين يدي السلطان وسمع كلامه وقع بموقع الاستحسان. . . . فلما فتحت بغداد

سلمت اليه والى علي بهادر الشحنة فمكث الوزير شهوراً ثم مرض ومات رحمه الله (في جمادي الأولى سنة ست وخمسين وستمائة

اما ابو الفدا فيقول في كلامه عن استيلاء التتر على بغداد وسبب مجيئهم (ان وزير الخليفة مؤيد الدين بن العلقمي كان رافضياً، وكان اهل الكرخ ايضاً روافض، فجرت فتنة بين السنية والشيعة ببغداد على جاري عادتهم فامر أبو بكر ابن الخليفة وركن الدين الدوادار العسكر فنهبوا الكرخ وهتكوا النساء وركبوا منهن الفواحش فعظم ذلك على الوزير ابن العلقمي وكاتب التتر واطمعهم في ملك بغداد) وبعد ان يذكر ما وقع بين جند الخليفة وجند السلطان وتغلب السلطان وتقدمه لحصار بغداد (خرج مؤيد الدين الوزير ابن العلقمي الى هولاكو فتوثق منه لنفسه وعاد الى الخليفة المستعصم وقال إن هلاكو يبقيك في الخلافة كما فعل بسلطان الروم ويريد ان يزوج ابنته من ابنك أبي بكر، وحسن له الخروج الى هلاكو فخرج اليه المستعصم في جمع من اكابر اصحابه فانزل في خيمة ثم استدعى الوزير الفقهاء والاماثل فاجمتع هناك جميع سادات بغداد والمدرسون، وكان منهم محي الدين بن الجوزي واولاده وكذلك بقى يخرج الى التتر طائفة بعد طائفة، فلما تكاملوا قتلهم التتر عن آخرهم)

ويجيء بعد ابي الفداء ابن الوردي وهو يأخذ عن ابي الفدا احياناً بالحرف، ولولا انه ذكر اشياء لم يذكهرا ابو الفدا لاغفلت ذكره، وهو بعد ان يذكر ما ذكره ابو الفدا عن فتنة بغداد وما ارتكب من الامور الشنيعة، وان ابن العلقمي ارسل الى هولاكو يستقدمه يورد نص الرسالة التي ينفرد بذكرها فيقول (وكاتب التتر واطمعهم في بغداد وطمع الخبيث الغوي في اقامة خليفة علوي) (قلت) وكتب ابن العلقمي وكتب ابن العلقمي الى وزير اربل يطلعه على ذلك في رسالة (منها) أنه قد نهب الكرخ المكرم وقد ديس البساط النبوي المعظم وقد نهبت العترة العلوية واستؤسرت العصابة الهاشمية وقد حسن التمثيل بقول شخص من غزيه

امور تضحك السفهاء منها ... ويبكي من عواقبها اللبيب

قد عزموا على نهب الحلة والنيل، بل سولت لهم أنفسهم أمراً فصبر جميل.

أرى تحت الرماد وميض نار ... ويوشك أن يكون لها ضرام

ومنها:

وزير رضى من حكمه وانتقامه ... بطى رقاع حشرها النظم والنثر

كما تسجع الورقاء وهي حمامة ... وليس لها نهى يطاع ولا أمر

(فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون)

ووديعة من سر آل محمد ... أودعتهاا إن كنت من أمنائها

فاذا رأيت الكوكبين تقارنا ... في الجدي عند صباحها ومسائها

فهناك يؤخذ ثار آل محمد ... وطلابها بالترك من اعدائها

وكن لما أقول بالمرصاد، وتأول أول النجم واحرص) ثم يقول في شأن الرسول وكيف أرسل بالرسالة الى هلاكو (فارسل ابن العلقمي الى التتر أخاه يستدعيهم فساروا قاصدين بغداد في جحفل عظيم (قلت) أراد ابن العلقمي نصرة الشعية فنصر عليهم، وحاول الدفع عنهم فدفع اليهم، وسعى ولكن في فسادهم، وعاضدو لكن على سبي حريمهم وأولادهم، وجاء بجيوش سلبت عنه النعمة، ونكبت الامام والأمة، وسفكت دماء الشيعة والسنة، وخلدت عليه العار واللعنة) ثم يقول عن عاقبة الوزير: وفيها أي في سنة 656هـ (توفي. . . والوزير المتبر مؤيد الدين محمد بن محمد العلقمي الرافضي، قرر مع هلاكو أموراً فانعكست عليه وعض يده ندماً وصار يركب اكديشاً فنادته عجوز يا ابن العلقمي هكذا كنت تركب في أيام المستعصم؟ ووبخه هلاكو آخراً فمات غماً وغبناً لا رحمة الله ومات ابنه بعده) أما صاحب فوات الوفيات فيذكر ان الوزير ظل مخلصاً للأستاذه حتى وقع بينه وبين الدوادار ما وقع من اختلاف، فعضدت الحاشية الدوادار فضعف أمر الوزير فرفعته الضغينة والحقد ان يسعى في إدالة الدولة فأخذ (يكاتب التتر الى ان جرأ هلاكو على أخذ بغداد وقرر مع هلاكو أموراً انعكست عليه وندم حيث لا ينفعه الندم، وكان كثيراً ما يقول. وجرى القضاء بعكس ما املته، لأنه عومل بانواع الهوان من اراذل التتر والمرتدة) ثم يستمر ابن شاكر في حديثه فيروي لنا كيف ابلغ الوزير رسالته الى التتر، فقد ابتدع خطة جهنمية قد لا تخطر لانسان فيقول المؤرخ (وحكى انه لما كان يكاتب التتر تحيل الى ان أخذ رجلاً وحلق رأسه حلقاً بليغاً، وكتب ما اراد عليه بالابر ونفض عليه الكحل وتركه عنده الى ان طلع شعره وغطى ما كتب فجهزه وقال اذا وصلت مرهم بحلق رأسك ودعهم

يقرأون ما فيه. وكان في آخر الكلام (قطعوا الورقة) فضربت عنقه وهذا غاية في المكر والخزي) أما عن نهاية الوزير فيروي انه مات بعيد استيلاءالتتر على بغداد بتأثير الغنم والغيظ على ما أصابه من التتر في سبيل انتقامه من الدوادار ومشايعيه ويقول ابن خلدون في كلامه عن هلاكو (وقصد قلعة ألموت وبها صاحبها علاء الدين فبلغه في طريقه وصية ابن العلقمي وزير المستعصم ببغداد في كتاب ابن الصلايا صاحب اربل يستحثه للسير الى بغداد ويسهل عليه امرها لما كان ابن العلقمي رافضيا هو وأهل محلته بالكرخ، وتعصب عليهم أهل السنة بان الخليفة والدوادار يظاهرونهم، وأوقعوا باهل الكرخ وغضب لذلك ابن العلقمي ودس الى ابن الصلايا باربل وكان صديقاً له بان يستحث التتر للملك بغداد، وأسقط عامة الجند يموه بانه يصانع التتر بعطائهم، وسار هلاكو والتتر الى بغداد) وبعد أن يذكر فظائع التتر ببغداد وما قتلوا من أنفس أحصى عددها فبلغ المليون والثلاثمائة ألف يقول (. . . واستبقى ابن العلقمي على الوزارة والرتبة ساقطة عندهم فلم يكن قصاى أمره الا الكلام في الدخل والخرج متصرفاً من تحت آخر أقرب الى هلاكو منه فبقى على ذلك مدة ثم اضطرب وقتله هلاكو) ويقول دحلان في كلامه عن مجيء التتر (وكان من أعظم الاسباب أن ابن العلقمي وزير المستعصم كان رافضيا وكان يريد نقل الخلافة من العباسيين الى العلويين فكاتب التتر وأطمعهم في ملك بغداد . أما ابن العلقمي فلم يتم له ما أراد وذاق من التتر غاية الذل والهوان، فان هلاكو استدعاه بين يديه وعنقه على سواء ما فعله مع أستاذه، ثم قتله شر قتلة، وقيل إ ' نه مات حتف أنفه غماً وكمداً)

فرحان شبيلات

الجامعة الامريكية (بيروت)

خواطر

للاستاذ أديب عباسي

1 - الفضيلة سياج من شوك ليس له باب، يجد الداخل اليه والخارج منه صعوبة على السواء.

2 - كثيرون يخلقون عندما يموتون.

3 - مساوئ المرء تدفن معه.

4 - بعض الناس كالموائع يتشكلون دائماً بشكل الاناء الذي يوضعون فيه.

5 - كلما دنت النفوس من الأرض هان قطافها - شأنها شأن الثمر.

6 - أفراح الحياة واتراحها ممتزج بعضها ببعض. لهذا كان من المستحيل أن ينال امرؤ حظاً من الحياة خالصاً من الاتراح، أو خالياً من الأفراح.

7 - أكثر الذين يظنون انهم يحبون غيرهم لا يحبون في الحقيقة غير نفوسهم.

8 - يحب الرجل الانكسار في المرأة لأنه تعود اذلالها.

9 - من لا تحفزه همته الى الاهتمام بنفسه لا يستطيع احد ان أن يحمله على ذلك.

10 - من الناس من يخلقون اذناباً؛ ومن العبث المسرف أن تجعلهم رؤساء.

11 - ليس آلم للنفس من رؤية الرذيلة في ثياب الفضيلة والذئب في ثياب الحمل.

12 - المتكبر كالرابية الجرداء.

13 - يحب الشهرة جميع الناس، ولكن العاجزين يتظاهرون بالرغبة عنها.

14 - شر الناس واشدهم خطرا هم اولئك الذين يظهرون خلاف ما يبطنون، لأن من بدت للناس سريرته هان عليهم اتقاؤه مهما كان شره.

15 - ينعم الجاهل بجهله كما ينعم الحكيم بحكمته.

16 - ضعيف الأرادة كالمريض المدنف عرضه لتغيرات البيئة.

17 - كثير الكلام كالصبي لا يستطيع ان يعطيك فكرة محبوكة الاطراف.

18 - تحب المرأة في الرجل الصفات التي هي خلو منها وكذلك الرجل، فكانهما فهما قصد الطبيعة فامتزجا على هذا النحو ليخرجا المخلوق الكامل.

19 - الجهل صحراء محرقة لا يعيش فيه الا من تعوده.

20 - الضمير الحي كالابرة لا تستطيع ان تمعن في الضغط عليه.

21 - المصائب الكبرى تبتلع الصغرى.

22 - كلما كثرت اغلاط المرء قل اهتمامه بها.

23 - من حرص على اخفاء عيوبه فقد قلل منها.

24 - الفن هو فن على قدر ما يستولي علينا ويستغرق حواسنا ومشاعرنا.
25 - رحب الصدر كالبحر مهما جاش وأزبد يبقى في موضعه.
26 - المتكبر كالرجل فوق الجبل يرى الناس صغاراً وهم يرونه صغيراً.
27 - ما أغرب ما تكون حياة المرء لو عمل بكل ما يفكر به.
28 - اذا فقد الذئب أنيابه صار حملا.
29 - النبع العميق لا تعكره الحصاة الصغيرة.
30 - الأمل يزيد القوي قوة والضعيف ضعفاً.
31 - من لا يقتنع بالحق لا يستطيع أن يقنع به أحداً.
32 - الوضيع كالدخان لابد عائد الى مصدره الوضيع مهما ارتفع.
33 - بعض الناس (كديك) الهواء يميلون دائماً حيث تميل الريح
34 - من تكلف الصدق فقد كذب.
35 - نزعة الدفاع عن النفس يذكيها ويغذيها فينا الشعور بالنقص والحرمان من جهة، وما فطرنا عليه من حب للكمال وكره للنقص من جهة أخرى. ومن هنا كانت هذه النزعة بين الناس في هذا الحد من الشيوع.
36 - من الناس من اذا أعياه الارتفاع الى مستوى الأغيار حاول النزول به الى مستواه.
37 - ان العبقري كالمصباح القائم على عمود عال يرى ويلاحظ من بعيد، ولكنه في الوقت ذاته يبدي للمشاهدين كل ما يحيط به ويرتكز عليه.
38 - المرأة كالأطفال تأسرها الروايات المغرقة في الخيال. وهذا ليس أمراً عارضاً: إنما هو تعبير صامت عن شعورها بالضعف ومقياس لمقدار ما تشتهيه من قوة ونفوذ، فتعوض عن ذلك بطريق الخيال.
39 - ان الميل الذي يظهره البعض الى الزهد والتقشف قد لا يكون له من أساس إلا طلب
المتعة من جهة، والعجز عن نيلها من جهة أخرى، فينطبق عليهم مثل الثعلب والعنب.
40 - ان الخطيب الذي يهبط كلامه الى قرارة النفوس هو الخطيب الذي يقول: (نحن) ولا (أنتم).
41 - العبقري جبل شاهق بين سلاسل من التلال المطمئنة. فيشعر أوساط الناس - الذين يقيسون اقدارهم الى قدره - بأنوارهم تكف وأقدارهم تتضاءل. ومن هنا ترانا الى تضخيم سيئات العبقري أميل، وبتشويه سمعته أعلق، كأننا ننتقم منه لعزَّتنا الجريحة
43 - لا يوصف العبقري بالاعتدال (والاعتدال دائماً النزول على حكم الأكثرية). ومن هنا يجده العبقري من تأييد شديداً وعداء شديد. فهو في آرائه ونزعاته وأخلاقه ينحاز غالباً الى أحد طرفي المبالغة. وهو - لذلك - يبوافق فئة أشد الموافقة ويخالف فئة أشد الخلاف.
44 - لا ترسل الطبيعة العبقري برقا يردد صدى اصوات الجمهور، انما ترسله نوراً وهداية يؤتم به ويهتدي بهديه.

شرق الأردن

أديب عباسي

يوم سقراط الأخير في منزله

للآنسة اسماء فهمي

تهمنا ناحية خاصة من تعاليم الفيلسوف سقراط، التي سجلها أفلاطون في (الجمهورية) وهي رأيه في تعليم النساء؛ فقد كان يقول بوجوب تعليم الممتازات منهن تعليما لا يختلف عن تعليم الرجال الممتازين، لاعدادهن لتولي منصب الحكام الفلاسفة في المدينة النموذجية، إذ لا يرى اختلافاً جوهرياً بين استعداد المرأة واستعداد الرجل. يرى سقراط هذا الرأي في وقت انحطت فيه مكانة المرأة في أثينا وأصبحت لا تمتاز من الأرقاء إلا قليلاً؛ وبالرغم من أنه كان يعيش مع زوجة يضرب بها المثل في شراسة الطباع ورعونة الخلق. وهذا لا شك برهان قوي على استقلال رأي الفيلسوف وسموه على الآراء السائدة، والمؤثرات الخارجية،

واعترفاً بفضل سقراط على المرأة سأبين فيما يلي ما عاناه من عنت زوجه (زانتيب)

في يومه الأخير بداره قبل القبض عليه، مستعينة بالرواية التي وضعها عن حياة الفيلسوف.
في صباح يوم راق جوه، وسطعت شمسه، آثر سقراط البقاء في منزله على غير العادة، فلم يخرج للحوار والمجادلة في أسواق أثينا، وإنما جلس على مقعد خشبي عتيق في فناء داره التي كانت يستعملها غرفة استقبال - وأخذ يخصف حذاءه؛ ولعل ذلك ما منعه عن الخروج ذلك اليوم؛ وتلك عملية كانت تجدد ولا شك كل بضعة أسابيع، لأن الفيلسوف كان لا يستعمل شيئاً أكثر من نعليه سوى لسانه!
وبينما هو على تلك الحال، ولحيته الطويلة البيضاء المرسلة تكاد تخفي الحذاء وتعوق سير العمل، اذ بزوجته زانتيب تنقض عليه انقضاض الصاعقة وتفاجئه قائلة:
- أنت هنا يا سقراط؟
- نعم: ييا زانتيب، ولكن لا أفهم المقصود من تلك العبارة. .؟
- وما الذي تفهم من شئون الحياة؟ سأفرغ من اعداد طعامك بعد دقائق. .
- حسن جدا.
- الطعام المعتاد طبعا.
- جميل للغاية.
- أحقاً ما تقول؟! لو كنت تعمل عملاً شريفاً وتحصل منه على بعض النقود مثل سائر الرجال المجدين لما أصبحنا في حاجة لأكل العيش والعدس يوماً بعد يوم.
- إن من لا يسأل غير الكفاف يا زانتيب يكون بلا شك أعظم الناس شبها بالآلهة!
- أبق هذا الهذيان حتى تكون مع صحبك الأعزاء. أما انا فلا تهذ معي. . .
- لقد خلق كلانا محبا للكلام!
- لقد خلقت محباً لذاتك، وتلك هي مصيبتك.
- ربما.
- أيهمك أمري أو أمر اللأطفال؟ لو كنت تفكر فينا حقاً لما جننت لدرجة أنك أصبحت تناصب الحكومة العداء،
- ما الذي سيحل بي؟
- أريد أن أعلم - عندما يلقونك في أعماق السجون؟
- عندئذ تصبحين أسعد حالاً.
- وكيف ذلك؟ هل لي أن أسأل؟
- إن أصدقائي لا يفتأون يقدمون الى نقودا. . .
- وأنت دائماً ترفضها (زانتيب مقاطعة).
- بالتأكيد! أما أنت فسوف لا ترفضينها!
- هل تريد ان أموت جوعاً؟ أما عن اصدقائك فاني أبغضهم جميعاً ما عدا (السبياديس) الانيق. اني لا أستغرب ان يقتل الشبان الموسرون أوقاتهم في المجادلة في أمور تافهة، ولكن الذي استغربه هو عدم ترك الرجل الفقير لتلك الأمور لمن هم فوقه مرتبة.
- لقد اشتغلت بجد في شبابي
- وانفقت كل ما جمعت على الناس! آه لقد نفد معين الصبر معك!
- لقد لاحظت ذلك
- آه. كم أود أن تغتاط وتفقد حلمك معي! انني كمن يحاول إيقاد خشب مبتل.
- لا تحاولي ذلك
- سحقاً لك! أعازم على الدخول أنت؟
- سريعاً
- سوف لا تجد من الطعام غير الماء البارد
- هو كل ما أريد
(يسمع طرق على الباب)
زانتيب: - من الطارق؟ إذا بقيت هنا للكلام فقد لا تجد طعاماً مطلقاً. (تخرج)
سقراط: يفتح الباب ويدخل (مليتاس) الشاعر
سقراط: أنك لتفاجئني!
مليتاس: أتسمح لي بالبقاء دقائق معدودة؟

سقراط: بالطبع. ولكنك منذ ثلاثة أيام قلت إنك سوف لا تكلمني أبداً
مليتاس: لقد كان ذلك هياجاً سخيفاً. لقد كنت على صواب وكنت أنا على خطأ وقد جئت لأقر بذلك الآن بجانب غرض آخر
سقراط: وما هو الغرض الآخر؟
مليتاس - أن أسأل عما اذا كان في إحضاري صديقين من أصدقائي للحديث معك عمل خارج عن حدود الحرية المألوفة.
انهما يتلهفان لمعرفتك
سقراط - بابي لكل وارد مفتوح. من هما؟
مليتاس - أنيتاس الدباغ، وليكون الخطيب من ذوي المستقبل الباهر في السياسة. ولقد سنحت لهما الفرصة الآن طبعا.
سقراط - الآن؟ ولم الآن؟
مليتاس - أحقا إنك لم تسمع بعد؟
سقراط - لم أخرج اليوم من منزلي قط.
مليتااس - إذن أنا الذي سأزف اليك النبأ السار: لقد سقطت الحكومة الاستبدادية وقامت مكانها حكومة ديمقراطية.
سقراط - معنى ذلك نفي عدد جديد من الناس على ما أعتقد.
مليتاس - معناه أنك أصبحت بعيداً عن الخطر الآن.
سقراط - نعم! ولكني واثق من إغضاب الحكومة الحاضرة كما أغضبت السالفة.
مليتاس - وهل نسيت أن لك عدداً كبيراً من الأصدقاء في أثينا؟
سقراط - لي أضعاف أضعافهم من الاعداء.
(يسمع طرق على الباب)
مليتاس - ها هما ذان قد حضرا
سقراط - من أعدائي؟
مليتاس - كلا. كلا. بل قل أصدقاءك الجدد (يدخل أنيتاس الدباغ وليكون الخطيب)
مليتاس - ها قد أتيتما. هذا أنيتااس الدباغ وليكون الخطيب
سقراط - اجلسا على الرحب والسعة.
ليكون - ان من دواعي فخاري أن أتعرف اليك الآن
أنيتاس - وإنه ليسرنا نجاتك المدهشة.
ليكون - قد تتساءل عن سبب زيارتنا لك الآن؟
سقراط - صدقت.
ليكون - إننا ديقراطيان متحمسان
أنيتاس - ونعد الديمقراطية النوع الوحيد من الحكومات الذي يرضى أفراد الشعب الذين يحترمون أنفسهم ويعتزون بالكرامة.
ليكون - وإنه ليسرنا أن سقراط العظيم يوافقنا في الرأي
سقراط - ان نوع الحكومة لا يفضل أي نوع آخر، بل كل شيء يتوقف على الأشخاص الذين يحكمون بالفعل.
مليتاس - ولكنك بالطبع تؤيد المبادئ الديمقراطية؟
سقراط - هل لليكون أن يعرفني ما هي لأنه كما يبدو أكثر احتمالا لغباوتي من غيره؟
ليكون - الديمقراطية هي الحكومة القائمة على رغبة الشعب، هي المبنية على المساواة المطلقة بين الافراد.
سقراط - عظيم جداً. . . ولكن هل لي أن أسأل بعض الاسئلة بحسب طريقتي المعروفة.
زانتيب (من الداخل) سقراط! سقراط!
سقراط - هي زوجتي تعلن اعداد الطعام
ليكون - اذن يجب أن نستأذن للخروج
سقراط - انني أفضل الحديث على الطعام.
مليتاس - اذن سل ما تشاء.
سقراط - سأبدأ بسؤال ليكون. اتسلم مبدئياً بمقتضى ما لديك من التجارب أن التجارب مثلا ليست من الأمور الهينة وكذلك إدارة الجيش.

ليكون - بالتأكيد.
سقراط - وأن ادارة الحكومة يدخل ضمنها التجارة والجيش والزراعة وأشياء أخرى صعبة الحصر؟
ليكون - بالطبع
سقراط - وأن من الضروري أن يديرحكومة كهذه كثيرة الفروع مختلفة الاغراض أعقل الأفراد؟
ليكون - بالضرورة.
سقراط: وهؤلاء يختارون بالتصويت العام. أليس كذلك؟
ليكون: هو ما تقول
سقراط: وانت تقول إنه لابد من اشتراك الافراد في الحكومة اشتراكاً مبنيا على المساواة في التصويت ماداموا يتساوون في الدفاع عن الأوطان؟
ليكون: مازلت محتفظاً بنظريتي.
سقراط: ومعنى ذلك أن الفرد الغبي له سلطة تعادل سلطة الرجل الذكي، والنتيجة تكون اختيار افضل الرجال؟
ليكون: (بغضب) إننا نعتمد على الاجماع الذي لا يضل:
انيتاس: وما الذي ترمي اليه من محاورتك هذه؟
(تدخل زانتيب)
زانتيب: بمثل هذا الاهمال تعامل الزوجة الصالحة التي تجهد نفسها في طهي العدس؟ ألا فاشهدوا أيها الرفاق على عقوق الأزواج!
هيا انهض معي وإلا كيف يكون الانتقام
سقراط: معذرة أيها الرفاق فانا ذاهب معها! (يخرجان)
مليتاس: ألم اقل لكما إنه عدو للحكومة والشعب؟ اذهب يا انيتاس وأحضر من يتولى القبض عليه فهو كما تبين لكما خائن للحكومة وكثيراً ما عاث في الارض وأفسد عقائد الشيوخ والشبان.
(يخرج انيتاس)
(يدخل سقراط)
سقراط - أين انيتاس وكيف يخرج غير مسلم؟
ليكون - لقد كلب إلى أن أعتذر اليك إذ تذكر موعداً أنساه إياه حديثك العذب الطريف. الآن وقد استنرت بآرائك في السياسة فهل لي أن أطلب هدايتك في الدين؟ .
مليتاس - حذار يا ليكون فسقراط معروف بكفرانه بالآلهة
سقراط - تلك أكذوبة لفقها كتاب الكوميديا.
ليكون - أنت غير ملحد إذن؟
سقراط - يلزمنا أن ننظف أدمغتنا كل عاام كما ننظف دورنا من سقط المتاع
مليتاس - وما هو سقط المتاع يا ترى؟
سقراط - آراء ماتت أو آخذة فيي التعفن والاضمحلال.
(تدخل زانتيب)
زانتيب - لقد برد طعامك، فما الفائدة من كل ذلك الهذيان؟
إن العدس لا يؤكل الآن
سقراط - لا بأس فلا حاجة لي به
زانتيب - أتقول لا حاجة لك به بعد أن تعبت في إعداده لك؟ حسنا هاك جرة من الماء البارد هي كل ما ينبغي أن تأكل جزاء وفاقا (تلقي الجرة في وجهه)
(يسمع طرق على الباب)
زانتيب - تسير نحو الباب وتفتحه قليلا ثم ترده بسرعة صارخة وتكر راجعة
زانتيب - الجنود! الجنود بالباب يا سقراط. . . اني أرى الشر في وجوههم أي زوجي العزيز. . لقد جاءوا في طلبك ولا شك. ألم أقل لك أن كف عن النقد والجدل. . آه (تبكي) (يشتد الطرق) ولكنك لم تنهرني ابداً ولم تضربني كما يفعل الرجال غلاظ القلوب مغفلة يا زوجي العزيز. واحزناه. . انك لم تذق طعاماً منذ ظهر أمس (تدخل الجنود)

سقراط - مهلا ايها الجنود. انا قادم اليكم. . . وداعا يا زانتيب. . لا تجزعي فسيرعاك الله في غيبتي. . . واذا ماا ذكرتني فاذكري انني لم أعبأ قط بالحياة ولا بالموت بل بالحقيقة التي سأعذب ولا شك من أجلها. . . .

زانتيب -: ترتمي على مقعد وتنتحب. . .

اسماء فهمي

ابن قلاقس - 2)

هـ (1138 - 1172م)567 - 532

لشاعرنا مذهب في الحياة، اختاره لنفسه، وارتضاه كطريقة يسير عليها، ذلك المذهب هو اختلاس الفرصة، وانتهاز غفلة الزمان، فهو قد آمن بأن الدهر لا يحسن مرة الا أساء أخرى، ولا يمد يداً الا انتزاع بشماله ما قدمه بيمينه، فهو متقلب متلون كالحرباء، وإذا كانت تلك حالة الدهر، فمن الخير للمرء أن ينتهز الفرصة التي تسنح له، فلا يدعها تفلت من يده، ولينل فيها اللذة التي تهيأت له، إذ انه من الخير للمرء ألا يدع نفسه فريسة الدهر فيزيد السهام سهماً، والجراح جرحاً، وأولى له أن ينتهز غفلة الدهر فاذا نامت عينه، تمتع ما دامت تلك العين غافلة، واستمع إليه حين يقول:

واعطف على خلس اللذات مغتنماً ... فالدهر في حربه تلوين حرباء

أما اختلاس اللذات من الناحية الدينية فهو يطمئنك عليها ويخبرك أن هناك الها رؤوفاً رحيماً لا يضن عليك بالعفو إن أنت اقترفت جرماً ثم عدت إليه لابساً التوبة مرتدياً ثياب الاستعطاف، فلا بأس عليك من ذنب، ولا ضير عليك من اقتراف معصية، فاقترف، واعترف، فثم كريم يهب الأقتراف للاعتراف ولقد كان من وسائل سروره التمتع بالغناء، والانصات إلى مغنية جميلة رخيمة الصوت تطربه وتسره، حتى أصبح له بسبب هذا

الولوع اذن غنائية هيأت له أن ينتقد المغنيات اللاتي لا يجدن من الغناء ولا يحسن الا مد الصوت ولو كان متنافراً، ولا يجدن اتفاق النغمات، ولا ندري إن كان شاعرنا قد اتخذ الخمر وسيلة من وسائل تمتعه بالحياة ولهو فيها، أو أن لهجة بها وتغنيه بذكرها، وتفننه في وصفها، كان ناشئا عن تقليد لا عن عاطفة نحوها، وبعد فماذا كان موقف ابن قلاقس إزاء الحياة العلمية؟ وما مذهبه الذي اختطه لنفسه؟ وهل كان موفقاً في اختياره هذا المذهب؟

- 5 -

إن كنت تبغي وطنا ... من العلا فاغترب

فالسمر في غابلتها ... معدودة في القضب

على أن أسعى وما ... على نجح الطلب

تلك هي عقيدته في الحياة العملية، وذلك هو مذهبه الذي اختاره وارتضاه، فهو لا يرى العلا تنال إلا بالبعد عن الوطن والتغرب عن الآل، ففي ذلك نيل الأمل وبلوغ المأرب. ولعل ولادته في ثغر الاسكندرية لها اثر في ذلك، على أنه بالرغم من هذا لا يرى التغرب إلا وسيلة من الوسائل للوصول إلى أطماعه، فأن أخفقت فأن ذلك الاخفاق لا يفت في عضده ولا يضعضع من قوته، فعليه أن يسعى، وما عليه نجح مطالبه، وشاعرنا لم يكن في مذهبه ذلك مشرعاً فحسب أو قانونياً يلقى القانون إلى الناس، ولا يتبعه بعمل بل كان قوله ذلك معبراً أصدق تعبير عن حياته العملية كلها، فتاريخه ينبئنا أنه كان كثير الحركات والأسفار، لم يقتصر على التنقل في وطنه، بل غادره إلى بلاد غير بلاده وآل غير آله

رحل إلى صقلية في شعبان سنة ثلاث وستين وخمسمائة، وصقلية جزيرة قرب ايطاليا كانت تابعة للفاطميين حينا من الزمن طويلا، إلى أن تغلب عليها روجر النورماندي، وانتزعها من أيديهم، وجعلها إمارة مستقلة، وكان بتلك الجزيرة أيام وصل اليها شاعرنا قائد يسمى أبا القاسم بن حجر، فاتصل به اتصالا وثيقاً، ومدحه مدحا كثيراً، وتوثقت بينهما الصلة، حتى ان شاعرنا ألف له كتابا أسماه الزهر الباسم في أوصاف أبي القاسم، ويقال إنه قد أجاد فيه، ولكن الكتاب لم يصل الينا، وعبثت به يد الزمان، وظل شاعرنا لدى أبي القاسم حول عامين، أراد الرجوع بعدهما إلى بلاده، وكان في زمن الشتاء، فردته الرياح إلى صقلية، فكتب إلى أبي القاسم المذكور:

منع الشتاء من الوصو ... ل مع الرسول الى دياري
فأعادني وعلى اختيا_ري جاء من غير اختياري
ولم يقتصر شاعرنا في رحلاته على صقلية، بل ذهب الى بلاد المغرب ومدح صاحبها عبد المؤمن بقصيدة قوية الأسلوب، قوية المعاني، تدلنا على عظمة من قيلت فيه. وانصت اليه يقول:
عظمت قيمتها مذ علقت ... بأمير المؤمنين الأعظم
كعبة المن التي من زارها ... بات في أمن حمام الحرم
قبلة الدين التي حج لها ... خلقه: من كافر أو مسلم
قائد الجيش الذي من راعه ... باسمه قبل التلاقي يهزم
يا إماما خضع الدهر له ... فأطاعته رقاب الأمم. . . الخ.
ثم عاد الى وطنه، ولكنه لم يستقر به المقام طويلا حتى دفعته النوى إلى بلاد اليمن، ودخل مدينة عدن، واتصل بأبي الفرج ياسر بن بلال وزير البلاد اليمنية، فأحسن الوزير صلته، وأجزل عطيته، ثم فارقه عائداً إلى الديار المصرية فانكسر المركب به وغرق جميع ما كان معه بالقرب من دهلك، فعاد الى ياسر، ومدحه بقصيدة بدأها بقوله:
صدرنا وقد نادى السماح بناردوا ... فعدنا إلى مغناك، والعود أحمد
وجاذبنا للأهل شوق يقيمنا ... وشوق لمغنينا عن الأهل يقعد
ثم أنشده قصيدة أخرى يصف فيها غرقه، وما أصابه في البحر
غير أن هذا الحادث لم يجعله يسخط على السفر والاغتراب كما قد يظن، فقد رأيناه بعد أن نجا يكرر مذهبه ويؤكده، ويقول
سافر إذا ما رمت قدرا ... سار الهلال فصار بدرا
والماء يكسب ما جرى ... طيباً، ويخبث ما استقرا
وبنقلة الدرر النفيس ... ة بدلت بالبحر نحرا
مما يدلنا على قوة عزمه، وتغلغل مبدأ السفر والارتحال في فؤاده، ولقد هداه حادث الغرق إلى أنه من الخطا تشبيه ممدوحه بالبحر إذ يقول:
وغلطت في تشبيه ... بالبحر فاللهم غفرا
أو ليس نلت بذاغني ... جما، ونلت بذاك فقرا؟!
ولعل شاعرنا حينما ألقت به يد الأمواج إلى جزيرة دهلك لم يأنس بالمقام فيها، ولم يجد من حاكمها مالك بن شداد براولا رحمة، لذلك هجاها، وصورها بصورة جهنم بدليل أن خازنها مالك (ودهلك جزيرة بين بلاد اليمن وبلاد الحبشة) وظلت أيدي النوى تتقاذفه حتى ألقت به في عيذاب، وهي بليدة على شاطئ بحر جدة يعدى منها الركب المصري المتوجه إلى الحجاز عن طريق قوص، وهناك وافته منيته بعد أن بلغ من العمر خمساً وثلاثين سنة.
بالرغم من كثرة أسفار شاعرنا، وكثرة تنقله بين الأوطان المختلفة كان حنينه وشوقه الى مصر لا يفتران: ففي صقلية يذكر مصر، وفي غيرها يذكر مصر، ويذكر آله وقومه، ويذكر ما كان له في تلك الديار: من صحب وأصدقاء فيحن إليهم ويقول:
يا إخوتي، ولنا من ودنا نسب ... على تباين آباء وأجداد
متى تنور آفاق المنارة لي ... بكوكب في ظلام الليل وقاد
متى تقر ديار الظاعنين بهم ... والدهر يسعفهم بالماء والزاد
ويقول مخاطباً أبا القاسم بصقلية:
وعليك السلام مني، فاني ... عنك غاد أو رائح أو ساري
شاقني الأهل والديار وذو البعـ ... د معنى بأهله والديار
وتلك حالة طبيعية يمسها الرجل المفارق لوطنه، فهو يحن إليه دائماً، ويشتاقه دائماً
(البقية في العدد القادم)
أحمد أحمد بدوي
من طرائف الشعر
ذكرى الحج
للأستاذ الحاج محمد الهراوي
حَدّا بِي الى أُمِّ القُرَى شوقُ هائِم ... مُدَلَّهِ قلبٍ حوْلَ مكة حائم
وَلِهْتُ بها ما بين نومٍ ويقظةٍ ... وقلبي يقظانٌ الهوى غيرُ نائم

فان نمتُ لم تبرحِ تُخَيِّلُ لي الرْؤَى ... وإن أصْحُ لم يَبرَحْ تخيُّل واهِمِ
فذلك شأني ثم لَجء بيَ الهوَى ... الى أن رأيتُ الحجَّ ضربةَ لازِمِ
حططتُ برحلي فوق ناحيةِ السُّرَى ... وطرتُ بشَوْقي فوقَ ذاتِ القوادِمِ
لعلّي، وفي برديَّ حُوبة آثمٍ ... أُطهِّرُ عن برديِّ حوبةَ آثمِ
ويُطمعني في الله أنىَ من مِنىً ... قريبٌ، وأني من سُلالةِ هاشمِ
أُمَسِّحُ بالأركان وجهي مُعفّراً ... وأهمى عليها من دموعي السواجمِ
أطوفُ وأسْعى بين مَرْوةَ والصَّفا ... وآوى الى رُكنٍ من البيت عاصمِ
وأرجعُ مملوء الجوانح خَشيْةً ... من الله في يومٍ من الهَوْل قادِمِ
فَيَاهلْ أتى صَحْبي بَمسْرَحِ لهوْهِم ... مَتَابى، وأني قارعٌ سِنَّ نادِمِ
فلم أرَ مثلَ الدينِ أدعى الهُدَى ... ولا مثلَ حجِّ البيت أهدْىَ لجارمِ
وما أبتغي إلا المَثُوبةَ مخلصاً ... ودعوةَ ربِّ البيتِ تحتَ المحارِمِ
أقول: إلهي أنتَ أدرَى بأمَّتي ... وكم نزَلتْ دْهراً على حكم غاشمِ
تركتُ ورائي أمةً لم تكن تَني ... عن الحقِّ جُهْداً، أو تهى في العزائم
فياربِّ يا حامي حِمَى البيتِ لا تُبِحْ ... حِمى مِصرَ للعادِينَ من كلِّ ظالم
وياربِّ إنَّ الشرقَ بات بأهلهِ ... كبيرَ الأماني طامحاً للعظائم
يريد حياةَ العزِّ وهو مُسالِمٌ ... ويأبى عليه الجَوْرُ عَيْشَ المُسالم
فياربِّ أيِّدْهُ على الحقِّ ما سَعَى ... الى الحقِّ وارفعْ عنه نِيرَ المظالِمِ
بلادي وقوميي فوقَ ما جئتُ أبتغي ... لنفسي، وما أرجو لها من مغانِمِ
وياربِّ إن كانت لنفسي حاجة ... فحاجةُ نفسي منكَ حُسْنُ الخوَاتِمِ
سبيكة الشعر
إن كنتِ أهديتني من شَعرك الغالي ... سبيكةً جددت عهد الهوى الخالي
فقد وهبتك يا دنياي مرتضياً ... قلباً يفيض بأحلامي وآمالي
قلبي لديك. فهلاً ... رويته من نهرك؟
كما تروْي عيوني ... بالدمع غاليَ شَعرك
وهل يجود الزمانُ ... بالقرب بعد النوى؟
فتلقي العينانْ ... ونستعيد الهوى
مازالت أندب والأحشاء ثائرة ... عهوده كلما مرَّت على بالي
ولا أرى بعد ما هاجرتِ مرغمة ... إلا عذاب فؤادي أو ضنى حالي
ولم تعد لي دموعْ ... إلا دماء الفؤاد
أبكي بها في الضلوع ... عليه بعد البعاد
يا ضيعة العمر إلا ... في وكرك الفتان
وبؤسَ للقلب إن لم ... ينل لديك الأماني
مناي في الحب أن نقضي الحياة كما ... كنا: أليفين في حِلٍّ وترحال
أسقيك كأس الهوى والحب متروعة ... وأستقى من رضاك المسكر الحالي
محمد فريد عين شوكه
عالم الهوى
للشاعر الوجداني أحمد رامي
يا طيورْ ما الذي هزك للشَّدو الجميل ... في سكَون الليل أو صفو السَّحَر
يا زهورْ ما لأغصانك في الروض تميل ... في ضياء الشمس أو نور القمر
يا غديرْ ما لأمواهك في المرْج تسيل ... ضاحكاتٍ بين أفنان الشجر
قالت الطير أما تلقى الربى ... يتباهي الزهر فيها بالجمال؟
وانثنى الزهر مجيبا هل ترى كيف يجري الماء ما بين الظلال؟
ومضى الجدول مختالا وقال ... قد غذانى النهر بالعذب الزلال
تعشق الطير الزهور ... والجنى يهوى الغدير
والغدير ... يستقى الماء من النهر النمير
كل من في الكون يَغْنى ... من هواه بنصيب
وأنا قلبِيَ يَهْنا ... برضى قلبِ الحبيب
وحشة
للاستاذ محمود الخفيف

ليس يمحو الوجدَ من قلبي الحزين ... كلُّ ما في الكون من آي الجمال //
يتأسى كل قلب بعد حين ... ما لقلبي بات مفقود المثال؟!
شفه طول الحنين ... وتباريح الخيال
واغتدى بعد اليقين ... بين يأس واحتمال
أظلم الكون وقد كان سناه ... مشرقا في النفس اشراق الأمل
نبه القلبَ لأكدار الحياه ... وحشة تبعث في قلبي الوجل
حار قلبي في هواه ... والهوى أصل الخبل
ويحه ماذا دهاه ... فبكى بعد الجذل؟
تبسم الأزهار للصبح الوليد ... وتغنى الطير الحان السَّحر
ويلوح النور في الأفق البعيد ... فيهز البشر أعطاف الشجر
والندى در نضيد ... فوق أكمام الزَّهر
هل يرى قلبي الشريد ... حسن هاتيك الصور؟
تشرق الشمس لا أرى معنى ... يبهج النفس من معاني ضحاها
لا، ولا البدر اذ يسير الهويني ... باعث في النفس أحلام مناها
واذا العصفور غنى ... ذكرت عيني بكاها
واذا الغصن تثنج ... هيج النفس شجاها
تدمع العين برغمى أن أرى ... في ظلال الريف مغنانا الوسيم
كان مرعى اللهو فيه ناضرا ... عاطر الأنفاس مطلول الأديم
مالعيني لا ترى ... حسن مرآه القديم؟
يتراءى مقفرا ... والأسى فيه مقيم!
أسأل الدوحة عنها ذاهلا ... وأطيل السير في جنب الغدير
ثم أمضي بعد حين قافلا ... تخفق اللوعة في قلبي الكسير
أتناجى قائلا ... بين دمع وزفير
كيف ولى عاجلا ... ذلك العيش الغرير؟
صرت لا أقوى على غشيانه ... ان في مرآه الوان الشجن
وكأن الورق في أفنانه ... تشتكي مثلي تصاريف الزمن
هل سوى سلوانه ... لفؤادي من سكن؟
أو سوى هجرانه ... لغريب في الوطن؟
زمن الوصل تقضى مثلما ... يتقضى في الكرى حلم بديع
وتولت بهجة العيش كما ... يسقط الزهر اذا ولى الربيع
ويح نفسي أكلما ... ذكر الشمل الجميع
بات مضنى هائما ... ذلك القلب الصديع
أترى تذكر (أيدا) عهدنا ... أم تناسته وقد طال الغياب
نفِس الدهر علينا صفونا ... وكذا الدهر نعيم وعذاب
كم حبسنا دمعنا ... ما شكا البينَ الصحاب
وارتقبنا يومنا ... في وجوم واكتئاب
اقرإي هذا وحسبي سلوة ... أن ترى عيناك هاتيك الدموع
خانني عزمي ففاضت عنوة ... وأخو الشوق لدى الذكرى جزوع
فاغفري لي صبوة ... لم تجئ بعد شروع
ولقلبي وثبة ... أشفقت منها الضلوع
الى السيدة منيرة توفيق
من الآنسة خيرية أحمد
ناحت مطوَّقةٌ فأشْ ... جتْ كلَّ طير في الخمائلْ
وبكت لها مقَل السحا ... ب بأدمع تجري هواطلْ
شكتِ الحنين إلى الحلي ... لِ من الجوى والوجد ماثلْ
صَدَقَ الهوى بفؤادها ... فبكت وصِدق الحب قاتلْ
زَيْنَ العقائل والفضا ... ئلِ في المنازل والمحافلْ
أخت الفصاحة والسما ... حة والرجاحة في الشمائلْ
لو كنت في عصر الأوا ... ئل كنت مَفخْرَةَ الأوائلْ

زَفَرَات أختك قد عَلَمتْ ... لأَساكِ تَغْلي كالمراجلْ
عَجبَي لزوجك كيف غير ... رَ عَهْدَه بعد التواصلْ
وأدال من حَكَم الهَوَى ... والحب خصم لا يتَازَلْ
هل في البرِّيةِ للوفِيّـ ... ةِ والحبيبة من مُعادِلْ
هل للخلالَ الباهرا ... تِ وللفضائل من مماثل
ولَرُبَّ رأيٍ قد رآ ... هـ الزوج حقاً وهو خائلْ
وتعدُّد الزوجاتِ في الـ ... أُسْرَات مهزلة المهازلْ
أصل العداوة والشقا ... قِ وباب مشكلة المشاكلْ
والحق سيفٌ لو تجرَّ ... د نصلهُ ماضٍ وقاصلْ
وأخال أنكِ تحليـ ... ن وأنَّ هذا الحِلمَ زائلْ
سيعود زوجك للوئا ... م وليس عند الخلف طائلْ
واليها أيضاً
من الآنسة ناهد محمد فهمي
إن طال سهُدُكِ فاشتكي ... لله زوجا غيرَ عادل
إني أرى بين السطو ... رِ دُموعَ قلبِكِ كالجداول
تجري بألحان الأسى ... وخريرها يشجى العقائل
لا تيأسى فلرَّبما ... عاد العَقوق الى التواصُل
وترَفَّقى في لومه ... فلرافق من شيم الأماثل
وتساهلي فيما جنى ... لا شيء ينفع كالتساهل
وتدرَّعي بالصبر في ... كل الكوارث والنوازل
كم من ضحايا للرجا ... ل وكم نعاني من رذائل
مذهب (السمبوليسم)
أو
الشعر الرمزي
للاستاذ خليل هنداوي
المدرسة الرومانتيكية والبرناسية. حقيقة المذهب الرمزي. الشعر الرمزي كالاحلام
الشعر الرمزي والموسيقي. الشعر الرمزي والطبيعة
شغل الرسالة - في الايام الاخيرة - ما شغلها من (بول فاليري). وكان من (مقبرته)
البحرية) مجال فسيح لبحث الوضوح والغموض في الشعر، وقد رأيت ان أرضح مذهب
(أصحاب المدرسة الرمزية بهذه المقالة، ثم اتلوها بصور سشعرية مختارة لهم.
المدرسة الرومانتيكية والبرناسية
لم يكد يوارى جثمان الشاعر (هينو) في الاثرى حتى قامت مدرسة شعرية جديدة هي
مدرسة (السمبوليسم) تنازع المدرسة (البرناسية) التي نازعت بدورها المدرسة
(الرومانتيكية)
المدرسة الرومانتيكية جعلت موضوعها الفني عواطف الشاعر نفسه، فترى الواحد من
شعرائها ينظرم وينظم، وهو يحدثك عن نفسه، ويقصيك عن نفسه، يحسب نفسه
اللعالم الأكبر الذي ينطوي على كل شيء، فاذا أنّ وانتحب عجب من للناس كيف لم
يسمعوا أنينه ولم ينتحبوا؟ ونراه اذا عرض عليك عواطفه رقق ديباجته، وبهرج اللوانه،
وذوب نفسه، لأن قاعدة هذه المدرسة توجب على الشاعر ان يكون متأثراً حتى
يستطيعه ان يؤثر في غيره. فجاءت المدرسة البرناسية تنعى على أصحابها ضيق
عقولهم وقلوبهم، وتنتقد هذا المذهب الذي يتغنى على ضرب واحد لا يتغير له لحن ولا
وتر، ولا يسمع سامعه الا رنة ناقوس واحد. فكان جدال عنيف وكان نقد صارم، فاضاع
الشعر الوجداني كثيراً من قيمته. وذهب زمان كان يؤله الناس فيه هذا النوع من
الشعر لأنه - كما يعتقد أصحابه - هو شعر الرقة، وشعر الجمال. وقد لا يمكننا القول
بأن أصحابه لم يحسوا الجمال، وغاية الادب - مذ كان الادب - الحج الى مجالي
الجمال. ولكن كثيرين ممن يتمثلون الهدف
ويعينون موقع الهدف، ويسعون بشوق ولهفة، تسعى بهم اقدامهم ويا للاسف الى غير
الهدف. وللجمال طريق يختلف عن طريق هؤلاء القوم الذين اتخذوا طريقهم اليه:
طريق الالحان المشوشة التي تخلقها العواطف الثائرة. ومتى كانت مقاييس العواطف

ثابتة وموازينها صادقة؟ وحقيقة هذه الالحان أنها تصور أهواء النفس، ولا تصور شيئاً من مجالي الفن والجمال. فكانت غاية المدرسة البرناسية أن تحول أذهان الناس عما اعتقدوا، وأن تصف الجمال - بالفن الذي لا يتصل بمشاعر النفس، ولا يتعلق بأهواء النفس، ولكن هذه المدرسة لقيت فشلها، وكان يقدر لها الفشل، وهي لما تدرج من مهدها لولا ثبات أصحابها، واحترام الاندية الأدبيه لهم. وتحوير هؤلاء لبعض قواعدهم. فالفئة التي سئمت الحان النفس والوجدان سأما بعثها عليه المغالاة والتصنع، راعها أن يطلبوا منها أن تقطع كل صلة بينها وبين النفس، ليتسنى لها أن تدرك الجمال بدورها كما أدركوه هم بدورهم. ولكنهم (أصحاب المدرسة البرناسية) لم يستطيعوا أن يقطعوا هذه الصلة، لان الانسان لا يستطيع أن يؤدي لغته الشعرية، وأن يفهم اللغة الشعرية الا بنفسه. وهل يستطيع أحد أن يفهم ملامح التمثال دون أن يمر بهذه الملامح على نفسه التي تدرك منها ما تدرك. وقد يكون هذا الادراك هو الادراك الصحيح للتمثال وقد لا يكون، ولكنه لم يكن - في الحالين - الا تعبير النفس والعاطفة العميقة. ولذلك لم يحفل الناس بهذه المدرسة الا كحفلهم بشيء جديد له منظر جديد وروعة جديدة ولو كان هذا الشيء قبيحاً. حتى اذا شبعوا من هذه المنظر الجديد والروعة الجديدة صدفوا بوجوههم عنه، وعاودوا النظر في الأفق البعيد، لأنهم لم يقعوا على غايتهم في هذا الأفق الخادع.

وهذا (بول فرلين) أحد شعراء هذه المدرسة لم يستطع أن يثابر على النظم وهو خارج عن نفسه، فتمرد على احساسه وتمرد احساسه عليه، فعاد يترجم عن مشاعره مضطراً، لأنه لم يقدر على كبحها، ولكن بأسلوب غير الأسلوب (الرومانتيكي) لأن فلسفته العميقة ساعدته على خلق فنه ولغته. فنزل الى أعماق النفس، وهبط الى حيث تكمن المشاعر (في الخليات المظلمة) فأيقظها وأحييها وأدناه من عالم النور والحركة، بعد أن كان يغمرها الظلام والسكون.

حقيقة المذهب الرمزي:

كان (ديكارت) يزعم خطأ يوم قال: بان لا مستقر في الدماغ الا للافكار الواضحة، وخلا هذه الافكار لا تقوم الا المادة الجامدة التي لا تحتوي على شيء، ولكن الفلسفة الحديثة نقضت هذا الرأي، وأثبتت ان هنالك في الدماغ مجموعة من احساسات وافكار وعواطف، كلها واضحة بادية، ووراء هذه المجموعة مجموعة عواطف نائمة ضعيفة، حتى لكأنها تحيا بنصف شعور! وهذه العواطف قد لا يأبه بها الانسان الا اذا نزل اليها وتنبه لها، ولكن الانسان - في أغلب الاحيان - ينقاد لها على غير وعي، ويقبل حكمها وهو جاهل مصدر الحكم، ويتبع ما أغرته به وهو غافل عن مكمن هذا الاغراء.

مع هذه العواطف القائمة تحيا كل ميولنا الفنية، واحساساتنا الشعرية، ونحن لا نكاد نشعر بها. فنقرأ المقطوعة الجميلة، فتتيقظ هذه الميول وتستفيق هذه الاحساسات، لهوى جاء في هذه المنقطوعة كان سبب يقظتها، فتهب وتظهر وتتوارى وترتخي وتشتد حسبما تشاء. فاذا عرجنا بهذا الهوى على المنطق والعقل تبدل الحكم وتغير الوضع، وجاءت النتيجة: اما مؤيدة لهذا الهوى أو ذاهبة به. على ان هذه الاحساسات نفسها تبقى مبهمة، متدثرة بشيء من الغموض والخفاء، لا يدرك من أين بدأت وانتشرت، والى أين تناهت وتلاشت.

أليس من واجب الشعر اذا ان يعبر عن هذا الهوى وهذا التناقض في الاحساسات التي لا تحصى؟ فاذا كان النثر الواضح المنطقي العقلي واجبه ان يعبر عن أفكار ظاهرة، وعواطف بادية، ومواضيع يراد تقسيمها الى فصول واجزاء لكي تدنيها من الافهام فان الشعر واجبه ان يعبر عن ذلك الاحساس الباطني الذي يكمن الجمال في حناياه.

إن (البرناسيين) وصفوا الجمال للجمال نفسه لا لغاية. وخده والفن للفن لا لحاجة. (ولكن الرمزيين) اعتبروا هذه المذهب وما قبله من المذاهب لا يصلح منها شيء للشعر، اذ - في الامكان - تحويل ما رصفوه القول ونظموه الى نثر لا يذهب ببهجة معانيهم. وانصرفوا هم الى انفسهم، وفي انفسهم تلك العوالم الواسعة الطافحة بالاحساسات المبهمة، والاهواء المظلمة. لا يرسل اليها احد عقله حتى تتلاشى، ولا تلين للتعابير الواضحة لأنها تذهب بمعناها. والاحساس الحقيقي هو الاحساس الذي يختلج في النفس دون ان يستطيع البيان أن يعبر عنه. ولهذه الاحساسات - كما للصور

الخيالية - رسائل لا يمكن أن تقيدها الاغلال المنطقية، والقيود الشعرية التقليدية. وهذه الرسائل التي تستعين - بالاحساس وحده
- لتفهمها، ولا تستعين بالدماغ الذي يفككها ويقضي على روعتها، هذه الرسائل هي الشرع الحقيقي وهذه الاحساسات الباطنة هي التي حدت (بالرمزيين) الى أن يعالجوا اعمق عالم مظلم في أنفسنا، ويعبروا عن هذا العالم تعبيراً شعرياً.

أجمع علماء النفس على أن العقل الواعي ما هو الا مظهر حقير من مظاهر العقل الباطن الكامن في (اللاشعور) وهذه العقيدة الفلسفية اضطرت الشعراء والفنانين الى الانطلاق من قيد العقل الذي لا يحكم الا بوعيه، ولا يخضع الا لحكمة، وقالوا ان العقل الواعي بما فيه من أفكار واضحة انما وجد لكي نستخدمه في حياتنا العملية والتفكيرية. ولم يوجد ليكون معبراً عن الحياة الشعرية، إذ يجب على الشارع أن يرتفع عن هذه العوالم المتجسدة، ويخوض في البقاع التي يتلاقى فيها النور بالظلمة، والبيان بالغموض والشعور باللاشعور.

الشعر الرمزي كالاحلام:

لا نكاد نجهل نصيب الرؤى التي تطرقنا في أحايين وأحايين. فنمت أحلام واوهام وحوادث تبدو وتتوالى لا يدفعها جهد، ولا يربط ما بينها منطق. تظهر كقوة خفية لا يمكن تعليلها ولا تحليلها على أن بعض هذه الاحلام قد يجيء عذبا لذيذاً يسعد النفس بما يجمل اليها من أوهام، أليس من هذه البعض تلك الاحلام التي تغنى بها الشعراء لانها مثلت الهم أطياف الاحباب؟ فودوا لو ان حياتهم الحقيقية تكون صورة من حلم لأن شعورهم الجائع النائم مثل لهم - بدوره - هذه الأحلام. ولكنه تمثيل، ليس له تعليل وهكذا قد تاتي الصور الشعرية مماثلة لهذه الصور الوهمية، صورة أو صوراً تتتالى، يحدوها وهم لا حقيقة له، ولا يمازجها شيء من الشعور؛ ولكنك تتلوها وتتلوها، فيخيل اليك أنك دخلت في عالم جديد تلمس فيه هذه الصور، فترى بعينيك ما يجب أن يرى وتسمع بأذنيك ما يجب ان يسمع. وقد تستقرئ هذه الصور الوهمية، وتحس مواضع التخلخل فيها والاضطراب المنطقي والتباين العقلي، وتشعر بأن المطابقة فيها مفقودة، والتناسب معدوم. تستقرئ هذا كله وتستوضحه بأجمعه، ثم يخيل اليك ألآن هذه الصور الوهمية انما هي حقيقة، وأنها باعثة فيك ما تريد من اسباب الرضا والسرور.

وقف الشاعر (كارنور راميورد) شعره على التعبير عن مثل هذه الصور الوهمية، قد ولد في مدينة مكتظة بالمصانع تقلق آلاتها الراقدين والساهدين؛ وكان يرى - برغم ذلك -
موطناً يستسلم فه الى أحلامه التي تحمله الى عالم الغيب والذهول، حتى أصبح يرى في الحانة معبداً. وفي كثير من مقطوعاته كـ (سفينته الضالة) جاء بأفكار غامضة كل الغموض، وتعابير مبهمة كل الابهام. لأن الشاعر يخلق لنفسه الحروف والكلمات التي يراها مؤتلفة مع نفسه، ولكن فقدان التسلسل المنطقي يرخي على المقطوعة سدول الغموض، حتى لينتقل الابهام من الأفكار والمعاني الى الصور الشعرية وإذ ذاك يغدون القارئ شبيها بمتدحرج اصابه دوار في بصره شغله عن التأمل والتفكير.

الشعر الرمزي والموسيقى:

الموسيقي قبل كل شيء! الموسيقى دائماً وأبداً
ليكن شعرك شيئاً يطير من النفس صاعداص الى سماوات أخرى.
(بول فرلين)

الفن الشعري: - أنت تعلم ذلك التأثير الذي تثيره في النفس الواعية تلك الألحان الشائعة، لبحر يهدر، أو لجدول يخر، أو لنغمة تعلو من آلة موسيقية. فهذه الالحان لا تكلم العقل رأساً وانما تكلم - قبل عقلنا - احساساتنا. فيخيل الينا أننا منطلقون منعتقون لأننا لم نتأثر بالعقل والمنطق. فتحملنا هذه الألحان ونحن كسالى هامدون، الى عالم ملؤه الراحة والسكون.

وقد فهم الرمزيون هذه الوشائج النفسية العميقة فأعلنوا - وفي طليعتهم - (فرلين، وراميون وملارمي) أنهم سيتخذون من الكلمات ألحاناً موسيقية، وأنهم سيعنون بوقعها قبل عنايتهم بمعانيها! فكانت هذه الثورة ثورة منتجة للغة، لأنها تهذبها وترفقها وتجملها، ولكنهم - كما أحسنوا في مواطن كثيرة - قد كبوا في مواطن كثيرة، لأنهم

استعملوا كلمات غريبة ليس لها معنى يميزها، أو ميسم يسمها، واستخدموا ألفاظاً مجهولة لا تدرك إلا في معاجمهم الرمزية، حتى دعاهم هذا الى الاستخفاف بقيمة الكلمة والنص عن معناها، والالتفات الى وقع موسيقاها؛ ولم نكن لننكر ان القوم أحسنوا كل الاحسان في انعتاقهم من القواعد التقليدية، وعروجهم بالشعر الى مرابع خصبة ندية. فاللغات لا تزال قاصرة، لا تحدد كل كلمة مدلوها الذي وضعت من اجله. ولا تزال تضيق عن استيعاب ما يجود به عالم النفس الأكبر من الخواطر الكامنة. ولكن هذا القصور لا يحمل القادر على توسيع شقة الابهام. وترك الامر فوضى بين الأفهام، فان في استطاعة الشاعر أن يتخير الكلمة الواضح معناها، والحسن، وسيقاها، وهو بعد ذلك لا يخسر من معناه ولا من مبناه شيئاً. فاذا تلونا مقاطيعهم فلنقلها كموسيقى، فانها قد تلذنا لو كنا خلقنا شعراء. وتولد فينا تأثيراً عميقاً يحملنا - على غير وعي منا - الى عالم يزداد وضوحاً أو غموضاً حسب بيان الشاعر.

الشعر الرمزي والطبيعة

التفت شعراء الرموز الى أنفسهم، ولاحظوا دقائق الحياة الباطنة ونواحيها الغامضة، ولم يعنوا كثيراً بالظواهر الخارجية نظروا إلى عرم الساعة الهاربة، والفصل الغابر، والزمن السائر، ولجب الحياة العاملة ولا انتهاء لها، والانحلال والتركيب اللذين لا ينتهيان في هذه اللحظة وفي قلب هذه الحركة وصفوا صور المادة وشرائع الطبيعة الخفية، قرأوا حقائق الاشياء كانها تتلاشى بين تبدل المظاهر وبقاء أسبابها. والطبيعة ما هي الا صورة متحركة ورمز مستور مقيد محصور. ورأوا من جهة أخرى ان فهمنا للاشياء ما هو الا صورة من صور احساسنا، فكأنها تحيا فينا، أو قل هي نحن. وأنا كلما نظرت للاشياء شعرت بنفسي وأحسست بحياة عقلي. وما تنظيمي للناظر التي رأيتها ثم نظمي شعراً لهذه الاحساسات الا اباحة منى بجانب او بجوانب من إسرار نفسي. ولكن، أليست الطبيعة كلها رمزاً لحياتي ووجودي؟ أليس هذا الرمز هو اللذي يؤلفغ بين النفس والطبيعة؟

ان الفنان الرمزي لا يجعل همه ان ينقل صور الطبيعة نقلا ويعرضها على الناس، انه يفسر ويؤول قبل كل شيء ما يراه، ويعطيك ما أوله بتعابير ملؤها الرموز والكتابات، وعليك ان ترى وتؤول وتفهم هذه التعابير، لأن فنان يود الايراك عبداً للراحة، والفتور. هو يريد ان يطربك بموسيقاه فتطرب، ولكن موسيقاه، تغرى الأرواح. فتذهب روحك على أثره. وانت تعلم وقد لا تعلم! حتى تجوز ما يقدر لها ارتفاعها من مراحل. وان في هذا السفر تعباً ولكنه تعب فيه لذة المستكشف فاذا كان يطيب لك ان تجول في بقعة غريبة تطلع على مجاهلها وتفرح بما تجد، فجدير بك ان تكون اكثر طرباً، وقد وقعت على بقعة نفسية مجهولة تستكشف مخبوءاتها؛ وتقف على مكنوناتها

كتب (ملارمي) جواباً على سؤال (ان البرناسيين يأخذون الشي بتمامه ويبدونه للعين، مع أن تعيينك للشيء هو حذف ثلاثة ارباع لذته، لأن اللذة الحقيقية تكمن في الاستكشاف التدريجي. وفي التنويه الذي ينطوي على السحر الذي ألف عالم الرموز. ولكن هذا الفن الشعري الذي كانت له مآثره كانت له عيوبه أيضاً، فأصحابه وهم ينطقون عن الغامضن والمبهم، وقعوا في التعابير المظلمة، فجاء شعرهم محاطاً بحجب كثيفة لا تزيحها الا أيديهم.

على أن الشعر الرمزي - برغم هذه الأخطار والاخطار - قد فتح في الأدب عالماً اتسع للاوهام والحقائق الخفيية، وانشأ روحاً جديداً للعاطفة الشعرية التي تعددت وتتعدد من أجلها المذاهب، وهي واحدة لكنها غامضة لم تزل وراء الرموز

دير الزور

خليل هنداوي

-

العُلوم

مطالعات واشتات

للدكتور أحمد زكي

انقلاب اللاسلكي: الانسان في كثير من أموره يبدأ صغيراً ثم

يطلب الكبر، يطلب العظمة في الضخامة والقيمة من الجرم.
ولكنه جرى على غير ذلك في اللاسلكي، فهو ابتدأ في الاذاعة
بالموجات الطويلة العظيمة، ثم أخذ بالموجات الأثيرية
الصغرى طولا فالصغرى، ثم بالمتوسطة فالتي دون ذلك
فتقسمت الموجات الى طويلة وهي التي تزيد على 1000
متر، ومتوسطة وهي التي بين الألف والمائة، وصغيرة وهي
التي بين المائة والعشرة، وزائدة الصغر وهي التي دون ذلك.
وقد يختلف اللاسلكيون في هذا التدريج وهذه التسمية، ولكن
هذا لا يؤثر في الحقيقة الراهنة وهي ان استغلال هذه
الموجات بدأ بالكبيرة ثم بالتي دونها. وكانت الشركات الكبيرة
تعتقد انه لا حاجة بها الى الموجات الصغيرة حتى قام الهواة
في بقاع الأرض المختلفة على الاذاعة والاستقبال، معاً بتلك
الموجات، وأخذوا في التغيير في أجهزتهم والتبديل في
طرائقهم حتى وقفوا على أحسن الشروط لحسن الارسال
والاستقبال وكشفوا عن ميزات لهذه الموجات الصغيرة ليست
للكبيرة؛ فمن ذلك ان الصغيرة تحمل الأصوات الى السامع
خالصة من هذه الطقطقة والخرفشة وذلك الضجيج والعجيج
والنشوز الملح الذي يؤذي الأذن ويحرج الصدر ويذهب بصبر
الانسان. ومنها أنهاا تنفذ في الأجواء الى مسافة ابعد وعلى
حال أشد حتى لتلف الكرة الأرضية لفاً. لذلك ما لبثت
السلطات اللاسلكية التجارية أن أغارت على هذه الموجات
فاستلبتها واحتفظت للهواة بموجات دون تلك أكثر صغراً
يجرون فيها ما شاءوا من التجارب فقصر الهواة عملهم على
هذه فأتقنوه كساالف دأبهم، فتجددت الاغارة عليهم فاستبلت تلك
الموجات أيضاً، وارتد الهواة الى الوراء، إلى موجات أمعن
في الصغر. ولكن يظهر أن الشركات اللاسلكية عرفت من
مزايا هذه الموجات ما سوغ لها أن تقوم في العلانية قليلا وفي
السر أكثر بدراسة هذه الموجات لتسبق الهواة، وهم الذين كان
لهم فضل السبق الى كشف فضلها. وقد جاء في الاخبار.
الحديثة أن شركة مركوني قامت في الخفاء منذ أكثر من
شهرين بدراسة موجات طولها أصغر من متر واحد وانها
نجحت في استخدامها نجاحاً كبيراً، وانها ترجو من وراء ذلك
أن تحدث في الاذاعة التجارية انقلاباً خطيراً.

بدأت بتلك التجارب في (بيت مركوني) على نهر (التمس) فكانت تذيع من هناك الرسائل لتستقبلها مستقبلات متنقلة في مقاطعة (كنت) بانجلترا وقد تمكن السناتور مركوني بهذه الاشعة التي يسمونها بالمجهرية من الارسال الى أبعد من 180 ميلا، والهوائي المستخدم فيها لا يزيد طوله على ثلاث بوصات، والقوة الكهربائية اللازمة للمحطة المرسلة لا تزيد على تلك التي تلزم لأضاءة مصباح كهربائي.

وستكون هذه الطريقة الصغيرة الجديدة شديدة النفع في القريب العاجل في المواصلة بين مراكز الشرطة والاسعاف، وبين بيوت الأعمال الكبيرة وفروعها، فان الجهاز نفسه يكاد يحمل في الجيب، وقد اتضح أن هذه الطريقة المصغرة أيسر في نقل الصور من الطرق الكبيرة والقديمة، أو التي سنسميها قريباً بالقديمة، فقد جربها السناتور مركوني فعلاً في ذلك فنقل بها صورة بلغت مساحتها خمسة أقدام في خمسة كانت غاية في الوضوح ومثلاً في البيان.

وهذه الموجات الضئيلة لا تتأثر بالجو ولا بالضباب، وفوق ذلك لا يمكن استراق السمع منها. ويقول العارفون أنه قد لا تمضي بضع سنوات حتى تصبح الموجات الطويلة اثراً بعد عين

دقات قلب سكنت

الدكتور (هـ. و. كروك) طبيب يسكن (في أكستر) من المدن الغربية الجنوبية في

انجلترا، لا يزال الى اليوم رائحاً غادياً في مطالب العيش، ولكن قلبه لا ينبض بالحياة منذ ثمانية أعوام. وليس هو بالرجل الكسول الخامل فهو يشتغل في الاسبوع ستة أيام كاملة ويسوق سيارته بنفسه، وهو يعلم وهو الطبيب ان قلبه سكنت ضرباته الى الأبد، ولا يزعجه ذلك ولا يهمه، فأنت تراه ينعم بالدنيا كغيره من الأصحاء، وهو اذا ذكر قلبه اهتم به اهتمام العالم بظاهرة غريبة يحملها بين جوانحه كأن من حسن حظه ان استأثرته الطبيعة بها.

بدأت قصة هذه الحال في سنة من سنوات بعيدة اذ كان (المستر كروك) يدرس الطب في

مستشفى (جاي) بلندن، فأصابته حمى روماتزمية أخذت تنتابه ثم تذهب عنه فيصح، فتعود اليه المرة بعد المرة، فكان من آثارها اتساع صمامات قلبه فأصبحت لا تنفتح ولا تنغلق كعادتها اذ تدفع الدم كالمضخة فتجريه في الجسم، وبانعدام هذه الانفتاح وذلك الانغلاق، انعدم الصوت الذي نسمعه وهو دقة القلب.

حدث ذلك له في مرضه الأخير عام 1926، وكانت حاله لاا رجاء فيها، وكتم عنه الأطباء أمره خشية أن يدرك خطره فينزعج ويصدمه الخبر السوء، فييكون في ذلك قضاؤه. ودخلوا عليه مرة يفحصونه فأزعجهم أن وجدوه يأخذ سماعة من تحت وسادته يستمع بها الى قلبه. ولكنه ما لبث أن ذكر لهم أنه لم يفتر عن الاستماع الى قلبه كل يوم، وأنه يعلم ما آل اليه. وعقب على ذلك في كثير من البشر وشئ من المزح أنه معجب بنفسه مغتبط بان يقدم لهم وللطب حالة نادرة لذيذة ممتعة للفاحص والمتقصى وقد اتصل بالدكتور في الأسابيع الماضية متصل يستخير عن صحته فذكر له أنه صحيح لا يحسن علة ولا يشكو ضيقاً، وان عضلات قلبه اشتدت سد النقص الذي طرأ على صماماته، وانه ينعم بالحياة كنعمة المستخبر. وهكذا الطبيعة تحاول دائماً أن تصحح أخطاءها، فتصيب مرة وتعجز مراراً.

البيض المحفوظ:

كل كائن حي يفسد على الزمن، وكل نتاج من كائن حيي تظل فيه الحياة حيناً، ثم يعتريه الفساد كذلك. وتدخل في هذه الأنتجة اللحوم والخضروات والحبوب وما اليها. وكان المعروف أن البرودة تطيل من صلاح هذه الأطعمة، والحرارة تعجل فسادها؛ فعمدت المصانع الى استخدام الكهرباء والكيمياء في بناء الخزانات الباردة، منها الصغير الذي يستخدم في المنازل والمعامل، ومنها الكبير الذي يبلغ القصور حجماً؛ وقد أفادت هذه المبردات التجارة فوائد كبيرة أدت إلى انتشارها انتشاراً واسعاً وعمدوا فيها عمدوا اليه البيض يحتفظون به في تلك الخزانات، ولكن التجربة دلت على أن البيض في اختزانه يفقد الشيء الكثير من جدته رغماً من برودته. ويرجع هذا الى تغيرات فسلجية وبيلجية تحدث طبيعة في داخل البيضة من العسير الشاق إيقافها بالتبريد.

وقد ظهر في دورية (الصناعات اللغذائية) وصف لطريقة جديدة يختزن بمقتضاها البيض

مبرداً ولكن في جو من غاز الكربون أعني ثاني اكسيد الكربون فيخرج بعد أشهر ثمانية صبيحاً لا يمكنك تمييزه من البيض الطازج، وتفصيل ذلك أن البيض المختار يوضع في خزانات مختومة في حجرة لا تزيد حرارتها على الصفر. ثم تفرغ الخزانات من الهواء وتملأ بغاز الكربون حتى يزيد ضغطه قليلاً على الضغط الجوي، وذلك خشية أن يكون في الخزانة ثقب غير منظور فيتسرب اليها منه الهواء. وغير هذا يجعلون على ظاهر الخزانات أنابيب للتبريد تجعل حوائطها أبرد من جوفها ليتكثف بخار الماء داخلها على تلك الحوائط. فلا يسقط على البيض، فأنه ان فعل ذلك اثر على قشر البيض بما يحتويه من غاز الكربون الذائب فخشنه وحببه. ويظهر من هذا الوصف أن النفقة لابد كبيرة، ولكنهم يقولونإن البيض المحفوظ بهذه الطريقة يباع في أشهر القلة بأثمان تزيد على النفقة زيادة مربحة.

كمرة تبلع:

ولكنها بالطبع صغيرة لكي تمر في الحلقوم فالمرئ ثم تستقر في المعدة فتصور ما فيها. وهي على شكل اسطوانه طولها بوصتان وقطر قاعدتها خمسة أثمان بوصة. وتتصل بها انبوبتان أحداهما لتوصيل التيار الكهربائي الى مصباح وامض تحمله الكمرة،

والأنبوبة الأخرى لتحمل السلك المتصل بغطاء العدسة يفتحها ويغلقها وهي في جوف الانسان. استخدمت هذه الكمرة في لندن فلقطت 16 صورة من جدران المعدة في 20 ثانية.

وهذا لا شك فتح جديد في تشخيص امراض المعدة، فاننا اذا عجزنا عن نزعها من الجسم كما تنزع اجزاء المكنات لفحصها واصلاحها بعدسة العين فلا أقل من أن نراها وهي في مكانها بعدسة الجماد. ومن عجائب ما تستخدم فيه الكمرات مما يتصل بالطب ما قرأته أخيراً عن مريض في البرازيل أصابه في عينه مرض أعجزّ الأطباء. وكان لابد من تشخيصه عاجلا والا فقد المنكود بصره. وفي وقت غاية في القصر صوروا عيني المريض وأبرقوا بالصور على اسلاك التلغراف الى برلين الى احد الأخصائيين، وما لبث هذا الأخصائي في فحصها وعاد فأبرق الى البرازيل بالداء والدواء وبهذا نجا المريض من ظلام ليل دائم

أحمد زكي

الثعبان والانسان

للدكتور حسين فرج زين الدين

دكتوراه في التاريخ الطبيعي من فينا

من رسالة قيمة وضعها في (الحيات المصرية) سننشر بعض فصولها تباعاً

لعل من يزور حدائق الحيوانات بالجيزة لا يستوقف نظره شيء اكثر مما تستوقفه تلك الحيات السجينة في بيوتها الزجاجية، فهي على الرغم من جمال منظرها وما هو معروف من نعومة ملمسها تبعث في النفس شيئاً من الاشمئزاز والكراهية، وعلى الرغم من سجنها والامان من شرها يهتز القلب فزعاً منها، ولعل السر في ذلك تلك الاعتقادات السائدة التي تناقلها الناس جيلاً بعد جيل عن فتكها وخيانتها حتى جاء ذكرها في كثير من تشبيهات الكتاب وخيال الشعراء. كما ورد ذكرها في الكتب السماوية وقد يكون ذلك راجعاً الى شكلها الطبيعي ووقوفها شاخصة لا تغمض ولا تطرف وحركات السنتها الدائمة السريعة، واعتقاد الناس خطأ أنها أعضاء اللدغ منها فترى أثر الخوف منها شديداً في نفوس الكبار الذين عرفوا شيئاً عنها، ولكن الاطفال الصغار لا يدركون قليلاً ولا كثيراً من امرها، وكذلك صغار القردة قد ترى الافاعي زاحفة فلا تخشى ان تقترب منها وتلمسها وتعلب بها، وقد ايد هذه المشاهدة البحاثة ميتشل في تجارب عدة قام بها، وقد أثبت كل من العالمين & بعد بحثهما في أفاعي الهند والصين انها على ضخامتها تفزغ من الناس، وتفر منهم ولا تحاول ايذاءهم الا محرجة مضطرة للدفاع عن نفسها، غير ان ذلك لم يقلل من اعتقاد الناس بخطرها، وليس هذا عجيباً منهم فانها كانت دائماً موضع اهتمام عظيييم. كثر ذكرها في الكتب السماوية وفي الديانات على اختلافها، وفي الكتب الادبية والعلمية، فهناك حية آدم عليه السلام، وعصا موصى وثعبان كليوبطرة، وترى اسكليبوس إله الطب عند اليونان يحمل عصاً ملتفة عليها أفعى، وابنته هيجيا إلهة الصحة ترى دائماً معها أفعى تقدم اليها الماء، وقد صنع عقداً لألهة مينرفا من صور الأفاعي، وإن رأس ميدوزا إلهة الانتقام معصوب بها؛ وكان قدماء المصريين يعبدون الناشر المصري المعروف، وكان من الخرافات السائدة في الشعب في ذلك العهد، ان هذه الأفاعي الخطرة تختلط بالناس في بيوتهم وتعيش بينهم على العسل والنبيذ لا تمسهم بسوء . ويروي أنها

ظلت على هذه الولاء للناس حتى كان لأحد التجار طفل فعدا عليه يوماً ثعبان صغير فلدغه فمات؛ ولما عادت أم الثعبان وعلمت بجريرة ابنها قتلته ارضاء لآل الطفل. ومنذ ذلك اليوم هجر الأفاعي البيوت الى الخلاء، وساجلت ابناء آدم العداوة، وأضحت لدغتها قاتلة. ومنذ ذلك اليوم أيضاً جعلت الأفعى رمز القوة، ووضعت على تيجان الملوك القدماء.

وروي بلوتارك المؤرخ الروماني ان قبيلة السلر وهي من القبائل البائدة، كانت في رجالها مناعة طبيعية موروثة ضد سم الحيات، وكانوا يحافظون على طهارة أصلابهم ونقاء دمائهم المحافظة كلها فلا يسمحون لنسائهم أن يتزوجن أو يتصلن أي اتصال برجال من غيرهم، وكانوا يستوثقون من هذه الطهارة بان يطلقوا الحيات السامة على أولادهم حين ولادتهم فان قتلت واحداً منهم تبينوا خيانة أمه.

ومن الحيات المعروفة في الهند ذات النظارة وتسمى الناشر الهندي، وفي الاساطير

التي تروي عنها ان الأله بوذا هبط مرة الى الارض على شكل انسان ونام في الهواء فجاءت هذه الحية ونشرت عليه عنوقها فأظلته من الشمس فجزاها على ذلك بان آمنها من شر المخلوقات جميعاً، وبعد حين ذهبت اليه تقتضيه وعده وتشكو اليه الطيور الجوارح واضرارها بها فوهبها تلك النظارة تمتاز بها لدى الطيور فخشاها ولا يصل اليها اذاها.

ومن الروايات الشائعة التي يتناقلها سكان الجمهورية الفضية ان البقرات التي يقل ادرارها تكون قد رضعتها الحيات، بل يعزون ضعف بعض أطفالهم الى أن الحيات تمر ليلاً بأمهاتهم فترضع ثديهن.

ويعتقد الناس أن في الحواة سحراً أو قوة خارقة يسلطونها على االحياة. ففي الهند مثلا يمر الحااوي بالناشر الهندي ومعه عصا ومزمار، فيظل يداعبه باالعصا والحية تعضها، وبعد ان ييكون قد أجهده التعب يرمز له فيهدأ ويسكن فييظن االناس أن الثعبان لا يلدغ االحاوي خوفاً منه والواقع أنه يكون أفرغ سمه حين عض العصا كماا يحسبون أن للقيثارة أثرا في تهدئته، والحقيقة اانه التعب الذي اضناه.

وكذلك نرى حواتنا في مصر يطوفون بأنواع من الحيات يحملونها عادة في جراب من الجلد ويلعبون بها العاباً مختلفة فيطوقون بها بعض النظارة أو يضعون رؤوسها في أفواههم أو يمزقونها بااسنانهم أو يتركونها تشرب من اناء ثم يشربون منه، ومنهم من يدرب بعض القردة على اللهو بها وقذفها على الناس ويوهمون العامة ان ذلك راجع الى سر الولاية الرفاعية فيهم، والحقيقة ان بعض هذه الحيات ليس ذات خطر مطلقاً كالدساس الذي يعتقد الناس ظلماً انه اشد انواعها خطراً، وكأنواع الارقام وكبعض الحيات الاخرى الخطرة المنزوعة الانياب، ولا يعرف غير الحاوي سر ذلك.

وقد حدث في المنيا في مايو سنة 1931 ان احد هؤلاء الحوّاة الرفاعية كان ينزع أسنان ناشر فأفلت من يده ولدغه فمات. وحية الناشر محفوظة الى الآن في المستشفى االاميري هناك

اما الطريقة التي يستخدمها هؤلاء الناس في امساك الحيات فانها ترجع اولاً الى الذعر الذي يعتري الحية عندما يفاجئها مفاجئ غريب فانها تقف بغتة بتأثير الحركات العكسية فيها، ثم الى خفة حركة الصياد في القبض على رقبة الحية، وفي تحريك عصاه، والى قوة تأثيره النفسي وشعرو الحية بهذه القوة كقوة التنويم المغناطيسي. والدليل الآتي يؤيد صحة هذه النظرية. وذلك أنه قد تقدم أحد الاشخاص وكان يخاف من الحيات فامسك دساساً فعضه، ثم تقدم آخر لا يخشاها ولا يخاف منها وأمسك الحية، فلم تحرك ساكناً وكلاهما لا يدين بمذهب الرفاعية.

وعلى ذلك لا يجوز أن تعزى قوة الحواة الى شيء من السحر أو الولاية، ولا أدل على ذلك من أن أهالي البرازيل وعمال حديقة الحيات الشهيرة عندهم يمسكون بأنواع الحيات، ومنها ذات الجرس المخيف دون أن يمسهم سوء، وهم ليسوا أتباعاً ولا ينتسبون للرفاعي.

وقد شاءت حكمة الله أن يسلط بعض المخلوقات الحية على بعض حتى لا تزدحم بها الأرض أو يطغى جنس منها على غيره من الأجناس، ولهذا نرى رحى الحرب دائرة بين هذه المخلوقات منذ نشات الدنيا فبينما نرى الطيور الجوارح وغيرها مسلطة على الحيات فلا تكاد تراها حتى تنقض عليها وتمزقها تمزيقاً فلا تحميها منها لدغاتها ولا سمومها، تجد هذه الحياة بدورها مسلطة على الضفادع والسحالي وصغار الطير والثديات، ولا ينجو من شرها الانسان نفسه، فكثيراً ما تعدو عليه وعلى أطفاله وعلى ما يربى من طيور وثديات نافعة كما تفعل الأرقام في مصر والبواء في الهند والبرازيل وهناك الحيات المائية الشرهة التي تفتك بالاسماك، ويكثر فتك أنواع من الحيات بالانسان فان للغريبة والناشر في الهند

وذوات اللاجراس في أمريكا والابترو والناشر في افريقيا لا ينهض بعبء احصائها العادون.

ولكنها الى جانب هذه الاضرار لا تخلو من فائدة، فهي تقضي في الهند على الفيران التي هي من أكبر العوامل في نقل عدوى الطاعون فتقلل بذلك انتشاره وتحمي البيوت والمزارع من هذه الفيران كذلك بخاصة الغيطية منها، وبعض الحيات تأكل

الديدان الضارة، وهناك أنواع ضخمة تؤكل لحومها ويصنع من جلودها أجود أنواع الأحذية وحقائب السيدات.

العالم المسرحي والسينمائي

(فلم عيون ساحرة)

لناقد (الرسالة) الفني

عرض في الاسبوع الماضي فلم (عيون ساحرة) للسيدة آسيا في دار سينما فؤاد، وبرغم الدعاية الواسعة النطاق التي استمرت أشهراً طويلة قبل عرض الفلم، والضجة التي قامت أخيراً بسبب تعنت قلم المراقبة من أصحاب الفلم، وعدم اجازة بعض مراقفه والسماح بعرضها، على رغم كل هذا لم يلق الفلم من اقبال الجمهور ما ينبئ عن نجاح كبير، وهو ما يؤسف له حقاً أشد الأسف، فان صناعة الافلام المصرية في أشد الحاجة الى التشجيع والمؤازرة ليشتد ساعدها وتمضي في طريقها بخطى ثابتة نحو الرقيي والكمال.

يمتاز هذا الفلم من سابقيه بانه نحا في فكرته وفي اخراجه منحى جديداً لم نألفه بعد في أفلامنا المصرية التي كانت في الأغلب تدور فكرتها حول مواضيع مصرية بعضها عادي لا غناء فيه، وبعضها فيه من المحاولة والجهد ما يدل على رغبة صادقة وفي التجديد والابتكار، وان قعدت الوسائل المحدودة والجهود الشخصية التي لا تقوم على أساس صادق في العلم أو التجربة بأصحاب هذه الافلام عن تحقيق ما يطمعون فيه من التقدم والتجديد.

فكرة الفلم معقدة بعض التعقيد، أو قل أنها كانت من العمق بحيث أصبح من العسير على الجمهور ان يلمسها أو يفهمها للوهلة الاولى، والى هذاعزو انصراف الجمهور عن الاقبال عى مشاهدة هذا الفلم. والواقع ان الفلم لا تنقصه عوامل الاغراء التي تدفع الجمهور عن حضوره فمن مناظر جميلة خلابة، وجو يكنفه غير قليل من الرهبة والغموض، وحيل سينمائية لم يألفها جمهورنا في الافلام المصرية، الى غير ذلك من دواعي الاقبال. ومع هذه كله فالواقع ان الفلم لم يصادف نجاحاً كبيراً. وأرجح ان السبب الاول في هذا هو عدم تفهم الجمهور لفكرة الفلم وعدم تتبعه لها في مشاهده المختلفة.

على ان اصحاب الفلم، على ما أظن، قدروا ان نفس هذه العوامل مع الغموض الذي يسود الفلم والفكرة الغريبة التي يعرضها، هي التي ستدفع الجمهور الى التزاحم على مشاهدته؛ فكانوا في تقديرهم مخطئين. وأمثال هذه كثير مألوف في عالم السينما في اروبا وامريكا على السواء، وكم من افلام أنفق عليها آلاف الجنيهات واشترك فيها أقطاب السينما من

ممثلين ومخرجين، وقدر لها النجاح، ثم لم تصادف اقبالا من الجماهير فتكبد أصحابها خسائر جسيمة. ولكن ما كان اغنانا نحن في مصر، وما زلنا في خطانا الاولى في هذا الميدان المترامي الاطراف الوعر المسالك، عن ان نجازف منثل هذه المجازفات الخطرة ولما تنضب بعد بين أيدينا المواضيع التي يصح ان نستمد منها مادة لأفلامنا المصرية.

على أن المخرج لم يفلح في خلق الجو الغامض المخيف الذي يسود مثل هذه الافلام، ولذلك كانت مشاهد الفلم - وليست لها تلك الروعة التي تناسب الفكرة - تقابل من الجمهور بكثير من عدم الاكتراث والمبالاة. على أن المحاولة في ذاتها محاولة جريئة مبتكرة - من ناحية الفلم المصري على الاقل - وقد أراد المخرج أن يسير فيها على نمط بعض الافلام الغربية التي من هذا النوع كفلم (فرنكشتين) ولكن لم تسعفه تجاربه وخبرته من الناحية المعنوية، ولا ما تحت يديه من عدد وآلات من الناحية المادية. على أننا نرجو الا تثبط هذه التجربة - وما كانت لها من نتائج تدعو حقا الى اشد الاسف - عزائم السيدة آسيا وتثنيها عن متابعة جهودها، ولعل فلمها القادم يكون أحسن حظاً وأكثر نجاحاً ورواجاً.

ذكرنا أن بالفلم مشاهد رائعة الجمال من تلك الحدائق الغناء والقصور الانيقة والرياش الفاخر مما يعطي لمشاهدي الفلم في الخارج فكرة طيبة عن هذه البلاد، وعن مفاتنها ومغانيها، وينفع في الدعاية لمصر نفعاً لا شك فيه. وقد تقف مميزات الفلم عند هذه الحد فأننا اذا شئنا أن نتحدث عن بعض نواحيه الفنية وجدنا فيها نقصاً كبيراً لعله واضح

ملموس حتى لا يخطئه أقل الناس خبرة بمثل هذه الشئون. فالصوت لم يكن حسن الالتقاط ولا دقيقة، والجمل مقطعة تقطيعاً غريباً حتى لتمر الثواني بين الكلمة والكلمة في الجملة الواحدة، وربما اقتضى الموقف ان يلفظها الممثل في تدفق وحرارة، فهذا التقطيع يفسد وقعها ويضيع علىالمشاهد الأثر الذي كان يجب أن تخلفه في نفسه.
وصوت الآلات الموسيقية كان أشبه برنين الاواني النحاسية منه بوقع المثاني والمثالث كما يقولون احياناً. . . وكانت (خشخشة) الصوت وما فيه من عيوب واضحة تذكرني بتك الآلة المعلونة (الراديو) التي تزعجني في المنزل اي ازعاج، وقد عدت اليوم شديد الاعجاب بها والرضاء عنها.
كذلك كانت الاضاءة، إلا في بعض المشاهدة الخارجية التي تغني فيها أشعة الشمس الساطعة عن الآلات التي قد لا تستخدم على الوجه الأكمل.
وللمرة الأولى - على ما أذكر - تغني السيدة آسيا، ولست ممن ينصح لها بالغناء، على الأقل حتى تجد الآلات اللاقطة التي لا تشوه الصوت وتجعله بحيث يصادف وقعاً حسناً في الأذن، وارتياحاً في نفس المتفرج. وعلى كل حال فما أظن ان أفلام السيدة آسيا - مهما أكثرت فيها من المشاهد الغنائية - ستعد في يوم من الأيام من الأفلام الموسيقية، فالخير لها أن تقتصد في هذا أو تعدل عنه بالمرة.
بذل ممثلو الفلم جهداً كبيراً في أداء أدوارهم على أحسن وجه ممكن، على أن الحظ خانهم في كثير من المشاهد، ولم يصادفوا التوفيق الذي كانوا أهلا له، ونلاحظ على أحمد افندي جلال أنه كان كثير التقيد في حركاته، كثير الاضطراب فيها، حتى في المشاهد العادية التي تخرج عن دائرة السحر ووقوعه تحت تأثير دليله. ولو ترك نفسه على سجيتها، وكان في دوره أكثر بساطة وأقل تكلفا لكان خيراً مما رأيناه.
بقى أن نقول ان الحوار في الفلم لم يكتب بشيىء من العناية، والنقص فيه واضح جداً. كما أن تقطيع الفلم لم يخل من الارتباك والاضطراب، وما نجد غناء فيي تفصيل كل هذا.
وفي النهاية أظن من االخير ومن التشجيع للسيدة آسيا على مداومة الجهد والعمل، أن نشكر لها ما بذلت وما حاولت، وان نرجو لها في الأفلام القادمة ما تصبو اليه من النجاح والتوفيق. فان أخطأها الحظ اليوم، فما نظنه يخطئها في المرات المقبلة.
على مسرح الاوبر الملكية
تعمل على مسرح دار الاوبر الملكية هذه الايام فرقة غنائية فرنسية تضم بعض ممثلي دار (الاوبرا) في باريس (والاوبرا كوميك). وقد جرت التقاليد ان تشغل هذا الفصل من موسم الاوبرا في مصر فرقة ايطالية، وقد حرم الجمهور بذلك من الفن الموسيقي الايطالي على ماله من القدر والقيمة الفنية التي يعرفها عشاق الفن الموسيقي الغربي، واتيحت لنا هذا الموسم فرصة للتمتع بهذه الاوبرات العظيمة التي وضعها كبار الملحنين الفرنسيين.
ومن الاوبرات التي تعرضها هذه الفرقة (تاييس) و (مانون) و (لاكميه) و (كارمن) و (صيادو اللؤلؤ) و (فرتر) (وحياة البوهيميين) و (فاوست) وكلها من أشهر الاوبرات المعروفة، وبعضها مأخوذ من قطع أدبية لها طرافتها ولها قدرها في عالم الادب كفاوست وفرترلجيته، وتاييس لاناتول فرانس، ومانون للأب بريفو
وقد شاهدنا من هذه الاوبرات (تاييس) و (كرمن) و (مانون) ولمسنا عن كثب ما بذله أقطاب هذه الفرقة الغنائية من جهد، ومقدرتهم في اداء الاوبرا روحت عن نفوسنا كثيراً مما نعانيه من الغصص لما يلحق مسرحنا المصري من الركود بل العدم.
على أن من الحق أن نذكر بهذه المناسبة أن مناظر دار الاوبرا وملابسها أصبحت قديمة بالية على ضخامة ميزانية الدار التي لا يخصص منها الا القليل للنواحي النفية الخالصة، وقد كان هذا سبباً في الا تبرز هذه الاوبرات في المستوى الفني الحق الذي يضفي عليها جلالا وروعة، ولهذا يحسن المتفرج كثيراً من النقص، ولا تخرج الرواية بذلك في الثواب الفني اللائق بها، ومن الواجب ان نذكر أن دار الاوبرا لا تستطيع بمعداتها اليوم أن تجاري وسائل التجديد في الفن المسرحي الحديث، ومن الخير الا تكون دارنا الرسمية للفنون في مستوى أقل من الواجب، وفي مرتبة أقل من مثيلاتها من دور الاوبرا في العالم.

الحركة المسرحية والسينمائية في الخارج

هوليود

تعد هوليود للسنة الجديدة نرنامجاً حافلاً بروايات من أفلام أكبر الكتاب العالميين المعروفين. وستخرج شركة مترو جلدوين ماير روايتي (النور الذي خفت) و (كيم) لرديارد كبلنج شاعر الامبراطورية البريطانية كما يسمونه.

وستخرج رواية (ما تعرفه المرأة) للكاتب الانجليزي الشهري باري، وتقوم بالدول الأول فيها هيلين هايز. كما تعد رواية (صور من المستقبل) للكاتب المعروف ولن للظهور على الشاشة الفضية، وقد سبق أن أخرجت له روايتي (جزيرة الدكتور مورو) و (الرجل الذي لا يرى). وسيرى رواد السينما رواية (دنيا جديدة عظيمة) من قلم ألدس هكلي الذي يعد من أعظم كتاب العصر الحديث.

وتستعد شركة راديو لاخراج راوياة برناردشو (تلميذ الشيطان) ويقوم بالدور الأول فيها جون باريمور الممثل السينمائي الشهير

وقد قبل هرلاميل لدويج الكاتب المعروف وصاحب التراجم الشهيرة أن تقتبس من كتابه عن نابليون رواية للشاشة الفضية، وسمثل دور نابليون فيها ادوارد روبنسون من أقدر ممثلي شركة وارنر السينمائية. وقد عاد لدويج أخيراً من هوليود وذكر لبعض الصحفيين أن من عزمه أن يضع كتاباً عنها قائلاً: إن للمدن كما للاشخاص شخصياتها الملاءى بالفواجع والمهازل على السواء.

برلين

دعا الهر هتلر زعيم حزب النازي ورئيس الوزارة الالمانية أنى أوندرا الممثلة السينمائية الشهيرة وزوجها ماكس شملنج الملاكم المعروف لتناول الشاي في قصره الخاص بمناسبة مبارحتهما المانيا الى أمريكا.

باريس

ايفون برنتان من أشهر ممثلات المسرح الباريسي وقد دعيت لزيارة لندن لتمثل رواية كتبها خصيصاً من أجلها مستر نويل كوارد الكاتب الانجليزي المعروف ومؤلف رواية (كفلكاد) الشهيرة. والرواية من نوع الاوبريت وقد عرضت على مسرح (ماجستي) وربما انتهزت بعض الشركات السينمائية في انجلترا فرصة هذه الزيارة وتعاقدت مع الممثلة على الظهور في عدة أفلام غنائية ناطقة.

لندن

ارتفعت الشكاية في لندن من أصحاب المسارح والممثلين ومديري الفرق من الضريبة التي فرضتها الحكومة على المسرح، وعقدت اجتماعات كحثيرة للاحتجاج على هذه الضر يبة واستطاعت سيبل ثورنديك الممثلة الانجليزية الشهيرة بما لها من المكانة والاحترام في جميع الأوساط أن تطلب من بعض أعضاء مجلس العموم البريطاني ممن يعنون بهذه المسائل عقد اجتماع خاص في إحدى غرف المجلس للبحث في هذا الموضوع. وتم الاجتماع خاص في إحدى غرف المجلس للبحث في هذا الموضوع. وتم الاجتماع منذ أمد قريب وحضرته سيبل ثورنديك وباحثت الحاضرين من النواب في أمر هذه الضريبة وقد وعدوها بعرض الأمر على المجلس في القريب العاجل.

قامت شركة جومون الانجليزية للسينما بتجربة هي الاولى من نوعها. والغرض منها تقريب السينما الى العميان وحثهم على مشاهدتها وأعدت الشركة ثلاث حفلات للعميان عرضت فيها فلم (انا كنت جاسوسة) وكانت الحركات السينمائية يتولى اذاعتها علىالحضور احد موظفي الشركة بواسطة ميكروفون خاص دجون أن يحول ذلك بينهم وبين سماع محاورات الفلم وحديث أبطاله. وقد نجحت التجربة وخرج الحضور مسرورين من هذه النتيجة التي قبرب اليهم احدث ما وصلت اليه المدنية الراهنة من وسائل الرفاهية والمتعة.

وبهذه المناسبة نذكر ان بعض المسارح تعد في صفوفها الامامية سماعات خاصة يستطيع بواسطتها الصم أن يسمعوا ما يلقى على المسرح اثناء التمثيل.

نيويورك

عمت البطالة المشتغلين بالمسرح في امريكا كغيرهم من أصحاب المهن والحرف الحرة، واشتدت الأزمة حتى أغلقت كثير من المسارح أبوابها، وأعلنت بعض الاندية الفنية

وجمعيات الهواة أنها على وشك الافلاس ان لم تمد لها الحكومة يد المعونة، وخفضت المسارح مرتبات ممثليها بنسبة كبيرة، وتدفع نقابة الممثلين في نيويورك مرتبات من صندوق التوفير للممثلين العاطلين، وقد بذلت في هذا السبيل في العام الماضي 40. 000 جنيه، وأعدت هذه السنة مطعماً خاصاً لاطعام ثلثمائة من الممثلين العاطلين يتناولون فيه طعام الغداء كل يوم مجاناً.

القصص

قصة مصرية

. . .المعلم لوقا

اجتاز الترام الميادين والشوارع، وأخذ ينساب بين الحقول في الطريق إلى الأهرام؛ وكان القمر قد نفض الغيوم عن وجهه، وبدا سافرا يضحك للحقول، ويحنو على النباتات المرتجفة في نسيم الليل، ويناغي الأغصان المشرئبة اليه من أعالي الأشجار، فانبسطت أسارير (المعلم لوقا) سائق المركبة، وفارق العبوس وجهه الهزيل اليابس، وأخرج علبة سعوطه وأدناها من أنفه، يبلتمس الصحو والانتعاش.

لم يكن الرجل في حال حسنة، لأن الليلة باردة قارسة البرد، وهو مسن، ليس في هيكل من اللحم ما يقي عظامه المقرورة، ولو كان معافى لما شكى، لكنه مريض، مبهور الأنفاس من السعال، معصوب الرأس، يحرك عينيه بعناء كأن السعال قد شدهما في محجريهما بخيوط قوية. . . ما كان أحوجه أن يأوى الى فراشه! لكنه آثر أن يشتغل الليلة، ليظفر بيوم راحته في الغد، لأن الغد (عيد الميلاد) وهو يريد أن يبقى في البيت مع زوجته (كتُّورة) وابنته (ياسمينة) يستقبل المهنئين بعودة الأيام، والمتمنين أن يمضي الحول، فاذا بياسمينة أم لطفل جميل.

وإذ ذكر (عم لوقا) فناته ابتسم، ونظر في ساعته يتعجل ميعاد العودة، ثم أرسل بصره في الطريق أمامه، وابتدأ يغرق في تأملاته: كم له من السنين وهو يقف هذه الوقفة؟!. . إنه الآن شيخ! كان فتى عندما ارتدى سترة (المصلحة) للمرة الاولى. كان وجهه ناضراً، وشاربه أسود مفتولا! وكان له حاجبان جميلاً! وكان شعره مرتباً معطراً!. . أما الآن فقد صار يابس الوجه! ظهر الشيب في حاجبيه، وعبثت بجمالهما الأيام! ولم تعد رأسه معطرة مزينة، بل استغنت عن المطر بأرد الصابون؛ ولم يعد للمشط معها شأن، لأن شعرها قد انتحل، ولم تذر الأيام منه غير بقايا مبعثرة متباعدة. . . وندت عن صدره آهة طويلة وهو يغمغم: (ما أعجب أمر الحياة!!).

واكتابت نفس (لوقا) واشتد عليه صداعه، واستيقظ سعاله، فاضطربت الصور في مخيلته، وانهدت قواه، ولم يعد يملك كل وعيه، وصار يستقبل بذهول هذه الأصوات المنصبة في

أذنيه من ضجيج العجدلات، وصريرا لآلة، وهمهمة الأشجار في أذن الليل. . . فلما وصل التراتم الأهرام تهالك في مقعده، وأغمض عينيه وهو يتحسس بيده جبهته الملتهبة، ويحدث نفسه: لا بأس. سأقضي العيد مع ياسمينة، وارتسمت فوق شفتيه ابتسامة سعيدة، ورقص شاربه الفضي.

حاول لآن ينام ريثما يحين وقت العودة، لكن الالم كان يحتدم في جمجمته، ويتردد في عظامه فيعيده إلى اليقظة. . . وأخيراً آثر أن يفكر، وأن يرسل روحه في ماضيه.

واضطربت مقلتاه خلف جفنيه المقفلين! فقد ذكرلا (آلة القيادة). آلته المحبوبة، التي يحركها فتندفع المركبة، وتشق الطريق وهي تغنى بعجدلاتها فوق القضبان!. . واشتاقت يده أن يلمسها، ويشركها سعادته بالعيد، فمد نحوها يديه، ما أعزها عليه! أليست رفيقة حياته، وعشيرته الدائمة، كزوجته كتورة سواء بسواء!.

وتقلصت ابتسامته عن شفتيه!. ذكر سيئات آلته، وانها لم تكن له مطيعة ولا موانية في بعض الاحيان. وبدت امنام عينيه صور أشلاء مبعثرة، وطربوش فارق جبهة هشمتها العجلات. ودم قان يبلل الحصى ويصبغ القضبان!. . وذهب يستر عينيه بيده المرتجفة النحلية، فقد ذكر موقفه في قفص الاتهام، في محكمة الجنايات، والنائب يحدث المستشارين قائلاً: كان الصبي وأخته في طريقهما إلى المدرسة عندما دهمهما هذا الرجل الشرير المستهين بالارواح من العدل أن ينال أقصى القصاص.

لقد برأته المحكمة. (ومضت عشر سنوات) لكنه يشعر للآن أنه مذنب. وأنه قد ارتكب خطأ ما. وخيل اليه ان الصغيرين ينظران اليه بعيون بريئة عاتبه مملوءة بالألم. وأن

أبويهما يجدد ان الحزن في العيد ويذهبان الليلة الى الكنيسة في ثياب سوداء يلتمسان العزاء ويسألان النعيم لولديهما والسلوان لأكبادهما الحرى، فانسابت الدموع من بين جفنيه وبللت وجهه النحيل، وغمغم بصوت حزين (رحماك يا رب)
وارتد فكرة من هذه الجولة في الماضي. وذكر أن (ياسمينة) تنتظره ليشاطرها طعام العيد ورأى مائدة شهية- متعددة الالوان عقب أيام الصوم. وما تنالو فيها من طعام غليظ مجهز بالزيت، فسال لعابه. وبدأت اساريره تنبسط. . وبدأ يصفح عن آلته العزيزة وما فعلت طالما مكرت به كتورة واذنبت اليه وسامحها فلا ضير ان سامح آلته المحبوبة.
وأخذ القمر يغالب الغمام ثم احتجب، وأظلمت الدنيا وامتدت ظلمتها الى روح (المعلم لوقا). . عاد فذكر شيخوخته، وان الحياة ستتبرع له بأيام أخرى قليلة إن كانت كريمة. من يدري قد لا يأتي عليه عيد جديداً. . قد تقضى (ياسمينة) العيد الآتي وحدها، وتشتمل بثوب أسود، وترسل أثوابها الزاهية الملونة الى المصبغة: ويطفئ الحزن لمعان عينيها، ويذهب ببهجة قلبها، وتصير ابنة يتيمة منكرة. . !.
نشر يديه في الهواء كأنه يحاول ان يحميها، ثم سقطت يداه فوق ركبتيه، وانتابته رعدة، وأخذ السعال يصخب في صدره. ففتح عينيه وأخذ يحدق في الظلام وقديمم وجهه شطر الصحراء ورأس نفسه يرتقي الاهرام كما كان يفعل ايام الشباب! وخلال انه جالس على القمة يستعرض الحياة من هناك، ويرسل بصره من مكانه العتيد في القفر البعيد الممتد!. . هو واحد من هذه الهوام الزاحفة على ظهر الارض يسحقها الموت بقدمه وهي تسعى، فتضير نسياً منسياً كهذه الحشرة التي يدوسها عابر السبيل!.
وبدت له الحياة متعبة ثقيلة لا خير فيها. . . ما اشبه برجل سائر على الرمال، تائه ضال، يسير نحو مصير مجهول تضربه الشمس، ويقرسه البرد، وتروعه وحوش الفلاة. . . يسير ويسير، وهو ينشد الواحة. ويحتمل الصعاب والمشاق على أمل أن يستريح عليها راحة الأبد، ولا يعود يخشى عرياً ولا جوعاً. . .
ماذا كسب من حياته!. . لا شيء. عمل، وعرق، وخبر. . . ليست هناك مسرات. ولد وتألم، سيموت. لم يبق غير المرحلة الاخيرة. . .
وحدق في الآلة التي امامه، وهي جالسة صامتة، تنتظر يده لتدور، وتفنى الوقت في الدمدمة. لم تعد جميلة في عينيه! ود لو يحطمها! رأى نفسه عبدا لها مربوطا بها يطوف واياها حول المدينة كما تطوف البقرة الذلول حول الساقية كل النهار. أي فرق بينهما!- . بل انه اسوأ منها حالاً! هي تعمل لقاء حفنة من الشعير، وهو يعمل لقاء أجر لا ينيله بين الناس الترف الذي نالته بين البهائم. . .
ماذا أصاب من حياته!. . تنبهت روحه، وأحس كأنه قد حمل على كتفه من ركبوا معه طيلة مدة خدمته. ذكر مركبة الدرجة الأولى التي تكون الى ظهره اذ يقود الترام- وذكر المترفين الذين يصعدون اليها. ناس من طينة غير طينته. ليسو قوما مملقين متعبين مثله
أيديهم ملساء ناعمة لم يجر عليها العمل الشاق. وجباهم منبسطة مطمئنة لم يبللها عرق الكفاح، وليس على وجوهم ثوب الذل الذي نسجه على وجه الضنك والزمان اللئيم. . ذكر كبرياء بعض السادة وعجرفة بعض السيدات. وخشيتهن على أثوابهن الجميلة أن تمسها سترته الخشنة أو يداه الشقيتان.
ذكر كم منهم ومنهن يندفعون الى باب المركبة وهو يهم بالمسير فتكاد أقدامهم تزل، فيقتحمونه بأبصارهم وتزدحم أفواههم بكلمات الازدراء والتحقير، ويصعقونه بأبصارهم الآلهة وهم يصرخون (يا اعمى) بينما يقيدون (نمرته) في مذكراتهم ذات الجلد الجميل المزركش، ليبلغوا شكواهم الى الشركة، حتى تجزيه بخصم بضعة أيام من راتبه!- . كم من الأيام عمل بلا اجر، بفضل هذا العنف من الناس! كم غضب ويئس وطاش حلمه. ورد لو يقتاد المركبات الى النيل لينتقم ويستريح- . عاد الى حلق المعلم لوقا طعم المرارة الذي يغص به المضطهد والمظلوم. وامتدت اناملة المرتجفة الى القطعة النحاسيةالمعلقة بياقته. وقد نقشت عليها (نمرته) فأحسن كأنه مسجون محكوم عليه بالعمل الشاق مدى الحياة، وغمغم. (يا رب رحماك!. .)
ونظر في ساعته. . . بعد قليل سيعود الى القاهرة. سيجمع في طريقه الخارجين من

المسارح والصالات. عشاق مسرات الليل زبائنه الدائمين، وشر الراكبين. رحم الله ايام الماضي! لم يكن الناس قد تعلموا الافراط في السهر، فلم يكن الطريق يزدحم عندما ينشطر الليل. وكان يسوق بسرور واطمئنان لا يخشى شيئاً، لأن الطريق خال والناس في مضاجعهم يستقبلون احلام الفجر. . أما الآن فيجب ان يجلو أعصابه ويشحذ حواسه، ويلزم جانب الحيطة والحذر، لأن الحانات بدأت ترفض المتهالكين على الشراب، وتطرد النائمين فوق الموائد. وهم الآن مبعثرون في الطريق يترنحون .!وقد يحلو لبعضهم أن يداعب السائق، أو يغني وهو جالس بين القضبان

وقد بدأت الصالات والمراقص تلفظ روادها. دور الدعارة تتقيأ من ابتلعتهم أول الليل. والفتيات خارجات من دور السينما في رفقة الفتيان! في ذراع كل فتاة شاب! والذراع حار! لا تحلو لهم إلا حفلات الليل! تنهد (المعلم لوقا) وهو يفكر ويحدث نفسه: رحم الله ايام زمان! أيتغير الناس هكذا! أين جيل (كتورة) وعهد الحرائر! أين الثياب الفضفاضة! أين

البرقع الابيض. واليشمك، والحبرة! ذهبت الحشمة وولى الوقار الادبار من (بر مصر)!. ولم يعد النساء يعنين بصيانة أجسامهن من عبث الناظرين لا يرى فقدت هيبتها . .!وأصبحت وسيلة بنات البلد لهز الارداف

ومض السخط في عيني (المعلم لوقا) وحوقل وهو يعيد في ذهنه صورة هؤلاء الفتيان الذين وقفوا بجانبه بالأمس بعد منتصف الليل. كانت رائحة الخمر تنبعث من أفواههم، والكلمات البذيئة تتكاثر عند شفاههم كما يتكاثر الذباب عند الأقذار. كانوا يتهامسون متهكمين بطربوشه الباهت الملوث، وكيف اسودت حافته. . وأخذ يجذب شعرات . .!شاربه بعنف وأنامل متوترة

واتسعت حدقتاه فجأة!. . صور عنيفة كانت تخطر أمام عينيه! ذكر أنداد هؤلاء الغلمان من أربعة عشر عاماً خلت. . كانوا رجالا بأرواحهم فتياناً بأجسادهم. لأن الزمان كان يخلق في الفتيان جهد الرجال. كانت الأرواح كاملة النمو تامة النشاط. لم يكونوا يتحدثون عندما يقفون خلفه عن الفتيات والموادات، لأن حديثاً آخر كان يشغلهم. ولم تكن تنبعث من أفواههم رائحة الخمر بل قد كانت تقبل الى قفاه اذ يتناقشون أنفاس حارة، نرسلها صدور ألهبها الشوق للحرية. لم يكونوا ضاحكين ساخرين، بل قد كانوا أغلب الوقت حزانى واجمين، ينظرون في صحف الليل فيصمتون ويطيلون الصمت، وهم يحدقون في أعمدة الصحيفة بيضاء لا كتابه فيها، لأن يداً تحب مصر تبعثر الحروف المصفوقة حتى لا تستيقظ الأرواح لكن الأرواح يقظي متنبه، تقرأ الحديث، وتعلم . .!الخطب وإن لم يكن كتوباً

لم يكونوا يتهكمون به، بل قد كانوا يحدثونه عن مصر الفتاة، والمستقبل، والأيام الآتية!. . ويناشدونه ان يلبي داعي الوطن يوم يطلب الوطن المضني دماء بنيه يجدد بها الحياة.

وازدحمت أمام عيني (المعلم لوقا) الصور المجيدة. وبكى كأن العام 19، والتلاميذ عائدون من مدارسهم يملأون الترام ويكونون مواكب جميلة متنقلة هاتفة للحرية! وهو القائد لهذه المواكب لانه السائق، قائد فخور تياه، لا يزعجه رفيف الرصاص، تطلقه أيد أثيمة. مشتاقة لابادة الارواح. دائبة على صراع الأحرار. وتمثل في ذهنه صورة الفتيان وهم يسقطون مجندلين يهزون الأعلام في أيديهم وهم يتخبطون في دمائهم. وذكر كيف غلى الدم في

عروقه فقفظ من الترام وتلقى العلم عن أحد الشهداء وذهب يعدو في الطرقات يزأر بأن الحياة لمصر والنيل لبنيه!. . وأحسن بدم البطولة يعود فيجري في عروقه، ويجدد في صدره الحياة، فشمخ بأنفه، وصعر خده، وابتسم ابتسامة استحمت في الدمع المتهاطل من عينيه، ودس يده في جيبه يلتمس علبة سعوطه وأفرغ ما فيها في أنفه وهو يغمغم! (ياما شافت العين يا لوقا. .)

وكأن صدره لم ييحتمل هذا الأنفعال فاستيقظ سعاله، وأخذ يعبث بانفاسه في غير رحمة ولا هوادة، حتى اغرورقت عيناه وانصدع جنباه. هي نزلة شعبية مزمنة مضت سنين وهو يتطبب، وينفق في الادوية نصف اجره الضئيل على غير جدوى. ولم تكن النوبات بادئ الأمر حادة هكذا ولكن مهنته هي التي قضت عليه استقبال هواء امشير البارد وهواء بؤونه الناري هو ما أحدث هذه التهيجات بصدره واتلف رئتيه. . كم هم

يترك العمل، ثم كان يذكر حاجة عياله للقوت. فيعود وهو ناقم. يعود لخدمة سيد يرى أرواح خدامه أرخص من أن تفتدى بالواح من الزجاج تقيهم تغيرات الجو! ليس أمامه الا ان يخضع، ويحتمل، ويدفع ثمن قوته من حياته، وينفق سلفا أيامه الآتية ليتقي غوائل الجوع في الغد القريب!. .

ولم تتركه غلته ليفكر، وبدأ يسعل من جديد. . وتنهد. . لو كان له أولاد لكان الآن في دفء الفراش. رجل سيء البلخت. دفنهم بيده اربعة. غيبهم التراب وهم في سن الشباب ليتهم ماتوا صغارا كاخواتهم الآخرين قبل ان تتعلق روحه بهم ويحبهم حبا مفرطا كانت يد المنون تقصفهم كما تقصف الريح السنابل وقد بدأت تمتلئ بالقمح. .

واشتد البرد، وازداد الليل حلكة، وساد الارجاء صمت عميق، وأخذ الرجل ينتفض، خيل إليه أن أولاده الأربعة يحيوطون به، جالسين في اكفنمهم لا تبين منهم غير وجوهم الشاحبة، وانهم يعتبون عليه اهماله في علاجهم، وعدم مواظبته في السهر عليهم في مرضهم، وأمضه هذا الخاطر وأقلق روحه، وذهب الشك الماكر يعذبه، وذهب الوهم يصور له انهم يحتضرون الساعة بين يديه، وانه يسبل أجفاههم، ويطبع على جباههم القبلة الاخيرة.

كان يحسب أن الجراح قد اندملت، وأن يد النسيان قد مسحت الاحزان عن صدره، فاذا بالذكرى تمزق هذه الغشاوة الرقيقة التي نسجها الزمان وإذا بالجراح تتفتح، وإذا به يحسن

ان بين جنبيه كبداً قد اخترمها الأسى، فلم يبق منها غير قطعة كالاسفنج راوية من قيح الحزن وصديده.

ووضع يده على جنبه يلم بها حشاه الممزق، وأخذ يبكي. . يبكي؟!. كيف! لم يكن يبكهم وقد كان الحزن جديداً، لأنه كان وقتذاك رجلا قوياً. وكان يزعم أن البكاء للاطفال والاحتمال للرجال، لأن الرجل كفؤ لحمل اثقال الهموم. بل قد كان ينكر على زوجته أن تعول وتنحب، ويطلب منها أن تكون امرأة صبوراً قوية، وكم اختطف حزام من وسطه وانهال عليها بالضرب الموجع - لترأفبنفسها! فما باله الآن يبكي وقد صار شيخاً؟! ان الاطفال اضراب للشيوخ في الابانة عن عواطفهم!.

وأهمته هذه الفكرة، وأزعجه أنه صار ضعيفاً يضطهده الحزن فلا يستطيع حبس دمعه، وكتم أنينه وحدث نفسه: (والله طيب يا زمان! بقيت عيل يا لوقا! فين عزم الرجال!. .)

وصعب عليه الامر فاستخرط في البكاء وأخذ ينشج نشيجاً عالياً. وإذ هو في بكائه فاجأته نوبة السعال، وكانت هذه المرة قوية مجتاحة متلفة. . وأحس (المعلم لوقا) كأن روحه تتسرب من بين جنبيه. وكان أعضاؤه ترتجف وتتشنج، وأنفاسه تختلج في صدره اختلاجاً قوياً. ثم أخذت حركته تهدأ، ورعدته تسكن، وأنفاسه تعود الى الخمود.

وشعر (لوقا) في تلك الآونة بشوق شديد لياسمينة، وخيل له أنها مقبلة اليه فابتسم، ومد نحوها يديه، ثم سقطت يداه الى جانبه، ومال عنقه الى كتفه. .

وأزف وقت العودة، وذهب (الكمساري) يتفقد صاحبه، وهمس في أذنه: لوقا. كل عام وأنت طيب. الدنيا برد. سوق بسرعة هلكنا. يتوب علينا!. .

كان لوقا فاتحا عينيه يحدق في الفضاء، لكنه لم يجب رفيقه، فاغتاظ، وظنه لا يحفل بحديثه فلكزه واذا به يتداعى بين يديه. .

وظهر له ما خفى من أمر زميله، وحدق في عينيه فلعم أن (المعلم لوقا) قد أنتهى أمره مع الحياة فاسبل جفنيه. ومزق السكون صوت ينادي: (لا حول ولا قوة الا بالله. . انا لله وانا اليه راجعون!. .

كانت (كتورة) تغط في النوم، وكانت الأبنة جالسة في ثوب العيد تنتظر أباها وقد لعب القلق بفؤادها، فلما قرع الباب تهلل، وجهها وهتفت وهي تضع يدها على المزلاج: (ابي، كل عام، وانت بخير).

ولم يجب أبوها، لأنه كان نائماً على كتف رفيقه. وكان يبدو على وجهه ان نعاسة عميق، وانه لن يستيقظ سريعاً، وحدق ياسمينة في وجهه لعله يلين ويستيقظ، فلم تظفر بغير تلك الابتسامة الواضحة على شفتيه، كان كان سعيداً، موفور السرور بالوصول (الى الراحة)

يوسف جوُهر عطية

الكتب
أهل الكهف - 2
قصة مسرحية للاستاذ توفيق الحكيم
بحث وتحليل ونقد بقلم الأديب عبد الرحمن صدقي
ألوان التفكير:
لا نقصد الى استقصاء ألوان التفكير في الرواية. فالتفكير العميق المنساب في غير للجب ولا عنف هو من أظهر مميزاتها. وقلما تخلو منه صفحة من صفحاتها. والقارئ المطلع على الادب العالي في الأمم الراقية يألف هذه الأفكار، ولا يجد هذه المناحى من التفكير غريبة عنه. وانما براعة هذا المؤلف المسرحي حق براعته في أنه لا يشعرك بأن له فكرة، أو انه يفكر ويتفلسف. وانما هي وقائع الحال ناطقة، وهذا الذي تسمعه هو ما يجري على لسان الحال، وتنطلق به كل نفس على سجيتها في مثل هذه الملابسات
فالرواية فلها فكرة عامة خرج بها المؤلف من بعث هؤلاء الذين بعثوا. وفيها تشاؤم متغلغل خفي نكتفي بالتنويه به تاركين للقراء اكتناهه.
كما أن كل فصل من الفصول الأربعة يكاد يكون له فكرة خاصة يدور على محورها. فهو يعرض في الفصل الاول للأيمان وصنوفه: فثمة ايمان الراعي الموروث في رسوخه وبساطته من غير تحليل ولا تعليل، فهو ايمان التسليم الخاشع والعاطفة الجميلة الساذجة. فاسمع اليه يروي يوم أن ذهب الى المدينة في بعض شأنه، فلمح خارج أسوارها راهباً يتكلم في جميع صغير بين خرائب قديمة تخفيهم عن الأعين؛ فاقترب وأصغى اليه، فاذا به كأنما انقلب إنساناً آخر. فلما سأله صاحباه في الكهف عما كان يقوله الراهب؛ قال: (لست أذكر شيئاً مما قال، لكني لن انسى ما شعرت به إذ ذاك، إحساس لم يعترني في حياتي من قبل إلا مرن إذ كنت أهبط الجبل ساعة غروب، فأشرقت على منظر بالخلاء لم ار اجمل منه، فلبثت ليلتي أفكر وأستذكر أين رأيت هذه الصورة من قبل؟ أفي االطفولة؟ أفي الاحلام؟ أم قبل أن أولد؟. إن هذا الجمال على غرابته ليس مجهولا مني. وقمت في الفجر فذكرت صورة البارحة، وفجأة برقت في رأسي فكرة: هذا الجمال كان موجوداً دائماً منذ الازل، منذ وجدت الخليقة. هذا الاحساس بعينه هو ماشعرت به وأنا أصغي الى الراهب. إن كلامه الذي أسمعه لاول مرة ليس مع ذلك جديداً عندي. أين سمعته ومتى؟ أفي الطفولة؟ أفي الحلم؟ أقبل أن ولدت؟ وتولدت في نفسي عقيدة أن هذا الكلام هو الحق، إذ لا أتصور بدء الوجود بدونه ولا انتهاءه بدونه. . .)
أما المستشاران فهما بطبيعة تعليمهما وحداثة عهدهما بالعقيدة يؤمنان ايمان العقل والمنطق. بلا شأن لله فيما وقعا فيه بل هما اللذان أوقعا نفسيهما في التهلكة. وهما يفكران في أمرّهما أكثر من تفكيرهما في الله. واذا صليا له فلكي يسألانه الخير - هذا لامرأته وولده وذلك لحبيبته. والحب يبتلع كل شيء حتى الايمان لانه ايمان أقوى من كل ايمان. وما دام الله قد خلق للناس قلوبا فقد نزل عن بعض حقه عليهم. . . واذا هما قابلا بين ايمانهما هذا وايمان الراعي قدرا في تحليل وتعليل أن صاحبهما خلى، فما يضيره أن يمنح قلبه كله لله أو للشيطان
ثم ايمان المرأة، فقد كان حسب ابنة الملك أن تسمع الفتى الذي تحبه يقول لها وهي في ثياب بيضاء تخطر في بهو الأعمدة في هدأة الليل وسكون القصر (إنك ملك من ملائكة السماء) وأن تعلم منه ان هذا في المسيحية اسم لمخلوقات أسمى وألطف من مخلوقات الارض، حتى رضيت نفسها عن المسيحية وارتاحت لها بحافز ما في الاحياء عامة وفي المرأة خاصة من الانانية الكامنة.
ويأتي الفصل الثاني فتراه يعالج في مطلعه طبيعة المرأة. فهي أبداً امرأة، قديسة كانت أو غير قديسة، ملكة أو من بنات السوقة فاذا قيل ارتباط بعهد مقدس لم يخطر لها انه مع الله بل حسبته مع من يختاره قلبها. فقلب المرأة يتسع دائماً لله وغير الله. ولعل اللقديسة كانت تفضل أن تكون امرأة لو أنها استطاعت.
والفصل الثالث عن الزمن. فالمؤلف يشعرك بأنه لا حقيقة المزمن خارج شعورنا وأنه على قدر تطور شعورنا تكون حركة الزمن. فكل واحد من أهل الكهف لم يشعر بشقة الزمن الذي غبر حتى أحس بالشقة السحيقة بينه وبين من حواليه في الشعور. والذي

أطال وهم أصغر فتية الكهف أنه التقى بمن تشبه حبيبته، وتكاد تكون مثالا لتقمص روحها، فلم يصدق دورة الزمن حتى حدث له ما حدث. ثم اسمع لقائل منهم يقول: (حياة جيدة! إن
مجرد الحياة لا قيمة لها. ان الحياة المطلقة المجردة عن كل ماض وعن كل صلة وعن (كل سبب لهي أقل من العدم بل ليس هناك قط عدم. ما العدم إلا حياة مطلقة
والفصل الأخير يعرض لحيرة العقل في الحد بين الوهم والحقيقة، وما يعترض المعرفة الصحيحة من عقبات لقيام العواطف االداخلية والمؤثرات الخارجية، وكيف اختلاط الحقيقة بالوهم بحيث يرفع الخيال عالم الواقع ويجمل الحلم عالم اليقظة، كما يفعل الفني بمادته من الحياة فيسبغ عليها من عبقريته معنىً فنياً من جمال أو فظاعة لم يكن لها.

أسلوب التأليف

المؤلف خبير بالقصة المسرحية، وما يدخل هذه الصناعة من التفنن والاحتيال. فلم يغفل عن شيء فيه تقويه العمل والحركة في روايته. وقد بث في اثناء كل فصل من فصولها المفاجأة بعد المفاجأة فكلما استقرت حواسك وألفت من القصة مسلكاً، ابتدهك بما يجدد اهتمامك ويفززك، فلا يدركك فتور ولا ركدة. والعجب أنك على عرفانك بوقائع القصة المروية فأنه يسوقها في نظام يجعل شعورك بها جديداً، ولا يسردها سرداً في نفس واحد، بل يفرط عقدها حبة حبة بين حين وآخر في ظرفها الملائم وموقعها المناسب، فاذا كل واقعة تفعل في نفسك كأنه اول عهد لك بها. كما أنه لا يفتأ يستغل كل جزء منها في أصغر تفاصيله ويستنبطه حتى أخر قطرة فلا يتركه بعده الامصاصة جافة. ومؤلفنا من طبيعة ذهنه الاستطراد والتنقل من فكرة ومن أحساس الى إحساسن تتداعى جميعها في سبحات حالمة دون ان يكون سياقها منبتاً وعراهاً متفككة ومن ديدنه أحياناً تكرار الجمل وترديد الخواطر في مواضع تشعرك بتعلق القوم بأمل ضعيف واه يعيدون فيه ويستأنفونه محاولين بهذا إقناع أنفسهم. ثم ان عنده مقدرة بارزة الأثر في تعقيد المواقف وخلق سوء التفاهم بحيث يتكلم كل فريق ويتصرف بما يفهمه اللآخر على غير الوجه المقصود وإن كان يحتمله منطوقه. وله هنا وهناك فكاهة دقيقة تجمع في بعض الاحايين بين الفكه والفاجع ويتجاور فيها الدمع والابتسام.

وعبارة الكاتب فيها قصد وايجاز تغنى بالاشارة عن الافاضة وتنطوي على ايحاء يفتح للقارئ نوافذ وكواء على آفاق وأجواء. وفيه شاعريه غنية تمده بالجميل قالباً ودلالة. فيقول مثلا عن أساطير الأمم أنها ضمير الشعب. ويقل على لسان أحد فتية الكهف وقد برم
بالحياة في هذا الوسط الجديد (إلى الكهف، الكهف كل ما نعرف من مقر في هذا الوجود، الكهف هو الحلقة التي تصلنا بعالمنا المفقود) وعلى لسان آخر منهم (أننا أشباح لسنا ملك الزمن. إنما نحن ملك التاريخ. وقد هربنا منه. فالتاريخ ينتقم).

كذلك قصة أورشيما فهي في ذاتها جميلة رائعهة ويزيد في روعة جمالها موضعها من قصة أهل الكهف لما بينهما من مقابلة، ولو أنه يخشى ألا يكون للرومان والمسيحيين الأوائل علم بأساطير اليابان في عزلتها العتيدة.

وإلى هذا ملكة في التصوير ملحوظة. وأبرع مثال عليها وصف الراعي لاحساسه بالغربة في هذه البيئة المستحدثة:

آه لو تعلمان ما رأيت الآن في شارع بطرسوس، إن كانت هذه بعد مدينة طرسوس) (لو رأيتماني وقد أحاطت بي ناس في ثياب غريبة وعلى وجوههم ملامح غريبة. وأينما سرت فهم في إثري بنظراتهم المستطلعة الحذرة. وكأنهم يتفحصون امري تفحص من يحسبني من عالم الجن. لا أستطيع مخاطبة أحد منهم، وإن فعلت فلا أحسبني اجد مجيباً بل نظرت صامتة مفزوعة. . . بل إني سمعت اثناء هذا نباحاً خافتاً مخنوقاً، فأنتبهت فألفيت كلبي قطميراً كذلك قد أحاطت به كلاب المدينة، وطفقت ترمقه وتشمه كأنه حيوان عجيب. وهو يحاول الخلاص من خناقها ولا يجد الى ذلك سبيلا وجرى المسكين أخيراً الى جدار قريب ووقع تحته اعياء ورعباً، والكلاب في أثره، حتى وقفت منه على قيد خطوة. تعيد النظر اليه، ويريد بعضها الدنو منهه لمعاودة شمه فيقصيها الحذر. . هذا أنا، وهذا كلبي قمطير في هذه الحياة الجديدة.

وله أيضاً زكانة لأدراك العواطف المركبة وتحليلها، كاستمتاع برييسكا بعنف فتى الكهف في كلامه معها يحسب أنها وحنثت بعهده، فهي وإن صدمها عنف هذا الخطاب الا أنه يشعرها بأنها محبوبة - ولو وهما، يشعرها بعاطفة الحب التي تعيش كل امرأة في انتظارها

كذلك له توفيقات عجيبة نذكر منها على قبي المثل أنه يجعل الراعي أول من استيقظ من أهل الكهف كعادة الرعاة في التبكير ويتلوه مرنوش لأنه أكبر الصاحبين سنا والمرء يقل نومه كلما تقدم به العمر، وأخيراً مشلينيا لأنه فتى والفتيان نومهم عميق. وتجتزئ لضيق

المقام بهذا المثل. ولا نحسب أن المؤلف حسب لكل هذه التوفيقات حساابها الدقيق ودبر لها التدابير. ولكنها - فيما نعلمه عن المؤلف - الهام ذوقه الفني. وان هذا الذوق الفني العميق الشعور هو فيما يكتب هايه ومسدد خطاه

الختام

فقصة الكهف قد استوفاها مؤلفها الشاب من ناحية التأليف المسرحي ورسم الشخصيات وعمق التفكير وجمال الحوار. ولا شك أن القارئ لا يفرغ منها حتى يقول: هذا الفتى فنان حتى أطرقاف أنامله.

العدد 34 - بتاريخ: 26 - 02 - 1934

أسبوع جول رومان)

للدكتور طه حسين

يستطيع هذا الأديب الفرنسي الكبير أن يقول لنفسه منذ الآن ولمواطنيه إذا عاد إليهم بعد أيام انه شغل المثقفين من سكان مصر أسبوعاً كاملاً بل اكثر من أسبوع، ويستطيع أن يقول لنفسه ولمواطنيه انه شغل هؤلاء المثقفين من سكان مصر شغلاً لذيذاً مريحاً ممتعاً لا ألم فيه ولا جهد ولا عناء، وإنما فيه الحديث الحلو، والحوار العذب، والتفكير الخصب، والإعجاب بمظاهر الجمال الفني الرفيع وقد يكون مسيو جول رومان من هؤلاء الأدباء المتواضعين الذين يسرهم ما يلقون من نجاح فيتحدثون به إلى أنفسهم والى الناس، وينعمون به إذا تحدثوا إلى أنفسهم أو إلى الناس. وقد يكون من أصحاب الكبرياء التي تدعو أصحابها إلى العجب والتيه والخيلاء فيزدهيهم النجاح ويدفعهم الفوز إلى أن يفاخروا ويكاثروا ويستطيلوا على المنافسين، وقد يكون من أصحاب هذه الكبرياء التي تدفع أصحابها إلى ان يستغنوا بأنفسهم عن كل شيء وعن كل انسان. والى ان ينظروا إلى الناس في شيء من الازدراء الرحيم، فلا يزدهيهم إعجاب الناس بهم، ولا يسوؤهم إعراض الناس عنهم، ولا يستخفهم من الناس شيء، لأنهم لا ينتظرون من الناس شيئاً، وإنما ينتظرون من أنفسهم كل شيء؛ وأكبر الظن ان جول رومان ليس من هذه الطبقة بين طبقات الأدباء، فقد رأيته شديد العناية بما يكتب عنه في مصر او يقال فيه، ورأيته شديد الحرص على ان يتبين ذلك ويحصيه ويتفهمه. ثم سمعته يتحدث في بعض محاضراته عما قال هذا الناقد أو ذلك في هذا الكتاب أو ذاك من كتبه التي أذاعها في الناس، بل سمعته يتحدث في بعض محاضراته بأنه إذا اصدر كتاباً من الكتب التي يصور فيها حياة الأفراد والجماعات كانت عنايته برأي هؤلاء الأفراد وهذه الجماعات في كتابه أشد جداً من عنايته برأي النقاد والزملاء. وقد قص علينا في ذلك قصصاً طريفة، وكان ظاهر السرور والرضى حين كان يقص علينا هذه القصص لأنها كانت تصور مقدار ما ظفر به من التوفيق إلى رضى الأفراد والجماعات الذين وصفهم في كتبه وأسفاره. وقد حدثنا بأنه يلهو أحياناً بالمقارنة بين ما يكتب إليه القراء وما يكتب عنه الناقدون، وبما تنتهي إليه هذه المقارنة من بعد النقاد عن الحق والإنصاف وتورطهم في الخطأ واللجور، ومن إصابة القراء لمواضع الصدق وحسنالتقدير. وإذا لم يكن جول رومان من أصحاب الكبرياء الطاغية المعتصمة بنفسها المتعالية عن الناس، فليس من شك في انه سيغتبط ويبتهج حين يعلم أنه قد شغل المثقفين في مصر أسبوعاً أو أكثر من أسبوع، ولم يثر في نفوسهم الا حباً له وإعجاباً به وعناية بآثاره، وجداً في قراءتها أو الاستمتاع بما فيها من جمال. نعم وسيبتهج ويغتبط حين يعلم ان المثقفين من أهل مصر قد نظروا إلى هذا أسبوع الذي أقامه بينهم محاضراً متحدثاً كأنه عيد من أعياد الثقافة العليا، خلصت فيه نفوسهم من أثقال الحياة اليومية وأعبائها وتكاليفها وما تثيره من الخصومات وما تبعته

من الهموم التي تضعف القلوب، ومن الأحزان التي تميت النفوس، ومن المشاغل التي تنحط بالعقول عن مكانتها وتبتذلها ابتذالا.

بدئ هذا الأسبوع حين ألقى جول رومان محاضرته الأولى في مدرسة الليسيه الفرنسية، وختم حين ألقى محاضرته الأخيرة في قاعة الجغرافية مساء الخميس الماضي، وكان في محاضرته الأولى يتحدث عن وطنه فرنسا ورأى الأفراد والشعوب فيه، وكان في محاضرته الأخيرة يتحدث عن نفسه وعن كتابه الأخير، وعن رأي الناس من مواطنيه ومن غير مواطنيه فيه وفي هذا الكتاب. وكان فيما بين ذلك يتحدث عن العقل وعما أحدث في حياة الناس السياسية من خير، وما ينتظر أن يحدث في مستقبل حياتهم من خير. وكان فيما بين ذلك أيضاً يتحدث إلى الجماعات والأفراد أحاديث خاصة في موضوعات مختلفة من الأدب الفرنسي والأجنبي، ومن السياسة والفلسفة والاقتصاد. وكانت أحاديثه ومحاضراته كلها متعة عالية ممتازة للذين استمعوا منه وتحدثوا إليه. ذلك إن جول رومان ليس أديبا عادياً من هؤلاء الأدباء الذين ينتجون الآثار الأدبية القيمة دون أن يمتازوا بأكثر من قدرتهم على الإنتاج وبراعتهم فيه إنما هو أديب ممتاز حقاً. ولعل خير ما يميزه من الأدباء انه من هؤلاء الأفراد القليلين الذين جعلت نفوسهم مرآة صافية شديدة الصفاء. تنعكس فيها صور الحياة التي تحيط بها، فإذا وصلت إليها استقرت فيها. وما تزال الصور تتبع الصور دون أن يطغى بعضها على بعض أو يفسد بعضها جمال بعض وإذا أنت أمام نفس من أغنى النفوس، أمام نفس لا تصور فرداً ولا بيئة، إنما تصور شعباً كاملاً، وإنما تصور خلاصة كاملة لأرقى ما تصل إليه الثقافة في عصر من العصور. فالذين كانوا يسمعون من جول رومان أو يتحدثون إليه إنما كانوا يسمعون من العقل الفرنسي كله،

ويتحدثون إلى العقل الفرنسي كله، ولا تظن إن في هذا النحو من القول غلوا أو ميلا إلى الإسراف، إنما هو الحق كل الحق، والاقتصاد. ذلك أن جول رومان لم يكد يبلغ رشده الأدبي كما يقول حتى رأى نفسه أكثر من فرد، ورأى مطمعه الأدبي أكثر من مطمع الفرد، ورأى انه إذا كتب فلن يستطيع ان يكتب كما تعود الناس أن يكتبوا في هذه الموضوعات المحصورة، وفي هذه الإطارات الضيقة المحدودة. وإنما هو ان كتب فسيصور الجماعات، وسيصورها في إطار واسع مخالف لما ألف الكتاب أن يتخذوا من الإطارات والحدود. رأى أنه لا يستطيع أن يتخذ الفرد من حيث هو فرد موضوعاً لأدبه، وإنما الجماعة هي موضوع هذا الأدب فهو شاعر الجماعات إن نظم الشعر، وهو واصف الجماعات أن كتب القصص، وهو مصور الجماعات ان عالج التمثيل. ولم يكد يكتب وهو في العشرين في اوائل هذا القرن حتى ظهرت هذه الخصلة في آثاره ظهوراً بينا وفرضت نفسها عليه فرضا، وأحس هو ذلك وشعر به، وإذا هو ينظم صفته هذه تنظيماً ويصوغها صيغة المذهب الأدبي ويدعو إلى هذا المذهب ويجاهد في الدعوة اليه، وإذا هو على شبابه صاحب مدرسة لها تلاميذ ولها أنصار، وإذا مدرسته لا تلبث أن تتجاوز حدود فرنسا بل حدود اوربا فتكسب الأنصار والتلاميذ في المانيا وانجلترا وامريكا. ثم تتقدم به السن ويمضي في انتاجه الأدبي شعراً وقصصاً وتمثيلاً، وكلما مضى في هذا الإنتاج زاد امتيازه وضوحاً وجلاء ولان مذهبه واشتدت مرونته. وإذا جول رومان منذ أعوام يفرض نفسه على الأدب الفرنسي ثم على الأدب الحديث فرضاً ويصبح من اظهر الممثلين لحياة الأدب الفرنسي في هذا العصر الذي نعيش فيه.

فليس غريباً إذن أن يكون حديثه حديث الشعب الفرنسي المثقف كله، لأنه قد وعى هذا الشعب كله وصوره واختصر خلاصته كلها في نفسه، فهو يتحدث بها وهو يتحدث عنها وهو يصورها في حديثه أجمل التصوير وأروعه وأبلغه تأثيراً في النفوس. وقد عالج جول رومان من فنون الأدب الشعر وعالج القصص وعالج التمثيل. وكان قبل هذا كله أستاذاً للفلسفة. مر بالسوربون طالباً وتخرج من مدرسة المعلمين العليا، وعلم في المدارس الثانوية. وليس هنا بالطبع موضوع الدرس لشعره وقصصه وتمثيله فذلك شيء لا يتسع له فصل في صحيفة بل لا تتسع له فصول، وإنما تتسع له كتب وأسفار ولكن من الخير أن ندع الآن شرع جول رومان لأنه هو نفسه قد انصرف عن الشعر أو كاد، وأن نقف وقفة قصيرة عند تمثيله ووقفة أقصر منها عند قصصه وعند كتابه الاخير بنوع خاص. ولعل أظهر ما يمتاز به تمثيل جول رومان أنه أقرب التمثيل الفرنسي الحديث إلى تمثيل موليير، فموضوعاته فرنسية ولكنها من دون إطارها الفرنسي

تتجاوز فرنسا وتصبح موضوعات إنسانية عامة لا تقف عند بيئة خاصة ولا عند زمان بعينه، وإنما تتجاوز الزمان والمكان المعينين إلى جميع الازمنة والأمكنة. فقضته الدكتور كنوك ليست نقداً لطبيب بعينه، ولا لطبيب فرنسي ولا لطبيب في القرن العشرين وإنما هي نقد للون من الوان حياة الأطباء في كل أمة وفي كل عصر وفي كل مكان. ولا يكاد يعرف التمثيل الفرنسي بعد الحرب فوزاً كالفوز الذي أدركته هذه القصة التي لا أتردد في أن أراها آية من آيات التمثيل الحديث.

وقصته التي تسمى مسيو لترودك، وقصته الأخرى التي تسمى زواج لتروادك لا تصفان أستاذاً بعينه من أساتذة الجغرافية، وإنما تصفان لونا من حياة الاستاذ الذي تطغى عليه ظروف الحياة فتخرجه عن الدرس إلى الحياة العامة، وتعرضه لألوان من المحن والخطوب تثير الضحك ولكنه الضحك الذي يثيره موليير، والذي يمتلئ بالعبر والعظات.

وقد هممت أن أسأل جول رومان لماذا اختار لهاتين القصتين بطلا من أساتذة الجغرافية، دون أساتذة التاريخ أو العلم الطبيعي أو الفلسفة. واكبر الظن أن هذا الاختيار ليس نتيجة المصادفة، ومن يدري لعله كان يضيق باستاذ من أساتذته الذين تعلم عليهم وصف الارض وتقويم البلدان في المدرسة أو الجامعة. وليس أقدر من جول رومان على تشخيص الجماعات ومحو ما بين أفرادها من الفروق، وجعلها شخصاً واحداً يشعر ويعمل ويتكلم ويصدر في هذا كله عن نفس واحدة، والذين يقرأون زواج لتروادك يرون أنه وفق في ذلك إلى أقصى حدود الاتقان.

أما كتابه الاخير الذي لم نتفق أمس - وكنا كثيرين - علىترجمة دقيقة لعنوانه، والذي أسميه كما سماه صديقي هيكل، الاخيار من الناس، فاعجوبة القصص الفرنسي في هذه الايام. أخذ يظهر منذ أعوام. وظهر منه الجزء الخامس والسادس في هذا العام. والناس يتساءلون كم تكون أجزاؤه؟ وجول رومان يأبى أن ينبهم بعدد هذه الاجزاء اشفاقا عليهم

وعلى نفسه من السأم والخوف فيما يقول، وأكبر الظن أنه لا ينبئهم بعدد هذه الاجزاء لأنه هو لا يعرف كم تكون وقد زعم بعض نقاده في النوفيل لترير منذ أسابيع أنها قد تنيف على العشرين وتمنى

ناقد الطان ان تبلغ الخمسين، والله يعلم ماذا يتمنى جول رومان. وأكبر الظن انه لا يتمنى الا أن تستقيم له الطريق، ويمضي القلم في يده حتى يتم شيئاً لا يستبينه هو في نفسه إلى الآن.

وقد حدثنا جول رومان عن كتابه هذا أحاديث ضاق بها توفيق الحكيم، لأنه لا يحب أن يتحدث الكتاب عن أنفسهم وعما يكتبون. ورضيت عنها أناكل الرضى لأن الكتاب إذا بلغوا منزلة جول رومان كان من حقهم ان يتحدثوا عن أنفسهم. ولست ادري لم يباح للكتاب ان يتحدثوا عن ان

وعلى نفسه من السأم والخوف فيما يقول، وأكبر الظن أنه لا ينبئهم بعدد هذه الاجزاء لأنه هو لا يعرف كم تكون وقد زعم بعض نقاده في النوفيل لترير منذ أسابيع أنها قد تنيف على العشرين وتمنى

ناقد الطان ان تبلغ الخمسين، والله يعلم ماذا يتمنى جول رومان. وأكبر الظن انه لا يتمنى الا أن تستقيم له الطريق، ويمضي القلم في يده حتى يتم شيئاً لا يستبينه هو في نفسه إلى الآن.

وقد حدثنا جول رومان عن كتابه هذا أحاديث ضاق بها توفيق الحكيم، لأنه لا يحب أن يتحدث الكتاب عن أنفسهم وعما يكتبون. ورضيت عنها أناكل الرضى لأن الكتاب إذا بلغوا منزلة جول رومان كان من حقهم ان يتحدثوا عن أنفسهم. ولست ادري لم يباح للكتاب ان يتحدثوا عن انفسهم إلى عشرات الالوف في الكتب، ويكره منهم ان يتحدثوا إلى المئات في قاعة من قاعات المحاضرات، واحب ان يعلم توفيق الحكيم، وان يعلم جول رومان أيضاً اني لم أومن بكل ما سمعت من هذا الحديث فالاديب يحدثنا بأنه تصور موضوع كتابه تصوراً دقيقاً كل الدقة، محدداً من جميع الوجوه ولم يبدأه حتى وضع له برنامجاً مفصلاً أدق التفصيل، ولما كان من المستحيل ان يعرض علينا الصورة التي في نفسه، والبرنامج الذي رسمه لكتابه على الورق، فاني اسمح لنفسي بأن اشك في هذا الحديث. وإنما هو خيال يتلهى به الكاتب الاديب، على حين انه في حقيقة الامر لا يتصور كتابه الا تصوراً مجملاً تفصفه الظروف، وتفصله لمزاولة

والكتابة بنوع خاص. ذلك ان موضوع الكتاب ليس من هذه الموضوعات التي يمكن ان ترسم في دقة وضبط، فجول رومان يريد ان يصف الجماعة الانسانية، فحدثني كيف تستطيع ان تحدد هذه الجماعة او ان تحدد ما تريد ان تصف من أمرها تحديداً دقيقاً، بل ان تص ذلك بالفعل إنما يريد جول رومان أن ينشئ اثراً كالذي أنشأه بلزاك أو زولا أو رومان رولان. ولكن من الذي يستطيع ان يقول ان هؤلاء الناس قد رسموا موضوعاتهم رسماً دقيقاً قبل ان يبدؤا في كتابتها. إنما الشيء القيم الذي تحدث به الينا جول رومان هو مذهبه في الاستعداد لكتابة، فهو لا يسلك طريق غيره من الذين سبقوه فيحصى ويستقصى ويكتب المذكرات ويجمعها ويرتبها ثم يعود اليها كلما هم بالكتابة في موضوع من الموضوعات، وإنما هو يحيا في جميع البيئات التي يريد أن يصورها، يحيا فيها كما يحيا أهلها، حتى يصبح واحداً منهم، ثم يرسل خياله على سيجيته فيكتب، حتى إذا أتم الكتابة عاد إلى هذه البيئة فقارن بين الصورة وبين الاصل وانتهى في أكثر الاحيان إلى الرضا عن هذه المقارنة

على أن التصوير الصحيح لمذهب جول رومان في الاستعداد لهذا الكتاب هو الذي تقرأه في المقدمة فهو تصوير معقول لا يتجاوز حدود الممكن المألوف، وهو في الوقت نفسه تصوير يبين ما في هذا الكتب من الابتكار. فالكتاب لا يدور حول شخص بعينه ولا حول حادثة بعينها، وإنما هو قصص كثيرة مختلفة لبيئات كثيرة متباينة، تنشأ هذه القصص في وقت واحد أو في أوقات متقاربة ثم تمضي كل واحدة منها في طريقها التي رسمت لها فتلقى أحياناً وتفترق أحياناً، وتتوازى أحياناً، ويضاد بعضها بعضاً أحياناً أخرى والله يعلم ولعل جول رومان يعلم أيضاً إلى أن تنتهي وكيف تنتهي آخر الامر

وقد بدأت هذه القصص في اكتوبر سنة 1908 وحدثنا جول رومان انها تنتهي في سنة 1933 الا أن يطرأ ما يغير هذا الميعاد. فالكتاب اذن محاولة جديدة لوصف الجماعة الانسانية وصفا قصصياً رائعاً في ربع قرن، وتريد أن تعلم بالطبع هل وفق جول رومان إلى ما أراد، وتريد أن تعلم مقدار ما في هذا الكتاب من روعة وجمال. فالذي أستطيع أن أقوله هو أن كتاباً آخر لم يظفر بمثل ما ظفر به هذا الكتاب من الاعجاب بعد كتاب مرسيل بروست في هذا العصر الذي نعيش فيه. فاذا اردت ان تتبين جماله وروعته فالسبيل إلى ذلك ان تقرأه، وانا واثق بانك لن تأسف على ما تنفق في قراءته من الوقت أو الجهد.

طه حسين

صندوق الكتاكيت

للاستاذ أحمد أمين

كان أمس، من أيام الشتاء المشهودة: ريح صِرّ، وليل قَرّ، حتى خَصِرَت اليد، وقفقفت الأسنان، ويبست الأطراف، وتجلّى (أمشير) بأجلى ما وسم به من هَوَج ورَعَن. حتى لو كان طفلاً لسال لعابه، أو رجلا لسقطت عنه االتكاليف.

ثم انجلى الليل عن صبح بديع: سماء صافية، وشمس مشرقة، حاولت أن آتي لهما بتشبيه جديد، فكانت الشمس في السماء أجمل من كل تشبيه قديم وحديث.

غادرت حجرتي إلى حديقتي الصغيرة المتواضعة فوجدت خادمي قد سبقت، فاخرجت صندوق الكتاكيت إلى الشمس لينعم ما فيه بحرارتها ودفئها - وقع عليه نظري، وصادف ذلك مني تفكيراً في موضوع للرسالة.

شعرت إذ ذاك بشخصيتين من نفسي تتناظران مناظرة عجيبة عنيفة اسجلها للقراء:

لم لا يكون (صندوق الكتاكيت) موضوعاً طريفاً؟

إنه مووضوع تافه لا يليق بأستاذ في جامعة، ولا بمدرس، ولا بمساعد مدرس - إن الجامعيين وأمثالهم يجب أن تكون موضوعاتهم في أعلى السماء، أو أعمق الأرض، ويجب أن تصبغ بصبغة ميتافيزيقية، ويكون فيها الجوهر والعرض، والكمية والكيفية، والأنّيّة والعلية. أما صندوق الكتاكيت فموضوع يثير الهزؤ والسخرية، ويستخرج من النفس عاطفة الازدراء والاحتقار.

ليس ذلك بصحيح، فكل شيء في الحياة موضوع أدب، وخير الأدب ما مس الحياة الواقعية، واستخرج من تافه الاشياء فكرة بديعة، أو رأياً طريفاً. لقد قال تعالى (إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما، بعوضة فما فوقها، والكتكوت خير من البعوضة من

جميع الوجوه، فالبعوضة منبع ألم، والكتكوت منبع لذة - والبعوضة إذا كبرت كانت أقوى على اللدغ وأقدر على الايلام، بنفسها وبمنتجاتها، والكتكوت إذا كبر كان دجاجة أو ديكاً، يسيل لعاب الانسان إذا تصوره على مائدة أنيقة، أو تخيّله وقد أنضجه طاه ماهر.

وضب الله الذباب مثلا فقال تعالى (إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له، وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه، ضعُفَ الطالب والمطلوب) وأين الذباب من الكتكوت؟ وقد سميت في القرآن الكريم سور منه بالبقرة والنحل والنمل والعنكبوت.

وقرأت لأديب كبير لا أذكره الآن مقالا بديعاً في زنبار أراد أن يخرج من شباك فاصطدم بزجاجة، وحاول مراراً أن يخرج فلم يستطع، فاستخراج الكاتب من ذلك قطعة فنية طريفة في الحرية والاسترقاق، وكيف يبحث الزنبار عن حريته فلا يجدها، ثم هو لا ينساها مهما صادفه من عقبات، وتحمل من آلام.

وكتب فيكتور هوجر قصة طريفة عن برغوث أنقذ أمة من الأمم سلط عليها حاكم ظالم لم تستطع حمله على العدل ولا إبعاده عن الحكم.

وبعد هذا وذاك كتب مستشرق كبير معاصر كتاباً جمع فيه ما قيل من الأدب العرب في البراغيث واقترح عليه مستشرق آخر أن يسمي الكتاب (صيحة المستغيث من البراغيث) إلى ما لا يعد ولا يحصى.

إذن فنظرتك في اختيار الموضوع وأنه يجب أن يكون (أكاديمياً)، وأن يعنون عنواناً ضخماً يستعمل في اختياره كل ضروب التكلف والتعمق والفلسفة، نظرة أرستقراطية بغيضة يجب أن تتخلص منها وتهزأ بما جرى عليه العرف فيها.

على هذا النحو ظلت الشخصيتان تتناظران، وظللت أصغي اليهما وأقيد أفكارهما، إلى أن طال الاخذ والرد، وأشفقت على القراء من استرسالهما في الجدل، وحاولت أن أبتعد عن الصندوق، وأهرب من الموضوع فلم أستطع.

أيها الكتكوت! فيك كل معاني الحياة ومشاكلها ومظاهرها. فاسمك - أولا - كتكوت ويجمع على كتاكيت، ولم أدر من أين أتى لك بهذا الاسم، فقد راجعت القاموس المحيط ولسان العرب، وغيرهما من كتب اللغة، فلم أجد فيها هذا اللفظ للدلالة عليك، ولا يستعمله الا أهل مصر. أما أهل الشام والعراق فلا يعرفونه - أتعمدت اللغة إهمالك لحقارتك؟ ذلك ما لا أظن، لأني أعلم أن اللغة ديمقراطية تعنى بالجليل والحقيرعلى السواء، بل اللغة العربية مفرطة في الديمقراطية فقد وضعت لأتفه الأشياء أسماء تعد بالمئات، واحتقرت أشياء عظيمة فلم تضع لها اسماً للآن كالراديو والبيانو ومئات من المخترعات الحديثة، بل هم وضعوا لك اسماً آخر هو (الفرخ) ولكن الفرخ غير مقصور عليك، شاركك فيه كل صغار الطيور حتى استعملوه أحياناً في صغار الشجر والنبات، على انهم وضعوا لك اسم (الفروج) فلم يطلقوه على غيرك من صغار الحيوان ولكنهم أشركوا معك فيه نوعاً من أقبية وأمثالها ولعل العامة كانوا أنصف لك فوضعوا لك اسماً خاصاً، ومن أولى التخصص منك؟

ولكن - مع كل هذا - لا أدري من اين أتى اسمك (الكتكوت) فسأتركك لعلماء اللغة والاشتقاق ومقارنة اللغات، من سريانية وآرامية وفارسية وعبرية، لعلهم يجدون لك أصلاً - وعلى كل حال فقد أثبتَّ أن فيك مشكلة من مشكلة الحياة العظمى، وهي مشكلة اللغة، وستثبت مشكلة أخرى أعظم من هذا وأعقد فهب أن علماء اللغة استنكروا هذه الكلمة فأين سلطانهم على لفظك الذي تداولته العامة ونطقت به قروناً.

فهل إذا صدر قرار بمحو هذه الكلمة لأنها ليست عربية يسمع ويطاع. على أي وجه من الوجوه أنت مشكلة حتى في اسمك هذه هي الخادم قد رمت الحب للكتاكيت، فلا تسأل عما كان بينها من خصام ونزاع، ومباراة وسباق وضرب وطعان

وهل الانسان الا هذا - وهل تاريخ حياته الا نزاع وصراع وقد عبروا عن ذلك أصدق تعبير فقالوا، ان الحياة جهاد - أو ليس أكبر باب من كتب التاريخ هو تاريخ الحروب والفتوح، واعلان الحرب، ومعاهدات الصلح. وكل الفرق بينك ايها الكتكوت وبين الانسان أنك

استعملت في جهادك ونزاعك منقارك الوديع وجسمك اللين الغض وجاء الانسان الراقي فاستعمل في الحصول على غذائه الكذب والخديعة والرياء والنفاق، واستعمل في مدافعة خصومه كل طر الكيد والدهاء، واستخدمت الجماعات في حربها كل أنواع المدمرات والمهلكات - وقد أعطى الانسان عقلا أرقى من عقلك لينظم عيشه فأفسده، ولينظم السلم فنظم الحرب، وليعاون أخاه فعاداه.

- أيها الصندوق!

فيك تنازع البقاء وبقاء الاصلح، فيك استكانة الضعيف وغلبة القوى، فيك الضعيف يكره العراك، وفيك القوي يصول ويجول، ويدعو إلى النزال - فيك الجمال وفيك القبح

- استأنست ايها الكتكوت بالانسان صغيراً، ثم علمتك التجارب ففررت منه كبيراً.

وكنت مادة صالحة للغذاء كما كنت مادة صالحة للادب، فمن قديم استعيرت منك الاستعارات اللطيفة، والابيات الجميلة، فقد قال الشاعر

أرى فتنهة هاجت وباضت وفَرّخَتْ ... ولو تُرِكَتْ طارت اليها فراخها

وفي حديث عمر. يا أهل الشام تجهزوا لأهل العراق فان الشيطان قد باض فيهم وفرخ

- ثم قالت العامة (الكتكوت الفصيح من البيضة يصيح) وأخيراً، فيك سر الحياة الغاض

كيف دبت الحياة فيك يوم كنت بيضة، وكيف تطورْتَ جنيناً، وكيف نبض قبلك لاول مرة، وكيف خرجت إلى هذا الوجود، وكيف تموت ولم خرجت، ولم تموت؟ لو أفصحت لنا عن كل هذه الاسرار لكشفت سر الوجود، ولما كان هناك مجال لفسلفة ولا حكمة ولكنك أعجزت الفلاسفة، إذا كتمت سرك بين جناحيك فهامت الفلاسفة علىوجوهها، وارتبكت في تفكيرها.

إذن فيك ايها الصندوق الصغير، كل ما في العالم الكبير، من معاني الحياة وغوامضها وأسرارها، وفيك كل مظاهر الانسان على تبجحه وغروره - وفيك ما حير العقول قروناً، وأجهد الفكر أجيالاً - وهل العالم الا لغز، لو حل جزؤه لحل كله.

أحمد أمين

صفحة من تاريخ افغانستان المعاصر

لمناسبة حوادثها الاخيرة

للاستاذ محمد عبد الله عنان

في الثامن من نوفمبر الماضي سقط نادر شاه ملك أفغانستان السابق قتيلاً برصاص طالب أفغاني في احدى حدائق كابول اثناء حفلة رياضية كان يشهدها الملك القتيل، فخسرت أفغانستان بذهابه أميراً قوياً حازماً لبث مدى أربعة أعوام يشرف على مضايرها ويعمل لتنظيم شئونها وتوطيد سلامها في ظروف عصيبة.

وكانت أفغانستان قبل أن يتبوأ عرشها نادر خان قد اضطرمت باحدى هذه الثورات القومية التي يتميز بها تاريخا منذ أواخر القرن الماضي، والتي تدفع بها دائماً إلى فترة من الفوضى الخطرة، وتجعل من عرشها مثار معارك طاحنة بين الزعماء والمتغلبين، ومن استقلالها هدفاً تعلم السياسة الاجنبية ما استطاعت للنيل منه؛ وكان عرشها بعد أن غادره الملك السابق أمان الله في صيف سنة 1929 فراراً من نقمة شعبه قد تداوله اثنان في بضعة أشهر، أولهما عناية الله أخو أمان الله الأكبر، والثاني حبيب الله أو باشا سقا، الزعيم الثائر: وكانت أفغانستان تمزقها الحرب الاهلية حينما جاء اليها نادر خان وزير الحربية السابق في أواخر سنة 1929 من مقامه في أوربا، وانتزع كابول من يد الثائر وقبض عليه وأعدمه، ثم نادى بنفسه ملكاً، واستطاع في أشهر قلائل أن يقمع الفوضى وأن يعيد إلى أفغانستان نوعاً من السكينة والاستقرار.

ولم يكن مقتل نادر شاه (نادر خان) مفاجأة ولا حادثاً غير عادي في تاريخ أفغانستان الحديث؛ فعرش أفغانستان يرتجف دائماً فوق بركان من المنافسة الدموية؛ وقد قتل في الفترة الأخيرة من ملوك أفغانسان عدة، أولهم حبيب الله خان الذي قتل سنة 1919. ولو لم يبادر الملك السابق أمان الله بالفرار لكان نصيبه هذا المصير الدموي. بيد أن هذا العرش الخطر ما فتئ يغري زعماء القبائل والاسر الأفغانية؛ وتخشى أن تعود هذه المعركة الخالدة على العرش فتضطرم غير بعيد في أفغانسات، وان كان الامير الفتى ظاهر شاه ولد نادر شاه قد جلس على العرش غداة مقتل أبيه، واتخذت في الحال كل أهبة لاخماد كل نزعة للخروج والثورة. فقد كان نادر شاه يحكم أفغانستان مدة الأعوام الاربعة الماضية بقوة

وذكاء، ولكنه لم يستطع رغم عزمه وحزمه أن يخمد كل عوامل الانتقاض والفوضى التي تضطرم بها أفغانستان منذ أواخر عهد الملك أمان الله؛ وقد نشبت في عهده غير ثورة أخمدت دائماً في سيل من الدماء، ومازال الملك السابق أمان الله يتربص فرص العودة إلى عرشه، وما زالت تؤازره في أفغانستان بقية من أنصاره، هذا إلى أن القبائل الافغانية القوية في الشرق والشمال الشرقي مازالت تعيش في نوع من الاستقلال الاقطاعي، وتتردد بين تايد العرش والخروج عليه حسبما تملي عليها مصالحها أو حسبما توجهها المؤثرات الاجنبية في كثير من الاحيان.

والحقيقة أن أفغانستان تجد نفسها منذ نحو قرن من مركز حربي وسياسي يكاد يحرمعليها الحياة الهادئة. فهي تقع بين الهند البريطانية من الشرق، وبين التركستان الروسية من الشمال، وتكون بذلك ملتقى الجذب بين سياستين استعماريتين قويتين تتنازعان السيادةوالنفوذ في أواسط آسيا، وتلتقيان دائماً في ذلك الاقليم الجبلي الوعر، الذي يحد نفوذهما ويفصل بين أراضيهما، اعني أفغانستان. والشعب الافغاني لا يتجاوز أربعة ملايين جلهم من القبائل الجبلية، ولكنه شعب قوي بخلاله الطبيعية ونزعته العسكرية يعتصم دائماً بهضابه الوعرة، ويحرص على استقاله أيما حرص. وإذا كان تجاذب السياستين البريطانية والروسية يعرض افغانستان بين آن وآخر إلى تيار النفوذ الأجنبي، فان أفغانستان من جهة أخرى تتخذ من هذا التجاذب أداة لتدعيم استقلالها، وتجعل منه دائماً وسيلة لاقامة التوازن بين السياستين المتنافستين. بيد أن السياسة البريطانية التي تقدر أهمية افغانستان في حماية حدود الهند الشمالية الغربية من الغزو الروسي، تحرص دائماً على أن تكون راجحة النفوذ والكلمة، ولا تترد في تأييد هذا التفوق في السهر على مصاير أفغانستان بالقوة القاهرة. وأفغانستان تعرف أنها لا تستطيع أن تتخلص من هذا النفوذ دون أن تعرض استقلالها للخطر؛ وقد أنست هذا الخطر في تاريخها الحديث غير مرة إذ غزتها الجيوش الانجليزية في سنة 1838، ثم في سنة 1878؛ وعرض استقلالها للضياع في المرتين. وما زالت السياسة البريطانية إلى يومنا تقوم بدورها التاريخي في السهر على توجه شئون أفغانستان وتطوراتها.

ونستطيع أن نرجع من مرحلة التاريخ الأفغاني المعاصر إلى أواخر القرن الماضي، أو إلى

عهد الأمير عبد الرحمن خان الذي تولى العرش عقد تطورات الحرب الأفغانية الإنكليزية الثانية، سنة 1884؛ فقد استطاع هذا الأمير القوي لأول مرة أن يحطم سلطة القبائل الاقطاعية، وان يخضعها لصولة العرش، واستطاع أن ينشئ لأفغانستان جيشاً نظامياً حسناً، وان ينظم الضرائب والموارد العامة؛ وتمتعت افغانستان في عهده بعد طويل من السكينة والاستقرار في ظل ادارة قومية صارمة. ثم توفى عبد الرحمن سنة 1901 وخلفه على العرش ولده حبيب الله خان. واستطاعت السياسة البريطانية في تلك الفترة ان توطد نفوذها في أفغانستان؛ وكان حبيب الله برغم حرصه على استقلال افغانستان الداخلي، يصانع السياسة البريطانية ويتقي اثارتها ما استطاع؛ وفي عهده بلغ النفوذ البريطاني ذروته في توجيه سياسة افغانستان الخارجية، ولا سيما في علائقها مع روسيا القيصرية، وتضاءل النفوذ الروسي إلى أعظم حد ولما نشبت الحرب الكبرى حافظ حبيب الله على صداقته مع بريطانيا العظمى، وقاوم كل مسعى بذلته المانيا لتحريض افغانستان على نقض هذه الصداقة، ثم تُوفي قتيلاً في أوائل سنة 1919، فخلفه اخوه نصر الله؛ ولكن ثورة نشبت بقيادة امان الله ثالث اولاد حبيب الله انتهت بعزله. وتبوأ أمان الله العرش في ربيع هذا العام وهنا كان تطور حاسم في تيار النفوذ الخارجي؛ وانتهزت روسيا السوفيتيه، هذه الفرصة لتسترد نفوذها الذاهب، فعاونت امان الله على انتزاع العرش من عمه، واستعملت كل وسيلة لمقاومة النفوذ الانكليزي والقضاء عليه؛ وذهب امان الله في خصومته للانكليز االى حد أنه دفع بجنده إلى اجتياز الحدود الهندية، ولكن الانكليز ردوها في الحال وعبروا الحدود الافغانية إلى (دكا) وأرغموا امان الله على عقد الصلح، ولكن بشرط أن تعترف انكلترا باستقلال افغانستان (اغسطس سنة 1919).

وكانت روسيا من وراء أمان الله تؤيده وتوجه خططه؛ وكانت انكلترا من جانبها تقدر هذا العامل الجديد في تطور حوادث افغانستان، وتتحاشى الاصطدام بروسيا

السوفيتية، وتعمل لاتقاء دسائسها ما استطاعت، وأفغانستان من جانبها تجني ثمرة هذا النضال بين الدولتين الخصيمتين. بيد أن السياسة البريطانية لم تعدم وسيلة للاتفاق مع امان الله؛ ففي سنة 1921 عقدت في كابول معاهدة انكليزية افغانية جديدة، تعترف انكلترا فيها باستقلال افغانستان الخارجي والداخلي؛ وتعترف افغانستان فيها بالحدود الهندية الافغانية القائمة؛

وتنص على تبادل التمثيل السياسي والقنصلي؛ وتخول لافغانستان الحق في ان تستورد من انكلترا ما يلزمها من الاسلحة والذخائر معفاة من الرسوم. وفي سنة 1923 عقدت بين الدولتين معاهدة تجارية. ومع أن العلائق بين انكلترا وأفغانستان لبثت عاديةودية، فان النفوذ الانكليزي لم يعد إلى سابق تمكنه واستئناره، واستمر النفوذ الروسي متفوقاً في افغانستان مدى حين.

وقضت افغانستان فترة من الاستقرار والسكينة، توطدت فيها شئونها الداخلية وعلاقتها الخارجية. وفي سنة 1927 قرر الملك امان الله أن يقوم مع زوجته الملكة ثريا برحلة رسمية في بعض الدول الاوربية؛ فغادرا أفغانستان في شتاء هذا العام، ومرا في طريقهما بمصَر، وانفقا فيها بضعة أسابيع، واستقبلا اينما حلا بمنتهى لاكرام والحفاوة؛ ثم سافرا إلى أوربا وزارا ايطاليا وفرنسا وانكلترا والمانيا، وتسابقت الدول في الاحتفاء بهما واغداق الهدايا عليهما، كما تسابقت في التقرب إلى امان الله ومحاولة الحصول منه على بعض المزايا السياسية والتجارية، ولكن امان الله لم يتورط في التعاقد واكتفى ببذل الوعود. ثم غادر المانيا إلى روسيا، واستقبله ؟؟؟؟ حلفاؤه البلاشفة أعظم استقبال، وعقدت اثناء مقامه بموسكو معاهدة افغانية روسية تجارية جديدة. وأبدى امان الله اثناء رحلته اهتماماً عظيماً بمظاهر الحضارة الغربية، ولم يخف اثناء تجواله نيته في الا قتباس منها لبلاده بأعظم قدر، والعمل على تجديد افغانستان ودفعها إلى طريق الحضارة الغربية باسرع ما يستطاع، ولم تخف زوجته الملكة ثريا نيتها في العمل على تعليم المرأة الافغانية وتحريرها، وكان لهما في ذلك تصريحات رنانة مازلنا نذكرها. واستمرت الصحف الاوربية مدى حين تفيض في رحلة الملك الشرقي وفي اخباره وأعاله وأقواله، وفي برنامجه الاصلاحي، وفي أحوال أفغانستان وشئونها وأهميتها الحربية والسياسية. بيد أنه لو حط مذ قصد أمان الله إلى موسكو فتور الصحافة الغربية في الحديث عنه، ولوحظ بنوع خاص أن الصحف البريطانية أخذت تحمل على سياسته، وتنتقد زيارته لموسكو وتورطه في محالفة البلاشقة. ولم يكن حديث الصحف البريطانية عبثاً، وإنما كان دلالة اتجاه جديد في السياسة البريطانية كما سنرى.

عاد امان الله إلى افغانستان بعد أن زار تركيا وفارس، وعقد مع كل منهما معاهدة صداقة،

وتأثر ايما تأثر بما رأى في تركيا من مظاهر التجديد الاوربي. ولم يضع وقتا في تنفيذ برنامجه الاصلاحي: وكان برنامجاً شاملاً تناول نظم الحكم، كما تناول كل نواحي الحياة القومية. فاما في نظم الحكم فقد ألغي أمان مجلس الحكم القديم الذي يضم زعماء الدين ومشايخ القبائل بمجلس تمثيلي يؤلف بالانتخاب، وأدخل نظام الوزارة الحديث، والغي سلطات الاشراف وزعماء الدين، وفرض الضرائب العامة المنظمة والخدمة العسكرية الاجبارية على كل أفغاني. وكان أمان الله في الناحية الاجتماعية أشد جرأة واندفاعاً وقد خيل له أنه يستطيع بقوة التشرع العاجل أن يخلق من افغانستان العصور الوسطى، أمة جديدة تتمتع بمظاهر التمدن الحديث. وكانت زوجة الملكة ثريا، وهي امرأة سورية لاتفهم روح الشعب الذي رفعت إلى عرشه، تدفعه في ذلك الطريق بعنف فاصدر طائفة من القوانين الاجتماعيةالجديدة ترى إلى تحرير المرأة وسفورها، والغاء تعدد الزوجات، ورفع سن الزواج، والزام الافغانيين بلبس القبعة والثياب الاوربية على نحو ما فعل مصطفى كمال بالترك، وأرسل إلى أوربا بعوثاً من الشباب والفتيات ليعلموا في معاهدها. وكان الشعب الافغاني يشهد هذا الانقلاب في دهشة وروعة ولا يكاد يصدق أنه المقصود بهذه الاجراءات، وفي افغانستان أمة قديمة تغلب فيها البداوة، ولم تخرج بعد من غامر القرون الوسطى، وللتقاليد الدينية والاجتماية فيها ايما هيبة ورسوخ، فوقعت هذه السياسة الجريئة في الشعب الافغاني وقع الصاعقة، وثار سخطه لهذا الاجتراء على تقاليد القرون، وقابل زعماء الدين والقبائل تلك المحااولة

لسحق سلطانهم القديم بمنتهي الانكار والمقاومة، ولم تمض أشهر قلائل حتى سرى ضرام الثورة إلى ذلك الشعب المضطرم المتأهب ابداً للثورة وتحطيم أية سلطة مطلقة تحاول ارغامه على ما لا يرضى.

نشبت الثورة بسرعة لأسباب وعوامل لم تتضح تماماً. ولا ريب أن تطرف الملك أمان الله في تطبيق برنامجه الاصلاحي كان عاملاً هاماً في نشوبها بين القبائل الاقطاعية القوية التي أدركت خطر السياسة الجديدة على نفوذها واستقلالها المحلى، ولكنه لم يكن كل شيء، فقد نشبت الثورة بادئ بدئ في الولايات الشرقية المجاورة للسند، ولا سيما منطقة جلال أباد، وهي منطقة يسود فيها النفوذ البريطاني، ثم امتدت بسرعة مدهشة برغم ما بذله أمان الله لحصرها واخمادها. وقد كانت السياسة البريطانية تأخذ دائماً على أمان الله تأثره بنفوذ السوفييت ومحالفته إياهم، وترى في زيارته لموسكو وتقوية صلاته بالسوفييت تحدياً لا تحمد عواقبه. وللسياسة البريطاينة دائماً أثرها في تطورات أفغانستان الحاسمة، والمرجح انها لم تكن بعيدة عن ذلك الانفجار الذي فوجئ به أمان الله وكان خطراً على عرشه وشخصه. وقد استطاع أمان الله أن يهزم الثوار بادئ بدء، واعتقد مدى لحظة أنه سيد الموقف، ولكن الحوادث تفاقمت بسرعة وامتدت الثورة إلى الجيش، وزحف الثوار على العاصمة الأفغانية، فبعث الملك بزوجه وأسرته إلى قندهار، وفر الأجانب من كابول على متن طيارات بريطانية أرسلت من الهند، وحاول أمان الله عبثاً أن يهدئ الثورة بالغاء القوانين الجديدة التي أصدرها، فلما رأى أنه فقد كل أمل في الاحتفاظ بعرشه وسلطانه، نزل عن العرش لأخيه الأكبر عناية الله، وفي صعب، ولم يجرؤ على مواجهة الحوادث، فغادر بدوره ذلك العرش الخطر وفر ناجياً بنفسه، ودخل الزعيم الثائر باشه السقا كابول ظافراً، وتربع على العرش باسم حبيب الله. (أوائل سنة 1929) ولما رأى أمان الله تطور الحوادث على هذا النحو عاد فاسترد تنازله. وجمع فلوله وحاول السير إلى كابول، ووقعت بينه وبين خصومه معارك عديدة انتهت بهزيمته، فانسحب من الميدان أخيراً وفر مع زوجه وأسرته في مايو سنة 1929 عن طريق الهند، ثم جاز إلى أوربا منفياً طريداً، واستقر برومه، يرقبت مجرى الحوادث في أفغانستان، ونسمع صوته كلما اضطرمت أفغانستان بحادث جديد. وكان آخر العهد بتصريحاته في أوائل نوفمبر الماضي، حينما قتل المرحوم نادر شاه، فقد صرح يومئذ لبعض الصحف الكبرى أنه لا يتأخر عن العودة إلى أفغانستان، وتبوئ العرش إذا دعاه الشعب الأفغاني، ولكن الشعب الأفغاني لم يقم بمثل هذه الدعوة، وقد تبوأ ظاهر شاه ولد الملك القتيل العرش غداة مقتل أبيه.

(لها بقية)

محمد عبد الله عنان

من هم اخوان الصفا؟

للأستاذ أديب عباسي

أصل التسمية - نشأة الجميعة - طبقاتها - تأثيرها - رأي الناس فيها - رسائل الاخوان اجمالا

قد أظهر كولد زهير ان (أخا الصفا) تعني - حسب الاصطلاح العربي - يا أخا المروءة ويا أخا العرب، وهكذا لا تكون لعبارة (اخوان الصفا) أية دلالة أو نسبة إلي أخوية من الاخويات على نحو ما يفهم من الاخوية حسب الاصطلاح الحديث. على أن (دي فو) في كتابه ' يتساءل هل لهذا الاسم علاقة بكلمة فيلسوف كما ترد في اصطلاح الفيثاغوريين ويقول: ان كلمة (أخ) تقابل الشطر الأول من لفظ (الفلسفة) (فيلو) وكلمة (الصفا) تقابل معنى ومبنى الشطر الثاني منها (صوفي) وعليه يكون معنى الاسم محبي الحكمة.

هذا عرض موجز لرأيين مختلفين في أصل تسمية الاخوان هذا الاسم لمستشرقين غربيين. وثم رأي آخر لاخوان الصفا أنفسهم في أصل هذه التسمية لا نعتقد أن باحثاً من الباحثين فطن اليه أو تنبه له، فقد جاء في الجزء الرابع من رسائل الاخوان (ص 373) ما يأتي:

(وانما سمينا رسالتنا هذه رسالة السحر ليستدل اخواننا على الأسرار الخفية وليكونوا إذا بلغوا معالي العلوم ذوى غنى عن الحاجة إلى من سواهم في جميع ما يحتاجون اليه

من أمر معيشة الدنيا. فاذا وصلوا إلى هذه المرتبة صح لنا أن نسميهم باخوان الصفا.
واعلم يا أخي ان حقيقة هذا الاسم هي الخاصة الموجودة في المستحقين له بالحقيقة
- :ويقول أيضاً (ج: 4 ص373 - 74) .(لا على طريق المجاز
واعلم يا أخي أنه لا سبيل إلى صفا النفس إلا بعد بلوغها إلى حد الطمأنينة في الدين)
والدنيا جميعاً. وهو أن يعرف الانسان بحسب قدرته توحيد الله جل جلاله. . . وبعد ذلك
ما يكون به صلاح معيشة الدنيا والغناء فيها عن الحاجة إلى من عدم هذه الصناعة.
ومن لا يكون كذلك فليس هو من أهل الصفا. لانه لو كان من أهل الصفا لكان بصفائه
.(عمن دونه الغناء
لنا من جميع ما تقدم إن (إخوان الصفا) كما يعرفون أنفسهم - هم هؤلاء الذين حذقوا علوم
الدين والدنيا معاً واستغنوا بها عن الحاجة إلى من سواهم
وأخيراً نود ان نشير إلى رأي أورده المستشرق كولو نلينو في كتابه (علم الفلك عند
العرب في القرون الوسطى) يفسر فيه معنى هذه التسمية بالرجوع إلى عبارة وردت
في اول باب (الحمامة المطوقة) من كليلة ودمنة. على اننا لدى رجوعنا إلى القطعة
من الرسائل: ص 53) لم يتبين لنا أن حادثة الحمامة المطوقة كما وردت في كتاب
كليلة ودمنة هي أصل التسمية. وذلك أن أخوان الصفا كعادتهم في التمثيل لكل فكرة -
قد أوردوا هذه القصة لبيان فائدة التعاون فحسب. بيد أنه قد يكون في غير الموقع
الذي يشير اليه المؤلف من الرسائل ما يقوي هذا الرأي، ولكن المؤلف لا يشير الا إلى ما تقدم
هذا وقد قامت جميعة اخوان الصفا حوالي سنة 373هـ. وكان مركزها العام مدينة
البصرة وقد ذكر المؤرخون خمسة بالاسم من أعضاء هذه الجمعية وهم: ابو سليمان
محمد بن مشعر البيستي ويعرف (بالمقدسي) وابو الحسن علي بن هارون الزنجاني
.وابو أحمد المهرجاني والعوفي وزيد بن رفاعة
وكانت جماعة الأخوان تتالف من اربع طبقات: الطبقة الأولى وتتالف من الاحداث
الذين تتراوح أعمارهم بين الخامسة عشرة والثلاثين. ويفرض على افراد هذه الطبقة
الطاعة التامة واسلاس القياد لرؤسائهم ومعلميهم. والطبقة الثانية تتراوح اعمار
افرادها بين الثلاثين والاربعين. ويسمح لهؤلاء بالاطلاع على العلوم الدنيوية دون العلوم
الدينية. ثم الطبقة الثالثة واعمار الداخليها تقع بين الاربعين والخمسين. وهؤلاء يسمح
لهم بالاطلاع على شرائع العالم المقدسة، أما الطبقة الرابعة فأعضاؤها يكونون ممن
اربت سنهم على الخمسين. ويسمح لهم في هذه الطبقة بالوقوف على سر الأشياء
الصحيح والنفوذ إلى لباب المسائل كما يتسنى ذلك للملائكة. غير انه ليس لدينا ما
يثبت ان اخوان الصفا راعوا هذه التقسمة مراعاة دقيقة، فلم يسمحوا لهذه الطبقات ان يتداخل بعضها ببعض
وقد اوجب القائمون بانشاء هذه الجمعية ان يكون لأخوان الصفا (حيث كانوا من البلاد
مجلس خاص يجتمعون فيه في أوقات معلومة لا يداخلهم فيه غيرهم، يتذكرون فيه
علومهم ويتحاورون اسرارهم، كذلك اوجبوا ان تكون مذاكراتهم - على قدر ما
يستطيعون في علم النفس والحاس والمحسوس والنظر في الكتب الألهية والعلوم الرياضية وهي العدد
والهندسة والتنجيم والتاليف (يقصد تأليف النسب الموسيقية)
وكانوا يحتاطون ما امكنهم الاحتياط في اختيار الأعضاء الجدد. فلم يكن يسمح لأحد
بالدخول في هذه الجمعية الا إذا كان ناصع الصحيفة لا غبار على أخلاقة ولا ريبة في
.سلوكه، وكانت اجتماعاتهم تعقد سراً في بيت رئيسهم زيد بن رفاعة
أما غاية أخوان الصفا فيلخصها ابو حيان التوحيدي بقوله: - (وكانت هذه العصابة قد
تألفت بالعشرة، وتصافت بالصداقة، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة،
فوضعوا بينهم مذهباً زعموا انهم قربوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله. وزعموا انه
متى انتظمت الفلسفة الاجتهادية اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال)
هذا هو ظاهر الغرض من تأليف هذه الجمعية والدعاية لها ولكننا نعتقد ان وراء هذا
الغرض اغراضاً أخرى نحن مبينوها فيما بعد في فصل خاص
أما تأثير هذه الجمعية فقد اقتصر بوجه عام على العامة وأشباه العامة. والظاهر أن

أخوان الصفا لم يكونوا يطمعون في أكثر من ذلك. وهم - لذلك - قد وضعوا رسائلهم بلغة بسيطة سهلة بعيدة عن الاعتياص والغموض اللذين يرافقان عادة الكتابات الفلسفية، ومما توسلوا به لتقريب مذهبهم إلى افهام الجمهور اكثارهم من ضرب الأمثال وسرد الحكايات. فكان ذلك كله مقروناً إلى بساطة التعبير وجلاء العبارة، داعياً إلى تهافت العامة على دراستها وان جاء ذلك بعد حين من تأليفها. أما الطبقات الراقية فلم تر في هذه الرسائل ما يروي الغلة أو يملأ الفراغ الذي كان تحسه النفوس إلى الفلسفة في جميع فروعها أنئذ، واليك ما يصفها به أحد المعاصرين وهو أبو سليمان المنطقي قال: -

وحشوا هذه الرسائل بالكلمات الدينية والامثال الشرعية والحروف المحتملة والطرق) المموهة. وهي مبثوثة من كل فن بلا أشباع ولا كفاية. وفيها خرافات وتلفيقات، فنصبوا ما أغنوا، وغنوا وما أطربوا، ونسجوا فهلهلوا، ومشطوا ففلفوا. وبالجملة فهي مقالات تاريخ مختصر الدول لأبي الفرج) (مشوقات غير مستقصاة ولا ظاهرة الأدلة والاحتجاج (ص: 309

ورأى الغزالي في هذه الرسائل لا يخرج عن معنى ما تقدم فهو يقول: -

فلو فتحنا هذا الباب وتطرقنا إلى أن يهجر كل حق سبق اليه خاطر مبطل لزمنا . . .) أن نهجر كثيراً من الحق، ولزمنا أن نهجر كثيراً من آيات القرآن. . . لأن صاحب كتاب اخوان الصفا أوردها في كتابه مستشهداً بها ومستدرجاً قلوب الحمقى بواسطتها إلى باطله (المنقذ من الضلال ص 27)

من هنا لا نرى ما يراه (لان بول) من أن هذه الرسائل كانت تمثل الفلسفة العربية حين ألفت أصدق تمثيل، فان كتاباً يكتب بلغة شبيهة بالعامية وللعامة، ويصفه أبو سليمان المنطقي والغزالي بما وصفاه، لا يمكن أن يكون ممثلا للفلسفة العربية في ذلك العصر ورسائل اخوان الصفا هذه تبلغ واحدة وخميسن رسالة عدا الرسالة الجامعة. والشك يحوم حول مؤلفيها. فمن قائل أنها من تأليف جعفر الصادق، ومن قائل أنها من كلام بعض متكلمي المعتزلة، ولكن السائد اليوم هو أن كتابات زيد بن رفاعة كانت نواة هذه الرسائل. والأربعة الذين يذكرون معه كانوا يساعدونه في التأليف وانضاج الرأي. وقد كان لتأليف الرسائل على هذا النحو من التعاون أثر كبير في اسلوبها واختلاف قيم اجزائها، فهي في مواطن قوية الفن غزيرة المادة، وفي مواطن اخرى مهلهلة الأسلوب سطحية المباحث. وهذا التباين الملحوظ في مراد هذه الرسائل يثبت لنا أن مؤلفيها كانوا على تفاوت في ثقافتهم.

على ان من هذه الرسائل ما انفرد بكتابته شخص واحد من هذه الجماعة دون غيره. ومن هذه الرسائل رسالة الحيوان. فاطراد الافكار وتسلسل المعاني، ووحدة السياق التي تلحظ في هذه الرسالة يجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأنها لكاتب فذ منهم. وهذه الرسالة في رأينا - هي أقوى هذه الرسائل واعلاها نفساً وأسدها منطقاً، وقد عرضت هذا الرأي على الأب انسطاس الكرملي منذ سنوات فجاءني منه حينها ما يلي: -

رسالة الحيوان هي - كما تقول - لكاتب واحد منهم اقواهم عبارة واصفاهم فكراً) واحسنهم منطقاً. لكن الظاهر ان بعض الأخوان نظروا فيها واحكموا تنفسيقها، وحضرة الأب - على ما أفهمني - يدرس رسائل أخوان الصفا (واظهروا فيها حذقهم منذ سنة 1917

ولعل الغرض الخاص الذي ألفت من أجله هذه الرسالة كان انتقاد المجتمع اذ ذاك على لسان الحيوان كما فعل بعض أدباء الغرب في عصور التضييق على الحريات الفكرية. فأخوان الصفا في هذه الرسالة ينطقون الحيوان بما لا يستطيعون الجهر به من عبارات

كلها تقريع للحكام ورجال الدين والقضاء في ذلك العصر (انظر ص 154 - 55، 233 - 34)

أما المصادر التي استقى منها إخوان الصفا فهي عديدة ومتنوعة، وذلك انه لم يكن يمنعهم عن النقل من أي مذهب أو دين أو فلسفة مانع، كانوا يرون أن في كل مذهب أو دين أو فلسفة قسطاً من الحقيقة؛ وإذن ليس ثمة مانع من الانتفاع به أقصى ما يكمن الانتفاع. وعلى هذه المبدأ يبنى فلسفتهم الانتخابية. في هذه الرسائل من

الافلاطونية الحديثة، وفيها من الفيثاغورثية، وفيها من مذهب وحدة الكون (البانثيزم) وفيها من أفلاطون وأرسطو، وفيها من الديانات الهندية والزردشتية واليهودية والمسيحية.

شرق الاردن

أديب عباسي

حجاج الخضري

للاستاذ محمد فريد أبو حديد

قد تكلم المتكلمون في وصف أهل مصر فأكثروا في وصفهم من المبالغات، وذهبوا في التعميم مذاهب مختلفة، فمنهم من أغرق في المحدح حتى لم يترك فضيلة الا وصفهم بها، وهؤلاء قد غاب عنهم من وجه الحق مثل ما غاب عن الفريق الآخر الذي أغرق في الذم والتجريح. وقد تناول أفاضل كتاب الرسالة هذا المعنى فضربوا فيه بسهم.

ولعمري أنه لم يخطئ كاتب خطأ كتاب العربية قديماً إذا هم تناولوا قوماً بالوصف، فانهم إذا وقعت أنظارهم على جماعة أو عاشروا فئة من الناس وصفوها وصفاً يخيل إلى من يسمعه أو يقرؤه أنه وصف شامل لكل أهل البلد، أو أنه سمة ثابتة لكل الجنس، في حين أنهم إنما كانوا يصفونه من اتفق لهم الامتزاج به أو من ألفتهم الظروف في سبيلهم.

إن العالم الذي يحاول وصف الشعوب إنما يصل إلى حكمة على مميزات الشعب بعد أن يدقق في بحثه ويفحص من أفراد الجنس عدداً يستطيع بعد فحصه أن يقول بحق إنه قد عرف نسبة محترمة من أفراد ذلك الجنس، فاذا ما قال إنه رأى في ذلك الجنس صفة لازمة يشترك فيها الافراد جميعاً أو أغلبهم كان ذلك الحكم جديراً بالوثوق والتصديق. وشعب مصر إذا ذكره الذاكرون إنما يعني به شعب تلك الأرض الممتدة من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، وليس من السهل على أحد أن يصف مثل ذلك الشعب بوصف شامل يعم أفراده جميعاً، أو يصدق على أغلبهم. فأمثال ابن خلدون والمقريزي ممن وصفوا أهل مصر إنما يصفون من رأوه من أهل الدولة أو من الأعيان أو من أهل العلم، وهؤلاء ان صدقت علهيم كلمة أو شملهم وصف لم يصح أن يكون وصفهم وصفاً لبعض الأمة فضلاً عن كلها. وذلك لان أغلب أهل هذه الطبقة في مصر لم يكن في تلك العصور من جرثومة البلاد وأبناء شعبها الصميمين، بل كانوا أخلاطاً من مشرق الأرض وغربها قد اجتمعوا فيها بين مجندين في جيشها أو غالبين على حكومتها أو مقربين في بلاط حكامها الاجانب، أو علماء يجمعهم الاسلام من كل الامصار والأقطار في صدره الرحب السمح.

ولقد أهمل مؤرخو مصر ذكر ابناء البلاد الصميمين اهمالا يكاد يكون ازدراء لهم واحتقاراً لشأنهم، إذ زعموا أن مهمة المؤرخ محصورة في حدود رجال الدولة وأهل الحكم ومن

يلحق بهم أو يطيف بأبوابهم من رجال الدين والعلم. غير أنا نجد بين حين وحين اسماً من اسماء الدهماء والعامة يذكره المؤرخ عفوا، وهو امل في نظرنا على صفة أهل مصر من تلك الأعلام العالية والاسماء الضخمة التي ملأ قدماء المؤرخين كتبهم بوصفها، وبنوا عليها أحكامهم لان تلك الاسماء المشهورة لم تكن في أغلب الاحوال من أهل وان كانت من أهل مصر، فهي غير جديدة بأن نتخذها أساساً للحكم على أهل مصر. واني ذاكر هنا اسماً من هذه الاسماء المتواضعة لعلي أبين من وصفه ان شعب مصر الحقيقي كان فيه رجال، وان البطولة كانت تسري في عروق عامته الذين لم يحظوا بتخليد التاريخ.

كان من أهل مصر في اول القرن التاسع عشر رجلاً متواضع الصناعة اسمه حجاج. وقد كانت صناعته بيع الخضر فكان اسمه يذكر دائماً مع اسم صناعته، فكان الجبرتي رحمه الله يذكره إذا ذكره بسام (حجاج الخضري)

وكان العصر الذي فيه حجاج عصراً فذاً في تاريخ مصر منذ عهد الفتح العربي الأول. فقد اعتاد اهل مصر منذ قرون طويلة ان يتركوا أمر السياسة والحكم والحرب لمن غلب على البلاد من الدول أو من الجماعات وتمادوا في ذلك الاعتياد حتى صارت عقيدتهم أن الحكم واجب على غيرهم، وان واجبهم الابتعاد عنه وعما يستلزمه من

نضال ومغامرة. غير ان غزوة الفرنسيين هزت البلاد هزة عنيفة تصدعت لها العقائد الثابتة. فاذا بأهل مصر يرون الجنود الاجنبية تطرد جنود السلطان الذين اعتادوا الخضوع لحكمه وتشتت شمل المماليك الذين قضوا الاحقاب يتصرفون في أمور البلاد تصرفاً مطلقاً، فأصبحوا وجهاً لوجه أمام حالة جديدة لا تدعمها عقائدهم الاولى ولا عاداتهم الموروثة.

وبدأت روح أهل مصر تتنفس، وبدأت حواسهم تتنبه، فاذا بهم يثورون على الفرنسيين في شوارع القاهرة وأزقتها مرتين في مدى سنتين، وإذا هم يلقون اعداءهم المسلحين وهم لا يحملون الا الهراوي والحجارة، ويحتمون منهم وراء متاريسهم وخنادقهم يقيمونها في عرض الطرق وعند مداخل الميادين. وكان حجاج الخضري من زعماء تلك الثورة الشعبية وأبطالها، فيمز نفسه بقوة الجسم ورباطه الجأش وثبات الجنان، حتى صار أبناء البلد ينظرون اليه نظرهم إلى القائد المحبوب الموثوق به، يهرعون اليه عند الكوارث ويصرخون باسمه عند الهيعات. ثم خرج جيش الفرنسيين وعاد الحكم إلى السلطان

وولاته، ولكن مصر شهدت عقب ذلك أشد تطاحن على الحكم والسلطة بين الزعماء والهيئات، حتى انتهى الامر بتطلع مؤسس الدولة العلوية المجيدة إلى الملك.

انتهت هذه الاثناء زعامة الشعب المصري المتنبه إلى الزعيم الجليل السيد عمر مكرم، وهو الصديق الحميم لمحمد علي باشا، وكان حجاج هذا من صفوة أعوان وأشجع جنوده، فعندما تخاذلت جنود الاتراك عن نصر محمد علي باشا في نضاله مع منافسية قام السيد عمر مع أهل مصر الصميمين بحصار القلعة حتى اضطروا القائد المنافس إلى التسليم، وكانوا لا يرجون من جهادهم ذاك مالاً ولا عطاء، بل كانوا يرابطون ويحاصرون ويحاربون من أجل الوطن وحده. وكان حجاج الخضري أظهر الزعماء الشعبيين في هذا الوطن. قال الجبرتي في يومياته:

فأرسل (أي السيد عمر مكرم) إلى من بالنواحي والجهات وأيقظهم وحذرهم) فاستعدوا وانتظروا وراقبوا النواحي، فنظروا إلى ناحية القرافة فرأوا الجمال التي تحمل الذخيرة الواصلة من علي باشا إلى القلعة، ومعها أنفار من الخدم والعسكر وعدتهم ستون جملاً، فخرج عليهم حجاج الخضري ومن معه من أهالي الرميلة (فضربوهم وحاربوهم وأخذوا منهم تلك الجمال

واستمر نضال حجاج على رأس هؤلاء الجنود المصرين الخلص حتى تم الامر بانتصارهم وتوليه محمد علي باشا على مصر، وجاء فرمان السلطان مقرأ بالأمر الواقع، وعند ذلك خرج موكب النصر المصري وعلى رأسه قواده المظفرون: وقال الجبرتي في وصف ذلك:

اجتمع الناس، وطرائف العامة، وخررجوا من آخر الليل، وهم بالاسلحة والعدد) والطبول إلى خارج باب النصر. . . وكثير من الفقهاء العاملين رؤوس العصب، واهالي بولاق ومصر القديمة والنواحي والجهات. . . وكبيرهم حجاج الخضري وبيده سيف مسلول وكذلك ابن شمعة شيخ الجزارين وخلافه، ومعهم طبول وزمور والمدافع. . . إلى ان وصلوا إلى الازبكية فنزلوا بيت محمد علي باشا، وحضر المشايخ والاعيان وبذلك تم انتصار الشعب، واخذ يتطلع إلى الحكم والسياسة. وما .(وقرأوا المرسوم كان ذلك ليرضى الجنود الاتراك الذين تعودوا ان يكونوا سادة غير منازعين. فلما انتهى النضال الكبير بدأ التنافس والتنازع بين أهل مصر وبين الجنود. وكان حجاج ممثل ذلك التنازع

والتنافس. قال الجبرتي في بعض يومياته بعد ذلك (وقع بين حجاج الخضري والعسكر مقاتلة جهة طيلون وقتل بينهم اشخاص) فرأى أهل الحكم أن يعودوا بذلك الشعب إلى هدوئه الأول، وسكينته القديمة، فبدأوا ينزعون منه السلاح بعد أن انقضت الحاجة إلى حمله. فغضب الناس لذلك حيناً، غير انهم أرغمو على الاذعان فأذعنوا. ولكن نفس حجاج الخضري لم تذعن بتلك السهولة بل قاوم وناضل وكابر. قال الجبرتي في وصف ذلك.

ولكن (وفيه بنى حجاج الخضري حائطاً وبوابة على الرميلة عند عرصات الغلة) ايستطيع فرد أن يقاوم دولة ولو كان من بناتها؟ لا، فان حجاجاً لم يستطع الا الهروب من القاهرة التي جال فيها تلك الجولات، ولجأ إلى جيش الالفي بك، وكان عند ذلك

مرابطاً بجيشه يترقب الغرر، ويتحين الفرص، جاثماً طوراً عند إطفيح بالصعيد ومرة عند دمنهور بالبحيرة.
غير ان المقام لم يطلب لذلك البطل المصري في جيش الالفي بك وكيفل يطيب له المقام، وهو ابن البلد الصميم، يقيم بين جيش من المماليك يشمخون عليه بأنوفهم، وهو المعتز بكرامته الذي يرى نفسه مثيلاً وكفؤاً لهم؟ قال الجبرتي في وصف ذلك:
(وفيه أيضاً حضر حجاج الخضري الرميلاتي إلى مصر، وقد كان خرج من مصر بعد حادثة خورشيد باشا خوفاً من العسكر وذهب إلى بلدة بالمنوات. ثم ذهب عند الالفي، وأقام في معسكره إلى هذا الوقت، ثم ان الالفي طرده لنكتة حصلت منه، فرجع إلى بلده، وأرسل إلى السيد عمر مكرم فكتب له أماناً من الباشا، فحضر بذلك الأمان وقابل الباشا وخلع عليه ونادوا له في خطته بأنه على ما هو عليه من حرفته وصناعته ووجاهته بين اقرانه.)
غير أن نفسه لم تكن لترضى بعد ذلك بالبقاء في صفوف العامة الذين قضى عليهم أن يعودوا إلى انزوائهم واكتفائهم بالعيش العادي، فاختفى مرة أخرى من القاهرة، ولا ندري بعد ذلك له مقراً.
أقتله الجنود انتقاماً من كبريائه؟ أهرب إلى وطن غير مصر؟
لنسا ندري غير ما قاله الجبرتي (وفيه اختفى حجاج الخضري أيضاً بسبب ما داخله من الوهم والخوف من العسكر) اللهم ان في صفوف الابطال أفذاذاً لم يسمهم التاريخ ولمتعهم ذاكرة الأحفاد ليؤدوا اليهم ما يستحقون من الاجلال. . . ولئن كان حجاج الخضري أحد
هؤلاء، فقد حفظ لنا المؤرخ المصري اسمه في عرض حديثه، وهو يمر به مروراً سريعاً. غير أني أتجه إلى ذكراه بقلب خاشع تملؤه دعوات الترحم، وتتردد فيه أسمى عواطف الاجلال والتبجيل.
ألا يستطيع مصري أن يقول عند قراءة سيرة حجاج إن في المصري أنفة وعزة؟ وإن له نخوة وسطوة؟ وإن بين جنبيه همة وقوة. . .؟
محمد فريد أبو حديد
والبيئة أيضا. . .
أما لهذا الليل من آخر. . .؟
للدكتور محمد عوض محمد
من الموضوعات التي لابد أن تمر بنا جميعاً - الموازنة بين الوراثة والبيئة. هذا الموضوع بمثابة المطية الذلول التي لا يتحرج أضعف الناس وأصغرهم من أن يمتطيها. ثم يخيل إليه الوهم أنه أضحى فارساً من كبار الفرسان! ولقد طالما نشاهد صغار الناشئين وقد جلسوا على المنابر ووقف هذا لينتصر للوراثة ويراها كل شيء. وذلك لينتصر للبيئة ويدعى لها كل شيء، وقد لا يكون للمتكلمين بعد إلمام صحيح بعنى الوراثة او البيئة.
ولا بأس بهذه الأشياء، ما دام يراد بها العبث البريء، وتمرين الطلاب على الحوار. ولكن كلام الاحداث فيما يجهلونه قد يغدو ويا للاسف - عادة تلازمهم مدى الحياة. وقل أن يوجد بين الموضوعات ما يتطلب الدقة في الفهم، والتأني في الحكم كموضوع الوراثة اوالبيئة.
فأما الوراثة فيراد بها ما يرثه الناس عن آبائهم وأجدادهم من الصفات التي اختصت بها سلالتهم التي ينتمون اليها. فتأثير الوراثة هو تأثير الجنس والسلالة والقائلون بالوراثة يزعمون ان هذا الشعب راق لانه من جنس راق، والآخر منحط لان جنسه منحط. وأما البيئة فهي ما ينشأ بينه الانسان من أرض وسماء، وهواء وماء، وجبال وأنهار، وصحارى وبحار وما اليها. ولهذه في نظر القائلين بالبيئة الاثر الاكبر في رفع قوم وخفض قوم، واعزاز شعب واذلال آخر.
ولقد حاولت في كلمة سابقة ان أضرب بعض أمثلة للضلال الذي يخبط فيه كثير من الناس حين يتكلمون عن الاجناس في غير تدبر ولا حذر. وهممت ان أكتب كلمة ثانية لأضرب أمثلة أخرى للضلال الذي يخبط فيه الناس حين يتكلمون عن تأثير البيئة ثم جاءت كلمة الاستاذ حسن جلال فحفزتني إلى المضي في هذا السبيل ان في شرائع كثيرة من الدول ما يضمن مجازاة من يمارس الطب إذا لم يكن من أهل الطب، ولكن

ليس في الشرائع - وياللاسف - ما يكفل معاقبة من يمارس التاريخ وليست له دراية بالتاريخ، أو يمارس الجغرافيا وليس له كبير المام بالجغرافيا، وهكذا الحال في كثير من فروع العلم. فاستطاع ان يقتحم هذه الميادين من ليست لديه العدة اللازمة لها وهكذا رأينا اناساً يحكمون بين
الاجناس ويرفعون جنساً على جنس، وسلالة فوق سلالة، دون ان يأخذوا العدة لمثل هذا الحكم بدراسة الشعوب والاجناس في كل مرة وفي كل زمن كذلك ما ينبغي لأحد أن يحكم في تأثير البيئة: في تأثير الهواء والماء والارض والسماء في أخلاق الناس وطباعهم، الا إذا درس كل بيئة على سطح الأرض، وقارن بين المتشابه وغير المتشابه، ووازن بين المتفق والمختلف، بحيث يستطيع أن يدرك ما إذا كانت البيئات المتشابهة قد أكتسبت أهلها خلالا متشابهة. وأن هذا التشابه سببه طبيعة الاقليم لا أي سبب آخر قد يكون خافياً.

ومع هذا فان الذين صناعتهم دراسة البيئات الطبيعية هم عادة أزهد الناس في اصدار تلك الأحكام القاسية الشاملة كأن يقال مثلاً: إن سكان هذه البلاد جبناء لأن أرضهم سهلة منبسطة! وسكان ذاك القطر بخلاء لأن بلادهم جبلية! وأهل هذا الاقليم بلهاء لأن هواءهم حار رطب؛ وأولئك كذابون حانثون لان مناخهم متقلب لا يستقر على حال.

ان هذه الآراء لها للأسف صورة خلابة تسترعي الذهن وتلفت النظر. وفي عالم سكانه لا يلذلهم اجهاد الفكر وانعام النظر فيما يلقى اليهم من المتكلم - كثيرا ما تسير تلك الأحكام وتشتهر بين الناس وترسخ في؟؟؟؟؟؟؟ وقد لا يكون في بعض هذه الأحكام ضرر كبير ولكن الخطب المؤلم ما ذكره الاستاذ حسن جلال من أن أناساً يقال لهم أنتم اذلة لأن هواء بلادكم يقضي بهذا، وقد كتب عليكم الذل سرمدا إلى يوم القيامة، فيصدقون ما يقال لهم ويؤمنون به. مع انه ليس في العالم أمة إلا ويصح أن يقال لها مثل هذا الكلام في وقت من الأوقات.

كتب أحد الجغرافيين الامريكان، واسمه إلسودث هنتنجتن يصف تأثير الهواء في الناس فقال: إن المناخ الذي يلائم حياة الأنسان أكثر من سواه، ويساعد على النشط والجد والرقي في سلم الحضارة هو مناخ بلاد اليابان (في الجزء الجنوبي منها). وبعض جهات الجزر البريطانية ثم تكون ملاءمة كل إقليم آخر للانسان بقدر ما بينه وبين هذه الجهات من المشابهة.

هذا ما ذكره ذلك الكاتب الجغرافي العصري، ومن المفيد أن نقارن هذا الحكم بما ذكره ابن خلدون في مقدمته عن الأقاليم السبعة وملاءمتها للأنسان. وقد ذهب هذا الكاتب الاجتماعي العربي إلى أن الأقليم الرابع هو أطيب الاقاليم جميعاً، وأكثرها ملاءمة للعمران، وسكانه
أرقى حضارة من سكان سائر الأقاليم. أما ما يليه شمالاً وجنوباً فدونه منزلة، وما يلي ذلك اقل صلاحاً نظراً لشدة الحرارة أو لشدة البرودة . .

والاقليم الرابع الذي عناه ابن خلدون هو الواقع بين دائرتي العرض الثلاثين والاربعين. . وفيه الاندلس وبلاد المغرب وايطاليا ومصر وسوريا والعراق وايران. وقد ذكر ابن خلدون صراحة أن الاقليم السادس قليل العمران. وهواؤه لا يبعث على الحضارة. مع ذلك ففي هذا الاقليم السادس بالذات يقع معظم بريطانيا العظمى علام يدل هذا كله؟ إنه يدل دلالة صريحة على أن كلا الكاتبين لم يبن حكمه على فهم صحيح لطبيعة الهواء وتأثيره في العمران. بل كل ما فعله أن نظر إلى العالم الذي يعيش فيه، والى الأفكار المختلفة التي نالت في عصره حظاً وافراً من الحضارة. وحكم بأن هواءها أحسن الأهوية، وأقليمها أطيب الأقاليم. رأى ابن خلدون أن العمران في عصره واقع في بلاد كلها في الاقليم الرابع، فحكم بأنه أكثر الاقاليم ملاءمة؛ ورأى هنتنجتون ان انكلتره واليابان في مقدمة دول العالم اليوم فحكم بأن هواء انكلترة خير هواء. ومتى أتيح للأقطار الاستوائية - أن تنهض قريباً أو بعيداً، فسيرى الناس ابن خلدون آخر ينادي بكل جرأة أن الأقطار الأستوائية، المغضوب عليها في الوقت الحاضر - هي أبدع وأزهى وأزهر الأقاليم ذات الحضارة والعمران.

ومن غريب أحكام ابن خلدون ما ذكره في حكمه على أهل السودان بأنهم موصوفون بالخفة وكثرة الطرب وحبهم للضحك بسبب حرارة الهواء، ولو بقى ابن خلدون إلى وقتنا هذا لأدهشه أن يعلم أن من أكثر الناس خفة وضحكاً الاسكيمو سكان الجهات

القطبية! وشبيه بهذا ما ذكره المقريزي في حكمه على أهل مصر مما ذكره الاستاذ أحمد أمين: من أن البيئة المصرية قد أثرت تأثيراً سيئاً في كل ما بمصر من إنسان وحيوان. ومما ظنه حجة علينا أن الأسد لا يعيش في مصر. وهذا صحيح. ولو كان الأسد في مصر يوما من الأيام لكان العمران وحده كفيلا بابادته والقضاء عليه كله أبيد التمساح من نيل مصر. ولكن من يخبر المقريزي رحمه الله بأن بلاد الانكليز ليس فيها أسد، وليس فيها من الوحوش الضارية سوى الانسان. وكذلك الحال في الجزء المتمدن من أمريكا وفي معظم أوربا؟

تلك العبارة البادية السخف هي من فصل طويل للمقريزي مملوء بالعبارات الكثيرة في ذم مصر وهوائها ومائها وأهلها وفي ذم اخلاقهم وأجسامهم وطبائعهم. . وكلها عبارات لا تزيد قوة على العبارة السالفة.

ولقد يجوز لكاتب أن ينقد أخلاق المصريين وأن يرميهم بصفات الضعف إن شاء، أو الجبن أو الانهماك في الشهوات. ولكن ليس لأحد ان يرجع شيئاً من هذا إلى طبيعة الأرض أو الماء أو الحراة. فيضل ويضل. وأولى بهؤلاء القضاة أن يبدأوا بدراسة لكل اقليم وطبيعة كل بلد من بلدان العالم إذن لعلموا أن كثيراً مما يتهم به أصل مصر - صدقاً أو كذباً - شائع فاش في أقاليم تختلف عن مصر كل الاختلاف، وهنالك أقاليم لا يقل هواؤها حرارة عن هواء مصر، وأرضها سهلة كارض مصر، تعيش فيها شعوب لا يشك أحد اليوم في رقيها وتفوقها.

ومن الأمثلة الشائعة في تأثير البيئة ما يقال من أن المناظر الطبيعية تخلق الشعراء وتوحي بالشعر والموسيقى. وقد زار أحد كتاب الامريكان بلدة ستراتفورد حيث ولد شكسبير، فصور له الخيال الجامح أن مثل هذه البيئة - والتي ليس لها في الواقع ما يميزها - هي الجديرة بأن توحي إلى رجل مثل شكسبير تلك الدرامات الخالدة، والقصائد الرائعة. . ولولا جهل هذا الأمريكاني لعلم أن شكسبير لم يقض في هذا الأقليم غير زمن الحداثة. ولم يكتب فيه شيئاً بل قضى معظم حياته في لندرة تلك البلدة المظلمة التي لا يمكن أن توحي من تلقاء نفسها بشيء جميل.

واذا سلمنا بأن المناظر الطبيعية الجميلة تثير الخيال وتبعث الشعر في النفوس، فاننا سنلاقي من غير شك صعوبة عظيمة في تعليل تلك الظاهرة الغريبة وهي قلة نبوغ الشعراء الفحول في سويسرة التي لا يضاهيها في أوروبا بلد في أنهارها الجارية، وجبالها الشامخة، ومناظرها الرائعة.

أليست الحقيقة اننا نتورط كثيراً، ونندفع في الإستدلال والاستنتاج، ونقضي بأحكام شاملة واسعة من غير حذر ولا تدبر، بل وأحياناً من غير فهم لما نريد الخوض فيه؟!

من الثقافة العربية القديمة

النار

عقد الجاحظ فصولا ممتعة على النيران، في نهاية الكتاب الرابع وبدء الخامس من الحيوان، ذكر فيها نيران العرب والعجم، فحدث أخبارها وأبدى آثارها وأشعارها وإنا نتكلم الآن عن النار ونشوئها، فنورد قول طائفتين تختصمان فيها جمعناه من شتات، واختصرناه بعد افاضة.

النار

النار اسم للحر والضياء، فاذا قالوا أحرقت أو سخنت فانما الاحراق أو التسخين هو للحر، دون الضياء.

والحر جوهر صعاد كالضياء، وإنما يختلفان في الصعود لاختلاف جوهرهما، والضياء أحث صعودا لا يعلى. ألم تر إلى النار إذا أطفأناها من أتوان وجدنا أرضه وهواءه وما يلابسه حاراً، ولم نجده مضيئاً.

مستقر النار ونشوؤها:

النار التي تقدح من عودين أو حجرين أين تستقر؟ أهي في العودين كامنة تبرز بالقدح فهي من عناصر العود أو الحجر؟ أم تتراءى أنها خرجت منهما، والحق أنها ليست فيهما، بل تحدث من غير العود والحجر عند قدحهما - كلا الرأيين له فرقة تميل اليه وتؤيده بكل وسعها واليك أقوالهما:

نظرية الكمون:

يرى فريق أن النار كامنة في الحطب والحجر وغيره لأنها أحد عناصره، ويمنعها من الظهور البرد المضاد للحر والمكافئ له. فان نحن قوينا النار الكامنة إما بنار أخرى خارجية أو بتوهين البرد المانع كحك العودين اللذين يضعف البرد فيهما - ظهرت النار الكامنة، وتغلبت على البرد ونفته.

فالنار التي نراها هي نار العود تسعرت بعد كمونها، وانتصرت على مكافئتها. واعلم أن (احراقك للثوب والحطب والقطن، إنما هو خروج نيرانه منه ليست أن ناراً جاءت من مكان فعملت في الحطب، ولكن النار الكامنة في الحطب لم تكن تقوى على نفي المانع ضدها عنها فلما اتصلت بنار أخرى واشتدت منها قويتا جميعاً على نفي ذلك المانع. فما زال تجزأ الحطب وتجفف وتهافت لمكان عملها فيه). (وإن من ينكر أن في الحجر ناراً كامنة، كمن ينكر الزيت في الزيتون، والدهن في السمسم، والدم في الانسان، ويقول بحدوث ذلك عند رؤية الانسان لها).

بل تتوسع هذه الفرقة في تطبيق نظريتها، فعندها أن حرارة الأيام ليست من الشمس، وإنما النيران الكامنة في العالم تظهر بتقوية الشمس لها وتغليبها على مانعها، بل تطفر من كمون الحرارة إلى كمون السم، فنتزعم أن في كل بدن سماً كامناً، له مانع يمنعه من ظهور أعراضه - وليس سم الأفعى الذي يتلف البدن - لأنه ليس يقتل متى مازج بدناً لا سم فيه؛ ولكن الذي يقتل السم الكامن في الأبدان، متى أعانه سم الأفعى وقواه على مانعه.

البراهين على كمون النار:

لو كانت العيدان كلها لا نار فيها، ما كان ظهورها في بعض العيدان أسرع منها في البعض الأخر؛ لكنها كانت كذلك - لأن مانعها أضعف في بعضها عن بعض، فيكون ظهور نيرانه أسرع، فالمرخ والعفار أفضل العيدان، كما أن الحجارة تختلف في الأسرار، وأكثرها ناراً حجر المرو - وقد تحتك عيدان الأشجار في الغياض فتلتهب النار - وقد تقدح النار من الساج إذا اختلط بعضه ببعض في السفينة عند تحريك الأمواج لها، ولذلك أعدوا الرجال يصبون عليه الماء صباً، ولم صار لبعض العيدان جمر باق، وبعضها له جمر سريع الانحلال، وبعضها لا جمر له؟ ولم صار البردي مع هشاشته ويبسه ورخاوته لا تعمل فيه النيران؟ فهل اختلفت تلك الا على قدر ما يكون فيها من النار وعلى قدر قوة الموانع وضعفها؟

ولا يسكت هذا الفريق دون أن يؤيد كلامه بآي الكتاب.

قال تعالى (أفرأيتم االنار التي تورون، أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون) تقول كيف قال (شجرتها) وليس في تلك الشجرة شيء وجوفها وجوف الطلق في ذلك سواء، وقدرة الله على أن يخلق النار عند مس الطلق كقدرته على أن يخلقها عند حك العود، وهل يريد سبحانه في هذا الموضع الا التعجيز من اجتماع الماء والنار؟ ويقول تعالى: (الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فاذا أنتم منه توقدون) فهل تجد لذكر الخضرة الدالة على الرطوبة معنى، الا ذلك التعجيز؟

نظرية الاستحالة

تنكر هذه الفرقة أن النار كامنة في العود، وكيف تكمن فيه وهي أعظم منه؟ ولا يجوز أن يكمن الكبير في الصغير، ولكن العود إذا احتك بالعود حمى العودان، وحمى من الهواء المحيط بهما الجزء الذي بينهما، ثم الذي يلي ذلك منهما، فاذا احتدم رق ثم جف ثم التهب، فانما النار هواء استحال.

والهواء في أصل جوهره جسم رقيق خوار، جيد القبول، سريع الأنقلاب، فالنار التي نراها اكثر من الحطف إنما هي ذلك الهواء المستحيل، وانطفاءها بطلان تلك الأعراض الحادثة للهواء. ينقلب الهواء إلى نار، لأن طبعه قريب منها، فالنار يابسة حارة، والهواء رطب حار، والماء رطب بارد. فالهواء وسط بين النار والماء يجمع بينهما، وقد ينقلب كل منها إلى ما يقاربه. فيجوز ان ينقلب الهواء ناراً، وينقلب الهواء ماء، ثم ينقلب الماء أرضاً، ولابد في الانقلاب من الترتيب والتدريج.

البراهين على انكار الكمون:

نرى براهين هذه الفئة سلبية، فهي تنكر الكمون باعتراضاتها على النظرية، وإن كانت لا تتقدم بحجج تؤيد الاستحالة، فترى المناظرة تنتقل إلى تأييد الكمون وإنكاره. تقول

هذه في الانكار.
ان هذا الحر الذي رأيناه قد ظهر من الحطب، ولو كان كامناً فيه لكنا وجدناه بالمس كالجمر المتوقد، فان قلتم كان يمنعه برد مكافئ كامن مثله - فأين ذلك البرد؟ لا يخلو الحال من أمرين: إما بقى بعد الأحراق، وإما خرج عند الأحراق. فان كان باقياً في الرماد استلزم ان يكون الرماد أبرد من الثلج، وإن كان خرج مع الحر، وأخذ كل وجهته - فقد كان ينبغي له أن يخمد ويهلك مالاقاه، كما أحرق الحر وأذاب كل مالاقاه ولما وجدنا جميع أقام هذا الباب لم تتحقق، علمنا أن النار لم تكن كامنة في الحطب.
ونشعر بقيمة هذا الاعتراض، إذا لاحظنا قول الفريق الأول في أن النار تنفي المانع الذي هو البرد، ولم يقل تفنيه وتبطله - إذن فالبرد موجود عند الاحراق، يقع عليه أحد الفروض السابقة.
بعد هذا أخذت كل فرقة تنتصر لنفسها بنقض قول خصيمتها وإنا نمسك عند هذا المقدار.

احمد احمد التاجي

في محكمة التاريخ

الوزير مؤيد الدين ابن العلقمي

هل غدر بأمته وخليفته؟

- 2 -

مناقشة المصادر

المصادر كما رأيت قسمان: قسم يبرئ الرجل مما نسب اليه، وآخر لا أقول يتهمه بالغدر والمخامرة، بل يلصق الخيانة به لصقاً دون تحرز او تشكك، ويمثل القسم الأول ابن الطقطقي وحده، ويمثل القسم الثاني ابو الفدا وابن الوردي والكتبي ابن خلدون ودحلان، فهؤلاء متفقون في الجوهر مختلفون في الاعراض. والآن أحو ل شطر انتباهي نحو ابن الطقطقي لأنه أول من كتب عن الحادث، ولأنه المؤرخ الأوحد الذي يحاول ان يبرئ ساحة الوزير من تلك التهمة الشنعاء، فيقول بصراحة إن ابن العلقمي لم يخامر، ويؤيد مدعاة باستبقاء هلاكو للوزير وتسليمه الأمر اليه بعد فتح بغداد، الا ان ما نعلمه من كلام ابن خلدون يدحض حجة ابن الطقطقي من حيث يؤيدها، فابن خلدون يذكر كما يذكر ابن الطقطقي أن هلاكو استبقى الوزير في دست الوزارة الا انه يزيد على ابن الطقطقي فيقول (والرتبة ساقطة عندهم فلم يكن قصارى أمره الا الكلام في الداخل والخرج متصرفا من تحت آخر أقرب إلى هلاكو منه) ثم لابن الطقطقي حجة أخرى براءة الوزير هي انه يستبعد على هلاكو ان يبقي على الوزير فيما لو كان الوزير غدر باستاذه، وهذا في الحقيقة استنتاج ضعيف جداً، يرده ما يقع تحت ابصارنا اليوم من استعانة المستعمرين بطبقة خاصة من الناس يسمونهم عادة بالمعتدلين، لكنهم في الحقيقة الخونة الخارجون على مبادئ الأمم النزاعة إلى استقلالها واستغلال مواهب ابنائها وماذا يضير هلاكو ان هو استبقى ابن العلقمي؟ وهل بلغ هلاكو من سموا النفس، وحب الصادقين والمخلصين تلك المنزلة التي تخوله ان يقتل من يخرج على هذه المبادئ، حتى ولو كان الخروج في مصلحة هلاكو؟؟ فعدم قتل هلاكو لابن العلقمي لا يؤخذ حجة على سلامة نيته في دولة المستعصم، بل على العكس من ذلك يمكن اعتباره كدليل إعلى إدانة الرجل وممالأته لاعداء الخلافة المتبرين.
ثم هناك أمر يسترعي الانتباه، وهذا الأمر هو تصدي ابن الطقطقي لنفي التهمة، وتصريحه بأن هنالك من يتهم الوزير بذلك. فهذا يؤيد المصادر الأخرى التي تقول بمخامرة الوزير، ذلك لأنها لم تختلق هذه التهمة اختلاقاً، فقد ذكرها من تقدمها لكن وجهته سلبية، وأعني به ابن الطقطقي، ولذا فانا أظن أنت عرض المؤرخ لنفي الاتهام له تفسيران إما أن يكون المؤرخ يعلم حقيقة أن هناك مخامرة، فعمد إلى نفيها اضلالاً لمن بعده، أو أن شائعات قوية راجت عن خيانة الوزير إن صدقا وإن كذبا، فتصدى صاحب الفخري لدحضها وتكذيبها لغاية في نفسه أو لغير غاية. وأنا أرجح أن تعرضه لهذا الموضوع كان سبباً في رواج تلك الشائعات. أما لأي الغايتين فلا أراني قادراً على تحديد ذلك، هذا من جهة، ومن جهة ثانية دعهنا نسلم بأمانة ابن الطقطقي وحرصه على الحقيقة وتباعده عن التشيع!!. . . الخ.

ها هنالك الا أن كل هذا ينقصه أمر مهم في النقد التاريخي، ذلك الأمر هو أن ابن الطقطقي ينقل لنا عن الوزير ما قاله أو حدثه به ابن أخت الوزير، وفي هذا كفاية لتقليل أهمية ما يرويه المؤرخ، ولا سيما في موضوع اتهامي له علاقته الشديدة بالشرف والشهامة، وهذان يهمان ابن الأخت بقدر ما يهمان خاله، فاي اعتبار بعد هذا يبقى لما يرويه ابن الطقطقي؟؟؟

أما ما يقوله ابن الوردي فهو في الحقيقة رد فعل لما يقوله ابن الطقطقي، فهذا يشتد في الدفاع عن الوزير، وذاك يشتد في اثبات الجريمة عليه، وقد ذهب الغلو بابن الوردي مذهباً شططا فخرج عن كياسة المؤرخ وحياده، وأنسته العاطفة الجامحة وظيفته والموقف الذي يجب أن يقفه كل مؤرخ، فنعت الرجل بالغوي ولعنه، وبخل عليه بالترحم الذي يستمطر عادة على العصاة والمجرمين، وقد ذكر أشياء لم يذكرها أحد ممن تقدمه ولا من تأخر عنه، فمع أنه ينقل عن ابي الفدا، فقد ذكر أموراً لم يذكرها أبو الفداء نفسه، وأهم هذه الأمور نص هذه الرسالة التي يزعم أن ابن العلقمي أرسلها إلى التتر وهي رسالة طويلة. وقد جئت على ذكرها فانا أشك في نص الرسالة وويلح على الشك حتى يميل بي إلى الجحود والانكار، وذلك لسببين: الأول انفراده بذكرها، والثاني أسلوب الرسالة والكفلة البادية في لهجتها ثم الجمع بين شعر من هنا وهناك لا رابطة بينه، ولا سيما الابيات التي تجعل الاتراك (ويريد بهم المغول وهذا يدل على تدقيق المؤرخ!) طلاب ثأر آل محمد، ثم أمره هلاكو أن يتأول أول النجم وإيصاءه هلاكو بالحرص الذي ليس له معنى فلا أدري ما عسى الوزير يريد بحضه هلاكو على تأول النجم والحرص، والذي يزيد في غرابة هذه الرسالة هو استنهاض ابن العلقمي لهلاكو بذكر ما أصاب العترة العلوية والعصابة الهاشمية، وماذا يفهم هلاكو من هذا؟ فهو لم يكن شيعياً ليتأثر بهذه اللهجة الشيعية، ولا نعلم حقاً هل أسلم هلاكو أم بقى على وثنيته، فقصة موته ودفنه تؤيد أنه لم يسلم، أو إذا كان أسلم فأن الاسلام لم ينفذ إلى قراره نفسه، ولم يتأثر به التأثير الذي يعطف على الشيعة ويثير فيه عاطفة دينية تحفزه لمهاجمة بغداد، ثم ان دحلان يصف التتر وصفا لا يطابق روح الرسالة التي يذكرها ابن الوردي، فيقول دحلان (وكان ذهاب الخلافة بدخول التتر بغداد وهم قوم كفار خرجوا من الصين وتغلبوا على ممالك الاسلام وكانوا يقتلون الرجال والنساء والصبيان، ويأكلون كل شيء حتى الكلاب والحشرات، ولا يعرفون نكاحاً ولا يحرمون شيئاً، وكان ابتداء خروجهم في أول القرن السابع، وظهر امرهم في سنة سبع عشرة وستمائة على الامصار والمدائن والقرى، إلى ان استولوا على بغداد وازالوا خلافة بني العباس، فهل ترى بعد هذا ان في كتاب ابن العلقمي المزعوم ما يلائم طبائع قوم كهؤلاء، وهل فيه ما يستثير حماسهم؟ اني لا أرى شيئاً من ذلك، فلو جاء في الكتاب ما يتفق مع عقيلة اولئك البرابرة كذ كرغنى المملكة، وسهولة اقتحامها والى ما هنالك من مغريات، لكان في ذلك ما يدفعنا إلى الترجيح بأن هذا النص الذي يورده ابن الوردي قد يكون النص الحقيقي لكتاب الوزير إلى هلاكو ان صح ان الوزير ارسل كتاباً، اما وفحواه ما عرفنا فانا استبعد جداً ان يكون هذا النص صحيحاً، ثم هنالك اختلاف بين المصادر بشأن شخصية الرسول وكيفية الارسال، فابن الوردي يقول بأن الوزير ارسل أخاه، وصاحب القوات يذكران الوزير (تحيل إلى ان اخذ رجلا وحلق رأسه حلقاً بليغاً وكتب ما اراد عليه و. . .)، أما ابن خلدون فيذكر وصية أوصاها الوزير لصديقه ابن الصلايا صاحب اربل، ليستحث التتر على المسير إلى بغداد، وهذامعقول جداً، وليس فيه ما يدعو إلى التشدد في عدم احتماله أو تصديقه، ولا سيما ونحن نعلم ان ابن العلقمي لم يكن راضياً عن الدولة التي استبد بأمورها الدوادار ذلك السني المتشدد في سنيته، والحق انني مستريح لما يذكره ابن خلدون لأنه منطقي يستسيغ الاعقل قبوله، ولأن الرجل لم يظهر أقل تحيز أو ميل وكذا أبو الفدا فقد ألفيته فيما كتبه شريفاً مترفعاً عن الهوى وليس هذا بالكثير على ذلك الملك المؤرخ. اما دحلان فيريد ان يقول لنا ان لمجيء التتر اسباباً كثيرة، من اعظمها رسالة الوزير لهلاكو ولكن ما يؤسف له انه لا يذكر سبباً واحداً من هذه الأسباب الكثيرة. أما أنا فلا أعتقد أن وصية الوزير ان ثبتت هي التي جاءت بالتتر وحدها، وإنما قد تكون عاملاً قوياً في تسهيل الاغارة على بغداد، وأسف أني لا أعرف

الكافي عن تاريخ التتر ليتسنى لي تعداد بعض الاسباب التي حفزتهم لشن غارتهم الشعواء، واخيراً وبناء على ضعف حجة وكيل الدفاع ابن الطقطقي وتكانف بقية المصادر - على ادانة الوزير - أراني مضطراً اضطراراً علمياً سليماً من الغاية، وبعيداً عن الهوى، ومبنياً على ما أوصلني اليه استقصائي أن أرجح غدر الوزير بدولته وخليفته متبعاً في ذلك ابن خلدون بأن ذلك وقع على يد ابن الصلايا الذي يظهر انه اتصل بالتتر فحسن لهم مهاجمة بغداد بشتى الطرق، وذلك بعد أن ضاق الوزير ذرعاً بالدوادار وولي العهد واشياعهما السنيين وبعد أن قاست الشيعة نكبات وويلات وفضائح في العرض وخسائر في المال أخرجت الوزير عن تعقله، وجعلته يتناسى كل شيء في سبيل الانتقام أولا وانقاذ الشيعيين ثانياً، فلم يجد امامه أوفق من الاستعانة بالمغول الذين لم تكن بغداد غريبة عن الاستعانة بهم، فقد سبق للخليفة العباسي أن استعان بجنكيز خان على شاه خوارزم، وقد أصاب بغداد من جراء استغاثة الوزير بهلاكو ما أصاب المشرق وبخارى يوم استعان الخليفة بجنكيز على الشاه.

فرحان شبيلات

الجامعة الامريكية (ببيروت)

ابن قلاقس - 3

هـ (1138 - 1122م)567 - 532

- 6 -

لابن قلاقس ديوان شعر يحدثك جامعه أول ما يحدثك أن هذا الشعر ليس كل شعر ابن قلاقس، لأنه حذف منه ما لا يليق بهذا الشاعر من غث القول وسخيفُه، وهي فكرة خاطئة تضر بتاريخ، ولا تفيده؛ إذ من الخير لنا أن نرى جميع مظاهر التفكير للشاعر، سواء أكانت جيدة أم غير جيدة، غير أننا اليوم وقد ذهب ذلك الشعر الضعيف، ليس لنا إلا أن نتحدث عن هذا الشعر الذي بين أيدينا، وأهم ما يميزه خصائص ثلاث: أولها الغرابة في كثير من الأحيان، تلك الغرابة التي تستدعي منك مزيد العناية والاهتمام، فأنت إذ تقرأ شعره لا تقرأه مارا عليه أو مسرعاً في تلاوته، ولكنك تقرأ محترساً منتبهاً، موجهاً كل همك إلى تفهم ما يريده، وفهم ما يقصده؛ ولست أدعى أن ذلك محمدة في الشعر، أو فضيلة بها يمتاز، ولكنني أزعم أن الذي أوقع شاعرنا فيها هو غرامه الذي لا حد لله بالمحسنات اللفظية والجمالي البديعي، مما يدعوك إلى أن تقرأ القصيدة مرة ومرة حتى تفهمها، وتدرك سر معناها، على أنه لم يكن في كل شعره كذلك، بل هو في كثير من الأحيان يترقرق عذوبة، ويسيل لينا ولطفاً، واستمع اليه يقول:

كان الشباب الغض لي
_ لا فاستنار الشيب فجرا
ولئن تقلب بي الزما
_ ن كما اشتهى: بطنا وظهرا
فيما قتلت صروفه
= وقتلته جلداً وخبراً
غاض الوفاء، وفاض ما
_ ء الغدر أنهاراً وغدراً
فانظر بعينك هل ترى
= عرفا، ولست تراه نكراً
خلق جرى من آدم
= في نسله، وهلم جرا
ومروعي بالبحر يحـ
_ سب أنني أرتاع بحرا
أو مادري أنبي بتسـ
_ هيل المصاعب منه أدري؟!

ثاني الخصائص التضمين والاقتباس، وهما إن دلا فانما يدلان على ثقافة واسعة، واطلاع

على الشعر عظيم، وشاعرنا قد أخذ كثيراً من معاني السابقين وصاغها في شعره، فاذا أنت سمعت قوله:

والماء يكسب ما جرى
طيباً ويخبث ما استقرا =

وعاد إلى ذهك قول البديع: وهو الماء إذا طال مكثه، ظهر خبثه، وإذا سمعت قوله:

وبنقلة الدرر النفيـ
ـسة بدلت بالبحر نحرا _

خطر ببالك قول صرد:

قلقل ركابك في الفلا
ودع الغواني للخدور _

فمحالفو أوطانهم
أمثال سكان القبور =

لولا التنقل ما ارتقت
درر البحور إلى النحور =

بل هو يتعدى ذلك أحياناً إلى المعارضة، وقد استطعنا أن نعرف أنه قد أخذ من ابن الرومي وابن المعتز والمتنبي وغيرهم، وكان أكثر من عارضهم البحتري فهو قد عارضه في قصيدته السينية بتلك القصيدة التي يهنئ فيها بمولود ويقول:

كوكب لاح بين بدر وشمس
فسرى بالسرور في كل نفس =

وتشبهه به جعله يقع أحياناً في سوء التخلص الذي كان البحتري يقع فيه كثيراً كما شابهه أيضاً في الفخر بشعره والمغالاة في التحدث عن قوته وجماله، ولسنا ننسى بعد أقوال البحتريي مفاخراً بشعره بعد إلقاء قصيدته، وها هو ذا ابن قلاقس يقول عن شعره:

أين أمثال ما أقول؟. وقولي
بات يقتاد شارد الأمثال =

وهو قد عارض كذلك بعض قصائد جاهلية وأموية واقتبس منها، مثل قصيدة: قربا مربط النعامة مني، وقصيدة: حننت إلي ريا، وغيرهما.

ثالثة الخصائص ولوع بالمحسنات اللفظية والجمال البديعي، وبخاصة الجناس والتورية، شأنه في ذلك شأن الشعراء المصريين واستمع إليه يقول:

أمنا في فنائكم الليالي
فلا طرق الفناء لكم فناء =

ويقول:

وكيف لا يحب القلب الذي فعلت
يد الصبابة فيه فوق ما يجب =

وكثيراً ما تسمعه يقول: حجاباً وحجاباً، أو إجلاء وإجلابا، أو إرغادا وإرغابا، كما كان له كذلك ولع خاص بالاستعارة المكنية التي يثبت فيها للشبه خاصة ولازماً للشبه به فكثيراً ما تسمع منه ثغر المزن، ووجنات الورد، وجبين الخطب، ومعاطف الطرب، وغير ذلك.

شعر شاعرنا جار على القوانين النحوية والصرفية لا يشذ عنها، ولا يخرج عليها، اللهم إذا استثنينا قطعة لهمزة الوصل أحياناً وأخذه بمذهب: وحملت زفرات الضحى، ذللك المذهب الذي يسكن عين جميع المؤنث السالم حينما تكون الفاء مفتوحة وهو لا يلجأ إلى ذلك إلا مضطراً مكرهاً، كما أنه لم يلجأ - وعلى الأقل في هذا الشعر الذي بين أيدينا - إلى أساليب العامة إلا في النادر الأل كقوله:

يبكى به الاقلام نفلا محرفا
تموت معانيه عليه من الضحك =

ويحسن بنا أن نقول: إن ابن قلاقس كان ينظر إلى الشعر نظرته إلى شيء يثير العاطفة، فالشعر ليس كاملاً مزخرفاً فحسب، ولكنه قول يثير في النفس عاطفة تدعو إما إلى الزهد في الدنيا أو الاقبال على لذتها وحسنها وجمالها.

أهم ما طرقه ابن قلاقس من الاغراض المدح، والغزل والوصف، والعتاب والرثاء والهجاء، وهي كلها من أنواع الشعر الغنائي الذي لا قصص فيه ولا تمثيل، ومدح

شاعرنا أكثر هذه الأنواع وأوفرها قد أخذ بحظ من الجمال وحظ من الرقة، تقل فيه المغالاة والاغراق، وشاعرنا ينظر إلى شعر المدح نظرته إلى العقد الذي يربط محاسن الممدوح؛ وينظمها في قرن واحد، ولولا الشعر لظلت هذه المحاسن متفرقة غير مجتمعة، فهو يقول:

وما الشعر الا سلك منتثر العلا
ينظم فيه درها المتبدد =

ويقول:

إذا ما المجد لم يضبط بشعر
فقد أضحى بمدرجة الضياع =

غير أننا نتساءل: أكان شاعرنا يتكسب بشعره؟ وإذا كان فماذا كان نصيبه من ممدوحيه؟ أما أنه كان يتكسب بشعره فاننا نراه يقول

تأبى له الهمة أن
أجعل شعري مكسبي =

غير أننا بالرغم من ذلك البيت نكاد نوقن بأن شعره كان وسيلة من وسائل كسبه، يدلنا عليه

أولا تلك الرحلات التي رحلها في الشرق والغرب، ولا بضاعة معه الا شعره، وثانيا تلك القصائد التي فيها يقاضي ممدوحيه بالعطايا والهبات ويبدي لهم فيها فقره وحاجته، بل إن بعض قصائده تدل على أن بعض ممدوحيه قد جعل له راتباً يتقاضاه.

(لها بقية)

أحمد أحمد بدوي

من طرائف الشعر

عبرات منظومة

للأستاذ عبد العزيز البشري

أتى على الأستاذ البشري سبع وعشرون سنة لم يقل فيها بيت شعر، حتى فجعه الموت في صديقه الدكتور حلمي المنشاوي وهو في ريق شبابه ومشرق نبوغه، فرثاه بهذه القصيدة الباكية.

حلا الدمعُ بعدك والعيشُ مَرْ ... فخطبك جلَّ عن المصطبر
وما خيرُ هذي الحياة وقد كنـ ... ت ملء الفؤادِ ومِلء البصر
فان كان لابَّد من لُبثةٍ ... فما هي إلا الدُّمَى والصور
وأما الهناء وأما النعيـ ... مُ فذلك عفَّى عليه القدر
وهل كان يضح زَهرُ الربى ... إذا لم يباكرْهُ فيها المطر؟
وما لذَّة السمع للسامعيـ ... ن وما من حديثٍ ولا من سمر
ويا وَيحَ من أمعنوا في الفلا ... ةِ إذا الليل جَنَّ وغاب القمر)
بنفسي هذا الفتى الأَرْيحـ ... يُّ النجيب النجيد الأبيُّ الأبّر
جميل المحيَّا، نبيل الخلا ... لِ، كريمُ الفعالِ، صدوقُ النظر
شديدُ الحياء، عظيمُ الوفاءِ ... يرى الشرَّ شرَّ الهناتِ الكُبَر
أمين لغيب الصديق، نصيـ ... حٌ رفيقُ المقالِ إذا ما حضر
له شيمةٌ كعبير الورود ... ورُوحٌ كمثل نسيم السَحَر
جلا هذه النفس من صاغها ... وطهرها من خبيث الوضر
وما كان يعلو الغبار السما ... ء أو يسكن التُّربُ جوف الدُّرَر
أحلمي، رويدك ماذا جرى؟ ... تحدّث، فدأبكِ صدقُ الخير
لقد كنت نعم الفتى المرتجى ... فديتك والأمل المدّخر
صليبَ القناة، خضيب الحصاة ... رحيبَ الأناةِ عزيزَ النَفر
فتىَّ العزيمة ما تنثنى ... ولو ذا دون المهام الحجر؟؟؟؟؟؟؟؟؟
بعيد المطالب، رحبَ المنى ... وَصولَ الجهاد، دؤوب السَّهر
ترجِّى وترجىَ لجلىَّ الامور ... فماذا دعاك لهذا السفَر؟
لكم صادَ فيك أبوك المنى ... دراكا وصارعَ فيك الغيَر
وَضنِّ على الدهر أن يعتريك ... بما يعتري العالمين الدَهر
ولو قد ترقرق ماءُ الحياة ... لدَى المشتري مانى أوفَر

ولو كان يرضى الفدى مهجة ... لشدّ على قلبه واعتصر
ولكن تغلب عزمُ الزمان ... على عزمه والقضاءُ انتصر
أحافظُ، ذلك حكم الاله ... وهل لامرئٍ دونه من مفَرّ؟
فلم يبق إلا الرضى بِالقضا ... أعانك من قد بلا واختبر
خيالة!
للشاعر الدمشقي انور العطار
خَيَالة للغابِرِ الدَّفِينِ ... في ظلُمَات الأبد الجَبِينِ
تَحْسِرُ عن فؤادها الطَّعِينِ ... تفيض بالدموع والأنينِ
تَطْفَحُ بالآمالِ والحنِينِ ... جَبَّارَةٌ في جسَدٍ وهُونِ
مَفجُوعةٌ بالأمل الثَّمينِ ... ليس لها في الكون مِنْ مُعين
يَرْثِى لها في الحالكات الجُونِ ... ما انْتَابَها من دهرها الخَؤُون
قد امْتَطَتْ أجنحةَ الظُّنونِ ... فاستترَتْ فيها عن العيُونِ
ثم توَارت في دُجَى المَنونِ ... سادِرَةً في ظلها الأمين
هادئةً تَنْعَمُ بالسكونِ ... وصورةٍ لشاعرِ الغصوُنِ
أمْعَنَ في النُّوَاحِ والرَّنِينِ ... لم تَمْحُهَا آلهة الجفونِ
مِنْ ساحِ قلبٍ وَجِعٍ ضَمينِ ... مفجَّعِ الأحلامِ كلَّ حِينِ
فهل لِتِرْبِ الشَّجْوِ مِن خدَينِ ... يقْبَلُ منه صفَقَةَ الغَبِينِ
وخافقاً يَمُوجُ بالشجون ... ومقْلةً فيَّاضةَ الشُّؤُونِ
هَدَّيةٌ مِنْ شاعر مَحزُونِ؟
أعداء لا أضياف
للاستاذ فخري ابو السعود
أأنا نقرِئُ القومَ السلاما ... ويبغون العداوة والخصاما
ونكرمهم مجاملة وودا ... ولم نر فيهُمُ الشيمَ الكراما
ونرعاهم بموطننا حُلولا ... ولم يرعْوا لمواطننا ذماما
ونمنحهم قِرَى العربيِّ جوداً ... قعوداً بين أظهُرِنا قياما
وقد أمسَتْ عُروبَتُنا لديهم ... ونسبتنَا إلى الأجواد ذاما
وندعوهم ضيوفاً في ذَرانا ... لهم حقُّ النزيل إذا أقاما
وما للضيف حقٌّ مِن مضيفٍ ... إذا نبذ الحياَء والاحتشاما
ونزعمنا مُضيفيهمْ وهذىً ... خديعةَ من تخادعَ أو تَعامى
هُمُ ساداتنا فيما ادْعَوْهُ ... ولم نَكُ عِندَهم إلاّ سَوَاما
أمهما تلقِ أُوُربَّا بِردْلٍ ... إلى مصرٍ تطاوَل أو تَسامى؟
وندعوهم أُخوَّتَنا ونبغى ... لِوُدِّ الشرق والغربِ التئاما
وهم يَترفعون عُلا ونبْلاً ... وقد شطروا الورى آراً وَساما
فمهلاً معشر الدُّخَلاء مهلا ... إلامَ نسيخ كيدكمُ إلاما!
إلام نَرى الدخيلَ لمصر حرباً ... وما تمسى له إلا سلاما؟
لكم منا غدٌ صعبٌ عصيبٌ ... وإن نِلتم بِيومِكُمُ المراما
فضوليُّون أنتم لا ضيوف ... ثَقلْتم في منازلنا مُقاما
مَننتم أن مَنحتم شعبَ مصر ... كِساءً أو شرابا أو طعاما
وما رُمتم بذلك غير مالٍ ... حلالا نلتموهُ أو حراما
به أعليْتُمُ في مِصرَ دوراً ... وأحرزتم بها الضيعَ الجِساما
ولم تَسعَوْا لها الا ابتدارا ... إلى الفرَص السوانح واغتناما
زعمتم مالكم دمَ مِصر يحيا ... به أبناؤها عاما فعاما
وما أموالكم إلا بلاءٌ ... تسرَّبَ في دم الوادي سماما
وداء في مفاصله عياءٌ ... مَشَى يبري المفاصل والعظاما
مُصابُ النيل أنتم لو علمتم ... وأوَّلُ راشقٍ فيه السهاما
ولولا كم لما أمسى أسيراً ... مَهيضاً في الحوادث مستضاما
بنى مصرٍ! بغى اللؤماءُ بغياً ... علاَمَ نطيق بغيَهم علاما؟
هُمُ الأعداءُ لا الأضياف فينا ... فلا نَخدعْ بمكذوب الأسامى
أخو الافرنْجِ إن تكرِمْهُ يشمخْ ... عليك وان تقوِّمْهُ استقاما

يخال الجودَ في الأجواد ضعفاً ... وأنىَّ شَامَ بارقةً ترامَى
فلا تنسَوْا مقالا من حكيمٍ ... وقدِمْا أحكم العربُ الكلاما
يحذرُ مَن أراد ندًى وبِراً ... عواقبَ بِرِّهِ القومَ اللئاما
تجافَوْا من تجافىَ عن هوانا ... ولا ترَعْوا لمصغرنا مقاما
أشِلّوا عن تجارتنا يديْهِمْ ... فقد ملكوا بها منا الزماما
وقدُّوا عن معاصمنا امتيازاً ... يُكبِّلنا به القوم اهتضاما
حبَوْناهم به أمس اختياراً ... فغلُّونا به اليوْمَ التزاما
ولم أرَ مثله ذلا وعاراً ... وعَبناً للعدالة واخترامَا
كانا ما تشرعنا وعنا ... هُمُ قبسوا القضاء والاحتكاما
جزَوْنا عن قديم الفضل شراً ... وجازَوْنا عن الوُدَّ انتقاما
أذاقونا المَذَلَة في حمانا ... وإن نَصمِت أذاقونا الحِمَاما
خداع الحياة
حَطَّمْتُ قِيثاري وعِفْتُ الهوى ... وضِقت ذرعاً بالأماني العذابْ!
واعْتَصْتُ عن شدوى بلحن الأسى ... والشَّجْوُ يطَغى في ظلال الشبابْ!
وما مَلَ أشرق، ضاحي السَّنا ... مْضرَ الأفياء رحْبَ الجنَابْ
ألمَّ بالرُّوحِ، كطيف الكرَر ... لاحَ لعينٍ، ثم ولى وغابْ
والهَفَتي! إنَّ حياةَ الورى ... حُلْمٌ عميقٌ مستفيض الشعاب
ولُمْعَةُ الآماال خَدَّاعةٌ ... كخُلَّبِ البرق، يَشيها الكِذاب
يخالها المحزونُ ماء الحيا ... فانْ دنا لم يُلْفِ غيرَ السَّرابْ
لا تَعشَقِ الدنيا وإنْ زانها ... فيْئٌ ظليلٌ، وغصونٌ رِطابْ
لذَّاتها محفوفة بالأسى ... وساحُها زاخرةٌ بالصِّعابْ
تغريكَ بالزُّخرُفِ، لكنها ... تَسقيكَ سُمًّا في تمير الشَّراب
يا قلبُ قد أُصليتَ حَرَّ الجوَي ... وذقتَ في عيشك مُرَّ العّذاب
يا ليت شِعري هل تَلَذُّ الصِّبى ... أم يَنتحيك الموت نَصْرَ الاهابْ؟
كمْ في الثرى من حدَثٍ رائعٍ ... طوتْهُ كفُّ الدهر جمَّ الرِّغاب
وعاشقٍ، أحلامُهُ طَلْقةٌ ... ثَوَى مَغيظَ القلبِ تحتَ التراب
كلَ مَشيدٍ من قصور المنى ... مضطَّربُ الأُسِّ، وشيكُ الخرابْ
دمشق
حلمي اللحام
. .في مرقص مقنع
بنت السَّرِيِّ ذهبت ... لمرقص مقّنع
تبحث فيه عن فتى ... في مالها لم يطمع
حتى إذا ما ظفرت ... بذي الحديث الممتع
ورقصا وشربا ... نَخْب الزواج المزَمع
وظن أن نال المنى ... (ذاك الغلام المدِّعى)
انتزع القناع عن ... وجه كوجه الضفدع
فأدبرت مسرعة ... فتاتنا في جزع
قائلة في حسرةٍ ... يا ليته لم يرفع!
حسين شوقي
الى السيدة منيرة توفيق
أفصحت في شكاتها وأفاضت ... عن جوى القلب في بديع النظيم
حرُةٌ عفَّة الازار تناجي ... هاجر العش في بيان الحكيم
ايهذي الورقاء كفي عن الشجـ ... ووعيشي بذكريات القديم
وانظميها روائعاً تملأ الكو ... ن ففي الشعر راحة المكلوم
واملأي الوكر بهجة واستعيضي ... بجمال الآداب خير نديم
وابلغي النجم بالأماني فما للياً ... س من مطمحٍ خلال النجوم
أيها الطائر الذي هجر الوكـ ... ر ولم يعن بالفؤاد الرؤوم
أجزاء العفاف يا صاح هجر ... وجزاء الوفى عيش المضيم
منحتك الفؤاد ملكا حلالا ... وحبتك الوفاء فعل الكريم

اسئمت النعيم ام شمت برقا ... خلبا من عواذل وخصوم
لا تصخ يا أخيَّ سمعاً لقوم ... ينفثون الشقاق نفث السموم
يبذرون الشقاء في منبت السع ... د ويسقونه بماء الحميم
إن في زوجك الجمالَ جمال النف ... س يسمو على جمال الأديم
وأرى وجهها ولم أحظ باللق ... يا خلال السطور جد وسيم
ولقد خصَّها الاله برأي ... يا أخا الرأي في الحياة قويم
حبذا العيش في جوار مصون ... ذات قول مهذَّب مستقيم
عُدْ اليها أخيَّ زوجاً عطوفاً ... رحم الله كل قلب رحيم
عُدْ إلى زوجك الأمينة والْثِمْ ... جبهة النُّبل والوفاء العظيم
قد أهابت وقد هجرت حماها ... بك للعود للهناء القديم
فاحْبِهَا الحبَّ والوفاء وعيشا ... في حمى السعد في صفاء النعيم
أحمد يحيى وصفي
واليها أيضاً
رقَّتْ برِقّتكِ الشمائلَ ... وجمعتِ أشتات الفضائل
أدب وعلم ضُمِّنا ... حِكَمَ الأواخرِ والأوائل
ظرْفٌ ولطفٌ أنسيا ... ني سِحْرَ هاروت وبابل
لكِ من كمالكِ غنْيةٌ ... عن قاطع وُدًّا وواصل
أولستِ مخلصة؟ فما ... لكِ تأسفين على المخاتل؟!
لا تعجبي من ميله ... فالدهر يا اختاه مائل
إن الألى شغلوه عن ... ك لَبَيْن سافلة وسافل
لاطفتِهِ حتى استطا ... ل فجرّبي معه التثاقل!
كل السعادة في الحيا ... ة عقيلة في بيت عاقل
؟؟؟
محمد جاد الرب
صور مختارة من الشعر الرمزي
للأستاذ خليل هنداوي
جيفة
للشاعر الفرنسي بودلير
أتذكرين ما رأينا في صباح ذلك النهار الجميل في منعطف سبيل!؟
جيفة مطروحة فوق الحصا ... صعد الساقان منها في الهواء
كفتاة سعرتها شهوة ... نضحت منها جراثيم البلاء
كانها مسترسلة للمجون في ذلك الرقاد!
ناضية ثيابها عن جوف طافح بريح الفساد!
تبسط الشمس عليها نورها ... لاذعا تنضجها قبل المساء
نثرت اوصالها ترجعها ... بعد تفكيك عُراها، للفضاء!
زهرة فتحها برد الندى ... هكذا تنظرها عين السماء
وهي اذ تنشق ما تبعثه ... تنشق السمَّ زعافا والوباء
وللذباب حول هذا الجوف النتن دويٌّ وطنين! والديدان تزحف في مساربه كالكتائب السوداء فائرة، او كالموجة القائمة تتقلب على هذه المزق المتناثرة.
موجة نازلة صاعدة ... زفرة بين هبوط وارتقاء
حيث يحيا الجسم تكراراً بها ... مبدعا منه جسوما من هباء!
والاجواء كانت تردد موسيقاها الغريبة، كخرير الماء الراكد، وعويل الريح الكئيبة، أو كترجيع الحبوب ترتل في المذراة الحانا متناسقة عجيبة، والأشكال كلها قد عفت وامحت رسومها لا يستطيع الفنان ان يعيدها سيرتها الاولى الا إذا اكمل نسجها وتأليفها بالذكرى
كلبة ترمقنا نافخه ... شقيت فينا شقاء الضعفاء
ترصد الفرصة كي تنهشها ... وترى في لحمها البالي شفاء
وغداً! يا نجمتي! يا منيتي! ... يمسح الموت على هذا البهاء

عندما تغدين في جوف الثرى ... جيفة تنثرها أيدي الفناء
تحت أعشاب وأزهار نمت ... تخذت من جسمك الغض غذاء
حيث يمشي الدود في أحنائه ... آكلا باللثم منها ما يشاء!
خاطبي الدود! وقولي للبلى ... إنني أنقذت من حب عفاء
كنهىَ الساميِ الالهيِ الذي ... ابداً يبقى قريناً للبقاء
عالم النسيان
للشاعر بول فدر
(السكر الأكبر)
(هل أناا يا خوس أويااان؟
أسكر باالفضاء، وأطفئ لهيب روحي؟؟؟ الليالي
ألا فلتجر السماء في، ولأمتزج أنا فيها، فاتحاً فمي لعالم الذي ترتعش كواكبه.
لقد قضى (بيرون ولامرتين وهيغو وشيللى، وهم سكارى بالفضاء والسماوات الساطعة بالنجوم.
لا يزال - هنالك - الفضاء، يجري حراً طليقاً، حملني اليه
دون أن تعصف بي النشوة،
لا أزال ظمآناً. . .)
(بول فدر)
لا تلمني إن نسيت الموعدا ... أنا في النسيان أحيا أبدا
لو سرى النسيان في أوراحهم ... لرأوا مثلي حياة رغدا. . .
كل شيء - غير نفسي - ثابت ... لم تزعزعه أعاصير الغيَر
أي خطب لشموس خلدت؟ ... غير سخر من عذابات البشر
ما الذي يجديك إن قلت لنا؟ ... إنها واقفة، أو سائره
فعذابي في وجودي واحد ... وعلى الروح تدور الدائره
أيها الخافق! قد أضنيتني: ... ما الذيي يجديك نوح أو أسى؟
ناح من قبلك حتى صَمتوا ... وتولوا كسحابات المسا
عابر تمحو له آثارَه ... كلما خطط أمواجُ القدر
أنت تبغي أن تبِّقى أثراً ... فماض! لا يبقى على الرمل أثر
أيها العابر! ما ذنبك أن ... جَاءك الشك وما ذنبي أنا؟
إن يكن كل يقين خادعاً ... فاتبعني تعلن الشك هنا. . .
نبتغي الراحة في أفيائه ... كيف نبغي راحة في قلق؟
ربة تصبغ أثواب الدجى ... حيلة منها، بلون الشفق
عذلوا الذاهل عنإحساسه ... لو دروا في أمره ما عذلوا
قل لهم! لو ذهلوا عن وعيهم ... لاستطابوا عيشهم إذ ذهلوا
أسلموني لشعوري المبهمِ ... أنا أحيا فيه بشعوري المبهم
أخبروا الليل بأن يغمرنيَ ... فهنائي في الظلام المظلم
في اعتزالي عالم أسكنه ... وصلت أجزاءه أخيلتي
كم إله! ماله في يقظتي ... أثر، سامرني في عزلتي؟
كلما أغمضتُ عيني انفتحت ... لعيون النفس أكوان الأمل
كم رجاء كان يناى فدنا. . . ... وحبيب كان يعصى فوصل. . .
كلما أطبقت جفني انبعثت ... ذكرياتي مثل أشباح الدجحى
عانق الشك يقيني ضاحكا ... والتقى اليأس صديقاً بالرجا
الغابة المفجوعة
للشاعر بودلير
(رسائل)
(الطبيعة هي معبد يضم دعائهم حية يخرج منها في بعض الاحيان كلمات مبهمة، يمر فيه الانسان بغابات من الرموز تنظر إليه نظرات أنيسة.
الطيوب والألوان والألحان تتجاوب كالاحداء الطويلة التي تمتزج بعيداً في وحدة عميقة مظلمة واسعة كالليل وكالضياء)
أزهار الشقاء

(بودلير)
بدَّل النهر هواه ... إذ تولاه الضجر
قال يا (سلمى) تعالَىْ ... أنا لا أهوى الشجر
قد مشى الجهم لديه ... مثلما يمشي القمر
ليس للنهر اختيار ... في الذي شاء القدر
هجر الطير مروعا ... عشه بين الغصون
صاحِ! هل تسمع في الغاب سوى همس الكون؟
وشكاوى طرحتها ... الآن عشاق البشر
عطلت فيها نجاوى ... كل طير وزهر
وشجيرات تعرّت ... بعد ذيَّاك البهاء
فهي لا ترجو حياة ... بعد موت الأصدقاء
لا عصافير تغنى ... لا ازاهير تفوزح
كل ما يلقاك منها ... جسد من غير روح
ايها المقسم عهد الحب ... ب في هذا المقام
احترم حزن ذويه ... وامض عنهم بسلام
بين أيدينا زهور ... قد مشى فيها الذبول
هل وقت عهد هواها؟ ... هل أتمت ما تقول؟
كل شيء فيه ذكرى ... حيثما هبت تروع
هي أولى من هوانا ... لو عرفنا بالخشوع
قل لمن تعطيك خداً ... تجتني منه القبل
أعلى زهر ذوي تغ ... رس أزهار الأمل؟
لحظة تاس فتنسى ... بعدها ارماسها
وإذا الغابة تحيى ... في الهوى أعراسها
وتناست كل صرف ... مثلما تنسى الطيور
دائرات الدهر تجري ... وهي نشوى بالسرور
حزنت يوما ولكن ... نسيت احزانها
هل بامكان الفتى ين ... سى الاسى نسيانها؟
إنما الانسان لو تع ... لم اشقى الكائناتْ
ليته كالغاب لا يح ... فظ تلك الذكريات
ليس ما في الكون الا ... صورة من مظهري
ذكرتني بوجودي ... وروت عن معشري
في غروب الشمس لغز ... لرجاء يلتوي
في ذيول الزهر رمزٌ ... لغرام ينطوي
كل شيء - فيه - يحيا ... كالضمير المنفصل
فيَّ - ما اعظم روحي - ... كل شيء يتصل
دير الزور
خليل هنداوي
العُلوم
مطالعات وأشتات:
ذكاء القردة
للدكتور احمد زكي
وكيل كلية العلوم
نبدـ بالتعريف - حضرتها قردة، مخلوقة من مخلوقات الله ولا تحقير لخلقه، ولدت في ليلة اسودّ أديمها بمقدار ما ابيضّ نجمها، وغاب نحسها وتراجع بؤسها، على حين حضر نعيمها وأقبلت بركتها، ليلة من تلك الليالي الاستوائية الجميلة في دَغَل من أدغال الكمرون الفرنسية على الشاطئ الغربي من القارة الأفريقية، وأصبح فتحت عينيها ترى وضح النهر لأول مرة، وأدبر النهار عن ليل ازدهرت نجومه فرفعت عينيها إلى
؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟
؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

في السنة الثالثة. وكانت وهي طفلة تحتضن كل من تلقفى من معارفها، أما الآن فهي ترغب عن ذلك كثيراً وتطلب الاستقلال وتود أنت تسير وحدها وتتفقد ما حولها بنفسها، وتختبر الأشياء بيدها وعينها، الا أن هواها لا يستقر طويلاً على شيء واحد. وقد استقام عوده واعتدل قَوامها وزادت خُطاها ثباتاً واتزاناً. وكان شعرها يطول إلى جانبي رأسها حتى ليهبط دون ذقنها، أما الآن فقد قصر قصراً كبيراً. وكان جلد يديها ورجليها ووجهها قائماً فأخذ يتبقع بالسواد، وكانت صورتها الشمسية تخرج بيضاء وهي تخرج اليوم سوداء.

ومهما كان التغير في جسمها كبيراً فان التغير في عقلها وادراكها اكبر، فهي تستطيع الآن ان تسلي أصدقاءها بما تصنع، وتحبسهم الساعة والساعتين وهم مغتبطون؛ وهي كذلفك مغتبطة، كأنها تحس أنها بذلك تقيم الدليل على ان معشر الشمبازي لهم من الفطرة والذكاء حظ لا يقصِّر كثيراً عن حظ الانسان منهما.

كانت في أفريقيا لا تعرف القيد، ولكن بارتحالها عن تلك الأراضي الواسعة الطلقة، وبنزولها في باحة المدنية كثيرة الحدود، كثيرة الفروض، كثيرة القيود أصبح لابد من القيد.

فكان في أول الأمر من الكتان، ولكن التجربة دلت على قلة غَنائه لان ميمي كانت تطلق نفسها منه بالشد والعض، فابدل بسلسلة من الحديد من سلاسل الكلاب المعروفة وهذه لم تكن بأكثر كافية، فما لبثت ميمي أن فطنت إلى أن الشد الأقوى يفتح حلقاتها. فزاد سيدها الجديد سمكاً. فاتجه نظر صاحبتنا إلى الطوق، وكان تارة من حبل معقود وتارة من جلد مشدود، أما الحبل فقد عرفت بالمران كيف ترخي عُقدة ثمتتَبع ذلك بعضه حتى ينقطع، وأما الجلد فعرفت بالتجربة المتَدَهَة أن الريق يليّنه فكانت تبله وتشده وتمططه حتى يتسع فتخرج رأسها منه

وأفادها ذلك التفننَ في حل العُقَد حتى برعت في أساليبه. ربطوها إلى حبل طويل، وربطوا الحبل إلى سارية وعدقوه عندها عقَداً كثيرة، ثم أطاالوه بعد السارية إلى حيث لا يهتدي إلى طرفه الآخر. نظرتُ إلى العقدة الأولى في تأمل ولن تبلث أن هجمت عليها بأسنانها ويديها فأوسعتها سعة كبيرة ثم نفذت بجسمها منها رويداً رويداً. وأخذت تنظر إلى العقدة الثانية في تأمل جديد لم يطل كثيراً وفعلت بها كفعلتها الأولى، وهكذا حتى انحلت العقد جميعها عن السارية. ولما أعادوا عَقد الحبل حول السارية أعادت ميمي حله في نصف دقيقة وهي في غبطة من ذلك كبيرة وسرور بيِّن، والنظارة في مثل سرورها وغبطتها وحاولت مراراً ان تعقد عقدة في حبل بنفسها، ونجحت في ذلك مرات، الا أن طريقتها إلى ذلك كان يعوزها التهذيب فقد كان فيها التواء وتنكّب عن المقصد الأمَم والغرض القريب. فكانت في ذلك كالطفل الانساني يبلغ ما يريد ولكن في قليل من الرشاقة اللباقة

وميمي على صغرها قوية شديدة، فانثى الشمبانزي عند استكمال نمائها تَعدِل في القوة من الرجال الأشداء الثلاثة والاربعة. وصاحبتنا بلغت الثلث من نمائها الكامل، وفي اذرعها دقة، وفي طباعها رفق، قد يخاعانك في تقدير وقتها. جاء الشتاء فاحتبسوها في صندوق من الخشب المتين فأخذت تهز حيطانه في طلب الرياضة لبدنها، وأعجبها صوته على أرض البدروم فزادت في هزه بكل حولها، فكان لابد من تعزيز جوانبه، فلما لم ينفع ذلك علّقوا الصندوق من السقف بسلسلة فأخذت تؤرجحه حتى دنا من مصباح الكهرباء المعلق فأخذت به، فكان لابد من استدعاء الكهربائي لنقل موضعه. ونظرتْ فأبصرت عدّاد الغاز فزادت في التأرجح حتى بلغت الحائط وأمسكت بالخّزان فخلعته على متانته وثنت

الأنبوب، وكان إلى جانبه نار موقدة فحالت العناية دون انثقابه. ولما أعجزتها حوائط الصندوق أخذت تدفع سقفه حتى انفتح ففرّت منه. وأرادت ربه الدار أن تتلفن إلى زوجها ولكن ميمي كانت قد عمدت إلى التلفون فانتزعت أسلاكه، وجاءت إلى سيدتها تحتضنها اغتباطاً وشكراً على انفكاكها. وذهبت إلى المطبخ فوجدت الخادم تغسل الصحون فأرادت عونها وتنقلت بينها برفق غريب فلم ينكسر منها شيء. وكان التليفون أثناء ذلك قد أُصلح فجاء رب البيت أمين المتحف على عجل فخطب رضاء ميمي وأطعمها ألواناً مستطاتبة رضيت بعدها ان تنفاد وتتقيد بعد انطلاق وكان لرب الدار أطفال، وكانت لهم درَاجات من ذات العجلات الثلاث يركبونها في ساحة البيت،

فكانت ميمي تركب مع أحدهم وتمسك الدرّاجة فتوجهها يمنة ويسرة. وأرادت أن تركب الدراجة وحدها ولكن قصرت رجلاها عن بلوغ مواطئ الأقدام منها، فاشترى لها رب الدار دراجة على قدّها وأجلسها عليها فأمسكت مقابضها بيديها وأمسكت كذلك مواطئها برجليها، وهما كاليدين يقبضان على الأشياء، ولكنها لم تدر في بادئ الأمر كيف تدفع الدراجة بضغط موطئ واحد دون الآخر في الآن الواحد، ولكنها بالمران اليسير عرفت ذلك. وكانت تنسى فترفع قدميها إلى المقبضين فكان لابد من ربطهما إلى الموطئين، ولكنها عافت ذلك فكانت تهوى باليد اليهما لتحل الرباط فيصيح بهارب الدار عاتبا فتقلع. وأراد أن يعوّدها الاستقامة في السير، فكان يحمل في يده خوخة أو عنبة أو طعاماً تراه مختارا ويقف به بعيداً ثم يلّوح لها به وهي على الدراجة، فكانت في بادئ الأمر تنزل عنها فيعتب عليها فتعود إلى الركوب، وكان همّها أن تصل إلى الفاكهة من أقرب طريق فاستقام سيرها وكذلك طال. وأراد أن يعلمها كيف تنعطف فكان يلّوح لها بالثمرة حتى إذا قاربته انزاح يميناً فتمر بدراجتها في استقامة إلى جانبه فلا تنال الثمرة فتصرخ وتدمدم لهذا الخداع، ولم تفطن إلى تحريك المقابض إلى اليمين. فأتى بابنه يحركهما لها فعرفت ذلك، وحرصت على القوت الشهي المغري فتعلمت كيف تيمل

وكانت أحياناً يفوتها أن تنعطف فتصل بدراجتها إلى مأزق كحائط أو ركن فتمد رجلها تدفع الحائط فتبعد عنها قليلاً، ثم تُسيّر الدراجة إلى الأمام وهي تنعطف حتى تصل إلى موضع أخلص من الحائط، فتدفعها مرة أخرى فتبعد عنها وهكذا حتى تخلص من المأزق تماماً وقد نفذ صبرها. ولكنها تعلمت أن تنزل عن الدراجة فتحملها إلى الخلاص، فكانت تفعل ذلك

في سرعة الرقة كلما تأزّقت وهي غاضبة وكان يجتمع أطفال الجيران على دراجاته ويسيرون بها في الطريق صفاً يحملون الاعلام ويزأطون يوفرحون، فتتقدمهم ميمي على دراجتها تتعرّف لهم المسالك وهي مثلهم زائطفة فرحة مغتبطة حتى لتحسبها منهم لولا مظهرها

وكان أمين المتحف يصطحبها معه إلى مقر عمله في سيارته فكانت تتشبث باصطحاب دراجتها فلا تنزل عند باب المتحف حتى تخف اليها فتركبها داخل المتحف. وكان غرائبها انها كلما وصلت إلى طَبق الحديد الذي يغطى انابيب المجاري بأرض المتحف تترّجل حتما وتجرّ دراجتها عليه ثم تركبها بعد تخطيه مع انه في استواء الأرض لا يحسه الراكب وظهر منها هذا الشذوذ عينه لما سارت في الطابق الأعلى فانها كانت كلما صادفت في بلاط الارض صفاً اسود تخطته راجلة وكانت تأكل مع صاحبها في مطعم المتحف ظهراً فتسير اليه بالدراجة وتذهب إلى مكانها دون تلكع فيهيجها صوت الآكلين وقرع الصحون وشميم الاطبخة فتصرخ فيبتهج لصراخها أصدقاؤها الكثيرون من حولها. وتدور بعينيها تطلب حاملات الطعام فاذا بصرت بهن هزت جسمها سروراً وتلفظت بالرضاء، فاذا استقر الطعام أمامها رفعت شوكة أو ملعقة من ذات نفسها، وقد تخطئ فترفعها بيسارها فتنقلها إلى يمينها ولكن بعد امساكها بفمها. وهي تأكل البسائط، فتأكل الخبز والزبد واللبن والبطاطس والسبانخ والفول الأخضر والخس والطماطم والفواكه وشيئا من اللحم أحياناً، واختصاراً كل ما كان يأكله الناس. وهي تحب الحلوى كائنة ما كانت ساخنة أو مثلوجة وإذا انتهت من الطعام بسطت منديلها فمسحت به وجهها وتشرفت ميمي بدعوة من رئيس المتحف الأمريكي العام للتاريخ الطبيعي في وليمية رسمية كبرى، فذهبت في سيارة إلى بؤرة المدنية لأول مرة، فاخترقت الطرقات العظيمة على أضوائها الشديدة وزينات مسارحها الباهرة، في جو ملئ بنغم الاوتار ونفخ المزمار وأدخنة السجائر والسيجار وأبواق السيارات وضجيج الحجيج من أهل اللباس الأنيق والزِّيِّ الرشيق والذوق الرفيع. فأهاجت ميمي كل تلك المظاهر لاشك ولكنها صمّمت كأنما تفكر في موطنها الافريقي. وجاء أوان النزول من السيارة فخفَّت ميمي إلى درّاجتها وسارت بها عَبْر البهو إلى قاعة الطعام الكبرى فاتخذت مجلسها بين الضيوف، وجاءتها الصحفة بعد الصحفة. فأكلت بأدب من كل لون. وجاء دور الكلام فأصغت كأنه تستمع للخطباء فلم تنبس بكلمة ولم تطرف بعين الا عندما جاء المصورون يصورونها على ضوء المغنسيوم فانها اخذت تَطْرِف لكل صورة حتى استتموا عشراً. وانتصفت الليل فانفض الجمع وهم معجبون بميمي. وقال

قائل منهم ما إلى هذا الحد يبلغ الأطفال من الأدب والكمال
احمد زكي
البريد الأدبي
استقبال الكاتب الفرنسي جول رومان
في نادي القلم المصري
احتفل نادي القلم المصري في مأدبته إلى أقامها في مساء الاربعاء الماضي باستقبال الكاتب الفرنسي النابه جول رومان ضيف مصر والقى الدكتور طه حسين باسم نادي القلم هذه الكلمة تحية للكاتب الكبير
كلمة الدكتور طه حسين
سيداتي وسادتي:
سمعتم مني في المرة الماضية أني لا أحب الخطب في مثل هذه المجامع. وأني أوثر أن تكون مجامع حديث وسمر، وأن تكون مجامع نستريح فيها من عناء ما نتكلف أثناء النهار من الجد والبحث والقراءة والكتابة، وأوثر ان تكون هذه الاجتماعات كالساعات التي يظفر فيها الطلاب، بالراحة أثناء النهار، ولكني مضطر هذه الليلة إلى ان اتحدث اليكم قليلاً، وثقوا بأني لن اطيل. والذي يسرني ان اتحدث فيه اليكم، وواثق أنكم جميعاً تشاركوني فيه هو ان النادي - نادي القلم الذي أنشأناه - يظهر انه موفق، وان التوفيق قد كتب له منذ اجتماعاته الاولى فاذا ذكرتم اننا في اجتماعنا الماضي قد استقبلنا كاتباً من أكبر الكتاب الانكليز هو مستر هتشنسن وإذا لاحظتم اننا نستقبل الآن كاتباً من أكبر الكتاب الفرنسيين هو مسيو جول رومان عرفتم ووافقتموني على ان نادينا من حقه ان يتغبط بهذا البدء السعيد
واني لسعيد هذه الليلة بان أحيي ضيفنا تحية ملؤها الحب والاكبار. فالذين يقرأون كتبه لا يستطيعون إلا أن يتبينوا هذه العواطف القوية التي يثيرها في نفوسهم، وهي ليست الا عواطف محبة واكبار. فهو ليس من الكتاب الذين يبهرون الناس بحسن الفاظهم وروعة صياغتهم وإنما هو كاتب قبل كل شيء يصل إلى قلب القارئ. ويرفعه إلى ارقى ما يستطيع ان يرقى الانسان اليه من المثل الاعلى والكمال
والذين سمعوا منك محاضرتيه القيميتين في الليسيه والجمعية الجغرافية لا يستطيعون الا
أن يقدموا اليه تحية خالصة هي تحية العقل للعقل، وتحية القلب للقلب، فلاول مرة نستطيع ان نسمع في مصر بين المحاضرين الذين يفدون اليها من الخارج ما يرفعنا من هذه الحياة اليومية إلى حيث يستطيع العقل ان يستريح، والذين سمعوه قد ذكروا أن المحاضرات ليست ميداناً للمسابقة في السماع، بل هي أيضاً مكان يستطيع ان يلتقي فيه المفكرون بالمفكرين وان يتحدث فيه الانسان إلى الانسان بما تعانية الانسانية من الآلام
وأذا كنا نستقبله ونحييه الآن فانما نستقبله ونحييه ككاتب من أكبر كتاب فرنسا الذين يمثلون العقل الفرنسي الحديث والادب الفرنسي الحديث، ثم اني لا أستقبله بهذه الصفة وحدها وإنما استقبله باعتباره كاتباً انسانياً فيه كل مميزات العقل الفرنسي، وكل مميزات الكتاب الفرنسيين واليونانيين القدماء، ثم هو لا يمثل ذلك كله، وإنما يمثل المثل الاعلى للانسانية كلها
فاذا حييته الآن فأنما احيي فيه العقل الفرنسي من جهة والمثل الاعلى للادب الانساني من جهة أخرى. . .
نهض مسيو جول رومان والقى الكلمة الآتية:
كلمة مسيو جول رومان
سيداتي وسادتي، واسمحوا لي أيضاً أن أقول زملائي وإخواني الاعزاء
إني لسعيد بأن امثل بينكم هذا المساء، وأقول لكم كيف تأثرت بما حيا بي به الكتاب المصريون من الرعاية والحفاوة، وأعرب عن شكري للكتاب المصرييناالذين عنوا باستقبالي. وطبيعي أن يستحق هذا الشكر كتاب مصر - فالكتاب في كل بلد هم أهل الشكر. ثم إني لسعيد بان أكون الليلة في قلب نادي القلم المصري، ذلك النادي الفتي، بل أحدث مراكز القلم في العالم سنا، انني عضو قديم في نادي القلم، وقد اشتركت في تاسيس النادي الفرنسي، وكنت دائماً مندوب فرنسا في جميع مؤتمرات

القلم الدولية؛ ولقد شهت أخيراً كل ما يهدد مجمع القلم من الصعاب وخيبة الأمل، حتى لقد خيل الينا أن مجمع القلم سيقضي نحبه. وكنا في العام الماضي في مؤتمر القلم الدولي بمدينة راجوزا نتخبط في معترك من الآراء والأفكار المضطربة. اجل، كاد مجمع القلم يذهب في راجوزا ضحية المثل الأعلى. ولم تكن الآراء المضاربة تضطرم حول مهنة القلم ذاتها، ولكنها كانت آراء

إنسانية هامة رباه، إن هذا الموت لم يقع، ولكن حدث بتر ولعله بتر احتياطي؛ وسف يقوم المجمع من عثرته كرة أخرى، واني لانتهز هذه الفرصة لاقول لكم واذكركم بان العضوية في مجمع القلم تحتم بعض التعهدات نحو الانسانية عامة، أجل، لسنا كتاباً نتحدث عن مهنتنا فقط، ولسنا نريد الاجتماع للحديث والسمر فقط. بل نحن أيضاً رجال نخدم العقل والضمير ونعرف ما تفرضه علينا مهنتنا. وأبدع ما في مهنتنا أننا نقدم بعض الواجبات بعيداً عن مصالحنا الشخصية، ولما كنا خدام العقل فانا نتضافر على اداء الواجب ولا نعبأ بالأعتبارات السياسية ولا نخضع لحزب من الاحزاب، بل نحتفظ بالحق والواجب ولا نخضع لأي نظام سياسي لا يعترف بحق العقل والذهن، وكلما هدد المثل الأعلى وجب على أندية القلم في العاالم كله أن تثور على هذا الوعيد. إن سلطتنا ليست وهيمة؛ ولست أبالغ فأقول إننا نستطيع أن نقف البحر؛ ولكني أذكر لكم شيئاً مما حدث في راجوزا فقد تحدثنا عن سياسة الحكومة الالمانية في اضطهاد رجال الفكر، وتحدثنا من هذه المدينة الصغيرة بالتليفون مع المسئولين في المانيا عدة ساعات، واستطعنا أن نحمل الحكومة الالمانية على أن تخفف مسلكها نوعا ما وأن تمنع بعض الاعتداء على الفكر

سيداتي وسادتي: لست أعلم ما يخبئ المستقبل، فأنا نخاف كثيراً ونؤمل كثيراً، ولكي لست متفائلاً، فانا لم نخرج بعد من غمار الأزمة ونحن في غمر الصعاب، ولكني أعتقد وأكرر أن أعظم جريمة يرتكبها خدام العقل هي ان يعتقدوا في القدر الذي لا يخدم العقل، أجل إن أعظم جريمة نرتكبها هي أن ننحني أمام العاصفة فالخطر الذي نواجهه هو خطر انساني من علم الانسان، اراده ودبره الانسان، فنحن نستطيع ان نقاوم مقاومة انسانية، ويجب أن يعتمد علينا في كفاح هذه المصائب التي تهدد الانسانية وفينا نحن رجال الفكر والقلم تتمثل تلك القوة التي تحمي الانسانية من التدهو النهائي واني لأرفع قدحي نخب مصر التي استقبلتني، ونخب فرنسا التي أمثلها كمندوب متواضع بل ونخب جول رومان

الاكاديمية الفرنسية والنساء

كانت وزارة المعارف الفرنسية قد رشحنت الكاتبة المعروفة مدام كوليت عضواً بالاكاديمية الفرنسية، ولكن بعض المغرضين لم ينضروا إلى هذا الترشيح بعين الارتياح، وحملوا على

الفكرة حملات شعواء في الصحف والمجلات الادبية مستنكرين منح مقاعد الاكاديمية للنساء في الوقت الذي يضن بها فيه على نوابغ الكتاب والشعراء مثال: جيد وستراتي وجوليان بندو وغيرهم

وقد انضم إلى هؤلاء الساخطين بعض الشيوخ من اعضاء الاكاديمية ممن لا يزالون يرون ان المرأة الفرنسية لم تصلح بعد للاشتراك في الهيئات النيابية او المجامع العلمية والأدبية الرسمية.

ازاء هذا المعارضة القوية، عدلت وزارة المعارف عن رأيها وقررت اخيراً منح هذا المقعد لفرنسوا مورياك الناقد والكاتب المسرحي المشهور، والذي سبق ان أخرجت له في مصر رواية (المسحور) على مسرح الاوبرا الملكية في عام 1924 ورواية (بلانشيت) على مسرح رمسيس.

وقد فكرت بعض الاديبات الفرنسيات في تأسيس أكاديمية للآداب والفنون تكون خاصة بالنساء فقط، وسوف يفتح باب الاشتراك فيها لجميع الكاتبات والصحفيات من الجنس اللطيف بدون تمييز بين الجنسيات والاديان.

انتحار روائية انجليزية

اشتهرت دورثي ادوارد الروائية الانجليزية بأقاصيصها الصغيرة التي كانت تودعها نظرياتها الخاصة عن الحياة العصرية، ونالت من وراء ذلك شهرة أدبية واسعة، خاصة في الولايات المتحدة، وطبع بعض رواياتها أكثر من مائة طبعة وذلك وهي لم تتجاوز

العقد الثالث من العمر.
وقد وجدت جثتها في صباح ذات يوم ملقاة إلى جانب السكة الحديدبالقرب من كيارفلي بانجلترا، ويستدل من التحريات التي أجراها بوليس سكوتلانديارد على أن الكاتبة بعد أن زارت لندن، وحضرت بضع حفلات موسيقية استقلت القطار حيث عثر على جدثتها في صبيحة اليوم التالي ولا يعلم ان كانت قد تعمدت الانتحار أم سقطت اثناء اجتيارزها عربات القطار في الليل.
وتقول مجلة (جون أوف لندن) أن روية دورثي الاخيرة (نفسية في مرقص) قد ترجمت إلى معظم اللغات الحية وبلغ ما بيع منها زهاء النصف مليون نسخة!
الكاتب لنمسوى هرمان بير
توفى أخيراً الكاتب النمسوي الكبير هرمان بير في الحادية والسبعين من عمره! ولد في لنز سنة 1863، ودرس في فينا وبرلين. وكان (بار) منذ أربعين عاماً من زعماء الأدب الالماني الحديث؛ وكان بالأخص من مؤسسي الحركة الادبية التي عرفت في أواخر القرن الماضي باسم (النمسا الفتاة) وكان من زعمائها مع بار، ارثر شتزلر وفون هو فمانشتال. وظهر بير في مستهل حياته الادبية بالتأليف المسرحي واختص منه بناحية (الكوميديا)؛ ومثلت رواياته في أشهر مسارح فينا ولاقت في أوائل هذا القرن شهرة واسعة، ثم اشتغل بار بالنقد الادبي والصحافة. واشترك مدى أعوام في تحرير جريدة (دي تسايت) (الوقت) النمسوية ثم في جريدة (نويه فينر جورنال)؛ وكان يختص بكتابة النقد الادبي والتاريخ. وتزوج بير من الفنانة الشهيرة أنا ملدنبورج، وهي موسيقية ومغنية بارعة اشتهرت في حفلات سالزبورح برائع فنها ورخيم صوتها. ولما انتقلت أناملدنبورج إلى ميونيخ لتعمل في مسارحها تبعها زوجها وغادر موطنه، وأقام معه في ميونيخ وقضى فيها أعوامه الأخيرة حتى توفى
ومن أشهر قطعة التمثيلية (الاتفاق) (1911) وفيها يعالج فكرة اجتماعية هي تسامح الزوج المنبوذ نحو خيانة زوجته واعترافه بحبها الآخر كوسيلة لاستثارة عطفها واستعادة ودها و (الغبي والعاقل) (1912) وفيها يعالج فكرة الحكمة وهل هي اتباع الواجب أم اتباع الهوى. ومن أشهر رواياته (نماذج للحب) (1929)
حق المؤرخ في التصوير والتفسير
هل يحق للمؤرخ أن يكون حراً في تصويره وتقديره للشخصيات المعاصرة التي يعرض لها؟ هذه مسألة طرحت أخيراً على القضاء الفرنسي لمناسبة ظهور كتاب جديد للمؤرخ الفرنسي الشهير (رايمون ريكولي) عن (الجنرال جوفر) القائد العام للجيش الفرنسي في أوائل الحرب الكبرى، وقد تناول المؤرخ حياة الجنرال جوفر والحوادث العسكرية التي خاضها وعلق عليها بآرائه وتقديراته. فرأى القائد لانرزاك ولد الجنرال جوفر ان في الصورة التي يقدمها مسيو ريكولي، وفي بعض آرائه وتعليقاته اخطاء ومآخذ تعتبر سباً
لذكرى والده، ورفع أمام محكمة السين قضية مدنية يطالب فيها مسيو ريكولي بالتعويضات
وقد أثارت هذه القضية اهتماماً كبيراً. وانتهت بعد مرافقات ومذكرات طويلة بانصاف التاريخ والمؤرخ. ومن رأى المحكمة أن مسيو ريكولي لم يتعد حقوق المؤرخ وانه لم ينشر وقائع مزيفة أو مشوهة، وانه في تقديره وتعليقه لم يتجاوز ما هو حق للمؤرخ في عرض التاريخ وكتابته. ولهذا رفضت قضية القائد لانرزاك.
القصص
قصة في رسالة
سيدي الطبيب:
إن المصادفات المشئومة والحظوظ السيئة، ساتقتك الي وعرفتك بي، ما كنت أظن أن أمراً تافهاً ستكون نتيجته وخيمة إلى هذا الحد!
قبل أيام وقفت عجلة كبيرة مملوءة بالأثاث أمام الدار المواجهة لدارنا، فرغبت أن أعرف وأنا في نافذتي أولئك الذين سيكونون جيراننا في هذا الصيف، فرأيتك عاري الرأس تأمر وتنهي وتساعد الخدم كلما قضت الحاجة بذلك، ثم رفعت رأسك نحو نوافد غرفتي: وكانت - ياللأسف - نافذتي مفتوحة، فرأيتني - ويا ليتك لم ترني - أجل، رأيتني وأنا أبتسم، وكنت السبب في تلك الابتسامة، لأن انهماكك في تفريغ العجلة وأوامرك

التي لا حد لها ولا نهاية كانت مضحكة جداً. فالذنب إذا ذنبك وتبعته عائد عليك. ثم رأيتني مرة ثانية وأنت ترسل ستائر نوافذ بيتك، في تلك الأثناء وجهت بصرك نحو نوافذنا وابتسمت لي فهذا ذنب ثان كان منك، كنت أظن أن هذه الأشياء تافهة في ذاتها وأنها لن تبقى راسخة في مخيلتك عالقة بذهنك، ولكني في ملاقاتي الثالثة علمت أنك أعطيت ذلك من الاهتمام شيئاً كثيراً.

أظن أن ذلك كان بعد عشرة أيام، خرجت مع والدتي من البيت فرأيتك مقبلا من الشارع الذي أمامنا، ولكنك في هذه المرة لم تبتسم لي - وياليتك أبتسمت - ولو فعلت ذلك لما اكترثت بل كنت أعدك ككثير من الرجال الذي يبتسمون لكل انثى يصادفونها في طريق. انك لم تبتسم بل اصفر وجهك، وفي أقل من ثانية لم يبق فيه أثر للدم كأنه انسحب ليجتمع في قلبك فقط. ما هو سبب ذلك؟ ولماذا اصفر وجهك؟ كان يجب أن تلحظ أن حالة كهذه أمام الفتيات توجب لهن القلق وتسبب الاضطراب، وهذا الذنب الثالث أوجهه اليك أيضاً، بعد أن مررت قالت والدتي: (أليس هذا الرجل هو الطبيب الذي سكن أمامنا؟) ولا أدري لماذا كذبت عليها وقلت (لا أعرف) مع أني كنت أعرف جيداً أنك في هذا الصيف نزيل الدار التي امامنا.

وكانت مقابلتي الرابعة لك في النزهة، وفي هذه المرة لم يبخل بالابتسام فقط بلبخلت بالنظر أيضاً، يالله ما أشد أصفرار وجهك إذ ذاك! كلما ذكرت حالتك تلك، شعرت بحس غريب، وألم لا أدري مصدره، فاني لم أفعل شيئاً يوجب اضطرابك ولا أرى على أدنى تبعة يمكن ان يتحملها وجداني.

فقررت بعد ذلك أن أبالغ في الاحتياط، وأشتد في الحذر وبخاصة منك، لأن ابتسامة عن غير قصد ولا رأى أخذت موقعاً مهماً أرعبني، فقررت أنه يجب أن يقف الأمر عند هذا الحد.

ولكنك لم تقف عند هذا الحد، ولم تلحظ أن الفتاة التي ابتسمت لك عن غير قصد، وابتسمت لها لم تكن إلا طفلة لا شابة، وانها تود الآن أن تصلح خطأها.

كلما قرع جرس الباب، وكلما حدثت ضوضاء أمام الباب برز خيالك من وراء زجاج النوافذ، لقد طرأ عليك وعلى أحولك تبدل هائل خلال هذه الخمسة عشر يوماً، كنت ترى مطرقا حزينا عميق الافتكار، تمشي بطيئا جدا كأن المشي السريع سيقطع سلسلة أفكارك، تقف أمام داركم وتلمس زر الجرس الكهربائي وتلتفت نحو نوافذنا، وتنظر نظرة استرحام تدل على أن كل ذلك كان من تلك الطفلة البريئة صاحبة تلك الابتسامة.

ثم مرضت، وأخذ القدر يمشي بك نحو الهاوية التي كنت أحترس منها، لما علمت أن والدتي تود أن ترسل اليك لتعودني مانعت وطلبت طبيباً غيك، ولكني غلبت على أمري، ولو رأيتني حينذاك لعلمت جيداً كيف كنت أخشاك. لما دخلت عليّ لفحصي كنت مضطرباً أصفر الوجه، وكل ما كنت أتمناه أن يجس نبضك جاس حينما أمسكت أنت يدي لتعد نبضي. . . كنت تسعى لأخفاء اضطرابك وتخلط كلامك بالنكت اللطيفة، وتظهر عدم الاكتراث، ولكن كان تكلفك ظاهراً وكان مثلك في ذلك كمثل المغني الذي يغني أنشودته على غير توقيعها. كنت في كل مرة تدخل علي عائداً أكثر اضطراباً وأشد يأساً وتألماً من المرة السابقة، وأرى ورد خديك قد صار بهاراً كأنني كلما تقدمت نحو الصحة تقدمت أنت نحو المرض، وأخيراً بعد أن انتهى المرض ومضى دور النقاهةقلت لي بلهجة مملوءة بالحزن العميق الشامل جميع انحاء فؤادك (انك لست بحاجة بعد اليوم إلى المعالجة) وكانت نغمة صوتك تحمل معنى (إنني أنا المحتاج إلى العلاج).

إن تلك العلاقات التافهة البرئية التي بيننا كان يجب أن تقف عند هذا الحد، ولكننك أنت أبيت إلا أن تسير في هذا الطريق وأنت لا تعلم أتصل إلى نهايته أم لا؟ ان تبعة ما فعلته بعد رؤيتك لي وأنا مريضة عائدة عليك كما كانت عليك تبعة الذنوب التي كانت قبل المرض.

لقد شاهدتك البارحة وأنت جالس على كرسي في غرفتك تراقب نافذتي وأنت مشغول عن كل ما حولك إلا عن نافذتي كأن عينيك لا تشاهدان إلا ما وراء زجاجها،

فسمعت صوتاً ساعدني على فهمه سكون الليل وهدوءه، سمعت صوت زوجك تناديك قائلة (لماذا لم تدخل إلى الغرفة؟) فأجبتها بحدة جواباً ظهر لي منه انك تألمت لهذا السؤال الذي قطع تلك اللذة التي كنت تشعر بها وأنت منفرد عن بقية أفراد الأسرة، قلت لها (إذا كنت تريدين النوم فنامي، إني أود أن أبقى في الشرفة).

لا أدري لماذا أكتب اليك كل هذا؟ وربما كان ذلك لتبرئة نفسي من تبعة ما كان، إني لا أدري كيف عزمت وقر رأيي على كتابة هذه الرسالة، ولست أدري ما الذي يمنعني من تمزيق تلك الورقة التي أحررها اليك؟ أنت ترى اني لم أجد جواباً لهذه الاسئلة، ولكني أرى اني تابعة لحسن خفي يسوقني لارسال هذا الكتاب اليك. تصور فتاة نشأت بين دلال الأم وعطف الأب، تقضي أكثر ليلها في مكتبة والدها تتلسى بقراءة الحكايات، وأكثر أيامها تمضي في السينما تبكي من الفواجع التي تصورها اللوحة الفضية، لا هم لها ولا غم، ولكنها تتألم الألم الناس وتحزن لحزنهم. ثم تذهب إلى مخزن الازياء فاذا عادت بما تحب قدمت إلى والدها أوراق الحساب ذات الارقام الضخمة. لم تفكر في حياتها كلها بشيء غير هذا، ولم يطرأ على حياتها طارئ الا ان شاباً ابتسمت له وهو يأمر وينهي خدمه وهم ينقلون الاثاث إلى المنزل الذي امام دارها، ثم ابتسم لها وهو يرسل سجف نوافذ المنزل، أليس الأمر حتى الآن طبيعياً؟ ولكن هذا الشاب لم يتلق هذا الابتسام كأمر طبيعي، بل ظل يراقب النافذة وهو مضطرب حائر، ثم بعد كل ذلك يرمى داخل مظلتها المغلقة وهو يمر من جانبها كتاباً من غير أن تشعر بذلك والدتها التي بجانبها، ان هذه الأشياء اخذت تخرج عن الحد الطبيعي، لذلك أصبحت الفتاة الشابة ترى أن الضحك ليس أمراً طبيعياً.

ما أشأم تلك المصادفات التي القتك في طريقي، وما أضل الافكار التي أوحت اليك وضع الورقة في مظلتي؟ ما هو الشيء الذي خولك حق رمي ورقة إلى فتاة لم تر ولو في المنام من يؤذيها أو يلعب بشعورها؟

كنت حتى اللحظة أشعر نحوك بشيء لا أدري ماذا أسميه؟ أشعر بشيء شبيه بالرحمة والعطف، ولكني منذ سمعت صوت الورقة وهي تقع في مظلتي نفرت منك نفوراً شديداً.

لقد شعرت بحس قوي يدفعني إلى أن أفتح مظلتي وأرمي تلك الورقة في الأرض، ولكني لا أدري لماذا لم أنفذ هذا العزم؟ لقد تغلب علي حب الاطلاع، وأردت أن أعلم ما الذي كتبته لي في كتابك. هل قدرت عظم ذنبك وأنت ترمي ورقتك في مظلتي؟ هل قدرت حرج موقفي في تلك الدقيقة؟ وهل قدرت أنها جناية غير قابلة للغفران؟ إن ما يشع في عينيك من النجابة وماا يقرأ فيهما من آثار العفة يشهد بانك كنت تحت تأثير غفلة خضعت لها عن غير ارادة منك.

حينما بلغت البيت ذهبت توا إلى غرفتي وفتحت رسالتك فلم فيها ولا كلمة واحدة تثقل على سمع فتاة مثلي.

فرأيي السابق فيك كان صحيحاً. لقد أثبت لي ذلك كتابك ذو الصحائف الأربع الذي لا يحتوي على معنى تفيده جملة مركبة من أربع كلمات، فما الغاية إذن من كتابته اليّ؟ هل أظهرت لك رغبتي في الاطلاع على أنك لست سعيداً في حياتك؟ وهل طلبت منك ان تكتب اليّ ذلك في صحائف أربع؟ قرأت كتابتك المرة تلو المرة ولم أفهم له غاية. فقلت في نفسي: إنه يعلن لي حبهن ولكن زوجته؟. . . أولاده؟ . . .

في مساء أحد الأيام كان الأولاد يلعبون أمام الدار، فشاهدت ابنتك الصغيرة ذات الوجه الجميل والشعر الاشقر المحيط بوجهها احاطة الهالة بالقمر تصفق طرباً وتصيح: هاهوذا والدي قد جاء وتركض نحوك، فاذا أنت تقطب حاجبيك وتأمرها بالابتعاد عنك، وترفع عينيك نحو نافذتي، فعادت الصغيرة كئيبة حزينة، لا يقدر يراعى أن يصف لك نفوري منك وكرهي لك في تلك الدقيقة، اذن أنت في شغل بي حتى عن أولادك فأنت تنظر اليهم بقسوة وتعاملهم معاملة سيئة؟ إن حالتك هذه كافية لتشرح لي الآلام التي سببتها لتلك الاسرة التي أنت ربها.

قلت في نفسي مادمت سبباً في نفوره من زوجته وأولاده فالواجب ان تقف هذه المسألة عند هذا الحد. أخذت كتابك حينذاك وقرأته في انعام مرة أخرى، فخطر ببالي ان ارسله إلى زوجتك، ولكني عدلت وانقلب ذلك النفور الذي كنت أشعر به منذ لحظة إلى رحمة من

أعماق قلبي.
وفي صباح اليوم الثاني بينما انا خارجة من البيت، ولم أكن اسدلت النقاب على وجهي شاهدتك تنزل مسرعاً من الدرج فالتقت العين بالعين، خانتك قواك عند ذلك، ولولا استنادك إلى الجدار لوقعت على الأرض لا محالة. فشعرت أن مهمتي تجاه هذه الحال شاقة جداً وانه يجب ان اشفق عليك وعلى زوجك وأولادك لا أن احقد عليك.
أعترف لك انك بارع جداً في ارسال الرسائل، اني بعد أن قرأت رسالتك الأخيرة التي وجدتها بين زجاج نافذتي وبين القفص الخشبي، تلك الرسالة التي حتى الآن لم اكتشف كيفية وصولها اليّ ولم اعلم بأية وطريقة وضعت، شعرت بأن دافعاً اهم من السابق يدفعني للكتابة اليك، لا لأجلك بل لأجل تخليص زوجك من مصيبة محتملة الوقوع، ولمنع هذه الاضحوكة من ان تتحول إلى فاجعة كبرى.
في كتابك هذا تبحث عني وتعلمني أن مصادفتك لي كانت سبباً في شقائك، وانك تحبني حباً بغير امل، واني كدرت حلو معيشتكم وأنك حتى الآن كنت سعيداً بحياتك مع زوجك وأولادك، وأن حبك لي حول نعيم حياتك في البيت إلى جحيم، وأنك ستكون ضحية هذه الصدفة، إلى آخر ما في كتابك من كلمات. . . .
اني واثقة كل الثقة من أنك الآن خجل بكل ما تحويه هذه الكلمة من معنى لكتابتك هذه الجمل وهذه العبارات تصور أنك ستترك زوجك أرملة، وأولادك يتامى من أجل ابتسامة من فتاة غرة، وفي هذا منتهى الغرابة. . . .
أيقنت الآن اني سأكون سبب فاجعة كبرى، فالواجب يقضي عليّ أن أقف امام تلك الكارثة، وهو الذي اضطرني أن التجئ إلى هذه الوسيلة وهي الكتابة اليك، انت تعلم يقيناً انها جرأة من فتاة مثلي، ولكن. . . ولكن الوجدان. . . .
تبحث أيضاً في كتابك عن اشياء كثيرة كلها متقاربة وتقول ان حبك لي جعل بينك وبين زوجك واولادك فراغاً لا يسده شيء؛ وانك الآن بعيد عنهم بعد الارض عن السماء، وان كان جسمك قريباً منهم متصلاً بهم، وانك حاضر الجسم بينهم لكنك غائب القلب والعقل عنهم؛ وان كل ذلك سيكون سبباً لفرارك من هذه الحياة التي أصبحت في نظرك جحيما.
أنا اعلم انك تبحث لي عن هذه الأشياء كلها، ولست أعلم لذلك سبباً، وإذا كان الأمر كما
ذكرت في كتبابك، فالفرار الفرار مني. . .
إن حياتك في هذين الشهرين الأخيرين تمر من أمامي كما تمر الصور على اللوحة الفضية امام الجمهور النظارة فامتع النظر بها فأرى ان الشقاء في حياتك سرى إلى حياتي ايضاً، وتلونت حياتي بلون حياتكم الأسود، لقد كنت سعيدة أنا أيضاً حتى قبل شهرين من الزمن، لقد كنت مرحة مرح الصبا والشباب، وليتك تعلم مقدار حزني وألمي وبؤسي، لأنني كنت سبباً في شقائكم اذن انا من حيث لا ادري ولا أشعر كدرت صفو حياتكم، وبدلت سرورها شقاء، وقلبت نعيمها إلى جحيم، وصفاءها إلى كدر وبهجتها إلى عبوس. آه ما اتعسك ايتها الزوجة؟ ليت شعري كم من الدموع ذرفت، ومن الزفرات صعدت بسببي؟. . .
اسائل نفسي عن الاسباب التي اضطرتك إلى المجيء هنا، وساقتك إلى السكنى في هذا المصيف؛ فتقول لي ربما كان سبب ذلك ان هذه الزوجة مصابة بفقر دم، او أحد الأطفال مبتلى بمرض ثقيل، فاضطر ذلك الاسرة كلها إلى نزول هذا المكان طلباً للعافية وتخلصاً من الاسقام، فاذا كان الأمر كذلك فقد حضرتم هذا المكان في طلب الصحة والعافية ففقدتم معهما السعادة العائلية، نعم ويا للاسف ان قطرة من السم وقعت صدفة واتفاقاً في حياتكم السعيدة فسممتها وجعلتها جحيما. . .
اتمتلك في بيتك مطرقاً حزيناً غريقاً في بحر الافكار تسألك زوجتك (ما بك أيها الرفيق؟ وبماذا تفكر؟) فلا تجيبها بل تبقى في حزنك واكتئابك، ثم تتبرم من كثرة الاسئلة وتؤلم زوجتك ببضع كلمات فيكسر قلبها وتبكي تلك الليلة في فراشها بكاء مراً، تبكي بصوت خافت خشية ان تسمعها، ولكنك تشعر بذلك وتشفق عليها، فتقبلها تنسيها كل ما بها من الم وهم وتذهلها عن كلما كان.
ولكن بعد ذلك يعود اليك ضجرك وحزنك، فتعامل زوجك وأولادك بقسوة وخشونة ما كنت تعاملهم بهما من قبل.

ويخطر ببالي أشياء اخرى يقشعر بدني لهولها وسوء أثرها في زوجك واولادك، إذا كان الامر كذلك فالفرار الفرار مني. . .
أنتم أتيتم إلى هذا المصيف لتجدوا فيه الصحة والسعادة، ولكنكم لم تجدوا غير العلة والشقاء، فالفرار الفرار من هنا. . .
لقد جمعتني المصادفة بزوجك، فليتك تعلم مقدار ما كان لها في قلبي من محبة، وفي نفسي من مكانة، كلما تمثل لي وجهها الشاحب ومحياها الجميل المرسومة عليه آثار الحزن العميق؛ تألمت لها وأشفقت عليها كأنها أختيي، فيالله من سوء ما جنيت عليها وهول ما سقت اليها من العذاب على غير علم مني بذلك ولا رغبة فيه ولا قصد اليه.
أتمثلها واقفة أمامك مع أولادها تنظر اليك نظرة الاسترحام والاستعطاف والدموع ملء محاجرها، ولسان حالها يقول: (لماذا أدرت عنا وجهك وطويت دوننا كشحك؟ لماذا تغير قلبك علينا منذ شهرين؟).
أكتب اليك ولا أدري كيف أرسل اليك هذه الرسالة، ولا أعلم ما الذي سيكون من أثرها في نفسك؟ يخيل إلى أنها ستصل اليك وزوجك نائمة في فراشها وحولها أطفالها يغطون في نومهم، فاذا وقعت في يدك جلست االى منضدتك ونشرت الكتاب عليها وجعلت رأسها بين كفيك ثم اخذت تقرؤها. . ولعلك لا تنتهي من قراءة الصفحة الأولى حتى تشعر بأن غشاء الغفلة الذي يغشى عينيك اخذ ينقشع عنهما، وتعلم يقيناً انك كنت تابعاً لحس غير ثابت الأساس، أجل! كنت تابعاً لذلك الحس محاطاً به مغلوباً له خاضعاً لسلطانه مشغولاً به عن كل ما يجب عليك، كانك كنت جاهلا حتى الآن ان من العيب على المرء ان يسير وراء عواطفه وان ينقاد لها فتسوقه إلى المهاوي.
في تلك اللحظة تشعر انك لا تزال تحب زوجك واولادك فتتحرك الشفقة في قلبك وتترك العنان لدموعك فتجري. . أجل أترك لها العنان تنسيل فوق تلك الورقة التي كلفت أن تخبرك بانتهاء تلك الرؤيا المخيفة. . .
آه. إني لا أجد ملجأ يلجأ اليه المرء لتطهير قلبه مثل دموعه، يخيل إلى أنك الآن تبكي، أليس كذلك؟ إيك ما ساعدتك الدموع وأسعفتك الجفون: وغداً، أجل! غداً ستأخذ أسرتك وتهرب مني. أجل خذها ثم الفرار الفرار.
والآن أتمثلك وقد نهضت عن كرسيك مطمئن القلب؛ وقد اخذت الورقة بيدك وأحرقتها بنار الشمعة المضاءة أمامك، ثم مشيت على رؤوس أصابع رجليك، وخرجت من غرفتك نحو غرفة زوجك وأولادك، وأنت حذر كل الحذر أن توقظهم بوقع قدميك، ثم طبعت قبلة طويلة على جبين كل من زوجتك وإبنك وإبنتك.
كن على ثقة ان في الدار التي أمامكم قلباً يتمنى لك السعادة من الصميم، ويطلب لتلك القبلة الدوام إلى ابد الابد، اجل! ان هناك قلباً يخفق طرباً لرجوع السعادة إلى عشكم.
حلب
فتاة الفرات
العالم المسرحي والسينمائي
حول أزمة المسرح
بين مديري الفرق والممثلين
تفيض منذ أسابيع انهار الصحف من يومية واسبوعية بالحديث عن المسرح المصري ومشكلته القائمة من سنوات لمحاولة انهاضهوبعثه من جديد، وخلقه خلقاً آخر يقيل من عثرته ويبعث فيه دم الحياة والقوة، ويرفعه من هذه الهوة العميقة، وقد رددت الصحف صدى الشكوى الحارة مما آلت اليه حالة المسرح خاصة في هذا الموسم اذ اغلقتاكثر دور المسراح أبوابها وفض مديرو الفرق فرقهم التمثيلية بعد عمل لم يدم الا اسابيع. وكان الموسم يمتد كل عام اشهراً طويلة وتشتد فيه المنافسة والتشط الحركة، وتمثل عشرات الروايات بين مترجمة او مؤلفة ويقبل الجمهور على الملاعب مرحباً بما يبذل بين يديه من جهد وما يرى من آثار فنيه لها اقيمة ولها خطرها
كنا وكان الحال على ما ذكرنا حتى سنتين او ثلاث فخمدت هذه الجذوة، وفتر هذا النشاط، وانصرفت الجماهير بعضها البصناديق الليل كما يسمونها في باريس، وبعضها إلى دور السينما، وطالعنا هذا الموسم بما طالعنا به من الكساد وسوء الحال وغلق دور التمثيل ابوابها ولما تكد تبتدئ العمل.

ولم يفت لجنة تشجيع التمثيل في وزارة المعارف ان تتنبه إلى ما وصلت اليه حال المسرح فاسرعت بعقد جلساتها ونشطت للعمل نشاطاً ملحوظاً، وارسلت لمديري الفرق جميعاً تسألهم رأيهم فيما يعيد على المسرح حياته ونهضته. وكان أن اقتراح تاليف فرقة من جميع المشتغلين بالمسرح تمدها الوزارة بالاعانة وتشد ازرها ويتكاتف الجميع على العمل معاً في سبيل غاية واحدة الا وهي انتشال المسرح والنهوض به.

قبل مديرو الفرق - أو أغلبهم على الأصح - هذا الاقتراح ورحبوا به، وألفت لجنة فرعية من أعضاء لجنة تشجيع التمثيل لتضع بالاتفاق مع مديري الفرق تفاصيل هذا المشروع للبدء في تنفيذه في الحال. وعقدت اجتماعات عدة لذلك، تبودل فيها كثير من الاقتراحات والآراء، وظن في وقت من الأوقات أن الأمور تسير سيرها الطبيعي، وأن المشروع أوشك على التمام. ولكن ظهر أخيراً أن مديري الفرق يعجزون اللجنة بطالباتهم، وأن قبولهم المشروع لم يكن الا تظاهراً منهم بالتمشي مع اللجنة في الاقترح الذي لقي عنده ترحيباً وتشجيعاً على أن يقفوا في منتصف الطريق ويعودوا إلى طلباتهم الاولى من أن توزع الاعانة عليهم كما جرت العادة كل سنة دون قيد أو شرط فشل مشروع اللجنة إذا أزاء هذا التشبث أو قل هذا التعنت من مديري الفرق الذين رفضوا التعاون معها، ووقفت اللجنة حيرى وإذا بفريق كبير من ممثلي المسرح المشهود لهم بالكفاءة والمقدرة يؤلفون من بينهم اتحاداً ويتقدمون للجنة يعلنون أنهم يرحبون بمشورعها، وإذا كان مديروا الفرق قد ابوا التعاون معها على استعداد للعمل ولا ينقصهم الا أن تعينهم اللجنة وتمدهم بالمال.

كان هذا هو الموقف الطبيعي الذي لا يمكن أن يكون للممثلين غيره ومديرو الفرق قوم لديهم من المال ما يقوم بالأود ويسد الحاجة، ولأغلبهم من موارد العيش غير العلم في المسرح ما يجعلهم لا يحسون ضيقاً إن لم يكفل لهم كثيراً من الرفاهية والنعيم؛ ولكن الممثلين حالهم يختلف عن هذا كل الاختلاف فمهنتهم هي كل شيء لهم؛ ومنها موردهم الوحيد الذي يعيشون عليه وهم واسرهم ومن يلوذ بهم من الاهل والزوج والولد. لذلك كان من الطبيعي جداً وقد تخلف مديرو الفرق عن العمل أن يتقدم الممثلون؛ والاولون؛ والآخرون المجموع والكثرة، ورحبت اللجنة بهذا الأتحاد ووعدته بالمعونة وشد الأزور إذا توفرت فيه أشياء حددتها اللجنة كما طلبت من أفراده ضمن ما طلبت ان يتخذوا لهم مسرحاً خاصاً للعمل عليه.

ويسرنا أن أفراد هذا الاتحاد حققوا كثيراً مما طلبته اللجنة وانهم مجدون في تحقيق الباقي مما لم تسعف به الظروف المؤاتية وضيق الوقت، واتصالهم باللجنة مستمر وقد يكتب لمشروعه النجاح والتوفق وهو ما نؤمله ونرجوه مخلصين.

على أن الصحف طالعتنا هذا الأسبوع بنبأ اتحاد اجديد ألفه فريق آخر من الممثلين يقولون أن عددهم يبلغ المائة أو يزيد. وتقدم الاتحاد الجديد إلى اللجنة بما تقدم به اتحاد الذي يسبقه وما ندري ما سيكون موقف اللجنة حاله، ولكن ظروف تكوين هذا الاتحاد وجملة عارضة جاءت في نشرته الاولى وبعض ما أحاطه من ملابسات لا تخفى على الاعين المتنبهة الفاحصة، كل هذا يجعل الاتحاد الجديد مشكوكاً في جديته وفي الغرض الذي قام من أجله، فاذا قلنا أنه تألف للكيد للاتحاد الأول، وان يد مديري الفرق ليست غريبة عنه، لعلنا لا نكون مخطئين، ولعلنا لا نكون قد جاوزنا كثيراً حقيقة الامر والسر فيه.

على أن هذا لا يهمنا في الواقع كثيراً وان كان يؤلمنا ان نرى زملاء بعضهم حرباً على بعض، ولو حسنت النيات وتصافت النفوس لانضم أفراد الأتحاد الثاني إلى زمالائهم الذين كانوا قبلهم اتحاداً، ولما كان ثمت معنى لهذه التفرقة التي لن يكون لها اثر من نفع ان لم تنبت الفشل وتبذر الشقاق والخصام.

على أننا لم نكتب كلمتنا لنقف من الممثلين موقف الواعظ الناصح، فليتدبروا شأنهم على النحو الذي يحلو لهم، ولكن نريد أن نقول للجنة، لجنة تشجيع التمثيل، أن ليس في تنحيي مديري الفرق ما يجد من جهودها او يدفع بها إلى الفشل مادام أن الممثلين قد تقدموا للعمل مجدين مخلصين، وامامها السبيل واضحة إن أرادت أن تكون نواة صالحة للعمل المسرحي الحق، وفي وسعها أن تشرف على العمل وتشترط به من

الشروط والقيود ما يحقق رغباته وينهض بمشروعها إلى الغاية التي تنشدها وننشدها جميعاً. وها هي فرصة سانحة تعرض لها فلعلها تنتهزها في حزم وعزم، ولعلها أخيراً لا تحجم عن العمل الجدي الصريح، وثمت بارقة من أمل لعل فيها الخير ولعل في ثناياها تحقيق أملنا الواسع في اقالة عثرة المسرح.

محمد على حماد

في الكتب

أبو علي عامل الأرتست

مجموعة اقاصيص مصرية

تأليف الأستاذ محمود تيمور

عرض ونقد وتحليل

لا يمكن لآي نقادة أن يتكلم عن أقاصيص تميور، أو أن يتعرض لدراستها دون ان يفكر في الصفات الأساسية التي تقوم عليها، أو التي أمكسبتها هذا الطابع الخاص، وهي: الباسطة والصدق والانسجام. وبودي أن أتحدث أولاً عن (طابع الصدق) فهي اظهر المميزات التي يتسم بها أدب تيمور، وهي تكاد تكون سجية طبيعية عنده.

يرجع طابع الصدق ففي أقاصيص محمود تيمور إلى أنه يعيش في عالم عواطفه فطرية، فهي تملي عليه هذه الصور البيسطة التي يرسمها بريشته الصغيرة من غير أن تحجب عنا ظلال الألوان: (فام زيان) هي المرأة التي تعمل أجيرة في البيوت وفي الغيطان، لا ترى على وجهها عبوسة اليأس ولا ثورة السخط، فهي راضية عن حياتها قانعة بالقرب من حفيدها الصغير (الغالي)، تنهك قواها نهاراً في الخبازة، وتسهر ليلاً أمام مصباحها تخيط له الجلابيب والطواقي، والصغير في حجرها، تهزه وتغني له أغنيات المستبقل بصوت كله نواح وشجون، معددة له صفاته حينما يصير رجلا، له شارب غزير مفتول كشوارب الحكام، وطربوش أحمر فاتح اللون كطربيش الامراء، وحذاء ذو صرير عال كأحذية الجنود. و (الشيخ جمعه)، هو الرجل العام الفيلسوف السعيد بايمانه، المنعم بخيلاته يروي لك في بساطة فطرية، قصة سيدنا سليمان وما جرى له مع النسر الهرم الذي عاش الف الف عام وحكاية السيد البودي الذي حارب الجيوش قبل ان يولد، وخرافة مدينة النحاس والسندباد وطير الرخ وغيرها. و (عم متولي)، وهو بائع الفول السوداني الذي ما يكاد ييؤوب من جولاته العديدة بين شوارع الحلمية وحارة نور الظلام، وتؤويه ليلا حجرته الضيقة القذرة حتى يخرج من صندوقه سيفاً دقديما، هو الأثر الباقي من ايام عزه الاولى، يضعه على ركبتيه ثم يسبح في تأملاته اللانهائية، حتى إذا ما مرت بخاطره ذكرى العهود الخولي، حين كان يحارب في صفوف (المهدي) في السودان، أخرج السيف من غمده فاذ بالسلاح قد علاه الصدأ وبعد ان يهزه في يده مراراً كأنما هو يحارب عدوا في الهواء، يصيح صيحات خافتات، منادياً الجيش ليتقدم إلى الأمام، ثم يصحو بعد برهة من خيلاته، فاذا الميدان حجرته المظلمة المقفرة ذات المصباح الزيتي الباهت النور، وإذا الجيش أوهام في أوهام وإذا جلبة المهزومين وصياح المنتصرين سكون في سكون! و (صابحة) هي تلك الريفية الساذجة التي تعلم في منزل حسن أغا حيث التقت هناك بخادمة عبد السميع فتعارفا وتحابا وأظهرا رغبتهما في الزواج، ولكن لما ذهب إلى اهلها ليخطبها لقي منهم كل صد واعراض لأنه فقير، فلما أتاها بعد شهور بالمهر سألته ففي ريبة من أين له هذا المال؟ حتى إذا ما أيقنت بانه اختلسه من أموال سيده احتقرته وأشاحت بوجهها عنه، وضحت بغرامها في سبيل الوفاء لمخدومها ولم ترض ان تتقبل مهرها نقوداً مسروقة، لأن الله لي يبارك في مثل هذا الزواج!

أليست كل هذه الشخصيات تبدو أمامنا ساذجة في تصورتها وفي نواحي تفكيرها؟ كما انها تدلنا تماماً على البيئة الفطرية التي يشهدها تيمور ويخالطها لينقل صورها الينا، فهي كما يوقول عنها العلامة الانجليزي كرنكو: كالتصوير الفني، تصور حقيقة الحياة كلما هي

وقد يرجع طابع الصدق أيضاً في أدب تيمور، إلى أنه تعود استعمال الالوان الطبيعية في لوحته. فلذا لتملح ان فنه خال من سيطرة الافكار الغريبة غير المألوفة، فهو لا ينقب مثلا عن الفساد الجنسي الذي أصبح الادب القصصي الحديث يعج به، ليقدمه إلى القارئ كما يثير ميوله فيفوز برضائه واعجابه! كلا! فان السجية الطبيعية التي اتصف

بها، تكاد ترشدنا إلى أنه فنان بطبعه. لا آلة صماء. يصور أمامنا كل ما يجس به وما يراه حوله، ونحن حين نقرأ وصفه لأحدى شخصيات أقاصيصه، نراها ظاهرة في وضوح وجلاء، ونكاد نحس بان الحياة تدب في هذا الوصف دبيب الكهرباء، فهو كما يقول عنه الدكتور ويدمار، المستشرق السويسري: يتغلغل في أعماق نفس الموصوف: لكي يبرز عقيلته الحقيقة

يدين محمود تميور بالمذهب الواقعي ولكنه كثيراً ما يحيد عنه ويخرج عن قواعده المرسومة، وحجته في هذا، هي ان الفنان يجب الا يقيد نفسه بمذهب واحد لا يخرج عن

دائرته ففي ذلك تعجيز له، إذا انه يجب أن يكون مطلق الحرية في التعبير عن احساسه، وما المذاهب الا قوانين وحدود وضعت للدراسات الادبية، ولكنها لم توضع للكاتب، لانه فنان بطبعه، يكتب باحساسه ووجدانه وبصيرته، وهذه لا تعرف شيئاً اسمه المذاهب.

وفي الواقع نجد ان المذهب الواقعي الاصيل، مذهب جامد جدا، وقد لطفه وغيره الكتاب الواقعيون بعد زولا، إذا انهم لم يستطيعوا ان يسيروا على مقتضاه، وقد رأينا زولا نفسه، بالرغم منه، يخرج عليه بدون أن يشعر، فزولا كاتب عبقري، كان يكتب مدفوعاً بوحي والهام، وقد عارض نفسه وكذبها كثيراً في مؤلفاته.

ولذلك لا نصف فن تيمورد (بالواقعية)، وإنما تصفه (بالصراحة)، وأهم مميزات الصراحة، حصر الذهن في هذا الموضوع والتخلص من الشعور الرقيق المصطنع ومن الخيال المترامي الاطراف، فهو قبل أن يكتب ينظر ولا إلى الاشياء نظرة ثاقبة، يحاول أن يصفها كما هي دون اسراف في العواطف أو تعمق في الخيال، أو التجاء إلى الغموض، وبدون أن يسمح لشخصيته أن تحول بينه وبين موضوعه، فأقاصيصه هي هي تلك البطيعة المصرية البسيطة، التي جلبت على الخير والقناعة والايمان بقضاء الله، وفنه عبارة عن مرآة تنعكس عليها الحياة المصرية كما هي، دون زخرفة أو تجميل، ولا عدسات تواجه هذه الحياة فتظهرها على غير حقيقتها.

وقد ينظر بعض النقدة إلى أن العواطف الفطرية والبساطة الادبية التي تتسم بها أقاصيص تيمور، لا تتفق ولاجادة الفنية أو النزعة الانسانية التي هي إحدى دعامات الادب الحديث، على ان بساطه تيمور هي السرف في قوتها وتأثيرها، فهي تمشي مع الفن جبناً إلى جنب، وقد يكون هذا من الغرابة بمكان، فانك في (العودة) وهي أولى أقصوصات الكتاب، تلمح أثر هذه الروح.

للكلام بقية

محمد أميين حسونة

العدد 35 - بتاريخ: 05 - 03 - 1934

. . .زمزم

كان المصري إذا ذكر بالأمس زمزم ذكر البيت الذي تتهافت على ضوئه أمانيه وأحلامه، والنبع الذي تسكن على برده (لواعجه) وآلامه. أما اليوم فبذكره فيجد في نفسه بجانب شعوره الديني اللطيف شعوراً آخر له كذلك لطفه وقداسته: ذلك هو شعوره الوطني بالمستقبل المشرق والكرامة العزيزة والحياة المستقبلية (لأن زمزم لم يعد في ذهنه مقصور الدلالة على البئر المقدسة، وإنما أصبح يدل أيضاً على الحجر الأساسي لمجده البحري، والمظهر الحقيقي لوجوده الدولي، والسفينة الأولى من أسطوله المدني الأول)

والأسطول المصري كلمة نسيتها مصر منذ أودت بأسطولها الدول الغوادر في أمواه (نافازين)، فشواطئ رمسيس وكليوبطرة،

. . .وزمزم

كان المصري إذا ذكر بالأمس زمزم ذكر البيت الذي تتهافت على ضوئه أمانيه وأحلامه، والنبع الذي تسكن على برده (لواعجه) وآلامه. أما اليوم فبذكره فيجد في نفسه بجانب شعوره الديني اللطيف شعوراً آخر له كذلك لطفه وقداسته: ذلك هو شعوره الوطني بالمستقبل المشرق والكرامة العزيزة والحياة المستقبلية (لأن زمزم لم يعد في ذهنه مقصور الدلالة على البئر المقدسة، وإنما أصبح يدل أيضاً على الحجر الأساسي لمجده البحري، والمظهر الحقيقي لوجوده الدولي، والسفينة الأولى من

) أسطوله المدني الأول
والأسطول المصري كلمة نسيتها مصر منذ أودت بأسطولها الدول الغوادر في أمواه (نافازين)، فشواطئ رمسيس وكليوبطرة، ومواني المعز وصلاح الدين، ظلت بعد إبراهيم حمى مباحا للسفائن الأجنبية، ترسي عليها بالذل والقهر، أو بالغلاء والفقر، أو بالسم والرذيلة (ثم لا تجد بين حنايا المرفأ الرءوم باخرة مصرية واحدة تشعرها ذل الغربة، وتذكرها واجب الدِّخالة، فكانت مياهنا كما كانت أرضونا مرتعا غريض الكلأ تخور فيه السوائم الغريبة خُوار الكفر والبذاء، لا خوار الشكر والثناء، ونحن أصحاب البلد لا تجد في هذا الطغيان سيادة المالك، ولا عزة الوطني ولا سلطان الدولة)
فلما تكشفت جهودنا القومية المنتجة عن بنك مصر، صمد هذا الناشئ الجبار بحزم الكهول وعزم الشباب إلى الميادين المالية الأجنبية فاقتحم حصونها المنيعة، وسرى في هيكل هذا البلد العليل الواهن سريان البرء، يحرك كل عضو من أعضائه بشركة من شركاته: فصاول في حي المال بنوك الدول، وطاول في (ألماظة) مطار الإنجليز، ونازل في (المحلة) مناسج (لنكشير)، وزاحم في كل سوق نتائج كل شعب (ومشت أعراض السلامة من الصدر إلى الثغر، فقامت شركة مصر للملاحة تعيد سلطاننا على البحر، وتعلن استقلالنا إلى الخارج، فأنشأت (زمزم) وأخواتها الثلاث على أحكم ما يقول الإنشاء، وأضحك ما يمكن الابتداء، وأفخم ما يكون التأثيل
)) وكان الأسبوع الماضي (مظاهرة كبرى) للاستقلال الأكبر
نزل طلعت حرب وصحبه العاملون يغزون الماء، بعد ما غزوا الأرض والسماء، فخفقت الأعلام الخضر على سواري زمزم، وتهللت الجباه الغر على سواحل مصر، وشعرت المواني الثلاثة المحتلةأن في أحضانها اليوم وليدا من أهلها صريح النسب، تضطرم في أحنائه رجايا الشعب، وتسفر على وجه مخايل الأمل، وتبسم في طريقه مضاحك الفوز)
واختلفت الظنون الفواجر على خواطر السفن الغربية فتساءلت: إلا يكون هذا المشروع الجديد كألف مشروع قديم لمعت كلمع الشرار ثم خبت سراعا إلى الأبد؟ إلا تكون زمزم هذه التي تختال على الماء في صلف وكبرياء، نواة من النوى للعجُف لا يرسخ لها أصل، ولا يسمق لها فرع؟ أيستطيع الأسطول المدني المزعوم أن يجوب مسارب البحار وليس من ورائه أسطول حربي يرصد طريقه ويمنع جانبه؟
وكانت هذه الأسئلة المتشائمة تَرْفَضُّ صاغرة خجلى عن جوانب الباشا وهو على ظهر زمزم في عبوسه الرهيب وسكونه المهيب ونظرته النافذة، يحيل المتسائل المتشكك على الماضي المجيب والواقع المقنْع فيرى الفَلك الداوي الذي يديره برأيه، ويسيره بيده، شمسه بنك مصر، وتوابعها شركاته الميمونة.
وهنالك الجواب الذي يُبكم الحاسد، ويفحم الشامت، ويقوم حجة بتراء على رشد النهضة الاقتصادية في مصر
إن شركات بنك مصر هي وحدها الجانب الجدِّي في حياتنا الهازلة، تقوم على الحاجة الداعية، والكفاية الفنية. والإرادة القوية، والإدارة الحازمة، والغاية النزيهة، والإيمان الصادق، والخير العام. وهذه الأساس الثوابت أكثر مما يلزم لقيام العمل، فكيف يقع في البال أن يتحكك بها الفشل، أو ينال منها الكيد، أو تطير في جنباتها الشبَّةَ؟
إن أرجل الجنود الإنجليزية جعلت ثكناتنا أجنبية، ولكن رءوس الأموال الأوربية جعلت مصرنا غير مصرية، وإن أساطيل بنك مصر الآلية والهوائية والبحرية هي التي سترد مصر إلى أهلها من غير حرب ولا عنف ولا خصومة
لقد كانت الوحدة الأولى من أسطول الشعب هي زمزم، وكانت الوجهة الأولى لزمزم هي جُدَّة، وكان أمس الأول موعد إبحارها من السويس بالحجيج الأول! فليت شعري أي نوع من الشعور يشيع في نفس المصري المسافر على زمزم حين يرى قطعة من أرض مصر تسير به على الماء حتى شاطئ جدة، يعلن المؤذن فوق منارتها كلمة الله، وينشر العَلَم فوق ساريتها مجد الوطن، ويجد المصري على ظهرها قومه ولغته ودينه وكرامته وراحته وأنسه!
ذلك شعور لا يتصوره ولا يصوره إلا شاعر كتبت له السعادة أن يتذوقه!! فلعل في الحجيج من يسعفه الإلهام فينفح قومه وأود به بهذه النفحة السماوية، تمجيداً لأول نهضة مصرية زكت في الأرض، وأول باخرة مصرية جرت في البحر، وأول حِجة

!(مصرية) صعدت إلى السماء
احمد حسن الزيات
غرائب الألقاب
للأمير العالم مصطفى الشهابي
عضو المجمع العلمي العربي بدمشق
ما أشد غرور الإنسان في هذه الحياة!! وما اكثر تعلقه بالأوهام! ولكم حوى هذا الكون الأحمق في طياته من غرائب ومهازل! ولعل من أغربها أهكومة الألقاب الجوفاء في أيامنا هذه. فلقد اقتبسنا الميل إلى تلك الألقاب عن الفرس والترك في الأيام الخوالي، ثم لما ضعف سلطاننا اتخذناها ألهية نلهو بها عن الملك المضاع، حتى تأصل هذا الميل فينا واستشرى، وصرنا نسمع بأسماء وألقاب يضحك منها العاقل: كصمصام الدولة، وغضنفر الملة، وأسد الدين، وغير ذلك مما يذكرنا بصاحب البيت الأتي:
(. . .ألقاب مملكة)
ومن النكات المستملحة أن رجلا من الصق الناس بي وازهدهم في الألقاب، زار مصر أخيراً فحار الناس بماذا يلقبونه: فواحد زعم انه صاحب السمو، وثان قال انه صاحب السعادة، وثالث ادعى انه صاحب العزة. ولقد والله اخطأ الثلاثة واتاهوا عن محجة الصواب. فالرجل ليس بصاحب سمو، بل هو كسائر الناس صاحب انخفاض. . . لأن كل دقيقة تمر من العمر تدنيه وتدنينا من حفرة منخفضة، سنصير إليها عما قريب، وسنغيب فيها شئنا أم أبينا، وذلك بعد ان نحمل على الآلة الحدباء المعروفة التي قال فيها الشاعر:
كل ابن أنثى وان طالت سلامته ... يوما على آلة حدباء محمول
وليس الرجل بصاحب سعادة، بل نحن كلنا أصحاب شقاء في هذه الحياة الفانية. وما هي السعادة يا صاح؟ وأين هي؟ لقد سلخت من العمر أربعين حجة وأنا أفتش عنها بلا طائل. تنورتها تارة بالكهرباء، وطورا بالسراج وفتيلته. . . وتحريتها بالعين وبالمجهر وغشيت لأجلها كل المجتمعات، وتلمستها لدى كل الطبقات. وعدت في آخر طوافي وأنا أشقى من صاحبنا حنين، لأن هذا أضاع البعير لكنه فار بخفيه، وهما شيء لديه، أما أنا فلم أجد لدى أحد من السعادة ما يساوي خفاو أحداً لا خفين. وسأظل أفتش عن هذا الخيال الذي علقته الناس، مشبها في استقصائه صاحب البيت الآتي، وقصته يعرفها بعض الأدباء:
من لي بهاتفة يوما وقد سالت ... أين الطريق إلى حمام بنجاب
أما الإدعاء بأن الرجل صاحب عزة، فهذه ثالثة الأثافي. فالعزة لله وحده. أما صاحب عَزة (بفتح العين) فهو شاعر غزل، اسمه كثير، وهو زير نساء، وصاف لمحاسن ربات الحجال. أحب عزة وعشقها وشبب بها، وقال فيها البيت المشهور:
هنيئا مريئا غير داء مخامر ... لعزة من أعراضنا ما استحلت
والبيت المفجع الآتي:
وما كنت أدري قبل عزة ما البكا ... لا موجعات القلب حتى تولت
وقد هلك كثير وهلكت عزة منذ قرون، فكيف يكون رجلنا صحبها. . . مع هذا فهو قد فاته الغزل، وعداه التشبيب، وتدلف إلى الكهولة، فلا هو من أصحاب عزة ولا عزمة من صواحبه. . .
والخلاصة أن البلاد العربية، ولا سيما مصر والشام والعراق، أسرفت في النعوت والألقاب، خلافاً لما نراه في كثير من أنحاء أوربا. ورحم الله زماناً كان فيه ملك الخلفاء يمتد من الهند إلى بحر الظلمات، مع هذا كان عمالهم يخاطبونهم بمثل قولهم إلى فلان أمير المؤمنين من عامله على كذا) والحكومة إذا لم يكن الحاكم ففيها كمصعب في البيتين الآتيين:
إنما مصعب شهاب من الله ... تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك قوة ليس فيه ... جبروت ولا به كبرياء
فهل من مشتر للألقاب كافة؟ (حتى التي فاتت القلقشندي في صبح الأعشى. . .) بحكمة يفيدنا إياها، أو بسر صغير من أسرار هذا الكون يرفع لنا الستار عن غوامضه؟
عمر بن عبد العزيز يصلي
للآنسة سهير القلماوي

وليس هو عمر بن عبد العزيز الخلفية الأموي المشهور بعدله وتقواه، وإنما هو طفل مصري في الثانية من عمره، لا يقل عن الخليفة شهرة ولا منزلة في نفوس عارفيه.
ولئن كان عمر الخليفة حقق للعرب المثل الأعلى للخلافة، فان عمر الطفل حقق لعارفيه المثل الأعلى للطفولة. فليست طفولته خفة وجمالا ومرحا وطهرا، وإنما هي إلى جانب هذا كله يشوبها القليل من الجد والتفكير، وغير القليل من التقوى والدين.
ولعل أهم ما يربط عمر الطفل بعمر الخليفة، غير الاسم، مظهر التقوى والدين. ومظهر الدين غريب عند أطفالنا المصريين اليوم، فقلما نجد طفلا يعرف من أمر دينه ما يجب أن يعرفه أو يؤمن به. أضف إلى هذا أن سن عمر لا تسمح له بالكلام الواضح ولا بالفهم والأفهام، ولكنها، وهنا موضع الدهشة، سمحت له بفهم لروح الدين وتقدير لها عجيبين. ولعلك تدهش كل الدهش إذ ترى عمر يسحب أي غطاء فيفرشه على الأرض، ويجلس القرفصاء لينزع ما يسميه (ألْبِسْ) أو ما نسميه نحن (الشبشب) ثم يرفع يديه إلى أذنيه ويتمتم بكلمات لا تفهمها مهما حاولت، ولكنه يتمتمها في حرارة وحمية غريبتين، ويوالي بعدها حركات الصلاة المعروفة من سجود وركوع. والغريب أنه يقوم بصلاته في حمية وحماسة، قلما تجدهما عند أي طفل في أي حال من حالاته، وقد تضطره الحمية أحياناً في السجود إلى ضبط رأسه ضبطاً مؤلماً يصيح بعده (بخ) بصوت فخم عال ملؤه الجد والخشوع. و (بخ) هذه عنده هي (الله أكبر) عندنا. يكفي أن تقول له صل يا عمر، ليسحب أقرب غطاء وينزع في سرعة حذاءه، ويبدأ الصلاة كأشد ما يمكن أن يكون حمية وحماسة. هو لا يعرف للصلاة وقتا، وإنما يصلي كلما ذكر أو ذكر. ولعلك تظنه بعد كل هذا مازحا أو غير مقدر قدسية العمل الذي يقوم به. كلا. فكفى أن تفلت منك ضحكة مهما يكن مبعثها ليكون نصيبك (زغرة) متوعدة، ثم لينالك بعد فراغه من الصلاة كل ما يمكن أن ينزله بك من عقاب. حاول ما شئت أن تخرجه من صلاته فلن تظفر بشيء، وإن استعملت معه القوة واضطرت طفولته الضعيفة أن تخضع لها، فهناك يكون لك الويل والثبور، هناك الضرب واللكم وشد الشعر، وكثير جداً العض والمؤلم القاسي.
مرض عمر يوما فخفتت أصوات البيت، وأصبح وجوه جواً حزيناً كئيباً، أصبح كل شيء باهتا صامتا. وانطرح عمر على ذراع جدته في استسلم هادئ حزين. وعيناه الزرقاوان تدمعان قليلاً من فرط الحمى، وخداه تلتهبان من حرها، والتف أهل البيت حوله وكلهم واجم حزين، يحس أن روحه معلقة تنتظر وترتقب، وتخاف كل الخوف من احتمال يبعده العقل ويقربه الحب والشفقة. وتناول عمر الدواء من يد جدته في ألم وحزن، ثم أغمض جفنيه واستسلمنوم بدأ مضطربا، ثم ما لبث أن هدأ قليلا قليلا. ونام عمر زهاء الساعة هادئا، وقام بعدها وقد خف عنه الألم، وأحس أن الداء فارقه تماما. فما كان منه إلا أن سحب غطاء منضدة الدواء غير مبال بما سقط أو تكسر، ثم فرشه وقام يصلي: يركع ويسجد ويصيح (بخ بخ) في حرارة وحماسة. لم ينس عمر أن يشكر الله في مرضه لأنه أنعم عليه بفترة هدأ فيها ألمه فاستراح.
هذه صورة لك يا عمر من صور طفولتك، لست أعرف أين يضعها لك الزمان بين صورك الماضية وصورك المستقبلة. ولكن خالتك تشفق على هذه الصورة البريئة الحلوة الطاهرة من النسيان، فسجلتها لك لتذكرها أيام تحلو لك ذكريات الطفولة. ترى استقابلها بابتسامة كابتسامة الطفولة فرحة مرحة؟ أم بابتسامة أخرى ستعلمها لك الأيام؟

صفحة من تاريخ أفغانستان المعاصر
لمناسبة حوادثها الأخيرة
للأستاذ محمد عبد الله عنان

- 2 -

غادر أمان الله ميدان الحوادث في أفغانستان في ربيع سنة 1929 كما قدمنا، وفر مع زوجه وأسرته مثقلا بما يدخر الأمراء الطغاة مثل هذا اليوم من مال مغتصب؛ ولكن الملك الجديد باشا السقا أو حبيب الله لم يستطع أن يبسط سلطانه على غير كابول وضواحيها، ولبثت أفغانستان تضطرم بالحرب الأهلية، وزعماء القبائل القوية ولا سيما الشنوارى وغلزة يتطلع كل منهم إلى الملك. عندئذ ظهر في ميدان الحوادث رجل لم يكن له في بدء الفتنة من الأمر شيء، وكان يقيم منذ حين بعيداً عن وطنه في معزل

عن الحوادث. ذلك الرجل هو الجنرال نارد خان. وكان من قبل وزيراً للحربية وقائداً عاماً للجبيش في حكومة الملك أمان الله. ولكنه لما رأى اندفاع أمان الله في سياسته الطائشة، استقال من منصبه وعين سفيراً لأفغانستان في باريس، وأبعد بتلك الوسيلة عن طريق أمان الله. فلما نشبت الثورة وتفاقم خطر الحرب الأهلية لبى نادر خان داعي الوطن وعاد إلى أفغانستان ليحاول إخماد الفتنة وإنقاذ أفغانستان من عواقب ذلك النزاع الخطر، ولكنه ألفى الموقف مستحيلا؛ فاعتزم أن يخوض المعركة وأن يحاول سحق ذلك الزعيم المتغلب الذي أثار هذا الضرام، وجعل من أفغانستان مسرحاً لجريمة والفوضى؛ فحشد أنصاره وفاوض زعماء القبائل القوية. ومنالمعقول أيضاً أن تكون السياسة الإنجليزية قد أدت مهمتها التاريخية في هذا النزاع، وأمدت نادر خان بالمعاونة المطلوبة لأنها رأت فيه زعيماً مستنيرا متزناً، ولأنها تحرص دائماً أن يستتب الأمر في أفغانستان لأمير يؤثر التعاون مع بريطانيا العظمى. وعلى أي حال فقد استطاع نادر خان أن يشق طريقه، وأن يهزم قوات المتغلب والثوار في عدة معارك؛ ثم زحف أخيراً على كابول ودخلها في أكتوبر سنة 1929، وقبض على حبيب الله وأمر به فأعدم رمياً بالرصاص؛ وقبض على زمام السلطة في كابول. بيد أنه لم يكن سيد الموقف بعد، لأن الثورة لبثت تضطرم في مختلف الأنحاء. وكان نادر خان كما قدمنا من معارضي سياسة التجديد الأوربي التي كان لها شأن في إضرام الثورة، فالعلن مرة أخرى أنه سيعمل على احترام أحكام الشريعة الإسلامية وتقاليد البلاد وحمايتها من كل انتهاك وعبث؛ وأخذت الثورة تهدأ شيئاً فشيئاً، ونادر خان يصرح أنه لا يبغي العرش وأنه يتركه للرجل الذي تختاره أفغانستان. على أنه لم يك ثمة شك في نتيجة هذا التطور، فقد انتهى نادر خان بارتقاء العرش بعد ذلك بأيام قلائل (15 أكتوبر) على يد جمعية وطنية من الزعماء نادت به ملكاً وأيدته معظم العناصر القوية في البلاد.

وقد ولد السردار محمد نادر خان في سنة 1883 من والدين ينتمي كلاهما إلى أصل ملكي. وظهر منذ فتوته بالبراعة، الحربية وتولى منذ سنة 1919 قيادة حرب الاستقلال الأفغاني في صف الملك أمان الله، ولبث مدى أعوام شخصية بارزة في حياة أفغانستان العامة؛ ولكنه أبى التعاون مع أمان الله مذ رأى تطرفه واندفاعه. وتولى نادر خان الحكم في غمار من الصعاب، ولكنه أبدى منتهى الاعتدال والكفاية والحزم؛ وألغى جميع الإجراءات المتطرفة التي اتخذها أمان الله؛ ورد أحكام الشريعة كما كانت، ونظم علائق أفغانستان مع الدول؛ وكان بريطانيا العظمى أول الدول التي اعترفت بحكومته؛ واهتم نادر خان بإصلاح الجيش وتقويته، ولبث يعمل في مثابرة وجلد حتى عادت السكينة إلى البلاد واستقر الأمر في نصابه نوعا. ولكن بعض القبائل القوية ولا سيما قبيلة الشنوارى لبثت محتفظة بموقفها من الاستقلال عن كل سلطة. ولم تمض أشهر قلائل حتى عادت لثورة والقلاقل العنيفة تهدد سلام البلاد وأمنها؛ فعاد نادر خان الكفاح؛ وكانت تعترضه صعاب فادحة مالية وغيرها. واستمر الثورة تخبو وتضطرم في أفغانستان مدة الأربعة أعوام التي حكمها نادر خان. بيد أنها كانت ثورات محلية؛ ولم تتخذ ذلك العنف الذي تتحول معه مصاير أفغانستان إلى وجهة جديدة؛ وكان نادر خان دائماً رجل الموقف؛ وبذل نادر خان جهوداً صادقة لإصلاح نظم الحكم والادارة، وجرى في الحكم على نظام الوزارة الحديث، وأنشأ مجلساً تمثيليا (برلمانا) يقوم بمهمة التشريع بإشرافه، ولزم جانب الاعتدال في سياسة الإصلاح، ورد المرأة الأفغانية إلى حجابها ومنزلها، ولم يحاول أن يغير بالعنف شيئا من تقاليد البلاد الدينية أو الاجتماعية؛ وسار بأفغانستان في طرق التقدم والتوطد رغم القلاقل التي كانت تعترض سبيله من آن لآخر، وعادت السياسة البريطانية فوثقت علائقها مع أفغانستان، وقامت السفارة البريطانية في كابول مرة أخرى، وطبقت المعاهدة المعقودة بين البلدين منذ

سنة 1921. وبالجملة فقد بدأت أفغانستان على يد هذا الأمير القوي الحازم مرحلة من الاستقرار والتقدم وكان مقدار ان تطول وان تثمر خير النتائج لو لم يذهب نادر خان فجأة ضحية الاغتيال السياسي.

لم يكن مقتل نادر شاه مفاجأة كما قدمنا، فقد رأينا أن عرش أفغانستان يقوم على بركان مضطرم من المنافسة الدموية، ورأينا كيف يذهب معظم الجالسين عليه ضحية الغدر والغيلة. ولم تتضح العوامل والظروف الحقيقية التي ذهب ضحيتها نادر شاه بعد

وضوحاً كافياً يسبغ عليها للون التاريخ الحق. ولكنا نستطيع أن نتتبع هذه العوامل في معترك البغضاء السياسية والشخصية التي تتربص منذ بعيد بنادر شاه وأسرته، وإليك خلاصة ما يقال في اصل الجريمة وأسبابها

كان غلام نبي بين زعماء أفغانستان المقربين إلى الملك أمان الله ومن اكبر معاونيه. وكان يشغل منصب سفير أفغانستان في باريس أيام حكم الملك أمان الله، ويشغل أخوه غلام صادق منصب سفير أفغانستان في برلين. وهو من أسرة (تشركي) القوية، فلما سقط أمان الله وتولى نادر خان، أقيل غلام نبي وعين مكانه في سفارة باريس السردار شاه والي خان أخو نادر شاه، ثم أقيل أخوه غلام صادق بعد ذلك من سفارة برلين وعين مكانه أخ للملك أيضا هو السردار محمد عزيز خان.

ولبث غلام نبي حينا في أوربا ثم عاد إلى أفغانستان بشفاعة آخي الملك والي خان وبعد وعد ملكي بالأمان. واستخدمه نادر شاه في مهام عسكرية وسياسية في بعض الاقاليم، ولكن غلام نبي كان يضطرم بأطماع خفية، وكان يبث دعوة الثورة ضد نادر شاه خفية ويدعو لصديقه السابق أمان الله، ووقف نادر شاه على طرف من مساعيه فاستدعاه إلى كابول واستدرجه على مجلس عقده في قصره بضاحية (الارج) التي تضم القصور والقلاع الملكية، ولما ظهر نبي خان أمامه أبرز له بضع الوثائق التي تثبت خيانته، فحاول غلام نبي الجدل والمكابرة، ولكن نادر شاه كان قد أعد العدة للتخلص منه وفي الحال ظهر عدة جنود مدججين بالسلاح وانقضوا عليه وقتلوه خنقا أمام عيني الملك. وأخفى نبأ موته حتى عقد نادرشاه في اليوم التالي محكمة من الرؤساء اجتمعت سرا وقضت بإعدام غلام نبي جزاء خيانته، ثم نشر نبأ إعدامه بعد ذلك في الجريد الرسمية، وعلمت أسرة (تشركي)

أسرة غلام نبي القوية - بمصرع زعيمها، وأقسمت بالانتقام

وكان ذلك في الثامن من نوفمبر سنة 1932، أي لعام بالضبط قبل مقتل نادر شاه. وعلى أثر ذلك قبض على كثيرين من أسرة غلام نبي وأتباعه. وكان ممن قبض عليهم بسبب الحادث عامل جنان من أتباع غلام نبي وولده، وهو طالب في السابعة عشرة من عمره يدعى عبد الخالق، فاعتقل الفتى أياماً ثم أطلق سراحه بشفاعة وزير المعارف لأنه طالب مجد متفوق في الألعاب الرياضية ولم تلحقه أية شبهة. وكان الفتى عبد الخالق هذا هو قاتل نادر شاه في المستقبل

أقسمت أسرة (تشركي) بالانتقام وعملت له، وظهرت البوادر الأولى لانتقامها المبيت في يوليه سنة 1933، في برلين حيث قتل السردار محمد عزيز خان أخو الملك نادر شاه وسفير أفغانستان في برلين، قتله طالب أفغاني من حزب (أفغان الفتاة) الذي يناصر سياسة الملك أمان الله، واتجهت الريب يومئذ إلى غلام صادق أخي غلام نبي الذي كان يشغل من قبل منصب سفير أفغانستان في برلين وعرضت أسرة غلام نبي في كابول بسبب هذا الحادث إلى مطاردات واضطهادات جديدة، وازداد الملك نادر شاه ريباً فيها وحذراً منها، وازدادت الأسرة ظمأ إلى الانتقام.

وكان الفتى عبد الخالق أثناء ذلك متصلاً بأسرة غلام نبي التي يعمل لديها أبوه، وكانت الأسرة تبث إلى كل من يتصل بها روح البغض لنادر شاه والنقمة عليه. وهنا تروي قصة غرام وانتقام خلاصتها أن الفتى عبد الخالق هام بحب سيدة رائعة الحسن من سيدات أسرة غلام نبي، وأنها شجعته وبادلته الهوى، وأغدقت عليه كل عطفها وحنانها، وكانت أبواب القصر تفتح لعبد الخالق صباح ومساء، ويلتف حوله سيدات الأسرة جميعاً، ويبذرن في نفسه المتيمة الهائمة ضرام البغض والنقمة، وكانت صاحبته الحسناء تملك عليه كل حسه وتفكيره، وتصور له المستقبل بديعاً فياضاً بالآمال الكبيرة، وذا قتل نادر شاه وعاد أمان الله، فأن أسرة تشركي تعود إلى سابق مجدها ونفوذها، ويغدو عبد الخالق وأسرته من ذوي النفوذ والغنى.

ولم تمض أشهر قلائل حتى نضج المشروع، ولم يبق على عبد الخالق إلا أن يتحين فرصة التنفيذ. وسنحت هذه الفرصة في اليوم الثامن من نوفمبر، وكان قد تقرر أن تقام في هذا

اليوم مباراة في الكرة بين فريق المدرسة الفرنسية الأفغانية، وفريق المدرسة الألمانية الأفغانية التي ينتمي عبد الخالق إلى طلبتها ويعمل عضواً في فريقها الرياضي. كذلك تقرر أن يرأس الملك نادر شاه الحفلة ويتولى توزيع الجوائز على

الفائزين، وأقيمت المباراة في إحدى ساحات الحدائق الملكية في (أرج) في عصر هذا اليوم. وقصد الملك نادر شاه مع ولده ظاهر شاه وعدة من الأكابر إلى الخيمة الملكية لمشاهدة المباراة، وفي أثناء سيره خرج من صف الطلبة المجاور له طالب يرتدي ثياب اللعب، واقترب منه بسرعة ورفع يده وأطلق ثلاث رصاصات متواليات، فوضع الملك يده على قلبه وسقط صريعاً على الأثر، وكان هذا الطالب هو عبد الخالق. ووقع الحادث بسرعة مدهشة، وذهب دوي الرصاص في الضجيج والهواء فلم يفطن له أحد. وساد الهرج وقبض على المعتدي وتمت المأساة.

هكذا تروي العوامل والظروف التي دبر فيها مقتل المغفور له نادر شاه، وهكذا توصف الصورة التي تمت الجريمة وقد كان للحادث دوي عميق؛ وكان مدبرو الجريمة يؤملون على ما يظهر أن يحدث موت نادر شاه اضطرابا وقلاقل ينتهزها خصوم الملك القتيل لإضرام الثورة؛ وكانت بوادر الثورة تبدو في الجنوب منذ حين؛ ولكن السردار محمودوزير الحربية وأصغر أخوة الملك القتيل أبدى منتهى الحزم والسرعة في تلافي هذا الأثر، فلم تمض ساعة واحدة على مقتل نادر شاه حتى كان قد استدعى الوزراء والقادة والزعماء إلى القصر، ونادى في الحال بظاهر شاه ولد الملك نادر شاه الوحيد ملكا على أفغانستان مكان أبيه؛ وحياة الزعماء والقادة والضباط في الحال بلقب الجلالة. وقد أبدى السردار محمود في ذلك تضحية وحكمة سياسية بعيدة المدى، لأنه من حق اخوة الملك طبقا لقانون العرش الأفغاني أن يرثوا العرش؛ ولكن السردار محمود أدرك في الحال ما قد تثيره مسألة العرش بين أخوة الملك الثلاثة وبين المتطلعين إلى العرش من الاضطراب الخطر على سلام البلاد؛ وجاء رفع ظاهر شاه إلى العرش حاسماً لكل خلاف وجدل وفي الحال زج الفتى القاتل إلى قلعة القصر، ووجد معه على ما يقال صور الغادة الحسناء التي حرضته فقبض عليها، وقبض على كثيرين من أسرة غلام نبى رجالا ونساء وأطفالا، وقبض على كثيرين من زملاء عبد الخالق في المدرسة وعلى بعض المدرسين، بل وعلى وزير المعارف؛ وهبت على العاصمة الأفغانية ريح من الروع والرهبة؛ ومازالت أقبية السجن الملكي غاصة بالمقبوض عليهم ولا يعلم حتى اليوم من زهق منهم ومن باق على قيد الحياة

وملك أفغانستان الجديد جلالة ظاهر شاه في العشرين من عمره وهو ولد نادر خان الوحيد، ولكن له أربع شقيقات هن بالتعاقب: الأميرة زهرة وهي في السابعة عشرة، والأميرة زينب وهي في الخامسة عشرة، والأميرة سلطانه وهي في الرابعة عشرة والأميرة بلقيس وهي في الثانية عشرة، وقد تلقى ظاهر شاه بعض تربيته في فرنسا، وأقام هنالك نحو ثمانية أعوام، وهو ذو آراء وتربية عصرية ويجيد اللغة الفرنسية فضلا عن الفارسية والأوربية (الهندية).

وقد كان منذ حين، أثناء حياة والده يتولى بعض الوزارات والمهام الرسمية طبقا للتقاليد أمراء الأسرة الملكية؛ وهو بعد الملك غازي، ملك العراق أحدث ملوك الشرق والغرب سنا.

وقد مضى إلى اليوم زهاء أربعة أشهر مذ تولي ظاهر شاه عرش أفغانستان دون أن نسمع بحدوث اضطرابات أو قلاقل جديدة، والظاهر أن حكومة الملك الجديدة تقبض على ناصية الموقف، وأن بوادر الثورة التي كانت على أهبة الانفجار قد أخمدت أو اختفت إلى حين وأن الشعب الأفغاني يؤيد القابضين اليوم على زمامه. وهكذا تتحطم آمال المتطلعين إلى العرش وفي مقدمتهم الملك السابق أمان الله مرة أخرى.

ونحن نغتبط إذ نرى أفغانستان تجوز أزمتها الخطيرة بمثل هذه السرعة، ونرجو أن تظل هذه الشقيقة الشرقية النابهة متمتعة بالاستقرار والسكينة، بعيدة عن كيد السياسة الأجنبية ومطامعها؟

محمد عبد الله عنان

من أحاديث القهوة:

في الحب. . .

ولم تكن إلا سنة واحدة حتى تمزق ذلك الثوب. وبدت من ورائه امرأة كهذه . . . المئات من النساء: نبصرهن كل يوم فلا نكاد نحس بهن ولا يهجن فينا شعوراً وكيف تبدلت؟ ألم يكن يهيم بها ويراها جميلة فتانة؟

بلى. ولكنه كان يراها جميلة لأنه يحبها. والمرء - كما يقول ده كارت - يرى من يحب جميلا، ولا يحب من يراه جميلا، وإذا هو أحب امرءاً أسبغ عليه من خياله ثوبا يراه به أجمل الناس
- وذلك الحب المضطرم، الذي كان يخفق به قلبه في صدره. وبه تجري دماؤه في عروقه؟. . أليس عجيباً أنه قد مات؟ أليس لها هاتان العينان العميقتان كالبحر الصافيان كأديم السماء. . أليس لها ذلك الجسم الأبيض الغض، أليس لها تلك الرشاقة الفاتنة، فكيف إذن يسلوها ويموت حبه إياها؟
- قد مات هذا الحب. لأنه لم يكن عذريا صافيا. وهي جميلة لا تزال، ولكنه شبع منها كما يشبع الإنسان من الطعام مهما لذ وطاب. ولو تنزه حبه عن مأرب الجسم، وعقد الصلة بين الأرواح لكتب له بالبقاء.
وكان الأستاذ صالح عاكفا على نار جيلة لا يتكلم، فرفع رأسه وقال:
- أي بقاء؟ أسمعت أن حبا كتب له البقاء، إن الحب يا صاحبي كالزهور العطرة ينعشك عطرها ويعجبك لونها ولكنها لا تعيش طويلا. ثم ما هو هذا الحب العذري الذي تتحدث عنه؟ انه لا يوجد إلا في مكانين: القاموس، وأدمغة أمثالك من الناس!
وأقبل على نار جيلته يصلحها ويدعو لها بجذوة من نار. ولم يلق بالا لجواب فوزي، فجذبه من طوقه وصاح به:
- إلا تسمع؟ أنت دائماً هكذا. . . تريد ان تتكلم ولا تتنازل للإصغاء.
فاصلح ثيابه باسما وقال له:
- ولماذا تريد أن أصغي إليك؟
- لأنك مخطئ. . . مخطئ. . . أريد أن أوضح لك الحقيقة.
- أشكرك، لا أريد أن توضح لي شيئا
بل ستسمع وأنفك راغم: إن من الحب حبا لا يفكر فيه الإنسان في شيء من اللذاذات الجسمية. بل ليس فيه مكان، فهو اتصال في الأرواح وتمازج، هو ان يفنى كل من المحبين في الآخر!
- شيء جميل. من أين تعلمت هذا؟ أمن شعر المجنون، أم من قصص لامارتين؟
- من أي كان؟. . ماذا يهمك أنت؟ لماذا تتهكم دائماً؟
- ذلك لان لامارتين نفسه كان من أجرأ الناس على اللذة الجسمية وأشدهم تهالكا عليها، وما كتب قصصه بهذا الأسلوب الفاتن الممتع! إلا ليسخر منك ومن أمثالك
- أنا عرفت هذا الحب بنفسي
- وأنا أيضا قد عرفته، انه حب لا تجد فيه الرغبة الجنسية سبيلا إلى الظهور فتبقى مخبوءة في قرارة النفس، حتى إذا اتسع السبيل ظهرت على أتمها، ولو انه كان خاليا منها لأحب الرجل أخته الجميلة!
- شيء فظيع. . . إن طبيعة الإنسان تأباه
- نعم تأباه لان الطبيعة تفهم الحب على انه لون من ألوان الصلة الجنسية، بل هو المخدر الذي ابتدعته الحياة لتمام هذه (العملية) اللازمة لبقاء الجنس البشري. ثم. . . تصور فتاة جميلة تحبها حباً عذرياً. . هل تصورتها تماما
- نعم.
- وتصورت انك تحبها لنفسها لا لجسمها، ولا تطمع منها إلا بهذه الصلة الروحية؟
- نعم.
- وانك ستقيم على هذا الحب؟
- نعم. . وماذا بعد؟
- تصورها الآن وقد أصابها مرض عضال، بدد محاسنها، وبتر أعضاءها. وجعلها قطعة من اللحم المنتن، هل تبقى على حبها؟
- نعم، إنني أشفق عليها وأحميها
فضحك الأستاذ صالح وقال:
- ها أنت قد اعترفت. . إن الشفقة شيء غير الحب. . أرأيت كيف اتضحت الحقيقة؟
وأراد فوزي وقف الجدال فقال:
وصديقنا جميل. . . ماذا فعل بعد ذلك؟ قد أضعت علينا قصته.
أعاد إلى زوجته الجاهلة القذرة التي تلقاه وعلى يديها أثر الصابون وفي ثيابها رائحة

البطيخ؟. . كيف يطمئن إليها، ويأنس بها بعد أن عرف لويزا؟
فقال صالح:
- إن يكون للويزا جمال الأصباغ والعطور - والثياب الشفافة - والأعضاء العارية - فان لهذه الجاهلة القذرة، جمال الإخلاص والأصباغ والعطور تهيج من نفوسنا مكان الشهوة، أما الإخلاص فيهيج منها مكان الروح
- ما هي الروح وما هي الشهوة؟. . إني لم افهم! أتريد أن تقول إن هذه المرأة التي لا تعرف كيف تتحدث إلى صديقنا جميل. ولا تدري كيف تسايره في شارع أو تصحبه إلى سينما، ولا تدرك أفكاره ونفسه، توائم روحه ويراها جميلة أكثر من لويزا؟. . مستحيل!
- قد تكون دونها جمالا ورشاقة، ولكنها امرأة شرقية تفنى في زوجها: تعيش من أجله. وتقف حياتها على راحته وتسهر عليه لينام، وتحرم على نفسها الطيبات لتوفر عليه ماله، وإذا رأته محتاجا نزعت حليها من نحرها وأخذت لقمتها من فيها لتسد حاجته، وإذا مرض فدته بنفسها. وإذا أصابه مكروه طارت نفسها عليه شعاعا، ثم هي الراضية أبداً، القانعة بالقسط الأقل من حبه أو من ماله، أحب هذه العاهرة وانتزع المال من فم زوجته ليصبه على قدميها. ونال زوجه بالأذى من أجلها، فما شكت ولا حملت له كرها ولا حقدا، ثم هي تفرغ عليه من الإجلال ما يجعله معصوما عن الزلل والخطأ، أفتقيسها بتلك؟
- هاها. . إنها لا تصلح خادما. فليضح بها من أجل لويزا.
- إنها هي الزوجة يا سيدي
- وإذا كانت هي الزوجة؟ إن الحب الذي عقدته الطبيعة بين قلبيهما أوثق وأقدس من الزواج الذي عقده إنسان!
فألقى صالح أنبوبة النرجيلة من يده. وصاح به في شدة وغضب:
- أنا لا أستطيع أن اسمعهذه الآراء التي تنسف حياتنا من أساسها، وإذا هي صحت في المجتمع الغربي، فما كانت لتصح عندنا، ومن الجنون أن نقيس عن الغرب كل ما يأتينا به، فنلبسه وهو ثوب فصل لغيرنا، فيجيء واسعا نضيع فيه، أو ضيقا يتمزق من دوننا. . إن الحب الذي تعقده يد الشهوة، ويعيش في جو مشبع بالرذيلة، ويولد في ليلة ليموت في أسبوع لا يمكن أن يكون أوثق ولا أقدس من الزواج الذي ينشئ إنساناً كاملاً من نصفي إنسان! وإذا جعلنا الحب أساس الحياة، لما عرف امرؤ اباه، ولما بقيت زوجة لزوجها؟ لأن القلوب تنقلب والمرأة التي تحبك اليوم قد تحب في غد غيرك، والقلب الذي يميل إليك قد يميل عنك، افنهدم الحياة يا سيدي من أجل خاطر هذه (المودة)،. . (مودة الحب)، ونقتل زوجاتنا الوطنيات الشريفات، أمهاتشعب المستقبل. من أجل خاطر هؤلاء (الارتستات) اللاتي يبعث بهن إلينا الغرب فيما يبعث به إلينا من سموم ومهلكات. . أليس خيرا لنا أن يقال انا رجعيون من أن نشهد بناتنا وأخواتنا عاريات على الشواطئ في الصيف، ونساءنا مهجورات باكيات في البيوت وفي الشتاء، وأبناءنا ناشئين بين الألم والرذيلة، والسفالة والشقاء؟
ألا إن الحب لذيذ ممتع، والمدنية ساحرة فاتنة، والتجديد ضروري واجب. . . ولكن يجب أولاً أن نحيا. . . . . وكان جميل قد وصل فانقطع هذا الحديث، وأخذوا في حديث آخر
دمشق
علي الطنطاوي ليسانسييه في الحقوق
محجر الطور
مقدمة
تستعد وزارة الداخلية في مثل هذه الأيام من كل سنة أي في موسم الحج لاستقبال الحجاج مصريين وأجانب عند عودتهم من البلاد المقدسة في الحجاز بعد تأدية فريضة الحج فتوفد موظفين مؤقتين يبلغ عددهم كثرة وقلة تبعاً لعدد الحجاج ولمدة العمل في محجر الطور، وتستغني عنهم عند الانتهاء من الغرض الذي من أجله توفدهم إليه، وتنتدب كذلك موظفين ملكيين وعسكريين للغرض نفسه يعودون إلى مقر وظائفهم عند نهاية الموسم.
الموظفون
يحيا المحجر وينتعش مدة الموسم وبعد ذلك يكاد يكون ساكنا لقلة الحركة فيه ويحييه الموظفون ثم الحجاج فيصبح مملوءاً بالسكان عامراً بالحركة والتجارة.

ويرأس الموظفين جميعاً مدير المحجر وهو موظف كبير بوزارة الداخلية ينتقل إليه في موسم الحج، وكان إلى سنة 1931 سعادة الأمير الاي محمد بك المسيري، والموظفون أما تابعون للإدارة نفسها وإما تابعون لمصلحة الصحة، ويدير هؤلاء طبيب كبير هو طبيب أول المحجر. والموظفون أما منتدبون كموظفي وزارة الداخلية ولأطباء وكضباط الجيش والبوليس وجنودهم، وإما معينون تعيينا مؤقتا يستغني عن خدمتهم بعد انتهاء الحج، والمفروض في جميع الموظفين انهم لراحة الحجاج وخدمتهم والسهر على سلامتهم وصحتهم

باخرة الحجاج

تمكنت من فحص البواخر التي كانت تنقل الحجاج عامي 1929 و 1931 وخرجت بنتيجة ثابتة هي أن معظم هذه البواخر لا يعتني أصحابها براحة الحجاج بالدرجة الثالثة بل انهم يعاملون فهيا معاملة خالية من روح العدل، فهم مكدسون في عنابرها تكديسا، وقل ان يدخلها ضوء الشمس فتنبعث منها راحة كريهة تكاد لا تحتمل يلاقون صعوبة كبيرة في الحصول على الماء العذب ولا يوجد في الباخرة كلها - وقد تحمل في بعض الأحيان الفي حاج - سوى طبيب واحد يهمل أغلب الأوقات الغرض الذي من أجله انتدبوه له وإني كمصري مسلم أود أن يتلافى هذا النقص في بواخرنا الوطنية الجديدة

الاجراآت الأولية

إذا وصلت باخرة تحمل حجاجها إلى ميناء الطور يكون كل شيء معداً لاستقبالها ويقابل المدير ومساعدوه وكبير الأطباء ومساعدوه الباخرة وتفحص عموميا، حتى إذا لم يكن هناك ما يشتبه فيه من الأمراض المعدية سمح للحجاج بالنزول فينزلون ومعهم متاعهم، وتبقى الباخرة أن لم تكن عائدة إلى جدة ثلاثة أيام يقوم عمال الصحة خلالها بغسلها وتعقيمها، أما إذا وجد مريض أو أكثر فان رجال الإسعاف يحملونهم بعد أن يودعوا متاعهم وما لهم بيت المال إلى المستشفى، وغالبا يشفون إلا إذا كتب عليهم أن يتوفوا في هذا المكان.

المباخر

هي ثلاث مباخر، والمبخرة هي الصلة بني الاسكلة ونفس المحجر ولا يسمح لحاج ما أن تطأ قدمه أرض المحجر قبل أن يبخر وتعقم الأدوات التي معه والتي يرى رجال الصحة ضرورة تبخيرها، اللهم إلا في أحوال نادرة جداً يسمح فيها لبعض الحجاج من الطبقة الأولى إلا تجري له عملية التبخير ويأخذ الطبيب مسئولية ذلك على عاتقه والحمامات التي يغتسل بها الحجاج في المباخر قسمان: أحدهما للرجال والآخر للنساء بطبيعة الحال، ويعطى لكل حاج رقماً يحمل مثله الكيس الذي به أدوات الحاج المراد تعقيمها حتى لا تختلط أدوات هذا بأدوات ذاك.

ويبدى المحجر اهتماماً خاصاً نحو ماء زمزم الذي يجلبه معه الحاج تبركا به له ولأهله الذين لم يسعدهم الحظ بالزيارة ويحمله في صفائح مقفلة أو في زجاجات أو أوان جلدية، وفي كثير من الأحيان يخبئه الحاج خوفاً من أن يعثر عليه رجال المحجر لأنهم يبدونه في الحال إن كان في زجاجات أو في جلد لتعذر تعقيمه عندئذ ويعقمون الصفائح

وكنت أدهش كثيراً عند ما أرى الحجاج المصريين يتمسكون بحيازة هذا الماء، وكنت أفهمهم انه كان سبب عدوى الكوليرا في مصر عاما ما، وقد زادت دهشتي عندما وجدت الحجاج الأجانب أشد تمسكا به يكادون يبذلون كل ما معهم من قوة في سبيل حيازته حتى لقد رأيت رجلا يبكي بكاء الثكلى عندما كسرت له زجاجات قذرة كان يحمل فيها هذا الماء،

وكم كان فرحه شديداً عندما أحضرت إليه زجاجات بدلها بها ماء من الصنبور على أنه ماء زمزم

الحزاء

الحزاء مكان يقضي فيه الحجاج أيام الحجر الصحي، وهي ثلاثة أيام في العادة، إلا إذا اشتبه في نظافة الحج، فان الأيام تزيد زيادة يقررها مجلس الإدارة. والحزاء يسع عدداً كبيراً، وهو مقسم إلى عنابر فسيحة ينزل كل عنبر في الغالب حجاج قرى متقاربة أو مراكز متجاورة، وبالحزاء غرفتان أو أكثر لحجاج الدرجة الأولى، يؤجر السرير فيها مدة

الحجر بجنيه واحد، ويشرف على كل حزاء موظف من الداخلية وآخر من الصحة، الأول يراقب الحجاج ويراقف التاجر الذي يبيعهم الأشياء ويطعمهم، فيمنعه من الغش ومن بخس الميزان، ثم هو يسمع شكايتهم ويعمل على إرضائهم. والموظف الثاني يراقف نظافة الحزاء ويأخذ عينات من براز كل حاج لفحصها بالمعمل، ويصرف الأدوية ويبلغ عن المريض.

ولكل حزاء بوابة يحرسها جندي شاكي السلاح لا يسمح لأحد بالدخول إليه أو الخروج منه إلا للموظفين الذين يقومون بأعمال تستوجب دخوله أو الخروج منه، على أن يكون بيدهم تصريح خاص بذلك. وبالجملة فيجمع الحزاء كل أنواع الراحة التي يتطلبها الحاج حتى لينتقل إليه كل يوم في ساعة خاصة عاملا البريد والبرق لتوزيع الرسائل وإرسالها.

والحزاءات عشرة من خلفها عشرة أخرى هي بمثابة حزاءات احتياطية أقل تنظيماً من الأولى ينزل بها الحجاج إذا كثر عددهم فامتلأت بهم دون أن تسعهم جميعاً.

بيت المال والمستشفى

بيت المال اسم يطلق على مكتب أعد لحفظ أمتعة وأموال من توفى من الحجاج في الأحوال النادرة ومن يدخل منهم المستشفى بسبب المرض، فإذا كان المتاع لمتوفى قيد في سجل خاص وأعطى رقماً ليرد إلى ورثته بمعرفة القانون، ويحفظ متاع المرضى إلى أن يشفوا ويخرجوا فيعاد إليهم.

وتقع المستشفيات في طرف المحجر بعيدة عن الحركة والضوضاء، ولا يسمح إلا لسيارات الإسعاف التي تحمل المرضى باجتياز خط المستشفيات حتى لا يقلق المرضى، ويبدي المحجر عناية بالغة بزائري المستشفيات يستحق عليها الشكر والجزيل، وهي أما عادية للمرضى العاديين، وأما خاصة بالأمراض المعدية الخطيرة وهذه لا يسمح بدخولها لغير المرضى إلا للطبيب الخاص ولمساعديه وهي بعيدة عن المستشفيات الأخرى تكاد تكون منقطعة عن كل ما عداها.

وفي حيز المستشفيات يقع المعمل وهو معد بأحدث أنواع الفحص الميكروسكوبي والبكتريولوجي وبأفران الزرع وعمل الأمصال وغير ذلك مما يحتاج إليه الحال كثيراً في هذا المكان، وفي الحقيقة إن في هذا المعمل وفي هذه المستشفيات لرحمة كبيرة للحجاج وطمأنينة وسلام لمصر والعالم الإسلامي لأنها تفحص الحجاج وتطمئن على سلامتهم وتعزل المصابين منهم إذا وجدوا وتكافح أمراضهم وتعمل على عدم نشر العدوى، ويدل على ذلك الاهتمام ان المعمل يفحص عينات برازية لكل حاج متى استقر في حزائه وقد تتكرر عملية الفحص مرتين أو أكثر للتأكد من نظافة الحج، ولا يقتصر غرض المستشفى على الحجاج - ولو أنه أنشئ من أجلهم. - ولكنه يتعداه أيضاً إلى من يمرض من الموظفين والجند والخدم.

توفير أسباب الراحة

الحاج وإن اشتد شوقه إلى أهله وبلده وعمله وكان يحلم بالطبل والزمر اللذين ينتظرانه في محطته أو في حيه، ويتخيل الوفود التي تأتي إليه متبركة به ويتصور أحباءه وهم يتقبلون منه هداياه من مسبحة وعقال وخاتم وملفعة وغير ذلك من صنع الحجاز ويود لو تحمله طائرة إلى مقره بعد المتاعب التي تحملها في الصحراوات والبحر والانتقال والسفر - يكون على رغم هذا كله مبتهجا في أيام الحجر الصحي، لان أسباب الراحة متوفرة له فهو مطمئن على نفسه من الوجهة الصحية، لان المحجر كفلها له، ومتاعه وماله في مأمن حريز، ومأكله وشرابه نظيفان يعتني رجال الإدارة والصحة بهما عناية فائقة. . متاعه يحمل إليه من غير أجر، ولو كان فقيرا لا يملك معه مالا فان ببيت المال يتكلف بإطعامه حتى يعود إلى وطنه، وكم من شكاوى تافهة يبلغها الحاج إلى المدير - وكان في السنتين اللتين كنت بالمحجر فيهما صاحب العزة المسيري بك - فكان يهتم عزته بها اهتماماً كبيراً

إرضاء للحاج وإراحة له

وفي المحجر آلة للإضاءة بالكهرباء وأخرى لتكرير المياه وعمل الثلج، وبه (مطعم) يديره متعهد يوقع على اتفاق بينه وبين المسئولين على تحديد الأثمان وجودة الأصناف وعدم استعمال الغش.

المحجر
محجر الطور لابد أن يكون من أشهر محاجر العالم، وموقعه صحي لأنه في وسط مساحة هائلة من الفضاء يهب عليه هواء الصحراء الجاف ونسيم البحر العليل، وله بوابتان رئيسيتان: إحداهما تصله ببلدة الطور والأخرى بتلال طور سيناء.
وغير ما ذكرت من أقسام المحجر أعدت فيه أبنية مريحة لسكنى الموظفين، ويصرف أمين المخزن لكل موظف الأدوات التي يحتاج إليها مدة العمل على أن تكون عارة يردها عند نهاية المأمورية.
وقد أعد لعمل المحجر زورقان بخاريان، وزوارق أخرى عادية وأكثر من سيارتين للركوب وعربات (اللوري) للنقل وسيارات الإسعاف.
وينتدب في كل موسم فصيلة من جنود الجيش على رأسهم ضابط عظيم برتبة البكباشي يحرسون المحجر بالمناوبة ويسهلون كثيراً من أعماله، هذا عدا ضابطين من البوليس يقومان بتحرير المحاضر وتحقيق الشكاوى.
ويقوم متعهد خاص بتوريد عدد من الخدم يكون هو مسؤولا عن سلوكهم لحمل أمتعة الحجاج ولنظافة أقسام المحجر ولخدمة الموظفين:
والأطباء يكفون العمل وهم بنسبة طبيب واحد لكل حزائين غير أطباء المستشفيات وغير طبيبة للسيدات.
والموظفون ينقسمون من حيث العمل أقساماً: فمنهم من يفرز أجوزة السفر وهي (الباسبورتات) ويوزعها على أصحابها بعد التوقيع اللازم عليها، ومنهم من يراقب أمتعة الحجاج حتى لا تختلط أو تفقد، ومنهم من يتولى خدمتهم مدة الحج في الحزاء وغير ذلك من الأعمال الكثيرة اللازمة.
عيون موسى
إذا خلا المحجر من الحجاج - وقد يخلو منهم مرة أو مرتين خلال الموسم - تفتح بواباته ويتصل من به ببلدة الطور حتى يحين ميعاد إغلاقه مرة أخرى عند ورود حجاج.
والطريق إلى عيون موسى طويل تتخلله كثبان رميلة ونباتات صحراوية تنتهي ببستان عظيم من أشجار النخيل والكروم يحيط به سور باللبن. وعيون موسى يحيط بها جدران وسقف يقولون ان الخديو إسماعيل أمر بإقامتها، وتصب العين ماءها الفاتر الشفاف الكبريتي في حوض مساحته متران ونصف متر مربعة، وهي كدير الطور من الأماكن التي يزورها بعض من السائحين والمسافرين.
عبد الرحمن فهمي
ليسانسييه في الآداب
فلسفة الكون عند إخوان الصفا
للأستاذ أديب عباسي
خلق الكون - خلق الإنسان - غاية الوجود - معنى البعث - العقاب الذاتي
في رأي الإخوان أن الكون وما فيه من أجرام وأفلاك سماوية وأحياء وكائنات أرضية مشتق جميعاً ومنبثق من الله، ولكنه انبثاق متسلسل غير مباشر، وأول ما انبثق منه هو العقل الكلي أو القوة الإلهية
المؤيدة للنفس الكلية، ثم النفس الكلية السارية في جميع الأجرام السماوية والأحياء الأرضية. وهذه النفس الكلية هي بطبيعة الأمر أحط من العقل الكلي، لأنها منبعثة منه، ولأن وجودها متوقف عليه. (ولهذه النفس الكلية قوتان ساريتان في جميع الأجسام: إحدى قوتيها علاَّمة، الأخرى فعَّالة. فهي بقوتها الفعالة تتم الأجسام وتكملها بما تنقش فيها من الصور والأشكال، وبالقوة العلامة تكمل ذاتها (أي النفس الكلية) بما يظهر من فضائلها من حد القوة الكامنة إلى حد الفعل).
ويرى إخوان الصفا أن ظهور الإنسان نتيجة لرغبة النفس الكلية في الحصول على المعرفة التامة التي هي من صفات العقل الكلي. ولهذا فان هذه النفس الكلية تنزل إلى الأرض وتنتشر على سطحها بهيئة أنفس جزئية. إلا أن هذه الأنفس لا يمكنها أن ترقى إلى مستوى العقل بدون معونته وإرشاده. ومن أجل هذا ينزل العقل إلى الأرض، فيساعد النفوس إذ يحل فيها ويظهر بهيئة العقول الإنسانية. بيد أنه لما كانت النفوس دائمة التغير كثيرة التحول وكان العقل ثابتاً لا يعتريه النقص أو يعتوره التغير أصبح العقل يحل في هذه الأنفس الجزئية حلولا متعاقبا. وهو عند هذا الحد من الحلول

يدعى العقل الناطق. وهي الذي يرسل الأنبياء ويبعث الرسل ليؤدوا رسائله إلى العالم
أما النفس الكلية فهي إذ تحل في الأجسام بشكل أنفس جزئية تأخذ على عاتقها
تفسير ما عمى على الناس فهمه وغاب عنهم علمه من رسائل هؤلاء الأنبياء والرسل.
فإذا أحسنت هذه الأنفس الجزئية الاسترشاد بنور العقل وأفسح لها البقاء زمناً كافياً
تنال فيه حظا وافياً من فنون الحكمة والتهذيب تضحي أهلا للاتحاد بالنفس الكلية. وإذا
حمُ القضاء انطلقت هذه الأنفس من أجسادها (التي هي بمنزلة الرحم للجنين) وعند ذلك ترتقى إلى
الملأ الأعلى لتتحد بالنفس الكلية.
هذا هو معنى المعاد في نظر إخوان الصفا: وهو الاتحاد بالنفس الكلية ثم بالله في
اليوم الأخير، ومن هنا أصبح مثل الحياة الأعلى للإخوان (التشبه بالإله بحسب طاقة
الإنسانية) على أن نظر إخوان الصفا إلى الحياة هذا النظر - نظر من لا يرى فيها إلا
أنها سبيل أو جسر يمر عليه الناس إلى الحياة الأخرى - لم يحملهم على احتقارها أو
التقليل من شانها والزراية عليها (لان الحياة الدنيوية سبب للموت. والإنسان ما لم
يدخل في هذا العالم لا يمكنه أن يموت، فإذا وجد الإنسان تكون حياته سبباً لموته،
وموته سبباً لحياته الباقية أبد الآبدين) بل هم يرون أنه كلما مد في أجل المرء ازداد
حكمة ومعرفة، وبالتالي دنوا من الله. ومن هنا لم يتشدد إخوان الصفا ولم يغالوا في
الأنحاء على الجسم الإنساني والانتقاص من أسباب متعته مغايرين في هذا لفيفا كبيراً
من المذاهب الشرقية التي جعلت دأبها حرمان الجسم الإنساني من كل لذة جمسانية
أو متعتة حسية.
والصورة التي خلفها لنا إخوان الصفا عن جهنم هي صورة هينة لا تبعث الرعب في
النفوس ولا ترعد لها الفرائص، فجهنم الإخوان هي هذا العذاب النفسي الذي يسلط
على النفوس لدن يحال بينها وبين ما تهوى وتحب. وذلك أن أنفس الأشرار (إذا فارقت
أجسادها بقيت مسلوبة آلات الحس الخمس التي كانت تتناول بها الملاذ الجسمانية
وصارت بعد ذلك ممنوعة عنها بعد ما اعتادتها بطول التدريب وعند ذلك يكون مثلها
مثل من سملت عيناه وصمت أذناه وسد منخراه وأخرس لسانه وشلت يداه واشتد
شوقه إلى لذاته، وهكذا يكون حكم نفوس الكفار إذا فارقت أجسادها وسلبت منها
آلات الحس وحيل بينها وبين شهواتها. . وتكون هائمة في الجو دون فلك القمر
(المسافة بين فلك القمر ومركز الأرض هي عندهم منطقة جهنم) وتطرح بها أمواج
الطبيعة في بحر الهيولى إلى كل فج عميق وهي مشتعلة فيها بنيران شهواتها، وتكون
معذبة بذاتها من وزر سيآتها وسوء عاداتها.
هذا مجمل رأي الإخوان في مسائل الخلق وغاية الوجود والثواب والعقاب وهو رأي
نحوا فيها منحى بعض المذاهب الفلسفية القديمة كالأفلاطونية الحديثة ومذهب وحدة
الوجود وما إليها مما تأثر به فلاسفة الإسلام وظهر واضحا جليا في كثير مما كتبوا
ودونوا.
شرق الأردن
أديب عباسي
استدراك
في خاتمة حياة حجاج الخضري
تساءلت في خاتمة مقالي السالف عن (حجاج الخضري) عما آل إليه أمر هذا البطل
المصري أقتل انتقاماً من كبريائه، ام هاجر إلى بلد غير مصر؟ وقد تفضل العلامة
المفضل الاستاذ شفيق غربال فأرسل إليَّ ما جاء في تاريخ الجبرتي خاصا بخاتمة حياة
ذلك الرجل في حوادث رمضان سنة 1232 من الهجرة.
فقال الجبرتي: (في ليلة الخميس 17 منه (أي رمضان) طلب المحتسب حجاج
الخضري الشهير بنواحي الرميلة فأخذه إلى الجمالية وشنقه على السبيل المجاور
لحارة المبيضة، وذلك في سادس ساعة من الليل وقت السحور وتركوه معلقا لمثلها
من الليلة، ثم أذن بدفنه فأخذه أهله ودفنوه. وحجاج هو الذي تقدم ذكره غير مرة
(وهنا ذكر بعض حوادثه) ثم حضر إلى مصر بأمان ولم يزل على حالته في هدوء
وسكون ولم يؤخذ في ذلك بجرم فعله يوجب شنقه بل قتل مظلوما لحقد سابق
وزجرا لغيره)

وقد بادرت بإرسال هذا التحقيق شاكراً للأستاذ غربال بحثه وفضله معيداً ترحمي على ذلك البطل المصري الشهيد؟
محمد فريد أبو حديد
حوار الفلاسفة
للأستاذ زكي نجيب محمود
ومن أحق من الفلاسفة بالبعث العاجل والنشور السريع؟ وهل تظن أن تلك القبور الضيقة المقفرة تستطيع أن تضم في جوفها هذى العوالم الفسيحة العامرة حينا طويلا من الدهر؟ أفتظن أن تلك الأجداث الشرهة التي لا تنفك فاغرة الأفواه تلتهم الفريسة تلو الفريسة بقادرة على سحق هذي العقول الجبارة، وأثارتها نقعا تسفيه الريح مع الهباء؟ أم كنت تحسب أنهم بشر كالذي عهدت من بشر؟ كلا! فاولئك الفلاسفة جبابرة عتاة، لا تكاد تتلقاهم يد الموت حتى تسلهم إلى حياة الخلود والبقاء، وعندئذ يلتئم الصدع الذي ضربه الدهر بينهم، فتأتلف منهم القلوب وتمتزج النفوس، كأنما دفعهم الله إلى الوجود كتلة واحدة منذ الأزل، فنثرتها يد الدنيا وفرقت أجزاءها على تعاقب الدهور، ثم عادت اليوم سيرتها الأولى، وحدة متحابة مآخية.
ولست بهذا الحديث أفترى منكراً من القول: إنما أقص عليك حديثاً تحدر من الشفاه واهتزت به الآذان فأسوقه إليك كما وقع:
هناك في الملأ الأعلى، انعقدت طائفة من الفلاسفة بالأمس القريب، ولم يكد جمعهم يستوي فوق الأرائك، حتى نهض من الحضور أقدمهم عهدا بدار الخلود - سقراط - وأخذ يشير بيمناه إلى الجلوس واحداً فواحدا، في تؤدة هادئة رزينة، فيعرفهم بأسمائهم التي أطلقت عليهم في دار الفناء، ولم يكن ذلك تعريفاً لهم بمجهول فهم عصبة واحدة منذ الأزل، ولكن خشية أن تكون شواغل الأرض قد محت سالف الذكرى:
هذا سبينوزا صاحب وحدة الوجود، وهذا ليبنتز الذي كان للناس بشيرا بما في الكون من خير، وهذا فولتير عظيم الساخرين، وهذا روسو نصير الطبيعة. وهذا شوبنهور صاحب إرادة الحياة. وذلك نيتشه صاحب أرادة القوة. . . فتباسم الفلاسفة، وأجالوا الأنظار لكي تتعرف الوجوه. أما ليبنز، فقد ثبت بصره في فولتير، وأخذ يحدق به في شيء من القلق، ما لبثا أن التقت منهما النظرات، فأرسلها فولتير ضحكة رقيقة وقال:
فولتير - أراك يا عزيزي قلقا نابيا، لا بطمئن بك المكان ولا تطمئن إليه؟ -
ليبنتز - كلا! بل أنا موفق مجدود، إذ ضمني وإياك مجلس واحد، فما زلت أتمنى ذلك وأرجوه، مذ جاءني نبأك، وعلمت عنك تلك الطعنات الدامية التي صوبتها نحو رأيي في العالم وخيره
فولتير - أوه! لقد أنسيت كل شيء. . وكأنما أذكر الآن حلما مبهما يجول في حنايا الرأس. . . ها هوذا ينجلي ويتضح. . . لقد ذكرت! فأنت الذي زعمت يوما أن تلك الحياة الفانية مفعمة بالخير مترعة بالآلاء والنعم، وأنه لم يكن في الإمكان أبدع مما كان!. .
هذا كثير - لعمر الحق - أن يقال في عالم سداه الشر ولحمته البؤس والشقاء!
ليبنتز - أليس الله، وهو رب الكون وخالقه، حكيما عميق الحكمة، خيرا واسع الخير؟ وصور لنفسك هذه الحكمة المطلقة فقد تآزرت مع ذلك الخير الأسمى في خلق العالم ثم حدثني كيف يكون. أليس من المحقق أن يجيء العوالم؟ هذا حق لا ريب فيه، لأن الله تعالى يصدر عن منطق مستقيم يتفق مع كماله ولابد لذلك المنطق الكامل إن ينتج عالما أدنى ما يكون إلى الكمال لأنه إذا خلق عالما دون المستطاع، كان في عمله ما يمكن تهذيبه واصلاحه، وتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.
فولتير - أما أن في العالم شرا فحقيقة فوق الجدل، وإذن فاختر لنفسك واحدا من اثنين لا ثالث لهما. إما أن يكون الله قادراً على ان يرفع عن العالم السوء والشر ولكنه لا يريد، وإما انه يريد ولا يستطيع، وكلا الفرضين شر من أخيه! لك أن تقول عن العالم ما تشاء؛ أم أنا فقد كنت في تلك الحياة الدنيا شقيا بائسا، قرحت كبدي الكوارث، وكلم فؤادي العنا والألم، ومع ذلك فقد كان لزاما عليَّ ان أحيا!! وأحسب أنني لم انفرد بذلك العبء الثقيل، فلست أشك في أن الأحياء جميعاً قد عانت من الشر ما عانيت. . تذكر يا عزيزي ليبنتز ذلك العقاب الكاسر، وهو ينقض على فريسته الوديعة المطمئنة، فينهشها بمنقاره المرهف العاتي، وعبثا ترتعش منها الفرائص وترتجف

الأعضاء، وعبثا تصيح، فصيحات الغوث ذاهبة في الفضاء والعقاب ماض لا يحول نابا ولا ينزع مخلبا، وعندئذ هبط على العقاب نسر جارح مزق منه الأشلاء ونثر الدماء، وأخذ يلتهم طعامه هنيئا ولولا أن صائدا من الأنس قد كمن له في الغاب، وما هي إلا لحظة حتى أرسل إليه قوسا كانت تحمل حتفه سهمها، فلما ان جاء ذلك الإنسان الظافر إلى حومة الوغى، ودارت رحى الحرب، داهمه الردى، فانقلب صريعاً يسبح في لجة من الدماء البشرية فيرطم جسدا هنا وشلوا هناك!!

وتدور عجلة الدهر فإذا الإنسان الشامخ بأنفه قد بات طعاما تتخطفه العقبان والنسور!! تلك هي أسطورة الحياة يا عزيزي.

حلقات متلاحقات من عذاب مر أليم، تنتهي بالحياة إلى الموت والفناء. . مأساة ترتعد من هولها الفرائص، وتطير منها النفوس شعاعاً، أفتزعم بعد هذا أن شقاء الفرد سبيل إلى سعادة المجموع وتصيح بصوتك المرتعش المتهدج ان ليس في الأماكن أبدع مما كان؟ لعمري انك لفي ضلال بعيد، إلا أن الكون بأسره لينهض الآن لسانا ناطقا بإنكار ما تقول، بل لكأني ألمح قلبك الذي تحمله بين جنبيك، ينبض في ثورة وجموح ليرد ما يفيض به رأسك من خداع. أليس من سخرية الدهر وعبث القدر ان تكون الحياة لغزا مغلقا من دون البشر، وأن يكون الإنسان وهو صاحب الدار دخلا لا يعلم من أمرها شيئا، فلا يدري أني جاءت به الحياة، ولا أين يذهب به الموت؟ بارعاك الله! لله ما أمرك حياة تلك التي كتب علينا أن نحياها حينا من الدهر، وعجيب الأمر أن ترى من الأقوام الغافلين من تنطلق ألسنتهم بحديث السعادة والخير؟!.

عفواً أصدقائي، فإنما تحدثكم الآن ما أثخنته الحياة في نفسي من جراح دامية لم تزل عندي عميقة الأثر قوية الذكرى.

سبينوزا - أي عزيزي فولتير! هون على نفسك الامر، فليس الفرد إلا جزءاً من كل عظيم، وانك لتبتغي شططا إذا أردت أن يصغي الوجود بأسره إلى صالح الأفراد، وهي متنازعة متنافرة. ان في ذلك لشراً وفوضى. فلست أرى في الكون إلا قانونا خالداً وصوراً فانية، وحسبه دقة وكمالا أن يسير ذلك القانون في استقامة لا التواء فيها ولا شذوذ، أما هذه الصور المادية الزائلة التي تروح وتغدو، فلا يضير الكون في كثير أو قليل أن تشعر بألم أو سعادة! وهل تستطيع أن تحدثني عن الشر والخير ما هما؟ انهما لفظان قد اصطلح عليهما البشر، وليس لهما في عالم الحقيقة وجود. . .

خذ قلماً وقرطاسا، وارسم طائفة من المثلثات المختلفة نوعا وحجما ثم امح منها ما تريد، وارسم سواها أو لا ترسم شيئاً، والبث هكذا ساعة من زمانك، غير في أوضاعها وبدل في أشكالها ليكون لك في النهاية زخرف جميل. . . هب تلك المثلثات كائنات شاعره يتعاورها السرور والألم، وأنك علمت أن واحداً منها غاضب لأنه جاء من الزخرف في مكان منحرف، وان ثانياً بائس مسكين لأنه لا يتمتع بأضلاعه الثلاثةتامة كاملة، وثالثاً يعاني مرارا الألم لان الممحاة قد أتت عليه فأزالته من الوجود. . . فماذا أنت قائل إزاء تلك الأهواء المتنازعة؟ انك لن تفهم لها معنى، لأنك تنظر بمنظار اخر أعم وأشمل.

نيتشه - أؤيد سبينوزا فيما يقول، ولست أفهم هذا التفريق بين الخير والشر، فكلاهما خير للبشر، ولو لم يكن الشر خيراً لما صمد في معترك التنازع على البقاء، بل محى من الوجود منذ أمد بعيد.

فولتير (يضحك) - هل أتاكم حديث الواقعة التي نزلت بلشبونة، إذ زلزلت الأرض زلزالها فأردت ثلاثين ألفا من رجالها؟ ويأبى القدر إلا أن يمعن في السخرية، فيجمع عدة من هذه الألوف بين جدران بيت من بيوت الله، فينقض على البؤساء ذلك البناء المقدس وهم يؤدون الصلاة!! ثم يعلن القساوسة في جرأة وقحة بأن الكارثة إنما جاءت جزاء وفاقا لما قدمت أيديهم من ذنبوب!!!

روسو - وهل تريد ان تلقى التبعة على غير الإنسان؟ فلو هجر المنازل وطلق المدن إلى حيث الطبيعة الطلقة الطاهرة، لما تهدمت فوق رؤوسهم جدران ولا ركمت سقوف!

فولتير - هل جاءك يا عزيزي روسو نبأ الفتى كانديد؟

ذلك الصبي الألماني الذي لبث يأخذ العلم عن أستاذ فيلسوف؟ لقد أبى الدهر عليهما حياة هادئة، فأرسل عليهما المصاب في اثر المصاب حتى اضطر إلى الرحيل إلى

لشبونة، وكأنما أراد الدهر إلا يغمض عنهما جفنا، فكانت تلك المأساة المروعة التي حصدت الأحياء حصداً بالألوف؛ ولكن الفتى وأستاذه قد أفلتا من يد الموت، والتقيا في فزع ورعب، وبيناهما في سمر الحديث، يرويان ما صادفا من هول، إذا بامرأة عجوز تجيء إليهما من أقصى المدينة، فنقص عليهما ما لاقته من هول تشيب له ناصية الطفل الرضيع، (ولقد حدثتني النفس مائة مرة بان ألقى عبء الحياة عن كاهلي، ولكن على الرغم من ذلك قد أحببت الحياة!!. . .)

تبت يدا الإنسان، إنه لفي ضلال مبين، أترون كيف ينوء تحت أثقال الحياة، ثم يقبل راضيا أن يظل ذلك العبء فوق كاهله، مع انه يستطيع أن يلثقه إلى الأرض بعزمة واحدة؟! ولأعد بكم إلى حديث الفتى كانديدن فقد أرهقته محاكم التفتيش، ففر هاربا إلى

بارجواي بأفريقيا، ولم يكد يجوس خلال أرضها حتى أبصر - ويا لهول ما أبصر! - أبصر رجلا يضم أعواد القصب مرغما، وهو يئن من فداحة الألم، كان يعمل مبتور الساق والذراع، ولابد أن يعمل في جد وإلا فضربات السياط - سياط الشركة الأوربية التي تستغله وتستذله - مسلطة فوق ظهره، ولا يدثره غير أسمال قذرة بالية. . . وهكذا كان كانديد، كلما قلب صفحة من كتاب الدهر ألفاها مترعة بالعناء والأذى، وما أحسب الجدران والسقوف قد اقترفت من ذلك العدوان شيئا.

ليبنتز - ومن ذا الذي يود أن يعيش في علم لا ألم فيه ولا عناء؟ أليست المرارة القليلة ألذ مذاقاً وأشهى طعاما من السكر الحلو؟ وهل الشر إلا سبيل للخير؟ فلعلك لو علمت مبعث الشر لخففت من هذه الغلواء، فقد خلق الإنسان مغلولا بطائفة من أصفاد المادة، ولكنه فطر على أن يجاهد في تحطيمها ما استطاع ليصل إلى مرتبة الكمال، ومبعث الشر جميعا هو ذلك الجهاد العنيف الشاق الذي يبذله الإنسان في هذه السبيل، وإذن فليس الشر مقصوداً لذاته، وإنما هو سلم للصعود إلى الكمال.

شوبنهور - لست أرى إلا أن الإنسانية مدفوعة أمام إرادة الحياة دفع الخراف، ولقد زودتها بجعبة من الرغبات تلهب ظهرها وتستحثها على السعي كلما أبطأ بها المسير، وفي تلك الرغبات سم الإنسان الزعاف، لأنه كلما حقق واحدة قامت في سبيله عشرات، والحياة لا تمنحنا أمنية إلا كما يلقى الجواد بإحسانه إلى السائل المحروم، فهو يضر كثيرا ولا ينفع قتيلا، لأنه يطيل في أجل بؤسه يوما آخر. . سر أنى شئت تجد بين الأحياء تنازعا وتنافرا، حرب ضروس وقتال طاحن، وفيم الحرب والقتال؟ لكي يقيموا حياة كلها تعب وشقاء أمدا قصيرا من الدهر. فلو أننا أدركنا رجحان العناء على الجزاء، لعلمنا كم نبذل الثمن باهظا لقاء أنفاس معدودات! الحياة هي الشقاء والشقاء هو الحياة، وجدير بك - أي عزيزي ليبنتز - أن تنقح من عبارتك بحيث تكون: (ليس في الإمكان أسوأ مما كان) لقد كان خيرا لنا ألف مرة إلا تكون! ومن ذا يحدثني عن مهزلة الحياة: فيم بقاؤها وما غرضها؟ ولشد ما يدهشني على الرغم من ذلك أن أرى الكائنات بأسرها تتشبث بالحياة، وتبذل في حراستها كل ما تستطيع، كأنما هي ذخر ذو غناء! إلا من يحدث الناس عني أن يكتموا الأنفاس دفعة واحدة لكي يردوا للحياة كيدا بكيد؟

تقدمت من سقراط في بصر خافض وأدب خاشع، وسألته أن أطلع قراء الرسالة على حديثهم ذلك، فخشي أن ينسب القراء إلى كاتبه بعضه أو كله، فطمأنته بأن القراء في مصر على كثير من الذكاء

زكي نجيب محمود

فرعون حزين!

للأديب حسين شوقي

كنا نظن أن الآلهة ينعمون بالسعادة الكاملة، ولكننا مخطئون لأن فرعون حزين برغم أصله السماوي. . أجل فرعون حزين، لهذا خرج إلى السطح الكبير يستنشق نسيم الليل العليل ويلقي نظرة على السماء التي أخذت تتلألأ أمامه، وقد بدت نجومها تشاهد الملك العظيم الذي ملأ صيته أنحاء العالم ببأسه وجبروته. . ثم أخذت النجوم تتساءل: لماذا كان فرعون حزيناً؟ لماذا؟ أليس قادراً على كل شيء، ألم يشد لنفسه بالأمس رمسا فخما متينا يضمن له الحياة الثانية التي سيكون فيها كذلك عاهلا كبيرا لقرابته الوثيقة بالآلهة آمون وهوروس وشركائهما؟ لماذا إذن كان الملك حزيناً؟ قالت إحداهن

متفلسفة: لأنه لم يعرف الحب؛ فتساءلت أخرى: وهل الحب على هذا القدر من الخطر؟ فأجابت الأولى: أجل! هو سر الوجود لذلك العالم الأزلي وتعزية أهله. . ولكنها لم تتم كلامها لأن نجما آخر قاطعها قائلا: وما صورة الحب! وما مادته قالت: ليست له صورة، وما هو بمادة. . لحسن حظ البشر، لأنه لو كان مادة لاكتنزه الناس كالذهب من زمان بعيد في خزائن بنك فرنسا أو بنك الاحتياطي الأمريكي. .

أجل! فرعون كان حزيناً لأنه لم يعرف الحب! لقد صدقت تلك النجمة في زعمها، لأن علاقته بمن حوله من الناس لم تكن إلا علاقة رسمية، بل كانت علاقة السيد بالخادم، أستغفر الله! بل علاقة الإله بالعبد! ما زوجه الملكة فهو يجلها ويقدرها ولكن لا يحبها لأن اقترانه بها فرض عليه فرضاً منذ الحادثة للدم الإلهي الذي يجري في عروقها. هي أيضاً. .

كم يود فرعون أن يحب! ولكن يحب من؟ انه يستعرض في مخيلته نساء القصر. . أجل! لقد وجد ضالته! سيحب تلك الجارية الآشورية الحسناء التي أرسلها إليه ملك أشور في جوار أخر - على سبيل الهدية تملقا لفرعون وطمعاً في كسب صداقته. . هي فتاة حسناء يذكر أنها لفتت أنظاره مرة وهو يجتاز إحدى ساحات القصر. . ولم يكد فرعون يدعوها حتى كانت الجارية بين يديه ساجدة ترتعد خوفا أمام العاهل الأكبر! ثم طلب منها فرعون أن تنهض من الأرض ففعلت وهي لا تعرف إن كانت في حلم أو في يقظة. . ثم تشجعت

ورفعت نظرها إلى ذلك الوجه العلوي الذي قلما وقعت عليه عين البشر انه وجه جميل ناعم (غير ما كانت تظنه). خلعت عليه سيماء النبل الموروث قرون طويلة من العز والسلطان. . ثم اقترب منها فرعون فوضع يده على شعرها الفاحم الجميل وحاول ان يبتسم، ولكن تقاطيع وجهه التي فقدت مرونتها من زمان طويل، منذ الطفولة خانته إذ كان وجهه قناعا أكثر منه وجهاً!

ثم حاول أن يقول لها كلمات عذبة رقيقة مغرية. . مما نسميه نحن معشر البشر غزلا، ولكنه لم يستطع، فقد عى لسانه! فما كان من فرعون أمام ذلك إلا إن أومأ إلى الجارية في بأس وقنوط لتنصرف موليا عنها وجهه. . وا أسفاه! ان فرعون لا يستطيع ان يحب، فالحب للبشر. . أما هو فهو اله عابس قلبه من الصوان الأصم

في محكمة التاريخ

قضية ابن العلقمي الوزير

للسيد مصطفى جواد

ذكر بعض أصحاب مؤيد الدين محمد بن أحمد بن العلقمي الأسدي الوزير أنه سمعه يوما ينشد من شعره:

كيف يرجى الصلاح من أمر قوم ... ضيعوا الحزم فيه أي ضياع؟

فمطاع الكلام غير سديد ... وسديد المقال غير مطاع

وقال شمس الدين محمد بن عبد الله الكوفي الواعظ في دولة المستعصم بالله:

يا عصبة الإسلام نوحوا واندبوا ... أسفاً على ما حل بالمستعصم

دست الوزارة كان قبل زمانه ... لابن الفرات فصار لابن العلقمي

وفي سنة (655) هـ (رحل السلطان هولاكو قان) من همذان نحو العراق، فلما اتصل ذلك بالخليفة المستعصم شاور وزيره مؤيد الدين ابن العلقمي في ما ينبغي فعله فأشار عليه ببذل الأموال وحملها إليه مع التحف الكثيرة والأشياء الغريبة والاعلاق النفيسة، فلما شرع في ذلك ثناه الدويدار الصغير وغيره، وقالوا له (ان غرض الوزير تدبير حاله مع السلطان هولاكو) فوافقهم واقتصر على انفاذ شيء يسير مع شرف الدين عبد الله بن الجحوزي فلما وصل إليه أنكر ذلك وأرسل إلى الخليفة يطلب إما الدويدار وإما سليمان شاه الايواني، وإما فلك الدين محمد بن الدويدار الكبير الدين الطبرسي فلم يفعل، وأرسل شرف الدين بن الجوزي أيضاً يعتذر عن ذلك، فسار السلطان حينئذ نحو بغداد)

قال عبد الرزاق بن الفوطي بعد سقوط بغداد في أيدي التتر (ثم دخل الخليفة المستعصم بغداد يوم الأحد رابع صفر ومعه جماعة من أمراء المغول وخواجه نصير الدين الطوسي وأخرج إليهم من الأموال والجواهر والحلي والزركش والثياب وأواني الذهب والفضة والاعلاق النفيسة جملة عظيمة، ثم عاد مع الجماعة إلى ظاهر سور

بغداد بقية ذلك اليوم، فأمر السلطان هولاكو بقتله فقتل يوم الأربعاء رابع عشر صفر ولم يهرق دمه بل جعل في غرارة ورفس حتى مات ودفن وعفى أثر قبره
وسبب هذه القتلة أن بعض الناس المسموعي الكلمة الاقلاء العلم قال لهولاكو: لو أصاب الأرض قطرة من دم الخليفة لانقلبت الدنيا بأهلها، فجارى هولاكو هذه العقيدة وان لم يوقن
بها لوضوح بطلانها
ووضع المغول السيف في أهل بغداد يوم الاثنين خامس صفر سنة 656، وما زالوا في قتل ونهب وأسر وتعذيب الناس بأنواع العذاب، واستخراج الأموال منهم بأليم العقاب مدة أربعين يوماً، فقتلوا الرجال والنساء والصبيان والأطفال، فلم يبق من أهل بغداد ومن التجأ إليهم من أهل السواد إلا القليل، ماعدا النصارى فانهم عين لهم شحان حرسوا بيوتهم والتجأ إليهم خلق كثير من المسلمين فسلموا عندم، وكذلك دار الوزير مؤيد الدين بن العلقمي فانه سلم بها خلق كثير، ودار صاحب الديوان (ابن الدامغاني) ودار حاجب باب النوبى (ابن الدوامى) وما عدا هذه الأماكن فانه لم يسلم فيه أحد إلا من كان في القنى والآبار، وأحرق معظم بغداد وجامع الخليفة المعروف اليوم بجامع سوق الغزل وما يجاوره، واستولى الخراب على بغداد، وكانت القتلى في االدروب والأسواق كالتلول، ووقعت الأمطار عليهم ووطئتهم الخيول، فاستحالت صورهم وصاروا عبرة لمن يرى، ثم نودي بالأمان فخرج من تخلف وقد تغيرت ألوانهموذهلت عقولهم لما شاهدوا من الأهوال التي لا يعبر عنها بلسان وهم كالموتى إذا خرجوا من القبور يوم النشور، من الجوع والخوف والبرد، وضرورة الاستنباط توجب الرجوع فنقول: قال عبد الرزاق بن الفوطى (فلما كان اليوم الرابع عشر من المحرم خرج الوزير مؤيد الدين ابن العلقمي إلى خدمة السلطان هولاكو في جماعة من مماليكه وأتباعه وكانوا ينهون الناس عن الرمي بالنشاب ويقولون: (سوف يقع الصلح إن شاء الله فلا تحاربوا) هذا وعساكر المغول يبالغون في الرمي. وعاد الوزير إلى بغداد يوم الأحد سابع عشر المحرم وقال للخليفة: (وقد تقدم السلطان هولاكو أن تخرج إليه، فأخرج ولده الأوسط أبا الفضل عبد الرحمن في الحال فلم يقتنع به، فخرج هو والوزير ثامن عشر المحرم ومعه جمع كثير فلما صاروا ظاهر السور منعوا أصحابه من الوصول معه وأفردوا له خيمة وأسكن بها)
وأمر هولاكو بإجاعة المستعصم، فلما اشتد عليه الجوع أمر أن يقدموا له جملة من الجواهر والحلي والأعلاق النفيسة في أواني الذهب والفضة التي أخذها من دار خلافته) فاستغرب الأمر وقال: قد علمتم أن هذا ليس مما يؤكل ولا يغني من جوع) فأرسل إليه هولاكو (لم لم تجند به الجنود ولم تدفع به عن نفسك فلات ساعة مندم)
ولسرد أخبار الجنود نقول: قال
عبد الرزاق في حوادث سنة 640 ما صورته: (في شعبان حضر جماعة من المماليك الظاهرية والمستنصرية عند شرف الدين إقبال الشرابي للسلام عليه - على عادتهم - وطلبوا الزيادة في معايشهم وبالغوا في القول وألحوا في الطلب، فحرد عليهم وقال: (ما نزيدكم بمجرد قولكم بل نزيد منكم من نريد إذا أظهر خدمة يستحق بها ذلك) فنفروا وخرجوا على فورهم إلى ظاهر السور وتحالفوا على الاتفاق والتعاضد. . .)
وقال في حوادث سنة 649 (وفيها فارق كثير من الجند بغداد لانقطاع أرزاقهم ولحقوا ببلاد الشام) وقال في حوادث سنة 655 ما نصه (وكان الخليفة قد أهمل حال الجند ومنعهم أرزاقهم وأسقط أكثرهم من دساتير ديوان العرض فآلت أحوالهم إلى سؤال الناس وبذلك وجوههم في الطلب بالأسواق والجوامع ونظم الشعراء في ذلك الأشعار، فمما قاله المجد النشابي:
يا سائلي ولمحض الحق يرتاد ... أصخ فعندي نشدان وإرشاد
واسمع فعندي روايات تحققها ... دراية وأحاديث واسناد
فهم ذكى وقلب حازق يقظ ... وخاطر لنفوذ النقد نقاد
عن فتية فتكوا بالدين وانتهكوا ... حماه حملا برأي فيه إفساد
وكان خواجه نصير الدين محمد الفيلسوف الطوسي قد بعث - وهو في قوهستان - بقصيدة إلى المستعصم بالله يمدحه فيها ويطلب إليه الزلفى من دار خلافته، فاطلع عليها مؤيد الدين محمد بن العلقمي وأبقاها عنده وكتب إلى شمس الدين محتشم

قوهستان من بلاد إيران يحذره ارتحال نصير الدين من بلاده مع احتياجه إليه في النجامة والتدبير، وإنما فعل ابن العلقمي ذلك خوفاً من ان يعرف المستعصم فضل نصير الدين الطوسي وعلمه فيستوزره مع كونهما شيعيين من فرقة واحدة، فوشى به هذا المحتشم إلى أمام الباطنية الإسماعيلية و (علاء الدين محمد بن الحسن الإسماعيلي) فاعتقله هذا في قلعة (ألموت) ولما فتح هولاكو هذه القلعة خرج نصير الدين وحضر بين يدي هولاكو فعظم موقعه في نفسه وأنعم عليه واستوزره وصار لأسرته شأن عظيم، وكان المنتظر من نصير الدين حين قدم بغداد مع هلاكو ان يبطش بابن العلقمي لإساءته إليه تحريضه عليه، ولكنه كان متعصبا للشيعة مغالياً في حبهم، ،حتى أنه أنقذ ابن العلقمي من الموت بأن رغب إلى هولاكو في العفو عنه

ومن الحق أن ابن العلقمي لم يخن ولم يهن في خدمة المستعصم، فلما فتحت بغداد ورأى زوال الدولة العباسية ووزارتها من المحققات؛ سعى في تنجية نفسه من الموت وداره من التحريق ودار كتبه المحتوية على عشرة آلاف مجلد من النهب، فاستشفع بنصير الدين الطوسي إلى هولاكو وأوصل إليه كتاباً فيه (ملحمة) من ملاحم الشيعة تثبت صلاح أعماله ووجاهة فتحه لبغداد، فقد قال قطب الدين الحنفي (إن مجد الدين بن طاوس وسديد الدين يوسف بن المطهر الحلي أرسلا كتاباً إلى هولاكو على يد ابن العلقمي يروونه عن علي بن أبي طالب - رض - صورته (إذا جاءت العصابة التي لا خلاق لها لتخربن يا أم الظلمة ومسكن الجبابرة وأم البلايا، ويل لك يا بغداد وللدور العامرة التي لها أجنحة كالطواويس، تنماثين كما ينماث الملح في الماء. ويأتي بنو (قنطورا) مقدمهم جهوري الصوت لهم وجوه كالمجان المطارقة وخراطيم كخراطيم الفيلة لم يصل إلى بلدة إلا افتحها ولا إلى راية إلا نكسها، فلما وصل الكتاب إلى هولاكو أمر أن يترجم له، فلما قرأه أمر لهم بسهم الأمان وسلموا بذلك من القتل والنهب)

قال عبد الرزاق بن االفوطي بعد وقعة بغداد (وأما أهل الحلة والكوفة فانهم انتزحوا إلى البطائح بأولادهم وبما قدروا عليه من أموالهم وحضر أكابرهم من العلويين والفقهاء مع مجد الدين بن طاوس العلوي إلى حضرة السلطان هولاكو وسألوه حقن دمائهم فأجاب سؤالهم وعين لهم شحنة، فعادوا إلى بلادهم وأرسلوا إلى من في البطائح يعرفونهم ذلك، فحضروا بأهلهم وأموالهم وجمعوا مالا عظيما وحملوه إلى السلطان هلاكو فتصدق عليهم بنفوسهم، وكان أهل الكوفة والحلة والسيب يجلبون إلى بغداد الأطعمة فانتفع الناس بذلك، وكانوا يبتاعون بأثمانها الكتب النفيسة وصفر المطعم وعيره من الأثاث بأوهى قيمة فاستغنى بهذا الوجه خلق كثير منهم

ولو كان ابن العلقمي قد خان المستعصم ومالأ هولاكو عليه لخشى هولاكو غدره وخاف خيانته ولم يوله الوزارة الإقليمية فانه لما رحل عن بغداد عائداً إلى بلاده فوض أمرها إلى الأمير (علي بهادر) وجعله شحنة بها والى الوزير مؤيد الدين بن العلقمي وصاحب الديوان فخر الدين بن الدامغاني ونجم الدين أحمد بن عمران الباجسري ونجم الدين عبد الغني بن الدرنوس وشرف الدين العلوي المعروف بالطويل فتوفى ابن العلقمي بعد فتح بغداد بثلاثة

أشهر وذلك في مسهل جمادى الآخرة، فأمر هولاكو أن يكون أبنه عز الدين أبو الفضل وزيراً بعده

ولقائل أن يقول: إن الخيانة أنالته الوزارة الإقليمية فنقول له: قد قيل هذا، وزعم أن هولاكو قتله لخيانته، وقال له (إنا لا نأمنك وقد خنت خليفتك) ولقد كان هولاكو حذراً من الخونة مسارعاً إلى سفك الدماء، فهو إن لم يكن حرياً أن يقتله - على ظن خيانته فأنه يطرحه ويستذله فلا يوليه من ملكه شيئاً، وأن مؤرخا يبتدع قتل هولاكو لابن العلقمي لسهل عليه أن يخونه ويفجره ويسند إليه ما يشاء، ولكن الحق غير ذلك

ولى هولاكو تاج الدين بن الدرامى صدارة الأعمال الفراتية فتوفى في شهر ربيع الأول فجعل ابنه مجد الدين حسيناً عوضه وأقر أقضى القضاة نظام الدين عبد المنعم البندنيجى على رتبته وجعل لفخر الدين الدامغاني وزارة الإقليمية وجعل نجم الدين أحمد بن عمر ان المذكور ملكاً علىالأعمال الشرقية وهي الخالص وطريق خرسان والبدنيجين وأشركه مع ابن العلقمي وابن الدامغاني في الحكم فهل كل هؤلاء خونة غدرة؟ وقد يرد هذا القول بأن هولاكو لم يقتل هؤلاء الخونة لأن هوى الشعب فيهم،

وضلعه معهم، فنقول: إنه قتل جماعة صبراً وهم من عظماء الشعب فيهم محيي الدين بن الجوزي الحنبلي أستاذ دار الخليفة وأبناه شرف الدين عبد الله وجمال الدين بن عبد الرحمن مؤلف مناقب بغداد وشيخ الشيوخ صدر الدين علي بن بالنيار وشرف الدين عبد الله بن أخيه وبهاء الدين داود بن المختار والنقيب شمس الدين علي بن مختار وشرف الدين محمد بن طاوس العلوي وتقي الدين عبد الرحمن بن الطبال وأكثر أمراء الترك

ومن اغرب سخرية المؤرخين أنهم أشكركوا في الخيانة تاج الدين أبا المعالي محمد بن الصلايا العلوي ناظر إربل، ولقد قال ابن الفوطي يذكر المتوفين من الأعيان بعد وقعة بغداد (وتوفى تاج الدين أبو المعالي محمد بن الصلايا العلوي ناظر إربل، قتل بحبل سياه كوه وكان قد قصد حضرة السلطان هولاكو بعد وقعة بغداد ليقر رحاله فأمر بقتله، وكان كريما جواداً فاضلا متدينا يبالغ في عقوبة من يفسد أو يشرب الخمر وليس عند المؤرخين دليل على خيانة ذلك الرجل العلوي الصالح واتهام ابن العلقمي - وان ورد في تاريخ ابن خلدون وفوات الوفيات وتاريخ أبي الفداء وغيرها - فان مصدره واحد هو سوء الظن به

والحقد عليه، حتى أن ابن الفوطي لما كتب الحوادث الجامعة قال (ذكر من توفى من الأعيان بعد الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي في جمادي الآخرة ببغداد وعمره ثلاث وستون سنة، كان عالماً فاضلا أديبا يحب العلماء ويسدي إليهم المعروف، وتوفى علم الدين أحمد أخوه بعده) ووجد في الحاشية تعليق على هذا القول صورته (إلا أن خيانته لمخدومه تدل على سوء أصله) فان كانت مؤلفات ابن الفوطي بقيت على التسويد - كما ذكر العماد الحنبلي في شذور الذهب - فيظهر لنا ان المؤلف قد أثرت في نفسه إشاعة تهمة ابن العلقمي فاستدركها على نفسه مع عدم اقتناعه بصحتها في أول التأليف وبقي هذا الاستدراك مشيراً إلى ضعف الاتهام وصعوبة أمره على الإفهام.

ولم تكن حملة هولاكو على بغداد إلا حملة صليبية شرقية، فقد ذكر ابن العبري أن المسيحية انتشرت بين المغول في القرن السابع للهجرة، وأن جنكيز خان قد أوحى إليه بمحاربة الدول المسلمة، وأن امرأة هولاكو مسيحية، ويتضح ذلك من كتاب هولاكو إلى الملك الناصر ونصه كما في مختصر الدول:

يعلم الملك الناصر أننا نزلنا بغداد في سنة ست وخمسين وستمائة وفتحناها بسيف) الله وأحضرنا مالكها وسألناه مسألتين فلم يجب لسؤالنا، فلذلك استوجب منا العذاب - كما قال في قرآنكم -: إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وصان المال، فآل الدهر به إلى ما آل، واستبدل بالنقوش النفيسة، نقوشاً معدنية خسيسة، وكان ذلك ظاهر قوله تعالى: (ووجدوا ما عملوا حاضراً)، إننا قد بلغنا بقوة الله الإرادة، ونحن بمعونة الله في الزيادة، ولا شك أنا نحن جند الله في أرضه خلقنا وسلطنا على من حل عليهم غضبه، فليكن لكم في ما مضى معتبر، وبما ذكرناه وقلناه مزدجر. . فان أنتم أطعتم أمرنا وقبلتم شرطنا كان لكم مالنا وعليكم ما علينا. . . فالله عليكم يا ظالمون، هيئوا للبلايا جلباباً، وللرزايا أتراباً، فقد أعذر من أنذر، وأنصف من حذر، لأنكم أكلتم الحرام وحنثتم بالأيمان، وأظهرتم البدع واستحسنتم الفسق فأبشروا بالذل والهوان فاليوم تجدون ما كنتم تعملون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، لقد ثبت عندكم أننا كفرة، وثبت عندنا أنكم فجرة، وسلطنا عليكم من بيده مقاليد الأمور مقدرة، والأحكام مدبرة. . . فسارعوا إلينا برد الجواب بتة، قبل أن يأتيكم العذاب بغتة، (وأنتم تعلمون

ونقلنا في ما سبق من المقالة أن النصارى ببغداد سلموا من القتل والنهب والسلب وكل الأذى، وعين لهم أمراء من المغول يحرسون بيوتهم، وقال ابن الفوطي (وتقدم للجاثليق بسكنى دار علاء الدين الطبرسي الدويدار الكبير التي على شاطئ دجلة فسكنها ودق الناقوس على أعلاها واستولى على دار الفلك التي كانت رباطاً للنساء تجاه هذه الدار المذكورة، وعلى الرباط البشيري المجاور لها وهدم الكتابة التي كانت على البابين وكتب عوضها بالسرياني)

وقال في أخبار من عين في المراتب بعد الوقعة الهولاكية ببغداد (وعز الدين بن أبي الحديد كاتب السلة فلم تطل أيامه وتوفى، فرتب عوضه ابن الجمل النصراني) وعرض

بهذه الغزوة الصليبية شمس الدين الكوفي إذ قال يرثي بني العباس:
ربع الهداية أضحى بعد بعدهم ... معطلا ودم الإسلام منسفك
ومما زاد شراسة هولاكو على المستعصم أن أحد أبناء عمه من السلاطين وهو بركة خان، كان قبل وقعة بغداد قد أسلم وراسل الخليفة المستعصم وصادقه، فاشتدت العداوة بينه وبين هولاكو من جهة السياسة والملك، ومن جهة الإسلام والوثنية وحماية النصرانية، وكان بركة خان مستوياً على شمال ارمينية وشمال جبال القبق (قفقاسية)، فلما سمع بنكاية هولاكو جد في محاربته وشرد بجنوده في وقعات عدة، كانت عاقبة أخرها ان مات هولاكو كمداً وأسفاً لانكسار جيوشه، وانتفع مماليك مصر بهذه العداوة.

القاهرة

مصطفى جواد

ابن قلاقس - 4

هـ (1138 - 1122م)567 - 532

(تتمة)

أما ما صادفه من ممدوحيه فهو السعة والرخاء والعطاء الجم، وان كنا لا نشك في انه قد أصابه الاخفاق أحياناً كثيرة مما دعاه إلى ان يقول:
فان ألمت بك الزرايا ... أو قرعت بابك الخطوب
فجانب الناس وادع من لا ... تكشف إلا به الكروب
من يسأل الناس يحرموه ... وسائل الله لا يخيب
ولا نشك كذلك في أن الوشاة كثيراً ما كانوا يسعون بالإفساد بينه وبين الممدوحين، وكثيراً ما كان هو يتنصل من دعاويهم وأقاويلهم، ويحسن بها أن نورد قطعة صغيرة من نماذج شعره في المدح، قال:
وهنيئا له أبا القاسم الند ... ب نهانى، فما أقول الهناتا
هو بحر وما يكدره الحا ... سد إن بات فيه يلقى القذاتا
ساقني فضله فأسكنني الدو ... ر وأسكنته أنا الابياتا
واقتسمنا، فكان عارض غيث ... عشت في ظله وكنت النباتا
كرم ينجز العداة وسلطا ... ن على رسمه يبذ العداتا
أما غزل شاعرنا فهو أقل شعره جودة وجمالاً: ذلك أنه قد تعمد فيه الإكثار من المحسنات اللفظية، مما دعا إلى غرابة الشعر واحتياجه إلى فهم وتثبت وروية، والغزل إن لم يكن معناه سريعاً إلى القلب يسبق لفظه إلى الفهم يصبح ثقيلاً على النفس ليس له حظ من جمال الشعر، فضلا عن أن المعاني التي كان يجيء بها معان صغيرة لا تحتاج إلى كل هذا التكلف، ويعد من أجمل ما قاله في الغزل قوله:
سددوها من القدود رماحا ... وانتضوها من الجفون صفاحا
يالها حالة من السلم حالت ... فاستحالت ولا كفاح كفاحا
صح إذ أذرت العيون دماء ... أنهم أثخنوا القلوب جراحا
عجبا للجفون، وهي مراض ... كيف تستأثر العيون الصحاحا
آه من موقف يود به المغ ... رم لو مات قبله، فاستراحا
وجناح النوى تضم ظباء ... لم تخف في دم الأسود جناحا
وهي تدلك على قصر باع شاعرنا في فن الغزل، وقد يكون ذلك راجعاً إلى أن عاطفته التي ينبعث منها الغزل كانت قفراء مجدبة، إذ هو ليس إلا رجل عمل وأسفار.
أما الوصف فهو كثير في شعره، وهو يصف لك ما رآه وشاهد في مصر وفي غيرها من تلك البلاد التي رحل اليها، ولقد كان للنيل ولمنارة الإسكندرية حظ في وصفه، وهناك منظر من طبيعة مصر قد رسمه شعرا يوم قال:
أنظر إلى الشمس فوق النيل غاربة ... واعجب لما بعدها من حمرة الشفق
غابت وأبدت شعاعاً منه يخلفها ... كأنما احترقت بالماء في الغرق
وفي الحق انه منظر يثير في النفس حب الجمال وحب الطبيعة. ذلك المنظر هو منظر غروب الشمس حيث تختفي وراء الأفق تاركة وراءها حمرة الشفق بازغاً بعدها الهلال. كما كان لوصف أسفاره، ووصف ماركبه في تلك الأسفار حظ أي حظ في شعره، فوصف لنا الفرس، ووصف لنا السفينة، ووصف لنا ما كان يلاقيه في سفره،

ولعل من أجمل ما قاله في الوصف تلك القصيدة التي يصف لنا فيها سفرة من أسفاره، ويحدثنا عن البحر وهدوئه ثم عصفه وارعاده، ثم يعطف على السفينة فيصفها، ثم على إخوانه فيتشوق إليهم، قال:

لو لم يحرم على الأيام انجادي ... ما واصلت بين اتهامي وانجادي
طوراً أطير مع الحيتان في لجج ... وتارة في الفيافي بين آساد
والناس كثر ولكن لا يقدر لي ... إلا مصاحبة الملاح والحادي
أقلعت والبحر قد لانت شكائمه ... جداً، وأقلع عن موج وإزباد
فعاد لا عاد ذا ربح مدمرة ... كأنها أخت تلك الريح في عاد
ونحن في منزل يسرى بساكنه ... فاسمع حديث مقيم داره غادي
لا يستقر لنا جنب بمضجعه ... كأن حالاتنا حالات عباد
فكم يصعر خد غير منصعر ... وكم يخر جبين غير سجاد. . . الخ

أما حين يحدثنا عن الطبيعة ويصفها فهو يشعرك أنه تلميذ لابن المعتز لكثرة تشبيهاته وتضمين معانيه. وان شئت أن تتأكد من ذلك فاقرأ قوله:

سرت وجبين الجو بالطل يرشح ... وثوب الغوادي بالبروق موشح
وفي طي أبراد النسيم خميلة ... بأعطافها نور الربا يفتح
تضاحك في مسرى العواصف عارضاً ... مدامعة في وجنة الروض تسفح
وتروي به كف الصبازند بارق ... شرارته في فحمة الليل تقدح
تفرس منها البدر في متن أشقر ... يلاعب عطفيه النسيم فيرمح

باقي أغراض الشعر التي طرقها قليلة، ولكنه في هجائه قصير موجع بالرغم من ندرة الهجاء في شعره، ورثاؤه قليل كذلك، وهو لا ينسى فيه المحسنات اللفظية والجمال البديعي، أما عتابه فقليل كذلك، وهو يشتد ويوجع فيه ثم يلين ويرق، بعد أن يكون قد أوجع، واسمعه يعاتب.

أقبل بوجهك إني عنك منصرف ... فما أقول لسؤالي؟ وما أصف؟
خدعت فيَّ وغرتك الضراعة بي ... ومال تيهاً بك الإعجاب والصلف
وكان من سيئاتي أنني أبداً ... إليك في سائر الحالات أختلف

إلى أن قال:

أنت الكريم وقد قال الألى مثلا ... إن الكرام إذا ما استعطفوا عطفوا
متى أقول: صباح لاح شارقة ... فضم رحلك وارحل أيها السدف

تلك أهم أغراض الشعر التي طرقها ابن قلاقس

لم يعمر شاعرنا طويلا كما ذكرت، بل مات وهو في سن الخامسة والثلاثين، ويخيل إلى أن الهرم أصابه سريعاً حتى صح له أن يقول وهو في سن الثلاثين:

مدت إلى الأربعو ... ن يداً وقد قهقرت عشرا

فكنت تراه في سن الثلاثين كأنه قد أوفى على الأربعين، ولعل الشيب قد لحقه سريعاً، فمضى يذم الشيب ويتحسر على فقد الشباب شأن كل شاب يريد أن يتمتع بالحياة فيلحقه الشيب، ويغير على لمته.

أحمد أحمد بدوي
المدرس المنتدب بثانوية نابلس

من طرائف الشعر

الضمير

قطعة اخرى من روائع الأستاذ أحمد الزين

لا تسلني عن صاحبي ونصيري ... لم أجد في الدهر غيرَ ضميري //
صاحبٌ أمرُه لديَّ مطاعٌ ... يا له من مصاحب وأمير
هو صوت السماء في عالمَ الأر ... ض ورُوحٌ من اللَّطيف الخبير
وشعاعٌ تذوب تحت سناه ... خدعُ العيش من رياءٍ وزور
هو سرٌّ يحار في كنهْه اللبْ ... بُ وتَعيا به قوَى التفكير
مبلغُ العلم أنه رُوحُ خير ... باطنُ الشخص ظاهرُ التأثير
كلَّ حيٍّ عليه منه رقيبٌ ... حَلَّ من قلبِه مكانَ الشعور
حلَّ حيث الأهواءُ تنزو إلى الاث ... م وتهفو إلى مَهاوِي الشُّرور
جامحاتٍ أعيت على الدين كبحاً ... رغمَ إنذارِها بسوء المصير

ثم صاح الضميرُ فيها نذيراً ... فأصاخت إلى صياح النذير
هو رُوحٌ من الملائك يسمو ... بسليل الثرى لعالَمِ نور
قد تولّت بالأنبياء عصورٌ ... وهو باقٍ على توالي العصور
حافظاً في الزمان ما خلّفوه ... قائماً في الصدور بالتذكير
حاملا من شرائع الخير كتْبًا ... قدِّسَتْ من صحائفٍ وسطور
ليس يعفو عن الهناة وإن ها ... نت ملِحٌّ في اللّوم والتعذير
هو إن شئت كان جنّةَ خلدٍ ... وإذا شئتَ كان نار السعير
عاجِلُ الشرِّ وهو يأمر بالخي ... ر قديرٌ لم يعَفُ عفوَ القدير
فَتحَصَّنْ ما شئت منه فلا ين ... جيك حِصنٌ من شره المستطير
هو مِثلُ القضاء يغشاك لا تُع ... يه لو كنتَ في خوافي النسور
وتضرَّعْ بما تشاء فلن تجْ ... ديَ نفعاً ضراعة المستجير
لا تحاولْ خداعه بالمعاذي ... ر فليس المِسيءُ بالمعذور
لا تجادل في حُكمِه فهو حتم ... لا يُردّ الذي قضى من أمور
لا يداري ولا يداجي صديقاً ... ناقدٌ للأمور نقدَ بصير
مُرهَف الحِسِّ ليس يُعييه غيبٌ ... يَسمع الهمسَ في حنايا الصدور
يبذلُ النصحَ لا يمنْ بما يُس ... دي ولا يبتغي ثناَء شَكور
لم يَدَعنى إلى هوى النفس في الأم ... ر ولم يَستعِن برأي مُشير
ليس لي دونه من الرأي إلا ... ما يراه الهوى بعين الغرور
كم حَملتُ الآلام فيه وسخَط الن ... اس حتى فقدتُ وُدَّ عشيري
ليس يزكو غَرسُ المودَّة في النا ... س بغير النفاق والتغرير
لم يَدَعْ لي صدقُ المقال صديقاً ... فلأعِشْ قانعاً بوُدِّ ضميري
أطلَّ من حرم الرؤيا فعزاني
مهداة إلى روح الدكتور أديب مظهر
للشاعر اللبناني بدوي الجبل
منازل الخلد لا أرباع لبنان ... وفتنة السحر لا آيات فنان
جنان لبنان حسبي منك وارفة ... فيها النديان من روح وريحان
شب النبيون في أفيائها وحبت ... فيها خيالات إنجيل وقرآن
يغفو بها الفجر في أحضان مورقة ... مديدة الظل سكرى الآس والبان
سقته من خمرها قبل الكرى عللا ... فبعض أحلامه أحلام سكران
ودغدغته فللاغصان هينمة ... كأنها بث غيران لغيران
وما تنبه حتى راعه وهج ... والشمس حلى ربى خضر وأفنان
صحبت فيك شبابي والهوى ومنى ... لعس الشفاء وظلا غير ضحيان
فأسبغى نعمة النسيان تغمرني ... عسى يخفف من بلواى نسياني
أمسيت لا الصغر المعسول أسعدني ... ولا الجنون جنون الحب واتاني
ألح بي السقم حتى لا يفارقني ... وراح ينسج قبل الشيب أكفاني
عفىَّ على نزوات النفس جامحة ... إلا اهتزاز خليع الحسن نشوان
وصبوة للعيون النجل هانئة ... من الشباب بظل العاطف الحاني
يثير بي كل حسن فتنة وهوى ... فما أمر بماء غير صديان
ويا ربى الحسن في لبنان هل عريت ... مخضلة الدوح من ظل وأغصان
ومن لباناتى السكرى مصرعة ... من الوانى بين أفياء وأفنان
ويا ربى الحسن هل من نفحة جميلة ... شذا النهود لصادى القلب حران
وهل صباك نموم العطر ناقلة ... بعدي أحاديث أذيال وأردان
ويا ربى الحسن في لبنان هل ثملت ... بعدي الرياحين من صهباء نيسان
ويا ربى الحسن في لبنان ما انبسطت ... يمنى الهجير على أفياء لبنان
مدى ظلالك يينعم في غلائلها ... صرعى الردى من أحبائي وإخواني
النائمين بظل الأرز ينشدهم ... رواية الدهر في نعمى سليمان
أما البلابل فلتؤنس قبورهم ... من كل ثاكلة في الدوح مرنان
أعيذ بالحب والذكرى هوى نفر ... بيض الوجوه من النعماء غران
قد صور الوحي ألوان النعيم على ... مثال ما فيك من حسن وألوان

خيال ولدانه والحور منبعث ... عن فيض سحرك في حور وولدان
وزاد فيها خلودا ما عنيت به ... أشهى الأماني في حكم النهى الغاني
لا يعذب الوصل إلا أن يخامره ... خوف المحبين من نأى وهجران
ولا هناء بنعمى لا تخاف لها ... فقدا ولا تبتلى منها بحرمان
لو يعلمون هنات النفس ما خلعوا ... قدس الخلود على نعمى وأحزان
فالنفس موحشة من رغبة وهوى ... نعمى الجنان وبؤسى النار سيان
وأصبح الكون لغوا لا حياة به ... من رغبة في مجاليه وغنيان
ما للخلود وما للحسن يزعمه ... هيهات عرى من حسن وإتقان
يضفى الجمال علىالايام مقتدرا ... من (التحول) ذو عز وسلطان
عنى له الكون مأخوذا بفتنته ... من أنجم ومكانات وأزمان
وعاطفات وأرواح وأخيلة ... تغزو الوجود وآراء وأديان
وربما فقهت من أمره عجبا ... قبل الهداة عصا موسى بن عمران
كفرت بالروح بعد الريب آونة ... وكان زلفى إلى نجواه كفرانى
ورحت أعبده بالحان مجتليا ... آيات قدرته في خمرة الحان
وقرب القوم ما شاءوا لمذبحه ... فما تقبل منهم غير قربانى
أعلنت حين أسروا أمرهم فرقا ... يا بعد ما بين إسرار وإعلان
إن الخلود وما تروى مزاعمهم ... عن السعادة في الفخري نقيضان
ان الفراديس في سر الخلود غدت ... وكل أو إليها رازح وان
مل المقيمون فيها من هناءتهم ... كما يمل السقام المدنف العانى
تمضي العصور عليهم وهي واحدة ... أليوم كالأمس فيها ضاحك هاني
تزجى السآمة تفكيراً وعاطفة ... إلى عقول وأهواء ووجدان
لا يرقبون جديدا في خلودهم ... لرث من قدم العهد الجديدان
ولا يحبون لكن تلك طائفة ... من ماجنات خليعات ومجان
ولا يناجون في أحلامهم أملا ... محببا بين إنكار وايقان
ولا يحسون لا حزنا ولا جذلا ... فالقوم ما بين مشدوه وسهوان
يا شقوة النفس تخلو بعد أن عمرت ... من حسرة ولبانات وأضغان
وضيعة القلب لا تأوي إليه منى ... كالنحل تاخذ من روض وبستان
من كل من أبلت الأدهار جدته ... فما يحركه إحماض رضوان
ينادم الحور لكن غير مغتبط ... ويشرب الراح لكن غير ظمآن
لود في كل ما تجريه من عسل ... ومن خمور ومن در وعقيان
هنيهة من شقاء يطمئن بها ... إلى مناجاة آلام واشجان
إذا تذكر دنياه هفا ولعا ... إلى حبيب وصهباء وندمان
وراح يبحث في المجهول عن أمل ... وعن شفاء وعن أهل وخلان
لعل بين زوايا النفس قد تركت ... ثمالة من حبابات وتحنان
أما الغواني فصخر لا يحركها ... نجوى محب ولا تدليل ولهان
لا تعرف الحب إلا محض تلبية ... لعابرين من الأبرار فتيان
ولا تجن إلى روح وعاطفة ... فالحب في ملكوت الخلد جثماني
خبا لهيب المنى في روحها فغدت ... وحسنها في حلاه حسن أوثان
حتى الخلود عليها فهي شاكية ... إلى الأنوثة ذاك الخائن الجانيي
وللخلود على أهل الجحيم يد ... تجزي على الدهر إحسانا بإحسان
الكافرون لطول العهد قد ألفوا ... بقاعها نضج أرواح وأبدان
وقد تزف بها - والحفل محتشد ... سجينة من ضحاياها للسجان
فأصبحت وهي من ماء ومن مدر ... شيطانة تتصبى كل شيطان
- وربما صحبوا فيها زبانية ... بعد القلى - إلف أخدان لأخدان
لا يأملون ولا تشكو جسومهم ... من اللظى فهي نيران بنيران
مليحة الدل من غسان لا بليت ... شمائل الصيد من أقيال غسان
أتأذنين بإنشاد فما جليت ... إلا لحسنك أشعاري وأوزاني
طوفت في هذه الدنيا على مهل ... طواف أشعث ماضي العزم يقظان
تظلني مصر أحيانا وآونة ... أعاقر الكأس في جنات بغدان

وقد صحبت شعوب الأرض من عرب ... شم الأنوف إلى روم وكلدان
مفتشا عن (عزاء النفس) لالعبى ... أدى إليه ولا حلمى وعرفانى
مسائلا عنه حتى قد عييت به ... ارث الفلاسف من هند ويونان
فما رأيت له عينا ولا أثراً ... ولا أفاد طوافي غير خذلانى
اذا ندبت جهودي وهي ضائعة ... أطل من حرم الرؤيا فعزانى
ثم انثنيت وركبي جد متئد ... من الونى ورفيقي جد حيران
والبيد أوسع من صدر الحليم مدى ... وللسراب بها آلاف غدران
ظمأى حيارى خلف الركب طائفة ... حمر اللواحظ من أسد وذئبان
فأيقن القوم بالجلى وقد صمتوا ... لهيبة الموت وهو المقبل الدانى
حتى إذا اليأس لم تترك مرارته ... إلا بقية صبر غير خزيان
لاحت خيامك بالصحراء مؤنقة ... أبهى وأزين من عرش وايوان
فكبر الركب مرتاحا إلى أمل ... عذب المجاجة حالى الوشى ريان
مبادراً للظلال الخضر قد كسبت ... نثير ورد ونمام وسوسان
فما فتحت جفوني وهي دامية ... من الرمال. أعان الله أجفاني
حتى لمحتك خلف السجف ضاحكة ... إلى جوار وحجاب وغلمان
فقرت النفس لا شكوى ولا تعب ... ولا لجاجة إيمان ونكران
وأبصرت بعد طول البحث غايتها ... فأذعنت لهدأها أي إذعان
فقبلت شفة حمراء دامية ... واهتز من نشوات اللثم نهدان
سر السعادة في الدنيا وإن خفيت ... تجلوه منك على الأكوان عينان
آمنت بالحب ما شاءت عذوبته ... آمنت بالحب. فهو الهادم الباني
بدوي الجبل

السائلة الحسناء

قربت حسناء مني ودنت ... وهي في ثوب من الأسمال بال
لمحتني عينها عن كثب ... فأتت تطمع مني في النوال
سألتني درهما في ذلة ... قلت صوني الحسن عن هذا السؤال
بسؤال الناس قد أرخصته ... إن هذا الحسن - لو تدرين - غال
لم أكد أنطق حتى أطرقت ... وجرى في خدها الدمع وسال
ثم قالت وهي ترنو في أسى ... أيها اللائم أشفق في المقال
يعلم الله باني صنته ... لم أفرط أبدا فيه بحال
صنته جهدي وما أرخصته ... إنما قد أرخص الفقر الجمال
محمد برهام

الحمد لله!

للسيدة منيرة توفيق

فتيات مصرَ تحيَّةً ... أنتنَّ ربَّات العزائم
إني أدينُ بعَطْفِكُ ... نَّ، وشُكْرُكُنَّ عليَّ لازم
شكرِي إلى (خيريَّةٍ) ... و (لِنَاهِدٍ) ذاتِ المكارِمْ
قد شَدَّتَا أزْرِي، فيا ... لِيرَاعَتَيْنِ من الصَّوارم!
واهْتَاجَتَا فسمعتُ زَأ ... رَ الأُسْدِ في سَجْعِ الحمائم
سِربُ الظِّبى شَهَرَ الظُّبي ... في وجه جنديِّ الملاحم
وهناك حين رأى الوغَى ... ألقَى السِّلاحَ ولم يقاومْ
فأتى إليَّ يمدُّ كفْ ... فَ مُصَافِحٍ سَمْحٍ مُسالِمْ
ومضَى يجدِّدُ عهدَنا ال ... ماضى، وصَفْوُ العيش قائمْ
والحرُّ يَرجِع حين يَعْ ... لمُ أنه في الحقِّ آثمْ
يا سيداتي الفضْلَيَا ... تِ لَكُنَّ حقُّ الشكر دائمْ
قد عاد لي زوجي الكري ... مُ، وجاء يقرَعُ سِنَّ نادم
من بعد ما قَدَّرْتُ أنْ ... نَ رُجُوعَهُ أضغاثُ حالم
هي عَضْبةٌ سِحْرِيَّةٌ ... أدَّت إلى حُسنِ الخواتم
فعلَتْ به ما ليس تف ... علهُ العزائم والتَّمائم
فليطمئنَّ اليومَ في ... دار الخلود (أمينُ قاسم)

وليَهْنأ النيلُ العظي ... مُ بما لديه من كرائم
أنتنَّ ذخْرُ النيل في ... يوم العزائم للعظائم
والله يشكرُ سعْيَكنْ ... نَ لِرَدِّ أنواع المظالم
اللقاء الصامت
أيقنت انك مثلي جد مولعة ... يوم اللقاء فزال الخطب أو هانا
قد كنت أخشى بعادي يوم فرقتنا ... لكن حمدت بعادي يوم لقيانا
شربت فيه كؤوس الهم مترعة ... وذقت فيه من التسهيد ألوانا
حتى إذا كان يوم العيد عاودني ... بشرى كان لم يكن في البعد ما كانا
ونحن إن لم يخل العرف أعيننا ... فحسبنا العين في تخفيف بلوانا
محمد مصطفى الطحلاوي
في الأدب الفارسي
منطق الطير
القصة الصوفية الخالدة
للدكتور عبد الوهاب عزام
فريد الدين العطار، شاعر صوفي عظيم من شعراء القرن السادس الهجري، وهو أحد الثلاثة الذين انتهت إليهم الإمامة (بين شعراء الفرس المتصوفين) والآخران مجد الدين سنائى الغزنوي، ومولانا جلال الدين الرومي
وللعطار من المنظومات الصوفية زهاء أربعين، بعضها يحتوي على عشرة آلاف بيت. وهو أحد المؤلفين الذي حالت كثرة مؤلفاتهم دون معرفة آرائهم معرفة بينة.
وأعظم منظوماته وأسيرها وأدخلها في الشعر، منظومة سماها (منطق الطير) وتعرف أحيانا باسم (هفت وادي) أي سبعة الأودية. وهي زهاء 4600 بيت، قص فيها اجتماع الطير وتساؤلها عن ملكها وتعريف الهدهد اياها بهذا الملك ومكانه ووصفه الطريق إليهن ثم توليه قيادة الطير التي رضيت بالسفر الشاق إلى ديار العنقاء واجتيازه بها سبعة أودية، وما أصاب سفر الطير حين بلغ غايته: ويتخلل هذا قصص عديدة يفصل بها السياق، ويبين بها بعض مقاصده.
وأنا أجمل لقراء الرسالة هذه القصة على طولها في صفحات قليلة، وعسى أن أستطيع من بعد نقلها كلها إلى اللغة العربية:
يبدأ العطار كتابه بحمد الله وتمجيده والثناء عليه، بكلمات هي غاية ما بلغته فلسفة الصوفية، ثم يثني بفصل عنوانه (نعت سيد المرسلين وخاتم النبيين ويطيل فيه ما شاءت بلاغته وأيمانه، ثم يثلث بمدح الخلفاء الراشدين على نسقهم في الخلافة، وينعى على أهل العصبية الذين يفرقون بين صحابة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ويذكر ست قصص لتأييد رأيه
ثم يشرع في مقصوده بعد هذه المقدمة التي تستغرق ستمائة بيت ويعالج الموضوع في خمس وأربعين مقالا وخاتمة.
يبدأ بوصف اجتماع الطير، ويذكر فيما يذكر منها الهدهد والببغاء، والدراج والبلبل والطاوس، والفاختة والقمري والبازي. ويصف شكل كل طائر وطباعه.
اجتمعت الطير فتشاكت ما هي فيه من الفرقة والفوضى، وفقد رئيس يجمع كلمتها ويهديها السبيل، على حين لا تخلو أمة من ملك فانبرى الهدهد يخطب فيذكر خبرته واعتزاله الناس، وجده في طلب الحق، وصحبته سليمان بن داود، وأنه طوف الأرض سهلها وحزنها، وخبر قاصيها ودانيها. ثم قال: عرفت أن لنا ملكا، ولكن عجزت عن المسير إليه وحدي، فان تعاونا استطعنا أن نبلغ مكانه. إن لنا ملكا اسمه سيمرغ وراء جبل اسمه جبل قاف، هو منا قريب ونحن بعيدون. هو في حرم جلاله لا يحيط البيان بوصفه، ودونه آلاف من الحجب - واستمر الهدهد يفيض في وصف السيمرغ، حتى راع السامعين بيانه. قال: وأول عهد الناس به أنه كان طائراً في ظلمات الليل فوق بلاد الصين فسقطت من جناحه ريشة، فقامت قيامة الامم، وأعجب الناس بما فيها من الألوان العجيبة والنقش، وتعلم كل منها فناً. ولا تزال هذه الريشة في الصين، ومن أجل هذا جاء في الأثر: (أطلبوا العلم ولو في الصين) ولو لم يظهر في هذا العالم نقش هذه الريشة ما كان في العالم أحد منكن أيتها الطير.
فلما سمعت الطير بيان الهدهد، هاجها الشوق إلى السيمرغ وأزمعت الرحلة إليه، ثم

ذكرت ما في الطريق من أهوال فبدا لبعضهن أن يؤثر العافية، فادعى كل لنفسه عذرا:
قال البلبل: أنا أمام العاشقين؛ ملأت القلوب وجدا بأغاريدي، فكيف أستطيع مفارقة حبيبي الورد.
وقالت الببغاء: إن جمال هذا الريش أغرى بي الناس، فحبسوني في الاقفاص، فقاسيت الغم الطويل والألم الممض، حسبي ما قاسيت على أنى لا أستطيع أن أطير تحت جناح السيمرغ.
وقال الطاوس: كنت مع آدم في الجنة فطردت منها، وكل همي أن أعود إليها ولست بعد قادرا على مصاحبة السيمرغ
ويذكر البط طهارته وعيشه في الماء وزهده، ويعتذر بأنه لا يستطيع مفارقة الماء والعيش على اليبس. ويعتذر الحجل بأنه ألف الجبال فلا يستطيع أن يبرحها. وتعتذر الصعوة
بضعفها، والبازي بأنه لا يود أن يترك مكانه من أيدي الملوك. وهلم جرا
يجادل الهدهد هذه الطيور ويرد عليها أعذارها، ويرشدها إلى الخير، ولا يألو في النصح لها. فتطيف الطيور بالهدهد تسأله: كيف يقطع هذا الطريق البعيد، وماذا يصلنا بهذا الملك العظيم، في أسئلة كثيرة، فيوبخهن على التواني في الطلب، والركون إلى الدعة، والوجل من لقاء الشدائد. ثم يقول مبينا نسبة الطير إلى السيموغ انه تجلى كالشمس من وراء الحجب، آلاف الظلال على الأرض وما الطير إلا هذه الظلال. ثم يقول: ان العشق إذا صدق استهان العاشق كل شيء في سبيله، واقتحم كل عقبة إلى حبيبه.
وهنا يستطرد الشاعر إلى قصة الشيخ صنعان الذي أخرجه العشق عن طوره. وهي) (قصة عجيبة تستغرق أكثر من 200 بيت ولا يتسع لها المجال هنا، ولا يحسن إجمالها
هاجت الطير شوقا، وأجمعت على أنه لابد لها من أمير تطيعه على اليسر والعسر، واتفقت على أن يقرع بينها، فأصابت القرعة أجدرها بالإمارة وهو الهدهد.
فوضع التاج على رأسه وتقدم، واجتمعت إليه أسراب الطيور فأشرف بها على طريق موحشة مقفرة، فسأله سائل ما لهذى الطريق مقفرة؟ قال إن الناس تجنبوها إشفاقا وخوفا. وحكى أن أبا يزيد البسطامي خرج إلى البرية في ليلة مقمرة والناس نيام، فراقه جمال الليل وتهويده. وعجب كيف خلا هذا المقام من المشتاقين، فسمع مناديا يناديه، ان الملك لا يأذن لكل إنسان أن يسلك طريقه، وأن عزتنا أبعدت السائلين عن بابنا.
ثم تقدمت الطير (فرأت طريقا ولا غاية، والما ولا دواء، هنالك تهب ريح الاستغناء، فينحنى لها ظهر السماء، هنالك صحراء لا يعبأ فيها بطاووس الفلك، فكيف بطير هذا الدنيا)
فلما هال الطير ما رأت، حفت من حول الهدهد فقالت؛ إنك طوفت في الآفاق وعرفت كل شيء، فارق المنبر لنسألك عما حاك في صدورنا، فلابد أن نطهر قلوبنا من الريبة. صعد الهدهد وشدا بعض الطير بالحان هاجت الطير وأذهلتها. ثم تواترت الأسئلة فكان أول سؤال أن قال طائر: أخبرني أيها الإمام كيف فضلتنا جميعا. وكيف كان هذا التفاوت بيننا وبينك؟ قال الهدهد: منحتني هذه الدولة نظرة من المليك. إنها دولة لا تنال بالطاعة، فكم أطاع إبليس. لا أقول إن الطاعة لا تجب، فعليك الطاعة. لا تفتر عنها ساعة ولكن لا
تقدمها ثمنا. امض عمرك في الطاعات حتى تصيبك من سليمان نظرة. ثم سئل الهدهد عشرين سؤالا أجاب عنها مفصلا مسها ضاربا الأمثال. وكان السؤال التاسع عشر: ما الهدية اللائقة بتلك الحضرة التي نؤمها: وكان جواب الهدهد: لا تحمل شيئا فهنالك كل شيء، وليس خيرا لك من الطاعة والعشق.
والسؤال العشرون يفتح القسم الثاني من الكتاب، وهو الذي يصف الأودية السبعة التي تعترض السائرين إلى حضرة السيمرغ: سأل سائل، كم فرسخا مسافة هذه الطريق. قال الهدهد: أمامنا سبعة أودية لا تعرف مسافاتها، لأن أحداً لم يرجع منها فيخبر عنها. أمامنا أودية الطلب، والعشق، والمعرفة، والاستغناء، والتوحيد، والحيرة، والفقر والغناء.

البقية في العدد الآتي
عبد الوهاب عزام
العُلوم
في البحوث الروحية
للأستاذ عبد الغني علي حسين
خريج جامعة برمتجهام
- 3 -
أمامي الآن ذلك الكتاب الصغير (كيف ثبت لي خلود النفس البشرية) لذلك العالم الكبير (سر ألفرلدج). كتاب خليق بأن يفتح لرجال العلم ميدان بحث جديد لا يمكن التكهن بمدى اتساعه، فهو يلفت النظر بشدة إلى حقيقة كبرى، تتراءى من وراء ظواهر غامضة، لم يلتفت إليها العلم حتى الآن لما يحف بها من دجل يبدو معه البحث فيها عاراً ومنقصة.
لقد كمن الرجل في ظل العلم بشتى الصور في كل العصور. وقديماً بينما كان آباء الكيمياء الحديثة - جابر بن حيان الصوفي، وأبو بكر الرازي ومن أخذ عنهما من الفرنج - يستنبطون المركبات الجديدة، ويستقطرون الزيوت والحوامض، كان أخوهم الدجال، يزور عباد المال موهماً إياهم باسم الكيميا إن في مقدوره قلب رصاصهم ذهبا، ثم يذهب عنهم وقد استلب ما كان لديهم من ذهب وترك رصاصهم كما هو، فينتبهون بعد فوات الوقت إلى أن الذي يعرف سر صنع الذهب من الرصاص لا يكون بحاجة لعرض خدماته على الناس.
ولكن إذا اجتمع العلم والدجل في ميدان، فهل للعلم أن يهرب؟ كلا. بل عليه أن يغزو. سلخ لدج في بحوثه تلك زهاء الأربعين عاما، وكون فيها رأياً نهائياً لم يتحول عنه قيد أنملة منذ كونه، ولم يفرط في إذاعته وبسطه بمختلف التواليف في صراحة تامة، ومع شيء من التضحية أيضا، فقد تعرض اسمه الضخم للتجريح، وعقله الكبير للاتهام.
قلب معي صفحات تاريخ العلم الحديث. هل ترى نظرية ضخمة جاءت وليدة ساعة أو يوم؟ من المعلوم المشهور أن دارون قضى عشرين عاما تختمر نظريته في ذهنه، وهو يقدم على البوح بها ثم يحجم، ولما أذاعها أخيراً قوبلت بوجوه مستطيلة، وأفواه فاغرة، ولم تتخذ سبيلها إلى عقول الناس بعد إذاعتها إلا ببطء شديد، ولا يزال لها إلى اليوم أعداء
متحمسون.
أغلب الظن أننا اليوم أمام نظرية علمية جديدة من هذا الوزن الثقيل، سيتفسر بها الكثير مما يحير اللب اليوم، وحيره في كل العصور، بل ربما أفضت إلى تفسير كل شيء على أساس جديد. نظرية روحية سيقال إن بطلها ألفر لدج. والحقيقة أن النظرية الضخمة لا يتفرد بتشييدها عادة عقل واحد مهما تجبر، وهذه النظرية قد ساهم فيها آخرون لن تكون جهودهم منسية، نخص بالذكر منهم (كروكس) و (ولاس) من علماء الجيل السابق، والعالم الفرنسي المعاصر (شارل ريشيه).
ولكن إذا كانت هناك حقيقة ظواهر من هذا النوع، ينتفي عنها الدجل، وتشعر بأقل أمل في الوصول إلى كشف خطير كالذي يجاهر به لدج، فلماذا نرى جمهور رجال العلم يغمضون عنها عيونهم، ويضعون أصابعهم في آذانهم كلما صاح فيهم لدج وأهاب بهم؟ هل يعقل أن يوجد ميدان بحث كهذا، جليل النفع، خطير الغاية ثم لا يلجه من العلماء إلا الشاذ النادر، وترفض الاعتراف به المجامع العلمية، وتظل قاعات البحث في الجامعات خالية من كل أثر له؟ لقد عهدنا رجال العلم ككلاب الصيد، تشتم ريح الفريسة من بعيد، فلماذا نرى منهم البرود والجمود في هذا الموضوع؟
هي حال غريبة حقا. ولكن يظهر أن صيحات لدج قد بدأ صداها يدوي في الآفاق العلمية. فقد جاء في عدد 23 ديسمبر سنة 1933 من مجلة نايتشر الإنجليزية (مجلة علمية يعرفها كل مشتغل بالعلوم تمثل الرأي العام العلمي أصدق تمثيل) مقال من قلم التحرير الذي يرأسه (سر رتشارد غريغوري) بعنوان (العلم والبحوث الروحية) نقتطف منه ما يلي: -
إن الظواهر غير العادية، التي تشاهد في حالة النوم المغنطيسي وفي حالات الذهول) والكتابة الأوتوماتيكية ونحوها، قد أصبحت الآن جديرة بالتفات الباحثين من حملة

الدرجات الجامعية. . . . إن الحاجة إلى البحث الصريح الجريء في تلك الظواهر لتزداد يوما عن يوم. . . . من الواضح الجلي أن تبعة عدم الوصول إلى تعليل لتلك الظواهر تقع على عاتق الهيئات العلمية الرسمية. . . . تلك الظواهر الغامضة الخارقة للعادة قد أصبحت من مواد البحث الجدي في كثير من المراكز العلمية بأوربا وأمريكا، وقد حان الوقت على ما نظن لأن تعد العدة لمثل هذا البحث في بريطانيا. . . . لا يتسربن إلى الذهن أن أي جامعة

تعترف بهذا الموضوع الواسع الغامض، ستجد في الخطوة التي خطتها مساسا بكرامتها، بل العكس، ستكون إرادتها الحرة في خدمة العلم وتقدمه سبباً في ازدياد قدرها كمركز للتقدم المستنير.)

نغمة جديدة، واتجاه فيه الخير حتما، سواء أأفضى إلى النتيجة المتوقعة أم إلى غيرها، لأن نتائج البحث العلمي الصحيح لها دائما قيمتها. والآن نورد مثالا من المشهدات التي تعرض كثيرا للعلماء القليلين المشتغلين اليوم بهذه البحوث.

في سنة 1903 تلقى السر ألفر لدج من صديقه الأستاذ شارل ريشيه رسالة فحواها أنه في الليلة التي قتلت فيها ملكة الصرب وأخواها في بلغراد كان الأستاذ ريشيه مجتمعا بوسيط وبعض الأصدقاء في جلسة روحية بباريس، وكانت حروف الهجاء تملى عليهم بطرقات على المائدة. فبعد ورود عدد من الرسائل العادية بدا من القوة المتسلطة على المائدة اهتمام وإلحاح، وأمليت الحروف الآتية بطرقات أعلى من المعتاد عندئذ توقع ريشيه أن تكون الرسالة باللاتينية، واستمر الإملاء وجاءت الحروف الآتية ولم يجد ريشيه في الرسالة أي معنى، ولكنه استمر في التدوين آليا، وكانت الحروف الباقية ولم يكن يفهم من هذه الرسالة سوى أنها تشير إلى عائلة ما. ثم لاحظ ريشيه بعد ذلك أنه يمكن تقطيعها إلى كلمات هكذا (بانكا الموت كامن للعائلة.)

هذه الرسالة وردت في يوم الأربعاء 10 يونية سنة 1903 الساعة 10 والدقيقة 30 مساء. وبعد يومين كانت الصحف الفرنسية غاصة بخبر مقتل الملك إسكندر وزوجته الملكة (دراجا) وأخويها في بلغراد. ومن بين ما ذكرته الصحف ان والد الملكة توفى من عهد غير بعيد وكان اسمه (بانسا) وقد دهش الأستاذ ريشيه عندما رأى هذا الاسم في الصحف. ولاحظ اتفاقه مع الكلمة الأولى غير المفهمومة في الرسالة والخطأ الوحيد هو إملاء بدلا من

وبالبحث علم ريشيه ان القتل حدث بعد منتصف الليل بقليل، فهو في وقت ورود الرسالة لم يكن قد وقع بعد. ثم علم ريشيه ان الساعة 10 والدقيقة 30 في باريس توافق منتصف الليل في بلغراد. وهو الوقت الذي غادر فيه القتلة فندق (لا كورون دي سريا) لارتكاب الجريمة المروعة. إذن فكلمة تناسب الظروف تماما، إذ تشعر بقط يتحفز للوثوب على

فأر. ولم تكن لتناسب الظرف لو أن الرسالة وردت بعد حدوث القتل، أو وردت قبله بزمن طويل

وفي يوم الخميس 11 يونية الساعة 2 مساء ورد الخبر إلى باريس ولم يطللع ريشيه على تفاصيله إلا يوم الجمعة.

تلك هي الرسالة وظروفها. والطريقة التي أخذت بها تعد أبسط تجربة روحية. وهي أن تجلس عدد من الأصدقاء أو الأقارب حول منضدة: ويكون بينهم وسيط، ثم يضعوا أيديهم على المنضدة بخفة، فتسمع على المنضدة طرقات لا شأن لأي واحد من الحاضرين بأحداثها. عندئذ تتلى الحروف الأبجدية فتسمع طرقة عند النطق بكل حرف ما عدا الحرف المراد إملاؤه، فيدون، وبعد الانتهاء تقسم الحروف إلى كلمات.

كيف نعلل حدوث هذا الطرق على المائدة؟ أقرب تعليل له هو أن الوسيط يحدثه بطريقة شعوذية لا يتبينها الحاضرون. ولكن لو سلمنا بأن الوسيط هو الذي يحدثه عمد، كيف نعلل ورود رسالة كهذه التي ذكرناها؟ كيف علم الوسيط بوجود المؤامرة لاغتيال الأسرة المقتولة وحلول وقت التنفيذ؟ إن سر هذه المؤامرة كان بطبيعة الحال مصونا أشد صيانة، ولولا ذلك لحبطت، فبعيد أن يكون الوسيط على علم بها وهو في باريس.

يعلل لدج هذه الظاهرة بأن واحداً ممن ماتوا وكانوا يشاركونه هو وريشية بحوثهما قد انتهز هذه الفرصة ليضع أمام ريشيه دليلا على الاتصال الروحي.

أما ريشيه فمع اعتقاده بانتفاء الشعوذة من هذه المشاهدة ومثلها بالنسبة لما يتخذه

من التحوطات، لا يذهب في تفسيرها فذهب لدج بل يعزوها إلى انتقال الفكرة من عقول القتلة في هذه الحالة إلى عقل الوسيط بطريق التلباثي، ثم طرق المائدة بقوة مستمدة من العقل الباطن للوسيط.

ريشيه يرى وجوب البحث الجدي في تلك الظواهر، وجمع المشاهدات ووصفها بدقة علمية، ولكنه لا يرى التعجيل بنسبتها إلى مصدر روحي ولدج يرى أن مشاهداته الخاصة قد تركته على تمام اليقين من وجود المصدر الروحي. أما الذي لا خلاف بينهما عليه، فهو أن هناك ظواهر نفسية وآلية شاذة غريبة تتطلب جيوشا من الباحثين.

عبد المغني علي حسين خريج جامعة برمنجهام

بين الضحك والبكاء

للدكتور احمد زكي

يسر الإنسان لأمر، لمنظر واقع حاضر يُمتِّعُه، أو لذكرى طيبة ماضية يسترجعها، أو لفكرة يؤلفّها خياله لا تتصل إلى الكائن الراهن بسبب، فلا يلبث أن ينتقل هذا السرور الذي بروحه إلى جسده، والوجه أكثر أجزاء الجسد تخصصّاً في إظهار الآثار الروحية، والكشف عن انفعالات النفس الخبيثة، وهو يفعل ذلك بقبض العضل وبسطه، وتقصيره وتمديده، وبالتأليف في كل هذا بين مجموعات منه متخالفة. فقد تنبسط الأسارير، وقد تفتر الشفاه، وقد تنفتح انفتاحاً ويصحبها انطلاق الهواء من الرئة واندفاعه إليها بسرعة تزيد على سرعة الزفير والشهيق كثيراً فتحدث القهقهة. وقد ينقلب سرور النفس إلى ثورة تعم الجسد كله.

وقد حاول كتاب تفسير الضحك. قال أحدهم إنك تنظر لرجل تزل قدمه في الطريق فينقسم إلى أجزاء ثلاثة أو أربعة فتضحك لأنك تقرن نفسك به دون قصد، فتحس بالتفوق والعلو، فيسرك (المجد الذاتي الباغت). وردّ (شوبنهور) أسباب الضحك إلى تناقض بين أجزاء الصورة أو تعارض غير مألوف بين معاني الفكرة الواحدة، على أن يكون إدراك ذلك سريعا. وقال (برجسن): إن سبب الضحك أن تتعطل في المضحوك منه الإرادة اليقظة الموجهِّة القاصدة، فيأتيأفعالا لا هيمنة للعقل عليها، ومثل ذلك الزَّلَق وما يحدث من الغافل الذاهل، ومن السكران الذي فقد السيطرة على أعضائه. كل هذه لا شك أسباب تكون للضحك، ولكن لا شك أيضاً أن هناك أسباباً عديدة أخرى ليس من السهل الميسور تحديدها أو تعريفها.

وبقدر ما تتعد أسباب الضحك تتعدد أنواعه، فالضحكة قد تضيق وقد تستعرض، وقد تسرف في الضيق كما تسرف في الاتساع، وقد تتخذ أوضاعا عدَّة بين هذا وذاك، وهي في جميعها ضحكة بسيطة خالصة نشأت عن سرور بسيط خالص. ولكن قد تكون الضحكة عن ألم شديد وحزن عميق يحدث في النفس توتّرا لابد من إرخائه، وتأزّما لابد من تفريجه، وتركزاً في طاقة البدن لابد من تخفيفه، وضغطاً حاراً تحسه في القلب أو بين الأضلاع لابد من انطلاقه، فان كان معتدل الكم انطلق من مخارجه المعتادة، ومن الشؤون في

العيون، وان ضاقت عنه تلك المخارج أو عزَّت طلب سبلا غير معتادة فكان حزناً ضاحكاً، فالضحكات كالدمعات إن اختلفت أصولها فقد اتحدت مراميها

وكما يضحك الباكي فكذلك يبكي الضاحك، فالضحك والبكاء صنوان. كلاهما فيض الكأس عند الامتلاء، كلاهما فضل الطاقة الفسلجية الخبيثة كالتي يفيض بها جسم المحموم عندما تنكسر حمّاه عن قطرات تبكيها مسامّ الجسد العديدة. فان أنت سررت وضاق صدرك بالسرور فلا تكتمه بل أضحك وازأط، وان أمكنك فابك، يسترح جسمك وينتعش ويستفق. وان أنت اهتممت أو حزنت أو داخلك الوجد المضني فابك وأفض وافتح شئونك وُسْعَها، وان أمكنك فاضحك وازأط كذلك، وأنا ضمين لك بالعزاء وبالشفاء

والضحكة قد تمتزج بها عواطف أخرى لا تمت بسبب إلى السرور أو إلى الحزن، فقد تكون ضحكة هازئة، أو ضحكة مرة حاقدة، أو ضحكة غَزِلة

والإنسان في عالم الحيوان أكبر ضحاك، وربما كان هو الضاحك الوحيد، ويقول بعض العلماء الخبثاء إنه أكبر مضحوك منه كذلك ومن الضحك ضحك مَكْنَىَ آليّ تثيره الدغدغة وان شئت (فالزغزغة) ولا أظنها كلمة تضيق بها صدور العرب وان ضاقت عنها المعاجم. وهذا الضحك الآليّ لا يعوزه السرور الذي يصطحب الضحك التلقائي

ولذا يعود الطفل إلى طلب الدغدغة وقد كان أباها. وذلك لما وجد فيها من الغبطة. وكذلك الحيوان يتدغدغ فيحس في الدغدغة سرورا وغبطة. ولكنه لا يضحك ولا تجري دموعه منها. فمن الثعابين أنواع إذا مسحتَ أظهرها بأناملك في لطف ورفق سرها ذلك فاستكانت، وان سكتَّ عادت في خشوع تطلب المزيد.

وفي جزيرة سيلان يمسكون التماسيح بالحيلة، وحيلتهم في ذلك الدغدغة. يلوّحون للتمساح بالطعم في الماء، حتى إذا استدرجوه إلى المياه الضحلة، أتاه المروّض فتمتم بعض التعاويذ، حتى إذا اقترب منه دق رأسه بعصا دقا خفيفا متتابعا، حتى إذا تلهَّى تجرأ الصيّاد فركب كتفيه وأخذ يمسح بالأصابع جلده الأسفل اللين، بينما اليد الأخرى تشده بالحبال وفي الملايا يستخدمون نفس الحيلة في أسر نوع من السمك ويسمونه (السمك الأحمق) وهو سمك كبير يعيش على بعد من سطح البحر يتراوح بين العشرة الأقدام والعشرين، وهو يرقد ساكنا فإذا تحقق السّماك من وجوده غاص من قاربه إليه في سكون، وأسرع فوضع

يده تحته وأخذ يدغدغه دون زعانفه، فلا يلبث أن يدخل السمك في شبه سكرة من السرور العميق فينقاد طوعا إلى سطح الماء حيث القارب وهو يحتضن الكف التي تدغدغه. ثم يسير به القارب برجاله إلى المياه الضحلة من الشاطئ. فإذا حانت الساعة انهالوا عليه بكل سكين جارح، ومقصل حاد فقتلوه. وكم قتلةجاءت من بعد سرور، وكم لذة خلفت حسرات.

احمد زكي

القصص

قصة مصرية

الخبز الرخيص

وفتح الفتى عينيه - وكان يغمضهما كأنه يحلم - وألقى نظرة أخرى على ورقة من . . . ورق الرسائل الأزرق منشورة أمامه.

ولم يكن يدري كم من الوقت مر عليه وهو - على حالته هذه - أمام مكتبه، والقلم في يده، وعيناه مغمضتان، ورأسه يحس انه يوازن كرة الأرض ويدور دورانها.

واعتمد بجبينه على راحة يده اليسرى، وأرسلها نظرة تائهة إلى الفضاء الذي يمتد أمام نافذته، وأخذ يستعيد ذكريات ساعات قريبة:

تذكر انه كان جالسا يقطع ساعة من ساعات الفراغ والوحدة المملة بالقراءة والتفكير، فسمع الجرس يدق خمس دقات - تتصل ثلاثتها الأولى وتقفوها دقتان منفصلتان - فأسرع إلى الباب يفتحه، وقد افترت شفتاه عن ابتسامة للوجه الذي سيطالعه، إذ كانت هذه الدقات سراً بينه وبين فتاته اصطلحا عليها، رفقا بأعصابه التي لم تكن تتحمل، حين يكون في انتظارها، أن يدق الجرس ثم لا تكون هي الطارقة.

دق الجرس دقاته الخمس، ولكنه حين فتح الباب تقدمت إليه فتاة أخرى - لا عهد له بها - تبتسم ابتسامة ناقصة، فحار في تعليل هذا ولم يكد يبدأ التفكير حتى تقدمت إليه صاحبته - وكانت تختفي وراء مصراع الباب المقف - وهي تقول ضاحكة: (أقدم لم صديقتي فتحية) فمد لها يده يحييها، ونظر لفتاته عاتبا وهو يقول: (يا شقية! متى تدعين هذا العبث؟)

وجلسوا ثلاثتهم وجعل الفتى يضحك ويتحدث كما هي عادته مع صديقته وصاحبتها، إلا انه كان يخيم على مجلسهم شيء من الفتور لم يكن يدري له سببا. وكان يبدو على وجه الفتاتين كثير من التردد والانتظار، ففترت رغبته في الحديث وودلو يعلم ماذا تكون النهاية

وكانت كلمات تحار على شفتي فتاته أمضها كتمانها، فقامت وخطت خطوتين إلى النافذة، وأطلت منها وعادت إلى حيث كان جالسا وعلى محياها دلائل العزم والتصميم وقالت:

- حقي! (وهذا اسم الفتى) هات ورقة وقلما!

- ماذا تصنعين بهما

- لا تسألني!

وألقت نظرة إلى صديقتها وقدم لها هو ورقة من ورق الرسائل الأزرق وقلما فقالت:

- اجلس هنا.

وأشارت إلى المكتب فجلس وهو لا يدري ماذا يراد به. فقالت:
- أكتب ما أملي عليك (وأخذت تملي)
2. 5 37 رقم أسود حذاء أسود. جورجيت كريب أمتار 5 أسود، ستان كريب متر
(أنيسيال) حرف (ل) وقالت كأنما تحدث نفسها:
- يكفي حرف واحد باسمي أنا (وكان اسمها ليلى!)
والتفتت إلى صديقتها قائلة: ماذا غير هذا؟
وقبل أن تجيبها قالت وكأنما تحدث نفسها مرة أخرى. . . كفى!
فرفع إليها (حقي) عينين حائرتين يسائلها ماذا تعني فقالت:
- سوف آتي يوم الثلاثاء القادم فأجدك اشتريت هذه الأشياء. إني اترك الاختيار لذوقك
ثم قالت:-
- سوف ترى كيف أبدو في هذه الملابس.
فحاول أن يبتسم، ولكن شفتيه لم تنفرجا، وحاول أن يعلل مسلكها فلم يهتد إلى تعليل. ترى ما الذي دعاها لان تطلب منه هذا، وقد كانت ترفض أن يهدي إليها شيئا مخافة أن يسألها ذووها عن مصدره؟ ثم هذه الطريقة التي طلبت بها ما طلبت. إنها لم تعجبه بل ومالنا لا نقول إنها ساءته وأمضته أيما مضض.
وحاول أن يستبقيها حين همت بالرحيل ولكن الأعذار تسابقت إلى شفتيها. . . وساءل نفسه - وهو يسير معها إلى الباب يودعها وصديقتها - بماذا تراها تعلل مسلكها إن سألها عنه؟ ولم يجد جوابا، وانتهى إلى أنها وضعت نفسها في مأزق سوف لا تدري كيف تخرج منه.
ووقف في أعلى الدرج يتابعها بنظراته وهي تهبط، وطافت برأسه حكاية الغزال والثعلب فهم ان يصيح بها. لم لم تفكري في الطلوع قبل ورود الماء؟ ولكن ارتد عن هذا وعاد إلى مكتبه يفكر
وهذا هو بعد فترة - لم يكن يدري مداها - قضاها شبه حالم في تأمل لم يخرج منه بطائل، ثم إنه حين فتح عينيه وعاد بعض الشيء إلى حالته الطبيعية تبين أنه كتب في غير وعي على الورقة الزرقاء - التي لا تزال منشورة أمامه - باللغات التي يعرفها (أبدا. . . ابدأ. هذا لن يكون. .!) ذلك بأنه كان قد انتهى إلى ما يشبه التصميم على إلا يلبي طلب الفتاة، وعلى أن يقطع علاقته بها وان لم يكن يدري سبب هذا على التحقيق.
وجاء المساء فتوفر الفتى صدر ليلته على التفكير في فتاته وكأنما زايلته نفسه وقفزت إلى كتفه، وصارت تسائله وتحاوره وتضحك منه ساخرة. قالت له نفسه:
- تريد أن تهجرها؟ أتراك تعني ما تقول؟ أتراك تستطيع أن تنسى؟ فمط شفتيه وهز رأسه وأقفل عينيه وهو يقول:
- النسيان؟ لقد جربته في الماضي ونجحت التجربة فمالي لا أحاول مرة أخرى؟
- أية مغالطة! انك لم تنس أبدا. لقد كنت تخدعني وتتناسى. ومع ذلك حاول هذه المرة أن تنسى: العينين الباسمتين دائما، العميقتين اللتين لم تكن تمل أن تحدق فيهما، والشفتين اللتين كانتا نفتران عن بسمات تسير على ضوئها أياما. . والقبلات التي كنت تقول إنها تعوض كل مفقود وتأسو كل جرح، وتعزى عن كل مصاب!
- كفى! كفى! دعينا من هذا!
- هي! لقد كنت ظننتك نسيت! وفي الحق مالنا ولهذا! أنت تريد أن تهجرها فهل بحثت (عن سبب أطمئن إليه
- كأنك لا تعرفينني! إن اقتل قلبي، ولا أجرح كبريائي.
- كبرياؤك؟ ماذا مسها؟
- لم أكن أظن أن فتاتي - كمن سبقنها - تريد أن تتقاضاني ثمن العاطفة كأن حناني لم يكن ثمنا كافيا!
- أي سبب؟! إنك لتتجنى عليها. لعلك تفيء إلى الحق فتعترف أنها نزوة تلك التي أصابتك.
- وما يهمني؟ أليست النزوة مع عطلها عن الأسباب سببا في حد ذاتها؟ وللنزوات أحيانا أسباب نتجاهلها. قل لي ألم تكن تحب صاحبتك؟

- لست أدري. وإنما كل الذي أدريه أني كنت أكون سعيداً بجانبها، وان نظراتها كانت تسحرني، وأن بسماتها كانت تضيء ظلمات وجداني.
- ولم لم تصل حياتك بحياتها؟ ألم يكن هذا يكفي؟
- كان ينقصني أن أعلم اليقين أنها تريدني. إرادة قوية جارفة تطغى في نفسها على كل ما عداها.
- إنها تريدك. وإلا فما الذي دعاها أن تبقى على علاقتها معك؟
- هيه، كثيرات يبعن أنفسهن أو يعرضنها سلعة يتقاضين في مقابلها خبزاً. ويا ما أرخصه من ثمن!
- أنت تشك إذن؟
- وأريد أن يمحى الشك بأن أراها تهزأ بكل شيء وتستبيح كل شيء في سبيل أن تبقى على أنا
- أية أنانية! وماذا يغريها بهذا؟
- وماذا يضيرها؟
- ماذا يضيرها؟ إنها فتاة. ومن حقها أن تشك وأن تظن انك تريد أن تلهو بها وأن تلعب.
- إذن أنفض يدي منها!
- وتبقى هكذا فارغ القلب دائما؟
- ذلك أجدى من أن املأه عاطفة قد تكون مسمومة فتقتله. . . وقلب فارغ خير من لا قلب!

وعاد إلى نفسه أو عادت إليه، فخفف كثيرا من ثورته على فتاته وعزم على أن يجيبها إلى ما طلبت، وان يتخلى عنها في رفق، وأن تكون هكذا نهايته معها. . . ومرت سنتان

وذات ليلة بينما كان يقفل نافذته لينام، راعه السكون المخيم على الطريق، وما هي إلا لحظة حتى خرقت حجب الصمت دقات ساعة في منزل قريب. . . تن. تن، حتى أكملت إحدى عشرة دقة وهو في مكانه ذاهل واجم. وان صوت الجرس في الظلام والسكون ليدخل على النفس شيئا كثيرا من الرهبة والكآبة، وهكذا أنسته هذه الدقات برنينها المكتوم نفسه لحظة أو بضع لحظات فوقف في مكانه يفكر على هذا النحو

هذه الساعة ألقت بحلقات من سلسلة الزمن إلى ظلام الماضي وعمقه، وهذا هو مبعث الكآبة التي تدخلها على النفس دقاتها في السكون والظلام.

أهكذا تمر الساعات والأيام؟ هذا عام ثان يكاد ينتهي ولما تعد فتاتي، ترى ماذا صنع الله بها؟ اني لأتمثلها الآن وهي تهبط الدرج لآخر مرة في خطوات غير متزنة. إنها لم ترفع عينيها. أترى لم تكن تفكر في (الطلوع) مرة أخرى؟ أم ان القدر الأعمى لم يكن انبأها، وإنما سارت واضعة ذراعها تحت ذراعه إلى حيث لم تكن تدري؟

من كان يدري؟. . حين ألقت بها المصادفة في طريقي، شعرت إني وجدت فيها الإجابة على نداء نفسي الذي كانت تهتف به منذ فجر الشباب. لقد وجدت فيها ريا أطفأ ذلك اليهام إلى المجهول الذي كان يجعل العالم أمامي كوادي التيه أسير فيه على غير هدى.

وغابت عني فعدت إلى عالمي القديم صفر اليدين إلا من ميت الآمال!

ومرت سنون ثلاث. . وذات يوم كان (حقي) يسير في شارع فؤاد فلمح اسم صديقه إبراهيم. . المحامي، على لوحته النحاسية - بين لوحات أخرى تحمل أسماء كثيرين اغلبهم أطباء - معلقة على باب العمارة، وفجأة خطر له أن يزور هذا الصديق في مكتبه.

ولم يكد يتخطى الباب الكبير حتى وجد فتاته. . . ليلى! نعم هي كما كانت دائما. . . وجدها واقفة تتسلى بقراءة البطاقات الموضوعة على صناديق البرد في مدخل العمارة، وكأنما كانت تنتظر أحداً.

والتقت نظراتهما، وحار فيما هو فاعل، ولكنه لم يدر إلا وقد تقدم إليها وهو يقول:

- ليلى! لم لم تأت يوم الثلاثاء الماضي؟ كنت مريضة؟ هذا هو عذرك الدائم.

وكان يوم الثلاثاء الذي يعنيه قد مرت عليه سنون خمسة! ولكنه حين أخذ يدها بين يديه يشد عليها نسى أنه لم يرها طوال هذه المدة وهكذا شعرت هي الأخرى، وكأنما هذه

السنين قضياها كأهل الكهف نياما!
وأغمضت عينيها وكأنما أرادت أن تكر بالذاكرة إلى هذا الماضي البعيد وقالت وهي تبتسم:
- كلا لم أكن مريضة ولكن حدث أن أمي خرجت معي ولم يكن في إمكاني أن أستصحبها في زياراتي لك. قال:
- حاجاتك لا تزال في درج مكتبي. كنت انتظر دائما دقات الجرس الخمس، فأذهب لأقابلك بها على الباب.
لقد اشتريتها إذن! لم أكن أحسب أنك تعتقد أني كنت جادة فيما طلبت. . . هي صديقتي التي أغرتني. . . تجربة لعاطفتك نحوي. ولكني أخطأت في السماع اليها، وخفت ان أنا عدت إليك أن تعتقد اني إنما أعود لأسألك ما طلبت
ودارت الدنيا أمام عينيه، وقال لنفسه (ما أكثر ما يخطئ الإنسان التقدير!)
وفجأة رآها تتركه - وقد عراه ارتباك ظاهر - وتنظر إلى الباب حيث وقفت عربة، نزل منها شاب ناداها باسمها فهزت رأسها تجيبه، ودارت بنظرها إلى يمين المدخل منادية يا حقي!
وأصابته رجفة إذ سمعها تلفظ اسمه، ولكنها كانت تنادي طفلا - في نحو الرابعة من عمره - لم يكن القي بباله إليه. وأجابها الطفل متسائل - ماما؟
فمدت يدها إلى الطفل ورفعت نظرها إلى الفتى كأنما تسأله أن كان قد فهم شيئاً.
وركبت الفتاة والشاب والطفل العربة، وانطلقت بهم ووقف (حقي) يتبعها بنظره ويصغي لوقع أقدام جيادها على الأرض، ويسمعه دون كل ما عداه من ضجة الطريق الصاخبة، حتى لم يبق منه غير صدى يرن في الأذن رنينا.
وحينئذ أحس كأنما بدأت الأرض تميد. . .

مصطفى حمدي القوني

الى خراسان

للأستاذ الرحالة محمد ثابت

من رحلة قام بها الأستاذ سنة 1933 إلى تركية والعراق وأفغانستان

إلى بحر الخزر

قمت من طهران شمالا صوب بحر الخزر، مسافة ستين فرسخاً أو نحو أربعمائة كيلومتر، كانت المناظر في النصف الأول منها مألوفة:
ربى تتوسطها هوى من ارض مهملة، وما كدنا نوغل في النصف الأخير حتى زادت عقد الجبال في صخرها الاغبر المنحل وغالبه من الجير الذي اسود بمضى السنين، وكثرت الالتواءات الأرضية وزادت طياتها وأخذ الطريق يعلو ويهبط ويلتوي على نفسه مرات متعاقبة في وعورة لم نعهدها من قبل. بعد ذلك بدأت صفحة الجبال المعقدة تتغير معالمها إذ كساها الشجر القصير في تفرق أعقبه تلاصق عاجل، وما نشعر إلا ونحن نوغل في غابة كثيفة ذكرتني بمناطق الغابات الافريقية، وكنا بجانب وادي نهر يسمونه (النهر الأبيض) يتلوى ليات متعاقبة وسط تلك الجبال اللا نهائية، وكان ماؤه آسنا إذ يفيض بالماء إبان الشتاء حين تكثر الثلوج التي تكسو تلك الجبال - جبال البرز - ولقد ظلت المناظر رائعة ساحرة خلاف ما عهدناه في ربى إيران المنفرة التي عريت عن النبت، ونضبت مياه مسايلها، وكانت بعض الوهاد وما يزينها من قرى صغيرة أشبه ببلاد اسكندناوه وسويسرة، علىأن الشجر مختلف إذ لم أر للصنوبر من أثر حتى في أعالي الذرى، وكله من أشجار المناطق الحارة تكثر حوله الطفيليات والأعشاب المتسلقة التي تسد الغابة سداً ولذلك يطلق عليها القوم كلمة (جنجل) الإنجليزية، وكلما قاربنا بلدة (الرشت) بعدت الجبال وانفسح السهل وغص بالقرى والمزارع التي شهرت من أجلها البلدة وبخاصة في الأرز والطباق، وهذه الناحية أشهر بلاد فارس الزراعية. أخيراً دخلنا الرشت التي كانت عاصمة بلاد الديلم قديما، وهي اليوم عاصمة مقاطعة (جيلان) الفارسية فبدت مدينة عامرة أخف روحا من طهران نفسها، وقد حاكت المدن الأوربية، ويظهر أنها تأثرت طويلا بالروس يوم كان لهم النفوذ في هذه المنطقة، لذلك كانت جموعهم كثيرة، نساء ورجال واللغة الروسية يعرفها الجميع إلى جانب لغتهم الفارسية. وغالب البيوت من طابق واحد تظهر وكأنها أقيمت كلها

من جديد، وهي ذوات سقوف متحدرة يكسوها الآجر الأحمر خلاف ما شاهدنا في سائر جهات فارس، ذلك لان مطر المنقطة غزير يفوق مقداره المتر، ويعزى إلى رياح شمالية غربية سائدة تهب من بحر الخزر على تلك المرتفعات فتدفعها مطرا وتسكو ذراها ثلجا، وتزيدها في الشتاء أعاصير البحر الأبيض التي تندفع من بحر قزوين إلى بحار الهند الدافئة خفيفة الضغط ويظل المطر زهاء ثمانية شهور ولم تخل السماء من الغيوم وكان الجو أميل إلى الرطوبة حتى في هذا الفصل الجاف، لذلك قل بها التراب الذي كان ينغصنا في بلاد فارس كلها، وكان جوها لطيفا محتملا عن جو طهران، إلا إذا انكشفت الشمس فعندئذ يصبح الحر شديدا. على أن الجهة تعرف بكثرة الأوبئة والحميات بسبب الحرارة والرطوبة معا، وقد زادها حرا أنها على منخفضات بحر الخزر التي تنخفض عن مستوى البحر بنحو خمسة وعشرين مترا لذلك يجري القول على لسانهم: ماذا أذنب فلان حتى يولى حاكما على الرشتت. على أن حظي كان موفقا إذ كانت أيامي هناك أجمل أيام قضيتها في إيران كلها. وفي المدينة مجموعة من متنزهات منسقة تقوم به المقاهي، وفيها تسمع الموسيقى الشجية وقد اختلطت الأنغام الفارسية بالروسية، وكلاهما مما تستريح له آذاننا.

أقلتنا السيارة إلى بهلوي على شاطئ بحر الخزر - ولا يسمونه هناك بحر قزوين أبداً - فكان الطريق يمتد أربعين كيلومترا وهو يتولى وسط الإحراج المغلقة يؤمها النمر والحيوان المفترس ومن أعجب ما رأيت فيها الكروم البرية التي كانت تنمو في كل أرجائها ومنها نقلت كروم أوربا. اخذ الشجر ينضمر ويندر كلما قاربنا البحر ثم انعدم، وأضحت السهول تكسى ببساط من خضرة إلى البحر، وكانت بيوت القوم أخصاصا من الأعواد والخشب يكسوه القش الثقيل في شكل مخروطي أو متحدر السقوف، كأنها مساكن الغابات الاستوائية على ضاف فكتوريا نيانزا. والقوم يستأصلون الاحراج في مسافات يزرعونها من الأرز والطباق والقطن والكتان، والعمل يقع كله على السيدات اللاتي كن يظهرن في ملاءات بيضاء ناصعة وقد استرعى جمالهن نظري، فهو مخالف للسحن الفارسية البحتة ويظهر أن اختلاط الروس بالفرس هناك اكسب أولئك جمالا عالج كبر الأنف الفارسي، وأشرب اللون الفارسي الأبيض بعض الحمرة الروسية الجذابة، والناس في تلك الناحية يمونون أنفسهم بكل شيء من عمل أيديهم حتى الملابس ينسجونها من القطن والكتان والحرير - وهم يربون دود القز بكثرة

دخلنا بهلوي فكانت بيوت الفقراء اخصاصا، على نمط تلك التي في الغابات، يحفها سور من غاب، وعلى البحر أقيمت الميناء بروافعها وبواخرها وزوارقها، وتلك الناحية يسمونها (غازيان) وإذا ركبت البحر أقبلت على شبه جزيرة تبدو عليها المباني الفاخرة والشطآن المنسقة، وهذه هي بهلوي أو أنزيلى القديمة، ركبت البحر إليها في ربع ساعة، وإذا بها آية في التنسيق والنظافة، بيوت فخمة، وطرق مرصوفة، ومتنزهات عدة، وقد مدت على شواطئ البحر الحدائق والمقاهي، فكنت وأني في إحدى مدن الرفييرا تماما. وفي الحق أن تلك الناحية من فارس فريدة، تختلف عن سائر جهات فارس في كل شيء: في طبيعة الأرض، وفي الجو، وفي النبت، وحتى في أهلها فهم أكثر نشاطا وجمالا. أما الناحية الخلقية فهي هنا أكثر فساداً، ولا شك إن للإباحية الروسية أثراً كبيرا في هذا

ولقد حققت حلما طالما جال بخاطري هو أن أركب بحرر الخزر - بحر طبرستان قديما - وأطوف بسواحله ذات الطبيعة المختلفة من غابات كثيفة تغص بها سواحله الجنوبية، إلى غابات جبلية في غربة، إلى كلأ وعشب صحراوي في شرقه، إلى أرض ملحة مهملة في شماله. لكن الشبح الروسي لم يتح لي التجوال كاملا فلبثت اليوم كله أجول في مياهه الفارسية، وقد كان ماؤه هادئا، على أنه إبان العواصف يعلو موجه ويضطرب، وقد تذوقنا ماؤه فإذا به نارد الملح على خلاف ما عهدت، فخلنا أن ذلك راجع إلى قرب المصاب العذبة. لكن القوم يعرفونه أميل إلى العذوبة في كل أرجائه وأيدوا رأيهم بكثرة أسماكه نوعا وعدداً. ولذلك كانت مصائده هامة للدولتين الفارسية والروسية، حتى أضحى السمك الغذاء الرئيسي، فهو والأرز عماد الطعام، وقد كان لهما أثر حسن في أجسام الأهلين، فهي ممتلئة ولم أعثر على القامات الطويلة والأجساد السمينة إلى في تلك الناحية من فارس كلها

اصحبنا يوم الجمعة والجو جميل، والسماء تنتثر بالغيوم بعد أن أمضينا ليلتنا في نزل (سافوى) في الرشت، وهو يطل على ميدان البلدية، تمتد منه الطرق المستحدثة، تزينه المتنزهات، والمنظر من شرفه النزل رائع: السماء تنقشها السحب، والخضرة تمتد إلى الآفاق، والمباني حولنا أنيقة، وجماهير الناس في أنظف ثيابهم - لأن يوم الجمعة يوم الراحة القومية. يروحون ويغدون في كثرة تسترعي النظر ولا يخلو الجمع من طائفتين

الغانيات في ازرهن السوداء المهفهفة والمتسولين الذين يمسكون بتلابيبك ويصيحون في نغمة البائس المستميت، واكّفهم مبسوطة وكثير منهم من يظهر في هندام نظيف ووجه مشرق، يدل على أنهم على شيء من اليسار، لكن التسول أضحى في القوم عادة متأصلة ذميمة. وكثير من مباني الرشت وبهلوي بالخشب لكثرة الغابات حولهما، لذلك ترى في كل برجاً عالياً يظل فيه الرقيب صباح مساء لينذر بالحريق إذا ما بدا دخانه أو لهيبه في أية ناحية من البلدة.

قمنا مودعين تلك المنطقة البديعة التي تصلح للراحة في الربيع والخريف. وأخذت سيارتنا تشق الخضرة التي زادت كثافتها تدريجا، وبعد ثلاثين كيلومتراً بدت جبال البرز، أعني أن السهول تمتد إلى بحر الخزر سبعين كيلومترا؛ وكانت الأشجار الكثيفة تغطى الجبال إلى أعلى ذراها، والربى تبدو مدرجة الواحدة وراء الأخرى، وسحاب السماء يكاد يلامسها وإن لم يبد للثلج فوقها من أثر. وكانت طيات الوديان بمائها الشحيح تختفى وراء النجاد تارة ثم لا تلبث أن تتكشف في مباغتة تقر لها العين. وكان المنظر العام ونحن وافدون من الرشت أروع منه لمن يدخل البلدة قادماً من طهران. وظل جلال الغابات حولنا زهاء خمسة وعشرين كيلومتراً، ثم ندر الشجر وانعدم فجأة، وأضحت عقد الجبال قاحلة منفرة مسافة ذرعها سبعون كيلومترا، كان الطريق فوقها طيات قاسية رهيبة، خصوصا في ضوء القمر الشاحب، وفي سكون الليل الرهيبة.

العالم المسرحي والسينمائي

بين مسرحي الدرام والكوميدى في مصر

لناقد (الرسالة) الفني

لعل من أعجب ما يلاحظه المتصل بالمسرح المصري في العشر سنوات الأخيرة اتصالا وثيقا أن المسرح الهزلي - الكوميدي - كان أكثر توفيقا ونجحا فمن المسرح الجدي - الدرام - وأقوى على مغالبة الأزمات والعقبات التي عرضت في السنون الأخيرة وأودت بالفرق التمثيلية إلى الدرك الذي وصلت إليه.

وأغرب من هذا وأبعث على العجب أمن مسرح الدرام بدأ غنياً فافتقر، بينما أن مسرح الكوميدي بدأ فقيراً ثم اغتنى. وما نعني هنا هذا العرض الزائل وهذه الدريهمات التي تأتي بها الظروف أحيانا، وتذهب بها الظروف أحيانا أخرى، وإنما نعني في حديثنا عن الفقر والغنى الناحية المعنوية والفنية لكل منهما.

فمنذ عشر سنوات أو قبل ذلك بقليل، كانت فرقتا الأستاذ جورج والأستاذ عبد الرحمن رشدي تنهضان بعبء العمل المسرحي على أكفأ ما يكون، وتغذيان جمهورهما بأنفس الروايات المترجمة أو المؤلفة على السواء، وكانت الفرقتان تضمان مجموعة من خيرة ممثلي وممثلات المسرح في مصر، وكان الإقبال على حفلاتهما ليس بالقليل وحلت الفرقتان لأسباب عارضة لسنا بصدد تفصيلها هنا وتألفت على أنقاضهما فرقة رمسيس التي اجتمع لها من أسباب القوة والبروز ومقدمات النجاح والنصر ما لم يجتمع لفرقة قبلها، فالمال جم وفير، وثمت مسرح خاص أنيق، ونخبة من أحسن الممثلين والممثلات، ومجموعة منتقاة من أجود الروايات، وقبل كل هذا الرغبة القوية في العمل الفني الحق، والإرادة التي لا ينقصها الحزم، ونشطت الصحافة إذ أحست هذه الجهود الجبارة تبذل في سبيل الفن فأفردت صحفنا اليومية الحديث عن مسرح والتمثيل أبوابا خاصة بل صحائف كاملة، وكان ذلك حدثا جديداً في عالم الصحافة، وتفرغ كثير من الأدباء للكتابة عن التمثيل ونظمت لأول مرة في تاريخ المسرح حركة النقد تنظيما واسع النطاق، وقصارى القول أن

مسرح الدرام في ذلك الوقت كان غنيا بل طائل الثراء بالجهود التي تضافرت لإنعاشه وبعثه وخدمته الخدمة الحقة التي تعلي من شأنه وترفعه إلى المنزلة التي هو جدير

بها، ولم يكن ينقصه إقبال الجمهور الذي تدفق وحيا القائمين بهذه النهضة المباركة تحية طيبة مباركة.

كان ذلك منذ عشر سنوات، أي في مستهل افتتاح مسرح رمسيس الذي يؤرخ ظهوره عهدا جديدا في تاريخ المسرح في مصر، ما في ذلك شك، ولا من الاعتراف به بد.

ولكن انظر اليوم أين نحن وأين مسرح الدرام، واين تلك النهضة التي بدأت قوية وسطعت كالشهاب اللامع. ثم إذا بجذوتها تنطفئ على الأيام رويداً رويدا، وتنحدر من قمتها الباذخة سنة بعد أخرى حتى إذا هي اليوم في أسفل الوادي، بل في هوة سحيقة وا أسفاه، وفي حال تدمع لها العين ويدمى لها الفؤاد.

ها هي فرقتنا الجدية تغلق دورها وتعلن فشلها، ويتفرق أفرادها يطوقون الأبواب كبائس في يوم عيد يرى الناس في زينتهم ونعيمهم وهو مملق مسكين، كده الضنى وأجهدته الحياة، وأسلمته صروف الأيام إلى المسغبة والعوز، ويخفض جناح الذل من الحاجة ويستعدى على مطالب العيش وقوت الأهل إحسان المحسنين وبر الكرام العاطفين

كان مسرح الدرام كما رأيت، وحاله اليوم كما ترى، كان غنيا وافر الغنى، فأصبح فقيرا شديد الفقر، كان رفيع العماد شامخ الذرى فإذا هو اليوم أنقاض وخرائب وموحشة.

لكن مسرح الكوميدي حاله غير هذه الحال، ولشد ما يختلف في نشأته وكيانه وتطوره عن مسرح الدرام! فبينما كان هذا قوياً زاخرا بفرقة العاملة وبمن تضم من أفراد مشهود لهم بالمقدرة والكفاءة، كان الآخر لا يزال في مستلهل حياته ومطلع فتوته يلجأ إلى دور صغيرة ضيقة من التجاوز في التعبير أن نسميها مسارح، وكان لا يضم إلا قلائل جمعتهم وحدة الغاية والميول فتكاتفوا على العمل سويا في النوع الذي وجدوا من أنفسهم ميلا إليه ومن استعداهم كفاء له. وأخرجت بعض روايات جورج فيدو المؤلف الفرنسي النابه الذكر فلقيت نجاحا كبيرا وبدأ مسرح الكوميدي ينتعش قليلا قليلا ولكنه لم يحرز التوفيق كله إلا في فرقة مسرح الاجبسيانه - رنتانيا اليوم - حيث بدأت الروايات الاستعراضية الكبرى والتي كانت تمثل كل منها الأسابيع والأشهر المتوالية بنجاح عظيم يفوق الحد والجمهور تكتظ بأفراده كل يوم مقاعد الملعب حتى ليس ثمت موضعا لقدم.

على أن مسرح الكوميدي طحنته الأزمة وحدت من جهوده غير أنه قاومها طويلا وثبت للعاصفة المجتاحة. والفرقة الوحيدة التي استمرت إلى اليوم على العمل هي فرقة للكوميدى، كما أننا نجد فرقة ثانية للكوميدى تؤلفه في هذا الموسم وتلقى نجاحا كبيرا في الوقت الذي تغلق فيه فرق الدرام أبوابها وتنصرف عنها الجماهير. وبينما نسمع صرخات مديري الفرق الدرام يستغيثون بلجنة تشجع التمثيل ويطلبون منها المدة والمعونة، نجد مدير فرق الكوميدي يعتمدون على محض جهودهم وعملهم، فان مدتهم اللجنة ببعض المال فلا بأس، وان طوت عنهم معونتها فلا بأس أيضا، وهم مستمرون على بذل ما في وسعهم لاكتساب رضى الجمهور وضمان إقباله وتشجعه.

أليس هذا الموقف جديراً بالتأمل والدرس؟ قل في تعليله ما تشاء وقل في أسبابه ونتائجه ما تقول، ولكن تبقى بعد ذلك الحقيقة الواقعة المنسوبة لا غناء في تجاهلها ولا نفع يرجى في التغاضي عنها وعما في طياتهم من معان هي خليقة بكثير من العناية والفحص. فإذا أبيت إلا أن أدلي بدلوي في الدلاء وإلا أن اذكر لك مرجع هذا في رأيي فلعلي لا أكون قد جاوزت الحق والواقع إذا قلت أن مسرح الدرام لم يعمل على التقرب من الجمهور ولا على أن يدوم له الطعام الذي يسيغه ذوقه، بينما عمل مسرح الكوميدي على هذا فنجح من حيث أخفق الأول

غلبت على مسرح الدرام الروايات الإفرنجية المترجمة وهي بشخصياتها وجوها، وعادات أبطالها وأخلاقهم، وبيئتهم وتصرفاتهم وكل ما يتصل بهم بعيدة عن ذوق الجمهور المصري، وقد تكون بعيدة أيضاً عن فهمه وإدراكه، غريبة عنه بكل ما فيها ومن فيها، ولكل شعب ذوقه الخاص ولذلك كان لكل أمة مسرحها الخاص، والمسرح في كل بلد يمثل الوسط الذي يعيش ويترعرع فيه، ولا تكاد تقحم المسرح الفرنسي في إنجلترا، ولا المسرح الإنجليزي في فرنسا، ولست كل الروايات الصالحة للعرض هنا، تصلح للعرض هناك، وقد تجد نماذج تنال النجاح والتوفيق في البلدين ولكنها الاستثناء الذي يثبت القاعدة ولا ينفيها. لهذا فشل مسرح الدرام لان الرواية المترجمة

غلبت عليه.
والحال على النقيض في مسرح الكوميدي حيث لا تجد إلا الرواية المصرية، ولا الشخصيات المصرية الصميمة التي تعرفها وتحبها وتعيش معها في جوليس بالغريب عليك وفي بيئة أنت بها جد عليم. وقد افلح مسرح الكوميدي في خلق نماذج من الشخصيات المصرية قد تبدو عليها مسحة التجسيم والتهويل، أو فهي نماذج (كاريكاتورية) ولكنها مصرية قبل كل شيء، ثم هذه هي صنعة الفن الكوميدي أولا وآخراً، وعرف مسرح الكوميدي إجادة من بعض الممثلين لم يبلغها انداهم في مسرح الدرام، لأن الأول عرف التخصيص، واعني أن من بين ممثليه أفراد تخصصوا في إخراج شخصيات معينة فأجادوها وبحكم المران والاستمرار، وتوغلوا في صميمها فأخرجوا منها الطريف المبتكر. وهذه (المصرية) التي غلبت على مسرح الكوميدي كانت العامل الأول في نجاحه.
على أن شعب هذا الوادي، شعب سهل لين، محب بفطرته للمرح يعب فيه بنهم وقابلية، ولعل في هذا أيضاً بعض السبب في إخفاق مسرح الدرام ونجاح مسرح الكوميدي ومن الخير أن نعرف للمسرحين ما أديا من رسالة الفن وأن نذكر لكليهما ما كان له من إحسان أو أساءة، فالمسرح المصري يقف اليوم بمجموعة مفترق الطرق فأما إلى الصدر وأما إلى القبر، ومن أوجب الواجبات في هذه الفترة الدقيقة من حياة المسرح أن نذكر للمحسن إحسانه وأن نعدد للمسيء نقصه وعيوبه، فيمضي الأول في طريقه مجداً عاملا، ويصلح الثاني من نفسه أن أراد إلا يتخلف عن زميله أو يدرك غباره.
محمد علي حماد
الحركة المسرحية والسينمائية في الخارج
باريس
مثلت أخيراً على مسرح (جمناز) رواية جديد لهنري برنشتين المؤلف المسرحي المعروف باسم (الرسول) وقد أدار المؤلف موضوعه حول فكرة غريبة، وكأنه يرد أن يقول أن:
زوجة ابتعدت سنة عن زوجها الذي تعبده يمكن أن تسلم نفسها لشاب جاء من عند الزوج كرسول يحمل لها حبه وغرامه، وهي إذ تسلم نفسها للرسول يخال لها أنها إنما تستسلم للزوج نفسه. وهذا غريب والفكرة كما ترى يحوطها الغموض والإبهام. ولعل برنشتين يريد أن يضع في علم النفس قاعدة جديدة.
واليك تلخيص موجز للقصة: سافر مسيو نقولا - الزوج - إلى أفريقيا ليبني لنفسه مستقبلا جديدا في ميدان العمل وليحصل على ثروة وفيرة يسعد بها زوجته الشابة التي يعبدها. ولم يكن له حديث في غربته إلا عن زوجته ماري وعن حبه لها ويجلس الساعات الطوال مع زميله جلبرت يتحدث عنها حديثاً مسهبا وانتهى الأمر بان أحب جلبرت هذه المرأة. . والأذن تعشق قبل العين أحياناً. .
ويذكرنا هذا الموقف بشبيه له في رواية ألمانية معروفة تدعى (كارل وأنا). ويحدث أن يصاب جلبرت بما يقعده ويضطره إلى العودة إلى وطنه، وفي باريس يلتقي بماري الزوجة الأمينة على شرف زوجها والتي رفضت بأباء ما أظهره لها كثير من الرجال من الحب والهوى. ولكن ماري هذه سرعان ما تصبح عشيقة جلبرت، لا لأنه يحبها ويتطلبها، ولكن لأنها تحس فيه حرارة حب زوجها لها وحنينه إليها. يرجع الزوج فجأة وعلى غرة من العاشقين ويكتشف ما بينهما من صلات فيكون بينه وبين زوجه مشهد رائع ويعلنها بالانفصال النهائي. ثم يزمع السفر والعودة إلى أفريقيا وإذ يهم بالرحيل تقدم ماري، ويعلم الزوج أن جلبرت انتحر لأنه أدرك أن المرأة لم تحبه أبداً وإنما تحب فيه زوجها الغائب ويقبل الزوج هذا التفسير الغريب
هوليود
تتجه أنظار شركات السينما في هوليود نحو الروايات الأدبية الكبيرة التي دبجتها يراعة كبار الكتاب العالميين. وقد ذكرنا قبلا ان بين برنامج السنة القادمة روايات من أقلام برناردشو وإميل لدويج وولز وغيرهم. ونذكر اليوم ان جان هارلو الممثلة الشقراء الفاتنة أغرمت بدور بورشيا في رواية (تاجر البندقية) لشاكسبير وتنوي إخراجه على الشاشة، وميرنا لوي تحب أن تظهر في رواية أبسن المعروفة (ببيت الدمية) وجون

باريمور يستعد لإخراج (هاملت) ومن المعروف أنه مثله على المسرح ونال فيه نجاحا كبيراً، وشارلي شابلن أيضاً من هواة هذا الدور وقد فكر في تمثيله في وقت من الأوقات كما فكر في تمثيل دور (نابليون).

وستمثل كي فرانسيس دور مدام دي بارى المرأة الشهيرة في تاريخ فرنسا. وتظهر جلوريا سوانسون في دور جوزفين أمام أدوارد روبنسين في رواية (نابليون) التي اقتبست عن الكتاب الذي وضعه أميل لدويج عن إمبراطور فرنسا العظيم

لندن

أقامت جريدة (ايرا) الإنجليزية المسرحية مسابقة لتتعرف رأي قرائها في أحسن رواية ظهرت في إنجلترا في العشر سنوات الأخيرة، وفازت بالأولوية رواية (سان جون) لبرناردشو وقد نالت 16 درجة، وتلتها رواية (نهاية الرحلة) للكاتب المسرحي شريف ونالت 8 درجات، وهناك بعض الروايات الشهيرة جاءت في الرتبة الخامسة والسادسة ومنها (طريق للحياة) لنويل كوارد. ونذكر بهذه المناسبة أنها مثلت أخيرا سبعة أسابيع على أحد مسارح نيويورك بلغت أرباح مؤلفها في خلالها 20. 000 جنيه.

أبو علي عامل أرتست 2

تأليف الأستاذ محمود تيمور

عرض ونقد وتحليل

ولتيمور موهبة فائقة في وصف آلام الناس ونزعاتهم في الحياة، دون ان يترك في نفس القارئ شعوراً بالكآبة أو الانقباض، وقليلون من الكتاب من لهم مثل هذه القدرة، فهم إذا تعرضوا لوصف الآلام أسرفوا في عواطفهم وشعروا بالكآبة والضجر وحملوا القارئ على أن يفقد حيوتيه، أما الوصف في أقاصيصه فقد يكون أقرب إلى فلسفة الجمال منه إلى استدرار عواطف الرحمة والإشفاق

على ان هناك صفتين أخريين نلمحهما دائماً في أدب تيمور: أولاهما تغلب عاطفة الخير في أقاصيص على عاطفة الشر، وقد يعود هذه إلى أنه يرى الحياة من جانب واحد هو الخير، وبنظرة ثابتة هي الاطمئنان، وهو من هذه الناحية يشبه دكنز، عندما أراد أن يرسم لنا صورة مكويرومسترمل، جعلهما ينجحان في استراليا، مع أن شخصيتهما لا تدع أمامنا مجالا للشك في أنهما خرجا ليلاقيا الخيبة

وقد تدفعه عاطفة الخير إلى ان يحجب نور الحقيقة عن نظر القارئ، وعندما يريد ان يصارحه بهذه الحقيقة، تراه يشير إليها من طريق خفي وبدون ان يعلق عليها بقلمه، كما في أقصوصه (جحيم امرأة)، فأنه بدلا من ان يصارحنا بحقيقة الخواجة نعوم وموقفه من خيانة زوجته، نراه يلجأ إلى التستر والتلميح، خاصة عندما ناوله عبد السميع مبلغ الثلاثين جنيها بحجة أنها ثمن لأسهم شركة يريد أن يؤسسها، مع أن فطنة القارئ تكاد ترشده إلى ان هذا المبلغ لم يك إلا ثمناً لثلاثين ليلة قضاها العاشق المضطهد في أحضان الزوجة العابثة!

والصفة الثانية التي يريد أن نتحدث عنها، هي تلمذته على أدب المرحوم محمد تيمور أخيه وتأثره الشديد بفنه، وهذه الصفة البارزة تدفعنا إلى أن نقارن بين أدب الأخوين فالفرق بينهما واضح جداً

كان فن المرحوم محمد تيمور يقوم على ميزات ثلاث: اللغة والمحاورة وبناء هيكل الرواية، وكان يؤمن بان الفن هو مرآة الطبيعة فيجب ان ننقل إليه الطبيعة كما هي من غير تجميل، ومن اجل هذا وكان ينتصر للعامية ويرى انه يمكن ان نعبر بها عن كل ما يراد التعبير عنه، ولذا جاءت لغة الحوار في رواياته طبيعية لا أثر للصناعة أو التكلف فيها، وكانت نظرته للحياة اكثر إدراكاً فكان يستوضح مظاهرها ويدور في أعطافها ليستمد فنه من جميع نواحيها، انه ليخيل إلينا ونحن نطالع إحدى رواياته انه قد تقمص بطلها

أما محمود تيمور، فبالرغم من طابع الصدق الذي يتسم به أدبه وجذوة الحياة التي تشتعل في جوانب أقاصيصه، فأنا نكاد نشعر كنقدة - بأنه يبخس المتكلم حقه ولا يعطيه الحرية التامة في أن يعبر عن أفكاره وميوله باللغة التي توافق مزاجه وتلائم بيئته، والقصصي العبقري، هو الذييحس بالحوادث تجري حوله، فلا يكتفي بأن ينقل إليها صورها ويصبها

في القالب الفني، بل عليه إلى جانب هذا إلا يجعل أشخاصه جامدين، وان يعطيهم الحرية في أن يعبروا عن احساساتهم باللغة التي توافقهم وتتلاءم مع طباعهم، فالنفن هو كل شيء في القصة واليه يرجع عامل نجاحها أو سقوطها!

وإني أثبت بهذه المناسبة رأيا أبداه المستشرق الروسي كراتشقوفسكي عن فن محمود تيمور القصصي، إذ قال: ليست أقاصيصه إلا درساً بسيكولوجيا وتحايلاً لأحوال النفس وتطوراتها في الشخص الواحد مع بعض الدرس للأشخاص المجاورين له في البيئة، ومزية التركيز وقلة الحركة فيها يجعلها تؤثر في النفس أحياناً تأثير الدراما المسرحية المحزنة.

أما (حسن أبو علي) فقصة شاب مأفون مهرج، هوى التمثيل وتأليف الروايات المسرحية، فترك علمه والتحق بإحدى الغرف التمثيلية لاشباع نهمته الفنية، وهي نزعة كانت سائدة عند الكثيرين من شبابنا إثر ترددهم على دور التمثيل، أما الآن فليطمئن بال الأستاذ تيمور ولان السينما قضت على هذه النزعة في النفوس!

والقارئ يشعر بعد مطالعته لهذه القصة، بروح التهكم المر والسخرية اللاذعة التي لجأ المؤلف اليها، في تصوير هذه الشخصية المشعوذة التي انبعث حبها للتمثيل. ولم يكتف المؤلف بان يقسو على بطله يعذبه في الحياة من أجل الفن وفي سبيله، وأن ينسب إليه موت عمه ليتخذ من هذا وسيلة لإظهار مواهبه الفنية، وأن يدفعه إلى ارتقاء منبر المساجد ليعظ الناس في يوم الجمعة كأنما هو على خشبة المسرح، وأن يتسلط عليه فيدفعه أيضاً إلى أن يبدد الثروة الضئيلة التي تركها عمه، فيشيد بها مسرحا يهدمه المتفرجون على رأسه في ليلة الافتتاح! لم يكتف المؤلف بهذا كله بل نراه قد أجهز عليه بنفس القسوة وحكم عليه بالموت!

وبعد فقد فرض الأستاذ تيمور هذا اللون من الأقاصيص على القارئ وروى ظمأ المتعطشين إلى القصة في مصر والذين كانوا لا يقرأونها إلا باللغات الإفرنجية أو مترجمة إلى اللغة العربية فهل تراه وفق في عمله؟ لا شك في أنه وفق إلى حد بعيد، يدلنا على هذا ان أكثر أقاصيصه مترجم إلى اللغات الحية وأن الأستاذ شادة مدير دار الكتب المصرية السابق ألقى عنها محاضرة نفيسة في مؤتمر المستشرقين السابع عشر وأن مجموعة

أقاصيص (أبو علي عامل أرتيست) هي المجموعة السابعة التي يقدمها الأستاذ تيمور إلى قراء العربية!

محمد أمين حسونة

العدد 36 - بتاريخ: 12 - 03 - 1934

في ملعب الكرة

للدكتور محمد عوض محمد

وفي ذلك اليوم ذهبت بصديقي إلى ملعب الكرة. . . لم أذهب به إلى دور العلم أو . . . إلى حلقات الأدب، حيث ينصت إلى لجاج الفقهاء، وحوار الأدباء؛ فلقد طَعِمَ من هذا الغذاء الدسم الشهر كله: وشهد المعركة الطاحنة بين اللائحة والشرعة، وبين الأريكة والسرير؛ وبين الفنون الرفيعة والغليظة؛ وبين الفتوة والمروءة، وبين الكوفة والبصرة، وبين المستشرقين والمستغربين. . .

انتزعتك يا صديقي من بين هذا كله. فلعمري لقد آن لك أن تمسح عن جبينك المجهد المعنى عرق النحو والصرف والفقه، وأن تزيل عن عينيك ما علق بهما من قذى البحث العميق، عن اللفظ الدقيق والمعنى الأنيق: ذلك البحث الذي طالما ما أضناك وأذواك؛ ثم عدت منه صفر اليدين، أو رجعت بشيء زهيد لا يطفئ غلة، ولا يغني من جوع.

فتعال اليوم نتبوأ هذا المقعد العالي، ونشرف منه على هذا الميدان الفسيح، كما يشرف النسر من ذروة الطود. ولنرقب ما يجري بين أيدينا من الحوادث الجسام. . . أراك تبتسم ابتسامة الشكل أو الإنكار، كأنما تظن أن ما يجري هنا ليس إلا ضرباً من العبث واللهو؛ فلا وأبيك لن تبرح حتى تشهد في هذا المعلب من دروس الحكمة ومن عبر الحياة، ومن المعاني البديعة العميقة، ما لم تجده بعد في الكثير من أسفار أصحابك الخالدين. . .

وها هم أولاء اللاعبون قد أقبلوا، فدوى رعد الهتاف والتصفيق، أرأيت هذه الأجسام الفتية التي أفعمت صحة وقوة، والتي لا تكاد تستقر في مكان مما بها من نشاط ومرح

ولكنها قد تثبت في موقفها حينا فكأنها الجبال الرواسي. ثم تنقض على الأثر كأنها صخور تهوي من قمة طور؛ أو تندفع طائرة كما تندفع السهام عن القِسِيِّ. وهي بعد هذا كله لا تشكو كلالا ولا ملالا، كأنما يتفجر نشاطها من ينبوع لا يغيض. . إن هذه السيقان التي تراها تحمل تلك الأجسام ما نمت هذا النمو ولا اكتسبت تلك القوى في يوم أو بعض يوم. . بل هي ثمار المران الطويل شهوراً وسنين. وليس من هؤلاء الفتيان من لم يأخذ نفسه بأنواع من الجد والدأب وبالحرمان من ضروب اللهو والعبث، كي يبلغ هذه المرتبة العالية من القوة ومن الرشاقة؛ ومن جمال الفتوة، والرجولة الصحيحة.

حدثني بالله! ألا ترى في النظر إلى هذه الأجسام القوية الفتية متعة للنفس وللحس، بعد الذي شاهدته من تلك الأجساد المترهلة ومن تلك البطون الناتئة، والمبات المترامية على الصدور، والأقفاء المطوية في ثنايا عديدة، مديدة والسيقان الغلاظ التي لا تستطيع المضي ميلا أو بعض ميل. ألا أن عيوننا لتقذى برؤية هؤلاء الأسبوع كله. فلينعم طرفنا اليوم بمنظر الصحة الدافقة والقوة الباهرة. . بعد هذا فلتضف فصلا جديدا إلى كتاب الفتوة، فصلا تبنيه على المشاهدة والعيان إلا على الأخبار والأقوال. . .

إن الرياضة قد أدبت هؤلاء الفتيان فأحسنت تأديبهم. . . أنظر إليهم كيف تركوا ضيوفهم يسبقونهم إلى الملعب. وفي إثرهم ينزل أصحاب الدار على مهل، كأنما يمشون على استحياء. وهم على هذا كله خصوم، ستدور بينهم معركة لا هوادة فيها ولا لين. ولا محاباة فيها ولا مداراة: معركة سيبوء فيها الضعيف بالخزي والخسران، ويرقى النصر بالمنتصرين إلى أعلى مراتب السمو.

هذه المعركة هي بيت القصيد. وإن في صورها العديدة لما ينشرح له الصدور وتطمئن القلوب. . . فها هنا معركة تنشب بين فريقين قد تكافأ في العدة، وتماثلا في العدد. فلن يكون الفوز فيها إلا للجد والجلد، للبراعة والأقدام. . . ونحن في عالم طالما نشهد فيه تألب الأقوياء على الضعفاء، وطغيان جيوش الظلم على جنود الحق. . واستبداد الكثرة الغاشمة التي تزهى بعدتها وعديّدها، ويحلو لها أن تمعن في الجور وتسرف في العدوان. فما أسعدنا اليوم إذ نتناسى ذكر هؤلاء حينا، لكي تنعم أبصارنا بشهود معركة نظيفة بريئة بين أكفاء وأنداد. .

أجل، وانك لتهتز طربا إذ ترى هذه المعركة تدور رحاها بين يديك في وضح النهار. معركة ليس فيها خفاء ولا لبس. الميدان كله أمام أعينا - من أدناه إلى أقصاه - نتأمل كل ما يجري فيه ولا يخفى علينا من أمره شيء. . . فلننس الآن - ونحن ننظر إلى هذه الحرب الطاهرة - تلك المعارك الغريبة المريبة، التي تدبر في الخفاء وتنمو في الظلام. وتنصب فيها الحبائل، ويشتد فيها الكيد، ويتناسى فيها الشرف. وتحنث فيها الإيمان، وتخان فيها العهود. والتي لا يحلو فيها الطعن إلى على غرة، ولا يتحارب فيها إلا بأسلحة الجبن. . . هذه - ويا للأسف! - معارك قد امتلأت بها حياة الناس فلنستعن على نسيانها الساعة

بهذه المعركة النبيلة، التي بين أيدينا، والتي تبدأ جهاراً، وتجري جهاراً، وتنتهي جهاراً. . . وعلى كل لاعب رقباء من هذه الآلاف المؤلفة، التي احتشدت اليوم لكي ترقب حركات كل لاعب وسكناته. والويل لمن يحيد عن الصواب لمحة العين، فيستثير من آلاف الأفواه صيحات الإنكار والاستهجان.

أجل وإن لهذه الحرب الضروس لقواعد وشروطا قد نصت عليها قوانين مقدسة الرعاية، ولن ترى في العالم كله قانونا ينفذ في شدة وصرامة، وفي قوة وحزم، كما ينفذ هذا القانون، الذي ليس في تنفيذه تسويف ولا (تأجيل). بل سرعان ما يلقى الآثم جزاء اثمه، قبل أن يتحول عن مكانه، وها هنا الحكم النزيه اليقظ الذي يحصي الصغيرة والكبيرة، ولا يعرف المحابات ولا المداراة. . فإذا كنت - يا صديقي -! قد أهمك وأحزنك إن رأيت العدل يصرع والقانون يداس بالنعال في مشارق الأرض ومغاربها، فلتسر الهموم عن نفسك برؤية هذا الحكم العدل، الذي لا تأخذه في الحق لومة لائم، والذي يرى القوي المدل بقوته ضعيفا عاجزاً، حتى يقتص منه ويرده إلى جادة الصواب.

والآن، ألست تراك شديد الإعجاب بما تراه الساعة في الفريقين من عزيمة وثبات ودأب لبلوغ الغاية، ومضي لما وطنوا النفس عليه. فلقد يخطئون الهدف المرة بعد

المرة. من بعد ما أجهدوا قواهم سعيا وطلبا. ولكنهم يعودون بعد الإخفاق إلى السعي والعدو، لا تنيهم العقبات إلا ريثما يتأهبون لاجتيازها. ولا يرتدون لحظة إلا ليأخذوا العدة للتقدم. وكأنما لا يعرفون طعم اليأس، ولا يؤثر فيهم الإخفاق، فهم أبداً كموج البحر لا يتراجع إلا ليدفع، ولا يضعف إلا ليشتد.

وها قد انقضت الساعتان كأنهما لحظتان. ففي وسعك الآن أن ترجع إلى أسفارك وأخبارك، ونحوك وصرفك. وأحسبك الآن قد آمنت إن هذا الميدان البريء لا يخلو من الحكمة والموعظة الحسنة. اجل وانك لتحدثك نفسك الساعة بمثل الذي تحدثني به نفسي

ليت لعب الحياة كان جداً، ... ويا ليت جدها كان لعبا!

. . .في الجو

للدكتور طه حسين

أما في العصور القديمة حين كان الإنسان رشيدا حذرا يطلق خياله إلى أبعد مدى ممكن، لأن إطلاق الخيال لا يضر ولا يخيف ولا يرسل عقله وجسمه إلا في أناة وبمقدار، لأن إرسال العقل والجسم بغير حساب قد يؤدي إلى ما لا يحب، أما في تلك العصور فقد كان الناس يطيرون في الخيال. يطيرون مجازا لا حقيقة، وقد تتحدث أساطيرهم بأن منهم من حاول أن يطير حقا، فلما ارتفع في الجو دنا من الشمس فذابت أجنحته التي اتخذها من الشمع ولم يلبث هو أن هوى إلى الأرض فاندق عنقه، ولقي من الموت جزاء على هذه الجراءة التي سمت به إلى أرقى ما يجب أن يسمو إليه الناس. فقد خلق الناس ليمشوا على الأرض لا ليطيروا في الجو، فمن عدا منهم طوره أو تجاوز حده لقي هذا الجزاء الذي لقيه طائر الأساطير اليونانية حين أذابت أجنحته الشمس، أو ما لقيه طائر الأخبار العربية حين كان جسمه اثقل من خياله فلم يكد يسلم نفسه إلى الهواء حتى خانه الهواء وأسلمه إلى أمه الأرض فدقت عنقه أولاً. ثم حنت عليه بعد ذلك كما تحنو الأم الرؤوم على ابنها العزيز.

كان ذلك في العصر القديم حين كان خيال الإنسان اكبر من عقله. وأشد من اجتراء على الطبيعة وما يلبث فيها من المصاعب والعقاب وكان أسلافنا من أدباء العرب وشعرائهم محبين للأناة، يطيرون ولكن دون أن يفارقوا أماكنهم، تطير نفوسهم وقلوبهم شوقا إلى من يحبون، وتطير نفوسهم وقلوبهم فرقا ممن يكرهون، وقد تطير أجسامهم إلى ساحة الحرب وميادين القتال حين يأتيهم الصريخ ويبلغهم فزع المستغيث. ولكن أجسامهم كانت تطير دون أن تفارق أقدامهم الأرض، كانوا يسرعون في العدو فيحسبون إنهم يطيرون، ولعل منهم من كان يطير في الجو، ولكن على ظهر ناقة أو جمل. فكان يباعد بين قدميه وبين الأرض، ولكنه كان يتخذ بينه وبين الأرض سببا على كل حال. ومنهم من كان يسعده الحظ وتواتيه الثروة فيطير على ظهر فرس أو جواد، ويحسب مع ذلك أنه يطير حقاً، وربما عبث به الوهم ولعب به الخيال فظن حينا أنه يطير، وظن حينا آخر أنه يسبح في الماء، أما الآن فلست أدري أضعف الخيال أم لم يضعف، ولكن الشيء الذي لا شك فيه هو ان العقل والجسم أخذا يسابقان الخيال فيسبقاه في كثير من الأحيان، فلم يبق الطيران في الجو حلما ولا وهما ولا نبأ من أنباء الأساطير، وإنما أصبح أداة يسيرة من أدوات الانتقال. وكان منذ أعوام أداة مقصورة على أصحاب الجرأة من الفنيين، ثم تجاوزهم إلى أصحاب الجراءة والسعة من المترفين وفارغي البال، ثم تجاوزهم إلى أصحاب الثروة الذين يحبون السرعة ويستطيعون الانفاق، ثم أخذ منذ حين ينزل ويتدلى دون أن يفارق الجو، ولكنه ينزل ويتدلى على كل حال حتى بلغ أمثالك وأمثالي من أهل الطبقات الهينة اليسيرة المتواضعة التي يسمونها الطبقات الديمقراطية. وأصبح الطيران في هذه الأيام أداة من أدوات الانتقال قد يعجز العمال عن استخدامها، ولكن أهل الطبقات الوسطى لا يعجزون عن ذلك ولا يترددون فيه، والغريب انه بعد أن تقدم أو تأخر في أوربا وأمريكا إلى هذا الحد وصل إلى مصر واستقر فيها، ان صح إن الطيران يستطيع أن يستقر. وصل إلى مصر واصبح أداة للانتقال يستخدمها المصريون الذين عرفهم الزمان ببغض السرعة وحب الأناة والحرص على الثبات والاستقرار.

أليس آباؤهم قد بنوا الأهرام. ومع ذلك فقد أخذ المصريون يطيرون، ولم يقتصر الطيران على الرجال في مصر، بل تجاوزهم إلى النساء فهن يطرن أيضا وهن يسابقن

في الطيران، وهن يسبقن الطائرين، وقد كان مكتوبا عليهن أن يلزمن الدور ويعكفن من وراء الخدور. ولكن ماذا نصنع وقد ارتقى العقل حتى سابق الخيال، وارتقى الجسم حتى استطاع أن يطير ويبلغ آماداً وبيئات لم يكن يبلغها من قبل إلا الخيال والوهم. وأغرب من هذا وذاك إن الطيران قد هان ولان وسهل أمره وابتذلت قيمته حتى أصبح مباحا لقوم ما كان ينبغي أن يباح لهم لولا أن الفساد قد دب إلى كل شيء وتسلط على كل شيء وأصبح الناس ينظرون فلا يعرفون أين يعيشون، ولا كيف يعيشون. وهؤلاء القوم الذين سخر لهم الطيران في آخر الزمان هم الأدباء. والأدباء المصريون، أرأيت إلى أديب عربي يطير؟ أين نحن من أيام طرفة بن العبد، وعلقمة بن عبدة، وزهير، وغيرهم من الشعراء الذين كانوا إذا حز بهم الأمر وألح عليهم الهم وعبث بهم شيطان الشعر يعمدون إلى نوقهم فيركبونها ثم يخرجون بها في الصحراء ليسلوا عن أنفسهم همها، وليتلقوا عن شياطينهم ما يريدون أن يوحوا إليهم من جد الكلام وهزله. ثم يعودون وقد فتنوا بهذه النوق وقالوا في وصفها ما لا نزال نتكلف في فهمه وتفسيره ضروب المشقة وألوان العناء.

كذلك كان يفعل أسلافنا من شعراء الجاهلية والاسلام، أما الآن فصديقنا الأستاذ عبد العزيز البشري يطير لا بالخيال ولا بالعقل ولا على جناح الفلسفة، وإنما يطير حقا، يطير من هليوبوليس إلى الإسكندرية، ثم يتحدث عن طيارته كما كان يتحدث طرفة عن ناقته، أو كان يتحدث صاحب العرداة عن عرادته، أو كما يتحدث أبو نواس عن ناقته في تلك الأبيات التي يحسن الأستاذ عبد العزيز البشري خاصة إنشادها وتوقيعها، يتحدث عن هذه الطيارة حديثا أي حديث، حديثا ساحراً حقا، باهراً حقا، نشرته الأهرام في الصيف فأعجبت به حتى لم أنسه إلى الآن على كثرة ما قرأت منذ الصيف، حديثا لا تكاد تمضي فيه حتى تحس كأن الأستاذ يعرف طيارته كما كان طرفة يعرف ناقته، ومع ذلك فما أظن أن للأستاذ علما مفصلا بهذه الشياطين التي تطير بالناس في الجو منذ طغى العلم الحديث. ولكن للبيان سحراً ينطق صاحبه بالأعاجيب، وما دام الأدباء وقد أخذوا يطيرون، وما دام الطيران قد أصبح أداة، من أدوات الانتقال فلابد من أن تتغير لغة الناس بعض الشيء، ولابد من أن يلتمس المبالغون لأنفسهم ألفاظا أخرى يعبرون بها عن السرعة حين يريدون أن يصفوا السرعة، فقد كانوا يطيرون شوقا حين كان الطيران أمراً مستحيلا، أما الآن فيجب أن يجدوا للشوق أداة ينتقل بها غير الطيارة، وبيئة ينتقل فيها غير الجو.

وقد أخذ الأدباء الأوروبيون يسلكون الطريق الطبيعية إلى هذه الغاية، وأول ما كان ينبغي أن يفعلوه من ذلك إنما هو تسخير الطيارة للأدب بعد أن سخرت للعقل والجسم، ولعقول الأدباء وأجسامهم بنوع خاص، أخذوا يفهمونها ثم يصفونها ويعبرون عنها تعبيراً أدبيا بعد أن كان وصفها والتعبير عنها مقصورين على العلماء الذين يخترعون، والعمال الذين ينفذون، والصناع الذين يعالجون أجزاء الطيارة في كل ساعة من ساعات النهار. ثم لم يكتف الأدباء بالفهم والوصف والتصوير فيما يكتبون من المقالات، وما ينظمون من القصائد وما يذيعون من الأحاديث، ولكنهم تجاوزوا ذلك فاستغلوا الطيارة في فنون الأدب كلها. فما الذي يمنع أن تكون الطيارة موضوعا يلهم أصحاب القصص، ويلهم أصحاب التمثيل، وإذا كان من الحق أن الناس يأتلفون ويختلفون وتثور بينهم عواطف الحب والبغض فتؤثر في حياتهم أبلغ الأثر وأعمقه، وتلهم القصاص أن يصوروا من ذلك ما يريدون، فإذا بعضهم يصور من ذلك ما يقع في قطار، وبعضهم يصور من ذلك ما يقع في سيارة، وبعضهم يصور من ذلك ما يقع في عربة تجرها الخيل، أقول إذا كان من الحق أن كرسي البريد وعربة الخيل والسيارة والقطار والزورق والسفينة الشراعية والسفينة البخارية، كل ذلك قد الهم الأدباء في الشعر والنثر والقصص والتمثيل، فما الذي يمنع الطيارة أن تلهم الأدباء في هذه الفنون جميعا، ومن الذي يستطيع أن يزعم أن الطيارة أقل قدرة على الإلهام، وأقل حظا من الفصاحة وسحر البيان من هذه الأدوات التي ذكرناها آنفا. ومن الذي يستطيع أن يزعم أن الأدباء الذين سخروا للأدب كل هذه الأدوات يعجزون عن أن يسخروا للأدب هذه الأداة الجديدة التي تطير بأجسام الناس بعد أن طارت صورتها بما كان لهم من عقل أو خيال.

الطيارة قادرة على الإلهام، والأدباء قادرون على أن ينطقوها رغم أنفها سواء أكان لها

أنف أم لم يكن. وتستطيع أن تنظر في الآداب الأوربية الحديثة فسترى أن الأدباء قد أغنوا فنون الأدب وأضافوا إلى ثروته الضخمة ثروة أخرى قيمة حين اتخذوا الطيارة أداة من أدوات القصص. وأنا زعيم بأنك بدأت القصة التي أنشأها الكاتب الفرنسي كيسل منذ أعوام وسماها اكيباج فلن تستطيع أن تدعها حتى تتمها، ولن تتردد في أن تعترف بأنها من خير ما انتج القصص الحديث. وليس لهذه القصة موضوع إلا اختصام جنديين من جنود الطيران في الجيش الفرنسي أثناء الحرب حول امرأة كانت زوج أحدهما فاحبها الآخر وهو لا يعرف زوجها. ثم جمع الطيران بين الزوجين فاحب كل منهما صاحبه حبا عميقا، ثم ظهر لهما أنهما يحبان امرأة واحدة. وصور أنت لنفسك كيف تنتهي القصة، ولكن يجب أن تعلم أن الطيارة هي الأداة التي بها تنتهي القصة والتي عليها تقوم القصة.

وإذا استطاعت الطيارة أن تدخل فن القصص، فما الذي يمنعها أن تدخل في فن التمثيل وأن تلهم الممثلين أو كتاب التمثيل آيات بينات وقد فعلت. وقد بلغت من الإجادة في ذلك أمداً بعيداً حقا، تستطيع أن تقرأ إن لم تستطيع أن تشهد هذه القصة التمثيلية الممتعة التي وضعها الكاتب الفرنسي المعروف فرنسيس دي كروا وسماها أو طيران العرس، فسترى اتقانا في الأداء، واتقانا في العرض، واتقانا في تصوير الصراع بين هذه العواطف الجديدة التي استحدثها الطيران في نفوس الناس لا عهد للأدب بمثله من قبل، وسترى من هذه القصة التمثيلية ومن تلك القصة الأخرى أن الطيران لم يكد يوجد لنفسه بيئة خاصة

من الذين يحبونه ويتخذونه صناعة أو لهوا حتى أوجد لهذه البيئة أخلاقها الخاصة وعواطفها الخاصة ولغتها وأساليبها في الحسن والشعور ومذاهبها في التعبير والتصوير.

ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد بل تجاوزه إلى شيء عظيم الخطر حقا، لست أدري أنافع هو أم ضار، ولكن من الذي يستطيع أن يقيد العقل والخيال بما ينفع أو بما يضر. وإذا كان الرقي العلمي قد انتهى بالناس إلى حيث يتنافسون الآن في اختراع أدوات الموت والتدمير وما يمحو الحضارة محوا ويرد الإنسان إلى شر ما عرف من أطوار الوحشية، فما الذي يمنع الرقي العلمي من أن يدفع بالطيران إلى ما يفسد العلم إفسادا ويجعله أداة من أدوات الشعوذة والتضليل؟

لست ادري أعرفت إن كاتباً فرنسيا شابا هو الأديب ملرو قد مر بمصر منذ أسابيع، فقد طار هذا الشاب من مصر إلى غرض لم يرد أن يعينه، ولأمر لم يرد ان يدل عليه، ثم أصبحنا اليوم وإذا الصحف تنشر رسائل برقية تنبئ بأن هذا الكاتب الشاب قد طار إلى بلاد العرب وتغلغل في أحشائها، ولكن من فوق، لأن أحشاء البلاد العربية خطرة تهضم الذين يقتحمونها هضما. قالت الرسائل البرقية إن هذا الكاتب الشاب قد استكشف شيئا عجيبا وطار فوق أخطار جسام، استكشف مدينة سبأ التي تحدثت عنها التوراة وتحدث عنها القرآن وامتلأت بأنبائها كتب التاريخ والأساطير، وليس من شك في أننا سنقرأ تفصيلا واسعاً لهذا الاستكشاف، ولكن الشيء الذي لا اشك فيه هو أننا سنقرأ كتابا لهذا الأديب الشاب عن مدينة سبأ هذه. وسيكون هذا الكتاب من أقوم الكتب الأدبية، وسيكون على كل حال من أروجها أكثرها انتشارا، ولن يكون حظه من الرواج والانتشار أقل من حظ القصة التي وضعها الكاتب الفرنسي بييربنوا وسماها الأطلنطيد والتي فتحت لصاحبها أبواباً ثلاثة: باب الثروة وباب الشهرة وباب المجمع اللغوي. سمع بييربنوا بأحاديث القارة الموهومة اتلنتيس وسمع باستكشافات الجغرافيين للصحراء الكبرى، فزعم ان صاحبه قد ذهب يستكشف فانتهى إلى بقية من هذه القارة، ولقي هناك الملكة انتنيا من سلالة نبتون إله البحر. ثم وصف شخصها وقصرها وبيئتها وصفا رائعا عجيبا، وسمع الكاتب الشاب ملرو أحاديث سبأ وقصة بلقيس، وسمع أحاديث المستكشفين الذين يتجشمون الأهوال لاستكشاف البلاد العربية، ووجد الطيارة فطار مستكشفاً، والله يعلم هل عبر البحر إلى بلاد العرب، وهل وصل إلى طرف من أطراف الربع الخالي حقا. ولكن مما لا شك فيه أنه وجد مدينة سبأ، ومن يدري لعله رأى ملكتها، وتحدث إليها ولو بالإشارة من طيارته، ولعل الملكة أن تكون قد شغفت به، ولعله هو أن يكون قد فتن بما رأى من حسنها البارع. ولعله قد انصرف عنها بعد أن ألقى إليها بقلبه من أعلى الجو، فهو مضطر إلى أن يعود

إليها ليلتمس قلبه هناك حيث ألقاه في ذلك القصر الممرد من قوارير، والذي يقوم في تلك المدينة العظيمة التي ترتفع أسوارها الشاهقة في طرف من أطراف الربع الخالي. وسيكون حظ هذه القصة المنتظرة كحظ تلك القصة التي فرضت بييربنوا على الأدب الفرنسي فرضا.

رأيت أن بييربنوا قد استغل الاستكشاف العلمي للصحراء فدل الناس على بقية القارة المفقودة، وأن ملرو قد استغل الاستكشاف الجغرافي والطيارة، وسيدل الناس على ما بقي من ملك السبئيين.

أما بعد فإنا نبحث منذ قرون عن مدينة ضائعة في الصحراء يقال أنها تنتقل من مكان إلى مكان يحسبها بعضهم من الذهب والفضة، ويحسبها بعضهم من النحاس والحديد. وهي إرم ذات العماد. ويقول بعضهم أنها ليست إلا هرما من هذه الأهرام التي تقوم في الجيزة، والتي تستكشف من حولها المقابر والتماثيل والأدوات المختلفة. ولدينا طيارون، ولدينا طيارات. فهل نستطيع أن ننتظر من أديب من أدبائنا وليكن صديقنا عبد العزيز البشري أن يطير مع بعض شبابنا البارعين في هذا الفن لعله ان يعثر - إن أمكن أن يعثر الناس في الجو - بهذه المدينة القديمة العظيمة إرم ذات العماد؟ وليس عليه بأس إن لم يجدها أن يخترعها اختراعا وأن يزعم لنا انه وجدها كما فعل بييربنوا وكما سيفعل ملرو. وليس ينبغي أن نخاف من صديقنا عوض وأصحابه الجغرافيين فان الكاتبين الفرنسيين لم يحفلا بأعلام الجغرافيا في السوربون.

طه حسين

الإحسان

للأستاذ احمد أمين

لا أطيل على القارئ، فإني أريد بالإحسان التصدق على الفقراء، ومعونة الضعفاء والمرضى، ولست أرى لفظا أدل على المعنى من الإحسان، وإن لم يرضه المتشددون في الألفاظ.

ربما كانت فضيلة الإحسان من أكثر الفضائل تقلبا مع الزمان، وتغيرا في أفهام الناس، فكم بين ما كان يفهمه حاتم الطائي من نحر الجزور وانهابها الناس، وبين ما وضع من النظم الحديثة للإحسان من فروق ومباينات!

فنظام المعيشة من قديم ينتج غنيا مفرط الغنى، وفقيرا مفرط الفقر، كما ينتج:

أعمى وأعشى ثم ذا ... بصر وزرقاء اليمامه

فذوو السعادة يَضْحكُو ... ن وغيرهم يبكى ندامه

ولم يخلق للآن نظام يعدم هذه الفروق أو يقلها من غير أن يستتبع خطراً أعظم، وداء أعضل.

فاهتدى الناس لتلطيف هذه الفروق إلى المناداة بالكرم والفخر به، ولست أدري أكان أول من نادى به الأغنياء اتقاء لخطر الفقراء، أم الفقراء تعطيفاً لقلوب الأغنياء وأتت الأديان تدعو إلى الأخُوَة، وخاصة بين أهل الدين الواحد، وتجعل من مستلزمات هذه الأخّوة عطف الغني على الفقير وإشراكه في جزء من ماله، واستتبع ذلك وجود الأديار في النصرانية والتكايا في الإسلام

وكما أنتجت النظم معونة للفقراء وسداً لحاجات المعوزين أنتجت عند بعض الناس تراخيا في العمل، وميلا إلى الكسل واتخاذ الاستجداء حرفة، والتكدي صناعة.

وكثرت جيوش الفقراء فلم تكف النزعات الدينية لسد حاجاتهم، فتدخلت الحكومات تحمل بعض العبء فبنت المستشفيات وأنشأت الملاجئ وما إلى ذلك.

وأتت المدنية الحديثة فأخذت تقوَّم الفضائل من جديد، واستخدمت العلم في هذا التقويم كما استخدمته في كل شيء وكان مما نظمته طرق الإحسان، بل جاء قوم من الفلاسفة متأثرين بمذهب النشوء والارتقاء. وبنظرية الانتخاب الطبيعي وعلى رأسهم (هربرت سبنسر)

يطبقون هذا على الإحسان ويرون أنه رذيلة لا فضيلة، وأن العجزة ومن إليهم لا يستحقون هذه العناية، إنما العناية يجب أن تتجه إلى الأقوياء وإلى خير العناصر، ويجب أن ينتخب من المجتمع خيره وأقوه، فنوجه إليه العناية ونأخذ بيده، وبعد أجيال سيفنى الضعفاء ويبقى الأقوياء فيسعد مجتمعهم - نفعل في ذلك ما نفعل بالزهور والأشجار، نهمل الذابل والضعيف فيفنى، ونستولد القوي الجيد فيبقى إلى آخر ما قالوا. ومن

حسن الحظ لم تلق نظريته هو وأمثاله نجاحا، فإنها نظرية تقضي على خير ما في الإنسان من عاطفة نبيلة نحو الناس، وكيف يقضى على العجزة والفقراء ونظام الحياة يخلق منهم كل يوم خلقاً جديداً وجيشاً كبيراً لو لم يُعْن به لاكتسح الأغنياء، ولثار ثورة لا يعلم مداها إلا الله.

إنما كتب النجاح لقوم آخرين من الأدباء والعلماء لم يحاولوا أن يمنعوا الإحسان، ولكن حاولوا أن ينظموه، لم يشكوا في قيمته، ولكنهم آمنوا بضرر فوضاه، واستعانوا بما وصل إليه العلم كما استعانوا بمنهاج البحث الجديد، فدرسوا الفقر وأسبابه وطرق الإحسان وما يتلاقى منه مع أسباب الفقر وما لا يتلاقى، ووفقوا في ذلك إلى حد كبير وان لم يصلوا إلى الغاية، وعلى ضوء هذه الدراسة سنت القوانين وأنشئت النظم، وظلت قوانين تنظم والنظم تعدل، حسب مقتضيات الأحوال إلى اليوم.

فمن أشهر القوانين القانون الإنجليزي للفقراء الذي وضع سنة 1601 ونقح سنة 1834 والتزمت فيه الحكومة بمساعدة الفقراء والعاطلين

ومن أشهر النظم المعروفة نظام (همبرج) الذي وضع للفقراء والعاطلين، وهو يتلخص في تأسيس مكتب رئيسي في المدينة للنظر في شؤون الفقراء وتنظيم الإحسان وتقسيم المدينة إلى أقسام، وتعيين مشرف على الفقراء في كل قسم وظيفته إعانة العاطلين على وجود عمل لهم، ودراسة أسباب الفقر في الأسر ووصف العلاج لها، وإنشاء مدارس صناعية لأولاد الفقراء ومستشفيات لمرضاهم، ويقضي بمنع الإحسان يداً بيد إلى الفقراء، إنما يعطى الإحسان لهذه الجمعية، فهي أدرى بطرق إنفاقه - وكان من أثر هذا النظام قلة عدد الفقراء وتنظيم معيشتهم، وقد أدخلت عليه تعديلات قليلة ثم عمم في مدن كثيرة في أوربا.

ونشأت في أمريكا جمعيات على هذا النظام وسعت بعض أغراضها - من ذلك أنها رأت أن أكبر مساعدة ليس إعطاء المال للفقراء ولكن إيجاد العمل لهم، كما جعلت من أهمم

أغراضها ترقية المعيشة الاجتماعية في منازل الفقراء والعناية بحالتهم الصحية، وبتعويدهم العادات الصالحة للعيش، ووجهت أكبر همها إلى العناية بأطفال الفقراء حتى لا ينشئوا كآبائهم، فكان لدى الجمعيات سجل للفقراء والعاطلين في كل حي، ومجمل عن سبب فقر كل أسرة وحالتها وما بذل من العناية لها، والاتجاه الذي اتجهوه في معالجتها، وبذلك أسس الإحسان على الأسس العلمية.

لعل أهم ما حدث من الانقلاب في تصور الإحسان أنه كان يفكي في عده فضيلة أن يخرج الإنسان عن شيء من ماله أو جهده ابتغاء ثواب الله، لا يبالي بعد ذلك أين وقع ماله: أعلى غني وقع أم على فقير، أكان فيه صلاح للفقير أم إفساد له؟ فيكفي أن يجود بقرش ليحسب له عند الله عشرة أو مائة، فجاءت الدعوة الحديثة تطلب أن ينظر في الإحسان إلى المحسن إليه لا إلى المحسن، فليس من العمل الصالح في شيء أن تعطي حسبما اتفق، بل يجب أن يكون عطاؤك لإصلاح الهيئة الاجتماعية التي أنت فيها، ولا يكون ثوابا عند الله إلا إذا نظر فيه هذا النظر، ولا يعد فضيلة حتى يكون القرش الذي يعطى يقصد فيه رفع مستوى الأمة، فإذا كان الإحسان يزيد حال الأمة سوءا عد رذيلة لا فضيلة، وعد من أتى به مجرما لا محسنا، وبعبارة أخرى أن هذا النظر الحديث يتطلب أن يشعر المحسن بالتبعة أو المسئولية، فمسئولية المحسن أن يعطي الفقراء وأن يتساءل عن إعطائه هل أفاد من أحسن اليه؟ وهل أفاد الأمة بعمله أو لم يفد؟

كان لهذا النظر نتائج لها قيمتها - منها تحريم الإحسان الفردي، وهو أن تكون علاقة المحسن بالفقير علاقة مباشرة، وإنما يجب أن توسط في ذلك الجمعيات والهيئات التي عرفت حالة الفقراء ودرست شؤونهم، واهتدت عن طريق دراستها إلى نوع ما يصلح لهم، فمن شاء الإحسان فعليه أن يتبرع لهذه الجمعيات وهي التي تتولى الإنفاق - ومنها تحريم التسول في الشوارع والطرق، لأن المتسول لم يثبت للجمعيات صحة دعواه وعلة فقره. إن كان وليس التسول حرفة مشروعة، ولكن إذا أثبت عدم صلاحيته للعمل وعجزه عن العيش وجب على الأمة إعانته، والجمعيات أقدر على تعرف هذا - وكان من مقتضى هذا النظر أيضا أن الهيئات التي وكل إليها هذا الأمر لا

يصح أن تكتفي بإعطاء المال إلى الفقراء، بل يجب أن تعالج الأمر بشتى الوسائل حسب حالة كل فقير. فمن كان سبب فقره أن لا
عمل له مع قدرته سعت له في إيجاد عمل، ومن كان سبب فقره مرضه عالجته، ومن كان سبب فقره إدمان مخدرات أو سوء عادات نظرت في وسائل إصلاحه، كذلك أهم عمل تعمله أن ترعى أبناء الفقراء حتى لا يكونوا فقراء المستقبل. فتنشئ لهم المدارس لا ليتعلموا فيها تعلما نظريا لا يسمن ولا يغني من جوع، ولكن تعلما صناعيا يبعث فيهم روح الاعتماد على النفس، ويفتح لهم السبل لتحصيل العيش - بهذا وأمثاله عولج الفقر في أوربا وأمريكا، فان كان بعد ذلك عاطلون لم يكن سبب عطلهم راجعا إليهم، وإنما يعود إلى نظام العمل والعمال وسوء الحالة العامة، وجب أن تضمن الحكومات لهم ما يقيم أودهم حتى يعودوا إلى عملهم.

ونحن إذا نظرنا - في ضوء هذه النظريات وكيف طبقت - إلى حالة الشرق وجدنا عجبا، وجدناه لا يزال على حالته الأولية، سواء في ذلك أغراض المحسنين أو تطبيق الإحسان.

لدى الشرق أموال كثيرة تبرع بها أهلها للخير، لدينا أموال الأوقاف الخيرية، ولدينا أموال النذور، ولدينا تبرعات المحسنين، إلى كثير من أمثال ذلك، ولكن أكثرها لا يقع موقعا حسنا عند الله وعند الأمة، وكأنه يصب في البحر صبا أو يدفن في الأرض دفنا، على أن المال الذي يدفن أو يلقى في البحر ليس له من الضرر أكثر من فقده، ولكن ضرر الإنفاق على غير مستحق يزيد الأمم بلاء والحال سوءا

وأهم ما استوجب هذه الحالة الأسيفة في نظري شيئان - أولهما - احترام إرادة الواقف والمتبرع. فالفقهاء يرون أن شرط الواقف كنص الشارع، والواقف لا يعلم تطور الأمة ولا مطالبها ولا حاجاتها التي تختلف باختلاف الزمان - قد كان كثير من الواقفين لا يفهمون فمن وجوه البر إلا الوقف على الحرمين والمساجد والتكايا والتصدق بالخبز على المقابر، فأصبح الناس اليوم يفهمون أن من وجوه البر كذلك إنشاء المستشفيات والمدارس والملاجئ، وسيفهمون قريبا أن من وجوه البر إعانة جمعيات التأليف وإعانة الفلاحين ليحصلوا على الماء النقي، وليستضيئوا بالنور الكهربائي، وسيجدّ غير ذلك من ضروب الخير، وسيرون أن الوقف على مسجد إذا كان المسجد قد وُقف عليه من قبل ما يكفيه ليس وجها من وجوه الخير، وسيرون ان أموال النذور تلقى في صناديق الأضرحة ليست تنفق على المعوزين والمحتاجين، فليس التبرع بها إحسانا.

كان الواجب من عهد بعيد أن تحترم إرادة الواقف والمتبرع في رغبته في الخير فقط، ولكنا لا نحترمها في وجوه الخير التي يراها هو إذا رأينا أنها ضارة أو رأينا أن الأمة أحوج إلى الصرف في وجوه أخرى - رحم الله حسن باشا عاصم، فقد كان له موقف في ذلك من أبدع المواقف - تبرع محسن ببناء مدرسة، ووقف عليها الأوقاف التي تلزمها، وأتبعها للجمعية الخيرية الإسلامية، وكان حسن عاصم مديراً للمدارس ثم أراد الواقف أن يدخل ابنه في المدرسة، وكانت سنة تزيد على السن المقررة شهوراً، فأبى عليه ذلك وقال: انه تبرع بمدرسة فله الشكر، ووقف عليها أوقافا فله من الله الأجر، ولكنه يريد أن يبطل قوانيننا فليس له في ذلك حق.

قد يكون من المعقول أن نقبل إرادة الواقف في أوقافه الأهلية. أما الخيرية فيجب أن تخضع كل الخضوع لمصلحة الأمة. لا أظن الواقفين إذا بعثوا من قبورهم ورأوا تطورات الأمم إلا مؤيدينا في رأينا وراجعين عن رأيهم. والأمر الثاني وهو متصل بالأول، أن أموال الخير تصرف حسبما اتفق لا خضوعا لدراسة اجتماعية ولا تحريا لوجه الإنفاق ولا للمنفق عليهم، فكيراً ما يحرم البائس المحتاج ويعطى الغني المبذر، وكثرا ما يحرم العائل لا يجد قوته وعياله، ويعطى المدمن ينفقها في كيوفه ان فوضى الإحسان في الشرق سبب من أسباب شقائه، ولو نظمت لكانت من أكبر العوامل في نهوضه وصلاحه

لا أمل في هذا الإصلاح حتى ينشط رجال الأمة وشبانها للخدمة العامة، وان يمتلئوا عقيدة بضرورة المساهمة في الإحسان بالمال وبالنشاط، وأن يطالبوا مطالبة حارة بتنظيم الإحسان حتى يؤدي غرضه على أكمل وجه مستطاع، إذن لرأينا البؤس في الأمة يتضاءل إلى حد كبير، ويحل محلة كثير من الرخاء، ولرأينا المال - الذي يضيع في

الشرق سدى - وقد أصبح دعامة للإصلاح، وسببا من أكبر أسباب النهضة الحديثة.
احمد أمين
حوادث النمسا
النمسا الجمهورية في خمسة عشر عاما
للأستاذ محمد عبد الله عنان
- 1 -
في الثاني عشر من فبراير المنصرم اضطرمت النمسا فجأة بضرام حرب أهلية خطيرة، واتجهت أنظار العالم إلى هذا الحدث الأوربي الجديد ترتقب آثاره في سير الشئون الدولية. وكانت المعركة عنيفة هائلة ولكن قصيرة المدى، لأنها لم تطل سوى ثلاثة أيام وكانت حاسمة النتائج والآثار سواء في الموقف الداخلي أو في سير السياسة الأوربية العامة.
ويرجع هذا الفصل السريع الحاسم إلى عزم الرجال الذين يشرفون اليوم على مصاير الجمهورية النمسوية، وعلى رأسهم الدكتور انجلبرت دولفوس المستشار (رئيس الحكومة) الفتي. وقد تولى الدكتور دولفوس الحكم منذ عامين (في أواخر مايو سنة 1932) في ظروف صعبة تزداد كل يوم حرجاً؛ وفوجئ غير بعيد بخطر السياسة العنيفة التي اتخذتها الوطنية الاشتراكية الألمانية أو السياسة الهتلرية إزاء النمسا، ومحاولتها أن تقضي على استقلالها وأن تجعل منها ولاية ألمانية؛ وأنفق العام الماضي كله في قمع الاعتداءات المنظمة التي يدبرها الوطنيون الاشتراكيون (النازي) النمسويون بوحي ألمانيا وإرشادها؛ وأبدى حزماً وشجاعة نادرين في الدفاع عن استقلال النمسا، ومقاومة ضغط السياسة الهتلرية، واستطاع حتى اليوم أن يقضي على كل مشاريعها ومحاولاتها. بيد أن هذا الخطر ما يزال قائماً داهما.
وكان ثمة خطر آخر تواجهه حكومة الدكتور دولفوس وتخشى منه على النظم القائمة وعلى سلام البلاد ذلك هو قوة الديمقراطية الاشتراكية النمسوية وتغلغلها في مرافق البلاد. وكانت الديمقراطية الاشتراكية تؤيد الحكومة في نضالها ضد الخطر الهتلري، ولم يك ثمة خلاف في جبهة السياسة النمسوية من هذه الناحية؛ ولكن المعركة الخالدة بين الجبهة الاشتراكية والجبهة المحافظة كانت تجثم دائماً وراء هذا التفاهم المؤقت على مقاومة الخطر المشترك؛ وتلك هي المعركة التي انفجر بركانها في الثاني عشر من فبراير لأسباب وظروف ما تزال غامضة. وقد استطاعت الحكومة ومن ورائها القوى المحافظة أن تخرج من هذا الصراع ظافرة، وأن تقضي - مؤقتا عل الأقل - على الديمقراطية الاشتراكية النمسوية. ولكن ماذا سيكون بعد هذا الظفر وبعد اختفاء الديمقراطية الاشتراكية من ميدان كان لها فيه منذ قيام الجمهورية النمسوية أيما شان؟ لقد كانت الديمقراطية الاشتراكية سند حكومة الدكتور دولفوس في نضالها ضد الخطر الهتلري، فالآن وقد حطمت هذه القوة، فان مهمة الدكتور دولفوس تغدو أصعب وأشق. بيد أنه يصعب علينا أن نقول اليوم كلمة حاسمة في نتائج هذه المعركة. وسنحاول في هذا البحث أن نستعرض تاريخ الجمهورية النمسوية منذ قيامها، وأن نشرح العوامل والظروف الداخلية والخارجية التي تقلبت فيها، والقوى السياسية والاجتماعية التي تتجاذبها، والاتجاهات المختلفة التي تسيرها في ميدان السياسة الدولية.
قامت الجمهورية النمسوية في الثاني عشر من نوفمبر سنة 1918، على أنقاض البقية الباقية من إمبراطورية النمسا والمجر القديمة، وكانت إمبراطورية النمسا والمجر تسير قبل ذلك بعامين أو ثلاثة في سبيل الانحلال والتفكك. وكان الإمبراطور الشيخ فرانز يوسف الذي سهر على وحدتها ومصايرها نحو سبعين عاما قد توفى في نوفمبر سنة 1916، والحرب الكبرى في إبان اضطرامها والإمبراطورية القديمة تواجه أخطار الهزيمة والتفكك؛ فخلفه حفيد أخيه الأرشيدوق كارل؛ ولم تمض أشهر قلائل حتى أخذت بوادر الإعياء والهزيمة تبدو قوية على الجيش الإمبراطوري. وأخذت القوميات والأجناس القديمة التي تتألف منها الإمبراطورية أعني المجر والتشك والسلوفاك والبولونيين والصربيين والرومانيين، تتحرك في سبيل التحرر والاستقلال. وفي أكتوبر سنة 1918، أعلنت تشيكوسلوفاكيا نفسها بمؤازرة الحلفاء جمهورية مستقلة برئاسة الدكتور مازاريك؛ وفي نفس الوقت أعلن الصرب والكروات خلع

الإمبراطور كارل، ونادوا بأنفسهم مملكة مستقلة هي مملكة الصرب والكروات والسلوفين، أو مملكة يوجوسلافيا وملكها بطرس الأول ملك صربيا. وقامت خلال ذلك ثورة في بودابست، وأعلنت المجر انفصالها عن الإمبراطورية وقيامها دولة حرة مستقلة. وبذلك انتهت إمبراطورية آل هبسبرج القديمة. وفي أوائل نوفمبر ثارت مدينة فينا بدورها وطالبت الجموع بإقامة الحكم الديمقراطي، فلم ير الإمبراطور كارل سوى التنازل عن عرشه والانسحاب؛ وأعلن قيام الجمهورية النمسوية في 12 نوفمبر؛ واجتمعت في الثالث عشر جمعية وطنية تولت مقاليد الحكم، وانتدبت حكومة مؤقتة على رأسها الدكتور رنر الزعيم الاشتراكي، ودخلت النمسا في طور جديد من تاريخها.

ويقرر الدستور النمسوي الجديد الذي بدئ بتنفيذه في نوفمبر سنة 1920 أن النمسا جمهورية اتحادية تتكون من ثمان ولايات والعاصمة فينا. وهذه الولايات هي النمسا السفلى والنمسا العليا، وسالتسبورج، وستريا، وكارنتيا، والتيرول، وفورا لبرج وبور جنلند. ونظام الحكم نيابي ديمقراطي، قوامه جمعية وطنية هي (الناسيونال رات) وتؤلف بالانتخاب العام، وتتولى التشريع؛ ومجلس الاتحاد (البند سرات) وينتخب من أعضاء المجالس الاتحادية، وسلطاته استشارية فقط، وينص الدستور على إلغاء جميع الامتيازات والألقاب الخاصة وعلى ضمان الحرية الدينية، وعلى المساواة المطلقة في الحقوق والواجبات بين جميع السكان. وللجمهورية رئيس ينتخب لمدة أربعة أعوام ولا يجدد انتخابه أكثر من مرة. ويبلغ سكان النمسا نحو ستة ملايين ونصف

وقد حددت علائق الجمهورية الجديدة بدول الحلفاء، ومركزها الدولي بمعاهدة سان جرمان التي عقدت في سبتمبر سنة 1919. وكانت النمسا تريد يومئذ بعد أن فصلت عن باقي أجزاء الإمبراطورية القديمة أن تنضم إلى ألمانيا؛ ولكن الحلفاء عارضوا في ذلك أشد المعارضة. ونصت المعاهدة على اقتطاع جزء من التيرول النمسوي وضمه إلى إيطاليا، وعلى اقتطاع بوهيميا الألمانية وضمها إلى تشيكوسلوفاكيا ونصت على تنازل النمسا عن جميع حقوقها في مصر ومراكش والصين؛ وحددت عدد الجيش النمسوي بثلاثين ألفا ووضعت قيودا شديدة على التسليح الجوي؛ ونصت على حماية الأقليات، وعلى إلزام النمسا بنصيب من تعويضات الحرب.

بدأت النمسا حياتها الجديدة في غمار من الصعاب، وكانت النظم الاجتماعية والاقتصادية القديمة قد انهارت وساد الانحلال واليأس جميع الطبقات والأفراد، فكان على النمسا الجمهورية أن تخلق لنفسها حياة اجتماعية واقتصادية جديدة، وأن تبرز من أنقاض الماضي المجيد إلى ميدان الكفاح الشاق. وكانت الكتلة الديموقراطية الاشتراكية هي صاحبة الكلمة

في توجيه مصاير النمسا الجديدة، فهي التي تولت الحكم على أثر انهيار الإمبراطورية وهي التي عقدت معاهدة الصلح، وكانت أغلبية في الجمعية الوطنية التي وضعت الدستور (سنة 1919) حيث بلغ عدد النواب الديموقراطيين الاشتراكيين 70 والاشتراكيين المسيحيين 64 والوطنيين الألمان وحزب الفلاحين، وغيرهما 30؛ وقد كان هذان الحزبان القويان القديمان، أعني الديموقراطيين الاشتراكيين، والاشتراكيين المسيحيين، هما اللذان يتنازعان الحكم والسلطان في الجمهورية الجديدة، والحزب الأول يمثل طبقات العمال وأصحاب المهن والحرف وله مثل اشتراكية قوية. والحزب الثاني يمثل أصحاب الأملاك والأموال والفلاحين، ذوي المبادئ والآراء المحافظة، وتغلب عليه نزعة دينية قوية. وقد لبث تيار الديموقراطية الاشتراكية غالبا زهاء عامين، وتولى زعيمها الدكتور رنر رآسة أول حكومة جمهورية في سنة 1918، ولما أجريت الانتخابات العامة للمرة الثانية خرج الديموقراطيون الاشتراكيون بأغلبية جديدة حيث بلغت كراسيهم ثمانين مقابل 61 كرسيا للاشتراكيين المسيحيين وعاد الدكتور رنر فتولى رئاسة الحكم على قاعدة الائتلاف مع الاشتراكيين المسيحيين. وكان الائتلاف يومئذ ضرورة تمليها الظروف العصيبة التي تجتازها النمسا، وكان في كثير من الأحيان ضرورة دستورية أيضا، لأن الأغلبية الحاسمة لم تكن لأحد الحزبين وكان العمل التشريعي يتطلب التفاهم والمهادنة. وفقدت الديمقراطية أغلبيتها سنة 1920، وتولى الاشتراكيون المسيحيون الحكم على يد زعيمهم المونسنيور أجناس سيبل، وهو حبر وعلامة في القانون الدولي، ولكن الديموقراطيين الاشتراكيين لبثوا أقلية قوية تناهض

الأغلبية وتملي عليها إرادتها في كثير من الأحيان. وكان اكتساح الحزبين القويين للميدان الانتخابي على هذا النحو يحرم الطبقات الوسطى من أن تمثل تمثيلا قويا، ويجعل ميدان النفوذ والكفاح قاصرا على معسكرين يمثل كل منهما ناحية متطرفة من المثل والمبادئ، بيد أن الطبقة الوسطى كانت أكثر ميلا إلى ناحية الديموقراطية منها إلى الناحية الأخرى.

وأنفقت الجمهورية النمسوية أعوامها الأول في معالجة المشاكل التي خلقتها الحرب وفروض الصلح، وشغلت حينا بمسألة النقد وتدهوره. وكان المونسنيور سيبل رجل الموقف، فاستطاع بكثير من البراعة والجلد أن يعالج مشكلة النقد بالالتجاء إلى عصبة الأمم، واستقر النقد النمسوي منذ سنة 1923، وأخذت النمسا تسير في طريق الانتعاش الاقتصادي، وعولجت عدة مشاكل اقتصادية واجتماعية مثل: مسألة الأجور وتنظيمها، ومسألة المساكن وحماية المستأجرين، ومسألة التأمينات والمعاشات، والتشريع العملي والاجتماعي. وبذل المونسنيور سيبل لتنظيم النمسا الجديدة جهودا تخلق بالإعجاب. وكان يعتمد في سياسته أثناء هذه الأعوام على جبهة موحدة من حزبه، أعني الاشتراكيين المسيحيين والأحزاب الصغيرة الأخرى، ولكن الديموقراطيين الاشتراكيين كان لهم دائما في سير الشئون نفوذ قوي، بل كان هو الغالب في معظم الأحيان، وكانت جهودهم خلال هذه الأعوام تتجه إلى تقوية حقوق الطبقات العاملة وتوطيدها، وإلى مقاومة أصحاب الأموال والصناعات الكبرى والكتلة المحافظة من الملاك ورجال الدين. وكانت أهم المسائل السياسية التي واجهتها الجمهورية خلال هذه الفترة مسألتان: الأولى، مسألة التيرول الجنوبية، والثانية مسألة الاتحاد مع ألمانيا (الانشلوس)، فأما الأولى فترجع إلى أن معاهدة سان جرمان قضيت بفصل قسم كبير من أراضي التيرول الجنوبية عن النمسا وضمها إلى إيطاليا، وفيها نحو مائتي ألف نمسوي. وعبثا حاولت النمسا أثناء مفاوضات الصلح أن تقنع الحلفاء بتعديل هذا النص والإبقاء على حدود النمسا الطبيعية. وقد ازدادت هذه المسألة أهمية وخطورة حينما اشتدت وطأة النظم الفاشستية على أهل التيرول وأخذ السنيور موسوليني في حرمانهم شيئا فشيئا من أخص حقوقهم القومية والجنسية، وفرض عليهم اللغة الإيطالية في المدارس والكنيسة ولم يدخر وسيلة لسلخهم عن الكتلة الجرمانية وإدماجهم في الكتلة الإيطالية. عندئذ حاولت النمسا أن ترفع صوتها بالاحتجاج على هذه السياسة، وقامت الصحف النمسوية والألمانية عامة بحملة شديدة على ما تنزله الفاشستية بأهل التيرول من ضروب الظلم والإرغام؛ ولوح الرجال المسئولون في النمسا وألمانيا بإمكان طرح المسألة على عصبة الأمم تطبيقا لما تنص عليه معاهدات الصلح المختلفة من حماية الأقليات القومية. ولكن السنيور موسوليني أنكر هذه التهم، وسخر من تدخل العصبة ونوه بما تسبغه الحكومة الإيطالية على رعاياها الجدد من ضروب الرعاية والمعاونة، وأكد أن التيرول الجنوبية ضرورية لسلامة إيطاليا، وأن إيطاليا لن تنزل عنها قيد ذرة. وانتقد الشعب النمسوي موقف المونسنيور سيبل في هذه المسألة ورماه بالتردد والضعف، ولكن سيبل لم ير سبيلا للعمل الإيجابي إزاء وعيد موسوليني: ولم تستطع النمسا أن تحمل إيطاليا على تغير شيء من سياستها وخططها في التيرول، ولبثت المسالة مثاراً لسوء التفاهم بين البلدين مدى حين، وما زالت على حالها لم يتخذ بشأنها أي إجراء لإنصاف أهل التيرول.

وأما المسألة الثانية وهي مسألة اتحاد النمسا مع ألمانيا فقد لبثت مدى أعوام ظاهرة بارزة في السياسة النمسوية. وهي أمنية قديمة لدعاة الجامعة الجرمانية ترجع إلى أواخر القرن الماضي، وكانت قبل الحرب من غايات السياسة الألمانية، ولكنها لم تتخذ في النمسا الإمبراطورية أية أهمية، ولم يكن لها سوى أنصار قلائل بين شبيبة هذا العصر، فلما انتهت الحرب بانهيار الإمبراطورية القديمة وتمزيقها، وفصلت النمسا عن باقي وحداتها وشعرت النمسابمخاطر ضعفها وعزلتها عن باقي الكتلة الجرمانية، ورأت في اتحادها مع ألمانيا شقيقتها الكبرى خير سبيل لضمان مستقبلها السياسي والاقتصادي وأعربت النمسا فعلا عن هذه الأمنية لدول الحلفاء على يد مندوبيها في مؤتمر الصلح تطبيقا لمبدأ الرئيس ولسون في حرية تقرير المصير، ولكن الحلفاء عارضوا في تلك الخطوة أشد المعارضة كما قدمنا، لأن اتحاد الأمتين الجرمانيتين على

هذا النحو يقوي ساعد الكتلة الجرمانية في أواسط أوربا، ويجعلها اشد خطراً وأبعد نفوذاً، ولما بدأت النمسا الجمهورية حياتها الجديدة، وآنست كل ما يعترضها من الصعاب السياسية والاقتصادية المترتبة على فصلها وعزلتها وتمزيق معاملاتها وعلائقها القديمة، عادت فكرة الاتحاد مع ألمانيا تبدو لها كعلاج ناجع، وكان الفريق المتطرف من أنصار الفكرة يرى أن يكون هذا الاتحاد تاما من جميع الوجوه السياسية والاقتصادية أو بعبارة أخرى يكون نوعا من الاندماج العام، ويرى الفريق المعتدل أن يكون هذا الاتحاد اقتصاديا قبل كل شيء يقرن بتوحيد الخطط السياسية العامة، ولكن تبقى النمسا محتفظة بشخصيتها واستقلالها الداخلي. بيد أن الفكرة كانت تلقى على وجه العموم تأييداً كبيراً من الشعب النمسوي، وكان أنصار الجامعة الجرمانية في البلدين يروجون لها بالدعاية الواسعة، وكانت تقام من أجلها المظاهرات في العاصمة النمسوية من آن لآخر، وتشجعها الحكومات النمسوية المختلفة. وكانت الديموقراطية الاشتراكية مع ذلك تشك في قيمة هذا الاتحاد وتخشى منه على مستقبلها وحقوقها إذا ما انتهى بالقضاء على استقلال النمسا بيد أنها لم تعارضه بطريقة إيجابية، وكانت تؤيد جانبه الاقتصادي على الأقل، خصوصا وقد كانت الديموقراطية الاشتراكية الألمانية يومئذ صاحبة النفوذ والسلطان في ألمانيا. واتخذت أول خطوة عملية لتحقيق مشروع هذا الاتحاد في سنة 1931 حيث عقدت النمسا مع ألمانيا اتحاد اقتصاديا جمركيا، وكان المفهوم أنه أول مرحلة فقط، ولكن دول الحلفاء، ودول الاتفاق الصغير، احتجت كلها على هذا الاتحاد بمنتهى الشدة. وانتهى الأمر بسحبه وإلغائه، وأدركت النمسا مرة أخرى أنه لن يسمح لها بالاندماج في الجامعة الجرمانية الكبرى.

وكانت فكرة الاتحاد النمسوي الألماني ما تزال قوية في النمسا حينما تولى الوطنيون الاشتراكيون الحكم في ألمانيا في يناير سنة 1933 وأخذوا يعملون لتحقيق برنامجهم، والمعروف أن العمل على تحقيق وحدة الشعوب الجرمانية في مقدمة المبادئ التي يحتويها برنامج الهرهتلر، وليس من ريب في أن ضم النمسا لألمانيا هو أهم عناصر هذا المشروع، وكان المفهوم أن ظفر الوطنية الاشتراكية بالحكم في ألمانيا يقرب أمد هذه الغاية، ولكن سرعان ما ظهرت الوطنية الاشتراكية الألمانية في ثوبها الحقيقي، مسرفة في العنف والطغيان وسرعان ما أخذت الحكومة الهتلرية تتدخل في شئون النمسا وتعاملها بخشونة وغلظة كأنها ولاية تابعة لألمانيا. وهنا أدرك الشعب النمسوي حقيقة لم يقدرها في البداية حق قدرها، وهو أن أنصار الجامعة الجرمانية لا يفهمون من الاتحاد إلا أنه قضاء على كيان النمسا كأمة مستقلة أو بعبارة أخرى ضم النمسا لألمانيا كولاية ألمانية. وشهد الشعب النمسوي في دهشة وسخط كيف تتجنى ألمانيا الوطنية الاشتراكية على النمسا، وكيف يحاول الدعاة الهتلريون أن يضرموا في النمسا نار الحرب الأهلية لكي تقضي على وجودها، وشهدت الديموقراطية النمسوية من جهة أخرى كيف قضى الهتلريون على الديموقراطية الألمانية في غمر من العنف المثير: عندئذ انهارت في الحال فكرة (الاتحاد) (الأنشلوس)، وظهرت للشعب النمسوي في روعة خطرها وخطئها، وقضت حكومة الدكتور دولفوس ومن ورائها سواد الشعب ترد عدوان ألمانيا الهتلرية، وتعمل لحماية الاستقلال النمسوي بكل ما وسعت من جهود.

للبحث بقية

محمد عبد الله عنان

-

حجر رشيد والقلم الهيرغليفي

للاستاذ عبد الفتاح الزيادي مدرس التاريخ والجغرافية بدار العلوم

تعإلى الله كان السحر فيهم ... أليسوا للحجارة منطقينا

(شوقي)

إن هذا الحجر وثيقة تاريخية خطيرة أدت إلى فك رموز الكتابة الهيرغليفية (المقدسة) ففتحت ما غلق من تلك المدينة المصرية القديمة التي ترعرعت على ضفاف النيل ودنت قطوفها حتى عمت جهات البحر الأبيض الشرقية.

قد هذا الحجر من صخر البازلت، وهو نوع من الحجارة البلوتونية السوداء المعروفة بصلابتها، وهو يرى الآن قائما في الطرف الجنوبي من غرفة الآثار المصرية بالمتحف

البريطاني. أطلق عليه المؤرخون هذا الاسم بعد العثور عليه في مكان قريب من مصب النيل الغربي بالقرب من موضع رشيد. وقد قرر بعض المؤرخين انه كان ملقى على الأرض وقت أن عثر عليه، وقرر آخرون انه وجد مبنيا داخل جدار قديم كان نابليون قد أمر ثلة من جنوده بهدمه ليعزز ذلك الحصن الذي عرف بعد ذلك باسم حصن (القديس جوليان)

أما الذي عثر عليه فهو الضابط (بوسار) من فرقة المهندسين الذين رافقوا نابليون في حملته على مصر في أغسطس سنة 1799 ورقي عقب ذلك إلى رتبة جنرال (قائد) لما لاحظ (بوسار) ما على وجه الحجر الأملس من الخطوط والنقوش الغريبة أيقن إنها لابد أن تكون خطوطا من قلم خاص، وسرعان ما كاشف رئيسه الجنرال (منو) بما لاحظه، فأمره هذا بنقل الحجر إلى منزله بالإسكندرية، فنفذ بوسار الأمر وظل الحجر زمنا في بيت (منو) لا يعلم أحد من أمره شيئا حتى ادعى (منو) ملكيته واعتبره جزءا من متاعه الخاص

ولما علم نابليون بما كان من أمر هذا الحجر أصدر أمره للجنرال (منو) بنقله إلى القاهرة فصدع منو بالأمر، ونقل الحجر إلى (المعهد الوطني) الذي أسسه نابليون في المدينة، وما ذاع خبر نقله حتى تهافت عليه جمهور العلماء المرافقين لنابلون فأثار دهشتهم، وأصبح منذ ذلك الحين موضع اهتمامهم واهتمام العاهل العظيم الذي رأى ضرورة فك طلاسم ما عليه من النقوش. أمر نابليون بأن تطبع من تلك الرسوم نسخ توزع على طوائف العلماء في

أوربا، واستقدم لهذا الغرض اثنين من مهرة الطباعين في فرنسا، وهما مارسل وجالان. أما الطريقة التي اتبعاها في نقل النقوش فهي تتلخص في أنهما نشرا على وجه الحجر مداد خاصا. ووضعا أدراج الورق فوق الحجر ضاغطين عليه بمضغط من مطاط حتى انطبعت الرسوم واضحة، ثم وزعت النسخ المطبوعة على علماء العاديات الشرقية في أوربا تنفيذاً لأمر نابليون، وقد اختص (المعهد الوطني بباريس) بنسختين وضعتا موضع بحث وتنقيب قام به العلامة (دوتيل)

وصول الحجر إلى إنجلترا

بعد أن أحرز (السير رالف ابركرمبي) الإنجليزي النصر في مصر بهزيمته الجنود الفرنسية سنة 1801 أبرمت معاهدة بين الإنجليز والفرنسيين تنص المادة السادسة عشرة منها على أن يسلم الفرنسيون حجر رشيد مع آثار مصرية أخرى عظيمة الخطر كانت في حوزتهم إلى الجنرال هاتشنسون في أواخر أغسطس من هذه السنة عينها، وتنفيذا لهذه المعاهدة شرع هاتشنسون يتسلم الآثار المصرية بدون كبير معارضة ويرسلها إلى إنجلترا. ولما حان تسليم حجر رشيد إليه لاقى صعوبات جمة، إذ أن الفرنسيين كانوا قد أسرعوا عقب هزيمتهم إلى نقل هذا الحجر إلى الإسكندرية وأخفوه في منزل الجنرال منو مدة من الزمن بعيدا عن أعين الرقباء، فلم يقف هاتشنسون له على أثر، إلا أنه في سبتمبر سنة 1801 عادت إنجلترا إلى طلبه على يد الماجور جنرال تيرنر تنفيذاً لشروط المعاهدة المذكورة، ملحة في ضرورة تسليمه، فلم ير الفرنسيون بدا من التنازل عنه والأسف يملأ قلوبهم وأبحر به تيرنر على الباخرة (الأجبسين) ووصل بورتسموث في فبراير سنة 1802. وفي 11 مارس أودع الحجر إحدى غرف جمعية الآثار بلندرة، وبقي فيها بضعة شهور فحص في أثنائها جماعة من علماء المشرق، وعلماء الإغريق ما عليه من النقش، وفي يوليه أمر رئيس الجمعية بصنع أربعة نماذج من الجبس على مثاله لجامعات أكسفورد وكمبردج وأدلبره ودبلن وطبع نسخاً من هذه النقوش وأرسلاها إلى جامعات أوربا ومكتباتها الشهيرة ومجامعها العلمية. وفي أواخر هذه السنة نقل الحجر من غرفة جمعية الآثار إلى المتحف البريطاني حيث نصب وعرض للجمهور لمشاهدته بين بقية التحف الأخرى.

وصف الحجر

إن حجر رشيد كما كشف قطعة غير منتظمة من صخر البازلت يبلغ طوله نحو ثلاثة أقدام وتسع بوصات، ولا يتجاوز عرضه قدمين وأربع بوصات. أما سمكه فلا يزيد على إحدى عشرة بوصة. وليس في الإمكان تحديد الجزء الناقص منه تماماً، إلا أنه من الهين أن نحكم أنه كان أطول مما هو الآن بنحو اثنتي عشرة بوصة، ويغلب على الظن أن الطرف العلوي منه كان مقوسا. وواجهة الجزء المقوس كانت محلاة بنقوش تحوي

صورة القرص ذي الأجنحة لهوروس اله أدفو. وفي أسفل القرص ذي الأجنحة كنت ترى صورة الملك واقفا مع الملكة في حضرة جمع من الآلهة. وليس من الصعب أن نتصور أن هذا الحجر وهو منصوب في المعبد بجانب تمثال الملك الذي صنع تخليداً لذكراه كان من أبرز الآثار وآخذها بالألباب وأكثرها استرعاء للنظر.

أما النقوش على الحجر فقد كانت مرسومة بلغتين مختلفتين المصرية والإغريقية. وكان يعبر عن اللغة المصرية بنوعين من الكتابة: أولهما الهيرغليفي وهو القلم العتيق المستعمل منذ عهد الأسرات الأولى في تدوين كتاب الموتى والمراسيم المختلفة. وثانيهما الديموطيقي أي القلم العامي وهو المحرف عن القلم الهيراطيقي الذي كان مستعملا في نشر الأعمال الأدبية من تأليف وغيره.

وقد بطل استعمال الخط الهيرغليفي والديموطيقي عندما دخلت الديانة النصرانية في البلاد المصرية، وحلت محلهما حروف الهجاء القبطية المركبة من ألف باء اليونانية، ومن ستة حروف توافق بعض أصوات مصرية، وليس في اليونانية ما يعبر به عنها أما الكتابة الإغريقية المنقوشة على صفحة الحجر فقد كانت عادية ومماثلة لما تحويه المخطوطات اليونانية القديمة. ويلاحظ أن القسم الهيرغليفي على الحجر مكون من أربعة عشر سطرا فقط على حين إن ما يقابله من الإغريقي مكون من ثمانية وعشرين سطر بينما يتألف الديموطيقي من اثنين وثلاثين سطرا

مجهودات العلماء في فك رموز حجر رشيد

أثارت النقوش التي على الحجر حركة عنيفة من الترجمة والبحث بين العلماء، وكان ستيفن وستن أول من وضع ترجمة القسم اليوناني ثم ألقى هذه الترجمة أمام جمعية العاديات بلندرة سنة 1812. وقام دوتي بنقل هذا الجزء إلى الفرنسية فإذا به شكر وتمجيد مرفوعان من كهنة الإسكندرية إلى بطليموس ايبفانس

وقام بدراسة الرموز الديموطيقية العالمان الشهيران سلفستردي ساسي وأكربلاد السويدي، ونجح هذا في توضيح ما يرادف بالديموطيقية أسماء الاسكندر والإسكندرية وبطليموس واسيس وأسماء الأعلام الأخرى، ورتب حروف هجاء مستعملة في القلم الديموطيقي مازال العلماء يعولون على معظمها، وأكثرها موافق للصحة والضبط. وقد وجه هذان العالمان اهتماما خاصا بالخانات الملوكية وأوضحا ما يقابل ذلك في الهيرغليفية

وفي سنة 1818 كتب الدكتور توماس ينج في دائرة المعارف البريطانية عن نتائج دراسته الشخصية في فك رموز الحجر، ونشر جريدة (قائمة) تحوي كثيراً من الحروف والمقاطع الهيرغليفية. ويعتبر الدكتور ينج بحق أول من أدرك فكرة القاعدة الصوتية في قراءة الهيرغليفية وطبق هذه القاعدة على حله بعض الرموز.

ظلت أبجدية ينج رهن التحول والتغير إلى أن ظهر العلامة شامبليون، وهو من أبرز العلماء في جمع طلاسم القلم الهيرغليفي اشتغل منذ نشأته بدراسة اللغات الشرقية، واستوعب بنوع خاص آداب اللغة القبطية من الكبت الدينية والأناشيد الكنسية التي نشرها أقباط مصر أتباع القديس سان مارك بالإسكندرية، وقد استطاع شامبليون بمعونة اللغة القبطية أن يدرك القيمة الصوتية لكثير من العلامات المقطعية.

وفي سنة 1822 نشر جريدة (قائمة) بالحروف والمقاطع الهيرغليفية، وأصلح بهذا بعض الأخطاء التي وردت في جريدة ينج، وقد شفع هذه الجريدة ببيان قواعد النحو عند المصريين الأقدمين فكان شامبليون أول من أدرك أن الهيرغليفي يحوي علامات تدل على أفكار ومعان مستقلة بالفهم يمكن التلفظ بها. وقد ضمن أول نتيجة ظهرت من أعماله في رسالة بعث بها إلى المسيو داسيه السكرتير الدائم في جمعية النقوش والآداب، وطبعت هذه الرسالة وقابلها الناس أولا بشيء من الاستنكار، ولكنه أزال الشك عندما نشر كتابه خلاصة قواعد الكتابة الهيرغليفية موضحا في هذا الكتاب أن الصيغ النحوية في الهيرغليفية توافق المصطلح عليها في اللسان القبطي. بهذا المجهود الجبار أصبح من السهل ترجمة الخطوط

وقراءتها فلا نكون مبالغين إذا قررنا أن شامبليون هو الذي وقف على كنه أسرار الهيرغليفية وفتح الباب على مصراعيه للباحثين بعده:

ماذا على حجر الرشيد؟

إن المسطر على حجر رشيد هو صورة من القرار الذي أصدره مجلس الكهنة

المصريين المجتمعين في ممفيس للاحتفال بإحياء الذكرى الأولى لتتويج بطليموس ابيفانس ملك مصر في ربيع سنة 196 ق. م. والصورة الأصلية للقرار كانت بالقلم الديموطيقي. أما الهيرغليفي واليوناني فكلاهما مترجم عن هذا الأصل. وتاريخ القرار هو اليوم. الرابع من الشهر الإغريقي (أبريل) وهو الموافق لليوم الثامن عشر من الشهر القبطي أمشير، ويتألف هذا القرار من فقرتين تحوي الفقرة الأولى ألقاب بطليموس الخامس، وتنوه بما يتحلى به الملك من الورع والتقوى وخشية الآلهة وحبه لمصر والمصريين - أما الفقرة الثانية فهي تعداد للنعم التي اسبغها الملك على البلاد وما أسداه للدين من خدمات. ويمكن تلخيص هذه النعم فيما يأتي:

1 - هبات مالية وعطايا من قمح للمعابد والهياكل - 2 - حبس أموال على المعابد والأعمال الدينية - 3 - نقص الضرائب الحكومية إلى النصف - 4 - التنازل عن بعض الديون التي للحكومة على الأهلين - 5 - إطلاق سراح المسجونين الذين قضوا معظم المدة في السجون - 6 - العفو عن العصاة والسماح لهم بالعودة للبلاد والإقامة فيها - 7 - ضرورة إرسال سرية عسكرية برا وبحرا ضد أعداء البلاد - 8 - محاصرة بلدة ليكوبوليس وفتحها - 9 - تجديد هياكل العجل ابيس ومعابده والحيوانات المقدسة الأخرى ووقف أموال عليها.

واعترافاً بهذه المبرات التي أسداها الملك بطليموس الخامس قد قرر المجلس العام للقساوسة تخليد ذكرى الملك والإكثار من إقامة حفلات الذكرى، وتتلخص قراراته فيما يأتي:

1 - صنع تماثيل لبطليومس بوصفه (منقذ مصر) تنصب في المعابد ليقوم الكهنة والناس بعباداتها.

2 - صنع صورة ذهبية لبطليموس تحفظ في صناديق ذهبية توضع جنباً لجنب مع توابيت الآلهة وتحمل في المواكب والاحتفالات معها. 3 - أن تكون الأيام الخمسة الأولى من شهر توت أعياداً متصلة تقدم فيها القرابين ويلبس الناس فيها أكاليل الغار. 4 - إضافة هذا اللقب الجديد إلى ألقاب الكهنة (كهنة الإله المحسن الوهاب بطليموس ابيفانس الذي ظهر على الأرض) ونقش هذه العبارة على خاتم كل كاهن وتسجل في كل وثيقة دينية. 5 - للجنود أن يستعيروا من المعابد الصناديق التي تحوي صور بطليموس ويحملوها معهم إلى ميادين الحرب تبركا بها. 6 - كتابة صورة من القرار على حجارة من بازلت بلغة الآلهة (الهيرغليفية) وبلغة الأدب (الديموطيقية)، وكذا باليونانية ويكون من بينها حجر كبير يقام في الهيكل الأعظم جنباً لجنب من تمثال بطليموس (الإله المخلد في المعابد).

عبد الفتاح الزيادي

رسالة الشعر

ليس الشعر صنعة يمكن كل إنسان احترافها، ولا أداة يستطيع كل شخص امتلاكها، وإنما هو رسالة يلهمها الشاعر، فإذا هو قد تبدل من نفسه نفسا أخرى، تنظر إلى العالم نظرة جديدة، تغير قيم الأشياء في رأيه، وتعدل أقدارها، نظرته لا تقف عند القشور، ولا تنحجز عند اللفائف، وإنما تنفذ إلى اللباب، وتتغلغل إلى صميم الجوهر، وما تزال هذه النظرة ترقى بإحساسه وتسمو بقلبه، حتى ترفع له الحجب عن الجمال الهاجع في الكون، وتكشف له الأستار عن سحره البديع وسره العجيب، فيخر ساجدا أمام عرشه مفتونا بحسنه، مأخوذا بروعته، وما هي إلا عشية أو ضحاها حتى يحس بشعور غامض غريب، وحال نفسية شاذة، لا يزالان يتضخمان في نفسه، ويتبلجان في قلبه، حتى ينحسرا عن رسالة شاقة ممتعة معاً، هي رسالة الجمال، فيترجح بين سترها ونشرها، ويتردد بين إخفائها وإعلانها. بيد أن رسل الوحي لا تمهله ولا تتركه، بل تتبعه وتقلقه، وما تزال به حتى يذعن إلى تلبيتها، ويستجيب إلى دعوتها، فيتناول قيثارته السحرية، ويوقع للناس عليها أفكاره الغنائية اللذيذة، ويرتل عليها أناشيده العذبة الجميلة، محاولا بكل جهده أن يطلعهم على هذه المعاني الموسيقية التي هي لباب كل شيء في هذا الكون، وصميم كل موجود في هذا العالم، وكل ما سواها إنما

هو قشور وأغلفة، فان جمال الطبيعة ونظام الكون إنما يتألفان من شيء يشبه النغمات الموسيقية وما بينها من ائتلاف وانسجام، ووحدة ووئام، بل هو النغمات الموسيقية نفسها وما تحمله من رنة وجمال، وما تغشى من حسن وجلال. ولقد اهتدى أحد فلاسفة اليونان القدماء ببصيرته النافذة إلى معرفة هذا السر الموجود في كل كائن فقال: إن للأفلاك موسيقى تنظم حركتها ودورانها، وتحفظ توازنها وبقاءها، وأكبر ظني أن اليونان شعروا منذ القدم بهذا الحقيقة الجميلة، وربما كان هذا الشعور هو السبب في نبوغهم في فن الشعر، وتفوقهم على العالم فيه، فقد نظروا إلى الطبيعة نظرة جمة الضياء، غزيرة الشعاع، فتبينوا باطنها وكشفوا داخلها، وعرفوا أن الموسيقى هي قلبها بل هي جمالها وجلالها، فأخذوا يقتربون منها، يحاولون أن يعرفوا أسرارها ويمثلوا نغماتها، فكانت هذه المثل العليا في فن الشعر التي لا يزال شعراء العالم يحتذونها حتى الآن.

والمعاني الموسيقية التي يغنيها الشاعر لا ينقلها إلينا من الطبيعة نقلا وإنما يمزجها بقلبه، ويخلطها بدمه، ثم يقدمها إلينا فتؤثر فينا تأثيراً جميلا، لأنها تصدر عن القلب، وكل ما يصدر عن القلب يؤثر في القلب، ولكن جماعة من النقاد زعمت أن الشاعر لا يرينا شيئاً أكثر من الواقع الخارجي نفسه، وكل ما يملك تلقاءه إنما ينحصر في كشف حقائقه، وكأنهم أبوا إلا إن يفسروا كل شيء في الوجود تفسيراً ماديا فأنكروا الخيال وأنكروا المثال، وما عرفوا أن في الوجود شيئاً آخر ليس حقيقة مقيدة، ولا مادة محسوسة، وإنما هو نور يشع على وجه الطبيعة، فيشرق على قلوب الشعراء، ويختلط بما فيها من نعمة وبؤس، وشقاء وسعادة، وبكاء وفرح، ويمتزج بما يسري في روعهم من خطرات وأفكار وخوالج وآراء، فإذا هو نغم مزيج من الإنسان والطبيعية، وغناء خليط من قلبه وقلبها، بل من خياله وجمالها.

وقد يكون من الجحود أن نقول إن الشعر من الأعمال الموضوعية التي لا يتبين لصاحبها فيها أثر، والتي يقتصر فيها على إبداء الملحوظات وذكر التنبيهات، فان الشعر ذاتيا أكثر

منه موضوعيا وداخليا أكثر منه خارجيا، وهو يعني بتقديم شخصية صاحبة قبل عنايته بتقديم الموضوع الذي يحاول الكلام فيه، وما التصويرات والأفكار الشعرية إلا الواقع كما نحلم به ونتخيله، لا كما نراه ونشهده، ولو كانت مهمة الشعر هي نقل ما في الطبيعة لكان تكراراً قليل القيمة، ولو كانت هي فكرته عن الجماللكان أقل قيمة وأدنى درجة، وإنما تتركز مهمته السامية في أنه الحلقة الربطة بين الطبيعة في أجمل مظاهرها وأسمى معانيها وبين روح الإنسان، وإذن فالشعر لا يبتغي نقل حقائق الأشياء ولا إظهار جانب الحق وتزيف الباطل منها، فان لذلك لساناً خاصاً يقوم به. ونحن لا ننكر أن الشاعر يحب الحقيقة فان الحقيقة في ذاتها محببة إلى كل نفس ولها سلطان على القلوب لا يمكن أحد أن يجحده، ولكنا نقول إننا لا نريد من الشاعر بيان الحقائق، وإنما نريد منه تحديثنا عن الجمال المستتر في الكون، وتمثيله الموسيقى التي تؤلف بين أجزائه ووحداته، وينبغي أن ننبه إلى أن الشاعر يعرف الحقيقة معرفة أخرى غير المعرفة التي يعرفها الرياضي والرجل العادي، وكأني بالشعر ينظر إلى الأشياء من جهة خاصة به، وينظر إليها العلم من جهة ثانية، والدين ينظر إليها من جهة ثالثة، وقد ينظر إليها الشعور العام من جهة رابعة، أما هؤلاء الذين ينطقون عجبا قائلين أي حق هذا بينما يقرأون شعر الشاعر إنما هم لا يعرفون كيف يستفيدون من الفن الاستفادة الصحيحة، ولا ينتفعون بها الانتفاع الواجب وهم يضيعون أوقاتهم من حيث لا يشعرون، وإلا لو كان الأمر كما يظنون لانقلب الشعر إلى صور من الحجج والبراهين على أن الحقيقة الواحد ة قد تتبدل من حين لآخر أمام الشاعر الواحد، ويتبين هذا من أننا نلاحظ إن الشاعر المحب إذا كان مسروراً بش للطبيعة وبش للسماء، وتخيل كأن كل شيء يحدثه ويضاحكه فالريح تسر إليه باسم حبيبته، والنجوم ترنو إليهبعين الحنان والعطف، وكل شيء في الطبيعية يداعبه ويفاكهه، أما إذا كان مخزوناً فان هذه الحقائق والأخيلة تتغير في رأيه، وتختلف في نفسه فالريح تسخر من تأوهاته، والنجوم القاسية تنظر إليه من غير تقدير ولا عناية، وكل شيء حوله مغاضب له ساخط عليه

قد يقول قائل إن الشعر يقوي ويوضح الاحساسات ويوسع الخيال، ونحن نوافق على ذلك ونزيد أن الشعر قد يعمل على تنظيم ما يضطرب في عقول الآخرين، وانه قد يوقظ العقل
ويوسعه بترقية الاحساسات وكثرة الأفكار التي يلقيها إليه، ولكننا ننكر أن هذه هي غايته السامية، فليست رسالة الشعر هي التثقيف كما قال هورس، فللتثقيف أداة خاصة به والشعر لا يزاحمه فيها، وما جاء من ذلك إنما آتى عن طريق غير مباشر في عرض الرسالة وأدائها، ولعل أعظم برهان على ذلك أننا لا نسمع لشعر الشاعر، ولا لغنائه لأنه أكثر تفكيراً، ولكن لأنه أكثر حساسية وأوفر شعوراً، والذين يفهمون الشعر على أنه فلسفة أو أخلاق أو يحاولون فهمه على هذا الأساس، إنما هم مخطئون في معرفة رسالته، فالشعر لم يرسل ليكون لسانا للفلسفة، ولا أداة للأخلاق، وأما هذه الأفكار التي قد نعثر بها عند بعض الشعراء فنظنها فلسفة أو أخلاقا، فهي ليست من هذا الطراز الذي نعهده عند الفلاسفة، ولا من المبادئ التي نعرفها عند الأخلاقيين، وفهمها على هذا النحو خطأ من أساسه، ونسيان لرسالة الشعر وغايته.
والشعر لا يخضع لقانون خاص كقوانين العلم، ولا أصول ثابتة كأصول الدين، وإنما يحتاج إلى قوة التأثير التي تربط بينه وبين قلوبنا وتصل بينه وبين أفكارنا، وذلك لأنه صلة بين صاحبه وبين قارئيه، وبمقدار تلك الصلة من القوة والضعف تكون منزلته العلو والإسفاف وقد نستطيع أن نقول إن التأثير هو كل شيء في الشعر، وهو سر خلوده، وسبب بقائه على وجه الدهر، وما الشاعر العظيم إلا الذي يشعر الأشياء التي تلمس قلوب الناس وتؤثر فيها تأثيراً عميقاً، ولقد كان قلب شاكسبير - كما يقول الإنجليز - كأنه مخلوق من قلب الإنسانية ذاتها، لأنه كان يتحدث فيلم بخطرات القلوب وخلجات النفوس، ولقد كان لسانه - كما يقولون أيضا - كأنه يحفظ كل الكلام الأنساني، لأنه كان يعبر فيحسن التعبير ويؤثر فيجيد التأثير
وإنه من الحق هنا أن نذكر أن معظم شعرائنا لا يتناولون بشعرهم ما يتصل بحياتنا اتصالاً مباشراً، ولا ما يؤثر فيها ولو تأثيراً بعيداً، كأنهم في شغل عنها أو في غفلة عن أمرها، ولهذا فشعرهم لا يقع منا إلا موقع الطنين الممقوت والضوضاء الكاذبة، فهو شعر لا يمتزج بالنفوس، بل لا يتصل أي اتصال بالقلوب، وما أشبهه بمدينة منهدمة لها سور لا يكاد يقوم فلا هي تجذب العيون، ولا هو يعطف القلوب، وأكبر ظني أن هذا الخطأ الفاحش في فهم رسالة الشعر جاء هؤلاء الناس من أنهم يعيشون معيشة فنية صرفة فهم لا يستمدون فنهم
من الطبيعة التي ينظرون إليها، ولا يتخذون ألوانه من الحياة التي يحيون فيها، وإنما يجذبونه جذبا من دواوين أسلافهم، ويسلبونه سلبا من موضوعاتها وأساليبها، وكأنهم جهلوا أن الشعر هو نفس صورة الحياة معبرة في حقيقة الجمال الخالدة، وموسيقاه المؤثرة.

شوقي ضيف

سياسة أمريكا النقدية

الرئيس روزفلت والدولار

يتتبع الرأي العالمي سياسة روزفلت الاقتصادية والنقدية بمنتهى الاهتمام. وما زالت مشكلة الدولار الأمريكي في مقدمة المسائل العالمية لما للدولار من عظيم الارتباط بسير النقد في كثير من الأمم ومن عظيم الأثر في سير التجارة الخارجية العالمية لأن أمريكا من اعظم الدول المصدرة في العالم. وفي مصر تعنينا مسألة الدولار بنوع خاص لما لها من أثر كبير في سير أسعار القطن. وقد قرأنا في هذا الموضوع مقالا للعلامة الاقتصادي الأمريكي الدكتور ايرفنج فيشر في مجلة الأمريكية فرأينا أن نلخصه لقراء الرسالة فيما يأتي:
قال الرئيس روزفلت في 3 يوليو الماضي ما يأتي: (إن الولايات المتحدة الأمريكية تبحث عن الدولار الذي يكون له بعد جيل من عصرنا من قوة في الشراء وفي أداء الدين ما للدولار الذي نؤمل أن نحصل عليه في القريب العاجل)
ويتفق جميع علماء النقد الذين درسوا هذه المسألة مع العلامة مينارد كينس في إن الرئيس روزفلت (مصيب كل الإصابة) ومع ذلك فان أغلبية الشعب الأمريكي لم تقتنع فيما يظهر بهذه الحقيقة. بيد أنه من الخطر أن تترك المسائل الفنية لحكم الجمهور.

ويعتمد الرئيس روزفلت في عمله على مؤازرة اثنين من أعظم خبراء النقد في العالم هما: الدكتور وارنز الأستاذ بجامعة كورنل، والدكتور هارفي روجرز الأستاذ بجامعة ييل ونرى عند تحليل كلمات الرئيس روزفلت إن سياسته النقدية تقوم على غايتين: الأولى هي رفع مستوى الأثمان، والثانية هي الاستقرار أو تحديد مستوى الأثمان. وقد قال الرئيس روزفلت فيما يتعلق بالمسألة الأولى ما يأتي:

إن الحكومة تنوي أن تعمل على رفع أثمان الحاجات إلى حد يمكن أولئك الذين) اقترضوا مالا من أن يؤدوا ذلك المال بنفس نوع الدولار الذي اقترضوا به، ونحن لا نريد أن نمكنهم من الحصول على دولار يكون من الرخص بحيث يمكنهم من الأداء بأقل مما اقترضوا، ونريد بعبارة أخرى أن نصلح خطأ ارتكب لا أن نحدث خطأ جديدا في الناحية الأخرى)

وإذا كان التضخم النقدي أمرا لا يرغب فيه، فكذلك التمسك النقدي مما لا يستحب. ونستطيع أن نقول إن التدهور الاقتصادي الحاضر يرجع في معظمه إلى التمسك النقدي.

وهو (تمسك) في الدين، والدين والتمسك يتفاعلان معا. وقد كان عبء الدين الذي تواجهه الأمة فادحا، فادى ذلك إلى تدهور البيع، ونقص الودائع في البنوك بسبب تصفية القروض، وكان هذا الانكماش في تداول النقد، والهبوط في البيع، سببا في هبوط مستوى الأثمان ورفع قيمة الدولار من حيث القوة الشرائية بما يبلغ 81 في المائة، وهذا يعني إن كل دين كانتقيمته ألف دولار، اصبح يعادل 1810 دولارات، وكان هذا اصعب واشق في الأداء

وقد كان هذا المجهود الذي بذل في أداء الدين سببا في نقص ودائع البنوك، ومن ثم في زيادة الديون، وكلما حاول الشعب الأمريكي أن يتخلص من دينه كلما شعر أن عبء الدين يزداد، وذلك لأن الدين يجب أن يقاس بقيمة السلع الحقيقية. وهذا هو لغز الركود التجاري. فنحن قد أدينا في الظاهر 20 في المائة من ديوننا، ولكننا في الحقيقة زدنا هذه الديون 40 في المائة بما بذلناه في سبيلها مدى أربعة أعوام من السلع الحقيقية

وللمسألة وجوه كثيرة يثيرها خصوم الرئيس روزفلت. أولها إن هذا التضخم النقدي هو تضخم غير محدود. والواقع ليس كذلك بل ليس في أمريكا رجل مسئول يقوم بالتضخم غير المحدود، وكل ما هنالك هو انه يراد أن يسير التضخم إلى الحد الذي يتدارك فيه أثر (التمسك).

ثم يقال انه حتى لو أريد ضبط هذا التضخم، فأنه سيفلت من كل ضبط، ويضربون لذلك مثل ألمانيا التي انتهت سياسة التضخم فيها بكارثة نقدية، وان مثل هذا التضخم يحدث بنوع خاص بواسطة الأوراق النقدية الحكومية. ولكنا قد جزنا في أمريكا هذه التجربة مرتين: الأولى سنة 1865، والثانية أثناء الحرب. وقد استطعنا في كلتيهما أن نوقف سيل التضخم، بل وان نصل إلى نوع من (التمسك)

ويقال أيضا إن كل رفع الأثمان بالطريقة النقدية هو عمل مصطنع، نظراً لأن الأثمان يحددها قبل كل شيء قانون العرض والطلب. وهذا غير صحيح. فان أسعار القطن مثلا لا تتأثر فقط بعرض القطن وطلبه، ذلك أن طلب النقود وعرضها أيضاً عامل مهم، فإذا قايضت قطنا بفضة، وارتفع سعر القطن المقوم بالفضة، فلا يمكن أن ننسب هذا الارتفاع في الثمن لأسباب تتعلق بالقطن وحده. ذلك أن القطن في هذه الحالة يرتفع بالنسبة للفضة، وتنخفض الفضة بالنسبة للقطن، والعرض والطلب كلاهما مهم. وكذا سعر كل سلعة يتأثر

بعرض النقود وطلبها. ولا يمكن في الواقع أن يقوم عرض القطن وطلبه بالنقود دون أن نرجع إلى قوة النقود في الشراء. وهذه القوة تمثل في كل ثمن وكل مساومة. بيد أن هذه الحقيقة تنسى دائماً. فإذا حدث هبوط عام في أسعار الحاجات كما هو حادث منذ أعوام، فان الناس لا يفهمون السر في ذلك إلا أنه يرجع إلى وفرة الإنتاج. ولكن هذا الهبوط يرجع في الواقع إلى قلة النقود أكثر مما يرجع إلى وفرة الإنتاج.

ويقولون أيضا إن مثل هذا الاستقرار في الأثمان لا قيمة له بل هو ضار. والوقائع تثبت غير ذلك، وفي رأيهم أن الاستقرار الحقيقي لا يمكن إلا أن يكون بالنسبة للذهب، وأنه يجب علينا أن نعود إلى معيار الذهب بأسرع ما يستطاع، وهذا وهم. ذلك أننا إذا كنا

على عيار الذهب، فأنا نعتبر أن معيار النقد يجب أن يكون هو الذهب وإننا سنعود إليه.
ولكن إذا كانت دولة أخرى تتبع معيار الذهب فأنا نشكو من اضطراب القطع بين البلدين. وقد كان المستطاع حينما كانت ألمانيا وروسيا تجوز كل منهما عملية التضخم الكبرى. أن ينشأ بينهما معيار ثابت للقطع؛ ولكن ذلك لا يعني ثبات المارك أو الروبل، ولكن معناه انهما قد خفضا معاً، وكذلك لو قام بيننا وبين فرنسا مثلا معيار ثابت للقطع، وبقينا معاً على عيار الذهب، فليس معنى ذلك أن الدولار أو الفرنك ثابتان؛ ولكن معناه انهما قد ارتفعا معاً في الأعوام الأخيرة، وما نريده هو تثبت الفرنك والدولار، أو المارك والروبل، بالنسبة للسلع والأشياء الحقيقية وبالنسبة لقوة الشراء التي تعبر عنها النقود
لقد اتبعت أمريكا سياسة الذهب، ولكنها تركت معيار الذهب في الأثمان، فكان من نتيجة ذلك أن وقف هبوط التجارة الأمريكية وهبوط الأثمان.
وللرئيس روزفلت في ذلك سلطة هائلة، فهو إذا قرر أن يخفض الدولار إلى نصف قيمته الأصلية كما هو مخول له، فمعنى ذلك أن الأربعة بلايين دولار من الذهب التي تملكها أمريكا تصبح في الحال ثمانية بلايين إذا أوقفنا شراء الذهب من الخارج.
3 - التفاؤل والتشاؤم وهل لهما أسباب تاريخية
بعض غرائب الخرافات عند الغربيين والشرقيين
أيام الأسبوع
إن فكرة التشاؤم من بعض أيام الأسبوع سائدة عند الأمم الغربية، ويعتقدون بعدم التوفيق ونجاح الأعمال فيه، فيوم النحس عند الفرنسيين هو يوم الأربعاء، وعند الألمان يوم الاثنين، وعند الإنجليز يوم الثلاثاء، حتى أن عدد الذين يركبون القطار المترو الذي يسير تحت الأرض قليل جداً بالنسبة إلى عدد الركاب في الأيام الأخرى من الاسبوع، ويعتبر الأميركيون يوم الجمعة من أسوأ أيام الأسبوع. وبعضهم يعتقد أن أقبح الأيام يوم الأربعاء، وأغرب من هذا أن عالماً أمريكياً يدين بهذه الفكرة ويؤيدها. وأحسن الأيام عند الأميركيين هو يوم السبت فتجدهم يقيمون فيه حفلاتهم.
وكان المغفور له السلطان حسين كامل يتشاءم بيوم الاربعاء، ولا يحب أن يقرر فيه قراراً ما. ومما يروى عنه في هذا الصدد انه لما أراد أن يعين لنفسه طبيباً خاصاً سأل الأطباء الذين كانوا يتولون معالجته عن أسم الطبيب الذي يشيرون عليه باختياره، فذكروا له اسم الدكتور محمد شاهين باشا وكيل وزارة الداخلية للشؤون الصحية الآن فدعاه إلى مقابلته، وبعد ما حادثه مليا أبلغه أنه يرغب في تعينه طبيباً خاصاً له، ثم صرفه بعد ما طلب منه أن يعود إليه في اليوم التالي ليصدر قرار تعيينه.
ولم يؤجل رحمه الله قرار التعيين إلى الغد إلا لأن المقابلة كانت يوم الأربعاء فلم يشأ أن يصدر القرار في ذلك اليوم، وخصوصا أن القرار كان لأمر متعلق بصحته.
وكان أهالي جزيرة مدغشقر حتى عهد قريب يقتلون الأطفال الذين يولدون في أيام الأسابيع المحسوبة شؤما. وكانوا يرمون جثثهم في البحر تيمنا.
ولم يبين أحد من الباحثين حتى الآن سبب التشاؤم من بعض أيام الأسبوع، وربما يرجع هذا التشاؤم إلى عقائد فاشية عند القدماء، ثم انقطعت الثقافة بينهم وبين أسلافهم فلا يمكنهم التفسير على وجه سديد.
كسر المرآة
من الخرافات السائدة بين الناس عامة والنساء خاصة التشاؤم من كسر المرآة.
والأصل في ذلك أن الإنسان القديم كان يحسب أن ظله جزء منه، وإن إيذاء الظل هو إيذاء له لأنه بمثابة الروح منه. وكلمة ظل عند بعض الأمم في آسيا تعني الروح. وكان الإنسان قبل اختراع المرآة ينظر صورة ظله على أسطح مياه الأنهار والبحيرات وغيرها، وذلك لأن الزجاج لم يكن قد عرف بعد. وما زلنا نرى في (المندل) بعض آثار هذه الخرافات القديمة. فأن هناك اعتقاداً بأن من ينظر في كوب به ماء ثم تتلى عليه الرقي يرى أشياء خفية لا يراها غيره. واكثر ما يكون الخطر من المرآة في الوقت الذي يكون أحد في المنزل في النزع الأخير أو قد توفى من وقت قريب لأن الموت عندئذ يرفرف بجناحيه على المنزل، فليست رؤية الظل (الروح) مما تؤمن عاقبته. ولذلك كثيرا ما يقلب الناس مراياهم في ذلك الوقت العصيب. والأصل كما قلنا هو خوف الناس من تعرض أرواحهم أي ظلالهم للأذى أو الموت كما يتوهم المتوحشون

القدماء إن الظل هو الروح
السلم
مما يتشاءم منه الغربيون المشي تحت أو وراء السلم، وقد ذكرت مجلة إنجليزية محادثة بين سيدة وصديقتها عن خرافة السلم:
السيدة - أنا لا امشي تحت سلم مطلقا لاعتقادي أن ذلك شديد الخطر.
صديقتها - أنت بلهاء فأني أضع أطراف أصابعي الصغيرة معاً واثني الثلاث الأخر في راحة اليد وابسط الإبهامين ثم أقول (ماجنوم بونوم) وامشي رابطة الجأش تحت السلم فإذا فعلت مثلي مررت من دون أن يلحق بك أذى.
وقد ألقت المس (واليس) إحدى مدرسات لندن محاضرة يوم 19 يناير سنة 1928 عن منشأ الخرافات السائدة بين الشعب الإنجليزي فقالت: إن خرافة السلم يرجع تاريخها إلى أزمنة العقاب بلا محاكمة قانونية فكان المحكوم عليهم يشنقون بتعليقهم على سلم إذا لم تكن شجرة في مكان التنفيذ، وكان كل شخص يتفق وجوده وراء السلم مستهدفاً لخطر الاتهام بالاشتراك مع المشنوق في جرمه.
إبراهيم تادرس بشاى
. . .تعد ذنوبي
يصدق الشطر الأول من بيت أبي العلاء المشهور على الشرق في موقفه اليوم من الغرب. سواء أصدق الشطر الثاني أم لم يصدق، ولا يسع الشرقي في بلاد الغرب إلا أن يتمثل به ما بين آن وآخر. فالشرق كما قال الاستعماري كلبنج ما زال شرقاً والغرب غرباً وكلاهما جاهل بالآخر، والغرب أجهل بصاحبه. الشرق مخدوع في الغرب يحسبه أرقى مما هو عليه، والغرب مزدر للشرق يظنه أحط مما هو في الواقع.
صورة الشرق في ذهن الإنجليزي وإن يكن متعلما صورة خيالية. تحوي أمراء مترفين عائثين ورعايا كادحين مخشوشنين. صحارى وغابات تجيش بغوائل الوحش والإنسان. ورجلا أبيض ينشر الخير والبركات ويبدل الشرور منافع محتسبا لا يبغي غير وجه المدنية ورضى الانسانية. فان جاء أحد أبناء تلك البلاد يفهم ذلك الواهم أن تلك الصورة القصصية التي ربما انطبقت على بعض نواحي الهند في غابر الأيام لا تنطبق على الشرق اليوم. وأن الشرقيين ليسوا موغلين في الجمود والتشبث بالقديم كل ذلك الإيغال، وإنما هم فضلا عن عراقة حضارتهم يسعون جهدهم - وقد ظهرت مدنية أوربا على غيرها من المدنيات - أن يأخذوا بأسبابها ويسايروا عصرها، إذا أراد الشرقي أن يشرح ذلك للإنجليزي الذي لم يبرح بلاده انصرف عنه معرضا. لأنه يراه يفسد عليه صورته المحبوبة التي يألفها ولا يريد فراقها
ومهما أطنب الإنجليزي في روعة الشرق وثروته ولآلائه وفتنته. ومهما ود لو تتاح له مشاهدة كل ذلك فانه يعود - إذا ما تأمل الصورة الموصوفة - إلى نفسه مغتبطا ويحمد الله من صميم قلبه على أن خلقه إنجليزيا مسيحياً لا عربياً مسلماً ولا هندياً بوذياً، وقدر له أن يقضي حياته في ربوع المدنية لا بين أكناف الهمجية
فلا عجب أن ينظر الإنجليزي إلى نزلاء وطنه - ولا أقول ضيوفه - من الشرقيين نظره إلى أطفال كبار جاءوا ليتلقوا في بلاده طرق الحياة وسبل المدنية، ويتوهم أنهم حين وطئوا أرضه طرحوا عاداتهم وتقاليدهم وأزياءهم المتأخرة جانبا، واستبدلوا بها الطرق الإنجليزية الراقية، وبدءوا حياة جديدة، ولا عجب ان يضمر لهم كثيرا من الازدراء وغير قليل من الكراهية.
قابلت في بعض جولاتي في إنجلترا إنجليزيا يعمل في السودان كان يقضي عطلته في بلاده. فسألني في غضون الحديث. كيف ترى إقامتك في إنجلترا؟ قلت: أين هي من إقامة الأوربي في مصر؟ قال: ماذا تعني؟ إن الإنجليز يحبون المصريين ويرحبون بهم في منازلهم، قلت: لا أرى دليلاً على ذلك. وليست تخدعني المجاملة الظاهرة عما تكن النفوس من ترفع تارة وكراهية أخرى. قال: كيف؟ هل لقيت سوى حسن المعاملة حيثما ذهبت؟ قلت هبني لم ألق سواها فما ذاك إلا لأني رجل مهذب أحترم نفسي وأرعى حق غيري، فمن له بمخاشنتي وهذا محملي؟ فمضى في مكابرته الإنجليزية التي تعمى عن الحقائق من أجل أغراضها عماية عجيبة
ومضى زمن، وكنت أحادث طالبة إنجليزية بيني وبينها صداقة وثيقة فقالت: كم زوجا لك في مصر؟ قالتها بلجهة بن الجد والمزاح وقدماً قال شاعرهم شكسبير: كم من

حقيقة أودعت نكتة، وأذكرني الخوض في هذا الشأن حديث ذلك الإنجليزي، فأردت ان أستوثق منها صراحة عن حقيقة رأي الإنجليز في الأجانب وشعورهم نحوهم، قالت أتروم الحق! قلت الذي لا غبار عليه والذي لن يغضبني مهما قسا

قالت: فأما إذا تروم الحق، فالإنجليز لا يحبون الأجانب عامة لأنهم يعدون أنفسهم سادة العالم، ولا يقيمون كبير اعتبار لما جاء من خارج جزيرتهم، ثم هم أشد نفوراً من الشرقيين الملوني البشرة لأنهم شديدو البعد والاختلاف عنهم، ولأنهم في الغالب غير مسيحيين، ومن لم يكن مسيحيا فهو في نظرهم لا يؤتمن، ثم إن المعروف بينهم عن الشرقيين أنهم شهوانيون، وأنت تعلم ما يقال عن مسائل الحريم وتعدد الزوجات، وأخيراً لأن من يفد إلى هذه البلاد من طلابهم هم عادة صفوة شباب بلادهم، وهم لذلك يفوقون أقرانهم الانجليز، ولذا ينقم عليهم طلاب الذكور خاصة

وكنت وعدت مخاطبتي ألا أغضب، فلم أشأ أن أفند لها هذه الأوهام، ولا سيما وقد عزتها إلى غيرها في لهجة من هي براء منها، فلم أقل لها إن القول بسيادة الإنجليز للعالم فيه ادعاء وتغرير، فتلك السيادة إن صحت لا يتمتع بها وبما تجره من منافع مادية سوى طبقة محدودة من الإنجليز، بينما سواد الشعب لا يمتاز كثيراً من سواد الشعوب الأخرى من نواحي التعلم والثراء والخضوع لتحكم الطبقة العليا، وإن المسيحية ليست أسمى ولا أطهر من الإسلام والبوذية دين الملايين من الشرقيين، وإن الإنجليز وإن رموا غيرهم بالشهوانية

يقارفون مثل ما يقارف غيرهم لأنهم آدميون مثلهم، لم تكن لذكر هذا وذاك جدوى فلم أذكره وإنما شكرت الطالبة على بيانها الواضح المفيد المليء بالعبر

وذكرت هذا كله حين قرأت كلمة الدكتور عوض التي سماها (جريمة) فقلت: صدق الدكتور الفاضل، ولكنه ذكر جريمة واحدة، ولنا غير جريمة سمرة البشرة جرائم أخرى عديدة. وذنوبنا تعد عند قوم كثيرة.

فخري أبو السعود

ابن سينا

(انه من أشهر مشاهير العلماء العالميين)

(سارطون)

مقدمة:

ما أقل الذين يعرفون أن ابن سينا اشتغل في الرياضيات والفلك، وأن له فضلا كبيراً في علم الطبيعة وقد يكون لهم بعض العذر إذا علمنا أنه كان فيلسوفاً وطبيباً، وان شهرته في هاتين الناحيتين ومؤلفاته الكثيرة فيهما جعلت الناس لا ترى عبقريته في النواحي الاخرى، وسيقتصر بحثنا في هذا المقال على مآثر ابن سينا في الرياضيات وعلم الطبيعة، وقد نأتي عرضا على بعض آثاره في الفروع الأخرى من المعرفة. وهو أبو علي الحسن بن عبد الله بن سينا ويلقب بالشيخ الرئيس، ويعرف عند الإفرنج باسم ويقول عنه بعض فلاسفة الغرب انه أرسطو الإسلام وابقراطه، وهو أيضاً من العلماء العالميين المشهود لهم بطول الباع في كثير من العلوم والفنون. ولد في خرميشن من ضياع بخارى سنة 371هـ - 980م وتوفي في همدان سنة 428هـ - 1037م. اشتغل ابن سينا في الرياضيات والفلك وعلم الطبيعة وكان له بها ولع خاص، وكذلك في الفلسفة والموسيقى والطب والمنطق، وله في هذه كلها مؤلفات قيمة يعد بعضها من موسوعات العلوم وتشهد له بعبقريته ونبوغه، وقد نقلت هذه المؤلفات إلى اللاتينية وكان لها تأثير عظيم في نهضة أوربا الحديثة.

منشؤه

كان والد الشيخ الرئيس من بلخ، انتقل إلى بخارى في أيام نوح بن منصور سلطان بخارى، واشتغل والياً في إحدى قراها خرميشن، وبعد حين رجع إلى بخارى حيث تولى تهذيب ولده، فاحضر معلما ليدرسه القرآن الكريم والأدب وعلم النحو، وصادف ان جاء إلى بخارى عبد الله الناتلي، ونزل في دار الشيخ الرئيس فاستفاد منه كثيراً، ثم اخذ ابن سينا يقرأ الكتب بنفسه ويطالع الشروح فقرأ كتب هندسة اقليدس، وكتب المجسطي والطبيعيات والمنطق وما وراء الطبيعة، فخرج من ذلك واقفاً على دقائق علم الهندسة بارعاً في الهيئة محكما علم المنطق، مبرزاً في علم الطبيعة وعلوم ما وراء الطبيعة، ولم

يكتف بذلك، بل عكف على دراسة الطب وقراءة الكتب المصنفة فيه، ويقول عن (نفسه) في هذا (ثم رغبت في علم الطب وصرت اقرأ الكتب المصنفة فيه، وعلم الطب ليس من العلوم الصعبة، فلا جرم أنني برزت فيه في اقل مدة، حتى بدأ فضلاء الطب يقرأون على علم الطب؛ وتعهدت المرضى فانفتح علي من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة ما لا يوصف) واشتهر كثيرا في هذا العلم وطار اسمه في الآفاق حتى دعاه الأمراء لتطبيبهم، ووفق في مداواة الأمير نوح والأمير شمس الدولة، والأمير علاء الدولة ونجح في معالجتهم فسروا منه كثيراً وأنعموا عليه وفتحوا له خزائنهم ودور كتبهم، وفي هذه وجد مجالا كبيراً لتتم دراساته وللتعمق في مختلف فروع المعرفة، ويقال إن ابن سينا لم يكن منقطعاً انقطاعاً تاماً للعلم والتأليف، بل كان في كثير من الأحايين يعين والده في أعمال الدولة

وبعد وفاة والده (وكان إذ ذاك في الثانية والعشرين من عمره) ترك بخارى ورحل إلى جرجان حيث كان يقطن فيها رجل اسمه ابو محمد الشيرازي اشتهر بميله وشغفه بالعلم، فتعرف إليه ابن سينا وقويت بينهما وشائج الصداقة حتى اشترى الشيرازي للشيخ داراً في جواره وأنزله فيها، وفيها ألف الشيخ الرئيس كثيراً من مؤلفاته القيمة: ككتاب القانون الذي هو من أهم المؤلفات الطبية ومن المؤلفات النادرة التي تشمل على أساس علوم الطب، وقد بقى كتاب القانون منهلا عاماً يستقى منه الراغبون في الطب قروناً عديدة. ولم تطل إقامة الشيخ كثيراً في جرجان (لاسباب سياسية) بل اضطر إلى تغير موطنه مراراً، فاتي همذان حيث استوزره الأمير شمس الدولة، ولكن الظروف حالت دون بقائه كثيراً في الوزارة فان الجند طلبوا قتله، ولم يرض بذلك الأمير وأنقذه منهم بعد عناء، وبعد وفاة الأمير شمس الدولة وانتقال الملك إلى ابنه كاتب ابن سينا سرا علاء الدولة أمير أصفهان (لأعراض شمس الدولة عنه) يطلب الانضمام إلى جانبه، واكتشفت هذه المكاتبة وعوقب من أجل ذلك بالسجن، ولكن بعد عدة أشهر قضاها فيه فر إلى اصبهان حيث رحب به الأمير علاء الدولة، وبقى في معيته إلى أن وافته منيته في همذان، وكان قد رجع اليها مع علاء الدولة في احدى غزواته لها.

آثاره

قسم ابن سيناء العلوم في كتاب الشفاء إلى ثلاثة أقسام:

العلوم التي ليس لها علاقة بالمادة أو علوم ما وراء الطبيعة، والعلوم التي لها علاقة بالمادة وهي الطبيعيات

والعلوم الوسط وهي التي لها علاقة تارة بعلوم ما وراء الطبيعة وطوراً بالمادة وهي الرياضيات، وفي بعض المواضع نراه قد جعل الرياضيات نوعاً من الفلسفة ونسب إليها بعض أشياء تبحث في غير المادة، وقد اتبع الطريقة اليونانية في بحوثه عن العدد، وقد كان فكر ابن سيناء يمثل المثل الأعلى للفلسفة في القرون الوسطى وله فيها آراء ونظريات لا تزال تدرس في جامعات أوروبا. وهو وإن اعتمد كثيراً على فلسفة أرسطو واستقى كثيراً منها، قد أضاف إليها كثيراً وأخرجها بنطاق أوسع ونظام أتم. وهو من الذين قالوا بإنكار تحول المعادن بعضها إلى بعض مخالفاً بذلك آراء أكثر علماء زمانه، وفي رأيه أن المعادن لا تختلف باختلاف الأصباغ بل تتغير في صورتها فقط، وكل معدن يبقى حافظاً لصفاته الأصلية وقد قال في ذلك (نسلم بإمكان صبغ النحاس بصبغ الفضة، والفضة بصبغ الذهب إلا أن هذه الأمور المحسوسة يشبه ألا تكون هي الفصول (أي الخواص) التي تصير بها هذه الأجساد أنواعا، بل هي أعراض ولوازم والفصول مجهولة: وإذا كان الشيء مجهولاً فكيف يمكن أن يقصد تصد إيجاد أو إخفاء) واستنبط ابن سينا آلة تشبه آلة الورنية أل وهي آلة تستعمل لقياس طول أصغر من اصغر أقسام المسطرة المقسمة ولقياس الاطوال بدقة كبيرة، ودرس دراسة عميقة بحوث الحركة والإيصال والقوة والفراغ، واللانهاية والحرارة والضوء، وقال بأن سرعة النور محدودة، وعمل عدة تجارب في إيجاد الوزن النوعي لمعادن كثيرة وقال بان شعاع النور يأتي من الجسم المرء إلى العين وفي كتابه الشفاء بحث في الموسيقى وقد أجاد فيه لدرجة كبيرة، وقد فاقت أبحاثه فيها أبحاث الفارابي وشرح طريقة إسقاط التسعات وتوسع فيها، ألف في المعادن ومؤلفه كان النبع الذي استقى منه علماء طبقات الارض في القرن الثالث عشر للميلاد. ويقال ان ابن سينا خرج مرة في

صحبة علاء الدولة وقد ذكر له الخلل الحاصل في التقاويم المعمولة بحسب الأرصاد القديمة، فأمر الأمير الشيخ بالاشتغال بالرصد وطلق له من الأموال ما يحتاج إليه وهذا (طبعاً) ساعده على التعمق في علم الهيئة، وفي كشف بعض حقائق هذا الكون وفي إتقان الرصد (ووضع في حال الرصد
(آلات ما سبق إليها
مؤلفاته وانتقالها إلى الغرب
على رغم المتاعب التي انتابته والمشاغل الكثيرة التي كانت تشغله وبرغم تعدد انتقاله من محل إلى آخر، تمكن من وضع مؤلفات قيمة عديدة يربو عددها على المائة، وهذه هي التي جعلت سارطون وغيره من علماء الإفرنج يضعونه في مصاف العلماء العالميين ومن كبار حكماء الشرق. ومن أهم مؤلفاته:
كتاب الشفاء وهو في ثمانية عشر مجلداً، وتوجد منه نسخة كاملة في أكسفورد، ويحتوي على فصول في المنطق والطبيعيات وما وراء الطبيعة، ترجم بعضها حنا الأسباني وكنديسالينس إلى اللاتينية، وقد اختصر ابن سينا هذا الكتاب في كتاب سماه (النجدة) ترجمه إلى اللاتينية كآرام باسم
وله أيضاً كتاب القانون في الطب وهو من أشهر مؤلفاته ويتكون من أكثر من مليون كلمة ترجمه جيرارد اوف كريمونا إلى اللاتينية، وبقيت ترجمته هذه المعتمد عليها والمستعملة في الجامعات والكليات حتى منتصف القرن السابع عشر للميلاد، وكتاب المختصر للمجسطي، وكتاب المجموع، وكتاب الحاصل والمحصول ويتكون من عشرين مجلداً، وكتاب الارصاد الكلية، وكتاب النجاة وهو ثلاثة مجلدات، وكتاب القولنج، وكتاب لسان العرب، ورسالة الآلة الرصدية، وهذه الآلة صنعها في أصبهان عند رصده لعلاء الدولة، ورسالة غرض قاطيفورياس، وكتاب الأجرام السماوية، وكتاب الإشارة إلى علم المنطق، وكتاب أقسام الحكمة وكتاب النهاية واللانهاية، وكتاب في أبعاد الجسم غير ذاتيه له، وكتاب مختصر أقليدس، وكتاب الأرثماطيقي والموسيقى. وقد أورد في كل من مؤلفاته في الرياضيات زيادات رأى ان الحاجة اليها داعية. ففي اقليدس أورد شبهاً وفي الارثماطيقي أورد خواص حسنة في الموسيقى أورد مسائل غفل عنها الأولون، وكتاب المجسطي وقد أورد فيه عشرة أشكال من اختلاف النظر، وأورد في آخره أشياء لم يسبق إليها وله رسائل أخرى في الحساب، وله أيضاً فيه وفي الهندسة ابتكارات كثيرة، وكتاب مختصر في ان الزاوية التي من المحيط والمماس لا كمية لها، وكتاب المدخل إلى صناعة الموسيقى وكتاب كيفية الرصد ومطابقته مع العلم الطبيعي وكتاب الحدود، وله خطبة في أنه لا يجوز أن يكون شيء واحد جوهراً وعرضاً ومقالة في خواص خط الاستواء، ومقالة في هيئة الارض من السماء وكونها في الوسط، وكتاب تدبير الجند والمماليك والعساكر وأرزاقهم وخراج الممالك وفوق ذلك له شعر رقيق وأشهر قصائده قصيدة نظمها في النفس يقول عنها ابن أبى أصيبعة إنها من أجل قصائد ابن سينا وأشرفها، وقد ترجمها فانديك إلى الإنجليزية

نابلس

حافظ قرى طوقان

من طرائف الشَعر

عد إلينا

قطعة من البحر المديد

يا غريباً راح يطوي القفارا ... أين تمضى؟ هل كرِهت الديارا؟
أختياراً تقطع الأرض سيراً، ... أم طريقٌ سرتَ فيها اضطرارا؟
ولأمرٍ في النهُّى مستقرٍّ ... بِتَّ تغشى الأرض داراً فدارا؟
أم لسِر غامض لست تدري ... كنهه أبعدَ عنك القرارا؟
أم لخطب داهمٍ قد تمادى ... بك حتى رحت تبغي الفرارا؟
إن تكن تبغي مراماً عزيزاً ... فلماذا أُصْلِيَ القلب نارا؟
ولماذا بعدَ نأي وهجرٍ ... لا تَنى للغائبين ادِّكارا؟
ودموعٍ مذرفات حنينا ... حائراتٍ في جفون حيارى!
عد إلينا آمناً مطمئنا ... تلقِ خِلاً ذا وفاءٍ وجارا!

يا غريباً راح يطوي القفارا ... عد إلينا وادن منا مزارا!
م. ع. م
وادي الأحلام
للشاعر الدمشقي أنور العطار
(يا آلهة الشعر! تأملي ضحيتك)
(الفونس دو لامارتين)
يا وادَي الأحلام فيك التقت بيضُ الأماني بأغاني المُهودْ
ليت فؤادي بلَّ منك الصدى ... وليت أيامَك يوماً تعودْ
يا مُقلَةَ الدهر أطيلي الكَرى ... وباركي الحُلْمَ لقلبي العميدْ
ومهِّدي للروح رحبَ المَدى ... فقد يضيقُ اليومَ عنها الأبيدْ
أَلحُلْم يُشْجِيني تَذكارُهُ ... إنْ زارني في غير يوم سعيدْ
يا مُقلةَ الدهر توارَيْ وما ... ألهاكِ عَمْن تاه في ذا الوُجودْ
لا تفجعي بالله تِرْبَ المنى ... فَمُبتَغى الأمِلِ سُؤْلٌ زهيدْ
توردُهُ الأطماعُ سبْلَ الردى ... فيُرمِضُ القلبَ العذاب الوكيد
يرضى من المغنم لو آب من ... آمالهِ وهو الحريب الشريدْ
لا يملك الأحلامَ من يأسه ... وماله عن ظلها من محيدْ
إنْ تستفيقي من دياجي الكَرى ... يَنهدُّ في نَعماهُ قصري المشيدْ
ففيه أحلامي في مهدها ... تَنعَمُ في الدنيا بعيشٍ رغيدْ
تَغمسُ في قلبي أفواهَهَا ... وتَسلب العين شعاع الخلودْ
غذاؤها من كبدي ماؤها ... ولهوهُا من مَدْمَعي بالعقودْ
تزين بالأزهارِ تاجَ الصبا ... كموْجة الأطفال في يومِ عيدْ
ترى إذا ما نهلَتْ في غدٍ ... هل تودعُ المبثوثَ عقداً فريدْ
أم تنثُرُ الأشعارَ في روضها ... فتخطفُ الأطيار منها القصيدْ
تَصوغُهُ والزهرَ أغرودةً ... فتانةً يصبيك منها النشيدْ
تُحِسُّ منها خطراتِ المُنى ... تَرُودُ بالرُّوح المطافَ البعيدْ
تُعيدُ للقلب كُنوزَ الهوى ... وكَنْزُها ليس له من مُعيدْ
وإنْ أضاعتْهُ فما ذنبُها؟ ... الطفلُ يُؤذيه المتاعُ النضيدْ
أَهَبْتُ بالأحلام أنْ مهِّدِي ... لِيَ الاماني، والنعيمَ العتيدْ
والحُبَّ، والشِّعْرَ وعهدَ الصِّبا ... والعيش نَضراً، والخيالَ الوليدْ
لا أرتضِي بالنَّزْرِ منها ولا ... أطمعُ إلاَّ في الشُّعاع المديدْ
فأمعنَتْ في ضحكها واعْتَدَتْ ... تَسْخَرُ من آمال غِرٍّ عنيدْ
فخِلتُ أنَّ الضحكَ منها رضىً ... وضحكةُ الهازئِ نارُ الوعيدْ
لقيتُها في سكَرَات الرُّؤَى ... تَنْشُدُ أيامي وتبكي الوُعُودْ
تجُود للدهرِ بأحلامها ... وهْوَ بما تطلبُهُ لا يجودْ
تبوحُ بالأسرار في سَهْوِها ... وسِرُّنا قد وثَّقَتْهُ العُهُودْ
درَيْتُ في عُزْلتها ما مَشَى ... في خافقٍ واهٍ وفكرٍ كَدُودْ
ورُحْتُ أبكي أملا لامعاً ... أنأتْهُ عنِّي عاثراتُ الجدُودْ
يا طيفَها جدَّدْتَ عُمْرَ الأسى ... ونِلْتَ من قلبي المنالَ الشديد
نضَّرْتَ يا غامضُ تَذْكارَها ... وحِصنْكَ الممنوعُ جَهْمُ الوصيد
أيَّتها الذكرى أثَرْتِ الجوى ... فهل لما تذْكِينَهُ من مزيد؟
علاَمَ زرْتِ اليومَ خِلَّ الشجا ... إيناسكِ الطَّائف يضني الوحيد
أبليْتُ في ذكراكِ نضْرَ الصِّبا ... وعهدُكِ الآيبُ غضٌّ جديد
مَلَّ صراعَ العيشِ نَدْمانُه ... وضجَّ من قفر الحياة الجليدْ
يخبط في يهماءَ مسْتعديا ... على معَنِّيه العزيزَ الحميدْ
يَصرُخُ إن مَرَّ بصحرائها ... ماذا نلاقي في ظلامِ اللحودْ
خذ بي أيَا غيبُ إلى مأمنٍ ... يزيح عن روحي عبءَ القيودْ
فنادت الأقدار في جرْيها ... لما يَحِرْ أن يستريح الطريدْ
نجوز دنيانا سِراعا ولا ... نستطيع أن نمشي مشياً وئيدْ
فهل ترى نقعد في ساحها ... أم ليس للرائد يوماً قعودْ

السير يضنينا وما نأتلى ... نَشقُّ في الأطواد سُبْل الصعودْ
تمضي بنا الأيام في فسحةٍ ... راعبةٍ ليس لها من حدود
حتى إذا ما العمرُ أمضى بنا ... مطافهُ ثم طوانا الهمُودْ
عدنا إلى كون بعيد المدى ... يطيبُ للمتعَبِ فيه الرقودْ
هناءة الأيامِ ممزوجةٌ ... بالصاب والعمر خيالُ الهجودْ
أفراحُنا يمشي عليها الأسى ... ولهوُنا يغتالُ منا الجهودْ
نضيعُ في غيهب هذا الرَّدى ... ولا يردُّ النوْحُ منا الفقيدْ
لا تحسدنْ بالله عِقدَ الهوى... كم في وصال الحبِّ عاشت صدودْ
ولا يهولنّكَ شكُّ الورى ... رُبَّ يقينٍ فائضٍ من جحودْ
قال شبابي لِتَؤوِم الصبا: ... كيف تمتَّعْتَ بنضر السعودْ
فقال: في الغفلة عن عالمٍ ... ما فاز بالمأمول منه الرشيدْ
هاتِ أغانيَّ وعَدْ بالمنى ... وانهبْ خطى العمر فكلٌّ يبيدْ
وانس الورى وانشر على ما مضى ... من نعمة النسيان ضافي البرودْ
بائعة الزهر
جاء ظبي يبيع زهرا جنيا ... زاد حسنا بروعة التنضيد
قال هلا اشتريت مني زهرا ... ضم أبهى شقائق وورود
قلت أبغي شراء أجمل زهر ... وسأسخو له بكل نقودي
قال لي فاشتر الشقائق تحكي ... أكؤس الخمر أو خدود الغيد
قلت لا، قال فاشْرِ ورداً زهيا ... هو بين الأزهار بيت القصيد
قلت لا، قال فاشر - إن كنت تشري ... زنبقا يزدهي ببيض البرود
قلت لا، قال لي أذن فاشر فلا ... قد حبوه لون الصباح الجديد
قلت لا، قال فاشترِ النرجس الحا ... وي لتبر في فضة كالجليد
قلت لا، قال فاشر أساً فلم أقـ ... بل فأغضي طرفاً ومال بجيد
قال دعني لم يبق عنديَ زهر ... قلت باق لديك زهر الخدود
قال زهر الخدود: كم ذا يساوي؟! ... لست ادري: فقلت كل وجودي
قال ما تستفيد من زهر خد ... نلته في وجودك المفقود؟!
قلت في البيع أستفيد هياما ... هو عندي يفوق كل مفيد
أن أسمى اللذات ما تنتهي بي ... لفناء ما فوقه من مزيد
لذة السكر تبلغ الأوج لما ... فيه يغدو الرشيد غير رشيد
أن أقصى حدود سيرىَ أني ... أتخطى في السير كل الحدود
دمشق
احمد الصافي النجفي
في الأدب الفارسي
منطق الطير - 2
القصة الصوفية الخالدة
للدكتور عبد الوهاب عزام
والشاعر في وصف هذه الأودية يذهب مع الشعر المذاهبَ البعيدة، فيملؤها جميعاً بالأهوال والدموع. ولست أدري أكان الهدهد حازماً حين وصف الأودية هذا الوصف المروع. وهذا أجمال وصفها:
1 - في وادي الطلب، يعترض السالك عقاب كثيرة: ويلقى من النص والتعب ما يضنيه، ولابد له أن يفرغ من كل ما يربطه بهذا العالم، ويطهر قلبه من علائق هذه الأرض. فإذا تم الطهر أصاب القلب شعاع من النور الإلهي فيتضاعف طلبه ألف مرة، وإذاً يذهب قدما لا تثنيه الأخطار والأهوال
2 - وأما وادي العشق: فهو النار يمضي فيه العشاق كاللهب مضطرما ثائراً ولا يفكر في العواقب، لا يعرف الكفر والدين، ولا الشك واليقين، الخير والشر سواء عنده، كلا بل لا خير ولا شر إذا اضطرم العشق. هناك القلب خفاق يحترق ويذوب ليرجع إلى مكانه كالسمكة أخرجت من البحر إلى الصحراء. هنا لكم العشق نار والعقل دخان، فأما جاء العشق فر العقل مسرعا.
3 - ثم وادي المعرفة: الذي لا أول له ولا آخر. هنالك تتشعب السبل، وكل يسلك

الطريق الذي يستطيعه، وكيف ترجو أن يسير الفيل والعنكبوت معاً في هذا الطريق الوعر. إنما سير كل سالك على قدر كماله، وقربة بمقدار حاله. هنا لكم المعرفة متفاوتة، فهذا يجد المحراب، وذاك يجد الصنم، إذا أضاءت شمس المعرفة من ذلك الفلك العالي أبصر كل بمقداره. وكل ما يرى فهو وجه الحبيب؛ وكل ذرة محله. آلاف الأسرار تتألق كالشمس من وراء الحجب هناك الظمأ الدائم إلى الكمال. . الخ

4 - وادي الاستغناء

مى جهد أزبى صرصرى ... ميزند برهم بيكدم كشورى
هفت دريايك شمر آنجابود ... هفت أختريبيك شرر آنجابود

تعصف من الاستغناء ريح صرصر تدمر في كل خفقة إقليما، وهنالك سبعة الأبحر غدير، وسبعة الكواكب شرر، والجنات السبع جيفة، وسبع النيران قطعة من برد. يقول العطار: (يا عجباً! إن النملة هناك تربو قوتها على مائة فيل، وإن غراباً لا يشبع بمائة قافلة.

لو سقطت آلاف الأرواح في هذا البحر ما كانت إلا قطرة واحدة في بحر لا ساحل له. ولو هوت الأفلاك والأنجم ما كانت إلا كورقة سقطت من شجرة. . الخ

يريد شاعرنا أن يشرح ما يدركه السالك في هذه المرحلة من استغناء الله عن العالم) وصغر هذه العوالم كلها وضآلتها في جانب الحقيقة الكبرى. ويبين أن الأشياء هناك لا (تقاس بمقاييسنا

5 - وادي التوحيد

هناك كل عدد يصير واحداً في واحد فيتم الاتحاد، ولكن هذا الواحد ليس كالواحد الذي يذكر في العدد، هو وراء العد والحد (كلام يذكرنا بكلام فيثاغورس في نشأة العالم من الواحد). هنالك لا أزل ولا أبد. وان يضع الأزل والأبد فلا شيء بينهما فكل الأشياء كانت وستكون عدما.

ومعنى هذا الكلام - فيما أظن - أن الله هو الحقيقة التي لا يحدها الزمن، وكل ما) عداها، مما يقاس بالماضي أو الحاضر عدم، فلا شيء قائم إلا هذه الحقيقة).

6 - وادي الحيرة

هناك يلاقي السالك أضدادا ونقائض تلوح له كلما اختلفت على نفسه الأحوال والادراكات. وهو بين هذا وذاك يفقد نفسه. لا يستطيع أن يهب قلبه لهذا الجلال ولا أن يمنعه. ولا يقدر على أن يسير وحده أو يتبع غيره. فهو نفور من الخلق ومن نفسه، لا مسلم ولا كافر، لأن دين الحيرة لايحد، ولا يعرف الحب ولا البغض، ولا التقوى ولا الفسوق، لا هو خير ولا شرير، ولا موقن ولا مرتاب، ولا هو عزيز ولا ذليل. لا هو كل شيء ولا هو شيء، ولا هو كل ولا جزء من كل.

يقول العطار: (فان يسال السالك هل أنت موجود أم لا؟ أأنت في العالم أم خارجه؟ أظاهر أنت أم خفي؟ أفأن أم باق، أم لست فانيا ولا باقيا، أم أنت فان وباق في وقت واحد؟ فلن

يكون جوابه: إلا (لا أدري شيئاً ولا أدري أنني لا ادري. أنا عاشق ولكن من؟ لا أدري) ويضرب العطار مثلاً بنت ملك أحبت خادماً واستحيت أن تظهر حبها للخادم. فأوحت إلى جواريها فيسقينه حتى سكر، ثم أتين به اليها، فلما صحا بعض الصحو فتح عينيه فرأى جمالا باهراً في مكان يسحر الألباب، وشم رائحة ذكية، وسمع موسيقى مطربة. فأحب الخادم الفتاة، فلما غلبه النوم حمله الخدم إلى مكانه، فلما استيقظ ذكر ما رأى ولكن كيف ومتى وأين؟ قال له الناس إنه حلم، ولكنه لم يستطيع أن يقول أكان هذا حلما أم يقظة، ولا أن يعرف أكان سكران أم صاحيا:

فهذا المثل يوضح مقصد الشاعر فالسالك في هذه المرحلة تلوح له أشياء من عالم) الغيب ثم تختفي عنه حين يرجع سيرته الأولى من هذه الحياة)

7 - وادي الفقر والغناء

وهو آخر الأودية: هو وادي الدهشة والصمم والبكم أو الغشية، هنالك آلاف آلاف الظلال تحمي في الشمس. إذا ماج البحر الكلى فكيف يبقى النفس على صفحة الماء. وكل من فقد نفسه في هذا البحر فهو في فناء وسلام أبدا.

يضرب الشاعر أمثالا ليبين الكلام عن هذا الوادي كدأبه في الفصول كلها، ومما ضرب هنا مثل الفراش الذي اجتمع ليلة واتفق على طلب الشمعة، فقالوا لابد أن يذهب

بعضنا ليراها ويصفها لنا قبل الذهاب؛ ذهبت فراشة إلى قصر فرأت نور الشمعة منبعثاً منه فرجعت تصف الشمعة لأخواتها، قالت فراشة عارفة: ما لهذه علم بالشمعة قط. فانبعثت فراشة أخرى قاصدة مكان الشمعة فاقتربت ثم اقتربت حتى لم تطق حرها فانثنت إلى صاحباتها تصف ما عرفت من أسرار الشمعة، فقال الخبير: أيها الأخ ما هذا إلا كلام كالذي سمعنا من قبل. ذهبت ثالثة سكرى من الشوق راقصة مرفوفة، فألقت بنفسها في نار الشمعة فأخذتها النار من كل جهة فاحمرت كالنار. فلما رجعت رآها في لون النار وضوئها فقال هذه عرفت الشمعة إنما يدرك المحبوب بالفناء فيه: الخبير العارف

كل هذا يقوله الهدهد على منبره والطير مصيخات إليه. فلما سمعت الطير مقاله أخذها الغم ووجمت وعرفت إن لا طاقة لها بهذا ومات بعضها في مكانه، ثم بدأن الطيران فلقين في الطريق ما لا قبل بوصفه، وانتهى قليل منها إلى الغابة، وهلك أكثرها في الطريق! فمنها

غارق في البحر، ومنها ضال في الفيافي، ومنها هالك عطشا على قني الجبال، وبعضها هلك في وهج الشمس، وبعضها سقط إعياء وبعضها شغلته عجائب الطريق فوقف. وبعضها وجد ما يلهو به فركن إلى الدعة وآثر الراحة. وبعضها أصابته مصائب أخرى.

لم يبلغ الغاية من تلك الآلاف المؤلفة إلا ثلاثون طائراً (سي مرغ) بلغت وبها من النصب والإعياء والآلام ما بها. فماذا وجدن؟ وجدن حضرة لا يدركها الوصف ولا ينالها العقل. وأين برق الاستغناء يومض فيحرق مئات العوالم في لمحة. وأين آلاف الشموس وآلاف الكواكب حائرة كالذرات. فقالا بعضهن لبعض: وا أسفا على ما تحملنا من مشاق السفر. إن مائة فلك هنا كذرة من التراب. فما وجودنا أو عدمنا نحن في هذه الحضرة؟ بقين في حسرة ينقص الحزن منهن حتى خرج عليهم حاجب العزة. قال: أيتها الحائرات المضنيات من أين جئتن ولماذا؟ ما اسمكن، ماذا سمعتن، ومن أخبركن أن قبضة من العظام مثلكن تستطيع أن تعمل شيئا، قالت الطير: جئنا هنا ليكون السيمرغ ملكنا. وقد طال الطريق وكنا آلافا فما بقى إلا ثلاثون. جئنا من أرض بعيدة راجين أن يؤذن لنا في هذه الحضرة، لعل الملك يرضى عملنا فتنالنا نظرة من رحمته

قال الحاجب: أيها الحيارى ما أنتن ما وجودكن وعدمكن عند الملك المطلق الباقي؟ إن مئات آلاف من العوالم لا تزن شعرة أمام باب هذا الملك، هلم فارجعن أيتها المسكينات.

قالت الطير: إن هوانا على هذا الباب عز، وسنبقى هنا نحترق كالفراش علىالنار، أذن لنا بالدخول أم لم يؤذن، ولن نيأس من رحمة الملك. فخرج عليهن حاجب الرحمة وفتح الباب لهن وتقدم يرفع الحجب مئات من الحجب كل لمحة، فانبعث النور في الأرجاء ويبدأ عالم التجلي. فدخلت الطير وأجلست على أرائك القرب

ماذا أصاب الطير من بعد؟ أعطى كل طائر ورقة ليقرأهافقرأ كل ما قدم من عمل حتى غشى عليه حياء وخجلا. ثم محيت الأعمال وأنسيت فلم تذكر الطير شيئاً. ثم أضاءت شمس القرب محرقة كل روح وحينئذ راين السيمرغ. وما اعجب ما رأين. كن إذا نظرن إلى السيمرغ يرَين (سي مرغ) وإذا نظرنا إلى أنفسهن (سي مرغ=ثلاثين طائرا) رأينا السيمرغ، وإذا نظرن إلى أنفسهن والسيمرغ معاً رأين سيمرغا واحدا. فبلغت بهن الحيرة مبلغها. فسألن فقيل لهن: إن هذه الحضرة مرآة فمن جاء هنا لا يرى فيها إلا نفسه. فقد

جئتن ثلاثين طائراً (سي مرغ) فرأيتن في المرآة سيمرغ، ولو جاء أربعون أو خمسون لانكشف الستر كيف تدركنا الأبصار. كيف تنال الثريا عين. النملة. ليس الأمر كما علمتن ورأيتن، ولا كما قلتن وسمعتن. ولكنكن خرجتن من أنفسكن فهاهنا مكانكن. فامحين فيه وضاع الظل في الشمس (بلغت الطير مقام الفناء وهو عند الصوفية أن يتجرد الإنسان من نفسه، ويخضع صفاته للصفات الإلهية ويرجع كما يقولون قطرة في البحر تموج بموجه. ويقول أبو سعيد في تعريف الفناء: إنه فناء الشعور بالبشرية - ولأجل توضيح لغة العطار الشعرية أنقل الجملة الآتية من كشف المحجوب:

الفناء درجة من الكمال ينالها الأولياء الذين تحرروا من آلام المجاهدة، وخرجوا من) سجن المقامات والأحوال. وانتهى طلبهم إلى الكشف، فرأوا كل ما يرى وسمعوا كل

ما يسمع، وعرفوا كل أسرار القلب، ولكنهم أدركوا نقص كشفهم هذا فأعرضوا عن (كل شيء، وفنوا فيما رغبوا إليه وفي هذه الرغبة فقدوا كل رغباتهم
وراء هذه الحال حال أخرى يسميها العطار وغيره من الصوفية (البقاء في الفناء) (ويقول عنها كتابنا هذه العبارة العجيبة. وهو يعترف أنها حال لا تشرح إلا بالتمثيل فلما مضى مائة آلاف من القرون، القرون التي لا زمان لها. أرجعت الطيور الفانية إلى نفسها فلما رجعت إلى نفسها رجعت إلى البقاء بعد الفناء
وتأويل هذا بكلام الصوفية الآخرين: أن الإنسان يفنى عن نفسه - عن إرادته ورغباته) وشهواته الخاصة فيبقى في الله، يريد من اجل الله، ويرغب في الله ويفعل كل شيء غير غافل عن الله طرفة عين هذه خلاصة ما في الكتاب - كما فهمته - والكتاب في حاجة إلى بحث مفصل، ولعله يتاح من بعد.
ثم يختم العطار (منطق الطير) بقوله:
قد عطرت يا عطار آفاق العالم، وهجت العشاق في كل مكان، تارة تنفث العشق المطلق، وتارة تغنى أغاني الحب لمن عشق، ففي شعرك كنز العاشقين وزينة لا تفنى للوالهين. فقد ختم عليك (منطق الطير) كما يحيط بالشمس ضوؤها.
عبد الوهاب عزام
العُلوم
عمل التطور
للسر ارثر طمسن
ترجمة بشير الياس اللوس
الغربلة والانتقاء
تنشأ خلال عملية التطور العظيمة تنوعات جديدة لا يخلد منها إلا القليل، لان التناحر على البقاء يعمل على انتقاء أصلح التنوعات الجديدة. ويظهر أن هذه هي الطريقة الأساسية في التطور العضوي. وأهم ما يجب أن نبحث عنه الآن هو: هل التغيرات الطارئة على حياة الفرد كنتيجة مباشرة لمميزات خاصة في البيئة أو الغذاء أو العادات يمكن أن تنتقل بدرجة ما إلى الأحقاب التالية؟ إذ لو لم تكن قابلة للانتقال والتسلسل ولو بدرجة ضئيلة على الأقل إذن لما كان لها آية أهمية من الوجهة السلالية. فالوراثة إذن هي إحدى صفات التطور. إنها (منخل) آخر. ويمكننا أن نقول عندئذ إن عملية التطور العضوي ما هي إلا عملية انتخاب وتثبيت الصالح وإهمال الطالح.
أصل النشآت الجديدة
من أعقد مشاكل علم الحياة معرفة كيفية نشوء التنوعات الجديدة. ففي القرن السابع عشر ظهرت في إحدى حدائق مدينة هيدلبرج نبتة جديدة ذات أوراق غريبة مبتورة الشكل سميت ودعيت تنوع - الـ من النوع - الـ ومن خصائص هذه النبتة أنها أصلية - وظلت كذلك منذ ذلك العهد. هذا مثال من التنوعات الجديدة التي دامت. ولكن المهم هو كيفية نشوء هذه النبتة.
وحدث في زمن شارل الأول ملك إنكلترا إن رجلا فرنسياً يدعى (جيان نوكاري كان مصابا بعاهة (العمى الليلي)، - أي عدم القدرة على الرؤية في الضياء الضعيف. وترجع أسباب هذه العاهة إلى نقص في شبكية العين - وقد حفظ سجل عائلة هذا الرجل إلى الآن ودرس بإمعان فعُرف إن في كل جيل وراثي كان بعض الأفراد من عائلته مصابين بتلك العاهة. وعندما يتزوج أحد أفراد نسله المبرئين من المرض بامرأة من عائلة أخرى أو
بالعكس كانت العاهة تنقطع لأن جميع أفراد النسل يسلمون منها. ولكن عندما يتزوج فرد مصاب من عائلته بفرد سليم من عائلة أخرى كان يستمر هذا المرض في عدد معين من النسل الجديد. أن ميزة العمى الليلي هذه توضح لنا ما يسمى بالوراثة المندلية ولكننا قد نتساءل أولا كيف ابتدأ (العمى الليلي).
لماذا يختلف أفراد العائلة عن بعضهم؟ كيف نستطيع تعليل بعض الحوادث العرضية كالقطط العديمة الأذناب والعجول العديمة القرون والعصافير البيضاء والصبير العديم الشوك والبرتقال العديم البذور. الخ. كيف تنشأ كل هذه الشواذ؟
الوراثة
تتمثل الميزات الوراثية في البويضة والحيوان المنوي بطريقة لا نفهمها فمن الجرثومة

الأولى تظهر الميزات التي تختص بها الكائنات وتميزها عن بعضها؛ وفيها العناصر التي تكون الوراثة الطبيعية للنوع. ولكن هذه العناصر قد تتحول نحو جهة معينة أثناء النمو.
والواقع إننا نعلم في بعض الحالات وخاصة في الحيوانات الدنيا كالأسماك بين الفقريات - إن نمو بعض الخصائص يتوقف على انتقالات المخلوق الحي وبيئاته. وبكلام آخر أن العناصر أو العوامل الوراثية هي بذور حية يجب الاعتناء بزرعها. فما الجسم النامي إلا بذرة الأولين، والآن نعلم انه عند نضوج الحجيرات الجرثومية (التناسلية) وتلقيح البويضة من قبل الحيوان المنوي (وهذه هي بداية حياة الفرد) توجد فرص عديدة واحتمالات شتى لاختلاط الميزات الوراثية. ومن المؤكد إن التبادلات والتوافقات التي تنشأ بهذه الطريقة تخلق التنوعات الكثيرة خلال النمو &.

الكاليدوسكوب الحي

إذا أمعنا النظر في أشكال الحيوانات وصورها لا نقع على اثنين يتشابهان تشابهاً تاماً، وهذا يذكرنا بالكاليدوسكوب الذي يعطينا مختلف الصور والأشكال بتحريك القطع الزجاجية الملونة فيه، وربما كانت الجرثومة كالايدوسكوبا حياً فقد تتأثر أحياناً بعوامل الغذاء والمحيط وعادات الوالدين وقد يؤثر عليها تغيير المناخ، أو قد تتغير من نفسها محدثة ترتيبات جديدة لعناصرها. ولما كانت الجرثومة حية فهي جسم عضوي مضمر أو بعبارة أخرى (هي مخلوق حي كامن في حجيرة واحدة) وقد أشرنا فيما سبق إلى تعدد الفرص في امتزاج العناصر الوراثية عند نضوج حجيرات التناسل وتلقيحها.

& التغايرات والنشآت الجديدة

كثيراً ما يكون الطفل شديد الشبه بأحد والديه في بعض الأوجه على الأقل. وقد يرث بعض الخصائص عن أبيه والبعض الآخر عن أمه وهذا ما دعا دارون إلى اعتبار تلك التغايرات كمواد أولية للتطور. وقد عثر على مجموعات من الأحافير تظهر التغير من شكل إلى آخر وتوحي لنا بفكرة (التقدم بعلاوات تدريجية) أو التقدم (بالاختزالات) وهناك احتمال حدوث تغير خاص في جهة معينة الأمر الذي يجعل هذه التطورات كالفصول المتابعة في النمو الفردي

بيد أن هناك نوعا آخر من التغير اكثر تعقيداً وهو (النشوء الفجائي) كالشعر المجعد والشعر الآنقري والنبوغ الموسيقي والرياضي والصفصاف الباكي والديك الطويل الذنب والفيل الأبيض. وقد قارن السر فرنسيس غالتون التغايرات الصغيرة بذبذبات جسم كثير الأوجه مرتكز على أحد سطوحه والنشوء الفجائي بانقلاب الجسم كله على سطح جديد. ومن أبرز خصائص النشوءات الفجائية أنها تتوارث وتظهر بوضوح في النسل المولود من أبوين فيهما نفس تلك الخصائص. فإذا تزوج النابغ بنابغة كان النسل حاوياً لنوابغ عديدين، ولكن في حالات كثير يجب أن يلاحظ إن النشوء الفجائي يظهر غالباً بشكل نقص في التركيب - أي عدم وجود ميزة معينة في النباتات، أو قرون في الأبقار، أو أذناب في القطط. ويقال عنه في مثل هذه الحالات انه نشوء فجائي سلبي بينما قد تظهر الميزة الشاذة بشكل إيجابي أي بإضافة ميزة جديدة لم تكن موجودة في الوالدين ولا في أسلافهما.

الانتخابات الطبيعي

إن أساس نظرية التطور الداروينية هو: (انتقاء الأصلح من النشوءات الجديدة بعد التجربة والاختبار). وقد أجرى العالم الطبيعي الإيطالي (سسنولا تجارب على الجراد المصلي أو فرس النبي وهي حشرة غريبة توجد على ضربين أخضر وأسمر كل منهما ملائم للمحيط الذي يعيش فيه. ربط (سسنولا) الضرب الأسمر بخيط حريري على نبتة ذابلة

فتخلصت الحشرة من أعدائها، وكذلك ربط الضرب الأخضر على نبتة خضراء فسلمت من الأعداء أيضاً. ولكن عندما ربط الحشرات السمراء على نبتة خضراء والخضراء على نبتة ذابلة، سرعان ما اجتاحتها الطيور عن آخرها. فلو أصبحت إيطاليا مثلا بقعة جرداء إذن لانقرض الجراد الأخضر فيها عن آخره، ولبقى الجراد الأسمر فقط، والعكس بالعكس. هذا مثال لما نسميه بالانتخاب الطبيعي أو ما نعبر عنه بغربلة الطبيعة

الانتخاب الصناعي

رأى دارون أن يستعمل تعبير (الانتخاب الطبيعي) تمييزاً له عن الانتخاب الصناعي الذي يقوم به الإنسان فإذا أعجب المربي بضرب جديد أزوجه بآخر يشابهه على قدر المستطاع، ويبادر إلى النسل فيغربله منتزعاً الضروب التي لا يريدها ومحافظاً على الضروب التي يريدها. وهكذا نستطيع أن نميز عمليتين مزدوجتين في الانتخاب الصناعي وهما: (1) تزاوج الأفراد المتشابهة المرغوب فيها (2) إقصاء الأفراد غير المرغوب فيهم

ولكن ترى من يقوم مقام المربي المنتخب في حقل الطبيعة، للإجابة على هذا السؤال يمكننا أن نستعين بالفكرة التي أدخلها (دارون) و (ولس) في نظرية التطور وهي فكرة الانتخاب الطبيعي التي تعني غربلة الطبيعة للنشآت الجديدة خلال التناحر على البقاء.

التناحر على البقاء

لقد استعمل دارون هذا التعبير بمعنى واسعي ومجازي فشمل اتكال البعض على الآخر، وعلى الأخص نزوع الفرد إلى الحياة وتكثير ذريته. فلكي نفهم فكرة دارون يجب أن نشاركه في نظريته الواسعة لأنه عنى بالتناحر على البقاء أكثر من نضال مستميت في سبيل الغذاء.

تميل المخلوقات الحية إلى التكاثر، ولكثير منها نزعة شديدة للحياة لا تقف مطامعها عند حد فهي عاصية متمردة تستنكر التغيرات المقيدة لحريتها في البيئة التي تعيش فيها. وفي وسط هذه الميول والنزعات يجري التناحر على البقاء - أو التصادم بين العضويات الحية وحواجز بيئاتها. على أن ذلك النزاع المستمر قد يؤدي إلى فناء البعض، ولكنه قد يؤدي أيضاً إلى التعاون بين أفراد البعض الأخر، وقد يكون لأجل التوطن والحصول على الغذاء

ولكنه قد يؤول أيضاً إلى التنعم والترف، وقد يكون لأجل التمتع الفردي أو لتكوين رابطة عائلية يقوي الحب أواصرها، وقد يؤدي إلى استعمال الأسنان والمخالب ويؤول إلى النفع العام، وأخيراً يسقط في ساحة ذلك النضال المستميت ضعاف المخلوقات ومهازيلها فيثبت القوي ويفنى الضعيف والطبيعة خالدة فوق الجميع.

الانتخاب الجنسي

لكي نهيئ مرجا صالحاً يجب أن نقتلع منه الدغل ونبقى العشب الأخضر فقط. كذلك تنتقي الطبيعة الصالح وتقضي على الطالح. على أننا نحتاج إلى نوع من السماد يغذى العشب ويقويه دون أن يفيد الدغل الضار وهكذا يتغلب العشب على تلك الأدغال. إن هذا يشبه ما نسميه في الطبيعة بالانتخاب الجنسي لأن كثيرا من المخلوقات لا تنجح في الحياة لقوتها ومهارتها بل لكثرتها غالبا - وقد تكون القوة والمهارة مرافقتين للكثرة أيضاً.

لقد علق دارون أهمية كبرى على الانتخاب الجنسي، أي ذلك التناسل الذي يصحبه تفضيل الأنثى للذكر الذي يروق في عينيها أكثر من غيره: إما لجماله أو لرشاقته أو لقوته، أو لجمال صوته أو لغير ذلك من الصفات المستملحة. وكان رأي دارون أن شغف الأنثى بتلك الصفات حملها على محاولة استهواء الذكر بما اكتسبته أثناء التطور من جمال قد ورقة صوت، تلك الميزات التي يهتم بها الذكر هياما عظيما.

مطالعات وأشتات

للدكتور احمد زكي

لبن الحمام

سمعنا بلبن الإنسان وتذوقناه كلنا، وسمعنا بلبن الأبقار والجاموس وشربناه لا شك جميعا، وبلبن الماعز ولبن الجمال، ولا ريب أن منا عدداً غير قليل أسعدته المصادفات بتذوقهما واستمرائهما، حتى لبن الحمير يدخل في دائرة ما عَرَفنا أو سَمِعنا في الحياة، ومن الناس من يحدثك عن فوائده وأسراره بأحاديث حارّة لا تتشكك بعدها في صفاته وآثاره. وغير هذه الحيوانات عدد كثير تهيئ اللبن لصغارها طعاماً سائغاً تستحضره من غذائها إذ يجري في دمها فتستخلصه منه مجموعةٌ من الغدد أسميت بالثَّدِيّ. أما لبن الحمام، وهو طائر يبيض، فلم يسمع به الكثير، ولكنه مع ذلك حقيقة، فهو إفراز كاللبن تفرزه الحمامة قبيل أفراخ بيضها، وتستمر في إفرازه أياماً عبد إفراخه، وتطعم به صغارها وهن ضعاف عراة، وهذا اللبن ثخين يضرب لونه إلى البياض، ويحتوي الدهنَ

الذي تحتويه الألبان، وكذلك يحتوي زلالها، فيبلغ مقدار دهنه ما بين 25 إلى 29 في المائة، ويبلغ زلاله ما بين 13 إلى 14. 5 في المائة وهذان يبلغان في لبن البقر نحواً من 3. 7 في المائة و 3. 5 في المائة على التوالي.

فلبن الحمام إن خالف ألبان الأبقار فهو يشبه لبن الأرنب في مقدار دهنه وزلاله، غير أنه لبن يعوزه سكر الألبان وكل سكر غيره.

والحمام لا يحضر لبنه في ثديه، فليس له ثدي، وإنما يفرزه في حويصلته

ومن الغريب أن الذكر يفرز اللبن كما تفرزه الأنثى، وهذه ظاهرة لا ينفرد بها الحمام، فقد عُرفت من الحيوانات الثدييّة أنواع تتعادل ثدي إناثها وذكروها حجماً، ويشتركان كليهما في تغذية الوليد الرضيع. حتى الوَطواط يُظن إن ذكره يساعد أنثاه في الإرضاع أحيانا.

والرجل ذو ثديين هما فيك وفيّ منضمران، ولكن قد عُرف من البشر رجال تضخمت ثدِيّها حتى كانت كالنساء وقطر اللبن منها وسال. والفسلجيون لا يعدون هذه الظاهرة فلتات من الطبيعة وإنما هي لديهم شارة إلى أن الحيوانات في أبان نشوئها كان يشترك جنساها بالسوية في تغذية الرضيع وإنجاده كما اشتركا في إيجاده. ثم تلا هذا أن تخصصت الأنثى

بذلك في الأكثرية العظمى من المملكة الحيوانية. وقد حدث في بعض الأسماك أن قام الذكر بذلك بالحضانة وأعفيت الأنثى.

شرارة هائلة

من المعروف المألوف الآن أن الذرَّة الواحدة من ذرات الأجسام تحتوي على نواة يدور حولها عدد يزيد وينقص من وحدات كهربائية تسمى بالكهارب، هي نفس الوحدات التي يتركب منها تيار الكهرباء. ومن المعلوم كذلك أن الأبحاث في ذرات العناصر من بعض وسائلها إصابة الذرَّة بمقذوفات من تلك الكهارب يحّضرها الباحث من الكهرباء نفسها ويسلطها على الذرّة المبحوثة فيتطاير عنها من كهاربها ما يتطاير ثمَ يمتحن ما ينتج عن ذلك من إشعاع.

وقوة تلك القذائف تتوقف على الضغط الذي يدفعها في طريقها، ويسمى هذا الضغط في لغة الكهربائيين (بالفلتجة) ويقاس (بالفلت). وضغط الكهرباء في أكثر منازل القاهرة يبلغ مائة (فلت) أو يزيد قليلا. وهو ضغط كاف لحاجات البيت، ولكنه غير كاف لتمزيق الذرَّة.

وقد كان وصل العلم من عهد قريب إلى توليد كهرباء استاتيكية ضغطها 800000 فلت، ولكن جاءت الأخبار من المعهد الصناعي بماساشوست بأمريكا بان الدكتور (فان دي جراف) وهو أحد الفيزيائيين فيه قد توصل إلى تدبير جهاز يتولد به تيار متواصل من الكهرباء ضغطه 10000000 فلت. ويتركب المولِّد من قطبين كبيرين متماثلين هما في الواقع كرتان عظيمتان لّماعتان من الألمنيوم قطرهما 15 قدما تحملهما اسطوانتان جوفاوان عازلتان قطرهما 6 أقدام وارتفاعهما 25 قدما. ويحمل الاسطوانتين عربتان ثقيلتان تسيران منفصلتين على قضيبين حديديين تبلغ مسافة ما بينهما 14 قدمان وبذلك يمكن التقريب بين القطبين والتبعيد بينهما. وهما يسكنان الآن بيتا وسيعا كانت تسكنه المناطيد. ويُشغِّل الجهاز بادارة أحزمةُ مغلقَة عديدة من الورق تصعد وتهبط في دورانها داخل الاسطوانة على حذاء طولها، تتصل عند قاع الاسطوانة بالمحركات التي تديرها، وتتصل من أعلى ببكرات مثبَّتة في وسط الكرة، فإذا بلغت أجزاء الحزام الدوَّار بَكرَتَه وهو متكهرب مسّ عندها فرشة فأعطاها حمولته من الكهرباء فأوصلتها إلى الكرة المعدنية وهي على ضغط 2000 فلت. ولكن لا تلبث أن تأتي الأحزمة بحمولات غيرها فِعلَ الساقية المصرية فتزيد شحنة الكرة زيادة كبرى. وذلك بَينما الكرة الأخرى في القطب الآخر جادَّة في جمع شحنة مثل هذه في الكبر ولكنها تخالفها في النوع، فان كانت إحداهما سالبة كانت الأخرى موجبة. فإذا بلغ اختزان الكهرباء في كل منهما ضغط قدره 5000000 فلت أخذ القطبان في التفريغ الكهربائي تحت ضغط 10000000 فلت ولما كان التفريغ تحت هذا الضغط الهائل لا يُؤمن جانبه على المشتغلين بالجهاز من البحّاث فقد أنزلوهم منه آمن منزِل: ذلك جوفه في الكرة المعدنية نفسها، وسيكون بها نور وآلات وأجهزة، أي ستكون معملا فيه كل ما يطلبه الرجال للعمل، وستشحن أجسامهم بالكهرباء والجهاز

دائر إلى أقصى القطبين، ولكنهم معزولون عن الأرض فلن يصيبهم أذى.
قماش جديد:
ويصنعونه من القطن والكتان. وخلط القطن بالكتان في النسيج أمر معروف، فهم يجمعون خيوط هذا إلى خيوط ذلك، أو يُسدون بهذا ويلحمون بذلك. ولكن الطريقة الجديدة تتضمن إحالة القطن إلى مادة كالفالوذج، وإحالة الكتان إلى مادة فالوذجية مثلها، ثم خلط الاثنين بنسب تتفاوت لأغراض تتفارق، ثم ضغط المخلوط في ثقوب رفيعة يخرج منها وقد جف خيوطاً بين القطن والكتان تغزل ثم تنسج منها الأثواب. وسنرى في القريب بشائر هذا الأثواب تباع في الأسواق بأثمان يقولون عنها إنها أغلى من القطن بقليل ولكنها أرخص من الكتان بكثير.
القصص
الصديق الصدوق
للأديب الإنجليزي المعروف أوسكار وايلد
في صباح أحد الأيام أطل من جحره فأر ماء عجوز، ذو عينين لامعتين كالخرز، وشارب خشن أسمر، ذنب كأنه قطعة طويلة من المطاط الأسود، وكان يسبح حوله في الغدير أفراخ من البط ومعهم أمهم البيضاء الناصعة ذات السيقان الحمراء تعلمهم كيف يقفون في الماء على رؤوسهم، وتقول لهم من حين إلى حين (لا يمكن أن تعيشوا في جمعية راقية وانتم غير قادرين أن تقفوا في الماء على رؤوسكم.) ثم تريهم كيف يكون ذلك؛ ولكن الأفراخ لم يصغوا إليها، لقد كانوا صغاراً لا يدركون فائدة الحياة في الجمعية.
صاح فأر الماء العجوز - ما أعقهم من أولاد، أنهم ليستحقون الموت غرقا.
أجابت البطة - ليس الأمر كذلك، إن لكل امرئ بداية. وإن الآباء ليصبرون طويلا.
فأر الماء - آه. . أنا لا أعلم شيئاً عن عواطف الآباء، إنني لست رجل أسرة، فلم لم أتزوج ولم أفكر قط في الزواج. الحب جميل إجمالا، ولكن الصداقة أسمى بكثير. في الحق أني لا أعرف ما هو أشراف ولا أندر من الصديق الصدوق.
سأل الطائر الصغير الملقب بالتفيفحة، وكان جالساً على شجرة الصفصاف وقد سمع المحادثة (ولكن بالله عليك قل لي ما رأيك فيما يجب أن يكون عليه الصديق الصدوق؟)
البطة - نعم هذا ما أردت أن أعرفه - وسبحت إلى نهاية الغدير ووقفت على رأسها.
صاح فأر الماء - ما أسخفه من سؤال! إني أريد من صديقي الصدوق أن يضر نفسه لينفعني.
قال العصفور الصغير وهو يطير فوق عسلوج ذهبي ويصفق بجناحيه الرقيقين (وماذا تفعل أنت مقابل ذلك؟)
أجاب فأر الماء - لا أفهم ما تعني.
العصفور - دعني أقص عليك حكاية في هذا الموضوع.
فأر الماء - وهل يدور حولي محور هذه القصة - إذا كان كذلك فأنا أصغي إليك لأني جد مولع بالقصص الخيالية.
العصفور - إنها تناسبك، وطار هابطا وحط على الشاطئ وأخذ يقص حكاية الصديق الصدوق.
الطائر الصغير - كان يعيش في أحد الأزمنة شاب نبيل يدعى (هانس)
فأر الماء - هل كان مشهوراً.؟
الطائر - كلا ما أظن أنه كان مشهوراً، اللهم إلا بقلبه الرحيم ووجهه الضحوك البشوش المستدير، لقد عاش في كوخه الحقير وحيدا وكان يشتغل كل يوم في حديقته التي لم يكن في القرية حديقة تدانيها في الجمال، فيها كان ينمو الزهر المنثور والورد الأحمر والورد الأبيض والأصفر والزعفران الليلكي والذهبي والبنفسج الأرجواني والريحان والياسمين وهكذا كنت تجد دائماً في الحديقة ما يقر العين وينعش الفؤاد.
وكان (لهانس) الصغير أصدقاء كثيرون، ولكن (هيو) الطحان الضخم الغني كان أكثر هؤلاء الأصدقاء وفاء وتضحية وقد بلغ من وفائه (لهانس الصغير) أنه لم يكن يمر بحديقته دون أن يعطف على الحائط ويقطف باقة أزهار كبيرة أو يجمع حزمة من الحشيش النظيف، وإذا كان الفصل فصل الأثمار ملأ جيوبه بالبرقوق والكرز.

وكان الطحان يقول: يجب أن ترتفع الكلفة من بين الأصدقاء الأوفياء، فيؤمن هانس الشاب على أقواله ويبتسم ويأخذه العجب كلما فكر أن له صديقا يحمل مثل هذه الأفكار النبيلة.

وكان الجيران أحياناً يتساءلون مستغربين: كيف أن الطحان الغني لا يعطي هانس شيئاً مقابل ما يأخذه منه في حين أن لديه مئات من أكياس الدقيق مخزونة في مطحنته وعنده ست بقرات حلوب، وقطيع كبير من الغنم المكسو بالصوف، ولكن (هانس) لم يزعج نفسه بمثل هذه الافكار، ولم يكن ليسره شيء بقدر ما كان يسره أن يصغي إلى الأقوال الغريبة التي كان يذكرها له الطحان عن تضحيات الصديق الصدوق.

وكان هانس الصغير يشتغل في حديقته ويعيش جد سعيد خلال أيام الربيع والصيف والخريف، ولكن حين يأتي الشتاء وليس لديه ما يبيعه من أثمار وأزهار كان المسكين يتألم كثيراً من البرد والجوع، وكثيراً ما كان يذهب إلى فراشه دون أن يتناول شيئاً من الطعام اللهم إلا قليلاً من التين الجاف أو شيئاً من الجوز اليابس، وفي الشتاء أيضاً كان دائم الوحدة لان الطحان لم يكن يأتي ليراه في ذلك الفصل أبداً.

- ليس من الخير أن أذهب وأرى (هانس الصغير) (والثلج لا يزال على الأبواب) هذا ما كان يقوله الطحان لزوجه حين يكون الناس في اضطراب، علينا أن ندعهم فلا نزعجهم بزياراتنا هذا رأيي في الصداقة، واكبر ظني إني على صواب، لذلك فأنا سأنتظر قدوم الربيع وعندئذ أذهب لزيارته، وسيكون عندئذ قادراً على أن يقدم لي سلة كبيرة من أزهار الربيع!

أجابت الزوجة وهي ترتمي على المقعد الكبير إلى جانب النار - في الحق أنك كثير الاهتمام بغيرك، إنه ليسرني أن أسمعك تتكلم عن الصداقة دائماً. إنني على يقين أن رجل الدين نفسه لا يتكلم بمثل كلامك الممتلئ علماً وحكمة.

قال أصغر أولاد الطحان - ولكن لا نطلب (لهانس الصغير) أن يصعد إلينا - إذا كان هانس الصغير في ضيق فأنا سأقدم له نصف ما عندي من ثريد، وأريه أرنبي الصغير.

صاح الطحان - يالك من ولد غبي. حقاً إني لا أعلم ما فائدة إرسالك للمدرسة، يظهر انك لا تتعلم شيئاً؛ لماذا؟ إذا أتى هانس الصغير إلى هنا ورأى نارنا الموقدة وطعامنا اللذيذ ودننا الكبير الطافح بالنبيذ الأحمر عندها يأخذه الحسد، والحسد هو أفظع خلة يمكن أن تشوه طبيعة الإنسان، أنا خير أصدقائه وسوف أظل أرعاه بعنايتي وأحول دون دخوله في أية تجربة، وبالإضافة إلى ذلك فان هانس إذا جاء إلى هنا فقد يطلب مني أن أقرضه قليلا من الدقيق، وهذا ما لا أستطيعه، الدقيق شيء والصداقة شيء آخر ولن يجتمعا. لماذا! لأن الكلمتين تختلفان في التهجية ولكل منهما معنى خاص. كل إنسان يوافقني على ذلك (. .

قالت الزوجة وهي تملأ كأسها بالجعة الدافئة: إن ما تقوله هو عين الصواب. .

أجاب الطحان - يحسن بعض الناس التمثيل، ولكن قل من يجيد منهم الكلام، وهذا يعني إن الكلام أصعب من التمثيل وهو كذلك أجمل بكثير. ثم نظر بجفاء إلى ولده الصغير الذي جلس إلى المائدة منكمشاً مطرقاً برأسه، خجلا من نفسه.

سأل فأر الماء العجوز - أهذا ختام القصة؟

أجاب العصفور - طبعاً لا. هذا أولها. . .

فأر الماء - أنت إذن من الرواة القدماء، إن الرواية البارعة في هذه الأيام يبدأ روايته من نهايتها ثم يسير بالسامعين إلى بدايتها، تلك هي الطريقة الحديثة، لقد سمعتها من فم ناقد كان

يسير منذ يوم برفقة شاب حول البركة، لقد تكلم بحماس جعلني أوقن بأنه على صواب خصوصاً وقد كان أصلع الرأس يضع على عينيه منظارين أزرقين. ولكن أرجوك أن تستمر في قصتك.

قال العصفور وهو يقفز حيناً على إحدى ساقيه وحيناً على الأخرى: وكان الطحان عندما ينتهي الشتاء وتبدأ أزهار الربيع تتفتح عن أكمامها الباهتة الصفراء يقول لزوجته بأنه ذاهب ليرى هانس الصغير

صاحت زوجته - ماذا! ما أطيب قلبك! انك دائم التفكير في الآخرين. هل أذكرك أن تأخذ السلة معك لتملأها بالأزهار.

وهكذا ربط الطحان شراع الطاحونة وهبط التل وبيده السلة

الطحان - صباح الخير، هانس الصغير.
قال هانس وهو متكئ على معوله ضاحكاً مل شدقيه: صباح الخير
الطحان - كيف أمضيت أيام الشتاء؟
هانس - بخير انه لكرم منك أن تسأل عني، كانت أياماً شديدة، ولكن ها قد أتى الربيع وأنا سعيد حقاً وأزهاري أخذت تتفتح.
الطحان - طالما تحدثنا عنك أيام الشتاء وتساءلنا كيف يكون حالك؟
هانس - هذا لطف منك، لقد كدت أظن وبعض الظن إثم انك نسيتني!
الطحان - هانس إني معجب بك. الصداقة لا تنسى أبداً وهذا هو سرها العجيب. . كم تبدو زهورك جميلة!!
هانس - حقا إنها لها منظراً بديعاً ومن حسن حظي أن لدي كثيراً منها، سأحملها إلى السوق وأبيعها إلى ابنة شيخ القرية وأبتاع بثمنها عربة يد.
الطحان - تبتاع عربة يد! ما أحسبك تعني أنك قد بعت عربتك، انه يكون إذن تصرفاً منك خاطئاً. .
هانس - هذا هو الواقع الذي أكرهت عليه. انك تعلم أن الشتاء كان على جد صعب، وإني لا أملك ما ابتاع به خبزاً، فاضطررت بادئ الأمر أن أبيع أزرار بذلتي يوم الأحد، ثم بعت سلسلتي الفضية فغليوني الكبير، وأخيراً بعت عربتي ولكنني مصمم أن أعود فأشتري هذه
الأشياء كلها.
الطحان - هانس. سأقدم لك عربتي. صحيح إنها بحاجة إلى إصلاح، وقد ذهب أحد جانبيها وفي دولابها عطل بسيط. ولكن ساقدمها لك على رغم ذلك، فأنا أعلم أن هذا كرم عظيم مني، وان كثيرين من الناس سيظنون بي الغباوة لتفريطي في العربة، ولكنني لست كباقي الناس، أنا أرى في مثل هذا الكرم روح الصداقة.
هانس الصغير - حسناً حقاً انه لكرم منك وطفح وجهه الضحوك المستدير سروراً. . إنني أصلحها بسهولة لان عندي لوح من خشب.
الطحان - لوح من خشب أنا بحاجة إليه لان في سقف مخزن لحاصلات ثقباً كبيراً. انه لمن حسن الحظ انك نوهت لي بهذا اللوح الخشبي، عجيب حقاً، كيف ان العمل الصالح يلد دائماً عملا صالحاً لقد أعطيتك عربتي، والآن فانك تقدم إلي لوحك. نعم إن العربة أثمن بكثير من لوح الخشب ولكن الصداقة الحق لا تهتم بمثل ذلك، أرجو أن تحضره حالا.
هانس - بالتأكيد. وجرى إلى السقيفة وأخرج اللوح.
قال الطحان وهو ينظر إلى اللوح - انه ليس كبيرا جداً، إني لأخشى أن لا يبقى منه شيء لتصلح به العربة بعد أن أسقف مخزني ولكن ذلك ليس خطأي، والآن وقد قدمت لك عربتي الصغيرة، فأني متأكد بأنك ستقدم لي زهوراً مقابل ذلك. هذه هي السلة وإني أذكرك أن تملأها جيداً
قال هانس الصغير متألما - أملأها جيداً. .! (لان السلة كانت كبيرة جداً، وقد أردك انه أن ملأها فسوف لا يبقى لديه ما يأخذه إلى السوق، بينما هو يرغب أن يعيد أزراره الفضية)
أجاب الطحان - ما كنت أظن بعد أن أعطيتك العربة انه كثير على أن أسألك قليلا من الزهور. قد أكون مخطئاً ولكني اعتقد إن الصداقة، الصداقة الحق يجب أن تبتعد عن كل أنانية
صاح هانس الصغير - يا صديقي العزيز، يا أخلص صديق. لك الأمر على كل ما في حديقتي من أزهار، أني لأرغب في أفكارك السديدة أكثر من أزراري الفضية، وجرى فقطف كل زهوره الجميلة وملأ بها سلة الطحان.
الطحان - وداعاً هانس الصغير وصعد التل ولوح الخشب على كتفه والسلة الكبيرة في يده.
هانس - مع السلامة.
في اليوم الثاني كان هانس ينصب العليق حينما سمع صوت الطحان يناديه من الطريق فقفز عن السلم، وجرى إلى الحديقة وتطلع من أعلى الحائط لرأى الطحان وعلى ظهره سلة كبيرة ملآنة بالزهور

الطحان - عزيزي هانس الصغير هل تحمل لي هذه السلة إلى السوق؟
هانس - إنني كثير الشغل اليوم. على أن أنصب كل العليق واسقي كل الزهور واحزم كل الكلأ.
الطحان - حسناً. أظن انه ليس من حسن الصداقة أن ترفض طلبي
صاح هانس - آه لا تقل ذلك إنني لا أحب أن أعادي العالم أجمع، ثم جرى فأحضر قبعته وسار ينوء بالسلة الكبيرة
لقد كان يوماً لافحاً، وكان الطريق يعج بالغبار، وقبل أن يصل هانس إلى الكيلومتر السادس كان قد بلغ به التعب مبلغاً عظيماً وكان عليه أن يستريح، ولكنه استمر يسير بشاعة إلى أن وصل السوق بعد ان انتظر قليلا استطاع أن يبيع الأزهار بسعر جيد، حينئذ عاد إلى البيت حالا دون إبطاء لانه خاف إن هو تأخر قليلا أن يلقى اللصوص في الطريق.
قال هانس الصغير لنفسه وهو ذاهب للفراش (حقا لقد كان يوماً مزعجاً متعباً، وعلى كل فأنا مسرور لأني لم أرفض طلب الطحان وهو أخلص صديق إلي، وعدا ذلك فهو سيعطيني عربته)
وفي صباح اليوم الثاني نزل الطحان مبكراً ليأخذ زهوره، ولكن هانس الصغير كان لا يزال في فراشه من أثر تعبه.
الطحان - قبل كل شيء انك كسول جداً والكسل خطيئة عظيمة، وأنا لا أحب أن يكون أحد أصدقائي كسولا بليداً. لا ينبغي أن تتأثر من صراحتي، تأكد إني ما كنت لأرميك بهذه الكلمات الجارحة لو لم اكن صديقك، كل شخص يستطيع أن يقول كلاماً ليناً ويذكر أموراً مبهجة ويصانع ويخادع ولكن الصديق الصدوق يقول دائماً أقوالا لا تسر ولا يهمه أن هو
يؤلم صديقه.
قال هانس وهو يفرك عينيه ويرفع عنه اللحاف - أنا متأسف جداً لقد بلغ من تعبي إن زعمت إني أستطيع البقاء في الفراش ولو قليلاً، والإصغاء إلى غناء الطيور. هل تعلم إني حين أصغي إلى الطيور اشتغل بنشاط عظيم؟
قال الطحان وهو يربت على ظهر هانس الصغير - أنا مسرور من ذلك، لأني أريدك أن تأتي إلى الطاحونة حالما ترتدي ثيابك وتصلح لي سقف مخزن الحاصلات. مسكين هانس الصغير! لقد كان في نيته أن يذهب ويشتغل في حديقته لأن أزهاره لم تسق منذ يومين، وهو في نفس الوقت لا يحب أن يرفض طلب الطحان صديقه الصدوق، قال هانس بصوت المتهيب الخجل - هل تظن إني أكون مذنباً إذا اعتذرت لك بقولي: أني مشغول
أجاب الطحان - ما أظن إني طلبت منك أمراً خطيراً ثم اذكر إني سأعطيك عربتي وطبعاً إذا رفضت فأنا سأذهب بنفسي وأصلح السقف.
صاح هانس - آه ليس من الضروري. . وقفز من الفراش وارتدى ثيابه وصعد إلى مخزن الحاصلات حيث اشتغل هناك طيلة النهار حتى إذا غربت الشمس جاء إليه الطحان ليرى مالذي صنع.
صاح الطحان بصوت رقيق هل رتقت خرق السقف يا هانس الصغير؟
أجاب هانس - تماماً ونزل عن السلم
الطحان - آه لا يوجد عمل ألذ من العمل الذي يقوم به المرء للغير.
قال هانس وهو يمسح جبينها - بالتأكيد، إنها لفائدة عظمى أن أسمعك تتكلم، فائدة عظمى، ولكني أخشى أن لا يقدر لي أن أحمل مثل هذه الأفكار التي تحملها
الطحان - إنها ستأتيك ولكن بعد عذاب أعظم. عندك الآن تطبيقات في الصداقة وبعد أيام ستعرف نظرياتها أيضاً
هانس - سأعرف حقيقة نظريات الصداقة؟
الطحان - أنا لا أشك في ذلك، ولكن الأحسن الآن وقد أصلحت السقف أن تذهب إلى البيت وتستريح لأني أريدك منك غداً أن تسوق غنمي إلى الجبل. مسكين هانس لقد خشي أن يجيب بشيء، وفي صباح اليوم التالي أحضر الطحان غنمه إلى الكوخ فسار بها هانس

إلى الجبل وقد كلفه أخذها والعودة بها يوماً كاملاً، وحين عاد كان منهوك القوى فنام على مقعد ولم يستيقظ حتى ساعة متأخرة.
قال - سأتمتع بيوم مبهج في حديقتي وذهب في الحال ليشتغل لكن لم يستطيع أبداً أن يرعى زهوره لأن صديقه الطحان كان يأتيه دائماً ويرسله في مهمات طويلة أو يحضره ليساعده في المطحنة.
ومع الأيام كان هانس الصغير يزداد حزناً على زهوره، ولكنه كان يعزى نفسه بأن الطحان صديقه الصدوق.
وهكذا كان هانس يشتغل للطحان، وكان الطحان يذكر له كل الأقوال الجميلة عن الصداقة فكان ينقلها إلى دفتره ويراجعها في المساء شأن التلميذ المجتهد
وقد حدث في مساء أحد الأيام وقد كان هانس الصغير جالساً إلى جانب الموقد أن سمع صيحة شديدة عند الباب، وكان ليلة مزعجة الريح تصفر فيها وتزمجر حول البيت، فظن هانس أن الصوت صوت العاصفة ولكن حين أعقب الصرخة الأولى ثانية فثالثة قال هانس لنفسه! انه مسافر مسكين، وجرى نحو الباب فإذا بالطحان يحمل فانوساً بإحدى يديه وعصا ضخمة بالأخرى
صاح الطحان - عزيزي هانس الصغير، إنني في قلق عظيم لقد، سقط ولدى الصغير من أعلى السلم وأنا ذاهب إلى الطبيب، ولكنه يسكن في مكان بعيد جداً. ولقد فتقت لي هذه الليلة الرديئة فكرة حسنة وهي أن تذهب أنت بدلا عني. انك تعلم أني أريد أن أعطيك عربتي، ولذلك فأرى من العدل أن تقوم لي بخدمة مقابل ذلك.
صاح هانس الصغير - بالتأكيد. إن قدومك إلى كرم منك وسأنطلق حالا. ولكن يجب أن تعيرني مصباحك لأن الليلة مظلمة وأخاف أن أقع في الوادي.
أجب الطحان - إنني آسف جداً. انه مصباحي الجديد وخسارتي تكون عظيمة إن حدث له أي حادث.
صاح هانس الصغير - حسناً، لا بأس سأذهب بدونه وتناول معطفه الكبير وطاقيته القرمزية الدافئة، ولف لثاماً حول عنقه ثم سار. .
يا لها من ليلة مرعبة. . لقد بلغ من حلكة الليل أن هانس لم يكن يرى إلا بشق النفس، وبلغ من قوة الريح أنه ما كان يقف إلا بكل صعوبة، وعلى كل فقد كان شجاعاً، وبعد مسير ثلاث ساعات وصل منزل الطبيب. فطرق الباب.
صاح الطبيب وهو يطل من نافذة غرفة النوم - من أنت؟
- أنا هانس الصغير يا دكتور.
- ماذا تريد يا هانس الصغير؟
- لقد سقط ابن الطحان من أعلى السلم ويرجوك أن تأتي حالا.
قال الدكتور - حسناً وأعد جواده وفانوسه ونزل إلى الطابق السفلي وسار في اتجاه منزل الطحان. وهانس الصغير قد دلف وراءه ولكن العاصفة أخذت تزداد قسوة وشدة، وأخذ المطر يتدفق كالسيل ولم يستطع هانس الصغير أن يرى أين يسير أو كيف يتبع الجواد، وأخيراً ضل الطريق وهام في المستنقع الممتلئ بالحفر العميقة، وهنالك غرق هانس الصغير المسكين.
وفي اليوم الثاني وجد بعض الرعاة جثته طافية في بركة كبيرة من الماء فجاءوا بها إلى الكوخ.
خرج كل الناس في جنازة هانس الصغير لانه كان مشهوراً لدى الجميع وكان الطحان أول المؤبنين.
قال الطحان - وحيث إني كنت أصدق أصدقائه فمن الحق أن أتقدم الجميع، وهكذا سار إلى صدر الحفل في معطف طويل أسود وكان بين الفينة والفينة يمسح عينيه بمنديل كبير
قال حداد حين انتهت حفلة الدفن والجميع في الفندق يشربون النبيذ المعتق ويأكلون الكعك المحلى - بالتأكيد أن موت هانس الصغير خسارة عظيمة للجميع.
أجاب الطحان - خسارة عظيمة لي بوجه التخصيص، لماذا؟ لأني كنت أريد أن أتفضل عليه بعربتي. والآن فأني لا ادري ما الذي افعله بها، أنها دائماً في وجهي في البيت وهي في حالة من العطل لا تساوي معها شيئاً إذا عرضت للبيع، سوف أحتاط بعد اليوم فلا أتبرع بشيء، بالتأكيد إن المرء يضره أن يكون كريماً.

قال فأر الماء بعد تردد طويل - حسنا.
قال العصفور - حسناً. تلك نهاية القصة
سأل فأر الماء - ولكن ماذا حدث للطحان؟
أجاب العصفور - حقاً لست أعلم ولا يهمني أن أعلم
فار الماء - إذن فأنت بطبيعتك بعيد عن الإحساس.
العصفور - أخشى أن لا تكون أدركت مغزى القصة.
صاح فأر الماء - لم!. ماذا؟ . .
العصفور - لم تدرك المغزى.
فأر الماء - هل تريد أن تقول إن القصة لها مغزى
العصفور - بالتأكيد.
قال فأر الماء بلهجة الساخط - حسناً حقاً. . أظن أنه كان يجب أن تخبرني بذلك من قبل. . بالتأكيد كنت لا أصغي إليك وضرب الماء بذنبه، ورجع إلى جحره.
سألت البطة التي جاءت على أثر ذلك مجدفة - كيف رأيت فأر الماء، أن له ملاحظات بديعة.
أجاب العصفور - أني لأخشى أن أكون قد أزعجته، فقد قصصت عليه قصة ذات مغزى.
شرق الأردن
بشير الشريقي
المحامي
الأدب والفن في حياة ملك بلجيكا الراحل
هذا الملك البطل قد أصبح بعد حياته حيا بين أبطال الأساطير وزاده مصرعه الفاجع عظمة على عظمته. وهو ملقى مضرجاً بدمه الغالي على أطراف الصخور المسنونة ولم يكن ألبرت الأول ملكاً عظيماً فحسب، بل كان أيضاً رجلاً عظيما. وله قبل الحرب صورة تمثله والشاعر الأديب فرهيرن في وسط الأسرة المالكة في جو ديمقراطي، والأنجال إلى المائدة، والجميع يسمرون تحت المصباح وقيثارته الملكية ترسل أنغامها بعد العشاء.
ولم يكن هناك أثر للمراسم وأوضاعها التقليدية في علاقة صاحب التاج بالعلماء والكتاب وأهل الفن من أبناء البلاد. فقد كان يعلم حق العلم أن الفكر كالبطولة فله النصيب الأوفر في توثيق وحدة البلاد وجعلها موضع احترام العاملين وإعجابهم. ولقد استنهض الهمم لتوفير عتاد من مال الأمة مرصود على البحث العلمي، كما أنه فكر في تأسيس مجمع للغة والأدب، ومنح الأديب الروائي ماترلنك رتبة الكونت، ورفع لفيفا من الرسامين والمثالين ومهندسي العمارة إلى رتبة البارونات. وظلت الآداب والفنون مدى ربع القرن الذي حكمه عزيزة الجانب، تزداد مكانتها رفعة، وتستمتع بحرية لا عهد بها من قبل.
فالحق أنه أول ملك على بلجيكا بدت منه الشواهد الجمة على عناية حقيقة بالجانب الأدبي في بلاده. فأن والده العظيم ليوبولد الثاني مع مناداته بأن الأدب هو زهرة المدنية الرفيعة، لم يؤثر عنه قط متابعة جهد الأدباء وتشجيعهم، وهم أولاء الذين شقوا الطريق للشباب البلجيكي ولهم الفضل الكبير على كتابها المشاهير أمثال فرهيرن وماترلنك
ولئن كان الملك البرت قد تخرج على الأخص في العلوم، وانصرفت ميوله في الغالب الأعم إلى الرياضيات وتقدم الصناعات ودراسة المسائل الاجتماعية والاستعمارية، فانه لم يخل قط من الاهتمام بالفن وإن كان تذوقه للتصوير لم يكن بالغا، ورأيه في الموسيقى أقرب إلى القائل إنها (ضوضاء كبيرة النفقة). وأما الأدب فكان اكثر متعة به. وهو على كل حال من مدمني القراءة والاطلاع، وثقافته واسعة، وشوقه إلى المعرفة متنبه على الدوام. ولا نقول أنه كان يطرق آفاق التأليف الأدبية مستكشفا، وإنما كان يحب الوقوف على ما يشغل الناس من المؤلفات ويهتم بمن يأتي بين المؤلفين بالجديد. وهو من أول المشتركين في مجلة (مركير دفرانس) الأدبية لأول إنشائها وجنوحها وقتئذ في الأدب إلى
مذهب الرمزيين. كما أنه من أشد القراء عناية بتتبع آثار بول فاليري القلمية، وقد حضر في بروكسل تمثيل بعض روايات بول كلوديل سفير فرنسا في بلاده، ولم يكن

حضوره مجرد مجاملة للسفير بل تكريما أيضاً للأديب.
وكثيراً ما أعرب الملك عن إعجابه بالأدب الفرنسي. وكانت إحدى المناسبات السانحة عندما جاء مسيو بول كلوديل إلى قصر (ليكن)، وهو على مسيرة عشرين كليومترا من بروكسل، لتقديم أوراق اعتماده فاستقبله الملك في حجرة المكتب الفسيحة الجنبات العالية السمك، حيث كان يحب الجلوس محفوفا بكتبه التي لا تقل في عددها عن ثلاثين ألف مجلد، وأدواته وأجهزته العلمية. وحياه الملك بالفرنسية بلهجة فلمنكية لها رنة ثقيلة حلوة قائلاً (هذا سفير الفكر الفرنسي). ولحظ السفير الأديب أحد مؤلفاته على مكتب الملك
كذلك كان الأدب الإنجليزي محبباً اليه، وقد نوه بذلك ذات مرة في خطب ألقاه بعد الحرب في قاعة بلدية لندن في أثناء حفلة أقامتها له جمعية الأدب الملكية.
ولا شك في أن هذا الملك الجندي، المعدود بين أكبر هواة الرياضة وتسلق قمم الألب، كان يؤثر الزيارة لأحد المصانع أو المعامل أو النزول في أحد المناجم، على زيارة معرض للتصوير، وأن استماعه إلى العمال في عملهم أحب إلى نفسه من أحاديث أبناء الفن المنمقة في ردهات المعارض يوم الافتتاح. غير أنه كان يستفسر من هؤلاء وهؤلاء، ويهتم بكل شيء شوقاً منه إلى المعرفة وقياماً بالواجب، ولما أن أقيمت سراي الفنون الجميلة في العاصمة تجاه القصر الملكي أو بعبارة أدق، أقرب ما يكون إلى مواجهته - أصبح الملك من أخلص المترددين عليها. ولقد يزور المعرض في الصباح الباكر زيارة الجيران وهو يلبس قبعة من اللبد عريضة الحافة، وفي رقبته ربطة معقودة على نحو ما يفعل الفنانون. ويطوف به الأستاذ الفنان (إنسور) وهو في مثل رداء مولاه، يشرح له الألواح والصور أكثر من ساعتين. والملك مطيع له، مصغ إليه. والجمهور لا يكاد يتنحى بعيداً عنهما، يتبعهما ويتابعهما بعيون ملؤها الإجلال والمحبة. وفي كل لحظة يقف الملك مقترباً من كل لوحة يدقق فيها نظره القصير ويسائل مرشده الشيخ مبتسما.
كذلك كان من آونة لأخرى ينزل إلى قاعة الموسيقى مزدانة بالأزهار والتحف الفنية ليستمع إلى الموسيقى ولا سيما موسيقى فاجنر، فقد كانت عند أثيرة. ولقد قال ذات مرة
بمناسبة هذا الموسيقار الألماني (إن الموسيقى لأقوى من كل تدابير السياسة في تأليف الشعوب).
وأكثر من هذا وذاك كانت رعاية الملك والملكة وأمارت عطفهما القلبي على الأدباء خاصة. ولم يعزب بعد عن الأذهان أنه في زيارته الأخيرة لفرنسا منذ شهور. رأس حفلة العشاء التي تقيمها (مجلة العالمين) وقد سره من الحفلة أن استطاع مطارحة الأدب مع طائفة من الكتاب واستدلوا من حديثه على واسع إلمامه بالأدب الفرنسي الحديث
وقد كانت آخر إمضاءات ملك بلجيكيا يوم السبت قبل ذهابه إلى النزهة المشئومة، هو إمضاؤه الذي مهر به أمره الكريم بمنح رتبة ضابط من طبقة التاج للمؤرخ الفرنسي (شاتيل) لنشره كتاباً عن جهود بلجيكا في فرنسا أثناء الحرب. ولقد قدم لهذا الكتاب مقدمته المسيو دومرج الذي هو اليوم رئيس الوزارة الفرنسية.
ثم إن هناك فوق ما تقدم سمات اعمق في الإنسانية وأرفع نذكر منها إن الملك كان في عصر أحد الأيام في قصر (ليكن) مع ماترلنك مؤلف قصة العصفور الأزرق الخالدة فبادره ببساطه وعلى غير انتظار (يا مسيو ماترلنك. أتريد تقبيل أولادي؟)
وكانت صلته بالشاعر البلجيكي (فرهيرن) صلة حميمة. فلما أن قضى الشاعر نحبه ذهب أحد أصدقائه النواب إلى الملك يلتمس منه أن يرأس الاحتفال بنقل رفاته إلى الضريح الفخم الذي أعدوه. فقبل الملك في الحال عن طيبة خاطر. ولما أراد النائب شكره اعترض قائلا (ليس لك أن تشكرني. فان مجد فرهيرن في غير حاجة إلينا. بل نحن امرأتي وأنا - اللذان نتشرف بالاشتراك في هذا الاحتفال)
فكيف لا تكون هذه نفس فنان أديب شاء صاحبها أو لم يشأ وهذا المتسلق وحده إلى القمم، المغرم بدوار الارتفاع المشغوف بالطبيعة؛ من يكون إن لم يكن شاعراً حالما؟
عبد الرحمن صدقي

المؤتمر الدولي الثاني عشر لنادي القلم العالمي
يقام في صيف هذا العام بين السابع عشر والثاني والعشرين من شهر يونيه القادم في مدينتي أدبنورج وجلاكسو (اسكتلنده) المؤتمر الدولي الثاني عشر لنادي القلم، وتمثل فيه جميع مراكز القلم في أنحاء العالم. وقد أرسلت الدعوة إليه إلى مختلف المراكز، وسيمثل كل مركز عضوان بصفة رسمية، وأعضاء غير رسميين يشهدون الأعمال والجلسات إذا شاءوا. وينزل المندوبون الرسميون ضيوفا على نادي القلم الاسكتلندي الذي يتولى تنظيم المؤتمر والدعوة إليه؛ ويقام لهم استقبال غير رسمي في أدنبورج في 17 يونيه؛ ويشتمل البرنامج فضلا عن الأعمال والمداولات الخاصة بشؤون الكتاب والمؤلفين، على تنظيم استقبالات ورحلات مختلفة في أدنبورج وجلاسكو وبعض مشاهد اسكتلنده التاريخية. وقد دعي نادي القلم المصري، أسوة بمراكز القلم الأخرى، إلى شهود المؤتمر واختيار مندوبيه الرسميين وغير الرسميين.
العدد 37 - بتاريخ: 19 - 03 - 1934
(شهرنا الخالد . . .!
شهرنا الخالد في تقويم الدهر مارِس! فيه كما يقولون ألغيت الحماية، وأعلن الاستقلال، وصدر الدستور!
وفيه كما نقول استيقظ أبو الهول، وشبت ثورة النهضة. وتنافس في الجهاد النساء والرجال، وتعانق على الوداد الصليب والهلال، وتسابق إلى الخلود الشيوخ والأطفال. وسالت أنفس الشباب ضحايا على مذبح الحرية!!
وفيه كما تقول الطبيعة تتجدد الحياة، وتهتز الأرض، ويورق الشجر السليب، ويمرع الوادي الجديب، وينشد الربيع الباكر أناشيد الجمال والحب والأمل!!
ولكن خمسة عشر عاماً طوالا أتت على مارسنا الأول فجعلت ما قالوه كلمات ميتة، وما نقوله ذكريات خافتة، وما تقوله الطبيعة حديثاً مُعادا!
فالحكومة تدفع الحكومة، والذكرى تتبع الذكرى، والربيع يعقب الربيع، ونحن لا نزال في الموقف الأول، يتدفق علينا الزمن، وتُعَّبر في وجوهنا الشعوب، كأنما خرجنا عن مدارج القافلة، أو رمى بنا التيار في حواشي الوجود!
من الذي نضح القبس بالماء، وشغل المسامع عن نداء الشهداء، وحول وجه النهضة إلى الوراء، واعترض مجرى الحياة المصرية طول هذه الحقبة؟ ستقول خدعة السياسة، وشهوة الحكم، وفتنة المال، ونكسة المرض، ولكنك لو عبرت عن ذلك كله بانحلال الخلق لكان اجمع لأسباب الأمر، وأبلغ في إجمال الحقيقة، فان التكالب على سلطان الحياة وزهرة الدنيا يصدر في الغالب عن حمية ورجولة، ولكن ما نحن في اليوم من تحكيم الهوى، وتغليب الأثرة، وهوان الغرض، وفساد الضمير، وفجور الخصومة، لا يوائم فطرة الله، ولا يلائم طبيعة التقدم
على ان السفينة التي يصارعها الموج فتضطرب، ويعصف بها النوء فتجور، سيظل لها (مارس) منارا في مرفأ السلام يرسل الهدى للجائر، ويلقى السكينة في المضطرب.
سنذكر دائماً مارس من عام 1919 حين عصفت في الرؤوس نخوة العزة، ونَزَت في القلوب ثورة الحفيظة، وأعلنت مصر مرة أخرى بعد (عرابي) أن لها مثلا تتبعه، وماضياً تعيده، ومستقبلاً تعدُّه، وأمراً في أرضها تدبره، وحكماً في سياستها تصدره. ويومئذ كان للربيع معنى الربيع! هبت رياح آذار فألوت بحطام الشتاء والخريف، وسرت في البلاد
نسائم الروح الخالق والسر البديع، وجرت على الثرى المقدس دماء الضحايا الأُوَل فتقَّطر بالنبات البهيج، وبدت على الوجود المصري مظاهر الشباب من الرونق والصفاء والجدة والقوة، وتمردت على الطغيان المسلح نفوس شيَّعها الإيمان بالحق، وحطمت أسلاك البرق ودمرت طرق الحديد لتقطع ما بينها وبين جنود الذل، وأجبرت الغاصب الغاضب على أن يحترم رأيها في الشيخوخة الاسيرة، وعزمها في الشبيبة الثائرة، واتسع نطاق الأفق للقلوب التي حصروها بالكبْت، وانكشف رقيع السماء للأبصار التي عقدوها بالأرض، وفتح التاريخ للشعب المجيد، كتاب العهد الجديد، وكادت تتوالى صفحاته لولا أننا من الحلفاء وكالحلفاء، ربحنا الحرب وخسرنا الصلح!
يعود مارس فيعود العقل العازب، وينتبه الضمير الغافل، ويستطيع كل امرئ أن ينظر إلى الوراء فيرى ماذا ترك، والى الأمام فيرى ماذا قدَّم، ثم يجيب أطياف الشهداء وهي

تطوف ساهمة الوجوه أمام الأزهر، وحول ابن طولون، وخلال المقبرة الموحشة، تسائل كل عابر: ماذا صنع الأحياء بعهود الموتى، وكيف حال المعيدين على لحوم الضحايا؟

يعود مارس فيودع في أوائله الشتاء، ويستقبل في أواخره الربيع، ونحن وان تلكأ بنا الحظ البليد خمسة عشر عاما لابد موفون على ربيع النهضة! وان في هبَّة الشباب من غفوته المريبة، ومعالجته الأمور من جهاتها المنتجة، واضطرام الشعور القومي في ذكرى مارس، وإطباق الرأي العام على وخامة الحال، لبشيراً بتوافي النفوس على الخير، وتواطئها على الجد، وتعاونها على الإصلاح

ليس في منطق الأشياء ولا من سنة الوجود، أن يجتمع لمصر ما لم يجتمع لغيرها من أسباب الطموح ووسائل الصعود، ثم تظل في ساقة الركب الأممي تمشى ظَلعاء إلى أمدها المرسوم وغايتها المرجوة، إنما هي عوائق تقيمها الذئاب ليُفردوا بها الحَمل الغافل عن القطيع! وان في هذه الذكريات العزيزة الطيبة حافزاً للهمم الوانية، وموقظا للضمائر الغافية، ومهُيباً بشوارد الأنفس إلى سواء السبيل.

احمد حسن الزيات

محاضرة الآنسة مي)

للدكتور طه حسين

لا اعرف شيئاً يحتاج إلى أن يقام عليه الدليل، والى أن يتكلف أصحاب المنطق والنظر له الحجج والبراهين، كالبديهيات التي يخيل إلى الناس أنها أوضح من أن تحتاج إلى دليل، وأبين من أن تحتاج إلى دليل، وأبين من أن تحتاج إلى أن تكد في إثباتها العقول، وقد زعموا لنا أن بعض أصحاب الرياضة يشك في أوليات الرياضة، ومن يدري لعل شكهم هذا ينتهي إلى أن هذه الأوليات بعيدة كل البعد عن أن تكون من الأوليات!.

كنت أفكر في هذا كله أمس، حين كنت أذهب إلى الجامعة الامريكية، لأسمع للمحاضرة التي كانت الآنسة الجليلة (مي) تريد أن تلقيها، لأن موضوع هذه المحاضرة كان يدعو إلى مثل هذا التفكير، فقد زعموا لنا أن الآنسة كانت تريد أن تظهر فضل المرأة على الحضارة الإنسانية، وأعترف بأني لم اشك في يوم من الأيام ولا في لحظة من اللحظات بأن للمرأة على الحضارة الإنسانية فضلا لا يجحد، كما أن للرجل على الحضارة الإنسانية فضلا لا يتاح الشك فيه إلا لأمثال هؤلاء الرياضيين الذين لا يجزمون بأن الأربعة إذا قسمت على اثنين كانت نتيجة القسمة أثنين، وكنت اسأل نفسي عما تريد الآنسة (مي) أن تقول لتبين لنا فضل المرأة على الحضارة الإنسانية، فذلك شيء لا يحتاج إلى أن يقول فيه قائل، أو إلى أن يثبته مثبت، ولكن ما رأيك في أني سمعت المحاضرة، وانصرفت إلى داري وأنا أشك شكا عظيما في أن للمرأة فضلا على الحضارة الإنسانية؟ وأسأل نفسي عما أرادت الآنسة (مي) إليه بمحاضرتها القيمة الممتعة، أرادت أن تقنعنا بان للمرأة فضلا على الحضارة؟ أم أرادت أن تشككنا في ذلك؟ وتبسط عليه سلطان الريب في نفوسنا، ومن يدري لعل أديبا من الأدباء البارعين أن يفكر ذات يوم في أن يثبت فضل الرجل على الحضارة فينتهي في نفسي إلى ما انتهت إليه الآنسة (مي) أمس من إثارة الشك والريب.

وإذن أنا مقتنع بان الحضارة الإنسانية قد أنشأت نفسها وليس للرجل عليها فضل، ولا للمرأة عليها فضل، وإنما هي صاحبة الفضل عليهما جميعاً لأنها أنشأتهما إنشاء، ومتعتهما بما ينعمان به من لذات الحياة وآلامها، فهما ينعمان بالآلام كما ينعمان باللذات، وآية ذلك أن الآلام تلهمهما روائع الشعر والنثر والفن، وتحيي في نفوسهما من الفضائل، وجميل الخلال ما يملؤها متاعاً ولذة وشعوراً بالكرامة، وأملا في المستقبل وحباً للحياة، فالرجل والمرأة إذن ينعمان بالآلام كما ينعمان باللذة، ولعل أديباً من الأدباء الذين لهم حظ الآنسة (مي) من البراعة وانهم لقليلين يستطيع أن يقنعني كما أقنعتني الآنسة أمس بان ليس للرجل على الحضارة فضل، كما أنه ليس للمرأة على الحضارة فضل، وإنما الفضل للحضارة عليهما جميعاً. أنبأتنا الآنسة أمس بان المرأة وحدها هي التي أنشأت الحضارة إنشاء وأعانتها على التطور والرقي، وابتكرت ما يزينها من العلوم والفنون والآداب، فأما أن المرأة أنشأت الحضارة إنشاء فشئ فيما يظهر لا سبيل إلى الشك فيه، لان كتب الدين كلها تنبئنا به، فلولا أن حواء أغواها الشيطان فأكلت من الشجرة، وعضت تلك

التفاحة لما طرد آدم وزوجه من الجنة، ولولا انهما طردا من الجنة لما هبطا إلى الأرض، ولولا أنهما هبطا إلى الأرض لما عملا فيها، ولولا أنهما عملا فيها لما كانت الحضارة، وإذن فالحضارة أثر من آثار حواء، لأن حواء هي التي أكلت من الشجرة، وهي التي جرت على نفسها وعلى زوجها هذه العقوبة، وإذن فنحن الرجال ننعم بالحضارة راغمين، ننعم بها لأن خطيئة أمنا حواء قد أكرهتنا عليها إكراها، ولكن حواء لم تأكل من الشجرة لأنها اشتهت ما كانت تحمل الشجرة من التفاح، وإنما أكلت من الشجرة لان الشيطان هو الذي دلها على الشجرة، وزين لها التفاحة، وحببها إلى قلبها ودفعها إلى أن تأكلها دفعاً، والغريب أن حواء لم تأكل من الشجرة وحدها، وإنما أكل معها زوجها، وأكبر الظن انهما اقتسما التفاحة نصفين، فذهب كل منها بأحد شطريها، فالحضارة إذن ليست أثراً من آثار حواء وحدها، وإنما هي أثر من آثار حواء وآدم أيضاً، وإذن فلنا نصف الحضارة وللنساء نصفها، ولكن النساء لا يكرهن الظلم ولا يأبين التجنى، وأعظم من هذا أن أبانا آدم وأمنا حواء إنما دفعهما الشيطان إلى هذه التفاحة، فلما أكلا منها بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة، ثم طردا منها طرداً، فليست الحضارة إذن من آثارهما.، إنما هي اثر من علم الشيطان، والشيطان رجيم، فلترجم معه الحضارة

وليت شعري أمما تتمدح به المرأة، أنها قد أنشأت الحضارة على هذا النحو، وأقامت بناءها الشاهق على الخطيئة، وبدأتها هذا الابتداء السيء الذي هو إعراض عن أمر الله، وإقبال على أمر الشيطان، أليس من حقنا نحن الرجال أن نلوم المرأة، ونغرق في لومها لأنها لم تستطع أن تقاوم الشيطان ولأنها دفعتنا إلى هذه الحضارة الآثمة دفعاً؟ ومن يدري لو أن أمنا حواء لم تقترف هذا الإثم، ولم تتورط في هذه الخطيئة، ولم تفتتن بحديث الشيطان،

ولم تتهالك على طعم التفاحة وريحها ولونها أيضاً، من يدري لعلها لو لم تفعل شيئاً من ذلك لنشأنا نشأة أخرى

ولعل هذه النشأة الأخرى أن تقيم لنا حضارة اطهر من حضارتنا هذه وأنقى وأشد امتناعاً على الآثام وبعدا عن السيئات، بل ليس من شك في أن أمنا حواء لو أطاعت أمر الله، وعصت أمر الشيطان لعصمتنا من الشر، وبرأتنا من النكر، وحمتنا من كل ما نتعرض له من ألوان الغي والبغي والضلال والفساد، فلم تحسن أمنا إلينا إذن بإنشاء الحضارة، ومتى كانت إطاعة الشيطان إحسانا؟

ولكننا نحن الرجال نحب العدل ونكلف بالرحمة. ونكره الطغيان، ولا نريد أن تستقل المرأة بوزر هذه الحضارة، وتحتمل وحدها آثامها واثقالها، فنحن نشاركها في هذه الآثام والأثقال، لأننا نعترف بان أمنا لم تأكل التفاحة وحدها، ولو قد أكلتها وحدها لطردت من الجنة وحدها، ولو قد هبطت إلى الأرض وحدها لما استطاعت أن تعمل ولا أن تجد، ولا أن تنشئ حضارة ولا أن تعيش، فهي محتاجة إلى الرجل لتحسن، وهي محتاجة إلى الرجل لتسيء، لم تعش في الجنة وحدها قبل الخطيئة، ولم تهبط إلى الأرض وحدها بعد الخطيئة، وإنما عاشت في الجنة مع الرجل، وهبطت إلى الأرض مع الرجل، أطاعت أمر الله مع الرجل، وأطاعت الشيطان مع الرجل، وأكلت التفاحة فهوت مع الرجل، ونحن الرجال اكرم مما تظن الآنسة مي، واحب للرحمة واحرص على العدل. فنحن لا نحمل أمنا حواء شيئاً من الأثم، وانما نحمل هذا الإثم كله أبانا آدم، ولا بأس عليه من ذلك فقد تلقى من ربه كلمات بعد ذلك فتاب عليه، ذلك أن حواء لم تخلق من الطين مباشرة كما خلق آدم، وإنما خلقت من آدم، فآدم هو الذي سبقها إلى الوجود، وهو الذي سبقها إلى الحياة، وإذا كانت قد خلفت منه، فقد اخفت عنه هذا الضعف الذي حبب إليها التفاحة، ودفعها إلى الخطيئة، ثم إلى إنشاء الحضارة، فما في طبيعتها من الضعف مستمد من الرجل، وما في طبيعتها من القوة مستمد من الرجل، وإذن فليست هي التي تحتمل وزر التفاحة، وما نشأ عنه من الآثار، وإنما يحتمله آدم، ثم يحتمله بعده أبناؤه من الرجال، أرأيت يا آنسة أننا اكرم مما تظنين، واحرص على العدل مما تظنين؟ ليست الحضارة خيرا، وإنما هي شر لأنها من عمل الشيطان، فنحن نرفع عن النساء أثقالها، ونحمل عن النساء أوزارها، وأي شيء نستطيع أن نبخل به لحماية النساء من كل شر، ووقايتهن من كل وزر، كلا، للمرأة على الحضارة فضل عظيم، وهو أنها لم تنشئها وإنما أحتملتها، ولم تقترف إثمها وإنما

خففت هذا الإثم وهونت علينا احتمال أثقاله، وأعانتنا على ما تكلفنا الحضارة في كل يوم من البأساء والضراء، أليس هذا خير من إيثار السبق، وهذه الرغبة في التفوق التي تظهرها المرأة في هذه الأيام، وأغرب من هذا أن الآنسة مي تحدثت إلينا أمس بأننا مدينون للمرأة وللمرأة وحدها باعتدال القامة، واستقامة القدود، والمشي على رجلين بعد أن كنا نمشي على أربع! ومع أنني لا اعرف كيف استطاعت المرأة أن تقوم قاماتنا وتعدل قدودنا وتقيمنا على رجلين بعد أن كنا نمشي على أرجلنا وأيدينا، مع أني لم اعرف هذا، ولن أستطيع أن اعرفه فيما يظهر لأني لم أفهم نظريات التطور، وأنا يائس من فهمها بحمد الله، فإني قد غمرتني الحيرة أمس حين سمعت هذا الكلام، فهل كنا نمشي على أربع بعد أن هبطنا إلى الأرض؟ أم هل كنا نمشي على أربع قبل أن نخرج من الجنة؟ فان تكن الأولى فلم مسخ آباؤنا، وقد كان أبونا آدم وأمنا حواء يمشيان على رجلين لهما قامة معتدلة وقد مستقيم، وان تكن الثانية فلم يكن إذن أبوانا على صورتنا هذه التي نعرفها، إنما كانا يمشيان على أربع، لم يكن رأساهما إلى السماء، إنما كان رأساهما إلى الارض، فنحن خير منهما حالا، وأجمل منهما شكلا من غير نزاع، ومصدر هذه الحيرة فيما يظهر هو أن الآنسة (مي) أرادت أن تجمع بين العلم والدين، وما أصعب الجمع بينهما في كثير من الأحيان! فالدين فيما يظهر لا يرضى لنا أن نكون من نسل القردة، والعلم أو بعض العلم على أقل تقدير لا يكره أن نكون من نسل القردة أو غير القردة من الحيوان، والآنسة (مي) تريد أن نكون من نسل القردة وان نكون من نسل آدم وحواء، وليت شعري كيف كان شكل آدم وحواء في رأي الذين يريدون أن يجمعوا بين الدين وبين مذهب أصحاب التطور؟ أما أنا فقد قلت وما زلت أقول، أني لم أفهم نظرية التطور وليس يعنيني أن أفهمها لأني أوثر أن أكون من سلالة رجل خلق معتدل القامة مستقيم القد يمشي على رجلين، أوثر ذلك على أن أكون من سلالة القرد أو غيره من الحيوان الذي يمشي على أربع، وينظر إلى الأرض لا إلى السماء، ولعل أجمل ما كان في المحاضرة آخرها، ` وهو هذه الأسطورة المصرية الجميلة التي تحدثنا بأننا مدينون لحياة لامرأة هي ايزيس التي بكت فجرى من دموعها النيل، هذا عندي أجمل

ما كان في المحاضرة وأظرفه، ولكنه من الأسف الشديد ككل شيء جميل، وككل شيء ظريف، لا يثبت للنقد والتحليل في هذه الحياة الدنيا، فمن يدري من تكون ايزيس، وأين كانت وكيف كانت، ومن يدري لعل النيل لم يجرر من دموع هذه الإلهة الرحيمة في رأي الأساطير، وإنما هو ينبع من تحت العرش كما يقول بعض الصالحين، والشر كل الشر ما يقوله العلماء، وويل للناس من العلماء! فهم يزعمون أن النيل ينبع من تلك البحيرات التي مهما تعظم ويرتفع شأنها عند العلماء والشعراء فهي بحيرات حقيرة لا تعدل دمعة من دموع ايزيس، ولا تعدل قطرة من هذا الماء السلسبيل الذي يجري تحت العرش

احسن الله جزاء الآنسة مي، فقد أمتعتنا أمس، أمتعتنا إلى غير حد، فكاهة حلوة، وحديث عذب، وصوت حلو. ولكني أخشى أن تغضب الآنسة، وويل لي منها إن غضبت، ومن يدري لعلها قد غضبت منذ قرأت السطر الأول من هذا الكلام، وإذن فأنا أشهد قراء الرسالة جميعاً على أني معتذر إليها أصدق الاعتذار وأخلصه، ضارع إليها أن تغفر لي هذه الهفوة، هفوة التحدث عن محاضرتها القيمة على هذا النحو، ولكني لست وحدي ملوماً في ذلك، فهي التي ألهمتني هذا الحديث، وقد زعمت لنا أمس أن نابليون كان يقول في كل شيء (فتش عن المرأة) فإذا لم يكن بد من أن يلام أحد على هذا الحديث فالآنسة (مي) هي الملومة، ولكني أحتمل عنها هذا اللوم كما احتمل أبونا آدم عن أمنا حواء إثم التفاحة، واعتذر إليها من هذا الحديث وهي بطبيعتها أرحم وأدنى إلى الحنان من أن تأبى قبول المعذرة.

طه حسين

المادة لا تنعدم

للأستاذ احمد أمين

هكذا يقول علماء الكيمياء ويشرحون قولهم، ويبرهنون عليه. ويرون أن المادة تتغير وتتحول وتعود إلى عناصرها الأولى ولكن لا تنعدم، والعالم كله كساقية جحا، تغرف من البحر وتصب في البحر، فقد يحترق هذا المكتب الذي أمامي لا قدر الله، ولكنه سوف

لا ينعدم، بل يتحلل إلى عوامله الأولية. وسيتغذى منها النبات ويتكون منها خشب جديد، قد يكون مكتب المستقبل.

قال الكميائيون ذلك، وقصروا قولهم على المادة لأنها مادة عملهم وموضع تجاربهم. ولو عرض لهذا فيلسوف واسع النظر غير محدود البحث لقال (لا شيء ينعدم) إن الأعمال من خير وشر لا تنعدم، بل تنمو وتتحول، وتؤثر وتتأثر، ولكن على كل حال لا تنعدم، إن كذبة واحدة تكذبها على أولادك في بيتك، ومن غير أن تعيرها اهتماماً لا تنعدم، فسوف تبيض وتفرخ وتنتج كثيراً من أمثالها، وسوف يكذب أولادك وستخرج الكذبة من حجرتك إلى سائر بيتك، وستخرج من بيتك إلى المدرسة، وستخرج من المدرسة إلى مصالح الناس ومعاملتهم فكيف تنعدم

قد يدق العمل ويصغر حتى لا تراه أعيننا. ولا تسمعه آذاننا، ولا تشعر به نفوسنا، ولكنه موجود، يعمل عمله في هذا الوجود، ويفعل وينفعل، ويتسع نطاقه، ويعمل في دوائر مختلفة قد لا تخطر بالبال، وما أظنك تجهل أن حصاة ترميها في البحر الأبيض المتوسط لابد أن يتأثر بها المحيط الأطلنطي، وان لم تر ذلك عيوننا. والدليل على ذلك بديهي، فلو كبرت هذه الحصاة ملايين المرات، أفلا تؤمن بهذا الأثر؟ إذن فآمن بأن هذه من تلك وعلى نسبتها ومقدار حجمها، وجزء من ألف من الشعرة له ظل حقيقي وان لم تره عيوننا، ولولا ذلك لما كان لألف ألف شعرة ظل، ولما كان لثوبك الذي تلبسه ظل

وعملك الخير مهما صغر له أثره في أمتك مهما صغر، أعلنته أو أسررته، نجحت فيه أو فشلت، علم الناس أنك مصدره أو لم يعلموا، وهل مقياس رقى الأمة وانحطاطها إلا عبارة عن عملية حسابية مركبة من جمع وطرح؟ جمع لما صدر منها من حسنات، وطرح لما صدر من سيئات - لتكن هذه العملية أشد ما تكون من صعوبة، ولتحتج إلى ما شئت من

آلاف دقيقة للجمع والطرح، فان رسم الحل لهذه المسألة في منتهى البداهة وليس الأمر قاصراً على الأعمال، فإذا قلنا (الأعمال لا تنعدم) فهو تكرير لقول الطبيعيين (المادة لا تنعدم) وهل الأعمال إلا نوع من المادة؟

بل الأفكار والآراء من هذا القبيل، فالفكرة لا تنعدم، والرأي لا ينعدم، فإذا دعوت إلى فكرة أو جهرت برأي، فقد أخرجت إلى الوجود خلقاً جديداً ينطبق عليه القانون العام، قد ينجح الرأي وتعتنقه الأمة، بل ويعتنقه العالم وتظهر آثاره في أعمال الناس وحياتهم ونظامهم، فتسلم معي بأنه لم ينعدم ولكنه قد يفشل، وقد يستعمل الناس في اضطهاده وحربه كل أنواع الأسلحة المشروعة وغير المشروعة، والرفيعة والوضيعة، حتى يختفي ولا يظهر في الوجود، فتظن إذ ذاك انه انعدم، وهو ظن غير موفق، فقد يخفى ليعود إن كان صالحاً، ولكن كان قبل أوانه فيستتر وينكمش، ويبقى حياً يتغذى في الخفاء وتنميه الأحداث، حتى إذا تم نموه وتهيأ الناس له برز إلى العيون ثانية أو ثالثة وهو أشد على مقاومة الحرب، وأقوى على مصارعة الباطل، حتى يكتب له النجاح - وحتى إذا كان الرأي فاسداً سيئاً لا يصلح لحال ولا لمستقبل فليس مما ينعدم، إنما هو يتحول ويتحور كلوح خشب لا يصلح بحالته أن يكون شباكاً فينجر، أو لوح زجاج ليس بالحجم الذي تريده فيصغر، أو حديدة لا يناسب شكلها وحجمها فتوضع في قالب جديد بعد أن تصهر، وهكذا في الرأي يغير ويعدل، ويطعم بآراء أخرى حتى يخرج خلقاً آخر، ولكنه في كل ذلك لا ينعدم وفرق كبير بين أن تقول: فشل الرأي وفشل المشروع، وأن تقول انعدم الرأي وانعدم المشروع. فالفاشل موجود والمعدوم معدوم. وشتان بين الموجود والمعدوم. فالرأي الفاشل أو المشروع الفاشل شيء حي قد تلقى درسا من الفشل ليصبح بعد رأياً قويماً ومشروعاً ناجحاً، وهذا لا ينطبق على المعدوم

بل أذهب إلى ابعد من ذلك، وأرى أن العارض يمر على النفس، أو الخاطر يخطر بالذهن، لا يضيع ولا يذهب سدى ولا ينعدم، وإنما هو دخان قد يكون بعدُ سديما، ثم قد يكون السديم كوكبا يلمع أو نجما يتألق، وقد يكون على العكس من ذلك صاعقة تحرق، أو وميضاً خلباً يبرق، وعلى الحالين فسيكون مولوداً جديداً، شقياً أو سعيداً، أليس كثيراً مما يعترينا من حزن يسبب الكسل والخمول والملل، أو فرح يدعو إلى العمل، سببه طائف مجهول طاف

بالنفس، وخطرة متنكرة خطرت لها، فغيرت حالها وكيّفتها تكييفا خاصاً في هذا الوجود؟ أو ليس كثير من الآراء التي أسبغت على هذا العالم نعماً، وكثير من المشروعات التي عم الناس خيرها أو شرها بدأت خطرة ثم كانت فكرة، ثم أصبحت بعدُ عملاً أو خيراً، أليس مما يكوّن الإنسان خطراته، فهو خيّر أو شرير بخطراته، وهو بائس أو منعدم بخطراته، ولو كشف عنا الحجاب لقرأنا في صفحات الإنسان خطا عميقا خطته في نفس الإنسان خطراته وآراؤه، وهو أدل على الإنسان من مظاهره الكاذبة، ومناظره الخارجية الخادعة، (وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه، ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) كل هذه الخطرات قد تتحول وتتغير ولكن لا تنعدم

وعلى الجملة فان قال علماء الكيمياء إن المادة لا تنعدم فكل ما في الوجود يقرر أن (لا شيء ينعدم). إن كان هذا حقاً فويل للخيّر يقعده عن الخير انه لم ير بعينه آثار عمله، وويل للخيّر صرفه عن خيره نكران الجميل وجحد المعروف، وويل للمجد عدل به عن جده أن لم يسبح الناس باسمه، ويشيدوا بذكره، ومرحى لمن كان مبدؤه (الخير للخير، ولا شيء ينعدم).

بعد حوادث النمسا

النمسا الجمهورية في خمسة عشر عاما

للأستاذ محمد عبد الله عنان

- 2 -

أنشأت الديموقراطية الاشتراكية الجمهورية النمساوية الجديدة، وتولت زعامتها وقيادتها أثناء عقد معاهدة الصلح (معاهدة سان جرمان) وتسوية المشاكل الأولى التي خلفتها الحرب، ولكنها لم تتمتع طويلاً بالأغلبية البرلمانية وسلطان الحكم، ففي سنة 1920 خرج الاشتراكيون المسيحيون بأغلبية في الانتخابات، واختتم الدكتور رنر زعيم الديموقراطية وزارته الثانية، وألف الاشتراكيون المسيحيون أول وزارة لهم برآسة الدكتور (مير) ومن ذلك الحين تتعاقب الوزارات الاشتراكية المسيحية في حكم النمسا، أحياناً مستقلة دون ائتلاف، أحيانا مؤتلفة مع الديموقراطيين الاشتراكيين أو الأحزاب الصغيرة الأخرى (مثل الألمان الوطنيين والزراع) وفي العام التالي اشتدت دعوة الانضمام إلى ألمانيا (الانشلوس) في بعض نواحي التيرول، واشتدت الأزمة المالية، فاستقالت وزارة (مير) وألف الدكتور شوبر وزارته الأولى في يونيه سنة 1921 ولكن الوزارة الجديدة لم تستطع أن تغالب الأزمة المالية، وارتفعت الأثمان واشتد الغلاء ووقعت كارثة النقد، فاستقالت وزارة شوبر، وألف المونسنيور سيبل وزارته الأولى (مايو سنة 1922)، وأبدى في معالجة الموقف كثيراً ` من الشجاعة والبراعة، واستطاع أن يحمل عصبة الأمم على الاهتمام بمتاعب النمسا، وأن يجعل من المسألة النمساوية مسألة أوربية، واستطاع بالأخص أن يعالج مسألة التضخم، وان يعيد الاستقرار إلى النقد، فهدأت النفوس وانتعشت الآمال نوعا، وبذل المونسنيور سيبل جهوداً تخلق بالإعجاب في سبيل توطيد شئون الجمهورية الجديدة، وتذليل مشاكلها الداخلية والخارجية، ولكنه اضطر إلى الاستقالة على اثر محاولة الاعتداء على حياته في نوفمبر سنة 1924 وألف الدكتور رامك بالاتفاق مع الديموقراطيين الاشتراكيين وزارة ائتلافية، استمرت في سياسة الإصلاح المالي، ثم استقالت في أواخر سنة 1926 حين اشتدت الأزمة المالية كرة أخرى، وألف المونسنيور سيبل وزارته الثانية

وخرج الديموقراطيون الاشتراكيون على الائتلاف ونظموا معارضة قوية. .(في نوفمبر) وفي أثناء الانتخابات العامة التي وقعت في أبريل سنة 1927، بث زعماء الديموقراطية الاشتراكية وعلى رأسهم الدكتور أوتو باور، والهر كارل سايتز حاكم فينا ضد الحكومة وحزبها وأنصارها دعوة شديدة في العاصمة والاقاليم، ونضم اعتصاب عام شديد الوطأة ولكن الحكومة ثبتت أمام العاصفة، وأخفقت هذه المحاولة الأولى وفي منتصف يوليه سنة 1927 وقع صدام دموي خطير بين الكتلة المسيحية الاشتراكية (الحكومة)، والديموقراطية الاشتراكية. وتفصيل ذلك أن بعض الفلاحين المنتمين إلى (جماعة هتلر) أطلقوا النار على جماعة من الديمقراطيين الاشتراكيين في قرية شاتندورف، أثناء اجتماع انتخابي عقدوه، فقتلوا رجلاً وطفلين، فقبض على

الجناة متلبسين بجريمتهم وأحيلوا على المحاكمة، وثار الاشتراكيون لذلك الاعتداء، ولكن المحكمة قضت ببراءة المتهمين فاضطرم الاشتراكيون لذلك غضباً وسخطاً، ورموا الحكومة بالتأثير في القضاء، ونددوا بتحيز القضاء (البورجوازي)، وهرعت ألوف مؤلفة من العمال إلى قلب مدينة فينا لتتظاهر احتجاجا على الحكم. وكان ذلك في ضحى يوم 15 يولية، وأبدى بوليس فينا يومئذ - وعلى رأسه مديره الهر شوبر رئيس الوزارة السابق - في معاملة المتظاهرين صرامة. ووقعت أول مصادمة بين المتظاهرين والبوليس أمام دار البلدية (الرات هوس) وعندئذ تحول من المتظاهرين إلى وزارة الحقانية وأضرموا النار في جنباتها، ولما اشتد ضغط الجموع، أطلق البوليس النار على المتظاهرين، فقتل منهم نحو ستين بينهم عدد من النساء والاحداث، وكان يوماً عصيباً ساد فيه الروع والحزن مدينة فينا. ومما يجدر ذكره أن المتظاهرين، لم يكونوا مسلحين يومئذ، واعتذر البوليس عن تصرفه بان المتظاهرين بدءوا بإطلاق النار، ولكن البوليس لم يقتل منه سوى رجل أو اثنين؛ ولم تعرف الحقيقة قط، وأدركت الديموقراطية الاشتراكية من ذلك اليوم أنها تواجه جبهة لا يستهان بقوتها، وأنها تخوض معركة الحياة والموت مع القوى الخصيمة لها.

والواقع أن حوادث 15 يولية كانت ذات نتائج حاسمة في سير السياسة الداخلية النمساوية. فقد رأت الديموقراطية الاشتراكية أنها أضعف الحزبين، وأخذت تعمل لتقوية نفسها وتسليح أنصارها، ورأت الكتلة المحافظة، كتلة الملاك وأصحاب الأموال التي تؤيد حزب الحكومة

- المسيحيين الاشتراكيين - أن تنشئ لها قوة خاصة تستعين بها على مقاومة الديموقراطيين الاشتراكيين؛ وهكذا أنشئت جماعة (الهايمفر) - الشهيرة - ومعناها (الدفاع الوطني) - في خريف سنة 1927، لتكون قوة دفاعية للمحافظين والملاك. وتولى تنظيمها وزعامتها سيد من أبناء الأسر النبيلة القديمة هو البرنس أرنست فون شتار همبرج. وقامت جماعة الهايمفر مشبعة بروح الفاشستية الإيطالية، ولكنها أعلنت أنها مخلصة للنظام الجمهوري، وأنها تعمل فقط لحماية النمساويين من خطر الطغيان الاشتراكي أو الماركسي (نسبة إلى ماركس)، ونظم الاشتراكيون من جانبهم قوتهم العسكرية المعروفة (بالشوتسبند) أو رابطة الدفاع الجمهوري وهي القوة التي أنشأوها وسلحوها منذ حين ليعتمدوا عليها في مقاومة خصومهم وفي حماية أنفسهم ومصالحهم، وتولى تنظيمها وقيادتها قائد قديم هو الجنرال كرنر، وأصبحت النمسا تموج بهذين المعسكرين المسلحين الخصيمين. ولم يمض بعيد حتى اشتبك الهايمفر مع خصومهم في ضاحية (فينر نويشتات) وهي مركز المعسكر الاشتراكي (في أكتوبر) واضطرت الحكومة أن ترسل قوة كبيرة من الجيش لحسم النزاع والمحافظة على النظام، واحتج الاشتراكيون بقوة على قيام (الهايمفر) واتهموا أصحاب الأموال باستخدامهم لإرغام الاشتراكيين والطبقات العاملة على التنازل عن حقوقهم، وبدا خطر الحرب الأهلية داهما، وحاول زعماء الفريقين التفاهم والمهادنة، واقترح البعض نزع سلاح الفريقين، ولكن هذه الجهود السلمية ذهبت عبثا.

ولبث المونسينور سيبل في منصة الحكم حتى صيف سنة 1929 وكانت مسألة الاتحاد مع ألمانيا (الانشلوس) من أهم المسائل السياسية التي شغلت الأحزاب والرأي العام يومئذ، وكانت الديموقراطية الاشتراكية، كما قدمنا تعارض في هذا الاتحاد أشد المعارضة، وكان المونسنيور سيبل ينكره ويأباه في خطبه الرسمية، ولكنه لم يفعل شيئاً ضده من الوجهة الرسمية، ولم يقبل أن تدخل النمسا في حلف سياسي أو اقتصادي مع أية دولة من الدول الوسطى التي تعارض ألمانيا. وفى شهر أبريل استقال المونسنيور سيبل فجأة، واستطالت الأزمة الوزارية نحو شهر، ثم قامت وزارة الهر شتيروفتز أخيراً بتعضيد المونسنيور وحزبه المسيحي الاشتراكي، ولكنها لم تلبث سوى أشهر قلائل، تقدمت خلالها جماعة (الهايمفر) تقدماً كبيراً وزاد أنصارها بكثرة، ولا سيما في التيرول والنمسا السفلى،

واضحت قوة كبيرة يخشى بأسها، وأخذ المونسنيور سيبل وحزبه في تأييدها واضطرت وزارة شتيروفتز تحت ضغط الهايمفر أن تجري عدة إصلاحات دستورية، ولما زاد ضغط الهايمفر وصخبهم ووعيدهم استقالت وزارة شتيروفتز (سبتمبر)؛ واتفقت الآراء على ترشيح الهر جان شوبر مدير بوليس فينا ورئيس الوزارة السابق؛ فألف وزارته

الثانية، على قاعدة الائتلاف والتفاهم مع الديموقراطيين الاشتراكيين. وكان الديموقراطيون يضطرمون نحوه سخطاً منذ حوادث يوليه. ولكنهم اضطروا إلى مهادنته والتعاون معه نظراً لتفاقم خطر (الهايمفر) واشتداد بأس المحافظين. ولم يكن الهر شوبر من خصوم الهايمفر، وكان يرى بالعكس أن يصانعهم ليكسبهم ويأمن جانبهم وليوجه حركتهم إلى ما يدعم غاياته السياسية، وأعلنت الوزارة الجديدة أنها لن تدخر وسعا في تأييد النظام والأمن وقمع كل محاولة للعبث بهما. فاستقرت الأمور نوعاً وعادت الثقة والطمأنينة، وأثبتت الحكومة أنها تملك ناصية الموقف غير مرة كلما حدث احتشاد أو تظاهر من جانب الهايمفر أو خصومهم الاشتراكيين، وأبدى الهر شوبر بالأخص براعة في تسيير السياسة الخارجية وفي توطيد الثقة الدولية بالنمسا وحمل عصبة الأمم على معاونتها.

وفي نوفمبر سنة 1930 وقعت الانتخابات العامة وخرج الديموقراطيون الاشتراكيون بأغلبية نسبية تفوق الأغلبية التي فاز بها المسيحيون الاشتراكيون، ولكنها لم تكن كافية لأن يعود الديموقراطيون إلى الحكم، واستقالت وزارة شوبر، وقامت وزارة ائتلاف برياسة الدكتور أندر يؤازرها المسيحيون والهايمفر وكتلة شوبر المستقلة، وتولى هر شوبر وكالة الوزارة ووزارة الخارجية وكان هو الروح المسير لهذه الوزارة، وخصوصاً في الشئون الخارجية، وفي مارس من العام التالي عقدت النمسا مع ألمانيا مشروع اتحاد جمركي نمساوي ألماني، فاحتجت عليه دول الحلفاء بشدة، وكذلك دول الاتفاق الصغير، واعتبرته مقدمة لتنفيذ مشروع الاتحاد النمساوي الألماني (الانشلوس)، وطالبت بإلغائه لأنه يخالف معاهدات الصلح وتعهدات النمسا إزاء عصبة الامم، فاضطرت النمسا أن تنزل عند إرادة الحلفاء في ذلك، وأن تحيل الاتفاق الجمركي إلى محكمة العدل الدولية الدائمة لتقضي بعد ذلك ببطلانه. ووقعت خلال ذلك كارثة (كريديت انشتالت) وهو أعظم بنوك النمسا وظهر عجز جسيم في موارده وكاد ينهار بناؤه فساد الذعر المالي وكادت النمسا تنحدر إلى هاوية الخراب المالي، وتصدع بناء الوزارة لأنها لم تقو على معالجة الازمة، ووضعت الدول ذات الشأن شروطاً شديدة لإعانة النمسا وإقراضها، ومنها الإشراف على مالية النمسا على يد لجنة دولية، فاستقالت الوزارة في يونيه، وبعد مفاوضات معقدة خلفتها وزارة ائتلاف أيضاً على رأسها الدكتور بوريش، وعاد هر شوبر فتولى وكالة الرئاسة والخارجية وعنيت الوزارة الجديدة بمسألة الإنقاذ المالي وتوطيد الميزانية، واستطاعت بعد جهود عديدة أن تصلح الموقف نوعاً، وأن تدبر مسألة القروض المالية مع الدول ذات الشأن، وعالجت أيضاً مسألة المرتبات وإعانة العاطلين.

ووقعت في 13 سبتمبر محاولة عنيفة قامت بها عصابات الهايمفر في ولاية ستيريا دبرها الدكتور فريمر. واستولى الهايمفر خلالها على عدة مبان ومدارس حكومية، فجردت حكومة فينا في الحال على الثوار قوة كافية وانهارت المحاولة في الحال وفر مدبرها الدكتور فريمر. وكانت هذه أول محاولة من جانب الهايمفر للتطلع إلى السلطة، ولكنها كانت محاولة ضئيلة، ولم يبد من الشعب عندئذ أنه متحمس في تأييد الهايمفر. واستمرت وزارة بوريش في كرسي الحكم حتى مايو سنة 1932 ثم استقالت. وهنا قامت وزارة على رأسها رجل لم يعرف من قبل كثيراً في ميدان السياسة هو الدكتور انجلبرت دولفوس، وهو من رجال الاقتصاد، وكان قد تولى وزارة الاقتصاد في الوزارة السابقة، ولكنه لم يعرف من قبل ذلك بأي نشاط سياسي. وهو من رجال الحزب المسيحي الاشتراكي، قوى الإيمان والنزعة الدينية، ولم يكن يوم توليه الرآسة قد جاوز الأربعين بعد، وكان المقدر أن هذه الوزارة الجديدة ستكون وزارة إدارية على الاغلب، وانها لن تعمر طويلاً.

ولكن الدكتور دولفوس لا يزال يشرف على مصاير النمسا منذ عامين، ولا يزال يواجه الصعاب والأزمات المختلفة بجلد وشجاعة تخلقان بالإعجاب. ولم تلق النمسا الجمهورية من الأزمات العصيبة الداخلية والخارجية مثل ما لقيت في العامين الأخيرين، ولكنها استطاعت حتى اليوم أن تجوز هذه الصعاب، وأن تحافظ على كيانها السياسي والاقتصادي. وبدأ الدكتور دولفوس بالعمل في سبيل الإنهاض الاقتصادي، وانتهى في ذلك بعقد بروتركول لوزان على يد عصبة الأمم لمعاونة النمسا المالية

والاقتصادية. ولكن هذه الخطوة أثارت معارضة شديدة من جانب الديمقراطيين وباقي الأحزاب المعارضة، ولم
تستطع الحكومة أن تحصل على الأغلبية البرلمانية اللازمة إلا بصعوبة؛ وطالب
الديمقراطيون بإجراء انتخابات جديدة؛ فعارض الدكتور دولفوس في ذلك متذرعاً
بحاجة البلاد إلى السكينة والعمل الهادئ، وسعى إلى الاتفاق مع جماعة الهايمفر
ليكسب عونهم في البرلمان على أن يضم واحد منهم إلى الوزارة وكان الهياج الحزبي
يشتد في كل يوم، إذ قويت دعوة أنصار الجامعة الألمانية (الهتلريين)، ووقعت بينهم
وبين الديمقراطيين مناوشات دموية، فاستدعى الدكتور دولفروس زعيم الهايمفر في
فينا الماجور فاي وهو جندي قديم ذو مواهب ممتازة واسند إليه وزارة الأمن العام،
فعمل على ضبط النظام بعزم وقوة، ولما افتتحت الدورة البرلمانية في أكتوبر ظهرت
شدة المعارضة، وانضم الهتلريون إلى الديمقراطيين في معارضة الوزارة متهمين إياها
بالخضوع للسياسة الفرنسية، وتحرج الموقف البرلماني شيئاً فشيئاً حتى عدا مستحيلاً؛
وعمد الدكتور دولفوس من جانبه إلى العمل المستقل؛ وأخيراً استقال رئيس البرلمان
وأعضاء مكتبه، فشل بذلك العمل البرلماني، وألقى المستشار نفسه طليقاً من
إشراف المعارضة، واتخذ لنفسه سلطة شبه دكتاتورية.

(للبحث بقية)

محمد عبد الله عنان

تحديد الزمن عند قدماء المصريين

للأستاذ عبد الحميد محمود سماحة

مفتش مرصد حلوان

لا شك في أن الكثير من الظواهر الفلكية كان من أهم العوامل الرئيسية في تكوين
العقل البشري منذ أقدم العصور، ثم في بناء المدنيات المتعاقبة في التاريخ.
فظهور الشمس في ناحية ما من السماء، وارتفاعها عند الظهر نحو السمت، ثم
انحدارها في الناحية المقابلة غرباً، واختفاؤها بعد ذلك كل يوم دون انقطاع، وما تجليه
أثناء النهار من النور والدفء، وما يسببه اختفاؤها في أثناء الليل من الظلام والبرد؛ ثم
ظهور القمر في ليال معدودة مبدداً حلكة الظلام؛ وشروق النجوم الثابتة من حيث
تشرق الشمس، ومغيبها من حيث تغيب؛ وتلكم الكواكب السيارة التي تتحرك وسط
النجوم الثابتة؛ وهذه المذنبات التي كانت تفاجئ الناس بظهورها ثم تفاجئهم ثانية
باختفائها؛ وما كان يروعهم من كسوف الشمس وخسوف القمر؛ كل أولئك أو بعضه لا
شك قد أيقظ انتباه (الإنسان الأول) كما تدل عليه آثار العصر الحجري
وتاريخ أقدم المدنيات يدل على مقدار ما كان لهذه الظواهر الفلكية المتعددة من الأثر
في بناء هذه المدنيات نفسها؛ فعلى ضفاف النيل - حيث أشرقت على العالم أولى
المدنيات - نجد في آثار أجدادنا ما يؤيد هذا الزعم
ولكي نستطيع ان نحكم بالدقة على مبلغ ما وصلوا إليه في هذه الناحية دون تورط في
المديح أو مبالغة، لا نرى مندوحة من أن نذكر القارئ بالعقائد الرئيسية الثلاث عندهم،
وهي التي صبغت بها مدنيتهم في جميع مظاهرها:

فالأولى - الشمس وهي الإله المعبود (رع)

والثانية - النجوم - منازل المباركين

والثالثة - النيل - النهر المقدس - الذي لم يزل يفيض على جوانبه الخير والبركات
ولما كان أهل مصر منذ القدم يعيشون على فلاحة الأرض، كان لزاما عليهم معرفة
الوقت الذي يفيض فيه النهر المقدس ليربطوا تبعاً لذلك أزمنة الحرث والبذر والري
والحصاد. ومن المصادفات الموفقة أنهم لاحظوا أن فيضان النيل يأتيهم عندما يرون
الكوكب الألمع
سوثيس (الشعري اليمانية) يشرق لأول مرة قبيل شروق الشمس؛ ومن ثم اتخذوا
الفترة الواقعة بين فيضانين متتاليين يحددها تحديداً فلكياً رؤية هذا الكوكب مرتين
متتاليتين قبيل شروق الشمس وحدة للزمن. ويقول الأستاذ برستيد أن أول سنة
حددت في التاريخ على هذا الأساس الفلكي - بل إطلاقا - هي سنة 4241 قبل الميلاد.
غير انهم قاسوا هذه الفترة بخمسة وستين وثلاثمائة يوم. ذلك لأنهم فيما اتفق عليه
اكثر المؤرخين كانوا رجالا عمليين اكثر منهم نظريين، فلم يأبهوا بأكثر من ذلك لدراسة

حركة الشمس لاستنباط وحدة للزمن أدق من هذه التي كفتهم حاجتهم في تحديد أعيادهم الدينية ومواسمهم الزراعية؛ ولو أنهم فعلوا لوصلوا من غير شك إلى نتائج لا نستطيع ان نتكهن بمدى تأثيرها في المدنية، ولكننا نعتقد عند ذلك بإمكان تأسيس مدينة نظرية في مصر قبل اليونان حيث نشأت الفلسفة النظرية ومبادئ العلوم الحديثة.

دعت الحاجة بعد ذلك فيما اقتضته مرافق الحياة عندهم وما وصلوا إليه من درجة في المدنية أن يقسموا اليوم نفسه إلى اقسام، فاستخدموا الساعات الشمسية والمائية.

وتدل آثارهم على أنهم استعملوا منها أنواعاً متعددة نقتصر هنا على وصف أهمها:

فالصورة (2) هي ساعة شمسية يرجع عهدها إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد، وتتكون من قضيبين متعامدين ب ب توضع بحيث يكون مواجهاً قبل المشرق قبل الظهر وقبل المغرب بعده وظل على ب ب يبين الوقت أثناء النهار. ولقد قسموا الفترة بين شروق الشمس حين يكون الظل أطول ما يمكن والظهر حين لا ظل إلى ست ساعات ومثلها بعد الظهر.

والصورة (3) هي نوع آخر من الساعات الشمسية استخدمت لتعين الوقت في القرن الثاني عشر قبل الميلاد. وهي لا تختلف كثيراً عن المزاول الشمسية المستعملة إلى وقتنا هذا. وقد اكتشفت ببلدة جيزار في جنوب فلسطين.

والصورة (4) هي إحدى أنواع الساعات المائية وجدت في معبد الكرنك، ويرجع تاريخها إلى عهد امنحت الثالث (1400 قبل الميلاد) وهي مصنوعة من المرمر ومزينة من الخارج برسوم الكوكبات والكواكب السيارة مع إلاهي الشمس والقمر، وصورة الملك بين آلهة الشهور الاثني عشر. وهذا النوع من الساعات عبارة عن إناء مملوء ماء ينصرف من

ماسورة صغيرة في القاع. وقد جعل شكل الإناء بحيث يحدث تصرف كميات متساوية من الماء في أزمنة متساوية انخفاضات متساوية في سطح الماء

وفي أنواع أخرى من الساعات المائية كان يصب الماء من مصدر خارجي، وفي هذه الحالة يبين الوقت ارتفاع سطح الماء في الإناء

وربما كان أهم الاكتشافات العلمية في هذا الصدد تلك الآلة الزوالية الصغيرة التي ابتاعها الأستاذ برستيد من أحد تجار العاديات بلندن سنة 1923 لسببين:

الأول - إن الصانع الحقيقي لها هو الملك العظيم توت عنخ أمون نفسه كما تدل عليه الجملة الهيروغليفية المنقوشة على جانبيها (صنعتها بيدي)

الثاني - لأنها أقدم آلة فلكية عرفت في التاريخ، فقد دلت أبحاث الأستاذ جورج هيل على أن تاريخ استعمالها يرجع إلى حوالي سنة 3000 قبل الميلاد

وقد كانت تسمى هذه الآلة عندهم (مرخت) ومعناها آلة القياس، ولا يتسع المقام هنا لوصف طريقة استعمالها، ونكتفي بالإشارة إلى أنها تشبه - من هذه الناحية - الآلة الرئيسية في المراصد الحديثة المعروفة بالمنظار الزوالي. وبواسطتها يمكن تحديد الوقت برصد عبور النجوم على مظمار معلق من إحدى نهايتها.

ولا يفوتنا أيضاً أن نذكر أن آلة أخرى من هذا النوع أقدم من هذه التي ابتاعها برستيد توجد في ` متحف العاديات ببرلين

ويقول الأستاذ بورخات إن تاريخ استعمالها يرجع إلى عهد امنحتب الثالث

فليت شعري هل ترانا جديرين بهذا التراث العظيم. . . ؟؟!!

عبد الحميد محمود سماحه

من صور الحياة في دمشق

الشيخ عيد السفرجلاني

للأستاذ على الطنطاوي

رفع الشيخ صوته مرة ثانية يأمر التلاميذ بالانصراف ولكنه لم يسمع لهم ركزا، . . .

فنظر فإذا المقاعد كلها خالية، وإذا آخر تلميذ قد بلغ الباب الخارجي، ثم قفز فرحاً مسروراً، وغاب في منعطف الطريق، وعم المدرسة السكون . . .

تنفس الشيخ الصعداء، وألقى عصاه جانباً، ثم تمدد على كرسيه المستطيل، يستريح من العناء الذي حمله في نهاره، وكأن هذا السكون العميق، وهذه الصفرة التي تبعثها في الغرفة أشعة الشمس المحتضرة قد ملأ نفسه كآبة ورهبة، فاغمض عينيه، وأسلم

نفسه لخيالاتها:
أحس كأن هذه السجف التي أسدلها دون الماضي، ترتفع سجافاً سجافاً، وان هذا الماضي البعيد الذي لفه في ثوب النسيان، وألقى به في هوة العدم، قد استفاق في نفسه مرة واحدة، ثم عاد يكرر عليه كما يكر (شريط السينما)، ولكنها سينما حياة طويلة، مرت عليه كأنما هي يوم واحد أو بعض يوم، سبعون عاماً مرت به في لمحة عين، فلم يأخذ بصره فيها إلا العمل المستمر في تعليم صبيان دمشق، سبعون عاماً لم يسترح في خلالها إلا أيام الجمع، ثم يعاود عمله منذ الصباح السبت، هادئاً راضياً نشيطاً. . .
عادت به الذكرى إلى ذلك اليوم الذي بدأ فيه حياته التعليمية، وكان غض الشباب، يقطع مرحلة (العشرين)، وكان يوماً بعيداً طوى فكره الوصول إليه ثلاثة أرباع القرن، وأدار الفلك راجعاً سبعين دورة. . . يا لقدرة الفكر البشري! كيف يدير الفلك كما تدير الإصبع عقرب الساعة تقديماً وتأخيراً؟
كانت المدرسة التي استأجرها غرفة واحدة، في (المناخلية) قبالة الباب الحديدي الذي بقى مع قطعة من السور، تراثاً لدمشق المفتحة الأبواب لكل طامع، من دمشق المنيعة المتحصنة بسورها وقلوب أبنائها من كل طامح، وفي هذا الباب نفحة من نفحات الغساسنة (العرب الخلص) يحسها من يجوزه، كما يحسن من يدخل من الباب الشرقي روح خالد بن الوليد، بطل عصره، واينبال العرب، وكما يحس من يمر من باب الجابية روح أبى عبيدة بن الجراح. ولم يكن هذا الباب معروفاً بباب المناخلية كما يدعي اليوم، بل كان يدعى بالباب
المسدود، وقد كان قبل أن يسد الباب الرسمي الملوك الغساسنة، وكان يقابل قصر البريص، حيث كان الغساسنة الكرام الحسب الشم الأنوف:
يسقون من ورد البريص عليهم ... بردى يصفق بالرحيق السلسل
ذكر كيف لبث نهاره كله منفرداً لم يجئ إليه تلميذ واحد، وكيف أسرع المساء بالعودة إلى داره. قبل أن يقفل العسس أبواب دمشق، وبواباتها التي كانت تغلق منذ العشاء، أيام كان الناس جادين مستقيمين لا يعرفون ملاهي الغرب ورذائله، ولا يعرفون أحياء الليل في الفاحشة، وقتل النهار في الكسل. وكيف كان قوى الأمل، جم النشاط، لا يخالط اليأس قلبه، فلم ينثن عن عزمه. وغداً في اليوم الثاني إلى مدرسته التي أنشأها في البلد الذي لا يعرف القراءة إلا اثنان في الألف من سكانه. . . فجاءه خمسة تلاميذ، وشرع يعمل
لم يكن الشيخ يحمل شهادة، ولم يكن في دمشق كلها من يحمل شهادة البكالوريا أو الكفاءة، ولكنه قد أتقن العلوم الإسلامية والعربية، وثابر سنين طويلة على (الطلب) حتى ألم بالثقافة العامة المعروفة في زمانه إلماماً حسناً. وانصرف للتعليم ابتغاء لمثوبة الله، وأجابه للرغبة القوية الجامحة. فلما جاءه هؤلاء التلاميذ، رأى فيهم تحقيقاً لحلمه فأكب على تعليمهم وتهذيبهم
- أحسن الله لأولئك التلاميذ! لقد كانوا أشرافاً عاملين، ثيابهم كاملة. وحركاتهم وأفعالهم فياضة بالرجولة، وحياتهم مقصورة على البيت والمدرسة، لا تعرف الرذيلة الغربية طريقاً إلى نفوسهم، ولم يكن الغرب قد غزانا بأزيائه وملاهيه وأبنائه، وأبنائنا الذين علمهم العلم والعقوق. وأعطاهم السلاح ولقنهم كيف يقتلون به (التقاليد) الشرقية الشريفة، فكانوا بمنجى من هذا كله.
لقد هاجت الشيخ ذكرى أولئك التلاميذ الذين أصبحوا اليوم شيوخاً ومات منهم من مات، وقارن بينهم وبين تلاميذ اليوم المتأنثين المتخنثين الذين يتقنون التجمل ويغوصون في الملاهي القذرة إلى أعناقهم فاسترجع وهم بالبكاء. وازدحمت في ذاكرته الصور المؤلمة، فرأى كيف كان يتلقى الفوج من تلاميذه أطفالاً، فيعلمهم ويربيهم، ويجعل منهم شبانا عاملين، ثم يودعهم بعد أن يوليهم من نفسه أسمى ما يولى والد ولده، فيغادرون المدرسة، ليدخلوا الحياة، ويرتقون من مقاعد النظارة إلى خشبة المسرح، ويحسبون أن هذه الشهادة
غاية العلم، وهي فاتحته، وانهم إذا نشروها، طويت لهم المراتب إلى الصدر وقدم لهم من كل شيء ما يشتهون، لا يدرون أن للحياة فناً غير فن الكتب، وفى العلم آفاقاً لا تحيط بها المدرسة. . . وكيف كان يلبث الأيام الطويلة يستوحش بالمدرسة والمنزل،

ويحس بالفراغ في قلبه بعد أن اقتطع منه كل فوج قطعة ويتألم ويجفوه النوم. فلا يعلم إلا الله بألمه. ثم يستعين بالله ويستأنف العمل مع تلاميذه الجدد. ويحاول أن يجد فيهم بدلاً مما فقد، حتى إذا أنضجت الثمرة خرجت من يده. وكان حظه من هؤلاء حظه ممن سبقهم: ينسونه مذ يتخطون بأقدامهم عتبة الباب، وينصرفون عنه إذا لمحوه في طريق، مصعرين خدودهم، شامخين بأنوفهم - وهم التجار الأغنياء، أو الموظفون الكبار، أو الوجهاء الكرام - على هذا الشيخ المسكين (معلم الكتاب) أحد عشر ألف تلميذ. . . أحد عشر ألف. . . علمتهم وأفنيت فيهم حياتي، فضاع تعبي - فيهم أدراج الرياح. . . يا الله! وفتح عينيه فوقع بصره على مرآة كانت إلى جانبه فنظر فيها وأطال النظر كأنما قد انتبه الآن إلى لحيته البيضاء الناصعة، والى سنيه التسعين فاسترجع مرة ثانية. . . وسأل الله حسن الخاتمة

سقياً لتلك الأيام الهنيئة. حين لم يكن في دمشق إلا هذه المدرسة. ومدرسة الشيخ - الصوفي، أما الآن فالمدارس تعد بالمئات، ولكن الناس لا يميلون إلا إلى المدارس الأجنبية، إنهم يضنون على مدرسة كهذه المدرسة تقدم أبناءهم لفحص الرسمي العام، وتحفظ لهم دينهم ووطنيتهم بعشرين قرشاً في الشهر، ثم ينفقون مائتين وثلاثمائة في المدارس الفرنسية أو الإيطالية أو الإنجليزية، ليعود اليهم أبناؤهم فرنسيين أو طلياناً أو إنكليزـ. . آه، الحمد لله على كل حال الحمد لله. . . إننا نجد ثمن الخبز.

وانتبه فإذا الباب يقرع قرعاً متواصلا

ادخل، تفضل. . . ممن هذا الكتاب؟ -

من وزارة المعارف -

قرأ الشيخ الكتاب أولا وثانياً، وقرأه مرة ثالثة، فغشيت وجهه سحابة أليمة من الغم، ثم قام إلى مكتبته صامتاً، فأخرج من قراراتها دفتراً كبيراً مسح الغبار عنه، وأخذ يقلبه يفتش عن هذا الاسم، بين أحد عشر ألف اسم حواها هذا الدفتر، فلما وجده تناثرت الدمع من عينه.

وارتمى على كرسيه محطماً.

أهذه خاتمة المطاف؟. إه. . الحمد لله على كل حال. . الحمد لله لك يا رب. . انه - تلميذي علمته ومنحته قسطاً من قلبي، وعلمت أباه من قبله، وعلمت أبنه من بعده، ولكن لا بأس، إن أمور المعارف بيده. ومن حقه ان يفعل ما شاء، وعاد فقرأ الخطاب للمرة الرابعة: (. . . ولأنكم لا تحملون شهادة تخولكم حق إدارة مدرسة ابتدائية لا نرى بداً من أن. . .)

كنت منذ عامين محرراً في الجريدة الوطنية الكبرى (الأيام) فجاني يوماً ناع، فنعى إلى الشيخعيد السفرجلاني. واخبرني أن هذا منصرفه من دفنه، فبلغ بي الألم مبلغه، وجعلت مقالي في ذلك اليوم عن الشيخ. ولما قدمته لرئيس التحرير. قال لي أحد الرجال الكبار في دمشق، وكان في غرفة الرئيس ما نصه بالحرف:

بلا مسخرة، شيخ كتاب مات!

قلت: ولكنك يا سيدي تلميذه

وإذا كنت تلميذه؟. . شيخ كتاب -!

وبعد يا مولاي الشيخ:

لا تأس على أن ذهبت في غير ما ضجة ولا صخب، وأن قد سكنت قبراً في (الدحداح) لا يمتاز من مئات القبور التي حوله ولا تحيط به النصب والنقوش، وان الناس لم يأبهوا لك كثيراً، ولم يقيموا لك الحفلات، ويلقوا على قبرك الخطب. . . فأنت أشرف وأجل من كل هؤلاء الصاخبين الضاجين، ومجدك الصامت الذي بنيته في سبعين سنة لبثت فيها مناراً للعلم - وهادياً ومرشداً. أسمى من مجد هؤلاء الذي ينبى على خطبة جوفاء، أو ليلة في السجن ظلماء، أو مقالة في صحيفة رعناء.

وان كنت شيخ الكتاب، فذلك فخر لك، وحسبك فخراً أن الذين سرقوا مجدك ومجد أمثالك - هم - كما هي سنة الحياة - أشد تلاميذك حماقة وجهلاً، وأقلهم استقامة وشرفاً، وانهم ما قفزوا إلى هذه المراتب، إلا ليجحدوا فضلك وفضل أمثالك، ويسخروا منك ومن أمثالك، هي سنة الحياة، يعمل أناس ليجني الثمرة آخرون يا مولاي الشيخ:

نم مستريحاً في ظلال الخلد، فأنت أبو النهضة العلمية في دمشق، أنت صفحة من تاريخها الحديث، أنت معلم كل من قرأ في دمشق كتاباً أو خط بقلم

عليك رحمة الله وبركاته.

علي الطنطاوي

الابتكار في الأدب

يرى بعض أدباء الغرب أن للمصور المجيد، والشاعر المبدع والموسيقى الماهر موهبة عجيبة تعرف بالعبقرية، تعمل مستقلة عن الزمان والمكان، وأن كل ما يحتاجه الفنان الموهوب إنما هو الإلهام مع قليل من الإقدام، فألق به كما يقولون في جوف المحيط أو في وسط الصحراء ودعه يتجه نحو الفن فسيعاون الإلهام عبقريته على إنتاج الجيد وإبراز المعجز من الفن والأدب.

ولكن الحقيقة أقسى من وهمهم هذا، فالواقع أنه ليس هناك فنان يعمل مستقلاً عن الزمان والمكان. ولو أخذنا طائفة من الكتب الأدبية الرائعة في أي عصر من العصور، وقرأناها مع إلمام تام بالكتب التي سبقتها مباشرة لحكمنا مضطرين بأنه لا يوجد كاتب - مهما علا قدره - يتهيأ له وجود مستقل عن حدود زمانه ومكانه الضيقين، إذ الكتاب ما هم إلا أجسام مختلفة تسكنها روح واحدة هي روح العصر الذي يعيشون فيه كما يقول البحاثة الإنجليزي بتركونل وكذلك الحال في الموسيقى والتصوير.

وحقاً إن الكاتب الكبير قد يطبع العصر الذي يعيش فيه بطابعه الشخصي وينحو بجمهرة المتأدبين نحواً لم يعهد قبله، وحينئذ يلقبه معاصروه بالمجدد أو الثائر، ولكنه على ذلك يساير التيار الزمني ويتأثر ببيئته إلى حد كبير. وقد اعتاد مؤرخو الأدب الإنكليزي تقسيمه إلى عصور حسب الشخصيات البارزة في كل عصر ملاحظين هذه الحقيقة المقدمة. فهناك عصر شوسر، وعصر شكسبير، وعصر ميلنون، وعصر دريدن، وعصر بوب، وعصر جونسون، وعصر وردزورث، وعصر تينسون. وكلها شخصيات متفوقة تزعمت الأدب في عصورها وسلكت به مسالك مختلفة. ولكنا نراهم كثيراً ما يتأخرون بالعصر عن صاحبه ويدخلون فيه بعض مشاهير الأقربين ممن سبقوه ملاحظين تأثره بهم وتأثيرهم فيه، وتمثيل الجميع لأزمنة متشابهة. وكأنهم بهذا يقررون أن الابتكار الأدبي بمعناه الصحيح لا يتيسر لأي أديب.

وبعد هذا، له العظمة الأدبية تساوي الجدة الأدبية؟

الإجابة عن هذا الاستيضاح تدعو إلى التفكير وإنعام النظر. . . فقد اعتاد جل نقاد العربية أنهم إذا أرادوا بحث أثر أدبي أخذوا ينظرون إلى ما فيه من الأفكار والأخيلة: الجديدة هي فيذكر صاحبها بالفضل؟ أم سبقه بها غيره فيرمى بأنه دعى؟ وليس من - فضل - عندهم

للكاتب الذي يتعرض لما يتعرض له غيره ولو في إيراد مغاير ومن ناحية مباينة. وقديماً عدوا سرقات المتنبي. وفي العام الماضي ثاروا على الأستاذ المازني لأن فكرته في رواية له وافقت بعض الشيء فكرة رواية لمؤلف غربي.

والحق انهم مخطئون في هذا أو مسرفون، وأنه إن لم يكن بد من الحكم حسب الجدة، فعليهم أن ينظروا إلى أسلوب الأداء نفساً أهو جديد أم مستعار. فان كان جديد ألا يحرم صاحبه من فخر الإبداع الأدبي بل يجب أن يعترفوا له بالتفوق على صاحب الفكرة نفسا إذا صاغها صياغة أدق من صياغة سابقة وأكمل، لأنه حينئذ يكون قد أتى بما عجز عنه الأول. ولعل هذا الذي كان بعض المتقدمين يعنيه بقوله: إن المعاني معلومة للجميع وإنما المعول على النظم. هذا هو المقياس المستقيم وبه قدر المنصفون من النقاد الإنجليز حينما حكموا بأفضلية وصف العنكبوتة لبوب على وصفها لدريدن، وإن كان الأول مديناً بالفكرة التي قام عليها الوصف للثاني.

ومن الأمثلة القوية التي يصح الاستشهاد بها في هذا الموضوع شكسبير أعظم الشعراء السكسونيين، والذي لكتابته المنزلة التالية لمنزلة الكتاب المقدس في الأدب الإنجليزي. ولست أستشهد برواياته التاريخية يوليوس قيصر، وانطونيو وكيلوباتره، وكور يولينوس التي استعار أصولها بل بعض أخيلتها مما كتبه المؤرخ الشهير فلوطرخ وإنما أورد رواية أخرى لا تمت للتاريخ بنسب، وتعد من رواياته القيمة التي ألفها في عهد نضوجه الأدبي وهي رواية الليلة الثانية عشرة فقد أخذ حوادثها كلها عن رواية إيطالية، ومع ذلك لم يقل أحد إن شكسبيير لم يكن مبدعاً في هذه الرواية أو أنها ليست من مفاخرة الأدبية.

ومن المفيد أن نذكر خلاصة كل من الروايتين حتى يتبين القارئ مدى الاستعارة.

فملخص الرواية الإيطالية وقد ألفت سنة ألف وخمسمائة وسبع وثلاثين أي قبل تأليف رواية شكسبير بنحو سبعين سنة واسمها جلينجاناتي ' , هو ما يأتي: فابرييتو وليليا. أخ وأخت فرقت بينهما ثورة روما في سنة 1527 دفت المقادير بليليا إلى مودينا مقر فلامينيو الذي كان بينه وبينها علاقة غرام سابقة فتنكرت في زي شاب ودخلت في خدمته فوجدت أنه نسى حبها وتعلق بسيدة من أشراف مدينته تدعى إيزابلا. ليليا كشاب جذاب كانت تحمل رسائل الغرام من سيدها فلامينيو إلى إيزابلا. إيزابلا لم تتأثر بتوسلات فلامينيو ولكنها

أحبت ليليا - وهي رجل في اعتقادها - حباً عميقاً. فابرييتو يصل إلى مودينا ولأمر ما يلقى إيزابلا فتتم بين الاثنين مراسيم الزواج وهو في اعتقادها ليليا شقيقته. تظهر الحقيقة بعد هذا فينتقل حب إيزابلا في سهولة من ليليا إلى شقيقها ويتزوج فلامينيو من حبيبته الأولى ليليا.

وخلاصة رواية شكسبير ما يأتي: الدوق أورسينو يقيم بايليريا، وقد وقع من وقت طويل في حبال غرام نبيلة من نبلاء مدينته تدعى أوليفيا. أوليفيا لا تبادله الحب بل تنتهز فرصة موت شقيقها، وتعلن أنها سوف لا تسمح لأي خطيب بالاقتراب منها وأنها ستمكث في حداد على أخيها سبع سنين. وهنا نرى فيولا توأم شاب من نبلاء ميسالين يدعى سيبستيان، ظن أنه توفى أثناء عاصفة هبت على سفينة كان هو واخته من بين راكبيها، ونجت فيولا بفضل ربانها على الشاطئ المقابل لايليريا، ولما علمت فيولا بأمر أورسينو وكانت تحبه لما تسمعه عنه، فكرت في العمل عنده كأمين، وتنكرت في زي أخيها وقدمها إلى قصر الدوق أحد رجال حاشيته. اطمأن الدوق إليها وأطلعها على حبه أوليفيا واستخدمها في استعطافها، وعندما تراها أوليفيا لأول مرة تفتن بها وتطلب إليها أن تزورها ثانية بحجة أخبارها بسبب رفض طلب اورسينو، وفي المقابلة الثانية تصدم أوليفيا ببرود فيولا التي أظهرت لها أوله غرامها به. فيولا وهي غير قادرة على كشف سرها لأوليفيا تتركها معلنة أنها سوف لا ترجوها في أمر سيدها ثانية. وبعد وقت قصير يأتي سيباستيان الذي يشبه أخته مشابهة تامة حتى أنه لا يميز بينهما إذا ما تشابه لباسهما فتدفعه الحوادث إلى منزل أوليفيا ويتم بينهما عقد الزواج ثم يكشف السر فلا ترى أوليفيا بأساً من استمرار العقد ويتزوج أورسينو فيولا التي كانت تحبه حباً جماً نعم قد استعار شكسبير حوادث روايته من تلك الرواية السابقة على النحو الذي رأينا، ولكنه صاغها صياغة أخرى وخلقها خلقاً جديداً فأفاض عليها من قريحته الخصبة وخياله الواسع أفكاراً وصوراً كسبتها بهاء وجلالا حرمتهما الرواية الإيطالية - فهي على استعارة حوادثها جديدة قوية لأنها في أسلوب جديد وهو أسلوب شكسبير القوي الذي امتاز به من غيره. فليس للنقاد أن يطلبوا من الأديب أن يكون أول عابر للسبل التي يسلكها، أو أصيلا في الموضوعات التي يطرقها، أو مبداعاً للحوادث التي يدور حولها، وإلا كان طلبهم من

ناحية أخرى أن يمعن في الاطلاع على الآداب الماضية، وتفهمها عديم الغناء القليل النفع، ومن غير المعقول أن يكون الأدب الحديث غير قائم على الآداب الماضية؛ كما انه من غير المعقول أن تكون المدنية الحديثة غير قائمة على المدنيات السابقة. اللهم إذا كان أدباً متأخراً لا يمثل العصر الذي قيل فيه.

والذي يؤاخذ به من يريد الاشتغال بالأدب أشد المؤاخذة هو ألا يكون مبتكراً في أسلوبه، أو بعبارة أخرى أن يكون أسلوبه مرقعاً من أساليب أدباء آخرين يحتذيهم وينحو منحاهم، ويا ليته يبلغهم. . . هذا لا سواه هو الادعاء الأدبي. فلا فرق بين الأديب المحسوب على الأدب بالنسبة إلى مأثور القول، إلا أن الأوليخضعه لطبيعته ويتصرف فيه حسب مزاجه الخاص. أما الثاني فيضعف أمامه أو تضعف طبيعته - ضعفه أمام المعبود المقدس فلا يستطيع أن يتناوله بتبديل أو تحوير

وعمل الأديب الحق يشبه تماماً عمل النحلة التي تحيل بطبيعتها الحلوة ما تمتصه من مختلف الأزهار إلى عسل مصفى لا تتبين فيه الأصول التي أخذ منها.

السيد محمد نوفل

حنين المهد إلى الطفولة

للآنسة أسماء فهمي

درجة شرف في الآداب

يكاد يكون الحنين إلى (المنزل الأول)، غريزة من الغرائز الإنسانية، تزداد قوة ورسوخاً كلما توغل المرء في عبور مرحلة الحياة. . . ولعل أعذب ذكريات الشيخ الفاني المثقل بتجارب الحياة أياماً قضاها على شاطئ اليم يلهو مع الصغار ويجمع الأصداف ويلقى الشباك للأسماك أو يصنع دوراً وقباباً من الطين والرمال، ثم يهدمها ليعيد بناءها. . بل إن الفتى اليافع ليتضاءل أمام عينيه ما يستمتع به من قوة ومرح وصفاء عندما تستعرض مخيلته صور عهد الطفولة المليء بالسذاجة والحركة المتواصلة والمرح البريء. . . وقد ينشأ المرء وضيعاً في كوخ حقير ثم يرتقى سلم العلياء ويسكن القصور ذات الحدائق الغناء ومع ذلك تتوق نفسه للحج إلى مهد الطفولة وتستحيل في نظره خشونته نعومة وقبحه حسناً وجدبه رخاء. . .

وهذا الحنين هو أساس الوطنية ونواة إعزاز القومية لا تخلو منه إلا القلوب الصماء المجردة من العطف والوفاء فلا بدع إذن أن يحط الركاب الشاعر الفياض العاطفة إذا مر بأطلال الديار ليذرف دمعة أو ليستعيد ذكرى أو ليرسل نجوى قبل أن يستأنف المسير ويخب الخطى به عشرا. . .

ولعل أشد الحنين هو حنين ذلك الذي ينتزع انتزاعاً من بين أحضان مهد طفولته ويقصى عنه قوة واقتداراً، ثم يشغل هذا المهد العزيز الوثير أعداؤه المغتصبون بينما هو لا يجرؤ أن يحاول منه اقترابا، إذ تحول بينهما الاستحكامات والحصون فلا يجد من وسائل الاتصال غير الذكرى والخيال. . . ولكن الذكرى التي لا أمل يصحبها ويجلوها تصبح كرياح القيظ اللافحة تحرك الأشجان كما تثير الرياح الرمال. . . والحنين يبعث الذكرى التي هي رمز الوفاء. . . .

إذن فبأجنحة الذكرى أحلق فوق مهد الطفولة المقدس - فوق ربوع السودان. . تلك الربوع التي كانت ميداناً لبطولة الأجداد والآباء، منذ عهد الفراعنة قبل أن تصبح مهداً لبراءة الطفولة ومرحها الفياض

هنالك في إحدى بقاع السودان عند ملتقى النيل الأبيض بالأزرق قضت فتاة سني الطفولة التي مهدت لها الطبيعة هناك كل وسائل اللهو والنعيم، فحبتها ببساط لا نهاية له من الرمال الذهبية تنطلق فيه انطلاق الظبي في الفلوات. . كما زودتها بأشجار باسقة من دوم ونخيل وساسبان كانت رؤوسها حصناً منيعاً للطفلة التي كانت تهرع لتسلقها بمهارة القردة وخفة النسانيس إذا أصابها ذعراً أو لحقها وعيد! ولطالما وجدت الطفولة في أمطار السودان الغزيرة وسيوله المندفعة التي تكتسح الدور والأشجار والناس ما يثير اللذة والخوف معاً. . ومن ثوران الزوابع والعواصف التي كانتتنافس السيول في الجبروت وكثرة الأسلاب، كانت تستمد الطفولة الطليقة نوعاً من التسلية الممزوجة بالدهشة، وتنصت باهتمام إلى دوي العواصف وقصف الرعود التي تعلمت كيف تأنسن بها بعد أن تغلق الأبواب والنوافذ دونها! والحر على شدته وقسوته لا يضير الطفولة، لأنها بالنهار تلهو برؤية الطيور الفاتنة التي تنطلق أمامها مداعبة ومحاورة، فتطلق على ذات الريش الأخضر منها (عصافير الجنة) والأحمر (عصافير النار) وان كانت لا ترعى حرمة الأولى ولا تخشى حرارة الثانية! بل تجد في اللحاق بها دون جدوى. . على أنها سرعان ما تشعر بالجهد فتتجه دون ندم إلى مداعبة الغزلان الوديعة الجاثمة في الظل أو معاكسة الببغاء الثرثارة أو القردة والنسانيس المتمردة. . التي قلما تخلو منها حديقة من حدائق منازل السودان. . وفي الأصيل عندما يهب عليل النسيم وتنخفض جذوة الحرارة ويسمع نعير السواقي يمتزج بأغاني السودانيين الرقيقة على ضفاف النيل، وتمتطى صهوة مهر أو حمار وتندفع بين الأدغال بمحازاة النهر العظيم بينما تتناثر عليها سلاسل ذهبية من أشعة الشمس المائلة للغروب. فتطل عليها من بين غصون الشجر مودعة وتكر راجعة إلى حيث تجتذبها أصوات الرفاق اللاعبين فوق بساط الرمل الوثير. . وسرعان ما تنبثق النجوم في القبة الزرقاء. . ويتهادى القمر حتى يستوي على عرشه المتلألئ في صدر السماء. . بينما تتعالى تهاليل الأطفال البيض منهم والسود سواء. . لأن الطفولة تسمو فوق فوارق الألوان والأديان والأجناس. .

وهكذا كان يسود التفاهم والوئام بين الطفولة والطير والعجماوات والأشجار والعواصف والأمطار والناس - في حين كانت رتع آمنة في ذلك الفضاء غير المحدود الذي حبب إليها

. . .الحرية المطلقة طبعها على الصراحة وجعلها تهيم بالجمال في شتى نواحيه ولكن ما هي إلا عشية أو ضحاها حتى زلزلت الأرض زلزالها وقبض (سنخاريب) على معول يهدم به وكر السعادة. . . فاستفاقت الطفلة مذعورة في أحد أيام شتاء سنة 1924 ونظرت حولها فكادت تنكر الدار التي بها ترعرعت إذ هنا وهناك تكدس أمامها الأثاث في غير نظام وعهدها بدارها نموذج التنسيق والجمال. . . وإذا بالأم تقبل مرتجفة واجمة وتنادي الطفلة بصوت تخنقه العبرات أن أسرعي فقد أزف وقت الرحيل عن الديار نعم، وا أسفاه. . . لقد حل بالمصريين في السودان عام 1924 ما دهى بني إسرائيل في أورشليم في القرن السادس قبل الميلاد على يد الكلدانيين. . . ولم تطلب الطفلة إيضاحاً لأنها أدركت بغريزتها حدوث أمر جلل. . وهل بعد الطرد والتشريد من الديار من مصاب؟. . تركت الطفلة حجرتها في صمت رهيب، وسارت حتى بلغت حديقة الدار الفسيحة فأطلت على النيل برهة امتزجت فيها دموعها بمياهه، ثم توغلت بين الأشجار التي طالما احتمت برؤوسها كلما توعدتها أمها بالعقاب وتعلقت بغصونها، وأخذت تقبلها قبلات الامتنان والوداع. ومازالت تسير حتى بلغت مكان طيورها وحيواناتها العزيزة ووقفت أمامها في خشوع فأقبلت إليها النسانيس وتعلقت بشعرها ونظرت في وجهها كما لو كانت تستفهم سبب وجومها، واقتربت منها الغزلان وقد كان عهد الطفلة بها شدة النفور والابتعاد فوقفت أمامها كتمثال. ولم تكد الطفلة تجثو على قدميها لتعانق أعزاءها العناق الأخير حتى أقبلت الأم مهرولة، وجذبتها معلنة قدوم العربات. فاستسلمت الطفلة استسلام اليائس، على أنها سرعان ما وقفت عن المسير وأجهشت بالبكاء إذ تذكرت أنها تركت وراءها عصافيرها المحبوبة دون ماء أو غذاء، ولكن الأم رغم تأثرها العميق لم تدعها تفلت من يدها إذ كان عليها أن تحلق القطار.

بمثل هذه العجلة المؤلمة ختمت حياة الطفولة الرغدة في السودان وبمثل هذه القسوة انتزعت الطفلة البريئة من بين أحضان المهد الرؤوم دون إنذار. . فلا غرو أن يتضاعف حنينها إلى المهد المغتصب الذي له فوق قداسة ذكريات الطفولة السعيدة قداسة الماضي التليد: ماضي البطولة وبذل النفوس من أجل الخلود. . .

أسماء فهمي

ذكرى. . .

// لم يطل ليلى ولكن لم أنم ... ونفى عني الكرى طيف ألم

ولكنه لم يكن طيف غرام ولا خيال غانية، ولم يكن صدا هذا الذي عقد طرفى . . . بالنجم، ولا بعدا هذا الذي أغرى بي الهم، ولكنها ذكرى!

كن ما استطعت قوي العزم، عصي الدمع. فسيصهرك الأسى وسيقهرك الدمع، سيلاحقك هذا الطيف، ستستبد بك هذه الذكرى

مصر في أمر مريج: رجال هنا وبنود، ورصاص هناك وجنود، هنا حق مغلوب أبي، وهناك باطل ظلوم قوي، هنا رجال أقوياء بحقهم يزيدهم الإيمان غلوا؛ وهناك رجال أقوياء بسلاحهم يزيدهم الظلم عتوا، ولكن الحق من روح الله فهو نصيره، والباطل من عمل الشيطان فالخذلان مصيره.

الشوارع يومئذ تزخر بأمواج المتظاهرين الثائرين، الشباب دائماً في الطليعة، الرايات الخضر تتردد خفاقة بين أحضان الريح، الموسيقى تعزف أنشودة (الحرية أو الموت) الصليب والهلال يتعانقان بعد أن محت وحدة الألم ما أقره في الأذهان المريضة صاحب (فرق تسد)، السيدات يلوحن من النوافذ بالمناديل والأعلام، ويهتفن في اتصال وانفعال. . بل إني لألمح فتاة شقراء يلفها العلم الأخضر تتقدم الصفوف، وتهتف في صوت حزين رهيب تخنقة العبرات ونبرات طويلة حلوة (شجرة الحرية تروي بالدماء - في سبيلك يا أماه نستشهد)

لقد كنت تلميذاً صغيراً يومئذ، ولكن اسماً وتاريخاً ما زالا محفورين في قلبي. أما التاريخ فهو 19 مارس 1919 وأما الاسم فهو (مصطفى ماهر أمين) الطالب بالسعيدية!! لقد كان مصطفى يقود الصفوف، وصدى المدافع يصم المسامع، والهول يأخذ على الناس كل طريق، وقد انبثت أسباب الموت في كل مكان، وتقسم الجنود الشوارع ينثرون على الجموع رشاش الهلاك، مصائب بعضها فوق بعض ولكن مصطفى ماض في عزم، راض في ايمان، يحمل العلم عاليا خفاقاً، ويحتمل الألم

راضياً فخوراً، عيناه تشعان نوراً وصدره يلتهب نارا وسعيرا، شفتاه تقذفان شرراً، ووالله ما رده اليأس ولا الخوف، ولا صده العنف ولا الضعف، يسوقه الإيمان ولا تعوقه النيران، يدفعه الإخلاص ولا يمنعه الرصاص: رجل والرجال في الدنيا قليل، وهناك. . . عند
شجرة الحرية سالت دماء الرجال والرجال في مصر كثير، وفي لهيب المجد تراكم الوقود من الجنود، وعلى مذبح الفداء تزاحمت من الضحايا الوفود.
طلعت الجنود الإنجليزية من إحدى المنعطفات وراحت مناجل الموت تحصد زرع الوطن، والشباب مع ذلك يستبق إلى الحتوف كلما ذاب صف تقدمت صفوف، ثم سقط مصطفى فتدفقت لرفع العلم ألوف. ويلاه! ما أمر الذكرى ولكن ما أحلاها!! لقد رأيت مصطفى قبل أن يسلبه ملك الموت سر الحياة: عيناه تبسمان في رضا وإيمان، الألم يمزق ضلوعه، الدم يدفق من فمه، شفتاه تهمسان بكلمات خافتة، اكبر اليقين أنها تسبيح بمجد الوطن.
ورأيت الضابط الإنجليزي الذي صرعه بمسدسه على خطوات منه، ورآه كذلك مصطفى، فكأن رؤيته له حلت عقدة من لسانه فهتف (فداء الوطن - لتحيى مصر) ثم أغمض مصطفى عينيه ونقل إلى المستشفى حيث استرد الله فيه وديعته.
هذه هي الذكرى التي حطمت أعصابي أمس، وأزجت إلى روحي الحزن، وكلفتني قطرات من الدمع، ولكني رغم كل شيء لم أتمالك أن ابتسمت من خلال الدموع، لأن في مصر رجالا يعرفون كيف يستحب الموت. حين تكون في الموت حياة. . .
لست أشك أن ذكرى مصطفى - أول الشهداء - قد مست من قلوبكم مكامن الحسرة، بل إني لا أغلو إذا قلت إن غير قليل منكم ترجحت في عينه دمعة أو دمعتان وجرت في عروقه هزة عنيفة، بل سأمضي إلى أبعد من هذا، فازعم ان بعضكم سيقاسي الذي قاسيت من سهد وجهد في دفع الأرق!
أيها الناس! اذكروا (مصطفى ماهر أمين) فقد مات لتحيوا! أيها الوطن! اذكره فقد جاد بدمه لتكتب به سطوراً في صفحة الحرية والمجد والخلود، والجود بالنفس أقصى غاية الجود
أيها الخلود! سجل اسمه في سفر الأبطال الخالدين
أيتها الجنة: التي أعدت لمن أحسن عملا. أعدي له مكاناً بين الشهداء والصديقين. . .
وأنت يا رب. أكرم مثواه وابسط عليه جناح رحمتك، فقد مات في الشباب
محمود البكري القلوصناوي
في الأدب العربي
شوقي
1351م - 1932هـ
للأستاذ عبد العزيز البشري
هو أحمد شوقي بك بن أحمد شوقي بك. ولد بالقاهرة ونشأ فيها. وقد حدث عن نفسه في مقدمة الطبعة الأولى لديوانه (الشوقيات) قال: (سمعت أبي يرد أصلنا إلى الأكراد فالعرب، ويقول إن والده قدم هذه الديار يافعاً يحمل وصاة من أحمد باشا الجزار إلى والي مصر محمد علي باشا. . . فادخله الوالي في معيته، ثم تداولت الأيام، وتعاقب الولاة الفخام. وهو يتقلد المراتب العالية، ويتلقب في المناصب السامية، إلى أن أقامه سيعد باشا أميناً للجمارك المصرية). ثم ذكر طرفاً عن سيرة جده لوالدته إلى أن قال عن نفسه: (أنا إذن عربي، تركي، يوناني، جركسي).
وقد كفلته من المهد جدته لأمه، وكانت في يسر ونعمة، على حين أتلف أبوه ما ورثه عن أبيه. ولقد كانت جدته تيك من وصائف قصر الإمارة في عهد إسماعيل. قال: (حدثتني (يريد جدته) إنها دخلت بي على الخديو إسماعيل، وأنا في الثالثة من عمري، وكان بصري لا ينزل عن السماء من اختلال أعصابه، فطلب الخديو بدرة من الذهب، ثم نثرها على البساط عند قدميه، فوقعت على الذهب اشتغل بجمعه والعب به، فقال لجدتي اصنعي معه مثل هذا فانه لا يلبث أن يعتاد النظر إلى الأرض. قالت هذا دواء لا يخرج إلا من صيدليتك يا مولاي. قال جيئي إلي به متى شئت).
فلما بلغ الأربعة أدخل في مكتب الشيخ صالح، وكانت نشأته في خط الحنفي، وقد جاز بعد ذلك متفوقاً بارعاً مرحلتي التعليمين الابتدائي والثانوي. فلما تقدم إلى مدرسة

الحقوق اعتل ناظرها عليه لصغر سنه. على انه دخلها ودرس بها عامين. وكان قد أنشئ فيها قسم للترجمة، فعدل إليه ولبث فيه سنتين أخريين، وأحرز الإجازة النهائية.
وألحقه المرحوم الخديو توفيق بمعيته. ثم أشخصه على نفقته إلى فرنسا ليدرس الحقوق والآداب الفرنسية، على أن يقضي عامين في مدينة (منبلييه)، وعامين في باريس. حتى إذا أحرز الشهادة
النهائية رأى والي الأمر أن يظل في فرنسا ستة أشهر أخرى ففعل، وعاد بعدها إلى مصر، وتولى منصبه في معية الأمين.
وفي سنة 1896م ناب عن مصر في مؤتمر المستشرقين الذي عقد في جنيف من أعمال سويسرا.
وما برح شوقي يتدرج في المناصب حتى تولى رياسة القلم الإفرنجي في المعية الخديوية. ولما نشبت الحرب الكبرى أزيل عن منصبه. ثم رؤى له أن يغادر البلاد، فاختار برشلونة من أعمال أسبانيا مثوى له ولأسرته. ولم يؤذن له في العودة إلى مصر إلا بعد أن استقر السلام العالمي.
ولقد رأيت أن أكبر منصب سما إليه شوقي في معية الخديو هو رياسة القلم الإفرنجي، على أن نفوذه وسلطانه لقد تجاوزا شأن هذا المنصب إلى حد بعيد، فلقد نال من الحظوة عند ولي الأمر ما لم ينله من قبل أحد. فكانت داره (كرمة ابن هانئ) مثابة طلاب الحاجات، ومورد المستشفعين من كل ناحية، صغار الناس وكبارهم في هذا بمنزلة سواء. فلقد كانت إشارته حكما، وطاعته عند أكثر الحكام من بعض المغانم ولقد كانت مصر إلى ذلك العهد تابعة للدولة العثمانية، فكان شوقي كثير الاختلاف إلى الآستانة، فلا يكاد يدخل الصيف من العام إلا وهو على جناح السفر إليها، فلا يلقى من أولياء الأمر هناك إلا الإجلال والنزول في منزل الكرامة. ولقد انتهى إلى الخليفة في إحدى السنين خبر مقدمه فأمر بان يقيم ما أقام هناك ضيفاً على مقام الخلافة. وأنعم عليه بالرتبة الأولى من الصنف الثاني وهو يتقدم بها على بعض من يحملون لقب الباشوية. كما انعم عليه بكبار الأوسمة من الدولة العلية، ومن ألمانيا (قبل الحرب) ومن الدولة السورية.
وكان، رحمه االله، شغفاً بالسياحة في الغرب وفي بلاد الشرق القريب، ولكنه في مؤخرات عمله قصر سياحاته على البلاد السورية واللبنانية، فيلقى من أعيانها وأدبائها أبلغ العطف وأعظم الإكرام.
وفي سنة 1927 عقد في مصر مؤتمر لتكريمه اشترك فيه عنق من رجالات مصر وعلمائها وأدبائها، وحضر إليه عدد غير قليل من أعيان الأدباء في الأقطار العربية. وتوجت حفلة التكريم برعاية حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم فؤاد الأول حفظه
الله لقد عاش شوقي مبجلا عالي الاسم، رفيع المنزلة. فلما قبض إلى رحمة الله تعالى أقامت له وزارة المعارف بالاشتراك مع طائفة من أعيان أهل الفضل والأدب حفلة تأبين دعت إليها كبار العلماء والأدباء في الأقطار العربية. وشرفها جلالة الملك المعظم بنائب عن ذاته الكريمة. وقد أقيمت هذه الحفلة في دار الأوبرا الملكية في شهر ديسمبر من السنة التي قبض فيها.
وبعد، فقد تقلب شوقي من أول نشأته في النعمة، وأصاب ما شاء من متع الحياة، ولو قدر لخلق من الناس أن يدركوا كل مناهم، وأن يبلغوا الحياة مدى أشرها، لكان شوقي من أحد هؤلاء
وإذ قد عرفت هذا فلا يتعاظمنك ما ترى من شيوع الترف في شعره، فلا تقع من تشبيهاته، في غير المآسي، إلا على كل فاخر ثمين
صفاته وأخلاقه
كان شوقي ذكيا وافر الذكاء، حيا جم الحياء، لا يتبسط في الحديث إلا إذا خلا له وجه صديق أو صديقين. ولعل بعض ما حمله على هذا أن طلاقة لسانه لا تكافئ فصاحة قلمه، ولا تواتي مطالب عقله، يكره الدخول في زحمة الناس، وينفر من شهود الحفل الجامع؛ إلا أن ينقبض في ركن من ملهى أو ملعب، وادع النفس، هادئ السعي. لا تراه يعنف، وقل أن يستفزه الغضب. عطوف شديد العطف، رحيم كثير الرحمة. ينفر من ذكر المآسي ويفر من رؤيتها فراراً. على أنه مع هذا قد راض نفسه على الصبر على

المكروه، ودربها على الرضا بالقضاء واقعاً حيث وقع. فإذا لحقه المكروه راح بذهنه يستخرج من بعض نواحيه خيراً. فان تعذر عليه استراح في النهاية، إلى أن الله تعالى إنما دفع به ما هو أكره.

وهو دائم الاعتداد بما يعتريه من النعماء، فإذا دقت وصغرت جعل يجلها ويعظم، ولو بالتخييل، من شأنها. وعلى الجملة فان هذا الرجل لو انحدرت عنه كل نعمة لعاش من رضاه في أوسع نعمة. وعلى هذا لقد كان من أقل الناس شكوى من زمانه. ولعل أوجع ما شكى فيه قوله

أحرام على بلابله الدو ... ح حلال الطير من كل جنس؟

وهذا قاله وهو منفى من وطنه. ولقد جعل الله النفي من الوطن عديلا للقتل والصلب وتقطيع الأطراف. قال جل مجده: (إلا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض). وأي رجل هذا المنفى من وطنه؟ هو الذي يقول في هذا الوطن من القصيدة نفسها:

نازعتني إليه في الخلد نفسي ... لو شغلت بالخلد عنه طني!

ولقد كان شوقي شديد الإيمان بالله تعالى وملائكته ورسله واليوم الآخر والقدر. ولم تحص عليه في هذا الباب زلة لسان أو عثرة قلم، وكان شديد الحنين إلى السيد المسيح صلوات الله عليه، دائم الذكر له في شعره ما واتته المناسبة. يذكره في عطف وشوق ولهفة، وإذا ذكرت ما ركب في طبع هذا الشاعر من الرقة والرحمة والحنو ودعة النفس أدركت الوجه في إيثاره لاسم هذا النبي الكريم بكثرة الإشادة والترديد

على أن شوقي. على شدة إيمانه هذا، كان في شباب السن مستهتراً بلذائذ الدنيا، مسرفاً في الإصابة مما يطيب له منها، لا يتأثم في هذا ولا يتكلف مداراة الناس، فبلغ فيه حداً يشبه الإباحية، ولكنه حين لحقته السن، قصر متعته على شهود (السينما) وحضور مجلس الغناء، وله من بلائه في النضح عن دولة الإسلام وفي مدحه لسيد الأنام أعظم رجاء في كرم العاقبة وحسن الختام ولقد قال في (نهج البردة)

إن جل ذنبي عن الغفران لي أمل ... في الله يجعلني في خير معتصم

وهو بعد هذا مفتن بأجمع معاني الكلمة، يكلف بفنه إلى حد الافتتان، بل إنه لا يكاد يرى الرجل كل الرجل يتمثل إلا في الشاعر.

ولا يرى للحياة في جميع صورها غاية إلا قرض الشعر. انظر كيف يقول على لسان إحدى من ينسب بهن:

جاذبتني ثوبي العصى وقالت: ... أنتم الناس أيها الشعراء!

ولقد كان إلى هذا شديد التمكن من نفسه حتى ما يرى في الدنيا شاعراً يباريه أو يتعلق بغباره.

شاعريته

لم يطاول شوقي في قرض الشعر ولم يجهد فيه؛ بل لقد جاء به فتى؛ وأطلقته قريحته الغضة عالي المعنى، فخم اللفظ؛ متلاحم النسج، ومدح الخديو توفيقاً وهو لما يزال طالباً

حدثاً، ونشرت مدائحه يومئذ في (الوقائع المصرية)، وارتفعت من قورها إلى ولي الأمر. فدل هذا على أن فيه طبيعة؛ وانه أوتى الموهبة. ثم لقد كشف الزمن عن ان تلك الموهبة من الضرب الرفيع الغالي الذي يضن بنفسه على الأجيال

ولا شك في أن المواهب الفنية لا تعلل. فان حاولت أن ترد هذا إلى أنه قد دخل في أصله العنصر العربي، فهذه ملايين الخلق من خلص العرب، لم يقولوا الشعر ولم تنتضح به ألسنتهم، وأكثر من عالجوه منهم لم يرتفعوا إلى شيء من حظ شوقي، وإن أنت رددته إلى أنه جرى في أعراقه الدم اليوناني، فهذه الملايين من اليونان الخلص لقد تعذرت عليهم ملكة الشعر فلم يجيئوا منه بجيد ولا برديء

نعم، لقد يكون للعنصر وللدم دخل في توجيه شاعرية الشاعر، وتكوين عقليته وفي تصوير منطقه، وتلوين عاطفته، والذهاب بنزعته مذهباً خاصاً. ونحو ذلك. أما أن ذلك مما يخلق الموهبة خلقاً، فهذا مالا يكون.

شعره

تقدم لك في أثناء هذا الكتاب صفة الشعر في العصر الحديث (من الحملة الفرنسية).

وكيف كان يغلب عليه الضعف والإسفاف، والدوران في فنون من الأغراض لا غناء فيها لمطالب العاطفة، ولا لحاجات المجتمع. ولقد نجم شوقي أول ما نجم والكثرة الغامرة من جمهرة الشعراء على هذا؛ على أنه من يمن طالعه أن تقدمه إلى قرض الشعر أفذاذ ثلاثة: عبد الله فكري، ومحمود سامي البارودي، وإسماعيل صبري. فدلته الموهبة عليهم، وعدل من فوره إلى احتذائهم، وانتهاج طريقهم في تجويد الشعر باصطفاء اللفظ، وإحكام الصياغة، والاحتفال للمعاني، وعدم استهلاكها في سبيل البديع، صنع أكثر من يقوم في العصر من الشعراء.

ولقد كان في صدر شبابه كلما قرض قصيدة أو نظم مقطوعة من الشعر عرضها على إسماعيل باشا صبري، وهو شاعر قد بلغ الغاية من دقة الذهن، وكمال الذوق، ورهافة الحس، فلا يزال يعالج معه ما عسى أن يقع من قلق في اللفظ، أو انحراف في المعنى، أو نشوز على مواقع الجمال. وتلك كانت سنة كثيرة من الشعراء من قديم الزمان.

وشوقي، فوق هذا، كان شديد الاكباب على قراءة الكتب بوجه عام، وكتب الأدب على وجه خاص، ودواوين الشعراء على وجه أخص. ومن أعظم من عنى بقراءة دواوينهم، واستظهار أشعارهم، وانتهاج طرائقهم، ومباراتهم في منازعهم. أبو نواس، وأبو تمام، والبحتري، والمتنبي. وقد نضح أربعتهم على شعره، فكان أثر كل منهم فيه بينا. وإنك لتلمح فيه حلاوة أبي نواس ودقة وصفه، وتصرفه في فنون الغزل، وإشادته بمجالس اللهو، وافتنانه في الخمريات، كما تلمح فيه احتفال أبي تمام للمعاني الرفيعة والارتصاد لإصابتها مهما جشمه ذلك من إعنات اللفظ وجلجلة الصياغة. ولقد تلمح فيه هلهلة البحتري، وإحكام نسجه، وبراعة نظمه. أما أثر المتنبي في شعره ففيما ترى من شيوع الحكمة والإكثار من ضرب المثل

ولا يذهب عنك أن هذا الكلام ليس معناه أن شوقي إنما هو مستعير منهم ومقلد لهم. بل الغرض أنه استظهر أشعارهم فاتصلت بذوقه، وجرت في عروقه، وخالطت طبعه فنضحت على قلمه.

والواقع أنه إذا كانت أشعار هؤلاء الشعراء وغيرهم من العناصر التي دخلت على شاعرية شوقي وجلته في هذه الصورة، فانه مما لا شك فيه أن للرجل شخصيته القوية الخاصة به، والتي ينفرد بها عن سائر من عداه من الشعراء، حتى إنك لو عرضت شعره على أهل البصيرة من نقدة الكلام لما ترددوا في نسبته له وإضافته إليه، شأن غيره من فحول البيان. واعلم ان احتفال الشاعر للمعاني حتى ليقلق الألفاظ في سبيلها لا ينافي اجتماعه في بعض الأحايين لاحكام النسج وتجويد الصياغة. والشاهدة على هذا ما نرى في شعر أبي تمام والبحتري كليهما.

ولا شك أيضاً في أن من العناصر التي دخلت على شعر شوقي فذهبت به هذا المذهب حذقه اللغة االفرنسية، وسعة اطلاعه فيها على أدب الغرب، وترويه عيون بلاغاته. ومن الحق أن يذكر له في هذا المقام، أنه كثيراً ما مس فمن معاني القوم أو لمحها في شعره، ومع هذا لقد جلاها عربية خالصة لا تنشز على الذوق العربي، ولا يجد هو فيها ريح الاستعجام. وإذا ذكرنا أن شوقي من أوائل من ارتصدوا لهذا وعالجوه في العصر الحديث، فجاء به عربياً خالصاً في مثل هذا اليسر، قدرنا بمبلغ كفايته وتبريزه في فنون البيان.

كذلك من العوامل التي لها أثر واضح في شعر شوقي نشأته في بيت الملك، ومقامه في

بطانة الأمراء وظهارتهم، ودخوله في أدق الأسباب السياسية في مصر، سواء ما اتصل منها بالدولة المحتلة (إنجلترا)، أو بالدولة المتبوعة يومئذ (تركيا).

وفي الغاية، لا تنس أثر سياحاته الكثير في بلاد الغرب، وفي بلاد الشرق القريب، ومخالطته لأصناف الخلق، ووقوفه على طباعهم وأخلاقهم ومأثور عاداتهم، وما تجلى من صور الطبيعة في بلادهم، وغير ذلك مما لا يتهيأ لكثير من الشعراء.

وبعد، فمما لا يعتريه الريب أن شوقي يعد بحق، من أعظم أقطاب الشعراء في العالم العربي كله؛ بل إن بعض النقدة ليتخطى به القرون فيصله بأعلام الشعراء في أزكى عصور العربية وأنضرها بياناً

ولقد تصرف شوقي في كل فن، وجال في كل غرض، وأصاب من كل مطلب، فبذ وبرع. وعارض متقدمي الشعراء ومتأخريهم فما قصر ولا تخلف. ولقد ظل جيلا ونصف جيل يرسل غالي الشعر، ما وقع في البلد من حدث إلا جلجل بالقريض، ولا كانت الجلى في رجاً من أرجاء العالم إلا نظم ما تتقطع من دونه علائق الأقلام.

وهنا ينبغي أن يذكر له ولصاحبه حافظ ابراهيم، عليهما رحمة الله، انهما من أوائل من بعثوا الشعر في الأغراض العامة، وخاضوا به في المسائل الاجتماعية، فأغنوا وأجدوا، وأصبح أثرهم في هذا الباب ثابتاً على وجه الزمان.

ومن خصائص شوقي في شعره أنك قد تراه يمدح أو يرثى أو يتصرف في غير هذين الفنين من فنون القريض، ولكنه لا يفتأ ينحرف عما هو بسبيله إلى ضرب مثل أو إجراء حكمة فيها كل النفع لو قد أخذ بها الناس.

وهو طويل النفس جداً حتى لقد يبلغ بالقصيد المائة، وقد ينيف عليها في غير قلق ولا إسفاف. ولقد بلغت قصيدته (كبار الحوادث في وادي النيل) مائتين وتسعين بيتاً أكثرها من مصطفى الشعر ومتخير الكلام.

وله مقطوعات شعرية يرجعها بعض حذاق المغنين اليوم ومن شعره الذي لو تقدم به الزمان لكان حقيقاً بان يتغنى به أمثال إبراهيم الموصلي وابنه إسحاق قوله من قصيدة (لبنان):

دخل الكنيسة فارتقيت فلم يطل ... فأتيت دون طريقه فزحمته
فازور غضباناً وأعرض نافرا ... حال من الغيد الملاح عرفته
فصرفت تلعابى إلى أترابه ... وزعمتهن لبانتى فأغرته
فمشى إلي وليس أول جؤزر ... وقعت عليه حبائلي فقنصته
قد جاء من سحر الجفون فصادني ... وأتيت من سحر البيان فصدته
لما ظفرت به على حرم الهدى ... لابن البتول وللصلاة وهبته

وديوان شوقي رحمه الله يقع في أربعة أجزاء، طبع منها اثنان. وله غيره من الشعر كتاب (عظماء الإسلام)، وكشكول جامع لقصائد لم تنشر، وقصائد سهلة للأطفال والأغاني، وربما استغرق هذا الكشكول ثلاثة أجزاء. وله في النثر كتاب (اسواق الذهب) جارى فيه الزمخشري رحمه الله في كتابه (أطواق الذهب) وله روايات شعرية وهي: على بك الكبير، وكيلوبترا، ومجنون ليلى، وقمبيز، وعنترة، وله روايات أخرى نثرية منها: لا دياس، وورقة الآس، ومذكرات بنتاؤر، وأميرة الاندلس. ومن هذا تدرك مبلغ إنتاج الرجل وسخاء ذهنه من يوم نجم إلى أن أدركته الوفاة.

من طرائف الشعر

إلى الشتاء

للأستاذ محمود الخفيف

أيها الراحل العنيد وداعا ... قد سئمناك من زمان بعيد
كم تظاهرت بالرحيل خداعا ... فظننا خطاك تمضى تباعا
فإذا أنت مقبل من جديد!
طال شوقي إلى الربيع فهيا ... يا شتاء حويت كل عجيب
مذ ترااأيت مكفرا عتيا ... تنذر الناس بكرة وعشيا
بضحى شاحب وليل كئيب!
حين أقبلت يا شتاء علينا ... في بنود من السحائب سود
جئت قبل الأوان تسعى إلينا ... وتوغلت في الربوع لدينا
بين دمع الحيا وضحك الرعود
هازئا بالغصون ألقيت حلاها ... وتعرت على امتداد الضفاف
ولّه الطير عريها فتراها ... نازحات تغربت عن حماها
في فروع الكروم والصفصاف
وترى كل جدول أو غدير ... ناضب القاع بعد طول امتلاء
يشتكي الجدب في زمان مطير ... ويطيل السكوت بعد خرير
قبل لقياك كان حلو الغناء
شبح أنت يا شتاء مخيف ... ماثل الطيف دائماً في خيالي
قارس البرد زمهرير شفيف ... عاصف أينما حللت عنيف

هيكل قدّ من سواد الليالي
لست أنساك حين لحت عشاء ... فوق كوخ تناوبته الرياح
لم يجد ساكنوه منك وقاء ... فتراهم أذلة أشقياء
ما دجا الليل أو تراءى الصباح
لست أنساك إذ تمثلت يوما ... شبحا لاح في زوايا الطريق
أورثته الحياة بؤساوهما ... شاحب الوجه زاده الجوع سقما
ناحل الجسم في كساء عتيق
أنت كالدهر قُلَّبِيٌّ كذوب ... لا يروق العيون منك صفاء
هادئ تارة وطورا غضوب ... يعقب البشر ان صحوت قطوب
مثلما يعقب النعيم شقاء
أيها المُؤْذِني بليل رهيب ... وصباح مجلل بسواد
ونهار هامي الدموع كئيب ... لست أقسى إساءة من حبيب
لج في الصد بعد طول وداد
يا شتاء شيعته في جفاء ... لست أقسى من الجهول الظلوم
لست أقسى عداوة من مراء ... أو جحود فؤاده من عداء
مشرب اللون من سواد الغيوم
الجندي القديم
للأستاذ فخري أبو السعود
لقد كان يوما شديد الأياد ... رشيق القوام نضير الصِّبا
يقضِّى مع الصحب ساعَ السرور ... وينهب والغيدَ صَفوَ الهوى
وتحلو أحاديثه للرفاق ... إذا جمعتهم كؤوس الطلى
فَتَبَّهَهُ ذات يوم نداءٌ ... إلى الحرب يدعو فلبَّى النِّدا
لِيحمى أوطانه في الحماةِ ... ويدرأ كيد عدوٍّ طغى
ويَدفَعَ عن أرضه فهي كهف ... الحضارة طرًّا ومأوى العلا
ويقتحم الموت من أجلها ... ويَلقى الحديد ويَصلى اللظى
ويأخذ بين الصفوف مكان ... الألَى طحنتهم تروسُ الرحى
فقاسى أذلاها وأهوالها ... ودافع ما شاء أو لم يَشا
وصادف في كل يومٍ حماماً ... وذاق من الخوف ألْفَىْ رَدَى
فإذ كادت الحربَ أن تنجلي ... ويَطرِحَ الجند ذاك العنَا
وآن له أن يعود قريراً ... لأوطانه بعد طول النوى
أتيح له قاذفٌ فرماه ... بمارج نارٍ إليه هوى
فطاح بساق له بعد ما ... تراءى قريباً بعيد المنى
ولم يَدرِ ثَمَّتَ مَنْ ذا رماه ... ولم يدر واتِرُهُ مَن رمى
وأيَّ فؤادٍ دَهى فأثارَ ... به الحسراتِ طِوالَ المدى
وما اجتمعا قبلها في مكان ... ولا التقيا بعد ذاك اللقا
ولكنها محن ثَمَّ تهوى ... على خائضيها هُوِيّ القضا
فآب بساقٍ إلى قومه ... وقد غُيِّبَتْ أختها في الثرى
فقلده الحاكمون وساما ... وأثنوا عليه جزيل الثنا
وقالوا افتدَى وطناً غاليا ... بِعضوٍ ثمين فنعم الفدى
وأجرَوْا عليه الكفاف جزاءً ... على ما سعى وعلى ما جنى
وعاد إلى داره مفردا ... يقَضِّي الحياة إلى المنتهى
ذوى عوده وانحنى رأسه ... وجلل فوديه شيبٌ بدا
بجانب موقده يصطلى ... بياضَ النهارِ وشِطْرَ الدجى
وحيداً فبالصحب عنه اشتغال ... بِرَوْم الصفاء ونَشْدِ الغنى
يدخن مسترسلا في الخيال ... ومستغرقا في قديم الرُّؤَى
ويَذْكرُ وسْطَ دُخَانِ الطباق ... دُخَانَ الحروبِ ونارَ الوغى
وكيف ألمَّتْ به الغاشياتُ ... فخاض دُجاها وكان الفتى
وكم كرَّ بين صفوف العدوِّ ... فأوْقعَ في القومِ ثم انثنى
ويروى وقائعه الرائعات ... لأيِّ أصابَ وأيِّ رأى

ويسردهن عليه مراراً ... وهيهات يسأم مما روى
ويسردهن على نفسه ... إذا هو لم يلق سمعا وعى
فان راح يبغي الرياضة يوماً ... ويبعث بالسير مَيْتَ القوى
فصاحبه كلبه في المسير ... وعكازتاه بحيث مضى
آذار أمي
للأستاذ زكي المحاسني
أستاذ الآداب العربية بتجهيزية دمشق ودار المعلمين
الورد لا وردي ولا زهري ... زهر الربيع الفائح النَّشْر
غنيت والأحزان مائجة ... تهتاج مثل البحر في صدري
أهل الهوى قاموا لنزهتهم ... دوني وهم يدرون ما عذري
وأتيت مهدوماً منهنهة ... عيني بكاً ودنوت من قبر
فنثرت أساً فوقه وهمي ... دمعي على أوراقه الخُضر
أمي بهذا القبر هادئة ... وأنا فُجعت بها على الدهر
مَثَّلتُ آذاراً لا نعته ... بالشعر فاستعصى على الشعر
فوصفته بالوهم أهمسُه ... معنى أدقَّ كلمعة الفكر
ناجيت فيه الريح صافرة ... والغصن منعطفاً على النهر
ورأيت في غلوائه أسفاً ... كم يزهد الإنسان أو يغري
وأصخت للأطيار فاندفعت ... كفى على قارورة الخمر
أسكرت آلامي لأسكنها ... يا ليت لا تصحو من السكر
شرْخ الشباب حملت رائقة ... وغداً يسير بمهيع العمر
هو مثل آذار على سَفرِ ... لكن بلا عَوْد من السَّفر
آذار سرُّ الحب في يده ... أفضى به في مطلع الزهر
حب جديد
قفوا دون هذا الحب لا تتركوا له ... سبيلا إلى نفسي فإني مغلق
فقد أوصدت قلبي هموم تجمعت ... على دورة الأيام لا تتفرق
رأيت الهوى يسعى بوجه مخادع ... ويلقى شباكا علني أتعلق
يلوِّح باللذات تلويح غادر ... وما أعجب اللذات: تسقى وتحرق!
ففيها حياة عذبة، ثم مرة ... مقيدة يوما وفي الغد تطلق
ويرقص فيها الموت رقصا مروعا ... وينهل منها الخير، والشر يورق
يطل عليها الشعر بالوحى من عل ... ويرتع فيها الفحش يشدو وينعق
ويحنى لها الدهر المراوغ هامه ... وفي مقلتيه بسمة تتألق
فقلت له: عني! وحسبي ما مضى ... وحسبك أنى هيكل متمزق
ملكت جناني مرة بعد مرة ... فكنت شبابي تستبيح وتسحق
ولم الق إلا ذلة ومهانة ... ولم تك تصغى للشكاة وتشفق
فدعني إلى من لم يكابدك عمره ... فلن يفتن التجريب حسن مزوق
باريس
حسن عارف
قلبي!
كان كالخيمة في أعلى الجبل ... كل ريح بالهوى مرت عليها
وإذا هبت لها ريح الأمل ... مرةً لم تنعطف يوماً إليها
وأنا في جوفها أقضي الحياه ... حائرا ما بين يأس ورجاء
كلما افترَّت من الريح شفاه ... خفت أن يقضى علينا بالفناء
وانقضى في خيمتي عهد الصِّبى ... ناعماً بين أمانٍ ووعود
تتهادى فوقها ريح الصَّبا ... في حنان مثل أنفاس الوليد
كلما مرت بها تلك الرياح ... قبَّلتها قبلة الأم الحنون
فتُرى كالطير يهفو بالجناح ... بعض حين ثم يغشاها السكون
قلت يا بشراي لَو مر الشباب ... مثلما مر الصِّبى حلو المصير
فإذا أيامه بحر عبُاب ... ثائر اللجة مرهوب العبور!
وأتى في عهده يوم عصيب ... كالح الوجه كأشباح الكهوف

طالع الناس بإنذار رهيب ... فقضوه هربا تحت السقوف
وأنا في خيمتي نهب الشجن ... قلق الأحشاء كالطير الذبيح
مرغم! مالي سواها من سكن ... تفزع النفس له أو تستريح
وجميع الكون حولي مُغرَقٌ ... في سكون ليس يدري شاطئيه
وظلام الكون جهمٌ مطبقٌ ... عمى الناظر فيه عن يديه
وإذا ريح على البعد تثور ... في جنون يملأ الجو دويا
ألهبت قلبي بسوط كالسعير ... ثم ألقته أباديدَ عليا
ويح للقلب الذي كان صبيا ... يستقى في الحب كأس الأمل
خانه الحبُّ فأراده فتيا ... ليت شعري من ترى يحييه لي؟

فريد عين شوكة
في الأدب الألماني
الشاعر نوفاليس
1772 - 1801
للأستاذ خليل هنداوي

غالى قوم في نعتهم (نوفاليس) بنبي المدرسة الرومانتيكية الألمانية، وقد كان لنوفاليس تأثير واضح في تشييد دعائم هذه المدرسة في عصر كان الأدب الألماني فيه حائراً تتهاداه السبل، وتتقاذفه الشكوك. ولكن هذا التأثير لا يجعل من نوفاليس نبياً قدسي الآيات، ولعله كاد أن يكون نبياً وفوق النبي لهذه المدرسة، ولو لم يقتطف الموت زهرة صباه عاجلا قبيل أن تتفتق، لكن قلبه النضير، قلبه الشاب استطاع أن يسبح في عوالم الشعر. ويعود - بعد طوافه - غنياً بما جمع والتقط وكثير ما هم النبغاء الذين تنبغ قلوبهم قبل ان تنبغ أعمارهم، ويفيض عبيرهم قبل أن تتفتح أزهارهم، ويمضون سراعاً وهم في مقتبل العمر، وقد تركوا وراءهم دوياً لا ينسى ابد الدهر، شأن شيللي وكيتس ونوفاليس. لكل نابغة - في مقبل عمره - مثال من النوابغ المعجب بهم، يتأثر به ويتشيع له ويترسم خطواته. وكان (شيللر) مثل (نوفاليس) الأسمى، كان مثله في البراعة والعظمة والكمال. وشيللر هو الذي أحيا في نفسه هذه الميول، ودفع به إلى الحياة الشعرية،

خبت في نفسه هذه الميول، ثم ما لبثت أن هبت ثانية على أثر مطالعته كتب (ويلهلم مستر) وعكوفه على هذه الكتب يتلوها تلاوة وجد وهيام، فطبعت في نفسه لحناً رومانتيكياً وولدت عنده حقائق عميقة محاطة بالرموز، ولكن هذه الميول ظلت هامدة ساكنة لا يقوي شيء على إظهارها، حتى عرضت لعينيه غادة أحلامه متمثلة في (صوفيا الصغيرة) التي لا تتجاوز الاثني عشر ربيعاً. فخطبها فكان له ذلك، ولكن القدر كان قاسياً، فانتاب الفتاة داء لم يمهلها إلا قليلاً، فتيقظت ميوله واهتاجت عواطفه، وبكاها ما شاء له البكاء، ينظم فيها الشعر ويجعلها مثله الأعلى في الوجود. ويعتقد أنها حية في نفسه لم ينهبها موت، وإنما الميت هو نفسه، وأنها سبقته إلى ذلك العالم تدعوه إليها. فيسأل: (هل في استطاعة الإرادة البشرية التي تحول وتبدل ما تشاء في هذا العالم أن تجوز أبواب الأبدية؟ . .

ويقول: (أود أن أموت، لا موت ذلك الكائن البالي الذي عافته الطبيعة، أود أن أموت كالعصفور المتنقل الذي يسعى وراء أقطار جديدة، أو أن أموت فرحاً كالشعر الفني) وبهذه العاطفة التي تجعل تشاؤمه مضيئاً كتب (أغانيه لليل) بأسلوب شعري منثور، لم ينقصه الوزن شيئاً من روعة معانيه، ولم يضع نثره من العاطفة الشعرية. يغلب على أغانيه شيء من الطرب القائم، يناضل به صاحبه الشقاء. هذا هو الطرب الذي خفف من شقائه، وهذه هي الفتوة التي كانت تزين له الأحلام وتنقله من حياته هذه إلى حياة اكثر سعادة وأحسن أملا.

أراد (نوفاليس) أن يطرق عالم الفلسفة فغلب عليه خياله، وتبدو في كتابه (الأغاني) و (الدفتر اليومي) فكرته التي تدور حولها فلسفته، وهذه الفكرة يريد من ورائها ان يفرض سلطة الروح بدون واسطة على المادة وعلى الاشياء، كما هو الحال في العلم الذي يسيطر عليها، وهذه الفكرة هي (علم السحر) ويعتقد أن إزاء فن المنطق الذي يعتمد على الأقيسة العقلية والبراهين الفكرية فناً هو أسمى منه، يدعوه (عالم الوهم) وهذا الفن هو أن نعرف كيف نستنتج بصورة نفسية فنا نعمل به على تحقيق أحلامنا

وأوهامنا، وغير مغنيك شيئاً أن تسأل (نوفاليس) عما ينتج من هذا الفن من فائدة، فانه يطلب إليك إزاء إلحاحك الكثير أن تغادره سعيداً في أقطار أوهامه وأخيلته، وهذا المعتقد الفلسفي قد أثر تأثيراً واضحاً في روحه الشعرية، وما كانت هذه الروح إلا أثراً من آثار هذا المعتقد الذي يشيع في كل جوانب نفسه، فيحس في نفسه ميولا عميقة لا تقل غموضاً عن جوهرنا الذاتي، لا أسماء لها ولا القبض عليها بمستطاع، فيوجب على الشعر أن يوقظ فينا مثل هذه الميول، لأن الشعر هو لسان باطني، وتعبير تحدث به النفس ذاتها، وعليها أن تنفر كثيراً من الصيغ الواضحة كل الوضوح لأن كل وضوح وكل حد تحمل عليه النفس يحدد آفاق النفس التي يجب ألا تحد.

الموسيقى هي الفن الأول، والشعر هو أولى الفنون كلها بالتقرب من فن العزف والضرب على الأوتار، وكما أن الشعر يهتك الأستار ويهبط علينا بالأسرار، فالموسيقى تحمل إلينا معاني الطبيعة الخفية المستورة وتعبر لنا عن نفس الطبيعة، ونفس الطبيعة عنده هي الشيء الغريب، والشاعر هو الذي يعطل فينا ملاحظتنا العادية للاشياء، ويرينا الخليقة كما تبدو للأنظار في الوهلة الاولى، هو يعجبنا ويذهلنا وهو بعد ذلك عندليب مترنم.

هذا هو مذهب (نوفاليس) في الشعر أعلنه يوم كانت المدرسة الرومانتيكية في بدء عهدها. وعده بعض أنصار هذه المدرسة نبياً للمدرسة، على ان هذا المذهب الذي جاء به لو حلله النقاد وعمل على مقارنته بالمذاهب الرمزي لرأى أنه أدنى إلى الرمز منه إلى المذهب الرومانتيكي، لأن صاحبه رمزي وأكثر تمسكاً بالرموز من أصحابها بها. ولكن ذلك الجيل كان يجهل بواعث الرموز، وفلسفة ذلك الجيل لم تصل إلى تقرير المشاعر الباطنية في النفس تقريراً علمياً. فلم ير ذلك الجيل إلا أن يحشره مع المدرسة االرومانتيكية، وإن لم يكن منها.

أليس نوفاليس هو الذي يعلن أن هنالك ميولا خفية لا تسمى هي ما يجب على الشاعر أن يوقظها ويخرجها بلغة لا يفسدها الوضوح، وهذا المذهب نفسه هو الذي إلى (الرمزيون) على أنفسهم أن يظهروه. وجعلوا أصحابه أصحاب مدرسة جديدة في الشعر. ولم ينس نوفاليس تأثير الموسيقى في الشعر، فأوجب على الشاعر أن يكون نظمه وإيقاعه للألفاظ إيقاعاً موسيقياً، لأن الموسيقى لغة النفس

ولكن تلك الفاجعة التي نزلت به في مطلع صباه، جعلت منه شاعراً متألما يتغنى بألمه، ويأبى أن يظهر والألم غالب عليه فيضحك للألم ويطرب للشقاء، ويرشف دموعه ناعما كما يرشف الطائر الظمآن دماءه، وفي هذه المجالي تسمع نفسه تشكو وصدره يزفر، وترى عينيه محدقتين في العالم الموهوم الذي تصوره وشاء أن يسكنه روح (نوفاليس) الرومانتيكية تبدو في رواياته التي كتبها لنفسه، لأنه لم يستطع أن يدخل إلى العالم ويعاشر سكانه ويعرف أهواءهم، لأنه شاعر غني يريد أن يوزع ما لديه بعد أن ضاقت جوانب نفسه بكنوزها، هو لا يأخذ ولكنه يعطي. وهكذا نرى (نوفاليس) شاعراً في رواياته، شأنه أن يجود وأن يعطى. .

وضح مذهبه الشعري جليا في روايته (هنري دوفتر ينجين) التي جاءت ناطقة عن نفسه. نوفاليس الذي فقد (صوفيا) وهام بعدها هيام الجنون، قد وجدها مرة ثانية حية في (جوليا) فأحب هذه وكأنه يحب صوفيا، وخطبها كأنه يخطب صوفيا فأطفأ هذا الحب الجديد كل ما لقي من كآبة وسأم. وأخذ يستقبل الحياة بقلب يخفق مرحا. ويشيع عهده الأول ليدخل في عهد ثان طافح بالأمل والرجاء.

بدأ يكتب روايته هذه، ولكن القدر لم يشأ له أن يكملها. فألف جزأها الأول، وترك بعده مقطوعات منثورة قد تتم معنى روايته وتظهر الغاية التي سلك إليها. يبدأ جزؤها الأول بحلم وينتهي بقصة، وكلا الحلم والقصة جزءان متلائمان منتظمان يعبران عن نفسية البطل (وبطل القصة) خلق شاعراً، ونشأ تحت رعاية والديه، يقضي وقته متأملا متنقلا في مروج الخيال. دون أن تحول حوائل بينه وبين ما يصبو إليه.

رأى في حلمه الزهرة الزرقاء، وهي مثل حياته الأعلى، ورأى انه إذا أرادها لنفسه، فمن الواجب عليه أن يهجر وطنه، ويسيح في أقطار الأرض وبقاع العالم. فأطاع هذا الهاتف النفساني، وسار في الأرض يتأمل في أقطار تقع عليها عيناه. وفي طريقه التقى بالساحر الشاعر (. . .) وهو الذي ألقى عليه بعض فصول ممتعة في الفن،

وأفهمه مخاطر الهيام، وأدلى إليه بفائدة التأمل والتمحيص. وكان لهذا الشاعر الساحر ابنة جميلة، ما أن وقع عليها نظر هذا الهائم حتى جن بها، واعتقد أنها هي (الزهرة الزرقاء) التي وجدها في حلمه. فشغف بها شغفاً شديداً، ولكن المنية داهمتها فقضت نحبها - وهذه الجميلة لم تكن إلا (صوفيا) محبوبة نوفاليس الأولى - ثم واصل الشاعر الفتى سياحاته في الأرض، ما زاده موتها إلا كلفاً وهياماً

ثم تأتي أجزاء الرواية المنثورة فنفهم منها أن البطل سيعرج على إيطاليا ويعرج على اليونان، ثم يسيح في بلاد المشرق. ثم يجتمع بالشاعر الساحر، فتقوم - هنالك - مجادله شعرية فنية ثم يتعرف الشاعر الفتى إلى فتاة تمثل (الزهرة الزرقاء) وتحل محل الأولى - وهذه الجميلة الثانية هي (جوليا) محبوبة نوفاليس الثانية. - فتجدد له حياة زاهية الألوان. وتبنى له من الأرض الغبراء سماء ساطعة الأضواء. فيرى الشاعر في وجهها وجه الأولى، وهما متحدان مقترنان في وجه واحد سام كامل، وهكذا تنتهي سياحة الشاعر.

والشاعر بعد أن ساح في أقطار الارض، وبعد أن تعرف إلى صور كل شيء، لم يبق له وراء ذلك لا أن يطوي نفسه، ويدخل إلى عالم نفسه - كما يقول نوفاليس في إحدى مقطوعاته - (ألا إن كل شيء يقودني إلى نفسي!) وهذه هي الفكرة التي بنى عليها نوفاليس روايته.

فالرواية لا تتخذ لها أجواء إلا أجواء النفس، وهي ضعيفة بحقيقتها واسعة بخيالها، تمتزج خيال الشاعر ولا تلائم حقيقة الفيلسوف. قد اجتمع فيها كل ألم الشاعر وآماله. وكل ما اعتقد ويعتقد من قواعد في الشعر والفن. وهذه الرواية هي أدنى إلى القصيدة الشعرية منها إلى القصة التي تعتمد على الألوان الخارجية. وهي قصيدة طويلة عميقة الخيال، بعيدة الغور، تصل إلى أعماق الباطن والنفس، يظهر فيها نوفاليس الشاعر وراء الشخصية المبهمة التي تلبس بها. تلك الشخصية التي تستفزها الأحلام وتهيجها الآمال وتفهم الجمال الكلي الذي لا يموت بموت الملامح.

روح وادعة تنظر إلى الوجود بعين الأمل والرضا، يريد صاحبها ان يحمل شقاءه كصديق، ولا يريد أن يوليه مملكة قلبه وعقله كالغالب يعيث فيها فساداً. لأنه يرى نفسه مرتاحة بهذا النزر من الشقاء قال عنه (فردريك شيلجل) (وكان لا يجد أثراً للسوء والشر في الوجود، وكان يعتقد أن كل شيء يستعد ليدخل في حياة ذهبية) ونوفاليس يقول عن نفسه (انو الطبيعة حبتني هذه النعمة، نعمة النظر إلى سمائها ولألائها بعين المرح والسرور) وهذه الكلمة تبدي لنا الحساس (نوفاليس) العميق في الطبيعة، وتفهمه لدقائق أشيائها. هو إحساس لا تغلب عليه العاطفة الهوجاء. ولا تصدمه الحقيقة السائدة في الوجود، وكيف نريد أن نقيد أو نحدد إحساسه وهو الذي آمن بالأحلام ليستطيع أن يكيف الطبيعة كما تبتغي أحلامه. . وهو يبغي أن يحيا في الطبيعة كما يريد لا كما تريد هي. .! ولكن هذا المرح لم يكن مرحاً هائجاً ثائراً، بل كان مرحاً ساكناً هادئاً، يتمشى بين ثناياه ألم عميق إذا تعمق الناقد في باطنه تبينت له تلك السحابة القائمة، وتلك الظلمة الفاحمة. وقد تكون سحابة قاتمة لكنها موشاة بألوان الشفق الوردي: يبدو احمرارها للعين ويتوارى سوادها. وقد تكون ظلمة فاحمة ولكن أشعة قمر مستور يغمرها بشعاع باهت ينيرها ولكن لا يظهرها.

هذا هو (نوفاليس) الذي غادر الوجود ولما يبلغ التاسعة والعشرين، قد غالى قوم في تقديسه حتى نعتوه (بنبي المدرسة الرومانتيكية). وغالى قوم في بخسهم قيمته، فقالوا ان فنه هو مجموعة أحلام صبيانة. والناقد الحق هو الذي لا يغالي في الأمرين. ينظر إلى الأولين فيدرك أنهم أرادوا لو انفسح عمر الشاعر لكان منه ذلك النبي المزعوم. وينظر إلى الآخرين فيدرك أن مقاييسهم كانت قاسية، تريد من الشعر مالا يريد الشعر من نفسه، فيقف

بينهما موقفا وسطا ويقول: كان نوفاليس شاعراً تلاه ناس، وسوف يتلوه ناس، لأنه كان شاعر النفس والعاطفة العميقة والأحلام والرموز.

وهنالك - العدوى الفلسفية - وهي اشد سرياناً في الفلسفة منها في الأدب، فان جل البارزين واللامعين في العصر الحاضر إذا حككت مذاهبهم قليلا رأيت فيها كثيرا من مذهب أساتذتهم اللامعين - في العصر الماضي - فمثل هذه القربى يجب ان تظهر وان تحلل، لأن قرابة الفلسفة قرابة جامعة بين الفلاسفة هي أشمل من قرابة الأدب بين

الأدباء.
هذه كلمة يتقبلها الأستاذ الأديب ممن لا يحمل له إلا المحبة والإخلاص
دير الزور
خليل هنداوي
إلى الأستاذ زكي نجيب محمود
آخذ الرسالة بيدي، وأفتح عيني على أسماء كتابها، فأفرح كلما وقعت على اسم قام بيني وبينه شيء من التفاهم الروحي، وهذا التفاهم هو الذي يدفعني - في كل رسالة - إلى النظر لهذا الاسم، والتحري عنه بين الأسماء. فإذا لم أجده غلب على نفسي شيء من المرارة، لأنني أحببت هذا الاسم وأحب أن أراه في كل رسالة.
بين هذه الأسماء - اسم الأستاذ زكي نجيب محمود - الذي خص الرسالة بصفحات لامعة من تاريخ الفلسفة الفكرية، وقرب كثيراً من أبعادها، وحلل كثيراً من مذاهب أصحابها. وهذه المقالات سدت فراغاً كبيراً في الأدب العربي، وعرفت أهله بأقطاب الفلسفة الغربية بصور واضحة بليغة، هي أوجز ما تكون سطوراً، وأملأ ما تكون أفكاراً.
هذا الاسم أطرب له، وأهفو إليه كلما وقعت عليه، ويستولي على شيء من الخيبة إذا لم أجده بين الأسماء. لأنه أصبح عزيزاً عليّ، لا أريد ان يغيب عني، مهما كانت عوامل هذا الغياب.
إنني أعجبت - بمقالاته الفلسفية - كما أعجب بها كثيرون، وقد رأيت أن هذه المقالات قد تكون أكثر فائدة لو كان يربط ما بينها وحدة متماسكة متراصة، وأريد من وراء ذلك أن يدرس الكاتب العصور الفلسفية دراسة تنتظم فيها دراسة الأشخاص والأفكار والأيام والعصور - أدبية كانت أو فلسفية - لها تأثيرها في الأشخاص كما لها تأثيرها في المذاهب، وخير حل لهذه النقطة - والأمر أمر الكاتب - أن يبدأ بدرس الحركة الفلسفية من بدء نهضتها وثورتها ويأتي على أصحابها ويصف تأثيرهم وتأثير مذاهبهم في التطور الفكري، مع شيء من المقارنة بين المذاهب المتباينة، ومثل هذا الدرس يجعل - للمقالات - وحدة يفتقر إليها من ود أن يقف وقوفاً تاماً على تطور الحركة الفلسفية عند الغربيين، وهذه الوحدة هي لازمة - في اعتقادي - وقد تكون الزم من الوحدة في الأدب لان الأدب الحاضر يستطيع أن يحيا إذا قطع كل أواصره مع الأدب القديم، ولكن الفلسفة - ومسائلها الحاضرة هي ذات مسائلها الماضية - يخطئ من يريد أن يتفهم تطورها الحديث قبل ان يقف على تطورها القديم.
العُلوم
ملاءمة الكائنات الحية لبيئاتها
للأستاذ احمد عبد اللطيف النيال
مدرس النبات بكلية العلوم
تختلف الحيوانات والنباتات بالنسبة لبعضها اختلافا عظيما حسب المناطق والأجواء التي تعودت الحياة فيها. فكل كائن نشأ في بقعة اعتاد هو وأسلافه عليها وتدرع لها بخواص تكفل له المعيشة في تلك البقعة على أصلح حال ممكنة.
يعتقد أغلب العلماء الطبيعيين أن الكائنات الحية جميعها نشأت من اصل واحد وفي بيئة واحدة هي الماء. وهذا الكائن الأولى يسهل علية تهيئة نفسه للمعيشة في أي وسط يوجد فيه. تكاثر هذا الكائن ولما أن ضاقت به بيئته نزح إلى غيرها طلباً للمعيشة والغذاء. فلكي ينجح وينمو ويتكاثر لابد له أن يتأهب ويحور نفسه بطرق توافق بيئته الجديدة , استمر هذا الانتقال تدريجياً أعني من وسط مائي صرف (ويغلب أن يكون ذلك الوسط بحراً) إلى نصف مائي ثم إلى أرضي، ومن هذا إلى المياه العذبة والى الهواء. ومن المحقق أن هذا الانتقال قد تدرج على كر العصور والأحقاب في ملايين السنين. وفي أثناء هذا الصراع في سبيل الحياة كانت تنقرض هذه الكائنات التي جمدت أمام بيئتها الجديدة، وعجزت عن الملاءمة بين تركيبها وما يحيط بها - على حين نجح غيرها تدريجياً، وتشعبت أفرعه التي انتشرت في أنحاء المعمورة، وباين بعضها بعضا تبايناً عظيماً وفقدت كل شبه لأصلها ولأقاربها. ويمكن تقدير مدى نجاح الكائن الحي وسعة انتشاره بقدرته على الملائمة بينه وبين الوسط الذي يحتويه.
وقد اجتهد النبات في تكوين غذائه بنفسه واتخذ الأرض أصلا ثبت فيها والهواء وسطا تفرع فيه. ولكي يقوم بكل عمليات الحياة ولوازمها اختص كل جزء منه للقيام بوظيفة

خاصة. إذ ضربت جذوره في الأرض لمسافات مختلفة وارتفع ساقه في الهواء لحمل أفرعه حيث تنوعت كذلك لحمل الأوراق التي تفرطحت وتركزت فيها مادته الخضرية لتمكنه من الحصول على أكثر كمية مناسبة من الأشعة الضوئية ومن الغازات الجوية. ولكي يقوى على حمل ذلك الحجم العظيم تكون له هيكل داخلي (الخشب) ليحفظ قوامه من فعل الرياح

أما الحيوان فقد سلك طريقاً آخر لم يجتهد في تحوير نفسه لتكوين غذائه (ولربما اجتهد ولم يفلح) ولكنه طمح إلى أخذه قهراً ممن هو قادر على تكوينه وهو النبات فتركز جسمه ليشغل حجاً صغيراً يمكنه من الوصول إلى غايته وتحورت أجزاؤه إلى أعضاء للحركة تمكنه من الانتقال من مكان إلى آخر. وتناسبت أعضاؤه الداخلية لكل هذه التحورات حتى تقوم بأصلح ما يمكنها القيام به

وتحورات النبات عديدة جداً شملت كل عضو من أعضائه ولكني سأقتصر على ذكر أهمها بالأجمال

نشاهد النباتات التي تعيش على الأرض تختلف عن مثيلتها التي تعيش في الماء، ونسمي الأولى أرضية والثانية مائية، والنباتات الأرضية تختلف باختلاف أنواع الأراضي التي تنبت فيها، فمن صحراوية إلى صخرية إلى تلك التي تنبت في أرض خصبة. ثم إن نباتات المناطق الحارة تختلف عن نباتات المناطق المعتدلة

فنباتات الصحراء مثلا كونت لها جذوراً امتدت امتدادا عظيماً حتى يمكنها أن تجمع ما يلزمها من الماء والغذاء. وضمرت أفرعها وأوراقها لتقتصد بقدر الإمكان ما تفقده من الإسراف في ماء النتح ولقد تحصن بعض النباتات الصحراوية بشكل آخر إذ كون له مخازن مائية يملؤها وقت الكثرة ليتصرف فيها حين الضرورة والقلة، وعلى العكس من ذلك تحورت النباتات المائية لأنها محاطة بغذائها فاضمحلت جذورها لعدم الحاجة إليها وتكاثرت أفرعها على قدر غذائها، وتوسطت بين هذين - النباتات التي تعيش في الأراضي الخصبة إذ تناسبت أجزاؤها امتداداً وترفعاً

أما تأثير الأجواء فله أهمية عظمى في تكييف النبات جملة وأعضائه خاصة. ولقد كان انقلاب الجو وتغييره في الأزمان الغابرة سبباً من أسباب انقراض الكثير من النبات كما كان سبباً في تكاثر بعضها الآخر

سلك الحيوان مسلك النبات وتبعه أينما حل وانتشر في مختلف البقاع وتكيف حسب بيئته. وأهم أعضائه التي تأثرت أعضاء التنفس والحركة. فأعضاء التنفس يمكننا القول إجمالا

أنها اتخذت نوعين رئيسين لبيئتين متباينتين هما: الماء والهواء، فالحيوانات التي تعيش في الماء كالأسماك تتنفس بواسطة الخياشيم التي تستخرج غاز التنفس من الماء. والتي تعيش على الأرض أو في الهواء تتنفس بواسطة الرئة، والحيوانات البرمائية كالضفادع جمعت بين هذين العضوين (الخياشيم والرئة) فتستعمل الخياشيم في أطوارها الأولى والرئة بقية حياتها

أما أعضاء الحركة فقد تحورت كذلك حسب حاجة الحيوان، فما عاش في الماء تفرطحت أرجله فصارت كالزعانف يستعملها للسباحة ولموازنة جسمه، وتفرطح ذيله كذلك ليستعمله دفةلحركته كالأسماك والحوت. ومن الحيوانات التي عاشت على سطح الارض ما تعود الجري فاستطالت أقدامه وقويت عضلاتها. ومنها ما كانت طبيعته الوثب فتستطيل خلفيتاه فقط. وما اعتاد الحفر قويت أماميتاه، والحيوانات التي عاشت وسط الأشجار كالقردة استطالت أيديها لتتمكن بذلك من الانتقال من فرع إلى آخر بسهولة وسرعة.

أما ما اتخذ الهواء وسطاً لسيره فتكونت له أجنحة تحمله في ذلك الوسط. وقد اختلفت الأجنحة حسب قوة طيران الحيوان، فأحسنها أجنحة الطيور ثم الوطاويط ثم القوارض الطيارة وأمثالها التي تطير مسافات قصيرة، وأقلها الأسماك الطيارة ولذلك تغير شكل الحيوان الخارجي وتركيبه الداخلي. فالأسماك وأمثالها اتخذت شكلا مستطيلاً مدبباً وتكونت لها مخازن هوائية داخل جسمها تغير حجمها كيف شاءت فترتفع وتنخفض في الماء حسب رغبتها. والحوت تكون في رأسه تجويف عظيم مملوء بالزيت زيادة على تكوين مادة دهنية تحت جلده. هذه المواد الزيتية والدهنية أقل كثافة من الماء فتساعد على تقليل الثقل النوعي للحيوان

والطيور وأمثالها تحورت نحو تقليل وزنها بتكوين أكياس هوائية كثيرة تخللت كل جزء من جسمها حتى عظامها زيادة على الريش والزغب ومحو الأسنان وتقليل الزوائد وتكييف الشكل الخارجي العام بطريقة مناسبة

يظهر مما تقدم كيف اتخذت الكائنات أشكالاً عديدة تضمن لها النمو والتكاثر في الوسط الذي وجدت به، ولكن إذا لاءم الكائن بيئته لدرجة الكمال كان ذلك سبباً من أسباب انقراضه وتلاشيه إذا حدث تغير عم البيئة التي يعيش فيها ككثير من الزواحف الجسمية

المنقرضة وغيرها. ولقد كان الفيل في العصور الماضية يقطن سيبريا وشمال الروسيا حينما كانت تلك البقاع دافئة فلما انخفضت حرارتها نزح إلى أسفل نحو خط الاستواء حتى وصل الآن إلى تلك المنطقة في بقعتين فقط هما: الهند ووسط أفريقيا، وانمحى بتاتاً من كل البقاع التي مر بها تاركاً آثاره ومعالمه، وقد ثبت ذلك بصفة قاطعة، فقد وجدت آثاره في مصر (بالفيوم) وفي سيبريا حيث يستخرج منها سن الفيل المنقرض ويستعمل في أغراض صناعية

وهناك حيوانات ذات قدرة على المعيشة في مختلف البيئات كالفأر والعصفور الصغير فأنهما منتشران الآن في جميع أنحاء العالم، مثلهما مثل الكائنات التي قاومت الانقلابات، الجيلجية في العصور الماضية فعاشت وأنتجت كائنات الأجيال التالية، وقد حدث في بعض جزر المحيط الهندي والهادي أن انتابتها براكين دمرت ما عليها من حيوان ونبات ما عدا القليل الذي أصبح أصلا نتجت منه الأجيال التي تكاثرت بتلك البقاع بعد ذلك

وإذا جفت البحر في منطقة ما، انقرضت الكائنات التي تعيش فيها، فمناحم الزيوت والأسمدة التي بمصر على ساحل البحر الأحمر كانت مغطاة بالمياه ثم جفت فماتت حيواناتها وتراكمت وتغطت بطبقات أرضية وتحللت أجسامها وتكونت منها الزيوت والأسمدة المختلفة التي تستخرج الآن من تلك البقاع

ومناجم الفحم أصلها غابات ناضرة نمت في العصور الغابرة، فلما انتابها تغيير فجائي في بيئتها سقطت وتغطت وتحللت وتكونت منها المناجم التي يستخرج منها الفحم الآن

وكثيراً ما انتاب سطح الأرض من الانقلابات ما غير معالمها فكان رائع التأثير على الكائنات التي تعمرها. فيأخذ بعضها في الانقراض ولكن لا يلبث أن يتكاثر ما يفلت من هذه الكوارث فيعمر البسيطة كرة أخرى فسبحان من يبدأ الخلق ثم يعيده.

أحمد عبد اللطيف النيال

القصص

ليلة ضائعة

مسرحية ذات فصل واحد

تأليف شارل كليرك

ترجمة فتحوح نشاطى

أشخاص الرواية

ممثلة التراجيديا العظيمة: راشيل. الشاعر ألفريد دي موسيه. لوردي برانكور. ايفون: وصيفة الممثلة

تقع حوادث الرواية حوالي سنة 1840 في باريس

يمثل المنظر صالون استقبال صغير في قصر الكونت دي كاستلان أعد لتستعمله) الممثلة الكبيرة مقصورة مسرحية. عند رفع الستار تدخل راشيل حاملة باقة فخمة من الزهور يصحبها دوي التصفيق والهتاف فقد ألقت في حفل أرستقراطي حاشد قصيدة رائعة للشاعر الخالد الفريد دي موسيه: ليلة ضائعة. ولا تكاد تخفت عاصفة التهليل حتى يسمع من بعيد عزف كمنجة حنون)

المشهد الأول

راشيل - ايفون

راشيل (لوصيفتها) لا أحد! هل تسمعين؟ لا أستقبل أحداً! سنرحل على أثر انتهائي من تمثيل مشهد (هرميون). .

ايفون - (ملحة) ولكن. . . معالي الوزير سيدي الكونت دي شاتل جاء قصداً خصيصاً

ليحظى برؤية راشيل العظيمة على انفراد
راشيل - لا حد
إيفون - (قارئة البطاقات المشبكة بباقات الزهور) واللورد بروجهام؟ أيمضي إلى حال سبيله؟ والكونت دي موليه الذي لا يجازف ببطاقته إلا داخل باقات ملكية؟
راشيل - (ضجرة) أرغب ألا أرى أحداً الليلة!
إيفون - كيف يا سيدتي؟ أتراك تبدلت نفسك؟ أقدر لنا أن نلقى معبودة فرنسا وقد عادت نافرة ملولا تزهد في بخور الإعجاب الذي طالما نشقته وهي نشوى بعطره المتصاعد؟ هل أضحى الظفر أو هي جاذبية من أن يستوقف خاطرك الحزين؟
راشيل - (وقد ارتدت لباس هرميون) لا أراك مصيبة في فهمي يا ايفون - يشوقني حقيقة في المسرح إعجاب الجماهير التي تؤخذ بنبرة هرميون الصادقة وإشارتها البسيطة - لكن هنا، في قصر آل كاستلان، داخل هذه الصالونات الصاخبة التي يتناوب تمثيلي فيها عزف الموسيقى! هنا حيث لا يحتفون براشيل ولا يمجدونها الا لأنهم يرونها عن كثب. هنا حيث أستبين في العيون الشاخصة إلى شهوة ملحة أكثر مما ألمح فيها إعجاباً خالصاً!
ايفون - كفى إذن عن أن تكوني فتية وجملية!
راشيل - لقد عدت برمة بهذه الجمهرة من العشاق المتزاحمين حوالي كالفراش! أتدرين ما الذي يجذبهم اليّ؟ انه المجد. . . مجدي الذي صنعته بيدي مفرقي! هل دار في خلد واحد منهم أن يجازف بعاطفة حنون نحوي أيام كنت أسابق ظلي على الطريق الموحشة، في الريف عارية القدمين، وحيدة، بائسة؟ أمضي بهذه الزهور بعيداً عني. . . أريحي عيني من مرأى هذه البطاقات. . . جميعها. . . جميعها. . . أريدني الليلة سيدة نفسي! (لنفسها وقد جلست إلى مرآة الزينة بينما ترتب الوصيفة باقات الزهور)
لم يجيء موسيه حتى الآن! أن سهرة نسائية شغلته ولابد عن الحضور لسماعي وأنا القي قصيدته. . . إيه! أراني أسعى وراء أحلام طائشة! لننس الناسي!
من الطارق أيضاً؟ (طرقة خفيفة على الباب)
ايفون - إنها تلميذتك، مدموازيل دي برانكور التي تستأذن راشيل - هي. . . بلا شك. . . على الرحب والسعة. . . فلتدخل. . .
المشهد الثاني
راشيل - لوردي برنكور ثم يعد حين الوصيفة
راشيل - (للور) أنت هنا يا عزيزتي لور؟
لور - نعم يا صديقتي العظيمة - أكاد أكون من الأسرة.
فصاحب القصر الكونت دي كاستلان قريبي. لكم رددت في حداثتي أشعار فلوريان تحت
هذه الصورة الخطيرة التي تمثل أحد أجداد هذه الأسرة الكريمة، فقد جذبني المسرح إليه منذ ذلك العهد البعيد
راشيل - (مجاملة في عطف) وما زالت تتألقين في سمائه!
لور - بفضل تعاليمك الغالية التي تسدد خطواتي المتعثرة! أعلم أني تلميذة جهول، غير أني أرحب دائماً بانتصاراتك الباهرة واصفق لها من كل قلبي! شد ما أعجب بك الحضور الليلة!
راشيل - لا تخادعي نفسك! لقد أعجبوا بي ولكنهم لم ينظروا إلا إليك! لو أني أكثر أنوثة وأقل ولوعاً بفني لحسدتك على سنيك التسع عشرة المتألقة!
لور - شبابي اعجز من أن يسامي عبقريتك! أنت يا من تجمعين إليك أرواح الجماهير لتمضي بها نحو المثل العليا! أنت التي لم يعوزك لتتسنمي قمة المجد - أكثر من ليلة صغت إليك فيها باريس. ثم توجتك أميرة للمسرح! أنت يا من تبعث مواهبك الفذة كورنيل حياً بعد راسين، والتي ينحني العالم مشدوهاً أمام نبوغك المشرق! أي حلم!
راشيل - (في حرارة) الحلم جميل نعم. . . لو يدوم ولو لم تبدده ريح النسيان العاتية! أسفاه! من يمجدونني اليوم هم أول من يمزقونني غداً! ولا أعود أجد بعد قليل بين آلاف المعجبين غير شاعر واحد يصون مجدي من البلى: هو الذي سمعته من هنيهة
لور - موسيه؟ إن الأشعار الجديدة التي أنشدتها منذ حين ستبقى عزيزة على من

صفقوا لها معجبين. أكاد أسمعها تتغنى في حافظتي فهي لعذوبة معانيها وروعة صورها أقرب إلى الذاكرة وألصق بالفكر: الشاعر الحالم وسهرة الكوميدي فرنسين؛ العنق الرشيق الناصع الذي ينوه بفرعة الفاحم، والذي يبصر به الشاعر فجأة وهو يستعرض الوجوه بمنظاره، فيستوقف منه النظر والفكر حتى ساعة الرحيل، الصورة الخيالية الباهرة التي تبارى في رسمها شاعران كبيران، والتي استلهم فيها موسيه بيتين من شعر الشاعر شنييه. . .

راشيل - (تردد الأبيات المعنية) (تحت رأسك الظريف يتثنى عنق بض، رشيق (يكاد لفرط بياضه أن يكسف نصاعة الثلج)

لور - يظهر لي أن لغزاً دقيقاً يستتر خلف هذه (الليلة الضائعة) وأكاد أفترض لحظة أن راشيل ربما كانت تعرف العابرة الجميلة التي تراءت للشاعر المحبوب

راشيل - (مرحة) أبدا! لم أمثل في حياتي أدوار العجائز اللاتي يعمد إليهن أبطال الروايات للمارة! فيم إذن تحلم الفتيات الطائشات؟ ثم ما يدريك أن موسيه ما زال يذكر للآن تلك الرؤيا الخفية التي مرت به كومضة البرق الخاطف؟ هذا الرأس الجميل الذي لمحه موسيه ليلة في مسرح إن هو في عرفي إلا خيال شاعر! وما احسب موسيه متأثراً إلا بروعة الأبيات التي خطها يراعه للخلود!

لور - تتهمينه بما هو براء منه. . . واعتقد. . .

راشيل - ليكن، أخطأت! انتشى إذن وحدك بهذه القصة الوجدانية الخيالية فهي من سنك!

لور - ولكنك لم تبلغي العشرين بعد!

راشيل - القلب الذي يسيطر عليه الفن يذوي قبل الأوان ويعود يؤمن بالأشعار الجميلة اكثر مما يؤمن بأحلام الشاعر

الوصيفة (داخلة) يطلبونك يا سيدتي

راشيل - في الحال. . . أنا على استعداد

(تخرج الوصيفة)

لكن، يا للفوضى!

لور - (وهي تقترب من مرآة الزينة التي وضعت أمامها الممثلة العظيمة حليها بين عقود وخواتم) اطمئني! آخذ على عاتقي ترتيب كل شيء!

راشيل - امضي إذن واثقة بسلامة حلي من الضياع؟

(تخرج)

المشهد الثالث

لور - ثم - الزائر

لور - (لنفسها وهي تجرب الحلي التي تجمعها) تروقني هذه اللآلئ الصافية. . . هذا الخاتم في إصبعي يغريني بالزهو والعجب. يا لدنيا المسرح العجيبة! ترى ما الذي حل براشيل هذا المساء. تبدو لي كئيبة، متجهمة! أيكون لانقباضها علاقة بهجمات ذلك النقادة الظالم الذي ادعى أنها خيبت آمال اصدقائها في رواية (با يزيد)؟ على أن هذا محض افتراء! فما رأت عيني سلطانة أروع وأجمل منها في دور (روكسان)! لقد دافع عنها موسيه. وأحسن صنعا فالجمال حقيق بكل تقديس وعبادة!

يدخل الزائر فلا تلحظه لور وقد جلست مدبرة للباب. الزائر غاية في التأنق يلبس (السهرة والصديرى الأبيض (فراك))

الزائر - مساء الخير يا راشيل!

(تلتفت لور فيتولى الزائرعارض من الدهشة، رجة نفسانية يكبحها في الحال) أنت! أوه! عفوا! مدموازيل! ما كنت أتوقع. . . ودهشتى لا (يملك روعة وقد تبدلت لهجته) تحد. . . طرقت متطفلا ودخلت دون استئذان. . .

لور - أبدا يا سيدي. . . لكن راشيل تمثل الآن مشهد هرميون فعجل إن شئت مشاهدتها

الزائر - هل أنشدت بعض أشعار؟

لور - نعم، ارق وأعذب قصائد الوجدان، أبيات شجية للشاعر موسيه، تلتها علينا من لحظة قصيرة بين الإعجاب والتهليل ذكرى (ليلة ضائعة)، عمل أستاذ قدير!

الزائر - قرأت أخيراً هذه الأشعار الجديدة وتمنيت لو أسمعها لكني وفدت متأخراً، أنا أيضاً أعد موسيه شاعري المفضل. يشوقني فيه فنه الساحر: ذلك المزيج البارع من الحنان الصادق والأسى العميق!

لور - حرمت على مطالعة (قصص إيطاليا) غير أني نعمت بقراءة (فانتزيو) وشاركت (فينون) أحلامها الذهبية! لكن لنعد إلى قصيدة الليلة. آه! يا سيدي لو تدري كم أجهدت ذهني في التقصي عن مجهولة الليلة الضائعة أهي كميل أم سيسيل؟ من تكون يا ترى تلك الفتاة الصبوح ذات العنق الناصع. من؟

الزائر - إنها العذراء الفاتنة التي تشبه الاثنين على غير علم منها!

لور - (متابعة فكرتها) وهكذا قدر للملهمة أن تجهل القصة الرائعة التي الهمتها! لو أنها تكشفت هذا السر لعادت به جد فخورة!

الزائر - تظنين؟

المشهد الرابع

الوصيفة. المذكوران.

الوصيفة - أوه! عفواً! جئت أبحث عن فراء سيدتي (تبصر بالزائر) أنت مسيو دي موسيه؟ وما وقوفك هنا؟ تعال: كيف؟ يمجدون راشيل. وتهجرها؟

موسيه - أسير إليها في الحال. . .

الوصيفة - عجل فقد تكاثر من حولها الإعجاب! (تخرج)

المشهد الخامس

موسيه - لور

موسيه - (للور وقد بهتت مأخوذة حيرى) ثقي أني ما استرقت سرك إلا بالرغم مني، فلولا هذا اللقاء العزيز الذي لم يكن ليؤمله قلبي لقدمت إليك نفسي لأول بادرة. إن العابرة المجهولة التي تطوف في سماء قصيدي قمين بك أن تعرفيها. تأملي هذه المرآة. . . المجهولة الجميلة أنت! كنت ترتدين تلك الليلة ثوباً وردياً، وكنت قد وصلت متأخراً إلى المسرح - فجأة - بينما كنت أجيل بصري في أرجاء تلك الصالة التي استحوزت عليها سخرية (ألسست) اللاذعة فجعلتها تضج بالضحك والإعجاب - لمحتك في مقصورتك. . .

لور - (في خفر صادق) أمسك ياسيدي. . . لا تزد حرفاً ارجوك. . . أرى لزاماً على أن أفارقك. . . فما أخالك إلا شاعراً بالضيق الذي طوح بي إليه اعترافك. إنني جد خجلة. . .

موسيه - وأنا جد سعيد. هذه الليلة الهانئة تبدد جهمة الليالي العاصفة التي تملأ قلب الشاعر بالشك المقيت! أن أشعاري التي تحبينها هي صفوة ما كتبت، ولقد بت أستحسن ما تفضلين في قصائدي من شعر طهور ورؤى علوية ما دام قلبك العذري خفق لها خفقة الإعجاب. نعم، صدقيني يا آنسة. نينيت ونينون أختان لك. أراهما على صورتك. لهما عيونك وصوتك. إني لم اعد أستطيع أن افصل عن خيالي الفني هذه الأبيات التي رسم لك فيها شينيه صورة مخلدة (تحت رأسك الظريف يتثنى عنق بض رشيق)

(يكاد لفرط بياضه أن يكسف نصاعة الثلج)

لور - عندما أنشدتنا راشيل هذه الأشعار تأثرت بها نفسي أقل بكثير مما تأثرت الآن، لقد تجلت لي فجأة بهجتها السحرية! وهأنذا استعيد ذكرى تلك السهرة التي قضيتها بالكوميدي فرنسيز في أدق تفاصيلها ولأول وهلة تتضح في عيني معالم قصيدتك وتتناسق. أذكر وقد جلست محازاة والدتي أني شعرت بنظرة ملحة تحوم حولي مرتقبة نظرتي. يا للعجب! بينا كنت أغرب في الضحك غرامية عجيبة؟ هل متفكهة بمشهد (اورونت) لم يهجس ببالي أني كنت أحيا قصة كنت تتابع الرواية أنت الآخر.

موسيه - ما كنت أرى إلا إياك! لقد تبعتك في فترة الاستراحة القصيرة وحمت حواليك أتملى محاسنك الغضة، وإذ أنت توشكين العودة إلى مقصورتك سقطت منك عفواً مروحتك فخففت التقطها وقدمتها إليك واجف القلب واليد، تذكرين؟

لور - (حالمة) نعم أذكر تلك الليلة تعاودني اللحظة كالذكرى السعيدة!

موسيه - ليلة أقل سحراً وقداسة من التي تعود بك إلى مازجة جميع أعطار العالم

بعطرك الشذى! أنت وأنا يا للغبطة! ومع ذلك ما أراني أجتزئ أن أصعد فيك بصري يا مليكة العطور والزهور! ألا ليت الزمن الحاني يقف بنا متمهلاً! يا للساعة السعيدة التي يرود الحب فيها حوالينا موحياً إلى قلوبنا العطشى أن تعتصر خمرته الإلهية مذكراً إيانا أن الحياة حلم غامض لا مغزى له إلا عند من جمعوا شتيت آمالهم في يوم هني!. . .
أرى الدنيا تتداعى حواليك ولا أبصر في وهيج المصباح الذي ينير بقربك آنية شفافة.
غير عينيك النجلاوين وشفتيك اللتين تفوقان زهر الربيع نضارة وبهاء! أحبك
لور - (مقاطعة) أخشى هذه الكلمة. . . أخشى ألا تكون منبثقة من أعماق قلبك وأن تكون مخادعي بها وأنت تخدع نفسك، ألم ترددها من قبل على راشيل؟
موسيه - احبك! أنا لا أدري عنك شيئاً، ومع ذلك فقد ملأ طيفك النوراني سماء خيالي في كل وقت. هي انت، هي صورتك التي كانت تتبدى لي في ليالي سهادى، وأنت في الحق خيالي الشعري تجسم حيا! كل ما أعجبك في أعمالي الأدبية، هي أنت! لكم تشفعت بك واستنجدت في أيامي العصيبة المحمومة. كنت أرتقبك كما يرتقب الغريق صخرة النجاة، وكما كانت ليالي المدلهمة تتشوق لمطلع فجرك! أحبك!
لور - الآن اصدق. وبودي لو أصارحك بما يجيش في صدري من أمان خفية لكن وا أسفاه! أما زلت حرة؟ لا ادري. شت فكري! كيف يمكنني ان أكون لك بينما أرى كل شيء يفصلنا؟ لقد تم اختيار أهلي. . فهل يحق لي أن أخالف الرغبة الوالدية فأتصرف بنفسي كما يحلو لي؟
موسيه (محزونا) نعم أنت محقة. . . أحس يدك ترتجف اكثر مما يجب بين يدي كي لا أردها إليك في الحال! وا أسفاه! حرمت حتى هذه التعزية، الأخيرة واراني ملوماً إذ تجرأت
على الكلام دون ان استوثق من اني اطرق قلباً خالياً. فهل تتجاوزين عن نزوتي المختبلة؟
لور - (مادة له يدها) إنسني!
موسيه - وهل يرتجى فيك نسيان؟ أتموت الذكرى التي قدسها الألم كما تغيب لؤلؤة داخل علبتها الذهبية؟ إن الألم المقدس الذي يحيى ميت الإرادة ويشحذ الهمة الشماء، الأم الذي يرهف قوى النفس ويصمد لحوادث القدر كالسنديانة في مهب العواصف، ذلك الألم الإلهي الذي يغسل الأفئدة المجدودة، أحسست به اليوم لأول مرة! بفضلك سأدين لك آخر الدهر يبعث قلب جهله الكل وظنوا ماء الحياة فيه قد نضب!
لور - (بعطف) الوداع!
موسيه - لا لا ترحلي بهذه السرعة! سينتهي حلمي بعد حين غير تارك في قرارة نفسك سوى ذكرى عفيفة! انك إذ تلمسين مدى سلطان محاسنك البريئة على، لا تتنزلين عن جزء من طهارة قلبك! هل تروح زنبقة الوادي أقل نصاعة، لأن ظلال السحر تطيف بجمالها الفتان؟ قد تمسى أحزاني أهون حملا لو أضاءتها مثل هذه الساعة الحنون! أبقى، أرجوك! فلن تخجلك بعد ارتحالي، نجوى هذا القلب الذي باح رغماً عنه بكل ما يكن لن تصدقي بعد اليوم جميع ما يذاع عني ما دمت تحتفظين إلى الابد بذكرى اللحظة التي تنسمت فيها زهرة القبلة على شفتيك بينما كان في مكنتى وقد استشعرت رجفة يدك في يدي ان اقطف تلك الزهرة العلوية!
لور - (مبتعدة عنه) أقبلت راشيل! ترى. هل أملك الوقت الكافي لابثك عميق اضطرابي؟ وا أسفاه! لابد لي من اصطناع الابتسام وتكتم عذوبة هذه العاطفة الوليدة! أخشى أن يخونني ثبات جأشي!
المشهد السادس
المذكوران - راشيل ثم الوصيفة
(راشيل للوصيفة من الخارج) سأتناول الطعام في البيت. إني أتهالك من فرط الإعياء!
(تبصر بموسيه)
يا للمفاجأة! انت. موسيه؟
موسيه - (مقبلا يدها) نعم، قدمت متأخراً. كنت مرتبطاً بسهرة ولم استطع الفرار. . . سوف أشرح لك
راشيل - (متخابثة) ولكني حذرت كل شيء أيها العزيز!
موسيه - تريننى شديد الأسف. سامحيني.

راشيل - سامحتك. وهل أملك أن أكون صارمة حيال الصديق الشاعر المحبوب الذي تقودني حكمته وينير مجدي حماسه؟ لقد هبت ذئاب النقد تتواثب حوالي شخصي الضعيف فلم ألق غيرك يثبت إيماني بنفسي. ترى، أهي الصداقة التي أملت عليك موقفك إزائي أم اليقين؟

موسيه - الاثنان معاً. ثقي أني ما كتبت غير ما يجول بخاطر باريس جميعا! إنما أنت عنوان فخرنا، بك ننفس ونزهو على العالمين! إلا دعى الحمقى الأغرار يتزاحمون عليك رجاء النيل من عزيمتك: لن ينتزعوا من ذكرياتنا الحية (هريميون) ولا (مونيم) ولا اللهب المشبوب الذي يتطاير من هذا القلب الفتى الخفاق! اندبي يا أميرة المسرح (بايزيد) الملك بييروس، فكل دمعة منك ترتفع بمجدك الناشئ وبفننا المسرحي أكثر ألف مرة مما نفيده من نقد جميع الناقدين!

راشيل - أشكرك وأومن بقولك. كنت الليلة في حاجة ماسة إلى كلمة مشجعة، إلى شعاع من الأمل. سأدرس (فيدر) عقب عودتي إلى المنزل. هذا الدور معقد أحلامي! قرأته عشرين كرة بعيني التلميذ، وأطمح في تمثيله وشيكا

لور - تعملين الليلة؟ ولكنك لم تستريحي اليوم!

موسيه - (للور) الفن طاغوتنا!

راشيل - اذن، فلا تحرر من ربقته. لور محقة. موسيه. . . أدعوك إلى العشاء معي. سوف نتذاكر الماضي العزيز: عشاءنا الأول الذي كان غاية في الفقر والظرف. أتذكر تلك الليلة البوهيمية التي خدمتك فيها بنفسي أثر عودتنا من الكوميدي فرانسيز؟ قرأنا، ليلتها فصلين من (اندروماك)، بعد أن تناولنا، فرحين، شايا ممزوجا بالروم! تعال: سنعيد السيرة من جديد. . . وأكرم وفادتك. . . خيرا من الماضي!

موسيه - (وقد لحظ القلق يستولي على لور) صدقيني. لم انس راشيل الناشئة وتغريني هذه الدعوة الحبية، لكني لا أجد الليلة من نفس حافزاً للهو والمرح، خصوصاً وقد وعدت بالسهر على مقال يرتقبونه من زمن مديد. . . خذلني تكاسلي مرات عديدة فلا أرى الهرب من الواجب، مرة أخرى!

راشيل - يا للعذر الواهي! وإن أضعت أيها العزيز ليلة أخرى!

موسيه - (شاخصا إلى لور) لا. بت والأسف يحز في نفسي على بعض (الليالي الضائعة)

راشيل - (تتطلع نحو الاثنين ثم تقول وقد فهمت كل شيء) الليالي الضائعة؟ أو أثق أنت من ضياعها؟ أراهن انك التقيت بالعابرة المجهولة وأن قلب عذراء في العشرين سيحلم الليلة بالأبيات الخالدة التي ألهمتك إياها إحدى هذه الليالي الضائعة، لقد اهتدت فطرة ذلك القلب السليمة إلى ما تبقى في نفسك من صدق ونبل وحنان وإني لا بصر وأنا أهتك سرك - بموسيه مجهول ربما كان هو موسيه الحقيقي!

موسيه - (في تأثر بالغ) مساء الخير يا راشيل!

يقبل يد الممثلة ثم ينحني طويلا أمام لور التي تكتفي بكلمة تعبر له عن شدة تأثرها (واغتباطها برفضه قضاء السهرة في مرح)

شكرا

(يخرج موسيه)

راشيل - (للوصيفة) على بمعطفي!

(تخف إلى لور التي تابعت الشاعر بعيونها وتقول)

أما أنت يا صغيرتي لور فصدقيني: لك أن تفاخري بهذا الحب!

(ثم لنفسها في أسى مرير)

لم يناجني موسيه قط بمثل هذه النجوى القدسية!

- ستار -

النقد)

قصة خسرو وشيرين

والشعر المرسل

بقلم احمد حسن الزيات

ألقي إلينا في البريد رواية شعرية في خمسة فصول، بعنوان (قصة خسرو وشيرين) لا تحمل اسم ناظمها، ولا عنوان طابعها، ولا تتسم بشيء من السمات الدالة على الشخصية، فكأنها الوليد البريء جاء لِغِيَّة فألقى على مدرجة الطريق، متروكا لرحمة القدر أو قسوته.

الرواية جليلة الموضوع، نبيلة المغزى، جميلة النسج، ينم سياقها وحوارها على قلم مدرب، وفكر ناضج، وثقافة عالية، فلا يمكن أن يكون المؤلف قد أرسلها غفلا، فرارا من تعقب الدين أو القانون أو الأدب أو الفن، إنما علة هذا التخفي على ما يظهر من المقدمة تمكين الناقدين من الرأي الحر والحكم الصريح في قضية الشعر المرسل.

فان المؤلف كما تدل المشابهة القوية بين ما نشر من هذا الشعر في (الرسالة) وبين ما جاء منه في هذه الرواية، زعيم القائلين به والقائلين فيه، فهو بذلك يضع المثل أمام القراء والشعراء ليقطع حبل الجدل، ويخرج من النظر إلى العمل، ويجعل الدفاع عن هذا المذهب لقوة الحياة فيه، ومبلغ الفائدة منه.

أضف إلى ذلك إن المؤلف يدرك نبو هذا الشعر في ذوق الجمهور فهو يريد أن يوسع له في مجال القول، ولا يجعل لاعتراضه أو امتعاضه حدا من الصداقة أو المجاملة. قال الأستاذ في المقدمة:

- أرجوك العفو أيها القارئ عما يمكن ان تتحمله في قراءة هذا الـ. . . (ماذا أسمي) هذا؟ أظن خير تسمية ان أسميه المطبوع). وأنك إن قرأت منه كلمة واحدة أو سطراً واحداً ثم رميته كارها كنت عندي معذوراً، فهذا ما توقعته، ولا عجب في الأمر إذا كان متوقعاً ولست عندي معذوراً فحسب، بل انك جدير بشكري، إذ أنك قرأت منه شيئاً في حين أن كثيراً من الناس إذا وقع لهم مثل هذا المطبوع لا يقرأون منه حرفاً بل يقلبون صفحاته تقليباً سريعاً، ثم يرمون به إلى أقرب موضع، ولكنهم مع ذلك لا يترددون في ان يبدوا رأياً في عيوبه أو محاسنه إن تكرموا. وأما إذا أنت صبرت أيها القارئ فقرأت سطرين أو ثلاثة من هذا المطبوع، ثم قذفت به حيث أردت لم تكن في ذلك بالمعذور، بل كنت متفضلا مضحياً من أجل مجاملتي مع أنك لا تعرف من أنا، وفي هذا أدب عظيم وكرم مطبوع، وأما إذا كنت قد بلغت من قوة ضبط النفس ورياضتها على المكاره بحيث استطعت ان تثبت على القراءة حتى أتيت إلى آخر كلمة، ثم تركت لنفسك العنان بعد طول كبحها

وحبسها فانطلقت تصخب وتشتم وتنادي بالويل والثبور - إذا فعلت ذلك كنت في نظري بطلا من أبطال العزيمة وقوة الاحتمال. على أنك لو فعلت ذلك لم يمسسني منك أذى وان بلغت في ثورتك مبلغاً مخيفاً، لأني قد توقعت مثل ذلك فأخفيت نفسي حتى لا تتحرج فيما تفعل، فلعلي إذا أظهرت لك شخصي بدوت لك صديقاً أو ممن يمتون إليك بسبب فتجاملني أو تكظم غيظك عليّ، فيكون في ذلك أذى لك لا أرضاه. (فافعل ما بدا لك أيها القارئ. ولا تتورع فان أحجارك أو سهامك لن تصل إليّ.

ذلك ما بدأ به المؤلف الفاضل مقدمة الرواية، ومن وراء سطوره كما ترى إغراء بالقراءة. وتحريض على النقد. وعتاب ساخر لمن يقول في الشيء بغير علم. ويحكم عليه من غير خبرة.

فإذا علمت بعد هذا انه لم يعرض روايته في السوق، وإنما أهدى ما طبع منها إلى الأصدقاء والأدباء ازددت يقيناً بأنه لا يريد غير محاكمة المذهب، وسواء بعدها أكنت له أم عليه.

على ذلك نصارح الأستاذ برأينا في الشعر المرسل، ونحن أشد ما نكون اطمئناناً إلى رضاه، ووثوقا بحسن ظنه.

لقد قرأت الرواية وحاولت أن أوفق بين شعرها المرسل وذوقي المقيد فلم أفلح. فالأبيات تطربني بأجزائها المتسقة، وألفاظها المختارة ومعانيها السامية. ولكن أواخرها النواشز تتناكر مع الطبع والسمع فتذهب بحلاوة سياقها وعذوبة موسيقاها. اقرأ معي قوله في الفصل الأول ص14

شيرين:

جئت حينا هنا، فألفيت أرضا ... غير ما اعتدت إذ تكون بجنبي

كان لون الزهر غير بهيج ... وخرير الماء غير جميل

وقوله في الفصل الثاني على لسان خسرو ص41

خسرو:
لا أرى في الأنام أحرى بسخر ... من معنى بكاذبات الأماني
من يكن همه التماسا لرزق ... لم يجد في طلابه أسقاما
قد يهيم الفقير بين الفيافي ... في التماس الاحطاب والأعشاب
فإذا فاز بعد جهد جهيد ... برغيفين لم يعكره هم
غير أن الذي يحاول مجداً ... يدع النوم والسلام ويأبى
ثغرة الابتسام حتى إذا ما ... طالعته المنى رآها سرابا
وقوله في أول الفصل الخامس على لسان جنديين يهيئان مجلساً في بهو القلعة لخسروا السجين ص103
الأول: إن في الفقر سلوة يا صديقي.
الثاني: فتمتع به وحيداً هنيئاً إنني لا أراه إلا عذاباً.
الأول: قد أمنا في الفقر غدر الليالي.
الثاني:
هل ترى تلك نعمة ان أمنا ... إذ بلغنا الحضيض؟ أي أمان!
الأول:
ليس في الفقر لو علمنا شقاء ... أنا إن جعت كان حسبي رغيف،
وإذا ما تعبت نمت عميقا ... لا أبالي إذا تعريت صيفا
وشتائي لباسه جلد شاة
الثاني:
لا تبالي إذ كنت فرداً وحيداً ... ليس يبكي الأطفال حولك جوعا
كن كما شئت، عش فقيراً، فإني ... حانق حاقد على إملاقي
الأول:
يا صديقي أكنت ترضى بعز ... ثم تهوى إلى قرار سحيق؟
سل عن المجد والعزازة كسرى، ... بعد أن ذاق ذلة المأسور
الثاني:
ان قلبي يسيل هما إذا يا ... من كسرى يختال في الأسر كبرا.
الأول:
حسبه شقوة إذا كان قوم ... مثلنا يرحمونه في شقائه. . .
يا صديقي لا تغتر بلباس ... للامع قد يكون ستراً لبؤس.
ماذا تجد في حسك من هذا الشعر؟ ألا تجد في ذوقك المطبوع على نغم القوافي العربية نفوراً من هذه الفواصل المتدابرة؟ لقد كان هذا النشوز يخف لو راعى الأستاذ الشاعر اتحاد الأصوات في أواخر الأبيات كقوله مثلاً على لسان سرجيس:
قد علمنا أن الحياة غرور ... ثم لا نستطيع غير الغرور
جعل الله في النفوس نزوعا ... لاضطراب الحياة رغم العقول
فان بين الغرور والعقول مزاوجة تلطف من وقعها على الذوق الحساس والعادةالموروثة: ولكن أين هذا وذاك من قوله في ختام الفصل الخامس على لسان شيرين (ص129)
أيها الذاهب الشهيد بنفسي ... ما أصابتك من جروح دوامي
قد أسالوا الدم الزكي. وأني ... تنفع المدنف الدموع الهوامي؟
ذهب اليوم صاحب وحبيب ... كان من هذه الحياة نصيبي
فجعوني به، فكيف حياتي ... بعد أن غاب عن حياتي حبيبي
شيرويه (يرى شيرين فيظهر التألم)
وا أبي! صرعة العظيم قضاء ... عرفته النجوم منذ القديم.
قد أراد القضاء ما كنت أخشى، ... ما احتيالي في الكائن المحتوم؟
شيرين: (لشيرويه)
أنا أبكي والدمع حسبي، فمالي ... حيلة في المصاب غير دموعي
ليس لي الصولجان والسيف حتى ... أندب الملك بانتقام وجيع.
شيرين:
دع لمثلي الدموع، فهي دوائي ... من شجون لواعج وكلوم

فجعوني بصبيتي تحت عيني، ... وأسالوا دماء قلب سقيم
ثم ضحوا بصاحبي وحبيبي، ... وا فؤاداه للصريع الكريم!
أسعفي يا دموع قلبي حتى ... أجد الطب في الهلاك الرحيم
ففي هذه الأبيات اشتد التأثير في الموقف، وقوى الشعور في الأشخاص، فغلبت القافية إرادة الشاعر، وجاء المنظر الختامي حجة عليه ونقضاً لما عاناه من ترويض الآذان على الشعر
المرسل
إنما يتميز الشعر من سائر ضروب الكلام بخصائص ثلاث: موسيقية شديدة الحساسية، وصعوبة عسيرة التذليل، وقدرة على تثبيت الفكرة بلفظها في الذاكرة. فالشعر المرسل يستطيع أن يدرك شيئاً من الموسيقى إذا زاوج الشاعر بين أواخر الأبيات، واستفاد من الحرية التي أعطيها، فتخير الألفاظ، وعدل الأقسام، وألف الألوان، وحرك المعاني، ونوع الصور، وأخشى بعد ذلك كله ألا يرتفع عن النثر البليغ المحكم. ولكن الصعوبة التي تلقى الشاعر في كل بيت عند القافية فيسلط عليها ذهنه وفنه وذوقه ولغته حتى يفجأ أذنك - وهي تنتظر في غير صبر - بتلك الحيلة الفنية، واللفتة الذهنية، والكلمة الصادقة الموسيقية، لا تجدها في غير الشعر المقفى
كذلك يعجز الشعر المرسل عن أن يهيئ للذاكرة في التمثيل - على الأخص - ما تهيئه لها القافية من (نقط الارتكاز) وعلائم الطريق حتى لا تجور ولا تضل.
على أن تسهيل الشعر بإلغاء القافية يخمد الذهن ويجدب القريحة، لان الصعوبة ترهف الفكر فيدق احساسه، وتوقظ العقل فيزيد انتاجه، وتبعث الفن فيحيا بين الهام الشاعر وإعجاب القارئ
والواقع أن القافية لم يشكها شاعر مطبوع ولا ناظم مطلع، فان الطبيعة الغنائية للشعر العربي من جهة، ووفرة الثروة اللفظية للشاعر من جهة أخرى، تجعلان القافية من أخص لوازم الشعر واسهل ضروبه. ولك في الأراجيز القديمة، والموشحات الحديثة، وسائر ما استحدث المولدون من الأنواع القائمة على موسيقى القافية دليل ناهض على ما نقول.
فإذا وقع شاعر اليوم في رهق من بناء القافية لقلة محصوله من اللغة، أو لمعالجته التمثيل والقصص الطويل، كان له في تنويعها مندوحة عن هذا النوع الذي تذبذب بين النظم والنثر، فوقف من الأذن موقف الغصة من الحلق، بذلك استطاع البستاني أن يترجم الإلياذة، وتسنى لشوقي أن يبدع في مآسيه.
هذه كلمة موجهة نفتتح بها المعركة الأخيرة بين الشعر المقفى والشعر المرسل، فان رواية (خسرو وشيرين) مع ملاحظة التحفظ في عرضها، جاءت بعد المقالات التي نشرت بالرسالة أشبه برواية (هرناني) حين كتبها (هوجو) على المذهب (الرومانتيكي) بعد أن دعا
إليه في مقدمة (كرومويل) وفاتحة (الشرقيات) فجعلها هو وأنصاره المعركة الفاصلة بين هذا المذهب والمذهب (الكلاسيكي).
أما الحديث عن موضوع الرواية، وتصوير أشخاصها، وعرض مواقفها، وتسلسل حوادثها، وتدرج العمل فيها، فله فرصة أخرى نرجو أن تحين.
العدد 38 - بتاريخ: 26 - 03 - 1934
(عيد الأضحى) . . .
وفي مارس أيضا يقبل عيد الأضحى أو يوم الله، بعد ما أقبل عيد الضحايا أو يوم الوطن! والإيمان بالله وبالوطن أسمى شواعر النفس، والتضحية لله وللوطن أصدق شعائر الإيمان، والاحتفال بيوم الله ويوم الوطن أقدس مظاهر الإنسان، وعيد الأضحى أجل أعياد المسلمين خطراً، وأبلغها في حياتهم أثراً، وأبلجها في نفوسهم دلالة. تجمعت فيه مبادئ الإسلام وغايته كما تتجمع صور الوجود في العين، ومحاسن الربيع في الزهرة. فهو موجة من النور الهادئ الهادي في خِضَمِّ الزمان المضطرب، وفترة من السلام الإلهي بين خطوب الجهاد المضطرم، ونفحة من النعيم السماوي تَنْدى لها القلوب اليابسة بالوداد المحض والبر الخالص، وسبب من الروح المؤاخي يصل بين الغنى والفقير بالإحسان، وبين القوي والضعيف بالرحمة، وبين القريب والبعيد بالمودة، وبين الله والإنسان بالصلاة، وبين المسلم والمسلم بالحج!!

الأعياد الدينية واحات في صحراء الحياة، يستريح إلى نبعها الحرَّانُ واللاغب، ويطمئن إلى ظلها الهيمان والشارد، ويجد الكاسف المعمود في نسيمها النديِّ بَرد السرور ونشوة العافية، ويذهل السائر المجهود برهة من العمر عن مخاطر الطريق ومكايد الرفاق ومساوئ القافلة، ويذكر ان له عواطف صالحة طغت عليها المنافع، وقرابة واشجه قطعت بينها المطامع، وصلات شابكة أوهنتها الجفوة، وتبعات واجبة أعجزه عن حملها كلال الضمير، وغاية إلى الخبر المطلق أضله عن سبيلها غرور الحياة.

عيد الأضحى هو عيد الأسرة والأمة والملة، يفيض المسرة والبهجة على البيت، ويجدد المودة والألفة في الوطن، ويسفر بالتعارف بين وجوه الاخوة في عرفات،

فإذا رده اليوم فساد العيش في المدينة إلى ما نعرف من خروف يذبح ولا يُضحي، ومساجد تؤذن بالمدافع والمآذن ولا تجاب، وبيوت تُفتح للتهاني ولا تزار، وأيام كنقاهة المريض كلها خمود ونوم وأكل، فأن له في القرية صورة لا تزال منذ الطفولة في ذهني فتانة الجمال أخاذة السحر شديد الروعة:

لا يكاد يفرغ القرويون من صلاة المغرب ليلة العيد حتى ترى طريق المقبرة يسيل بالفوانيس الشاحبة الخافتة. ثم تنتشر آخر الأمر على وجوه القبور انتشار الحبُاحب، وتنتقل القرية الحية إلى القرية الميتة فتقضى موهنا من الليل في الاستعبار والاستذكار والقراءة،

ثم يعودون وقد كفاهم (الفقهاء) مئونة ما حملوا من الكعك والفاكهة، فيقطعون الهزيع الثاني من الليل في طسوت الحَّمام أو في دار المزين! والغسل بالماء الساخن لا يعرفه الفلاحون الا ليلة العيد وليلة الزواج ويوم الموت، ثم يُعدون زينة العيد فيكوِّرون العمائم ويصبغون الاحذية، ومن لا يحسن لوث العمامة، أو لا يملك علبة (الورنيش)، ذهب بطربوشه أو بحذائه إلى قريبه أو جاره، والقرية كلها أسرة واحدة يكمل بعضها نقص بعض، فإذا فرغوا من ذلك ناموا على هدهدة الأحلام ومناغاة المنى، وتركوا النساء أمام المواقد ينضجن الخبز ويطهين اللحم ويصنعن الحلوى حتى الصباح!

تشرق شمس العيد على القرية في غير وجهها المألوف، فلا النور كان باهرا كهذا النور، ولا الشعاع كان ساحرا كهذا الشعاع: وتستقبلها القرية في غير زيها المعروف، فلا الوجوه كانت ضاحكة كهذه الوجوه، ولا الجلابيب كانت ناصعة كهذه الجلابيب ولا العمائم كانت زُهْرا كهذه العمائم، ولا الدروب كانت مطرزة بألوان الربيع كما هي اليوم!!

لا يتخلف عن صلاة العيد من أهل القرية غير النساء! أما الرجال فهم صفوف وراء الأمام يؤدون الصلاة، وأما الأطفال فهم وقوف على الأبواب يشهدون الخطبة! ثم تقضي الصلاة فيقبلّون الخطيب جميعاً، ويقبل بعضهم بعضا، ثم يذهبون رَتَلاً جميل النسق إلى المقبرة، ويرجعون من طريق أخرى إلى الحارات المكنوسة المفروشة، فيجلسون أمام المنازل إلى الطعام الشهي الفاخر، يتبادلون الألوان، ويتهادون الصحاف، ويتركون على موائدهم محلا رحيبا للفقير!

تُرفع (الصواني) وتوضع القهوة، ثم يقوم العمدة في أهل حارته فيزورون الحارة الأولى، فيهنئون ويجلسون ريثما تدار القرفة وتوزع السجائر، ثم يقومون جميعاً إلى الثانية فالثالثة فالرابعة وهلم جراً إلى آخر البلد، وكلما مروا بحارة أخذوا أهلها إلى الأخرى، حتى تجتمع القرية كلها آخر المطاف لدى العمدة فيقضون في مجلسه أكثر اليوم.

ذلك أمر الكهول والشيوخ، أما الشباب والأيفاع فيطوفون زمرا بالبيوت يهنئون الصبايا وأيديهن لا تزال في الطعام، فيطبعن بالقبلات الخلية على الخدود البرنزية خاتما رقيقا من (الدمعة)، ويرسمن بالانامل المخضبة على الثياب البيض طغراء جميلة من الدسم، ثم ينصرف بعد ذلك الشباب إلى لعب الكرة في ساحة البيْدر، والاطفال إلى الاراجيح على

أشجار الترعة! تلك صورة العيد في القرية رسمتها بغير ألوانها الزاهية، وجلوتها في غير إطارها المذهب، فبالله ربك! أهي على علاَّتها اخلق بالإنسان واقرب إلى الدين وأشبه بالخلق، أم هذه الصورة التي تراها اليوم في شوارع المدينة وجوامع المدينة وقصور المدينة؟!

نسأل الله مخلصين أن يعيد هذا العيد على الأمة المصرية والدول العربية والممالك

الإسلامية ونحن وهم على خير من هذه الحال!
احمد حسن الزيات
النقد والطربوش وزجاج النافذة
للدكتور طه حسين
وتستطيع ان تضيف إلى هذه العنوانات عنوانات أخرى، فهناك أزقة ضيقة شديدة الضيق، ملتوية شديدة الالتواء، قد كثر على ارضها الوحل، حتى ان الذي يمشي فيها لينزلق، أو يمشي مشية مسلم بن الوليد في بيته المشهور:
إذا ما علت منا ذؤابة شارب ... تمشت به مشى المقيد في الوحل
وقد أمطرت سماؤها أو نوافذ ما يقوم فيها من الدور ألوانا من المطر، منها السائل ومنها اليابس، نستغفر الله، بل قد صبت سماؤها أو نوافذ ما يقوم فيها من الدور ألوانا من البلاء، منها مرق الفول النابت، وماء المخلل، وفيها أشياء أخرى جامدة كانت تهوى على الرؤوس، وربما مست العيون، وربما دخلت الأفواه ووصلت إلى الحلوق فانعصرت فيها انعصاراً، وأذكت فيها لهيبا ونارا، وقد كان في هذه الأزقة مارد من مردة الجن أو مردة الإنس، له صدر عريض قد انتفش فيه شعر الطويل حاد كأنه الأسنة، يصطدم به الرجل القصير فإذا هذا الشعر الطويل الحاد يداعبه ويلاعبه، فيبعث بوجهه، ويدخل في أنفه وفي فمه وفي عينيه. وقد كان في هذه الأزقة غلام شرير، لسانه عذب، ويده مرة، وقد كان في هذه الأزقة شاب ظهر الغباوة والبله، خفي المكر والغدر، شديد البأس والبطش، يخيف من ليس من شأنه أن يخاف، ويضطر اثبت الناس قلبا وأشدهم استهزاء بالحياة إلى أن يعدو عدو الشنفري وتأبط شراً وابن براق، حتى يدفع إلى دار من الدور، ثم إلى بيت من بيوت هذه الدار، فلا يدخل هذا البيت من بابه كما أمر الله أن تؤتى البيوت، وإنما يدخله من إحدى نوافذه. وفي هذه الأزقة شيخ وقور، ظاهره يخيف، وباطنه فيه الرحمة واللين، وفيه الرفق والدعة، وفيه الأدب وحسن الذوق.
كل هذه الأشياء، وكل هؤلاء الأشخاص، يمكن أن تضاف ويمكن أن يضافوا إلى هذه العنوانات التي قدمتها بين يدي هذا الكلام، ولكني لم أضفها تحرجاً من الإطالة وإشفاقا من الإطناب، وإيثارا للإيجاز البليغ.
وأنا أستطيع بعد أن وضعت هذا العنوان وأتبعته بهذا الكلام، أن أتحول بك إلى ما شئت أنت أو ما شئت أنا من الموضوعات فأتحدث إليك فيه حديثا طويلا أو قصيراً، وأعرض عليك فيه صوراً جميلة أو دميمة، وأثير في نفسك به عواطف هادئة أو جامحة، وأرسم على وجهك به ابتساما وضحكا، أو عبوساً وتقطيباً، حتى إذا بلغت من هذا كله ما تريد أنت، أو ما أريد أنا، أو ما نريد جميعاً، ذكرت النقد والطربوش وزجاج النافذة. واعتقدت أنا أو خيلت إليك إني أعتقد، واعتقدت أنت أو خليت إلى انك اعتقدت، واعتقد صديقي الأستاذ المازني، أو خيل إلى نفسه والينا أنه يعتقد، أني قد أمتعت الرسالة وقراء الرسالة بفصل قيم أو غير قيم، قوامه الحديث عن النقد والطربوش وزجاج النافذة!.
وتسألني ما بال الأستاذ المازني يقحم هنا إقحاما، وما خطبه مع النقد او الطربوش وزجاج النافذة ومرق الفول النابت، وماء المخلل، وما يتبع هذا كله من الأشياء والأحياء؟ فأجيبك بأن هذا السؤال لا ينبغي أن يساق إليّ، وإنما ينبغي أن يساق إلى الأستاذ المازني، فهو الذي تحدث عن هذا كله، وهو الذي أثارني إلى أن أتحدث عن هذا كله، وليس من شك في أن الأستاذ المازني سيقول في دعابته الحلوة الظريفة، وما أنت وجر الشكل، وما لك تدخل بيني وبين النقد والطربوش وزجاج النافذة، وما يتصل بها من الملحقات؟. ولكن الأستاذ يوافقني أو لا يوافقني - فهذا سواء - على أنه صاحب فن، وعلى أن أصحاب الفن إن كتبوا لأنفسهم فهم ينشرون للناس، وعلى ان صاحب الفن لا يملك أثره الفني بعد أن يلقيه إلى الناس. وعلى أن من حق الناس إذا ألقى إليهم شيء أن يتناوله كما يحبون، يعجبون به أو يسخطون عليه، يرغبون فيه أو ينصرفون عنه، يحمدونه أو يسلطون عليه اللوم.
وإذن فقد ألقى إلينا الأستاذ المازني فصله الممتع البديع الذي أثارني إلى أن أتحدث إليك عن النقد والطربوش وزجاج النافذة، أو إلى أن أتحدث إليك عن الأستاذ المازني نفسه من وراء هذه الأشياء التي لا تحصى، والتي لا أكره تكرارها، وما أظنك تكره تكرارها، وهي النقد والطربوش وزجاج النافذة والأزقة وما يتراكم على أرضها من

الوحل، وما تصبه سماؤها من السائل والجامد، ومن يمشي بين ذلك من الأشرار والأخيار.

وللأستاذ المازني مع هذه الأشياء كلها، ومع هؤلاء الناس كلهم، ومعك أنت، ومعي أنا، قصة طريفة ظريفة، خليقة أن تقص، وخليقة أن تثير الإعجاب. فهل تدري ماذا دفع الأستاذ المازني إلى أن يتحدث عن هذه الأشياء، وعن هؤلاء الأشخاص، فيثيرني إلى أن أتحدث عنه، وعنها، وعنهم؟ هو شيء يسير، يسير جداً، هو أنه أديب يقرأ في الكتب،

ويكتب في الصحف، وينقد الكتاب والمؤلفين. وقد تتغير الأزمنة وتتبدل ظروف الحياة وترقى الأجيال بعد انحطاط، ولكن هناك شيئاً لا يتغير ولا يتبدل في حقيقة الأمر، وهو أن الأدب محنة يمتحن بها الأدباء، ونقمة يصيب الله بها هؤلاء الذين يمنحهم شيئاً من حسن الذوق والقدرة على فهم الأدب وتقريبه إلى الناس. وقد امتحن الله صديقنا المازني ووفر له من نقمة الأدب وبلائه حظاً عظيماً، فجعله شاعراً مجيداً وكاتباً بارعاً، وناقداً مسموع الكلمة، مهيب الجانب، مقدور الرأي، لا يصدر كتاب إلا أراد الناس أن يعرفوا رأيه فيه وحكمه عليه. وكان صاحب الكتاب نفسه أحرص الناس على ذلك وأشدهم طلبا له وإلحاحاً فيه. والكتب تمطر على الأستاذ المازني، ويمطر معها طلب النقد وطلب التقريظ، والنقد والتقريظ يحتاجان إلى القراءة والدرس. وإذن فالمازني المسكين مصروف عن نفسه وعن فنه وعن كتبه، إلى هؤلاء الناس الذين يكتبون، والى هؤلاء الذين يقرأون. ومن هنا ومن جهات أخرى أيضاً كان المازني شقياً بالأدب، وأن كان الأدب سعيداً بالمازني، وأي دليل على شقاء المازني بالأدب وسعادة الأدب بالمازني، أقوى من هذه القصة التي أحدثك عنها الآن؟

فقد اخرج كاتب من الكتاب كتاباً من الكتب، وأهداه إلى الأستاذ بالطبع. وعرف الناس أن هذا الكتاب قد أهدى إليه فأخذ الناس ينتظرون، وأخذ صاحب الكتاب بنوع خاص ينتظر. فلما طال الانتظار كان الطلب، ولما كان الطلب ولم يجد شيئاً كان الإلحاح. واضطر المازني إلى أن يذعن، وأكره المازني على أن يكتب، ولكنه كان قد أرسل الكتاب إلى من يجلده. فلما اشتد عليه الإلحاح ذهب في طلب الكتاب من المجلد. فدفع إلى رحلة غريبة، والى استكشاف أغرب. دفع من هذه الأحياء المتحضرة التي تتسع فيها الشوارع، وتجري فيها السيارات، وتنتشر فيها الشرطة، والتي لا تتغطى أرضها بالوحل، ولا تمطر سماؤها مرقا ولا مخللا، إلى أزقة ضيقة ملتوية فاسدة الهواء، تعيش فيها أجيال من المردة والشياطين، وفي هذه الأزقة عرف المازني الخوف والفرق، وعرف الهرب والغلو فيه، وعرف كيف يكون وقع الأحجار على الأجسام، وكيف يكون وقع الشتائم في النفوس. ثم عرف كيف يفقد الناس طرابيشهم، وكيف ينظرون إليها وهي تهان وتمرغ في الوحل تمريغاً، ثم عرف كيف يدفع الهاربون إلى اقتحام الدور والاستخفاء في البيوت وقد غاب

عنها أهلها. ثم عرف قصة الرجل الذي ذهب يطلب كتاباً ففقد طربوشه وعاد صفر اليدين.

والغريب أن هذه الرحلة الهائلة وما امتلأت به من الأخطار كانت كلها في القاهرة، وفي ساعات قصيرة، ولست أدري فيم يحتاج الذين يحبون الأخطار إلى التماسها في الصحراء أو في الجبال أو على الذين يحبون الأخطار إلى التماسها في الصحراء أو في الجبال أو على البحر المحيط، مادام الانتقال من حي من أحياء القاهرة إلى حي آخر، خليقا أن يرينا من الهول والخطر مثل ما رأى صديقنا الكاتب الأديب ومن هنا نستطيع أن نفهم ضيق المازني بالأدب والأدباء، وبالكتب والمؤلفين وتضرعهم المتصل إلى الله أن يعفيه من هذه الصناعة التي يشقى بها، ولكنها تسعد به وتسعد الناس أيضا. ولكن الأستاذ المازني يتساءل في شيء من الحيرة أيجب أن يقرأ ما يريد هو أم يجب أن يقرأ ما يريد الناس؟ وإذا سمح لي بأن أجيبه فإني أرى أنه ملزم بان يقرأ ما يريد، وبأن يقرأ ما يريد الناس، مادام قد أقبل على صناعته هذه راضيا بها أو مكرها عليها، ولكن السؤال الذي أحب أنا أن أسأله هو. هل يظن الأستاذ المازني أنه أبرأ ذمته أمام القراء وأمام المؤلف بهذا الفصل البديع الذي كتبه منذ أيام، فحدثنا فيه عن النقد والطربوش وزجاج النافذة، وعما تحمل الأرض من وحل، وما تمطر السماء من مرق؟ فان كان يظن أنه قد أرضى قراءه وصاحبه بهذا الفصل فقد أصاب وأخطأ في وقت واحد:

أصاب لأن الفصل بديع، وأخطأ لأنه لا يغني من النقد شيئاً، فلن يعفيه صاحب الكتاب من الإلحاح عليه، ولن يدعه حتى يقول إنه قد قرأ هذا الكتاب فرضى عنه أو سخط عليه.

وسؤال آخر، أحب ألا يغضب صديقي المازني حين أسوقه إليه. ما باله يطغى على نفسه ويسرف عليها في الطغيان، ويصورها هذا التصوير الذي لا يلائمها بحال من الأحوال، والذي لا نحبه لها؟ فهل من الحق أنه هياب إلى هذا الحد؟ كلا، ولكنه يحب أن يعبث بنفسه فيسرف في العبث، وأكبر الظن أننا ان حدثناه في ذلك ضاق بنا وضجر، وشكا من هؤلاء الطفيليين الذين يدخلون بين الناس وبين أنفسهم، وقال إذا لم يكن لي الحق في أن اعبث بنفسي فلمن يكون الحق في أن يعبث بها إذن؟ أما أنا فأجيب الأستاذ بأن هذا الحق ليس مباحاً لاحد، ولكن الناس يستبيحونه لأنفسهم، سواء أرضى الأستاذ أم لم يرض، وأنا أتحداه، وأطلب إليه، أن يريني كيف يستطيع أن يمنع الناس من أن يتناوله بما يحبون من

ألوان النقد والعبث لا بما يحب هو، كيف يستطيع أن يمنع الناس من ذلك دون أن يخرج عن طور الكاتب الأديب؟ وإذن فما له يظلم نفسه هذا الظلم، ويلح عليها بهذا العبث الذي لا قصد فيه، أم هل ضاقت الدنيا بالأستاذ كما ضاقت بالحطيئة ذات يوم فيما يقال فهجا نفسه، لأنه لم يجد من يهجوه، أم هل كره الأستاذ الأخذ والرد، وضاق بالحوار والجدال، وكره أن يذكر الناس فيغريهم بذكره، فآثر أن يذكر نفسه هذه المسكينة التي لا تجد من يدافع عنها ويحميها من صاحبها الطاغية. فان تكن هذه فقد أخطأ المازني، فهأنذا أدافع عن المازني برغم المازني. أخشى ألا يكون لشيء من هذا كله أصل ولا فرع كما يقولون، وان يكون المازني قد أراد نفقد الكتاب الذي طلب إليه نقده، فمضى به الخيال ومضت به الدعابة إلى هذه الأزقة الضيقة الملتوية، يبحث فيها عن الكتاب وصاحب الكتاب، فلم يفد إلا أن فقد طربوشه وأضاع على صاحبه الشيخ زجاج نافذته، ولم يجن لنفسه ولا لصديقه المؤلف شيئاً. وويل للكتاب وللمؤلفين من دعابة المازني ومجونه، وويل للكتاب والمؤلفين من الغاز المازني ورموزه، بل ويل للمازني نفسه من طغيان خياله وجموحه، فان في هذا الجسم النحيل الضئيل جسم هذا الرجل الهادئ الوديع ماردا كالمردة وشيطاناً لا كالشياطين.

أما بعد، فلنذكر النقد والطربوش وزجاج النافذة، وما يتصل بها من الأشياء والأشخاص، لنختم المقال كما بدأناه، وليعلم المازني أنا لم نتحدث عنه، ولم نشر إليه، ولم نفكر فيه، وإنما تحدثنا عن كتاب نقد، وطربوش فقد، وزجاج حطمه فتى من الفتيان تحطيماً.

طه حسين

(والراديو أخيراً!)

للأستاذ احمد أمين

نشأت في حي وطني، لم يأخذ من المدنية الحديثة بحظ قليل ولا كثير، يعيش أهله عيشة وادعة هادئة بطيئة، لم تتغير عن معيشة القرون الوسطى إلا قليلاً، ولم تنقطع الصلة بينهم وبين آبائهم وأجدادهم، إذا عرضت عليهم صفحة من حياة مصر قبل بضع مئات من السنين فهموها حق الفهم، وقرأوها في أنفسهم وفي معيشتهم، فكانت الصلة بيني وبين سكان القاهرة في عهد الفاطميين أو الأيوبيين أو المماليك أقرب من الصلة بين ابني وعهد

إسماعيل. فالحياة في السنين الأخيرة غيرت سكان المدن تغييراً كبيراً، ونقلتهم نقلة مفاجئة سريعة، حتى ليحملق الطفل في عينك استغراباً إذا حدثته بحديث يتصل بالحياة الاجتماعية في عهد جده أو جدته، ويرى كأن الدنيا خلقت خلقاً جديداً.

كانت حارتنا تمثل طبقات الشعب المختلفة، يسكنها البائع المتجول، يظل نهاره وشطراً من ليله متنقلا من الحارات والشوارع، ينادي على البلح في موسم البلح، والخيار في موسم الخيار. وأسرته وأقاربه يعيشون جماعات في بيت كبير عيشة بائسة تعسة، كل جماعة في حجرة.

وطائفة من الموظفين من رئيس قلم في وزارة الأوقاف، وكاتب في وزارة الأشغال يمثلون، الطبقة الوسطى في حياتهم الاجتماعية والمدنية.

وبيت أرستقراطي واحد كان ربه نائب المحكمة الشرعية العليا، وكان متقدماً في

السن، عظيم الجاه، وافر المال، له الخدم والحشم، ويرهبه الكبير والصغير، وله عربة فخمة، تضرب خيولها الأرض بأرجائها فتملأ القلوب هيبة، وكان كل سكان الحارة يسمونه (الشيخ) من غير حاجة إلى ذكر اسم، فالشيخ ركب، والشيخ جاء، وعند بيت الشيخ - وكان الشيخ نعمة على الحارة، فلا تستطيع امرأة أن ترمي ماء قذراً أمام بيتها خوفاً من الشيخ، ولا يستطيع قوم أن يرفعوا أصواتهم في السباب والنزاع خوفاً من الشيخ. ولذلك امتازت حاراتنا من مثيلاتها ومما يجاورها بالنظافة والهدوء.

كان بين سكان الحارة رابطة تشبه الرابطة بين أفراد القبيلة، يعتز الأولاد بحارتهم ويهتفون بها في النداء، ويكون بينهم وبين أولاد الحارة الأخرى منافرة فيحتكمون إلى القوة، ويعتزون بالناشئ الشجاع يظهر بينهم يذود عنهم، ويجلب الفخر لحارتهم - ويرعى سكان الحارة حق الجوار بأدق معانيه، يعودون أحدهم إذا مرض، ويهنئونه إذا عوفي، ويواسونه في مأتمه، ويشاركونه في أفراحه، وهم في ذلك سواسية، لا يتعاظم غني لغناه، ولا يتضاءل فقير لفقره.

وكان لكل بيت من بيوت الطبقة الوسطى منظرة (مندرة) يتبادلون الاجتماع في أحدها. فيسمرون فيها السمر الحلو اللطيف، وأحياناً يحيون الليلة في سماع قرآن أو حفلة طرب، ولحسن حظي كان بجوار بيتنا موظف في الأوقاف يهوى الناي ويتقنه، فكان كثيراً ما

يحيي أصدقاؤه في منظرته حفلات شقية بديعة، إليها يعود الفضل فيما لي من إذن موسيقية وميل لسماع الغناء والافتنان به.

كان من المناظر التي لا أنساها طائفة من الرجال، قد لبس كل منهم على جلبابه الأزرق ميدعة من الجلد، يحمل القربة على ظهره ويمشي بها في ركوع، وهم يغدون في الحارة ويروحون، ينادي أحدهم بعد أن يفرغ قربته في الزير (سقّا عَوّض) وهي كلمة كنت أفهم منها المناداة على الماء ولكن ما كنت أفهم معناها تفصيلا. بل ربما لم أفهمه إلى الآن. فإذا سمعته سيدة أطلت من الشباك وأمرته أن يأتي لها بقربة حلوة أحياناً، ومالحة أحياناً، وربما تصنعت في مناداتها فرققت من صوتها، وتدللت في نغمتها، فكانت فتنة للسامعين.

وكثيراً ما طال النزاع بين السقا وربة البيت: فهو يقول ان القرب صارت سبعاً وهي تأبى إلا ستاً، ويطول الحوار والجدل والقسم بالإيمان، وأحياناً يتفادى السقا هذا الجدل بطريقة من طريقتين. إحداهما أن يوزع خرزاً من نوع خاص على صاحبة البيت عشراً عشراً، أو عشرين عشرين وكلما أتى بقربة أخذ خرزة، فإذا فرغ الخرز علم أنه تم العدد فأخذ حسابه. وثانيتهما انه كلما أتى بقربة خط على الباب بحجر أبيض خطاً - ولم يكن يعرف الطباشير ولا كتابة الأرقام - وأحياناً يتهم السقا ربة البيت بأنها مسحت خطاً، وأحياناً تتهمه هي أنه خط خطين لقربة واحدة، فإذا تكرر مثل ذلك ابى السقا في معاملة هذا البيت إلا أن يأخذ نصف القرش ثمن القربة الحلوة قبل أن يتحرك من مركزه أمام باب الحارة

وفي يوم من الأيام حول سنة 1900 رأيت الحارة قد مزقت وحفرت فيها الحفر طولاً وعرضاً، ومُدّت المواسير وأدخلت في بيتنا الحنفية واستغنينا عن السقا، وأراحنا الله من سماع النزاع حولنا، وأصبح الماء في كل طبقة من بيتنا، في أسفله وأوسطه وأعلاه، وشعرت أن البيت قد دبت فيه الحياة. فالله يقول (وجعلنا من الماء كل شيء حي) وما أنس لا أنس خادماً أتت منزلنا إذ ذاك من قرية من قرى الفلاحين فعَجبَتْ أشد العجب من الماء يخرج من الحائط ثم لا ينقطع إلا إذا شئنا، وحارت في تعليل ذلك، وأظنها حائرة إلى اليوم إن كانت على قيد الحياة.

وألفنا الماء يخرج من الحائط، وذهب الألف بالعجب، ولكن ظللنا نستضئ بالجاز، وهو ما يسميه سادتنا العلماء زيت البترول، وكان لمضايقاته أشكال من العذاب وألوان، فيوماً

ضُرِبْتُ لأني أرسلت لأشتري زجاجة لمبة فكسرت مني في الطريق، وكثيراً ما فسد مفتاحها فإذا أدرناه يميناً أخذ يرتفع اللهب ثم يرمينا بالهباب، وإذا أردناه شمالاً أخذ يهبط حتى لا نرى. وهكذا دواليك، حتى يضيق الصدر ونذهب إلى النوم قبل الموعد - وكثيراً ما نكون في سمر لذيذاً وحديث ظريف أو قراءة مُلِحةٌ، ثم نسمع الزجاجة كسرت فينكسر قلبنا لأن الوقت ليس وقت بيع وشراء، أو ننظر فإذا الجاز قد فرغ ولا

جاز لنا!
ثم رأينا الأسلاك تحزم البيت، وتحزم كل حجرة فيه وتدخل بيتنا الكهرباء فنديرِ المفتاح يميناً فتضيء الحجرة ونديره شمالاً فتظلم - وأبى الله إلا أن يرزقنا هذه المرة أيضاً بخادم خطبت في قريتها وأرادت السفر لتتزوج، فطلبت منا أن نعطيها لمبة من اللمبات الكهربائية أو لمبتين لتنيرها في حجرتها ليلة زفافها - وكان لهذه الخادم فصل اظرف من هذا وألطف، فقد نظرت أول ما أتت من قريتها إلى السقف فلم تر فيه عروقاً تحمل ألواح الخشب (لانه كان من الأسمنت المسلح) فصعدت إلى السطح لتحقق الأمر لعل السقف مقلوب، وان العروق من فوق والأخشاب من تحت، فلما لم تر عروقاً فوق ولا تحت، أحست بالخيبة في تعليلها، وفوضت إلى الله أمرها!. .
ثم دار الزمن دورته وإذا بعامل يأتي ليحزم البيت من جديد، وإذا بالأسلاك تمد وعدة صغير تركب وجرس يدق وإذا بالتليفون، وإذا بنا نتصل بمنِ في القاهرة وضواحيها بل بمن في أنحاء القطر ويتصل بنا من أحب، وأحسست إذ ذاك أن البيت قد استوفى حظه من الحياة كما يستوفيها الجسم الحي الراقي من شرايين وأوردة على أدق ما تكون من نظام - وكان لي مع التليفون متاعب أود أحياناً أن لو كان لم يكن، وأحياناً محامد احمد الله ان كان - فقد كنت قاضياً، وبيتي وحده من بيت القضاة فيه تليفون يصلني برئيسِ المحكمة، فقد يتغيب قاض فجأة عن الجلسة فيدق التليفون - آلو - انتدبناكم اليوم لمحكمة العياط، ومرة أخرى لمحكمة الصف، وقد يكون اليوم ثقيلاً، حر يذيب رأس الضب، وأو برد يقفّ منه الجلد - على كل حال - فكثيراً ما كان نذيراً بشر، وكثيراً ما كان بشيراً بخير.
وأخيراً أتى العامل أول أمس يزيد الأحزمة حزاماً ولكنه في هذه المرة حزام ناقص - خط رأسي وخط أفقي، وآلة لا يأبه لها النظر، وفي ذلك سر عجب، هذا هو الراديو - فيه علم إن شئت، وفن إن أردت، وناطق إن أصغيت، وساكت إن أعرضت، ومتحدث بكل لسان،
وواصلك بكل مكان - إن شئت معلماً فمعلم، أو غناء فمغن، أو فناً ففنان - يهزل حيث تحب الهزل، ويجد حيث تهوى الجد. يمتاز عن التليفون بأن التليفون طالب ومطلوب، فإذا كان طالباً فقد يفجعك بخبر، أو يوقظك من نوم، أو يحملك مطلبا يشق عليك، أو يصلك بمحدث يثقل على نفسك، ثم تريد أن تتخلص منه فلا تستطيع، فقد لزم الأمر، وحم القضاء. أما الراديو فليس إلا مطلوبا، هو عبد مطيع، وخادم أمين، إما ساكت أو متكلم بما أحببت، نديم ظريف، جهينة أخبار، وحقيبة أسرار، ترياق الهم، ورقية الأحزان، قد تكون له مساوئ لم أتعرفها فان جربتها فسأحدثك عنها بعد.
أين أنت أيتها الخادم التي عجبت من حنفية الماء، وأين أنت أيتها الأخرى التي عجبت من مصباح الكهرباء، لو كنتما اليوم في بيتنا لشاركتكما العجب، ولوقفت معكما حائراً من العلم الحديث، والفن الحديث، ولانفردت عنكما بالحزن العميق على أن ليس لنا من هذه المخترعات إلا المشاركة في الاستهلاك لا في الإنتاج، وإننا، في مواسير - الماء ومصابيح الكهرباء وآلات الراديو والتليفون - وما إلى ذلك من شؤون المدنية، لنا أن نشتري وليس لنا أن نبيع، ولنا أن نكون من النظارة ولكن ليس لنا أن نكون من الممثلين، ولنا أن نستورد ولكن ليس لنا أن نصدر.
إن كنت أيها الراديو قد دخلت البيت أخيراً فلست آخر ما يدخل، فهم يحدثوننا عن سلك آخر سيدخل قريباً يحمل الصور كما تحمل أنت الصوت، فان كنا الآن نسمع لك فسنسمع بعد ونرى - ومن يدري! لعل أسلاكاً أخرى تدخل توزع الحرارة والبرودة بقدر، وأسلاكاً وأسلاكاً - بل لعل هذه الأسلاك لا تعجب الجيل القادم فيراها بعد ان يتحررِ رمزاً لعصر بغيض أولع الناس فيه بالقيود حتى سلسلوا بيوتهم بهذه السلاسل، وسيهزأونِ بهذا النوع من الحياة الساذجة التي تستعين على الرغبات بالمواسير والأسلاك - وسينظرون إلينا كما ننظر نحن إلى سكان ما قبل التاريخ، وسيعجبون إذا فرحنا باتصالنا بأهل الأرض مع انهم اتصلوا بأهل السماء ., وستعود البيوت من غير أسلاك، ولكنها وافيه بالمطالب التي نستمتع بها، والتي نحلم بها، والتي لا يقدر خيالنا الآن حتى على الحلم بها، ويخلق ما لا تعلمون.
أحمد أمين

بعد حوادث النمسا
النمسا الجمهورية في خمسة عشر عاما
الحرب الأهلية وما بعدها - 3
للأستاذ محمد عبد الله عنان

أخذت الحياة البرلمانية في النمسا تنحدر منذ أوائل العام الماضي إلى معترك من الصعاب والعواصف، وألفت حكومة الدكتور دولفوس نفسها في مأزق صعب. ولم يك ثمة بد من أن تنتصر المعارضة - أعني الديموقراطية الاشتراكية - إذا تركت الأغلبية البرلمانية في سبيلها وخصومتها، أو تتوسل الحكومة لبقائها بوسائل أخرى. ولكن وقعت في يوم 4 مارس أزمة برلمانية الفت الحكومة فيها فرصتها ووسيلتها، وذلك أن مناقشة عاصفة حدثت في البرلمان في ذلك اليوم حول تصرف نائب اشتراكي اتهم بأنه وضع ورقتين في صندوق التصويت، واشتد القذف والاتهام والهرج من الجانبين، فاستقال الدكتور رنر رئيس المجلس واستقال الوكيلان، ومن ثم غدا انعقاد المجلس مستحيلاً، إذ لا يستدعيه للانعقاد طبقا لنص الدستور سوى الرئيس أو أحد وكيليه؛ وقدمت الوزارة استقالتها للرئيس ميكلاس فأبى قبولها، وفوض لرئيسها ان يعمل بقوانين الطوارئ، وبذا اتخذت الوزارة صبغة دكتاتورية، واستطاعت أن تصدر بعض القوانين الاستثنائية التي رأت ان الحاجة تدعو إليها مثل رقابة الصحافة، ومنع الاجتماعات والمظاهرات السياسية الخطرة على النظام؛ بيد ان الوزارة ما لبثت أن اضطرت أن توجه كل جهودها لمقاومة خطر آخر. أخذ يشتد شيئاً فشيئاً وينذر مصاير النمسا بشر العواقب؛ ذلك أن الوطنية الاشتراكية الألمانية أخذت منذ استيلائها على مقاليد الحكم في 30 يناير (سنة 1933) تتدخل في شئون النمسا بطرق ووسائل عديدة، وبث الدعاة الهتلريون في جميع أنحاء النمسا دعوة شديدة لتحقيق مشروع الاتحاد النمسوي الألماني (الانشلوس). وضم النمسا لألمانيا كما نعلم غاية جوهرية من غايات الوطنية الاشتراكية الألمانية سجلت في برنامج الهر هتلر منذ إنشاء الحزب الوطني الاشتراكي، وعبر عنها (بتحقيق وحدة الشعوب الجرمانية)، وقد شرحنا فيما تقدم كيف نشأت فكرة اتحاد النمسا مع ألمانيا وتطورت. وكانت الفكرة ما تزال قوية في النمسا

لدى الكتلة المحافظة حينما ظفرت الوطنية الاشتراكية بتولي الحكم في المإنيا، ولم يكن يعارضها سوى الاشتراكيين الديموقراطيين؛ ولكن السياسة العنيفة الهوجاء التي اتبعتها حكومة برلين إزاء النمسا، كانت كما قدمنا سبباً في انهيار مشروع الوحدة، وكشف عدوان الوطنية الاشتراكية وصلفها وتجنيها في الحال للشعب النمسوي عن فداحة الخطر الذي يهدد استقلاله وكيانه، وأيقن ان هذه الوحدة لا تعني في نظر برلين سوى خضوعه وعبوديته، وثارت حكومة فينا ومن ورائها الشعب كله ضد هذا التجني، وأبدى الدكتور دولفوس حزما وصرامة في قمع الدعوة الوطنية الاشتراكية التي تنظمها حكومة برلين وتمدها بالمال والنصح، وأجاب الهتلريون بتدبير سلسلة من الاعتداءات والحوادث الجنائية، ولا سيما في فينا وسالزبرج (شهر يونيه). وأجابت حكومة برلين على ذلك بمنع السياح الألمان من زيادة النمسا، وفرضت غرامة فادحة للتصريح بهذه الزيارة، وساءت العلائق بين فينا وبرلين إلى أعظم حد، وشغلت وزارة دولفوس بذلك الخطر الجديد الذي يهدد أمن النمسا وسلامتها، ولم تدخر وسعاً في مقاومته، وأيدها في ذلك خصومها الديموقراطيون الاشتراكيون لأنهم أدركوا الخطر الذي يهدد الديموقراطية إذا ظفرت الوطنية الاشتراكية في النمسا؛ وعمد الدكتور دولفوس إلى العمل السياسي، فزار رومة ولندن وباريس ليثير قضية النمسا باعتبارها مسألة أوربا الوسطى، وليبين أن استقلالها مسالة دولية تهم قضية السلام الأوربي كله؛ فنجحت مساعيه في هذا الشأن؛ واستطاع أن يغنم مؤازرة دول الحلفاء ضد السياسة الألمانية، وأن يحصل على تعديلات هامة في النصوص العسكرية لمعاهدة سان جرمان، إذ سمح للنمسا أن تزيد جيشها ووسائلها الدفاعية؛ وتولى الجنرال فاجوان وزير الحربية وزعيم الحزب المسيحي الاشتراكي (بعد وفاة المونسنيور سيبل) تنظيم القوات الجديدة، ونظم قوات الهايمفر أيضاً لتعاون في تأييد النظام، واستطاع الدكتور دولفوس بكثير من الحزم والشجاعة والجلد أن يحبط تحريضات الدعوة الألمانية ودسائسها، وكاد يفقد حياته في ذلك السبيل، إذ أطلق عليه الرصاص من أحد الدعاة

الهتلرين وأصيب إصابة خطيرة (في 3 أكتوبر) ولكنه نجا، ولم يزده الاعتداء سوى شجاعة وإقدام في مقاومة الخطط والدعوات الهتلرية ومطاردة أنصارها في جميع أنحاء النمسا.

في أثناء هذا الصراع كانت الديموقراطية الاشتراكية ترقب مجرى الحوادث. وكانت الخصومة الخالدة بين الديموقراطية والكتلة المحافظة (الاشتراكيين المسيحيين والهايمفر) ما تزال قائمة، ولكن الديموقراطيين الاشتراكيين كانوا يؤيدون الحكومة في قمع الدعوة الوطنية الاشتراكية، ويشتركون معها في خصومة الجبهة النازية (الوطنية الاشتراكية) لأنها خطر فادح على مثلهم وكيانهم، بيد أنهم لم يهادنوا الحكومة في غير ذلك، ولم يتركوا فرصة لمعارضتها والعمل على إسقاطها؛ وكانت الحكومة من جانبها تخشى خطط الديموقراطية ومفاجآتها، خصوصاً مذ تذرعت بالسلطة الدكتاتورية، ورفضت إجراء الانتخابات وإعادة الحياة النيابية، كانت المعركة دائمة مستمرة بين الجبهتين اللتين تشغل خصومتهما حياة الجمهورية منذ قيامها، ولكنها كانت في الأشهر الأخيرة معركة تربص وأهبة، وكان من الممكن بل من الطبيعي أن يقع الصدام بينهما من آن لآخر، كما وقع دائماً خلال الأعوام الأخيرة، بيد أنه لم يكن يتوقع أحد أن تضطرم بينهما معركة الحياة والموت في مثل هذه الظروف العصيبة، ولم يكن يتوقع أحد بالأخص أن تلقى الديموقراطية النمسوية حتفها في تلك المعركة وأنت تختفي من ميدان الحوادث بمثل هذه السرعة.

ولقد شهدنا منذ أسابيع قلائل فقط تلك المعركة الهائلة وتتبعنا حوادثها السريعة بمنتهى الروع والدهشة؛ كانت مفاجأة لم تتضح حتى اليوم ظروفها وبواعثها الحقيقية. ونكتفي بان نقدم هنا خلاصة وجيزة عن تلك الحوادث التي لا تزال ماثلة في الأذهان: ففي ظهر يوم الاثنين الثاني عشر من شهر فبراير، ذهبت سرية من رجال البوليس لتفتش دار العمل (مركز الديموقراطيين الاشتراكيين) في مدينة لنتز عاصمة النمسا العليا، فأطلق الجند الديموقراطيون (الشوتسبند) النار على البوليس القوا عليه القنابل فقتل عدة من رجاله؛

فأرسلت الحكومة في الحال عدداً كبيراً من الجند، ونشبت المعركة الأولى في لنتز بين الديموقراطيين وجند الحكومة، والظاهر أن هذا الحادث الأول كان إيذاناً بنشوب المعركة العامة. ففي نفس الوقت قطع العمال في فينا التيار الكهربائي فعطلت المواصلات، وأعلن الاعتصاب العام؛ وكان ذلك بدء الحرب الأهلية فأعلنت الحكومة القانون العسكري وحشدت القوات بسرعة البرق في كل ناحية، ولم يأتي المساء حتى كانت مدينة فينا تضطرم بلظى معارك هائلة؛ وتحصن رجال الشوتسبند في مساكن العمال الكبرى، ولا سيما في كارل ماركس هوف، وأوتاكرنج وسيمرنج وفلوريتسدورف، وغيرها من ضواحي المدينة الآهلة بالعمال، وأصلوا جند الحكومة وابلا من الرصاص والقنابل، وأطلقت قوات الحكومة المدافع الكبيرة على معاقل الاشتراكيين؛ واستمرت المعارك في اضطرامها وشدتها حتى يوم الأربعاء. ووقعت مثل هذه المعارك في عدة مدن في الاقاليم، ولا سيما بروك وشتير وجراتز واشترك جنود الهايمفر مع قوات الحكومة؛ وأبدى الاشتراكيون شجاعة وبسالة نادرتين في الدفاع عن معاقلهم وأنفسهم؛ واستعملت الحكومة منتهى الشدة والعنف؛ وقبضت على الموظفين الاشتراكيين وعلى أعضاء المجلس البلدي؛ وقررت حل الحزب الاشتراكي الديموقراطي ومصادرة مراكزه وأوراقه وأمواله وصحفه وكل مؤسساته، وصدرت أحكام الإعدام ونفذت على كثير من الاشتراكيين، ولم يأت مساء الخميس 15 فبراير أي لرابع يوم فقط من بدء القتال حتى كانت قوى الاشتراكية الديموقراطية قد حطمت في كل ناحية، وغدت فلولا ممزقة؛ وقبض على عدة من زعمائها مثل رنروسايتز وسفر، وفر الزعيمان باوروديتش إلى تشكوسلوفاكيا؛ وانتهت تلك المأساة الدموية بمقتل ألفين وجرح آلاف من الجانبين؛ واختفت الديموقراطية الاشتراكية من الميدان، واختتمت حياتها القوية الحافلة بسرعة، وقضت الكتلة المحافظة (الاشتراكيون المسيحيون والهايمفر) على خصومها الخالدين لتنفرد بالأشراف على مصاير النمسا

ولقد كان سحق الديموقراطية عملا في منتهى الجرأة والخطورة من جانب الدكتور دولفوس وزملائه وخصوصاً لما اقترن به من العنف والضحايا الفادحة. ومن الصعب أن

نقول اليوم كلمة حاسمة سواء في المسئولية أو النتائج؛ فأما من حيث المسئولية فان حكومة فينا ترجعها جميعاً إلى الاشتراكيين، وتقول انه يبدو من اضطرام الثورة في معظم أنحاء النمسا في وقت واحد، ومن شدة المقاومة التي بذلها الاشتراكيون، ووفرة الأسلحة والذخائر التي وجدت لديهم، ومناعة الأبنية التي اعتصموا بها، أن الثورة كانت مدبرة، وأن الديموقراطية الاشتراكية كانت تتأهب للقيام بضربة عنيفة للاستيلاء على مقاليد الحكم؛ بيد أنه يقال في ذلك أيضاً إن الحكومة دلت على مثل هذه الأهبة، وأن ما أبدت من الشدة والعنف في قمع الحركة، ومن قسوة وإفراط في إراقة الدم، ومن تصميم على سحق الديموقراطية الاشتراكية لا إخضاعها فقط، يدل على أنها عملت بتدبير وقصد وتتهمها بعض الدوائر الخارجية فوق ذلك بأنها كانت تعلم في ذلك بوحي من السياسة الإيطالية. وأما من جهة النتائج فان الديمقراطية الاشتراكية كانت سنداً قوياً للحكومة في كفاحها ضد الدعوة الهتلرية، وكانت بطبيعتها هي الصخرة التي تتحطم عليها محاولات الوطنية الاشتراكية الألمانية، فالآن وقد سحقت، فانه يخشى أن لا تستطيع الكتلة المحافظة ان ترد بمفردها عدوان السياسة الألمانية، ومحاولات دعاتها في الداخل؛ واختفاء الديمقراطية الاشتراكية من الميدان يشجع الحركة الفاشستية على الظهور، وقد اشتد ساعدها الآن بالفعل وأضحى لأنصارها (الهايمفر) كبير نفوذ وسلطان في الحكم وفي تسيير الشئون العامة، والهايمفر يملون اليوم إرادتهم على حكومة فينا، وليس بعيداً أن يتحركوا غداً لانتزاع الحكم. بيد أن (الهايمفر) ما زالوا يؤكدون خضوعهم للدستور وولاءهم للحكومة؛ وقد نفوا غير مرة بلسان زعيمهم البرنس شتارهمبرج ما ينسب إليهم من التأثر نوحي السياسية الايطالية؛ وصرح البرنس شتارهمبرج غداة سحق الاشتراكية، بان الفاشستية النمسوية تقتبس حقيقة من مبادئ الفاشستية الإيطالية ولكنها ليست مقلدة عمياء، بل هي تفكر وتعمل طبقاً لظروف النمسا وحاجاتها؛ ولخص برنامج حزبه فقال: أن الهايمفر ابعد ما يكون عن فكرة إرهاق الطبقات العاملة، ولكنهم يعملون لجمع كلمتها حول مثل اجتماعية مشتركة؛ والهايمفر مخلصون لمبدأ الجامعة الجرمانية، ولكنهم أيضاً مخلصون لمبدأ الاستقلال النمسوي، ولا يقبلون بأي حال أن تبسط ألمانيا سيادتها على النمسا، ولا أن تبذل النمسا ذرة من استقلالها في سبيل إرضاء ألمانيا. وهم ينكرون مبادئ السياسة الهتلرية كلها لأنها تنافي مثلهم النصرانية هذا وليس هنالك في الآونة الحاضرة ما يدل على أن الهايمفر يفكرون في القيام بأية حركة لمقاومة الحكومة، وكل ما هنالك بالعكس يدل على أن التفاهم تام بين الفريقين.

وقد اتخذت مسألة استقلال النمسا عقب الحوادث الأخيرة أهمية خاصة، ولا سيما لما تبين من أن النازي النمسويين (الوطنيين الاشتراكيين)، سواء داخل النمسا أو في ألمانيا حيث يحتشد منهم عدة آلاف يتربصون الفرص لتنفيذ خطط حكومة برلين، ويدبرون الوسائل لإحداث انقلاب يمكنهم من انتزاع الحكم. وحكومة برلين هي التي تقوم في الواقع بتنظيم هذه الحركة كلها، وقد انتدبت لذلك عدة من الدعاة والمحرضين على رأسهم الدكتور هابخت، وحشدت من اللاجئين النمسويين قوة عسكرية كبيرة تهدد من آن لآخر باقتحام الحدود والزحف على فينا. وقد غدت مسالة استقلال النمسا مسألة دولية، وانتهت المساعي التي بذلتها حكومة فينا في ذلك السبيل بأن أعلنت إيطاليا وفرنسا وبريطانيا العظمى في تصريح رسمي بأنها ترى وجوب المحافظة على استقلال النمسا كشرط لاستتباب السلم في أوربا، وأبدت إيطاليا اهتماما خاصاً بمقاومة مشاريع السياسة الألمانية لأنها تهدد سلامة حدودها الشمالية ومصالحها في أوربا الوسطى، وتوترت العلائق من أجل ذلك بين ألمانيا وإيطاليا. وانتهت الجهود التي بذلها السنيور موسوليني في ذلك السبيل بأن عقد أخيراً في رومة ميثاق سياسي اقتصادي بين إيطاليا والنمسا والمجر يرمي إلى توحيد الجهود السياسية والاقتصادية بين الدول الثلاث في سبيل رد أي اعتداء يوجه إلى حقوقها أو مصالحها.

وكان من أثر ذلك أيضاً أن قويت الدعوة إلى إعادة الملوكية في النمسا كوسيلة لتقوية استقلالها والقضاء على أسباب الخلاف الداخلي فيها، وليس في معاهدة الصلح (سان جرمان) ما يمنع عودة آل هبسبورج إلى النمسا وعودة العرش النمسوي، ولكن الحلفاء كانوا يعارضون دائماً في هذا العود، بيد أن الفكرة تلقى اليوم قبولا في كثير

من الدوائر التي كانت تنكرها من قبل، وقد نشطت هذه الدعوة أخيراً في النمسا، وأقيمت عدة اجتماعات من أنصار الملوكية تحت رعاية الحكومة، وقيل إن الرئيس ميكلاس ينوي الاستقالة من منصبه قريباً ليمهد إلى هذا العود، ولا يوجد في النمسا من يعارض الفكرة الآن بعد ذهاب الديموقراطية الاشتراكية؛ وهي بالعكس تلقى تأيداً من الحزب المسيحي الاشتراكي (حزب الحكومة) ومن حلفائه الهايمفر. ويرى أنصار الفكرة أن عود الملوكية خير وسيلة للقضاء على مشاريع السياسة الألمانية في ضم النمسا (الانشلوس) وأما في الدوائر الخارجية فان إيطاليا وفرنسا اللتين كانتا تعارضان من قبل في هذا العود أشد المعارضة، لا تريان اليوم بأسا منه، وفي وسع فرنسا أن تذلل معارضة حليفتها تشيكوسلوفاكيا وفي وسع إيطاليا أن تذلل معارضة صديقتها المجر، وعندئذ تغدو مسألة عود آل هبسبورج إلى عرش النمسا مسألة تخص النمسا وحدها، وتتوقف على إرادة الشعب النمسوي وحده

(تم البحث)

محمد عبد الله عنان

التفاؤل والتشاؤم

وهل لهما أسباب تاريخية؟

بعض غرائب الخرافات عند الغربيين والشرقيين

- 4 -

الملح

من الخرافات او بالأحرى من العادات السائدة التي نشترك نحن والمتوحشون فيها عادة أكل الخبز والملح فنتفاءل من الملح لأنه علامة الولاء والصداقة والإخاء.

وفي مصر عادة، وهي انه إذا وقع طفل على الأرض رشوا في المكان الذي وقع فيه شيئاً من الماء مذاباً فيه الملح. وهذه العادة شائعة بعض الشيوع حتى اليوم بين الطبقات المتوسطة والوضيعة

ويتوهم الفرنجة أنه إذا حدث لا قدر الله وانقلبت المملحة على مائدة الطعام كان ذلك نذير شؤم، إلا إذا اخذ أحد أصحاب البيت شيئاً من الملح المقلوب على طرف ملعقة وألقاه من فوق كتفه اليسرى وهو ينطق بكلمة (ستستروم).

وان أهل العصور الغابرة كانوا إذا أرادوا هدم بناء لتطهيره من دنس أو لعنة رشوا على أرضه الملح قبل أن يشيدوه ثانية.

ويقول التاريخ أن امرأة لوط تحولت إلى تمثال من ملح، ويقال أن الأقدمين كانوا يعاقبون أرقاءهم المكلفين بنقل الملح بالإعدام لو سقط منهم شيء منه على الأرض.

ويذكر كذلك أيضاً أن بعض حكومات أوربا كانت توزع الملح مجاناً على الأسر التي لا يزيد عدد أفرادها على اثني عشر شخصاً، ويعتقد نساء الفرنجة أن سقوط الملح على الأرض نذير شؤم وسوء.

أما أصل الاعتقاد فيرجع إلى تأثير الملح في حياة الإنسان وغذائه ولأن الملح كان من اندر الأشياء وجودا عند المتوحشين وانهم مولعون به، يقفون الخصام أحياناً لكي يقايضوا بأي شيء لأجله. يذهب أحدهم إلى تخوم القبيلة الأخرى فيضع ما عنده من سلع ثم يتركها ويعود في اليوم التالي فيجد بدلاً منها ملحاً يحمله إلى أهل قبيلته، وقد كان القدماء يحتاجون

إلى الملح اكثر منا لان معظم قوتهم كان من النبات لا من الحيوان. ولذلك كانوا إذا اكرموا ضيفاً قدموا له أشهى ما عندهم للنفس وأغلى ما يمكنهم الحصول عليه وهو الملح، وبقيت هذه العادة إلى وقتنا هذا، وكذلك لأنه يستعمل في كثير من الأحوال الدينية عند المسيحيين، فهم يذيبونه في الماء المقدس وكذلك يضعون قليلاً منه على طرف لسان الطفل في حفلة العماد

الخبز المرتد

من الخرافات التي شاعت في فرنسا ان الفرنسيين يتشاءمون من أكل الخبز المرتد إلى المخبز، وذلك أن الخبازين كانوا يحجزون للجلادين خبزهم الخاص بهم ويضعونه في مكان منعزل، فإذا أتم العامل صنعه أخذه صاحب المخبز ووضعه في مكانه الخاص ريثما يأتي الجلاد فيأخذه، وكان هذا الخبز يسمى الخبز المرتد.

السن

من الخرافات الفاشية أن يرمي الفتى سنه في عين الشمس من وراء ظهره.
وأن بعض طلبة جامعات أمريكا وأوربا إلى يومنا هذه يحتفظون بضروس العقل المقلوعة في جيوبهم ويحرصون على حملها معهم إلى قاعة الامتحان في نهاية كل عام.
أما عادة إلقاء السن في عين الشمس فمعروفة عند العرب، وقد ذكرت في أشعارهم، كما هي معروفة عند فتياننا وفتيان الغربيين، بل وفتيان المتوحشين. ومن عادات هؤلاء أن يأخذ الوالد سن ولده فيضعها في أصل شجرة كبيرة ويدعو لولده بأن يبلغ في الرفعة والقوة مثلما بلغت هذه الشجرة، ومن عاداتهم أيضاً أن ينزعوا سناً أو سنين للشاب عندما يتناول سر الرجولة أي عند ما يسمح له بأفعال الرجال.
وقد تكون عادة إلقاء السن السائدة الآن بقية من بقايا العصور الغابرة حين كان قلع السن بشير الرجولة، فالصبي يتفاءل بقلع سنه كأنه يرى في ذلك دليلاً على انه اقترب من الرجولة، وقد يتساءل القارئ الآن: لماذا يقلع رجال القبيلة سناً أو سنين للشاب الذي يريد الدخول في زمرتهم؟ والجواب أن هذا القلع يجري على سبيل تجربة الشاب من حيث القدرة والجلد على تحمل الآلام

يتبع

إبراهيم تادرس بشاي

في علم النفس

الأحلام والتحليل النفسي

بين فرويد وابن سيرين

للدكتور عبد الفتاح سلامه

إن الذي حدا بي إلى البحث عن الأحلام وما تدل عليه، هو في الواقع رغبتي في إظهار فضل ابن سيرين على هذا الفن الذي يدعى فرويد أنه هو الذي أنشأه وأوجده، في حين أنه لم يصل إلى شهرته العظيمة في التحليل النفسي إلا بعد أن ترسم خطى ذلك المفسر العربي العظيم واقتفى أثره.
فتفسير الأحلام والتحليل النفسي هو في رأيي من عمل الأقدمين، وإذا قلت الأقدمين فإني أقصد بذلك الشرق، وهو لا يمت إلى الغرب بصلة، اللهم إلا صلة النقل ومحاولة فهمه والاستفادة منه.
ولابد لي قبل الموازنة بين ابن سيرين وفرويد من أن اشرح نظرية فرويد في تكوين الرؤيا وكيف يتصدى هو إلى تفسيرها. وكذلك سأشرح رأي ابن سيرين وطريقته في التفسير، وسيظهر جلياً كيف أن الأولى هي وليدة الثانية إن لم تكن هي هي مع قليل من التحوير، وسأبين أيضاً كيف تدل الرؤيا على حوادث المستقبل في بعض الأحيان.
تتلخص نظرية فرويد في أن الرغبة أو الأمل الذي لم يتحقق هو الذي ينبه العقل إلى العمل والتخيل أثناء النوم، وتكون النتيجة أن العقل يتخيل أن رغبته قد تحققت، أو بمعنى آخر فان الرؤيا قد تعتب حارساً للنوم، وظيفته أن يجعل النوم هادئاً مطمئناً، لأنها تخيل إلى الإنسان أن رغبته قد تحققت فلا داعي إذا إلى التفكير. ويقول فرويد أيضاً: إن بين رغبات الإنسان مالا يتفق ونظام المجتمع فقد تتمنى نفسه شيئاً محرماً يقف ضميره دون تحقيقه، فتتحين النفس فرصة يضعف فيها الضمير فتحقق رغبتها، ومن الناس من يضعف ضميره في اليقظة فيحقق رغبته المحرمة بالفعل ومنهم من لا يضعف ضميره إلا إذا نام إذ يتخيل تحقيق رغبته الملحة، وذلك في الرؤيا أي في وقت يكون الضمير فيه نائماً أو ضعيفاً فلا منع إذن ولا تإنيب، ويقول فرويد إن هذه الرغبات لا يعرف الإنسان عنها شيئاً
مطلقاً مع أنها ليست غريبة عنه، وذلك لأن الضمير يطردها من العقل الواعي أو ما يسمونه العقل الظاهر.
ومع غياب هذه الرغبات عن الوعي فهي ممثلة في العقل الباطن، ممثلة فيه كأفكار كامنة، وأنها سبب الرؤيا وسبب مباشر لكل الأمراض العصبية التي يسميها فرويد يقول أيضاً إن المريض إذا صبح على بينة من أفكاره ورغباته الكامنة فانه يوجه إليها قوته العقلية المميزة ويضعها في ميزان النقد والتقدير، وبهذا فقط يتخلص من مرضه العصبي الذي يسبب له ولأسرته كل أنواع المتاعب. هذا في الواقع هو الذي حفز فرويد إلى دراسة الأحلام لأنها في نظره وسيلة من الوسائل التي توصل إلى كشف

الرغبات الخفية للنفس. وفيما يلي طائفة من الأحلام التي حللها فرويد.
1 - رأت آنسة كأن أخاها في دولاب مقفل وكان تفسير فرويد أن الآنسة تود ألا يتدخل أخوها في شؤونها - ذلك لان وجود الأخ في الدولاب المقفل رمز لعدم قدرته على رؤيتها، وبالتالي رمز لعدم إمكان انتقادها أو التدخل في شؤونها
2 - زوجة رأت أنها اشترت ثلاث تذاكر لها ولزوجها لحضور حفلة تمثيلية وأنها اشترت هذه التذاكر الثلاث بفرنك ونصف وأنها اشترت التذاكر قبل ميعاد التمثيل بثلاثة أيام خوفاً من نفاذ التذاكر، وأنها حضرت إلى صالة المسرح قبل رفع الستار بساعة خوفاً من الزحام، ولكنها لما دخلت مع زوجها وجدت كراسي كثيرة خالية، وهذا معناه أنها ما كانت لتخسر شيئاً لو أنها لم تتعجل في شراء التذاكر ولا في التبكير في الحضور، وأخبرها زوجها وهو يلاطفها في المسرح بأن صديقتها فلانة وزوجها قد اشتريا تذاكر ولكنهما لم يحضرا، ولما سألها فرويد علم منها ما يأتي. صديقتها المذكورة في الرؤيا أصغر منها بثلاثة أشهر هي لم تتزوج إلا بعد زواج صاحبة الرؤيا بعشر سنين، ولأجل تفسير هذه الرؤيا المعقدة تجد أن فرويد قد حاول تحليلها بطريقة الرموز على الوجه الآتي
الحفلة التمثيلية رمز لحفلة الزواج، والرقم 3 رمز للرجل وهو الزوج في هذه الحالة، وإذا عرفنا أن المرأة هي التي تدفع المهر عند الإفرنج وأنها اشترت ثلاث تذاكر بفرنك ونصف، كان معنى ذلك أنها دفعت مهر زوجها رخيصاً فهي غير سعيدة في زواجها، وما كان أسعدها لو أنها تأخرت في الزواج كزميلتها التي تزوجت من رجل أشجع وأحسن من
زوجها وذلك بفضل تريثها حتى جمعت مهراً لائقاً برجل كريم
من هذين المثالين نرى أن فرويد قد استعان في تحليله النفسي بالأحلام وأنه فسر هذه الأحلام بواسطة أسئلته لصاحب الرؤيا وبواسطة فكه الرموز بهذه الأحلام.
أما هذه الرموز فهي موجودة، في اللغة، موجودة في الشعر موجودة في الأمثلة السائرة، وفي الحكم المنثورة، وفي كلام العامة، والخاصة وفي كل شيء. فالشمس والقمر قد يكونان رمزاً للوالدين أو رمزاً للملوك. وصغار الطيور قد تكون رمزاً للأطفال والأبناء. وهكذا يقول فرويد إن لكل أمة رموزها الخاصة وهو على حق، لأن لكل أمة لغتها الخاصة وآدابها وأمثلتها. وبعد، أفليست هذه الطريقة هي طريقة ابن سيرين في التفسير وقد كان يسأل صاحب الرؤيا ملياً في النهار وهو يقول في كتابه إن الرؤيا قد تأتي عن رغبة في النفس كأن يرى الإنسان نفسه مع من يحب أو قد يرى الأكل أمامه إذا كان جائعاً، وأما الرموز عند ابن سيرين فهي كثيرة ليس لها حصر، وليس له مثيل في هذا الباب وقد أخذ هذه الرموز من القرآن كالآيات الآتية وقوله تعالى في النساء (بيض مكنون) وكان (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) يأخذ رموزه أيضاً من الحديث كقول النبي (صلى الله عليه وسلم) (رفقاً بالقوارير) يعني النساء - وقد كان يأخذ رموزه أيضاً من الأمثلة المبتذلة كقول إبراهيم لإسماعيل عليهما السلام (غير اسكفه الباب) أي طلق زوجتك وكقول لقمان لابنه (غير فراشك) يعني زوجتك أيضاً وفيما يلي طائفة من الرؤى التي فسرها ابن سيرين
1 - جاءت امرأة إلى ابن سيرين فقالت: رأيت كأن في حجري لؤلؤتين أحدهما أكبر من الأخرى وقد طلبت أختي مني إحداهما فأعطيتها الصغرى - فقال ابن سيرين تعلمت سورتين من القرآن إحداهما اكبر من الأخرى وقد علمت أختك الصورة الصغرى
2 - جاء رجل إلى ابن سيرين وقال: رأيت كأن ثورا عظيما خرج من جحر صغير وأراد أن يرجع إلى الجحر فلم يتمكن من ذلك. فقال ابن سيرين هي الكلمة العظيمة تخرج من فم الرجل ثم يندم عليها.
وظاهر هنا أن ابن سيرين قد رمز للسورة باللؤلؤة وللكلمة بالثور وللفم بالجحر وبديهي أنه - تمشيا مع عادته في التفسير - قد سأل أصحاب الرؤيا عما في أنفسهم قبل إيضاحه لهم
ما تدل رؤياهم عليه، وهناك طائفة أخرى من الأحلام قد فسرها ابن سيرين وفي تفسيره لها شيء من التنبؤ وهاك بعض الأمثلة:
1 - جاء رجل إلى أبن سيرين وقال رأيت كأني البس خاتماً جميلاً فصه من ياقوت

فقال تتزوج من امرأة جميلة غنية أي أنه حمل المعنى على المستقبل
2 - جاءت إلى أبن سيرين امرأة وكان زوجها غائباً وقالت له: رأيت كأن أسكفة الباب العليا سقطت على السفلى، فقال أبن سيرين سيعود زوجك، وهنا أيضاً حمل المعنى على المستقبل
ونحن من جانبنا لا نتعرض لموضوع التنبؤ الآن لأننا سنوفيه حقه فيما بعد، ونكتفي بذكر رؤيا عظيمة تدل على مبلغ تضلع العرُب في تفسير الأحلام. فقد حدث المنصور أنه رأى في منامه صورة ملك الموت وسأله عن مدة عمره فأشار بأصابعه الخمسة، فاحتار المنصور في تأويل رؤياه لانه لا يعلم هل سيموت بعد خمسة أشهر أو خمس سنين، ولكنه سأل الأمام أبا حنيفة، قال له انه يشير إلى الآية (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غدا، وما تدري نفس بأي أرض تموت) فكأن ملك الموت يريد أن يذكره بالخمسة أشياء التي لا يعرفها غير الله ومن ضمنها وما تدري نفس ماذا تكسب غدا
هذا هو تفسير أبي حنيفة، ولعمري لا يمكن لفرويد ان يزيد شيئاً على هذا التفسير، اللهم إلا إذا قال كعادته إن هذه الرؤيا تمثل محاورة بين النفس والضمير، فالنفس ترغب في معرفة عمرها والضمير بصورة ملك الموت يقطع عليها هذه الرغبة قائلا إن ذلك من علم الله
وإنني مع اعترافي لفرويد بالنبوغ في التحليل النفسي بواسطة الأحلام، وأنه هو الذي نبه العصر الحديث إلى أن الأحلام لها مغزى يجب أن نعرفه إذا أراد أن نعرف حقيقة أنفسنا، وان التحليل النفسي هو الطريقة المثلى لعلاج الأمراض العصبية علاجاً أكيدا.
أقول مع اعترافي بكل هذا فإنني اشعر بأن هذا العصر الحديث مدين لابن سيرين ومفسري العرب لأنهم هم الذين أثاروا الطريق لفرويد حتى وصل إلى هذه الشهرة العالمية العظيمة، ومن الغريب أن فرويد في كتبه العديدة لم يذكر كلمة عن ابن سيرين.
وقبل أن أتكلم عن علاقة الرؤيا بالمستقبل أود أن أذكر هنا رؤيا أخرى مما طلب إليّ تفسيره
1 - شاب موظف متزوج وله أطفال رأى كأن في بيته فراريج صغاراً داس على فروج فمات
هذه رؤيا ظريفة وصغيرة ولكنها تدل على معنى كبير لان الفراريج رمز للأطفال، فهل من المعقول أن والداً يود موت طفله بيده؟ فقد يبدو ذلك محالا، ولكن الواقع أن الأسئلة قد جعلته يعترف بأنه ليس سعيدا في حياته الزوجية، وأنه يتمنى لو لم توجد هذه الرابطة: رابطة الأطفال بينه وبين زوجته
إذن تريد النفس ألا يكون هناك أطفال، ولكن الضمير يقف حائلا دون ظهور هذه الرغبة فتكتفي النفس بتمني موت طفل واحد ولكن تحت ستار آخر غير ستار كراهية الزوجة، وهذا الستار هو أن ذلك الطفل مريض مرضاً خطيراً وخير له أن يموت من أن ويواجه الدنيا في المستقبل ويده اليمنى مشلولة. ذلك الذي يتمنى موت طفله لان يده اليمنى مشلولة يقول أيضاً بأن بعض الأطباء قر بأن الشلل موضعي وان الشفاء ممكن لو عنى به العناية اللازمة إذن فليست هي الشفقة التي تدفعه إلى تمني موت طفله إذ أنها بالعكس تدفعه إلى معالجة ذلك الابن المرموز له بفروج صغير في الرؤيا، وعلى هذا فالوضع الظاهري للحالة هو التخلص من الابن شفقة به، والوضع الحقيقي هو انه يرغب في الانفصال عن زوجته فترغب نفسه موت أطفاله في هذا السبيل
إلى هنا نقف برهة عن سرد أمثلة أخرى لانه قد يتبادر إلى الأذهان السؤال الآتي
إذا كان فرويد قد تتبع طريقة ابن سيرين في تفسير الأحلام فلماذا نرى هذا الفرق العظيم في نتيجة التفسير؟ ففرويد مثلاً يقول لصاحب الرؤيا إن عندك رغبة في كذا، ولكن ابن سيرين يقول لصاحب الرؤيا أنت حدث لك كذا أو سيحدث لك كذا؟
أما كشف حوادث الماضي فان ذلك ممكن لمحللي النفس كما كان ممكنا لابن سيرين، ولكنهم لم يكتفوا بالكشف عن حوادث الماضي بل تخطوها إلى معرفة رغبات النفس التي اقترنت بهذه الحوادث، والذي يعنيني هنا هو تعرض ابن سيرين لحوادث المستقبل.

والواقع أن ابن سيرين كان أستاذاً في الإيحاء الذي يسمونه كما كان أستاذاً في التحليل
النفسي
وفي كتابه نرى كيف يختار الوقت والمكان اللذين إذا عبر فيهما يكون اقرب إلى الخير منه إلى الشر، وكيف يدعو الله قبل سماع الرؤيا لجلب الخير ودفع الشر وتأكيده في كتابه بان على المعبر أن يختار الكلام المبشر بالخير، لان أول تعبير في نظره هو الذي لابد من وقوعه
إذن فالإيحاء هو الذي أوجد الفرق بين ابن سيرين وفرويد، ففي رؤيا ابن سيرين التي قال فيها لصاحب الخاتم أنك ستتزوج امرأة جميلة غنية لو قصت هذه الرؤيا على فرويد لقال لصاحبها إن عندك رغبة في أن تتزوج بالمرأة الجميلة الغنية التي تعرفها.
وفي رؤيا ابن سيرين التي قال فيها لصاحبتها إن زوجها سيحضر لأن اسكفة الباب العليا قد اجتمعت على أسكفة الباب السفلى لو عرضت هذه الرؤيا لفرويد لفسرها بأن الزوجة عندها رغبة في رجوع زوجها، وربما قال لها كثير من ذلك لما في اجتماع رمزي الزوجين من معان. والفرق واضح بين الطريقتين، فكلمة ستتزوج تحمل الرغبة في الزواج والإيحاء بالزواج في نفس الوقت، ولما كان الناس يعتقدون في ضرورة تحقيق التعبير فان ذلك الرجل الذي أوحى إليه بالزواج لابد انه سيتزوج ويكون بذلك قد حقق لابن سيرين تفسيره.
وهكذا يتبين لنا أن فرويد قد أدخل تعديلا مهما على تعبير الاحلام، فهو يسأل صاحب الرؤيا عن نفسه وهو يفك الرموز بطريقة ابن سيرين، ولكنه لا يوحي إلى صاحب الرؤيا بأي فكرة بل يكتفي بإظهار الرغبة النفسية الخفية له، ويقول إن إظهار هذه الرغبة كاف لأن يفكر صاحب الرؤيا في رغبته فيتناولها بالنقد والتقدير، وبذلك فقط قد يوافق على رغبته وينفذها إذا لم يكن هناك مانع عائلي أو اجتماعي وإلا فانه يكبت هذه الرغبة أو قد يسمو بها، وهذا ما يسميه فرويد أي أنه يوجهها وجهة شريفة سامية، وبقى علينا أن نجيب على سؤال واحد وهو هل تدل الرؤيا على حوادث المستقبل؟ والجواب على ذلك هو أن الرؤيا قد تدل على المستقبل في بعض الأحيان. وأما كيفية ذلك فسنخصص له بحثاً آخر فيها بعد، بعد شرح أقسام العقل المختلفة التي تعتمد رؤيا المستقبل عليها.
دكتور عبد الفتاح سلامة
طبيب مستشفى برقاش ووردان
بمناسبة قصة خسرو وشيرين
كلمة في الشعر المرسل
للأستاذ مؤلف خسرو وشيرين
لقد تكرم الأستاذ اللوذعي صاحب الرسالة بكلمة نقد قيمة في قصة خسرو وشيرين تناول فيها قالبها أو رداءها من الشعر المرسل، وكان على عادته في كتابته قاصداً قوياً مهذباً.
ولقد أدهشني وأيم الحق أن رأيت بالرسالة الغراء كلمة في تلك القصة، وذهبت نفسي توغل في هزة من الطرب أنستها ما يجب عليها من وزن القول والقصد فيه.
وذلك لأنني منذ أخرجتها بعثت بها إلى أساطين الكتاب والأدباء وكبار المحررين، وانتظرت أن يقرأها بعضهم فيقول فيها كلمة، إما أن تكون كلمة نقد مر يظهر ما فيها من تفاهة وسخف، وإما أن تكون كلمة نقد هين يتعاقب فيها الاستهجان والاستحسان. وما كنت انتظر أن يقذف بالقصة في زاوية الإهمال لأن صاحبها لم يكتب عليها اسمه، أو لأنه لم يلح في طلب التقريظ، أو لأنه لم يلتمس إعانة أو حماية من أحد. فلما مضت أيام ولم أجد ذكراً لها على لسان ولا في صحيفة، طويت ذكراها في ثنايا الماضي وأنسيت نفسي إياها، وقلت ألتمس التعزية لنفسي، أنها لم تكن جديرة لا بالثناء ولا بالذم، فلعلها في نظر الأدباء أقل من أن يحكموا عليها بالسخف والسقوط.
هكذا قلت لنفسي ورضيت القول على شدته، لأنني كنت دائماً أتهم نفسي بأنني كسائر المؤلفين موصوف بالعمى والغباء، فكم رأيت من المؤلفين من أسمعني قوله، فجال في فكري عند سماعه أن أقول له (أسأت)، ولكني ضعفت عن قول ذلك اللفظ فقلت له (أحسنت). فصدق ما قلته وذهب عني قرير العين موقنا أنه مؤلف مجيد

موفق، وذلك العمى الخاص بالمؤلفين شبيه بما يصيب الآباء في حكمهم على أبنائهم.
قيل ان أعرابياً فقد ابنه مرة، فمر الصبي بقوم فرأوه شبيها بالجعل القبيح، ثم مر الأعرابي بهم فسألهم عن ابنه فقالوا له صفه لنا، فقال لهم: (كأنه دنينير) أي كأنه دينار صغير من حسنه، وتردد بريق الجمال في وجهه ونفاسته. وهو على ذلك لم استبعد أن أكون كأحد هؤلاء المؤلفين البغيضين، وحمدت الله على أن وفقني لفكرة إخفاء اسمي عن الناس حتى لا تنالني معرة (قصة خسرو وشيرين!)
قلت لقد دهشت إذ رأيت في الرسالة كلمة عن تلك القصة، ولا سيما وهي كلمة من قلم
أستاذ أديب وكاتب أريب، لا أظنه يخدع عن غث القول وسمينه. ولما رأيته يتناول القصة في أول ما قاله بالثناء زدت عجباً، إذ كيف تكون تلك القصة جديرة بتقدير أديب كبير، ومع ذلك تجد من سائر الأدباء مثل هذا الإهمال. وكيف لا تستحق من الأدباء كلمة
وقد استحقته من مثل الزيات كلاماً، حسبي إذن اندفاعاً مع هزة الطرب التي استخفتني، وذهبت باتزان قولي عندما قرأت مقال الرسالة في قصتي، فقد كنت أوثر أن الزم القصد في قولي، ولولا أن رأيت شيئاً لم أتوقعه فانطلق قلمي برغمي.
حسبي إذن لوما للأدباء والأساتذة، فلعل لهم العذر فيما كان، ولعلي أخطأت فهم قصدهم وعذرهم فما أكثر مشاغل الحياة وما أثقل أعباءها، وأولى بي أن آخذ الناس كما أجدهم ولا أعتب على أحد منهم شيئاً.
أما شعر المرسل فقد رأيت الأستاذ الجليل قد وضعه تحت ضوء قلمه الوهاج فأعشى وهجه العيون وكاد يحجب ما دونه. لا فائدة هنا في أن يدافع أحد عن أسلوب من القول، ولا فائدة في أن يحاول حمل الناس على تذوق ما يحلو في ذوقه، فهذا شيء من العبث وضرب من طلب المحال، غير إني أرى من حقي أن أبين للناس كيف يجب أن يكتب الشعر المرسل الذي كتبت فيه قصتي (خسرو وشيرين) فان وحدة هذا الشعر هي الشطر الواحد، وليس البيت المكون من شطرين.
لقد تعارف شعراء اللغة العربية على وحدات متعددة لشعرهم، فأكثر القصيد وحدته البيت المكون من شطرين كما هو معلوم، والرجز وحدته الشطر الواحد مع مراعاة انتهاء كل وحدتين منه بقافية واحدة، وهناك المثلثات والمربعات والمخمسات على ما هو معروف. وأما الشعر المرسل فوحدته كما تقدم الشطر الواحد. وأما حكمة ذلك فلا فائدة من بيانها. فان اختيار أوزان الشعر المرسل واختيار جعله من شطرات مفردة لم أصل إليها إلا بعد درس واختبار ومحاولات تجريبية كثيرة. غير أن بيان أسباب ذلك الاختيار لا يجدي نفعاً، إذ أن تلك الأسباب مهما تكن وجيهة فإنها لا يمكن أن تحمل الناس على استحسان شيء لا يبدو لهم مستحسناً.
ولهذا أكتفي بأن أقول إن من يحاول أن يكتب الشعر المرسل أو يقرؤه يحسن به أن يجعل وحدته الشطر الواحد، وان يكتفي بما في الوزن من الموسيقى بغير ان يقف عند آخر
الشطر إلا إذا كان المعنى ينتهي إليه.
ولم يلجأ أحد في لغة من اللغات إلى الشعر المرسل لكتابة الأغاني، وهذا ما لا يراد به في اللغة العربية. فالأغاني وكل ما يعبر عن العواطف الثائرة التي تهز القلوب هزة وقتية قصيرة لا ينفع فيها الشعر المرسل. أقول هذا وأكرره كثيراً حتى لا ينزعج الأدباء من دخول هذا الباب في اللغة العربية. وما أنا ممن يحاولون هدم القديم إذ إني أفاخر بذلك القديم وقد تقدمت بي السن إلى حدود القدم، فلست ممن يتعلقون بالهدم، ولست ممن لا يحرصون على كنوز القرون المتعاقبة، بل أجد من نفسي أشد الحرص على تلك الكنوز، وذلك لما استمد منها من لذة وحكمة. وإنما اقصد إلى أن أفتح باباً جديداً كان إلى الآن مغلقا وهو باب القصة الشعرية أو الملحمة الطويلة، وفي مثل هذه الأبواب كانت القافية غلا يقيد المعنى، ويغير مجاريه، حتى أن شعراء اللغات الأخرى رأوا أنفسهم مضطرين إلى الاستغناء عن القافية والاكتفاء بموسيقى الوزن. ولو فعل البستاني مثل ذلك في ترجمة الإلياذة ولو فعل شوقي مثله في رواياته المسرحية لكان لعملهما شأن آخر، ولصارت الإلياذة العربية اليوم في متناول المتأدبين سهلة لينة، ترسم صورة الإلياذة اليونانية الأصلية، وليست كما هي اليوم، فالقطع الشعرية الطويلة تكون طللا يابساً غيرمتناسق، ولو كانت أجزاؤه من قطع مرمرية بديعة، فانك

عندئذ إذا نظرت في القطعة الصغيرة منها أعجبتك ولكنك إذا تابعت النظر إليها لتراها مجتمعة راعك منظر غير متآلف وحركات جامدة غير متوثبة مع الحياة. لست ادعى إنني أحسنت، ولكني أقول قول الواثق أن الشعر المرسل يكون أداة إصلاح وسعة في اللغة العربية إذا وجد من يحسن القول فيه. وإذا أنا ضربت من قولي مثلا له فلست أضربه على أنه قول حسن، ولكني اضربه على سبيل العرض للطريقة: وهانذا مختار قطعة من مواقف خسرو وشيرين، وارجو أن تكتبها الرسالة الغراء كما أردتها أن تظهر -. أي أن تكون وحدتها الشطر الواحد.

وقف بعض قواد الملك كسرى في أيام مجده وجبروته يتحدثون ويتذمرون، فأقبل عليهم شاعر البلاط (مهمند) فقطع عليهم حديثهم فدخلوا في حديث دعابة مع الشاعر، والقواد هم (أسفاذ) و (تخوار) و (حراز).

حراز (ضاحكا)

أوه. مهمند؟ كيف حال الزمان؟

(يعودون إلى الهدوء)

مهمند مثلما كنت دائماً. أتغدى

ثم أغفو، وبعد ذلك أصححو

ثم أغفو، وبعد ذلك أصحو.

(يضحكون)

حراز سرك الله، نعم تلك حياة.

يا صديقي تخوار. نعم الحياة (لتخوار).

هل سمعتم مقال مهمند يوما؟ (لاخوانه)

تخوار: أنا بالحرب عالم، غير إني

لست بالشعر عالما يا صديقي.

حراز: (لمهمند) قل لنا من بديع شعرك شيئا

مهمند: لست يا سيدي أحب كلامي

(يشير حراز إشارة عدم التصديق)

لا تكذب فإنما هو رزقي

وسبيل الأرزاق غير حبيب

بائع الزهر ذاهل عن شذاه

لا يرى في الزهور إلا بضاعة.

حراز غير أن الزهور لم تك يوما

غير محبوبة الشميم. أعدلى

ذلك الشعر اذ خرجنا لنلهو

يوم عيد النيزوز

مهمند كان جميلا

. . .ذلك اليوم كم ضحكنا. ولكن

(يهز رأسه كمن يتذكر شيئا يأسف على فواته)

حراز كم ضحكنا. أعده يا مهمند

مهمند (ينشد) من أراد الصدق فليسمع ومن شاء السرور

ذقت ما في الدهر من حلو ومن مر مرير

وعرفت الناس عند اليسر والأمر العسير

كنت أبكي إن بكى لهفان ذو قلب كسير

ولكن ضل فؤادي في فنون وغرور

فإذا بي بعد ان شيبنيي مر الدهور

لا أرى في الناس ذا حظ سوى الفدم الغرير

كن إذا شئت حمارا مرحا بين الحمير

وإذا شئت فأسرج راكبا فوق الظهور

ساخرا منها إذا أعجبها السرج الحرير

فأضل الخلق عقل فوق رجلين يسير

حراز (يضحك بصوت عال)

كن إذا شئت حمارا مرحاً بين الحمير
(يضحك مهمند والحضور)
أترى أن يكون هذا صديقي؟ (لتخوار)
تخوار (ضاحكا) لا أرى أن أكون هذا.
حراز (فأسرج)
راكبا فوق ظهرها يا صديقي
تخوار (ضاحكا) لا أرى في الركوب بأساً إذا ما
كان لابد من ركوب الحمير.
حراز (لاسفاذ) ليت شعري مإذا تحب؟
اسفاذ (متكلفا الضحك) (أراني)
- لا احب الحمير
مهمندلم أر يوما
سيدا طيبا تواضع حتى
رضيت نفسه بهذا. ولكن
كلنا يرتضى الركوب. وعندي
أن أحلى الحياة عيش الحمير
(يضحكون)
حراز كيف هذا مهمند؟
مهمند نعم الحياة!
كل ارض خضراء مرعى مباح
لم يعكرهم الحياة صفاها.
حيث سارت رأيت محلا ومأوى
وإذا شاءت النهيق وصاحت
لم توار النهيق خشية بطش
حراز أنت مهمند احكم الشعراء.
كم من الناس من يود نهيقا
ثم يخشى فيكتم الأنفاسا.
ولعل أعرض على قراء الرسالة في مرة أخرى قطعة ثانية تصف موقفاً آخر ليروا في ذلك القول رأيا
وإني أرجو أن تتكرم المجلة الأدبية الغراء بنشر مقالي هذا خلوا من الامضاء، إذ إني أرجو أن يبقى كاتب (خسرو وشيرين) في تحجبه، فإنما المقصود أن يرى الأدباء رأياً في القصة وشعرها المرسل فحسب.
1 - تولستوي
اجتماعياته
عشق تولستوي المدنية الاوربية، فطاف في أنحاء أوربا وأعجبه منها تقدمها الآلي ونظامها المتسق. وبهره فيها حركتها الدائمة ونشاطها المتجدد.
ولكنه ما لبث أن نفذ إلى أعماقها. وكفاه أن يرى في تجواله رجلا يشنق في باريس أم المدنية على مرأى ومسمع من الجماهير حتى ينقلب ساخطا متذمراً متشائماً. وحتى يرجع إلى روسيا غضبان أسفا، فيهاجم الحضارة الحديثة في سخرية لاذعة وتهكم مر.
تناول تولستوي الناحية النفسية من المجتمع. وأخذ يصورها بقلمه الماهر تصويراً دقيقاً.
فبين أن حياة العامل اليوم أشقى بكثير من حياة الرقيق بالأمس. فقد كان يؤمن هذا إيماناً لا يخامره الشك انه خلق عبداً. وأن الله أراد أن يكون هناك أحرار وعبيد. وكان يوقن أن لا مرد لأمر الله، وفي هذا الإيمان تعزية. وفي هذا الاعتقاد سلوة. .
أما العامل الحر اليوم فقد علموه المساواة، فلا نبيل ولا حقير. ثم هو يرى أن عليه أن يتعب، ولهم أن يستريحوا. ومن واجبه أن يشقى، ومن حقهم أن يسعدوا
وهو ولا شك غير راض بهذا ولا قانع، ولابد له أن يتساءل لماذا يشقى؟ وهو منته إلى الشك في عدل هذا العالم وإنصاف القائمين بأموره.
وفي هذا الشك. وفي ذاك التساؤل تعس ليس بعده تعس، ثم رجل الطبقات الوسطى

لا تقل حالته النفسية عن حالة العامل تناقصاً واضطراباً: إذ يرى عجبا، يرى قوما إذا ما أجادوا التمليق وأحسنوا الاحتيال وداسو على الشرف والكرامة ارتفعوا على أكتاف الغير وتولوا قيادة الأمم، ثم طائفة أخرى تتمسك بالأمانة وتتعلق بالشرف. وهي أبية لا تقل ذكاء ولا مهارة عن الأولى ولكنها مهما كدت وجدت فنصيبها في الحياة القدح المنيح، ثم هو متعجب لماذا يجب عليه أن يؤدي ضرائب ثقيلة على نفسه لتتمتع بها قلة مستهترة. وماذا يحمله على محاربة الموت في ميدان القتال، ما دام الغنم كله راجعاً إلى القواد والساسة!؟ ويزيده شقاء على شقاء انه مضطر إلى مجاراة العالم في نظمه وأساليبه، وهو يحمل لها بين طوايا نفسه انتقاماً مراً. ورجال المناصب وقادة الأمم من ساسة وحكام لهم آمال عريضة ومبادئ قويمة. ولكنهم إذا ما تولوا الحكم وقبضوا على أزمة الأمور انتهوا إلى منهاج من سبقهم واضعين مبادئهم في أحد أدراج مكاتبهم التي يستريحون إليها!

ويمتد هذا التناقض إلى نفسية الأمم كمجموعة. فليس أعجب من أمم مسيحية تعتنق ديناً يدعوها ألا تقابل الشر بالشر وأن تدير الخد الأيسر لمن يلطم الخد الأيمن. وهي لا تتورع عن قتال دام تعد له أشد الآلات فتكا لإهانة تافهة، أو لطمع أشعبي في قطعة أرض أو تصريف محصول.

فرق بعيد إذن بين ما يعتقد البشر وبين ما يعملون. وبون شاسع بين ما يؤمنون انه واجب أن يكون، وما هو كائن بالفعل، وفي هذا سر الشقاء والبؤس الذي يسود العالم. كان من نتيجة هذا الخلاف بين ما تراه ضمائرنا وما تعلمه أيدينا أسوأ العواقب. فالنظم والأوضاع الاجتماعية الحديثة لا تستند إلا إلى القوة. ولا تقوم إلا بالعنف.

فليس من حكومة تستطيع أن تدبر أمر دولة دون أن يكون من ورائها شرطة تجبر الناس على الطاعة. وليس من قانون يسري إلا إذا اعتمد على قوة تنفيذية تضطر الناس إلى الإذعان له، وليس من عمل يدار إلا إذا تحكم أصحاب رؤوس الأموال في العمال، ويتجلى هذا العنف في أبسط نواحي الحياة الاجتماعية أو أكثرها تعقيداً من العلاقات العائلية إلى العلاقات الدولية، فلا يتاح لأسرة أن تستمر إلا إذا استبدت المرأة بالرجل أو الرجل بالمرأة، ولا يمكن لنزاع إن يحسم بين دولة وأخرى إلا إذا أريقت الدماء وأزهقت الأرواح

ولو ترك الناس وضمائرهم لما جبيت الضرائب، ولما لفت الجيوش، وما كان ليخطر ببال إنجليزي أن يقتل فرنسيا، ولا فرنسي أن يستعبد سوريا

ولو كان الأمر شورى والمبادئ التي نودي بها من مساواة وإخاء حقيقة واقعة لما وجدنا طبقة حاكمة وأخرى محكومة. وما كان يتاح لأحد أن يسعد ولآخر أن يشقى. ونحن نحس كل هذا ونشعر أن ما نعمله مساقون إليه سوقا ومدفوعون إليه دفعا. وإنا لا نستطيع مع الأنظمة الحالية صبراً، ولكن لسنا من الشجاعة الأدبية بحيث نجهر بضرورة تغيير نظام العالم وبوجوب قلبه رأساً على عقب.

لقد أصبحت المدنية الحالية نسجاً مهلهلاً ونظاماً معطلا لا يصلح لما يجيش في نفوسنا ويجول في عقولنا. وأمست رياء وخداعا تتدثر بمسوح كهنوتي لتخفى فجورها وشراستها. فهي إن استعبدت الأمم فلكي تأخذ بيدها إلى الرقي! وهي إن لجأت إلى القوة في هذا السبيل فذلك عمل إنساني نبيل.

نعم. لقد أصبحت النظم الحالية من سياسية واجتماعية واقتصادية نظماً عتيقة لا تشرف الإنسانية في قليل أو كثير.

ولكن. أي نظم تستبدلها بها. وعلى أي صورة تكون هذه النظم هذا ما بحثه تولستوي، وكان من نتيجة بحثه أن وصل إلى رأي قاطع

ولم يكن رأي تولستوي خيالاً أو أديالاً يستحيل تحقيقه، ولم يتطلب من البشر أن ينسوا بشريتهم ليصبحوا ملائكة.

وهو لا يقول لك أكثر من أن تتبع التاريخ لتتبين بنفسك مجرى الإنسانية إلى أين تسير وفي أي اتجاه تتجه.

لقد أتى على العالم حين من الدهر كان فيه أسراً وعشائر. وكانت الأسر في تطاحن وتناحر، يعتقد أفراد كل أسرة أن سعادتها في التغلب على الأسر الأخرى. ثم ظهر لهم

أن لا ثمرة يجنونها من قال طويل ممل. فاندمجت الأسر في قبائل.
وبدأت القبائل دوراً آخر من أدوار التاريخ سودت صفحاته بحروب الغلبة والثأر. ثم ما لبثت أن تحققت بدورها أن سلامها في تعاونها فاتحدت القبائل. وكان من نتيجة اتحادها هذه الدويلات التي عظمت حتى سميت بعد بانجلتره وفرنسا والولايات المتحدة. . في تتبعك لهذا الأدوار استكشاف لسر الإنسانية. فهي تتجه إلى الوحدة. وتسعى إلى الالتئام فليس من المستحيل أن تصبح الدول دولة واحدة. وبذا تنقطع من صفحات التاريخ سلسلة المجازر البشرية.
قد تقول أن هذا حلم فيلسوف وخيال شاعر. وأن ليس من الوطنية مفر. ولا من الحرب بد، وأن الشقاء والبؤس من لوازم هذا العالم. ليس في الإمكان أبدع مما كان. ويضحك منك تولستوي. ويقول إن ما تحسبه اليوم قد حسبه أجدادك من قبل. فالأثيني ما كان يخطر بباله أن يتعاون مع أخيه الإسبرطي تحت علم واحد متناسياً أحقاده مضحياً بمصلحة مدنيته في سبيل اسم أجوف دعوه اليوم دولة اليونان
وانجلتره التي يضحي الإنجليزي من أجلها بنفسه وماله. لم يكن لها من قبل وجود. وما كان يتصور الاسكتلندي أو الارلندي قبل بضع مئات من السنين أن يأتي وقت يتنازلان فيه عن استقلالهما الشخصي وتقاليدهما الموروثة وليصبح لهما وطن مشترك، وعنوان واحد، والرقيق كان يحسبه البعض منذ مائة سنة ضرورة من ضروريات الحياة وقانوناً طبيعياً إرادة الله وليس إلى تغييره من سبيل.
وأين الرقيق اليوم؟
وهكذا، فما تتخيله اليوم من أن اتحاد البشر أمر محال وأن إلغاء الحروب خيال بديع سيصبح بعد غد حقيقة واقعة
وشقاؤك آت من أنك تؤمن بضرورة هذا الاتحاد، ولكنك تحكم باستحالته. وسعادتك لن تتحقق إلا إذ اعتقدت بإمكانه فتعمل له
هذا اليوم الذي تختفي فيه الوطنية لتحل محلها الإنسانية. وتتنازل فيه الدول عن بعض حقوقها لتعيش في هدوء وسلام هو الضالة التي يجب أن ننشدها وهو الغاية التي يجب أن نقصدها. ثم هو النهاية التي لا شك إنا واصلون إليها.
كيف يتحقق هذا الحلم الجميل؟ ذلك ما يجيبك عنه تولستوي مرة أخرى.
(البقية في العدد القادم)
شهدي عطيه الشافعي
بديع الزمان الهمذاني
للدكتور عبد الوهاب عزام
- 1 -
القرن الرابع الهجري
سيطر على النصف الشرقي من العالم الإسلامي في القرن الرابع ثلاث دول كبيرة ودول أخرى صغيرة:
سيطر بنو بويه على غربي إيران وجنوبها وعلى العراق العربي فسيطروا على الخلفاء العباسيين في بغداد.
وكان ما وراء النهر وخراسان وسجستان في سلطان السامانيين ثم قامت الدولة الغزنوية في أواخر هذا القرن فورثت ملك السامانيين كله. وانتقصت ملك بني بويه وزحزحتهم تلقاء المغرب ثم أوغلت في المشرق ففتحت الهند.
وكان في طبرستان وجرجان الدولة الزيارية التي أقامها في أوائل هذا القرن مرداويج بن زيار. وكان بنو باوند في طبرستان ايضاً.
وفي سجستان امراء من نسل يعقوب بن الليث الصفار ومنهم الأمير خلف بن أحمد (344 - 399).
عاش أحمد بن الحسين بديع الزمان الهمذاني في عهد أربعة الملوك الأخيرين من بني سامان إحدى وثلاثين سنة. وفي عهد جماعة من ملوك بني بويه أعظمهم عضد الدولة (367 - 372) ومؤيد الدولة وفخر الدولة (366 - 387) ومجد الدولة أبو طالب رستم (387 - 420) وشمس الدولة أبو طاهر (387 - 412).
والذين كان لهم سلطان على همذان والبلاد التي أقام بها الهمذاني هم مؤيد الدولة وفخر الدولة وابناه مجد الدولة وشمس الدولة. ولمؤيد الدولة وأخيه فخر الدولة وزر

أبو الفضل بن العميد والصاحب ابن عباد.
وعاش البديع في عهد شمس المعالي قابوس بن وشمكير من الزياريين وفي عهد سبكتكين وابنه محمود من الغزنوية، وخلف ابن أحمد من الصفارية وثارت حروب كثيرة بين هؤلاء
الملوك اضطربت لها البلاد وشقى بها الناس.
وكانت هذه الدول تتنازع مجد العلم والأدب كما تتنازع السلطان وكانت للأدب في النصف الثاني من القرن الرابع محافل: حول ملوك السامانية في بخارى وحول وزراء البويهيين في الري واصفهان وجرجان، وحول شمس المعالي قابوس بن وشمكير في جرجان وطبرستان وحول السلطان محمود الغزنوي في غزنة وأخيه نصر في نيسابور، والمأمونية في خوارزم.
ومما يؤثر من تنافس هذه الدول في العلماء والأدباء أن نوح ابن منصور الساماني كتب إلى الصاحب بن عباد سرا يستدعيه ليستوزره فاعتذر. وأن السلطان محمودا كتب إلى المأمون أمير خوارزم ليرسل إليه ابن سينا والبيروني وأبا سهل المسيحي الفيلسوف وأبا الحسن الخمار الطبيب، وأبا نصر العراق الرياضي، فمنهم من رضى بالمسير إلى محمود ومنهم من فر. وكان إلى جانب الملوك والوزراء رؤساء وبيوت يؤمهم الأدباء ابتغاء الحظوة عندهم
وإذا اتخذ الثعالبي والبيروني مثلاً لأدباء هذا العصر وعلمائه عرفنا توليه الأدباء وجوههم شطر هذه الدول:
الثعالبي أهدى كتابه لطائف المعارف إلى الصاحب بن عباد والمبهج والتمثيل والمحاضرة إلى شمس المعالي قابوس وسحر البلاغة وفقة اللغة إلى الأمير أبي الفضل الميكالي والنهاية في الكتابة ونثر النظم واللطائف، والظرائف إلى مأمون بن مأمون أمير خوارزم: وغرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم إلى نصر أخي السلطان محمود، والبيروني أقام في خوارزم عند المأمونية ثم سار إلى شمس المعالي وقدم إليه كتاب الآثار الباقية ثم قصد السلطان محمودا فلزمه وقدم إليه كتابه عن الهند. وقدم كتاب التفهيم في علم النجوم الذي ألفه بالعربية والفارسية إلى سيدة من خوارزم اسمها ريحانة ثم قدم القانون المسعودي في النجوم لمسعود بن محمود وكتابه في المعادن إلى السلطان مودود بن مسعود.

وقد نفقت سوق الآداب في القرن الرابع ونبغ كثيرون من أعلامه ولا سيما كتاب الرسائل
وحسبنا أن نذكر من الكتاب ابن العميد وابن عباد وأبا إسحاق الصابي، وأبا الخوارزمي والعتبى وعبد العزيز الجرجاني وبنى ميكال، وشمس المعالي قابوس وأبا هلال العسكري، وابن نباتة الخطيب، والحسن بن علي التنوخي ومن الشعراء: المتنبي والمعري والحمداني والرضي ومهيار، وابن نباته السعدي، وأبو الفتح البستي، والببغا، والنامي، والناشي، والزاهي، وغير هؤلاء من شعراء اليتيمه وكتابها.
همذان
مدينة في ناصية الجبال يشرف عليها جبل أروند في سهل خصب، ويؤخذ من أخبار الكتب الفارسية والعربية أنه كان لها شأن عظيم في حقب مختلفة قبل الإسلام وفي العصر الإسلامي. .
وهي هكمتانة في الآثار الفارسية القديمة، وأهيمتا في التوراة، واكبتانا عند كتاب اليونان والرومان.
واجمع الكتاب على وصفها بشدة البرد، وأكثر الشعراء في هذا قال ياقوت: (لما قدم عبد الله بن المبارك همذان أوقدت بين يديه نار فكان إذا سخن باطن كفه أصاب ظاهرها البرد وإذا سخن ظاهرها أصاب باطنها البرد فقال:
أقول لها ونحن على صلاء ... أما للنار عندك حر نار؟
لئن خيرت في البلدان يوما ... فما همذان عندي بالخيار
ثم التفت إلى ابن أبي سرح وقال يا أبا عبد الله وهذا والدك يقول
النار في همذان يبرد حرها ... والبرد في همذان داء مسقم
والفقر يكتم في بلاد غيرها ... والفقر في همذان مالا يكتم

وقال ياقوت: (ولا شك عند كل من شاهد همذان بأنها من أحسن البلاد، وأنزهها وأطيبها وأرفهها، وما زالت محلا للملوك ومعدنا لأهل الدين والفضل، إلا أن شتاءها مفرط البرد بحيث قد أفردت فيه كتب، وذكر أمره بالشعر والخطب.)
وأما أهلها فكأنهم عرفوا بالغلظة، وبديع الزمان يعتذر في بعض رسائله عن سوء فعله بأنه همذاني المولد. وينسب إليه في ياقوت:
همذان لي بلد أقول بفضله ... لكنه من أقبح البلدان
صبيانه في القبح مثل شيوخه ... وشيوخه في العقل كالصبيان
وفي مناظرة رواها ياقوت بين همذاني وعراقي يقول العراقي للهمذاني: (ثم فيكم أخلاق الفرس، وجفاء العلوج، وبخل أهل أصبهان، ووقاحة أهل الري، وقذارة أهل نهاوند، وغلظ طبع أهل همذان).
ويقول ابن فارس كما في ابن خلكان:
سقى همذان الغيث لست بقائل ... سوى ذا وفي الأحشاء نار تضرم
وما لي لا أصفي الدعاء لبلدة ... أفدت بها نسيان ما كنت أعلم
نسيت الذي أحسنته غير أنني ... مدين وما في جوف بيتي درهم
ومما يستأنس به هنا قوله في مدح خلف بن أحمد:
أبادية الأعراب أهلك إنني ... ببادية الأتراك نيطت علائقي
وقوله في القصيدة نفسها:
إذا اقتضت منى خراسان لفظه ... أماطت العرب در المخانق
وكذلك رسالته إلى أبي عامر الضبي رئيس هراة في عيد السدق وهو ليلة الوقود عند المجوس، وفيها يبين فضل العرب على العجم في أسلوب تتجلى فيه العصبية
ويظهر أن أسرته كانت ذات مكانة في همذان، فهو يقول في رسالة إلى أبي بكر الخوارزمي حين لم يحسن لقاءه بنيسابور:
فلو صدقته العتاب، وناقشته الحساب، لقلت إن بوادينا ناغية صباح، وراغية رواح، وناسا يجرون المطارف، ولا يمنعون المعارف).
وفيهم مقامات حسان وجوههم ... وأندية ينتابها القول والفعل
ولو طوحت بأبي بكر أيده الله طوائح الغربة، لوجد منال البشر قريباً، ومحط الرحل رحيبا (وأجابه الخوارزمي بقوله:) فاما القوم الذين صدر سيدي عنهم فكما وصف، حسن عشرة، وسداد طريقة، وكمال تفصيل وجملة، ولقد جاورتهم فأحمدت المراد، ونلت المراد،
فان كنت قد فارقت نجدا وأهله ... فما عهد نجد عندنا بذميم
وفي رسالة إلى وزير الري يقول (وورائي من أخوالي وأعمامي من مواقف خدمة مشهورة، ومقامتهم مشكورة، وبهم حاجة إلى فضل عونه)

- 3 -

في النصف الثاني من هذا القرن عاش الهمذاني، فنبين سيرته وأخلاقه ثم ننظر مكانته من أدب هذا العصر

أ - أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد بن بشر الصفار المعروف ببديع الزمان الهمذاني، ولد في همذان 13 جمادي الثانية سنة 358 من أسرة عربية:
ذلكم بأنه يقول في رسالة إلى الفضل بن أحمد وزير السلطان محمود، (إني عبد الشيخ واسمي أحمد، وهمذاني المولد، وتغلب المورد، ومضر المحتد،) وكأنه يريد أن يقول إنه مضري الأصل، ولكن أسرته عاشت في تغلب. وفي رسالة إلى الشيخ أبي القاسم يعتذر عن التخلف عن الحضور بالزكام، ويقول عن رجل أسمه أبو الحسن يظهر أن اسمه سقط من الرسالة: (وما أشد استظهاري بخلافته وإن لم يكن من ولد العباس والله يبقيه علما للفضل) فيقول أبو القاسم في الجواب. (والشيخ أبو الحسن فوق شروط الخلافة، فان كان المستخلف تغلبيا، جاز أن يكون الخالف كسرويا) فالتغلبي هو الهمذاني نفسه. ودليل آخر أنه كتب إلى القاضي أبا الحسين علي بن علي: (أنا أمت إلى القاضي أطال الله بقاءه بقرابة، إن لم يكن عربياً فأبي وأبوه إسماعيل، وعمي وعمه إسرائيل، الخ)
ب - ويؤخذ من رسائله بعض أخبار أسرته: يؤخذ منها أن أبويه عاشا إلى أن كبر وترك همذان، وأن أخاه أبا سعيد كان صغيراً حين بداء هو أسفاره. ويؤخذ من معجم الأدباء

أن أخاه أبا سعيد كان مفتي همذان، ويؤخذ من رسائل أيضا أنه كان له ابن صغير أسمه أبو طالب، وأن أحد أعمامه لحق به في أسفاره، وعاش معه عشر سنين.
ويفهم من رسائل كثيرة أن أباه أرسل إليه أول الأمر مالا وأمره أن يرجع إلى همذان، ولامه على طول غيبته، وأنه هو أرسل إلى أبيه مالا من بعد وسأله أن يلحق به، وأن أباه وعده ذلك ثم لم يفعل حتى غضب البديع، وكتب إلى أخيه أبي سعيد دون أبيه.
ومن رسائله إلى أبيه: (كتابي أطال الله بقاء سيدنا من بوشنج، لك أسوة بيعقوب في ولده، إذ ظعن إليه من بلده. وليس العائق سور الاعراف، ولاجبل قاف، فلم لا ينشط؟ والله لا يضيع بذلك المكان درهماً إلا عوضه دينارا، ولا يعدم هناك دارا إلا أفدته ديارا. . .
وقد رسمت لموصل كتابي هذا أن ينقده مائة دينار بشرط أن يخرج وأن يرتب له عمارة
شتويه تسعه. فالشيخ الفاضل العم فليتفضلا، وليقوما ويرحلا، ويستصحب الأخ أبا سعيد، وليأتني بأهله أجمعين، الخ. . .)
وفي رسالة أخرى يذكر أنه غاب عن أبيه احدى عشرة سنه ص (160)
وأما أمه فلا أجد ذكرها في الرسائل، وفي الديوان له: (وله يجيب والدته:
وعجوز كأنها قوس لام ... خلقوها من نبعة شر خلق
كاتبتني شوقا إلى وقالت ... أخذ الله يا بني بحقي
قلت لا أستطيع ترك بلاد ... قد وفى الله في ثراها برزقي
وهي أبيات إن صحت فلا تشهد لبديع الزمان بالبر.
ويظهر من بعض رسائله أيضاً أنه طلب إلى صهره أن يرسل امرأته وابنه أبا طالب. على أن في الكلام غموضاً. (وقد طالت مراجعات الشيخ في حديث أبي طالب الخ ص 199 إلى آخر الرسالة).
ج - نشأ أحمد بن الحسين في هذه الأسرة. وكان كما يقول الثعالبي مقبول الصورة، خفيف الروح، وكان أعجوبة في الحفظ والبديهة والارتجال، له أخبار في هذا لا تكاد تصدق، وسنعود إليها عند الكلام على أدبه، ويخبرنا الثعالبي أنه أخذ اللغة عن أحمد بن فارس، ونحن نجد في الرسائل رسالة إلى أستاذه هذا جواباً عن رسالة ذم فيها الزمان، وقد مدحه ببعض شعره. ويقول الهمذاني في رسالة إلى أبيه عن أخيه أبي سعيد:
وبلغني انه ابتدأ بمجمل اللغة، فأين بلغ منه، والشيخ لا يحمل عليه بعويص اللغة حتى يعلم سهلها، ولا يأخذه بما أخذني به، فالعمر لا يتسع للعلوم أجمع.)
وقد درس الحديث، ويقول ياقوت في معجم الأدباء نقلا عن شيرويه بن شهردار مؤرخ همذان: (وكان أحد الفضلاء والفصحاء متعصباً لأهل الحديث والسنة، ما أخرجت همذان بعده مثله، وكان من مفاخر بلدنا، روى عنه أخوه أبو سعيد، والقاضي أبو محمد عبد الله ابن الحسين النيسابوري.) ونجد عصبيته لأصحاب الحديث في رسالة كتبها إلى أحد القضاة يقول فيها: (ماله ولأصحاب الحديث الخ الرسالة) ص105
سفره من همذان
فارق همذان سنة 380 وهو ابن اثنتين وعشرين سنة: وورد حضرة الصاحب فتزود من ثمارها وحسن آثارها، كما يقول الثعالبي.
وفي الديوان أنه قدم إلى الصاحب وله 12 سنة، فهذا كان قبل رحيله عن همذان، ويؤيده ما رواه الثعالبي عن الهمذاني قال: (لما أدخلني والدي إلى الصاحب ووصلت مجلسه، واصلت الخدمة بتقبيل الأرض، فقال لي: يا بني اقعد، إلى كم تسجد، كأنك هدهد) وفي إحدى قصائده ما يدل على أنه ذهب إلى الصاحب أكثر من مرة.
وتعجب لاختياري ان رأتني ... أرى بحراً وأمتاح الركايا
سأنتاب الوزير فان أتيحت ... زيارته وساعدت القضايا
أعاود ورده والعود خير ... وارجع أن للرجعى مزايا
ولا ندري ما كان بينه وبين الصاحب، ولكنا نراه يذكر في قصيدة ان الصاحب أوعده وهدده:
أكافي الكفاءة استبق مني ومن دمي ... حشاشة مجد في البلاد مشرد
أفي موجب الفضل الذي أنت أهله ... توعد مثلي أم قضية سؤدد

أبعد مقاماتي لديك وهجرتي ... إليك وإنفاقي طريفي ومتلدي
وجوابة للافق فيك طردتها ... غدت بين منثور وبين مُقَصَّدِ الخ
وأظنه أراد هجاء الصاحب في قوله من قصيدة يمدح بها خلف ابن أحمد:
وليل كذكراه معناه كاسمه ... كدين ابن عباد كادبار فائق
جرجان
يقول الثعالبي: (ثم قدم جرجان وأقام بها مدة على مداخلة الإسماعيلية والتعيش في أكنافهم، والاقتباس من أنوارهم، واختص بأبي سعيد محمد بن منصور أيده الله تعالى، ونفقت بضائعه لديه، وتوفر حظه من مادته المعروفة في إسداء المعروف والافضال على الأفاضل. .
فلما استقرت عزيمته على قصد نيسابور أعانه على حركته، وأزال علله في سفرته، فوافاها سنة 382، ونحن نجد في رسائله رسالة إلى أبي سعيد الإسماعيلي يذكر أن الأعراب قطعوا عليه الطريق إلى نيسابور وسلبوه كل ما معه.
(يتبع)
عبد الوهاب عزام
من طرائف الشعر
رب زهر يشوكني وهو غرسي
للأستاذ الحوماني
مدرس الآداب في كلية طرابلس
قطع الناظم شطراً من حياته مهاجراً بين أوربا وأميركا من الغرب ثم بين العراق ومصر وسائر الأقطار العربية من الشرق: فالقصيدة التالية تمثل حياته المشردة ماثلة بين آلامه في الحياة وحنينه إلى وطنه وهو يطوف في الغرب، معارضاً بها قصيدة أمير الشعراء التي عارض بها قصيدة البحتري في إيوان كسرى)
ربما أنضج التجارب درسي ... لثلاثين من سني وخمس
ولقد تكشف الغطاء ليومي ... عن مآتى غدي بصيرةُ أمسي
قد لفظت الحياة يشقى بها الحرْ ... رُ وتثْرى منها يدا كل جِبْس
إذ بلوت الورى ثلاثين عاما ... وخد نياي من يراع وطرس
بين جهدين من يد ولسان ... تحت ليلين من غموض ولبس
كم أطوف البلاد شرقا وغربا ... فوق ظهرين من سفين وعنس
أيُّ جد يُغريه بي أيُّ عِزَّ ... تترامى إليه آية نفسي
البواديُّ في العراق أقضَّت ... مضجعي في الشآم فوق الدمقس
غرست مضجعي قتاداً وقالت ... لأماني هوِّني وتأسي
يصبح الزهر ناضراً وعلى ما ... يحبس الدمع في فؤادك يمسي
قد نزلت العراق أحسب إني ... نازل في العراق دارة قدس
ووردت الشآم تبحث عينا ... ي بها عن طبابة المتحسِّي
فإذا القول فيهما دار ملك ... وإذا الفعل ثم داره فلس
لا يغرنك في الشآم رجال ... موَّهوا بالرياء وجه الفرنسي
ربما أثرت العيون من الكح ... لِ وخلف الجفون منبت ورسي
كم أذود الكرى وأنشد عزى ... بين ناب من الزمان وضرس
وأعاف المبيت بين نهود ... وشفاه من الكواعب لعس
ضاق بي مهيع الفضاء فلا أص ... بح إلا على قذًى حيث أسمي
همّتي همّتي ففيم نواحي؟ ... في طلاب العلى ونفسي نفسي
رب يوم ذممته تحت ليل ... طالعتني من أفقه ألف شمس
احرقوني بعد الممات إذا لم ... يُبن من دارة الكواكب رمسي
أتحدى إصلاح شعبي ولما ... تعد كفاي لعبة المتخسي
يتمشى إليه بي من أبي الحا ... رث قلب يحدوه جسم ابن عرس
في رؤوس مما أخفِّض شم ... وطباع مما أذلل شُمْس
هزت الصم صرختي فلماذا ... لم تعِ الإذن منهم غير همس
لِمَ، لم يسمعوا وهم غير صم ... لِمَ لم ينطقوا وهم غير خرس؟
ربما أرجفوا بقولي وقالوا ... وهم الساخرون، عنتر عبس

وكذا الشعر لم يصب غير قوم ... قد أصيبوا من الجنون بمس
وإذا الجد لم يهب بكم أوفي ... ت على العز من حقائف وُعس
فاعجبوا للأريب وهو أريب ... وارداً في حياته ورد خمس
وحياة الأديب بارق سعدٍ ... يتحداه من طوالع نحس
أمل في الحياة أبرق فارفضَّ ... ت عز إليه من سحابة يأس
لا ألوم الصديق أن يتناسى ... سالفات العهود فالبعد ينسي
نكث العهد من حدبت عليه ... رب زهر يشوكني وهو غرسي
ولقد ينكر الصحيح علاجاً ... هام فيه والنبض تحت المجس
كم طباع تشف عن زهرها الغض ... ض جسوم تضاءلت تحت طلس
ولكم تلمس الخشونة فيها ... بأكف ممن تصافح مُلس
شر ما في الأنام نعمى مليك ... هي في شعبه عصارة بؤس
وكذاك الحياة سفر شواظٍ ... يتراءى للغر مُذهب طرس
عُرس قائم على اسِّ رزءٍ ... ورزايا قامت على أسِّ عرس
لا تهن أن قعدت اعزل والخبّ (م) ... من الشعب قائم فوق كرسي
رب نادٍ ملء الصدور به ذك ... ر ابن هند ونهج حيدر منسي
كيف بالشعب ان يُبل وقد أو ... رده الجهل آسياً غير نطس
ومن الهون في الحياة على الحر (م) ... خضوع الكريم للمُسْتَخَسَ
أيها الشعب، والسلاسل ضاقت ... بك ذرعاً، أما تحس بنهس؟
عمرك الله! لا يقيم على الضي ... م خسيس الحياة غير الاخس
وأذل الشعوب شعب تحدَّى ... ذروات العلى على يد نِكس
قد يشيد الجبان صرحاً ولكن ... هيكلا قائماً على غير أس
اطرحوا الجهل ساعة وتعالوا ... أبصروا في البحار جنة انس
بحر علم يطغى بهم فوق شم ... من جبال الحديد في البحر ترسي
قل لمن حاول الزعامة قبلا ... بجدا نائل وشدة بأس
أخفقت بعدكم شجاعة عمرو ... وندى حاتم وحكمة قس
أفأستعرض الحياة (بنويرك) (م) ... (وفي لندن) وغوطة مرسي؟
ما الذي تبلغ البراعة من عد (م) ... السها وهي في أنامل خمس
يعجز الحصر ما أحس واضعا ... ف خوافيه لم يقع تحت حسي
عرفوا الله كيف يعبد في القل ... ب دماً فائراً وعزة نفس
عبدوه منزهاً لا إلى (اللورد) ... هووا ركعاً ولا (للبرنس)
عبدوا الحق قوة تتلظى ... في أنوف أُسد خفَّان حُمْس
عبدوه فوق الطروس يراعاً ... وخميساً يموج تحت الدرفس

ليلة داجية!

للأستاذ خليل هنداوي

وليلة داجية، والهوى ... كل مناه ليلة داجية
ان كنت لا تدرك سر الدجى ... فاسأل بأسرار الدجى غانية
طوراً نذوَّقت الهوى قبلةً ... أبعثُها في الفسحة السارية
ويرجع الليل صدى قبلتي ... مصحوبة بقبلة ثانية
وتارة تشدو فتجلو المنى ... بنغمة ساحرة شاكية
فيسمع الليل لألحانها ... وليلتي إذانها واعية
تقول هبَّت عيون الهوى ... قلت الهوى عيونه ساهية
إن الهوى نسيان ما ينقضي ... كأننا في عزلة نائية

الصوفي المعذب

هذه الذرَّةُ كم تح ... مل في العالم سراً . .
قف لديها وامتزج في ... ذاتها عمْقا وغبورا
وانطلق في جوِّها الممـ ... لوء أيمانا وبرا
وتنقَّلْ بين كبرى ... في الذراريّ وصغرى
تر كل الكون لا يَفْ ... تُرُ تسبيحاً وذكرى
وانتش الزهرةَ والزه ... رةُ كم تحمل عطرا

نُدِّيت واستوثقت ... في الأرض أعراقاً وجذرا
وتعَرَّت عن طريرٍ ... خَضل يفتأ نضرا
سلْ هزار الحَقْل من أن ... بته ورداً وزهرا
وسل الوردةَ من أو ... دعها طيبا ونشرا
تَنظرِ الروح وتسمعْ ... بين أعماقك أمرا
الوجودُ الحق ما أو ... سعَ في النفس مداهْ
والسكون المحضُ ما أو ... ثق بالروح عراه
كل ما في الكون يمشي ... في حنَاياه الأله
هذه النملة في رق ... تها رجعُ صداه
هو يحيا في حواش ... يها وتحيا في ثراه
وهي إن أسلمت الرو ... حَ تلقتها يداه
لم تَمت فيها حياةُ ال ... له إن كنت تراه
أنا وحدي كنتُ أس ... تجلي من العالم همسهْ
أسمع الخطرةَ في الذَّ ... ر واستبطئ حسه
واضطراب النورفي خف ... قته أسمع جرسه
وأرى عيد فتى الور ... د وأستقبل عرسه
وانفعالَ الكرم في قف ... صته أشهد غرسه
رب سبحانك إن ال ... سكون لا يقدرُ نفسه
صغت من نارك جنِّي ... هـ ومن نورك إنسه
رب في الإشراقة الأ ... ولى على طينة آدم
أمم تزخر في الغي ... ب وفي الطينة عالم
ونفوس تزحم الما ... ء وأرواح تحَاوَم
سبح الخلق وسبح ... تُ وآمنت وآمنْ
وتسللت من الغي ... ب وآذنت وإذن
ومشى الدهر دراكا ... رَبِذَ الخطو إلى من. .؟
في تجلياتك الكب ... رى وفي مظهرِ ذاتك
والجلال الزاخر الفي ... اض من بعض صفاتك
والحنانِ المشرق الوض ... احِ من فيض حياتك
والكمال الأعظم الأع ... لى وأسمى سُبُحاتك
قد تعبدتك زلفى ... ذائداً عن حرماتك
فنيت نفسي وأفْ ... رغتُ بها في صلواتك
ثم ماذا جد من ... بعد خلوصي وصفائي
أظلمت روحيَ. . ما عد ... تُ أرى ما أنا راء
أيهذا العِثْيَرُ القا ... ئم في صحو سمائي
للمنايا السودِ آما ... لي وللموت رجائي
آه يا موتَ جفوني ... آه يا يوم قضائي
قفَ تزودْ أيها الجب ... ارُ من زادي ومائي
واقترب إن فؤادي ... مثقلٌ بالرجاء
يا نعيما مشرق الصف ... حة يسّاقط دوني
نضِرتْ في قربة نف ... سي وزايلتُ غضوني
فمشتْ غائلةُ (الش ... ك) إلى فجر يقيني
قضت اللذة فاستر ... جعها لمحُ ظنوني
واستردَّ النعمة الكب ... رى من الدهر حنيني
من ترى استأثر باللذ ... ذة واستبقى جنوني؟
إذني. . . لا ينفد اليو ... م بها غير العويلْ
نظري. . . يقصر عن كلْ ... لِ دقيق وجليل
غاب عن نفسي إشر ... اقك والفجر الجميل
واستحال الماءُ فاستح ... جر في كل مسيل
رجع اللحنُ إلى أو ... تاره بعد قليل

واختفى بين ظلام ال ... مزهر الكلّ القليل
أم درمان
التيجاني يوسف بشير
. . .إلى جانب المدفأة
تَميلُ روحي على لَظَاها ... لِتحتَسي خمرةَ الشتاء
لِسانَها شِمُت والشفاها ... في شُعَلةٍ وقدُها شفائي //
حَبَّبْتِ لي النارَ، فهي عندي ... غِذاءُ جسمي، وأمْنُ روحي
أوَدُّ تقبيلها لأهدي ... لها القرابين عن جروحي
نيرَانها رقصهُا غريبُ ... كَمُجْهدٍ هدَّه الدوارُ
ولحنُها وقْعُهُ مُريب ... يُنْبئُ عن ضَعفه اصفرارُ
أَعدْتِ لي رونق الحياةِ ... يا واحةَ التائهِ الشرِيدْ
وقدْتِ قلبي إلى النجاةِ ... بدِفئك المنقذِ السعيدْ
كم أشتهي أن أضُمَّ ناركْ ... إلى السعير الذي بصدري
!. .ما أسعدَ القلبَ في جِواركْ ... حتى ولو بِعتُ كلَّ عمري
مختار الوكيل
العُلوم
بيت يهم بالسجود
للدكتور احمد زكي
تتداعى البيوت الكثيرة في كل زمان وفي كل مكان، فلا يسمع بها إلا الجيران، وان تضمّن سقوطها قتل الأنفس والتمثيل بالابدان، فقد يخرج خبرها عن دائرة الجيرة إلى دائرة المدينة وقلما يتعدى حدود القطر والأمة. ولكن بيتاً في مدينة (برانتفورد) بكندا همّ بالسجود أو كاد، أو خيل أنه نوى الصلاة أو أوشك أن ينويها، فاهتزت أسلاك العالم تُبرق بالنبأ إلى أدانيه وأقاصيه، وحظ البيوت كحظ الرجال، رجل يمرض فيموت فلا يجد من يلف عليه كفناً، أو يستر له في التراب شلوا، ورجل يمرض فيتأوّه خفيفاً، فتتردد آهته عاليةً في كل بوق من أبواق الإذاعة، ويتأوه معه العالمون.
على انه لا بدع أن تعطف الأسلاك البرقية على هذا البيت، وان تضطرب باضطرابه، فهو بيت أسرتها العتيق، مسقط رأسها ومهد طفولتها , وفيه وفي المدينة التي حوله كان لعبها ولهو صباها. ذلك البيت هو بيت (جراهام بل) الذي فيه وُلد أول تلفون عرفه الناس، وفيه امتد أول سلك بأول صوت لإنسان.
شكا هذا البيتُ العتيق الأرض التي حملته نصف قرن، لا عن نكران ولا جحود، ولكنه إلفُ هذا الهواء. . . فلم يكد ينطق بالشكاة حتى أشكاه أهله، فامتدت إليه أيد حريصة تنقله حجرا حجرا برسمه ووضعُه، إلى أرض أشدّ، ومنزلٍ آمن
ولد اسكندر جراهام بل عام 1847 في أدنبره عاصمة اسكتلانده، وتعلم في جامعتها، ثم انتقل إلى جامعة لندن ودرس فيها، ثم ساءت صحته فطلب العافية، فنزح مع أبيه إلى كندا عام 1870. ثم انتقل بعد ذلك إلى (بُسنن) بالولايات المتحدة ولم يكن اختراعه التلفون اتفاقه من اتفاقات الحظ المجدود ورمية من غير رام، وإنما كان نتاج دراسة طويلة منظمة وبحث دقيق وصبر شديد. كان أبوه عالماً في السمْعيَّات، فاشترك الاثنان في دراسة الطريقة التي بها ينتج الكلام من فم الإنسان، وفي النغمات الموسيقية للأحبال الصوتية التي بحلقه، وفي مخارج الحروف والأصوات في مختلف اللغات، وفتح الابن مدرسة لتخريج معلمين يعلمون الصمَّ الكلام، وكان دَرَس الكهرباء، واتصل بالفزيائي العالم (هِلْمهولتز)
فكان من الطبيعي أن يربط بين الكهرباء والصوت، فكان أن طلب مع فزيائيّ عصره تسخيرَ الكهرباء في حمل الصوت فسبقهم سبقاً قريباً، وحمل اختراعه إلى دار التسجيل، وحمل الأستاذ (اليشاجراي) اختراعاً مثله إلى دار التسجيل ولكن (بل) سبق (جراي) ببضع ساعات، فكان له السبق، وكان له وحده من بعد ذلك تمجيد القرون والآن مضت سنوات كثيرة على ذلك، وتبع المخترَعَ الأول مخترعون عديدون، قام كل بنصيبه في تنمية التلفون وتمديده، وأولدوا منه التلفون اللاسلكي، واستعان المولود والوالد على ربط الأرض الدوّارة، مشارقها بمغاربها، ويابسها بمائها وسهولها بأحزانها، فأعْدَما بذلك من قيود الإنسان قيدَ الزمان وقيد المكان. فأنت تستطيع الآن وأنت في

بيتك أن تتصل في ساعة بنحو أربعين مليون مشترك مفرَّقين في نواحي الأرض المترامية. وقد يقال إن في هذا الكفاية، ولكن الإنسان أمّال لا يفتأ يطلب المزيد. مثال ذلك أنه تضجرَّ من عاملات التلفون ومن إعناتهن، فذهبن، وأصبح التلفون في كثير من البلاد يعمل من نفسه بدون عاملة، ولا تمضي سنوات حتى يعم هذا النظام الجديد العالم كله. وشكا طالب الترنكِ الزمن الذي يقضيه في الانتظار ليتصل بألمانيا أو امريكا، فأصغى العلم إليه، وعن قريب ستتمكن من مخاطبة تلك البلاد والاتصال بها بعد برهات قصيرة من اعتزامك ذلك وشكا رؤساء الأعمال العالمية الواسعة أنهم كثيراً ما يريدون استشارة مرءوسيهم أو وكلائهم أو شركائهم في البلاد المختلفة فيضطرون إلى مكالمة واحد ثم ثان ثم ثالث، وذلك في الأمر الواحد، ثم يجدون بعد ذلك أنهم محتاجون إلى مراجعتهم، وسألوا ألا من سبيل إلى اجتماعهم جميعاً في مؤتمر واحد على التلفون، فقال العلم نعم، وفعلا جُرّبت دعوة أمثال هذه المؤتمرات في إنجلترا، وتحدث المؤتمرون كما لو اجتمعوا في حجرة واحدة على مائدة واحدة. وساعد على هذا النجاح بالطبع أن هؤلاء القوم إذا تناقشوا تكلم منهم واحد فقط واستمع الباقون وهناك مطالب أخرى، وتكهنات أخْرى، وآمال واسعة ترمي كلها إلى تمكين الإنسان وترفيه. فمن المحتمل القريب الآن ان يتخاطب اثنان فيمتعان السمع والبصر، أما السمع فسمع الكلام، وأما البصر فبصر محيّا من تستمع له تُلقي صورته على لوحة أمامك. على أن هذا إن أمتع أناساً فسيزعج لا شك أناساً آخرين. فليست كل الوجوه يُستحب مرآها. وغير هذا فأنت اليوم تخاطب من تشاء وأنت على أي حال تشاء من لباس أو هيئة، أما غدا ومحدّثك يراك فلابد من استواء الهندام والهيئة المحترمة، وغدا ستضطر إذا أردت تبليغ أسفك لشيء أو حزنك على حادثة أن تتكلف الأسف والحزن لا في صوتك فحسب، بل كذلك في وجهك، وهذا لا شك يزيد في عَنَت الحياة

على ان العلم حسب حساب كل هذا، وعرف ضعف النفوس الإنسإنية كما عرف قوتها، وعرف كذلك ان تقويم المعوج وتكسير الصحيح لا يقع في اختصاصه، لذلك ستجد في الجهاز الجديد زراً صغيراً، تديره شمالا فتحتجب، وتديره يميناً فتْسفِر، فدونك ما شئت من سفور أو حجاب.

احمد زكي

في البحوث الروحية - 4

للأستاذ عبد المغني علي حسين

منذ أسابيع، وجهت إحدى المجلات المصرية إلى عدد من النوابغ المصريين استفتاء في دعوى مخاطبة الأرواح أيصدقونها أم يكذبونها، فأعرب البعض منهم عن تشكك في صحة الدعوى أو نفي لها للأسباب الآتية: -

1 - إن الدعوى لا تقوم على أساس علمي.

2 - إن واحدا من كبار الباحثين الروحيين غرق في حادث الباخرة (تيتانيك)، فلم لم تنبئه الأرواح بالحتف الكامن له في عرض المحيط؟

3 - لم نسمع بان ساسة الدول وقادة الجيوش قد استخدموا الأرواح في استطلاع ما يضمره خصومهم السياسيون والحربيون

4 - لم نسمع بأن رجال الأمن قد استغلوا مخاطبة الأرواح في كشف خفايا الجرائم وتعقب المجرمين.

هذا مجمل الاعتراضات. ولكن مع احترامي لقائليها، لست أراها تذهب بعيداً في نفي دعوى المخاطبة. أما القول بأن الدعوى لا تقوم على أساس علمي فقول غامض. وما هو يا ترى المقصود بالأساس العلمي؟ إذا كان المراد أن المخاطبة لم تأت كنتيجة منطقية أو رياضية لإحدى النظريات القائمة في العلوم الطبيعية فالاعتراض صحيح، إذ المفروض أن المخاطبة مشاهدة تجريبية مستقلة لا تقوم على نظرية علمية سابقة. ولكن من قال بأن النظريات العلمية السابقة يجب أن تكون أساس كل حقيقة علمية جديدة؟ إن أساس الأسس العلمية هو المشاهدة والتجربة لا النظريات العلمية السابقة.

في ساعة من ساعات التجلي السماوي، جلس (جيمس واط) يرقب إبريق الشاي وهو على النار يغلي ويئز، ورأى البخار يدفع الغطاء من آن لآن فيفتح فرجة يهرب منها،

فتملكت (واط) فكرة استغلال قوة البخار المحبوس، ومال على هذا المبحث بكل ما أوتي من ذكاء، وجد في تهذيب ما سبق في هذا الميدان من محاولات ساذجة، فوضع أساس صرح ضخم من البحوث والمخترعات، وحمل البخار الناس في البر والبحر وطار بهم في جو السماء؛ فهل كان اكتشاف قوة البخار بادئ ذي بدى نتيجة لنظرية علمية سابقة؟ كلا. لقد كان
مشاهدة تجريبية مستقلة.

وفي ساعة من ساعات التجلي السماوي، تنبه وليم جلبرت من أهالي كلشستر بإنجلترا، إلى أن الكهرباء (الكهرمان) المدلوكة بالصوف تجتذب خفاف القش، وقصاصات الورق، وكان جلبرت ذكي الفؤاد بحاثة، فجرب وجرب، ووضع أساس كل ما نعرف اليوم عن الكهرباء، وما ننعم به من مخترعاتها وبدائعها ومعجزاتها، فكشف الكهرباء أيضاً لم يكن قائما على نظرية علمية سابقة، بل كان مشاهدة تجريبية مستقلة.

القول إذن بأن مخاطبة الأرواح لا تقوم على أساس علمي هو على الأقل قول غامض. أما بقية الاعتراضات فليس لها من الخطر ما لهذا الاعتراض الأول. وهي تفاصيل لا أرى التعجل بالخوض فيها، ولعلها تتعلق بالأرواح ذاتها، وما تستطيع وتحب أن تفعله وما لا تستطيعه أو لا ترى في فعله خيرا. وإذا انجلت هذه البحوث عن إثبات علمي لوجود العالم الروحي، وعن تقوية للأيمان بأوتاد من العلم اليقيني، فكفى بذلك نفعا، بل ذلك هو النفع كله، وهو اللباب الدسم، أما ما زاد عليه فألياف تافهة.

هذا الاعتراضات إذن قد أدلى بها على عجل. ولكن كما أنها لا تذهب بعيداً في نفي دعوى المخاطبة فكذلك ردودي هذه لا وزن لها كإثبات لصحة الدعوى. إذ الحقائق العلمية لا تقوم على الجدل الكلامي، وإنما الوسيلة إليها هي البحث التجريبي.

فهل ثمة بحث تجريبي جدير بالاعتبار يجري في هذا الموضوع؟ في العواصم بأوربا وأمريكا مجامع لهذا الغرض، أعضاؤها من المثقفين المفكرين، بينهم المحامي والطبيب والمربي والموظف والصحافي والأديب، وعدد صغير من أساتذة الجامعات وأفراد من العلماء الأفذاذ. تستحوذ هذه المجامع على وسطاء يزعمون فيهم الإخلاص وطهارة الطوية، ويدونون تجاربهم في سجلات، وينشئون لإذاعتها المجلات. وقد يختلفون في تفسير الظواهر، ولكنهم مجمعون بادئ ذي بدء على صحتها، وانتفاء الدجل منها، وأنها مفتاح ما استغلق من خصائص العقل البشري ومدى علاقته بمحيط المادة

ولكن جمهور المفكرين لن يطمئنوا تماماً إلى حكم هيئات كهذه في موضوع خطير كهذا. قد يسلم الجمهور بأن في الأمر ما يستحق البحث، ولكن البحث الذي يرضيه يجب أن يكون
بين جدران الجامعات. الجمهور يعتبر هؤلاء الباحثين ثائرين على العلم الرسمي، ينشئون داخل مملكته دولة يحكمون فيها باسمه، مع أنه - بحق أو بغير حق - لا يعترف بدولتهم ولا بأساليب حكمهم. ولكن لما كان رجال من وزراء البلاط العلمي قد انضموا إلى الثوار فقد جل الخطب عن السكوت؛ وها نحن أولاء نتساءل إلى متى تتحمل الهيئات العلمية الرسمية تبعة شذوذ الموقف؟ ولماذا لا تجلب على الموضوع بالخيل والرجل، فأما أن تهلكه وإما أنت تضمه تحت جناحها؟

العلم لا يعترف إلى اليوم إلا بشيئين - المادة وما يحرك المادة من قوى آلية. ولكن الروحيين ينادون بأن في الكون أيضاً قوى خفية ذات عقل وإرادة تؤثر في المادة في بعض الظروف. هل لهذه الدعوى من الحق نصيب؟ سؤال ملح موجه إلى الهيئات العلمية الرسمية.

ويخيل إلينا أن العلم الرسمي قد بدأ يصغي إلى السؤال. فقد تألف بلندن في الأيام الأخيرة مجمع جديد للبحث الروحي، أعضاؤه من صميم رجال العلم، يرأسه البروفسور جرافتون أليوت سميث عضو المجمع العلمي البريطاني والعالم العالمي في الأنثروبولوجيا (علم أصل الإنسان) وأستاذ التشريح بجامعة لندن. . أعلن هذا الرئيس تأليف المجمع بخطاب أرسله لمحرر مجلة اللانسيت (مجلة للعلوم الطبية) ونشر في عدد 13 يناير من تلك المجلة، وفيما يلي ترجمته: -

سيدي:

صحت كلمة عدد من رجال العلم على تأليف مجمع للبحث في الظواهر المسماة عادة بالروحية أو غير العادية، وذلك بالوسائل العلمية التجريبية المتبعة في علوم الطبيعة والفزيولوجيا. يحدث كثيراً أن يدعى رجال العلم لإبداء رأيهم في تلك الظواهر فيعجزون عن الإتيان بحجج مستقيمة تبرر موقفهم السلبي، والأولى بهم لكي يكون موقفهم أكثر التئاما مع الروح العلمية أن يتقدموا لبحث تلك الدعاوى بالوسائل العلمية المعروفة بدلا من أن يقتصروا على نفي وجودها، والمجمع الجديد ينوي القيام بهذه المهمة تلبية لنداء مجلة (نايتشر) في مقالها الرئيسي بعدد 23 ديسمبر سنة 1933 قال مستر جيرالد هيرد عضو اللجنة الاستشارية لمجمعنا في كلمة إذاعها باللاسلكي يوم 5 يناير، إن الوقت قد حان ليتنبه العلم الرسمي إلى وجود ظواهر تشذ عن القوانين المعروفة في العلوم الطبيعية، ولا تلتئم مع أي نظام مادي، ولا يصح إغفالها بعد اليوم، منذ أربعين عاما كان رجال الطب ينكرون الدعاوى الغريبة التي جاء بها التنويم المغنطيسي، ولكن التجربة والاختبار أثبتا صحة تلك الدعاوى وأهميتها، وها هو العلم اليوم في موقف مشابه لموقفه ذاك منذ أربعين عاما. عندما كنت طالب طب بالسنة النهائية، كان زملائي من الطلبة يسخرون مني لمجرد قراءتي كتابا في التنويم المغنطيسي، ولكني نجحت في إقناعهم بصحة التنويم بأن نومت كبير الساخرين مني. قد أورد مستر هيرد في خطابه المذاع باللاسلكي طرفا من تلك الظواهر النادرة الغامضة التي يزعمون حدوثها. ظواهر فيها المجال واسع لكل باحث كفء في علوم الطبيعة والفزيولوجيا والسيكولوجيا. إن لدى العلم اليوم لأجهزة ووسائل للبحث غاية في الدقة لم تكن موجودة منذ ثلاثين سنة، مثل تصوير الأشعة فوق البنفسجية ودون الحمراء، ومثل أشعة إكس والحاكي ومضخم الأصوات وأشرطة السينما وغيرها مما لم يكن يعرفه الذين بدأوا البحوث الروحية أمثال كروكس وريشيه ولدج. لن نبدأ البحث متأثرين باعتقاد في الأرواح ولا بأي اعتقاد آخر. وسنسير على النمط الجامعي كما هو الحال في معامل البروفسور وليم مكدوجال بأمريكا وفي جامعات أخرى بأوربا. وسنعامل بكل اعتبار أولئك الذين يسمون بالوسطاء. وسيضطرب هذا المجمع في مستهل حياته حتى يكون مستقلا في ماليته، ولكن رجال العلم ليسوا دائماً ذوي مال، ومعلوم أن بين الأثرياء اليوم من يهمهم جدا تشجيع هذه البحوث، فلعلهم يجودون بسخاء لإقامة المجمع على دعائم مالية ثابتة. ونزولا على إرادة البروفسور مزيزرهاريس، الذي أكد لي أنه يعبر عن رغبة باقي زملائه من أعضاء المجمع قد قبلت أعباء الرياسة، ولكن ليس معنى هذا القبول أنني أعرف الكثير في هذا الموضوع، بل معناه إني أتعهد بان أجعل البحث جديا وبعيدا عن كل تحيز.

هذا خطاب رئيس المجمع الجديد، وقد أدلى إلى الصحف اليومية الإنجليزية بأحاديث لا تخرج في معناها عما بهذا الخطاب

عبد المغني علي حسين

خريج جامعة برمنجهام

القصص

دار الإصلاح

للدكتور محمد عوض محمد

كنا نتذاكر حديث الحسن الموهوب والمجلوب. فقلت لصاحبي: رحم الله ذلك الشاعر العربي القديم، الذي كان ينادي بأنه ليس ممن يخدعه مظهر الجمال، ولا يستهويه طلاء مصطنع، أو رواء متكلف، ولا يفتنه حسن مجلوب بتطرية. أو جمال مشتري من دكان العطار. وكأني أراه إذ يجلس على دكة أمام داره يتأمل الوجوه الحسان إذ تروح وتغدو، فإذا رأى وجهاً عليه من التجمل أكثر مما به من الجمال، أقبل على جلسائه ضاحاً، وأنشدهم من شعره أبياتاً ساخرة، يختمها بالسؤال المشهور:

(وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر؟)

وكان يلقي السؤال فلا يسمع من جلسائه سوى الاستنكار. . . ذلك أن الناس في ذلك الزمان قد حكموا على العطار المسكين حكماً قاطعاً، بأنه عاجز كل العجز أن يصلح ما أفسده الزمان. . . . وأكبر ظني أن العطار نفسه - وان أنكر هذا الحكم جهاراً - قد آمن به سراً.

فقال صاحبي: غير أن هذا الحكم الصارم ما هو إلا كسائر الأحكام، عرضة لأن يتغير ويتبدل، حين يتغير الزمان والمكان، ولم يبق لدي اليوم شك في أننا بتنا في زمن قد علت فيه دولة العطار، وتألق نجم عزه، وأصبح قادراً على أن يثبت أن في وسعه إصلاح ما أفسده الزمان.

فأنصت إليّ كي أحدثك عن (دار الإصلاح). فان حديثها طريف معجب. . قصدت في الصيف الماضي إلى بلاد الإنكليز، وقضيت شطراً من الزمن في عاصمتهم، وأنت تعلم أن من عادتي أن أقضي الصيف في مدينة النور، غير إني اضطررت هذا العام أن أستبدل بها مدينة الظلام. ولا احسبني آسفاً على زمني الذي قضيته هناك.

أما الدار التي أدعوها (دار الإصلاح) فقد كان من أمرها إني ذهبت ليلة ألتمس ملهىأقضي فيه المساء. فجعلت أطوف بشوارع لندن ذات الطول والعرض، متنقلا بين اكسفورد ستريت إلى شافتسبري أفنيو، إلى بيكاديلي، إلى لستر سكوير. . متأملا المسارح ظاهراً،

ومستفسراً عما اشتملت عليه باطنا، حتى وقعت عيني على مسرح (الحمراء)، فأعجبني منه ذلك الظهر الشرقي المتقن، كما أعجبني ما بداخله من نقوش عربيه بديعه، فيها ما يكفي لتبرير ذلك الاسم الأندلسي. وكانت به عندئذ جماعه من الراقصين الروس وهم حديث الأندية في لندن في ذلك الوقت. فلم يطل ترددي وبادرت بشراء تذكره

ونعمت ليلتي تلك بمشاهدة رقص عجيب، والأنصاب إلى نغمات موسيقية شائقة. فلقد نبغت تلك الجماعة في محاكاة الموسيقى الدقيقة العويصة بحركات جسديه ناطقة. وفي ترجمة النغمات المطربة المشجية إلى وثبات وخطوات واهتزازات، تكاد تفوقها شجواً وطرباً وإبداعاً. ولست أنسى حتى الساعة كيف مثلوا لأعيننا (الحظ) بحركات الراقصين والراقصات على عزف الآلات، فكنت كأنما أرى بعيني - مجسما أمامي - كيف يقبل الحظ، فإذا السعادة قد ملأت الكون، وإذا الوجوه تطفح بالبشر، وإذا السرور باسط جناحيه، ثم نراه بعد ذلك مدبرا، فإذا السرور قد استحال حزنا، وإذا العالم قد امتلاء هموما وشجنا. . ولا حاجة بي إلى الإفاضة في ذكر ذلك الرقص، الذي لم يكن له صله بدار الإصلاح، لولا أنني في فترات الاستراحة كنت أنظر في كراسة اشتريتها قد اشتملت على برنامج الحفلة، وعلى كثير من الإعلانات. وكانت الفترات طويلة فأعدت قراءة هذه الكراسة مرارا. ولم يفتني مما بها شيء. وقد لفت نظري إعلان بها عن (دار الإصلاح): فرأيته يزعم أنها دار معجزات، تدخلها العجوز الشوهاء، فتخرج منها غانية حسناء. .

وكأن ليس بالعالم دمامة مهما قبحت، ولا سحنة مهما انقلبت، إلا وفي وسع أصحاب هذه الدار أنيحيلوها إلى حسن باهر وجمال بارع، ويزعمون أن ليس الإصلاح لديهم من سبيل الترقيع الذي يزيد القبيح قبحاً،

والدميم دمامة. بل هو إصلاح شامل كامل، يلف المرء من قمة رأسه إلى أخمص قدمه. . . قرأت هذا كله فابتسمت ابتسامه الساخر. وعند مغادرتي المسرح هممت بأن ألقي بهذه الكراسة بعيدا، ولكني لم افعل، بل طويتها باعتناء ووضعتها في جيبي. وكأنما كنت حريصا ألا يضيع مني عنوان تلك الدار. . فمن يدري لعلي يوما أن تثور نفسي على هذه الصورة التي صحبتني كل هذه السنين فأريد ان أستبدل بها صوره أحسن منها. .

ومضت على تلك الليلة أيام قلائل. وإني لجالس في صباح يوم أطالع (التيمس) في شيء

من الكسل، إذا بصاحبة الدار تعلن ألي أن صديقاً يريد أن يراني. وكانت دهشتي غير قليلة حين رأيتني أصافح صديقي عيسى الذي تركته في القاهرة، وكنت احسب أن بيني وبينه أقطاراً وبحاراً. . . (عجبا ما الذي أتى بك؟) فحدثني أنه قضى أياماً في البحث عني، حتى اهتدى بعد لأي إلى مكاني. . . ولقد غادر مصر فجأة حين نصحه أصدقاؤه أن يلتمس علاجا في هذه البلاد لتلك الحال القاسية التي لم يعد يطيقها. . ذلك ان المسكين قد زاد وزنه، واكتسى اللحم والشحم طبقات بعضها فوق بعض.

فقلت له حييت أيها الصديق، وأيا كانت الدوافع التي جاءت بك إلى هذه الديار، فإنها من غير شك دوافع قوية حتى تستطيع ان تحرك هذا الجسد العظيم - فمرحبا بك على

كل حال. . . ولست أدري يا عيسى هل يتاح لك أن تظفر ببغيتك في هذه البلاد. إننا قد سمعنا من قبل عن معجزات الأنبياء رضوان الله عليهم الذين استطاعوا أن يبرئوا الأكمه والأبرص، وأن يحيوا الموتى بإذن الله.

ولكن لم نسمع بعد بالأنبياء الذين يستطيعون أن يجعلوا منك شابا رشيق القوام. قال أحسبك قد نسيت أننا في زمن العلم والاختراع، وفي عصر الكهرباء والبخار. ولو انك تذكر هذا لما استكثرت على العلم الحديث هذه العملية اليسيرة التي تدعوها معجزة.

قلت حقا إن في عصرنا لمعجزات كبرى. فلقد استطاع البخار أن يحملك من غير عناء كبير، حتى أبلغك هذه الديار. ولكن قل لي بأبيك، أليس من نكد الدنيا على الحر إن مثلك لا يدفع ثمنا لنقله من مصر إلى لندن اكثر مما يدفعه مخلوق ضئيل هزيل مثلي، ولو كان في العالم إنصاف لاقتضوك الثمن أضعاف مضاعفة. فان عشرة من أمثالك على ظهر باخرة، لخليقون أن يحولوها عن مجراها فتشرق بدلا من أن تغرب، وتميل إلى أفريقية بدلا من أن تتجه نحو لندن فقال انك ما زلت في ضلالك القديم، ولم تلطف حلاوة هذه البلاد عن طبعك الحامض. . فاعلم إذن أن الأمر عكس الذي توهمت. فان أصحاب البواخر يغتبطون لوجود الركاب ذوى الوزن الثقيل، لأن هذا مما يجعل السفينة تمشي في رزانة واتزان. ولو لم يتح لهم أمثالى، لاضطروا أن يستعيضوا عنا بعدد عظيم من أكداس الرمل يجعلونها في قاع السفينة. . . والآن هلم بنا ننطلق إلى إحدى تلك الدور التي يدعونها معاهد الجمال. فقد سمعت أن في هذه المدينة منها عدداً ليس بالقليل. وأفهمت انهم يستطيعون أن يحيلوا المرء إلى أية صورة شاء.

عند ذلك ذكرت الليلة التي قضيتها في (الحمراء). وتناولت تلك الكراسة. وقلت لصاحبي - وأنا أحاوره - لست أدرى أيليق بنا أن نسمي تلك الدور معاهد الجمال. أو ليس الأقرب إلى الصواب أن ندعوها معاهد الدمامة؛ إذ لا يؤمها من الناس إلا من كان مثلك يحاول إصلاح ما أفسده الدهر. . وأنيلهذا السبب قد سميتها دور الإصلاح، وقد ألقت المصادفات في يدي إعلاناً عن واحدة من تلك الدور. ولست أضن عليك بأن أصحبك إليها. . .

وقفت بنا السيارة أمام دار في حي (سوهو) لا ينم ظاهرها المتواضع عن باطنها الفخم. وكان استخراج عيسى من بطن السيارة ليس بالأمر اليسير. ولقد نفحت السائق نفحه حاتمية جعلته يغض الطرف عما عانته سيارته من جهد ومن عناء. وقد علمتني التجارب أن الدراهم خير لجام للأفواه في لندن كما في سائر البلدان.

ودخلت إلى دهليز الدار أجر معي هذا الكتيب العظيم من اللحم والشحم. فأسلمنا الدهليز إلى فناء في جوانبه أرائك وكراسي، وقد طلب إلينا أن نجلس قليلا ريثما يؤذن لنا. فاخترت لعيسى من الكراسي أصلبها عوداً وأشدها مراسا. وجلسنا نتأمل فيما حولنا فرأينا فناء مفروشا بشيء كثير من الذوق وحسن اختيار للألوان، وكان يغلب فيه اللون الأزرق والأحمر، وعلى الأرض وفوق الجدران بسط وطنافس شرقية. وفي أحد الأركان موقد لم يكن به نار، بل كان مستوراً بغطاء مزخرف، وفي هذا الفناء خمسة أبواب يفضي كل منها إلى حجرات عديدة، وفي ناحية منه سلم ينتهي إلى الطوابق العليا

فقلت لصاحبي محاورا: إن اليوم لشديد الحرارة، وأراك أخذت تتصبب عرقاً. فعسى هذا الحر أن يذيب قليلاً من هذا الشحم لكي تقل نفقات (الإصلاح). . على إني لو كنت مكانك لادخرت هذا العرق إلى حين تلقي المدير الأعظم لهذه الدار. فانه سيفاجئك بامتحان عسير، لم يكن ليخطر لك ببال. علمت أنهم سيطلبون إليك أن تجلس على كرسي واطئ، وأن تضع رجلك اليسرى على اليمنى، وتلفها حولها لفا محكما، وأن تميل برأسك إلى الأمام حتى تمس به ركبتيك؟ ثم تستلقي على ظهرك من غير حراك، ويؤتي بدبابة متينة فيمرون بها على بطنك ذهاباً وإياباً. أجل، هذا وأمثاله من الأمور التي ليس لك عنها مفر. فاستبق عرقك إذن، فانك في حاجة إليه. ولا تظن أن في قولي هذا غلوا. فان الإصلاح ليس بالشيء الهين. . . سل المصلحين قديما وحديثا ينبؤك أن إصلاح بني الإنسان من أشق الأمور. . وناهيك بالجوع الشديد الذي لابد لك أن تشقى به بضعة أشهر، تحرم فيها

الطعام والشراب إلا قليلا. فلا يكون لك مندوحة عن أن تأكل من لحمك ودمك كما يفعل العشاق.
وعلى ذكر العشاق، لقد هممت أن أقترح عليك العشق علاجا شافياً مما ألم بك، فلقد يزعمون أن الهوى باعث على النحول والانضمار. - خصوصاً إذا بلغ المرء فيه مرتبة الشغف والهيام والوله - ولقد هممت أن أسألك أن تعشق لكي تكتسب النحول والرشاقة. ولكني راجعت نفسي وذكرت أن الحب لن يصيب أمثالك، فانه سيلقى من دون قلبك هذا السور المنيع من الدهن والدسم، الذي لا تنفذ منه سهام الحب، ولا تخترقه قنابل الغرام. . . وأي حب يحترم نفسه يرضى أن يسكن مثل هذا المنزل؟ إذن لم يبق بد من تلك الطريق الوعرة التي تساق إليها الساعة.
هذا وقد جعلت أتأمل فيما حولنا من الناس، فإذا هم مجموعة من الكائنات ما كنت أحسب أن في العالم حجرة تستطيع أن تضمهم جميعاً. قد كان عن يميني زنجي مفلفل الشعر أسود البشرة. وعن يساري رجل من المغول أفطس الأنف، أصفر الجلد مائل العينين؛ وكان هناك نساء ورجال. ليس فيهم من لم يرزق من شذوذ الخلق طرافة نادرة وتحفة عجيبة. وقد جاءوا جميعاً ينشدون (الإصلاح).
ولم يطل جلوسنا، حتى ذهبوا بنا إلى إحدى الحجرات، فإذا نحن أمام امرأة نصف، مليئة القوام، مستديرة الوجه، ضاحكة السن، قد قصت شعرها الأسود الحالك قصا محكما. بحيث أصبح رأسها المستدير أشد استدارة. ولم تكد ترانا حتى هشت لنا وبشت. وقالت: أما صاحبك فلست بحاجة لأن أسألك ما خطبه. . . وأما أنت فما أكاد أتبين ما تشكوه. . . لعلك تشكو اعوجاجاً قليلاً في الأنف. فان به ميلا يسيرا عن (السمترية). . . وعلاج هذا أمر هين. فان لدينا عدداً من الجراحين ذوي أيد صناع، لا هم لهم في الحياة غير تقويم ما اعوج من الأنوف. وتخفيض ما نتأ منها وما برز، ورفع الأفطس منها وإعلاء شأنه بين الملأ، ولقد يصادفون، في هذا السبيل عقبات لكنهم يتغلبون عليها، برغم أنفها. . .!
وأعجب شيء لدينا رجل من الصين ذو أنف شديد الفطس حتى لا تكاد تراه، وكأنما الناس قد اتخذوا وجهه مقعداً أو متكأ، وكنا أول الأمر عاجزين عن معالجته بما لدينا من الآلات،
لكنا الآن قد اتخذنا له آلات خاصة، ولا شك عندنا في النجاح العاجل فيخرج هذا الصيني من معهدنا بأنف معتدل جميل، يستطيع أن يشق به لنفسه طريقا في الحياة. . أما أنت فخطبك يسير جداً. . . حدق في وجهي!. . إن ميل أنفك عن السمترية لا يتجاوز الخمس درجات. . .
هكذا أخذت تحدثنا هذه المرأة. ولكني كنت راضياً عن أنفي، ولم يكن لي في إصلاحه مأرب. . فسألتها أن تعني بصاحبي، وتبذل له كل ما في دارها العظيمة من وسائل الإصلاح؛ حتى يعود رشيقاً نحيل القوام. فنادت خادماً وسألتها أن تذهب بصديقي إلى المكتب الثاني عشر. فانطلقا وبقيت مكاني، لا أدري ما أفعل. . فقالت اجلس فان صديقك سيعود بعد لحظة.
فأستطيع متى وصلني التقرير عنه أن أخبركما عن مدة العلاج والأجر الذي نتقاضاه. إن معهدنا هذا قد اشتهر أمره حتى بات كعبة القاصدين من أطراف العالم. أما أنتما فلا أشك في أنكما من أهل مصر. فقد أصبحت لكثرة ما رأيت من الوجوه لا يكاد يخفى على أمر أحد. إن علم الجمال العملي قد ارتقى، حتى أصبح لدينا علاج ناجع لكل شائبة تشوب الجسم وتنقص من حسنه. ولدينا أقسام تعني بالقوام، وأخرى بالشعر وبالوجه وبسائر الجوارح والأعضاء. ولدينا قسم جليل الشان همه أن يكسب الكهول من رجال ونساء رونق الصبي ومظهر الشباب، وكم من غانيات قد خرجن من هذا المعهد، وقد لبسن فيه حلل الجمال والدلال. . .
عند ذلك قاطعتها وقلت لها متحمساً: بالله لا تذكري الغانيات، فإنما الغانية هي من تستغني بطبع جمالها عن التطبع، وبحسنها الموهوب عن المجلوب. . .
قالت: ذلك المذهب القديم أيها الصديق. أما غانية اليوم فهي التي تستطيع إنفاق قدر زهيد من المال في هذا المعهد النافع، فتصيح من الغواني الحسان.
قلت: هذا لعمري مذهب أخرق، وخداع تخدعون به الناس.
قالت: لعلكم متى رخص الجمال، وأصبح في متناول النساء جميعاً، أن تتوبوا - معشر

الرجال - إلى رشدكم، فلا تعبدوا جمال الجسد تلك العبادة المزرية. ولعلكم أن تفكروا قليلاً في جمال الروح. . .

وأظنني قد أفحمني هذا الرد. فقد سكت لحظة لا أحير جواباً، ورجع عيسى وبيده ورقة، تناولتها وقرأتها، وقالت: ان (إصلاح) صديقك سيتم في مدى شهرين، وسيكلفه هذا الإصلاح خمسين جنيهاً.

قال صاحبي: ولقد رجعت منذ أسابيع، ومعي عيسى وقد غدا فتى رشيقاً نشيطاً، وسيماً قسيماً. . . ألست ترى الآن أن دولة العطار قد ارتقت، وأنه قد استطاع أخيراً أن يصلح ما أفسده الدهر؟

قلت: بلى، ولكن ألست ترى أنك قد بالغت في تنميق قصتك وتزويقها؟

قال: وهل تحسبني من أولئك الطعام الذين يقصون عليك الحديث كما جرى؟

قلت: معاذ الله أن تكون منهم. على إني سأذكر دائماً ما قالته لك تلك المرأة فانه سيجيء يوم لا يأبه الناس فيه لجمال الجسد ويلتمسون فيه جمال الروح، وعندئذ قد يكون لمثلك ومثلي في الحياة شأن غير هذا الشأن.

شهر بالغردقة

للأستاذ الدمرداش محمد

مدير إدارة الامتحانات والسجلات بوزارة المعارف

في الطريق إلى الغردقة - 1

بعد أن اجتزنا أبا زنيمة في طريقنا إلى دير سانت كاترين في سيناء شتاء سنة 1931 وصلنا إلى ربوة تشرف على البحر، وكانت الشمس عندئذ تؤذن بالمغيب آخذه في الاحتجاب وراء جبال صحراء العرب على الشاطئ الآخر لخليج السويس، فبدت هذه الجبال وقتها والشمس وراءها واضحة جلية برؤوسها العالية مرصوصة في خط طويل مواز للبحر، وكان جبل الشايب بهامته الشامخة في الوسط أبرزها ارتفاعاً أعظمها جلالا وفخامة - كان المنظر بديعاً أثار في نفسي رغبة شديدة لزيارة هذه المنطقة، إلا أن تنفيذ هذه الرغبة لم يكن حينئذ بالأمر السهل، فالشقة بعيدة، والانتقال إليها فيه صعوبة ونفقة كبيرة، فمكثت انتظر الفرصة إلى أن سنحت صيف هذا العام بعد ذلك بسنتين، فقد تفضل صديقي العالم النابه الدكتور محمد عبد الخالق بك، فدعاني لمرافقته في رحلة علمية إلى الغردقة على البحر الأحمر، حيث مكننا شهرا كاملاً كانت كل أيامه بركة على العلم وعلينا. فالأبحاث العلمية الطريفة والتجارب الدقيقة التي قام بها الدكتور عبد الخالق بك على أسماك البحر الأحمر وحيواناته ملأت نتائجها مجلداً ضخماً كما ضاق عن نماذج الأسماك والطفيليات التي جمعها ما كان معنا من صناديق وحقائب. ثم كانت رحلاتنا العديد إلى البحر والبر، فمن مناطق المرجان العجيبة إلى المنشآت العظيمة لشركة البترول بالغردقة، وشركة الفوسفات بسفاجة، ثم إلى الكتلة الجرانيتية الهائلة لجبل الشايب ثم اختراق السلسلة الجبلية الوعرة إلى قنا على النيل.

كل هذا وغيره سأحاول أن أصفه في ايجاز، راجيا أن أوفق في رسم صورة تقريبية لمعالم هذه المنطقة المنعزلة التي لا نعرف عنها الكثير ولا القليل

كان فجر يوم الخميس 6 يوليه سنة 1933 موعدا للقيام بالرحلة، فأقلتنا السيارة من القاهرة إلى السويس عن طريق الصحراء، فبلغناها ضحى، ثم توجهنا إلى ميناء الزيت إحدى نواحي ميناء السويس حيث كانت باخرة الزيت أرتيناشل راسية فنقلنا إليها ما أحضرناه من متاع وأجهزة، وقبل الظهر بنصف ساعة وصل الربان وأعطى إشارة القيام، فسارت بنا الباخرة نحو الجنوب وسط جو هادئ وبحر ساكن، وبعد قليل دعينا لتناول الطعام مع الكابتن بيس ربان السفينة فتلقانا في حجرة المائدة مرحباً وتبسط معنا في الحديث وأفاض بكلام رقيق تتخلله النكتة الرائقة والفكاهة الحلوة، وبعد أكلة شهية اجتمعنا على السطح، وأخذنا نشاهد معالم الشاطئ من خلجان وجزر ومنارات وجبال، وفي الأصيل تناولنا الشاي، وعند الغروب تعشينا ثم قضينا سهرة لطيفة في لعب ومسامرة.

كان الوقت صيفاً، فنمنا على السطح، واستيقظنا في اليوم التالي مع بزوغ الشمس، وكانت السفينة تسير عندئذ أمام رأس محمد، الطرف الجنوبي لسيناء، ثم أخذ البحر

أمامنا في الانفراج
وبعد قليل اختفى الشاطئ الشرقي عن الإبصار، ثم مال بنا الطريق نحو الجنوب الغربي، ودخلنا مضيقاً واسعاً في الغرب من جزيرة شدوان، وعند الساعة العاشرة صباحاً لاحت في الأفق معالم الغردقة، نقط بيضاء وخطوط سوداء، عبارة عن خزانات الزيت وأبراج الآبار - وقبيل الظهر مرت الباخرة أمام الطرف الشمالي لجزيرة الجفاتين، ثم دخلت الميناء بسلام ورست حذاء رصيف خشبي يحمل أنابيب كبيرة تتصل بالشاطئ، وذلك للشحن والتفريغ: شحن الباخرة بالزيت، وتفريغ الماء العذب منها
يشرف على الميناء أما الرصيف منزل إنيق، يقيم فيه مدير الشركة، وخلفه على ربوة عالية خزان ضخم (فنطاس) يسيل الزيت الخام منه إلى أحواض الباخرة عند الشحن - وعلى مسافة قليلة من الميناء مكاتب مصلحة الحدود يرفرف على ساريتها العلم المصري الكريم
نزلنا إلى البر وركبنا السيارات، فانطلقت بنا إلى محطة الأحياء المائية على عشرة كيلو مترات جهة الشمال، والطريق إليها مرصوف ينحني في أوله ليدور حول تل عال مشرف على البحر، ثم يستقيم ويخترق منشآت شركة الزيت: فأبراج عالية هنا وهناك على اليمين وأخرى على اليسار، ومساكن العمال والمسجد والكنيسة، ومكتب البريد، ومكاتب الشركة ومصانعها ثم (فيللات) الموظفين والنادي كلها منثورة في فضاء واسع تتخللها الشوارع
المنتظمة، والحدائق النضرة بهندسة جميلة تجعلها شبيهة بمباني مصر الجديدة وصلنا المحطة بعد نصف ساعة، ونزلنا ضيوفاً على الدكتور كرسلاند مديرها فتفضل ودعانا للطعام، ثم بعد ذلك انتقلنا إلى الاستراحة التي أعدت لإقامتنا
في محطة الأحياء المائية - 2
محطة الأحياء المائية شيدتها الجامعة المصرية على البحر الأحمر منذ ثلاث سنوات لتمكين علماء البيولوجيا من اجراء أبحاثهم المتعلقة بالأحياء البحرية في نفس المواطن التي تعيش فيها.
وتشغل مباني المحطة بقعة واسعة من الشاطئ على بعد خمسة كيلو مترات من مباني الشركة، وقد بلغ ما أنفق على تشييدها وإعدادها حتى العام الماضي نحو خمسة عشر ألفاً من الجنيهات. وكل مبانيها من الخشب على شكل الأكشاك مقامة بالقرب من البحر أو داخله فيه فمنزل المدير والمكتب والاستراحات ومنازل الموظفين والعمال على الشاطئ في ثلاثة صفوف تواجه البحر، ثم المعامل وقد أقيمت داخل البحر على مسافة مائتي متر من الأرض تصل إليها على رصيف مبنى في الماء وقد لوحظ في اختيار المكان وقوعه بالقرب من منطقة بحرية غنية بالمرجان، كما أن قربه من شركة الزيت كفل للمحطة الحصول على الماء العذب الكافي للشرب وللتجارب العلمية، وكذلك حاجات المعيشة كما جعل اتصالها بالسويس بواسطة السفن ميسورا مرة كل أربعة أيام - ويؤتي بالماء العذب وبالأطعمة على اختلاف أنواعها من السويس في بواخر الشركة كما يؤتي أحياناً بالطيور والخضراوات من قنا في السيارات - وتدير الشركة مصنعاً للثلج ومخبزاً كامل المعدات. وبالجملة فان أسباب المعيشة بالغردقة موفورة لدرجة كبيرة تنسيك انك تعيش في منطقة كانت من ثلاثين سنة مضت بلقعاً لا تجد فيه غير بعض أكواخ حقيرة يسكنها جماعة من صيادي السمك المساكين الذين يجوبون الشاطئ المصرية في طلب الرزق عن طريق الصيد أو تهريب الممنوعات.
(يتبع)
الدمرداش محمد
العالم المسرحي والسينمائي
فلم (الاتهام)
لناقد (الرسالة) الفني
في الأسبوع الماضي عرض فلم مصري جديد، هو ثالث الأفلام المصرية التي عرضت هذا الموسم، ونعني به فلم (الاتهام) لشركة فنار فلم، التي دعت رجال الصحافة لمشاهدته في حفلة خاصة قبيل عرضه على الجمهور.

ولعل هذا الفلم هو أول شريط مصري نجد فيه موضوعاً، أو حادثة إذا شئت، محبوكة الأطراف، منسجمة الوضع، تسير من البداية إلى النهاية في تسلسل طبيعي معقول، فخلا بذلك مما كان يؤخذ على الأفلام المصرية عامة من تفاهة الموضوعات التي تعرضها وعدم استقامة الحادثة وارتباكها، مما كان يجعل هذه الأفلام تافهة من الناحية الفنية القصصية، ويجعل الارتباط بين مشاهدها المختلفة مضطرباً يتلمسه المشاهد تلمساً ويكاد لا يفهمه، وفي ذلك ما يقلل من قيمة الفلم نفسه، بل يجعله فاترا مملولا ليست فيه هذه الحرارة التي تدفع المتفرج إلى تتبع مشاهدة والاندماج فيها والتأثر بها.
ففلم الاتهام، سد من هذه الناحية نقصاً كبيراً، وتضمن حادثة وموضوعاً يستطيع أن يلمسهما المتفرج في غير عناء ولا مشقة، ويمهد سياق الحادثة من ناحية أخرى، بوقائعها المتتالية، مشاهد تمثيلية رائعة لأبطال الفلم يظهرون فيها مقدرتهم الفنية.
على أن الموضوع ليست له هذه القيمة الفنية التي نعلقها عليه، ولكنه فاز برضاء الجمهور بفضل هذه المفاجآت السينمائية التي تجعل المتفرج لا يمل العرض، ومن المعروف أن القصة، مسرحية كانت أم سينمائية، إذا لم تثر اهتمام المتفرج سقطت.
وفي فلم (الاتهام) هذه المفاجآت التي تجعل المشاهد طول مدة العرض متيقظ الحواس والمدارك لا يفوته منه مشهد إلا ويثير اهتمامه بما يليه، ومن هنا نجح الفلم هذا النجاح الملحوظ الذي يستحق عليه أصحابه كل شكر وثناء. ونريد أن نخص بالذكر هنا السياق الفني البديع الذي ظهرت به حادثة القتل والسر فيها، فقد بقى محتفظاً به إلى اللحظة الأخيرة، إلى ساحة المحكمة حيث المتهمة في القفص وكل الأدلة تقوم على إدانتها، وفجأة تظهر الحقيقة، ويعترف المجرم بجرمه، ويرى المشاهد كيف ارتكبت الجناية، فيكون لذلك تأثيره في نفسه. وهذا المشهد هو أبدع مشاهد الفلم ولا شك من الناحية الفنية السينمائية، وقد أحسن حبكه وعرضة بمهارة تدل على كثير من الحذق والدراية بأصول الفن السينمائي
اشتركت نخبة طيبة من الممثلين والممثلات في القيام بأدوار هذا الفلم وعلى رأسهم السيدة بهيجة هانم حافظ وقد نزلت إلى ميدان العلم الحر بنفس ملؤها الثقة وروح مفعمة بالأمل والرجاء، وقد حققت الأيام ما كانت ترجوه لنفسها من نجاح، وللفن الذي قصرت عليه جهودها من توفيق وفوز.
ظهرت السيدة بهيجة هانم لأول مرة على الشاشة الفضية في دور (زينب) في الرواية المعروفة بهذا الاسم للدكتور محمد حسين هيكل بك ونجحت في دورها نجاحاً شجعها على تكوين شركة سينمائية، هي شركة (فنار فلم) التي تقدم ذكرها والتي يتولى إدارتها الأستاذ محمود حمدي بكفاءة نادرة جعلتها في مقدمة شركاتنا السينمائية المصرية. وقد أخرجت هذه الشركة قبل اليوم فلم (الضحايا)، وهذا الفلم (الاتهام) هو فلمها الثاني. وقد قامت السيدة بهيجة بدوري البطولة في الفلمين. وكان توفيقها فيهما كبيراً إلى درجة تغبط عليها حقاً، فهي تلجأ في مواقفها على الشاشة إلى البساطة التي هي ميزة الممثل الماهر الذي لا تحس في تمثيله تكلفاً أو تصنعاً، بل يعيش في دوره ويندمج فيه حتى ليتلاشى الممثل ولا يبقى إلا هذا الشخص الذي تراه على الشاشة بطلا من أبطال الحادثة.
والسيدة بهيجة (فوتوجينك) فلها هذا القوام المتسق البديع، وهذه القسمات والملامح الواضحة التي تظهر على الشاشة فاتنة أخاذة وعين (الكاميرا) دقيقة قوية تسجل الهنات والصغائر وتجسمها، ولا تعوض الكفاية هذا النقص الذي يبدو في صورة الممثل أو الممثلة، والسيدة بهيجة من هذه الناحية كثيرة التوفيق، توفرت فيها كل الشروط التي تؤهلها للتمثيل السينمائي، وللنجاح فيه، سواء من ناحية المقدرة الفنية والاستعداد لإخراج الشخصية التي تمثلها إخراجاً دقيقاً ماهراً، أو من ناحية التصوير والظهور على الشاشة في صورة بديعة فاتنة. وللسيدة بهيجة فوق هذا صوت متزن النبرات حلو النغم، سلس الأداء، سمعه الجمهور في هذا الفلم لأول مرة، لأنه أول فلم ناطق تشترك فيه
ولعل من الخير ان نذكر هنا ان السيدة بهيجة اشتهرت وعرفت قبل عملها في السينما بموهبتها الموسيقية، وقد نالت سنة 1930 دبلوماً في الموسيقى من باريس، ومن المعروف

أنها وضعت موسيقى جميع الأفلام التي اشتركت فيها، وقد سجلت هذه الألحان على الاسطوانات الغنائية. وهذه الأنغام الساحرة التي سمعها الجمهور أثناء عرض أفلام (زينب) و (الضحايا) و (الاتهام) هي من وضع السيدة بهيجة. ولها في هذا الفلم الأخير مقطوعات عديدة تعد من أحسن ما وضعت والفت إلى اليوم.

ونحن نسجل هنا مغتبطين هذا النجاح العظيم الذي نالته في فلمها الجديد بتمثيلها وموسيقاها، ونرجو أن يكون لهذا الإقبال من الجمهور على مشاهدة الفلم صداه في القريب العاجل فترى قريباً فلما جديداً لها

قامت السيدة زينب صدقي بأحد الأدوار الأولى في الفلم، والسيدة زينب ممثلة معروفة لها على المسرح شهرة بعيدة، وقد أخرجت كثيراً من الأدوار الفنية الدقيقة التي يعد نجاحها فيها دليلا ساطعاً على مقدرتها الفنية وكفايتها الفذة، فليس عجيباً أن توفق هذا التوفيق في دورها في هذا الفلم، تمثيلا وأداء وحركة

وقام الأستاذ زكي رستم بدور شوكت المحامي قريب بهيجة الذي يحبها، ويقتل في سبيلها، ثم يترافع عنها محاولاً إنقاذها، وقد كان في كل مواقفه مبدعاً موفقاً، خصوصاً في موقفه الأخير عند اعترافه بجرمه الذي يعد من أبدع المشاهد التمثيلية في القصة بما أبداه هذا الممثل الكفء من الحرارة ومهارة الأداء، وتدفق العاطفة، واتزان الصوت والحركة، وزكي هو الأخر من ممثلينا البارزين على المسرح وله أدواره المعروفة وكفايته التي لا تنكر.

هؤلاء الثلاثة هم أبطال فلم، وقد عاونهم مجموعة كبيرة من الممثلين الأكفاء الذين أجادوا مواقفهم إجادة كبيرة، وفي المقدمة الأستاذ محمود حمدي الذي مثل دور وكيل النيابة وألقى كلمة الاتهام وهو يتمتع بصوت جهوري ممتلئ قوي النبرات، يترك في نفس المتفرج أثراً بليغاً، ومن ممثلي الفلم أيضاً حضرات عزيز فهمي، وحسن كمال، ومنير أبو سيف، ومنير فهمي، وعبد القادر المسيري، ولطفية الصغيرة، وقد كانوا جميعاً كثيري التوفيق في أدوارهم المختلفة

ولا يسعنا في النهاية إلا أن نهنئ شركة فنار فلم على شريطها الجديد وعلى ما نال من نجاح واقبال، ونرجو أن يكون هذا حظها على الدوام في أفلامها المقبلة.

محمد على حماد

حول ابن سينا

للدكتور محمد خليل عبد الخالق

اطلعت في عدد الرسالة رقم 36 بتاريخ 13 مارس سنة 1934 صحيفة 419 على مقال للأستاذ حافظ قدري طوقان عن ابن سينا، عدد فيه مؤلفاته، وبين اكتشافاته الهامة في العلوم المختلفة، وأود أن ألفت النظر إلى أن ابن سينا أول من اكتشف الطفيلية الموجودة في الإنسان المسماة الآن بالانكلستوما، وكذلك المرض الناشئ عنها المسمى بالرهقان أو مرض الانكلستوما. وقد كان هذا الاكتشاف في كتابه (القانون في الطب) في الفصل الخاص بالديدان المعوية. وهذه العدوى تصيب الآن نصف سكان العالم تقريباً. وقد بلغ ما كتب عن هذا المرض من المقالات والكتب إلى سنة 1922، 50. 000 مرجع عنيت بجمعها مؤسسة ركفلر بأمريكا. وقد سمى ابن سينا هذه الطفيلية باسم (الدودة المستديرة) وقد كان لي الشرف في سنة 1922 أن قمت بفحص ما جاء في كتاب (القانون في الطب) عند الديدان المعوية، وأمكنني أن أقوم بتشخيصها بدقة، وتبين من هذا أن الدودة المستديرة التي ذكرها ابن سينا هي ما نسميه الآن بالانكلستوما، وقد أعاد اكتشافها دوبيني في إيطاليا سنة 1838، أي بعد كشف ابن سينا عنها بتسعمائة سنة تقريباً.

وقد أخذ جميع المؤلفين في علم الطفيليات بهذا الرأي في المؤلفات الحديثة، وكذلك مؤسسة ركفلر كما يرى من المراجع المذكورة بعد. ولذلك كتبت هذا ليطلع عليه الأدباء، ويضيفون إلى اكتشافات ابن سينا العديدة هذا الاكتشاف العظيم لمرض هو من الأمراض الأكثر انتشارا في العالم الآن.

المراجع

الدكتور محمد خليل سنة 1922 - 1

مرجع قديم عن الطفيليات الطبية مترجم عن مؤلف للطبيب العربي ابن سينا مع ترجمة حياته باختصار (بالأنجليزية) - مجلة أمراض البلاد الحارة، وعلم الصحة بلندن

مجلد 14 عدد 6 مارس سنة 1922 صحيفة 63 - 67
الدكتور محمد خليل سنة 1924 - 2
رسالة أثرية في العلقات الطفيلية التي تصيب الإنسان (بالعربية) - المجلة الطبية المصرية
مجلد عدد 7 سبتمبر سنة 1924 ص403 - 411
مؤسسة ركفلرر سنة 1922 - 3
المراجع الخاصة بمرض الرهقان (الانكلستوما) (بالإنجليزية) ص11 من المقدمة.
فاوست سنة 1929 - 4
علم الديدان البشرية - فيلادليفيا - صحيفة357
العدد 39 - بتاريخ: 02 - 04 - 1934
المصري الغريب في مصر!
للدكتور طه حسين
هو مختار رحمه الله. فقد كان في حياته مرآة صادقة كل الصدق لنفس مصر الخالدة التي لا تحد ولا تحصر. كنت تجد في هذه المرآة صوراً صادقة لنفس مصر القديمة، ولنفس مصر الإسلامية، ولنفس مصر هذه التي يكونها هذا الجيل، ولآمال مصر ومثلها العليا بعد أن يتقدم الزمان ويتقدم، وترث أجيال أخرى ارض الوطن عن هذه الأجيال التي تضطرب فيها الان.
كان مختار هذه المرآة الصافية المجلوة التي تنعكس فيها حياة مصر على اختلاف أزمنتها وما يحيط بها من الظروف، فكان من هذه الناحية اشد أبناء مصر اتصالا بها وقربا منها وتمثيلاً لها. ولكنه على ذلك كان غريباً في مصر أثناء هذه الأسابيع التي ختمت مساء الثلاثاء حين ختمت حياة مختار. اقبل من أوربا فلم تكد الصحف تتحدث عن إقباله، ولم يكد يخف للقائه من أصدقائه إلا نفر قليلون. وأقام في مصر مريضاً مكدوداً يلح عليه الألم والسقم فلا يكاد يذكره من المصريين الذين كانوا يعجبون به ويحشدون له ويهتفون باسمه ويعتزون بمجده ويرفعون رؤوسهم بآثاره إلا نفر يحصون، ولعلك إن أحصيتهم لم تبلغ بهم العشرين، أخشى ألا تبلغ بهم اقل من هذا العدد اليسير , ثم اشتد عليه المرض والجأه إلى المستشفى فلم تكد الصحف تتحدث عن ذلك إلا حديثاً يسيراً جداً. وخف أصدقاء مختار إلى المستشفى يسألون عن صديقهم ويريدون لقاءه فحال المرض بينهم وبين اللقاء. أعلن إليهم أن الحجاب قد ألقى بينهم وبين هذا الصديق وان كانت الحياة ما تزال تتردد في جسمه النحيل. ثم اصبح الناس يوم الأربعاء وإذا نعي مختار يملأ القاهرة ويقع من نفوس أهلها موقع الألم اللاذع والحزن الممض. ثم أمسى الناس يوم الأربعاء، وإذا جماعة من خاصة المصريين وقليل من الأجانب عند محطة القاهرة يستقبلون جثمان مختار، ثم يسعون معه إلى المسجد. ثم يفترقون ويمضي مختار إلى مستقره الأخير، ومن حوله قل في إحصائهم ما شئت فلن تستطع ان تبلغ بهم نصف المئة. ثم يصل مختار إلى قبره، ثم يهبط مختار إلى هذا القبر، وهؤلاء الأصدقاء قائمون قد ملكهم وجوم عميق لا يقطعه إلا هذا الصوت الرفيق المزعج، صوت المساحي والمعاول وهي تسوي القبر عليه، وتقطع ما بقى بينه
وبين الحياة من اسباب، والا هذا النداء الذي يتردد بين حين وحين عنيفاً يتكلف الرفق، طالباً الماء الذي يحتاج إليه في تسوية هذا القبر، وإقامة هذا السد بين صاحبه وبين الحياة، وإلا هذا اللغط الذي يؤذي الأسماع، وكان من حقه أن يكون موسيقى عذبة رقيقة تأسر القلوب الجريحة وتهدئ النفوس الثائرة، وترد الجازعين اليائسين إلى ما ينبغي لهم من الإذعان لقضاء الله والرضى بحكم الله. وهو لغط هؤلاء القراء الذين يلوون ألسنتهم بالكتاب، وقد كره الله أن يلوي الناس ألسنتهم بالكتاب، لانه كتاب مبين مستقيم لاعوج فيه ولا التواء. وانما فيه هداية للعقول وشفاء لما في الصدور. ثم ينقطع كل صوت، ويتفرق هؤلاء الأصدقاء يحملون في قلوبهم ما يحملون من حب ووجد، ومن أسى ولوعة، يحملون هذا كله لينغمسوا به في هذه الحياة التي تنتظرهم على خطوات قليلة قصيرة من مستقر الموتى.
وكذلك انتهت قصة مختار مع انتهاء النهار يوم الأربعاء، وكذلك أسدل ستار الموت على حياة مختار في الوقت الذي أسدل فيه ظلام الليل على حياة الأحياء. وما اكثر ما تنتهي

قصص الناس في كل يوم، بل في كل ساعة، بل في كل لحظة. وما اكثر ما يسدل ستار الموت حين تشرق الشمس أو حين تغيب، فلا نحس ذلك ولا نلتفت إليه، لان الذين تختطفهم المنية أو تحصدهم في جميع الأوقات قوم مجهولون لم تميزهم الظروف أو لم تميزهم أنفسهم، فهم يمضون دون أن يحسهم أحد كما يقبلون دون أن يحسهم أحد. ولكن مختار كان غريباً حقاً في آخر حياته، وكان غريباً حقاً في أول موته، وأي عجب في هذا؟ لقد آثر حياة الغربة منذ أعوام، فكان لا يزور وطنه إلا لماما، ولقد تعود الجفوة من مواطنيه. واكبر الظن أن ذلك كان يؤذيه، ولكنه كان اكرم على نفسه من أن يشكو أو يظهر الألم. ولقد سمعنا انه احتمل المرض شجاعا، واستقبل المرض شجاعا، لم يدركه جزع ولا فرق. ولو انه رأى بعد ان مات كيف ودعه مواطنوه لما اثر فيه ذلك اكثر مما أثرت فيه جفوة مواطنيه قبل أن يموت. ولعله كان يألم لذلك في قرارة قلبه الممتاز، ثم لا يظهر من ألمه شيئاً كما كان يفعل أثناء الحياة، إنما نحن الذين ينبغي لهم أن يألموا اشد الألم، وان يحزنوا اشد الحزن، وأن يستشعروا شيئاً غير قليل من اللوعة والحسرة وخيبة الأمل حين ترى هذا العقوق، وحين نقدر أثره في نفس صديقنا الراحل العزيز. فقد كنا ومازلنا نتحدث

بأن مختاراً هو الذي رد إلى مصر بعض حظها من المجد الفني، وكنا وما زلنا نتحدث بأن مختاراً قد مكن مصر من أن تعرب عن نفسها وعما تجد من الألم والأمل بلسان جديد لم تكن تستطيع أن تصطنعه من قبل، وهو لسان الفن. وكنا ومازلنا نتحدث بأن مختاراً قد انطق مصر بهذه اللغة التي يفهمها الناس جميعاً وهي لغة الجمال، لغة الفن، بعد أن كانت لا تنطق إلا بهذه اللغة التي لا يفهما إلا جيل بعينه من الناس، وهي لغة الكلام. وكنا وما زلنا نتحدث بأن مختاراً قد جدد في مصر سنة كانت قد رست ومضت عليها قرون وقرون. وهي سنة الفن، وكنا وما زلنا نتحدث بأن مختار قد لفت الأوربيين إلى مصر، أقام لهم الدليل على أن مطالبتها بالاستقلال لم تكن عبثاً ولا لغواً، وإنما كانت نتيجة لحياة جديدة، ونشاط جديد، وقد لفت مختار الأوربيين إلى ذلك في اشد الأوقات ملاءمة، في وقت الثورة السياسية. وكنا وما زلنا نتحدث بأن مختاراً على حداثة عهده بالفن كان اسبق المصريين إلى إعجاب أوربا، ألم يعرض آثاره في باريس؟ ألم تتحدث صحف الفن عن مختار قبل أن تتحدث صحف الأدب عن كتابنا وشعرائنا؟ ألم تستقر أثمار مختار في متاحف باريس قبل أن تستقر آثار كتابنا وشعرائنا في مكاتبها؟ كنا نتحدث بهذا كله، وكنا وما زلنا نتحدث بأن مختاراً قد ردإلى المصريين شيئاً غير قليل من الثقة بأنفسهم، والأمل في مستقبلهم والاطمئنان إلى قدرتهم على الحياة الممتازة الراقية. كنا وما زلنا نتحدث بهذا وبأكثر من هذا، ومع ذلك فقد قضى مختار آخر حياته شريداً أو كالشريد. وقد قضى مختار آخر أيامه في مصر منسياً أو كالمنسي وقد عبرت جنازة مختار مدينة القاهرة يطيف بها جماعة من الخاصة ليس غير!! نستغفر الله بل مرت جنازة مختار أمام التمثال الذي صنعه بيديه كما تمر أمام أي شئ لم يظهر على التمثال ما يدل على الحزن أو ما يدل على الاكتئاب، أو ما يدل على الشكر أو عرفان الجميل. وعبرت جنازة مختار مدينة القاهرة تجهلها الحكومة المصرية أو تكاد تجهلها، لم يمش في جنازة مختار ولم يقم على قبر مختار وزير العلوم والفنون. ولم يلق أحد على قبر مختار كلمة الوداع، وإنما كان الصمت يشيعه، وكان الصمت يواريه التراب. وكان الصمت يودعه حينما تفرق من حوله الأصدقاء. ولو قد مات مختار في بلد غير مصر لكان موته شأن آخر. ولو قد كان مختار فرنسيا أو إنكليزيا أو إيطاليا وأدى لبلده مثل ما أدى لمصر لقامت الدولة له بشيء آخر غير الإهمال

والإعراض. إذن لكانت جنازته رسمية تنفق عليها الدولة، ويمشي فيها رجال الدولة، ويخطب فيها كبار الدولة، ولكن مختاراً نشأ في مصر، وعمل في مصر، ومات في مصر فحسبه ما أتيح له يوم الأربعاء من توديع الذين كانوا من أصدقائه وأحبائه ليس غير.

ولا ننس ان رئيس الوزراء قد تفضل فندب من مثله في جنازة مختار. وهذا، وبالسخرية الأقدار، كثير جداً ينبغي أن يشكر لرئيس الوزراء. فقد ينبغي أن لا ننسى أن مختارا لم يكن من أنصار السياسة الرسمية، ولا من الذين يستمتعون بعطفها وحبها ورضاها، فكثير أن يتفضل رئيس الوزراء فيندب من يمثله في جنازة هذا المعارض وان

كان صاحب فن، وأن كان قد انفق حياته كلها لمصر لا لحزب من الأحزاب ولا لجماعة من الجماعات. لا اكذب المصريين أن لنا في مثل هذه الأحداث والخطوب مواقف لا تشرفنا ولا تلائم ما نحب لأنفسنا من الكرامة، ولا تشجع العاملين على أن يعملوا. ومن الذي نسى موت الشاعرين العظيمين حافظ وشوقي وموقف السياسة منهما. ذهب المعارضون بحافظ، واستأثر المؤيدون بشوقي، ثم ذهب المعارضون بمختار منذ أيام، وضحى بالأدب والفن في سبيل الأهواء والشهوات، وظهر المصريون في مظهر العقوق الذي لا يليق بالشعب الكريم. لا اكذب المصريين انهم في حاجة إلى أن يرفعوا أنفسهم أمام أنفسهم وأمام غيرهم عن هذه المنزلة المهينة، انهم في حاجة إلى أن يرفعوا الأدب والعلم والفن عن أعراض الحياة، وأغراض الخصومة السياسية، لان في الحياة أشياء أرقى واطهر واكرم من السياسة وخصوماتها، والأدب والعلم والفن أول هذه الأشياء.

- لقد هم أصحاب حافظ أن يخلد واذكر حافظ فلم يوفقوا. وهذا حافظ يخلد ذكر نفسه ولقد هم المستاثرون بشوقي من رجال السياسة الرسمية أن يخلدوا ذكر شوقي فلم يفلحوا. وهذا شوقي يخلد ذكر نفسه. فهل بين المصريين من يهمون بحماية آثار مختار من الضياع وبتخليد ذكر مختار، وهل هم إن فعلوا موفقون إلى ما يريدون؟ أم هل تدخل السياسة في أمر مختار فتفسده كما أفسدت أمر حافظ وشوقي؟ سؤال مؤلم، ما كان ينبغي أن يلقى، ولكن انظر جوابه لن يكون طويلا، ولعله لا يضيف ألما إلى ألم، وحزنا إلى حزن.

طه حسين

-

كاظم باشا الحسيني

بقلم احمد حسن الزيات

حنانيك يا رب أفي الساعة التي يضطرب فيها البحر ويحار المركبويبعد المرفأ، يموت الربان ويختفي القطب؟ وفي الساعة التي يستحر فيه النضال بين حق العرب وباطل اليهود، وبين إيمان فلسطين وطغيان الإنجليز، يسقط القائد ويهبط العلم؟! وفي كل يوم تتجاوب أصداء الأسى في أقطار العروبة على بطولة تؤدى، أو زعامة تخلو، أو نبوغ ينطفئ أو ألفة تفترق أو وحدة تشت؟!

لا باس بالألم يجمع شتى القلوب على الإحساس المتحد، وبالخطب يروض رخو المغامز على المقاومة الشديدة، وبالموت يبعث ضارع النفوس إلى الحياة العزييزة، اما المدامع التي تجدب المشاعر، والشدائد التي توهن العزائم، والمنايا التي تقبر الأماني، فإزراء من الشر المحض والعذاب الخالص كابدتها الأمة العربية واسفاه في مصارع سعد وفيصل وكاظم؟!

روع العرب في عيد التضحية والتلبية مصاب فلسطين في حياة نهضتها وسر وحدتها وروح ثروتها المغفور له موسى كاظم باشا الحسيني، فضجت المآذن بالنعي، وفاضت الصحف بالرثاء، واضطربت الألسن بالأسف، ونال الناس من الجزع الطبيعي ما ينالهم حين يرون الركن يميل، أو النظام ينقطع، أو الدليل يغيب؛ وتساءلوا عن مصير فلسطين المعذبة بعد شيخها الذي أخلصت جوهره السنون، أحكمت رأيه السن، وشيعت قلبة العقيدة وأعلنت صوته النزاهة وقدست شخصه التضحية، فجهل الحزبية، وأنكر الطائفية، وسل أحقاد الصدور، وأذهب تنافس الأسر، وعّبأ الأمةالمغزوّة في دار أمنها، ثم قادها زهاء خمسة عشر عاما في المفاوضات بلندن، وفي المظاهرات والمؤتمرات بفلسطين، لا يقطعه يأس، ولا يردعه وعيد، ولا يخزله طمع، ولا يقعد به عبء السنين التسعين عن قيادة الشباب إلى صراع حام دام بين حق اعزل وباطل مسلح!! لو كانت قضية فلسطين قضية رياسة وسيادة وغلبً لكًان في كل مكان سبيل إلى الخلاف ودليل إلى الفرقة، ولكنها قضية الحياة والموت: وللحياة طريق تهدي إليها الفطرة، وقافلة تدل عليها الطبيعة: فالأمر من هذه الناحية مختلف بين فلسطين وبين العراق ومصر.

ولا ريب أن المستقبل الذي يتمثل لشباب فلسطين في ابشع صوره سيذهلهم عن نعرة

العصبية، ويلهيهم عن شهوة الخصومة، فلا يرون إلا عدوا واحداً هو الواغل المقتحم، ولا يستمعون إلا قولا واحداً هو قول زعيمهم الخالد وهو يجود بنفسه:
(. . . قضية العرب في فلسطين أمانة في ذمتكم فجاهدوا في سبيلها، فإن فعلتم أرحتموني في قبري).
عزى اله الأمة العربية اجمل العزاء عن فقيدها الغالي، وأحيا في خواطر أبنائها النبلاء مثله العالي، وجعل رضوانه عليه ثواب ما بذل في سبيله من ماله وجهده ونفسه.
الزيات

رسالة الربيع

للأستاذ عبد الحميد العبادي

لو تمثل هذا الربيع لكان إنسانا، ولكان شابا رائع الشباب، مشرق الطلعة، حلو الشمائل، معطاء اليدين، يملأ العيون والقلوب مهابة وجمالا. أفلا يرى القارئ تصديق هذا التصوير فيما يأخذه الحس والشعور من الطبيعة في أيامنا هذه من اعتدال جو وانبعاث شمس، وإيراق شجر، وتفتح زهر، وترنم طير، وتتابع خير؟ أفلا يرى أن كل مظاهر الطبيعة قد غدت ولسان حالها يصيح بمن يمر: ألا تراني فتفهم حكمة الخلق العجيب؟ ولكن وا رحمتاه للناس! انهم عن هذه الدعوة الكريمة في شغل شاغل، (وكآي من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون) لقد شغلوا بالعرض عن الجوهر، وبالسفساف الحقير عن الجميل الجليل. انهم يوشكون أن تموت قلوبهم ويغول نفوسهم الصفق بالأسواق.

رحم الله أسلافنا الأقدمين وآباء الأولين. لقد كانوا اقرب منا إلى الطبيعة، وأبر بهذا الربيع واحسن استقبالاً له. فالمصريون القدماء على شدة تفكيرهم في الحياة الآخرة، لم يهملوا الأخذ بأسباب التمتع في الحياة الدنيا. كانوا كلفين بالطبيعة، وحياة الطبيعة. وهل شئ أبهج للخاطر واسر للقلب من الطبيعة وحياة الطبيعة؟ لقد فتنوا بنهرهم المتدفق الوقور فقدسوه وعبدوه، وكلفوابالزهر حتى لقد اتخذوا منه رمزاً وشعاراً لملكهم السياسي، فكانت الزنبقة رمز مملكتهم الجنوبية، وزهرة النيلوفر رمز مملكتهم الشمالية. وصاغوا تيجان الأعمدة التي تنهض بعمائرهم على مثال برعمة السدر، والنيلوفر، ورؤوس النخيل. وكانوا يحتفلون لمقدم الربيع احتفالاً بقيت لنا منه آثار نلحظها في عيدنا الطبيعي الوحيد المعروف (بشم النسيم).

وكان الفرس القدماء من اشد خلق الله حباً للزهر والماء والجو الطلق، لذلك جعلوا (النيروز) الذي هو أول الربيع اعظم أعيادهم، واسبغوا عليه هالة من التقديس والإجلال، فزعموا أن الله فرغ فيه من خلق الخلائق، وانه يقسم فيه السعادة لأهل الارض، ولذلك سموه (يوم الرجاء)، ولفرط شغفهم بالربيع كانوا إذا هجم الشتاء ألح على بلادهم المطر والبرد والثلج إعتاضوا عن مناظر الربيع الطبيعية بصور لها قد وشيت بها بسطهم
وسجادهم الشهيرة بحيث إذا جلسوا عليها للطرب والشراب خيل إليهم انهم في روضة معطرة من رياض الربيع. وان من يطالع الأدب الفارسي جملة يجده عبقا بعبير الورد والزنبق والبنفسج والياسمين وغيرها من فنون الرياحين، أما العرب فربيع بلادهم هو حياتها على الحقيقة دون المجاز، فإذا اقبل عرفوه بتألق البرق وجلجلة الرعد، بالغيوث الهاطلة والأودية السائلة، فإذا كان ذلك اخضرت المراعي واعشوشبت الوهاد والنجاد، ونعم بآثار ذلك كله الإنسان والحيوان. وكان ملوك بني أمية جريا على مقتضى غريزتهم البدوية إذا اقبل الربيع برزوا إلى بادية الشام فقضوا شهوره في قصور اتخذوها لذلك خاصة. ولا تزال آثار تلك القصور ماثلة إلى اليوم. فلما اختلط العرب بالفرس اخذوا عنهم عادة الاحتفال بالنيروز الفارسي. فكان عمال بني أمية على المشرق إذا اقبل النيروز جلسوا للناس جلوسا رسميا عاما يتقبلون فيه تهانئهم به وهداياهم. ولما قامت الدولة العباسية اصبح النيروز من أعياد الدولة الرسمية، وصار له شأن أي شان، بل لقد اشتقوا منه عيدا رسميا خاصا بالخلفاء وأسموه (نيروز الخليفة) يقول البيروني (انه كان يقع فيه ببغداد من رش الماء وحثو التراب والملاعب ما هو مشهور) وهذا من قبيل النوروز القبطي، الذي يتحدث عنه المقريزي في خططه، ومن قبيل ما يفعل في أعياد المرافع المشهورة في بعض بلدان أوربا لعهدنا هذا والمعروفة (بالكرنفال).

وقد افتن شعراء العرب في وصف الربيع ولنيروز وآتوا في ذلك بالبديع المطرب من الشعر , ولا يزال ما قاله الطائيان في هذا الصدد هو المقدم والمحتذى سواء اكان ذلك من الناحية الفلسفية التي ينتحيها أبو تمام أم من الناحية الفنية التي ينتحيها البحتري.

- :قال أبو تمام يصف الربيع من قصيدة يمدح بها الخليفة المعتصم بالله العباسي

أربيعنا في تسع عشر حجة ... حقا لهنك للربيع الأزهر
ما كانت الأيام تسلب بهجة ... لو أن حسن الروض كان يعمر
أو ما ترى الأشياء إن هي غيرت ... سمجت وحسن الأرض حين تغير
يا صاحبي تقصيا نظريكما ... تريا وجوه الأرض كيف تصور
تريا نهارا مشمسا قد شابه ... زهر الربى فكأنما هو مقمر
دنيا معاش للورى حتى إذا ... حل الربيع فإنما هي منظر
أضحت تصوغ بطونها لظهورها ... نورا تكاد له القلوب تنور
من كل زاهرة ترقرق بالندى ... فكأنها عين إليك تحدر
تبدو ويحجبها الجميم كأنها ... عذراء تبدو تارة وتخفر
حتى غدت وهداتها ونجادها ... فئتين في حلل الربيع تبختر
مصفرة محمرة فكأنها ... عصب تيمن في الوغى وتمضر

وقال البحتري مخاطبا الوزير الفتح بن خاقان:

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا ... من الحسن حتى كاد أن يتكلما
وقد نبه النيروز في غلس الدجى ... أوائل ورد كن بالأمس نوما
يفتقها برد الندى فكأنه ... ينث حديثا كان قبل مكتما
ومن شجر رد الربيع لباسه ... عليه كما نشرت وشيا منمنما
أحل فأبدى للعيون بشاشة ... وكان قذى للعين إذ كان محرما
ورق نسيم الريح حتى حسبته ... يجيء بأنفاس الأحبة نعما

وبعد: فأن لكل ظاهرة من ظواهر الطبيعة رسالة بليغة تؤديها إلى النفوس الشاعرة والفطر السليمة. فليت شعري أية رسالة يحملها الربيع إلى ذوي القلوب الواعية منا؟ قابل أيها القارئ بين الشتاء والربيع، بين رقدة الطبيعة ونهضتها، وان شئت، فبين موتها ونشورها، فستجد هذه الدورة على قصر أمدها قد تضمنت حكمة الحياة كلها.

وإلى هذه الحقيقة يشير الربيع في رسالته إلى الناس!

(أن الطبيعة أيها الناس هي الأول والآخر، والأصل والمال من طيباتها تبنون ابدانكم، ومن جمال منظرها وروعة سحرها نمت عواطفكم وألهمتكم فنونكم وآدابكم. ومن تصرف سنتها واختلاف مقاديرها يسرا وعسرا، أملا وباساً وعافية وبأسا ألهمتهم عقائدكم ومللكم. ومن دقة هذه السنن واطرادها استبنتم أصول شرائعكم ونظمكم، ومن الصبر لأحكامها تكونت أخلاقكم فان تكن أجسامكم قد ضويت، وعواطفكم قد خبت، وعقائدكم قد وهت، وشرائعكم قد قست، وأخلاقكم قد رثت، فما ذلكم إلا لأنكم عققتم أمكم الحنون، وجفوتم ظئركم الرءوم. فإلى الطبيعة ايها الناس، إلى الطبيعة فهي وحدها الكفيلة بإزاحة عللكم، وجبر مصابكم. وهي القادرة على أن تنشئكم نشأة أخرى، وتبعثكم خلقاً جديداً.

!. . .الرجوع إلى الباطل خير من التمادي في الحق

صفحة من حياة تشليني

للدكتور محمد عوض محمد

(بنفيتو تشليني من كبار رجال الفن الإيطالي في عهد النهضة، ولد في مدينة فلورنسا عام 1500 وتوفي بها عام 1571 وقد نبغ أولا في صياغة الذهب والفضة صوراً وتماثيلا غاية في الدقة والجمال. وبعد ذلك استطاع النبوغ في صناعة التماثيل من الحجر والبرونز، وقد عاش في روما وباريس حيث دعاه فرانسوا الأول ليعمل عنده، وقضى الشطر الأخير من حياته في وطنه فلورنسا، وله مؤلفات في الفنون التي مارسها، وله كتاب ضمنه مذكرات عن حياته الحافلة بالحوادث وعلى إحدى هذه الحوادث قد بنيت القصة التالية)

. . .الرجوع إلى الباطل، خير من التماديفي الحق

ذلك هو الدرس القاسي الذي ألقاه القضاء الساخر والقدر الجائر على فنان فلورنسا العظيم بنفنيتو، تشليني، في يوم بدأ ضاحكا وانتهى عابسا متجهماً. . .

ذهب الفنان إلى الحجرات الخاصة في قصر دوق فلورنسا، ليشرف على الأعمال الفنية التي كلف القيام بها: من تزويق وتنميق في الجدران والاثاث، وتحلية بالذهب والفضة، ومن نقوش بديعة وتماثيل بارزة. . . ولم يكن في فلورنسا كلها فكر ابرع، ولا يد اقدر من فكر بنفنيتو تشليني ويده، ذلك الرجل الذي لم يكفه أن نبغ في صياغة الذهب والفضة والأحجار الكريمة، فآتى في هذا الضرب من الفنون بالرائع الساحر، بل أراد أن ينافس المثالين والنحاتين في صناعة التماثيل الضخام، ينحتها من الصخر أو يصبها من البرونز. فكان له ما أراد، وبات نابغة زمانه في الصناعتين الدقيقة والجليلة.

وكان يحلو لدوق فلورنسا أن يمر به وهو يتشغل وعماله في الجناح الخاص بقصر الأمير، فيتحدث إليه عن الفن وعن رجاله وأنصاره. ويناقشه في رأي ارتآه الفنان أو خطة أراد رسمها. وكان بنفنيتو حلو النادرة، سريع البادرة، في شئ من غرور النوابغ وغطرسة الواثق بنفسه.

وفي اليوم الذي نحن في صدده، جاء الدوق فتحدث إليه قليلا، ثم عاد لينظر في بعض أمور الدولة. . . وسألت الدوقة عن تشليني، فقيل لها انه جالس وحده يشرف على الأعمال

التي يقوم بها في جناح الأمير الخاص، فلم تمض لحظات حتى كانت الدوقة جالسة تتحدث إلى تشليني وتطري ما قام به من أعمال الزينة في قصر الأمير، ثم أرته عقداً من اللؤلؤ يشتمل على ثمانين لؤلؤة وقالت: أيعجبك هذا العقد؟ قال انه لعقد جميل يا مولاتي! قالت فأني أريد أن يشتريه الدوق لي. فلابد لك أن تقول له ما شئت في مدحه والإشادة بذكره، وان تبالغ في إطرائه ما استطعت إلى ذلك سبيلا. كان تشليني يظن أن الدوقة قد اشترت العقد وقضى الأمر. ولهذا بادر إلى مدحه وإطرائه، أما الآن - واللآلئ لم تشتر بعد - فقد رأى واجبا عليه أن يطلعها على ما يراه فيها من عيوب، ولم يكن في فلورنسا كلها اقدر منه على نقد الجواهر واللآلئ، ولا ابصر بمواضع العيوب منها.

فقال مولاتي! حسبت العقد ملكاً لك فبادرت إلى مدحه فإما وأنت تهمين بشرائه، فإني أرى لزاما علي أن أطلعك على ما به من عيوب بينة تحط من قدر هذه اللآلئ. ومن اجلها لا أستطيع أن أنصحك بالشراء.

قالت: لقد رضي التاجر صاحب هذه البضاعة أن يبيعنا إياها بستة آلاف دينار. ولو لم تكن تلك العيوب الطفيفة التي تذكرها لما رضي بأقل من اثني عشر ألفاً.

فجعل تشليني يبذل النصح الثمين. ويقول للسيدة الكريمة أن هذه اللآلئ لو كانت خالية من كل عيب، وبالغة أقصى غاية الكمال، لما جاز لأحد أن يدفع فيها اكثر من خمسة آلاف. فأما وقد اشتملت على هذه النقائص فأنها لن تساوي نصف هذه القيمة. وفوق هذا كله، فأن اللآلئ ليست كالأحجار الكريمة نفاسة وقيمة. إنما القيم النفيس هو الماس، والياقوت، والزبرجد، والعقيق، والفيروز، هذه هي الأحجار الكريمة التي تزداد على مدى السنينرونقا وبهاء. أما اللآلئ فليست سوى قطع من محار البحر، وعظام السمك، لا تلبث أن تفقد بهجتها ورونقها بعد سنين قلائل! لكن الأميرة كانت صلبة كصلابة الماس، وقد وطنت النفس على حيازة هذا العقد. وفي رأسها عينا امرأة قد بهرهما لمعان اللؤلؤ. فأوحتا إلى قلب المرأة الذي بين جوانحها، فإذا القلب قد اشتهى ذلك العقد، واتخذ لحيازته إرادة لا تثني، ورغبة لا تقبل الجدل، ورأى تشليني انه غدا بين نارين، فأما أن يغضب الأميرة أو يخدع الدوق. . .

فقالت له: هون عليك الامر، فانا الضمينة بأن الدوق لن يمسك بسوء، بل وستنال أجرك منى يوم تغدو هذه اللآلئ لي. وقد وطنت النفس على إحرازها. فاذهب بها الآن إلى الدوق. وأطنب في مدحها ما استطعت.

كان من اكبر ما يفخر به تشليني الصراحة والأمانة، ولقد طالما جنيت عليه الأولى، وأفقدته الثانية شيئاً كثيراً من المكسب والمغنم؛ ومن قبل ما جنت عليه صراحته يوم كان في بلاط فرنسوا الأول ملك فرنسا. فرأى نفسه فجأة وقد غضبت عليه مادام (ديتامب) معشوقة الملك، أصبحت له عدوا عنيدا، لا تجدي مع عدواتها صداقة أحد، حتى ولا صداقة الملك نفسه. . . فلم يلبث أن اضطر إلى مغادرة اكبر ملوك العالم أغناهم وأسخاهم. والآن أيغضب الدوقة العظيمة، دوقة فلورنسا! من اجل كلمة تريد

أن يقولها، فيرتكب في فلورنسا - وطنه العزيز - ما ارتكبه في فرنسا من قبل؟ ويفقد ما ناله في قصر الدوق من حظوة ومن مقام رفيع؟

تناول العقد، ومشى به إلى الدوق - وقد عزم على أن يقول كلمات قلائل يمدح بها العقد، ولعل الدوق أن يغفر له هذه الخطيئة من اجل الأميرة. . فلما رآه الدوق قال - ما الذي جاء بك يا بنفنيتو؟ قال - عقد جميل من اللؤلؤ أردت أن انصح مولاي بشرائه فأني ما رأيت عمري ثمانين لؤلؤة كريمة قد نظمت في عقد بمثل هذا الحسن الباهر، وهذا التنسيق البديع.

قال الدوق - ما أنا بالذي يشتري لآلئ مثل هذه، فلقد رأيتها من قبل، فلم يرقني منظرها ولا حسنها. وما هي بالنادرة كما تزعم ولا النفيسة!

قال - عفواً يا مولاي! أنها وأيم الحق دررغوال، ولا أعرف أن عينا رأت عقداً منظوما كهذا العقد، حوى دررا كهذه الدرر! قال الدوق - والله يا بنفنيتو! لو إن هذه الدرر من النفاسة بحيث تذكر لما ترددت في شرائها؛ فإنني في حاجة أبداً لإحراز هذه الجواهر الثمينة، حبا في إحرازها، وإرضاء للأميرة زوجي، ولكي تكون هذه الكنوز ذخراً لأبنائنا وبناتنا، وأنا اعلم انك ابصر الناس بهذه الأمور، وأن عينك لن تخطئ في نقدها وتقديرها. كذلك اعلم انك رزقت الصراحة في القول، والأمانة في النصح، فاصدقني الخبر، ولا تخشى بأسا! هل تنصح لي حقاً بشرائها؟

أصغى تشليني إلى كلمات مولاه، فكأنما سقط عن كاهله عبء ثقيل. لقد كان يمدح تلك اللآلئ بلسانه ويلعنها بقلبه. وكان يعلم وهو يطريها أن هذا المدح يذري به كفنان له رأيه السديد في تقدير الجواهر، ويذري به كرجل أتخذ الأمانة والصدق شعارا. لهذا انكشفت عنه الغمة حين سمع الدوق يناشده الصدق والصراحة، وقال: أني لأخشى يا مولاي - إن صدقتك الخبر عن هذه اللآلئ - أن يشتد علي غضب مولاتي الدوقة، وتصبح لي من ألد الخصوم، فاضطر إلى مغادرة فلورنسا - وطني المحبوب - مرة أخرى. واليوم قد تقدمت بي السن فأن مغادرة الوطن علي شئ عسير. فاستحلف مولاي أن يحميني سخطها؛ إذا لم يضمن لي رضاها! ولقد وعدتني مائتي دينار إن أنا استطعت إقناع مولاي بشراء تلك اللآلئ. وقد كان خوفي من غضبها اكبر من طمعي في جائزتها. أما الآن وقد ناشدني مولاي الصدق، فإني لا يسعني إلا أن اخلص في النصح: إن شراء هذه اللآلئ بذلك الثمن صفقة خاسرة. فإنها لا تساوي اكثر من ألفي دينار؛ فإذا كان لا بد من شرائها فلا يدفع الأمير فوق هذا القدر درهماً واحداً.

قال الدوق - كن مطمئناً! إن الدوقة لن تعلم شيئا مما قلته لي الان، ولن يمسك منها أذى. وسأذكر لك أبداً هذا الإخلاص في النصيحة!

عند ذلك دخلت الأميرة؛ وقد ظنت أن قد مضى من الزمن ما يكفي لإقناع زوجها بشراء العقد. وأن قد آن لها أن تضم صوتها إلى صوت الفنان فقالت:

- عسى أن يكون مولاي قد راقه هذا العقد النفيس فأنه قلما وقعت عين على عقد يضاهيه حسنا ورونقا، وما اشد رغبتي في اقتنائه وادخاره!

- لست ارغب في شرائه.

- لماذا يضن علي أميري الكريم بهذا العقد الثمين؟

- لأني لا أريد أن تذهب أموالي هباء.

- أيظن مولاي إن أمواله تذهب هباء، حين يقتني بها درراً غالية كهذه الدرر التي قل ان يكون لها في العالم نظير؟ كيف وان بنفينتو نفسه - الذي يضع فيه مولاي بحق كلثقته - قد رآها فبهرته وسحرته، وقال إن الأمير لو دفع في هذه اللآلئ ستة آلاف دينار لكانت صفقة رابحة.

قال الدوق: إن بنفينتو لم يقل شيئا من هذا. بل لقد ذكر لي الساعة إنها لآلئ خسيسة؟ وان شراءها مضيعة للمال. انظري أنت إليها! إنها ليست مستديرة، وليست متساوية في أحجامها. وكثير منها قديم فقد الرونق الحسن. تأملي في هذه. . . وهذه. . . كلا. . أني لن ارمي بأموالي من اجل هذه السفاسف.

دهش تشليني حين سمع الدوق يخاطب زوجه بهذه الصراحة ويفشي لها سره، ولم تمض لحظات على ائتمانه عليه.

ونظرت إليه الدوقة نظرات تلتهب فيها نار الغيظ. ثم خرجت من الحجرة وهي تهز رأسها هزة الثائر المتوعد. فاستولى الرعب علىالفنان وجعلت الحجرة تدور أمام عينيه. وكاد ان يغشى عليه.

وعاد في ذلك المساء إلى داره مهموما منكس الرأس. . . وقد هم ان يعد العدة لمغادرة فلورنسا ليلتمس الرزق في غيرها من المدائن. . . ولكنه رأى أعماله التي اخذ ينشئها، وعز عليه أن يتركها لتهمل وتنسى. أو ليتناولها أعداؤه بالمسخ والتشويه. وعز عليه خاصة ذلك التمثال الضخم الذي أوشك أن يتمه، والذي يمثل فرساوس قابضاً على رأس الميدوزا - وهو يعد اليوم من أبدع مخلفات عهد النهضة - اجل، عز عليه أن يترك أعماله هذه التي يوشك أن يتمها. ويوشك أن يزداد بها صرح الفن علواً وشموخا.

لو إن هذا الحادث جرى له في شبابه لبادر إلى مغادرة المدينة في ساعته تلك، أما اليوم وقد نيف على الخمسين فقد رأى ان يتريث قليلا، لعل الدوق أن يستطيع حمايته ونصره، وان يصلح ما بينه وبين الأميرة.

وفي اليوم التالي غدا تشليني إلى قصر الدوق لعله يلقاه كسابق عادته. ولكنه لم يكد يبلغ القصر، حتى لقيه اعوان الدوقة، واضطروه لان يعود أدراجه بعد أن نال منهم شئ كثير من الإهانة والعنت. واضطر الفنان ان يلزم داره أياما لا يكاد يجرؤ على مغادرتها.

ومن قبل كان الدوق يأمر حجابه بأن يفتحوا له أبواب القصر في أي وقت شاء، وألا يحولوا بينه وبين الأمير. أما اليوم فان الدوقة قد أمرت بعكس هذا. وأمرها النافذ . . .!

وزار تشليني أحد الأصدقاء، فأنبأه بان الدوق قد اشترى ذلك العقد! اجل، ولقد دفع فيه ستة آلاف من الدنانير الذهبية راضيا طائعا. . . ذلك أن الدوقة حين أعيتها الحيل. أمسكت العقد بيدها، وجثت بين يدي زوجها، وتناثرت من جفونها دررغوال كانت اكثر بهاء واشد

وقعاً في نفس الأمير من درر ذلك العقد! وقالت له وهي تنتحب، إنها إذا حرمت ذلك العقد فقد حرمت كل سعادة، وقد كتب عليها الشقاء والذل مدى الحياة. وسيعلم الناس جميعاً أن الأمير زوجها العزيز، وسيد أمراء إيطاليا، الذي تفتديه بروحها، قد بخل عليها بعقد من اللؤلؤ. وإنها لن تطيق الحياة متى علم الناس بما هي فيه من هوان وبلاء!. . . عند ذلك أمر الدوق - لساعته - بشراء تلك اللآلئ. . . ولم يكد يفعل حتى رقا دمع الأميرة أبرقت اساريرها، وابتسمت عن لؤلؤ آخر، كان فيه للملك خير عوض عن اللؤلؤ الذي اشتراه.

ومضى تشليني إلى القصر، وهو لا يكاد يصدق ما سمعته أذناه. فراه الدوق مقبلا، فأمر بان يؤتى به إلى حجرته. فلما مثل بين يديه، قال من غير تلطف ولا مجاملة:

ويحك يا بنفنيتو أيها الشقي! كيف بلغت بك الجرأة أن تغضب الدوقة مولاتك، التي طالما أيدتك ونصرتك؛ فجعلتي اعرض عن شراء تلك اللآلئ النفيسة! يالك من شقي لا يعرف معنى للوفاء والإخلاص! اذهب أيها التعس الآن إلى حجرة الأميرة، واجث على قدميك بين يديها. واسألها الصفح والمغفرة عن جريرتك. وارجع إلى الحق أيها الجاهل. فان الرجوع إلى الحق فضيلة. . . وعساها تصفح عنك وتعفو عن خطيئتك!

وفتح تشليني عينين ملؤهما الدهشة والحيرة

- مولاي أي حق. . .!

- لا تنبس أيها الشقي بكلمة. واذهب الساعة فافعل ما أمرتك به. ومضى تشليني مطرقاً برأسه يمشي في بطيء شديد ليلتمس من مولاته الصفح. لان الرجوع إلى الحق فضيلة. . .!؟

أزمة الديمقراطية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

هل آن لشمس الديمقراطية أن تغرب؟ هذا سؤال يطرح منذ أعوام في معرض البحث والجدل، ولكنه يغدو اليوم اشد خطورة، ويشغل جميع الأذهان والضمائر الحرة:

فالنظم الديمقراطية تتحطم تباعا في أمم كانت بالأمس اشد الأمم تعلقا بالنظم والمثل الديمقراطية، والحكومات الدستورية تختفي. تباعا من الميدان لتقوم مكانها حكومات طغيان شامل، والحريات السياسية والاجتماعية القديمة تخنق وتختفي لتستأثر بها وتتصرف فيها أحزاب وجماعات سياسية جديدة تقوم مبادؤها ودعوتها على القوة القاهرة، والديمقراطية تهتز اليوم حيثما استطاعت أن تبقى وتتسرب إليها

عوامل الوهن والفساد: فهل يكون ذلك إيذانا بأن صرح الديمقراطية غدا على وشك الانهيار، وان الديمقراطية تسير إلى مصرعها النهائي في المستقبل القريب؟ هذا ما يتنبأ به أصحاب النظريات والمثل الجديدة القائمة على الطغيان الشامل، والقومية المتطرفة، وإنكار النظم البرلمانية، وخضوع الفرد المطلق، والإيمان بالقوة المادية: أو بعبارة أخرى هذا ما يقوله دعاة الفاشستية والوطنية الاشتراكية الألمانية.

والحقيقة أن الديمقراطية تجوز اخطر أزمة عرفت في تاريخها. ويجب قبل كل شئ أن نعرف الديمقراطية بإيجاز، فهي في الأصل كلمة يونانية معناها (قوة الشعب)، وهي مبدأ سياسي اجتماعي يقوم على المساواة التامة بين الأفراد في الحقوق والواجبات، وغايتها الجوهرية أن يشترك الشعب كله في إدارة الدولة أو بعبارة أخرى أن يحكم نفسه بنفسه: والنظم البرلمانية اظهر وسائلها لتحقيق هذه الغاية. والديمقراطية الأوربية الحديثة ترجع إلى الثورة الفرنسية. ولكنها لم تستطع ثباتا في البداية، واستمرت نحو نصف قرن تناضل في سبيل مثلها، ولم تتوطد وتزدهر إلا في أواخر القرن التاسع عشر، بيد إنها لم تتقدم إلا في غرب أوربا. أما في شرق أوربا ووسطها، فقد كانت الملوكيات القديمة في روسيا وتركيا والنمسا والمجر وألمانيا تطاردها وتخمد مثلها بكل ما وسعت. ثم كانت الحرب الكبرى، فانهارت الملوكيات القديمة الطاغية، وقويت المثل والمبادئ الديمقراطية، وظفرت الديمقراطية، بإقامة نظمها في الجمهوريات الجديدة الفتية في روسيا، والمانيا، والنمسا، وتشيكوسلوفاكيا، وبولونيا. أما اليوم فماذا بقي لها من هذا الظفر؟ لقد كان ظفر الديمقراطية في روسيا كالبرق الخلب، وكان اسماً بلا مسمى فلم تمض اشهر قلائل حتى قام طغيان البلشفية مكان الطغيان القيصري القديم، يخمد جميع الآراء والحريات الخصمية؛ ولم تثبت الديمقراطية طويلا في بولونيا، حيث وثبت العسكرية وفرضت سلطانها على الجمهورية الجديدة، واتخذت من الحياة النيابية ستارا تملي من ورائه إرادتها. أما في ألمانيا والنمسا فقد استطال هذا الظفر أعوام طويلة؛ واستطاعت الديمقراطية أن تنشئ الجمهورية الألمانية مكان الإمبراطورية القديمة، وان توطد دعائم الحريات الديمقراطية، وان تقود مصائر الشعب الألماني خلال الأزمات والخطوب التي تعاقبت من جراء الحرب والهزيمة مدى أربعة عشر عاما، ولكنها سقطت أخيرا صرعى الاشتراكية الوطنية والطغيان الهتلري، ومهدت لمصرعها بخلافها الداخلي؛ ومنذ أسابيع فقط لقيت مصرعها في النمسا بعد أن أقامت فيها الجمهورية، وتولت حكمها وقيادتها في أعوامها الاولى، ولبثت خمسة عشر عاما قوية مرهوبة الجانب. وإما في إيطاليا التي تمتعت منذ وحدتها بالحريات الديمقراطية في ظل الملوكية الدستورية، فقد غاضت الديمقراطية عقب الحرب بضربة سريعة، وقامت فيها الفاشستية منذ اثني عشر عاما تخمد كل الحقوق والحريات القديمة، وتتحدى الديمقراطية في العالم كله، وتنوه بقواها السياسية والاجتماعية، وتسير في ميادين السياسة والاقتصاد من ظفر إلى ظفر، وتقدم القدوة والإرشاد لكل نزعة أو حركة طغيان مماثلة.

فالديمقراطية تجوز في الواقع مرحلة عصيبة ربما كانت نذير انحلالها ومصرعها النهائي. بل إنها في البلاد التي ما زالت فيها راسخة وطيدة الدعائم تتخبط في غمار من الصعاب؛ وتفسح بأخطائها وعثراتها لخصومها مجال الاتهام والانتقاص. ففي فرنسا، مهد الديمقراطية الحديثة، تشتد الحملة على النظم الديمقراطية والحياة النيابية لما كشفت عنه الفضائح المالية الأخيرة (فضائح ستافسكي) من فساد شنيع يتغلغل في صميم الحياة العامة، ويصم الحكومات الحزبية والهيئات النيابية بتهم الرشوة واختلاس أموال الشعب، ويصم القضاء والبوليس بفساد الذمة والتستر على الجناة؛ ويقول خصوم الديمقراطية من الملكيين والفاشست، إن مثل هذه الجرائم لا يمكن أن ترتكببمثل هذه الجرأة وهذا الإغراق إلا في ظل الحياة السياسية الحزبية وفي ظل نظام تكسب فيه النيابية عن الشعب بقوة المال والنفوذ، وغدت فكرة الدكتاتورية من الحلول المحتملة التي تطرح اليوم في فرنسا كوسيلة لانتشالها من هذه الفوضى، وغدت هيبة الديمقراطية هدفا لأشد الحملات. وفي إنكلترا اعرق الأمم الأوربية في النظم والحريات الديمقراطية، يهمس اليوم بكلمة الدكتاتورية، وتلقى المبادئ الفاشستية قبولا من الشباب الإنكليزي، ويوجد اليوم

في إنكلترا بالفعل حزب فاشستي صغير لم يحرز بعد أهمية سياسية، ولكنه يعتبر رمزاً حياً لأثر الفاشستية في إنكلترا. ولم تحرز الديمقراطية في الأعوام الأخيرة إلى جانب هذه الأزمات والخطوب أي ظفر أو تقدم حقيقي إلا في أسبانيا، حيث سقطت الملوكية القديمة، لتقوم مكانها جمهورية جديدة مشبعة بأبعد المثل والأمانيالديمقراطية: بيد ان الجمهورية الفتية ما زالت تعاني صعابا وأزمات تكاد تصدع بناءها فماذا يكون مصير الديمقراطية إزاء هذه الخطوب؟ يقول أنصار الفاشستية والطغيان أن الديمقراطية لا تستحق الحياة لأنها برهنت منذ الحرب أنها ليست أهلا لحكم الشعوب في ظروفها واتجاهاتها الجديدة، وأنها دفعت الحريات السياسية والاجتماعية إلى حدود الفوضى، وسخرت الشعوب لاهوائها؛ وان الحياة البرلمانية أصبحت مظهراً من مظاهر التمثيل النيابي، ولا تعبر عن إرادة الشعب الحقيقية، وإنها تغدو في كثير من الأحيان عقبة في سبيل الأداة الحكومية تمنعها من العمل المجدي. وقد يجد أنصار الفاشستية في تاريخ الحكومات الديمقراطية ما بعد الحرب كثيراً مما يؤيد هذه التهم، ولكنهم يخلطون دائما بين المبادئ والديمقراطية وبين الصور المختلفة التي تطبق بها هذه المبادئ. فهذه المطاعن قد تلحق بعض النظم ووسائل الحكم التي تقوم على الفكرة الديمقراطية، ولكنها لا يصح ان تنسب إلى الفكرة ذاتها، وإذا كانت الأحزاب والحكومات الديمقراطية قد ارتكبت كثيراً من الأخطاء في ألمانيا وإيطاليا، وإذا كانت توصم اليوم في فرنسا بكثير من العيوب والتهم، فإنها ما زالت في إنكلترا والسويد مثلا تعمل في ظل الملوكية بقوة وبراعة وتدلل على أنها امثل طرق الحكم المستنير العادل. والفاشستية لا يمكن أن تزعم أنها بريئة من العيوب، فهي أولاً ابعد صور الحكم عن تحقيق العدالة وصون الحرية، لأنها تقوم على القوة المادية ولا تعف عن ارتكاب أشنع وسائل العنف تحقيقاًلسيادتها، ويكفي ان نسير في ذلك إلى ما ارتكبه الفاشستية الإيطالية في أعوامها الأول من الجرائم والاعتداءات المثيرة، وما استعمله من وسائل البطش والإرغام قبل أن تثبت أقدامها وتفرض إرادتها على الشعب الإيطالي، ويكفي أن نستعرض ما ارتكبه الاشتراكية الوطنية الألمانية مذ ظفرت بالحكم من ضروب السفك والعنف والانتهاك والمطاردات السياسية والدينية الوضيعة، لتفرض مبادئها وإرادتها على الشعب الألماني، وهذه الوسائل الهمجية التي تلجأ إليها الفاشستية دائما في تحقيق سيادتها حيثما استطاعت أن تشق طريقها لا يمكن أن ترتفع من الوجهة المعنوية إلى مستوى المثل الرفيعة والوسائل السلمية الحرة التي تقوم عليها الديمقراطية وتعمل في ظلها. وما يلاحظ إن الفاشستية شعوراً منها بهذا الضعف المعنوي تحاول أحياناً أن تستتر وراء بعض المظاهر الديمقراطية، فنرى الفاشستية الإيطالية مثلا تحتفظ بالبرلمان حينا وتبقى على بعض صور الحياة النيابية، وتستخدم فكرة النقابات؛ ونرى الفاشستية الألمانية (الاشتراكية الوطنية) تجري الانتخابات وتتظاهر باستفتاء الشعب في الحصول على تأييد أغلبيته الساحقة لتحقق بعض أغراضها السياسية. وقد تتفوق الفاشستية على الديمقراطية أحياناً بالعمل السريع وتحقيق بعض المظاهر والغايات السياسية والاقتصادية التي عجزت الديمقراطية عن تحقيقها، كما حدث في إيطاليا مثلا حيث حققت الفاشستية الإيطالية كثيراً من الأغراض والنتائج العملية القيمة، ولكن هذا النجاح المادي يحقق في معظم الأحيان على حساب الحريات والحقوق الشعبية، وليست وسائله مما يحمد دائماً.

لقد انتصرت القوى الرجعية على الديمقراطية في إيطاليا وألمانيا والنمسا: وقد تنتصر في غيرها غدا، وربما بقيت الديمقراطية أعواما أخرى تعانيالضعف والانحلال. ولكن هذه الفوضى الرجعية لا تقوم على مثل راسخة، ولا تستمد بقائها إلا من القوة المادية وهي في الغالب وليدة ظروف وعوامل مؤقتة، فمتى تطورت هذه الظروف والعوامل فقدت أسباب الحياة ,. والتاريخ يعيد اليوم نفسه في أوربا القديمة. ففي أوائل القرن الماضي، على اثر انتهاء الحروب البونابارتية، اجتمعت كلمة العروش الأوربية القوية على سحق جميع النزعات والحركات الحرة، والتمست لذلك عقد محالفة عرفت بالمحالفة المقدسة (أواخر سنة 1815) عقدت بين قياصرة روسيا وألمانيا والنمسا، واتخذت في المبدأ صبغة ميثاق للعمل على تأييد السلام، وإقامة العدل، وبث الإخاء،

ولكنها نظمت وعقدت في الواقع للتعاون على إخماد الحركات الحرة التي آخذت تضطرم من غرب أوربا إلى شرقها، وتبدو
في مطالبات عنيفة بالحريات الدستورية. وكانت الحروب البونابارتية قد شغلت أوربا حينا عن التفكير السياسي وخبت الريح الحرةالتي إثارتها مبادئ الثورة الفرنسية، ولكن الجيوش الفرنسية الغازية كانت تحمل أينما حلت طرفا من هذه المبادئ، فلما هدأت العاصفة التي أثارها نابليون، عادت الأفكار الحرة والأماني الدستورية تشق سبيلها في معظم الأمم الأوربية، ومن ثم كان اجتماع العروش القديمة على مقاومتها وسحقها. وقد انظمت معظم الدول الأوربية إلى المعاهدة المقدسة، وطبقت غير بعيد في ألمانيا والنمسا حيث قيدت حرية الصحافة، وفرضت الرقابة الرسمية على الجامعات، ولكن هذه الجبهة القوية التي نظمها الطغيان لمقاومة الحريات الشعبية لم تغن شيئاً، ولم يمض ربع قرن آخر حتى كانت معظم الدول الأوربية تضطرم بالفورات والثورات التحريرية، وكانت القوى الرجعية ترغم بذل المنح الدستورية المختلفة. وقد استمر هذا الصراع بين الطغيان والديمقراطية طوال القرن التاسع عشر، وانتهى بظفر الحريات في معظم الأمم الأوربية.

ونحن اليوم نشهد هذا الصراع كرة أخرى. ولكنه يتخذ اليوم صورة جديدة. فالقوى الرجعية لا تستند اليوم إلى العروش والحق الالهي، ولكنها تتشح بأثواب شعبية، فالفاشستية تزعم في إيطاليا وألمانيا أنها تقوم بإرادة الشعب وتسير طبقاً لها؛ وتخشى أن تبدو مجردة في ثوبها الحقيقي؛ وهذا دليل على أنها رغم ظفرها المؤقت ما زالت تخشى قوة الديمقراطية الخفية. ونحن ما زلنا نؤمن بمستقبل الديمقراطية وقوتها. وإذا كانت الديمقراطية قد استطاعت أن تصمد طوال القرن الماضي لجميع القوى الرجعية التي هاجمتها وقاومتها مع أنها لم تكن قد استكملت يومئذ كل نموها وقوتها، فأنها اليوم قد رسخت مبادؤها ومثلها في جميع الأمم الأوربية وأقامت لها صروحا قوية شامخة، وأضحت قوام الحياة العامة في كل بلد، لا يمكن أن تستكين طويلا إلى عدوان الطغيان، ولا بد ان تنهض غير بعيد من عثرتها، وتستعيد كل قوتها وسلطانها، يوم تنفض عنها غبار هذه المفاسد الشكلية التي أسبغت ريبا على هيبتها، ويوم تنبذ ذلك الخلاف الذي فت في قواها ومكن لخصومها.

محمد عبد الله عنان

مضى عام

للآنسة سهير القلماوي

تسارعت الأيام في سيرها الآلي المنظم السريع. الأيام الطويلة المملة، والأيام القصيرة الطائرة، كلها غرقت في بحر الفناء على ألا تعود. وانقضى العام فإذا الذكرى تتهادى حتى تقف أمامي، ثم تمد يدها لتأتي بأجزائهاالمنزوية في مخيلتي تستكمل بها صورتها المؤلمة. فإذا الصورة هي هي كما كانت منذ عام، وإذا الألم لها وان خففه سلطان الزمان الذي لا يقهر، إلا انه ما زال لاذعاً مذهلا عن كل شئ سواه.

كان صباح العيد منذ عام، فاجتمع أفراد الأسرة كلهم في بيت الوالدين، اجتمع الأخوات والاخوة، والأزواج والأولاد والأخوال والأعمام، واصطفوا جميعا على مائدة الإفطار، وكلهم وجوههم مشرقة مستبشرة. وكانت هي بينهم - ومتى لم تكن بينهم ولو بجسدها - ولكنها كانت تفكر وتقدر. تضحك معهم وتبتسم لابتسامهم، ويشرق وجهها لإشراق وجوههم: ولكن نفسها كانت تتألم يائسة، وعقلها مرتبك، يقدر ويفكر، ويقرر وينثني عما قرر، ثم يعود فيقرر ثانية، فإذا القرار هو هو. وتقلب الاحتمالات والمنتظرات، تستعرض في خيالها الساعات المقبلة، وقد نظمتها حسبما ظنت ان ستكون. ماذا لو نفذت قرارها؟ ثم تعود فتنثني عنه من جديد؛ لم يرقها ما قدرت، ولكن أي مخلص غيره؟ وأخيراً، لا بد من القرار الأول، لابد منه.

لم يلاحظ عليها الحضور شيئاً، فقد كانت الحركة التي تأتيها في رواحها ومجيئها لخدمتهم - لان أمور المنزل أصبحت كلها لها بعد زواج أختها - التي كانت تساعدها كثيراً على إخفاء ما بها. وانتهى الإفطار فانتشروا في الدار، وأصوات الأطفال المرحة الصاخبة تملأ إسماعهم. وانتهزت هي الفرصة وصعدت إلى حجرتها. خافت أن تعود إلى التفكير فترتبك من جديد، ولقد سئمت الحيرة ولا بد ان تنجو منها، لقد كانت تلهب رأسها.

وصعدت وراءها أختها تناديها، ونادتها فإذا بها قادمة نحوها تصرخ وتتأوه، ووجهها اغبر قاتم، وجسمها يتلوى من الألم، ويداها على معدتها تضغطان بعصبية وتقلص، فصاحت أختها ما بك! ما بك؟ وضمتها إلى صدرها تسندها من الوقوع فوقعتا على الدرج معا. وهزتها ثانية ما بك؟ فتمتمت بصعوبة مريرة متألمة (شربت سما).

كلمتان هما آخر ما نطقت، كلمتان قلبتا العيد مأتما، كلمتان حولتا شابة مليئة بالحياة والنشاط إلى جثة هامدة لا تحس ولا تشعر واجتمع الأهل والصحب والخلان حول ضحية العيد، منهم من أسعفه البكاء فبكى، ومنهم من حيرته الفاجعة فذر بلسانه بأسبابها وصاح يستلهم الجثة جواباً عما حير فكره وصدع قلبه. ومنهم من وجم يستعرض في وحدته صورا تتتالى فلا تشعر ارتباطا في تتاليها ولا أثراً لمرورها في مخيلته. وأخيراً منهم من اختل توازن أعصابه وفقد القدرة على حكمها، فراح لسانه ينطق بكل ما يمر في خاطره المضطرب المحموم وفي الصباح جاءتها صديقاتها بورودهم البيضاء وكأنهم آتون لعرسها، ثم أودعوها حفرة ضيقة وعادوا جميعا وكل منهم يظن انه في حلم مروع يتلمس اليقظة منه فلا يصحو. ومتى كانت الحياة إلا رؤى تتتابع! رؤى نراها أفرادا فنختلف في حقيقتها، ورؤى نراها جماعة فنجمع على حقيقتها؟ أودعوها حفرتها، أودعوها سرى معها، ولكن متى دخل لسان الناس أفواههم؟ متى استراح لسان الناس في اشد المواقف استدعاء للاستراحة؟ هل احترموا جلال الموت؟ هل خشعوا أمام فجيعة مريرة للأسرة بأجمعها؟ كلا! لم يخلق اللسان إلا للكلام، فإذا سكت لم يحقق الغرض من خلقه، وإذا لم يحقق جزء من المخلوقات الغرض من خلقه فقد اختل نظام الكون كله!

وفي العيد تجتمع الأسرة لا على مائدة الإفطار وإنما حول قبرها في مدينة الأموات الهادئة، وهناك تناديها فلا تجيب كما كانت تفعل منذ عام، وهناك تبكيها فلا تشاركها شعورها كما شاركتها الابتسامة والفرح منذ عام، وإنما ترفرف روحها من عليائها رائحة غادية لا ترتبك ولا تضطرب، فليس لديها ما تخفيه وقد حجبها الفناء بأستاره الكثيفة المظلمة.

سهير القلماوي

التطور وروح الدين

للأستاذ محمود الشرقاوي

إنا وجدنا الشارع قاصدا لصالح العباد. والأحكام العادية تدور معه حيثما دار. فترى (الشيء الواحد يمنع في حال لا تكون فيه مصلحة. فذا كان فيه مصلحة جاز (الشاطئ)

لكل دين من الأديان روح تسيطر على مجموعة، وتتمشى في أصوله وفروعه. وتميز دعوته وتربط أحكامه جميعاً، وتساوق بين أجزائه وتوجه تيارها إلى غاية خاصة، والإسلام يمتاز من جميع الأديان بأنه دين عام خالد لا دين بعده ولا رسالة. فهو لذلك قد جمع الله فيه كل ما تحتاج إليه البشرية من الأصول لجميع ظروفها وأحوالها وأزمانها وأماكنها، والحياة البشرية متغيرة سريعة التحول والانقلاب والسير في طريق التطور من حال إلى حال ومن قديم إلى جديد، وبالأخص في عصرنا هذا الذي تضاعفت فيه سير الحضارة، واختلطت الشعوب والأفكار واستولى على الإنسانية كلها ما يشبه الحمى في سرعة التحول والانتقال

فهل روح الإسلام وغايته العليا تعارض سير الحضارة وتقدم العالم؟ وتلزم البشرية بالوقوف عند حال واحد لا تتعداها إلا إذا تركت الدين واستعاضت عنه بأشياء مدنية لابد منها لاستكمال الحياة البشرية واطراد السير فيها والتطور من حال إلى حال؟ أم أنافأجيب بان الإسلام لا يتعارض بتاتاً مع سير البشرية وتحولها. وانه دين لين واسع الافق، نستطيع ان نوفق بين روحه وبين كل مظهر من مظاهر الحضارة، وان تجد في نصوصه ما يساير الأطوار المختلفة التي تتخطاها البشرية في عصورها المتباينة، وهذا ما أريد أن اكتب عنه في هذا الفصل،

ويجب أن نلتفت إلى الفرق بين (روح) الدين وغايته. وبين أحكامه الفرعية وتطبيقها، والفرق بين الدين كشعور وعقيدة وإيمان، والدين كتقاليد وأشخاص دينيين ومظاهر كنسية للحكم والسيطرة. فروح الدين وجوهره هو الشيء الخالد الباقي الذي لا يتعارض مع أي عصر. والذي تجد فيه كل حضارة وكل أمة في كل زمان ما يتفق مع

احتياجاتها ويعينها ويسددها في سبيل الغاية العليا والكمال البشري الذي تسير إليه، روح الدين وجوهره هو
الشيء لذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.
وعلى هذا الفهم نستطيع ان نجد في نصوص الدين الإسلامي وفي تاريخه أشياء تؤكد لنا انه دين يستطع أهله أن يجدوا فيه كل ما يتفق مع مظاهر الحضارة التي تغمرهم وتجذبهم إليها وتستولي عليهم وعلى جميع الدنيا طوعاً أو كرهاً.
وهذه أشياء اذكرها تؤيد ما أقول وتفصح عما أريد:
هذه المسايرة للزمن، وتطبق الأحكام على ملائمات الأحوال والظروف واختلافاتها. مع المحافظة على جوهر النصوص وروح الدين. نجدها عند شخصيات في قلوبها بصيرة للوقوف على مراميها أدراك الغاية منها وعدم التقيد بحرفيتها، ونجدها في بيئة تختلف عن البيئة التي عرفنا فهمها لهذه النصوص ودرسنا ما قالته فيها وما استرشدت فيه بحاجاتها العقلية والمدنية ومميزاتها الجغرافية والتاريخية.
فمثلا إذا كنا في عصر هين لين نحتاج فيه إلى زيادة الإنجاب والنسل، نجد روح الإسلام ما يشجعنا على التكاثر والتناسل والنماء. وان كنا في عصر عسير محرج ضيق نحتاج فيه القصد في الإنجاب والالتفات فيه إلى الكيفية لا إلى الكمية. فنجد من روح الإسلام ما يجعلنا نخفف من نسلنا ونتقلل على ما نريد. بل نمتنع منه إذ نريد نجد صحابيا جليلا وحاكما قادرا يبيح لنا التقليل من النسل. بل يوشك أن ينهانا عن العيال: (يا معشر الناس: إياكم وخلالا أربعة، فأنها تدعو إلى النصب بعد الراحة، وإلى الضيق بعد السعة، وإلى المذلة بعد العزة، إياكم (وكثرة العيال) وإخفاض الحال. . . الخ).
وإذا كنا في عصر يتشدد أهله في علاقاتهم الزوجية ولا يمتهنون رباط الأسرة، ويعرفون ان ابغض الحلال إلى الله الطلاق، فنحن نستطيع ان نجد في أحكام الإمام والخليفة عمر بن الخطاب ما يجعل الطلاق الثلاث بلفظ واحد يقع ثلاثا، وإذا كنا في عصر مثل عصرنا الحاضر وهنت فيه العلاقات الزوجية واضطرب رباطها وأصبحت ألفاظ الطلاق على كل لسان، فنحن نستطيع ان نجعل الطلاق الثلاث بلفظ واحد يقع طلقة واحدة، ونجد في نصوص الإسلام ما يتيح لنا ذلك كما وجدنا ما أباح لنا الأول: كان الطلاق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر الصديق وسنتين من خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة، فقال عمر بن الخطاب: ان الناس قد استعجلوا في أمر قد كانت لهم فيه أناة. فلو
أمضيناه عليهم؟ فأمضاه عليهم) وهذا ما فعلناه نحن في مصر،
وإذا كنا في إقليم وفي مجتمع يلزمنا عمرة خاصة للرأس. وكان غيرنا من المسلمين في إقليم أو مجتمع يلزمهم عمرة للرأس خاصة غير عمرتنا، أو يجعلهم يسيرون حاسرين، تجد من روح الإسلام ما يجعلنا نلبس ما نشاء. ويجدون هم من روح الإسلام ما يجعلهم يلبسون ما شاءوا أو يحسرون كما يشاءون: (كل ما شئت واشرب ما شئت ما اخطأتك اثنتان: سرف أو مخيلة)
الإمام الشاطئ من اعلم الرجال في أصول الدين. ومن أبرعهم وأوسعهم ذهنا في تطبيق النصوص الدينية والموازنة بينها وبين الأحوال. وله كلام يجب على كل رجل من رجال الدين ان يتدبره ويعتبره، لما يدل عليه من فهم جيد لروح الإسلام ومسايرته لكل عصر وكل حضارة. وطواعية أحكامه ونصوصه لان توافق كل حضارة وكل جيل.
يقول الشاطئ: (. . . والسكوت عنه من الشارع لا يقتضي مخالفة. ولا يفهم الشارع قصداً دون ضده وخلافه فإذا كان كذلك رجعنا إلى النظر في وجوه المصالح. فما وجدنا فيه مصلحة قبلناه أعمالا للمصالحالمرسلة. وما وجدنا فيه مفسدة تركناه أعمالا للمصالح أيضاً. وما لم نجد فيه هذا ولا هذا فهو كسائر المباحثات أعمالا للمصالح المرسلة أيضاً).
ويقول (إن الشارع توسع في بيان العلل والحكم في تشريع باب العادات. واكثر ما علل فيها بالمناسب الذي ان عرض على العقول تلقته بالقبول، ففهمنا من ذلك ان الشارع قصد فيها اتباع المعاني لا الوقوف مع النصوص).
وللشاطئ أشياء في غاية الجمال والإبداع من هذا الفهم الواسع المحيط. وهذه النظرة الشاملة النافذة إلى جوهر الدين وحقيقته الواعية لروحه الكلي الشامل، على رأس هذا الفصل فقرة هي الدستور الذي يجب ان يستوحيه كل مفكر ديني.

يقول الشاطئ أيضاً: (قد تكون العوائد ثابتة وقد تتبدل ومع ذلك فهي أسباب لأحكام تترتب عليها. . . والمتبدلة منها ما يكون متبدلا في العادة من حسن إلى قبح وبالعكس. مثل كشف الرأس فانه يختلف بحسب البقاع في الواقع. فهو لذوي المروءات قبيح في البلاد الشرقية. وغير قبيح في البلاد المغربية. فالحكم الشرعي يختلف باختلاف ذلك، فيكون عند أهل المشرق قادحاً في العدالة، وعند أهل المغرب غير قادح، واعلم بان ما جرى ذكره هنا من
اختلاف الأحكام عند اختلاف العوائد، فليس في الحقيقة باختلاف في اصل الخطاب. (لان الشرع موضوع على انه دائم أبدى لو فرض بقاء الدنيا من غير نهاية.
ويقول سيدنا عمر بن الخطاب عن الرمل في الحج: (فيم الرملان ألان والكشف عن المناكب، وقد اظهر الله الإسلام ونفى الكفر وأهله. . .؟).
وسرق جماعة لحاطب بن أبى بلتعة ناقة لرجل من مزينة. فلما أرسلوا إلى عمر بن الخطاب اقروا على سرقتها، فأمر كثير بن الصلت أن يقطع أيديهم. ثم ردهم وقال: (انهم يجيعونهم حتى أن أحدهم لو أكل ما حرم الله عليه حل له، ولم يقطع أيديهم).
ولما جاءت المجاعة والقحط في سنة 18 هـ أيام خلافة عمر بن الخطاب لم يقطع أيدي السارقين.
نحن نستطيع ان نسير مع كل حضارة. وان نأخذ عن حضارة الغرب ما يفيدنا وينعشنا ويلقح حياتنا باللقاح المجدد، ولا نجد في روحالإسلام ما يصدنا عن ذلك.
ولكن المشكل هو في وجود الرجال الذين يفهمون روح الدين بالعقل اليقظ الواسع الحر العارف حاجات العصر وتيارات الحضارة والذهن البشري.
محمود الشرقاوي عالم من الأزهر
الإسماعيلية الملقبون بالحشاشين
مقدمة
هذا بحث موجز لطائفة الإسماعيلية التي عرفت أخيرا عند أهل التاريخ بطائفة الحشاشين، والتي تركت في تاريخ الإسلام في القرن الرابع الهجري أثرا كبيراً، وتاريخ الإسماعيلية قديم يرجع إلى عام ثمانمائة وأربعين للميلاد، بعد ان أنتشر الدين الإسلامي وساد كثيراً من الأقاليم والبلاد، فقام بانتشاره دعاة في أقاصي الجهات وأدانيها يحاولون الحط من قدر الرسول، ويخترعون الأحاديث الملفقة اختراعا يقلل من هيبة الدين الإسلامي، وينزل به من مستواه الرفيع، وكان انشط أولئك القوم وأكثرهم تحمسا (ابن ديصان) ويقال انه الجد الأعلى لعبد الله المهدي الفاطمي صاحب الدعوة بأفريقية، فقد كان يكره بني العباس ويود لخلافتهم الزوال، فبث دعاته في بلا د الفرس حوالي عام840 م حيث تبعه خلق كثير، وألف كتابا في الزندقة سماه (الميزان) وألف ممن تبعوه عصابة سرية نسبتنفسها إلى إسماعيل بن جعفر الصادق فسميت بالإسماعيلية، ثم انتشر اتباعه بمرور الزمن في جزيرة العرب والشام وأفريقية، وظلوا نحو قرنين ونصف قرن، تسري تعاليمهم في جسم الدولة الإسلامية كسريان السم في العروق، حتى جعل منهم الحسن (ابن الصباح) أخيراً عام تسعين وألف للميلاد طغمة سياسة تقلب الممالك وتخرب العامر من الديار، وتسفك الحرام من الدم، وتعمل في مختلف البلدان سلبا ونهباً وقتلاً، وتدمن تعاطي الحشيش حتى لقبوهم بالحشاشين وسماهم الفرنجة وأطلقوا هذا الاسم على كل قاتل سفاك، وبقوا على تلك الحال حتى قضي عليهم عام 1256م، أي سنة 654 هـ بوفاة خليفة الحسن ابن الصباح الأخير ركن الدين بن محمد، ولا يزال للإسماعيلية إلى يومنا هذا اتباع ومريدون، ولكن شتان بين مالهم الآن وما كان لهم في تلك القرون الغابرة من قوة وسلطان، وهم متفرقون في فارس والهند، وزعيمهم آغا خان الهندي الثري المعروف.
وقد كان لتلك الطائفة عدا اسم الإسماعيلية أسماء أخرى فسموا بالقرامطة نسبة إلى قرمط إحدى قرى البحرين التي تفشى فيها مذهب ابن ديصان في القرن الثالث الهجري بدعوة من رجل يقال له حمدان قرمط، يقول ابن خلدون (وكان من هؤلاء الإسماعيلية القرامطة واستقرت لهم دولة بالبحرين، وكان من أسمائهم (الباطنية) وذلك لأنهم كانوا يبطنون
دعوتهم وينشرونها متكتمين في عهد المستضيئ العلوي لابنه نزار، وقيل إنما سموا بذلك أيام الحاكم بأمر الله العبيدي الذي انشأ في القاهرة في القرن الثالث الهجري

مدرسة سماها دار الحكمة كان الطلاب يعلمون فيها معنى مكتوما لمتن القرآن، وسواء أكان السبب هذا أم ذاك، فالتسمية راجعة إلى تكتم القوم في دعواهم وتعاليمهم. وكان من أسمائهم أيضاً اسم الحشاشين، وقد لقبوا به اخيراً، واطلق على طائفتهم التي عاشت أيام الصليبين. وسنذكر فيما بعد اثر ذلك المخدر عندهم، وكيف استغلوا فعله في قضاء مآربهم. وسموا كذلك بالفدائية لأنهم كانوا يجعلون انفسهم، وخاصة في عهدهم الأخير، فداء لرئيسهم ينفذون أوامره ولو أدى ذلك إلى التضحية بالنفس في سبيله. والمصادر الشرقية تطلق عليهم غالبا اسم الإسماعيلية والملاحدة والنزارية. وهذه الأسماء الكثيرة هي لطائفة واحدة تعددت باختلاف الملابسات والظروف. فهم إسماعيلية نسبة إلى إسماعيل بن جعفر، وهم فدائية لأنهم يضحون بأنفسهم فداء لرئيسهم، وهم ملاحدة لأنهم عند البعض ينكرون الإله، وهم قرامطة نسبة إلى قرمط وهكذا. . غير ان اسم الحشاشين هو الذي عرفوا به آخر أمرهم.

مذهب الإسماعيلية

كان للسريان الفضل في نشر الفلسفة اليونانية، وخاصة مذهب الأفلاطونية الحديثة في العراق وما حوله، وقد ترجموا الكتب من اليونانية إلى السريانية فانتشرت فيما بين النهرين، وكان من اشهر رجال الدين والأدب من السريان الذين عرفهم المسلمون برديصان أو ابن ديصان، وقد توفي سنة 222م وله مذهب ديني يجمع بين اليونانية والنصرانية ينكر فيهبعث الأجسام ويقول إن جسد المسيح لم يكن جسما حقيقيا بل هو صورة شبهت للناس أرسلها الله تعالى. وله تعاليم أخرى بقيت بعد الإسلام. ومنها استمد الرافضة بعض أقوالهم. وقد انتسب إليه بعضهم كأبي شاكر الديصاني الذي بعث دعاته في بلاد الفرس والعرب والشام وجمع حوله اتباعا وأنصارا نسبوا أنفسهم إلى إسماعيل بن جعفر الصادق فسموا بالإسماعيلية وهم غلاة الرافضة. يقول ابن خلدون (افترق الرافضة فرقتين: الاثنا عشرية والإسماعيلية، تلك بعض تعاليمهم أول أمرهم وقد انقلبوا أخيرا إلى فرقة سياسية تعمل على هدم الخلافة العباسية، ولم يعد لهم (مذهب) بالمعنى الصحيح يدعون إليه، وكانوا في العراق يطلق عليهم اسم القرامطة حتى تولى زعامتهم الحسن بن الصباح فلقبوا بعده بالحشاشين، ونحن نجمل تاريخهم قبل زعامته التي بدأت عام 483 هـ وانتهت عام 518 هـ.

بدء القرامطة:

كان لبدء ظهورهم في البحرين على يد رجل يعرف بيحيى بن المهدي نزل في قطيف على رجل يدعى علي بن المعلي بن حمدان مولى الزيادين، وكان يغالي في التشيع، فاظهر له يحيى انه رسول المهدي، وكان ذلك سنة 281 هـ؛ وذكر انه خرج إلى شيعته يدعوهم إلى أمره وان ظهور المهدي قريب، فأرسل علي بن المعلي إلى شيعته من أهل القطيف فأقرأهم كتاب يحيى الذي زعم انه من المهدي فأجابوه، وكان فيمن أجابه أبو سعيد الجنابي الذي تولى الزعامة فيما بعد وخلفه فيها ابن الصباح، وظل يحيى يغيب عنهم ثم يعود إليهم، وفي كل مرة يطلب منهم المال زاعما انه يذهب به إلى المهدي. وفي عام 289 ظهر بالشام رجل قرمطي اسمه ذكرويه بن نهرويه يدعو إلى مذهب القرامطة، ولقبه اتباعه بالشيخ، وزعم انه من أحفاد إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، واستفحل أمره فسير إليه المعتضد جندا ظفروا باتباعه واسروا رئيسهم أبا الفوارس. وهنا نذكر ما دار بين أبي الفوارس والمعتضد حين جاءوا إليه به لنتبين شدة القوم وجرأتهم على خلفاء العباسيين، يقول ابن الأثير (فأحضره (المعتضد) بين يديه وقال له اخبرني، هل تزعمون إن روح الله وأرواح الأنبياء تحل في أجسادكم فتعصمكم من الزلل وتوفقكم لصالح العمل؟ فقال له يا هذا إن حلت روح الله فينا فما يضرك، وان حلت روح إبليس فما ينفعك، فلا تسأل عما لا ينفعك وسل عما يخصك، فقال له وما تقول فيما يخصني؟ قال أقول أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات وأبوكم العباس حي، فهل طلب بالخلافة أم هل بايعه أحد من الصحابة على ذلك؟ ثم مات أبو بكر فأستخلف عمر وهو يرى موضع العباس ولم يوص له، ثم مات عمر وجعلها شورى في ستة انفس ولم يوص له ولا ادخله فيهم، فماذا تستحقون الخلافة وقد اتفق الصحابة على دفع جدك عنها. فأمر به المعتضد فعذب وخلعت عظامه ثم قطعت يداه ورجلاه) فهذا الكلام وتلك اللهجة التي

يخاطب بها أحد زعماء القرامطة خليفة المسلمين تدل دلالة واضحة على استبسال القوم وجرأتهم في الإفصاح عن آرائهم ومذهبهم، وقد ظل القرامطة بعد المعتضد في حروب مع
المكتفي ومن بعده من الخلفاء طوال القرنين الثالث والرابع إلى قبيل منتصف القرن الخامس يهزمون ويهزمون، حتى دوخوا الدولة وشقيت بهم الناس، وعانت الدولة العباسية في سبيل قمع حركتهم جهدا كبيراً، وشغلوا بحركاتهم الهجومية جانبا عظيما من وقت الخلفاء فحشدوا لهم الجيوش يقاومون دعوتهم الجريئة وخروجهم عليه، وكثيرا ما انهزمت جيوش الخلفاء أمام جيوشهم واستماتتهم في الدفاع، وكم من غنائم ظفروا بها وأرواح أودوا بأصحابها، وكم من أسرى قتلوهم وصفدوهم بالأغلال. واظهر ما في تاريخهم في تلك السنوات العديدة أعمالهم الوحشية واتخاذهم القتل والتعذيب وسيلة إلى دعوتهم ونشر مذهبهم، وأشنع من ذلك اعتداؤهم على قاصدي بيت الله يقتلونهم ويسلبونهم أموالهم وينشرون الرعب في القلوب حتى قل زائرو الكعبة وانقطعوا عن الحج في بعض السنين، وقد سودوا صحيفتهم بالاعتداء على الحجر الأسود ونقله إلى أحد حصونهم حيث بقي فيه نحو اثنتين وعشرين سنة.
هذه الفئة التي أجملنا تاريخها إلى عام 436 وفيه أوقع صاحب ما وراء النهر بجموعهم وكتب إلى سائر البلاد بقتل من فيها منهم والذي أسرفنا في إجماله حتى لا يمل القارئ من تفصيل الحروب وكثرة المواقع، هذه الفئة هي التي ازدادت شوكتها قوة وأمرها خطرا وسدرت في أعمال القتل والنهب وأمعنت في تعاطي الحشيش واستمرت خداع الناس وفتنتهم عن دينهم، وذلك بظهور الحسن ابن الصباح وتوليه زعامتها عام 483 هـ فجعل منها عصابة سياسية مجرمة ديدنها أن تعيث في الأرض فسادا تقتل وتنهب وتقلق الوادعين. تلك هي طائفة الحشاشين في نهاية القرن الخامس الهجري وقبل أن نشرح أعمالها نتكلم عن زعيمها هذا وكيف وصل إلى زعامة القوم فهوى بهم إلى الحضيض الأسفل من الأخلاق والسلوك.
محمد قدري لطفي ليسانسيه في الأدب
تولستوي - 2
اجتماعياته
- 3 -
لن يحقق هذا الحلم مؤتمرات تعقد ومعاهدات تمضى أو نظم تعدل وقوانين تفرض.
وان مؤتمرا يجتمع ويتلوه مؤتمرات أخرى لا تحل مشاكل العالم. وان سكنت آلم الإنسان إلى حين، والمعاهدات قصاصات ورق لا تغير شيئا ولا تدفع مضرة، ولا يخفف من البؤس الواقع حزب اشتراكي يتولى أو حزب محافظ يتحكم. فليس معنى ذلك إلا إن طبقة حلت محل أخرى. وأفراداً استبدل بهم أفراد. وليس معناه إلا أن يبقى النظام الحالي بضرائبه المرهقة وحواجزه الجمركية المشتطة وميزانيته العجيبة ينفق ثلاثة أرباعها على أعداد الجيوش وتجهيز الحروب.
إن الإصلاحات التي تفكر فيها الجماعات الحديثة من تحديد ساعات العمل أو تنظيم علاقات المالك والأجير على ما فيها من الفائدة لا تجتث الشر من أساسه. فكيف الطريق إذن؟
أثورة دموية لا تبقي ولا تذر؟ تراق فيها دماء الطبقة الحاكمة ويزهق فيها أرواح الأغنياء؟
ولكن تولستوي كان آخر من يدعو إلى العنف وآخر من يفكر في مقابلة الشر بالشر. إن التعاون لا يمكن أن يقوم على سفك الأرواح. والرخاء من المستحيل أن يعتمد على أسنة الحراب. وما كانت الإنسانية التي بشر بها تولستوي ليكون الطريق إليها مغطى بالدماء حافلاً بانين المجروحين وجثث القتلى.
لقد قامت الثورة الفرنسية باسم اشرف المبادئ الإنسانية وعلى أكتاف اشد الناس حماسة وإخلاصا. وحسب الناس إن نوراً جديداً قد اشرق يلوح بالسلام المنشود والهناء الدائم. ولكن الثورة الفرنسية لم تنجح كثيرا. ولم تفعل رغم الادعاءات العريضة التي بشرت بها إلا أن تحل طبقة محل طبقة أخرى وتستبدل اسما باسم وملكية بجمهورية.

وفشلها راجع إلى إنها قامت على العنف وإراقة الدماء. إن الشر لا يجب أن يقابل بالشر،
وإن اكبر ما يعاب على المجتمع الحالي اعتقاده إن الثورة الدموية هي الطريق للخلاص، وان الحرب شر لابد منه. وان القتال قانون طبيعي لولاه لازدحم العالم بالسكان ولما وجدوا قوتا يكفيهم. وليس اسخف من هذا الزعم زعم. فان اشد ما يعتز به الفرد هو حياته، واقدس واجب لديه هو المحافظة على هذه الحياة والعمل على إبقائها. واكبر أمنية للإنسان هو الخلود أو العيش إلى أطول العمر، فتناقض إذن إن تزعم أن قانون الحياة هو الموت أو إن من الضروري أن يقتل الأخ أخاه.
لقد دعا تولستوي إلى السلام والأخاء الإنساني. وأهاب بالإنسانية القضاء على التسلح والمقاومة.
وقد يبدو إن هذا أمر ثانوي لا علاقة له بإصلاح العالم. ولكن ليعتقد الأفراد جميعا أن الشر هو في الحروب. وان بؤس الإنسانية راجع إلى العنف والاستبداد، وليؤمنوا بالسلام وضرورته، وستسقط بطبيعتها جميع النظم القائمة. فلن تقوم حكومة من الحكومات إلا إذا استندت إلى إرادة الشعوب، ولن يوضع قانون إلا إذا رغب فيه الأفراد. ولن تسير دفة العمل من الأعمال إلا إذا كان قائما على التعاون والاشتراك.
ولن تجد نزاعا بين دولة وأخرى إلا ويفض في بضعة أيام عن طريق التحكيم.
فتولستوي يرى من العبث التفكير في كيف تكون الحكومة. أو على أي أساس تشرع القوانين. إذ الحكومة لديه ليست إلا مجموعة أفراد والقوانين ليست إلا من وضع بضعة أفراد. والدولة لا معنى لها إلا بمجموع أفرادها!
ففي إصلاح افرد وحده. وفي الارتفاع بعقليته والسمو بنفسيته أساس المدنية المستقبلة. ماذايجدي أن تصلح من شان حكومة، إذا كان القائمون بها هم هم لم تتغير نفوسهم.
لن يجدي هذا نفعا. ولكن يكفي أن يعتقد كل فرد بوحشية الحروب في سبيل قطعة ارض أو من اجل شهرة وطنية كاذبة. ويكفي أن يمسي هذا الاعتقاد عملا حتى يشرق الصباح عن اختفاء اله الحرب من الأرض
ويمكن - إذا آمن الناس بضرر الفروق الاجتماعية بين الطبقات وما يساعد على إبقاء هذه الفروق من قانون الوراثة ونظام الملكية - أن تختفي الملكية فجأة وتحل المساواة بين البشر.
ولا شك انه لو أيقن كل إنسان أن سعادته في خدمة اكبر مجموعة إنسانية يستطيع خدمتها لانهارت من أساسها ما نسميها الوطنية التي تراق من اجلها الدماء وتزهق تحت علمها ملايين الأرواح. ويجر باسمها الخراب والدمار والارتباكات المالية الاقتصادية.
فلتقم الشعوب. لا بل لتقم طائفة منها تعلن أن كفاهم رياء وخداع، وانهم لن يخضعوا إلا لما توحيه إليهم ضمائرهم، ولن يعملوا إلا ما تحتم عليه مبادئهم. فلا يذهبون إلى قتال يعتقدونه شرا ولا ينفذون قانون لا يرون فيه خيرا. ولا يدفعون ضريبة لا معنى لها. ولاشك أن كل مساوئ العهد الحالي تصبح في خبر كان.
إن للرأي العام قوة عظيمة تسير الحكومات والدول. فإذا ما أراد الرأي العام شيئا فهو واصل إلى ما يريد. والرأي العام ساخط متذمر من النظام الحالي وهو يريد أن يعمل شيئا، ولكن لا يعرف ما يريد ولا يدري ماذا يعمل.
قد تسأل: ومن له الشجاعة ليقوم بهذه الدعوى ومن له الاستعداد لما قد تجره عليه من اضطهاد وسجن وتشريد؟
ولكن تولستوي يعجب: لماذا تنتظر الإنسانية منقذاً من السماء أو مسيحاً يهبط إلى الأرض.
إن نفسية الجماعات الحالية لا تحتاج إلا إلى بضعة أفراد بل فرد جريء يرشدها إلى طريق العمل حتى تقوم قومة رجل واحد.
- 4 -
إن صلاح نفوس الأفراد وتربيتهم من اخطر ما يدعو إليه تولستوي، وهذه التربية أما أن تتناول الصغار أو الكبار. فهي للكبار بث العقيد الإنسانية فيهم وإقناعهم أن لا فائدة تعود عليهم من حرب ضروس، والإهابة بهم إلى نبذ العنف وإحلال الوئام والصفاء.

وأما تربية الصغار فهي اجل واعظم شانا.
ولقد سدد تولستوي إلى التربية الحديثة سهاما مسمومة. وكال لها تهما شنيعة، وليس يعنيه من أمر المدرسة علوم تحشى بها أذهان الطلبة المساكين ولكن يعنيه روح التربية.
فالتربية الحديثة تساعد أحط الغرائز على الظهور والنمو، فهي تبث التنافس والغيرة والحقد في نفوس الأطفال وتشبعهم بفكرة العقاب والثواب، وتلقى في روع الطفل الأنانية وحب الفوز على أكتاف إخوانه من التلاميذ. فهو يهنأ على تقدمه عليهم، ويكافأ إذا بذهم وفاقهم.
وهي فوق ذلك تربية عسكرية تهمل شخصيات الأطفال إهمالا وتزعم أنها مستطيعة أن تشكل عقليات متغايرة تشكيلا واحدا. وهي مضطرة في سبيل هذا ان تخضعهم لنظام معين وتجبرهم بالقوة على التزام حركات خاصة والجلوس في غرف ضيقة مما ينفر الطفل من المدرسة والمدرسين، ومما يكبت فيه ميوله الطبيعية ومواهبه.
إن الطفل له شخصية قائمة، وليس يتاح لأي مدرس أن يفهمه على حدة فيعرف ما يلائمه وما لا يلائمه. والمدرسة الوحيدة التي يمكن ان ينال فيها الطفل تربية صحيحة هي البيت.
نعم هي منزله. حيث يجد الحنو والشفقة الأبوية. وهي مسكنه حيث تراعي ميوله وحيث يفهمونه فهما حقا. وبذا يرفع تولستوي من شأن التربية المنزلية ويجعلها في المكانة الأولى. وقد جره هذا، إلى البحث عما إذا كان البيت والعائلة الحالية يصلحان مكانا لتربية الأطفال.
وجوابه أن لا.
فنظام الزواج الحالي نظام عتيق فاسد، والعلاقات العائلية اليوم كبقية العلاقات لا تستند إلا على الرياء والعنف. فالمال يتحكم تحكما في العلاقات الزوجية. والرجل الغني هو كل شئ في الزواج الحديث. مهشما كان أو مريضا، ضعيفا أو منحطا. فهو يرحب به لانه ذو مال، ولأنه اقدر من غيره على الأنفاق. والفتاة الحديثة لا تكاد تفهم مهمتها التي خلقت من اجلها والزوجات يرون فالالتصاق بالبيت عارا أو تأخرا. بل يحسبن في الأطفال عبئا لا يتفق والسهرة ومحال الرقص. ولا ينسجم والرقة والأناقة.
ومن هنا دعا تولستوي إلى هدم نظام الزواج هدما يتناول الأساس فالأم كما يرى تولستوي يجب ان تختار لابنتها زوجا قوي الجسم ممتلئ الصحة محبا للعمل ناسية مكانته الاجتماعيةغير ناظرة إلى جيبه انتفخ بالأوراق المالية إن لم ينتفخ.
والزوجة يجب ان تؤمن بأن عظمتها في المنزل، وفي إنشاء طفلها الذي قد يتحكم يوما في مصير العالم. وهي إذا كانت قد تلقت أرقى العلوم فلكي تحسن إدارة بيتها. وهي ان درست ووفقت في الدرس فلكي تجيد تربية طفلها. فالمرأة في يدها مستقبل هذا العالم.
ولكن أي أمرأة؟ ليست هي هذه المرأة المستهترة، ليست هي سيدة الصالونات. ولكن ربة البيت والأم الرحيمة تنشئ أطفالها على حب السلام وحب الآخرين. وتربي فيهم كراهية الشر ومقت العنف.
لقد نادى تولستوي بكل هذا في إخلاص وإيمان وبعد تفكير طويل وتدبر ليس بالقليل، وقد توافق دعوته وقد لا توافق. وقد تحسبها الحكمة بعينها أو خيالا متطرفا. ولكن لا يسعك إلا أن تعجب بالرجل أو تعجب باخلاصه، وان تجد أيضاً في دعوته الحق أو بعض الحق.
ولعلك تشتاق بعد هذا إلى معرفة شئ عن حياة تولستوي أو فهم الظروف التي أحاطت به فخلقت منه رسول السلام والإنسانية على الأرض. هذا ما قد نكتب فيه مرة أخرى.
شهدي عطية الشافعي بكالوريوس آداب
من طرائف الشعر
الربيع الباكر
للأستاذ محمود الخفيف
قادني الشوق إلى واد مريع ... أسفرت فيه بواكير الربيع
وانجلى آذار بسام الضحى ... كابتسام الزهر في زهو وديع

ألبس الزهر أكاليل الندى ... ودعا الطير فلبى منشدا
وترى الأغصان مالت طربا ... وانثنى الجدول تيها وبدا
ضاحك الصفحة مطلول الأديم
مجتلى للعين منظور البطاح ... باسم الضفة عن وشى الصباح
سالت الألوان في قيعانه ... وارتدت آكامه أبهى وشاح
وسرت في وجوه ريح الصبا ... تنشر المكنون من سر الربا
تملأ الكون حديثا عطرا ... كحديث النفس في زهو الصبا
أو كصافي الشعر يرويه النديم
يتبدى الكون موفور الرواء ... رفرفٌ خُضْر ووشى ونماء
وصفاء شاع في أركانه ... عرف القلب به معنى الصفاء
وفضاء تنعم النفس به ... يدَهْل المعجب عن إعجابه
يقف الشاعر في أحضانه ... موقف الصوفي في محرابه
غارق الأحلام في فيض النعيم
فطن القلب إلى معنى الحياة ... في مجاليه وإشراق ضحاه
ثم في بعث كساه حسنه ... أينما دُرت بعينيك تراه
ومراح جال فيه طالما ... علق القلب به مستسلما
غرقت عيناي في لجته ... فكأني فيه اروي حلما
عن ربا الخلد ومرآها الوسيم
هذه الزهرة في نضرتها ... تحسر الألحاظ في وجنتها
خلص الحسن لها فابتسمت ... بسمة الحسناء في خلوتها
تعشق الكون وتهوى نوره ... أو لم توح إليه سِحرَهُ؟
فتجلى حسنه في حسنها ... وحبته من شذاها نشرَه
فلريَّا نفحه عنها نميم
منظر الطير على أفنانها ... يملأ السمع صدى ألحانها
نسيت نفسي به أتراحها ... وتمشي البرء في وجدانها
وخرير الماء في ظل الشجر ... كغناء العود في ليل السمر
نغمات كأحاديث الهوى ... أو أغاني الصيف في ضوء القمر
تَدْرأ السقم عن القلب السقيم
يا فراشاً رفّ في جنب الغدير ... دائم الوثوب على العشب النضير
هجت أشواقي إلى عهد مضى ... أين منى عيشه الحلو الغرير؟
حينما كنت صبيا لاهيا ... لن تراني ذات يوم وانيا
عن طِلاب اللهو في ظل النخيل ... أعشق الريف ضحوكا حاليا
مشرق الضحوة خفاق النسيم
يا ربيعا أشرقت ألوانه ... وتعالت في الضحى ألحانه
يا زمانا راقت الدنيا به ... وسرى في جوها ريحانه
ايه يا عهد الصبا المقتبل ... أنت رمز الحب، روح الأمل
رفل الدهر به في نعمة ... وتحلى الكون بعد العَطل
بنثير من حلاوه ونظيم
شاعر يتلو الورى آياته ... يُستنزل الإلهام من ساحاته
عبقري دق في تصويره ... وسمى بالشعر عن غاياته
شعره يا حسنه في فيضه ... في سماء الكون أو في أرضه
قد وعاه القلب ألحانا على ... سرحة فينانة في روضه
ملكته فهي منه في الصميم
هي دنيا من ربيع زاهر ... وضحى ضاف ونشر عاطر
ملأت قلبي وعيني بهجة ... سوف يبقى وحيها في خاطري
سوف يبقى حسن هاتيك الرؤى ... حلما يذهب عن قلبي الأسى
كلما مثلته في خاطري ... نسى القلب به حر الجوى
فهو من ذكراه في ظل عميم

آذار أغنية الربيع
(مهداة إلى سر شوقي)
لشاعر الشباب السوري أنور العطار

هَلمَّي انظري قُبلاَتِ الربيع ... على مِعطفِ السَّهل والرَّابيَهْ
سَرَتْ في السموات أنفاسهُ ... فعطَّرَت الحقلَ والسَّاقيَهْ
وآذارُ يلعبُ فوقَ المروج ... كما تلعب الطِّفلةُ اللاهِيَهْ
يُعانقُها وهو جمُّ الحنين ... فتُغريه بالمقلة الرَّانِيهْ
ويلقي عليها وِشاحَ الخلود ... وألوانَهُ العذبةَ السَّابيهْ
ويَبعثُ فيها شُعاعَ الهوى ... فتهتزُ من وَهْجِهِ صابِيَهْ
تألَّقَتِ الأرضُ من وَشيْهِ ... فلم تَبْقَ زاويةٌ خالِيَهْ
وقد زيَّنَ الغابُ أفياءه ... باحلى مَطارِفِهِ الكاسيَهْ
خمائله من نسيجِ النعيم ... تأرَّجُ بالنَّفحدةِ الذاكيهْ
جِواءٌ من الطَّيْرِ طفَّاحَةٌ ... تُنغِّمُ رائحةً الذاكيهْ
كأنَّ النَّسيمَ أخو سَكْرةٍ ... تَعَايَا من الخمرةِ العانِيَهْ
تَعاشِيبُ ناهلةٌ بالطُّيُوبِ ... مَفضَّضةُ النَّوْبِ والحاشيَهْ
كأنَّ على الأرضِ عُرْساً يُقامُ ... فتمشي إليه الدُنَا حابِيَهْ
تعالَتْ إلى الله أفراحُه ... تَمَايَدُ حافلةً حانَيهْ
وهبَّتْ مواكبُهُ الضاحكاتُ ... تجدَّدُ أعيادَها الباهيهْ
رياحينُها قد ملأنَ الفضاء ... ولم تخْلُ من عِطْرِها ناحيهْ
ففي الجَّو ذابت أغاني الطيور ... بهَيْنَمةِ النَّسمْةِ السَّاليهْ
وفي الحقل ثار ضجيجُ القطيع ... حنيناً لِزَمّارَة الرَّاعيهْ
تذوب من الحب أنغامُها ... فتخفت من ناره الصَّاليهْ
بَرَاها الهوى وطوت سَّره ... فبان من النغمة الفاشيهْ
فيالك عُرسا بهيَّ الإطار ... جديد الرُّؤَى والمنى الهانيهْ
هلُّمي افتحي كوة للربيع ... لنشرب فرحتهُ ثانيهْ
فقد ملت الروح عبء الظلام ... وحنَّت إلى البسمة الضاحيهْ
أكان سجوُّكِ غير الرقادِ ... تغلغل في المقلة الساهيهْ
وأغفل بين شعاب الجفون ... تصاوير من مهجةٍ باكيهْ
يبين على صفحتيها الأنين ... وتخشعُ فيها الرُّؤَى جاثيهْ
توهجُ من ماسها في العيوُن ... روايات أحزانها الطاغيهْ
هلمي اقرأي خافيات الحظوظ وما تضمرُ العيشةُ الباغيهْ
وَنُوحي على حُلُمُ مورقٍ ... تبددَ في السكرةِ الغاشيهْ
سيمضي الشَّبابُ كأنْ لم يكُنْ ... سوى ذكرةٍ حُلوةٍ ساجيهْ
تُجددُ أحلامُهُ الغابرات ... وترجعُ نشوتهُ الماضيهْ
كأنَّ لهُ ملعباً سامراً ... تناستهُ أيامُهُ الخاليهْ
تَموجُ بأفيائه النُّعميَاَتُ ... وتلمعُ فيه المنى الغاليهْ
بَدَا والحياة على جانبيهِ ... تتيهُ بأحلامها الغاويهْ
محِفَّةُ آذارَ تلقي عليه ... أزَاهيرَها النّزَّةَ الغانيهْ
تعاَلى نُوثّق عهود الهوى ... ونسرُدْ حكاياتها النائيهْ
ونوقظْ لياليَها الغالياتِ ... ولولا الهوى لم تكن غاليهْ
أقاصيصُ ملء الرّبا والوِهادِ ... تناثْرنَ من أكبُدٍ شاكيهْ
ارِجْنَ وعَطّرنَ هذا الفضاء ... كما تأرَجُ الزهرةُ الناميهْ
ولقَّنَ منه معاني الحياةِ ... وأدركن من دائهِ ماهيهْ
رُويدَكِ ولنْستمعْ سرَّهُ ... فأن له ألسُناً حاكيهْ
وإن له سِيرَاً جمةً ... تناقُلها الأنفُسُ الصاغيهْ
تعالى إلى الصدرِ تلقىْ به ... شكايات أضلاعه الحانيهْ
وأوجاعَ خافِقهِ المستهام ... وإرنانَ أفيائه الواهيهْ
فلا البثُّ يُهدئُ تَحناتَهُ ... فيرتاحَ من شجوهِ ثانيهْ

ولا الحبُّ يُوليه بعضَ المنى ... فيفرحَ بالمِنحة الراضيهْ
ويشدْوُ الأغاريد ضاحكةً ... فتحيا بها المهجُ الداميهْ
ولما اقتسمنا دموعَ العيونِ ... تفردتُ بالدَّمعة القاسيهْ
فلا هي تسكنُ شِعب الجفونِ ... فتخفى ولا هي بالهاميهْ
أطلتِ رُنُوّكِ نحو السماء ... وأطرقت راهبةً خاشيهْ
فهل تبحثين عن الغائبين ... ومن غاص في اللجة الطاميهْ
فرابثْكِ ضفّة هذي الحياة ... وخِفْتِ من الضِّفَّة التاليهْ
فنُحتِ وصحتِ النجاةَ النجاة ... وأين النجاةُ من الهاويهْ
هنالك لا النور ضافي الجناح ... ولا الطير صادحة شاديهْ
خَلَتْ من بهارج هذا الوجود ... وأحلامه الحلوة الزاهيهْ
سوى موجةٍ من بنات السماء ... تحومُ بأرجائها عاريهْ
يُشِعُّ على جانبيْها الخلودُ ... وما ضَمَّ من صُوَرٍ ساميهْ
كأن عليها إطارَ النَّعيم ... وغِبْطَتَهُ اللذَّةَ الشَّافِيَهْ
حناتَيْكِ لا تسبْحَي في الدموع ... ولا تَرْهبي الراحةَ النَّاجِيَهْ
فما إنْ تَقِي من إسارِ الرَّدَى ... إذا حُمَّ يومُ النوى واقِيَهْ
وليسَ تَرُدُّ عليكِ الدموعُ ... سوى حزُفْةٍ مُرَّةٍ وارِيَهْ
ورُبَّتَ أمْسيَّةٍ بَرَّةٍ ... ترِفُّ بها الذِّكَرُ القَاصيَهْ
جلسْتُ على جَنَباتِ الغدير ... أشَيِّعُ أمواهَه الجاريهْ
أرَدِّدُ أشعاريَ النَّائياتِ ... واستَقبلُ الفكَرَ الآتيهْ
وتشدُو الطيورُ أغاريدَها ... فألقطُ من فمِها القافيهْ
وَدِدْتُ من الغَيب كُلَّ الوداد ... لو أنيَّ لأشعارها راويهْ
ويُوحى المَساءُ إلى خاطري ... هوَاجسَ غامضةً خابيَه
موَشَّحَةً بِطُيُوفِ العَفَاءِ ... كأنَّ بها جِنَّةً بادِيَهْ
فأُصغِي إلى همْسِهِ المستَطاب ... وأسمعُ ألحانَهُ الخافِيَهْ
أعُبُّ لذَاذاتِه الطَّافحاتِ ... وأكْرَعُ سَكْرَتَهُ الصَّافيهْ
وأنسى مَتاعبَ هذا الوجود ... وعِيشِتَه الوَحْشَةَ الجافيهْ
وغيبوبة مثل كهف النُّسور ... تضيع بها الأنفسُ الرائيهْ
توشِّحُها مائجات الغيوم ... وأطياف أجْنُحِهَا الضافيهْ
رقيتُ أعاليَها مُفْرَداً ... ورُوحيَ سَبَّاقة حاديهْ
وخَلَّفْتُ جسمي في الهامدات ... تُطيف به الصورُ الفانيهْ
وأطلتُ من فرجات الضباب ... على عالم الرمّم الباليهْ
تجردتُ من صفة الهالكين ... وَمُتعتُ بالصفة الباقيهْ
وقد غبتُ عني كأنْ لم أكُن ... سوى نفحة سمحةٍ عاليهْ
وأنسيتُ أني ابنُ هذا التَّرابِ ... وَضجعته المُمَّرة الطاغيهْ
بكاءً على أملٍ لامعٍ ... تَطايَرَ في الفنية الصَّاحيهْ
وغلغل في عالم غامضٍ ... أمانيه ساخرةٌ هاذيهْ
هَلمي افتحي كوَّةً للضِّياءِ ... لننسى بها الكوَّةَ الدَّاجيهْ
فليس لنا أملٌ في الرَّبيع ... وَنفحته العذبة السَّاريهْ
وما العُمْرُ غيرُ ربيع الشبابِ ... ربيع الهوى والرُّؤى الوافيهْ
تجوسُ به الذكريات العذابُ ... وَيغمُرُهُ الحبُّ والعافيهْ
إذا طاحَت مسالي الوُجودِ ... وغابت مفاتنه الحاليهْ
وَصار إلى عالم موُحشٍ ... كصحراء خاليةٍ خاويهْ
أسيتُ لِعمرٍ تولى سناهُ ... كايماضة الشعلةِ الوانيهْ
فيا لك من عمرٍ ضائعٍ ... كما تُنثرُ الباقةُ الذاويهْ
هوى النجمُ من شرفات الحياة ... فأمست على إثرْه هاويهْ
أفاتَك أني جمُّ الجروح ... أعيشُ على يَدِكِ الآسيهْ . . .
فوليتِ عني وخلفتني ... احنُّ إلى الساعة القاضيهْ
أموت وقيثارتي ما تزال ... تنوح على مهجتي الصاديهْ . . .
أنور العطار

في الأدب الفرنسي
بيير كورني
للدكتور حسن صادق
حياته وعلاقاته ورواياته

نتحدث في هذا المقال عن عبقرية شعت في معاصريها الحرارة والنور، عن شعلة وهاجة فيها جمالوانسجام، وفي جوهرها هدى وسلام، عن مدرسة عالية تتعلم القلوب فيها السمو والشجاعة، وتتهيأ النفوس فيها للعفة والنبل والصفاء، عن مدرسة علمت الفرنسيين نفاسة الإرادة وبطولة الواجب وجمال التضحية. وسنجعل موضوع المقالات التالية عن عظماء الكتاب الفرنسيين في القرن السابع عشر وهم: بسكال ولاروشفو ولافونتين وموليير وراسين وبوسويه وفنلون ولابروبير وسان سيمون ومدام دي سفنييه.

إذا ولد ابن ملك دقت النواقيس وأطلقت المدافع إيذاناً بمولده، وفرض على الشعب أن يبتهج إن كان شقيا، أو بعث الفرح في نفسه إن كان مجدوداً سعيداً. وإذا ولد عبقري، جهل الناس أمره ولم يعرف حقيقته إلا الله الذي يسم جبينه بطابع إلهي ويعين مهمته العالية بين البشر. وبعد أن تكشف العبقرية عن نفسها ويسود مجدها، يبحث الناس في ظروف مولدها وفي حوادث شبابها عن الإمارات العظيمة التي تدل على مستقبله. وكذلك ولد بيير كورني في 6 يونيو عام 1606 بمدينة وارن. ولم يسطع في ذلك اليوم نجم في السماء جديد أو يحدث على سطح الغبراء حادث خارق يعلن إلى الناس مجيء رجل عظيم.

أحبه والداه حباً شديداً، وربياه على التقوى والفضائل، ولم يجدا فيه ما يدلهما على أن اسمه سيكون يوما في شعفة المجد الفرنسي. وما بلغ اشده ادخله أبوه مدرسة يديرها الجوزيت فتلقى فيها تربية قوية صلبة وتعليما متينا. ولم ينس قط لهذه المدرسة الأثر الجميل الذي خلقته في نفسه الغضة. ثم أراد له أهله أن يكون من رجال القانون فكان، إرضاء لهم دون ان يشعر بميل إلى ما أصاروه إليه.

نال إجازة الحقوق في 18 يونيو عام 1624 وترافع أمام القضاء، ولكنه لم يصيب غير الفشل الممض لانه كان خجولايشعر في حضرة الناس باكتئاب بطني يغمز عليه الحيرة

والاضطراب، ويسلط على لسانه الحبسة والحصر. وفجاة حدثت مصادفة سعيدة أظهرت عبقرية هذا المدره الصغير. كان له صديق عزيز عليه يحب فتاة، وقد طلب منه هذا الصديق أن يصحبه في زيارته لها فأجاب سؤله. ولما تكررت هذه الزيارة أدرك كورني أن الفتاة أخذت ترنو إليه دون صديقه، فكف عن زيارته لها لانه بالطبع وفي كريم. هذا الحادث دفعه إلى كتابة قصة مسرحية فكاهية سماها (ميليت) مستمدا قواعد الفن من نفسه وذوقه، ثم سافر إلى باريس وفي جيبه فصول القصة الخمسة، ولم يجرؤ على تقديمها لممثلي (بيت بورجوني) المهرة النابهين، وهو المسرح الوحيد الذي كان موجودا في ذلك العهد. فقدمها في تواضع إلى ممثلين مغمورين فقراء، كانوا يحاولون تكوين فرقة وإنشاء مسرح صغير في شارع (بتي بوربون).

مثلت هذه القصة في عام 1629 ودرت على المسرح الصغير رزقاً كبيراً. ولكن الجمهور الذي اعتاد رؤية القصص التمثيلية المقتبسة أو المنقولة عن (لوب دي فيجا) الأسباني وغيره والزاخرة بالدسائس والعقد، وجد قصة (ميليت) سهلة بسيطة طبيعية، ولم ير في مؤلفها شاعراً كبيراً.

ثم وضع كورني في عام 1632 قصة فكاهية أخرى اسماها (كليتاندر) وقال عنها بعد وضعها ان كل ما هو محتمل فيها الأسلوب ليس غير.

بعد هذه القصة يئس من الحصول على نجاح يرضيه في الكوميديا وشعر في الوقت نفسه بيقظة العبقرية التراجيدية في نفسه، فاستعار من (سنيكا) الحكيم الروماني موضوع قصة سماها (ميديه) أخرجها في عام 1635، فأصابت بعض النجاح ولفتت نظر ريشيليه الوزير الفرنسي المعروف، وكان هذا الوزير يتعشق المسرح والتأليف المسرحي واليه تنسب قصص أربع غيبت كلها في تضاعيف النسيان. ويقال انه لم يكتسب هذه القصص وإنما كان يضع خططها ويشرف على كتابتها.

وبهذه المناسبة نذكر أن مجد ريشيليه الأدبي هو في إنشاء مجمع العلماء (الأكاديمي

فرانسيز): ففي عام 1629 اتفق جماعة من الأدباء على أن يجتمعوا مرة في الأسبوع عند أحدهم للبحث والمناقشة في الموضوعات الأدبية. هذه النواة المكونة بادئ ذي بدء من تسعة أشخاص، كبرت سريعا إذ انضم إليها أخصاء الكردينال ريشيليه. ثم اتصل خبرها بهذا

الوزير فرأى في الحال بمهارة رجل الدولة الفائدة التي تجنى من إنشاء هيئة تضم رجال الادب، يجيزها أمر ملكي وتكون تحت رعايته، فيضع بذلك يده القوية على جميع العقول الكبيرة في فرنسا كما كاد يضعها على النبلاء والعظماء. وقد تم له ما أراد وصدر الأمر الملكي في عام 1635.

اتجه نظر ريشيليه إلى كورني كما قلنا، ورآه جديراً بالعمل معه في تصنيف قصصه المسرحية، فعرض عليه رغبته في الانضمام إلى (جماعة المؤلفين) وكانت مكونة من أربعة أشخاص يكتبون باسم الوزير. قبل كورني ذلك لانه شعر بالحاجة إلى عضد قوي يعبد له الطريق، واندمج في هذه العصبة الصغيرة، ولكنه كان حريصا على الاحتفاظ بكنوز عبقريته لنفسه.

وفي أحد الأيام طلب إليه الوزير أن يضع الفصل الثالث لإحدى قصصه وفقاً للخطة التي رسمها له فلم ويوافق كورني على هذه الخطة، ودهش الوزير من جراته واسترد منه شرف العمل معه، وقال عنه: (ليس فيه روح العمل برأي غيره!) أي ليس فيه روح الخضوع والذلة.

نالت هذه الصدمة من نفس كورني منالاً كبيراً فعاد إلى روان ليجد بين أحضان أسرته متلمسا من ألم الفشل، واعتزم العدول عن التأليف المسرحي وهجر الشعر. ثم قابله ذات يوم مصادفة كاتب سر قديم للملكة (ماري دي مدسيس) يسمى (شالون) فنصح له بأن يدرس بإمعان شديد المسرح الأسباني، ولفت نظره إلى موضوع (السد) وكان قد عولج في أغان وطنية إسبانية وفي قصتين من نوع التراجيدي: أحدهما (لدون جوان ديامانت) والأخرى (لجيلهم دي كاسترو).

قرأ كورني القصتين، وخلال غرابة التركيب وضعف الأسلوب استخلص حدثاً درامياً، ومواقف رائعة، وأفكار خلابة: استخلص من التراب تبراً نقياً، فوضع أول قصصه الخالدة وهي (السيد) المشهورة، اول درة في تاج المسرح الفرنسي في عام 1636.

وقد أثارت هذه القصة في نفس ريشيليه الغيرة والحسد، ولكن كورني تعزى بتصفيق الإعجاب الذي ناله من فرنسا كلها، وبلغ من نجاح هذه القصة أن اصبح الناس يقولون: هذا جميل كالسيد. وانتشرت هذه الجملة حتى عدت من الأمثال العامة. وقد سخر (بوالو)

الشاعر والناقد الفرنسي في ذلك الوقت من حسد ريشيليهفقال: (عبثا يثور وزير على السيد، فكل باريس تنظر إلى شيمين بعيني رودريج (شيمين بطلة القصة ورودريج بطلها، وكان بينهما حب شديد رائع). ولكي يطفئ ريشيليه غلة حسده أوعز إلى مجمع العلماء ان يسفه القصة، فأعلن مكرها إن موضوع القصة تافه، وهذا مديح افلت من فم المجمع خلسة، لان كورني استطاع بعبقريته أن يجعل من الموضوع التافه قصة رائعة استدرت إعجاب الناس في عصره واستهوت نفوس الأجيال المتعاقبة.

وقال اكثر خصوم كورني لؤما إن الجمال الذي يعجب به الناس في القصة لا يد لكورني فيه، وإنما هو (لدى كاسترو) الأسباني. وقد نال هذا القول من نفس كورني اكثر مما نال منها رأي مجمع العلماء الذي دحضه وسحقه نجاح القصة في طول البلاد وعرضها. فبحث في التاريخ القديم عن موضوع يخلق منه قصة هامة، فعثر في (تيت ليف) المؤرخ الروماني المشهور على تاريخ الموقعة التي حدثت بين آل هوارس وآل كورياس. واخرج من هذا الموضوع قصته العظيمة (هوارس) في عام 1640. وفي السنة عينها اخرج قصة (سنا) أو رحمة أغسطوس التي نالت اكبر قسط من النجاح، وفي عام 1643 اخرج (بولكيت) و (بومبيوس) و (الكذوب) وكلها قصص خالدة أبلغته قمة المجد والعظمة. وعقب قصة (السيد) منح الملك لويس الرابع عشر والد كورني لقب الشرف ووثائق النبل، ثم دخل الشاعر مجمع العلماء في عام 1647.

استمر بعد هذه القصص التي ذكرها والتي بنت مجده على أسس متينة، يصف القصص التمثيلية واخرج كثيرا منها، ولكنها لم تبلغ الدرجة العلية التي بلغتها القصص السابقة وفي عام 1652 اخرج للناس قصته (برتاريت) فلم تنجح.

اشتد عليه هذا الفشل الأليم وهو الشاعر الكبير الملحوظ المنزلة فلزم الصمت سبع سنوات قضاها في روان مع زوجه (وكان قد تزوج في عام 1641) وأولاده الثلاثة. ثم شاءت المصادفة أن يزور (موليير) الشاعر وفرقته روان ويمثلون فيها بعض كوميدياته. ولما شاهد كورني التمثيل انتعش في دخيلته الحنان إلى المسرح. فعاد إليه في عام 1659 أمام جيل جديد من النظارة بقصته (أوديب) فقوبلت مقابلة حسنة. ثم اخرج بعده عدة قصص ولكنها فشلت كلها. ويقال إن سبب الضعف الذي ظهر في قصصه الأخيرة يرجع إلى

إفراطه في العمل وإجهاده القريحة والعجلة في التأليف، لانه كان في حاجة شديدة إلى المال بعد ما استنفذت تربية أولاده كل موارده المالية. ولكن الحقيقة انه كبر ومالت قوة ذهنه إلى الاضمحلال والركود. يدل على ذلك قوله: (شعري ذهب مع أسناني) نعم استطاع هذا الشعر أن يستريح بعد كثير من الآثار الخالدة التي تقص على القرون غرام رودريج وبطولة هوارس ورحمة أغسطوس واستشهاد وبوليكت. وفي الوقت الذي بدء فيه نجم كورني بالافول، كان نجم راسين يعلو ويسطع ويزدهي الناس إعجاباً وطرباً. وفي عام 1670 عرضت هنرييت أخت زوج لويس الرابع عشر على كورني ان يضع تاريخ (برينيس) في قصة تمثيلية. وكان راسين فيالخفاء يراجع هذا الموضوع وهي تعلم ذلك. وأخرج الشاعران القصة في وقت واحد فنجحت قصة راسين نجاحا كبيرا وسقطت قصة كورني سقوطا مروعاً وفي عام 1683 باع كورني منزله في روان إذ استبد به العسر. وكان لويس الرابع عشر قد قرر له معاشا سنويا قدره 2000 دينار بعد وساطة الشاعر شابلان ذي الحظوة لدى الملك. ودفع هذا المعاش بغير انتظام ثم الغي. وقد شعر (بوالو) بحالة كورني فقابل الملك ورجا منه أن يدفع المعاش للشاعر المسكين بانتظام فقبل رجاءه. ومن حسن حظه انه مات في ليلة أول أكتوبر عام 1684 بعد أن ذاق مرارة الفاقة في شيخوخته، والشقاء هو الفدية الضرورية للعبقرية.

وقد قام مجمع العلماء بنفقات دفنه، وكان مديره إذ ذاك القسيس (دي لافو) ولا تنتهي مدة عمله إلا في أواخر أكتوبر من ذلك العام. وجرت العادة ان يؤبن مدير المجمع، العضو الذي يموت. وكان راسين هو الذي سيعين مكان القسيس ولذلك حدثت بينهما مشادة إذ كان كلاهما يريد أن يحظى بهذا الشرف. وتمت الغلبة في النهاية للقسيس. ثم عين (توما كورني) عضواً في مجمع العلماء بعد موت شقيقه، فأهتبل راسين هذه الفرصة وأثنى أجمل الثناء على ذكرى منافسه العظيمة. وان خطبته في ذلك المقام لهي فخر لعبقرية الميت وكرم الحي. وسنذكر نبذة من هذه الخطبة القيمة عند الكلام عن حالة المسرح الفرنسي قبل كورني.

مكانته ومواهبه ومذهبه

كان حساد هذا الشاعر العظيم كثيرين. فلما مات لم يروا فيه غير الشاعر العبقري الذي

خلق أروع القصص، وجاءهم بآيات في البلاغة بينات، ووضعوه في مكانة أعلى من المكانة التي كان يشغلها أيام مجده. ومن الغريب أن مدينة روان لم تقم تمثالا لأشهر أبنائها إلا في عام 1834!

وكان معاصروه من كبار الأدباء لا يستطيعون إنكار قوة ذهنه وعذوبة شعره ومتانة قصصه. ومنهم لابروبير وبوالو ومدام دي سيفنييه. وهذه كانت تصيح في كل مجلس قائلة: (ليحيى صديقنا القديم كورني! إن كتبه آثار أستاذ لا يجارى ولا يقلد! إنها الذوق السليم نفسه!). وكان هو نفسه يؤمن بعبقريته ويتحدث بها في عزة الرجولة وصراحة كريمة تفضل التواضع المصطنع الذي لا يخدع أحدا ولا يخفى ما وراءه من زهو خلق. وقد بقي وفيا لخلقه المزيج من البساطة والكرم والخجل والشجاعة والوداعة والسمو، حتى استوفى أنفاسه.

ونستطيع أن نقول أن كورني قلب كبير ونفس جميلة. والدليل القوي على ذلك هو ما تركه لنا من الآثار الجليلة، وكل العواطف السامية التي يجدها القارئ في قصصه، مصدرها قلبه ونفسه ليس غير.

كانت الأخلاق في عصره هابطة، والبطولة نادرة؛ فلما جاء عمل على إيصال القليل من حرارة الشعلة التي تحركه إلى خمود معاصريه، فتنبهت قلوبهم وهبت تخفق على

توقيع ألحانه.
يقال دائما أن الشاعر لا يصور إلا معاصريه، وان كورني استمد موضوعاته من العادات والأخلاق التي كانت تحت بصره. هذه قاعدة صحيحة بالنسبة للاخرين، ولكنها لا تنطبق على كورني لانه كان يصور الناس كما يجب وكما لا يجب ان يكونوا، أي كان يصورهم على طراز نفسه العالية.
ومن يقرأ كتب هذا الشاعر يجد أن الرغبة في جعل الإرادة تتغلب على كل الصعاب والعقبات من عناصر البلاغة الخاصة بكورني، ويجد أن أبطاله سواء أكانوا يريدون قهر أنفسهم أم قهر غيرهم، يبذلون جهدهم في إقامة الدليل الذي يبرر إرادتهم وعملهم.
وهم يشرحون حساسيتهم في شعر له نغمات الناي الساحرة، ويعبرون عن أرادتهم في لهجة خطابية. ولذلك يلذ لهم الحوار الطويل والمنطق السليم الذي يؤرث إرادتهم الخائرة،
والبرهانات القاطعة التي تنتصر على ترددهم. وهم فوق ذلك وفي كثير من الأحايين يريدون ان تقر ضحاياهم أعمالهم وتوافق عليها. وكذلك نجد (رودريج) في قصة السيد يريد أن يجعل صاحبته (شيمين) تؤمن بأن قتل أبيها الكونت (دي جورماس) كان واجبا عليه. ونجد في قصة هوارس انه أراد أن يجعل (كورياس) يؤمن بان من واجبه قتله.
وكذلك في (سنا) تحاول (راميلي) صاحبه (سنا) أن تجعل الإمبراطور (أغسطوس) يعتقد ان واجبها يأمرها بتدبير مؤامرة لاغتياله.
قلنا إن كورني كان عيبا في حضرة الناس، ولكنه كان خطيبا بلسان أبطاله وفي كل قصة نجد ان الحوادث هي نتائج قرارات الأبطال ومشيئتهم. ففي هوارس وسنا مثلا لا يحدث حدث إلا برغبة أبطال القصة، فالإمبراطور أغسطوس بعد أن عرف إن صديقه سنا يأتمر به ليقتله كان في مقدوره إذا أراد، أن يعاقبه بدلا من الصفح عنه، فالإرادة في مسرح كورني هي نابض الحركة الوحيد، لانه كان يعتقد إننا في الحياة سادة حظوظنا. وهذا ما يجعل لهذا المسرح قيمة خلقية فريدة، وان جعل الفعل الدرامي معلقا على مشيئة الابطال، لهو في الحقيقة تخفيض لنصيب الظروف أي تبرئتها مما نتهمها به. وليس هذا حقيقة خالصة، ولكن كورني أراد بذلك أن يرغب الناس عن التواكل والاستسلام ويربي فيهم الاعتماد على الإرادة ولكي نحكم حكما صحيحا على كورني، يجب ان نضع نصب أعيننا دائما انه المؤسس الحقيقي للتراجيدي الفرنسية. كثير غيره جاءوا بعده، متزودين بدروسه ومنهاجه، فماثلوه أو بذوه، ولكنه بقى أستاذ هذا النوع. انه هو الذي ابتكر استعطافا جديدا يقوم لا على الفزع والشفقة، ولكن على الإعجاب، الإعجاب بالمواقف، والإعجاب بالخلق، والإعجاب ببطولة الواجب وروعة التضحية. وهو الذي حدد شكل التراجيدي الفرنسية وجعلها (قضية أخلاقية توضع بواسطة العرض، ثم تحصل المناقشة فيها بواسطة انقلابات الحال ثم تحل في الختام) وعبقريته هي التي جعلت الترجيدي تحليلا نفسيا لشهوة من الشهوات تتدرج في طريقها حتى تصل إلى العنف والحدة ثم إلى النتائج الأخيرة.
اثر كريني في التراجيديا والادب
كانت الترجيديا قبل كورني محاورات طويلة. وكان واضعوها يصورون الوالد والولد والزوج في ظروف شخصية خاصة محدودة. ولكن كورني صورهم بطريقة عامة أي صور المثل الأعلى للوالد والولد والزوج.
قال (سانت بيف) بحق (إن كورني هو الشاعر الجدير بأن يعاصر الفيلسوف (ديكارت).
كان الفيلسوف يبرهن على وجوده بالفكر فيقول: (أني أفكر، إذن أنا كائن، وكان الشاعر يبرهن بالفكر على الحساسية المحركة والحياة، فكل شخص في قصصه يقول (أني أفكر، إذن أنا شاعر حي).
وكل ما يعاب على كورني انه لم يصور المرأة في قصصه تصويرا طبيعيا. وذلك لانه لم يحب قط، ولم يسبر غور القلب النسوي، وكل أبطاله النساء لا تمت إلى الطبيعة إلا بصلة ضعيفة لانه خلقهن من إدراكه لا من تجربته وملاحظاته.
كان كل همه أن ينتج الإعجاب بالفضائل. وقد بلغ غايته بجعل الواجب يناضل الهوى ثم ينتصر عليه. أي انه بلغ غايته بتصوير البطولة احسن تصوير. وهذه الغاية أرغمته في بعض الأحايين على أن يبالغ في قوى أشخاصه ويعلو بهم فوق الضعف الإنساني ليحيلهم إلى أبطال.

وقد اعجب (فولتير) في القرن الثامن عشر بكورني إعجابا شديداً، حتى انه تبنى بنت أخته وزودها بمهر ثم زوجها. ونشر كتب كورني وشرحها، وقال في المقدمة: (الشرح الوحيد لكتب كورني يجب أن يكون بكتابة هذه الكلمات في اسفل كل صحيفة: جميل. جليل. إلاهي!).

وطبعي أن ينهض كورني بالمسرح الفرنسي لانه جاء في عصر زاهر مهيأ لهذا النهوض. إن المسرح من انفع وأنبل ما ابتكر العقل الإنساني لتهذيب العادات وصقل الخلق. لا يمكن أن يصل إلى كماله إلا عند ما تبلغ الجماعة نفسها قمة مدنيتها. ولهذا يتكون الفن الدرامي دائما في بطء بينما يظهر الشعر الحماسي والغنائي في طفولة الأمم بقوة اكثر مما يظهر في عصر نضجها. لان شعراء الملاحم والغناء يستطيعون أن يسلموا أنفسهم إلى جرأة عبقريتهم، وبهذه الجرأة يسبقون القرون. أما شعراء الدراما، ومهمتهم كما نعلم تهذيب الجماهير وإشعال الحماسة في نفوسهم، فأنهم مرغمون على أن يلائموا عبقريتهم مع عادات العصر الذي يعيشون فيه. ولذلك نرى أن الجماعة التي تبلغ شأوا بعيدا في المدينة، لا يشغل المسرح من أدبها إلا مكانا ثانويا. فإذا اقتربت من نضجها، اخذ المسرح مكانه في الصف الأول من مدرسة الإدراك. وهذا ما حدث في فرنسا في القرن السابع عشر، وما حدث في بلاد الإغريق قبل أن يأتيهم سفوكليس وأوربيدس واريستوفان واسنحيلوس. فقد كان للفرنسيين جودل وبايف وهاردي قبل ان يكون لهم كورني وموليير وراسين.

وإلى القارئ نبذة من خطبة راسين التي استقبل بها (توما كورني) لما صار عضوا في مجمع العلماء تلخص رأي هذا الشاعر في حالة المسرح الفرنسي قبل كورني ورأيه في كورني نفسه: (أي اضطراب وأي شذوذ يسود المسرح قبل كورني! كان الذوق مفقودا ومعرفة الجمال المسرحي مجهولة. وكان الجهل المعيب يجمع بين المؤلفين والنظارة. وكانت جل الموضوعات تحمل سمة الهوس، وعارية من الصدق. وكانت الألفاظ نفسها اكثر قبحا من الحوادث. وخلاصة القول، إن قواعد الفن حتى قواعد النزاهة والأدب كانت فريسة الفتك والعدوان، في هذه الطفولة أو على الأرجح وسط هذا العماء الذي كان يخيم على الشعر الدرامي في بلادنا، جاء كورني. وبعد أن جاهد وناضل الذوق الدميم مزوداً بسلاح العبقرية ومعتزاً بقراءة القدامى، أظهر على المسرح العقل تحف به أبهة اللغة وروعة البيان، فطغى صوته على صوت منافسيه فأخفاه. ولما يئسوا من بلوغ مكانته عمدوا إلى تسفيه كتبه، وحاولوا أن ينالوا بالنقد الطائش من جدارته، ولكنهم فشلوا وحاق بهم مكرهم السيئ. السيد وسنا وهو راس، ملأت الأسماع وهزت أوتار النفوس وترجمت إلى عدة لغات، ستظل حية على مر العصور في أفواه الناس، كورني فن وقوة وبراعة، وخصوبة ونبل وعظمة).

هذا كلام راسين الذي كان ينافس سلفه، وهو قول حق. وعند ظهور كورني، كان قد مضى على الناس ما يزيد على مائة عام وهم يعالجون التفكير ويتألفون الشعر والنثر دون أن ينجحوا النجاح المرجو. وعبثا نهبوا مؤلفات الأقدمين ومسخوها، وعبثاً سرقوا من لوكريس وفرجيل وهوراس وسنيكا أو من الإيطاليين والأسبان. وعبثا انتحل كتاب النثر لأنفسهم من سيسرون وبلوطارخوس. ثم جاء كورني وديكارت فحررا اللغة والفكر الفرنسي من ربقة الإغريق والرومان، فهما أول من أعطى للأدب الفرنسي صبغته الخاصة وطابعه القومي. فالسيد و (رسالة في المنهج) لديكارت يعينان عهدا جديداً في تاريخ الأدب والفكر الفرنسي. فقد كسرا أغلال اللغة وكانت أسيرة في أطلال اللاتينية، وأنقذا الفكر من محنته وكان يريد ذلك ولا يستطيعه. وبفضلهما وجد في أوربا كلها بين كل الذين يقرأون ويكتبون أداة عامة جديدة للتفاهم. هي لغة ديكارت وعلى الأخص لغة كورني التي سادت من عام 1648 تحرير معاهدات التحالف والصلح، وأصبحت آخر الآمر اللغة الوحيدة تقريبا للأدب والفلسفة والعلم. وكما يفخر الرومان بان عصر أغسطوس انتج هوارس وفرجيل، كذلك يفخر الفرنسيون بان عصر لويس الرابع عشر اكبر ملك حكمهم، انتج اكبر شاعر لهم هو كورني.

ونختم هذا المقال بكلمة نابليون: (القصة التمثيلية تشعل النفس، وتسمو بالقلب، وتخلق دون ريب أبطالا. وإني اجهر بأن فرنسا تدين لكورني بجزء كبير من أعمالها

المجيدة. إن القصص التمثيلية مدرسة عالية لعظماء الرجال، ومن واجب الملوك تشجيعها ونشرها. ولو كان كورني حيا في زمني لجعلته أميراً)
وما قيمة اللقب الرسمي في جانب اللقب الذي ناله من الشعب وهو كورني العظيم؟!
ولماذا وهبه الشعب هذا اللقب؟ لانه جاءهم بقصته السيد، وهي الحب في اجمل اثوابه، وبقصته سنا، وهي السياسة في أسمى اشكالها، وبقصته بولكيت، وهي الدين في أروع مظاهره، والحب والسياسة والدين هي (ثالوث) القلب الإنساني.

حسن صادق

البؤساء

لفكتور هوجو

في سنة 1862 اخرج فكتور هوجو روايته الخالدة (البؤساء) وكان قد لبث مدى ثلاثين عاما يفكر في أن يكتب كتابا في صنوف البؤس التي يعانيها الشعب ويستجمع له شوارد نظرياته الأخلاقية والسياسية فلم ينضج مشروعه إلا بعد أعوام طويلة من التأمل والبحث، وكان مشروع كتابه الأول يتألف من أربعة أقسام بسيطة هي: قصة قديس (وهو الراهب ميريل) وقصة رجل (وهو جان فالجان) وقصة امرأة (وهي فانتين) ثم قصة دمية (وهي كوزيت).
ونظم فكتور هوجو هذه الأقسام الأربعة في سلك رواية طويلة متناسقة ساحرة البيان والمعنى، تثير في كل موقف من مواقفها وكل صفحة من صفحاتها أسمى العواطف الانسانية، وتبعث فيه كوامن الإشفاق على جان فالجان الذي دفعه البؤس وحده إلى سرقة رغيف من الخبز، والذي ينبض فيه قلب رجل خير كريم مخلص، والإشفاق على فانتين تلك الفتاة المسكينة التي أغويت ثم نبذت والتي تبيع حتى شعرها وأسنانها لتطعم ابنتها، ولا تبيع شرفها إلا نزولا منها على حبها الأموي، والإشفاق على تلك الصغيرة المسكينة التي تعاني على يد أسرة تارديه أمر ضروب الاضطهاد والذلة، ثم الإشفاق والحب نحو البؤساء والمساكين الذين يمثلهم القس ميريل، وصلابة الواجب الذي يفهم على غير وجهه في شخص الشرطي جافير.
وهيكل القصة الأولى مؤثر، فهو يتلخص في مكث جان فالجان بالمنفى وفي تحريره، وفي توبته وعيشته رجل خير محب للإنسانية في معمل الزجاج، ثم موت العاملة فانتين، ودخول ابنتها كوزيت في أسرة تارديه، ثم قضية شان مايتو واتهام جان فالجان لنفسه وتسميه باسم مادلين، ثم أعادته إلى المنفي حيث يفر فيطارده الشرطي جافير ويلتجئ إلى محلة (بتي بكبيس). وتسير القصة بعد ذلك في نسق رواية بوليسية يتخذ معظم أشخاصها أسماء مستعارة وتكثر فيها المفاجئات الغريبة وتأخذ القارئ أخذا عنيفا بمواقفها الشائقة.
وقد عنى فكتور هوجو بأن يلزم جانب الحقيقة دائما في قصته وان يقدم فيها لقارئه أشخاصا حقيقين وأوصافا دقيقة، وحوادث معقولة، فأما القس ميريل فهو يمثل شخصية حقيقية عاشت وعرفها فكتور هوجو ودرسها منذ سنة 1829 وهي شخصية المونسنيور ميوليس أسقف (ديني). المونسنيور ميوليس قد آوى ذات يوم مجرما بائسا يدعى بيير موران وحمله على التوبة وانتهاج سبيل الخير. وقد وقعت معظم الحوادث التي يقصها فكتور هوجو حقيقة في أسقفية (ديني)، سنة 1806، وهي حوادث يلخصها الواعظ إنجيلان فيما يأتي: - (في ذات يوم من أيام سنة 1806، دخل بيير موران وهو مجرم افرج عنه، مدينة ديني نحو الساعة الخامسة مساء بعد أن قطع يومه سائراً، وكان في السادسة والعشرين من عمره، فلما رده جميع أصحاب الفنادق، وأنهكه الجوع والتعب، قصد بناء على نصح سيد عجوز، باب الأسقفية وطرق الباب طرقا عنيفاً، فلبث الأسقف هادئا، ونزلت خادمته روز شاحبة مضطربة وهي تقول - رباه! من ذا الذي يطرق بهذا العنف؟ ودخل بيير موران، ولم يكن في هيئته ما يطمئن؛ ومع ذلك فقد كان يبدو عليه الوجل والحيرة وعذاب المسبغة، وكان وجله يتعارض مع كتفيه العريضين ووجهه القوي، وكأنهم جبينه ينضح عرقا؛ فراعه محيا القس الوديع وغمغم بعبارات لا تفهم، فهدأ القس روعه وخاطبه بتلك البساطة التي تذهب إلى أعماق النفس؛ وقدم إليه العشاء وهيئت له غرفة للنوم. . .) وشعر بيير موران انه قد تغير وغدا شخصا آخر، فدخل ممرضا بمستشفى متنقل؛ وكان قويا متين البنية مثل جان

فالجان، فكان يؤدي عمله كالابطال، وحمل بين يديه ضابطا جريحا، ثم عاد بعد ذلك إلى منزل القس واحب ابنة أخته وخادمته روزالي، ولكنه لم يجرؤ على طلب يدها، فأختفى وقتل في موقعه واترلو ولم يقتصر فكتور هوجو على أن يتحرى الحقيقة بالنسبة لأبطال روايته، ولكنه ذهب إلى تحريها في أوصافهم وأخلاقهم وفي الأوساط والبيئات التي عاشوا فيها مستندا في ذلك إلى وثائق دقيقة. وتبدو عنايته الشديدة بالبحث والدرس حينما يقص حوادث موقعة واترلو، فقد زار مسرح الموقعة الشهيرة ودرس خططها وأماكنها واوضاعها، ورجع في حوادثها إلى تواريخ العصر وسيره ووثائقه.

والحقيقة ان (البؤساء) اكثر من رواية واعظم من قصة؛ (فالبؤساء) بموضوعها وأوصافها قصيدة رائعة للبؤساء، ترتفع إلى السمو، وتشدو فيها العواطف البشرية، ويمثل شدوها في صورها؛ هي تنبؤ بليغ حي، هي نوع من الوعظ الدنيوي يضطرم بنبرات رسول؟

العلوم

ماء جديد

للدكتور أحمد زكي

الماء من اقدم أشياء هذا الوجود، فهو لاشك سبق الإنسان وسبق الحيوان، ولاشك سبق النبات، أليس من الماء كل شئ حي؟ هكذا قالت الكتب السماوية، وعليها آمنت الكتب الفلسفية فالعلمية. وقد أدرك خطر الماء الحكماء في العصور الخالية، فعدوه رابع أربعة من جواهر حسبوا الكون بما فيه تكون منها، ومنها فحسب، بنسب تكبر وتصغر فيتألف منها الجسم الذي ترى بخواصه التي تعرف. وجرت على هذه العقيدة قرون تلتها قرون. حتى جاءت الكيمياء الحديثة بعناصرها ومركباتها، وجاءت بجزيئاتها وذراتها، فأفسدت على الحكماء حكمتهم، وطاحت بالأصول الأربعة التي فرضوها على الوجود، وأثبتت إن الماء مركب من عنصرين الأيدروجين والأوكسجين، بنسبة وزنية ثابتة. نعم قد يتغير الماء لونا وطعما وكثافة، فقد يتملح وقد يتطين وقد يتغوز، فالغازات تذوب بالماء كما تذوب الأملاح، ولكن إيت بالماء من الأرض أو من السماء، على أي حال تشاء، ثم رشحه من أوساخه، وقطره ليخلص من املاحه، واتبع لنقائه أموراً أخرى عديدة تجدها في مفصلات الكيمياء، ثم حلله تجد نسبة الأيدروجين الذي فيه إلى الأوكسجين ثابتة لا تتغير.

هذه بديهة من بدائه الكيمياء، فرغ منها العلماء من زمن، أو حسبوا انهم فرغوا منها. بديهة تسئمك قراءتها بلا شك، كما تسئمني أنا كتابتها، لولا إن البدائه كثيراً ما تنتابها الشكوك فتعكر عليها الهادئ في هذا الوجود المضطرب، حتى بدائه العلم.

إن الأيدروجين أخف الغازات المعروفة، وذرته أخف الذرات. ومن اجل هذا اتخذ وزن ذرته وحدة تقاس بها ذرات العناصر جميعاً. ولكن هذه العناصر إن اتحد بعضها بالأيدروجين فأمكن إيجاد ذرته، فأن الكثير منها لا يتحد به وإنما يتحد بالأوكسجين، فيمكن عندئذ احتساب وزن ذرته منسوبة إلى ذرة الاوكسجين، ولكن المراد نسبتها إلى الأيدروجين حتى يكون اصل النسب واحد، فكان لابد من احتساب كم من الأيدروجين يتحد بكم من الأوكسجين واحتساب ذلك بدقة كبيرة لان هذه النسبة سيتوقف عليها ضبط نسب أخرى عديدة.

اتجه الكيمياويون إلى احتساب هذه النسبة الخطيرة، وهي النسبة التي يتكون بها الماء الذي تشربه واشربه، وفي كل عقد وفي كل عام يخرج الباحثون بنسب متقاربة كل التقارب، إلا أن بينها فروقا صغيرة لا تفتأ تظهر عند الحساب! خطأ في الميزان يا صديقي، وفرق لابد منه مادامت يد الإنسان العاجزة تقوم بهذه التقارير، وأجهزته الناقصة هي كل حيلته في الوصول إلى بغيته. حسنوا الأجهزة، ودققوا في صنع الموازين، واتخذوا كل حيطة إنسانية لمنع الخطأ أن يتسرب، ولكن هيهات ان تتفق الأرقام الناتجة.

حتى كان يوم قريب قدروا فيه هذه النسبة من جديد، فتبين لهم من الأسباب ما حملهم على الاعتقاد ان الخطأ ليس في التقدير، ولا عجز في الإنسان ولا في نقص أجهزته، ولكن في الفرض الأساسي الأول: إن ذرة الأيدروجين ثابتة الوزن، وان ذرة الأوكسجين ثابتة الوزن.

عرفت الكيمياء في السنوات الحديثة، إن العنصر الواحد قد تتشكل ذرته من تشكل واحد. فالزئبق والكلور والبروم والكربتون والزينون وكثير غيرها لكل منها شكلان فأكثر تتفارق في الوزن تفارقا صغيرا وتتقارب في الخواص تقاربا كبيرا. وإذن فلم لا يتشكل الأيدروجين أو الأوكسجين أو كلاهما مثل هذا التشكل؟ لم لا يكون للأيدروجين ذرتان، ذرة خفيفة وذرة ثقيلة، وإذن لم لا يكون للماء جزيئان، جزئ خفيف وآخر ثقيل، اعني لم لا يكون الماء مائين، ماء ثقيل يليق بالحلاقيم الغليظة للجنس الخشن من الرجال، وماء خفيف يتفق والجنس اللطيف من الآلي يدميهن الحرير ويؤذيهن النسيم.

العلم يتخيل فيخال، وإذا بالخيال حقيقة. وتلك الحقيقة أثبتها الأستاذ لويس وذلك بأن أمر التيار الكهربائي في الماء يحلله على ما هو معروف إلى عنصريه، فأثبت إن الأيدروجين الخفيف هو الذي يصعد من الماء أولا، وانه عندما يتحلل اكثر الماء تتبقى منه بقية صغيرة هي الماء الثقيل الذي يحتوي الأيدروجين الأثقل. أعيدت هذه التجربة بصورة أكبر فنتج عنها ماء ثقيل أكثر تركزاً. وخالوا أن الذي يأتي به التحليل بالكهرباء يأتي به التقطير بالنار، فقطروا الماء فحصلوا على نفس النتيجة. كم من ألوف حللو الماء، وكم من ألوف قطروه في الأجيال المنصرمة، وفاتهم جميعا كنه ما يصنعون.

ومن الغريب أن هذا الماء الجديد سم. نعم سم برغم ان الماء اصل الحياة. وضعوا فيه فراخ الضفدع فماتت في ساعة، ووضعوا فيه سمكا فمت في ساعتين، ووضعوا فيه دودا فمات في ثلاث. ولكن بالطبع كان هذا (الماء الثقيل) مركزا تركيزا كبيرا، فقد كان تركيزه 92 في المائة. ولما أضافوا إليه (الماء الخفيف) حتى بلغ تركيزه دون الثلاثين في المائة عاشت فيه كل هذه الأحياء (والماء الكثيف) يوجد في الماء الشرب العادي بقدر جزء واحد في كل 25 ألف جزء أو نحو ذلك. فهو لا اثر له في الإنسان. بل على النقيض قد يكون فيه نفع له. أليس كثير من العقاقير كالزرنيخ والأستركنين سما زعافا. ومع هذا يعطى للمرضى بمقادير صغيرة فيكون فيه الشفاء من أدواء؟ على أن اثر هذا الماء الجديد في الأحياء الراقية ومنها الإنسان لم يمتحن بعد، فالحصول على المقدار الكافي منه لا يزال عملا عسيرا.

ويختلف (الماء الثقيل) في خواصه الطبيعية عن الماء العادي، فهو لا يتجمد على درجة الصفر المئوي بل في نحو درجة 4، وهو لا يغلي على المائة بل على نحو درجة 101.

فإذا ذكرنا أن درجة الصفر ودرجة المائة إن هي إلا درجات اصطلاحية، تعريفها أنها درجة تجمد الماء ودرجة غليانه على التوالي، حق لنا أن تبتسم ابتسامة خفيفة لما حاق بعلم الحرارة من إخلال بأساسات مقاساته، وقد كان عدها الفيزيائيون ثابتة تزعزع الجبال وهي لا تتزعزع.

ونال الفيزيائي غير هذا إخلال جديد في أساس أوزانه. فالجرام ما هو؟ أليس هو وزن سنتيمتر مكعب من الماء ولكن أي ماء، ثقيلة أم خفيفة؟ على أن هذه إختلالات لا تؤثر في حوائج العلم العادية، ومطالب الحياة الجارية، فعين الإنسان قاصرة، ترى الكون كتلا كبيرة ولو ظنتها جسيمات صغيرة، ويده تحس الكون كذلك كتلاً، وانفه يشم الكون أجمالا لا تفصيلا، وأذنه تسمع أنغامه وتظن أنها تستطيع إدراكها نغمة نغمة، ولو إن كل نغمة منها أنغام تحتوي انغاماً، وهو مستمتع في كل هذا بقصور حواسه، قانع برؤية الوجود غبشا وضبابا، مادام لا يحس انه غبش وضباب، فلننس ما كان من تحقيق العلماء وتدقيقهم، ولنشربه زلالا سائغا خفيفه وثقيله، وعلى الدنيا وعلى العلماء العفاء.

احمد زكي

القصَص

قصة شابة ريفية

المجنونة

للأستاذ علي الطنطاوي

قالت ربة المنزل، وقد حف بها أولادها وأحفادها، وجلسنا نحن على مقعدين نصبوهما لنا في صدر الغرفة:

قالت أصغوا ألي فأني قاصة عليكم الليلة قصة واقعة. شاهدت حوادثها بعيني رأسي. ولا يزال أشخاصها أحياء يرزقون، وليس كل ما تمتاز به أنها واقعة، ففي الواقع كثير من التوافه، ولكنها تمتاز بأنها مؤثرة وان فيها عبرة.

كنت صغيرة لا أكاد أدرك. . .

إذن فالقصة منذ ستين سنة على الأقل!
فرمت المرأة صديقي بنظرة تأنيب على هذه الإهانة التي تلقاها بها، واستمرت في حديثها:
كنت بنت سبع سنين يوم دخل (رظا) أفندي البلد. وأني لا ذكر ذلك بوضوح على . . . الرغم طفولتي وقدم العهد. . . لان بلدنا كان يومئذ معتزل العالم، وكان مرور الجند في البلد. أو زيارة غريب أو سفر أحد الفلاحين إلى دمشق، يعد حادثا تاريخيا يلهج به الفلاحون شهورا. ويتخذون منه مادة لأحاديثهم في أسمارهم، وكان اليوم جمعة فلم يرع الناس وهم منصرمون من الصلاة إلا شبح شخص يلوح في الحرة المحيطة بالبلد، ثم يبدو واضحاً وإذا هو رجل طوال منحن يمسك بيمناه عصا طويلة قد علق بها صرة كبيرة، ويجر بيسراه طفلة له، وكانا يجدان عناء في تسلق هذه الصخور والقفز على هذه الأحجار السوداء الحديدة الجوانب، حتى أن الطفلة سقطت اكثر من مرة. فكان الرجل يقبلها، ويصب في أذنها كلمات حلوة معسولة، ويشير لها إلى البلد، فتعاود المسير يحفزها أمل بارق، في ظلام من اليأس تجمع الناس في رحبة البلد، ينظرون إليهما، وتطوع فريق منهم للأخذ بأيديهما ومساعدتهما، واخذ رجل حماره ليركبهما، وعمد آخر إلى شئ من الخبز والجبن وقمر الدين فأخذه إليهما زاعما إنما قد حطمهما الجوع، وحملت امرأة جرة ماء
مؤكدة أن ليس بهما جوع ولا تعب. ولكن الضرب في هذه الحرة المحرقة ثلاث ساعات من الكسوة إلى زاكية، ثلاث ساعات في هذه الظهيرة اللاذعة قد قتلهما عطشا.
ولم تشأ المحدثة أن تثبت هذه المناسبة دون أن تعظ أولادها وتصف لهم جلال الأخلاق الماضية وجمالها فقطعت قصتها وقالت:
أرأيتم؟ هكذا كان الناس: يساعدون الغريب يواسونه بنفوسهم، لا كما تصنعون انتم اليوم.
فقلت: ولكن الرجل؟ هل أكل ما حملوا إليه من طعام؟
قالت: كلا، كان مريضا فلم يأكل شيئا. أما البنت فقد كانت سابغة لاغبة. فأكلت وشربت ثم نامت مكانها من التعب.
حملوا الرجل وابنته إلى دار الشيخ، وكان المرض والضعف قد بلغا بالرجل. فأرادوه على الطعام ليشتد أزره فأبى. فعرضوا عليه الدواء الذي يتخذونه لمثل علته فرفض أيضا: - لا أريد. لا أريد شيئا. لا تفكروا في. أني ميت. قد انتهيت، ولكني موصيكم بهذه الطفلة فهي أمانة في أعناقكم. . لقد غالبت الموت حتى بلغت بها هذه القرية، قد حملتها فوق ما يطيقه إنسان، لقد جابت معي البلاد كلها من القسطنطينية إلى هنا، من القسطنطينية إلى زاكية في ست سنين لم نذق فيها ليلة هناء واحدة.
وأطبق عينيه وفمه وسكت، وحاولوا أن يفهموا منه شيئا آخر فلم ينبس. واعترته حال غريبة لم اكن اعرف يومئذ ما هي، ولكني فهمت منها، ومن صوت الرجل الذي خرج خافتا رهيبا كأنه خارج من قبر، ومن وجهه الشاحب المخيف، وأنفاسه المتقطعة ولهجته الغريبة، انه ليس كمن أرى من رجال، وان له شأنا. . . ولكني لم استطع البقاء اكثر مما بقيت فعدت إلى الدار كيلا تضربني أمي.
وفي الصباح سمعت إن الغريب قد مات - مات ليلة قدومه كأنما قد طوف في بلاد الله هذا التطوف لينام إلى الأبد على هذه الحجارة السوداء، ويستمتع بحلم طويل اثر رحلة شاقة!
بقيت الطفلة وحيدة فكفلتها زوجة شتيوي، وكان شتيوي من شيوخ البدو المقيمين في هذا البلد. وكان غنيا موسرا، ولكن زوجه عاقر لم تأته بولد طيب صالح يعلمه الفروسية والرمي، ويستخلفه في أهله وماله، على الرغم من أنها راجعت الأطباء والمنجمين والمشايخ والمشعوذين في دمشق وفي قطنا، واصطنعت عشرات الأدوية والتمائم فلم ينفعها
. . .ذلك كله فتيلا. فيئست. . . ولما كفلوها هذه الطفلة تلقتها بسرور. واتخذتها ابنة لها كانت الطفلة في التاسعة من عمرها يوم مات أبوها. فلم تلبث في بيت شتيوي سنين حتى نمت واكتملت، وغدت اجمل فتاة في البلد، ولكنها كانت غريبة عن نساء البلدة فهي شقراء، لها عينان زرقاوان، وجسم متناسق جميل، كأنما هي إحدى الفتيات

اليونانيات اللاتي عرفناهن في حي المهاجرين في دمشق.
بل كأنما هي ديان، غادية إلى الصيد!
وكانت تجول كل يوم في هذه الصخور؛ لا كما يجول نساء دمشق إذ يمشين متباطئات متكاسلات نصف ساعة في طريق المنشية، أو في شارع بغداد، ثم يعدن في عربة، بل كما يجول الراعي النشيط ساعتين أو ثلاث تقفز فيها كما تقفز الغزال الشارد، كأن لها خفته وملاحته.
وكانت غريبة في طباعها وأخلاقها، كما كانت غريبة في شكلها، وصورتها، فلما اكتملت أنوثتها وتفتحت زهرة الحب في قلبها، لم نجد لها قاطفا، إذ لم يكن في الناس من يجرؤ على الزواج بفتاة لقيطة لا تعرف أسرتها ولا يعلم نسبها، فضلا عن إنها تقرأ، وإنها قد قرأت كل ما كان مع أبيها من كتب وحفظت ما فيها من كفر وترهات.
كانت الفتاة تعود إلى البيت حينما تعود الشمس إلى خدرها، فتملأ البيت طربا ومرحا، فلما كان ذلك اليوم الذي قلب عليها حياتها، لم تعد إلا في ظلمة الليل، وكانت تهبط الصخر بحذر تحمل شيئا ثقيلا حتى بلغت الدار فولجتها وقد أنهكها التعب، ولكنها كانت هاشة باشة ككل فتاة في السابع عشرة من عمرها، فوضعت حملها برفق على إحدى الأرائك، وقالت لامها في سذاجة:
هاك زوجي، وجدته طريحا عند الصخرة الشرقية. وقد أغمى عليه من هذا الجرح، ستعنين به اجمل عناية حتى إذا ما شفي تزوج بي. . . أليس كذلك؟
فهزت المرة رأسها وقد حدثها قلبها وقلب المرأة (ترمومتر) الحياة - بكارثة، ولكنها لم تجد مجالا للقول فانصرفت إلى العناية بالجريح - وكان ضابطاً ألمانيا جميلا قد خرقت صخرة قذاله وشجته شجا عميقا. ودعت المرأة زوجها فشرع يعالجه بالبلسم والحراقة وما إليها من الطرق البدوية التي قلما تخطيء في مثل هذه الحالات. والفتاة متعلقة به تسأله عن مبلغ
الأمل في شفائه، وترجوه ألا يدخر وسعا في معالجته، لأنها تود شفاءه ليكون لها زوجا، ولما تمت العملية ألقت المريض على سريرها. وألحت على الرجل وزوجه أن يدعا خدمته لها. ففعلا.
جثت أمام السرير كما يجثو العابد في صلاته. وراحت تتأمل وجهه وعينيه المغمضتين في ذهول عميق ونشوة غريبة. وتجرؤ أحيانا على مس شعره الأشقر المتهدل على العصابة مسا رقيقاً، كما يمس المرء شيئا يقدسه ويخشاه ثم تقبض يدها في سرعة. . .
نديدة! نديدة!
نعم يا بابا
ألم تنامي بعد؛ دعي المريض فانه لن يفيق من غيبوبته قبل الصباح
نعم سأنام
ولكنها لبثت جاثية أمام السرير
لبث الرجل وزوجه ينصحانها. يحاولان أن ينزعا غرس الحب من قلبها قبل أن يقوى ويشتد، فكانت تعرض عنهما وتعيد أبداً كلمتها الأولى: هذا هو زوجي.
مر على هذه الأمسية عشرون يوما لم تفارق فيها الفتاة الضابط ولم تعد تجول كما كانت ولم تعد تفكر في شئ. . . وكان الناس يتساءلون عن صلة هذا الإفرنجي الكافر بأسرة شتيوي، فإذا قيل لهم انه مريض وانهم يعالجونه. انصرفوا إلى أعمالهم ساخرين.
وصحا الضابط وذكر كيف خرج يتصيد فجره الصيد إلى هذه القرية، وكيف زلت قدمه فوقع من ذروة الصخرة، وأحس بالدم الحار يسيل على عنقه، ثم لم يعد يذكر شيئا. . .
إلا انه فتح عينيه فوقعتا على عيني فتاة جميلة، حسبهما في الوهلة الأولى، عيني زوجته الفاتنتين الزرقاوين، وانه وجد نفسه على سرير نظيف محاطا بالعناية والعطف، وانه لبث ينظر إلى الفتاة في صمت وخشوع وشكران نظرات طويلة، ثم مد يده إلى يدها الرخصة اللينة فأخذها إلى فمه، ليخط عليها أول كلمة من القصيدة التي تضطرم بها نفسه، قصيدة الشكر للجميل، والشوق للجمال، وان الفتاة لازمته بعد ذلك ملازمة الظل، وحرصت على سروره وهنائه، فكانت تحدثه أطيب الأحاديث البدوية وألذها،

فكان يجيبها بعناء ومشقة، لضيق العربية عليه، ويعجز ان يأتي بالكلمة المناسبة فيأتي بها بالألمانية فتفهمها الفتاة
وهي لا تعرف من الألمانية كلمة، كأنما هي في قلبه، أو كأنما هو - وذلك اصح - في قلبها، ولكن شيئا من ذاك لم يتجاوز في رأيه صلة المجاملة والمتعة بالجمال.
أما الفتاة المتفتحة للحب فقد كانت ترى في هذا كله علامة على الحب الصادق الذي كانت تتوق إليه وتحلم به. وقد ابتغى لها الضابط شتى المعاذير في هذا الموقف حينما اخبره به الشيخ شتيوي، وأعطاها كل الحق في أن تحب. أما أن تصر على اتخاذه زوجاً لها وهو الرجل الألماني المتزوج، وهو الموظف الذي لم يبق من إجازته غير أسبوعين. فأمر مضحك لم يستطع برغم احترامه لشتيوي وشكره إياه إلا أن يتلقاه بقهقهة طويلة مجلجلة.
ما هي جريرتي إذا هي قد أحبتني؟ لم أني أشجعها على هذا الحب. ولم اقطع لها أي وعد بالزواج. وما وقفت منها إلا موقف الرجل المهذب الشاكر. ففسرت ذلك بأنه الحب.
ولكنه تألم إذ يحمل إلى الفتاة التي حملت إليه البرء والحب الألم واليأس. وجرب الإعراض والإساءة إليها علها تنساه. وتنقطع هذه الصلة بينهما من غير أن تخلف وراءها قلبا داميا. فلم يفده ذلك شيئا، وازداد حب الفتاة اضطراما. فأزمع السفر مضطراً وأزف الوداع فتعلقت به وأبت أن تفارقه. وأعرضت عن كل نصيحة، ولم تنفع فيها موعظة ولا زجر. فاقتربت زوجة شتيوي من الضابط وهمست في أذنه كلاما فعاد طلقا مستبشراً. فامسك بيدي الفتاة بحنو وقال لها:
ساعود لأتزوجك. فدعيني اذهب لأعد عدة الزواج. سأعود. . . فتركته الفتاة مصدقة ووقفت على الصخرة التي لقيته عندها تبكي وتشير إليه بمنديلها حتى اختفى. فعادت إلى البيت تقول لامها:
لقد وعدني ان سيعود. سيتزوجني!
نعم سيعود!
مر شهران تصرّم فيهما صبر الفتاة. فكانت تمضي نهارها حيال خريطة قديمة كانت بين كتب أبيها تنظر فيها. وتحاول أن تعرف أين تقع ألمانيا من وجه الأرض، وكم هي المسافة إليها. ولكنها لم تكن تعرف شيئا عن البحار ولاعن الوسائط النقلية. فكانت تصوراتها لا تعدو أن تكون أحلاما مبهمة.
وكانت تبكي بكاء خافتا وهي مكبة على الخريطة. وتستعيد في نفسها صورة الضابط وصوته وحركاته. ثم تعاود البكاء والنشيج، أما هو فقد نسيها. ولم يذكر اسمها إلا مرة واحدة. في كتاب أخرجه عن الشرق.
وقطعت المرأة حديثها لان الباب قد انفرج عن عجوز منحنية على عصا طويلة تصرخ صراخا مزعجا. وتهذي بكلمات مبهمة. ووراءها سرب من الصبيان يقرعون بأيديهم الحجارة ويصيحون: مج. . مج. . مجنونة! مج. . مج. . مجنونة!
. . .فلما نجت منهم، ألقت بنفسها على عتبة الباب، وجلست تبكي بكاء أليما فهمست في أذن ربة الدار:
من هذه المجنونة؟
إنها صاحبة القصة يا سيدي. .!
دمشق
علي الطنطاوي
شهر بالغردقة - 2
للأستاذ الدمرداش محمد
مدير إدارة الامتحانات والسجلات بوزارة المعارف
مدير المحطة الدكتور كرسلاند كما أسلفنا وهو عالم بيولوجي له خبرة حسنة بحياة المرجان وأجناسه وتطوراته، وهو في العقد السادس من عمره، طويل القامة، صحيح الجسم، وسيم الوجه، لطيف المعشر، إذا تكلم رفع صوته لثقل في سمعه، وهو جم النشاط تجده في المعمل، ثم تراه في المكتب، ثم تلقاه في الطريق، ثم تعثر عليه في الجراج، ثم تبصره في البحر، ثم تعلم انه في مركز الشركة ينظم وسائل نقل الماء مثلا، وهكذا فهو حركة دائمة تلقاه في كل مكان. ولعل من احسن فضائل الرجل

حبه الشديد للمحطة ورضاه التام عن حالة العزلة التي يعيش فيها.
كان الجو طوال المدة التي مكثناها بالغرفة معتدلا، فلم تتعد درجة الحرارة في معظم الأيام درجة الثلاثين على الترمومتر المئوي، مع جفاف شديد في الهواء قل أن تجده على شواطئ البحار، ونسيم البحر دائم الانطلاق، وأحيانا يشتد حتى لينقلب في بعض الليالي إلى ريح عاصفة، تثير الأمواج وتهز البيوت وتقلق المضاجع.
وماء البحر بالقرب من الشاطئ دافئ لا يجد فيه الكثيرون ممن ألفوا الاستحمام في الشواطئ المصرية الشمالية متعة البحر ولذته، كما إن السباحة فيه أحيانا غير مأمونة العاقبة لوجود سمك القرش بكثرة في هذه الجهات.
كان الباعث للرحلة عمل مباحث واسعة النطاق على الطفيليات التي تعيش في اسماك البحر الأحمر، وقد استحضر معه الدكتور عبد الخالق بك جميع ما يلزم لهذا البحث من أجهزة علمية ومواد كيميائية، ملأت صندوقين كبيرين من الخشب، وعقب وصولنا وضع الدكتور الخطط الكفيلة بتحقيق الغاية على الوجه الذي أراده، فكان صيادو المحطة يخرجون كل يوم للصيد في قواربهم الصغيرة (الهورى) ويعودون بها عند بزوغ الشمس موقرة بأنواع السمك المختلفة بين صغير وكبير، وعند وصولها يستقبلها الدكتور ومساعدوه، ويشرعون في الحال في ترتيبها إلى فصول ثم تشق بطونها وتفحص محتوياتها بالمجهر بالعناية والتدقيق وطول الأناة التي يستلزمها البحث العلمي.
وكانت هذه العمليات المتشعبة وما تستلزمه من كتابة أسماء وتدوين مشاهدات، وضبط أسماء الأنواع وقيد الصفات ورسم الأشكال وحفظ العينات والنماذج، تستغرق اليوم كله، وأحيانا شطرا من الليل، ومع تشابه هذا العمل وتكرار اليوم بعد اليوم فأنه لم يزد الدكتور إلا إمعانا في البحث، وتوافرا عليه من غير كلل أو ملل، فيذهب إلى معمله مع بزوغ الشمس. ولا يفارقه إلا إذا خيم الظلام، وكثيراً ما كان يعود إليه بعد العشاء، مستضيئا بنور شمعة أو مصباح ضئيل لأكمال بحث النهار: همة عالية تدلك على أن الشهرة العلمية لا تأتي الناس عفوا، بل هي غالبا نتيجة الكد والمثابرة والتدقيق والاستقصاء.

3 - اسماك البحر الأحمر

اشتهر البحر الأحمر منذ القديم بالغنى في أنواع للسمك وأجناسه ومقاديره، فهناك في بطن الماء ثروة هائلة لمن يسعده الحظ فيكشف عن وسيلة للتغلب على شعب المرجان التي تحول حتى الآن دون استغلال هذا المورد الخصب استغلالا واسع النطاق.
أما عن الأنواع والأجناس فتبارك الله مبدع الكائنات: سمك صغير رقيق بطول العقدة، ووحش بحري هائل، بطول أربعة امتار، وسمك عريض الفك جاحظ العينين مبطوط الرأس، وآخر استطال فمه كأنه الحربة غارت عيناه وبرزت وجنتاه، وسمك ناصع البياض مع تناسب في الوجه ورشاقة في القد حتى كأنه شركسية من أهل الشمال، وآخر اسود الجلد غليظ الوجه ضائع الشكل حتى كأنه زنجية من خط الاستواء، وسمك مقوس الظهر مدكوك الرأس حتى كأنه القزم، وسمك ممشوق القامة طويل الذيل ممطوط الرأس حتى كأنه العملاق، وسمك رفيع طويل كأنه الثعبان وآخر ممدود الرأس مجنح الزعانف كأنه الطير، وسمك كالصندوق شكلا وهيئة، وسمك على شكل الفرس القافز، وآخر على شكل قطعة من الصخر في اللون وعدم الانتظام، وسمك احمر ذهبي واصفر واخضر وازرق واسمر، وسمك مخطط بخطوط سوداء وبيضاء أو سوداء وصفراء، أو حمراء وزرقاء، أو جمعت هذه الألوان بالطول أو بالعرض، وسمك هادئ وديع، وآخر هائج عنيف، وسمك سام يلسع بإبرة مثبتة في جسمه أو على ظهره أو في طرف ذنبه كأنه العقرب، وبعض هذه الأنواع مسلح بزوج من هذه الإبر واحدة على كل جانب، وسمك يغطي جسمه زغب صغير سام من مادة صلبة كأنه الشوك وهكذا، وقد عددنا من هذه الأشكال مائة وخمسين نوعا وهو قليل من كثير يقطن الأبعاد والأعماق، ولهذه الأنواع أسماء دارجة يعرفها الصيادون، وقلما يخطئون في التمييز بينها مع وجود تشابه كبير بين بعض هذه الأنواع. وهاك بعض الأسماك التي تعيش في منطقة الغردقة بالقرب من الشاطئ نذكرها على سبيل المثال لا لغرابتها فحسب بل لدلالتها: الحجم والجلخ والبشراكة والمعجبية وشك الزور

والقضبة والدراك والبومة والسيبيا.
ومن العجيب أن اكثر هذه الأنواع تفقد ألوانها البراقة الجميلة بعد إخراجها من الماء بقليل وتصطبغ بلون اسمر قاتم - وسمك القرش اكبر حيوانات المنطقة واشدها بأسا، وهو كبير الرأس عظيم الجسم واسع الفم حاد الأسنان تهلع من رؤيته الأسماك ويخافه الصيادون، ومنه نوع يهاجم الإنسان ويحاول اختطافه، وربما ينهش منه ساقا أو ذراعا - ومن الغريب ان سمكة صغيرة بطول القدم تعيش طفيلية عليه فيحملها على رأسه لاصقة بجلده تتغذى من فضلات طعامه وهو بذلك راض مسرور.

في حقول المرجان (4)

يفاخر الدكتور كرسلاند بحديقته المرجانية ويشيد بذكرها ويشوقك لزيارتها فكنت أصغي لوصفه الشعري وأنا بين الشك واليقين إلى أن رأيت حديقته بل بساتينه بعيني فقلت في نفسي تالله لقد قصر الرجل، فحديقته اجمل وأبدع مما وصف:
ركبنا (لنش) المحطة صباح أحد الأيام فخرج بنا إلى عرض البحر على مسافة أربعة كيلومترا، ثم وقف بنا أمام جزر متتابعة متلاصقة عنها فجوات كأنها بحيرات، ويغطي سطح الجزر ماء البحر على عمق قليل، فنزلنا من اللنش وأخذنا نخطو فوقها ونحن غائصون في الماء إلى ما فوق الركب، وبعد سير شاق فوق العشب لم يتجاوز بضع دقائق وصلنا إلى شاطئ غاطس تتكسر فوق حوافيه أمواج البحر بشكل يهيج يسر الخاطر، وبعد خطوات أخرى أشرفناعلى جرف مواجه للأمواج يغوص في الماء بأنحدار، ولم تكد تقع عيوننا على سطح المنحدر حتى أرسلنا صيحات الدهش والتعجب: منظر ملك علينا المشاعر، فقاع البحر قد كسته لمسافة كبيرة خمائل كثيفة ذات الوان زاهية جميلة بين حمراء وخضراء وزرقاء وصفراء وسمراء، وقد امتدت على الجوانب وفوق المرتفعات وبين الصدوع على أشكال متباينة متآلفة تخالها خمائل الأزهار في بستان الأمير وقت
الربيع.

يتبع

الدمرداش محمد

النقد

كتاب النثر الفني في القرن الرابع

تأليف الدكتور زكي مبارك

للأستاذ أحمد أمين

إن كان أخي (المازني) قد استطاع بلباقته أن يكتب عن هذا الكتاب مقدمة بلا موضوع، فلا حاول في مقالي هذا - لموازنة - أن اكتب عنه موضوعا بلا مقدمة، وان هو وقف الكلام عند محاولته أن يأخذ الكتاب من المجلد، فلأصل ما قطع واكتب من حين تسلمت الكتب من المجلد.
أول ما يطالعك من الكتاب شكله وحجمه، فيعجبك شكله، ويبهرك حجمه، وما ظنك بكتاب طبع في دار الكتب على ورق جميل في جزأين يقعان في نحو ثمانمائة صفحة من القطع الكبير؟
ثم المقدمة، وفي الحق أنها لم تعجبني كثيرا، فقد تحدث المؤلف فيها عن نفسه طويلا (فالكتاب أول كتاب من نوعه) (والكتاب أول منارة أقيمت لهداية السارين في غيابات لك العهد السحيق) (والمؤلف أول من كشف النقاب عن نشأة النثر الفني في اللغة العربية وقهر المستشرقين ومن لف لفهم) وهكذا يمضي المؤلف في تعداد أولياته وهي طريقة لا استحسنها ولا أستسيغها، وأظن أن كثيرا من القراء لا يستحسنونها كذلك ولا يستسيغونها، فخير للمؤلف أن يتوارى وراء ما كتب، ويدع الناس يحكمون له أو عليه لا أن يتقدم هو بالحكم لنفسه، ويقطع الطريق على القراء والنقاد، ويعجبني في ذلك ما نقله المؤلف عن نفسه في ثنايا الكتاب عن أبي هلال قال (ومن صفات الشعر التي يختص بها دون غيره أن الإنسان إذا أراد مديح نفسه فانشأ رسالة في ذلك أو عمل خطبة فيه جاء في غاية القباحة، وان عمل في ذلك أبياتا من الشعر احتمل) نعم إن المؤلف لم يرتض هذا الرأي، وأباح إذا جرى مجرى الدفاع والمفاخرة، ولكن الكتاب ليس موضوع دفاع ولا مفاخرة، وإنما هو موضوع تقرير لحقائق يراها ويعرضها

على القراء، ثم قد يخالفونه فيها وقد يوافقون، وقد يقدرونها تقديرا عاليا وقد لا يقدرونها. وعلى كل حال فلهم القول الفصل لا
للمؤلف، فمن المؤلفين من لم يعجبهما ألف ولم يرقه ما كتب، وإنما كتب الخلود لما قدره الناس لا ما قدره المؤلف - شعر المؤلف بذلك وأراد أن يعتذر عنه (بأنها ثورة نفسية، انطقه بها ما رآه في زمانه من غدر وعقوق) ولكن هل هذا القول يداوي الجرح ويبرئ المرض؟ أخشى أن يحمل الناس على الإلحاح في العقوق والإمعان في الغدر، لان النفس مولعة أبدا بكراهية الحديث عن النفس، ومن طبيعتها أن يحملها إمعان المادح في مدح نفسه على إمعانها في التنكر له وجحد فضله، بل أخشى أن يكون هذا بعينه هو السبب في الغدر والعقوق، فقد اعتادت النفوس ان تقابل الإفراط بالإفراط والغلو بالغلو.
إن يكن المؤلف قد خانه التوفيق في المقدمة فقد صحبه إلى درجة كبيرة في الكتاب، فهو نتيجة مجهود صادق وبحث طويل شاق، أتي فيه بالمقدمة في الموازنة بين الشعر والنثر، ثم تطور النثر من عصر النبوة إلى القرن الرابع، وتكلم في نشأة النثر الفني، والسجع واطواره، وخصائص النثر في ذلك العصر وانواعه، ثم اشتهر الكتاب في كل نوع ونماذج من كتابتهم، وتحليل لأثارهم.
وطريقة بحثه في كل ما بحث سليمة، جارية على الأسلوب الحديث في العرض والنقد واستقصاء ما في الوسع في الرجوع إلى المصادر ومقارنة بعضها ببعض، والشجاعة في إبداء الرأي، والقارئ قد يخالفه في بعض ما قالوا يرى رأيا غير ما ذهب إليه، ولكنه على كل حال يقدر ما بذل المؤلف في تكوين رأيه وتأليف حججه. ثم هو قد وفق إلى آراء جديدة له الفضل في استكشافها ولفت النظر إليها، وآراء صقلها وعرضها في حلة جديدة. وإني إن احترمت الكتاب من الناحية العلمية والعقلية، فإني ناقده من جهة الذوق، وذلك أن الدكتور زكي مبارك كلما رايته أو استحضرت صورته، أشع علي معنى غريبا يصعب تصويره، وربما كان اقرب تصوير له رجل يمسك بيسراه كتابا قيما فيه علم غزير، وأدب وفير، وبيده اليمنى عصا اشهرها، ثم هو يطلع الناس على ما في كتابه من طرف فمن هم أن يفتح فاه بنقد أو مخالفة قنعه بما في يمناه، بل قد يؤمن من الناظر بما يعرض عليه، فلا يعجبه الاستسلام وهذا الإيمان فلا يزال يهيجه حتى يبدأ بالمخالفة أو يظن انه سيبدأ بالمخالفة فيشهر عليه العصا، بل قد يكون السالك على علم بذلك فيتنحى عن كتابه وعن عصاه ويتنحى ناحية أخرى فيسرع الدكتور ليسد عليه المسلك ويأبى أن يفسح له الطريق
حتى ينظر في الكتاب، فإذا نظر فالنتيجة محتمة، وإذا لم ينظر فالنتيجة هي هي ايضا، وهي العصا.
هذا ما كان يشعه على الدكتور زكي، فلما قرأت كتابه النثر الفني تأكد هذا المعنى وتجسم، وما ادري أقرأت الكتاب بهذه العين التي تكونت، أو قرأته محايداً وقراءته زادت هذا المعنى وضوحا.
تجلى هذا المعنى في انه يعرض آراء قيمة وأفكارا عنى بدرسها ثم إذا به يطفر فيحتك بمؤلف أو كاتب فلا ينقده نقد عالم لعالم ولكن نقد مصارع لعالم. إن شئت فأنظر إليه وهو يعرض لرأي الأستاذ مرسيه - أستاذه وشيخ المستشرقين في فرنسا - إذ يقول (وهناك رأي مثقل باوزار الخطأ والضلال وهو رأي المسيو مرسيه ومن شايعه) ثم تقرأ رأي الأستاذ مرسيه ومن شايعه، فإذا هو رأي جدير بالاحترام باعث على التفكير، صالح لحسن التقدير، وهبه كان رأيا سخيفا وفكرا تافها، وقولا لا يؤبه له، فليست هذه لغة العلماء في النقد، ولا طريقتهم في الرد.
نعم قد يكون نقدهم في بعض الأحيان لاذعا، ولكنه - على كل حال - يصاغ بلباقة، وقد جرى المؤلف على هذا السنن مع الأستاذ مرسيه وغيره مما لا شأن لنا بتفصيله، ومما يزيد الأمر عجبا انه شديد قاس في بعض النقد - كما رأيت - ولطيف لبق في البعض الآخر، ولا ندري من الناحية العلمية لم كان لطيفا لبقا هنا، وقاسيا صارما هناك، فقد قلبنا الأمر على وجوهه فلم نجد ذلك يرجع إلى قوة رأي مخالف وضعفه، ولا قوة الحجة وضعفها، إلا أن يكون لشيء غير الرأي وغير العلم وهذا ما لا أدريه.
كذلك آخذ عليه أشياء لم تتفق والذوق قرأتها فضربت أذني وانقبض خاطري. مثال ذلك ما جاء في صفحة 9 و 13 وذيل ص 60 و 61 وذيل 65 الخ.

ثم هندسة الكتاب لم تخل من نقد ولم يشع فيه التناسق، فحجرة صغيرة وحجرة كبيرة، بل وحجرة لم تكن كان يجب ان تكون، وباب كبير وباب صغير، وقد يكون هذا معقولا إذا دعاه الحال واقتضاه المقام، ولكن لم يكن كذلك في هذا الموقف، فقد تحدث مثلا عن المقامات ونشأتها فأفاض وانفق عن سعة، ولم يحدثنا كثيرا عن رسائل إخوان الصفا ونشأتها. قد يتبادر إلى الذهن انه عنى بالمقامات لأنها الصق بالأدب، ولم يعن برسالة

إخوان الصفا لأنها ادخل في الفلسفة والعلم، ولكنه في الكتاب تعرض للأسلوب العلمي كما نعرض للأسلوب الأدبي. على أن في رسائل إخوان الصفا نواحي أدبية عديدة اقر بها المؤلف فأقتبس منها رسالة الإنسان والحيوان، وقد اعتذر عن ذلك بأن الباحثين أطالوا فيها القول قديما وحديثا، وهو عذر لا نوافقه عليه بحال، فمجال القول في إخوان الصفا ذو سعة. وإلى الآن لم تبحث الرسائل بحثا وافيا، ولم يقل فيها ما يشفي النفس ويثلج الصدر.

وفيما عدا ذلك فالكتاب قيم، يقف القارئ على أشياء كانت دفينة، وآراء نظمت كانت شتيتة، ويلفت نظر الشباب إلى جمال في الأدب العربي كان قد عفى عليه الزمان، ويعبر عن ذلك كله بلغة العصر فيقربه من نفوسهم، ويحببه إلى أذواقهم، ويفتح أبوابا لبحث العلماء وتفكيرهم فله على ذلك الشكر.

شهرزاد

رواية للأستاذ توفيق الحكيم

كلمة تحليلية بقلم: عبد الرحمن صدقي

هي تحفة فنية أخرى للأستاذ الحكيم. وهي أدق في ذوقها الفني وارق، وهي ارهف في الحس والطف، وجوها الشرقي أمتع منظرا وأوقع سحرا، وروحها الصوفي اعرق تأصلا واعمق سراً.

ونحن نعرف الأميرة شهرزاد، تتمثل فيها عبقرية القصص وروح السمر، ونتمثلها بأحاديثها المشوقة المتنوعة الأفانين، وحكاياتها الممتعة التي لا ينضب لها معين، بين يدي الملك الآسيوي شهريار وقد تحجر قلبهوغلظ طبعه، تتنقل به ليلة بعد ليلة مأخوذا مدهوشا من قطر إلى قطر في أجواء شتى وآفاق سحيقة، من أنحاء فارس، إلى بلاد الصين أو الهند العجيبة، إلى وادي مصر الخصيب، بين أجناس البشر المختلفة الألوان، وبين طبقات المجتمع ونماذج الأفراد على تفاوت الطبائع والدرجات، من ملوك ومماليك، وسراة وصعاليك، وتجار وحمالين، وصاغة وصيادين، ومقاحيم يجوبون القفار ويركبون أهوال البحار، وفوق ذلك بين عناصر طبيعية وغير طبيعية، إنسية وجنية. رحلة كقصيدة (الاوديسة) شائقة طويلة، طافها الملك شهريار وهو في المقصورة مضطجع يصغي إلى شهرزد في كل مساء في ألف ليلة وليلة.

هذه الرحلة المعهودة للملك شهريار، لم يعرض لها مؤلفنا العصري. وإنما خلص منها رحلة باطنة للرجل شهريار، هي رحلة النفس تحركت فجازت أطوارا بعد أطوار.

فلقد كان شهريار عبد الجسد يبني كل ليلة بعذراء يستمتع بها وفي الصباح يقتلها، وكذلك كان ليلة استقبل شهرزاد يشتهي منها المتعة بالجسد الغض. حتى إذا سمعها تحدثه حديثها الساحر الممتع وتفتح له خزائن القصص والخيال والشعر، تفتحت مغاليق قلبه الموصد وتحرك جامده وارتجفت نياطه، فإذا هو يحبها وإذا بهذا الجسد الشهواني يحبها حب القلب والوجدان. غير أن نار العاطفة بدورها لم تلبث مشبوبة طويلا حتى تصفت إلى نور هادئ شاحب، فإذا هو لا يأمن للشعور بل ينشد المعرفة، وإذا به لا يريد لوقفة عند الظواهر والاعراض، بل الغوص إلى الجوهر ولب اللباب، ولا يريد الاحتباس في الحدود الضيقة بل الانطلاق، إلى حيث لا حدود، فهو فكر محض يجوله التأمل النظري والتجريد الفلسفي.

وهذه الأطوار النفسية الثلاثة التي اتفقت لشهريار على إناء متفرقة، يجلوها أيضاً المؤلف على مسرح قصته في آن واحد موزعة على شخوص ثلاثة: فهذا العبد اسود اللون وضيع الأصل قبيح الصورة رمز للشهوة الحيوانية، تلقاه شهرزاد في حلك الظلام، وتلزمه ألا يطرقها إلا خفية مع الليل، وتستكره معه العلن وتحذوه من أن يدركه الصباح فيقتل. وهذا الوزير الفتي، مثال الجمال في الخلقة والخلق، يحب

شهرزاد كما يحب رجل جميل امرأة جميلة، فهي معبودته لا عشيقته، وقد بلغ التسامي بعواطفه منتهاه، فلم يعد غير قلب شاعر. وهذا الملك قد أفادته حكايات شهرزاد حبرة، وكشفت لبصيرته عن أفق للتأمل بلا حد، ونقلته كالطفل من طور اللعب بالأشياء أو التعبد لها إلى طور التفكير فيها، فهو اليوم فكر شارد أبداًينقب عن الكنه ويطلب المجهول:

أما شهرزاد فهي كالطبيعة لا رفيع عندها ولا وضيع، وهي كالطبيعة تتراءى لهؤلاء الثلاثة فيرى كل فيها مرآة نفسه. فهي عند العبد حس مادي ولذة مشبعة، وهي عند الوزير مثال أعلى للجمال قلبا وقالبا، وهي عند الملك سر عميق ينطوي على نواميس خالدة تجري على مقتضاها حركات الحياة وسكناتها ويتحدى لغزها المعرفة.

ومن عجائب الاتفاق إن هذه المعاني التي اقتضت القصة الرمزية اجتماعها في شهرزاد،

لها سندها المفعم في الحكاية الأصلية:

فشهرزاد إلى كونها مثل غيرها من بنات حواء تخضع لمطالب المرأة الجسدية. فأنها ابنة وزير، كريمة المحتد، كما يدل اسمها نفسه في الفارسية، وقد شاء لها طيب أرومتها أن تتقدم طواعية ليتزوج منها الملك الغشوم قاتل زوجاته، وان تجعل مختارة جيدها الغض عرضة لسيف جلاده، مفادية بحياتها على ضعف الأمل إنقاذا للعذارى من هذا الحيف الراصد لهن. ثم هي لا محالة بطبيعة التربية في القصور ذات ثقافة عالية، وحذق لفنون الأدب والشعر، وعلم بالتواريخ ومضارب الأمثال والعبر. فليس هنالك تجوز معتسف في تصويرها جامعة للجسد المنعم النضير والقلب الفياض بالشعور والفكر الواعي المحكم بالتدبير.

ولقد احتاط المؤلف لرموزه هذه من ان تظهر مجرد رموز متحركة تشخص لما وضعت له في خطى آلية وعزيمة صماء حديدية:

فأضفى عليه مخايل الأحياء من تردد وتشكك، ونوبات ضعف وانتكاس، لما هو مركب في الطبيعة البشرية من العوامل المتضاربة، والدواعي المتداخلة، بحيث إذا صحت الغلبة لإحداها فأن المغلوبة لا تنعدم، بل لها في النفس بين الفنية والفنية تخبط المقيد، وانتفاض المضغوط عليه. فترى الوزير وان كان في حبه للملكة شهرزاد عذريا طاهرا يحفظ لصديقه الملك غيبته، ويرعى حرمته، ويذكر مودته، فانه ليضطرب اشد الاضطراب عند خلوتها به، كما يسوؤه أن تعطف على صديقه وزوجها ايسر العطف ويتجرع المرارة من غيرته الخفية. كذلك ترى شهريار وقد باشرت الحسيات حواسه حتى مل جوارها، وتشبعت بالعواطف مشاعره حتى لفظها ومجها، وتعالى عن كل ما هو حس وشعور يعود في فترة يأس من المعرفة إلى شهرزاد، يسكر عطشه من كأس ثغرها اللؤلؤي، ويستظل من رمضائه بعناقيد غدائرها المتهدلة، ويوسد رأسه المتصدع حجرها، ويريدها على ان تنشده شعراً، أو أغنية، أو تقص عليه قصة.

وما تبدلت الرموز غيرها من اجل هذا، وإنما هي عوارض من إمارات الضعف البشري، ثم تستأنف هذه الرموز البشرية سيرتها المرسومة، ودرتها المقدورة في افتنان وروعة.

ولقد اختار مؤلفنا للقصة بداية اصلح منها مدخلا للراوية من حيث تهيئة الجو والدلالة على

المعنى. فثمت طريق قفر والليل حالك، وإلى ناحية منزل منفرد على بابه مصباح مضيء. وفي هذا الموقف يقفك المؤلف على سحر الساحر، وضعف الجسد، وسطوة الشهوة باللمسات الأولى من ريشته:

الساحر (يقود جارية إلى المنزل): ماذا يقول لك هذا الغريب الأسود؟

الجارية: يسألني عن سر فرح المدينة، فأجبته هو عيد تقيمه العذارى للملكة شهرزاد.

الساحر: وما لفرائصك ترتعد؟

الجارية (همسا): لست ادري!

الساحر: ألم أحذرك أن تقربي هذا العبد الهرم، فأن في عينيه نظرات الفجرة؟

الجارية (همسا): ليس هرماً

الساحر: بم تهمسين كمن به مس؟ هاتي يدك ولندخل. لعلك ارتعت من فبح هذا الرجل؟

الجارية (همسا): ليس قبيحا
(. . .يدخلان المنزل. يظهر العبد يتبع نظراته الجارية)
العبد: ما اجمل هذه العذراء! وما اصلح جسدها مأوى!
صوت (من خلفه): مأوى؟ أللشيطان؟ أم للسيف؟
العبد (يلتفت): أهذا أنت؟
الجلاد (يظهر): عرفتني
ثم لا يطول بك الانتظار في هذا الموقف بمسمع من هذه الكلمات المتقطعة المتبادلة حتى تعلم كل ما طرأ على حياة شهريار الذي كنت تعرفه، من تغير بعيد الأثر، وما يحيط به اليوم من ملابسات وظروف، وحتى تتسلم بين أصابعك أطراف خيوط القصة جميعها، وتتابع في لذة مشوقة حركات نسجها سداة ولحمة.
وترى كيف يعارض حائك القصة بين شهرزاد وقلب الوزير المتأجج في منظر، وبينها وبين عقل الملك السابح في زرقة أحلامه الصافية في منظر، ثم بينها وبين العبد الأسود في منظر. وهو في خلال هذه المناظر وما بينها يداول الخيوط المختلفة الأصباغ فيخرج لنا منها نسيجا خسرواني الوشى، ساحر الألوان كقوس الغمام. حتى إذا أزف الختام أبى المؤلف (الحكيم) على العبد قتله استرخاصا له وكرامة للمنية أن تكفر عن خسته، بل ادخر
المصرع الفاجع للوزير الذي ضاق الواقع عن قلبه الكبير، أما شهريار فقد ذهب في سفر بعيد مجهول.
ولئن كان المؤلف قد نحا نحو الرمزيين في قصته، إلا انه لم يصنع منها لغزا مغلقا ولا شبه مغلق، ولا هان عليه أن يترك رموزها على قرب منالها وقلة تعويضها - للقراء، وبخاصة الذين ألفوا نحوها في التأليف الغربية ليستنبطوا استنباطا، بل اثر ان ينص على تفسيرها نصا في ظهر سطوره أثناء الحوار، فلا يدع لأحد دون فهمها على وجهها حجة.
وقد اصطنع صاحبنا ما يصطنعه أهل مذهبه من أساليب العرض والكتابة. فشخوصه معروفة النظائر في الواقع، ولكنها تبدو لعياننا من مادة اشف من مادتنا، وتروح وتجئ في جو أخف مما نعيش فيه. فكأنما هي من عالم الأحلام نحسها بالحس الباطن، وكأنها لا تتحرك بمحرك فيها من إرادتها بل تحركها قوة مستعلية عليها خارجة عنها، فهي مسوقة من حيث لا تدري إلى حيث لا تدري ولا طاقة لها على التوقف والمغالبة. ثم هنالك السحر والكهانة، والفلتات المنبئة، وأحاسيس النفس السابقة المؤذنة بوقائع غامضة لاحقة. وهذه جميعا مفرغة في سياق شعري يتمشى فيه النغم، وتنتظم الموسيقى نسقه من مبدئه إلى منتهاه، ويعتمد على الإشارة المقتضبة والتلبيس ويتجنب البسط والتقرير، وتتكرر فيه العبارة الواحدة مرات وتكثر فيه الكلماة البارعة والكنايات المحجبة.
شهرزاد: أترى شيئا في ماء هذا الحوض. أليست عيناي أيضاً في صفاء هذا الماء؟ أتقرأ فيهما سرا من الأسرار؟
شهريار: تبا للصفاء وكل شئ صاف. . .! لشد ما يخيفني هذا الماء الصافي. .! ويل لمن يغرق في ماء صاف. . .!
شهرزاد: ويل لك يا شهريار
شهريار: الصفاء. . .! الصفاء قناعها
شهرزاد: قناع من؟
شهريار: قناعها هي، هي، هي. . .
شهرزاد: إني أخشى عليك يا شهريار.
شهريار: قناعها منسوج من هذا الصفاء. السماء صافية، الأعين صافية، الماء الصافي، الهواء، الفضاء، كل ما هو صاف! ما بعد الصفاء؟؟ إن الحجب الكثيفة لاشف من الصفاء!
فلنسجل إذن لمؤلفنا المسرحي النجاح مرة أخرى مغتبطين، ولنردد قولنا فيه واثقين (هذا الفتى فنان حتى أطراف أنامله)
عبد الرحمن صدقي
اتحاد الممثلين

لناقد (الرسالة) الفني
في مساء السبت الماضي ابتدأ اتحاد الممثلين، عمله على مسرح الهمبرا برواية (هرناني) لفكتور هيجو وترجمة الأستاذ خليل مطران، وهي من الروايات الأنموذجية التي ترجمت تحت إشراف وزارة المعارف.
وقد ذكرنا في كلمتنا عن (مديري الفرق والممثلين) إن اتحادا قويا متنا تألف من بين ممثلي الدرام في مصر، من الأكفاء الذين شهد لهم الناس بالمقدرة، وتقدموا للجنة تشجيع التمثيل في وزارة المعارف يعرضون عليها تحت إشرافهاوبالشروط التي ترتضيها. وذلك بعد إن فشلت الجهود التي بذلت مع مديري الفرق، وبعد أن تعنت هؤلاء مع اللجنة وأرادوا ان يملوا عليها شروطهم.
ذكرنا هذا واهبنا باللجنة أن تنتهز الفرصة السانحة فتمد يدها حازمة قوية لهذا الاتحاد وترحب به ولا تضن عليه بالمساعدة المادية التي يستحقها. ويسرنا أن اللجنة كانت عند حسن ظننا بها، وان كلمتنا وجدت منها آذانا صاغية، فقررت ان تمد يدها إلى هذا الاتحاد في سخاء وكرم، وان تعينه على العمل في خطاه الأولى فوضعت تحت تصرفه بضع مئات من الجنيهات يعد بها الوسائل الضرورية ليبدأ العمل على بركة الله.
واتحاد الممثلين اليوم لا ينقصه الرجال الأكفاء ولا المخرج النابه. ولا المال المعين، ولا يعوزه تعضيد الصحافة وتشجيع الكتاب والنقاد، وبالجملة وفرت كل وسائل العمل التي تكفل النجاح فالاتحاد يحمل عبئا عظيما ومسؤولية خطيرة أمام هذا البلد وان الأنظار لترعاه من كل مكان تترقب خطاه وتنظر ماذا هو صانع بالأمانة التي رضي بحملها وبالثقة التي وضعت فيه وبالآمال العريضة التي نيطت به فهو لا ريب الأمل الأخير في إنعاش
المسرح في مصر وإنهاضه إلى المستوى الجدير به. وإنها لتجربة لها ما بعدها، فإن فشلت فليس لنا ألا أن ننفض الأيدي جميعا من المسرح ونتركه للقدر يبعثه حين يشاء، في جيل غير هذا الجيل، وما نتحدث عنه بعد اليوم أن تحدثنا إلا كما نتحدث عن عزيز قضى، أو حلم تبدد.
لو تحقق النجاح لهذه التجربة لسارت القافلة على بركة الله إلى غاية الطريق، ولا استطعنا أن نطالب الوزارة بمزيد من المعونة. ثم لعلنا ننتهي إلى لفت الأنظار إلى العناية بالفن عناية مجدية فتكون لنا الفرقة الرسمية، ويكون لها مسرح خاص مزود بأحدث مبتكرات الإخراج المسرحي، ويقوم فيه معهد الفن من جديد لتلقي أساليبه ودرس وسائله، وتنهض بكل هذا ميزانية من آلاف الجنيهات كما هو الحال في سائر الممالك الحية وتنشط حركة التأليف وتخرج الرواية المصرية إلى النور، وترفع عنا وعن المسرح هذا الخمول الذي نعانيه.
بقي أن نقول أن الاتحاد خطا خطوة طيبة بطلبه من الأستاذ زكي طليمات أن يتولى إخراج رواياته وقد لبى الأستاذ طليمات هذه الدعوة بصدر رحب ونفس مطمئنة.
إن المسؤولية الكبرى التي يحملها الاتحاد إنما يحمل العبء الأكبر فيها فناننا النابه، وهذه المادة التي بين يديه مادة ثمينة في يد الصناع الماهر، ولا شك إننا سنلمس اثر جهوده واضحا، وسنكون سعداء إذ نتحدث إلى قرائنا عن هذا الجديد الذي بتنا نرقبه طويلا.
سينجح فأننا وسيكتب له الفوز، وستخفق لنجاحه وفوزه قلوب، بعضها من الفرح وبعضها من الحسد، قلوب تفرح لأنها ترى المسرح ينهض ويشتد عوده بعد أن طال احتضاره وركوده، وقلوب تتآكل ألماً لان هذا النجاح يفوت عليها كثيرا من المآرب الشخصية والمنافع العاجلة أو يقضي على ادعاءات كانت تصك بها مسامعنا طوال هذه الأعوام.
محمد علي حماد
العدد 40 - بتاريخ: 09 - 04 - 1934
في الحال الحاضرة!
عنوان عزيز عليّ وعلى اخويّ طه حسين ومحمود زناتي! نذكره (في الحال الحاضرة) في مقام الأنس وساعة التنادر فيفجر الضحك من صدورنا المكبوتة، ويرجع بنا مقتحما تيار الزمن الدافق إلى العهود النفّاحة النضيرة من شبابنا الأول! يرجع بنا إلى بقعة من بقاع الأزهر العتيق، خفت فيها الدوي الهادر قليلا، وتهادنت بها أرواح العلماء فلا تشتجر

في لفظة، ولا تختصم في (قولة)، ولا تزدحم على اعتراض، وإنما تسكن إلى هؤلاء الأيفاع الثلاثة ومن اخذ أخذهم سكون الطير المروعة إلى سلام الأيكة المنعزلة، لأنهم كانوا قليلا ما يرغبون في إثارة القلاقل وإهاجة الفناقل، على هذه الأرواح الآمنة البرة.

إنما كان وكدهم أن يجتزئوا من علوم الفقه بقسمة القدر، ثم ينصبوا لعلوم اللسان فيدرسوا الادب، ويقرضوا الشعر، ويحاولوا الكتابة، ويتعرفوا إلى العلم الحديث في دور الكتب، ويطلوا على العصر الحديث من نوافذ الصحف، ويقفوا على البرزخ الممدود بين دنيا الأزهر ودنيا الناس، ينزعون إلى الحياة الحاضرة المتجددة نزوع اسماك البحيرة الأسنة إلى البحر الزاخر المزبد.

كان أستاذنا المرصفي يطبعنا في النظم على غرار (الحماسة)، وفي النثر على غرار (الكامل)، ويزين لنا أن ننظم معلقة كطرفة، أو ننشئ خبرا كأبي عبيدة، ولكنا كنا نجلس على ذلك البرزخ بعيدا عن هتاف الأشباح، نراقب سير المدينة، ونرامق حياة (الأفندية)، ونحاول العبور فيتساءل صديقاي:

- فيم ننظم؟
- في مدح الخديو
- وفيم نكتب؟
- في الحالة الحاضرة

ونكرر كل يوم هذين السؤالين، وهذين الجوابين، حتى استطعنا أن نجد كلاما في مدح الخديو فقلنا ونشرناه.

أما هذه (الحال الحاضرة) فكانت معاياة لم نجد لأمرها مطلعا ولم نقف في وصفها على حيلة! لان مدلولها يومئذ كان غامضا في أذهاننا غموض الجبر! فالقرويين يعيشون على نمط الفراعين، والأزهريون يعيشون في عهد الأيوبيين، والقاهريون يعيشون على حال المماليك، وهذا الذي نسميه الحال الحاضرة ما كان يذكر إلا في مكاتب الصحف، ولا يعرف إلا في بعض دواوين الحكومة!

عبرنا البرزخ، وتعاقبت الأعوام على ذلك العهد تعاقب الموج، فبعضها هادئ وبعضها مضطرب، فأما محمود فظل على حدود الماضي، وأما طه فظفر إلى آماد المستقبل، وأما أنا فبقيت في الحاضر بين الصديقين، سأحاول أن اقضي عنهما هذه الدين، فاكتب اليوم الموضوع الذي وسمنا بالعجز عنه طوال ربع قرن!!

حالنا الحاضر محنة من محن الانتقال، وخدعة من خدع الاستقلال، وفتنة من فتن الباطل! فهي راكدة ركود العفن، واقفة وقوف الحيرة، لا تستطيع أن تجد لها في لغة التطور اسما ولا صفة! فلا هي سبيل نهضة، ولا هي دليل يقظة، ولا هي مظهر امتعاض! وكأنما تقطعت وشائج الاجتماع بين الطبقات والجماعات والأسر، فتناكر الناس، وتدابر الأهل، ودار كل امرئ على نفسه!

فالفلاح كما كان منذ أجيال، لا يكاد ينزع يده من الأرض، ولا يرفع طرفه إلى السماء، ولا يتبين وجهة الدنيا، ولا يتصور غاية الحكم، ثم يحول عليه الحول فلا يجد نقودا في جيبه، ولا سروراً في قلبه!

والعامل على أسوا مما كان: يقاسي العطلة، ويعاني الفاقة، ويشكو الامية، ويستغله الأجنبي بما دون القوت، ثم لا يجد في بلده العين التي تكلؤه، ولا اليد التي تحميه، ولا النور الذي يهديه، ولا الروح الذي يسيره!

والشاب في لبس من أمره! يتعلم ولا يعرف لأي عمل، ويتقدم ولا يدري لأي غاية؟ ويقولون له كن عزيزاً في بلدك، سيدا في دارك، متصرفا في أمرك، ثم يخضعونه للامتيازات فتكسر من نخوته في المجتمع، وتغض من كرامته في القضاء، وتهجم على ثروته في التجارة، ويفور شبابه الحين بعد الحين فيكفه الهوان الغالب والقيادة المترددة.

والأدب يعتمد في سلطانه على الدعوى والوقيعة، وينقل في أحكامه عن النكران والحقد، ويتفرق شيعا وطوائف، لا ليعدد مذاهب القول، ويجدد طرائق البيان، ولكن ليخلق الخصومة بين الكهول والشباب، ويؤرث العداوة بين الشعراء والكتاب!

والساسة تراشق بالتهم، وتقاذف بالعيوب، وتحتكم إلى الخصم، وتحول مجرى الجهاد،

وتزهق روح النهضة، وتشوه آمال الأمة بالمطامع السود والأهواء الأثيمة.
والحكومة تنبعث من أدراج مكاتبها العليا روائح كريهة تسور في الانوف، وتاخذ بالأنفاس، وتفسد الجو على هذه الأمة المسكينة!!
هذه هي العناوين الصغيرة لهذا العنوان الكبير، والعناصر الأولية لهذا الموضوع الخطير، أجملناها في رأسه قبل أن ينزل بنا التفصيل إلى ذيله! على نحو ما يصنع المعلمون من الكتاب، أو المنشؤن من الطلاب، جمعا لتشتيت الرأي، وتصويراً لهيكل الفكرة.
فليت شعري يا هداة الأمة ماذا كنا نقول لو قدر لنا أن نكتب هذا الموضوع حين اقترحناه منذ خمس وعشرين سنة؟!
احمد حسن الزيات
كرستينا ملكة السويد 1626 - 1686
للدكتور محمد عوض محمد
هذه الصورة - التي عرضتها أمام أهل القاهرة إحدى ممثلات السينما في شيء كثير من الإسراف الذي يعشقه رواد الملاهي، وفي شيء كثير من الانحراف عن حقيقة التاريخ التي قلما يعبأ بها أصحاب القصص، ومؤلفو المسرحيات - هي من تلك الصور التي تتجاوز في حقيقتها وفي طبيعتها مذاهب الوهم ومسابح الخيال. وحسب كل إنسان أن تعرض أمامه الصورة كما كانت لا كما يتوهمها القصصيون.
ليس لكريستينا مكان بين كبار الملوك، ولكن لها شخصية قوية غريبة تستفز لتصويرها كل من يهوى الشيء النافر الغريب الشاذ.
ولدت في أول الربع الثاني من القرن السابع عشر، وكان مولدها في شهر كانون الأول: في عنفوان الشتاء القارس، حين يصبح الهواء زمهريراً والماء جمدا. ويوشك الدم أن يتجمد في عروق الناس والحيوان. . . وكان حقيقا بمن يولد في هذا الشهر أن يكون في طبعه تؤده وبرود، ورزانة وهدوء. . . غير أن ابنه جوستاف اودلف، ما كانت تعرف الهدوء ولا البرود، بل كانت كتلة من الشرر المتطاير واللهيب المندلع.
وسيظن الناس إننا نعبث حين ندعي أن لشهر كانون تأثيرا فيمن يولدون فيه. ولنسلم لهم أن في هذا الزعم ما فيه من عبث، وان شهر المولد ابعد الأشياء من أن يؤثر فيمن يولد فيه. ولكن، بعد التسليم بهذا أنستطيع أن ننكر ما للبيئة من تأثير لا يحد، وقضاء لا يرد، وأفعال لا تعد؟ كيف والبيئة هي الركن الركين في فلسفة الفلاسفة وعلم العلماء؟
ولقد ولدت كرستينا تحت سماء اسكندناوية مكفهرة تغشاها السحب، وتكتنفها الغيوم، في بلاد تجمد أنهارها في الشتاء، فلا تجري فيها قطرة ماء، وتجمد البحار فلا تستطيع السفن حراكا؛ ويتساقط الثلج، ويتراكم أكداسا فوق أكداس، فلا ترى العين حيثما نظرت سوى هذه الكتل البيضاء، تكسو الشجر والحجر، والحقول والدور. . . ويبرد الهواء حتى ليكاد النفس أن يجمد حين يغادر الشفتين، ويعجز النبات عن النمو، فيبقى في الثرى هامدا جامدا، ينتظر ربيعا لا يجيء إلا أخيرا، وصيفا لا يدوم إلا زمنا يسيرا أما الخريف فما له هنالك من مأرب سوى أن يمهد للشتاء السبيل؛ وكثيرا ما يندمج فيه، ويصبح ويمسي جزءا منه.
وكان خليقا بمن يولد في هذه البيئة - إذا كان هنالك معنى لما يقوله أصحاب مذهب البيئة - أن يكون هادئ الطبع، لا يصدر في أعماله إلا عن تؤدة وترو، بعيدا عن طيش أهل الشرق وخرقهم الذي اكتسبوه من حرارة هوائهم، كثير التبصر في العواقب، والادخار للمستقبل المظلم كظلام الشتاء؛ مولعا بالعدل بعيداً عن الاستبداد والظلم اللذين هما من خصائص الشرقيين، أهل البلاد الحارة، لأن العدل نتيجة الروية والأناة وقلة الاندفاع، وهذا كله من المزايا التي يمنحها الله لعباده الذين يعيشون في بيئة باردة.
وكأنما أرادت كرستينا أن تقلب هذه السنن جميعا فتجعل عاليها سافلها، فإذا هي وسط هذا الجليد والزمهرير شعلة من نار لا تخبو، ولهيب متقد لا يهدأ، وإذا في طبعها اندفاع وعنف، وإذا هي شديدة القلق، بعيدة عن الهدوء والاستقرار. . . مسرفة مبذرة تبذيرا أفقر الدولة، جائرة في الحكم حتى لقد مالت إلى النبلاء ميلا شديداً، ومنحتهم موارد الدولة وغمرتهم بالهبات. . شديدة الغرور حتى لقد كانت تضع التاج تحت قدميها، وتزعم أنها تفخر إذ تطأ برجلها ما يجلل هام الملوك، وقد نسيت أن ممن حمل

ذلك التاج أبوها العظيم جوستاف ادولف. . . وعلى حدة ذكائها النادر لم تستطع أن تفهم إنها مهما عظمت فإنما عظمتها الحقيقية في عظمة بلادها. . . فكانت لا تعنى إلا بأبهة الملك، وبمظاهر العظمة دون حقيقتها، ومن اجل أبهة الملك أرسلت في طلب ديكارت المسكين، وألحت عليه في أن يقيم بقصرها في أستكهولم لكي يدارسها العلم والفلسفة. فجاء الفيلسوف العظيم وقضى نحبه بعد ثلاث سنين قضاها في بلاد لا يلائمه هواؤها ولا جوها.

وكانت متكبرة اشد الكبرياء، غيورة لا تطيق أن يعرف لأحد فضل، أو يشتهر له بين الرعية ذكر، حتى لقد أساءت إلى الوزير القدير اكسنستيرنا، الذي لم يكن في البلاد في أوربا كلها اقدر منه. . . وكانت جامحة في شهواتها اشد الجموح، منغمسة في اللذات انغماسا يزري بالمتوحشين من أهل أفريقية، ومع ذلك فما هي من أهل الشرق ولا من أهل أفريقية، بل من ذلك الجنس الشمالي التيوتوني الذي اشتهر بالاعتدال وبرود الطبع، كما اشتهر بالشعر الأشقر والعيون الزرقاء. . . فكأنما أرادت كرستينا أن تصفع أصحاب مذهب البيئة باليمن، وأصحاب مذهب الوراثة بالشمال.

لكن البيئة والوراثة ليستا بالشيئين الوحيدين، اللذين خرجت عليهما كرستينا وطعنتهما في

الصميم؛ بل لقد خرجت أيضا على المؤدبين ونظرياتهم وعقائدهم. . اختاروا لتعليمها وتأديبها رجلا من كبار المؤدبين. فلقد توفي أبوها جستاف ادولف في حومة الوغى، بين قعقعة السلاح وهزيم المدافع، في حرب الثلاثين عاما، ولم تكد الفتاة أن تبلغ السادسة من عمرها.

ولم يكن للعرش وارث سواها فحاول المؤدبون أن ينموا فيها طباع الملوك وأخلاق الرجال، فإذا هي لا تعرف سوى أهواء النساء وميول النساء. وإذا فيها كل ما في المرأة المسرفة من تعسف وتسرع، وعناد كعناد الأطفال، وتطرف، ومتابعة للشهوات، وأرادوا منها أن تناصر المذهب البروتستنتي، الذي مات أبوها في الدفاع عنه، والذي بلغت السويد ما بلغته من العظمة بالذود عن حوضه فإذا كرستينا لا تعبأ بالدين البروتستنتي، ولا يهمها أن تمضي البلاد في تلك الحروب الدينية، بل لقد انتهى بها الأمر إلى نبذ البروتستنتية تماما والميل إلى الدين الكاثوليكي. ولم تكد تبرح البلاد بعد اعتزالها الملك حتى اعتنقت الكثلكة وتركت البروتستنتية غير آسفة عليها، وغير مكترثة لذلك التراث الديني المجيد الذي ورثته. بل لعل السبب أو بعض السبب الذي دفعها إلى اعتزال الملك حب ذلك الدين الكاثوليكي الذي أشربت بغضه وعدواته منذ الطفولة

وبذل المؤدبون كل جهودهم لكي يلقنوها منذ طفولتها كيف تسوس البلاد. وكيف تضطلع بأعباء الملك. وكيف تملا العرش المجيد كما كان يملؤه أبوها. وأن تكون العناية بشئون الدولة. صغيرها وجليلها، همها الوحيد الذي لا يصرفها عنه شيء.

لكنها لم تكد تكبر وتتولى الحكم، حتى كانت شديدة التبرم بالدولة وبأعمال الدولة، وبالحكم ما يفرضه عليها من أثقال وأعباء، ومن عناية بأمور تافهة: مسئمة مملة: وهي التي تريد أن تنصرف إلى لذات الجسد بالانغماس في الشهوات، وإلى لذات العقل بالتحدث إلى الفلاسفة، فكانت تتهرب من الاضطلاع بذلك العبء، البغيض وتفر منه ما استطاعت إلى الفرار سبيلا. . وذلك زمن مقاليد الأمور فيه كلها بيد الجالس على العرش، فكان الفرار داعيا إلى إهمال شئون الدولة ونقضا لمصلحة البلاد.

ومع ذلك فقد كانت كرستينا تحسب نفسها عظيمة، بالغة أقصى حدود العظمة، حتى لقد قالت وهي تناجي ربها: (اللهم لقد جعلتني من العظمة بحيث لو أحرزت ملك الأرض

جميعا ما رضيت به!). .

ورأت من العظمة أن يحيط بها جيش عرمرم من أولئك الناس الذين يدعون النبلاء، وهم طائفة ممن لا غناء فيهم، يعيشون عيش الحشرات الطفيلية، بما تدره عليهم من مال لم يكدحوا لجمعه واكتسابه. وكان يلذ لها أن يحدقوا بها ليمطروها ما شاءت من رياء العبودية، وثناء التزلف. . وأعجبها منهم هذا كله، فجعلت تزيد في عددهم وتخلق منهم قبيلا بعد قبيل، حتى باتوا ضعف ما كانوا في عهد أبيها، وكان بدلا لهم أن يعيشوا عيشة البذخ والترف، فجعلت تمنحهم الأراضي والضياع بإسراف وتبذير منقطع النظير،

حتى استنفذت ثروة الدولة في إشباع هذه الحشرات النهمة، وأسلمت بلادها إلى الإفلاس.

وكان من العظمة أن تشجع العلم والتعليم، وجنت البلاد من هذا بعض الخير، ولكنها غلت، فأرادت أن يكون بلاطها مأوى العظماء من رجال الفلسفة والعلم. فكانت تنفق من اجل هذا المأرب، إنفاقا مسرفا لكي يقال إنها حارسة العلم وصديقة العلماء، وأعجبها أن يقصدها السفراء من أقاصي الممالك، وأنيكيلوا لها المدح والاطراء، ولم تلبث أن بات لهؤلاء الغرباء من النفوذ عليها ما ليس لأحد من وزرائها وبني وطنها. وبينما هي تسمح لهؤلاء أن يستميلوها إلى المذهب الكاثولكي، ويخرجوها عن دين آبائها، إذا هي تنفر من مستشار دولة الأمين ووزيرها المحنك أكسل أكسنسترنا محبب إلى الناس، ولأن الشعب يرى فيه خادمه المخلص، المتفاني في خدمته.

كانت كرستينا بلا شك، من أولئك الملوك الذين لا يستطيعون أن يفهموا أن عظمتهم لا قيمة لها إلا إذا استمدوها من عظمة امتهم، وانهم لن يعلو لهم شأن إلا إذا علا شأن دولتهم. فما كان بمجديها أن تكون عظيمة وأمتها حقيرة، غنية وأمتها فقيرة. ذات صولة وقوة، وأمتها لا حول لها ولا قوة. فما لبثت أن أفنت موارد البلاد، واستنفدت خزائن دولة كانت تعد في طليعة دول ذلك الزمن. .

وأراد المخلصون من رجال الدولة أن تتزوج ملكتهم، لكي يضمنوا لعرش الدولة وريثا يجري في عروقه دم أسرة فازا، يرجون - ويلحون في الرجاء - أن تتخذ لها شريكا في حياتها. وكان حديث الزواج هذا أبغض الأشياء إليها، ولم يكن نفورها من الزواج عن تعفف، بل لأنها كانت ترى في الزواج أغلالا تكبح جماحها، وتثني من عنانها، وهي التي تريد أن تبقى حرة طليقة. فلما اشتد إلحاح رجال القصر عليها. طلبت من البرلمان أن يكون ابن عمها شارل جستاف هو وارث العرش من بعدها.

وفي عام 1654 - ولم تكد كرستينا أن تبلغ الثامنة والعشرين تنفس شعبها الصعداء، لان ملكتهم قد اعتزلت الملك وغادرت البلاد، وليس من السهل أن نقدر الدافع الأكبر الذي دفعها إلى سلوك هذا السبيل، فقد كانت هنالك بواعث شتى تعتلج في صدرها، فمن شعب مضطرب ثائر على تبذير ملكته، إلى بغض شديد لتلك التكاليف المضنية التي يستلزمها الاضطلاع بالحكم، إلى رغبة شديدة كانت تدفعها لأن تعيش في جنوب أوربا، وأن تعتنق الدين الكاثوليكي. ولعل أقوى دافع لها إلى اعتزال الملك أنها كانت تريد أن تبهر ملوك العالم حين يرون ملك في ريعان شبابها تنزع عن جبينها التاج وتلقي به في ازدراء واحتقار.

وقد تم لها ما أرادت، فغادرت وطنها، ومعها ثروة حسنة لم تلبث أن أتت عليها، واعتنقت دين الكاثوليك. واتخذت لها في روما قصرا عاشت فيه زمنا عيش الإسراف الذي لا يعرف حدا.

وزارت فرنسا مرتين، في المرة الثانية أدهشت وأغضبت ولاة الأمور حين أمرت رجالها بقتلعشيقها مونالديسكي. فاضطروها إلى مغادرة فرنسا والعودة إلى روما.

لقد كانت المقادير ارحم بكريستينا والطف، لو أنها وافتها منيتها بعد أن نزلت روما، وبعد أن نفذت ثروتها، ولكن الأجل قد تراخى بها حتى بلغت الستين، وكان الشطر الأخير من حياتها مفعما بالألم والشقاء. وعادت إلى وطنها حين بلغت الأربعين تحاول عبثا أن تسترد الملك فلن تلقى سوى الأعراض والنفور. ورجعت إلى روما حيث قضت بقية العمر، وقد نسيها العالم وأهملها الناس، وظلت تعيش عيشة الضنك والضيق وجل رزقها مما يجود به عليها البابا من الهبات حين امتنعت عنها الموارد وتقطعت بها الأسباب.

محمد عوض محمد

نعمة الألم

للأستاذ أحمد أمين

لندع الآن جانبا وصف ما كان من الخلاف بين علماء النفس في أن الألم شعور موجب، أو لذة سالبة، ولندع كذلك بحوثهم الطويلة في تقسيم الألم إلى أنواع: فنوع منه كالذي نشعر به عند وجع الأسنان، ونوع كالذي نشعر به عند الفشل في محاولة، ونوع كالذي نشعر به عند مواجهة ما نكره الخ.

ولندع أيضا بحوث علماء الأخلاق في أن الإنسان في جميع أفعاله يطلب اللذة، ولا

يطلب شيئا غيرها، ويهرب من الألم ولا يهرب من شيء غيره، وانه حين يفر من اللذة فإنما يفعل ذلك لطلب لذة أكبر منها، وانه حين يتحمل الألم فإنما هو يفر من ألم اكبر منه، أو يتطلب بألمه لذة أكبر مما تحمل - ولندع التعرض لما قام حول هذه النظرية من نزاع.

لندع هذا كله، ولننظر إلى أثر اللذة في الحياة العامة وأثر الألم فيها، فيخيل إلي إنا مدينون للألم بأكثر مما نحن مدينون للذة، وإن فضل الألم عل العالم أكبر من فضل اللذة

إن شئت فتعال معي نبحث في عالم الأدب، أليس أكثره وخيره وليد الألم؟ أوليس الغزل الرقيق نتيجة لألم الهجر أو الصد أو الفراق؟ ذلك الألم الطويل العريض العميق تتخلله لحظات قصيرة من وصال لذيذ، وليس هذا الوصال اللذيذ بمنتج أدبا كالذي ينتجه ألم الفراق، وإن الأديب كلما صهره الحب، وبرح به الألم، كان أرقى أدبا وأصدق قولا، وأشد في نفوس السامعين أثراً، ولو عشق الأديب فوفق كل التوفيق في عشقه، وأسعفه الحبيب دائما، ومتعه بما يرغب دائما، ووجد كل ما يطلب حاضرا دائما لسئم ومل، وتبلدت نفسه، وجمدت قريحته، ولم يخلف لنا أدبا ولا شبه أدب، ولو كان مكان مجنون ليلى عاقل ليلى كسائر العقلاء - وإنما فضل المجنون لآن نفسه كانت أشد حسا وأكثر ألما.

ولولا علو همة المتنبي ما كان شعره، وما علو همته؟ أليست كراهية الحياة الدون، والألم من أن يعد من سقط المتاع، والتطلع لان يكون له الصدر أو القبر؟ وعلى هذا المحور دارت حياته، ودار شعره، ولو نشا قانعا لما فارق بلدته، ولكان سقاء كأبيه يروي الماء ولا يروي الشعر.

وما قيمة المعري لولا ألمه من الفقر والعمى - لو كان غنيا بصيرا لما رأيت لزومياته، ولا

أعجبت بكلماته، ولكان إنسانا آخر ذهب فيمن ذهب - إنما خلده ألم نفسه، وأبقى أسمه قوة حسه.

ولو شئت لعددت كثيراً من أدباء العرب والغرب أنطقهم بالأدب حينا ألم الفقر، وحينا ألم الحب، وحينا ألم النفي، وحينا ألم الحنين إلى الأوطان، إلى غير هذا النوع من أنواع الآلام.

نعم قد أجدت اللغة العربية على الأدب كثيرا - لقد أنتجت لهو امرئ القيس وطرفة، وخمر أبي نؤاس، وفخر أبي فراس ومجون الماجنين، وفكاهة العابثين، وكان غنى ابن المعتز ولذته ينبوعا صافيا لحسن التشبيهات، وجمال الاستعارات - وخلفت لذة هؤلاء أدبا ضاحكا، كما خلف الألم أدبا باكيا. خلفت اللذة أدبالمسلاة (الكوميديا) وخلف الألم أدبالمأساة (التراجيديا) ولكن أي الأدبيين أفعل في النفس، وأيهما أدل على صدق الحس، وأيهما أنبل عاطفة، وأيهما أكرم شعوراً، أي النفسين خير؟ أمن بكى من رؤية البائسين، أم من ضحك من رؤية الساخرين؟ أمن رأى فقيرا فعطف عليه، أو هزأت فضحك منه؟!

على أني أخشى أن تكون اللذة التي أخرجت الأدب الضاحك ليست إلا ألما مفضضا أو علقما (مبرشما) أليست خمر أبي نواس محورها (وداوني بالتي كانت هي الداء)؟ أو ليس قد هام بها لأنها (لو مسها حجر مسته سراء)؟ فهو يهيم بالخمر فرارا من ألم الدنيا ومتاعب الحياة؟

ولو فتشت عن دخيلة ابن المعتز، لرأيت ألما قد بطن بلذة وجحيما في شبه نعيم.

ثم تعال معي إلى الحياة الاجتماعية، فخير الأمم من تألم للشر يصيبه، والضر يلحق به، وهل تحاول أمة أن تصلح ما بها إلا إذا بدأت فأحست بالألم، أو ليس من علامة تماثل المريض للشفاء أن يحس بالألم بعد الغيبوبة - ثم من هو المصلح؟ أليس اكثر قومه لما مما هم فيه. أو ليس هو أبعدهم نظرا، واصدقهم حسا. دعته رؤية ما لم يروا، وإحساسه ما لم يحسوا، أن يكون أعمق منهم ألماً وأشد منهم سخطاً، فلم يسعه إلا أن يجهر بالإصلاح وان يتحمل منهم عن رضى ما يصيبه من ألم، لأن ألم نفسه مما يرى بهم، أكبر من أي ألم يناله منهم؟ - وما الوطنية؟ ليست شعورا بألم يتطلب العمل؟

ومن نعم الله أن أوجد أنواعا من الألم هي آلام لذيذة تتطلبها النفوس الراقية وتعشقها. ولو
عرض عليها أن تعوض عنها لذائذ صرفة لما قبلتها. فلو عرض على الفيلسوف المتألم
لذة غنى جاهل لرفض في غير تردد، ولو خير المصلح المجاهد، ينغص عليه قومه،
وينغص عليه غير قومه، وينغص عليه بعد نظره، وينغص عليه قوة شعوره ما اختار من
حياته بديلا - ذلك لأن آلامه سرى فيها نوع من اللذة لا يدركه إلا العارفون، واصبح يهيم
بهذا الألم اللذيذ. ويرى اللذة الصرفة لذة أليمة - وكل ميسر لما خلق له.
أكره من الألم أن يكون ألماً يائسا، فهو يسلم للضعف فالموت، وأحب الألم الأمل فهو
أبعث للقوة والحياة.
وتعجبني اللغة العربية إذ اربت في اللفظ بين الألم والأمل، وباعدت بين الألم واليأس،
فاللهم لا تحرمني من الألم، ولكن قدر أن يكون ألماً لذيذاً.
احمد أمين

سحب في بلاد العرب

الحرب بين نجد واليمن

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كان الخلاف يشتد منذ حين بين زعيم الجزيرة العربية، جلالة ابن السعود ملك نجد
والحجاز وسيادة الإمام يحيى حميد الدين ملك اليمن. وكانت آمال العرب والمسلمين
قوية في أن تنتهي الزعيمان بالمفاوضة والحسنى إلى حسم الخلاف القائم بينهما، وأن
يبذل كل ما في وسعه لاتقاء حرب أهلية تشقى الجزيرة بعواقبها. ولكن العرب
والمسلمين فجعوا أخيرا في هذه الآمال، فوقع الخطب ونشبت الحرب في جزيرة
للمرة الثانية خلال بضعة اشهر. وكانت قد نشبت في الخريف الماضي بين القوات
اليمنية والنجدية لنفس الخلاف الذي يثيرها اليوم؛ ولكنها أخمدت بسرعة وتغلبت
الروية والحكمة يومئذ؛ وكان لصوت العرب والمسلمين أثره في ذلك؛ فعاد الزعيمان
إلى التفهم والمفاوضة، وعقد مؤتمر نجدي يمني ليبحث وجوه الخلاف، وليحاول
الوصول بها إلى تسوية مرضية ولكنه لم يوفق في مهمته لتمسك كل من الفريقين
بوجهة نظره فكان تفاقم الخلاف، وكانت الحرب.

وهذا الخلاف الذي يضرم الحرب في جنوب الجزيرة العربية قديم يرجع إلى أعوام
بعيدة. ومنشؤه مسألة الحدود بين البلدين وتنازع السيادة بينهما على المناطق
والأراضي الواقعة بين الحجاز واليمن، وهي تشمل ولاية عسير الواقعة في جنوب
الحجاز وشمال اليمن، ومنطقة نجران الواقعة شرق عسير جنوب شرقي الحجاز
وشمال شرقي اليمن. وقد كانت السيادة في عسير حتى سنة 1922 مقسمة بين
قبائل بني شهر القوية في قسمها الشرقي، وبين الأدارسة في قسمها الغربي وهو
لمعروف بتهامة؛ ففي سنة 1922 اجتاحت القوات السعودية منطقة عسير الشرقية،
وحطمت قبائل بني شهر واستولت على أراضيها حتى بلاد اليمن وضمتها إلى نجد. ولما
استولى ابن سعود على الحجاز سنة 1925 رأى أن الاستيلاء على تهامة ضروري
لتأمين حدود الحجاز الجنوبية، ورأى الأدارسة أن القوات النجدية تطوق بلادهم من
الشرق والشمال فآثروا التفاهم مع ابن السعود والاستظلال بلوائه، وعقد زعيمهم
السيد الحسن الأدريسي اتفاقا مع ملك نجد توضع عسير تهامة بمقتضاه تحت حماية
نجد وإشرافها (سنة 1926)؛ واستمر الأدارسة في حكم البلاد تحت
إشراف مندوب من قبل ملك نجد؛ ولكن هذا الوضع الشاذ كان مثارا لمصاعب
وخلافات لا نهاية لها؛ واضطر السيد الأدريسي في النهاية أن يتخلى عن مهمة الحكم
والإدارة وأن يفوض الأمر إلى ملك نجد؛ وشعر ابن سعود انه لا ستطيع المحافظة على
عسير إلا إذا ضمها إلى أملاكه، فأعلن في سنة 1930؛ ونزع الأدارسة كل سلطان
حقيقي، وبذلك امتدت حدود المملكة السعودية إلى شمال اليمن، وزادت بذلك أسباب
الاحتكاك بينهما. وكانت هذه الأسباب قائمة منذ استولى ابن سعود على أراضي بني
شهر (عسير الشرقية)، وأشرفت بذلك على منطقة نجران التي يدعى إمام اليمن إنها
من ملحقات مملكته وأن قبائلها تلتمس حمايته، ويدعي ابن سعود أن قسمها الشمالي
داخل في أراضيه. ولكن استيلاء ابن سعود على أمارة الأدارسة كان أبعد في استياء
الإمام وتوجسه من إشراف (الأخوان) على حدوده الشمالية. وكان للإمام من قبل

نفوذ قوي على الأدارسة، وكانت عرى التفاهم والتحالف بينهما قوية متينة، وكان يرى دائما انه أولى وأحق بضم هذه المقاطعة إلى أملاكه من منافسة القوى الذي قصد إليها من قلب الجزيرة، واستطاع في أعوام قلائل أن يدفع حدود أملاكه حتى البحر الأحمر غربا واليمن جنوبا، ولكن الإمام لم يكن في ظروف تمكنه من الإقدام على هذه الخطوة لأنه في الوقت الذي استولى فيه ابن سعود على عسير كان مشغولا بخصومته مع الإنكليز على بعض المناطق اليمنية الجنوبية المجاورة لعدن، وقد احتلها الإنكليز بحجة إنها اختارت الحماية الإنكليزية، وأغارت أسرابهم الجوية على اليمن مرارا وألقت قنابله على صنعاء عاصمة اليمن، ولم يستطع الإمام يومئذ أن يفعل شيئا لمقاومة الغزو السعودي في عسير.

تلك هيأسباب الخلاف الجوهرية بين اليمن والمملكة السعودية. وقد استطاع ابن السعود والإمام أن يتغلبا مدى حين على بواعث الخصومة، وان يتذرعا بالروية والتفاهم، وان يحسما أسباب الخصومة في كثير من المواطن؛ بل لقد انتهى التفاهم بينهما إلى أن عقدا معاهدة صداقة وحسن جوار في سنة 1931 تعهد فيها كل منهما بمراعاة المودة والصداقة وتسليم المجرمين من رعايا الفريق الآخر، وتبادل حقوق التوطن والإقامة بالنسبة لرعايا الدولتين، ولكن هذه الجهود المحمودة في سبيل الوفاق والتفاهم لم تنجح على ما يظهر في حسم أسباب الخلاف الحقيقي؛ واستمرت بواعث الاحتكاك على مسائل الحدود تنفجر من آن لآخر. وفي سنة 1932 انتفض الأدارسة على عمال الحكومة السعودية، واضطرمت في عسير ثورة خطيرة وهوجمت القوات السعودية بشدة، وأصيبت بخسائر فادحة، وردت عن بعض المواقع الهامة، فبادر ابن المسعود بإرسال النجدات القوية إلى عسير، أخمدت الثورة بعد خطوب، وفر الزعماء الأدارسة إلى اليمن، والتجئوا إلى حماية الإمام. واستشعر ابن السعود على ما يظهر ريبا من موقف الإمام إزاء هذه الثورة، وفي أنها ليست بعيدة عن وحيه وتدبيره ومؤازرته المعنوية على الأقل، خصوصا وقد رفض ما طلبه ابن السعود من تسليم الزعماء الأدارسة بالاستناد إلى المعاهدة المعقودة؛ عندئذ عاد الخلاف بين الملكين إلى اشده، واخذ كل منهما يحشد قواته على الحدود. ومع ذلك فقد حاولابن السعود أن يبذل مجهودا أخيراً في سبيا الوفاق والتفاهم، فأرسل إلى الإمام وفد للمفاوضة، ولبث الوفد السعودي في صنعاء عدة أسابيع دون أن يوفق إلى مفاوضة الإمام والتفاهم معه؛ وقيل يومئذ أن الوفد وضع بأمر الإمام أو بأمر ولده سيف الإسلامفي حالة اعتقال. وعلى أي حال فقد فشلت هذه لمحاولة، وتفاقم الخلاف حين تقدمت القوات اليمانية شمالا في مقاطعة نجران، واستولت على بعض مواقع في جنوب تهامة، واشتبك الفريقان يومئذ في بعض المعارك المحلية؛ واستشعر العالم العربي والإسلامي خطر هذه الحرب الأهلية فرفع صوته يحذر الزعيمين من عواقبها، ويناشدهما حقن الدماء واتقاء الشر، فوقفت الحرب يومئذ في بدايتها، أصغى الفريقان مدى حين لهذا النداء الحكيم.

ولكن الحرب تعود فتضطرم اليوم بين زعيمي الجزيرة العربية ويعود الخطر فيهدد مستقبل الجزيرة بشر العواقب. واشد ما نخشى أن تكون المطامع والدسائس الاستعمارية جاثمة وراء هذه الحرب الأهلية تنفح النار فيها، وتترقب من خلالها فرص التدخل. ذلك أن المملكة السعودية بلغت من الضخامة والقوة حدا أضحى يشغل السياسة البريطانية. والمملكة السعودية (نجد وملحقاتها) تجاور بحدودها جميع مناطق النفوذ البريطاني في شبه الجزيرة؛ فهي تجاور العراق من الشمال الشرقي، وتجاور شرق الأردن وفلسطين من الشمالالغربي، وتجاور الكويت وعمان من الشرق، وتشرف على حضرموت من الجنوب؛ وقد دلل ابن السعود في أكثر من فرصة على قوته ومنعة مملكته التي تشمل جميع أواسط الجزيرة من شرقها إلى غربها ودلل بالأخص على أنه شديد الحرص على سلامة حدوده وأراضيه لا يغضى عن أية محاولة تقوم بها السياسة البريطانية لتوسيع نفوذها داخل الجزيرة، وقد رفض مرارا ما عرضته بريطانيا من الاتفاق معه على استثمار مواد الحجاز الطبيعية، أو منحه قرضا يمكنها من التدخل في شؤون مملكته؛ وعلائق ابن السعود حسنة مع روسيا السوفيتية، والتجارة السوفيتية متفوقة في الحجاز، وهذا ما لا يرضي بريطانيا. وابن السعود يدعي ملكية العقبة وما حولها من الأراضي التي تحتلها بريطاني، ويهدد

بالإغارة عليها من حين لآخر، حتى أن بريطانيا اضطرت أن تنشئ لها في العقبة مركزا بحريا ومركزا للطيران الحربي. فهذه العوامل والظروف كلها تحمل السياسة البريطانية على التوجس من صديقها القديم ابن السعود ومن ازدياد قوته ونفوذه داخل الجزيرة، هذا وأما اليمن فهي محطأنظار السياسة الإيطالية، لأن موقعها على الضفة الشرقية من البحر الأحمر تجاه مستعمرة إريترية الإيطالية الواقعة على ضفته الغربية يجعل لها في نظر إيطاليا أهمية خاصة. وقد توثقت العلائق بين اليمن وإيطاليا منذ سنة 1928 وزار رومه يومئذ وفد يمني برئاسة سيف الإسلام ولد الإمام، واستقبل بمنتهى الحفاوة؛ وعقدت بين اليمن وإيطاليا معاهدة تجارية اقتصادية. وتقربت روسيا السوفيتية من اليمن أيضا وعقدت معها معاهدة ودية تجارية (سنة 1929) وكان ذلك عاملا في جزع السياسة البريطانية وتطور سياستها نحو اليمن. ذلك أن بريطانيا تجاور اليمن في عدن اعظم مراكزها البحرية في البحر الاحمر، وتحتل إلى جانب عدن عدة مناطق أخرى تجاور اليمن من الجنوب الشرقي وينازعها الإمام في ملكيتها. وكان الخلاف قويا مستمرا بين الإنكليز والإمام منذ أعوام طويلة، والسياسة البريطانية تتردد بين خصومته وصداقته، وتحاول إرغامه من وقت لآخر بتنظيم الغارات الجوية على أراضيه، أن يعترف بملكيتها للمناطق التسع التي تحتلها. فلما أتجه الإمام نحو السياسة الإيطالية، وظهرت روسيا السوفيتية في الميدان تتقرب إلى اليمن، خشيت السياسة البريطانية عواقب هذه الخصومة، فعادت إلى مصانعة الإمام، ودارت بينهما مفاوضات انتهت أخيرا بعقد كعاهدة يمنية بريطانية تعترف فيها بريطانيا العظمى باستقلال اليمن، وتسوي فيها بعض المسائل المعلقة بين الفريقين، وتنظم علائقهما. فهذه العوامل والظروف كلها مما يحمل على الاعتقاد بأن اضطرام الخصومة بين الإمام وابن السعود زعيمي الجزيرة العربية ليس مما يعنيهما وحدهما، وأن نشوب الحرب بين اليمن والمملكة السعودية مما يثير أشد الاهتمام من جانب السياستين البريطانية والإيطالية؛ ومن الصعب أن نحاول الآن أن نلتمس ما قد يكون لإحدى هاتين السياستين أولهما معا عناصر الوحي أو التأثير في سير الظروف والحوادث التي أدت إلى هذه الأزمة الخطيرة في علائق زعيمي الجزيرة العربية؛ ولكن الذي لا ريب فيه أن السياستين البريطانية والإيطالية ترقب كل فرصها خلال هذه الحوادث، وتبذل وسعها للاستفادة منها، ودفعها إلى الطريق الذي يتفق مع مصالحها وغاياتها

وليس هنا مقام التحدث عن المسؤولية، عمن ترجع إليه التبعة في وقوع هذه الحرب التي تهدد مصاير الجزيرة العربية بشر العواقب، فلكل من الفريقين المتخاصمين وجهة نظر، ولكل أسبابه التي يستند إليها في تأييد موقفه. ويكفي أننا سردنا الحوادث والظروف التي أدت إلى هذا الموقف. وهي كما يرى القارئ حوادث وظروف تجتمع وتتهيأ منذ عدة أعوام، ثم اشتدت وتفاقمت في العامين الأخيرين. بيد أننا لا يسعنا إلا أن نعرب عما يخالجنا ويخالج العرب جميعا والمسلمين جميعا من الأسف والجزع لاضطراب أفق الجزيرة العربية بهذا الحدث الخطير الذي لا تقتصر عواقبه على المملكة السعودية وحدها أو على اليمن وحدها، ولكنها تلحق القضية العربية بأسرها. ونحن على يقين من أن جلالة عبد العزيز بن السعود، وسيادة الإمام يحيى يدرك كلاهما خطورة لموقف ويود أن يتقيه بكل ما وسع؛ ولقد برهن كلاهما خلال الأعوام الأخيرة في اكثر من موطن على انه يؤثر التذرع بالروية والحكمة ويؤثر الصفاء والسلام، وقد استطاعا حتى اليوم أن يتجنبا كارثة الحرب؛ فمثل هذه الحرب مهما كانت نتائجها بالنسبة للمملكة السعودية أو اليمن لا يمكن إلا أن تكون شرا على مستقبل الجزيرة العربية؛ وما تزال ثمة فرصة للمهادنة والتفاهم، فهلا بذل زعيما الجزيرة مجهودا أخيرا لتدارك الخطب وحقن الدماء، فيحققا بذلك رجاء كل عربي وكل مسلم، ويعيدا بذلك إلى الجزيرة سلامها وأمنها؟

محمد عبد الله المحامي

فلسفة القصة

ولماذا لا اكتب فيها. .؟

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

سألت الأستاذ مصطفى الرافعي، لماذا لا يكتب في القصة، ولماذا يخلو أدبه منها؟

فأجاب -:

(لم اكتب في القصة إلا قليلا، إذا أنت أردت الطريقة الكتابية المصطلح على تسميتها بهذا الأسم، ولكني مع ذلك لا أراني وضعت كل كتبي ومقالاتي إلا في قصة بعينها، هي قصة هذا العقل الذي في رأسي، وهذا القلب الذي بين جنبي.

(شاع أدبالقصة في اوربا، وطغى عندهم على المقالة، والكتاب وديوان الشعر جميعا، فقام عندنا المتابعون في الرأي، والمقلدون في الهوى، والضعفاء بطبيعة التقليد والمتابعة - قاموا يدعون إلى هذا الفن من الكتابة، ولا يرون من لا يكتب فيه إلا مدبرا عن عصره وأدبعصره. ولا جرم إذا كانوا هم أنفسهم مدبرين عن الحقيقة ومعنى الحقيقة. وأنت متى كان وجهك إلى الباطل وظهرك إلى الحق، فمهما تقدم في رأي نفسك فإنما تتأخر في رأي الحق، وكلما قطعت إلى غايتك رأيت الذي وراءك مختلفا متراجعا بمقدار ما أبعدت كأنه في أمس، وكأنك في عد، ولا يوم بينكما يجمع منكما ما تفرق.

(أنا لا اعبأ بالمظاهر والأعراض التي يأتي يوم وينسخها يوم آخر. والقبلة التي اتجه إليها الأدب إنما هي النفس الشرقية في دينها وفضائلها، فلا اكتب ما يبعثها حية ويزيد في حياتها وسمو غايتها، ويمكن لفضائلها وخصائصها في الحياة، ولذا لا أمس من الآداب كلها إلا نواحيها العليا - ثم انه يخيل إلى دائما أني رسول لغوي بعثت للدفاع عن القرآن ولغته وبيانه، فأنا أبداً في موقف الجيش (تحت السلاح) له ما يعانيه وما يكلفه وما يحاوله ويفي به وما يتحاماه ويتحفظ فيه، وتاريخ نصره وهزيمته في أعماله دون سواها. وكيف اعترضت الجيش رأيته فن نفسه، لا فنك أنت ولا فن سواك، إذ هو لطريقته وغايته وما يتأدى به للحياة والتاريخ (وقد عابني مرة أحد الكتاب بأني (لا اكتب في الدراما) فلو أن هذا الكاتب وقف على شاطئ المحيط وجعل يتهكم بالأسطول الإنجليزي فيزري عليه انه ليس شيوعيا ولا بلشفيا، فما عسى أن يقول الأسطول إذا هو أجابه إلا أن يقول شيئا كهذا:

تبارك من صنع هذا الإنسان مدفع لحم لإطلاق الكلام الفارغ.

(أنا من اجل ذلك لا أزال إلى الآن مع الأدب العربي في فنه وبيانه اكثر مما أنا مع الحكاية ولغتها وعواطفها، فأكبر عملي إضافة إلى الصور الفكرية الجميلة إلى أدبنا وبياننا متحاشيا جهد الطاقة أن أنقل إلى كتابي دواب الأرض أو دواب الناس أو دواب الحوادث، فان الكتب ليست شيئا غير طبائع كتابها تعمل فيمن يقرؤها عمل الطباع الحية فيمن يخالطها. والرواية إذا وضعها كاتب فاجر، فهي عندي ليست رواية بل هي عمل يجب أن يسمى في قانون العقوبات (فجورا بالكتابة).

(أن اكثر ما تراه من القصص، وبخاصة هذه التي غمرت الكتابة عندنا - إنما هي صناعة لهو، ومسلاة فراغ، وهذا قد يكون له وجه في علاج الحياة العملية، وفي تخفيف حطمة الاجتماع في أوربا وأمريكا، ولكن ما موضعه عندنا في الشرق، والشرق إنما تعمل في نهضته لمعالجة اللهو الذي جعل نصف وجوده السياسي عدما، ولملء الفراغ الذي جعل نصف الحياة الإنسانية موتا؟ هذا الضرب من القصة هو لرجالنا ونسائنا إذا قراؤه وتلهو به أشبه بإدخال أولئك الرجال والنساء - إدخالهم وإدخالهن على الكبر - في مدارس رياض الأطفال.

(الأطفال يستلذون الحكاية بالفطرة لأنها تجيئهم بالدنيا التي يعسر أن يذهبوا إليها أو يغامروا فيها، وتهيئ لهم أن يشعروا خيالهم قوة الخلق فتكون لذتهم على مقدار من بعد هذه الدنيا عنهم وعلى مقدار مثله من طبيعة العجز في خيالهم، وهذا الضعف في الناحيتين هو بعينه الذي يجعل لأكثر القصص شأنا عند سخفاء الناس وفراغهم، وأهل الحمق فيهم، يسعرهم شهوات وخيالات وأوهاما من الباطل، فذلك أذن ليس أدبا يكتب ويقرأ، بل هو بلاء اجتماعي يطبع ويوزع في الناس. . .

ألا ترى أن تلك الروايات توضع قصصا، ثم تقرأ فتبقى قصصا؟ وان هي صنعت شيئا في قرائها لم تزد على ما تفعل المخدرات تكون مسكنات عصبية إلى حين ثم تنقلب بنفسها بعد قليل إلى مهيجات عصبية؟!

وأنا لا أنكر أن في القصة أدبا عاليا، ولكن هذا الأدب الغالي في رأيي لا يكون إلا بأخذ الحوادث وتربيتها في الرواية كما يربى الأطفال على أسلوب سواء في العلم والفضيلة.

فالقصة من هذه الناحية مدرسة لها قانون مسنون وطريق ممحصة، وغاية معينة، ولا ينبغي أن يتناولها غير الأفذاذ من فلاسفة الفكر الذين تنصبهم مواهبهم لإلقاء الكلمة الحاسمة في المشكلة التي تثير الحياة أو تثيرها الحياة، والأعلام من فلاسفة البيان الذين رزقوا من أدبهم قوة الترجمة عما بين النفس الإنسانية والحياة، وما بين الحياة وموادها النفسية في هؤلاء وهؤلاء، تتخيل الحياة فتبدع أجمل شعرها، وتتأمل فتخرج أسمى حكمتها، وتشرع فتضع اصح قوانينها.

وأما من عداهم ممن يحترفون كتابة القصص فهم في الأدب رعاع وهمج كان من اثر) قصصهم ما يتخبط فيه العالم اليوم من فوضى الغرائز - هذه الفوضى الممقوتة التي لو حققتها في النفوس لما رايتها إلا عامية روحانية منحطة تتسكع فيها النفس مشردة في طرق رذائلها

إذا قرأت الرواية الزائفة أحسست في نفسك بأشياء بدأت تسفل، وإذا قرأت الرواية الصحيحة أدركت من نفسك أشياء بدأت تعلو. تنتهي الأولى فيك بأثرها السيئ، تبدأ الثانية منك بأثرها الطيب، وهذا عندي هو فرق ما بين فن القصة، وفن التلفيق القصصي!!

هذا هو رأي الأستاذ الرافعي ننشره على اصله، لينظر فيه الكثير من شبابنا الناشئين، الذين أقبلوا على كتابة القصة، لعل فيه ما ينفعهم ويفيدهم، ويمهد لهم سبيل الكمال في إنتاجهم.

اسعد حنا

الإسماعيلية

الملقبون بالحشاشين

أين نشأ ابن الصباح

ورد فيما مضى ذكر لدار الحكمة وهي المدرسة التي أنشأها في مصر الحاكم بأمر الله العيدي في القرن الثالث الهجري لتعليم مذهبه التوحيدي، فلما مات أبو طاهر الجنابي عام 332هـ وهو الذي خلف أبا سعيد الجنابي كانت هذه المدرسة قد زهت وأفلحت فلاحا عظيما، وكان أساس التعليم فيها قلب الخلافة العباسية وزوال دولتها، وكان الدخول فبها مباحا لكل راغب، ويلقي العلوم فيها شيوخ تصرف لهم المرتبات والمكافآت العظيمة من أموال الدولة، وكانت علوم هذه المدرسة تسعة كلها دينية منقولة عن مبادئ أبن القداح (القداح هو ولد ديصان واسمه عبد الله ولقب بالقداح لأنه كان يعالج العيون بقدحها، وكان أبوه قد علمه الحيل، واطلعه على أسرار نحلته ومخاريقه، فلما مات خلفه أبنه، وكان يدعو إلى ظهور المهدي في ذلك الزمان في اليمن، وهو المذهب الذي تفشي في البحرين في القرن الثالث الهجري كما ذكرنا) وكانوا فيالدور الأول من هذه العلوم يعمون على الطالب ويشوشون عليه تشويشا مخيفا ويلقنونه معنى مكتوما لمتن القرآن، وفي الدور الثاني يفرضون عليه إيمانا وأقساما يقسم بها ويبالغ في حفظها، ثم يعلمونه الأئمة المقامين من الله تعالى الذين هم في مذهبهم أصل كل معرفة، فإذا بلغ الطالب الدور الثالث علموه، عدد هؤلاء الأئمة الذي لا يتجاوز سبعة، وإذا بلغ الدور الرابع علموه انه منذ خلق الله العالم وجد سبعة متشرعون الاهيون هم الرسل. السبعة المعروفون في مذهبهم بالنطقاء، وكيفية إقامتهم لتلك الشرائع. فإذا بلغ المرتبة الخامسة علموه أن لكل واحد من هؤلاء السبعة اثني عشر رسولا للدعوة إلى الإيمان الصحيح، وإذا بلغ السادسة علموه السنن الإسلامية، ولقنوه أن كل الشرائع الدينية المشروعةيجب أن تكون خاضعة للشرائع العمومية والفلسفة، معولين في ذلك على فلسفة إفلاطون وأرسطو وفيثاغورس، وهي عندهم رأس كل تعليم، وإذا بلغ المرتبة السابعة انتقل من الفلسفة إلى الأسرار، وفي الثامنة كانوا يثقفون عقله بتعليم أشياء من مراتب الأنبياء والرسل، ويلقنونه وجوب إنكار وجود الجنة والنار، ويبطلون الأعمال ويقولون أن ليس على الأعمال ثواب ولا عقاب لا في الدنيا ولا في الآخرة. ثم يدخل الطالب في الدور التاسع وفيه ينقاد الانقياد الأعمى لشيخه فلا يخالف له أمرا ولا يعصي له كلمة ولو أدت إلى الموت.

ونظرة إلى هذه التعاليم ترينا مقدار مخالفتها للدين الإسلامي، فأن منها ما لو آمن به المسلم لكفر، ونتبين منها الكراهة لبني العباس والتشويش على الطالب بتلقينه معنى

مكتوما لمتن القرآن حتى يتيسر لهم التوفيق بين إنكار الجنة والنار، وما ورد في ذلك الكتاب المقدس عن وجودهما بأصرح عبارة. ثم هذا إلى ذكر المشرعين الإلاهيين والرسل الذين يدعون إلى الدينالصحيح، وما في ذلك من التشكك في صحة النبوة والدعوة إلى الارتياب فيها وقصر الصحة على أولئك الرسل وحدهم.

في هذه المدرسة التي ذكرنا تعاليمها الخبيثة درج زعيم الحشاشين، وعلى هذه المبادئ التي تناقض الدين نشأ ابن الصباح. فلا عجب إذن أن فعل ما سنراه من المنكرات، ولا عجب أن تكون هذه الأفعال نتيجة سيئة لإنكار الحساب والجزاء والعقاب. وإذا كان الشخص الناشئ على هذه التعاليم خطراً على الدين والأخلاق فماذا يكون إذا شابه ابن الصباح فيما كان عليه من دهاء وعلم وحذق؟! لكإن ابن الصباح اصلح نفسية تلائم هذه المدرسة واخصب عقلية لغرس تعاليمها.

كيف تولى ابن الصباح أمر الإسماعيلية

لا يقول ابن الأثير (وكان الحسن من تلاميذ ابن العطاش الطبيب الذي ملك قلعة أصبهان، ومضى ابن الصباح فطاف البلاد ووصل إلى مصر، ودخل على المستنصر صاحبها فأكرمه وأعطاه مالا، وأمره أن يدعو الناس إلى إمامته، فقال له الحسن فمن الإمام بعدك؟ فأشار إلى ابنه نزار وعاد من مصر إلى الشام والجزيرة وديار بكر والروم ورجع إلى خراسان، ودخل كشغر وما وراء النهر يطوف على قوم يضللهم. فلما رأى قلعة (آلموت) واختبر أهل تلك النواحي أقام عندهم وطمع في غوايتهم ودعاهم في السر، واظهر الزهد والورع ولبس المسوح فتبعه أكثرهم، والعلوي صاحب القلعة حسن الظن به، وجلس إليه وتبرك به. فلما احكم الحسن أمره دخل يوما على العلوي في القلعة، فقال له ابن الصباح: أخرج من هذه القلعة، فضحك العلوي وظنه يمزح، فأمر ابن الصباح أصحابه فأخرجوه إلى
دامغان، وأعطاه ماله وملك القلعة).

هذا الدهاء الذي اتصف به الحسن كان من اكبر العوامل التي ساعدته على تسليم الرياسة الكبرى للإسماعيلية، والى جانب هذا الدهاء انصراف الخلفاء من بني العباس في وقته عن الشؤون العامة وعجزهم عن تحصين إمامتهم، وضبط خلافتهم لاسترداد الملك للعجم من الديلم والسلاجقة فباتوا لا يقدرون على كف الغوائل عنهم، والإسماعيليةينتشرون في أنحاء الشرق القاصية.

وبعد استيلاء الحسن على قلعة آلموت في ولاية جيلان بفارس وهي أقوى القلاع زادها قوة واحكم تحصينها وجعلها تحت دولةالإسماعلية، فعظم أمره بين اتباعه ولقبوه بالشيخ وهو اكبر ألقابه، وقد كانت له ألقاب أخرى منها الرئيس والسيد.

وبعدان تولى الرياسة كثر اتباعه وانقادوا له الانقياد الأعمى فأتخذ منهم أداة للظلم والطغيان فارهب بهم الخلق والملوك والسلاطين وحاربهم هزمهم، وقد قام بترتيب الطائفة إلى ثلاث مراتب: الدعاة وهم الداعون إلى مذهب الطائفة، والرفاق وهم الذين اعتنقوا المذهب وخضعوا لسلطة الرئيس، والفدائية وهم عدة الرئيس خاصة يسيرهم كما يشاء، وكانوا يربون في بيوت الرؤساء منذ نعومة أظفارهم يلقنون طاعة الرئيس والتضحية بالنفس في سبيل إنفاذ أوامره، ويفهمون أن الواحد منهم قد علقت سلامته بفداء روحه ويصور لهم العذاب في ابشع صورة أن خالفوا للرئيس أمرا، والنعيم في أشهى مظاهره أن هم تفانوا في خدمته. وهنا تظهر صولة القوم وخداعهم فقد كانوا كي يحققوا الفدائية ما يعدونهم به من النعيم مقيم ينشئون الحدائق الغناء والبساتين الفيحاء يحيطونها بالأسوار العالية ويضعون فيها من الصناعات ما حسن تنسيقه مما يبهر الأنظار ويخلب الألباب ويجعلون فيها كل أنواع الفاكهة والأزهار والورود والرياحين تتدفق فيها الشلالات الجميلة وسط المزروعات الخضراء والمروج الفيحاء، وينبعث من أرضها ماء الينابيع والنافورات، ويخصصون أمكنة من تلك الحدائق تكون مجالس فاخرة وأروقة مزخرفة بالخزف والصيني والفرش، والبسط والطنافس والرياش ويودعون فيها الأواني الفضية والذهبية والبلورية المموهة بالذهب الخالص يزين ذلك كله اجمل العذارى، واظرف الولدان في ثياب ارق من نسيج العنكبوت يروحون في تلك الحدائق ويغدون كالأطيار الجميلة تنتقل
من دوحة إلى دوحة، يغرون الناظرين بالتيه والدلال، وبالجملة فقد جعلوا من تلك الحدائق فتنة لاتباعهم، فذا فاز أحد الرفاق على الآخر في إظهار منتهى الطاعة

للرئيس والخضوع لأوامره خضوعا تاما وكتم السر والاحتفاظ بالعهود، أعطوه من الحشيش ما يذهب معه لبه، ويفقده صوابه. ثم أرسلوه إلى تلك الحدائق الساحرة حيث يفيق بين مظاهر الجمال ويغمر بأنواع الملذات ويتركونه ساعة يعطونه بعد مضيها الحشيش مرة أخرى حتى إذا غاب عن صوابه أعادوه إلى مكانه الأول. وهناك يمنونه بالعودة إلى تلك الجنان أن هو زاد في طاعته، وبلغ في التفاني والولاء أقصى ما يستطيع.

وبعد أن تفشت هذه التعاليم أباح الرؤساء لتابعيهم كل أنواع الملذات وأطلقوا لشهواتهم العنان، وأباحوا لهم زواج الأخوات وكل من يحرم الدين الزواج منهن، وعكفوا على تعاطي الحشيش وأدمنوا في ذلك وأسرفوا، حتى انقلبت تلك الطائفة التي تدعى أن لها تعاليم دينية راقية وأنها تدعو إلى الإيمان الصحيح إلى فئة طاغية مجرمة تحلل المحرمات وتحض على المنكرات. وترى في القتل عملامشروعا يثاب عليه فاعله.

ولما قامت الحروب الصليبية كان للحشاشين فيها يد سوداء، وقاموا في أثنائها بأفظع الأعمال الوحشية، فأطلق الفرنجة اسم وهو تحرف لكلمة حشاشين وجعلوه لكل قاتل مجرم. ويروي المؤرخون لأولئك الحشاشين من فظائع الأعمال ما يعطينا عنهم صورة بشعة رسمت بلون الدماء الحمراء، ووضعت في إطار من عظام القتلى وأشلائهم، فيقول المسعودي وأبو الفداء انه بلغ من جرأة الحشاشين انهم كانوا يخطفون الناس من الشوارع والحارات بأغرب الطرق، وكان الرجل يتبع خاطفه في سكون وخشوع، والويل له أن أبدى مقاومة أو تحرك لسانه طلبا للنجدة، فانه أن فعل استقر خنجر الفداوي في قلبه، وكان إذا غاب أحدهم ساعة عن أهله تحققوا انه قد خطف وقتلفيقيمون عليه الأحزان. وصار الناس يلبسون الدروع تحت الثياب مخافة الفدائية، وكان من دهائهم تعليم اتباعهم المهن كالطباخة والحلاقة والخياطة ودسهم في بيوت الأمراء يقومون فيها بالخدمة الجاسوسية. يقال أن أحد السلاطين أرسل يوما إلى شيخ الجبل يدعوه إلى الطاعة والكف عن إيذاء الناس. فقال الشيخ للرسول: أمخلصون انتم لسلطانكم؟ فأجابه كلنا نفتديه. فقال له قل لسيدك موعدنا يوم كذا، وقل له أن يضم إلى مجلسه اخلص المخلصين له، وكان عند السلطان غلامان لا يطيق فراقهما لحظة، فلما حل اليوم اقبل الشيخ في قلة من أصحابه مدججين بالسلاح فجعل يحادث السلطان فقال السلطان للشيخ سألت عن إخلاص قومي وكفايتهم، وأني مريك الآن ما لم تراه، وكان المجلس غاصا بالقواد والوزراء، فرمى السلطان بخنجره من شرفة المكان إلى الوادي فترامى القواد لإحضاره فهلكوا جميعا. فقال الشيخ نعم القوم قومك. فقال السلطان وهل أنت على مثل ذلك من قومك؟ قال لي كلام أقوله لمولانا في خلوة. فأخرج السلطانكل من كانوا عنده عدا الغلامين، فنظر إليهما الشيخ وقال يا عبدي مولانا إذا قلت لكما أن مولاكما هذا يهدد شيخكما ويفسد عليه أمره، فماذا تفعلان به؟ فاستلا سيفهما ولوحا بهما على راس السلطان وقالا نقتله، فدهش السلطان وحار في أمره ثم التفت إلى الشيخ يقول انصرف فأنت في حل مما تفعل. . .

وقد توفي الحسن ابن الصباح عام 518 هـ وتولى الزعامة بعده نحو سبعة من الرجال نجد ترتيب زعامتهم في دائرة المعارف الإسلامية مادة وقد ظلت الزعامة في طائفة الحشاشين قائمة في قلعة آلموت حتى 654 هـ أي نحو قرنين لم يبطل لهم فيهما شر، ولم يكفوا في أثنائهما عن أذى إلى جانب إفساد الأخلاق بتعاطي الحشيش وتحليل المنكرات وإباحة الملذات.

وكان من اكبر دعاتهم في أفريقية رجل خرج من صنعاء يقال له أبو عبد الله احمد بن محمد بن زكريا، ويعرف بالشيعي يبعث الدعوة للمهدي. أما مصر فلم يكن لهم فيها حوادث أو وقائع، اللهم إلا تلك الخرافات يرويها الناس عنهم كقصة الشاطر حسن وشيخ الفداوية. أما القبة الموجودة الآن في العباسية والتي يزعمون إنها للفداوية فقد كانت قبة للصلاة بناها الأمير يشبك بن مهدي الداودار عام 884 هـ في ولاية السلطان قايتباي، وقد تداعت فرممها الأمير حسين كتخدا ثم رممها ديوان الأوقاف الخيرية عام 1317 هـ في عهد محمد توفيق باشا.

ولا يزال للإسماعيلية إلى وقتنا هذا صوت كدبيب النملة، وزعيمهم آغاخان الذي عرف

واشتهر بوفرة ماله لا بزعامة لتلك الطائفة الموزعة بين الهند وفارس. والظاهر أن القوم قد غيروا ما عرف به سلفهم من قبيح العادات والتقاليد، وإلا لما استطاعوا الإقامة بين
الحكومات التي تنبهت وتوصلت إلى طرق من الرقابة على الناس مباشرة، وقد انصرف القوم عن نشر دعوتهم واكتفوا بعقيدتهم والحياة فيما هم فيه من يسر البيع وربح لتجارة، وما كان القرن العشرين ليتسع لمثل دعوتهم.
لك شأنالإسماعيليةعامة والحشاشين خاصة، وتلك مكانتهم التاريخية طوال أيام الدولة العباسية، وهي وان كانت مكانة لا يحسدون عليها لما قامت عليه من شر ونكر إلا أن التاريخ سجل يحتفظ بين طياته حوادث الأيام والناس لا يفرق بين مخازيها ومفاخرها.
فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض؟
محمد قدري لطفيليسانسيه في الآداب
حول الشاعر كورني
عزا الدكتور الفاضل حسن صادق في مقاله عن كورني ضعف رواياته الأخيرة إلى اضمحلال قواه الذهنية من اثر الهرم، والحقيقة أن كورني بالغ في مبدئه الذي يعني بتصوير الأشخاص كما يجب أن يكونوا فجاءت شخصيات قصصه الأخيرة خارجة عن حدود المعقول، وذلك ما أرى كان السبب الأول في سقوط رواياته
وقد جاء في المقالة أيضا: قال فولتير (الشرح الوحيد لكتيب كورني يجب أن يكون بكتابة هذه الكلمات في اسفل كل صحيفة: جميل. جليل. الاهي!) وهذه الكلمات على ما جاء في كتب الأدب الفرنسية قيلت في راسين لا في كورني، وذلك اقرب إلى العقل لان فولتير كان يعجب بمبدأ راسين الذي يريد تحليل نفس الإنسان كما هو لا كما يجب أن يكون، اكثر من إعجابه بمبدأ كورني الذي تعرض له بعض كتبه بالنقد اللاذع.
صلاح الدين وصفي
كتاب النثر الفني
حضرة الأستاذ محرر الرسالة:
قرأت في باب النقد من العدد الماضي مقال الأستاذ الجليل أحمد أمين في نقد كتاب (النثر الفني في القرن الرابع) وسرني أن اظفر من مثل هذا الباحث الفاضل بمثل ذلك الثناء، وقد رأيت من باب الدعابة أن اعد سطور ذلك المقال. فرأيت خمسة منها تمهيدا، وخمسة وستين في نقد طريقة المؤلف في الحديث عن نفسه ومصاولة ناقديه، وثلاثة عشر في نقد هندسة الكتاب، ثم رأيت مع السرور الفائق ثمانية عشر سطرا كلها ثناء صرف على المؤلف وعلى الكتاب، ومن النادر أن يظفر مؤلف بثمانية عشر سطرا كلها ثناء على كتاب جديد من رجل كالأستاذ احمد أمين.
وكتابي كما تعلمون يقع في نحو ثمانمائة صفحة، وملام الأستاذ احمد أمين لا ينصب على اكثر من صفحتين يمكن حذفهما بسهولة في الطبعة المقبلة إن شاء الله
ويقول الأستاذ:
(وأني وإن احترمت الكتاب من الناحية العلمية والعقلية فأني ناقده من جهة الذوق) ثم أشار إلى كلمات وهوامش جمح فيها القلم، وهو ينقد بعض العلماء، وصح لدي بعد التأمل أن مجموع ذلك يزيد عن عشر كلمات سأحذفها في الطبعة المقبلة، لأنها ضربت أذني وانقبض منها صدري كما ضربت أذن الأستاذ وانقبض منها صدره.
وعجب الأستاذ من أن يراني قاسيا في بعض النقد، ولطيفا لبقا في البعض الآخر، وتمنى لو يعرف لم كنت لطيفا لبقا هنا، وقاسيا صارما هناك؟
وتفسير ذلك سهل: فأن الأدب يأخذ وقوده أحياناً من الأعصاب والاحاسيس، وقد تتمثل للنفس ظلال من إحدى المعارك الأدبية فتثور تعصف، وتمضي حينا في هدوء فلا يفيض عنها غير اللباقة واللطف
والى حضرة الأستاذ تحيتي واحترامي
زكي مبارك
إخوان الصفا والإسماعيلية
للأستاذ أديب عباسي
علاقتهم بالإسماعيلية - تشيعهم - دعوتهم إلى الإمام المنتظر

يقول كازنوفا المستشرق الفرنسي الكبير ما معناه:
أنني على أتم الثقة من أراء أخوان الصفا هي برمتها أراء الإسماعيلية. ومحور هذه) الآراء هو الاعتقاد بعودة الإمام الذي سوف يملأ الأرض سعادة، وقدر اتهم القرامطة والحشاشون من قبل أعدائهم بالكفر، لكن ليس لهذه التهمة ظل من الحقيقة. فان الرسالة الجامعة، وهي خلاصة هذه الفرق، ليس فيها شيء من ذلك.
فمذهبالإسماعيليةوما تفرع منه هي في اصلها بريئة من كل ما نسب أليها، واكرر القول هنا بأن النزعة التي تسود أراءالإسماعيليةهي الاعتقاد بوحدة الكون (البانتيزم). وهو مذهب يقاوم الإلحاد وإنكار الخالق مقاومة عنيفة.
والنتيجة التي انتهيت إليها هي أن هذه المذاهب هي مثل من أمثلة التاريخ التي تبين) (كيف أن المذهب يكون نقياً، ولكن في أيدي ذوي الأطماع يصبح آلة للفتك والتدمير (نيكلسن ص371)
نقلنا هذه القطعة عن المستشرق الفرنسي لكي نبين أننا لا نسيء إلى إخوان الصفا إذ نسبهم إلىالإسماعيلية، ولكن ما هي طبيعة هذه النسبة وما هو مقدارها؟ هذا ما يجيب عنه اولياري بقوله (هناك ما يغري بالظن أن حركة الإخوان حركة إصلاح من جانب بعضالإسماعيليةالذين أرادوا الرجوع إلى تعاليمالإسماعيلية القديمة) وأل ما يلحظ من أوجه الشبه بين الإسماعيلية وإخوان الصفا الأسلوب الذي جروا عليه في نشر دعوتهم والدعاية لمذهبهم وهو أسلوبالإسماعيلية المعهود - أسلوب التدرج في بث الفكرة والتلطف في عرضها على الناس. فأخوان الصفا كل الإسماعيليةيوصون (بأنه ينبغي لمن حصلت له هذه الرسائل من إخواننا الكرام أن يدفع منها إلى كل من يستحق ما يقرب من فهمه، وما يعلم انه يصلح له أو يليق بمرتبته أولا فأولا. فكلما ارتفعت نفسه في العالم إلى درجة درجة وانتهت إلى مرتبة في المعرفة رقي إلى ما بعدها ورفع إلى ما يتلوها (ج 4 ص288).
ومن أبوب التشابه بين الجماعتين اتفاقهما اتفاقا كليا في مذهب الحلول. فهو في رسائل الإخوان كما في تعاليمالإسماعيليةالمحور الذي تدور حوله هذه الرسائل والتعاليم.
ووجه آخر من اوجه التشابه هو تفسير القرآن تفسيرا غير ما يدل عليه ظاهر اللفظ. وهذا الأسلوب هو أسلوب الباطن الذي جرى عليه الشيعة ومن تفرع منهم. واليك ما يقوله إخوان الصفا في هذا الشان: -
واعلم أن للكتب الإلهية تنزيلات ظاهرة وهي الألفاظ المقروءة المسموعة، ولكن لها) تأويلات خفية باطنة: وهي المعاني المفهومة المعقولة. . . وفي استعمال أحكامها الظاهرة صلاح للمستعجلين في دنياهم، وفي معرفتهم أسرارها الخفية صلاح لهم في أمر معادهم.) (ج4 ص189).
هذه بعض اوجه الشبه بينالإسماعيليةوإخوان الصفا من حيث المعتقد وطرائق النشر والدعاية. على أن ثمة وجهين آخرين للشبه بينهما: هما التشيع لآل البيت والدعوة إلى الإمام المنتظر أو المهدي. أما أمر التشيع فظاهر من قولهم: -
ومن الناس طائفة ينسبون إلينا أجسادهم وهم براء منا ويسمون أنفسهم العلوية وما) هم من العلويين، ولكنهم في اسفل السافلين لا يعرفون من امرنا إلا نسبة الاجساد، ولا من القرآن إلا اسمه، ولا من الإسلام إلا رسمه (ج4 ص195). وهم لا يذكرون الإمام إلا مقرونا بأفخم النعوت كقولهم (وأيضا من الآراء الفاسدة رأي من يرى أن بارئه وألهه روح القدس قتله اليهود. . وهكذا أيضا حكم من يرى ويعتقد أن الإمام المنتظر الفاضل الهادي مختف لا يظهر من خوف المخالفين) (ج4 ص76 - 87).
ومثله قولهم: (واعلم يا أخي أن أقوى ما يكون فعل إبليس في دور الشهر (دور الشهر في مصطلحات الشيعة هو الزمن الذي لا يكون فيه إمام. وهو الفترة بين الإمام الواحد والذي يليه). وذلك لأن حجة الله على أرضه وخليفته على عباده يكون مختفيا مستوراً، وأن كانتأنواره تضيء في نفوس العارفين به) (ج4 ص355).
ما تقدم لا يدع مجالا للشك في تشيع إخوان الصفا وإيمانهم بالإمام المنتظر. ولكن لنا أن نسأل هل وقف إخوان الصفا عند حد النظر من الإيمان بالإمام المنتظر أو هم تخطوا ذلك إلى بث الدعوة له والتعريف به؟ نعتقد أن في القطعة التالية إيضاحا لذلك وذلك حيث

يقولون: -
وقد أخذناك أيها الأخ لأمر فيه قربة إلى الله تعالى ونصرة للدين. فكن واثقاً بما) اخترناك، وسر على بركة الله وحسن توفيقه، متوكلا عليه في نصرته وتأييده إلى أخ من إخواننا الفضلاء، وتلطف في الوصول إليه وبشره بما ألقيناه من الأسرار في شأنه.: وعرفه بان إخوانه الذين وجهوك إليه لهم مجلس يجتمعون فيه يتذاكرون العلوم ويتحاورون الأسرار. فتذاكروا يوماً فيما بينهم من حوادث الأيام وتغييرات الزمان وما تدل عليه دلائل القرآن من تغيير شرائع الدين والملل، وتنقل الملك والدول، من أمة إلى أمة ومن بلد إلى بلد، ومن أهل بيت إلى أهل بيت وقد اعتبرنا بهذه الوجوه التي ذكرناها حتى عرفنا (صاحب الأمر) بصفاته والسنة والشهر الذي يكون فيه الحادث (ج4 ص224 - 25).
ما تقدم لا يدع مجالا للريب في أغراض إخوان الصفا السياسية، وهي نشر الدعوة وأعداد الأفكار لظهور أحد المهديين.
بين المعري ودانتي
بقلم محمود النشوي
في رسالة الغفران والكوميدية المقدسة
في سماء الأدب العربي تتألق رسالة الغفران لأبي العلاء المعري. وفي سماء الأدب الطلياني تتألق الكوميدية المقدسة لشاعر الطليان دانتي اليجييري وفي كل منهما خيال يقرب من الخيال الآخر حتى ظن كثير من الأدباء أن شاعر الطليان سرق شاعر العرب. وان خيال المعرة انتقل إلى فلورنسا. وسواء لدينا أسرق دانتي فكرة المعري أم هي المصادفة أتاحت لكل منهما ما أتاحته للآخر، ففي كل من الروايتين حوار مع أهل الجنة وأهل النار، وفي كل منهما رحلة في دركات الجحيم، وفي طبقات الجنة، سنعرض لذلك كله بالموازنة والتحليل ما اتسعت لنا صفحات الرسالة الغراء.
التعريف بالشاعرين
في سنة 973 م ولد أبو العلاء المعري في سنة 1059 انتقل إلى قبره بعد أن عمر ستة وثمانين عاما، ولم يكد يناهز الرابعة من عمره حتى أصابه الجدري فذهب بعينيه. وكأن الله أراد أن يعوضه عما فقده من حاسة البصر، فرزقه حافظة تعلق بها الكراريس العدة إذا تليت عليها مرة واحدة وكأني به استوعب ما احتوته قريته المعرة من العلوم والمعارف فرحل إلى العواصم الإسلامية يرتشف منها مناهل العلم، فزار حلب وإنطاكية وطرابلس الشام واللاذقية وبغداد، إلى أن بلغ من العمر سبعة وثلاثين، فزهد في الدنيا واعتزل الناس في منزله بالمعرة. وقضى بقية حياته رهين المحبسين: العمى والمنزل، فأوحت إليه عزلته ما ظهر في لزومياته وفي رسالة الغفران.
وأما دانتي فولد في سنة 1265 وتوفي سنة 1321 بعد أن عاش ستة وخمسين عاما. ولقد كان جده كاتشا جويدا المسلمين في صفوف الصليبين لاغتصاب بيت المقدس تحت آمرة الإمبراطور كوناردو الثالث. وكأني به اشتد على المسلمين في حربه، فانعم عليه ذلك الإمبراطور بلقب فأما والده فقد كان من غمار الناس ودهمائهم لم يترفق بدانتي حينما توفيت أمه بل تزوج امرأة تدعى لابا أذاقته الآم الحياة وهو في عهد الطفولة، حتى إذا اشتد
ساعده قليلا هرع إلى مدارس الفرنشسكان يتعلم الدين قليلا من الهندسة والحساب، متتلمذا للقديس فرانشسكودي اسيزي، ولا يزال يتشرب روحه وتعاليمه حتى أدركه دور المراهقة فوقع في إشراك من الغرام امتدت نحوه من الفتاة بياتريشي تلك التي ألهبت شاعريته، وكان لها اثر كبير في كوميديته المقدسة، ثم توفيت تلك الحبيبة في سنة 1289 فزادت الآم غير أن نجمه بدأ يتألق في سماء السياسة فاختير عضوا من ستة أعضاء يحكمون في مدينة فلورنسا التي كانت تعصف بها الحروب الأهلية والأمر ما اغتاظ منهم البابا بونيفاشيو عليهم شقيق ملك فرنسا كارلودي فالوا فأخذ مدينتهم، وفر دانتي مع الهاربين بعد أن حكموا عليه بالموت حرقا سنة 1301، ولولا ذلك الهرب لنفذوا في حكمهم ثم صادروا أملاكه ونفوا ولديه جاكر وبيترو ولا زالت البلاد تتقاذفه حتى مات شريدا طريدا سنة 1321 بعدنفي قارب العشرين عاما.
أسباب تأليف الروايتين
فأما رسالة الغفران فهي رد على رسالة ابن القارح التي أرسلها إلى المعري

وابن القارح هو علي بن منصور الحلبي، ولقبه دوخلة، خدم أبا علي الفارسي في صباه وقرأ عليه بعض كتبه، ثم جاء إلى مصر يؤدب ولدّي الحسين بن جوهمه القائد بمصر. وكان له شعر من نوع ضعيف كمدحته للحاكم بأمر الله الفاطمي التي يفتتحها بقوله

أن الزمان قد نصر ... بالحاكم الملك الأغر

وكان فيه شيء من ذكاء. وشيء من دعابة أملت عليه دعابته أن يرسل لأبي العلاء رسالة فيها لهو، وفيها سخر، وفيها حوار للشعراء والمتزندقين والمتألهين. وفيها أسلوب معري يكثر من ذكر الآيات القرآنية يوردها أدلة على مالا تدل عليه إلا قليلا، أو من طريق بعيد، أو لا تدل عليه بالمرة. وفيها كثرة الجمل الإعتراضية بالدعاء للمخاطب والإسهاب في الترضي والترحم وفي اللعنة، مما لم نعهده في كتاب غير رسالة الغفران وغير رسالة ابن القارح تلك التي بدأها بقوله (كتابي أطال الله بقاء مولاي الجليل، وجعلني فداءه على الصحة والحقيقة، وليس على مجاز اللفظ، ومجرى الكناية) ثم يروي عن صاحب الزنج انه خطب في زنوجه قائلا (أنكم قد أعنتم بقبح منظر، فأشفعوه بقبح مخبر. اجعلوا كل عامر قفرا، وكل بيت قبرا.) ثم يروي لأبي العلاء أن رجلا دفع إلى صديق له جارية وأودعها

عنده ثم ذهب في سفره. فقال المودع لديه بعد أيام لمن يأنس به وتسكن نفسه إليه. يا أخي ذهبت أمانات الناس: أودعني صديق لي جارية في حسابه أنها بكر. . فجربتها فذا هي ثيب!. ثم يعيب على الراوة تصحيفهم قول علي كرم الله وجهه تهلك البصرة بالريح فهلكت بالزنج، كما تحدث المعري عن الرواة وتصحيفهم وتحريفهم.

ثم تحدث عن المتنبي، وانه كان مغرما بتصغير كلماته فصغر أهل الزمان حينما قال أذم إلى هذا الزمان أهليه

فانحنى عليه بالأئمة فقال (وما يستحق زمان ساعده بسيف الدولة أن يطلق على أهله الدم) ثم تحدث ابن القارح عن المتنبي وعن سجنه في بغداد فقال: (إن المتنبي اخرج من الحبس في بغداد إلى مجلس أبي الحسن علي بن عيسى الوزير رحمه الله، فقال له: أنت احمد المتنبي؟ فقال أنا احمد المتنبي. ثم كشف عن سلعة على بطنه وقال: هذا طابع نبوتي وعلامة رسالتي. ثم تحدث عن ابن الرومي وعن طيرته. وعن أبي تمام، وان الحسن بن رجاء بلغة انه لا يصلي، فوكل به من يلازمه فلم يره صلى يوما واحدا فعاتبه، فقال يا مولاي: قطعت إلى حضرتك من بغداد فاحتملت المشقة وبعد الشقة، ولم أره يثقل عليّ. فلو كنت اعلم أن الصلاة تنفعني وتركها يضرني ما تركتها. قال الحسن: لأردت قتله فخشيت أن يحمل على غير هذا فتركته.

ثم تحدث عن الذين ادعوا الألوهية كالقصار الأعور الذي اتخذ له وجها من ذهب وخوطب برب العزة، والصناديقي الذي خوطب بالربوبية وكوتب بها، وكانت له دار يجمع إليها نساء البلدة كلها ويدخل الرجال عليهن ليلا

ثم ذكر الحلاج وانه كان يخاطب الله بقوله

يا جملة الكل لست غيري ... فما اعتذاري إذاً آليا

ثم تحدث عن المتزندقين فذكر بشارا وان المهدي قتله على الزندقة. وعن صالح بن عبد القدوس وأن المهدي قتله لأنه قال

ولو إني أظهرت للناس ديني ... لم يكن لي - في غير حبسي - أكل

وذكر الوليد بن يزيد وأن انه رمى المصحف بالنشاب وخرقه، وأن الحجاج كانوا يطوفون بالكعبة فيقولون (لبيك اللهم لبيك: يا قاتل الوليد بن يزيد)

ثم ذكر أبا عيسى بن الوليد، وانه برم بشهر الصيام ونذر إلا يعود إلى صومه فقال:

دهاني شهر الصوم لا كان من شهر ... ولا صمت شهرا بعده آخر الدهر

ثم يختم ابن القارح رسالته بأنها استحسنت منه وكتبت عنه. ثم يسأل المعري أن يجيب عنها ليذيعها في حلب وغيرها من الأفاق فيبطئ المعري في الرد ثم يجيب بأنه كفيف البصر مستطيع الكتابة بغيره، أن غاب الكاتب فلا إملاء. .

ثم يبدأ الرد سالكا سبيلا عبّدها له ابن القارح. وأثار من نفسه حنينا للسير على منهاجها، والاتجاه مع تيارها. ولكن المعري أرانا أفانين من الخيال، واطلاعا في اللغة وفي التاريخ، مما لا يمثل به ابن القارح إلا كما تمثل الذرة بالجبل، أو الحلقة في الفلاة.

يتبع

التفاؤل والتشاؤم وهل لهما أسباب تاريخية؟ - 5
بعض غرائب الخرافات عند الغربيين والشرقيين
الرقم 13
إن كثيرا من الغربيين يعتبرون أن رقم 13 يحمل الويل والدمار في طياته، كما يعتقدون المصريون في العدد (11) أما 3 و 7 فهما رمز السعادة عند بعض الغربيين.
ومن الغريب أن رقم 13 تناول العلماء وذوي الثقافة ولملوك والعظماء كما سرى بين الجهلاء وتناوله بعض الحكومات ايضا، فهم يتوّقون هذا الرقم في الولائم والحفلات وبعض الفنادق وغيرها فيقفزون في عدد الغرف الفنادق وغيرها من 12 إلى 14 حتى لا يتشاءم النازل بالفندق من هذا الرقم.
ويتفق في بعض الشهور السنة أن يطابق يوم الجمعة الثالث عشر من الشهر فيتطير الواهمون من هذا التطابق ويتوقعون الشرور والأخطار العظيمة، لان هذا الرقم دليل على الشؤم عندهم فيملأ نفوسهم رعبا فضلا عما يعرف به يوم الجمعة من النحس.
والأسرة المالكة في إنكلترا تتقي ذكر الرقم لمذكور، ومحال أن تضم المائدة الملكية على 13 مدعوا.
وفي عام 1912 حينما دعا المستر جون وارد جلالة ملك إنكلترا الحالي جورج الخامس إلى مأدبة غداء في بستان (شلتن) كان عدد المدعوين 13 فجاءوا بالرابع عشر.
ومما يحكى عن ملكة رومانيا ماري إنها تتشاءم من رقم 13 أسوة بكثير من الغربيين، وقد حدث عند زيارتها لأهرام الجيزة ومعها كريمتها الأميرة اليانا عام 1930 حادث يدل على مبلغ تشاؤمها من الرقم 13.
شاهدت الملكة عمال الحفر الذي كان يديره هناك الأثري المعروف المستر فيرث، وعند انتهاء الزيارة دعاها إلى الغداء، وما كادت ماري تستعد للجلوس على المائدة حتى شاهدت أن عدد المدعوين 13 فاكفهر وجه الملكة فجأة، واعتذرت بالمرض إلا أن المستر فيرث أدرك حقيقة الأمر بسرعة خاطره فبادر بإصلاح هذا الخطأ ودعا ضابطا مصريا ظريفا للجلوس على المائدة حتى يكون العدد 14 فلم تتردد الملكة عندئذ في قبول الدعوة.
وكان إمبراطور ألمانيا السابق غليوم يحذر هذا الرقم ويتشاءم منه، ويقال انه رفض أن يعلن الحرب عام 1913 لان السنة تنتهي بالرقمين المشؤمين.
وكان بسمارك يكره الخرافات إلا انه كان يبغض الرقم 13 بغضا عظيما، وما حاول أن يهم بأمر ذي بال في يوم 13 منأي شهر، وكذلك المستر تشرشل الوزير الإنكليزي وهو سليل آل مرلبورو أعرق الأسر الإنكليزية نسبا.
ولكن الرئيس ويلسون يعتقد أن الرقم 13 هو عدده الجالب لليمن والسعد، ومن دلائل حب الرئيس ويلسون للرقم 13 انه وصل إلى ثغر برست بفرنسا يوم الجمعة 13 ديسمبر عام 1918 ليحضر مؤتمر الصلح وانه أودع 26 فقرة (2 في 13) وأتمها يوم 13 فبراير سنة 1919 ودعا لمائدة عيد ميلاده 13 مدعوا فقط.
ولم يكن الرئيس ويلسون بالرجل الوحيد الذي احب هذا الرقم، فان المستر لويد جورج رئيس حزب الأحرار بإنجلترا وقف عام 1924 في حفلة انتخابية وقال أن الرقم 13 هو رقمه المحبوب.
ودعا أحد رجال الأعمال بإنكلترا بعض خلانه ليتناولوا معه طعام العشاء، فلما جلسوا إلى المائدة فطن أحدهم إلى أن عددهم 13 فتشاءموا وأرسلوا الخدم في اصطياد أي رجل ليأكل معهم، ولم يتناولوا الطعام حتى انتظموا على المائدة أربعة عشر.
ويتشاءم المركيز نيجرو توكمبيازو العضو الإيطالي في صندوق الدين برقم 13 تشاؤما كبيرا، ويروي عنه قبل شيوع السيارات انه كان يمتنع عن ركوب مركبة رقمها 13 أو مؤلفة من مضاعفات 13 كأن يكون رقمها 26 أو 39 الخ. . .
وحدث لما زار الدكتور أميل لدويج الكاتب والمؤرخ الألماني الشهير القطر المصري أن أدب له أحد الأصدقاء مأدبة عشاء ودعا إليها 14 شخصا، وفي أخر لحظة تخلف أحدهم عن لحضور فأبت سيدتان أن تجلسا إلى المائدة لان عدد المدعوين اصبح 13 فجيء بمائدة صغيرة وضعت على مقربة من المائدة الكبيرة، وجلس إليها اثنان من المدعوين لكي يصبح عدد الآخرين 11.
ويرد الباحثون في الضائقة الاقتصادية التي غشيت العالم من أقصاه إلى أقصاه إلى

أسباب شتى إلا أن أحدهم في نيويورك قال أن السبب فيضائقة عام 1930 هي عام 1930 وحجته الدامغة هي أن مجموع أرقامه 13، ولكن مرت سنوات وما تزال الأزمة المالية
باقية حتى الآن. ولكي يزيد الجمهور اقتناعا وبرهانا بتأييد ذك رجع إلى سني الضنك المشهورة في القرن الحالي فإذا هي كما يلي
سنة 1903 ومجموع أرقامها 13، سنة 1912 ومجموع أرقامها 13، سنة 1921 ومجموع أرقامها 13، سنة 1930 ومجموع أرقامها 13.
ولكن هدئ روعك أيها المتشائم فسوف تمر 96 سنة قبل أن تأتي سنة أخرى مجموع أرقامها 13 وهي سنة 2029.
ومن الشواهد التي يستندون إليها أن كلا من نابليون بونابرت وهنري الرابع ولدا في 13 من الشهر، فنفي نابليون في مثل هذا اليوم وقتل هنري الرابع أيضا في مثله.
وتمتنع الأسر الإفرنجية بتاتا عن سكنى المنازل المرقمة بالعدد 13 ولا يستأجر الأمريكي غرفة رقمها هذا الرقم في أي فندق أو باخرة.
وقد اتفق مدير وبعض المستشفيات على حذف رقم 13 من مستشفياتهم، فهم لا يضعونه على غرفة لمريض أو سرير خشية تأثر المريض من الوهم الناشئ عنده من التشاؤم. وشوهد في إيطاليا أن الفنادق لا تضع ذلك الرقم على الغرف، وذلك لتذمر المسافرين وامتناعهم عن النزول في الغرف التي يوجد بها الرقم المذكور، وإدارة سكة حديد لندن والشمال الشرقي قد ألغت هذا العدد من مركبات النوم.
وأدرك الوهم اصحب البواخر فوضعوا عدد 12 13
منها يثبت أن الناس اصبحوا يخشون الرقم المذكور حتى أن أحد شوارع لا يحمل رقم 13 وان حكومة فرنسا إذا وضعت الأرقام على المنازل ووصلت إلى المنزل الذي ينبغي أن يوضع عليه الرقم 13 لا تكتب عليه هذا الرقم وإنما تضع عليه رقم 12 والى جانبه لفظة مكرر تخلصا من شؤمه.
ووقف أحد المجرمين إمام القاضي فقال اقسم أن شؤم عددي هو الذي يسوقني هنا دائما، فسأله وما ذلك الرقم؟ قال ما وقفت متهما إلا وكان المحلفون 12 والقاضي واحداً وما الـ 12 والواحد إلا 13 وهو الرقم اللعين. . .
ولكن هناك حوادث أبدل النحس فيها بالسعد، ولو أن الرقم 13 كان موجودا. فقد اتفق أخيرا أن وقع بناء مدخنة داخل أحد منازل مدينة بريتون، وكان في المنزل ثلاثة عشر ساكنا فلم يصيب أحد منهم بسوء، مع أن قطع الحجارة وجدت على الوسائد بجوار النائمين.
واشترى بعضهم منزلا فلما رأى أن رقمه 13 جعله 12 وما مر يومان حتى سرق المنزل برغم العدد السعيد الميمون مع انه ما سرق يوم كان شؤما.
وقد عمدت إحدى السفن الكبرى إلى وضع علامة 1 بجوار العدد 12 للدلالة على الغرفة 13 وبذلك تريح فكر المسافر الذي يكون نصيبه تلك الغرفة.
وقد علل الكاتب الاجتماعي الإنكليزي هـ. ج. ولز شؤم هذا الرقم (بأنه لا يقبل القسمة) على أن حين غيره من الأرقام التي قبله أو بعده تقبل القسمة، وبعبارة أخرى نقول أن الإنسان الأول كان رديء الفهم في الحساب لا يعرف الكسور، ثم هناك أشياء لا يمكن كسرها فإذا كان عدد السبايا 13 حدثت المشاجرات بين أفراد القبيلة من اجل امرأة تزيد في حظ أحدهم أو تنقص، في حين أن الأرقام الأخرى لم يكن فيها ذلك.
ويقال إن الخرافات التي نسجت حول الرقم 13 مصدرها عشاء السيد المسيح الأخير مع تلاميذه الأثني عشر، وجلسوا على مائدة واحدة فكان جموعهم ثلاثة عشر، وكان واحد من التلاميذ خائنا هو يهوذا الأسخريوطي الذي سلمه. لذلك كان الناس يتشاءمون من الجلوس ثلاثة عشر شخصا على مائدة واحدة، لان ذلك نذير شؤم بسوء أو موت يقع لأحدهم خلال سنة على الاكثر، ثم سرى التشاؤم من الرقم 13 حتى شمل كل شيء ولم يقتصر على مائدة الطعام.
الهلال
جميع الأمم تقريبا تتفاءل بالهلال الجديد، وكثيرا ما يرى الناس في مصر وغير مصر قد تهللت وجوههم استبشارا لرؤية الهلال في أول الشهر القمري وهم يدعون الدعوات.
وان العامة في مصر يتناولون قطعة من العملة الفضية ويديرونها نحو الهلال لأول

ولادته تيمنا، ولا يصنعون مثل ذلك في الذهب لأنهم يتطيرون به، وهكذا يفعلون في الشام ويزيدون عليه أن يتمتم الواحد بعبارة مثل قوله (يهلك ويستهلك، ويجعلك علينا شهرا مباركا)

وفي إنكلترا يتشاءمون من النظر إلى الهلال المولود حديثا من وراء زجاج النوافذ.

والمرجح أن الإنسان الأول كان يعتقد انه إذا ظهر القمر جديدا وجب عليه أن يخرج إلى العراء للترحيب به بوسائل كانت معروفة عنده وكان لا يلزم منزله وينظر إليه من ثقوب الجدران ولا عوقب على ذلك

وان الإنسان نظر إلى القمر من زمان بعيد نظرة التفاؤل والاستحسان، والإنسان الأول معذور في تفاؤله بالهلال الجديد إذ هو يعيش في خطر المداهمة والغارة، فالهلال يكشف له عن ظلمات الليل ويؤمنه بعض التامين، لذلك كان القمر من اقدم الإله التي عبدها الناس بل أقدمها. وان العرب اشتقوا لفظة تهلل من الهلال، ولا نزال نرى كثيرا من الأعياد حتى الأعياد المسيحية تقرر تبعا لأوجه القمر.

(تم البحث)

إبراهيم تادرس بشاي

بديع الزمان الهمذاني - 2

للدكتور عبد الوهاب عزام

تكلم الأستاذ في المقالة الأولى عن الحال السياسية والأدبية في القرن الرابع، وعن أسرة بديع الزمان وسيرته إلى أن رحل إلى نيسابور.

وقد وقع خطأ مطبعي أثناء ترتيب المقالة فوضعت الأسطر من الثالث إلى الحادي والعشرين من صفحة 501 النهر الأيمن في غير مكانها، وكان ينبغي أن توضع بعد السطر التاسع من النهر الأيسر في الصفحة نفسها

فهذا الإسماعيلي هو، فيما يظهر أحد هؤلاء الإسماعيلية الذين اكرموا مثواه في جرجان.

وفي رسالة إلى أبيه يقول (وقد كان رسم أن اعرفه سبب خروجي من جرجان، ووقوعي في خراسان، وقد كانت القصة أني لما وردت من ذلك السلطان حضرته التي هي كعبة المحتاج. لا كعبة الحجاج ومشعر الكرام، لا مشعر الحرام، ومنى الضيف لا منى الخيف، وقبله الصلات، لا قبلة الصلاة، وجدت فيها ندماء من نبات العام، اجتمعوا قبضة كلب، على تلفيق خطب، أزعجني من ذلك الفناء، واشرف بي على شرف الفناء، لولا ما تدارك الله بجميل صنعه وحسن وقعه، ولا اعلم كيف احتالوا، وما الذي قالوا، لكن الجملة أن غيروا السلطان وأشار على أخواني، بمفارقة مكاني، وبقيت لا اعلم أيمنه اضرب أم شآمة، ونجدا اقصد أم تهامة،

ولو كنت من سلمى أجا وشعابها ... لكان لحجاج عليّ دليل

قد علم الشيخ أن ذلك السلطان سماء إذا تغيم لم يرج صحوه. وبحر إذا تغير لم يشرب صفوه، وملك إذا سخط لم ينتظر عفوه فليس بين رضاه والسخط عرجه، كما ليس بين غضبه والسيف فرجه

ونظرت فإذا أنا بين جودين، أما أن أجود ببأسي، وإما أن أجود برأسي، وبين ركوبين إما المفازة وإما الجنازة، وبين طريقين: إما الغربة، وإما التربة، وبين فراقين: إما أن أفارق أرضي أو أفارق عرضي، وبين راحلتين إما ظهور الجمال، أو أعناق الرجال، فاخترت السماح بالوطن، على السماح بالبدن، وأنشدت:

إذا لم يكن إلا الأسنة مركباً ... فلا رأى للمضطر إلا ركوبها

ولست ادري من هذا السلطان. واحسبه فخر الدولة ابن بويه، وأما شمس المعالي فلم يكن سلطانا في جرجان ذلك الوقت

في نيسابور

ورد نيسابور فكتب إلى أبي بكر الخورزمي، وهو شيخ أدبائها وأحد أغنيائها (أنا لقرب الأستاذ أطال بقاءه (كما طرب النشوان مالت به الخمر) ومن الارتياح للقائه، (كما انتفض العصفور بلله القطر) ومن الامتزاج بولائه، (كما التقت الصهباء والبارد العذب) ومن الابتهاج بمرآه (كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب) فكيف نشاط الأستاذ لصديق طوى إليه ما بين قصبتي العراق وخراسان، بل ما بين عتبتي نيسابور وجرجان، وكيف اهتزازه لضيف في برده جمال، وجلدة حمال.

رث الشمائل منهج الأثواب ... بكرت عليه مغيرة الأعراب
وهو أيده الله ولي إنعامه، بإنفاذ غلامه إلى مستقري لأفضي إليه بسري، أن شاء لله تعالى)
ويؤخذ من كلام البديع انه ذهب إلى دار الخوارزمي فلم يحسن لقاءه، أو لم ترض نفس الهمذاني بهذا اللقاء فكتب إليه (الأستاذ أبو بكر والله يطيل بقاءه أزرى بضيفه أن وجده يضرب إليه آباط القلة في اطمار الغربة فأعمل في رتبته أنواع المصارفة، وفي الاهتزاز له أنواع المضايقة من إيماء بنصف الطرف، وإشارة بشطر الكف، ودفع في صدر القيام، عن التمام، ومضغ الكلام، وتكلف لرد السلام، وقد قبلت تربيته صعرا، واحتملته وزرا، واحتضنته نكرا، وتأبطته شرا، ولم آله عذرا، فأن المرء بالمال، وثياب الجمال، ولست مع هذه الحال، وفي هذه الأسمال، وأتقزز صف النعال، فلو صدقته العتاب، وناقشته الحساب، لقلت أن بوادينا ثاغية صباح، وراغية رواح، وناسا يجرون المطارف، ولا يمنعون المعارف وفيهم مقامات حسان وجوههم=وأندية ينتابها القول والفعل
ولو طوحت بأبي بكر أيده الله طوائح الغربة، لوجد منال البشر قريبا، ومحط الرحل رحيبا، ووجه المضيف خصيبا، ورأى الأستاذ أبي بكر أيده الله في الوقوف على هذا العتاب الذي معناه ود، والمر الذي يتلوه شهد، موفق أن شاء الله تعالى) فرد الخوارزمي رداً حسنا
وسعى سعاة السوء بين الرجلين. ثم جمع بينهما الشيخ أبو الطيب فلم يحمد ذلك الاجتماع.
ثم كانت بينهما المناظرة الأولى في دار السيد أبي علي أحد الكبراء في نيسابور، فتناظرا في ارتجال الشعر مناظرة ظهر فيها غلب البديع وقد غضب من قطع الخوارزمي إنشاده عليه فصمت برهة، يقول الهمذاني: (ثم عطفت عليه وقلت يا أبا بكر أن الحاضرين قد عجبوا من حلمي، أضعاف ما عجبوا من علمي، وتعجبوا من عقلي، اكثر مما تعجبوا من فضلي، وبقى الآن أن يعلموا أن هذاالسكوت ليس عن عي، وان تكلفي للسفه اشد استمرارا من طبعك، وغربي في السخف امتن عوداً من نبعك، وسنقرع باب السخف معك، ونفترع من ظهر السفه مفترعك، فتكلم الآن. فقال لي أنا قد كسبت بهذا العقل دية أهل همذان مع قلته، فما الذي أفدت أنت بعقلك مع غزارته، فقلت: أما قولك دية أهل همذان فما أولاني أن لا أجيب عنه، لكن هذا الذي تمتدح به وتتبجح وتتشرف وتتصلف، من انك شحذت فأخذت، وسألت فحصلت واجتديت فاقتنيت، فهذا عندنا صفة ذم يا عافاك الله.
ذهب البديع إلى بيت الخوارزمي واصطلحا. ثم شاع بين الناس أن البديع غلب، فكتب الخوارزمي إليه يتهمه بأنه شاع هذا الكلام، ويقترح مناظرة أخرى، فكانت المناظرة الثانية في بيت الشيخ أبي القاسم الوزير. وحضرها عظماء نيسابور، وكانت مباراة الارتجال والترسل والنحو واللغة، وقضى بالفلج للهمذاني فلما خرج لقيه الناس بالتقبيل ولم يستطع الخوارزمي الخروج حتى جنه الليل.
وفي رسائل الهمذاني تفصيل المناظرة التي قضت له بالفلج. وينبغي أن لا ينسى القارئ أن هذا قول أحد الخصمين، ولست اتهم الهمذاني بالكذب الصراح، ولكني لا أبرئه من محاباة نفسه. ثم ينبغي أن نتذكر أن الخصمين ليسا سواء: أحدهما شيخ طائر الصيت يخشى أن يؤخذ عليه ما ينقص من قدره، والأخر شاب طامح إلى الصيت يريد أن يبني مجده على هزيمة قرنه، وهو لا يخسر كثيراً إن غلب، وهذا مظنة أن يستعظم الحاضرون ظفر البديع ولو كان قليلا وهفوة الخوارزمي ولو كانت مما يغتفر أمثالها. ثم أظن أن بعض النيسابوريين كانوا يحسدون الخوارزمي، ويودون أن يذهب بمجده ذلك الضيف الشاب الجميل الطلعة، الخفيف الروح.
وكان الخوارزمي، فيما يظهر متكبرا ذا جفاء، قليل الوفاء:
قال الصاحب بن عباد حين جاءه نعيه:
أقول لركب من خراسان قافل: ... أمات خوارزميكم؟ قيل لي نعم
فقلت اكتبوا بالجص من فوق قبره ... ألا لعن الرحمن من كفر النعم
ويقول أبو سعيد الخوارزمي:
أبو بكر له أدب وفضل ... ولكن لا يدوم على الوفاء

مودته إذا دامت لخل ... فمن وقت الصباح إلى المساء
ثم لم تكن المناظرة في صميم الأدب من الشعر والترسل، بل كانت في البديهة والارتجال والحفظ. قال الهمذاني وهو يتحدى خصمه: (ومثال أن أقول لك اكتب كتابا يقرأ منه جوابه هل يمكنك أن تكتب؟ أو أقول لك اكتب كتاباً على المعنى الذي اقترح لك، وانظم شعراً في المعنى الذي اقترح، وافرغ منهما فراغا واحداً. هل كنت تمد له ساعداً؟ وأقول لك اكتب كتابا في المعنى الذي أقول وأنص عليه، وانشد من القصائد ما أريده من غير تثاقل ولا تغافل، حتى إذا كتبت ذلك قرء من آخره إلى أوله، وانتظمت معانيه إذا قرء من أسفله هل كنت تفوق لهذه الغرض سهما أو تجيل قدحا أو تصيب نجحا، أو قلت لك اكتب كتابا إذا قرء من أوله إلى أخره كان كتابا، فأن عكست سطوره مخالفة كان جوابا الخ، وقد أجاب الخوارزمي على هذا كله بقوله: (هذه الأبواب شعبذة) وهي أن لم تكن شعبذة فهي ليست من الأدب، وأن دلت على توقد الذكاء وسرعة البديهة.
ولست أقول أن البديع ليس أعلى من الخوارزمي في الأدب مقاما. ولكن أقول ما غلب بديع الزمان أبا بكر الخوارزمي هذه الغلبة التي تصورها رسائل الهمذاني ويرويها الأدباء.
اغتيط بديع الزمان بنيسابور ولقي من سراتها حفاوة وإكراما يقول في رسالة إلى أبيه عن صديق كان قد وعده اللحاق به: (وكان سألني أن أرود له منزلا وماؤه روى، ومرعاه غذى وأكاتبه لينهض إليه راحلته. فهاك نيسابور ضالته التي نشدتها، وقد وجدتها، وخراسان منيته التي طلبتها وقد أصبتها. وهذه الدولة بغيته التي أردتها، فقد وردتها، فان صدقني رائداً، فليأتني قاصدا. . . وأما أنا وأخباري بهذه الناحية فمتقلب في ثوب العافية، موقر بهذه الحضرة مرموق بعين القبول)
وقد كتب كثيرا من رسائله إلى جماعة من رؤساء نيسابور وهي تدل على ما كان بينه وبينهم من مودة. وفي نيسابور لقي بني ميكال ومدحهم. وفي رسائله واحدة إلى أبي جعفر
الميكالي يشكو فيها تقصيره في تعظيمه: (وهل كنت تلا ضيفا هداه منزع شاسع، وأداه أمل واسع، حداه فضل وان قل، وهذا رأي وأن ضل، ثم لم يلق إلا في آل ميكال رحله، ولم يصل إلا بهم حبله، ولم ينظم إلا فيهم شعره، ولم يقف إلا عليهم شكره. . . ودخلت مجلسه وحوله من الأعداء كتيبة فصار ذلك التقريب ازورارا. وذلك السلام اختصارا، والاهتزاز ايماء، والعبارة اشارة، ويقول في رسالة أخرى إليه: (واعرفه إني ما اطوي مسافة مزار إلا متجشما ولا أطأ عتبة دار إلا متبرما. ولست كمن يبسط يده مستجديا، أو ينقل قدمه مستغذيا. فان كان الأمير الرئيس، أطال الله بقاءه يسرح طرفه في طامح أو طامع، فليعد للفراسة نظراً) ثم ينقلب عتابه هجاء فيقول في رسالة إلى ابن ميكال (اشهد لئن صدق البحتري في اللامية، لقد صدق الأعشى في الصادية، وان وصف الدريدي في المقصورة، فلقد تغير الأمر عن الصورة، وان كان كالآخر الأول فما أحوج الكتب المقراض، وأكذب السواد على البيض - إلى أن يقول: اللامية قول البحتري:
ثلاثة عجب تنبيك عن خبري ... فيها وعن خبر الشاه ابن ميكال
والصادية قول الأعشى:
كلا أبو بكر كان فرعى دعامة ... ولكنهم زادوا وأصبحت ناقصا
يريد الهمذاني أن يقول أن بني ميكال كانوا كما قيل فيهم ولكن هذه الرئيس من بينهم قصر عن شأوهم.
ونجد الهمذاني في نيسابور يكتب إلى الشيخ العميد مستنجزا وعده في توليته بعض الأعمال: (فهل للشيخ أن يلطف بصنيعته لطفا يحط عنه دون العار، وسمة التكسب والافتقار، ليخف على القلوب ظله، ويرتفع عن الأحرار كله، ولا يثقل على الأجفان شخصه بإتمام ما كان عرضه عليه من اشغاله، ليعلق باذياله، وليستفيد من خلاله، فيكون قد صان الفضل عن ابتذاله، والأدب عن إذلاله، واشترى حسن الثناء بجاهه كما يشتريه بماله)
وفي نيسابور أملي المقامات. وسيأتي الكلام فيها.

يتبع
عبد الوهاب عزام
من طرائف الشعر
يريد الحب أن نضحك
للأستاذ إيليا أبو ماضي
تعالى نتعاطاها ... كلون التبر أو اسطعْ
ونسقي النرجس الواشي ... بقايا الروح في الكأس
فلا يعرف من نحن ... ولا يبصر ما نصنعْ
ولا ينقل عند الصب ... ح نجوانا اسلي الناس
تعالى نسرق اللذا ... ت ما ساعفَنا الدهر
وما دمنا وما دامت ... لنا في العيش آمال
فان مر بنا الفجر ... وما أيقضنا الفجر
فلا يوقضنا علم ... ولا يوقضنا مال
أراد الله أن نعش ... قَ لما أوجد الحسنا
وألقى الحب في قلب ... ك إذ ألقاه في قلبي
مشيئته وما كانت ... مشيئته بلا معنى
فان أحببتِ ما ذنب ... ك أو أحببت ما ذنبي؟
دعي اللاحي وما صنَّفَ ... والقالي وبهتانهَ
وللجدول أن يجري ... وللزهرة أن تعبقْ
وللأطيار أن تشتا ... قَ أيَّاراً وألوانه
وما للقلب وهو القل ... ب أن يهوى وأن يعشق
تعالى أن رب الحب ... يدعونا إلى الغاب
لكي يمزجنا كالما ... ء والخمرة في الكأس
ويغدو النور جلباب ... ك في الغاب وجلبابي
فكم نصغي إلى الناس ... ونعصي خالق الناس؟
يريد الحب أن نضحكَ ... فلنضحك مع الفجر
وأن ترقص فلنرقص ... مع الأمواج في النهر
وأن نهتف فلنهتف ... مع البلبل والقمري
فمن يعلم بعد اليوم ... ما يحدث أو يجري؟
تعالى قبلما تسكُ ... ت في الروض الشحارير
ويذوي الحور والصفصا ... ف والنرجس والآس
تعال قبلما تطمر ... أحلامي الأعاصير
فتستيقظ لا فجر ... ولا خمر ولا كاس
-
إليه!
أحب ولو لم أحظ منك بنائل ... وحسبي من حبي تعلل آمل
كتمت شكاتي عنك حتى حسبتني ... بما رحت ألقى في الهوى غير حافل
وبي من تباريح الهوى ما أعادني ... بزفرة محزون وأنة ثاكل
لكَم بت ظمأنا لريقك صاديا ... فأوردْتُ دون العذب مرّ المناهل
وقد كانت الدنيا كأرحب ما ترى ... فصيرتها بالهجر كفة حابل
أعدلاً تبيت الليل جذلان هانئاً ... وأقطع هذا الليل جمَّ البلابل
لشد الذي لاقيت من عنت الهوى ... وأن كان في بردي له صبر باسل
وأقسمت لا أشكو صدودك بعد ما ... تبينت أن القول في غير طائل
فكن كيفما تبغي فلست مباليا ... أأشفقت أم أثقلت بالهم كاهلي
محمد برهام
كيف تشكو؟
كيف تشكو إليَّ زيداً وعمرا ... إنما كل ما أتوه صوابُ
إن دنياك قوةٌ فكن الذئ ... ب وإلا تخاطفتك الذئاب
إن عيش القوى رغد هنيٌّ ... وحياة الضعيف فيها عذابُ

لا تقل لي الضميرُ والعهد والعدْ ... ل كلام منمق مستطاب
فارْم عنك القشور وانفذ إلى اللب ... بّ يطالعك بالمفيد اللباب
في قرار الكأس التي ضمت الشه ... د تفاني سم زعاف مذاب
ووراء العيون تطفحُ بالبش ... ر قلوب بالغدر ملأى صلاب
فادَّرع للحياة عزما من الفو ... لاذ وانهد فالعيش ظفر وناب
حمص (سوريا)
صفي قرنفلي
ذكرى العيد
فراقٌ إلى غير اللقا لا يرده ... بكاء ولا وجد ولا حر أنفاس
ولا نظرة قبل الوداع أفدتها ... ولا دمعة تذري لدى الراحل الناسي
حلفت يمينا بالصبابة والهوى ... لقد ضيعتْ أوفى محب من الناس
وخلَّت فؤاداً لم يخفَّ لغيرها ... طعينا ولا يشفيه طبٌ ولا آس
خفوقا وقد شدت عليه أضالعي ... وليس له من بينهن مواس
كنجم بدا في حندس الليل مفرداً ... يطل على جيش من الليل فراس
وخلفت نفسي في الأسى لا تريمه ... ووجدٍ مُلِح ظلمه فادح قاسٍ
كشاةٍ أضلت صحبها وتخلفت ... بيداء تعدواً بين هم ووسواسٍ
كذلك ذكرى العيد من قاتل الهوى ... وكان نديمي كل عيد وإيناسي
إذا العيد لم يحمل إليَّ حديثها ... ونشراً زكيا دونه عابق الآس
فما العيد إلا مأتم متجدد ... يهدم قلبي أو يقطع أنفاسي
شرق الأردن
حسني فريز
الشعراء الرمزيون
بول فرلين 1844 - 1896 - 1
للأستاذ خليل هنداوي
شخصية هذا الشاعر شخصية غريبة، قد اصطلحت عليها أعاصير الحياة، وانحطت عليها الآلام، وهي خلال ذلك تبعث بالألم، وتنشد الشقاء خاليا من الحان الشقاء.
كانت حياته الأولى حياة هادئة كالسماء الصافية لا يغشى أديمها شيء. ثم بدأت سحائب سوداء قاتمة تحتشد من كل صوب لتحجب هذا الصفاء، واستطاعت أن تحجبه، واستطاعت أن تعكر عليه صفاءه. وتجعل حياته الجميلة مأساة عاشت مع نفسه. وترددت أنفاسه في هذه المأساة التي عصفت به وعصف بها!
رحم الله أبا نواس. فقد كان يدعو الندامى والشاربين إلى أن يغبطوه على سكره كلما شرب، لأنه يرى في سكرته نشوتين، ويقول لنداماه: تسكرون انتم سكرة واحدة، وأنا اسكر سكرتين.
لي نشوتان وللندمان واحدة!
وكذلك كان (بول فرلين). فسكره كان متصلا، وذهوله الروحي كان متصلا، يقتله السكر الأول ولكن السكر الثاني يحييه. ولعله كلما توغل في السكر القاتل زادت محبة الحياة عنده في السكر المحيي، فألح عليه أصدقاؤه أن يتحرى المرأة فتحرى فوجدن وشفع له جمال نفسه عن دمامة وجهه. ولكنه لم يجد الشفاء المرتجى في المرأة، فذهب يتحرى، ولعله تمثل أن شفاء نفسه في صديق يفهمه، ولعله اعتقد انه وجده في الشاعر الرمزي (ارتور راميورد) فمال إليه ميلا غريبا. . وفتحت قصائده مغاليق نفسه، فاتصلا بضعة اشهر ثم انفصلا، ولعل أمر انفصالهما كان كأمر اتصالهما، لان الأرواح قد تتجاذب وقد تتدافع. ولكن هذا الانفصال لم يكن إلا إلى حين، لان (فرلين) الضعيف كتب إلى صديقه يدعوه، فلبى الصديق نداءه، وعاد إليه يقضيان - في بلجيكا - حياة تضل فيها الظنون، وتحلق فيها الأوهام. ولكن أمد هذه الصداقة لم يطل. وليته مات موتاً، ولكنه انقطع انقطاعا. فأن (فرلين) عقب سكرة عنيفة قد اقتفى اثر صديقه في الطريق. وأطلق عليه رصاصة جرحته جرحا بليغا. شاء ذلك (فرلين) السكير. وشاءت ذلك نفسه الذاهلة الغلبة على نفسه الواعية،
ولعل مبعث ذلك كله هو الخمر! فلبث عامين يتخبط في سجن (بروكسل). حتى إذا انطلق من السجن عاد إلى ميدان الحياة يغامر فيه، ويطلب لنفسه منفسحا، فشغل

مناصب علمية في أقطار مختلفة، ثم لجأ إلى باريس. لا يحمل إلا قلبه الشاعر! وقلب الشاعر أرجوحة تترجح بين الشقاء والهناء، فعزاه عن خطوبة انه طفق يرى كوكب مجده يسطع ويتألق، وان أصدقاءه المعجبين به يشيعون ويظهرون، فلتفن كل آلام الحياة أمام هذا الأمل المشرق، ولتقو ما شاءت أشواك الألم ما ظللت هذه الزهرة حية لا تقدر على خنقها.

أما مجده الشعري الذي خلقه من بعده، فهو يتجلى في مذهبه الرمزي الذي لم يتكلفه تكلفاً. وإنما كان برموزه يساير روحه التي تأنس بالغموض والإبهام، وتأوي إلى عالم ملؤه الأوهام والأحلام.

جرب (فرلين) جل المذاهب الشعرية الشائعة في عصره، فسمع الحان (الرومانتيكيين) وطرب لها، ولكنه فر عاجلا وأبى أن يظهر مرارته بهذه الألحان، فأتى المدرسة (البرناسية) ووجد فيها ضالته، فنظم قصائد كثيرة خالية من ميول النفس واهوائها، وهو القائل:

(أليست من رخام (فينوس ميللو))؟

فقد فرض على قلبه أن يكون من رخام أيضاً يوم يتلمس هذا الجمال الرخامي.

ولكن (فرلين) المتقلب لا يجد أن هذه المذاهب تستطيع أن تتسع لنفسه الفياضة، فهو يحس - في نفسه ميولا غامضة تتمشى، ونزوات مبهمة تتهادى، فأي فن رخامي يقدر على بيانها؟ فمال عن المدرسة (البرناسية) ومشى وراء الشاعر (بودلير) مشية المحترس فاخذ من (بودلير) كثيراً. وولد شعر (بودلير) في نفسه كثيراً وأيقظ في نفسه كوامن كان يحسها، ولكن لا يجد إلى الإفصاح عنها سبيلا.

وبعد أن رأينا (فرلين) يصارع أصحاب الشعر العاطفي الشخصي نراه غدا أوضح الشعراء شخصية وعاطفة في شعره، ونرى قصائده الأخيرة إنما هي رسالات حقيقية يمكننا أن نعتمد عليها في درس شخصية الشاعر، تلك الشخصية المعقدة الجوانب التي اجتمعت فيها مذاهب متباينة وميول من الحياة متنافرة، وصدر من اجتمعت فيه هذه المذاهب وهذه الميول نراه طوراً كالرخام تمر به وتضج وتثور فلا يحسها، وطوراً تمر به مر النسيم

فيتأثر ويهيج، و (فرلين) الرخامي القلب الذي كان يصف الأشياء وصفا متجردا عن الأهواء يصبح شاعراً محللا نفسياً، نزل إلى أعماق النفوس، وصف الكآبة العميقة المتمددة في حناياها، ووصف التأملات المشوشة يوم تعبس، وأحلامها المتبدلة حين تطرب. كل ذلك وصفه بعبارات تتمشى مع حركات النفس، وتنسجم مع ألحانها متوافقة متلائمة، ووراء هذه العبارات إحساس حي دقيق، ولكنه إحساس لا يظهر فيه الشقاء واضحاً منتصراً غالباً على كل شيء، ولكنه ذلك الإحساس المفعم بالظلمة والمغشي بالإبهام، كأنما يسري الساري فيه في جو مبطن بالضباب، والشاعر بين حقيقة حياته المظلمة الممقوتة وبين تلك التعازي التي كان يرسلها فنه وإحساسه أحلاماً جميلة ملونة، كان يمشي بفنه، ويحلق في افقه، مبدعا ذلك الشعر الذي دعاه معاصروه بحق (بالشعر الرمزي) وأضافوا لحنه الجديد إلى ألحانهم الشعرية.

بعد هذا كله أبدع شعراً جديداً البسه مطارف فن جديد، وخلق للشعر لغة (وفرلين) جديدة اجمع النقاد على أنها أسمى لغة شعرية، ولم يكن (فرلين) بنفسه إلا أنشودة جديدة مرت على أوتار قيثارة الشعر.

مختار من شعره

- 1 -

أغنية الخريف

تجرح تلك الأنات الطويلة

التي ترسلها قيثارة الخريف. . .

وتبعث في نفسي الكلال والفتور

تدق الساعة! فتطفح نفسي بالذكريات القديمة!

فتبهت ملامح وجهي، وتضيق أنفاسي!

وتذرف عيناي الدموع.

استسلم إلى رياح الخريف!

فتحملني مثلما تبتغي. . كما تحمل الزهرة الذاوية!
- 2 -
القمر الأبيض
هذا هو القمر اللجيني يسطع في الغابة،
وتحت كل فرع، ومن كل غصن
يتعالى صوت هاتف (يا محبوبتي!)
هذا هو الغدير الرقراق كالمرآة المصقولة،
تسبح فيه خيالة الصفصافة السوداء
حيث تبكي الريح
ألا فلنحلم. . . هذه هي ساعتنا
والهدوء الشامل قد غمر الكون،
كأنما تنزل من اللانهاية المشرقة ألوانها
إلا إنها الساعة المنتظرة. . .
- 3 -
منظر
والبلبل القائم على الغصن يخال نفسه
ساقطا في الماء يخشى على نفسه
الغرق وهو في ذروة السنديانة
(سيرانو)
تموت ظلال الشجر على صفحة الساقية التي غمرها الضباب
كما يموت الدخان.
بينما الحمائم في الفضاء تبث الشكاوي
وترسل النجاوى بأمان
أيها المسافر! إن هذا المرأى الحائل
ليبعث في نفسك الحؤولة
ويغادرها تحت الظلال العالية، كاسفة كئيبة
آمالك الغرق التي تموت،
- 4 -
من السجن
السماء - هنالك - لامعة زرقاء. .
وشجرة - هنالك - تهتز غصونها في الفضاء
الناقوس تتهادى دقاته في الأجواء
والعصفور يرسل شكواه نشيدا وغناء
إلاهي! إلاهي! إن الحياة - هنالك - يحفها الهدوء والسكينة
وهذه النأمة الخفيفة - هي أصوات المدينة،
يا أيها الساكن - هنالك - تبكي البكاء الطويل!
قل: ماذا تصنع أنت بشبابك الجميل
- 5 -
جرين
إليك هذه الثمار، وهذه الأزهار!
إليك هذه الأوراق، وهذه الأغصان!
إليك قلبي، الذي لا يخفق إلا من أجلك،
لا تمزقه بالله يداك الناعمتان البضتان
ولتقبل هديتي الوضيعة عيناك الجميلتان!
وصلت إليك! وعلى جبيني تتألق قطرات الندى
التي جمدتها ريح الصباح
تألمي لي! فأن شقائي الذي يسكن تحت قدميك،
يحلم بتلك الثواني العزيزة التي ستزمع الأرواح.
دعي رأسي على صدرك الساطع،

ترى فيه أصداء قبلاتك الأخيرة،
دعيه يسترح من العاصفة الثائرة
وذريني يطبق جفني الكرى حيث أنت تهجعين. . .
- 6 -
كآبة
تهوى الكآبة على قلبي كما تهوى على المدينة ماء السماء!
فما عسى تكون هذه الكآبة التي غمرت قلبي! وما هذا الشقاء؟
آه! أن وقع المطر على الأرض والسقوف يبهج الفؤاد
الذي اعتاده سأم. . . آه يا أغنية الشتاء!
تهبط الكآبة والشقاء القاتم، بدون سبب على هذا القلب الساهم.
فعلى أي عهد ضائع أكتئب؟
ألا أن هذا الحداد بغير سبب.
ألا أن هذا هو العذاب الأكبر!
يكتئب فؤادي
وينتابه الأسى، دون أن يعتاده حب أو يهيجه بغض
وهو لا يعلم - بعد ذلك - لحزنه سبباً!
دير الزور
خليل هنداوي
في البحوث الروحية - 5
للأستاذ عبد المغنى على حسين خريج جامعة برمنجهام
لهذه البحوث جانب علمي وجانب ديني. أما الجانب الديني فقتله بحثا جهابذة من المصريين. وأما الجانب العلمي فأمنية هذا القلم الضعيف أن يبسط ما تم منه، ويتتبع عن كثب ما يستجد فيه، ومن وراء هذا القلم نفس تتمنى لو أن بمصر معهدا لهذه البحوث، فلعل الأماني تحققها الأيام.

وللبحوث الروحية أيضا جانب تاريخي، إذ الظاهر الروحية لم يخل منها عصر من العصور، عرفها سقراط، وأندفعت بتأثيرها جان دارك، ومارسها الكهنة والسحرة، دع جانبا وحي الأنبياء ومعجزاتهم، وكرامات الأولياء، وما أدى ويؤدي إليه التصوف. ليست الظواهر الروحية بمكتشف جديد، وإنما الجدي هو أن يفلحها العلم الحديث بمحراته التجريبي البطيء الأكيد.

هل الحياة بعد الموت إحدى الحقائق الكونية، أم كل ما يقال عنها توهم وإيهام؟ وإذا كانت تلك الحياة حقيقة واقعة فما القوانين الطبيعية التي تربطها بهذه الحياة؟ وما العلاقة بين الجسم المادي الذي نعيش به هنا والجسم الروحي الذي نعيش به بعد الممات؟ وكيف ينشأ وينسلخ هذا من ذاك؟ سيخيل إلى القارئ أن المبحث عبث، والمطلب مستحيل، ولكن عددا من رجال العلم قد أوغلوا في هذه السبيل، ووصلوا إلى نتائج حاسمة، ونبشوا في صخرة الموت الصماء ثغرة يضع انفه فيها كل يوم باحث جديد، وقد تتسع يوما ما لكل الأنوف.

الجسم البشري يتألف من كهاب سالبة وموجبة، والتمثال الحجري يتألف من نفس تلك الكهارب. ولكن الجسم البشري يحس ويتصور ويتذكر ويفكر ويريد. فما السر في أن كهارب الجسم البشري حية عاقلة، وكهارب التمثال ميتة خاملة؟

هناك رأيان. أحدهما أن ظواهر الحياة في الجسم الحي ليست سوى نتائج طبيعية لترتيب كهاربه على نسق خاص، أو هي، بصيغة أخرى، نتائج آلية لتركيب الكيميائي. ذلك أن المادة بمفردها تكون ذات خواص معينة، فإذا اتحدت بمادة أخرى نتج مركب تختلف خواصه عن خواص المادتين اختلافا بيناً.

فالأيدروجين مثلا غاز خفيف، تصعب اسلته، والأوكسجين غاز يتوهج فيه القبس المتقد، ولكن إذ اتحد الأوكسجين بالأيدروجين نتج الماء، وشتان بين خواص الماء وخواص كل من الأيدروجين والأوكسجين. وخذ مثالا آخر: الكلور غاز يعافه الانف، متلف، مهلك، سم زعاف، والصوديوم فلز نشيط قوي الفعل، ولو وضع الإنسان حبة منه في فمه لنسف حلقه نسفا، ولكن إذا اتحد الكلور بالصوديوم نتج جسم لطيف، يصلح المعدة، والدم، هو الملح الذي به نأتدم، وبدونه لا نستمرئ الطعام. فأصغر تعقيد كيميائي في تركيب

المواد يحدث اكبر تغيير في خواصه، فلعل كل ظواهر الحياة، على غرابتها، ليست سوى خواص طبيعية وكيميائية للمركب المعقد المسمى بالبروتوبلاسم
هذا الرأي الكثرة من علماء البيولوجيا. وأصحاب هذا الرأي لا يرون البعث من الممكنات، وعندهم أن الرجل إذا مات، وتفككت ذرات جسمه، فصعد بعضها في الجو بهيئة غاز، ورسب الباقي في التربة بشكل ملح، وشتت الريح الغاز فيالقارات الخمس، وأسلمت التربة الملح إلى جذور النبات، فقد عاد الرجل كأن لم يكن، وبعثه من جديد رجع بعيد، وليس له روح إلا بقدر ما يكون للملح روح بعد تحليله إلى الكلور والصوديوم.
ومن زعماء هذا الرأي سر آرثر كيث، أستاذ البيولوجيا وعضو المجمع العلمي البريطاني، فهو يقول: -
إذا كنا نخلد فإنما نخلد في أبنائنا وذرارينا. . . قبل أن نتساءل عن كنه الحياة . . .) وإمكان استمرارها بعد الممات، يحسن أن نقول ما هو الموت. إذا وجد الطبيب قلب مريضه سكت، ولم يبق لتنفسه مد وجزر، قرر أن الموت حل بساحته. ولكن ليس هذا بصحيح، إذ لو هيأ الطبيب في الحال جهازاً يدفع دماً طازجا مشبعا بالأوكسجين في الأوعية الدموية لمخ الميت، لاستعاد هذا وعيه وذاكرته، وقدر على التفكير، ونطق بالكلام، وبقى كذلك ما بقى في عروق مخه دم صبيح. فإذا أوقف الدم عشر دقائق دخلت خلايا المخ في موت لا حياة بعده، ولكن خلايا القلب تظل حية، بحيث لو اقتطع وأحيط بوسائل خاصة عاد يدق كما كان يفعل بين ضلوع صاحبه، أما خلايا الشرايين فتعيش بعد الوفاة أربعين ساعة. الموت لا يحدث دفعة واحدة بل بالتدريج، وخلايا الجسم تموت فرادى كما يموت السكان في قرية جائعة - الضعيف يموت أولا والقوي يعيش بعده إلى حين. لو كان الموت كما يقول سر أليفر لدج هو خروج روح من الجسم لحدث دفعة لا بالتدريج. . . لا يستطيع البيولوجي أن يسلم بوجود روح للإنسان أو للحيوان، وعنده أن الروح والجسم شيء واحد لا يتجزأ).
هذا رأي في تعليل ظواهر الحياة. أما الرأي الآخر فزعيمه سر أليفر لدج، ومجمله أن كل حيوان، ابتداء من الأميبا (حيوان أحادي الخلية بدأ يتميز من الجماد بالشعور والإرادة) يتألف من كيان مادي وكيان اثيري، وينفرد الثاني إذا ما تحطم الاول، وتستمر الحياة بعد ذلك بهيئة لا تدركها حواسنا الخمس.
هذان رأيان نقيضان فأيهما الصحيح؟ العلم الحديث لا يقف عند حد الإدلاء بالآراء، بل سر قوته ونجاحه هو اختبار الآراء بالتجارب العملية، فهو لا يقيم وزنا لآراء تأبى الامتحان العملي، ولو فعل لتصدعت الرؤوس بآلاف الآراء الجامحة. فقبل أن يصبح الرأي حقيقة علمية يجب أن تحققه التجارب العملية.
نظرة في هذين الرأيين
الرأي الأول (رأي العدميين) لا سبيل إلى إثباته عمليا إلا بصنع خلية حية من مواد كيمياوية عادية وهذا لم يحدث بعد. نعم. نسمع في الحين بعد الحين أن كيميائيا احدثه، ولكن الخبر يذاع اليوم ويموت غدا، فهو مبالغة أو اختلاق. أما الرأي الثاني فتوجد اليوم ظواهر تؤيده، نذكر هنا مثالا منها:
مستر (فرانك لي) وسيط يعمل بجمعية للبحث الروحي بلندن، وله خاصة الكشف البصري، فهو يرى الأرواح كالأشباح. ولكنه يزيد عن أمثاله من الوسطاء بأنه رسام ماهر، فعندما يرى الروحويصفها، يتناول القلم والورق ويرسمها. للتحقق من صدقه يفاجئه الباحثون كل يوم بأشخاص ليست لديهم معرفة. ولكنه برغم ذلك يرسم صوراً صحيحة لأرواح أقربائهم. ويجد القارئ هنا رسمين لروحين من عمل مستر (لي)، وبجانب كل رسم صورة عادية من صور المتوفي أيام حياته. ويلاحظ أن الشبه متوفر بين الأصل ورسم الوسيط.
كيف يمكن أن يرى الروح إنسانا كائنا من كان، ليس الأمر من الغرابة كما يبدو. نحن نرى من الأشعة ما يقع منها بين الأحمر والبنفسجي. ولكن هل هذه هي كل ما في الكون من أشعة؟ لا. لقد كشف العلم عن سلسلة طويلة من موجات أطول من الحمراء، وسلسلة أخرى اقصر من البنفسجية - أشعة يعج بها الفضاء من حولنا ولا نراها. ويمكنك أن تدخل حجرة

حالكة الظلمة، وتملأ فضاءها بتلك الأشعة، ومع ذلك لا تميز عينيك غير الظلمة الحالكة.
يفترض سر أليفر لدج أن الروح بعد الموت تعيش في جسم أثيري. فلعل هذا الجسم الأثيري يشع من الموجات ما لا يؤثر في العصب البصري للشخص العادي ولكنه يؤثر في عصب شخص شاذ هو الوسيط.

لعل العالم المرئي لنا هو واحد من عوالم كثيرة تحف بنا من كل جانب وبيننا وبينها حجاب رقيق.

القصص

قصة مصرية

صدمة الغرور

أتم كامل تسريح شعره بعد أن نضحه بماء الكلونيا ووضع طربوشه فوق رأسه. ثم نظر في المرآة المثبتة في خزانة ملابسه نظرة اختبار وتأمل، فحسن في عينه كل شيء إلا نظام المنديل الحريري المدلى من جيب سترته، فأخذه في يده وجمع أطرافه إلى وسطه وأعاده بعناية ورفق إلى مكانه.

ارتدى بعد ذلك معطفه، وامسك بعصا دقيقة وخرج من المنزل الصغير، بعد أن أوصى الخادم أن يعد طعام الغداء مع شيء من الزيادة وكثير من العناية، لان ضيفا سيأتي لزيارته اليوم وسيعود إلى المنزل معه.

سار كامل في طريقه إلى عمله بمكتب (التلغراف) في تؤده ونظام، ترتسم على شفتيه نصف ابتسامة يتكلفها دائما ليكون عظما علا الأقل - في نظر نفسه - وكان حريصاً كعادته على أن يقتصد في نظراته وتحياته في الطريق، وعلى أن يظل منتصب القامة واضعا يده اليسرى في جيب معطفه، وممسكا بالأخرى قفازيه وعصاه الثمينة، ويرفعها ويهبط بها على نظام ثابت، وبين مسافات متساوية. مبتعدا بحذائه اللامع عن آثار المطر القليل في الشارع.

وصل المكتب فحيا الوكيل وحيا زملائه بابتسامة كاملة لم تنفرج لها شفتاه، ثم جلس إلى عمله يستقبل البرقيات ويعنونها ويضعها في أغلفتها ويسلمها بإصلاتها إلى السعاة الموزعين.

يفكر كامل في نفسه كل التفكير ويتأنق في ملبسه كل التأنق، فهو يشفق أن تقتحمه نظرة أرستقراطية تقع منه على ضعف في التجانس بين قميصه الحريري وبين بذلته أو رباط عنقه. ولذلك يأخذ نفسه بكثير من الدقة في اختيار الألوان وفي انسجام كل مجموعة من ملابسه على ذوق مناسب للفصل وللوقت. يرعى ذلك كله وأن يعمل في مدينة صغيرة من مدن الوجه البحري قلما تقع فيها العين على اكثر من اللباس العادي النظيف الذي يمتاز بالبعد عن الكلفة والإمعان في البساطة.

ويحرص على هذا كله برغم ما يقتطع من مرتبه الشهري الذي لم يزد على سبعة جنيهات ونصف جنيه من يوم أن عين في وظيفته. وهو راض بذلك يعيش منه في جو من الغرور وخيال العظمة يعزله عن وسطه وزملاءه ويجعله أحيانا مبعث دهشتهم وأحيانا موضع نكاتهم.

قلبه يحمل إلى جانب ذلك حبا يملكه كأقوى ما يمتلك الحب، وهوى يعذبه كأشد ما يعذب الهوى. فإذا به وهو ممسك بصورة محبوبته يقلبها بين يديه في مناجاة ذليلة، وضعف ينسى فيه نفسه ويتخيل الحبيبة كل شيء، طالما أوصد على نفسه باب حجرة نومه الصغيرة. واخرج الصورة من حرزها الحريز في خزانته ولبث ينظر إليها في ذهول حتى يغيب عن وجوده عن حجرته، ويعود في ذكرياته إلى أيام الدراسة ثم إلى أيام العمل الأولى في القاهرة. فيرى نفسه وقد ذهب محملا بالأماني غارقا في الأحلام إلى منزلها ليزور والدها واخوتها، حاملا إليهم تحيات أسرته الصديقة كان ينتهز لذلك فرصا كثيرة. وكان يقابل هناك بكثير من الحفاوة للصلات القديمة المتينة التي تربط العائلتين. وكانت تأتي (هي) لتحيته فيقوم لها وقد سرت في جسمه هزة سريعة ينهزم لها قلبه، وينعقد لسانه، وتتسمر عيناه، إلا أن الابتسامة التي كانت تنطبع على شفتيه دون وعي كانت تحجب عن الأنظار كثيراً من ذلك. ثم يجلس مفكك الأوصال كما يعتدل في فراشه المريض الناقه بعد أدوار الحمى القاسية. ويمضي الزمن سريعا سريعا فيستأذن ويخرج مهيض الجناح ملتاع القلب. يذكر ذلك وفي يده الصورة فينهال عليها بفمه الملتهب يقلبها في حرارة، ويرفع نظره عنها ويثبته في السقف وهو لا يرى

منه شيئا. ثم يرسل تنهدة عميقة، ويقوم في تراخ فيفتح صوانه ويضع الصورة حيث كانت. ثم يعود إلى سريره يستلقي عليه في فتور وإعياء.

هذه الصورة عزيزة عليه يحتفظ بها ويحرص عليها كل الحرص لأنها لم تصل إلى يده إلا بعد عناء شديد، شاركته فيه أمه عندما سافرت لرؤيته في مصر، فأعملت حيلتها في تبادل الصور بين الاسرتين، ولم تظفر بها إلا بعد جهد ورجاء في الزيارة الثانية. وقد تشجعت - بعد إلحاح أبنها الشديد - على أن تشير في سرعة وغموض إلى أملها في أن تتصل بينهما أواصر صلة قريبة. وكم اطمأن قلبها عندما لمحت حمرة الخجل تشيع في وجه (رسمية) وابتسامة المجاملة تبدو على ثغر والدتها!

كل هذه الذكريات كانت تطيف بكامل كل يوم قبل أن يأوي إلى فراشه، وعندما يخلو إلى الصورة العزيزة يناجيها ويتنهد من أقصى رئتيه، لا يستطيع التفكير في مصير أمله الغامض.

لم يسافر إلى مصر من عهد أن نقل منها، وقد أرسل خطابا إلى (عمه) رأفت بك والد رسمية يعرفه فيه حاله، ويتجه بتحية إلى الأسرة جميعها. وورد إليه منه رد رقيق يتمنى له فيه الراحة ويبدي استعداده لخدمته فيما يريد. وقد استحى بعد ذلك أن يكتب إليه مرة أخرى، ثم هو لا يعرف طريقا يقربه من غرضه. فوق انه لا يعتمد على شيء لهذا الغرض إلا على الصداقة القديمة بين أبيه وبين رأفت بك. وهو لا يثق كل الثقة في أنها تكفي بعد أن بعدت الشقة واصبح رأفت بك موظفا كبيرا، نشأت رسمية على حياة راقية وآمال واسعة. كما انه لا يثق من مساعدة أبيه له لنفس هذه الاعتبارات، ولذلك يؤثر إلا يكاشفه بالأمر في رغبة ورجاء استبقاء على أمله أن يتبدد من اقرب الناس إليه.

كانت تؤلمه هذه الخواطر حين ينتهي في تفكيره إليها فيحاول أن يبعده عنه فلا تبتعد، فيعلق نفسه بخيوط من الأماني. لعله يوما أن يكتسب عطف رأفت بك، ولعله يوما أن ينعم بحب رسمية. أليس شابا مستقيما؟ أليس وسيما أنيقا؟ وتحمله هذه التعلات من مكانه فإذا به أمام المرآة ينظر إلى نفسه ثم يبتسم لها ويعود إلى فراشه. ويسلم أفكاره إلى الهواجس ثم إلى النوم حتى الصباح.

حان موعد قيام القطار فدوى صفيره في الفضاء، ثم انطلقت أنفاسه المحبوسة، وتحرك في خفة وهدوء، وارتفعت أصوات المودعين، واخذ القطار يبتعد عن الرصيف شيئا فشيئا، واخذ المودعون والمسافرون يلوحون بمناديلهم في الهواء. ثم أغلقت النوافذ، وتتابعت المناظر من خلال الزجاج في سرعة عظيمة.

وجلس الدكتور أمين ممسكا بيده المجلة العلمية التي ابتاعها واخذ يقلب صفحاتها ليعرف موضوعاتها وكتابها. ثم وضعها إلى جانبه وسبخ في خياله. هو اليوم يعود إلى القاهرة منقولا إليها بعد أن فارقها من سنتين،. فارق فيهما حريته الواسعة وأصدقاء الدراسة، واندمج فيهما بالتقاليد الاجتماعية، التي ينفر منها، ولكنه لا يجد مفرا من الخضوع لها. سيعود إليها الآن شبه غريب فقد تفرق زملاءه، واصبح هو مقيدا بعمله وواجباته. ولكن

القاهرة هي القاهرة على كل حال، ولابد أن فيها كل امرئ راحته وسعادته.

اتسعت أحلامه وذكرياته فقام من مكانه ومد يديه إلى الإمام ثم إلى الخلف في بطئ واسترخاء مالئا رئتيه من الهواء المنعش البارد كمن يود أن يستجمع نشاطه المتفرق.

ثم سار في بهو العربة الخالي ينظر أحيانا إلى الركاب اللاهين في أحاديثهم أو صحفهم، أو المسلمين أنفسهم إلى سنة خفيفة من نوم أو تفكير، سار مرات في ذهاب وجيئة لم يتعد العربة التي هو فيها، ثم خطر له أن يجتاز مركبات الدرجة الأولى إلى عربة الأكل ليتناول فيها فنجانا من الشاي. فسار سيرا وئيدا في ممرات العربات التي يسودها سكون لا تسمع فيه قرقعة العجلات، ولا صفير القاطرة. وانقلب تفكيره وخياله إلى حال من العظمة والشعور بالكبرياء. وسمح لآماله أن تسبق الزمن فتراه طبيبا شهيرا جمع إلى ذيوع الصيت ثروة ضخمة تؤهله أن يكون دائما من رواد هذه العربات الفاخرة دون أن يكون دخيلا عليها. ثم تسرب فكره وخياله إلى نواحي العظمة الأخرى فتصور الضياع والقصور، وتخيل رحلة لذيذة في الصيف إلى خارج القطر يمثل فيها مصر في مؤتمر دولي طبي. وكان قد استند قليلا إلى إحدى النوافذ وإذا بيد تنزل على كتفيه في ملاطفة وتنبيه، فالتفت سريعا وملأت وجهه ابتسامة شاكرة، ثم مد يده

مسلما في احترام ولين.
- إلى أين أنت مسافر يا دكتور؟
- إلى مصر يا بك فقد نقلت إليها للعمل في المصلحة
- عال. إذن ننتظر منك أن تزورنا كثيرا. فأنت من الآن طبيبنا الخاص. أليس كذلك؟
- بكل سرور يا بك، ولي الشرف
- العفو يا دكتور. وكيف حال عمك؟ ألم تزوره حديثا؟
- كنت عنده في الأسبوع الماضي وهو في صحة جيدة ولو انه يعلم بهذا النقل لأوصاني أن أزور سعادتكم وأن أحمل إليكم أطيب تحياته.
- وكيف حال كامل ابنه فإني لم أره منذ أن نقل من القاهرة بعد تعيينه بمصلحة التلغراف.
- بخير يا بك. وسأمر عليه اليوم لأراه.
- إذن أنت لا تسافر فوراً إلى مصر في هذا القطار؟
- سأتخلف عنده ساعتين، وأصل أن شاء الله مصر في هذا المساء.
- والى أين كنت تسير الآن؟
- كنت أريد الذهاب إلى عربة الأكل أتناول فنجانا من الشاي
- إذن تفضل. وعمل ترتيبك على أن تنزل عندنا إلى أن تنظم مسكنك الجديد، فاهم؟ سأنتظرك في المساء. لا اقبل منك اعتذاراً. أن لعملك عندي منزلة كبيرة. وأنت دكتورنا الصغير العزيز - ها. ها. ها! بلغ كامل سلامي.
- متشكر يا بك، أن شاء الله

وقف القطار واستقبل كامل ابن عمه في حفاوة وترحيب وكان قد انتهى من عمله حين كانت الساعة الواحدة بعد الظهر. فسار به إلى المنزل، وتحدثا في الطريق عن النقل، فهنأه به كامل تهنئة حارة، وبادله الدكتور التهنئة على أناقته ومظهره الفخم الذي يبدو فيه من أبناء الطبقة الراقية

بلغا المنزل وكان الخادم على استعداد لتقديم الطعام. فأمره كامل بأعداده، وساعده في ترتيبه على مائدته البسيطة. ودعا ابن عمه أمين الذي في حجرة النوم مشتغلا بالتفرج على ملابس كامل العديدة الجميلة الصنع واللونفذهب إليه واخذ مكانه من المائدة وبدأ الحديث. .

- برافو كامل أنت لا تزال محتفظا برشاقتك المعروفة عنك برغم بساطة البلد الذي تعيش فيه. فمجموعة ملابسك تعتبر من أبدع ما يملكه هاو للأزياء الحديثة.
- أبدا، أنها في منتهى البساطة. ويظهر أن للعادة حكما لا يستطيع الإنسان أن يتغلب عليه ولو عاش في الأرياف أو في الصحراء.
- رأفت بك كان مسافرا إلى مصر في القطار الذي وصلت فيه. وقد (على فكرة) عرفني أثناء مروري في العربة وسأل عنك. وكلفني أن احمل سلامه إليك.
- رأفت بك: وكيف عرفك؟ وماذا قال لك؟
- يظهر أن ذاكرة الرجل قوية. فقد مرت سنتان لم أره فيهما، ولكنه رآني مع عمي كثيرا قبل ذلك. وقد هنأني تهنئة رقيقة يوم ظهور نتيجة الدبلوم. وقد سألني اليوم عن عمي. وطلب مني بإلحاح أن انزل عنده في مصر حتى أهيئ لي سكنا، وقال انه في انتظاري الليلة.
- في انتظارك الليلة؟ إذن أنت لا ترغب في البقاء معي ولو يوما واحداً؟
- بكلأسف. فأنا مضطر إلى الذهاب إلى المصلحة غدا صباحا ولذلك سأسافر بقطار الساعة الثالثة. ولا تنس إنني وعدت رأفت بك بالذهاب إلى منزله هذا المساء
- إنها فرصة سعيدة جدا، إلا تعرف؟
- فرصة لا باس بها وأن كان لا يهمني كثيرا الاختلاط بالطبقات الأرستقراطية، بل إني أضيق بالعادات والتقاليد الخاصة بها. وأحاول أن أتكلفها لئلا يفوتني شيء منها، فتقابل تصرفاتي بابتسامة أشفق منها على نفسي. ولذلك فأني في الغالب سأعتذر للبك بعد الليلتين بحصولي على مسكن وانتقل إلى أحد الفنادق
- كيف ذلك؟ أني أريد أن أكلفك بهمة هذا المنزل. مهمة شريفة جداً. يتوقف على قضائها مستقبلي، واقل تتوقف عليها حياتي، وقد خدمتني الظروف أجل خدمة بما حدث بينك اليوم وبين رأفت بك مما جعلك تقبل النزول في بيته، فتكون ضيفا كريما

مسموع الرأي، مجاب الإرادة. فهل أنت مستعد أن تقدم لابن عمك وصديقك هذه المكرمة الميسورة لك؟
- لا افهم. إنما ثق أني على أتم الاستعداد لخدمتك فأنت أخي قبل كل شيء، فما هي هذه المهمة وكيف يتوقف قضاؤها على بقائي في منزل رأفت بك. أأنت تريد العودة إلى القاهرة؟
- هذا طلب ثانوي سيكون له وقته القريب أو البعيد.
. . .اسمح لي دقيقة
وقام كامل فغسل يديه بسرعة وجففهما ثم دخل إلى حجرة النوم وعاد ومعه الصورة في غلافها.
اقترب من أمين وقد امتقع لونه وعلت أنفاسه ورفع بين إصبعين من يده المرتعشة. فامسك أمين عن الأكل وحملق بعينيه وفغر فاه وقال بصوت ملؤه الغرابة والدهشة:
(آه يا عفريت) . . .(رسمية! بنت رأفت بك، أنت بتحبها!؟ مين جاب لك الصورة دي؟).
جلس كامل وهو لا يكاد يعي ما يسمع أو ما يقول ثم أجاب - الصورة مهداة إلى أمي. وليست لي بالذات، أما إني احبها فلست ادري إن كان الحظ أو سوء المصير هو الذي أوقد نيران هذا الحب في قلبي، فهو يستعر به ولا تنبئ عنه إلا هاته الزفرات.
وهل كاشفت أحد بهذا الحب؟
أبداً لم أجد الفرصة أو لم أجد شجاعة. حتى إني أحس الآن بألم في نفسي كأني استبحت حرمة دفينة حين صرحت لك، ولكنه الأمل، فعزائي الآن بيديك. وإنما أمي تعرف عنه كل شيء، وأظنها أبدت الرغبة ذات مرة في زواجي من رسمية، وأخبرتني ولست ادري أكان حقا أم قصدت سروري. أخبرتني أن رغبتها صادفت ارتياحا من الجميع.
إذن المسألة أصبحت سهلة. وماذا يمكنني أنا أن أقدمه إليك في هذا الأمر؟
- ماذا يمكنك؟ يمكنك كل شيء. تستطيع أن تعرف الميول الحقيقة نحو الفكرة. وميول رسمية بصفة خاصة. وتستطيع أن تكون صريحا في ذلك. وان تستعمل حيلتكوتأثير شخصيتك. وعندك الفرصة سانحة لتمكنك من قضاء وقت طويل أثناء إقامتك في المنزل.
- على كل حال ثق أنني سأجرب نفسي في هذا الموضوع، وأنني سأتخذ ما ليس من طبعي من التبسط في التفاصيل، وسيساعدني على ذلك أن مثل هذا الحديث عند الطبقة الراقية مألوف لا غضاضة فيه. وإن كنت لا أكتمك ظني أن لأمثال هذه الطبقات ميولا وآمالا قد لا تدخل في تقديرنا فلا نعمل لها حسابا. إنما يمكنك أن تعتمد عليّ في ذلك إلى ابعد حد.
- إذن أضع كل أملي فيك. حياتي ومستقبلي بين يديك، عاملني كأخ، ولا تنس أن قلبي يتفطر، وأنني لن أرى الراحة حتى أرى بواكير خدمتك. وسأظل مدينا لك بروحي مدى الحياة.
لماذا أمسكت عن الأكل؟ كل فإن المسافر يجب أن يأكل كثيرا
متشكر، لقد امتلأت. أين ماء الغسل؟
سافر الدكتور ومضت أيام، فأرسل إليه كامل خطابا يستثير فيه اشفاقه، ويرجو منه إفادته عما عمل وما رأى وما سمع، ومضى أسبوع، وأرسل كامل كتابا أخر يعتب فيه اشد العتب، احتدت فيه عاطفته أول الأمر ثم لانت وتوسلت وتذللت وطلبت رداً. . . أي رد
. .واتى الرد أخيراً. نشر كامل الخطاب بين يديه في سرعة ورجفة وقرأ
عزيزي كامل
أحييك وأتمنى لك الصحة والراحة. جاءني خطاباك وقد كاشفتها بحبك، فامتعضت وزمت شفتيها في احتقار وتبرم. ولم أشأ أن اجرح شعورها بعد ذلك، اجتهد أن تنسى عاطفتك
الجامحة، وثق انك تستطيع ذلك، ويمكنك أن ترسل الصورة إلى الوالدة، أو تتخلص منها على أي حال. فهذا يساعدك على ما ذكرت، وإني لك على الدوام المخلص
أمين
ومنذ شهر، عاد كامل في نهايته من أجازته المرضية الطويلة. وإذا به يتلقى في البريد

الدعوة الآتية:
محمد رأفت بك، والدكتور أمين سامي يتشرفان بدعوة حضرتكم إلى حفلة عقد قران)
الآنسة رسمية كريمة الأول على الثاني في الساعة السادسة من مساء الخميس 25
(الجاري بمنزل الأول في الزمالك ويسرهما أن يشفعا هذه الدعوى بأطيب الأماني
وجمد كامل في مكانه من ألم الصدمة. ولكن سؤالا سريعا وجوابا حاسما، طافا
بمخيلته في غير شعور أيذهب؟ مستحيل!
محمد فريد عبد القادر
شهر بالغردقة - 3
للأستاذ الدمرداش محمد
مدير إدارة السجلات والامتحانات بوزارة المعارف
- ما هذه يا دكتور كرسلاند؟
- هذه حدائقي المرجانية
- عجبا وما هذه الألوان الجميلة؟
- هذه ألوان المرجان نفسه
- ولكن عهدي بالمرجان - أن يكون شعبا صلبة من مادة جيرية بيضاء أو حمراء
- ما تقوله يصدق على بيوت المرجان بعد إخراجها من الماء وتعرضها للهواء والشمس
- إذن أرجو أن تزيدنا علماً بهذه الكائنات العجيبة
- بكل سرور - المرجان كائن حي هلامي الجسم صغير جداً من فصيلة الحيوانات
الدنيئة، وله القدرة على بناء بيت له من مادة جيرية يفرزها جسمه، وهذا البيت يعيش
فيه الحيوان ويرتكز عليه وهو يتكاثر بطريقتين: طريق التوالد أي التلقيحوطريق
الانقسام، أي أن الواحدة تصير اثنتين بطريقة تشبه الأزرار في النبات، وشانه في ذلك
كثير من أنواع هذه الفصيلة - فالمرجان في تكاثره يشبه النباتات والحيوانات العليا
معا، فهو مثل النباتات في أن كلا منهما يحتاج إلى رواكز ينمو عليها، كما انه ينتشر في
الأماكن المتباعدة بطريقة تكاد تشبه طريقة الانتشار بالبذور، وهو مثل الحيوانات العليا
في انه ينقسم إلى ذكر وأنثى - وتكاثر المرجان من الأمور المدهشة العجيبة، فالجزر
تحت أقدامنا والشاطئ من السويس إلى المحيط الهندي والحاجز المرجاني العظيم
شرقي قارة استراليا وكثير من جزائر المحيط الهندي والهادي ما هي إلا تكوينات
مرجانية من نوع الخمائل التي ترونها الآن والتي تثير فيكم الإعجاب والدهشة - فمتى
حان وقت اللقاح قذف الذكر من فمه سائلا لبنيا خفيفا ينتشر في الماء، فإذا وصل
السائل المذكور إلى الأنثى واختلط بالبويضات في جوفها حصل التلقيح وأخذت
البويضات في النمو على شكل كرات صغيرة جداً لا ترى بالعين العادية، وبعد تمام
نموها تطرحها الأنثى في الماء بكميات عظيمة، فتعوم فيه بحركة ضعيفة بواسطة
أهداب على جسمها تدفعها إلى الإمام، وبعد أيام أو أسابيع تستقر هذه الأجنة في
قاع البحر بالمكان الملائم لنموها فتلتصق سريعا بالقاع، ثم تتطور فيتميز لها فم تحيط
به اذرع لدفع الغذاء إلى الفم، ثم يتكون للحيوان هيكل جيري يأخذ في النمو سريعا
فتقوى اذرعه ويكبر تجويفه حتى إذا اكتمل نموه بدأت عمليتا التوالد والتكاثر على نحو
ما قدمنا فتتسع قاعدته وتطول شعبه، وتتفرع بالتزر كما يزرع نفسه في الأماكن
المجاورة بالتوالد.
وهنا اقتلع الدكتور كرسلاند من الماء شعبة مرجانية زرقاء فانساب منها سائل هلامي
شفاف له قوام كثيف ثم قال: إن هذا السائل عبارة عن أشلاء مئات الحيوانات
المرجانية، تسقط عن هياكلها الجيرية بعد أن فارقت الحياة لأنها لا تقوى على البقاء
خارج الماء، وأما هذه الشعبة - انظروا إلى الثقوب فيها فهي قرية أو مستعمرة
مرجانية، وعما قليل يضيع لونها الأزرق وتصير سمراء ثم بيضاء - إنها قصفة تنكسر،
بسهولة، وهذه المرجان لا يغرنكم شكله الجميل، فهو حيوان مفترس، فالكائنات
البحرية الصغيرة التي يسوقها سوء الطالع بالقرب من اذرعه تلاقي حتما حتفها، فعلى
الأذرع تنتشر ابر دقيقة تنتهي عند قواعدها بأكياس صغيرة تحتوي على سم شديد
الفعل، فمتى انغرزت الإبر في جسم الحيوان شلته عن الحركة فيقف جامد فتمتد إليه
الأذرع وتلصقه بها، ثم تدفعه رويدا إلى الفم، فمتى وصل إليه انفتح بالقدر اللازم
لابتلاع الفريسة، ثم يطبق عليها وتبدأ عملية الهضم داخل التجويف، والمرجان من أكلة

اللحوم فهو لا يتغذى بالنبات، وهو يتنفس مثلنا بالأوكسجين يأخذه من الماء ونحن نأخذه من الهواء.

والمرجان موجود في معظم بحار العالم، ولكن النوع الذي يبني الجزر والحواجز العظيمة لا يعيش إلا في البحار الاستوائية قليلة العمق، حيث يتوافر دفء الماء وصفاؤه، ومن صفات المرجان انه يموت إذا انكشف عنه الماء أو غطته رواسب كطمى الأنهار. والمرجان نوعان: نوع صلب وهو هذا، ونوع لين يكاد يشبه العشب البحري وله ملمس كالجلد، ثم أن النوع الصلب على اشكال، فمنه الريشي أي ذو الشعب، وهو أكثرها انتشارا وأجملها منظراً، ومنه ألوان كثيرة بديعة كالأرجواني والأصفر والأخضر والأسمر، ومن أشكاله أيضا النوع المخي وهو على هيئة تلافيف المخ، والنوع الطبقي وهو على هيئة أطباق صغيرة، والنوع الخيمي وهو على هيئة عيش الغراب.

ثم إن الدكتور كرسلاند بعد أن خطا بضع خطوات ونحن نتبعه وقف متفرسا وقال انظروا

في الماء: انظروا إلى هذا الأسماك الصغيرة التي تعيش بين الشعب، أليست جميلة حقا؟ إن وصفها يحتاج إلى بلاغة اكبر الكتاب وخيال اعظم الشعراء وريشة امهر المصورين - انظروا إلى حركاتها الرشيقة وهي تتسلل بين الشعب - فهذه اسماك لا يزيد طولها على سنتيمتر ونصف ذات ألوان بديعة براقة بين أزرق وأخضر وبرتقالي وأصفر وأحمر وأرجواني وأسمر، وبعضها نصف جسمه بلون والنصف الآخر بلون، وبعضها مخطط بخطوط واضحة محدودة: أزرق وأبيض، أو أصفر وأسود، وبعضها جسمه رفيع وبعضها جسمه مبطط يكاد أن يكون شفافا.

ثم انظروا إلى هذه المحارة العظيمة، أنها من النوع ذوي المصراعين، إنها كذلك تعيش مختبئة هكذا بين المرجان - ثم أن السماكين يخشونها ويحاذرون أن تزل قدم فيسقط أحدهم بين فكيها، فإذا انطبق المصرعان على القدم فانه لا يخرج منهما إلا مهصورا مهشما.

ثم انظروا إلى هذا (السجق) الأسود والأبيض، انه كذلك من سكان هذه المنطقة، والصيادون يسمونه خيار البحر، وهو حيان وديع لا يؤذي أحداً، ثم انه يكون عديم الحركة، فهو لا يسعى للقوت بل يكتف بدفع ماء البحر مع الرمل إلى جهازه الهضمي وهو عبارة عن قناة بطول جسمه، فيدخل الماء من طرف ويخرج من الطرف الاخر، والحيوان يكفيه ما في هذا الماء والرمل من موادعضوية حيوانات صغيرة لتكون غذاء له.

ثم انظروا إلى هذه السمكة التي تحاول مسرعة أن تختفي منا بين المرجان الأخضر - أنها (الدرمة) أو السمك البالوني - أن لونها يكاد يكون كلون البيئة التي تعيش فيها: - ظهر أخضر وبطن أبيض - ثم أنظروا إلى رأسها الكبير، وخصوص الفم، إلا ترون أن لها منقارا كمنقار الببغاء - ثم انه أمر (خير الله) كبير صيادي المحطة باقتناصها، فبعد دقائق كان يسحبها من الماء، ولم تكد تخرج منه حتى انتفخ جسمها وصار كالكرة الكبيرة (البالون) ثم قال هكذا طبيعتها كلما خرجت من الماء فهذا هواء الجو تضغطه في جسمها فإذا عادت إلى الماء زفرته فيتقلص جسمها كما كان - ثم قال لا تلمسوها بأيديكم لان جسمها مغطى بأهداب بيضاء من مادة لاذعة تحدث في اليد تخديراً.

ثم انه أنطلق ونحن في أثره اقبل على بقعة غنية بأنواع المرجان فقال هنا تعيش حيوانات بحرية كثيرة، والجهاد للحياة بينها على اشده، فهي لا تنفك في هجوم ودفاع - إن الغذاء

هنا وافر ولكن المنطقة مفتوحة للبحر فلا يجد فيها السمك الضعيف الحماية الكافية لصد هجمات السمك القوي فهو يعمد إلى الخديعة والحيلة - انظروا إلى هذا الثقب، إن حيوانا لا شك انه مختبئ هنا - ثم أنه ادخل في الثقب طرف عصاه فقفز منه شيء متحرك لم نميز فيه شيئاً - فمد الدكتور يده إلى الماء بخفة وحذر وانتشله منه فكانت دهشتنا كبيرة إذ رأينا سرطاناً بحريا (أبو جلمبو) في حجم الليمونة قد نما على ظهره عشب مائي غطى منه الرأس والأرجل حتى أنه إذا وقف على الأرض أو تعلق بالعشب أو اختبأ في ثقب فأنك لا تفرق بينه وبين قطعة من العشب إلا بعد جهد وأنعام نظر.

ثم أنه تقدم ونحن وراءه وقال: في كل خطوة مخلوق عجيب، وفي كل شبر كائن

غريب، ولا حصر لعجائب مخلوقاته. فتبارك الله العظيم!
ثم ركبنا اللنش فعاد إلى المحطة وقد أنتصف النهار.
وفي المقال التالي سنتكلم إن شاء الله عن منابع الزيت ومناجم الفوسفات.
الدمرداش محمد
-
العالم المسرحي والسينمائي
- فن التنكر
لناقد (الرسالة) الفني
فن التنكر - أو الماكياج، من أدق الفنون التي تتطلب من الممثل مهارة خاصة، أو خبرة واسعة، ودراية تامة، ذلك لان الممثل يعتمد على تعبيرات وجهه وما يكون لها من التأثير في نفس المتفرج في إبراز الشخصية التي يمثلها، وفي تلوين بعض المشاهد بلون العاطفة التي تناسبها من الغضب أو الرضا، اليأس أو الرجاء، الحب أو البغض، إلى غير ذلك من شتى الانفعالات النفسانية التي تختلج في القلب، ويلجأ الممثل في إظهاره إلى رنة الصوت وطبيعة اللهجة التي يتحدث بها، وبما يأتيه من الحركة المناسبة، هادئة كانت أم عنيفة، ثم بما يلوح على وجهه من الملامح التي تعبر عن هذه العاطفة، ومن هذا المجموع، من الصوت والحركة وملامح الوجه، يستطيع الممثل أن يحدث في نفس المتفرج الأثر الذي يريد، وينقل إليه إحساس الشخصية التي يحيا في تضاعفيها على المسرح.
على أن الوجه وما ينطبع عليه من تعبيرات شتى، ما يلوح على صفحته مما يترجم عن خلجات النفس وعواطف القلب، اكبر معوان للممثل في فنه. والممثل القدير قد يعطيك بنظرة ساهمة، أو لمحة خاطفة، مالا تؤديه عشرات الجمل، بل قد يشرح الممثل المؤلف والقصة كلها بهذه النظرة، أو هذه الملامح التي تنطبع على صفحة وجهه في مشهد من مشاهد القصة.
اذكر أني يوم قرأت (شمشون) للمؤلف الفرنسي المعروف هنري برنشتين، أستكثر على الزوج أن يضحي ثروته ومركزه الذي ناله بكده وجده، وكان حمالا فأصبح من كبار رجال المال والنفوذ؛ استكثرت عليه أن يضحي كل جهوده حياته في سبيل الانتقام من عشيق زوجته. وطويت الرواية وأنا أقول إن برنيشتين لا يزال يجعل العنف المسرحي غرضا من أغراضه، وشاهدت هذه القصة بعد ذلك من فرقة فرنسية على أحد مسارح القاهرة، ورأيت الممثل الذي قام بدور الزوج في المشهد الرائع الذي يتضمن في تضاعيفه القصة كلها، تراه في هذا الموقف بين اثنتين: أما أن يكف عن طريقته في الانتقام من عشيق امرأته، وإما أن تجرفه العاطفة معه فيسقطان إلى الهاوية معا، وقف الزوج مشدوها لا
يتحرك، ينتابه ألف عامل وتمر بقلبه ألف عاطفة، وفجأة ينظر إلى غرفة داخلية كان قد احتبس فيها خصمه، ينظر إلى الغرفة فتلمح في نظرته وترى على وجهه من معاني الحقد والثار والغضب ما يفزعك، ثم يصدر أمره إلى أحد رجاله بان يمضي إلى النهاية، النهاية التي فيها الخراب والدمار، وفي هذه النظرة الحاقدة، وفي هذه الملامح التي غمرت الوجه لحظة أو بعض لحظة، ملامح الغضب الكمين والرغبة في الثأر والانتقام الفظيع برّر الممثل ما أخذه الناقد على المؤلف، بل شرح الممثل المؤلف وأعان المتفرج على أنه يفهم كيف أرتضى الزوج أن يهدم حياته كلها في سبيل هذا الانتقام.
وأنت إذ تمضي في الطريق ترى عشرات الوجوه، بل المئات بعضها سمح طلق تحس الراحة والطمأنينة بالتطلع اليه، وبعضها قاس عنيف تنفر منه، بعضها تحس أن وراءه طبيعة طيبة وقلبا كريما، وبعضها الآخر تحس أن وراءه خبثا كمينا وشرا مستطيرا، وقد ترى إنسانا لا تعرفه ولم تحتك به في عمل أو حديث، ولا صلة لك به، ثم تهمس في أذن صديقك انظر! هذا رجل ابله، أو هذا رجل طيب، أو هذا رجل شرير، إلى غير ذلك من المعاني التي توحيها إليك ملامح الوجه الذي رأيته.
ومن العبارات المألوفة أن تقول عن شخص معين في حديث يدور حوله إن وجها يدل على الطيبة وكرم الأخلاق أو أن ملامح وجهه تدل على أنه شرير خبيث ولن تجد لغة من اللغات تخلو من هذه العبارات التي تتردد على الألسنة والأقلام، فتمر بالسمع أو يقع عليها النظر وكأنها بديهة لا نقاش فيها ولا جدال، وفي العربية من مثل هذا شيء

كثير، وفي شعرها ونثرها قديمه وحديثه مطولات في وصف الوجوه على مختلف ما تنبئ عنه ملامحها وقسماتها، وهذا هو الشاعر العربي لم ينس أن يستهل القول في مديح من أراد وصفهم بأنهم (بيض الوجوه. . .). وهذا الحطيئة لما أراد أن يهجو نفسه، هجا وجهه!!

ولسنا نمضي في هذا إلى النهاية، فإننا لا نكتب بحثا في الأدب، وكل ما أردناه من هذا الاستطراد أن نقول أن لوجه المرء وما يرتكز عليه من ملامح، أو يمر عليه من تعبيرات، أهمية كبيرة في إعطاء الناظر فكرة خاصة عن صاحبه، سيئة كانت أم حسنة، سواء أكانت هذه الفكرة عن طبيعة الشخصية ذاتها في سائر أطوارها، أم عنها في ظرف خاص ووقت معين، ومن هنا كانت هذه الأهمية الكبرى التي يعلقها فن التمثيل على قوة تعبير الممثل بوجهه، ولهذا كان لفن التنكر خطره الذي لا ينكر، فإذا أجاده الممثل أعانه إلى مدى كبير على خلق شخصية دوره خلقا صحيحا مستقيما مع طبيعة الدور، وأعانه على إعطاء المتفرج فكرة حقيقية عن الشخصية التي يقوم بها كما أرادها المؤلف، وكما تفرضها طبيعة القصة، وإذا اخطأ الممثل في تنكره المسرحي ولم يعط الوجه - مستعينا بما لديه من الأدهنة والألوان وغيرها من أدوات التنكر المعروفة - الصورة التي يجب أن يكون عليها، فقد يؤدي به ذلك إلى الفشل المحتوم والسقوط الذي لا مفر منه، بل هذه هي النتيجة التي لا محيص عنها، وضع على وجه اقدر الممثلين وأكفئهم قناعا كثيفا وأخرجه أمام الجمهور المتفرج فلن يرى فيه إلا دمية تتحرك وجثة تروح وتجئ، بعد أن حجبت منبع الحياة، ومرآة القلب والشعور.

وفن التنكر من أدق الفنون واشقها، يتطلب خبرة واسعة ودراية كبيرة، حتى ليضطر الممثل الذي يريد أن يحيط به إحاطة تامة أن يدرس تشريح الوجه من الوجهة الطبية ويلم بكل التفاصيل التي تتعلق بهذه الناحية إلماما شاملا. وعليه أن يدرس أيضا إلى جانب هذا مختلف التغيرات التي تطرأ على وجه الإنسان في شتى أطوار حياته وكلما تقدمت به السن. فوجه ابن العشرين ليس كوجه ابن الأربعين أو الستين، كما أن علائم المرض والصحة تترك أثرها على الوجه، وهناك بعض الأمراض تترك آثارا مادية تدل عليها كالجدري مثلا.

وإلى اختلاف السن، هناك اختلاف البيئة والمركز الاجتماعي والمعروف أن لكل حرفة طابعا خاصا يميز صاحبها، ولا تخطئ النظرة الدقيقة الخبيرة هذا الطابع على الوجه، وما أظن أن من العسير أن تميز الفلاح من بين المئات ولأول نظرة وفي مقدورك أن تشير إلى أحد المارة فتقول أنه عامل، وتكون مصيبا في قولك صادقا في فراستك، كما تستطيع أن تحكم على معين أنه من الدهماء أو من أوساط الناس أو أثريائهم من ملامح وجهه، ومن العبارات المألوفة قولنا (هذا الشخص تلوح على وجهه آثار النعمة) والتعاسة والشقاء يتركان على الوجه آثار لا تخطئها العين في تلك التجاعيد والغضون ومسحة الألم التي تنبئ عما وراءها من كدر العيش ومرارة الحياة، كما أن السعادة والهناء يخلفان هذه البسطة في الملامح والسماحة في تعبيرات الوجه، تتوجها كلها الابتسامة المشرقة التي تدل على راحة البال وخلو الفؤاد مما يشغله من أكدار الدنيا.

وأنت تعرف بعد كل هذا أن للإقليم تأثيره في ملامح الإنسان، بل قد تتعدد السحن والوجوه في الإقليم الواحد والوطن الواحد، فالأوربي غير الآسيوي؛ وفي أوربا الإنجليزي غير الفرنسي، والألماني غير الإيطالي، كما أن فيآسيا الصيني والياباني غير الهندي والتركي والسوري، وفي أفريقيا المصري غير السوداني وهكذا.

كذلك يختلف أبناء الوطن الواحد، فالقاهري غير الصعيدي أو الإسكندري مثلا، وقس على ذلك مئات الفروق التي تجدها في هذه الدنيا العريضة، والممثل بحكم مهنته معرض لان يقوم بتمثيل شخصية من هذه الشخصيات المنتشرة على رقعة الأرض، وقد يكون من المستحيل أن تتطلب منه أن يدرس كل هذه الشخصيات الدراسة التفصيلية التي تعينه على تنكره وتكييف ملامح وجهه، بما يعطي الشخصية الطابع الأصيل لها، ولكن من الميسور لديه أن يدرس الشخصية التي سيمثلها الدراسة التي تؤهله لإعطاء المشاهدصورة منها، مستعينا على ذلك بأدوات التنكر التي تحت يده.

من هذا يستطيع المرء أن يكون فكرة عامة عن دقة هذا الفن، فن التنكر، وعن العناية

التي يتطلبها العمل المسرحي من الممثل حتى يستطيع أن يصور على وجهه الوجه الآخر، وجه الشخصية التي يتقمصها ويؤديها أمام النظارة. ونستطيع بعد هذا أن نتحدث عن فن التنكر من الناحية الفنية العملية مستعينين في ذلك ببعض الصور والرسوم التي تشرح ما نقول.

محمد علي حماد

-

النقد

الينبوع

للدكتور احمد زكي أبو شادي

من جد الحياة أن نضحك. ومن جد الحياة أن نعمل ونشقى، وبين الضحك والعمل، تنساب الأيام وتتراكم الأعوام، ويفنى قديم ويعيش جديد، ويقضي قوم وينشأ آخرون.

ومن جد الحياة أن يرسم الإنسان نفسه في وقت ضحكه، ومن جد الحياة أن يرسم الإنسان نفسه في وقت عمله، وأن يصور خلجات قلبه القلب، وجموح نفسه الوثابة، ومطامع روحه الهائجة، أو نمثل حياتنا التي هي مسرح نضال بين عواطفنا وعقولنا.

فنحن أما عمل لذيذ مفرح، نتمثل فيه الماضي، ونرسم صورته الحائلة بصورة لماعة رائعة، ونخلد فيه ذلك الشبح الباهت بطيف براق فاتن. فيه سحر الحياة وفتونها، وفيه غموضها واسرارها، وفيه جمالها وبهائها، وفيه موسيقاها المتزنة، وأنغامها المتناسقة. إننا نخلق من القتام نوراً، ومن الموات حياة، أو ننتج نتاجا فنيا.

إننا نشيد هذه العواطف والاحساسات، التي أوحت بها إلينا الحياة، والتي صبغها الأسى بلونه الأحمر الدامي، أو أيقضها الأمل بعطره وشذاه، أو حركها الأباء والشمم، والغيظ والشفقة، والغضب والرحمة، تلك العواطف التي تتلاعب بعقولنا وأرواحنا، والتي تتحد في دائرة، سمها إن شئت حياة. وان شئت حركة الكون.

والفنان إنما خلق ليسجل هذا الشعور الذي يصور وحدة الكون، ولا يستطيع تسجيلها إلا إذا أحس بالكون ذاته، ولا يستطيع أن يحس بالكون إلا إذا كان نفس صافية، تنطبع عليها المشاهد، وتظهر على صفحتها الرؤى، وقد تشابك بعضها ببعض. وقد ارتبطت بروح واحد هو روح التناسب. فهي كالنغمة الموسيقية، مترابطة مؤتلفة متزنة.

وعمل الفنان في هذا المجال. هو أن يقف أمام دولاب الزمن الذي يدعس كل شيء فينتشل من تحته رؤى ومشاهد. وعواطف واحساسات، ونوعا من الشعور المبهم الغامض. ونوعا من الإدراك الناقص. اجدر بها أن تبقى لأنها تمثلنا. لأنها قريبة منا شديدة الصلة بنا. إننا نحتفظ بها لنبقى نحن. فهي تخلدنا ونحن تخلدنا فنشعر بها في أدمغتنا، ثم نصورها بألفاظنا وكلماتنا. فنحس أنها قد أتت بسامة فتانة. نحس بنورها المشرق على نفوسنا فيبعث مواتها.

ويحي رميمها، وقد لا نرسمها بالكلمات، فأن اللغات أضيق من أن تشرح ما في النفوس، قد تستعين بالرسم أو النقش أو الموسيقى أو غير ذلك، فعملنا في سبيل إحيائها ورسمها هو الفن وجزاؤنا منها هو الخلود.

فهل الفن الذي يتنفس عنه رجال الفنون في بلادنا من هذا القبيل؟

وهل لي أن أقول واسأل عن الشعر الذي يفيض من قرائح شعراء الزمن أيكون تلك الأداة المادية التي تصور تلك الصور الفتانة التي تمتلك علينا تفكيرنا. وتستبد بنفوسنا؛ أو تلك العواطف المتبدلة المتغيرة التي تستنفد حياتنا،

أيكون تلك الأداة المادية التي لها موسيقاها وتوقيعها، والتي نسعى لان نظهر لعيوننا نوعا من الشعور الغامض والإدراك الناقص، لا يدركه إلا القلب الشعري الذي يستمد قوته من الإلهام والعلم والعقل والخيال، كأنه أدراك شامل لما تحويه لحظة من لحظات النعيم أو الشقاء، وبإبراز هذا الشعور الغامض وهذا الإدراك الناقص، في صورة واضحة ناطقة، تامة كاملة فيها حياة وفيها حركة.

واذا كان الشعر العصري كما يقول الدكتور أبو شادي في مقدمة ينبوعه (هو لسان حياة العصر، والحياة العصرية ذات صلات شتى بالماضي، وذات تطلع إلى المستقبل، فليس غريبا في الثورة الروحية والفكرية الحاضرة أن يأتي هذا الشعر مزيجا منوعا، لا في مصر وحدها بل في العالم الأدبي بأسره) ويضرب على ذلك المثل بالشاعر الألماني العظيم (إننا لا نجاريه في قوله ولا نجاريه في استشهاده بالشاعر الألماني

العظيم، فبينما يشرح ذلك الألماني النبيل عواطفه المتدفقة في نفسه، أو يشرح نفسه الواسعة الفياضة، بأنواع من النظم، نرى الدكتور، لا يرتفع في شعره عن أن ينظم في بعض مناسبات خاصة. وفرق كبير جداً بين هذا الشعر الذي يكاد يكون (شعرا صحفيا) وبين شعر هين المختلف المتناسق، الذي نرى اختلافه في أغراضه وسعتها، والذي تراه يتناسق في الصفات الأولى، التي تتصف بها نفس ذلك الشاعر العبقري، أما أن يجد الدكتور احمد زكي أبو شادية حجة على الناس في مناسباته التي صاغ كل شعره من اجلها فهذه حجة غير واردة كما يقول رجال القانون في بلادنا، ولا ادري أن كانوا يقولون كذلك في مصر.

وأنا عالم كل العلم بأن أقوالي قد لا تفيد مع الدكتور الشاعر، لأنه قد قطع عليَّ الطريق في
مقدمة ديوانه فقال (وإذا كنت أؤمن إيمانا عميقا، بأن الفنون الجميلة من أقوى عوامل السلام ورسول الإنسانية المشتركة. فلست اعني بذلك أن تقديرها شامل في الظروف الحاضرة. فكم تتباين الأذواق، وعلى حد تعبير (بردنز لاهو برمان) (لا يرتقب أن يجيد عزف موسيقى بتهوفن إجادة المتذوق المعجب بها، من ليست لديه إثارة من عواطف بتهوفن) كذلك شأن الشعر وغيره من الفنون الجميلة).

والأستاذ أبو شادي يشير إلى أن (ليس محتوما على غير مريديها - أي أشعاره - أن يطلعوا عليها حتى أكون معرضا لمؤاخذتهم إياي)

والشاعر يحدث الناس في صراحة ما بعدها صراحة فيقول (نوازع وجدانية، صوفية تحبب ذلك إلى - أي نشر أشعاره - كأنما أنا مكلف برسالة أؤديها)

وأبو شادي يقول (إن الشاعر ككل فنان يعمل على تخليد صورة الحياة الفانية، وذكرياتها في النسق الذي يستطيع به استرجاعها لروحه العالمية)

وأنا متفق مع الدكتور في هذه الفكرة إلى ابعد حد، مؤمن بالنوازع الوجدانية الصوفية التي تحفز الشاعر العبقري على إذاعة بنات شعره، ولكنني أكاد أكون كافراً بفكرته الأخرى فكرة النقد واطلاع الناس على الشعر.

إن هذا الشعر الذي نشره صاحبه قد خرج من يده واصبح ملكا للناس، لقد تنازل لهم الشاعر عنه، فسيقرئون وسيفهمون وقد لا يفهمون كثيراً، وسيؤخذون وينقدون، فما دخل الشاعر هنا، لقد صار هذا الكلام في حكم التاريخ وسيتكلم الناس عنه بما يرضي صاحبه وبما يكره.

وأنا باسم هذا الحق المكتسب قد استعرضت الكتاب، ووقفت على مقدمته، وبعد أن قرأت الينبوع من الجلد إلى الجلد بما فيه من مقدمة وتصدير وإلمامه، ودراسات مختلفة. وبما فيه من شعر اختلفت ألوانه، وتباينت أمزجته، وبعد أن أنعمت النظر بما فيه من صور جميلة ملونة تستهوي كثيرا من الناس، وأنعمت النظر مرة أخرى في عنوان الكتاب، وصورته الفنية التي تزين غلافه. آمنت بفكرة واحدة، جسمتها في ذهني قراءة ديوان أبى شادي الجديد.

آمنت أن من النادر أن ينتج لإنسان كما يتصور الإنتاج، وأخذت أطبق هذا الحدس على نفسي. هل الشعر الذي انظم عقوده، يوافق ما أريد أن افهم من الشعر، ثم رجعت اسأل مرة أخرى، إلا يخطئ الإنسان في تصوير الصورة التي تقوم في ذهنه، ومن ثم سألت نفسي، هل الشعر الذي يفيض من ينبوع أبي شادي يشبه في شيء الشعر الذي يشير إليه في مقدمته،؟

وأنا حائر بين الفكرتين، أو أنا أؤمن بأن لأبي شادي اكثر من شخصية واحدة في الشعر، كما أن له اكثر من شخصية في مناحي الحياة، فقد يكون من الوجهة الشعرية، نظرياً وعملياً، وعمله لا يتفق مع نظرياته. كما نه في الأعمال لا يتمسك بمهنة أو فكرة واحدة، فهو طبيعي وشاعر يحرر وينشر ويقرأ ويطالع ويهتم بالوظيفة والنظم وتربية الحيوان، أكاد أتمثله بصورته الرمزية. والجاهرة أمامه والمبضع في يد والريشة في الأخرى والآلة الموسيقية إلى جانبه، وفتاة الإلهام تنضو عليه، والنحل من حوله وله أزيز وطنين، ويتمثل أمامي وعيناه في الأفق البعيد واحدة تنظر إلى الشرق ولا ترتفع عن الشرق. وواحدة في الغرب تذهب بنظرها عنه ثم تعود إليه كأنها أبصرت ما يريبها، ولسانه يردد بين هذه النظرات الحائرة شعره المقفى الموزون هو ناظر إلى بلد آبللوخيا، وشاخص ببصره إلى عمرو بن كلثوم يردد معه أقوالا تشبه قوله:

قفي قبل التفرق يا ظعينا ... نخبرك اليقين وتخبرينا
وأنا شاك في أن يكون أبو شادي مجددا ملتوي التجديد، لقد وقف على أدب الغرب ما في ذلك شك، وعرف من أدبالغرب كل غث وسمين، فماله قد ضيق على نفسه كل هذا التضييق وهو يحاول بين العسر وذاك، أن يضع لنفسه مزاجا خاصاً. يتمثل لك فتكاد تنفر منه، لضعفه في التعبير، وتقصيره في التصوير. ثم هو لا شيء من وجهة التفكير.
اقرأ معي الينبوع وهي قطعة من الديوان سمي الديوان باسمها يتمثلها في صورة (سكس ابيل) اقرأها جملة. فماذا ترى. . . أنا إلا أرى فيها نظرة صوفية، ولا افهم منها فكرة فلسفية عميقة، هي فكرة عادية بسيطة، من الفكر التي يسميها (بول فاليري) فكرة غير شعرية،. وهي بعد هذا كله، شهوانية مفرطة في الشهوة، تتمثل في بطن أملس، انتصب فوقه جبلان وفي أسفله واد عميق، ربما كانت الفكرة طيبة، ربما كنت تهم علماء الغريزة، ربما كانت تهم رجال النسل، ولكن المادة الصرف، المادة المنتجة الملموسة، المادة التي
تشبع شهوة الجسم، أو التي تنتج الجسم، المادة التي لا روح فيها. هذه المادة النجسة التي ترى في كثير من النساء، قد لا تعجب ذا النفس الشاعرة، وقد لا تروق في عينيه كثيرا.
وأعوذ بالله أن أكون كمن حاول عزف مقطوعة لبتهوفن فما استطاع لأنه لم يتأثر بالمؤثرات التي دفعت بتهوفن إلى تأليف قطعته. لو أن يكون الدكتور كذلك المصور الذي أتيت إليه ليرسمني فشوهني، فلما عاتبته في ذلك. قال هذا تصوير فني وأنا عوذ بالله من أن يكون كلامي لغواً من ناشئ ارعن، يقلق على الدكتور صفاء نفسه. وما عرفته وغيره من إخواننا المصريين، لا أباة على النقد، يثيرون من اجله المعارك. ويتسارعون بسببه إلى الخصام والنزاع.
وأنا بعد هذا الذي قمت أسال نفسي. إذا كنت على اتفاق والدكتور من حيث النظرة إلى الشعر كفن من الفنون العالية، أفلا يجدر بي أن اتفق معه على اللغة التي يدون بها هذا الشعر؟ إلا يصدق معي الدكتور أن العلة هي اللغة التي يشتكي منها الشعراء، فهي التي تؤلمهم عند التعبير، وتضيق عنهم أو يضيقون بها عند التصوير، فيداورونها ويتلاعبون بها حتى تأتي طيعة راضية لا تحس فيها ضعفاً، وهل يرى الدكتور معي أن لغته في شعره، ابسط من أن تسمى لغة شعرية، بل أكاد أحس بضعفها في كل بيت من أبيات الينبوع التي تبلغ ألفي بيت ونيفا
التمس من الدكتور، أن يقرأ معي قطعة أخرى أو قطعتين. وقعت يدي عليهما من غير تفتيش أو تنقيب. الأولى دنيالفي جب الأسود. أقرا هذا البيت وافهم منه شيئا:
جعلوا المليك محرماً ... لسوى الميك دعا المسود
أظن أن في هذا الكلام ركاكة وتعقيدا. وأظن أن الزمن ليس زمن عبد القاهر الجرجاني. لنعيد النظر في بيت الشعر والفاظه، ولكننا نقول: أن ضعف هذا البيت وغيره من أبيات هذه القطعة اظهر من أن يظهر
بل ما تقول في هذا البيت الهزيل من القطعة ذاتها. وكثير على شاكلته؟
أنا في أمان يا مليك ... بفضل ربي من ملك
أتدري أية مناسبة بين حكمة من ملك ومليك. ما الذي هزها. فأنت مختالة تضع نفسها في آخر البيت لتكمل القافية
أو قوله في قصيدة العودة صفحة (30)
وقفنا في جوار اليم سكرى ... كسكر الناظرين إلى الرحيق
نرى في البر ألوان التناجي ... وفي البحر المشارف والعميق
البحر المشارف والعميق، وسكر الناظرين إلى الرحيق، لا يكملها إلا قوله
وأبنا أوبة المحزون لكن ... بنا طرب من الأدب الحقيقي
أو قوله
وتمضي الغانيات على تثن ... تثنى النور في الجو الصفيق
الحق أن الجو الصفيق والأدب الحقيقي. والبحر المشارف والعميق والرحيق إذا زف بعضها إلى بعض خرج شيء ليس في الحسبان هو قصيدة العودة.
أنا لا أريد أن اذهب إلى كثير من شعر الديوان فبعض يجزي عن بعض، بل لا أريد أن أطيل الحوار في قضية يراها الدكتور قضية ذوق، وأنا أراها أدبية عربية، تهم الناطقين

بالضاد جميعا، فما كانت الكلمات تتلاعب بالشاعر، فتسخره ولا يسخرها، وأنا أومن إيمانا واثقا أن كلمات الشعر يجب أن تكون كالكلام المنزل، لو رفعت كلمة من بيت فلن تجد في اللغة بأجمعها كلمة تحل مكانها وتؤدي المعنى الذي كانت تؤديه الأولى، بل أنا افرق كثيراً من أن توضع الكلمة في غير موضعها فيبخس حقها، ويبخس المعنى حقه بل ما رأى الدكتور في قرط جميل من الماس الفاخر تعلقه أنثى في اسفل ذقنها؟ إنها تشوه جمالها، ويضيع قدر الماس الثمين، فما للدكتور يسوق الكلام فيمواضعه وفي غير مواضعه، بل ما يلجئه إلى كثرة الإنتاج هذه، وللقليل الناضج خير من الكثير الفج، وأنا أرجو أن أكون مخلصا كل الإخلاص في قولي، جريئا كل الجرأة في تعبيري، فقد كفى هذا التبلبل في الأدب العربي، وينهض ولكن ليقعد، ويسير ولكن، إلى الوراء، ينتج الأديب أو الشاعر، ويظن انه فوق النقد، ولو عرف أن النقد سيتناوله في عنف وفي قسوة ما انتج إنتاجا كهذا، ولحاول أن يكون مدققا اكثر مما دقق.

حلب

(المرتيني)

العدد 41 - بتاريخ: 16 - 04 - 1934

مصر في الصباح

للدكتور طه حسين

ولابد من الكتابة عن (مصر في الصباح) بعد أن كتب صديقي الزيات عن الحالة الحاضرة، فهما عنوانان طالما ترددا في أفواه ثلاثة من الشبان، ظلوا أعواما طوالا يلتقون كل يوم إذا كان الضحى، ثم لا يفترقون حتى يتقدم الليل. وكانوا إذا التقوا أخذوا في فنون من الحديث والقراءة وتناشد الشعر، والاختلاف إلى الدرس، وإطالة المقام في دار الكتب. ودفعوا إلى الوان من الهزل، وضروب من العبث، حتى كانوا مضرب المثل عند اللذين يعرفونهم واللذين لا يعرفونهم من الأزهريين.

وكان هؤلاء الشبان الثلاثة قد اتفقوا على الضيق بالدرس الأزهري القديم، والابتهاج بما لم يكن مألوفا في بيئات الأزهر من درس الأدب والعناية به، وقراءة الصحف والإغراق فيها، ومن التطلع إلى ما كان يقوله ويأتيه المثقفون الممتازون، أولئك الذين كانوا يدبجون الفصول في الصحف، يمسون بها السياسة والأخلاق وشؤون الاجتماع. وأولئك الذين كانوا يخطبون في المحافل والمجامع ويتحدثون في الأندية، وتنشر الصحف خطبهم ومحاضراتهم، ويتناقل الناس أحاديثهم ومحاورهم، وتذكر أسمائهم فتمتلئ بها الافواه، وتبتسم لها الشفاه، وتشرق لها الوجوه، ويشتد بها الإعجاب، ويتخذ الشبان أصحابها مثلا عليا لما شئت مما يطمع فيه الشباب من بعد الذكر وارتفاع الشان، والظفر بما يظفر به عظماء الرجال من الإكبار والإجلال. وكان هؤلاء الشبان الثلاثة إذا التقوا وفرغوا من قراءة في كتاب، أو استماع لدرس، أو إنشاد الشعر، أو نظروا أمامهم إلى هؤلاء العظماء المثقفين، فاجلوا واكبروا، ونظروا من حولهم إلى شيوخهم الأزهريين فتفكهوا وتندروا، وأطلقوا ألسنتهم بالفكاهة والنادرة، ولعل من الناس من كان يجلس إليهم ويسمع منهم، ثم ينتقل فيذيع ما سمع، ويملا به هذه الحلقات التي كانت تنحلق من حول الصحن وعند القبلة القديمة أو القبلة الجديدة، وكانت أصداء ذلك ترد عليهم فيفرحون، وكان إنكار ذلك يبلغهم فلا يرتاعون، حتى اقبل ذلك اليوم الذي دار فيه الملاحظون في الازهر، يجمعونهم من دروس الظهر جمعا، ويدفعونهم إلى مجلس الشيخ الأكبر دفعا، ثم يسالون، فمنهم من يجهر ومنهم من يجمجم، ثم ينهرون، فمنهم من يبسم ومنهم من يعبس، ثم يعلن الشيخ إليهم انهم مطرودون، وان درسهم الذي كانوا يحبونه موقوف ممنوع، وان شيخهم الذي كانوا يكبرونه مكلف أن يدرس المغنى لابن هشام بدل الكامل للبرد، منفى من الرواق العباسي، مقرون إلى اسطوانة من هذه الأساطين داخل المسجد يختارها له (رضوان).

هنالك ضاق الشبان الثلاثة بعض الضيق، وفرقوا بعض التفريق، ثم يلبثوا أن استأنفوا الحياة ومضوا فيها باسمين، يطمحون إلى ما كانوا يطمحون إليه، يسخرون مما كانوا يسخرون منه، حتى ضرب الدهر بينهم بضرباته، كما قال حافظ رحمه الله في ترجمة البؤساء، وقد كانوا يعجبون بهذه الجملة إعجاباً شديداً، ويرددونها ترديدا متصلا. وهنالك مضى كل منهم في سبيله، واخذوا لا يلتقون إلا من حين إلى حين، فإذا التقوا كانت

ساعات اللقاء أضيق من أن تسع ما كان يضطرب في نفوسهم من الخواطر والآراء والأحاديث.

وكانوا في حياتهم تلك، كما كانت الشعوب الأولى في حياتها، أصحاب حس وشعور، وأصحاب قلوب تتأثر، ونفوس تتغنى، وكانت عقولهم غافلة أو كالغافلة، فكانوا ينشئون الشعر وينشدونه، وقلما يفكرون في النثر، فان فكروا فيه قلما يحاولونه، فإن حاولوه فقلما يجيدون. وكانوا لا يخطر لهم موضوع إلا تناولوه مسرعين، فنظموا فيه الشعر وتنافسوا في الاجادة، ولم يتحرجوا من أن ينقد بعضهم بعضا. وكانوا يبلغون من ذلك ما يريدون يجيدون قليلا، ويسيئون كثيرا، ويرضون دائما. وكانوا يحسون انهم ضعاف في النثر، وانهم في حاجة إلى أن يأخذوا منه بحظ، وكان الزيات يحاول أن يقوم من صاحبيه مقام الأستاذ، لانه كان احب منهما للصحف، واكثر منهما عكوفا عليها وإغراقا في قراءتها، ويجب أن نعترف بالحق، فقد كان أوسع منهما صدرا للتجديد، يحب الكتاب المحدثين وما كانوا يحدثون من الآداب، على حين كان صاحباه يكلفان من الأدب بقديمه، بل بأقدمه. كان الزيات يكلف بالمتنبي بين الشعراء القدماء، وكان صاحباه يسخران منه ومن المتنبي، ويكرهان أن يسمعا له حين ينشد شعره البديع. كان الزيات يقرأ المثل السائر، وكان صاحباه لا يعترفان بمن بعد الجاحظ من الكتاب. كان الزيات يؤثر شوقي، وكان صاحباه يؤثران حافظا، ويتعصبان للبارودي، ويسرفان في تقديم الكاظمي عليهم جميعا. كان الزيات إذن يقيم نفسه من صاحبيه مقام الأستاذ في النثر، وكانا لا يتحرجان من أن يقرا له بهذه الأستاذية، فإذا أراد أن يزعمها لنفسه في الشعر كان الجدال والنضال، وكان تذاكر الغرزمة وآثار الغرزمة، وكان انتحال الشعر الرديء وحمله عليه وأضافته إليه، وكان انحاله هو للشعر الرديء وحمله على صاحبيه وإضافته إليهما، وكان إنشاد لمثل هذين البيتين:

بموسم عاشوراء قد عمت البشرى ... وضاءت لنا الأكوان مذ علت الذكرى

ونادى المنادي أيها الناس يمموا ... ضريح الحسين الشهم تنجوا من الأخرى

ولست ادري أي الثلاثة قال هذا الشعر الرائع، أو لعله شائع بينهم جميعاً. ولعل ثالثهم محموداً أن يكون قد حفظ هذا الشعر فيما حفظ من آثار هذا العصر، فقد كان إليه تخليد هذه الآثار التي لم تكن تستحق اقل من الخلود.

وفي ذات يوم اقبل الزيات يقترح على صاحبيه التفكير فيما ينبغي لهم في العناية من النثر، ويبين لهما ولنفسه أسباب هذه العناية ومذاهبها، ويرى أن ليس إلى ذلك من سبيل إلا أن يفعل الثلاثة كما يفعل الطلاب في المدارس، حين يعالجون الإنشاء، ويعرض عليهما وعلى نفسه هذين الموضوعين: (الحالة الحاضرة)، و (مصر في الصباح). وكان يقول ذلك جاداً كل الجد، مؤمنا كل الإيمان، وكان صاحباه يسمعان له في موقف بين الجد والهزل، يريدان أن يكتبا ويعلمان انهما لن يستطيعا. فيقدمان ثم يضطران إلى الإحجام، ويستران ضعفهما بالهزل والعبث، ثم يفزعان إلى الشعر فينظمان منه ما شاء الله لهما أن ينظما بين الجيد والسخيف. وكانت الأيام تمضي وتمضي، والأصدقاء يلتقون ويتحدثون في النثر، والزيات يقترح الكتابة في الحالة الحاضرة ومصر في الصباح. وصاحباه يسألانه عن مصر في الصباح كيف هي؟ وماذا يقول فيها فلا يحير جواباً، فيتمثل ثالثنا بهذا البيت الذي كان يغيض الزيات ويحفظه:

شيخ لنا من ربيعة الفرس ... ينتف عثنونه من الهوس

وقد فتح الله على الزيات بعد خمسة وعشرين عاما فكتب في الحالة الحاضرة. ولم يفتح الله عليه ولا على صاحبيه بعد خمسة وعشرين عاماً ليكتبوا عن مصر في الصباح. ولكنه قد كتب على كل حال، فمازال إذن قائما من صاحبيه مقام الأستاذ، ولن يستطيع صاحباه منذ يوم الاثنين الماضي أن يصدماه بهذا البيت:

شيخ لنا من ربيعة الفرس ... ينتف عثنونه من الهوس

وإني لأخشى أن يستطيل هو على صاحبيه، وقد عجزا ربع قرن عن أن يكتبا في الحالة الحاضرة، أو يصورا مصر في الصباح، فيصدمهما بهذا البيت بعد أن كان يخافه ويضيق به، ويكره استماعه منهما.

ولست ادري أأشفق ثالثنا من هذا النذير فاستعد لهذه الساعة الخطرة التي يلتقي فيها الأصحاب لتصفية الحساب، أم شغل بكتبه وأسفاره عن كل هذا الحديث. أما أنا

فاعترف باني فكرت بهذه الساعة، وقدرت إنها ستكون عصيبة محرجة، وأشفقت من هذا الحرج، وحاولت أن احتاط له، واستعد لهجمة الزيات، واربا بنفسي عن أن اسمع منه هذا البيت الذي كنا نخوفه به، فاصبح خليقاً أن يخوفنا به:

شيخ لنا من ربيعة الفرس ... ينتف عثنونه من الهوس

فحاولت منذ أسبوع أن اطرق هذا الموضوع، وان اكتب عن مصر في الصباح، فإذا بلغت من ذلك ما أريد أمنت الزيات وحالفته على صديقنا الثالث، كما كنت أحالف صديقنا الثالث عليه، ثم ذهبنا إلى صاحبنا نسعى إليه مبتسمين، حتى إذا بلغنا مجلسه لم نبدأه بتحية ولا مصافحة ولا حديث، وإنما وضعنا الرسالة بين يديه وفيها الحالة الحاضرة للزيات، وفيها مصر في الصباح لطه حسين. ثم ابدرناه معاً بهذا البيت:

شيخ لنا من ربيعة الفرس ... ينتف عثنونه من الهوس

ثم انصرفنا عنه راجعين وتركناه يغلي كالمرجل. ولكن الله الذي فتح على الزيات فألهمه وصف الحالة الحاضرة لم يفتح علي ولم يلهمني وصف مصر في الصباح. ذلك إن الزيات راغ وزاغ وعدل عما كان يراد منه من وصف تلك الحالة الحاضرة قبل نيف وعشرين سنة إلى وصف هذه الحالة الحاضرة التي نبغضها اشد البغض ونضيق بها اعظم الضيق. وأي الكتاب لا يقدر على أن يصف الحالة الحاضرة الآن؟ وأي الكتاب لا يقدر على أن يجيد في هذا الوصف ويأتي فيه بالأعاجيب؟ ومن يدري؟ لعلي احسن إذا ذهبت إلى صديقنا الثالث فالتقيت في روعة أن الزيات قد ذكر اسمه القديم فراغ وزاغ، ووصف ما لم يكن يراد على وصفه.

وإذن فهو مازال عاجزا كصاحبيه، وإذن فما زلنا ننتظر من يصف الحالة الحاضرة ويصور مصر في الصباح.

أما أنا فلم اشك في أن مصر في الصباح موضوع خطير لابد من الكتابة فيه، ولكن أي مصر، أهي مصري أنا أم مصر الزيات أم مصر صديقنا محمود؟ فقد كانت لنا أمصار ثلاث مختلفة فيما بينها اختلاف غير قليل. كانت مصري أنا تبتدئ في ربع من ربوع حوش عطى، وتنتهي إلى الأزهر الشريف مارة بمشهد الحسين والحلوجي بعد أن يقطع السالك إلى هذا المشهد الكريم إحدى طريقين: حارة الوطاويط، أو شارع خان جعفر.

وأما مصر محمود فكانت تبتدئ في الظاهر في حارة ضيقة قريبة من بيت الشيخ الانبابي رحمه الله، وتنتهي إلى الأزهر الشريف مارة بما شئت من الطرق التي تستقيم إن أردت لها أن تستقيم، وتلتوي إن أحببت لها الالتواء.

وأما مصر الزيات فكانت تبتدئ في حارة ضيقة على قلعة الكبش، ثم تنحدر إلى شارع لا اذكر اسمه، ولكنه ينتهي إلى مسجد السيدة زينب. ثم تصل بعد ذلك إلى الأزهر من طرق تستطيع أن تستقيم وتستطيع أن تلتوي، تستطيع أن تقصر وتستطيع أن تطول.

فأي هذه الأمصار الثلاث اصف؟ وعن أي الأمصار الثلاث اتحدث؟ فاما مصري أنا فقد كانت حلوة لذيذة في الصباح، ولكنها لم تكن تعجب الزيات، ولم تكن تلذ لمحمود. كان يوقضني فيها مع الفجر صوتان: أحدهما صوت المؤذن الذي كان يدعو إلى الصلاة في جامع بيبرس، والآخر صوت جارنا الشيخ الذي كان شافعيا موسوسا، ينفق نصف ساعة في إقامة الصلاة: ال. . . ال. . . الله الله. . ال. . الله اكبر، ثم يبدو له فيخرج من الصلاة أو يستأنف الدخول فيها: أل. . أل. . الله. . الله. . أل. . . الله اكبر ثم يمضي في صلاته حتى يتم الفاتحة أو يكاد وإذا هو يخرج ويستأنف الدخول فيها. وما يزال يقبل ويدبر، ثم يبدأ ويعيد، ثم يقيم الصلاة ويستأنف أقامتها حتى إذا أشفق من فوات الوقت عزم امره، وهجم على صلاته فاقتحمها اقتحاما ثم مضى إلى درسه في الأزهر الشريف.

استغفر الله فقد نسيت صوتا ثالثا كان يوقظني في السحر لا في الفجر صوت ذلك الشيخ الظريف الذي لم يكن عالما ولا شيء يشبه العالم، وإنما كان تاجرا اعرض عن التجارة، وانقطع للفكاهة والضحك في النهار، وللصلاة والنسك في لليل. فإذا اقبل السحر خرج من غرفته يهمهم ويجمجم ويضرب الأرض بعكاز غليظ، ويبعث في الجو صوتا هائلا رائعا يحمل جملاً متقطعة من الورد الذي كان يبدأه في غرفته ليتمه، ثم يستأنفه في مسجد

الحسين، حتى إذا صلى الصبح عاد هادئا مطمئنا قد خف وقع عكازه على الأرض، وخف ارتفاع صوته في الجو، لان الذين كانوا نياما في السحر قد اصبحوا إيقاضاً حين ارتفعت الشمس.

استغفر الله، وقد نسيت أصواتاً أخرى، كانت تنبعث بعد أن ينقطع صوت المؤذن: فهذا سائق عربة قد اقبل يحل خيله أو يحل حماره الذي عقله تحت النافذة. وهذه (حمدة) التي كانت تبيع الوان الفاكهة على اختلافها باختلاف الفصول تفرضها علينا نحن المجاورين فرضا. فأما اشترينا وأما تعرضنا لغضبها، وويل لمن كان يتعرض لغضب (حمدة) فقد كان عنيفا مخيفا يضطرب له الربع ويزلزل له حوش عطى زلزالاً!!

على هذه الأصوات كنت استقبل مصرا، وكانت تستقبلني مصر في الصباح، فإذا هبطت من الربع ومضيت إلى مدخل حوش عطى، فهذا صاحب القهوة قد افاق، وهو يحك عينه من بقية النعاس، ويهيئ (الجوزة) للحاج فيروز، فإذا مضيت قليلا فهذه الحوانيت تستيقظ شيئا فشيئا، وهؤلاء باعة الفول والبليلة والطعمية قد ازدحم من حولهم الناس، حتى إذا تقدمت بعض، الشيء عطفت ذات الشمال ان كنت مستعجلا، فمضيت من حارة الوطاويط، حيث اقذر مكان خلقه الله، وحيث اعظم الناس حظا من البؤس رجالا ونساءً، قد جلسوا في اقبح شكل وأبشعه يسألون الناس. وان كنت مستانياً عطفت ذات اليمين، فمضيت من خان جعفر، وانتهيت على كل حال إلى شارع الحسين، ثم المفارق الأربعة ثم انغمست في شارع الحلوجي، ثم دفعت إلى باب المزينين. هذه مصري التي كان الزيات يريدني على أن أصورها له في الصباح واقسم لو فعلت لنفر مني وهزأ بي وازور عني ازورارا. ولكني واثق الآن باني حين أتحدث إليه عنها أثير في نفسه عواطف يحبها وأحلاماً يرضاها وابلغ من استحسانه ما اقصر عنه من غير شك لو أني صورت له مصر في الصباح هذه التي تبتدئ من داري في الزمالك، وتنتهي عند الكوكب في عابدين.

ان الزيات ليحسن اعظم الإحسان لو انه وصف لنا مصره في الصباح، تلك التي كانت تبتدئ من قلعة الكبش، وتنتهي إلى الازهر، وانما محمودا ليحسن اعظم الإحسان لو انه وصف لنا مصره في الصباح، تلك التي كانت تبتدئ في ظاهر القاهرة المعزية، كما كان يقول، وتنتهي إلى الأزهر، فأما مصرهما الأخرى هذه التي تبتدئ في شبرا وتنتهي عند

الرسالة، أو عند قبة الغوري، فلسنا في حاجة إليها الان، وقد يحتاج إليها أبنائنا بعد ربع قرن، كما نحتاج نحن إلى أمصارنا تلك العزيزة في أيامنا هذه.

طه حسين

مختار مريض

للأستاذ مصطفى عبد الرازق

لقيت مختارا أول ما لقيته في باريس عندما ذهب إليها لإكمال دراسته في (مدرسة الفنون الجميلة).

كنا جماعة من الشبان المصريين نسمر في بعض قهوات (الحي اللاتيني) والحي اللاتيني يومئذ مجمع الطلاب ومسرح الشباب، فهبط علينا فتى اسمر اللون رقيق الجسم، فيه وداعة وفيه حياء، تعرف من سحنته ومن سمته ومن حديثه انه ريفي، وتلمح في نظراته التائهة أن استعداده الفطري يوجه بصره إلى مرمى بعيد، ذلك الفتى هو (محمود مختار) وقد اخذ يعرض علينا أوراقا كان يرسم فيها أبطالاً من العرب كخالد بن الوليد وغيره ممن حفظ التاريخ فعالهم ولم يحفظ مثالهم.

وكنا كلما اجتمعنا بعد ذلك بمختار في الحي اللاتيني، طالعنا بثمرات عمله، وحدثنا في فنه الذي يكب عليه، ويوجه كل همه إليه، فأحببنا مختارا لما في شمائله من البساطة والتواضع والصفاء، وأحببناه لشغفه بفنه الجميل، ولما توسمنا فيه من مخايل النبوغ.

ثم غمر الفن مختاراً واستحوذت عليه الأوساط الفنية، وغمرتنا في الحياة شؤون اخر، فافترقنا زماناً، وسمعت ذكر مختار حين برزت آثاره الفنية في الميدان، وعرضت في معارض الفن في باريس، فنالت من أسنى الجوائز وشهد لها بالبراعة كبار النقاد.

وسمعت ذكر مختار حين صور لنهضة مصر تمثالا تجمع فيه للوثوب أبو الهول حتى كاد ينتفض انتفاضا، فهتفت مصر كلها باسم النابغة مختار.

رأيت النابغة مختاراً فإذا الشاب النحيف الأمرد، قد استوى رجلا مفتولا اصلع الهامة،

طويل اللحية، عريض الصوت ضخم الملامح، طبعه الفن بطابعه، وألقى عليه من حب الجمال وفهمه جاذبية أيهل الجمال، ديمقراطي النزعة، أرستقراطي الذوق، يعجبك حديثه وجدله، وإن كان حديد الطبع سريع الرضا والغضب، في نفسه فيض من الصبى والمرح، كأنما هو على مر السنين يزيد.

منذ ذلك العهد تكررت فرص لقائنا في السفر والحضر، فشهدت مختارا في عمله جاهدا مثابرا مجدا، حتى حسبته لا يعرف اللهو، وشدت مختارا لاهيا مرحا، حتى ظننته لا يدري

مالجد، وبلوته صديقا وفيا، ووطنيا مخلصا، وعرفت من جانب حياته دلائل بر وشهامة، وصبر وكرامة، في شدة الحياة وفي رخائها.

ولقد يخيل إلى الناس أن مختارا لم تنله في حياته شدة. ذلك بأنه صبور على أحداث الحياة، لا يغيره عسر ولا رخاء. ولعلك لو اطلعت على مختار اليوم وهو في سرير المرض لوجدته باسما صبورا. ولو انه كان يقوى على الضحك لملا الدنيا كعادته ضحكا برغم أوجاعه ووحدته الموحشة.

الأستاذ مختار، هو صاحب (نهضة مصر) أول تمثال في تاريخنا الحديث صنعه مصري، وهو الذي أبدع للفلاحة المصرية تماثيل لا يستطيع إبداعها إلا فنان ماهر، أنبته الريف المصري، وغذاه بمائه وهوائه.

لقد قالوا إن في تمثال النهضة مآخذ: منها انه ضئيل فوق قاعدته الضخمة: وان حجاب الفتاة وتناسب أعضائها، وموقع يدها من أبى الهول لا يحقق ما يشتهي الفن.

ليكن كل ما يقولون صحيحا! فهل سلم من النقد اثر من آثار المجهود الإنساني في القديم والحديث؟

إن الأنظار ستصقل على مر السنين هذا التمثال العظيم القائم في ميدان المحطة رمزا وطنيا خالصا لمصر، وسيبقى اسم مختار في ديوان مجدنا القومي عنوانا لنهضة الفن الجميل في وادي النيل.

بذل مختار شبابه وقوته للفن ولمجد مصر من ناحية الفن. وقد يكون المرض الذي يعانيه الآن من آثار جهده المضيء.

في بعض حجرات (المستشفى الفرنسي) بالعباسية، يقيم مختار منذ اشتدت به العلة، وصار في حاجة إلى علاج يقظ متواصل، والى راحة لا يجدها المريض إلا في المستشفيات، وإذا كان عواد مختار قليلين، فقد يكون هو في شغل بأوصابه عن كثرة الزوار وقلتهم، وعن وفاء الناس وتقصيرهم، لكن علينا جميعا أن نحف بكل ما في قلوبنا من عطف وبر سرير ذلك المريض العزيز، تحية لعبقريته وتكريما لمجده الفني، وابتهالا إلى الله العلي ينجيه من براثن الداء، ويكتب له العافية والشفاء.

مقبرة عائمة

للدكتور احمد زكي

ليست هذه حكاية من صنع الخيال، ولكنها واقعة صدق، أرويها عن راوية صادق ورجل مسئول:

سكيم وحكيم شابان من أهل الإمبراطورية السماوية المقدسة التي يسميها أهل هذه الدنيا غير المقدسة ببلاد الصين، نشأ في قرية من قرى مديرية (كانتون) ولازماها حتى بلغا سن الشباب الأول، سن العشرين، هذا باحتساب دوران الأرض واختلاف الليل والنهار، فانك كنت تراهما فتحسبهما بلغا الثلاثين أو فاتاها، وتحدق في وجهيهما الكالحين مليا فتجدهما مثقلين بهموم الأربعين والخمسين. وتلك المسحة الحزينة الكلحاء تجدها حيثما ضربت في بلاد الله فالتقيت بصبي شاب أو شيخ، دائما أبداً ذلك الوجه النحيل الشاحب المسكين الذي تكاد تقطر منه الصفرة والألم. اشترك سكيم وحكيم مع شباب أمتهم في حمل ذلك الوجه الكالح والحزين، وزاده كلاحة وحزنا فروض ثقيلة يفرضها الآباء من يوم يخلقون، فالابن دائما في طاعة أبويه ومن متاعهما، لقن صغيرا انه إنما خلق لخدمتهما وترفيهما وكسب معاشهما، وان وجوده في هذا العالم لا يبرره إلا التضحية لها بالنفس والنفائس.

وذات مساء ذهبا إلى حانوت القرية الصغير يشتريان من الأفيون أطيبه وأنضجه، ويتخيران منه أكثره تسكينا للطبع الثائر وتخديرا للمزاج الحاد، فقد كان اتفق في تلك الليلة أن أبويهما لم يكونا على أطيب حال وارحب بال، فالتقيا هنالك بعد غيبة أيام

قليلة ملاتهما بالشوق الكثير، فرحب حكيم بسكيم، ورحب سكيم بحكيم، وتساءلا مليا في أدب كثير عن صحة أبويهما، ولما بلغا من ذلك ما طمأن بالهما وأقر خوفهما، انتقلا يصفان الزمن السيئ ويشكوان ضيق الحال، ويتأسفان على ما حاق بالقرية من الفقر والجوع وكان إلى جانبهما رجل من أهل الصفرة كذلك، إلا انه سمين بدين، وقد اضطجع على فراش من فرش الحانوت يهيئ لنفسه تدخيني الأفيون، وكان يستمع للشابين وشكاتهما، فلما بلغا من الحديث ما بلغا، شاء أن يتدخل فيأخذ بطرف من حديثهما فقال:

- نعم صديقي، إن في الزمن سوءاً، وان في الحال ضيقا، وكيف تقنع الروح فتهدا وتخلد للسلام والمعدة فارغة؟

فابتدره الصديقان:

- هذا حق. هذا حق لا مراء فيه

ثم أخذا يتساران:

- إن هذا الغريب المحترم لابد ان يكون فيلسوفا كبيرا لانه يتكلم بلغة الحكماء

وجرى الحديث بينهما وبين الحكيم المحترم، وبعد تحية تتلوها تحية، وشكوى منهما يتلوها تامين منه، وبعد ان ذكرا للغريب مرارا انهما وضيعان وحقيران لا يساويان خردلتين، تراءى للفيلسوف أن يفتح لهما عيبة حكمته ويدلهما على أقوم السبل واقر بهما للعناية بآبائهما الأشياخ حتى تنفرج الأزمة الحاضرة فذكر لهما جزيرة في ناحية من نواحي البحر المحيط يسكنها شياطين شقر من الهولانديين يقومون فيها بزراعة الطباق في مساحات مديدة واسعة، ويستخدمون فيها الشبان فيعطونهم أجور لا تتحقق إلا في الاحلام، هذا بشرطين: أولهما أن يكون الشاب قادرا ماهرا، وثانيهما ان يكون له الحظ المجدود الذي ييسر له الخدمة لدى هؤلاء الشقر. وذكر لهما انهما لابد مجدودان لأنهما وقعا غي سبيله، وانه هو أيضاً مجدود باستطاعته إسداء الخير لهما على هذا النحو. وكان في حديث هذا الفيلسوف عذوبة، كانت كلماته ملساء تنزلق في سهولة من بين شفتين ملساوين، ولا بدع فصاحبنا كانت تفرض عليه صناعته حذق الكلام وموادعة القلوب ومصانعة الإفهام، فهو رجل من الرجال المغامرين، الذين كانوا يجوسون خلال الريف يتصيدون الشباب البريء الساذج يبعثون به إلى وكلائهم بالموانئ ليرحلوهم في طلب العمل وراء البحر إلى حيث تشتري الأبدان اغتصابا لقاء كراء دنيء وعيش رقيق.

ولما كان في طبع الصيني ارتياب، وفيه كذلك حب المساعرة والممارسة، لم يطمئن سكيم ولم يطمئن حكيم إلى قبول الدعوى في الليلة الأولى من عرضها، وآثرا انتظار الغد، فالغد الذي يليه وانتهيا أخيراً إلى أن بلعا الطعم كما بلعه قبلهما ألوف وبثمن بخس، بخمسة وثلاثين دولارا فضة، باعا الجسم والروح وفي صبيحة يوم كان سكيم وحكيم يدقان بأقدامهما تراب الطريق إلى ميناء (كانتون) وهو ميناء في الشرق الأقصى في ذكر اسمه غناء عن سوء وصفه وشناعة الأمور التي تجري فيه، ولما بلغاه سيقا كالغنام في قطيع كبير من الضحايا إلى سفينة صينية عتيقة عرفت البحار طرازها منذ خمسة قرون. وكانت

سيئة النظام فاسدة التقسيم عاطلة من كل أدوات الراحة ووسائل العيش، لا أقول الرفيه، ولكن اللازم للتميز بينه وبين عيش الأنعام وسائر الحيوان. دخل شباب الصين إلى السفينة الصغيرة وكانوا خمسين ومائة رجل فملأوا طابقيها حتى ضاقا بهم، ولكن لم يظهر عليهم انهم ضاقوا بهما، وكيف يضيق الصيني بشيء وهو من أمة يرى الرجل فيها صنوف الكرب تحل به بأهله، وألوان الخسف والعذاب تنزل بغيره وبأهل غيره، وهو يحدق إلى هذه والى تلك بعين تنظر ولا ترى، ومقلة إن أدركت من الصور مبناها فقد فاتها معناها.

وتحركت السفينة باسم عزريل مجراها والى جهنم مرساها. وبتحركها بدأت تتحرك الأمور. فالبحر أخذ يدور فدارت معه نفوس الراكبين - في الأمم المتحضرة يذهب دوار البحر بوقار الناس، وهم يعلمون ذلك من أنفسهم فيحرصون على حرمتها فيتقون ما يقع لهم من ذلك بالتخفي والتستر، أما أصحابنا فلم يعرفوا للوقار اسما ولا لحرمة النفس معنى، ولو انهم علموا من ذلك ما علم غيرهم لما أغناهم علمهم شيئا، فلم يكن في السفينة موضع فاضل، فكيف بمكان ساتر، وما حاجة الصيني العامل

المسترق للستر والخفاء، فمضت أيام ثلاثة، اختلط فيها الإنسان والمتاع والمكان، بمقذوفات الحلوق في جو امتلأ فسادا وتنضح سماً.

وصحا الجو في اليوم الرابع فرفع الرجال رؤوسهم وقاموا إلى وجبة من سمك وأرز، الارجلين بقيا بلا حراك على ظهر السفينة. ومن اجل هذين اجتمع ربان السفينة بوكيله اجتماعاً سريعاً فقررا أن الرجلين يحتضران، وانه لابد ألا يموتا في السفينة فيجلبا لها الشؤم والخراب. وكان من عادة أمثال هذه السفن أن ترسى على شواطئ غير أهلة طلبا للوقود الرخيص الذي يفر إليها هربا من الضريبة. وفي أول إرساءة انزل الرجلان ففرحا لذلك فرحا كبيرا، ولكنهما ما لبثا أن أدركا انهما نزلا إلى ارض لا أنس فيها ولا عون بل فيها المرض المتصل والمرض البطيء. فبكيا واستغاثا يطلبان العودة إلى السفينة، ورفعا أيديهما عبثا بالرجاء والدعاء. وأقلعت السفينة بدونهما. وعلم الرجال الذين بها ان هذا مآل كل من يسقط منهم هذه السقطة، ولكن لم يتحرك فيهم بنان باحتجاج أو لسان بكلمة دفاعا عن هذين البائسين، وكيف يقع من أحدهم شيء فيه إفساد لمغامرة مالية تعود على نفسه وأهلة بالنعمة والثراء؟ وما هذه بأول مرة بردت فيها المنافع الذاتية الدم الإنساني في موقف
كان من طبعه أن يغلي فيه ويفور.

سارت السفينة مع الريح جنوبا، وكان يهب من الشمال شديدا، فسرعان ما بلغت أرخبيلاً يقع إلى الجانب الأدنى من بوغاز (مالقة) فانقلب اتجاه الريح فاصبح حاراً لافحا، وبدأ العطش يأخذ من الرجال فاستنفذوا صهريج ماء كامل. وفتحوا الصهريج الثاني وبفتحته انفتحت طاقة من جهنم.

ففي مساء ذلك اليوم مرض ثلاثة من الرجال مرضا مفاجئا، وماتوا موتا سريعا فلم يمهلوا ربان السفينة ليفعل بهم ما اعتاد ان يفعله بالمرضى إذا قل فيهم الرجاء. فاستاء الربان وتشاءم وتربص شرا. وقذف الرجال الأحياء بالرجال الأموات من فوق ظهر السفينة إلى البحر، إلى أفواه القروش التابعة، ووحوش الأقيانوس السابحة، وكان في وجوههم جزع، وفي عيونهم رعب، وكانت في الجثث بشاعة وشناعة.

في الصين يعيش الناس في فقر مدقع وجهالة سوداء، وهذان يلدان القذارة فإذا حلت الهيضة (الكوليرا) بهم راعتهم اشد الروع فان كانوا على الأرض فروا منها وتفرقوا سراعًا في كل صوب، وفرقوا معهم عدوى المرض في كل ناحية، وان كانوا حيث لا مفر ولا منجاة استسلموا استسلاما كاملا، واشتد بهم الخوف فجمدوا عن الحركة وهذا ما حدث لسكيم وحكيم وأصحابهما على تلك السفينة المشئومة، فانهم جميعهم جلسوا القرفصاء ودلوا وجوههم بين أرجلهم يحدقون في الأرض تحديقا شديدا كأنما يريدون خرقها بانظارهم، وهم إنما يفكرون فيمن تكون عليه النوبة التالية، وبأي اسم يهتف الهاتف عن قريب.

ولم يطل تفكيرهم طويلا، فما انتصف النهار التالي حتى أجاب الهاتف منهم ستة رجال، وما جاءت العشية حتى زاد هؤلاء عشرة آخرين. وجاء النهار مرة أخرى وجاءت شمسه، وأخذت تصب على السفينة أشعة لا من ضياء لطيف ولكن حمما من النار، وكان من حولها البحر هادئا ساكنا كأنه صفحة الزجاج، تشقه السفينة بصدرها فيسمع انشقاقه واضحا في هذا السكوت الرهيب.

وزاد جدول المرضى وطال، وتحرك الريح فزادت سرعة السفينة، وما لبثت أن تراءت لها شواطئ جزيرة (سومطرا) وكان البحارة خمسة فمات منهم ثلاثة. ومات اكثر الركاب أو كانوا في سبيل الموت، وأحدق الأحياء إلى الأرض البعيدة، إلى الأمل النائي، إلى الحياة
من بعد أن ذهب رجاؤهم في الحياة. وكان من بينهم نفر ذهب الرعب بصوابهم فزادوا الحال خبالا

وعلم الربان أن السلطات لن تسمح بدخوله المرفأ الذي كان يطلبه على هذا الحال، فنكب عنه، وسار بحذاء الشاطئ يطلب مرسى آخر، وبعد ساعات وصل إلى ميناء صغير لهولاندا. وازدحم الرجال على ظهر السفينة، وفي عيونهم بريق الأمل، وفيها كذلك بريق الدموع.

ولكن كان الربان اضطر إلى ان يستعين على قيادة السفينة بأيد تعوزها الخبرة وينقصها المران، فلم يستقم سيرها، وظهر كانتا لا تعرف إن تميل ولا إلى أين تقصد،

أو كأنها تدري ولكن لأمر ما تخشى وتخاف. فأثار ذلك الريبة في موظفي الميناء فخرج إليها ضابط هولاندي في قارب ومعه بعض الجند، فلما بلغ صاح مترجمه الصيني إلى رجال السفينة يسأل ما بها. فصمت الجميع ونطقت الجثث المترامية على ظهرها.
فصرخ الضابط: (إنها الكوليرا. الكوليرا السوداء. لا سماح بالنزول وإلا هلك من في الجزيرة جميعا. يا مترجم. صح بهم أن لا أمل في النزول. وانهم إن أبو نسفت السفينة بمن بها).
فكان بالسفينة هرج، وفيها مرج شديد، واصطفت تلك الوجوه الجوفاء الشاحبة تطل على القارب تبكي وترجو في ذعر ودهش من ان تبلغ القسوة هذا المبلغ من الإنسان. وتحول الضابط بنظره عنها وفي قلبه إحساس قوي اليم بأنه إنما حكم بالموت على هؤلاء التعسين، ولكنها الأوامر لم يكن باستطاعته مخالفتها، وغير ذلك فلم يكن في الميناء محجر صحي ينزل هؤلاء الأشقياء فيه واجتمع الربان بوكيله، واعتزما أن يعبرا البوغاز إلى الشاطئ الآخر يحاولون النزول على شاطئ الملايا كان هذا آخر أملهم فتمسك الرجال به تمسك الغريق بقطعة خشب عائمة، فقام من استطاع منهم بالمعونة لنصل السفينة سريعا إلى منزل الخلاص. وجاء الليل فمرض الوكيل وذهب. وجاء دور حكيم فدافع المرض بقدر ما في جسمه من قوة، ومر بكل أدوار الوباء وآلامه. ونظر إلى صديقه سكيم والداء يملؤه، يرجوا ويسترحم ويطلب تخليصه، ولكن سكيما فر، فحكيم لم يكن في تلك الساعة صديق طفولته وصباه الذي كان يعرف، ولكنه رجل يزفر الموت في أنفاسه وجمع القبطان رجاله، وذكر لهم ان الخير في تجريد السفينة مما عليها من الأشلاء، وفي تنظيفها من مظاهر الوباء، وفي التخفي وفي التستر لكي يسمح لهم بنزول الشواطئ. فبدءوا في رمي الجثث إلى البحر بسواعد تضطرب، وفرائص ترتعد. وجاء دور الجثث التي لم تمت بعد، فنظر إليها الرجال ولم يمدوا إليها يدا، ونظروا إلى الربان يستنبئون، فصاح بهم: لابد من إزالة كل اثر فقذفوا بأجساد لا تزال بها حرارة الحياة. وكان حكيم لم يمت بعد، فاسترحم واستغاث. ومرت رعدة شديدة في ظهر سكيم لما رآه يقذف إلى الماء. ولكنه لم يفعل شيئاً.
دبر الربان ودبر القدر، فحدث ما لم يكن ينتظر. سكنت الريح وكان تيار الماء قويا في هذه المنطقة فحمل السفينة معه، وحمل معها الجثث التي قذفت بها، فسارت حولها في موكب مريع، وازدحم الرجال على السفينة ينظرون إلى الرجال الذين يرقصون في الماء. ونظر سكيم فيما نظر صديقه حكيما يصعد في البحر وفي فمه صياح وفيه إزباد وارغاء، ثم يغطس غطسة فسرتها ست من زعانف سوداء، أكلت (القروش) حتى شبعت، ومع ذلك بقيت على المائدة بقية صحبت السفينة حتى بلغت ميناء (كلانج).
وكان البرق قد طير خبر السفينة إلى (سنغافورة) فخرج رجال الميناء يطلبونها. فأقبلت تتهادى في ثقة من النزول هذه المرة لأنها تخلصت من آثار الوباء أو خالت أنها تخلصت منه، ولكن حال الرجال التي حملت كانت تنم عن كثير، وغير هذا فقد دخلت تجرر في أذيالها على الماء من بقايا الأموات وثائق حية تعلن التهمة للرياح الأربع فأحاط بها الجند من كل ناحية، وساقوها إلى جزيرة العزل، أما الأموات فدفنوهم مع كثير من الجير، وأما البقية القليلة الباقية فمركزوهم في نطاق مضروب، ومرضوهم فمات منهم ثلاثة، وخرج الباقون بعد حين في ذهول كبير، إلى الدنيا بلا خوف، إلى الأرض الجامدة الواسعة الامينة، يستقبلون حياة جديدة وأملاً جديداً. وكان كلما نظر ناظر منهم إلى خلفه اقشعر.

احمد زكي

الانقلاب الجمهوري في إسبانيا

إسباني ما قبل الحرب - 1

بقلم الأستاذ محمد عبد الله عنان

تعاني إسبانيا الجمهورية منذ قيامها أزمات ومتاعب متوالية، وتتعاقب فيها القلاقل والاضطرابات المختلفة. وقد استطاعت حكومة السينور ليرو الأخيرة التي قامت بعد أزمة وزارية طويلة أن تسيطر على الموقف نوعاً. ولكن استنادها إلى العناصر الفاشية والمحافظة يثير سخط الأحزاب الاشتراكية والمتطرفة ويذكى النضال الخالد بين

الجبهة الثورية. وتتنازع إسبانيا فوق ذلك قوتان أخريان: هما قوة الملوكية، وقوة الكثلكة. وقد قامت الجمهورية الإسبانية الفتيه على أنقاض الملوكية والقوى الدينية التي تحركها. ولكن فلول الملوكية مازالت تنبث في إسبانيا وتعمل في الداخل والخارج لإثارة الصعاب في وجه الجمهورية، وما زالت قوى الكثلكة رغم انهيارها تحاول النهوض والعمل لاسترداد نفوذها وسلطانها. وما زالت الجمهورية قويه تقبض على ناصية الحوادث، ولكن الخلاف الذي يضطرم دائماً بين العناصر الجمهورية والحرة، وبينها وبين العناصر المتطرفة والثورية من جهة أخرى، يزيد في متاعبها ويعرضها لأخطار شتى.

قامت الجمهورية الإسبانية منذ ثلاث أعوام، في إبريل سنه 1931 نتيجة لنضال ديمقراطية ثائرة تضطرم منذ أعوام طويلة. ولكن الديمقراطية الإسبانية قديمة ترجع إلى اكثر من قرن. وقد ظفرت إسبانيا بدستورها الحديث سنة 1812، أثناء الحروب البونابارتية، وهو الدستور الذي وضعته جمعية وطنيه في قادس، ووعد فرديناند ملكها المنفي يومئذ باحترامه، ولكنه لما عاد إلى إسبانيا بعد ذلك بعامين على اثر انتهاء الحروب البونابارتية، عمل على توطيد الملوكية المطلقة وانتقاص الحريات والحقوق الدستوريه، فعاد الشعب الإسباني إلى الثورة في سنة 1820، واضطر فرديناند إلى الاعتراف بالدستور كرة أخرى ن ولكنه لم يلبث أن عاد إلى انتهاكه، وعاونته الجنود الفرنسية التي أمده بها لويس الثامن عشر على تنفيذ سياسة الحكم المطلق. وكانت معظم الشعوب الأوربية تنزع يومئذ إلى الحركات التحريرية، ولكن الملوكيات القديمة لم تقف جامدة أمام هذه النزعة، ومنذ سنة 1815 عقدت المعاهدة المقدسة بين العروش الأوربية القديمة في روسيا، والنمسا، والمجر، وألمانيا، للتعاون على إخماد النزعات والحركات الشعبية الحرة التي بثتها مبادئ الثورة الفرنسية، وإذكاها مبالغة الملوكية القديمة في الاستئثار بالسلطان والحكم المطلق، وفي تجاهل الرغبات والأماني الشعبية. وفي اواخر عهد فرديناند (نحو سنة 1830) اضطرام النضال بين فرديناند وأخيه الدون كارلوس على مسألة وراثة العرش. وكان فرديناند حتى سنة 1829 عقيما لا ولد له.، ثم ولدت له بعد ذلك ابنة، فعمد في الحال إلى تغيير قانون الوراثة ليحرم أخاه كارلوس من ارتقاء العرش وليبقى العرش لابنته. ولما توفي سنة 1833، اعترف (الكورتيز) (البرلمان) بابنته ايزابيلا ملكة لإسبانيا وبوالدتها وصية على العرش، واعترفت إيزابيلا بعد ذلك بالدستور الإسباني الجديد الذي وضع سنة 1936، على مثل دستور قادس. ولكن عهدها كان فياضا بالاضطراب والقلاقل، وتوالت فيه الحكومات الضعيفة العاجزة وفسدت النظم والادارة، وفيه فقدت إسبانيا معظم أملاكها الأمريكية على اثر الحركات التحريرية التي قامت في أمريكا الجنوبية وانتهت بتحرير شعوبها من النير الأسباني، وقيام الجمهوريات الأمريكية الجديدة، واستمرت إسبانيا عصرا تعاني غمر الاضطراب والفوضى، ولكن الديمقراطية استطاعت خلال ذلك ان تنمو وان تقوى، وبذلت يومئذ لتحطيم الملوكية عدة محاولات عنيفة، ووقعت من جراء ذلك حوادث دموية كثيرة. واشتد ساعد الحركة الجمهورية إلى حد روعت معه الملوكية، واستمرت أداة الحكم على ضعفها وانحلالها، والعرش فيما بين ذلك يهتز توجساً وفرقاً، حتى غدا الموقف مما يستحيل استمراره. ولم تقوى الملكة ايزابيلا على مواجهة هذه الصعاب والخطوب كلها، ففرت إلى فرنسا، ثم تنازلت بعد ذلك عن العرش لولدها الفونسو الثاني عشر. وكان الفونسو وقتئذ طفلا في نحو العاشرة، فلبث العرش الإسباني خاليا مدى حين، وأقيمت حكومة مؤقتة تحيط بها الصعاب والأزمات من كل ناحية ثم كان عرض العرش الإسباني على ليوبولد الألماني من أمراء آل هوهنزلرن، ومعارضة نابليون الثالث في ذلك، وقيام تلك الأزمة الخطيرة التي التمست سببا لاضطرام الحرب بين فرنسا وألمانيا في سنة 1870 فعدلت إسبانيا عن ترشيح ليوبولد. وانتهى الأمر باختيار اميديس أمير سافوا ملكا لإسبانيا، فجلس على عرشها نحو ثلاثة أعوام يعمل في ظروف صعبة، ثم استقال وغادر البلاد وخلا العرش كرة أخرى، وهنا اضطرمت البلاد بثورة تحريرية قوية، واستطاع الأحرار أن يعلنوا قيام الجمهورية، وان يقيموا الحكم الجمهوري مدى عام (سنة 1874)، وكان هذا أول ظفر حقيقي للديمقراطية الإسبانية، ولكنه كان ظفرا خلبا، لان

العناصر الرجعية لبثت قوية تعمل لاسترداد سلطانها. وكانت إسبانيا تعاني في نفس الوقت مصائب الحرب الأهلية، لان الدون كارلوس وأنصاره انتهزوا فرصة الاضطراب العام ليحاولوا انتزاع العرش فوقعت الحرب الكارلية الثانية (سنة 1872)، ولبثت نحو أربعة أعوام تمزق أوصال الأمة، ثم انتهت أخيرا بسحق قوى الدون كارلوس وفراره إلى فرنسا. وعندئذ أعلن الفونسو الثاني عشر، وكان عندئذ طالبا يدرس في إنكلترا - انه ملك إسبانيا الوحيد، واستمر أنصاره في الداخل يدبرون له سبيل العودة، حتى استطاع أن يعود وان يجلس على عرش إسبانيا سنة 1875، وهو فتى لا يجاوز السابعة عشرة، وكان الفونسو الثاني عشر رغم حداثته يتمتع بخلال ومواهب طيبة، فاستطاع بمعاونة وزيره الشهير شاروفاس دل كاستيلو ان يقمع الفوضى وان يعيد الأمن والنظام، وان يقوم بإصلاحات واسعة المدى. وتنفست إسبانيا في عهده الصعداء، وتمتعت بفترة من السكينة والرخاء. ولكن الموت لم يمهله فتوفي شابا في السابعة والعشرين من عمره سنة 1885، وترك أرملته حاملا، فوضعت بعد وفاته ولدا سمي بالفونسو الثالث عشر، واعن منذ مولده ملكا لإسبانيا وعينت أمه الملكة ماريا كرستينا وصية للعرش.

كان الفونسو الثالث عشر خاتمة لتلك السلسلة الحافلة من ملوك قشتالة الذين لبثوا قرونا يحاربون العرب والإسلام في إسبانيا والذين قضوا بعد طول الجهاد على الإسلام والحضارة الإسلامية في إسبانيا. وكان وريث ملوكية عريقة كانت مدى حين تفوق جميع الملوكيات آل أوربية في العظمة والبهاء، وتبسط سلطانها ما وراء المحيط على قارة بأسرها. ولكنه لم يرث من ذلك التراث العريق الباذخ سوى بقية واهنة مضعضعة. كانت الملوكية الإسبانية في الواقع تطوي مرحلتها الأخيرة في بطئ، وشاء القدر أن يكون مصرعها على يد الفونسو الثالث عشر آخر ملوك قشتالة.

تولت الملكة ماريا كريستينا زمام الأمور حتى يبلغ ولدها اشده. وكانت مهمة شاقة، لان الأمور لم تكن قد استقرت بعد، ولكن الملكة الأرمل استطاعت أن تعمل في جو من العطف سواء في الداخل أو في الخارج، فهدأت الخواطر وتحسنت الأحوال نوعا. وكان اعظم

الحوادث في هذا العهد نشوب الحرب الإسبانية الامريكية، وفقد إسبانيا لباقي مستعمراتها، وكان سبب نشوبها الخلاف بين إسبانيا وأمريكا على جزيرة كوبا، وتطلع أمريكا إلى انتزاعها من إسبانيا. ونشبت الحرب بين الدولتين سنة 1898، وهزمت إسبانيا وحطمت قواها البحرية، وفقدت كوبا وباقي مستعمراتها في الهند الغربية، وفقدت أيضاً جزائر الفلبين الغنية في الهند الشرقية، ولم يبق لها شيء من تراثها العريض فيما وراء البحار وكبدتها الحرب نفقات باهظة أنضبت مواردها وأثقلت كاهلها مدى حين.

وفي مايو سنة 1902 توج الملك الفونسو الثالث عشر، وهو في السادس عشر من عمره، وتولى زمام الحكم، وبدأ بذلك عهد جديد من الملوكية الإسبانية استطال مدى ثلاثين عاما، وكان عهد الفصل في تاريخها. وأبدى الفونسو منذ ولايته همة ونشاطا، بيد انه لم يمض نحو عام حتى توفي السنيور ساجستا رئيس الوزراء وزعيم الأحرار، وكان سياسيا بارعا يتمتع بكفايات جمة، فاضطربت شؤون الحكم، وانتقلت السلطة إلى المحافظين، وتعاقبت منهم في الحكم خمسة وزارات في نحو ثلاثة اعوام، واخذ الملك الجديد يواجه كل الصعاب التي واجهها إسرافه. وكان الفونسو الثالث عشر يبدي منذ البداية ميولا رجعية قوية ويلتمس الوسائل المختلفة لمقاومة النزعات الحرة والحريات الدستورية، ويعتمد في تنفيذ سياسته على العناصر الرجعية المحافظة ويجمعها حوله، وكان ذلك سببا في بث السخط حول العرش وحول شخصية حتى انه دبرت يوم زواجه من الأميرة فكتوريا أوجيني ابنة آخي الملك إدوارد السابع، أول محاولة لاغتياله (سنة 1906)، وبدأت من ذلك الحين سلسلة من الاعتداءات شاء القدر أن ينجو منها جميعا. وكانت الحركات والنزعات الديمقراطية والثورية أثناء ذلك تنمو وتشتد وخصوصا في مقاطعة قطلونية. وكانت قطلونية فوق ذلك مسرح حركة انفصالية قوية ومهد معركة مضطرمة بين الوطنيين القطلان والراديكاليين المركزيين بزعامة السنيور ليرو. وعاد الأحرار إلى منصة الحكم منذ سنة 1905 على يد زعيمهم موريه واستمروا بضعة أعوام؛ ولكن الملك ما لبث أن عاد إلى محالفة المحافظين، وكانت المسالة

المراكشية تشغل إسبانيا منذ حين، وكانت قد سويت مع فرنسا في سنة 1904 بمعاهدة فرنسية إسبانية، اعترف فيها بحقوق إسبانيا، وحددت المنطقة الإسبانية تحديدا يرضي أمانيها. ولكن المسالة المراكشية استمرت شغلا شاغلا للسياسة الإسبانية، بل غدت كما سنرى كابوس السياسة الإسبانية مدى أعوام طويلة، وكانت عاملاً جوهرياً في تطور الحوادث في إسبانيا، وفي تذرع العناصر الرجعية بإقامة حكم الطغيان الشامل الذي لبث عدة أعوام يخمد أنفاس الشعب الإسباني، ثم انتهى بذلك الانفجار الحاسم الذي حطم صرح الملوكية القديمة، وحقق في إسبانيا آمال الديمقراطية كاملة شاملة.

وخلف المحافظون الأحرار في منصة الحكم على يد زعيمهم السنيور مورا، وفي ذلك الحين اشتدت الحركة الثورية في قطلونية، واضطرمت الحرب في مراكش في نفس الوقت لأن بعض قبائل الريف هاجمت الخط الحديدي الذي يربط المناجم الاسبانية؛ وقررت الحكومة أن تعبئ الجنود الاحتياطية القطلونية، فثارت قطلونية احتجاجا على ذلك، ونظم إعتصاب عام في برشلونة امتد إلى باقي أنحاء الولاية (يوليه سنة 1909) وانفجر بركان الثورة فقبضت العسكرية على زمام السلطة، وقمعت الثورة بمنتهى القسوة، واعدم الزعيم الثوري فرانشيسكو فيرر؛ فازدادت البلاد سخطا، واضطرت الوزارة المحافظة إلى الاستقالة، وعاد الأحرار إلى الحكم أولاً على يد السنيور موريه، ثم بعد استقالته على يد السنيور كاناليخاس (فبراير سنة 1910). واستمرت الوزارة الحرة في الحكم حتى مقتل رئيسها كاناليخاس في نوفمبر سنة 1912. وامتاز هذا العهد بحادثين في منتهى الخطورة، أولهما: اضطرام المعركة بين الحكومة الحرة والكاثوليك، بسبب اضطهاد الحكومة للكاثوليك وسخط الفاتيكان من اجل ذلك؛ والثاني قيام الخلاف بين إسبانيا وفرنسا بسبب المسالة المراكشية. وكانت فرنسا تزداد توسعا في مراكش حتى شعرت إسبانيا أنها تهدد منطقتها ومصالحها وانتهزت ألمانيا هذه الفرصة للتنويه بمصالحها في مراكش، وأرسلت الطرد (بانتير) إلى مياه أغادير بحجة حماية مصالحها، واضطرت فرنسا إلى أن ترضي ألمانيا بتحقيق بعض مطالبها في الكونغو، واضطرت من جهة أخرى أن تحترم سياسة إسبانيا على المنطقة الإسبانية وكان ذلك فوزا للوزارة الحرة، ولكن اشتدادها في إخماد الحركة الثورية في قطلونية انتهى بمقتل رئيسها (نوفمبر سنة 1912)، فخلفتها وزارة محافظة برئاسة السنيور داتو لبثت في منصة الحكم حتى ديسمبر سنة 1915، وفي عهدها نشبت الحرب الكبرى. وأعقبتها وزارة حرة برئاسة الكونت رومانونيس، فاستمرت حتى أوائل سنة 1917. ولزمت إسبانيا الحياد أثناء الحرب، واستفادت من حيادها فوائد تجارية واقتصادية جمة وتمتعت بفترة من الرخاء الحسن، وكان الرأي العام الإسباني يتراوح بين تأييد الحلفاء وتأييد ألمانيا. فالأحرار وأحزاب اليسار تميل مع الحلفاء، والأحزاب المحافظة ورجال الدين يميلون مع ألمانيا. وكان السلام الذي تمتعت به إسبانيا خلال الحرب نعمة سابغة وعاملا كبيرا في استقرار شئونها وأحوالها.

وفي أواخر سنة 1917 تحركت أحزاب اليسار (الأحزاب الاشتراكية) كرة أخرى، ودبرت إعتصابا عاما في جميع إسبانيا. وكانت الديمقراطية ترمي بهذه المحاولة إلى تحطيم النظام القائم، وإقامة جمهورية أسبانية ديمقراطية، ولكنها أخفقت في تدبيرها واستطاعت العسكرية ان تسحق الثورة في مهدها. وكانت العسكرية تتطلع دائما إلى فرض نفوذها وسلطانها على شؤون الحكم، وكانت ترى من حقها بعد أن أنقذت الملوكية والنظام القائم من ثورات الديمقراطية غير مرة، أن تستاثر هي بالسلطة، وان توجه سياسة البلاد طبقا لرأيها، وقد استطاعت في الواقع ان تحقق هذه الغاية إلى حد كبير على يد الوزارة المحافظة التي قامت يومئذ برياسة السينور جارسيابريثو، وتولى فيها وزارة الحربية رجل من رجال العسكرية هو الجنرال لاتشيرفا، ولكن هذا الطغيان العسكري لم يطل يومئذ أمده لما أبداه لاتشيرفا من عجز وصلف؛ فسقطت هذه الوزارة المسيرة؛ والفت وزارة حرة برئاسة الكونت رومانيوس (ديسمبر سنة 1918)؛ وعلى يد هذه الوزارة التحقت إسبانيا بعصبة الامم التي كانت يومئذ معقد كثير من الآمال والأماني. ولكن الوزارات الحرة كانت تصطدم دائما بعثرات وصعاب جمة سوداء من جانب العرش، وقد كان يؤثر دائما جانب الطغيان والقمع ويعتمد على مؤازرة العناصر الرجعية والعسكرية والدينية، أو من جانب العسكرية وقد كانت ترهق

بضغطها كل حكومة لا تذعن بإرادتها ووحيها. فسقطت وزارة رومانيونس، وخلفتها وزارة محافظة برياسة السينور مورا، ثم وزارة محافظة أخرى برئاسة السينور توكا، وكانت هذه الوزارة الأخيرة وزارة قوية مستنيرة، ولكنها اصطدمت بإرادة العسكرية ولم تذعن لها، فاستقالت مرغمة، ولكن المحافظين استمروا في الحكم أيضا أولا على يد السينور سلازار ثم على يد زعيمهم السينور داتو الذي ألف الوزارة الجديدة في مايو سنة 1920. وكانت إسبانيا ترزح يومئذ تحت خطبين عظيمين: أولهما اضطرام الثورة في قطلونية، وثانيهما

اضطرام الحرب في مراكش؛ وكانت حوادث قطلونيةدائما كابوس السياسة الداخلية، كما كانت حوادث مراكش كابوس السياسة الخارجية، فحاولت وزارة داتو أن تقمع الثورة في قطلونية وانساقت كالعادة إلى القسوة والتطرف متأثرة بإرادة العسكرية والعرش، لكنها لم تفلح في إخماد الهياج، وانتهى الأمر بمقتل رئيسها (مارس سنة 1921)؛ فعاد السينور سالازار إلى تأليف الوزارة الجديدة؛ وهنا تطورت حوادث مراكش تطورا خطيرا نرجئ شرحه إلى الفصل القادم.

محمد عبد الله عنان المحامي

فضيلة. . .!

للأستاذ الأديب عباسي

والفضائل كالرجال: منها المائع المسترخي، ومنها الشديد الصلب الذي لا يثنى، ومنها المقرور مفرط القر، ومنها المشبوب مفرط الحر، ومنها مرهف الحد نافذ الشفرة، ومنها كثير الفلول كليل السطوة، ومنها الذليل المستعبد ومنها الأبي المستكبر، ومنها الواضح البين، ومنها الذي ليس له أول ولا آخر. وتستطيع أن تمضي بالمقارنة إلى آخر ما يحضرك من صور للرجال ونماذج. ولا عبرة بما يوحيه اللفظ من معاني القداسة والاشتقاق من الفضل. فأنت تعرف جيدا من الفضائل كالرجال أيضا تخضع لملابسات الحياة وتعنو الزمن، وتنال من دهرها تقديرا عادلا حينا، وتقديرا جائرا أحيانا أخرى.

وفي عصور النضال العنيف والجهاد المحرج يقسر الناس على التفطن إلى جميع مناحي الحياة دقيقها وجليلها ويحملون على تناول موادها تناولا سريعا مرتجلا لا إشفاق فيه - غالبا - على ماضي تليد ولا مستقبل مومق بعيد والذي يربح المعركة للقوم من هذه المواد هو الذي لاشك يربح البقاء والخلود.

ولعل الشرق في هذا الوقت الحافل بجميع ضروب النزاع المليء بأقرب الاحتمالات وابعدها، هو احوج ما يكون إلى أن يكر راجعا إلى هذا الكتاب القديم الذي دونت فيه فضائلنا، ويطمس بالقلم العريض هذه الأسطر المجرمة التي تسيء إلى رجولة الشرقي، وتنقص من حيويته الفردية ثم حيويته الاجتماعية، وعملية التنقيح في الاخلاق والفضائل هذه عملية قديمة خبرها اليونان والرومان والعرب وغيرهم، وخبروا أخيرها اصدق مختبر. ولعل اشد عصور هذه الأمم سوادا هي العصور التي كان فيها الرقيب في غفوة عنها، فشبت بعض هذه الفضائل من رقدتها ونشبت تنهش في الحياة وتوالي تمزيقها إلى ان أحالتها في النهاية رسما لجسم، وبقية من جثة. والحياء - كما تعلم - من اقدم ما خط في كتابنا الأخلاقي - الحياء لا بمعنى صرف النظر وتحويل الفكر عن الشهوات والملاذ الدنيئة - بل الحياء بمعنى إعطائك سيفك لخصمك ليقتلك به، أو الارتماء على فجوة بين حائطين ليعبر عليك إلى غايته من هو دونك، أو السير وراء الناس من بعد تلتقط بقايا الزاد وفتات الأطعمة.

إن سبيل النجاح سبيل واضح لا يخطئه النظر الصائب والاستعداد الصادق. فإذا رمت السير فيه غير مرفوع الرأس موفور الثقة بالنفس، فأحر بك أن تجدك في آخر الطريق أو موطئا للإقدام. ان الزحام على طيبات الحياة لا يدعك تسير في رفق وعلى مهل. وخجلك الذي تخجل واستكانتك التي تستكين، ليس لهما إلا نتيجة واحدة تعرفها لاشك تمام المعرفة. وهي لا ريب الحرمان والخيبة على حين قد تكون وأنت المحروم اكثر الناس استعداداً وأحقهم بالفوز تقول كتابة فرنسية: ما من حياة إلا ويمكن ان تكون ضررا على حياة أخرى أو اكثر. فإذا صدقت كاتبتنا فيما تقول - وما أخالها إلا صادقة - فما معنى ذلك؟ معناه أن نجاحك في سعي أو سبقك إلى غاية هو في الواقع حرمان لواحد أو اكثر ممن عداك. فهو - لذلك - مدفوع بغريزته إلى مزاحمتك وإقامة العراقيل في وجهك ليصرفك عن النجاح في هذا المسعى أو السبق إلى تلك الغاية.

وهو غالبا لا يكتفي بان يوقفك حيث أنت بل تراه لا يحجم ولا يتجمجم أن يدفعك خطوة أو خطوات إلى الوراء، فذلك اضمن لفوزه واكفل بنجاحه.

ونحن لا ندعو إلى إطراح الخجل أو المزاحمة بالمناكب لنقف عند هذا الحد من تقوية الأنانية الفردية واحتجان معظم الخير للنفس. ولكن يقيننا الذي لا يتسرب إليه الشك هو إن من احسن نيل الحق خاص وأجاد في مدافعة الأخصام عنه يحسن أيضا المدافعة عن حق عام والمزاحمة في نصرته. والمرء في أمم الغرب العريقة يزج في أتون من الخصام العنيف والنضال الشديد فما يزال ينحي ويذود عن نصيبه المموق وحقه المشروع حتى يناله. فإذا دعا داعي النصيحة العامة والبذل المطلق كان صاحبنا هذا في أول الملبين وطليعة المستجيبين. وما ذلك إلا إن فضائل الصبر والاحتمال يصيبها المرء من هذا النضال مضافا إليها استشعاره الرضى كل الرضى عن هذا البلد الذي يظلله ويهيئ له من فرص النجاح على قدر استعداده، هي مما يحبب إليه هذا البلد ويدعوه إلى المسارعة في البذل له والتضحية من اجله وليس من باب المصادفة المحضة أن تجد الإنكليزي اكثر الخلق مطالبة بحق خاص، وأكثرهم في ذات الوقت مطالبة بحق عام.

ثم لا تحسبن انتفاء الحياء والخجل يولد الغرور ويشجع على القحة كما قد يتبادر إلى الذهن. والصواب أن نقول: إن انتفاء الحياء بالمعنى الذي أردت هو قتل للغرور واستئصال للقحة. وذلك إن ظهور الجميع بمظهر الصراحة والثقة بالنفس لا يدع للدعى مضطربا يضطرب فيه أو مجال يصول فيه، إذ لا يبقى حينها رائجا إلا سوق الجدارة والاقتدار. ولو انتفى المزاحمون لراح هؤلاء الأدعياء المغرورون يملأون الدنيا صياحا وصخبا وادلالا بقوتهم وسمو مواهبهم:

زد على هذه المحاذير أن الحيي بانزوائه قد يحرم المجتمع الذي نعيش فيه كثير من الثمار الطيبة والجني اليانع الذي قد لا يخصب خصبه المطلوب في غير نفسه. وحبذا لو درس أصحابنا الخجلون هؤلاء شيئا من صحائف الطبيعة الناطقة، ولقنوا بعض دروسها العلمية. إذا لكانوا يشفون من مرضهم المخامر هذا. لينظروا إلى الزهرة ترفع جيدها لتستقبل الشمس، وليلاحظوا الرياح تذروا النبتة لا تتشبث جهد التشبث في أديم الارض، وليلحظوا أيضا الزهرة الجميلة لا يفوح عطرها يأتي عليها منجل الحاصد وتلقى بين ما يلقى أمام البهائم. ثم ينظروا إلى ذلك الطائر الجميل يتخذ من رواء ريشه وجمال زينته وسيلة للتشبث بأسباب الحياة. وليصغوا أيضا إلى ذلك الطائر عينه يملا الأرض برجع صوته الرخيم، لا ليشنف اسماعهم، بل ليكون له مما تصوغه حنجرته الصغيرة وسيلة يستبقي بها النوع ويستديم الذرية.

إن المرونة الخلقية لا باس بها، ولكن ليس إلى الحد الذي يصبح عنده الإنسان كالإسفنج تعتصر كل ما فيه من حياة دون أن يأسى أو يتألم، فيحاول المدافعة عن نفسه بالتي هي احسن أو بالتي هي اشر. الحرير لا باس به لباسا للمترفين، ولكنه بئس اللباس للمحاربين. فلنكن إذاً الشوكة تدمي الأنامل وتؤذي الملمس لا الوردة تنثر غلائلها أو الشهد يستساغ منهله.

شرق الأردن

أديب عباس

الشطرنج كيف اخترع؟ - تطوراته بين الأمم القديمة

لعبة الشطرنج من أدق اللعب الفكرية وأهمها وانفعها. بل هي معيار لقوة الذكاء والمهارة والحذر والدهاء والإقدام، لأنها دقيقة في وضعها، دقيقة في لعبها، تروض الإنسان على التحذر وسعة الحيلة وتدفعه إلى المجازفة إذا ما تبين له بريق أمل من الفائدة.

إن هذه الرقعة التي يلعب عليها اللاعبون بقطع من الخشب مصورة ذات أسماء موضوعة، إنما هي ملعب الحياة، ومضمار السباق والرهان فيها، بل هي سر الحياة والعظمة، والموت والمهانة والزراية، ففيها يعلو الصغير إلى منصة العرش، وفيها تخطو الفرس ثلاثا فتعلو على الشاه فنلقيه بحافرها، هذه وغيرها كلها مشاهد في لوحة هذه الحياة التي تعتورها دائما ظروف شاقة لا يحتملها غير ذي الصبر والجلد الذي يفسح له من الآمال مجالا، ويجعل بين حدي الفشل والنجاح اتصالا.

لا يوجد من الأسانيد التاريخية القديمة شي محقق يدل على تاريخ وجود هذه اللعبة

الفكرية كما حققت هذا (دائرة المعارف الفرنسية) وكل ما عرفوه عنها راجع إلى العهد الذي ذاعت فيه، فقد كان للقدماء العاب شتى بالطبع يلهون بها في فراغهم لترويح نفوسهم. وقد تشاهد منقوشة على الآثار المصرية القديمة ولكن لم تعرف لها قواعد.

وقد قيل في أساطير الأولين ان أول من اخترع لعبة الشطرنج هو (بالاميد) إبان) حصار طروادة وقد صدرت جريدة خصيصة بهذه اللعبة اسمها (بالاميد).

وللشطرنج أسماء قديمة تباين اسمه العصري، فقد كانوا يطلقون عليه في أوربا في القرون الوسطى، عندما كانت اللغة اللاتينية ذائعة في ذلك الحين اسم (لودوس لاترنكولوروم) وكانوا في الهند يسمونه قديما (شطرونجا) وأطلقوا عيه في القرن السادس اسم (شاتورانجا) وتسربت هذه اللعبة إلى فارس وبلاد العرب وغيرها من مختلف البلاد. ولعل أول عهد لأوربا بها كان القرن السادس عشر وأخذت تذيع فيه إلى حد أن تألفت فيها مجامع ومدارس وجرت مسابقات بين البلاد وعقدت مؤتمرات خصيصة بها وغامر فيها الغاوون بضياعهم ورؤوس أموالهم حتى لقد فقد واحد كل ما ملكت يداه في سبيل لعبة واحدة فلم يحزن لانه أضاعها بغلطة فكرية. ولعبة الشطرنج في ذاتها، فكرية تبعد الناس عن كل

موبقة وتصرفهم عن كل إثم، فأنت ترى الجالس أمام الرقعة مقصور النظر والفكر عليها، لا مطمع له إلا أن ينهمك في المغامرة ليغلب بجد، ويدفع عن حياض فكره بحق.

وللاعبين حيل غريبة في التغلب، فان الدهاء لابد أن يكون الآلة العاملة مع الفكرة، مثال ذلك إن اللاعبين في أوربا في القرن الخامس عشر كان أحدهما إذا لاعب الثاني ليلا جعل الضوء إلى يساره، وإذا ما لاعبه نهارا اجتهد في أن يجعل خصمه إزاء الضوء حتى يضلل بصره. وقد كانت هذه الطريقة التي جرى عليها (فنسان) و (دي لوسينا) وهما من اشهر اللاعبين الأوربيين في ذلك الحين. وقد كان للعرب القدح المعلى في هذه اللعبة، وكانوا يسمون الملك؟

وهو الذي اسماه الفرس (شاها) وجرت تسميته حتى الآن. وقد روي (شيخاً) (الصفدي) انه رأى غير مرة في دمشق سنة 731 هـ شخصا يعرف (بالنظام العجمي) وهو يلعب الشطرنج غالبا في مجلس (الصاحب شمس الدين) ورآه أول مرة يلعب مع (الشيخ أمين الدين سليمان) رئيس الأطباء فغلبة مستدبرا ولم يشعر به حتى ضرب (شاه مات) بالفيل.

وحكى له عنه انه يلعب غائبا على رقعتين وقدامه رقعة يلعب فيها حاضرا ويغلب في الثلاث. وكان الصاحب يدعه في وسط الدست ويقول له عد لنا قطعك وقطع غريمك فيسردها جميعها كأنه يراها.

واجمع بعض من المؤرخين على ان السبب في اختراع لعبة الشطرنج راجع إلى عهد الملك

ملك الهند الذي أحزنه أن يضع (شيربابك) أحد ملوك الفرس (النرد) وهو (تلمبيت) رموز على السنين والحساب، والأشهر، والأيام، والأسابيع، والقضاء والقدر، إلى غير ذلك. فعمد حكيمه (صوصة) إلى اختراع لعبة تفوق تلك وتعد فخارا للهند. فاخترع لعبة (الشطرنج) التي اجمع حكماء ذلك العصر ومفكروه على تفضيلها. فلما آن عرض اختراعه على الملك اعجب به وطلب منه أن يتمنى عليه ما شاء من جزاء، فتمنى عدد تضعيفه حبات قمح، فأنكر عليه الملك هذا الطلب التافه فالح المخترع في إجابة طلبه، فحسب أهل ديوان الملك هذا التضعيف ثم قالوا له إن ما عندنا من القمح هو دون الطلب، فدهش، ثم أوضحوا له الأمر فاعجب به لان تضاعف الأعداد إلى البيت السادس عشر أسفر عن اثنين وثلاثين

ألفا وسبعمائة وثمانية وستين حبة من القمح. فكيلت قدحا، ثم ضوعفت أجزاؤها إلى البت العشرين. فكانت ويبة، ثم ضوعفت هذه الأرادب فكانت في البيت الأربعين مائة وأربعة وسبعين ألفا وسبعمائة واثنين وستين إردبا وثلثي الإردب. ولما كان الإردب ستة وتسعين قدحا فان هذا القدر يملا شونة، ثم ضوعفت الشونة في البيت الخمسين فكانت الجملة ألفا وأربعا وعشرين شونة، وهذا القدر يعادل فسيح مدينة، ثم ضوعفت المدينة إلى البيت الرابع والستين وهو آخر بيوت رقعة الشطرنج، فكانت النتيجة ستة عشر ألفا وثلثمائة وأربعة وثمانين مدينةوهو ميزان الرقعة جميعها. فان جمع من البيت

الأول إلى الثالث والستين كان الحاصل مساوياً لما في البيت الرابع والستين لا ينقص عنه غير حبة بر واحدة، ثم جمع ما في الرقعة جميعها فكان اثنين وثلاثين ألفا وسبعمائة وثماني وستين مدينة. فعجب الملك ومن حضر مجلسه العجب كله.

أبو بكر طاهر مؤمن

مهجور اللغة

روي إن ابن زيدون قام على جنازة بعض حرمه والناس يعزونه على اختلاف طبقاتهم فما سمع يجيب أحدا بما أجاب به غيره، قال الصلاح الصفدي: واقل ما كان في تلك الجنازة ألف رئيس ممن يتعين عليه ان يشكر له، فيحتاج في هذا المقام إلى ألف عبارة مضمونها الشكر.

وورد إن ابن نباتة الخطيب المصري أملى مجلدة معناها من أولها إلى آخرها (أيها الناس اتقوا الله واحذروه فإنكم إليه ترجعون) وكان الحريري صاحب المقامات كلما جمع بين الحارث بن همام وأبي زيد السروجي وأراد أن يفرق بينهما بقوله (فلما اصبح الصباح) أتى بعبارة تغايرها لفظا في كل مقامة.

وليس في هذا كله ما يدعو إلى الغرابة وان دل على البراعة، فان اللغة العربية تمتاز في سائر اللغات بكثرة الترادف في الألفاظ والتعدد في الصيغ، يذكرون إن للخمر فيها مائتي اسم وللجمل خمسمائة وللسيف الفا، وهذا مما يساعد الكتاب على التوسع في العبارة، ويعيبهم على التفنن في أساليب الكلام، ولكن العجز قعد بكتابنا عن أن يحفظوا على اللغة هذه الميزة وان ينتفعوا بها في كتاباتهم، فهم يصيغون عباراتهم على نمط واحد، ويجرون في أساليبهم على طريقة متفقة، وتجدهم يستعملون ألفاظا محدودة، وأبنية متكررة ويميلون إلى الترهل واللين، حتى أصبحت ثروتنا اللغوية يكتنفها الإبهام والغموض، وأصبحت أساليبنا في الكتابة ضعيفةواهية لا تلمح فيها أثراً للفن والجمال.

وكتابنا معذورون في هذا ماداموا لا يشتغلون بمتن اللغة، فقل منهم من يهتم بكتاب اسمه (القاموس) أو (اللسان) أو (أساس البلاغة) وقل منهم من يعرف شيئا اسمه (فصيح ثعلب) (فقه اللغة) أو غير ذلك من كتب اللغة، يكتفي الواحد منهم يأخذ لغته من الصحف والمجلات، وبمعرفة جمل من الألفاظ من نوع (فحسب، ومهما يكن من شيء) ليجعل نفسه في عداد الكتاب ثم لا يستحي من اتهام اللغة العربية بالعقم ونضوب المادة ورميها بالتأخر والقصور!!

أنا لا أرجو من الكتاب أن يترسموا طريق ابن زيدون في كتابته، ولا أن يذهبوا مذهب ابن نباتة في أسلوبه، ولا أن ينهجوا منهج الحريري في سجعه وتكلفه، إنما أدعوهم إلى التمكن من فقه اللغة ومتنها، والارتفاع بالقواميس والمعاجم فان هذا مما يساعدهم على تلوين

الخطاب وإحياء كلم اللغة الميتة، فكم في لغتنا من الألفاظ مهجورة، وكم في قواميسنا من مفردات مهملة، مع إنها تصلح للاستعمال والتداول على اسلات الأقلام، فمثلا كلمة (يتمعج) بمعنى يلتوي ويتثنى لا تجد الكتاب يستعملونها مع إنها سهلة النطق والرسم وقد تكون أولى من مرادفاتها في الاستعمال، ومثلها كلمة (يعمس في الأمر) بمعنى يتجاهله ويتغافل عنه إلى غير ذلك من الكلمات التي نحن في حاجة إلى إيحائها والتي في تداولها تغزير لمادة الكتاب.

وإحياء مهجور اللغة معناه ان تستعمل كل كلمة غريبة مجهولة وان تجريها على أي وجه كان، وتدرجها في أي عبارة كانت، وإنما هذا مقام يحتاج إلى البراعة والدقة، وورد عن ابن شهيد الأندلسي انه قال (جلس إلي يوما يوسف الإسرائيلي، وكان افهم تلميذ مر بي وأنا أوصي رجلا عزيزا علي من أهل قرطبة وأقول له: إن للحروف أنساباً وقرابات تبدو في الكلام، فإذا جاور النسيب النسيب، ومازح القريب القريب، طابت الألفة وحسنت الصحبة، وإذا ركبت صور الكلام من تلك، حسنت المناظر وطابت المخابر، أفهمت؟ قال أي والله!! قلت له وللعربية إذا طلبت، وللفصاحة إذا التمست، قوانين من الكلام، من طلب بها أدرك، ومن نكب عنها قصر! أفهمت؟ قال نعم، قلت: وكما تختار مليح اللفظ ورشيق الكلام فكذلك يجب ان تختار مليح النحو وفصيح الغريب وتهرب من قبيحه قال: اجل، قلت: أتفهم شيئا من عيون كلام القائل؟

لعمرك أني يوم بانوا فلم أمت ... خفاتا على آثارهم لصبور

غداة التقينا إذ رميت بنظرة ... ونحن على متن الطريق نسير
ففاضت دموع العين حتى كأنها ... لناظرها غصن يراح مطير
فقال: أي والله! وقعت (خفاتا) موقعا لذيذا ووضعت (رميت) و (متن الطريق) موضعا مليحا، وسرى (غصن يراح مطير) مسرى لطيفا، فقلت له: أرجو انك تنسمت شيئاً من نسيم الفهم، فاغد عليّ بشيء تصنعه الخ.
وفي هذه الحكاية يشرح لنا ابن شهيد كيف يكون استعمال الغريب وأحياء المهجور من الألفاظ، فيرى أن تختار الكلمات الصالحة، وان يراعى في وضعها القرابة والنسب، حتى تحسن الصحبة وتطيب الألفة، وهو رأي صحيح ولكنه يحتاج في تنفيذه كما قلنا إلى
البراعة والدقة، فلعل الكتاب يستجيبون لدعوتنا، ولعلهم يراعون هذا في كتاباتهم فيكونوا قد بروا بلغتهم وخدموا أساليبهم؟
الزقازيق
محمد فهمي عبد الطيف
الألوان والصور في شعر ابن الرومي
الشعر تمثيل وتصوير، قبل أن يكون لفظا منمقا وكلاما مزوقاً، وكما تعجبنا دقة الراسم حينما يبرز الأضواء والظلال، والألوان والشكول، لصورة من الصور، فكذلك تعجبنا يقظة حواس الشاعر حين يصور لنا في منظومه وأبياته ما يرسمه الراسم بريشته وألوانه وحين يبدي لنا الشاعر حور العيون، وسحر الجفون، وحمرة الخدود، وبروز النهود، بتمثيل وتصوير لا بريشة وألوان، كلا الفنانين ممثل للحقيقة إلا أن الراسم يصوغها شكولاً وألوانا، والشاعر ينقلها شعورا ووجدانا
قد يجتمع - وهذا نادر - للراسم خيال الشاعر، وللشاعر دقة الراسم، فان كل شيء من ذلك فقد استوى كل منهما على عرش الفن - فأي الرجلين كان ابن الرومي؟
كان ابن الرمي رساما فنانا، ومصورا ماهرا، مرهف الحواس شديد التأثر بالطبيعة كأن أعصابه أسلاك كهرباء وعينيه عدسة الكامرا ينطبع عليها مختلف المناظر والصور. وكأن أذنه - ميكرفون - موكل بالتقاط دقيق الأصوات وجليلها. وكان ابن الرومي أيضا شاعرا مطبوعا واسع الخيال، خصب الشعور، مشبوب العاطفة. ولئن حق لأبي العلاء أن نسميه شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء. فمن حق ابن الرومي ان يكون شاعر المصورين ومصور الشعراء
لأن في شعره دقة المصور وتعدد الوانه، وروعة خيال الشاعر وسمو عواطفه. وهو حين يصف قينة شادية، يستهويك من شعره عاطفة مشبوبة وخيال خصب، ثم تصوير دقيق وإتقان للألوان الطبيعية.
وقينة إن منحت رؤيتها ... رضيت مسموعها ومنظرها
شمس من الحسن في معصفرة ... ضاهت بلون لها معصفرها
في وجنات تحمر من خجل ... كأن ورد الربيع حمرها
وللمشاهد الطبيعية الفاتنة، ومجالي الربيع الموقنة، لوحات ساحرة في شعر ابن الرومي ونحب أن نعرض عليك لوحة من هذه اللوحات لترى صدق قولنا. قال يصف روضة
وجادها من سحابة ديم ... ورد أنوارها وعصفرها
وساق من حولها جداولها ... فشق أنهارها وفجرها
فارتدت الماء من جوانبها ... فزانها ربنا ونضرها
أمامها بركة مرخمة ... ترضى إذ ما رأيت مرمرها
أعارها البحر من جداوله ... لجا غزير المياه أخضرها
أفلا ترى انك في كل بيت، حيال زهرة تقطفها، وريحانة تنشقها، وبركة إطارها من مرمر ومياهها أشبه بمياه بحر اخضر؟
ثم أن حاسة اللون عند ابن الرومي حاسة زاكية متوفرة. وهي في شعره بمنزلة علبة الألوان عند الرسام. لا تقوم صورة إلا بها، ولا تأخذ حظها من الحياة والحركة إلا بأصباغها. فحين يصف لك الكأس تترقرق فيها الخمر لا يشبهها بحصباء من الدر على ارض من الذهب، وإنما يوكل بها حاسة اللون الزاكية اليقظة فلا تكاد تعرض إلا للونها البراق وشعاعها الخفاق. وقد يكون حظ ابن الرومي من تألق الخمرة ولهيبها. اكبر من

حظ أبي نؤاس من نشوتها ودبيبها
صفراء تنتحل الزجاجة لونها ... فتخال ذوب التبر حشو أديمها
لطفت فقد كادت تكون مشاعة ... في الجو مثل شعاعها ونسيمها
ولقد عرض قوس قزح لعيون الشعراء ما عرض، فلم نر شاعرا قبل ابن الرومي أو بعده استطاع أن يصور ألوانه الطبيعية في أبياته تصوير الرسام له في لوحته وألوانه. فأنت تحت سحاب مطرز بالألوان، مرصع الأردان ما دامت تقرأ له هذه الأبيات
وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفا ... من الجو دكنا والحواشي على الأرض
يطرزها قوس السحاب بأخضر ... على احمر في اصفر اثر مبيض
كأذيال خود أقبلت في غلائل ... مصبغة والبعض اقصر من بعض
واحب أن تلتفت إلى البيتين الأخيرين فان فيهما من جودة التصوير ومهارة تثبيت الألوان ما يعجز عنهما شاعر غيره.
وابن الرمي حين يصف القيان الشوادي والجواري الفواتن يدرن الكؤوس ويملكن النفوس، ويبرز لنا أعضائهن عضوا عضوا ويعرض علينا أجسامهن عرضا، حتى لا تفوتنا بضاضة الإهاب ولا شفافة الثياب
من جوار كأنهم حوار ... يتسلن من حياة عذاب
لابسات من الشفوف لبوسا ... كالهواء الرقيق أو كالسراب
فترى الماء ثم والنار والآ ... ل بتلك الابشار والأسلاب
وكما كانت حاسة اللون اليقظة تصور اختلاف الوان الطبيعة وتباين شكولها فلا تفوتها خافقة أو بارقة. كذلك كانت أذنه السامعة المرهفة تلتقط أدق الأصوات وأخفى النغمات. وهو حين يصف لنا صوت المغنية وحيد، لا يصف غنائها فحسب، بل ينقل لنا بأذنه الحساسة رقيق نغماتها ولطيف نبراتها وعذوبة صوتها نقلا يشبه نقل الميكرفون.
مد في شأو صوتها نفس كا ... ف كأنفاس عاشقيها مديد
وارق الدلال والغنج منه ... وبراه الشجا فكاد يبيد!
فنراه يموت طورا ويحيى ... مستلذ بسيطه والنشيد
فيه وشيى وفيه حلى من النغ ... م مصوغٌ يختال فيه القصيد
ما هذا شعر! إن هو إلا حاك يحكي واسطوانة تغنى ولو أردنا أن نعرض عليك أشعاره في وصف الأقزام والمحدودين لحسبت نفسك أمام شريط سينمائي تطالعك فيه هذه الصور المضحكة. ولكن من الخير أن تكتفي بصورة واحدة من هذا الشريط وهي صورة الأحدب
قصرت أخادعه وطال قذاله ... فكأنه متربص أن يصفعا
وكأنما صفعت قفاه مرة ... وأحس ثانية لها فتجمعا
فقد شخص لناظر القارئ وفي هذين البيتين صورة طبق الأصل للأحدب يعجز عن تصويرها امهر المصورين.
وجملة القول في شعره انه كان تعرض له الصورة أيا كان نوعها فلا يصورها بحاسة واحدة تنما يوكل بها حواسه كلها. فترسم عينه أشكالها وألوانها وأضوائها وظلالها ولمحاتها وخلجاتها، وتنظم أذنه صوتها وجرسها، وينقل الأنف عرفها وريحانها، واللمس وقعها وأثرها. أي أن جميع حواسه تنهض في تصوير هذه الصورة حتى تبرزها موفورة الحظ من الحياة، وفي هذه الأبيات يصف فيها شمس الأصيل وهي تجنح عن روضة، غنى عن الشرح
وقد رنقت شمس الأصيل ونفضت ... على الأفق الغربي ورسا مزعزعا
ولاحظت النوار وهو مريضة ... وقد وضعت خداً على الأرض اضرعا
وقد ضربت في خضرة الروض صفرة ... من الشمس فاخضر اخضرارا مشعشعا
وأذكى نسيم الروض ريعان ظله ... وغنى مغنى الطير فيه فسجعا
وغرد ربعي الذباب خلاله ... كما حثحث النشوان صنجا مشرعا
لئن حفل شعر أبي تمام والبحتري بالكنايات الظريفة والاستعارات الطريفة، فأبن الرومي في الشعر التصويري الملون نسيج وحده
حلب
كمال الحريري

الأدب العربي والأدب الغربي
على ذكر رواية خسرو وشيرين
لا ريب إن الأدب العربي مقصر دون الأدب الغربي في كثير من النواحي. برغم ماله من الميزات الخاصة وبرغم عراقته وحداثة الأدب الغربي بالنسبة إليه. فقد سار الأدب الغربي بخطى واسعة وتطور في عصوره. على حين سار الأدب العربي دائماً على نمط يكاد يكون واحداً. وكبا بعد العصر العباسي الزاهي كبوة لم يقل منها إلا اليوم. وكان من عهدها إلى العصر الحديث في حكم العدم إذا قيس بآداب الأمم الرفيعة.

ولا ريب إن الأدب العربي يكسب كثيرا - وقد كسب بالفعل كثيرا - بلقاحه بالأدب الغربي، وهذا اللقاح يتأتى عن طرق ثلاثة:

الأول اطلاع أدباء العربية على الأدب الغربي. فان لذلك اكبر الأثر في نفوسهم وفي كتاباتهم وان لم يشعروا لم يتعمدوا إدخال ما قرءوا فيما يكتبون.

والثاني ترجمة الآثار الغربية المشهورة من نثر وشعر إلى لغة الضاد. فان ذلك يؤثر في أبناء العربية الذين لم يطلعوا على آداب غيرها تأثيرا يكاد يدنيهم ممن اطلعوا عليها.

والثالث إدخال الأشكال والمواضيع الشعرية الغربية في الأدب العربي إذا كانت غير موجودة فيه. فان ذلك يزيد اللغة ثروة وقوة، يقدر الأدب العربي على مجاراة آداب الغرب

والشعر العربي خاصة خلو من كثير من الأشكال والمواضيع التي يتناولها الشعر الغربي كالدراما والملحمة والشعر المرسل والقوافي المنوعة والأوزان المتداخلة في القصيدة الواحدة. فالشعر العربي فضلا عن كون مواضيعه محدودة قوامه الوحدة في الوزن والقافية، والأحكام في القواعد، والصنعة والرصانة في الأسلوب، وعلى المعنى ان يخضع لكل هذا فلا يخرج إلا مصقولا في قالبه. بينما الشعر الغربي اكثر مرونة واقل قواعد واسهل في يد الناظم واقدر على التحول والتنوع وزنا وقافية اتباعاً لمعاني القصيدة المتتابعة، ومن ثم

استطاع الشاعر الغربي أن يودع شعره من دقيق المعاني وعميق الأفكار وخاصها وجزئيها ما يشق على الشاعر العربي الذي لا طاقة له بغير ذكر العام والكلى، فكلما جاد الشعر العربي راع أسلوبه وأحكمت ديباجته ورافقت موسيقاه، وكلما جاد الشعر الأوربي دقت معانيه ولطفت أخيلته وتجسم وصفه وتصويره وعبر عن الخوالج النفسية البعيدة الغور. وبالجملة كانت نتيجة الوحدة في العروض والقافية في الشعر العربي إن كان شعر أسلوب، ونتيجة التنوع والمرونة في عروض الشعر الغربي وقافيته إن كان شعر معنى.

وإذا كان شعراء العربية الأقدمون قد قنعوا بذلك الضرب المقيد الموحد من الشعر وأدوا به معانيهم وأغراضهم العامة، فلن يقنع به عصرنا، هذا إذا كنا نريد للشعر العربي مجاراة الشعر الأوربي، ونريد أن يؤدي من لطيف الأوصاف للمشاهد الطبيعية والحالات النفسية ما يؤديه ذلك الشعر، ولابد لنا - كما اقتبسنا من الغرب القصة القصيرة والطويلة والرواية التمثيلية والمقالة في عالم النثر - أن نقتبس في عالم الشعر الأوضاع والأشكال التي توسع أفق شعرنا العربي وتزيده قوة وخصبا

والواقع إن القافية الموحدة التي تنظم القصيدة من أولها إلى آخرها غير معروفة في الشعر الغربي، وقد قال ملتون في مقدمته لملحمته المشهورة (الفردوس المفقود) انه عول على نضمها شعرا مرسلا وعلى نبذ القافية نبذا تاما لأنها اثر من اثار الهمجية، وكثيرا ما عاقت الشعراء عن تسجيل سامي المعاني، وبرغم مغالاة ملتون في قوله هذا - إذ للقافية روعتها ولزومها في كثير من ضروب الشعر - فلا شك في إن القافية كثيراً ما تقف عقبة في سبيل نظم دقيق المعاني وجليلها

لابد من رياضة الوزن العربي والقافية العربية على المرونة والسهولة والتنوع في القصيدة الواحدة تبعا للمعاني، كي يساعدا الناظم البارع على بيان أغراضه، فلا يعتمد الاعتماد كله على المعاني والتشبيهات ونحوها، بل يعتمد أيضاً على جرس الألفاظ وموسيقى الوزن ووقع القوافي وتجاوبها واختلافها لإبراز أوصافه وإحياء صورته التي يريد في خلد القارئ، فقد برع الشعر الغربي في هذا الضرب من الملائمة بين المعنى

واللفظ والوزن ولاسيما في أشعار الوصف فبذ بتصويره ريشات المصورين في كثير من الأحيان ولا بد من التخلي عن بعض القيود والقواعد وإدخال بعض السهولة والحرية واقتباس ما يمكن
اقتباسه من الأوضاع والأشكال الشعرية الغربية على أننا يجب أن نذكر أولا ما سنقتبسه لن يلغي القافية الموحدة والوزن الموحد من العربية الغاء، بل تظل هذه الطريقة العربية الخاصة قائمة، لها ميزتها من الرصانة والفخامة، ولها مناسباتها التي تستعمل فيها فتؤدي غرضها أحسن الأداء، لن نهجر طريقتنا إلى طريقة غيرنا بل ناخذ مما عند غيرنا ما يزيد لغتنا وشعرنا سعة وثروة، ويجب أن نذكر ثانية إن الناظم الغربي إنما يستخدم تلك الحرية والمرونة في شعره ليؤدي بها أغراضا خاصة، تجسيم وصف، أو تمثيل حركة، أو تقليد صوت، أو اسلاس قصص، فيجب ألا نهجر القافية والوزن الموحدين إلا أن يؤدي تنويع الوزن والقافية مثل تلك الأغراض، وإلا كان الأمر مجرد تسهيل للنظم يغض من قيمة الشعر الفنية ويورث الناظم الكسل وقلة التعب في معالجة القصيد
واكبر اعتراض يقام أمام إدخال هذه الأساليب الشعرية الغربية نبوها على السمع الذي اعتاد الوحدة في الوزن والقافية العربيين. وهو اعتراض وجيه غاية الوجاهة: فان اقتباس تلك الأساليب إن أدى إلى فساد موسيقى الشعر العربي التي هو قوامه كان وبالا وكان علينا أن نقلع عنه مهما كان له من فوائد، ولكن هذه العقبة يمكن تذليلها بوسيلتين:
الأولى التدرج في التحرر من قيد الوزن والقافية تحررا يسير بطيئا مع الزمن ولا يفاجئ الآذان كبير مفاجأة، فان التطور دون الطفرة جدير بتعويد الآذن على اختلافات العروض والقوافي في القصيدة الواحدة، حتى تستطيب تلك الاختلافات وتلتذها وتصير لها فيها متعة كالمتعة التي نجدها في النظم الواحد، وقدما اخترعت الموشحات والأبيات المختلف شطراها طولا فكانت خرقا في الطريقة السائدة وكانت بلا ريب نابية على الأسماع في أول الأمر، ولكنها بمرور الزمن صارت مألوفة ولم يعد أحد من كبار الشعراء يتحرج من اللجوء إليها في بعض أغراضه.
والوسيلة الثانية هي أن يتصدى لإدخال هذه الأساليب في شعرنا العربي كبار الشعراء الذين عالجوا القريض سنين طوالا، مارسوا اللغة واستوعبوا ثروتها واستنبطوا أسرارها وحذقوا عروضها، فهم وحدهم بخبرتهم ودربتهم وتمكنهم قادرون على أن يدخلوا في اللغة ما يلائمها وينبذوا ماعداه، ويصقلوا ما يدخلون بصقا لها حتى يصير جزء منها ويثبت فيها وينمو ويثمر، أما أن يتصدى لذلك الناشئون المتحمسون للتجديد على غير بصيرة فلن يأتوا
إلا بكل غث لا يؤدي أغراض الشعر الغربي ولا يبقى على جمال الشعر العربي ولا يكتب له بقاء.
والقافية اشد من الوزن قبولاً للتلقيح بالأساليب الغربية، والشعر المرسل خاصة يكون ذا مستقبل باهر في العربية إذا عالجته الأيدي القديرة، وقد مارسه الأستاذ فريد أبو حديد غير مرة ونجح فيه نجاحا غير قليل، ونشر في الرسالة ترجمة لفقرات من (عطيل) امتازت بالسلاسة ولم ينقص من قدرها في نظري سوى إن الأستاذ أختار لها بحر الرمل، وليس هذا ولا الخفيف المنظومة فيه رواية خسرو وشيرين بأليق البحور لبدء معالجة الشعر المرسل. بل اكثر البحور العربية استعدادا لذلك البحر الطويل الذي هو بطوله وفخامة موسيقاه واتادها اقدر على الاستغناء عن القافية وأحق بان يترجم إليه الشعر المرسل الغربي المعروف (بالبلانك فيرس) وان يحل عندنا محل ذلك الضرب الذي يختص عند الغربيين بشعر الدرامات والملاحم، ولا ريب ان ترجمة روايات شكسبيروأمثالها إليه أولى من ترجمتها نثرا.
ولقد كان شوقي في أواخر أيامه اقدر الناس على ولوج هذه الأبواب لو أراد، لولا شديد اعتداده بالوزن والقافية الموحدين، فانه كان قد مارس قرض الشعر نحو نصف قرن حتى حذق صناعته، وكانت له موهبة في الأسلوب عالية، فبلغ في النهاية غاية الجزالة والسلاسة، وكان له من الوقت متسع للتجريب والمحاولة، ولو عمل على إخصاب اللغة ببدء هذه الأساليب الغربية فيها لخدمها خدمة اجل كثيرا من خدمته أياها بمعالجة النظم التمثيلي في أخريات أيامه، ورواياته التمثيلية ذاتها شاهدة بذلك: فان

ميزتها الكبرى والوحيدة براعة الديباجة، أما إذا قيست بمقياس التأليف التمثيلي وقوبلت بالمؤلفات الغربية التي كان يقلدها ويترسمها فلن تكون شيئا مذكورا على انه إذا كانت العربية قد فقدت شوقيا وحافظا الذين عالجاها حقبة وتمكنا منها، فما يزال لها من كبار الشعراء المجربين من هم قادرين على توسيع افقها ومضاعفة ثروتها بطرق هذا الباب من الاقتباس والابتكار، فلعلهم يتقدمون، ولعل مجهودات الأستاذ فريد أبي حديد تكون الخطوة الأولى في هذا السبيل.

فخري أبو سعود

بديع الزمان الهمذاني

للدكتور عبد الوهاب عزام

رحيله عن نيسابور

فارق بديع الزمان نيسابور سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة. نعرف هذا من قوله وهو يمدح خلف بن احمد أن سنه خمس وعشرون سنة. وهو مولود سنة ثمان وخمسين. ثم هو يكتب من سرخس إلى الشيخ أبي الطيب سهل بن محمد فيذكر ان الخوارزمي كتب إلى الأمير يسأله ألا يقبله في حضرته ويذم الخوارزمي ويرد عليه دعواه الغلب في مناظرته، ويهدده بالعودة إلى مساجلته. والخوارزمي مات في رمضان سنة ثلاث وثمانين

ويفهم من هذه الرسالة انه ذهب إلى مرو كذلك، يقول عن الخوارزمي، ان اللسان الذي اخرس لسانه، والبنان الذي انبس بيانه، لم تكسبهما مرد مجادة، ولا كستهما سرخس بلاده. وهما معي لم يفارقاني:

ولم يسم الأمير الذي نزل بحضرته في سرخس، والظاهر انه أحد أمراء السامانية. وقد اكرم الأمير مثواه كما قال في آخر الرسالة نفسها عن الخوارزمي: (وإما مسألة الأمير ألا يخرطني في سلكه ولا يمكنني من بساط ملكه فقد شملتني على رغمه أطراف النعم، وبلتني سحائب الهمم، وللراغم التراب، وللحاسد الحائط والباب) وفي سنة ثلاثة وثمانين مات الخوارزمي! يقول الثعالبي (وأجاب الخوارزمي داعي ربه فخلا الجو للهمذاني، وتصرفت به أحوال جميلة، وأسفار كثيرة)

وفي رسائل بديع الزمان رسالة كتبها إلى من هنأه بمرض الخوارزمي يقول فيها: (فكيف يشمت بالمحنة من لا يامنها في نفسه، ولا يعدمها في جنسه، والشامت إن افلت، فليس يفوت) وفي ديوانه قصيدة يرثى بها الخوارزمي ويرد على من قال: (قد خلا الجو للهمذاني) يقول فيها:

حنانيك من نفس خافت ... ولبيك من كمد ثابت

أبا بكر اسمع. وقل كيف ذا ... ولست بمسمعة الطائت؟

تحملت فيك من الحزن ما ... تحمله ابنك من صامت

حلفت لقدمت عن معشر ... غبيين عن خطر المائت

يقولون أنت به شامت ... فقلت الثرى بفم الشامت

وعزت علي معاداته ... ولا متدارك للفائت

وقال الأنام خلا الجو لي ... لعمري ولكن على عانت

ابيض ولكن إلى عاقر ... واصفر ولكن على ساكت

اكثر البديع أسفاره بعد مفارقة نيسابور. يقول الثعالبي:

ولم يبق من بلاد خراسان وسجستان وغزنة بلدة إلا دخلها وجنى وجبى ثمرتها،) واستفاء خيرها وميرها، ولا ملك ولا أمير ولا وزير ولا رئيس إلا استمطر منه بنوء، ويقول (وسرى معه في ضوء، ففاز برغائب النعم، وحصل على غرائب القسم الهمذاني في رسالته إلى القاسم الكرجي: (فإني وإن كنت في مقتبل السن والعمر، قد حلبت شطري الدهر، وركبت ظهري البر والبحر، ولقيت وفدى الخير والشر، وصافحت يدي النفع والضر)

وفي رسالة أخرى: (وإني أيد الله القاضي، على قرب العهد بالمهن قطعت عرض الأرض وعاشرت أجناس الناس.) وليس يمكن بما عندنا من الرسائل غير المرتبة أن نتتبع أسفاره في خراسان وسجستان وغزنة، ولكننا نعرف انه فارق خراسان لما وقع بها من الحروب، والظاهر إنها الحروب التي وقعت في أواخر الدولة السامانية، ونعرف إن الأتراك قطعوا الطريق عليه وهو ميمم سجستان كما قطع الأعراب طريقه وهو

قاصد نيسابور من جرجان: (ولما وقع بخراسان ما وقع من حرب، وجرى ما جرى من خطب، واضطربت الامور، واختلفت السيوف، والتقت الجموع وظفر من ظفر، وخسر من خسر، كتبني الله في الأعلين مقاما، ثم ألهمني من الامتداد عن تلك البلاد، والإقلاع عن تلك البقاع. واعترضتنا في الطريق الأتراك. واحسن الله الدفاع عن خير الأعلاق وهو الرأس، بما دون الأعراض وهو اللباس. فلم نجزع لمرض الحال مع سلامة النفوس، ولم نحزن لذهاب المال مع بقاء الرؤوس. وسرنا حتى وردنا عرصة العدل، وساحة الفضل، ومربع الحمد، ومشرع المجد، ومطلع الجود، ومنزع الاصل، ومشعر الدين، ومفرع الشكر، ومصرع الفقر، حضرة الملك العادل أبي احمد خلف بن احمد الخ) هذا هو الذي مدحه في ست من مقاماته، وبعض رسائله مدحا لم يبذل لغيره مثله، ولكن بديع الزمان لم يعفه العتب الموجع حين آنس منه الإغضاء عنه.

ثم ذهب الهمذاني إلى غزنة حاضرة الدولة الغزنوية ومدح السلطان محموداً بأبيات. ولا نجد في رسائله تفصيل مقامه في غزنة ولقائه السلطان. ولكننا نجد له رسائل كثيرة إلى الفضل بن احمد الاسفرائيني وزير السلطان يذكر بعض خطوب هذه الدولة، ويهنئ ببعض فتوحاتها. والأبيات التي مدح بها السلطان مثبتة في الديوان، وفي اليتيمة وأولها:

تعالى الله ما شاء ... وزاد الله إيماني
أأفريدون في التاج (م) ... أم الاسكندر الثاني؟
أم الرجعة قد عادت ... إلينا بسليمان
أظلت شمس محمود ... على انجم سامان

في هراة

ثم سار إلى هراة ليرحل عنها كما رحل عن غيرها، ولكن كتبت له الإقامة بها حتى الممات. يقول في رسالته إلى الشيخ أبي نصر انه سار من سجستان إلى بوشنج، وانه لما سكنت الحرب وانفتحت السبل إستأذن الأمير في المسير إلى هراة. ويقول في رسالة أخرى (ويا سبحان الله ما علمت إن هراة تنسيني صرصر والصرات، حتانستني دجلة والفرات، على ظهر الغيب نظر الريب. فكيف بنا إذا دخلناها وحللناها فسقاها الله من بلد، وأهلها من عدد.) وذلك إن بعض الهرويين أرسل إليه مرحبا قبل دخوله المدينة، ويظهر من رسائله انه لم يغتبط بالإقامة في هراة أول عهده بها، ولا أزمع المقام فيها، يقول في رسالته إلى الشيخ أبي النصر (كتابي أطال الله بقاء الشيخ، والماء إذا طال مكثه، اظهر خبثه، وإذا سكن متنه، تحرك نتنه).

كذلك الضيف يسمج لقاؤه، إذ طال ثواؤه، ويثقل ظله، إذا انتهى محله. قد حلبت اشطر خمسة اشهر بهراة ولم تكن دار مثلى لولا مقامه. ونجده: في رسالة أخرى يشكو حيفا أصابه في هراة.

والله، أطال الله بقاء الشيخ الرئيس، ما سكنت هراة اضطرارا، ولا فارقت غيرها) فرارا. وإنما اخترتها قطنا ودارا، واخترته سكنا وجارا، لتكون ارفق لي من سواها، ولأزداد به عزا وجاها. فان كان قد ثقل مقامي، فالدنيا أمامي، وان كان قد طال ثوائي، فالانصراف ورائي. لست والله ذباب الخوان ولا وتد الهوان. والشام لي شام، مادام يكرهني هشام،

وهراة لي دار، ما عرف لي فيها مقدار، وقرى الضيف غير السوط والسيف الخ) فهذا يدل على انه غير مطمئن إلى هراة وإن أختارها سكنا. ونجده في الديوان يقول من قصيدة مدح فيها ابن عدنان رئيس هراة.

قد طال مكثي في هراة فهل لكم ... في أن أوليكم قفا الأعراض
ولو أنني ماء الحياة لملني ... ورداه وتنكبوا أحواضي
أحسنتم يا للكرام ضيافتي ... عند الورود فاحسنوا إنهاضي

ولكن بديع الزمان، على هذا ألقى عصا التسيار في هراة واتخذها موطنا وأمضى بها بقية عمره. فما الذي بدّل رأيه وحبب إليه المدينة؟ يقول الثعالبي: (ومازال يرتاد للوصلة بيتا يجمع الأصل والفضل، والطهارة والستر القديم والحديث حتى وفق التوفيق كله وخار الله له في مصاهرة أبي علي الحسين بن محمد الخشنامي. وهو الفاضل الكريم الأصيل الذي لا يزاد اختبارا إلا زيد اختيارا. فانتضمت أحوال أبي الفضل بصهره، وتعرفت القرة في عينه والقوة في ظهره. واقتنى بمعونته ومشورته ضياعا

فاخرة، وعاش عيشة راضية.

وفي رسائل الهمداني تصديق خبر الثعالبي، فهو يقول في إحدى رسائله من هراة (والله لولا يد تحت الحجر، وكبد تحت الخنجر، وطفلة كفرخ يومين، قد حببت إلى العيش، وسلبت عن رأسي الطيش، لشمخت بأنفي عن هذا المقام (ص162) وهو يتكلم في رسائل هراة عن الزرع والاكرة والخراج وديونه على الناس والسفاتج والشأن أن أعيشعيش الجعل، بين السرقين والعمل، وأنا على ذلك محسود. . أرأيت رجلا يندم أن ولده آدم، أو يألم أن يسعه العالم، يحسد في قرية يشتريها وفي رسالة إلى بعض وزراء السلطان محمود: ومما أبث الشيخ الجليل، إن مبلغ خراجي بهراة ألفان. وعلى المخف من الجريان ثلاثة مدورة، بيض مقشرة، وعلى المثقل تسعة وعشرة. وودت لو أمكن التبلغ بأقل من هذا فافعل ولكن أفواها فاغرة، وأضراسا طاحنة، وعيالا وأذيالا، الله وكيلهم وأنا ربهم واكيلهم. وإن أمكن تحويل هذا المقدار من الخراج ببوشنج لتتوفر حقوق بيت المال، وأصان عن مجازفات العمال، وتبعات الحال، فتلك غاية الآمال وفي رسالة إلى والده: وقد رسمت لموصل كتابي هذا أن ينقده مائة دينار بشرط أن يخرج، وان يرتب له عمارة شتوية تسعه والشيخ الفاضل العم، فليتفضلا وليقوما ويرحلا، ويستصحب الأخ أبا سعيد، وليأتني بأهله أجمعين فما يعجبني لقاء ليس له بقاء، ولا وصل بعده فراق، فان لم يمكن استصحاب القوم فلا يتأخر بنفسه، فسيرد على خمسمائة نير وألف أكار، وأحوال منتظمة، وأسباب مستقيمة).

ومن اجل هذه الثروة قصده الناس واستماحوه. وفي رسائله واحدة كتبها إلى مستميح عاوده مرارا: عافاك الله: مثل الإنسان في الإحسان مثل الأشجار في الأثمار. سبيل من أتى بالحسنة أن يرفه إلى السنة. وأنا كما ذكرت لا املك عضوين من جسدي، وهما فؤادي ويدي. أما الفؤاد فيعلق بالوفود، وأما اليد فتولع بالجود. ولكن هذا الخلق النفيس، لا يسعه الكيس، الخ.

وفاة بديع الزمان

كان الهمداني يتعجل العمر ويستكثر السنين فهو يتكلم عن الشيب في مدحه خلف ابن احمد وهو في سن الخامسة والعشرين

ويرحب بالشيب ويفضله على الشباب وهو في سن الثلاثين: فجزى الله الشيبة خيراً، إنها لاناة، ولا رد الشبيبة إنها لهناة وبئس الداء الصبا وليس دواؤه إلا انقضاؤه، وبئس المثل النار والعار وونعم الرائضان الليل والنهار. وأظن الشباب والشيب لو مثلا لكان الأول كلبا عقورا، والأخر شيخا وقورا، ولأشتعل الأول نارا وانتشر الآخر نوراً. والحمد لله الذي بيض القار وسماه الوقار. وعسى الله ان يغسل الفؤاد كما غسل السواد. أن السعيد من شابت جملته، والشقي من خضبت لحيته) وفي رسالة أخرى: وأسال الله خاتمة خير وعاجل وفاة. إن بطن الأرض أوسع من ظهرها وأرفق بأهلها.) فهذا ينم عن طبع مكتئب وصدر يضيق بالحياة وكأن وفاته في سن الأربعين كان استجابة العمر لهذه السجايا.

في رسائله رسالتان يذكر فيهما مرضه، يقول في إحداهما (وقد عملت في أمر الدواء ما أشرحه له شفاها. وجملة الأمر أني أؤمل النفع في تناوله، وحالي الآن صالحة) ويقول في الأخرى (ولكني وقيذ أوجاع، أنتقل من حمى إلى صداع. وأخشى أن يأخذ مني لفح الهواء مأخذه، فلذلك لا ابرز عن البيت، وأنا فيه حي كميت. وعلى كل حال فإذا خفت وطأة الهواء، وحان وقت المساء، لعبت لعباتي إلى حضرته، متزوداً من طلعته إن شاء الله تعالى) وما أدري متى أصابه هذا المرض وهل كان مرضه الأخير أو غيره.

ويقول الثعالبي (وحين بلغ أشده وأربى على الأربعين سنة ناداه الله فلباه، وفارق دنياه سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة.) ويقول جامع الرسائل في عنوان رسالة (وله في تهنئة فتح الجابية بباب بلخ. وهذا آخر كتاب أنشأه. ومات يوم الجمعة الحادي عشر من جمادى الأول سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة.)

يتبع

عبد الوهاب عزام

غلطة نحوية
للآنسة سهير القلماوي
لا تستغربوا هذا العنوان، وأستحلفكم أن لا تستتفهوه، فسترون بعد حين أن للغلطات النحوية شأناً وأي شأن. ستدركون عظمة الغلطة النحوية وخطورتها، ولن يكلفكم هذا الإدراك ما كلفني. ستقرءون المقال وستؤمنون بعده إن للغلطة النحوية الواحدة قدراً، وأنه لقدر لو تعلمون عظيم
ما كادت تنتهي من محاضرتها حتى عادت إلى أستاذها تستطلع رأيه، وتحاول أن تلمح في تقاطيع وجهه قيمة جهدها الذي بذلته. لقد كانت تحسب حساباً كبيراً لنقده، وخاصة لابتسامته الساخرة التي يلاقي بها جهداً بذل في غير موضعه واستنتاجاً سخيفاً متكلفاً بعيداً عن الصواب، وعن طبيعة الأشياءكما يقول. وما وصلت حتى بادرها بقوله: أهنئك، قالت أشكرك، قال أريد مقابلتك، قالت ومتى تشاء؟ قال أأنت قادمةً لعمل في دار الكوكب غداً؟ قالت لا. قال إذا قابليني بعد غد فسأكون هناك، قالت حسن، إلى بعد غد وجلست تفكر بعدها ماذا يريد منها يا ترى؟ لم يدعها في حياتها قط إلا لعمل ذي شأن، أو لمسألة ذات خطر. ثم هو يتعجل تلك المقابلة، ما سر هذه العجلة؟ أكانت المحاضرة سخيفة إلى هذا الحد؟ ولم هنأها إذا؟ ولم تره في ظرف من ظروف حياته يقول غير ما يعني، أكان هازئاً؟ ولكنها لم تلمح منه إلا الجد ليلتها، ثم هي توقن إنه لن يستهزئ بها مهما يكن، في مكان وفي ظرف كهذين، وأخيراً هي تحس في شيء من الإخلاص أن المحاضرة كلفتها جهداً، وإنها وإن لم تكن خالية من المآخذ، إلا إنها بكل تأكيد لا تستحق إستهزاءاً علنياً ومقابلة مستعجلة. وأحس قلبها إن الأمر أهون مما تظن، ولكن متى خضع العقل للقلب؟ لقد ظل العقل في عمله يقدر ويحسب، يستبعد ويستقرب، يرجح وينفي، كل هذا وهو متعب مكدود، فأفسد عليها يوماً كانت أعدته لراحته الكاملة.
ظلت يوماً وبعض يوم تفكر، وتقلب الاحتمالات التي أمكن أن يخترعها عقلها في مثل هذا الظرف، وبدأت تحس إن تفكيرها في الموضوع أصبح آلياً دائرياً، يبدأ ليعيد، ثم يبدأ من جديد وهكذا، وانتهت أخيراً بإبعاد كل احتمال أن تكون المقابلة خاصة بالمحاضرة، فلو كان ثمت متعجل في شأنها لقاله لها يومها، وإلا لأنتظر فرصة أخرى فهي لا تتغيب عنه كثيراً
وما جاء صباح الأحد حتى استعدت للذهاب إلى المقابلة، وما كانت تستعد حتى سألها والدها ان تصحبه في نزهه كان يسرها جداً أن تصحبه فيها، ولكنها اعتذرت بضرورة ذهابها لمقابلةأستاذها، وسألها هل ستبطئين عنده، فتكلفت شيئا من عدم الاكتراث تخدع به نفسها، وقالت لا أدري، لأني لا أعرف لماذا يريد مقابلتي. ولكن نفسها لم تنخدع بهذا المظهر المتكلف وبدأ عقلها سيرته الآلية من جديد، وسخطت على نفسها، ما الذي يثير حب استطلاعها إلى هذا الحد؟ وفي استهزاء مؤلم اكمل صوت في قلبها و (خاصة إذا كان الأمر أهون مما تتوهمين) فثار عقلها واسترد سيرته الإلية في حمية جديدة.
وجاءتها ابنة خالتها تعرض عليها الذهاب إلى أختها لترى هناك صديقة عزيزة عليها، وكانت تود رؤية هذه الصديقة فهي لم ترها منذ سنين، ولعلها لا تراها سنين أخرى، ولكنها اعتذرت ثانية، فسألتها ابنة خالتها: ولكن ألا تعرفين لأي شئ يريدك، وكأنها أحست تطفلاً فأكملت حتى تستطيعي أن تلحقي بي هناك إذا كان الأمر لا يستغرق طويلاً. قالت بعدم اكتراث، لست أدري ماذا يريد، فلا أستطيع أن أعدك باللحاق بك. وبدأ عقلها سيرته من جديد، وبدأت نفسها تضحك منها وتعيد (الأمر أهون مما تتوهمين).
وأخيراً وصلت دار (الكوكب) وصعدت الدرج في اتزان عجيب تحاول أن تؤخر المعاد ما استطاعت حتى لا يستشف أستاذها عجلتها وحب استطلاعها. ودخلت حجرته فحيته وحياها، ثم جلست تنتظر. وتكلم في مواضيع مختلفة، وهي تحاول في جهد أن تتبع كلامه وأن تخفي عجلتها واشتياقها لمعرفة ما جاءت من أجله وجاء ذكر المحاضرة فأثنى عليها، ثم قال: ولكني اترك ما بها لغيري من أساتذتك، لأن لي معك الآن أمراً من أخطر الأمور. وخفق قلبها ولم تستطع حفظ مظهر الاتزان الذي تكلفته منذ الصباح، ودون أن تدري قالت في لهفة ظاهرة وما هو!؟ قال يا فريد آتني بعدد

الرسالة الماضي.
فأرتفع الصوت الهازئ في نفسها يضحك ويقول (الأمر أهون مما تتوهمين) قال غلطة تكبرك بكثيرما قرأتها حتى كلمت الأستاذ الزيات بشأنها تلفونيا.
وارتفع صوت العقل وقال ألم اقل لك إن الأمر خطير ولكن العقل ما كاد يزهى حتى قال أستاذها متابعا كلامه - غلطة نحوية كبيرة. إما أنتقلعي عنها، وإما أن تطلعي على الناس بمذهب جديد هو عدم التفريق في الجمع السالم بين مذكر ومؤنث، ومن يدري قد تجدين من
يؤيدك. . . . . واستمر في كلامه
كانت كلوح ثلج نزل على رأسها الملتهب يوما وبعض يوم. وكأنه لمح (غلطة نحوية) شيئا من غيظ تخفيه بسكوتها بعد أن لم تجد آمن منه ستاراً. فقال: ألا تستحق هذه الغلطة انتقالك من العباسية إلى عابدين؟
وهمت أن تقول له إن هذا الانتقال ايسر ما كلفتها تلك الغلطة، ولكنه اسمر يحاول إغاظتها:
دوني في مذكرتك ان أستاذك استدعاك من العباسية إلى العابدين من اجل غلطة نحوية. وضحك في سخرية مثيرة للغيظ، فقالت محاولة إخفاء غيظها - سادون أستاذي: - غلطة نحوية كلفتني هذا. فليت شعري ماذا سيكلفني هذا المقال؟ ولكني أؤكد لك لا في تملق كما تقتضيه حال الخائفة من عقابك، وإنما أؤكد في صدق وإخلاص أن لولا يقيني برحب صدرك ما خططت حرفا في هذا المقال.
سهير القلماوي
تعتزل الحب!
للأديب حسين شوقي
الكونتس (س) سيدة في العقد الخامس من عمرها، أما جنسيتها فلا تهم كثيرا لأنها غنية جدا، والمال جواز سفر دولي تستقبل به بالترحاب في كل مكان، إن الكونتس (س) وهي سيدة صالونات - تلم إلماما تاما بجميع اللغات الحية كأنها سكرتيرة ممتازة بعصبة الأمم.
توفي زوجها حديثا فحزنت عليه لأنه كان رجلا طيب القلب، وديعا مطيعا لها مثل كلبها الصيني الصغير (بيبي) وكانت فضلا عن ذلك تتخذه حجابا لستر غزواتها الغرامية الكثيرة، وكانت الكونتس نهمة في الحب، بل شيوعية، لا تبالي إن قضت ليلتها مع أمير من الأمراء أو مع سائق سيارتها، وتمضي الكونتس (س) زمنا طويلا في معاهد الجمال، لتصلح أولا فأول الآثار التي يحدثها الزمن في وجهها، ولكن هذه الآثار كانت تزداد يوما عن يوم حتى قلقت الكونتس على مصيرها، لما ينتظرها وراء ذلك من شيخوخة محتمة. لذلك فكرت في اعتزال الحب، كما فعلت المحظية المصرية الشهيرة تاييس التي روى قصتها الكاتب العظيم اناطول فرانس، أجل! ستفعل الكونتس ما فعلته تاييس قبلها، وتقيم هي أيضا في كوخ بصحراء مصر النائية.
وفي صباح يوم من الأيام، وبعد أن شاهدت الكونتس في الليلة تمثيل تاييس بالأوبرا، قالتلوصيفتها ماري:
ماري، إنني صممت على أن اعتزل المجتمع. اعدي الأمتعة، سوف نرحل إلى مصر حيث نعيش في الصحراء في عبادة وتقشف مثل تاييس المحظية المصرية التي اعجب بتضحيتها كل الإعجاب. . .!
فابتسمت الوصيفة ولم تجب، لأنها مقتنعة إن سيدتها غير جادة في قولها، وإنها إذا ذهبت إلى مصر فإنما تذهب لتهرب من برد العواصم الأوروبية القارس، ثم عادت الكونتس فقالت:
حقا! إنني سئمت المجتمع وما فيه من خدع وخيبة أمل! ولا سيما بعد خيانة صديقي جان، الراقص بفندق (بلاس) آه! إنني كنت احبه حباً عميقاً، كما كنت مفتونة بشبابه الغض، كيف استطاع أنيكذب علي وهو في مثل هذه السن الصغيرة؟
الوصيفة - ولم لا يكذب المرء وهو صغير في السن يا سيدتي! إنني كذبت في طفولتي أضعاف أضعاف كذبي الآن! كم سرقت الكرز من حديقة الجار، فإذا سألت عنه اتهمت الغربان!
الكونتس_هذا شئ آخر، هذه كذبة الطفولة البريئة، إني اقصد كذب الشباب، إن

الشباب يصعب عليه في نظري إن يكذب، لأنه ليست في وجهه تجاعيد تستطيع أن تخفي الأكاذيب.
الوصيفة_وكيف عرفت خيانة السيد جان يا سيدتي!
الكونتس_من عشيقته نفسها!
الوصيفة_عجباً! وما فائدة عشيقته أن تفضح أمر صديقها؟
الكونتس (مستضحكة) _لتنتقم يا بنيتي! إن الوغد كان يخونها مع عشيقة أخرى ثالثة!
ثم أعدت الوصيفة الأمتعة للسفر إلى مصر كمشيئة الكونتس، ولكن لشد ما كانت دهشتها حين قالت لها سيدتها لدى عودتها إلى المنزل ظهراً:
ماري! إننا لا نسافر إلى مصر، إنني أولمفي الأسبوع القادم وليمة عشاء تكريما للمثال العبقري هنري دي. . . فابتسمت الوصيفة وقالت: وما سن هذا المثال العبقري يا سيدتي؟
الكونتس (في إعجاب) - خمسة وعشرون ربيعا!
ثم ضحكتا ضحكا عاليا على هذه الملاحظة، ولكن الوصيفة عادت فقالت في حسرة: يا للأسف على رحلة مصر إنها لن تتحقق! وقد كانت شديدة النفع لما اشعر به من ألم في المفاصل!
حسين شوقي
بعد النوى
أيها الرحل عن قلبي العميد ... سوف يشقى بالنوى حتى تعود
ويح للعشاق في وادي الهوى ... من عذاب فادح العبء شديد
أين من عيني وجه مشرق ... رائع الطلعة كالصبح الوليد
أين من أدنى صوت ساحر ... كل صوت دونه عندي زهيد
وحديث للهوى مستعذب ... هو في الأسماع قرآن مجيد
وغناء كم هفت روحي له ... مثلما يهفو لمغناه الطريد
يطفئ الوجد ويشفى مهجة ... من بتاريخ الجوى كادت تبيد
يا حبيبي لم تروِّعك النوى ... مثلما روعت الصب الوديد
أنت في الريف قرير ناعم ... رافل في عيشك الحالي الرغيد
بين أهل جمعوا فيك المنى ... وبك ازدان لهم هذا الوجود
وتمنوا بسط أكبادهموا ... لك تمشي فوقها أين تريد
وشباب أنت فيهم كوكب ... ضوءه ضاف على الدنيا مديد
كلما عدت تراءى جمعهم ... للورى حولك كالدر النضيد
تهبط الحقل فيغدو نبتهُ ... لك ما بين ركوع وسجود
ويهب الطير من أوكاره ... حائما حولك في كل صعيد
ويغني أينما سرت به ... كل لحن رائع الحسن فريد
ويفيق الدوح من غفوته ... بعد ما أيقظه رجع النشيد
فترى الأغصان في نشوتها ... قد غدت شطرك تهفو وتميد
وأنا في مصر نهبٌ للجوى ... سادر في ظلمة الوجه شريد
وإذ ما عاد بي الليل إلى ... مضجع عن أعين الناس بعيد
دفع الشوق بفكري عنوة ... في ظنون ماله عنه محيد
وظنون الحب إذ ما عصفت ... بفؤادي فهي شيطان مريد
أيها الغائب عن عيني وفي ... قلبي المضني له عرش وطيد
أدرك الغارق في بحر النوى ... قبل أن يصرعه الموج العنيد
فريد عين شوكه
من الأدب الإنكليزيالحديث
وقفة الوداع
للورد بيرون
لما وقفنا للوداع، نبكي واجمين، وقد انسحق قلبانا، من هول الفراق، نال وجنتيك الشحوب والبرودة، وكانت قبلتك مثلوجة، حقاً لقد تنبأت تلك الساعة بويل اليوم.
سقط ندى الصباح قارصا على جبيني، فكان نذير ما اشعر به الآن، لقد ضاعت كل عهودك، وظهرت لي قضيتك، كلما سمعتهم يلغطون باسمك، أحسست بنصيبي من

عاره.
يذكرون اسمك أمامي، فيقع على سمعي وقع جرس الموت، وتعتريني هزة غريبة، ويلي! لم أحببتك كل هذا الحب؟ انهم لا يعرفون إنني أعرفك، أنا الذي عرفتك جيدا، سأتحسر عليك زمنا طويلا، حسرة بعيدة القرار.
التقينا سرا، فآلمني إن قلبك استطاع إن ينسى غدر نفسك، وإذا قدر لي أن التقي بك، بعد أعوام طوال، كيف أحييتك؟ بالصمت والدموع!
المطبعة
لروبرت. هـ. ديفيز
أنا المطبعة، أمي الأرض، قلبي من فولاذ، أطرافي من حديد، وأصابعي من نحاس، انشد أغاني العالم، القي خطب التاريخ، وأردد الحان الزمان، أنا صوت اليوم، ومتني الغد، أقص حكايات السلم والحرب على السواء، أحرك القلوب في خفوقها وخفوتها. أوحى للعامل المضي في منتصف الليل، أن يرفع رأسه محدقا في الفضاء البعيد غير خائف ليتلمس الأمل المواسي الخالد، ملايين من البشر تصغي إلى، حينما أتكلم يفهمني الجميع.
أملأ دماغ الغبي بأفكار تعليه، أنا النور والمعرفة والقوة.
اجمل انتصارات العقل على المادة، في الشروق وعند الظهيرة وفي الغسق، تقصد إليك أولادي، وأنت على نور الشمعة بين أضواء الفقر الخافتة أو نعم الثراء.
أنا قهقهة العالم ودموعه؛ وسوف لا أموت حتى يستحيل كل شيء ترابا. أنا المطبعة.
دعاهما الصبي فلبياه
لروبيرت بيرنس
في صباح يوم جميل من آذار، وقد لونت الطبيعة كل شيء بلون بهيج ضاحك، وعلمت الأطيار الغناء، والخراف اللعب وكشفت عن فتنة الصبايا ونضارتهن، استيقظ (جوان) الشاب مبكر جدا، وارتدى ثياب يوم الأحد مسرعا، لان (جيني) الصبية الجميلة، التي احبها (جوان) وعبدها، سترافقه إلى رياض المدينة، حيث يقضيان ساعة في اللهو والرقص والغناء.
دق ناقوس الكنيسة الخاشع، فتلمس الشاب طريقه وسار بخطوات المشتاق إلى منزل الحبيبة، قرع النافذة (أسرعي يا عزيزتي) عندها صاحت (جيني) صيحة الجزوع الضجور (من هنا؟) أنا يا حبيبتي، لا أحد سواي، اقبلي على مهل ولا تخافي عيون الرقباء.
ان أبي وأمي غارقان في رقادهما، وأخي بعيد يرعى غنمه، وأنت. ألا تزال أمينا على وعدك، وهل تبرهن أبدأ على وفائك! بحق ما في السماء من قوى، ساكون أبدا المحب العابد، ولن أضيع لحمامتي عهدا، ولن اغفر ذماما، ابعدي عنك هذه الشكوك وأسرعي يا حبيبتي.
وسارا ملتصقين بين الورود والرياحين، يضحكان ويعبثان حتى انتهيا إلى غدير يترنم في اسفل الوادي، فجلسا على حافته يتشاكيان الجوى، ثم استرخت الأكف للعناق، وكانت ساعة حالمة تساقيا فيها كؤوس الحب مترعة صافية، لقد دعاهما الصبي فلبياه!.
شرق الأردن
ترجمة بشير الشريقي المحامي
نجوى يتيم
ما لفؤادي ذاب ... وما به وجد
وللدجى قد شاب ... ولم أنم بعد
ما للأسى قد فاز ... في كبدي الحرى
وما لدمعي ثار ... من مقلتي ثرا
أمن بكا الأطيار ... تستقبل الفجرا
أم لزمان جار ... قد ألف الغدرا
أحنو إلى التذكار ... وليس من ذكرى
خيال أمي غاب ... وألفي المهد
عدا مع الأحقاب ... ولم يزل يعدو
فتشت في فكري ... عنك فخيبت

مت ولم أدري ... إني قد عشت
ما ضر بالدهر ... لو لفني الموت
خلفت في الأسر ... قلبي ينفت
يندب في السر ... حليفه الصمت
في زمن لعاب ... من طبعه الحقد
يروح بالأوصاب ... وبالجو يغدو
تمضي بي الأفكار ... في هدأة الأغلاس
تسائل الأقدار ... وتنبش الآماس
عل بها تذكار ... لساكن الأرماس
والدهر للآثار ... مخرب دراس
منقلب غدار ... قاس شديد البأس
دهر حديد الناب ... ليس له عهد
مزمجر صخاب ... كأنه الرعد
الله للأيتام ... ماذا يلاقونا
من عنت الأعوام ... كم ذا يعانونا
غافون بالأحلام ... بالدمع لاهونا
وهذه الأيام ... لا تعرف اللينا
تسقيهم الآلام ... والذل وألهونا
وتدهق الأكواب ... لهم وتشتد
واليتم مثل الصاب ... ما مثله ورد
أي طرفي الذراف ... مالك لا تهدا
فالحلم الرفاف ... أشرق وامتدا
والزمن المخلاف ... لا ينجز العهدا
من طبعه الإجحاف ... إن خشي اشتدا
في هزله مسراف ... لا يعرف الجدا
دعني من التسكاب ... فهمي المجد
وخافقي وثاب ... قد شاقه الخلد
دمشق
أمجد الطرابلسي
في الأدب الفرنسي
زهرات من حديقة أبيقور
الحقيقة
هذه الحكمة اليونانية القائلة (أعرف نفسك بنفسك) هي لعمري طيش شديد وجهالة كبرى!! فلن نستطيع أبداً أن نعرف نفوسنا ولا نفوس غيرنا من البشر. وأنه لينبغي التيقن من ذلك والأيمان به، فأن خلق العالم أدنى صحة وأقل استحالة وأكثر إمكاناً من فهمه وعرفانه. لقد شك بها (هجل) بعض الشك، ومن القريب المحتمل أن يخدمنا العقل في يوم من الأيام بإبداع كون جديد، فأما الكشف عن مفهوم هذا الكون وتبين كنهه فذلك ما لا سبيل إليه، ولا قدره لأحد عليه. والأولى بنا أن نسئ استعمال العقل ونمعن في الجور وسوء التصرف به، بدلاً من أن نتخذه آلة لتحري الصواب ومعرفة الحقيقة. وحتى استخدامه للحكم والقضاء كما يتطلب العدل ويرتضيه الناس فأنه ضعيف ضئيل لا يجدي نفعاً كبيراً، وإنما يصلح العقل للتسلي بتلك الملاهي، وهي أكثر تعقيداً وغموضاً من الشطرنج، المسماة ميتافيزيك. علم الأخلاق. علم الجمال، ولعله جدير بالرضى والإعجاب حين يقتطف من هنا وهنالك قليلاً من النتوء أو بعضاً من الوضوح في الأشياء، ثم يتمتع بألوانها وأصباغها من غير أن يفسد تلك اللذة البريئة الخالصة بالتفكير الكلي الشاملوالاندفاع وراء الحكم والقضاء.
أدب الحياة
مادام معنى الجمال لا يدرك مستقلاً عن حدود الزمان والمكان فأني لا أشرع في استساغة آثار الفكر والتلذذ بمنتوجات العقل إلا حين أكشف عن وجه اتصالها بالحياة ولصوقها بها، وهذه الصلة هي التي تجذبني إليها وتأسرني عن قراءتها. فجرار هيارليك

الضخمة حببت إلي (الإلياذة) كثيراً، وإذا كنت أتذوق (المهزلة الإلهية) وأسيغ حلاوتها جيداً، فلأني أعرف حياة فلورنسا، وأدرك الحال التي كانت عليها هذه المدينة في القرن الثالث عشر. أنا لست أفتش في الفنان إلا عن صورة الإنسان! وما عسى أن تكون القصيدة الجميلة الرائعة غير البقية الباقية من جثمان الشاعر؟ إليك هذا القول العميق يرسله جيتيه (الآثار التي تخلد دون غيرها هي آثار الظروف والأحوال) لكن الآثار الفنية لا يمكن أن تكون إلا آثار الظروف
والأحوال لأنها إنما ترتبط جميعها بالمكان والزمان اللذين أبدعاها وكونا عناصرها. ولسنا نستطيع تفهمها ولا محبتها إذا كنا نجهل الزمن الذي أنشئت فيه والمكان والشروط الاجتماعية التي أحاطت تكوينها.
الحق إن البلاهة المتعاظمة الصلفة إنما تبرز في القول بالإنتاجالفني المستقل. فالثمن الذي يدفع غالياُ للمؤلفات الرفيعة العالية إنما هو ثمن العلاقات التي تربطها بالحياة. وأنا كلما تبينت هذه العلاقات وكشفت قوتها أشتد هيامي بالأثر الفني أستسيغه وأستمرئه.
القمار
يلعب المقامرون كما يحب العشاق ويسكر الشراب مرغمين مجبرين. يلينون لقوة رائعة لا تقاوم، ويستكينون للنوازع الجامحة العمياء! وفي الناس من وقف نفسه على القمار ونذرها للعب، على نحو من يقف نفسه على الهوى وينذرها للتصابي والغرام. ولست أدري الذي ابتدع قصة ذينك الملاحين المقامرين تذيبهما نيران اللهو، كاد الملاحان يغرقان ثم طوحا بجسميهما وسط المغامرات الخطيرة، ولم ينجهم من الموت المحتوم غير الطفرة إلى ظهر حوت، فما لبثا أن انتزعا من الجيوب الزهر والفنجان، ثم راحا يلعبان!
هذه القصة أصح من الحقيقة وأشد منها ثبوتاً، وكل مقامر مدنف إنما هو ملاح على طراز من ذكرنا. والواقع إن في القمار معنى من معاني الرهبة، يهز أعصاب الشجاع، ويثير في نفسه ألوان الاضطراب والقلق. فليس اختبار الحظ غبطة يسيرة معتدلة، وليس ارتشاف حياة طويلة عريضة ذات أشهر وسنين مليئة بالخوف والرجاء، بالألم والأمل - ليس ارتشافها في هنيهة من الزمن لذة ضعيفة هامدة لا تثمل، أذكر إني كنت دون العاشرة من عمري حين قرأ علينا المسيو غريبيني، أستاذ الصف التاسع، حديث الإنسان والجنية. وبالرغم من طول البعاد وتقادم العهد، فأني ما أزال أعيه وأتمثله كأنما هو حديث الأمس القريب: إن جنية ماكرة دفعت إلى طفل صغير خيطاً طويلاُ قد لف بانتظام حول نفسه ثم قالت له (هذا خيط عمرك فألمسه وحين تريد أن يمضي الزمن لتستشرف له وتحيا فيه فأشدد الخيط فأن الأيام والليالي سوف تمر أمام ناظريك وتكر متتابعة في إسراع أو بطء حسبما تشد الخيط في قوة أو فتور. وما دمت لا تجذب هذا الخيط فإنك تبقى من الوجود في الساعة التي أنت فيها) فأخذ الطفل الخيط الملفوف فجره قبل كل شئ ليفلت من طور
الطفولة ويغدو رجلاً رشيداً، ثم جره ليتزوج ممن أحب، وما زال يجره حتى رأى أولاده تنمو، ونفسه تبلغ أسنى المراتب، وتنال المال الوفير والمجد الرفيع، ثم جره ليجتاز آلام الشيخوخة ويجتنب ثقل وطأتها وأمراضها. وا أسفاه على هذا العود الأملد النظير! لقد عاش الطفل أربعة أشهر من بعدها ستة أيام على زيارة الجنية له.
لعمرك قل لي ما حد القمار إذا لم يكن الفن الذي يستبق أحداث الطبيعة العاقلة، ويشد تقلبات الأقدار المتئدة التي لا تبرز إلا في سنين وسنين! أليس القمار هذا الفن العجيب الذي يجمع في لمحة من الزمن مختلف الأهواء والميول المنتشرة بين حياة الناس البطيئة الراكدة؟ بلى! إنه سر الوجود ومعنى الحياة نتذوقها في مدى قليل من الثواني القصار، فهو يطاول القدر ويسايره جنب إلى جنب ولعله يشبه صراع يعقوب مع الملك، أو ميثاق الدكتور (فوست) مع الشيطان.
المال مادة القمار؛ ونقصد إنه العلة الضرورية المباشرة ومن يدري! لعل الورقة التي تستبطن، أو الكرة التي تتدحرج، تنفح المقامر اللاعب بالحدائق الجميلة، والحقول المزروعة، والأحراج الفخمة، والقصور المشيدة تشق السماء أبراجها الدقيقة. هذه الكرة المتدحرجة إنما تضم في اطوائها الأراضي الخصبة الواسعة، والدور العامرة تلمع مداخنها المنحوتة في مياه اللوار، إنما تضم كنوز الفن وعجائب الذوق، وجواهر غالية

طريفة، ونفوساً كان يظن أن ليس إلى بيعها من سبيل. وعلى الجملة تضم مطارف الزينة والمجد، وشديد القوى ونافذ الأسلحة، ماذا أقول؟ إنها تضم شيئاً أثمن من هذا كله بكثير: تضم الأماني والأحلام، أفتريد بعد هذا ألاّ يلعب المقامرون وألاّ يلهو الهازلون. .؟؟ ولو أن القمار لا يبعث غير الآمال الكبار ولا يبدي إلا بسمة عينيه الخضراوين، لكان الميل إليه خفيفاً نحيفلاً، ولكنما أظافره مصنوعة من ماس، يروع، ويخلع البؤس إن شاء، والحياء حين يريد. . ومن هنا كان القمار إلهاً تقدم له فروض الطاعة ومراسيم العبادة:

يكمن الخطر في الأهواء الملحة العنيفة، أرأيت غبطة شديدة ليس يصحبها خمار أو يعقبها دوار، وإنما تسكر اللذة قد خالطها الفزع، وهل يخيف شئ في الوجود أكثر مما يخيف القمار؟ إذا أعطى أدهش، وإذا أخذ فتش. منطقه يباين منطقنا، فهو أصم وأبكم وأعمى، قادر على كل شئ كالإله، له عباده وقد يسوء الذين يحبونه لذاته لا لثوابه، وأكثر ما

يعبدونه حين ينزل بهم عذاباً أليماً، وقد يعريهم مما يلبسون، فيعزون النقص إليهم دونه، ثم يقولون (لقد أخطأت كثيراً في لعبي)

وا رحمتاه لهم! يتهمون أنفسهم ثم لا يكفرون

حمص

محمد روحي فيصل

العلوم

ماء جديد أيضا

للدكتور احمد زكي

ذكرت في العدد ألا سبق من الرسالة ما كان من أمر الماء الثقيل، وقد سألني سائلون الزيادة من ذلك فها هي: -

ان الماء الثقيل يختلف كل الاختلاف عن الماء العادي في خواصه:

الماء العاديالماء الثقيل

درجة السيحانصفر + 3. 8

درجة الغليان100 101. 42

الوزن النوعي

في درجة 251 1. 1056

الدرجة التي عندها

يبلغ اكثر كثافته + 4 + 11. 6

فمن اجل هذا، ومن اجل أن الأيدروجين في الماء الأخف يختلف عنه في الماء الأثقل اختلافا بينا، اقترح الكيمياويون الأمريكان لهذا الأيدروجين الأثقل اسما جديدا فأسموه ديوتيريوم واقترح له الأستاذ المعروف اللورد رذرفود اسما غير هذا لاعتبارات كثيرة فاسماه وكلا الاسمين ثقيل على السان العربي.

ولعل الثاني أخف وطأة من أخيه، وقد اشتركا في حرفهما الأول فصار رمز هذا العنصر الجديد هو حرف يصبح الماء الثقيل أكسيد الدبلوجين.

وقد قدر الباحثون مقدار الدبلوجين في الأيدروجين العادي وقدروا مقدار أكسيد الدبلوجين في الماء العادي فاختلفوا اختلافا كبيرا، وكان الاختلاف لأسباب، مثالها انهم اعتمدوا في أحد هذه التقديرات على طيف الأيدروجين، وكان أيدروجينا حضروه بطريقة التحليل الكهربائي للماء. فكان دبلوجينه لاشك قليل لان أكسيده أبطأ تحللا بالكهرباء من الماء.

فخرج الحساب بنتائج واطئة المقدار. ومن هذه النتائج الواطئة النسبة 1 إلى 25000 التي ذكرتها في مقالي السابق.

واتبع باحثان آخران طريقة أخرى يكفلان بها تحلل الماء كله تحللا كهربائياً كاملاً، ثم اختبروا طيف ايدروجينه الناتج، فقدروا ان به من الدبلوجين جزءا في كل 5000 جزء وطبق الأستاذان لويس ومكدونالد طريقة البكنومتر على المائين، العادي والنقي (هكذا أسمياهما) فخرجا على آن الماء العادي يحتوي جزءا في كل 6500 جزء واستخدم الأستاذ اللورد رذرفورد وأصحابه طريقة (القذائف) وفيها قذفوا عنصر الليثيوم بأيونات الدبلوجين وأيونات الأيدروجين، فوجدوا أن جسيمات (ألفا) الناتجة في حالة الدبلوجين

لها مدى اكبر 50 في المائة من مداها في حالة الأيدروجين. وهذه طريقة دقيقة يرجون بها أن يقدروا أكسيد الدبلوجين في الأمواه الاصطناعية والأمواه الطبيعية المختلفة، فماء العين لاشك سيختلف عن ماء النهر، وهذا عن ماء البحر، ومياه البحار الطلقة لا شك ستختلف في ذلك عن مياه البحر الحبيسة. وقد وجدوا فعلا أن ماء البحر الميت يكثر مقدار أكسيد الدبلوجين الذي به، وقد قدرت النتائج الأولى هذه الكثرة بالضعف. وهذا ما كان منتظرا لتبخر مائه تبخرا يزيد على غيره من البحار. أما الخواص الكيماوية للدبلوجين ولأكسيده فالأبحاث التي أجريت عنها لا تزال قليلة. ولكنها في مجموعها تشير إلى قلة النشاط الكيميائي في الدبلوجين وفي أكسيده. مثال ذلك انهم حللوا ماء مأخوذاً من المطر بإمراره على الحديد المحمي فوجدوا أن الجزء الأول الناتج من الأيدروجين يحتوي 6000: 1 من الدبلوجين، بينما الجزء الأخير يحتوي 4500: 1 منه. ومثال ذلك انك إذا حللت ماء محمضا بالخارصين فان المتبقي من هذا الماء تزيد نسبة أكسيد الدبلوجين فيه زيادة كبيرة.

أن علمنا بالدبلوجين ومركباته لا يزال قليلا، ومناهج البحث فيه كثيرة والاحتمالات العلمية الذي سيتمخض عنها الغد لاشك جليلة. قال الأستاذ الورد رذرفورد (لقد فتح هذا الكشف لنا باب كيمياء جديدة وبليجة جديدة)

احمد زكي

ماء جديد

حضرة الأستاذ الكبير صاحب الرسالة الغراء

تحية واحترام وبعد، فقد قرانا فيما قرأناه من موضوعات شيقة آخر ما صدر من أعداد الرسالة فصلا قيما كتبه حضرة الدكتور احمد زكيفي باب العلوم بعنوان (ماء جديد) فهمنا منه أن البحث قد كشف أخيرا عن وزنين مختلفين لذرة الأيدروجين كما كشف قبلا عن مثل ذلك في الزئبق وغيره من العناصر، وانه ظهر على اثر ذلك أن الماء العادي يشمل على كم صغير جدا من ماء ثقيل شديد التركز مؤلف من ذرات الأيدروجين الثقيلة وذرات الأوكسجين وقد ذهب الدكتور الفاضل إلى أن هذه الحقيقة الأخيرة قد أظهرت خللا في الأسس المقررة لقياس الحرارة ووزن الإثقال وذهب بعض القراء إلى انه يؤخذ من مقال احمد أمين هذا - يريد احمد زكي - أن البحث الحديث قد أدى إلى نتيجة جديدة وهي إن الماء مؤلف من ذرات أيدروجين صغيرة وذرات أيدروجين كبيرة، وانه لا صحة لما كان يقال من أن السنتيمتر المكعب من الماء يزن جراما.

وعندي صاحب المقال لم يخطر بباله عند كتابته انه سيؤدي إلى هذه النتائج الخطرة فهو يقول أن الماء الثقيل يتجمد في درجة 4 تحت الصفر ويغلي على درجة 101 ويعد هذا دليلا على فساد أسس علم الحرارة، ثم يسال بأسلوب يلقي الريب في ذهن القارئ عن الجرام وهل وزن السنتيمتر المكعب من الماء الخفيف أو من الماء الثقيل؟ والصحيح أن الحقائق التي كشفها البحث وأشار إليها الكاتب لا تمس مقاييس الحرارة والأوزان من قريب أو بعيد. فالعبرة فيها كانت وستبقى في الماء النقي العادي، أو أن شئت الطبيعي، سيتجمد دائما في درجة الصفر ويغلي على درجة المائة ويزن السنتيمتر المكعب منه جراما لا غير في درجة معينة من الحرارة.

وما شان الماء الخفيف وحده والماء الثقيل وحده بعد ذلك في أمر الحرارة والثقل إلا نفس الشأن الذي لغيرهما من السوائل

فالماء النقي العادي سيظل كما هو أساس مقاييس الحرارة والأوزان. وأما ما ذهب إليه بعض القراء من الخلط بين الأستاذ الكاتب وزميله الأستاذ احمد أمين فمرده فيما أرى إلى تناول الكاتب موضوعاته العلمية بأسلوب كأسلوب زميله الأديب الكبير واغلب الظن أن النتيجة العجيبة التي طفر بها إليها هذا البعض من تكون الماء من أيدروجين صغير الذرات وأيدروجين كبيرها تقع تبعتها على هذا الأسلوب الأدبي الممتع نفسه. . . . .؟

الإسكندرية

(م. ا.)

تعليق

أقرأني صديق الأستاذ الزيات اعتراض الكاتب الفاضل م. ا. وأرى انه إذا كان حضرته

يريد القول بان هذا الكشف الجديد لا يؤثر في وزن السنتيمتر من الماء مطلقا، أو على حسب تعبيره (من قريب أو بعيد) فهو لاشك مخطئ، لان الأمواه تختلف نسبة الماء الثقيل فيها اعني أكسيد الدبلوجين، وإذن تختلف كثافتها.

ولو رجع إلى مقالي الثاني المنشور بهذا العدد من الرسالة لوجد بعملية حسابية أن هذا الاختلاف يتناول من كثافة الماء الرقم العشري الخامس، وأرجو أن يكون عالما بان من الموازين الحساسة ما يحس بزنة الرقم العشري الثامن من الجرام، ومن اجل هذا أمكن العلماء باستخدام طريقة البكنومتر، وهي تعتمد على تفريق بين الكثافات بالوزن، في تقدير ما بالأمواه من ماء ثقيل - وان كان الكاتب الفاضل يريد أن يقول أن هذا الاختلاف بسيط لا يؤثر في التجارب العلمية المعتادة فهو لاشك مصيب، فان الموازين العادية بالمدارس تزن إلى جزء من عشرة آلاف من الجرام، أي تصل إلى الرقم العشري الرابع فقط. وهذا هو عينه الذي قررته في مقالي الذي يعترض عليه.

فقد قلت فيه (على ان هذه الاختلافات لا تؤثر في حوائج العلم العادية) أن الكاتب إذ كتب في الأدب قد يذهب به الخيال عن الدقة، وقد يغتفر له ذلك، أما إذا هو كتب في العلم وجب أن يكون أول ما يقصد إليه الدقة في التعبير ويزداد هذا الواجب وجبا إذ هو حاول أن يتكلم عن العلم لغير علمين، فاضطر إلى استعارة شيء يسير من لغة الأدب، وهذا ما نأخذ به دائما. ولكن على القراء كذلك واجب التدقيق عند القراءة. فصاحبنا الذي خلط بين احمد أمين واحمد زكي كان من الطبيعي أن يخلط في فهم المقال. وحضرة الفاضل م. أنفسه لاشك قرا المقال بسرعة، فانه روى على ان الماء الثقيل يتجمد في درجة أربعة تحت الصفر والذي كتبته ونشر في المقال كان (في نحو درجة أربعة) ومعناها بالطبع فوق الصفر لا تحته.

احمد زكي

القصص

. . .الميتة

بقلم الكاتب القصصي (جي دي موباسان)

ترجمة الأستاذ خليل هنداوي

أحببتها حتى غلب علي فيها الذهول، ولماذا أحببتها؟ أغريب شأني إذا لم تر عيناي إلا كائنا واحدا، ولم تحمل نفسي إلا فكرة واحدة، ولم ينطوي قلبي إلا على أمنية واحدة، ولم يتسع فمي إلا لاسم واحد؟ ذلك الاسم الذي يصعد من فمي تكرارا. من أعماق روحي مرارا، كأنه ينبوع متفجر. أقوله وأعيد فيه القول ثانية وثالثة كأنه صلاة اذكرها واردها.

لن أقص عليكم ما غشيني في هذا الحب، ومتى كان للحب حكايات متعددة، ورواياته في كل زمان ومكان واحدة. قد رايتها واحببتها، وهذا كل ما في روايتي.

قضيت زمنا - ويا حبذا ذلك الزمن - يغمرني عطفها، وتحوطني بذراعيها، وتشبعني نظراتها، ورداؤها وكلماتها. بل فنيت فيها حتى غلب علي الذهول فأصبحت لا ادري: أذلك الليل أو النهار يحيط بي؟ وأنا في قيد الحياة أو في سجل الأموات؟ وهل أنا على أرض غير الأرض؟

والآن ماتت، فكيف سطا عليها الموت؟ لا ادري. . لا اعلم، دخلت علي أمسية ليلة من ليالي الشتاء مبللة الأثواب فنامت، فتيقضت وهي ترسل السعال ملحة فلزمت سريرها مضطرة.

وبعد ذلك لا اعلم.

الأطباء حشدناهم من كل صوب. فكانوا يقدمون ويكتبون ويذهبون. والعلاجات تنهال عليها وإزاءها امرأة ترعاها. يدها حارة الملمس. وجبينها متوقد. ونضرتها ساطعة، لكنها كئيبة.

أكلمها فتخاطبني، ولكن ماذا قلنا؟ لا أعلم. . قد نسيت كل شيء. . كل شيء. إنها قضت ولا أزال اذكر تنهدتها الخفيفة وأنتها الضعيفة.

وقد صاح من خولها (آه) ففهمت أن الأمر انقضى.

. .لم اعد اعلم شيئا

لمحت كاهنا يخاطبني بهذه الكلمة: أمعشوقتك؟ فخيل الي انه ينال منها، - وهو بعد موتها - يجب عليه ألا يعرف شيئا من هذا فنفيته من دارها وطلبت غيره، فخف إلى

كاهن طيب السريرة.
رقيق النفس، حدثني عنها فغلب علي البكاء.
أمسيت لا أعرف شيئا، ولكني اذكر الأكفان والناووس الذي ووريت فيه إلى الأبد.
نزلت في التراب، وجاء معها بعض صواحبها، وأخيرا انطلقت وطفت في السبل شاردا، وعدت أدراجي، وفي الغد الباكر حملت نفسي على الرحيل
. . .وبالأمس دخلت باريس
ومذ وقع ناظري على غرفتي. . غرفتنا وسريرنا ومتاعنا. وكل ما يخلفه الميت وراءه، شعرت بان أنفاسي تضيق، وبان كآبة تتمدد في إحناء نفسي فتزيد صدري حرجا. وتبعثني على إلقاء نفسي من النافذة. . . لم استطع البقاء طويلا في هذه الغرفة التي تتراءى لي فيها محبوبتي، فاسرعت عازما على الخروج فوقع ناظري على تلك المرآة المصقولة التي كانت تقف إزاءها ناضرة إلى وجهها وجسدها كل يوم، تتقن زينتها تجاه هذه المرآة التي كان رسمها ينعكس فيها، ولا يزال يتراءى على صفحتها فأدركتني رعشة عميقة، وعيني خلال ذلك لا تبرح المرآة العميقة الفارغة التي احتوتها - قبل اليوم - فخيل إلي أنني احب هذه المرآة فلمستها فإذا هي باردة. . .
ولكن الذكرى، الذكرى!! المرآة الملتهبة المعذبة.
إلا انهم سعداء، من تشبه قلوبهم هذه المرآة ترتسم عليها الضلال ثم تمحى. وتنسى كل ما ارتسم عليها وارتسم فيها.
برحت مكاني وأنا غير مختار. ولا اعلم أية وجهة اسلك!؟ فدخلت المقبرة فألفيت ضريحها المنفرد يشرف عليه صليب رخامي نقش تحته
(. . .إنها أحبت وكانت محبوبة ثم ماتت)
إنها تحت هذا الضريح قد عبث فيها الفساد! مكثت هنالك طويلا خاشع الرأس حتى واتى المساء، ولكن خطرة غريبة صعدت من نفسي هي خطرة عاشق يائس تحدثني وترغمني على قضاء الليل بجانبها ذاكراً باكياً، ولكن الناس سينظرون إلي وسيطردوني فما عسى
اصنع؟ نهضت وأبديت لمن يراني إنني ضال بين القبور، فسرت وأمعنت في السير، ولكن ما أضأل مدينة الموتى إزاء غيرها من مدن أهل الحياة، والموتى ينيف عددهم على عدد الأحياء.
يتخذ القصور الشامخة والدور الباسقة والسبل الفسيحة أبناء النور، وشاربو الينابيع، وراشفو ابنة الأعناب، وآكلو سنابل الحقول، أما الموتى الذين تحدروا إلى أعماق الثرى وما زالوا ينحدرون. أولئك لا ينالون شيئا. . . رقعة من الثرى تضمهم والنسيان يطوي أسماءهم ووداعاً.
في زاوية من زوايا المقبرة الآهلة بسكانها وقع ناضري على المقبرة العتيقة التي اختلط رفات أصحابها بالتراب، واتى على صلبانهم الهلاك. وغداً سيبدل الأحياء بالنازلين القدماء، نازلين محدثين.
كان يغشى تلك المقبرة ورود منتشرة، وأوراق سوداء، كأنها حديقة كئيبة سامخة تغذيها لحوم الموتى.
آويت إلى جذع شجرة تواريت به عن الناس. ولبثت مرتقبا قابضاً على الجذع كما يقبض الغريق على بقية من بقايا زورقه المحطم حتى مد الظلام رواقه، فغادرت مكاني وطفقت أطوف متمهلا بين اللحود
ضللت كثيراً وأنا أتلمس قبرها. فكنت أسرى باسطاً يدي. وفاتحاً عيني، وواثباً بين القبور على غير هدى، فكم قبور لمحت، وكم رسوم وقفت عليها كأعمى يود أن يهتدي إلى سبيله فلمست حجارة وصلباناً. وأكاليل ذوت ازاهيرها، واكاليل من زجاج. وتلوت أسماء كثيرة بيدي ولكنني لم أجدها.
لا قمر في السماء يزيح هذه الظلمة الداجية.! وياله من ليل بعث في نفسي الهول. أغشى الطريق تغمر جانبيها القبور. القبور عن يميني والقبور عن شمالي. والقبور أمامي وورائي. أعياني السير فاستويت على ضريح فسمعت خفقان قلبي وسمعت شيئا غير خفقانه.
ماذا اسمع؟ أهذه وساوس تعيث في رأسي؟! وهذه أسماء تتصاعد من الأرض الطافحة بأشلاء بني الإنسان؟

كم مضى علي من الزمن وأنا لابث في مكاني؟ لا أعلم: ولكن الخوف قابض على قلبي بكلتا يديه لا يبرحه. همت باكيا أصيح، وأوشكت أن اقضي نحبي.
فجأة شعرت بأن لوح الضريح الذي تخذته مقعداً لي بدأ يتحرك كأن شيئا تحته يزيحه، فنعدت عنه مذعوراً وإذا باللوح يمشي. . . وصاحبه ينتصب بهيكله العظمي. أزاح بظهره المقوس لوح الضريح فألقاه على الأرض
فتلوت على اللوح برغم حلوكة الليل: (هاهنا يرقد (جاك اوليفان) المتوفى في الخمسين من عمره. كان باراً بأبويه: وكان صالحا شريفاً. ومات تحت كنف الله) رأيت الميت يحدق في هذه الكلمات ثم جاء بحجر مسنون يمحوها حتى لم يبق لها من اثر. ثم اخذ ينظر مكانها وتناول عظمة من عظامه وسطر عليها بأحرف بارزة (هاهنا يرقد جاك اوليفان المتوفى في الخمسين من عمره. قد عجل موت والديه لعقوقه، وأضنى امراته. وعذب أولاده وخدع جيرانه وسرق ما استطاع ومات فقيراً).
أتم الميت تسطيرها وظل يتأمل فيها، وغادرت مكاني فإذا القبور جميعها متفتحة، وسكانها جميعا بعثوا من مراقدهم، ومحوا الصفات الكاذبة التي سطرها أهلوهم على لوحات قبورهم، ونقشوا مكانها حقائقهم المجردة، فوجدت أن جميع هؤلاء الآباء الصالحين والزوجات الأمينات، والأبناء الطاهرين، والغواني العفيفات، وأن هؤلاء التجار المستقيمين، منهم العاق والبغيض، واللئيم والمرائي، والكاذب والحاسد والنمام، ومنهم السارق والخادع، والمرتكب كثيرا من الآثام. رايتهم جميعا منكبين على منازلهم يسطرون حقيقة أنفسهم التي يجهلها أو يكاد يجعلها أبناء الحياة.
شعرت - إذ ذاك - بان محبوبتي خطبها خطبهم، فجعلت إليها نافضا عني الخوف، ومن حولي القبور المفتوحة. والجثث المنشورة والهياكل المنتصبة. عرفتها إذ لمحتها، ولم أتوسم وجهها المتصبب عرقا. وعرفت القبر الذي كانت هذه الجملة مسطورة عليه (إنها أحبت. وكانت محبوبة ثم ماتت).
تلوت هذه الجملة الثانية (خرجت يوما لتخون حبيبها فأصابها برد أودى بحياتها) ويبدو لي انهم عثروا بي راقدا عند شروق الشمس على أحد القبور
خليل هنداوي
في المزرعة
بقلم إيفان بونين
كان ذلك الوهج الوردي الفاتر المنبعث من الغروب الداوي يغادر السماء متلكئا متباطئا. وتوارى الضوء شيئا فشيئا بين جحافل الظلام التي أخذت تخيم فوق مزارع الغلال الفسيحة المترامية. ثم أمعنت تلك الجحافل في الزحف حثيثا على القرية. بعد أن أرسلت بعض النوافذ الصغيرة في جدر الأكواخ وميضا نحاسيا خالبا يستبي اللب. كان المساء هادئا ساكنا. قد حشدت قبل قليل قطعان الماشية في حضائرها، واحكمت دونها الرتج والإغلاق. وآب أهل القرية من عملهم المضني فتناول كل عشاءه على الحصباء قبالة أكواخهم ثم غرقوا في صمت ساهم عميق. لا صوت لغناء ولا صرخة لطفل
كل شيء كان يحلم حلمه المسائي. وكان الكابتن ايفانيش وقد جلس إلى نافذته المفتوحة يحلم أيضاً.
كانت (عزبته) فوق رابية آجام واطئة من الاقاقيا والليلاك تحتها انجم كثيفة ملتفة مشتبكة من القراص والحماض تنحدر إلى اسفل في اتجاه الوادي. ومن النوافذ تستطيع العين ان تقطع مسافات شاسعة فوق تلك الأيك والإحراج البالغة مكانا قصيا.
كانت الحقول ساكتة صامتة تحت ذلك الغسق الشاحب، قد انقطعت فيها الحركة. والهواء جافا دافئا عليلا. والنجوم في السماء ترتجف بإستيحاء وفي غموض مبهم كأنما تخفي في باطنها أسراراً لا تدرك وأحاجي لا تحل.
ليس هناك تحت النافذة إلا بضع جنادب دائبة في صريرها المتشابه من غير كلل ولا ملل، وهي في مكامنها تحت عساليج القراص وإلا صيحات السماني المتزنة الآتية من السهل النائي البعيد.
كان الكابتن ايفانيش وحده، كدأبه دائما. لقد كتب له أن يعيش وحيدا يقاسي آلام الوحدة ما بقي حياً.
كان أبواه لا يملكان شيئا، يعيشان في بيت الأمير (نوكايسكي) ماتا إبان طفولتهولما

يبلغ من العمر سنة واحدة. قضي أيام طفولته وفتوته في بيت عمة له مخبولة وفي مدرسة أبناء الجنود. كان في شبابه ينظم الأغاني ناسجا فيها نسج ديلفك وكولتسوف. نظم في قصائده
الغرامية الكثير عن (هي) المعهودة.
وما كانت (هي) المعهودة إلا (آنا) ابنة موظف في مكتب (تسجيل العقود) في القرية، لكنها ما كانت تحبه كما يحبها. كان اهل القرية يقولون عنه انه يشبه (السيد) ولكن ليس فيه شيء يسترعى النظر.
هو نحيف طويل بعض الشيء. قد صار يوما بتأثير الأمير ملازما في الجيش ثم ورث عن عمته نقودا واستقال من وظيفته أما (هي) فقد ذهبت لتقيم في بيت صديق لها وتزوجت واقفل هو مكتبه على قصائده الغرامية حيث ظلت وستظل إلى يوم موته.
أنشأ يشتغل بالزراعة وحاول العمل في مكتب الحكومة في القرية ولكن لم يسعفه الجد.
ومرت الأيام وانقضت الشهور وتعاقبت السنون، واصبح فلاحا حقيقيا: سترة طويلة تصل إلى ركبتيه وشاربان طويلان أسودان، على انه ما كان يعلم إن وجهه المنضمر المغضن بعض الشيء وما كان يعلوه من إمارات الحنو كان جميلا جذابا.
انه اليوم حزين مكلوم. وجاءت إليه في الصباح خادمة (اكرافية) التقية الورعة وذكرت له بين ما حدثته به (أتذكر السيدة (آنا) يا سيدي؟
فأجابها الكابتن ايفانيش. نعم -
فقالت له ماتت ودفنت في خلال أيام الصوم.
وبعد هذا لبث الكابتن ايفانيش طول يومه مرتسمة على شفتيه ابتسامة مضطربة غامضة. وفي المساء، وما أهدأ ذلك المساء وما اشده سكونا، وما أعمقه كآبة - لم يتناول عشائه ولم يذهب إلى فراشه مبكرا كعادته. بل تناول في يده لفافة غليظة من تبغ اسود قوي وظل جالسا إلى نافذته واضعا ساقيه الواحدة على الأخرى.
أراد أن يخرج من البيت ويذهب إلى مكان ناء، ولكنه سال نفسه: إلى أين؟!. أيذهب لصيد السمان؟ ولكن لم يبقى وقت لذلك، ثم ليس هناك من يرافقه. أيذهب؟ أم لا. . . لم يرق له صيد السمان. تنهد وخبط بيده ذقنه غير الحليق.
ثم قال في نفسه (ان حياة الإنسان لقصيرة ضنينة).
أترى الحقبة طويلة من يوم كان فتى في ميعة الشباب حتى الآن مدرسة أبناء الجنود - حسنا إنها ولت. . . إلى حيث لا رجعة. . . قر وسغب ولغب - أسفار إلى عمته، ما أغربها من عمة. ما اشد شذوذها وغرابة أطوارها. هو يتذكرها جيدا، حتى لكأنها الآن ماثلة أمام عينيه - عجوز بكر هيفاء نحيلة. لها شعر اشعث، اسود فاحم، وعينان دعجاوان شاردتان ذاهلتان. كان يقول عنها أهل القرية إنها قد أصابها الخبل من حادث غرامي لم توفق فيه. . . هو يتذكر كيف كانت تحفظ جيدا بعض أساطير فرنسية جريا على عادة كانت في ذلك الحين متبعة في مدرسة ليلية من طراز قديم، وكيف كانت تكررها مرة بعد أخرى. ويذكر أيضا كيف كانت تضرب على البيان لحن (بولوني أو كينيكسي). لقد كانت تلك الأغنية تبدو مخيفة غريبة، لأن السيدة العجوز كانت تغنيها من غير عاطفة ولا شعور
أوه - تلك الأغنية (بولوني أو كينيسكي). . . (هي) المعهودة أيضاً كانت تحسن غنائها وعزفها على البيان.
والآن أخذت النجوم في السماء تبعث بصيصا ضئيلا من نور خافت وتتلألأ تلألؤاً سحرياً لا تدركه الأفهام.
وطفقت الجنادب تسبح بصريرتها تسبيحتها الواهنة الوانية، لا تلبث تفتر حتى تهتاج من جديد في هدوء المساء وسكون الطبيعة. . . هناك بيان عتيق. هناك في تلك الغرفة الداخلية. النوافذ مفتوحة لولا أن (هي) المعهودة تدخل الآن في الغرفة، خفيفة الظل كالطيف وتعزف عليها، تمس مفاتيحها العتيقة المغبرة. . . ومن ثم يذهبان معا إلى هناك. . . إلى هناك باستقامة واحدة. . . يمران من تلك الطريق الضيقة بين الجويدار الكثيف. إلى اين. . . إلى بعيد، حيث الضوء ينبعث في الأفق الغربي.
كبح الكابتن ايفانيش جماح أفكاره وابتسم قائلا بصوت مرتفع (لقد ذهب الخيال معي إلى بعيد. . .)

كانت الجنادب تصدح بإنشودتها في نسيم المساء الهادئ البليل ومن البستان يعبق شذا الأرقطيون المحمل بالطل. وأريج زهرة الفجر ورائحة القراص المخضل المنعشة، فتختلط كل هذه الأرواح العطرة في الفضاء وتتجه شطر الأنوف كأنما تنتوي نية أو تبغي بغية. . . هذه العطور الزكية ذكرته بمساء كان قد رجع فيه من المدينة في ساعة متأخرة؛ وكيف ظل يفكر (عنها) يخدع نفسه ويمنيها بآمال السعادة والهناء . . .

ما كنت ترى في القرية نافذة تشع، ساعة ساق عربته إلى أعالي الرابية. كل شيء تحت
تلك القبة السماوية الصاحية السلسبيل الزاخرة بالكواكب كان غارقا في سبات عميق. . . ليالي إبريل مظلمة دافئة من البستان كانت تفوح رائحة الكرز المزهر والضفادع تنق وسنانة في البرك - فتبعث بموسيقى ضعيفة هزيلة من النوع الذي يسمع عادة في آخر هزيع من ليالي الربيع عندما يدنو الصباح. ظل زمناً طويلاً قبل أن يعقد أجفانه الكرى، استلقى في نومة عميقة فوق الحلفاء في الكوخ بالبستان. قد لبث ساعات يمشي الهوينى على سراب جار تحول من بعد إلى سحابة بيضاء شفافة متألقة من الأحلام البعيدة النائية. ولكن هناك جاءت من بركة ليست في الحسبان بعد حين صيحة مالك الحزين - كأنها لغز أو سحر، والظلام الحالك - الظلام الذي ضربجرانه فيطرقات البستان الضيقة هو أيضاً بدا كاللغز أو السحر. وبعد ذلك، قبيل الفجر فتح عينيه واستنشق ملأ رئتيه نسمات البستان الندية الباردة المحملة بالعطر. ومن خلال الكوة المفتوحة قليلاً أطلت عليه نجوم الصباح اللامعة مضطربة قلقة. استفاق الكابتن إيفانيش من هواجسه واستوى قائماً. وراح يطوي أرجاء الدار ترجع الجدر أصداء خطواته، وينحني بلاط الغرفة هنا وهناك تحت قدميه مرسلاً صوتاً متزناً كأنما هو يئن تحت وطئهما أنين الألم.

قال في نفسه (لأستدعين الفعلة في الخريف سيكون (ثمانون عاماً عمر هذه الدار) البرد فيها في الشتاء المقبل قارساً لا يطاق). وفيما كان يتمشى جيئة وذهاباً كان يشعر إنه أضحى الآن أعجف سمجاً - هو طويل نحيل منحني بعض الشيء. ظل كذلك يجيء ويغدو ثم رفع حاجبيه وهز رأسه وغنى الغناء (البولوني). أحس إنه يرقب خطواته الخاصة - ينظر إلى نفسه - فقدم نفسه إلى نفسه على إنها رجل آخر يهيم في أرجاء الدار - رجل حزين قد أمضه الحزن وأرمضتقلبه الكلوم. حمل كنانته وخرج من الدار.

كان الضوء خارج الدار أكثر من داخلها، ولا يزال ضوء الغروب الشاحب الذي توارى خلف القرية يرسل على مزارعها بصيصاً ضئيلاً باهتاً. وبخطوات ثقيلة مرتبكة جاز رقعة من الأرض مفروشة بفراش من القراص انتهى منها إلى رابية وقف عندها. وبعد أن أشعل غليونه وقف على صخرة هناك ثم قال في نفسه (أراني جالساً كالبوم على سفح الجبل) وسيقول الفلاحون عني هناك. . . إن الشيخ لا عمل له. . . نعم لقد أمسيت عجوزاً (ألم تبت (أنا). . . حتى لكأنها لم
تكن) أين ذهب كل ذلك. . . كل ذلك الماضي
كم ظل محدقاً ببصره في الحقول النائية كم ظل مصيخاً بسمعه إلى هجعة الطبيعة وسكنة المساء. . .

قال بصوت مرتفع (كيف يمكن ذلك؟!) كل شيء سيبقى على حاله. الشمس تشرق. الفلاحون يخرجون إلى الحقول حاملين على أكتافهم محاريثهم عاليها سافلها، وسوف لا أرى من ذلك شيئاً - وليس هذا فحسب، بل ولن أكون في هذا المكان أبداً ولو مرت ألوف السنين، لن أعود إلى الدنيا مرة أخرى، لن أجلس جلستي هذه على هذه الرابية.
.

لبث زمناً طويلا جالساً جلسته تلك، مطرقاً يسحب شاربيه الأشيبين ويعبث بشعراتهما. ترى كم من السنين كان الرجل الذي أمامه الآنشيئا خطيراً - بارزاً. . . لقد كان ذات مرة صبياً صغيرا - وكان شاباً يافعاً - ثم هو في يوم قائظ لافح من أيام الصيف قصد بعربته الصغيرة إلى الانتخابات. . . ماراً من طريق عريض رحب
ما اعرض ذلك الطريق!. . .

ابتسم الكابتن ايفانيش إلى نفسه من أفكاره التي تتواثب من شيء إلى آخر.

لكن ذلك كله كان منذ زمن بعيد. . . ممعن في البعد. . . كذلك.

أواه! ماذا يرى الآن أمامه يا لهول ما يرى! قد بلغ زمنا هو كما يقول الناس يصل فيه كل شيء نهايته، سبعون، ثمانون عاماً لا يقدر الإنسان أن يعمر أكثر من هذا - ما هي الحياة البشرية - طويلة كانت أم قصيرة
قال في نفسه: (إن حياتي طويلة على كل حال)
هناك في ظلمة السماء أضاءت نجمة وخرت إلى الأرض. رفع عينيه الحزينتين الكليلتين، وظل يحدق في السماء. وفيما هو يرسل بنظراته في أعماق تلك اللانهاية المظلمة الهادئة الزاخرة بالكواكب، تنهد الصعداء وشعر بالحزن يذهب عن نفسه، لقد عاش هادئاً مطمئناً وسيموت هادئاً مطمئناً. كالورقة في تلك الأيكة تجف وتسقط متى يحين أوانها، إيه، لكل أجل كتاب.
لا تكاد الحقول المترامية ترى في ظلمة الليل الحالكة. اشتدت الظلمة وزاد لآلاء النجوم. وبين الفينة والفينة تسمع صيحات السماني، وأخذت تنبعث من العشب الندي رائحة
منعشة، استنشق الهواء بخفة، وبسهولة ملأ رئتيه، ما أشد اتصاله بهذه الطبيعة الهادئة الساكنة!
بغداد
ترجمة
ع. الحمدي
شهر بالغردقة - 4
للأستاذ الدمرداش محمد
مدير إدارة السجلات والامتحانات بوزارة المعارف
عند آبار البترول
في الشمال من محطة الأحياء المائية وراء الأفق جبل عال تراه من المحطة إذا كان الجو صافياً ناتئاً بالبحر ببروز كبير. كان لهذا الجبل شأن كبير في قديم الزمان عند القدماء: من مصريين ورومان، فامتدت إليه همتهم وقصدوه من وادي النيل عبر الصحراء طلباً في سائل أسود كثيف ذي رائحة شديدة ينضح من جدار الجبل عند سطح الماء - هذا الجبل هو جبل الزيت، وهو سائل هو زيت البترول ولا يزال الجبل ينز بالزيت إلى يومنا هذا. وفي القرن الماضي عثر على الزيت في مغارات بالقرب من دمشة (جمسا) جنوبي جبل الزيت بنحو عشرين كيلو متراً، فدل هذا على وجود الزيت في باطن الأرض بكميات كافية للاستغلال التجاري، فتقدمت لاستغلاله شركة شل الإنكليزية، واستحوذت من الحكومة المصرية على منطقة امتياز في هذه البقعة، وبدأت العمل في مستهل هذا القرن، ثم حفرت أربعة وثلاثون بئراً مكثت تجود بالزيت حتى سنة 1927، ثم نضب معينها فهجرتها الشركة وتحولت إلى غيرها.
ويظهر إن هذا النجاح حفز حكومتنا السنية للبحث عن البترول، فاختارت بقعة جنوبي دمشة بخمسين كيلو متر تعرف بابي شعر، فأنشأت فيها في أوائل هذا القرن أيضاً مرفأ حسناً، وجعلت حوله رصيفاً لإرساء السفن. مدت عليه سكة حديد ضيقة تربطه بالداخل لمسافة طويلة، ثم أقامت بالقرب من الرصيف المخازن والمساكن لإيواء الموظفين والعمال وجلبت إليهم الفناطيس والماكينات والسيارات والأنابيب، وكلها من أجود أنواع الصلب المتين، ثم أخذت في حفر بئر وقبل أن تتمها بدأت في حفر بئر ثانية على مسافة من الأول وقبل إكمالها توقفت عن العمل فصرفت العمال والموظفين وشونت الماكينات والأدوات وتركت الأبراج قائمة على الآبار إلى اليوم، وقد زرنا أبا شعرة عصر أحد الأيام وهو قريب من محطة الأحياء المائية، فاستقبلنا بالقرب
من المرفأ الخفير القائم بالحراسة من قبل مصلحة المناجم، وقال هنا في هذا المخزن عربات الترولي وفي ذاك المخزن ست عربات لوري، وهناك الوابورات (ملقحة) وعلى يمينكم بيت المدير والإدارة وعلى يساركم منازل الموظفين والعمال، وعلى رأس السكة فنطاس الزيت، وخلف التل البئر الأولى وفي الوهدة أمامكم البئر الثانية. ثم تقدمنا فتبعناه فشاهدنا برجاً عظيماً من الحديد قد أقيم فوق البئر ولا زالت الأحبال والعدد هناك كما تركها العمال منذ عشرين عاماً ونيف.
وكنت أتخيل الحارس وهو يعد محتويات أبي شعر كأنه الترجمان في منطقة سقارة أو

الهرم وهو يرشد السائحين إلى مقابر الفراعنة وآثار الغابرين. وكنت أسائل نفسي في حيرة عن السبب أو الحكمة التي أملت هذا التصرف الغريب وعن العقلية التي أوحت بترك كل هذه الأدوات والعدد وثمنها لا يقل عن سبعين ألفا من الجنيهات كما قال الحارس ملقاة هكذا وسط الرمال طوال هذا الزمن حتى كادت تبلى ما دامت الحكومة قد قطعت الأمل من وجود البترول في هذه المنطقة.

وفي عام 1914 استحوذت شركة شل (أيضاً) على شقة طويلة من ساحل البحر جنوبي أبو شعرة بعشرة كيلو

مترات (فقط) في منطقة الغردقة، ثم حفرت فيها الآبار وأقامت عليها الأبراج وشيدت المعامل والمنازل وما إلى ذلك كما سيأتي وصفه.

وقد توجهنا لزيارة هذه الآبار عصر أحد الأيام برفقة صديقنا الدكتور محمود أبو زيد مفتش مصلحة المناجم وهو مندوب الحكومة لدى الشركة وله الأشراف على تنفيذ اشتراطات العقد بينها وبين الحكومة، وقد استقبلنا لدى وصولنا إلى الشركة وكيل المدير وهو إنكليزي، وبعد تبادلنا التحية أجاز لنا الزيارة، فتوجهنا إلى المعمل الفني ثم إلى منطقة الآبار، ويدير المعمل عالمان لهما دراية خاصة بالجيولوجيا الصناعية فيقدم لهما عينات من أنواع التربة التي تخرج أثناء عملية حفر الآبار فيبحثانها بحثاً مستفيضاً من حيث التكوين والعصر الجيولوجي التي تكونت أثناءه ونوع الحيوانات التي كانت تعيش فيها وهكذا، ثم يعمل بذلك رسم تمثيلي لكل بئر يدل على الترتيب الطبقي للقشرة الأرضية في مكان البئر ونسبة السمك لكل طبقة وغير ذلك من البيانات الدقيقة. ومن هذا الرسم والشواهد الجيولوجية

المحلية يكون في مكنتهما أن يقدما للشركة بيانات صحيحة لدرجة كبيرة من الأمور الآتية

1 - صلاحيات المنطقة من حيث وجود البترول

2 - عمق الطبقات الخازنة له

3 - نوع البترول

4 - اتجاه البحث عند المشروع في اختيار مكان حفر البئر التالية.

ولهذا المعمل على صغره وسكون الحركة من حوله أهمية كبرى في نظر الشركة وذلك لعظم النفقات التي يتكلفها حفر البئر الواحدة، فقيمة ذلك تتفاوت بين ستة آلاف وعشرة آلاف من الجنيهات. وللقارئ أن يتصور فداحة الخسارة التي قد تصيب الشركة إذا سارت في حفر الآبار على غير هدى كأن تقوم بالحفر في منطقة رحل عنها البترول أو كانت الطبقة الخازنة له قليلة العمق ينضب معينه منها بعد وقت وجيز.

وقد انتهزت فرصة وجودي بالمعمل وسألت أحد العاملين عن رأيه في مسألة أصل زيت البترول، وهي من المسائل العلمية التي لم تقرر بعد بصفة قاطعة فأجاب انه في جانب النظرية التي تقول بأن البترول ناتج من انحلال مواد نباتية وحيوانية معاً.

خرجنا من المعمل قاصدين الآبار، وتقع في منطقة الاستنباط الأساسية عند سفح تل من حجر جيري

- المحطة نمرة 1 - وفي هذه النقطة حفرت الشركة أول بئر لها، وقد قيل لنا ان خروج الزيت منها كان بكميات عظيمة مكثت مدة تتدفق ليل نهار على هيئة نافورة، حتى أنها أغرقت من الأرض حولها مساحة كبيرة - ثم توالى بعد ذلك حفر الآبار شمالاً وجنوباً حتى بلغ عددها التسعين - وفي السنوات الأخيرة قل الناتج منها قلة ظاهرة دعت الشركة إلى الانتقال إلى المحطة نمرة (2) وهي تقع في شقة جبلية قريبة من البحر على مسافة كيلو مترين تقريباً جهة الشرق من المحطة الأولى. وعدد ما حفر من الآبار حتى وقت الزيارة بلغ سبع عشرة بئراً كلها تجود بزيت غزير.

وعملية حفر الآبار من العمليات الهندسية الدقيقة، وقد شاهدنا بئراً في دور الحفر في المحطة الثانية وقد أقيم عليها برجاً من الحديد لا يقل ارتفاعه عن عشرين متراً تتدلى من قمته أحبال من الصلب معلقة في بكرات ووقف في البرج حول البئر المهندس والعمال

وكانوا يدخلون في جوف الأرض أنبوبة طويلة من الصلب، ومصدر الحركة من البرج طارة كبيرة من الخشب تديرها ماكينة قوية وقودها الزيت الثقيل.

وعلى خبرة المهندس وبراعته يتوقف نجاح حفر البئر فمثقاب ثقيل صاعد هابط

وأنابيب ترسل في جوف الأرض إلى عمق ألفين وربما ثلاثة آلاف من الأقدام الواحدة تلو الأخرى في استقامة رأسية، وإشارات المهندس يتلوها أفعال وأعمال بأوضاع مختلفة مؤتلفة. والمثقاب دائب الحركة داخل الأنابيب، وفتات الصخور والرمال ترتفع من باطن الأرض إلى سطحها بطرق ميكانيكية وبصيرة المهندس تلحظ ما هو جار في الأعماق فتصلح أي انحراف يطرأ على اتجاه الأنابيب أو تسد بالسمنت ما قد يحدث من الثغرات في جدرانها حتى لا يتدفق فيها ماء الرشح أو يتسرب منها الرمل فتفسد البئر، ويستمر العمل جارياً هكذا مدة ثلاثة شهور أو أربعة وأحياناً عشرة حتى يصل المثقاب إلى طبقة البترول، وهنا يسير العمل بحذر شديد وبعناية كبيرة، وتتجلى في هذا الدور ألمعية المهندس في توقيه ما قد يحدث أحياناً من انبثاق الزيت وهو تحت ضغط هائل من الأعماق السحيقة إلى وجه الأرض بشدة عظيمة تخرب البئر وتقذف الأنابيب والأدوات في الهواء إلى علو كبير، وتغرق الأرض بكميات كبيرة من الزيت يذهب معظمه هباء وتكون الخسارة افدح لو اتصلت النار بهذا الزيت فنشب حريق هائل قد يلتهم باقي الآبار ومستودعات البترول ومباني الشركة. للمهندسين طرائق مختلفة لاجتناب هذه الكارثة - فإذا اجتاز الحفر هذه الخطوة الدقيقة ووصل المثقاب إلى الزيت نفسه رفع المثقاب وأدليت مكانه مضخة ماصة كابسة تستقر وسط الزيت على عمق لا يقل في المتوسط عن 600 متر، هذا إذا كان ضغط الغازات في باطن الأرض عاديا، أما إذا كان الضغط كبيرا فان الزيت يستمر متدفقا داخل الأنابيب من نفسه مدة طويلة حتى يهبط ضغطه، وعندئذ تدار المضخة بواسطة محركات قوية فيخرج الزيت على هيئة سائل كثيف لونه اسمر داكن مشبع بغازات فوارة ومختلط بدقائق الماء الملح وبعض المواد الصلبة والأملاح فيرسل في أنابيب إلى أجهزة خاصة لتنقية مما فيه فتنفصل عنه أولا الغازات الخفيفة التي ينتفع ببعضها محليا كوقود ثم تفصل عنه الأملاح بغسله بالماء الغذب في أحواض مقفلة ثم يفصل عنه الماء بطرق كهربائية في مصنع كبير مشيد بالقرب من الآبار، ومن جهازات التنقية يذهب الزيت إلى
مستودع كبير بالقرب من الميناء لتخزينه بها حتى شحنه في السفن للسويس لتكريره وفصل مركباته عن بعضها كزيت الإضاءة وزيت الوقود والبنزين وغير ذلك - ويبلغ الناتج اليومي من البترول الخالص في حقل الغردقة 600 طن يصيب الحكومة منه نحو 60 طنا وذلك قيمة الضريبة.

يتبع

الدمرداش محمد

العالم المسرحي والسينمائي

- فن التنكر

وعلاقته بالإضاءة المسرحية

تحدثنا في الأسبوع الماضي عن فن التنكر من الوجهة العامة بحيث لوضحنا أهميته وخطره للممثل الذي يريد أن يتقن عمله المسرحي الإتقان الفني المنشود ليستطيع ان يخرج الشخصية التي يمثلها الإخراج الصحيح المطلوب من الممثل الكفء. وقد رأينا سعة الدائرة التي يشملها هذا الفن حتى ليتطلب الإلمام به دراسة شاملة دقيقة بعضها يتصل بعلم النفس، وبعضها يتصل بعلم التشريح والطب، وبعضها يتصل بدراسة الأجناس المختلفة المبعثرة على سطح هذه الأرض. ونتحدث في هذا الأسبوع عن فن التنكر من إحدى نواحيه الفنية اعني من حيث علاقته بالإضاءة المسرحية. فالأصباغ والأدهنة التي يستخدمها الممثل في تنكره تتألف من الوان مختلفة متعددة، ومن الثابت أن الألوان لها علاقة وثقى بالضوء، وشتان ما بين الأضواء الصناعية والضوء الطبيعي الذي يكسب الأشياء مظهرا خاصا ولونا خاصا لا يمكن أن يكون لها تحت الأشعة الصناعية، وليس ثمت ضوء صناعي يظهر الأشياء بنفس المظهر الذي يكون لها تحت أشعة الشمس في وضح النهار، لذلك كان لزاما علينا أن درس هذه العلاقة بين اللون والضوء حتى نستطيع في المسرح أن نعطي الضوء المناسب وقد أدخلت في السنوات الأخيرة تحسينات كثيرة على الإضاءة المسرحية سواء من الوجهة الفنية أو الآلية، وتكاد تكون لكل مخرج طريقته الخاصة به ونظرياته التي يبتكرها تارة أو يستنبطها من تجاربه المتوالية تارة أخرى. ولسنا بصدد شرح هذه النظريات، فنتركها

إلى البديهيات التي لا محل فيها للاختلاف.

والان نضع هذا السؤال: كيف نرى الأشياء ونميز ألوانها المختلفة؟ حاسة النظر هي التي تودي لنا هذه الغاية بواسطة الضوء. وهذا ثابت من الحقيقة المعروفة إذ لا يمكن أن نرى شيئا من الأشياء إلا إذا سلطنا عليه ضوء طبيعيا أو صناعيا، فإذا لم يكن هناك هذا الضوءلم نستطع رؤية شيء. وادخل غرفة مظلمة وحاول أن تميز ما فيها فلن تستطيع مهما كنت حاد البصر، مع أن الغرفة ملأى بما فيها من أثاث وأدوات وغيرها. وعود من الثقاب تستطيع بلهبه، الذي يشع ما نسميه بالضوء تمييز ما في هذه الغرفة. واكثر ما في

هذا العالم من الأشياء لا يشع ضوءاً ذاتيا، وتسمى بذلك بالأجسام غير مضيئة، والبعض الآخر له القدرة على الإشعاع الذاتي وتسمى بالأجسام المضيئة. وهذه الأجسام كالشمس والمصباح واللهب ترى بواسطة الضوء الذي تشعه، ويتألف هذا الضوء من ذرات مضيئة يصل بعضها إلى شبكة العين فيؤثر فيها هذا التأثير الخاص أما الأجسام غير المضيئة فأنها تتراءى للعين لعلة واحدة وذلك بسبب مالها من الخاصية في عكس الأضواء التي تنصب عليها من الأجسام المضيئة. وعلى ذلك فان الأشياء التي تراها إنما تبين لناظريك عن طريق الضوء الذي تعكسه على شبكة العين. وتتوقف درجة وضوحها ومداها على طبيعة وحجم الأجزاء العاكسة للضوء فيها، وعلى مقدار الضوء المتسلط عليها، وعلى المدى الذي بينها وبين العين والأجسام المضيئة تبدو كأنها تزداد حجما كلما زاد ضوئها بريقا وقوة، وإذا نظرت إلى شيئين متساويين في الحجم أحدهما مضيء والثاني مظلم بدا الأول اكبر حجما من الثاني. ومن المسلم به إن الضوء الأبيض، كما يسمونه في الاصطلاحات العلمية، يتألف من جميع الألوان الموجودة في الطبيعة أو التي يمكن خلقها صناعيا، ومن الميسور تفريق هذه الألوان بعضها عن بعض، كما انه من الميسور مزجها من جديد فيعود للضوء لونه الأصلي. وهذه الألوان المختلفة يمكن تقسيمها إلى ستة الوان رئيسية هي: الأحمر والبرتقالي والأصفر والأخضروالأزرق والبنفسجي. ولكل من هذه الألوان طبيعته، ولكل منها موجته وخواصه إلى غير ذلك مما لسنا بصدده. ولكن يهمنا هنا أن نقرر أن جميع الألوان ليست إلا نتاجا للضوء في انعكاسه من سطح المنظور على شبكة العين. فالأشياء التي نراها ليست لها الوان ذاتية في الحقيقة، ولكنها تكتسب ألوانها التي نراها ونصفها من طريق الانعكاس الضوئي. أو نقول بعبارة أخرى، إن اللون ينتج من الضوء الواقع على الشي المنظور. وما نسميه بالألوان الطبيعية للأشياء يرجع إلى الحقيقة المقررة من أن كل منظور يعكس على العين لونا من الألوان الموجودة في الضوء الأبيض المسمى بالضوء الكامل لانه يتألف من جميع الألوان والأجسام غير المضيئة خاصة تمييز أو امتصاص الضوء المتسلط عليها. وهذه الخاصية لها قوة الاختيار، أي إنها تمتص بعض الوان الضوء وتعكس البعض الآخر. وعلى ذلك فلون شيء من الأشياء يرجع في حقيقته إلى طبيعة اللون الضوئي الذي لم يمتصه المنظور وعكسه على العين. فمثلا، إذا امتص

المنظور كل الضوء المتسلط عليه بدا المنظور اسود اللون وإذا عكس كل الضوء بدا ابيض اللون. فالمنظور الذي يبدو احمر اللون تحت الضوء الأبيض يكون قد امتص سائر الألوان الضوئية ولم يعكس منها إلا الأشعة الحمراء، فطبيعة اللون الذي يبدو للمنظور تتوقف على الضوء الساقط عليه، فإذا فرضنا إن الأشعة التي يعكسها المنظور معدومة في الشعاع الساقط عليه أو قليلة المقدار بداالمنظور قاتما أو غير تام الوضوح. ومن المعروف انه لا يمكن الحكم على الوان الأشياء حكما صادقا تحت الأشعة الصناعية. وذلك لان هذه الأشياء تكون في هذه الحالة معرضة لضوء لا تحتوي على كل الألوان الضوئية، ولذلك لا يمكن لهذه الأشياء أن تعكس جميع الألوان التي تعكسها تحت الضوء الطبيعي والضوء اللون ضوء ناقص، أي انه ينقصه لون أو جملة الوان من تلك التي يحتويها الضوء الأبيض الكامل.

وهذه الكلمة الموجزة عن طبيعة الضوء إنما تعيننا على فهم الإضاءة الصناعية المستخدمة في المسرح وعلى الاستفادة منها بحيث نتسلط عليها كل التسلط ونوجهها الوجهة التي ننشدها لنخرج منها على خشبة التمثيل ما نشاء من الصور والأخيلة التي نريد أن نبرزها للتفرج.

ولما كان التنكر المسرحي أساسه أصباغ وأدهنة ملونة، يستخدم كل لون منها لغاية مخصوصة محدودة، فان العلاقة بين فن التنكر والإضاءة المسرحية تبدو واضحة جلية.

محمد علي حماد

العدد 42 - بتاريخ: 23 - 04 - 1934
العام الهجري
1353

منذ أسبوع قلب الدهر المسجل صفحة ثلاث وخمسين وثلثمائة وألف من تاريخنا المجيد المشرق، قلبها هذه المرة وهو حافل حاشد يرصد فلك الإسلام، ويرقب حركة العرب، ويجمع الأُهبة لتسجيل ما يتوقع من أحداث الأمة المبعوثة، والبطولة الموروثة، والعروبة الناهضة!

وكان منذ تفجرت في وجوهنا الأهوال، واغبرت في عيوننا الآمال، وأخلد إلى الجِمام سلطاننا الجاهد، يقلب الصفحة بعد الصفحة، فلا يجد ما يسجل غير أنَّات العاني، ونشجات الباكي، وخلجات الجناح المهيض، حتى أوشكت حياتنا الخالفة أن تكون لَحّقا من البؤس والهُون لكتاب آبائنا الجليل المحكم! ولكن الأمة العربية التي تمتد جذورها في أعماق الأزل لابد من ربيعها وإن طال الخريف!

فالحياة المتجمعة في الأصل الثابت أخذت تشيع في الجذع وتنتشر في الفروع، والظلال الحاسرة في العهد الجديب جعلت تمتد إلى القفر وتنبسط في الربوع، وأشبال الفاتحين الذين غيروا وجه الأرض، وحرروا موازين العدل، قد هبوا ينفضون عن المعدن الكريم غبار الزمن، ويمسحون عن الجوهر الحر عبث العوادي، ويعودون إلى مكانهم من رأس القيادة وصدر العالم!

ففي مصر تضطرب الحياة الجديدة في البراعم النابتة، وتضطرب نوازي الكمال في النفوس الهامدة، ويفيض نبل الإحساس في صدور الناس فيكفكفه وا أسفاه طغيان الغاضب، وتكدره وا حسرتاه بقايا العهد الذليل!

وفي فلسطين تدافع العروبة جراد أوربا المحاق، وتصارع الاستعمار المسلح الخاتل، وتطلب عز الحياة بعز الممات وشرف التضحية.

وفي سورية يقظة عاملة فطنة، تداور خصمها بالصبر، وتواثب جشعه بالحزام، وتقابل نفعه بالجذر، وتصارح هوجه بالنخوة. وتتجهز للمستقبل الباسم القريب بجهازه

وفي العراق (أمة تنشئ الحياة، وتبني الملك، وتلحق الزمن) وتصل ما انقطع بين ماضٍ ضخم وحاضرٍ نزوع، وتنبض بالحيوية العربية المتجددة نبضان القلب الفتي الطموح

وفي الجزيرة موطن الأسرار ومهبط الوحي ومشرق الدين ومنبت العبقرية تخطر العروبة في مطارف العز بين سرير الإمام وعرش المَلِك! وإذا نزت بين الأخوين نوازي الخلاف فذلك حفاظ ينتهي إلى السلم، تعود إلى السلامه، وإن في إصاختهما إلى دعوة الداعين إلى الصلح في أقطار العرب لدليلا على اتجاه الميول إلى الوحدة، وإصغاء القلب إلى الجماعة وفي الجزائر ومراكش قلوب تذوب من حرارة الظلم، ورءوس تدور من خَدَر السياسة، وشهداء في سبيل الوطن والدين يخطون لأبنائهم بدمائهم وصية المستقبل! وسائر المسلمين في تركية وإيران وأفغانستان والهند والصين وأندوسيا وروسيا ويوغوسلافيا يشعرون بالتطور الجديد، وينظرون إلى الأفق، ويتمنون أن يعود الإسلام كما بدأ مرفوع الراية، مجموع الرأي، مسموع الكلمة! والأمر في الجملة يدل على نور ينبثق من جديد في أمة محمد، وروح ينبعث في مملكة الرشيد، وشعور يتألف من هذه الروح وذلك النور فيجمع قلوب الاخوة المتفرقين على هوى واحد!

حسبُنا مطلع العام الهجري موقظا للشعور وحافز للهمم وهادياً إلى شرف الغاية. يستقبله المسلم الذاكر فتعاوده ذكريان تجددان دينه وتثبتان يقينه وتقومان خلقة: ذكرى هجرة الرسول في سبيل الدين، وذكرى مقتل الحسين في سبيل الحق! فأما هجرة الرسول فقصيدة من قصائد البطولة القدسية لا يفتر عن إنشادها الدهر! استمدت وعيها من روح الله، ونسجها من خلق الرسول، وسيرها من صدق العرب! واستقرت في مجامع الأجيال مثلا مضروبا لقواد الإنسانية، يلهمهم الصبر على مكاره الرأي، والاستمساك في مزالق الفتنه، والاستبسال في مواقف المحنة، والاستشهاد

في سبيل المبداء، والاعتقاد الصادق بفوز الفكرة
بلَّغ الرسول ما أنزل إليه من ربه وقد تألبت عليه جهالة العصبية، وحماقة الشرك، وسفاهة الحسد، وعداوة المنافسة، وحرمان الفقر، وخذلان القلة، فما استكان ولا وهن؛ ثم نبْت ففار مكة على الغراس الإلهي فهاجر به تحت عين الله إلى طيبة! وهنالك؛ الصبر والصدق والأيمان والرجولة، أثمر غرس الدعوة، وتم نور الله، وأصبحت القلة ملة، وصارت كل قرية من القرى الثلاث قارَّة
وأما مقتل الحسين فلا يزال صكاً دامياً في سجل التأريخ، يثبت أن العربي الحر لا تلهية عن نداء الواجب زهرة الحياة، ولا ترده عن طلب الحق كشرة الموت.
فإذا انتفع العرب والمسلمون بهاتين الذكريين، وجعلوهما كما هما في رأس العام رمزين على الجهاد الواصب في سبيل العقيدة، والاستشهاد المروع في سبيل الحق، عاد أمرهم يجري مع الشمس، ويسري مع الروج؟ ويتغلب أخيراً مع الحق!
احمد حسن الزيات
من حديث الشهداء
للدكتور طه حسين
لم يذكر في تلك الليلة ماضيهم الحلو، وحاضرهم المر، ويستمتعون فيها عن أوطانهم تلك النائية التي كانوا ينعمون فيها بلذات الحياة، ويستمتعون فيها بخفض العيش، ويسيرون سيرة الأحرار لا يعرفون لأحد غير قيصر وعماله عليهم سلطاناً، وقد يعرف لهم غيرهم كثيرا من السلطان والبأس، وقد يقدم إليهم غيرهم كثيرا من آيات الطاعة والإذعان. ولم يسمروا بهذه الأحاديث التي تعودوا أن يسمروا بها إذا فرغوا من أعمالهم وانصرفوا إلى راحتهم ولقي بعضهم بعضا حين ينقضي النهار ويتقدم الليل، والتي كانوا يستعيدون بها حياتهم تلك الجميلة المشرقة، ويستحضرون بها مواطن لذاتهم ونعيمهم، هناك حيث لا يشتد القيظ حتى ينضج الجلود ويصهر الأجسام، وحيث لا تقع العين على الجبال الجرد والوهاد المقفرة، وحيث لا تضيق الأرض بالناس ولا يضيق الناس بالأرض، وحيث يستقبل الناس أيامهم راضين باسمين، ويستقبلون لياليهم لاهين عابثين. كلا ولم يسمروا في تلك الليلة بما كانوا يسمرون به من ذكر الفاتنات المفتونات اللاتي كن يحولن حياتهم أحلاماً ويجعلن جدهم لعباً، ويسرين عنهم كل هم، ويغرين بهم كل نعيم، يخلبنهم بالفظ واللحظ، ويعذبنهم بالذل والتيه، ويسعدنهم بالقرب والوصل، كلا ولم يسمروا في تلك الليلة بأحاديث قيصر وقصره، ولا بأنباه الحاكم وحاشيته، ولا بقصص الحرب بين الفرس والروم، وأين هم الآن من قيصر وقسطنطينية؟ وأين هم الآن من تلك الثغور الباسمة القوية التي كانت تبسم لأهلها كأنها الجنات، وتعبس لأعدائها كأنها الجحيم. وأين هم الآن من الفرس والروم؟ وأين تكون مكة من ميادين الحرب بين الفرس والروم؟ كلا. ولم يسمروا في تلك الليلة بما كانوا يسمرون به أحياناً من أحاديث ساداتهم ومواليهم، ومما كان يتصلبينهم من التنافس والجهاد، ومما كان يدبر بينهم من الكيد والمكر، ومما كان يجتمع لهم من الغنى والثراء، ومما كان يلم بهم من الحوادث والخطوب كلا، ولم يسمروا في تلك الليلة بما كانوا يسمرون به أحياناً من أحاديث هذه القوافل التي تفصل من مكة إلى الشام، فتمضى معها نفوسهم تسايرها في تلك الطرق البغيضة التي يذكرون طولها وثقلها حين قطعوها عناة أذلاء يساقون إلى مكة عبيداً أرقاء، والتي كانت تعود إلى مكة قافلة من الشام تحمل من أرض قيصر أنباء
مختلطة وأحاديث مشوهة مضطربة، ولكنهم كانوا يتلقفونها ثم يتناولونها بالتأليف والتصنيف، وبالتحليل والترتيب، حتى يكونوا منها شيئاً مستقيماً أو كالمستقيم: ثم يتخذون منه علما بأمور أوطانهم تلك التي لم يبق لهم اليها سبيل.
كلا. لم يسمروا في تلك الليلة بشيء من هذا، لأن أحاديث مكة شغلتهم عن كل هذا، وما لها لا تشغلهم وصاحبهم نسطاس قد اشترك فيها وأثار كثيرا منها، وها هو ذا قد اتخذ مكانه بينهم كئيباً كاسف البال، محزوناً بادي الحزن، قد اضطربت نفسه أشد اضطراب. وهو يتحدث إليهم في صوت متقطع مظلم كأنما أسبغ الحزن والندم واليأس عليه ظلمة كثيفة متراكمة لا تنكشف عن شيء. وما له لا يكتئب ولا يبتئس، وماله لا يحزن ولا يندم، وما له لا يفزع ولا يجزع، وقد سفكت يده المسيحية دما بريئا ولما ينتصف النهار: أو كان هؤلاء النفر جماعة من نصارى الروم دفعوا إلى بعض أطراف

الصحراء وعدت عليهم بعض القوافل فاتخذتهم تجارة، وتقلبت بهم ظروف الرق حتى انتهوا إلى ملك جماعة من سادة قريش. وكان نسطاس أنقاهم ضميراً، وأصفاهم قلباً، وأعظمهم حظاً من الدين. وكان لهذا كله أصبرهم على ما ألم به من كرب، وأحسنهم احتمالا لما سلط عليه من محنة، ورضى بهذا النكبة التي كان ينظر إليها على أنهااختبار له، وابتلاء لأيمانه، وامتحان لثقته، وتهيئة لنفسه لتحيا حياة السعداء إذا انقضت إقامتها في هذا العالم الشقي البغيض. ولكنه أظهر في تلك الليلة غير ما تعود أن يظهر لأصحابه من الجلد والصبر، ومن الإباء والاحتمال، وهم يعرونه ويرفقون به في العزاء، وهم يلومونه ويعنفون عليه في اللوم، وهم يأتون نفسه من جميع أنحائها يريدون أن يصرفوها عن هذا الحزن العميق، وأن يصرفوا عنها بعض الهم الثقيل، ولكنهم لا يبلغون منه شيئاً ولا يزيدونه إلا إغراقاً في الحزن وغلواً في اليأس، وربما بلغوا بأحاديثهم قرارة نفسه فأثاروها ودفعوه إلى الحديث فإذا هو يتكلم بكلام تقطعه العبرات وتبلله الدموع. وكان نسطاس ملكاً لصفون بن أمية، وكان قد أنفذ في ذلك اليوم أمره في أسير من أسرى الأنصار يقال له زيد بن الدثنة دفعه إلى صفوان وأمره أن يخرج به من الحرم، حتى إذا بلغ به النعيم قتله ثم عاد، ولم يكن مثل هذا العمل يحبب إلى نسطاس، ولكنه لم يكن خليقاً أن يدفعه إلى مثل هذا اليأس المهلك لولا أنه عرف من ،أمر أسيره وصريعه، ومن أمر أصحابه ما عرف، ولولا أنه رأى من أمر زيد ما رأى وسمع من أمر خبيب ما سمع، وانتهت إليه أحاديث أولئك الذين أدركهم الموت قبل أن يحملهم إلى مكة ويبيعهم لقريش غدر الغادرين من هذيل. ولكنه عرف ما عرف، ورأى ما رأى، وسمع ما سمع. فذكر أموراً كان يقرؤها في الكتب، وأحداثاً كان يهلع لها حين يسمع أبناءها من الوعاظ. ذكر أولئك الشهداء الذين قتلوا في المسيحية تقتيلا، والذين امتحنوا بما كتب الله عليهم من ضروب المحن وفنون الكيد فلم تضعف نفوسهم ولم تهن عزائمهم ولم يفرطوا في دينهم ولم يجد الشك إلى نفوسهم سبيلا. ذكر أولئك الشهداء الذين أقاموا مجد المسيحية على أشلائهم وغذوه بدمائهم، وقووه بضعفهم، وأعزوه بما احتملوا في سبيله من الذل، وأيدوه بما لقوا في سبيله من الأذى والآلام. ذكر أولئك الشهداء الذين كان يكبرهم ويجلهم، ويرى أنهم شفعاؤه وشفعاء أمثاله عند الله، وانهم قدوته الصالحة وأسوته الحسنة ومثله الأعلى، وانه أسعد الناس لو استطاع أن يظفر ببعض ما ظفروا به من عذاب الدنيا ونعيم الآخرة؛ ومن ذل الدنيا وعز الآخرة؛ ومن هذا الموت الهين السريع الذي تتبعه حياة باقية سعيدة متصلة لا حد لما فيها من نعيم.

ذكر هؤلاء الشهداء وذكر أنه لم يزد حين أطاع أمر مولاه صفوان على أن قتل واحداً منهم، واقترف ذلك الإثم الذي اقترفه الظالمون الذين اضطهدوا الشهداء وفتنوهم؛ ثم قدموهم قرباناً إلى آلهتهم وأوثانهم في الزمن القديم. هنالك اضطربت نفسه اضطراباً، وزلزل قلبه زلزالا، ورأى حياته كلها وقد استحالت إلى شر منكر، ورأى ما قدم من الخير وقد استحال إلى فساد، ورأى ما احتمل من الآلام وقد أصبح هباء. وهنالك ملك الندم عليه أمره، وملأ اليأس عليه قلبه، وعجز أصحابه عن أن يمسوا نفسه بما كانوا يقدمون إليه من تسلية أو عزاء. على انه لم يكن يحس في نفسه شيئاً من الموجدة على مولاه صفوان، ولم يكن يضمر شيئاً من البغض، إنما كانت موجدته كلها وحقده كله قسمة بين نفسه وبين امرأة من قريش، وهي سلافة بنت سعيد بن سهم زوج طلحة ابن عبد الله بن عبد العزى. كان واجداً على نفسه أشد الموجدة، مبغضاً لها أشد البغض لأنها أثمت بقتل هذا الرجل الشهيد، وكان حانقاً على سلافة حاقداً عليها لأنه هي أصل هذا الشر، ومصدر هذا الإثم، ومنشأ هذا البلاء وكان يقول لأصحابه: لولا أن هذه المرأة الآثمة نذرت ما نذرت، وأذاعت ما أذاعت من أهل البادية، لما دفع صفوان إلى ما دفع إليه، ولما ظفر صفوان بما ظفر به، ولما اشترى اسيره، ولما أنفذت أمره فيه. قال أصحابه وما نذر سلافة وماذا أذاعت في الأعراب؟ قال أتذكرون يوم حشدت قريش لحرب صاحبها في يثرب كيف كان أشراف مكة موتورين يأكل قبلهم الغيظ، وتملأ نفسهم الحفيظة، وتضطرب أمامهم أشباح الخزي يذكرون هزيمتهم حين لقوا صاحبهم لأول مرة ففعل بهم الافاعيل، وترك من أشرافهم صرعى لم يثوبوا إلى أهلهم ولم يستمتعوا بتجارتهم تلك الرابحة التي أنقذها أبو سفيان. ويشفقون أن يتراءى لهم الموت فلا يثبتوا له ولا يقدروا على النظر إليه

فيفروا منهزمين كما فروا من قبل. ويتركوا صرعى من أشرافهم كما تركوا مثلهم من قبل.

هنالك اجمعوا أمرهم على أن يتقووا بالنساء ويتقوا بهن الهزيمة والعار، فاختاروا منهن أعلاهن قدراً وارفعهن شأناً وأنبههن ذكراً وأقدرهن على دفع الرجال إلى غمرات الموت. وكانت سلافة بين هؤلاء النساء، خرجت مع زوجها وبنيها الثلاثة، وعادت مع المنتصرين أيما ثكلى قد فقدت زوجها وفقدت بنيها.

ثم سكت نسطاس كأنما يستحضر هولا يروع النفوس ويخلع القلوب. ثم عاد إلى حديثه في صوت هادئ بعيد فقال: إن كانت لوقعة مروعة حقاً تلك التي كانت عند يثرب. لقد عادت قريش تتحدث بالأعاجيب، لقد عادت تتحدث بالإخوان يسعى بعضهم إلى بعض بالموت. لقد عادت تتحدث بالأمهات يدفعن أبناءهن إلى أن يقتل الرجل منهم أخاه. لقد عادت تتحدث بأم مصعب فما كان لها أن تظهر عليه حزناً أو جزعاً لأنه كان من خصم قريش وأصحاب محمد، لقد عادت قريش منتصرة تتحدث بأمر سلافة هذه وقد فقدت زوجها وتلقت ابنيها أحدهما بعد صاحبه يبلغها وقد أصابه السهم فتضع رأسه على حجرها وتسأله يا بني من أصابك؟ فيقول ما أدري، ولكن سمعت قائلاً يقول: خذها وأنا بن الأفلح. ثم أصابني السهم، يقول ذلك ثم يجود بنفسه بين ذراعيها. هنالك نذرت سلافة لئن قدرت على قاتل ابنيها لتشربن في قحف رأسه الخمر، وهنالك أذاعت في أهل البادية وأعراب الحجاز أن من جاءها برأس ابن الأفلح هذا فله مائة من الإبل. هذا أصل الشر وهذا مصدر البلاء.

قال قائل وأي شيء لا يفعله الأعراب في سبيل جزور فضلاً عن عشرة من الابل، فضلاً عن مائة من الإبل؟ قال نسطاس: والغدر أيسر ما يفعله الأعراب ليبلغوا أيسر من هذا المال.

أقبل جماعة من هذيل على صاحب يثرب فزعموا له انهم قد آمنوا به وأسلموا له، وان دينه قد فشا فيهم، وسألوه أن يرسل معهم من يفقههم في الدين ويعلمهم شرائعه. يظهرون الإخلاص ويضمرون الغدر، لا يبتغون إلا أن يظفروا بنفر من أهل يثرب يبيعونهم من قريش لتصيب بهم ثأراً وليصيبوا بهم مالاً. ويريد الله لأمر قضاه أن يختار نبي يثرب ستة من أصحابه وأن يؤمر عليهم عاصم بن ثابت بن الأفلح الذي كانت تبتغيه سلافة، وان يرسل هؤلاء النفر من أصحابه مع أولئك الغادرين. فما هي إلا أن يقربوا من مكة حتى يظهر الخفي ويصرح الشر ويتبين الغدر. وإذا الذين كانوا يعلنون إيمانهم يستصرخون فيأتيهم الصريخ من هذيل. وإذا أصحاب محمد يرون الغدر فينحازون إلى الجبل ويعاهدهم أعداؤهم على ألا يقتلوهم ولا يمسوهم بأذى أن هم ألفوا بأيديهم. فأما عاصم واثنان من أصحابه فيقسمون لا ينزلون على عهد كافر أبداً. ويقاتلون حتى يقتلوا. وأما الآخرون فيحبون الحياة ويلينون لها، فيستأسرون ولا يكادون يفعلون حتى يروا الغدر، فيأبى أحدهم أن يتبع الغادرين وإذا هو مقتول، ويبقى الآخران أسيرين يحملان إلى مكة ويباعان فيها. فيشتري أحدهما صفوان ويأمرني به فأتم له ما قدر له من نعيم، ويتم لي ما قدر لي من شقاء.

ثم يجهش نسطاس بالبكاء ويغرق فيه حينا. ثم يعود إلى حديثه في صوته ذلك الهادئ البعيد، فيقول لقد عرفت ورأيت من أنباء هؤلاء الناس ما لم أكن أقدر أن أعرف أو أرى. ولولا أن الشقاء مقضي علي ومقدور لي، لكان فيما عرفت قبل أن أقترف الإثم صارف لي عن اقترافه، وماذا كنت أخاف لو عصيت صفوان ولم أسفك هذا الدم الحرام؟ وأيهما أهون عليّ؟ وأيهما كان خليقاً أن أوثره؟ الموت بيد صفوان أم الشقاء الأبدي الذي دفعت إليه؟

لقد فرحت هذيل بمقتل عاصم بن ثابت، وقالت مائة من الإبل تدفعها إلينا القرشية حين نأتيها بهذا الرأس، ثم أقبلوا إليه يريدون أن يحتزوا رأسه؟ ولكن ماذا سمعت وماذا تسمعون، هذه ظلة من الدبر تقوم دونه فتحميه وتمنعهم أن يصلوا إليه، فيقول بعضهم لبعض: دعوه حتى يأتي الليل فسنصرف عنه هذه الدبر، وسيخلص لنا رأسه. حتى إذا كان الليل هموا أن يسعوا إليه ليحتزوا رأسه؛ ولكن ماذا سمعت وماذا تسمعون؟ لم يبلغوه ولم يمسوه، وإنما أقبل السيل فاحتمله، ومضى به إلى حيث لا تبلغه يد. ولقد حدثت أن هذا

الرجل كان قد نذر ألا يمس كافراً ولا يمسه كافر، ولقد حدثت أنه لما امتنع على القوم فقاتلهم وقاتلوه، رفع صوته ضارعاً إلى ربه وهو يقول: اللهم إني قد حميت دينك أول النهار فاحم لحمي آخر النهار. ولما بكى نسطاس عند هذا الحديث فلم يبك وحده، وإنما بكى معه أصحابه جميعاً بكاء طويلا، حتى إذا كفكفت عبرته وهدأ عنهم البكاء مضى في صمته، ولكنهم ألحوا عليه أن يتم ما بدأ من الحديث، فقال وبم تريدون أن أتحدث إليكم؟ لقد كنت أقرأ أخبار شهدائنا وأسمع أحاديثهم فأرهبها وأكبرها وأخافها وأرغب فيها وأود لو أني حييت في تلك الأيام التي كانت ترخص فيها الحياة، ويغلو فيها الإيمان، وأود لو أني كنت واحداً من هؤلاء الناس الذين باعوا نفوسهم من الله، فقد أتيح لي اليوم أن أعيش في بيئة الشهداء وأن أراهم وأتحدث إليهم وأسمع منهم، ولكني لم أبع نفسي من الله، وإنما بعتها من الشيطان، ولم أسفك دمي في سبيل الله، وإنما سفكت دم شهيد كريم.

ولقد سمعت أبا سفيان زعيم قريش يسأله أيما احب إليه؟ أن يقوم محمد مقامه هذا وأن يكون هو آمنا بين اهله؟ فيجيبه والله ما احب أن تصيب محمداً شوكة تؤذيه وأنا آمن بين أهلي، فيقول أبو سفيان لمن حضر من أشراف قريش: ما رأيت أحداً يحب أحداً كما يحب هؤلاء الناس صاحبهم. ثم تمتد يدي الآثمة إلى هذه الحياة الطاهرة فنطفئ سراجها، والى هذا الدم الزكي فتسفكه على الأرض مخافة من غضب صفوان، يا للهول! لقد كنت احسب أن صفوان لم يملك إلا جسمي وان نفسي ما زالت حرة. فقد علمت الآن إني رقيق حقاً، وقد علمت الآن أن سلطان السادة على الأرقاء قد يتجاوز الأجسام إلى النفوس، وقد علمت الآن أن الرجل الذي يرضى بالرق ولا يموت دون الحرية إنما يقتل نفسه قتلا. لقد قتلت نفسي يوم آثرت الحياة وقبلت أن أكون سلعة في يد أولئك التجار.

قال رجل من أصحابه إن كان صريعك هذا شهيداً كريماً، وما أراه إلا كذلك، فان رفيقه الذي قتله بنو الحارث بن عامر لم يكن أقل منه كرامة، ولعل مصرعه أن يكون أشد من مصرع صاحبه ترويعاً للنفس وتمزيقاً للقلب، لم يبسطوا عليه بالشر يد مولى من مواليهم أو عبد من عبيدهم، وإنما كانوا ظماء إلى دمه، حراصاً على أن يخمدوا جذوته بأيديهم خرج به جمعهم إلى التنعيم فلما أراد قتله استأذنهم في أن يتقرب إلى ربه بالصلاة قبل أن يخطو آخر خطواته في الحياة، فأذنوا له فصلى ركعتين، ثم قال لهم لولا أني أخاف أن

تظنوا بي الجزع لزدت. ثم ينهض إليه أحدهم فيقتله ويعودون عنه وانهم ليتحدثون من أخلاقه وخصاله بما كان خليقاً أن يصرفهم عن قتله لولا أن قلوبهم قست فهي كالحجارة أو أشد قسوة. لقد كانوا يقولون انهم جعلوا سجنه عند امرأة منهم، وان هذه المرأة كانت تتحدث إليهم من أمره بالأعاجيب، كانت تراه مغلولا يأكل من الفاكهة والثمر ما ليس لأهل مكة عهد به في مثل هذا الوقت. لا تدري كيف سيق إليه. ولقد أنبأتهم انه حين أظله اليوم الذي كان يراد قتله فيه طلب إليها موسى يتهيأ بها للموت. فأرسلتها إليه مع طفل صغير يدرج، ثم لم تلبث أن راعها ما فعلت، وان امتلأ قلبها رعباً، وان قالت لنفسها ما يمنع هذا الأسير أن يقتل هذا الصبي فيثأر بنفسه قبل أن يدركه الموت؟ وأقبلت عليه مسرعة فإذا هو قد اجلس الطفل على فخذه وهو يداعبه ويلاعبه، وأكبر الظن أنه إنما كان يودع فيه طفلاً له بعيداً. فلما رأى المرأة مقبلة وقد أخذها الروع ابتسم لها ابتسامة الحزن، ونظر إلى الطفل نظرة الحب، وقال للمرأة: أشفقت على هذا الصبي من الغدر، ليس الغدر من أخلاقنا

أفمثل هذا الرجل كان خليقاً أن تقدمه قريش فتقتله لو أن قريشاً تعرف الحق، أو تقدر الخير، أو ترجوا لله وقارا، أو تحس في قلوبها أثراً من آثار الرحمة والبر؟ قال قائل منهم ما أرى إلا أن لهؤلاء الناس من أهل يثرب شأناً. فلو أنهم يقيمون أمرهم على شيء من باطل هذه الحياة الدنيا لما استقبلوه بهذا الحزم، ولما احتملوا في سبيله هذا الأهوال، ولما رخصت عليهم نفوسهم ودماؤهم وأموالهم وأهلهم إلى هذا الحد. والله أني لأسمع ما يقال وأرى ما يحدث فلا أشك في أن أهل هذه الأرض يستقبلون عصراً كذلك العصر الذي استقبله أهل بلادنا حين انبعث فيهم رسل المسيح. هذا الأيمان الذي زين في بعض القلوب حتى زهدها في كل شيء، وهذا اليقين الذي سيطر على بعض النفوس حتى هون عليها كل شيء، هذه المعجزات التي تساق إلى

الناس في يسر وسذاجة وما كانوا ينتظرونها ولا يرجونها فلا تغرهم ولا تطغيهم ولا تدفعهم إلى أشر ولا بطر
كل هذا دليل واضح على أن السماء لم تقرب من الأرض قربها في هذه الأيام، وعلى أن أخبار السماء لم تتصل بالأرض اتصالها في هذه الأيام، وعلى أن الله يريد بالناس شيئاً لم نكن نقدر انه كائن ولكن أو أنه قد آن. أما إني لاحق بهؤلاء الناس إن استطعت إلى ذلك سبيلا. قال الآخرون: ما ايسر ذلك وما أعسره! وأين لمثلنا أن يفلت من سادة قريش، وإن
من حول مكة من أهل البادية لأرصاداً على من أقبل من يثرب أو قصد إليها من الأحرار فكيف بالرقيق؟ قال نسطاس وهو ينتحب فكروا في ذلك ودبروا: وتهيأوا لذلك واستعدوا، فأنتم أهل لهذه الكرامة إن كان الله قد قضاها لكم؛ أما أنا فقد كتب عليّ الشقاء، وما أرى أن بحار الأرض لو سلطت على التنعيم تستطيع أن تغسل عن آثر هذا الدم الزكي الذي سفكته هذه اليد الآثمة، ثم قام عنهم يعدو مشتداً في العدو، فلم يروا له بعد ذلك أثراً، ولم يسمعوا عنه بعد ذلك خبرا.
طه حسين
المسلمون أمس واليوم
للأستاذ احمد أمين
في نحو ثلاثة وعشرين عاما استطاع محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بما منح من قوة العقيدة. وصدق العزيمة. وبعد النظر وتأييد الله أن يحول العرب من جماعات مختلفة اللغة، مختلفة الدين، مختلفة الرأي، مختلفة الأهواء، تشعر بالضعة إذا قارنت نفسها بمن حولها، وبالذلة إذا رأت من في جوارها، ولا يفكر الفرد فيها إلا في نفسه، فان اتسع أفقه ففي قبيلته، فان فكر في قبيلة أخرى ففي الانتقام والأخذ بالثار، وشن الغارة للسلب والنهب - إلى أمة واحدة، متحدة اللغة، متحدة الدين، متحدة الرأي، يشعر الفرد فيها أنه من أمة أعزها الله بالإسلام. وفضلها به على الأنام. وجعلهم خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله. وليس ذلك بالكثير في تاريخ الأمم.
فان مات محمد (صلى الله عليه وسلم) ولم يتعد إصلاحه جزيرة العرب، فقد أعد أمة لإصلاح غيرها، ولسيادة الناس خير إعداد - حتى إذا وجهها قادتها نحو الفتح، أتوا بما حير علماء السياسة والاجتماع والتاريخ إلى اليوم - بسطوا سلطانهم على جزء كبير من العالم في أقل من عشر سنين، ولم يكن فتحهم تخريباً وتدميراً، إنما كان فتحاً منظماً أحكمت قواعده وأصوله - واستمروا ينتقلون من فتح إلى فتح، ومن ظفر إلى ظفر، مما يجعل الباحث يقتنع بأن نجاحهم لم يكن حظاً أتيح لهم، ولا مصادفة وقعوا عليها - إنما كان نتيجة مبادئ صحيحة اعتنقوها، ونفوس قوية ضمت صدورهم عليها - ومع ما عرض لهم من خلاف فيما بينهم كان من طبيعته أن يودي بأمثالهم من حروب داخلية ومنازعات سياسية وخلافات دينية، تغلبوا على كل ذلك، ولم يمنعهم من الظفر بعدوهم واستمرارهم في فتوحهم.
ثم هم ساهموا في كل شأن من شؤون المدنية، إن نظرت إلى الدين فقد دعوا إلى دينهم فدخل الناس فيه أفواجاً في هدوء من غير عنف، ولم يمض قرنان على فتحهم حتى كان أكثر البلاد المفتوحة على دينهم، ثم هو لا يزال ينتشر إلى اليوم مع انعدام الدعاة، وعدم حماية الدعوة، وان نظرت إلى اللغة رأيتهم هيئوا لغتهم لكل جديد ووسعوها - وهي البدوية الأصل والمنشأ. حتى أحاطت بكل مرافق المدنية إذ ذاك، وحتى زاحمت الفارسية
في فارس، والرومانية في الشام والقبطية في مصر، وسارت مع الدين جنباً لجنب، كلما ظفر الدين ظفرت اللغة، وكسبت لغتهم قادة الفكر في كل هذه الأمم المفتوحة. فأصبحوا يمنحونها خير أفكارهم وأفكار أممهم، وظلت اللغة العربية تسود حتى نسى كثير من الأمم لغتهم الأصلية، وأحلوا محلها العربية، ولو لم يعتنقوا الإسلام - وان نظرت إلى النظم والتشريع فكذلك، فقد أقلم المشرفون أنفسهم وكانوا حيث حلوا مرنين يقفون موقف المتفهم للموجود من نظم وقوانين ثم يقرون ما لم يتعارض وأصول دينهم، ويغيرون ما تعارض، ووقف الفقهاء في كل قطر يوسعون مذاهبهم حسب الحاجة، وحسب الإقليم الذي حلوه، وخلفوا من كل ذلك قوانين لا تزال إلى

اليوم محل إعجاب المنصفين من المتشرعين
وان التفت إلى العلم رأيت أنهم في كل فرع من فروع العلم أخذوا بحظ وافر، لم يمنعهم دينهم أن يأخذوا عن وثنيي اليونان فلسفتهم، ولا عن النساطرة طبهم، ولا عن اليهود ما يروون من أخبار أنبيائهم وعلمائهم، وأبلوا في العلم بلاء لا يقل عن بلائهم في الحرب، فحيث حلوا رأيت علماً كثيراً وجداً عجيباً؛ ثم خلفوا من كل ذلك ثروة فيها غاية ما وصل إليه العلم لعهدهم. فهموا ما كان من علم قبلهم وتداولوه بالشرح والنقد وضموا إليه ما أوحته نظرات دينهم من علوم إسلامية، ومذاهب دينية، وزادوا في ثروة من قبلهم بما بذلوا من جهد وأنفقوا من مال ونفس.
فلئن لم يكونوا سادة العالم فقد كانوا سادة في العالم، وان لم يكونوا رأسه المفكر فقد كانوا رأساً من الرؤوس، لا عبيداً ولا أذناباً، ووقفوا في بعض أيام تاريخهم من العالم موقف المعلم، يرحل من أراد العلم من الأوربيين إليهم، وينقلون إلى اللاتينية كتبهم، ويدرسون في جامعاتهم علمهم - وفي السياسة العالمية وقفوا موقف الموازن، يسمع لقولهم ويحسب حسابهم، وتعقد المعاهدات المحترمة معهم.
ثم دار الزمن دورته وأصبح سادة الأمس عبيد اليوم ورؤوس الأمس أذناب اليوم، وشباب الأمس هرم اليوم، وقضى على حضارتهم ما قضى على حضارة اليونان والرومان، والآشوريين والبابليين، وقدماء المصريين، إلا فرقاً واحداً وهو أن حامل لواء الحضارة الإسلامية لا يزال حياً وان كان شيخاً فانياً، وان الشيخ إن لم يصب بالعقم فقد يلد طفلاً يمر بأدوار الحياة ومنها الشباب، وان الأمم إن لم تمت فلها أيام، فقد يكون للإسلام فجر
وضحى، وعصر وغروب، ولكن لا يلبث الليل حتى ينجلي عن صبح آخر فيه كل صفات الصباح، من نور وضياء، وإشراق يدفع للحركة، ونسيم يبعث الحياة.
وبالفعل يظهر أن هذا الشيخ الفاني قد مات أو كاد، وأن الله فالق الإصباح ومخرج الحي من الميت لم يصبه بالعقم، ووهبه ما وهب زكريا (إذ نادى ربه نداء خفيا، قال رب اني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا. وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك وليا. يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا. يا زكريا إنّا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا)
ولكن إن ورث (يحيى) من زكريا علماً وحكمة فإني أخشى أن يرث (يحيانا) تركة قد أثقلت بالديون وأفعمت بالمغارم، فهل من سبيل إلى أن يرث من آبائه الأبعدين لا من آبائه الأقربين؟ يحدثنا علماء الوراثة بأن ذلك جائز في قوانينهم، وأن بعض الأبناء يرث من جده الأبعد لا من أبيه الأقرب، إن كان ذلك كذلك فخير له، فأن أباه أشعث أغبر، لوحته الهموم، وأحنت ظهره الأحداث، أما جده البعيد فجميل المُحيا، مشرق الجبين، صارعه الدهر، فصرع الدهر، وأرادت أن تنال منه الأحداث فنال منها، ولكن أنى لنا ذلك، ومربوه من جنس أبيه، فان لم تفسده الوراثة أفسدته البيئة وأفسده المربي وأفسده الموالي من ورائه يكيدون له، ويضعون الخطط تلو الخطط لاغتياله، لا يكون ذلك حتى يرزق (يحيى) بالمثل الصالح، والمربي الصالح، يفتح عينيه ليرى ما حوله، ويضع له البرامج ليعده أن يكون سيداً مع السادة ورأساً بجانب الرؤوس، يبنى صرح المدنية مع بناته، ويشيد العالم مع مشيديه، فأن كان العالم لا يسع إلا مدنية واحدة شارك فيها، وإن كان يسع مدنيتين فاكثر، أسس هو مدنية تتفق وروحه، وعقليته ونفسيته، ودينه وخصائصه.
من نحو خمسة قرون فقد المسلمون مركزهم العالمي، وأصبحوا حيث حلوا عنوان الذل والعبودية، وحلفاء الفقر والمسكنة، ولم يكن تأخرهم راجعاً إلى بيئتهم كما يذهب بعض الباحثين، فهم يسكنون بيئات تختلف حرارة وبرودة، وتختلف خصباً وجدباً، وتختلف جفافاً ورطوبة، وهم من ذلك في مستوى واحد من الضعة والتأخر، على أن الأمر لو كان يرجع إلى البيئة ما تداول عز وبؤس، ونعيم وشقاء، وسيادة الأشراف وصعلكة العبيد، ولكانوا على حال واحد أبداً، لأن البيئة تلازمهم أبداً - كما أن الأمر لا يرجع إلى ما يجري في
عروقهم من دم، فدمهم الذي يجري فيهم اليوم هو من نوع الدم الذي كان يجري في عروقهم أمس، وقد بطلت نظرية أن الله اختار من عباده جميعاً شعباً واحداً عهد إليه

تنظيم العالم وسيادته هو الشعب التيوتوني أو الشعب الآري، فليس من أمة إلا وهي خليط من دماء مختلفة ولو كان كذلك لما عزوا وذلوا، وعلوا وسفلوا، وليس أمر المسلمين كذلك يرجع إلى دينهم فدينهم قديماً كان هو سبب سعادتهم وهو الذي انتشلهم من بؤس، وأعزهم من ذل - والدين متى كان صالحاً أسسه كالإسلام كان باعثاً على الأصلاح لا الفساد، وعلى النهوض لا الانحطاط، إنما هو ككل دين يختلف باختلاف العين التي تنظر إليه، فان صلحت العين صلح ما تنظر إليه، وان ساءت ساء، بل قد رأينا في تاريخ الأمم عيناً صحيحة ودينا مريضاً استطاعت العين لصحتها أن تصلح منظره وتجمل شكله

على إني لا أرى أن المسلمين تأخروا وانحطوا بالمعنى الحرفي الذي يفهم من الكلمة أعني الرجوع إلى الوراء، بل كل ما في الأمر أنهم وقفوا حيث كانوا من خمسة قرون، وغيرهم سائرون، وناموا وغيرهم أيقاظ، فلما بدأوا ينتبهون رأوا الشقة بعيدة واللحاق يتطلب عزماً قوياً وجهداً بالغا

مظاهر هذا الوقوف وإن شئت فسمه الركود متجلية في كل مرفق من مرافق الحياة - ففي اللغة وهي أداة الثقافة، وآلة العلم ووسيلة الرقي العقلي - وقفنا حيث انتهى الأمر بالدولة العباسية، ولم نساير الزمن ولم نخط معه خطواته، تغير وجه الحياة، واخترعت ألوف الآلات، ومعاجم لغتنا - كما هي - لا نعترف إلا بما كان، وتهمل ما هو كائن وما سيكون، فلا هي توسعت في مدلول الكلمات العربية ووضعت منها أسماء للجديد، ولا هي سمحت بالكلمات الأجنبية أن تدخل من غير تعديل أو بتعديل، والخلاف محتدم، والنزاع قائم، ومركزنا كما هو لم نتقدم فيه شبراً - مع أنا واجهنا هذا الأمر منذ احتكاكنا بالمدينة الحديثة، وحرنا في تصرفاتنا فحينا ندرس كثيراً من المواد في مدارسنا بلغة أجنبية وحيناً تأخذنا العزة القومية فنحولها إلى العربية، والنقص كما هو والموقف كما هو

وفي التشريع تغير العالم في معاملاته، فأنتجت المدنية الحديثة أنواعاً من المعاملات عديدة، وأنواعاً من الجرائم جديدة، ونظماً في الحكم والقضاء، فأبى رجالنا إلا أن يقفوا حيث هم، أبوا أن يفتحوا أعينهم لأنواع الشركات إلا ما نص عليه في الكتب القديمة من شركة

مفاوضة ووجوه وعنان، وأبوا أن ينظروا إلى نظام الجمارك إلا ما ورد في كتب الفقه في باب العاشر، وأبوا أن ينظروا في جرائم الكيوف والاختلاس والتزوير إلا ما جاء في باب التعزير فكان من الزمن أن تركهم فيما هم فيه، وسلب من يدهم أوسع أبواب التشريع، وهي ما يتعلق بالمسائل المدنية والعقوبات واستند من قانون نابليون إذ أبى، بالعلماء أن يمدوه بالفقه أو لم يترك في يدهم إلا الأحوال الشخصية إلى حين

وكان موقفنا في الأخلاق موقفنا في اللغة والتشريع، فالمدنية الحديث كان لها من الأثر ما غير قيم الأخلاق، وقلب أوضاعها وطبعها بطابع جديد، ذلك أن أكبر أسس المدنية الحديثة وأهم أركانها الصناعة - ومن أجل هذا قومت الأخلاق من جديد على أساس الصناعة، ورتبت قائمة الأخلاق ترتيباً يتفق والصناعة، فخير الأخلاق النظام، والنظافة، والصدق في المعاملة، والمحافظة على الزمن، والاقتصاد وما إلى ذلك وجعلت هذه الصفات في المنزلة الأولى، ووضع للعمال نظم لحمايتها وترقية شؤونهم من نقابات وجمعيات، وقلبت القائمة التي وضعت في القرون الوسطى رأساً على عقب، فالحياء والتواضع والسماحة ونحوها قل أن تعد فضائل، وإذا سمح بعدِّها ففي ذيل القامة لأنها لا تتناسب مع أخلاق القوة وأخلاق الصناعة، فليس خير الصناع أشدهم حياء وأكثرهم تواضعاً، ولكن خيرهم أقواهم وأمهرهم، وأحفظهم على نظام، وأشدهم مراعاة لموعد وهكذا - وجاء العلم فخدم هذا النظر لأنه رقى الصناعات رقياً عظماً بفضل ما يقدمه لها كل يوم من مكتشف جديد، وبجانب هذا تحكم العلم في تقويم الأخلاق. فغير الأنظار القديمة وجعل المقياس سعادة الناس ورفاهيتهم في الحياة الدنيا، ولم يعبأ بالتقدير المأثور عن السلف، فنظر من جديد إلى الموسيقى والألعاب وسائر الفنون، وحكم بالحسن على ما كان يحكم عليه من قبل بالقبح، وعد كثيرا مما كان قبل إثماً وحراماً وجريمة محمدة وخيراً وفضيلة، ورأى أن ما في حياة القرون الوسطى من رهبنة واعتكاف في الأديرة والتكايا ونحو ذلك، عيشة كسل وخمول لا تتفق وخير الناس (فمن لم يعمل لا يأكل) جرى كل هذا والمسلمون حائرون بين

تقاليدهم القديمة وما تقدمه المدنية الحديثة من نظر جديد - والزمن لا ينتظرهم في حل الإشكال واختيار أحد الطريقين، فلما ترددوا جرفهم طوعاً أو كرهاً من غير أن ينظرهم حتى يبتوا فيما يتفق وأخلاق المدنية الحديثة مع تقاليدهمم ودينهم وتاريخهم وما لا يتفق.

ويطول بنا القول لو عددنا كل مرفق من مرافق الحياة وأبنّا ما أصابه من ركود فنجتزئ بما ذكرنا من أمثلة للدلالة على باقيها.

ثارت أوربا في التاريخ الحديث ثورات سياسية وثورات صناعية، كان من نتائجه تغيرها تغيراً كبيراً في القرن التاسع عشر فمن الناحية السياسة حلت الديمقراطية محل الأرستقراطية بما يتبع ذلك من تغير في النظم والتشريع، ومن الناحية الصناعية حلت المصانع الكبيرة والشركات، والسكك الحديدية والتلغرافات والتليفونات والكهرباء محل المظاهر الساذجة من صناعات يدوية وحمل على الخيل والبغال، واستنارة بالشمع والزيوت، وما إلى ذلك وهذا التغير السياسي والصناعي هو ما نسميه بالمدنية الحديثة. وتبع هذا التغير الداخلي في أوربا، تغير آخر خارجي، فقد اتجهت أفكار قادة الرأي فيهم إلى غزو آسيا وأفريقيا وكان الباعث لها على ذلك جملة أمور، أولها اقتصادي وهي أن تجد لها في الشرق مواد أولية لتغذية صناعتها، وثانيها وطني، وهو أن كل أمة من أمم أوروبا فشت فيها النزعة الوطنية وامتلأت نفوس أهلها حمية، ودفعها ذلك لأن تتطلب كل أمة قوة المظهر داخلاً وخارجاً، ومن أهم ذلك التوسع في الاستعمار وبسط النفوذ، والفخر بلون الخرائط - وثالثها - وهو أقل من الأولين شأناً الدافع الديني فقد دفع قوماً من أوروبا لنشر الدعوة المسيحية في البلاد الإسلامية واستعانوا بالسلطة على حمايتهم

على كل حال - حمل الأوربيون إلى أسيا وأفريقيا مدنيتهم مع فتحهم، وكان لابد لهم أن ينظموا الحال فيهما بما يتفق والنظام السائد عندهم ففي التشريع لابد أن تسود المبادئ القانونية السائدة في أوربا حتى تسهل التجارة ويأمنوا على معاملتهم للشرقيين، ولابد من انتشار المدنية الحديثة بآلاتها وأدواتها حتى تروج في الشرق البضائع الأوربية، ولابد أن يتعلم طائفة من المفتوحين على النمط الأوروبي الحديث، وأن يكونوا هم المتولين المناصب الكبيرة حتى يمكن التفاهم معهم في تسيير الشؤون، وهكذا كان من أثر انتشار هذه المدنية بين المسلمين نتائج كثيرة أهمها فيما يظهر لي أمران - الأول - اختلال التوازن بين الأمم الشرقية عامة والأمم الإسلامية خاصة، وأكبر ما تمنى به أمة اختلال توازنها، ذلك أن المدنية الحديثة بما استتبعها من تغير في مظاهر الحياة الاجتماعية ومن تعديل في قيم الأخلاق، كانت نتيجة لثورات داخلية شبت فيه، وآمال وآلام جاشت في

صدره وتجارب جربها وأخطأ فيها فأصلح خطأه وهكذا كانت حركاته سلسلة متصلة تسلم حلقة منها إلى حلقة، ونسير في التدرج فيها سيراً طبيعياً، أما في الشرق فجاءته هذه المدنية لا من داخل نفسه بل من خارجها، وفرق كبير بين ما دعت إليه الطبيعة وما دعا إليه التقليد - ولاختلال هذا التوازن مظاهر كثيرة فان نظرت إلى القضاء فقضاء شرعي في الأحوال الشخصية يطبق نظم المدنية الإسلامية وقضاء أهلي يطبق نظم أوربا ممصرة وقضاء مختلط يخالفهما، وفي الحياة الاجتماعية نرى قرى لم يتأثر أهلها بالمدنية الحديثة في قليل من شؤونهم ولا كثير، ومدناً تأثرت إلى حد كبير بها حتى في أدق أمورها، ولعل خير ما يمثل مظاهرنا المختلفة المضطربة اختلاف ملابسنا وتعدد أشكالها مما لا يعرف له نظير في أوربا.

وفي التعليم أنواع تتبع الأنماط الإسلامية في عصورها، وأنماط تتبع المدنية الحديثة في مظاهرها وأشكالها، وهكذا فأن أنت نظرت إلى أية أمة أوربية في كل مظاهر الحياة من لغة وتعليم وملبس ومظهر اجتماعي رأيت فيها وحدة رغم الاختلافات السطحية، وان أنت نظرت إلى حياة المسلمين في كل مرفق من هذه المرافق لم تجد هذه الوحدة ووجدت الخلاف في الصميم، نرى نزعات تتجه نحو تاريخهم ودينهم ومدنيتهم القديمة ونزعات تتجه نحو المدنية الحديثة ولا رابطة تربط هذه النزعات - وترى ناحية من نواحي المدنية الحديثة تطغى وتكثر ولا يماثلها ما يقابلها فيطغى - مثلاً - في الشرق لهو أوربا من خمر ورقص وحياة مترفة وهي كثيرة في أوربا كثرة تفوق بمراحل ما في الشرق، ولكنها في أوربا تتعادل وتتوازن، فلهو كثير يزنه جد كثير،

وإجرام يوازنه حزم - وعلى هذا النمط يختل التوازن وتفقد الأمة قوتها الحيوية - ولا يمكن أن تصلح هذه الحال إلا إذا توافر جماعة من خير الأمة على دراسة الموقف الاجتماعي للمسلمين والشرق دراسة عميقة مسلحة بما وصل إليه علم الاجتماع وعلم النفس والتاريخ، ثم يضعون بعد هذه الدراسة الأكاديمية خططاً للسير في هذا الظرف العصيب ظرف الانتقال، يعرفون الداء ويصفون الدواء، يعلمون مدنيتهم القديمة والمدنية الحديثة، ومعايب كل، ومزايا كل، ويعلمون الحالة النفسية لأممهم وما يناسبهم وما لا يناسبهم ويبينون (خطة الانتخاب) يعرفون مناحي اختلال التوازن وأسبابها ويرسمون طريقة (إعادة التوازن).

والأمر الثاني من نتائج انتشار المدنية الحديثة بين المسلمين أمر يناقض الأول ويكاد يسير سيراً عكسياً معه، ذلك أن انتشار التعاليم الجديدة للمدنية الحديثة واضطرار الأوربيين لتأليف فرقة من المسلمين يتكلمون لغتهم، ويتعلمون مناهجهم، ويتشربون مبادئهم، أمكنت هذه الطائفة من الاطلاع على المبادئ التي تدعو إلى الديموقراطية، وتبث روح الوطنية، فكان من ذلك أن أشربوا روح الثورة - نظروا إلى أممهم بالعين التي نظرت إلى هذه المبادئ فأيقنوا بحقهم في الحياة، وحقهم في الاستقلال، وحقهم أن يساهموا في بناء صرح المدنية، وأن يشاركوا في تحمل أعباء الإنسانية - وزادهم عقيدة في ذلك ما رأوا من أن أوربا تحكم آسيا وأفريقيا على قاعدة مختصرة موجزة واضحة طبيعية، وهي أنها تتجه في تسيير آلات الحكم إلى منفعتها هي، فحيث اتفقت مصلحة آسيا وأفريقيا مع أوربا نفذت المصلحة المشتركة، وحيث اختلفت مصلحة آسيا وأفريقيا مع مصلحة أوربا، فطبيعي أن تنفذ مصلحة أوربا، وقد ينظر في تقدير المصلحة النظر الضيق القريب لا النظر الواسع البعيد - كان من جراء هذا وذاك وجود الاصطدام وشعور الشرق بالغبن، وقيام الطائفة المتعلمة على النمط الحديث ببث روح الوطنية - وعملت هذه الحركة في النفوس سنين وتكفل الزمن بأن يظهر كل حين وآخر حادثة تفتح عيونهم وتقوى شعورهم، فكان القلق في كل مكان في الشرق، في مصر، في تونس، في الجزائر، في مراكش، في فلسطين، في الشام، في العراق، في الهند، في غيرها من البلدان، قلق اقتصادي وقلق وطني وقلق ديني، هذا القلق أنتج وليداً جديداً هو ما وصفته قبل، ماذا ينتهي إليه هذا القلق؟ ماذا يكون شأن هذا الوليد؟ ما تاريخه المستقبل؟ هذه الأسئلة وأمثالها خارجة عن عنوان مقالنا وهي بعنوان (المسلمون غداً) الصق واليق، وكل ما أعمله الآن وأريد أن أقوله عن هذا الطفل أنه (لن يموت).

أحمد أمين

وحي الهجرة في نفسي

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

إن التاريخ ليتكلم بلغة أوسع من ألفاظه إذا قرأه من يقرؤه على أنه بعض نواميس الوجود صورت فيها النفس الإنسانية، كيف اعتورت أغراضها، وكيف مدت في نسقها، وكيف تغلغلت في مسالكها، وما تأتي لها فجرت به مجراها، وما دفعها فانحدرت منه إلى مقارها. فهو ليس بكلام تستقبله تقرأ فيه، ولكنه أحوال من الوجود تعترضها فتغير عليك حسك بإلهامها وأحلامها، وتتناولها من ناحية فتتناولك من الأخرى، فإذا الكلمة من ورائها معنى، من ورائه طبيعة، من ورائها سبب وحكمة، وإذا كل حادثة فيها إنسانيتها وإلهيتها معاً، وإذا الوجود في ذهنك كالساعة ترسم لك حد الثانية بخطرتين، وحد الدقيقة من عدد محدود من الثواني، ثم حد الساعة إلى حد اليوم، وإذا البيان في نفسك من كل هذه الحواشي، وإذا التاريخ فيما تقرؤه مفنن في ظاهره وباطنه يفيء عليك من ألفاظه ومعانيه بظلال هي صلتك أنت أيها الحي الموجود بأسرار ما كان موجوداً من قبل.

كذلك قرأت بالأمس تاريخ الهجرة النبوية في كتاب أبي جعفر الطبري لأكتب عنه كلمة في (الرسالة) فلم أكن علم الله - في كتاب ولا في حكاية، بل في عالم انبثق في نفسي مخلوقاً تاماً بأهله وحوادث أهله، وأسرار أهله وحوادثه جميعاً، كما يرى المحب حبيبه، لا يكون الجميل في محل إلا امتلأ مكانه بعاشقه، فهو مكان من النفس والدنيا، لا من الدنيا وحدها، وفيه الحياة كما هي في الوجود بمظهر المادة. وكما هي في الجب بمظهر الروح. وتلك حالة من القراءة بالروح والكتابة بالروح متى أنت سموت إليها

رأيت فيها غير المعنى يخرج معنى، ومن لا شيء تخلق أشياء، لأنك منها اتصلت بأسرار نفسك، ومن نفسك اتصلت بأسرار فوقها، فيصبح التاريخ معك فن الوجود الإنساني على الوجه الذي أفضت به الحكمة إلى الحياة لتستمر بالنفس الإنسانية، لا فن علم الناس على الوجه الذي أفضت به الحوادث مما بين الحياة والموت.

نشأ النبي (صلى الله عليه وسلم) في مكة واستنبئ على رأس الأربعين من سنه، وغير ثلاث عشرة سنة يدعوا إلى الله قبل أن يهاجر إلى المدينة فلم يكن في الإسلام أول بدأته إلا رجل وامرأة وغلام: أما الرجل فهو هو (صلى الله عليه وسلم)، وأما المرأة فزوجه خديجة،

وأما الغلام فعلي أبن عمه أبي طالب، ثم كان أول النمو في الإسلام بحر وعبد: أما الحر فأبو بكر، وأما العبد فبلال، ثم اتسق النمو قليلاً قليلاً ببطء الهموم في سيرها، وصبر الحر في تجلده، وكأن التاريخ واقف لا يتزحزح، ضيق لا يتسع، جامد لا ينمو: وكان النبي (صلى الله عليه وسلم) أخو الشمس؛ يطلع كلاهما وحده كل يوم. حتى إذا كانت الهجرة من بعد، فانتقل الرسول إلى المدينة - بدأت الدنيا تتقلقل، كأنما مر بقدمه على مركزها فضغطها فحركها، وكان خطواته في هجرته تخط في الأرض، ومعانيها تخط في التاريخ، وكانت المسافة بين مكة والمدينة، ومعناها بين المشرق والمغرب.

لقد كان في مكة يعرض الإسلام على العرب كما يعرض الذهب على المتوحشين، يرونه بريقاً وشعاعاً، ثم لا قيمة له وما بهم حاجة إليه، وهو حاجة بني آدم إلا المتوحشين، وكانوا في المحادة والمخالفة الحمقاء، والبلوغ بدعوته مبلغ الأوهام والأساطير - كما يكون المريض بذات صدره مع الذي يدعوه في ليالي القر إلى مداواة جسمه بأشعة الكواكب؛ وكانت مكة هذه صخراً جغرافياً يتحطم ولا يلين، وكأن الشيطان نفسه وضع هذا الصخر في مجرى الزمن ليصد به التاريخ الإسلامي عن الدنيا وأهلها.

وأوذي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكذب وأهين، ورجف به الوادي، يخطوا فيه على زلازل تتقلب، ونابذه قومه وتذامروا فيه، وحض بعضهم بعضاً عليه، والصفق عنه عامة الناس وتركوه إلا من حفظ الله منهم، فأصيب كبيراً باليتم من قومه، كما أصيب صغيراً باليتم من أبويه.

وكان لا يسمع بقادم يقدم من العرب له اسم وشرف إلا تصدى له فدعاه إلى الله وعرض نفسه عليه، ومع ذلك بقيت الدعوة تلوح وتختفي كما يشق البرق من سحابه على السماء، ليس إلا أن يرى ثم لا شيء بعد أن يرى!

فهذا تاريخ ما قبل الهجرة في جملة معناه، غير أني لم أقرأه تاريخاً، بل قرأت فيه فصلا رائعاً من حكمة الإلهية، وضعه الله كالمقدمة لتاريخ الإسلام في الأرض، مقدمة من الحوادث والأيام تحيا وتمر في نسق الرواية الإلهية، المنطوية على رموزها وأسرارها، وتظهر فيها رحمة الله تعمل بقسوة، وحكمة الله تتجلى في غموض، فلو أنت حققت النظر لرأيت تاريخ الإسلام يتأله في هذه الحقبة، بحيث لا تقرؤه النفس المؤمنة إلا خاشعة كأنها تصلي، ولا تتدبره إلا خاضعة كأنها تتعبد.

بدأ الإسلام في رجل وامرأة وغلام، ثم زاد حراً وعبداً، أليست هذه الخمس هي كل أطوار البشرية في وجودها، مخلوقة في الإنسانية والطبيعة، ومصنوعة في السياسة والاجتماع؟ فها هنا مطلع القصيدة، وأول الرمز في شعر التاريخ.

ولبث النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث عشرة سنة لا يبغيه قومه إلا شراً، على أنه دائب يطلب ثم لا يجد، ويعرض ثم لا يقبل منه، ويخفق ثم لا يعتريه اليأس، ويجهد ثم لا يتخونه الملل، ويستمر ماضياً لا يتحرف، ومعتزماً لا يتحول، أليست هذه هي أسمى معاني التربية الإنسانية، أظهرها الله كلها في نبيه، فعمل بها وثبت عليها، وكانت ثلاث عشرة سنة في هذا المعنى كعمر طفل ولد ونشأ وأحكم تهذيبه بالحوادث حتى تسلمته الرجولة الكاملة بمعانيها، من الطفولة الكاملة بوسائلها؟ أفليس هذا فصلاً فلسفياً دقيقاً يعلم المسلمين كيف يجب أن ينشأ المسلم، غناه في قلبه، وقوته في إيمانه، وموضعه في الحياة موضع النافع قبل المنتفع، والمصلح قبل المقلد. وفي نفسه من قوة الحياة ما يموت به في هذه النفس أكثر ما في الأرض والناس من شهوات

ومطامع؟
ثم أليست تلك العوامل الأخلاقية هي هي التي ألقيت في منبع التاريخ الإسلامي ليعب منها تياره، فتدفعه في مجراه بين الأمم، وتجعل من أخص الخصائص الإسلامية في هذه الدنيا - الثبات على الخطوة المتقدمة وإن لم تتقدم، وعلى الحق وإن لم يتحقق؛ والتبرؤ من الأثرة وإن شحت عليها النفس، واحتقار الضعف وإن حكم وتسلط، ومقاومة الباطل وإن ساد وغلب، وحمل الناس على محض الخير وإن ردوا بالشر، والعمل للعمل وإن لم يأت بشيء؛ والواجب للواجب وإن لم يكن فيه كبير فائدة، وبقاء الرجل رجلاً وإن حطمه كل ما حوله؟
ثم هي هي البراهين القائمة للدر قيام المنارة في الساحل - على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، تثبت ببرهان الفلسفة وعلوم النفس أنه روح وغاياتها المحتومة بالقدر، لا جسم ووسائله المتغلبة بالطبيعة، ولو كان رجلاً ابتعثته نفسه لتحمل الحيل لسياسته، ولأحدث طمعاً من كل مطمع، ولركد مع الحوادث وهب، ولما استمر طوال هذه المدة لا يتجه وهو فرد إلا اتجاه الإنسانية كلها كأنما هو هي.
ولو هو كان رجل الملك أو رجل السياسة لاستقام والتوى، ولأدرك ما يبتغي في سنوات قليلة، ولأوجد الحوادث يتعلق عليها، ولما أفلت ما كان موجوداً منه يتعلق به، ولما انتزع نفسه من محله في قومه وكان واسطة فيهم، ولا ترك عوامل الزمن تبعد وهي كانت تدنيه. قالوا إن عمه أبا طالب بعث إليه حين كلمته قريش فقال له. يا ابن أخي، وإن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا، فأبق عليّ وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق، فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قد بدا لعمه فيه بداء، وأنه خاذله ومسلّمه، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه، فقال: يا عماه، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته. ثم استعبر صلى الله عليه وسلم فبكى، يا دموع النبوة! لقد أثبت أن النفس العظيمة لن تتعزى عن شيء منها بشيء من غيرها كائناً ما كان، لا من ذهب الأرض وفضتها، ولا من ذهب السماء وفضتها، إذا وضعت الشمس في يد والقمر في الأخرى.
وكل حوادث المدة قبل الهجرة على طولها ليست إلا دليل ذلك الزمن على أنه زمن نبي، لا زمن ملك أو سياسي أو زعيم؛ ودليل الحقيقة على أن هذا اليقين الثابت ليس يقين الإنسان الاجتماعي من جهة قوته، بل يقين الإنسان الإلهي من جهة قلبه؛ ودليل الحكمة على أن هذا الدين ليس من العقائد الموضوعة التي تنشرها عدوى النفس للنفس، فها هو ذا لا يبلغ أهله في ثلاث عشرة سنة أكثر مما تبلغ أسرة تتوالد في هذه الحقبة؛ ودليل الإنسانية على أنه وحي الله بإيجاد الإخاء العالمي والوحدة الإنسانية. أفلم يكن خروجه عن موطنه هو تحققه في العالم؟
ثلاث عشرة سنة، كانت ثلاثة عشر دليلاً تثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم ليس رجل ملك، ولا سياسة، ولا زعامة، ولو كان واحداً من هؤلاء لأدرك في قليل؛ وليس مبتدع شريعة من نفسه، وإلا لما غبر في قومه وكأنه لم يجدهم وهو حوله؛ وليس صاحب فكرة تعمل أساليب النفس في انتشارها، ولو كأنه لحملهم على محضها وممزوجها؛ وليس رجلاً متعلقاً بالمصادفات الاجتماعية، ولو هو كان لجعل إيمان يوم كفر يوم؛ وليس مصلح عشيرة يهذب منها على قدر ما تقبل منه سياسة ومخادعة؛ ولا رجل وطنه تكون غايته أن يشمخ في أرضه شموخ جبل فيها، دون أن يحاول ما بلغ إليه من إطلاله على الدنيا إطلال السماء
على الأرض؛ ولا رجل حاضره إذ كان واثقاً دائماً أن معه الغد وآتيه، وإن أدبر عنه اليوم وذاهبه؛ ولا رجل طبيعته البشرية يلتمس لها ما يلتمس الجائع لبطنه؛ ولا رجل شخصيته يستهوي بها ويسحر؛ ولا رجل بطشه يغلب به ويتسلط؛ ولا رجل الأرض في الأرض، ولكن رجل السماء في الأرض.
هذه هي حكمة الله في تدبيره لنبيه قبل الهجرة، قبض عنه أطراف الزمن، وحصره من ثلاث عشرة سنة في مثل سنة واحدة، لا تصدر به الأمور مصادرها كي تثبت أنها لا تصدر به؛ ولا تستحق به الحقيقة لتدل على أنها ليست من قوته وعمله. وكان صلى الله عليه وسلم على ذلك وهو في حدود نفسه وضيق مكانه يتسع في الزمن من حيث لا يرى ذلك أحد ولا يعلمه، وكأنما كانت شمس اليوم الذي سينتصر فيها، قبل أن

تشرق على الدنيا بثلاث عشرة سنة - مشرقة في قبله صلى الله عليه وسلم.
والفصل من السنة لا يقدمه الناس ولا يؤخرونه، لأنه من سير الكون كله؛ والسحابة لا يشعلون برقها بالمصابيح، ومع النبي من مثل ذلك برهان الله على رسالته، إلى أن نزل قوله تعالى (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) فحل الفصل، وانطلقت الصاعقة، وكانت الهجرة.
تلك هي المقدمة الإلهية للتاريخ، وكان طبيعياً أن يطرد التاريخ بعدها، حتى قال الرشيد للسحابة وقد مرت به أمطري حيث شئت فسيأتيني خراجك.
مصطفى صادق الرافعي
صور من التاريخ الإسلامي - 5
الهجرة
للأستاذ عبد الحميد العبادي
كان من أثر الاتجاه المادي الحديث في فهم حوادث التاريخ وتعليلها أن أصبح المؤرخون أشبه شيء بالفلاسفة الكلبيين القدماء الذين كانوا يجردون الإنسان من عاطفة الخير، ويعتقدون أنه أناني بطبعه، لا يصدر عنه الخير إلا رئاء ونفاقاً، ولكن من حسن حظ الحقيقة والفضيلة أن بعض أحداث التاريخ يكذب هذه الدعوى وينقضها نقضاً صريحاً، ولست أجد في التاريخ الإسلامي انقض لتلك الدعوى وأشد تكذيباً من حديث الهجرة التي وقعت زمن النبوة، سواء أكانت هجرة الحبشة أم الهجرة إلى المدينة، ففي كلتا الهجرتين تجد الإخلاص للعقيدة مجسماً محسوساً، والتنزه عن حطام الدنيا واضحاً ملموساً. وإلى القارئ أسواق المقال الآتي توضيحاً لهاتين الهجرتين في ضوء الحياة العامة التي ابتعثتهما وأدت إليهما
لقد حمل الإسلام من أول الأمر على ما كان لقريش من نظم بالية عتيقة حملة عنيفة لا مواربة فيها ولا هوادة. فكان محمد يقرع أسماع قومه بما يتنزل عليه من القرآن ناعياً عليهم وثنيتهم المنحطة، ونظامهم الاجتماعي الذي فرقهم أغنياء وفقراء وسادة وعبيداً، مهجنا تكثرهم بالاحساب والأنساب، مقبحاً طرقهم الملتوية في المعاملات من تطفيف الكيل والميزان وأكل أموال الناس بالباطل. محذراً لهم إن هم أصروا على عتوهم واستكبارهم أن يصيبهم ما أصاب الأمم من قبلهم عندما أعرضت عما بعث به إليها الرسل من أسباب الهداية والأصلاح.
لم يجب هذه الدعوة التي تكلفت بخيري الدنيا والآخرة إلا فريق قليل العدد وسيط المكانة في المجتمع القرشي. أما الملأ من قريش فرأوها دعوة صريحة إلى الفوضى وقلب الأوضاع. ورأوا في محمد ثائراً يريد هدم النظم التي درجت عليها الجمهورية المكية من قديم. ثم من يدريهم لعلهم إن هم اتبعوه التات عليهم الأمر واضطرب الحبل، فان الهدم عادة أيسر من البناء. تلك كانت حجتهم في عدم متابعته، وهي حجة الجامدين على المصلحين في كل زمان ومكان.
وكان موقف قريش من محمد أول الأمر سلبياً محضاً. ولكن محمداً كان النشاط واللباقة والفصاحة وقوة الخلق مجتمعة، فوجدت قريش نفسها بازاء رجل لا كالرجال، وخصم ليس كغيره من الخصوم، فهي إن لم تعاجله عاجلها، وإن لم تقض عليه قضى عليها. لذلك أخذت تنهج في مقاومته خطة إيجابية تدرجت فيها تدرجاً. فكانت أول الأمر تستهزئ به وبدعوته وبمن اتبعه، فهو شاعر وساحر ومجنون، ودعوته إنما هي محض خداع وغرور، وأتباعه ليسوا إلا أراذلها وسفلتها، ثم جعلت تحاول إعجازه ومعاياته. إن يكن صادقاً فيما يدعى فليحول جبال مكة جناناً وأنهاراً، أو فليكن له بيت من زخرف، أو ليرق في السماء، أو فليسقط السحاب عليهم كسفاً، أو فليأت بالله والملائكة قبيلاً. ثم انتقلوا من هذه المعاياة الدالة على قصر عقولهم إلى التعريض له بالمال والسلطان.
فلما أعيتهم فيه الحيل ورأوا وقوف عشيرته دونه أخذوا يفتنون أصحابه بالأذى والعذاب. فمنهم من كان يثبت على رأيه وعقيدته، ومنهم من كان يفتتن من شدة البلاء.
عند ذلك أمر الرسول أصحابه بالهجرة التي هي آخر ما يلجأ إليه المحق الضعيف في مقاومة المبطل القوي. أمرهم بالهجرة إلى أرض الحبشة فهي أرض قديمة الصلة بمكة، وبها ملك نصراني رشيد لا يضام من يلجأ إليه ويحتمي بحماه.
فخرج من مكة في شهر رجب من سنة خمس للنبوة زهاء مائة مسلم ومسلمة،

وكلهم جاز البحر الأحمر من الشعيبة إلى بر الحبشة، فتلقاهم النجاشي لقاء حسناً وأذن لهم في المقام بأرضه آمنين على دينهم وأنفسهم. وقد أبى أن يخفر ذمته لهم عندما أرسلت إليه قريش في رد اللاجئين إليه. فلما تبدلت الأحوال بالحجاز وعلا شأن الإسلام به جعل هؤلاء المهاجرون يعودون إلى الحجاز. وكانت عودة بقيتهم إلى المدينة سنة سبع للهجرة أي بعد أن لبثت بأرض الحبشة نحو خمسة عشر عاماً. وقد جزت الرواية الإسلامية النجاشي عن صنيعه هذا بأن اعتقدت إسلامه، وبأن النبي صلى الله عليه وسلم قد صلى عليه عندما بلغته وفاته.

ولما رأت قريش خروج من خرج إلى الحبشة من أصحاب محمد أرادت أن تحسم مادة الخطر فاجتمعت كلمة ملئها على حبس محمد وعشيرته من بني هاشم والمطلب في بعض شعاب مكة، وعلى أن يقطعوا كل أسباب الاتصال بينهم وبين جمهور قريش، وقد أنفذت هذا الحكم، وقضى بنو هاشم والمطلب في الشعب نحو ثلاث سنين قاسوا فيها جهداً جاهداً حتى لقد كان يسمع صوت صغارهم من وراء الشعب وهم يتضورون جوعاً. وأخيراً قام في قريش من عطفته عليهم عاطفة الرحم والقرابة فسعى في إخراجهم من الشعب فأخرجوا

على أن الرسول لم ينعم بتلك الحرية التي سيقت إليه طويلاً. ففي السنة العاشرة للنبوة أصيب بفقد عمه أبي طالب وزوجه خديجة، فخلا الميدان من النصير الذائد، وخلا البيت من الحبيب المؤنس. واصبح محمد وجهاً لوجه أمام عدون حنق عليه كان يترقب فيه الفرصة، فلما امكنت استغلها استغلالا. فجعل يأخذ عليه المذاهب ويعزى به السفهاء يتعمدونه بالأذى والهوان

عند ذلك أخذ الرسول يفكر فيما كان قد أشار به على أصحابه منذ سنين عندما اشتد تحامل قريش عليهم: أخذ يفكر هو أيضاً في الهجرة. لقد دلته تجارب سنوات عشر على أن دعوته توشك أن تذهب بمكة صرخة في واد ونفخة في رماد، وإذا ففيم المقام بواد غير ذي زرع حقيقة ومجازاً؟ فليهاجر! ذلك ما قر عليه رأيه. ولكن على ألا يتخطى حدود بلاد العرب فهو مبعوث إلى العرب أولا وإلى سائر الناس أخيراً. فليخرج إلى اقرب قرية عربية من مكة؛ إلى الطائف، لعل ثقيفاً تجيره حتى يبلغ رسالته. ولكن ثقيفاً لم تكن أبر به من قريش، فقد أعرضت عن سماع دعوته وضنت عليه بجوارها، ثم زادت فأغرت به سفهاءها، فما زالوا يتعقبونه حتى ألجأوه هو ومولاه زيد بن حارثة إلى حائط من حوائط ثقيف. وهنا - وقد خلا إلى نفسه وربه -. فاضت أشجانه واعتلجت في صدره همومه، فانبعث يناجي ربه (اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس! يا أرحم الراحمين! أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالي؟ ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو يحل عليّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك)

ثم نهض من مكانه يريد مكة فلم يدخلها إلا في جوار سيد من ساداتها هو المطعم بن عدي. وكف محمد مؤقتاً عن توجيه الدعوة إلى قريش واكتفى بعرض نفسه على قبائل العرب في مواسم الحج لعل قبيلة تصغي إليه فينتقل إليها ويبلغ دعوته في ظلها وسلطانها. فكانت

القبائل ترد عليه بأنه لو كان صادقاً لاتبعه قومه، إلا ما كان من أمر أهل يثرب. ففي عام 11 للنبوة لقي النبي عند العقبة ستة نفر من الخزرج فعرض عليهم الإسلام فآمنوا وصدقوا، ووعدوا أن ينشروا الدين الجديد في قومهم. تلك بيعة العقبة الأولى. فلما كان العام القابل وافى الموسم من الأوس والخزرج اثنا عشر رجلاً، لقوا النبي عند العقبة أيضاً فبايعوه على بيعة النساء، وذلك قبل أن يشرع القتال (على ألا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف. فأن وفيتم فلكم الجنة، وان غشيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله عز وجل، أن شاء غفر، وأن شاء عذب) تلك بيعة العقبة الثاني، وبعث الرسول معهم صاحباً من أصحابه ديِّناً لبقاً فطنه ليفقه القوم في الدين، وفي الوقت نفسه ليخبر أحوال يثرب العامة ويسبر غورها وينهي إلى النبي ما يصل إليه من ذلك.

ذلك هو مصعب بن عمير. وقد أدى مصعب بن عمير واجبه أحسن أداء وأتمه، ثم عاد إلى مكة فاطلع الرسول على حال يثرب ومقدار نجاح الدعوة الإسلامية بها. فلما حل موسم الحج وافى مكة جم غفير من الأوس والخزرج، مسلمهم ومشركهم. فواعد المسلمون منهم رسول الله أن يلقوه عند العقبة ليلاً، وقد لقيه منهم ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان، فبايعوا الرسول بيعة العقبة الكبرى المشهورة وهي تقوم على تعهد الأوس والخزرج بالدفاع عن الرسول والحرب من دونه. يقول الطبري (فوافوه بالحج فبايعوه بالعقبة وأعطوه عهودهم، على إنّا منك وأنت منا، وعلى أنه من جاءنا من أصحابك أو جئتنا فإنا نمنعك مما نمنع منه أنفسنا) وبهذه البيعة أصبح للرسول بيثرب أنصار يؤوونه ويذودون عنه.

لكي ندرك السبب في مسارعة الأوس والخزرج إلى قبول الدعوة الإسلامية ومبايعة الرسول على الدفاع عنه، ينبغي أن نلم بحال يثرب في السنوات السابقة على الهجرة من الناحيتين الدينية والسياسية، فمن الناحية الدينية كانت اليهودية قد حرثت المدينة وأعدتالأنصار لقبول الدعوة الإسلامية، لأنهم أهل كتاب منزل ودين مشروع. وكان الأوس والخزرج يلقفون منهم معنى النبوة والرسالة والوحي ونحو ذلك من المصطلحات الدينية. ثم أن اليهود كانوا كدأبهم يتوقعون ظهور نبي منهم يجمع شملهم ويعيد إليهم سلطانهم يقهر بهم أعداءهم، وكانوا لا يعدمون أن يبوحوا بشيء من ذلك لمواطنيهم من الأوس والخزرج.

قال ابن اسحق عند كلامه على استجابة الأنصار لدعوة النبي في بيعة العقبة الأولى: (وكان مما صنع الله لهم به من الإسلام أن يهود كانوا معهم ببلادهم وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان، وكانوا قد غزوهم ببلادهم. فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم إن نبياً مبعوث الآن، قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وأرم. فلما كلم رسول الله (ص) أولئك النفر دعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض: يا قوم تعلموا، والله انه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام)

قد يكون تصوير حالة المدينة السياسية قبيل الهجرة أبلغ من تصوير الحال الدينية في فهم قبول الأنصار دعوة النبي والتزامهم الدفاع عنه ببلدهم. لقد كانت الحياة العامة بالمدينة مضطربة أشد الاضطراب من جراء حرب الأوس والخزرج التي سببها ما كان بين الفريقين من دماء وثارات. وكانت الغلبة بوجه عام في تلك الحرب للخزرج على الأوس، حتى لقد همت الأوس حوالي السنة العاشرة قبل الهجرة أن تجلو عن المدينة جملة، وأخذت تفاوض قريشاً في أن تأذن لها بالنزول عليها بمكة، ولكن قريشاً كانت أحرص من أن تأذن بذلك، فلما طلبت إليها الأوس أن تحالفها على الخزرج أبت أن تتورط في شيء من ذلك أيضاً. فعادت الأوس تلتمس الحلف من يهود يثرب وخاصة قريظة والنضير. وكان اليهود قد وقفوا من تلك الحرب موقف الحياد المطلق، فملا بلغ الأمر الخزرج أرسلت إلى اليهود تحذرهم عاقبة هذا الحلف إن تم، فلما أكد اليهود أنهم غير محالفي الأوس عادت الخزرج تطلب منهم رهناً أربعين غلاماً من غلمانهم يكونون بأيديهم ضماناً لهذا الحياد. فلم يسع اليهود ألا أن يسلموا إليهم الضمان الذي طلبوا.

ولكن الخزرج كانت قد قدمت إلى ارض قريظة والنضير وكانت أغنى بقاع يثرب، فأقبلت تتجنى على اليهود وتخير قريظة والنضير بين أمرين كلاهما شر: فإما أن يجلوا عن يثرب وينزلوا لهم عن أرضهم، وإما أن تقتل غلمانهم. فلما رأت اليهود أن الخزرج قد لجت في طغيانها، وان حيادها لن يجر إليها خيراً، عند ذلك خرجت من حيادها وحالفت الأوس صراحة، فقتلت الخزرج الغلمان وعقدت حلفاً مع القبيلة اليهودية الثالثة بالمدينة قبيلة بني قينقاع وبذلك استحالت يثرب عسكرين تشحذ فيهما السيوف وتراش النبال استعداد للواقعة الفاصلة.

وقد وقعدت الواقعة الفاصلة في يوم بعاث الذي كان قبيل الهجرة بنحو خمسين سنين. في ذلك اليوم أديل للأوس وحلفائهم من الخزرج وحلفائهم، وقتل من الفريقين يومئذ عدد كبير من سادات الناس وأشرافهم. جاء في صحيح البخاري عن عائشة: (كان يوم بعاث يوماً قدمه الله لرسوله (صلعم) في دخولهم في الإسلام، فقدم رسول الله صلعم وقد افترق ملؤهم وقتلت سراتهم) ويفسر السمهودي هذا الحديث بقوله (ومعناه انه قتل فيه من أكابرهم من كان لا يؤمن أن يتكبر، ويأنف أن يدخل في

الإسلام) إلى أن يقول (وقد كان بقي معهم من هذا النمط عبد الله بن أبي بن سلول. . . وكذلك أبو عامر الراهب. . . فشقيا بشرفهما)
ورأى أهل يثرب غداة يوم بعاث أن الحرب مهلكة النفوس متلفة الأموال، وأنها يشقى بها الغالب والمغلوب جميعاً، وأنه أولى بهم أن يقيموا بيثرب حكومة تزع القوى وتأخذ بناصر الضعيف. وكان عبد الله بن أبي بن سلول الخزرجي قد رأى غدر قومه في الحرب فلم يخض غمارها معهم وامتنع من قتل من كان بيده من غلمان يهود، ولذلك اتجهت إليه أنظار القوم وهموا أن يملكوه على يثرب، وأقبلوا ينظمون له الخرز، وكان ذلك شارة الملك عندهم. ولكن يظهر أنه لم تكن هناك رغبة صادقة في تمليكه. أما الأوس فكانت تكره أن يصير الأمر إلى خزرجي مهما تكن فضائله، وأما الخزرج فقد كبر على كثير من أحيائها أن تولي رجلاً وسمها بالغدر وخذلها عند الحرب، فكان بذلك مسؤولاً إلى حد ما عن هزيمتها. وأما اليهود فلا شك في أنها كانت تستنكف أن يلي أمرها مشرك ولو كان ابن أبي نفسه.
فلما لقي حجاج الأوس والخزرج الرسول بموسم الحج وأطلعوا على سيرته وحالته وجدوا فيه ضالتهم المنشودة. فهو وحده الرجل الذي تستقيم على يده حالهم المختلة، وتجتمع على حكومته آراؤهم المختلفة، هو نبي عربي يتنزل عليه الوحي من السماء، وبذلك يحتجون به على اليهود. نعم إنه من الناحية السياسية يعتبر أجنبياً عن يثرب، ولكن حكومته لن تكون أجنبية. أليس الأنصار هم الذين سيكونون عدته ومادته؟ فأي حكومة ليثرب يمكن أن تفضل هذه الحكومة؟ إذن فليعدلوا عن تمليك ابن أبي، وليبايعوا محمداً، وليكن ذلك في غيبة ابن أبي وليكتموا ذلك الأمر عنه كتمان النبي إياه عن قريش.
تلك كانت الحال المعنوية للأنصار عندما بايعوا النبي بيعاتهم الثلاث بمكة. قال بن اسحق
عند كلامه على العقبة الأولى (. . . وقالوا له (للنبي) إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فان يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك. ثم انصرفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعين إلى بلادهم) وروي ابن إسحاق أيضاً عند كلامه على بيعة العقبة الكبرى (. . . فاعترض القول أبو الهيثم بن التيهان فقال يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالا وإنا قاطعوها، يعني اليهود، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فقال فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم قال بل الدم الدم! والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم). فالمسألة من ناحية الأنصار لا تعدو أن تكون حلفاً سياسياً قوامه الفكرة الدينية. أما من ناحية الرسول فلم تكن كذلك. فالرسول إنما كان يريد إذ ذاك بلداً يأمن فيه على دعوته وأصحابه، وقوماً يحمون ظهره حتى يبلغ رسالته. وقد أصبح ذلك مكفولاً له بالبيعة الأخير، وإذن فلم يبقى إلا الرحيل من مكة إلى المدينة
ورأى الرسول اغتنام الوقت فأذن لأصحابه في الخروج إلى يثرب في أواخر ذي الحجة من السنة الثالثة عشرة للنبوة. فجعلت جماعاتهم عندما استهل المحرم تخرج من مكة أرسالاً وتنزل على الأنصار في دورهم. فخرج في نحو شهرين زهاء المائتين. وقد أقفرت دور برمتها بسبب الهجرة. من ذلك دور بني مظعون وبني جحش وبني البكير. قال ابن هشام (فغلقت دار بني جحش هجرة، فمر بها عتبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب وأبو جهل بن هشام ابن المغيرة. . . وهم مصعدون إلى أعلى مكة، فنظر إليها عتبة ابن ربيعة تخفق أبوابها يباباً ليس فيها ساكن، فلما رآها كذلك تنفس الصعداء ثم قال:
وكل دار وان طالت سلامتها ... يوماً ستدركها النكباء والحوب
ثم قال هذا عمل ابن أخي هذا، فرق جماعتنا وشتت أمرنا وقطع بيننا) ولم يبق بمكة من المسلمين إلا النبي وأبو بكر وعلي وإلا من كان مفتوناً أو محبوساً أو مريضاً أو ضعيفاً عن الخروج.
وأحست قريش الخطر الذي أصبح يتهددها من جراء تلك الهجرة وذلك الحلف الذي

عقده محمد مع أهل يثرب. فاجتمع ماؤها في دار ندوتها ليقلب الأمر على وجوهه ويصدر فيه
رأياً حاسماً. وهنا افترقت بها الآراء وتشعبت المذاهب، فمنهم من رأى أن ينفى من البلد، ومنهم من رأى قتله. والظاهر أن الرأي الأخير هو الذي اجتمعوا عليه آخر الأمر. وإلى هذه القصة كلها يشير القرآن بقوله (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) ثم رأوا أن يقتلوه بحيث تمتنع على عشيرته المطالبة بدمه فأمروا فتياناً من بطون قريش أن يضربوه ضربة رجل واحد وبذلك يتفرق دمه في القبائل ويرضى بنو هاشم بديته.
ولكن رسول الله كان قد نذر بذلك فأسرع إلى الخروج خفية من داره إلى دار صديقه أبي بكر وكان قد أعد عدة السفر إلى المدينة، دليلاً وظهراً وخادماً وزاداً. وخرج الرسول وابو بكر إلى غار بجبل ثور بقيا به ثلاثة أيام اهتاجت فيها قريش اهتياجاً شديداً وجعلت لمن يأتي بالنبي حياً أو ميتاً جعلاً سنياً. والى حادث الغار يشير القرآن بقوله (إلا تنصروه فقد نصره الله، إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه، لا تحزن، إن الله معنا فانزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز ذو انتقام).
توصف الأرض التي بين مكة والمدينة بأنها حزنة وعرة موحشة، ليس بها ما يرفه عن المسافر في بلاد العرب من ماء أو خضرة ثم هي يشقها طريقان: إحداهما شرقية محاذية لنجد ويجاوز طولها الثلاثمائة ميل بقليل، والأخرى غربية محاذية لساحل البحر الأحمر ويقرب طولها من مائتين وخمسين ميلا. وقد آثر الدليل الذي اتخذه أبو بكر هادياً له وللرسول أثناء السفر سلوك الطريق البحرية. غير انه كان ينحرف يمنة، ويسرة تضليلاً لمن عسى أن ترسله قريش في أثرهم. فخرج بالجماعة من جبل ثور اسفل مكة فبلغ عسفان وهنا أدرك الجماعة سراقة بن مالك طامعاً في قتل الرسول وأخذ جعل قريش، ولكنه وجد نفسه أمام أربعة أشداء فكان قصاراه أن نجا بنفسه بعد أن أعطى الرسول وأصحابه موثقاً ألاّ يدل عليهم. ثم سار الدليل بهم إلى أمج فقديد، فلما قارب بدراً مال بهم يمنة إلى العرج، ثم هبط وادي العقيق الذي يؤدي إلى المدينة. ولكن النبي أمر بأن يكون المسير أولاً إلى قباء قرية بني عمر بن عوف. فبلغها ظهر يوم الاثنين 12 ربيع الأول من السنة الأولى للهجرة وذلك بعد مسير ثمانية أيام. وأقام النبي ثلاثة أيام بقباء وثق فيها من
حسن استقباله بالمدينة. فما كان يوم الجمعة خرج من قباء إلى المدينة يحف به ملأ بني النجار. وقد لحقه بقباء علي بن أبي طالب بعد أن أدى عن الرسول ما كان للناس عنده من الودائع. ولما اطمأن الرسول بالمدينة انفذ إلى مكة من حمل إليه أهل بيته.
ليس يسيراً على المؤرخ أن يصور مقدار المشقة التي لحقت المهاجرين الأولين من جراء هجرتهم من وطنهم إلى بلد ناء ومعشر غرباء. لقد كان أول مظهر لهذه المشقة أن تأثروا بجو المدينة الوخم لأول قدومهم فاعتلت صحتهم وأصابتهم الحمى وعراهم داء الحنين إلى وطنهم القديم، حتى لقد كان بعضهم يهذي بذلك إذا أخذه دوار الحمى. البلاذري بإسناده عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت (لما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة مرض المسلمون بها فكان ممن اشتد به مرضه أبو بكر وبلال وعامر بن فهيرة. فكان أبو بكر يقول في مرضه:
كل امرئ مصبح في أهله ... والموت أدنى من شراك نعله
وكان بلال يقول:
ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... بفخ وحولي أذخر وجليل!
وهل أردن يوماً مياه مجنة ... وهل تبدون لي شامة وطفيل!
وكان عامر بن فهيرة يقول:
لقد وجدت الموت قبل ذوقه ... إن الجبان حتفه من فوقه
كل امرئ مجاهد بطوقه ... كالثور يحمى جلده بروقه
قال فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، فقال: اللهم طيب لها المدينة كما طيبت (لنا مكة، وبارك لنا في مدها وصاعها).
وتتمثل هذه المشقة كذلك في الفاقة الشديدة التي صار إليها المهاجرون بسبب الهجرة. فقد خلف أكثرهم أمواله بمكة فعدت عليها قريش فاغتصبتها تشفياً من

أصحابها. روى صاحب أخبار مكة (انه قيل للنبي صلى الله عليه وسلم يوم الفتح (فتح مكة) ألا تنزل منزلك بالشعب؟ قال وهل ترك لنا عقيل منزلاً. قال وكان عقيل ابن أبي طالب قد باع منزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنازل أخوته من الرجال والنساء بمكة حين هاجروا ومنزل كل من هاجر من بني هاشم، فقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل في بعض بيوت مكة في غير منزلك. فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لا أدخل البيوت، فلم يزل مضطرباً بالحجون وكان يأتي المسجد من الحجون) ويروي ابن هشام أن عبد الرحمن بن أبي بكر عدا على مال أبيه بمكة بعد هجرته، فلما كان يوم بدر خرج عبد الرحمن مع قريش لقتال المسلمين فناداه أبوه: أين مالي يا خبيث؟ فأجابه عبد الرحمن:

لم يبق غير شكة ويعبوب ... وصارم يقتل ضلال الشيب

ويروي ابن هشام كذلك (أن صهيباً حين أراد الهجرة قال له كفار قريش أتيتنا صعلوكاً حقيراً، فكثر مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثم تريدان تخرج بمالك ونفسك، والله لا يكون ذلك: فقال لهم صهيب. أرأيتم أن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي؟ قالوا نعم! قال فأني جعلت لكم مالي. قال فبلغ ذلك رسول الله (صلعم) فقال: ربح صهيب! ربح صهيب!) ويروي ابن اسحق أنه (لما خرج بنو جحش بن رئاب من دارهم عدا عليها أبو سفيان ابن حرب فباعها من عمرو بن علقمة. . . . فلما بلغ بني جحش ما صنع أبو سفيان بدارهم ذكر ذلك عبد الله بن جحش لرسول الله (صلعم). فقال له رسول الله (صلعم) ألا ترضى يا عبد الله أن يعطيك اله بها داراً خيراً منها في الجنة؟ قال بلى! قال فذلك لك. فلما افتتح رسول الله (ص) مكة، كلمه أبو أحمد في دارهم فأبطأ عليه رسول الله (صلعم). فقال الناس لأبي أحمد، يا أبا أحمد! إن رسول الله (صلعم) يكره أن ترجعوا في شيء من أموالكم أصيب في الله عز وجل، فأمسك عن كلام رسول الله (صلعم) فيها) ومما يدل على شدة فقر المهاجرين لأول عهدهم بالمدينة أن الرسول عند ما خرج بهم إلى وقعة بدر في السنة الثانية للهجرة دعا الله في رواية الواقدي فقال: (اللهم انهم حفاة فاحملهم، وعراة فاكسهم، وجياع فأشبعهم، وعاله فأغنهم من فضلك)

من أجل تلك الفاقة كان المهاجرون في السنوات الأولى من الهجرة عالة على الأنصار. وذلك مظهر ثالث للحوق المشقة بهم - نعم إن الأنصار أكرموا وفادتهم كل الإكرام وواسوهم أتم المواساة، ولكن تلك الحال ليس من السهل على كرام النفوس احتمالها. يروي البلاذري أن النبي عندما أراد قسمة غنام بني النضير قال للأنصار: (ليست لإخوانكم من المهاجرين أموال، فأن شئتم قسمت هذه فيهم خاصة. فقالوا بل اقسم هذه فيهم واقسم لهم من أموالنا ما شئت. فنزلت (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) فقال أبو بكر:

جزاكم الله يا معشر الأنصار خيرا، فوالله ما مثلنا ومثلكم إلا كما قال الغنوي:

جزى الله عنا جعفراً حين أزلقت ... بنا نعلنا في الواطئين فزلت

أبوا أن يملونا ولو أن أمنا ... تلاقى الذي يلقون منا لملت

فذو المار موفور وكل معصب ... إلى حجرات أدفأت وأظلت

من أجل تلك المشقة التي نالت المهاجرين الأولين في سبيل الله اعتبر القرآن هجرتهم هجرة إلى الله ورسوله، ومن أجلها جعل أولئك المهاجرين أرفع طبقات المسلمين درجة وأجزلهم مثوبة، وفرض مثل هجرتهم على كل مسلم عند خوف الفتنة ولحوق الضيم، قال تعالى (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم؟ قالوا كنا مستضعفين في الأرض، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا. إلا المستضعفين من الرجال والنساء والوالدان، لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم، وكان الله عفوا غفورا. ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة، ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً).

أما بعد فلقد وفق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كل التوفيق عندما اتخذ هجرة الرسول من مكة إلى المدينة تاريخاً يحسب منه المسلمون سنيهم وأيامهم، ويؤرخون

منه أحداثهم ووقائعهم. انه لا شك قد لحظ في الهجرة أنها بدء رسوخ الإسلام، ولكنا نلحظ فيها فوق ذلك أنها كانت مظهراً رائعاً لعناصر الحياة القوية النبيلة: حياة الألم والتضحية والإخلاص.

عبد الحميد العبادي

اشراق الهلال على الوادي

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

وقف ربيئة الروم فوق أعلى حصن (بابليون) بجوار مدينة مصر العظيمة، فنظر إلى ما دونه نحو الأهرام عابراً ببصره نهر النيل العظيم فذهب به الخيال إلى الماضي البعيد، وهمت بنفسه سورة خفيفة من الشجن المبهم، وكان الجو كله ممتلئاً بالأشجان والمخاوف لما كانت الدولة تلقاه من جميع الأنحاء من الغارات والأخطار ثم، نظر إلى الشمال نحو مدينة الشمس العظيمة (أون) حاضرة العلوم القديمة ومركز ثقافة الفراعنة، غير أنها لم تكن عند ذلك إلا بقية ضئيلة من نفسها القديمة. ثم نظر إلى الكروم والبساتين التي تكتنف الحصن من شماله حتى تصله بمدينة (أون) فلاح له من بينها غبار ثائر وجرم متحرك. وما زال يحدق في ذلك الغبار وقلبه مضطرب وعقله تساوره الذكريات، والمخاوف تتوارد عليه سراعاً. ثم صاح صيحة النذير فاجتمع حوله جنود الحصن الذين كانوا على مقربة منه يشتركون معه في النظر إلى ذلك الغبار الثائر وما لاح تحته من أجرام متلاحقة متحركة نحو شاطئ نهر النيل. وكان الجنود إلى ذلك الوقت لا يعرفون شيئاً سوى ما يذيعه لهم قوادهم وأمراؤهم، فجعلوا يذهبون مع الخيال مذاهب شتى، فقائل منهم تلك جنود من الفرس عادت لتنتقم من الهزيمة الطاحنة التي لحقت بدولتها على يد هرقل ملك الروم العظيم، وقائل أن تلك قبائل البجة التي اعتادت العيث في جنوب البلاد قد بلغت شمال الوادي لتهبط على ريفه فتسلب منه ما شاءت ثم تعود مسرعة قبل أن يستطيع الروم أن يجمعوا الجيوش للإيقاع بها، ثم قال قائل منهم ممن عركتهم الحروب (أين الفرس اليوم؟ لقد صارت دولتهم في يد جيوش عرب الصحراء كما صارت بلاد الشام. ولقد رأيت بنفسي جيش العرب يأخذ دمشق ويطرد الروم من مروج سوريا، وليس من شك في أن هذا الغبار قد أثارته حوافر خيولهم السريعة).

وأتى عند هذه اللحظة قواد الروم عندما بلغهم الصخب واللغط فنظروا حيث نظر الجنود، ثم نظر بعضهم إلى بعض نظرات صامتة في وجوه مصفرة ثم قال (جورج) كبيرهم للجنود: (هلم أيها الجنود إلى أماكنكم فليس من المباح لكم أن تقفوا إلى جوار الربيئة تشغلونه عن حراسته) فانصرف الجنود طائعين وقلوبهم غير راضية وعقولهم غير مطمئنة، ثم مضى القواد إلى ناحية من سور الحصن وجعلوا ينظرون إلى الأشباح المتحركة والغبار الثائر في ضوء الغروب الخافت.

ثم قال (جورج) القائد الأعلى للحصن (أيمكن أن يكون هؤلاء العرب قد غلبوا جنود الدولة التي أرسلت إليهم وبلغوا هذه الجهات في شهر واحد؟ وماذا فعل (إريطبون)؟ وماذا فعل تيودور؟) فقال أحد القواد، وكان أقربهم إليه: (لقد شهدت حرب هؤلاء في مواطن كثيرة، إنهم يخرجون إليك كأنهم سراب الصحراء لا تدري من أين جاءوا، ثم تراهم ينصرفون عنك حتى لا تسمع عنهم شيئاً فكأنهم غاصوا في رمال الصحراء. ثم ما يلبثون أن يعودوا إليك وأنت لا تتوقع عودتهم كأنهم أشباح لا تعوقهم مادة هذه الأرض).

ثم أرخى الليل سدوله ولم يأت بعد نبأ عن فعل تلك الأشباح المتحركة، وطلع صباح اليوم التالي فإذا بالأرض الشمالية على عهدها ليس فيها غبار ثائر ولا أشباح متحركة، فكأنما كان منظر المساء الغابر من صور الخيال واختراع الوهم. إلا أن زوال ذلك اليوم حمل إلى الحصن بقية من جرحى قرية (أم دنين) التي على شاطئ النهر وفلا من مسلحة الحصن التي هزمها الجيش البدوي المغير. غير أن ذلك الجيش لم يبق بعد ذلك طويلاً على الشاطئ بل عبر النهر واختفى في الأفق الغربي. فتعجب القائد (جورج) عندما بلغه هذا، وعرف أن قائده الذي وصف له حرب العرب كان يصفهم عن خبرة وعلم. لقد ظهر جيش العرب في شمال الحصن كأنه شبح خيال ثم اختفى كذلك كأنه شبح خيال. ولكن متى يعود؟ ومن أي جهة يطلع بعد عليهم؟

تواردت إلى الحصن بعد ذلك الإمداد الكثيرة من جميع أنحاء مصر تعزيزاً لحصن الحصون الذي يدافع عن قلب البلاد مدينة (مصر)، وأجاب قواد الأطراف على استصراخ (جورج) قائد الحصن بأن بعثوا إليه ما استطاعوا بعثه من الجنود المجهزة ليطردوا ذلك الجيش الذي لاح ثم اختفى، وتجهز المقوقس العظيم ليسير بنفسه من الإسكندرية إلى مركز البلاد، ليكون وجوده حافزاً لهمة الجنود، وليكون على مقربة من الأعداء لعله يستطيع بما أوتي من بلاغة ومكر أن يصرفهم عن البلاد.

ومرت الأيام سراعاً وراجت الأخبار المتضاربة عن الغزاة، وأتت بعض أنباء تلك الكتيبة الصغيرة من فرسان الصحراء، فإذا بالقائد الشجاع (حنا) الذي كان معبود جيش الروم بالفيوم يقتل في بعض المواقع منذ دفعته شجاعته للقاء جيش العرب. وترددت أنباء ذلك بين القواد والجنود فإذا هم في حصن بابليون حلقات يتهامسون عن هذا العدو المغير ويتساءلون عن كنهه وحقيقة أمره، وكان بين جنود الروم وقوادهم من رأى حروب الآفار والبلغار والفرس، وكان منهم من قرأ أخبار الأمم الماضية ممن أغار على دولة الرومان في القرن الماضي من اللمبرديين والوندال والقوط. وما كان أفظع تلك الأمم التي أغارت في تلك القرون على أراضي الدولة الرومانية! فقد كانوا لا يعرفون في الحرب هوادة ولا رحمة، ولا يخضعون لقانون خلقي أو ديني. فقد حكى عن (البوين) ملك اللمبرديين أنه هزم في بعض حروبه قبيلة الجبيدي وقتل رئيسهم والد (روزاموند) الجميلة، ثم اتخذ تلك الابنة الجميلة زوجة له واحتفل بزواجه منها احتفالاً وحشياً، وجعل يشرب الخمر في كأس جميلة - وأي كأس أجمل من جمجمة عدوه والد عروسه الجميلة؟ حقاً ما كان أفظعه وأفظع قومه! ولقد دخل الوندال بلاد غاله ثم بلاد أفريقية، وكان الروم يعرفون مقدم هؤلاء الوندال بما يرتفع من لهيب النيران فوق آفاقهم. فكان هؤلاء الوندال يجتاحون بلادهم كما تجتاح العواصف والحرائق السهول الفيحاء فتتركها قاعاً صفصفاً، أيكون العرب كبعض هذه الأمم؟

مضى أشهر ثم عادت كتيبة العرب من الأفق الغربي فعبرت نهر النيل مرة أخرى، وظهرت لربيئة الروم من خلال البساتين والكروم التي بين الحصن ومدينة (أون)، وكان الروم قد اجتمعوا في العدد والعدة في حصنهم العظيم (بابليون)، فما أسرع أن تدفقت جموعهم نحو الشمال لتحيط بتلك الكتيبة وتهلكها. وهل كان هؤلاء العرب ليقووا على صدمة جيش عظيم كهذا؟

وقع الاصطدام أخيراً عند مدينة (أون). وماذا دهى القوم؟ فان هي إلا جولات، فإذا بجيش الروم يتردد في سيره، ثم إذا به يرتد نحو شاطئ النهر. ثم ها هي ذي كتيبة عربية تخرج إليه من شاطئ النهر كأنها تنقذف عليه من أعماقه. وها هو ذا الجيش العظيم يتردد مرة أخرى ثم يتفكك ثم تتدافع جموعه نحو الجنوب يحاول كل فرد منهم أن يبلغ الحصن قبل أن تأخذه سيوف العرب اللامعة. ومرت الأيام بعد ذلك فإذا بالروم قد دخلوا حصنهم وأغلقوا أبوابه الضخمة، وإذا بالعرب حول الحصن العظيم يتطلعون إليه ولا يدرون كيف

يسمون فوقه. وأراد المقوقس العظيم أن يعرف حقيقة أمر هؤلاء المغيرين لعله يعطيهم بعض مال فيرتدوا عنه، فقال له أحد القواد: (دع عنك هذا فما هم بمن يأتي من أجل الذهب حتى إذا ما بذل لهم ذهبوا به عنا) وجعل يقص عليه قصته مع رجل من هؤلاء العرب رآه يوماً واقفاً وحده يصلي، فهبط إليه من الحصن مع جماعة من الروم، فترك العربي الصلاة وأقبل إليهم كأنه الصخرة الثقيلة التي تنحدر من عل لا يتردد ولا يلتفت إلى شيء، فهربوا منه حتى أنهم رموا إليه بمناطقهم الذهبية ليلهوه بها فلم يلو على شيء منها، ولم ينجهم منه إلا أن بلغوا الحصن وأغلقوا بابه دونه، ورموه بالحجارة من فوقه. فارتد ولم يلتفت إلى تلك المناطق الذهبية، بل عاد إلى موضعه ليتم ما كان فيه من الصلاة وتركهم يخرجون من حصنهم لاسترجاع مناطقهم ثم يعودون على حذر تعجب المقوقس العظيم، وأراد أن يستطلع حقيقة الأمر فبعث بجماعة من الروم رسلا إلى قائد القوم فرأوا من هؤلاء المغيرين ما لا عهد للروم به من قبل. قال الرسل: (رأينا قوماً، الموت أحب إليهم من الحياة، والتواضع أحب إليهم من الرفعة، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة. إنما جلوسهم على التراب وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كواحد منهم. ما يعرف رفيعهم من وضيعهم، ولا السيد منهم من العبد. وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها أحد. يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون في صلاتهم).

لم يكن هذا شأن شعب من شعوب الهمج الذين افترسوا اطرف الدولة الرومانية. وهذه أول مرة يجتمع فيها إلى الاستهانة بالحياة والشجاعة التي لا تعرف خوفاً، خلق متين ونظام لا ينفك منه أحد. ومن ذا يستطيع أن يقاوم شعباً اجتمع له هذان الوصفان؟

كان أعظم ما يخشاه الروم في مصر أن يعرف شعب مصر حقيقة هؤلاء العرب، فلو أنهم عرفوا العرب لأمنوا إليهم، ولو أمنوا إليهم لأصبح الروم ولو كثر عديدهم غرباء عن الأرض قد فقدوا الناصر والتابع. غير أن شعب مصر ما لبث أن عرف الحق واتصل بهؤلاء المحاربين، فلقد كانوا في سيرهم لا يسيرون سير الجيوش المغيرة المدلة المتكبرة المفسدة، بل كان الطفل آمنا بينهم، والمرأة لا يلحقها أذى من نظرة أحدهم. إذ كانت عداوتهم لجيش الروم لا لأهل مصر، بل إن أهل مصر كانوا موضع وصية خليفتهم ووصية نبيهم الكريم، ومنذ رأى أهل مصر ذلك صاروا حلفاء لهم على أولئك الروم الذين

طالما طغوا وبغوا وظلموا وعسفوا وأحرقوا وعذبوا ولم يرعوا في رعيتهم ما كان في أعناقهم من أمانة. وما هو إلا عام حتى كان العرب على انتظار تسليم الإسكندرية ذاتها بعد أن دان لهم داخل البلاد.

وكان الحاكم العربي عمرو بن العاص لا يدع فرصة لتذكير جنوده بما عليهم من الواجب نحو أهل البلاد التي حلوا بها، وكأننا به يتطلع بخياله القوي نحو ذلك اليوم الذي يمتزج فيه قومه الصحراويون بقبط مصر، وينشا من ذلك الامتزاج شعب جديد يقوم على إنشاء مدنية جديدة. وقف عمرو يخطب في قومه عند حلول الربيع وقت ذهاب العرب إلى الريف ابتغاء أن يصيبوا من خيراته لأنفسهم ولخيولهم. وقال عند ذلك في خطبته: (واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيرا، وإياكم والمسومات المعسولات. . . حدثني عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (إن الله سيفتح عليكم بعدي مصر فاستوصوا بقبطها خيرا، فان لكم منهم صهراً وذمة، فكفوا أيديكم وعفوا فروجكم وغضوا أبصاركم. . .))

ولقد سار العرب على وصية قائدهم الحكيم فلم يشك أحد من أهل مصر اعتداء على شرفه ولا انتهاكاً لحرمته.

ولقد كان عمرو عفيفاً في حكمه عن العسف والخبط حتى لقد وقف في وجه عمر بن الخطاب نفسه دفاعاً عن سياسته المالية الرحيمة، ثم عزل عن مصر في أيام عثمان دفاعاً عن تلك السياسة عينها. وكانت سياسة العرب على تقلب الأيام واختلاف الدول مدى القرنين الأولين من بعد الفتح سياسة اعتدال ورفق، تسمع ذلك متردداً على لسان أساقفة القبط الذين تركوا لنا في دواوينهم ذكراً من تلك الأيام.

قال أحدهم عندما عاد بنيامين بطريق القبط آمناً بعد أن هرب ثلاثة عشر عاماً من اضطهاد الروم: (الحمد لله الذي أنجاك من الكفرة (الروم)، وحفظك من الطاغية الأكبر الذي شردك فعد إلى أبنائك تراهم ملتفين حولك مرة أخرى).

ونقل عن بنيامين البطريق الأعظم للقبط انه قال يصف عودته عند فتح العرب: (كنت في بلدي وهو الإسكندرية فوجدت بها أمناً من الخوف، واطمئناناً بعد البلاء، وقد صرف الله عنا اضطهاد الكفرة (الروم) وبأسهم) (وقد فرح القبط كما يفرح الاسخال إذا ما حلت لهم

قيودهم، وأطلقوا ليرتشفوا من لبان أمهاتهم).

وقال الأسقف حنا النقيوسي: (لقد تشدد عمرو في جباية الضرائب التي وقع الاتفاق عليها، ولكنه لم يضع يده على شيء من ملك الكنائس، ولم يرتكب شيئاً من النهب أو الغصب، بل أنه حفظ الكنائس وحماها إلى آخر مدة حياته).

وقد ورد في كتاب الأستاذ بتلر (فتح العرب لمصر) في وصف دخول المصريين في دولة العرب: (فقد خرجوا من عهد ظلم وعسف تطاول، وآل أمرهم بعد خروجهم منه إلى عهد من السلام والاطمئنان، وكانوا من قبل تحت نيرين من ظلم حكام الدنيا واضطهاد أهل الدين، فأصبحوا وقد فك من قيدهم في أمور الدنيا، وأرخى من عنانهم. وأما دينهم فقد صاروا فيه إلى تنفس حر وأمر طليق).

وإذا كان قبط مصر قد دخلوا في الإسلام أفواجاً حتى صار الإسلام دين الكثرة في البلاد، فما ذلك إلا ميل الطبيعة نحو وحدة قوم هم بطبيعة حياتهم ذاتها لا يستطيعون

إلا أن يكونوا شعباً واحداً متجانساً. ولقد بقيت من القبط بقية عظيمة في دلالتها، عظيمة بما يجري في عروقها من دم مصر القديمة، وإذا كان دينها دين المسيح، ودين سائر أهل مصر الإسلام، فان ذلك لا يفرق بين طائفتين تجمع بينها أسباب الحياة وأواصر الاخوة. وأن الأسماء إذا اختلفت، والمظاهر إذا لاح عليها شيء من التباين، فان الدماء التي تجري في العروق ترجع إلى منبع واحد وجرثومة قديمة شهدت عصور ما قبل التاريخ.

محمد فريد أبو حديد

الهجرة

رواية في فصل واحد وسبعة مناظر

للأستاذ توفيق الحكيم

إني أشهد أن محمداً نبي كريم

إني أشهد أن محمداً بشر عظيم

إني أسجد للعظمة والنور

وما صفحاتي إلا إشهاد وسجود.

توفيق الحكيم

المنظر الأول

كان النبي (ص) جالساً وحده في المسجد وأشراف قريش مجتمعون عن كثب يتهامسون. . . .

قريش - ما الرأي في محمد؟ إن عمه أبا طالب يمنعه وينصره علينا

عتبة بن ربيعة - أجل، ولا قِبل لنا بأبي طالب

أبو جهل - إني لأخشى أن يتابع محمداً بعض رؤوس القوم فيعز ويمتنع ويفشو أمره في القبائل

أبو سفيان - ما أحسبه يا أبا الحكم إلا نائلا منا إن تركناه فيما هو فيه

قريش - وما الرأي؟

عتبة (تبدو له فكرة)

يا معشر قريش! ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟

قريش - بلى يا أبا الوليد، قم إليه فكلمه

(يقوم عتبة إلى رسول الله ويجلس إليه. . . .)

عتبة (للنبي)

يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السلطة في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم: فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم، وكفرت به من مضى من آبائهم؛ فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها.

محمد - قل يا أبا الوليد، أسمع

عتبة - يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تريد به شرفاً، سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً، ملّكناك علينا، وإن كان هذا الوحي الذي يأتيك رئيّاً تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه.

(يسكت عتبة وينظر إلى النبي)

محمد - أقد فرغت يا أبا الوليد؟

عتبة - نعم

محمد - فاستمع مني

عتبة - أفعلُ

محمد (يلتو)

بسم الله الرحمن الرحيم، حم تنزيل من الرحمن الرحيم، كتاب فصَّلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون، بشيراً ونذيراً، فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون. وقالوا قلوبنا في أكنّة مما تدعونا إليه، وفي آذاننا وقر، ومن بيننا وبينك حجاب، فاعمل إننا عاملون. قل

إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليَّ، إنما إلهكم إله واحد، فاستقيموا إليه واستغفروه، وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون. . .
؟
عتبة (ينصت ويلقي يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه. . .)
محمد (يمضي فيها يقرؤها عليه)
ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون. قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين. وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين. ثم استوى إلى السماء وهي
دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين. فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم. فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألاَّ تعبدوا إلا الله، قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون، فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة؟ أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون. فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا، ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون. وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون. . .
(ينهي رسول الله إلى السجدة منها فيسجد. . . .)
عتبة - (مأخوذا كأنما على رأسه طائر واقع. . . . . .)
؟
محمد - قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك
عتبة - (يقوم إلى أصحابه صامتا)
؟
أبو جهل (لقريش ناظرا إلى عتبة مقبلا عليهم)
أحلف لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به
عتبة - (يجلس إليهم ساكناً)
أبو جهل - ما وراءك يا أبا الوليد؟
عتبة - (في صوت متغير)
ورائي أني سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط. والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه
(قريش يعروها دهش ويصمت الجميع)
أبو جهل - (ينتبه ويرفع رأسه ملتفتاً إلى عتبة. . .)
سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه
عتبة - والله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ
قريش - أهذا رأيك فيه؟
عتبة - هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم. . .
المنظر الثاني
(بعد غروب الشمس. . . . . أشراف قريش عند ظهر الكعبة)
أمية بن خلف - هل بعثتم إليه؟
أبو سفيان - نعم، لقد بعثنا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك
أمية بن خلف - أجل، ابعثوا إليه فكلموه وخاصموه حتى تُعذروا فيه
أبو جهل - لن يستطيع اليوم أن يسحرنا بحديثه كما سحر أبا الوليد
أبو سفيان (ينظر)
ها هو ذا مقبلا سريعاً
أمية - (ينظر)
أرى في وجهه المستبشر أنه يظن أن قد بدا لنا فيه بداء
(رسول الله يحضر ويجلس إليهم مستبشراً طامعاً في إسلامهم)

أبو سفيان - (لأبي جهل)
كلمه أنت يا أبا الحكم
أبو جهل - (لرسول الله)
يا محمد! إنا قد بعثنا إليك لنكلمك، وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وشتمت الآلهة، وسفهت الأحلام. فأن كنت إنما جئت بهذا الحدث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وان كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا، وان كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وان كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه قد غلب عليك بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك
(يسكت وينظر إلى النبي)
محمد - ما بي ما تقولون. ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولا، وأنزل على كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم، فان تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وان تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم
قريش (تتهامس)
انه غير قابل
أبو جهل - يا محمد إن كنت غير قابل شيئاً مما عرضناه عليك فانك تعلم أنه ليس من الناس أحد أضيق بلداً ولا أقل ماء ولا أشد عيشاً منا، فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليفجر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل، فان صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك وعرفنا به منزلتك من الله وأنه بعثك رسولا كما تقول
محمد - ما بهذا بعثت اليكم، انما جئتكم من الله بما بعثني به، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فان تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وان تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم
قريش (تتهامس)
انه والله غير فاعل
أبو جهل - فإذا لم تفعل هذا لنا، فخذ لنفسك، سل ربك أن يبعث معك ملكاً يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك
أبو سفيان - وسله فليجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة، يغنيك بها عما تراك تبتغي، فانك تقوم بالأسواق كما نقوم، تلتمس المعاش كما نلتمسه
أمية - نعم، فليجعل لك قصوراً وكنوزاً حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم
محمد - ما أنا بفاعل، وما أنا بالذي يسأل ربه هذا وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً، فان تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وأن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم
قريش (تتهامس)
فليرنا ما يتوعد
أبو جهل - أسقط السماء علينا كسَفا كما زعمت، فان ربك إن شاء فعل، فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل
محمد - ذلك إلى الله إن شاء أن يفعله بكم فعل
أبو سفيان - يا محمد، أفما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب فيتقدم إليك فيعلمك ما تراجعنا به ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا إذا لم نقبل منك ما جئتنا به؟
أبو جهل - يا محمد، أنه قد بلغنا أنك أما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له الرحمن، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبدا؛ فقد أعذرنا إليك، وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا
أمية - نحن نعبد الملائكة وهي بنات الله

أبو سفيان - لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلا
محمد (يقوم عنهم يائسا) (ويقوم معه عبد الله بن أبي أمية)
؟
عبد الله - يا محمد، عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل، ثم سألوك أن أخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله فلم تفعل، ثم سألوك أن تعجل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل، فوالله لا أوآمن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلّما ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها، ثم تأتي بصك ومعك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول وايم الله أن لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك
محمد - (ينصرف حزيناً آسفاً)
؟
أبو جهل - يا معشر قريش، إن محمداً قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا وشتم آلهتنا، وأني أعاهد الله لأجلسن له غدا بحجر ما أطيق حمله، فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم
الجميع - والله لا نسلمك لشيء أبداً، فامض لما تريد
المنظر الثالث
أبو طالب (وقد حضره الموت. . . . . .)
أبو طالب - شربةَ ماء
العباس (على رأسه يسقيه)
؟
أبو طالب (يلتفت)
من هذا؟
العباس - أين؟
أبو طالب (يشير إلى الباب)
؟
العباس (يتوجه إلى الباب ينظر ثم يعود)
هو أبو جهل في رجال من أشراف قومه، ما أحسبهم إلا يمشون إليك في أمر محمد ابن أخيك
أبو طالب - أدخلهم عليّ
العباس (يدخلهم)
؟
أبو جهل - يا أبا طالب، انك منا حيث قد علمت، وقد حضرك ما ترى وتخوفنا عليك، وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك، فادعه فخذ له منا وخذ لنا منه ليكف عنا ونكف عنه، وليدعنا وديننا وندعه ودينه
أبو طالب (يشير إلى العباس أن يبعث إلى محمد)
؟
العباس (يخرج في طلبه ثم يعود)
لقد جاء محمد
(يدخل رسول الله)
أبو طالب (للنبي)
يا ابن أخي، هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليعطوك وليأخذوا منك
محمد - نعم يا عم، كلمة واحدة يعطونيها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم
أبو جهل - نعم وأبيك وعشر كلمات
محمد - تقولون، لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه
(يصفق القوم بأيديهم)
أبو جهل - أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلها واحداً؟ إن أمرك لعجب
أبو سفيان (يتهيأ للانصراف مع بعض القوم) والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئاً مما تريدون، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه

(يتفرقون ويخرجون)
أبو طالب (للنبي بعد خروج قريش) والله يا ابن أخي ما رأيتك سألتهم شططا
محمد (ناظرا إليه طامعاً في إسلامه)
أي عم، فأنت فقلها، أستحل لك بها الشفاعة يوم القيامة
أبو طالب - يا ابن أخي، والله لولا مخافة السبة عليك وعلى بني أبيك من بعدي، وأن تظن قريش أني إنما قلتها جزعاً من الموت لقلتها، لا أقولها إلا لأسرك بها. . . .
(يقترب منه الموت)
العباس أخي. . . .
أبو طالب - من هذا؟
العباس - أين؟
أبو طالب - (يغمض عينيه ويحرك شفتيه)
؟
العباس (ينحني عليه، ويصغي إليه بأذنه ثم يهمس إلى رسول الله. . .)
يا ابن أخي، والله لقد قال أخي الكلمة التي أمرته أن يقولها
محمد - لم أسمع
المنظر الرابع
(بيت النبي في مكة)
بلال - (يدخل باكياً)
؟
جارية - ويحك يا بلال. ما بك؟
بلال - قاتلهم الله
الجارية - ما يبكيك يا بلال؟
بلال - قاتلهم الله
الجارية - من هم؟
بلال - أغروا أحد سفهائهم فاعترض رسول الله وحثا على رأسه التراب
الجارية - التراب؟
بلال - نعم
الجارية - قريش؟
بلال - نعم. هي قريش صنعت هذا
الجارية - نعم، اليوم
بلال - واحزناه عليك يا أبا طالب. من ذا يمنع اليوم النبي وينصره؟
الجارية - (ترى إحدى بنات النبي مقبلة)
صه ودع البكاء عنك يا بلال
بلال - (يرى النبي مقبلا)
رسول الله. . .
(ثم يكفكف دمعه سريعاً)
محمد - (يدخل والتراب على رأسه)
ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب
ابنته - (تبكي)
؟
(ثم تأتي بماء وتغسل عن النبي التراب. . . .)
محمد - لا تبكي يا بنية، فان الله مانع أباك
المنظر الخامس
(في الطائف. النبي في نفر من سادة ثقيف وأشرافهم على مقربة من حائط لعتبة بن ربيعة وأخيه شيبة وهما فيه ينظران)
عتبة - (يهمس)
ما جاء به إلى الطائف؟
شيبة - ما أحسبه إلا جاء يلتمس النصرة من ثقيف والمنعة بهم من قومه
عتبة - قريش؟

شيبة - نعم، ما كان أحد يمنعه وينصره على قريش إلا عمه أبو طالب، فلما هلك عمه نالته قريش من الأذى بما لم تكن تطمع به في حياة عمه
عتبة - وهل تحسب ثقيفاً ناصرة إياه؟
شيبة - إن لم تنصره ثقيف فلا ناصر له
عتبة - (يلتفت إلى ناحية القوم)
انظر يا شيبة. انه جلس إلى أشراف ثقيف يدعوهم إلى ربه الذي يحدث عنه. وما أرى في وجوه القوم إلا استهزاء به وبما يقول
شيبة - (ينظر)
سمع. هذا مسعود بن عمرو يدنو منه
مسعود - (يدنو حقيقة من النبي)
أني أمرط ثياب الكعبة ان كان الله أرسلك
عتبة - (لشيبة همساً)
أسمعت؟
شيبة - (هامساً)
سمعت
عتبة - (همساً)
أرى وجهه قد تغير
شيبة - هذا أيضاً عبد ياليل بن عمر يدنو منه
عبد ياليل (يدنو من النبي)
أما وجد الله أحداً يرسله غيرك؟
عتبة - (هامساً)
انهم يغلظون له
شيبة - صه. هذا حبيب بن عمرو يدنو منه كذلك ليقول له شيئاً
حبيب - (للنبي)
والا لله اكلمك أبداً، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام. ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك
محمد - (يقوم وقد يئس منهم)
عتبة - انظر يا شيبة، انه قد قام
شيبة - ما أراه إلا بائساً حزيناً
عتبة - انه يريد أن يقول لهم شيئاً، اسمع
محمد - (للقوم)
إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني
عتبة - (هامساً)
ماذا يريد بهذا؟
شيبة - لعله يكره أن يبلغ قومه عنه خذلان ثقيف له فيذئرهم ذلك عليه
(صياح وأصوات).
عتبة - ما هذا الصياح؟
(ينظر)
انظر هؤلاء ناس وعبيد تصيح به
شيبة - (ينظر)
ما أحسب إلا أن القوم قد أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به.
عتبة - انظر لقد اجتمع عليه الناس وهو لا يستطيع منهم فرارا
شيبة - ما أرى إلا أنه سيلقى منهم أذى كثيرا
عتبة - أنه مقبل علينا
شيبة - أنهم يسدون عليه السبيل
(الصياح يقترب)
عتبة - لقد ألجأوه إلى حائطنا
شيبة -، أجل، ها هو ذا يسقط إعياء
النبي قد عمد حقيقة إلى ظل حيلة من عنب فجلس فيه وقد رجع عنه من كان يتبعه)

(. . .من سفهاء ثقيف
!عتبة - أي هوان يلقى هذا الرجل من أهل الطائف
شيبة - أتحركت له رحمتك يا عتبة؟
عتبة - (ينظر إليه)
اسمع. إصغ. انه يقول شيئاً
محمد - (وقد اطمأن قليلاً بعد ذهاب الناس عنه. . .)
اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي. إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتهجمني، أم إلى عدو ملكته أمري؟ أن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي. ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو يحل عليّ سخطك. لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك
عتبة - (همساً لأخيه شيبة)
أسمعت؟
شيبة (مأخوذا)
!نعم
عتبة - أيمكن أن يكون مثل ذلك الرجل كذاباً؟
!شيبة - ويحك يا عتبة
عتبة (ينادي غلامه همساً)
!يا عداس
!عداس - لبيك
عتبة - خذ قطفاً من هذا العنب فضعه في هذا الطبق ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه
عداس (؟ يسارع إلى ما أمر به)
شيبة (ينظر إلى وجه أخيه)
ما حملك على هذا؟
عتبة (ينظر إلى النبي)
انظر يا شيبة، إن عداساً قد أقبل بالطبق ووضعه بين يديه
عداس (للنبي)
!كل
محمد (يضع يده في الطبق)
!بسم الله
(ثم يأكل)
عداس (ينظر في وجه النبي)
والله أن هذا لكلام ما يقوله أهل هذه البلاد
محمد - ومن أهل أي البلاد أنت؟ وما دينك؟
عداس - نصراني. وأنا رجل من أهل نينوى
محمد - من قرية الرجل الصالح يونس بن متي
عداس - وما يدريك ما يونس بن متي؟
محمد - ذاك أخي. كان نبياً وأنا نبي
عداس - (يكب على رسول الله يقبل رأسه ويديه وقدميه. . .)
؟
عتبة - (هامساً لشيبة)
أرأيت؟
شيبة - نعم
عتبة - وما تقول في هذا؟
شيبة - أما غلامك فقد أفسده عليك
عداس (يقبل عليهما)
؟
عتبة - ويلك يا عداس، مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟

عداس - يا سيدي ما في الأرض شيء خير من هذا، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي
شيبة - ويحك يا عداس، لا يصرفنك عن دينك، فان دينك خير من دينه
عداس - إن مثل هذا لا يمكن أن يحتمل ما لقي إلا في سبيل الحق، ولا أن يثبت على دينه بعد كل هذا إلا أن يكون دينه دين الحق
المنظر السادس
(دار الندوة التي تجتمع فيها قريش للمشاورة. إبليس في ثياب شيخ نجدي جتيل يدخل الدار وهي خالية فتلقاه حية تظهر في الحائط)
الحية - (تصيح به)
إبليس في لبوس شيخ من نجد؟
إبليس - لا تصيحي أيتها الصئيلة
الحية - ماذا جئت تصنع في دار الندوة؟
إبليس - أريد محمدا
الحية - تريد به الهلاك
إبليس - أريد لنفسي الحياة
الحية - ماذا صنع بك؟
إبليس - سيغير وجه الأرض!
الحية - كيف؟
إبليس - نور يخرج من قلبه يضيء الأرض
الحية - وما يضيرك هذا؟
إبليس - يعمي بصري هذا النور
الحية - أطفئه من قلبه
إبليس - لا سلطان لي على مثل هذه القلوب
الحية - قلب لا ككل القلوب، إني لأذكر أمره، لقد أتاه الملكان وهو صغير بطست من ذهب مملوءة ثلجاً فأخذاه فشقا بطنه واستخرجا قلبه، فشقاه فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها ثم غسلا قبله وبطنه بذلك الثلج حتى أنقياه. . .
إبليس - العلقة السوداء!
الحية - تلك رسولك في كل قلب
إبليس - تبا له، تبا له
الحية - كما كنت أنا رسولك إلى أول قلب
إبليس - حواء؟
الحية - ذاك يوم ملعون إلى أبد الآبدين
إبليس - أتندمين؟
الحية - ماذا جنيت من كل هذا؟
إبليس - قلت لك: تلك حياتي
الحية - حياة ملعونة في كل زمان
إبليس - ويل للنفاق! ويل للنفاق!
الحية - نفاقك
إبليس - بل نفاق من يلعننا
الحية - كنت أود أن تفتن غيري
إبليس - أود أن أفتن هذا الرجل
الحية - انك تقول أن لا سبيل لك عليه
إبليس - تبًّا لي!
الحية - أنه ليس كغيره من الناس
إبليس - تبا له!
الحية - لقد وزنه الملكان وهو صغير بعشرة من أمته فوزنهم، ثم وزناه بمائة من أمته فوزنهم، ثم وزناه بألف من أمته فوزنهم. فقالا والله لو وزناه بأمته كلها لوزنها
إبليس - صه. انهم قادمون
الحية - من هم؟
إبليس - ادخلي جحرك. ولأتخذن لغة القوم

(الحية تختفي ويقف إبليس بباب الدار ويدخل أشراف قريش)
أبو سفيان (لابليس)
من الشيخ؟
ابليس - شيخ من أهل نجد، سمع بالذي اتَّعدتم له فحضر معكم ليسمع ما تقولون، عسى ألا يعدمكم منه رأي ونصح
أبو جهل - أجل فادخل
(. . .إبليس يدخل معهم ويجتمعون في دائرة)
أبو سفيان - تكلم يا أبا الحكم
أبو جهل - إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم، فإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا، فأجمعوا فيه رأيا
أمية بن خلف - احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه بابا، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله: زهير أو النابغة ومن مضى منهم، من هذا الموت، حتى يصيبه ما أصابهم
إبليس - لا والله ما هذا لكم برأي، والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم، ما هذا لكم برأي، فانظروا في غيره
أبو سفيان (يتفكر قليلا)
نخرجه من بين أظهرنا فتنفيه من بلادنا، فإذا أخرج عنا فوالله ما نبالي أين ذهب ولا حيث وقع، إذا غاب عنا وفرغنا منه، أصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت
إبليس - لا والله ما هذا لكم برأي. ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به؟ والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حي من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم في بلادكم بهم فيأخذ أمركم من أيديكم ثم يفعل بكم ما أراد. دبروا فيه رأياً غير هذا
أبو جهل (بعد تفكير)
والله إن لي فيه لرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد
أبو سفيان - وما هو يا أبا الحكم؟
أبو جهل - أرى أن نأخذ من كل قبيلة شاباً فتى جليداً نسيبا وسيطا فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه، فانهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً فرضوا منا بالعقل فعقلناه لهم
إبليس (مبتهجاً)
القول ما قال الرجل، هذا الرأي الذي لا رأي غيره
(. . .يتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له)
المنظر السابع
(. . .ليلة الهجرة. . . . النبي في داره)
جبريل (للنبي)
لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه
(يرتفع الملك)
علي بن أبي طالب (يدخل هامساً)
ألمح في عتمة الليل رجالاً قد اجتمعوا على بابك، ما أحسبهم إلا يرصدونك حتى تنام فيثبون عليك
محمد - نم على فراشي والتف ببردى هذا الحضرمي الأخضر فنم فيه، فانه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم
(علي يفعل ما أمره به النبي)
أبو جهل - (يهمس بين الرجال على باب النبي)
أكره أن يفلت منا الليلة كما أفلت مني يوم احتملت الحجر أري فضخ رأسه في المسجد
أمية (هامساً)
وكيف أفلت منك يومئذ؟

أبو جهل (هامساً)
ما أدري والله. لقد أقبلت نحوه حتى إذا دنوت منه رجعت مرعوباً وقد يبست يداي على حَجري حتى قذفته من يدي، فقد عرض لي دونه فحل من الإبل، لا والله ما رأيت مثل هامته ولا قصرته ولا أنيابه لفحل قط، فهم بي أن يأكلني
أمية - سحرك والله يا أبا الحكم
أبو جهل - إن كان قد سحرني يومئذ فما أحسبه يستطيع ذلك الليلة معكم جميعاً
أمية - أرى أنه قد نام
أبو سفيان (يتطلع إلى مكان النبي)
انه نائم في برده الأخضر الذي ينام فيه
أبو جهل - إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم ثم بعثتم من بعد موتكم فجعلت لكم جنان كجنان الأردن، وان لم تفعلوه كان له فيكم ذبح، ثم بعثتم من بعد موتكم فجعلت لكم ناراً تحرقون فيها
(. . .رسول الله يخر عليهم آخذا حفنة من تراب في يده)
محمد - نعم أنا أقول ذلك، أنت أحدهم
(ينثر عليه الصلاة والسلام التراب على رؤوسهم حتى لم يبق منهم رجلا إلا وقد وضع على رأسه تراباً وهو يتلو:)
يس والقرآن الحكيم انك لمن المرسلين، على صراط مستقيم، تنزيل العزيز الرحيم، لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون. لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون. إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون. وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون.
(. . . .ينصرف النبي وهم كالنائمين لا يبصرون)
؟
راع (يمر بهم)
؟
قريش (لا تراه)
الراعي (لقريش)
ما تنتظرون ههنا؟
الجميع (كأنما افاقوا يهمسون)
محمدا
الراعي - خيبك الله! قد والله خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلا إلا وقد وضع على رأسه تراباً وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم؟
الجميع (يضع كل منهم يده على رأسه)
حقا هذا تراب، ما هذا التراب؟
(يتطلعون إلى فراش النبي وفيه علي في برد رسول الله)
أبو جهل (متطلعاً)
والله إن هذا لمحمد نائماً عليه برده
الراعي (كالمخاطب لنفسه)
(!. . .إن محمداً قد هاجر أيها الغافلون)
(جميع الحقوق محفوظة توفيق الحكيم)
السفارات النبوية
للأستاذ محمد عبد الله عنان
مضت خمسة أعوام على هجرة النبي العربي (عليه السلام) إلى المدينة قبل أن تهدأ ثائرة قريش أو تفتر عن مخاصمته ومهاجمته: وأنفق النبي هذه الأعوام الخمسة على أهبة الدفاع يرد محاولات قريش لغزو معقله وملاذ دعوته، أولاً في بدر ثم في أحد ثم في موقعة الخندق. فلما وهنت قوى قريش بعد الخندق، استطاع النبي أن يعني بالتفكير في العمل الإيجابي لمغالبة خصومه وبث دعوته. ولم تكن الدعوة الإسلامية قد تجاوزت يومئذ وديان مكة والمدينة؛ ولم تثبت دعائمها إلا في المدينة بين عصبة المهاجرين والأنصار؛ ولم يك ثمة ما ينبئ بأن هذه البداية الضئيلة إنما هي الحجر الأول في صرح الدولة الإسلامية العظيمة التي قامت بعد ذلك بعشرين عاماً فقط على

أنقاض دولتين من أعظم دول التاريخ هما الدولة الفارسية والدولة الرومانية الشرقية. وكان فشل قريش في موقعة الخندق حاسماً في تطور هذه الخصومة التي أضرمت قريش لظاها مذ أذاع النبي رسالته. ومنذ الخندق استطاع الإسلام أن يفتتح غزواته للأمم والأديان القديمة؛ ففي أواخر العام الخامس وأوائل العام السادس للهجرة قام النبي بعدة غزوات محلية لبعض القبائل والبطون المعادية وفي أواخر العام السادس نظم النبي بعوثه أو سفاراته لأكابر الملوك والأمراء المعاصرين. وفي العام الثامن كان فتح مكة وخضوع قريش؛ وكان ظفر الإسلام حيثما استهل رسالته وانبعثت أشعته الأولى

وكانت السفارات النبوية بين حوادث هذا العهد حادثاً فريداً؛ وكانت دليلاً جديداً على ما تجيش به نفس الرسول العربي من سمو في الشجاعة وقوة في الإيمان برسالته. ولم يكن الإسلام يومئذ قوة يُخشى بأسها فيدعو قيصر وكسرى إلى اعتناق دعوته؛ ولكن محمداً أرسل للبشر كافة بشيراً ونذيراً. وكما كانت الغزوات النبوية المتواضعة سبيلا للذود عن الإسلام ووسيلة لتأييد كلمة، فكذلك كانت السفارات النبوية سبيلا لأداء رسالته وإبلاغ صوته إلى الملوك والأمراء الذين يحكمون العالم القديم يومئذ. ففي شهر ذي الحجة سنة ست من الهجرة (إبريل سنة 628م) بعث النبي كتبه وسفراءه إلى ثمانية من أولئك الملوك والأمراء هم قيصر قسطنطينية، وقيروس حاكم مصر الروماني، والحارث بن أبي شمر

الغساني النصراني عامل قيصر في الشام، وكسرى (خسرو) ملك فارس ونجاشي الحبشة، وثلاثة من أمراء الجزيرة المحليين هم هوذة بن علي صاحب اليمامة، والمنذر بن ساوي صاحب البحرين، وجيفر بن جلندا وأخوه صاحبا عمان. وقد كان هؤلاء (ملوك العرب والعجم) الذين يسودون الجزيرة العربية يومئذ أو يتصلون بها بأوثق الصلات. وكان أهمهم وأعظمهم بلا ريب قيصر الروم وملك فارس، وقد كانا يقتسمان سواد العالم القديم يومئذ؛ ويبسط أولهما حكمه على الشام وما إليها جنوباً حتى شمال الحجاز، ويبسط الثاني حكمه على شمال شرقي الجزيرة، ويدين له كثير من أمراء العرب بالولاء والطاعة. وكان الأول زعيم الأمم النصرانية، والثاني زعيم الأمم الوثنية نظمت هذه السفارات وأرسلت إلى مختلف الأنحاء، لكل ملك وفد أو رسول ولكل كتاب نبوي. وكانت مهمتها جميعاً واحدة. وتقدم الرواية الإسلامية إلينا صور الكتب المرسلة، وهي جميعاً في صيغ واحدة أو متماثلة؛ وفيها جميعاً يدعو النبي ملوك عصره إلى الإسلام والإيمان برسالته. وكان سفير النبي إلى هرقل قيصر الدولة الرومانية الشرقية دحية بن خليفة الكلبي؛ واليك نصل الكتاب النبوي إلى قيصر حسبما ورد في السيرة وفي الصحيحين: (من رسول الله إلى هرقل عظيم الروم؛ سلام على من اتبع الهدى - أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم: أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فان توليت فان عليك إثم الاريسيين؛ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون). وكان هرقل (الأول) قد تسلم عرش قسطنطينية قبل ذلك بثمانية عشر عاما بعد حوادث وخطوب جمة، وقضى معظم عهده في حروب طاحنة مع الفرس. وكان الفرس قد غلبوا على مصر وسوريا وآسيا الصغرى، وهددوا قسطنطينية نفسها، فاستطاع هرقل أن يردهم عن أقطار الدولة، وان يطاردهم حتى قلب بلادهم، وان يسحق قواتهم في موقعة نينفة الحاسمة (ديسمبر سنة 627). وفر كسرى الثاني ملك الفرس المعروف بكسرى ابرويز من عاصمته المدائن، ثم قبض عليه ولده شيرويه (سيروس) وقتله وجلس على العرش مكانه، وعقد الصلح مع هرقل. وعاد قيصر إلى قسطنطينية ظافراً يحمل صندوق (الصليب المقدس) الذي كان الفرس قد انتزعوه من بيت المقدس. ثم سار في خريف هذا العام (سنة 628) حاجاً إلى بيت المقدس سيراً على الأقدام ومعه الصليب ليرده إلى موضعه بالقبر المقدس؛ فبينا هو ببيت المقدس يؤدي مراسم الحج، إذ وفد عليه حاكم بصرى (بوسترا) ومعه دحية الكلبي؛ فقدم إليه كتاب النبي، واخبره بمضمون سفارته. وتقول الرواية الإسلامية أن هرقل استقبل سفير النبي بأدب وحفاوة، وسأله عن بعض أحوال النبي وأحوال رسالته؛ بل تذهب إلى القول بأن هرقل هم باعتناق الإسلام لولا أن خشي نقمة البطارقة، وانه صارح دحية برغبته وخشيته. وهذه مبالغة بلا ريب.

ونستطيع أن نتصور ما أثارته سفارة النبي في نفس قيصر من بواعث الإنكار والدهشة؛ ولعله لم يكن قد سمع عن محمد ورسالته من قبل قط؛ بيد انه رد السفير النبوي ببعض المجاملات والأقوال الودية. ولما عاد هرقل إلى عاصمته وصلته رسالة أخرى تلقاها عامله على الشام المنذر بن الحارث الغساني من النبي على يد رسوله شجاع بن وهب يدعوه فيها إلى الإسلام، ويحذره عواقب المخالفة فبعث بها المنذر توا إلى هرقل وسأله أن يسير لمحاربة ذلك الذي اجترأ على هذا الوعيد فلم يوافقه هرقل على ذلك، ورد شجاع كما رد دحية ببعض المجاملات والتحيات

ووصلت سفارة النبي إلى مصر في الوقت نفسه يحملها حاطب ابن بلتعة اللخمي. وتجمع الرواية الإسلامية على أن هذه السفارة كانت موجهة إلى (المقوقس عظيم القبط) وتقدم إلينا صورة الكتاب النبوي الذي أرسل إليه مستهلا بهذه العبارة: (بسم الله الرحمن الرحيم؛ من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط) وهو في نص الكتاب الذي وجه إلى هرقل وفي نفس عباراته مع تغيير يسير في بعض الروايات؛ وفيه يدعى المقوقس كما دعى هرقل إلى اعتناق الإسلام. وهنا يجب أن نقف قليلاً عند شخصية المقوقس هذا الذي تعرفه الرواية الإسلامية دائماً بأنه عظيم القبط. فقد كانت مصر يومئذ ولاية رومانية استردها هرقل من الفرس بعد أن لبثوا فيها عدة أعوام ورد إليها سلطة قسطنطينية، وعاد يحكمها الولاة الرومانيون كما كانت من قبل؛ ولم يكن لأهلها القبط أي نوع من الاستقلال. والظاهر أن هذه الحقائق لم تكن مجهولة في المدينة حيث تدل رسالات النبي وكتبه على أن الأحداث والأوضاع السياسية التي كانت تسود الجزيرة العربية وما يجاورها من الممالك كانت معروفة من النبي وصحبه. وقد كان حاكم

مصر الروماني في نحو الوقت الذي نتحدث عنه هو الجبر (كيروس) وهو في نفس الوقت حاكم مصر وبطريقها الأكبر. وقد استطاع البحث الحديث أن يلقي كثيراً من الضياء على شخصية (المقوقس) وأن يتعرف فيه شخصية (كيروس) نفسه؛ وإذا فالمرجح أن المقوقس الذي تردد الرواية العربية اسمه إنما هو (كيروس) حاكم مصر الروماني بيد أن هناك نقطة ما تزال غامضة هي أن (كيروس) لم يعين حاكماً لمصر إلا في سنة 631م، أعني بعد إرسال السفارات النبوية بأكثر من عامين؛ ولا يمكن أن تفسر هذه الثغرة في التواريخ إلا بأن السفير النبوي قد انفق الوقت في قطع الطريق ثم في الانتظار أو أن (كيروس) كان معينا قبل ذلك لحكم مصر بصفة غير رسمية ثم عين بصفة رسمية، بيد أن الواقدي يقدم إلينا حلا لهذا المشكل، فيقول أن سفارة النبي إلى (المقوقس) كانت في السنة الثامنة من الهجرة لا في أواخر السنة السادسة، وأواخر السنة الثامنة من الهجرة توافق أواسط سنة 630م، فإذا أضفنا إلى ذلك موعد المسافة من المدينة إلى مصر استطعنا أن نضع مقدم السفير النبوي في أوائل سنة 631م. وعلى أي حال فالمرجح والمعقول هو أن السفارة النبوية لم توجه في مصر لأحد غير الحاكم العام، وقد كان هذا الحاكم العام هو (كيروس). ومما يؤيد هذا الحقيقة هو أن السفير النبوي قصد إلى الإسكندرية ليؤدي مهمته وقد كانت الإسكندرية يومئذ مقر الحاكم العام الروماني

اخترق حاطب بن بلتعة اللخمي مصر في شرقها إلى غربها وقصد إلى الإسكندرية ليؤدي سفارة النبي ورسالته، واخذ إلى (كيروس) في مجلسه المشرف على البحر؛ فاستقبله بترحاب وحفاوة، وتلقى منه الكتاب النبوي وناقشه في مضمونه، وسأله عن النبي ودعوته. وهنا تقول الرواية الإسلامية أيضاً كما قالت في شأن هرقل، أن المقوقس (كيروس) أفضى إلى حاطب بأنه مؤمن بصدق رسالة النبي، وانه يود لو تبعه لولا خشيته من القبط؛ ثم صرف حاطباً بكتاب منه إلى النبي وهدية يذكرها في الكتاب. واليك نصه كما يورده ابن عبد الحكم اقدم مؤرخ لمصر الإسلامية: (لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط. سلام، أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت وما تدعو إليه. وقد علمت أن نبياً قد بقى وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام. وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة؛ وأهديت إليك بغلة لتركبها والسلام). وفي بعض الروايات أن الهدية

تضمنت فوق ذلك حماراً وشيئاً من العسل والمال. والجاريتان هما مارية القبطية وأختها شيرين. وقد أسلمتا على يد النبي؛ وتزوج النبي بمارية ورزق منها بولده إبراهيم

الذي توفى طفلا؛ ووهب أختها شيرين لأحد أصحابه المقربين إليه. وفي زواج النبي بمارية، وفي مولد ولده إبراهيم، دليل مادي قاطع على انه كانت ثمة مخاطبات وعلائق حقيقية بين النبي وعظيم مصر يومئذ، أعني (كيروس) الحاكم الروماني

هكذا كانت النتائج التي انتهت إليها الكتب والسفارات النبوية إلى قيصر وعامليه على مصر والشام، وقد كانت نتائج سلبية، ولم تكن حاسمة في شيء. بيد أنها كانت بلا ريب ذات أثر معنوي عميق في البلاط الروماني وفي الكنيسة

وأما الكتب والسفارات النبوية إلى الناحية الشرقية من الجزيرة فقد لقيت مصاير أخرى. وكانت ثلاثا أهمها سفارة فارس، وكان سفير النبي إلى ملك فارس عبد الله بن حذافة السهمي، فقصد إلى المدائن ومعه الكتاب النبوي. وتقدم الرواية الإسلامية أيضاً نص هذا الكتاب فيما يلي: (بسم الله الرحمن الرحيم - من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم الفرس - سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله، ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأدعو بدعاء الله، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً، ويحق القول على الكافرين؛ فاسلم تسلم، فان أبيت فان إثم المجوس عليك). وكان ملك الفرس يومئذ كسرى الثاني (أو كسرى ابرويز)؛ فلما قرئ عليه كتاب النبي مزقه، وأهان السفير وطرده؛ وبعث إلى عامله على اليمن باذان الفارسي أن يبعث إلى محمد من يتحقق خبره أو يأتيه به؛ فصد بالأمر. بيد أنه حدثت في تلك الأثناء بالمدائن حوادث خطيرة، فان شيرويه (سيروس) ولد كسرى ثار عليه وقتله وانتزع الملك لنفسه. ويضع الواقدي تاريخ هذا الانقلاب في العاشر من جمادى الأولى سنة سبع (سبتمبر سنة 628م). فإذا صح هذا التعيين فان الرواية الإسلامية تكون معقولة متناسقة فيما تقوله من أن الذي استقبل سفير النبي وتلقى كتابه هو كسرى ابرويز، ولكن أغلب الروايات على أن مقتل كسرى كان في فبراير سنة 628 (ذي القعدة سنة ست) أعني قبل قيام البعوث النبوية بنحو شهر؛ وإذاً فالمرجح أن الذي استقبل السفير النبوي هو شيرويه ولد كسرى. أما حادث إرسال كسرى لعامله على اليمن أن يتحقق خبر محمد أو يأتيه به فالمرجح أنه وقع قبل البعوث النبوية وقبل مصرع كسرى ببضعة أشهر لما نمى إلى كسرى من ظهور الدعوة الإسلامية وتقدمها

وفي السنة الثامنة من الهجرة (630م) قصد إلى البحرين سفير آخر هو العلاء الحضرمي، ومعه كتاب نبوي إلى أميرها المنذر ابن ساوى؛ وقصد إلى عمان، عمرو بن العاص الذي أسلم قبل ذلك بأشهر قلائل، ومعه أيضاً كتاب نبوي إلى أميريها جيفر وعباد ابني الجلندي زعيمي بني الأزد. وفي الكتابين يطلب النبي إلى هؤلاء الأمراء اعتناق الإسلام أو أداء الجزية. بيد أنهما حسبما تنقل الرواية الإسلامية قد صيغا في أسلوب يخالف أسلوب الكتب السابقة. فمثلا تنقل إلينا كتاب النبي إلى أمير البحرين فيما يأتي: (من محمد النبي رسول الله إلى المنذر بن ساوى - سلام عليك - فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو - أما بعد فإن كتابك جاءني به رسلك، وأن من صلى صلاتنا وأكل ذبيحتنا واستقبل قبلتنا فانه مسلم له ما للمسلمين وعليه ما على المسلمين؛ ومن أبى فعليه أداء الجزية). ففي الكتاب خيار بين الإسلام ودفع الجزية لم يرد في الكتب السابقة، وهو بهذه الصفة ذو صبغة عملية؛ ثم هو يدل على أمر آخر هو أنه رد على استفهام وجهه أمير البحرين إلى النبي عن أحكام الإسلام. وقد تضمن الكتاب الذي أرسل إلى أميري عمان شرح بعض أحكام الإسلام أيضاً. وكان لهاتين السفارتين نتيجة عملية، فان أمير البحرين، وأميري عمان آمنوا برسالة النبي واعتنقوا الإسلام، وأدوا الجزية عن رعاياهم غير المسلمين. وأرسلت سفارة ودعوة أخريان على يد سلبط بن عمرو إلى أمير آخر من أمراء هذه الأنحاء هو هوذة بن علي الحنفي صاحب اليمامة؛ وكان نصرانياً، فرد على النبي بكتاب خشن يطلب فيه مشاركة النبي في أمره وسلطانه شرطا لدخوله في دعوته.

بقى أن نتحدث عن سفارة النبي إلى الحبشة، وهي السفارة الوحيدة التي أرسلت إلى ما وراء البحر. وقد كان إرسالها في ختام السنة السادسة أو فاتحة السنة السابعة في نفس الوقت الذي أرسلت فيه سفارتا قيصر وكسرى. وكان بين الحبشة والنبي وأنصاره قبل ذلك علائق ودية منتظمة. والى الحبشة لجأ كثير من أنصار النبي أيام الهجرة فراراً من اضطهاد قريش، وأقاموا بها تحت حماية النجاشي ورعايته، ومنهم

جعفر بن أبي طالب عم النبي، فلما نظمت السفارات النبوية إلى (ملوك العرب والعجم)، أرسلت سفارة إلى ملك
الحبشة (النجاشي) على يد عمرو بن أمية الضمري في ذي الحجة سنة ست أعني في نفس الوقت الذي أرسلت فيه سفارة قيصر؛ ووجه النبي إلى النجاشي كتابين، يدعوه في أولهما إلى الإسلام؛ ويطلب إليه في ثانيهما أن يرسل إلى المدينة من عنده من المسلمين اللاجئين. وقد صيغت دعوة النبي إلى النجاشي في أسلوب خاص يخالف في روحه وألفاظه ما تقدم من الدعوات. واليك نص هذه الدعوة حسبما يقدمها إلينا ابن إسحاق في السيرة: (بسم الله الرحمن الرحيم - من محمد رسول الله إلى النجاشي الاصحم ملك الحبشة، سلم أنت؛ فإني أحمد الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، واشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى، فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته، وإن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله؛ وقد بعثت إليك ابن عمي جعفراً ونفراً معه من المسلمين، فإذا جاءوك فاحترمهم ودع التجبر، فإني أدعوك وجنودك إلى الله، فقد بلغت ونصحت، فاقبلوا نصحي والسلام على من اتبع الهدى). وقد كان النجاشي نصرانياً، وكانت النصرانية تسود الحبشة منذ القرن الرابع. وفي الكتاب النبوي شرح لموقف الإسلام نحو النصرانية ونظريته في خلق المسيح؛ وهو موقف ليس فيه إنكار ولا خصومة جوهرية إلا من حيث الوحدة والتوحيد؛ والكتاب النبوي ينوه بهذه الوحدة. وبعث النبي إلى النجاشي أيضاً يكلفه بأن يعقد زواجه من أم حبيبة بنت أبي سفيان، وكانت من المسلمين اللاجئين، وكانت زوجة لصحابي يدعى عبيد الله هاجر بها إلى الحبشة ثم ارتد هنالك عن الإسلام وتنصر، وتوفي مرتداً. وتقول الرواية الإسلامية أن النجاشي لبى دعوة النبي وأسلم، وبعث إليه بكتاب يؤكد فيه إسلامه، وانه حقق رغبته في تزويجه من أم حبيبة نيابة عنه، وبعثها إليه مع من كان عنده من المسلمين في سفينتين كبيرتين. بيد أنه يلوح لنا أن القول بإسلام النجاشي مبالغة يمكن أن تحمل على ما أبداه النجاشي من أدب ومجاملة في استقبال السفارة النبوية؛ والمرجح أن النجاشي لم يسلم؛ ولو أسلم النجاشي يومئذ لكان الإسلام قد غمر الحبشة كلها ولكانت النصرانية قد غاضت منها. بيد أن الإسلام لم ينتشر في الحبشة إلا بعد ذلك بعصر، وكان انتشاره في الجهات الشرقية والجنوبية فقط.

ونلاحظ أخير أن البعوث والسفارات النبوية لم تقتصر على من تقدم من الملوك والأمراء.

فقد أوفد النبي بعوثاً وكتباً أخرى إلى عدة من زعماء الجزيرة المحليين، لتحقيق نفس الغاية في ظروف وتواريخ مختلفة، أسفر بعضها عن نتائج عملية مرضية، ودخل بعض هؤلاء الزعماء في الإسلام

كانت هذه السفارات والكتب النبوية عملا بديعاً من أعمال الدبلوماسية، بل كانت أول عمل قام به الإسلام في هذا الميدان. وليس أسطع من هذه السفارات دليلاً على ما كانت تجيش به نفس النبي العربي من فيض في الإيمان والشجاعة؛ ذلك النبي الذي لم يكن قد نجا بعد من اضطهاد قومه، ولم يكن له سلطان يعتد به أو قوى يخشى بأسها، يقدم في ثقة وشجاعة على دعوة قيصر الدولة الرومانية وعاهل الدولة الفارسية، وباقي الملوك والأمراء المعاصرين على اعتناق دعوة لم تكتمل بعد في مهدها، على أن هذه الدبلوماسية الفطنة التي لجأ إليها النبي في مخاطبة ملوك عصره لم تذهب كلها عبثاً كما رأينا. ولا ريب أن النبي لم يكن يتوقع أن يلبي أولئك الملوك الأقوياء دعوته، وهو ما يزال يكافح في بثها بين عشيرته وقومه. بيد أن إيفاد هذه البعوث كان عملا متمما للرسالة النبوية. وكان العالم القديم الذي يتوجه إليه النبي العربي بدعوته يقوم يومئذ على أسس واهية تنذر بالانهيار من وقت إلى آخر؛ وكانت الأديان القديمة قد أدركها الانحلال والوهن وفسدت مثلها العليا؛ فكانت الدعوة الإسلامية تبدو في جدتها وبساطتها وقوتها ظاهرة تستحق البحث والدرس. ولم يكن عسيراً أن يستشف أولو النظر البعيد، ما وراء هذه الدعوة الجديدة من قوى معنوية تنذر بالانفجار في كل وقت. وقد كان الانفجار في الواقع سريعاً جدا، فلم تمض أعوام قلائل على إيفاد هذه البعوث حتى كان الإسلام قد غمر قلب الجزيرة العربية، وانساب

تيار الفتح الإسلامي إلى قلب الدولتين الرومانية والفارسية، واخذ العرب أبناء الدين الجديد وحملة الرسالة المحمدية يعملون بسرعة خارقة على إنشاء الدولة الإسلامية الكبرى

وقد تناول البحث الغربي حوادث السفارات النبوية فيما تناول من حياة النبي العربي، وكان جل اعتماده في شأنها على الرواية الإسلامية؛ وهنالك من كتاب السيرة الغربيين من يبدي ريباً في أمر هذه السفارات، أو يبدي بالأخص ريباً في صحة الكتب والرسائل النبوية.

ومن هؤلاء الكتابالمستشرقان الألمانيان فايل وميلر؛ فإن فايل يلاحظ مثلا أن في بعض الكتب النبوية (كتاب النبي إلى كيروس) آيات قرآنية لم تكن قد نزلت وقت إرسالها مما

يدل على أنها قد وضعت فيما بعد، ويرتاب ميلر في أن رسالة قد وجهت من النبي إلى هرقل، ولكنه مع ذلك يقدم ملخصاً لحوادث السفارات النبوية كما وردت في السيرة أما نحن فلسنا نرى من الوجهة التاريخية ما يبعث على الشك في صحة هذه السفارات النبوية، بل نلمس بالعكس كثيراً من الأدلة والقرائن على صحة معظم الوقائع التي اقترنت بها. وقد تبالغ الرواية الإسلامية في بعض الوقائع حسبما أشرنا إليه فيا تقدم ولكن في تعيين الرواية الإسلامية للتواريخ والأشخاص والأمكنة، وفي اتفاقها على كثير من الوقائع، وفي موافقة الرواية الكنسية والبيزنطية لكثير منها خصوصاً فيما يتعلق برسالة النبي إلى قيصر وكيروس - في ذلك كله ما يؤيد صحة كثير من هذه الأحداث الدبلوماسية الإسلامية الأولى. وإنما يتطرق الشك في نظرنا إلى النصوص والصيغ التي تقدمها الرواية الإسلامية للكتب النبوية. ذلك أنها لم ترد جميعا في رواية ابن إسحاق اقدم مؤرخي السيرة؛ وقد ورد بعضها بعد ذلك في كتاب الواقدي الذي لم يصلنا منه سوى شذور قليلة، وفي كتاب ابن عبد الحكم المصري، ثم في الصحيحين (صحيح البخاري وصحيح مسلم) وفي الطبري وغيره من الروايات المتقدمة ولكنها ترد بصيغ وألفاظ مختلفة مما يحمل الشك في صحة هذه النصوص. وأكبر الظن أن هذه النصوص قد وضعت، ورويت فيما بعد باعتبار أنها تمثل أقرب الصور التي صيغت فيها الكتب النبوية، وقدمها كتاب السيرة على أنها أرجح النصوص المحتملة. بيد أن هذا الشك في صيغ الكتب النبوية لا يتعدى الحقائق التاريخية التي تنهض الأدلة والقرائن على صحة الكثير منها

لقد كانت السفارات النبوية حادثاً سياسياً عظيماً في حياة النبي العربي.

محمد عبد الله عنان المحامي

خالد بن الوليد

القائد الذي لم يهزم قط

للدكتور عبد الوهاب عزام

كان شرف قريش قبل الإسلام لبني عبد مناف وبني مخزوم، وكان شرف بني مخزوم إلى المغيرة بن عبد الله بن مخزوم حتى آثر بعض ذريته اسم المغيري على اسم المخزومي. وكان هشام بن المغيرة يسمى رب مكة، ولما مات أرخت قريش بموته، وكان ابنه أبو جهل زعيماً من زعماء قريش. والوليد بن المغيرة أخو هشام كان أكبر رجل في مكة. وكان يلقب الوحيد، وريحانة قريش. ولما كلم زعماء قريش أبا طالب في أمر النبي عرضوا عليه أن يأخذ عمارة بن الوليد ويسلم إليهم محمدا فقالوا كما روي ابن هشام: (يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى في قريش وأجمله، فخذه فلك عقله ونصره، واتخذه ولدا فهو لك).

وقال المفسرون في قوله تعالى: (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم). إن المشركين عنوا الوليد بن المغيرة في مكة وعروة بن مسعود الثقفي في الطائف. وقالوا في الآيات (ولا تطع كل حلاف مهين) - إلى أن كان ذا مال وبنين إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين) والآيات: (ذرني ومن خلقت وحيدا وجعلت له مالاً ممدودا وبنين شهودا، ومهدت له تمهيدا). أنها نزلت في الوليد بن المغيرة ومن أجل التنافس بين بني عبد مناف وبني مخزوم كانت عداوة هؤلاء للإسلام. روي ابن هشام قول أبي جهل، (تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا حتى إذا تحاذينا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا منا نبي يأتيه

الوحي من السماء فمتى ندرك مثل هذه؟)
كان للوليد بن المغيرة عشرة بنين أو ثلاثة عشر، أسلم منهم ثلاثة عمارة وهشام وخالد.
وأم خالد لبابة بنت الحارث بن حزم الهلالية أخت ميمونة أم المؤمنين، ولبابة الكبرى زوج العباس، وكانت لبابة الكبرى منجبة أنجبت سبعة من بني العباس يقول فيهم الراجز:
ما ولدت حليلة من بعل ... في جبل نعلمه أو سهل
كسبعة من بطن أم الفضل ... أكرم بها من كهلة وكهل!
وحسب أختها إنجابا أنها ولدت خالدا.
اتفق الرواة على أن خالداً مات سنة إحدى وعشرين، وقال القسطلاني: وكان له بضع وأربعون سنة. فمولده حول خمس وعشرين قبل الهجرة أو اثنتي عشرة قبل البعثة.
وكان خالد قائد فرسان قريش، وذاع صيته بما فعل في أحد إذ فجئ المسلمين من خلفهم حين ترك رماتهم مواقفهم فهزم المسلمون بيقظة خالد ومهارته. وهو يومئذ دون الثلاثين. وقد شارك فيما كان بين المسلمين وقريش من حرب إلى غزوة الحديبية، وكان يومئذ قائد الفرسان، وتقدم بهم من مكة إلى كراع الغميم ليرد المسلمين
إسلام خالد
روي ابن إسحاق عن عمرو بن العاص: (خرجت عامدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأسلم فلقيت خالد بن الوليد، وذلك قبيل الفتح وهو مقبل من مكة مقبل فقلت: أين يا أبا سليمان؟ فقال والله قد استقام الميسم، وان الرجل لنبي، أذهب والله فأسلم، فحتى متى؟ قلت والله ما جئت إلا لأسلم. فقدمنا المدينة على رسول الله فتقدم خالد ابن الوليد فأسلم وبايع، ثم دنوت فقلت يا رسول الله أني أبايعك على أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي، ولا أذكر ما تأخر. فقال رسول الله يا عمرو: بايع، فان الإسلام يجب ما كان قبله، وان الهجرة تجب ما كان قبلها فبايعته ثم انصرفت).
دخل خالد في جند المسلمين يومئذ وسرعان ما شارك في الغزوات وأبلى فيها. فلم يمض على إسلامه شهران حتى شهد غزوة (مؤتة) في جمادى الأولى من السنة الثامنة. وكانت موقعة نائية نازل فيها المسلمون أضعافهم من العرب والروم. وتهافت القواد الثلاثة الذين ولاهم الرسول واحداً بعد الآخر: زيد بن ثابت، فجعفر بن أبي طالب، فعبد الله بن رواحة، فاختار الناس خالداً فدافع العدو وانحاز بالمسلمين حتى نجا، بهم وقفل إلى المدينة فلقي الناس القافلين يعيرونهم: يقولون يا فرار، فقال الرسول صلوات الله عليه، بل هم الكرار، وسمى فعل خالد فتحاً، ولقبه سيف الله.
في البخاري أن رسول الله قال: (أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب - وعيناه تذرفان - حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم) ولا ريب أن من الفتح أن يخلص خالد هذا الجيش القليل من سورة جيش عرمرم جمع الروم والعرب فلا يقتل منه إلا اثنا عشر. ولا ريب أن بعضهم قتل قبل تولي خالد القيادة (وروى البخاري عن قيس بن أبي حازم قال: سمعت خالد بن الوليد يقول: لقد دق في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، وصبرت في يدي صفيحة لي يمانية) فإنما أنقذ خالد جنده إذ دفع بنفسه في نحر العدو حتى دقت في يده تسعة أسياف وإنها لبطولة.
وبعد قليل سار المسلمون لفتح مكة، وكان خالد قائد المجنبة اليمنى وفيها جماعة من أسلم وغفار وسليم ومزينة وجهينة وغيرها من القبائل، وأمره الرسول أن يدخل مكة من أسفلها، فكان بينه وبين قريش قتال يسير قتل فيه نفر من الفريقين
وبعثه رسول الله بعد الفتح إلى بني جذيمة داعياً إلى الإسلام، فقتل جماعة منهم حين لقوه بالسلاح، فلما نمى الخبر إلى الرسول قال: (اللهم إني ابرأ إليك مما صنع خالد) وودى القتلى. واعتذر خالد بأن عبيد الله بن حذافة السهمي قال له: أن رسول الله أمرك بقتالهم لامتناعهم عن الإسلام. ومهما يكن فقد أخذ المسلمون على خالد تعجله في قتال القوم. ولكن لم تذهب هذه الهفوة بحسن بلائه.
ثم بعثه الرسول فهدم العزى في بطن نخلة، وكانت في سدانة بني سليم، (ولا نجد ذكر خالد في موقعة حنين، إلا ما روى ابن إسحاق أن الرسول وجد امرأة مقتولة

فأرسل إلى خالد أن رسول الله ينهاك أن تقتل وليدا أو امرأة أو عسيفاً.
ولما كانت غزوة تبوك بعث الرسول خالداً إلى أكيدر بن عبد الملك أمير دومة الجندل فأسره وجاء به إلى الرسول فصالحه
ولما وضعت الحرب أوزارها بين المسلمين والعرب وأرسل الرسول دعاته إلى أرجاء الجزيرة بعث خالداً إلى بني الحارث بن كعب في نجران فاستجابوا لدعوته وأقام فيهم يعلمهم الإسلام، وكتب إلى الرسول بإسلامهم، فكتب إليه الرسول أن يقدم مع وفدهم. وفي ابن هشام وصبح الأعشى نص الكتابين.

في حروب الردة

ولما سير أبو بكر الجيوش لحرب المرتدين رمى بإبن الوليد أقرب الأعداء إلى المدينة: طليحة بن خويلد الأسدي ومن شايعه، ثم مالك ابن نويرة اليَربوعي. فسار خالد إلى متنبئ بني أسد فأدار عليه في (بزاخة) حرباً أكذبت دعوته وأذابت غشه. ثم يمم مالك ابن نويرة
وكان قد مالأ سجاح المتنبئة، فلما جاء البطاح وجد القوم قد تفرقوا حيث سراياه، فرجعت بأسارى منهم مالك ابن نويرة. ثم قتل الأسارى. ونقم الناس من خالد بعد أن شهد بعض الجند أنهم أجابوا أذان المسلمين بالأذان إعلاماً بإسلامهم. وروي بعض المؤرخين أن خالداً أمر بإدفاء الأسارى في ليلة باردة، وإدفاء الأسارى قتلهم في لغة كنانة، فسارع الجند إلى قتلهم، وما أراد خالد القتل. وزاد ارتياب الناس بخالد حين تزوج أم تميم بنت المنهال امرأة مالك. وجاء إلى أبي بكر أبو قتادة الأنصاري مفارقا خالدا، ومتمم أخو مالك مستعدياً عليه. ورأى عمر أن يقاد خالد بمن قتل. فقال أبو بكر: هيه يا عمر، تأول خالد فأخطأ! فارفع لسانك عن خالد. ثم كتب إلى خالد يستقدمه فقدم وأبان عن عذره فقبل منه الخليفة. قال الطبري: (وأقبل خالد بن الوليد قافلا حتى دخل المسجد وعليه قباء له عليه صدأ الحديد متعجراً بعمامة له قد غرز في عمامته أسهما، فلما أن دخل المسجد قام إليه عمر فانتزع الأسهم من رأسه فحطمها. ثم قال أرئاء؟ قتلت امرأ مسلما ثم نزوت على امرأته. والله لأرجمنك بأحجارك. ولا يكلمه خالد بن الوليد، ولا يظن إلا أن رأى أبي بكر على مثل رأي عمر فيه، حتى دخل على أبي بكر. فلما أن دخل عليه أخبره الخبر واعتذر إليه فعذره أبو بكر وتجاوز عما كان في حربه تلك. وان في عفو أبي بكر عن خالد لبرهاناً على أن فعلته لم تكن بحيث ظن عمر.
وكان أبو بكر وجه عكرمة بن أبي جهل ابن عم خالد إلى بني حنيفة قوم مسيلمة المتنبئ في اليمامة وأتبعه شرحبيل بن حسنة فتعجل عكرمة الحرب قبل أن يؤازره شرحبيل فهزم، وعنفه أبو بكر وبعثه مدداً للمحاربين في عمان، فلما فرغ سيف الله من بني أسد وتميم سيره أبو بكر إلى اليمامة، فرأى أن يؤمن طريق جيشه بإبعاد القبائل الموالية لمسيلمة وسجاح، فكتب إلى بني تميم فطردوهم من الجزيرة، وتقدم خالد لطيته فإذا شرحبيل قد سبقه إلى الحرب وباء بالهزيمة. وكانت بين خالد وبين مسيلمة موقعة عقرباء الطاحنة التي تهافت فيها أنجاد المسلمين. وكادت تقضي بالفلج لبني حنيفة، ولكن خالدا أمر الناس أن يمتازوا ليعرف بلاؤهم، فتميز الناس وأحسنوا البلاء. وحمى الوطيس، وما طل النصر بلاء الأبطال حتى رأى خالد أن الحرب دائرة ما دام مسليمة قطبا لها، فبرز ودعا إلى المبارزة، وارتجز ونادى بشعار المسلمين يومئذ: (يا محمداه!) وصمد إلى مسيلمة يحطم الصفوف إليه، وآزره أطال جنده فلم ينثن إلا ومسيلمة قتيل. فقضى للمسلمين بالنصر وجاء بنو حنيفة مستسلمين فصالحهم خالد، وجاءه أمر أبي بكر بقتلهم فأعلمه أن عهده قد سبق. وحفظ للقوم ذمتهم.

فتح العراق

لم يكد يفرغ خالد من مسيلمة حتى وجهه أبو بكر لفتح العراق لحرب الفرس: الأسد الذي كانت القبائل تخشاه وتتحاماه، وأمره الخليفة أن يبدأ بالأبلة ثم يفتح إلى الشمال صوب الحيرة، كما أمر عياض بن غنم أن يبدأ بالمضيح في الشمال ثم يتجه إلى الجنوب شطر الحيرة، كذلك وأي القائدين سبق إلى الحيرة فهم الأمير على صاحبه كتب خالد إلى هرمز والى الأبلة يدعوه إلى الإسلام وينذره الحرب، ثم التقى الجمعان قرب كاظمة في موقعة ذات السلاسل، فبارز خالد هرمز فقتله فحقت الهزيمة بقتله،

ثم سار خالد يقود جيشين من الجند والرعب، فكانت مواقع المذار، والولجة، وأليس، ومغيشيا، وخالد يسير من نصر إلى نصر، ويوالي الكتب والأخماس إلى أبي بكر، فلما جاءته البشرى بفتح مغيشيا قال: (يا معشر قريش. عدا أسدكم على الأسد فقلبه على خراذيله، عجزت النساء أن ينشئن مثل خالد!)

خالد في الحيرة بعد شهرين من دخوله العراق، وها هو في الثاني عشر من ربيع الأول سنة اثنتي عشرة يكتب كتاب الصلح لرؤساء الحيرة

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عدياً وعمراً إبني عدي،) وعمرو بن عبد المسيح، وإياس بن قبيصة وحيري بن أكال، وهم نقباء أهل الحيرة، ورضى بذلك أهل الحيرة وأمروهم به - عاهدهم على مائة وتسعين ألف درهم تقبل في كل سنة جزاء عن أيديهم في الدنيا رهبانهم وقسيسهم إلا من كان منهم على غير ذي يد حبيساً عن الدنيا تاركاً لها، وعلى المنعة، وإن لم يمنعهم فلا شيء عليهم حتى يمنعهم- وإن غدروا بفعل أو قول فالذمة بريئة منهم).

تتابعت القرى على الصلح بعد الحيرة. ومن الحيرة وجه خالد كتبه إلى أمراء الفرس ومرازبتهم يدعوهم إلى الإسلام، وينذرهم الحرب. وصار خالد أمير العراق كلها ففتح الحيرة (لعهد أبي بكر فمد فتوحه إلى الشمال في الأرض التي عهد إلى عياض فتحها، طوى الأرض إلى الأنبار فاعتصم الناس بالحصون وخندقوا. فنحر أضعاف الإبل وألقاها في الخندق وعبر عليها، فاضطر أهل المدينة إلى المصالحة، ثم سار إلى عين التمر وقد اجتمع له بها العرب والفرس. وخرج للقائه عقبة ابن أبي عقبة في جموع من تغلب وأياد والنمر فانقض خالد على عقبة وهو يسوي صفوفه فاحتضنه وأسره وكفاه عناء الصفوف والزحوف فانهزم جنده، فهل عرفنا قبل خالد قائدا يخطف القواد، ليكفي الجند عناء الجلاد؟

ثم توجه تلقاء عين التمر فنزل من فيها على حكمه.

أين عياض بن غنم؟ في دومه الجندل تكالبت عليه الأعداء وأخذت عليه الطريق فاستغاث خالداً فأجابه: (من خالد إلى عياض، إياك أريد).

لبث قليلا تأتك الجلائب ... يحملن آسادا عليها القاشب

كتائب يتبعها كتائب

وسار إلى دومة الجندل فاجتمعت لحربه كلب وغسان وبهراء وتنوخ، وعلى الناس رئيسان أكيدر بن عبد املك الذي أسره خالد في غزوة تبوك، والجودي بن ربيعة، قال الأكيدر:

أنا أعلم الناس بخالد. لا أحد أيمن طائراً منه ولا أجد في حرب، ولا يرى وجه خالد) فلما أبوا قال: لن (قوم أبدا قلوا أو كثروا إلا انهزموا عنه، فأطيعوني وصالحوا القوم أمالئكم على حرب خالد، وتركهم لينجو بنفسه، ولكنه طاف يبغي نجوة من هلاك فهلك).

أخذ خالد عليه الطريق وقتله جزاء غدره بما كان بينه وبين المسلمين من عهد، ثم أتى دومة الجندل ففتحها وتألب أهل الفرس وأهل العراق على المسلمين حين علموا غيبة خالد، فرجع وهزم أعداءه في مواقع الحصيد والخنافس والمضيح والثنى والزميل.

ثم توجه إلى الفراض وهي بلدة على الفرات عندها حدود العراق والشام والجزيرة، وملتقى دولتي الفرس والروم. فلم يرهب خالد جموع الفرس والروم والعرب ومزقهم كل ممزق حتى روى الرواة أنه قتل في المعركة والطلب مائة ألف.

كانت الموقعة منتصف ذي القعدة من السنة الثانية عشرة. فقد طوى خالد وادي الفرات ما بين الأبلة والفراض في أقل من أحد عشر شهراً وانتصر في خمس عشرة موقعة لم يهزم في واحدة، أبت ذلك شجاعته، وكفايته واقتحامه الغمرات، وقتله القواد وصيته الذي ملأ جنده يقينا وعدوه رعبا.

من الفراض إلى مكة في أثني عشر يوما

ورحل خالد قافلا إلى الحيرة في الخامس والعشرين من ذي القعدة. وولى على الجيش عاصم بن عمرو، وأظهر للناس أنه سيسير في الساقة وأسر إلى خاصته أنه على عزيمة، الحج ثم طوى الفيافي ما بين الفراض إلى مكة فأدرك الحج، فلا محالة قد قطع هذه الصحاري المترامية في أثني عشر يوما. قال الطبري:

وخرج خالد حاجا لخمس بقين من ذي القعدة مكتتماً بحجه ومعه عدة من أصحابه)

يعتسف البلاد حتى أتى مكة بالسمت، فتأتى له من ذلك ما لم يتأت لدليل ولا رئبال.
فسار طريقاً من طرق الجزيرة لم ير طريق أعجب منه ولا أشد على صعوبته منه.
فكانت غيبته عن الجند يسيرة فما توافى إلى الحيرة آخرهم حتى وافاهم مع صاحب الساقة الذي وضعه. فقدما معاً وخالد وأصحابه محلقون لم يعلم بحجة إلا من أفضى إليه بذلك من الساقة. . .
وكتب أبو بكر إلى خالد يأخذ عليه مسيره إلى الحج وترك الجند بغير إذن، ويأمره بالمسير إلى الشام مددا لمن بها من الغزاة. وأن يترك نصف الجيش مع المثنى ويسير بنصفه، فسار في صفر من السنة الثالثة عشرة.
وكان رحيل خالد من العراق إلى الشام معجزة من معجزات المسير، وأعجوبة من أعاجيب المخاطرة، فقد قطع بالجيش الجرار صحراء ليس بها ماء يقطعها الراكب المخف في خمسة أيام قطعها في خمس ليال ولا ماء إلا ما في أجواف الإبل: أعطشها وسقاها وكظم أفواهها، فكان ينحرها في مراحل الطريق فيرتوي الناس والخيل.
وقد خرج خالد من مفازته على بهراء فصبحهم بالقتال وهم لا يحسون جيشاً من الجن يسلك إليهم هذه المفازة، وحارب قبائل من العرب في طريقه حتى بلغ ثنية العقاب على مقربة من دمشق فنشر عليها راية سوداء من رايات الرسول صلوات الله عليه.
ثم حارب غسان في مرج راهط وصار إلى بصرى ففتحها، ثم أدرك المسلمين في معسكرهم على اليرموك أو أجنادين. فما ظنك بهذا النصر السائر، والفتح المسافر، الذي يطوي البلاد والصحارى والقبائل في عزمات الجند القليل؟

خالد في الشام

وافى خالد المسلمين معدين لمنازلة جحافل كثيفة من الروم والعرب، ووجد الجيوش مقسمة بين القواد الأربعة الذين بعثهم أبو بكر إلى الشام، أبي عبيدة بن الجراح، ويزيد بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، وشرحبيل بن حسنة، فأراد أن يلقى الروم بجيش مجتمع ورأى موحد فخطب الناس:
إن هذا يوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي. أخلصوا جهادكم، وأريدوا الله) بعملكم، فان هذا يوم له ما بعده. ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبية - على تساند وانتشار. فان ذلك لا يحل ولا ينبغي. وإن من وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا، فاعملوا فيما لو تؤمروا به بالذي ترون أنه الرأي من واليكم ومحبته. قالوا فهات، فما الرأي؟ فقال فيما قال (هلموا فلنتعاور الإمارة فليكن عليها بعضها اليوم والآخر غداً، والآخر بعد غد حتى يتأمر كلكم. ودعوني إليكم اليوم).
تأمر خالد على الجيش كله وفيه قواد أسن منه وأقدم إسلاما، ولكن اعتداد خالد بنفسه وثقة الناس به ألقت إليه بالمقاليد ذلك اليوم، فقسم الجيش كراديس ستة وثلاثين، وجعل على كل كردوس قائداً، ثم جعل قواداً على القلب والجناحين. ثم أدار المعركة طول النهار وبعض الليل، وأصبح في فسطاط قائد الروم قد ملك النصر كله وبلغ من العدو ما تمنى.
كتب كتاب الفتح باسم خالد. وبعد قليل جاء المسلمين نعي أبي بكر وولاية عمر.

هل عزل عمر خالدا

لا ريب أن عمر كان ينقم من خالد هنات في حروبه، وأنه أشار على أبي بكر بالاقتصاص منه لمالك بن نويرة، وما كانت تعجبه جرأته واستبداده في تقسيم الغنائم والأرزاق. وكان خالد معتداً برأيه كتب إليه أبو بكر يأمره ألا يعطي شيئاً فأجابه خالد: (إما أن تدعني وعملي وإلا فشأنك بعملك، هذا وأشباهه أسخط عمر على خالد وما كان عمر ليداهن في دينه وقد كثرت الأقوال فيما فعل عمر بخالد وينبغي أن نذكر أن خالداً لم يول على الشام من قبل أبي بكر ولا عمر ولكنه بعث مددا لغزاة الشام.
فعمر ما عزل خالدا عن ولاية الشام أو قيادتها ولكن خالداً أمر نفسه يوم أجنادين وتيمن الناس به، فكان حرياً أن يكون أحد القواد. فلما جاء كتاب عمر بضم خالد إلى أبي عبيدة قال الناس ما قالوا في عزل
خالد. وقد خطب عمر مرة فاعتذر عما فعل، فقال أبو عمرو بن حفص بن المغيرة (عزلت عاملاً استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووضعت لواء رفعه. فقال إنك قريب القرابة حديث السن مغضب لابن عمك).

ولكن خالدا لا يعزل نفسه العظيمة، ولا كفايته التي لا تعوض فلما اجتمع القواد على دمشق يحاصرونها نزل خالد على الباب الشرقي فاقتحمه اقتحام الأبطال ودخل المدينة عنوة فسارع الرؤساء إلى أبي عبيدة يصالحونه فالتقى عنوة في وسط المدينة خالد الفاتح والقواد الآخرون. فكتب كتاب الفتح باسم خالد. فلما جاءت عمر الأنباء قال: أمر خالد نفسه، يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال مني.

ولم يزل خالد مشاركاً في فتوح الشام كافياً لما يعهد إليه من حرب أو ولاية بقية حياته هذه سنة إحدى وعشرين من الهجرة وخالد العظيم في سن الخامسة والأربعين على فراش الموت في حمص وأمامه مجد عشرين سنة مظفرة لم تنكس له راية، ولا أعيا عليه فتح، ولم يختلف عليه اثنان من جنده، فاستمع البطل العظيم والقائد الباسل يقول:

لقد طلبت القتل في مظانه فلم يقدر لي إلا أن أموت على فراشي. وما من عملي) شيء أرجى عندي بعد أن لا اله إلا الله من ليلة بتها وأنا متترس. والسماء تهلني بمطر إلى صبح حتى نغير على الكفار - ثم قال: (إذا أنا مت فانظروا في سلاحي وفرسي فاجعلوه عدة في سبيل الله).

ثم أوصى وصية، فمن اختار أميناً على انفاذها؟ عمر بن الخطاب! إن النفوس العظيمة لتختلف إلا في العظمة التي تؤلف بينها، والتي تأبى أن تصيخ إلى سفساف الأمور. اختلف الرجلان على أمور، وجمعتهما همة عالية ومطالب عظيمة.

لقد بكى خالدا الإسلام والمسلمون حتى عمر: سمع عمر البكاء على خالد فقال: ما على نساء الوليد أن يسفحن على خالد دموعهن. . وسمع راجزا يذكر خالدا فقال والأسف ملء فؤاده: (رحم الله خالداً).

عبد الوهاب عزام

من ذكرياتي

للأستاذ عبد العزيز البشري

تفضلت (الرسالة) فدعتني إلى أن اجري بحديث في العدد الذي ترصده لرأس السنة الهجرية. ولم يجد طول التعذر بالمرض ولقس النفس وحرج الصدر. لقد أمر أصحاب (الرسالة) وكيف لي بعصيان أصحاب (الرسالة)؟. إذن فلأعص نفسي ولأنشز على وهني في طاعتهم والاستجابة لهم. وحسبي الله ونعم الوكيل ففيم كتب وماذا أكتب إذن؟

أقول في الأدب! سيقول فيه أصدقائي الدكتور طه، والأستاذ أحمد أمين، والأستاذ الزيات، وغيرهم من صفوة الأدباء. ولست احب لنفسي أن أكون فسكلا لا أبلغ السبق، إن أنا بلغته، إلا بعد جميع الجياد!

إذن أكتب في السيرة النبوية الكريمة، ونحن على شرف عام هجري جديد، يتجرد لذكراه هذا العدد العتيد! لا والله، ولن أخدع في هذا أيضاً بعد الذي كتب هيكل في (حياة محمد) وطه (على هامش السيرة)

لقد أصبح عليّ، بعد هذا، أن أتقرى السبل فأختار أعبدها لي، وأوعرها عليهم جميعاً، وهم ولا شك تاركي أجوز وحدي فأكون المجلي في حلبتي على كل حال.

سأحدث القراء عن بعض ما شهدت بنفسي مما يرجع إلى أكثر من خمس وثلاثين سنة. ولست أحسب أن أكثر أدباء العصر شهدوه لقصر أسنانهم. فمن قد علت به السن منهم فلعله ممن لم يكن هبط بعد القاهرة في طلب أواسط العلم وأعاليه. فمن تهيأ له منهم أن يكون في القاهرة، وهؤلاء من القليل أقل، فلعله كان في شغل من تحصيل العلم والإكباب على الدرس عن شهود هذا والاحتفال له. فان كان قد وقع لبعضهم هذا عفواً فهو عنده دون أن يجمع له همه ويطوي عليه قلبه، ويختزنه في نفسه اختزان البعير الطعام في جوفه ليجتر منه وقت حاجته.

لقد قدر لي، والحمد لله، أن اسمع من عظماء المغنين المرحومين عبده الحمولي، والشيخ يوسف المنيلاوي، ومحمد عثمان، والشيخ محمد الشنتوري، والسيد أحمد صابر، وعبد الحي حلمي، وإبراهيم القباني، واحمد حسنين، وأحمد فريد، ومحمد سالم. ومن الهواة السيد عبد السلام الدنف. وان أسمع من المنشدين ومن في حكمهم الشيخ سلامة حجازي، والشيخ

احمد المحروقي، والشيخ عبد الله الأودي، ومن صدور القراء السيد الصواف، والمشايخ حنفي برعي، وأحمد ندا، وعلي الفلاحة، واللبان، وأبا السعود، وعلي يوسف، وعلي الجنيد، والمناخلي، والعيسوي. والشيخة أسمهان، كما سمعت هؤلاء المعاصرين الأحياء، وصل الله في أعمارهم يمتع بهم الأبناء والأحفاد، كما متع بسلفهم الآباء والأجداد.

ولست أحاول في كلمات ارتجلها للرسالة ارتجالا، وأرسلها من عفو الحديث إرسالا، أن أتحدث عن هؤلاء جميعاً. وما كان هذا المقام ليحتمل هذا كله ولا بعضاً من بعضه. بل ولست أحاول أن أستغرق بالحديث واحداً من هؤلاء، فأدل على منجمه ومنشئه وخلقه وسيرته، ولون صوته، ومأتي فنه، وعمن أخذ، وكيف ذهب، وماذا أجد في الفن بصنعته. فذلك مما يستهلك الكثير من الصحائف ومن الوقت والعزم معاً، ولكنني أكتفي بذكر اثنين من أحداث أربعة شهدتها بنفسي. ولو قد حدثني بها محدث لا تهمته بالغلو إذا لم أعدل به إلى التزيد. وأحدها، كان من محمد عثمان، وهذا أدخره للمحاضرة التي ألقيها في شأنه، والثاني من الشيخ أحمد ندا. وهو من أشياء أضيفها إلى المقال الذي كتبته فيه عقب موته. أما الحادثان اللذان أطالع بهما قراء (الرسالة) اليوم فأحدهما يتصل بعبده أفندي الحمولي، والثاني بالشيخ علي الجنيد، عليهما رحمة الله.

وقبل أن أسترسل بالحديث أرجو أن الفت الشباب إلى شيء واقع دائر شديد الدوران بين الناس. ذلكم أن الإنسان بطبعه أثر شديد الأثرة، فهو لا يحب بل ولا يكاد يطيق أن يبرعه أحد في سبب من أسباب الحياة. ومن هذه الخلة أصاب الحسد مدخله من نفوس الناس، ولهذه الأثرة، أو لهذا الحسد مظاهر شتى وآثار تختلف وتتفق وتلتقي وتفترق. ومن أغربها في طباع المصريين، بوجه خاص جحود فضل القائمين في الحياة. فان لم يكن إلى هذا سبيل فهنالك الذرائع المختلفة لتهاون أقدارهم، والحط من حظوظهم في أقطار الفضائل والنعم. فإذا أعيا هذا على الناس أيضاً راحوا يشيدون بفضائل من تقدموا، وينحلونهم من الأسباب ما يبرعون به القائمين في مزاياهم، ويجهرونهم به في جمال خلق، أو جمال فن، أو جمال صوت.

وكلما علت بالمرء السن تزيّد في هذا وأسرف لا حد المعاصريه من أهل الفضل ومن أصحاب الفنون وحدهم، بل مكايدة أيضاً لهؤلاء الناشئين الذين يستقبلون الحياة (وتحنيسا)

لهم لما ظفروا به من دونهم، وليس إلى عودتهم من سبيل. فكأنهم يقولون لهم: إننا لن نأسى على أدبارنا، وإنكم لن تفرحوا بإقبالكم. لأنكم لن تصيبوا من الطيبات ما أصبنا، ولن تظفروا من متع الحياة ببعض ما ظفرنا.

ولقد أدركنا طرفا من حياة ملك المغنين المرحوم عبده الحمولي، فكان إذا أطرب وأفلق تبادر القعديون وقالوا: وأين هذا مما كان يصنع المقدم أو البيطار؟. وكانت الوردانية إذا جلجلت بصوتها الحنان قالوا: إن هذا إلا مزعة من صوت ألماس!. كذلك أدركنا صدراً كبيراً من عهد حنفي برعي وأحمد ندا، وسمعنا منهما العجب العاجب ولكن يأبى القعد لنا إلا تكديراً وانطواء على الحسرة لما فاتنا من صوت القيسوني، وكان صوته يقف الطير في جو السماء!. وغير هذا من فنون المبالغات تكدر صفو الناشئين، وتبطرهم على ما أزل الله لهم من ألوان النعم!

وإنني قضاء لحق التاريخ أقرر أن من الأصوات القائمة الآن ما لا يقل في قوته وحلاوته وصفاء جوهره عن خير ما سمعنا من ثلث قرن خلا. على انه إذا كان مما يوهن من تلذيذ الناس بسماع الغناء وشدة الطرب عليه تلك الخلة التي أسلفت عليها القول، فقد جد على ذلك عنصران كان لهما، في هذا الباب، خطر عظيم: أحدهما شدة اشتغال الجمهرة بالأحداث السياسية ونحوها، فلم تعد تجتمع لهذا ببعض ما كان يجتمع له السلف، إلى ما ورثت هذه الأسباب من كدر في النفوس هيهات أن يأذن لها بالخلوص للطرب على الغناء.

وأما الثاني فهذه العنيفة المشبوبة في الفن نفسه بحكم التطور والتحول من القديم إلى جديد يراد. وهيهات أن تستريح الأذن إلى ما لم يقر من بعد له قرار. ولعل الحال لو استقرت، والنفوس لو صفت، لخرج لنا من هم خير ممن تقدمت بهم الأيام.

ومهما يكن من شيء فقد حرم هذا الجيل من نعمة تلك الأثرة والتنغيص على من دونهم من النبت إذا صح أن يدعى ذلك نعمة! والفضل كله للرجل العظيم (أديسون)

مخترع الفونغراف، فقد دون الأصوات، وسجلها على وجه الزمان!
والآن وأنا مقبل على ما أنا بسبيله، أشعر أنني قد تورطت في اختيار هذا الموضوع أشنع التورط. ولعل ما هربت منه كان أرفق بنفسي مما استعصمت به، وخاصة بعد هذا الذي قدمت من الكلام. ولقد قال أصحاب قواعد السلوك إن الرجل المربي خليق به ألا يروي ما
يقع له من نوادر الحوادث وغرائبها لئلا يسرع الناس إلى النيل من مروءته، وإحالة أمره إلى التزيد والخلق طلبا للمكاثرة بشدة الأغراب. على أن مما يلين لي هذه الرواية ويشد من متني في قصتها أن لا يزال في الأحياء آلاف ممن شهدوا أمثال ما شهدت، بل وممن شاركوني فيه بالذات. فلنمض لحديثنا والله تعالى المستعان.
عبده الحمولي:
لم يكن يتهيأ لفتى حدث مثلي أن يسمع عبده الحمولي في سهولة ويسر. فلقد كان، في العادة، لا يغني إلا في بيوت الطبقة (الأرستقراطية). ودون أبوابها لؤم الحجاب وعصي الأحراس، فما من سبيل إلا في الغفلة من أعينهم، أو بالرشوة في أيديهم، أو في أعجاز الليل بعد منصرف السادة المدعوين، وعلى بعض هذا أذن الله أن اسمع ملك المغنين بضع عشرة مرة.
وبعد فعبده، وتاريخ عبده، وفن عبده، وصنعة عبده، وبدع عبده، كل أولئك غني عن التعريف والتبيين. ولكنني أبادر فأقرر أن صوت هذا الرجل على جلالته، وحلاوته، ووفائه بكل مطالب النغم في جميع الطبقات، لم يكن بالموضع الذي يتمثل لأوهام من لم يسمعوه من أهل هذا الجيل. بل إن من القائمين من لعله يجهره في هذا المعنى من الجمال. ولكن لا يذهب عنك أن وراء هذا الحس المرهف، والذوق الدقيق، والفن الواسع، والكفاءة الكفيئة والقدرة القادرة على التصرف في فنون النغم في يسر ولباقة وقوة ابتكار ورعاية لوجوه المقامات المختلفة. والتوفيق إلى كل ما يغمز على الكبد. ألا لقد جمع الله أحسن هذا كله لعبده الحمولي. فلم ينته أحد فيه ممن سمعنا منتهاه إذا استثنيت صاحبه المرحوم محمد عثمان على اختلاف غير قليل بين فني الرجلين.
وإني لأذكر أنني سمعته مرة عند مطالع الفجر، وكان ذك في دار المرحوم السبكي بك في شارع الطرقة الشرقي. ولعله كان قد مسه طائف من الشجي، فكاد يحيل العرس مناحة من كثير ما تبادر لنغمه الشجي من دموع الناس.
أما الحادثة التي أؤثرها بالرواية فلقد كانت في دار رجل من خؤولتنا أولم لتزويج ابنه، وداره تقع في حي الناصرية، وكان صديقاً حميماً للمرحومين عبد الحمولي والشيخ يوسف المنيلاوي، وكان أثيراً عندهما كريم المحل منهما، وقد دعاهما كليهما ليغنيا معا في عرس
ابنه، فلبيا الدعوة خفيفين.
وأنت بعد خبير بأن (أفراح) أولاد البلد لا يحجب عنها الناس، ولا يدفعهم من دونها شرط ولا أحراس. وكذلك اكتظ السرادق بالمئآت إن لم أقل بالآلاف من أصناف خلق الله.
ويستوي عبده إلى (التخت)، ويتدلى في الميدان يحمي ظهره الشيخ يوسف وأحمد حسنين، ونصر الحصاوي، عليهم رحمة الله، وشيخ المغنيين الآن الأستاذ محمد أفندي السبع، نعمه الله بأطيب الحياة، ومعهم السيد أحمد الليثي بعوده، (أو الجمركشي؟ لا أذكر) وأمين أفندي بزري بنايه، وإبراهيم أفندي سهلون بكمانه، ومحمد أفندي العقاد بقانونه، فغنوا وعزفوا ما شاء الله أن يغنوا ويعزفوا حتى ختموا ما يدعى (بالوصلة) الأولى، ولست أذكر ما تغنوا فيه من الأصوات. ثم استراحوا برهة من الزمن عادوا بعدها إلى شأنهم. وما برح عبده، رحمة الله عليه، يضطرب بين الليل والعين. ثم ينقلب إلى المواليا فيرجع فواصله ترجيعا. حتى إذا فعل في هذا كله الأفاعيل، وصنع مالا ترتقي إلى صفته الأقاويل، أقبل يغني، والجماعة معه (الدور) المشهور وهو من نغمة العراق:
(لسان الدمع أفصح من بياني ... وأنت في الفؤاد لابد تعلم)
(هويتك والهوى لجلك هواني ... ولكن كل دا ما كانش يلزم)
إلى آخر ما يدعى في عرف أصحاب الغناء (بالمذهب). ثم أمسك القوم لحظة خرج

بعدها عبده منفرداً، وقفى العقاد على أثره بقانونه. وقال الجبار: (أديني صابر على ناري)!!!!
لست بمستطيع يا معشر القراء أن أقول لكم كيف قالها الرجل ولا كيف صنع. لأنني أنا نفسي لا أدري، ولا احسب أحداً من الخلق دري كيف قال الرجل ولا كيف صنع!.
ولكنني أستطيع أن أقول لكم إن طائفاً عنيفاً جداً من الكهرباء سرى في هذا الحشد كله لم يسلم عليه أحد: جمد الناس جميعاً، وتعلقت أنفاسهم، وشل كل مناط للحركة فيهم، فما تحس منهم إلا أبصاراً شاخصة وأفواهاً مفغورة. لو اطلعت عليهم لخلتك في متحف يجمع دمى منحوتة لا أناسي يترقرق فيها ماء الحياة، حتى القائمون بالخدمة، لقد مسهم هذا الطائف فجمدوا وثبتوا: وحتى رداف عبده لقد جرى عليهم من هذا ما جرى على سائر الناس!!!
ولقد ظلت هذه الحال زهاء عشرين ثانية، اعني قرابة ثلث الدقيقة، وينفجر البركان الأعظم يتطاير عنه الحمم، وترى الخلق يموج بعضهم في بعض، لا يدري والله أحد أين مذهبه.
ولا تسل كيف قدت الحناجر من الشهيق، ولا كيف بريت الأكف بالتصفيق. وخرج الأمر ساعة عن عرس مقام إلى مستشفى مجانين. رفعت فيه الحوائل وفتحت الأبواب، ونحى عنه احراسه من الشرط والحجاب
والى هنا أراني قد أطلت بما لم يدخل في صدر حسابي. ولعلي بهذا أمل وأضجر. وعلى كل حال فقد تعبت وجهد بي فلأقف إذن عند عبده الحمولي. أما حديث الجنيد فأرجئه إلى كرة أخرى، وأرجو ألا أوفق إلى مثل هذا أبدا.
عبد العزيز البشري
شرقاً وغربا
للدكتور محمد عوض محمد
في يوم قديم من أيام هذا الزمن السرمدي، جلس يافث وسام إبنا نوح، في ظل شجرت من الأثل، ليستريحا ساعة من النهار. وإلى جانبهما جدول يجري، له خرير هادئ وديع، وانسياب معتدل، ليس بالسريع ولا البطيء. ولأغصان الأثل حفيف دائم، فيه رنة حزن بادية. كأنها انتحاب الثاكل أو أنين السقيم.
كان العالم حديث عهد بالطوفان الهائل الذي غمره، ورحضه رحضاً عنيفاً قاسياً لكي يطهر مما به من رجس، ويصفو مما به من كدر، ويعود نقياً بريئاً نظيفاً. . .
يا للعجب! أكلما تدنس وجه الأرض، وغشيته الأقذار، انتابته هذه الكارثة وأرسل إليه طوفان ليغمره ويطهره،؟ لقد عادت الأرض بعد هذا الطوفان طهراً، كأنما خلقت خلقاً جديداً، وعاد ثغرها باسما، وجبينها ناصعا، ووجهها زاهراً. لكن - تباركت اللهم - ألم يكن الثمن غاليا، والقربان جسيما؟ أما من سبيل غير هذه لكي تطهر الأرض مما تمتلئ به الأدران وما قد يغشاها من الرجس؟ وإلا فهل من سبيل لأن يسود هذا العالم الصفاء والطهر، فلا ينغمس في الأقذار ذلك الانغماس المروع، الذي لا مفر معه من كارثة ماحقة، تعيد إليه الصفاء والنقاء؟
لابد أن يكون هنالك سبيل غير هذه السبيل، وطريق لإصلاح العالم غير تلك الطريق. . . فهل لهذه العيون الحائرة من قبس من النور القدسي يهديها تلك السبيل؟
كانت هذه الخواطر تتردد في فكر سام ويافث، وهما جالسان: ينظران إلى تدفق الجدول، أو يحدقان في السحاب المنتشر في السماء، أو يصغيان لحفيف الأثل، أو يرسلان الطرف بعيداً إلى قمم عالية يغشاها الثلج الأبدي. وهما في الحقيقة لا يريان ولا يسمعان من هذا كله شيئاً، إذ شغلهما ما أهمهما من هذه الأفكار المتدافعة تدافع الموج. فكان كل منهما يقطب جبينه حيناً، ثم يقلب في الفضاء نظرات حائرة، لا تكاد تعرف لها قرارا. . .
وأخيراً تكلم يافث:
أي سام! لقد حم الفراق، ولم يبق بد من أن يتخذ كل منا في هذا العالم سبيله،. فعلام عولت؟. . . إن هذا الطوفان الذي غمر الأرض، وعم الغور والنجد، قد طهر كل ركن من
أركان البسيطة، وأزال ما قد علق بها من رجس، لكنه قد اكتسح أناساً، وأهلك خلقاً كثيراً. ولقد أتى أمر الإله بأن ننتشر في الأرض، وأن نضرب فيها طولاً وعرضاً، وأن

نتناسل ونتكاثر وأن نملأ الأرض بذرياتنا: وقد حم الفراق، وستذهب في ناحية وأذهب في أخرى، فعلام عولت؟
قال سام:
إن الفراق أليم، والضرب في البيداء أليم، وقطع السهول والحزون أليم، ولكن أشد من هذا ألماً ذلك الظلام الحالك الرهيب الذي يكتنف الأيام المقبلة والسنين، ويتجاوزها إلى الأجيال والقرون، وإني كلما أرسلت بصري باحثاً مستطلعاً، أرتد إلى البصر خاسئاً حسيراً، قد أجهده الضلال، وسط ظلام دامس، متراكم بعضه فوق بعض، لا يعرف له آخر ولا يدرك له حد.
سوف نتكاثر ونتناسل، ونملأ بذرارينا الأرض؛ حتى يعمر الخراب، وتمتلئ الأقطار؛ ثم - من بعد هذا كله - تنهمر السيول من السماء، وتتفجر الأنهار من جوف الثرى، ويعم العالم طوفان مخرب مدمر، يفتك بالناس، ويهلك الحرث والنسل. . . أمن أجل هذا نلد ونتكاثر، لكي نسلم ذرارينا إلى هذا المصير الحزين، كلما دارت الأيام دورتها؟
قال يافث
لقد استفحل خطب العالم، وتكدست فوق البسيطة أدران أفسدت الثرى والهواء، واستحالت معها الحياة. فلم يكن بد من أن يجتاح الأرض هذا الطوفان، فيملأ كل مكان، ويغسل كل بقعة من البقاع مما علق بها من الدنس. . . فلماذا يجزنك الجزاء الحق، والقضاء الذي لا مفر منه؟ ونفسي تحدثني أن هذا الجزاء الصارم لا يكون إلا مرة. وأكبر ظني أن العالم بعد أن رحض هذا الرحض العنيف، لن ينغمس في الحمأ، ولن يغرق في الموبقات بمثل تلك الصورة البشعة التي استوجب ذلك الجزاء، سيكون في الناس أبداً من تدفعه نفسه الأمارة بالسوء إلى مجاهل الشرور. لكن العالم في أمان ما غلب خيره على شره، وحقه على باطله. وإن عليّ وعليك واجباً ألا نلد لعمارة هذا العالم غير الأنفس النقية والذرية الصالحة، التي ترهب الإله وتلزم سننه؛ ولئن صلح نسلي ونسلك، فما أجدر العالم أن يغلب طهره على رجسه، وصالحه على فساده. الأمر إذن راجع إليك والي فعلام عولت؟
قال سام:
من هذا العبء الباهظ أفرق، ومن تأمل ذلك الواجب المضني تملكني رعدة الحائر، وجزع العاجز. . . لست أدري يا يافث كيف يولد الشر، ومن أين ينبغ الرجس! لقد يكون العالم وما به الأكل بر كريم، ثم ينقلب في عشية أو ضحاها: فإذا الشر قد طغى وساد، والبر أوشك أن يمحى من الأرض!
أن الدم الذي يجري في عروقي - علم الله - لطهور. وأخلق بنسلي ألا يرث مني سوى الخير والهدى. ولكن من لي بأن أضمن له ألا يحيد عما ورثه، وألا تجمح به النفس الهوجاء. فينزل به السخط ويحل البلاء ويجتاحه طوفان كالذي شهدناه؟
قال يافث:
لقد مالت الشمس نحو الأفق، وتوشك أن تتوارى خلف تلك الجبال، تاركة خلفها سحباً عسجدية صفراء. إن مغرب الشمس قد استهواني يا سام! وكأنما فيه قوة قوية تجذبني أبداً إلى الغرب! ولقد طالما جلست في هذه الأثلات أتأمل الغروب، وأفكر في هذا الكون البديع الذي يميل نحو ذكاء، وفي كل مرة كنت أحس دافعاً شديداً يدفعني إلى الغرب!
إلى الغرب إذن سأمضي، وفي الغرب سأحيا، وتحيا ذريتي ونسلي. وهنالك فلنحاول أن ننشر اليمن والعمران. .
أنا أيضا لست أدري. كيف تولد الشرور، والأصل في العالم البر، ولا أدري كيف ينمو الرجس، وأساس الكون الطهر. على أني - وأن أجهدت في هذا خاطري - ليس بضائري أن أعيا به، وأن يقصر عن إدراكه فكري. فسواء لدى أكان الشر مما يخرج من الأرض أم يهبط من السماء، فان عليّ وعلى ذريتي أن نعد العدة لسحقه، وأن نهيئ الأسباب لحربه. فلا تكاد شجرته أن تنبت حتى تجتث من أصولها، ولا يكاد رأسه أن يرتفع حتى يلقي ضربة فاقرة. وأني أحسن أن فيّ وفي نسلي قوة كامنة ستسير بالناس حتما إلى الخير، وتردهم - ولو بعد لأي - عن كل منكر. وما هذه القوة سوى قوة الفكر البشري: الفكر الباحث الذي يتناول الأشياء بالنظر وبالتأمل، ولا يزال مسترسلا في البحث وفي التحقيق حتى يسلمه الإمعان في التفكير إلى سبيل الرشاد.

ويريه ما انطوي عليه العالم من أسرار، وما خفي فيه من الحقائق. . . وسيخطو العالم خطوات بعيدة يوم يعلم الناس القوى التي
تمسك الأجرام لتربط الأكوان، وما كمن في الأرض من كنوز، وما جرت به الأنهار من خيرات. هنالك تعم السعادة، ويقضي على الشرور.
إلى الغرب إذن سأمضي، وهنالك سأغرس شجرة العلم، لكي تؤتي زهرها يانعاً، وثمرها شهياً رائعاً. وأنت يا سام، علام عولت؟
قال سام:
الآن يشرق القمر بدراً كاملا: وهو احسن ما يكون حين يطلع في المشرق، إذ لا يرتفع فوق الأفق إلا أذرعا. . لست أدري هل تخدعني عيناي. لكني أراه وقت الشروق أكبر حجما، وأملح وجها، وألطف نورا. وما زلت منذ درجت يستهويني الشروق، وتعجبني الشمس والنجوم ساعة تطلع على العالم. ولقد طالما جلست أرقبها إلى جانب هذا الجدول الجاري. فتوحي إلى بما يطمئن له القلب الثائر، والطرف الحائر. الشرق هو المبتدأ، والغرب هو المنتهى، فهنيئاً لك الغرب يا يافث! أما أنا، فان هوى نفسي في الشرق. لا أبغي به بديلا.
في الشرق إذن سأحيا. وتحيا ذريتي ونسلي، وهنالك فلنأخذ في نشر أسباب العمران.
ولست أدري هل أقدر أن أسلك وذريتي السبيل التي رسمت، والنهج الذي تريد أن تنهج. ولئن قدرت أن أسلك سبيلك تلك، فما أدري أمنجيتي وذريتي من الويل، وهاديتي ونسلي إلى الرشاد، إن عهدي بالفكر البشري أنه كثير الضلال، كثير الخبط في بيداء لا تفضي إلى خير. وقلما يصيب الحق إلا بعد أن يتيه في الباطل دهراً طويلاً. وما أشد خوفي يوم يطلع أبنائي على ما ثوى في الطبيعة من قوة، وما كمن فيها من كنوز. عند ذلك قد يلهيهم التكاثر أو يتملكهم الجشع، ويتناحرون من اجل مادة قد لا تغني عنهم شيئاً. . . كلا، ليس العلم أو الفكر بالذي ينقذ الناس، فان طريقه طويلة وعرة. . .
الآن تنكشف الغشاوة عن عيني وأرى السبيل واضحة جلية. إن أبنائي سيولون وجوههم شطر الدين، وبالدين سيبلغون بالعالم أقصى مراتب السعادة والطهر.
وسيبلغون حقائق الدين بالألهام، وبالوحي ينزل من السماء، لا بالبحث والحفر والتنقيب في الأرض. فذلك هو الهدى الذي ليس بعده هدى، والنجاة التي لا تعدلها نجاة. ولقد يتناحر الناس من أجل الدين، ويكيد بعضهم لبعض، ويصيبهم من هذا أذى كثير، غير أنه دم
طاهر يسفك من أجل مأرب طاهر، لم تدنسه المادة، ولم يلوثه الطمع. . .
أجل وإني لأرى الساعة كيف ينبغ من أبنائي رسل مبشرون ومنذرون وكيف ينتشر أبنائي في العالم، فيرفعوا علم الدين، وينشروا الهدى، ويحطموا الأصنام، ولقد أسمع الساعة صوتاً ينبعث من أرض كنعان، فيملأ الأرض حبا ورحمة، ثم أسمع بعد فترة صوتاً قوياً رزيناً ينبعث من الصحراء فيملأ الأرض عدلاً وأمنا، فيتردد صداه من المشرق إلى المغرب فإذا الأوثان تتكسر، والشرك يمحى، والأغلال المذلة تتحطم، وصروح الباطل تندك.
لا خوف إذن على العالم من طوفان يمزقه، أو لهيب يحرقه، ما دام فيه رسل تهدي، ودين ينير الظلام.
إلى الشرق إذن سأمضي، وهنالك فلتغرس شجرة الدين. أصلها ثابت وفرعها في السماء. وارفة الظلال، طيبة الثمرة
ثم سكت الاخوان، وأطرقا زمنا، ولبثا جالسين يحدقان في الكون، دون أن ينطقا بكلمة، حتى دجى الليل، ولمعت في السماء النجوم، وبرد الهواء، فنهضا وجعلا يمشيان الهوينى صامتين.
حتى إذا اقتربا من منازلهما مد الأخ الأكبر يده مصافحاً:
- فليهنئك الشرق يا سام!
- وليهنئك الغرب يا يافث!
محمد عوض محمد
النجاشي العادل
للآنسة سهير القلماوي
هكذا كان ينبعث الصوت خافتا واضحا عذبا حنونا، (كلا لا تطعهم واسجد واقترب)

وهكذا كان يتردد الصوت في صدر الرسول وهو وسط الكفار والمشركين والمنافقين والمستهزئين من أهل مكة. فإذا ما تغامزوا عليه، وإذا ما تآمروا على قتله، وإذا ما استهزأوا بوحيه، وإذا ما سبوه ولعنوه وتهجموا عليه، كان هذا الصوت الخافت الحنون يكرر ويعيد: (كلا لا تطعهم واسجد واقترب)

ولكن آل الرسول وآل عبد المطلب، كانوا أعزاء في قريش، وكان الرسول محمياً بعزتهم مطمئناً للوحي الذي ينزل على قلبه. أما المسلمون المستضعفون، أما العبيد وأما الإماء، فلم تكن لهم عزة ولم يكن لديهم وحي، وإنما إيمان هو كل ما يملكون. ومتى درأ الإيمان عن صاحبه العذاب؟ بل متى لم يجلب الإيمان لصاحبه عذابا؟ ورأى الرسول عذاب هؤلاء المؤمنين المستضعفين فأمرهم بالهجرة من مكة، ولم تكن هجرة في الإسلام بعد فقالوا له حائرين؟ وإلى أين نهاجر يا رسول الله؟ قال إلى الحبشة، فان بها ملكاً عادلا لا يظلم عنده أحد. وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا.

وفر قلة من المسلمين بدينهم لأول مرة ملتجئين إلى النجاشي العادل ملك الحبشة، فآواهم ونصرهم وأقاموا عنده في خير جوار لم يؤذوا ولم يسمعوا شيئاً يكرهونه، ولكن قومهم بمكة عز عليهم هذا الفرار، أو قل عنَّ عليهم أن يتلقاهم النجاشي هذا اللقاء. فأرسوا وراءهم عظيمين من عظمائهم مزودين بالهدايا الثمينة ليأتيا بهم من أرض النجاشي العادل.

وفد العظيمان على أرض الحبشة فوزعا هداياهم على أساقفة النجاشي العادل، وفي الغد قدما عليه وهو جالس على عرشه في أبهة الملك وعزته وسطوته وقدما له هداياهما وقالا له (أيها الملك أنه قد أوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، بل جاءوا بدين جديد ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا انتم. وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم لتردهم عليهم، فهم أعلى بهم عينا واعلم بما عابوا عليهم)

أنصت النجاشي العادل إلى قولهما وإذا أساقفته تصيح معهما (صدقا أيها الملك. قومهم أعلى بهم عينا. فأسلمهم إليهما) وهاج النجاشي قولهما وثار لموافقة أساقفة لهما فقال غاضبا (لا

اسلم إليهما قوما بادروني ونزلوا بلادي واختاروا جواري دون سواي حتى أدعوهم فاسألهم عما يقول هذان في أمرهم)

وأرسل النجاشي خلف المسلمين فآتوه وهو على عرشه وأساقفته ناشرون مصاحفهم حوله، وتكلم عن المسلمين جعفر بن أبي طالب قال، (أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش. . . حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا. . . وامرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكشف عن المحارم. ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام. . . فصدقناه وآمنا به واتبعناه. . . . فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا. . . فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا. خرجنا إلى بلادك. . . ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك)

قال النجاشي العادل وقد أثر فيه قول جعفر: هل معك مما جاء به من الله من شيء؟ قال جعفر نعم، قال له فاقرأه، فقرأ جعفر (كهيعص. ذكر رحمة ربك عبده زكريا: إذ نادى ربه نداء خفيا. قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا. وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك وليا. يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا. يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا).

أنصت النجاشي لآيات الله يتولها جعفر فلم يشعر إلا والدموع تنهمر من عينيه وتبلل لحيته. النجاشي ملك الحبشة العظيم، النجاشي الذي ذاق هول الدهر، فقد غدر به قومه وقتلوا أباه وباعوه ليخلصوا منه ثم لجأوا إليه أخيرا حين احتاجوا إليه، هذا النجاشي الذي بلا الدهر واستمرأ غلظته وجفاءه، نعم هذا النجاشي يبكي لمجرد تلاوة آي الذكر الحكيم وكأنه صعب عليه أن يبكي لمجرد تلاوة آيات فالتفت إلى أساقفته وفيهم الغليظ القلب، وفيهم الجافي الطبع، وفيهم البارد العاطفة، فإذا بهم كلهم باكون

وقد اخضلت لحاهم من الدمع. ولكن عظيمي مكة وقفا جامدين! لقد ألفا هذه التلاوة ولم تؤثر في أكبادهما الغليظة شيئا. (الأعراب أشد كفر ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله).

خرج العظيمان المكيان مخذولين، ولكنهما لم ييأسا، فجاءا النجاشي العادل في الغد يريدان الوقيعة بينه وبين من آووا إليه فقالا له أيها الملك: انهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيما فناداهم النجاشي وقال لهم وما تقولون في عيسى بن مريم؟ فرد عنهم جعفر ابن أبي طالب (نقول فيه الذي جاءنا به نبينا صلى الله عليه وسلم: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول) وآمن النجاشي العادل بقولهم وإن لم يؤمن به أساقفته، ورجع العظيمان إلى مكة خائبين وظل المسلمون في جوار النجاشي العادل آمنين مطمئنين

وجاء النجاشي منازع له على العرش يحاربه فلم ينس المسلمين في محنته. وإنما أعد لهم سفنا وقال لهم إذا هزمت فهذه سفنكم توصلكم إلى أهلكم بمكة، وإذا انتصرت فانتم كما كنتم آمنون في جواري. وصلى المسلمون من أجل النجاشي فانتصر على عدوه، وظلوا في جواره آمنين إلى أن تهيأت لهم مكة فرجعوا إليها

وانشغل المسلمون بجهادهم عن الحبشة وملكها النجاشي العادل، وبينما هم ملتفون حول رسولهم يجاهدون من أجله وفي سبيل تعاليمه ودينه، إذا بهم ينعى إليهم النجاشي العادل. ولم ينس الرسول يده على المسلمين يوم كانوا مستضعفين فارين من وطنهم فاستغفر له وصلى من اجله.

كان المار قديماً بأرض الحبشة يرى على ضفاف النيل بقعة ينبعث منها النور فيظنها لأول الأمر وهج الشمس، فإذا ما اقترب منها عرف انه نور ينبعث من الأرض لا من السماء، فإذا ما سأل أهل البقعة عن مبعثه قالوا هذا قبر النجاشي العادل، هذا قبر أول من آوى المسلمين المهاجرين يوم كانوا مستضعفين في الأرض!

سهير القلماوي

من طرائف الشعر

إلى الشواطئ المصرية

للشاعر الوجداني علي محمود طه

حيَّاكِ أرضاً وازدهاكِ سماء ... بحرٌ شدا صخراً وصفَّقَ ماَء
يحبو شعابَك في الضحى قبلاتِه ... ويرفُّ أنفاساً بهنَّ مساَء
مُتَجَدِّدَ الصبَّوَات أودعَ حبُهَّ ... شتىَّ الأشعةِ فيكِ والأنداء
وَلِعٌ بتخطيط الرَّمال كأنَّه ... عرافةٌ تستطلعُ الأنباء
وَمُصَوِّر لَبِقُ الخيال يصوغ من ... فنِّ الجمال السِّحرَ والأغراء
نَسَقَ الشَّواطئ زينةً وأدقَّها ... صُوَراً بريَّا صفحتيه تَراءى
يجلو بريشته السماَء وإنِّما ... زادتْ بريشته السماءُ جلاَء
لا الصبحُ أوضحُ من مطالعه بهِ ... شمساً ولا أزهى سناً وضياَء
كلاَّ ولا الليلُ المكوكبُ أفقه ... بأغرَّ بدراً أو أرقَّ سماَء
ولربَّ زاهيةِ الأصيل أحالها ... سيلاً أحمَّ ولجةً حمراَء
وكأنما طوَت النهارَ ونشَّرتْ ... لَهَباً وفجَّرت الصخورَ دماَء
ولربَّ عاطرةِ النسيم عليلةٍ ... طالعتُ فيها الليلةَ القمراَء
رقَصَتْ بها الأمواجُ تحت شعاعها ... وسرتْ تُجاذبُ للنسيم رداء
حتى إذا رانَ الكرى بجفونها ... ألقتْ إليك بسمعها إصغاَء
تتسمعُ النوتيِّ تحت شراعه ... يشدو فيبدعُ في النشيد غِناَء
هَزَّتْ ليالي الصيف ساحرَ صوته ... فشجا الشواطئَ واستخفَّ الماَء
وأثارَ أجنحةَ الطيور فحوَّمتْ ... في الليل حيرى تتبعُ الأصداَء
وُرُّ فواترُ يا شواطئُ صاغها ... لك ذلك البحر الصَّنَاعُ رواَء
فتنظّريهِ على شعابكَ مثلما ... رجع الغريبُ إلى حماهُ وفاَء
كم ظلَّ يضربُ في صخورك موجضه ... مما أجنَّ محبةً ووفاَء
عذراً إذا عيَّتْ بمنطقة اللُّغى ... فهو العبيُ المفحمُ الفصحاَء
فخذي الحديثَ عليه واستمعي لهُ ... كم من جمادٍ حدَّثَ الأحياَء

وسليه كيف طوى الليالِيَ ساهداً ... وبلا الأحبَّةَ فيك والأعداَء
كم ليلةٍ لكِ يا شواطئُ خاضها ... والرعبُ يملا حولك الأرجاَء
والسفنُ مرهفة القلاعِ كأنَّها ... تطأ السحابَ وتهبط الدأماَء
حمَلَتْ لمصر الفاتحين وطَّوَحتْ ... للنيل منهم جحفلاً ولواَء
ولو استطاعَ لردَّ عنكِ بلاَءهم ... وأطار كل سفينةٍ أشلاَء
أو كان يبلغ للغيوب شفاعةً ... هزَّ الوجود ضراعةً وبكاَء
أو كان يملكُ قدرةً حشد الدُّجى ... ونضا الرجومَ وجنَّدَ الأنواَء
ودعا غوارَبه النِّقالَ فأقبلتْ ... فرمى بها قَدَراً وردَّ قضاَء
فاستعرضي سيرَ الزمان ورددي ... ما سرَّ من أبنائهنَّ وساَء
وخذي ليومكِ من قديمك سلوةً ... ومن الجديدِ تعلُّةً ورجاَء
إيهٍ شواطئَ مصر والدينا منىً ... تهفو إليك بنا صباحَ مساَء
ناجيتِ أحلامَ الربيع فأقبلتْ ... وأشرتِ للصيف الوسيم فجاَء
يحبوك من صفو الزمان وأنسه ... ما شئتِ من بَهَجِ الحياة وشاَء
وغداً تضيءُ على جنبيك لمحة ... طَبَعَ الخلودُ سماتِها الغراةَ
وترفُّ منه على ثغورك بسمةٌ ... خَفَّ العبابُ لها وغَضَّ حياَء
فاستقبلي الصيف الجميلَ وهيئي ... للفنِّ فيك خميلةً غنَّاَء
واستعرضي حور الجنانِ وأطلقي ... لغةَ السماء وألهمي الشعراَء
إسلام عمر
أسلم سعيد بن زيد بن نفيل (ابن عم عمر) وزوجته فاطمة (أخت عمر) وكان خباب بن الارت يختلف إلى فاطمة يقرئها القرآن
خباب - (يستحث فاطمة):
رتلي ما شئت فيه رتلي ... وأقرئيه كل صبح ومساءْ
إنه خير كتابٍ مُنزَلِ ... فيه للمؤمن أمن وشفاءْ
فاطمة:
يا بياناً جلَّ عن كل شبيه ... وتعالى عن أساليب العربْ
وكتاباً كلما رتلتُ فيه ... خشع القلب لديه واقتربْ
هو إن رقَّ نسيم نافحٌ ... بشذا الخلد وأنفاس النعيمْ
وإذا ثار فجمرٌ لافحٌ ... يستمد الوقد من نار الجحيمْ
أعرضوا عنه ولو أصغوا إليه ... لهداهم وَضَحَ الحق المبين
ولخرُّوا سجدَّاً بين يديه ... وغدوا لله خير المخلصين
يعود عمر غاضباً إلى أخته وقد علم بإسلامها مع زوجها
خباب - إن بالباب طارقا
فاطمة - من لدى بابنا؟
عمر - عمرْ
- فاطمة إلى خباب
اختبئ منه إنه ... ملك الموت قد حضر
خباب وهو مسرع:
نجِّني رب واكفني ... شر ما يخبئ القدَرْ
تفتح فاطمة فيدخل عمر ويظهر سعيد
عمر إلى فاطمة: لمَ أبطأت في لقائي؟
فاطمة - عذراً
عمر - (هائجاً) أي عذرٍ يصدكم عن لقائي؟
وعلام اتبعتِ رأيَ سعيدٍ ... وهو غرُّ مُسَفَّه الآراء
فعصيتم مَناةَ واللات والعزَّ ... ى ودين الأبوَة القدماء
واتبعتم محمداً في هواهُ ... وغدوتم من صحبه الأوفياء
سعيد - (في رفق) يا ابن عمي
عمر - (ثائراً)
لستُ ابن عمك حتى ... تتعرَّى من لبس هذا الرداء
سعيد - (مستنكراً)

أوَ أعصي محمداً سيد الخل ... ق جميعاً وصفوة الأنبياء
والرسول الذي هدانا إلى الحق ... بتلك الشريعة الغراء
عمر - (يهم بضربه)
فيم هذا العنادُ يايها الوغ ... دُ وذاكَّ العقوق للآباء؟
- فاطمة في وجه عمر
أنت أسرفت في إساءة زوجي ... وهو ثبت الجنان جَمّ الحياء
فامضِ لا ترتفعْ يداك عليه ... وكفى ما أتيت من إيذاءِ
فيشج رأسها قائلاً:
اتركيني لا جاد ربعَك غيثً ... ودعيني أجزيه شر الجزاء
تشعر فاطمة بدمها يسيل فتبكي
أماه قد شجَّ رأسي ... أخي وأجرى دمائي
ولم يلنْ لأنيني ... ولم يُرعَ لبكائي
كم كنتُ أرجوه عوني ... في النكبة الهوجاءِ
فكان مبعث همي ... وكان كل شقائي
يا ويح ما أنا فيه ... من محنةٍ وبلاء
أكلُّ من أصطفيه ... يخيب فيه رجائي؟
فيثوب عمر إلى رشده وهو يضمد جرح أخته
ثورةٌ ثبت بعدها لرشادي ... فاصفحا عني قساوتي واضطهادي
وتناسي يا أخت ما كان مني ... من أذى صبَّه عليك عنادي
لا تظني بيَ الظنون فأني ... لك عند الخطوب أكرم فادِ
أنا مهما قسوتُ عونُك في الكر ... ب وحصن يحميك من كل عاد
فاطمئني إلى سريرة نفسي ... واستريحي إلى حنان فؤادي
فيهدأ الجميع ثم يسألها:
وأريني صحائف الدين أقرأ ... بعض ما هاج سائر الحساد
فاطمة بل لتمحو سطورها
عمر - لا وربي ... ولو إني لها من الأضداد
فيقول بعد ما ملكت عليه قبله
صحف كلَّها جلال رهيب ... وبيان يسمو عن الأندادِ
وكتابٌ يعنو لروعة ما فيه ... قساةُ القلوب والأكباد
وضياء يشع في حالكِ الشكَ ... فيجلوه بالشعاع الهادي
فيقبل خباب متهللاً:
هيه يا ابن الخطاب
عمر - (مشدوهاً) من ذاك؟
ثم يراه فيقول خبَّاب؟ ... ومن أي موضعٍ أنت غادي
- خباب:
كنت في صحبة ابن عمك أتلو ... صحف الوحي والهدى والرشاد
ثم أقبلتَ فاخفيُت مَروعاً ... من حسامٍ لديكَ غرثانَ صادي
وها قدْ أتيُتك لما هدأ ... تَ وثبتَ إلى نفسك الراضية
عساكَ تصيخ إلى ما أقو ... لُ وتمنحني أذْنك الصاغية
تحدث عنك النبّي الكر ... يمُ وأعينه ثرَّةٌ هاميه
ونادى إله الورى أن يعزَّ ... بك الدين في مكة العاصية
فهلا تمزق ثوب الضلا ... لِ وهلا تفيق من الغاشية
فتتبع دين الرسول القوِ ... يمَ وتنبو عن الفئة الباغية
عمر إلى من حوله:
بلى سوف أهجر هذا الضلا ... لَ وأنزع أسماله البالية
وألبس يا قوم ثوب الهدى ... وحلة دينكم الزاهية
فيتهلل الجميع ويقول سعيد:
أجاب الإله دعاء الرسو ... لِ وحقق دعوته الغالية
فقم فاعتنق دينه المرتضى ... لنكبت أعداءه ثانية

(في نفسه)
لسوف يذوقون منك العذا ... بَ ويُلقوْن في نارك الحامية
يخرج عمر ميمما مجلس الرسول مع صحبه فيطرق الباب:
صحابيّ - طارقٌ جاء
آخر - (وهو يسعى إلى الباب) من يدق علينا؟
عمر - عمْر
فيعود مذعورا - ما على لقائك أقْدِمْ
ثم يهيب بصحبه:
إيذعروا فقد أتى ماردُ القو ... مِ وفي سيفه المنيّةُ تجثم
فيهربون ويخاطبهم حمزة غاضباً
أدخلوه فان أراد اهتداء ... بعد ما لج في الضلالة أكرم
وإذا جاء بيننا يشهر السيف ... ويسعى إلى النكاية حُطِّم
فيمنعهم النبي
بل دعوني ألاقِه أنا وحدي ... فهو أحنى مما ترون وأرحم
- يفتح له وينتحي به
فيم يا ابن الخطاب جئت إلينا
عمر - (خاشعاً) جئت أسعى إلى الرسول لأسَلم
- فيكبر النبي ويهتف أحد الصحابة
الله أكبر عَّز الدين وانتصرت ... جماعةٌ صمدوا للذل واصطبروا
فيعلم الصحابة بإسلام عمر ويقبلون فرحين مهنئين
- أحدهم
يا مرحبا بحسام الله يمنعنا ... من بعد ما فت فينا الخسف والصَّغَر
- آخر
يرجو بك الدين أن تسعى لنصرته ... فحقق اليوم ما يرجوه يا عمرُ
وانصر رجالا أباح الأهل حرمتهم ... فلم يصيبهمو في دينهم خوَرُ
- عمر
سيروا بمكة أني شآء رائدكم ... واستكثروا في بقاع الأرض وانتشروا
وأطلعوا راية الإسلام خافقة ... فدون من رامها الصمصامة الذكر
من صدكم بالأذى مزقت أضلعه ... ولو يكون له في أهله خطرُ
فليزدجر بخطابي كل ذي رشد ... وليمتثل للردى من ليس يزدجرُ
فريد عين شوكة
الحركة الأدبية في ألمانيا بعد الحرب
للأستاذ ران
مدرس اللغة الألمانية بالجامعة المصرية
- 1 -
في سنة 1918 انهارت دعائم ألمانيا على اثر حرب اضطلعت بضرامها ضد عصبة متحالفة تفوقها قوة ومنعة. ومنذ سنة 1918 إلى سنة 1924 جازت ألمانيا غمر أعوام تفيض بالأزمات الداخلية والخارجية، فمن حروب أهلية، إلى صنوف من الذلة في السياسة الخارجية، إلى تدهور العملة، إلى جوع وقحط؛ وفعلت هذه كل شيء لتدفع الشعب المنكود إلى وهاد اليأس. وفي سنة 1924 استحالت شئون السياسة الخارجية إلى شيء من التحسن، وثبتت العملة، واندفعت ألمانيا في دهشة الصديق والعدو، إلى تقدم اقتصادي سريع، ولبثت حالتها المادية والمعنوية حتى وقوع الأزمة الاقتصادية الكبرى ظاهرة الثبات والاستقرار.
يقابل هذين العهدين من تاريخ ألمانيا السياسي، عهدان أدبيان مما بعد الحرب. فإلى سنة 1923، كانت تسود الثورة الأدبية والفوضى. وفي سنة 1924 بدأ عهد من الاستجمام والدعة والرجعة. وإذا كنا نلخص أحوال هذين العهدين - مما يلي الحرب - فإنا سنقتصر طبعاً على ذكر الأسماء والحركات التي ظهرت في هذه الحقبة ذاتها؛ وسنغضي عن ذكر كثير من الشعراء والكتاب الأحياء المعروفين، إذ قد ظهر معظمهم قبل الحرب؛ وما صنع عهد ما بعد الحرب سوى أن ثبتهم في مراكزهم، ومن هؤلاء

ريكارد اهوخ، وجرهاردها وبتمان، وتوماس وهينرنخ مان، وغيرهم.
- 2 -
تعرف الحركة الأدبية الثورية في العهد الأول مما يلي الحرب عادة بأنها حركة (التعبير)
وكان (التعبير) في الأصل أساساً لبرنامج جماعة من الرسامين ثاروا على فكرة
(التأثير) في الرسم فاستعار الأدب من الرسم هذه الكلمة علماً له. وهي في الأدب
كما في الرسم علم للثورة. وقد كانت بادئ بدء برنامج عصبة صغيرة من الشعراء
- والأدباء الذين حاولوا
شأن كل جيل - أن يمكنوا لطابعهم الخاص وآرائهم الخاصة، وان ينحرفوا في عنف أو
هوادة عما للجيل المنصرم من مظاهر الطموح إلى الجمال. ومن هؤلاء بعض الشعراء
الشبان الغنائيين الموهوبين (مثل الزه لاسكار شيلر، وارنست شتاتلر، وجود فريد بن،
وفرانتس فرفل، وبخر وغيرهم) والى جانبهم بعض النقدة المنتجين الأقوياء مثل كارل
اينيشتين ولودفج روبينر، وفردينايد هراديمويف. وظهر إلى جانب هؤلاء خلال هذه
الحقبة أيضاً جماعة من القصصيين وكتاب المسرح مثل جستاف مايرنك مؤلف قصة
(جولم) وماكس برود مؤلف (طريق تيشوبراه إلى الله) وكارل شتر نهايم، وليونهارد
فرنك، وجورج كايزر، وارنست تولر، وفالتر هازنكلفر. بيد أن أهم ظاهرة في الحركة
هو أنها كانت وما زالت غنائية في اتجاهها. بل إن (التعبير) كان يعني شهر النضال في
سبيل الهام حر وطابع مطلق من كل قيد، أو بعبارة أخرى كان يعني ثورة العواطف
والغرائز على أغلال عالم آلي مسير، وعلى الاتجاهات الفنية التي تصفدها قواعد
العقل: تلك هي المبادئ التي دفعت بالحركة الأدبية سريعاً إلى الفوضى في الشكل
والموضوع
كان الكاتب (المعبر) كأنه (فرتر) مبعوث، ولكن هؤلاء الثوار الجدد كانوا بالأخص
يخالفون (فرتر) القديم في ميولهم الفنية كل المخالفة، على أن الميول الثورية أيام
(فرتر) كما هي في ظل (التعبير) لم تكن تقف عند الفن. فقد كان البحث يتجه إلى
طابع فني جديد، وكان يطمح إلى حق التدخل في أعمق ظروف الحياة الخاصة، ولكن
الحركة كانت تتجه بعواملها الثورية بالأخص إلى تحطيم النظم الحكومية والاجتماعية
والأخلاقية القائمة؛ كان هذا هو الجيل الذي ازدهر في معركة الطوائف قبل الحرب،
وفي جحيم الحرب، وفي أحياء العمال، وفي ميدان الحرب؛ وما يكاد يعرف عالما غير
عالم البطش والروعة؛ عالما يهوي الضعيف فيه إلى حضيض البؤس، ويبدو القوي
عنيفا مطلق الهوى. وعلى هذا المنوال نشأت العواطف الأساسية لهذا الجيل، وهي
عواطف رأفة ورثاء لضحايا هذا العالم، وعواطف طفولة، وعدم مسئولية نحو نظام
اقتصادي عنيف ونظام سياسي قاهر أكثر عنفاً، وبالاختصار عواطف ثورة واستهتار.
كذلك كان هذا الجيل يؤمن بالعاطفة الإنسانية التي شوهتها التقاليد والعرف. وبالخبر
المحض الذي غاض في غمر من الكسل والخبث. وكانوا ككل الثوار الخياليين لا يرون
في الحاضر ولا في التاريخ شيئاً غير بطش
الدولة الجهنمية، وظلم الضعفاء، واضطهاد العقل والروح من طبقات سيدة لا ضمير
لها ولا وازع.
وقد بدا لهم كما بدا لفوتر، أن الدين والعلم والفن قد زيفت لصالح الطبقات الغالبة.
بيد أن هنالك فرقاً بين تكييف آلام الحياة في الماضي وبين تكييفه الجديد، وهي آلام
تهم حركة (التعبير) فقد كان فرتر القرن الثامن عشر أيضاً يقطع علائقه مع مجتمع
العصر وثقافته، ولكن بقيت له اللغة القومية، وكان يقيس خمول المجتمع بمقدار ما
يضطرم في صدره من فيض البيان وعنفه، ذلك البيان الذي تلقاه من جيل إلى جيل.
وكان يتلقى صلات الماضي البعيد المجيد، كما يتلقى من حاضره ما لم يغشه الفساد.
وكان فرتر يرى نفسه في مرآة اللغة القومية النقية المخصبة، فإذا أخرسه الألم،
أمدته بما يقول فيما يعاني. وقد بدت هذه اللغة القومية للشاعر الفتي الذي ظهر في
نهاية الحرب مهيضة منهوبة، وألفاها طعمة للسادة الخاملين والطبقات الوسطى
الراضية المسترقة، قد استحالت على يدهم إلى أداة خاملة خالية من المعاني
ولسنا نجد ما نقوله عن الطابع الشعري، فقد بدا شكله لهذا الجيل الفتي عليه العفاء
مثلما بدت ظروف الدولة والمجتمع، وبدا له الجد والوقار كأنهما وضع مجرد منافق
والجمال كأنه امتياز وضيع لرفاهة التجار الاغنياء، وان رنين العواطف قد غدا رنين لغط

مجرد، أو غدا بلسما مخدرا
وقد اندفع الشعراء الغنائيون الجدد، بعوامل ترجع إلى الأحقاد الاجتماعية وإلى بعض مثل الجمال، سراعا إلى معترك من الفوضى اللفظية والفنية، ونشأ في ذلك المعترك رغم تناقصه مذهب لعبادة القبيح
وبدأ أولئك الغنائيون (المعبرون) بالخروج على كل قواعد النظم والروى وتنسيق العبارات، بل على قواعد اللفظ ذاته. وانتحلوا لأنفسهم لغة خاصة لم تكن اكثر من سلسلة طويلة من الزفرات المتقطعة والغمغمة والصياح، قد ضحى فيها اختياراً بكل منطق خارجي، وكل جمال ونبل في اللفظ، ويستحيل علينا أن نقدم هنا أمثلة، مثلما يستحيل علينا أن نترجم كتابات الفرنسيين أنصار الحقيقة المغرقة، أو شعراء اكسفورد المحدثين. ونضطر أن نحيل القارئ إلى الشعراء والكتاب الذين سبق ذكرهم. ففي هذا الضرب من
الشعر كله في هذه اللغات، ينعدم كل تنسيق منطقي أو صوغ للجمال. بيد أن لهذا الأسلوب مزاياه في التأثير بما يقوم عليه من العناصر اللفظية الخاصة بكل لغة، وهي مؤثرات يفهمها كل إنسان يعرف هذه اللغة، دون أن يعني بشرحها أو ترجمتها
وقد ذهبت الثورة على المبادئ والقواعد المرعية إلى حد اقصد إلى معالجة القبيح الشاذ. نعم استعمل أولئك الشعراء الروى والقافية ولكن دون شكل ولا قاعدة، بل حولوا الوزن والتناسق إلى خلل وتنافر. ولم يكن شعر هذا العصر يمتاز فقط بالتحلل والغموض، ولكن يمتاز أيضاً بنوع من الضيق والقبح والشناعة. وليس هذا فقط فيما يتعلق بحرية التعبير، بل هو كذلك يتعلق بالميل إلى ذلك التبسط العنيف القبيح، والى ذلك اللفظ الضعيف المغصوب، فقد كان هذا الميل هو طابع الإنشاء
ويرد أنصار (التعبير) على ذلك بأسباب يرجع بعضها إلى الطموح إلى الجمال، فيقولون إن الأمر يتعلق بتجارب لفظية وصور فنية للأشياء أهملت ولم تطرق من قبل، ويرجع البعض الآخر إلى العاطفة وفلسفة التاريخ حيث يقولون أن البيان الذي أتى به عصر محطم ممزق يجب أن يقوم على شيء من الخلل والقبح والهوس، وان ميلاد عصر جديد، أو إنسان جديد كامل يقع دائماً في غمار الألم والقبح. ثم يقولون إن عين العصر الحاضر كعين ساكن جهنم في أسطورة أفلاطون لابد أن ترى اليوم قبيحاً، ما يراه عصر جديد، أنقى الانطباع والجمال.
- 3 -
وما كان ذلك كله ليرضي غير طائفة قليلة من المفكرين الخبثاء أو الذين لا خلاق لهم. ولو لم تكن الحرب وما بعد الحرب لبقيت الحركة محصورة في هؤلاء. ولكن هذه المحاولات التي كانت تقصد إلى عدم المساس بالأذواق والمظاهر الشعبية في الفن والأدب بل تقصد إلى إثارتها، استطاعت بسبب انحلال العصر واضطرابه أن تغزو أوساطاً عظيمة
ذلك أن الرجل العادي الذي فقد صوته في جحيم الخنادق وذعر الهزيمة؛ ألفى في هذه الموسيقى الثورية المضطربة بيانه الطبيعي وبدا الأسلوب الجديد الذي صيغ سراعا في صوت الملاك، أو صوت الحيوان، ولكن لم يصغ قط في صوت الإنسان الأمثل، في نظر الجموع، أنشودة أولئك المساكين الذين كانوا يرقدون نصف عراة في الخنادق لا يفكرون
في غير حياتهم، أو أنشودة أولئك المشردين المنبوذين الذين كانوا أيام الجوع يبتهجون بافتراش الغبراء وأكل الأعشاب. وقد كانت الجماهير الزاخرة، ولا سيما جمهرة المتعلمين تعتقد أن الزمن سيدور دوره. وكان الاعتقاد عميقاً سائداً بأن البراءة ستأتي أو سيأتي عصر تنهض فيه الأحوال الأخلاقية والاقتصادية. وهكذا حظيت هذه العوامل التي بعثت الخيال الجديد بظلامه وخفائه وحماقته بتأييد الجمهور. ولعل الرسالة كانت أقوى من فهم الشعراء أنفسهم وأقوى من ثروتهم اللقطية؛ وكان ثمة اعتقاد بأنها رسالة رسل أو أنبياء. ألم يكن ثمة دليل على عمق الرسالة حين تحطم الإناء تحت ثقل ما فيه؟
- 4 -
ولقد كان ذلك الخيال الذي أقامته حركة (التعبير) ضد (التأثير) والذي كان يعم من الوجهة النظرية لصوغ الحالة النفسية من جديد، وينكر كل استقلال خارجي، بل كل

شرعية خارجية وكل شكل وضعي، يلتقي مع ذلك بحاجة للوسط الذي يعني بالفلسفة، هذا إلى تلك الحساسية الدقيقة التي أذاعتها في الطبقة الوسطى فلسفة (فرويد) النفسية والتي اتجهت نحو تصوير الغرائز المضطربة والمثل النفسية

وكانت الفلسفة الألمانية الرسمية، منذ فاتحة هذا القرن تتجه بلا ريب إلى معارضة الفكرة الواقعية، أولاً على يد الأشكال المعتدلة للفلسفة الكانتية ومنذ سنة 1910 ظهرت حركة واضحة تميل نحو فلسفة واقعية روحية (وقوامها فلاسفة مثل، مينونج وهوسرل، وبعض تلاميذ مدرسة ديكرت، وحركة الأحياء الهجلية، وهنز دريش وغيرهم) بيد انه قلما كان يفرق أحد بين الواقعية والآلية، فكانت كل هذه الميول تتجه إلى إنكار الشكل والمقدار سواء في الطبيعة أو البيولوجيا أو الاجتماع.

وكانت الحركة الوطنية قبل الحرب بل وأثناء الحرب أيضاً، تعضد هذا الاتجاه، وكانت ترى في تراث أجست كونت وجون ستوارت ميل، ثقافة خصيمة تجب محاربتها. ولكن بتقدم الميول الروحية ارتد المفكرون إلى الفلاسفة الألمان القدماء: ايكهارت، بيمي، وفختى، وشلنج، وهجل

ومن اليسير أن نبرهن على أن دعاة نظرية (التعبير) قد استقوا من هذه الميول، سواء من الوجهة الشخصية. أو الوجهة المادية. بيد أن الحركتين كانتا تسيران جنباً إلى جنب في

محاربة الآراء الغربية كما وضعت غالباً، وكانتا تطاردان نفس العدو في مواطن كثيرة. فمثلا نعرف جميعاً أن حركة (التأثير) التي تقاومها حركة (التعبير) كانت تتصل أوثق صلة (بالواقعية) الفرنسية وكانت الرواية والقطع المسرحية الألمانية التي أثار عليها (التعبير) أيضاً حربه العوان، في العشرة أعوام الأولى من القرن الحالي، تستقى إلى حد كبير من التعاليم الطبيعية الجبرية والاجتماعية

بيد أن الفلسفة والفن الجديد كانا يلتقيان في تمثيل (الواقعية) أما حركة (التعبير) فكانت تجعل من (الوضعية) وصوغ العبارة محور فنها، وكان الفلاسفة الجدد من جانبهم يمثلون الميل إلى تصوير العالم في صورة تفيض فيها الجوانب المادية، وتتأثل فيها العناصر المعنوية: أعني الفكرة والروح والحياة، أو تكون لها قواما

ثم إن هذه الرجعية الروحية في الفلسفة قد اتخذت صورا ومناحي شتى فبدت أحياناً في الأشكال الصارمة لنظرية المعرفة والمنطق. وأحياناً في ميدان الاجتماع، وطورا في ميدان النظريات الفنية، وأحياناً في مباحث الخفاء. وهكذا استطاعت أن تمد الفن الجديد لا بنظرياته العلمية فقط، بل استطاعت أيضاً أن تمده بالصورة العالمية التي ينشدها

ولقد ظهرت هذه الآثار واضحة في الرواية والقطعة المسرحية اللتين أخرجتهما حركة (التعبير) فكلتاهما انحدرت إلى غمار الخيال المغرق. وفي عوالم محطة أو ممزقة مهلهلة يبدوا فهيا الشغف بما وراء الطبيعة، وما وراء النفس والعناصر الشيطانية الخبيثة. فأما الرواية، فقد عالجت الحوادث الخارقة، وقصص الأشباح، وأشخاص الهائمين في العالم. والعلم بالاتصال بالله؛ وكذا تشبهت الرواية بالأدب الروسي في معالجة قصص المجرمين الذين يتصفون بالصلابة الخارقة أو يزعمون الإلهام من الله، والقضاة ذوي الكبر والقلوب الغليظة، والمذنبين التائبين الذين هم أصفى قلوبا ونفوسا. وأما الرواية المسرحية فقد رسمت صور الشقاء للمعدمين الأطهار، ورسمت على العموم صورة الكفاح المتناقض بين الفكرة المستنيرة والمادة المظلمة، وشرحت الأسباب القديمة المعادة لعقوق الابناء، ومعركة الضمير التي تضطرم في صدور الشبيبة الديموقراطية السلمية التي تتنبأ للعالم بمستقبل عظيم زاهر في ظل النظام الجديد، وصورة المناظر المغرقة لمدنية عظيمة ذات معترك من الحقيقة والظاهر، والغنى، والفقر، والتسول، والمال، والرذيلة، والعالم الخفي، والعالم الأنيق، كذلك عادت الرواية المسرحية إلى معالجة موضوع القصص الدينية القديمة.

ومن الصعب أن نقول إلى أي حد ترجع هذه الصور والمسائل إلى أثر الفلسفة والتيوسوفية، والى أي حد تمثل فقط الحقيقة المروعة لأيام الحرب وما بعد الحرب، وعلى أي حال فقد كانت الحقيقة هي أعظم غذاء لهذه الآثار كلها. فلما تغيرت هذه الحقيقة في سنة 1924 غاضت هذه الآثار كما يغيض الطيف. أما في دوائر الأدب

الرفيع فقد اضمحلت الحركة منذ سنة 1922، وكانت في الواقع ظاهرة الفراغ. ذلك أن الدأب على تصوير ضعف الأخيار وبؤسهم، وكونهم يكافحون في عالم قاس أضحى نغمة قديمة مضحكة بغيضة وغدا الاشتقاق من العالم الخفي ومجتمع الفقر والرذيلة فناً سهلاً وغدا يشف من ثمرات كل عام عن ضعف ذهني سيئ. أما الرجال الذي عنوا بمعالجة مشاكل هذا العصر فقد توفروا على دراسة الاقتصاد والتاريخ والفلسفة. ومن ثم فقد انهارت دعائم هذه الحركة التي قامت فطيرة مغرقة. وكان أسلوبها الذي غفل عن الصقل والغاية أحب الأساليب إلى العاجزين. وهكذا سرعان ما غدت حركة (التعبير) لا تعني شيئاً سوى (الفقر الأدبي).

- 6 -

بيد أن العصر الجديد (منذ سنة 1824) عاد فأخذ يتلمس طريقه إلى التقاليد القديمة في حذر بل في روعة. ولما توطدت دعائم الظروف الاقتصادية عاد العمل والحياة فاستقاما ببطء، وعادت الأرزاق الدنيوية تسترد مكانتها وقوتها بعد أن غدا الحصول عليها ممكناً. وغاض الشعور بأن كل شيء يضطرب ويهتز؛ وأخذ الإنسان ينظم شأنه في العالم، وكان لذلك أثره في تقدم الآداب ما بين سنتي 1924 و 1930.

عاف الإنسان الأحلام، وأخذ يقدر الحقائق ويقدر أساتذة الكتاب. وسئم الإنسان الاتهامات الخطيرة وكذلك الوعود التي ليست أقل منها خطورة وعاد يروض نفسه على تذوق العواطف الطبيعية وعلى تقديم الجهود المحدودة ولكن السليمة. أجل، سئم الإنسان إغراق العصر الذاهب وقبحه، وأخذ يقدر احتشام العاطفة وقيمة البيان، وقضى على ذوي الغي والقصور وعاد الإنسان يطلب الصقل والتهذيب.

وإن الإنسان ليشعر في هذه الأعوام الأخيرة إلى أي حد كان أولئك الناس يغرقون في استعمال العبارات الجريئة؛ ولقد غاضت الرغبة كما غاضت الجرأة في تحري الصور الجديدة أو العنيفة أجل، كان عصر الرجعة، وعصر استرداد التقاليد الأدبية التي خلفتها القرون ولم يكن عصراً ضعيفاً ولكنه أيضاً لم يكن مضطرباً ولم يكن يتلمس طريقه في الظلام.

ولم يكن هذا الجيل أيضاً من الوجهة الخارجية جيلاً جديداً حل مكان الجيل القديم، ولكنه كان طائفة من عمر الجيل المنصرم نضجت في سكينة أو كانت أقدم وأطول عمراً. ونحن نمثل لتلك الطائفة بقصصيين مثل هانز كاروسا، والبرخت سيفر، ويوسف بونتن، ويوسف روت وأرنولد تسفايج. . فهؤلاء فياضون بالرجولة، بل انهم يبدون أحياناً شخصيات هائمة: وهم قديرون على أن ينسجوا من حوادث الحياة اليومية صوراً ينفذون إلى أعماقها ويصوغون منها اللآلئ التي توجد في كل حقيقة وفي أصغر حقيقة. وهم كتاب حقيقة، ولكن جردوا من كل النظريات الفلسفية والاجتماعية. هم كتاب قصص، وكتاب قصص فقط، لا يتجنبون المدهش الخارق ولكن ليس لديهم ما يحول دون قصده وتحريه. فإذا قصدوه تناولوه بحذر، بل بإحجام كشيء تتأثر له حقاً، ولكنه ليس مما يجب أن يكون لنا. فمثلا كتب كاروسل مذكرات عن الحرب، ولكن كل ما يورده فيها من خطوب الحرب لا يكاد يبدو بين ثنايا القصص ووصف الحوادث اليومية

كذلك كان حال الشعر في هذه الفترة؛ ونستطيع أن نمثل لها برتشارد بلنجر أو بفيلكس براون. وقد عيب على هؤلاء أنهم يغرقون في التعلق بالطبيعة، بيد أنهم لجأوا في التعبير إلى ذلك البيان الفني الذي ازدهر جيلا بعد جيل، وفيهم يشعر الإنسان بأثر شعراء المدرسة القديمة مثل جورج، وهوفمانشتال، وريلكة. ولقد كان لأولئك الشعراء القدماء شيء من لون النبوة، ولكن الشعراء الجدد تنقصهم الصياغة الفنية وكذلك كل ما يدخل في عالم التصوف أو الدين. وشعرهم صور قصيرة، ولكنهم يجانبون ذلك الغي الواضح، ويبدو في شعرهم هوى الفن والعناية بصقل العاطفة، والحرص على صوغ البيان.

وإن هؤلاء لأنبل من يمثل هذه الفترة، ولكن يوجد إلى جانبهم من يمثل الحقيقة، الخشنة، فمثلا توجد طائفة من القصصيين مثل برنو فرنك والفريد نويمان، ترعى قصص المخاطرات والعجائب، وهؤلاء يهتمون بالوقائع قبل الشكل. بيد أنهم رغم التعلق بالخوارق

والمدهشات، كتاب حقيقة، لأنهم ليسوا ككتاب القصص (المعبرين) يبحثون عن المدهش في عالم من الخفاء، بل يلتزمون جانب الواقع، ويستمدون المدهش من شغف خالص بالواقع، ويستخرجون من الواقع قصصهم وغالباً أشخاصهم العنيفة المدهشة

ونستطيع ان نضع بين هؤلاء اميل لدفيج، فهو يميل إلى الخوارق والمدهشات، ولكنه يصوغها في أسلوب عادي، بل أحياناً في أسلوب ركيك مبتذل.

وينتمي إلى هذه الحقيقة الخشنة، أيضاً كتاب قصص الحرب المتأخرين، الذين نالوا حوالي سنة 1930 شهرة عالمية، ونذكر من هؤلاء رين، وجليزر، وريمارك. فان كتبهم إنما هي وثائق، ولكنها ليست رفيعة من ناحية الفن الأدبي

ويجدر بنا أن نشير أيضاً إلى كاتب مستقل اللون ولكن يتصل بحركة التعبير، وهو الفرد ديبلن، وهو طبيب اجتماعي في برلين، ففي كتابه المسمى (برلين ميدان اسكندر) يصور وقائع حياة عامل نشأ في بيئة المدينة على نمط سينمائي، متأثراً في ذلك بأسلوب جيمس جويس

وإنا لنصارح القارئ بأن ما أوردناه عن الحياة الأدبية الألمانية بعد الحرب لا يكفي إلا لشرحها بصورة موجزة جدا. فإذا كانت حركة التعبير قد اضمحلت وعفت بسرعة، وإذا كانت النزعة الجديدة إلى الحقيقة برغم ما أنتجت من مواهب قليلة لم ترتفع إلى اكثر من مستوى متوسط، فليس علينا أن نعتقد أن الحياة الأدبية في هذه الفترة كانت ضئيلة. ولقد تحدثنا فيما قبل عما وجه من الاهتمام ولا سيما من جانب الطبقات الوسطى إلى مسائل هذا العصر الفلسفة والسياسة، وقلنا أن حركة التعبير لم تصمد لأن مناهجها لم ترق في عين المفكرين الحقيقيين، وأنها اتخذت للتعبير عن الأزمة الفكرية التي هزت أركان بلاد العالم كلها بلا استثناء، وهزت الرأي العام الألماني حتى بعد سنة 1924 بما اقترن بها من الضغط السياسي والاقتصادي.

ولقد كانت المصائب المادية التي ترتبت على الهزيمة سبباً في أن هذه الأزمة العقلية وقعت في ألمانيا قبل أن تقع في غيرها من أمم أواسط أوربا وغربها وفي أنها ربما كانت أعم وأعمق أثراً. اجل لقد حولت هذه الهزيمة ألمانيا في بضعة أشهر من أقوى دولة في أوربا

وأحسنها نظاماً إلى بلد يمزقه الجوع والحرب الأهلية، وقد بينا أن حركة التعبير إنما كانت ثمرة لما وقعبألمانيا من تحطيم جميع الملكيات والضمانات وانهيار الطبقات، وتحطم جميع مثلها الوطيدة، وهي ريح لم يقف عصفها بالجندي المحارب، ولكنها شملت جميع السكان قاطبة. كذلك كانت هذه المصائب سببا في حمل جميع الطبقات خلال هذه الأعوام، على الاهتمام بالدين والفلسفة والسياسة. ولما أن ثقلت هموم الحياة، لم يبق للفن سوى القليل، وهذا هو السر في كون هذه الصورة التي قدمناها من قبل تبدو ضئيلة عجفاء، كذلك الحركة العلمية عانت من هذه الظروف، فقد كانت من قبل تجد في ألمانيا تحت تصرفها احسن القوى، ولكن أولئك الرجال ألفوا أنفسهم عندئذ يواجهون تلك المسائل الفكرية والسياسية التي لا تدع بعد مجالا للعمل الهادئ المنظم، وغدا من الضروري قبل أن يستأنفوا عمل الجيل القديم ويسيروا به أن ينظموا أراءهم العلمية وأن يجربوها من جديد. كذلك تطور كثير مما يتلقاه الطالب في الجامعة من العلم الوضعي ولم يبق ذا أهمية علمية فقط، بل غدا أيضاً ضروريا لمعالجة المسائل الماسة التي أتى بها الحاضر. صحيح أن الألماني الفتى كان يهضم العلم كما كان يهضمه من قبل، ولكن لا ليسير في البناء بادئ بدء، بل ليجد لنفسه مكانه الخاص في ذلك المعترك الفكري

كانت تقوم في كل مكان جماعات عاملة تضطرم جميعاً بهذه المسائل التي لا نهاية لها؛ واقترنت بقيامها حركة أدبية معينة؛ كذلك لا يكاد يوجد اليوم في فرنسا أو إنكلترا كاتب كبير لم يشترك بكتاب وضع أو أكثر في معالجة المسائل التي شغلت ذلك العصر. كذلك اشترك جميع الكتاب الألمان الذين ظهروا قبل الحرب بهذه الوسيلة في معالجة مسائل ما بعد الحرب؛ وكان ذلك نذير التجدد والفتوة. كذلك تحول كثير من هؤلاء الكتاب من روائيين متشككين إلى نوع من العطف والاشتراك في الشعور مع معاصريهم ونذكر بعض هؤلاء؛ فقد عنى (هرمان هيسه) مثلا بمشكلة الشباب وعنى

(يعقوب فاسرمان) بجموح الطبقات الوسطى الجديدة وغطرستها وعنى (اوتوفلاكه) بأزمة الزواج، وعنيت (ريكاردا هوخ) بشرح صور الإخلاص والتصوف الألماني بطريقة جديدة. واخرج توماس مان، القصصي الشهير ما قبل الحرب، عددا من القصص الصغيرة التي لا موضع للكلام عنها هنا، وهي في مستوى إنتاجه قبل الحرب. بيد انه إلى جانب ذلك تحدث إلى أمته حديث

المربي، وقد عرفته من قبل وصافا للأسر الذاهبة والشخصيات الضعيفة. وتحدث بشجاعة ولكن بتحيز دائماً عن (ضرورات العصر) مشيرا بذلك إلى المسائل الشائكة الخاصة بنظام الدولة والمسائل الخارجية وكذلك معنى النفسية الجديدة؛ وتحدث بالأخص عن تقاليد الفن والحياة؛ عن تراث القرن التاسع عشر كله من جيته إلى فاجنرونيتشه ثم إلى الروس. وفي سنة 1924 ظهرت روايته التهذيبية الكبيرة (جبل الساحر) وهي رواية في الظاهر فقط، ولكنها في الأصل صورة لأوربا في أحوال صمتها ومرضها ونقاهتها، وضعت في شكل مناقشة بين جماعة من الشخصيات الأوربية ذهبت بسبب المرض أو غيره إلى آكام دافوس (في سويسرا).

كذلك اشترك في هذا الجدل علماء مثل ماكس فيرومكس ترلنش. بيد أنه قد اضطلع بأعظم قسط من هذا الجدل طائفة من الشخصيات ليست من رجال العلم ولا من رجال الفن، ولكنهم كفلاسفة مستقلين استخلصوا جميع التقاليد، وتحدثوا عن طوالع العصر على نحو ما فعل تاين في فرنسا عقب كارثة سنة 1870. ومن الحيف أن نصف هؤلاء الرجال بأنهم فنانون أو علماء، فقد فسروا العلوم الطبيعية والتاريخية في عصرهم بطريقة فلسفية سياسية. ومثل هذه الجهود لا يمكن أن تخلو من العيب، فهي تتطلب كثيرا من المعارف الشخصية وقوة التناسق، والنظر إلى الحقائق ومقدرة كبيرة على التنبؤ: بيد أنه إذا كان الشخص المستقل يبالغ في تقدير كفايته في هذا الميدان، فكذلك يجب ألا ننسى أن مرحلة التطور لا يمكن أن تحل دون أن تبذل هذه الجهود للتطلع إلى كل شيء

ونستطيع أن نذكر ماكس شيلر، ولدفيج كلاجي، بين الذين أسسوا فلسفة جديدة في علم طبائع الإنسان

وقد كان كتاب أزوالد شبنجلر (انحلال الغرب) أشد ما يمثل هذه الطائفة. وهو كتاب أسوأ ما فيه عنوان. وقد اعتبر مع ما فيه من العيوب أعظم حادث أدبي في الحركة الأدبية الألمانية بعد الحرب

وفي هذا الكتاب يدرس شبنجلر قوانين النمو والانحلال في التاريخ، ويشرح بصفة عامة الأشكال التاريخية بأسلوب الدرس المقارن في العلوم الطبيعية في أصول الاصطلاحات

الخاصة بالنبات والحيوان، ويتناول في بحثه كل ما يتصل بمصير الإنسان وطالعه، سواء من ناحية الدولة أو من ناحية المجتمع، وكذا من ناحية الفنون والعلوم الرياضية بنوع خاص. ويعتقد شبنجلر أنه قد استطاع بهذا العرض أن يطلع مواطنيه على المكان الذي يستأنف من التاريخ سيره، وعلى واجبات العصر الذي سيلي، ومصاير القرن الآتي. بيد أن شبنجلر لم يكن بالطبع أستاذاً في جميع العلوم التي تناولها بحثه، ويستطيع الإنسان دون جهد أن يحصي عليه الخطأ في كل خطوة. وقد أنكر العلم والفلسفة كتابه، ولكنه يعتبر مع ذلك إنجيلا لعصره وفيه مزايا لا تنكر. وإذا كانت روحه ثقيلة الوطأة، فأنه في ذاته مسهل الآراء، مبسط العلم، ذو بيان سلس قوي. كذلك يعتبر الكتاب من الناحية المعنوية قوي الحجة ينم عن أبدع الخواص الألمانية. وقلما أنكر على الألمان انهم يعرفون كيف يواجهون القدر المحتوم مواجهة الأبطال، فكتاب شبنجلر ينفس من أوله إلى آخره هذا الرضوخ الرفيع الرائع للقدر

والى جانب شبنجلر نجد الكونت كايزرلنج مؤسس أكاديمية الحكمة في (دارم شتات) وهو محلل قدير لحضارات العالم وأديانه وفي مذكرات سياحاته: وفي دراساته عن أمريكا وعن الشعوب الأوربية نجد نوعا من دائرة معارف تتناول كل المسائل التي تهم الألمان بنوع خاص والأوربيين بنوع عام، منذ أن قربت السياسة الحديثة والاقتصاد الحديث بين تقاليد القارات العظيمة ورسالاتها وهذه الدراسات صورة قوية لكفاح الشباب الألماني ضد مؤثرات العالم الخارجي. ففي مئات الكتب وفي آلاف الجماعات،

يتجه البحث إلى بيان أصل الإنسان، وما له من ماضيه الخاص، وما كسبه من الأمم الأخرى. وقد ظهر أثر هذه البحوث في المسائل السياسية وكان يشتد كلما تقادم العهد على الحرب، وذلك في نفس الوقت الذي تطورت فيه الحركة الأدبية من التعبير إلى الحقيقة، وأخذ الاهتمام يتجه من التحليل والمباحث الدينية والمثل الخيالية إلى ناحية الماضي القومي والى ناحية الشئون السياسية والعملية

ولا يسمح المقام بأن نصف هذه الحركة في دقائقها ولا أن نتتبعها إلى يومنا، ذلك أنا لا نستطيع أن نغضي عن العنصر السياسي تمام الإغضاء. فمن الواجب أن نبين مثلا أي قوى غنمتها المثل الخصيمة للديموقراطية، وكيف أن التقاليد الأدبية، والتصوف الأدبي الجديد، مالت إلى جانب الأحزاب غير الديموقراطية.

وقد كان مما له أهمية سياسية أن الطوائف الحرة ذاتها كانت تتلقى المؤثرات الأدبية الرفيعة القوية التي تهيئها لإنشاء مجتمع جديد غير ديموقراطي متدرج في الطبقات وإلى نظم جديدة للدولة.

ولا يسعنا قبل كل شيء أن نغض عن الأثر الذي خلفه شتيفان جورج، وهو شاعر كبير ذو مكانة هامة نبغ قبل الحرب، ولكنه لم يرتفع إلى ذروة التأثير في الطبقة الرفيعة إلا منذ الحرب، ولو شئنا أن نصف آثاره المنظورة وغير المنظورة لاقتضى ذلك فصلا بأسره، وآثاره فنية وأخلاقية وسياسية، فلنتصور شاعراً مضطرم الشاعرية ذا أسلوب صارم في نفس الوقت، كأنه في دائرة فنه نوع من القسس يعمل بروح القس. أجل لنتصور قسا كأولئك القسس الذين عاشوا منذ أربعة آلاف عام في مصر، وكان لهم إلى جانب التأثير الكهنوتي، أثر سياسي. ولقد لبث أثر شتيفان جورج السياسي خفياً غير منظور. أما أثره الفني والأخلاقي فيبدو بالعكس منذ عشرة أعوام في كتب تلاميذه. ونذكر على سبيل التمثيل كتاب جوندولف عن جيته وكتاب برترام عن نيتشة

ولا يدرك سوى أولئك الذين عاشوا خلال هذه الحركات المتباينة وعملوا معها. كيف أن العصر لم يكن خاملاً ولا مندثراً، وليس من الحق أن نصر على أن العصر كان خلواً من الآثار الأدبية الرفيعة. وإذا كان هذا العصر ينقصه التناسق وتنقصه العبقريات الأدبية الممتازة، فذلك يرجع إلى أنه عصر جدل شاق بين المثل القديمة والمثل الجديدة. وفي غمار هذا الجدل الذي اشترك فيه كل إنسان سر طرافته، بل وسر عظمته، وسنرى في المرحلة المقبلة. إذا كان عصر تعليم وغرس لجني جديد.

كتبت للرسالة خاصة

(ع) (ترجمها)

الموسيقى عند العرب

للأستاذ قدري حافظ طوقان

مقدمة

قد يعجب البعض وقد يؤدي هذا العجب إلى القول: ما علاقة صاحب هذا المقال بالموسيقى؟ وهل هذا الفن يقع في دائرة اختصاصه حتى يتمكن من الكتابة فيه؟ وما هي الفائدة التي ستعود على القراء إذا عرفوا أن للعرب أو للمسلمين فضلا فيه؟ ولماذا كل هذا الاهتمام بتراث السلف الذين مضوا بخيرهم وشرهم؟ أما آن الأوان للاهتمام والانعكاف على شيء جديد حاضراً لنفع ممتع؟ أجوبتي على هذه الأسئلة ستكون بالجملة! فإجابة على السؤالين الأولين أقول إن الموسيقى هي من بحوث الصوت، والصوت فرع من فروع علم الطبيعة، وعلم الطبيعة هذا في العلوم التي نشتغل بها ونهتم بماضيها وحاضرها، بتطورها ونموها. وأما الجواب على الأسئلة الباقية فيمكن أن يتخلص في أن الأمة التي تريد أن تصل إلى ما تصبو إليه من تقدم وسؤدد يجب أن تهتم بماضيها، وأن تربطه بحاضرها، وان تأخذ من الحضارة الحالية ما فيها من عناصر صالحة وبالقدر الذي يتلاءم ونفسيتها وتقاليدها بحيث لا يضيع شيء من مميزاتها، وان تضيف هذا إلى ما في حضارتها من عناصر خالدة، بذلك تستطيع أن تخرج حضارة جديدة تمد سلسلة التاريخ الفكري للعالم، وبذلك تكون قد قامت بواجبها نحو تاريخها وتراثها ونحو المدنية والبشرية

نبذة في أطوار الموسيقى

الموسيقى من الفنون الجميلة ومن أهم العوامل التي تترجم عن نفسية الأمة

وطبائعها، وهذا الفن طبيعي في البشر، فالإنسان يرغب في الموسيقى يطرب منها وترتاحنفسه لها، وهي لغة العواطف، وقد تكون هي الوحيدة من بين الفنون التي يطرب لها الحيوان. هذا الميل الغريزي في الإنسان دفعه إلى الاعتناء بها فاهتم لها المصريون من قديم الزمن وبلغوا فيها شأواً بعيداً، وأبدع فيها اليونانيون وأحلوها محلها من الاعتناء والاهتمام، وكذلك الرومان فانهم اعتنوا بها فأخذوها عن اليونان وزادوا عليها؛ وفي الشرق اهتم لها الصينيون واليابانيون وبرعوا فيها واخترعوا آلات كثيرة من ذوات الأوتار، وظهر منهم من انتقد الموسيقى الأوروبية، هذا في الشرق الأقصى، أما الفرس فاحتقروها في بادئ الأمر وترفع أعيانهم عن تعاطيها، ولكن لم يلبث هذا الاحتقار وهذا الترفع أن حل محلها العناية والاعتبار، فألفوا أنغاماً بديعة التوقيع واخذ عنهم العرب كثيراً، يدلنا على ذلك تسمية الألحان العربية بأسماء فارسية كما أخذوا أيضاً عن البيزنطيين، وهؤلاء (البيزنطيون) وأهل فارس بدورهم أخذوا عن الموسيقى العربية. ولم يكتف العرب بذلك بل ترجموا كتب الموسيقى لليونان والهند ودرسوها، وبعد أن نقحوها هي وغيرها زادوا عليها، فألفوا في ذلك المؤلفات القيمة، وجمعوا بين ألحانهم والحان اليونان والفرس والهنود، واستنبطوا ألحاناً جديدة لم تكن معروفة فضلا عما اخترعوه من الآلات. ولا يظنن القارئ أن في وسعي أن اسرد تفصيلا تاريخ الموسيقى العربية والأدوار التي مرت عليها فهذا ما لا طاقة لي به، وسأعمل جهدي في هذا المقال أن أعطي فكرة بسيطة عن الموسيقى العربية من حيث قواعد أنغامها وترتيب ألحانها ومن حيث وزنها الموسيقي وآلاتها القديمة والكتب المؤلفة فيها. . .

الأنغام والألحان والوزن الموسيقي

إن كلمة موسيقى مأخوذة عن اليونانية، ومعناها تأليف الألحان، والموسيقى (علم يعلم به النغم والإيقاع وأحوالها وكيفية تأليف اللحون وإيجاد الآلات الموسيقية)

إن الأصوات الموسيقية درجات أو أبراج متتابعة، الواحدة فوق الأخرى إلى عدد غير متناه، والأبراج الأصلية عند العرب تبتدئ بالياكاه، فعشيران، فعراق، فرست، فدوكاه، فسيكار، فجهاركاه، ويقال لها ديوان، وفوق هذا الديوان ديوان آخر له أبراج النوى؛ فالحسيني، فالاوج، فالماهور، فالمحير، فالبزرق، فالماهوران، وما ارتفع عن ذلك فهو جواب لما يقابله في الديوان الذي تحته وهكذا. وبين هذه الأبراج فسحات يختلف بعضها عن بعض في الكبر؛ وقد قسمها العرب إلى كبيرة، وتتألف من أربعة أرباع، وصغيرة مؤلفة من ثلاثة أرباع، ويحتوي الديوان على أربعة وعشرين ربعاً، وتختلف الألحان، العربية واختلافها يرجع لأسباب، منها طبقة النغم واختلاف الإيقاع وتعويض الأبراج وتضعيف الألحان، وبعض هذه يحتاج إلى قليل من الشرح، فطبقة النغم هي الانتقال في سلم برج من الأبراج صعوداً ونزولا مع حفظ المساحات التي يتغير النغم بتغيرها،

وتعويض الأبراج هي تعويض بالأبراج بارباع، وتضعيف الألحان هو الإيقاع على برج يكون جواباً لما تحته، والصعود والنزول على سلمه بحيث يبقى الجواب طبقة للنغم، ولهذا يتضاعف الصوت. وكان للعرب عشرة أنغام يبتدئ كل منها على برج من أبراج الديوان فتفرع منه أنغام فرعية، هذا من جهة الأنغام والالحان، وأما من جهة الوزن الموسيقي فاكتفي بالقطعة الآتية، وقد أخذتها من المجلد التاسع عشر من مجلة المقتطف.

(الوزن الموسيقي هو مجموع ضربات منفصلات بعضها عن بعض بأوقات محدودة في القياس، وطبقا للنسبة والمكان فيمكن الإنسان أن يوقع مقطعين بسيطين بضربتين فقط، لكن الوقت يختلف بين أجزائها فمرادفة المقاطع تكون إما متساوية أو غير متساوية، فالمتساوية هي مراجعة الضربات بطريقة لا نشعر بها مراجعة الأوتار بشرط أن يطول الوقت عند نهاية كل مجموع من الضربات أكثر من غيره، فلو حدث اختلاف بين المجموعات ولو بضربة واحدة شذ القياس وفسدت المساواة، ومجموع الضربات المتساوية الأوقات يسمى الوزن المجموع، وغير المتساوية المقسوم. وإذا قصر الوقت بين الضربات المتساوية حتى لا يمكن قسمتها بعد ذلك يسميها الفارابي (الهزج السريع)، وإذا تضاعف الوقت بين الضربات يسميه (الهزج الخفيف)، أو كانثلاثة أضعاف (فالهزج الثقيل الخفيف) وهو يقابل الوتد المجموع، أو أربعة أضعاف، (فالهزج الثقيل) وما زاد على ذلك من الأوقات فنضع له الأسماء التي نختارها بشرط أن تختص بالوزن

المجموع. وهذا كله يقابل تقسيم الأوقات في الموسيقى الإفرنجية. . .)

العرب عمليون

وقد طبق العرب مبادئ علم الطبيعة على الموسيقى، وكانوا دائماً في نظرياتهم الموسيقية عمليين، فلا يقبلون نظرية إلا بعد التثبت منها عملياً، ويعترف فارمر أن علماء العرب لم يأخذوا بآراء الذين سبقوهم (حتى ولو كان نجم السابقين مضيئاً وعالياً) إلا بعد أن يتثبتوا منها عملياً، والمعترف به عند علماء الفرنجة أن ابن سينا والفارابي وغيرهما من علماء المسلمين زادوا على الموسيقى اليونانية وادخلوا عليها تحسينات جمة، وان كتاب الفارابي لا يقل عن (إن لم يفق)، الكتب اليونانية الموسيقية. وثبت أن العرب أجادوا في بحوث التموجات الكربية للصوت. وفوق ذلك فقد زاد زرياب، وتراً خامساً بالأندلس وكان للعود أربعة أوتار على الصنعة القديمة التي قوبلت بها الطبائع الأربع فزاد عليها وتراً خامساً أحمر متوسطا، ولون الأوتار وطبقها على الطبائع وهو الذي اخترع مصراب العود من قوادم النسر فكانوا قبله يضربون بالخشب.

الآلات الموسيقية

لا نستطيع أن نسرد كل الآلات الموسيقية التي كانت معروفة عند العرب، ولهذا نذكر أهمها، ولكن قبل ذلك نود أن نلفت النظر إلى أن العرب اعتنوا بصناعة آلات الموسيقى، وكانوا ينظرون لهذه الصناعة نظرهم إلى الفن الجميل، وقد كتبت عدة رسائل في ذلك واشتهرت مدينة أشبيلية بها. وقد جمع المسلمون آلات غناء كثير من الأمم كالفرس والأنباط والروم والهند واستخرجوا من ذلك آلات تلائم أذواقهم وميولهم، أضف إلى ذلك ما أضافوه واخترعوه من شتى الآلات، فمن الآلات التي كانت معروفة عندهم: الارغانون، والبزق، والطبلة، والدف، والشلياق، والقيثارة، والطنبور والعنق والرباب والمعزفة والشهروذ (وقد اخترع الأخيرة حكيم بن أحوص السفدي ببغداد) والعود، وله خمسة أوتار أعلاها البم والثاني المثلث والثالث المثنى والرابع الزير والخامس الحد، وتترتب هذه الأوتار بصورة مخصوصة بحيث يعادل كل وتر ثلاثة أرباع ما فوقه، والمسافة التي بينهما تعدل ربعاً، ويقال أن الفارابي اخترع الآلة المعروفة بالقانون، فهو أول من ركبها هذا التركيب، ولا تزال عليه إلى الآن، وهو الذي اصطنع آلة مؤلفة من عيدان يركبها ويضرب عليها وتختلف أنغامها باختلاف تركيبها، يحكى انه كان مرة في مجلس سيف الدولة فسأله هل تحسن صنعة الغناء؟ فقال نعم (ثم اخرج من وسطه خريطة ففتحها واخرج منها عيداناً وركبها ثم لعب بها فضحك منها كل من كان في المجلس، ثم فكها وركبها تركيباً آخر ثم ضرب عليها فبكى كل من كان في المجلس، ثم فكها وغير تركيبها وضرب عليها ضرباً آخر فنام كل من كان في المجلس حتى البواب فتركهم نياماً وخرج. . .). واصطنع الزلام آلة موسيقية من الخشب تعرف بالناي أو المزمر الزلامي، وأدخل زلزل عود الشبوط كما ادخل الحكم الثاني تحسيناً على تركيب البوق

كتب العرب في الموسيقى

للعرب مؤلفات قيمة في الموسيقى بلغ بعضها الذروة، وكانت (ولا تزال) من المصادر المعتبرة جدا في تاريخ الموسيقى وتطورها، وقد يكون كتاب مروج الذهب للسعودي وكتاب الأغاني للأصفهاني من أكثر الكتب بحثا وكتابة في اشتغال المسلمين والعرب في الموسيقى، وفي أشهر موسيقييهم وما يتصل بهؤلاء من طريف الحوادث ولذيذ الأخبار. ويرجع أن الكندي أول من كتب في نظرية الموسيقى، وكتبه فيها هي: الرسالة الكبرى في التأليف، كتاب ترتيب الأنغام، كتاب المدخل إلى الموسيقى، رسالة في الإيقاع، رسالة في الأخبار عن صناعة الموسيقى. وكتب في ذلك أيضاً منصور ابن طلحة بن ظاهر والرازي وقسطا بن لوقا البعلبكي والسرخسي، وللأخير كتاب الموسيقى الكبير، وكتاب الموسيقى الصغير، وكتاب المدخل إلى علم الموسيقى، وللفارابي كتاب الإيقاعات، وكتاب أخر اسمه كتاب الموسيقى، وهو من أشهر الكتب، ويقول عنه سارطون (إنه أهم كتاب ظهر في الشرق يبحث في نظرية الموسيقى) ولثابت بن قرة رسالة في فن النغم، ولأبي الوفاء مختصر في فن الإيقاع، وأبدع ابن سيناء في الكتابة عن الموسيقى وله فيها مؤلفات منها: الفن الثامن من كتاب الشفاء وهو الموسيقى، وفيه ست مقالات ولكل منها فصول، والفن الثالث من الجملة الثالثة

من كتاب الشفاء، وكتاب الموسيقى. وهذا الكتاب يدور على مواضيع الأصوات والأبعاد والأجناس والجموع والإيقاع والانتقال والصنج والشاهرورد والطنبور والمزمار ودسانين البربط وتأليف الألحان. وللشيخ شمس الدين الصيداوي كتاب في الموسيقى تستخرج منه الأنغام، اكثره شعر، وفيه كلام على بحور الشعر والأوزان ودوائر البحور، ولصفي الدين عبد المؤمن البغدادي كتاب الرسالة الشرفية في النسب والتأليفية، وهو مقسوم إلى مقالات وفصول. ولصفي الدين الأموي كتاب الأدوار في الموسيقى وينقسم إلى خمسة عشر فصلا، وفيه صورة عود وصورة آلة قائمة الزويا تسمى نزهة، واشتهر هذا الكتاب كثيراً وبقى قروناً كثيرة المعين الذي استقى منه المؤلفون في الموسيقى.

ولمحمد بن محمد بن احمد الذهبي الجزيري ابن الصباح شرح على كتاب في علم الموسيقى ومعرفة الأنغام، وكذلك لابن زيلا وابن الهيثم وأبي الصلت أمية، والنقاش والباهلي وأبي المجد وعلم الدين قيصر ونصير الدين الطوسي مؤلفات قيمة، بعضها عديم المثال. وظهر في الأندلس عدد لا يستهان به ممن كتبوا في الموسيقى وأجادوا في ذلك

إجادة أوصلت هذا الفن إلى درجة عالية، فمن الذين اشتغلوا وكتبوا فيها: ابن فرناس والمجريطي والكرماني وأبو الفضل ومحمد بن الحداد وابن رشد وابن السبعين والرقواطي وغيرهم، وأنشأ صفي الدين عبد المؤمن الأموي مدرسة لتعليم الموسيقى وتخرج منها عدد غير قليل من العلماء الذين استطاعوا أن يتقدموا خطوات بعلم الموسيقى، اشتهر منهم شمس الدين بن مرحوم ومحمد بن عيسى ابن كرا، وهناك كتب عديدة لم يذكر فيها اسم مؤلفيها ككتاب الميزان وعلم الأدوار والأوزان وهو مبني على كتاب الأدوار المار ذكره ومقسوم إلى ستة أبواب في ماهية الموسيقى وماهية النغم المطلق والأوتار والمواجب ومعرفة الشدود والأوزان وأسماء الدساتين والإيقاع. وفي كتاب رسائل إخوان الصفا بحث في الموسيقى موجود في الرسالة الخامسة من القسم الرياضي، وهذه الرسالة مقسمة إلى أربعة عشر باباً وهي تبدأ بصفحة 132 وتنتهي بصفحة 180، ومن يرغب في الاطلاع على ما كتب في كل باب فليرجع إلى الكتاب المذكور ففيه تفصيل وكفاية، وإذا أردنا أن نعدد الذين نبغوا في فن الموسيقى وكتبوا فيه حتى القرن الرابع عشر للميلاد يطول بنا المطال وقد يخرج مقالنا هذا عن القصد.

نابلس

قدري حافظ طوقان

العُلوم

ويسألونك عن الأهلة

للدكتور احمد زكي

الأهلة مواقيت

كذلك ارتآها العرب، وكذلك ارتآها الأقوام من قبل ومن بعد. دارت الأرض فاختلف الليل والنهار، وانتظم دورانها فثبت يومها فكان وحدة الزمن الطبيعية الأولى. ودار القمر حول الأرض فصغر في ظلمات الليالي مرآه حتى انعدم. وكبر حتى استكمل فاستدار، وعرف الناس ثباته على ذلك، وثبات ما يمضي بين انعدامة وانعدامة، أو استدارة واستدارة، فاتخذوا من ذلك وحدة زمنهم الطبيعية الثانية فأسموها شهراً. ثم طلعت الشمس عليهم من المشرق، وأخذ يُشمل مطلعها حتى بلغ الغاية في الاشمال، ثم أخذ يُجْنِب حتى بلغ الغاية في الاجناب، وأختلفت بذلك الفصول فاحترْت حتى بلغت غاية الحر، ثم ابردت حتى بلغت غاية البرد، ودام هذا الاختلاف وثبت وانتظم، فوجد الناس فيه وحدة زمنهم الطبيعية الثالثة الكبرى فأسموها العام

وكان لابد لوحدات القياس أن تتناسب، وكان لابد أن تقسم بعضها بعضا، وان تنقسم بعضها ببعض، فلما تلمسوا ذلك عند اليوم والشهر والعام، وجدوها لا تنقسم انقساماً صحيحاً، وحاولوا التأليف بينها فاستطاعوه بين اليوم والعام بالبسط والكبس، فكانت السنة البسيطة. وكانت السنة الكبيسة، واستعصى عليهم تأليف ما بين الشهر والعام، ما بين القمر والشمس، فانفردا كل بتقويم، فكان التقويم القمري، وكان التقويم الشمسي، وتنافس التقويمان، وكانت الشمس أصل الحياة فاتفق تقويمها وحوائج العيش فشاع وذاع، واستقر التقويم القمري حيث كان لابد أن يستقر، فكان لتوقيت

الصوم والحج وصنوف العبادات وبالرغم من أن التقويم الشمسي يعتمد على اليوم والعام فحسب، فانه لم يستطع أن يغفل الوحدة الثانية المتوسطة التي خلقها القمر، أعني الشهر، أرغمه عليها ألفة الناس لها وحاجتهم إلى وحدة تقع من حيث طولها بين اليوم القصير والعام الطويل.

كذلك خلَّف القمر في لغات الأمم أثرا من معنى ما استُخدم فيه من قياس الزمن. فقد اسماه

الإنجليز (مون واسماه الارلنديون (ماي والألمان (مُند والغوطيون (مينا والإغريق (ميني والهنود القدماء (ماس واسم الشهر في الإنجليزية (منث وفي الألمانية (مونات وفي الفرنسية (موا وفي الغوطية (مينوبس وفي اللاتينية (منسيس وفي الإغريقية (مين وفي الهندية (ماس فبين اسم القمر واسم الشهر في اللغات تطابق تام أو تشابه كبير. ويظهر أن هذه الأسماء جميعها مشتقة من اللغة الهندية (ما) ومعناها (يقيس) وذلك أن القمر به يقاس الزمن، من هذه اللفظة نفسها لاشك يرجع اشتقاق الكلمات الإفرنجية التي معناها (مقاس) وهي بالإنجليزية وبالفرنسية وبالألمانية وباللاتينية وبالإغريقية ومن اللفظة الأخيرة (المتر) المعروف

دوران القمر

ومن المشهور المعروف أن القمر يدور حول الأرض، فإذا هو وقع بينها وبين الشمس، أضاءت الشمس منه النصف الذي يليها، فأظلم بذلك النصف الذي يلي الأرض فلا يرى الإنسان من القمر شيئاً، وهذا هو المحاق أو أول الشهر. ثم يسير القمر سيرته، فإذا بلغ الموضع المقابل للموضع الأول توسطت الأرض بينه وبين الشمس أو كادت، وعندئذ تضيء الشمس منه النصف الذي تراه الارض، فيظهر لنا كأن القمر كله يضيء وما هو بذلك، وهذا بدر التمام. وبين المحاق والتمام ينزل القمر منازل بين هذين، فيها يضيء الشمس منه أنصافاً لا ترى الأرض منها إلا أبعاضا هي الأهلَّة، فإذا زاد هذا البعض على نصف دائرة قارب البدر التمام فارتأته العين منقوصاً قليلا. ويسير البدر من التمام إلى المحاق فتتكرر الظواهر السالفة معكوسة، وبذا يتم الشهر

وفي الأهلة يرى الإنسان الجزء المعتم من القمر كأن نورا ضعيفاً ينيره، وذلك أن الأرض تعكس ضوء الشمس إلى القمر كما يعكس القمر ضوءها إلى الأرض، فلو أن للقمر أهلا يسكنونه لأسموا أرضنا هذه قمرا، إلا أنه أقمر وأسطع كثيرا من قمرهم، فقد يبلغ المعكوس منا إليهم خمسين ضعفاً

والأرض تدور حول الشمس في مستو، والقمر يدور حول الأرض في مستو غيره، إذ لو دار الثلاثة في مستو واحد لانكسفت الشمس في كل محاق، وانخسف القمر لكل تمام. ويميل المستوى الذي يدور فيه القمر عن المستوى الذي تدور فيه الأرض بنحو خمس

درجات

ومن يرقب الأهلّة يعلم أن قرني الهلال لا يستويان على الأغلب. قال ابن المعتز انظر إليه كزورق من فضة ... قد أثقلته حمولة من عنبر

فالهلال على الأكثر زورق مائل، تارة يميل بصدره إلى الشمال، وتارة يميل بعجزُه إلى الجنوب، وهو في هذا كله يتبع الشمس ويداورها، فنوره من نورها، وهما قل أن يغربا من الأفق في مكان واحد، فإذا هما فعلا أو قاربا ذلك، وقعت الشمس عند غروبها في أسفل الهلال تماماً فاستقام الزورق. ثم يجري الدوران باختلاف المغربين فيعود الزورق فيمتلئ عنبراً ثقيلاً

والقمر يتم دورته حول الأرض في 32 , 27 يوما، وهذا شهره الحقيقي، ولكن أهل الأرض لا يروضون منه ذلك، فالشهر عندهم هو ما بين المحاق والمحاق، والقمر بعد جريانه 32 , 27 يوما واستتمام دورته يجد أن الأرض خدعته عن بلوغ المحاق؛ لأنها أيضاً تسير فيختلف موضعها من الشمس، فلكي يتوسط القمر بينهما لابد للمتعب المجهود أن يسير 2. 21 يوماً فيبلغ المحاق، وبذلك يكون الشهر 53 , 29

والقمر يدور حول نفسه، فكان المرجو من ذلك أن نرى كل جوانبه، ولكن الواقع غير هذا، فإنا لا نرى منه غير جانب واحد، نرى وجهه ولا نرى قفاه، وذلك أن القمر يدور حولنا ويدور كذلك حول نفسه، حول محوره، ويستغرق في الدورتين زمناً واحدا، فهو يدور حول الأرض مرة واحدة في الشهر، ويدور حول نفسه مرة واحدة في الشهر

كذلك، فنحن دائماً نرى منه وجهاً واحداً. نعم قد يتذبذب القمر في دوراته فيرينا أذنه اليمنى، ثم يرينا أذنه اليسرى، وقد يطرق فيرينا شيئاً من أم رأسه، وقد يرفع رأسه فيُبين عن أدنى لحيته، وهو في كل هذا لا يُظهر غير ستة أعشار سطحه، أما أربعة الأعشار الباقية فقد شاء القدر أن لا تراها عين إنسان. وسترى في العدد القادم ماذا في القمر نفسه من أشياء.

احمد زكي

القصور الذاتي

للدكتور على مصطفى مشرفة

من صفات المادة الملازمة لها والتي تكاد تكون دليلا عليها ما يسمى، القصور الذاتي، وهو نوع من الجمود أو الخمول، به تقصر المادة بذاتها وبدون مؤثر خارجي عن ان تأتي حراكا، ونحن نحس بوجود هذا الجمود إذا حاولنا تحريك جرم من الأجرام - ككتلة من الحجر مثلا - فأننا نشعر بمقاومة كأنما المادة تأبى علينا مجهودنا وتريد أن تترك وشأنها.

وربما بدا لأول وهلة أن المادة إنما تميل بطبعها إلى السكون وتجنح إليه وتؤثره على الحركة، ولكن قليلا من الخبر يدلنا على أن المادة المتحركة تقاوم كل محاولة لإيقافها كما تقاوم المادة الساكنة كل محاولة لتحريكها. فإذا شك أحد القراء الكرام في كلامي هذا فما عليه إلا أن يتحقق من صحته بنفسه، بأن يتعرض لجسم متحرك كحجر منطلق في الهواء مثلا - محاولا إيقافه أو تغيير اتجاه سيره، ونصيحتي في هذه الحال أن يختار جسماً صغيراً ذا سرعة ضئيلة وإلا عظمت التضحية في سبيل العلم

فالقصور الذاتي هو قصور عن السكون إذا كان الجسم متحركاً، كما أنه قصور عن الحركة إذا كان الجسم ساكناً، وفي الواقع هو قصور عن التغير وميل إلى بقاء الحال على ما هو عليه، فهو إذن نوع من المحافظة. ولنا أن نعكس هذا التشبيه فنقول إن المحافظة هي نوع من القصور الذاتي أو الجمود، فالخطيب المصقع الذي ينادي أن حافظوا على عاداتكم الموروثة وتمسكوا بتقاليدكم وتقاليد آبائكم ربما كان لا يعبر عن أكثر من القصور الذاتي لمجموعته العصبية!

وعلى قدر عظم كمية المادة يكون قصورها. فالكتلة الكبيرة من الحديد مثلا أعظم قصورا من الكتلة الصغيرة منه، وبالعكس، ولذلك أتخذ القصور الذاتي دليلا على مقدار الكتلة ومقياساً له.

وقد كان يظن حتى أواسط القرن الماضي أن القصور الذاتي خاصية من خواص المادة وحدها تتميز بها عن سواها، إلا أنه وجد أن الضوء يشاركها هذه الخاصية. فالضوء إذا اعترضه حائل في طريقه دفعه وضغط عليه كما تفعل المادة المتحركة، ويبلغ ضغط الضوء العادي للشمس نهارا على سطح الأرض نحو ثقل نصف كيلو جرام عن كل كيلومتر مربع، أو نحو ثقل نصف ملليجرام عن كل متر مربع. وشأن الضوء في ذلك شأن سائر الأشعة الأخرى كالأشعة الحرارية والأشعة التي تلي البنفسجية وما إليها، وكلما زادت شدة الضوء وكذلك كلما قصرت موجته زاد قصوره الذاتي، وبالتالي زاد ضغطه على السطح التي تعترضه في سبيله.

وكما أن للمادة قصوراً ذاتياً به تحاول المحافظة على حالتها من حركة أو سكون، كذلك لها قصور ذاتي به تحاول المحافظة على حالتها الكهربائية وتقاوم كل تغيير في هذه الحالة. فالجهاز الكهربائي الذي نستخدمه في التقاط أمواج الراديو مثلا له هذا القصور الكهربائي، وهو خاصية أساسية فيه عليها تتوقف قابليته للاهتزاز الكهربائي تحت تأثير الهزات الأثيرية، كما تهتز الأرجوحة تحت تأثير هزات الصبي لها.

بل إن الفضاء العاري عن المادة له صفة القصور الذاتي، بها يقاوم كل تغيير في حالته الكهربائية، وعلى وجود هذه الصفة يتوقف إمكان انتقال الأمواج الكهربائية فيه.

فليس بغريب إذن أن يظهر القصور الذاتي في الإنسان؛ في حركاته الجسدية وفي صفاته الذهنية. فالقصور هو نوع من الصابورة به تكتسب سفينة الوجود الاستقرار وحسن الاتزان، وهو في الوقت ذاته عبء على كاهل الطبيعة يعوقها عن الحركة المطلقة ويجنح بها إلى الجمود.

علي مصطفى مشرفة

من صور المدنية الإسلامية
التجارب العلمية عند المسلمين

نكاد أن نصور لأنفسنا صورة كاملة لمعظم النواحي الفكرية من المدنية الإسلامية، ولكن الناحية العلمية المحضة مجهولة بالنسبة لسائر تلك النواحي، فقل من أقدم على إثارة أبحاثها والغوص إلى أعماقها، وذلك لقلة ما بين أيدينا من الآثار في هذه الناحية بل لفقدانها، فلم يصل إلينا من هذه الآثار إلا أسماؤها وما تغني الأسماء عنا شيئا! نعم يمكننا أن نستدل بهذه الأسماء - التي كثيراً ما نجدها في أمثال كتاب طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة وتاريخ الحكماء للقفطي وغيرهما - على ما عالجوه في تلك العصور من المواضيع العلمية في الطبيعيات والرياضيات وما يلحق بهما.

على انه إذا كان لدينا شيء من هذه الآثار فأنى نجد من يستطيع أن يقدم على معالجة هذه المواضيع والناس على شطرين، فأما مثقفون ثقافة عربية حديثة يملون وينفرون من النظر في أشباه تلك الكتب (الصفراء) كما يسمونها لقلة عنايتهم بها واستبعادهم حصول الفائدة من مثلها لأنها (قديمة) ولأنها (شرقية)، وإما مثقفون ثقافة شرقية قديمة وهم بعيدو عهد عن النظر في المواضيع العلمية الخالصة، ولا تكاد تجد منهم من يقدر على فهمها وإعطائها حقها من العناية. فما أحوجنا إلى أولئك الذين سماهم الأستاذ احمد أمين الحلقة المفقودة، أعني الذي يجمعون بين الثقافتين الشرقية والغربية ويؤلفون مزيجاً من الحضارتين القديمة والحديثة.

قد كان الناس إلى عهد غير بعيد، ولا يزال بعضهم على ذلك، يعتقدون أن العلم بمعناه الحديث وأساليبه الحاضرة من حيث استناده على الحس والمشاهدة والتجربة والاستنباط هو من مولدات هذه العصور ومن مميزات المدنية الحديثة، ولكننا إذا تتبعنا الحركة العلمية في المدنية الإسلامية وجدنا فيها ما يملأ النفس إعجاباً وإكباراً بأولئك العلماء الذين كانوا مثلا أعلى للنشاط العلمي بجميع معانيه، فلقد كانت الفكرة العلمية نامية لديهم وبالغة من التجريد والتعميم درجة غير قليلة، فكانوا يقولون كما يظهر من آثارهم بالقوانين وبشمولها واطرادها ويسلكون في استنباطها واستخراجها الطرق المعروفة اليوم والتي تستند إلى المشاهدة والتجربة، وليس استعمال التجارب أداة للتحقيق العلمي مقصوراً على العصور الحديثة، فالمدنية الإسلامية كانت مجلية في هذا الميدان، فلم يقصر علماؤها كبني شاكر محمد واحمد والحسن، وأبي الريحان البيروتي وغيرهم في القيام بالتجارب العلمية الكثيرة وتقليبها على وجوهها، ولم تعوز تجاربهم تلك دقة الملاحظة لشروط الحادث الطبيعي وظروفه والعوامل المؤثرة في تغييره ولم يفتهم إحكام القياس وجودة الاستنباط.

وهانذا ناقبل تجربة لأبي الريحان البيروني في رسوب الأجسام وطفوها على وجه الماء، تلك التجربة المؤدية إلى فكرة كثافة الأجسام وهي تطبيق للقانون المشهور الآن باسم قانون أرخميدس، والتجربة بعينها يجرونها اليوم في مخابر التعليم من غير تغيير يذكر.

ولعل القارئ يعجب إذا قلت له أن هذه التجربة يجدها مذكورة في أحد كتب التوحيد وهو شرح المقاصد لسعد الدين التفتازاني، ولكن سرعان ما يزول بعض تعجبه إذا عرف أن كتب التوحيد كانت مبنية على الفلسفة، والفلسفة بمفهومها القديم تشمل جميع أنواع العلوم، فكانوا يقسمونها إلى ثلاثة أقسام، الفلسفة الدنيا وهي الطبيعيات، والفلسفة الوسطى وهي الرياضيات، والفلسفة العيا وهي الآلهيات، فمباحث التوحيد مؤسسة على هذه الأقسام الثلاثة للفلسفة، ولهذا فان كثيراً من الأبحاث الطبيعية منبثة في كتب التوحيد، وموضوع هذه التجربة من جملة تلك المباحث المشردة في تضاعيف تلك الكتب.

قال التفتازاني في آخر الجزء الأول من كتابه المذكور: (. . وبحسب تفاوتها - يعني الأجسام - في الخفة والثقل. . تتفاوت فيما يتبع ذلك من الحجم والحيز والطفو على الماء والرسوب فيه، ومن اختلاف أوزانها في الماء بعد التساوي في الهواء، مثلا: حجم الأخف (أي الأقل كثافة) يكون أعظم من حجم الأثقل (أي الاكثف) مع التساوي في الوزن كمئة مثقال من الفضة ومئة مثقال من الذهب، (والفضة كما نعلم أقل كثافة من الذهب). (وإذا كان في إحدى كفتي الميزان مئة مثقال من الحجر وفي الأخرى مئة

مثقال من الذهب أو الفضة أو غيرهما من الأجسام التي جوهرها أثقل من جوهر الحجر (أي أكثف منه) فلا محالة يقوم الميزان مستوياً في الهواء، وإذا أرسلنا الكفتين في الماء لم يبق الاستواء، بل يميل العمود إلى جانب الجوهر الاثقل، وكلما كان من جوهر أثقل (أي أكثف) كان الميل أكثر، ويفتقر الاستواء إلى زيادة في الحجر حسب زيادة الثقل مع أن وزن الجوهر ليس إلا مئة مثقال مثلاً) (وقد حاول أبو ريحان تعيين مقدار تفاوت ما بين الفلزات وبعض الأحجار
في الحجم وفي الخفة والثقل بان عمل إناء على شكل الطبرزد مركبا على عنقه شبه ميزاب منحن كما يكون حال الأباريق وملأه ماء وأرسل فيه مئة مثقال من الذهب مثلا وجعل تحت رأس الميزاب كفة الميزان الذي يريد به معرفة مقدار الماء الذي يخرج من الإناء، وهكذا كل من الفلزات والأحجار بعد ما بالغ في تنقية الفلزات من الغش وفي تصفية الماء، وكان ذلك من ماء جيحون في خوارزم في فصل الخريف، ولا شك أن الحكم يختلف باختلاف أحوالها بحسب البلدان والفصول، فحصل معرفة مقدار الماء الذي يخرج من الإناء بمئة مثقال من كل من الفلزات والأحجار (أي بوضع مئة مثقال من كل منها في الماء) وعرف بذلك مقدار تفاوتها ما يخرج من الماء بوضع كل مئة مثقال منها في الماء)، والثقل (يعني به الكثافة) فان ما يكون ماؤه أكثر (أي الماء الذي يخرج بوضع الجسم في الماء) يكون حجمه أكبر وثقله أخف بنسبة تفاوت الماءين وإذا اسقط ماء كل من وزنه في الهواء كان الباقي وزنه في الماء، مثلا لما كان ماء مئة مثقال من الذهب خمسة مثاقيل وربع مثقال كان وزنه في الماء أربعاً وتسعين مثقالا وثلاثة أرباع المثقال، والماء الذي يخرج من الإناء بإلقاء الجسم فيه إن كان أقل من وزن الجسم فالجسم يرسب فيه، وان كان أكثر منه فيطفو، وإن كان مساوياً له فالجسم ينزل في الماء بحيث يماس أعلاه سطح الماء. وقد وضع أبو ريحان ومن تبعه جدولا جامعاً لمقدار الماء الذي يخرج من الإناء بمئة مثقال من الذهب والفضة وغيرهما ومقدار أوزانهما عند كون الفلزات السبعة في حجم مئة مثقال من الذهب، والجواهر في حجم مئة مثقال من الياقوت الاسمانجوني، ولمقدار اوزانها في الماء بعدما يكون مئة مثقال في الهواء، وهو هذا الجدول (فهذا الجدول يحتوي على ثلاثة جداول أحدهما لأوزان الماء الذي يخرج بإرسال مئة مثقال من كل من هذه الأجسام في الماء، وثانيها لأوزان هذه الأجسام عندما تكون حجومها متساوية، ومساوية لحجم مئة مثقال من الذهب إن كانت من الفلزات، ولحجم مئة مثقال من الياقوت الاسمانجوني إن كانت من الجواهر، وثالثها لأوزان هذه الأجسام في الماء عندما يكون وزن كل منها في الهواء مئة مثقال).

جدول في أوزان ما يخرج من الماء بوضع مئة مثقال من الأجسام المذكورة (1)

المثاقيل الدونق الطسوجات
ذهب 5 1 2
فضة 9 4 1
زئبق 7 2 1
الاسرب 8 5 0
الصفر 11 2 0 الفلزات
النحاس الاحمر 11 2 1
النحاس الاصفر 11 4 0
الحديد 12 5 2
الرصاص 13 4 0
الياقوت الاسمانجوبي 25 1 2
اللعل 27 5 2
الزمرد 36 2 0
اللاجورد 37 1 0
اللؤلؤ 38 3 0 الجواهر
العقيق 39 0 0
الشبه 39 3 0
البلور 40 0 0

الياقوت الأحمر 26 0 0
جدول في أوزان الفلزات والجواهر إذا كانت الفلزات في حجم (100) مثقال من (2)
الذهب والجواهر في حجم (100) مثقال في الياقوت الاسمانجوني
ذهب 5 1 2
فضة 9 4 1
زئبق 7 2 1
الاسرب 8 5 0
الصفر 11 2 0 الفلزات
النحاس الاحمر 11 2 1
النحاس الاصفر 11 4 0
الحديد 12 5 2
الرصاص 13 4 0
الياقوت الاسمانجوبي 25 1 2
اللعل 27 5 2
الزمرد 36 2 0
اللاجورد 37 1 0
اللؤلؤ 38 3 0 الجواهر
العقيق 39 0 0
الشبه 39 3 0
البلور 40 0 0
الياقوت الأحمر 26 0 0
جدول في أوزان الفلزات والجواهر إذا كانت الفلزات في حجم (100) مثقال من (2)
الذهب والجواهر في حجم (100) مثقال في الياقوت الاسمانجوني
مثقال دانقطسوج
ذهب 100 0 0
فضة 54 1 2
زئبق 71 2 1
الاسرب 55 2 2
الصفر 46 2 0 الفلزات
النحاس الأحمر 45 3 0
النحاس الأصفر 45 0 0
الحديد 40 3 3
الرصاص 38 2 2
الياقوت الاسمانجوبي 100 0 0
الياقوت الأحمر 97 0 3
اللعل 90 2 3
الزمرد 69 3 0
اللاجورد 69 5 2 الجواهر
اللؤلؤ 65 3 2
العقيق 64 4 2
الشبه 64 2 1
البلور 63 0 3

وأما الجدول الثالث وهو الذي يبين وزن كل جسم في الماء فيحصل بطرح وزن ما يخرج من الماء بغمس كل جسم في الماء، من الوزن الأصلي في الهواء اعني مئة مثقال، ولما كان وزن ما يخرج من الماء بغمس كل جسم من الأجسام المذكورة مبيناً في الجدول الأول فيطرح هذا الوزن من (100) مثقال فيخرج وزن ذلك الجسم في الماء، مثلا: وزن الذهب في الماء (94) مثقالا و (4) دوانق و (2) طسوجان

ومما يلاحظ أن المؤلف قد استعمل لفظي الثقل والوزن بمعينين مختلفين فجعل الثقل بمعنى الكثافة كما هو ظاهر من سياق كلامه، وهذا مما يدل على ما في اللغة

العلمية من دقة في التعبير.
هذا وإن من الجدير بالعناية والنظر في أمر هذه التجربة أنه اشتهرت نسبتها - أو على الأقل نسبة النظرية التي تستند إليها هذه التجربة - إلى ارخميدس، وقصته في اكتشافها مشهورة تكاد تكون مضرب المثل في الإلهام أو الحدس العلمي، ومع ذلك فلم يشر إلى هذا
الأمر المتقدمون من علماء المسلمين ممن بحثوا هذا المبحث أو ممن ترجموا لارخميدس. وإذا رجعنا إلى ترجمته في كتاب تاريخ الحكماء للقفطي والفهرست لابن النديم مثلا وجدنا ما ترجم من كتبه إلى العربية ليس شيء منه من باب الطبيعيات وإنما هي في الرياضيات، فكل هذا يدعونا إلى التساؤل كيف انتقل هذا القانون أو هذه النظرية إلى المسلمين؛ أهو عن طريق ارخميدس ولم يذكر بين كتبه المعربة ما يشبه هذه المباحث! أم عن طريق غيره من الفلاسفة ممن نقلوا عنه ذلك؟ وإذا كان كذلك فلم لم يكن لارخميدس ذكر في هذا النقل! أم أن المسلمين أنفسهم توصلوا إليها؟ ولم ينقل إلينا مثل هذا الاكتشاف! وعلى كل نترك التحقيق والبت في هذا الأمر إلى من هم أوسع تحقيقاً واغزر علماً ومهما كان الأمر فان مما يسترعي النظر في هذه ما فيها من الدقة في تعيين المكان (خوارزم)، والزمان (فصل الخريف)، والماء المستعمل في التجربة (ماء جيحون)، تلك العوامل التي تؤثر في نتيجة التجربة كما أشار التفتازاني نفسه إلى ذلك حيث قال: (ولا شك أن الحكم يختلف باختلاف المياه واختلاف أحوالها بحسب البلدان والفصول) ولا شك في الحقيقة أن كثافة الماء تختلف تبعاً لهذه العوامل التي ذكرها. ومن جهة أخرى فان أبا ريحان (بالغ في تنقية الفلزات من الغش وفي تصفية الماء) لتكون النتائج أدق واضبط، ولم يكن في الكميات أقل ضبطا منه في الكيفيات وهو لتعيين الأوزان يستعمل المثقال والدانق (سدس المثقال) والطسوج (ربع الدانق) ومن ذلك نعلم أن فكرة إرجاع الكيفيات في الحوادث الطبيعية إلى الكميات كانت معروفة شائعة لديهم وهي الفكرة التي يرتكز عليها علم الطبيعة اليوم والتي كانت وسيلة لرقيه السريع وبلوغه تلك المنزلة الرفيعة التي ارتقى إليها في هذا العصر، فجرى بمن يؤلف بالعربية في علوم الطبيعة أن يشير إلى أمثال هؤلاء العلماء ممن نستطيع أن نفاخر بهم في الميادين العلمية، والذين كثيراً ما ينسب إلى غيرهم من متأخري علماء الفرنجة ما هو أحق أن ينسب إليهم لما لهم من السبق في تحريه واكتشافه أو في التحقيق عن صحته واثباته، فقد اصبحنا ومالنا من ماضينا سوى الافتخار باسمه والإشادة بذكره، فإذا توخينا تلمس ما في هذا الماضي من مآثر حقيقية في كل منحى من مناحي التفكير أحجمنا وكلت أبصارنا عن النظر في مثل تلك الآفاق الواسعة التي تثبت بحق ما كانت تقوم عليه الحضارة الإسلامية من سعة في التفكير لم يكن الدين (على ازدهاره إذ
ذاك) ليضيق بها ذرعاً، بل أن هذه الحركة فيما أرى كانت تغذيها وتدفع الناس إليهما روح الإسلام نفسه، ذلك الدين الذي يجب أن نتصوره بأوسع مما هو مصور في الحقيقة في مخيلتنا والذي قد تضيق كلمة دين - إذا نحن اطلقناها عليه - مفهومة في، نفوسنا لما نتصوره من لوازم عديدة لهذه الكلمة حينما نذكرها بسبب ما مرت عليه من أدوار مختلفة في خلال التاريخ البشري. فهو في الحقيقة أوسع من أن يسمى ديناً بالمفهوم الحالي لهذه الكلمة، وانما هو الطريقة المثلى في الحياة في جميع نواحيها وشعبها، وناهيك بما أنتجته الحضارة الإسلامية من إبداع في الأدب والعلم والتشريع دليلا على سمو هذا المنهاج الحيوي الأقوم.

دمشق

محمد مبارك

بكالوريوس في العلوم

القصص

من أقاصيص العرب

وضاح الشاعر

بقلم احمد حسن الزيات

- 1 -

في اليمن الخضراء، وفي صنعاء ذات الظل والماء، نشأ وضاح أزهر اللون، أصهب

الشعر، مليح القسمات، رقيق الأديم، ثم ترعرع بين خمائل الأودية ومروج السهول وأزاهير الربى فازداد رواء وجهارة.
وإذا كان الجمل يكتسب لون الصحراء والسمك يستفيد مرونة الماء، والطاووس يستعير أفواف الروض؛ فان اليمانيين لم تصلهم بطبيعتهم ولا بيئتهم صلة، فهم سمر الوجوه ضئال الجسوم قصار القدود، وأرضهم مشرقة الأجواء مونقة المناظر خصبة التربة لذلك رابهم وضاح بقدر ما راعهم، فقالوا إنه من أبناء الفرس الطارئين على اليمن في عهد ابن ذي يزن، ولكن الحكم سفه هذا الرأي وقضى بعربيته
لا يعنيك ولا يعنيني أن نكشف عن دخيلة هذا الشاب فنصف تاريخ أسرته وحقيقة ثروته وطبيعة عمله، إنما يعنينا من وضاح ذلك الفتى الطرير الذي أشقاه شعره وأبأسه شعوره وقتله جماله.
نريد أن ننقل عن لوح القدر هذه الصفحة الدامية التي كتبت لهذا البائس وجرت عليه في غير رفق ولا هوادة.
كان وضاح الجميل الشاعر كالبلبل يعرف في نفسه جمال الريش وجمال الصوت، فهو لا ينفك في حذر من الصائد، وخوف من القفص، فكان يغشى المواسم والأسواق وهو مقنع منتقب خيفة الحاسد وحذر المرأة!!
ولكن المرأة كانت تعترضه بكل سبيل، وتترقبه في كل مرصد، وتتراءى له في كل مكان: تحت النخيل، وفي الأسواق، وعلى الماء، وهو لا يزداد إلا تمنعاً وترفعاً ووحشة، لأنه محبوب ومن طباع المحبوب الادلال؛ ولأنه مطلوب ومن غرائز المطلوب الهرب، ولم يجد
مع ذلك فيمن رأى من النساء روحا جذابة ولا قوة غلابة ولا جمالا أبرع من جماله، على أن وضاحاً خلق للحب وكتبت عليه فيه الشهادة! فعيناه على غير علمه ترتادان الحبيب، وقلبه من قلقه وانتظاره يضطرب في حنايا صدره، وعواطفه من اضطرامها وانبساطها تكاد تسيل، وكان يفر من ضوضاء صنعاء ومتاجرها وقوافلها، إلى سكون الصحراء الرهيب، وهدوء الطبيعة الموحش، فيضي سحابة نهاره جالساً في روضة، أو مستلقياً على غدير، أو نائماً في مغارة؛ كأنه نبي من أنبياء بني إسرائيل - ينتظر الرسالة.
- 2 -
ففي صباح يوم من أيام الربيع مشرق الأديم عنبري النسيم منضور الخمائل استهوته الطبيعة فأخذ يضرب في الأرض حتى متع النهار، وإذا هو على ماء من امواه (الخصيب) من قرى اليمن، وفي الخصيب شد الجمال إطنابه وشاد الحب معبده.
والعرب يقولون لك: إذا بلغت ارض الخصيب فهرول!
فجلس وضاح ينضح ظمأه ويرفه عن نفسه إلى أن طاف به الكرى فنام.
تنبه وضاح ساعة الأصيل على صوت رخيم الحواشي، متسق النبرات في رنين الفضة. فنظر فرأى حورية من حواري الحقول قد حسرت عن ساقها وغمست رجلا في الغدير ووضعت رجلا على الحافة وهي منحنية على الماء، تجمع ثوبها بيد وتملأ سقاءها بيد. فرجف قلبه وبرق بصره وخيل إليه أن عينه لم تقع من قبل على فتاة، فنهض يملأ من هذا المنظر الرائع عينيه فلفتتها حركته. فرفعت بصرها إليه في سكون طرف وفتور لحظ. وكأنها همت بالنكوص لولا أن رأت منه ما رأى منها. فوقفت جامدة لا تتحرك، وشاخصة لا تطرف، بل أحست من نفسها الهفوان إليه حين تقابل النظران وتجاذب القلبان وتمشى إليها مشية الحباب في حياء ووناء ورقة. حياها فردت التحية، واستنسبها فانتسبت كندية، واستسماها فقالت (روضة)
ثم جرى بين المحبين حديث الشباب الحيي المضطرب الحائر. . ويكاد نصه يكون واحداً على اختلاف الألسنة والأزمنة فلا نثبته، وكيف يثبت كلام الناظر للناظر، وتدفق الخاطر في الخاطر، وعناق القلب للقلب، وامتزاج النفس بالنفس، ولحن اللسان للسان؟؟
كانت روضة كما تشتهي كل فتاة أن تكون، فهي كما صورها وضاح في شعره (كاعب وضيئة الطلعة لطيفة التكوين مصقولة الجبين يزينه شعر أثيت أشقر كذنب الكميت، زجاء الحاجبين كأنهما شقا بقلم، تقوساً على مثل عين الظبية، ساجية الطرف، ذلفاء الانف، عبلة الذراعين لا ترى فيهما عظما يحس ولا عرقا يجس، طفلة الكفين تعقد ان

شئت منهما الأنامل، ممشوقة القد قد أفرغت في قالب الحسن.
وجد كل منهما في الآخر مشابه في زهرة الوجه وصهبة الشعر وهجنة النسب بالدم الفارسي. فتعارفا بلحظة، وتفاهما بلفظة، وتآلفا تألف الاخدان كأنما كانا على موعد!
طوت شمس الطفل الغاربة مطارفها العسجدية عن السهول والحقول فلم يبق منها الاهلاهل على رؤوس التلال وشعاف الجبال وأعراض النخيل، وأخذ الرعاة يروحون بالقطعان إلى الحظائر، وآن للراعية الحسناء كذلك أن تؤوب! فقامت روضة متنافلة، وودعته متخاذلة: وسارت وراء قطيعها تتهادى في مرطها المفوف ونطاقها المحبوك وخمارها الأسود كأنها آلهة الرعاة أو تمثال الحسن
تلاقيا مرة أخرى في سرة الوادي المعشب وقد عملت فيه يد الطبيعة فازَّرته بعميم النبت، وطرزته بألوان الزهر، وضمخته بعبير الخزامي وريا البشام وأرج الرند. فجلسا ساعة تحت دوحة يتساقطان عذب الحديث، ويتناشدان حلو الغزل، ويتساقيان كؤوس الهوى، ثم نهضا يسيران صاعدين تارة في مدارج السيل، وهابطين تارة إلى قرارة السهل، يجنيان الكمأة ويقطفان البهار ويلتقطان الجزع المفصل. فلما نفضت الشمس على الأفق الغربي تبر الأصيل توادعاً ثم تواعدا على اللقاء وتعاهدا على الوفاء بعد أن شق عليها رداءه وشقت عليه هي برقعها استدامة للحب وبقيا على الهوى!

- 3 -

ظل العاشقان في غفلة الزمان والإنسان يتلاقيان كل يوم على خلاء، حتى نم على هواهما شعر وضاح، فتنبئه الغافل وتحرش العاذل وتحذر الأهل، فحالوا بينها وبين لقائه وتوعدوه.
فكان وضاح يأتي كل يوم على عادته فيجلس في الأماكن التي إعتادها، ويرتاد الغياض التي ارتادها؛ ويستروح النعامي والخزامي فلا يجد قراراً في مكان، ولا جمالا في طبيعة، ولا روحاً في أرج، فيدنو من الحصيب يترصد غفلة القوم ويتنسم ريح روضة ويقول:
يهددوني كيما أخافهم ... هيهات أنى يهدد الأسد؟
حتى لقي ذات مساء عبدها الذي كان يرعى عليها رائحاً بالقطيع إلى مزاحه، فجعله رسالة إليها يطلب فيها أن توافيه على الكثيب متى غفت العين وهدأت القدم، فوافته في إحدى أترابها، فجلسا على الحصباء يتشاكيان حرقة الجوى وتحكم الهوى وتعقب الرقيب، وأخذت روضة تحكي لوضاح كيف استفاض الخبر وخاض فيه الناس، وكيف حجبها أخوتها وراقبوها بعين لا تغفل، وذكرت له والدمع يتقاطر من عينيها أنهم صمموا على رفض خطبته ومنع تزويجه، وقرروا تزويجها من موسر كثيف الظل جافي الخلقة، وحذرته أن يدنو من الحي فان قومها يأتمرون به.
غلى جوف وضاح وعصفت في رأسه الحمية، ونزت بقلبه الصبابة، وعقد نيته على معالجة الأمر بالحزم، ومواجهة الخطر بالصراحة، وقرر زيارتها في دارها بعد هذا الحوار البديع الذي خلده وضاح في هذه القصيدة:
قالت: ألا لا تلجن دارنا ... إن أبانا رجل غائر
قلت: فإني طالب غرة ... منه وسيفي صارم باتر
قالت: فان القصر من دوننا ... قلت: فإني فوقه ظاهر
قالت: فان البحر من دوننا ... قلت: فإني سابح ماهر
قالت: فحولي اخوة سبعة ... قلت فإني غالب قاهر
قالت: فليث رابض دوننا ... قلت فإني أسد عاقر
قالت: فان الله من فوقنا=قلت فربي راحم غافر
قالت: لقد أعييتنا حجة ... فأت إذا ما هجع السامر
واسقط علينا كسقوط الندى ... ليلة لا ناه ولا زاجر
وفي الليلة التالية كان وضاح في طريقة إلى الخصيب، وكان أخوة روضة وعمومتها يرصدون سبيله ويطلبون لقاءه، بعد أن عملوا من الرقيب اجتماع الكثيب، وكانت الحبيبة على علم بخروج القوم وقدوم المحب المخاطر فطرقت مضعجها الهموم، وتخالجت قلبها الوساوس، وأخذها عليه المقيم المعقد.
لم يطل انتظار الجماعة للفرد فتلاقوا وراء الوادي: ثم كان عتاب على الأشعار

الجارحة، وسباب على الشهرة الفاضحة؛ وقتال انتهى بطعنة تلقاها المحب في موضع حبه. ثم خلا
المكان إلا من جريح يئن، وفرس يحمحم؛ وتحامل على نفسه وضاح فضمد جرحه وركب جواده وقفل راجعاً إلى أهله.
قضى المسكين شهرين على فراش الألم يتضور من ضربان الجرح وهذيان الحمى وثوران الحب. ولكن الجرح كان قريب الغور فاندمل، والحمى كانت عارضة فأقلعت، والحب؟ هذا هو المرض المخامر والداء العياء، فليس له غير الله من آس ولا طبيب، لذلك نصحوا لوضاح أن يحج البيت فشد إليه رواحله. وسنلقاه هناك بعد قليل.
- 4 -
أذن مؤذن الحج للمرة الثمانين بعد الهجرة، فسالت فجاج الجزيرة بالقباب والهوادج، وشرقت دروب الحجاز ومسالكه بالناس رجالاً وعلى كل ضامر، واكتظت بطاح مكة ورباعها بالحجيج من الشام والعراق واليمن، ودوي الفضاء المشرق بأصوات التهليل والتلبية، وروي الثرى المكروب من دماء البدن والضحايا، وتعطر الجو القائظ بأنفاس الحسان الغيد، وفاضت أندية مكة النبيلة بالقصف والعزف والغزل، وخرج الشعراء من بني الأنصار والمهاجرين في مطارف الخز وبرود الوشى على النجائب المخضوبة، يتعرضون للغواني المحرمات، ويقطفون من فوق شفاهها اللعس ألفاظ الدعاء، قبل أن ترفع إلى السماء، وهناك على الربوة العالية ضرب الفسطاط الرفيع العماد، وفرشت الطنافس، ونصبت الأرائك، وصفت النمارق، ونضدت الوسائد، وقامت الجواري والولائد، وعلقت السدول والستائر، وبرزت من خلالها زوج الخليفة في زينتها وفتنتها ترسل النظر تارة إلى الأفق البعيد، وتارة تتصفح به الوجوه المختلفة والأزياء المتعددة، والناس يتحامون جانبها ويتهيبون ظلالها لهيبة الملك وشراسة الجند وجلال الخلافة. حتى الشعراء من شباب الهاشميين وخلفاء ابن أبي ربيعة لم يجرؤا أن يمدوا إلى جمالها الفاتن عيناً ولا لساناً، لأن الخليفة كتب (يتوعد الشعراء جميعاً أن ذكرها أحد منهم أو ذكر أحد ممن تبعها) ولكن الملكة تريد على رغم الملك أن تكون من عرائس الشعر، وأن تظهر في ديوان الشاعر، كما ظهرت في ديوان الملك. والشعر في الحجاز كان حينئذ للمرأة، يصف حالها ويعرض جمالها فتصل من طريقه إما إلى الزواج وإما إلى الشهرة. فتراءت الملكة للناس وسهلت للغزالين الحجاب.
وكان وضاح يومئذ مشغولا عن الشعر والشعراء بنفسه، فهو يطوف بالبيت ويتعلق بستور الكعبة، ويسأل الله انه يشعب قلبه بالسلوة. حتى إذا خرج الحجيج إلى عرفات وتطاولت الرقاب، وتطلعت العيون، وأومأت الأصابع إلى موكب الملكة الحاشد، جذبه جلال الحاجة النبيلة وجمال وصائفها فدنا من فلكها، فوجد كهنة الحب وشياطين الشعر يسايرون ركابها ويراقبون سناها. فمشى بجانب الشاعر كثير، ووقعت عين الملكة عليه فراعها جماله، وعلقتها حباله. فأشارت بطرف العين إلى جاريتها غاضرة فأثبتت معرفته.
فلما أفاض الناس من عرفات، وانحدروا إلى مرمى الجمرات، وقفت بجانبه فتاة فتانة ناهد، وأسرت إليه وهو يرجم الشيطان أن الملكة تريد لقاءه في مخيمها على (منى) اضطرب وضاح لهذه الإرادة وخشي عاقبة هذه الدعوة، وتردد طويلا في الذهاب إلى هذا الموعد، لان هذا الحب الملكي اكبر من عواطفه، ولان قلبه الجريح لا يزال يقطر في لفائفه، ولأن خيال (روضة) يعتاده في جميع مواقفه، ولكنه عربي!! والعربي طماع طماح مخاطر. فلماذا لا يبذ الشعراء ويكبت الأعداء بالسبق إلى جمال الملكة ومال الخليفة؟؟
أمسى المساء، وكان هلال ذي الحجة قد توارى بضوئه الشاحب خلف الجبل، وأخذت الأضواء المنبعثة من بواقي المشاعل والمصابيح والكوانين تكافح ظلمة الغسق، والقي الناس أرواقهم على الرمال مجهودين بعد نهار قائظ احمرت حواشيه من دماء القرابين، وضرب الكرى على آذان العامة فلم يبق يقظان إلا ذوو الحس الرقيق ممن جرهم جمال الليل إلى جمال السمر، وإلا نفسان شاعرتان بسط الحب عليهما جناحه، وأزال ما بينهما من فروق، ورفع ما يفصلهما من حواجز، حتى التقى ابن آدم ببنت حواء وجهاً لوجه، وأقبلت الملكة على وضاح اليمن تناقله الحديث، وتساجله الشعر، وتنصب له شرك الفتنة في مطاوي اللفظ، وتسدد إلى قلبه سهم الغواية في مرامي

اللحظ، وحسبنا أن نروي من هذا الحديث المشفق العذب هذا الحوار:
- وكيف حال روضة بعدك يا وضاح؟
- على شر حال وا أسفاه! زوجوها من موسر مجذوم فأعداها بالجذام!!
- وما حالك أنت من بعدها؟
- أما قبل هذه الليلة فكنت لا انتفع بنفسي ولا اشعر بوجودي
- ومنذ الليلة؟
- منذ الليلة عرفت نعيم السماء بعد ما عرفت في الخصيب نعيم الأرض
- إذن ستحبني؟؟
- نعم ولو خيرت ما اخترت
- وستنسب بي في شعرك؟
- نعم ولو كره الخليفة
- أذن اصحبني إلى دمشق فامدح الخليفة. وسأرفدك لديه واقوي أمرك عنده
- 5 -

وعلى نهر بردى وفي القصر المشيد زكت شجرة الحب حتى عرشت على كل حائط؛ وسطعت فوحتها في كل انف، وتهدلت أغصانها المزهرة على سرير الخليفة، ودنت قطوفها المجرمة من فم المجنون وليلاه؛ فاكلت منها حواء وجرت إلى الخطيئة آدم! وآدم دائماً هو الذي يكفر عن الخطيئة!!

ظل وضاح ابن الطبيعة الطليقة سجيناً في الخليفة قصر لا يبصر سماء ولا أرضاً، ولا يرى غديراً ولا روضاً، ولا يسمع حركة ولا صوتا ,. ولا يشعر بمجرى الحياة إلا حينما تخرجه الملكة من مخبئة ساعة يغفل الرقيب وتغفو العين المريبة. فتطارحه أحاديث الغزل. وتسقيه من سلاف الهوى عللا بعد نهل. ثم ترده عند الخوف إلى مأمنه.

ومضت على تلك الحال حقبة من الدهر ورفت عليهما ظلال الأمن فيها. ولكن وجه الجريمة وقاح لابد من سفوره. وريحها ذفر مهما كتمته فلا مناص من ظهوره. والخطيئة لا يطهرها إلا عقوبة أو ضحية!

فأهدى إلى الخليفة ذات يوم جوهر نفيس فراقه حسنه. وأحب أن يطرف به الملكة. فبعث به إليها مع خادم له ومعه كلمة رقيقة. فمضى الغلام بالتحفة إلى مجلس الملكة فلم يجدها، وعلم أنها في بعض الغرف فدخلها عليها مفاجأة، وكانت قد أحست بخطاه دون الباب فبادرت إلى إخفاء وضاح فأدخلته في صندوق وأغلقته. وحينئذ دخل الغلام فرأى أواخر جسمه تغيب تحت الغطاء. فأدى إلى الملكة الرسالة ودفع إليها الجوهر، ثم قال لها بلهجة الخبيث الماكر: ألا تهبين لعبدك يا مولاتي حجرا من هذا الجوهر؟ فأجابته الملكة بلهجة العزيز الممتعض: (كلا يا بن اللخناء ولا كرامة)

ولعلها لو كانت تحسن قراءة الوجوه لحشت فمه بهذا الجوهر حتى لا ينطق. أو لعلها فهمت لحن قوله، ولكن نفسها الملكة الأبية أنفت الخشوع، لهذا العبد فآثرت نقمة زوجها على نغمة خادمه وهي مع ذلك قوية الثقة في شفاعة الجمال ووساطة الحب! ومهما تكن الدوافع إلى هذا الجواب فأن الخادم قد ارتد إلى سيده بجلية الأمر. ولكن الأمر نزل من خليفة معاوية في بال واسع. فأمر بالغلام فوجئت عنقه. ثم لبس نعليه ودخل على زوجه وهي جالسة تمشط في تلك الغرفة. فجلس على الصندوق وقد علم وصفه من الغلام، ثم قال بلهجته الهادئة الرزينة:

- ما أحب إليك هذا البيت من بين بيوتك. فلم تختارينه؟
- اختاره واجلس فيه لأنه يجمع حوائجي كلها فأتناولها منه كما أريد من قرب
- ألا تهبين لي صندوقاً من هذه الصناديق؟
- كلها لك يا أمير المؤمنين!
- ما أريدها كلها. وإنما أريد واحداً منها
- خذ أيها شئت
- أريد هذه الذي جلست عليه
- خذ غيره فأن لي فيه أشياء احتاج إليها
- ما أريد غيره!.
- إذن خذ يا أمير المؤمنين

فأشار إلى الخدم فحملوه إلى مجلسه. ثم أمر العبيد فحفروا تحت بساطه بئراً بلغوا بها الماء. ثم دعا بالصندوق أو الناووس وقال له:
انه بلغنا شيء. . إن كان حقاً فقد كفناك ودفناك ودفنا ذكرك وقطعنا أثرك إلى آخر) الدهر. وان كان باطلا فقد دفنا الخشب، وما أهون ذلك(!!)
ثم قذف به في البئر! وهيل التراب، وسويت الأرض، ورد البساط، وأخذ الخليفة مجلسه. واستمر الفلك يدور دورانه الأبدي المنتظم
!!كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيس ولم يسمر بمكة سامر
الزيات
مسيلمة
بات مسيلمة والكرى لم يطرق جفنه، يفكر في محمد اليتيم كيف انتصر، وصارت له عصبة وقوة، وكيف سر أعداءه وقد بدا لا عدة ولا عدد، وها هو ذا يريد أن يكتسح جنوب الجزيرة بعد شمالها، فتنفرد مضر بالرياسة. لا ورب الشعرى ما تذل ربيعة، ولا ينبغي لها ذلك، وان كان قد دعا لنفسه، فلم ينفرد بالرسالة؟ أولست مثله؟ ولي لسان كلسانه وقومي كقومه بل أشد شوكة. انهم أعراب غلاظ شداد لا يعصوني ما أمرتهم، تدفعهم النعرة إلى نصرتي ظالماً أو مظلوما - والله لأوقدنها نارا ولأكون صاحبها.
دخل عليه صديقه (مجاعة) عند انبثاق النور، واشد ما أدهشه أن رآه جالساً القرفصاء قد دفن وجهه! بين ركبتيه، فنادى مسيلمة فرفع إليه رأسه في صمت وسكون وقد بدت من وجهه عينان أدماهما الأرق فسأله مجاعة؛
- ما بك يا أخي؟ أسوء إعتراك؟
- بل الخير كل الخير
- وكيف صممت عن دعائي وقد ناديت مرارا؟
- ما كنت واعيا
- وما شغلك؟
- كنت في فكر أقض مضجعي، وأطار نومي، وما أحسب أحداً غيري يقوي على احتماله
- وأخوك الذي أذهب ميعة شبابه بجانبك، وأخلق ديباجته مقتحماً الأهوال بين يديك؟ ألما تجده لسرك أهلا؟
- كلا ما ذهبت إلى ذلك، وما أردت أن أثقلك بما ينقض ظهرك، وأشركك في كأس مرة ما دمت تشرب منها، فكيف تبخل علي بها؟ وهبها كأس المنية
- بارك الله فيك من عشير، إذن فأصغ إلي - أنت تعلم العداوة التي بين أهلنا ربيعة وبين مضر، وكم أوقدنا الحرب نمدها بأفلاذ أكبادنا ونرميها بزهرات اولادنا، ولم نرض في حال بالذل وسوم الخسف
- وماذا فعلت مضر بنا؟ هل أغارت على حينا؟ هل أرسلت شياطينها على عيرنا؟ هل حمت البيت دوننا؟ هل وترتنا في أهلنا أين ماذا فعلت؟
- ما فعلت من ذلك شيئا. ولكنها أوقدت نارا وأخال أن ألسنتها ستمتد إلينا، فيهبط العرش
على الفرش ويذهب الولد والوالد
- وما هذه الداهية؟
- ألم تعلم أن محمدا ظهر أمره، وزهر نجمه، وكنا حسبناه شرارة ما تضيء إلا لتخمد، وخطباً ما ينزل إلا ليهون. ولكن خاب فألنا، فالركبان يتناقلون أنه استحوذ على ما بين مكة والمدينة؟ والناس يدخلون في دينه أفواجاً، وأخشى على اليمامة. منزلنا العتيد ومهد الجدود، أن يأخذها منا على غرة فنذل بعد عزة، ونبوء بالخسران المبين.
- وما بدا لك أن تفعل؟
- إن الحديد بالحديد يفلح، والدعوة بمثلها تقابل، له الشمال ولنا الجنوب. ليت شعري لم يكون النبي من مضر ولا يكون لربيعة نبي؟ قرب سمعك مني. لابد من الحيلة لقومك حتى يستقتلوا ويطيعوا، ولابد من السيطرة على قلوبهم حتى ينصاعوا، ولا يكون ذلك إلا بغزو عقولهم وخدعة عيونهم فلا يرون إلا ما نرى ولا يسمعون إلا ما نسمع.
- أذن فاعمل كيدك حتى تأينا بآيتك التي تبهر وتسحر

ما تظنني عن هذا غافلا - بل إن فكري ليحلق في آفاق أبعد، وكيف أنصب قدرا قبل - تهيئة الاثافي، ومثلي الذي جاب الآفاق وجال في الأسواق، ونفذ إلى ما وراء الحيرة والأنبار، واقتحم سواد فارس واجتمع بأوشابها، فوقف على ألاعيب فتيانها وكيد دهاتها واختلط بتجار الهند وعرف حكمتهم واستجلى شعوذتهم - لا يخلو من كيد وحيلة، فكم خدعة عندي يحسبها الأعراب معجزة، وكذبة يظنونها حقا!

- يا لك من داهية يا أبا ثمامة! وما وراءك بعد؟

- سأزعم النبوة كمحمد، وأدعي المعجزة، ولابد من ردء يصدقني ويشد أزري. وأظن فيك - بعد ما بلوتك - ذلك الرجل

- قد أجبت سؤلك. ما دام في ذلك مرضاة لحمى الجدود، وبر لرفاتهم، فماذا تريد أن أفعل؟

- تذيع في الناس أمري، وظهور رسالتي، وتحشدهم إلى دارك بعد غد. ليشهدوا آياتي أليس الموعد بقريب؟

- بلى، سيتم ذلك على أحسن حال. إلى اللقاء

هب الناس على دار (مجاعة بن مرارة)، وكانت رحبة الفناء ضمت ألوفاً من الأعراب وكلهم يشيع في وجهه السرور، ويهنئ صاحبه، لأن الله حباهم نبياً من أنفسهم، عزيز عليهم، به رجحت كفتهم، وأنقذوا من نير مضر وسورة سلطانهم، وها هم أولاء يجتمعون ليشاهدوا آياته، فتملئ قلوبهم إيماناً

وفي الأصيل وقف مسيلمة على دكان بصدر المجلس وقد اختفت قسمات وجهه تحت لثامه الغليظ فلم تبد منه إلا عينان خبيثتان تدوران في الجمع الحافل، وتلحظان فيض العاطفة على الوجوه، وتقرءان في العيون الأيمان والسخرية. وكان ممتقع اللون، يرفض جبينه عرقاً، يهوله ما يقدم عليه من خطب ويخشى العاقبة. ثم ثبت يده على عكازه التي اعتمد عليها واستفتح كلامه حامداً الله الذي حمى اليمامة وأعزها بنبيها، وأفاض في الثناء على أهلها وثباتهم، وناشدهم أن يعينوه بقوة على محمد شريكه في الرسالة، ليستخلصوا نصيبهم من بين يديه. ثم أعلن أنه سيعرض عليهم معجزاته الناطقة برسالته، لتطمئن قلوبهم. تنفس الجمع الحاشد، ونظر بعضهم إلى بعض متلهفين إلى ما يأتي به من خوارق ومعجزات، وكان مسيلمة قد اختفى وراء ستر نصبه بينه وبين الحائط، فرجع وفي يده قارورة داخلها بيضة، كان قد أطال انقاعها في الخل حتى لان قشرها الأعلى، فمدها فامتدت كالعلك فأدخلها قارورة ضيقة الرأس، وتركها حتى جفت ويبست، وكلما انضمت استدارت حتى عادت سيرتها الأولى

قال: هاكم آية من آياتي نزل بها عليّ الرحمن، ترتفع عن قدرة البشر. بيضة كبيرة، غير مقشورة، في قارورة. أجيبوني بآبائكم، من أدخلها فيها غير ربكم. أم هل فيكم من يفعل من ذلكم شيئا؟ وناول القارورة أحد الجلوس، فتقاذفتها الأيدي، متأملين المعجزة العجيبة، والبدعة الغريبة.

ثم دار بعينيه في دار (مجاعة) فرأى زوجاً من الحمام مقصوص الريش، واقفا على عود في حائط كانت الأعوان قد هيأته لتلك الفرصة، فالتفت إلى مجاعة وقال له:

- إلى كم تعذب خلق الله بالقص؟ ولو أراد الله للطير خلاف الطيران ما خلق لها أجنحة، وقد حرمت عليكم قص أجنحة الحمام

فقال مجاعة كالمتعنت -: فسل الذي أعطاك في البيض هذه الآية أن ينبت لك جناح هذا الطائر الساعة.

- فان أنا سألت الله ذلك، فطار وأنتم ترونه، أتعلمون إني رسول الله إليكم؟

- أجل: أجل

- أريد أن أناجي ربي، وللمناجاة خلوة فانهضوا عني، وإن شئتم اختليت به وراء الستر ودعوت الله ثم خرجت به اليكم وافي الجناحين

ولما خلا بالطائر أخرج ريشا كان قد هيأه، فأدخل كل ريشة مما كان معه في جوف ريش الحمام المقصوص من عند المقطع - ولما أتم جناحيه خرج به وأرسله على رءوس السامر فرفرف عليهم - فصاحوا معجبين، ونهض منهم خلق كبير، يبايعه ويشهد الله على ما في قلبه، وانفض السامر وقلوبهم شتى، ولكنهم جميعاً أخذوا يفيضون فيما رأوا وما سمعوا.

وفي غداة اليوم التالي دخل مجاعة على مسيلمة، فرآه مشرق الوجه، فما لمحه

مسيلمة حتى اندفع إليه قائلاً:
- ماذا كان من أمر القوم بعد ما رأوا الأعاجيب أمس؟
- منهم المصدق ومنه المكذب ومنهم دون ذلك. ولا يخفى عنك أن فيهم من رأى اعجب من آياتك في سياحاته وتجاراته على أيدي الكهان والسحرة وغير هؤلاء.
- وماذا ترى؟ - محمد جاء بقرآن ليعقل به ألسنة العرب ما بقيت في افواههم، وليسلبهم بسحره ألبابهم، ولا أرى إلا أن تصنع كلاماً ككلامه.
- ما أبعد روق الشامخ على الطرف! كلما صعدته إليه ارتد البصر حسيرا، هذا يا صاح يعقد لساني - ولا أكتمك شيئاً - انه جل عن أن يبدعه قلب من لحم، ولسان من عضل، وإنما هو آية كخلق الله تعجبنا وتطربنا، كما تشهدنا على عجزنا.
- ولكن قومك يطلبون منك آية كقرآن محمد، وهم لد الخصام. وما دمت زعمت مشاركته في رسالته - فهات كتابك مثله بيمينك، وإلا عبثت بك العيون.
- حق ما تقول، إذن نحاول، ولكن أين الظهير؟
- ربما تكون العناية قد لحظتنا، فقد قدم علينا صباح اليوم رجل من المدينة على دين محمد حسن السمت، سليم الطوية، قد هم فتيان من العشيرة أن يقتلوه، ولكن استبقيته لعلنا نستفيد منه في أمرنا. فيزعم أنه صاحب الرجل، وقد حفظ كلامه، وقرأ بعينه صفحة جهاده.
- وكيف نملك قلبه؟
- بالمال؟
- وما يدريك الوصول إليه؟
- بلوته فوجدته رطب العود قريب الغور
- وماذا نأخذ منه؟
- يسمعنا قرآنه فنقيس على الآيات مثلها، ونصب في القوالب ما يملؤها،
- كيف والعرب صيارف كلام، يقلبون الكلمة ويحكونها كالدينار لا يخدعهم وشمها، أو يخطف بصرهم وسمها
- اجتهد أن تكن مزيفاً ماهراً، فهذا ما لابد منه مادمت تصر على رأيك.
- نعم لابد من صنعاء، ولكن ألا ينفعنا في سبيل آخر، فنلقي إليه أن يزعم أن محمداً أخبره بأني شريكه في رسالته، وقد بعثه إلي بذلك النبأ.
- نعم ما رأيت، وأظن أن الإبل والشاء كفيلة بأن تركبه الصعبة وهو الذلول كما أعلمتك.
اجتمع نفر من بني حنيفة في ساحة من القرية تحن شجرة ليستروحوا بفيئها ساعة الهجير، وهم أخلاط في أسنانهم ونزعاتهم، ابتدأ أحدهم يقول:
- بالأمس قدم رسول محمد فأعلن على رؤوس الأشهاد أن مسيلمة شريكه في رسالته - فهنيئاً لليمامة بصاحبها.
آخر - الآن لزمته الحجة، فتثاءب شيخ من الجلوس وقال:
وما يدريكم أن الرجل رسول محمد، وأنه أرسله لذلك الشأن، وكيف جاء اليوم وقد ظهر أمر محمد من سنين، أبعد ما جاهد وكابد، وصار له النقض والإبرام، يعلن شركة مسيلمة؟ فهل كان الأمر والخطوب به مكتنفة، والأعداء له متربصة، فيستعين بشريكه، ويحمله نصيبه في جهاده. ما أحسب ذلك إلا خدعة.
فدارت عيون القوم وقد انبسط فريق منهم لهذا الكلام الذي أجلى المبهم فكان كالبرق في الظلمات وانقبض آخرون. ولكن الشيخ أخذ يقول:
وما ذلكم الكلام الذي ينحله الله؟ أأعجبكم قوله في الضفدع:
(يا ضفدع بنت ضفدعين. نقي ما تنقين، نصفك في الماء ونصفك في الطين، لا الماء أي عجيبة أبانها في الضفدع، وأي حكمة اظهرها؟ أمرها .(،تكدرين ولا الشارب تمنعين بالنقيق فهل رآها أمسكت عنه؟ ولعله أعجب بنغماتها فأثارت أشجانه، وحركت بيانه، فصار يستوحيها، ويطلب المزيد من هديرها.
- إن أنكرت بيانه يا عم فكيف تنكر آياته الشاهدة التي لمستها أعيننا. أتراها قد خانتنا فأرسل منها الكذب إلى نفوسنا وخيل إلينا.
قد كنت في ذلك السامر يا ابن أخي، فهاج سخريتي بكذبه الفاضح، أرأيت البيضة والقارورة يزعم أن الله أدخلها! فلم أدخلها وراء أظهرنا ولم لم يخرجها أمامنا؟ ورأيت

الحمام المقصوص كيف زعم أن الله ينب له ريشا في ساعة. ما باله لم يسأله ذلك
أمام أعيننا؟ وهل لا يجيب الله داعيه إلا بخلوة؟ فتحوا أعينكم يا قوم فلا تضلوا انه
لعمري ليس بمتنبئ صادق ولا بكذاب حاذق.
- أصوات: مه مه!
أيها الشيخ لقد كبرت. ولئن كان كما تزعم لنتبعنه، فكذاب ربيعة أحب إلينا من صادق
مضر
- قد محضت لكم نصيحتي وأنا شيخ كبير قد تقلب وجرب. وأخشى أن تسندوا باطلا
فيقع عليكم، أو تشعلوا نارا فتكونوا وقودها،
- فنظرة إلى محمد وقرآنه تجدون اللبن الصريح. ولعمري إن نفسي لتنزع إلى دينه
كما ينزع الفطيم إلى ثدي أمه. ولكني أخشى. . .
- فتيان ينهضون - لقد خرف الشيخ
آخرون باقون معه - لا ضير عليك من هؤلاء فأنهم سفهاء يتبعون أول ناعب.
فتى يتحدث إليه - قديما ظننت في مسيلمة البركة فأحضرت له وليدي ليباركه غداة
يوم فدعا له بطول العمر فما جاء الأصيل ألا وقد كفنته بثوبه الأصفر
آخر - وجارنا أمسى له بغلامه فمسح له رأسه، فما مضت أيام ثلاثة حتى لف فيه
القرع
- وأمتنا المريضة ذهبت إليه لتستشفي فكأنها ذهبت إلى حتفها
- وأنا أعتقد ضلاله. ولكن يكبر على نفوسنا أن نمد أيدينا لمحمد، كما يكبر علينا أن
نحاربه أو نؤذي قومه. ونخاف الفتنة إذا ما غزانا فلا ندري أنحارب معه اخوتنا، ونقضي
على بني عمومتنا، أم نحاربه وهو أقرب إلى قلبنا، أم نمسك ونعتزل فيظن بنا الجبن
والعار، ونصير مضغة الألسنة في حينا؟
الشيخ - حقاً أنها لحيرة يا بني. فلننتظر ما تأتي به المقادير، ويفعل الله ما يريد.
سمع مسيلمة بقدوم خالد إليه فاستنجد ببني حنيفة، فتبعه أربعون ألفاً لعزته وعصبته،
وفر قوم من وجهه، وكرهوا أن يشهدوا مقارعة الباطل للحق، وقبعوا في واد ظاهر
القرية وأخذوا يتجسسون الأخبار فرأوا قادماً عليهم
- مم قدمت يا فتى؟
- من القرية.
- أشهدت خالداً وصحبه؟
- كنت بين ظهرانيهم.
- ما عندك فيه؟
- انه ليعسوب قريش وفتاها، ولئن طاولته الكواكب لأحسب أنه ينزلها من منازلها، ما
تقولون في عقل سديد، وقلب شجاع، وأمر مطاع.
- وكيف رأيت صحبه؟
- شباب مكتهلون، أشداء على أعدائهم، رحماء بينهم، أبصرتهم موهنا متثنية أصلابهم
على كتابهم، فسمعت منهم دوي النحل، وأزيز المرجل، وشهدتهم في المعمعة
ينظرون الشزر ويقذفون الجمر. فرأيت النار المحرقة، ليستعجلوا حتفهم مرضاة
لربهم طامعين، في الجنة والحرير، والملك الكبير.
- وما فعل مسيلمة بهم؟
- قارعهم فلما أثخنوه جراحا ولى ظهره واستقبل (عقرباء) وتحصن بحديقته
- تلك حديقة الموت، وهل حسب القصر يضم جيشا - انه لغمر.
هو ما تقول - فتقدم خالد إليهم بجيشه، ووضع السيف في رقابهم. فهلك مسيلمة
ومشيخة قومه ونادى مناد: الله أكبر
- وما فعل قومك بعد؟
- دخلوا في دين محمد أفواجاً وسموا مسلمين. وقد تركت أكابرهم يتحملون إلى أبي
بكر ليبايعوه ويشهدوه على إسلامهم.
- الآن نكون معهم.
أبو بكر - ويحكم، ما هذا الذي استنزل منكم ما استنزل؟
- يا خليفة رسول الله لقد كان الذي بلغك مما أصابنا، كان أمر لم يبارك الله عز وجل
له ولا لعشيرته فيه

- هل فيكم من يحفظ من أسجاعه؟
- أجل - يا ضفدع بنت ضفدعين. . .
- ويحكم. ان هذا لكلام ما خرج من إل ولا بر، فأين يذهب بكم؟
- بربك حسبنا عدلا. كان ما كان، واليوم تبنا وأنبنا واشهد بأنا مسلمون.

احمد احمد التاجي

شهر بالغردقة - 5

للأستاذ الدمرداش محمد

مدير إدارة السجلات والامتحانات بوزارة المعارف

والتنظيم الإداري في منطقة الآبار يبلغ درجة عظيمة من الاتقان، والدخول فيها لغير موظفي الشركة غير مسموح، والتدخين فيها ممنوع والقائمون بالعمل فيها ثلاث فئات، طبقة الموظفين الكبار الصناع، وهم خليط من الإنجليز والفرنسيين والأرمن، ثم طبقة الصناع والعمال وغالبيتهم من المصريين من أهالي قنا وقفط، ويقيمون في قرية منازلها نظيفة منسقة في طرفها الشمالي مسجد كبير شيده العمال على نفقتهم الخاصة، ويقوم بالإمامة فيه عالم من الأزهر سمعته يوم الجمعة يلقي الخطبة بعبارة مهذبة جلية، وبالقرب من المسجد كنيسة للأقباط، وفي الجهة الغربية من القرية مدرسة أولية يتعلم فيها أولاد العمال وصغار الموظفين، وبالقرية حانوتان كبيران تباع فيهما أنواع الحاجات المنزلية بأثمان معتدلة، وسكان القرية نحو 650 نسمة منهم 450 من الصناع والعمال.

وبالغردقة طبيب ومأمور تابع لمصلحة الحدود لفض المنازعات، ويقيم بها أيضاً مفتش سواحل البحر الأحمر، وهو موظف مصري كبير تمتد سلطته من جنوبي القصير حتى السويس، مركزه دقيق فهو يقوم بالحكم في أربع مناطق نفوذ لشركات أجنبية قوية، ففي القصير وسفاجة شركتان للفوسفات الأولى طليانية والثانية إنجليزية، وفي الغردقة ودمشة شركتان للبترول وهما إنجليزيتان، ومن أهم واجباته صون النظام العام داخل هذه الشركات والمحافظة على الأرواح والأملاك

في سفاجة

في طريق معبدة تارة تحاذي البحر في انبساط وطورا تحيد عنه إلى سفوح الجبال فتعلو وتهبط وتنحني وتنثني - في هذا الطريق درجت بنا السيارة في الصباح جهة الجنوب قاصدة سفاجة إحدى مواني الفوسفات على البحر الأحمر فوصلناها ضحى، بعد أن قطعنا سبعين كيلومترا في ثلاث ساعات، وسفاجة كالغردقة - كل منهما مركز لشركة أجنبية، فهناك البترول وهنا الفوسفات، وهناك (فيللات) مشيدة ومساكن منسقة وهنا أيضاً (فيللات)

ومساكن، وهناك الرأس أجنبية واليد مصرية، وهنا الحال كذلك

وتقع سفاجة فوق البحر على سفح جبل عال من الجرانيت وأمامها جهة الشرق جزيرة طويلة مرتفعة، وهي كالغردقة طلقة الهواء خفيفة الروح

ولسفاجة مرفأ حسن نصبت فوقه الروافع القوية ومدت عليه سكة حديدية، وعلى مقربة منه تقوم مخازن الشركة ومصانعها ومكاتبها ومقطرات الماء (الكوندسة) نزلنا نقطة بوليس مصلحة الحدود وبعد راحة قصيرة ذهبنا إلى المرفأ حيث كان في انتظارنا سفينة شراعية من مراكب الصيد فسارت بنا صوب الجزيرة في بحر مضطرب، وبعد ساعة أرست أمام شاطئ مرجاني، فانصرف بعضنا إلى الجزيرة للرياضة وصيد الطيور، ومكث البعض الآخر في القارب يلهو بصيد السمك بالشص، وانتجعت ناحية في المركب قرب مقدمها، وجلست أسرح البصر في البر والبحر - كان المنظر بهيجاً حقاً يملأ النفس انشراحاً وحبورا، فجهة الغرب سفاجة بمنازلها ناصعة البياض، ومن خلفها الجبل قائم كالستار الأسود فبدت البلدة أشد ما تكون وضوحاً وتحديداً ومن تحتها البحر يمتد في زرقة نضرة إلى الأفق جهتي الشمال والجنوب، وفي محاذاة البحر شاطئ متجعدا متعرجا في نتوء وانحناء، ومن وراء الشاطئ سلسلة جبال العرب تسمو في عظمة تتضاءل مع مد النظر حتى تصير هي والبحر خطين متوازيين يلتقيان والسماء، وجهة الشرق جزيرة سفاجة في صفرة شديدة تنعكس صورتها في الماء فيبدو أخضر قاتماً، والقارب فوق الماء كالأرجوحة يعلو ويهبط في رفق وهوادة، والموج يلطم جانبيه في توقيع كالنقر على الدف ونسيم بليل عليل يخدر

الأعصاب ويثقل الجفون ويجعل النوم أشهى ما يكون - فاتكأت بظهري على (برميل) كان بجانبي والنوم يغالبني، فكنت أغفو تارة وأصحو أخرى، وقد مرت على ساعة هكذا وأنا في سعادة ما بعدها سعادة.

كان شريكي في (البرميل) أحد نوتية القارب جمعت سحنته كل مميزات عرب الحجاز من سكان السواحل، فوجه طويل نحيف تحيط به لحية شعثاء خفيفة وعينان صغيرتان براقتان في حاجر بارز فوقه حاجب غزير الشعر، وبشرة نحاسية صقيلة وجسم ناحل دقيق، وصاحبي رقيق الحال لا يستر جسمه سوى أسمال من بقايا ثوب عتيق أطرافها وخاط فتوقها على غير انتظام بغرز طويلة، فكانت معرضاً لأنواع الخيوط وألوانها، كان جالساً

القرفصاء وقد بسط في حجره جلدة سمك مقددة امسكها بإحدى يديه واستعان باليد الأخرى على تمزيقها قطعا كان يحشى بها فمه ويلوكها ثم يبلعها من غير أدم، وبعد أن أكل الجلدة حتى ذيلها ورأسها وزعانفها مد يده إلى ناحية من المركب فاخرج منها علبة دخان قبض منها بين إصبعيه قبضة صغيرة من دخان أغبر، دس فيها قطعة صغيرة من مادة حجرية بيضاء، ثم ضغطها وألقاها في فمه، وبعد أن مضغها ألقاها في حلقه كذلك

فقلت ماذا تفعل يا أخي؟

فأجاب غير مكترث:

- هذه سمكة آكلها وهذا تبغ أمضغه

- وهل أشبعتك هذه الجلدة؟

- الحمد لله تكفي

فقلت في نفسي مكرراً عبارته الحمد له الذي لا يحمد على النعمة والحرمان سواه، وقبيل الظهر أقلعت بنا السفينة عائدة إلى سفاجة في بحر هائج وريح قوية، فكانت نزهة بحرية لم تخل من مجازفة

وبعد الظهر توجهنا إلى مكتب مدير الشركة فاستقبلنا بحفاوة وأخذ يصف لنا أعمال الشركة فقال: هنا المرفأ والمطاحن والإدارة، وفي وادي الحويطات على بعد 22 كيلومتراً من هنا مناجم الفوسفات، والفوسفات كما تعلمون صخر تكون منذ عصور جيلوجية بعيدة من تراكم عظام حيوانات فقرية برية وبحرية من أسماك وزواحف، ومع مرور الزمن الطويل تحولت هذه العظام إلى مادة متماسكة مندمجة يقال لها في علم الكيمياء فوسفات الكلسيوم، ويوجد الفوسفات ضمن طبقات العصر الطباشيري في بعض جهات القطر المصري، كسفاجة والقصير، واسنا، وفي بعض الواحات، والفوسفات لا توجد نقية بل مختلطة بصخور أخرى، وتختلف نسبتها في الصخر الخام من 30 في المائة إلى 75 في المائة، على أن النوع الذي يطلب عادة في التجارة هو الذي يحتوي على 60 في المائة - ونستعين بالطرق الميكانيكية على استنباط الفوسفات من المناجم ونستخدم كذلك عدد كبيراً من العمال في عمليات الحفر، وفرز أحجار الفوسفات وفصلها عن المواد الأخرى، وفي شحنها من المناجم إلى المطاحن. وبين سفاجة ووادي الحويطات سكة حديدية تنقل في

الذهاب الماء العذب والزاد للعمال والموظفين، وتنقل في العودة الفوسفات

ثم انه دعانا لمصاحبته إلى المطاحن، وهي بناء كبير من طبقات قد ركبت فيها ماكينات على هيئة اسطوانات كبيرة، داخلها كرات ملساء من الصلب يلقى فيها حجر الفوسفات بعد تجفيفه بنشره في الهواء تحت أشعة الشمس، فيتبخر ما به من الرطوبة فإذا دارت الاسطوانات طحنت الكرات الفوسفات وجعلته كالدقيق الناعم (البودرة) وبعد تعيين نسبة الفوسفات الخالص في عينات الدقيق المختلفة ثم مزجها بالقدر اللازم توضع في أكياس ذات سعة محدودة وترسل للمخازن حيث (تشون) للتصدير.

ثم بعد ذلك جلنا حول المطاحن وشاهدنا الفوسفات وهو منشور قبل نقله إليها وهو على هيئة صخر أبيض اللون يميل إلى الصفرة، ولا تزال ترى فيه بقية من أسنان الأسماك التي كونته وبعضها صغير شديد الاندماج كبير لا يختلف كثيرا عن أسنان الحيوانات البحرية التي تعيش الآن، وقال المدير إنهم أحياناً يعثرون على بعض أجزاء من عظام الحيوانات القديمة حافظة شكلها

ثم انتقلنا إلى مقطرات الماء العذب من ماء البحر، ثم زرنا مكان توليد القوة التي تدير المطاحن والدوافع، وتنير المدينة بالكهرباء
والفوسفات سماد لبعض المزروعات، وهو شائع الاستعمال في كثير من الجهات، على أنه في حالته الطبيعية لا يصلح سماد لقلة ذوبانه في الماء ولذلك يصدر للخارج لتحويله إلى مادة تذوب يقال لها (سوبر فوسفات) ومعظم الناتج من مناجم سفاجة يصدر لليابان لهذا الغرض
وسكان سفاجة نحو خمسمائة منهم أربعمائة من العمال والصناع وكلهم تقريباً من المصريين
وفي الأصيل عدنا إلى الغردقة فبلغناها قبيل العشاء.
الدمرداش محمد
النقد
شهرزاد
للدكتور محمد حسين هيكل بك
وأقصد بشهرزاد التي أتحدث الآن لقراء الرسالة عنها، مسرحية توفيق الحكيم الأخيرة تلوتها للمرة الأولى فاغتبطت، وتلوتها للمرة الثانية فأعجبت، ثم جعلتها بعد ذلك سمير أويقات السأم، أتلو فيها بعض صحف من منظرها الثالث أو من منظرها الأخير، فأستريح للتلاوة وأبرأ من سأمي
ترى أيرجع الفضل في ذلك إلى فن الأستاذ توفيق الحكيم، هذا الفن الذي يقصد به لوجه الفن وحده، أم يرجع لما ينطوي عليه اسم شهرزاد من سحر قديم، سحر رد الملك شهريار عن قتل العذارى ألف ليلة وليلة، وأوحى بموسيقى شهرزاد الرائعة، وأصبح علامة على ما يجري في الظلام وتحت ستر الليل، وجعل المتحدثين يسكتون عن الكلام المباح كلما جل الأمر ودهي الخطب.
أريد أن أقنع بأن الفضل في اغتباطي ثم في إعجابي يرجع إلى فن الأستاذ توفيق الحكيم، هذا الفن الحديث الذي يجاري أحدث أطوار الفن في أوربا، مما تتبعنا نحن ولم نتمثل. وأقصد بنا نحن الذين تمثلوا الفن القصصي أو للفن المسرحي أو ما سواهما من صور الفن الغربي قبل الحرب. أما ما بعد الحرب فقد تتبعنا إلى حد أطوار الفن، ولكن ما دهمنا من مشاغل طغى على تمثيلنا إياها، وقد تنقل الفن بعد الحرب في أطوار شتى كان الأستاذ توفيق الحكيم مأخوذاً في تيارها أثناء مقامه بباريس، فلا عجب أن يتمثلها بل أن تتمثله، ولا عجب وله في الأدب المسرحي ما له من مواهب أن تدفعه ليخرج للناس مسرحيتيه أهل الكهف وشهرزاد.
وأنت تقرأ شهرزاد وتعيد قراءتها وتغتبط وتعجب ثم تسائل نفسك: ماذا فيها وما هي الفكرة التي تنطوي عليها؟ وقفت أمام سؤالك نفسك ولا تكاد تحير جواباً. بل لعلك تجد الجواب إذ تطرب بعد ذلك لسماعك لحناً من الموسيقى تهتز له جوانب فؤادك، وتشيع له الغبطة في أنحاء نفسك، ثم تسأل: ماذا في هذا اللحن وما هي الفكرة التي ينطوي عليها؟ وتستطيع أن تجيب بعد ذلك لا شيء ولا فكرة، وإنما هو الفن يغذي النفس بالغذاء الروحي الذي تصبو
إليه في الساعة التي تنال فيها هذا الغذاء. وتستطيع أن تجيب بأن في هذا اللحن كل شيء وأسمى فكرة، وأنه يتناول أجل ما في الحياة من معان وصور.
وذلك شأن مسرحية شهرزاد، فلا شيء ولا فكرة فيها وفيها كل شيء وكل فكرة. فالملك شهريار الذي قتل زوجه الأولى وقتل معها العبد الذي وجده في أحضانها قد أقام يقتل عذراء في كل ليلة انتقاماً لنفسه من غدر النساء، حتى تزوج شهرزاد، لكنه لم يقتلها لأنها بدأت تقص عليه أحسن القصص ولا تتم قصتها إذا كان الصباح. وتعود إليها إذا جن الليل، حتى انقضت ألف ليلة وليلة، وشهرزاد لم تكن إلى يومئذ تبلغ العشرين. كيف لها إذن أن تعرف كل هذا الذي تقصه؟ وكيف تراها وهي تعرف ذلك كله لا تريد أن تبوح لشهريار بسرها وسر الطبيعة وسر الكون كله. هذه مسرحية توفيق الحكيم من أولها إلى آخرها، هي كما ترى لا شيء ولا فكرة فيها. ولكن لا، ففيها كل شيء وكل فكرة، استمع إليه حين يصور هذه الفكرة الأساسية التي تنتظم المسرحية كلها على لسان شهريار حين يثور بشهرزاد لأنها تلح عليه في أن الحياة ليس بها ما يستحق العلم، وأنها لا سر فيها، وأنها هي - شهرزاد - ليست إلا امرأة ككل

النساء ذات أم وأب وماض معروف، يثور شهريار ويتحدث كمن به مس، وكمن يتحدث إلى نفسه فيقول:

قد لا تكون امرأة، من تكون؟ إني أسألك من تكون؟ هي السجينة في خدرها طول حياتها تعلم بكل ما في الأرض كأنها الأرض! هي التي ما غادرت خميلتها قط، تعرف مصر والهند والصين! هي البكر تعرف الرجال كامرأة عاشت ألف عام بين الرجال، وتدرك طبائع الإنسان من ساميه وسافله، هي الصغيرة لم يكفها علم الأرض فصعدت إلى السماء تحدث عن تدبيرها وغيبها كأنها ربيبة الملائكة، وهبطت إلى أعماق الأرض تحكي عن مردتها وشياطينها ومساكنهم السفلى العجيبة كأنها بنت الجن! من تكون تلك التي لم تبلغ العشرين قضتها كأترابها في حجرة مسدلة السجف! إما سرها؟ أعمرها عشرون عاماً، أم ليس لها عمر؟ أكانت محبوسة في مكان، أم وجدت في كل مكان؟ إن عقلي ليغلي في وعائه يريد أن يعرف. . . أهي امرأة تلك التي تعلم ما في الطبيعة كأنها الطبيعة؟))

أسمعت؟ إن بنا ظمأ لأن نعرف. ولكنا لا نستطيع أن نعرف، وما نزعم أننا عرفناه اليوم سيقول أبناؤنا غداً إنه حديث خرافة، كما نقول نحن عما عرف أجدادنا أنه حديث خرافة،

هذا كلام لا شيء ولا فكرة فيه كما ترى. وهو مع ذلك كل شيء وهو مع ذلك طريف وأن تكرر كل يوم مادام يتكرر في أسلوب من له روعة أسلوب توفيق الحكيم المسرحي. وهو طريف وإن تكرر لأنه يدعونا للمحاولة كي نعرف أفي الحياة جديد فإلى أي شيء نسعى في الحياة؟ وما غرضنا منها؟ هذا ما يريد شهريار أن يعرف. وتقول له شهرزاد إن الحياة هي السعادة. والسعادة يجب أن يلتمسها الرجل في جسم امرأته. ويأبى شهريار ويتكدر ويكاد يقتل شهرزاد. ولكن شهرزاد تتبدى له في روعة جمالها كاملة فيتمنى لو تحبه ليكون سعيداً. وفي أحلام الحب ينام!

وشهرزاد في مسرحية توفيق الحكيم هي المرأة، وهي الطبيعة، بها يفتن شهريار، وبها يفتن وزيره قمر وبها يفتن العبد. وبها يفتن الناس جميعاً، ومنها يخاف الناس جمعياً. يلتمسون منها المعرفة، ويلتمسون منها الحقيقة، ويلتمسون منها السماح، ويلتمسون منها السعادة. وينالون من ذلك كله فتاتا لا يغنيهم، ولكنه يقتلهم. الوحيد الذي ينجبر هو العبد الذي استمتع بجسد شهرزاد، والذي أحبت شهرزاد رغم سواده وغلظته، لأن الزهرة البيضاء الرقيقة تنبت من الطين الأسود والغليظ، ورغم قبحه وضعة أصله، لأن سواد اللون وضعة الأصل وقبح الصورة هي الصفات الخالدة التي تحبها شهرزاد، والتي تعشق الطبيعة وإن كانت الطبيعة وكانت شهرزاد مثلها لا يعشقان أحداً.

لعلي استطعت بالقليل الذي تقدم أن أصف الأثر الذي تركت في نفسي مسرحية توفيق الحكيم الأخيرة وهو كما ترى أثر يتعدى الغبطة إلى الإعجاب. لكنني لاحظت عليها كأثر من آثار توفيق الحكيم، ما لا يتفق وما كان بارزاً واضحاً في أهل الكهف وفي قصة عودة الروح، وفي آثاره الوجيزة الأخرى التي تنشر في المجلات، فقد كان بروز الشخصيات ووضوحها بعض ما امتازت به هذه الآثار كلها. أما في شهرزاد فالكل فلاسفة في قوة واحدة. الملك والوزير قمر، وشهرزاد، والعبد، والجلاد، والساحر، يتحدثون جميعاً ومنطق كل واحد منطق الآخر وقوته قوته، وأنوثة شهرزاد أنوثة فلسفية هي الأخرى. وحب قمر إياها أقرب لأن يكون حباً فلسفياً لا يخضع لضعف الحب إلا بكلام وهذا في رأينا مأخذ وإن سترته قوته المسرحية. وهو مأخذ بالنسبة لتوفيق الحكيم بنوع خاص، لكنه لا يغض من قيمة أثر له من الجلال ما قدمنا، وله إلى جانب جلاله انه أثر خالص للفن وهذا ما لا تجده في الأدب العربي الحديث ألا نادراً واندر من النادر

محمد حسين هيكل

ديوان الينبوع

للدكتور احمد زكي أبو شادي

راقني ما دبجته براعة الأديب الحلبي الفاضل (المرتيني) نقداً لديوان (الينبوع) فقد استهله بمقدمة بديعة عن ماهية الفن، هي من صفوة ما كتب في هذا الموضوع، وهي وحدها كافية لاحترام بيانه وللصفح عن زلات نقده.

وكان أول ما أخذه على، إشارتي إلى أن الشاعر الألماني العظيم هنريش هيني جمع

في شعره بين نفحات القديم وبين النزعة الرومانطيقية التي كان آخر شعرائها في قومه، وبين نزعة التحرر العصري التي ساعد على تكوينها، وقد أصبحت الصورة الغالبة على الشعر العصري في الغرب صورة الرومانطيقية الواقعة

أتعرف بماذا علق الأديب المرتيني على ملاحظاتي هذه؟ إنه لم يتعرض لها ولو بكلمة نقدية واحدة وإنما اتخذها تكأة ليقول هذا القول الغريب الذي لا صلة له بموضوعها إذ يعلن: (إننا لا نجاريه في قوله ولا نجاريه في استشهاده بالشاعر الألماني العظيم، فبينما يشرح ذلك الألماني النبيل عواطفه المتدفقة في نفسه أو يشرح نفسه الواسعة الفياضة بأنواع من النظم نرى الدكتور لا يرتفع في شعره عن أن ينظم في بعض مناسبات خاصة. وفرق كبير جداً بين هذا الشعر الذي يكاد يكون شعراً صحفياً وبين شعر هيني المختلف المتناسق الذي نرى اختلافه في أغراضه وسعتها، والذي نراه يتناسق في الصفات الأولى التي تتصف بها نفس ذلك الشاعر العبقري) وكل هذا لا شأن له بتعرضي لشعر هيني ولا محل له من النقد المتزن

إن ناقدي الفاضل يشير في مقدمته إلى أن الفن يرسم الشعور الإنساني في ظروفه العاطفية المختلفة، وهذه سطور مقدمته بين أيدي القراء ناطقة بذلك، فكيف يأتي بعد هذا مصغراً فينعت شعري بشعر المناسبات وبالشعر الصحفي؟ إن جميع الشعر يا مولانا في أصله شعر مناسبات وبواعث لأنه لا يفتعل افتعالا، وإنما سمينا الشعر السطحي الذي لا ينتظر له الخلود بشعر المناسبات من باب التجوز إشارة إلى أنه يعيش في حيز مناسبته الوقتية، ولأنه ليس بالشعر الإنساني العميق، وشتان بين التعبيرين. . . .

فهل صحيح أن شعري من هذا الضرب الأخير، لا لسبب إلا لأنه مناسبات بعضه عامة؟ وهل هذا عذر ينهض للأصغار من روائع الشعر العربي والأوروبي التي خلقت في مناسبات عامة لا تعني الشاعر وحده؟! أن مثل هذا النقد لن يقبله أي أديب مستقل، خصوصاً وهو نقد مبهم لا تعززه الشواهد، ولا أعرف شيئاً يسيء إلى النقد أكثر من هذه البراعة في الإبهام، ومن هذه الأحكام التي لا (حيثيات) لها. . . .

إني لم أقطع على ناقدي الطريق حين أشرت إلى ضرورة التجاوب بين الناقد والشاعر حتى يجيء النقد تفسيراً أدبياً صادقاً للشعر، لأني لا أفهم من النقد أن يكون لوناً من ألوان النفور أو التحامل. وقد آخذني على إشارتي إلى أنه ليس محتوماً على غير مريدي أن يطلعوا على شعري حتى أكون معرضاً لمؤاخذتهم اياي، متوهماً أني بذلك أصد الناقدين عن شعري أو أتعالي عليهم. والواقع انه لا يوجد أديب معاصر شجع النقد الأدبي واحترمه أكثر مما شجعته، ولدى صديقي الألمعي صاحب مجلة (الرسالة) آخر مثل يعرفه عن ذلك، فليطمئن بال الأديب المرتيني، وليثق بأن كلمتي هذه ليست موجهة إلى أمثاله من أفاضل النقاد، وإنما وجهتها إلى جيش من المتطفلين على الأدب الذين ينالون ما ينالون من تشجيع في الصحف العامة ولا يتورعون عن أن يقولوا مثل هذا القول: (إن شعر فلان يحصب وجوهنا) فليت القدر يخرسه مادمنا عاجزين عن ذلك، وهذا بلا نزاع إسفاف في النقد) ولكن له سوقه النافقة، فكلمتي المنطقية الهادئة الموجهة إلى هؤلاء الكرام لا غبار عليها.

وتحدث ناقدي الفاضل عن ميولي المتباينة، ولست أرى تبايناً بينها، مادامت نفسي تؤلف منها وحدة فنية، ولكل نفس طبيعتها واستعدادها، كما أني لست فذاً في هذا: فهناك شواهد كثيرة على تنوع الميول عند أعلام الفكر والأدب في الشرق والغرب، ولم يكن هذا التنوع مؤدياً إلى العجز أو التقصير الفني، بل كان شاحذ للمواهب الفنية، دافعاً إلى الإنتاج الناضج الوفير.

وادعى سامحه الله أني مجدد ملتوي التجديد، وأني قد وقفت نفسي على أدب الغرب، وأني أحاول في عمري أن أضع لنفسي مزاجاً خاصاً، وأني أتمثل لقارئي فيكاد ينفر مني لضعفي في التعبير وتقصيري في التصوير وفقري في التفكير. . .

ومثل هذا الانتقاص الذي يقال جزافاً أمره سهل لدى كل من يطاوعه قلمه على تحبيره، ولكن الناقد المنصف المدقق يقر بشغفي العظيم بالأدب العربي وخدمتي إياه، وأن عنايتي بالأدب الأوربي هي عناية الراغب في إعزاز أدبنا العربي وتبديل فقره غنى، وسد ما في مناحيه من فجوات يشعر بها كل مطلع على الآداب العالمية. وليس لمثلي أن

يزكي أدبه وإن دافع عنه، ولكني أزكي مدرسة أدبية أنا أحد أفرادها، وقد كتبت من قبل ما يغني عن الإفاضة في (الرسالة)، كما يغنيني ما ظهر حديثاً في مجلة (الإمام) للشاعر الياس قنصل، وفي صحيفة (الأهرام) للشاعر سيد قطب، عن الرد على ذلك الانتقاص المبهم الذي لن تطاوعه الشواهد مهما تلمسها ناقدي الفاضل.

ولكن قد جاء بما يحسبه شاهداً مفحماً في تعليقه العجيب على صورة (الينبوع) (ص 17 من الديوان). . . . ان ذلك التعليق وتلك الخطرات هي نظراتك أنت يا ناقدي العزيز، وأما أنا فلا أعرفها بل اشمئز من تعابيرك كل الاشمئزاز. أما نظراتي أنا فنظرات الفطرة السليمة المتسامية التي تأبى التصنع والشذوذ والتدلي، وتقول في صراحة:

يا جمال النور في الظل الحبيب ... يا جمال الروح في الجسم الرطيب
هذه الدنيا لأحلام الأديب ... هذه غايات آمال الأريب
أيها الينبوع كم ساع إليك ... يدعى بغضاً لما أهوى لديك
كل ما يرجوه موقوف عليك ... فإذا الإنعام منك واليك!
أنت سحر غامض للعالم ... أنت ينبوع الرجاء الدائم
أنت موسيقى الخلود الباسم ... أنت ومض للشريد الهائم!
أيها الينبوع يا رمز الأبد ... يا شعاع الله في طيف الجسد
كم معان فيك كادت لا تحد ... وعزاء عن حياة تفتقد!
إنما أرنو إليك في خشوعي ... ما ابتسامي غير لون من دموعي
أنا لحن بين أطياف الربيع ... من طيور وغدير وزروع
أنا أحيا حينما أجني رضاك ... حينما جسمي وروحي عانقاك
حينما لبيت مسحورا نداك ... فإذا بي لا أرى العيش سواك
كل همي في حياتي يستحيل ... حينما أخشع للفن الأصيل
حينما أروي من النبع النبيل ... ذاك نبع الحب في الجسم النبيل!

فإذا كان الأديب المرتيني لا يرى في هذا الشعر الطبيعة الصافية المتسامية فالذنب ليس ذنبي، وما أراه منصفاً مهاجمة الذوق الفني لمصور (سكس ابيل) وهو من أعلام فنه، إني مصدق صاحبي في تأكيده أنه قرأ الديوان من الجلد إلى الجلد، ومع ذلك أومن بأنه لم يقرأه، وأومن كذلك بأنه في ذهنيته ونفسيته الحاضرة لا يحمل ذرة من التجارب مع شاعريتي، وإنما يؤدي به مزاجه الخاص إلى النفور منها ومن كل ما يمت إليها بصلة، ناظراً من وراء منظار أسود شاقه أن يلبسه، وإلا فبماذا يفسر تصويره لاحترامي النقد الأدبي وتشجيعي رجاله، ذلك التصوير الغريب الذي ابتدعه في قوله؛ وما عرفته (يعني كاتب هذه للسطور) وغيره من إخواننا المصريين إلا أباة على النقد يثيرون من أجله المعارك ويتسارعون بسببه إلى الخصام والنزاع. . . .؟! لقد ظهرت في الأعداد الثلاثة الأخيرة من مجلة (أبولو) تعليقاتي على نقد ديوان (الينبوع) فهل يستطيع حضرة الناقد الفاضل إذا التزم الإنصاف أن يحد فيها دليلاً واحداً يعزز دعواه هذه التي أنكرها كل الانكار؟ أما عن لغتي فمن أحسب صاحبنا في المكانة التي تسمح له بذلك النقد، وقد نقد (الينبوع) فعلا رجال ذوو بصر فني باللغة، ومنهم من تخصص فيها كالسيد مصطفى جواد، فما قالوا إلا عكس ما ذهب إليه صاحبنا.

وقد تصدى لنقد بيتين من قصيدة (دانيال في جب أسود) - ص 50 من الديوان - وهي من الإسرائيليات المشهورة التي راقى تسجيلها شعراً، فجاء نقده معلنا جهله أو تجاهله لهذه القصة الدينية، وراح يلوم على ما يستحق الثناء من إيجاز أو تركيز في محله أو بساطة يدعو إليها سياق القصة، وكأنه أراد بالأقصوصة الشعرية الوجيزة أن تكون تفضيلاً خبرياً عن الحوادث لا لمحة شعرية من روح الموضوع. . . وإذا كان شعري في حكم العدم كما يريد الأديب المرتيني أن يقول، فلماذا يشغل نفسه وقراء (الرسالة) بأكثر من ثلاث صفحات نقدية وهو يعلم أن هذا الضرب من الشعر لا تعني به إلا أقلية من الأدباء. فهل صحيح أنه في حكم العدم؟!

إن الشواهد التي يسوقها النقاد هي دائما كافية لتعزيزهم أو لخذلانهم، ولذلك يتهارب النقاد العاثرون من الإتيان بالشواهد، والأديب المرتيني كان بعيداً جداً عن التوفيق فيما ذكره من شواهد من غير تفتيش أو تنقيب على ما يقول. . . وحسب القارئ أن ينظر

في هذه الأبيات من قصيدة (العودة) (ص 30 من ديوان الينبوع) وقد وجهتها إلى الدكتور زكي
مبارك الذي كان بصحبتي في قطار البحر عائدين من الإسكندرية:
وداعا للرمال وللمغاني ... وداعاً للملاحة يا صديقي
أتذكر كيف كان الموج يجري ... كما يجري الشقيق إلى الشقيق؟
وقفنا في جوار اليم سكرى ... ككر الناظرين إلى الرحيق
نرى في البر ألوان التناجي ... وفي البحر المشارف والعميق
كأن الحسن ذاب بكل لون ... نراه، وفي المياه وفي الطريق!
سكرناه سكرة الحمرمان حتى ... كلانا كالأسير وكالطليق
وهذا الجو يملؤه حنان ... ولو أن الغروب من الحريق
وأبنا أوبة المهزوم، لكن ... بنا طرب من الأدب الحقيقي!
فهذه القصيدة التي أعجب بها أستاذنا مطران إعجاباً عظيماً لم تستحق من ناقدنا الفاضل غير السخرية المبهمة التي إن لم تكن سخرية المغرض فهي سخرية المتسرع الذي يهرع إلى قلمه قبل أن يتمثل الموضوع الشعري ويستوعبه الاستيعاب الواجب.
بيد أني مستعد للإيمان بحسن طوية الكاتب الفاضل، وأؤكد له أن نصائحه هي في صميم نفسي، ومع ذلك فمرحباً بنصائحه وبغيرته على اللغة! فهل له بعد هذا أن يأخذ نصيحة متواضعة مني مشفوعة برجاء: تلك أن يدرس الطاقة الشعرية عند الشعراء المختلفين فسوف يجدها متباينة، وأن طبيعة الإجادة الفنية لا شأن لها بإنتاج، بل ربما رهفتها كثرته، وأن الشاعر الملتوي الأسلوب الضعيف البيان السقيم الذوق لا يجديه إكثار ولا إقلال. . . وهو وغيره أحرار بعد ذلك في وضعي في المكان الذي يرضي نفوسهم، وأما رجائي فمحصور في مبدأ أدبي عام يؤمن معه العثار النقدي ويمثله هذا البيت:
كن أنت نفسي واقترن بعواطفي ... تجد المعيب لدى غير معيب
احمد زكي أبو شادي
العدد 43 - بتاريخ: 30 - 04 - 1934
. . .أحاديث الأسبوع
للدكتور طه حسين
كان جو القاهرة قلقاً مضطرباً أثناء الأسبوع. يذكر الشتاء المدبر فيستحضر بعض أرواح البرد، ويلمح الصيف المقبل فيسرع إلى بعض بشائر القيظ. وكان النهار ضعيف الذاكرة جداً، محى الشتاء من نفسه محواً على قرب عهد الشتاء. وكان الليل وفياً بعض الشيء، قوي الذاكرة إلى حد ما، رفيقاً بالناس بعض الرفق، كأنما كان يشفق عليهم من قسوة النهار ونسيانه للعهد، وزهده في الأمس وتهالكه على غد. فكان يثير لهم بعض هذه النسمات الهادئة الحلوة التي تغرق أحياناً في الهدوء والخفة حتى توشك أن تكون لاذعة، وحتى تلفت الناس إلى أن من الخطر أن يخونوا عهد الشتاء كما خانه النهار، وأن يتهالكوا على عهد الصيف كما تهالك عليه النهار، وأن يتخففوا من ثيابهم، ويتهاونوا في الاحتياط والحذر من هذه الأرواح القليلة الخفية المغرقة التي تتعلق بشعاع من أشعة القمر، أو بنفس من أنفاس النسيم، والتي لا تكره أحياناً أن تمس المهملين مسا خفيفاً، فتعرضهم للأذى، وتحملهم من الآلام جهداً ثقيلاً.
وكان الناس، أو بعبارة أدق، كان الأدباء يسايرون الزمان كدأبهم في كل حين وفي كل بيئة. كانوا يفترون للنهار وينشطون لليل، كانوا يثقلون للظهر، ويخفون لمغرب الشمس، كانوا يؤدون أعمالهم خامدين هامدين في الضحى، أو يتخذون شكل الذين يؤدون أعمالهم وهم لا يؤدون منها شيئاً. فإذا ألقت الشمس يداً في كافر كما كان يقول لبيد، خفت الأجسام، ونشطت النفوس، واتسعت الرئات للهواء، وتفتحت العقول والأذهان للخواطر، وانطلقت الألسنة بالحديث، ولم تكن أحاديث الأدباء في هذا الأسبوع قليلة الخطر، ولا ضئيلة الشأن، ولا هينة الأمر على المتحدثين بها من الأدباء، والمتناقلين لها من غير الأدباء. فهم قد بدءوا أحاديث الأسبوع بهذا الاجتماع الذي ختم به الأسبوع الماضي، والذي كان عند جماعة (الاسيست) وقصد به لا أقول إلى إحياء ذكر مختار، بل أقول إلى ذكر مختار ليس غير. وكان حديث الأدباء عن هذا الاجتماع طريفاً، لأنه لم يزد على أن ذكره وألم به دون أن يفسره أو يعلق عليه. وهل أحاديث

غير الأدباء في مصر الآن خير من أحاديث الأدباء؟ فأنت تستطيع أن تلتمس النشاط عند رجال السياسة، أو عند أصحاب المال، أو عند غير أولئك وهؤلاء من طبقات الناس، فأن استطعت أن تجده أو تجد صورة من صوره فأنت منصف حين تلوم الأدباء على القصور، وتعيبهم بالفتور. على أن شيئين لم يهملهما الأدباء حين تحدثوا عن هذا الاجتماع، إن كانوا قد تحدثوا عنه بالفعل أو خاضوا فيه حقا، ولم يكن هذا الحديث الذي أنقله عنهم خيالا فاترا فتور حياة الأدباء كلها في هذه الأيام. فأما أول هذين الشيئين: فهو أن هذا الاجتماع إنما كان أثراً من آثار الشباب، ومن آثار الشباب وحدهم. هم الذين فكروا فيه، وهم الذين دعوا اليه، وهم الذين ألحوا في الدعوة، فوفقوا إلى إكراه جماعة من الكهول والشيوخ على الاستجابة لدعوتهم، وظفروا من جماعة أخرى بالوعود والأماني التي لم يقدر لها الوفاء ولا التحقيق، ولم يظفروا من جماعة آخرين بوعود ولا أمنية، فضلاً عن الوفاء أو التحقيق.

وأما الشيء الثاني فهو أن هذا الاجتماع لم يحدث في الأدب حدثاً، ولم ينتج له جديداً، إلا كلمة طريفة قيمة مؤثرة، قالها صديقنا مصطفى عبد الرزاق. فأما ما دون هذه الكلمة فلم يكن شيئاً، حتى أن صديقنا مطران لم يستطع إلا أن يعيد على السامعين قصيدة رائعة بارعة من غير شك، ولكنها قديمة، أنشئت وأنشدت لاستقبال مختار حين عاد ظافراً يستقبل المجد. ثم استخرجت وأنشدت لوداع مختار حين استأثر به الموت، فولى يودع المجد ويودع الحياة والغريب أن هذا الاجتماع كان لتكريم الفن، ولتأبين المثال الأول في تاريخ مصر الحديثة، المثال الذي ابتكر من الآثار ما يقال أنه جميل رائع ينطق البكم ويثير حس الذين لا يثور لهم حس، ويفيض شعور الذين لا يفيض لهم شعور، ومع ذلك فهو لم ينطق أدباءنا - وما أكثر ما كانوا ينطقون - ولم يثر حسهم - وما أكثر ما كان يثور. ولم يفض شعورهم - وما أكثر ما كان يفيض. تساءل الأدباء عن مصدر هذا في السر أو في الجهر، في النوم أو في اليقظة، في الحقيقة أو في الخيال. فكان الجواب أن مصر الآن نائمة تستريح.

ثم مضى يوم ويوم من الأسبوع، وإذا الأدباء ينسون حديث مختار أن كانوا قد ذكروه، لأن حديثاً آخر قد فتحت لهم أبوابه، ومدت لهم أسبابه، وهو حديث صحيفة اضطرها حكم القضاء إلى الصمت. فتفرق كتابها، وانتشر أصحابها في الأرض يبتغون من فضل الله عليهم وعلى الناس، وسكت هذا الصوت، أو هذه الأصوات التي كانت تسمع مع الصباح في كل يوم، والتي كانت تفتح للساسة والأدباء وأصحاب الاقتصاد والذين يلتمسون الأنباء فنوناً من القول وألواناً من الحديث. تحدث الأدباء عن هذا الحدث الأدبي السياسي، في السر أو في الجهر، في النوم أو في اليقظة، في الحقيقة أو في الخيال. وتساءلوا ما باله لم ينطق الأدباء بشيء، فكان الجواب أن مصر الآن نائمة تستريح.

ثم مضى من الأسبوع يوم ويوم ويوم. وإذا حفل يقام واجتماع يحتشد له الناس في ملعب من ملاعب التمثيل، وإذا خطب تلقى مختلفة ألوانها، متباينة أشكالها، وإذا شاعر يكرم بهذا الاجتماع الضخم، وبهذا الاحتفال الرائع، وبهذه الخطب الطوال. وإذا الأدباء - استغفر الله - بل الشعراء منهم خاصة، يتحدثون بهذا الحدث الأدبي، ويتناقلون أنباءه، ويفسرونها ويؤولونها، في السر أو في الجهر، في النوم أو في اليقظة، في الحقيقة أو في الخيال. ثم يتساءلون ما بال الشعراء لم يشاركوا في تكريم الشاعر، فكان الجواب أن مصر الآن نائمة تستريح.

وأنا أعترف بأني لم أكره هذا الجواب، ولم أضق به، فحب النوم والإغراق في الراحة شر، ولكن بعض الشر أهون من بعض وأنا أعترف بأني أوثر هذا الجواب على جواب آخر بغيض، لا أحب أن أسمعه ولا أن يسمعه غيري، ولا أن يكون هو المصور لحقيقة الأمر. وقد كان يهمس به بعض الناس الذين يفترون الكذب على الله وعلى الناس، فكانوا يقولون وليتهم لم يقولوا: إنما تثاقل الأدباء والمثقفون من ذكر مختار لأن ذكر مختار شيء يخاف، وكانوا يقولون وليتهم لم يقولوا: إنما سكتت أصوات الأدباء عن صمت أولئك الكتاب، لأن التعرض لصمت أولئك الكتاب أو نطقهم شيء يخاف، وكانوا يقولون وليتهم لم يقولوا: إنما ثقل الشعر على تكريم العقاد، لأن تكريم العقاد شيء يخاف من جهة، وشيء يشق على الشعراء من جهة أخرى. وقد استقر الخوف على

أحد جناحي الشعر، واستقرت المنافسة على جناحه الآخر، فظل المسكين جاثماً على الأرض، لا يستطيع أن يرقى في الجو، ولا أن يسبح في الهواء.

أما أنا فلم يعجبني الجواب الأول، لأني رجل لا أحب النوم، ولا أستريح إلى الراحة، ولم يعجبني الجواب الثاني، لأنه كذب كله، أملاه سوء الظن وحب الكيد. ولهذا أعرضت عن أحاديث الأدباء في هذا الأسبوع، وتحدثت إلى نفسي، وإلى نفسي وحدها، بحديث لا صلة

بينه وبين الأدب، ولا صلة بينه وبين السياسة، ولا صلة بينه وبين شيء مما يعنى به الناس الممتازون في هذا البلاد الآن، وهو حديث المنجمين. لا تعجب وتأخذك الدهشة، فقد فكرت في المنجمين وأطلت التفكير. ألم تزعم لنا الصحف أن السلطان يطارد التنجيم والمنجمين في مصر؟ فما يعني أن أفكر في التنجيم والمنجمين وأنا أقرأ في الصحف الأوربية أن التنجيم ينهض في أوروبا بعد كبوته ويستيقظ بعد نومه الطويل، ويسترد مكانته العليا في قصور الملوك ودواوين الوزراء، أستغفر الله، بل في ميادين القتال، بل في الجامعات أيضاً. فهذه صحيفة فرنسية - النوفيل ليترير - تحدثنا بأن صاحب الجلالة جورج الملك الإمبراطور، قد عنى بالتنجيم وحديث المنجمين، فأبى أن يسافر أبنه إلى أستراليا في يوم كان المنجمون يخافون منه الشر، واحترقت فيه طيارة فرنسية كانت تحمل حاكم الهند الصينية العام.

والصحيفة نفسها تحدثنا بأن الزعيم الإيطالي العظيم يحفل بالتنجيم والمنجمين، كما يحفل بالسياسة والساسة. وهي تحدثنا بان الألمانيين كانوا قد ألحقوا بقيادتهم العليا أثناء الحرب منجمين، وكانت كلمة هؤلاء المنجمين مسموعة، وكانت وعود المنجمين لقواد الألمان أصدق من وعيد المنجمين للمعتصم بن الرشيد. والصحيفة نفسها تحدثنا بأن الألمانيين أنشئوا كرسياً للتنجيم في جامعة برلين سنة 1918. ثم الصحيفة نفسها تلوم فرنسا لأنها لا تعني بالتنجيم والمنجمين عناية الإنجليز والإيطاليين والألمان، فكيف لو علمت هذه الصحيفة أن المصريين يعدون التنجيم أثماً، ويرون المنجمين جماعة من المتشردين؟ إلا يؤذن لنا في أن نلفت السلطان إلى أنه ليس من الضروري أن يكون بيننا وبين الأوروبيين هذا الأمد البعيد فنحارب التنجيم ونعرض عنه حين يؤيده الأوروبيين ويقبلون عليه. أليس من الخير أن يكون لكل وزارة منجمها؟ بل مالنا وللوزارات ومنجميها؟ ألسنا نرى أن التحدث إلى النفس في التنجيم والمنجمين خير من التحدث أليها في الأدب والأدباء؟

طه حسين

حكمة غاندي

وضع أحد كتاب اليونان الشباب ترجمة للمهاتما غاندي أسماها (الحياة المقدسة) ونحن نقتبس منها حديثاً لغاندي يقارن فيه بين عصر الآلة وبين الحياة في عصر الصناعة اليدوية التي يحدثنا عنها في تأثر وحنين:

كانت حياتنا في الأزمنة الخالية، قبل أن يحل بيننا هذا الوحش وأعنى به الآلة، حياة إنسانية جميلة. فقد كان عندنا متسع من الوقت للتفكير والخلو إلى النفس في المعابد صباحاً، وتحت ظلال الأشجار في هجيرة الظهر، وفي أفنية المنازل مساء، حتى في أوقات العمل ونحن جلوس إلى المناسج أو قائمون في المزارع نفلح الأرض، نجد الوقت للإنشاء وللتوجه بأرواحنا إلى ملكوت الجمال والحق،

أما أخواتنا فأنهن قبل الشروع في أعمالهن في الحقول، يضفرن أكاليل الزهر ويعلقنها على قرون البقر، فلم يكن للزمن عندنا في يوم من الأيام من المعنى ماله اليوم عند الأوروبيين. ولم يعلمنا واحد من حكمائنا هذا المبدأ المنكر (الوقت من ذهب) فلم نكن من الهيام بالذهب بحيث نضحي كل وقتنا من أجله. لأن العمل في اعتقادنا هو خلق الجمال والتوجه بأرواحنا إلى الله.

وأني لأذكر أن أبوي في صغري أخذاني معهما لأشهد كيف يكون بدء اشتغال الفتى بصناعة أبيه. فقد كان الفتى أول الأمر يمضي للاغتسال في النهر ليكون لجسمه طهارة نفسه. ثم تأخذه أمه إلى المعبد. ويكون أبوه وشيوخ القرية في انتظاره حول النار المقدسة وعند ذاك يسأله أبوه:

- أتريد استئناف صناعتي؟ أتريد أنت أيضا أن تصبح حداداً؟

- نعم يا أبت.

ثم يقسم اليمين المفروضة:
أقسم بالنار وبأجدادي، وبالله الحي القيوم، أني راغب في أن أكون حداداً، وأني راغب
وإذ ذاك يقدم له أبوه (أخوته الصغار) ويعني بها (في خلق الجمال والمنفعة للناس
الأدوات، لأنها له بمثابة الخلان الأوفياء في حياته العاملة الكادحة.
ويتناول الفتى محراك الجمر والمطرقة والكير والميدع من أدم وأنه يتناولها بحنان
كأنها أحياء، ويقول مجدداً بيمينه:
(أقسم أني لا أدنس هذه الأدوات. وإنما استخدمها في خلق الجمال والمنفعة للناس).
ثم يستطرد غاندي في ذكرياته:
لقد عرفت العهد السعيد الذي كان فيه ناسجو الشيلان مثلاً في عداد الفنانين، أي صنو
المثالين والرسامين سواء بسواء.
وكانوا يجلسون صبيانهم حول المنسج يمسك هذا كبة الصوف الأزرق، والآخر والأحمر،
وذاك الصوف المعصفر، وذلك الأخضر. . .
وفي صباح كل يوم قبل البدء في العمل، يرفع المعلم الشيخ عصاه. فيسود السكون
مطلقاً شاملاً. هذه آونة التأمل، ثم تعقبها الصلاة. فيبتهلون إلى الله أن يعينهم على
صنع ما هو جميل ونافع للناس. فإذا فرغوا من الصلاة، أخذوا في الإنشاد على فريقين
سائل ومجيب:
- ماذا تنسجون؟ ننسج السماء ونجومها
- ماذا تنسجون؟ ننسج الأرض وزهرها
- ماذا تنسجون؟ ننسج البحر وحيتانه وسفائنه
والصبيان يداولون خيوط الصوف، كل في دوره، في حركة موزونة موقعة. والمعلم
جالس في وسطهم يضبط الإيقاع، وينظم بعصاه الصغيرة حركة الذهاب والإياب
للخيوط المتداولة زرقاً وحمراً وخضراً. . فتتولد شيئاً فشيئاً قطعة موسيقية من النسج
عجيبة التأليف من الشيات والألوان.
ويتجدد هذا العمل كل يوم بين الصلاة والإنشاد
وبعد أسابيع ثلاث يتم الشال. وإذ ذاك يستعرضه كل صبي ويقلبه بين يديه معجباً
بجماله، هذا صنيعهم أجمعين. وهم يحبونه كأنه مخلوق حي لا تقوم نفاسته بثمن،
فيرمقونه طويلاً بأنظارهم، ويمسحون عليه بأيديهم، ولا تكاد تطاوع أنفسهم على
التخلي عنه
ويقول المعلم الشيخ: - هيا أطلقوا عليه اسماً.
فيقول الشيخ: - بل نسميه (البهيج) أليس هو وليد البهجة وصنع الفرحة والحبور؟
فيهتف الجميع استحساناً، ويمضي الشال في طريقه إلى الدنيا الواسعة، ويأخذ المعلم
وصبيانه من جديد في عملهم. وهكذا في كل ثلاثة أسابيع يطلعون الدنيا آية جديدة.
عبد الرحمن صدقي
الموت والحياة
للأستاذ أحمد أمين
أبت عليَّ نفسي أن تكتب اليوم إلا في الموت، وهل نتاج الكاتب إلا قطعة من نفسه؟
يفرح فيرقص قلمه، وينقبض فيسبل قلمه بالدمع، وقد كرهت للقراء هذا العنوان
فأضفت إلى الموت الحياة، ولست أدري لمَ يلطف ذكر الحياة الموت، ولا يلطف ذكر
الموت الحياة
دعا إلى هذا أني فجعت هذه الأيام بموت أصدقاء كأنهم كانوا على ميعاد، وكأن لموت
الأصدقاء أيضاً موسماً كسائر المواسم وإن لم يحدد زمنه ويعرف زمنه ويعرف مداه.
تنفك تسمع ما حيي ... ت بهالك حتى تكونه
والمرء قد يرجو الحيا ... ة مؤملاً والموت دونه
وكان آخرهم صديق استعجل الموت فأنشب في المنية أظفاره قبل أن تنشب فيه
أظفاره، وقطع حظه من الدنيا قبل أن تستوفي حظها منه، لم يصبه سهم القضاء فأخذ
السهم منه ورماه بنفسه في نفسه فمضى سابقاً أجله - غربت شمسه ضحى،
واستكملت ساعته دقاتها قبل ميعادها
كان سريّ النفس، نبيل الخلق، طيب العنصر، يغبطه كل من عرفه على ما وهب من
خلال، وما تهيأ له من وسائل الرفاهة وأسباب النعيم، وما دروا أن الأمر في السعادة

والشقاء إلى ما في داخل النفس لا ما في خارجها، وأن نفوساً قد تشقى في النعيم، ونفوساً قد تسعد في الشقاء.

جزعت لموته واستكنت للعبرة، وفقدت بفقده السلطان على دمعي وقلبي، فرحمه الله ورحمني.

ولكن ما الجزع من الموت وقد طال عهدنا به، وعرفه بنو آدم منذ عرفوا الحياة. ولمَ لم يألفوه كما ألفوه كثيراً من المر حتى إعتادوه، وليس الموت في ذاكرته مراً ولا أليماً، وكما قال أحد الرواقيين (إن الموت هو وحده المصيبة التي لا تمسنا، ففي حياتنا لا موت، وإذا جاء الموت فلا حياة) وقد نظم المتنبي هذا المعنى فقال:

والأسى قبل فرقة الروح عجز ... والأسى لا يكون بعد الفراق

ولكن أعظم الناس شأن الموت لما أحاط به من ظروف، وما أتصل به من خيالات، وأثير حوله من رعب بالغ بعض من رجال الدين في تفظيع الموت، وهولوا من شأنه تهويلاً تنخلع له القلوب، وتقشعر منه الجلود، لأنهم رأوا في ذلك درساً قاسياً يردع المجرم عن أجرامه، ويزع الآثم عن أثمه، ولكن أخشى أن يكونوا قد أفرطوا إفراطاً شل النفس وأشاع فيها اليأس. وأنهم - وقد عهد إليهم أن يعادلوا بين الترغيب والترهيب - قد أرهقوا كفة الترهيب حتى ثقلت وهوت، وخففوا كفة الترغيب حتى شالت وعلت - ولعل هذا كان من الأسباب التي جعلتنا نتسخط الحياة ونتبرم بها. ثم ما هذه الأخلاق التي هي أشبه ما تكون بأخلاق العبيد! لا ندعى للخير إلا بالعصا، ولا تطلب منا الفضيلة إلا بالسياط؟

أليس خيراً من ذلك أن يحدونا إلى الخير الحب. لا أن يسوقنا إليه الرعب؟

ثم زاد الموت سوءاً ما أحاطه به الأحياء من مظاهر الفزع والألم، فصراخ تنفطر له المرائر، وبكاء يذيب لفائف القلوب، والناس حول الميت بين ساهم البصر، ومطرق الطرف، ومكروب النفس، وناكس الرأس، يتأوه الآهة تنقصف منها ضلوعه، ويزفر الزفرة تتصدع منها نفسه - لست أظن أن هذا وأمثاله من طبيعة الإنسان، قد يكون من طبيعته الحزن على فقد القريب والصديق، ولكن ليس من طبيعته الجزع، فلو اعتاد قوم أن يقابلوا الموت كما يقابلون أية ظاهرة طبيعية في الحياة لزال الجزع وخف الألم، كما حدث عند بعض الأمم، استطاعوا أن يضبطوا عواطفهم وينفقوا من الحزن بقدر، وأن يرددوا قول القائل (مات الميت فليحي الحي) وتفاخروا بالجلد كما نتفاخر بالجزع، وتواسوا بالثبات كما نتواسى بالهلع.

ثم كان من الأدباء ما كان من رجال الدين: حزنوا للشيب إذ فقدوا الشباب، أكثر مما فرحوا بالشباب يوم أن كان، ووقفوا في مراثيهم موقف النادبات في المآتم، يعجبون كيف كان الموت وكيف نزل، ويلهبون عواطف الناس، ويثيرون أشجانهم، ويعدون أقدرهم على القول وأقربهم إلى الإجادة من عرف كيف يستخرج الدمع ويستنزف الشؤون، فكان من هذا وذاك إفساد عواطف الناس نحو الموت ودفعهم إلى التغالي في المشاعر.

ثم أخطأ الناس في القياس، فظنوا أن النفس تألم في الحياة الأخرى بما تألم به في الحياة الدنيا. ظنوا أن القبر يوحش بعزلته كما يستوحش الحي من عزلته، وأن القبر يرهب بضيقه وظلمته، كما يتبرم الحي بضيق المكان وظلمته، وأن الميت يألم من البرد القارس كما نألم، ويضجر من الحر القاسي كما نضجر، وغاب عنهم إدراك الفرق بين الحياتين، والاختلاف الواسع بين الطبيعتين

إذا افترقت أجزاء جسمي لم أُبَلْ ... حلول الرزايا في مصيف ولا مشتى

أن تفظيع الموت يدعو إلى نوع من الحياة لا هو حياة ولا هو موت، ولعل كثيراً من رذائل الشرق سببه ما اعتاده قادتهم من تهويل الموت وتفظيع شأنه، وإلا فما الذي يجعلنا نرضى بالعيش الذليل بين أحضان آبائنا وأمهاتنا ولا نتطلب العيش السعيد بالهجرة والارتحال؟ وما الذي يدعونا إلى الفرار من المغامرة في شؤون الحياة، والركون إلى عيش الدعة والاطمئنان، وإلى كثير من أمثال ذلك؟ لا شيء إلا التغالي في الخوف من الموت، للتغالي في تهويل الموت.

لقد جل خطب الحياة أن كان كلما مات قريب أو صديق ذابت النفس حسرات،

وأظلمت في وجهنا الدنيا، وتطرق ألينا اليأس.
لا. لا. أعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، وتباً لهؤلاء الذين يخلعون قلوبنا بالموت فنكون طعمة لمن يحبون الحياة.
ولنبدأ دعوة جديدة قوامها العمل للحياة و (لا بأس بالموت إذا الموت نزل).
أحمد أمين

الانقلاب الجمهوري في أسبانيا

حرب الريف إلى قيام الجمهورية - 3

بقلم الأستاذ محمد عبد الله عنان

كانت حوادث مراكش كابوس السياسة الأسبانية منذ نهاية الحرب. وكان لها أكبر أثر في تطور الحوادث التي انتهت بظفر الديموقراطية وقيام الجمهورية، وما زلنا نذكر تلك الحرب التحريرية العجيبة التي شهرها عبد الكريم زعيم الريف على أسبانيا مدى أعوام، ودحر خلالها الجيوش الأسبانية مراراً، وكاد يظفر بسحق سيادة أسبانيا في شمال مراكش لولا أن تألبت عليه قوى الاستعمار أخيراً واتحدت فرنسا مع أسبانيا على محاربته وسحقه، فكان ما أراد الاستعمار.

وكانت أسبانيا تعاني في بلاد الريف (شمال مراكش) منذ احتلالها متاعب جمة من جراء ثورة القبائل وتضطر دائماً إلى الاحتفاظ بجيش ضخم، ولكن أول نكبة حقيقية نزلت بالجيش الأسباني في بلاد الريف، وقعت في أنوال سنة 1921، ففيها هاجم عبد الكريم زعيم الريف مراكز القوات الأسبانية في تلك المنطقة، وكانت تبلغ زهاء تسع عشرة ألفاً، فمزقها واستولى على مراكزها وذخائرها، وقتل منها نحو ستة عشر ألفاً، وفر الباقون في مختلف الأنحاء، وانتحر قائدها الجنرال سلفستر. وكان محمد بن عبد الكريم الخطابي من أبناء بني أراغيل، رباه أبوه تربية حسنة، ودرس اللغة الأسبانية، والتحق بوظيفة في الإدارة الأسبانية بمليلة؛ وفي سنة 1919 وقعت بينه وبين الجنرال سلفستر مشادة حادة وأهانه القائد، ففر من مليلة وهو يعتزم الانتقام ولحق به أخوه (محمد أيضاً) وهو مهندس درس في أسبانيا وكانت القبائل يومئذٍ تتحفز للانتقاض، وكانت قد تلقت أيام الحرب كثيراً من الأسلحة والذخائر التي هربت بواسطة الألمان، فكان ذلك أكبر عون لها على مقاومة القوات الأسبانية وإزعاجها من وقت لآخر. فلما فر عبد الكريم من مليلة داعياً إلى الثورة ألتف حوله عدة مئات من الرجال الأشداء، واستطاع بهذه القوة الضئيلة أن يدبر ذلك الهجوم الجريء على المراكز الأسبانية في أنوال وأن ينزل بها تلك الكارثة الفادحة (يوليه سنة 1921)، واستولى عبد الكريم على كميات هائلة من الأسلحة والذخائر مكنته من المثابرة في الحرب أعواماً. وكان للنكبة وقع عميق في أسبانيا، فاضطرم الرأي العام سخطاً

واضطرت وزارة سالازار إلى الاستقالة، وألفت وزارة محافظة برياسة السنيور مورا. ولكن الرأي العام ظل على اضطرامه، وارتفعت الصيحة بطلب التحقيق في الكارثة، وحملت الدوائر العسكرية على البرلمان باعتباره مسئولاً عما وقع من الاضطراب والخلل في الخطط والتدابير العسكرية، وأرسل إلى مراكش جيش ضخم يبلغ مائة وأربعين ألفاً لتدارك الموقف وإنقاذ القوات المحرجة، وانتدبت الوزارة لجنة للتحقيق، ولكنها اضطرت إلى الاستقالة قبل أن تقوم اللجنة بمهمتها، فقامت وزارة محافظة أخرى برآسة السينور سانكيز جويرا، ثم تلتها وزارة حرة برآسة جراسيا بريتو؛ وفيها تولى وزارة الحربية موظف مدني هو الكالا زامورا الذي يتولى اليوم رآسة الجمهورية الأسبانية، ولكنه استقال غير بعيد وخلفه جندي هو الجنرال ايزبورو، وكان من أنصار العسكرية الرجعية وحلفائها، ومن خصوم النظام الدستوري، فأخذ يعمل بكل ما وسع لتوطيد النفوذ العسكري في شئون الحكم، وكان هذا النفوذ يشتد يوماً فيوماً، تغذية حوادث مراكش، وما أثارته من الاضطراب.

وفي خريف سنة 1923 تمخض النضال بين العسكرية والديموقراطية عن نتيجة حاسمة. وذلك أن الدون مجويل بريمو دى رفيرا حاكم قطلونية العسكري أعلن الثورة ضد الحكومة وهدد أعضائها، وأيدته السلطات العسكرية في مدريد وسرقسطة، وأذاع في البلاد منشوراً نادى فيه بتحرير البلاد من الساسة المحترفين الذين يحملون تبعة ما أصاب البلاد من محن، وأعلن قيام إدارة عسكرية في مدريد، لإقالة البلاد من عثراتها وحل المسألة المراكشية (أوائل سبتمبر سنة 1923). وكان الفونسو الثالث عشر

يعتقد أنه يستطيع انتهاز هذه الفرصة لإقامة الحكم المطلق واستئثار القصر بجميع السلطات ومن ورائه الجيش، ولكن زعماء الجيش أصروا على أن يتولى زعيم الثورة الجنرال دي رفيرا الحكم. وفي 15 سبتمبر دخل دي فيرا مدريد، واحتل دور الحكومة، وسيطرت العسكرية في الحال على كل شيء، وأنشئت الإدارة العسكرية وعلى رأسها دي رفيرا، وأعلنت أن البلاد في حالة حرب، واتخذت إجراءات شديدة لسحق كل معارضة، وعطلت البرلمان، وفرضت الرقابة على الصحف، وذهب وفد من زعماء الساسة الأحرار والمحافظين إلى الملك يناشده صون الحياة النيابية فرد، بخشونة.

وقد وصف هذا الطغيان العسكري الجديد يومئذٍ بأنه (نظام يقوم على القوة بأكثر ما يقوم على السلطة، ذو نزعة مركزية قوية، يعتمد على مؤازرة الجيش، ويميل إلى عناصر الأحبار والكنيسة، ويصادق كبار الملاك، ويعطف على الاشتراكية في خصومتها للحركة النقابية) وتولى الجنرال دي رفيرا جميع السلطات والوزارات على مثل السنيور موسوليني وقضى على جميع الحريات الدستورية التي تمتعت بها أسبانيا أكثر من قرن، واستقبلت أسبانيا عهداً جديداً من الحكم الحديدي.

وكانت مسألة مراكش أهم وأخطر المسائل التي عنيت بها الإدارة العسكرية؛ وكان مركز أسبانيا يزداد حرجاً في الريف، وتستنزف مواردها تباعاً، ويتساقط جندها أمام هجمات عبد الكريم فرأى دي رفيرا أن يلجأ إلى الصراحة والجرأة في حل المسألة المراكشية، وقرر أن تنسحب القوات الأسبانية من المناطق الداخلية وأن تمتنع فيما يلي الشاطئ؛ وهكذا استطاع عبد الكريم أن يسيطر على إقليم الريف كله ما عدا تيطوان ومليلة، واجتمعت حوله القبائل، وأضحى قوة يخشى بأسها في شمال مراكش؛ ولم يبق استقلال الريف أمنية مستحيلة، ولم تبق على تحقيقها سوى مرحلة يسيرة، ولتكن الحوادث تطورت بشكل لم يكن يتوقعه عبد الكريم ولم تكن تتوقعه أسبانيا ذاتها. ذلك أن الفرنسيين تقدموا من حدود الريف الجنوبية، وخشى عبد الكريم عواقب هذا التقدم، فرأى أن يحول شطراً من اهتمامه إلى هذه الناحية. وفي سنة 1925 نظم عبد الكريم هجوماً شديداً على مراكز تازة ووجده داخل الحماية الفرنسية، وأثخن في بعض القبائل الموالية للفرنسيين وهدد مدينة فاس، فارتاعت فرنسا لتلك المفاجأة، وكانت لا تزال تلقى في مراكش متاعب جمة؛ واعتزم الجنرال ليوتي حاكم مراكش العام أن يسحق تلك القوة الخطرة؛ وفاوضت فرنسا أسبانيا في تنظيم العمل المشترك في مراكش ورحب دي رفيرا بهذه الفكرة، ونظمت الدولتان خطة مشتركة لتطويق عبد الكريم وسحق قواته وبعثت فرنسا أثنين من أعظم قوادها وهما بتان ونولان إلى مراكش على رأس جيشه قوامه نحو مائتي ألف مقاتل مجهز بأحدث الوسائل والعدد، وأنزلت أسبانيا جيشاً كبيراً في الحسيمة، ونظم الجيشان بادئ بدء خطة الاتصال. وهكذا طوق الزعيم الريفي في مراكزه ولم يك ثمة شك في مصير تلك الحرب التي تثيرها دولتان أوربيتان على زعيم محلى يعتمد على آلاف قليلة من البدو ويستمد موارده وذخائره من أيدي عدوه، وأدرك عبد الكريم من شدة المعارك الأولى أن المضي في القتال عبث، وأن الدائرة دائرة عليه بلا ريب، ففاوض الفرنسيين في التسليم بلا قيد ولا شرط، وفي 30 مايو سنة 1926 سلم نفسه إلى الجنرال بويشيت، ودارت بشأنه مفاوضة بين الحكومتين الفرنسية والأسبانية انتهت بتقرير نفيه مع أسرته إلى جزيرة رينيون من أعمال مدغشقر؛ وانهارت تلك الحركة التحريرية البديعة التي نظمها هذا الزعيم البربري الباسل، وعاد الاستعمار الأسباني فوطد سيادته في الريف، ووطد الاستعمار الفرنسي سيادته في شمالي مراكش؛ وخسرت الدولتان في تلك الحرب آلاف الرجال وملايين الأموال، ولكن الاستعمار لم يكن ليحجم عن بذل مثل هذه التضحيات الهائلة في سبيل القضاء على ثورة تحريرية تهدد مستقبله في تلك الأنحاء.

وهكذا حلت المسألة المراكشية. وكان حلها عاملاً قوياً في تأييد نفوذ الدكتاتورية العسكرية وهيبتها. وفي عهد الدكتاتورية أيضاً تحسنت الأحوال الاقتصادية. ولكن وطأة هذا النظام المطلق لبثت تثقل كاهل الشعب الأسباني؛ وكان ظمأه إلى الحريات الدستورية التي تمتع بها مدى قرن، يشتد كلما اشتد ضغط الطغيان العسكري؛ وكان هذا السخط ينفجر من آن لآخر في قطلونية وبعض الأنحاء الأخرى عن ثورات محلية

كان دي رفيرا (أو المركيز دي استيلا كما لقب بعد) يقمعها بمنتهى الشدة والقسوة؛ وكانت الدكتاتورية مع ذلك تقوم دائماً على بركان مضطرم، حتى أن دي رفيرا أضطر أن يضع أسبانيا تحت الأحكام العسكرية (سنة 1926). وفي أوائل سنة 1927 حاول زعيم قطلونية المنفى الكولونيل ماشا أن يعبر الحدود الفرنسية مع جماعة كبيرة مسلحة من أنصاره ليسير إلى قطلونية؛ ولكن قبض عليه وعلى كثير من أصحابه عند الحدود. ورأى دي رفيرا أن يهدئ السخط العام بتخفيف وطأة النظام، وأن يعود إلى ظاهر من الحكم الدستوري، فأصدر في سبتمبر سنة 1927 قانوناً بإنشاء جمعية للشورى. ولكن هذه الجمعية لم تكن لها أية سلطة حقيقية، ولم تكن إلا ستاراً فقط تستر من ورائه الإدارة العسكرية. وعلى ذلك فقد فشلت هذه المحاولة، ولبثت المعارضة على شدتها واضطرامها. وكان الجيش أيضاً قد بدأ ينقلب على دي رفيرا، أولاً لأنه لم يوافق على مسلكه في المسألة المراكشية حيث قرر الانسحاب أولاً عن المناطق التي كان يحتلها الجيش، ثم تساهل بعد ذلك في الاتفاق مع فرنسا، وثانياً لأنه كان يبالغ في الاستئثار بالأمر ولا يرى في الجيش سوى أداة لتحقيق سياسته؛ وكان الفونسو الثالث عشر من جهة أخرى يشعر بوطأة هذا النظام الذي نزع العرش كل سلطاته. ومنذ سنة 1928 أخذت بوادر السخط والانتقاض تبدو في الجيش؛ وفي سنة 1929، ثارت فرق المدفعية بزعامة السينور سانكيز جويرا الزعيم المحافظ الذي تولى رياسة الوزارة فيما قبل؛ وانتهز الفونسو الثالث عشر هذه الفرصة فأصدر أمراً بعزل بريمودي رفيرا وحل الإدارة العسكرية؛ ولم يجد دي رفيرا سبيلاً للمقاومة فأذعن وغادر منصة الحكم بعد أن لبثت ستة أعوام يثقل كاهل الشعب الأسباني بطغيانه وعسفه. وفي مستهل سنة 1930، ألفت حكومة جديدة برياسة الجنرال برنجير، لتعمل على إعادة الحكم الدستوري؛ وهنا تنفس الشعب الصعداء، وتقدم زعماء الأحزاب المعارضة (المحافظون والأحرار والجمهوريون) بطلب إجراء الانتخابات العامة، فعارضت الحكومة في أجرائها. واشتد السخط حينما رأى الشعب أن الحكومة الجديدة لم تأت إلا لتستمر في تأييد نظام الطغيان والحكم المطلق. وفي ديسمبر سنة 1930، شبت ثورة جديدة، ولكن الجنرال برنجير استطاع أن يسحقها في الحال بيد أنه لم يلبث أن استقال؛ وخلفه الجنرال آزنار على رأسه حكومة شبه عسكرية أيضاً؛ وهنا تقدم الكونت رومانونيس زعيم الأحرار الذي تولى رياسة الوزارة مراراً من قبل، إلى الوزارة الجديدة، بنصيحة رآها كفيلة بحل الأزمة وتهدئة الخواطر، وهي أن تجرى الانتخابات البلدية على الأقل ما دام إنها لا ترغب في إجراء الانتخابات العامة؛ فنزلت الوزارة عند هذا النصح، وأجريت الانتخابات البلدية في جميع أسبانيا في العاشر من أبريل سنة 1931. وكان يوماً حاسماً في تاريخ أسبانيا في العاشر من أبريل سنة 1931. وكان يوماً حاسماً في تاريخ أسبانيا الحديث؛ ففيه خرج الجمهوريون في جميع الدوائر بأغلبية ساحقة، وغمر التيار الجمهوري كل شيء في البلاد، فاستقالت الوزارة في الحال. ورأى الفونسو الثالث عشر أنه لم يبق سبيل للمقاومة، ولم تبق للعرش قوة يستند إليها، فبادر بمغادرة مدريد مع أسرته وخاصته، وعبر الحدود إلى فرنسا قبل أن تمتد إليه يد خصومه؛ ولكنه لم ينزل عن شيء من حقوقه. وفي الحال نودي في أسبانيا بسقوط الملكية وقيام الجمهورية؛ وأقيمت حكومة جمهورية احتياطية برياسة الكالا زامورا وزير الحربية السابق ورئيس الشعبة المحافظة في الحزب الجمهوري؛ وأعلن في الوقت نفسه قيام جمهورية في قلطونية على رأسها الكولونيل ماشا؛ وفي 28 يونيه أجريت الانتخابات البرلمانية العامة، فأسفرت كذلك عن أغلبية جمهورية ساحقة، وتوطدت دعائم الجمهورية الجديدة بتأييد البلاد كلها.

وهكذا انهارت دعائم الملوكية الأسبانية العتيدة؛ التي هي أقدم الملوكيات الأوروبية، والتي سطعت خلال قرون مديدة، وأخرجت ثبتاً حافلاً من الملوك العظام - ملوكية فرديناند الخامس وشارلكان وفيليب الثاني؛ تلك الملوكية التي لبثت تغالب العرب في أسبانيا ثمانية قرون، والتي انتهت بالقضاء على دولة الإسلام في الأندلس واسترجاع الوطن القديم كله. وهكذا ظفرت الديمقراطية الأسبانية ممثلة الشعب الأسباني باسترداد الحريات الدستورية كاملة شاملة بعد أن كاد يقضى عليها القضاء الأخير. وكان أول ما عنيت به الحكومة الجمهورية هو أن تضع لأسبانيا دستوراً جديداً لحماية

المبادئ الجمهورية والحريات الشعبية، واضطلع الكورتيز (البرلمان الأسباني) بهذه المهمة منذ 14 يوليه وأتمها في ديسمبر؛ وكان من أهم المشاكل التي عالجها مسألة النظام الاتحادي الذي نشأ عن مطالبة قطلونية بالاستقلال الداخلي؛ وقد أقر الدستور هذا المبدأ، واعتبر أسبانيا جمهورية اتحادية واعترف باستقلال قطلونية الداخلي. وثمة مسألة خطيرة أخرى هي مسألة الكنيسة والدولة، وقد انتهى البرلمان بالموافقة على فصل الكنيسة عن الدولة (أكتوبر سنة 1931) ولكن هذا القرار أحدث أزمة وزارية، فاستقال السينور الكالا زامورا، وقامت وزارة جديدة برياسة الدون مانويل أزانا. وعانت أسبانيا خلال هذه الفترة كثيراً من المتاعب من جراء الثورات والمظاهرات المختلفة التي دبرتها أحزاب اليسار المتطرفة - الشيوعيون والاشتراكيون - ومن الاعتصابات العامة التي نظمت في كثير من أنحاء البلاد؛ وعانت الجمهورية الجديدة من جراء معارضة الكنيسة ودسائس الأحبار وفلول الملوكية؛ ولكن الحكومة الجمهورية أبدت حزماً وصرامة في قمع الفتن الشيوعية، وسحق دسائس الأحبار؛ وثار بين أسبانيا والفاتيكان خلاف كبير من جراء نزع أملاك الكنيسة ومطاردة الأحبار. وأصدرت الحكومة قانوناً خاصاً لحماية الجمهورية (20 أكتوبر) - وفي نوفمبر صدر قانون خاص باعتبار الفونسو الثالث عشر خارجاً على القانون وبوجوب مثوله ومحاكمته. وفي العاشر من ديسمبر أجريت الانتخابات لرآسة الجمهورية، فانتخب السينور أل لا زاموار أول رئيس للجمهورية الأسبانية الثانية. . وقد اضطرمت أسبانيا في الفترة الأخيرة بعدة ثورات وفتن

محلية ودبرت عدة مؤامرات ملكية، ولكنها أخفقت جميعاً: وفي العهد الآخر رأت حكومة الجمهورية أن تستعين على قمع الفتن بالتشريع الصارم فأصدرت قانوناً بإعادة عقوبة الإعدام، وكان من جراء ذلك جدل حاد في البرلمان بين الحكومة والمعارضة بزعامة السينور مورا وكادت تحدث، أزمة وزارية جديدة، ولكن السينور ليرو رئيس الوزارة الحالية استطاع أن يتلافى الأزمة، وصدر التشريع الجديد، وما زالت الجمهورية الفتية سائرة في طريقها تغالب كيد خصومها من قبل الملوكية والأحبار الذين قضت على سلطانهم وامتيازاتهم. ولا ريب أن في ظفر الديموقراطية بأسبانيا إبان تلك الأزمة العصبية التي تعانيها في بلاد أخرى مثل ألمانيا والنمسا، دليلاً على أن الديموقراطية ما زالت تتمتع بحيوية كبيرة وأنها إنما تجوز أزمة وقتية لا تلبث أن تعود بعدها إلى سابق توطدها وازدهارها.

محمد عبد الله عنان المحامي

هل لمصر طراز؟

للأديب حسين شوقي

يجب أن تكون أبنيتنا الخاصة والعامة على طراز وطني. إما على الطراز العربي وإما على الطراز الفرعوني، ولو أني أفضل الطراز العربي بنقشه الدقيق الأشبه بالدانتلا، وزجاج نوافذه الملون الجميل، لأن القاهرة الآن حاضرة العالم العربي أجمع. . كما أن الطراز الفرعوني لا يظهر بهاؤه إلا في البنايات الكبيرة الشاهقة؛ أما في المساكن الصغيرة فقد يضيع فيه حسنه. . والطراز العربي قابل جداً للتطور مع مقتضيات العصر من مراعاة الإضاءة والتهوية دون أن يفقد شيئاً من رونقه، فقد شاهدت في أسبانيا منازل خاصة بنيت على الطراز العربي المستحدث آية في الذوق. . أما الآن فنحن في فوضى - في تشديد الدور - تجد هنا بناء على الطراز الفرنسي، كما تشاهد بجانبه بناء على الطراز الإنكليزي. . وترى إلى جانب هذا وذاك بناء على الطراز الحديث. . قد تكون هذه الطرز كلها جميلة في ذاتها، ولكنها لا تناسب طبيعة البلاد ولا تقاليدها. . إن تعدد أشكال البناء في القاهرة يقضى على جمالها وعلى طابعها الشرقي الرائع. يجب إلا يكون تقليدنا للعرب تقليداً أعمى. . لماذا لا نحذو حذو اليابان التي تأخذ عن الغرب مخترعاته ومستحدثاته، دون أن تنزل عن تقاليدها؟ كم صدق الكاتب الفرنسي الشهير بيير لوتي الذي كان صديقاً حميماً للمرحوم مصطفى كامل باشا حين قال يحذرنا تقليدنا للغرب:

(تجنبوا الحثالة الغربية التي يغمرونكم بها حين تذهب جدتها عندنا. . حافظوا على آثاركم وعاداتكم ولغتكم الجميلة. . .)

هناك مشكلة أخرى. . مشكلة البنايات الأثرية القائمة في وسط القاهرة التي تعوق

حركة العمران. . رأيي أن يحفظ منها الشيء النفيس ويحاط بمتنزه صغير أو ميدان. أما الباقي فيهدم بعد أن يؤخذ له شريط سينمائي دقيق يكون وثيقة تاريخية عن هذه الأحياء للأجيال القادمة. .

أما الفن الحديث وله أنصار كثيرون، فلم يستقر على حال بعد، ولا يزال فنانوه يتخبطون، ينقضون اليوم ما أبرموه بالأمس. وأوروبا نفسها تشكو من المبالغات التي حدثت في الفن

الحديث التي لا يقبلها ذوق ولا منطق. . واليك هذه الفكاهة التي قرأتها في إحدى الصحف الفرنسية نقداً لهذا الفن الحديث:

عرض أحد المصورين منظراً يمثل عبور بني إسرائيل البحر الأحمر، فسأله صديق له شاهد الصورة فلم يجد غير منظر البحر: ولكن أين بنو إسرائيل؟ قال لقد انتهوا من العبور، قال؛ وجند فرعون الذين يطاردونهم؟ قال لم يأتوا بعد!

حسين شوقي

الفلسفة في مهدها

للأستاذ زكي نجيب محمود

لم تكد تقذف الحياة بهذا الإنسان فوق ظهر الأرض ضعيفاً خائراً، حتى دأب المسكين يسعى ويلح في السعي كلما ألحت عليه ضرورة البقاء، ولم تكن الحياة حين ألقت به رحيمة كريمة فلم تبسط يدها في العطاء بحيث تمنحه من قوى التفكير والغريزة ما يرد به غائلة الضرورة واعتداء الطبيعة في سهولة ويسر، بل كانت مقترة مغلولة اليد، واكتفت من ذلك بالحد الأدنى الذي يحتمه مجرد البقاء، فجاء الإنسان وكل بضاعته من التفكير شعاع خافت ضئيل، يعينه على جمع القوت وإقامة أسباب الحياة.

ولكن الزمان الذي يغير كل شئ قد أخذ بيد الإنسان فأخرجه قليلا قليلاً من تلك الحياة التي كانت تقنع من الغنيمة بدفع الخطر، وما زال به حتى شحذ مواهبه ووسع من نطاق إدراكه، فمرن على القيام بأعباء الحياة بحيث لم يعد يصدر ذلك عن شعور ووعي يستنفذان كل ما يملك من قوة ومجهود، ثم لا يبقى له من دهره شيء. بل أصبحت شئون العيش عادة آلية يديرها اللا شعور. وبذلك استطاع أن يظفر بشيء من الفراغ في الحين بعد الحين، ينعم به بعد جهد العيش الجهيد، فأخذ يلهو بهذا الكون الذي يحيط به، والذي يبعث في النفس اللذة والخوف في آن، ولكن ماذا عساه أن يقول عن ظواهر الكون لكي يرضي خياله الساذج الغرير، سوى أقاصيص ينسجها له الوهم فيرويها لتكون له دينا وأدبا وعلما وما شئت من فنون الإنتاج، وهكذا كانت الميثولوجيا أول الأمر، ثم يمضي الزمن ويمعن في مضيه، فيدفع معه في تياره الجارف هذا الإنسان، فإذا الخيال تضيق دائرته وتضيق. وإذا العقل يتسع ويتسع، ثم إذا بالإنسان قد هانت عليه أعباء الحياة وخفت أثقال البقاء، وبرد الهوب السوط الذي كانت تسلطه عليه ضرورة الحياة ليدأب في جمع القوت ورد الخطر، واستقبل الإنسان عهدا جديدا رأى فيه اللذة والفراغ جنبا إلى جنب مع عناء العمل، وانتقل من حياة تملؤها الضرورات القاسية، إلى حياة يمازجها شئ من ترف الفكر وإبداع الفن، وعندئذ تغير موقف الإنسان، فلم يعد عبدا يذله قانون الحياة وكفى، عليه أن يستمع لإملائه فيطيع، بل اخذ يفكر في خلق السموات والأرض ويسأل نفسه لماذا يكون هذا هكذا؟ وكيف يجيء ذلك كذلك؟ فبدأت بذلك الفلسفة

وكان مهدها الذي تدرجت في كنفه طفلة عابثة، مستعمرة يونانية في آسيا الصغرى على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، حاضرتها مدينة تدعى مليتس، وفي ذلك البلد أضاءت شعلة الفكر خافتة أول الأمر، ثم شاء لها الله أن يمتد نورها ويتوهج حتى يكون قوية مثمرة في أرض اليونان فلسفة عميقة كانت أساس البناء، جذرا للدوحة التي امتدت فيما بعد

في مليتس - في القرن السابع قبل ميلاد المسيح - نهض الإنسان فحطم أغلال الضرورة التي كبلته حينا طويلا من الدهر، وخص شطرا من حياته للتفكير المجرد، الذي يقصد جمع القوت وتوفير أسباب العيش، ولكن فيم عسى أن يفكر ذلك العقل الناشئ؟

بديهي أن يتجه إلى هذه الطبيعة التي يزخر عبابها بالكائنات، والتي تحتويه في غمارها وتملأ عليه شعاب نفسه وحسه، ولم تكن الطبيعة موضوع فلسفته فحسب، بل كان

قصيدا ينشد في حماها الخلاب، وكان دينه تسبيحاً لقوتها وجبروتها، وأية غرابة في هذا؟ أليست سنة الحياة أن يبدأ الطفل حياته الفكرية بما يقع تحت الحس ثم يتدرج صاعدا إلى الفكر المجرد؟

وأول ما استرعى منه النظر واستدعى أعمال الفكر هو هذا التغير الذائب والتحول المستمر الذي يطرأ على الأشياء، فها هو ذا كل شئ، كائنة ما كانت مرتبته في الحياة، يجيء إلى الوجود ليبقى حينا ثم يمضي ويترك الوجود، ولكن يستحيل على الفكر الناضج أن يظن أن هذه الأشياء تأتي من العدم وتنحدر إلى العدم، فليست تدل الظواهر على أن هذا الشيء المعين حينما جاء إلى الوجود، قد بدأ حياة لا يربطها بالماضي سبب من الأسباب، أو حينما يذهب وينقضي قد زال أثرهو تلاشت مادته، إنما تدل الدلائل جميعا على إنها مادة موجودة يطرأ عليها التغيير فتكون اليوم حجرا، وتصبح غدا نباتا يحيا، وقد تكون أنسانا يفكر ويسعى بعد غد، فليت شعري، أو ليت شعر الفلاسفة الأولين، ماذا عساها أن تكون تلك المادة التي تملأ الكون وتبدو في صور مختلفة متباينة؟ تلك هي المشكلة التي حاول فلاسفة أيونيا أن يلتمسوا لها جوابا يقنع ويرضي

وإذا التمس الفكر الإنساني مادة تكون أصلا لكل ما يشمل الوجود من ظواهر، فانه لن يصادف إلا عددا قليلاً من ألوان المادة التي يجوز لها أن تكون كذلك، إذا لا بد لهذه المادة الأولية المنشودة إلا تكون محدودة الصفات والخواص، وأن تكون مرنة شديدة المرونة في

قابليتها للتشكل في صور مختلفة، وماذا تكون تلك المادة الأولية عند قوم يتاخمون البحر، فترسخ في نفوسهم صورته ويدوي في أسماعهم هديره كلما أمسى مساء أو اصبح صباح، غير الماء؟! فهو أدناها عند العقل الأيوني مأخذا، وأقواها حجة. فليس عجيبا إذ أن ينهض طاليس، أول فيلسوف عرفته الدنيا وأجمع على فلسفته المؤرخون، وهو في طليعة الباحثين عن تلك المادة التي نشدها العقل، والتي تتركب منها الأشياء جميعا، وتنحل أليها الأشياء جميعا، ويعلن أن الماء هو قوام الموجودات بأسرها، فلا فرق بين هذا الإنسان وتلك الشجرة وذلك الحجر، الهم إلا اختلافا في كمية الماء التي يتركب منها هذا الشيء أو ذاك، أليس الماء يستحيل إلى صور متنوعة فيصعد في الفضاء بخارا، ثم يعود فيهبط فوق الأرض مطرا، ثم يصيبه برد الشتاء فيكون ثلجا؟ وإذن فهو غاز حينا، وصلب حينا ثالثاً، وكل ما يقع في الوجود لا يخرج عن إحدى هذه الصور الثلاث.

رضى العقل بادئ بدء بالماء جوهرا للكون، ولكنه ما لبث أن أدرك انه مهما يكن للماء من مرونة وحيوية، فان صفاته محدودة، ضيقة، لا يمكن أن تسع كل ظواهر الوجود، وإذن فلا بد للعقل أن يبحث ويجد في البحث عن مادته الأولية التي ينشدها فجاء انكسمندر وقرر حقا أن كل مادة يكون لها صفات بعينها لا تصلح مطلقا أن تكون أصلا للكون، لأن مجرد الاعتراف بصفة ما هو دليل قاطع على وجود نقيضها، فلا يمكن عقلا أن تفهم معنى الحرارة إلا إذا اقترنت ذهنك بالبرودة، ولو تلاشت هذه لذهبت في أثرها تلك، وأذن فيستحيل إن تصف مادة بخاصة معينة إلا إذا كان ثمت مادة أخرى لها صفة مناقضة، وينتج من هذا انه لا يمكن أن يكون الوجود مركبا من مادة تميزها صفات، وإذن فلم يتردد انكسمندر في القول بأن الأشياء جميعا، إنما تفرغت عن مادة لا تمدها حدود، وليس لها صفات، اللهم إلا صفة واحدة هي الثبات وعدم التجول؛ أي الخلود. ولعلها في عنصرها وسط بين الهواء والماء. هكذا يغريك انكسمندر بتصديق منطقه، ولكن ما لبث الإنسان أن وجد في هذا المنطق الخلاب مغمزا وثغرة. إذ كيف تنشأ هذه الفروق الشاسعة بين صفات الأشياء، إذا كانت كلها مشتقة من مادة واحدة لا صفة لها، فبديهي أن تجيء أجزاء هذه المادة الأولى على نسقها وغرارها؛ فلا تكون للأشياء الجزئية صفات كذلك، وأذن فليستأنف العقل بحثه عن ضالته

هنا نهض انكسمينس فخطا بالعقل خطوة ثالثة: إذا كانت مادة طاليس لم تصادف من العقل اطمئنانا، لأنها ليست من الشمول بحيث تسع بأسره، وإذا كانت مادة أنكسمندر قد أصابها الرفض لأنها تخلو من الصفات التي تدرك في أجزائها، فما يمنع انكسمينس أن يقع اختياره على مادة ثالثة، فيها الشمول الذي ينقص الماء وفيها الصفات التي تعوز مادة انكسمندر. إلا وهو الهواء، فهو ذو صفات معروفة لا تنكر، وهو في نفس

الوقت يشيع في كل أنحاء الوجود، يغلف الأرض ويملأ جوانب السماء، بل ويتغلغل في الأشياء والأحياء مهما دقت الأبدان والأجسام. أليست الحياة أنفاسا من الهواء تتردد في الصدر شهيقا وزفيرا؟ أليس الهواء يملأ الفضاء ويغمر الكائنات ويستحيل إلى صور متنوعة، وهو فوق ذلك أسبق من الماء إلى الوجود، فالهواء إذن هو الجوهر الأول الذي صدرت عنه جميع الكائنات، يتكاثف حينا فيكون هذا الشيء، ويتخلخل حينا فيكون شيئا آخر.

فأنت ترى من هذا أن الفلسفة في أول صورها كانت لا تعدو في بحثها ظواهر الأشياء وأجسامها المادية، وكيف تريدها على أن تجاوز الظواهر المادية وهي لم تعترف بما وراء المادة من حياة وفكر؟ فالحياة عندها أنفاس مادية لا أكثر ولا أقل

وكان طبيعيا إلا يجمد العقل عند هذه المرحلة من التفكير والنظر، فجاوزها في البحث عن جوهر الوجود وكنهه، لا يأبه كثيرا بالصور المادية التي يتخذها ذلك الجوهر لبوساً مختلفة يظهر فيها للحواس وبعبارة أخرى فقد خلفت الفلسفة وراءها مرحلة طبيعية، لم تكن تنشد فيها إلا مادة ولم تعترف لغير المادة بوجود، واستقبلت مرحلة ميتافيزيقية، تعترف فيها بوجود شيء وراء المادة يدرك بالفكر المجرد دون الحواس.

وان كانت الشقة بعيدة بين هذين النقيضين - بين تلك الفلسفة الطبيعية وهذه الفلسفة الميتافيزيقية - لا أن هذه قد اعتمدت على أساس تلك، لأنه إذا كان الخلاف بين الأشياء، هو فرق ما بين التكاثف والتخلخل، إذن فلا يفضل مخلوق مخلوقا آخر إلا من حيث الكمية المادية فحسب، وبعبارة ثانية، فالذي يفرق بين الكائنات اختلاف الحكم، أي في العدد، وإذن فكنه الوجود وحقيقته هو الأعداد، فالكون سلسلة من أعداد تتجمع وتتفرق حينا. ومن هنا نشأت المدرسة الرياضية الجديدة التي كان زعيمها فيثاغورس، فقد ذهبت طائفة الفيثاغوريين إلى اعتبار الأعداد جوهر الكون وأساسه. ومن الواحد خرجت جميع الإعداد، وأن تكن مختلفة متباينة،

إلا إنها لا شك تنطوي جميعا تحت ذلك الفرد. وقد يستوقفك هذا التباين بين الأشياء، فتسأل كيف يمكن أن تجتمع هذه النقائض كله تحت أصل واحد، وأن يكون هذا الأصل هو الواحد الرياضي. كيف يكون هذا الحيوان وذلك الماء وهذه الشمس وما إلى ذلك أشباها تلتقي عند جوهر واحد؟ ولكن هذا الشتيت المتضارب في الظاهر إنما هو أجزاء هذه الوحدة التي أحدثك عنها، أو يحدثك عنها الفيثاغوريون، كما يكون إصبعك وعينك وشعر رأسك وسائر أجزاء بدنك - وهي متنافر الصورة لا يشبه بعضها بعضا - وحدة لا شك في تماسكها واتحاد أجزائها، وتكون في النهاية واحدا

وأحب أن أضع إصبعك على هذا الضرب الجديد من التفكير الفلسفي، لتدرك تطور الفكر مرحلة بعد مرحلة. فالفيثاغوريون لم يعودوا يفكرون في أجسام مادية، هم لا ينشدون مادة الأشياء الاولية، كما فعل طاليس وأنكسمندر وانكسمينس، ولكنهم كما تربيضربون في الأعماق ويجاوزون هذا الغشاء المادي ليصلوا بتفكيرهم إلى جوهر الكون

ولكن مذهب الفيثاغوريين بدورة لم يسلم من النقد، فهو يبالغ في الإكبار من شأن الواحد، ويصر على أن تكون الأعداد جميعا - أي الأشياء - أجزاء. من ذلك الواحد يحتويها ويشملها كما يحتوي الكل أجزاءه، ولكن إذا كان الفرق بين الأصل وما يتفرع عنه فرقاً عدديا فقط، فبديهي أن يكون الأصل وفروعه في منزلة كيفية واحدة، ولا يكون أمامنا مبرر لتفضيل هذا على ذاك إلا بالفرق في الحكم، أعني انه يجب أن يكون التعدد أصلا وجوهرا تفرع عنه الواحد. إذن لابد للعقل أن يتناول هذا المذهب بالتهذيب والتعديل حتى يتخلص مما يشوبه من تناقض.

نهض اكزنوفنس بشيء من هذا التهذيب المنشور، فليس واحد الفيثاغوريين عنده واحد حسابيا، بل هو الكون بأسرة هو الله الذي لا يعتريه تغيير ولا تبديل ولا فناء، هذا الكون بل هذا الإله لا يتعدد، وهو يصلك عن طريق الحواس، فلا تراه عيناك، ولا تسمعه أذناك، إنما هو حقيقة مجردة تصل إليك عن طريق الفكر المحض.

ثم تبعة بارمنيدس فسار في طريق سلفة اكزنوفنس، وجاوز حده، فلم يكتف بأن يكون الواحد المجرد - أي الله - مصدراً لجميع الكائنات، بل لم يعترف لهذه الكائنات نفسها بوجود الموجود، في الوجود شيء. واحد: هو الله، فليس ثمت مصدر وصادر، ليس ثمت

خالق ومخلوق، إنما الجميع الشيء واحد، هو الله هذا الكائن المطلق، هو وحدة الحقيقة ولا حقيقة سواه، فكل ما ليس إلهاً لا حقيقة له في الوجود. وبديهي أنه لا يتعدد ولا تحده حدود من مكان، ولا يمكن أن يكون خارج نطاق عقل مفكر بحيث يتخذ من هذا الكائن موضوعا للتفكير. ومعنى هذا أنه ينكر على الإنسان أن يضن نفسه حقيقة موجودة مفكرة، كلا بل هناك شيء واحد يفكر ويكون موضوعا للتفكير في وقت معا. فهو لا نهائي، ولهذا لا يجوز عقلا أن يكون هناك من الفراغ ما يشاغله شيء آخر أو إله آخر. وهكذا كانت فلسفة بارمنيس هذه ضربة قاتلة قضت على الآلهة المتعددة التي كان يعبدها معاصروه.

لا حقيقة إذن لهذه الأشياء المتباينة التي يخيل إلينا إنها تملأ الكون، ليس ثمت إنسان ولا حيوان ولا نبات ولا أرض ولاسيما، كل هذه أوهام خلقتها الحواس خلقا من عدم، وأنشأتها إنشاء. باطلا لا يرتكز على صورة خارجية، وهو لا يعلل لنا هذا الخداع الحسي الذي يصيب أفراد البشر جميعاً، ولكنه يأسف لهذا النقص الذي يصور لنا الباطل حقا.

وقد أيد هذا المذهب بعد بارمنيدس فيلسوفان، لم ينتجا جديدا، ولكنهما اكتفيا بالدفاع والتأييد، وهما مليسس، وزينو، ولكن العقل الذي لا يقنع بقليل ولا كثير، أبي هذه المرة أيضا أن يستكين لهذا الرأي زمنا طويلا، إذ بدا له في منطقة الضعف والتناقص.

لقد علمت الآن أن الفلسفة قد اعترفت بوجود واحد، وكل ما عداه وهم وباطل اختلقته الحواس اختلقا. وليت الدفعة قد وقفت عند هذا الحد، بل جاء هرقليطس، فسار في هذا الاتجاه شوطا بعيدا، فأنكر وجود حتى هذا الموجود الواحد! وله في هذا الإنكار منطق، إلا يكن مقنعا، فهو لا يخلو من ظرف كثير قال إن هذا الكون وما يشتمل عليه من كائنات، في حركة متصلة دائمية، لاتنقطع ولا يصيبها الجمود لحظة واحدة، هو كسيل يهوي من قمة الجبل إلى هاوية السفح، كله تغير وحركة وانتقال، فكلما فتحت ناظريك على هذا المجرى رأيت صورة لم تراها من قبل ولن تراها بعد، لان الماء لا ينتظرك حتى ترسل إليه البصر مرة ثانية، وإذن ففي كل لحظة ينشأ مجرى جديد. ولعلك تدرك خطورة هذا الرأي، فلو صح لذهب علمي وعلمك هباء منثورا. إن كل ما نعلم خيال منحول ووهم ملفق، لأنه إذا كان العالم الخارجي لا يستقر على حال ثابتة، فكيف تصدر على شيء منه حكما من الأحكام، انك أن علمت شيئا عن الكون فما إلا في لحظة بعينها، ولا يجوز أن يكون ذلك العلم صحيحا على الكون في كل آن. فان الكون سينقلب كونا آخر قبل أن ينطق لسانك بالحكم، كلا، بل قبل أن تدور في رأسك الخلجة الفكرية. انك ترى ملايين الأكوان المتعاقبة، كون يجيء في أثر كون، وإذن فمن الشطط أن تقرر حكما عن شيء من الأشياء لأنه لا يستقر على صفة ولا ولا يبقى على حال. الأمر في ذلك كفلم سينمائي تمر صورة مرا سريعا متداركا، فلا تلبث أن تقول إني أرى الآن صورة كذا حتى تفر مسرعة لتخلي المكان لما بعدها، وإذن فليس في الوجود ثابت كما يزعم الفلاسفة من قبل.

هنا نشأت طائفة جديدة - أعني جماعة الذريين - وجاهروا برأي جديد يلائم هذا الموقف الذي خلفة هرقليطس، هم يقررون معه أنه ليس هناك موجود ثابت إذا نظرنا إلى الكون من وجهة الشكل والصورة، ولكن الثبات والخلود في كمية المادة التي يغص بها الكون، فثمت عدد لا يحده الحصر من العوالم، تتكون جميعها من ذرات متشابهة، ولكنها تكون بعد تركيبها كائنات متباينة، كما تتألف الكتب المختلفة من حروف هجائية بعينها، ومع ذلك فليس هي بالمتشابهة. هذه الذرات لا تفتأ تجتمع فتكون هذا الجسم أو ذلك، ثم تنحل وتالف في أسلوب جديد فتحدث كائنا جديداً على هذا الأساس يمكنك أن تدرك معنى التغير والحدوث في الصورة والثبات والخلود في المادة. وبناء على هذا يكون كل شيء في الوجود مؤلفا من ذرات مادية، حتى الروح الذي يدب في الأحياء. فهو عندهم مكون من ذريات دقيقة غاية الدقة، مستديرة أو قريبة من المستديرة. وليست عملية التنفس إلا اكتساب لذرات جديدة من نوعها تسبح في الفضاء. ولما كانت هذه الذرات مبثوثة في أنحاء الكون، فليس من شك في أن الحياة تدب في الكائنات جميعا.

بدأت الفلسفة إذن بالبحث عن المادة الأولى التي تتألف منها الأشياء جميعاً، ثم أدركت أن للوجود جوهراً وراء المادة، فالتمسه الفيثاغوريون في الواحد الحسابي، ثم التمس

من جاء بعد الفيثاغوريون من فلاسفة آيونياً (جنوبي إيطاليا) في الإله الذي خلق الكائنات، ثم أنكرت الكائنات وبقى الله وحده موجوداً لاوجود لسواه، ثم حام الشك حول ثبات الكون على صورة واحدة، وأخيراً قرر الذريون أن الكون متغير في صورته، خالد في مادته. . . .

تطور سريع في الفكر كما ترى، اسلم العقل إلى حال من الارتياب والشك، ارجوا أن أحدثك عنها في فصل تال.

زكي نجيب محمود

معهد الطفيليات

للدكتور محمد عوض محمد

سار بي (الأستاذ) سيراً حثيثاً، ليطلعني على ما اشتملت عليه تلك الجامعة الهائلة . . . من دور ومن فصول، ومن مدارس ومعاهد، فلم نزل نتنقل من بناء شامخ إلى قصر مشيد، إلى أفنية فسيحة، إلى مغان ذات طباق بعضها فوق بعض. . .

ثم وقف بي أمام دار فخمة ضخمة ذات صروح وأبراج، ولها باب عظيم ذو عمد من الرخام وسلالم من المرمر الأملس.

وقد انفتح المصراعان، وبدأ لنا من ورائهما دهليز كبير تحف به عمد رفيعة موشاة بالذهب والأحجار الكريمة؛ ومن فوقها سقف مزين بأبدع النقوش وأبهى الألوان فقال صاحبي: (الآن أريك اجمل شيء في هذه الجامعة الجيلة، ان هذا البناء العظيم الذي تراه أمامك هو (معهد الطفيليات). قد عنيت الجامعة بتشييده وإعداده، ولم تال جهداً ولا مالاً في زخرفته وتأثيثه، ليكون منه مرتع خصيب للطفيليات: تمرح فيه ما شاء لها المرح، وتنعم فيه بكل ما تشتهيه نفوسها التي لا يرضيها القليل، ولا تنفع إلا بالغالي النفيس

وسأمضي بك الآن إلى المتحف العظيم، الذي حشدنا فيه ما استطعنا حشده من) طفيليات هذه الأرض؛ وما احسب أن لجامعة من الجامعات متحفاً كهذا المتحف، شاملاً لما اشتمل عليه من طفيليات عزيزة نادرة به، حقيقة أننا لم نستطيع أن نجمع هنا كل ما في الأرض من هذه الكائنات! إن هذا مرام بعيد. ومن ذا الذي يستطيع للطفيليات عدا. فضلاً عن جمعها. وإيوائها، وتربيتها، وتغذيتها، وتأديبها؟ لكننا نستطيع أن نفتخر - بحمد الله - أن ليس في القارات كلها جامعة بها من الطفيليات ما بجامعتنا هذه فلنفتش الآن بين هذه الصناديق الزجاجية. وليكن سيرنا غاية في الهدوء والتؤدة. فأن) هذه الطفيليات رقيقة المزاج جداً. فلا تكاد خطرات النسيم تجرح خديها فحسب، بل تقتلها قتلاً. وهي علينا جد عزيزة. ويجب أن نحرص عليها غاية الحرص، أمش إذن برفق لكيلا يسمع لنعليك صوت، ولكيلا ترتج لوقع أقدامنا هذه المنازل البديعة التي آوت إليها الطفيليات.

والآن فلأشرح ما اغلق عليك من أمر هذه الكائنات! إنك يا صديقي من الأدباء ولديكم) في

الأدب طائفة أظنك تعلم من أمرها ما اعلم - من كل كويتب أو شويعر. عاجز كل العجز عن أن يخرج من صدره أو قلبه أو رأسه رأياً أو خاطرة أو فكرة. يفتش في نفسه فيلقيها خلاء بلقعا قفرا. فيعمد إلى دواوين القدماء وكتبهم، يستخرج منها القصيدة أو الرسالة، ولا يزال بها يحاكيها ويقلدها، ويحذف لفظا ويضيف لفظا، حتى يتم له مسخها وتشويهها ثم يلصق في أخرها اسمه الكريم فإذا به قد اصبح ذا شأن وخطر، وإذا النوادي تتحدث بأمره. والصحف تنوه باسمه، والمحافل تتلقاه بالإكرام والترحيب، وإذا صورته لفخمة تطالعك من صدر كل صحيفة سيارة وغير سيارة لتنبئك، وتنبئ الجاهلين أن قد نبغ في هذا الزمان الأخير أديب خطير، وشاعر كبير!

ونحن يا صديقي في عصر قد علا فيه كعب هؤلاء وعظمت دولتهم، وقويت شوكتهم.) ولا تحسب انهم وقف عليكم أهل مصر بل أن لدينا منهم في مملكتنا هذه خلقا كثيرا. وفي وسعك أن تقسمهم إلى قسمين عظيمين: الأول طائفة الطفيليات القومية أو الوطنية وهم الذين يعيشون متطفلين على قومهم العرب مثلا وأمتهم العربية.

غذاؤهم وحياتهم بما يمتصونه أو يبلعونه أو يمسخونه من شعر القدماء ورسائلهم. ناهيك أن في أدبكم العربي أسفارا لا تزال مودعة في خزائن مظلمة في دور الكتب؛ مخطوطة لا يصل إليها إلا الباحث الجليد. . وما اولع الطفيليين بالبحث والتنقيب، وما

اشد صبرهم وجلدهم! فهم يجدون في هذه الأسفار المنسية ضالتهم، ويصيبون منها الغذاء الذي يكسبهم الشهرة والعظمة. ومنهم من لا يكلف نفسه عناء البحث في خزائن الكتب، بل يعمد إلى الشائع المتداول من كتب القدماء والمحدثين، فلا يزال بها يحولها ويحورها، ويربعها ويدورها، حتى يرى فيها الطعام شيئا مخترعا، وأدبا مبتدعا. . . ولعل هذا الطراز ابرع من الأول واقدر، لأنه يعتمد على مقدرته الهائلة في المسخ والتشويه، بينما الأول يعتمد - قبل كل شيء - على بحثه وتنقيبه عن المجهول من الكتب، والخفي المستور من كنوز الأدب.

(تلك إذن طائفة الطفيليات القومية. تعتمد كما ترى على تراث قومها. أما الطائفة الثانية فهي جماعة الطفيليات الغربية؛ ننعتها بهذا الاسم لا لأنها جاءت من الغرب. بل لأنها تتغذى من الثمار الغربية. وتعيش على أجساد الكتاب من أهل الغرب والكاتبات، الأحياء منهم والأموات.

(وهذه الطائفة قد استفحل أمرها، واشتد دراسها، منذ انتشر في بلادكم تعليم اللغات الغربية، فوجدت أمامها أودية خصبة ومروجا ممرعة، لا يكاد الطرف أن يدرك مداها. فأقبلت عليها في شره لا يعرف شبعا، ونهم لا يعرف حدا. إذ رأت أن المجد الأدبي قد دنت قطوفه، وسهل تناوله. . . فجعلت تجني من ثمار الغرب ما شاءت وما شاء لها الجشع؛ ثم مسخته قليلاً أو كثيرا، ثم جلته للعيون الشرقية، على انه من ثمارها ومن نتاج روحها. فأكبر الناس تلك الثمار، وسبحوا بحمد تلك الطائفة. ورفعوها على الأعناق، وبوموها مقاعد السيادة في الآداب أو في العلوم. . . عند ذلك قاطعت الأستاذ، وقد تملكني الضجر، وقلت: (أعن هؤلاء تريد أن تحدثني؟ وهل هؤلاء هم الذين أودعتموهم في معهدكم هذا؟ اللهم أني لفي غنى عن رؤية أمثال هؤلاء، وما جئت سائحا في بلادكم العظيمة، لكي تطلعني على تلك المناظر التي طالما أقذت عيني وأحرجت صدري!)

قال: (لا تخف! فهيهات أن نجد مكانا في معهدنا هذا - على ضخامته وسعته لكل تلك الطوائف! كلا يا صديقي! وما ذكرت لك أمر هؤلاء إلا لأنك ممن يعنون بالأدب. ولاني أريد أن تفهم عني أمر الطفيليات التي حشدناها هنا! فأردت تقريب الأمر إلى ذهنك متنقلا بك مما تعرف إلى ما لا تعرف!

(وخلاصة الحديث يا صديقي، إن الطفيليات هذه هي كائنات - اجل وأني لمضطر لان ادعوها كائنات - لا تستطيع أن تحيا وأن تعيش من نفسها وجهودها. بل لابد لها من كائن آخر، تستمد حياتها من حياته، وكثيرا ما تكون حياتها سببا في فنائه. وهي على كل حال لابد لها من أن تضعف الجسم الذي يمدها بالحياة حتى تورده موارد الدمار. . .)

(هذه الكائنات لا تكد ولا تكدح في طلب الرزق، بل تدع السعي والطلب إلى غيرها، وليس لها أسنان تمضغ، أو معدة تهضم، أو أجهزة تحيل الطعام الخشن والشراب، إلى غذاء وحياة، بل تبقى كامنة في الأجسام الحية، ثم تنتظر حتى تكد هذه وتعمل، وتجمع الرزق من نواح شتى، وحتى تتناول طعامه وتهضمه وتمثله، وتحيل إلى تلك العناصر التي ثوت فيها القوة والحياة، عندئذ تبادر الطفيليات، فتمتص منها الحياة والغذاء، من غير جهد ولا عناء. . . هذه الطفيليات لا تحسن عملا، ولا تجيد صنع شيء؛ الهم إلا شيئا واحداً، هو: (الالتهام)

(تأمل قليلا في هذا الكائن البديع، القرمزي اللون! انه لا يعيش إلا في الشرايين، لا يحلو له أن يتناول إلا الدم الطاهرالزكي. يستقيه سائغا شهيا حين يقذفه القلب إلى كل شريان. . وهذه صورة رجل قد حلت بجسده هذه الكائنات! أن وجهه الشاحب قد علته صفرة الموت. وعينيه الغائرتين تجدان كفايتهما من الدم المغذي. وعلى عظامه الناتئة جلد رقيق، يوشك أن يكون شفافا. . . أن حياة مثل هذا لن تطول. فان هذا الضرب من الطفيليات من أقتلها وأفتكها بمن يعيش في جسده.

(انتقل بنا الآن إلى هذا الكائن الأبيض المنتفخ! إن خطبه ايسر من خطب الأول. ودأبه أن يعيش وسط الدسم والشحم.

فهو لا يسكن من الجسم إلا حيث الدهن متراكم متكدس. فإذا رأيت من بني آدم من أضخمته النعمة، وأشحمه الغنى، فأن هذا الشقي لن يلبث طويلا حتى تتألب عليه هذه

الكائنات الشرهة، ترتع في نعمته، وتمرح في شحمه ودهنه، وما تزال مكبة عليه تمتص منه وتلتهم، حتى تذره نحيلا هزيلا. قد وهى عظمه، ورق جسمه حتى لم تبق منه إلا بقية ضئيلة، لا تلبث أن تذهب، فيهلك الجسم وتهلك معه تلك الطفيليات.

(وأظنك تشاطرني الرأي أن ليس بمستغرب أن تتجمع الطفيليات على مثل هذا المخلوق السمين، حيث المرعى الخصيب، والخير الوفير، والنعمة السابغة. . .

ولكن ما بال هذه الطائفة - التي تراها عن يمينك - قد تألبت على غير ذي دسم، وتجمعت على غير ذي نعمة، ولا يحلو لها أن تمتص الحياة والرخاء إلا من كل بائس شقى، قد عضه الفقر من جانب. والجوع من جانب، ممن يقضي حياته في كد وكدح، من اجل اليسير من الزاد، والزهيد من القوت، لا يكاد يصل إليه إلا باهراق عرق الجبين، وبذل الجهد الجهيد، وإيراد الروح موارد العذاب. ثم يغدو المسكين وإذا قوته ودمه يذهبان غذاء سائغا شهيا لهذه الطوائف النهمة من الديدان الملتوية.

(ومن عجب إن ليس في الطفيليات كلها ما هو اشد نهما واكثر شراهة من هذه الكائنات، التي تعيش وسط الفقر المدقع، فتراها غنية وسط الفاقة، سعيدة وسط الشقاء، مدلة بنفسها عزا وكبرا برغم ما يحيط بها من الذل والضعة، وهي إلى هذا كله قصيرة النظر، لا تكاد

أن ترى شيئا، لأنها لو استطاعت أن تبصر لعلمت أن ليس في عيشها ذاك ما يبعث الكبر والغرور، ولأدركت حقارة شأنها بين الكائنات.

والآن انتقل بك إلى هذه المجموعة الفريدة؛ إنها ستبدو لك لأول نظرة كأنها ديدان لما بها من الالتواء والانحناء؛ لكنها في الحق ليست بديدان، بل حشرات طفيلية جميلة الصورة، حسنة الهندام؛ أما هذا الالتواء والانحناء، فراجع إلى طبع غريب مغروس في نفوسها، ذلك إنها مولعة أبدا بالركوع حينا والسجود حينا: مغرمة بتمريغ الجبين في مواطئ النعال. فهي تبدي للجسم الذي تمتص خيره وبره عبودية وخضوعا. وتتملقه تملقا بديعا. وما تنفك تهتف باسمه. وتسبح بحمده؛ ولا يحلو لها الزاد الذي تمتصه وتتغذى منه، ما لم يصحبه كل هذا الركوع والسجود، والتملق والخنوع. . . . . وهذه الحشرات لا تعيش إلا في الجسم القوي ذي البأس الشديد، والعزة والجبروت. ولقد يحلو لهذا الجسم أن يؤدي هذه الحشرات، وان تمتص من خيره ومن رحيقه، لأنه يعجبه منها هذا الخضوع الظريف، وهذا التملق الساحر. وهذا الركوع الدائم والسجود. ولا يرى على نفسه بعد ذلك بأسا في أن تأكل هذه الحشرات من مخه ومن دمه، ومن لحمه ومن عظمه. لأنه قوي مدل بقوته، بئيس مفاخر بأسه، يظن أن كنوز قوته لن تنفذ مهما كبر ذلك الجيش الجرار من الحشرات. فتراه يستكثر منها ويستزيد ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

(ومن عجب أن هذه الحشرات قد تحل بها حشرات أخرى أحقر منها، لكي تعبدها وتتزلف إليها، وتمتص خيرها؛ وهذه أيضا على حقارتها تنمو حولها طائفة أخرى أحقر منها، وهلم جرا، ولن تستطيع أن ترى هذا كله بالعين العادية، بل لابد لك من التحديق في المجهر: انظر هاهنا! وأمعن التحديق حتى تعتاد عينك رؤية هذا العالم الطفيلي المدهش! أرأيت كيف تتابعت هذه الكائنات تتابعا مطرداً: من الكائن الأكبر إلى الأصغر فالأصغر حتى تبلغ إلى الحقير التافه الذي لا تكاد تراه حتى بالمجهر!

(وبرغم ما تراه في هذا الجيش العرمرم من مظاهر القوة والنشاط، والحركة الدائمة، فان هذا مظهر خداع. ولا بد أن يدركه الفناء في لمحة الطرف. ولا بد للمسكين من يوم تدول فيه دولته وتذهب ريحه، وينظر فإذا قوته قد فنيت وبأسه قد زالوإذا هو صريع وسط تلك الجيوش الجرارة من الطفيليات التي أفنته وأفناها.)

وألتفت (الأستاذ) إلي، فرأى الدم يتصاعد إلى وجهي، فقال: (أحسبك قد نال منك التعب، ولا جرم فأن عالم الطفيليات عالم عظيم جسيم. ولكن لن تبرح حتى ترى هذه الحشرات السوداء التي لا تعيش إلا على جثث الموتى. وتخشى الأحياء وترهبهم. ألا تراها تذكرك بأصحابك الذين يغيرون على شعر القدماء، وأدب القدماء. ولا حياة لأمثال هؤلاء إلابما يدره أولئك الموتى!

والآن تأمل هذه الكائنات الدميمة التي تراها عن يسارك! وقل لي هل رأيت في حياتك أشد منها دمامة، وأقبح منها منظر؟ وهي مع ذلك لا تعيش إلا حيث يوجد الحسن والبهاء! ولا تحيا إلا على كل من رزق الوسامة، وضرب في الجمال بسهم، وحيثما رأت

الشباب الغض والحسن الباهر تر هذه الكائنات الدنسة. قد تراكمت من حوله وتألبت عليه. . . لكن أراك قد تصاعد الدم إلى وجهك، وأحمت عيناك وانتفخت أوداجك، فهل تحس ألماً أو دوار، أو تراني قد أتعبتك بكل هذا الشرح الطويل؟

قلت: (ليس ما أحسه الآن تعبا أو ألما، ولكنه الغيظ قد استولى علي وأخذ يحرق صدري، ويوقد النار في دمي، وبودي لو تناولت عالمك هذا كله بالتحطيم والتدمير، فلا أدع فيه دودة ولا حشرة، قائمة أو قاعدة، راكعة أو ساجدة!)

قال: (من حسن الحظ أنا تركنا عصينا بالباب، فهلم بنا لنخرج من هنا، قبل أن يذهب بك الجهل مذاهب الطيش والنزق فأن هذه الطفيليات أعز على الدهر من أن نعرضهات لسخط الحمقى، الذين لا يعرفون ما لها من المنزلة الفريدةوالمكانة العزيزة في نظام هذا الكون الأبدي.)

ثم انطلقنا، وصاحبي يبتسم، وأنا أكاد أتميز من الغيظ.

محمد عوض محمد

التعاون في التأمين على الحياة

يعمل الرجل وهو في مقتبل الشباب ممتلئاً صحة وقوة، ويخيل إليه أن الدهر سيظل له على الدوام مسالماً، فيسرف في أنفاق كسبه غافلاً عما يكنه المستقبل في طياته من المفاجآت. فإذا لم يعترضه مرض أو حادث يعجزه عن العمل والكسب، فأنه قلما يسلم من الخضوع لسلطان الطبيعة البشرية وسحرها، تجتذب حواسه وتأسر لبه حتى تسوقه طوعاً إلى شريكة في الحياة؛ يرزقه الله منها الأبناء، فيشعر في أعماق قلبه بذلك الشعور الذي لا يدرك كنهه سوى الزوج المخلص والوالد الرحيم، وهذا الشعور ينطوي على رغبة صادقة في أن يهيئ لهم أسباب السعادة في ظل حياته، ويعد الوسائل التي تسهل لهم سبل العيش بعد مماته.

ولا تقف مسئولية الرجل العائلية عند حد الزوج والأبناء، بل قد تتناول أبويه والقاصرين من اخوته المحتاجين لمساعدته. فأن حق عليه أن يكفل زوجه وأبناءه بعين رعايته، فأن من واجبه الشرعي والاجتماعي أن يشمل أبويه بعطفه وحنانه. فإن فعل فإنما يسدد ديناً عليه. فقد ضحيا من أجله راحتيهما ومالهما في سبيل تربيته وتعليمه حتى بلغا به طريق الرزق - قد يكونان ذهبا في التضحية إلى حد نفاد مواردهما - فحق لهما أن يجنيا ثمار تضحيتهما بمساعدته لهما في شيخوختهما.

وخلاصة القول أن الرجل في هذه الحياة مسئول عن سعادة أبويه وأخوته، كما أنه مسئول عن هناء زوجه وأبناءه. فإن كانت عائلته تعيش من كده وجهاده، فهو بمثابة رأس مال لها. يقف رأس المال العائلي هذا عن الإنتاج إذا إنتاب الرجل العامل المرض أو اعترضه العطل، ويفقد مقدرته الإنتاجية إذا أقعده العجز أو الشيخوخة عن العمل، ويفنى إذا وافاه الأجل؛ فالرجل المتزن العاقل هو الذي يتبصر في عواقب الأمور، ويتسلح للطوارئ، فيعمل على تهيئة أسباب السعادة لعائلته في مختلف أطوار الحياة، بأن يستجمع في شبابه من المال ما ينعم به في شيخوخته، وما يتركه لذويه يستعينون به على صروف الدهر بعد وفاته. وقد يبتدئ فعلاً بتدبير المال عن طريق الادخار. فأن عاجلته المنية قبل أن يكون لعائلته المال الذي يعيشون منه فأنه يتركهم عرضة للتسول وقد يدفعهم الإملاق إلى اقتراف الرذائل وارتكاب الجرائم.

تلك هي النتائج الاجتماعية التي يجب أن يتوقعها الرجل الذي يعيش من كسبه، ولا يدخر لشيخوخته ولأهله من بعده ما يقيهم شر الحاجة وذل السؤال. ومما يؤسف عليه أن أولئك الذين تلهيهم سعة الحاضر عن مفاجآت المستقبل كثيرون في بلادنا، وضحاياهم عديدون، نصادفهم كل يوم فلا يثيرون في نفوسنا غير الإشفاق والرثاء.

قال المرحوم أحمد بك لطفي أحد أبطال التعاون (هل في مقدور الجمعيات الخيرية مساعدة كل هؤلاء، والعناية بتربية أولادهم والصرف على بيوتهم؟ وهل يمكن أن يعيشوا من مد يدهم للناس وإراقة ماء وجوههم للغير؟ ليست هذه الأحوال خاصة بمصر، فإنها وجدت خلال القرون الأخيرة في غيرها من البلاد الغربية، ولم ينجح فيها استعمال الإحسان والصدقة، ذلك لأن الإحسان وإن كان من الفروض الدينية، إلا أنه بحسب القوانين الوضعية ليس إلزامياً، بل هو متروك لمروءة الإنسان، فلا عطاء بغير مقابل، ولا وسيلة لإرغام الناس على القيام به. لذلك لجأ الناس هناك لنوع من

الإحسان يتحقق فيه الإلزام بأجلى معانيه، وهو تبادل الإحسان بين الفرد والجماعة بنظام مخصوص يجعله محققاً، ويسهل تنفيذه بغير أثقال على النفس ولا بتضحية كبيرة. وهذا العلاج وهو ما يسمى بالتعاون).

يقوم التعاون على مبدأ تبادل المنفعة بين الفرد والجماعة. فإذا ما أتحد عدد كبير من أرباب الأسر الذين يعيشون من كسبهم على تأليف جمعية تعاونية على أساس أن يؤدي كل واحد من كسبه اشتراكاً دورياً لصندوق الجمعية، وأن يستثمر جزء كبير من الأموال المتجمعة في أوراق مالية أو عقار على أن يصرف للعضو عند مرضه أو عطله ما يعالج به نفسه ويقوم أوده مدة عطلته من العمل، ويصرف لورثة من يتوفاه الله منهم مال أو معاش يستعينون به على الحياة، وإذا أقعدته الشيخوخة يصرف له مبلغ معلوم من المال أو يخصص له مدى الحياة معاش، أمكن تبادل المساعدة والمنفعة بغير أضرار بالفرد ولا بالجماعة.

ولتثبيت نظرية التعاون في الأذهان نضرب المثل الآتي:

أتفق جماعة من الأفراد عددهم خمسمائة من أعمار مختلفة تتراوح بين الثلاثين والخمسين سنة على تشكيل جمعية تعاونية، على أساس أن تدفع الجمعية خمسمائة جنيه لورثة العضو منهم إذا توفى قبل بلوغه سن الستين أو عند بلوغه هذه السن إذا ظل حياً، مقابل أن يؤدي

العضو للجمعية اشتراكاً شهرياً يختلف باختلاف سنة عند التعاقد، وينقطع دفع الاشتراك بالوفاة أو عند بلوغ سن الستين. ولكي يتيسر للجمعية القيام بتعهداتها يجب أن تكون الاشتراكات التي يدفعها الأعضاء مبنية على أساس علمي يراعي فيه احتمال الوفاة واحتمال بلوغ السن المعينة، وعلى هذا الأساس يصح أن تكون الاشتراكات على النحو الآتي:

السن عند التعاقد	الاشتراك الشهري الذي يدفعه العضو بالقروش
30	112
31	116
32	121
33	127
34	133
35	139
36	146
37	153
38	162
39	170
40	180
41	191
42	203

43
217
44
232
45
250
46
269
47
292
48
319
49
250
50
287

ويجب أن يكشف طبياً على كل من يريد الالتحاق بالجمعية على ألا يقبل غير الأصحاء لكي لا تتعرض الجمعية لخطر عاجل قبل تكوين أموال كافية لمواجهة الطوارئ، فأن متوسط معدل الوفيات بين فئات السن من 30 إلى 50 هو 60 في المائة، أو بمعنى آخر أن عدد الوفيات التي يحتمل حصولها خلال السنة الأولى بين أفراد الجماعة المذكورة المكونة من خمسمائة عضو هو ثلاثة. فعلى أساس هذا الحساب يمكننا أن نقدر التعويضات التي يحتمل دفعها في السنة الأولى بمبلغ 1500 جنيه، على اعتبار أن المبلغ الذي يدفع لورثة العضو المتوفى هو خمسمائة جنيه.

ويجب أن الجمعية لا تحتفظ في صندوقها أو في البنك الذي تعامله مما تحصله من الأقساط في أول كل شهر إلا بقدر ما يلزم لتغطية المصروفات ومواجهة التعويضات المحتمل دفعها خلال الشهر، بل تقتني به أوراقاً مالية سهلة التداول، فأن المبلغ الذي يحتمل تحصيله في السنة الأولى من الأقساط وفوائد استثمارها، يقرب من 8500 جنيه. وقد خرجنا بهذه النتيجة على أساس حساب الاحتمال، بعد أن استبعدنا طبعاً الأقساط التي حرمت منها الجمعية من المتوفين أثناء المدة التي تجري بين الوفاة وآخر السنة، وكذلك فائدة الاستثمار التي كانت تعود على الجمعية لولا دفع التعويضات والمصاريف الإدارية أثناء السنة. .

أما النفقات الإدارية، فأن جمعية تعاونية مكونة من خمسمائة عضو كالتي ذكرت، لا تحتاج لمسك دفاترها (بطريقة الفيش) والقيام بالأعمال الكتابية إلى أكثر من كاتب واحد يمكن أن يتقاضى مرتباً سنوياً 120 جنيهاً. أضف إلى ذلك قيمة مطبوعات ونفقات نثرية 80 جنيها، فيكون المجموع 200 جنيه بالقياس إلى نفقات جمعية تعاون موظفي البريد التي تضم نحو 4300 عضو مع حفظ الفارق.

أردنا مما تقدم أن نثبت في أيجاز أن دخل الجمعية من أقساط وفوائد استثمار لا يفي بدفع تعويضات الوفيات وتغطية المصروفات فحسب، بل يترك فائضاً. ولا غرو فإن مبلغ الدخل في السنة الأولى هو 8500 جنيه، في حين أن التعويضات هي 1500 جنيه، والمصروفات الإدارية 200 جنيه، فيكون الفائض 6800 جنيه، يحول جزء منها إلى الاحتياطات التي يجب تكوينها لاستخدامها فيما بعد في سداد التعويضات التي تستحق الدفع عند حلول أجل العقود للباقين أحياء، وما بقى من الفائض في نهاية كل سنة بعد تغذية الاحتياطات يصح توزيعه على الأعضاء ويقال له (العائد) إلا أن أكثر الجمعيات لا توزعه

على الأعضاء إلا مرة كل خمس سنوات مضافة إليه فوائد استثماره؛ أما في حالة الوفاة فأنها تصرف لورثة المتوفي زيادة على المبلغ المؤمن به، حصته في العائد المتكون لحسابه حتى نهاية السنة السالفة للوفاة.

وكلما تيسر للجمعية استثمار أموالها بفائدة كبيرة، كبرت

حصة العضو في العائد. وإن السوق المصرية لهي من

أخصب الميادين لتوظيف الأموال، ولا جرم فأنه يوجد 52
قرطاساً، أي ما يزيد على ثلث عدد القراطيس المتداولة في
% برصتي القاهرة والإسكندرية، تربى غلتها على 21 4
على أساس الفوائد والأرباح الموزعة خلال ثلاث السنوات
الأخيرة، وسعر البورصة في نهاية كل سنة، بعد أن أجرينا
عمليات التصحيح التي تلزم في هذا المقام.

إن ما عليه حال العمال وطبقة صغار موظفي الحكومة والبنوك والمصالح الأهلية من قلة المرتب، يجعلهم يقاسون آلاماً مبرحة إذا ما نزلت بهم نازلة من المرض، أو الإصابة بحادث، أو البطالة، أو الشيخوخة، أو الوفاة. وقد يصل بهم العسر إلى عدم توافر نفقات العلاج أو ثمن الدواء أو تكاليف الدفن. فهم يستهدفون لاستشراء الأمراض لقصر ذات اليد. وقد يبلغ الإملاق بأسرهم من بعدهم حد التسول وإراقة ماء الوجه. فلدرء تلك العواقب انتشرت جمعيات التعاون للتأمين على الحياة في الأمم الراقية لتخفف عن أعضاءها وأسرهم ما يخبئ لهم الدهر من الويلات.

فما أحوجنا إلى نشر مثل هذه الجمعيات بين طبقات الموظفين والعمال وصغار التجار والزراع. ومن الميسور أن يضحي كل منا بعشرة قروش شهرياً في سبيل أن يضمن لنفسه ولعائلته الدواء ووسائل العلاج بتأسيس جمعيات تعمل على إبرام الاتفاقات، مع طائفة من ذوي القلوب الرحيمة من الأطباء والصيادلة ومديري المستشفيات لمعالجة الأعضاء بأتعاب
معقولة، وتقديم الدواء بأثمان معتدلة، وقبول المرضى بالمستشفيات بأجور مخفضة، تقوم بدفعها الجمعيات من الاشتراكات التي تحصلها من الأعضاء.

كما أنه من الميسور أن يضحي الرجل منا من مرتبه الشهري بقيمة الاشتراك الذي سبق أن أوضحناه بالجدول على سبيل المثال، ليضمن لأولاده ولذويه مالاً أو معاشاً، يقتاتون به إذا ما عاجلته المنية، حتى ولو حصلت بعد أداء القسط الأول، وليضمن لنفسه معاشاً ينعم به في شيخوخته لكي لا يصبح حميلة على غيره، بعد ما كان في شبابه عاملاً مفيداً للمجتمع.

وواجب على الشباب المتعلم أن يبث الدعوة بين طبقات الموظفين والعمال وفقراء التجار والزراع لتشكيل الجمعيات التعاونية.

وأني على استعداد لإبداء النصح والإرشاد عن طيب خاطر لكل هيئة تتألف لتأسيس جمعية للتعاون في التأمين على الحياة، لأني ممن يدينون بمبدأ التعاون، ويعتقدون صلاحية المنشآت التعاونية لإنقاذ الطبقات العاملة الفقيرة من شتى المخاطر التي يستهدفون لها.

وليس بكاف أن يوجد في مصر أربع جمعيات تعاونية للتأمين على الحياة، تعمل كل واحدة منها في دائرة ضيقة، فلا تحتضن إلا عدداً قليلاً من الأعضاء. وأقدمها جمعية تعاون موظفي البريد التي أسسها المرحوم يوسف سابا باشا في سنة 1893، ثم تبعتها جمعيتا تعاون الصيارفة والمساحين. وجمعية تعاون موظفي الصحة التي أسسها حديثاً الدكتور شاهين باشا في فبراير سنة 1934. ولقد أخذت الجمعيات الثلاث الأخيرة نظامها عن جمعية البريد.

وليس هذا مجال نقد أنظمة تلك الجمعيات، وإنما نكتفي بالإشارة إلى إنها لا تقوم على أساس علمي صحيح في تحديد الأقساط وتوزيع المكافآت، بل على طريقة فطرية لا تتمثل فيها العدالة بين جميع الأعضاء وتعرضها لخطر الإفلاس، بالرغم أن موازينها تبدو لغير الفنيين في مظاهر اليسر. فأن خطر الإفلاس لا يمكن أن يدرك مداه في جمعيات التعاون في التأمين غير الفنيين، خصوصاً وأن موازين تلك الجمعيات لا تبين القيمة الحالية لتعهداتها إزاء أعضائها. ونأمل أن تسرع هذه الجمعيات إلى إصلاح نظامها على أساس القواعد العلمية الحديثة قبل فوات الأوان.

ولا يزال المجال متسعاً لمن يزيد أن يسجل التاريخ أسمه بين أبطال التعاون في مصر، فأن من يقوم بتأسيس من جمعية تعاونية في التأمين على الحياة، على أساس التعاليم الحديثة، يقدم للإنسانية خدمة جليلة، ويسدي لأمته خيراً كثيراً.

طه عفيفي عضو بعثة التأمين سابقاً

بين المعري وداني - 2
بقلم الشيخ محمود النشوي
في رسالة الغفران والكوميدية المقدسة

تحدثنا فيما سبق عن رسالة أبن القارح، وأن أسلوبها أثار في نفس المعري رغبة في الضرب على غرارها، والاتجاه مع تيارها. بيد أن المعري أرانا أفانين من الخيال مما يحدونا أن نقول: إن رسالة أبن القارح وإن تكن أثارت لديه فكرة نقد الشعراء، ومحاورة الرواء والأدباء. . فلا يدور بخلدنا إنها كونت فيه روحاً ليست عنده، أو ألهمته فكرة لم يكن هضمها من قبل. على إنها وإن ذكرته الحوار والنقد فأن ثوب الخيال الذي ألقاه أبو العلاء على رسالة غفرانه يتسامى عن طوق أبن القارح وآلاف مثله. وما كان أبن القارح ليستطيع أن يتخيل تلك الرحلة العجيبة في طبقات الجنان، وبين دركات الجحيم.

ولدينا برهان قوي على أن المعري لم يسلك سبيلاً عبدها له أبن القارح، وأن رسالته ما كانت غير سبب مباشر، نبه من المعري فكرة راسخة. ذلك البرهان هو رسالة الملائكة التي نرى فيها خيال المعري يطوف بالجنة وبالنار يقرع أبوابهما، ويمزح مع الخزنة والحراس والملائكة في محاورة تستهوي اللب، وتضحك أشد الناس عبوساً. إذ يحاور عزرائيل حين يزوره زورة الموت، فيقول له: أمهلني ساعة حتى أخبرك بوزن عزرائيل. ولكن ملك الموت إذا جاء لا يؤخر عمله، فيستل روحه من بين جنبيه، ثم يقذف به إلى القبر فيلقى منكراً ونكيراً. وبدلا من أن يجيب سؤالهما. يبتدرهما هو بالسؤال فيقول: كيف جاء اسماكما عربيين منصرفين وأسماء الملائكة كلها أعجمية مثل إسرافيل وجبرائيل وميكائيل؟

فيقولان هات حجتك. . وكأني بأحدهما يهوي إليه (بالارزبة) فيتملقها قائلاً. قد كان ينبغي لكما أن تعرفا وزن ميكائيل وجبرائيل على اختلاف اللغات إذ كانا أخويكما في الله عز وجل. فلا يزيدهما ذلك إلا غيظا. . ثم يتخيل أنه تلاقى مع (مالك) خازن النيران فيحاوره لا في العذاب ولا في الزبانية. ولكن في أوزان الأسماء وجموعها فيقول له: أخبرني - رحمك الله - ما واحد الزبانية؟

فيعبس مالك لما يسمع ويكفهر. ثم يسائله عن (غسلين) قائلاً أهو مصدر أم واحد أم جمع؟.

ويحاوره في (جهنم) سائلاً: هل النون في جهنم زائدة؟ فيجيبه مالك بقوله: ما أجهلك وأقل تمييزك؟ ما جلست هنا للتصريف ولكن جلست لعقاب الكفرة والمشركين والقانطين. ثم يذهب في جماعة من الأدباء إلى رضوان خازن الجنان فيناديه بعضهم قائلاً. (يا رضؤ) بالترخيم. فيقول له ما حاجتكم؟ فيقول بعضهم نسألك أن تكون واسطتنا لدخول الجنة فأنهم لا يستغنون عن مثلنا: فقبيح بالعبد أن ينال هذه النعم وهو إذا سبح الله لحن. . ولعل في الفردوس قوماً لا يدركون أحرف (الكمثرى) أكلها أصلية أم بعضها زوائد فيبتسم رضوان ويقول: أن أهل الجنة اليوم في شغل فاكهون. هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون:

فانصرفوا - رحمكم الله - فقد أكثرتم الكلام فيما لا منفعة فيه، فيطلبون لقاء (الخليل بن أحمد) فيطل عليهم قائلاً: ماذا تريدون؟ فيعرضون عليه مثل ما عرضوا على رضوان فيقول لهم: إن الله جلت قدرته جعل من يسكن الجنة ممن يتكلم بكلام العرب ناطقاً بأفصح اللغات كما نطق بها (يعرب بن قحطان أو معد بن عدنان) فاذهبوا راشدين - إن شاء الله - فينصرف الأدباء وتنتهي رسالة الملائكة. تلك التي نتلمس من أسلوبها وخيالها أن رسالة الغفران أينعت في نفس أبي العلاء فأرسلها تحمل صنعته على الرواة الذين صحفوا أحاديث الشعراء. وعلى الشعراء الذين نجوا من عذاب الله دون عمل يسلك بهم سبيل النجاة (في رأيه).

وأما دانتي فقد علمنا أنه عذب وشرد في الآفاق. . وحكم عليه بالإعدام حرقاً. ثم كان محباً من قبل ذلك لبياتريشي وتفتحت أزهار حياته الأولى على أيدي القديسين والرهبان يغرسون في نفسه بذور التفكير في الجنان والنيران. وعذاب العصاة ونعيم الطائعين. فلما أوشك أن ينطفئ سراج حياته، وأذنت شمسه بالمغيب قبيل وفاته بأسابيع قلائل نظر وراءه فرأى قوماً اضطهدوه وشردوه ورأى حباً مضاعاً لم يستمتع به ثار في نفسه ما يثور في كل نفس عجزت عن نيل الأماني فعمدت للخيال تحقق به

ما أضلته في الحقيقة. وتخيل رحلته في الجحيم وفي النعيم يلقى في جهنم من شردوه وعذبوه ويلقى فيها البابا بونيفاشيو الذي كان السبب في تشريده وتشتيت شمله، يراه في الدرك الثامن من جهنم في ثلة من المعذبين أمثاله غرست رؤوسهم وأكتافهم إلى الأسفل في حفر عميقة. وأما بقية أجسامهم
فقد ظلت معرضة لوابل النيران التي كانت تنصب عليها جزاء على اتجارهم بالدين. واتخاذهم من أسم الله ذريعة لجلب المنفعة لأشخاصهم، ويرى فيها الكونت جويدو منفيلترو الذي خدعه البابا بونيفاشيو. . ويرى بياتريشي حبيبته في طبقات الجنان مستمتعا عن طريق الخيال بما لم يستطعه لدى الحقيقة. ووصف استقبالها عند باب الجنان وصفا هو أخصب ناحية في أدبه. وسنذكر ذلك الوصف كاملاً غير منقوص حين الحديث عن الموازنة بين الخيالين عند الشاعرين. أفرأيت إذن كيف كانت الحوافز النفسية الخاصة تدفع كلا من الشاعرين أن يتخيل تلك الرحلة العجيبة؟ نعم كل منهما كان في نفسه نزوع لما كتب.
هل سرق دانتي رسالة المعري؟
مسألة طال حولها الحوار والجدل، ولم نر دليلاً مادياً على السرقة أو على البراءة منها. ولكن قوما يردونها. . فقد قال الأستاذ محمد كرد علي إن أعمى المعرة كان معلماً لنابغة إيطاليا في الشعر والخيال. وبعض الباحثين من المستشرقين في أوروبا على أن دانتي في روايته الإلهية قد اقتبسها - ولا سيما الجحيم - من رسالة الغفران للمعري.
وقال جورجي زيدان: إن المعري توفي سنة 449هـ ودانتي توفي سنة 720هـ، وملتن الإنجليزي توفي سنة 1084هـ. فلا بدع إذا قلنا باقتباس هذا الفكر عنه. وأقدمهما (دانتي) لم يظهر إلا بعد احتكاك الإفرنج بالمسلمين والإيطاليان أسبق الإفرنج إلى ذلك.
ذلك هو رأي جورجي زيدان توسع فيه حتى أدخل ملتن أيضاً في الاقتباس من المعري وحجته تأخر الزمن بدانتي وملتن واحتكاك الإفرنج بالمسلمين، فهل ذلك كله ينهض دليلاً على اقتباس الفكرة أو يكفي برهانا على الأخذ؟ المسألة لا تعدو الحدس والظن. وأما لنرى البراهين تنحاز دانتي فتبعده عن الأخذ وعن الاقتباس.
فقد بدأ حياته يتعلم الدين، يكفل ثقافته القديس فرانشكو
ولقد كان عصره عهده قوة سلطان الباباوات والكهنة. ولن يقوم لهؤلاء سلطان إلا بقوة النزعة الدينية. وإبان ذلك تتكاثر صور الجنة والنار واردة في أخيلة الناس وأذهانهم. أليس في نشأته الدينية، وفي عهده المليء بالتعصب الديني ما يكفي في أن ترد الجنة والنار في خياله؟ على أن فكرة الجنة والنار والنعيم والجحيم تدور برؤوس الناس منبلج الصباح
وأفول الشمس في كل يوم. فهي حق شائع لجميعهم لا يعده الأدباء أخذاً. ولم أنهم عدوه لكان كل شعرائنا وأدبائنا سراقا. ولكان امرؤ القيس سارقا لأنه بكى الديار كما بكاها أبن حذام من قبله، إذ يقول امرؤ القيس
عوجا على الطلل المحيل لعلنا ... نبكي الديار كما بكى أبن حذام
وإنما الذي يعده الأدباء سرقة هو أخذ الفكرة النادرة التي ينفرد واحد بها. أو الترتيب الذي لا يستطيعه إلا الشواذ والأفذاذ فهل سرق دانتي الترتيب من رسالة الغفران؟ اللهم لا
فحراس الجحيم في خيال المعري ملائكة، وفي خيال دانتي شياطين، وأشخاص الرواية عند المعري شعراء ورواة. وعند دانتي رجال دين وعصاة ومذنبين، والجنة عند دانتي تسعة أقسام لكل قسم طائفة عملوا الخيرات كل على حسب عمله. وعند المعري ثلاثة أقسام (جنة الجن) وجنة (الرجاز) والجنة الأصلية.
وقد بلغ المعري أسمى خياله لدى وصفه الفردوس. كما كان أخصب النواحي خيالا عند دانتي هو وصف الجحيم
وسنعرض لذلك بالموازنة التامة (إن شاء الله)
على أنه إن كان لا بد من أن نتهم الشاعر الطلياني بالاقتباس. فأولى أن نعتقد أخذه من فرجيليو الذي كان دليله في رحلته وهاديه في ظلمات الجحيم. ولفرجيليو هو الآخر رحلة في أعماق الجحيم هي أقرب لخيال دانتي من رسالة الغفران.
ولقد كانت لدانتي أحلام فيها ملائكة وفيها موتى، هي إرهاص ومقدمة لرسالته العتيدة.

فقد رأى في حلم من الأحلام أنه ضل في غابة موحشة فأطلت عليه محبوبته بياتريشي في سحابة من الملائكة وعليها لهب قرمزي كأنه اللهب المتأجج. وخيل إليه أنه يتغلغل في عالم الأموات.

كما تحدث في بعض أشعاره قائلا: ها أنذا جالس في مكاني أذكرها وأذكر أيامها السعيدة فيلوح لي كأن ملائكة من السماء تهبط من عل وتأخذ أماكنها على المقاعد الموجودة حولي.

فإذا ضممنا لذلك كله أن حبه ألهمه خيال الجنة ليستمتع بمن أحب، وأن بغضه لمن حاربوه ونفوه وشردوه يوحي إليه أن يتخيلهم في دركات الجحيم، وأن تلك طبيعة النفس تشره لنيل آمالها ولو عن طريق الخيال. عرفنا براءته من السرقة.

يتبع

محمود أحمد النشوي

بديع الزمان الهمذاني - 4

للدكتور عبد الوهاب عزام

عاش أبو الفضل أحمد بن الحسين الهمذاني أربعين عاماً أمضى شطرها نائياً عن بلده وعشيرته في طلب المجد والغنى، فبلغ ما أراد. نبه ذكره واتصل بمعظم الأمراء والوزراء في الشرق: شمس المعالي قابوس بن وشمكير، وخلف بن أحمد، وبني قريفون، وبني ميكال والسلطان محمود، والصاحب بن عباد، والفضل بن أحمد، وأبي نصر من وزراء الدولة الغزنوية. وعرف كثيراً من رؤساء نيسابور، وطوس، وسرخس، ونسا، وبلخ، وهراة. وصار مطمح أصحاب الحاجات يتوسلون به إلى أولى السلطان والجاه، يتبين ذلك في كثير من رسائله. وقد قال في رسالة الشيخ أبي النصر في أمر بعض الفقهاء: (وهؤلاء الصدور، يرون الشمس من قبل أن تدور.) يعني أن الناس يرونه قادراً على تيسير حاجاتهم. وكان له عناية بالأمور العامة يبذل فيها من عقله وجاهه. كتب إلى الوزير الفضل بن أحمد مع وفد من هراة ذهبوا إليه يلتمسون تخفيف الخراج عن أهل مدينتهم، وكتب إلى رئيس هراة في أموال رأى جبايتها حراما، وكتب إلى وزير السلطان محمود في قتل رجل أسمه أبو عثمان: (والله لئن سكن السلطان العظيم وتغافل، وتسامح الشيخ الجليل وتساهل، أن الله بالانتصاف لملى، وأن الله على الانتقام لقوي، والمحنة أدام الله عز الشيخ الجليل في ذهاب ذلك العالم المسلم، دون المحنة في بقاء هذا الظالم المظلم، ولئن ساغ لهذا الفاسق ما فعل ليرخص نجم المسلم، وليراق دم العالم، وليصيرن كل سكين منشور ولاية، ثم ليتسعن الخرق على الراقع، وليس دم المسلم بيسير عند ربه، ولزوال الدنيا على الله أهون من صبه، أليس الله تعالى يقول: من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا: وأنا أعيذ بالله هذه الدولة من أن توصم بتعطيل الحدود، أو توسم بإهدار الدماء، وعسى الله أن يوفق الشيخ الجليل لتدارك هذا الأمر، أن ذلك على الله يسير.

ويقول في الرسالة نفسها: (ورد على خادم الشيخ الجليل كتاب من أقصى خراسان والعراق بحديث تسيار فلان وصاحبه فلان وذكروا معرفتهما بأحوال الثغور، وممارستهما لما يعرض بها من الخطوب، وأن أعين المرابطين والغزاة طامحة إلى نصره، من السلطان العظيم أعز الله نصره وقد بعثوا بهما وفدا وقدرا أنهما يجدانني بالحضرة فأكون لهما لسانا،

وتنجزا إلى كتابا ليعلماني، ولو أمكنني النهوض لاحتسبته لهما وإذا لم ينهض قدمي، فقد أستثاب قلمي، والشيخ الجليل يرى عالي رأيه في تفريبهما لنصرة الله والاصغاء المثوبة إن شاء الله تعالى.

وفي هذا ما يبين عن مكانته بين الناس واهتمامه هو بأمورهم.

ونجده أحيانا يكتب للإصلاح بين فريقين متحاربين. وقد مكنته هذه الهمة العظيمة من دفع المفسدين عن نيسابور، وكان إذ ذاك في مستهل صيته ومبدأ نباهته، يقول في رسالته إلى أبيه بعد إن وصف ما كان بخراسان من هرج ومرج: لا ولا شيء إلا السلاح والصياح وكل شيء إلا السكون والصلاح، وأنا إذ ذاك حاضر نيسابور وداري بين القبة الرافضة وكل يوم تهديد، ورعب جديد، فقلت:

ولكن أخو الحزم الذي ليس نازلا ... به الخطب إلا وهو للقصد مبصر

فلقيت صدور نيسابور وقلت حتام هذا البلاء والعلاج قريب ليأخذ، وهلا نفر من طائفة

الغزاة؛ إلى هؤلاء الغواة، وآزارهم أهل الصلاح وأنا من دعا إلى هذا الأمر وأجاب إليه وبذل فيه وأنفق عليه، ففعلوا وما كان سواد ليلة حتى علت كلمة الحق وباد أهل الفساد، إن جرح الجور، قريب الغور، وإن نار الحلفاء سريعة الانطفاء، وأن كيد الشيطان ضعيف، ثم أسمع الآن بهمذان من خراب واضطراب، وبأموالها من ذهاب وانتهاب، وبأسواقها من فساد وكساد، وبأسعارها من غلاء، وبأهلها من جلاء، أفليس فيهم رجل رشيد يجمع كلمة أهل الصلاح؟ عجبا من تعاون المفسدين على أخذ ما ليس لهم، وتخاذل المسلمين عن منع مالهم.

أخلاق الهمذاني

أظهر أخلاق أبي الفضل بديع الزمان، الأنفة والعظمة، ومن أجل ذلك يكثر في رسائله عتاب الأمراء والرؤساء على التفريط في جنبه أو إنزاله دون منزلته. كتب إلى أبي جعفر بن ميكال حين آنس منه التقصير في الحفاوة به: (وأعرفه إني ما أطوي مسافة مزار إلا متجشما، ولا أطأ عتبة دار إلا متبرما، ولست كمن يبسط يده مستجديا، أو ينقل قدمه مستغذيا فإن كان الأمير الرئيس أطال الله بقاءه يسرح طرفه في طامح أو طامع، فليعد للفراسة نظرا.

فما الفقر من أرض العشيرة ساقنا ... إليك ولكنا بقرباك تبجح

وكتب إلى الأمير خلف بن أحمد وهو الذي اصطفاه بأحسن مدائحه: (كتابي أطال الله بقاءك وقد كنت نذرت إلا أخاطب حضرته ثم روى لي القاضي حديثاً طرق إلى نقض ما نذرت طريقا وسمعت منشداً ينشد:

لحي الله صعلوكاً مناه وهمه ... من العيش أن يلقى لبوسا ومطمعا

فقلت أنا معنى هذا البيت، لأني قاعد في البيت، آكل طيب الطعام وألبس لين الثياب، ويفاض على نزل، ولا يفوض إلى شغل، ويملأ لي وطب، ولا يدفع بي خطب. وهذا والله عيش العجائز والزمن العاجز. . . ولعل جرما تصور، أو رأيا تغير، أو اعتقادا أخلف، أو ظنا اختلف. فأن لم يكن شيء مما سردت وأوردت فالغلط في صدر القصة كان، وفي عجزها بان. وإن كان كذا فبالله ما أرضى، ولو صارت السماء أرضا، ولا أريد، ولو انقطع الوريد. وأني لأستحي من الله أن أرى لي المثل الأدنى، وفي القوس منزع أبا، وإن لم أكن بالعراق أمير البصرة، وببخارى زعيم الحضرة، فما أزعجني عن همذان فقر إلى جوع وعرى، ولا ساقني إلى سجستان طمع في شبع ورى، وإنما نحوم حول المراد،

ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة ... كفاني ولم أطلب قليل من المال.

لا يكثر الأمير على من خلعه وصلاته. فوالله لو علمت أن قصارى أمدي سجستان أليها، وضياعها أقتنيها، وغلمانها أشتريها، وأموالها اتسع فيها، ولا مطمع في زيادة بعد لآثرت الزهد على الطلب.)

وكتب إلى عامل البريد: ولكنك طفقت لا تهاب سلطان العلم، فأعلمناك أن سلطان العلم لا يهابك. ولو اتصلت بالسماء أسبابك) وكتب إلى الوزير أبي نصر بن بريدة وقد قدم رجلا عليه: قدم اليوم على فلانا ولست أنكر سنه وفضله، ولا أجحد بيته وأصله، ولكن لم تجر العادة بتقدمه لا في الأيام الخالية، ولا في هذه الأيام العالية، وشديد على الإنسان ما لم يعود) إلى أن يقول: (أنا لا ألبس الشيخ الجليل على هذه الخصلة، ولا أحتمله على هذه الفعلة.

فأما أن تكون أخي بحق ... فأعرف منك غثي من سميني

وإلا فاطرحني واتخذني ... عدوا أتقيك وتتقيني

لا أعدم كريما، ولا يعدم نديما. ولي مع هذا الماء حالان لا واسطة بينهما، إن صفوا بأشربه، أو كدرا فلا أقربه، والسلام.

وكان البديع ذا همة عالية، ومروءة عظيمة، يعطف على الناس ويرثى لهم، ويصغي لأصحاب الحاجات، ويشفع فيهم. وقد مر بعض ذلك. ومما يدل على نبالة نفسه وسمو همته ما كتبه حين هناه بعض الناس بمرض الخوارزمي، وما يظهر في رثائه الخوارزمي من حزن صادق.

ويؤخذ من رسائله أنه كان جوادا: كتب إليه صديق يؤذنه بقدومه إليه ويسأله أن يستأجر له داراً فأبى إلا أن ينزله معه في داره، وكتب إلى صديق له مات أبوه فحذره من أن يقتر على نفسه ويحرم نفسه المتعة بماله كما حذره أن ينفقه في اللهو

واللعب. ومن رسالته إلى الأمير أبي الحارث محمد مولى أمير المؤمنين: (وأما الدرهم والدينار فدفعهما ونزعهما من يدي سواء. لا أشكر واهبهما ولا أشكو سالبهما. إن لي في القناعة وقتا وفي الصناعة بختا)
يشهد لهذا ما أرسله إلى أبيه من المال وما أرسله إلى أقاربه وأصدقائه من الهدايا.
وبديع الزمان على حسن معاشرته، وحلوة حديثه، وما ينزع إليه من الفكاهة في كتابه، كان في طبعه الانقباض، والنفرة من الناس والتشاؤم، يظهر هذا حين يصف الزمان أو يرثى الموتى أو يهجو رجال عصره من القضاة والكتاب، وأصحاب الأعمال. وحسبك من رسالته التي أجاب بها شيخه أبن فارس حين كتب إليه يذم الزمان: (نعم أطال الله بقاء الشيخ الأمام، أنه الحما المسنون، وإن ظنت الظنون. وأن الناس ينسبون لآدم. وإن كان العهد قد تقادم، وارتبكت الأضداد، واختلط الميلاد، والشيخ الأمام يقول: فسد الزمان أفلا يقول متى كان صالحاً؟ إلى أن يقول: وما فسد الناس، وإنما أطرد القياس، ولا أظلمت الأيام، وإنما امتد الظلام. وهل يفسد الشيء إلا عن صلاح، ويمسي المرء إلا عن صباح؟)
ويقول في الديوان:
كذاك الناس خداع ... إلى جانب خداع
يعيثون مع الذئب ... ويبكون مع الراعي
ولعل من هذا المزاج المنقبض كانت شدته في الهجاء، وإفحاشه في الذم أحياناً، وميله إلى العرلة، ولذلك كان أحسن شعره ونثره ما كتب في الرثاء أو التعزية أو الوعظ.
ويؤخذ من رسائله أنه كان عزوفاً عن اللهو، يعاف الخمر، ويتجنب المحرمات. وفي رسالته التي كتبها لأبي الطيب سهل بن محمد يقول عن نفسه والخوارزمي: (ونحن في كل حال، على طرفي محال، هو خوارزمي ولست من خوارزم. وهو شاعر ولعن الله النظم؛ وخمري ولا أشرب الخمر، ونائي ولا أسمع الزمر، وعودي ولا أسمع النقر، ونردي ولا ألعب القمر.
ويؤخذ من رسائله كذلك أنه كان متألها يلتزم السنن جهده.
وقد بلغ من الورع أنه كتب وصية يأمر فيها بأتباع السنة في تجهيزه ودفنه، وينهى عن البكاء عليه، وهي مثبتة مع رسائله.
ونجد في رسائله مع هذا أنه يجيز الكذب أن كان في الكذب خير يقول. في رسالة إلى بعض وزراء الغزنوية. (زعم أدام الله تمكينه أني أخلف المواعيد، وأرد العذر البعيد. ومتى ادعيت أن قولي يكتب في المصاحف أو يتلى في المحاريب؟ ومتى تبرأت من الأحاديث. والله أني لأكذب الكذبة أظنها لحسنها صدقا)
وفي رسالة أخرى: (وقد زورت على الشيخ تزويرا آمل أن ينفعه الله به في الدارين، وغدا أعرفه الحديث)
يتبع
عبد الوهاب عزام
من طرائف الشعر
البهال
للشاعر الحاج محمد الهراوي
هُم الناس قد ألقوا عليَّ حمولهم ... على علمهم أني أضجُّ بأحمالي
ويبلغُ ظن المرء منهم جهالة ... بأني أنا وحدي له وحدَه خالي
فعِّمي وعماتي، وخالي وخالتي ... وأبناءُ أعمامي، وأبناءُ أخوالي
وآلي، وأصحابي، وآل صحابتي ... ومن ليس من صحبني وليس من آلي
يكلفني قومي ثمانين حاجة ... ولم يحملوا منهنَّ ذرةَ مثقالِ
كأنيَ فيهم، والحوائجُ جمةً ... وقد أثقلوا ظهري، مطية أثقالِ
لئن سرَّهم مني خلائق عائلِ ... لقد ساءني منهم خلائق بُهَّالِ
الهوى والشباب
تعالَى نعْش في ربيع الشبابِ ... خلِيِّينِ من حَزَنٍ والتياحْ
ونُسبغْ على الكون ظِلَّ الرجاء ... فيغدُوَ طلقاً كثير السماحْ
ونُصغِ إلى هاتفٍ في الغصونِ ... طروبِ الغناءْ، شجيِّ النواحْ
ونجني مَلذَّاتِ فجرِ الحياةِ ... فأن الشبابَ سريعُ الرَّواحْ

تولى زمانُ الأسى والرَّنين ... وأشرقَ عَهدُ الهوى والمِراحْ
وزخرفتِ الأرض كَفُّ الربيع ... ولفَّتْ بِبُردِ الجمالِ البطاحْ
ورف على الزهر قَطرُ الندى ... رفيفَ الضُّحى فوق ماء قَراحْ
فهيَّا امرحي وابسمي للحياةِ ... وحيِّي الربيعَ، نجيَّ المِلاحْ
له الله من عبقري الفتونِ ... صَناع البنان، ظليل الجناحْ
تراءى عليْهِ رداء النعيم ... فيا حُسنه مُجتلى، حيث لاحْ
أطلَّ فأسفرَ بِشرُ الوجوهِ ... وآبت بشاشةُ ثَغرِ الصباحْ
ومَّستْ يداهُ يَبيسَ الحقولِ ... فعاد غزيرَ الجني والنفاحْ
وآوى إلى ظله اللاغبون ... وألقوا هنالكَ عبَء الكِفاحْ
تعالى إلى روضةٍ بَرةٍ ... وظِلِّ ندٍ، وصفاءٍ مُتاحْ
تعالى أبثَّكِ نجوى الفؤادِ ... وأسِمْعِكِ شِبهَ أنينِ الرياحْ
تغلغل حبكِ بين الضلوعِ ... وخالطَها مِثلَ ماءٍ وراحْ
فأحيا خيالي حتى استفاض ... وأضحى بعيدَ مَجالِ السراحْ
جمالَكِ أوحى إليَّ القصيدَ ... وما كنتُ قبلَكِ جَمَّ الصُّداحْ
نَعشتِ فؤادي بالذكرياتِ ... وهَدْهدتِه بالمنى فاستراحْ
وعلَّمتِهِ من نشيدِ الحياةِ ... لحوناً تَفيضُ بِروحِ الطِّماحْ
جراحُ الهوى، كالمنى، لذَّةً ... فيا حُبِّ أيقظ دفينَ الجراحْ
دمشق
حلمي اللحام
الجدول الحالم
تدفق كشعري بالحنان، ولا تكن ... شحيحاً، فهذا الزهر نشوان من ضمَّكْ
ووقِّعْ أناشيدَ الحياة على الحصى ... ودع صادحات الطير نثمل من لثمكْ
وسر حالماً ما بين عشبٍ منمق ... وبين شجيراتٍ تضاحكن من حُلمِكْ
تدفق، لأنتَ النايُ يُلهبُ خاطري ... وأنت شبيهي في صداكَ وفي وسمكْ
تدفق، وُثرْ، وأبعث أغانيكَ حرةً ... ولا تخشى مأفوناً يلوم ولا يدري
ألا إنما الألحان تملك منطقي ... ولحنُك أولى أن يُغَني على شعري
ولحنك ألامي، ثَوَتْ مِلَء خافقي ... سنين إلى أن رُعتَها أنت من فكري
ووثبك بين الرمل، وثبي لدى الصبي ... وعهد الصبي أغلى الذي فات من عمري
ألا حبذا كوخٌ لديك ومرتعٌ ... بشطك أقضي فيه أسعدَ أيامي
لقد ضقتُ ذرعاً بالحياة وأهلها ... وشَردتُ في بحبوبة العمر أحلامي
ونفسي تخاف الناس، حتى كأنني ... أعاشر عجماواتِ تسعى لإعدامي
منعت يميني عن تحية فاجرٍ ... مخافة أن تدمى بمخلبه الدامي.!

الجدول الحالم
تدفق كشعري بالحنان، ولا تكن ... شحيحاً، فهذا الزهر نشوان من ضمَّكْ
ووقِّعْ أناشيدَ الحياة على الحصى ... ودع صادحات الطير نثمل من لثمكْ
وسر حالماً ما بين عشبٍ منمق ... وبين شجيراتٍ تضاحكن من حُلمِكْ
تدفق، لأنتَ النايُ يُلهبُ خاطري ... وأنت شبيهي في صداكَ وفي وسمكْ
تدفق، وُثرْ، وأبعث أغانيكَ حرةً ... ولا تخشى مأفوناً يلوم ولا يدري
ألا إنما الألحان تملك منطقي ... ولحنُك أولى أن يُغَني على شعري
ولحنك ألامي، ثَوَتْ مِلَء خافقي ... سنين إلى أن رُعتَها أنت من فكري
ووثبك بين الرمل، وثبي لدى الصبي ... وعهد الصبي أغلى الذي فات من عمري
ألا حبذا كوخٌ لديك ومرتعٌ ... بشطك أقضي فيه أسعدَ أيامي
لقد ضقتُ ذرعاً بالحياة وأهلها ... وشَردتُ في بحبوبة العمر أحلامي
ونفسي تخاف الناس، حتى كأنني ... أعاشر عجماواتِ تسعى لإعدامي
منعت يميني عن تحية فاجرٍ ... مخافة أن تدمى بمخلبه الدامي.!
تدفق؛ وأنشدْ، إنني وحدي الذي ... يعي كلَّ ما تلقيه من وَحي قيثاركْ
وغيري من الأحياء ألهتهمُ الدُنى ... فصُموا جميعاً عن قريضي وأشعاركْ
لئن كنتَ مغموراً، فلحنك خالد ... وكم ذائع الآثار يعنوُ لآثاركْ

شدونا كلانا يا غديرُ، فلم أصِبْ ... مُصيخاً، ولم تُلف المذيعَ لأسرارك!
عبرتُ إليك اليوم، والضوء ضاحك ... بصفحتك الخجلي، وقد قاض بشره
وقد هبط النسمُ الجريءُ للثمها ... حدوباً، عظيمَ الشوق، يُسكرُ نُشْرُه
وغرَّدَ عصفورٌ على غصن دوحةٍ ... أغاريد عربيد تزايدَ سُكرُهُ
وصفَّقَ قلبي في الضلوع محاولاً ... عناقَكَ، كي يَهمي بمائكِ شعرُهُ
ألآقل عن الذكرى، وحدِّث عن الهوى ... ولو أنَّ في ذاك الحديث شجي قلبي
وقُصَّ الذي تدريه عن ملعب الصبي ... وعن حيرة النجوى، وعن لوعةِ الحب
وقُل عن عهود الغيد ما قد وعيته ... لعل بما ترويه تنفى جوى الصَبِّ
وحَدِّثْ عن الأولى حديثاً مُفصلاً ... فأنيَّ منها فزتُ بالأمل العذبِ
تدفق، وقل يا جدولي، هاهو الضحى ... قد أنساب منه النورُ فوقك كالتبر
تبسم، فهذا النسمُ هبَ مداعباً ... مياهَك، فياضَ الطلاقة والبشر
وإن كنتَ لا ترضى عن الحسن والهوى ... لأنك تلقى فيهما غاية الشَرِّ
. . .فكن ثائراً، وارفع بألحانك النهى ... إلى عالم سام من الطهر والبِرِّ
أيَا جدولي المجهول، رَدِّدْ خواطري ... ففيها شفاءٍ النفس من بعض أسقامي
!. .ويا رُبَّ لحنٍ عاثرٍ متكاسلٍ ... يُثيرُ نبوغي، أو يُحَفِّزُ إلهامي
لَكَمْ نحت والإعصارُ يعوي مُدَمِّراً ... بشطْيكَ، والأمواه تلطم أقدامي
وقد لاح في جوف الزعازع وأمضٌ ... تألق نوراً من ذُرى الكوكبِ السامي
إلا فْلنُغَنِّ الآن للنجم، عَلَّهُ ... يُضيءُ لنا ليلاً فتمضي المخاوفُ
لقد عشتُ مجهولاً بشطكِ مُهمَلاً ... يُضيءُ لنا ليلاً فتمضي المخاوفُ
نزفتُ دمائي في مياهكَ كُلها ... بربك قل لي ما عسى أنا نازف؟
!عسى أن يشق النجمُ أسدافَ ليلنا ... فتنقذنا الدنيا، ويُجْدِي التعارفُ

مختار الوكيل

من الأدب الفرنسي

والحب. . .؟

لأناتول فرانس

قرأت فيما قرأت كتيباً ألمانياً عنوانه (على هامش سفر الحياة) للأستاذ جرهار دامنتور، فيه عرض قوي صادق لمعيشة النساء اليومية المضنية، وقد ترى معي أن الحزن باد على هذا الجانب المظلم من الجنس اللطيف: (في سبيل مطالب الأسرة وحاجات الزوج والأولاد تفقد ربة البيت سناء جمالها، وتذهب غضارة وجهها، وتستهلك قوة بدنها، وتنخر مخ عظامها. فهذا السؤال الخالد المعاد (ماذا عسى أن نطبخ اليوم من طعام، ونهيئ من أدام) وذلك الاضطرار الملح إلى مسح البلاط، وتنظيف الغرف، ونفض الثياب، وغسل الأواني إنما، هما قطرة من ماء تتساقط دائمة دائبة، لا تفتأ تعمل في بطئ على انحلال جسد المرأة وعقلها حتى لا تبقى منها شيئاً، ولا تذر لها أثرا، وأمام الموقد المشبوب، في المطبخ المشؤوم يستحيل هذا المخلوق الصغير، الناصع الوردي، ذو الضحكة الساحقة البلورية إلى مومياء هزيلة سوداء تبعث في الرائي الكآبة والألم!! وبين يدي ذلك الوجاق الأدخن الأسخم، يطبخ عليه اللحم في القدر تناثرت ضحايا كريمة: (الشباب، الحرية، الجمال، اللذة).

هذه عبارات جرهار دامنتور، وهذا حظ الكثرة الغامرة في الدنيا من بنات حواء. فأن الحياة عسيرة ملتوية عليهن كما هي عسيرة ملتوية على الرجال، كل يئن من وعوثة الطريق ويرفع عقيرته بالشكوى والصراخ! ولو راح باحث يستعلم وجه العلة في ذلك لأيقن أن ليس في الإمكان أن يكون غير ما كان، وأن الحياة لا بد أن تكون مضنية لأن جميع مقوماتها ضئيلة تندر فوق كوكب صعب إنتاجه واستثماره؛ ولن يرجى تخفيف عبء الشقاء لأن أسباباً عميقة متغلغلة مصدرها شكل الأرض، وطبيعة تركيبها، ونوع نباتها وحيوانها تحتم وا أسفاه دوام هذا الحال، وتقتضي عسر المعاش إلى يوم القيامة. ومهما يكن من أمر توزيع العمل في الناس فأن جمهرة الرجال وعامة النساء لتنوء كواهلهم بحمل أعبائه، ولن ترى غير امرأتين أو ثلاث قد خلصن من متاعب البيت ثم تسللن إلى مواطن اللهو وخرجن إلى باحة الحياة ينشرن الظرف والجمال، على مواطن العطر الندى واللذة

المتجددة، ويدخلن إلى النفوس الأماني والأحلام!! وإنما اللوم كله لا شك عائد على الطبيعة وحدها والحب، ما عسى أن يكون مصيره؟

لا نريد أن نعرف مصيره المنحدّر إليه ما دام الجوع عدوه اللدود وخصمه العنيد. ومن الواقع الذي لا يتطاول إليه الريب أن النساء جائعات أبداً، قد وكل إليهن أمر الطبخ في القرن العشرين كما وكل إليهن أمره في القرن التاسع عشر، اللهم إذا لم يرجع عهد هاتيك العصور النائية حين كان الصيادون يلتهمون فرائسهم ساخنة نيئة، وحين كانت فينوس - آلهة الحب والجمال - تجمع العشاق جميعاً وسط الإحراج ثم تفيض عليهم من وحيها ما شاءت لها العاطفة المشبوهة أن تفيض! يومئذ، ويومئذ فقط، كانت المرأة حرة طليقة قد تنصلت من تكاليف الحياة وخرجت على حدود الأسر والانكماش.

وهاأنذا أعترف إليكم بما يدور في خلدي، فاستمعوا لما أقول: لو كنت أنا خالق الجنسين من ذكر وأنثى لأبدعتهما على نحو يباين ما نعهده الآن فيهما من فقاريات لبون. كنت لا أخلق الرجل والمرأة على غرار القردة، وإنما أنشئهما على صورة الحشرات التي تكد وتعمل إذ تكون ديدانا، صغيرة ثم تنقلب إلى فراش جميل طائر يحيا حياة التشرد والهيام، لا شاغل له غير أن يحب وأن يحب! وكنت أضع طور الطفولة والشباب في آخر مراحل الوجود البشري. والواقع أن نوعاً معلوماً من الحشرات أثناء نموه وتطوره تبيد منه المعدة وتقوي الأجنحة، فهو إنما جاء إلى الدنيا بهذا الشكل المهذب ليتمتع منها ساعة أو ساعتين ثم يموت!

أجل! لو كنت إلهاً (أو أُليها (بالتصغير) لأن فلسفة الإسكندرية تعزو صنع هذا الكون إلى آله صغير أو شيطان مبدع) لو كنت أليها لما اتخذت غير هذه الحشرات نمطاً أنسج على منواله الإنسان، وكنت أجعل المرء يتم جميع أموره المعيشية الغذائية وهو جنين، وفي هذا الطور الابتدائي لا أثر للغريزة الجنسية البتة ولا جوعيغشى الحب أو يلتهم معالمه، ثم أدفع الحياة إلى حيث يطير الرجل والمرأة على أجنحة رفافة، يتنقلان فوق الزهور، ويتذوقان ما يشتهيان ثم يموتان في معانقة وتقبيل. . . وهكذا أكون قد أكسبت الحياة الفانية جزاء وفاقا، ووضعت الحب تاجا على رؤوس الأحياء من بني آدم. ولعلك توافقني على أن ذلك خير وأبقى!!

بيد أنني وا حسرتاه لم أخلق الكون، والإله المبدع لم يشاورني في الأمر، وأنا أشك فيما بيني وبين نفسي أن يكون قد استشار أحدا من الفلاسفة، ورجالات العلم والمعرفة.

حمص

محمد روحي فيصل

تذكار الشاعرة الكونتس دي نواي 1876 - 1933

للأستاذ خليل هنداوي

خلاصة مقال نشرته مجلة في تموز الغابر للأديب (موريس را)

دي نواي والطبيعة

يقول (جابريول) إن الشاعرة الفتاة - صديقة الحدائق - قد تأثرت كثيرا بالشاعر الكبير (جامس) وقد وضح هذا التأثر في ديوانها (القلب الذي لا يمكن تعديده) فهناك تشابه قريب بين الروحين وبين الفنين. فمقطوعات الشاعر (جامس) (الآس البري الأزرق) و (شجرات الجوز ذات الأزهار البيضاء) و (طيب الغصون المبتورة قبل الشتاء، وهو ينتشر كالمحزون في أجواء الغابة) قد ألهمت (دي نواي) كثيرا. وهب أن (جامس) لم يكن مترنماً بهذه المقاطع، فهل كان باستطاعة (دي نواي) أن تستنزل ذلك الإلهام، وأن تخترق بروحها ما اخترقت من تلك الآفاق الواسعة. قد يكون الجواب لا، ولا ريب!

ولكن مالنا ننكر على (دي نواي) براعتها وخصائصها، فهبها إنها كانت حميلة على (جامس) في كي ما أنتجت وأخصبت، فأن للشاعرة وراء هذا كله مجداً وبراعة خاصة. لقد أغارت على طائفة من معاني (جامس) إغارة روحية لا أدبية، ونظمت ما تلجلج فيه (جامس) نظماً رقيق الحواشي، لطيف التعبير، زاخراً بالعاطفة، جرت فيه على الأسلوب العاطفي، أسلوب (هوجو ولامرتين). أما هوجو فقد كان كثير الرؤى والأحلام و (بودلير) كان يعبث بالطيوب عبثا، أما (الكونتس) فقد فتحت قلبها للصباح وودت أن تلمسه وتذوقه بحاستي اللمس والذوق، كما تقول:

(أفتح فمي للهواء الذي ترطبه الانداء)

وفي موطن آخر تراها لا تشبعها الطيوب ولا الألوان ولا الألحان، تتذوقها وتظل جائعة نهمة، فتعلن أنها تود أن تلمس العالم والطبيعة بيدها، فنقول بلهجة صادقة:
أريد أن ألمس عذوبة هذا الفضاء، هذه العذوبة الندية الزرقاء حيث العصافير)
(السكارى تثب وتنفذ في مساربه كما تشاء
فهي تريد أن تتذوق وأن تتروح وأن تلتمس وأن تلتهم جمال الصباح، هي تستطيع أن تقول مع (سانت انطوان) بنأليه الكون. (أريد أن يكون لي أجنحة، وأن أدخل في كل شيء، وأن أكون في كل شيء. أنتشر كالطيوب، وأنمو كالنبات، وأجري كالماء، وأرن كالألحان، وأسطع كالنور وأوتى جميع الأشكال، وأنفذ في كل شيء وهيئة، وأغور في أعماق المادة، وأكون بعد هذا كله - المادة . . .)
ودت الشاعرة أن تكون المادة بذاتها، فدنت منها وامتزجت مع الأشياء وقالت (سيكون جميلا وحقا إيماني. . . بأن قلبي المتوقد هو كهذه الكمثرى التي ينضج جلدها رويداً تحت أشعة الشمس). وتمنت أن تكون أحد الكائنات في الغاب، فقالت والجشع غالب عليها:
(من أين جئت؟ إن الوجود لم يحل العقدة التي تجمعني بهذا المرأى.
أنا بنفسي، أفق، وجدول، وكوكب، وغابة).
على أن رغبتها قد تثور فتأبى أن تماثل جسدها الهالك بكل أشياء هذا الوجود، ويهيج نهمها الذي لا يشبع فتخاطب الزمن قائلة:
(وأنا مثل الزمن. أنا قبل مصر العتيقة. وقبل اليونان. كنت في عهد الماء)
على أن مثل هذا الهذيان الخيالي قد يدعو إلى الابتسام، وإذا كانت الشاعرة - في واديها الذي هامت فيه - لم تخلص نفسها من تأثير أترابها الشعراء فيها، ولم تجد لمسراتها التي تفننت بها ألحانا جديدة قوية، فأنها قد جارتهم وبزتهم في كثير من مقاطعها، وابتدعت لنفسها أفقا جديدا، وإذا أدرك الشعراء الطبيعة وفهموا معانيها ورأوا ألوانها، وتنشقوا أريجها، فهي قد تروحت هذا الأرج وأصغت إلى ألحان الطبيعة التمتامة، ولمست أشياءها وأكلتها وشربتها.
أليس هذا نهمها الشعري يبدو في ثنايا سطورها؟
وهكذا أجدني أستطيع أن أطرح بيدي للا نهاية فإذا كل شيء دان من فمي، لا يمتنع عنه شيء)
وإذا ما هبت النسائم العاطرة تروحت شذا خمور (آسيا)
وهذه الريح المهيمنة. . .)
المزودة بالسماء والفضاء، والمناظر الواسعة
هي شبيهة بهذه الخمور القادم شذاها من (آسيا)
وإذا ما جنحت الشمس للغروب وكان الأفق هادئا جميلا، خيل لها أن الطبيعة نفسها قد استحالت كلبة جميلة أمينة مستوية على حضنها).
وكنت أحس أن هذا المساء الأنيس)
يهرع إلى من كل صوب ومن كل طريق لينام بين يدي)
فيالها من ساحرة نهمة لا تشبع، ويالها من غادة مجوسية - كما دعاها مارسيل بروست - هذه الغادة النهمة التي لا تقنع بإرسال طرفها في الكون، ولا بالإصغاء إلى أصواته، ولا بتروح شذاه، فهي تعمل على أن تلمس وأن تلتهم الوجود إلتهامة الشره. ولهذه الرغبة الملتهبة والصور القوية المكتنزة يعود سر استعمالها للألفاظ (اللحمية) في شعرها، ودي نواي الشاعرة هي التي كتبت (لأندريه جيد) عن الأطعمة الترابية - بكل ما في معنى الكلمة حتى أنزلت الطبيعة والحياة عندها منزلة (راحة الحلقوم) (إن الهواء الحار يحمل إلى أريكة تتهافت عليها روحي وفجاجة هذا المرج الأخضر هي في عيني مائدة فاخرة)
لكن إغراقها كثيرا في التشابيه والمجازات قد يضل القارئ عن أغراض المقطوعة وعن قصد الشاعرة.
قد تكون وجهتها في شعرها وجهة (جامس) في شعره، فأن (جامس) قد تغنى بجبال (البيرية) التي حنت على طفولته وشدا بجمالها الساحر بألحان صادقة سامية رائعة، و (دي نواي) قد تغنت بحدائق (فالوا) الفينانة، وبدت شرقيتها في كل ما نظمت هذه الشرقية المغمضة، فكانت تتروح عطور المشرق وتجد ألوان جزائر (الأرخبيل) وتذكر

الأرض وقد حالت عند المغيب شعلة ملتهبة، هذه المناظر وهذه الأكوان قد آثرتها على كل شيء ووصفتها وحبتها بالألوان والشذا وبكل تلك الخاطرات السامية التي تموج في قلبها.

قال أحد نقادها بعد وفاتها (إن دي نواي قد أحبت التراب القدسي الذي يولد منه كل شيء، وإليه كل شيء يعود، هذا المعبد الذي تتعاقب عليه الفصول الأربعة تعاقبا متشابها. أحبت في الأرض تلك المرضع التي يفيض قلبها رأفة وحنانا، والتي تسمو عن الإنسان القاسي على الضعفاء)

وإذا تأمل قارئ (دي نواي) في شعرها يدرك أن هذا رأي خاطئ، لأن الشاعرة لم تقدس الأعمال ولا الأيام. لكنها كانت كإحدى كاهنات (أدونيس) أو (باخوس) تحمل في صدرها ملذات حساسة متيقظة. وهي لا تتخذ الطبيعة موضوعا لها، بل تتخذ موضوعها نفسها،

وإذا ما خرجت عن نفسها لتتحد مع النجوم الساهرة، أو لتمتزج مع الأطياف التي تخلقها بخيالها، فإنما تريد من وراء هذا كله أن تنمي وجودها، وتستخلص من الوجود مسراتها النادرة.

وهي القائلة عن نفسها: (قد أكون غير مجدية، ولكن فراغي لا يملؤه أحد)

(يتبع)

خليل هنداوي

العلوم

ويسألونك عن الأهلة

للدكتور أحمد زكي

- 2 -

ملعوب القمر

نظر الإنسان من قديم إلى القمر، فوجد بعض سطحه نيِّرا كثير النور، وبعضه قاتما قليل القتومة، فتخيل عنه الأخيلة.

وجاء التلسكوب فنظر إليه منه فزاد تفصيل ما كان يراه أجمالا، فرأى مناطق الأنوار قد اتسعت، ومناطق الظلال قد امتدت، وتداخل النور في الظل، وتداخل الظل في النور، وتمثلت في ذهنه صورة الكرة الأرضية ببحارها الواسعة وقارَّاتها المديدة، وعرف البحر يدخل في الأرض، وعرف الأرض تدخل في البحر؛ وعلم أن الأرض تكون بها الجبال العالية الرواسي فتظهر في الشمس للرائي البعيد واضحة وضاءة، وتكون بها الوديان المنخفضة المستورة فتظهر في الشمس للرائي البعيد قاتمة معتمة، فطبق الإنسان علمه الأرضي على ما أرتاه في القمر من ظلال وأنوار، ورسم الرسامون خرائط لوجه القمر كثيرة دقيقة، فأما المناطق التي برزت بنصاعتها فأعطوها أسماء فلاسفة معروفين، أو فلكين مشهورين، لأنهم خالوها جبالا شواهق خالة فتخلد أسماءهم، وأما المناطق التي امتازت بحلوكتها فحسبوها بحار أو محيطات فأسموها البحر الحبيس والمحيط العاصف.

وغير ذلك من أسماء تسلس في السمع وتجوز في الإفهام وزاد الإتقان في صناعة التلسكوبات فاحتد بها بصر الإنسان ودقة ملاحظاته، واستخدم التصوير الشمسي في التقاط ما يرى من صور، فعلم من أمر القمر ما لم يكن يعلم، ومع ذلك احتفظ علم الفلك بالأسماء الرنانة التي وضعت قديما أعلاما على مناطق القمر.

ويظهر إن الإنسان عز عليه فقدان هذا الحلم العزيز، فلما قام صوت يجدده ويحييه منذ مائة عام وجد له آذانا تصغي وقلوبا تؤمن. ذلك إن العالم الفلكي المعروف الدكتور جون هرشل ذهب في بعثة إلى جنوب أفريقيا لدراسة النجوم في وسط السماء الجنوبي كما درسها في

نصفها الشمالي، ولما وصلها أنطلق قلم بعض الكتاب يصف ما وجدت البعثة من العجائب وما كشفته في القمر من غرائب، وذلك على صفحات جريدة بالولايات المتحدة ذات مكانة رفيعة وحرمة معروفة أسمها (شمس نيويورك) ذكر الكاتب كيف اهتدى الدكتور (هرشل) بعد مناقشة علمية طويلة بينه وبين العالم الفيزيائي السير دافيد إلى صنع تلسكوب جديد يستخدم فيه الضوء الصناعي في توضيح الصورة البؤرية للمرئيات، وأفاض في تفصيل تلك المناقشة وذكر فيها كثيرا من نظريات الضوء

وقواعده ومعقداته، وقدَّر العالمان نفقه هذا المخترع الجديد فكانت سبعين ألفا من الجنيهات، فبعثا إلى صاحب الجلالة الملك وليم الرابع بجملة الأمر، وكان جلالته يهتم بالبحار أكثر من اهتمامه بالأقمار، فسأل هل يفيد هذا المنظار الجديد الملاحة؟ فكان الجواب نعم، فأمضى لهما حوالة بيضاء يرقمان فيها المال الذي يريدان. وصنع المنظار وجاء دور الرؤية فكانت رؤيا. نظر (هرشل) إلى القمر لأول مرة فماذا رأى؟ (أخذ أول الأمر يتفقد أراضي القمر وآفاقه أحمالا فرأى من ذلك عجبا؛ رأى بلورات لامعة تشع منها ألوان مختلفة جميلة كالتي تشع من الجواهر والأحجار الكريمة، إلا إنها ذات جرم هائل، فهي أشبه شيء بأعمدة (الاستالا كتيت) البديعة التي تتدلى من سقوف الغيران. ورأى رواسب الذهب تغمر السفوح والقيعان) ثم دار بمنطاده فوقع على غابة قمرية (بها أشجار عظيمة اختلفت أجناسها ولمعت أوراقها وتلونت أزهارها، وطالت بعض فروعها العالية وتدلّت حتى نالت الأرض. ونمت هذه الغابة إلى جانب بحر ذي ضياء سحري كأنما سكنته الحور. . .) وأخيرا وقع على حيوانات القمر فرأى (قطيعا من ذوات الأربع سمراء اللون أشبه شيء بثيران البيسون، يتميز بغشاء من اللحم نما كالمظلة على العينين وامتد حتى اتصل بالأذنين، هو لا شك وقاية من صنع الطبيعة أرادت بها حفظ أبصارها من ضوء يشتد على هذا الجانب من القمر حتى يبهر العين ويؤذيها. واتضح بعد نظرات عديدة أخرى أن حيوانات القمر كلها تشترك في حمل هذا الحجاب الساتر) ثم دار (هرشل) بمنظاره هنا وهنا، وبعد لأي (رأى جماعة من الطير تهبط إلى جانب غابة صغيرة، ولما مست أرجلها الأرض اختفت أجنحتها واستقام عودها ومشت مشية الإنسان) وذات يوم استيقظت البعثة على صوت هاتف يهتف: النار النار. فهرعوا إلى ناحية الصوت فوجدوا أنهم كانوا في الليل غفلوا عن أن يوجهوا المنظار غير وجهة المشرق، فلما طلعت الشمس أصابت عدساته فتركزت على ما وراءها فأحرقته وأحرقت المرصد بما فيه، وأدهى من ذلك وأنكى إنها أساحت زجاج المنظار نفسه وأتلفت مراياه فخيم على المعسكر يأس شديد)

هذه كلها بالطبع قصة من خلق كاتبها، أطالها ومدد فيها واستعار لها لغة العلم، وقواعد العلم، ونقاش العلم، فسبكها وحبكها وأطلعها على الناس من فوق منبر معروف، فجرت الشائعة فيهم بالتصديق. ولم تلبث أن جرت فيهم بعد حين شائعة أخرى بالتكذيب. وأسماها التاريخ (ملعوب القمر

وكلن لهذا الملعوب معان كثيرة، وكان له عبر كثيرة، وكانت له مغاز كثيرة، أقلها أن الناس أسرع ما يكونون إلى تصديق الخيال الكاذب الملون منهم إلى الإيمان بالحقيقة العاطلة القاسية.

أما الحقيقة، فليست أدرى أهي عاطلة أم قاسية، فهي أن القمر بلقع أجرد، لا ماء فيه ولا نبات ولا حياة.

يتبع

أحمد زكي

القصص

السهم الأعظم

أوسكار وايلد

ترجمة الأستاذ بشير الشريقي

كانت الحفلات في كل مكان لأن أبن الملك على أهبة الزواج، لقد انتظر عروسه، وهي أميرة روسية، عاما كاملا؛ وأخيرا جاءته مجتازة إليه المسافة الطويلة من (فنلاند) على زحافة يجرها ستة دببة، تشبه في شكلها إوزة كبيرة من الذهب، وبين أجنحة هذه الإوزة اضطجعت الأميرة الصغيرة ملتفعة ببرنس من الفرو يصل إلى قدميها، وعلى رأسها قبعة من الدمقس الفضي، وكانت في صفرة وجنتيها تشبه قصر الثلج الذي عاشت فيه، حتى أن الشعب كان كلما رآها تجتاز في عربتها شوارع المدينة يهتف معجبا: (إنها كالوردة البيضاء) ويرمي عليها الأزهار من الشرفات.

وعند باب القصر وقف الأمير ينتظر عروسه، تزين وجهه عينان عسليتان حالمتان، وشعر كالذهب المصقول، حتى إذا رآها جثا على ركبته وقبل يدها متمتماً (كم كانت صورتك جميلة، ولكنك أجمل بكثير من صورتك) فاحمرت وجنتا الأميرة الصغيرة حياء. .

قال وصيف إلى رفيقه - كانت من قبل كالوردة البيضاء - ولكنها الآن (كالوردة الحمراء) وعم القصر السرور.
مضت ثلاثة أيام على مجيء الأميرة، وكل شخص في المملكة كان يردد خلالها (الوردة البيضاء، الوردة الحمراء، الوردة البيضاء). كما إن الملك قد أمر بمضاعفة رواتب الوصفاء والوصيفات. ولما كان الوصيف لا يأخذ راتباً لم يثر ذلك اهتمامه إلا من ناحية أن أمر الملك الذي نشر في جريدة القصر، كان بذاته شرفاً عظيما له.
وكان اجتماعا حافلا هذا الذي سار فيه العروسان ويد كل منهما في يد الآخر، تحت مظلة من القطيفة الأرجوانية الموشاة باللآلئ.
ثم كانت وليمة الدولة التي دامت خمس ساعات، وقد جلس فيها الأمير والأميرة في صدر القاعة الكبيرة، وشربا في كأس من البلور الصافي لا يشرب فيها إلا المحبون المخلصون،
لأن شفاء الغدر لا تمسه حتى يأخذها القتام والتلبد.
قال الوصيف الصغير: - من الواضح أنهما متحابان، ذلك واضح وضوح البلور، فضاعف له الملك راتبه للمرة الثانية.
صاح رجال البلاط - ياله من شرف عظيم!
وبعد الوليمة كان الرقص، وكان على الأمير والأميرة أن يرقصا معا (رقصة الوردة) ووعد الملك أن يعزف بالناي، ولكنه لم يحسن العزف أبدا، ولم يجرؤ أحد أن يخبره بذلك، لأنه الملك لم يكن عارفا إلا بنغمتين اثنتين، وقد ظل حائرا أيهما يختار، مع أن الأمر أهون من ذلك إذ ما من شخص إلا كان على استعداد لأن يصيح مهما كان عزف الملك - هذا هو السحر. هذا هو السحر!
وكان آخر ما في البرنامج استعراض الأسهم النارية عند منتصف الليل. ولم تكن الأميرة الصغيرة قد شاهدت انطلاق هذه الأسهم من قبل. لذلك أمر الملك صاحب الأسهم النارية الملكي أن يكون على استعداد ليلة الزفاف.
سألت العروس الأمير - ماذا تشبه الأسهم النارية؟
قال الملك وكان يحب دائماً على الأسئلة الموجهة إلى غيره - إنها تشبه شفق الصباح، ولكنها أكثر بساطة؛ أنا شخصيا أفضلها على النجوم، إنها مبهجة بقدر ما يبهج عزفي على الناي؛ من المؤكد أنك سوف ترينها.
وهكذا انصبت منصة كبيرة عند نهاية حديقة الملك، وحالما وضع صاحب الأسهم النارية الملكي كل شيء في مكانه الخاص أخذت الأسهم النارية تكلم بعضها بعضا.
صاح صاروخ صغير - حقا أن العالم جميل، وأني لمغتبط لأني قد تنقلت. أن الترحال يروح القلب، ويريض العقل، ويمحو ما كمن في النفس من تعصب.
قالت شمعة رومانية كبيرة - أن حديقة الملك ليست العالم أيها الصاروخ الغبي. . العالم مكان واسع جدا، ولتشاهده تماما تحتاج إلى ثلاثة أيام بطولها.
هتف دولاب كثير التفكير قد ثبت إلى صندوق قديم - أي مكان تحبه فهو العالم عندك - ولكن الحب لم يعد رائجا في هذه الأيام، لقد قتله الشعراء الذين تكلموا عنه كثيرا حتى لم يعد يصدقهم أحد. . المحب المخلص يتألم في صمت. . وأني لأذكر أيام ألـ. . ولكن ليس
. .من الضروري الآن. . الحب شيء جميل عرفه القدماء
قالت الشمعة الرومانية - كلام هراء! الحب لا يموت أبدا، إنه كالقمر، وسيعيش إلى الأبد. أضرب لك مثلا: العروسان، أنهما متحابان كل الحب، لقد علمت هذا الصباح كل شيء عنهما من ورقة سمراء حدث أن كانت في نفس الدرج الذي كنت فيه. وهي تعرف آخر أخبار البلاط.
ولكن الدولاب القديم هز رأسه وتمتم - مات الحب، مات الحب، مات الحب؛؛. لقد كان من هؤلاء الذين يظنون أنك إذا أعدت الشيء الواحد مرارا عديدة يصبح في النتيجة حقيقية.
وفجأة سمع سعال خشن رنان، فالتفت الجميع ليعرفوا مصدره فإذا به آت من سهم طويل له منظر المتشامخ قد ربط إلى نهاية عصا طويلة، وكان من عادته أن يسعل قبل أن يبدي أية ملحوظة، وذلك ليسترعي الأسماع.
قال - أهيم أهيم وأصغى الجميع إلى الدولاب المسكين الذي ظل يهز رأسه - متمتما

(مات الحب). صاحت مفرقعة - النظام. . النظام.) لقد كانت سياسية من بعض النواحي وكان لها دائما عمل معلوم في الانتخابات المحلية، لذلك عرفت كيف تستعمل التعابير البرلمانية الخاصة.
قال الدولاب في خفوت - مات الحب ثم أخذه النوم.
ولما عم الصمت، وانتشرت السكينة، سعل السهم للمرة الثالثة وأنشأ يتكلم، لقد تكلم بصوت هادئ جداً وواضح جداً كما لو كان يملي أفكاره إملاء. وكان ينظر دائما إلى أعلى أكتاف الشخص الذي يخاطبه؛ وفي الواقع كان أسلوبه رائعا . .
قال - من حسن حظ أبن الملك أنه سيتزوج في نفس اليوم الذي سأنطلق فيه! حقيقة رُب صدفة خير من ميعاد؛ ولكن الأمراء موفقون دائما.
قال الصاروخ الصغير - يا عزيزي أظن الأمر على العكس تماما، فأننا سوف ننطلق على شرف الأمير.
أجاب - قد يكون ذلك صحيحا بالنسبة إليك. بل أني لا أشك فيه، ولكن الأمر معي يختلف جداً. . أنني سهم عريق في المجد. . وقد تحدرت من أبوين نبيلين، كانت أمي أعظم (عجلة) في عصرها، وكانت مشهورة برقصها البديع، وقد عاشت معللة بأحسن البارود،
وكان والدي شبيها بي، ومن أصل فرنسي، إذا أنطلق ارتفع جداً حتى كان الناس يخشون أن لا يعود إليهم. . ولكنه كان يعود، وكثيراً ما كتبت الصحف عن أعماله بعبارات الإطراء والإعجاب. وفي الحق أن جريدة البلاط قد لقبته ببطل (الأسلم النارية). قال الضوء البنغالي - تريد أن تقول (الأسهم النارية. . الأسهم النارية. .!)
أجاب السهم بلهجة خشنة - حسن، لقد قلت الأسهم النارية، ثم استمر في حديثه. .
لقد كنت أقول. . لقد كنت أقول. . ماذا كنت أقول!؟
أجابت الشمعة الرومانية - كنت تتحدث عن نفسك
طبعاً أنا أعلم بأني كنت أبحث في موضوعات طلية حينما قوطعت بكل وقاحة. . أنا - أمقت الوقاحة والرديء من الصفات، لأنني حساس بأوسع معاني هذه الكلمة. . ما أظن أن في العالم من هو أقوى شعوراً مني. . أنني متأكد تماماً من ذلك.
قالت المفرقعة للشمعة الرومانية - من هو الشخص الحساس!؟
أجابت الشمعة الرومانية في همس لا يكاد يسمع - هو الذي يطأ دائما أصابع أقدام الآخرين.
فانفجرت المفرقعة عن هدير من الضحك.
السهم محنقاً - أرجوك، علام تضحكين! أنا لست أضحك أجابت المفرقعة - أنني أضحك لأنني مسرورة.
قال السهم غضبان - أنه لعذر أقبح من ذنب. يدل على أنانيتك المفرطة، قولي ما الذي يجيز لك أن تكوني مسرورة. . يجب أن تفكري في الغير، بمعنى أنك يجب أن تفكري في: أنني أفكر دائما في نفسي، وأني لأتوقع من كل شخص أن يفعل فعلي، ذلك ما يسمونه (الأثرة) وأنها لنعم الفضيلة، لنفترض على سبيل المثال، أنه قد حدث لي مكروه الليلة فكيف يكون حال كل واحد؟
الأمير والأميرة لن يسرا بعد ذلك، وستنقلب حياتهما الزوجية رأساً على عقب، وكذلك الملك فأن اضطرابه سيكون عظيما أيضاً. حقيقة أني لا أكاد أبداً في تصوير خطر مركزي حتى تغلبني الدموع
فصاحت الشمعة الرومانية - أرى الأفضل لك إذا كنت تحب الخير للغير أن تبقى جافاً.
وهتف الضوء البنغالي - بالتأكيد، هذا ما يقضى به الشعور العادي. .
قال السهم في استهزاء - الشعور العادي. . حقاً لقد نسيتم بأني غير عادي، وأني عظيم جداً. . لماذا. كل شخص يمكن أن يكون ذا شعور عادي ولكن يكون محروم الخيال، أما أنا فخيالي لأني لا أنظر إلى الأشياء كما هي أبداً. . أني أفكر فيها من ناحية بعيدة عن الحقيقة. حقاً لا يوجد بينكم من يحمل قلباً. . أنكم تضحكون وتلهون كأن الأمير والأميرة لم يقترنا الساعة.
هتف منطاد ناري صغير - حسن حقاً. . ولماذا لا نضحك ولا نلهو. . إنها خير فرصة نغتنمها للسرور، لقد صممت أن أخبر النجوم عن ليلتنا، حين احلق في الهواء. . وسوف تراها تتلألأ حين أحدثها عن العروس الجميلة. .

قال السهم - آه ياله من رأي سخيف. . ولكن هذا ما كنت انتظره. . لا شيء فيك، أنك منتفخ فارغ. . لماذا. . قد يذهب الأمير والأميرة ليعيشا في بلاد يجري فيها نهر كبير. . وقد ينجبان ولداً وحيدا ذا شعر جميل وعينين عسليتين كعيني الأمير، وقد يخرج في أحد الأيام يسير مع وصيفته، وقد تذهب الوصيفة لتنام تحت الشجرة الكبيرة الضخمة، وقد يسقط الولد الصغير في النهر العميق ويغرق، أن من المصائب الهائلة، أيها الناس المساكين أن يفقد الأمير والأميرة ولدهما الوحيد.

قالت الشمعة الرومانية - ولكنهما لم يفقدا ولدهما الوحيد ولم يحدث لهما مكروه.

أجاب السهم - أنا لم أقل أنه قد حدث ذلك لهما، بل قلت أنه قد يحدث لو أنهما فقدا حقيقة لما كان من ضرورة للبحث في الموضوع، أنني أكره الذين يبكون على الحليب المراق، ولكن حين أفكر أنهما قد يفقدان ولدهما الوحيد أشعر بألم عظيم.

صاح الضوء البنغالي - حقيقة تشعر بألم عظيم بمعنى أنك أرق شخص عرفته في حياتي.

قال السهم - إنك أغلظ شخص عرفته في حياتي. وإنك لا تستطيع أن تفهم صداقتي للأمير.

فزمجرت الشمعة الرومانية قائلة - ماذا؟ أنت لا تعرفه معرفة مجردة

أجاب السهم - أنا لم أقل أبداً بأنني أعرفه. . وأني أعلن بكل جرأة بأني إذا عرفته سوف لا أكون صديقا؛ إنه لأمر جد خطير أن يعرف المرء صديقه؛

قال المنطاد الناري - حقاً أن من الأفضل لك أن تظل جافاً، هذا هو الأمر المهم.

أجاب السهم - مهم جداً بالنسبة إليك - أنا لا أشك في ذلك، أما أنا فسأبكي حين أشاء؛ وبالفعل تفجرت منه دموع حقيقة، جرت على عصاه كنقط المطر. فأغرقت خنفستين صغيرتين في اللحظة التي كانتا فيها تفكران في بناء بيت لهما وتفتشان عن بقعة جيدة جافة تعيشان فيها. قال الدولاب - يجب أن يكون ذا طبيعة خيالية حقيقية لأنه يبكي من دون أن يكون هنالك موجب للبكاء أصلا. . ثم صعد زفرة عميقة:

عندئذ طلع القمر أشبه شيء بدرع فضي عجيب؛ وأخذت النجوم تتلألأ؛ وأصوات الموسيقى تتعالى من القصر.

كان الأمير والأميرة يرأسان الرقص؛ ولقد بلغ من جمال رقصهما أن السوسن الأبيض الطويل أطل من النافذة يتفرج، والخشخاش الأحمر العظيم مد رأسه يمتع ناظريه ويتسلى.

ثم دقت الساعة العاشرة فالحادية عشرة، فالثانية عشرة، وعند منتصف الليل خرج كل شخص إلى الشرفة الواسعة ثم أرسل الملك في طلب صاحب الأسهم النارية الملكي.

قال الملك له - أطلق أسهمك النارية.

فانحنى الرجل إلى الأرض وسار إلى نهاية الحديقة وبرفقته ستة معاونين قد حمل كل منهم مشعلا مضيئا معلقا في رأس عمود طويل.

لقد كان استعراضا، بديعا موفقا فقد نجحت كل الأسهم إلا السهم الأعظم فقد كان مبتلا بالبكاء لدرجة أنه لم يتمكن من الانطلاق أبدا؛ كان خير ما فيه البارود، وهذا تشبع بالدموع حتى أصبح بلا فائدة.

قال السهم - يغلب على ظني أنهم احتفظوا بي لأمر خطير وبدا أكثر تعجرفا من قبل.

جاء العمال في اليوم الثاني ليعيدوا كل شيء إلى مكانه.

قال السهم - هؤلاء على ما يظهر - هم الوفد، وأني سأقابلهم بما يجب من العنجهية، وهكذا وضع أنفه في الهواء وقطب حاجبيه كأنما يفكر في أمور خطيرة؛ ولكنهم لم ينتبهوا إليه إلا في اللحظة التي هموا فيها بمغادرة المكان؛ عندئذ رآه أحدهم فصاح ياله من سهم رديء ورمى به إلى الخندق من أعلى الحائط.

قال وهو يتقلب في الهواء - سهم رديء سهم رديء! مستحيل. . سهم عظيم. هذا ما قاله الرجل. . رديء وعظيم لهما وقع واحد في الأذن، وحقيقة أنهما - في الغالب - شيء واحد وسقط في الرجل. . فأبدى هذه الملحوظة:

أنه ليس بالمكان المريح. . ولكن مما لا شك فيه أنه مكان على (المودة!) وأنهم قد أرسلوني إلى هنا لاستعيد قواي؛ حقيقة أن أعصابي محطمة، وأنني في حاجة إلى الراحة.

حينئذٍ سبحت إليه ضفدعة صغيرة ذات عينين لامعتين وظهر أخضر أرقش.
قال الضفدعة - أرى قادما جديداً. . حسناً، بعد كل شيء لا يوجد مثل الوحل. . .
أعطني جواً ممطراً وخندقاً فأكون جد سعيدة، هل تظن أن السماء ستمطر بعد الظهر؟ إني آمل ذلك، ولكن السماء زرقاء صافية.
قال السهم - أهيم أهيم وأخذ يسعل، فصاحت الضفدعة - إن لك صوتاً جميلاً. . أنه أشبه شيء بالنقنقة؛ والنقيق طبعاً أرق موسيقى في العالم، سوف تسمع أغاني نادينا هذا المساء، أننا نقيم في بركة البط القديمة بالقرب من بيت الفلاح، ولا يكاد يطلع القمر حتى نبدأ غناءنا، أنه يؤثر في النفس لدرجة أن كل شخص يتمدد في الفراش يقظا ليصغي ألينا، بالأمس فقط سمعت زوجة الفلاح تقول لأمها: أنه لم يغمض لها جفن طوال الليل بسببنا. أنه لما يبهج النفس أن يجد المرء نفسه مشهوراً بهذا المقدار.
قال السهم مغضباً: - أهيم! أهيم! ولم يزد. لقد بلغ به السخط مبلغا عقد لسانه.
الضفدعة مستمرة - حقاً أنه لصوت جميل. . آمل أنك ستأتي إلى بركة البط. . أنا ذاهبة أفتش عن أخواتي. . إن لي ست أخوات جميلات، وأني لأخشى أن يصادفهن (الكركي)، أنه وحش كاسر وسوف لا يتردد في أن يتغذى بهن. . وداعا. . أنني جد مسرورة من محادثتنا، وأظنك كذلك.
قال السهم - محادثة. . حقا. . لقد احتكرت الحديث كل الوقت، أن ذلك ليس بمحادثة.
أجابت الضفدعة - واحد يجب أن يصغي. . وأنا أحب أن أستقل بالحديث. . أن في ذلك اقتصاداً في الوقت وحيلولة دون الجدل.
قال السهم - ولكني أحب الجدل.
قالت الضفدعة بأدب - ما أظن ذلك. . الجدل دليل الوحشية، لأن كل أعضاء الهيئة الاجتماعية الراقية يحملون أفكاراً واحدة. وداعا للمرة الثانية. . أني أرى أخواتي من بعيد،
وسبحت الضفدعة الصغيرة مبتعدة.
قال السهم - أنت جد مزعجة: وجد جاهلة، أني أمقت الذين يتحدثون عن أنفسهم - كما تفعلين - حين يود أحدهم أن يتحدث عن أحد الأشخاص - كما أفعل أنا - وهذا ما أسميه أنانية؛ والأنانية أمر لا يطاق: خصوصا على من كان في مزاجي، لأنني معروف بحسن العطف على الغير؛ كان عليك أن تعتبري بي؛ أنك لن تجدي أنموذجا أفضل مني؛ والآن وقد حصل لك شرف التعرف إلى، يجد بك أن تغتنمي الفرصة لأنني عائد إلى البلاط حالا؛ أنني محبوب جدا في البلاط؛ وقد اقترن الأمير والأميرة على شرفي؛ أنت طبعاً لا تفقهين شيئا من هذه الأمور لأنك قروية.
قال يعسوب كان جالسا على ورقة كبيرة سمراء من ورق البردي: لا فائدة من مخاطبتها؛ لا فائدة أبداً. . لأنها قد ذهبت. . أجاب السهم - حسنا، إن في ذهابها خسارة لها لا لي: أنا لا أقف عن محادثتها لمجرد إنها غير مصغية إليَّ. . أني أحب أن أسمع نفسي أتكلم دائماً. وهذا من أبهج المسرات عندي، كثيرا ما تراني أحدث نفسي أحاديث طويلة دون أن أفقه كلمة واحدة مما أقوله. وهذا دليل الذكاء المفرط !. .
قال اليعسوب - أذن تكون محاضرا في الفلسفة في مثل هذه الحال، ونشر جناحيه الجميلين الرقيقين وحلق في السماء.
قال السهم - إنها لسخافة منه إلا يمكث هنا؛ أنا أعتقد إنها فرصة ثمينة له قل أن يقع على مثلها؛ تفيده إضاءة في عقله؛ وعلى كل فهذا لا يهمني. من المؤكد أنه لا بد وأن يعرف الناس يوما ما قدر العبقري الذي يكون مثلي. وغاض قليلا في الوحل. .
وبعد قليل جاءت تتهادى إليه بطة كبيرة بيضاء، ذات سيقان صفراء، وأقدام غشائية.
قالت - كواك. كواك. كواك! أن لك شكلا غريبا. هل لي أن أسألك هل ولدت على هذا الشكل أو هو شكل طارئ؟
فأجاب السهم - من الواضح أنك أنفقت عمرك في الريف، وإلا لعرفت من أنا، وعلى كل فأنا أغفر لك جهلك، من الظلم أن تطلب من الغير أن يكون مثلك عظيما.
أنا لا أشك في أنك ستدهشين حين تعلمين بأني أستطيع أن أطير إلى السماء وأن أهبط الأرض في مظهر الغيث الذهبي.

قالت البطة - أنا لا أهتم كثيراً بهذا؛ لأنني لا أجد فيه أدنى فائدة لأحد الآن؛ إذا كنت تستطيع أن تحرث الحقل كالثور؛ أو تجر عربة كالجواد؛ أو تحرس الأغنام كالكلب الإسكتلندي: هذا يمكن أن يكون شيئا!

فصاح السهم في غطرسة وتعجرف - أرى أنك تنتمين إلى طبقة وضيعة، شخص في مركزي لا يفيد أبداً. لنا أعمال معلومة، وهذا فوق الكفاية، أنا شخصيا لا أميل إلى نوع من الصناعات، خصوصا هذه التي نوهت لي بها، ساعة من ساعات تفكيري هي بالصناعات كلها.

قالت البطة - وهي بطبيعتها مسالمة، ولم تتورط في مجادلة أحد - حسناً. حسناً. لكل رأيه. أكبر ظني أنك ستقيم هنا، في هذا الخندق.

صاح السهم - أوه، كلا يا عزيزتي. لست أكثر من زائر، زائر ممتاز. حقاً لقد أضجرني هذا المكان حيث لا جمعية راقية ولا واحدة آمنة، على الأرجح أني سأعود إلى البلاط. .

قالت البطة - أني أفكر في دخول الحياة العامة يوماً ما. . وعليَّ الآن أن أذهب إلى البيت واعتني بعائلتي.

قال السهم - لقد خلقت للحياة العامة، وكذلك جميع أقربائي، نثير الاهتمام حيثما وجدنا! وعلى ذكر الحياة العائلية أقول إنها تهرم الإنسان بسرعة وقبل الأوان، وتصرف العقل من الأفكار السامية.

قالت البطة - آه. . الأفكار السامية: ما أنفسها، إنها تذكرني بما أشعر به من جوع، وسبحت إلى أسفل الغدير وهي تقول: كواك. . كواك. . كواك

زعق السهم - أرجعي. أرجعي. عندي أشياء كثيرة أريد أن أقولها لك ولكن البطة لم تصغ أليه: قال لنفسه: أنا مسرور لأنها ذهبت، لا ريب إنها صغيرة العقل جداً. ثم غاص في الوحل قليلاً أيضاً، وفي الوقت الذي أبتدأ يفكر فيه بوحدة العبقري ظهر فجأة ولدان صغيران يركضان نحو الشاطئ في قمصان بيض يحملان قدراً أو أعواداً.

قال السهم - هؤلاء يجب أن يكونوا الوفد. وعمل على أن يظهر بمظهر العظيم.

صاح أحد الولدين - تعال. أنظر إلى هذا العود العتيق أني لاستغرب ما لذي جاء به إلى هنا وأخرج السهم من الخندق

قال السهم - عود عتيق، مستحيل؟! عود من ذهب عود من ذهب، هذا أحسن أنواع المديح. .

قال الولد الآخر - دعنا نضعه في النار، أنه سيساعد على غليان القدر.

وهكذا كدسا الأعواد بعضها على بعض، ووضعا السهم في الذروة، وأشعلا النار.

صاح السهم - هذا بديع! إنهم يودون إطلاقي في وضح النهار لكي يراني كل إنسان.

قال الولدان - أنا نذهب لننام الآن، وحين نستيقظ تكون القدر قد غلت؛ واضطجعا على الحشيش وأغمضا عيونهما.

كان السهم مشبعاً بالماء، لذلك احتاج احتراقه إلى وقت طويل؛ وعلى كل حال فقد بلغته النار أخيراً.

صاح - الآن سأنطلق. . يقينا أني سأعلو على النجوم، سأعلو على القمر، سأعلو على الشمس، بمعنى أني سأعلو. . .

- ويز، ويز، ويز، وحلق في الهواء. . .

صاح: هذا مبهج! سأظل في هذا الصعود إلى الأبد؛ ياله من نجاح عظيم! ولكن لم يره أحد.

ثم أخذ يحس بشعور غريب يستولي عليه فصاح: الآن سأنفجر، وسأحرق الأخضر واليابس، وسأترك دويا يظل حديث الناس أعواما طوالا، وفعلاً أنفجر! بم! بم! بم؛ لقد خرج البارود، ولا شك في ذلك؛ ولكن لم يسمعه أحد، حتى ولا الولدان الصغيران، لأنهما كانا يغطان في نومهما. وهكذا لم يبق منه إلا العصا، وهذه سقطت على ظهر إوزة خرجت تتنزه إلى جانب الخندق. عندئذٍ صاحت الإوزة - يا إلهي أن السماء تمطر عصيا؛ واندفعت نحو الماء.

لهث السهم - لقد علمت من قبل أنني خالق شعوراً عظيما!

شرق الأردن

بشير الشريقيالمحامي

الكتب
حاضر العالم الإسلامي
تأليف لوتروب ستودارد الأمريكي
ترجمة الأستاذ حجاج نويهض وتعليق الأمير شكيب أرسلان
لنا في كل يوم مثل جديد ينهض دليلا قاطعا على أن النهضة الفكرية الحديثة جادة لا هازلة، قوية لا تعرف الخور، ثابتة الأصول لا يخشى على بنائها من الزلل والسقوط، فهي نهضة تستمد الوحي من ماضيها الناصع المجيد، ثم لا تقف عند ذلك راثية باكية، إنما هي تتخذ من ذلك الماضي عدة. وعماداً لمستقبل تنظر إليه بعين يملأها الأمل، وقلب يحدوه الرجاء. وأن نهضة لا تقيم صرحها فوق هام ذلك العماد الركين، لهي هباء يسبح في الهواء، لا يتصل بالأرض ولا يرتفع إلى السماء. لأنها عندئذٍ تكون هائمة في عزلة زمنية، لا تعرف لشوطها مبدأ ولا نهاية، كما يخبط ذو السبيل الجائر في بيداء موحشة مقفرة، يرى الموت جاثماً في أحضان كثبانها أنى سار.
وإنا نضرب لك مثلاً أوروبا حين قامت تنفض عن نفسها غبار القرون الوسطى ونهضت تشيد حياة جديدة زاهرة، فلم تنشئ جديداً من عدم، ولا هي أولت القديم ظهرها مزدرية له ناقمة عليه، بل نظرت إلى الوراء قبل أن تبدأ السير إلى الأمام، واستلهمت التاريخ - تاريخ الإغريق والرومان - لتستقي من معينة الدافق ماء الحياة التي تريد.
من أجل هذا، يحق لنا أن ننظر إلى نهضتنا نظرة فيها ثقة ورجاء، لأننا نلاحظ فيما نلاحظ اتجاهاً إلى تاريخ العرب والإسلام، يزداد سعة وشمولاً في اطراد لا ينقطع، وأقل ما يقال في هذا الاتجاه، أنه يشحذ الهمم الخامدة، ويهدي نهضتنا سبيلاً سواء.
فبين يدي الآن مجلدات أربعة، كتبت في حاضر العالم الإسلامي، ألفها الكاتب الأمريكي لوتروب ستودارد ثم نقلها إلى العربية الأستاذ حجاج نويهض وفيها فصول وتعليقات وحواش مستفيضة عن دقائق أحوال الأمم الإسلامية وتطورها الحديث بقلم الأستاذ الكبير والمجاهد العظيم الأمير شكيب أرسلان، وقد يظن القارئ - وله عذره في هذا الظن - أن الكتاب المترجم هو الأصل، وأن ما كتبه الأمير شكيب حواش متناثرة هنا وهناك، ولكن
الواقع نقيض ذلك، فالفصول المترجمة لا تتجاوز خمس المقدار، وأربعة الأخماس الباقية هي حواش للأمير، وأنه ليخيل إلي أن كتاب لوتروب أتخذ تكأة لنشر هذه الفصول الكثيرة القيمة التي دبجتها يراعة الأمير شكيب أرسلان في شئون المسلمين والإسلام.
فأما الفصول المنقولة إلى العربية التي استأثرت بعنوان الكتاب فهي تسع كلها بحث دقيق في حالة الشعوب الإسلامية في العصور الحديثة، فهو يحدثك في تحليل ممتع عن اليقظة الإسلامية، والجامعة الإسلامية وسيطرة الغرب على الشرق، والتطور السياسي، والعصبية الجنسية والتطورين، الاقتصادي والاجتماعي، ثم يختم فصوله يبحث فيما يسود تلك الشعوب من قلق يدفعها إلى الثورة والانقلاب.
أما حواشي الأمير فليس إلى حصرها من سبيل، وكلها شيق ممتع ولكنها - عندي - قد خرجت بالكتاب عن وحدته وتجانسه، بل خرجت بالكتاب عما يجب أن تكون عليه الكتب من تركيز في موضوع بعينه، وأدنته من دوائر المعارف التي من شأنها أن تجمع بين دفاتها شتيتاً من ضروب العلم والمعرفة، وهو يعترف بذلك في المقدمة إذ يقول عن هذا الكتاب أنه لم يصل بعد إلى الدرجة المنشودة من السعة والشمول، وانه يرجو أن تتسع يوماً ما حتى (يصح أن يقال أن في اللغة العربية إنسيكلوبيديا إسلامية أشبه بموسوعات العلوم التي عند كل أمة من الأمم الراقية التي يقتدي بها) ثم يستطرد فيحفز همة الحكومات لوضع تلك (الإنسيكلوبيديا فيقول (وهذا الأمر وهو وضع معلمة إسلامية وافية ضافية لا يجوز أن يغيب عن نظر الحكومات الإسلامية التي تبغي الفلاح، وتنشد الرقي والطيران إلى النجاح بجناح. . .)
ومهما يكن من أمر هذه الفوضى في التأليف لا نطمئن إليها ولا نرضاها، فهو كتاب جليل القيمة كبير النفع، ويجدر بنا أن نقتبس لتقديمه إلى القراء عبارة الأمير التي صدر بها الكتاب (أما كتابنا هذا في أجزائه الأربعة فأنه يجوز أن يقال إنه معلمة إسلامية صغيرة، بل هو في المباحث الجغرافية والتاريخية والإحصائية عن أقطار الإسلام النائية وبقاعة المجهولة فذ في بابه، وكذلك يمتاز هذا الكتاب بالمباحث

السياسية التي قيض لمحررها أن يعلمها. من عين صافية، وأن يقف على الرواية الوثقى منها بطول خبرته، وقرب سنده، واستمرار مزاولته لهذه الأمور 47سنة، وفيه بعد تراجم وأخبار، لم يسجلها كتاب ولا جرى
بها قلم، فلا يجدها الناشد في غيره إذ هي نتيجة مشاهدات الكاتب وما رآه بالعين وما سمعه بالأذن، وما كان له فيه أخذ ورد. وعلى كل حال ففي هذا الكتاب من الطريف ما لا يسع إنكاره الجاحد، ولا يضير مراء الحاسد. ولا شك في أن الأمة الإسلامية الناهضة إلى تجديد تاريخها، النازعة إلى النماء بجميع فروعها وشماريخها، ستتفطن إلى كل ما يعوزها من هذه المقاصد الجليلة، ومن جملتها تأليف المعلمة الكبرى التي هي من ضرورات رقيها وأشراط نموها).

زكي نجيب محمود

قلب جزيرة العرب

تأليف الأستاذ فؤاد حمزة

لسنا نشك في أن الشرق العربي يجتاز اليوم عصرا ذهبيا زاهرا لا يكاد يدنو من غباره كل ما سلف من عصور، وكأني بالحياة قد دبت في أعضائه المتزايلة، فأخذت تنهض وتسعى إلى النشاط والحركة، بعد رقدة طال أمدها، حتى حسبناها ضجعة الموت والفناء، وهاهو ذا ينهض ويستقيم على قدمين راسختين، يشاطر أوروبا في الحركة الفكرية ويبادلها إلى حد ما إنتاجا بإنتاج. وما زالت تزداد حركة التأليف في كل يوم قوة وسعة وانتشارا بعد أن كنا إلى عهد قريب لا نصادف في المكتبة العربية ما يشبع للباحث حاجة أو يسد له رمقا - كائنا ما كان موضوع البحث - وكنا نقابل ذلك العقم والأجداب بالأسى والأسف، فليس يسيرا على النفس الفنية الأبية أن تظل متكئة على عكازة الغرب في كل ما تطرق من بحوث، حتى ما يمس منها حياتنا في اللب والصميم.

وأنا نسوق اليوم لهذه النهضة التأليفية مثلا جديدا هذا الكتاب الجديد: قلب جزيرة العرب الذي دبجته يراعة قديرة ونسقه فكر قدير.

ولقد كان أول ما اختلج في نفسي من خواطر، حينما تناولت يدي هذا الكتاب، دهشة عميقة، فيها كثير من السخرية بالماضي، وفيها كثير من الأمل في المستقبل، فقد تساءلت: أفهذا أول كتاب حديث يكتب عن جزيرة العرب وهي تلك الديار التي تنزل منزلا ساميا من العقول والقلوب جميعا، والتي تضطرب لها كل نفس بأدق المشاعر وأجمل الذكريات؟!

عجيب لعمري أن يظل هذا النقص دون أن ينهض من الكتاب من يسد ثغرته، وإذن فقد ملأ هذا الكتاب الذي نحن بصدده فراغا شاسعا وأكمل نقصا معيبا شعر به المؤلف الفاضل الأستاذ فؤاد حمزة، وشعرنا به جميعا، فقد حمله على وضع كتابه هذا شعوره (بنقص خزانتنا العربية وافتقارها إلى مؤلف جامع لأحدث المعلومات الجغرافية والطبيعية والاجتماعية عن البلاد العربية، وحاجة الجمهور إلى مرجع حديث، سهل التناول، يجمع ما تفرق من المعلومات العامة في الكتب العربية القديمة، وكتب المستشرقين والرواد الأوروبيين مما لا وجود له في اللغة العربية. والحقيقة أن جميع الذين يعنون بالشئون العربية ويتبعون تاريخ التطورات الحديثة والنهضات الوطنية في بلاد العرب، يشعرون بهذه الحاجة، ويدركون الصعوبات الجمة في التنقيب في بطون الكتب العديدة، عن معلومات مبعثرة هنا وهنالك في طيات الصحف القديمة أو ثنايا التفاصيل المملة التي يسردها الرواد في سياق رحلاتهم)

قرأت هذا السفر الجليل، فألفيته صورة قوية رائعة للبلاد التي كتب من أجلها، وهو يقوم على أثاث متين من الأسلوب العلمي الصحيح، يبدأ البحث بالبيئة الجغرافية فيتناول أطرافها جميعاً بالدراسة والتحليل، ويصف لك في أطناب سطح البلاد العربية ومناخها، في أسلوب لا يصدمك فيه جفاف الحقائق العلمية، بل يخيل إليك وأنت تتلو هذه الصفحات أنك تستمع لرجل يحدثك حديثاً عذباً عن بلاد جاس خلالها وارتحل بين أرجائها، وأن كنا نأخذ على المؤلف في هذا القسم الجغرافي بعض الهنات الهينات، التي ما كنا لنذكرها لولا رغبتنا الصادقة في أن يبلغ هذا المؤلف حد الكمال، ومن أمثلة ذلك أنه يعلل جفاف الإقليم بانخفاض السطح (وعدم وجود الجبال العالية التي تمسك الأبخرة وتحتفظ بها لتتبرد وتنهمل مطراً إلا في الجهات الغربية منها) والواقع أن

جفاف شبه الجزيرة يرجع إلى وقوعها في مهب الرياح التجارية التي تفد من الشمال الشرقي جافة لا تنزل المطر. هذا وقد جعل المؤلف عنوان الفصل السابع من هذا القسم (الحرارة والمناخ) كأن الحرارة ليست جزءاً من المناخ! وقد جاء في صفحة 60 هذه العبارة (رياح المونسون) وقد كان أجدى أن تذكر بما عرفت به في الكتب العربية وهو الرياح الموسمية.

ثم ينتقل بك إلى القسم الثاني من الكتاب وهو تصوير دقيق لحياة السكان في تلك البلاد،

فيقص عليك دقائق المعيشة اليومية: ماذا يأكل القوم وماذا يشربون ويلبسون، وكيف يتزين النساء منهم والرجال. كيف يقيمون المآتم والأفراح، كيف يتعهدون أطفالهم بالتربية في الحواضر ويطلقونهم إطلاقاً في البادية، وفي أي المنازل يسكنون؟ هذا فضلاً عن تصويره للغة العربية في حالتها الراهنة، ويقدم لك نموذجاً مما ينطق به أدباء اليوم من شعر ونثر، إلى آخر تلك الحقائق التي أكسبت البحث شيئاً من الحياة النابضة.

فإذا ما انتقلت إلى القسم الثالث وجدت نبتاً مفيداً في القبائل العربية وأنسابها، ولعله أشد فصول الكتاب جفافاً على غير سكان الجزيرة من القراء. أما القسم الرابع فهو عرض قوي موجز لتاريخ البلاد منذ فجر التاريخ حتى يومنا هذا، وهو أطول الفصول وأكثرها فائدة ولذة.

هذه الثروة الزاخرة يحويها كتاب (قلب جزيرة العرب) وفوق هذا فهو متقن الطبع، جيد الورق، جميل التنسيق.

ز. ن. م

العدد 44 - بتاريخ: 07 - 05 - 1934

يوم الجمعة

كان أمس الأحد، ومن قبله كان السبت، ومن قبلها كان الجمعة! ثلاثة أيام تتعاقب في مدار الأسبوع تعاقب الجياد في مضمار السبق! يحمل كل منها في رأسه علم دولته، وعلى صدره عنوان ملته، ويشرق على قومه في المسجد أو في الكنيس أو في الكنيسة إشراق الحب في الفؤاد الغرير، أو الإيمان في النفس الرضية، فيؤلف ما نفر من القلوب بالمودة، ويعود بما شرد من النفوس إلى الجماعة، ثم يكون في البيت مصدر انس وبهجة، وفي المدينة مظهر استقلال وعزة. ولقد كان فيما سلف من مؤاتاة الدهر شأن يومنا في الأيام، كشأن قومنا في الأقوام: صدارة يكنفها جلال مُلك، وأمارة يسندها سلطان دين، وعيد يأتلق جماله في كل مكان وفي كل نفس، وفترة تحدد للناس مواقيت العيش ومراحل الزمن، وكان له في أدب الدين قواعد مقررة، كالاغتسال، والطيب، واتخاذ الزينة، وشهود الجماعة، ومودة القربى، وصلة المساكين، وترفيه البدن بالراحة، وتطهير النفس بالعبادة، وإعلان مجد الله بإعزاز دينه، وسلطان الشعب بإعلاء أمره؛ لم يكن السبت والأحد يومئذ إلا شعاعا لضوئه واتساعا لمداه!

ثم غيرنا فغير الله، فإذا بالتابع يأخذ المهلة على المتبوع وإذا يوم الجمعة يصبح طرفاً في ذيل الأسبوع، فلا تخشع له أسواق العالم كيوم السبت، ولا تسكن له حركة الدنيا كيوم الأحد، ولا يبقى له من الرعاية عند أهله، إلا إغلاق دور الحكومة في وجهه!

استعرض هذه الأيام الثلاثة بالاعتبار والموازنة، تجد كلا منها صادق الدلالة على حال أهله، فيومنا يجيء كما ترى خافض الجناح، خافت الصوت، حائل اللون، مخضود الشوكة، مغموط الحق، لا يدخل في حساب الناس، ولا يقدم ولا يؤخر في حياة المجتمع!

فمظهره الديني تضاءل حتى صار صلاة الجمعة عادية لا يقيمها إلا القرويون الطارئون على المدينة، والحضريون الفارغون من العمل!

ومظهره المدني انحصر كما قلنا في عطلة الحكومة. ومن المؤونة المعجزة ان تطلب العطلة وما يتبعها عند غير الحكومة، فان جمهور الشعب أما تاجر يتبع في نظامه البنوك الأوربية، وأما عامل يخضع في عمله لرؤوس الأموال الاجنبية، فلم يبق إلا الموظفون الرسميون، وهم وحدهم الذين يستطيعون بما تهيأ لهم من اليسر والفراغ إجلال هذا المظهر، وإعلان هذه الشعيرة، فتعال ننظر كيف ينقضي هذا العيد في بيت الموظف في

البيت الذي الهمني هذا المقال أسرة مسلمة عميدها موظف كبير، وأسرة يهودية كاسبها تاجر صغير، وأسرة مسيحية عائلها مستخدم متوسط.

ففي يوم السبت ينبعث في المسكن اليهودي تاريخ إسرائيل بأساطيره وتقاليده وعقائده، فالتوراة تتلى، والصلوات تقضى، والذكريات تستيقظ، والمجارى الروحية تتحدر من الأجداد إلى الأحفاد فتوثق الروابط، وتجدد القوى، وتهون العظائم، ثم تخرج الأسرة بأسرها، في زينتها وبشرها، فتتناول عشاءها في مطعم سامر، وتقضي أمسيتها في ملهى ساهر وفي يوم الأحد يحول المسكن المسيحي إلى عرس أنيق مترف: فالأسرة تعود من القداس في ألوان الزهر وافواف الوشى، والغرف تضحك من طلاقة النفوس واتساق الأثاث، والمائدة المزهرة تحفل بأفانين الشراب السائغ والطعام الهنئ، والبيان الفخم تحت الأنامل الطفلة يقطر بالنغم العذب واللحن البهيج، والفنغراف يدور بأناشيد الرقص فيسمى البهو بالزائرين والزائرات أشبه بأعشاش الربيع كلها مناغاة وهديل وهزج! وفي يوم الجمعة يصبح المسكن المسلم عابسا كالكهف، ساكتا كالمقبرة!

فالبك قضى ليله سهران، فهو نائم نومة الضحى! فلا تسمع حسا ولا حركة، إلا صوتا شديد الخفوت، يستعين بالإشارة على ان يهمس الحين بعد الحين:

- هس سس س! خفض من صوتك! خفف من مشيك! لا تلعب بهذا! لا تعبث بذاك! أبوك نائم!

والبك يأخذ حمامه الأسبوعي الحار فيشغل الحمام ساعتين! فتمضي الظهيرة والفتاة لا تستحم، والعجوز لا تتوضأ!

والبك مدعو إلى العشاء، عند بعض الأصدقاء، فالمطبخ بارد هادئ، وطعام اليوم بقية طعام الأمس!

والبك يتهيأ للخروج، فالأسرة كلها في خدمته: هذه تنظف البدلة، وتلك تمسح الطربوش، وهذا يذهب برباط الرقبة إلى الكواء، وذلك يستعجل الخادم بالحذاء، وأخيراً يخرج البك!! فيتنفس البيت الصعداء، ويستروح المكروب نسيم الرخاء!

وهكذا يمر عيد الأسبوع على هؤلاء القوم، وهم يقولون يا الله ما اثقل روح هذا اليوم!!

احمد حسن الزيات

الضمير الهارب

للدكتور طه حسين

لم يكن صاحبي ساذجا ولا غليظ القلب ظاهره كهذا الضابط الفرنسي الذي اظنك رأيته في دار من دور السينما، يأتمر مع أصحابه ليغير النظام في فرنسا ويرد إلى العرش ابن نابليون. فبينما هو ذات يوم يمشي على رصيف من ارصفة باريس لقى رفيقا من رفاقه في جيش الامبراطور. وكان العهد قد بعد بينهما فوقع اللقاء من نفس الرجلين موقعا حسناً، وتحدثا عن الجيش وعن الامبراطور، وتحدثا عن امس وعن غد، ولم يكرها ان يذما يومهما ويسرفا في ذمه. ثم ذهب الصديقان إلى حيث كان الضابط يحدث صاحبه عن أصدقائهما وما يأتمرون به، ثم مازال الحديث ينتقل بهما من موضوع إلى موضوع حتى عرف الضابط ان صديقه لم يقم على عهد الامبراطور، وإنما اثر لين الحياة فعمل في جيش الملك. هنالك لم يستطع الضابط ان يلوم صاحبه ولا ان يعاتبه، ولا ان يناقشه في شئ، ولم يزد ان اطفأ المصباح حتى لا يرى وجه هذا الصديق الخائن وفهم الرجل عن صديقه فأنصرف عنه خزيان اسفا.

لم يكن صاحبي ساذجا غليظ القلب طاهره كهذا الضابط الفرنسي، وإنما كان رجلا مترفا لا في حياته المادية، بل في حياته المعنوية خاصة. كان مترف العقل جداً لا يكتفي بظواهر الأشياء ولا يقنع بحقائقها، وإنما يبغي شيئا ارقى من الظواهر واعمق من الحقائق كأنه اللب والخلاصة لكل شئ. وهو إذا وصل إلى هذه الخلاصة وذلك اللب ولم يقنع بهما وإنما تخير منهما انقاهما وارقاهما واشدهما ملائمة للعقل الممتاز، والذوق الرفيع، والشعور الراقي، والنفس الأبية العالية. وكان صاحبي قوي الحس جدا، ولكنه كان شديد الازدراء للحس، يضعه في موضعه الطبيعي فلا يكبره ولا يغلو في العناية به، ولا ينتظر منه إلا ما ينتظر في الأداة التي لا يراد منها إلا ان تؤدى للعمل الذي هيئت له، فهو لا يريد من حسه إلا ان ينقل إليه صورة الحياة الخارجية، فإذا نقلها إليه شغل بها فحقق ودقق، ومحص وصفى، واثر نفسه بخلاصة ما ينتهي إليه التحقيق

والتدقيق والتمحيص والتصفية، فغذى به عقله وقلبه وشعوره؛ وفكر فيه فأطال التفكير، واستخرج منه أقصى ما يستطيع استخراجه من اللذة والألم، ومن العبرة والعظمة، ومن الغبطة والحزن.

وكان صاحبي هذا بحكم هذا المزاج الخاص معقدا شديد التعقيد متعباً لنفسه ولأصحابه وأصدقائه جميعاً، وكان كثيراً ما يسأل نفسه عما يريد فلا يجد لهذا السؤال جواباً. وكان أصدقاؤه يسألونه عما يريد فلا يجدون لهذا السؤال جواباً. فقبلوه على علاته، وقبلوه على ما في صحبته من مشقة وتعقيد. وكانت حياته وحياة أصحابه هينة لينة مستقيمة تمضي في طريق لا عوج فيها ولا التواء، كما كانت حياة الناس كلهم في بعض أوقات الأمن والدعة والهدوء، فكان راضيا عن أصحابه، وكان أصحابه راضين عنه. وكان ما يعرض له ولهم من مصاعب الحياة ومشكلاتها لا يزيد على ان يكشفها لهم فيحببه إليهم، ويكشفهم له فيحببهم إليه. ولكن هدوء الحياة ودعتها واضطراد الامن فيها واستقامة الطرق لسالكيها ليست أمور محتومة مقضية للناس أو مقضية عليهم، قد اخذوا بها عهدا على الظروف والأيام. وإنما هي أمور ممكنة تتاح حينا وتمتنع أسحياناً، تتاح فيسعد الناس، وتمتنع فيشقى الناس. تتاح فيجهل بعض الناس بعضا، ويحب بعض الناس بعضا، ويطمئن الناس إلى بعض، لان ظروف الحياة لا تكرههم على ان يدفق بعضهم في امتحان بعض، ويحقق بعضهم في ابتلاء بعض. ثم تمتنع فإذا الناس يتعارفون، ولا يلبثون ان يتعارفوا حتى يتناكروا ويتدابروا. ويقوم الشك منهم مقام اليقين، ويقوم الحذر منهم مقام الاطمئنان، وتقوم التفرق منهم مقام الصراحة، ويقوم البغض منهم مقام الحب، وإذا هم يندمون على جهلهم القديم، وإذا هم يحزنون على اطمئنانهم لماضي، وإذا هم يتمنون لو رد الله عليهم تلك الأيام الحلوة التي كانوا يستمتعون فيها بلذة الجهل وحلاوة الغفلة ونعيم الثقة، واعفاهم من هذه الأيام التي يشقون فيها بألم المعرفة ومرارة الفطنة وبؤس الشك.

وكان صاحبي قد فتح لنفسه الأبواب كلها على مصاريعها كلها ليتلقى كل شئ من كل شئ ومن كل إنسان. ثم ليسعد بهذه التصفية والتنقية، وبهذا التمحيص والتحقيق، وبتخير الثمرات من كل ما كان يجتمع له من الجد والردى فلما نكرت الأيام لم يغلق من أبواب نفسه بابا، وإنما نظر فإذا النفوس تغلق من دونه نفسا فنفسا، وإذا أبوابها تغلق من دونه بابا فبابا. إذا ما كان يجتمع له من الملاحظات شيئا فشيئا، ويندر حتى كاد لا يصبح شيئا. وإذا ما بقى من هذه النفوس القليلة التي ثبتت للمحن، وامتنعت على الخطوب، وابت ان تلين قناتها للأحداث، قد اخذ يغشاها من حين إلى حين لون رقيق جدا من الحياء، ثم من الغلو

في الحياء، ثم من الإشفاق، ثم من الاسراف في الإشفاق، ثم يتكاثف اللون ويتكاثف، وتضاف طبقات منه إلى طبقات حتى يصبح احتياطيا وحذرا، وحتى يستحيل إلى حجاب كثيف صفيق لا تنفذ من دونه نفس إلى نفس، ولا ينتهي من دونه قلب إلى قلب، ولا يتحدث من دونه ضمير إلى ضمير، وإذا صاحبي يلقى أصحابه فلا يلقى منهم إلا وجوها، ويصافح أصحابه فلا يصافح منهم إلا أيدياً، ويحدث أصحابه فلا يكون بينه وبينهم إلا حركات الألسنة في الأفواه، وخروج الألفاظ من الشفاه، وانتهاء الأصوات إلى الآذان، ثم وقوفها دون هذه الأبواب التي قد غلقت تغليقا، وهذه الأستار التي قد اسدلت اسدالا، على انه أيضاً لم يكن اقل من أصحابه واحبائه تغليقا لأبواب نفسه، والقاء للحجب والأستار بينه وبينهم، فقد آذاه ما رأى منهم كما آذاهم ما رأوا منه، فكان هذا الحياء الذي كان منهم، ثم اخذ هذا الحياء يتعقد في نفسه كما كان يتعقد في نفوسهم حتى اصبح إشفاقا ثم شكا ثم احتياطا وحذرا. ولكن حياء صاحبي لم يكن كحياء أصدقائه، كانوا يستحون منه وكان يستحي لهم، كانوا يشفقون منه وكان يشفق عليهم. كان يحذرون منه وكان يحذر عليهم، ولكنه الحياء والإشفاق والحذر على كل حال. ولكنه تغليق الأبواب والقاء الأستار والحجب على كل حال. ولكنه انقطاع الأسباب وفساد الصلات على كل حال. ولكنه العزلة بين قوم لم يكونوا يستطيعون ان يعتزل بعضهم بعضا، والفرقة بين قوم لم يكونوا يستطيعوا ان ينعموا بالفراق، ولكنه الرياء بين قوم لم يكونوا يحتملون الرياء، ولكنه هذا الألم الممض الذي ينشأ عن الفراق والناس مجتموعون، وعن البعد والناس متقاربون، وعن القطيعة والناس متواصلون. ولكنه العذاب الذي يجده الناس حين يتحدثون بألسنتهم لا بقلوبهم، وحين يسمعون

بآذانهم لا بنفوسهم، وحين تتصافح أيديهم وتتباعد بين ضمائرهم ونياتهم الآماد، إلا من ألف منهم هذه الحياة واطمأن إليها ووجد فيها مثل ما كان في تلك الحياة من اللذة والراحة والنعيم لأنه فارق أصدقاء فوجد مكانهم أصدقاء آخرين، ونأى عن أحباء فاستقر في أحباء آخرين. هنالك نظر صاحبي إلى نفسه، فإذا هو قد اصبح أداة من الأدوات تسعى مع النهار وتعود مع الليل، تلقى الناس فتتحدث إليهم وتسمع منهم دون ان تعقل ما يصدر عنها أو تذوق ما يصدر إليها من حديث. أداة تذهب وتجئ تتلقى آثاراً من أدوات مثلها، وتحدث آثاراً في أدوات مثلها، ولكنها آثار ظاهرة آلية لا قوام لها ولا لذة فيها ولا

اثر للحياة القوية العاقلة المفكرة في مظاهرها، وإنما هي أداة ممثلة لا اكثر ولا اقل. تعمل مع أدوات ممثلة لا اكثر ولا اقل. وكانت لصاحبي بقية من قوة في النفس، وفضل من حياة في الضمير، واثر من حزم في الإرادة، وقليل من ذلك الترف العقلي الذي كان يستمتع به أيام كان الناس ناسا، وحين كانت الحياة حياة، فاكبر ما انتهت إليه أموره وأمور أصحابه من هذه الصفة التي يجحد فيها الرجل نفسه ولا يؤمن فيها إلا بغيره. اكبر ذلك وضاق به وازمع ان يعتزل هذه البيئة التي لا يستطيع ان يكون فيها إلا أداة مسخرة. ولكنه اعتزلها ولم يعتزلها، قر في داره وعاش بين أهله، لم يسع إلى أحده ولم يفكر في لقاء أحد، وكان يظن ان هذه العزلة ستغنيه وتحميه وترد إليه نفسه بريئة من النفاق معصومة من الفساد. ولكنه لم يلبث ان استيقن انه لم يصنع شيئا. فهو يعتزل الناس ولكن الناس لا يعتزلونه، يعرض عنهم فيقبلون عليه، يقعد عنهم فيسعون إليه، يكف عنهم حياءوه لهم وإشفاقه عليهم فيحملون إليه حياءهم منه، وإشفاقهم منه، ويغلون في ذلك يحسبون انهم يخدعونه عن انفسهم، أو يحسبون انهم يخدعون انفسهم عن انفسهم. فلما استيأس صاحبي من نفع هذه العزلة، واستيقن له انه لا امل له في ان يظفر بنفسه صافية وقلبه طاهرا، وضميره حيا، إلا ان ترك البيئة كلها وهاجر من ارض إلى ارض، وارتحل عن وطن إلى وطن، اسر ذلك في نفسه واظهر لنا معشر أصدقائه المخادعين له ولانفسنا مثل ما كان يظهر من حسن اللقاء ولطف المؤانسة حين كنا نزوره ونجلس إليه. ثم سعيت إليه ذات يوم لاقضي معه ساعة من ساعات الفراغ، وما اكثر ساعات الفراغ في حياتنا نحن المصريين فلم اجده، وسألت اين يمكن ان يكون فلم ادلل عليه. وسألت متى يمكن ان يعود لم انبأ بشىء. فعدت محزونا لا لأنني لم القه، بل لاني لم الق عليه ثقل ما كنت احتمل من الضجر والضيق والفراغ، ولاني لم الق في نفسه اني اوثره بالحب، واعتقد انه يؤثرني به. لاني لم اهد إليه شيئا من هذا الرياء الذي يهديه بعضنا إلى بعض في كل يوم، لم اتلق منه شيئا من هذا الرياء الذي يتلقاه بعضنا من بعض في كل يوم، رجعت محزونا لان الأداة لم تؤد بعض ما كانت يجب ان تؤدى من التمثيل. وعدت إلى صاحبي التمسه فلم اجده، واخذ أصحابنا يلتمسونه فلا يجدونه وكلهم شعر بمثل ما شعرت به، وكلهم يتحدث إلى نفسه بمثل ما تحدثت به إلى نفسي من الحزن وخيبة الامل، وقليل منهم يتحدث إلى الناس بمثل ما

اتحدث به اليك الان ايها القارئ العزيز. ثم انقضت الاسابيع والاشهر، وإذا انا اتلقى صباح اليوم منه هذه الاسطر التي دفعتني إلى كتابة هذه الفصل. واحسب اني لن اجيبه إلا بارسال هذا العدد من الرسالة إليه. فقد عرفت عنوانه الان. كتب الي يقول: كتابي اليك ايها الصديق من بلد ناء فررت إليه بنفسي وضميري من بلد تفسد فيه الضمائر والنفوس، واثرت ان احيا فيه فردا مع نفسي على ان احيا عندكم حياة الأدوات لا حياة الناس، ولقد كنت اظن اني فارقتكم إلى غير رجعة، ورحلت عنكم إلى غير عودة. وسئمت حياتكم سأما لأحد له، وكرهتها كرها لا اعرف له قراراً، وعجزت عن احتمال أيسر اثقالها. واعترف باني سعدت بهذه الهجرة سعادة خصبة حقا، واستكشفت فيها نفسي، نعمت بهذا الاستكشاف، وانست فيها إلى ضميري، واستمتعت بهذا الانس، ولكني لم البث في هذا البلد شهرا أو شهرين، حتى احسست ان نفسي لا تكفيني، وحتى ضقت باطالة النظر في المرآة، حتى ذكرت الأصدقاء فنفرت من ذكر الأصدقاء، وفزعت منهم إلى الكتب حينا، إلى مناظر هذه الطبيعة الرائعة حينا اخر، وما زلت ايها الصديق مطمئنا إلى هذا المعقل الذي آويت إليه، واعتصمت به ولكن انظر! ها أنذا اكتب اليك، وما كتبت اليك إلا لاني فكرت فيك، وما

فكرت فيك إلا لان نفسي نازعتني إلى حديثك، وإذن فقد ابت حياتي تلك إلا ان تتبعني في هجرتي وتقتحم علي هذا المعقل الذي لجأت إليه، وكل ما اتمناه إلا تغلبني على نفسي، ولا تخرجني من معقلي، وان تكتفي بزيارتي والإلمام بي من حين إلى حين. فأكتب إلى واطل فقد يظهر ان الحياة التي ترتفع ارتفاعا خالصا عن كل ما نكره من النقائص شئ لا سبيل إليه، وأما انا فقد جربت الضيق بالحياة في مصر والفرار منها، وانا زعيم لكم ايها الأصدقاء بان صاحبكم سيعود اليكم متى انقضى الصيف ومن يدري، لعل الحياة ان تكون قد عادت إلى شئ من الامن والدعة والهدوء، فتتفتح الأبواب، وترفع الحجب والأستار، لا نحتاج فيما بيننا إلى اصطناع الرياء، أو إلى اصطناع المجاملة. ثم لا يستحي بعضنا من بعض، ولا يستحي بعضنا لبعض.

طه حسين

حوادث الشرق الاقصى

اليابان والجامعة الاسيوية

مبدأ مونرو اسيوي

للأستاذ محمد عبد الله عنان

منذ أسبوعين طلعت اليابان على العالم بتصريح في منتهى الاهمية والخطورة. خلاصته: (ارفعوا أيديكم عن الصين)، وهو بعبارة اخرى انذار من اليابان إلى أوربا وأمريكا بأنها اصبحت تعتبر من واجبها أن تحمي الصين من كل محاولة جديدة اوربية أو أمريكية في سبيل الفتح أو الاستعمار الاقتصادي، ومن حقها أن تستأثر بالتوسع السياسي أو الاقتصادي في انحاء الصين الشاسعة. ولا تخفى اليابان انها جادة في انذارها، وانها على اهبة لتأييده وتنفيذه بالقوة المادية، وفي نفس الوقت الذي تلقى فيه اليابان بهذا الانذار، نراها تقر اعتمادات حربية ضخمة لتقوية اسطولها الجوي، وتقوم بعدة مظاهرات عسكرية اخرى.

وقد اثار هذا التصريح الجرىء في جميع دوائر السياسة العليا دهشة عظيمة، ولا سيما في الدول ذات النفوذ والمصالح في الصين مثل بريطانيا العظمى وأمريكا وروسيا وفرنسا وايطاليا. ولم يتضح حتى الان موقف هذه الدول ازاء تلك الخطوة الجديدة التي تتخذها اليابان للحد من النفوذ الغربي في الصين. ولكن اولئك الذين يتبعون تصرفات السياسة اليابانية في الصين في الأعوام الثلاثة الأخيرة يدركون أن هذه الخطوة إنما هي نتيجة طبيعية لهذه السياسة التي فازت منذ عامين بالاستيلاء على منشوريا ووضعها تحت الحماية اليابانية، والتي ما زالت تتقدم في سبيل التوسع في الثغور والأراضي الصينية الشمالية والوسطى. واليابان تتخذ خطواتها وشئون السياسة الدولية في منتهى الاضطراب والتعقيد، والدول العظمى كلها مشغولة بمشاكلها الداخلية والخارجية السياسية والاقتصادية، ومن الصعب عليها أن تتفاهم أو تتفق بسرعة على اتخاذ خطة أو سياسة مشتركة ضد هذه السياسة اليابانية الجديدة التي تهدد نفوذها ومصالحها في الصين.

والنظرية اليابانية في مقاومة التوسع الغربي في الصين ترجع إلى فكرة اهم وابعد اثرا هي فكرة الجامعة الاسيوية، وشعارها (اسيا للأسيويين). وقد قويت هذه الفكرة بعد الحرب،

حينما اشتد تنافس الدول الغربية على التوسع في الصين واستطاعت روسيا السوفيتية وبريطانيا العظمى وأمريكا أن تتدخل في شئون الصين تدخلا قويا مباشراً، وان تبسط كل نفوذها على مناطق واسعة في الصين، وحينما عمدت الدول في كل مناسبة وفرصة إلى ارسال اساطيلها إلى المياه الصينية بحجة: حماية مصالحها؛ ولما كان موقع اليابان الجغرافي في شرق الصين، مشرفة على تلك المياه الصينية التي تغزوها الدول كما شاءت، وكانت تبسط حمايتها ونفوذها على مساحات واسعة في الصين، في كوريا ومنشوريا وشانصي، فقد كانت السياسة اليابانية تنظر دائما إلى حركات الدول في الصين بمنتهى التوجس والريب، وكانت تتلمس السبل دائما لمقاومة الاستعمار الاوربي والأمريكي. وكانت حركة (الجامعة الاسيوية) تزداد نشاطا وقوة، وخصوصا كلما اشتدت الصيحة في أوربا وأمريكا بالتحذير من (الخطر الاصفر) أو بعبارة اخرى من نهوض الامم الاسيوية. وقد عقد اول مؤتمر رسمي للجامعة الاسيوية في ثغر ناجازاكي في صيف سنة 1926 وشهده مندوبون من اليابان والصين والهند

وسيام وكوريا والفلبين، واستمرت السياسة اليابانية ترعى هذه الحركة وتغذيها مدى الاعوام الاخيرة، وقد عقد في فبراير الماضي في دايرين تحت رعاية الحكومة اليابانية مؤتمر (للشعوب الاسيوية) شهده مندوبون من الصين واليابان والهند وافغانستان وسيام وبلاد الملايو وغيرها من البلاد الاسيوية. واصدرت فيه قرارات بوجوب اتحاد الشعوب الاسيوية على العمل في سبيل مصالحها المشتركة الجنسية والسياسية وتحريرها من كل تدخل اجنبي، وسيدعى مؤتمر دوري للجامعة الاسيوية. وربما كانت اليابان ترمي من وراء هذه الحركة إلى انشاء عصبة امم اسيوية لتأييد غايات الجامعة الاسيوية.

مبدأ مونرو اسيوي

ولهذا الانذار التي تتقدم به اليابان إلى الدول الغربية صبغة مزدوجة؛ فهو يعني ان اليابان ستقاوم منذ الان فصاعدا كل محاولة تقوم بها الدول الغربية في سبيل التوسع في الصين، وثانيا ان اليابان ستكون مطلقة اليد في الصين تحقق فيها ما شاءت من خطط التوسع والنفوذ. وللناحية الاولى سابقة تاريخية في السياسة الدولية هي مبدأ الرئيس مونرو (رئيس جمهورية الولايات المتحدة)، الذي وضع منذ سنة 1823 ليكون شعارا لسياسة أمريكا

الخارجية؛ واليك نص هذا التصريح الشهير الذي تطبقه السياسة الأمريكية منذ اكثر من قرن وذلك بعد الديباجة:

(ان القارتين الأمريكيتين بحكم حالة التحرير التي احرزتاها والتي تحتفظان بها يجب إلا تعتبر منذ الان فصاعدا قابلتين للاستعمار من جانب اية دولة اوربية، وعلى ذلك فانا نعتبر في المستقبل أي محاولة من جانب الدول الأوربية لبسط سلطانها السياسي على اية ناحية من نواحي هاتين القارتين خطرا على سلامتنا وسلامنا.

نحن لم نتعرض لاي مستعمرة أو ملك قائم فيها للدول الأوربية ولن نتعرض له، ولكنا بالنسبة للحكومات التي اعلنت استقلالها وحافظت عليه واعترفنا نحن به كحق ذي اساس عادل، لا نستطيع ان نعتبر أي تغيير يرمي إلى ارهاقها أو التحكم في مصايرها إلا بأنه ميل عدائي نحو الولايات المتحدة. ذلك انه يستحيل ان تبسط الدول المتحالفة نظامها السياسي في أي بقعة من هذه القارة دون تهديد سلامنا وسعادتنا. كذلك لا يستطيع إنسان ان يعتقد ان اخواننا في الجنوب إذا تركوا وشأنهم قد يقبلون هذه السياسة مختارين، ومن ثم كان من المستحيل ان ننظر إلى هذا التدخل في ذرة من التهاون والاغضاء).

ويمكننا ان نلخص مبدأ مونرو في كلمتين: (أمريكا للأمريكيين) أو (اتركو أمريكا) كما نستطيع ان نلخص الانذار الياباني في كلمتين (آسيا للاسيويين) أو (اتركو اسيا) مع هذا الفارق، هو ان اليابان تحدد في تصريحها منطقة معينة من اسيا هي الصين، أو الشرق الاقصى بصفة عامة، وقد فهم مبدأ مونرو في أمريكا وطبق خلال قرن من الناحية السلبية فقط. اعني من ناحية مقاومة التدخل الاوربي؛ ولكن السياسة الأمريكية وضعت في الاعوام الاخيرة تفسيرا جديدا لمبدأ مونرو، وهو انه إلى جانب حق أمريكا في قمع أي تدخل اوربي، يحق لأمريكا، وأمريكا وحدها

- أن تحتل أي بقعة من القارة الأمريكية متى رأت ذلك ضروريا لصون سلامها ومصالحها، وطبقت السياسة الأمريكية ذلك التفسير الايجابي الجديد لمبدأ مونرو في عدة حوادث معاصرة مثل تدخلها، في حوادث نيكاراجوا، واحتلال بعض اراضيها، وارغامها بناما على عقد معاهدة تعتبر شبه حماية، ثم تدخلها اخيرا في حوادث كوبا. وهذا هو نفس ما يعني التصريح الياباني من ناحيته الايجابية ترى اليابان من حقها دون غيرها من الدول

ان تستأثر بالتوسع في الفتح في الصين.

وقد بدأت اليابان فعلا بتطبيق هذه السياسة منذ ثلاثة اعوام فوضعت خطتها للاستيلاء على منشوريا وتذرعت لذلك الفتح باعتداء العصابات الصينية على المنطقة اليابانية والسكة الحديدية الشرقية التي تضع يدها عليها واضطرارها إلى حماية المصالح اليابانية والرعايا اليابانيين من ذلك الاعتداء الذي عجزت عن قمعه السلطات الصينية. وحوادث فتح اليابان لمنشوريا ما زلت ماثلة في الأذهان فلسنا بحاجة إلى تفصيلها. غير انا نذكر في هذا المقام فقط اليابان ابدت منذ البداية عزمها احتلال منشوريا

وامتلاكها فعلا، ولم تحفل بتدخل عصبة الامم لتلبية نداء الصين، ولم تقف لحظة عند أي القرارات التي اصدرتها العصبة لحسم النزاع كانتداب لجنة للتحقيق، والتوصية لوقف القتال، واعادة الحالة إلى ما كانت عليه؛ بل لبثت اثناء اشتغال العصبة بهذه الازمة الخطيرة ماضية في غزو منشوريا وافتتاحها حتى اتمت خطتها العسكرية، واستخلصت اقليم منشوريا كله، ثم انتهت بأن ضاقت بتدخل عصبة الامم، فأنسحبت منها لتكون حرة طليقة اليد والتصرف. ولم تقف اليابان عند افتتاح منشوريا بل هاجمت اثناء ذلك شنغهاي اعظم الثغور الصينية بحجة الاعتداء على بعض رعاياها واحتلت وكادت تنفذ إلى الداخل لولا ما ابدته الحكومة الوطنية الصينية من مقاومة شديدة وما انذرت به الدول من التدخل؛ ثم عادت فغزت اقليم شهلي شمال بكين، واحتلت عدة من قواعد واجتازت السور الكبير. كل ذلك لترغم الصين على الاعتراف بمركزها في منشوريا. وانتهت اليابان بأن جعلت منشوريا دولة جديدة بأسم دولة (منشوكيو)، واقامت عليها هنري بوي امبراطور الصين المخلوع، اولا رئيسا لجمهورية منشوكيو ثم امبراطور لها، وتم بذلك استيلاء اليابان على اعظم الاقاليم الصينية الشمالية واغناها، فإذا ذكرنا ان اليابان تملك من اراضي الصين شبه جزيرة كوريا وثغر تياتسين وما إليه، وبورت ارثر وتسنج تاو، وتحتل مناطق كبيرة في اقليم شانصي، استطعنا ان نقدر إلى أي حد بلغت اليابان في توسعها في الصين.

موقف الدول

وقد قلنا ان موقف الدول ازاء السياسة اليابانية الجديدة لم يتضح بعد، ولم يتخذ بعد صبغة رسمية. ولكن الذي لا ريب فيه هو ان الدول التي لها في مياه الشرق الاقصى وفي الصين مصالح عظيمة مثل أمريكا وبريطانيا العظمى وروسيا وفرنسا، ستقاوم هذه السياسة اشد مقاومة، وليس بعيدا ان تلجأ إلى الوسائل العنيفة إذا هددت املاكها أو مصالحها، وكما ان اليابان تقرن انذارها بالمظاهرات العسكرية وتقرير الاعتمادات الحربية الجديدة، فكذلك نرى انكلترا تقوم بمظاهرة بحرية في ثغر سنغافورة، ويعقد أمراء البحر الانكليز هنالك اجتماعا خطيرا للنظر في تعجيل الاعمال والاجراءات الخاصة باتمام قاعدة سنغافورة البحرية التي ستكون اعظم واقوى قاعدة بحرية في الشرق الاقصى، ونرى أمريكا تقرر اعتمادات مالية ضخمة لبناء سفن جديدة، وينتقل الاسطول الأمريكي من مياه الاطلانطيق ويجوز قناة بناما إلى المحيط الهادئ في اقل من يومين قياما بمظاهرة بحرية كبرى. وتحتج الدول ذات الشأن على لسان صحفها من الوجهة الدولية؛ بالمعاهدات المعقودة بين اليابان والدول بشان الصين، واخصها وأحدثها معاهدة الدول التسع التي عقدت على يد مؤتمر واشنطون سنة 1922 بين الولايات المتحدة (أمريكا) وبريطانيا العظمى وفرنسا وايطاليا واليابان والصين وبلجيكا وهولندة والبرتغال، وتنص هذه المعاهدة على احترام سيادة الصين واستقلالها ووحدتها الادارية والاقليمية، وعلى معاونتها على النهوض والتقدم بكل الوسائل، واستعمال الدول الموقعة لنفوذها في تأييد مبدأ الفرص المتساوية في النشاط التجاري والصناعي في الصين لجميع الامم، وعلى عدم انتهاز ظروف الصين للحصول على امتيازات خاصة، ومعنى ذلك اليابان ليست حرة في ان تحتل في الصين مناطق جديدة، أو تبسط نفوذها على مناطق جديدة، وليست حرة بالاخص في ان تستأثر وحدها بتنفيذ سياسة التوسع والاستعمار في الصين؛ هذا إلا إذا كانت تعتبر المعاهدات الدولية قصاصات لا قيمة لها.

وهناك غير هذه الدول الموقعة لمعاهدة واشنطون وروسيا السوفيتية؛ وهي من اعظم الدول مصالح في شمال الصين، واشدها اهتماما بسير السياسة اليابانية، وروسيا تجاور اليابان في منشوريا، وتشترك معها في امتلاك السكة الحديدية الصينية الشرقية، وفي امتلاك جزيرة سغالين، وتصطدم معها في شئون ومصالح كثيرة وقد ساءت علائق اليابان وروسيا في العهد الاخير بسبب استيلاء اليابان على منشوريا وانتزاعها القسم الروسي من السكة الحديدية الشرقية، وتهديدها بذلك نفوذ الروسيا في منغوليا، وقد كان لروسيا فوق ذلك في الصين الوسطى والجنوبية نفوذ عظيم منذ اعوام، وكانت اليابان من انشط الدول لمحاربته والقضاء عليه، والخصومة الروسية اليابانية قديمة في الشرق الاقصى، وترجع

بالاخص إلى حرب سنة 1904 التي هزمت فيها روسيا أمام اليابان وفقدت بورت ارثر ثغرها الممتاز في الصين؛ وهي اليوم اشد ما تكون اضطراما. ولا تخفى حكومة موسكو انزعاجها من السياسة اليابانية الجديدة، واستعدادها لمقاومتها وحماية النفوذ والمصالح الروسية في الشرق الاقصى بكل ما وسعت.

موقف الصين

ثم هنالك الصين، وهي المقصود بتطبيق السياسة اليابانية الجديدة. وقد لبثت الصين مسرحاً للفتن والحرب الأهلية زهاء ربع قرن، والدول الغربية اثناء ذلك تعمل على انتهاز الفرص لتوسيع نفوذها ومصالحها، واليابان تجاريها في انتهاز الفرص. فلما اشتد التنافس بين الدول على استغلال الحوادث الصينية، عقدت فيما بينها معاهدة واشنطون سنة 1922 (معاهدة الدول التسع) لكي تضع حدا لهذا التنافس أو بعبارة اخرى لكي تنظمه، وقطعت الصين بعد ذلك ستة اعوام اخرى في غمار من الحروب الأهلية الطاحنة حتى قامت الحكومة الوطنية اخيراً (حكومة نانكين) لتوحد كلمة الصين إلى حد ما، ولتعمل على صون استقلال الصين والحد من التوسع الاجنبي. وقد بذلت الحكومة الوطنية في هذا السبيل جهوداً لا بأس بها، ولكن اختلاف الزعماء والقادة كان دائما يشل من هذه الجهود، ويفتح الباب لدسائس الدول الاجنبية وعدوانها المستتر بصور واساليب شتى، ولو كان الانذار الياباني متعلقاً بوقوف اليابان فقط في وجه المطامع الاجنبية في الصين، لما كان للصين كبير اعتراض عليه؛ ولكن اليابان لا تقف كما قدمنا عند هذه الناحية السلبية من سياستها الجديدة، وإنما تقرنها بادعاء حق الاستئثار بالتوسيع في الصين، وتقوم بتنفيذ هذه السياسة بطريقة فعلية منظمة منذ ثلاثة اعوام، اعني منذ غزوها لمنشوريا، ومعنى ذلك أن اليابان تريد أن تستأثر بفريستها - الصين - دون باقي الدول وأن تترك هذه الفريسة أمامها وجها لوجه؛ وليس بعيدا ان تكون اليابان قد وضعت خطتها لافتتاح الصين كلها والاستيلاء عليها اقليماً فأقليماً، وخوض معركة الحياة والموت مع الغرب والاستعمار الغربي.

ولا ريب ان الصين تنكر هذه السياسة ايما انكار، وسوف تقاومها بكل ما وسعت حسبما صرح به مندوبها لدى عصبة الام وسفيرها في لندن، ولا ريب انها ستعتبر بهذا الخطر الجديد الذي يهدد كيانها واستقلالها فتعمل لتوحيد كلمتها وتنظيم قواها؛ كذلك لا ريب في ان اليابان رغم قوتها ومنعتها وفيض مواردها، تقدم على مغامرة كبيرة محفوفة بالصعاب والمخاطر؛ ومن المشكوك فيه أن تستطيع اليابان أن تتحدى دول الغرب العظمى إذا اجتمعت كلمتها على مقاومة هذه السياسة، هذا إلى ما لابد ان تبذله الصين من الجهود الزاخرة لدفاع عن استقلالها وكيانها؟

محمد عبد الله عنان المحامي

وادي حلفا

بقلم عبد الرحمن فهمي ليسانسيه في الآداب

وادي حلفا عاصمة إحدى مديريات السودان الكبرى، وهي مديرية حلفا، وهو ميناء نيلي تسير السفن البخارية الصغيرة بينه وبين الشلال تنقل المسافرين والبريد من مصر إلى السودان ومنه إليها، ويشعر الزائر المصري للسودان عندما تطأ قدمه ارض حلفا كأنه في إحدى مستعمرات التاج البريطاني، ولا عجب فمنذ جلاء الجيش المصري عام 1924 تعمل السياسة البريطانية على ان تجعل من السودان منطقة انكليزية بحتة. وقد تلاشت المصرية أو كادت تتلاشى بعد ان كانت ظاهرة قوية فيه.

ووادي حلفا له مكانته لانه كما قلت ميناء نيلي كبير ومركز تجارة لا بأس به، وهو فوق ذلك مدخل جمركي يفتش المسافرون وامتعتهم فيه حتى لا تهرب بضائع معينة من السودان إلى مصر. ثم هو الحد الذي يشعر عنده المصري بشعور مؤلم هو شعور الفصل اللاطبيعي بين القطرين التوأمين.

وينقسم هذا البلد قسمين رئيسين أحدهما (حلفا توفيق) نسبة إلى مسجد كبير شيده الخديوي توفيق في ميدان فسيح يتوسطه والثاني (حلفا معسكر) نسبة إلى معسكر الجيش المصري الذي كان يعسكر فيه حتى سنة 1924.

وحلفا توفيق هو روح البلد، ففيه الميناء المشغول بالحركة الدائمة ولا سيما عند وصول البريد إليه من الشلال وعند قيامه منه إليه ويحصل ذلك اربع مرات في كل أسبوع،

وفيه محطة السكة الحديدية ومكتب البريد والبرق وبناء المديرية والمستشفى ودار الشرطة والمحكمة ومكتب الجمرك والري المصري، وفيه المحال التجارية والمقاهي والفندق وتوكيل لبعض الشركات كشركة كوك وسنجر. والدور فيه ذات طابق وأحد وفناءات فسيحة إلا بعض الدور القلائل ذات الطابقين على ضفة النيل يؤجرها ملاكها الوطنيون إلى بعض الموظفين المصريين والسوريين.

وحلفا معسكر، قسم صاخب بالنهار في ناحية من نواحيه حيث توجد (الورشة) ففيه تسمع صوت المطرقة وآلات التصليح والنجارة والحدادة وغيرها. أما منذ الاصيل فهو هادئ، وهو بخلاف القسم الاول ملآن بالدور الفخمة، وافخم هذه الدور هي التي يسكنها

البريطانيون، فهي مزدانة بالشجر والزهر والثمر، تطل نوافذها على النيل، ومنها تستطيع ان تمتع الطرف بمياهه الجارية، كأنها السلسبيل، وبالشجيرات على ضفتيه نضراء وقد تجمعت في مكان وتفرقت في اخر، فكأنها الزبرجد مسكوبان وكأنك تستمد الحياة من منبع الحياة.

ويتوسط القسمين منتزه جميل فرشت ارضه بالبرسيم المورق قامت عليه الشجيرات النضراء المختلفة كأنها الحراس إلا انها تغفل دائما عن المنجل يحصده غالبا. وزين بالزهور المختلفة الألوان والانواع تحملها جذور وسيقان، ويدار الحاكي فيه مرة في مساء كل جمعة. ولعل (الراديو) حل محله اليوم.

ويؤلف البريطانيون فيه كتلة متحدة غير مختلطة بغيرها من الاجناس الأخرى، اللهم إلا الاختلاط الذي يوجبه العمل، وهو مخالطة الرؤساء لمرؤوسيهم، يلمحون بالطلب فيلبى، ويعطون الاشارة فتنفذ، ويلقون الأمر فيطاع. أما في أوقات فراغهم فهم يريضون اجسادهم بركوب الخيل ولعب (التنس) و (الجولف) وغير ذلك، والمساء يقضرنه في المسامرة والمنادمة بين الكأس الرحيق والرقص الرشيق.

والمصريون في وادي حلفا الان كما هم في غيره من بلدان السودان: اقلية ينظر إليها اولو الأمر فيه نظرة حذر، ويكادون يكونون تحت مراقبة دقيقة لانهم متهمون ببث روح التمرد وما هم كذلك، وما الحركة التي قامت في سنة 1934 في السودان إلا فورة وطنية قام بها الوطنيون وغيرهم كما تقوم اية جماعة في أي بلد بحركة يرجون بها غرضا معينا، وما ظن الاتهام الذي يوجهه اولو الأمر في السودان إلى المصريين في هذا الشأن إلا ستارا لسياسة موضوعة لقصد معين.

ولكن الروح التي تربط المصري والسوداني لا تزال قائمة ولن تزول - وهي روح وطنية -، لأنهما يريان النيل ابا مشتركا بينهما، وهي روح جنسية، لان المصري والسوداني هم مزيج من جنس البحر الابيض والجنس الحامي، ثم هي روح لغوية لأنهما يتكلمان العربية، وهي روح دينية لأنهما أما مسلم وأما قبطي، وهي اخيرا روح لا يمكن نزعها من جسم أحدهما دون ان يموت الاخر.

والوطنيون هم البربريون الحلفاويون، لهم رطانة يتكلمون بها فيما بينهم، إلا انهم جميعا

يعرفون العربية، وكثير منهم ملمون باللغة الانكليزية، ويمتازون من السودانيين بالذكاء والنشاط، عرف منهم قاضيا في إحدى محاكم مصر الأهلية، وعالما دينيا، وموظفين اكفاء، وتجارا قديرين.

والمولودون وهم مزيج من المصري والتركي ومن السوداني، ثم السودانيون والعبيد.

ويشتغل الوطنيون بالزراعة فوق اشتغالهم بالتجارة، زراعة مساحات ضئيلة بالخضر والنخيل، والبلح اهم الحاصلات.

أما العبيد فمنهم عمال يحملون طرود البريد وامتعة المسافرين، ومنهم مكاريون ينقلون الاثقال على حميرهم، ومنهم السقاءون يحملون الماء إلى الدور بصفائحهم وقربهم.

تتألف الحكومة في مديرية حلفا كما هو الحال في أي مديرية اخرى من مديريات السودان: من المدير وينوب عن الحاكم للسودان في مديريته، وهو بريطاني له سلطة شبه مطلقة، ويعاونه المفتش وهو أيضاً انجليزي يحل محله في غيابه، وتنظر دار المديرية في احوال الناس القضائية: الأهلية منها والشرعية، وفي جباية الأموال والمحافظة على الصحة.

ويسهر على الامن رجال الشرطة ومقرهم (الضابطية) أو دار الشرطة، وهم رجال اشداء يلبسون عمامة كاكية أو بيضاء كبيرة وقميصا من الصوف الاصفر وسروالا ونعالا، يشبهون في ذلك رجال الهجانة في مصر ويعاونهم حراس نظاميون في الليل.
وعلى رأس دار الشرطة المأمور وله نائب، وكلاهما سوداني، ولكل قرية عمدتها وشيوخها، تؤلف منهم محكمة قروية تعدل بين الناس.
وقد حل الوطنيون محل معظم المصريين في كافة اقسام المصالح، وهم خريجو كلية غوردن بالخرطوم يلتحق بها التلميذ بعد ان يتم العلوم الابتدائية ويقضي بها ثلاثة اعوام يتخصص خلالها في أحد اقسامها، أذكر منها قسم المعلمين والترجمة والهندسة ويشترط في طالب الكلية ان يكون سودانيا.
ويفضل اولو الأمر ان يلبس الموظفون الزي الوطني اثناء العمل، وهو رداء من نسيج ابيض وعمامة بيضاء ومركوب احمر، ويحثونهم على ان يفضلوه على اللباس المصري.
وتقام حفلات رسمية في كل عام: اهمها عيد الميلاد السنوي، والعيد النبوي الكريم، وعيد ملك الانكليز، وعيدا الفطر والاضحى، وتدعو الحكومة كبار الموظفين والتجار والوطنيين
إلى عيد رأس السنة، وعيد ميلاد ملك الانكليز في حفل رسمي وتتولى لجنة من الوطنين دعوة الموظفين البريطانيين وعقيلاتهم إلى الاحتفال بالاعياد الأخرى، وابهجها الاحتفال بالمولد النبوي، إذ تقام سرادقات مختلفة عديدة على ميدان فسيح يضاء بمصابيح الكهرباء القوية الملونة، ويحي ليالي هذا المولد شيوخ يستأجرون من إحدى مديريات الوجه القبلي وتدار على المدعوين المرطبات ولفائف الطباق.
وبعد ان يستمع المدير ورفاقه قليلا من المديح النبوي ينهضون إلى أنحاء السردقات متنقلين بين اقسامها متفرجين على حلقات الذكر والرقص الوطني، وفي كل حلقة توزع الدراهم على بعض الذاكرين والراقصين. والنقود المتداولة في السودان هي النقود المصرية باقسامها والاسترليني والشلن والشلنين من النقود الانجليزية.
وكان وادي حلفا منفى للزعماء السودانيين المرغوب عنهم من الحكومة امثال عثمان دقنه وقد مات بها. وما زال منفيا بها زعيم آخر ولد عبد الكريم ينتمي إلى المهدي بصلة القرابة وقد زرته منذ خمس سنوات فوجدته هرماً ولكنه قوي.
وبالوادي مكان معد لنزول لطيارات التي تطير بين أوربا وافريقية عن طريق مصر والسودان.
عبد الرحمن فهمي

اثر الأدب في الحياة

بقلم محمد قدري لطفي ليسانسيه في الآداب

تؤلف في الأدب كتب، وتنشأ له صحف، وتقام له جماعات وتشيد من اجله جامعات، وتعرف به رجال، فأي اثر لهذا الأدب في الحياة، وأي وظيفة يؤديها لهذا المجتمع الذي غلبت عليه المادة ولم تلق فيه المعنويات ما يجب لها من عناية وتقدير؟
ان للأدب عناصر يتركب منها، أساسها تلك العواطف التي تستولي على المرء فتحرك نفسه وتهتز لها يراعته فتدون على صفحة القرطاس تلك الحركات النفسية، وتصورها على قدر شدتها أو خفتها، فإذا عرضت على الناس حركت فيهم نفس الشعور وأحيت منهم نفس العاطفة.
وكم في هذه الحياة من نفوس دقيقة الحس صادقة الشعور تحركها شؤون الحياة وتهزها صروف الدهر، هي نفوس أدبية تحس في صمت، وتشعر في سكون. ولكن أصحابها فقدوا أداة الأدب وأعوزتهم المقدرة على التعبير عما يحسون في أسلوب جميل أخاذ، وبهذه المقدرة الفنية يتميز الأدباء من غيرهم من ذوي الحس الدقيق والشعور الصادق. فالحياة تذيقنا جميعاً حلوها ومرها. ونلقى منها جميعا ما نحزن له أحياناً ونطرب له حيناً، وهي تعرض علينا من ألوانها الزاهي البهيج والقاتم الحزين. والأديب منا من شرح حسه فأجاد الشرح، وصور لنا عواطفه فأحسن التصوير، وإذن فليتعز المحزون العاجز عن بث حزنه بنفثات الأديب المحزون، وليبحث البائس الذي لم يسعفه بيانه عما يسليه ويذهب ببعض آلامه في سطور الأديب البائس، وليقرأ المحب الذي احب فأخلص، واخلص فتفانى في اخلاصه، ولكنه كان اعجز من أن يسمعنا حديث قلبه وينقل الينا نفسه وخفى حسه، اقول ليقرأ ذلك المحب العاجز ما

كتب المحب الأديب، فسيجد بين السطور نفسه مرسومة، وسيلمح في ثنايا العبارات عواطفه مصورة، فلست اعرف بين العواطف الإنسانية عاطفة تشترك فيها القلوب جميعا، وينطبق ما يقال عنها على الناس جميعا، كعاطفة الحب الخالص المتين. الست ترى الانشودة يغنيها المحب شاكيا أو باكيا، فيعدها غيره صدى نفسه وترجمان حسه؟ وإذن فالأدب ضرورة من ضرورات الحياة وعنصر هام من عناصر العيش، فيه الحزين، وسلوى المحب، وعزاء المحزون. وليست مع العزاء مصيبة. إن الأدب هو نتاج العواطف الشريفة وثمار الاحساس الجميل، ولن تجد كثمرة العاطفة في حديقة الحياة.

نظرة إلى هذا العالم تنبئك عن قدر الأدب بين الاحياء، فكل من فيه ماله آخر يومه إلى الراحة والسكون، والمرء مهما كد وجد فلابد له من سويعات تقر فيها نفسه، ويخلد فيها إلى السكون جسمه، وعندئذ فلن يجد أشهى من ثمرات القرائح والنفوس يقطفها من صفحات كتاب. ولن يجد أحلى من زهر العواطف تفوح رائحته من ثنايا النثر أو الشعر. ولن أقول أي نثر أو أي شعر، فلكل ذوقه ولكل ما يؤثر، وهي بضاعة من نتاج القرائح معروضة، فليأخذ منها كل ما يلائم حسه، ويصادف هوى نفسه.

وتريد ان تعرف قيمة الأدب في الحياة وتتبين أثره في الناس. إذن فانظر إلى رجل ليس يقرأ إلا قصيدة قد حوت رائع اللفظ وساحر المعنى، وليس يطالع إلا في كتاب قد تضمن من الحديث أعذبه وأحلاه، ومن القصص أحسنه وأشهاه، فيه شجون وفيه احزان، وفيه شكوى وفيه غرام، وفيه عاطفة حارة وحس جميل، وفيه وصف رائع وشعور صادق نبيل، ثم استمع إليه تحدثك فستجد عقلا مصقولا ونفسا مهذبة، أثرت فيها هذه الآداب فرققت حواشيها، وعملت فيها تلك القراءات فأرهفت حسها وهذبت نواحيها، وهل اجل في الحياة من نفس مهذبة وعقل صقيل؟ وهل ادعى إلى حياة الامم ورقيها من نفوس ابنائها وقد طبعت على كل حسن جميل؟ وهل مثل الأدب مقوم للطبع مهذب للنفس؟

وتريد أن تعرف قيمة الأدب في الحياة وتتبين أثره في الناس؟

إذن فنصور شعبا ينصت إلى نشيده الوطني وقد ذبحته براعة أديب قدير فحوى من معاني الوطنية ارفعها واسماها، وحرك من نفوس الناس اشرف العواطف وارقى درجات الشعور، فتحفزت نفوسهم واستعذبوا الموت في سبيل الوطن.

وللأدب بعد ذلك ناحية عامة لا تقل شانا عن تهذيب النفوس وصقل العقول واحياء العواطف السامية في القلوب، فأدب الامة صفحة صادقة من تاريخها كتبتها طائفة من ابنائها فلم تتحيز ولم تظلم، وإنما دونت فيها شعورها الخالص وحسها الصادق. ولذا عنيت أرقى الامم بالآداب وأحلتها المحل اللائق بها، وأنزلت أهلها المنزلة التي تتفق وما لآثارهم الأدبية من قيمة في الحياة. فلولا الأدب لكانت حياتنا جافة لا تحتمل، وعبئا ثقيلا لا يطاق.

الاسكندرية

محمد قدرى لطفي

حبل الأبد في الأدب

بقلم امين نخلة

في كفة الغروب أمس، بعد ان مال ميزان النهار، وغشى السواد الشفق، كنت أسألهم إلا يوقدوا المصباح في وجه الليل. بل ندع العتمة تتساقط على مهل وتتلبد، حتى إذا غمر السواد الجهات، غرق عبث الحياة في الليل، وسلم الأمر. . . هل مطلبي من الحياة غير هذا؟!

ثم اشرف من النافذة، فإذا المدينة قطعة واحدة في جوف الليل. خفى الشتات، وتألفت الدقائق، ومسح على الفضول. فلست أرى ما يتعالى في المشهد الأسود المنطرح إلا ذؤابات الأبنية تشمخ، وكأن بعضها في رأي العين يمشي إلى بعض، فتتلاقى وتتساند بعد البياض الفاني، والعبث المولى!

وهذا قمر الليل، يقهقه بلا صوت. . . ولقد جنح إلى المنحدر الاخر، كأنما يزلق من هنالك، فتدفق الفضة دفقا، غير العهد بها في مقاطر الصحو الازرق، حين تنقط ولا تبل الارض!

والليل فهرس البياض المنطفئ، ترى فيه العناوين، وعفاء على الحروف الضئال،

والتنقيط المنمنم في كتاب النهار. فالعمود البعيد القائم الساعة ناحية الجنوب، ولا أتبين ما حواليه، عنوان طويل لبناية المسجد، ولقد خفيت المقالة وسلم العنوان. . .
وإننا في الأدب على أعقاب جيل مال ميزانه، وطفقت العتمة تتساقط عليه، فعما قليل تغمر نوافله، وتبتلع توافهه. ولا يسلم منه في الغرق الاعظم إلا العناوين الجديرة بالسلامة! ويسلم القمر ذو القرص الباقي، والشعاع المجدد
كنا في (الباروك) (1) - في مطلع الصبى - نجول بالضاحية، حيث كان (لامرتين) يهبط الخضرة والفيء على الينابيع. أو نصعد في الهضبات حيث مر جواد (ابي الطيب). . . (وعقاب لبنان وكيف بقطعها) فيقول وأحدنا للرفقة:
- ترى أي شئ من هذا الريف لفت صاحبنا؟!!
وكنا بعد لم نتعلم التريث في الجواب، فتنطلق الأجوبة في الرفقة كما يهتاج العش! فالطاحون الذي يهدر حتى آخر الأبد عند الشجر، كأنما يهوم للجمال الأخضر فينعس، وينام،
وقد افتن به (لامرتين) ولا ريب! وافتتن بالبحيرات الصغيرة التي يبسطها النهر بين مرجين حين يتهمل - وهي لا تبرح إلى اليوم تنتظر (صاحب البحيرة!) وبدرب النهر ساعة تحدر الفلاحات بالجرار الحمراء في العشايا، ويسلن فوجا غب فوج، فيغدو الدرب نهراً للاحاديث والغبطة يدفق من الضيعة إلى الوادي. . .
أما (أبو الطيب) وهو لم يعرج على الباروك في (وعقاب لبنان وكيف بقطعها) فقد كان حسبنا منه، ان يلتفت في رأس الجبل إلى خيمة الناطور التي تتلاقى عليها عيون القرويين من كل حقل. فيثنى رأس جواده، ويطل من شاهق - وهو الشتاء (2) - على البساط الأبيض الذي نقيم عليه أيام الثلج في (الباروك)! كذلك كنا في الصبى الاول، نحسب الدنيا تبتدئ. ويخيل الينا ان (لامرتين) كان عندنا أول أمس، وكان (أبو الطيب) أول من امس. وأن خيمة الناطور تلك، وطاحون الوادي، ودرب النهر، معالم ثابتة على الزمن، بذهابها ذهاب الباروك والينابيع والربوات والشجر وهاتيك الدنيا الصغيرة!! فلما كبرنا عن الصبى وكبرت الدنيا وصغرت (الباروك) - وكانت خيمة الناطور قد سقطت وانهد الطاحون، وعفت الدروب على النهر - لم يذهب من القرية شئ! بل ظلت لنا (الباروك) قرية بنهر وجبل وضاحية، كما كان عهدنا بها اول العمر. ذهب النافل من ذلك الجمال الباروكي في غرق الأيام وعتمة السواد، وسلم ما ينبغي له. فلو مر جواد (ابي الطيب) في رأس الجبل لثناه راكبه، وقف يتلفت! ولو نزل (لامرتين) بين البحيرات والدروب لآنس نعيما ظلا واخضراراً.
هكذا نقول لأصحابنا في مشادة العبث بين (القديم والجديد)، فالزمن يمسح النافل، ويبقى على المحتم النافع. وليس في الأدب قديم ولا جديد، بل الأدب كد على الحق، وولع بالجمال. تسقط عتمة الآباد ألف مرة على الصنيع الفني الذي غمس بألوان الوله والكد وهو السالم الباقي لا يأخذ الليل منه حرفا!
فالحسن حسن على كل جيل. والتافه تافه أبداً. ما أخر القدم قيد شبر، ولا قدمت الجدة قلامة ظفر.
ولقد سبقنا إلى الدنيا، وجاءها أناس كلفوا بالجمال والحق. وداروا على اللباب في الدروب. فآنسوا نارا ثم ألفوها ونزلوا رماداً. فكيف يسوغ لنا، ونحن في الدرب من ورائهم، ان
نقطع ما بيننا وبينهم، ويقال أدب قديم وأدب جديد؟؟!
ان الكدح القاسي في صعيد الفكر، والتضحية السمحة على مذبح (فينيس)، والتنقيب في بياض الصحيفة عن الدنا المنحجبة، كل هذه عرفها الرصيف القديم (بين الدخول فحومل. . .)
فطلب البلاغ الحر، وقلب النسق في الصنيع الفني، وإبدال ألوانه وصبه على شكيلة الحياة القائمة كانت في وكد الاساتذة السالفين جيلا تلو جيل. وهكذا يقال في شيوع الخاطر من المستهل إلى المقطع، وفي تماسك الحسن الذي لا يبذل للنور نفسه، وفي الميسم المطبوع والنفس الخاص، وفي المعنى الذي يسكن المبنى ولا يمد ساقيه على بحبوحة اللفظ - ذلك كله كان من أغراض الأساطير فيهم، يوفقون إليه حينا وينكصون عنه حينا. فليس الأدب ابن يومه، ما خطرت مطالب الحياة منه على بال أحد في الزمن لتقوم الضجة علينا، ويتنادوا بالويل بعد أن اردنا الأدب حياة وقوة

وخفق جناح. . وأطفأنا الشمس بأكفنا!!!
وعندي ان الاساتذة الموتى الذين سلكوا السبيل قبلنا - وكأنهم مضوا ليفسحوا لنا المواضع - من حقهم ان يطرقوا خواطرنا، وان يرشفوا قليلا من الحياة في ألفاظنا. فهم، رحمهم الله، لم يبق لهم من سبيل إلى الضياء إلا هذه الحروف التي تشع فيها خواطرنا هذا حبل الابد هيهات ان ينقطع. والأدب بشرى قبل كل شئ، فليس في استطاعة أحد ان يقطع الحبل! والأدب أخو الحياة لا قديم فيه ولا جديد، بل هو وله الجمال وكد على الحق، وما عداهما فهراء!؟

لبنان

امين نخلة

تطور الفلسفة

بقلم على محمد راضي

الإنسان المدرك رأس هذه الخليقة التي تدرجت نحو استكمال نموها حتى تمخضت عنه. ومتى أدرك ما حوله اعمل فكره في تعليل ما يرى ورجع إلى نفسه يبحث انفعالاتها وآثار ارادتها، فهو إذن فيلسوف بطبيعته، ومدفوع للتفكير بحكم جوده وعمل حواسه وعقله وإذا عنى الباحثون بدراسة الحفريات لنوع وأحد من الكائنات ليصلوا إلى مقدار تطور حياته فما أولى طلاب العلم ان يصلوا بين حلقات تفكير الإنسان منذ سكناه الكهف وصيده الوحش لاستخدامه الكهرباء واكتشافه مغناطيسية الحياة.

الطبيعة والإنسان متلازمان، وبينهما أوثق الروابط. . هي معلمته التي تلقى عنها أول دروسه، وهي موضع بحثه منذ اللحظة الأولى لوجوده، يكافحها مرة فتتسع دائرة مجهوده وتفكيره، ويستخدمها مرة فيبني صرح تقدمه وعظمته. ولكنها ضنينة باسرارها، وهذا ما يبعثه على إعمال الفكر في تعليل مظاهرها وتكليف نفسه مشقة البحث عن اصل وجودها وعلة استمرارها.

أبصر من مظاهر الطبيعة ما لم يساعده عقله (الطفل) على فهمها، وعجز عن التعرف على اسبابها، فأحال صدورها إلى قوى لا يدركها تماماً، وما دامت لا تخضع لإرادته فهي أقوى منه واشد بطشا، ولذا اعتقد بالارواح الساكنة في الغابات، وقدم للآلهة المتعددة القرابين ليبعد بها عن نفسه غضبها، واعتقد بتجسد هذه الارواح في بعض الكائنات الحية. وكان اليوناني يعتقد باله الحب والقوة والجمال والماء والأرض، ولا يزال الهندوس يقدسون البقر، وبعض أهالي فارس يوقدون النار ليطردوا إله الظلام ويساعدوا إله النور. وعليه فالعقيدة هي محور الفلسفة الاولى الذي دارت حوله، وطبيعي ان يلجأ الإنسان وهو منزعج الحواس بما يكتنفه من هزيم الرعد ووميض البرق وانبثاق الحمم المستعرة إلى الاعتقاد بوجوب التقرب والخضوع للقوة التي تصدر عنها. . انه بذلك يدرأ عن نفسه غضبها، وتهدأ وساوس نفسه وشكوكه.

ولكن لم يقف تفكير الإنسان عند هذا الحد الذي تسلط فيه عليه الوهم، بل جعل يفكر في منشأ هذا الكون. . . والعالم في نظره الأرض التي تعيش على سطحها، والشمس التي تمده

بنورها، والقمر والكواكب التي تلتمع كلما جن الليل، فقال بوجود العناصر الأربعة (التراب. والماء. والهواء. والنار.) ثم تدرج إلى القول بوجود عنصر وأحد هو الماء، ثم عدل عنه إلى الهواء لأنه أبسطها وأسرعها انتشاراً. ولعل هذه هو اساس الاعتقاد بالسديم الذي لا يخرج عن كونه غازا ملتهبا متحركا حول مركز جذبه. . . واليوم يؤمن الإنسان بوجود الاثير، ولم يصل بعد إلى تعرف طبيعته ويضطر لافتراض وجوده ليعلل حدوث الاهتزازات والتموجات التي تنشأ عنها القوى المحركة والمرتبة للجزيئات الترتيب الذي يجعلنا نرى المادة في أوضاع واشكال مختلفة.

واخيرا قام مذهب المعتقدين بوجود وحدات كهربائية (الكترونات) تتحرك بواسطة التجاذب الذري، وان الكهربائية نفسها مؤلفة من ذرات. وقد قاد الإنسان إلى بحث سر الطبيعة ما أودع في نفسه من كلف بكشف كل ما يغمض عليه فهمه أو تعليله. . وقد أداه هذا الشغف إلى التفكير في أمر نفسه لا من حيث الاحتفاظ بوجوده وسد حاجاته الضرورية، ولكن من ناحية فلسفية أدق ووجهة اكثر تعقيدا. .

يشعر الإنسان بوجوده بطريق يقيني، وهذا اصل معرفته، ولكنه لم يدرك كيف تقوم معرفته لما يحيط به، وكيف يفكر؟ وما هي القوة الباطنة التي تؤثر فيه وتوجهه إلى

. . .حيث تريد؟
الى هنا طويت صحيفة الفلسفة الطبيعية التي أضاع وقته في خلق فروضها طاليس وانكسمندر وانكسمينس. . وبدأ طور جديد تدور أبحاثه على الإنسان نفسه، ويعتبر الواضع للاساس الجديد سقراط زعيم فلاسفة اليونان وتلميذه افلاطون. . ولكنهما لم يتعرضا لتحليل العقل الإنساني باعتباره القوة المدركة، ولم يذكرا لنا شيئا عن ماهية النفس الإنسانية وقصرا بحثهما على اعمال الإنسان ووجوب مطابقتها لما هو حق وعدل وخير. . صحيح أن افلاطون كان يقول بقدم المادة، ولكنه كان يعلل عملية الادراك بوجود صورة سابقة في النفس للكائنات الموجودة، فهو القائل بوجود عالم العقل وعالم الحس.
والحقيقة ان دراسة الفلسفة الإنسانية من الناحية التي عنى بها المعلمون الثلاثة (سقراط وافلاطون وأرسطو) تنطبق على مباحث علم الأخلاق اكثر من مباحث الفلسفة نفسها، ولهذا كان غرض أقطاب الفلسفة الحديثة إتمام النقص الذي ظل موجودا بعد الفلسفة اليونانية.
ومباحث الفلسفة الحديثة تتمم الفلسفة الإنسانية من حيث تحليل الحركة الفكرية، وعلاقة الجسم بالعقل، وقدرة العقل على فهم الحقائق، وحركة الفكر الذاتية (التأمل) ثم بحث النفس الإنسانية وهل لها وجود مستقل أو هي نتيجة لاتحاد القوى المدركة بالقوى المفكرة في الإنسان؟
ولما كانت هذه المباحث من المعضلات العويصة الحل اتخذ كل فريق من الفلاسفة لحلها طريقاً خاصاً، ففريق اعتمد على العقل وحده فانهدم صرح العقائد الموروثة، وعاد العقل يزنها بمقياس الاستقلال الفكري مستعينا بقوانين المنطق، ولكن التوى على جماعة العقليين قصدهم لان العقل بدأ يبحث نفسه، وتطرق الشك إلى كيفية حدوث الادراك، وإذ ذاك لم يجد الباحثون بدا من الالتجاء إلى الحواس والاعتراف بأنها طريق الادراك، وهذا اساس المذهب (التجريبي)، ومع ذلك قام من يثبت أن الحواس تقوم بعمل ميكانيكي، وان المخ في دائرة عمله في الحكم على ما تحمله إليه الحواس قاصر، وان هناك بجانبه وجدانا له انفعالات خاصة لا دخل للحواس ولا للعمل الفكري في أحداثها. ولذا قسموا العقل فقالوا بالعقل المدرك والعقل الملهم أو الخالص.
ويطول البحث إذا اتينا على حجج كل فريق، ولكن ما لا شك فيه ان للنفس البشرية وجودا مستقلا وارادة خاصة غير ما تبعثه فيها البواعث الخارجية ويصل إليها من طريق الحواس والذي يهمنا ان الفلسفة تحولت من اعمال الإنسان إلى أفكاره ومن تفكيره إلى ماهية نفسه. وهذا آخر مدى وصلت إليه الفلسفة الإنسانية.
واليوم تقوم فلسفة اخرى تبحث النوعين الرئيسين (الفلسفة الطبيعية والإنسانية) لا على انهما منفصلان، ولكن على اساس ايجاد الروابط التي تربط الإنسان بالطبيعة، ونتيجة هذا البحث الوصول إلى الغرض الاسمى الذي لم يستطع الإنسان منذ وجوده ان يظفر به لقصر تفكيره ونقص استعداده. وان اليقين بوجود الله من طريق العقل قد حل مشكلات الفلسفة قديما وحديثا. .
لقد ادرك الإنسان ان ما يراه من مظاهر الطبيعة لم يسخر له اعتباطا، وان القوانين الطبيعية التي لم يتطرق إليها الخلل لم توجد اتفاقا، وان صلة الإنسان بالطبيعة ضرورية، وان عظمة الخالق كما تظهر في سر الكهرباء والجذب تظهر في سر النفس وخلود الروح،
وكما عجزنا عن تعرف ماهية القوة المسببة للحركة العامة للمادة. فما أحرانا أن نكتفي من بحث الروح باليقين بوجودها.
ان نوعا من الفلسفة لا يزال غير مطروق مع عظيم فائدته. . على الفلاسفة اليوم أن يتركوا بحث الإنسان فرداً فقد قام الإنسان بنصيبه من التفكير في أمر نفسه. ولكن عليهم أن يضعوا لنا فلسفة أجدى، وان يصرفوا جهودهم لبحث القوانين العامة التي يجب أن تربط المجتمع الإنساني. . إن فلسفة المجتمع هي الغاية التي يجب أن ننشدها لتتم سنة الارتقاء وهي الناموس الذي يحكم الطبيعة والإنسان؟
على محمد راضي
قصة من الواقع
الأمل الضائع

أو كذبة ابريل

لا تظن أيها القارئ الكريم أني سأحدثك عن سبب هذه الكذبة ولا متى واين وجدت؟ فذلك بالمؤرخ اجدر، ولا عن مدى أثرها في نفوس من وقعوا في حبائلها: أخير هو أم شر؟ أجميل أم قبيح؟ أنافع أم ضار؟ فذلك بعالم الأخلاق أو النفس أليق. إنما أحدثك بلسان أديب، رأى رأي العين قنيصة من قنائص هذه الكذبة، على غير علم منه انها قنيصة، وإنما أردت ان اطرف بها القراء؛ لأنها كما سيرون طريفة حقاً - محكمة في نسجها احكاماً، حتى لقد بدت - وهي الباطل المزخرف كأروع ما يكون الحق، ومثلت مع أديب شاعر لم يتسرب إلى قلبه الشك في صدقها؛ ولعل ذلك إلى ان الأديب خلق اطهر الناس فطرة، وأنقاهم سريرة. . . ضحك الأديب المكذوب عليه مع من ضحكوا على هذه الاكذوبة، وربما كان اكثر إغراقا في الضحك، ذلك انه وقف من أصحابها موقف جاد من هازلين، متفرج على ممثلين: صادق مع كاذبين.

طرحت إحدى المجلات الشهرية المصرية على الشعراء مسابقة أدبية، ذات جوائز مادية، وانتهى موعد التقديم، وترقب كل شاعر وأديب نتيجته، كما يترقب المساهم في بعض الأنصبة نصيبه. . .

وفي ذات ليلة من ليالي ابريل، فكر ثلاثة من الأصدقاء في ان يكذبوا (كذبة ابريل) ولم يطل التفكير؛ فقد كانوا مساهمين في هذه المسابقة الأدبية، فلماذا لا تكون المسابقة هي مادة

الكذبة؟ ولماذا لا يكون أحد المتسابقين غيرهم موضوعها؟ ولماذا لا يكون ذلك الأحد صديقا لهم، اشتهر فيهم بالحلم، فيأمنوا عاقبة ما تحدثه الكذبة في صدره؟ واخيرا لماذا لا يتلهون بهذه الاكذوبة ويقطعون بها وبالحديث عنها فترة الانتظار، انتظار النتيجة الممل.

اختمرت الفكرة، لكن بقي أن تصقل بصقل الدهاء، وترتب حوادثها تباعا، ويشذب ما عساه ينتأ فيها من شبه وظنون، ويبعد عنه ما عساه ينبه قوة الملاحظة التي ستغرق في حلم من الاكذوبة لذيذ. .

تولى أحد المتآمرين سرد حوادث الكذبة كما ستقع، وتولى الآخر الاعتراض، وتولى الثالث الرد، وهكذا تبادلوا الاسئلة والاجوبة والنقد والتمحيص، حتى اقر الجميع متانة صقلها، قوة سبكها ثم تعاهدوا على ان يتكاتموا سرها حتى على أنفسهم ليضمنوا لها النجاح والتوفيق.

ابتدأت الخطوة الاولى من التنفيذ بكتابة خطاب إلى هذا الصديق المتسابق بخط صاحب المجلة الزائف، ولكن مع كثير من التقليد، وبخاصة الامضاء. وهذه صورة من الخطاب!

فلان. . . تحية. . . وبعد فيسر صاحب الامضاء ان يبشركم بالفوز في مضمار) المسابقة. والمجلة تهنئكم به، وتطلب اليكم أن ترسلوا صورتكم الشمسية لتصدر بها (قصيدتكم المحلية في ميعاد لا يتجاوز 28 الجاري. . والسلام

الصق الخطاب وكتب عليه عنوان صاحبه، وسلم إلى بريد القطار الذي يؤم القاهرة أو بعبارة أدق وضع في صندوق بريد المحطة طمعاً في ان يصل إلى القاهرة خطأ فتعيده تلك إلى مكتب البريد الذي يوصله إلى صاحبنا، حتى إذا نظر إلى الخطاب لا يشك في انه صادر من موطن المجلة - كلف أحد المتآمرين ان يرقب عن كثب مصير الخطاب حين يصل القطار - تنبه البريد إلى هذه الخطأة فأرسل الخطاب إلى مكتب بريد البلد قبل ان يصفر القطار، وذلك ما لم يكن في حساب المتآمرين؛ وسرعان ما تلافوا ذلك بأن تطوع أحدهم بحمل الخطاب من مكتب البريد إلى حيث توضع خطابات صاحبنا على مكتبه، وتولى حراسته حتى لا ينظر فيه غير صاحبه خشية ان يدرك بوساطة خاتم البريد انه مصدر من البلد نفسه، لانه سينظر إليه بعين فاحصة فتنكشف العصا كما يقولون، لا كما سينظر إليه صاحب الخطاب بعين اللهف على ما فيه. . . هل صاحبنا في وقت تعود فيه أن يتسلم بريده، فأبرقت أسارير جبهته، حين وقعت عينه على ذلك الخطاب، وأنت أدرى

كم يكون سرورك حين تقع عينك على خطاب، ولو كان ظاهره فيه الرحمة وباطنه من قبله العذاب. . . تناول صاحبنا الخطاب بيد مرتعشة، رعشة الفرح أو الإشفاق لا أدري! ومزق الغلاف ونظر في سطور الخطاب نظرة سريعة وإذا بالبشرى، بشرى الفوز في مضمار المسابقة يفوح عبيرها؛ فيملأ انفه ويسري منه إلى اعصاب المخ والقلب سريان البرق، فيصدر في غير وعي، اشارات الفرح وإمارات الانتصار، غير ناظر إلى خاتم البريد، ولا ممعن في النظر إلى السطور الزائفة. . .

. . .لا نظر ولا انتظار، ولا هدوء ولا قرار، على مثل ذلك النبأ السار (!اعطني عقلك) اغتنم حارس الخطاب هذه النشوة من صاحبنا فاختلس الغلاف وأخفاه حتى لا يعيد النظر إلى الخاتم بعد زوال السكرة، ورجوع الفكرة، ثم اظهر الحارس الفرح بفرح أخيه، وتناول الخطاب من يده، واخذ يطوف به على بقية الإخوان، مبشرا من لم يتآمر منهم بنجاح صاحبهم، ومن تأمر بنجاح مؤامرتهم. . أرأيت كيف تدبر المؤامرات وتحكم التلفيقات؟ ألم يصدق المثل القائل (كذب مرصوف، ولا صدق مندوف) وهنا اقترح المتآمرون على صاحبهم ان يدفع ثمن هذه البشرى (حفلة سمر أخوية مسائية تقام في بيته) وايد هذا الاقتراح سائر الاخوان فلم يسعه إزاء هذا الاجماع إلا أن يوافق بعد تردد لم يطل مداه إذ بخسوا له هذا الثمن (بمبلغ زهيد يشتري به فاكهة، وتقام حول مائدتها حفلة تكريم، للشاعر العظيم)، ودفع صاحب الثمن لأحد المتآمرين الذي تطوع بأن يقوم عنه بمهمة شراء الفاكهة، وانه سيتبرع هو الاخر بنصف هذا الثمن، حبا وكرامة - التفت ذهن الشاعر إذن إلى الصورة الشمسية، ورأى ان ما عنده من الصور لا يصلح لمثل هذا التفوق فقرر ان يحضر صوراً جديدة تكون أنقى وأجمل. وتواردت في ذهنه هذه الاسئلة: من ذلك المصور الماهر الذي سيحظى بشرف تصوير حامل قصب السبق في مضمار أدبي؟ من أي المدن القريبة يستحضرها؟ أي القطر يستقله إلى المدينة؟ متى يسافر؟ كيف يحصل على اجازة من عمله؟. . .

بعد لأي قرر السفر غداً - ولكن اخوانه المتآمرين كانوا قد قروا ان تكون هذه الاكذوبة مداعبة ظريفة ليس اكثر، فرسموا خطتهم على لا يكون سفر، والا يكون ما وراء السفر من مشاق ونفقات، ولا ما وراء ارسال الصورة الشمسية إلى صاحب المجلة مما تعلم، وما لا

تعلم. . . كان ذلك واكثر منه سيحدث لو لم يقرر للمداعبة ان تكون ظريفة غير قاسية: لذلك قرروا ان تكون حفلة السمر في مساء ذلك اليوم، وان يفاجأ صاحبنا بأكذوبة ابريل بعد ما عساه ان يقال، من خطب ومقطوعات وازجال، في حفلة كلها أدباء أبطال.

قضى الشاعر يومه غير محسوب من عمره كما يقولون: احلام شهية، وأمال طلية، وشرف ومجد، وصيت لا يحد، ذهل حتى عن نفسه، واختلط عليه يومه بأمسه، يخاطبه مخاطبةً فيجيب (نعم) حيث الجواب (لا) يجيب (لا) حيث الجواب (نعم)، وقد يكتفي بإيماءة من رأسه تصلح للنفي والاثبات، وتؤدي معنى لا ونعم، وما ان فرغ من عمله حتى رأى نفسه في حجرة الاستقبال في بيته، ينظم وينسق، ويرتب وينمق، ثم في حجرة المائدة يكللها بالازهار لأنها ستحظى بتكريم فائز المضمار. . . دقت الساعة تسعا، فدقت (سماعة) الباب وإذا الطارق اخوانه المحتفلون، اخذ يحييهم، فيهنئون، ثم دعاهم إلى المائدة، فطفقوا يأكلون.

جلس الشاعر على مقعد التكريم، ولاول مرة يفوز بهذا المقعد فأحس الخيلاء تتمشى في نفسه، وخواطر العظمة تجيش في صدره، انبرى الخطباء أمام المنصة، يقولون ما سمته مرارا حول موائد التكريم، حديث معاد، لا يحرف ولا يزيد، وكان الخطباء بين اثنين: جاد منسجم في جده، وهازل غارق في هزله. والشاعر ترتسم على وجهه ألوان متعاقبة متأثرة بما يقال، فهو خجل حين يفيض المدح، متواضع حين يغلو الاعجاب، مبتسم حين تشرق الدعابة، ضاحك حين تدوي النكتة، مزهو يذكر السبق في المضمار، ثمل حين تدار كأس الانتصار؛ انتهى الخطباء من كلماتهم، ولم يبق غير وأحد من المتآمرين اعتذر بأن كلمته قصيرة فاترة، قد يفوح شذاها ان جعلت مسك الختام.

وهنا قام الشاعر المكرم، يؤم المنصة، متئد الخطى في دلال، مصعر الخد من جلال، ولم لا؟ الم يكن المجلى في حلبة الفرسان؟ ألم يفز بالقدح المعلى في الرهان؟ الم يشر أو سيشار إليه بالبنان؟ الم يصرع - وهو الشاعر الناشئ، والأديب الحديث - فحول

الشعراء، قدامى الأدباء في الميدان؟ اخذ أمام المنصة يجول ويصول ويهز جوانبها تارة بالشعر المصقول، واخرى بالنثر المعسول، يخلع على الخطباء أبهج الحلل، ويقلدهم أنصع الدرر؛ حتى ملأ السمع، واثلج الصدر، وأفعم القلب؛ واخيرا جلس كما قام بين عاصفة من الهتاف
والتصفيق. .
قام صاحب مسك الختام، وألقى في اول كلمته ما يناسب المقام، ثم. . . ثم مإذا؟. ثم استجمع قواه، وشد من اعصابه كما يتجمع من يهم بالقاء قنبلة داوية، وأراد ان يلقيها كلمة صريحة فلم تطوع له نفسه أن يقذف بها صديقا أعز عليه من نفسه، ولكنه أرسلها مبهمة تأخذ النفس في استجلائها رويداً رويداً فتأنس لها ولا تنفر منها نفورا كبيراً. إذن ماذا قال؟ قال! (ألما يزل في ابريل، ذلك الشهر الطويل، شهر الكذب والتضليل) وسكت. . . هنا ذهبت نفوس المحتفلين غير المتآمرين وأولهم الشاعر في تأويل ذلك الذي قيل كل مذهب، وأخذ الشك يدب إلى يقينهم، رويدا رويدا، كما يدب غسق الليل إلى وضح النهار حين الغروب،. . . ولكن مازال في الافق بصيص من نور، وفي النفس ذبالة من أمل، لقد اطفأه ظرف الخطاب (أنسيت الخطاب المزيف؟) الذي عرض على الجميع بين الدهشة والاستغراب، فوجدوا ان خاتم البريد هو لمكتب البلد الذي به صاحبنا ن غير انه ختم به مرتين ذلك الخطاب الذي لم يحظ بركوب القطار. . . وإذن كان ظرف الخطاب، هو فصل الخطاب، قطعت به (جهيزة قول كل خطيب) وصاح الجميع في نفس وأحد، ابريل. . . ابريل، كذبة ابريل! لقد مثلت أجود تمثيل، فكانت كذبة رائعة محكمة، وكانت مفاجأة لذيذة متعة. فهل كانت كذلك في نفس شاعرنا الكريم؟ الجواب والمعنى في بطن الشاعر كما يقولون. فوجئ صاحبنا بكذبة ابريل، وانت ادرى ما يحوم حول المفاجآت من تكبير وتهليل.
آفاق الشاعر من حلم لذيذ، دام من الثامنة صباحاً إلى العاشرة مساء، على صوت قذيفة هذه المفاجأة الصارخة، وانهار في لحظة واحدة من الواقع ما بناه الخيال والوهم من صروح في ساعات وغار البشر في ظلام العبوس، ودفنت النشوة في وجوم الدهشة، وأرسل صاحبنا قهقهة عالية عصبية؛ أمن الغيظ أو الكذب أو الغفلة؟ لا ادري! ملأ السامرون حجرة السمر بصوت مزيج من التصفيق الانتصار، وضجيج الدهشة، وصياح الانكار، وضوضاء الفرح، ونشيج الامل.
فكيف كان موقف شاعرنا؟ تكلف وسط هذا الموج الصاخب أن يظهر بمظهر الرجل الثابت الذي يقابل الخطوب بابتسام. والأكاذيب بابتسام، وهتف من اعماق نفسه (الا لعنة الله على
الماجنين، واخذ يسلي نفسه بما حضره من حكم الشعراء، بمثل قول ابي العلاء.
فظن بسائر الاخوان شراً ... ولا تأمن على سر فؤادا
فلو خبرتهم الجوزاء خبرى ... لما طلعت مخافة ان تكادا
هنا أحس زعيم المؤتمرين ان تلك المفاجأة - مهما يكن من شئ - قاسية شديدة، فأخذ يلطف حرارتها، ويخفض من شدتها بما قال مخاطبا الشاعر: لا يكن في نفسك يا أستاذ أثر من كذبة ابريل، فوالله ما تدري. لعل ذلك فأل جليل، فتطلع علينا في غرة مايو الجميل المجلة النزيهة. وفيها لك تاج واكليل.
حسن! وما رأيك في ان ذلك الشاعر الموتور. هو صاحب تلك السطور؟
فرحات عبد الخالق
بين المعري ودانتي في رسالة الغفران - 3
والكوميدية المقدسة
بقلم محمود احمد النشوي
اثر الروايتين في اللغتين العربية والايطالية
حدثنا الدكتور جوفاني كابو فيلا عن أثر دانتي في اللغة الايطالية إبان تقدمته لروايته فقال (إليه يرجع الفضل في تثبيت دعائم اللغة الايطالية التي ملأها وهي لا تزال في مهدها بأقاصيص الحب والعدالة والحرية والجمال).
تلك كلمة نسطرها مقتنعين بها. فاللغة ايطالية وكل لغات أوربا الحديثة إنما تزداد على مر الأيام جمالا وحسنا وثراء من أخيلة ومن ألفاظ. انها تطرد في الحسن اطراد الاوربيين في الرقى. وهكذا اللغة تقوى بقوة الامة، وتضعف بضعفها. وانا لنتقرى

مصداق تلك النظرية في الاوربيين المعاصرين فنرى نسبتهم في اللغة كنسبتهم في القوة. وقد كان الايطاليون ضعافا في عهد دانتي فكانت لغتهم وليدة، كما قال الدكتور جوفاني.

ونحن ما دهانا في لغتنا؟. لقد كان عهدها الذهبي عصر المعري إبان القرن الخامس الهجري. ومن ذلك الحين أخذت تفقد شعاعها على يد التتار في الشرق، والاسبانيين في الغرب، والمماليك في مصر، ولا زالت تضعف تراكيبها، وبتهليل نسيجها، حتى بلغت درجة (الصفر) ضعفا وهزالا أواخر القرن الثالث عشر الهجري.

بيد ان نهضتنا المباركة أعادت للعروبة طراءة الشباب وجمال الفتوة. وارتنا كتابا من المعاصرين لا اسميهم، ولا ابالغ ان قلت انهم في الطليعة يسايرون الجاحظ، وابن المقفع وعبد الحميد، وعمرو بن مسعدة. في الفكرة وفي الاسلوب.

فذلك الضعف المطرد في الامة العربية منذ القرن الخامس الهجري. وتوالي الكوارث، والمحن عليها اضعف من لغتها. وجعل أثر (رسالة الغفران) محدودا. وهل تستطيع رسالة الغفران أن تقاوم الضعف التي تفتحت أبوابه علينا من كل اتجاه؟. ان ذلك غير مستطاع. ولو انها رقت ألفاظها وعذبت مفرداتها، وسلمت من غرابة اتشحت بها، لرجونا ان تلوكها الالسن فتعذب، وتجول في جنياتها الاخيلة فتسمو. ولكنها ابت ان تخرج للناس سافرة غير

ذات نقاب. فوضعت من دونها حجباً واستاراً من اغراب ووحشية ومعاظلة لا تزول إلا بعد استشارة القاموس ولسان العرب ومعاجم اللغة. وقد تجد طلابتك وقد لا تجد. نعم قد لا تجد شرح بعض مفردات (رسالة الغفران) في معاجم اللغة كلها. فحالت الغرابة دون تناولها، بقيت صدفاتها مغلقة على لآلئها، فلم ينتفع بها أحد.

نزعة في أبي العلاء إغرابه والعصر عصر حضارة، وتوعره والزمان زمان رقة نمت في نفسه بنمو مزاجه السوداوي، وتقوت دعائمها بما كان يكاثر به العلماء بعضهم بعضا في عهده من المباهاة بالغريب. ثم صوغه في قالب جذاب ترغيبا في حفظه.

تلك المدرسة التي كان يرفع لواءها الحريري المتوفى سنة 516 والتي وضع أساسها ابن دريد المتوفي سنة 321. وابن فارس المتوفي سنة 390. والخوارزمي المتوفي سنة 383، والبديع الهمذاني المتوفي سنة 398، وابن نباتة السعدي المتوفي سنة 405. والتي كانت تكلف بالغريب تتلمس أوهى الأسباب لذكره والاكثار منه، كان لها اثر في نفس المعري. فحببت إليه الأغراب والإغماض. وأخرى لعلها حدث به أن يغرب. تلك هي السخرية والدعابة التي يشم منها رائحة التطاول على الدين. فعمد المعري للغريب يتوارى خلفه. ويتخذه مجنا دون من كان يتقى، فأرانا أفانين من الاغراب تعرب عن علمه باللغة بما تقصر دونه الأعناق ولا تكاد تحيط به العقول. ولقد كان يأتي ببعض الغريب ثم يفسره مما نستنبط منه أن شرح المفردات اللغوية كان أحد أغراضه من تدبيج رسالته.

وحسبي أن أضع أمامك بعض نصوصها لتحدثك عن غرابتها، فأول ما ينطق به في رسالته قوله: قد علم الحبر الذي نسب إليه حبريل (بالحاء). وبينا ابن القارح يطوف في روضات الجنة إذا به ينظر خمسة نفر فيقول لهم: ما رأيت احسن من عيونكم! من انتم؟ فيقولون: نحن هوران قيس تميم بن مقبل العجلاني، وعمرو ابن أحمر الباهلي، والشماخ بن ضرار أحد بن ثعلبة، وعبيد بن الحصين النميري، وحميد بن ثور الهلالي. فيحاور الشماخ في شعره، فيقول له الشماخ: إنما كنت أسبق هذه الأمور وانا آمل ان أفقر بها ناقة. أو أعطي كل عيالى سنة. وأنا الآن إن احببت وردا من رسل الأوارى، فرب نهر كأنه دجلة أو الفرات. ولقد أراني في دار الشقوة أجهد أخلاف شياه لجبات لا يمتلئ منهن القعب.

وكذلك قوله: وما عمل من أجناس المسكرات. مفوقات للشارب. وموكرات كالجعة والبتع والمزر. والسكركة ذات الوزر. إلى غير ذلك مما امتلأت به رسالة أبي العلاء. فكان حصونا منيعة دون المعنى تحول بينه وبين الافهام. ودونك مثلا من غريب ما ذكره وفسره حين يقول. فأن خرج إلى الحاء فقال: من أم شح جاز أن يقول: وحوارى بمح، وببح، وبرح، وبجح، وبسح. فالح مح البيضة، وبح جمع أبح من قولهم: كسر أبح أي كثير الدسم. ويجوز أن يعني بالمح القداح كما قال السلمى

قروا أضيافهم ربحا ببح ... يعيش بفضلهن الحي سمر

ورح جمع أرح، وهو صفات بقر الوحش. وقد يقال لأظلاف البقرة رح. قال الشاعر الاعشى

ورح بالزمان مردفات ... بها تنضو الوغى وبها ترود

والسح تمر صغير يابس، والجح صغار البطيخ قبل ان ينضج. وسواء لدينا أكان إغرابه معاياة لعلماء اللغة أم خدمة في سبيل إحيائها. أم تلك الأسباب كلها مجتمعة، فقد كان ذلك النسيج دروعا حول المعنى رغبت الناس عنه. فلم تؤثر الرواية في الجماهير. ولعل اكثارها من نقاش النحو واللغة والصرف، صرف قلوب الناس عنها. على حين كان دانتي يتخذ من روايته عظة خليقة خلابة فتهافت الناس عليها منذ تراءت في سماء ايطاليا.

ولعا مما يكبر المعري في أعين النقاد أن نقاش رسالته وهو في غريب اللغة، وعميق النحو والصرف والعروض، وثلة من تلك الابحاث الجافة لم يكن جافا، فقد اضفى عليه عذوبة من روحه جعلته عذبا شائقا. وتلك هي القدرة الفذة التي تجعل المعري في الخالدين.

نفسية الشاعرين

كان المعري ههنا مرحا طربا، فابتدأ بالفردوس، وختم بالفردوس، واطلق لخياله العنان، في السخر والدعابة، يسمر مع الشعراء والأدباء والنحاة. بل مع إبليس، ومع الخزنة، خزنة النيران. يرى المعذب تندلق أقتابه، ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت، فيحاوره في النحو والصرف، وفي الرواية والتصحيف، دون أن تجدي لديه ضراعة المعذبين واعتذارهم عن الاجابة بما هم فيه. ولم يصحب المعري دليلا في رحلته إيناسا لابن القارح، وتعبيداً لسبيلها.

ولكن دانتي كان مروع القلب. هلوع الفؤاد. ابتدأ الرحلة بالجحيم فلم يطق لسير في ظلماتها وحيدا. فصحب الشاعر العظيم فرجيل، يؤنسه ويهديه سواء السبيل. بيد ان اصطحابه لم يمنعه أن يشتد به تأثره، حين يرى الجثث تتطاير مع اللهب من اللهب وحين يستمع العصاة وهم يصطرخون فيها داعين بالويل والثبور الواحد، وبالويل والثبور الكثير.

ولقد أغمي عليه مرات عدة. ففقد وعيه حينما كان يطوف في الطبقة الثانية من جهنم، فرأى العاشقين باولو وفرنشيسكا وهما يتطايران متعانقين في لهب السعير. رأى دانتي تلك المخلوقة الضعيفة تلفح وجهها النيران فأغمي عليه. ولما أفاق قصت عليه قصصها. وأنها كانت هيفاء القوام، مشرقة الطلعة، خطبها (جانشوتو مالاتستا) القصير القامة الدميم الخلقة. فأطمع أهلها ثراؤه. فتغاضوا عن دمامته، وإبان الخطبة أروها أخاه (باولو) الوسيم القسيم، فأحبته وظلت ترقب ليلة الزفاف التي تجلت لها سوداء قاتمة حين رأت زوجا دميما خدعت فيه بأخيه الذي ظلت عرى المحبة بينها وبينه متواصلة. حتى أتاحت لهما الفرصة سفرا من زوجها قريبا فالتمساها وجلسا يقرآن معاقصة قبلة، بلغاها فقلداها فتوشجت بينهما أواصر المحبة، حتى تكشف أمرهما لأحد الخدم، فسعى بهما زوجها فحضر على حين غفلة فرآهما معا مختليين في منأى عن أعين الرقباء، فاستبقا الباب فاتبعهما بسيفه فقضى عليهما عقابا في الدنيا، يتلوه خلودهما في الجحيم.

ولقد كان دانتي يطوف في الطبقة الاولى من الجحيم. فزلزت الارض زلزالها، وانتشر في الجو نور أحمر تكاثف حتى ملأ للآفاق ففقد كل المشاعر والحواس. لولا رعد قاصف دوى في إذنيه فأفاقه وهكذا كان دانتي مضطرب القلب مروعا من رحلته، على حين ان ابن القارح كان طروبا كما حدثتك حتى في أشد المواقف إذابة للصخور الجلامد.

وذلك فرق ما بين الشاعرين: دانتي العابس، والمعري الباسم في رسالة الغفران لا في اللزوميات.

يتبع

محمود احمد النشوي

التصوير في الشعر العربي

للأستاذ فخري أبو السعود

الوصف من أهم أغراض الشعر وأخص فنونه. وكلما كثر في شعر لغة أو آثار شاعر،

دل على رقيهما الفني، إذ أن مناظر الطبيعة خاصة، وروائع المشاهدات عامة، من أشد العوامل تأثيراً في النفس الشاعرة وتحريكها لعاطفتها وبعثاً لها إلى القول. والوصف في الشعر العربي غزير يتناول شتى الموضوعات، ويبلغ في يد كبار شعراء العربية غاية الاجادة. فكثيراً ما تخلص شعراؤنا من قيود المدح والرثاء والنسيب الاستهلالي - مهما كان تقيدهم بهذه الاغلال الثقيلة التي كبلت الشعر العربي - وعرجوا على وصف أثر من آثار الطبيعة أو المدنية، فأبدعوا وأرضوا الفن، أضعاف ما أرضوه بمبالغات المدح والرثاء والنسيب المدعى.

ولكن الذي أريد الاشارة إليه في هذه الكلمة، ان اعتماد الوصف في الشعر العربي كان دائما على المعنى دون اللفظ، على التشبيه والاستعارة والمجاز دون جرس الألفاظ وتتابع التراكيب ووقع الاوزان والقوافي. بينما الشعر الوصفي الغربي اعتمد على هذه الأشياء الاخيرة اعتماداً كبيراً. فبلغ الغاية في المطابقة بين المعنى واللفظ مطابقة تملأ الوصف حياة وجلاء. وتوفر بعض الشعراء على هذا الضرب من التصوير، ومنهم ملتون وتنيسون، ولا سيما الثاني الذي بلغ في القدرة على تذليل اللفظ للمعنى واستخدامه في تصوير ما يشاء حداً منقطع النظير. وأضحت آثار أولئك الشعراء مهبط وحي لكبار المصورين يستلهمونها ما حوت من روائع الاوصاف ومحكمات الصور ويسجلون ذلك على لوحاتهم.

إذا كان في المنظر المراد تصويره حركة كجريان نهر أو عدو جواد استخدم الشاعر الغربي بحراً من بحور الشعر يلائم تلك الحركة ويحكيها. وإذا كان به صوت أو أصوات مختلفة كهدير أمواج البحر أو قصف المدفع في الحرب اختار من الألفاظ تلك التي تحتوي على حروف خشنة قوية، وإذا كان يصف منظراً ساكنا وادعاً لم يذكر ذلك في القصيدة ذكراً، وإنما استعمل الألفاظ ذات الحروف اللينة كالسين مثلا، وهناك عدا هذا وذاك ضروب شتى من الملاءمة بين الصيغة والمعنى يفتن فيها الشاعر الوصاف ما شاء له اقتداره: ككثرة العطف وتكرار الحروف والكلمات والتراكيب والابيات الكاملة.

ولقد وقع شئ من ذلك في بعض اشعار الوصف العربي، ولكنه كان الهاماً محضا أو اتفاقا عارضا ساقت الشاعر إليه المصادفة السعيدة أو السليقة المجيدة، دون ان يعتمده أو يتكلف في صوغه عناء، ويقرأ القارئ العربي فيستطيبه ويعزو موقعه من نفسه إلى مجرد جودة معاينة وحسن تشبيهاته. ويجمل ذكر شئ من هذا القبيل للتمثيل والبيان:

ففي معلقته يصف أمرؤ القيس الليل في بيته المشهور

فقلت له لما تمطى بصلبه ... واردف اعجازاً وناء بكلكل

وفضلا عن جودة المعنى وحسن التشبيه في هذا البيت يزيد الوزن والتركيب الوصف المراد ظهوراً: فالبحر الطويل ذو الحركة الوئيدة وتكرار العطف بالواو يمثلان بطء مسير الليل ولجاجه في الاقامة وتماديه في الطول خير تمثيل، وفي بيته الآخر حيث يصف جواده بقوله:

مكر مفر مقبل مدبر معا ... كجلمود صخر حطه السيل من عل

نرى تتابع الصفات بلا فاصل في الشطر الاول، واستعمال الألفاظ الضخمة الخشنة في الشطر الثاني يمثلان توثب الجواد وسرعة انطلاقه وارتداده ومفاجآت حركاته تمثيلا جيداً يصرف النظر عن تشبيه بانحطاط الصخر من شاهق. وفي قول المتنبي:

أتوك مجرون الحديد كأنما ... سروا بجياد مالهن قوائم

خميس بشرق الارض والغرب زحفه ... وفي إذن الجوزاء منه زمام

نرى وصفا رائعا لجيش كثيف وئيد الزحف لكثافته، وليس في البيتين معنى كبير، وليس فيهما سوى مبالغة غير معقولة ولكنه البحر الطويل يمثل هذه الحركة البطيئة أتم تمثيل، هذا فضلا عن فخامة الألفاظ التي تخيرها الشاعر؛ ونرى البحر الطويل يؤدي مثل هذا الغرض ويرسم صورة أخرى رائعة في قول جميل

ولما قضينا من منى كل حاجة ... ومسح بالاركان من هو ماسح

أخذنا بأطراف الاحاديث بيننا ... وسالت بأعناق المطى الأباطح

فهنا حركة الابل البطيئة واضحة ماثلة، وقد كان جميل ملهما حيث ذكر اسم كلمة

أعناق في البيت الثاني فانها وحدها ترسم الصورة التي اراد: فان ذكر الجزء الأهم من الصورة،

كثيراً ما يبعث إلى المخيلة باقي الاجزاء ويبرز الصورة جليلة كاملة، ويترك البحر الطويل مثل هذا الأثر أيضاً قول البارودي الذي اشار إليه الدكتور صبري في كتابه عن الشاعر:

- ونبهنا وقع الندى في خميلة -

فإذا قرئ هذا الشطر بتأن وجدنا الوزن يمثل تساقط قطرات الندى متتابعة، أما الحركة السريعة فيمثلها البحر الكامل، ومن ذلك قول المتنبي:

اقبلت تبسم والجياد عوابس ... يخببن بالحلق المضاعف والقنا

عقدت سنابكها عليها عثيراً ... لو تبتغي عنقا عليه لأمكنا

ففي البيت الثاني نرى مبالغة أخرى من مبالغات المتنبي، وهي لا تكاد تؤدي معنى، ولكن البحر الذي صيغت فيه القصيدة يؤدي خبب الجياد خير أداء، حتى ليكاد يريك توثب الفرسان فوق ظهورها، ولو حاول الشاعر وصف الخبب في البحر الطويل لما استقامت صورته.

ولتكرار الألفاظ أو التعبيرات أحيانا اثر بليغ في ابراز الصور وبعث الاخيلة. ففي قول ابن هانئ الاندلسي:

وفوارس لا الهضب يوم مغارها ... هضب ولا الوعر الحزون حزون

يوحى تكرار كلمتي هضب وحزون إلى المخيلة تتابع الهضاب والربى أثناء عدو الفرس، فكأنه يعرض أمام العين شريطا سينمائيا متحركا، أضف إلى ذلك صوغ البيت في البحر الكامل واختيار الكلمات الفخمة، وفي قول الأستاذ المازني:

لغط اليم إذا طما ... والتقت فيه هضاب بهضاب

ترى صورة رائعة لجيشان اليم، ولا يرجع هذا إلى معنى البيت وحده، ولكن إلى وزنه وألفاظه كذاك: فبحر الرمل يمثل الحركة المتضاربة أدق تمثيل. وتكرار كلمتي اليم وهضاب يوحي إلى المخيلة تتابع اللجج، وتكرار حرف الهاء ثلاث مرات في الشطر الثاني يزيد الركة تصويراً وبروزاً.

كان ذلك في الغالب كما ذكرت محض اتفاق أو الهام، ولم يقم في العربية فرد أو مدرسة تتوفر على هذا الضرب من النظم والتصوير وإنما حين اتجه نظر الشعراء إلى اللفظ صادف ذلك عصر انحلال الأدب فلم يسخروا اللفظ لابراز المعنى، بل صرفوا كل همهم

إلى اللفظ دون المعنى، وولعوا بالألاعيب اللفظية التي سموها محسنات، وأوغلوا هذه الغثاثات على اجل فنون الشعر خطرا كالرثاء والنسيب فأسفت وانعدم فيها الحس والشعور؛ فرأينا شاعرا ينسب فيقول

ناظراه فيما جنى ناظراه ... أو دعاني أمت بما أودعاني

وآخر يتوجع فيقول:

لي مهجة في النازعات وعبرة ... في المرسلات وفكرة في هل أتى

وثالثاً يمدح فيقول:

وان أقر على رق أنامله ... أقر بالرق كتاب الأنام له

وليس في كل هذا التعبير عن شعور أو أداء غرض، وما هو إلا عبث بالألفاظ واقتناص للجناس والطباق والسجع، والتورية، وإنما أكثرت من هذه الامثلة الغثة لأوضح كم كان الشعر العربي يربح لو أن المجهودات التي صرفت في مثل هذا التحايل العقيم وجهت إلى تسخير اللفظ للمعنى، والاستعانة بهما معا على ابراز الوصف المقصود كما يصنع شعراء الغرب.

وليس في طبيعة اللغة العربية قصور يحول بينها وبين مجاراة اللغات الأخرى في هذا الباب، بل لها من الميزات ما يقدمها على غيرها: فهي كثيرة البحور التي تؤدي كل منها غرضا مختلفا، غزيرة الألفاظ الوعرة الضخمة والرقيقة اللطيفة التي توحي بخشونتها أو رقتها مختلف الصفات، غنية بالحروف السلسة اللينة والحروف الخشنة الجافية التي تطاوع الناظم القدير. ليس يعوز العربية شئ من ذلك وإنما يعوزها الجرأة من الناظمين بها والعزم والجلد.

فخري أبو السعود

بديع الزمان الهمذاني - 5
للدكتور عبد الوهاب عزام
عقيدته
وكان سني الاعتقاد يكره المعتزلة ويلعنهم قال في ديوان متغزلا:
ذات جفون ضعفت ... كمذهب المعتزلة
وله قصيدة يرد فيها على الخوارزمي قوله في الصحابة. ومن هم اجل ذلك اتهم في نيسابور بميله عن العلويين، فبرأ نفسه وروى لهم من شعره في رثاء الحسين، فهو على حبه آل البيت لا يذهب مذهب الشيعة في الخلافة وما يتصل بها. يقول في الديوان:
يقولون لي لا تحب الوصي ... فقلت الثرى بفم الكاذب
أحب النبي وأهل النبي ... وأختص آل أبي طالب
وأعطي الصحابة حق الولاء ... وأجري على السنن الواجب
فأن كان نصبا ولاء الجميع ... فأني كما زعموا ناصبي
وان كان رفضا ولاء الوصي ... فلا يبرح الرفض من جانبي. الخ
في رسائله واحدة كتبها إلى بعض الوزراء يشكو من ظهور التشيع في هراة ويحذر ان يصيبها ما أصاب نيسابور وقم والكوفة: (ورجع صاحبي آنفا من هراة فذكر انه سمع في السوق صبيا ينشد ان محمداً وعلياً، لعنا تيماً وعدياً. فقلت ان العامة لو علمت معنى تيم وعدي، لكفتني شغل الشكاية، وولي النعمة شغل الكفاية، ويل أم هراة، أنصب الشيطان بها هذه الحبالة، وصرنا نشكو هذه الحالة. والله ما دخلت هذه الكلمة بلدة إلا صبت عليها الذلة، ونسخت عنها الملة، ولا رضي بها أهل بلدة إلا جعل الله الذل لباسهم، وألقى بينهم بأسهم. هذه نيسابور منذ فشت فيها هذه المقالة في خراب واضطراب الخ)
أدبه
قدمت في المقالات الماضية طرفا من سيرة الهمذاني وأخبار أسرته وأحوال عصره، وأبين الآن عن أدبه: نثره وشعره
كان أحمد بين الحسين الهمذاني أعجوبة في ذكائه وحفظه، فتيسر له علم واسع باللغة والأدب. وهو يقول في حديثه عما شجر بينه وبين أبي بكر الخوارزمي: (فقلت يا أبا بكر هذه اللغة التي هددتنا بها وحدثتنا عنها، وهذه كتبها وتلك مؤلفاتها، فخذ غريب المصنف ان شئت، واصلاح المنطق ان أردت، وألفاظ ابن السكيت ان نشطت، ومجمل اللغة ان اخترت، فهو الف ورقة، وأدب الكاتب ان اردت، واقترح على أي باب شئت من هذه الكتب حتى اجعله لك نقدا، واسرده عليك سردا، فقال اقرأ من غريب المصنف رجل ماس خفيف على مثال مال وما أمساه فاندفعت في الباب حتى قرأته فلم أتردد فيه، وأتيت على الباب الذي يليه، ثم قلت اقترح غيره، فقالوا كفى ذلك، فقلت له اقرأ الآن باب المصادر من أخبار فصيح الكلام ولا اطالبك بسواه، ولا اسألك عما عداه، فوقف حماره، وخمدت ناره، وقال الناس اللغة مسلمة لك أيضاً فهاتوا غيره، فقلت يا أبا بكر هات العروض، فهو أحد أبواب الأدب وسردت منه خمسة أبحر بألقابها وأبياتها، وعللها وزحافها، فقلت هات الآن فأسرد كما سردته. . .)
وقد أعجب الناس بذكائه وبديهيته، وتحدى هو الناس بهما فجاءه كثير من منشآته عفو البديهة، ولو روى فيه لجاء خيراً من ذلك.
قال الثعالبي في اليتيمة: (ولم ير ولم يرو أن أحداً بلغ مبلغه من لب الأدب وسره، وجاء بمثل إعجازه وسحره، فانه كان صاحب عجائب، وبدائع وغرائب، فمنها أنه كان شديد القصيدة التي لم يسمعها قط، وهي أكثر من خمسين بيتاً، فيحفظها كلها ويؤديها من أولها إلى آخرها، لا يخرم حرفا ولا يخل معنى، وينظر في الاربعة والخمسة أوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرة واحدة خفيفة ثم يهد بها من ظهر قلبه هداً، ويسردها سرداً. وهذه حاله في الكتب الواردة عليه وغيرها. وكان يقترح عليه عمل قصيدة أو انشاء رسالة في معنى بديع، وباب غريب، فيفرغ منها في الوقت والساعة والجواب عنها فيها. وكان ربما يكتب الكتاب المقترح عليه فيبتدئ بآخر سطر منه ثم هلم جرا إلى الاول، يخرجه كأحسن شئ وأملحه، ويوشح القصيدة الفريدة من قوله بالرسالة الشريفة من انشائه، فيقرأ من النظم والنثر، ويروي من النثر والنظم،

ويعطي القوافي الكثيرة فيصل بها الأبيات الرشيقة. ويقترح عليه كل عويص وعسير من النظم والنثر فيرتجله في أسرع من الطرف على ريق لا يبلعه، ونفس لا يقطعه، وكلامه كله عفو الساعة. . . وكان يترجم ما يقترح عليه من الأبيات الفارسية المشتملة على المعاني الغريبة بالأبيات العربية فيجمع فيها بين الابداع والاسراع، إلى عجائب لا تحصى، ولطائف تطول ان تستقصي).

لدينا من آثار الهمذاني ديوانه ورسائله ومقاماته. فأما الديوان فيتضمن زهاء ثلاثمائة والف بيت، منها ست وثلاثون قصيدة وقطعة من المدح مدح بها من الملوك والأمراء: شمس المعالي قابوس بن وشمكير، والسلطان محموداً الغزنوي، وبنى فريغون وخلف بن احمد، وبني ميكال. ومن الوزراء الصاحب بن عباد، وأبا نصر بن زيد - ومدح جماعة من رؤساء جرجان ونيسابور ونسا وهراة. وهو يجري في المدح على السنن المعروف، ولكنه لا يلتزم الغزل في أول المدائح، ولا يطيل في معظمها.

ومن جيد شعره في المدح القصيدة التي أولها:

على إلا أريح العيس والقتبا ... وألبس البيد والظلماء واليلبا الخ

وقوله في بني فريغون:

ألم تر أني في نهضتي ... لقيت الغنى والمنى والأميرا
ولما التقينا شممت التراب ... وكنت أمرأ لا اشم العبيرا
لقيت امرأ ملء عين الزما ... ن يعلو سجايا ويرسو ثبيرا
لآل فريغون في المكرمات ... يد أولا واعتذار أخيرا
إذا ما حللت بمغناهم ... رأيت نعيما وملكا كبيرا

وأما الغزل فيه غير ما في قصائد المدح ست قطع تحوي وأحداً وعشرين بيتاً. والبديع ليس غزلا، ولكنه حاكى الشعراء في ضرب ألفوه وافتنوا فيه وعدوه من فروض الشعر.

وله قطع في وصف الاسد، والليل، والمجمر. وقطعته في وصف الليل نموذج من شعره المرتجل. ارتجلها حين اقترح عليه الموضوع والقافية:

أنعت ليلا ذا سواد كالسبج ... مخدر الصبح خدارى الدعج
أدرج العالم فيه لا ندرج ... أو نسج الحرمان منه لا نتسج
ليلا حرون النجم قاري النهج ... العمر فيه نقطة لو انفرج
والدهر من اجزائه ولا حرج ... أيسر ما فيه الشهور والحجج الخ

ويجود شعر الهمذاني في الرثاء والمواعظ. وفي ديوانه ست مرات إحداها في واقعة كربلاء، وله اثنتان وعشرون قطعة صغيرة في المواعظ تنبئ بما في نفسه من الانقباض والحزن والتشاؤم كما قدمت في الكلام عن أخلاقه. ومن مرثية الحسين بن علي:

يالمة ضرب الزمان ... م على معرسها خيامه
لله درك من خزامي ... م روضة صارت ثغامه
فوربه قامت به ... للدين أشراط القيامة
لمضرج بدم النبوة ... م ضارب بيد الإمامة
متقسم يطأ السيوف ... م مجرعا منها حمامه
منع الورود وماؤه ... منه على طرف الثمامة. الخ

وقد قدمت آنفا مرثية الخوارزمي التي أولها:

حنانيك من نفس خافت ... ولبيك من كمد ثابت

ويقول في المواعظ، وهو في هذا يشبه أبا العتاهية:

يا حريصا على الغنى ... قاعدا بالمراصد
لست في سعيك الذي ... خضت فيه بقاصد
ان دنياك هذه ... لست فيها بخالد
بعض هذا فإنما ... انت ساع لقاعد

ويقول:

يا قلب ما أغفلك ... عن حركات الفلك
ويحك هذا الردى ... اليك يسعى ولك
انت على سفرة ... يشيب منها الحلك

من انتحى نهجه ... بغير زاد هلك
ويقول:
أجدك ما تنبه للمنايا ... كأنك واجد عنها ملاذا
لذاك على الغنى تزداد حرصا ... وفي حلبات سكرتها نفاذا
هب الدنيا تحقق ما ترجي ... من الآمال ويحك ثم ماذا؟
ونراه يتكلم بلسان الصوفية في القطعة التي أولها:
ان لله عبيدا ... في زوايا الارض غبرا الخ
ويقول في صديق له حبس:
مالي أرى الحر ذاهبا دمه ... ولا أرى النذل ذاهبا ذهابه
أفلح من لؤمه وسيلته ... وليس ينجو من جرمه حسبه
من شاء إلا يناله زمن ... فليكن العرض جل ما يهبه
أراحنا اله منك يا زمنا ... أرعن يصطاد صقره خربه
يا ساغبا جائع الجوارح لا ... يسكن إلا بفاضل سغبه
يا ضرماً في الانام متقدا ... والجود والمجد والندى حطبه
يا صائدا والعلى فريسته ... وناهبا والجمال منتهبه
يا سادتي لا تلن عظامكم ... لعضة الدهر ان يهج كلبه
بل هو حين يحض على التمتع بالدنيا، واهتبال فرص العيش ينم عن حزن وتشاؤم
يذكرنا بعمر الخيام فإنما يلهو لينسى تباريح الحياة
إنما الدهر الذي يص ... دقني حر المصاع
كالني مدا وأجزي ... هـ من الحلم بصاع
فاغنم الأيام ما أل ... فيتها خضر المراعي
إنما نحن من الده ... ر بواد ذي سباع
لا تدع من لذة العي ... ش عيانا لسماع
ويقول في قصيدة يمدح فيها أبا جعفر الميكالى:
نستبيح الدهر والأي ... ام منا تستبيح
ضاع ما نحميه من أن ... فسنا وهو يبيح
نحن لاهون وآجال ... المنى لا تستريح
يا غلام الكاس فالياً ... س من الناس مريح
أنا يا دهر بأبنا ... ئك شق وسطيح الخ.
وللهمذاني قطع كثيرة في الالغاز والمعميات، وكان الرجل نادرة في الذكاء والبديهة فكان يختبر الناس ويختبرونه بهذا الضرب. وفي الديوان منه اثنان وعشرون، ويكثر في شعره
الترجمة عن الفارسية. وفي الديوان ثلاث عشرة قطعة مترجمة عن هذه اللغة. وكانت الترجمة بين العربية والفارسية سنة شائعة بين متأدبي المسلمين في ايران وما يجاورها، وإذ كان الشعر الفارسي قد بلغ اشده، وكانت العربية لا تزال لغة العلم والأدب. وكثير من شعراء هذا العصر وما بعده نظم باللغتين، ولقب ذلك بذي اللسانين، وفي يتيمة الثعالبي أمثلة من هذا. وهذه الترجمة تهم دارس الأدبين العربي والفارسي. ولكن يقلل خطرها اننا نجد الترجمة ولا نجد أصلها، ولم اعرف من الشعر الفارسي الذي ترجمه البديع إلا قطعة أثبتها محمد عوفي في كتاب لباب الألباب في ترجمة المسطقي الشاعر الفارسي، ويقول عوفي ان الصاحب بن عباد أمر البديع بترجمتها، فقال على أية قافية؟ فقال الطاء. قال ومن أي بحر؟ قال أسرع يا بديع، في البحر السريع، فترجمها ارتجالا والأبيات:
بك بوي بد زويدم أزدوزلفت ... جون زلفت زري أي صنم بشانه
جونانش بسختي همي كشيدم ... جون موركه كندم كشدنجانه
باموي بخانه شدم يدركفت: ... منصور كدامست أزين دوكانه
والترجمة:
سرقت من طرته شعرة ... حين غدا يمشطها بالمشاط
ثم تدلحت بها مثقلا ... تدلح النمل بحب الحناط
قال أبي من ولدي منكما ... كلاكما يدخل سم الخياط

وير انه تصرف في ترجم البيت الثالث. وأصله: (ذهبت إلى الدار بالشعرة. فقال ابي: منصور أي الاثنين؟. وفي الديوان بيتان قبل هذه الثلاثة.
ومن الترجمة التي يتجلى فيها اسلوب الفارسية هذان البيتان
فؤادك أين؟ سباه بماذا ... بمقلته. من؟ غزال ربيب
سلابا. نعم. اين؟ وسط الطريق ... متى؟ اليوم. هذا سلاب غريب
وهي تذكر دارس الأدب الفارسي بمطلع قصيدة محتشم من شعراء الدولة الصفوية في رثاء آل البيت.
وفي الديوان قطعة فيها كلمات وشطرات فارسية، والشعر المنظوم بلغتين أو أكثر يسمى الملمع في عرف أدباء الفرس أو الترك وهو كثير عندهم.
ويكثر في شعره المجزوء، ولا سيما الهزج الكامل. وسأعود إلى هذا حين الكلام في سجعه.
واحسب بديع الزمان نظم معظم شعره في أوائل حياته. ففي الديوان أبيات نظمها وهو في الثانية عشرة، وهو يذكر سن العشرين في بعض شعره:
إني بعشرين تصاريف ما ... بعد الثمانين تعرفتها
ويذكر الخامسة والعشرين وهو يمدح خلف بن احمد:
ألم يك في خمس وعشرين حجة ... تسنمتها هاد لمثلى الطرائق
ثم هو يلعن لنظم في كلامه عن الخوارزمي في بعض رسائله وذلك دليل على انه مال عن الشعر: (هو خوارزمي، ولست من خوارزم، وهو شاعر ولعن الله النظم) واوضح من هذا قوله في رسالته إلى ابن ظهري رئيس بلخ
كنت نويت إلا أقول الشعر فأبت النملة إلا الدبيب. وأجدني قد اكتهلت والكهل قبيح به (الجهل).
يتبع
عبد الوهاب عزام
من طرائف الشعر
الى البحر
للشاعر الوجداني علي محمود طه
قِفْ من الليل مصغياً والعباب ... وتأملْ في المزبداتِ الغضاب
صاعدات تلوك في شِدقها الصخر ... وترمي به صدور الشعاب
هابطات تئنُ في قبضةالر ... يح وترغي على الصخور الصلاب
ذلك البحرُ: هل تشاهد فيه ... غيرَ ليلٍ من وحشة واكتئاب؟
ظلماتٌ من فوقها ظلماتٌ ... تترامى بالمائج الصخاب
لا ترى تحتهن غير وجود ... من عباب وعالم من ضباب
أيها البحر كيف تنجو من اللي ... ل؟ وأين المنجى بتلك الرحاب
هو بحرٌ أطمُّ لجّا وأطغى ... منك موجاً في جيئة وذهاب
اوما تبصرُ الكواكبَ غرقى ... في دياجية كاسفات خوابي؟
وترى الارض في نواحيه حيرى ... تسأل السحب عن وميض شهاب
ويك يا بحر ما أنينك في الي ... ل أنينَ المروع الهَّياب
امض حتى ترى المدائن غرقى ... وترى الكون زخرة من عباب
إمض عبر السماء مواطغ على الاف ... لاك واغمر في الجو مسرى العقاب
ذاك أويهتكَ الظلامُ دياجي ... هـ وينضو ذاك السواد الكابي
وترى الشمس في مياهك تلقى ... خالصَ التبر واللجين المذاب
أقبل الفجر في شفوف رقاقٍ ... يتهادى في منظرٍ خلابِ
حُللٌ من وشائع النور زهر ... يتماوجن في حواشي السحاب
وإذا الشاطئ الضحوك تغنى ... حوله الطير بالأغاني العذاب
ونسيمُ الصباح يعبث بالغا ... ب ويثني ذوائب الاعشاب
من الشمس جمرة في ثنايا ال ... موج يذكر ضرامها غير خابي
ومن البحر جانب مطمئن ... قزحيٌّ الأديم غضٌ الأهاب
نزلت فيه تستحمُّ عذارى ال ... ضوءِ من كل بضة وكعاب

عاريات يسبحن في اليمِّ لكنْ ... لفّها الرغو في رقيق الثِياب
فإذا البحر يرقص الموج فيه ... وإذا الطير صُدَّحُ في الروابي
راقصات الامواج علْمن قلبي ... راقصات المغرِّد المطراب
وأفيضى عليه من سلسل الوح ... ى نميراً كالجدول المنساب
واستثيري عواطفي ودعيني ... أسمعُ البحرَ أغنيات الشباب
لي وراء الامواج يا بحرُ قلبُ ... نازح الدار ماله من مآب
نزعته منّى الليالي فأمسى ... وهو ملقى في وحشة واغتراب
ذكرياتَ تدنى القصيَّ ولكن ... اين منى منازل الاحباب
أنا وحدي هيمان في لجك الطا ... مي غريقٌ في حيرتي وارتيابي
أرمق الشاطئَ البعيدَ بعين ... عكفت في الدجى على التسكابْ
فسواء في مسمعي من دَرَاهُ ... صدحةُ الطير أونعيق الغراب
وسواءٌ في العين شارقةُ الفج ... رِ أو الليل أسود الجلباب
بيد أني أحسُّ فيك شفاءً ... من سقامى ورحمة من عذاب
أنت مهد الميلاد والموت يابحر ... ومثوى الهموم والأوصاب
فأنا فيك أطرح الآن آلا ... مي وعبء الحياة والاحقاب
السائلة. . .
كاعبٌ زادها الشحوبُ جمالا ... وكساها اليتمُ الرهيبُ جلالا
أمُعَنَ الهمُ في مدامعها نَزُ ... حاً وفي قدِّها النضير هُزالا
لبست بالي الثيابِ وجَرت ... إثْرَها من جلالها أذيالا //
تُمعنُ الخَّلةُ والعزّ ... ة في قلبها الكليم نضالا
كم تمَّنتْ على الصَّبا نعمةَ المو ... ت إباء فما تطيقُ السؤالا
ولو ان الحمامَ طوع بنان الن ... اس، كان الإنسان أسعدَ حالا
حثها الجوعُ للسؤالِ كما تحْ ... ثَثُّ للموتِ مجرماً قتالا
فأتت سيداً وقد جَرَّرَ الأذ ... يالِ تيهاً على الورى واختيالا
سألته قِرشاً ومدَّت له الكف ... فَّ ترجّى من الكبير النوّالا
ناهدٌ، لو رَجَت نوالَ صخور ... لجرى الصخرُ بالدموع وسالا
ردها عنه صاخباً، بكلام ... كان في قلبها الكسير نبالا
فانثنت عنهُ والفؤادُ جريحٌ ... وانثنى دمعُها أسى هطّالا
ويلها شرعةً أعزَّتْ لئيما ... فتمادى على الكريم وصالا
بعض هزل الزمانِ أن يوسع الأح ... رار ظُلما ويكرمَ الأنذالا
زمنٌ يُنزلُ المراتعُ قطعا ... ن الخنازيرِ والصحارى التبالا
عجبى للغنىّ يغفو قريرَ ال ... عينِ في ليله وّينعْمُ بالا
بينما النسوة الضّوأمر يَبك ... ينَ ويُكثرنَ في الدُّجى إعوالا
من يَعولُ الفتاةَ أرمضها الجو ... عُ وآضت بها الهمومُ خيالا؟
لا أبُ يُمسكُ الانينَ إذا لجَّ ... ولا الدمعَ إن ألحَّ وسالا
أتُراها تقضي من الجوع بينا ... غيرُها يمرحُ السنيَّن الطِّوالا
عزَّتِ اللقمةُ الطَّهورُ عليها ... مثلما عزَّتِ السُّها أن تُنالا
فغداً تاخذُ الطريق إلى المن ... كر كرهاً وتخلعُ الأسمالا
وتجلىّ كالبدر في أفق الشر ... بهاء وروعةِ ودلالا
وترى سادة النضار عبيداً ... يَتَّمَّنون عطفها بُذالا
ويقول الإنسان تلك فتاة ... لؤَمت نفُسها وساءت فعالا . .
باعتِ العرض باللذائِذ طوعاً ... فستلقى من الالهِ نكالا
كذبوا! فالاله أعدلُ من أن ... يجزي الساغبَ البرئ وبالا
نخلق المجرمين نحن بأيدي ... نا ونسقيهم الرّدى أشكالا!
دمشق
أمجد الطرابلسي
أحيي الربيع
أتى من يبشرني بالربيع ... ويعجب لي كيف لا أفرحُ
وكيف تكون الربى في حبور ... وتزهو الحقول ولا أمرح

وكيف الطيور على غصنها ... بأشجى أناشيدها تصدحُ
وما للبنفسج من زرقة ... ومن عبق روحه تنفح
فقلتُ وقد ضفت باللوم ذرعاً ... وفي وجنتي عبرة تسبح
أحي الربيع وفي مهجتي ... شتاء من الغمّ لا يبرح
حسين شوقي
ليت قلبي . . .!
إيه يا دهر ما مخالبك العص ... ل بأقسى عليَّ من مقلتيَّا
نظراتي للناس تترك في القل ... ب ضرأما يكوى ضلوعي كيَّا
لا أرى في الحياة غير حزين ... يذوب الدمع بكرةً وعشيَّا //
وكئيب إذا تنفس خلت الن ... ار تذور لظى الجحيم عليّا
ليت قلبي من الحجارة صلد ... ليس يدري من الحقيقة شيئاً
أنا يا قوم شاعر ملأ الشع ... ر جناني وفاض من جانبيا
قلبي النظم لمعةً وضياء ... غير اني أرى الظلام قويَّا
من رملة فلسطين
عبد الرحمن رباح
القلب الطريد
إن بين الضلوع قلباً طريداً ... عاثر الجد لم يُقَل من عثارهِ
قام دهراً إلى اليسار ربيئاً ... مشرفا قابضاً على منظارهِ
آملا أن يلوح قَلب نقيّ=يبذل الود سإذج في نفارِه
يعرف الحب والحياة فيُلقى ... عن فؤاد المحب ثوب صغارِه
عالم بالجمال في كل لون=وخبير بخافيات مَثارِة
يستطير الذكاء منه شعاعا ... ساكباً ضوأه على اقطارِه
يشرق القول من سناه ويمشي ... شرطيّ العفاف في أنوارِه
ويفيض الحنان نهراً دفوقاً ... يجرف العازلين في تيارِه
آملاً أن يراه منه قريباً ... قبل موت الهوى وقبل اندثاره
إن شدا بالغرام هب مجيباً ... ذلك القلب شادياً بجوارِه
يرسل اللحن في الفضاء قويا ... ويسر الأنين في أوتارِه
جامد الطرف ذائبا من حنين ... مسنداً رأسه إلى قيثارِه
ويحه لم يجد مبادل حب ... أو صديقاً يصون من أسرارِه
هام شرقاً وهام غرباً كئيباً ... يستميح الحنان في أطمارِه
طارقاً للفؤاد من كل ظبي ... حُفّ أو لم يحف لى بمكارِه
ويوالي الهجوم حتى أراه ... مشرئباً يشب في أسوارِه
كلما دقّ باب قلب تراءى=فيه شخص يجيل في أنظاره
خافتٌ رده يقول تأخر ... ت كثيراً يا صاح عن ايجارِه
طال تسايره وآب ولم يح ... ظ بغير الكلال في تسيارِه
فأبى بعدها القلوب مقيلا ... واستعاض البيوت من اشعارِه
يشتكي دهره ويدلع فيها ... من سعير الغرام ألسن نارِه
كاحلا بالدماء من مهجة القل ... ب عيون القصيد في أشطارِه
هدنة ما أقمت شهرا عليها ... ثم عاد الفؤاد ماضي سُعاره
فهو يغلي به ويطغو عليه ... وجده المستثار من أغوارِه
هابطا بالهموم أو مستطارا ... داويا بالانين فوق مطارِه
زاخرا بالدماء فالحب فيه ... متعب يرتمي على احجارِه
قابضا كفه على ذكريات ... كن بالامس في رمال قرارِه
باسمات وهن حول غرامى ... مغضبات مضين في آثارِه
ذكريات اثارها من جديد ... ستثير الغرام من أوكاره
عابث بالنهى كثير التأبى ... حارس غصنه وطيب ثمارِه
باسم عندما يراني وحيدا ... وخجول إذا مررت بدارِه
سارح الطرف إن رآني وصحبي ... ذاهل كالغريق في افكارِه
اسجحى يا حبيبتي ففؤادي ... قلبٌ كالحياة في أطوارِه

زاخرا بالدماء فالحب فيه ... متعب يرتمي على احجارِه
قابضا كفه على ذكريات ... كن بالامس في رمال قرارِه
باسمات وهن حول غرامى ... مغضبات مضين في آثارِه
ذكريات اثارها من جديد ... ستثير الغرام من أوكارِه
عابث بالنهى كثير التأبى ... حارس غصنه وطيب ثمارِه
باسم عندما يراني وحيدا ... وخجول إذا مررت بدارِه
سارح الطرف إن رآني وصحبي ... ذاهل كالغريق في افكارِه
اسجحى يا حبيبتي ففؤادي ... قلبٌ كالحياة في أطوارِه
قد ملكت القياد منه وصارت ... بسمات من فيك إكليل غارِه
فاحذري أن يثور بعد سكون ... فيطير الغرام في إعصارِه

المنصور
نزيل القاهرة

في الأدب الفرنسي

الدوق دي لاروشفوكو

للدكتور حسن صادق

كتب اديب فاضل في عدد الرسالة الغراء رقم (40) يقول ان السبب الأول في سقوط روايات كورني الاخيرة يرجع إلى غلو هذا الشاعر (في مبدئه الذي يعنى بتصوير الاشخاص كما يجب أن يكونوا، فجاءت شخصيات قصصه الأخيرة خارجة عن حدود المعقول)، لا إلى اضمحلال قواه الذهنية من أثر الهرم كما ذكرت في مقالي عن هذا الشاعر العظيم. وأعتقد اني محق فيما ذهبت إليه لأن كورني قال عن نفسه بعد فشل قصصه الأخيرة (شعري ذهب مع اسناني)، ولأن شخصيات قصصه الأولى الخالدة كالسيد وهوارس وسنا تعلو على الضعف الإنساني وعلى الرغم من ذلك أبلغت الشاعر قمة المجد وأكسبته لقب: كورني العظيم.

ثم قال الأديب الفاضل ان كلمات فولتير: (الشرح الوحيد لكتب كورني يجب أن يكون بكتابة هذه الكلمات في أسفل كل صحيفة! جميل. جليل. إلاهي!)، على ما جاء في كتب الآداب الفرنسية، قيلت في راسين لا في كورني. وأصر على أن فولتير الذي عرف بالبخل الشديد دفعه اعجابه بكورني إلى أن يتبنى ابنة اخته ويزودها بمهرٍ ثم يزوجها. ولم يكفه هذا بل نشر كتبه وشرحها إمعانا في اظهار إعجابه بالشاعر الأكبر، وكتب في مقدمة شرحه تلك الكلمات. وأرجو من الأديب الفاضل ان يتفضل بإرشادي إلى كتب الأدب التي ذكرت أن فولتير قال تلك الكلمات في راسين لا في كورني وله مني وافر الشكر.

والآن نتحدث عن الدوق دي لاروشفوكو الذي شغل أذهانس الناس في عصره وأقلام الكتاب والنقاد في العصور العصور التالية. ولم يخرج هذا الرجل للناس من الآثار الأدبية غير مذكراته شأن أمثاله النبلاء الاغنياء، وكتاب صغير الحجم عنوانه: (مواعظ أو تأملات وأحكام أخلاقية) جمع فيه كل آرائه في العواطف الإنسانية، بعد أن خيبت الحياة أماله ودكت أحداث الزمن صروح أحلامه، وذهبت الحقيقة المريرة بأوهام طموحه، فجاءت هذه الآراء معتمة حزينة تلقى على عواطف الإنسان رداء من الشك الأليم وتظهرها في صورة بشعة مخوفة، وهي تتلخص في كلمتين:

فلسفة الاثرة، وهذه الفلسفة هي التي حركت الاقلام وأثارت المناقشة، وألقت باسم صاحبها إلى الاجيال في إطار الخلود.

ولا يستطيع الإنسان ان يفهم (مواعظ) هذا الكتاب إلا إذا درس حياته وعرف الحوادث التي اشترك فيها، وتركت في نفسه أثرا عميقا. وهذا السبب سيدعونا إلى الاطالة والتفصيل.

وسنقسم حياته إلى أدوار ثلاثة: دور الشاب الخيالي، ودور الرجل الطموح، ودور الشيخ الفيلسوف.

الشاب الخيالي

ولد فرانسوا السادس دوق دي لاروشفوكو بباريس (شارع بتي شان) في 15 سبتمبر عام 1613. وهو من أسرة عريقة لها تاريخ حربي مجيد، وتملك ثروة طائلة في (بواتو وانجوموا)، ومقام آل روشفوكو يلي مباشرة مقام أمراء البيت الملكي. وقد كتب في

عام 1648 إلى الوزير مازاران يقول: (أستطيع أن أقول وأثبت أن ملوك فرنسا منذ ثلاثمائة سنة يعاملوننا معاملة ذوي الرحم، لا يجدون في ذلك عيبا ولا بأسا) وهذا يدل على مبلغ اعتزازه بأسرته واعتداده بأرومته.

ولما حان وقت تعلمه، أخذ منه في الريف قسطا ضئيلا، إذا اتجهت عناية أهله إلى التمرينات الجسدية ليجعلوه من حملة السيف شأن أبناء النبلاء في ذلك العصر. ثم زوجوه وهو في الخامسة عشر من فتاة ولدت في حجر صالح ونشأت في خير جزيل، هي (أندريه دي فيفون). وقد قال في كبره: (يوجد زواج طيب، ولكن لا يوجد زواج عذب شهي). وما لبث بعد زواجه أن اتبع هذا الرأي قبل أن يقوله، وبحث خارج بيته عن ضرورة اللذة التي لا تهيئها العيشة الزوجية. وتناهت أخباره إلى امرأته، ولكنها صانت عفتها، ولم يتألفها العبث من نفرتها. وأنجبت له أولادا ثمانية.

ثم خاض أول معركة حربية في إيطاليا وهو في السادسة عشرة من عمره. ولما عاد منها دخل البلاط الملكي. وكان الفن السائد فيه كما قال فولتير، هو تدبير الدسائس لقهر الوزير الكبير الكاردينال ريشليو. فاستدرج هذا الفن فرانسوا ودفعه إلى أحضان النبلاء الذين كانوا يئنون من سلطان الوزير ويأتمرون به في كل حين. ورأى بعينيه سطوة الوزير

وأنواع العذاب الذي ينزله بهؤلاء النبلاء ليخضعهم للقانون العام، ولكنه لم يجبن ولم يرجع عن سبيله.

وكان في ذلك الوقت كثير الكبرياء، طموحا بلا غرض معين، حي الذهن، دقيق الملاحظة، خجولا كلفا بالخيال، شديد الميل إلى مجالس النساء. وقد لازمه هذا الميل طيلة عمره. وعقب دخوله البلاط اتصل بأحب فتيات الملكة (آن دوتريش) إليها، وهي الآنسة دي هوتفور التي يحبها الملك لويس الثالث عشر حبا افلاطونيا. وهذه الصلة عبدت له الطريق إلى اكتساب ثقة الملكة البائسة المضطهدة من جراء الريبة في نيتها وأغراضها. وقد سببت له هذه الثقة ضررا كبيرا، كما ذكر في مذكراته: (أسباب أتفه من هذه كانت كافية لان تبهر نظر الرجل لم يسبر غور الحياة، وتدفعه في سبيل ضارة بمصلحته، وقد جلب على هذا السلوك غضب الملك والكاردينال ريشلييه، وسلسلة طويلة من المحن أدخلت الاضطراب على حياتي).

وفي عام 1633 سافر مختاراً مع شبان الطبقة العالية إلى محاربة الأسبان في الفلاندر، وأظهر ساحة القتال من ضروب البسالة والاقدام ما أثار الاعجاب. ولما عاد من الحرب، أمر بمغادرة باريس والاقامة في أملاك أبيه، لأنه اتهم ظلما بأنه أفشى جميع ما دار في الموقعة. ولكنه أدرك ان الملك أصدر هذا الأمر انتقاماً منه لصلته بالملكة والقهرمانة دى هوتفور.

حرم عليه دخول الحاضرة اربعة اعوام. وهيأت له المصادفة التعسة أثناء ذلك مقابلة الدوقة دي شفريز، شيطانة الدسيسة كما سماها سانت بيف، وعقد أواصر الصداقة معها. وقد وصفها الكادينال دي رتز بأنها (كانت تحوك الدسائس، لأنها جاءت في عصر الخداع والختل. ثم اتصلت بالدوق بوكنجهام والكونت دي هولاند فدفعاها في هذه السبيل، فاستفادت لأنها كانت تفعل كل ما يسر حبيبها. وكانت دائمة الوفاء للغرام، كثيرة التغيير للموضوعة. وإني لم أر إنسانا اقل اكتراثا للأخطار، ولا امرأة أكثر احتقارا للواجب منها. ما عرفت في حياتها غير واجب وأحد: هو أن تحصل على إعجاب صاحبها بها).

وكان ريشليو قد أبعدها إلى (دامبير) حتى يقطع الصلة التي بينها وبين الملكة، ولكنها كانت تأتي لزيارته خفية، وتمهد لها طريق الاجتماع بالدوق بوكنجهام الانجليزي في حديقة

اللوفر. وعرف ريشليو هذه الأخبار فأبعد الدوقة إلى التورين، وهناك قابلت لاروشفوكو، واستطاعت بدهائها أن تستخدمه رسولا بينها وبين الملكة. ولم تقف عند هذا الحد، بل نظمت مراسلة سرية خطرة بين ملكة فرنسا وملك أسبانيا. وعرف ذلك الوزير الساهر على مصلحة بلاده، فأوعز إلى الملك ان يطلق زوجه ويخرجها من الارض الفرنسية.

ولما شعرت الملكة بعزم الكاردينال، استدعت لاروشفوكو وتقدمت إليه ان يسهل لها طريق الهرب إلى بروكسل. وهو يقول في مذكراته عن هذه الحادثة: (لما وقعت في

هذا المأزق لم تجد وفيا لها غيري وقهرمانتها الآنسة دي هوتفور، فعرضت على أن أختطفهما وإذهب بهما إلى بروكسل. وقد بعثت أخطار هذا العمل والصعاب التي تقوم في وجه إنفاذه سرورا كبيرا في دخيلتي. كنت في سن تحبب إلى الإنسان أن يأتي أعمالا خارقة ذات دوي عظيم. ولم أجد عملا يرضي هذا السن أكثر من اختطاف ملكة من زوجها، وفتاة من ملك يهواها).

ولكن ريشليو أحبط هذه الخطة، وآلم الملكة جد الألم. وخافت الدوقة دي شفريز بطش الوزير فاعتزمت الهرب. وكانت تجيد ركوب الخيل، فغادرت مدينة (تور) في زي رجل، ومعها خادمان وكان ذلك في السادس من شهر سبتمبر عام 1637. ولما صارت على مسيرة فرسخ من (فرتي) التي التجأ إليها لاروشفوكو، أرسلت إليه تقول إنها رجل من النبلاء اضطر إلى الهرب عقب مبارزة، وتسأله أن يرسل إليها عربة مقفلة وبعض الخدم. وما أن ألقى على الرسالة نظرة حتى عرف خطها، ولكنه لم يستطع الذهاب إليها لأن ضيوفه أرادوا أن يصحبوه. وأرسل إليها في الحال ما طلبت، فسارت آمنة حتى بلغت حدود أسبانيا. ثم أرسلت إليه جميع حليها وقيمتها 200000 دينار راجية منه أن يقبلها منها هدية إذا قضت نحبها، أو يردها إليها في أحد الأيام إذا قدر لها ان تعود إلى بلادها.

وقد ذكر مسألة الحلي في مذكراته للدلالة على الثقة التي يلهمها وفاؤه، مع انه ينكر في كتاب (مواعظه) الثقة النقية الخالصة ويقول: (ليس لنا أن نفخر باكتساب ثقة هي دائما مشوبة بالغرض) وذكر أمامه أحد أصدقائه جاك اسبريه هذه الحادثة وقال يداعب صديقه في شيخوخته: (مما يثير العجب أن يفخر الإنسان بأن أميرة لجأت إليه ووضعت بين يديه حياتها وحريتها، مع أنها لم تفعل ذلك إلا خشية الوقوع في يد العدالة، وأن يفخر بأن هذه الأميرة ائتمنته على حليها الثمينة وهي خارجة من وطنها، مع انها لم تفعل ذلك إلا في سبيل مصلحتها الذاتية، أي حرصا على مالها وخوفا عليه من السرقة في الطريق!) وهذا رد ساخر على كتاب لاروشفوكو الذي يرجع كل العواطف الإنسانية إلى مصدر وأحد هو: المصلحة الذاتية أو الاثرة.

ثم عرف ريشليو أن لاروشفوكو ساعد الدوقة على الهرب فاستقدمه إليه وأنبه. ولما رأى منه غلظة في الاجابة على أسئلته، أرسله إلى سجن الباستيل، ولكنه أمر مدير السجن بأن يتلطف في معاملته ويسمح له بالاستراضة على الشرف كل يوم. وبعد مرور ثمانية أيام على سجنه، أطلق سراحه فحمد الله على خروجه بعد هذه المدة الوجيزة في عهد حرص الباستيل فيه على حرفائه، وأنساه شعوره برضى الملكة وقهرمانتها والدوقة عن عمله، مرارة السجن قسوته.

وعقب استرداد حريته أمر بمغادرة باريس والاقامة في (فرتي) وهناك جاءه رسول من الدوقة وتسلم منه حليها، وعاش في ذلك لريف عامين هادئاً مطمئنا، وأصبح بيته ملتقى النبلاء والعظماء. وقد ذكر هذا العهد في مذكراته فقال (كنت شابا في ذلك الوقت، وكان الملك ووزيره يدانون رويداً من القبر، فرجوت أن أحصل على خير كثير بعد موتهما وتغير الحال. وكنت سعيداً في أسرتي، أحظى بكل مسرات الريف وأجد حولي كثيراً من النبلاء الأغنياء المغضوب عليهم من الوزير، لهم مثل أماني وآمالي). وهنا يظهر الرجل الطموح في ثوب الشفيق على ملكة تعسة.

ولما دارت رحى الحرب في (البلاد الواطئة)، سمح له بالانضمام إلى الجيش بعد طول إلحاحه، وأبلى بلاء حسنا في موقعتي سان نيقولا وسان فينان. وعرض عليه ريشليو رتبة سامية مكافأة له على بسالته فرفض إذعانا لأمر الملكة، إذ كان في نيتها إن تجنبه قيد الوزير حتى يستطيع أن يسل سيفه في وجهه لما تمكنها الظروف من إشهار عداوتها له.

يتبع

حسن صادق

بين الموسيقى الشرقية والغربية - 2

بقلم مدحت عاصم

لانعام

يضم جميعا من الخلان حفل يستمعون فيه إلى مغني عذب أو موسيقى شجية، وقد

ملكت البابهم النغمة، واستأثرت بمشاعرهم المثاني والمثالث، ولا تتعدى معرفتهم باللحن أو المعزوفة عن أن اسمها كذا، وأن مؤلفها هو فلان، ولكن اخذهم قد يهتف في نشوة من الطرب، ما أحلى هذه الترجيعة (البياتي) أو ما أجمل تلك الحركة (السيكاه)!: فينظر الي رفقاؤه نظرة تقدير واعجاب، ويعتدل هو في جلسته مزهواً مستزيداً من اشارته، وايماءاته، كيف لا وقد وفق لسر من أسرار الانغام وسيرها، وأطلع رفاقه على قدر علمه ومعرفته! ولو عرف الرفاق أن القدرة على تعيين النغمة لمجرد سماعها، إن أعوزها شئ من الخبرة بالمران، فهي ليست من الخطر بالقدر الذي يتصورونه، لاقتصدوا في تقديرهم واعجابهم. أما أنا، فأذكر أني وفقت في صغري إلى جلسة ضمت جمعا من الوافدين من ليلة من ليالي رمضان المكرم، وقد اجتمعوا حول شيخ مقرئ يسمعهم طرفا من المولد، وقد استولى عليهم الطرب الممزوج بالخشوع، ولم يكد ينتهي حتى أسرعوا يكبرون ويمدحون الشيخ المقرئ وبراعته وصوته الحنون القوي. ثم تكلم أحدهم، وكانت له عند الشيخ مكانة وله عليه دالة، فطب قصيدة (يا نسيم الصبا)، وأردف طلبه قائلا (والله يا سيدنا، اني أحب نغمة الصبا هذه، ولا أكاد أحبس الدمع عند سماعها.) فهمهم الشيخ ودمدم وأراد أن يرد الحق إلى نصابه ويمنع الخطأ أن يروج فقال (يا بني هذه القصيدة من نغمة الحجاز). وكأنه شعر بقدر الخيبة التي لحقت الطالب فاسرع بانشادها تعويضا له، فكان هذا أول درس وعيته في علم النغم، وكنت بعدها كلما سمعت نغمة طبقتها على (يا نسيم الصبا)، فأن وافقتها فهي حجاز، وان خالفتها فعلمها عند الله والراسخين في العلم. ومن بعد (نسيم الصبا) عرفت أن مارش (عباس) من نغمة (النهاوند) وأن (يا طالع السعد) (رصد)، وهكذا أصبحت أقيس كل ما أسمعه على معرفته، وبذا أستطيع تعيين نوع النغمة.

غير أن علماء الانغام يرون أن ميزان الإذن قد لا يعدل، وأن هذه الطريقة الساذجة لا تصح أن تكون حجة علمية دقيقة يعتمدون عليها في قوانينهم وأبحاثهم، فهم لذلك يعمدون

إلى تحليل النغمات تحليلا صوتيا حسابيا، ويفرقون بين درجات السلم الموسيقي بنسب مضبوطة ثابتة لا يعتورها خلل، ولا تعرض للأحداث والغير.

وأرى هنا قبل ان أتحدث عن تقسيم النغم الشرقي والغربي أن أثبت التقاسيم العامة في السلمين ليظهر جليا تركيب التقسيم في السلم الشرقي وبساطته في السلم الغربي.

1 - السلم الغربي (من اليمين إلى اليسار تنازليا)

دو - سي - لادييز - لا - صول دييز - صول - فاد - فا - مي - ري د - ري - دود - دو

والمسافة بين كل هذه الاقسام متساوية في السلم المقرب وهو

المستعمل في العالم الغربي الآن وتساوي نصف مسافة كاملة

1516

2 - السلم الشرقي

8204859049 8

9218765536 9

- نوا - تيك حجاز - حجاز - نيم حجاز - جهار كاه - تيك

بوسلك - سيكاه - تيك - كردي - دوكاه - تيك - زنكلاه - نيم - رصد

2048 59049 8

218765536 9

- رصد - تيك - كوشت - عراق - تيك - عجم عشيران -

- حسيني عشيران - تيك - قباحصار - قباحصار - نيم قباحصار - يكاه

8204859049 8

9218765536 9

- نوا - تيك - حجاز حجاز - نيم - جهار كاه - تيك - بوسلك

- سيكاه - تيك - كردي - دوكاه - تيك - زنكلاه - نيم - رصد

- تيك - كوشت - عراق - تيك - عجم عشيران - حسيني عشيران - تيك

- قباحصار - قباحصار - نيم - قباحصار
2048 59049 8
218765536 9
ويراعى في تقسيم هذه المسافات، النسب التي ذكرناها تحت باب السلم الموسيقي الشرقي في عدد أسبق من الرسالة.
وقد رأى موسيقيو الغرب ان كل ما يستعملونه من الانغام ينحصر في نوعين رئيسيين، اطلقوا على أحدهما اسم النغمة الكبرى والثاني اسم النغمة الصغرى وجعلوا الدرجة الاساسية للسلم الكبير وهي دو وللسلم الصغير لا. وينسبون اسم النغمة الاساسية فيقال نغمة دو الكبيرة ونغمة لا الصغيرة ولا بأس من أن نوضح هنا نسب المسافات بين الدرجات في سلمي النغمتين.
النغمة الكبرى دو 1615 سي 98 لا 98 صول 98 فا 1615
مي 98 ري 98 دو
النغمة الصغرى لا 98 صول 98 فا 1615 مي 98 ري 98
دو 1615 سي 98 لا
وقد جعلوا شرطا في كل لحن ان ينتهي بالدرجة الاساسية في نغمة دو يجب ان تكون آخر درجة في ختام اللحن هي دو وكذلك في لا. كما انهم أباحوا للملحن أن يختار أي درجة من درجات السلم الموسيقي لتكون درجة اساسية للحن مع مراعاة النسب المفروضة للنغمة المستعملة سواء أكانت الكبرى أم الصغرى، وجوب انتهاء اللحن بالدرجة الاساسية.
وقد رؤى بعد ذلك أن هناك نوعين من النغمة الصغرى إحداهما تشابه النغمة وهبوطها، والأخرى يختلف السلم هبوطا عنه صعودا إذ يرسون موقع الدرجة السادسة نصف مسافة في الصعود، وعند الهبوط تكون النسب بين الدرجات هي نفس نسب النغمة الكبرى وسميت النغمة الاولى بالصغرى المطربة والثانية بالصغرى المتوافقة أو المتجانسة فرضوا أن من الشروط اللازمة في علم الانغام ان المسافة التي بين الدرجة السابعة والثامنة يجب ان يكون مقدارها نصف مسافة، كاملة وسميت الدرجة السابعة في السلم
بالدرجة الحساسة - وان كنت لا ادري مصدر هذه التسمية - واحسب ان علماء النغم انفسهم لا يستطيعون لذلك تفسيرا دقيقا.
هذا في الموسيقى الغربية، أما في الموسيقى الشرقية فشد الله ازر المشتغلين بالانغام فيها، ويسر لهم من أمرها ما عسر، فلا قاعدة عامة، ولا نغمات معدودة محصورة يسهل على الفكر ادراكها وتحديدها. وإنما هي نغمات تعد بالمئات، ولكل نغمة قاعدتها الخاصة أو قل قواعدها في ترتيب النسب لمسافاتها ودرجاتها. ولذا يستحيل علينا ان نجد عالما شرقيا، مهما بلغ به العلم، قد الم بكل هذه النغمات وأحاط بها. وليس هذا يعني ان كل النغمات في الموسيقى الشرقية عسيرة المطلب شاقة المنال، بل ان فيها من الانغام ما يستطيع الموسيقي العادي ان يلم بها بدون حاجة إلى جهد أو كبير عناء. بل إن من هذه النغمات ما يجعل الموسيقى الغربية في يأس قاتل لعدم بلوغها تلك المرتبة من دقة التقسيم وعذوبة التوقيع وحساسة الإذن.
وفي الموسيقى الشرقية اختلاف عن بساطة التسمية للنغمات الغربية فقد قلنا في النغمات ان النغمة الكبرى أو الصغرى يصح ان تنتقلا على كل درجات السلم محتفظين باسميهما مع نسبة اسم الدرجة التي تعتبر أساسية إلى النغمة. أما في الموسيقى الشرقية فلا يمكن حصر النغمات. ولنأخذ مثلا النغمات التي درجتها الاساسية الرصد، وأولها نغمة الرصد، ثم السوزناك والحجاز كار والنهاوند والنوا أثر والنكريز وطرزنوين والسازكار، وهكذا إلى حوالي الثلاثين نغمة. ولا يقتصر الأمر على هذا. وينهج النهج الغربي عند اعتبار درجة اساسية اخرى غير الرصد للنغمة بل يزداد التعقيد، فمثلا نغمة الحجاز كار ودرجتها الاساسية الرصد وسلمها الموسيقي كما يلي:
كردان 21872048 أوج حصار 21872048 نوا 98
جهاركاه 21872048 سيكاه 21872048 زيركوله
رصد 256243 98 21872048
فلو اتخذنا درجة الدوكاه أساساً لهذه النغمة فان اسمها يتغير ويصبح مشهناز، ولو

اتخذنا نفس هذه النسب أيضاً لدرجة اساسية هي الحسيني عشيران لتغير اسم النغمة وأصبح
سوزول وباتخإذ درجة اساسية هي العراق يصبح اسم النغمة اوج أرا، ويقول الراسخون في علم الانغام الشرقية - ولسنا نعرض لقولهم الآن - ان هذا التركيب والتعقيد في اختلاف اسماء الانغام وتنوعها مع تشابهها لهو عقدة فنية محبوكة، والفخر كل الفخر لمن استطاع ان يلم من هذه الانغام باكثرها تعقيدا واكثرها غرابة في الاسم والتصوير، ثم يعللون هذا أيضاً بأن تلك الانغام وان تشابهت حقا في ترتيب سلمها فان هناك اختلافا بسيطا في سير النغم عند الصعود أو الهبوط.
هذا ابسط مثل لنغمة واحدة في انتقالها على ثلاث درجات مختلفة، ولو اردنا ان نحصر عدد الانغام التي يمكن تكوينها على درجات السلم الشرقي وعددها اربع وعشرون - من النغمات التي درجتها الاساسية هي الرصد فقط لاحتجنا إلى خبير حسابي ليستعين بعمليات التباديل على اجابتنا إلى ما نرغب. ولما كان الغرض من هذا البحث هو التعرض بوجه عام إلى الفروق الظاهرة بين الموسيقى الشرقية والموسيقى الغربية، فانا نرجئ التكلم عن محاسن ومساوئ الموسيقى الشرقية إلى اجل قريب.
مدحت عاصم
العلوم
ويسألونك عن الأهلة
للدكتور احمد زكي
- 3 -
سطح القمر
إذا اعتمدنا في حكمنا على الأمم القديمة من مصرية وكلدانية وهندية وفارسية على المرقوم مما خلف التاريخ، واعتمدنا عليه وحده، خرجنا على أن هؤلاء القدماء وُفقوا إلى دراسة مدار القمر دراسة دقيقة كشفت عن أهم الصفات الخاصة بهذا المدار، أما رأيهم في القمر نفسه، ما جوهره وماذا عليه؟ فلم يصلنا مما قد كانوا علموه من ذلك شئ.
ومن أقدم ما نعرف في هذا الصدد ما أرتاه العالم الإغريقي طاليس (640 - 550 ق م) فقد ارتأى ان القمر ان كان أكثره من الشمس، فان بعضه يخرج بالاشعاع من القمر نفسه. ودلل على ذلك بأن الأجزاء المعتمة من الأقمار الجديدة والأهلة لا تعتم كل الاعتام، بل يبقى فيها برغم احتجابها عن الشمس بقية قليلة من ضياء تتبينها العين.
ومن القدماء الفلاسفة الفيثاغوريون علموا أن القمر كرة بلورية ملساء ينعكس منها الضياء كما ينعكس على المرايا، وتتراءى فيه صور الأشياء كما تتراءى في المرايا، فالمناطق التي تظهر على سطح القمر بيضاء ناصعة، أو سمراء داكنة، ليست إلا صورة الكرة الارضية انعكست فيه ببحرها وخلجانها، وجبالها ووديانها، وتابعهم في ذلك ارسطو، فأظهر جهلا كجهلهم تاماً بأبسط قواعد الضوء وانعكاساته، وبما لاشك كان معلوما في هذا العصر من الحال التي عليها دار القمر. فهذه القواعد الضوئية والمعلوم من المدارات القمرية لا يمكن ان يؤلف بينها العقل العادي - بله عقل أرسطو - وبين أن القمر يرينا دائما وجها وأحداً وصورة واحدة لا تتغير. فلو أنها كانت صورتنا تنعكس الينا لتغيرت حتما باختلاف أوضاعنا واوضاعه.
وسبق هذه الآراء وتخللها وتبعها آراء أخرى للأقدمين كثيرة، كان من الطبيعي أن تحظى من الخيالى بحظ أكبر من الحقيقة لعجز العين الإنسانية عن استيضاح ما هنالك.
ثم جاء جاليليو، وفي عام مايو عام 1606م وجّه إلى القمر أول منظار صنعه، فعلم من تلك النظرات الأولى أن لا ملاسة في سطح القمر، وأنه سطح خشن فيه خروج وفيه دخول، وفيه تكسر وفيه انحناء والتواء. ثم تهيأ له منظار الأكبر فحرره إليه، فرأى لأول مرة جبال القمر تمتد في سلاسل كسلاسل الأرض، تدور على الأغلب في حلق يضيق ويتسع. ورأى على حافة الأهلة الداخلة نقطا لامعة في بقع سوداء، عرف أنها قمم الجبال، نالتها وحدها الشمس فأضاءت، بينما الوديان المحدقة بها في ظلام بهيم، وتتبع ظلال تلك الجبال القمرية فوجدها تطول وتقصر، كما تطول وتقصر الجبال الارضية بشروق الشمس عليها وغروبها عنها. إنما الذي حيره أن جبال القمر ووديانه

كانت تنير بغتة، وتظلم بغتة، كانت تعرف البياض الخالص والسواد الخالص، وتجهل ما بين هذين الطرفين من درجات، بينما جبال الأرض لا تكاد تنالها الشمس حتى يصيب الوديان من نورها نصيب ولو ضئيلاً. حيرة إحتارها جاليليو من تلك الحيرات الغوالي التي كثيرا ما تنكشف عن حقيقة غالية، حيرة نعرف الآن انها كانت أول دليل على أن القمر لا جو له ولا هواء يلفه كهوائنا، فان هذا الجو الارضي، وهواء ديناما هذا الذي نعيش فيه، يكسر أشعة الشمس إذ تمر فيه فينشرها وينال بها فيما ينال مواقع تلك الظلال التي لولاه لكانت سوداء كالليل، وظلماء كالظلال على القمر.

واستخدم جاليليو أطول تلك الظلال في تقدير أطوال الجبال وخرج من ذلك على نتائج وارتأى أول من رأى فوهات القمر، وهي جبال كالبراكين الأرضية تتقور قممها كالجفان، شبهها كما تراءت له بالعيون على ذيل الطاووس.

ورسم جاليليو خريطة للقمر تحكم له بالحذق وتقضي له بالمقدرة، إذا ذكرنا ان منظاره لم يكبر أكثر من ثلاثين ضعفا، ولكن فاق خريطته في الاتقان وسبقها في التفصيل ما تلاها من خرائط الباحثين، فأصبحت هي ولا قيمة لها إلا المتعة بالقديم.

تبع جاليليو رجال نذكر منهم هيفيليوس وريكسيوني وكسيني وشروطر ولو هرمان وبير ومدلر ووب وشمت بحثوا القمر، فزادوا في قوة المنظار، وأكثروا من رؤية التفاصيل، ودونوها على الورق تارة وعلى المعدن تارة أخرى، وبذلوا في ذلك مجهودات كبيرة، وصبروا وصابروا على المشقات الكثيرة، لاسيما مشقة العين وجهد البصر وألم التحديق.

وانتصف القرن الثامن ففكر القوم في استخدام الفوتوغرافيا في تصوير الأقمار والنجوم فكانت فتحا جديداً.

يتبع

أحمد زكي

في البحوث الروحية - 6

للأستاذ عبد المغنى على حسين

ما هو النوم؟ ثقل يداعب الرأس، ثم تطبق الاجفان، وينعدم الحس، وتهدأ حركة القلب، ويبطئ التنفس ويكون عميقاً، وتهبط حرارة الجسم شيئا قليلا. أما المخ فيتوقف جزء منه عن العمل، فيغيب ما يسمى بالعقل الواعي، وينفرد بالأمر العقل الباطن. والاحلام أكثرها أحاسيس، تغزو الجسم النائم من خارجه، أو تتولد في داخله، فتبرق بها الاعصاب إلى العقل الباطن، فيقرؤها بلغة قصصية رمزية، ويأخذ من سالف الذكريات، وكامن المخاوف والرغبات، فيكمل الاقاصيص، يحوك اطرافها. في الاحلام شواذ، ولكن اكثرها من هذا النوع.

هذا النوم الطبيعي، هدنة يتخذها العقل الواعي. وهناك نوم اصطناعي، هو المعروف بالنوم المغنطيسي، ظاهرة اكتشفها في القرن الثامن عشر طبيب ألماني يسمى مزمر وبأكتشافها انفتحت للاحتيال سوق جديدة، اتاها الدجاجلة يهرعون، من كل موفور الذكاء، منقوص الخلق، فأساءوا إلى العلم، وفوتوا على الإنسانية النفع، وفجع الرجل في اكتشافه، وساءت سمعته، وقضى على اساليبه. ولكن لما كان الشىء الحقيقي لا ينعدم، عاد العلم في أواخر القرن التاسع عشر فتناول الظاهرة المزمرية بالدرس الجديد.

في النوم المغناطيسي لا يغيب العقل الوعي من تلقاء نفسه، بل بتأثير ضغط يقع عليه من عقل آخر. فإذا نظر المنوم في عيني القابل للنوم، أحس هذا بعد حين بثقل في الجفون، ثم يغمض، ويفقد الحس، وتسترخي عضلاته، ويقع في سبات يختلف عن النوم الطبيعي فيما يأتي: -

1 - لا يكون العقل الباطن حراً مستقبلا كما في النوم الطبيعي بل يكون عبداً طائعاً للشخص المؤثر، يأتمر بجميع اوامره، ويتلقى منه كل فكرة كلها تنزيل. ويمكن تشبيه الجسم في النوم الطبيعي بمملكة غاب مليكها باختياره، وترك آلة الحكومة تدير نفسها، على أن يعود إذا استدعت الحال، أما في النوم المزمري فقد قهر الملك، وكبل عنوة بالاصفاد، فطبيعي أن تقع حكومته لعبة في يد القاهر. هذا تشبيه فقط، والذي يحدث على أي حال هو أن المتأثر يصبح للمؤثر أطوع من بنانه.

2 - لا يستيقظ المتأثر من سباته إلا بأمر من المؤثر، ولا يستيقظ من تلقاء نفسه ولو قطع اربا.

كيف يحدث هذا التأثير المزمري؟ لا تعرف الآن علة حدوثه على التحقيق، وخير ما يقال في ذلك هو أن الفكرة القوية تثير أمواجا كهرطيسية حادة تنتقل في الأثير، وان المؤثر عندما يحدق في المتأثر يصليه من هذه الموجات شواظا ينصب على مراكز الوعي في مخه فتتخدر. وقد استجدت بحوث تجريبية تشهد لهذا الفرض إلى حد ما، من ذلك ما أذاعه منذ شهور البروفسور فرديناند كازيمالي أستاذ الأمراض العصبية بجامعة ميلانو، من أن موجا كهرطيسياً يتشعع من الجسم البشري عند اضطراب النفس، وانه استقبل هذا الموج بآلة سينمية، فوجده، مما يؤثر في الاشرطة الحساسة.

مهما تكن العلة فالنوم المغنطيسي حقيقة واقعة، وهو أداة خطرة إذا أريد منه الشر والعبث، كما أنه نافع في علاج العادات الذميمة، وشفاء أمراض عصبية ليس سببها تلفا ماديا في الاعصاب.

هذان ظرفان يغيب فيهما العقل الواعي - ظرف النوم الطبيعي، وظرف النوم المزمري - ونود ان نتحدث عن ظرف ثالث، من الناس من تطرأ عليه حالة عصبية، فتعتريه تشنجات، ثم يفقد الحس، ويبدو كنه عقليته تغيرت، فيأتي من الاقوال والافعال ما ليس من عاداته، كان يدلي برغبات لم يكن يبوح بها، أو يوجه عنيف الكلام إلى أهله ومن هم موضع احترامه، ويحتج على إهانات تافهة لحقته ولا يكاد يذكرها أحد، ثم ينتفض فيعود إلى نفسه، ويدور بعينه فيما حوله ومن حوله، لا يدري ما حدث، ولا يذكر حرفا مما قيل.

تشاهد هذه الظاهرة، وتفسيرها سهل، لأن كل ما يلفظ المريض من قول لا يتعدى سابق اختباراته، والطبيعي من رغباته، فالمسألة إذن ثورة داخلية، يتغلب فيها العقل الباطن على العقل الواعي، ويحكم برهة حكم طيش واضطراب، ثم يهبط ثانية إلى مستقره، ويعود العقل الواعي من غيبته. هذه الظاهرة مرض عصبي، يضمه الطب إلى أنواع الهستيريا، وسببه رعب أصاب الشخص في طفولته أو نحو ذلك، فاختل التوازن بين قوى أعصابه، وغدا عقله الواعي مزعزع السلطان.

تلك حالات ثلاث يغيب فيها العقل الواعي. ولكن الحال الثالثة (الهستيريا) ليست من البساطة كما ذكرنا. فمن هذا النوع أمثلة نادرة وعجيبة. أمثلة لا تدخل في الحقيقة في اختصاص الطب، لأن صاحبها لا يشكو مرضا، تأتيه النوبات من غير ألم، ويتحدث اليك في ذهوله حديثا هادئا متزنا من غير انفعال، زاعما انه شخص آخر غير نفسه، قد يكون امرأة فتنتحل في ذهولها شخصية رجل، أو العكس، وقد يكون صغيرا فيحدثك حديث الكبير أو العكس، فإذا عاد إلى نفسه لم يتذكر شيئا مما كان، وإذا عاودته النوبة برزت شخصيته الثانية بذاكرتها الخاصة، وخبرتها الخاصة، وحكمها الخاص على الأمور، وأذواقها وميولها الخاصة، وتبدأ حديثها معك من حيث انتهيتما في المقابلة السابقة، وبالاختصار تشعر انك تعاشر شخصين مستقلين أحدهما أساسي والآخر يأتي في الفينة بعد الفينة.

هذه الحال يعرفها علماء النفس، ويسمونها الشخصية المزدوجة ويصح ان يتكلفها البعض لغاية في نفس ولا سيما إذا كان من ورائها كسب، ولكن إذا شوهدت في أسرة لا تتجربها، كما هو الحال اللادى كونان دويل أرملة سير آرثر كونان دويل المؤلف الانكليزي المعروف والباحث الروحي الكبير، فالدجل غالبا لا محل له، وقد خبرت هذه الحال في فتاة كانت في سن لا تعرف التكلف إلى هذا الحد، وما كان لها فيه مآرب. أما الشخص الذي يرزق هذه الخاصة فسوء الظن به واجب، وامتحان يتحتم. ومن وسائل امتحانه أن تأتيه من الخلف على حين غرة وتغرز في جسمه إبرة، فأن كان متكلفا فسيفزع من غير شك مهما كان جلدا. وقد وجد الباحثون أن من هؤلاء الناس من تضربه الإبرة من الخلف مفاجأة (بمعرفة طبيب) وهو ماض كأن شيئا لم يحدث، فهو في ذهول حقيقي. ولما كان جمهور الناس يعجز عن التفريق بين الحقيقة والدجل، فالارتزاق بهذه الخاصة ومثلها يؤدي إلى فوضى ومآس خلقية، وتحريمه واجب من غير شك.

ما تعليل هذه الظاهرة العجيبة، ظاهرة الشخصية المزدوجة؟ ليس لدى علماء النفس

تعليل لها، ومن يتصد لتعليلها منهم يستعر لها علة الهستيريا، ويعتبرها تبادلا للسلطة بين العقلين الواعي والباطن، ولكن في سلم وهدوء. أما اتزان الشخص في ذهوله، واكتمال شخصيته الثانية، وما قد تنم عنه أحيانا من سمو وسعة علم وتهذيب يفوق بكثير مستوى الشخص الاصلي، فيعزونه إلى أن العقل الباطن بحر لا يعرف بعد مداه، ولا ما قد يحوي من علم

وخلق كامنين، اتياه من طريق الوراثة، أو تجمعا فيه بطريق التلباثي ولكن عددا من الباحثين الذين انقطعوا لدراسة مثل هذه الظاهرة يذهبون إلى تفسير آخر، وهو أن الشخصية الثانية روح مستقلة عن الشخص الاصلي، تستطيع بكيفية تشبه التأثير المزمري أن تنميه، وتتسلط على عقله الباطن، فيكون أداة اتصال بينها وبيننا ويزعمون أنه بهذه الوسيلة يمكن وأمكن التخاطب مع أرواح الموتى. فما يسميه علماء النفس بالشخصية المزدوجة يعتبره هؤلاء الباحثون نوعا من الوساطة الروحية، ويسمونه وساطة الذهول

يتضح مما سبق أن الخلاف على تعليل هذه الظاهرة العجيبة كبير، وأن الباحثين حيالها شيع ثلاث.

فهناك المطمئنون إلى تركها شاغرة من غير تعليل، لفرط غموضها ولكن ليست هذه بالروح العلمية، إذ الواقع أن تعليلا خاطئا خير من لا تعليل، فهو يفتح باب البحث على الاقل، ويقود يوما ما إلى التعليل الصحيح.

وهناك الذين يعزونها إلى العقل الباطن، وهو رأي يستمد قوته من المحافظة على المذهب المادي، وتلافي كل افتراض روحي وفيما عدا ذلك لا يوجد ما يؤيده.

وهناك القائلون بالفرض الروحي، وهؤلاء يبنون أقوالهم على درس وتجريب طوال نصف قرن أو يزيد، وفيهم رجال يزنون القول ويقدرون المسئولية، مثل سر اليفر لدج، فنفى أقوالهم ليس باليسير، سيما إذا كان النفي من غير اختبار.

عبد المغنى على حسين

القصص

شهر بالغردفة - 6

تتمة

للأستاذ الدمرداش محمد

مدير ادارة السجلات والامتحانات بوزارة المعارف

عنب جيل الشيب

كان من عادتي أثناء الاقامة في الغردقة أن أقف ساعة في الصباح ومثلها في الاصيل أمام نافذة الاستراحة اشاهد منها جبل الشايب لأمتع النظر بجمال لا يراه عادة في جبال وادي النيل، وكان منظر القمة وهي جاثمة فوق هأمات الجبال في جلال وروعة ومن حولها قمم جبال أم عنبة، وعتلمى وكحيلة وغيرها، كأنها الصغار حول الأب الجبار يوحي إلى النفس بشعور الكبرياء والعظمة. وجبل الشايب لا يبعد عن محطة الاحياء المائية كثيراً، فالمسافة بينهما 45 كيلو متراً تقطعها السيارة في نحو الساعتين في طريق ممهدة، وقد ذهبنا إليه يوم الجمعة 21 يوليه في ثلاث سيارات تحمل إحداهما الخيام والزاد - كان اليوم راكد الهواء مساند جبل الشايب بالقرب من بئر أم دلفة، والبئر عبارة عن حوض في جدار الجبل تظلله الصخور، وينضح إليه الماء من شقوق وعيون في الصخر، فإذا فاض الحوض تدفق ماؤه إلى فجوة أسفله، ومن الحوض يستقي الاعراب، ومن الفجوة تشرب الابل والمواشي. والوادي حول البئر كثير العشب وافر الكلأ، تظلله الاشجار وتسبح في جوه الطيور والعصافير.

وبعد راحة قصيرة حاولت وبعض الرفاق التسلق إلى قمة أم دلفة، ولكن الصعوبة المرتقى وحرارة الشمس جعلتا الصعود شاقا منهكا فاكتفينا بمرحلة متوسطة، وعدنا أدراجنا، وفي العودة التقيت عند البئر شباب من سكان المنطقة وهو من عرب معاذة، أسود البشرة ناحل الجسم، دقيق العظم، وكان معه جمل يحمله بقرب الماء: فقلت له يا أخا العرب: هل من وسيلة إلى قمة الشايب فقال: إن الطريق إليها طويلة شاقة، كثيرة الالتواء والعقبات لا يعرفها إلا نفر قليل منا فلا تطمع في الوصول إليها وحدك، ثم إن الصعود إليها يستغرق

يوما كاملا ومثله للنزول. فقلت كيف ذلك؟ فقال هكذا يقول من صعدوا إليها - ثم سألته عن حال البادية فأجاب، كرب وشدة، فانحباس المطر إحدى عشرة سنة متعاقبات أجدب الوديان حتى كادت تتعرى من الأخضر واليابس، وغاض ماء الآبار وجف كثير من العيون، وتفرقت البيوت فقوم منا لحقوا بوادي النيل، وآخرون أوغلوا صوب الشمال، وبقية بدا لها أن تتشبث بوطنها مثوى الآباء، والأجداد، برغم ما تعانيه من شظف العيش وما تلقاه من حرمان. يعملون هكذا فرارا من معرة الهجرة وهوان الارتحال. فقلت: وما بعد ذلك فقال، سنبقى هنا بالتوكيد حتى يقضي الله أمره فينا. ثم أطرق برأسه وهو يقول فرج الله لا بد قريب، فقلت صدقت يا أخي، اصبر فان الله لا ينسى عباده، فعلت وجهه ابتسامة اطمئنان ويقين. وبعد حديث طويل عن الجبال وأسمائها، ومسالكها والعيون وأماكنها سألته عن حيوانات المنطقة ونباتاتها فقال، يعيش هنا الغزال والتيتل والثعلب والارنب والخروف الوحشي، والأخير كان كثيرا، ولكنه رحل عنا منذ أجدبت الوديان. وعندنا من الطيور العصافير والغراب والصقر وغيرها، ومن الحشرات الثعابين والعقارب والزنابير والخنافس والذباب والنحل وغيرها، ومن النباتات الشيح والسيال (السنط) واللصف واليسر والفطنة (ذات رائحة شديدة كريهة) والحرجل (يستعمل دواء للمغص) والجتيات والمرغادة والأراك وغيرها. قلت وهل تستفيدون من هذه النباتات، فقال نعم؟ فلكل نبات فائدة نعرفها. ثم اننا نجمع الشيح ونبات المسواك وحب اليسر، ونبيعها في قنا، ومن خشب الطرفا، وهي شجرة الاثل نصنع الفحم وقد كانت له سوق رائجة، ولكن الطلب عليه الآن قليل. ثم قال اننا قوم ذوو همة نتاجر في الاغنام والابل، وننقل التجارة على الجمال من قنا إلى الغردقة، ونستخرج بعض المعادن من الجبال ونبيعها في السويس، وهكذا، فإذا كانت المراعي قد أجدبت فان نشاطنا لم يضعف وعزيمتنا لم تفتر.

وجبال الشايب وما حولها تبدو من الغردقة متلاصقة متجاورة إلا أنها في الحقيقة متباعدة تخترقها الوديان والسهول وتشقها مجاري السيول في كل صوب. وعند الأصيل انطلق الهواء واعتدل الجو فتفرقنا بين الجبال واخذ بعضنا يتبارى في الرماية بالبنادق وإصابة الهدف، وقبيل الغروب عدنا بسلام.

من الغردقة إلى قنا

قضينا الأسبوع الأخير من إقامتنا في الغردقة في إعداد الصناديق وحقائب السفر استعداداً للعودة. وكانت الأيام تمر سراعاً، ويوم الرحيل يدنو مسرعا، وقد أشفقت أن نعود من غير أن أتمكن من الذهاب إلى قنا عن طريق الجبل، ولكن تهيأت الفرصة قبل الرحيل بأيام قلائل فحمدت الله على توفيقه.

وطريق الجبل إلى قنا طويل شاق تقطعه السيارات عادة في ثلاث مراحل: الأولى من البحر إلى مدخل الجبال وطولها نحو 40 كيلو متراً، وهي عبارة عن ساحل كثير الحزون والتلال، والمرحلة الثانية منطقة الجبال نفسها وطولها 70 كيلو متراً. والمرحلة الثالثة من باب مخينق إلى قنا في وادي قنا العظيم وطولها مائة كيلو متر.

وتشتد الحرارة صيفاً في الطريق أثناء النهار لدرجة لا تطاق فكان لابد لنا من القيام من الغردقة ليلا: ففي الساعة الثالثة صباحا كانت تسير السيارات بنا نحو الجبال في طريق صاعدة كثيرة العقبات. وكان الظلام حالكا، والسكون رهيبا شاملا، وهواء الليل بارداً منعشاً ونحن جلوس في صمت عميق، شاخصة أبصارنا نحو مقدم السيارة تتابع ضوءها الكشاف وهو يجلو أمامها الطريق، والسيارة تجاهد مندفعة بسرعة أربعين، والسواق رزين قد استجمع كل حواسه في عينيه، وكل قوته في يديه وقدميه، يقودها باهتمام وحذر، يتلمس الطريق في جوف الليل بمهارة وحذق نادرين - مرت علينا هكذا ساعتان ثم لاحت تباشير الفجر وقد دخلنا منطقة السدود، فكان الطريق بينها خطراً يتلوى في ضيق وانفراج، ثم بزغت الشمس على القمم والروابي فكان منظراً بديعاً حقاً: فجبال شامخات قائمات في استقامة كالجدار، تعلوها كالسهام تناطح السحاب، وقد بدت أطرافها في بوادر الشفق حمراء قانية كأنها تتوقد في أتون من نار، والجبال من تحتها والثنايا والحنايا من حولها في لون ازرق داكن كأنها الدخان الكثيف - ثم علت الشمس. واصفرت الأشعة فبدت القمم كأنها أهرام من ذهب فوق قواعد من رصاص وأخيراً انقشع الظلام واشرق النور فتوارى جمال السحر ليتجلى جمال الطبيعة في حلة الصباح، فكان أشد فتنة وأبلغ أثراً - كنا حينئذ نسير في وادي (بلي) وعن يميننا جبل

الدخان (1800 متر) وعن يسارنا جبل القطار والوادي بينهما ضيق عميق يخترق الجبال من الشرق إلى الغرب، وهو كثير العشب والأشجار،
وقد أقام الرومان على مدخله من جهة البحر قلعة للحراسة، وهي الآن انقاض لم يبق من معالمها إلا الجدران - ويتفرع من وادي بلى عند وسطه وادي البديع، وهو يخترق جبل الدخان وينتهي عند بئر البديع حيث توجد مناجم الحجر السماق الامبراطوري، وهو حجر جرانتي دقيق الحبيبات لونه احمر قاتم قد صنعت منه طائفة كبيرة من أجمل التماثيل في العصر القديم، ولا يزال بوادي البدع آثار رومانية قديمة من مبان واستحكامات وطرق - ويتطرق وادي بلى إلى وادي القطار وهو كسابقه فيه العشب وفيه الشجر، وعند الكيلو متر 65 تقوم استراحة بوليس مصلحة الحدود على رابية بجانب الطريق، وبالقرب منها بئر الأمير فاروق وماؤها عذب غزير، ويخرج من وادي القطار عند الاستراحة طريق يؤدي إلى سطح جبل القطار حيث مناجم الموليدات.
وهي لشركة طليانية بقيت تستغلها سنوات طويلة، ولكنها منذ سنتين توقفت عن العمل وصرفت العمال، ولم يبق بمركزها سوى المهندس وهو شيخ طلياني طابت له الإقامة ففضل البقاء وحده وسط هذه الجبال - فتأمل - وبلى والقطار من أجمل الوديان والطريق فيهما مرسوم يحاذي الجبال في تعاريج كثيرة بين صعود وهبوط، والجبال هنا موحشة جداً تحمل في طياتها وعلى جدرانها طوابع العصور الطويلة التي تعاقبت، والكوارث التي نزلت من تفتت وتهشيم وتصدع وانكسار وانثناء وتعرية.
وصلنا ممر محينق قبيل الساعة السابعة، ثم انحدرنا منه إلى وادي قنا، وهنا تغيرت معالم الطريق وطبيعة الجبال، فاصبح الوادي أكثر اتساعا والجبال أقل ارتفاعا، واختفت الجبال القديمة وظهرت هضاب الحبال الكلسية التي تمتد إلى وادي النيل - وبعد أن مررنا بجبل (نجع الطير) ثم بجبل (ابي حد) وطابية الحيط، وصلنا بير (عراس) وهنا زاد الوادي انفراجا وانبساطا، وفي منتصف الساعة التاسعة وصلنا قنا ونزلنا ضيوفاً على نقطة بوليس مصلحة الحدود.
ولوادي قنا شهرة قديمة، فقد كان طريق المصريين والرومان والعرب إلى محاجر الجرانيت ومناجم المعادن وشواطئ البحر الاحمر، ولوقوعه في سفوح الجبال العالية فأنه يترع بالماء وقت الامطار الغزيرة، وتفيض منه سيول جارفة تصب في النيل عند قنا وتجلب معها كميات عظيمة من طمى ناعم يعرف (بالحيب) يصنع منه الفخار القناوي
المشهور - واختراق وادي قنا أمنية قديمة تعلقت بها منذ كنت ناظرا لمدرسة قنا في سنة 1923 وقد حاولت وقتها في مرة أن أمشي فيه يوما كاملا، ولكن ضللت الطريق السوي لتشابه المسالك وجهل الدليل، وبعد أن أقمنا بقنا ليلتين ويوما برحناها بعد نصف الليل بساعتين عائدين في نفس الطريق فوصلنا الغردقة بعد شروق الشمس بقليل. وبعد يومين ودعنا الغردقة ومن فيها وأبحرنا عائدين إلى السويس ثم إلى القاهرة.
وأختم هذه الرحلة بتقديم خالص الشكر لحضرات - الدكتور كرسلاند مدير المحطة، ومحمد بك حبيب مفتش منطقة البحر الاحمر، وسيد أفندي الحملاوي مساعده، والدكتور محمود أبو زيد مفتش المناجم، لما بذلوه عن طيبة خاطر من مجهود عظيم في سبيل راحتنا ومساعدتنا، ويلهج كذلك لساني، بالشكر الوافي لصديقي العالم الكبير الدكتور محمد عبد الخالق بك لما خصني به من جميل العناية والرعاية.
الدمرداش محمد
في الكتب
جولة في ربوع الشرق الادنى
إذا تمثلت الأستاذ ثابت، فلست أتمثل وأحداً من الرجال وكفى، وإنما أتخيل طريقة بأسرها من طرائق العيش، وأسلوبا شاملا في فلسفة الحياة، أخذ يتبلور ويتركز، حتى تجسد في أستاذنا ثابت، فمن الناس من يقضي حياته التي كتب له أن يحياها على ظهر الأرض، في بلد وأحد، بل في دار واحدة، بل في مكان بعينه من الدار. وأجرأ ما يطرأ على حياتهم الضئيلة الآسنة من ارتحال، انتقال من غرفة في الدار إلى غرفة أخرى كما يقول جولد سمث.
وهذا رحالتنا ثابت أراد ان يحيا! هو ذا قد وازن بين حركة الحياة وجمود الموت، وازن

بين الأيام تدور، وتدور حول صورة بعينها آسنة راكدة، وبينها تزخر بأسباب الحياة، فلم يتردد في الاختيار. . وأخذ يضرب في مناكب الأرض، يجوس أنحاء أوربا ويخرج للناس وصفا لجولته في ربوعها، ثم يجوس في أنحاء آسيا ويذيع في الناس وصفا لجولته في ربوعها، ثم يجوس في أنحاء أفريقيا وينشر بين الناس وصفا لجولته في ربوعها، وهاهو ذا في الصيف الماضي، قد جال في أرجاء الشرق الأدنى وأخرج للناس هذه الجولة الجديدة التي نحن بصددها.

وان كان القراء قد أمتعهم ما طالعوه من مشاهدات رحالتهم في أوربا وآسيا وأفريقيا، فكم تمتعهم قراءة هذه الرحلة الأخيرة التي لم تكن بين أقوام من غرب بعيد، تربطنا وإياهم صلات مهما تكن - فهي على شئ من الضعف والوهن، ولم تكن بين أقوام من شرق أقصى لا تكاد تصلنا بهم إلا روابط الإنسانية الواحدة والعصر الواحد، وإنما هي رحلة بين شعوب توشجت بيننا وبينها أواصر من الرحم والقربى هيهات أن تقوى على فصمها الأيام، وهي كما يقول الأستاذ المؤلف حقاً في المقدمة (أقطار تربطنا بها روابط وثقتها أواصر التاريخ والاجتماع والدين. وزادتها رسوخا صلة الرحم قديمة وإخلاص وعمق وعطف متبادل تذكى ناره رغبة مشتركة في النهوض، وطموح متأجج للخلاص بأوطان مهددة ظلت ولا تزال تئن تحت أخطاء أبنائها ونهم الطامعين فيها).

قرأت كتاب الأستاذ ثابت، فكنت أتابعه في رحلته بلدا بعد بلد، وقطر في أثر قطر، جبت معه - على حسابه - فلسطين وسوريا وتركيا والعراق وفارس وافغانستان؛ وكنت أقف معه هذه الوقفات التي تطول حينا وتقصر حيناً؛ أمام روائع الآثار القديمة المنتثرة هنا

وهناك في ربوع الشرق الأدنى، والتي تثير النفس شتى العواطف والذكر. في المسجد الاقصى، عند مبكى اليهود، في كنيسة القيامة؛ على جبل الزيتون، في إيوان كسرى، في الحدائق المعلقة، في ضريح الأمام الرضى، وغيرها. . . كما خالطت وإياه هذه الطوائف المختلفة، فعرفتها معرفة حية بعد أن كانت مجرد أسماء تتردد: السامريون، الدروز، الشيعة، الصابئة، اليزيديون عبدة الشيطان وغير هؤلاء.

وللأستاذ ثابت مقدرة ممتازة في الوصف الدقيق لما يشاهده باسلوب سلس فتشعر كأنما هو يتحدث اليك عن رحلته حديثاً حلواً شيقاً، بحيث يترك في ذهنك صورة قوية، كثيراً ما تميل بك إلى العقيدة بأنك قد رأيتها رأي العين، ولا تكاد تقتنع بأنها صورة قلمية فقط قرأتها عند الأستاذ ثابت!

كنت أشعر بحلاوة الحديث، واندفع مشوقا إلى القراءة متنقلا من بلد إلى بلد. . . . ولكن لم يستطرد معي هذا الشعور في كل انحاء الكتاب، فكأنما عز على الأستاذ ثابت أن يمتعنا متعة محضة خالصة، دون أن يصدمنا في الحين بعد الحين صدمة عنيفة، يضيق بها الصدر، يود عندها القارئ أن لم يكن ذلك الكلف على تلك الشمس المشرقة الضاحية! وإنما اعنى بتلك الصدمات، هذه الحقائق العلمية التي ركزها في صفحات قليلة، نثرها في أركان الكتاب كأنما يريد بها أن يبلو صبر القارئ على القراءة وجلده على احتمال العلم الصارم. وكم كنت احب - وليس الأستاذ ثابت بالطبع مكلفا بأداء ما أحب - أن يكون الكتاب كله من ذلك النوع الذي لا أستطيع أن أقرأه إلا في كتاب الرحالة الذي شاهد ورأى، وقد يكون من الأثرة أن اغتصب الحكم لنفسي دون القراء جميعا، فها هو الكتاب بين أيدي القراء فلا حاجة للاقتباس أو ايراد الشواهد.

ومع أن الأستاذ قد أخذ علينا طريق هذا الاعتراض انه إنما أراد بمزج هذه بتلك، أن يكون الكتاب أداة ثقافية بجانب اللذة والمتاع، فعلى هذا الاساس من وجهة النظر نوافقه في شئ من القلق وبعد، فقد اشترك الأستاذ الرحالة قراءة معه في حياته الزاخرة، وكان عليه وحده الغرم، غرم الارتحال وعناء التسطير ولقرائه الغنم، غنم الفائدة والمتاع السائغ.

زكي نجيب محمود

التربية بالقصص

لمطالعات المدرسة والمنزل

الطفل أب الرجل كما يقول الانجليز، وهو قول صحيح من كل الوجوه، لأن الرجولة مهما اختلف لونها، ليست إلا ثمرة لهذه البذور التي نبذرها في تربة الطفولة الغفل، إن خيرا فخير وان شرا فشر، وفي هذا قال الفيلسوف ليبنتز قوله المشهور: (سلمني

قياد التربية وأنا كفيل بتغيير وجه أوربا في قرن وأحد من الزمان) يريد بذلك انه يستطيع أن (يصنع) ما يشاء من الرجال ما دامت تربية الأطفال موكولا أمرها إليه يتوجه بها إلى حيث شاء.

فأن كان هذا حقا لا يحتمل الشك والجدل، فما أحوجنا إذن إلى وضع الخطط المحكمة - وتمهيد الطرق التي تؤدي بأطفالنا

وهم رجال الغد - إلى الرجولة قوية صلبة لا تميل ولا تلين.

وليس من الشك في أن امثل الطرق لتي تحقق لنا هذا الغرض المنشود، هي ما سارت مع طبيعة الطفل وغريزته، أعني يجب أن نقدم له من وسائل التربية ما يتفق مع غرائزه التي تختلف باختلاف السن حتى نفلح الحديد وهو ملتهب. ولما كان ابرز ما تتميز به طبيعة الطفل في سنيه الأولى هو الخيال القوى الشارد، وجب أن نعد له ما يلائمه من غذاء وهو القصة الخيالية، التي نحوكها بحيث نبث في ثناياها مثلا عليا في الأخلاق، بطريقة غير مباشرة. فينطبع الطفل بطابعها وهو لا يشعر.

وليست تقتصر القصة التي نقدمها للطفل على هذه الناحية التربوية، بل إن لها جانبا آخر لا يقل عن ذلك أهمية وخطراً، وهو أن يكون للطفل أدب خاص به، يجد فيه صورة نفسه، ويصادف عنده متعة تحبب إليه الحياة وتروضه على لذة الدرس والمطالعة، فيستمتع بها في أوقات فراغه طفلا وشابا ورجلا.

هذا النوع من القصص التي تهذب الطفل وتمده بما يحتاج إليه من أدب هو ما يقدمه الينا اليوم الأستاذ حامد القصبي في كتابيه (التربية بالقصص) اللذين أعدهما لمطالعات المدرسة والمنزل، فنجح نجاحا يهنأ عليه تهنئة خالصة صادقة، ولم يفته أن يكتبهما بالخط الكبير وان يزينهما بالصور التوضيحية التي تلائم مزاج الأطفال وتبعث إلى نفوسهم اللذة والسرور فجاء مثلا للتأليف الطريف الممتع.

ز. ن. م

العدد 45 - بتاريخ: 14 - 05 - 1934

قطع العقدة أسهل من حلها

كان الموروث غفر الله له مهلوس العصب، أرعن اليد، ألكن اللسان، أخرق السياسة، فابتلاه الله بالحرب حتى قَلَّ، وبالدَّين حتى ذلَّ، وبالرشوة حتى فشل. ثم عصفت به ريح المنون فحطمت جذعه وأذرت هشيمه، وتبدد في مهب العوادي تراثه المشتهى، واستقرت على أعناق أبنائه وأوليائه أثقاله وأغلاله وديونه.

فإما الترك الخلَّص البواسل فبتروا من خلفهم ذلك الذيل الطويل، ثم انطلقوا خفافا إلى المجد وراء كمال، وأما العرب الأقحاح الميامين فأقلوا من فوقهم ذلك الحمل الثقيل، ثم مضوا سراعاً إلى الملك وراء فيصل، وأما نحن - وقرابتنا إلى المرحوم وما ترك قرابة كلالة - فقد نالنا من عهوده الجزية، ومن قيوده الامتيازات، ورأينا في نصوص القوانين ما يثبت القلوب المنخوبة على الحق، وفي سوابق الدول ما يشجع النفوس الهيوبة على الاقدام، وفي سوانح الفرص ما يذكّر الرقاب المغلولة بالعتق، ولكن الشعب الذي قسا عليه القدر فمحا من ذهنه الفروق بيَن التواضع والضعة، وبين الوداعة والذل، وبين المجاملة والملق، وبين الكرامة والتساهل، وبين الضيافة والاحتلال، لا يستطيع أن يفهم من القانون إلانص الواجب، ولا من (السابقة) إلامعنى الجرأة، ولا من الفرصة إلاخلاف الحزم.

حررت الأمم رقاب العبيد، واحترام السادة إرادة الخدم، ومنحت الدول طعام الشعوب كرامة الوطن، وبرئ الأسود والأبيض من معرة التفريق ووصمة التميز، اللهم إلانحن في مصر، وإلا الزنوج في أمريكا!

وما الفرق بالله بين الزنجي والمصري إذا كان كلاهما قد حرم الأخاء في المجتمع، والمساواة في القانون، والحرية في الموطن؟ وهل الامتيازات إلاحكم قائم بانحطاطنا عن الأمم التي ميزناها في الجنسية والعقلية والمدنية والتربية؟ فالأوربي إذا اعتقد انك دونه في القدر والحق والخلق فتمرَّى عليك وانتفي منك، كان واضح العذر ما دمت تعترف بهذا النظام الذي يجعل قضاءه أعلى من قضائك، ولغته أفضل من لغتك، وشأنه ارفع من شأنك.

أنه يعرف أن لك على الأقل أن تلغي المحاكم المختلطة من ذات نفسك، فلا ترى بعدها من يظلم قضائك على منصة العدل، ويحتقر لغتك تحت راية الدولة، ويهين

رجالك في دست الحكومة، ولكنه يراك تهمل حقك حتى يموت، وتغفل واجبك حتى يفوت، وتنفق من كرامتك على المجاملة واللطف حتى تنفذ، فجعل نزولك عن مقامه تقليداً لا ينهض في
وجهه أدب، وعرفا لا يقوم بسبيله قانون.
إن الامتيازات الأجنبية شر ما مُنيت به هذه الأمة من علل الفساد وأسباب الوهن. فان وجودها يوهم الأوربي انه فاضل بالحق، ويشعر المصري انه مفضول بالطبيعة، فيمعن هذا في هضم نفسه وبذل مقادته، بمقدار ما يمعن ذلك في تصعير خده وتجاوز حده، ويجري الأمر بين الرجلين مجرى الطبع والعادة، فلا يندم الأول على إساءة، ولا يألم الثاني من غضاضة!
وما تجره على الأمة هذه الآفة من قتل الرجولة في النفوس، وكسر النخوة في الرءوس، لا يدفعه إلهاب العواطف بعظمة الآباء وحماسة الشعراء وطموح المدرسة، فما ظنك إذا خلا التاريخ من روح الوطنية، والشعر من أدب القومية، والمدرسة من رفع الخلق
أن اخبث الأدواء ما خامر الجسم فسلبه القدرة على الفكر فيه بَلْهَ الخلاص منه.
ولقد جنت الامتيازات على أخلاقنا جناية العبودية على أخلاق العبيد! فنحن نجبن أمام الإهانة، ونكذب أمام الخوف، ونخنع أمام القوة، ويقعد بنا اتهام الكفاية عن المنافسة، حتى خلت ميادين العمل للأجانب فتحكموا تحكم الأرباب، وتصرفوا تصرف السادة، وعاشوا بالشر على خير هذا البلد، وأنضجوا شِواءهم في حريق أهله!
كل أولئك ونحن نضرع للسفيه أن يحلم، وللخصم أن يحكم، وللقوي أن يستكين، ثم نحاول أن نتحاكم إلى المعاهدات، ونتفاهم بالمفاوضات، كأنما انقلبت حملة الغرب على الشرق دعوة إلى سبيل المدنية وتقدم الإنسانية على هَدْى السلام والعدل!
كلا يا سادة! إن علاج المسموم بالعزائم مزاج مع الداء لا تؤمن عاقبته، وان قتل الحية أهون من ترويضها، وان قطع العقدة أسهل من حلها، وان المتنبي ما كان يجهل الناس حين قال:
إنما أنفس الأنَيْس سباع ... يتفارسْنَ جهرة واغتيالا
من أطاق التماس شيء غلابا ... واقتسارا لم يلتمسه سؤالا
أحمد حسن الزيات
الخيال الطارق
للدكتور طه حسين
أقبل صاحبي وجه النهار مرتاعاً حائل اللون، شاحب الوجه، حائر الطرف، طائر اللب، كأنما ألم به طائف من الجن فروعه ترويعاً، وأخرجه عن ذلك الطور الهادئ الرزين الذي كنت اعرفه منه إذا لقيته فتحدثت إليه، واستمعت لأحاديثه المطمئنة العذبة الخصبة.
أقبل مرتاعاً لا يكاد يبين إذا تحدث أو هم بالحديث، بل لا يكاد يستقر في مجلس، بل لا يكاد يمسك جسمه من رعدة كانت تلم به من حين إلى حين فتهزه هزاً عنيفاً، وتذكر بقول ذلك الشاعر القديم
وإني لتعروني لذكراك هزة ... كما انتفض العصفور بلله القطر
وأشهد لقد أنفقت كثيراً من الجهد، واصطنعت فنوناً من الحيلة، لأرده إلى ما الفت فيه من دعة وأمن وهدوء، ولقد افتقدت في تلك الساعة بعض هؤلاء الشيوخ الذين يتلون العزائم والرقي، بعد أن أخفقت أو كدت اخفق فيما كنت أحاول من رده إلى الوقار والصواب. ولكن ظفرت آخر الأمر بما كنت أحاول، واستطعت أن أتحدث إلى صاحبي، وأن اسأله عن مصدر هذا الاضطراب العنيف الذي أصابه وما عرفته عرضة لاضطراب يصيب العقل أو يصيب الجسم. قال وهو ذاهل أو كالذاهل: إثم هذا على أبي العلاء أيها الصديق، فلولا إنني نظرت في كتاب من كتبه آخر الليل، لأذود به هذا الأرق الذي ألح عليَّ إلحاحاً لما أصابني ما ترى، بل لما أصابني ما لم تر من تلك الأهوال التي ألمت بي، واصطلحت عليَّ حتى نفرتني من داري وأزعجتني عن أهلي، ودفعتني إليك في هذه الساعة التي لم أتعود أن أسعى فيها إليك. وثق باني قد خرجت من داري معتزماً ألا أعود إليها، وقد أمرت أهلي أن يلتمسوا لنا داراً أخرى، وأزمعت الرحلة عن القاهرة أياماً، حتى إذا تم لهم ما أريد من التحول عن هذه الدار الموبوءة، عدت إليهم في دارنا

الجديدة، لعلي أن أجد فيها ما أنا في حاجة إليه من الدعة وراحة البال. قلت ما أراك إلامريضاً تحمل مرضك على أبي العلاء وتكلفه من ذلك ما لم يقترف، وتكلف أهلك من آثار هذا المرض شططا. ومع أني لم أعرف بعد هذه الأهوال التي ألمت بك فأزعجتك عن دارك ودفعتك إلى ما تحاول من فراق القاهرة. فلست أرى بأساً بهذا الرحيل فقد طال مقامك في مدينتنا، وقد احتملت من الجهد والعناء في عملك ما يضني الأصحاء والأقوياء، فكيف برجل عليل ضئيل مثلك، فارحل مصاحباً ولكن حدثني عما ألم بك من الهول؟ قال مصدره رسالة الغفران يا سيدي، فليت أبا العلاء لم يكتب رسالة الغفران، قلت لا تقل هذا ولا تكن أثراً، فان لغيرك في رسالة الغفران لذة ومتاعاً، وإذا كانت قد سلطت عليك الهول الذي لم أعرفه بعد، فإنها قد أتاحت لقوم آخرين في الشرق والغرب من الشهرة وبعد الصوت ما لم يسلط عليهم هولا من الأهوال، ولم يغربهم خطباً من الخطوب. ولكن هات حديثك. قال: ما أشك في أن أبا العلاء كان مجنوناً حين كتب هذه الرسالة. قلت رب جنون خير من العقل، ولكن هات حديثك. قال: أتذكر هذا السخف الذي أغرق فيه إغراقاً حين ذكر هذين البيتين القديمين من شعر النمر بن تولب:

ألم بصحبتي وهم هجوع ... خيال طارق من أم حصن

لها ما تشتهي عسلا مصفى ... إذا شاءت وحواري بسمن

قلت هذا من خير ما في الرسالة، وأي بأس عليه من أن يفترض أن الشاعر قد وضع مكان حصن في البيت الأول اسماً آخر كجزء أو حفص أو عمرو، ثم يلائم بين هذا الاسم وبين القافية في البيت الثاني، فهذا نوع من العبث المباح الذي لا يسوء أحداً، وهو مع ذلك يدرب الذاكرة ويظهر شيئاً من المقدرة اللغوية التي يحرص العلماء والأدباء على إظهارها. قال أنت الذي يزعم أن هذا العبث لا يسوء أحداً، وما رأيك في أنه قد ساءني وجشمني ما رأيت وما لم تر من الأهوال والخطوب. فقد أراد سوء الحظ أن أنظر في هذا الكتاب، وأن أقف عند هذا العبث، فأفكر في هذه الخيالات التي كانت تطرق المحبين والشعراء منهم بنوع خاص، والتي كانت إذا تطرق المحبين والشعراء منهم بنوع خاص، والتي كانت إذا طرقت هؤلاء الشعراء أنطقتهم بما تعرف وما لا تعرف من رائع الشعر وبارع الكلام. وأغرقت في هذا التفكير وجعلت استعين بالذاكرة على استحضار شيء من الشعر القديم الذي قاله الشعراء في الخيال الطارق والطيف الملم. ثم جعلت اسخر من أبي العلاء ومن جفاء طبعه وخشونة مزاجه، وجعلت ارثي لأم حصن هذه التي عبث الشاعر بها هذا العبث فلم يترك اسمها حيث وضعه النمر بن تولب، وإنما حذفه واخذ يضع مكانه أسماء أخرى بعدد حروف المعجم، ولو أنه كان رقيق القلب دقيق الحس ممتاز الشعور رفيقاً بالغانيات لما أزعج أم حصن عن مكانها، ولما أقلقها عن موضعها، ولكنه رجل غليظ لا علم له بالحب، ولا حظ له من الرقة، ولا معرفة له بحسن معاشرة النساء.

وإني لفي ذلك وإذا أنا أحس كأن الأرض تدور تحت قدمي، وكأن كل شيء يضطرب من حولي، ولا أكاد التفت إلى ذلك وأفكر فيه حتى يهدأ من حولي كل شيء، وإذا شخص جميل قد قام مني غير بعيد، وهو ينظر إليَّ نظرة عطف، وعلى وجهه غشاء من كآبة حلوة، وعلى ثغره ابتسامة كأنها ابتسامة الرضى، ولكني لا أعرف شيئاً أصدق منها تصويرا للحزن والأسى، وتمثيلا للوعة والحسرة، ولست أدري كيف لم يرعني مقام هذا الشخص الجميل، فلم أظهر فزعاً ولا اضطراباً، وإنما أنست إليه وحققت النظر فيه فتبينت فتاة غضة الشباب رائعة الجمال، لولا أن شبابها يوشك أن يكون وهماً، ولولا أن جمالها يوشك أن يكون خيالا، تبينت شخصاً حياً متحركاً نضيراً، ولكنه على ذلك لا يخلو من شيء يشبه الموت، ومن شيء يشبه السكون، ومن شيء يشبه الذبول. وهو على هذا كله يذكرني بشخص كنت آلفه ويألفني، وكنت أكبره ويكبرني، وقد فقدته منذ حين، فجزعت عليه جزعاً شديداً، وكثيراً ما سألت نفسي أتراها قد ذكرتني قبل أن تلج باب الموت.

وإني لأنظر إلى هذا الشخص الماثل، وان هذه الخواطر لتمر أمام نفسي وادعة كأنها السحاب الرقيق، وإذا أنا اسمع صوتاً رقيقاً خافتاً حلوا يسعى إليَّ سعياً خفياً من ناحية هذا الشخص الماثل غير بعيد. وإذا هذا الصوت يحمل إليَّ تحية عذبة هي التي كنت اسمعها من صديقتي حين كنت ألقاها وجه النهار، وما اكثر ما كنت ألقاها وجه النهار.

اصبح بخير يا سيدي. فأجيب اصبحي بخير يا سيدتي. انك تعرفني أو تكاد تعرفني، انك تذكرني وتسال نفسك الآن كما كنت تسألها من قبل، إذ ذكرتك حين فارقت الحياة وودعت الاحياء، نعم يا سيدي قد ذكرتك وألححت في ذكرك، وكلفت من يقرأ تحيتي عليك، ولولا الحياء لكلفت من يدعوك لزيارتي قبل أن أموت ولكن لم افعل، ولم يعرض علي ذلك أحد من الذين كانوا يحيطون بسرير الموت، على أني لست آسفة فأني لم اخسر شيئاً، لأني لم أفارق أحدا ممن كنت احب لقاءهم في تلك الحياة، إنما أنا أراهم وأسعى بينهم وأتحدث إلى نفوسهم وأسمع منها، وكل ما فقدته إنما هي هذه الأصوات التي كنت اسمعها، وهذه الأيدي التي كنت أصافحها. وثق بأنها لا تعدل شيئاً حين أقيسها إلى ما اسمع الآن من أحاديث

الضمائر ونجوى النفوس. وما كنت لأتراءى لك الآن لولا انك أغرقت في ذكر الخيال واستحضار الخيالات. ولست اخفي عليك أني كنت أريد حين تراءيت لك أن أداعبك بعض الشيء، فلا تظن أن الدعابة مقصورة على الاحياء، فقد يأخذ الموتى من الدعابة بنصيب أيضاً. كنت أريد أن أتراءى لك على أني أم حصن صاحبة النمر بن تولب، وان اشكر لك عطفك عليَّ ورفقك بي ولومك لأبي العلاء. ولكني لم استطع أن أخدعك لأني لم أتعود خداعك أثناء الحياة. ثم لأني إنما أقبلت إلى هذا المكان لألقى في روعك رسالة كنت أريد أن تبلغها عني، وكنت أريد أن القيها إليك كما تلقى الرسائل إلى الناس في الأحلام، ولكني رأيتك يقظان تنظر في هذا الكتاب فانتظرت لعل النوم أن يسعى اليك، ثم رأيتك تذكر الخيال وتستحضر الاطياف فتراءيت لك، وهل انا الأخيال أو طيف؟ لا تطل النظر إليَّ ولا تقل شيئاً فان نظر الاحياء يؤذيني، وان اصوات الاحياء تثقل عليَّ، ولكن اسمع مني ولتتحدث نفسك إليّ إذا لم يكن لك يد من حديث، واني لأعلم انك تريد أن تسألني كيف اتحدث اليك بصوت يشبه صوت الاحياء، واشفق مع ذلك من سماع صوتك فانا لا اتحدث اليك بصوت يستطيع غيرك أن يسمعه، إنما انت الذي يمنح هذا الصوت قوته وتشخصيه، ولو أن في هذه الغرفة قوماً غيرك لما رأوا من شخصي ما ترى، ولما سمعوا من صوتي ما تسمع، ولكن اصغ اليّ فاني أحس مقدم النهار، واني أكره هذا الضوء الذي يغمر الكون حين تشرق الشمس، والذي كنت أحبه أشد الحب اثناء الحياة، والذي لم احزن على شيء حزني على فراقه قبل أن أموت، والذي لم أتسل عن شيء كما تسليت عنه الآن.

أصغ إليّ فان أريد أن ألقي إليك رسالتي، وان أنصرف عنك قبل أن يهجم ضوء النهار فيبدد ظلمة الليل، وإني لحريصة على أن ألقاك، فان كان لقائي يرضيك الآن كما كان يرضيك من قبل، فأنتهز فرصة كهذه الفرصة، في ساعة كهذه الساعة، وانظر في هذا الكتاب وأطل التفكير فيه، فقد أستجيب لدعائك حينئذ. ثم سكت هذا الصوت قليلاً، وإنما قتلني معه الحب أيضاً، فقد تذكر أن زوجي فارقني قبل أن أموت بأشهر، لأن مرضي المتصل قد ثقل عليه، وقد تذكر اني كنت أظهر تجلداً وعزاء، وقد تعلم أني كنت اخفي في ذلك غير ما اضمر، وانك كنت تشفق علي مما كنت أخفيه. وكنت تود لو استطعت ان تسليني عن بعض ما اجد، فاعلم الآن اني حين ثقلت على العلة، وتورمت اطرافي، ورأى

الطبيب ان ينزع ذلك الخاتم الذي كان آخر ما بقي لي من زوجي، لم اشك في انه سينزع معه الحياة من هذا الجسم المريض، ولم اكره ذلك، وأي بأس من مفارقة العلة واليأس. فأبلغ زوجي إني فارقت الحياة وانا أحبه، وان مقامي في هذه الارض بعد الموت لن يطول، وأنه خليق ان يعلم اني أراه وارافقه، وأنه خليق أن يرعى ذلك وان يذكرني في شيء من الخير والرفق والوفاء، حتى إذا آن لهذا الخيال ان يصعد في طبقات الجو وان يمضي إلى ذلك العالم الذي تعيش فيه خيالات الموتى، وان تنقطع الصلة بينه وبيني من الاسباب. قالت ذلك ثم نظرت اليّ نظرة قوية حادة، لم استطع ان أثبت لها، وإنما أطرقت برأسي إلى الارض خائفاً وجلا. ثم رفعت رأسي بعد ذلك ونظرت فلم أر شيئاً، وتسمعت فلم ينتبه إلى صوت وانما هي رسالة الغفران مبسوطة أمامي أرى فيها عبث ابي العلاء حول شعر النمر بن تولب. هنالك أخذني هلع ما أعرف اين احسست مثله من قبل، وملكني روع كاد يدفعني إلى الصياح لولا بقية من عقل، وفضل من حياء، ففارقت غرفتي وهبطت إلى الحديقة أهيم فيها انتظر مطلع النهار، حتى إذا ارتفعت الشمس قيلاً أوصيت أهلي بما أوصيت واسرعت اليك. أترى بعد ذلك

ان سخف أبي العلاء لم يسؤ أحداً؟ قال ذلك ثم أخذته رعدة غريبة اشفقت أن ترده إلى مثل ما كان عليه من الوجل والاضطراب، فما زلت به حتى رددت إليه الامن والهدوء. وقلت مداعباً: ويحك! ألم تقرأ كتاب أناطول فرانس ذلك الذي سماه جريمة سلسفتر بونار؟ إن فيه قصة ان لم تكن تشبه قصتك هذهمن كل وجه، فانها قريبة منها إلى حد ما، وما أرى إلا انك قد ذكرت صاحبتك هذه في ضوء النهار أو في ظلمة الليل، حتى إذا أخذت تنظر في كتابك اخذك هذا النوم الخفيف الذي تتراءى فيه الأشباح والخيالات. قال مغضباً: اقسم لك ما كنت نائماً ولا قريباً من النائم، وإنما كنت يقظان أشد ما يكون الناس يقظة وانتباهاً، ولكن ما نفع الحديث معك في هذا وأنت لا تؤمن بعالم الخيال. قلت: فاني أشفق عليك من ايمانك هذا فقد تسطيع أن تتحول عن دارك، وان تفارق القاهرة، وأن تنزل من الارض أي منزل شئت، فسيتراءى لك هذا الخيال كلما خطر له أن يتحدث اليك، أو أن يحملك رسالة إلى الاحياء. وماذا تريد الآن أن تصنع برسالته هذه؟ أتحملها إلى من أنت مكلف أن تحملها إليه أم تكتمها؟ فان تكن الاولى فماذا تصنع إن لقيك باللوم لانك تعرض لما لا ينبغي لك أن تدخل فيه، وان تكن الثانية

فماذا تصنع إن ألم بك الخيال وسألك عن تبليغ الرسالة وتأدية الأمانة والوفاء بالعهد؟ هنالك نهض صاحبي مغاضباً وهو يقول: ما أشد بغضي للذين يمزحون في غير أوقات المزاح. ثم انصرف عني وانا شدي الاشفاق عليه وعلى كثير من امثاله الذين تطرقهم هذه الخيالات فتملأ قلوبعضهم أمناً ورضى، وتملأ قلوب بعضهم الآخر خوفاً وروعاً.

طه حسين

سبيل الخلاص من الامتيازات الأجنبية

للدكتور عبد الرزاق احمد السنهوري

الأستاذ بكلية الحقوق

- 1 -

قد لا يكون هذا الموضوع الذي أعالجه وثيق الاتصال بالموضوعات الأدبية والعلمية التي اعتاد كتاب الرسالة أن يطالعوا بها قراءها. ولكني مع ذلك لا أتردد في أن أرسل بمقالي هذا إلى الرسالة. فان مسألة الامتيازات الأجنبية أصبحت في هذه الأيام من أكبر المسائل خطراً وأشدها تعقداً. والرسالة تتسع جوانبها لكل مسالة تشغل الرأي العام.

وما بي أن أعالج الامتيازات الأجنبية من نواحيها المألوفة: الامتيازات جائرة، لا يتفق أصلها التاريخي مع حقيقتها الواقعة، لا يصح أن تستسيغها أمة لها حظ من الكرامة، لا يجوز التواني عن المطالبة بإلغائها، بل هي قد سقطت بتغير الظروف طبقاً لمبادئ القانون الدولي المعروفة. كل هذا أصبح معروفاً مستقراً في الأذهان. وإنما يعنيني أن أتلمس سبيلا عملياً إلى التخلص من هذه الامتيازات.

وإنه ليبدو لي ضرورياً أن تكون للحكومة المصرية خطة مرسومة للتخلص من الامتيازات الأجنبية. أما ترك الأمر للظروف فليس بمنتج شيئاً ولا يتفق مع ما لمسألة لا تقل في الأهمية عن مسألة الاحتلال الإنجليزي للبلاد. فالتخلص من الاحتلال مع بقاء الامتيازات لا يفيد كثيراً، إذ نبقى مقيدين في أهم مقدمات السيادة الداخلية للدولة: التشريع والقضاء والإدارة. فلا يصح إذن في مسألة لها هذه الأهمية أن نترك أنفسنا تسوقنا المصادفات وتسيطر علينا الحوادث. ولقد شاءت المصادفة أن يتنحى رئيس إحدى الدوائر في محكمة مصر المختلطة عن نظر أحد القضايا، فترتب على هذا التنحى هذه الأزمة الحالية التي لا نزال نخوض غمارها وإني لأخشى، ونحن نعتمد على المصادفات، أن ننصرف عن هذه المسألة الحيوية بمجرد انتهاء المناسبات التي دعت إلى الاشتغال بها. فكم سبق هذه الأزمة أزمات شغلت الرأي العام قليلاً أو كثيراً، ثم ما لبث أن انصرف عنها، ولم يعد يذكرها، حتى تقوده المصادفة المحضة للعودة إليها. ثم إني لأخشى أن تقتصر الحكومة المصرية في

معالجة هذه المسألة الخطيرة، على ناحية أو ناحيتين منها، مكتفية بما ساقته المصادفات أمامها من المشاكل، فتفاوض في رياسة الدوائر أو في مسألة اللغة العربية، أو في غير ذلك من المسائل التفصيليلة. وما هذه وغيرها ألا أعراض لمرض مستحكم، لا تجدي فيه معالجة الأعراض دون استئصال مواطن الداء. يجب أن يكون

للحكومة المصرية خطة شاملة عامة لمعالجة مسألة الامتيازات في مجموعها. وهذا ما جعلني أدلي برأي في هذا الموضوع الخطير، وادعوا رجال القانون إلاالإدلاء بآرائهم، حتى تتمحص الآراء، فترتسم أمامنا الخطة العملية لتخليص البلاد من هذه النكبة.

لا يجوز أن ننسى أن مسألة الامتيازات لها جانب سياسي غير جانبها القانوني. وقد يكون هذا الجانب السياسي هو أشد الجانبين استعصاء على الحل. وكل محاولة ترمي إلى إيجاد حل عادل للمسألة، ولا تبدأ بمعالجتها من جانبها السياسي، مقضي عليها بالفشل. إنجلترا تزَّعم لنفسها حق حماية المصالح الأجنبية في مصر. وقد تقدمت بهذه الدعوى في مشروع ملنر، وفي تصريح 28 فبراير، وفي مشروع كيرزون، وفي كل المشروعات التي تلته. وقد كانت تفرع على هذه الدعوى دعوى أخرى لا تقل عنها انتقاصاً لسيادة البلاد: كانت تطلب أن تأخذ من مصر تفويضاً تتولى بمقتضاه مفاوضة الدول ذوات الامتيازات. ثم نزلت عن هذه الدعوى منذ المفاوضات التي دارت مع المرحوم ثروت باشا. ويظهر أنها أخذت تفكر أخيراً في الرجوع ثانية إلى هذه الدعوى.

فهناك أمران يجب الاحتراز منهما في أية محاولة نقدم عليها لحل مشكلة الامتيازات: (أولاً) ألا نعطي لإنجلترا سبيلا لمفاوضة الدول ذوات الامتيازات. فان المعاهدات التي تقوم عليها الامتيازات الأجنبية قد ورثنا بعضها عن تركيا وعقدنا البعض الآخر مع الدول. فقيام إنجلترا بالمفاوضة ليس معناه إلا تسليما منا بدعواها حماية المصالح الأجنبية. وإلا فان الوضع الطبيعي للمسألة يقتضي إلا يكون تعديل هذه المعاهدات أو إلغاؤها إلابمعاهدات تكون مصر طرفاً فيها. ولا يمنع هذا من تلمس معونة إنجلترا ووساطتها الودية في المفاوضات التي تقوم بها الحكومة المصرية مع الدول، والفرق كبير بين ان تبذل إنجلترا وساطتها لتأييد جهودنا وبين ان تكون هي الطرف المفاوض. (ثانياً) أن تلقى بنا رغبتنا الملحة في التخلص من الامتيازات فيما هو أشد خطراً منها. فما دامت إنجلترا على دعواها

من حماية المصالح الأجنبية، فان أي حل توافق عليه يكون من شأنه تأييد هذه الدعوى وتدعيمها. فالواجب إذن أن ننظر في المسألة من أساسها، وأن نقدم معالجة دعوى إنجلترا في حماية المصالح الأجنبية على معالجة الامتيازات، ولا نحاول الثانية قبل أن ننتهي من الأولى. وإلا فان التسليم لإنجلترا بحماية الأجانب في مصر انتقاص خطير من سيادة البلاد، وفتح الباب لتدخل الإنجليز في شؤوننا الداخلية.

نرى مما تقدم أن المساعي التي تبذلها مصر في إلغاء الامتيازات الأجنبية يجب أن تكون مسبوقة بتفاهم تام مع إنجلترا، على أن تعديل هذه الامتيازات أو إلغاءها لا يكون إلا على أساس أن تسترد مصر حقوق سيادتها التي انتقصت منها هذه الامتيازات؛ لا أن تنتقل هذه الحقوق إلى إنجلترا. فإذا تم هذا التفاهم، سواء أكان ذلك في مفاوضات عامة شاملة لحل المسألة المصرية في مجموعها، أم في مفاوضات خاصة بهذه المسألة إذا لم يتهيأ السبيل لمفاوضات عامة. يمكن بعد ذلك تلمس السبيل العملي للوصول إلى إلغاء الامتيازات.

ونحن نقترح سبيلا عمليا يكون سيرنا فيه مقروناً بالحكمة، فلا نتخذ تدبيراً إلاإذا دعت إليه الضرورة. نحاول اولاً التفاهم مع الدول ذوات الامتيازات أنفسها على تعديل النظام الحالي للامتيازات، فقد أصبح هذا النظام يصطدم مع الكرامة والعدالة والمصلحة. فان لم تفلح عرضنا على إنجلترا أن تؤيدنا في إلغاء الامتيازات بإعلان يصدر من جانبنا، بشرط ألا تجعل من هذا التأييد وسيلة لتثبيت دعواها في حماية المصالح الأجنبية؛ فان لم نفلح أخذنا على أنفسنا مسئولية إلغاء المحاكم المختلطة وإلغاء الامتيازات معاً، أو الاقتصار على إلغاء النظام الأول دون الثاني. ونفترض في كل هذا أن الشعب المصري يؤيد الحكومة التي تتولى اتخاذ هذه التدابير، إذ لا يجوز لأية حكومة مصرية لا تحوز ثقة الشعب أن تقدم على إلغاء الامتيازات، فان الأقدام على هذا الأمر الخطير يقتضي أن يكون للحكومة سند من الشعب، والحكومة التي تفقد هذا السند ليس أمامها إلا أن ترتمي في أحضان إنجلترا، فتجر على البلاد نكبة أشد وبالا من نكبة الامتيازات.

وها نحن أولاء نفصل ما أجملناه، ونقسم السير في الطريق الذي نقترحه إلى خطوات:

الخطوة الأولى

تستصدر الحكومة المصرية مرسوماً بإلغاء المحاكم المختلطة طبقاً لقانون نمرة 28 سنة
1921، وتنشر هذا المرسوم في الجريدة الرسمية، حتى يكون الإلغاء نافذاً بعد سنة من نشره.

الخطوة الثانية

بعد نشر هذا المرسوم تدعو الحكومة المصرية الدول ذوات الامتيازات إلى الدخول معها في مفاوضات بشأن تنظيم الحالة التي ستجد عقب إلغاء المحاكم المختلطة ونحن نشدد في استصدار المرسوم بإلغاء المحاكم المختلطة ونشره قبل الدخول في مفاوضات مع الدول، لأن هذا هو السبيل لإقناع هذه الدول بأن الحكومة المصرية ومن ورائها الأمة تؤيدها، قد عقدت العزم على السير في طريقها، ولو لم تؤد المفاوضات إلى اتفاق، وان مصير المحاكم المختلطة قد أصبح محتوماً، فلا مناص من إلغاء هذه المحاكم مهما كانت نتيجة المفاوضة. وفي هذا معنى خطير لا يفوت الدول، ولا يمكن إلاأن يكون مؤثراً في سير المفاوضات.

وتكون الدعوة إلى المفاوضة مصحوبة بمذكرة تبين فيها الحكومة المصرية الأسس التي تقترحها لإقامة النظام الجديد الذي يعقب إلغاء المحاكم المختلطة.

وفي رأينا أن تكون هذه الأسس مبنية على دعائم ثلاث: (أولاً) إيجاد محاكم جديدة تحل محل المحاكم المختلطة، ولكنها تختلف عنها اختلافاً كبيراً من حيث تقوية العنصر المصري فيها، فهي ستكون محاكم مصرية قانوناً وعملاً، (ثانياً) استرداد ما فقدته الدولة المصرية من حقوقها التي لا تأباها عليها نفس الامتيازات حسب وضعها الأصلي، كحقها في سن تشريعات عقارية ولوائح بوليس تسري على الأجانب دون موافقة الدول. واسترداد الحقوق التي أنكرتها عليها المحاكم المختلطة الحالية من طريق التوسع في تفسير اختصاصها توسعاً لا يسيغه المنطق القانوني الصحيح. ثم استرداد الحقوق التي أنكرتها المحاكم المختلطة، لا من طريق التوسع في التفسير، بل من طريق خرق التقاليد القضائية أو النصوص القانونية الصريحة. فان المحاكم المختلطة، وهي معقل الامتيازات الأجنبية في مصر قد عملت على تقوية الامتيازات من هذه الطرق المختلفة. توسعت في تفسير النصوص فحملتها مالا تحتمله، كما فعلت في نظرية الصالح المختلط وفي تفسير معنى الأجنبي. ثم خرقت التقاليد القضائية بإنكارها على القاضي المصري أن يتولى رياسة دائرة
هو أقدم أعضائها، دون أن يكون هناك في القانون ما يمنعه من ذلك. ولجأت أخيراً إلى إنكار النصوص الصريحة، كما فعلت عندما أنكرت على اللغة العربية أن تكون لغة رسمية تنطق بها الأحكام ويجري بها التقاضي.

(ثالثاً) توقيت النظام الجديد الذي يحل محل النظام القديم، حتى يتهيأ لمصر في الوقت المناسب أن تتخلص من هذا النظام الجديد أيضاً كما تخلصت من النظام الذي سبقه، ولا يكون في البلاد إلانظام واحد في التشريع والقضاء يسري على جميع سكان مصر.

وتطبيقاً لذلك نرى أن تدعو الحكومة المصرية الدول لعقد معاهدة يكون من حق الحكومة المصرية إنهاؤها بإعلان يصدر من جانبها بعد سنة من تاريخ نشر هذا الإعلان. وفي حالة إنهاء المعاهدة لا يعود النظام الحالي للمحاكم المختلطة بل يعتبر هذا النظام قد ألغي بصفة نهائية. وتتناول المعاهدة جوانب ثلاثة: التشريع والقضاء والإدارة.

1 - التشريع

ينص في المعاهدة على أن التشريع المصري يكون نافذا على الاجانب، بما فيه التشريع المالي، إذا مضى ثلاثون يوماً من عرض هذا التشريع على الجمعية العمومية لمحكمة الاستئناف المختلطة الجديدة (وسنبين تشكيلها فيما بعد) دون أن تقدم هذه الجمعية اعتراضاً على التشريع المذكور. ولا يجوز الاعتراض على أي تشريع مصري إلاإذا كان هذا التشريع يتضمن مبادئ تتنافى مع المبادئ العامة التي يقرها العالم المتمدين في التشريع تنافياً يخل بالعدالة. وتبين الجمعية العمومية المسائل التي لاحظت فيها هذا التنافي. فإذا اقتنعت الحكومة المصرية بوجهة نظر الجمعية العمومية لا يكون التشريع نافذاً على الأجانب ذوي الامتياز، وإن لم تقتنع كان لها أن ترفع الأمر إلى محكمة لاهاي. أما فيما يتعلق بالتشريع المالي فلا يجوز للجمعية العمومية أن

تعترض على ضريبة تفرض إلاإذا أخلت بالمساواة فيما بين الأجانب، أو فيما بينهم وبين المصريين، عدا الضرائب الخاصة بالأجانب التي يكون لها نظير في البلاد المتمدينة. ولا يعتبر إخلالاً بالمساواة أن تفرض ضريبة على جميع السكان، حتى لو تبين أن عبء هذه الضريبة يقع على عاتق الأجانب أكثر مما يثقل كاهل المصريين، بسبب أنها تتناول أعمالا يغلب فيها العنصر الأجنبي كالشركات. وإذا اعترضت الجمعية العمومية على تشريع مالي لانه لا يحقق المساواة

المطلوبة، كان للحكومة المصرية أن ترفع الأمر إلى محكمة لاهاي. ويستثنى من الأحكام المتقدمة ما يأتي:

(1) أي تشريع يعدل أو يلغي حكماً من أحكام هذه المعاهدة، فهذا لا يكون نافذاً على الأجانب ذوي الامتياز إلا بعد الاتفاق مع دولهم على ذلك

(2) التشريع الخاص بعقار، بما فيه الضرائب العقارية، فهذا يكون نافذاً على الأجانب دون حاجة إلى عرضه على الجمعية العمومية لمحكمة الاستئناف المختلطة

(3) لوائح البوليس التي تفرض عقوبة لا تزيد عل عقوبة المخالفة، وهذه أيضاً تكون نافذة دون حاجة إلى عرضها على الجمعية العمومية. وغني عن البيان أن التشريعات التي تطبقها المحاكم المختلطة الحالية (كالتقنينات الستة المعروفة) تعتبر تشريعات نافذة دون حاجة إلى عرضها على الجمعية العمومية، إلاإذا رأت الحكومة المصرية تعديل هذه التشريعات (وستظهر ضرورة ذلك بنوع خاص في القانون الجنائي وقانون الإجراءات الجنائية وعند تنقيح القانون المدني)، ففي هذه الحالة تعرض التعديلات التي يراد إدخالها على الجمعية العمومية على النحو الذي بيناه فيما تقدم.

هذه هي المقترحات الخاصة بالتشريع، ونتولى الآن تبريرها. فهي قسمان: قسم أقرته إنجلترا في المقترحات التي عرضتها على مصر عند ما دارت المفاوضات المختلفة بين الدولتين. وقد ورد ذكر ذلك في المذكرة البريطانية المتعلقة بالامتيازات في المفاوضات التي دارت بين المستر هندرسون ومحمد محمود باشا إذ جاء فيها ما يأتي:

(وسأكون مستعداً للاتفاق على أن تقوم الجمعية العمومية للمحاكم المختلطة في المستقبل بإبداء كل موافقة لازمة لتطبيق التشريع المصري، ومن ضمنه التشريع المالي، على الأجانب، إلافي حالة التشريع الخاص بتشكيل المحاكم المختلطة وتديد اختصاصاتها، فانه لا ينفذ إلا بموافقة الدول عليه. ويكون على الجمعية العمومية للمحاكم المختلطة أن تتثبت من أن التشريع المشار إليه لا يناقض المبادئ التي يجري العمل بموجبها عادة في التشريع الحديث الذي يسري على الأجانب. وأنه فيما يتعلق بوجه خاص بأي تشريع ذي صفة مالية لا يوجد تمييز غير عادل ضد الأجانب بما فيهم الشركات الأجنبية. (انظر الكتاب الأخضر الخاص بهذه المفاوضات ص10). ومن هذا يتبين أننا لم نأت بجديد إلافي شيء واحد. فالمذكرة

البريطانية تشترط موافقة الجمعية العمومية على كل تشريع مصري يراد سريانه على الاجانب، أما نحن فنكتفي بعدم اعتراض هذه الجمعية على التشريع المقدم إليها. والفرق ما بين الأمرين ظاهر، ففي الحالة الأولى يجب أن تكون هناك أغلبية توافق على التشريع حتى يسري على الاجانب، أما في الحالة الثانية فيجب أن تكون هناك أغلبية تعترض على التشريع حتى لا يسري على الأجانب، فإذا انقسمت الجمعية في أمر تشريع إلى فريقين متساويين في العدد، لم يسر التشريع على الأجانب في الحالة الأولى وسرى في الحالة الثانية. ولا يخفي ما لهذا الأمر من الأهمية إذا لوحظ أن نصف أعضاء الجمعية العمومية يجب أن يكون من المصريين كما سنبين ذلك فيما يلي. أما فيما يتعلق برفع الأمر إلى محكمة لاهاي، فهذا هو المبدأ الذي تقرر في المفاوضات التي دارت بين إنجلترا ومصر.

والقسم الثاني من هذه المقترحات جديد، وهو خاص بالتشريع العقاري وبلوائح البوليس. هذه تشريعات نريد ان نسترد فيها حقوق مصر الضائعة. فان للمشرع المصري حتى بمقتضى الامتيازات الأجنبية، الحق في أن يسن قوانين تسري على الأجانب، دون حاجة لموافقة الدول أو لموافقة الجمعية العمومية لمحكمة الاستئناف المختلطة، إذا كانت هذه القوانين خاصة بالعقارات في مصر، سواء أكانت هذه القوانين مالية (أي تفرض ضريبة عقارية) أم غير مالية. وذلك أن الأجانب لم يسمح لهم قانوناً بتملك عقار في مصر إلاعلى أساس الفرمان العثماني الصادر في سنة

1867، وقد اشترط هذا الفرمان في تملك الأجنبي للعقار أن يخضع للقوانين واللوائح التي يخضع لها الرعايا العثمانيون، وأن يدفع جميع التكاليف والضرائب التي تجبى أو يمكن أن تجبى في المستقبل على العقارات في المدن أو في القرى، تحت أي شكل كانت، وبأي اسم سميت. فمن حق مصر أن تسترد هذا الحق الضائع، فإن اغتصابه منا خرق للامتيازات الأجنبية نفسها التي يحتج بها الأجانب علينا وكذلك الأمر في لوائح البوليس، فقد كان لمصر سن هذه اللوائح، وكانت تسري على الأجانب قبل وجود المحاكم المختلطة نفسها. وتأيد هذا الحق بنص المادة العاشرة من القانون المدني المختلط، وبنص المادتين 331 و 340 من القانون الجنائي المختلط

(تتمة البحث في العدد القادم)

عبد الرزاق السنهوري

مقياس الرقي

للأستاذ أحمد أمين

سألني أديب سوري، بمناسبة مقال كتبته عنوانه (المسلمون أمس واليوم) بم نعد أمة أرقى من أمة، وما العوامل التي نحسبها ونقيس بها الرقي؟ وفي الأمة الواحدة - إذا سئلنا أكانت بالأمس خيراً منها اليوم، أم هي اليوم خيرٌ منها أمس. فأي النواحي نرعاها عند النظر؟

والحق أنها أسئلة في منتهى الصعوبة، يحار المجيب عنها أي العوامل يحسب وأيها يترك، وأيها لها قيمة كبيرة الأثر وأيها ضعيف الأثر؟

قد يجيب مجيب إجابة سهلة من طرف اللسان فيقول (مقياس الرقى في الأمم الأخلاق) فأرقى الأمم أحسنها خلقاً ولكن هذه الإجابة لا تقنع، فالأخلاق متغيرة، وكل عصر له أخلاق يتطلبها وواجبات ينشدها، وما علينا الآن من واجبات أضعاف ما كان على أجدادنا منها، أصبح واجباً علينا أن نعلم أولادنا في المدارس، وما كان ذلك واجباً من قبل إنما كان تبرعاً من الأب، وأصبح واجباً علينا ترقية الوطن من جهات متعددة وما كان ذلك واجباً من قبل، وان كان واجباً فواجب غامض ليس محدود المعنى ولا معين الاتجاه، وكان آباؤنا يعدون من أرقى الأخلاق في الأمة حجاب نسائها وبناء سور متين بين الرجل والمرآة، فأصبحنا نرى الواجب أن تتعلم المرآة كما يتعلم الرجل، ومن حقها أن تسمع المحاضرات مع الرجل، وأن تتمتع بالحياة البريئة كما يتمتع الرجل، فإذا قلنا مقياس الرقي الأخلاق كانت كلمة عامة تدل على كل شيء ولا تدل على شيء.

وقوم يقيسون الرقي بالدين، وهي كذلك كلمة عامة يختلف مداولها باختلاف أنظار الناس فيضيق عند بعض الناس حتى لا يسع إلا الصلاة والصوم والزكاة والحج، ويتسع عند بعض الناس حتى يشمل كل شيء.

وفي الحق أن هناك مناحي للحياة مختلفة متعددة يجب أن ينظر إليها كلها لتقويم الرقي - ففي كل أمة مجموعة من المرافق، يعد كل مرفق منها كالخلية في الجسم الحي: من حكومة وتعليم ولغة ودين وأسرة ونظام اقتصادي ونحو ذلك، كلها تتغير وكلها ترقى أو تنحط، وكلها في حركة مستمرة دائماً إما إلى الإمام وإما إلى الخلف. وكلها تتفاعل تفاعلاً قوياً،

يؤثر قويها في ضعيفها، وضعيفها في قويها - وهذا التغير الدائم في كل هذه المرافق هو مقياس الرقي والانحطاط، فان كان تغيراً إلى سمو فرقي، وان كان تغيراً إلى تدهور فانحطاط

وحسبان هذا ليس بالأمر اليسير، فقد تتدهور بعض المرافق لأسباب خاصة، وتسمو بعض المرافق لأسباب كذلك، ثم تتفاعل عوامل الضعف والقوة فينشأ من ذلك عملية حسابية من أصعب المسائل حلا. والمثل الأعلى للأمة أن يكون كل مرفق من مرافقها الاجتماعية يؤدي عمله خير اداء، ويتنقل في سمو أبداً، وأن يكون سيره ورقيه في حالة ملائمة ومناسبة لسائر المرافق الاجتماعية، لا يطفر عنها ولا يقعد بها - فالأمة التي تختار أحسن النظم في التربية والتعليم ولا تساعدها اللغة على المصطلحات الحديثة لا ترقى في التربية والتعليم حتى تحل مشكلتها اللغوية، والأمة التي تختار أحسن النظريات الفقهية وخير النظم القضائية، ثم لا يعينها على ذلك حالة الأسر الأخلاقية وحالة المعاملات بين الأفراد لا يمكن على ذلك حالة الأسر الأخلاقية وحالة المعاملات بين الأفراد لا يمكن أن ترقى بنظرياتها الفقهية من الناحية القضائية، والأمة التي تسن

أرقى أنواع الإصلاحات الاجتماعية ثم لا تعينها الناحية الاقتصادية تصبح وإصلاحاتها تسر القارئ ولا تسر الناظر وهكذا.

وهناك دلائل قوية تدل الباحث على رقي الأمة وتدهورها وسيرها إلى الإمام أو إلى الخلف، إما بمقارنتها بغيرها من الأمم في نواحي معينة أو بمقارنتها بنفسها في عصرها الحاضر وعصرها السابق، والمقارنة الأولى تدلنا على الدرجة التي تقف عليها الأمة في سلم الرقي العام، والمقارنة الثانية تدلنا على اتجاه سيرها: إلى فوق أو إلى تحت

من أهم هذه الدلائل تعرّفُ موقف الامة ازاء ما يحيط بها من ظروف طبيعية واجتماعية: هل هذا الجيل أحسن استخداما لبيئته وما يحيط به؟ هل استطاع أسلافه؟ هل استخدم المنابع القديمة خيراً مما استخدمها آباؤه؟ هل كان في حله لما يعرف له من المشاكل الاجتماعية والطبيعية أكثر توفيقاً؟ لمّا عَرَضت هذه المصاعب أو أمثالها لنا ولآبائنا كيف حلوها وكيف حللناها، وما منهجهم في الحل وما منهجنا؟ ما مقدار تضامن الأفراد يومذاك في التغلب عليها، وما مقدار تضامننا اليوم؟ لكل أمة مقدار من الثروة. فهل زادت؟ وهل استطاعت اليوم أن تسعد بثروتها أكثر مما كانت تسعد بها من قبل؟ هل استخدمت العلم

أحسن مما أستخدمه آباؤها فقلت الوفيات وتحسنت صحتها، وجمل منظرها، ونظفت عيشتها، وأصبح نيل القوت أسهل وأيسر حتى تفرغ كثير من أبنائها وبناتها للعلم والفن والأدب؟ أظن إن هذه الأسئلة متى حددت بهذا الشكل لم تكن الإجابة عليها عسيرة، وبذلك نستعين على تعيين الاتجاه ومقدار الرقي إن كان.

ومن ناحية أخرى، ربما عد من أكبر دلائل الرقي في الأمة (تذليل العقبات أمام الكفايات) فخير الأمم من أفسحت السبيل أمام أفرادها ليرقوا كما يشاءون حسب استعدادهم وجدهم، في التعلم، في الوظائف، في النواحي السياسية والاجتماعية - وقد قطعت الأمم المتمدنة في ذلك خطوات واسعة، فأزالت احتكار الأرستقراطية للمناصب العليا، وسهلت وسائل التعلم لمن شاء، واعتمدت في تقدير الأشخاص على مزاياهم لا على بيتهم - إلى درجة كبيرة - وحاربت (المحسوبية) والنزعات الأرستقراطية، وقضت على النظام الإقطاعي الذي يميز بين الطبقات، ويضع حداً فاصلاً بينها لا يمكن كل فرد بذكائه ومواهبه أن يصل إلى ما يستطيع من رقي - وإن كانوا هم أنفسهم يصرحون بأنهم لم يبلغوا الغاية في ذلك، وأن أمامهم عقبات شاقة ومسافات طويلة يجب أن يقطعوها حتى يسهل على كل فرد تحقيق غايته وبلوغ شأوه

وربما كان كذلك من أهم دلائل الرقي النظر إلى ثروة الأمة ومقدار ما يصرف منها على (الصالح العام) من مدارس ومصانع ومساجد ومتنزهات وحدائق وماء وإنارة ونحو ذلك ولست أعني النظر إلى كمية ما يصرف فحسب، ولكن أعني أيضاً كيفية الصرف، وهل أنفق هذا القدر في أحسن السبل وهل هناك وجه آخر خير منه؟. كذلك لست أعني ما ينفق في ذلك من ميزانية الحكومة فقط، ولكن اعني أيضاً مقدار شعور الأفراد في هذا الباب ومقدار ما يتبرعون به من أموالهم لهذا الصالح العام، فليست ثروة الأمة مقصورة على ميزانية الحكومة ولكنها تشمل ثروة الأفراد (وفي أموالهم حق معلوم، للسائل والمحروم) فالأمة التي لا يشعر أغنياؤها بواجب في أموالهم لفقرائها، أو يشعرون شعوراً ضعيفاً لا يقوى على استخراج المال من جيوبهم، أمة منحطة إذا قيست بغيرها من الأمم التي كثرت فيها المدارس والأندية والمستشفيات والجمعيات الخيرية من مال أغنيائها

ومما يتصل بهذا الأمر، النظر في ميزانية الأُسَر في الأمة وكيف تنفق، فأمة خير من أمة

إذا عرفت أسرها كيف توازن بين دخلها وخرجها، وكيف تفرق بين الضروري والكمالي وما ليس بضروري ولا كمالي، ولم تسمح لنفسها أن تصرف في الكمالي حتى تستوفي الضروري، ولا في غير الضروري والكمالي - حتى تستوفي الكمالي، فذلك - من غير شك - يجعل الأسر أسعد حالاً، وأهدأ بالا، وأكثر استعداداً للرقي، وهل الأمة إلامجموعة من الأسر؟ وهل رقي الأمة إلاحاصل جمع رقي الاسر، وكما أن أسرة قد تكون أسعد من أسرة مع إن دخلها أقل وثروتها أضعف، ولكن عقلها أكبر، وتصريفها لمالها أدق، فكذلك الأمم ليس خيرها أغناها، ولكن خيرها من عرفت كيف تستخدم مالها وأحاطت

ما تملك بوسائل اجتماعية، وكمية كبيرة من الإصلاح تجعل مالها يتضاعف في القيمة وإن لم يتضاعف في العدد - فكم من الأمم لها ثروة كبيرة طبيعية ولكن لم تعرف كيف تستخدمها ولا جزءاً منها، ولو حلت محلها أمة أخرى لصيرت صحراءهابستاناً وجبالها جناناً، ولجعلت ترابها ذهباً وأرضها عجباً.

ومن أجل هذا لم يخطئ كثيراً من حصر مقياس رقي الأمة في مقدار تغلبها على طبيعة بلادها وتعديل نفسها حسب ما يحيط بها - لأنها لا تصل إلى ذلك إلا بمقدار كبير من العلوم الطبيعية يمكنها من الانتفاع بأرضها وجوها وبقدر وافر من العلوم الاقتصادية يبين لها كيف تستغل منابعها، وبقدر وافر من العلوم الاقتصادية يبين لها كيف تستغل منابعها، وبمقدار صالح من النظم السياسية والاجتماعية والأخلاقية يهيئ للأفراد سبل الانتفاع بما حولهم ويعدهم خيراً عداد للنظر في مصالحهم.

فليتساءل الشرقي في ضوء هذا: أين هو في نفسه، وأين هو في أمته، وأين أمته في العالم؟

أحمد أمين

الحرب في بلاد العرب

تطور الحوادث في الجزيرة وصداه في الأفق الدولي

للأستاذ محمد عبد الله عنان

أسفرت المعارك التي نشبت في الأسبوعين الأخيرين في هضاب عسير وتهامة بين القوات السعودية والقوات اليمانية عن نتائج خطيرة حاسمة فيما يظهر؛ فقد استطاعت القوات السعودية أن تتوغل في نجران وفي عسير بسرعة مدهشة، وأن تستولي على منطقة واسعة في شمال اليمن تشمل عسيراً ونجران وجميع الجهات والمواقع التي كانت موضع النزاع بين البلدين، وأن تتقدم بعد ذلك في أراضي اليمن ذاتها بحذاء البحر الأحمر حتى ثغر الحديدة، وهو أهم الثغور اليمانية، وأن تستولي عليه بعد أن فرت منه قوات الإمام التي كان يقودها ولده وولى عهده سيف الإسلام. وقد كنا نؤمل حين كتبنا مقالنا الأول عن هذه الحرب التي تضطرم بها الجزيرة العربية، أن يكون لصوت العالم العربي والإسلامي أثره في تدارك هذا الخلاف الخطر، وفي وقف المعارك قبل استفحالها. وقد رفع العالم الإسلامي صوته قوياً بمناشدة الزعيمين أن يتذرعا بالروية والحسنى في حسم النزاع القائم بينهما، وسافر إلى مكة وفد عربي إسلامي يمثل عدة من الأمم العربية لتحقيق هذا المسعى. ولكن الظاهر أن سير الحوادث لم يفسح مجالاً للتفاهم الحسن بين الملكين؛ وقد كان جلالة ابن السعود يشترط لوقف القتال شروطاً يراها لازمة لسلامة حدوده وسلام مملكته، وهي جلاء القوات اليمانية عن نجران ومواقعها الجبلية، وإطلاق الرهائن، وتسليم الأدارسة؛ ولكن سيادة الإمام يحيى لبث حيناً يتردد بين القبول والاعتراض؛ وحدث في تلك الفترة أيضاً أن تقدمت القوات اليمانية في نجران وعسير واحتلت مواقع جديدة؛ وأيقن ابنالسعود بعد طول المكاتبة والمفاوضة أن الإمام لا يريد اتفاقاً ولا يسلم بشيء من مطالبه.

ويبدو من مراجعة الكتاب الرسمي الأخضر الذي أذاعته الحكومة السعودية عن سير المفاوضات والمكاتبات بين الملكين أن ابن السعود تذرع بكثير من الروية والأناة في محاولة إقناع الإمام باحترام المعاهدات المعقودة والحالة الواقعة. وتدل وثائق الكتاب الأخضر أيضاً على أن عوامل التحريض كانت تعمل عملها في عسير ونجران لدفع قبائلهما إلى الثورة على عمال الحكومة السعودية وأصدقائها. إزاء هذه العوامل والظروف لم ير ابن السعود بداً من الالتجاء إلى القوة المادية؛ فزحفت القوات السعودية في نجران وتهامة صوب الجنوب، واستولت على جميع مواقعها وانتهت كما تقدم بالاستيلاء على ثغر الحديدة، وانهارت في الحال كل التدابير التي اتخذها الإمام للحرب والدفاع، وأضحت اليمن تحت رحمة القوات السعودية التي تطوقها من الشمال والغرب.

وتطور الحرب بين ابن السعود والإمام على هذا النحو يثير احتمالات ومسائل في منتهى الخطورة، وساء في داخل الجزيرة العربية أو خارجها، ولا سيما إذا استمرت القوات السعودية في زحفها على اليمن وانتهت بالاستيلاء عليها. ذلك أن ابن السعود الذي يسيطر على قلب الجزيرة العربية من الأحساء وعمان شرقاً إلى ساحل البحر الأحمر غرباً، ومن بادية العراق وشرق الأردن شمالاً حتى الربع الخالي جنوباً، يغدو

باستيلائه على اليمن سيد الجزيرة المطلق، والمسيطر على الساحل الشرقي للبحر الأحمر كله من العقبة حتى مضيق باب المندب. وقيام إمبراطورية عربية قوية على هذا النحو تشمل نجداً والحجاز واليمن مما يثير اهتمام السياسة البريطانية ومخاوفها. وقد كان تقدم المملكة السعودية في الأعوام الأخيرة موضع اهتمامها دائماً. ذلك أن المملكة السعودية تجاور مناطق النفوذ البريطاني والأملاك البريطانية في جميع أنحاء الجزيرة العربية؛ فهي تجاور عمان والكويت من الشرق، والعراق وفلسطين وشرق الأردن من الشمال، وإذا تم ضم اليمن إليها، فإنها تجاور عدن وحضرموت من الجنوب. وعلائق ابن السعود مع بريطانيا العظمى ودية حسنة. وقد نظمت منذ سنة 1922 بمعاهدة المحمرة ثم ببروتوكول العقير. بل إن علائق الصداقة بين ابن السعود وبريطانيا ترجع إلى ما قبل عشرين عاماً، أعني إلى ما قبيل الحرب الكبرى. وكان ابن السعود يومئذ اميراً محلياً، فرأى في اتصاله بالسياسة البريطانية وسيلة لتحقيق مشروعاته؛ وحالف بريطانيا العظمى على الترك، ولزم الحياد أثناء الحرب وفاء بعهده لها. وافتتح في ذلك الحين منطقة شمر في شمال نجد وانتزعها من يد خصمه ومنافسه ابن الرشيد، وبدأت إمارة نجد تتخذ مكانها وأهميتها في شئون الجزيرة العربية. وفي سنة 1924 غزا ابن السعود الحجاز واستولى عليها من يد الحسين بن علي ملكها يومئذ، وامتدت حدود نجد حتى ساحل البحر الاحمر، وقامت من ذلك الحين مملكة نجد والحجاز القوية، واعترفت بقيامها الدول وفي مقدمتها بريطانيا العظمى. وكانت السياسة البريطانية
خلال هذه المراحل كلها ترى في ابن السعود صديقاً لها؛ ولم يشب هذه العلائق الودية شيء من الكدر إلا في سنة 1928 إذ أغارت بعض القبائل النجدية على حدود العراق، ونشب الخلاف بين الفريقين على مسألة مخافر الحدود؛ ثم سوى الخلاف وعاد التفاهم بين الفريقين.
ولكن المملكة السعودية قد غدت في الجزيرة العربية قوة يخشى بأسها، وهي تدلل اليوم على قوتها مرة أخرى بذلك الغزو السريع لنجران وتهامة، ثم شمال اليمن واستيلائها على ثغور جديدة على البحر الأحمر، وقد لا تقف القوات السعودية في زحفها حتى يتم استيلاؤها على بلاد اليمن كلها، وتغدو اليمن كالحجاز ولاية جديدة في المملكة السعودية الكبرى: واجتماع الأمم العربية داخل الجزيرة تحت هذا اللواء القوي يثير روحاً جديداً في القضية العربية ويقوي فكرة الجامعة العربية، ويحيي الآمال في تحقيقها. والسياسة البريطانية لا تنظر إلى هذه التطورات بعين الارتياح لأنها تزيد في متاعبها حيثما تبسط سلطانها على أطراف الجزيرة العربية، والسياسة الفرنسية التي تسهر على مصاير سوريا تخشى أن يثير هذا الروح المعنوي الجديد في الوطنية السورية قوة جديدة، ويزيد في متاعبها في سوريا. هذا ومن جهة أخرى فإن السياسة الإيطالية ترقب تطور الحوادث في اليمن بمنتهى الاهتمام والجزع أيضاً. وللسياسة الإيطالية في اليمن مركز خاص، ولإيطاليا في اليمن مطامع لا تخفي. وقد نظمت العلائق من سنة 1928 بين الإمام يحيى وإيطاليا وعقدت بينهما معاهدة تجارية اقتصادية، وأخذت إيطاليا من ذلك الحين تعمل بكل الوسائل على تقوية نفوذها في اليمن؛ والسياسة الإيطالية لم تكن بعيدة عن موقف الإمام في الحوادث الأخيرة ولم تكن بعيدة عن شد أزره بالمال والرجال والذخائر في الحرب التي ستنشب بينه وبين ابن السعود. ثم يجب ألا ننسى أن مستعمرة إريترية الإيطالية في اليمن، ويجعل ساحل المستعمرة الإيطالية عرضة لأخطار جديدة، ويضع حدا للتوسع الإيطالي في تلك المنطقة.
والسياسة البريطانية تقف اليوم موقف التريث والانتظار؛ ولكن في اجتماع السفير الإنكليزي في جده بابن السعود، حسبما نقلت ألينا الأنباء الأخيرة، ومحادثته إياه في الاحتمالات التي نشأت عن انتصار الجيوش السعودية، وعما إذا كانت تنوي التقدم بعد في
قلب اليمن - في ذلك ما ينم عن اهتمام السياسة البريطانية بتطور الحوادث على هذا النحو؛ وربما عن قلقها أيضاً. ذلك لأن اليمن تجاور منطقة عدن البريطانية وتشرف عليها من الشمال والغرب؛ ولعدن أهمية حربية خاصة فهي مفتاح باب البحر الأحمر من الجنوب، ومفترق الطريق الإمبراطوري البحري إلى الهند والشرق الأقصى؛ فوقوع

اليمن في يد زعيم قوي كابن السعود قد يهدد مركز بريطانيا في عدن، أو في بعض ولاياتها المحمية المجاورة لليمن، وهي التي كانت منذ بعيد موضع خلاف بين الإمام والإنكليز، ثم سوى منذ أشهر بمعاهدة الصداقة البريطانية اليمنية. ومسألة المواصلات الإمبراطورية من أدق مهام السياسة البريطانية.

بيد أنه إذا كانت السياسة البريطانية تقف موقف الانتظار والتحوطإزاء تطور الحوادث في الجزيرة العربية. فليس هنالك على ما نعتقد، ما يدعوها للتدخل المباشر في سر هذه الحوادث. فعلائق ابن السعود وبريطانيا مازالت حسنةٌ. والإنكليز يثقون بابن السعود وصراحته وعهوده التي برهن في فرص عديدة أنه يحترمها ويعمل على تنفيذها، ولا نعتقد أن ابن السعود يفكر في الوقت الحاضر على الأقل في الإقدام على مناوأة سياسة بريطانيا أو مصالحها في أية منطقة من المناطق التي تسيطر عليها في أطراف الجزيرة، لأن ابن السعود يحرص دائماً على صداقة بريطانيا. وربما كان الإنكليز يؤثرون دخول اليمن في طاعة ابن السعود، ويؤثرون سياسته القائمة على الحزم والصراحة وحسن التقدير، على سياسة رجل كالإمام يلقون من صلابته وتردده وعدم اعتباره بالحقائق الواقعة كثيراً من المتاعب في عدن وولاياتها المشمولة بالحماية البريطانية. هذا إلى أن ابن السعود قد صرح على لسان ممثله في لندن أن يحترم الحقوق القائمة والمعاهدات المعقودة ويبذل وسعه لحماية أرواح الأجانب ومصالحهم في البلاد التي تفتحها جيوشه، ولا ريب أنه في حالة استيلائه على اليمن سيحترم نصوص المعاهدة اليمنية البريطانية الأخيرة، وسيحترم الحالة القائمة في ولايات عدن المحمية؛ ومن جهة أخرى فانه لن يفوت الإنكليز أن ينتهزوا فرصة انشغال الإمام بغزو أراضيه فيعملوا علىتوسيع احتلاهم لتلك الولايات بما يطابق خططهم التي لبث الإمام طويلا يقف في سبيلها.

ليس هنالك إذا ما يخشى وقوعه من جانب السياسة البريطانية للتأثير في مجرى الحوادث

الحاضرة في جزيرة العرب. وهذا ما تؤيده التصريحات الرسمية التي أدلى بها السير جون سيمون وزير الخارجية البريطانية في مجلس العموم في شأن حوادث الجزيرة العربية، فهو يؤكد فيها أن بريطانيا العظمى ستقف إزاء هذه الحوادث موقف الحياد الدقيق وأن اجتماع السفير البريطاني بابن السعود لم يكن يقصد به إلا التأكد من حماية المصالح البريطانية والرعايا البريطانيين في الجهات التي تفتتحها القوات السعودية. وهذا ما تؤيده أيضاً الصحف الإنكليزية وأقوال الكتاب السياسيين وتنويههم بحزم ابن السعود ومقدرته وصداقته لبريطانيا العظمى

أما السياسة الإيطالية فهي على العكس تخشى تطورات الحوادث الحاضرة وترى فيها خطراً على مشاريعها ومصالحها حسبما بينا. وقد كان الأمام صديق السياسة الإيطالية، وكانت إيطاليا تتمتع في اليمن بمركز خاص تعلق عليه أهمية كبيرة لتنفيذ مشاريعها في بلاد العرب، فسقوط اليمن في يد ابن السعود يقضي على هذه الآمال والمشاريع، وقد أرسلت إيطاليا كما أرسلت إنكلترا بعض بوارجها إلى مياة اليمن لحماية مصالحها. ولكن هل تذهب إيطاليا إلى أبعد من ذلك فتحاول التدخل المباشر في سير الحوادث في اليمن؟ من المعروف أن إيطاليا كانت تمد الإمام بالأسلحة والذخائر والضباط الفنيين، ولكن استيلاء القوات السعودية على الحديدة وساحل اليمن كله تقريباً يقفل هذا الباب في وجه إيطاليا ويقطع هذا العون عن الإمام. ولسنا نعتقد إن إيطاليا تستطيع الإقدام على مثل هذه المغامرة في الظرف الحاضر، فتحاول الدفاع عن اليمن والاشتباك مع القوات السعودية الغازية في حرب لا تؤمن عواقبها، أولاً لأن بريطانيا العظمى لا تستطيع السكوت على مثل هذا التدخل ولا بد أن تقاومه بكل قواها، وليس من اليسير أن تقدم إيطاليا على تحدي بريطانيا العظمى في مثل هذه الظروف التي يفيض فيها الأفق الدولي بالمشاكل الخطيرة، وثانياً لأن إيطاليا تعلم من تجاربها القاسية في طرابلس، إن الأعمال الحربية في الصحاري والهضاب ليست يسيرة على الجنود الأوربية، وقد كانت هضاب اليمن مدى أجيال حصوناً مغلقة في وجه الجيوش العثمانية المدربة على ارتياد الهضاب الوعرة، ومن المرجح أن تلقى الجيوش السعودية ذاتها، وهي جيوش الصحراء، صعاباً كبيرة قبل ان تستطيع الوصول إلى صنعاء والاستيلاء على اليمن. وإذاً فكل ما يمكن للسياسة الإيطالية أن تقوم

به الوقت الحاضر، هو أن تحاول المضي في خطتها من معاونة الإمام بالاسلحة والذخائر والأموال
على أنه يبقى بعد ذلك كله أن نتساءل عما إذا كان ابن السعود يعتزم حقاً أن يستولي على صنعاء وان يتم غزو اليمن. إن الجيوش السعودية تقف الآن عند الحديدةمن جهة البحر، وتطوق شمال اليمن، وليس في الأنباء الأخيرة ما يدل على إنها ستتابع زحفها في الحال، بل يرجح أن تنتظر حيناً حتى تتم اهباتها وتقوى مؤخرتها وقد يرى ابن السعود في تلك الأثناء ما يقنعه بالوقوف عند هذا الحد من الظفر وإرغام الإمام على قبول شروطه ومطالبه؛ وقد ينزل عند صوت العالم العربي والإسلامي فيقبل وقف الحرب والاتفاق مع الإمام، إذا رأى انه يستطيع بذلك اجتناء جميع الثمرات التي يخوله الظفر اجتناءها.
وسنرى في الأسابيع المقبلة ما تسفر عنه هذه التطورات الخطيرة في مصاير الجزيرة العربية.
محمد عبد الله عنان المحامي
مختار. .!
للدكتور سامي كمال
كان بالأمس مارداً، فثوى اليوم راقداً. . . كان فلم يكن ولن يكون، بعد أن أضاء على الإنسانية جميعها بذلك النور الفني الخالد.
لقد وصل ماضينا بحاضرنا وبمستقبلنا أيضاً، فكان الحلقة المتينة، وملأ ذلك الفراغ الهائل المظلم القاتم الذي نام أثناءه أبو الهول ونام المصريون بجواره، إلى أن عادت إليهم الروح وثارت ثورتهم فهبط عليهم من السماء، وكان قائداً لخيال ذلك الشعب، وحقق أمله في النبوغ. وأنهض أبا الهول بعد طول رقاده بجانب الفراعين الذين حققوا لربوضه الهدوء والنوم. رمزوا به لقوة باسهم وشدة بطشهم، ولم يحتاجوا بعد إليه وقد خضع الكل لسلطانهم فنام وملأ جفونه نوماً، إلى أن شعر القوم باحتياجهم إليه فأنهضه مختار وجعله ينظر محدقاً عازماً شاعراً ما سوف يطلب منه اليوم وغداً.
إن من لم يسمع لفظ فرعون من فيك يا مختار لم يفقه من هو فرعون. . هو لفظ كنت تسوقه من شعورك العميق ينبئ بالقوة وبالجبروت
ومن لم يسمع منك لفظ الثورة التي قامت بهذا البلد الذي شعرت انك من ترابه أو من التراب الذهب لهؤلاء الفراعين. . . من لم يسمعك تحدث عن الثروة بلفظها الذي كنت تنطق به فيصير تمثالاً من صنع بصيرتك وحسك وقلبك الكبير. . . ان من لم يسمعك لم يضطرب قلبه من هولها.
لم أرك يا مختار إلا وتلك الروح مخيمة عليك وظلت غذاءك. . . وأنت يا مصر، يا من تقفين بجانب القوة الناهضة، أنت الروح وأبو الهول الجسد، علام تنظرين؟ إلى الشمس أم إلى أبنائك؟ إلى سلام أم إلى حرب؟
تخيلك على ضفاف السين وقبله ينبض بحبك - تتمثل أجمل امرأة أمام عينيه فلا يرى غيرك، يطير بخياله إليك لأنك الغاية. عاش ينشد حبك طول طريقه. هذا نقابك تحاولين فيه بيسراك حجب بعض الضوء، لتحققي النظر وتتعرفي أسرار ما سيأتي لك به القدر.
.
. . .هذه الحركة المصرية الصميمة أنشودة ستصدح مع الزمان
،تراك جميع المصريات فيتعرفنك ويعجبن ويفخرن، لأنك ترفعين الرأس إلى السماء وتسفرين عن وجه لا يدل على غير القوة واطمئنان الوصول إلى الغاية التي تتطلبين إلى أبنائك، وعودك القوي هو هو، صلب حار في اللب. . . أفنا أم كبرا أم مثالا يحتذى؟ أم هو تراث من فخر مضى؟. . .
كل من رآك يعرف أن قلبك قد من الثورة، وأن عينيك انفتحتا لهذا النور الذي كنت تتوقين إليه
هذه روحك يا مختار نقرأها وسنقرأ كل يوم فيها جديدا، وبعد آلاف السنين سيقرءون فيها جديدا. . . ويطلب المصريون لك الرحمة حينما لا يذكر من أحياء اليوم إلا القليل.
ثم هادئاً فقد أديت الرسالة
فن مختار وروحه
أوجد مختار فناً خاصاً وطبعه بطابع تكاد تتعرفه عندما تلقى بنظرك إلى آية قطعة من

قطعه البديعة التي خلفها، ولتدرك ذلك الطابع تماماً تصور ذلك الفنان القوي، وقد نشأ في قرية مصرية، أفعم قلبه بحب الفلاحين، وملأ عينيه من تلك التماثيل المصرية القديمة، ثم من ذلك الفن المصري في جميع صوره، وقد امتاز بالبساطة وجمال التنسيق وعدم الاكتراث بما يقع تحت الحس تماماً، غير ناظر إلا إلى الموضوع المطلوب تصويره فينتظم التصوير في أسلوب واحد، كان الجمال فيه لتلك الخطوط والمسطحات المنتظمة

أخذ الغربيون بذلك الفن عندما قاموا بتمثيل رموزهم العسكرية بعد الحرب العظمى، فلا ترى إلا مستويات لا تستوقف النظر، إنما يحرض التمثال فكرك لتبحث فيه عن معنى ينبئ به

تلك كانت آية الفن عند قدماء المصريين، فلما انتقل منهم إلى اليونان فالرومان فالغرب أخيراً، عمدوا إلى تصوير الجمال كما يجب أن يكون في الواقع لا في الخيال، فجمال المرأة أو الرجل صار تمثيلا لبعض النساء أو الرجال فعلا

وعندما انتهت الحرب العظمى لم يرد الفنانون في جميع العالم أن يتقيدوا بما كان نظاماً وأسلوباً للفن فيما قبل الحرب، وأخذوا يبحثون عن فن عصري لم يستقر إلى اليوم نظامه، فانك ترى لهم في كل يوم اتجاهاً وميلا.

أثناء تجاربهم هذه تطاير بعض الشرر الفني من مقبرة توت عنخ آمون، فدققوا النظر من

جديد في ذلك الفن المصري القديم ونحوا نحوه، وصاروا لا يقفون في التمثيل على ما يرون بعيونهم، إنما عمدوا إلى الرمز في النحت والتصوير لترسل مخيلتك في البحث عما يرمزون فلا يقف نظرك على تفاصيل الجسم أو الرداء بل يلجئك الفنان إلى البحث عما يريد من معنى، وليس من السهل الوصول إلى ما يريد والوقوف عليه.

ويمتاز الفنان الماهر بأن يقدم لك ما تقرأ فيه كل يوم جديداً. ألم يحدثنا الصديق الدكتور طه حسين بأن هذا ما نحا نحوه بعض شعراء الفرنسيين؟ عاش مختار في هذا الجو وأدرك سر الأقدمين المصريين، فعمد بالمعاول إلى رسم الطريق للمجددين؛ وبعث من جديد فناً كان يشعر أنه يفيض من حبه لمصر، فغنى على قيثارته (القاهرية) و (الفلاحة) و (بنت الشلال).

أنظر إلى تلك القاهرية تختال في ردائها تجدها الملاك الطاهر في حلم النائم لا تفتر تنظر إليها، ولا يرتد نظرك عنها، ثم تعاودك طيفاً تحار في فهم روحها ولا تجسر أن تبادرها بالسؤال.

أما بائعة الجبن فإنك تراها في صور الأقدمين، لكنها لا تحمل شيئاً بل ترمز إلى الروح، وهي رافعة ذراعيها على هذا النمط. فقدها مختار من قطع بائعات الجبن جميعاً، فيه رقيقة حقاً لكنه أعطاها الصلابة البرنزية وتركها للخلود. . .

رأى مختار مثالاً لشيخ البلد في دار الآثار المصرية، فكان جديراً بأن يصنع مثالاً لامرأته، أنظر إليها تجد جمالاً ووقارا يجلبان الاحترام وقوة معنوية تسحر اللب. . . .

وبنت الشلال هي تخليد بديع مليء بروح ذلك العنصر من سكان الشلال، اهتدى إليها مختار عند وادي الجرانيت فأنطقها تترنم بنشيد النيل والصحراء والشمس المحرقة والحياة الحزينة. . . .

وتلك المرأة في القيلولة تجد في دار الآثار شبيها لها امرأة كانت تخبز، غلب عليها النعاس أمام الفرن فنامت. هي صورة لبعث القديم وإحياء الجديد من الفن

عاش مختار سنين في باريس، وما كان يأمل في الحياة بقدر ما كان يأمل أن يكون له بيت في قرية مصرية بين تلك المصريات ويعبر عنهن بالملكات اللاتي أحب حركاتهن وسكناتهن، يحملن الماء وغير الماء، يأكل مما يحلو لهن أكله، مرتدياً ذلك السروال الواسع الأكمام

وما كان يلذ له التمتع بأي شيء وحيدا، فان دعاه داع إلى الغداء مثلا اشترط لذلك دعوة إخوانه جميعاً وان لم يعرفهم جميعهم الداعي

لقد كان يحب أن يعيش بين القلوب لا بين الأجساد. ما عاش مختار لنفسه، بل عاش للفن - أن كان ما نراه اليوم بمصر من مجهود فني، هو في الحقيقة أثر من آثاره - فقد كان المحرك لإرسال البعثات الفنية، وفي فتح مدرسة الفنون الجميلة، وفي إقامة المعارض والإشادة بذكر الفنانين، كان يحلم بإيجاد إدارة للفنون تحت رياسة وكيل ثان

للمعارف على نسق النظام المتبع في فرنسا.
وبالاختصار كان مختار روح الفن في مصر نفثه في جميع المصريين حتى نطقوا باسمه جميعاً، وصارت (نهضة مصر) عنواناً لكل صاحب مهنة وفن في القاهرة، وفي جميع القرى المصرية، فكفاه تمجيداً تمجيده ليوم من أيام مصر.

سامي كمال

السفسطائيون

للأستاذ زكي نجيب محمود

إذن فقد كانت آسيا الصغرى مهداً تقلب فيه الوليد الجديد وظل حيناً يتعثر، حتى . . . . استقام بعد لأي على قدمين لم ترسخا إلا في عسر شديد، فقد حدثتك في فصل سابق أن العقل الناشئ لم يكد يستيقن من وجوده، حتى أرسل البصر يستطلع أصل الوجود، وجاهد ما استطاع لكي يصل في تعليله إلى مبدأ معقول، فالتمسه في الماء والهواء، ولكنه أفلس، ثم عدل عن مادة الكون إلى جوهره ومعناهن فأفلس كذلك، وهكذا لبث اليافع في عثاره، يستقيم ليكبو، ويكبو ليستقيم، حتى كانت غارة الفرس الداهمة، التي اجتاحت المستعمرة اليونانية في آسيا الصغرى، ففزع الفلاسفة رعباً، هاموا في فجاج الأرض فرادى يحملون قبس الفكر، حتى انتهى طرف منهم إلى بلاد اليونان. . .

أنظر! فهذي بلاد اليونان قد صاغها الله يدا مبسوطة، كأنما تريد أن تلقف بأصابعها الناتئة في مياه البحر حضارة القدماء من الجنوب والشرق، بسطت كفها فتناولت من مصر مدنية كانت حينئذ قد بلغت شأوا بعيداً، واستعارت من بابل وأشور وآسيا الصغرى شذرات منثورة من العلم والمعرفة. وقد أراد الله لتلك البلاد اليونانية أن تكون وعرة المسالك ملتوية الأديم، تنهض على صدرها الحزون وترتفع الجبال، فانحصرت بين شعابها طائفة من الأودية، كانت في عزلتها كالأوكار، نشأت في أكنافها مدن متفرقة، ليس إلى اتصالها سبيل هين ميسور، فسلكت كل واحدة منها طريقاً بعينها في الدين والثقافة ونظام الحكم. ولبثت تلك المدائن متنافرة متناكرة، لا تلتقي في وحدة قومية، اللهم إلا إذا أغار عليها مغير يطمع منها في غزو وسلطان. وذلك ما حدث عندما جاءت من الشرق جيوش الفرس يقودها عظيمهم دارا، عندئذ انعقدت الخناصر على التحالف بين اثنتين من تلك المدن اليونانية، كانتا أشدها بأساً، وأوفرها قوة وأبلغها رقياً وتقدماً، تحالفنا على ان تعد إحداهما الجيش، والأخرى تهيئ الأسطول، ومن ذا تظن أن ينهض بتهيئة أسطول ضخم قوي غير الأثينيين، الذين لهم من موقعهم صلة وثيقة بالملاحة وركوب الموج، وأما الأخرى - إسبرطة - التي عرف رجالها بالبأس والقوة، فقد جهزت جيش الدفاع.

وقعت الحرب وانتصر اليونان، فعاد الأثينيون بأسطولهم وقد اتخذوه بعدئذ إدارة للتجارة،

ظلت تجوب جواريه المنشآت في جوف البحر الأبيض، تحمل منها واليها التجارة من كل صوب، وما هي إلا أن تزخر أثينا بتك التجارة الصادرة الواردة، ويعلو ذكرها في الأسواق، وتصبح مركزاً تلتقي عنده الأقوام والأجناس، لكل قوم دينه، ولك جنس ثقافته. وإذا بهذه الألوان المختلفة يضطرب بعضها في بعض، ويخالط بعضها بعضا، فتمتزج الثقافات جميعاً والديانات جميعاً في صعيد واحد، ويكون لذلك كله نتيجة محتمة، هي المقارنة والتحليل، وبالتالي نشأة الفكر الصحيح. وهذا بديهي معقول، فالمذاهب المتضاربة ينسخ بعضها بعضاً، وتدنو بالناس إلى الارتياب والشك فيها جميعاً.

وإذن فقد كانت أثينا، عندما طوح القدر بذلك القبس الخافت من آسيا الصغرى بيئة صالحة وتربة خصبة، يستطيع أن يستقر في أرضها ذلك الشعار الضئيل، حتى إذا ما امتد به الزمان قليلا، سطع لامعا وهاجا في عهد الأساطين الثلاث: سقراط وأفلاطون وأرسطو

حمل انكسجوراس إلى أثينا تلك البذرة الأولى للتفكير الفلسفي وقد كانت وليدة الأفكار السابقة التي نشأت في آسيا الصغرى وجنوب إيطاليا. فلعلك تذكر أني وقفت بك في تتبع السلسلة الفكرية عند المذهب الذري، الذي رد الكون إلى ذرات دقيقة تجتمع وتأتلف فتكون هذا الشيء أو ذاك، ولكنك تستطيع أن تسأل أشياع ذلك

المذهب، ما الذي يبرر عقلا أن تجتمع طائفة معينة من الذرات في صورة ما دون صورة أخرى؟ خذ الإنسان مثلا، فهو عندهم مجموعة ذرية لا أكثر ولا أقل، فهل تظن أن من اليسير على عقل منطقي أن يقنع بان تلك الذرات الجامدة تأتلف بطريق المصادفة العمياء، فتنتج ملايين الأفراد على غرار واحد وفي هذه الدقة من التنسيق؟! كلا! يستحيل ألا يكون وراء هذه الذرات المادية عقل مدبر حكيم، يملك تصرفها فيجمع بينها ثم يفرق جمعها تبعاً لما يقتضيه قصد معين وهدف منشود. . . في الكون إذن عنصران متميزان: مادة ترى بالبصر وتحس بالأيدي، وعقل خفي يكمن وراء أستار المادة، يسلك بها ما شاء من سبل، وهو حكيم رشيد، يعرف أين يسير بمادته في سبيل سواء. . هذا ما حمله انكسجوراس إلى أثينا، فبدأت الفلسفة إذن طوراً جديداً. . . لم يعد العقل يلتمس أصل الكون وعلته في ماء ولا هواء، ولم يعد يلتمسه في قاعدة رياضية، أو في ذرات تفترق وتلتقي على غير هدى، بل جاوز العقل في جولته حدود الطبيعة المحسة، وضرب فيما وراءهن وإذن فما أجدرنا أن نضع انكسجوراس في

مرتبة من تاريخ الفلسفة عالية رفيعة إذا كنا نفرق بين مراتب رجالها. فهو بين الفلاسفة أول من رأى في الكون رأيا ناضجا، يصرد عن رشد ووعي، بالقياس إلى أسلافه الذين لم تزد أقوالهم على سذاجة الطفولة الحالمة

ترى من هذا كله أن العقل قد لبث طويلا يبحث في حقيقة الكون فانتهى إلى نتائج متنافرة متباعدة، وتشعبت عليه السبل وكثرت الحلول، فكان طبعياً ان يقف منها جميعاً موقف الشك والريبة فكلها حق ان شئت. وكلها باطل ان شئت. ولنترك الكون وما يحوي لا نطرقه بالبحث الآن، وليكن موضوع بحثنا منذ اليوم هو الانسان، فهو سيد الأشياء، وهو وحده الفيصل الحكم إزاء هذه المذاهب الفكرية، يعتنق منها ما يشاء؛ ويطرح ما يشاء في زوايا الإهمال. وليس لأحد سلطان على أحد في ان يوحي إليه بفكرة أو رأي، فما تراه أنت حقاً فهو حق، وما تراه أنت باطلا فهو باطل. . ما تلمح فيه النفع لشخصك فهو الفضيلة العليا وكل ما يناقض هواك فهو رذيلة وشر، لا تأبه بتقاليد، ولا تصدق الناس فيما يذهبون إليه من خير وشر، فأنت دولة وأنت مالكها، لك أن تحكم فيها بما تشاء وتهوى. . . انظر! هذان رجلان يشخصان ببصريهما إلى الشمس تنحدر إلى خدرها ساعة الغروب فخلعت على الأفق غلالة حمراء، فيفتن جمالها واحداً منهما حتى ليكاد يطفر راقصاً مفتوناً بما يرى. وأما الآخر فينظر إليها شزرا واستخفافاً، بل انه ليسخر من صاحبه، فليس ثمة في الشمس جمال ولا شيء يشبه الجمال!! فمن ذا يستطيع أن يقنع أحد هذين بخطأ رأيه أو بصوابه؟ ولم لا يكون كلاهما على حق؟ وإذا كانت الأهواء والميول والمشاعر متضاربة متناقضة، لا تجتمع في نزعة واحدة، ولا يمكن أن تدور رحاها حول قطب واحد، أفلا يكون شططا منك واعتسافاً أن تقسر تلك المجموعة المتنافرة على أن تلتقي كلها عند حقيقة واحدة؟! ومن ترى يكون حقيقاً بمنصب الحكم بيني وبينك فيما نحن فيه مختلفان؟ كلا! ليس ثمت حقيقة واحدة، بل الحقائق في الدنيا بقدر ما يضطرب فيها من أفراد البشر، فليذهب كل فرد مذهبه في الكون وفي ظواهر الكون، ولا يخشين بأساً من نقد أو تجريح لما يذهب اليه، فهو لا يقل حقاً وصواباً فيما يرى عن أي رجل آخر، بالغاً ما بلغ من العبقرية والنبوغ. . . تلك هي العقيدة التي حملتها طائفة من الناس في أرض اليونان، وأخذت تجوب بها الأنحاء والأرجاء، تذيعها في الناس في ذلاقة وطلاقة وحسن بيان، حتى

اجتمع حولهم طوائف الشباب جميعاً، يتلقون عليهم ذلك الشك، ويتعلمون عنهم درائق التشكيك وأساليب المحاورة والمداورة في الخطابة والحوار لقاء أجر يعظم ويضؤل تبعاً لما يتلقى الشباب من عدد الدروس. . . وإنما أعني بتك الطائفة جماعة السفسطائيين، ولم يكن ذلك الاسم عندئذ يحمل ما يحمله اليوم من تحقير، بل هم جماعة أحبوا الحكمة كما يحبها كل فيلسوف، لولا هذه الزلة التي سقطوا فيها فأسقطت من قدرهم، وهي تقويم الحكمة بالأجر

وأبرز أولئك السفسطائيين رجال ثلاثة: بروتاغوراس وجورجيادس وهبياس، ولقد أنكر ثانيهما وجود الأشياء جميعاً وحتى لو فرضنا جدلاً أن ثمة في الكون أشياء لها حقائق ثابتة، فلا يمكن أن نوقن بأن الصورة الذهنية التي نعرفها لتلك الأشياء مطابقة لها

تماماً، فمن الجائز، بل من المرجح، بل من المؤكد أن حقيقة هذا القلم الذي بيدي تخالف في وجوه كثيرة صورته الذهنية التي أحملها له. . . وهب أنك تستطيع أن تصل إلى معرفة مطابقة للواقع فانه يستحيل عليك أن تنقل هذه المعرفة للآخرين، لأنك مضطر إلى التعبير عنها في كلمات، ولا أحسب في الدنيا أحدا يشك في أن اللفظ شيء والمعرفة نفسها شيء آخر وإذن فمهما قلبت الأمر على وجوهه فلن تصل إلا إلى نتيجة واحدة، وهي أنه لا يمكن أن يكون في الوجود حقيقة موضوعية مجردة يجمع عليها، بل الحقائق ذاتية تختلف باختلاف الأشخاص، وإذن فمن العبث أن يستمع فرد إلى رأي فرد آخر، ولا يجوز لك أن تصغي لغير ما تراه وتشعر به، ولا تختار من كل ذلك إلا ما تصيب عنده نفعاً

أجمع السفسطائيون على ذلك، ولكنهم ذهبوا في السياسة مذهبين: ففريق يدعو إلى العودة إلى أحضان الطبيعة واستيحائها فيما يجب أن يرسم للجماعة من نظام وقانون - كما فعل روسو فيما بعد - ولما كانت الطبيعة عندهم تسوى بين الأفراد، لا ترفع أحدا ولا تخفض أحداً، إذن فسحقاً لهذه المدنية التي تجعل من الناس طبقات بعضها فوق بعض، فذلك نظام مفتعل دخيل على طبيعة الإنسان جدير بنا ان ننبذه في جرأة حازمة، ولا ينبغي لنا أن نأبه لهذا القانون الذي تواضعت عليه الجماعة، لأنه من وضع القوى، فرضه على الضعيف فرضاً لا يبرره حق ولا تجيزه عدالة، إنما القانون العادل هو الذي ينزل الأفراد منزلة سواء، ومعنى ذلك أن تكون الديمقراطية مثلا أعلى للحكم.

وأما الفريق الآخر، فقد دعا إلى النقيض - كما فعل نيتشه فيما بعد - الست ترى من الناس فيلسوفاً عبقرياً بجانب الغبي الأبله، أليس منهم الضعيف الخائر إلى جانب القوي ذي العود الصلب؟ إذن لم تسو الطبيعة بين الأفراد، كلا ولا الأخلاق ابتكرها القوي إنما هي على النقيض من ذلك، خدعة أوحى بها الضعيف ليحد من قوة القوي وسلطانه. . ولا يتردد هذا الفريق في الدعوة إلى الأرستقراطية في الحكم، وهذا الهجوم العنيف على الديمقراطية وحكمها يصور لنا نهوض جماعة من الأغنياء الأذكياء، أرادوا أن يغتصبوا من الشعب النفوذ والسلطان، بحجة إفلاسه في إدارة البلاد فأنت تستطيع أن تسخر من مذهب السفسطائيين، ومن حقك أن تهمله اهمالا وان تنبذه نبذ النواة، لانه خطر على الاجتماع، خطر على الأخلاق، خطر على العقائد، خطر على كل نواحي الحياة الإنسانية، لأن قوام هذا اليقين والإيمان في مجموعة من الحقائق التي تفرض على الناس فرضا، سواء صادفت هوى من نفوسهم أم لم تصادف، أما أن يكون الأفراد أحراراً في اختيار الفضائل التي تتفق وأهواءهم فانحلال وفوضى، يقوضان أركان المجتمع في يوم وليلة.

تستطيع أن تقول هذا فيما ذهب إليه السفسطائيون، ولكنك لن تستطيع ان تنكر عليهم أنهم كانوا مرآة مجلوة انعكست عليها صورة الحياة في عصرهم، فقد تعددت العقائد الدينية فشك الناس في صحة الأديان، وقد تعددت الآراء الفلسفية فشك الناس في ثبوت المعرفة. وقد برهنت الديمقراطية في أثينا على أنها عاجزة بعض العجز عن تصريف شئون الدولة فتزعزع الإيمان في أسلوب الحكم

شك في الدين، وشك في المعرفة، وشك في نظام الحكومة، لا يمكن أن يلد إلا طائفة كهؤلاء السفسطائيين، ينكرون الحقائق جملة، ولا يؤمنون إلا بالمنفعة الشخصية والحقيقة الذاتية.

ولكن أراد ربك ألا يطول الأمد لهذا الانحلال الفكري، فسلط عليه ذهناً عاتياً جباراً، ما زال به نقدا وإصلاحاً، حتى أمحى وخلص من شره الانسان، ومن يكون هذا غير سقراط!؟

زكي نجيب محمود

بين المعري ودانتي في رسالة الغفران - 4

والكوميدية المقدسة

بقلم محمود احمد النشوى

الجحيم في الروايتين

إذا تحدث الأدباء فيما بينهم عن جحيم دانتي. فإنما يريدون تلك الكوميدية التي لم تقصر نفسها على الجحيم تذكر طبقاته وحراسه ومعذبيه، بل ضمت جوانحها ثلاث

نواح: الجحيم ' المطهر أو الأعراف والفردوس ودانتي في كل ذلك يبلغ نهاية الإجادة. بيد أنه في وصف الجحيم كان اكثر إسهاباً وأشد قوة، فطغى اسم الجحيم على الرواية كلها واستأثر بالاسم وحده بين كثير من المتأدبين.

ولكن المعري لم يعن بجهنم كما عني بالفردوس. ولم يسهب في وصفها كما أسهب في وصف الجنة. ولعله ما كان يريد أن يعرض للجحيم لولا رغبته أن يتم لابن القارح نعيمه. وأن يعظم شكره. فقد قال المعري بعد أن استكمل لابن القارح كل لذائذه في فراديس الجنان: ويبدو له أن يطلع على أهل النار فينظر إلى ما هم فيه ليعظم شكره على النعم بدليل قوله تعالى (قال قائل منهم إنى كان لي قرين. يقول ائنك لمن المصدقين. أئذا متنا وكنا تراباً وعظاما أئنا لمدينون. قال هل أنتم مطلعون. فاطلع فرآه في سواء الجحيم. قال تالله إن كدت لتردين. ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين) فيركب ابن القارح بعض دواب الجنة، ويسير بها صوب الجحيم معرجاً في طريقه على (جنة العفاريت) يلتمس من أشعار أهلها متحدثا (مع الخيثعور أحد بني الشيصبان، ومع أبي هدرش) مارا على الحطيئة عند شجرة قميئة، وليس عليه نور سكان أهل الجنة فيسائله عن سبب دخوله الجنة فيقول له الحطيئة: بالصدق في قولي:

أبت شفتاي اليوم إلاتلكما ... بهجر فما أدري لمن أنا قائله

أرى لي وجها شوه الله خلقه ... فقبح من وجه وقب حامله

ثم يغذ في سيره حتى يشرف على جهنم فيرى امرأة تطلع على من فيها. فيقول لها من أنت؟. فتقول: أنا الخنساء السليمة. أحببت أن انظر إلى صخر. فاطلعت فرأيته كالجبل الشامخ. والنار تضطرم في رأسه، فقال لي: صح زعمك في، يعني قولي:

وإن صخراً لتأتم الهداة به ... كأنه علم في رأسه نار

ثم يتركها متغلغلا في طبقات الجحيم.

طبقات الجحيم في الروايتين

لم يعن المعري بتقسيم الجحيم إلى طبقات، لكل طبقة من العصاة والمذنبين جزء مقسوم. ولم يسهب في وصف أهوالها وآلامها إسهاب دانتي. بل كان همه لقاء الشعراء وحوارهم فيما نسب إليهم من شعر. وفي تصحيح الرواية، وبيان الوجوه النحوية واللغوية والصرفية. فلم تكد تقع عينه على امرئ القيس حتى يسائله عن إعراب (يوم) وعن تخفيف الياء من (سي) وتشديدها في قوله

ألا رب يوم لك منهن صالح ... ولا سيما يوم بدارة جلجل

ثم يقول: ليت شعري ما فعل عمرو بن كلثوم؟ فيقال ها هو ذا من تحتك ان شئت أن تحاوره فحاوره في (سخينا) من قوله. .

سنعشعة كأن الحص فيها ... إذا ما الماء خالطها سخينا

أمن السخاء. أم من الماء السخين؟. إلى كثير من حوار وجدل، ذلك سبيله، سنفرده بالحديث حين الكلام عن الحوار في الروايتين.

ولقد بذل دانتي مجهودا عظيما في تقسيم جهنم، فقسمها إلى تسع طبقات اختص كل طبقة منها بطائفة من المعذبين، ووصف ما هم فيه من عذاب وآلام وصفا مؤثراً بليغا. ففي الطبقة الأولى رأى الملائكة الذين لم يطيعوا الله ولم يطيعوا الله ولم يطيعوا ابليس حينما تمرد على ربه. انتظارا للنتيجة حتى يتبعوا الغالب في زعمهم؛ ثم رأى خلقاً كثيرا عريت أجسامهم، وانتابتها أفواج من الذباب والزنابير تدمى جلودهم، وتنهل من دمائهم.

وفي الطبقة الثانية رأى المحبين الذين أسرفوا فالقوا أنفسهم في حمأة الخطيئة. ومن بينهم باولو وعشيقته فرنشسكا التي قصصت خبرها في العدد الماضي.

وفي الطبقة الثالثة رأى البخلاء والمسرفين يلعن بعضهم بعضا. ويقول الأولون للآخرين: لماذا أسرفتم؟ فيقول الآخرون: للأولين لماذا قترتم؟. ولن يغنى تخاصم أهل النار عنهم من العذاب من شيء.

وفي الطبقة الخامسة يرى الحمقى الذين كان يستفزهم الغضب وهم يضرب بعضهم بعضا. ثم يرى المتكبرين والمتغطرسين في بركة سوداء مترعة بالأوحال والأقذار، وهم يتقلبون فيها خاشعين. ينظرون من الذل من طرف خفي.

فأما الطبقة السادسة فهي مقابر متراصة- تزخر بالأنين وباللهب، وأعدت لمن أنكروا الله ووجوده.
وفي الطبقة السابعة نظر نهرا من دم يغلي يغوص فيه السفاكون، وقاطعوا الطريق.
وفي الطبقة الثامنة رأى رجال الدين المتجرين به. والذين كانوا يدّعون أنهم خلفاء المسيح الذي أحب الفقر وآثره على الغنى. بيناهم يتساقطون على الحطام تساقط الذباب على العسل، والكلاب على الجيف- ورأى المنجمين والمخادعين والمرائين. وهم يلبسون أثواباً باطنها رصاص يشوي الوجوه، وظاهرها ذهب لامع براق جزاء وفاقا على ريائهم. ودهانهم.
أما الطبقة التاسعة فهي زمهرير تجمد ماؤه، وضم في أحشائه إبليس، (ويهوذا الأسخريوطي) الذي نم على مكان السيد المسيح فدل اليهود عليه. ثم الذين خانوا أوطانهم مسهباً في وصف هؤلاء الخائنين. مفتنا في ذكره ما أعد لهم من جحيم ذي غصة، ومن عذاب أليم.
حراس الجحيم
تحدث المعري عن حراس الجحيم في قلة وفي دعابة. ثم ذكر شيئاً قليلاً من أعمالهم ووظائفهم، على حين أن دنتي ذكر لكل طبقة من طبقات جهنم حارساً أو جملة احراس- وأسهب في وصف أعمالهم وما يصبونه فوق رؤوس المعذبين من ويلات وآلام. وما أوجز المعري فيما أحدثك عنه إلا لأن المعري رجل دعابة وظرف، يريد أن يجتذ القارئ نحوه. وان يعلمه كثيراً من قواعد اللغة ومفرداتها دون أن يحس جفاف تلك الأبحاث كما عهدناه يحاول ذلك في (رسالة الملائكة)
وما أسهب دانتي إلا لأنه رجل موتور ممن شردوه ونفوه فهو يريد أن يرى واتريه يصب من فوق رؤوسهم الحميم. ثم هوغرس (الكنيسة) يهوى أن ينفر الناس عن الخطيئة ما استطاع لذلك سبيلا. فالمعري يقص علينا عمل الزبانية بما حدثنا به عن بشار بن برد. وقد
أعطاه الله عينين بعد الكمه لينظر ما نزل به من النكال. ولكن بشارا يأبى إلا أن يغمضهما حتى تتوارى عنه الوان العذاب، فتفتحها الزبانية بكلاليب من نار. . . كما حدثنا عن الزبانية مرة أخرى إذ يغضب ابليس من حوار بين الأخطل وبين ابن القارح فيصيح فيهم قائلا: ما رأيت أعجز منكم إخوان مالك! فيقولون: كيف زعمت ذلك يا أبا مرة؟ فيقول؛ ألا تسمعون هذا المتكلم فيما لا يعنيه؟ فقد شغلكم وشغل غيركم عما هم فيه، فلو ان فيكم صاحب نحيزة قوية لوثب وثبة حتى يلحق به إلى سقر. فيقولون: لم تضع شيئاً يا أبا زوبعة ليس لنا على أهل الجنة سبيل. فيشمت ابن القارح في إبليس: فيقول إبليس عليه اللعنة: ألم تنهوا عن الشمات يا بني آدم؟ ولكنكم بحمد الله ما زجرتم عن شيء إلا وركبتموه. .
وكم كان المعري طريفاً حقاً إذ يحدثنا عن نداء ابن القارح لمهلهل أخي كليب حينما يقف في جنبات السعير وينادي: اين عدي ابن ربيعة؟ فتجيبه الخزنة قائلين: زد في البيان: فيقول: الذي يستشهد النحويون بقوله
ضربت صدرها إليّ وقالت ... يا عديا لقد وقتك الأواقى
فيقول له خزنتها- انك لتعرف صاحبك بأمر لا معرفة عندنا به. ما النحويون؟ وما الاستشهاد؟ وما هذا الهذيان؟ نحن خزنة النار. فبين غرضك تجب اليه، فيقول: أريد المعروف بمهلهل التغلبي أخي كليل بن وائل الذي كان يضرب به المثل: فيقولون له: ها هو ذا يسمع حوارك فقل ما تشاء:
ذلك جل ما ذكره المعري عن حراس جهنم لم يسهب فيه ولم يطل
فأما دانتي وإسهابه ووصفه الغريب لكل شيطان من شياطين السعير فموعدنا بالحديث عنه العدد القادم.
يتبع
محمود احمد النشوى
في القاهرة. . .
للآنسة فلك طرزى

مصر. .! أي شفاه تلفظ هذه الكلمة ولا تجري عليها ابتسامة وسرور؟. . أي نفس لا

. . .تغتبط لرؤية هذه الدرة الثمينة، ولا تنعم بجوها المعتدل ونسيمها العليل؟
أي قلب لا تسحره هذه النسمات يرسلها الربيع في أنحائها فتنتعش الأزهار والرياحين، وتكتسي الأشجار حلتها السندسية البديعة، يداعبها النسيم فترقص اغصانها، وينبعث من حفيفها هذا الأريج العطري، وذلك العبير الذكي، فيشيع في جو القاهرة روح الحياة، ويسري في عروقها دم الشباب ونشاطه وأي إنسان لم تملك عليه القاهرة حسه بسحرها، وتفتنه بطيب هوائها وعذوبة نيلها، وأي قلب لم تستلبه هذه الغادة الحسناء بفتنتها عند إشراق شمسها في الصباح الضاحي الجميل، وعند غروبها غارقة في لجة من دماء الشفق، تقتتل في حمأتها الملائكة والشياطين.
مصر التي حملتني إليها أجنحة الخيال قبل ان تقلني عربة القطار، مصر التي سحرتني الأحاديث عنها قبل أن تأنس العين بمرآها
أجل! رأيتها! وتمتعت بها اياماً، وقضيت فيها اسبوعاً، وتحققت لي برؤياها أمنية من أحب الأماني التي خفق بها قلبي.
مصر العظيمة الجبارة، مصر الساحرة الفاتنة، تبتسم لي وأنا أطل عليها من نافذة القطار بعين الشغف والوله، هي تبتسم بأنوارها الساطعة، وتضحك بإشراقها المهيب في الصحراء القاحلة، وطلعتها الفتية الجميلة بين باسقات النخيل، والسهول المترامية الاطراف، يسقيها النيل الهادئ الوديع رحيقاً سائغاً شهيا، فترتشف منه حياة قوية فياضة، ويتضاعف من مائه نموها وازدهارها
أي عين لا تطيل النظر في ذلك النهر العظيم تستطلعه أنباء الماضي الحافل، وما تحمله هذه الأنباء من الذكريات المفرحة المؤلمة، وما تخفيه موجاته الهادئة من عبارات التقديس والتبجيل وهو يسير رويدا، حاملا أثقالا مرهقة من الأسرار الغامضة؟ هو يسير كما كان منذ آلاف السنين لا تعوق مجراه تقلبات الأجيال ولا نزعات النفوس. لكنه الآن ينظر بعينيه الحزينتين المغرورقتين بالدموع إلى الانقلاب العظيم الذي وقع لبنيه، ويشعر بهذا الألم القتال يحز في قلوبهم ويدمي أفئدتهم.
لقد شاهد النيل العظيم مجد مصر القديم وأبهة الفراعنة، والآن يشاهد ذل بنيه وخضوعهم، يشاهد زمام أمورهم بين أيدي العدو، ويرى مفتاح ملكها الخالد في قبضته، بعد أن كانت تتقلب موجاته في مدارج العز، وتصطفق بين معالم الفرح والرخاء والأبهة التي أحرزها بنوه الأولون. أما الآن فهو يتقلب متهدماً بين الأسى والألم، كالشيخ ثكل أبناءه الواحد إثر الآخر، فهو صامت خاشع، يميد من ألم الحزن على ما أصابه الدهر في بنيه،. . يكتم لواعجه في غوره العميق، ويخفي دموعه الغزيرة بين طيات المياه فتزيدها اندفاعاً وانحداراً، فتبكي مصر نيلها الجبار، ويبكي النيل وطنه العزيز، وتئن مصر في موسيقى موجه الخافت، وتتوسل إلى الله أن يرفع عنها نير العبودية في أناشيده الناطقة الصامتة .!.
أي مصر!. . لقد طبعت في نفسي صورتك الخالدة، ونقش اسمك المقدس على صفحة قلبي بحروف بارزة لا تنال منها الأيام. أي مصر الحبيبة! أي مصر: يا درة الشرق الغالية، ومعبودة الجميع، لقد ملكتني وجعلت من نفسي أسيرة الأبد لحبك وهواك. .!
دمشق
فلك طرزى
بديع الزمان الهمذاني - 6
للدكتور عبد الوهاب عزام
ويلحق بالديوان شعره في الرسائل والمقامات وذلك في معظمه قطع قصيرة جيدة ثم شعر البديع عامة سهل جيد المعاني منقح الألفاظ يتجلى فيه تهذيب الكتاب، إذا إستثنينا الشعر المرتجل وشعر الألغاز ونحوه مما لا يقام له في الأدب وزن، ولكنه لا يبلغ الدرجة العليا إلا قليلا.
وبديع الزمان عند نفسه وعند الناس كاتب يقول الشعر، ولكنه يرى أن البليغ من أجاد الصناعتين: يقول في المقامة الجاحظية: (أن الجاحظ في أحد شقي البلاغة يقطف. وفي الآخر يقف. والبليغ من لم يقصر نظمه عن نثره، ولم يذر كلامه بشعره، فهل تروون للجاحظ شعراً رائعاً؟
نثر الهمذاني

في القرن الرابع الهجري بلغت الكتابة العربية درجة من الصناعة والتأنق لم تخل بسلامتها ولم تذهب بمعانيها. تولاها كتاب قادرون صرفوها في أغراض شتى، واختاروا من الألفاظ والأساليب الجميل المحلى، دون إغرب ولا اخلال بالمعاني. وتناولت الكتابة كثيراً من فنون الشعر، كالمدح والهجاء والغزل والوصف: إلى ما كان لها قبلا من الموضوعات، فاتسع المجال لذوي الفكر الثاقب والقلب الشعار، لم يقيدهم في النثر ما قيد الشعراء من الأوزان والقوافي والاصطلاحات. وكان كثير من الكتاب يلتزم السجع، ومنهم من يكتفي بالازدواج، وقليل منهم يرسل الكلام إرسالا. وفي هذا العصر نبغ أئمة الكتابة كابن العميد والصاحب والصابي والمهلبي وقابوس، والخوارزمي، وبديع الزمان. ولم يكن بديع الزمان كمعظم هؤلاء وزيرا أو ذا منصب، فلم تستغرق كتابته أمور الدولة وكثرت في رسائله الموضوعات الخاصة والعامة. واستبانت نواح من عصره في السياسة والأخلاق، والآداب وغيرها

وله في الكتاب أصحاب المناصب رسالة إلى أبي نصر المرزبان يقول فيها: كنت أطال الله بقاء سيدي ومولاي في قديم الزمان اتمنى للكتاب الخير، وأسأل الله أن يدر عليهم إخلاف الرزق، ويمد لهم أكناف العيش، ويوطئهم أعراف لمجد، ويؤتيهم أصناف الفضل، ويركبهم

أكتاف العز، وقصاراى أن أرغب إلى الله تعالى في ألا ينيلهم فوق الكفاية، ولا يمد لهم في حبل الرعاية، فشد ما يطغون للنعمة ينالونها، والدرجة يعلونها، وسرع ما ينظرون من عال، بما ينظمون من حال، ويجمعون من مال، وتنسيهم أيام اللدونة، أوقات الخشونة، وأزمان العذوبة، ساعات الصعوبة، وللكتاب مزية في هذا الباب، فبيناهم في العطلة إخوان، كما انتظم السمط، وفي العزلة أعوان، كما انفرج المشط، حتى لحظهم الجد لحظة حمقاء بمنشور عمالة، أو صك جعالة، فيعود عامر ودهم خرابا، وينقلب شراب عهدهم سرابا، فما علت أمورهم، حتى اسبلت ستورهم، ولا غلت قدورهم، إلا خلت بدورهم الخ

ويجمع نثر بديع الزمان الرسائل والمقامات:

1 - الرسائل

لبديع الزمان ثلاث وثلاثون ومائتا رسالة تناول فيها أغراضاً كثيرة.

والرجل دراك حساس، إذا سلط فكره إلى موضوع أضاءت له جوانبه كلها، ثم وضحت أمامه طرائق البيان، فهو مبين عن كل معنى بطرق مختلفة من التصوير والتمثيل، يسايره القاري فيها. وهو معجب متعجب. انظر قوله في بعض السلاطين: (قد علم الشيخ أن ذلك السلطان سماء إذا تغيم لم يرج صحوه، وبحر إذا تغير لم يشرب صفوه، وملك إذا سخط لم ينتظر عفوه، فليس بين رضاه والسخط عرجة، كما ليس بين عضبه والسيف فرجة، وليس بين من وراء سخطه مجاز، كما ليس بين الحياة والموت معه حجاز، فهو سيد يغضبه الجرم الخفي، ولا يرضيه العذر الجلي، وتكفيه الجناية وهي إرجاف، ثم لا تشفيه العقوبة وهي إجحاف، حتى إنه ليرى الذنب وهو أضيق من ظل الرمح، ويعمى عن العذر وهو أبين من عمود الصبح، وهو ذو اذنين يسمع بهذه القول وهو بهتان، ويحجب بهذا العذر وهو برهان، وذو يدين يبسط إحداهما إلى السفك والسفح، ويقبض الأخرى عن العفو والصفح، وذو عينين يفتح إحداهما إلى الجرم، ويغمض الأخرى عن الحلم، فمزجه بين القد والقطع، وجده بين السيف والنطع، ومراده بين الظهور والكمون، وأمره بين الكاف والنون، ثم لا يعرف من العقاب، غير ضرب الرقاب، ولا يهتدي من التأنيب، إلا لإزالة النعم، ولا يعلم من التأديب، غير إراقة الدم، ولا يحتمل الهنة على حجم الذرة، ودقة الشعرة، ولا يحلم عن الهفوة، كوزن الهبوة، ولا يغضي عن السقطة، كجرم النقطة، ثم أن

النعم بين لفظه وقلمه، والأرض تحت يده وقدمه، لا يلقاه الولي إلا بفمه، ولا العدو إلا بدمه، والأرواح بين حبسه وإطلاقه، كما الأجسام بين حله ووثاقه، ونظرت فإذا أنا بين جودين: إما أن أجود بباسي، وإما أجود برأسي، وبين ركوبين: إما المفازة، وإما الجنازة، وبين طريقين: إما الغربة، وإما التربة، وبين فراقين: إما أن أفارق أرضي، أو أفارق عرضي، وبين راحلتين: إما ظهور الجمال، أو أعناق الرجال، فاخترت السماح بالوطن، على السماح بالبدن، وأنشدت؛

إذا لم يكن إلا الأسنة مركبا ... فلا رأي للمضطر إلا ركوبها

ويقول في رسالة كتبها إلى القاضي أبى القاسم يذم أحد القضاة (فولي المظالم وهو لا يعلم أسرارها، وحمل الأمانة وهو لا يعرف مقدارها، والأمانة عند الفاسق، خفيفة المحمل على العاتق، تشفق منها الجبال، وتحملها الجهال، وقعد مقعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بين كتاب الله يتلى، وحديث رسوله يروى، وبين البينة والدعوى، فقبحه الله من حاكم لا شاهد أعدل عنده من السلة والجام، يدلى بهما إلى الحكام، ولا مزكي أصدق لديه من الصفر، ترقص على الظفر، ولا وثيقة احب إليه من غمزات الخصوم، على الكيس المختوم، ولا وكيل أوقع بوفاقه من خبيثة الذيل، وحمال الليل، ولا كفيل أعز عليه من المنديل والطبق، في وقتي الغسق والفلق، ولا حكومة ابغض إليه من حكومة المجلس، ولا خصومة أوحش لديه من خصومة المفلس، ثم الويل للفقير إذا ظلم، فما يغنيه موقف الحكم، إلا بالقتل من الظلم، ولا يجيره مجلس القضاء، إلا بالنار من الرمضاء، وأقسم لو أن اليتيم وقع في أنياب الأسود، بل الحيات السود، لكانت سلامته منهما أحسن من سلامته إذا وقع بين غيابات هذا القاضي وأقاربه، وما ظن القاضي بقوم يحملون الأمانة على متونهن ويأكلون النار في بطونهم، حتى تغلظ قصراتهم من مال اليتامى، وتسمن أكفالهم من مال الايامى، وما ظنك بدار عمارتها خراب الدور، وعطلة القدور، وخلاء البيوت، من الكسوة والقوت، وما قولك في رجل يعادي الله في الفلس، ويبيع الدين بالثمن البخس، وفي حاكم يبرز في ظاهر أهل السمت، وباطن أصحاب السبت، فعله الظلم البحت، وأكله الحرام السحت، وما رأيك في سوس لا يقع إلا في صوف الأيتام، وجراد لا يسقط إلا على الزرع الحرام، ولص لا ينقب إلا خزانة الاوقاف، وكردي لا يغير إلا على الضعاف، وذئب لا يفترس عباد الله لا بين
الركوع والسجود، ومحارب لا ينهبت مال الله إلا بين العهود والشهود؟ وما زلت ابغض (حال القضاة طبعاً وجبلة، حتى أبغضتهم ديناً وملة

وكتب في كتاب لم يعجبه إنشاؤه وخطه: (الكتاب وصل، حجم هائل، ليس وراءه طائل، وخط مجنون، لا يدري ألف فيه من نون، وسطور، فيها شطور، دبيب السرطان، على الحيطان، ولفظ أخلاط، لا يدركه استنباط، ولا يفسره بقراط، هذيان المحموم، وهوس الملوم، وسوداء المهموم، وقرأت شطر كتاب لم أدر والله عماذا يعبر، عن أمور سقيمة، أو عن أحوال مستقيمة، لا جرم أني ظننت خيره، ولم أبعد غيره، وجوزت السلامة، ولم آمن ضدها، وذهبت مع الظن الجميل اتفاقاً، ثم ردعت القهقري إشفاقاً، فسألت الله لك المزيد إن كان سلامة والسلام)

وكتب إلى أحد أصدقائه يطلب بقرة:

وقد احتيج في الدار إلى بقرة يحلب درها، فلتكن صغوفا تجمع بين قعبين في حلبه،) كما تنظم بين دلوين في شربه، وليملأ العين وصفها، كما يملأ اليد خلفها، وليزن مشيها سعة الذرع، كما يزين درها سعة الضرع، ولتكن عوان السن، بين البكر والمسن، ولتكن طرح الفحل، رموح الرحل، وليصف لونها صفاء لبنها، وليكن ثمنها كفاء سمنها، ولتكن رخصة اللحم، جمة الشحم، كثيرة الطعم، سريعة الهضم، صافية كالجون، فاقعة اللون، واسعة البطن، وطية الظهر، ممتلئة الصهوة، فسيحة اللهوة، لا تضيق بطنها عن العلف، فيؤديها إلى التلف، ترد الهول ولا تخافه، وتشرب الرنق ولا تعافه، واجهد أن تكون كبيرة الخلق، لتكون في العين أهيب، ضيقة الحلق، ليكون صوتها في الأذن أطيب، وإحذر أن تكون نطوحا أو سلوحا، وإياك أن تبعثها ملوحا أو رشوحا، ولتكن مطاوعة عند الحلب لا تمنع نفسها، ولا تكثر لحسها، وداهية في الرعي، لأقرب سعى، حمقاء على الحوض كالنعجة، لا تأمن من البعجة، ألوفة للراعي الذي يرعاها، مجيبة لصوته إذا دعاها، مهتدية إلى المنزل بغير هاد، ذاهبة إلى المرعى بغير قياد، ولا أظنك تجدها اللهم إلا أن يمسخ القاضي بقرة، وهو على رأي التناسخ جائز، فاجهد جهدك، وأبذل ما عندك).

وهو أكتب ما يكون حين يعظ أو يهجو أو يسخر. وللفكاهة في بيانه مجال واسع به يقول في رسالة شفاعة: (مثلي أيد الله القاضي مثل رجل من أصحاب الجراب والمحراب، تقدم
إلى القصاب، يسأله فلذة كبد، فسد باليسرى فاه، وأوجع بالأخرى قفاه. فلما رجع إلى مسكنه كتب إليه توقيعا، يطلب حملا رضيعا، كذلك أنا وردت فلا إكرام بإلمام، ولا صلة

بسلام، ولا تعهد بغلام، فلما وجدته لا يبالي، بسبالي، كاتبته اشفع لسواي، وهو موصل (رقعتي هذه، وله خصم بينهما قصة لا أسأله في البين، إلا إصلاح الجانبين، والسلام
وله من رسالة إلى فقيه نيسابور في رجل اغتاب البديع، فرد عليه الفقيه: (فان كان لا بد من انتقام واستيفاء، فأعيذك بالله ان تجهل أن آذان الأنذال، في القذال، وهي آذان لا تسمع إلا من ألسنة النعال الأدم، أو ترجمة أكف الخدم، وعلامة فهمها جحوظ العينين، وخدر اليدين. فان تاب، وإلا كررت هذا العتاب).
وله إلى قيس بن زهير: (أعوز الصوف فبعثت إليك بفرو فطفقت تلوم، وظلت تقعد في العتاب وتقوم، واراني ما بعدت في القياس، ولا خرجت عن متعارف الناس، فالصوف نفس الفرو، إلا أنه نسيج، والصوف نفس الفرو إلا انه حيج، فكل فرو صوف، وليس كل صوف فروا، فان أنصفت وجدت الفرو فطرة، والصوف بدعة، وإن نظرت رأيت الفرو صوفا وزيادة، فكان نعمى وسعادة، والفرو وبر في الشتاء ونطع في الصيف، فان قرسك البرد فالبسه وأنت قيس، وان غشيك المطر فاقلبه وأنت تيس).
وبديع الزمان ليس متكلفا في بيانه، لا يحس القارئ جهد في اختيار الألفاظ أو سياق الأساليب، ولكنه يلتزم السجع في معظم كتابته سنة كتاب عصره.
وقد عاب الجاحظ في المقامة الجاحظية بقلة الصنعة في كلامه بعد أن عابه بأنه لا يحسن الشعر قال: (فهل ترون للجاحظ شعرا رائعا؟ قلنا لا. قال: فهلموا إلى كلامه فهو بعيد الإشارات، قليل الاستعارات، قري العبارات. منقاد العريان الكلام يستعمله، نفور من معتاصه يهمله، فهل سمعتم له لفظة مصنوعة، أو كلمة غير مسموعة؟)
ب - المقامات
يقول الهمذاني في رسالة يعيب فيها شعر الخوارزمي: (وما كنت لأكشف تلك الأسرار، وأهتك تلك الأستار، وأظهر منه العار والعوار، لولا ما بلغنا عنه من اعتراض علينا فيما أملينا، وتجهيز قدح علينا فيما روينا، من مقامات الإسكندري من قوله إنا لا نحسن سواها، وإنا نقف عند منتهاها، ولو أنصف هذا الفاضل لراض طبعه على خمس مقامات، أو عشر
مفتريات، ثم عرضها على الأسماع والضمائر، وأهداها إلى الأبصار والبصائر، فإن كانت تقبلها ولا تزجها، أو تأخذها ولا تمجها، كان يعترض علينا بالقدح، وعلى إملائنا بالجرح، أو يقصر سعيه، ويتداركه وهنه فيعلم أن من أملى من مقامات الكدية أربعمائة مقامة لا مناسبة بين المقامتين، لا لفظا ولا معنى، وهو لا يقدر منها على عشر حقيق بكشف عيوبه والسلام)
ومثل ذلك في رسالة إلى أبي المظفر بن أبي الحسن البغوي ويقول الثعالبي (فوافاها (يعني نيسابور) في سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة ونشر بها بزه، وأظهر طرزه، وأملى أربعمائة مقامه نحلها أبا الفتح الإسكندري في الكدية وغيرها)
وكذلك يقول الحصري في زهر الآداب أنها أربعمائة مقامة. والذي بأيدينا من هذه المقامات اثنتان وخمسون. فهل ضاعت المقامات إلا هذا المقدار؟ ارجح أنه أملى في الكدية أربعين وحرفت الكلمة إلى اربعمائة، وتتابع عليها النساخ. وذلك أنه يبعد أن يضيع هذا العدد من المقامات على كلف الناس بها، ولأنه في رواية الحصر عارض بالمقامات الأحاديث الأربعين لابن دريد. ثم هو يقول إنه أملى هذه المقامات في الكدية. ونحن إذا عددنا المقامات التي فيها كدية صريحة وجدناها خمسا وثلاثين. وجائز أن يكون البديع قد اعتبر خمسا أخرى من مقامات الكدية، فان صح هذا فقد أملى أربعين في نيسابور. ثم أملى الأخريات بعد كالمقامات الست التي فيها مدح خلف بن احمد.
يتبع
عبد الوهاب عزام
من طرائف الشعر
الأوبة
للأستاذ خليل هنداوي
فرجِّى الخير وانتظري إيابي
إذا ما القارظ العنزى آبا!
- شاعر عربي -

لا ترتقبي إيابه أيتها الحسناء!
فقد انتزعته من ذراعيك عرائس البحر
أغوته بفتنتها وأغرته بروعتها.
لله ما أقسى هذه العرائس الزرق العيون!
- خرافة الأقدمين -
لا تنتظري إيابه أيتها الحسناء
فقد سلبته من ذراعيك عرائس الصحراء
فتنته ببسمتها، وأغوته برقتها.
لله ما أقسى هذه العرائس الشقر الشعور!
- الناظم -
لا تَسُحي الدموعَ حزنا عليه ... فشهيد الصحراء سوف يعود
إنما مثلنا تود غذاءً ... تشتهي القوتَ وهو عنها بعيدُ
مرَّ والشمس للغروب تَهادى ... وتمشَّى في جوفها كخيال
أفق اسعُ تلوح عليه ... صور العابرين مِثلَ الظلال!
أيها الواصلُ الثرى في فلاة ... يملأ الصمت جَّوها والسكون
لا تسر في الفلاة سيراً وئيداً ... تتيقظ عليك منها العيون
لا تسطر على الرمال رسوماً ... لا تعكر فيها صفاء الليالي
صفحاتُ الصحراءِ - لو رحتَ تدري ... صفحاتٌ مقرونةٌ بالجلال
ها هنا ليس للحياة مقام ... ها هنا ليس للحياة ربوع
كل شيء مستسلمٌ لفناء ... فتأمل كيف الحياة تجوع؟
حيثما سرت لا ترى من صديق ... مؤنسٍ، غير ظلِّك المشؤوم
لمَ ترتابُ في الرسوم وهذا ... كله وطء رسمِكَ المرقوم
لا خريف الصحراء - إن جاء يوماً ... بخريف، ولا الربيعُ ربيعُ
قد تساوت فيها الفصول، وجاعت ... فتأمل كيف الربيَعُ يجوع
سكنتْ في تلولها غانياتٌ ... باسماتُ الثغور، شُقْر الشعور
نشرها عَّبق الجواَء عبيراً ... فتروَّحْ في الجو نشر العبير
وكأن الواحات فيها حسان ... يترقبن أوبة الأحباب
كلما أقعدَ المسافرَ يأس ... لوحت غادة له بالشراب
لا تروَّعن يا حسان الصحارى ... انه ضارب لكن لقاء
ذرنه يبتغي الطريق قليلا ... أين يرجو في داركن اهتداء
كم شباب في القفر قد عصرته ... وأناس طوتهمُ الصحراءُ
رأت الأرضُ والسماءُ ولكن ... ما استجابت أرض لهمُ أو سماءُ
انها مثل غادة سعرتها ... شهوات الأرواح والأبدان
. . .لا تحاول من الوصال فراراً ... هي مشتاقة إلى إنسان
ان أحبتك يا مسافر فانزل ... في حماها واهَجعْ وخلَّ الإيابا
انها تعصر الضجيعَ ولا تزْ ... دادُ بعد الوصال إلا التهابا
نام لا يرتجى إليك إياباً ... وغفا، لا يعي من الإعياء
أنبئيها يا ريح إن فتاها ... عشقتهُ عرائس الصحراء
لا تسحي الدموع حزناً عليه ... فشهيد الصحراء سوف يعود
أنها مثلنا تود غذاء ... تشتهي القوت وهو عنها بعيد
دير الزور
خليل الهنداوي
على مذهب ابن أبي ربيعة
ما هو الكون؟!
خلق الله للجمال قلوباً ... اجتباها من صفوة الشعراءِ
سكبَ النور في قلوبهم السو ... دِ فعادت تموج بالأضواء
واستحالت مرائيا يعكس الكو ... ن عليها ما عنده من مَراء
واقفاً ناظراً محيّاه فيها ... في غرورٍ كوقفة الحسناء!
ما هو الكون غير ذاك الضعيف ال ... حَوْل يسطو به على الأقوياء؟

ما هو الكون غير ذاك الذي يش ... فى به الداء، وهو عين الداء؟
غير ذاك الذي عليه تَلاقى ... ضربات السرَّاء والضرَّاء
غير ذاك الذي به تعثر الدُّن ... يا على مرطها من الخيلاء
غير ذاك الذي به الحب والبغ ... ضاء بين الأحباب والأعداء
غير ذاك الذي امتحن اللَّ ... هـ قلوب العصاة والأتقياء
غير ذاك الذي يلوذ به النس ... ل ويُغرَى الآباء بالأبناء
غير ذاك الذي يصير به الكو ... ن نعيما على بساط اللقاء
وهو ذاك الذي يصير به الكو ... ن جحيما إذا طواه التنائي
غير ذاك الذي تجمَّع فيه ... ما وعى حسنه من الأسماء
غير ذلك الذي إليه ومنه ... كل ما في الوجود من أشياء
ما هو الكون غير فتنة حوا ... ء وما في حواء من إغراء؟
ليت شعري أكان للكون معنى ... لو أتى آدم بلا حواء؟!
يا نهوداً كأنهن حِقاقٌ ... من بقايا صناعة القدماء!
تعبت جاذبية الأرض فيها! ... وأنيطت بها نجوم السماء!
وحلال العيون ليس بأشهى ... من حرام النّهود تحت الكساء
وهما خير ما تكشف عنه ال ... حسنُ من فتنة ومن إغواء
غير أن العيون أمضى قِسيًّا ... في شغاف القلوب والأحشاء
غير أن العيون أذكى حريقا ... في الشراسيف والصدور الدواء
غير أن العيون أعصف بالقلب ... وأهدى في مظلم الأهواء
غير أن العيون ألعب بالسّح ... ر وأقوى في البعث والإيحاء
غير أن النهود أبهج في العين ... وأندى على القلوب الظّماء!
مُتعة الطَّرف ما يُمثِله النه ... د من الهمس أو من الإيماء!
رافع الرأس دأبه يتحدّى السِّم ... ثر في عزَّة وفي كبرياء!
شيمة الحر لا يطيق احتمال الضِّي ... م من ظالم من الرؤساء
يكرع الطرفُ جُهده منه في ما ... ء شهى لكن بلا إرواء
سرق الروض من نَدَاه فأخفى ... بعض تفَّاحة من استحياء
هو سر الأسرار يستره الكو ... ن ويبديه في تقى وحياء!
حُلُم في عيون من أسعد الل ... هُ ونار في أنفس الأشقياء!
في فم العاشق المدلَّه شهد ... حضرمي، أو بابليُّ طِلاء
وحياة تمصها شفة الطف ... ل غذاء يفوق كل غذاء
نَغَم كلّه وسحر وشعر ... ومزيج من الندى والضياء!
عظمت دولة الجمال وعزَّت ... وتعالى ما فيه من أسماء
بعض أسمائه يضيع به الده ... ر فَناءً وماله من فناء
نفذت من أعماقه حكمة البا ... ري وضاعت وساوس الحكماء!
والسعيد السعيد من شمَّ منه ... أرجا من حديقة غناء
والسعيد السعيد من شهد الل ... هـ على لوح نوره الوضاء
رب غاوٍ يلومني في نشيدي ... وهو لا ينتهي عن الفحشاء
خاشع الطرف مطرق الرأس يمشي ... بين خلين سمعةٍ ورياء
يظهر الفكر وهو في السر يغشى ... ما تندَّى له جبين الحياء
وأنا الطاهر السراويل والبُرْ ... د نقيُّ القميص عف الرداء
ليس مني الفسوق، تأباه في جس ... مي دماء الجدود والآباء!
ينهل الحسن من غرامي ولكن ... هو صديان يلتظى من إبائي!
كل حبيّ طهْرٌ وقدْس وتسبي ... ح لرّبي وصيغةٌ من دعاء
أنا عبد الجمال حرَّرْتُ في مع ... بده مهجتي بلا استثناء
مهرقا في محرابه ذوب قلبي ... ما تراه مضرجاً بدمائي؟!
أعبد الله فيه: آية الاقتدار والإنشاء
إن يكن في الحدود جسمي فروحي ... تتهادى في العالم اللانهائي!

نزيل القاهرة

علي احمد باكثير

بين شاعر ومصور
مشروع زواج
بقلم محمد روحي فيصل
جلس الصديقان يتسامران بعد العشاء، وقد انبسطت أعضاؤهما فوق الأرائك الناعمة الوثيرة، يرسلانها على هواهما، ثم يعبثان بما ينشأ عن دخان التبغ في الفضاء من منعرجات وأشكال. . .
وتلك ساعة حلوة عذبة، تنشرح لها الصدور، وتشرق فيها الوجوه، وتنطلق فيها الألسن بالكلام، وتجيش فيها القلوب بنوازي الحياة وشتى العواطف والأهواء، وكلها تنزع إلى الظهور والإفصاح، وتطلب السفور والإعلان من غير التواء ولا تحجب. وكان ضوء المصباح نحيلا شاحباً، يضطرب كالمحتضر على جدران الغرفة الرحبة، ثم لا يكاد يبين ما يزينها: من طنافس مزركشة وأسلحة مفضضة. إنما يبرز إلى النصف بين الظلال الفاحمة رسم امرأة فتية قد اتخذت وضعاً مائلا نحو الأمام كأنما هي تتسمع صاغية، وضاحة المحيا، صبوحة الوجه في عينين زاهيتين، وفم مطبق مرهوب تطفو عليه ابتسامة حيرى ذات معان!! وكان الكرسي الصغير والنعال الدقيق المبعثرة ههنا وههنا توحي للخاطر بوجود طفل وليد في الدار، ومن الغرفة المجاورة كانت تنبعث الحين بعد الحين أنغام شجية، وموسيقى متسقة منسجمة، إذ تهدهد الأم الرؤوم فتاها كي ينام. فيمتلئ الجو بالنشيد روعة وجمالاً، ويشيع فيه عبير اللذة والهناء، فيصيح الشاعر مهتاجاً: (لك الحق يا أخي أن تتزوج وأن تنعم بالزواج، فليست سبل السعادة كثيرة متشعبة. إنها هنا على مقربة منا. . . بربك التمس لي فتاة أتزوجها!)
المصور - أنا ألتمس لك فتاة؟! تالله لن أخوض غمار ذلك أبداً
الشاعر - ولماذا؟
المصور - تسألني لماذا؟ فاعلم أن أصحاب الفن ما ينبغي أن يتزوجوا، وما ينبغي أن يكون لهم في الحياة شركاء
الشاعر - يا للعجب! تقول ذلك ولا تخشى أن يغور نور المصباح وتنقض على رأسك الجدران. إن حياتك الزوجية نصب مائل للسعادة المنشودة والنعيم المقيم! ومثلك فيما تزعم
كمثل أولئك الأغنياء المترفين يكنزون المال ويضاعفون الثروة من آلام الآخرين وشقاء العاملين، ويستطيعون نار الشتاء حين يذكرون البؤساء الذين لا مأوى لهم ولا نار عندهم!!
المصور - قل ما تشاء، شبهني بما تهوى، فلن أكون لك إلا الصديق الوفي النصوح الذي يرى الخطر فلا يقف مكتوف اليدين متبلد الحس، جامد الشعور
الشاعر - أراك تسرف في كره الزواج إسرافاً كبيراً مع أني استروح أريج السعادة هنا كما أتنفس الهواء الطلق في الحقول!
المصور - نعم إني سعيد كما تقول، أحب زوجتي حباً جما وأرى فيها وفي ولدي كل جمال الوجود والحياة. لقد كان زواجي مرفأ هانئاً آمنا تحفه المياه الوادعة، أقلني وما زال يقلني إلى ما أصبو إليه من مواطن الراحة والسلام. وإنتاجي أحصب وسما، ولعل خير رسومي قد أبدعتها في عهد الزواج. . .
الشاعر - وما بالك تنأى بي إذن عن عالم السعادة؟
المصور - ها. . . إن السعادة التي أنعم في أحضانها إنما هي أعجوبة من أعاجيب القدر، لا يسمح بها الزمان، ولا تجود بها الطبيعة على الناس جميعا. وأنا كلما أدركت ماهية الزواج فرحت لهذا الحظ الضاحك الذي حباني به الإله الكريم. فحالي تشبه حال من فطن للهوة السحيقة المخيفة بعد أن اجتازها فأعجب بشجاعته ومضاء همته، وشكر الله على سلامته!
الشاعر - وما هي مساوئ الزواج يا أخي؟
المصور - أولى المساوئ وأعظمها أن الأسرة تستهلك المواهب وتميت الإبداع، وهذا أمر له وجاهته بلا ريب في حياة الفن الجميل. يكون الزواج استجابة طبيعية للغريزة الكامنة الحمراء، وقد يعلى شأن بعض الرجال ويوسع إطار خبرتهم، ويدنيهم من الأرض والمدنية، ثم لقد يكون ضرورة من ضرورات المهنة والمعاش. أما الفنانون من شعراء ومصورين ونحاتين وموسيقيين لا يمتزجون بالناس ولا يدخلون المجتمع، وإنما

يعيشون على حافة الحياة يرقبونها عن كثب ويتأملون خطوطها وألوانها ثم يسجلون مشاهداتهم ويبدعون آثارهم. فالمتزوجون فيهم على هذا ينبغي أن يكونوا قلائل نادرين هذا (ديلا كروا) العظيم الذي تعجب به وتهيم برسومه قضى عمره الطويل أعزب يدب وحيداً بين جدران بيته. لقد
خطرت البارحة على (شانروازى) ومتعت النفس بحديقتها النضرة المتزهرة. إنه ظل عشرين عاماً يغدو بها وبروح لا مؤنس له غير هديل الحمام وتغريد العنادل. ترى ما قيمة إنتاجه لو كان أباً يهتم للكسب والأولاد، يربيهم ويعني بتعليمهم، وقد يمرضون فيسهر على مداواتهم ولا ينام؟!
الشاعر - ذكرت لي ديلا كروا مثلا، فهلا ذكرت فكتور هوجو. . . أتعتقد أن شؤون الأسرة قتلت ملكاته وأخذت عليه سبيل الإنتاج الأدبي الخالد؟
المصور - أنا لا أرى ذلك ابداً، ولكن الفنانين المتزوجين ليسوا كلهم عباقرة تهضم الفن والعائلة قواهم النفسية. . .
الشاعر - ما عجبت لشيء عجبي لحكاية متزوج سعيد لا يحب لغيره إلا العزوبة والوحدة!
المصور - إن الحكم الذي أضعه بين يديك ليس مصدره حياتي الخاصة! إنما كونته عندي تلك الشرور القائمة في كثير من الأسر التي عرفتها واتصلت بها. والباعث على الشرور التباين العقلي والنفسي بين الفنان وزوجه. أتذكر ذلك النحات الماهر الذي ترك الأهل والوطن وهاجر إلى حيث لا يدري مصيره أحد من الخلق؟ لقد كان يعبد مهنته ويفنى فيها وقته وحواسه، ولكن زوجه الذكية الحسناء كانت تريده على أن يحيط حسنها بهالة من الثروة والجاه، فطفق النحات يكد ويعمل طوال عشر سنين، وربما تدفع به وبنفسها في بعض الأماسي إلى الأبهاء الرفيعة الأرستقراطية تدخلهن واحدة بعد أخرى وتذيع فيهن مالها وبهاءها، ولقد تقطع عليه عمله في النهار لتزور ويزور صويحباتها، ثم يرتادان معاً أماكن اللهو ومجالس الأنس. ستقول إنه يستطيع لو شاء ألا يحقق مناها، ولكن الزواج في طبيعته يضطرنا إلى أن نؤثر جانب الرفق واللين على جانب الشدة والعنف. لا أنكر أن هواء البيت إنما نتنفسه على الرغم منا، ولو لم يكن فيه ذرة من القوة والمثل الأعلى لثقل علينا ضغطه وكثافته. إن الفنان ليودع في آثاره كل ما يملك من جهد وفكر، ويجرد لهذا الغرض العزم والإرادة، ولكنه يقف من توافه الحياة موقف العاجز الضعيف، يلين لزوجته حتى المهانة، ويخنس لسلطانها حتى العبودية، تأمره فيمضي في صمت وتقول فيفعل في هدوء. على انه قد يثور إذا اطرد الاستبداد واشتدت العبودية، فهذه العصائب المانعة للنور ان هي عاقته عن الإنتاج الفني لا يلبث ان يطرحها في نفور كما فعل المثال المهاجر، وقد
حزنت الزوجة لهذه الهجرة الفجائية فتساءلت (أأكون أنا الجانية عليه؟ هل من إساءة وخزته بها؟) بلى! إنها لم تعمد إلى الإساءة عمداً، وإنما جرت مع طبيعتها الطائشة الغريرة دون ان تفقه زوجها الحساس. فليس يكتفي ان تكون المرأة ذكية حصيفة لتصلح شريكة الفنان في الحياة، بل ينبغي لها في النزعات نكران الذات والتضحية بالنفس، وهذا ما لا تجده عند امرأة جاهلة بهرتها لذاذات الدنيا وغشيتها الأنانية!! إنما يرغب النساء أن يكن رشيقات ساحرات، وأن يتزوجن وجيه القوم كي يظهرن إلى جنبه متأبطات ذراعه. فأما الفنان الصناع فلا يجد متسعاً من الوقت حتى يتبرج مختالا كما يتبرجن مختالات فخورات، أرأيت كيف تشقى الاسر وينتابها الألم؟ أعرفت كيف يسقط الزوج ضحية الجلاد الأعظم. . . وبالأمس زرت (دار حنتى) الموسيقار وكان يسمر مع خواته الكثير، فطلبوا إليه فيما طلبوا أن يعزف على البيان، فقام يرجع لحنا سائغا طرب له الحاضرون وصفقوا أيما تصفيق، ولكن زوجته ما لبثت أن شرعت تتحدث في خفوت، فما زال صوتها يعلو حتى ملأ الغرفة وشغل الناس، فقطع الموسيقار لحنه ثم التفت إلي وهمس في أذني (هكذا تصنع معي على الدوام. إنها لا تطرب للموسيقى.!)
الشاعر - سهوت عن أمر جليل. إن الزواج خطرة هي لحظات الخور والملال، يتشاءم فيها الفنان ويشك في نفسه وفي قيمة فنه، فالمتزوج إنما يرى بقربه قلباً حبيباً يبثه أشجانه وشكوكه. والطفل؟ هذه الابتسامة البريئة التي تتألق على وجه الغض، أليست تعزى الشيخ وتجدد شبابه، ولك ما يخسره الفنانون يربحه أبناؤهم من بعدهم. فهذه

الشعرات البيضاء التي تتساقط في المشيب يرونها تنبت سوداء متجعدة على رأس مستدير بديع
المصور - وكيف يستطيع الشيخ الواهن إطعام الطفل الصغير؟
الشاعر -. . . . وعلى كل حال فالفنان إنما خلقه الله للزواج قبل أن يخلقه للفن، فإذا لم يتزوج كان في الدنيا كالمسافر الجواب قد أتعبه التشرد فسكن إلى غرفة من غرف الفندق كتبت عليها هذه العبارة المبتذلة (للإيجار ليلة أو شهر)
المصور - ولكن هذا المسافر المتنقل لن يتذوق طعوم اللذات.
الشاعر - كفى! لقد اعترفت بأن في الدنيا لذات. . .
وبدا للمصور فنهض من مكانه إلى درج رسومه يلتمس منه كتابا مخطوطاً بالياً ثم عاد وقال (أما المناقشة على هذا النحو فلن تفيد أبداً. لقد بسطت لك رأيي ولكنك تأبى إلا الزواج، فهذا كتاب خطته يد متزوج سعيد لابس أسر الفنانين ودرس ما يكابدون من أسقام، ثم صور ذلك تصويراً طريفاً دقيقاً، ولم يطبعه بعد، فاقرأه بإمعان فهو رادك بلا ريب إلى جادة الصواب. . .)
عن (أزواج الفنانين) بتصرف
محمد روحي فيصل
في الأدب الفرنسي
الدوق دي لاروشفوكو -
للدكتور حسن صادق
أطاع الملكة مكرها، ثم عاد إلى (فرتي) ينتظر تغير الحال ليحقق آماله الكثيرة. ومات ريشليو في عام 1642، فتحفز لاروشفوكو للمطالبة بثمن عطفه على الملكة ومساعدته إياها. وزعم أنه كان يكره هذا الوزير الذي كسر شوكة النبلاء، فانه أنصفه في مذكراته فقال: (فجعت الدولة في هذا السياسي الكبير. كان عظيماً في مقاصده، ماهراً في إنفاذ خططه، وقد ضمن بأعماله المجيدة الخلود لذكره)
هذا الشاب الخيالي الذي عرف ريشليو كيف يكبح جماحه دون أن يقسو عليه، أصبح أيام الوصاية على العرش يسعى وراء مصلحته الذاتية ليس غير.
الرجل الطموح
لما مات لويس الثالث عشر وأقيمت زوجه آن دوتريش وصية على ابنها لويس الرابع عشر، فرح الملتفون حولها وتطلعت نفوسهم إلى تحقيق مطامعهم على يديها. ورأت هي منهم ذلك فجادت عليهم بالوعود وتركتهم في آمالهم ينعمون، ثم وضعت أزمة الدولة في يد الكاردنيال مازاران صنيعة ريشليو عدو النبلاء والعظاميين ولم تأبه لرغبات لاروشفوكو الذي أظهر الوفاء لها في ظروف كثيرة، وهو يقول في مذكراته عن ذلك: (قضيت عشرة أعوام في خدمتها، وخاطرت بثروتي وحريتي في سبيل راحتها وحريتها حتى قيل عني إني شهيدها. وكثيراً ما قالت لي إنها لا تجد في البلاد ما تكافئني به على ما قدمت من معروف). ولكنها لما ملكت زمام الحكم نسيت قولها تمام النسيان
ولما يئس النبلاء من وعودها، كونوا فيما بينهم جمعية سرية ترمي إلى القضاء على سلطان الوزير مازاران واختاروا الدوق دي بو فور رئيساً لهم. وانضم إليهم لاروشفوكو اسماً دون أن يوافق على سلوكهم وخطتهم، وأصبح البلاط حزبين: حزب الوزير وحزب الدوق دي بوفور. ولأجل اكتساب عضد الملكة الوصية على العرش، تقدمت الجمعية إلى لاروشفوكو أن يرجو من الملكة إصدار العفو عن صديقتها الدوقة دي شفريز حتى تعود إلى البلاد، فاطاع لاروشفوكو ومازال بالملكة حتى أجابت سؤله وأمرته بالذهاب إليها حاملاً
هذا الخبر السار، ففرح وقال في نفسه (أجابت هنا الطلب، وستجيب دون شك مطالبي الأخرى)
أسرع إلى مقر الدوقة وأدلى إليها بما حدث في البلاط أثناء غيبتها، ورجا منها أن تصبر على مازاران، فان أرضى رغباتهما وحقق آمالهما تركته وشأنه، وان أبى عليهما ما يطلبان شاكسته
ولكنها لم تكد تطأ أرض باريس حتى نسيت قول لاروشفوكو وحاولت عزل الوزير وإحلال أحد رجالها المسمى شاتونيف محله، وجهرت برغبتها في رد القوة إلى الأسر

العظيمة التي تحبذ آراءها وترضى عن خططها. وقبل أن تقدم على عمل جدي، افتضح أمر الجمعية وألقى القبض على رئيسها في 2 سبتمبر عام 1643 وحبس في فنسين، وأمرت الدوقة بالإقامة في تور. أما لاروشفوكو فلم يمس بسوء، وكل ما أصابه في هذه الحادثة أن الملكة أمرت بأن يعرض عن الدوقة ويخلص للوزير. ولكنه لم يذعن لأمرها ولم يجن من وراء ذلك نفعا

واستمر في البلاط إلى عام 1646 كئيب النفس وسط مسرات البطانة ومرحها، وسعى سعي المجد إلى الحصول على إحدى الرتب العسكرية التي رفض قبولها من ريشليو، ولكن سعيه لم يصب غير الفشل. فدفعه اليأس من بلوغ مقاصده إلى الاتصال بالدوقة دي لونجفيل التي تضمر العداوة للملكة. وهذه الدوقة كانت شديدة الكبرياء مولعة بالمجون والاستهتار، وقيل إنها أحبت أخاها الدوق رانجان حباً فيه إثم كبير، وإنها كانت ترى في هذا الحب البغيض طريقة تميزها من (القطيع الإنساني). ولم يحبها لاروشفوكو، بل تصل بها وأظهر كلفه بها ليستخدمها في سبيل اغراضه. وهو لم يعرف الهوى المحرق كما تقول مدام دي سفنييه وقد سمعه سجريه يقول: (لم أعثر بالحب إلافي القصص الخيالية)

وفي أغسطس عام 1648، قامت ثورة في باريس تعرف في تاريخ فرنسا باسم (ومعناها لغة: النبلة التي يستعملها الصغار عندنا في صيد العصفور، وكانت شائعة في فرنسا وقت قيام هذه الثورة فسميت باسم هذه اللعبة)، ثم امتد الاضطراب إلى الريف، وأشعل الفلاحون في (براتو) نار الشغب. وكان لاروشفوكو قد حصل على حكمها بفضل مكانة أبيه، فقمع هذا الشغب قبل أن يستفحل، ونال بعمله هذا إعجاب الوزير مازاران. ولكنه كان يسعى

إلى شيء آخر غير الإعجاب بعمله، كان يرغب في الحصول على لقب دوقة لزوجه وعلى الأذن له بدخول فناء قصر اللوفر في عربة كآل روهان (وهم من سلالة ملوك بريتانيا) فلما خيب الوزير أمله، انضم في الحال إلى الثائرين على الرغم من رأي والده وأسرته، وأسرع إلى باريس لمقابلة الدوقة دي لونجفيل التي أعدت خطة لأضرام نار حرب أهلية. وقد حاولت أن تضم إليها أخاها الدوق رانجان الذي أصبح أمير كونديه بعد موت أبيه في عام 1646، ولكنها أخفقت لأن الملكة غمرته بالنعم الجزيلة ثمناً لمساعدته إياها

أخذ كونديه بعضد الملكة وأنقذ البلاط من الثائرين وأصبح صاحب الكلمة النافذة فيه، فألحف في طلب المال لنفسه والمزايا لأصدقائه ومن بينهم لاروشفوكو , وأجابه مازاران إلى ما طلب ولكن النبلاء تقدموا إلى الملكة أن تلغى هذه المزايا فألغتها في 10 اكتوبر عام 1649. وفي ذلك اليوم كتب لاروشفوكو في كراسة يذم الوزير ويسخط عليه لأنه (قاوم طموحه مقاومة عنيفة). وجملته الأخيرة تدل على روح النبلاء في ذلك العصر، وبقيت هذه الكراسة مجهولة من الناس حتى عثر بها فكتور كوزان في أوراق كونررا ونشرها

ولما ضاق الوزير ذرعا بكونديه استعمل الخديعة حتى ألقى عليه القبض هو والدوق دي لونجفيل وقد حريتهما في الهافر، وخافت الدوقة دي لونجفيل أن تصير إلى ما صار إليه زوجها فهربت إلى هولانده بمساعدة لاروشفوكو

وفي 5 فبراير 1650 مات والد لاروشفوكو، فاتخذ من إقامة المأتم ذريعة إلى جمع كثير من النبلاء والفلاحين والجياد (700 نبيل، 800 فلاح، 2000 جواد خطبهم واستوقد حماستهم لمحاربة جنود الملك. ولكن هؤلاء قهروا رجاله وأهلكوا زرعه ودمروا قصره في (فرتى). ويقول أحد أصدقائه أن لاروشفوكو لما بلغه خبر الدمار الذي أصاب القصر الناطق بعظمة أجداده، اعتقد أن الدوقة دي لونجفيل ستقدر له هذه التضحية في سبيلها حق قدرها، وبعث هذا الاعتقاد في نفسه سروراً كبيرا. وقبل انقضاء شهر فبراير هدأت الحال وأطلق سراح كونديه ومن معه، وغادر مازاران البلاد حتى تسكن العاصفة

استرد كونديه حريته ولكنه أضمر الشر للوزير والملكة. ولما بلغ لويس الرابع عشر رشده في 6 سبتمبر عام 1651، وأقيمت لهذه المناسبة حفلة فخمة: في قصر اللوفر لم يحضرها كونديه وأعوانه خشية أن تنال الملكة منهم منالا. وعرفت أخته الدوقة دي لونجفيل ميله

إلى إشعال نار الحرب الأهلية مرة ثانية، فشجعته حتى سل سيفه في وجه الملك
يتبع
حسن صادق
العُلوم
يسألونك عن الأهلة - 4
للدكتور احمد زكي
(تتمة)
سطح القمر
ثم جاءت الفوتوغرافيا فمكنت الإنسان في ساعة قصيرة مما كان يتطلب منه أياما طويلة، وقدّرته بمجهود فني مركز قليل، على ما لم يكن يقدر عليه إلا بمجرد قاس منهك كبير، وكانت الفوتوغرافيا في منتصف القرن الفائت في أول نشأتها، فكانت الخدمات الأولى التي أدّتها إلى علماء الأفلاك منقوصة مقصورة. ولكن ما لبثت أن تقدمت هذه بتقدم تلك، ورقب بحاث السماء بحاث التصوير فاستفادوا من كل جديد، وغيروا وحوّروا من الطرق المستحدثة حتى تتفق مع حوائجهم، وزادت تلك الحوائج وتضخمت حتى انفردت بمبحث خاص أسموه الفوتوغرافية السماوية هي اليوم من أهم الوسائل وأقرب الوسائط في دراسة كل ما يحدث في العوالم الدوّارة والشهب السيارة، وللتصوير الشمسي في دراسة النجوم والأقمار ميزات غير الميزة الظاهرة ترجع إلى طبيعة العدسات وإحساس الأفلام. فعين الإنسان مثلا إذا حدّقت في شيء مباشرة أو بواسطة منظار فهي لا ترى من هذا الشيء إلا بعضاً صغيراً من كل كبير، لذلك كان الرسامون القدماء يرسمون القمر بأقلامهم من خلال المنظار قطعة قطعة، وخريطة خريطة، ثم يصلون بين هذه الخرائط لتتم الوحدة، وذلك لأن عيونهم لا تستطيع أن تُبَوئر من المنظور إلا منطقة قليلة، أما عين الكمرة فأوسع من عين الآدميّ واشمل، فنظرة واحدة منها تعدل نظرات المئات من الناس. وعين الكمرة يتراكم فيها أثر المنظور بتطاول الزمن، وليس هذا لعين الإنسان، فأنت تنظر الشيء القليل الضياء فلا تراه أبداً أو تراه مبهما، ولا تفيدك إطالة النظر إليه إلا تعب العين فزيادة الإبهام، أما الأثر في الكمرة فكيميائي فللزمن عامل فيه، فكلما زاد التعريض زاد الأثر فبان الخفي واتضح المبهم. وقد رأت الكمرة وترى في السماء أجراما عميت عنها النواظر. وعين الكرة تحس أضواءً من أنواع لا تراها العين، فالعين لا ترى إلا المرئيّ
من الطيف، أما فوق البنفسجي وما دون الأحمر فلا ترى منهما شيئاً، وهي أضواء في دراسة السماء لها خطر كبير تضطلع به الكمرة بكفاية محمودة
والقمر أول أجسام السماء التي اتجه إليها البحاث في التصوير الفوتوغرافي، اقترح ذلك أراجوا عام 1840 ولكن انفذه الدكتور درابر في نفس العام، وكانت طريقة التصوير المعروفة عندئذ هي طريقة داجير يستخدمون فيها لوحاً من نحاس مُفضَّض يحسّسونه ببخار اليود والبروم، ونجح بها تصوير القمر لأول مرة نجاحاً خطيراً، ولم يكن خطره في حسن الصورة الناتجة وشدة وضوحها وكثرة تفصيلها، فهي لم يكن لها ذلك، وإنما كان خطره في ان القمر أمكن تصويره من ضوئه، فقد كان الناس في شك من احتواء هذا الضوء على أشعة الشمس التي تؤثر في أملاح الفضة
وجاءت طريقة التصوير بالكلّوديون وهو النتروسليولوز مذابا في كحول وأثير، يضاف إليه يودور الصديوم أو البوتاسيوم مع قليل من البرومور، ثم يُفرش على ألواح من زجاج تغمس في الظلام في حمام من أزوتات الفضة فيتكون عليها بذلك يودور الفضة وبروموره وهما الملحان الحسّاسان.، وكان لا بد من تجهيز اللوح قبيل التصوير مباشرة. استخدم هذه الطريقة كروكس وديلارو فجاؤا بصور أقصر زمنا وأوضح تفصيلا. ثم خطت الفوتوغرافيا خطوتها الثالثة في التقدم فصنعت الألواح من الجيلاتين بدل الكلوديون فخرجت إلى الأسواق ألواح جافة. ثم حلت الأفلام محل الزجاج. ولا دراك الفرق بين طرق التصوير الثلاث الفائتة نذكر أن متوسط المدة اللازمة لتعريض اللوح في طريقة داجير هي نصف ساعة، وفي طريقة الكلوّديون عشر ثوان إلى خمس عشرة ثانية، وفي طريقة الجلاتين ثانية إلى جزء من مائتين من الثانية. والزمن له قيمته في تصوير المتحركات ومنها الأجرام السماوية

وتتخلص نتيجة الفحص البصري والفوتوغرافي في تمييز أشياء ثلاثة على سطح القمر هي أظهر ما فيه
اما الشيء الأول فسلاسل من الجبال متباينة الأشكال، بعضها بالغ العلو طويل السلسلة، وبعضها مفرطح متصل يكون نجادا واسعة، وبعضها متقارب الجبال متجمعها، وبعضها كبير الميل عميق السفح رفيع القمة. وقد توجد في الوديان تلال كالاهرام منثورة مبعثرة،
وقد تعلو وتميل بغتة حتى لتشبه أكثر مناطق الأرض وعورة، ومن أغرب ما في تلك السلاسل جسور قليلة العلو إلا أنها مسرفة في الطول تمتد بين الجبال فتربط الكبير والصغير والمجموع بالمنثور.
أما الشيء الثاني فجبال ذات فوهات كالبراكين هي في الواقع أخص مظاهر السطح، وهي فوهات أوسع كثيراً من فوهات البراكين الأرضية، فجبل كوبرنكس يبلغ قطر فوهته فوق الخمسين ميلا، وتختلف تلك الجبال الفوهية في مظهرها، فبعضها فوهته كالحائط المستدير، وبعضها تكسرت فوهته فظهر ما بقي منها كالجبال تجمعت في استدارة حول حفرة الفوهة، وبعضها عمقت حفرته أو ضحلت أو تقورت أو تقعرت، وبعضها انخفض قاع حفرته عن مستوى الأرض بظاهر الجبل، وبعضها قاربه أو علا عنه كأنه فنجان امتلأ، وتعزى أصول هذه الجبال الفوهية القمرية إلى مثل أصول البراكين الأرضية، ومنها ما يركب بعضه بعضا كما تعلو الحلقة الحلقة ولا تطابقها، فيقال إن الأوطأ كانت بسبب انفعال باطني أقدم
ويميز الإنسان على سطح القمر عدا ما فات أخاديد مستقيمة تستطيل في الوديان في اتجاه واحد فإذا انحرفت عنه فعلت ذلك بغتة وسارت في استقامة جديدة، فاذا اعترضها جبل فوهيّ قطعتهن فهي أجدُّ منه ولادة، وإذا اعترضها جبل عصى فقطع اطرادها ظهرت وراءه دون أن يختلف مسارها. أما طول الأخدود الواحد فقد يبلغ المائة ميل، وأما عرضه فقد يزيد على الميلين، وتعزى هذا الأخاديد فيما تعزى إلى انشقاقات حصلت في السطح وهو يبرد وينكمش
وتتميز على سطح القمر أيضاً شعاعات تخرج من فوهات الجبال فتمتد مئات من الأميال لم يهتد الفلكيون بعدُ كل الاهتداء إلى تفسيرها
وكلما تقدم البحث في القمر وزادت معرفة الإنسان بأحواله خاب الرجاء القديم في العثور على أثر من آثار أناسيّ مثلنا تسكن القمر. بالطبع لم يكن مرجواً أن نرى شخص إنسان على القمر لقصور أجهزتنا الضوئية عن إدراك ذلك، ولكن تلك الأجهزة تتبين على سطح القمر أشياء تقل أطوالها عن نصف ميل، وإذن فلو كان على القمر ناس يسكنونه وفاتتنا رؤيتهم فلا أقل من أن نرى آثارهم، فالمدن لابد أن تكبر عن نصف ميل، وهي لا شك
تتغير خططها فتضيق وتتسع على الزمن، وتمتد إن شرقاً وإن غربا وإن شمالا وإن جنوبا وقد تطول وقد تستعرض، وقد فاتنا إدراك شيء من ذلك بأقوى المنظارات. هذا على افتراض أن الإنسان الذي يسكن القمر مخلوق على مثال إنسان الأرض في حجمه وجرمه، وهو افتراض لا تعززه طبائع الأمور. فانا نعرف إن الجاذبية على سطح القمر أقل منها على سطح الأرض، فهي تبلغ نحو الثمن، فالرجل منا إذا نط على سطح القمر ارتفع إلى نحو ثمانية أمثال ارتفاعه على سطح الأرض فمن اجل اتزانه يرجح أن يكون جرمه ثمانية أمثال جرمه على الأرض. وحكم مساكن الإنسان على القمر كحكمه، فهي إن كانت فلا بد أن تكون كبيرة ضخمة لتتوافق مع ساكن ضخم كبير ولتثقل فتتزن على سطح القمر فلا تندك من اهتزاز قليل. والمنازل الواسعة تؤلف لا شك مدناً كبيرة مديدة أكبر من مدن الأرض وهذا يسهل علينا مرآها، ولكننا لم نر شيئا. على أن كل الأدلة تقضي بخلو القمر من الماء ومن الهواء، وكلاهما لازم للحياة علت أو سفلت. والحياة كما نعرفها لا تكون إلا في درجات من الحرارة محدودة، فهي لا تزيد كثيراً على الخمسين، ولا تنزل كثيراً عن الصفر، والمعروف عن القمر أن نهاره بخمسة عشر يوماً من أيامنا، يظل فيه في مواجهة الشمس يأخذ من حرارتها فتعدو درجته المائة، يتلوه ليل بخمسة عشر يوماً من أيامنا يبرد فيه برودة دون ما تحتمله الحياة بكثير. فالحياة - كما نعرفها - لم يثبت وجودها على القمر، لا

عياناً ولا استنتاجاً، بل ثبت النقيض.
احمد زكي
القصص
البلبل والزهرة
لأسكار ويلد
ترجمة الأستاذ محمود الخفيف
صاح الطالب الشاب قائلا (وعدت أنها سوف تراقصني إن أنا أحضرت لها ورداً أحمر، ولكن ليس في حديقتي كلها وردة حمراء).
فسمعه البلبل وهو في عشه على شجرة السنديان وتطلع إليه في دهشة من خلال الأوراق وأردف الفتى قائلاً وقد اغرورقت بالدمع عيناه الجميلتان (لن توجد وردة حمراء في حديقتي كلها! آه. كم تكون السعادة رهينة بأتفه الأمور! لقد قرأت كل ما كتبه العقلاء ووقفت على أسرار الفلسفة ومع ذلك أرى حياتي يكتنفها الشقاء من أجل وردة حمراء!)
وعندئذ قال البلبل (ها قد لقينا في النهاية محبا صادقا. لقد طالما تغنيت بذكره الليلة تلو الليلة ولو لم أكن أعرفه. ولقد طالما تحدثت عنه إلى النجوم. وهأنذا أراه الآن! إن شعره فاحم كزهرة الخزامى، وان شفتيه لتمثلان في حمرتها الوردة التي يطلب، ولكن تواجده قد أحال لون وجهه إلى لون العاج المصفار، كما أن الأسى قد ترك طابعه فوق جبينه).
وتمتم الطالب قائلا (سوف يقيم الأمير حفلا مساء غد وستكون عشيقتي هناك، فان أنا أحضرت لها وردة حمراء فإنها ستراقصني حتى مطلع الفجر، وسوف تسند رأسها إلى كتفي، وتضع يدها في قبضة يدي. ولكن ليس في حديقتي وردة حمراء، وإذا فسوف أنزوي وحيدا، وستمر بي عشيقتي فلا تأبه لي، وإذ ذاك يتحطم قلبي!) وعاد البلبل إلى حديثه قائلا (ها هو ذا محب وفي حقا! انه يشقى بما أترنم أنا به، وان هذا الذي يعد مبعث الجذل عندي أراه عنده مبعث الهم والألم. حقا ان الحب لشيء عجيب! أانه أغلى ثمناً من الزمرد، وأندر من تلك الجواهر المعروفة بعين الهر، ولا يمكن أن يقوم باللآلئ، كما انه لن يعرض في الاسواق، ولن يوجد عند تاجر أو يوزن في ميزان الذهب)
وقال الفتى (سوف تجلس جوقة الموسيقى في البهو، وسوف يعزف أفرادها على آلاتهم، وعندئذ سوف ترقص عشيقتي على نغمات العود والقيثار، وسترقص في خفة حتى لن
تمس قدماها الأرض، وسيجتمع حولها رجال الحاشية في ثيابهم الزاهية. أما أنا فإنها لن تراقصني، فليس لدي وردة حمراء أقدمها إليها)، وعندئذ ألقى الفتى بنفسه على العشب وغطى وجهه براحتيه واستسلم للبكاء فتساءلت حرباء خضراء، كانت تجري إلى جواره رافعة ذيلها في الهواء (ما الذي يبكي هذا الشاب)؟ وشاركها في تساؤلها فراش كان يرف في شعاع الشمس. حقا ماذا يبكيه؟ (وأعقبتهما أقحوانة، فهمست إلى جارتها في صوت خافت ناعم قائلة (فيم هذا البكاء)؟
وأجاب البلبل قائلا (انه يبكي من أجل وردة حمراء)
فصاح الجميع في دهشة (من أجل وردة حمراء؟!. يا له من أمر مضحك، وصاحت الحرباء الصغيرة ضاحكة منه وفي عينيها معاني التهكم.
ولكن البلبل كان يفهم سر هذا الحزن فجلس صامتاً على شجرة السنديان مفكرا في الحب وما يكتنفه من أسرار.
وبينما كان غارقا في تفكيره، إذ بدا له فنشر أجنحته ذات اللون البني، وارتفع في الهواء، وعبر الحديقة كما يعبر الطيف حتى وقع بصره على شجرة ورد جميلة، فحط على غصن من غصونها، وصاح بها قائلا
(أعطني وردة حمراء فأغنيك أحسن أغاني)
ولكن الشجرة هزت رأسها قائلة (إن وردي كله أبيض، كزبد الموج في بياضه أو هو أشد بياضاً من الثلج الذي يكلل فتن الجبال. اذهب إلى أختي هنالك حول المزولة وستعطيك ما تطلب)
وطار البلبل حتى أتى تلك الشجرة فصاح بها

(أعطني وردة حمراء فأغنيك أحسن أغاني)
ولكن الشجرة هزت رأسها قائلة (إن ورودي كلها صفراء، تحكي في صفرتها شعر الجنية التي تجلس على عرشها الكهرماني، أو هي اشد صفرة من زهرة النرجس التي يسطع لونها في المرعى قبل أن يأخذها المنجل. ولكن اذهب إلى أختي هنالك تحت نافذة الطالب، وربما منحتك طلبتك، فانطلق البلبل إلى تلك الشجرة فخاطبها بقوله: أعطني وردة حمراء فأغنيك أحسن أغاني.
فهزت الشجرة رأسها قائلة (إن ورودي حمراء، كقدم الحمامة في حمرتها، أو هي أشد حمرة من مراوح المرجان الهائلة التي تتماوج في جوف الخضم، ولكن الشتاء جمد عروقي، والصقيع نثر براعمي، والعاصفة قصفت غصوني، ولذلك فسوف لا ألد وردة هذا العام)
فقال البلبل (ان كان ما أطلبه وردة حمراء واحدة، وردة واحدة فقط. أو ليس من سبيل إلى تلك الوردة)؟
وأجابته الشجرة قائلة (هناك وسيلة إلى مبتغاك، ولكنها جد مخيفة حتى أنني لا أقوى على ذكرها).
ولكن البلبل رد بقوله (هات ما عندك فلن أخاف شيئا)
وحينئذ قالت الشجرة (إذا كنت تريد وردة حمراء فعليك أن تبغيها بألحانك في ضوء القمر ثم تفرغ عليها دم قلبك. عليك أن تغنيني، وصدرك مسند إلى شوكة من أشواكي، وعليك أن تقطع الليل كله صادحاً على أن تدع الشوكة تنفذ إلى قلبك حتى يتدفق دم حياتك في عروقي ويصبح لي)
وصاح البلبل قائلا (كثير أن أقدم حياتي ثمناً لوردة حمراء، وحياة كل مخلوق غالية عنده. لشد ما يبهجني أن أجلس في الغابة الخضراء وأرقب الشمس تجري في مركبها الذهبي، والقمر في مخدعه اللؤلؤي. ما أجمل منظر الزهور في عدوتي الوادي وعلى سفوح التلال، وما ألذ النسيم ينشر في الجو عطره الفياح. على أن الحب أحسن من الحياة، وما قيمة قلب طائر اذا قورن بقلب رجل)؟
ونشر البلبل أجنحته البنية وارتفع في الجو وعبر الحديقة كما يعبر الطيف، حتى أتى الطالب فوجده حيث تركه لما يزل مستلقيا على العشب، ولم تجف الدموع في عينيه الجميلتين، فوجه إليه الخطاب قائلا: (أبشر أيها الفتى ولا تحزن فسآتيك بالوردة الحمراء. سوف أبغيها بأغاني ضوء القمر، وسوف أصبغها بدماء قلبي، وكل ما أطلبه منك في نظير ذلك أن تظل وفياً في حبك، فان الحب أكبر عقلاً من (الفلسفة) وان اشتهر بالحكمة، وأشد سلطانا من القوة وإن اشتهرت باليأس. ان أجنحته حمراء كاللهب، وان جسده مشبع الصبغة من ذلك اللون المتوهج، أما شفتاه فحلوتان كالشهد، وأما أنفاسه فعطرات كالعنبر المتضوع.
ورفع الطالب رأسه مصغياً ولكنه لم يفهم ما قاله البلبل لأنه لا يفهم إلا ما يقرأ على صفحات الكتب.
ولكن شجرة السنديان فهمت ما أعيا الطالب فهمه، فاشتد حزنها لأنها كانت تحب هذا البلبل الصغير الذي بنى عشه في أحضانها، ثم توسلت إليه أن يغنيها أغنيته الأخيرة قائلة إنها سوف تعاني آلام الوحشة والعزلة لفقده.
فغناها البلبل أشجى ألحانه، وكان صوته العذب كصوت الماء ينصب من إبريق فضي، ولما فرغ من غنائه نهض الطالب وقد أخرج من جيبه ورقاً وقلما وحدث نفسه وهو يسير في ممرات الحديقة قائلا
(أما ان لهذا البلبل طريقة في لحنه فهذا ما لا سبيل إلى إنكاره، ولكن ليت شعري هل يصحب هذا اللحن شعور؟ أخشى أن يكون هذا الشعور معدوماً، وإذا رجعت إلى الحقيقة فهو كمعظم الفنانين. إن له أسلوباً ولكنه ينقصه الإخلاص لفنه. وانه لن يضحي بنفسه من أجل الغير. ولن يفرك إلا في الموسيقى، وكل إنسان يعلم أن الفن والأنانية صنوان، وعلى أي حال فلن أستطيع أن أنكر عليه ألحاناً جميلة في صوته، ولكنها مع الأسف لا روح فيها وليس ثمة أية فائدة من ورائها).
ودخل الفتى حجرته واضطجع على سريره مفكراً في حبه وبعد هنيهة ظلله الكرى بجناحيه.
ولما أضاء البدر في السماء طار البلبل إلى شجرة الورد، وأسند صدره إلى الشوكة

وجعل يغني طول ليلة والشوكة تنفذ في صدره رويداً رويداً، حتى تدفق الدم من عروقه والبدر ينصت إليه في هدوء.

غنى البلبل أولا عن الحب وكيف يولد في قلب كل صبي وصبية، وعند ذلك أسفرت وردة بديعة في أعلى أغصان الشجرة، وكانت تزداد ورقة في إثر ورقة كما كان يرسل البلبل ألحانه لحنا في اثر لحن. وكان لونها أول الأمر شاحبا كلون الضباب الذي يطفو على صفحة النهر، أو كقدم الصبح إذا تقدم يسعى، أو كجناحي الفجر عند طلوعه، كان كلامه حيال الزهرة في مرآة فضية، أو في صفحة بركة ساكنة. ولكن الشجرة أهابت بالبلبل أن يضغط بصدره على رأس الشوكة قائلة: (أقبل بصدرك على الشوكة أكثر مما تفعل أيها البلبل الصغير وإلا أسفر الصبح ولما تتم الوردة).

وأطاع البلبل فاشتد ضغطه على الشوكة، وكانت ألحانه تعلو شيئاً فشيئاً إذ أخذ يغني عن العاطفة، وكيف تنشأ في نفوس الفتيان والأوانس. وهنا تمشت حمرة خفيفة في الوردة، حمرة أشبه بتلك التي تصبغ وجنة العروس عندما يطبع أول قبلة على شفتي عروسه! ولكن الشوكة لم تكن حينذاك قد وصلت إلى قلبه، فبقي قلب الوردة أبيض، فلن يصبغه بالحمرة إلا الدم المنبعث من صميم قلب البلبل ولذلك صاحت الشجرة بالبلبل قائلة: أقبل بصدرك على الشوكة أيها البلبل الصغير وإلا طلع النهار ولما تتم وردتك).

وزاد البلبل الشوكة ضغطا حتى مست قلبه فاشتد ألمه، وكان غناؤه يزداد ارتفاعا كلما اشتدت حدة الألم، كانت ألحانه تتجه اتجاها غير متزن، إذ كان حينذاك يغني عن الحب كيف يصل به الموت إلى الكمال وكيف يضمه القبر، فلا سبيل إلى تغيره في هذا المثوى الأخير.

وهكذا اكتست الوردة لونا قرمزيا، سرى في جميع أجزائها، وكان صوت البلبل المسكين يتضاءل، وكانت أجنحته ترف وقد مرت غشاوة أمام بصره حتى وصل لحنه إلى صوت خافت وأحس بحشرجة في حنجرته.

وأطلق البلبل آخر نغماته فسمعها القمر الوضئ، فنسى مطلع الفجر وتلكأ في صفحة السماء، وسمعته الوردة الحمراء فاهتزت اهتزاز الغبطة، وفتحت أوراقها لنسيم الصباح، وحمل الصدى هذا اللحن إلى الكهف القائم على سفح التل فبدد أحلام الرعاة وأيقظهم من سباتهم، ثم سبح هذا اللحن خلال اليراع المتمايل على ضفة النهر ومن ثم اتخذ سبيله إلى البحر.

وخاطبت الشجرة البلبل قائلة، ها هي ذي الزهرة قد تمت، انظر بعينك إليها ما أجملها، ولكن البلبل لم يجب فقد لفظ أنفاسه وسقط جثة هامدة بين الحشائش، والزهرة مغموسة في صدره. وعند الظهيرة فتح الطالب نافذته وألقى ببصره إلى الحديقة فصاح قائلا (ياله من حظ سعيد ها هي ذي وردة حمراء. لعمري ما رأيت وردة كهذه في حياتي. إن جمالها ليميل بي إلى الاعتقاد بأنه لابد أن يكون لتلك الوردة اسم لاتيني طويل) ثم ذهب إليها فقطفها.

ولبس الفتى قبعته، وجرى إلى بيت الأستاذ والوردة في يده وكانت ابنة الأستاذ جالسة لدى الباب تلف خيوطا من الحرير الأزرق وكلبها الصغير نائم عند قدميها فخاطبها الفتى قائلا:

(لقد وعدت أنك سوف تراقصيني إذا أحضرت لك وردة حمراء، انظري إلى هذه الوردة إنها أشد الورود في العالم حمرة سوف تضمينها هذه الليلة على صدرك في موضع قلبك، وعندما ندور معاً في رقصتنا ستحدثك هذه الوردة عن مبلغ حبي لك)

ولكن الفتاة عبست قليلا ثم قالت

(أخشى ألا يلائم لونها لون ملابسي، وزيادة على ذلك فقد أرسل إلى ابن أخي رئيس الحجاب بعض الحلي الثمينة وأظنك تعرف أن الحلي أغلى من الزهور).

وصاح الفتى مغضباً:

(لعمري انك ناكرة للجميل، ثم رمى بالزهرة في الشارع فمرت فوقها عجلة فتلاشت وأجابت الفتاة

(ناكرة للجميل؟ يا لك من فظ! ولكن قبل كل شيء خبرني من أنت؟ إن أنت إلا طالب فحسب، وما أظنك قد اتخذت يوما رباط حذائك من فضة كما فعل ابن اخي

رئيس الحجاب، ثم نهضت واقفة ودخلت المنزل.
وقال الطالب وهو يبتعد عن دارها، ما أسخف الحب، أين هو من المنطق وفوائده؟ إنه لن يحقق شيئاً ما، ولن يحدثنا إلا عما لا يمكن حدوثه، وزيادة على ذلك فهو يجعل المرء يعتقد في أشياء لا ظل لها من الحقيقة، إنه في الواقع أمر غير عملي، وما دامت النزعة العملية هي كل شيء في هذا العصر، فإني سوف اتجه ثانية إلى الفلسفة وأدرس العلوم العقلية.
وعلى ذلك اتجه إلى حجرته وتناول كتاباً كبيرا قد علاه التراب، ففتحه وانكب عليه قارئا.
محمود الخفيف
النقد
حول الينبوع أيضاً
إلى الدكتور احمد زكي أبى شادي
أما أنا، فأني أرى اللجاجة ليست تفيد، وما كان مثلي يبغي الغرض، وما كان مثلي يهوى التسرع، وإنما صح ما توقعت ووقعت الواقعة، وإذا أنا أعود فأردد مرة أخرى، ما عرفت الدكتور وإضرابه من إخواننا المصريين، إلا أباة على النقد، يثيرون من أجله المعارك، ويتسارعون بسببه إلى الخصام والنزاع،
فأنا أغتفر للشاعر حدته في الرد، لأن الشاعر أناني بطبعه يأبى أن يسخف له الناس أثره، ويكره من يبخس شيئا من قدره، وأشكر له حسن ظنه بي، ولا أبغي تسجيل هذه الكلمة عليه، ثم أضرب صفحا عن الماضي بأجمعه، وأعيد النظر في ينبوعه من جديد، وأؤكد له أنني قرأته مرة ثانية، وأؤكد له إنني حاولت أن أفهم، وأعوذ باله أن أزعم ان نفسه قد حلت في جسمي، فلست أعتقد بالحلول. ولا أزعم أن عواطفي قد اصطبغت بلون عواطفه فهذا أمر يعرف استحالته من الوجهة (البسيكولوجية) وأسأله العفو والمغفرة إن كفرت بقوله
كن أنت نفسي واقترن بعواطفي ... تجد المعيب لدي غير معيب
أأفرط في أنانية الشاعر، إذ كيف يعقل أن يتشابه الناس تماماً والمادة وفي الروح. وما تشابهوا، لكن الشيء الممكن الذي أستطيع القيام به، هو أنني حاولت أن أوجد التجاوب الروحي بين نفسه وبين نفسي، مع أني لم أحاول أن أخلق مثل هذا التجاوب من قبل، فابن الرومي مثلا، لا يوجد أقل تجاوب روحي بين نفسه وبين نفسي، ولكنني معجب به لا لأنه يضرب على الوتر الحساس من قلبي، ولا لأنه يهيج دفين آلامي وأشجاني، بل لأني أجد في شعره فنا رائعا لا أستطيع إنكاره وبخسه. ولأضرب للدكتور مثلا آخر هو فيكتور هوجو فأنا أرى في شعره رأيا يخالف رأيي في ابن الرومي وربما كانت نفسه أقرب إلى نفسي من نفس بودلير الذي أعجب به إعجاباً شديدا.
فليس من الحتم على قارئ الشعر ألا يستسيغ إلا الشعر الذي تشابهت فيه نفسه مع نفس الشاعر، فقد يحب وقد يكره، ولكن هناك الفن الشعري، وهو الجامعة التي تؤلف بين القلوب، وتوحد بين الأفئدة، وما أظن في الناس إلا الحمقى يهزون أكتافهم إذا قرئ لهم
شيء من الشعر الخالد الذي يتسم بصفات الفن الرائع، ولو كان يخالف نظرتهم وفطرتهم:
إن من عادتي يا سيدي الدكتور أن أعمد إلا الأفكار التي تكون طراز تفكيري، والمبادئ التي أستند إليها في تقديري، فأتناولها بين آونة وأخرى بالبحث والمراقبة والتشريح أبتر ضعيفها، وأنعش هزيلها. وأنشط قويها. قلت. . . ربما كان رأيي في شعر أبي شادي من القبيل الضعيف. فلأعد النظر وأؤكد للدكتور أنني كنت قاسياً على نفسي حتى يرضى.
فاللهم جنبني الشبهات، وسدد سبيلي، وحبب إليَّ الحق لأتبعه، ووجه روحي إلى النور لأدرك كنه صفحات الحياة التي تلوح لعيني كروح في ثوب صفيق من المادة. فإذا أبصرت بها واستهوتني اندفعت بكل ما في نفسي من جموح، لادرك سر تلك الروح.
الشعر مادة وروح، وشعر أبي شادي كذلك. فما هي المادة التي تتمثل في شعره؟ لا شك أنها اللغة، واللغة كما أعلم وتعلم هي الأداة المادية التي تشرح دخيلة الروح. ومع أن الدكتور قد جزم بأني لست ممن يصلحون لنقد لغة شعره وقد استحسنها من قبل

أسياد كمصطفى جواد وغيره.!! فأنا أسير من حيث بدأت، فليست القضية قضية نحو وصرف وبيان وبديع، بل قضية ذوق شعري ولغة شعرية. وإذا شئت فقل قضية فنية بحتة، ويحسن بأولئك المدرسيين أن يتركوا الساحة قليلا، ويريحوا الناس من الإعراب والبناء التقدير، فهذا أمر تافه يدركه صبية المدارس، وقد أفنى الأقدمون فيه كثيرا من الوقت والجهد، وقد جاء هؤلاء في آخر القافلة

أقع بنظري على قصيدته التي أراد أني يفحمني بها، والتي أراد أن يبهر بها الناس فاقرأ:

نرى في البر الوان التناجي ... وفي البحر المشارف والعميق

أو قوله:

كأن الحسن ذاب بكل لون ... نراه وفي المياه وفي الطريق

اللهم أين كافر بالشعر إن كان هذا من الشعر، وكافر بأقوال مطران إن كان قد استحسن هذا القول مطران، وكافر بالأدب إن كان في رجال الأدب من يستسيغ هذا ويعجب به

أؤكد للدكتور أني غير موفق في انتقاء ما ينتقد. لكنني استعرض هذا وأمثاله. وقد يرى فيه مصطفى جواد أو غير مصطفى جواد منتهى الإجادة والبلاغة: أما أنا، أنا الشاك الذي بم يتكامل التجاوب الروحي بين نفسه وبين نفس أبي شادي، أنا الذي أسجل خطرات تشمئز

منها نفس أبي شادي، ما أزال أرى يا للأسف في هذا الشعر وأضرابه ضعفاً شديداً. أرى فيه لغة صحفية ليست لغة فن ولا شعر، أرى الاعياه الذي ما بعده إعياء في التصوير والتعبير! وتبدو لعيني فكرتي التي بسطتها عن لغة الشرع التي أقول فيها. أنا افهم إن الشعر هو التعبير الراقي عن احساسات النفس، (وما كل إحساس يصلح أن يكون شعراً بل الإحسان العلوي أقصد).

وعلى هذا الشكل فهم العرب الشعر. فقالوا عن القرآن إذ سمعوه انه شعر.

ان في اللغة الشعرية سحراً وروعة وفنوناً وموسيقى ونغمات صوتية تراها في شعر امرئ القيس كقوله:

مكر مفر مدبر معاً ... كجلمود صخر حطه السيل من عل

واراها في شعر عنترة، أو عمرو بن كلثوم، وفي الشعر الغربي ما أكثرها في شعر (ادكار بو أو في شعر (بودلير أو في شعر (فاليري وما كل كلام مفهوم بشعر، ولا يكفي الشاعر أن يميز بين المنصوب والمرفوع، وليس يكفي أن يعرف الشاعر البحر البسيط أو الطويل أو الرجز، كل هذه قشور لابد منها ولا أهمية كبرى لها لبساطتها، إنما بيت القصيد في تلك الروعة وذلك السحر، او في توقيع الموسيقى، وفي تلاؤم تلك النغمات الصوتية، وما في شعر أبي شادي شي من هذا.

لغة الجرائد يا دكتور تعبر عن كثير من الآراء الصائبة والأخيلة الرائعة، ولكنها تفعل . . . فعلها في وقتها ثم تنطوي تحت ذيل الزمن وتموت، وما كان للشعر أن يكون مثلها، إنك لا تستطيع أن ترى في لغة الصحف روعة وسحرا إلا نادرا أو إنك لا تزعم أن فيها فناً أخاذا. أما شعرك يا دكتور فهو شعر عربي كلماته صحفي في فنه وتعبيره، كأني بك تذكر حكاية ذلك الأعرابي الذي دخل إحدى الحواضر فسمع أهلها يتكلمون فما فهم شيئا. انهم يقولون كلاما عربيا ما في ذلك شك. لكن أسلوب التعبير غير عربي، وكلامك يا دكتور في شعرك لا يصطدم مع الفاعل ونائبه والصفة والتشبيه لا نادراً، وجل من لا يسهو، عربي في ألفاظه مفهوم في عسر أو في يسر، لكن أين الفن الراقي في التعبير في مثل قولك؟

هذه الدنيا لأحلام الأديب ... هذه غايات آمال الأريب؟

أظن أن صاحب الملل والنحل لو امتد به الأجل ما قال قولته المشهورة (هذا شيء لا يعجز عنه إنسان) إلا في شعر يشابه شعرك. لا عجب يا صاحبي هذا شان البحر، فالبحر لا يقذف بالدر دائما، ولكنه يقذف بالزبد في كل حركة، والإنتاج الفني الذي هو التعبير الراقي عن احساسات النفس لا يأتي عفو الخاطر، فإذا تحدثت إلى سيدي الشاعر عن اللغة أفلا يجدر بي أن أحدثه عن روح الشعر وعن المناسبة الشعرية. وعن الظروف التي تستدعي قرض الشعر.

لا أكتمك يا دكتور أني ممن يلقون بنفسهم بينكم معشر الشعراء، في المتن أو في

الهامش، لا أدري، لكني من جماعتكم على كل حال شئتم أو أبيتم، وما أكثر أمثالي بين الشعراء، يكاد أحدهم يبعد عن محراق الفلك الشعري زهاء مائة كيلومتر، ويزعم بعد ذلك أنه من كبار الشعراء. أعذرني فأنا أناني مثلك، وأنا عندما أحدثك عن أنانيتي يجدر بي أن أشرح لك شيئاً من ذات نفسي كشاعر لا كنا قد. . . الموضوعات التي تستدعيني إلى النظم كثيرة يا دكتور، ونفسي دائمة الاضطراب والجموح. دائمة الحركة والثورة، هي متمردة متقلبة، ترى في كل ساعة موضوعات للكتابة، لكنني أكبح جماحها. أحول هذا الشعور الحاد إلى اللاشعوري ليتم نضجه، فإذا فرغت منه انصرفت إلى غيره، ففعلت به ما فعلت بالأول، وأنا بين هذا وذاك أمزج بين الشعور الهادئ المتزن وبين الشعور الحاد الجامح ثم اكتب. وبعد أن أنهي عملي ادفعه واهمله، واشعر ان عبئا قد أزيح عن كاهلي، أقبره لانه لم ينضج، تمر عليه أيام كثيرة أتناوله فيها بالتبديل والتغيير والمسخ، او بالتهذيب والترتيب والتنسيق، ولعلي ما أتممت شيئاً حتى الآن، فترضى عنه نفسي، وكيف أشرح نفسي للناس، وهم اجهل من ان يفهموها على وجهها، وكيف أبرز للناس وما أنا ممن يستطيعون التعبير عن مصائبهم وآلامهم وثورتهم، حسبي أنني لم أعرض شعوري فكيف اعبر عن مشاعر الناس، انهم يطلبون رعداً وبرقاً، وهم على حق فيما يطلبون، فهناك وطن يقتسم، وهناك بلاد يحتلها العدو والغريب، وهناك شرف صار إلى الرغام، وهناك مجد قد أفل، وهناك مجد الأمس وبؤس اليوم، وتاج الاجداد، وقبر الاحفاد، وحق للشاعر أن يرعد ويبرق، وأن يدفع الغمام الساجي المدلهم ليمطر، أما أنا فأني سائر في طريقي، وأرجوا أن أصل إلى ما اصبوا إليه، سأرعد وسأبرق، وسأنفخ في الرمم وسأصيح بالموتى ولكن. . .

ليس الآن، عندما تهدأ نفسي من جنون الشباب، عندما يأخذ قلبي في النظر العام الشامل، ففي ذلك الوقت استطيع أن ارضي نفسي وأرضي غيري، أما الآن فلا. وإن الجمهور ليطلب إلى الشاعر بكاء ونواحا، ويحمد الله الذي لا يحمد على مكروه سواه ما اكثر شعراء البكاء في بلادنا، أما أنا فلم يبق في عيني دمع انضح به شهوات الناس. أني غدوت كشبح متحرك يراه الناس فيحسبون فيه القوة والجبروت، وأبصره أنا على وجه لا يرونه به. ماذا تبقى يا صاحبي، أنني أرى الناس، بل كثيرة الشعراء في واد، وأنا في واد، إنهم يتكلمون عن السماء وأنا اكلم عن الارض، أنهم يتكلمون على العالم باسره، وانا لا أتتكلم إلا عن (حديقتي). فإذا شعرت بهذا انصرفت إلى ألغازي التي حبرتها، وأوهامي التي نسجتها وصبغتها بألوان الجمال والقوة والحكمة، فتعينني في بلواي، بل كيف اقذف بها إلى الناس. وهيهات أن تلذ الناس، ما أنا طامح في رضاهم، ولا أنا خائف من شرهم، خير لي أن أعيش في حديقتي، أبذر وأقبر وأنتج واقتل، حتى لا تستطيع اليد قتلا، وحتى الضعف اليد عن حفر القبور.

أرأيت يا دكتور كيف أبعد عن الغرض الذي أسعى إليه، بل أرأيت كيف أسرف في الشطط. فقد أرهقتك وأرهقت القراء بهذر من القول لا طائل تحته، وإنما هي أقوال تلوح لذهني فاعلق بها على الرؤى التي تلوح لعيني، ما كان أجدرني يا دكتور إلا اكتب ولا أثير حفيضتك وإلا اضطر نفسي إلى الجواب، ربما كنت بعيداً كل البعد عن مذهبي في الشعر، فأنت تنحو في شعرك ناحية تسميها إنسانية عالمية، وأنا أرى أن الحياة قبل التفلسف، وعلينا أن نعمل للسير قبل الكمال، وأن نعمل للحياة قبل الجمال، وأن نعمل للحركة قبل الفن - إن صح أن هناك فناً - وأن على الشعراء واجباً نحو وطنهم وأمتهم، بل إن عليهم واجباً نحو أنفسهم، ماذا تستطيع النفس المقيدة الملجمة أن تنتج، ربما فهمت قولي يا دكتور وأولته على أني معك على مذهبك. كلا: فأنا لا أرى الشعر كتاريخ لنفس الإنسان. إنني أرى إن الشعر لا يرسم إلا الخطوط الأساسية من نفس الإنسانية جمعاء، وبقية الفنون والعلوم تلبس هذه الخطوط أثواباً فضفاضة من المادة والروح.

إنني استغفر الله يا دكتور، فما أردت سوءاً، وما كنت مغرضاً ولا ناقماً، لكنني من خدام الحقيقة. أريد أن اقبس من نورها ولو نالني من الناس ما اكره، أنا لا أريد أن أبني لنفسي

ذكراً على أشلاء الناس، ولكني أبحث عن ضالتي المنشودة

على إنني شاكر لك أن أتحت لي الانطلاق من جمود مميت، ومن حيرة قتالة كنت أعيش في ظلا مهما.

أنني أتسلى لا اكثر ولا اقل، إنني أثير الغبار وسنرى وما ينجلي تحت الغبار.
حلب
(المرتيني)
العدد 46 - بتاريخ: 21 - 05 - 1934
مدينة سبأ
للدكتور طه حسين
كان الأديب الفرنسي ملرو نائماً كاليقظان، أو يقظان كالنائم، ولا تجد في ذلك شيئا من الغرابة، فنوم الأدباء البارعين يقظة، لأنه مملوء بالأحلام التي قد تكون من الصدق والدقة، ومن الخصب والإنتاج بمنزلة لا يبلغها الحق نفسه في كثير من الأحيان. ويقظة الأدباء نوم، لأنهم يشغلون فيها عما يحيط بهم من هذه الحقائق الممكنة الواقعة بما يملأ رؤوسهم من هذه الخيالات والأوهام التي تدنو من نفوسهم حتى تصبح كأنها جزء منها، وتبعد عن متناولهم حتى تصبح كأنها النجوم وهم يعجبون بقربها منهم فيطمعون فيها ويطمحون إليها، وهم يشفقون من بعدها عنهم فيحلون في طلبها ويجدون في إدراكها، ويكلفون في بلوغها أعنف الجهد وأشق العناء.
كان الأديب الفرنسي ملرو إذن نائما كاليقظان، أو يقظان كالنائم. كان في ساعة من هذه الساعات الحلوة التي يقضيها الأدباء مستمتعين بلونين من الحياة، أحدهما مختلط مضطرب شاحب، وهو لون الحياة الواقعة. والآخر واضح جلي ناصع، وهو لون هذه الحياة التي يحيونها بين الخيالات والأوهام. وانه لفي ذلك وإذا غانية حسناء رائعة الحسن، جميلة بارعة الجمال، غريبة الزي، لم ير مثلها قط فيمن رأى من غانيات باريس، وفاتنات غير باريس من المدن الأوربية التي زارها بل لم ير مثلها فيما رأى من الصور والرسوم التي تنقل للناس ما حفظته ذاكرة التاريخ القديم والمتوسط والحديث من ملامح الغانيات وأشكالهن وأزيائهن، وكانت تتراءى له من بعيد لا يكاد يراها حتى يفقدها، ولا يكاد يفكر فيها بعد فقدها حتى تتراءى له من جديد، فلا يكاد ينظر إليها حتى تستخفي، ولا يكاد يستأنف التفكير فيها حتى تبدو. وكانت إذا تراءت له ملأت الجو من حوله عبيراً وعرفا لم يحس مثلهما قط فيما أحس من الأعطار المصنوعة ومن الاعطار الطبيعية، ومن شذى الرياض وعرف الغابات، وكانت إذا استخفت ذهب معها هذا العبير، إلا بقية ضئيلة تضطرب في الجو، كأنها البقية الضئيلة من شعاع الأمل.
فكانت نفس الأديب الفرنسي ملرو تتعلق بهذه البقية الضئيلة من العبير، كما تهيم بهذا الشخص الجميل الرائع الذي كان يبدو ويستخفي في سرعة كوميض البرق. ولو أن هذا الخيال عرض لرجل مثلك أو مثلي
على هذا النحو وهو نائم لأيقظه، أو عرض له وهو يقظان لذاد عنه كل وهم أو خيال، ولدفعه إلى حياة عنيفة متنبهة تشبه الجنون. ولكنه لم يعرض لك ولم يعرض لي، وإنما عرض للأديب الفرنسي ملرو. ولهذا الأديب قوة ساحرة فيما يظهر، تمكنه من مقاومة الحق الذي يوقظ النائمين، ومن مقاومة الوهم الذي ينيم الإيقاظ، وتمسكه في حال بين الحالين، ومنزلة بين المنزلتين، فإذا هو نائم كاليقظان ويقظان كالنائم. وقد دعا إليه سحره هذا، فأعانه السحر على أن يظل على الحدود بين المملكتين مملكة اليقظة، ومملكة النوم. مملكة الحقيقة الباطلة التي يضطرب فيها مثلك ومثلي من الناس، ومملكة الخيال الصادق التي يضطرب فيها الأدباء والشعراء، وظل في مكانه يرى هذه الجنية، ويتنسم عبيرها إذا ظهرت له، ثم يتعلق بما بقى من نشرها ويهيم بخيالها إذا غابت عنه، وكأن هذه الجنية كانت تريد أن تعبث بالكاتب الأديب ساعة من نهار أو ساعة من ليل، وما أكثر ما تعبث الجن بأبناء الإنسان. ولكن الأديب الفرنسي ملرو، كان من البراعة والمهارة، ومن السحر واللباقة، بحيث استطاع أن يعبث بهذه الجنية الماكرة الماهرة، وأن يكرهها على أن تبيح له سرها، وتلقي عنه ما بينها وبينه من الأستار. واكبر الظن أن الأديب الفرنسي ملرو، إنما تعلم هذا الفن الذي يستغوي به الجن من رياضة بسيطة، ما اجدر أدباءنا وشعراءنا أن يتكلفوها ويأخذوا أنفسهم بها، وهي رياضة الصيد في الأنهار والغدران. فهذه الرياضة تحتاج إلى صبر طويل، طويل جداً، والى لباقة ودقة قلما تحتاج إليهما الرياضات الأخرى، وقد يمكث الصائد على شاطئ الغدير ساعات طوالا جداً، ينتظر الصيد فيصيبه أو لا يصيبه، ولكنه لا ييأس على أية حال.

ظل الكاتب الأديب ملرو، في حالة هذه بين الحالين، وفي مقامة هذا بين المملكتين، وظلت الجنية تبدو له فيستقبلها، وتغيب عنه فيتبعها، حتى سئمت منه هذا الصبر، وضاقت منه بهذا الثبات، واستيأست من ترويعه والعبث به، فوقفت منه غير بعيد وحدقت فيه تحديقا طويلا، لو حدقته في رجل مثلك أو مثلي لملأت قلبه رعبا، ولدفعته إلى الجنون دفعا، ولكن الأديب الفرنسي ملرو ثبت لمنظرها الجميل، وتحديقها الطويل، مبتسما في هدوء، ينظر إليها ولا يقول لها شيئا. وأخذت هي تدنو منه وتطيل النظر فيه، وهو ثابت لا يضطرب، ومستقر لا يريم، حتى إذا كانت منه بمكان النجى، سألته في لغة غريبة لم يسمع لفظها قط،

ولكنه فهم معناها كما يفهم معاني اللغة الفرنسية حين تلقى إليه. سألته في هذه اللغة الغريبة، وفي ابتسام ليس اقل منها غرابة قائلة من تكون؟ لقد عرضت لكثير مثلك من الناس منذ عشرات القرون، فروعتهم ترويعا على اختلاف أجيالهم وبيئاتهم، وتفاوت درجاتهم في العلم والجهل، وفي الغفلة والذكاء، حتى اتخذت ترويع الناس لذة من أهون اللذات، إذا فرغت مما أنا فيه من أعمال الجد التي تحملني كثيرا من الألم والعناء. حدثني من تكون؟ ولا بأس عليك من أن تجيبني باللغة الفرنسية فسأفهمها عنك، كما تفهم أنت عني الآن هذه اللغة الحميرية، التي لا يتكلمها أحد من الناس في هذه الأيام، والتي يجد علماؤكم في قراءتها وتفسيرها، واستنباط قواعدها وأصولها. حدثني من تكون أيها الفتى الذي عجزت عن ترويعه والعبث به؟ قال الأديب الفرنسي ملرو، وهو ينظر هادئا مبتسما إلى هذه الجنية: بل حدثيني أنت من تكونين؟ فإني لم اعرض لك، وإنما عرضت لي، وإني لم احفل بك، وإنما حفلت بي، وإني لم ادن منك، وإنما دنوت مني، وإني لم أحاول سحرك بلحظ ولا لفظ، ولا حركة ولا عبير، فما ينبغي لك أن تسأليني، وإنما ينبغي لي أن أسألك. ومع ذلك فإني لم أسألك حتى بدأتني بالسؤال، ومع ذلك فإني قادر على أن أعفيك من الجواب وعلى أن أدعك تمضين في طريقك، فما اكثر من يعرض لي من أمثالك، وما اكثر ما أتحدث إليهن وما يتحدثن إليّ، ولئن فاتني أن أعرفك واسمع من أنبائك فقد عرفت من قبلك خيالات أخرى، أستطيع أن أستأنف لقاءها متى شئت، وان أقص عليها من أنباء الأحياء، وتقص على من أنباء الأموات. قالت الجنية أو قال الخيال: ما شد طغيانكم أيها الناس، إنكم لضعاف أشنع الضعف، ولكن المكر يجعل ضعفكم قوة، وذلكم عزة، وجهلكم علما. حدثني يا فتى من تكون؟ وإلا فإني قادرة على أن أسوءك، قال بل حدثيني أنت من تكونين، واستيقني انك لا تقدرين من الإساءة إلي على شيء، بل أنا قادر إن شئت على أن اغلق بيني وبينك الباب، واقطع بيني وبينك الأسباب. وأي شيء ايسر من أن امضي إلى هذه الناحية، فإذا أنا في مملكة اليقظة التي لا وهم فيه ولا خيال، والى هذه الناحية فإذا أنا في مملكة النوم العميق التي لا تستطيع الأحلام أن تدنو منها أو تجد إليها سبيلا. قالت فإني أراك على قوتك ذكيا ماهرا، تحسن الحوار وتعرف كيف تقطع الطريق على خصومك ومحاوريك. ما أرى ألا انك جني قد اتخذت شكل إنسان، وما أرى إلا إننا نستطيع أن نتفق

فنعبث بالناس جميعا، ونكيد لهم جميعا، ونخدعهم جميعا ساعة من نهار، أو يوما من أسبوع. قال بل أشهرا كاملة من عام كامل، بل عاما كاملا من أعوام طوال، فحدثيني من تكونين أحدثك من أكون. واعلمي منذ الآن إني اكره ترويع الناس والعبث بعقولهم، فان الرجل الممتاز حقا هو الذي يحسن العبث بعقول معاصريه، فان استطاع مع ذلك أن يعبث بخيالهم وآمالهم وأيديهم وجيوبهم، فهو الرجل العبقري حقا. فحدثيني من تكونين أحدثك من أكون. فقد يخيل إلي أن سيكون لهذه الساعة في حياة الناس شأن. قالت وهي تبتسم ابتساما عريضا، وأنا أيضا أرى هذا. فهل سمعت شيئا من حديث تلك المملكة التي امتلأت بذكرها كتب القصص والتاريخ؟ قال أي مملكة تريدين؟ فما اكثر المملكات اللاتي ملأ ذكرهن كتب القصص والأدب والتاريخ. قالت في شيء من الدل، وهذا العرف الذي يملأ الجو من حولك، والذي يكاد يذهلك، لولا انك رجل ممتاز لا يعرف الذهول إليه سبيلا، ألا يدلك على شيء؟ قال بلى! انه يدلني على انك قد سريت من الشرق، فهذا العرف لا عهد لي بمثله إلا في كتب القصص والتاريخ. ألا تكونين قد أقبلت من بلاد اليمن، تلك التي تحدث عنها القدماء والمحدثون؟ قالت قد عرفتني، فأنا جنية من ارض اليمن، أقبلت اعبث ببعض أهل الغرب، وابحث للجن اليمانيين عن بعض

الفرائس، فظفرت بك، قال بل وقعت في يدي، فمن أي بلاد اليمن أقبلت؟ قالت من تلك المدينة العظيمة التي كانت تملكها تلك الملكة القديمة العظيمة. قال ملكة سبأ؟ قالت هي هي!: قال وعلام نستطيع أن نتفق؟ قالت على أن نعبث بالناس شيئا. ثم نهدي إليهم بعد ذلك ما يعوضهم من هذا العبث احسن تعويض. ثم اتصل الحديث بينهما وانقطع، ثم اتصل مرة أخرى وانقطع، ثم اصبح الناس وإذا الأديب الفرنسي ملرو يمر بالقاهرة في طيارة قد أنشئت له، فيقيم في القاهرة يوما وبعض يوم، ثم يفارقها، ثم تمضي أيام ثم يخفق البرق بأنه قد استكشف مدينة سبأ في اقل من تسع ساعات!.

طار من جيبوتي فعبر البحر ثم مضى حتى انتهى إلى الربع الخالي، وكانت صاحبته الجنية قد سبقته وضربت له موعدا في تلك العاصمة الجميلة، ورسمت له الطريق التي يجب عليه أن يسلكها رسما دقيقا صادقا، فلما انتهى إلى موعده صور من المدينة ما صور، لم يهبط إلى الأرض، ولكن جنيته صعدت إليه، ودلته على اجمل المناظر واجدرها أن يخلب الناس ويسحر ألبابهم. ثم عاد إلى باريس وقد سبقته إليها الأنباء. والناس من

أمره بين الشك واليقين، فكتب المقالات، وألقى الأحاديث ونشر بعض الصور، فأما العلماء فأنكروا، وأي شيء ايسر على العلماء من الإنكار؟ وأما غير العلماء فصدقوا وأي شيء ايسر على غير العلماء من التصديق؟

ثم تنتقل الأنباء من أوربا إلى أمريكا عابرة إليها المحيط، فيضطرب العالم الجديد اضطرابا، وإذا البرنامج كله قد تحقق، دهش الناس ثم اضطربوا، ثم صدقوا، ثم اندفعوا، فكان العبث بالعقول، ثم بالخيال ثم بالأيدي، ثم بالجيوب، فإذا كان شهر نوفمبر، فان البعثة ستعبر المحيط، ثم تعبر البحر أيضا، ثم تمضي في الصحراء، وما اكثر ما في الصحراء العربية الجنوبية من بقايا المدن القديمة التي عرفها الناس والتي لم يعرفوها، ومن يدري!،! لعل هذه الجنية التي تراءت للأديب الفرنسي ملرو، أن تبر بالوعد، وتفي بالعهد، وتهدي إلى العلماء المنكرين وغير العلماء المصدقين، مدينة قديمة فيها من الآثار ما يعوضهم من هذا العبث الذي يخضعون له في هذه الأيام تعويضا حسنا.

لا ينبغي انم ننكر على الأدباء حياتهم هذه التي يمضون فيها مع الخيال والوهم، ويسمعون فيها لأحاديث الجن والشياطين، ويتبعون فيها آمالهم وأمانيهم، فان هذه الحياة لذيذة في نفسها بالقياس إلى الأدباء أنفسهم، وبالقياس إلى الناس حين يسمعون أنباءها. ثم هي في كثير من الأحيان خصبة منتجة، تبدأ بالحلم والوهم والأمل، وتنتهي إلى اليقظة والحق واليقين. لا ينبغي أن ننكر على الأدباء حياتهم هذه وإنما ينبغي أن نتمنى لأدبائنا وشعرائنا حياة مثلها يملؤها الوهم والخيال والأمل، ويملؤها النشاط والجد والعمل والصبر على احتمال الجهد، وعلى احتمال السخرية والاستهزاء بنوع خاص.

طه حسين

الزلة الأولى

للكاتب الفرنسي لامنيه

بقلم احمد حسن الزيات

قطعة رائعة التمثيل جليلة المغزى للامنيه، وهو علم من أعلام الأدب الفرنسي، وفيلسوف من فلاسفة المذهب الكاثوليكي، وخطيب بليل اللسان من خطباء الدين والسياسة، ولد سنة 1782 في بلد زعيم البيان الفرنسي (شاتوبريان)، ثم طار في جوه، فنشأ مثله لطيف الوجدان، خصب المخيلة، وثاب الفكر، صحيح الرأي لا يخضع لنظام، ولا يستكين لحادث. دخل الكنيسة راهبا، ثم الجمعية العمومية نائبا، فنصر الله في الأولى والحرية في الثانية. ثم صبا في سياسته إلى الاشتراكية، وفي عقيدته إلى الأرثوذكسية، وحاول أن يقيم المسيحية على دعائم جديدة من الوضوح والبساطة. فلقى في سبيل هذه الآراء الحرة سخط البابا وغضب الكهنوت وعنت الساسة.

أما أسلوبه فخطابي شعري يعتمد على الصور الحية والتشابيه القوية، ويسلك فيه مسلك (بوسويه) في احتذاء الإنجيل، واقتباسه منه أسلوب الرمز والتمثيل.

وهذه القطعة التي ننشرها اليوم تمثل شبق الإنسان إلى شهوة البهيمية وحاله بعدها، فمثل الشهوان كمثل الظمآن يتحرق إلى اللذة الآثمة، كما يتحرق هذا إلى الكرمة

اليانعة، ودون هذه اللذة آثام وأجرام ورجس، كالمستنقع الذي يحول بين الظمآن وبين عصير العنب. وهنا يتصارع العقل والهوى، وتوازن النفس بين نتانة الوحل وبين برودة العنب، فيستخف الشهوان بالخطيئة اعتمادا على التوبة، كما يستخف الظمآن بالوحل اعتماداً على الغسل، ولكن هيهات! لابد للجرح من اثر. وللنتن الخبيث من ذفر قال لامنيه:

برح به أُوار القيظ، وبلغ منه سُعار العطش، فأرسل طرفه في الفضاء، فرأى في حضيض الأكمة كرما تهدلت أغصانه وتدلت عناقيده. فهفا قلبه من الفرح، وتاقت نفسه إلى بلوغ الكرم لينقع بثمره أوامه، وينضح بشرابه كبده، ولكن بينه وبين الأكمة مستنقعا لا مناص من خوضه، وقف موقف الحائر لا يدري أيقدم أم يحجم؟ فتارة تدفعه حرارة الظمأ، وتغريه

برودة العنب وطراءة الكرم، وتارة تقعد به وخامة الطين ونتانة الوحل.

فلما لاحه العطش سولت نفسه إليه أن المستنقع قد يكون قريب الغور سهل المعبر، فما الذي يمنعه أن يجرب ما يفعله كثير من الناس؟ على انه لا يلوث غير قدميه، وذلك أذى في جانب ما يبغيه قليل.

أطاع هواه واستجر لشيطانه، فوضع قدميه في النقع حتى غاص فيه إلى ركبتيه. فوقف مترددا مرتابا يداور الأمر في نفسه ويقول: لعل الرجوع أخف مئونة وأحمد مغبة، ولكن الكرمة وعناقيدها أمامه، والريق قد عصب من الظمأ فاه. . . فقال في نفسه: أما وقد بلغت ما بلغت فليس من الرأي أن ارجع فيذهب ذلك العناء باطلا، لا ينبغي بعد هذا أن اكترث لما ألقى من الوحل قل أو كثر، فسأعود نقي الجسم طاهر الثوب إذا ما اغتسلت في أول نهر أجده.

أمضى على هذه الفكرة عزمه وتقدم، فبلغ الطين صدره، ثم عنقه، ثم شفتيه، وما لبث أن طم فوق رأسه، فضاق صدره وحشرجت أنفاسه، وكاد يصرعه الخُناق لولا أن استجمع قواه ونهض نهضة بلغت به جانب الأكمة.

خرج والحمأ المسنون يسيل من أعضائه، فأكل من الشجرة التي اشتهاها حتى اكتظ، ثم نظر إلى نفسه فأخجله ما رأى من بشاعة منظرة وقبح زيه، فخلع ثيابه وطفق يبحث عن ماء رائق يطهر به نفسه، ويذهب عنه رجسه ولكن هيهات أن يتم له ما يريد! انه مهما فعل فان الرائحة الخبيثة باقية تسطع في الأنوف وتدفع في الحلوق.

لقد نفذت أبخرة المستنقع في لحمه وعظمه، ثم أخذت تفوح وتنشر، فكونت من حوله جواً فاسداً عفناً لا يطيق الصبر عليه إنسان، ولا يستطيع الدنو منه أحد.

لقد أراد أن يكون مع الزواحف فليكن كما أراد!

سبيل الخلاص من الامتيازات الأجنبية

للدكتور عبد الرزاق احمد السنهوري
أستاذ القانون المدني بكلية الحقوق

- 2 -

ذكرنا في العدد السابق المقترحات الخاصة بالتشريع في المعاهدة التي تعرض الحكومة المصرية على الدول ذوات الامتيازات إبرامها. فننتقل بعد ذلك إلى القضاء ثم إلى الإدارة.

2 - القضاء

نقترح أن تنص المعاهدة على إنشاء محاكم مصرية جديدة تحل محل المحاكم المختلطة، ويتناول اختصاصها ما يأتي:

(1) القضايا المدنية والتجارية فيما بين الأجانب المتمتعين بالامتيازات الأجنبية دون غيرهم، بما فيها قضايا الأحوال الشخصية، وكذلك القضايا المدنية والتجارية ما بين مصري وأجنبي متمتع بالامتيازات الأجنبية. ويستثنى من ذلك القضايا العقارية فتكون من اختصاص المحاكم الأهلية مطلقا، حتى لو كان الخصوم جميعا من الأجانب وتكون العبرة في الاختصاص بشخصية الخصوم الحقيقية، فلا ينظر إلى الصالح المختلط، ولا يعتد بتحويل الحق إلى أجنبي تحويلا صوريا. وينص على جواز الاتفاق مقدما فيما بين الأفراد على التنازل عن اختصاص هذه المحاكم الجديدة، كما ينص على جواز التنازل عن هذا الاختصاص باتفاق الخصوم فيأية حالة كانت عليها الدعوى، ويكون الاختصاص في هذين الفرضين للمحاكم الأهلية.

القضايا الجنائية التي يكون المتهم فيها أجنبيا متمتعاً بالامتيازات، وإذا تعدد (2) المتهمون وكان فيهم مصري كانت القضية من اختصاص المحاكم الأهلية حتى بالنسبة للمتهمين الأجانب، منعا لتضارب الأحكام -

أما تشكيل المحاكم الجديدةفيكون على الوجه الآتي:

محكمة استئناف يكون نصف عدد المستشارين فيها مصريين والنصف الآخر من (1) الأجانب. وتشكل في هذه المحكمة دوائر مدنية وجنائية يكون عدد أعضاء كل دائرة منها

ثلاثة (بدلا من خمسة)، ولا يكون تشكيل الدائرة صحيحا إلا إذا كان أحد أعضائها على الأقل مصريا.

ثلاث محاكم ابتدائية في القاهرة والإسكندرية والمنصورة، ويكون نصف القضاة (2) في كل محكمة من المصريين والنصف الآخر من الأجانب، وتشكل الدوائر في هذه المحاكم على الوجه المبين في تشكيل دوائر محكمة الاستئناف. والمحاكم الابتدائية جائزة للمصريين وللأجانب على السواء، فإذا انتخب أجنبي للرياسة وجب انتخاب مصري للوكالة. وإذا جلس في الدائرة اكثر من عضو مصري تكون رياسة الدائرة حتما لمصري. ويكون أعضاء النيابة العمومية كلهم مصريين، عدا النائب العام أما لغة هذه المحاكم الجديدة فتكون اللغة العربية للدوائر التي يرأسها مصري، وإحدى اللغتين العربية أو الفرنسية للدوائر التي يرأسها أجنبي على أن تقرر الدائرة أي اللغتين تستعمل في القضايا المختلفة.

وقد لا حظنا في هذه المقترحات إن بعضها قد أقرته إنجلترا في مفاوضاتها مع مصر، كما في المذكرة البريطانية التي سبقت الإشارة إليها (أنظر الكتاب الأخضر ص9 - ص 10) وكما جاء في مشروعات هرست المعروفة. والعض الآخر تحتمه العدالة، ويستوجبه تقدم مصر في مدى ستين عاما انقضت منذ إنشاء المحاكم المختلطة الحالية، مما يقتضي تمصير المحاكمالجديدة مع الاحتفاظ بالعنصر الأجنبي فيها.

والفكرة الأساسية في هذه المقترحات أن ينقل اختصاص المحاكم القنصلية إلى المحاكم الجديدة، فلا يعود يوجد من المحاكم في مصر إلا ما كان مصريا. وفي الوقت الذي يتسع فيه اختصاص المحاكم الجديدة على حساب المحاكم القنصلية يضيق فيه هذا الاختصاص لحساب المحاكم الأهلية. فنسترد لاختصاص محاكمنا الأهلية القضايا العقارية، وقد قدمنا أن الامتيازات الأجنبية لا تمنع من ذلك، وان الأجانب لم يسمح لهم بتملك عقارات في البلاد العثمانية إلا بشرط أن يخضعوا لقوانين البلاد ومحاكمها فيما يتعلق بهذه العقارات. ونسترد أيضا ما انتزعته المحاكم المختلطة من اختصاص المحاكم الأهلية من طريق التوسع في التفسير توسعا يصطدم مع النفق القانوني الصحيح. فنقصر كلمة (الأجنبي) على من كان تابعا لدولة متمتعة بالامتيازات، حتى يدخل في اختصاص المحاكم الأهلية قضايا الأجانب غير المتمتعين بالامتيازات وقد اصبحوا الآن كثيرين. وهذا حقنا، لا يجوز إنكاره علينا، ومع ذلك فقد أنكرته المحاكم المختلطة الحالية،

ولم يجد في إقناعها تعديل المادة 15 من لائحة ترتيب المحاكم الأهلية بما يتفق مع هذا الحق. ثم نقضي على نظرية الصالح المختلط التي استطاعت المحاكم المختلطة الحالية من ورائها أن تمد اختصاصها إلى قضايا فيها كل المتقاضين مصريين، بدعوى إن هناك مصلحة لأجنبي في الدعوى، ولو كانت هذه المصلحة ليست هي بالذات موضوع النزاع. وطبقت هذا المبدأ على الشركات ولو كانت مصرية، فأدخلتها في اختصاصها مادام فيها مساهم أجنبي. وطبقته كذلك على حجز ما للمدين لدى الغير، فقضت باختصاصها ولو كان كل من الدائن الحاجز والمدين المحجوز عليه مصريا مادام المحجوز لديه أجنبيا. وليس للمحاكم المختلطة في كل هذا سند قانوني إلا نص المادة 13 من لائحة ترتيبها، وهذه لا تعرض إلا لحالة استثنائية لا يجوز التوسع في تفسيرها، ومن باب أولى لا يجوز القياس عليها. ثم نضع حدا للاحتيال على جعل قضية من اختصاص المحاكم المختلطة من طريق تحويل الحق المتنازع فيه إلى أجنبي تحويلا صوريا. ونفسح المجال لاتفاق الخصوم على اختصاص المحاكم الأهلية حتى لو كان بينهم أجنبي، سواء أوجد هذا الاتفاق وقت رفع النزاع أم كان قد تم قبل ذلك، وبهذا نمهد السبيل لمد اختصاص المحاكم الأهلية إلى الأجانب الذين يرتضون هذا الاختصاص.

وراعينا بعد ذلك أن تكون المحاكم الجديدة، وهي مصرية، غير مقصورة في مصريتها على الشكل دون الجوهر، كما هو شأن المحاكم المختلطة الحالية. فطلبنا أن يكون نصف قضاة المحاكم الجديدة مصريين حتى نضمن بذلك أن تكون هناك دوائر، غالبية القضاة فيها مصريون ورئيسها مصري ولغتها العربية، وان يكون نصف أعضاء الجمعية العمومية لمحكمة الاستئناف - ولها اختصاص تشريعي كما قدمنا - من القضاة المصريين. واجزنا رياسة المحاكم للمصريين وحتمنا أن تكون الوكالة لهم إذا كان الرئيس أجنبيا وبذلك يكون العنصر المصري في المحاكم الجديدة معادلا للعنصر الأجنبي وهذا هو العدل، فان المصالح المصرية التي تقضي فيها هذه المحاكم لا تقل في الأهمية والخطر عن المصالح الأجنبية إن لم تزد عليها. هذا إلى أن المحاكم مصرية، تجلس في ارض مصرية، وتحكم باسم مليك البلاد، وتتقاضى نفقاتها من خزينة مصر، وتنفذ السلطات المصرية أحكامها فإذا طلبنا بعد كل هذا أن يكون نصف القضاة مصريين فلا نكون قد ارتبكنا شططا بل نحن معتدلون، فما زلنا نفسح المجال واسعا للعناصر الأجنبية: نصف القضاة منهم، ولهم أن يرأسوا المحاكم والدوائر، وللدائرة التي تتشكل من غالبية أجنبية أن تتخذ الفرنسية لغة للتقاضي، وهذه الغالبية الأجنبية مكفول توافرها في نصف الدوائر. أليس في كل هذا ضمان كاف نقدمه للأجانب حتى يطمئنوا إلى قضاة المحاكم الجديدة؟

3 - الإدارة

نرى أن تنص المعاهدة على إلغاء كل القيود التي تضعها الامتيازات الأجنبية على سلطة الإدارة المصرية. فيصبح لرجال الإدارة السلطة في القبض على المجرمين الأجانب وتفتيشهم وتفتيش منازلهم ومحال أعمالهم دون تدخل القناصل. ويكفي ضمانا للأجانب أن يجعل هذا من اختصاص رجال ضبطية خاصة تلحق بالمحاكم الجديدة، وتوضع تحت إشراف النائب العام أمام هذه المحاكم، ولا بأس من اختيار هذا النائب من بين الأجانب مادمنا قد نقلنا الاختصاص الجنائي للمحاكم القنصلية إلى لمحاكم الجديدة، على أن يكون النائب العام وحده هو الأجنبي دون سائر أعضاء النيابة، هؤلاء يجب أن يكونوا مصريين كما قدمنا. وإذا كان لابد من تقديم ضمانات أخرى. فلا بأس من إدخال عنصر أجنبي لا يزيد على النصف بين رجال الضبطية القضائية الخاصة التي أشرنا إليها.

ومادمنا قد جعلنا اختصاصات الضبطية القضائية بالنسبة للأجانب في يد هيئة خاصة فيها عنصر أجنبي وهي تحت إشراف النائب العام الأجنبي فانه لم تعد هناك حاجة للضمانات التي تطلبها إنجلترا مما جرت على تسميته (بالبعثة الإنجليزية) في البوليس المصري، وهي البعثة التي ورد ذكرها في المفاوضات التي دارت بين البلدين. كذلك لا حاجة إلى وجود مستشار قضائي ومستشار مالي، فإذا كان لابد من وجودهما وجب تحديد اختصاصهما والمدة التي يبقيان فيه تحديدا ضيقا، بحيث لا يتنافى وجودهما مع سيادة الدولة، ولا يؤيد دعوى الإنجليز في حماية المصالح الأجنبية، ولا يتعارض مع المسئولية الوزارية.

وغنى عن البيان أن الإدارة المصرية تستبقي حقها مطلقاً في إبعاد الأجانب غير المرغوب فيهم عن مصر، فان هذا هو حقها في الوقت الحاضر لم يؤثر فيه وجود الامتيازات الأجنبية ولا قيام المحاكم المختلطة. كذلك يكون للإدارة المصرية وللهيئة التشريعية اتخاذ التدابير اللازمة لمنع المهاجرة إلى مصر أو تقيدها إذا استلزمت مصلحة البلاد ذلك. وللحكومة المصرية الحرية الكاملة في عقد معاهدات مع الدول بشأن تسليم المجرمين الفارين. كل هذا نذكره لا لأن هناك شكا في الحكومة المصرية تملكه، فانه لا يوجد أحد ينكر عليها هذه الحقوق التي لم تتأثر بالامتيازات الأجنبية، وإنما نقرره هنا لأنه ورد ذكره في مشروعات هرست المعروفة، وكان يراد تضيق سلطة الحكومة المصرية فيه فنرجع إلى الوراء بدلا من أن نتقدم إلى الأمام. هذه هي أسس المعاهدة التي نقترح أن تعرضها الحكومة المصرية على الدول ذوات الامتيازات. وقد راعينا في وضعها ألا تتضمن من المبادئ والأحكام إلا ما أقرته إنجلترا نفسها في المفاوضات التي دارت بينها وبين الوزارات المصرية المختلفة، وإلا ما كان متفقاً مع العدالة وما تستدعيه حالة البلاد من تعديل النظم القائمة. وهذه الأسس هي

الحد الأدنى لما تطلبه البلاد في الوقت لحاضر، على أن تسترد الدولة المصرية سيادتها كاملة متى حانت الظروف المناسبة. وإذا كنا في حاجة إلى إقناع أحد بصلاحية هذه الأسس فليست هي الدول ذوات الامتيازات التي تحتاج إلى ذلك، وهي تعرف حق المعرفة أن هذه المطالب، عادلة معتدلة، وإنما حاجتنا هي إقناع الجانب المصري نفسه بالاقتصار على هذه المطالب، بعد أن دوت صرخة الرأي العام تنادي بإلغاء الامتيازات الأجنبية دون الإبقاء على أي اثر منها. على أننا إذا كنا استبقينا بعض هذه الآثار في المعاهدة المقترحة، فإنها لا تبقى إلا في فترة الانتقال من حالتنا الحاضرة إلى حالة أخرى تعود فيها إلى مصر سيادتها الكاملة. ولذلك جعلنا المعاهدة مؤقتة، وأعطينا لمصر حق إلغائها بإعلان يصدر من جانبها. وقد تكون فترة الانتقال هذه ضرورية في الوقت الحاضر، حتى لا نباغت البلاد بتغيير فجائي طفرة واحدة.

فإذا عرضت هذه الأسس على الدول ذوات الامتيازات، فقد تقبلها هذه الدول جميعها، أو قد يقبلها عدد كبير منها (والعبرة بعدد الرعايا لا بعدد الدول) وفي هذه الحالة تعقد المعاهدة مع الدول التي قبلت، ولا نعتد بالأقلية التي لم تقبل، فهذه لا تلبث أن تنضم إلى المعاهدة، كما فعلت فرنسا في سنة 1876. وينتهي الأمر عند هذه الخطوة الثانية. أما إذا لم تقبل الدول هذه الأسس، فعلى الحكومة المصرية أن تخطو في التدابير التي تتخذها الخطوة الثالثة وموعدنا بتفصيلها العدد المقبل.

عبد الرزاق السنهوري

لا غالب إلا الله .!

للدكتور عبد الوهاب عزام

ذهبت البارحة إلى مسرح الحمراء. قد سمى الأوربيون كثيراً من ملاهيهم باسم الحمراء بعد أن حرفوه إلى الهمبرا. سألت نفسي في لطريق كيف حرف الاسم هذا التحريف؟ فقالت: إن الزمان ليطمس الأعيان ثم يذهب بالآثار، فما إبقاؤه على الأسماء؟ أشفقت من هذا الحديث أن أتغلغل فيما وراءه من الآم وأحزان، فقلت: فيم الفرار من الكد والعناء إلى هذا الملهى إن بدأت حديثه بالمراثي والمصائب؟

أخذت مكاني بين الجالسين فسرحت طرفي في طراز عربي من البناء والنقش، وإذا منظر يفتح لي من التاريخ فجاجاً ملأى بالأهوال والعبر. لبثت أتأمل البناء متحرزاً أن اجتازه إلى ما وراءه من خطوب التاريخ. ومازالت أصوب النظر واصعده في المسرح حتى جمد البصر على دائرة في ذروته لاحت فيها أحرف عربية، فكنت وإياها غريبين في هذا الجمع (وكل غريب للغريب نسيب) بل كنت وإياها نجيبين في هذا الحفل لا يفهمها غيري، ولا تأنس من الوجوه الحاشدة بغير وجهي. أجهدت البصر الكليل في قراءة الأحرف فإذا هي (لا غالب إلا الله) يا ويلتاه!

شعار بني الأحمر الذي حلوا به قصورهم ومساجدهم.؟ إنها لسخرية أن توضع هذه الكلمة الجليلة في هذه الكلمة في هذا الملهى، وأي جليل من ماضينا المجيد لم يتخذه القوم سخرية؟ قرأت هذه الكلمة فإذا هي عنوان لكتاب من العبر، قلبته صفحة صفحة ذاهلاً عما حولي فلم انتفع بنفسي في مشهد اللهو واللعب، ولم تحس أذني الموسيقي والغناء. أغمضت عيني عن الحاضر لأفتحها على الماضي. وصمت الأذن عن ضوضاء المكان، لتصيخ إلى حديث الزمان.

وناهيك بجولان الفكر طاوياً الإعصار، منتظما البوادي والأمطار، واثبا من غيب التاريخ إلى الحاضر، ومن الحاضر إلى غيب التاريخ.

شهدت في ساعة جيوش طارق غازية من الزقاق إلى البرتات، وشهدت مصرع عبد الرحمن الخافقي في بلاط الشهداء، وشهدت جلاد الأجيال من المسلمين والأسبان، ورأيت الناصر في حربه وسلمه ملء العين جلالاً ورهبة، وملء القلب عدلاً ورحمة.

ورأيت البطل ابن أبي عامر يحالف الظفر في خمسين غزوة، ويبعد المغار حيث نكصت الهمم والعزائم من قبله. ورأيت دولة الأمويين تزلزل فتتصدع فتنهار، وأبصرت ملوك الطوائف يتنازعون البوار والعار، ويؤدون الجزية إلى الفونس السادس صاغرين. ثم سمعت جلبة جيوش المرابطين يقدمها يوسف بن تاشفين، وشهدت موقعه الزلاقة القاهرة، ثم رأيت راية المرابطين تلقف رايات ملوك الطوائف. وهذه دولة الموحدين، وهذا المنصور يعقوب بن يوسف في موقعه الأرك يحطم جيوش الأسبان بعد الزلاقة بمائة عام. ورأيت موقعه العقاب وقد دارت على المسلمين دوائرها. والناصر ابن

يعقوب يفر بنفسه بعد أن اقتحمت عليه المنايا دائرة الحراس ورأيت غرناطة وحيدة في الجزيرة يتيمة، قد ذهبت أترابها، وصارت كما قال طارق يوم الفتح: أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام، ولكنها على العلات، ورثت مجد المسلمين وكبرياءهم فجالدت الدهر عن نفسها مائتين وخمسين عاما، وحمت حضارة المسلمين على رغم النوائب وكلب الأعداء. ثم رأيت أشراط الساعة - رأيت أبا الحسن وأخاه محمدا يتنازعون السلطان على مرأى من العدو ومسمع، ورأيت أبا عبد الله ينازع أباه أبا الحسن. ذلك الملك المائل، والظل الزائل، ورأيت العراك المديد بين أبي عبد الله وعمه الزغل كما تتناطح الخراف في حظيرة القصاب. وتلك جيوش فرديناند وايزابلا تنيخ على مدينةبعد أخرى، وتدك معقلا بعد آخر، ومالقة تجاهد الكوارث جهاد المستميت، والزغل يشق الأهوال إليها لينقذها، فيقطع أبو عبد الله طريقه ويرد جنده. ومالقة في قبضة العدو، وأهلها أسارى يباعون في الأسواق ويتهاداهم الملوك والكبراء. وهاهو الزغل يسلم واديَاش إلى العدو على منحة من الأرض والمال. ثم يعيا بأعباء المذلة والهوان فيهاجر إلى الغرب. ثم شهدت يوم القيامة، الجيوش محيطة بغرناطة وأهلها يغيرون على العدو جهد البطولة والاستبسال والصبر، ثم يغلق عليهم الضعف أبواب المدينة. وهذا من ربيع سنة سبع وتسعين وثمانمائة، وأبو عبد الله يسير إلى فرديناند في كوكبه من الفرسان لا محارباً ولا معاهداً، ولكن ليسلم إليه مفاتيح الحمراء. نظرت الصليب الفضي الكبير يتلألأ على أبراج القلعة، وبكيت مع أبي عبد الله وهو يودع معاهد المجد وملاعب الصبا من الحمراء وجنة العريف. وسمعت أمه عائشة تصرخ في وجهه: (ابك اليوم كالنساء على ملك لم تحتفظ به احتفاظ الرجال) فينهل دمعه، وتتصاعد زفراته على
الأكمة التي يسميها الأسبان اليوم (أخر زفرات العربي). وهذا أبو عبد الله وهو الذي باء بأوقار من العار والذل تأبى فيه بقية من الشمم العربي أن يقيم على الضيم فيهاجر إلى المغرب، ويرسل إلى سلطان فارس من بني وطاس رسالته الذليلة المسهبة يدفع عن نفسه ما قرف به في عرضه ودينه. ويشكو إلى السلطان حزنه وبثه ويقول:

مولى الملوك ملوك العرب والعجم ... رعيا لما مثله يرعى من الذمم
بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن ... جار الزمان عليه جور منتقم

على رأسي وقلبي بهذه الأحداث الكاربة، والخطوب المتلاحقة، وهالتني هذه المشاهد المفظعة، فخرجت من هذه الغمرة مرتاعاً كما يستيقظ النائم عن حلم هائل. نظرت أمامي فإذا المسرح، وصعدت بصري فإذا الدائرة: (لا غالب إلا الله.!)

عبد الوهاب عزام

الفاشستية ومبادئها القومية والاقتصادية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كانت مبادئ الثورة الفرنسية روح الحركات الدستورية والديمقراطية التي جاشت بها معظم الأمم الأوربية خلال القرن التاسع عشر، وكانت الحريات الدستورية والديمقراطية إلى ما قبل الحرب هي المثل القومية والشعبية العليا. ولكن الحرب صدعت من صرح المبادئ الحرة والإنسانية، ويثبت إلى الأمم والجماعات الأوربية كثيرا من النزعات الرجعية، فاستردت القومية المتعصبة سابق قوتها وعادت الأحقاد القومية إلى سابق اضطرامها، وشغلت الديمقراطية بخلافاتها ومعاركها الداخلية عن مواجهة الخطر الذي يهددها ولم تلبث الحركة الرجعية حتى أحرزت فوزها الأول بقيام الفاشستية الإيطالية، ثم بقيام حكومات طغيان أخرى في أسبانيا وبولونيا ويوجوسلافيا تحتقر الحقوق والحريات الدستورية وتعمل لسحقها، وان كانت مع ذلك لا ترى بأسا من أن تستتر وراءها وتعمل باسمها في أحيان كثيرة. ولم تكن الفاشستية الإيطالية حين قيامها واستئثارها بمقاليد الحكم والسلطان في إيطاليا، سوى حركة محلية قامت في ظروف خاصة، ولم يكن يقدر لها يومئذ إنها ستغدو ذات يوم فكرة قومية تهب ريحها على كثيرا من الأمم الأوربية الأخرى، وإنها ستغدو نظاما عاما للدولة يطبق اليوم في دولة عظيمة أخرى هي ألمانيا مع خلاف يسير في الوسائل والغايات، وتقتبس منه اليوم دول أوربية أخرى كالنمسا التي أصدرت دستورها الجديد على أساس المبادئ الفاشستية، بل تذاع اليوم دعوته في بلاد ديمقراطية عريقة كإنكلترا يقوم بها حزب

يدعوا إلى النظام الفاشستي.

وظفر الفاشستية على هذا النحو يدعوا إلى استعراض المبادئ الجوهرية التي تقوم عليها، والظواهر الخاصة التي تتميز بها. ويجب أولا ألا ننسى إن الفاشستية تشترك مع البلشسفية في الاستئثار بجميع السلطات والسيطرة على جميع موارد الدولة، وان الفاشستية من حيث هي نظام طغيان مطلق تشبه البلشفية كل الشبه. بيد إن هنالك فروقا جوهرية بينهما في الوسائل والغايات سنأتي عليها فيما بعد. ودعامة الفاشستية الأولى هي الفكرة القومية، وعليها تقوم جميع مبادئ هذا النظام، واليها ترجع غاياته؛ فالفاشستية ترى أن (الأمة) هي حقيقة طبيعية تاريخية، مثلها الأعلى هو إن أبناء البلد الواحد اخوة تجمعهم رابطة القومية

العامة، ولا تحقق سعادة الأمة بقيام فريق منها ضد فريق آخر ولا طبقة منها ضد طبقة أخرى، بل يجب أن تنظم جميع الطوائف والطبقات والقوى لصالح الأمة المشترك، وباسم الوطن الواحد. وترى الفاشستية إنها جديدة طريفة في جوهرها فهي لا تريد أن تصلح أو تحي نظما قائمة، ولكنها تدعي إنها تقيم حضارة مكان حضارة وتنشيء نظما جديدة لبناء الدولة والمجتمع مكان نظم ذاهبة؛ وعندها إن جميع المبادئ والنظم القديمة قد عفت ولا تصلح بعد للعمل على إحياء الحضارة أو المجتمع، ولا بد أن تقلب من أساسها، وان تبدأ الحضارة والمجتمع حياة فتية جديدة على ضوء المبادئ والنظم الجديدة. والدولة الفاشستية لا تقوم على النظام الرأسمالي، ثم هي لا تقوم أيضا على النظام الاشتراكي؛ فالإنسان لم يخلق في نظرها لكسب المال فقط، ولم يخلق أيضا ليقاتل المحظوظين والمنعمين من بني وطنه، ولكنه خلق ليؤدي واجبا اعظم من ذلك وأسمى هو الواجب القومي.

وإذا كانت الجامعة القومية هي دعامة النظام الفاشستي، فان الفكرة التعاونية هي روح هذا الاتجاه القومي؛ وهي أهم ظاهرة في تكوين الدولة الفاشستية: فالدولة الفاشستية لا تقوم كما تقوم الدولة الديمقراطية على فكرة التنافس الحزبي والطائفي في سبيل السلطة، ولكنها تقوم على تعاون جميع الطبقات والقوى القومية. وقد عرف السنيور موسوليني في إحدى خطبه الأخيرة هذه الفكرة التعاونية في ما يأتي: (إنها هي الأداة التي تسترشد بها الدولة في وضع النظام الأساسي الشامل الموحد لجميع القوى المنتجة بالأمة للعمل على تنمية موارد الشعب الإيطالي وقوته السياسية ورفاهه) وفي قوله (قد أعطى النظام الرأسمالي والنظام الاشتراكي كل ما يمكن أن يعطياه، ونحن نرث من كل منهما كل ما فيه من العناصر الحيوية). ويلاحظ إن الفاشستية لبثت بعد قيامها مدى أعوام قبل أن تضع الفكرة التعاونية موضع التطبيق وتتخذها أساسا لتنظيم الدولة الاجتماعي والسياسي، ففي أبريل سنة 1927 أصدرت حكومة رومة (لائحة العمل) وهي القانون الاجتماعي الأساسي للدولة الفاشستية؛ وفيه تعرف الدولة التعاونية وتشرح نظمها ويشرح قانون العمل المشترك وضماناته والأعمال التعاونية وتربية العمال. وترى الدولة الفاشستية إن العمل ليس مجهود يبذله العامل لكسب قوته، وينتفع به صاحب المال، وليس هو الذكاء أو الجرأة أو الأثرة التي تحرك النظام الرأسمالي، ولكن العمل طبق النظرية الجديدة هو مجموعة صنوف النشاط

التي ترمي إلى تنمية موارد الأمة المعنوية والمادية؛ والنظرية الفاشستية تبعد هنا كل البعد عند مبدأ الحرية الاقتصادية وقانون العرض والطلب؛ وتقدم الفكرة المعنوية على كل هذه الاعتبارات، فكل عضو في جماعة عاملة عقلية أو فنية أو مادية إنما هو قبل كل شيء من أبناء الدولة، وهو يدخل بذلك الاعتبار في دائرة القانون الخاص، والقانون العام، بل يدخل في دائرة القانون الدستوري. ولم تقف الفاشستية في تطبيق الفكرة التعاونية عند الناحية الاجتماعية ولكنها خطت في سنة 1929 خطوة أساسية أخرى، فطبقتها من الوجهة الدستورية، وقررت تحويل التمثيل السياسي إلى تمثيل تعاوني؛ وأجريت الانتخابات البرلمانية لمجلس يتألف أعضاؤه من ممثلي النقابات والجماعات التعاونية. وأخيرا منذ أيام قلائل فقط أصدرت الفاشستية كلمتها الفاصلة في النظام البرلماني فقررت إلغاءه وبذلك قضت الدولة الفاشستية على آخر المبادئ والآثار الراسخة التي تقوم عليها الديمقراطية، وأضحت تقوم على مبادئها الخالصة الاجتماعية والسياسية.

وتشترك البلشفية مع الفاشستية كما قدمنا من حيث هي نظام طغيان مطلق، ولكن البلشفية تقف في الطرف الآخر معارضة للفاشستية كل المعارضة في الفكرة القومية. فالبلشفية قبل كل شيء على مبدأ نضال الطوائف والطبقات الاجتماعية، وعلى مبدأ سيادة الكتلة العاملة؛ وترى البلشفية إن التاريخ لم يكن في جميع عصوره سوى نضال بين الطوائف، وإن قوى الأمة الحقيقة ومواردها تتكون قبل كل شيء من العمل أو جهود الكتلة العاملة؛ وشعارها هو سيادة الكتلة العاملة، ولا تتحقق هذه السيادة إلا بسحق الطبقة الرأسمالية؛ وهذا هو الفارق الجوهري بين البلشفية والفاشستية. فالأولى تقوم مهمتها الاجتماعية والاقتصادية على نضال الطوائف، وتقوم مهمة الثانية على الفكرة التعاونية، ولكن البلاشفة يسخرون من هذه الفكرة ويقولون إن تعاون الطبقات ذات المصالح المختلفة مستحيل بطبيعته، وان الطغيان الفاشستي يتخذ من التعاون حيلة لإخضاع الطبقات العاملة، وان هذا التعاون إنما هو تعاون الذئاب مع الأغنام. هذا وثمة فارق جوهري آخر بين النظامين هو أن البلشفية تذهب في برنامجها الهدام إلى حدود بعيدة، فترى إن تحقيق مثلها لا يكون إلا بهدم كل المبادئ والنظم القائمة، واستبدالها بمبادئ ونظم أخرى من تفكيرها وصنعها. ولكن الفاشستية لا تذهب في قصد الهدم إلى هذا الحد، فهي ترى أن تأخذ من النظم القائمة ما يلائم غاياتها، ولا ترى باسا من أن تقتبس من الاشتراكية كما تقتبس من الرأسمالية.

وتستطيع الفاشستية أن تدعي اليوم إنها قد أصبحت حركة عالمية بعد أن لبثت إلى ما قبل عامين حركة إيطالية محلية، فمبادؤها ومثلها السياسية والاجتماعية تسيطر اليوم على أمة عظيمة أخرى هي ألمانيا. وطغيان (الوطنية الاشتراكية) الذي يفرضه الهتلريون اليوم على الشعب الألماني يقوم على نفس الوسائل التي شقت بها الفاشستية طريقها إلى السلطان والحكم منذ اثنتي عشرة عاما. بيد أن الفاشستية الألمانية تنقصها الطرافة، ويغلب فيها التقليد على الابتكار، وتنقصها بالأخص الزعامة الممتازة، وتقدمها بهذه السرعة يرجع إلى وسائل العنف والإرهاب اكثر مما يرجع إلى وسائل الإقناع والتأثير. وهي في جوهرها كالفاشستية الإيطالية تقوم على الفكرة القومية، وحشد أبناء الوطن الواحد تحت لواء واحد؛ ولكنها تذهب في فهم الفكرة القومية إلى حد التعصب الجنسي والديني الواضح، وهو حد لم تبلغه الفاشستية الإيطالية قط، فزعماء الوطنية الاشتراكية الألمانية: اعنيهتلر وزملاءه يمزجون الفكرة القومية بفكرة الجنس والسلالة ويفرقون بين الجنس الآري والأجناس الأخرى، ويقولون إن الشعب الألماني هو شعب آري أشقر يتفوق بالدم والمزايا الجنسية والفكرية على جميع شعوب الأرض، ويشهرون العداء على غير الآريين؛ ومن ثم كانت ثورة الخصومة السامية وطاردة اليهود الألمانيين بحجة أنهم غير آريين وان وجودهم خطر جنسي واجتماعي على الشعب الألماني، وهي حركة تعصب شائن لم تضم الفاشستية الإيطالية في أي طور من أطوارهاوكانت ذريعة سياسية في الواقع رأى الهتلريون في اتخاذها تحقيقا لبعض خططهم السياسية والاقتصادية؛ وتذهب الفاشستية الألمانية إلى ابعد من ذلك فتعتبر جميع الأجناس السامية والشرقية أجناسا منحطة هدامة للحضارة يجب أن يسودها الجنس الآري.

وأما من الوجهة الاقتصادية فأن الفاشستية الألمانية غامضة في وسائلها وغاياتها. فهي تزعم إنها اشتراكية على حين إنها ابعد الأشياء عن الاشتراكية. وهي تعتمد في خططها الاقتصادية على التقليد والاقتباس من الفاشستية الإيطالية؛ فقد أصدرت مثلا قانونا (لتنظيم العمل القومي) على مثل لائحة العمل الإيطالية؛ وجمعت نواحي الإنتاج المادي والفكري في دوائر معينة مقتبسة نظام النقابات الإيطالي. ويعرف الدكتور فدر أحد علماء الوطنية الاشتراكية الاقتصاديين مهمة الحكومة النازية في الميدان الاقتصادي بما يأتي: (إن الوطنية الاشتراكية تعارض فكرة جعل الاقتصاد القومي قوميا. والواقع انهإذا كان من واجب الدولة أن تدير شؤون البلاد الاقتصادية فيجب أن يكون شعارها عدم التدخل في الإنتاج، ومهمة الحكومة الجوهرية هي (التنظيم) فعلى الدولة أن تدير شؤون البلاد دون أن تشترك فيها. وهذا هو الباعث الذي يوجه الاقتصاد الوطني الاشتراكي).

وقد حققت الفاشستية في إيطاليا دولة قوية ومجتمعا جديدا قويا، وبذلت جهودا خليقة بالإعجاب لتنمية الموارد القومية وتنظيم الإنتاج القومي، وبثت إلى الشعب الإيطالي

قوى معنوية جديدة، ورفعت هيبة إيطاليا الخارجية. ولكنا لا نستطيع حتى إزاء هذه النتائج البديعة أن ننسى الوسائل العنيفة التي حققت بها الفاشستية سيادتها وسلطانها، ولا نستطيع أن ننسأنها مازالت تحقق ظفرها على حساب الحريات الدستورية والشعبية. وإذا كانت الفاشستية قد استطاعت أن تسير حتى اليوم في طريق التقدم والظفر، فلسنا نستطيع مع ذلك أن نؤمن بما يقوله زعماؤها ودعاتها من إنها أصبحت تتبوأ مكانتها المستقرة الراسخة بين الأنظمة السياسية والاجتماعية العريقة، وإنها أصبحت نظام المستقبل، ذلك إنها تقوم على كثير من العنف وتغليب الإرادة الفردية والوسائل المصطنعة، ولا تتفق في كثير من مبادئها وغاياتها مع المبادئ والغايات الإنسانية المثلى، وليست من جهة أخرى تتفق مع النزعات الحرة الراسخة التي يمتاز بها التطور السياسي والاجتماعي في عصرنا؛ ومن المحقق انه يوم تبرأ أوربا القديمة من الجراح التي أصابتها من جراء الحرب الكبرى، ومن الفوضى السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي هزت أسس المجتمع الأوربي القديم، فان صرح الفاشستية سيأخذ عندئذ في الانهيار والتطور، وستعود المثل الحرة والدستورية القديمة إلى تبوئ زعامتها وسيادتها في الدولة والمجتمع.

محمد عبد الله عنان المحامي

حل العقد بقطعها

بعض مواقف الفصل - فقر العالم إلى العباقرة

الناس مفتقرون في كل حين من الدهر إلى رجال يحلون العقد لا بالنفث فيها كما يصنع أهل السحر والشعبذة، بل بقطعها توفيرا للوقت وكفاية لمؤونة التعب وبرهانا على العبقرية - كما صنع ذو القرنين منذ اثنين وعشرين قرنا. وكما صنع المتنبي منذ عشرة قرون. . وكما صنع لورد كرومر في أواخر القرن الماضي. وكما صنع مصطفى كمال في رواية الأمريكي التائه.

ذلك بان جمهرة الخلق قوالون وبياعو كلام اكثر منهم فعالين سواء في ذلك منهم خاصتهم وعامتهم. فإذا عرضت لهم عقدة مهما يكن موضوعها اشتغلوا بالحرف وعتقه، وعد واعن الروح وجدته. والغالب ان يشكل عليهم فهم الحرف فيروحون يتخبطون فيه وفي تاويله حتى يقوم فيهم من يضرب بالحرف عرض الحائط وينبذ اللفظ ويشرب في قلبه حب الروح ويفقه المعنى فيحل العقدة بأسرع مما عقدت.

ذو القرنين

أما ما صنع إسكندر المقدوني الكبير تلميذ أرسطو طاليس الفيلسوف العظيم في أوائل القرن الثالث قبل المسيح فهو انه زار أحد هياكل آلهة اليونان فرأى عقدة معقودة ومحبوكة، فسأل عنها فقال له الكهنة والمتنبئون والسحرة والنفاثات في العقد: إن من يحل هذه العقدة يفتح آسيا، فجرب فلم يفلح، ولكن أومض في صدره قبس العبقرية التي استمدها من معلمه فلم يلبث أن استل سيفه وحل العقدة بقطعها وترك الذين حوله مصعوقين، وفتح أمامه السبيل إلى فتح آسيا.

المتنبي

وأما المتنبي فحكاية ما صنع مبنية على بيت قاله من قصيدة هي من عيون قصائده. فقد اكثر في زمانه من التبرم بالناظمين الذين سماهم متشاعرين وقال انهم غروا بذمة، ويحذرهم على ذلك الذم لانه داء عضال لهم (ومن ذا يحمل الداء العضالا). وانهم كثيروا الادعاء، إذا برزوا له في نزال عجزوا عن ان يأتوا بشيء، وجاء هو بكل شيء، ولذلك

قال (فكم منهم الدعوى ومني القصائد)

ولما اشتدت منافسهم له وابو فراس في جانبهم جمعهم ذات يوم مجلس سيف الدولة، فقالوا فيه ما قال مالك في الخمر وهو ينشد البيت في اثر البيت، وهم يقولون سرقت هذا من هذا القائل، وذاك من ذاك القائل، حتى مل سيف الدولة وضجر وحتى قيل انه رماه بدواة فأدماه، فارتفعت من سويدائه شرارة العبقرية التي ما خانت العبقري مرة، فمد يده إلى حيث استعار سيف الاسكندر، وفك به رؤوس هاته الزعانف ببيته المشهور الباقي على الزمان بقاء قصائده.

ان كان سركم ما قال حاسدنا ... فما لجرح إذا أرضاكم ألم

ويكفي ثوابا له ان يقوم سيف الدولة عن سريره ويقبله في جبينه، إذ كان هذا البيت

أمضى من سيف الاسكندر، وكان في حده الحد بين لعب خصومه وجده، والفارق بين باطلهم وصحيحه، وأغنى عن التمادي في خصومتهم ومماحكاتهم، ورد عداوتهم في نحورهم (وعداوة الشعراء بئس المقتنى) كما قال في أحد أبياته،
وقد اشار إلى هذه الحادثة ببيته الآخر الذي جرى مجرى المثل ككثير من شعره وهو:
أنام ملء جفوني عن شواردها ... ويسهر الخلق جراها ويختصم
قال إن شوارد الشعر وقوافيه لا تقلق لي بالا ولا تؤرق لي نوما وإنما يقلقني الحزن على حبيب راحل وتؤرقني الصبابة، فأنشد القصيدة ناعما خلي البال وأنام ملء جفوني على حين ان هؤلاء الأدعياء يسهرون لياليهم مختصمين ولا يفتح عليهم بشيء.
لورد كرومر
قد تعرض في القانون حالات تحسب فيها المحافظة على القانون سخافة وكسره حكمة وعقلا. وقد يقف الجندي في الميدان مواقف يحيد بها عن أوامر رئيسه ويعصاها فيدفع بذلك كارثة كبيرة وبمقتضى الأحكام العسكرية يجب أن يقتل، ولكنه لا يقتل لأنه عاذ بعقله في موقف، طاعة الأمر العسكري فيه خطأ، وعصيانه صواب. والذين عرفوا تاريخ نلسن الشهير عرفوا انه خالف أوامر رؤسائه غير مرة، وان ذلك حال دون ترقيته الترقية العسكرية المعتادة، ولكنه لم يحل دون صعوده إلى أعلى مراقي الشهرة البحرية العالمية على يد عبقريته.
كان في القاهرة في أواخر القرن الماضي مطبعة اسمها المطبعة العثمانية فنقل إلى مختار باشا الغازي القوميسير العثماني العالي حينئذ، أن فيها قائمة بأسماء أعضاء حزب تركيا الفتاة في جميع أنحاء السلطنة العثمانية، وكان السلطان عبد الحميد يخشى باس تلك الجمعية وأعضائها الأحرار، ولو عرفهم بأسمائهم لأهلكهم في جملة من اهلك منهم، ولشرد أهلهم وأسرهم كل مشرد، فراى مختار باشا ان الفرصة سانحة للزلفي من مولاه (وتحسين مركزه) فاستعان بالخديو، ورأى الخديو ان الفرصة فريدة (لتبيض وجهه)، في الأستانة فأمر ففوجئت المطبعة واقفل صندوقها الحديدي وختم بالشمع الأحمر انتظار الحكم المحكمة.
والهم الله من اطلع لورد كرومر على المسالة وأخبره بعاقبة وقوع تلك القائمة في يد الأستانة، فأرسل مندوبا من قبله ومعه سيف الاسكندر ففض ختم الصندوق الحديدي وفتحه واخذ جميع ما كان فيه من الأوراق. وبذلك انتهت المسألة وقطعت العقدة. ولو تركت للمفاوضات الدبلوماسية ما انتهت بأنجح من المفاوضات الدبلوماسية في مسألة نزع السلاح الآن!
ولم يسمع بعدها حس ولا ركز في موضوعها، ولا همس هامسكبيرا كان أو صغيرا، سوى احتجاج الصحف على انتهاك حرمة القانون وتدنيس قدس القضاء.
مصطفى كمال
رواية الأمريكي التائه معروفة؛ فر من العدالة الأمريكية إلى فرنسا ومن فرنسا إلى اليونان، لأنه رأى فرنسا خطر عليه واليونان بردا وسلاما على قلبه. فانزل في هذه على الرحب والسعة. فطلبته أمريكا فحكمت محكمة أثينا العليا بان تسليمه لا يجوز في نظر القانون الدولي، إذ ليس بين أمريكا واليونان معاهدة لتسليم المجرمين فردت أمريكا بأن في أرضها نصف مليون يوناني ففهمت اليونان هذا الوعيد ورأت أن تنذر الأمريكي التائه ففر، ومازال تائها بباخرته حتى مر بالأستانة ووقفت باخرته في مياها. فطلبت أمريكا من تركيا أن تسلمه إليها وبلغ الطلب مصطفى كمال طبعا وقيل له القانون الدولي ثم القانون الدولي.
فسكت هنيئة ريثما راجع في مخيلته حكاية الاسكندر، وحكاية كرومر، وتصور رجال القانون يسهرون ويختصمون على حرف القانون وتفسير القانون، فضحك من منظرهم هذه وقال مع المتنبي
أنام ملء جفوني عن شواردها ... ويسهر الخلق جراها ويختصم
ثم جيء إليه بخاتم المارد فسمع هاتفا يقول (لبيك! عبدك بين يديك) فقال مصطفى كمال أتني بسيف الاسكندر. فإذ السيف أمامه، فتناوله وضرب به عقدة القانون الدولي فقطعها. ولو تركها ما حلتها محكمة لاهاي ولاهاواي ولا شنغاي!
ثم أمر فسلم الأمريكي التائه إلى دولته وترك أهل القانون يتشاتمون ويتضاربون ثم ينصرفون.

العالم أحوج ما يكون إلى رجال أمثال هؤلاء يحلون عقد العالم بأعمال توحيها العبقرية، وهو اعظم ما يكون غني عن الذين يقولون مالا يفعلون ويقشرون النعنع والكمون، ويهملون اثقل الناموس الحق والرحمة والأيمان، وينبذون روح القانون ويتعلقوا بحرفه ونصه.

(ن. ش)

!. . .مختار دائما

للأستاذ محمود خيرت

ولماذا لا نذكره دائما، وهو الذي بعث الفن القديم من مرقده ورفع عنه غبار الماضي الطويل، ونشره بيننا في زي جديد تحده عليه آثار العصر الحاضر؟ أن هذا الشاب الراحل كان النواة الأولى لفنه. وما أنا بمبالغ إذا قلت إن فن النحت والتصوير كان معدوما من قبله هو وإخوانه (محمد حسن، ويوسف كامل، وعلي الأهواني، وراغب عياد، وعلي حسن، وغيرهم من زينة مصر الآن).

انهم جميعا كانوا من عمد النهضة الحديثة التي انشأ معبدها المرحوم باولوا فورشللا أستاذهم وأستاذي أيضاً. . . وقد كنت أذهب إلى مصنعه وأنا محام فعرفتهم وعرفوني، وكنا جميعا تلاميذه وان كانوا بالمدرسة وأنا في أوقات فراغي بهذا المصنع نجتمع عنده ونذهب منه إلى حيث المرج أو عزبة النخل أو شاطئ النيل أو بعض أحياء القاهرة القديمة نصور وأستاذنا يطوف بنا كالقائد يدلنا على مواضع أخطائنا. وكالأب يتلطف معنا ويغرس حب الفن في نفوسنا. نبغوا وكان على رأسهم تلك الشعلة المتقدة الراحلة. لا زلت أذكره وهو بمدرسة الفنون الجميلة بدرب الجماميز فتى وسيما غزير الدم، مرسل الشعر، حلو الحديث، جم الحياء، عاشقاً. . . ولكن فنه يتلذذ بذكره في كل لحظاته. . . ولازلت اذكر يوم زارني عند الغروب يطلب إلي في لهفة بعض صور لتماثيل غربية عن الحب، فعرضت عليه ما عندي منها. فلما كان اليوم التالي دق التليفون عند الساعة الخامسة صباحا. . . وكان المتكلم هو يذكر أنه لم ينم تلك الليلة كلها، وقد غمره شغفه بوضع تمثال للحب على النحو الذي فكر هو فيه. بل أنه كان يكلمني من المدرسة. . . لأنه لم يستطع صبرا فما كادت الشمس تشرق عن الأفق حتى قصد إليها ووضع فكرته فعلا. وطلب إلي ألا أتأخر عنه لأرى ما وضعه. وكان تمثاله الطيني يمثل فتاة عارية متناسبة الأعضاء جميلة الوجه لها نظرات زائغة، كأنها ترى في الفضاء شبح الحب مقبلا عليها وكأنها تخافه فتدفعه بساعديها الممتدين، وقد ستر موضع عفتها بحمامتين تتناغيان على ما في الصورة المرصودة هنا وقد عنيت بالتقاطها وقتئذ.

كان مختار لا يعرف للنوم معنى ولا لملاذ الحياة طعما، إلا ما كان منها متصلا بفنه الذي يعشقه عشقا ويهيم به هياما، وهي مواهب من تهيئهم الأقدار للنبوغ حتى أنني لما أرسلت بنسخة من تلك الصورة إلى الميسو لابلاني ناظره وأستاذه، وكان وقتئذ بفرنسا بسبب العطلة المدرسية - أرسل يطلب إلي أن افتح عيني مختار إلى الشهرة التي تنتظره وأنه سيكون في يوم قريب فخر مصر، بل فخر العالم كله (هكذا). وعند ذلك أقبلت عليه أزف إليه هذه البشرى، وسلمته ذلك الخطاب الذي يعد أول وثيقة تنبأ فيها أستاذه النافذ البصيرة بما سيكون له من الشأن.

وهكذا اصبح مختار حديث المجالس الفنية في فرنسا حتى اختارته (وهو مصري) مديراً لمتحف جريفين الشهير، وحتى ابتاعت بعض آثاره تزين به متاحفها، وحتى صور لنا آلام مصر وآمالها ونهضتها في تمثاله الخالد.

لم يكن مختار من أولئك القاعدين المقلدين فيسير على أسلوب فالكونيه وكافوفا وكلوريون، أو جيروم وكاريو وبارتولوميه ورودين، فتخرج آثاره موسومة بطوابعهم وتفني روحه الفنية في أرواحهم، وإنما كان نفسا يعز عليها ألا يكون لها شخصية مستقلة متقدة بالأمل، ظمأى إلى النهوض، وثابة إلى أبعد مراتب المجد حتى انه قبل قيامه إلى فرنسا لاستكمال علمه أشار إلى ذلك في شعر قاله ثم بعث به إلى، اثبت منه هذه الأبيات لأن أكثره غير موزون ولا مصقول وان دل على سمو هذه الروح.

وقائله ما بال شعرك مسدلا ... فقلت لها إن الفنون جنون
اعلل نفسي بالمعالي تخيلا ... فياليت آمال الخيال تكون
سأرفع يوما للفنون لواءها ... ويبقى لذكرها بمصر رنين

من ذا الذي يصهر نفسه مثل هذا الهيام الفني ويغمرها مثل هذا الأمل الحبيس في خدر الطفولة والاغتراف من العلم ولا يكون له من هالات الظفر والمجد والشخصية نصيب؟

وإذا كان وهو لا يزال بمصر طالبا لم يرض لتمثاله (الحب) إلا أن يطبعه بصورة خاصة من وحي نفسه وعصاره خياله الذي كان وليد سهره تلك الليلة الطويلة التي مر بنا ذكرها، فكيف لا نلمس هذه الشخصية الناضجة في تمثاله الذي رمز به للنهضة.

ولقد تعاقبت القرون وأبو الهول (ذلك التمثال الصخري القديم) غائر في رمال الصحراء، محدق بنظره في الفضاء، صامت صمت الحجر الصلد الذي نحت منه، حتى هيأت الأقدار

لمصر ولدا من أولادها البررة الشجعان يخرجه من صمته ويحركه من سكونه. فمثل لنا مختار إلى جانبه مصرية نبيلةشامخة بنفها تنظر إلى المستقبل في عزم وإيمان كما أنهضه من رمل الأحقاب الخالية كأنه يتطلع مطمئنا إلى هذا المستقبل.

وبعد، فعد معي أيها القارئ الكريم إلى ما ذكرت من ذلك الشعر وهو قوله:

وقائلة ما بال شعرك مسدلا ... فقلت لها إن الفنون جنون

اعلل نفسي بالمعالي تخيلا ... فياليت آمال الخيال تكون

سأرفع يوما للفنون لواءها ... ويبقى لذكراها بمصر رنين

ألا ترى انه خط هذا الشعر السهل بمداد من سائل شعوره الفياض بحب الفن وحب مصر والوعد برفع لوائها خفاقا بين الويه النهضة الحديثة. وفي مكان آخر من هذه القصيدة إشارة إلى ما كان يعانيه من عشيرته في سبيل هذا الحب وهو صابر ثابت سائر في طريقه الذي رسمته له آماله، حتى حققها بعد ان كانت خيالا، وحتى بر بوعده فكان صادقا، وحتى خلدته آثاره بعد موته كما اشتهى. . .

إن مختار كان وحده كوكبا مضيئا سيارا، ولكن شاء الحظ الساخر ألا يتم إلا دورة واحدة من مداره. فهل يكتب لمصر إن يخلفه كوكب آخر يعيد سيرة هذا المدار؟

محمود خيرت بقلم قضايا المالية

استيلاء المغول على بغداد

لنصير الدين الطوسي

صفحة تاريخية لم تنشر

ذكر الؤرخون على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم (حادثة سقوط بغداد) على يد المغول وافردوا لها المجلدات الضخام، ولكن الأمر الذي يستحق الاعتبار اكثر من كل شيء هو ان نقرا تفاصيل هذه الحادثة بقلم البحاثة (الخواجه نصير الدين الطوسي) الذي رافق الحملة التترية إلى بغداد وحضر الواقعة بنفسه وكتب ما رآه وما سمعه بدون تحزب كما سيتضح لك من هذه الوجيزة التي أخرجها حديثا من بين رسائل العلامة الطوسي الخطية (رسول النخشبي) أحد كتاب إيران، رأينا ان نرسل بترجمتها للرسالة لأهميتها أولا ولمناسبة ما أورده الأديب فرحان شبيلات في عددي الرسالة 33 - 34 - ثانيا (لما عزم السلطان (هولاكو خان) على أن يلج بلاد الملاحدة (الباطنة) سير من قبله مندوبا إلى الخليفة ليطلب منه النجدة حتى يستأصل بذلك شأفتهم ويمحو سطوتهم فبلغ الرسول الخليفة فحوى الرسالة بقوله يقول السلطان. . (إننا بعاداتنا البدوية وأسسنا القومية نستنجد بموالينا على أعدائنا، وبالنظر إلى الحب والولاء القائم بيني وبينك أرجو معونتنا بخيلك وإمدادنا برجلك، حتى ندرأ شر هذه الفئة الباغية التي أريقت بكيدها الدماء وأزهقت بغدرها أرواح الأبرياء) فاختلي الخليفة بحاشيته وائتمر مع أصحابه، فأجابه الجمع من الجنود والأمراء، بأن (هلاكو) يريد بهذه الحيلة إخلاءبغداد من العدد والعدة لتصبح في وجهه مفتحة الأبواب، خالية من الخيل والركاب، فيستولي آنئذ على المدينة بلا توجس خوف وارتياب، ونمسي على ما فعلنا نادمين. فانصاع الخليفة لرأي الجلساء وتواني في إمداد السلطان ورجع الرسول إلى سيده بخفي حنين.

ولما أن فرغ السلطان من فتح بلاد الملاحدة عائب الخليفة عتابا مرا وانذره إنذارا أليماً، فارتأى الخليفة أن يستشير وزيره - العلقمي - فأشار عليه هذا أن يحمل ما في دار الخلافة من فاخر الأثاث وزخرف الرياش على البغال المسرجة والخيل الملجمة ويقدمها هدية للسلطان، وينجو بهذه الواسطة مما يوشك أن يحدث في ملكه من

التدمير والهوان، فقبل الخليفة ما شار الوزير إليه وأمر بتسجيل ما يلزم انتقاءه من الأشياء، وعين لإيصالها نفرا
من أركان دولته لعرض المعذرة عند تقديم الهدية، فاجتمع أحد الأمراء المدعو (الدوات دار الصغير) مع عدة من صحبه وقال لهم إن هذه مكيدة أراد بها الوزير قتل أعواننا ونهب أموالنا، فإذا جيء بالأموال إلى ظاهر البلد ننقض عليها برمتها ونستنقذهالتكون ذخرا ليوم شدتنا، فنمى الخبر إلى الخليفة واضطر إلى إبدال الكثير بالقليل، والوافر اليزر، فاغتاظ السلطان وأرسل إليه أن يحضر بنفسه أو أن يبعث إليه أحد الذوات الثلاثة: الوزير أو الكاتب أو سليمان شاه، فتواني الخليفة في إنجاز ما أراد السلطان أيضا، فاشتد من اجله غضب السلطان وعقد النية على فتح بغداد، فأرسلالخليفة الأزبكي مرة وابن الجوزي بن محي الدين مرة فارتدا خائبين. لأن السيل قد بلغ الزبى، وحان الوقت الذي لا ينفع فيه الندم.

ففي شهر شوال سنة 655 هـ نهض السلطان - هلاكو - من همدان موليا وجه شطر قاعدة الخلافة العباسية. على أن الأمير (صوغنجاق) والسردار (تايجنوئين) كانا قد ذهبا مع مقدمة الجيش الأيمن على الميمنة مما يلي أربيل عن طريق جبال (شهر زور) كما أن القائد (دقوق) وزميله (كبد يوقائين) و (انكتانوئين) كانوا على الجناح الأيسر من الميسرة التي زحفت إلى (تكريت) و (بيات) وكان فيلق القلب من الجند السلطاني تحت أمرته الشخصية يسير من كرمنشاه وحلوان إلى بغداد. هذا وقد سار (الدوات دار) من بغداد بجيش الخليفة وأتى إلى بعقوبة فخيم بجوارها. أما السلطان فكان قد أوعز إلى أحد قواده المدعو (تايجورا) أن يعبر دجلة ويدخل بغداد من جانبها الغربي - وقد تخلى هو عن رحله وسرادقه عند ما وصل حلوان وخرج منها بسرية من جيشه، وأول حادث حدث هو أن طلائع الجيش الملكي أسرت طليعة من جند الخلافة، ولما مثلوا بين يدي السلطان اقسموا الإيمان المغلظة على أن يخلصوا الخدمة من يومهم للملك ويؤدوا له ما يجب عليهم من الصدق والامانة، وكان في جملتهم أمير من بقايا الملوك الخوارزشاهية فأرسل هذا كتابا من قبله إلى العسكر العباسي مخاطبا به القائد (قرانسقور) أحد أمراء جيش الخلافة بالعبارة التالية: -

(إنني وإياكم من جنسية واحدة، وأديت الطاعة واتصلت بالخدمة فصرت من المكرمين، فإذا ارتم أن تبرئوا أنفسكم وتشفقوا على أرواحكم فاعتصموا بحبل الطاعة وتمسكوا بذيل العبودية لأني لكم من الناصحين.)

وبعدما قرأ (قرانسنقور) الكتاب أجاب الأمير المذكور بما يلي: - (متى صارت لهلاكو تلك المكانة التي يتمكن بواسطتها بلوغ هذه الغايات، ولعمري ان هذه الدولة (العباسية) قد شاهدت كثيرا من أمثاله وأقرانه، هذا وان مجيئه بهذه الصورة إلى بلاد الخليفة وتدميرها بهذه الصفة لدليل على انه يريد في الأرض علوا وفسادا، وان أراد غفران ذنوبه وقبول أعذاره فليرجع إلى همدان حتى أتشفع له بواسطة (الدوات دار) لدى الخليفة ليعفو عما سلف منه)

وبعد ما وقف السلطان على فحوى الرسالة ضحك ضحكة المتهكم وقال (نعم الأمر بيد الله وانه فعال لما يشاء) وبعد ما عبر القائدان دجلة ظن البغداديون إن هذه الجيوش والعساكر ما قطعت النهر إلا تحت قيادة هولاكوخان الخاصة ونمى الخبر إلى (الدوات دار) فقفل راجعا من بعقوبة إلى بغداد، وعبر دجلة فالتقى (بصو غنجاق) الذي كان في مقدمة الجيش المغولي، ووقعت بينهما معركة انكسرت فيهما عساكر (صوغنجاق).

وإلتجأ الأخير إلى الفرار، ولكن الذي حصل لعسكر (الدوات دار) عند اشتباكه بالحرب مع (تايجونوئين) القائد الثاني دعا لضياع النتيجة، ضاقت عليه الأحوال فآب (الدوات دار) راجعا بجمعه المتفرق إلى بغداد.

أما السلطان فامتطى جواده وعبر (ديالى) مع جمع من عسكره إلى أن بلغ ظاهرة بغداد في منتصف شهر محرم سنة ستمائة وست وخمسين، وأرسل (بوقاتيمور) مع جيش ليحط من جانبها الغربي، وأمر أن يقيم الجند حائطا يحتضن المدينة من كل الجهات ثم نصبت عليه المجانيق وهيئت المؤن والمعدات اللازمة للحرب والقتال.

ولما أحس الخليفة بذلك اجتمع بأصحابه ليتشاورا في الخطب، فقال بعضهم إذا أردنا أن نقدم لهم الهدايا الفاخرة ونفتدي المدينة بالدرهم والدينار فعسى أن يحملوا هذا

دليلا على الخوف والهوان، والأصلح إيفاد الوزير (صاحب الديوان) مع (ابن الدربوس) بقليل من التحف والرياش فاستحسن الجميع قوله فلما احضر صاحب الديوان وزميلاه إلى السلطان قال: لماذا لم يحضر عندنا (سليمان نشاه) و (الدوات دار)؟ فاجيب بان السلطان كان قد كتب للخليفة أن يبعث واحد من هؤلاء الثلاثة فأرسل الخليفة الوزير الذي هو أكبرهم، فقال السلطان نعم. ولكن أردت ذلك في همدان، وهاأنذا في بغداد، هذا وبعد أحد ورد ظهرت

بوادر القتال ظهورا تدريجيا، وابتدأت العساكر المغولية الحرب في 22 محرم وحمل السلطان بنفسه على بغداد من جانبها الشرقي تجاه برج العجم، وحاربت عساكر (كبة بوق) بالسهم والنشاب، وكان القائدان (بلغاي) و (سناي) يتقاتلان في الجانب الأيمن لمدينة. وأما (بوقاتيمور) فانه انهال بجيشه على بغداد من الجانب الغربي في ارض كانت تعرف حينذاك بـ (روضة النقل)، أما (تايجونوئين) و (صوغنجاق) فقد احتوشا المدينة وزحفا عليها مما يلي المارستان العضدي، ودام القتال الشديد لمدة ستة أيام بلياليها، وأمر السلطان أن ترسل ست رسائل بواسطة النشاب لجماعة السادة والعلماء والأركان والمشايخ وغيرهم ليفهموهم بأن الجيوش المغولية لا تتحرش بهم أن القوا السلاحهم وكانوا في حياد. وما بزغت شمس يوم الثامن والعشرين من شهر المحرم إلا وتمكن العسكر المغولي من الاستيلاء على برج العجم، وقبل صلاة ظهر ذلك اليوم تم النصر للمغول باندحار البغداديين اندحاراً عظيماً ووقوع المدينة في قبضة التتر، وكان قد أرسل السلطان وحدات من جيشه للحراسة على دجلة من أعلاها إلى أدناه وللقبض على الذين يريدون الفرار واتفق أن صادفوا ثلاث سفن تحمل أثاث (الدوات دار) وشيئا كثيرا من أمواله وسلاحه وغير واحد من رجاله وصحبه من جملتهم نقيب العلويين، فأوقفوها عن السير برشاشات النفط النارية، ولما تمكنوا منهم قتلوهم جميعا حتى النقيب العلوي وصادروا جميع ما فيها من المحولات، هذا وقد أمر السلطان أهل بغداد ان يشتركوا جميعهم بهدم الدور التي تحيط بالبلد، وبعد ما أعلن السلطان العفو العام استأذن الخليفة السلطان للخروج من بغداد لأنه تحقق من نفسه وجيشه الضعف الكامل وانه باء بالفشل المبين. والخلاصة ان الخليفة قابل السلطان في (باب كلواز) بجمع حاشد من السادة والأئمة والمشايخ والأركان وهذه هي المقابلة التي كانت تعد آخر يوم من أيام الخلافة العباسية.

ثم صدرت أوامر السلطان ان يبادر الجند بنهب المدينة وغزو ما فيها من الأموال. وفي يوم الأحد الموافق لرابع شهر صفر سنة 656 هـ دخل السلطان المدينة وولج القصر العباسي ثم دخل الغرفة التي كانت معدة لجلوس الخليفة عند ما يريد القراءة والكتابة وكان الخليفة حاضرا هناك مع نفر غير قليل من العلماء والإشراف، فتقابل السلطان معهم وتكلم بعد ذلك مع الخليفة وقال له أين الهدايا؟ فأحضرت له فقسها بين رؤساء الجند وقادة

الجيش، ووضع السلطان طبقا ملؤه الذهب الإبريز الخليفة وقال له تقدم وكله لسد جوعك، فقال الخليفة ليس هذا مما يأكل الإنسان! فقال السلطان إذن ما ضرك لو كنت قسمته على أعوانك وجيشك ليكون وسيلة لقوة أمرك وداعيا لنصرتك؟ ولم لم تخلع هذه الحدايد التي غلقت بها هذه الأبواب لصنعوا منها سهاما تمنع عبور أعدائك من الجيحون (دجلة)؟ فأجابه الخليفة كل ذلك كائن بتقدير الله، فقال السلطان نعم وغن الذي سيجري عليك يكون بتقديره أيضا. ثم أمر السلطان أن تدخل النساء اللواتي باشرهن الخليفة أو ولده بقصر دار الخلافة، وأذن بدخول الوصائف والخدم أيضا، وأحصيت فكانت (700) امرأة و (1300) وصيف وخادمة. وبعد أسبوع أعلن آلام العام وجمعت الغنائم والأسلاب.

وفي اليوم الرابع عشر من صفر خرج السلطان من المدينة وأمر بإحضار الخليفة بظاهرها فاحضر مع ابنه الأوسط وخمس أو ست من خدمه الخصوصيين فوقعت الواقعة وصار ما صار وانتهت آخر أيام الخليفة العباسي في ذلك اليوم، وفي اليوم التالي قتل نجل الخليفة الأكبر وشتت بعد ذلك شمل الحرم والنساء فتفرقوا أيدي سبأ.

ثم أيمر السلطان بعد ذلك بتعمير بغداد ودفن أجساد البشر والحيوانات التي كانت مطروحة في الطرقات بعدما نصب الوزير - ابن العلقمي - للوزارة وصاحب الديوان لديوانه، وأعطى إمارة الجيش لبن الدربوس وسلم إدارة الشرطة في بغداد لرجل

يدعى - استونها - وبعد ذلك رحل من بغداد إلى حيث يريد محفوفاً بهالة من النصر،
وكان السلطان قبل رحلته من بغداد سير (بوقاتيمور) بحملة أخرى لإخضاع الحلة
وواسط فخضعتا وتوجه (بوقاتيمور) بعد ذلك نحو مدينة (تستر الأهواز) بقصد الاستيلاء
عليها ورافقه شرف الدين بن الجوزي إلى هناك.
وأما الكوفة والبصرة فانهما أظهرتا الخضوع بلا أدنى حرب أو مقاومة.
كربلاء
عباس علوان الصالح
بين المعري ودانتي في رسالة الغفران - 5
والكوميدية المقدسة
بقلم محمود احمد النشوي
لقد وعدنا في العدد الماضي أن نذكر أحراس الجحيم من الشياطين في خيال دانتي.
وفي الحق انه افتن في وصفهم. وجعل منهم أولى أذناب يطوقون بها المعذبين مثنى
وثلاث ورباع. وآخرين في صورة كلاب تعددت رؤسها وأفواهها. وجعل منهم من يصرخ
ويصيح بصوت تنبو عن جرسه الأسماع. .
جمهرة من المردة استغل الشاعر مواهبه إلى أقصى حدودها في وصفهم محتفلا بذلك
الوصف حتى جعل لهم مدينة تخصهم لا يلجها سواهم ففي بعض طبقات الجحيم،
وعلى ضفاف نهر اكرونتي يقف الشيطان بزورقه ينقل فيه المعذبين من مكان إلى
مكان ضاربا بمجدافه كل من أبطأ به ضعفه أو تمرده. وفي بعض جنباتها يرى الشيطان
شربيرو في زي كلب ضخمت جثته، وتعددت رؤوسه وأفواهه ترسل الصراخ والنباح
عاليا تنكره الآذان. وفي بعض نواحيها يرى الشيطان بلوطو ملحا في هذيانه بصوته
الذي لا تبين نبراته. ويبعث رنينه في القلوب الفرق والرعب والهلع. ثم يحدثنا مرة
أخرى عن شيطان له زورق يعبر عليه أهل النار بركة سوداء قاتمة يتقلب في أوحالها
وأقذارها المتكبرون والحاسدون. ذلك الشيطان هو حدثنا عن الشيطان مينوتاورو الذي
تراءى في ظلمات الجحيم متخذا هيئة ملفقة من الإنسانية والحيوانية نصفه ثور ونصفه
ادمي إلى كثير من زبانية ومن شياطين افتن شاعر الطليان في وصفها افتتانا جعله
يختصها بمدينة (ديتي تلك التي اشرف دانتي منها على أبراج وقباب يلفحها لهب
الجحيم. وينعكس عليها ضوء النيران. ولم يكد يخطو نحوها يريد اختراقها حتى
اعتراضه ألف من الزبانية يحتجون على دخوله مدينتهم واختراقه حرمتهم. ولقد كانت
الشياطين كلما اعترضته في طريقه أو أرادت إلحاق الأذى به هرع إلى فرجيل
فاستنصر به، فأقنعها فرجيل بالإرادة السماوية التي تأمره بالمسير فخلت له السبيل.
بيد ان المردة من (ديتي) أبوا إلا إعراضا وعصيانا فأغلقوا من دونه أبوابهم، فوقف
الشاعر مشدوها يعجب لمئات الشياطين من حوله. ولثلاث من إناث الجن وقفن فوق
اكبر البروج مولولات صائحات. وليس خضابهن الحناء بل
يصطبغن بالدماء. وتدور على أوساطهن الثعابين وتنسدل على أعناقهن ورؤسهن
الأفاعي مكان الشعر متكاثفة يركم بعضها بعضاً. ولا زال دانتي تحيط به المرعبات من
كل الجوانب حتى جاءه ملك كريم أهوى نحو الشياطين بعصاه ففتحت له أبوابها.
واخترقها دانتي ذاهبا لطيته واستكمالا لرحلته بين حراس الجحيم وعذاب العاصين
مسهبا في الحديث عنهم. بيننا المعري لم يسهب في وصفهم فلم يكن له غرض في
ذلك بله الافتتان فيه فهو لم يرد ذكر لعصاة والمجرمين يصف للناس عذابهم عظة
وذكرى حتى يفتن في وصف ذلك العذاب. وفي وصف الزبانية والأحراس الموكلين
بالعذاب وإنما هو رجل لغة وأدب وشعر. يتلمس الطرق الشائقة ليبرزها طريفة محببة
للنفوس. فلم يعرض لخزنة النيران إلا قليلا على حين أنك ترى دانتي همه وصف
المجرمين والخائنين: خائني أوطانهم وإخوانهم وأهليهم، معملا خياله فيوصف
المعذبين، وفي وصف الموكلين بعذابهم حتى ينفر الناس من الخطيئة، ويتجافوا عن
المعصية.
إبليس في الروايتين
ذكر الجحيم يتتبع ذكر إبليس. وإبليس رمز الشر حتى عند عبدة الشيطان، فهم يعبدونه
اتقاء لشره. فتحدث عنه المعري ولم يغفل دانتي ذكره. وكلاهما صورة في آلامه
وأوصابه وفي عذابه وما يلاقيه. بيد أنك إذ تقرا وصف المعري له تغرق في الضحك

وتعلم أي سخرية بلغها أبو العلاء. وأي دعابة اغرق فيها رهين المحبسين. وتعلم من بعد ذلك ان صاحب رسالة الغفران هو اشد كتاب العربية جرأة على ما لم يجرؤ عليه أحد غيره.

وسأنقل إليك ما ذكره عن إبليس متدرعا بالشجاعة أنا الآخر حتى في النقل، ولولا ان واجب الموازنة يضطرني للنقل. ولولا أن حاكي الخبر ليس بمسؤول عنه، لضربت صفحا عما سطره المعري عن ابليس. فقد ذكره وهو يحاور ابن القارح يسائله عن صناعته ويذم له حرفة الأدب. ويسائله عن أعمى البصرة بشار بن برد ذي اليد عليه كما يقول حين فضله على آدم. ثم يستفتيه في تحريم وتحليل. . وفي أحكامفقه ودين. .

فدونك ذلك القصص أكتبه واترك للقارئ تفهم ما تحدث به المعري في خلاله. وقال المعري محدثا عن ابن القارح (ثم يطلع على أهل النار فيرى إبليس لعنه الله وهو يضطرب في الأغلال والسلاسل، ومقامع الحديد تأخذه من أيدي الزبانية، فيقول الحمد لله

الذي أمكن منك يا عدو الله وعدو أوليائه، لقد أهلكت من بني آدم طوائف لا يعلم عددها إلا الله، فيقول: من الرجل؟ فيقول: أنا فلان ابن فلان من أهل حلب. كانت صناعتي الأدب أتقرب به إلى الملوك، فيقول بئست الصناعة إنها تهب غفة من العيش لا يتسع بها العيال، وإنها لمزلة القدم وكم أهلكت مثلك، فهنيئا لك إذ نجوت، فأولى لك ثم أولى لك، وان لي إليك حاجة فان قضيتها شكرتك يد المنون، فيقول: إني لا اقدر لك على نفع، فان الآية سبقت في أهل النار، اعني قوله تعالى (ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا أن الله حرمها على الكافرين) فيقول: إني لا أسألك في شيء من ذلك ولكن أسألك عن خبر تخبرنيه، أن الخمر حرمت عليكم في الدنيا وأحلت لكم في الآخرة، فهل يفعل أهل الجنة بالولدان المخلدين فعل أهل القريات؟ فيقول: عليك البهلة، أما شغلك ما أنت فيه؟! أما سمعت قوله تعالى (لهم فيها أزواج مطهرة وهم خالدون). .؟

فيقول: وان في الجنة لأشربه كثيرة غير الخمر فما فعل بشار ابن برد؟ فان له عندي يدا ليست لغيره من ولد آدم، كان يفضلني دون الشعراء، وهو القائل

إبليس افضل من أبيكم آدم ... فتبينوا يا معشر الأشرار

النار عنصره وآدم طينة ... والطين لا يسمو سمو النار

(لقد قال الحق: ولم يزل قائله من الممقوتين)

في تلك الصورة الهازئة الساخرة يرسم لنا المعري إبليس تضربه المقامع. ويضطرب في الأغلال وهو لا يني يسأل ابن القارح تلك الأسئلة السفسطية من ناحية، البذيئة من ناحية أخرى. ولكن المعري جمع به خياله في تلك الليلة النبوية فتكشف عما ترى ودانتي بماذا وصف إبليس؟ وماذا تخير له من طبقات الجحيم؟ وعماذا سأله؟ لقد تخيله تعصف به الثلوج في ظلمات السعير. ويهلكه لزمهرير في الهاوية. وهو فيما بين الثلوج والعواصف كطاحونة الهواء تقلبه الرياح كيفما أرادت.

ثم اختار له الدرك التاسع من جهنم وهو اسفل طبقتها واشدها هولا وبلاء.

ولم يسأله في الأدب ولا عن أحد الشعراء ولا عن أحكام تحليل وتحريم. ولم يكن له سعة اطلاع المعري حتى يدخل في نحو ذلك النقاش. بل انساق يعلل ما أحاط به من عذاب اليم

بأنه كان ملكا صوره ربه فاحسن صورته، وأعطاه جمالا يفرع فيه كل مخلوق بيد نفسه المليئة شرا وخبثاً جعلته يسرف في الغرور حتى تمرد على ربه فطرده من جنته وبقي طيلة عمره مذءوماً مدحورا وله في الآخرة عذاب شديد.

يتبع

محمود احمد النشوي

أيها الشرق. .!

أيها الشرق! يا وطني الكبير،

أهتف بك فتسبق إلى عيني باكية دامية ذليلة، وتتدفق على ذهني ذكريات بعضها شجي يزجي الألم حاداً عنيفا، ويذكي الدم حاراً مستعراً، وبعضها حلو يثمل النفوس بالفخر، ويهز الأعطاف بالإعجاب. .

ولكنك الآن ذليل أيها الشرق! آه لو استطاع هذا القلم الضعيف أن ينفث في نواحيك الإيمان، ويبعث في جوانبك الأمل، لكان سعيداً، أنت يا وطني مهبط الحضارة ومسقط النور، ما في ذلك شك. أنت مجال الأبطال والقوة، ومراد الحكمة والنبوة، ومخرج الدعاة والقادة، هذا حق لا تخلص إليه شبهة، ولا تنصرف إليه ريبة.

ليقل - كبلنج - إن الشرق شرق والغرب غرب ولا يلتقيان - فلسنا نتوقع من دعاة الاستعمار أقل من هذا. . ولكن الحقيقة تلطم كبلنج وتلزم المكابرين من أمثاله حدود الاقتناع

فان كانت أوربا تفخر بنابليون لأنه عبر الألب وتخطى البرانس، ونلسن لأنه كسب موقعة أو موقعتين، وولنجتن لأنه ذبح مليوناً أو يزيد، فان الشرق ليتية بزغلول لأنه قهر إنجلترا بغير السيف والرمح، وغاندي لأنه هز إنجلترا بغير الحديد والنار، ومصطفى كمال لأنه دوخ في ساح الحرب أصحاب الغازات الخانقة والطائرات المحلقة والمدافع الرشاشة. . .! وإبراهيم لأنه طرق أبواب اليونان مرات وعبث بحبل أولمب مهبط الوحي وملعب الأبطال ومستقر الآلهة!!

وإن كان للغرب أن يفخر بروسو وفولتير وشكسبير وجوت وبيرون، فإن الشرق والعالم يفخر بالأفغاني ومحمد عبده وابن خلدون والمتنبي وفيلسوف المعرة. الشرق غني برجاله قوي بأبطاله، خصب بحضاراته. . ولكني بعد هذا ومع هذا لا أستطيع إلا الاعتراف بالحق - وليس ينكر الحق إلا الضعاف - والحق أن الشرق كان فتياً فأصابه الكبر، وكان قوياً فأخذه اليأس والخور، وكان عاملاً فجنح إلى الراحة واستراح إلى المسالمة. . . هذا هو المنطق الذي يرضي الله والعقل والناس، والحق إننا نغالي في تقدير ما ضينا ونشغل به عن حاضرنا. وهل أتاك حديث المرأة الصلعاء التي أخطأها الزواج لصلعها فكانت إذا جاءها الخاطب ثم هم بأن ينصرف استوقفته قائلة (ألم تر إلى خالتي إن لها شعراً جميلاً!!)

هل لمحت وجه الشبه؟

الشرق محتل كله أو يكاد: تضرب في نواحيه الخيام الدخيلة، وترفرف على سواريه الأعلام الغريبة، وتحلق في سمائه الطائرات الأجنبية. . . وأهل الشرق نيام ضرب عليهم الغفلة وملكهم اليأس واستبد بهم الخور وانشقت بهم العصا.

يا أبناء الشرق! إن أخاف عليكم اليأس أن يدرككم فيشل عقولكم، ويغل أيديكم ويضل هداكم.

أنا أعرف وأعترف أن الغاية بعيدة، وأن السبيل قفر وعر وأن الشرق ضعيف الحول والحيلة، وهذا بعينه ما يلقى في نفسي الجزع ويردني إلى حيرة تشبه أن تكون جنوناً لأني أخاف عليك أيها الشرق أن تلقى عصا لأمل وتغمد سيف العزيمة وترفع الراية البيضاء. . .!

وأخاف عليك ظاهرة أخرى: في الشرق تنشق العصا وتتفرق الكلمة وتشت الوحدة، وتتبدد القوافل في شعاب الجبال فلا تزال كل قافلة تتهادى وحيدة فريدة في الوهاد والنجاد حتى ينال منها الجهد، وتشتبه عليها السبل وتنبت بها الأسباب في صميم الصحراء. .! والعدو على المستشرف يرقب ويغري ويبتسم، حتى إذا ضمن تصدع الشمل وتقطع الأسباب انثنى فهاجم كل قافلة في مواضع الضعف منها، فأطمع الأولى بالرغبة، وقمع الثانية بالرهبة، وأغرى الثالثة بالرابعة. . . حتى يستقيم له الأمر ويخلو له الطريق ويصفو له الجو. أفليس أجمع للكلمة وأضمن للنصر وأحزم للرأي، لو تلافت هذه القوافل كلها في السهل فضمت شتاتها ولمت شعثها ونظمت نفسها في سرب طويل قوي ثم سارت على حداء الأمل وهداية الأيمان. .؟؟

مؤلم هذا الانقسام الذي يشيع في صفوف المجاهدين في بلاد العرب وفي مصر وفي الهند، في الجزيرة ملكان مسلمان يتحاربان وفي مصر أحزاب تتطاحن. وفي الهند طوائف تجور عن السبيل والغاية. والشرقي المخلص الصادق لا يستطيع أن يشهد هذا دون أن يضيق به ويأسف له، ويتمنى على الله أن يكشف عن الشرق هذا البلاء. . .

أيها الشرق. . . أحب أن أعتقد أن سكونك تحفز الأسد قبل أن يقفز، وأحب أن أسمع أن صمتك استقرار العاصفة قبل أن تزأر وتثور وتدوي، وأحب أن لو كان سيرك تسلسل

النهر قبل أن يفيض ويطغى فيجترف السدود ويكتسح الحدود ويجتاح العالم. وأحب ألا يأكل بعضك بعضاً، وألا يقضي قويك على ضعيفك، وأحب أخيراً ألا تضيق بالألم وألا يأخذك اليأس، فلا بأس بالمحن لهيب يصفي الروح وينقي الجوهر وينفي العرض، ويذكي الحفيظة ويغلي الدم ويفجر الثورات.

محمود البكري القلوصناوي

بديع الزمان الهمذاني - 7

للدكتور عبد الوهاب عزام

(تتمة)

يقول الحصري: إن البديع حاكى ابن دريد. وهي رواية جديرة بالاهتمام. ولست أعرف أين أحاديث ابن دريد إلا أن تكون بعض روايات القالى عن ابن دريد في الأمالي تتضمن هذه الأحاديث أو أشباهها. ومن ذلك ما رواه القالى عن ابن دريد من سؤال إعرابي في المسجد: (قال أبو علي وحدثنا أبو بكر رحمه الله، قال أخبرنا أبو حاتم عن أبي عبيدة عن يونس، قال وقف إعرابي في المسجد الجامع في البصرة فقال: قل النيل، ونقص الكيل، وعجفت الخيل، والله ما أصبحنا ننفخ في وضح، ومالنا في الديوان من وشمة. وأنا لعيال جربة. فهل من معين - أعانه الله - يعين ابن سبيل، ونضو طريق، وفل سنة؟ فلا قليل من الأجر، ولا غنى عن الله، ولا عمل بعد الموت).

وأقرب من هذا إلى المقامات حديث المرأة التي سكنت البادية قريباً من قبور أهلها، وهو مروي عن ابن دريد أيضاً، ووصية رجل أعمى من الأزد لشاب يقوده ويؤيد هذا ما رواه بن خلكان عن المرزباني عن ابن دريد

وقال المرزباني: وقال لي ابن دريد سقطت من منزلي بفارس فانكسرت ترقوتي) فسهرت ليلتي. فلما كان آخر الليل غمضت عيني فرأيت رجلا طويلا أصفر الوجه كوسجا دخل عليّ وأخذ بعضادتي الباب، وقال أنشدني أحسن ما قلت في الخمر. قلت ما ترك أبو نواس لأحد شيئاً فقال أنا أشعر منه. فقلت ومن أنت؟ فقال أنا أبو ناجية من أهل الشام وأنشدني:

وحمراء قبل المزج، صفراء بعده ... أتت بين ثوبي نرجس وشقائق

حكت وجنة المعشوق صرفا فسلطوا ... عليه مزاجا فاكتست لون عاشق

فقلت أسأت، فقال ولم؟ قلت لأنك قلت وحمراء، فقدمت الحمرة ثم قلت بين ثوبي نرجس وشقائق فقدمت الصفرة، فهلا قدمتها على الأخرى؟ فقال ما هذا الاستقصار في هذا الوقت يا بغيض؟

وجاء في رواية أخرى أن الشيخ أبا علي الفارسي النحوي قال أنشدني ابن دريد هذين البيتين لنفسه، وقال جاءني إبليس في المنام وقال أغرت على أبى نواس، فقلت نعم، فقال

أجدت إلا أنك أسأت في شيء ثم ذكر بقية الكلام اهـ

فهذه الرواية عن ابن دريد تذكرنا بالمقامة الإبليسية والمقامة الناجية من مقامات البديع.

وكذلك وصف الفرس في المقامة الحمدانية يشبه وصف الفرس في الأمالي. ويمكن إذا أريد، ذكر كل ما يخطر بالبال، أن يقال إن ابن دريد أزدى وعيسى بن هشام كأنه ينتسب إلى الازد في المقامة الفزارية.

وفي كتب الأدب كثير من القصص الصغيرة المصوغة في أسجاع مختارة وكلمات منتقاة. ولكن مهما يقل فبديع الزمان فيما نعرف، مخترع هذه القصص الخيالية التي عرفت في الأدب العربي باسم المقامات، وأما روايات اللغويين فقد رويت على أنها حقائق، وأريد بها رواية اللغة قبل أي شيء آخر، وحديث الراوي فيها مرسل لا صناعة فيه، ولا يقصد في الرواية على حين يستوي في المقامة أو يتقارب من حيث البلاغة والفصاحة حديث عيسى بن هشام وكلام أبي الفتح الإسكندري.

وأما تسمية هذه القصص بالمقامات فلأن أبا الفتح يقوم فيها واعظا أو مستجديا أو محتالا وهلم جرا. وفي القرآن الكريم:

(عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا). وفي شعر لبيد:

ومقام ضيق فرجته ... بلسان وبيان وجدل

وقد استعملت كلمة (مقامة) في معنى مقام. وفي رسائل الخوارزمي (ولكل مقامة

مقالة). وفي شرح الشريشي لمقامات الحريري (والمقامات المجالس واحدتها مقامة. والحديث يُجتمع له ويجلس لاستماعه يسمى مقامة ومجلساً، لأن المستمعين للمحدث ما بين قائم وجالس، ولأن المحدث يقوم ببعضه تارة ويجلس ببعضه أخرى قال الأعلم: المقامة المجلس يقوم فيه الخطيب يحض على فعل الخير.)

والهمذاني نفسه يبين ذلك بقوله في المقامة الوعظية (قال عيسى ابن هشام فقلت لبعض الحاضرين من هذا؟ قال شخص قد طرأ لا أعرفه. فاصبر عليه إلى آخر مقامته، لعله ينبئ عن علامته)

يقول الثعالبي إن بديع الزمان أملى المقامات في نيسابور، ويظهر أنه أملى معظمها هناك، وأنه أملى بعد مقامات أخرى كالمقامات الست التي مدح بها خلف بن أحمد أمير سجستان.

والحصري يدلنا على تاريخ المقامة الحمدانية يقول إن البديع أملاها في شهور سنة خمس وثمانين وثلاثمائة. وأظنه أملى معظم المقامات قبل هذا

هل ارتجل المقامات؟

يروي الشريشي عن بعض أشياخه أن البديع ارتجل المقامات، وأنه كان يقول لأصحابه اقترحوا غرضاً نبني عليه مقامة فيقترحون ما شاءوا فيملي عليهم المقامة ارتجالا. ولا أحسب هذا حقاً، فبديع الزمان نفسه لم يدع هذا، وقد فخر بالمقامات على الخوارزمي وتحداه أن يأتي بمثلها، ولم يتحد بذكر الارتجال، بل قال انه أملاها والإملاء لا يقتضي ارتجالا.

موضوع المقامات

أراد البديع بمقاماته أن يدل على تمكنه في اللغة ومكانته من البلاغة، وقدرته على تصريف القول في فنون شتى. هذا غرضه الأول، وقد سلك إلى هذا الغرض موضوعات كثيرة

وليست الكدية موضوع المقامات كلها، بل كثير منها لا كدية فيه، وفي كثير منها لا يقف أو الفتح موقف المستجدي إلا في آخر المقامة وبعضها ليس فيه إلا الاستجداء كالمقامة الساسانية والمجاعية والبخارية والمكفوفية.

ومن أغراض المقامات الوعظ كالمقامة الوعظية والأهوازية، وفي بعضها الألغاز كالمغزلية والإبليسية. وبعضها أنشئ للمدح وهي المقامات الست التي مدح فيها خلف بن أحمد: الناجية والخلفية والنيسابورية، والملوكية، والسارية، والتميمية. وبعضها يتضمن الحجاج في المذاهب كالمقامة المارستانية، وبعضها للكلام عن الشعراء ونقد الشعر، كالمقامة القريضية والشعرية والعراقية والابليسية، وبعضها يتضمن حوادث زمانه وأخلاق معاصريه وأحوالهم، كالمقامة الأسدية والخمرية التي نرى فيها أبا الفتح إماماً في مسجد يشم رائحة الخمر من عيسى بن هشام وأصحابه فيزجرهم ويشتمهم، ثم نراه بعد في حانة يلقاه فيها هؤلاء، وكالمقامة الرصافية التي ذكر فيها أصناف اللصوص وحيلهم. وهي تشبه القصيدة الساسانية لأبي دلف الخزرجي، معاصر بديع الزمان.

وهو في هذا الضرب من المقامات كالمقامة المغيرية، والحلوانية، يبين عن علم واسع بأحوال زمانه، ويذكرنا بالجاحظ، والمقامات البشرية والصيمرية أقرب إلى روايات الأدباء. وهو حسن الفكاهة جداً في المقامة المغيرية التي وصف فيها أبو الفتح ضيفه الثرثار، والحلوانية التي يصف فيها اختلاف رجلين في الحمام على أجرة عيسى ابن هشام والحلاق المجنون، والأصفهانية التي وصف فيها الإمام الذي يطيل الصلاة.

وانظر قول عيسى بن هشام فيما أصابه في الحمام: (فأخذنا إلى الحمام السمت، وأتيناه فلم نر قوامه، ولكني دخلته) الخ المقامة الحلوانية

والقصص في المقامات لا تفصيل فيه ولا اتقان، وإنما هو وسيلة إلى مواقف الإسكندري أو عيسى بن هشام، ويحس القارئ بعيب في بعض هذه القصص على قصرها: ففي المقامة الأصفهانية يحدثنا عيسى ابن هشام أنه كان على أهبة السفر فسمع النداء للصلاة، وخاف أن تفوته القافلة، ولكنه آثر أن يصلي فابتلى بإمام مطيل ممل، ثم قام رجل فقال من كان منكم يحب الصحابة والجماعة، فليعرني سمعه ساعة، فلم يستطع عيسى الخروج، ثم قال الرجل قد جئتكم ببشارة من نبيكم لكن لا أؤديها حتى يطهر الله هذا المسجد من كل نذل يجحد نبوءته، قال عيسى فربطني

بالقيود، وشدني بالحبال السود. ويدعى الرجل أن معه دعاء علمه إياه النبي في المنام، وأنه كتبه في رقاع فتسابق الناس إلى الرقاع، وانثالت على الرجل الدراهم. وعرف عيسى بعد خروجه أنه أبو الفتح، ولا يخبرنا ما الذي فعل في أمر السفر الذي بدأ المقامة بحديثه. وفي المقامة الفزارية يقول انه لقي الإسكندري في ليلة يضل فيها الغطاط، ولا يبصر فيها الوطواط. ثم يقول آخر المقامة، فحدر لثامة عن وجهه، فإذا هو والله شيخنا أبو الفتح الإسكندري، فكيف عرفه في الظلام؟ وفي المقامة الغيلانية يحدث عيسى بن هشام عن عصمة بن بدر الفزاري أنه لقي ذا الرمة والفرزدق، ولا يقول إنه لقيهما في منام أو لقي شيطانيهما فكيف رأى هذين الشاعرين رجل معاصر لعيسى بن هشام الذي يحدث بديع الزمان.

وأما عيسى بن هشام وأبو الفتح الإسكندري فيقول عنهما الحريري في مقدمة مقاماته: (وكلاهما مجهول لا يعرف، ونكرة لا تتعرف.) وكأنه يريد أن يقول انهما ليسا كأبي زيد السروجي، عيسى بن هشام لا ينتسب إلى بلد، وفي بعض المقامات كلام يمكن أن يؤخذ منه أنه ينتسب إلى الازد، وابو الفتح انتسب في المقامة العراقية إلى عيسى، وهو منسوب

إلى الإسكندرية من الثغور الأموية وهي نسبة غريبة. ماذا يريد بالثغور الأموية؟. يرى شارحو المقامات أنها ثغور الأندلس، وكانت بها إذ ذاك دولة بني أمية. وهذا غريب كذلك فما عرف في كتب التاريخ أو تقويم البلدان اسم الثغور الأموية. ولا الظن بالبديع أنه ينسب صاحبه إلى الأندلس ويسميها الثغور الأموية، وهو رجل يكره الأمويين كما يؤخذ من شعره. أرى في المسألة وجهاً آخر لا أجزم به، ولكني أرجحه. ذلك أن تقرأ (الثغور الأموية). نسبة إلى مدينة آمو أو أموية وهي مدينة آمل الشط على نهر جيحون أو نسبة إلى جيحون وهو يسمى أمودريا أي نهر أمو. ويقول ياقوت في معجم البلدان. وهو يعدد المدن التي سميت الإسكندرية: (ومنها الإسكندرية التي على شاطئ النهر الأعظم.) هذا إلا أن يكون البديع نسب صاحبه الذي لا يستقر في مكان نسبة لا يعرفها أحد.

وبعض المقامات لا يسمى فيها أبو الفتح، وان عرف بصفاته كالأهوازية والبصرية، وبعضها يخلو من أبي الفتح اسماً وفعلاً كالمقامة البغدادية والنهدية. وأحياناً يأتي أبو الفتح في آخر المقامة بعد مضي معظم حوادثها كالمقامة الأسدية التي تصف لقاء عيسى بن هشام وأصحابه الأسد، ثم قاطع طريق، ثم لقاء أبى الفتح بعد ورودهم حمص.

أسلوب البديع في نثره

البديع يلتزم السجع إلا قليلاً. وهو في الرسائل اسجع منه في المقامات، وجملة قصيرة وسجعه متقارب. وذلك أحسبه نتاج الطبع الذكي الحساس، الذي يود أن يسمع الأنغام متتابعة رنانة. وذلك ما جعله يؤثر في كثير من شعره الأوزان المجزوءة. وهو في الرسائل يترك السجع أحياناً إلى المزاوجة أو الإرسال كقوله في رسالته إلى أبي الطيب عن الأمير خلف بن أحمد: (فلما ايفع وارتفع، طالبته الهمة العلياء برفض الدنيا حتى يؤدي فرض الله في الحج، فقام عن سرير الملك، إلى سبيل النسك، فحج البيت، ودرس العلم حتى علم ناسخ الكتاب ومنسوخه، ومباحه ومحظوره الخ) وكذلك في المقامات يترك السجع أحياناً ولا سيما في رواية عيسى بن هشام

وقد يأتي بثلاث سجعات متواليات أو أربع، بل يتابع في الرسائل عشر سجعات أحياناً كقوله: (ونادمته والمنادمة رضاع ثان، وطاعمته والمواكلة نسب دان، سافرت معه والسفر والأخوة رضيعاً لبان، وقمت بين يديه والقيام والصلاة شريكا عنان، وأثنيت عليه، والثناء

من الله تعالى بكل لسان، وأخلصت له والإخلاص محمود من كل إنسان. ثم أربع سجعات أخرى على هذا الروي

وقد يجعل السجع مركبا على رويين في أربع فواصل أو ست كقوله في رسالة خلف بن أحمد: (وكأن هذا العالم قد أحسن عملا فجعل هذا الملك ثوابه. وكأن هذا الملك قد أساء مثلاً، فجعل هذا العالم عقابه)

وقوله: فكان ما أضعناه، كإنا زرعناه فأنبت سبع سنابل، وكان ما فقدناه، كإنا أقرضناه هذا الملك العادل

وقد يسجع في أثناء الجملة قبل تمام المعنى كقوله (حقاً أقول أن التمرة، بالبصرة، اقل خطراً من البذرة، بهذه الحضرة، وإني أيد الله القاضي على قرب العهد، بالمهد، قطعت عرض الأرض، وعاشرت أجناس الناس)

ومما يكثر في نثر البديع تحليته بالشعر، وقد قال الثعالبي في ذلك: (ويوشح القصيدة الفريدة من قوله، بالرسالة الشريفة من إنشائه، فيقرأ من النظم والنثر، ويروي من النثر والنظم. وهو لا يكتفي بتفصيل نثره بأبيات من الشعر، بل يصل النثر بالشعر حتى يتوقف معنى كل منهما على الثاني، كرسالته إلى الخوارزمي التي ذكرناها فيما تقدم، وكقوله في مدح أبي جعفر الميكالي:

ولو نظمت الثريا ... والشعر بين قريضا
وكامل الأرض ضربا ... وشعب رضوي عروضا
وصغت للدر ضدا ... أو للهواء نقيضا
بل لو جلوت عليه ... سود النوائب بيضا
أو ادعيت الثريا ... لأخمصيه حضيضا
والبحر عبد لهاه ... عند العطاء مغيضا
لما كنت إلا في ذمة القصور، وجانب التقصير).

ومن أحسن افتنانه في ذلك المقامة الوعظية التي لاءم فيها بين المنثور والمنظوم أحسن ملاءمة.

ويجد قارئ الرسالة والمقامات قطعاً من تحداها في الأخرى فمقامة الوصية التي يوصى فيها تاجر ابنه معظمها في إحدى رسائله وبعض المقامة النيسابورية ومعظم العلمية، في رسالة إلى أبي القامس الكرجي التي وصف فيها بعض القضاة. وبعض المقامة الملوكية التي مدح بها خلف بن أحمد في رسالة يمدح فيها الملك نفسه.

وكذلك نجد في الديوان والرسائل والمقامات وصف وقائع واحدة، كلقاء الأسد في الديوان والمقامة الاسدية، وقطع الأعراب طريقه في هذه المقامة والرسائل. وذلك يثبت أن المقامات تمثل كثيراً من حوادث زمانه.

نشأ البديع في عصر بلغ فيه الأدب العربي أوجه، وازدهر فيه الأدب الفارسي، وقد عرفنا أنه ترجم كثيراً من الأبيات الفارسية في ديوانه. فهل ظهر أثر الفارسية في معانيه وألفاظه؟ أثر قليل.

فمن المعاني الشائعة في الأدب الفارسي قوله (أو لم يكفنا الجرح حتى ذر عليه الملح) وقوله (أنا العبد قرطك في أذنه مطيعاً وطوقك في عنقه) فهي عبارة فارسية شاعت حتى كنى عن العبودية بالحلقة في الأذن. وقوله: (هيفاء لا تسع العيون جمالا) فتسع هنا تشبه كنجد بالفارسية

ومن الألفاظ الفارسية أو العربية المستعملة على الأسلوب الفارسي قوله في مدح السلطان محمود:

إذا ما ركب الفيل ... لحرب أو لميدان
رأت عيناك سلطانا ... على كاهل شيطان

ففي هذا إشارة إلى قصة طهمورث والشيطان.

وقوله:

عند فديتك جدي ... شويته بمضيره
فان أتيت فخير ... وأن أبيت فخيره

فالخيرة فارسية معناها الحيرة أو اللغو. ولذلك قال الصديق الذي أرسل إليه هذان البيتان: لا نبيع الخير بالخيرة وأجاب الدعوة. وقوله:

يا بن النبي كفاني ... من الثناء وبسي

بسي بمعنى حسبي، وهي كلمة بس المستعملة في العامية المصرية.

وقوله في الديوان:

فان مددت يدي يوما فلا رجعت ... حتى يعود على شسته النوق

والشست سية القوس، والنوق تعريب نوك أي السهم.

وقوله:

والدهر لونان في تصرفه ... يضرب بالبيدق الغرازينا

وفي الرسائل الباغ بمعنى البستان، وكتخداي الخلق، وزرق بمعنى نفاق، وقلب بمعنى زائف، والسياسة في معنى العقوبة، وقوله (فان كان قد عرض في البين عارض العين.) فاستعمال البين هذا الاستعمال ترجمة كلمة (درميان). وحصار بمعنى قلعة وغير ذلك.

هذا ما وسعه المقام في الإبانة عن سيرة الهمذاني وأدبه. ولا بد من ترتيب الرسائل ترتيباً تاريخياً لتفصيل سيرته ومعرفة تطور أسلوبه. وحسبنا الآن ما قدمنا عن هذا الأديب العظيم الذي أخترمتهالمنية في سن الأربعين، ولو عمر لكان عسى أن يكون له في الأدب العربي آثار أبعد شأوا، وأعظم خطرا وأسير ذكرا من آثاره التي أوحت إلى معاصريه أن يلقبوه (بديع الزمان).

عبد الوهاب عزام

هانيبال يرثي أخاه

للأستاذ فخري أبو السعود

بينما كان هانيبال في جنوب إيطاليا غازياً سار إليه أخوه بمدد فقابله الرومان في الشمال فقتلوه، وبعثوا برأسه إلى أخيه

رويد الليالي قد خَضَدْنَ قناتي ... ويا طالما استعصت على الغمزات
سلام على عهد العظائم والعلا ... وتلك الفتوح الغُر والغزوات
وأيام ألهو بالمدائن زاحفا ... وأهزأ بالأوعار والفلوات
لِيَهْن بني روما صعود نجومهم ... فَنَجْمِيَ هاوٍ حالك الظلمات
اتانِيَ منهم جحفل بعد جحفل ... فمزقتهم في خالد الوقعات
وشردتهم عن معقل إثر معقل ... وروَّيت من قوادهم أسَلاَتي
ويات حماهم مستراد فوارسى ... ومعهد لذاتي ومُرْ تَبَعاتي
فَثَّلوُّا أكاليلى وحلوا عزائمي ... بمصرع نَدْبٍ خائض الغمرات
طلوُب عظيمات زعيم كتائب ... ركوب مشقات قريع كماة
رضى السجايا ثابت الجأش باسل ... كريم المحيا ناضر القسمات
فهل علموا لادرَّ درُّ أبيهمُ ... بأي صفات أوقَعُوا وسِمات؟
أدَلوا أجلَّ الهام غرد أو عفرَّوا ... بساقي تراب أشراف الجبهات
فأصبح من بعد الأمارة جسمه ... أنيس ذئاب أو سمير بُزاة
وأدْلوّا بهذا الرأس فهو مُخَبِّري ... بتصويح مجدي وانطواء حياتي
أخَيَّ جَنىَ ظلما عليك تجبري ... وُغلوّاهُ أطماعي ولؤم عداتي
فداؤك أعضائي، لقد كنت ساعدي ... فبان، فقلبي دائم الحسرات
وكنت أليفي مذ شببنا وصاحبي ... وكنت خدين اللهو والصبوات
وكانت تهاب الأسد بأسك قانصا ... وترمي مصيبا أبعد الفلوات
وكنت مبائي إن ألمَّتْ ملمة ... ومرجع أسراري وكهف شكاتي
وكنت ظهيري في مُغار وملحم ... ويوم طرادٍ هائج الهبَوات
وكنت ملاذ الروح واللب والنهى ... وكنت سراج الرأي في الشبهات
أخيَّ وهل مثلُ الأخوة نعمة؟ ... وهل بعدها من لُحمة وسداة؟
فديتك منهوبَ الترائب مثخَنا ... بكف الأعادي داميَ الطعنات
تنوشك منهم عصبة بعد عصبة ... خضيبَ العوالي ثائرَ الفتكات
سيبكي فؤادي يوم رزئك موجعا ... واسقي قديم العهد بالعبرات
مصابك أو هي مِرَّني وأغضني ... وزهدني في العيش والمتُعات
وأبدي لعيني آخر المجد والعلا ... فعفت طلاب المجد والعظمات
فلا طال عيش آض بعدك موحشا ... كبيت خلاء مقفر العرصات
سوى ريثما أشفي من الروم غلت ... وأنهل من تلك الجموع ظُباتي
ويبكي حسامي مصرعَ الفضل فيهمُ ... ويأخذ من أبطالهم بِتِرات

فخري أبو السعود

تذكار الشاعرة الكونتس دي نواي

للأستاذ خليل هنداوي

الحب والموت في شعرها

لم تذهلها هذه الطبيعة التي فنيت في حبها وجنحت الويها كل ميولها وأهوائها عن كل شيء، كما كانت تقول (إن نظرات الغابات والغدران والحقول أشد تأثيراً في نفسي من نظرات الإنسان) ولكنها سرحت في عوالم غير هذه العوالم: في عالم الحب، وعالم الموت والفناء.

يقول (جابر يول) (لم أجهل إلا يوما واحدا إن هذه الهائمة بالأزهار والأعشاب قد جحدت العالم كله لتقود نفسها إلى حب شهواني)

ماذا يهمني إذا تلاشى اليوم عالم من الوجود؟)

(فالزمن يستطيع أن يلد - ما ظلت حيا - صيفا جديداً)

وهي في هذه الخطرة غادة فاسقة متوهجة، تتبع ملذاتها الفانية برغبة عارية، وفي عينيها رواقان يظهران ويختفيان. يقولا ن (تعال، تعال، تعال!) وهادنت الساعة التي كانت ترتقبها لتنعم فيها بالرجل الذي توهجت للقائه. وهذه هي نفس الروح الأولى بما يغشاها من ذهول ووثوب، لا تهيم - في هذه المرة - في وجه الطبيعة، ولكن في وجه الإنسان، وعناق الإنسان

ولكن ما عسى يكون هذا الحب؟ إذا كانت الشاعرة تتخيل أن الحب بعد أعوام طافحة بالخداع والافتتان والزهو يغدو الوسيلة الوحيدة لتوليد الجشع النفسي الباعث على امتلاك الوجود!

(إن الوجود النقم الذي لا يأنس أبدا. . . .

أستميله إلي، وأطوي نفسي في حناياه. . .

(حين يلتف ذراعاي على جسد نقي لامع كالصيف

وهل يكون هذا الجسد إلا جسد من تحنو عليه ويبهجها البلوغ إليه؟

(ألا أيها الوجود! إنما يدرك الناس باللذة الملتهبة نفسك التي لا نهاية لها.

أحب منها هذا الارتباك بعد العناق ممثلا في قولها:

(إن نفسي خارجة عني، واللانهاية تملأ روحي روعة، فهل أراني متحدة معك. أم ممتزجة معها؟

(إنني أحس قلبي، في جنح الليل الثائر. . . مؤتلفا مع النجوم.

وهذا الاعتراف من والهة تؤمن بأن (اللذة لا تكمل الرغبة) أوه وهي مخدوعة بعمر السرور القصير، تاوى إلى جنات أحلامها الزاهية وتقول

(هذه كلها ستبقى عندما الحلم يفر،

هذه التي سنقدم لها في أعماق الليالي شفاهنا مغشاة بالظل، ونفتح لها أذرعنا مغمورة بالحلم.)

إلا تتجلى في هذه المقاطيع ذات الروح التي تجلت في مقطوعات الحدائق!

(عندما يطغى على الألم من وجهك الساطع

عندما لا يقدر قلبي المستعبد على مغادرتك

أحلم بأن ورائي - مغاني بعيدة وسفنا وموانئ، ومدنا أنيسة ما زالت تبهر لبى ورغبتي الضالة تؤمن بأنها لا تقدر أن تحيا بعيدة عن هذه الشواطئ أنا في غنى عن كل شيء حين أترنم بها)

وقد يتجهم في وجهها كل وجوه الحب فتضمر الانتقام من الرجل، أو تغفي عنه. وتهيم في الحياة معتزلة بنفسها،

(أنا أعلم أن الهواء جميل، وأن هذا الفضاء هو الذي يسطع وأن لمعات النهار لا تهب على منك

وأسمع كبريائي يقول لي

(أيتها الغادة العزيزة، أنا حماك الغيور إلى الأبد

ولننظر إلى هذا الكائن المحبوب! كيف أرضى نفسه وأحب نفسه، وكيف طغى عليه القلق؟

(أيها الكائن العزيز الذي بكيته. . .

(هل أستطيع أن أغفر لنفسي القاسية قعودها عنك هادئة يوم انتابك الألم

يقول (جابريول): وفي ديوان (دي نواى) شعر مجوني شهواني لم تصنفه قلبها امرأة، تبرز فيه الحواس متيقظة، تتروح وتتلمس وتتذوق، شعر امرأة تتنشق وترشفها، وتتروح الطيوب العابقة من بلاد المشرق.

(عبير المسك، والأرز والورد يضمحل مع الرياح
(والحب يعيده وينشره بأنامله الإلهية في جوف أريكة ملتهبة
شعر امرأة وصفت العناق بكلمات رقيقة، لها وسوسة القبل وحلاوة العناق.
(وأنا لا أزال أرتقبك لأتذوق هذا السكر الفاسق.
. . .أحلم بنظرتك الطافحة حبا، وبذراعيك العاريتين، وبعطفك الجميل الذي يطير عذبا
ومن مقاطيعها الخالدة ما أوحاه إليها الموت، والموت عندها هو البلد المجدب، حيث
لواء الحب فيه غير خفاق. وهذه الفكرة قد تحتلجها كثيرا وتحملها على استحضار
الأسقام حين يغيض ماء الشباب، كأنها وثنية يروعها القبر الذي يمثل لها ساحة العدم،
وطالما ذكرت الموت فثارت، وهاج قلبها واحتد عقلها وأعلنت حواسها العصيان على
(عالم النسيان)
(.أيها الموت! أيها السر الجديد! أيها الدرس الذي لا يتبدل)
ولكن امرأة حية مثلها (ما خلقت لتموت) فكم مرة أعلنت بصفاء نفسها - في أشعارها
-. أنها لا تريد أن تموت. . . فهي طورا تجرب أن تستأنس بالعدم بواسطة الملاصقة
(أيها الوجود الذي همت فيه كثيرا
. . .سيأتي يوم تغتمض فيه عيناي
(فأحلم، وأنا ملتهبة معتزلة. بآخر شيء على العارض تهافت عليه ناظري عند الرحيل
وتارة تعلل نفسها بإمكان التقمص والاستحالة.
(أيها الوهم المشتت! ألا تسمع صوت الأرض التي تشق؟)
مثلها كمثل الوثنيين الذي يكتبون ويعلمون (ألا شيء سيحيا بحرارة عروقه). وراء ذلك
كله تعتمد على خلودها الأدبي الذي يقدر على استنقاذها من الردى.
(أكتب لليوم الذي أحول فيه رفاتا.
ليعرف الجيل القادم مبلغ ارتياحي للهواء والهناء. اكتب لأكون محبوبة بعد الموت.
إذا ما تلا أحد الفتيان ما كتبته، يحس قلبه يخفق، ويرتعش ويضطرب.
(. . . .وإذا به يحملني في صدره، ويؤثرني على غاداته
دير الزور:
خليل هنداوي
حول السلم الموسيقي
طالعت في مقال لحضرة الأستاذ مدحت عاصم نشر بالعدد 44
من مجلة الرسالة أن المسافة بين درجتين متتاليتين في السلم
الغرب المقرب تساوي 1615. ولما كانت القيمة الحقيقية
لهذه المسافة ليست وإنما هي أي الجذر الثاني عشر للنصف
ويساوي 0. 9438 (مقربا إلى أربعة أرقام عشرية) على حين
أن 1615 تساوي 0. 9375 ولما كانت فكرة الجذر الثاني
عشر للنصف فكرة أساسية في السلم المقرب الذي يشير إليه
حضرته، بل هي أساس التقريب في بناء السلم بواسطتها أمكن
،توحيد المسافة بين الدرجات المتتالية وجعلها جميعاً متساوية
على حين أن النسبة 1615 إنما تنطبق على السلم الدياتوني
،قبل تعديله إلى السلم المقرب في أواخر القرن الثامن عشر
فلذا رأيت أن أكتب منبها على ذلك.
وقد أشار الأستاذ عاصم في نفس المقال إلى تسمية الدرجة السابعة في السلم
بالدرجة الحساسة قال (وان كنت لا أدري مصدر هذه التسمية - وأحسب علماء النغم
أنفسهم لا يستطيعون لذلك تفسيراً دقيقا.)
والدرجة الحساسة التي تشير إليها حضرته وهي التي تعرف أيضا بالدرجة المؤدية أو
الموصلة إنما سميت بالحساسة أو الموصلة باعتبار الوظيفة التي تؤديها في التأليف
الموسيقي، أو بعبارة أخرى مركزها النسبي في السلم وعلاقتها بالدرجة الأساسية أو
الـ ومن المعلوم في التأليف الموسيقي أن الدرجة السابعة تجيء سابقة مباشرة ومؤدية أو
موصلة إلى الدرجة الأساسية كما يحدث عند نهاية كل قطعة موسيقية تقريباً، فمثلا
الفالس بريبانت لشوبان (نمرة 2 من المؤلف نمرة 34)

فإذا علم أن القطعة درجتها الأساسية هي الـ أو الـ فان الدرجة السابعة وهي أو الصول الحادة كما يظهر بوضوح تؤدي أو توصل إلى الدرجة الأساسية في الختام أو الـ النهائية. أما فكرة الحساسية فناشئة عن إننا إذا وقعنا مجموعة النوتات أو الـ المشتمل عل الدرجة السابعة، فإننا نشعر بحساسية خاصة للصوت الحادث أو شعور بتوقع حدوث صوت آخر هو النهائي المشتمل على الدرجة الأساسية.

هذا وقد لاحظت بعض ملاحظات أخرى في المقالين السالفين لحضرته في هذا الموضوع منها وصف حضرته في المقال الثاني (المنشور في 29 يناير) لسلم فيثاغورس بأنه أقدم سلم عرف في التاريخ، مع أننا إذا ضربنا صفحاً عن موسيقى الأمم القديمة كالصين والهند، فان اقدم سلم عند الإغريق هو السلم الدوري ويليه في القدم السلم الفيثاغورسي. ولعل منشأ الخطأ في ذلك يرجع إلى ما حدث في القرون الوسطى من خطأ في هذه الأسماء يرجع إلى امبروز اسقف ميلانو الذي صار بعد ذلك بابا لروما، وسمي باسم جريجوري فانه أصدر أمرا بتجديد السلالم الموسيقية ورد فيه خطأ وخلط كثير في أسمائها.

محمد مصطفى شريف

الدوق دي لاروشفوكو

للدكتور حسن صادق

ورأى لاروشفوكو أن يرضي الدوقة فانضم إلى أخيها ودارت رحى القتال. وفي 7 أبريل عام 1652 انتصر جيش الملك في (بلنو) وأثناء ذلك عاد مازاران إلى فرنسا وبدأ يستخدم الحيلة والدهاء في إخماد الثورة، وعرف لاروشفوكو أن الدوقة أعرضت عن حبه وكلفت بالدوق دي نيمور فآلمه ذلك جد الألم. وقد ذكرت حفيدة الدوقة في مذكراتها أن لاروشفوكو كان شديد الرغبة في قطع هذه الصلة والخلاص من هذا القيد. واستدلت على صحة قولها بإحدى مواعظه: (لما نمل الحب، نغتبط إذا خان الحبيب عهد وفائه، لأنه بعمله هذا يحلنا من عهد وفائنا له). ولكن الغيرة بقيت تخز قلبه زمناً طويلاً لأنها كما قال في موعظة أخرى: (تولد مع الحب ولا تموت في كل حالة معه) نال إعراض الدوقة منالا كبيرا من كبريائه، ولكنه استمر في القتال يشد أزر أخيها. ثم حدثت موقعة حي سان انطوان، وقتل فيها كثير من النبلاء، وأصيب لاروشفوكو برصاصة في وجهه كادت تقضي على بصره، فنقل إلى مستشفة لبانكور وكان هذا آخر عهده بالحرب الأهلية، وجنبته هذه الإصابة عار الاشتراك مع كونديه في قيادة جيش من الأسبان ضد بلاده

ونذير بهذه المناسبة أن عهد الحرب الأهلية من أسوأ العهود التي مرت بها فرنسا، فقد أظهر النبلاء أثناءه نزقا كثيرا، ونبغوا في فن الدسيسة، وكشفوا عن الأثرة المتأصلة في نفوسهم، وجمعوا كل وطنيتهم في مصالحهم الذاتية، وتكالبوا على متع الحياة في جشع وضيع، وكاد بعضهم لبعض في سبيل الألقاب والرتب، وأسالوا الدماء، وأسلموا البلاد للفوضى تفتك بها دون أن يروعهم وازع نفساني. كان كونديه ولاروشفوكو ومن إليهما في ذلك العهد قطاع طرق ورؤساء مناسر، تنهب وتحرق وتهتك الأعراض في مرح وحشي. واهتبل النبلاء فرصة الاضطراب فعاشوا في البلاد ذئابا إقطاعيين، وساءت حال الفلاح حتى عزت عليه اللقمة التي تحفظ ذماءه، وامتلأت السجون بالبائسين الذين عجزوا عن دفع الضرائب الباهظة المفروضة عليهم، ورأت باريس في عام 1652 مائة ألف جائع يهيمون في طرقاتها ويستجدون أهلها وهم في أسمال بالية. ولهذه الأسباب فرح الشعب لما استتب الأمر للملك، ونظروا إلى استبداده نظرهم إلى نعمة هبطت عليهم من السماء. وأثر هذه الحرب الأهلية المادي ليس بأقل سوءا من أثرها المعنوي، فقد دفعت الناس في طريق النفاق والخيانة والأثرة الجامحة، وكان من نتائجها أن يتهافت النبلاء المتكبرون على قدمي الوزير مازاران يرجون ويستعطفون في ذلة وخنوع ولم تنتج هذه الحرب أثرا طيبا إلا في الأدب والفنون، وتعتبر نهايتها فاتحة العهد الأدبي الحافل الكبير الذي صقلت فيه العبقرية الفرنسية، وأصبح الأسلوب فيه عذبا نقيا، والتعبير لاذعا دقيقا. وكثير من الذين حملوا السيف وخاضوا غمار هذه الحرب شاهدوا صروحا أدبية خالدة، بعد أن لاحظوا أهواء الناس ورأوهم في ثوبهم الحقيقي. ومن هؤلاء هذا الكاتب الذي نتحدث عنه

وفي 21 أكتوبر عام 1652 أصدر الملك لويس الرابع عشر العفو عن لاروشفوكو، وسمح له بالعودة إلى باريس، ولكنه لم يعد إليها إلا بعد وقت طويل قضاه في الريف هادئا يفكر في آماله الضائعة، وأحلامه المتداعية

الشيخ الفيلسوف

لما فشلت ثورة الأمراء واستتب الأمر للملك لويس الرابع عشر، عرف ضروب الأهواء التي تتلاعب بنفوسهم، واستغلها استغلال رجل قدير، وجاد على هؤلاء السادة العظماء بأنواع الإحسان الوفير حتى أحالهم إلى ندماء متواضعين، استكانت الأهواء الجامحة بعد انتصار الملكية، فأخلد الناس إلى السكينة، وعادت الحياة إلى مجراها النمطي، وبدأت النساء ينشدن في (الصالونات) أو بين جدران الأديرة ضروب الانفعال التي كن يجدنها في نكبات الحرب الأهلية. ولم تعد تفكر الطبقة العالمية إلا في قهر (الضجر) مرض الأغنياء الذين لا يعملون، الذي استحوذ عليها. يدلنا على ذلك قول مدام دي مننون: (إني عاجزة عن أن أبين مبلغ الضجر الذي يعذب العظماء الاغنياء، والمشقة التي يلاقونها في قضاء يومهم)

وفي ذلك الوقت عاد بيت رامبوييه إلى فتح أبوابه، ولكنه لم يلق الإقبال الذي اعتاده قبل الحرب الأهلية، لأن ربة البيت المركيزة دي رامبوييه كانت في الثانية والسبعين من عمرها، واضمحلت قواها الذهنية، وتفرق أثناء الاضطراب الذين كانوا يترددون عليه، ثم

ظهرت في باريس (صالونات) أخرى أهمها صالون الآنسة دي مونبانسييه، والآنسة دي سكودري، والكونتس دي لافاييت، وصالون الدقو دي لاروشفوكو، الذي بدأ بعد الشغب يبحث عن السعادة في الأدب والفكير، ثم صالون المركيزة دي سابيله.

وكان كل صالون يميل إلى نوع خاص من الأدب. فصالون الآنسة دي سكودري يميل إلى وضع المعاني الغزلية الرائعة في شعر قصير، وصالون الآنسة دي مونبانسييه يحب الصور الشخصية، وصالون المركيزة دي سابليه يتعشق عمل المواعظ، أما بيت رامبوييه فكان مولعاً بالأدب وفروعه جميعها

وفي أحد الأيام، وكان ذلك في عام 1658، طلبت الآنسة دي مونبانسييه من الحاضرين في مجلسها أن يرسموا صورهم كتابة في مقالات موجزة. ثم تناولت القلم ووصفت على القرطاس أجزاء وجهها، ثم قوة ذهنها، ثم أهواء نفسها وميولها وأخلاقها. وقلدها جميع الحاضرين ومن بينهم لاروشفوكو. ثم جمعت هذه الصور ونشرت في عام 1659 وكانت صورة لاروشفوكو الممهورة بالحروف الأولى من اسمه أول عهد الجمهور الفرنسي بكتابته. وسنذكر نبذا من هذه الصورة عند الكلام على أخلاقه وميوله

وكانت جماعة المركيزة دي سابليه يعالجون في صالونها الموضوعات الجدية، ويتحدثون عن ديكارت والمنطق والأهواء الإنسانية، وقبل أن يتفرقوا يحاول كل منهم أن يضع خلاصة المناقشة في جمل قصيرة فصيحة، أي يضعها في حكم أو مواعظ. وانتشر هذا الميل إلى الحكم حتى بلغ الريف. وفي عام 1660 كتب لاروشفوكو من (فرتى) إلى المركيزة يقول (هل لاحظت أن الميل إلى كتابة حكم ومواعظ يعدي كالزكام؟ هنا في الريف كثير من الناس انتقلت إليهم العدوى وشغفهم هذا الميل حبا).

وصالون هذه المركيزة هو الذي ملك على لاروشفوكو عقله ولبه، واستأثر به دون الصالونات الأخرى

وفي عام 1661 أصيب بمرض النقرس، فلازم بيته في شارع السين بباريس، وجعله (صالونا) يجتمع فيه عظماء الفرنسيين وأدباؤهم. وفي هذه السنة اعتزلت الدوقة دي لونجفيل الاجتماع واتجهت إلى العبادة والتكفير عن سيئاتها، بعد أن هجرها صاحبها الدوق دي نيمور، ومات قتيلا في مبارزة وقعت بينه وبين الدوق دي بوقور

وكان لاروشفوكو قد بدأ يكتب مذكراته بعد أن وضعت الحرب الأهلية أوزارها في لهجة المؤرخ الرزينة، ويذكر فيها الأسباب التي حملته على الاشتراك في هذه الحرب ويردها كلها إلى نكران الجميل الذي بدا له من الملكة آن دوتريش والدوقة دي شفرير والدوقة دي لونجفيل. وأطلع عليها أحد أصدقائه في عام 1662 فنصح له بعدم نشرها حتى لا يغضب الملك والأشخاص الذين ورد ذكرهم فيها، فقبل نصحه، ولكن صديقاً آخر نقلها مشوهة دون أن يعلم المؤلف ونشرها في هولانده في عام 1664، فأثارت لغطا

كثيراـ ويقول الدوق سان سيمون: (لما اطلع أبي على هذه المذكرات ملكته سورة الغضب، وتوجه في الحال إلى المكتبة التي تبيعها، وكتب على كل عدد منها عنوة واقتدارا (كذب المؤلف) وكاد الملك يتدخل في الامر، ويسئ إلى لاروشفوكو لولا حظوة ابنه البكر فرنسوا السابع لدى مولاه.

يتبع

حسن صادق

العُلوم

العقل البشري

للدكتور عبد الفتاح سلامه

العقل ثلاثة أقسام:

1 - العقل المميز

2 - العقل الواعي أو الشعوري أو العقل الظاهر

3 - العقل غير الواعي أو اللاشعوري أو العقل الباطن، ' والعقل غير الواعي يحتوي على قوى عقلية وأفكار مستترة ليست ظاهرة للجزء المجاور له المسمى بالعقل الظاهر. والفكرة المستترة فيه والتي تنضج بالنسبة إليه، يرسلها إلى العقل الظاهر لتحويلها من مجرد فكرة إلى حركة أو عمل، هذا إذا وافق عليها ذلك العقل الظاهر.

والعقل الظاهر هو ذلك الجزء من العقل الذي نعي به كل ما حولنا من ظروف وأحوال، فيختار منها ما قد يبدو له مهماً ويبت فيه إن أمكنه، وهو يتلقى أفكار العقل الباطن لينفذها أو يناقشها ويبت فيها كذلك إن أمكنه، وإلا فانه يعرض ما عسر عليه على العقل المميز.

وسواء أكان العقل الظاهر أو التمييز هو الذي بت في أمر ما فان ذلك يعتبر تجربة يصح القياس عليها، فترسل هذه التجربة إلى العقل الباطن فتسجل وتبقى فيه إلى الوقت المنسب إذ يطلبها أحد العقلين في أي ظرف يحتاج فيه إليها.

على أن تسجيل التجارب والأفكار ليس هو العمل الوحيد للعقل الباطن، بل إن هناك عملا آخر يقوم به، وهو إنه قد يكون له رأياً مستقلا من الأفكار المسجلة عنده، أو قد يوازن بين هذه الأفكار المسجلة ويستخلص منها رأياً يود إثباته أو تنفيذه فيعرضه على العقل الظاهر كما سبق أن بينا ذلك.

ولأجل أن يكون الفكر الذاتي ناضجاً تماماً يجب أن يعرض على العقل الظاهر ثم على العقل المميز حتى تتم له صفة الصحة، فيعتقد الإنسان به تمام الاعتقاد، وهذا هو الطريق الطبيعي للأفكار الذاتية التي لا تسبب أي مشقة للإنسان.

وهناك أفكار ذاتية أخي لا يمكن بأي حال عرضها على الجهات الرئيسية من العقل فتبقى في العقل الباطن، ذلك لأن هناك ما يمنع العرض على العقل الظاهر، وقد يكون هناك

أيضا ما يمنع العرض على العقل المميز. وأما المانع في الحالتين فهو الضمير الذي يقوم بالمحافظة على تقاليد المجتمع وواجباته من جهة، وبالمحافظة على الدين وتعاليمه من جهة أخرى

والفكرة الذاتية التي لم تتمكن من الوصول إلى العقل الظاهر تبقى في العقل الباطن كوحدة قائمة بذاتها. ذلك لأن الضمير طردها من الجهات الرئيسية من العقل، فلا هي نفذت كما يريد العقل الباطن ولا هي نوقشت حتى يتضح له فسادها فيتركها، وهذا هو السر في تشبث العقل الباطن بالأفكار التي لا يوافق عليها الضمير الديني أو الاجتماعي أو الأخلاقي وفي عمله على تنفيذها بأي شكل كان، ولما كان ذلك التنفيذ محالا بفعل الضمير فان العقل الباطن يتخيل تحقيق هذه الفكرة المحرمة عليه، وهذا التخيل يسبب في كثير من الأحوال حركات جسمانية أو ألفاظاً تنم عليه. والحركات والألفاظ ليست إلا نتيجة تخيل تحقيق فكرة مكبوتة في العقل الباطن، وعلاقة هذه الحركات والألفاظ بالفكرة هي علاقة الصورة أو الخيال الذي يستمد وجوده من وجود جسم آخر قد لا يكون ظاهرا للعيان. وهكذا نرى أن الفكرة الذاتية نفسها وهي التي سببت الحركات والألفاظ لم تتمكن من الوصول إلى الشعور أو التمييز، أي إن الإنسان لا يدري عنها شيئاً مطلقا

ولتسهيل فهم علاقة أقسام العقل الثلاثة ببعضها نشبهها بثلاث غرف متصلة مع بعضها

ببابين، وأمام كل باب حاجب يصرح أو لا يصرح بالدخول، وإذا عرفنا أن الحاجب قد يتجاوز مهمته بان يمنع من الدخول من يجب أن يدخل، فإننا نجد أن الضمير قد يغالي في منع مرور الأفكار الذاتية من قسم عقلي إلى القسم الأعلى المجاور له فتبقى الفكرة الذاتية كما قدمنا مصدراً لحركات وألفاظ وعواطف قد تأخذ صفة أعراض الأمراض العصبية، على حين أنه لو سمح لها بالمرور لعرفها العقل الظاهر ولناقشها العقل المميز وبث فيها على أساس سليم فتصبح غير قادرة على إيجاد ما كانت تسببه على أن هذه الحركات والألفاظ لا يمكن لها الحدوث إلا في غياب التمييز، لأن هذا الأخير كثيراً ما يترك القيادة الفعلية في الإنسان إلى العقل الظاهر، وهذا بدوره كثيراً ما يتأثر في تصرفاته برغبات العقل الباطن وأفكاره، ويكون العقل الباطن إذن هو القائد الأعلى في غياب التمييز أو في حالة ضعفه لسبب ما، ولما كانت الأفكار الذاتية هي من عمل العقل

الباطن، ولما كان هذا الأخير محدود التمييز فهو عرضة للخطأ في تقديره لحقيقة الامور، وينتج من ذلك أنه كثيراً ما تكون الأفكار الذاتية مخطئة، ولما كانت هذه الأفكار هي التي تقود الإنسان غالباً - في غياب التمييز - فانه من الجلي أن يكون الإنسان العادي عرضة للخطأ في كثير من تصرفاته، وأن يكون الإنسان العصبي عرضة لأن يسبب لنفسه ولمن حوله شتى المتاعب

وإذا كان العقل الباطن محدود التمييز لانه لا يأبه بالحقائق فانه غزير الخيال واسع الحيلة في هذا الباب. ولك خيال عنده حقيقة وإن خالف الواقع، وهذا ما حدا بفرويد أن يقول بان هناك حقيقتين: الحقيقة الواقعية والحقيقة النفسية، وإذا كان الإنسان العادي يعيش في الحقيقة الواقعية فان الإنسان العصبي يعيش في الحقيقة النفسية - أي فيما يصور له الخيال، وهناك أمر آخر يقوم به العقل الباطن، وهو تسجيل الأفكار والتجارب والمعلومات على قواعد الاصطحاب والقرينة أي أن الأشياء المماثلة أو المخالفة لبعضها مسجلة مع بعضها أو بالقرب من بعضها

وتبدأ الأفكار الذاتية والاصطحاب في الظهور عند الإنسان من يوم ولادته، فالجوع يسبب الرغبة في الأكل، والوالدة تطعم طفلها، وهكذا تنشأ فكرة عند الطفل بأنه في حاجة إلى شخص آخر يمده بما يشبع جوعه، ويتعود الطفل سماع صوت معين ورؤية شخص معين يطعمه ويسهر عليه ويسبب له الشعور بالراحة والسرور والاكتفاء، فيصحب ذلك الصوت المعين وهذا الشخص المعين بالسرور والاكتفاء، وهكذا ينشأ الاصطحاب عند الطفل، وهذا يفسر خوف الطفل وبكاءه عند شعوره بانفراده، واطمئنانه وسروره عند رؤيته لوالدته أو عند سماعه صوتها

وإذا عرفنا أن حواس الجسم خلقت لتحمي وجوده، وعرفنا ان العقل هو القائد المدبر لهذه الحماية، وانه من اجل ذلك يسجل عنده الحوادث الماضية كتجارب يستنير بها في أي موقف من مواقفه، وان هذه التجارب وان لم يذكرها الإنسان مسجلة في الجزء اللاشعوري من عقله، مهما طال عليها القدم. إننا إذا عرفنا ذلك أمكن لنا أن نفهم ما قد يبدو لنا غريباً، فقد يسيء إلينا في طفولتنا بعض أشخاص ذوي خلقة معينة، وقد ننسى هؤلاء الأشخاص بالذات ولكننا لا ننسى ان نقابل اي شخص يماثلهم في الخلقة بالكراهية، ذلك لاصطحاب

الخوف والخطر لهذا الشكل المعين، وهذا يفسر أيضا قول البعض انه يمقت فلانا من أول ما يراه، ولكنه لا يعرف سبب ذلك

على ان هذه الفكرة الذاتية كثيراً ما تتعدى الحاضر إلى المستقبل، فقد تجلس في المقهى على ان تغادره في ساعة معينة فيشغلك الحديث مع جارك، وتنسى كل شيء، ولكن لا تلبث ان تذكر ميعادك في الوقت المناسب فتستأذن لتلبيته، أو قد تنما على أن تستيقظ في ساعة معينة فيكون لك ما تريد. ذلك لانه في اللاشعور قد تكونت عقيدة بأنه من مصلحة الإنسان أو من مصلحة وجوده ان يذهب إلى الميعاد في ساعة معينة، ولهاذ ترى اللاشعور يذكر الشعور باستمرار بالموعد، فهو بين آونة وأخرى يقذف بفكرة الموعد أمام الشعور، وقد لا يأبه الشعور إلى هذا التذكير، لأن الوقت لا يزال مبكراً، ولكن اللاشعور يستمر في التذكير بين أونة وأخرى حتى يحل الموعد فيتذكره الإنسان إذا كان متيقظاً، أو ينتبه من نومه إذا كان نائماً

وكما إن الأفكار الذاتية قد تكون مخطئة فكذلك الاصطحاب قد لا يكون على أساس

سليم. ومحاولة تصحيح خطأ الاصطحاب أو توجيه اللاشعور إلى الأفكار والعقائد الصحيحة هو في الواقع واجب على كل إنسان يود أن يحيا حياة عقلية سليمة وإذا كنا قد أثبتنا أن العقل الباطن هو الذي يقوم بمهمة التخيل فان الجزء الشعوري من العقل هو الذي يقوم بتنفيذ كل ما يوحي به العقل الباطن في غياب التمييز، لأنه يعتقد أن كل ما يوحي به العقل الباطن مهم لاستكمال النقص الموجود في الجسم. وهو في تنفيذه لرغبات العقل الباطن قادر كل القدرة على عمل ما قد يبدو مستحيلاً لأول وهلة، لأن الشعور لا يسيطر فقط على حركة الإنسان الظاهرة، بل يسيطر أيضا على كل الأعضاء الداخلية للجسم. فيكفي أن يخيل العقل الباطن السفر لأجل أن ينفذ الشعور ذلك السفر. ويكفي أن يتخيل العقل الباطن الشفاء لأجل أن ينفذ الشعور الشفاء أيضاً. وهذا هو الأساس في الإيحاء بأنواعه

هذا إلى أن الشعور تتمثل فيه غريزة التغذية، وهي التي تهيئ للجسم أسباب المأكل والمشرب والدفء. . . الخ. وهكذا يتبين أنه إذا كانت كل الجهود التي ترمي إلى حفظ النفس وجعل الجسم كاملاً سليماً ممثلة في العقل الظاهر. ولما كان الإنسان قليل العقلان في

هذا السبيل فيكون الطمع والحسد والغيرة والمغالاة في جمع المال. ولما كانت كل من هذه الجهود ترمي الى تفكك المجتمع وانحطاط الأخلاق فإننا نجد أن المجتمع قد حاربهما لشيئين:

أولا: من الطفولة إلى إكمال الدراسة نجد أن الأب والمدرس والدين يتعاونون على كبح هذه الرغبات بما يخونه من تعاليم، ثم ينسى الإنسان الأب والمدرس وتبقى التعاليم في العقل بصفة ضمير أو وازع نفساني يحض على الخير وترك الشرك.

ثانياً - إن ما يلاحظه الإنسان في الحياة من احتقار الهيئة الاجتماعية لكل من يحاول إشباع رغبة محرمة يجعل الشعور، وهو الذي يهمه حفظ الجسم وسلامته من الامتهان، يقف في وجه العقل الباطن أو يقلل من مغالاتها هي الأخرى في تنفيذ رغباتها. وهي تقف هنا أيضاً في وجه العقل الباطن باسم الضمير الإنساني النبيل في الظاهر.

والواقع أن خوفها مما حدث لغيرها هو الذي يجعلها تقف هذا الموقف وهكذا يبدو أن الضمير مفيد للهيئة الاجتماعية، وهذا هو الواقع ولكن إلى درجة محدودة. لأن ذلك الضمير إذا كان قوياً أكثر من اللازم فانه يمنع الرغبات من المثول أمام التمييز أو الشعور فتبقى في العقل الباطن دون أن تنفذ، ولما يقتنع العقل الباطن بضرر تنفيذها بعد. وهنا كثيراً ما تنشأ الأمراض العصبية. والطريق الوحيد لإقناع ذلك العقل والتغلب عليه هو عرض رغباته على الشعور أو العقل المميز لمناقشتها والبت فيها والعقل المميز هو القوة الاختيارية، أي التي توازن بين كل شيء وتختار التصرف الذي يتراءى لها، وهي موضع الذكاء في الإنسان

ويجب أن نذكر أن الضمير لا يمنع كل رغبات العقل الباطن من الوصول إلى الشعور ثم إلى التمييز، بل بالعكس فانه يسمح للكثير منها بالوصول إلى التمييز نفسه، ولكنه يقف أمام رغبات معينة فيمنعها من طريقها إلى الشعور. وهذه الرغبات المعينة الممنوعة هي التي تسبب الأمراض العصبية واما هذه الرغبات المعينة فإننا سنذكرها - بشيء من الإسهاب بعد أن نتكلم عن قصة أوديب الملك، وعما يسميه

والعقل بأقسامه الثلاثة ما هو إلا شيء معنوي أو بمعنى آخر هو وظيفة يقوم بها المخ الذي يتكون من جزأين - الأول وهو القشرة السنجابية الرمادية، يتكون من مجموعة من خلايا

عصبية متصلة ببعضها تمام الاتصال، والثاني وهو الجزء الأبيض المكون من خيوط دقيقة تقوم بمهمة أسلاك التلفون، وتوصل الخلايا مع بعضها كما توصل بين الخلايا وأجزاء الجسم المختلفة.

والخلية العصبية هي وحدة المخ التي تساهم في تكوين العقل بأقسامه الثلاثة، ففي كل خلية جزء من المعلومات والإحساس والتمييز الخ. والعقل التام أو قيام المخ بوظيفته كما يجب لا يمكن أن يكون إلا عن طريق الاتصال الكلي بين جميع الخلايا، وبهذا يمكن تبادل المعلومات والإحساس والتمييز بين الخلايا فيؤدي المخ وظيفته على أحسن حال. وكلما كان هناك ما يمنع اتصال الخلايا كان هناك أيضاً فكر غير ناضج ورأي غير معقول. وليست فائدة الاتصال بين الخلايا مقتصرة على تبادل المعلومات. إذ أن

تسجيل التجارب والأفكار يحدث بواسطة هذا الاتصال على قواعد الاصطحاب والقرينة فالمعلومات المتشابهة أو المتضادة تسجل في خلايا متجاورة أو متباعدة، ولكنها متصلة ببعضها

ولما كان المخ البشري من الوجهة التشريحية الميكروسكوبية متماثل من جميع الوجوه - سواء في ذلك المخ الزنجي ومخ الرجل الأبيض، وسواء في ذلك أفتى وأغبى رجل - فإن اتصال الخلايالا يتوقف على كثرة أو قلة الخيوط الدقيقة، أو على مقدار تفرع هذه الخيوط كما يتوقف على العوامل النفسية والعقلية الأخرى

فالعوامل النفسية إذن هي التي تمنع الاتصال بين الخلايا. وأكثر هذه العوامل هو ما يكون بفعل المشادة بين اللاشعور والشعور، أو بمعنى أدق بين اللاشعور والضمير - أو بين ما يسميه فرويد وهو يقصد بكلمة لبدو كل الجهود التي ترمي إلى إشباع شهوة النفس وبكلمة الجهود التي ترمي إلى حفظ النفس وجعلها ملائمة لمقتضيات الوسط الذي تعيش فيه

هذه المشادة بين اللاشعور والضمير هي التي خلقت العواطف في الإنسان وخلقت فيه التردد وعدم البت في الأمور، وهي التي كثيراً ما تحول دون تمام الاتصال بين الخلايا، فيكون الفكر والرأي والتصرف غير ناضجة من الوجهة العقلية السليمة. وهي أيضا التي تمهد السبيل إلى الأمراض العصبية المختلفة

وليس هذا الاتصال المباشر بالخيوط الدقيقة - هو الاتصال الوحيد بين الخلايا. فان هناك اتصالا آخر غير مباشر وهو اتصال يمكن تشبيهه بالاتصال اللاسلكي بين المحطات
المختلفة

هذا الاتصال الأثيري قد يكون موجودا، ولكنه نادر وقليل الحدوث بين خلايا المخ الواحد، وهو مع ذلك شائع وكثير الحدوث بين الخلايا التي لا تنتمي إلى مخ واحد. وهذا هو سبب ما نسميه توارد الخواطر وسبب الرؤيا الصادقة. ومن منا لا يذكر انه أراد مرة أن يقول كلمة فسبقه مخاطبه بقولها؟ ومن منا لا يذكر انه كان يتكلم مع صديقه عن شخص ثالث، فإذا بهذا الشخص الثالث يحضر على الأثر؟ ومن منا لا يذكر انه رأى شيئاً في الرؤيا فإذا به يراه في اليقظة في اليوم التالي؟

وهكذا نرى أنه قد يكون لكل رؤيا تفسيران - التفسير الأول وهو الثابت في جميع الرؤى هو التفسير التحليلي الذي سبق أن تكلمنا عنه. وأما التفسير الثاني الذي يتعلق بحوادث اليوم الأول أو الأيام القليلة التي تلي ليلة الرؤيا فانه، فضلا عن كونه قليل الأهمية في الغالب لا يمكن معرفته قبل حدوثه بالفعل، فهو نادر الحدوث، أي أن الرؤيا التي لها تفسير من هذا القبيل قليلة ونادرة. فالتفسير التحليلي إذن هو الأهم وبواسطته يمكن معرفة رغبات الإنسان الكامنة فيستدل على مواطن المرض العصبي ويستأصل من جذوره

هذا وقد حاول الكثيرون التخلص من الأفكار الذاتية المخطئة بطرق شتى

1 - الإيحاء

2 - الإيحاء الذاتي

3 - الجمع بين الطريقتين السابقتين وهي طريقة (وهي التي يسميها '

4 - التنويم المغناطيسي. وعيبه أنه يؤثر تأثيرا بيناً في شخصية النائم. على أن هذه الطرق الأربعة مع إمكان نجاحها في الحالات البسيطة، فهي كثيراً ما تفشل، ذلك لأنها لا تؤثر إلا في الحركات والألفاظ أو الأعراض العصبية الأخرى التي سببتها الأفكار الذاتية الكامنة، ولكنها لا تؤثر في هذه الأفكار نفسها. ولذا فان هذه الأعراض قد تختفي لتحل محلها أعراض أخرى أخف أو أشد منها على حسب الظروف. ولو تسنى معرفة هذه الأفكار أو الرغبات الكافية لعرضت على العقل المميز وبت فيها ولخرجت إذن من العقل الباطن وأصبحت غير قادرة على ما كانت تسببه قبل ذلك

وفيما بعد سنتكلم عن الإيحاء والتنويم والاتصال الأثيري والتحليل النفسي مع شيء من الإسهاب. ولا بأس الآن بعد أن وصلنا إلى هذا القدر من البحث من أن نشير إلى الروح وما هي، فقد تعرض لها الكثيرون في العصور المختلفة. فمن قائل إنها في الدم، ومن قائل إنها في القلب. وربما يظن الإنسان أنه قد توصل إلى معرفتها، وأنها هي التي تتجلى في الاتصال الأثيري السالف الذكر، والواقع أنها بعيدة عن متناول يده الضعيفة،

فهو لم يعرف بعد جميع أسرار المادة التي يراها حوله في كل مكان. وأولى له أن يعرف هذه الأسرار قبل التطلع إلى معرفة الروح. والروح من أمر الله

عبد الفتاح سلامه

القصص

مغامرات آخر بني سراج

لشاتو بريان

'

تلخيص وتحليل ونقد

بقلم الآنسة سهير القلماوي ليسانسييه في الآداب

بنو سراج في التاريخ

إذا كان تاريخ سقوط غرناطة يحفه الكثير من الغموض والكثير من النقص واللبس، فلا غرو إذا كان تاريخ بني سراج كله غموض وإبهام، وكله لبس ونقص. لا نجد كتاباً يذكر عن بني سراج شيئاً كافياً، ولا نجد كاتباً ينتهي في أمرهم إلى ما ينتهي إليه غيره، هذا إذا ذكروهم وما أقل ما ذكروا.

فإذا بدأت بقولهم إن بني سراج اسرة، تجد خلافاً في هل عرفوا في التاريخ كاسرة حقاً، أو أن التاريخ لم يعرف منهم إلا فرداً واحداً؟ وهم بعد يختلفون في حقيقة اسمه. وإذا ثنيت بقولهم نشأوا في غرناطة وجدت من يقول إنهم نشأوا في قرطبة، ثم رحلوا عنها إلى غرناطة. وهكذا يستمر الخلاف في كل خطوة من خطى الكلام على بني سراج.

ولكن برغم هذا كله يمكن أن نستخلص من كلام المؤرخين في شأنهم ما يلي: إنهم أسرة عرفت في غرناطة أواخر أيام بني الأحمر وكان هلاكها على يد أحدهم: أما أبو الحسن علي، وأما أبو عبد الله. وكان لهم يد في الخلافات الأخيرة التي وقعت بين أفراد الأسرة الحاكمة. وهم مشهورون بعد بخلافاتهم مع بني الزغري أو الزغبي، ونجد تأييدا لذلك كتاباً إسبانياً ألف حوالي سنة 1595 عنوانه (تاريخ عصابات الزغري وبني سراج والحروب الأهلية في غرناطة)

كذلك شهر بنو سراج بقصد الفتك بهم، فقيل أن بني الزغري كادوا لهم عند أبي عبد الله ففتك بهم. أما المكيدة نفسها فبعضهم يكتفي بالإشارة اليها، والبعض الآخر يتخذ الأسطورة

المشهورة في الفتك بهم كحقيقة تاريخية فيرويها. وفيما بعد تفصيل لتلك الأسطورة أما شانوبريان مؤلف القصة المشهورة باسمهم، فالظاهر انه كان يرى فيهم أسرة من أشراف غرناطة حاربهم الأسبان فقتلوهم وشردوهم، والدليل على قولي هذا إن بطل القصة آخر سلالة بني سراج جاء إسبانيا للانتقام من سلالة السيد الأسبان لأنهم شردوا أجد اده وقتلوهم: ولو صحت لديه الأسطورة المشهورة لجاء ابن حامد منتقماً من سلالة بني الأحمر لا من سلالة الأسبان.

ننتهي من كل هذا إلى ان بني سراج اسم يذكر مقروناً بذكر سقوط غرناطة وببني الأحمر. إما مآلهم وإما حقيقتهم فشيء يحفه الكثير من الغموض ويحيط به سياج من الأساطير يخفي الكثير من الحقيقة.

بنو سراج في الأساطير

إذا كان التاريخ لم ينصف بني سراج فان الأساطير أنصفتهم كما أنصفهم الفن في الأدب والغناء.

تتعلق ببني السراج أسطورتان مهمتان، وكلتا الأسطورتين كانتا منبعاً للأدب أو للقصص بنوع خاص.

أما الأولى فهي الأسطورة التي تروي في سبب الفتك ببني سراج وهي أن أبا عبد الله بلغه حب أحد بني سراج لأخته زريده، فثار ثائره، وجمع الحاسرة كلها في مكان من الحمراء وأحرقهم أو قطع رؤوسهم جميعاً، ومازال صدى أصواتهم يرن في جنبات الحمراء شاكياً من ظلم مالا قوه. ويلمح كاتب مقال بني سراج في دائرة المعارف الإيطالية شبهاً عظيماً بين هذه القصة والقصة التي تروي في الشرق عن سبب الفتك بالرامكة، مما يجعله يرجح ان قصة بني سراج هذه ما هي إلا أسطورة غريبة صيغت على نسق الأسطورة الشرقية، فبنو سراج وزراء بني الأحمر، والبرامكة وزراء بني

العباس، وفتك بالبرامكة الرشيد، لان جعفراً البرمكي أحب أخته العباسة، وكذلك فتك أبو عبد الله بالسراجيين لأن أحدهم احب أخته زريدة. ثم يقول كاتب المقال، واسم وهو اسم غريب في الأسماء العربية ما هو إلا تحريف تحكمي لاسم زبيدة زوج الرشيد.

ومما يبعد هذه الأسطورة عن التاريخ أن مؤرخاً عربياً واحدا لم يذكرها وان كان الأسبان

اكثروا من ذكرها في مؤلفاتهم.

وأما الأسطورة الثانية التي تتعلق ببني سراج فهي الأسطورة المذكورة في كتاب لانطيونو فالجانس اسمه تاريخ بني سراج وظريفة، ألفه سنة 1551 وقد استقاه من كتاب لا يعرف مؤلفه اسمه ' ويروي فيه قصة ابن دريز الرامي الذي تزوج سراً من ظريفة ابنة قائد قرطبة والذي أسره قائد الأنتقيرة. ولما صاحبته زوجه عن طيبة خاطر إلى السجن أخذت القائد شفقة على حالها المحزنة، وعلى حبهما وإخلاصهما، وطلب إلى أبيه أن يعفو عنهما، وحصل منه على أمر بإطلاق سراحهما. وقد رويت هذه القصة برقة زائدة حتى إن يقول، يظهر إنها كتبت بريشة من جناح أحد الملائكة واشتهرت هذه القصة شهرة عظيمة واعجب بها وذكرها في دون كيشوت. كتابه ديانا. واستخلص من موضوعها روايته . . . وكانت القصة باختصار موضوعاً لعدة قصص من اشهرها أجملها ما رواه ' روايته

هاتان هما الأسطورتان، وما تفرع عنهما، ولكن موضوع بني سراج أنفسهم غير متأثر بأسطورة معينة من الأسطورتين كان وحياً للموسيقى المشهور شروبيني فقد وضع فيهم أوبرا مثلت في باريس سنة 1381 ووضع كلامها ولا تزال بعض ألحانها مشهورة إلى اليوم

كذلك نجد ذكرهم عند شعراء العرب، فهم يذكرون كثيراً، مثلا فيما ألف حول سقوط قلعة الحامة من شعر وغناء.

كذلك أنصفت الأساطير بني سراج كما أنصفهم الأدب والغناء.

قصة شاتو بريان

هؤلاء هم بنو سراج كما يعرفهم التاريخ وكما تعرفهم الأساطير ولكن الذي رفع ذكرهم ليس التاريخ أو الأساطير، وإنما هي قصة ألفها الكاتب الفرنسي المشهور شاتوبريان، وهي قصة (مغامرات آخر بني سراج). وليست القصة عن بني سراج أنفسهم كما يدل عنوانها، ولكن المؤلف اتخذ لقصته بطلا ادعى انه آخر سلالة هذه الأسرة، ولا يغير من القصة لو كان هذا البطل آخر سلالة أي أسرة عربية أخرى شهدت سقوط غرناطة وأصابها ما أصاب العرب جميعاً إذ ذاك.

كيف استقى المؤلف قصته

عاش شاتوبريان في شمال فرنسا، ولكنه عرف بكثرة الرحلات واتساع نطاقها، كما عرفت أسرته كلها بولعها بالرحلات والمغامرات، وقام شاتوبريان نفسه بعدة رحلات، فقد سافر إلى امريكا، وكانت تلك الرحلة من أهم ما انتفع به في كتابه الذي رفع ذكره وهو أثالا. كذلك عاش زمناً في لندره، حيث كتب الكثير من مؤلفاته، ورحلاته هذه لم تمل عليه أدباً فحسب، وإنما وصفها في كتب عدة غير مشهورة.

ولكن هناك رحلة خاصة هي التي أوحت إليه بتلك القصة التي نحن بصدد الكلام عنها، فقد تواعد وإحدى صديقاته على زيارة الحمراء وما حولها في غرناطة. وفعلا تقابلا هناك وزارا معاً الحمراء وما جاورها. وكان من أثر هذه الزيارة ان كتب القصة في نفس تلك الأمكنة التي يصفها. في الحمراء وما جاورها.

هذا ما أوحى إليه بالقصة. وأما مادة القصة فقد استقاها من كتاب أشرنا إليه آنفاً وهو (تاريخ عصابات الزغري وبني سراج والحروب الأهلية لغرناطة) ألف هذا الكتاب حوالي سنة 1595 ولكنه ترجم إلى الفرنسية وطبع في باريس ثلاث طبعات، الأولى سنة 1606، والثانية سنة 1698، والثالثة سنة 1809، وإذا عرفنا أن شاتوبريان مات سنة 1848 عرفنا انه كان يمكنه الاطلاع على كل هذه الطبعات الثلاث للترجمة الفرنسية فوق إن إحداها طبعت في شبابه، فلا غرو أن لفتت نظره. وهذا الكتاب الذي ألفه مستقى من ومن قصص العامة مسيحية وإسلامية حتى أن بعضها منقول نقلا. أضف إلى كل هذا أن أوبرا في بني سرا مثلت سنة 1813 فكانت حافزا للمؤلف ولا شك على تأليف قصته

ملخص: القصة
أما القصة نفسها فتتلخص في ان ابن حامد هاجر من قرطاجنة إلى غرناطة شوقاً إلى رؤية آثار أجداده وآخذاً للثأر ممن فتكوا بهم. وأثناء زيارته لتلك الآثار التي كانت تثير أشجانه، لمح أسبانية فتعرفها ثم احبها وأحبته. وزارا معاً قصر الحمراء، ولكن كل واحد منهما أصر على دينه، وأصر على ألا يتزوج صاحبه إلا إذا بقى على دينه. وكان ابن حامد يعرف أن صاحبته من أسرة أسبانية عريقة، ولكن لا يعرف عن هذه الأسرة شيئاً. وكانت إدماء تعرف أن صاحبها من أشراف العرب الذين هاجروا إلى المغرب، ولكنها لم تعرف لأسرته
اسما.
ويضطر ابن حامد إلى ترك غرناطة ليودع والدته قبل فراقها الحياة، فيودع إدماء ويقسمان على الإخلاص والوفاء. ثم يعود إليها بعد أن فارقت أمه الحياة فيجدها كما أمل: وفية مخلصة ثابتة على دينها
ولكن يظهر لابن حامد منافس في حب إدماء هو صديق أخيها الفارس الفرنسي لوترك ويعرض عليها أخوها الزواج من لوترك فترفض وتعترف له بحبها لابن حامد، فيثور أخوها ويطلب ابن حامد للمبارزة فيتبارزان ويجرح ابن حامد. وتأتي إدماء إلى ميدان المبارزة في صحبة لوترك، وتحاول إصلاح الحال بين أخيها ولوترك من جهة، وبين ابن حامد من جهة أخرى، ولكنها لا تفلح، ويصر ابن حامد على أن يحترم دون كارلوس أخاها ويحتقر لوترك حبيبها ويكرههما الاثنين.
وعند الغروب بينما كان ابن حامد سائراً سابحاً في أفكاره، إذ تنبه على صوت الناقوس يدعو النصارى إلى صلاتهم، فيدخل الكنيسة على إله النصارى وهو إله أيضا أن يحل ما تعقد في رأسه من أفكار. فيرى في الكنيسة (لوترك) راكعاً يصلي، فيهم بالخروج وإذا به يفاجئ إدماء داخلة تصلي أيضاً، فيظن هو إنها آتية للقاء لوترك، ولكنها تنفي عنه الظنة قائلة (أنا أعلى من أن أغشك) ثم تشتكي له ما تلاقيه وتفهمه أنه بتنصره يبرئها من سقامها وآلامها، فيخرج ابن حامد من الكنيسة وهو مصمم على أن يتنصر في الصباح.
وفي المساء سار إلى دون كارلوس فوجده قد سبقه إلى بيت لوترك، فسار إليه هناك فوجد أن لوترك يقيم حفلا في هذا المساء، وبدأ القوم يغنون بمفاخر قومهم كعادتهم في حفلاتهم، وغنى دون كارلوس فعرف ابن حامد من غنائه أنه أحد سلالة السيد الأسباني الذي جاء ينتقم من سلالته لأجداده بني سراج. وهنا كشف ابن حامد لهم عن حقيقته، فخيره دون كارلوس بين المبارزة وبين التنصر والتزوج بإدماء. وكان الخيار عليه صعباً، فحكم إدماء، فكان حكمها أن (عد إلى صحرائك)
ظلت إدماء بلا زواج طول حياتها تندب السراجي، وضم السراجي قبر لا زال معروفاً إلى الآن في المغرب بقبر آخر بني سراج
هذه خلاصة القصة ونلاحظ عليها ما يلي.
1 - إن القصة كلها لا أصل لها في التاريخ. ويقول صاحب مقال بني سراج في دائرة المعارف الإيطالية أن ليس لها من الحقيقة سوى الاسم، بنى سراج.
2 - إن الفكرة الدينية كانت عنصرا هاما في الموضوع، وهي دائما عنصر هام في روايات شانو بريان حتى قصته التي رفعته إلى أوج الشهرة وهيمبنية على الفكرة الدينية.
3 - تعد القصة من مؤلفات شاتو بريان الثانوية، قلما يقرؤها إلا من كان معنيا بشؤون الشرق والشرقيين. ولكنها برغم هذا من القصص التي تترك في نفس القارئ أثرا بينا، لا من حوادثها فقط ولا من شهامة إبطالها فحسب، ولكن من هذا كله ومن الوصف الدقيق الذي تمتاز به.
4 - أبطال القصة مرتفعون بشهامتهم وشرفهم ارتفاعا لا يقربهم إلى نفس القارئ، ومما ساعد على بعدهم عن قلب القارئ قلة التحليل النفساني الذي يصل بالقارئ إلى معرفة هؤلاء الأبطال معرفة تقربهم منه، وهو وان كان قد عمد إليه في بعض الأحيان فلا انه لم يوفق فيه. فشخصية ابن حامد وهي أهم شخصية في القصة لا تجد لها تحليلا كافيا ولا تتبينها إلا إذا أسبغت عليها الكثير من خيالك الخاص.
5 - والمحادثات التي تجري في القصة متكلفة بشكل غريب، وكان أبطالها كلهم

ينشئون رسائل أو ينمقون مقالات، وكان لكل هذا أثره البين في إلباس هذه الشخصيات لباساً غامضاً لا يتنوع بتنوع الأشخاص.

6 - كان المؤلف في قصته وصافاً اكثر منه مؤلفاً قصصياً، والظاهر أن موضوع القصة وأشخاصها لم يهم المؤلف قدر ما أهمه وصف الحمراء وما جاورها.

الترجمة لشكيب أرسلان

ترجم القصة الفرنسية الكاتب المعروف شكيب أرسلان، ولكن الترجمة حرفية، وقد أخلت حرفيّها بكثير من معانيها، وجعلت لها صبغة غريبة لغرابة تراكيبها وتعابيرها. ولو عمدت إلى نقل المواضع التي أفسدتها الترجمة الحرفية لاكترث وأمللت

وقد خلى المترجم ترجمته بأبيات شعر كثيرة مقتبسة غير التي اضطر إلى نظمها ترجمة للأصل الفرنسي الشعري، وكانت هذه الأبيات المقتبسة مما ساعد كثيراً على عدم الانسجام في القصة، فهي وان كانت في نفس المعنى المساقة فيه، إلا ان بعدها عن روح القصة

وجوهاً جعلها كالأنغام الناشزة في الموسيقى.

وأخيراً لم يكن للمترجم فضل في تلك الترجمة إلا نقل صورة مهما تكن حالها لقصة يجب ان يطلع عليها كل قارئ لتاريخ الأندلس، وأما فضله حقاً فهو في الذيل الذي أتبعه قصته وهو ما لا نتعرض له.

سهير القلماوي

الكتب

ديوان الأعشاب

لمحمود أبو الوفا

حديث عن الشعر وعن الديوان

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

في إحدى زياراتي للأستاذ مصطفى صادق الرافعي رأيت على مكتبه (ديوان الأعشاب) الذي أخرجه الشاعر المعروف الأستاذ محمود أبو الوفا، فاكبرت أن أجد هذا الديوان حيث وجدته، ولكن الأستاذ أثنى عليه وعلى صاحبه، ثم قال: هلم نقرؤه معاً، وبعد أن استوفيناه، نقلت عنه هذا الحديث للرسالة الغراء، قال:

(أبو الوفاء شاعر ملء نفسه، ما في ذلك شك. مذهبه الجمال في المعنى، يبدعه كأنما يزهر به، والجمال في الصورة يخرجها من بيانه، كما تخرج الغصون والأوراق من شجرتها. وله طبع وفيه رقة، وهو يجري من البيان على عرق، وسليقته تجعله ألزم لعمود الشعر وأقرب إلى حقيقته، حتى إنه ليعد أحد الذين يعتصم الشعر العربي بهم، وهم قليل في زمننا، فإن الشعر منحدر في هذا العصر إلى العامية في نسقه ومعانيه، كما انحدر التمثيل، وكما انحدرت أساليب الكتابة في بعض الصحف والمجلات.

وللعامية وجوه كثيرة تنقلب فيها الحياة، ومرجعها إلى روح الإباحة الذي فشا بيننا، ونشأ عليه النشء في هذه المدينة التي تعمل في الشرق غير عملها في الغرب، فهي هناك رخص وعزائم، وهي هنا تسمح وترخص، في ظل ضعيف من العزيمة. وإهمال البلاغة العربية الجميلة كما هي في قوانينها، ليس إلا مظهراً لتلك الروح تقابله المظاهر الأخرى، من إهمال الخلق، وسقوط الفضيلة، وتخنث الرجولة، وزيغ الأنوثة، وفساد العقيدة، واضطراب السياسة، إلى ما يجري هذا المجرى مما هو في بلاغة الحياة المبينة كالمرذول والمطرح والسفساف في بلاغة الكلام الفصيح. كل ذلك في مواضعه تحلل من القيود وإباحة وتسمح وترخص، وكل ذلك عامية بعضها من بعض، ولك ذلك لحن في البلاغة والخلق والفضيلة والرجولة والأنوثة والعقيدة والسياسة.

والشعر اليوم أكثره (شعر النشر) في الجرائد، على طبيعة الجرائد لا على طبيعة الشعر. وهذه إباحة صحافية غمرت الصحف، وأخضعت أذواق كتابها لقوانين التجارة، فانهم لينشرون بعض القصائد، كما تنشر (الإعلانات) لا يكون الحكم في هذه ولا هذه لبيان أو تمييز أو منفعة، بل على قدر الثمن أو ما فيه معنى الثمن!.

ومن مادية هذا العصر وطغيان العامية عليه، إننا نرى في صدر بعض الجرائد أحياناً شعراً لا يكون في صناعة الشعر ولا في طبقات النظم أضعف ولا أبرد منه، ولا أدل على فساد الذوق الشعري، ولكنه على ذلك الأصل الذي أومأنا إليه يعد كلاماً صالحاً للنشر، وان لم يكن صالحاً للشعر.

وهكذا أصبحت العامية في تمكنها تجعل من الغفلة حذقاً تجارياً، ومن السقوط علواً فلسفياً، ومن الركاكة بلاغة صحفية، ومتى تغير معنى الحذق، وداخلته الإباحة، ووقع فيه التأويل، وأحيط بالتمويه والشبه - فالريبة حينئذ أخت الثقة، والعجز باب من الاستطاعة، والضعف معنى من التمكين، وكل ما لا يقوم فيه عذر صحيح، كان هو بطبيعة التلفيق عذر نفسه.

وأكثر ما تنشره الصحف من الشعر هو في رأيي صناعة احتطاب من الكلام. . . وقد بطل التعب، إلا تعب التقشش والحمل، فلم تعد هناك صناعة نفسية في وشي الكلام، ولا طبع موسيقي في نظم اللغة، ولا طريقة فكرية في سبك المعاني؛ وبهذه العامية الثقيلة أخذ الشعر يزول عن نهجه، ويضل عن سبيله، ووقع فيه التوعر السهل. . . والاستكراه المحبوب. . . وصرنا إلى ضرب حديث من الوحشية. هو الطرف المقابل للشعر الوحشي في أيام الجاهلية. فما دام الكلام غريباً، والنظم قلقاً، والمأتى بعيداً، والمعنى مستهلكاً، والنسج لا يستوي، والطريقة لا تتشابه - فذلك كله مسخ وتشويه في الجملة، وإن اختلفت الأسباب في التفصيل، وإذا كان المسخ جاهلياً بالغريب من الألفاظ، والنافر من اللغات، والوحشي من المعاني، وكان عصريا بالركيك من الألفاظ، والنازل من التعبير، والهجين من الأساليب، والسخيف من المعاني ثم بالسقط والخلط والاضطراب والتعقيد، فهل بعض ذلك إلى من بعضه؟ وهل هو في الشرع الجميل إلا كسلخ الإنسان الذي مسخه الله فسلخه من معان كان بها إنساناً، ليضعه في معان يصير بها فرداً أو خنزيراً ليس عليه إلا ظاهر الشبه، وليس معه إلا بقية الأصل؟ فالفردية الشعرية، والخنزيرية الشعرية، متحققتان في كثير من الشعر الذي ينشر بيننا، ولكن أصحاب هذا الشعر لا يرونهما إلا كمالا في تطور الفن والعلم والفلسفة. وأنت متى ذهبت تحتج؟؟؟ الشعر من قبل الفلسفة، وتدفع عن ضعفه بحجة العلم، وتعتل ليصحح فساده بالفن - فذلك عينه هو دليلنا نحن على أن هذا الشعر فردي خنزيري، لم يستو في تركيبه، ولم يأت على طبعه، ولم يخرج في صورته؛ وما يكون الدليل على الشعر من رأى ناظمه وافتنانه به ودفاعه عنه، ولكن من إحساس قارئه واهتزازه له وتأثره به.

والشاعر أبو الوفا جيد الطريقة، حسن السبك، يقول على فكر وقريحة، ويرجع إلى طبع وسليقة، ولكن نفسه قلقة في موضعه الشعري من الحياة؛ وفي رأيي أن الشاعر لا يتم بأدبه ومواهبه حتى يكون تمامه بموضع نفسه الشعري الذي تضعه الحياة فيه. والكلام يطول في صفة هذا الموضع، ولكنه في الجملة كمنبت الزهرة لا تزكو زكاءها، ولا تبلغ مبلغها إلا في المكان الذي يصل عناصرها بعناصر الحياة وافية تامة، فلا يقطعها عن شيء ولا يرد شيئاً عنها؛ إذ هي بما في تركيبها وتهيئتها إنما تتم بموضعها ذا لتهيئته وتركيبه. فان كانت الزهرة على ما وصفنا، وإلا فما بد من مرض اللون، وهرم العر، وهزال النضرة، وسقم الجمال.

ولولا أن الحكمة وفت الأستاذ أبا الوفا قسطه من الألم، ووهبته نفساً متألمة حصرتها في أسباب ألمها حصراً لا مفر منه - لفقدت زهرته عنصر تلوينها، ولخرج شعره نظماً حائلاً مضطرباً منقطع الأسباب من الوحي؛ غير أن جهة الألم فيه هي جهة السماء اليه؛ ولو هو تكافأت جهاته المعنوية الأخرى، وأعطيت كل جهة حقها، وتخلصت مما يلابسها - لارتفع من مرتبة الألم إلى مرتبة الشعور بالغامض والمبهم، ولكان عقلا من العقول الكبيرة المولدة التي يحيا فيها كل شيء حياة شعرية ذات حس.

ولكن مادامت الحياة قد وزنت له بمقدار، وطففت مع ذلك وبخست، فقد كان يحسن به أن يقصر شعره على أبواب الزفرة والدمعة واللهفة، لا يعدوها، ولا يزاول من المعاني الأخرى ما ضعفت أداته معه أن تتصرف، أو انقطعت وسيلته إليه أن تبلغ. ويظهر لي أن أبا الوفا يحذو على حذو إسماعيل باشا صبري، وهو شبيه به في أنه لم تفتح له على الكون إلا نافذة واحدة؛ غير أن صبري أقبل على نافذته ونظر ما وسعه النظر، أما أبو الوفا

. . . .فيحاول أن ينقب في الحائط ليجعلها نافذتين

أما انه ليس من الشعر أن تنزل الحيرة الفلسفية عن منزلتها بين اليقين والعقل، أو المشهود والمحجب، أو الواقع والسبب، أو الرسم والمعنى - فتنقلب حيرة معاشية تسم الأشكال والمعاني بسمتها المادية الترابية، وتقع في الشعر فتقحم بين شعر

القلب العاشق، وشعر الفكر المتأمل - شعر المعدة الجائعة، وتضع بين أشواق الكون شوقها هي إلى الطعام والثياب والمال. . . .
على أنه كان الأمثل في التدبير، والأقرب إلى طريقة النفس الشاعرة أن يصرف أبو الوفا هذا الشعور المادي الذي يتلذع به فيحوله فيجعله باباً من حكمة السخر الشعري بالدنيا وأهلها وحوادثها، كما صرفه ابن الرومي من قبل فأخطأ في تحويله، فجعله مرة بابا من المدح والنفاق، ومرة باباً من الهجاء والإقذاع.
ولو بذل الشاعر أبو الوفا مجهوده في ذلك، واتهم الدنيا ثم حاكمها، ونص لها القانون، وأجلس القاضي، وافتتح المجلس، ورفعها قضية قضية، ثم أخذها حكماً حكماً، تارة في نادرة بعد نادرة، ومرة في حكمة إلى حكمة، وآونة في سخرية مع سخرية - إذن لاهتدى هذا المتألم الرقيق إلى الجانب الآخر من سر الموهبة التي في نفسه، فأخرج مكنون هذه الناحية القوية منها، فكان ولا ريب شاعر وقته في هذا الباب، وإمام عصره في هذه الطريقة.
على أن في صفحات ديوانه أشياء قليلة تومئ إلى هذه الملكة، ولكنها مبثوثة في تضاعيف شعره، والوجه أن يكون وجهه في تضاعيفها. وإنه ليأتي بأسمى الكلام وأبدعه، حين يعمد إلى ذلك الأصل الذي نبهنا إليه، فيصرف لهفة نفسه إلى بعض وجوهها الشعرية، كقوله في (حلم العذارى) وهي من بدائعه ومحاسن شعره:
هاهما عيناك تغري ... ني على شتى الظنون
فيهما بحر وموج ... وسهول وحزون
ووضوح وغموض ... واضطراب وسكون
ومعان بينات ... ومعان لا تبين
وتهاويل فنون ... من رشاد وجنون
وأشعات حيارى ... من منى أو من حنين
ليت شعري أي سر ... خلف هاتيك الجفون
آه إن السر أنبا ... عنه ذان الطائران
حينما مالا على غص ... نيهما يعتنقان. . .
(فهذه أبيات في شعر الجمال كالمحراب ملؤه عابده. . . اهـ)
محمد سعيد العريان خريج دار العلوم
العدد 47 - بتاريخ: 28 - 05 - 1934
الامتيازات والأدب!
الأدب عبير الروح، وشعاع النفس، ونضح العواطف. يتأثر حتما بما ينال أولئك من تطور الحياة، وتغير الناس، وتقلب الزمن؛ فهو يطيب أو يخبث، ويضطرم أو يخبو، ويمر أو يحلو، تبعاً لما يعرض للروح والنفس والعاطفة من أحوال الضعف أو القوة، والفساد أو الصلاح، والانحطاط أو السمو.
فالأدب العربي كان صادقاً حين فاض بالبطولة، وزخر بالحماسة، وجاش بالعزة، في عهوده الأولى أيام كان يمده العرب من قوتهم بالروح، ومن سلطانهم بالنبل، ومن حريتهم بالكرامة.
والأدب العربي كان صادقاً حين لج في الضراعة، وضج بالشكوى، وأن من الألم، وتحدث عن فسوق الخُلق المنحل، وإيمان القلب المستذَل، وضلال النفس المريضة في مذاهب القِحة، في عهوده الأخيرة أيام وهنت عزائم الملوك، ووهت دعائم الملك، وتخلت يد العرب عن زمام الدنيا، فوقعت الفوضى، وحدث الخلل، ولجأ الناس بعضهم إلى الله وراء شيوخ الطرق، وبعضهم إلى الشيطان وراء قطاع الطريق!
والأدب العربي الصادق اليوم في الإبانة عن هذا الشك المخامر في قدرتنا على التفكير الأصيل، واضطلاعنا بالأمر الجليل، واستقلالنا بتبعات الرأي وتكاليف الحياة. فان اعتقادنا الإيحائي المزمن بتفوق الأوربي وامتيازه سلب من نفوسنا الثقة، ومن قلوبنا الايمان، ومن عقولنا الاصالة، ومن شعورنا السمو، وتركنا كالعبد المملوك لا يقدر على شيء وهو كَلٌّ على مولاه، ينقل فيما يقول عن لسانه، ويصدر فيما يعتقد عن قلبه.
فأديبنا يجهل اللغة العربية كل الجهل، ويعلم اللغة الأوربية كل العلم، لأنه إذا تكلم بها أو كتب فيها شعر بذلك الامتياز الذي يلازم أهلها في بلاد الشرق. وأديبنا يقرأ الأدب الأجنبي ويغفل الأدب العربي، لأن هذا أدب قوم كانوا يلبسون العمائم، ويأكلون

بالأيدي، ويجلسون على الوسائد، ويقولون له نحن أجدادك! وذلك أدب قوم يلبسون البرانيط، ويأكلون بالشوْك، ويجلسون على الكراسي، ويقولون له نحن أسيادك.
وأديبنا يعمى عن مناظر بلده، ومحاسن طبيعته، ومفاخر قومه، ومآثر شرقه، ثم يفتح عينيه بكلتا يديه ليستشف من خلال السطور السودّ قناطر (السين) وشعاف (الألب) وخمائل (التيرول) لأن هذه ذكرها جوته ولامرتين وبيرن، وتلك إنما ذكرها البحتري والرضي
وشوقي!
زارني ذات يوم شاعر من شعراء الشباب، وفي يده قصيدة يريد نشرها بالرسالة، وكان موضوع القصيدة كما يقول: تصوير منظر قروي في ريف مصر: مشرق الشمس في القرية أو مغربها لا أذكر. فلما نظرت إلى الصورة - وأنا قروي - أنكرت ما رَسم فيها من الخطوط، ووضع بها من الألوان، وحشد إليها من الطبيعة. فقلت له: يغلب على شعوري أنك ترجمت. فقال وهو يعقد من التيه عنقه: ثق أنها من وحي خاطري وفيض لساني. فقلت له: إذن ما هذه النواقيس التي ترن في الأبراج؟ أفي قريتكم كنيسة؟ فقال كلا، وإنما آثرت رنين الناقوس على أذان المؤذن، لأني أجد للأجراس والأبراج من الروعة والشاعرية ما لا أجده للمئذنة والمسجد. فألطفت للفتى في الاعتراض والاعتذار مخافة أن يرميني في سره بالجمود والتأخر!
كذلك قدم إليّ كاتب من ناشئة الكتاب قصة مصرية، سمى أشخاصها: جان، وألبير، ولورا، وهيلين. لأنه يجد هذه الأسماء في الحوار والحديث أرق وأعذب من علي، وإسماعيل، وسعاد، وفاطمة!
فالأدب المصري الحديث، كالمجتمع المصري الحديث، يقوم على موت الشخصية، وفناء الذات، ونسيان التاريخ، ونكران الأصل، فهو يستلهم المطابع الأوربية، ويخضع قريحته للقرائح الأوربية، ويعقد لسانه بالألسن الموهوبة منها، فيحكى ما تقول في لعثمة نكراء من أثر العقدة، وهو لو وضع عن كاهله نير الامتياز، وفهم هذه الكلمة المخزية على المجاز، فأخذ عن طبعه، وترجم عن طبيعته، لفجأ الغرب بأدب قدسي الإلهام، سحري الأنغام، شرقي الروح، مصري الطابع، يحل أهله من أدب العالم ما أحل أدبُ الهند إقبالا وطاغور!
إن الطبيعة المصرية أولى أن تلهم الشاعر تأمل الصحراء، وأحلام النخيل، وابتسام الصحو، لا أن تلهمه ما تلهم الطبيعة الإنجليزية من أمثال (الملاح التائه)، و (الزورق الحالم)، و (وراء الغمام)! فان الفن لا يخضع خضوع العلم للعقل المشترك والوطن العام، وإنما يخضع قبل كل شيء لطبائع الاقليم، وخصائص البيئة، ومنازع الشخص، فإذا استنزل شعراؤنا الشبابُ على خواطرهم هذا الوحي الغريب، فذلك أثر ما نشكوه من هذه العبودية العقلية التي ضربت على الآذان، وغلبت على الأذهان، وجعلتنا للأجانب في كل
شيء تبعاً.
فمتى يعلم المصري أن له مجداً يجب أن يعود، ووطناً ينبغي أن يسود، وصوتاً يحق أن يسمع، وأدباً يصح أن يحتذى، وتاريخاً يليق أن ينشر، وحقاً على أرضه تؤيده الطبيعة ويقره القانون ولا ينكره عليه إلا جبنه وذله؟!
أحمد حسن الزيات
إنصاف المترجم
للدكتور محمد عوض محمد
أتى على المترجم حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً. وقد طال هذا الحين وامتد، حتى كدنا نظن أن ليس لليله المدلهم من آخر. وإن من الناس لمن يظن أن المترجم ذو مكان تافه يسير، وأن سيبقى مكانه مدى الدهر تافهاً يسيراً.
ولقد طالما أصغى المترجم إلى هذه الإشارات والعبارات، التي تنزله من عالم الأدب والكتابة أصغر المنازل. فيلقاها حيناً بالامتعاض، وحيناً بالاستسلام؛ وقد بات في حيرة من أمر نفسه، فجعل يدعو نفسه أحياناً المترجم، وأحياناً المعرب، لعل في هذه ما يحسن من شأنه ومن حاله؛ ثم يتواضع أحياناً فيكتفي بأن يقول: نقله عن الفرنسية. . . فلان، ويوصى الطابعين بأن يكتبوا اسمه بحروف صغيرة ضئيلة. . . وليس هذا كله بمغن عنه شيئاً، فليس الزهو بنافعه، ولا التواضع بمانعه.

وبالرغم من أن حاله باعثة حقاً على الرثاء، مثيرة حقاً للدموع والبكاء،؛ فأنا قلما نجد له بين الورى منصفاً. كأنما أجمع الناس على ظلمه واضطهاده. وما كفاه السهر الطويل المضني، والانكباب على البحث والتنقيب عن الألفاظ والعبارات، وإجهاده الفكر في فهم ما لا يفهم. وإنقاذ ما لا يمكن إنقاذه؛ حتى إذا ما أتيح له بعد لأي وعناء، وأن يخرج مترجمه إلى عالم الكتب، جعل يتقدم به إلى القراء، في حياء وتردد؛ كأنما ارتكب وزراً يريد أن يعتذر منه؛ ويسبق الناقدين إلى النقد فيقول لكل من يراه - بل ولكثير ممن لا يراه - إن الترجمة تشويه على كل حال!. . وهو يريد بهذا أن يستل سخيمة الناقدين، وأن ينتزع حمة العقرب أو على الأقل يهدئ من ثورتها. وشأنه في ذلك كشأن الطبيب الذي يطعمنا للجدري، فيعطينا المرض في شكل صغير لكي يدرأ عنا الخطر الكبير. .

لكن هذه الحيلة لا تجديه نفعاً؛ وهذا الاعتراف ليس بمنجيه من العذاب. فلا يلبث الناقدون أن يتناولوا المترجم بالتأنيب والتجريح، وترجمته بالتنكيل والتعذيب؛ ويمطرونه النقد المرير أينما ذهب، وحيثما نزل؛ في مجالس الأدب وفي غير مجالس الأدب؛ وفي الصحف السيارة وغير السيارة؛ ومن النقد ما يلقى إليه مشافهة، ومنه ما يلقى إليه كتابة.

هذا يتهمه بعدم الأمانة لأنه تصرف في اللفظ من أجل الحرص على المعنى: فالويل له كيف يتصرف في اللفظ وهو أثمن شيء في الوجود! والآخر ينعته بالجمود وبالتمسك بالحرف وبالحرص على اللفظ، حتى جاءت ترجمته في حاجة إلى ترجمة: لا هي عربية فتفهم، ولا أعجمية فتتفهم. ويقول الثالث: أجل وإن المترجم لذو شخصية ضعيفة ضئيلة، حتى لقد غمرته شخصية المؤلف وطغت عليه ومحته محواً تاماً. فقارئ الترجمة لا يجد فيها سوى روح المؤلف، أما المترجم فلا روح له! ويقول رابعهم مداعباً: إن هذه الترجمة والأصل كالزنجية الشوهاء وخيالها في الزفت! ويقول الخامس: ما كان أغنى قراء العربية عن ترجمة مثل هذا الكتاب، فياله من مجهود ضائع! ويقول السادس وهو يتكلف الظرف: إن هذه الترجمة لكتاب (هملت) من الإبداع بحيث يجب أن تترجم مرة أخرى إلى الإنكليزية! ليرى شكسبير كيف يجب أن يكتب (هملت)!

ثم من بعد هذا كله فما هو في نظر الجميع سوى مترجم! رجل أعوزته المقدرة على الابتكار، فانصرف إلى النقل! فهل يكون لمثل هذا في عالم الأدب أو العلم مكان؟ وأين هو من زيد وعمرو وبكر الذين ألفوا وصنفوا مجلدات فتحت في العلم أبواباً وطرقاً وشوارع؟ حتى إن منهم لمن يبيع لتلاميذه الملزمة الواحدة بعدة دراهم!

ينصت المترجم المسكين لكل هذا وهو مطرق الرأس مغمض الطرف، وقد أخذ الندم يأكل قلبه وكبده ورئتيه. وهو على هذا يعلم أنه ليس شراً من أولئك المؤلفين، وأنه لو شاء أن يسلك السبيل التي سار فيها زيد أو بكر لما كان من الصعب عليه أن يجمع الفصول من بعض الأسفار؛ ثم يسئ وضعها وترتيبها، ويعرضها على أنها من مؤلفاته القيمة، ومن بنات أفكاره ودلائل إعجازه. ولكنه آثر أن يسلك سبيلاً غير ذي عوج، وأن يعمل في وضح النهار. في زمان ساد فيه الالتواء والظلماء.

لا شك أن المترجم المسكين مهيض الجناح، مهضوم الحق، وقد بلغ من هوان أمره على بعض الناشرين أنهم ربما نشروا الكتاب، ولم يعنوا حتى بذكر اسم المترجم!

ومع ذلك فلقد يلقى المترجم من حين إلى حين منصفاً يكون بمثابة جزيرة من الأمل وسط هذا البحر الفسيح من القنوط! ومن أحسن ما يذكر في إنصاف المترجم ما قاله الأستاذ طه حسين في مقدمة الترجمة العربية لكتاب هرمن ودروتيه. وقد جاء في كلامه العبارة الآتية:

(إن الذين يترجمون آيات الأدب والفن والفلسفة ينسون أنفسهم، ويمحون شخصياتهم، ويقنعون بمكان المترجم، الذي ليس هو بالقارئ المستريح، ولا المنتج النابغة، لكنه صلة بين الرجلين: لا حظ له من راحة الأول، ولا حظ له من مجد الثاني، وإنما هو خادم مخلص أمين؛ يرفع القارئ إلى حيث يذوق جمال الفن وجلاله، وحين يشق لآثار النابهين من الأدباء والفلاسفة طرقاً جديدة. . . هذه منزلة المترجم يراها الناس يسيرة، وأراها عظيمة جليلة الخطر. وحسبك أنها هي التي تحقق الصلة القوية بين الأجيال والشعوب. فتزيل ما بينهم من الفروق وتدني بعضهم إلى بعض).

هكذا أنصف الأستاذ طه حسين المترجم؛ وردّ إليه شيئاً من حقه المضيع. ويحق للمترجمين أن يغتبطوا بأن قد صدر لصالحهم في هذا الأسبوع حكم آخر من ناحية لم يكونوا يتوقعون منها كل هذا العطف. وألذ النعماء ما جاءك من حيث لا تحتسب. ذلك أن القضاء المصري قد قضى في هذا الأسبوع - ولا راد لما قضى - بحكم لعله أكبر غنم يستطيع المترجم أن يظفر به. وهانحن أولاء نثبت هذا الحكم هاهنا بنصه وفصه:

(إن ما يلاقيه المترجم من صعوبة وعناء النقل من لغة إلى لغة، وإصلاح في عباراتها يستلزم كداً وعلماً معاً؛ حتى لقد يفضل المترجم أن يكون صاحب تأليف، أو أن يصرف وقته في التأليف بدل أن يصرفه في الترجمة والنقل، لأنه في التأليف مطلق، ما يريد من المعاني، ويضيف ما يريد من الألفاظ، ويقدم ويؤخر، ويحذف ويثبت على حسب ما يرى. أما في الترجمة فنجده مقيداً بما ينقل من نظام وترتيب، واثبات وتقييد. ولابد له من أن يدرك المعنى إدراكاً واضحاً، يلبسه زيه من الألفاظ والجمل في اللغة التي ينقل إليها، كما يكون أميناً في نقله، صادقاً في ترجمته. ولا يكون أهلاً لذلك إلا إذا ملك ناصية اللغتين، وعرف فيهما الشارد والوارد، وأدرك دقائق كل منهما: من معان خفية، وأسرار في التراكيب. وأن تكون نفسه قد مرنت على هذه الصناعة، ووقف على أسرارها، واتخذ له طريقة واضحة فيها. وإن كثيراً ما تزل أقلام المترجم الأمين، الذي يريد أن ينقل من قلب الشاعر كما يقولون، فناهيك بما يلاقي من تعب وكد في معرفة غرض الكاتب، فيلتجئ إلى معاجم اللغة؛ يقلب صفحاتها ويرجع إلى عبارات كبار الكتاب وأساليبهم، لعله يصل إلى معرفة مثل هذا التعبير، أو ما يقرب منه، أو يعثر على شرح له في كتب الأدب. ولقد يقطع المترجم أياماً في البحث عن كلمة واحدة!. . وإنَّ هناك في الترجمة عقبات منشؤها .

خفاء المعنى، أو غرابة اللفظ، تظهر في بلاغة الكاتب. وتمكنه من امتلاك نواصي الأساليب، بعبارة يسهل إدراك معناها، ولكن يصعب على المترجم نقلها ووضعها في قالب آخر. . .)

ذلك هو الحكم القاطع الذي صدر في إحدى القضايا منذ بضعة أيام، وإن صدوره هو الذي حملنا على كتابة هذا المقال! ولعل مثل هذا الحكم هو أعظم حادث في عالم الأدب - على الأقل في عامنا هذا - فليغتبط المترجمون، فإن لهم من هذا الحكم سيفاً بتاراً يقطعون به رأس الجحود والنكران. وليحذر الذين يضعون من مرتبة المترجم بعد اليوم - فليس حكم القضاء بالشيء الذي يجوز معه العبث أو المراوغة؛ فليبادروا بالتوبة وبالتكفير عن سيئاتهم الأولى، ويعترفوا صاغرين بما للمترجم من المنزلة العالية والمقام الرفيع.

وأنتم معشر المترجمين، هلموا اليوم فشمروا عن ساعد الترجمة وأقبلوا عليها إقبال من يعرف مالها من جليل الخطر، وما عليكم من رسالة تؤدونها في أمانة وإخلاص جديرين بذلكم الحكم الباهر. .

محمد عوض محمد

سبيل الخلاص من الامتيازات الأجنبية

للدكتور عبد الرزاق أحمد السنهوري

أستاذ القانون المدني بكلية الحقوق

تتمة البحث

الخطوة الثالثة

تتصل الحكومة المصرية في هذه الخطوة بالحكومة الإنجليزية لتتفاهم معها على الأسس الآتية:

(أولاً) تنفيذ إلغاء المحاكم المختلطة بعد انقضاء السنة من نشر المرسوم

(ثانياً) إعلان من جانب الحكومة المصرية وحدها بإلغاء الامتيازات

(ثالثاً) إحلال نظم جديدة محل النظم التي تغلى، وتصدر هذه النظم بتشريعات مصرية داخلية لا بمعاهدات دولية

(رابعاً) إعلان من جانب الحكومة الإنجليزية، باعتبارها دولة من الدول ذوات الامتيازات، وباعتبارها حليفة مصر إذا كانت المحالفة قد عقدت بين البلدين، بتأييد الحكومة المصرية فيما اتخذته من التدابير.

ولا شك في أن الدول ذوات الامتيازات، إذا حسبت حساباً لاحتمال تفاهم مصر مع

إنجلترا على هذه الأسس، تكون أسلس قياداً في مفاوضاتها مع الحكومة المصرية أثناء الخطوة الثانية، وقد يؤدي ذلك إلى نجاح المفاوضات.

أما إذا لم تنجح، وكان لابد من اتخاذ الخطوة الثالثة، فان النظم الجديدة التي تحل محل النظم الحالية تكون بوجه عام هي النظم التي اقترحت مصر على الدول إدخالها بموجب معاهدة في الخطوة الثانية مع الفروق الآتية:

(أولاً) تقام هذه النظم الجديدة بمقتضى تشريعات مصرية داخلية، وبعد تبادل مذكرات مع الحكومة الإنجليزية في مسائل معينة.

(ثانياً) فيما يتعلق بالتشريع: تعلن مصر الدول أن كل تشريع مصري، مالي أو غير مالي، يسري على الأجانب سريانه على المصريين، وأن السلطات المصرية من هيئات قضائية وإدارية، ستقوم كل في دائرة اختصاصها بتطبيق وتنفيذ التشريعات المصرية على الأجانب كما تطبقها وتنفذها على المصريين. وتعلن الحكومة المصرية في الوقت ذاته أنها لا تنوي سن تشريعات تتنافى مع المبادئ العامة التي يقرها العالم المتمدين في التشريع، وأنها تقبل رفع الأمر إلى محكمة لاهاي في كل تشريع تنفذه على أجنبي كان متمتعاً بالامتيازات إذا أنكرت دولته أن هذا التشريع لا يتنافى مع المبادئ المذكورة وطلبت رفع الأمر إلى هذه المحكمة.

(ثالثاً) فيما يتعلق بالقضاء: تستصدر الحكومة المصرية تشريعات داخلية لإقامة محاكم يكون اختصاصها هو نفس الاختصاص الذي جعلناه للمحاكم الجديدة فيما تقدم. أما تشكيلها فيراعى فيه أن يكون ثلثا القضاة من المصريين، والثلث الباقي من الإنجليز، وأن يكون رئيس كل محكمة مصرياً والوكيل إنجليزياً، وأن يكون رئيس كل دائرة مصرياً، ولغة التقاضي هي العربية، عدا الدائرة التي يجلس فيها الوكيل فإنه يرأسها وتكون لغتها هي الفرنسية، وتحال إليها القضايا التي يكون فيها الخصوم جميعهم من الأجانب. وتتبادل الحكومتان المصرية والإنجليزية مذكرات بهذا المعنى، لا يكون من شأنها أن تغل يد الحكومة المصرية عن تعديل أو إلغاء التشريعات الصادرة بإنشاء هذه المحاكم متى رأت ضرورة لذلك.

ونحن نؤثر هذا الحل على حل آخر يقضي بجعل المحاكم الأهلية هي المختصة بقضايا الأجانب، لأن ذلك يقتضي أن يدخل قضاة من الإنجليز في المحاكم الأهلية، ونحن لم نصل إلى تمصير هذه المحاكم تمصيراً تاماً، وجعلها مقصورة على القضاة المصريين إلا بعد جهد وعناء، فالأولى إذن إبقاء العنصر الأجنبي بعيداً عن المحاكم الأهلية حتى تسلم لها مصريتها الكاملة. ونقيم لقضايا الأجانب محاكم أخرى يدخل فيها العنصر الأجنبي. ولا يغيب عن البال أن هذه المحاكم الأخرى رهن بمشيئة مصر، فهي قد أنشئت بتشريع مصري يمكن تعديله أو إلغاؤه في الظرف المناسب.

(رابعاً) فيما يتعلق بالإدارة: تستصدر الحكومة المصرية تشريعاً داخلياً كذلك بما كانت تنوي الاتفاق عليه مع الدول بمعاهدة، ويكون العنصر الأجنبي في رجال الضبطية القضائية من الإنجليز والنائب العام إنجليزياً. وتتبادل الحكومة المصرية مع الحكومة الإنجليزية مذكرات بهذا المعنى، مع احتفاظ الحكومة المصرية بحقها في تعديل هذا التشريع أو إلغائه إذا دعت الحال لذلك.

هذه هي الخطوة الثالثة. وبديهي أنه لا يقدر لها نجاح إلا إذا وصلت مصر إلى الاتفاق مع إنجلترا على الأسس المتقدمة. فإذا ما وصلت إلى هذا الاتفاق استطاعت أن تواجه الدول ذوات الامتيازات بالأمر الواقع، وإنجلترا من ورائها تؤيدها في ذلك ولا تستطيع هذه الدول أن تقوم بأكثر من احتجاج ليست له قيمة عملية، ولا تملك إلا أن تأسف على الفرصة التي ضاعت منها برفضها الاتفاق مع مصر عندما فاوضتها الحكومة المصرية.

وقد يقال: ولكن مالنا لا نجعل هذه الخطوة الثالثة هي الثانية، فلا نحاول الاتفاق مع الدول، ونتفاهم مع إنجلترا رأساً على الأسس المتقدمة فنكسب بذلك أن تكون النظم الجديدة قد أقيمت على تشريع مصري داخلي بدلا من معاهدة دولية، ويكون القضاة المصريون أوفر عدداً وأقوى نفوذاً؟ قد يكون هذا صحيحاً من الناحية النظرية، أما من الناحية العملية فيظهر لنا أن موقف الحكومة المصرية في اتخاذ الخطوة الثالثة يكون أشد قوة أمام الرأي العام الدولي إذ لم تخط هذه الخطوة إلا بعد إخفاقها في الخطوة

الثانية وفشلها في الوصول إلى اتفاق عادل مع الدول. ثم إن إنجلترا تكون أقوى حجة في تأييد مصر، بعد أن تكون هذه قد أعذرت إلى الدول وأقامت الدليل على تعنتها. هذا إلى أنه قد يكون خيراً لمصر أن تعقد معاهدة مع الدول لتعديل نظام الامتيازات من أن تلجأ إلى التفاهم مع إنجلترا ولها مركز خاص في مصر كما لا يخفى. على أنه إذا أظهرت إنجلترا استعداداً للتفاهم معنا على الأسس المتقدمة دون أن يسبق ذلك مفاوضات مع الدول، فلا بأس علينا من السير في هذا الطريق، بشرط ألا يكون هذا التفاهم من شأنه أن يثبت لإنجلترا حقاً في حماية المصالح الأجنبية في مصر والتدخل في شؤوننا الداخلية تحت هذا الستار.

أما إذا لم نوفق في هذه الخطوة إلى التفاهم مع إنجلترا على ما قدمناه من الأسس، ووقفت هذه الدولة إلى جانب الدول ذوات الامتيازات فلا يبقى إلا أن نخطو الخطوة الرابعة، وهي الخطوة الأخيرة.

الخطوة الرابعة

في هذه الخطوة يجب أن نعتمد على أنفسنا: على قوة الرأي العام وعلى الحيوية الكامنة في الأمة. فإنه لا يوجد شعب يريد الحياة عزيزة ويذل. ونحن قد تلطفنا في المسلك وتدرجنا في السير ولم نخط خطوة إلا بعد أن ألجأتنا إليها الضرورة الملحة. فليس أمامنا بعد ذلك إلا إحدى سبيلين:

إما أن نعلن إلغاء الامتيازات الأجنبية بعد إلغاء المحاكم المختلطة، دون حاجة إلى التفاهم مع إنجلترا على ذلك. والقانون والعدالة في جانبنا، فأن هذه الامتيازات في أساسها التاريخي وفي تطبيقاتها الحالية جائرة لا تتفق مع أبسط مبادئ العدالة، وهي تصطدم مع مستلزمات السيادة الداخلية للدولة. وهي فوق ذلك يجب أن تسقط بانفصال مصر عن تركيا. وقد تخلصت منها بالفعل البلاد التي انفصلت عن الترك. ثم إنها مبنية على معاهدات بالية يجب أن تلغى طبقاً لمبدأ تغير الظروف، وهو مبدأ معروف في القانون الدولي أيدته المادة التاسعة عشرة من عهد عصبة الأمم.

هذا إلى أنه لا توجد دولة بليت بامتيازات كالتي بلينا بها إلا عمدت إلى إلغائها، رضيت الدول الممتازة أو لم ترض، وقد فعلت ذلك اليابان وتركيا وفارس والصين. فنحن الدولة الوحيدة المتمدينة التي ظلت فيها الامتيازات الأجنبية مترعرعة حتى الآن، ولسنا دون هذه الدول مرتبة في المدنية، ولا عذر لنا في الأحجام عن إلغائها إلا إذا كنا مقتنعين بأننا أضعف من هذه الدول عزيمة وأقل استحقاقاً للحياة. أما إذا صحت عزيمتنا على إلغاء الامتيازات أمكننا أن ندخل النظم التي أشرنا إليها بتشريعات داخلية دون اتفاق مع إنجلترا على ذلك، على أن يكون كل هذا موقتاً حتى يحين الوقت المناسب لإلغاء هذه التشريعات، وإرجاع الأمور إلى نصابها، وتوحيد المحاكم في البلاد.

وإذا ضعفنا عن هذا الموقف الحازم، فأمامنا سبيل أخرى: ننفذ إلغاء المحاكم المختلطة، وليس للدول علينا من سبيل في هذه الحالة إلا أن تطالب بإرجاع الامتيازات الأجنبية كما كانت قبل قيام هذه المحاكم أما في التشريع فنستمسك بحقنا في سريان التشريع المصري في المواد العقارية على الأجانب دون حاجة إلى موافقة الدول، بما في ذلك الضرائب العقارية. وأما في القضاء فتسترد المحاكم الأهلية لاختصاصها القضايا التي يكون المدعى عليه فيها مصرياً، وقضايا الأجانب غير المتمتعين بالامتيازات سواء أكانوا مدعين أم مدعى عليهم. ونحن، حتى إذا لم نضف إلى هذه القائمة جميع القضايا العقارية ولو كان الخصوم فيها أجانب متمتعين بالامتيازات، لا نكون قد استرددنا أقل من ثلاثة أرباع القضايا التي هي الآن من اختصاص المحاكم المختلطة. أما الربع الباقي فلا يهمنا منه إلا عدد قليل من القضايا يكون المدعي فيها مصرياً، فعليه أن يتحمل عناء مقاضاة الأجنبي في قنصليته. على أن عناء المصري لا يزيد على عناء الأجنبي إذا دخل هذا في خصومة مع أجنبي من جنسية أخرى فإن المدعي في هذه الحالة يقاضي المدعى عليه في قنصليته، وهذا يستتبع كثيراً من الفوضى يكون الأجنبي ضحية لها قبل المصري قد يعترض على هذا الحل وعلى الحل الذي قبله بأن الأجانب سيبقون في مركزهم متعنتين لا يقبلون أي اتفاق على تعديل النظم القائمة، وإذا اقتضى الأمر أن يسحبوا أموالهم من مصر فعلوا ذلك، فتصبح البلاد في فقر مدقع، وتقع في أزمة أشد خطراً

من أزمة الامتيازات الأجنبية. نحن نعتقد أن في هذا القول مبالغة كبيرة، فليس من اليسير على الأجانب أن يسحبوا أموالهم من بلد يستغلونها فيه على خير وجوه الاستغلال وأكثرها كسباً. ثم هم إذا فعلوا فلا يكون ذلك إلا تدرجاً، لأن من الأموال الأجنبية في مصر ما لا تمكن تصفيته إلا بعد مدة طويلة. أفلا يكون من الخير لمصر في هذه الحالة أن تنتهز هذه الفرصة التي سنحت فيحل أبناؤها شيئاً فشيئاً محل الأجانب في الميادين المختلفة التي أخلاها هؤلاء، وتستبدل بالأموال الأجنبية أموالاً مصرية؟ على أن هذه المسألة يجب أن تنتقل من رجال القانون إلى رجال الاقتصاد، فيبحثوها بحثاً دقيقاً على أساس اقتصادي صحيح. أما نحن فنعتقد أن خطر سحب الأموال الأجنبية من مصر خطر موهوم ولا نقيم له وزنا.

ومن ذلك نرى أنه إذا عدمنا الوسائل وأعوزتنا الحيل، لجأنا إلى هذا الحل الأخير، فألغينا المحاكم المختلطة، ورجعنا إلى نظام الامتيازات القديم، وهذا خير من بقاء المحاكم المختلطة معقلاً للامتيازات الأجنبية، تنتقص من سيادة البلاد، وتمتهن من كرامتها، ونحن عاجزون عن دفع هذا البلاء عنا كما أثبتت ذلك الحوادث الأخيرة. ولقد كانت الامتيازات الأجنبية في عصر إسماعيل بيتاً متهدماً يتداعى للسقوط، فأراد إسماعيل ونوبار أن يهدما البيت بإنشاء (محاكم الإصلاح)، فإذا بهما يرممانه بجدر سميكة من هذه المحاكم، حتى بقى متماسكاً صلباً زهاء الستين عاما. وقد آن لأبناء هذا الجيل أن يدخلوا البيت حتى يثبتوا فيه

القدم المصرية، وإلا وجب عليهم أن يتركوه يتهدم.

عبد الرزاق السنهوري

مملكة في الصخر أو بلاجيوس

للأستاذ محمد عبد الله عنان

منذ ثلاثة أعوام، في منتصف أبريل سنة 1931، انهار صرح الملوكية الأسبانية، واختتم أقدم العروش الأوربية حياته الطويلة الحافلة، وطويت من التاريخ صفحة يشغل تاريخ العرب والإسلام منها حيزاً كبيراً. ذلك أن الملوكية الأسبانية التي شهدنا سقوطها بالأمس، هي نفس تلك الملوكية التي سحقها العرب يوم فتحوا الأندلس (92هـ - 711م)، والتي استأنفت بعد ذلك حياتها ضئيلة متواضعة في قاصية أسبانيا الشمالية وفيما وراء الصخر، ثم لبثت تنمو بطيئة ولكن ثابتة حتى رسخت دعائمها في هاتيك الهضاب؛ وبدأت بعد ذلك معركة الحياة والموت مع تلك المملكة الإسلامية التي قامت في أسبانيا على أنقاض مملكة القوط النصرانية. ولبثت مدى قرون طويلة تطاولها وتجاهدها، حتى آذنت دولة الإسلام في الأندلس بالاضمحلال؛ وما زالت المملكة النصرانية في نمو مستمر، والمملكة الإسلامية في ضعف مستمر، حتى غدا الإسلام محصوراً في مملكة غرناطة الصغيرة، ثم حلت المعركة النهائية؛ وظفرت الملوكية الأسبانية بتحقيق برنامجها القديم وغايتها الخالدة، فانتزعت غرناطة معقل الإسلام الأخير، وقضت على دولة الإسلام بالأندلس (897هـ - 1492م).

وقد نشأت الملوكية الأسبانية الذاهبة في ظروف كالأساطير، ونشأت في نفس الوقت الذي افتتح فيه العرب أسبانيا، وسحقوا دولة القوط القديمة. ففي موقعة شريش التي مزق فيها جيش القوط، وقتل آخر ملوكهم رودريك (لذريق) (92هـ)، فرت شراذم قليلة من الجيش المنهزم إلى الشمال، واختفت فيما وراء تلك الجبال الشمالية التي وقف عندها تيار الفتح الاسلامي، واجتمعت بالأخص في هضاب كانتابريا (نافار وبسكونية) في الشرق، وفي هضاب استوريس في الغرب؛ واجتمع فل النصارى في الهضاب الشرقية تحت لواء زعيم يدعى الدوق بتروس، واجتمع في الهضاب الغربية، في جليقية تحت لواء زعيم يدعى بلاجيوس أو بلايو. وكان بتروس ينتمي إلى أحد الأصول الملكية، وكان من قادة الجيش في عهد وتيزا ملك القوط، ثم في عهد خلفه ومغتصب ملكه رودريك. أما بلاجيوس أو بلايو فيحيط الغموض بأصله ونشأته، ولكن يبدو مما تنسبه إليه الرواية من ألوان الوطنية والبسالة والبطولة أنه كان رفيع المنبت والنشأة؛ وتقول بعض الروايات أنه ولد الزعيم

فافيلا الذي قتل الملك وتيزا في هضاب جليقية، وأنه كان لذلك من خاصة الملك رودريك وقادته. وتعرف الرواية الإسلامية بلاجيوس وتحدثنا عنه وتسمية (بلاي)، وتصفه أحياناً بأنه أمير أو ملك، وتنعته غالباً بأنه (علج من علوج النصارى)، وتتبع أخباره مع

المسلمين ولكنها لا تلقي ضياء كثيراً على أصله، أو أحوال مملكته الصغيرة. ذلك لأن المسلمين لم ينفذوا قط إلى ما وراء الهضاب الوعرة التي امتنع بها هذا الزعيم وفله، والتي نشأت فيها جذور المملكة النصرانية الشمالية التي غدت غير بعيد خطراً على دولة الإسلام في أسبانيا. ومن الغريب أن راوية نصرانيا كبيراً معاصراً هو (ايزيدور الباجي) وهو حبر عاصر الفتح الإسلامي وكتب روايته في منتصف القرن السابع ووصل في كتابتها حتى سنة 754م، لم يذكر لنا في روايته شيئاً عن قيام تلك المملكة النصرانية الصغيرة في الشمال، ولا عن زعيمها أو ملكها بلاجيوس، ولا عن غزوات المسلمين لها، مع أن ايزيدور يتتبع أخبار الغزوات الإسلامية كلها منذ الفتح حتى منتصف القرن الثامن، سواء في أسبانيا أو في مملكة الفرنج، ويقدم إلينا عنها كثيراً من التفاصيل والملاحظات الهامة. وقد يرجع ذلك إلى أن ايزيدور، وهو يقيم في الجنوب في مدينة باجة، كان يجهل قصة هذه المملكة النصرانية الشمالية الناشئة، ولكن ما نراه من عنايته بتدوين أخبار الغزوات الإسلامية في فرنسا، وأخبار مملكة أكوتين، يحملنا على الاعتقاد بأنه لم يكن يجهل أخبار مملكة جليقية النصرانية، وهي أقرب إليه من فرنسا، وأن أسباباً أخرى لعلها ترجع إلى انتماء أميرها بلاجيوس إلى حزب رودريك الذي كان يبغضه المؤرخ هي التي حملته على إغفال أخبارها.

وعلى أية حال فان الرواية الإسلامية تذكر لنا كيف نشأت المملكة النصرانية الأسبانية في الهضاب الشمالية بعد أن سحقت في موقعة شريش، فقد لجأت شراذم قليلة من القوط عقب الفتح إلى الجبال الشمالية، وامتنعت في مفاوز جبال استوريس كما قدمنا؛ وقامت إمارتان نصرانيتان صغيرتان في كانتابريا وجليقية. وكانت إمارة كانتابريا التي أسسها الدوق بتروس، لوقوعها في الطرف الغربي من جبال البرنيه (البرت) في سهول نافار وبسكونية عرضة لاقتحام الفاتحين حين سيرهم إلى فرنسا وحين عودهم منها. ولكن إمارة جليقية كانت تقع في أعماق جبال استوريس الوعرة، بعيداً عن غزوات الفاتحين، وسميت جليقية

لأنها قامت على حدود الولاية الرومانية القديمة التي كانت تسمى بهذا الاسم. ففي هذه الهضاب النائية المنيعة اجتمع بلاجيوس وصحبه، وعددهم لا يتجاوز بضع مئات حسبما تقول الرواية، ولجئوا إلى مغار عظيم يقع في آكام كافادونيا، وتحيط به وديان سحيقة خطرة، ويعرف في الرواية الإسلامية باسم (الصخرة). ويقول لنا ابن خلدون في الفصل الذي يخصصه (لملوك الجلالقة) إن هذه الإمارة الصغيرة التي كانت مهد المملكة النصرانية لا تمت بصلة إلى القوط، وأن ملوك الجلالقة ليسوا من القوط، لأن أمة القوط كانت قد بادت ودثرت لعهد الفتح الإسلامي، بيد انه يصعب علينا أن نقبل هذا الرأي على إطلاقه، فمن المحقق أن فلول النصارى التي لجأت إلى الشمال كانت مزيجاً من القوط والأسبان المحليين، ولكن الظاهر مما انتهى إلينا من أقوال الروايتين المسلمة والنصرانية أن الزعماء، ولا سيما بلاجيوس كانوا من القوط، وأن ملوك الجلالقة يمتون إلى القوط بأكبر الصلات.

ولم يعن المسلمون بادئ بدء بهذه الشراذم الممزقة، وكان إغفال أمرها من أعظم أخطاء الفاتحين، بيد أنه لما كثرت ثورات النصارى في الشمال، وبالأخص في بسكونية، (أو بلاد البشكنس) اهتم ولاة الأندلس بقمعها وتأمين الولايات الشمالية؛ وسير الحر ابن عبد الرحمن الثقفي وآلي الأندلس سنة 718م (98هـ) جيشاً إلى الشمال لإخضاع النصارى. فاجتاح المسلمون بلاد البشكنس وهضاب استوريس، وأوفدوا حليفهم الأسقف اوباس، وهو أخو الملك وتيزا، إلى بلاجيوس ليقنعه بالتسليم وعبث المقاومة، فأبى بلاجيوس، ونفذ المسلمون إلى أعماق الجبال، وحاولوا عبثاً أن يستولوا على مراكز العدو، وحالت بينهم وبينه الوديان السحيقة والآكام الرفيعة؛ وحصر بلاجيوس وأصحابه مدى حين، وقطعت عنهم المؤن، وتساقطوا تباعاً من الجوع حتى لم يبق منهم على قول الرواية سوى ثلاثين رجلاً وعشر نساء. وتزعم بعض الروايات النصرانية أن بلاجيوس كر على المسلمين، وأنهم هزموا هزيمة شنيعة وفقدوا ألوفاً كثيرة، ووقع أوباس أسيراً في أيدي مواطنيه فعاقبوه على خيانته بالموت.

ولما رأى المسلمون وعورة الهضاب وقسوة الطبيعة ارتدوا عن جليقية محتقرين شأن هذه الشرذمة الممزقة الجائعة؛ فقويت لذلك نفس بلاجيوس وأصحابه، وانضم إليه كثير من

النصارى في كانتابريا وسهول جليقية، واختاروه ملكاً عليهم لما رأوا من بسالته وبراعته وقوة عزمه؛ وألفى بلاجيوس الفرصة سانحة لتوطيد سلطانه وتوسيع أملاكه، فأخذ يغير على الأراضي الإسلامية الشمالية، وبدا لحكومة الأندلس خطر هذه العصابات الجبلية التي أخذت تنظم إلى قوة يخشى بأسها؛ ولكن اضطراب الشئون الداخلية حال مدى حين دون مطاردتها وغزوها.

وفي سنة 112هـ (730م)، في عهد أمير الأندلس الهيثم ابن عبيد، بعث حاكم ولاية البرنيه، عثمان بن أبي نسعة الذي تعرفه الرواية النصرانية باسم منوزا أو منوز، جيشاً إلى جبال استوريس لغزو جليقية وسحق أميرها بلاجيوس؛ ولكن بلاجيوس استطاع أن يصمد للمسلمين كرة أخرى وأن يهزمهم هزيمة شنيعة. ولما رأى بلاجيوس منعة معقله وقوة عصبته، اخترق بسكونية، وهاجم قوات ابن أبي نسعة في الوقت الذي كان يتأهب فيه للسيراليه، ومزق بعض وحداتها، ثم ارتد إلى هضابه فاستعصم بها. ولما اضطربت شئون الأندلس بعد مقتل أميرها عبد الرحمن الغافقي وارتداد جيشه في بلاط الشهداء (114هـ - 732م)، وشغل الولاة برد جيوش الفرنج عن الأراضي الإسلامية في سبتمانيا، كثرت غارات العصابات الجليقية على الأراضي الإسلامية في شمال نهر دورو (دويره) وفي منطقة استرقة، وعانى المسلمون في تلك الأنحاء كثيراً من عيث النصارى؛ ولم تسعفهم حكومة قرطبة بالمدد والعون، لاضطرام الأندلس بالفتن ونشوب الحرب الأهلية بين مختلف الزعماء والقبائل. وكانت سلطة الحكومة المركزية ضعيفة في تلك الأنحاء النائية، وكان سكانها ومعظمهم من البربر يكثرون من الخروج والثورة سخطاً على العرب واستئثارهم بالحكم والسيادة. وكان النصارى من رعايا حكومة قرطبة يدسون الدسائس ويرتكبون شتى الخيانات، ويشجعون بذلك بلاجيوس وعصاباته على الإغارة والعيث في أراضي المسلمين؛ وكانت الإمارة النصرانية الناشئة تنمو خلال ذلك ويشتد ساعدها، ويهرع النصارى إلى لواء بلاجيوس من مختلف الأنحاء.

واستمر بلاجيوس في حكم إمارة جليقية زهاء تسعة عشر عاماً، وتوفى سنة 737م. ولكن بعض الروايات النصرانية تضع تاريخ وفاته بعد ذلك، فتقول إنه لبث حتى ولاية عبد الرحمن بن يوسف الفهري للأندلس (127 - 138هـ) (745 - 755م)، وإن الموقعة

التي نشبت بين عثمان بن أبي نسعة وبلاجيوس كانت بين سنتي 746 و751، وهي رواية ظاهرة الضعف. لأن عثمان ابن أبي نسعة قتل سنة 114هـ (732م)، والرواية الإسلامية واضحة دقيقة في ترتيب الوقائع والتواريخ في هذا الموطن. وخلف بلاجيوس ولده فافيلا، ولكنه توفى بعد حكم لم يطل أمده سوى عامين (سنة 739م). وكان الدوق بتروس أمير كانتابريا قد توفى في ذلك الحين أيضاً، وخلفه ولده الفونسو دوق كانتابريا، ونمت هذه الإمارة النصرانية الصغيرة أيضاً واشتد ساعدها، وقويت أواصر التحالف بينها وبين جليقية بتزوج أميرها الفونسو من ابنة بلاجيوس واسمها اورموزنده أو هرمزنده؛ فلما توفى فافيلا ولد بلاجيوس، اختار الجلالقة الفونسو دوق كانتابريا ملكاً عليهم، واتحدت الأمارتان، وقامت منهما مملكة نصرانية واحدة، هي مملكة ليون النصرانية أو مملكة جليقية في الرواية الإسلامية، تمتد من بلاد البشكنس شرقاً إلى شاطئ المحيط غرباً، ومن خليج بسكونية شمالا إلى نهر دويرة جنوبا، وتشمل مناطق شاسعة من القفر والهضاب الوعرة، وتحتجب وراء الجبال بعيدة عن سلطان المسلمين وغزواتهم.

ويعتبر الفونسو دوق كانتابريا، أو الفونسو الأول (الكاثوليكي) مؤسس المملكة النصرانية الشمالية، واصل ذلك الثبت الحافل من ملوك قشتالة الذين لبثوا قروناً يدفعون حدودهم إلى الجنوب في قلب المملكة الإسلامية، ثم انتهوا بافتتاحها والاستيلاء على غرناطة آخر معاقلها (1492م)؛ وحكم الفونسو في ظروف حسنة، فقد كانت الحرب الأهلية تمزق الأندلس، وكان أمر الولايات الشمالية فوضى، والضعف يسود المسلمين في تلك الأنحاء. وكان ثمة منطقة عظيمة من القفر والخراب تفصل بين جليقية وبين الأراضي الاسلامية، فاجتاحها الفونسو بجموعه وقتل من بها من المسلمين القلائل، ودفع النصارى إلى الشمال. ولما حصل القحط بالأندلس (سنة 133هـ - 750م)، واشتد عصفه بالولايات الشمالية الغربية، جلا كثير من المسلمين

عن تلك الأنحاء، واشتد ساعد النصارى فيها، ورفعوا لواء الثورة، وفتكوا بالمسلمين، ونادوا بالفونسو ملكاً عليهم؛ وانتهز الفونسو هذه الفرصة فغزا استرقة واستولى عليها من يد المسلمين واستولى على كثير من البلاد والضياع المجاورة وضمها لأملاكه (136هـ - 753م). وهكذا نمت تلك المملكة النصرانية التي نشأت في ظروف كالأساطير، واتسعت حدودها، واشتد بأسها بسرعة مدهشة، ولم يأت منتصف القرن الثامن حتى بدأت تناهض الإسلام في الأندلس وتغالبه؛ ولم يأت عهد الناصر لدين الله حتى كان وجودها خطراً على الدولة الإسلامية ذاتها؛ وحتى بدأت بين الإسلام والنصرانية في الأندلس معركة الحياة والموت. وسطع الإسلام في الأندلس واستعاد منعته وبهاءه مدى حين، أيام الناصر لدين الله، ثم في أيام الحاجب المنصور؛ واضطرمت فورة الإسلام أيام المرابطين، ثم الموحدين؛ ولكنها كانت جميعاً فورات مؤقتة، وكانت أسباب الانحلال التي سرت إلى الدولة الإسلامية تعمل عملها ببطء؛ ثم سطعت دولة الإسلام في مملكة غرناطة الصغيرة مدى حين، ولكن المعركة لم تكن متكافئة بعد، وكانت مملكة قشتالة النصرانية تسير ثابتة مطمئنة إلى تحقيق بغيتها الخالدة: استعادة الوطن القديم كله من يد الفاتحين.

محمد عبد الله عنان المحامي

الحياة بعد الموت

ما هو الموت؟

رأي السير اوليفر لودج

حديث الحياة بعد الموت ألذ الأحاديث، ولا سيما إذا أنبأك به خبير يبني ما يقول على أساس علمي. ومن هؤلاء الخبيرين السير أوليفر لودج العالم الطبيعي الإنجليزي. وليس المراد بالطبيعي هنا ما يفهم عادة من هذه اللفظة، أي العالم الدهري المادي الذي ينسب إلى الطبيعة الجامدة ما ليس لها ويحلها محلاً أرفع من العقل، والذي شعاره وشعار طغمته (نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر) بل المراد بالطبيعي في هذا المقال العالم الذي تفرغ لدرس نواميس الطبيعة وكشف النقاب عن أسرارها وحل ألغازها بانياً ذلك كله على البرهان العلمي

رأيت للسير أوليفر لودج مقالاً في مجلة إنجليزية عنوانه (ما هو الموت). وسأحاول تلخيصه بهذا المقال تاركاً للقراء الحكم فيه وما يستسيغون منه

مهد لموضوعه بمقدمة وجيزة عن كون الموت موضوعاً يدخل الغم على النفوس لأنه سفر مجهول وفرقة لا لقاء بعدها على هذه الأرض. ثم قال ما خلاصته.

إذا شئنا أن نفهم ماهية الموت وجب أولاً أن نعرف ما هي الحياة. وتعريف الحياة ليس بالأمر السهل. فإننا نعرف شيئاً عنها - نعرف أنها ليست صورة من صور الطاقة بل أنها مبدأ للهداية والإرشاد. وتستخدم لذلك الطاقة والمادة ولا يلوح أنها شيء طبيعي البتة نحن نعيش في قرن من الطاقة المنبثقة من نور الشمس، ولنا قدرة على توجيهها وإدارتها. والدليل على أن الحياة ليست طاقة هو أن في وسع البذرة مثلاً أن تخرج أجيالاً لا يحصى عددها

والحياة تحدث أشياء لا يمكن أن تحدث بغيرها من الصدفة البحرية إلى الكنيسة الكاتدرائية. وذلك بتداخلها هي والمادة، وهذا التداخل أوجب تجهيزها بجسم مادي وماذا نعني بالجسم؟ نعني به طريقة للظهور أو أداة. فقد يكون للموسيقار موسيقى في روحه، ولكنه يحتاج إلى آلة لإظهارها. فالجسم للنفس كالقيثارة للموسيقار نحن بنينا الجسم طبقاً لأعمال طبيعية وبلا علم منا، وصففنا دقائق الطعام على شكل خاص. ولا ريب أن للشكل معنى

والعنصر الطبيعي والعنصر العقلي متفاعلان. فهل يحتمل أن العنصر العقلي الذي يدبر ويريد ويرجو ويرسم الخطط ويحب، محصور في طريقة ظهوره وعمله وحركته، ومقصور على مركب كيميائي معين، وخصوصاً المركب المعروف باسم البيومن (المادة الزلالية التي توجد فيها نطفة الحياة أو البروتوبلازم). فكرة على غاية من السخافة

إننا نعرف العنصر العقلي على هذه الصورة المعينة، ولكن قد تكون له صور وأشكال لا عداد لها ونجهلها الآن

ونحن مجهزون بآلة نسميها الجسم، وهذا الجسم مصنوع الآن من المادة. ومن السهل

تصور صنعة من أشياء أخرى
ولكن هذه العلاقة علاقة المادة بالعنصر العقلي أو النفسي الذي يتسلطن عليها ويستخدمها يمكن فصلها وإنهاؤها، وهذا الفصل والإنهاء هو الموت، فالموت إذاً هو افتراق النفس عن الجسد، ولكنه ليس فناء واضمحلالاً، بل فرقة وخروجاً عن (علمنا الحاضر)
ويقول البيولوجيون الذين درسوا هذه المسألة إن الموت ليس أمراً لازماً للجسم كله، بل إن الخلايا الأخيرة خلايا التناسل لا تموت. والحيوينات الدنيا ذات الخلية الواحدة خالدة. فقد تقتل ولكنها لا تموت بل تنقسم قسمين وأكثر، وتبقى تتقسم وتستمر حية.
أما الأحياء العليا مثلنا ففيها خلايا أخرى غير الخلايا الخالدة، وهذه الخلايا هي التي تموت. ولما كانت تزيد كثيراً على الخلايا الخالدة، فأنها تزول بالتفاعل الكيميائي الحادث في الجسم بعد انفصال الروح عنه، وبذلك يزول الجسم أي أنه يتحول على طول المدى. وقد عرف الشعراء ذلك فقال شكسبير:
أضجعت هنا في الأرض، ولتنبت أزهار البنفسج الربيعية من لحمها الجميل غير (الفاسد)
(وقال تنيسن: وليصنع من رماده بنفسج بلاده
لكن الميت ليس هنالك، بل هو ذلك الذي مر في الجسم ورحل. فلا نخش لفظة الموت. ولا فائدة من القول أن لا موت. بل الموت موجود والمسألة مسألة تفسير وتأويل، فإذا قلت أن لا موت عنيت أن لا فناء. إذ الموتى لم يموتوا، بل لا يزالون أحياء عند ربهم يرزقون كما قال تنيسن، وليست حياتهم الثانية كالحياة الأولى ولكنها حقيقية مثلها
يخبرنا الذين رحلوا عنا (يشير إلى ابنه رايموند الذي قتل في الحرب وقال انه ناجاه وكتب مجلداً كبيراً عنه وعن مناجاة الأرواح) بأن لهم أجساماً غير عادية، لكنها محسوسة وجامدة مثل الأجسام الأولى بل أحسن منها.
ويقولون إنهم مسرورون، وانهم لا يحبون العودة إلى الأرض مهما أعطيتهم. وانهم حولنا وأكثر دخولاً وخروجاً معنا مما يخيل إلينا. وكل ما هناك انهم لا يقعون تحت حواسنا
الحياة متصلة غير منقطعة، والموت لا يغير أحوال هذا الكون لانه شيء داخلي يتعلق بالفرد، وليس الموت سوى تغيير في نظره إلى الكون وفي إدراكه لما فيه. فقد كان يدرك نظاماً معيناً فإذا مات أدرك نظاماً آخر. ونحن نسمى ما وراء القبر العالم الثاني أو الحالة المستقبلة، وأما الكون فواحد ولكن هناك حاجزاً. ونحن نعرف الآن ونُعرف على جانب من هذا الحاجز، فإذا متنا عرفنا الجانب الآخر وعُرفنا فيه. وربما عُرفنا ما هناك وعرفنا بجلاء لا يقل عما نعرف ونُعرف هنا
إن في الكون عالماً آخر بل قد تكون هناك عوالم كثيرة غير التي قدرت لنا معرفتها، وليس عالم حواسنا سوى جزء صغير من ذلك الفلك المدار
وقد تسألني: وكيف عرفت أن أولئك الراحلين لا يزالون باقين. فأجيبك بأني لا أرتاب في ذلك لأني أتصل بهم كثيراً. وأنت لا تستطيع أن تشك في وجود الذين تخاطبهم بالتليفون أو اللاسلكي. وليست الحياة شيئاً يفنى ولكنها تظهر بمظاهر شتى، وهذه الحياة الدنيا هي أحد تلك المظاهر
وسنلبس في العالم الآخر أجساداً ونتخذ أشكالاً يمكننا التعارف بها. وإذا نظرنا إلى المسألة بعين العلم الباردة (أي الخالية من العواطف) وجدنا أن هناك حقائق كثيرة تؤيد البقاء بعد الموت، وأنا مقتنع بها بالبرهان التدريجي. ولست أنتظر أن يؤمن كل أحد على قولي هذا، ولكنني أؤكد تأكيداً علمياً أن الحياة شيء دائم، وأنها والمادة تتداخلان زمناً وتتفاعلان، ثم تطلق المادة إلى محيط آخر وبيئة أخرى
وتسألني هل الحياة القادمة أكثر سعادة من الحياة الحاضرة؟ فأجيبك بأن ذلك يتوقف على ما نصنع هنا، وعلى انتهازنا للفرص التي تعرض لنا في هذه الحياة.
ولقد تعودنا المظهر المادي هنا حتى بات يصعب علينا تصور مظهر آخر، بل أن بعضنا لا يستطيعون أن يتصوروه. أما أنا فأستسهل هذا التصور، لأننا في علم الطبيعة نبحث في أشياء كثيرة لا تقع تحت الحس، ولكنها مع ذلك حقيقة كالتي نشعر بها بحواسنا، بل ربما كانت أقرب إلى الحقيقة منها. فإننا جعلنا نحلل المادة وندرس طبيعتها حتى ليصح

القول أننا مع كثرة تحليلنا لها نكاد لا نعرف شيئاً عنها
ولو أمكننا أن نرى المادة المحيطة بنا، يعني العلم، لم تظهر لنا كما تظهر عادة - أي جامدة ومحسوسة بل تظهر مثل المجرة كثيرة الثقوب والمسافات الشاسعة بين أجزائها. ففي داخل الذرة أماكن خالية. والدقائق قليلة متباعدة كالسيارات في النظام الشمسي
إنما الحياة في هذه الدنيا تجربة كبيرة، ونحن موجودون هنا لنجرب ونمتحن. ومصائر الوجود في الأبد وفي عين الخالق مفتوحة أمامنا، وهي أبعد مما نستطيع تصوره. وليس الوجود الحاضر على هذا السيار، سوى قصة قصيرة، ومخاطرة وقتية، وسفر زائل، يتبعها ذلك السفر السامي الطويل
فلا تخف لأن الخوف قطعة من العذاب (والمحبة الكاملة تزيل خوفنا) وهذا الكون تحكمه المحبة الكاملة. وهذه هي رسالتي. فلنغن مع المرنم صاحب الزبور (سبحي الرب أيتها السموات واسجدي له)
(ق. س)
صورة من الثورة الفرنسية
مدام رولان 1754 - 1793
بقلم عبد الرحمن فهمي ليسانسيه في الآداب
مدام رولان، أنقى شخصيات الثورة الفرنسية، لا تزال تدوي كلماتها الأخيرة وهي تصعد درجات المقصلة في كافة الأرجاء.
وهي مانون ابنة مثال باريسي يدعى فيلبون، وكانت غرفتها ملاصقة (لاستيديو) النحت، تقضي فيها وقتها منهمكة في قراءة تراجم أبطال التاريخ. أبكاها يوماً أنها لم تكن رومانية أو اسبرطية، وقد جهلت أنها سوف تواجه أزمة لم يواجه مثلها أحد ممن كانت تحلم أن تكون مثلهم من أبطال التاريخ.
وكان يسرها كثيراً فوق قراءة الكتب اصطحاب أمها لها إلى حديقة النبات أو اللكسمبورج في باريس، عشقت القرية، ويدل على ذلك قولها (إنني أحب هذا السكون الذي لا يعكر صفوه غير صياح الديكة، وأشعر بالراحة التي تشعر بها شجرة ينقلونها من صندوق ضيق محدود إلى حقل واسع فسيح) وأحبت الرسم الذي يأخذك منه سحره وقوته. غير أنها لم تواصل عمل أبيها في النحت طويلا، لأنها مالت إلى العلوم، فكانت تنمي بما تقرأه وتلحظه من تجارب الحياة عقلا ناضجاً خدمت به الصالح العام.
أدخلت وهي في الحادية عشرة من عمرها ديراً تعرفت فيه بصديقتين حميمتين توثقت بينهن عرى الصداقة وهما: هنريت وصوفي كانيت. وبعد أن خرجن من الدير ورجعن إلى دورهن بقى الاتصال بينهن وثيقا، وذلك ما حدا بجدة مانون إلى أن تقول لها (ستنسين صديقتيك حالما تتزوجين) وسنرى مقدار صحة هذه الملاحظة من جانب الجدة العجوز.
ورسائل مانون أحسن وسيلة نرى منها صورة واضحة لشباب هذه الفتاة، فقد تحول اهتماماً بالدين إلى تعشق الفلسفة، ساعدها على ذلك عقل جبار يغلي كالمرجل ولا يستريح. وقد انتقت من بين خطابها العديدين رجلاً توهمت أنها تميل إليه، وهو مؤلف فيلسوف يدعى لابلانشير، ولكن سرعان ما ألقت عن نفسها هذا الميل واطرحته جانباً، غير واجدة فيه مثلها الأعلى. وكانت جد كلفة بكتابات روسو، وقدر لها أن تراه، وقد وصفت درجات سلم داره (. . . كما لو كانت درجات سلم معبد).
من هذه الرسائل نرى في مانون فتاة متحمسة ذكية، حية نشطة، محبة للاطلاع، قوية الذاكرة، وقد أثرت وفاة أمها في حياتها فخبا نورها قليلاً بتأثير الصدمة والحاجة إلى المال بعد ذلك.
إلا أن القدر خط صفحة جديدة في حياتها، فأن شخصاً يكبرها بعشرين سنة تمكن من أن يكسب عطفها الدائم نحوه ومحبتها الثابتة له، وهذا الشخص هو السيد رولان المفتش العام للصناعات، وزفت إليه وهي في سن السادسة والعشرين، وانتقلت معه إلى ليون.
وكان لأسرة رولان نخبة طيبة من الأصدقاء المثقفين الوطنيين الذين غالبا ما كانت تراسلهم مدام رولان راغبة بذلك تحسس الطريق نحو المجتمع الباريسي الساطع،

فأن أسعد أوقاتها هي تلك التي كانت تقضها في غرفة الموقد بين ابنتها الصغيرة تعلمها حياكة قطعة من قماش وبين زوجها يدرس أوراقه على مكتبه، على حين تطرق أذنها فرقعة النار في الموقد وصوت الصقيع يصدم النافذة. وصفت في رسائلها حبها الشديد لتغيير فصول السنة واختلاف مواسم الزراعة في الحقول، ولم يعل على حبها لفترة تقضيها وسط الطبيعة الهادئة أي حب آخر

غير أن هذا السلام لم يدم طويلا، فإن الحكومة في فرنسا كانت سيئة في هذا الحين، والأرستقراطية المترفة فوق القانون، والفوضى ضاربة بجرانها على ربوع المملكة، أما الشعب الجائع فالويل له إن نبس أحد أفراده ببنت شفة ضد النظام القائم، وكانت تكفى إشارة بسيطة أو تلميحة سريعة لطرح المحتج في أعماق السجون. ورمت أسرة رولان وأصدقاؤها بأنفسهم في أحضان الحركة التي قصد بها إسقاط النظام الإقطاعي ومساوئه، وأصبحت مدام رولان: هذه المرأة الجميلة الملتهبة، روح حزب الجيروند الذي عمل على تشييد عهد الحرية على أساس معتدل

وبدأت الثورة الفرنسية عام 1789 وعهد إلى رجال حزب الجيروند عام 1792 بالحكم، ولكن اعتدالهم وإظهار استيائهم من مذبحة سبتمبر ورفضهم التصويت ضد إعدام الملك أتاح الفرصة لنجاح المتطرفين فقضوا على المعتدلين - منشأ الثورة ومنبعها - وصعدوا على أنقاضهم إلى منصة الحكم. وفي عام 1793 أعدم الملك ومعظم الجيرونديين وبدأ عهد الإرهاب برعاية اليعاقبة أكثر متطرفي الثورة شدة وعنفا.

عندما كانت السلطة في يد الجيرونديين عهد إلى السيد رولان بوزارة الداخلية، فكانت زوجته هي التي تحضر أوراقه الرسمية، وأصبحت بعد أن كانت تحرر إلى أصدقائها أمثال صوفي وهنريت تراسل البابا والملك برسائل يستعين بها المؤرخ الذي يكتب عن هذا الفصل من تاريخ فرنسا، ولو كانت مدام رولان رجلا أو لو سمح للمرأة في ذلك الوقت بلعب دور صريح على مسرح الحياة العامة لاختلف تاريخ الثورة الفرنسية عما هو عليه الآن.

وقد انتقلت مدام رولان من مسكنها المتواضع إلى الدار الفخمة التي كان يقطنها الوزير الخطير نكر، ووافقتها حياتها الجديدة كل الموافقة، إلا أنها لم تؤثر في خلقها السامي وطبيعتها البسيطة. وكانت تمد السماط للوزراء جميعاً مرة كل يوم جمعة، فإذا انصرفوا خلعت عنها ملابسها الرسمية، وانكبت على مكتبها تعمل بجد ونشاط فائقين.

وتمتاز من الجميع بهدوئها الظاهر، يكفي من جانبها كلمة هادئة تلقيها لتقضي بها على الاختلاف الحاد في الآراء، وغالباً ما أرسلت شعاعاً منيراً يستضيء به القوم في نقاشهم فتحلُ العقد وتفك الطلاسم.

وكثيراً ما دعاها المجلس الوطني ليمطرها أعضاؤه وابلا من الأسئلة كانت تجيب عليها جميعاً في اعتدال ووضوح وصراحة غير هيابة ولا وجلة، ولم تخف قط على حياتها، إنما كان إشفاقها دائماً على وطنها، وقد رأت بنظرها الثاقب وعقلها الفطن الناضج أنه ليس بين الجيرونديين رجل واحد يمكن أن يعهد إليه بأمر البلاد، وأنه لا يوجد بين اليعاقبة المتطرفين اثنان يمكن أن يثق أحدهما بزميله.

وسرعان ما تحقق تشاؤمها عندما تمكن اليعاقبة بقيادة مارا ودانتون وروبسبير من إسقاط الجيرونديين، وأدانوا أسرة رولان فيمن أدين من المعتدلين، فهرب رولان وقبض على زوجه، ثم أخلى سبيلها ليقبض عليها مرة أخرى بعد ساعة من إخلاء سبيلها ألقيت في أعماق السجون متهمة بأشنع التهم وأسفلها، ولكنها في السجن كما هو الحال في أي مكان آخر استطاعت أن تغزو القلوب، وصار حراسها طوع إرادتها ورهن إشارتها. ويشير صديق لها اعتاد زيارتها في سجنها (بأنها كانت تحدثه في شجاعة الرجل العظيم بصوت عذب كالموسيقى) إلا أنها كانت تخلو بنفسها تستند إلى النافذة وتمضي الساعات الطوال.

وبعد أن كانت ترى في فرنسا مهداً للإخاء والحرية والمساواة، أصبحت تجد فيها كابوساً ثقيلا ومجزرة يذبح فيها أبناؤها بتهمة حانق أو شكوى حاسد، ولم تسد شهوة الدم وجشع السفاكين ما كان قائماً ليل نهار من قتل النفوس بالمقصلة والرصاص والإغراق.

وقد ذكرت في آخر رسائلها أنها (تحب ضوء الشمس ودارها وزوجها وابنتها المحبوبة وخادمتها الوفية) وتركت لابنتها صحفاً جمة من رسائل الحنان الأموي ملأى بالنصائح الغالية والكتاب الآتي أحد هذه الرسائل التي كتبتها في سجنها إليها:

لست أدري يا عزيزتي إن كان يسمح لي بمقابلتك أو الكتابة إليك مرة أخرى أو لا.) تذكري أمك دائماً. وهذا أحسن ما يمكن أن أقوله لك. ولقد عهدتني سعيدة لشعوري بتأدية الواجبات الملقاة على عاتقي، ولاستطاعتي خدمة الذين يعانون آلام الحياة ومساعدتهم؛ وهل الحياة إلا هذا؟ لقد وجدتني أذعن للقدر إذ يسوقني إلى الأسر، ولست مجرمة أستحق هذا، إلا أن الذكرى الطيبة والماضي الحسن والأعمال الجليلة هي كل عزائي، وبمثلها يستطيع المرء أن يحتمل مساوئ الحياة وتقلبات القدر. إن ما أتمناه هو ألا يقدر لك مثل ما قدر لي من المشاق والمتاعب وهناك ما لو استطعت اتباعه تفاديت به قسوة الحياة وحميت نفسك من مساوئها، ألا وهو العيش المنتظم الذي لا فراغ فيه؛ فهو حارس من كل خطر؛ وهو حاجة تبحث عنها النفس وحكمة يسعى إليها العقل، ليكون صاحبهما جاداً محترماً في حياته. فكوني عند حسن ظن أبويك بك، فقد تركاك مثلا جميلا، ولو استطعت أن تستغلي هذا المثل للوصول إلى ناحية الكمال أمكنك أن تحيي حياة نافعة).

زارتها في سجنها يوماً هنريت كانيت، وطلبت إليها أن تبدل لباسها وتسرع إلى الهرب، وتبقى هي في مكانها، إلا أن مانون رفضت طلب صديقتها في إباء وشمم، قائلة لها (ولكنهم يقتلونك إن فعلت ذلك) وبعد خمسة أشهر من سجنها استدعيت للمحاكمة، وكيلت لها التهم الشنعاء، فوقفت تدفعها عن نفسها باكية ساخطة. وفي اليوم التالي في 8 نوفمبر سنة 1793 سيقت إلى المقصلة، ولما رأت الشجاعة تخون جلادها حثته على أن يؤدي واجبه، وقد ظهرت وهي على شفا حفرة الموت نبيلةً في لباس أبيض ناصع يدل على طهرها. وشعرها الأسود الفاحم مرسل حتى وسطها، ينبعث من عينيها البراقتين شعاع الشجاعة والنبل.

وبينا هي على درجات المقصلة إذ عنت لها أفكار فطلبت قرطاساً وقلماً لإثباتها، إلا أن طلبها رفض. ولن نعرف بطبيعة الحال ماهية هذه الأفكار التي نادتها ساعة الموت فلم تتمكن من تلبيتها.

بعد أسبوع من إعدام مانون عثر رجل على جثة قائمة إلى بعض الأشجار وقد امسكها بالشجرة سيف قد نفذ إليها من قلبه وعند قدمه ورقة خط عليها ما يأتي: (أنا رولان، لم أترك فرصة تمر دون اقتناصها في سبيل إسعاد وطني. أقدمت على إزهاق روحي لا من خوف ولا وجل، ولكن احتجاجاً على إعدام زوجي. فرغبت عن الحياة التي دنستها الجريمة).

حقاً إن هذه الصورة تمثل نهاية قاسية لفصل مزعج من فصول التاريخ الإنساني.

عبد الرحمن فهمي ليسانسيه في الآداب

فن التصوير عند العرب

للأستاذ محمود خيرت

ضرب العرب بسهم وافر في الأدب والاجتماع والفلسفة والسياسة والفلك والكيمياء والطب وتخطيط البلدان وغير ذلك، فكانت مدنيتهم رائعة لم ينكرها المنصفون من علماء الغرب الذي نقلها وبني عليها

والى جانب هذه الفنون فن الزخرفة والعربيات التي يقوم أساسها على نبات عرف العرب كيف يبرعون في تعديد أوضاعه الهندسية براعة أثارت إعجاب هؤلاء العلماء الذين شهدوا لهم أيضاً بعلو كعبهم في فن الإنشاء والعمارة كما تنطق به جوامع القاهرة وقصر الحمراء بالأندلس وغيرها مما يعد من أعاجيب الآثار.

نعم، إن الطراز العربي غير مبتكر ابتكاراً لأنهم حين هبطوا إلى مصر والأندلس ووقعت عيونهم على آثار الفن البيزنطي فيهما استخلصوا منه عنصراً لطرازهم، وحسبهم أنه مع تصويره للروح العربية جمع بين المقدرة والحسن والرشاقة.

وهكذا برهن العرب على مقدرتهم الفنية وعلى تسامحهم واحترامهم تلك الآثار فلم يعبثوا بها كما فعل (الانكوكلاست) أولئك النساك المتطرفون بآثار بيزنطة لما سيطروا على الحكم بها في القرن التاسع وصدر القرن العاشر، إذ قضوا على الفن المسيحي فهشموا تماثيله وشردوا فنانيه حتى قصد بعضهم إلى اكس لاشابيل للخدمة في بلاط

الملك شرلمان.
تلك هي شهادة أولئك العلماء في العرب بالنسبة لفني الزخرفة والإنشاء والعمارة، ولكن الذي نعرض له اليوم هو، هل زاول العرب أيضاً فن التصوير، وهل برعوا فيه كما برعوا في غيره؟ وهل كان من بينهم أساتذة مهرة كالذين ظهروا في أوروبا من عصر النهضة إلى الآن؟
أكثر الباحثين يذهبون إلى أن التصوير كان محرماً على المسلمين، وأن هناك أحاديث نبوية بهذا المعنى منها حديث: (أن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون).
وقبل أن نطرق هذا البحث نلفت النظر إلى مبلغ تبجح الغربيين بأنهم هم المنفردون بفن التصوير والأساتذة المبرزون فيه، لأن فن قدماء المصريين ما كان ليتجاوز مجرد التخطيط، على حين أنهم هم الذين اهتدوا إلى فكرة الظلال بأنواعها مما جعلهم يخرجون
الصور ناطقة بأصولها المأخوذة عنها. ولكنها دعوى تستوقف نظر الباحث هنيهة، لأن الفرس لم يفتهم أيضاً وضع هذه الظلال وكتبهم المصورة بمختلف دور الكتب شاهدة بذلك. بل إن مما لا يصح أن يفوتنا ما جاء بكتاب كليلة ودمنة بالصفحة 64 طبعة سنة 1924 الأميرية، وهو: (. . . كالمصور الماهر الذي يصور على الحيطان صوراً كأنها خارجة وليست بخارجة، وأخرى كأنها داخلة وليست بداخلة) مع أن هذا الكتاب ترجمة ابن المقفع عن نسخة فارسية ترجمت بدورها عن أصل هندي قديم كما يفهم مما جاء بصدر هذا الكتاب. وإذن فالفضل الأول لابتكار الظلال التي هي الوسيلة كلها إلى استنطاق الطبيعة، إنما يرجع إلى الشرق وحده، لأن الوصف الذي نقلناه عن كليلة ودمنة لا يخرج عنه أحدث تعريف للرسم عند الغربيين، وهو إيجاد أنجاد وأغوار على سطح أملس بحيث إذا مررت بيدك من فوقه لا ترى لذلك أثراً.
ولقد كان انفراد الشيعيين على ما يظهر دون السنيين بهذا الفن مما ساعد على الاعتقاد بتأثير تلك الأحاديث الشريفة وفهمها على غير حقيقتها.
وأغلب الظن أن هذه الأحاديث لم تقصد إلا التماثيل مما كان شائعاً في الجاهلية بشيوع الوثنية وقضى الإسلام عليها لتنافرها مع أصول التوحيد. ومما يجعل هذا الفهم أقرب إلى الحقيقة ما رواه المسيو ال. جاييت في كتابه عن الفن الفارسي في باب التصوير من أنه كان بدمشق والقاهرة وبغداد مدارس راقية خاصة بالتصوير كان يقصدها الطلاب من كل صقع، وأنه كان هناك أساتذة بارعون يلقنونهم بها أصول هذا الفن كانوا محل إعجاب الخلفاء والسلاطين والوزراء، وكثيراً ما زينوا لهم قصورهم بصور حائطية
ويؤيد هذا ما جاء بخطط المقريزي بالصحيفة 318 من الجزء الثاني طبعة بولاق فقد قال عن جامع القرافة (جامع الأولياء في عهده) إن: (موقعه كان يعرف في القديم عند فتح مصر بخطة المغافر، بنته السيدة المعزية سنة 366، وهي أم المعز بالله نزار ولد المعز لدين الله على نحو بناء الجامع الأزهر، وأن بابه الذي يدخل منه، ذا المصاطب الكبير الأوسط، تحت المنار العالي الذي عليه، مصفح بالحديد إلى خط المقصورة والمحراب من عدة أبواب عدتها أربعة عشر بابا مربعة مطوبة الأبواب قدام كل باب قنطرة قوس على عمودي رخام ثلاثة صفوف، وهو مزوق باللازورد والزنجفر والزنجار وأنواع الأصباغ،
وفيه مواضع مدهونة، والسقوف مزوقة ملونة كلها، والحنايا والعقود التي على العمد مزوقة بأنواع الأصباغ من صنعة البصريين وبنى المعلم المزوقين شيوخ الكتامي والنازوك.)
ثم قال:
وكان قبالة الباب السابع من هذه الأبواب قنطرة قوس مزوقة في منحني حافتيها) شاذوران مدرج بدرج وآلات سود وبيض وحمر، وخضر وزرق وصفر، إذا تطلع إليها من وقف في سهم قوسها شائلاً رأسه إليها ظن أن المدرج المزوق كأنه من خشب كالمقرنص. وإذا أتى أحد قطري القوس نصف الدائرة ووقف عند أول القوس منهما ورفع رأسه رأى ذلك الذي توهمه مسطحاً لا نتوء فيه وهذا من أفخر الصنائع عند المزوقين. وكانت هذه القنطرة من صنعة بني المعلم، وكان الصناع يأتون إليها ليعملوا مثلها فما يقدرون. وقد جرى مثل ذلك للقصير وابن عزيز في أيام البازوري سيد

الوزراء الحسن بن علي بن عبد الرحمن، وكان كثيراً ما يحرض بينهما ويغري بعضهما على بعض لأنه كان أحب ما إليه كتاب مصور، أو النظر إلى صورة أو تزويق. ولما استدعى ابن عزيز من العراق أفسده، وكان قد أتى به في محاربة القصير، لان القصير قد يشتط في أجرته ويلحقه عجب في صنعته وهو حقيق بذلك لأنه في عمل الصورة كابن مقلة في الخط. وابن عزيز كابن البواب وقد أمعن ذلك في الكتاب المؤلف فيه، وهو طبقات المصورين المنعوت بضوء النبراس وأنس الجلاس في أخبار المزوقين من الناس

وكان البازوري قد أحضر بمجلسه القصير وابن عزيز، فقال عزيز أنا أصور صورة إذا رآها الناظر ظن أنها خارجة من الحائط، فقال القصير، ولكن أنا أصورها فإذا نظرها الناظر ظن أنها داخلة في الحائط، فقال هذا عجب، وأمرهما أن يصنعا ما وعدا به فصورا صورة راقصتين في صورة حنيتين مدهونتين متقابلتين، هذه ترى كأنها داخلة في صورة الحنية، وتلك ترى كأنها خارجة من صورة الحنية. . . فاستحسن البازوري ذلك، وخلع عليهما ووهبهما كثيراً من الذهب.

وكان بدار النعمان بالقرافة من عمل الكتامي صورة يسوف عليه السلام في الجب وهو عريان، والجب كله أسود إذا نظره الإنسان ظن أن جسمه باب قد دهن بلون الجب. وكان هذا الجامع من محاسن البناء. وكان بنو الجوهري يعظون بهذا الجامع على كرسي في

(الثلاثة أشهر فتمر لهم مجالس بهجة تروق وتشوق

وقد أشار أيضاً إلى اللوح الحائطية التي من تصوير أبي بكر المحتسب سنة 365 في أول عهد الدولة الفاطمية، وكذلك إلى صور احمد بن يوسف المشهور بالأوسطي (أي الفنان) وكذلك صور محمد بن محمود. وإنه كان في عهد السلطان بيبرس رجل اسمه ابن دايا كان يشتغل بالسياسة والتصوير، حتى أنه لما عين بأمر السلطان سفيراً لدى بركه الأمير المغولي حمل إليه ثلاث لوحات من عمله تمثل مواسم الحج بمكة

نخرج من رواية المقريزي هذه بأن فن التصوير لم يكن متداولاً عند الفرس وحدهم، بل عند العرب أيضاً، وأن أساتذته كانوا مهرة تدل آثارهم كالشازوران الذي بأحد طرفي القنطرة والراقصتين، على إلمامهم بفن المنظور والتأليف كما في صورة يوسف عليه السلام وهو في الجب. وأن هؤلاء المصورين وإن كانت أكثر آثارهم حائطية، إلا أنهم فكروا أيضاً في التصوير فوق لوحات مستقلة كما رأينا عند الكلام على ابن دايا، وأن هؤلاء الفنانين كانت لهم مكانة في نفوس السلاطين والوزراء، كما أن العناية بآثارهم بلغت حداً بعيداً، حتى أنها كانت تزين بها الجوامع مما يدل على أنهم كانوا لا يأخذون بحرفية الأحاديث، ولكن بالغرض منها

أما كتاب ضوء النبراس الذي بحث في سيرة أولئك المصورين فلا ندري إذا كان من وضع المقريزي أو وضع غيره، لأن ذلك غير واضح في عبارته، وعلى كل حال فإن فقدان هذا الكتاب مما يدعو إلى الأسف الشديد.

محمود خيرت بقسم قضايا المالية

الموسيقى الشرقية

بقلم منير الجم الطرابلسي

- 1 -

اطلعت بالأمس على مقالين ممتعين في (الرسالة) الغراء حول فن الموسيقى: أحدهما للأستاذ قدري حافظ طوقان، والآخر للأستاذ عبد العزيز البشري، فسرني منهما أن يطربا فن الموسيقى العربية، ويتغنيا بعبقرية من اشتغلوا بهذا الفن الجميل من قدامى ومحدثين؛ أقول وأؤكد القول: بأنني جد مغتبط بمقاليهما كعزاء للفن المغبون. . .

ولقد رغبت ان أشاركهما فيما أبدياه من العواطف السامية نحو موسيقانا، فكتبت في عجالتي هذه نبذة عامة عن تطور الموسيقى الشرقية في العهد الأخير، وما طرأ عليها من الإصلاح والتجديد، كموسيقى يغار على الفن، ويؤدي نحوه الواجب المحتوم

- 2 -

كانت الموسيقى في جميع العصور مقياساً لروحية الأمم، ورمزاً لأخلاقها ورقة طباعها، وإذا كان للشعر والأدب والنحت والتصوير وغيرها من الفنون منزلة سامية في

النفوس، فللموسيقى رتبة أسمى وأعلى، وإذا كان لهذه الفنون أياد بيضاء على تهذيب الطباع الإنسانية، وصقل عواطفها، فأحر بالموسيقى أن تنال السبق في هذا المضمار، إذ تتعدى ذلك إلى شفاء بعض الأمراض، وطرد الهموم من النفوس، ومعالجة الحيوان والتلطيف من شراسته ووحشيته، فاسمها مقرون على الدوام بالروعة والاعتبار. . .
نشأت الموسيقى في دورها الأول مع الإنسان الساذج المقلد لمظاهر الطبيعة الفاتنة، فاندفع بميله الغريزي، وعواطفه الكامنة لإتقان هذا التقليد المستحب اللذيذ، حتى انقلب على مر العصور إلى فن جميل له مكانته بين الفنون.
عنيت الأمم الغابرة من مصريين ويونان ورومان، وصينيين وهنود ويابان وفرس وعرب بالموسيقى عناية قصوى جعلتها تتطور في أحضانها بخفة ولباقة، حتى وصلت إلينا بحلة قشيبة؛ وما أن افترق الشرق عن الغرب حتى كانت موسيقى الشرق غير موسيقى الغرب؛ طارت الأولى في سماء الروح والعواطف، ثم ما لبثت أن هبطت قليلا، فلا هي بالهابطة
ولا هي بالصاعدة، متقلقلة بين الصعود والهبوط؛ وأما الثانية فلا تزال جادة في طريق المجد، تقطع مراحل وأشواطاً من التقدم، وغدت لدى الذوق الغربي أسمى وأشهى ما يلذ للسمع ويستطاب.
- 3 -
بعد أن انتقلت الموسيقى إلى العرب برعوا فيها، وجددوا ما بلي منها، وبقيت في عهدهم زاهية ببغداد ومصر والأندلس وغيرها من البلاد العربية حتى دالت دولة العرب، فقبعت في زاوية الإهمال حقبة من الزمن، تترقب من ينتشلها من وهدتها، ويقيلها من عثارها بعد ذاك العز والمجد، حتى قيض لها منذ قرون تقريباً من يذود عن حقها المهضوم ويرفع من شأنها ولو قليلا أمثال الأساتذة المرحومين: عبده الحمولي، والشيخ يوسف المنيلاوي، ومحمد عثمان، وعبد الحي حلمي، والشيخ سلامة حجازي الذي نبغ في الغناء المسرحي وانفرد به، وكذلك احمد الليثي، وأمين بنايه، وإبراهيم سهلون، وغيرهم من عظماء الفن، ومشاهير الملحنين والعازفين الذين نهضوا بالموسيقى العربية نهضة مباركة لا بأس بها، وخاصة في قسم الغناء والإنشاد؛ ثم كان منهم النابغة المرحوم الشيخ سيد درويش الذي يعد من المجددين، وإليه يرجع الفضل في تعديل فن الغناء العربي تعديلا لطيفا، وهو الذي عنى بنغمة (الحجاز كار كردي) التركية، واستعملها في كثير من أغانيه وأدواره الخالدة، فزاد الفن بذلك عذوبة ورقة، وكان بحق آية في العبقرية والنبوغ. . . وأخيراً جاء نابغتنا الشاب الأستاذ محمد عبد الوهاب وأمثاله، وهو مجدد بكل ما في الجدة من معنى، وقد أضاف إلى الفن ما أضاف من عبقرية فذة تتجدد، ونبوغ مضطرم يزكو، ولنا كبير أمل بجهوده الفنية التي ستسمو إن شاء الله بالموسيقى إلى أقصى مراتب النجاح.
مازال الأستاذ محمد عبد الوهاب يخدم الفن خدمة يشكر عليها ويثاب، فجدد منه أصولاً، وأصلح فيه أنواعاً، ثم أضاف إليه أقساماً طريفة من الأنغام الإفرنجية، إلى غير ذلك من التجديد الموافق للذوق الشرقي والعربي، وغدت اسطوانات أغانيه تسمع حتى في بلاد أوربا بكل إعجاب، يشاركه في هذا التجديد نخبة صالحة من غواة الفن، وجمعيات ونواد فنية أسست في مصر وسوريا وغيرهما، يجاهدون جميعاً في تعزيز الموسيقى الشرقية لتستعيد مكانتها الأولى، ويكون لها الصدر في الموسيقى العالمية
- 4 -
هذا في مصر وسوريا وبعض البلاد العربية الأخرى، وأما في البلاد التركية، فقد وجدت الموسيقى الشرقية منتجعاً خصباً، فتطورت في سنين قلائل، حتى لتضاهي كل موسيقى عالمية، والحق يقال: أن للأتراك فضلا كبيراً على هذا الفن، فقد اخترعوا أنغاماً لم تكن تعرف من قبل، وحسنوها وهذبوا كثيراً من الألحان، وجعلوا في موسيقاهم أنواعاً منوعة من القطع الفنية الخالدة، ونبغ لديهم عظماء أفذاذ، أمثال الأساتذة المرحومين: حافظ، ومونلا عثمان، وقره قاض القديم، ووسيلاكي المغني المشهور، وعثمان بك، وعاصم بك، والطنبوري جميل بك، و (الكمنجاتي) طاتيوس، وواسلاكي، وغيرهم ممن أكسبوا الفن كنوزاً ثمينة لا تقدر، وقد جاء من بعدهم مجددون معاصرون فأدخلوا تحسينات جمة عليه، ولقحوا بعض أقسامه وأجزائه بشيء من الأنغام الإفرنجية اللطيفة، كما أنهم أضافوا فن تأليف الأصوات على فرع من

موسيقاهم، ولا سيما دار الفنون والموسيقى في الأستانة، التي تعد في طليعة المجاهدين في سبيل ترقية الموسيقى الشرقية وتعزيزها.

وأما في بلاد فارس والهند والصين وغيرها، فالموسيقى مازالت مهملة أو كالمهملة، إلا في بلاد اليابان وشرقي الصين فآخذة في التقدم السريع، غير أن الموسيقى الغربية طغت عليها، وتكاد تكون معها في صراع عنيف، حيث لكل منهما أحزاب ومشايعون، والغريب في الموسيقى الشرقية هناك أنها تكاد تضارع الأنغام العربية والتركية في اللهجة والأصول، فقد ذكر صديق لي أنه كان منذ بضع سنوات في بلدة شنغاي من أعمال الصين الشرقية، وبينما كان ماراً في حي صيني سمع أنغاماً عربية من مقام (الحجاز) فظن لأول وهلة أن العازف على الآلة ربما كان عربياً، وفرح لهذه المصادفة، ورغب أن يجتمع به، ولشد ما كانت دهشته حينما وجده صينياً عريقاً في الصينية، لا يدري من أمر العرب شيئاً، مما يدل على أن لإيحاء الشرق على سكانه في كل صقع أثره الشديد حتى بموسيقاه العذبة.

- 5 -

يعيب الغربيون موسيقانا بالجمود والتشابه والتكرار، ويتهموننا بقلة الأنواع الموسيقية، وعدم تأليف الأصوات، وإدماجها في القطعة الموسيقية جملة واحدة ولئن كان هذا النقص

معيباً في موسيقانا، فإن قليلاً من الجهد والعناية يذهب به، وأنني لأرى أن هذا النقص الذي نعنيه لم يحصل من التهاون والإهمال، بل هي طبيعة الشرق الهادئ توحي لموسيقاه ألطف الأنغام الفردية العذبة.

إنني لا أنكر على الغرب محسناته في موسيقاه، كلا، ولا أنكر عليه التجديد الفني الذي أضافه عليها، فجعلها في مراتب سامة تفوق حد الإبداع، كلا، ولا أنكر عليه أيضاً استفادة الموسيقى الشرقية والعربية من هذا الرقي والتجديد، ولكن ذلك لا يمنعني من الجهر بجمال الموسيقى الشرقية اللطيفة إذا ما بذلنا في سبيلها جهداً ومثابرة وإخلاصاً، ولا سيما وهي العذبة بأنغامها، الزاخرة بألحانها، الطافحة بأسمى العواطف والشعور. .!

- 6 -

إننا إذا دققنا في الأنواع الموسيقية لدينا وجدناها ضئيلة جداً بالنسبة إلى غزارتها في الموسيقى الغربية، يؤيد ما يعيبنا به الغربيون وهي على التقريب كما يلي: الموشحة، الليالي، الدور، القصيدة، الغناء المسرحي، الطقطوقة، المواليا.

فالموشحة: - قطعة غنائية من أرقى أنواع الغناء، إذا ما كانت متينة اللغة والمعنى، وليس كما يمسخها بعض المغنين بلغة ركيكة، وألفاظ سمجة، وتطويل جاف ممل. . .

الليالي: - (يا ليل يا عين) فهذه لا حدود لها، تابعة لشعور المغني أو العازف، وسمو إحساسه في الأنغام، وقدرته على الانتقال بينها بلباقة وأصول، حتى ينتهي إلى ما بدأ منه، وإذا كانت لموسيقانا مزية تنفرد بها، فتكون من هذه الناحية، إذ يعجز غيرها عن ترديد (الليالي) الإلهامية، وعزف (التقاسيم) الروحية ارتجالاً، ما لم تكن مسجلة ومخطوطة، أو محفوظة من سابق عهد.

الدور: - قطعة غنائية مركبة من جزأين: الأول يسمى (مذهب)، والثاني (دور) وفي الأخير تتعدد الأنغام اللذيذة المثيرة للطرب والسرور، وما زالت الأدوار لها مكانتها في الموسيقى العربية، وهي آخذة في التقدم والرقي، من متانة في اللفظ، وطرافة النغم، مما يجعلها في الصف الأول.

القصيدة: - قطعة شعرية تنشد بألحان معينة، وتكون عذبة مطربة إذا كانت محتوية على معان سامية وأنغام مؤتلفة، وقد أصبحت في الآونة الأخيرة من الأنواع الراقية نظماً ونغماً، يعالجها الشعراء والموسيقيون بكل همة ونشاط.

الغناء المسرحي: - قطعة غنائية تمثيلية، لها أصول خاصة في الغناء، بحيث تتناسب الأنغام مع معاني كل جزء منها، وتوافق الغرض المقصود؛ فالعتاب - مثلاً - في بيت شعري له نغم يناسبه، وكذا الاستعطاف له لحن يوافقه، وتزيد بذلك وضوحاً وتأثيراً في النفوس؛ وقد عني الشعراء والموسيقيون بهذا الضرب من الغناء، فنظموا ولحنوا قطعاً تناسب المقام أمثال المرحوم أمير الشعراء شوقي بك، والأستاذ محمد عبد

الوهاب، وغيرهما من غواة الفن، وهواته ومجدديه.
الطقطوقة: - قطعة غنائية حاوية على مذهب ودور بسيط، فالمذهب هو القطعة الأولى منها اللازمة للدور في نهاية كل جزء من أجزائه، ولغتها على الغالب عامية، وهذا هو موضع العيب الفاضح فيها.
المواليا: - وهو في نظري أشد جموداً من غيره، حيث الركاكة في الألفاظ، والترادف في المعنى الواحد للعشق والهيام المبتذل، ولا يخرج عن كونه أنيناً متواصلاً، ونواحاً مؤلماً، لا أثر للحياة فيه، وموجباً للحزن والأسف الشديد؛ ولدينا اليوم أيضاً نوع اسمه (المونولوج) أو (الغناء الوجداني) الذي اقتبس أخيراً من موسيقى الغرب، وقد برع فيه الأستاذ محمد عبد الوهاب وأبدع فيه أيما إبداع.
- 7 -
إن الأصوات تختلف في سيرها أثناء العزف أو الغناء، فتكون أنواعاً متنوعة يسمى كل منها نغماً، فالأنواع الموسيقية الآنفة الذكر يتركب مجموعها اليوم من أنغام كثيرة اختصر على أهمها:
نغمات السيكاه (2) نغمات العشيران (3) نغمات العجم عشيران: - أوج - عراق ((1) 4) نغمات الراست: راست، نهاوند، حجاز كار، حجاز كار كردي (5) نغمات الديكاه: البيات، حجاز، صبا، عشاق، بيات شورى (6) سيكاه (7) جهار كاه (8) حسيني، إلى غير ذلك من الأنغام الكثيرة المستعملة في الموسيقى العربية.
وأما الأنواع الموسيقية لدى الأتراك فقريبة الشبه من العربية غير أن الأنغام لديهم أكثر وأغزر، زادت في مادة الموسيقى الشرقية زيادة تذكر، وخاصة عنايتهم الفائقة بتأليف القطع الفنية التي تعزف على الآلات، فهي بحق قطع خالدة جديرة بالإكبار والإعظام؛ ولقد استفادت الموسيقى العربية من هذه القطع الفنية الطريفة والأنغام الإضافية العذبة، ما جعلها مدينة إلى الموسيقى التركية مادة ومعنى، والأنواع المعروفة لدينا من هذه المعزوفات الفنية هي: البشرف، والسماعي، والدولاب فالبشرف: قطعة فنية غزيرة بالأنغام المنسجمة، مركبة من جزأين أو ثلاثة أجزاء أو أربعة، والجزء الواحد يسمى (خانه)، تعزف على الآلات الشرقية بواسطة (النوته) الرموز الاصطلاحية ضمن قوانين وأوزان محكمة كأوزان الشعر لا يمكن للعازف أن يشذ أو يخرج عنها، ويكون عزفها عادة أبطأ من (السماعي)، وهي على أنواع من الوزن والقياس والعزف، لا مجال لذكرها الآن.
وأما (السماعي) فهو كالبشرف في أنغامه وتركيبه، غير أنه أصغر منه في مجموعه وأسرع في العزف، وله أوزان ومقاييس تختلف عنه، وأما (الدولاب) فهو قطعة فنية صغيرة بأوزان معلومة، تعزف عادة قبل الشروع في الغناء تمهيداً للنغم المنوي التغني به؛ وتوجد غير ذلك ضروب مختلفة، مقتبسة أصولها من الضرب: في الرقص والتمثيل والوصف. . . الخ كالفالس - مثلاً -، والبولكة، والمارش من القطع الفنية المصورة لنوازع النفس، ومظاهر الطبيعة الفاتنة، ووحي جمالها السامي تصويراً دقيقاً موافقاً بعد تعديلها للذوق الشرقي؛ ومن جملة ما اقتبس من الموسيقى الغربية: الرموز أو العلامات الموسيقية (نوته) التي تكتب بها المعزوفات الفنية، فخدمت الموسيقى الشرقية خدمة جلى، وكان لها الأثر الظاهر في تقدمها وحفظ كنوزها من الفناء. . .
- 8 -
وأما الآلات المستعملة لدينا في الموسيقى الشرقية عامة فهي: العود، والقانون، والطنبور، و (الكمان) والناي، والمزمار، والدف؛ والطبلة، ويوجد آلات شرقية وعربية غير هذه كثيرة ولكنها مهملة، أو غير صالحة لعزف القطع الفنية؛ ثم أضيفت آلات حديثة من الموسيقى الغربية خاصة لعزف قطع (الهارموني) زيادة في التحلية عند اللزوم، أو لعزف القطع الحماسية. . . . في المعسكرات الحربية كالبيانو والكمان الأكبر والساكسوفون والفيفرا إلى غير ذلك من الآلات الوترية، والنفخية والهوائية، التي ليس لها - ويا للأسف أسماء عربية حتى اليوم!!
وعلى هذا فالموسيقى الشرقية على العموم لا تزال بحاجة إلى جهود جبارة، وعزائم صادقة، وهي في دور نهضة مباركة تبشرنا بمستقبل قريب باهر.
حماه:
منير الجم الطرابلسي

بين المعري ودانتي في رسالة الغفران - 6
والكوميدية المقدسة
بقلم محمود احمد النشوي
الوطنية لدى الشاعرين
كأني بالمعري يختص رسالة غفرانه بخيال النعيم والجحيم. ومساجلة الشعراء والأدباء، والنحاة والرواة. ثم بالرد على ابن القارح والحديث عن بشار والمتنبي وصالح بن عبد القدوس والحلاج والصناديقي وغيرهم من المتأهلين والمتزندقين مما بدأه ابن القارح بالحديث عنهم في رسالته. فلم يكن في كل مواقف (رسالة الغفران) ما يثير في نفسه الحنين إلى الوطن، ولو أن موقفاً من مواقف رسالته ذكره بالوطنية أو تعمد هو أن يخلق المواقف في تضاعيف كلامه للحديث عن الوطن وآلامه كما كان يفعل دانتي لأرانا ضروباً من الحماس للوطن والتفاني في سبيله. . .
المعري رجل يريد أن يداعب وأن يسخر. يريد أن يذكر للناس غريب اللغة ونحوها وعروضها. ثم هو يخاطب صديقاً له فلم يكون ثمة مجال لذكر الوطن أو الحديث عن الوطنية. ولكن دانتي كان أهم أغراضه في رسالته بكاء الوطن. وإثارة الحمية في النفوس للأخذ بناصر الشعب الذي تمزقت أوصاله، ولعبت به الحروب الأهلية شنيع الألاعيب. فكنا نتلمس الوطنية في كل خطوة من خطوات دانتي. . ونفقد ذلك في رسالة الغفران. فهل ضعفت نزعة الوطنية عند المعري؟ ألم يطرب للمعرة والشام ولتلك الربا والبطاح؟ لقد كان أبو العلاء يطرب لدياره وبلاده. وكان مغرماً أشد الغرام بوطنه ومنبته. فنحن نراه يكره الخلود ويشيح عنه بوجهه إن كان مع الخلود انفراده عن أهله ووطنه. ثم هو يسخط على السحائب إن اختصته بغيثها ولم تهطل على كل بلاده تبل ثراها وتحيي مواتها فيقول:
ولو أني حبيت الخلد فرداً ... لما أحببت بالخلد انفرادا
فلا نزلت علي ولا بأرضي ... سحائب ليس تنتظم البلادا
ثم يتمنى النعيم لوطنه وإن فاته نعيمه. وتنزع نفسه أن يعود لبلاده وإن كان في يوم الحشر، ويوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت فيقول:
فيا وطني إن فاتني بك سابق ... من الدهر فلينعم لساكنك البال
فإن أستطع في الحشر آتك زائرا ... وهيهات - لي يوم القيامة أشغال
ثم نراه يقيم في بغداد والكرخ، وبين الرصافة والجسر، تلك التي شفه الحنين إليها منذ نعومة أظفاره. وكان يتكلف بها في شرخ الشباب، فحققت له الكهولة أمنيته. قال:
كلفنا بالعراق ونحن شرخ ... فلم نلمم به إلا كهولا
بيد أنه لم تكد تمر عليه بضع ليال حتى حن لوطنه وتمنى قطرة من ماء المعرة يطفئ بها ظمأه فقال:
فيا برق ليس الكرخ داري وإنما ... رماني إليه الدهر منذ ليال
فهل فيك من ماء المعِرة قطرة ... تغيث بها ظمآن ليس بسال؟
لقد كان أبو العلاء يذكر وطنه كلما لمع السراب إبان الظهيرة وكلما جن عليه الليل واحتوته الظلمات، ويستعذب ماء بلاده وإن كان آسناً. عن ماء الكرخ وإن كان كالصهباء. فيقول:
إذا جن ليلى جن لبى وزائد ... خفوق فؤادي كلما خفق الآل
وماء بلادي كان أنجع مشربا ... ولو أن ماء الكرخ صهباء جريال
ولم يكف المعري أن يصدح بذكر بلاده وحده، بل أشرك معه نياقه تلك التي تمنت قويقا والصراة حيالها. والتي كانت تطرب لضوء بارق الشام وأن تعالي عن مستوى نظرها حتى ليسرها أن تقطع رؤوسها وترفع فوق أسنة الرماح لتشيم بارق الوطن، والتي كانت تتلو زبوراً في الحنين إليه، مترنمة بقصائد أودعتها كل أشواقها لديارها فقال:
تلون زبوراً في الحنين منزلا ... عليهن فيه الصبر غير حلال
وأنشدن من شعر المطايا قصيدة ... وأودعنها في الشوق كل مقال
ولقد كان المعري يستطيب الحديث عن بغداد وعما يحف بها من المشاهد. فيقول . . :
هات الحديث عن الزوراء أو هيتا ... وموقد النار لا تكرى بتكريتا
ويجعل حفظ عهود أهلها من صلواته فيقول:

أعد من صلواتي حفظ عهدكم ... إن الصلاة كتاب كان موقوتا
ويتمنى أن تكون العراق تربته. وبها منيته. فيقول:
وكان اختياري أن أموت لديكم ... حميداً فما ألفيت ذلك في الوسع
فليت حمامي حم لي في بلادكم ... وحالت رمامي في رياحكم المسع
وجعل الإماء الوكع من بغداد أفصح من فصحاء البادية طبعوا على البيان واللسن. فقال:
وما الفصحاء الصيد والبدو دارها ... بأفصح قولاً من إمائكم الوكع
وتمنى أن يأتي على ما في دجلة من ماء شرباً وجرعاً ليطفئ غلة حنينه نحو العراق فقال:
ألا زودوني شربة ولو أنني ... قدرت إذا أفنيت دجلة بالجرع
ويرجو أن يعود إلى بغداد والكرخ، والرصافة والجسر، وألا يكون سيره عن ديارهم كرأي الملحد لا يرجو معادا ولا ينتظر إياباً للحياة، بل رأى المؤمن يثق بالرجعى فيقول:
فلا كان سيري عنكم رأي ملحد ... يقول بيأس من معاد ومرجع
ثم يألم من الليالي التي تضن عليه بالرجوع إلى بغداد، فيقول:
أظن الليالي. وهي خود غوادر ... بردي إلى بغداد ضيقة الذرع
ثم يدعو بالسلامة والنجاة لعارض تحدوه بوارقه يؤم الكرخ فيقول:
يا عارضا راح تحدوه بوارقه ... للكرخ سلمت من غيث ونجيتا
ثم يستسقى لدجلة ويفي بعهده فيحرم على نفسه شرب مياه الأنهار من بعده كما حرم طالوت على قومه الشرب من النهر الذي ابتلاهم به ربهم فقال: إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني. وذلك حين يقول أبو العلاء
سقيا لدجلة والدنيا مفرقة ... حتى يعود اجتماع النجم تشتيتا
وبعدها لا أريد الشرب من نهر ... كأنما أنا من أصحاب طالوتا
ذلك هو طرب المعري للعراق وتعلقه بدجلة، فهل أنساه حب المعرة نعيم بغداد؟. وهل أنساه حب الشام حب العراق؟ كلا! فقد كانت لدى المعري وطنية يراها في كل شيء من حوله حتى في النياق تتلو زبور الوطنية. وإنجيل الشوق إليها، وإن لم يذكر ذلك في رسالة غفرانه، ولم يتخيل عذاباً أليما لخائني أوطانهم كما تخيل دانتي الذي افتن في وصف هذا الصنف من الناس وتخير لهم أفل دركات الجحيم. وأشدها هولاً وإيلاما.
وموعدنا بالحديث عن وطنية دانيت العدد القادم
يتبع
محمود احمد النشوى
أعيان القرن الرابع عشر
للعلامة المغفور له أحمد باشا تيمور
مقدمة بقلم الأستاذ احمد أمين
أهبت في مقال سابق بالرسالة، إلى الشيوخ والشبان أن يجدوا في تقييد ما عرف من العصر السابق لعصرنا من ترجمة لرجاله، وتدوين لأحداثه، وأشرت إلى أن كثيرين من عظماء شيوخنا أمثال أستاذنا أحمد لطفي السيد بك، والأستاذ إبراهيم الهلباوي بك، والسيد محمد البيلاوي، وسعادة احمد زكي باشا، وفضيلة الشيخ محمد بخيت، والأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار، والصحفي العجوز وأمثالهم، قد شاهدوا من عظماء الناس في مصر، ووقعت لهم من الحوادث، ومر أمامهم من المناظر ما لو دون لكان ثروة لا تقدر، ولكان حلقة اتصال بين ما دونه المؤرخون قبلنا كالجبرتي، وما يراه جيلنا. وقلت إن في نفوسهم كثيراً من المعلومات تضيء السبيل للجيل الناشئ، وإن من الخسارة العظمى أن نسكت عن تدوينها، وألا نسرع في تقييدها، فعلى هؤلاء السادة أن يدونوا في ذلك مذكراتهم، وعلى الشبان أن يلحوا في رجائهم، وأن يستملوهم ما في ذكرياتهم، ضنا بتاريخ أمتهم، وحرصاً على فائدة الجيل المقبل
وقد سرنا أن يقوم صاحب السعادة احمد شفيق باشا بنشر مذكراته، وفيها كثير من المعلومات القيمة التي تلقي نوراً على تاريخ الجيل الماضي؛ وحبذا لو نحا نوه بقية رجالاتنا، فيكملوا النواحي الأخرى الاجتماعية التي لم يتصل بها شفيق باشا، فكل عظيم من هؤلاء العظماء كانت له نواح اجتماعية خاصة هو بها أكثر علماً وأوسع

معرفة.
ويظهر أن هذه الفكرة نفسها كانت عند المرحوم احمد تيمور باشا، فقد بدأ بترجمة رجال القرن الرابع عشر، ولكن مع الأسف الشديد لم يتمه، وقد طلبت من صديقي الأستاذ محمود تيمور أن يتفضل فيسمح لي بالاطلاع على ما دونه في ذلك المرحوم والده، فقبل رجائي وأعارني الجزء الخاص بذلك - فإذا هو مجلد قد دون فيه بخط المؤلف اثنتان وسبعون صفحة، وقد ترجم فيها لأربعة وعشرين رجلاً من أعيان القرن الرابع عشر الهجري باعتبار الوفاة، وإن كان أكثر حياتهم في القرن الثالث عشر وأكثر من ترجم لهم المؤلف من الأدباء كعبد الله نديم والشيخ شهاب، والشيخ علي الليثي،
أو من العلماء كالشيخ الأشموني والشيخ المهدي العباسي، والشيخ حسن الطويل، والشيخ أبي خطوة، والشيخ حسونة، لأن المؤلف رحمه الله كانت حياته حياة علم وأدب، فعني بمن تتصل بهم حياته، وقد ترجم أحياناً لرجال السياسة كسلطان باشا، والغازي احمد مختار باشا
وقد أفاض المؤلف في بعض التراجم فخرجت كاملة مستوفاة كترجمة عبد الله نديم وسلطان باشا، وبعضها قاصرة كترجمة الغازي مختار باشا، وكل التراجم - مع ذلك - ذخيرة أدبية وتاريخية هامة، وفيها من المعلومات مالا نجده في سواها، ومن من المؤلف أعلم برجال هذا العصر وشيوخه؟
من أجل هذا اقترحت على صديقي الأستاذ الزيات أن تنشر هذه التراجم تباعاً في الرسالة حتى ينتفع بها جمهور القراء - ولا يفوتني أن أنبه أن أربعا من هذه التراجم الأربع والعشرين قد نشرت في مجلة الهلال الغراء، ولكني لا أرى بأساً من إعادة نشرها حتى تكون المجموعة عند قراء الرسالة كاملة.
احمد أمين
عبد الله نديم أفندي
هو عبد الله بن مصباح بن إبراهيم، الأديب الألمعي، والخطيب المفوه، نادرة عصره، وأعجوبة دهره. ولد أبوه ببلدة الطيبة بمديرية الشرقية في شهر ذي الحجة سنة 1234هـ ثم انتقل إلى ثغر الإسكندرية، فكان في مبتدأ أمره نجاراً للسفن بدار الصناعة، ثم اتخذ له مخبزاً لصنع الخبز، ومات بالقاهرة في 4 رجب سنة 1310. وولد المترجم بالثغر المذكور في عاشر ذي الحجة سنة 1261 ونشأ في قلة من العيش، ومالت نفسه إلى الأدب، فاشتغل به واسترشد من أهله وطالع كتبه، وحضر دروس الشيوخ بمسجد الشيخ إبراهيم باشا، وكان قليل الإعتناء بالطلب، غير مواظب على الدرس، إلا أن الله وهبه ملكة عجيبة وذكاء مفرطاً، فبرع في الفنون الأدبية، وكتب وترسل، ونظم الشعر والزجل، وطارح الإخوان وناظر الأقران. ثم بدا له أن يتعلم صناعة للكسب، فتعلم فن الإشارات البرقية، واستخدم في مكتب البرق ببنها العسل، ثم نقل إلى مكتب القصر العالي، سكن والدة الخديو أيام ولاية ابنها إسماعيل باشا، وبقى به مدة عرف فيها كثيراً من أدباء القاهرة وشعرائها، مثل الأمير محمود سامي باشا البارودي، ومحمود أفندي صفوت الساعاتي، والشيخ احمد وهبي. ثم غضب عليه خليل أغا، أغا القصر، وكان في سطوة لم يبلغها كافور الأخشيدي، فأمر بضربه وفصله. فضاقت به الحيل ورقت حاله، حتى توصل إلى الشيخ أبي سعدة عمدة بداوي بمديرية الدقهلية، وأقام عند يقرئ أولاده، ثم تشاحنا وافترقا على بغضاء. واتصل بالسيد محمود الغرقاوي، أحد أعيان التجار بالمنصورة فأحسن منزله، وفتح له حانوتاً لبيع المناديل وما أشبهها. فكانت نهاية أمره أن بدد المكسب ورأس المال، وجعل يجوب البلاد وافداً على أكابرها، فيكرمون وفادته ويهشون لمقدمه، لما رزقه من طلاقة اللسان، وخفة الروح، وسرعة الخاطر في النظم والنثر، فيطوف ما يطوف ثم يأوي إلى دار الغرقاوي بالمنصورة، إلى أن ورد طندتا سنة 1293، واتصل بشاهين باشا كنج مفتش الوجه البحري إذ ذاك، ولاتصاله به سبب لا بأس من ذكره: وهو أن الباشا المذكور كان بينه وبين الشيخ محمد الجندي أحد العلماء بالمسجد الأحمدي صحبة وتزاور، وكان الشيخ يحب الغناء ويطرب له، ولذلك كان يستحضر فتى حلاقاً حسن الصوت ليغني له في داره، فأمر مرة أن يغني بحضرة الباشا، فغنى بقول المترجم:
سلوه عن الأرواح فهي ملاعبه ... وكفوا إذا سل المهند حاجبه

وعودوا إذا نامت أراقم شعره ... وولوا إذا دبت إليكم عقاربه
ولا تذكروا الأشباح بالله عنده ... فلو أتلف الأرواح من ذا يطالبه
أراه بعيني والدموع تكاتبه ... ويحجب عني والفؤاد يراقبه
فهل حاجة تدني الحبيب لصبه ... سوى زفرة تثنى الحشا وتجاذبه
فلا أنا ممن يتقيه حبيبه ... ولا أنا ممن بالصدود يعاتبه
ولو أن طرفي أرسل الدمع مرة ... سفيراً لقلبي ما توالت كتائبه

وكان كثيراً ما يتغنى بها، فطرب الباشا طرباً شديداً، واستظرف قائل الأبيات وتمنى رؤيته، فأرسلوا له بالحضور. فلما حضر إلى طندتا، وواجهه استقبح صورته، إلا أنه أعجبه ظرفه وأدبه ومال إليه، فاتخذه نديماً لا يمل، ورفيقاً حيث حل. فلما استقرت به النوى وملأ يده من الباشا، استعداه على أبي سعدة الذي كان يقرئ أطفاله، وادعى أنه أخر له ثلاثين ديناراً من أجرة التعليم، فأمر الباشا بأشخاصه إلى طندتا، وألزمه أن يدفع للمترجم مائة جنية، فدفعها عن يد وهو صاغر. وكان مجلس شاهين باشا محط رجال الأدباء ومنتجع الشعراء والندماء، لا يخلو من مطارحات أدبية ومساجلات شعرية، وللمترجم بينهم المقام الأعلى والقدح المعلى. وحسبك ما وقع له من طائفة (الأدباتية) وهم مشهورون بالقطر المصري يستجدون الناس في الطريق بإنشاد الأزجال والضرب على الطبل، وأغلب أزجالهم مرتجلة في مقتضى الحال. فكان للمترجم معهم يوم مشهود ذكره في مجلة الأستاذ

ثم اتصل المترجم بالبيك التتونجي فجعله وكيلا على ضياعه، وما زال حتى لحق بالإسكندرية مسقط رأسه ومنبت غرسه، وكان منه ما سنقصه عليك

تلك خلاصة ترجمته في أول أمره ومبتدأ خبره، وكان القطر المصري في تلك الأثناء في اضطراب وهرج ومرج من اختلال الأحوال وفساد الحكام واعتلاء الإفرنج على الأهلين، وقد سئم الناس حكم إسماعيل باشا وتمنوا زوال دولته، فلما وفد المترجم على الثغر رأى لفيفاً من الشبان ألفوا جمعية سموها (بمصر الفتاة) يتآمرون فيها سراً خوفاً من بطش الخديو، فعرف منهم البعض، واشتغل بالكتابة في صحب الأخبار، فأعجب الكتاب بمقالاته، واقتدوا به في تحسين الإنشاء، وكان سقيما منحطاً في ذلك العهد. ثم سعى مع جمع من

الأدباء فألفوا جمعية سموها (بالجمعية الخيرية الإسلامية) سنة 1296 آخر سني إسماعيل باشا في الحكم وجعلوه مدير مدرستها. ثم عزل الخديو وتولى ابنه توفيق باشا، ففرح الناس وظنوا انفراج الأزمة. وجد المترجم واجتهد في إنجاح مسعاه في الجمعية حتى حمل الخديو على زيارة مدرستها، فزارها يوم امتحان تلاميذها، وجعلها في حماية ولي عهده عباس بيك، وأنعم لهم بالمدرسة البحرية يدرسون بها، وأجروا عليها من الحكومة مائتين وخمسين ديناراً في السنة مساعدة. وطفق المترجم يؤلف القلوب ويحض الأهلين على الالتئام بالمقالات والخطب ينفثها قلمه ولسانه، وألف قصة تمثيلية سماها (الوطن وطالع التوفيق) وأخرى سماها (العرب) شرح فيهما ما كانت عليه حالة القطر وما طرأ عليه، ثم مثلهما هو وتلاميذه بأحد ملاعب لثغر بحضور الخديو، فكان لهما تأثير كبير في النفوس، واشتهر المترجم وعلا كعبه، ولهج الناس بذكره، ثم طرأ فساد على الجمعية سبوه إليه فانفصل منها، وكان شرع في إنشاء صحيفة سماها (التنكيت والتبكيت) مزج فيها الهزل بالجد، ظهر أول عدد منها في 8 رجب سنة 1298، وظهر في أثناء ذلك وميض الثورة العرابية من خلل الرماد، فوافقت هوى في نفس المترجم لميله إلى الشهرة وبعد الصيت، فضموه إليهم وشدوا أزرهم به، فملأ صحيفته بمحامدهم، ودعا إلى القيام بناصرهم، وخطب الخطب المهيجة ونظم القصائد الحماسية، وندب الوطن ورثاه، وحض على الاجتماع والتكاتف ونبذ أضاليل الإفرنج، فأثرت قالته في النفوس وأشربتها القلوب، وادعى الشرف وانتسب إلى الإمام الحسن السبط رضي الله عنه، والله أعلم بتلك النسبة، فقد رأيت كثيرين ممن عرفوه ينكرونها. ثم أوقف صحيفته بعد أن ظهر منها ثمانية عشر عدداً آخرها تاريخه 23 ذي القعدة سنة 1298 وكانت أسبوعية تظهر يوم الأحد. وانتقل إلى القاهرة وهي جذوة من نار، وغير اسم صحيفته بأمر عرابي باشا كبير الثوار فسماها (الطائف) تيمناً باسم بلدة بالحجاز مشهورة، وتفاؤلاً بأنها تطوف المسكونة كما جابتها جوائب احمد فارس. واسترسل المترجم مع رجال الثورة حتى صار جذيلها المحك، وعذيقها

المرجب، ولقبوه بخطيب الحزب الوطني. وقام سراة القطر وأعيانه يعقدون المجتمعات ويولمون الولائم للعرابيين ويدعون المترجم للخاطبة، فكانت له بها المواقف المشهودة، والأيام المعدودة، حتى استفحل الأمر وقامت الحرب بالإسكندرية بين الإنكليز والمصريين يوم الثلاثاء 25
شعبان سنة 1299. فسافر المترجم إليها مع جماعة من رؤساء الجند وبات بها ليلة، ثم لحق بعرابي باشا وقد انهزم إلى كفر الدوار، ثم انتقل معه إلى التل الكبير وهو ينشئ صحيفة الطائف بالمعسكر فيضمنها أخبار الانتصار ويحشوها بالأكاذيب تهدئة للأفكار، حتى وقعت الهزيمة الكبرى على المصريين بالتل الكبير، ففر عرابي باشا وعلي باشا الروبي ومعهما المترجم إلى القاهرة يوم الأربعاء 29 شوال من السنة المذكورة، واتفقوا على إرساله إلى الإسكندرية بكتاب يطلبون به العفو من الخديو فسافر به يوم الخميس، ولما وصل إلى كفر الدوار بلغه القبض على زعماء الثورة ودخول الإنكليز القاهرة. فعاد إليها ليلا وبقى في داره بجهة العشماوي إلى الصباح، وخرج مع والده وخادمه فركبوا عجلة وقصدوا بولاق، ورآه شاهين أفندي فؤاد المفتش بالمصرف العقاري، وهو من مماليك عباس باشا وآلي مصر فظنه غير مطلوب، قال ولولا ذلك لقبضت عليه. فلما وصلوا إلى بولاق ودعه أبوه واختفى هو وخادمه ولم يظهر لهما أثر، فأقام مختفياً نحو تسعة أعوام لا يهتدي إلى مكانه، وقد أعيى الحكومة المصرية أمره حتى جعلوا ألف دينار لمن يرشد إليه، وبثوا عليه العيون فلم يظفروا منه بطائل، فلما أعيتهم الحيل حكموا عليه بالنفي مدة حياته من القطر المصري، ويئس أصحابه من وجوده، وأشيع القبض عليه وخنقه سراً، ومنهم من أشاع موته حتف أنفه، ومنهم من أشاع هربه إلى بلاد الإفرنج، فعد اختفاؤه من الأمور الغريبة، ولا غرو فأمره غريب من أوله.

القبض عليه

وكان يتردد على بلدة الجميزة (مركز السنطة) رجل يقال له حسن الفرارجي كان منتظماً في العسكر، ثم استخدم جاسوساً سرياً، فأبصر رجلاً أنكر حاله لما رآه عليه من سيما الاختفاء، ورجح أنه عبد الله نديم، فكتب إلى الديوان الخديوي ينبئهم بوجود رجل من العرابيين مختف بالجميزة، وأسرع إلى ديوان الداخلية فأوضح لهم أمره فأعطوه ورقة بحليته، فلما تحقق منه أخبرهم به، فأمروا بالقبض عليه، وحضر من المديرية محمد أفندي فريد وكيل (الحكمدار) ومعه نفر من الشرطة ستروا ملابسهم بثياب أخرى، فأحاط بعضهم بالبلدة متفرقين، وصعد وكيل الحكمدار مع الآخرين على تل مشرف على أفنية الدور، وأحسن المترجم بتلك الحركة، فأوجس في نفسه خيفة، وأراد الانتقال إلى دار أخرى فأخذ
عيبته على، كتفه وصعد على سطح المكان فأبصره الذين على التل، فصاحوا وصوبوا بنادقهم عليه، وأمروه بالنزول فنزل، ثم أحاطوا بالدار، وطرقوا الباب طرقاً عنيفاً وأيقن المترجم انه مأخوذ لا محالة، ففتحه لهم، وواجههم متجلداً، فسأله محمد أفندي فريد عن اسمه فقال له: سبحان الله أتجهل اسمي وأنت مأمور بالقبض عليّ، أنا عبد الله نديم ذو الذنب العظيم، وعفو مولاي الخديو أعظم، سلمت أمري لله، فقبضوه هو وخادمه وأعماهم الله عن كتبه وأوراقه، ولولا ذلك لأصابه شر عظيم بسبب أهاجيه القبيحة في الخديو وأسرته، وكان القبض عليه في 29 صفر سنة 1309، ولم ينل الواشي به شيئاً من الجعل لفوات الأجل المضروب للمكافأة، ثم استاقوهما إلى المركز، وسألوه عمن اختفى عندهم، فلم يقر بأحد، وسألوا خادمه وضربوه، فأقر بالبعض ونقلوهما إلى المديرية بطندتا، فسجنا بعض أيام، ووكيل النيابة بالمحاكم يوالي سؤالهما، وانتهى الأمر بعفو الخديو عنه وعمن آواه ونفيه خارج القطر.

نفيه

فاختار يافا ثغر القدس الشريف ووصلها في غروب يوم الجمعة 12 ربيع الأول، ونزل عند السيد علي أفندي أبي المواهب مفتيها، ولما دخل دارهوعرفه بنفسه قام واعتنقه وضحك وبكى. فأقام عنده شهراً، ثم اتخذ له داراً وعرفه أعيانها وفضلاؤها، وأكرموه وواسوه جزاهم الله خيراً. ثم رحل رحلته إلى نابلس وسبطيه وقلقيلا وغيرها من البلاد الفلسطينية. واجتمع بطائفة السامرة واطلع على كتبهم ومعتقداتهم كما رأيته بخطه في كتابه أرسله لأحد أصدقائه في مستهل رمضان. ولم يزل مقيما بيافا حتى مات

الخديو وتولى ولده عباس باشا في جمادى الثانية، فعفا عنه وأباح له العود إلى مصر.
قال في آخر ذلك الكتاب (عزمنا على الحضور بعد العيد إن شاء الله تعالى، فإن موسم سيدنا موسى الكليم يعمل في نصف شوال، ولا أحضر حتى أزوره مرة ثانية فإنه صاحب الأمر بالعفو عني، وإن كان الظاهر خلافه، وذلك أني عند دخولي حضرته الشريفة أنشدته في الحال:

رجوتك يا كليم الله حاجا ... أرجيها وقد حققت فضلك
فقل لي مثلما لك قبل أوحى ... اله الخلق قد أوتيت سؤلك

فرأيته ليلا يقول لي (قم روح) ثلاثاً، وكانت ليلة 3 رجب وهو تاريخ صدور الأمر).
انتهى ما نقلته من خطه.

عودته إلى القاهرة

ولما عاد إلى مصر استوطن القاهرة، وأنشأ مجلة الأستاذ في شهر صفر سنة 1310، فبرزت موشحة ببديع مقالاته وغرر أزجاله وموشحاته. وبدت الوحشة في أثناء ذلك بين الخديو والإنكليز، وكان ما كان من عزله صنيعتهم مصطفى فهمي باشا كبير الوزراء ومعاكستهم فيما يريدون. فقام المترجم يستنهض الهمم ويحض على موازرة الخديو ونبذ طاعة سواه، وكتب في ذلك المقالات الطويلة بالأستاذ حتى أحفظ الإنكليز وخشوا من اتساع الخرق لمكانته السابقة من النفوس، وسعى حساده بما سعوا ولفقوا ما لفقوا، فأوقفوا مجلته في شهر ذي القعدة من السنة المذكورة وأعادوه إلى يافا منفياً بعد أن أعطوه أربعمائة دينار، وأجروا عليه خمسة وعشرين كل شهر، واشترطوا أن لا يكتب بشأن مصر كلمة، ولم ينفعه الخديو لقصر يده.

نفيه إلى يافا

فلما استقر المترجم بيافا لم يسلم من السعاية به لدى السلطان، فأمر بإبعاده فعاد إلى الإسكندرية متحيراً، ولقد لفظته البلاد لفظ النواة، فسعى له الغازي احمد مختار باشا وساعده حتى قبله السلطان المعظم عبد الحميد بدار السلطنة، واستخدمه في ديوان المعارف ووظف له خمسة وأربعين ديناراً مجيدياً في الشهر، فأمضى بها بقية أيامه شريداً عن وطنه بعيداً عن أهله وخلانه حتى اشتدت عليه علة السل، فلقي حمامه في الرابع من شهر جمادى الأولى سنة 1314

وفاته

ودفن بمقبرة يحيى أفندي في بشكطاش، وضاعت مؤلفاته ودواوينه ولم يظهر منها إلا جزء من (كان ويكون) كان يطبعه ذيلاً للأستاذ، وكتاب آخر نسبوه إليه اسمه (المسامير) محشو بالهجو القبيح في الشيخ أبي الهدى الصيادي نزيل دار السلطنة، فمضى وكأنه لم يكن رحمه الله رحمة واسعة. ومن تألم بعين الاتعاظ في تقلب الأحوال بالمترجم، وما ذاقه من حلو الزمان ومره، وقاساه مدة الاختفاء ثم النفي حتى مات غريباً طريداً، حق له العجب وعرف كيف يعبث الزمان بأهل الفضل من بنيه.

ونشأ المترجم فقيراً كما قدمنا، وعاش في قلة فإن أصاب شيئاً بدده بالإسراف، وكان في أول أمره يرتدي الثياب الإفرنجية المعلومة، فلما ظهر بعد الاختفاء لبس الجبة والقفطان واعتم بعمامة خضراء إشارة إلى الشرف، وكان شهي الحديث حلو الفكاهة، إذا أوجز ود المحدث أنه لم يوجز، لقيته مرة في آخر إقاماته بمصر، فرأيت رجلاً في ذكاء إياس، وفصاحة سحبان، وقبح الجاحظ. أما شعره فأقل من نثره، ونثره أقل من لسانه، ولسانه الغاية القصوى في عصرنا هذا، وقد انتخب أخوه عبد الفتاح أفندي جملة صالحة من مقالاته جمعها في كتاب سماه (سلافة النديم) فارجع إليه إن شئت.

ونحن ذاكرون من شعره ما يحتمله المقام، فمن ذلك مرثيته في الخديو محمد توفيق باشا وقد أشار إليها في كتاب أرسل به من يافا في 16 جمادى الثانية سنة 1309 يقول فيه (غمني وكدرني موت الحضرة الخديوية لأمور: (أولاً) فلعفوه عني وإحسانه إليّ، (ثانياً) لسابقة معروفة معي وتوجهاته السابقة، (ثالثاً) لصغر سنة، (رابعاً) لصغر سن أنجاله، (خامساً) لصغر سنة حرمه وما تقاسيه من حزنها عليه لما كان بينهما من شدة الألفة والمحبة (سادساً) لأنه كان برزخاً بين مصر وبين نكبات إنكلترة وغيرها والله تعلى يجري الأمور على السداد، وسأبعث بمرثية رنانة لحضرة ولدي مصطفى بك ماهر رئيس ترجمة ديوان الحربية ليطبعها وينشرها على حدتها) انتهى ما نقلته من

خطه، ولم أقف إلا على ثلاثة أبيات منها ذكرها المترجم بالأستاذ وهي:
ما للكواكب لا ترى في المرصد ... والكون أصبح في لباس أسود
عم الكسوف الكل أم فقد الضيا ... أم كلنا يرنو بمقلة أرمد
وتاريخها
فملائك الجنات قالت أرخوا ... توفيق في عز النعيم السرمدي
1309
ومن مختار شعره قوله من قصيدة لم نعثر منها إلا على هذا القدر
سيوف الثنا تصدا ومقولي الغمد ... ومن سار في نصري تكلفه الحمد
ومنها
ومن عجب الأيام شهم أخو حجا ... يعارضه غر ويفحمه وغد
ومن غرر الأخلاق أن تهدر الدما ... لتحفظ أعراض تكفلها المجد
ويقال أنه نظمها بحضرة شاهين باشا تبكيتاً لمن زعم قصور الشعراء عن معارضة أبي الطيب المتنبي في قوله:
ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى ... عدواً له ما من صداقته بد
قلت: بين القولين فرق ظاهر للمتأمل، وأين الثريا من يد المتناول؟ ومن شعره قوله أيام اختفائه، وكتب بها إلى صديق له يسليه على نازلة نزلت به:
يا صاحبي دع عنك قول الهازل ... واسمع نصيحة عارف بالحاصل
اجهل تجد صفو الزمان فإنه ... من قسمة الفدم الغبي الجاهل
ودع التعقل بالتغفل يستقم ... أرم المعاش فحظه للغافل
وارض البلادة تغتنم من بابها ... مالاً وجاهاً بعد ذكر خامل
وإذا أبيت سوى العلوم فلا تضق ... بحروب دهر لا يميل لفاضل
قلب تواريخ الأولى سبقوا تجد ... دنياك ما قيدت بغير الباطل
تجد الأفاضل في الزوايا كلهم ... حال الحياة وبعدها بمحافل
العلم ستر كالسحاب به ترى ... شمس الحقيقة خلف ذاك الحائل
هل أبصرت عيناك ديواناً به ... مدح البليغ جميل سعد حافل
إن قلت أي، فاذكر لنا من ناله ... أولا، فعش كالناس في ذا الساحل
ضدان لا تلقاهما في واحد ... مال الغبي وحكمة للكامل
ثم ذيلها بنثر أضربنا عن ذكره. ومنه قوله وضمنها كتاباً كتبه مدة اختفائه لأحد أصدقائه:
وبعد فهذا شرح حالة غائب ... عليه من اللطف الخفي ستور
تدور به الأهوال حول مدارها ... فيصبر والقلب الرضى صبور
عسى فرج يأتي به الله إنه ... على فرجي دون الأنام قدير
كيف تهدى العروس إلى زوجها في حضرموت؟
مشهد من رواية شعرية تحت الطبع باسم (همام أو في عاصمة الأحقاف)
للشاعر الحضرمي على أحمد باكثير
ساحة كبيرة أمام بيت العروس (حسن). فيما بعد منتصف الليل يرى هناك جمهور من النساء يصطففن لزفها إلى بيت (همام) تتوسطهن (حسن) عليها غطاء لا ترى منه. تحيط بهن الوصائف بأيديهن الشموع والمصابيح. تتقدمهن القينات بأيديهن الدفوف وهن يتغنين بينما الجمهور يتحرك ويتجه في سير بطيء إلى جهة بيت (همام):
القينات:
نحن نزُفُّ الشَّمسا ... والشمسُ في صُحاها
فما أجلَّ عُرْسا ... يغمره سناها!
الجمهور:
نحن نزُفُّ الشَّمسا ... .
. . . .
القينات:
نحن نزف الحيا ... نحن نزف المُنى!
نحن نزُفُّ الضِّيا ... نحن نزف السَّنا
الجمهور:

. . . . نحن نزُفُّ الشَّمسا
. . . .
القينات:
يا عُصبة الغواني ... هلمَّ للتطريبِ!
اشدُون بالأغاني ... واهِتفن بالنسيبِ
واضمِدْن بالأماني ... دواميَ القلوبِ!
الجمهور:
. . . . نحن نزُفُّ الشَّمسا
. . . .
القينات:
حيِّين بالسَّلام ... هذا الشُّعاع المسكُوبْ
وافنأنَ بالأنغام ... كل حزين منكوبْ
الجمهور:
. . . . نحن نزُفُّ الشَّمسا
. . . .
القينات:
روائحُ الجِنَانِ ... تعبَقُ من هذي الدُّورْ
كأنما المغاني ... أمسَتْ مراقِصَ الحُورْ!
الجمهور:
. . . . نحن نزُفُّ الشَّمسا
. . . .
القينات:
نحن نزفُّ الملَكْ ... في صورة الإنسانْ!
يجلو ظلام الحلَكْ ... ويقَشع الأحزانْ
فهل لديكم فلَكْ ... بنورِه يزْدَانْ؟!
الجمهور:
. . . . نحن نزُفُّ الشَّمسا
. . . .
القينات:
يا قمر السماء ... غُضَّ الجفون أغْضِ!
بالذِّكر والأسماء ... عوَّدْتُ بَدْرَ الأرض
الجمهور:
. . . . نحن نزُفُّ الشَّمسا
. . . .
(على مقربة من بين (همام))
القينات:
سُقْنَ إلى هُمام ... جمالَ هذا النّادي
واحدُونَ للضِّرْغامِ ... لباةَ هذا الوادي!
الجمهور:
. . . . نحن نزُفُّ الشَّمسا
. . . .
(في الطابق العلوي من دار الزوج (همام) حيث تستقبل نسوة الدار النسوة اللاتي زففن العروس. تنحاز نسوة الدار إلى جهة، ونسوة الزفاف إلى جهة، والقينات في الوسط يضربن بالدفوف.)
القينات:
أَلْيُمْنُ والإقبالُ ... والسَّعد والسعادَةْ
للمُعْرِسَيْنِ فالُ ... والفضل والزيادة
شاعرة نسوة الزفاف ثم سائرهن:
نحن نزف الحُسْنا ... نحن نزف بُلْقَيْس

نحن نزف لُبْنى ... فهل لديكم من قَيْس
شاعرة نسوة الدار مجيبة، ثم سائرهن وهكذا في باقي الأبيات:
هُمامنا كالمأمو ... نِ إن زففتُم بُوران
وإن تكُن بُلقَيساً ... فإنّه سُليمان!
نسوة الزفاف: النَّصر للعروسَهْ
نسوة الدار: بل هو للعروسِ
نسوة الزفاف: للدُّرَّة النفيسة
نسوة الدار: للجوهر النفيسِ
نسوة الزفاف:
للحُرَّة المَصُونهْ ... وربّة الجمالِ
للدرة المكنونهْ ... واسطةِ اللآلي!
نسوة الدار:
لِمَفْخَر المدينهْ ... لسيِّد الرجالِ
الناسُ يعرفونهْ ... بِكرَم الخِلالِ!
نسوة الزفاف:
النُّورُ والشُّعاعُ ... ووَهَجُ الشُّموسِ
والجوهر اللَّمّاعُ ... وحَبَبُ الكؤُوسِ
جميعُها أشياعُ ... لهذه العَروسِ!
نسوة الدار:
المجدُ والكمالُ ... وكرم الأخلاق
والقولُ والفعالُ ... وحَسَبُ الأعراقِ
جميعهنَّ آلُ ... عروسِنا الغَيْداقِ
القينات:
كِلا العَروسَيْن زَيْن ... للمجد والعلاءِ
فلا تفاضِلْنَ بيْن ... سراجَي السماءِ!
أين المجرّة؟ أين ... كواكب الجوزاءِ؟
أصوغهنَّ لِذَيْن ... تاجَيْنِ بالسَّواء
القينات ثم الجميع بصوت واحد:
يا رب باركْهُما ... في ذا الزواج السَّعيدْ
واجعلْ زمانَهما ... كأنّه يوم عِيد
وانفحمها بالوَلَدْ ... مثل دراري النجومْ!
في ظل عيش رَغَدْ ... وفي صفاء يدومْ
على أحمد باكثير
في الأدب الفرنسي
الدوق دي لاروشفوكو - 4
للدكتور حسن صادق
ومن يوم أن غشى صالون المركيزة دي سابليه، شعر بميل شديد إلى كتابة الحكم والمواعظ، وبد في هذا النوع من الأدب ربة البيت وجاك إسبريه. وهذا أول نجاح صادفه في حياته وبعث السرور في دخيلته. وكان من القواعد المألوفة في هذه المجالس أن الإنسان إذا أراد أن يكتب للجمهور، وجب عليه أن يستنير برأي زملائه. وقد ذكر ذلك سجريه فقال: (كان من الواجب على الذين يكتبون للجمهور أن يطلعوا أصدقاءهم على ما يكتبون لإصلاحه وتهذيبه. وقد اتبع الدوق دي لاروشفوكو هذه القاعدة في مذكراته وفي مواعظه. فكان يرسل إلى ما يكتبه ويسألني أن أحتفظ بالكراسات خمسة أو ستة أسابيع حتى يتسنى له إنعام النظر فيها. ومن هذه المواعظ ما تغير أكثر من ثلاثين مرة)
وكثيراً ما كان يستشير المركيزة ويسألها أن تبدي رأيها فيما يكتب، ومما يثبت ذلك أنه كتب إليها في أحد الأيام يقول: (لا يصح أن تسمى هذه المواعظ بهذا الاسم إلا إذا وافقت عليها. إنك لا تستطيعين إنكارها، لأن الكثير منها يرجع إليك). وقد بلغ من اهتمام المركيزة بهذه المواعظ أنها نقلتها وأطلعت عليها كثيراً من أصدقائها في غيبة

المؤلف وجمعت آراءهم في أسلوبها ومعانيها.
وقضى عام 1664 في مراجعة كل مواعظه وتهذيب أسلوبها وعاونه على ذلك جاك إسبريه والمركيزة دي سابليه. وفي عام 1665 ظهر الكتاب، أي في السنة التي ظهرت فيها قصص لافونتين المشهورة. وهذا الشاعر سيكون موضوع حديثنا في المقال الآتي
وعقب نشر هذه المواعظ، اتجهت المركيزة إلى العبادة وتوددت إلى الدوقة دي لونجفيل، فأعرض عنها لاروشفوكو بعد هذه الصلة الوثيقة التي استمرت خمسة أعوام. ثم شاء القدر أن يقضي أعوامه الأخيرة في هدوء وسعادة، فساق إليه الكونتس دي لافاييت تخلص له الود والوفاء وتهدهد نفسه الحزينة في شيخوخته
وفي عام 1667 خاض غمار الحرب لآخر مرة في حصار ليل على الرغم من مرضه. ثم اشتدت عليه وطأة الداء فكف عن زيارة البلاط وراض نفسه على أن يقضي بقية أيامه في
الراحة العذبة بجانب صديقته التي شهد لها بوالو بالتفوق في الأدب والنبوغ في الكتابة
وكان يجتمع في بيته الكتاب والشعراء. فكورني قرأ في صالونه قصة (بولشيري)، وراسين قصة (اسكندر)، وبوالو كتابه (الفن الشعري)، وموليير (النساء العالمات) هذه الكوميديا المشهورة التي قيل في ذلك الحين إنها سخرية من مدام دي سفنييه ومدام دي لافاييت.
وشغل أعوامه الأخيرة في تنقيح كتابه الصغير (مواعظ). فالطبعة الأولى في عام 1665 وبها 307 مواعظ، والطبعة الثانية في 1666 وبها 302 موعظة، والثالثة في عام 1671 وبها 341 موعظة، والرابعة 1675 وبها 413 موعظة، والخامسة في عام 1678 وبها 504 مواعظ، وفي هذه السنة الأخيرة نشرت حكم المركيزة دي سابليه وكتاب جاك إسبريه (شوائب الفضائل الإنسانية)
وماتت زوجه في عام 1670 فعاشت معه مدام دي لافاييت لا تفارقه إلا لماما، وبفضلها خفت لهجة المواعظ القاسية في طبعتي عام 1671 وعام 1678. ويصح أن نطبق عليها جملة الشاعر الألماني الأكبر (جوت) التي قالها عن (مدام دي ستيل) إنها تحيل المرارة إلى عذوبة). ساعدته على تنقيح مواعظه، وساعدها على كتابة قصصها وعلى الأخص قصتها المشهورة التي خلدت ذكرها وهي (الأميرة دي كليف). وقد اعترفت بذلك وقالت (استفدت من عقله، ولكني أصلحت قلبه). أصلحت قلبه لأنها أخلصت له الحب وهيأت له أسباب السعادة
وفي شهر يونيو عام 1672 جرح ابنه الأكبر في موقعة الرين جرحاً بليغاً وقتل فيها ولده الرابع والكونت دي سان بول ابنه غير الشرعي من الدوقة دي لونجفيل، فانتابه حزن أليم. وذكرت مدام دي سفنييه هذه الحادثة لابنتها في إحدى رسائلها (كنا عند مدام دي لافاييت لما بلغه ما أصاب أولاده، فسالت دموعه من أعماق قلبه على خديه. . . رأيت قلبه عاريا في هذا الظرف القاسي فعرفت فيه قلب رجل شجاع ثابت الجنان راجح العقل وافر الحنان)
ولما ماتت أمه في عام 1678، وكان يحبها حباً شديداً، كتبت مدام دي سفنييه إلى ابنتها تقول: (رأيته يبكي في حنان جعلني أعبده)
وبكاؤه أولاده وأمه شيء عادي لا يستحق الذكر. وإنما ذكرته مدام دي سفنييه لأن الناس
اعتقدوا أن هذا الرجل الذي أنكر العواطف الإنسانية في كتابه، غليظ القلب عار من العواطف، فأرادت أن تمحو ما وقر في أذهانهم وتبرهن لهم على خطأ اعتقادهم وذات مرة فاجأته مدام دي سفنييه (متلبساً بالحنان) إذ سمع قصة تدل على الشجاعة ونبل العاطفة في أشد المواقف هولاً فبكى. وفي هذا تقول: (إنه يبكي نفسه بإعجابه بنبل هذه العاطفة) وأوحت إليه هذه القصة إحدى مواعظه: (يشعر الإنسان بأن له نصيباً في الأعمال الجميلة إذا مدحها بقلب خالص)
وقبل موته بقليل عرض عليه (هويه) أحد معلمي ولي العهد الدخول في مجمع العلماء، فاعتذر من القبول بالمرض. ولكن (هويه) يقول في مذكراته إن سبب رفضه يرجع إلى خجله الشديد في حضرة الجمهور
وفي أوائل شهر مارس عام 1680 استبد به الداء، فعاده جميع الأطباء النابهين، ثم

دعي (تالبوت) الطبيب الإنجليزي المشهور لعلاجه، ولكن الطب عجز عن قهر المرض. وفي 15 مارس كتبت مدام دي سفنييه إلى ابنتها تنبئها بحالة الدوق وتظهر لها إعجابها بهدوء نفسه واطمئنانه إلى لقاء الموت

وفي يوم 16 مارس استوفى أنفاسه ليلا بين ذراعي بوسويه، وهو في السابعة والستين من عمره، أي بعد موت الدوقة دي لونجفيل بعام، وبعد نشر قصة مدام دي لافاييت (أميرة دي كليف) بعامين وقد خلف لأولاده ديناً كبيراً على الرغم من ثروته الهائلة. ولكن ابنه الأكبر فرنسوا السابع نال بحكمته عطف الملك وحبه، وأصلح بمعونته ما أفسده أبوه

صفاته

ذكرنا في تاريخ حياته أنه وصف نفسه كتابة في صالون الآنسة دي مونبانسييه، ونشر هذا المقال عام 1659، فكان أول عهد الجمهور بآثار هذا الكاتب الأدبية. وقد استهله بوصف دقيق لقامته وشعره ورأسه وأسنانه، ثم قال: (يحمل وجهي سمة الحزن وطابع العزة، وهذا ما يجعل الناس يعتقدون خطأ أن من طبعي ازدراءهم. ومزاجي تستقر فيه الكآبة وتألفه، ولم يرني أحد من الناس أضحك أثناء ثلاثة أعوام أو أربعة إلا ثلاث مرات أو أربع، ويخيل إلي أني كنت أحتمل اكتئاب مزاجي وأجد فيه بعض الراحة والهدوء لو لم يستطب صحبتي اكتئاب آخر يملأ مخيلتي ويستبد بفكري، ويجعلني أقضي جل وقتي إما صامتاً

(حالما وإما متكلما دون أن ألقى بالي إلى ما أقول

وليس من العسير أن نجد سبب هذا الاكتئاب الآخر، فإن ذكريات الحرب الأهلية تركت في نفسه أثراً أليما، وولدت في دخيلته الاكتئاب الباطني الذي غمر (مواعظه) فبدت للناس قاتمة حزينة.

يتبع

حسن صادق

العُلوم

النظريات الحديثة في تعيين الجنس ذكر أم أنثى

بقلم منير غندور ليسانسييه في العلوم

عندما يولد الطفل يكون قد حدد مصيره، ذكراً كان أم أنثى، من تسعة أشهر، منذ تألفت أول خلية من خلايا الجنين بالتحام خلية كبيرة تقدمها الأم وتسمى بويضة، مع خلية أخرى من الخلايا الكثيرة العدد التي يقدمها الأب، وتسمى خلية منوية (سبارماتوزيد ثم تتضاعف الخلايا وتنمو سائرة في أحد اتجاهين.

ولكن تحت أي تأثير تأخذ الخلية الأولى الاتجاه الأول أو الثاني؟ ترون هنا أهمية معرفة ما يدخل من عوامل لتعيين جنس الجنين من الناحية العلمية البحتة ومن الناحية التطبيقية أيضاً، إذ لا يخفى أنه لو توصلنا إلى معرفة العوامل التي تجعل الذكر ذكراً والأنثى أنثى وطرق استعمالها حسب مشيئتنا (فنوصي) على ذكر أو على أنثى حسب الحاجة لقلبنا النظام البشري الحالي.

إن علم (البيولوجيا) توصل اليوم إلى معرفة هذه العوامل وأزاح كل غطاء عنها، ولكن رجاله لا يزالون يكررون التجارب ليتمكنوا من استخدام هذه العوامل حسب مشيئتهم. وهذه التجارب التي أجريت أخيراً في هذا الصدد، وقد خصها مسيو جان روستان بكلمة أجملها فيها، هي التي بعثتني على الكتابة في هذا الموضوع لأبين العوامل التي تدخل في تعيين الجنين والاتجاه الذي يأخذه علماء البيولوجيا الحديثين في تجاربهم هذه.

لنأخذ الخلية الأولى المكونة للجنين: لقد أصبح أكيدا اليوم أن هذه ستكون ذكراً أو أنثى تحت تأثير (الكروموزومات) وهذه عبارة عن ذرات متناهية الصغر توجد في نواة كل خلية. وفي الجنس البشري يوجد ثمان وأربعون (كروموزوم) عند المرأة، 46 متشابهة ثم اثنان متشابهان، ولنسمهما وعند الرجل 46 متشابهة ثم اثنان يختلف كل واحد منهما عن الآخر، ولندعهما

أما البويضة و (السبارماتوزيد) فهما لا يحتويان إلا على نصف عدد الكروموزومات الذي تحتويه الخلايا العادية فكل بويضة تحتوي على + 23 أما السبارماتوزيد فـ 50 % من مجموع عدده تحتوي على + 23 و 50 % على + 23.

إذاً بين السبارماتوزيدات التي يقدمها الأب نوعان مختلفان، نوع يحتوي على + 23 ونوع يحتوي على + 23. وعلى حسب ما تلتقي البويضة بالنوع الأول أو الثاني يكون الكائن الناتج أنثى (بويضة مع سبارماتوزيد) + 23 أو ذكراً (بويضة مع + 23) وفي مجموع الكروموزومات التي يقدمها الأب 50 % من + 23 و 50 % من + 23 فللكروموزوم الأول إذا نفس الإمكانية التي للثاني للالتحام مع البويضة وهما يخضعان في التحامهما مع البويضة، تارة هذا وتارة ذاك للمصادفة في الأعداد القليلة. في الإعداد الكبيرة لقانون - الاحتمال - ونحن نرى أن نسبة عدد الذكور للإناث في العالم يخضع تقريباً لنسبة 12 (أعني في المواليد). أما وجود المذكار (المرآة التي عادتها ولادة الذكور) والمثناث (المرأة التي عادتها ولادة الإناث) فهذا لا يعني أكثر مما يعنيه الحصول في لعبة (الروليت) مثلاً على نفس اللون مرات عديدة متتابعة. إذ نسبة مجيء اللون الأول واللون الثاني تبقى خاضعة في الأعداد الكبيرة، 500 ألف مرة مثلا، إلى نسبة12.

إذاً لقد قال العلم كلمته في هذا الموضوع.

القسم الثاني من هذا البحث هو أن نستطيع إدخال النوع الذي بالتحامه مع البويضة يعطي ذكوراً وحده، والنوع الذي يعطي إناثاً وحده.

أما إدخال الخلايا المنوية الاصطناعي فهذا ما يستطيع أن يقوم به المتمرنون عند الحيوان كما عند الإنسان مع قليل من الاحتياط. ولكن فصل النوعين عن بعضهما لم يتم إلى الآن برغم كل ما أجرى من محاولات.

وأول ما يتبادر إلى الذهن إمكان وجود فرق في الحجم بينهما فنستطيع حينها أن نفصل الأول عن الثاني بسهولة. ولكن شيئاً من هذا لم يلاحظ. وهناك فكرة بثها وقال بتحقيقها عالمان روسيان هما: وهي افتراض أن الكروموزومات تحمل كهربائية على سطحها، كأكثر الذرات الحية المعلقة في وسطها الطبيعي، وأن هذه الحمولة الكهربائية هي سلبية عند نوع وإيجابية عن النوع الثاني. وفي هذه الحالة يكون من السهل فصل هذين النوعين عن بعضهما بمجرد تأثير مجرى كهربائي.

طبق هذا الافتراض على كروموزومات الأرنب، وكانت النتيجة أن الكروموزومات التي وجدت على القطب الإيجابي أي المكهربة سلبياً أدخلت لعشر أرنبات والعشرة أعطت ذكوراً، والكروموزومات التي وجدت على القطب السلبي أي المكهربة إيجابياً لعشر أخريات أعطت ثمانية منها إناثاً واثنان ذكوراً. والكروموزومات التي وجدت بين السلبي والإيجابي أعطت ذكرين وأنثيين:

وقد ذكر (جان روستان) الأبحاث الأخيرة التي قام بها طبيب ألماني يدعى في هذا المعنى. ونتيجة هذه الأبحاث هو أن الوسط القلوي يناسب النوع من الكروموزوم الذي يسبب ذكوراً، والوسط القليل الحمض يناسب مسببي الإناث. وهكذا يكفي لكي تحمل الأم ذكراً أن تحقن موضعياً بكربونات الصودا مثلا قبل الجماع. ويؤكد (انتار بارجار) نجاح هذه الطريقة عند الست والأربعين من النساء اللاتي تقدمن إليه خلال سنة 1932.

ولكن العلم لا يستطيع الجزم بعد في هذا الموضوع. ولا يمكننا أن نقبل نظرية لها من الأهمية ما لهذه معتمدين على بضع نتائج لم يقم بها إلا فئة قليلة من علماء البيولوجيا. غير أنه لا يبعد أن يصل العلم بعد قليل إلى حقيقة نهائية في هذا الموضوع.

ولنفرض أن العلم وصل إلى هذه الحقيقة فهل ينتج عن إمكان إعطاء ذكر لأي كان؟ لا.

فنحن لا نستطيع أن نعطي ذكوراً أو إناثاً إلا لمن نقصتهم الذكور أو الإناث لتصرف الصدفة الوحيد ولكن هناك خلايا منوية، من منتجات الذكور مثلا، تكون ضعيفة التركيب ينقصها شيء أساسي كامن فلا يمكنها الوصول إلى البويضة أو إذا أمكنها ذلك والتحمت معها يقف عند حد ما نحو الجنين، أو يتم ولكنه يولد ذا علة جسمية أو عقلية. والدليل على هذا ما نراه عند المرأة المئناث. فالمرأة التي عادتها ولادة الإناث نراها (في كثير من الأحيان) بغتة، بعد أن تكون وضعت أربع بنات أو خمسا تلد ذكراً ميتاً أو يعيش قليلا ثم لا يلبث أن يموت دون أن تظهر علة ما خارجية. ثم تسقط ذكراً لم يتم نموه ثم ذكراً ميتاً أو ابله.

وهنا أستطيع أن أقول، دون أن أبحث المسألة من وجهتها الفلسفية إن قانون المصادفات الذي تكلمت عنه في البدء والذي يجري على حسبه تلقيح البويضة إما

بخلية منوية + 23 أو بخلية منوية + 23 يكون فوقه في تأثيرات وصفات بيولوجية عميقة لا يحيط بها بعد علمنا.

وعلى كل حال فأنتم ترون ما قد يثيره تحقيق هذه الفكرة من مشاكل فلسفية واجتماعية.

ورأيي أنها لن تتعدى النظريات، وفي هذا، أي تحقيقها النظري عظيم رضى العالم وغايته الوحيدة، وإذا تعدتها للحيوان فهي لن تطبق على الإنسان لأنها لن تزيد في أكثر الأحيان إلا في إشقائه وإكثار المسؤولية التي تقع على كاهله.

منير غندور

اللانهاية هي شيء كله مساو جزءه

للأستاذ قدري حافظ طوقان

مقدمة

يوجد في بعض فروع المعرفة اصطلاحات وتعبيرات من الصعب جداً تعريفها أو تفسيرها تفسيراً موجزاً في بضع كلمات، وقد لا يستطيع الباحث أو العالم المتضلع أن يعطي إيضاحاً بكلمات قليلة تبين المعنى المقصود بصورة دقيقة جلية واضحة، ولهذا يضطر للتقرب من تعريفها أو لإعطاء فكرة عنها إلى ذكر وشرح بعض خواصها. وقد تبدو التعاريف لبعض الاصطلاحات العلمية لأول وهلة غريبة أو غير معقولة. وإذا جاز للقارئ أن يدهش من الوضع الموجود به تعريف اللانهاية، وإذا جاز له أن يضحك عند قراءته، أقول إذا جاز له كل ذلك يجوز لنا أن نطلب منه التمهل وقراءة المقال بتمعن عسانا - نحن وهو - نلتقي، وعساه بذلك يوافق العلم ويقره، ويعذره حين يضطر إلى وضع تعاريف لبعض الاصطلاحات بصورة قد تبدو غريبة يمجها المنطق في البدء، وقد لا يستسيغها عقل غير المطلعين على الموضوعات التي تحتوي أمثال هذه الاصطلاحات.

إن تعريف اللانهاية يختلف بحسب الميدان الذي تكون فيه، فهي في ميدان الفلسفة والمعنى المقصود منها فيه غيرها في ميدان الرياضيات، غيرها في الدين، غيرها في ميادين الفروع المختلفة المتنوعة

معكوس الصفر

خذ أية كمية محدودة كالواحد مثلاً، ولنقسمه على 21 فخارج القسمة 2، وإذا قُسم على 41 فخارج القسمة 4، وإذا قسم على 100 فالخارج 1001، وإذا قسم على 10001 فالخارج 1000، وهكذا كلما صَغُر المقسوم عليه زاد خارج القسمة وكبر، حتى إذا ما كان أصغر من أية كمية موجبة (صفر) كان الجواب أكبر من أية كمية موجبة (كمية لا نهائية)، أي أن الواحد إذا قسّم على الصفر فالجواب كمية لا نهائية، أي كمية لا نهاية ويُرمز لها بهذه العلامة ?، ويمكن وضع=01 المعنى السابق بهذه الكيفية: وكذلك إذا قسمنا الكمية المحدودة على كمية لا نهائية فالجواب أصغر من أية كمية موجبة أي الصفر. من هنا يتبين أن العلاقة متينة بين الصفر واللانهاية، فالصفر هو في الحقيقة معكوس اللانهاية ومعكوس اللانهاية هو الصفر.

هذا إيضاح يفسر خاصة من خواص اللانهاية، ويمكن وضع هذه الخاصة بالتعبير الآتي: إذا قُسّمت أية كمية محدودة على الصفر فالخارج يساوي كمية لا نهائية.

تعريف غريب

لندع هذه الخاصية ولنأخذ غيرها علنا منها نستطيع أن نضع تعريفاً لـ (اللانهاية) وعلنا بذلك نوفر على الراغب في البحث عنها، وفي الوقوف على معناها قراءة صفحات عديدة من كتب الرياضيات وفلسفتها.

خذ المتوالية العددية الآتية: 1، 2، 3، 4، 5، 6، 7، 8، 9. . . . . إلى عدد لا نهائي من الحدود فمجموعها كما هو ظاهر كمية لا نهائية.

خذ أيضاً المتوالية الهندسية الآتية وهي غير المجموعة الأولى: 2، 4، 8، 16. . . إلى عدد لا نهائي من الحدود، فمجموعها أيضاً يساوي كمية لا نهائية، ومن مراجعة المتواليتين يظهر أن كل حد من المتوالية الثانية موجود في المتوالية الأولى، أي أن

المتوالية الثانية هي جزء من الأولى، ومع ذلك فمجموع كل من المتواليتين يساوي كمية لا نهائية، ومن هنا ظهر تعريف اللانهاية بالشكل الآتي: (هي شيء كله مساو جزءه) ومن هنا يظهر أيضاً
للقارئ السبب الذي اضطر بعض العلماء إلى وضع مثل هذا التعريف الذي قد يبدو غريباً ومثيراً للدهشة وغير معقول
اللانهائي في المحدود
ومن غرائب خاصيات (اللانهاية) التي نجدها في البحوث الرياضية انه قد يتفق (في بعض الأحوال) أن يكون مجموع كميات عددها غير محدود لا نهائي يساوي كمية محدودة. أليس في هذا غرابة؟ أليس في هذا عجب؟ قد لا يصدق القارئ ما نقول ولذا سنوضح معنى ما مر:
خذ العدد الكسري 31 وهو كمية محدودة، ولنحوله إلى كسر عشري فينتج لدينا كسر دائري 0. 3 أي 0.
33333000000 10003 + 1003 + وهذه تساوي 103 +
100003 +. . . 101 + 1 (وهذه الأخيرة تساوي 103 +
1001 + 10001 +. . . إلى حدود عددها لا نهائي) ومن
هنا يتبين أن مجموع كميات عددها لا نهائي يساوي كمية محدودة
اللانهاية والعلم
والآن قد يتبادر إلى ذهن القارئ أن يسأل ما علاقة العالم باللانهاية؟ وهل اللانهاية حقيقة موجودة؟ وهل يستطيع العقل البشري تصور شيء لا نهائي؟ وجواباً على هذه الأسئلة نقول: إن العلم يقرر (أو يجب أن يقرر) وجود شيء لا نهائي، فالخط يتكون من نقط عددها غير محدود ولا نهائي، والوقت يتكون من عدد غير محدود من اللحظات، ويمكنك أن تقسم المستقيم إلى أقسام لا عديد لها، وأن تستمر في ذلك إلى ما شاء الله.
وقد ظهر للقارئ بجلاء كيف أن مجموع كميات عددها لا نهائي يساوي كمية محدودة، وقد
لا يكون غريباً إذا قلت أن كثيراً من البحوث الرياضية العالية لا يمكن أن يحاط بها، ولا أن تكون كاملة إلا بـ (اللانهاية)، وكم من الأعمال والمسائل الرياضية تحتاج إلى استعمال اللانهاية إذ لا يمكن حلها إلا بها.
على كل أرجو أن أكون قد وفقت إلى إعطاء فكرة عن اللانهاية، فان كان ذلك فهذا ما قصدت.
نابلس
قدري حافظ طوقان
القصص
صاحب الملايين الأنموذج
للأديب الإنجليزي أوسكار وايلد
ترجمة الأستاذ بشير الشريقي
لا ينتفع المرء بجمال الشاب إلا مع الغنى؛ البطالة عمل الغني وليست شغل الفقير؛ على الفقراء أن يكدوا في طلب الرزق؛ دخل ثابت خير لك من شبابك الفاتن؛ تلك هي الحقيقة الواحدة في هذا الجيل الحديث، الحقيقة التي لم يدركها (هيوارسكين).
مسكين هيو! إنه ليس بالفتى صاحب الشأن أو الذي يضر وينفع؛ ولكنه كان يبدو مثال الملاحة بشعره الأسمر المجعد. وعينيه الرماديتين؛ ووجهه الجميل، وكان مشهوراً بالحسن بين الرجال والنساء على السواء، وبأنه يجمع كل الفضائل إلا فضيلة كسب المال؛ خلف له والده وكان فارساً مقداماً حسامه وتاريخ حرب الجزيرة في خمسة عشر مجلداً، فعلق (هيو) الحسام على مرآته، ووضع كتاب التاريخ على الرف. لقد طرق كل أبواب الرزق، فاحترف الصرافة ستة أشهر، ولكن ما الذي تفعله الفراشة بين الثيران والدببة؟ واشتغل بتجارة الشاي لمدة أطول بقليل، ولكن سرعان ما تعب؛ حينئذ جرب بيع الخمر الأسباني فلم ينجح؛ وأخيراً أصبح لا شيء، اللهم إلا شاباً طروباً قد أعطى البطالة مقوده.

وعلى نية العمل المثمر أحب؛ وكانت الفتاة التي أحبها تدعى (لورا ميرتون) وهي ابنة كولونيل متقاعد أضاع مزاجه ونظامه في بلاد الهند. لقد عبدته (لورا) وكان هو على استعداد لأن يقبل شريط حذائها؛ كانا أظرف عاشقين في لندن ولا يملكان فلساً واحداً.

أحب الكولونيل (هيو) كثيراً، ولكنه لم يكن يرغب أن يسمعه يتحدث عن أية خطبة، وكان يقول له من حين إلى حين: (تعال إليّ يا ولدي؛ حين تصبح مالكاً لعشرة آلاف جنيه عندها نفكر في أمر خطوبتكما) فيتألم (هيو) ويذهب إلى (لورا) ليجد بقربها العزاء.

في صباح أحد الأيام خطر له - وهو في طريقه إلى متنزه (هولاندة) - أن يرى أحد أصدقائه العظام (ألن تريفور) وكان (ألن تريفور) رجلاً غريباً فظاً؛ نمش الوجه أحمر الخدين خشن اللحية؛ ولكنه كان رساماً ماهراً، وفناناً إذا تناول قلم الرسم فهو الأستاذ الحقيقي والرسام العبقري.

وكان هذا الفنان عظيم الميل (لهيو) في الزمان الذي مضى، عظيم التقدير لجماله، وكثيراً ما كان يقول (على الفنان أن لا يصاحب إلا الظرفاء اللطفاء؛ والذين يشجيك مسمعهم ومنظرهم).

حين دخل (هيو) المحترف (الستديو) وجد (تريفور) يضع الأجزاء الأخيرة لصورة شحاذ كبيرة، ورأى الشحاذ نفسه واقفاً على منصة مرتفعة في زاوية المحترف، لقد كان شيخاً متهدماً ذا وجه كالجلد المجعد، قد ألقى على كتفه عباءة خشنة كلها رقع وخرق، ولبس حذاء رثاً بالياً، واتكأ بإحدى يديه على عصا غليظة، ومد بالأخرى قبعته الممزقة يلتمس المعروف!.

همس (هيو) وهو يصافح صديقه - ياله من أنموذج غريب! فصاح (تريفور) بأعلى صوته - أنموذج غريب. . أظنه كذلك. . إنك لا تلتقي بأمثال هذا الشحاذ كل يوم. . إنه لقية يا عزيزي.

هيو - مسكين هذا الشيخ إنه يبدو مثال البؤس والشقاء وإني لأظن أن ثروته بالنسبة إليكم أيها الفنانون إنما هي في وجهه

أجاب تريفور - طبعاً. . أنت لا تريد أن يبدو الشحاذ مسروراً

هيو - كم يأخذ الأنموذج عن كل جلسة.

- شلناً في الساعة.

- وكم تأخذ أنت على صورتك يا (ألن)

- أوه. . آخذ على هذه ألفي جنيه.

هيو ضاحكاً - حسن، ولكني أرى أن يأخذ الأنموذج نسبة من الأرباح، إنهم يتعبون بقدر ما تتعبون.

- كلام هراء. . يجب ألا تضيع وقتي بمثل هذا السخف، إنني مشغول جداً، دخن سيجارة واجلس صامتاً.

وبعد حين دخل الخادم وأخبر (تريفور) أن صانع الأطر يريد أن يكلمه.

وهو خارج - لا تذهب يا (هيو) سأعود حالاً (تريفور).

اغتنم الشحاذ الشيخ فرصة غياب (تريفور) فجلس يستريح على مقعد خشبي كان موضوعاً خلفه، حقيراً بائساً؛ حتى أن (هيو) لم يملك نفسه من الحزن عليه، فمد يده إلى جيبه ليرى مقدار ما معه من الدراهم، فكان كل الذي وجده ديناراً وبضعة دوانق، فقال لنفسه (مسكين الشيخ إنه أحوج مني إلى هذه الدراهم) وسار وسط (الستديو) ورمى الدينار في يد الشحاذ.

فزع الشيخ وارتسمت على شفتيه الذابلتين ابتسامة ضئيلة وقال: أشكرك يا سيدي. . أشكرك. .

ثم حضر (تريفور) فاستأذنه (هيو) بالانصراف إلى (لورا) حيث أمضى النهار وتمتع بتعنيف لذيذ على إسرافه.

وفي تلك الليلة؛ حوالي الساعة الثانية عشرة، ذهب إلى نادي (باليت) فوجد (تريفور) جالساً وحيداً في غرفة التدخين يعاقر بنت الحان؛ فقال له وهو يشعل سيجارته.

- خيراً (ألن). . هل أنهيت الصورة!

فأجاب تريفور - لقد انتهت يا ولدي، وأحيطت بالإطار؛ وعلى ذكر الصورة أخبرك أنك

حزت ظفراً عظيماً نهار الأمس، إن ذلك الأنموذج الشيخ الذي رأيته معجب بك كل الإعجاب ولقد أخبرته عن كل ما يتعلق بك. . من أنت؟ وأين تعيش؟ وكم دخلك! وما هي مطالبك من الدنيا؟. . .

صاح (هيو) - يا عزيزي ألن، أخاف أن أجده في انتظاري كلما ذهبت إلى البيت؛ ولكنك تهزل. . مسكين هذا الشيخ الفقير.

آه! لو أقدر على نفعه. . إنه لشديد أن يعيش إنسان في مثل بؤسه؛ عندي في البيت تلال من الثياب القديمة، فهل تظن أنه يهتم بثوب منها؟ ولم لا؟ إن خرقه أخذ منها البلى مأخذه. .

تريفور - ولكنه يبدو في أطماره زاهياً، إن ما تسميه أنت اطماراً أسميه أنا حللاً، وما يظهر لك أنه الشقاء هو مثال البهاء عندي. . وعلى كل حال فسأخبره عن هديتك.

هيو جاداً - إنكم بلا قلب أيها الرسامون.

أجاب تريفور - قلب الفنان رأسه، ليس الإصلاح صنعتنا وإنما تصوير العالم كما نراه ولكل صنعته. . والآن حدثني عن (لورا) كيف هي؟ لقد أغرم بها الأنموذج كثيراً.

هيو - أنت لا تريد أن تقول إنك حدثته عنها.

- أؤكد لك أنني حدثته، لقد عرف كل شيء عن الكولونيل الذي لا يرق له قلب، وعن (لورا) المحبوبة؛ وعن العشرة آلاف جنيه.

فصاح هيو وقد بدا عظيم الغضب كثير الاحمرار - إذن لقد أطلعت ذلك الشيخ الشحاذ على كل شؤوني الخاصة.

تريفور مبتسماً - يا ولدي العزيز إن الذي تدعوه بالشيخ الشحاذ هو من أغنى الرجال في أوربا، إنه يقدر أن يبتاع لندن كلها غداً من غير أن يؤثر ذلك في ثروته؛ إن له قصراً في كل عاصمة؛ ويأكل في أطباق من الذهب والفضة؛ وهو قادر - حين يشاء - أن يمنع روسيا من الحرب.

هيو متعجباً - من هذا الذي تعنيه؟. .!

تريفور - أقول إن الرجل الشيخ الذي رأيته في (الستديو) هو (البارون هوسبيرج) إنه من أعظم أصدقائي، ويبتاع كل صوري، وقد كلفني منذ شهر أن أرسمه كشحاذ فما قولك بهوي هذا المليونير.

صاح هيو - البارون هوسبيرج يا إله السموات. لقد تصدقت عليه بجنيه. . وارتمى على المقعد مذعوراً. .

تريفور صائحاً - تصدقت عليه بجنيه!! وانفجر عن هدير من الضحك!

هيو بحزن - كان يجب أن تخبرني يا ألن. . .

ألن - لا بأس يا هيو. . إنه لم يخطر لي على بال أنك يمكن أن تذهب هذا المذهب في توزيع الصدقات؛ إنني افهم تقبيلك لأنموذج جميل، أما أن تعطي ديناراً لقبيح فلست أفهمه!

هيو - وأي غبي ظنني؟.!

- أبداً لقد كان في غاية السرور بعد أن غادرتنا، وظل يضحك في سره ويصفق بيديه المتغضنين مدة؛ لم أستطع إدراك سر سروره حينذاك؛ ورغبته في معرفة كل شيء عنك؛ أما الآن فقد فهمت كل شيء؛ سوف يشغل لك دينارك يا هيو ويدفع لك الفائدة كل ستة أشهر.

زمجر هيو - يا لي من شقي. الأحسن لي أن أذهب إلى الفراش، أرجوك يا عزيزي ألن ألا تخبر أحداً؛ إنني لم أعد أجرؤ على لقاء الناس

كلام هراء. إن عملك يا هيو يدل على ما في نفسك من الخير العظيم، لا تذهب، خذ سيجارة أخرى؛ وتكلم عن لورا بقدر ما تشاء. .

لكن (هيو) لم يقف بل سار إلى البيت حزيناً، تاركاً (ألن تريفور) غارقاً في الضحك.

في صباح اليوم الثاني وقد جلس (هيو) يتناول فطوره، أحضر له الخادم بطاقة كتب عليها (السيد كوستاف نودن، رسول البارون هاسبورج).

فقال هيو لنفسه - يغلب على ظني أنه آت يطلب إلى أن أعتذر، ثم أمر الخادم أن يصعده ردهة الاستقبال. .

دخل الغرفة شيخ جليل ذو منظار ذهبي وشعر أشيب وقال بلهجة فرنسية: هل لي شرف الكلام مع السيد (أورسكين).

- فانحنى له هيو.
. . . .الشيخ مستمراً - لقد أتيت من عند البارون هاسبيرج، ان البارون
هيو مقاطعاً - أرجوك يا سيدي أن تبلغه أصدق اعتذاري.
فابتسم الشيخ الجليل وقال - لقد أرسلني البارون أسلمك هذا الكتاب. ومد يده بمغلف مغلق قد كتب عليه (هدية عرس إلى هيو أورسكين ولورا ميرتون من شحاذ عجوز) وفي داخله حوالة بعشرة آلاف جنيه
وحين اقترنا صار لهما ألن تريفور عجاهنا، وألقى البارون خطاباً على مائدة العرس؛ وأبدى (ألن) هذه الملحوظة (إن نماذج صاحب الملايين نادرة، ولكن أنموذج أصحاب الملايين أندر)
شرق الأردن
بشير الشريقي المحامي
النقد
حول ديوان الينبوع
للدكتور احمد زكي أبي شادي
إنني آسف أشد الأسف إذا كان ردي السابق على الأديب المرتيني يصح أن يوصف بالحدة كما وصفه حضرته، وما كنت أحسبه إلا مثالا للهدوء المقترن بالصراحة. وقد كرر ناقدي الأديب قوله عن الأدباء المصريين: (وإذاً أنا أعود فأردد مرة أخرى، ما عرفت الدكتور وإضرابه من إخواننا المصريين إلا أباة على النقد. يثيرون من أجله المعارك ويتسارعون بسببه إلى الخصام والنزاع). وقد أغناني الشاعر الناقد طلبة محمد عبده برده في عدد مايو من مجلة (أبولو) عن الرد المسهب على الأديب المرتيني، وحسبي هنا أن ألاحظ في إيجاز نقطتين: الأولى أن كل حجة صاحبنا في مؤاخذتي تقدمي إلى الرد عليه في أدب واعتدال، كأنما الواجب علي وعلى أمثالي الخضوع لديكتاتوريته النقدية، فإذا ما ناقشناها في هدوء مناقشة أدبية وصمنا بما وصمنا به، والثانية شهادة مجلة (الضياء) الهندية، وقد وافتني يوم صدور عدد (الرسالة) المنشورة به مقالة ناقدي، فقد ذكرت (الضياء) - وهي من أرقى المجلات الأدبية في العالم العربي - في كلامها على (الينبوع) وصاحبه وتشجيعه للنقد الأدبي أن تشجيعي هذا هو (جرأة نادرة) في هذا الزمن.
إذن ليس هناك يا صاحبي أي حدة ولا تأب على النقد، فأعداد (الرسالة) بين أيدي القراء، كما أن (الينبوع) وغيره من دواويني ومؤلفاتي بين أيديهم، ويمكنهم أن يدرسوا ويقارنوا لأنفسهم بين كتابتي وكتابتك. وفي الحق لم يعرف عني إلا العداء للديكتاتورية الأدبية، سواء أجاءت من ناحية المؤلفين أم من ناحية النقاد، وقد شجعت وسأشجع دائماً النقاش الأدبي البريء لأنه خادم وأي خادم للأدب، ومتى تحقق الاحترام المتبادل بين المؤلفين والنقاد، فلن يؤدي النقاش الأدبي بينهم إلا إلى الخير الأدبي المحض. ولولا هذا الإيمان في نفسي بالنقد وفوائده لصدقت عن التعليق على ما يكتب عني، فجل شعري لنفسي أولا لا للجمهور الذي تتحدث أنت عنه وتود أن تراعيه، وأنا لا أتطلع إلى مدح أو تصفيق لقاء جهودي، وقد أصبحت لا أتطلع حتى إلى محض الإنصاف من معظم معاصري
ومن كان لا يعنيه مدح ولا قلى ... يعف عن المدح العريض ويستغنى
وقد تأملت الملاحظات الفنية الجديدة التي جاء بها نقدي الفاضل في مقاله الثاني فأسفت لأنه لم يذكرها في مقاله الأول. ولو كان قد فعل ذلك لما كنت رددت عليه: فقد كان في مقاله الأول يلقي الأحكام كأنه القاضي الأعلى الذي لا مرد لحكمه. وأما في مقاله الثاني فهو ينزع إلى التفسير النفساني ويتحدث عن الذوق الفني وما إلى ذلك. . وهو في موقفه الجديد منع من أن يساءل أو يناقش، اللهم إلا في تذكيري إياه بأن قولي:
كن أنت نفسي واقترن بعواطفي ... تجد المعيب لدي غير معيب
لا يعني شيئاً مما ذكره، وإنما يعني أن الناقد الذي لا يستطيع أن يتمثل نفسية الشاعر وظروفه والعوامل المؤثرة عليه وقت نظمه هو أبعد الناس عن الإنصاف، لأنه سيعيب ما لا يعاب لو أنه تمثل شخصية الشاعر في المناسبة التي نظم فيها ذلك الشعر المنقود. وليس من الحكمة ولا من الإنصاف في شيء أن يتقدم الناقد لي أثر شعري

وهو نافر من صاحبه كيفما كانت أسباب ذلك النفور.
إن التحدث عن اللغة الفنية لا أول له ولا نهاية. وقد نقد لغتي من نقدها ممن عرفوا بالتضلع في اللغة والتمكن من الشعر. وفي مقدمتهم السيد مصطفى جواد، ولهؤلاء السادة ما لهم من الذوق الشعري الناضج. أليس هؤلاء إذن أولى من الأديب المرتيني بالحكم في هذا المجال؟ وما معنى انتقاص معارفهم ومناحيهم؟ أليسوا أجدر منه ومني بتحديد ما يسميه باللغة الصحفية؟ ليس لي يا صاحبي أن أزكي نفسي، وإن كان لي أن أدافع عن مذهبي أحياناً، وقد كتب في تقدير روحي الفنية وتعابيري الشعرية غير واحد من الأدباء المشهورين، ومنهم من ناقشك، فلك أن تناقشهم إذا شئت، وأما أنا فلا أجد فيما كتبت من جديد سوى إبهام جديد، إلا في موضع أو موضعين، وليس لي من رد على مثل هذا الانتقاص المبهم غير إنتاجي الجديد. . .
لقد أعجبك قول امرئ القيس
مكر، مفر، مقبلٌ، مدبرٌ، معاً ... كجلمودِ صخرٍ حطه السيلُ مِنْ علِ!
نظراً لما فيه من موسيقى وحركة وخيال، ولا أعرف أن كل شعر امرئ القيس من هذا القبيل، أو أن شعري تجرد من مثل ذلك، كما أني لا أعرف أن مثل هذه الصفات التي شاقتك مرغوب فيها في جميع ضروب الشعر، ومنه ما قد تؤثر فيه موسيقى المعاني والهدوء والتأمل العميق قبل رنين الألفاظ والحركة والخيال الوثاب.
ولك أن تنتزع بيتاً أو بيتين من قصيدة، وأن تقف حائراً مستنكراً. ولكني (وأنا المؤمن بوحدة القصيد والحريص على ذلك) لا أطلب شططاً إذا سألت قرائي أن يقرءوا تلك القصائد كاملةً ليتبينوا مواقع الأبيات بعضها من بعض وما تحمله من المعاني الظاهرة والضمنية إذا ما انتظمتها وحدة القصيد، وله لها حينئذ قيمة مادية وروحية أم ليست لها تلك القيمة.
وقد تفضل الأديب المرتيني ببيان طويل عن نظراته الأدبية العامة وأسلوبه في النظم ونحو ذلك، أشكره عليه لما حواه من الطرافة ودواعي التسلية التي يتحدث عنها. ولا أود أن أشغل فراغ (الرسالة) بالتعليق عليه فذلك أمر يعنيه، وأود بهذه السطور أن أختم تعليقاتي على كتابته شاكراً (للرسالة) منبرها الحر وغيرتها، وشاكراً لناقدي الفاضل تحمسه للفن وللغة العربية السامية.
احمد زكي أبو شادي
الكتب
مذكراتي في نصف قرن
بقلم الأستاذ أحمد شفيق باشا
(في 527 صفحة كبيرة - طبع مطبعة مصر)
لم يجتمع لكثير من رجال الدولة المصرية مثلما اجتمع لصاحب السعادة الأستاذ أحمد شفيق باشا من ظروف المشاهدة وفرص الدرس والاطلاع والتحقيق؛ فقد عاصر هذا الشيخ النابه النشط عدة عصور ومراحل من تاريخ مصر الحديث؛ وشهد الحياة المصرية منذ أواخر عصر إسماعيل، واتصل بالقصر وشئون الدولة العليا منذ حداثته؛ وشهد حوادث الثورة العرابية وتتبعها بدقة، وكان مرجع النفوذ والحول طوال أيام عباس. ولم يكن شفيق باشا يطوي هذه المراحل والعصور مشاهداً فقط، ولكنه كان يقرن المشاهدة بالدرس والتدوين؛ فكان يدون مذكراته تباعاً عن الحوادث والشئون الخطيرة التي كان تتري في هذه الحقبة من تاريخ مصر، ويدون إلى جانبها كثيراً من الملحوظات عن تطور الحياة المصرية الاجتماعية، ثم عن حياته الخاصة التي كانت صدى ومثالاً صادقاً لهذه الحياة.
وقد أخرج لنا الأستاذ شفيق باشا الجزء الأول من هذه المذكرات في مجلد ضخم؛ يتناول وصف الحوادث والحياة المصرية منذ أواخر عهد إسماعيل حتى عزله، ثم عهد توفيق والثورة العرابية وأسبابها ونتائجها حتى استقرار الاحتلال الإنكليزي. وهذا هو القسم التاريخي العام. ويتناول القسم الثاني منه حياة المؤلف الخاصة أثناء دراسته في باريس، ومشاهداته العامة في فرنسا ومختلف البلاد الأوربية التي زارها.
ولعله لم يصدر عن الحياة المصرية في أواخر القرن وصف أصدق ولا أمتع من ذلك الذي يتحفنا به شفيق باشا في مذكراته. فقد تقلب شفيق باشا منذ حداثته في مختلف البيئات والمجتمعات المصرية لهذا العهد، واتصل بالطبقات الاجتماعية الرفيعة اتصالاً

وثيقاً؛ وشهد بعينه من صورها وألوانها الشيء الكثير؛ ووصف لنا جدها وهزلها ولهوها وسمرها وصفاً صادقاً شائقاً؛ ويجد مؤرخ الحضارة المصرية في هذا العصر في مذكرات شفيق باشا مادة نفيسة تؤيدها المشاهدة الصادقة. وهذه ناحية من الكتاب لها أهميتها وسحرها.

بيد أن لهذه المذكرات من الوجهة التاريخية ناحية أهم. ذلك أن المؤلف يقص علينا سيرة الحوادث السياسية الخطيرة التي وقعت في عهد توفيق، أعني الثورة العرابية وما انتهت إليه من النتائج المشئومة. وقد كتب تاريخ الثورة العرابية وما إليها في العصر الأخير غير مرة، وصدرت عنها مذكرات كثيرة مصرية وأجنبية، ولكن شفيق باشا ينفرد بمعالجة ناحية لم تعالج من قبل بمثل ما عالجها به من الإفاضة والدقة، ولم يكن ليستطيع معالجتها غير شفيق باشا نفسه. ذلك هو موقف القصر ووجهة نظره وحقيقة تصرفاته إزاء تلك الحوادث العصيبة. وقد كان شفيق باشا يومئذ من موظفي القصر، ومن الرجال الذي يضع فيهم الخديو ثقته؛ وكان بذلك في مركز يستطيع أن ينفذ منه إلى بواطن الأمور وحقائقها وأن يعرف حق المعرفة ما يقع في القصر وما يدبر فيه وما يقال نحو الحوادث وتطوراتها، وأن يقف على وثائق لا يقف عليها غير رجال القصر الأخصاء؛ وهذه الناحية تبدو واضحة قوية في رواية شفيق باشا عن الثورة العرابية، وتلقي الضياء على مسائل وشئون كثيرة في تاريخ الثورة لم نقف عليها من قبل بمثل ذلك الوضوح. وهذه الميزة وحدها تجعل لمذكرات شفيق باشا قيمة كبيرة؛ هذا إلى ما يتخلل ذلك كله من النبذ الاجتماعية والأدبية التي تمثل روح العصر وأحواله أصدق تمثيل.

فنهنئ الباشا بمجهوده القيم، ونرجو اله أن يمتعه بالصحة والعافية حتى يخرج لنا ما تبقى في جعبته من ذلك التراث القومي النفيس.

(ع)

حياة وحياة

بقلم الدكتور محمد كامل الصبي دكتوراه في العلوم الطبيعية

كتاب يقع في نيف ومائتي صفحة، أخرجته جماعة نشر الثقافة بالإسكندرية على خير ما تخرج الكتب، دقة طبع، وحسن نظام، ومتانة ورق، وسلامة ذوق.

ولقد شاء الدكتور الفاضل ألا تقف جهوده عند العلم فرأيناه في هذا الكتاب أديباً، بل قصاصاً عذب الروح، واسع المعارف، متين الثقافة

تلمس في هذا الكتاب النهوض، وتعجبك فيه رغبة فنية لنفس متوثبة، تحتقر تقاليد الماضي البالية، وتتألم لما يرزح تحته المجتمع المصري من أعباء وما يتعثر فيه من قيود، وتتمنى أن ترى ذلك اليوم الذي تنفض فيه مصر عن نفسها غبار القرون وتحكم أغلال الجمود، ومن منا لا يشارك الدكتور عواطفه وآماله؟

ولقد وفق المؤلف إلى وسيلة جيدة لعرض آرائه فصور لنا أولاً الحياة المصرية في القرية، حياة الملاك القادرين والعمال المستضعفين من صغار المزارعين، حياة العتو والاستبداد والمسكنة والذلة والجهل، ثم أرانا طرفاً من حياتنا المدرسية وما يكتنفها من آلام ومعايب مما شاهده وخبره بنفسه، فالقصة تدور حوله هو وحول حياته في مصر ثم انجلترا، وهنالك في إنجلترا، وصف لنا الكاتب حياة ذلك المجتمع الزاخر في صدق لهجة ودقة ملاحظة، دون أن تميل به عاطفة الوطنية إلى التحيز، بل إن هذه العاطفة كانت تحدوه إلى المقارنة بين حال وطنه وحال ذلك المجتمع في حماسة وصراحة وإخلاص وغيرة

ولقد قام برحلة في عطلته الجامعية إلى هولنده وألمانيا، ولم يفته هناك أيضاً أن يتعرض لمعايبنا الاجتماعية على ضوء ما صادف هناك من رقي عام قوامه الثقافة الفياضة والتضحية الخالصة، وفناء الفرد في المجموع، مما نتحرق ظمأ إليه في مجتمعنا

ولم يقف في كتابه عند النقد فحسب، بل لقد تعرض لكثير من ضروب الإصلاح، وأورد بعض اقتراحات جالت في ذهنه تشهد برجاحة علقه وصدق نظره

بيد أني أعيب عليه أنه يرى كل ما عندنا شراً، ولعل طموحه وتوثبه وشوقه الزائد إلى تغيير الحال وشدة إخلاصه هو الذي يملي عليه هذه الصرامة حين يشكو أو ينتقد، والحقيقة أني قد شاركته رأيه في جملة مسائل

أحب الكاتب فتاة في الجامعة، وتعرف إلى فتاتين غيرها، فرأى إحداهما تضحي بشهرتها في سبيل الواجب فتقلع عن القيام برحلة جوية إلى استراليا لتسهر إلى جانب سرير أمها المريضة. ورأى الثانية ترفض خطبة حبيب لها لتعول أهلها، فأكبر هذه الأخلاق، ثم لم يشأ أن يكون أقل منهما نبلا، فضحى بحبه في سبيل عاطفته الوطنية، ولم يشأ أن يتزوج من فتاة تخالفه في طبيعته وآماله، وعاد إلى وطنه مسرعا. وكانت تلك هي خاتمة القصة، وكم نود لو نظفر بمثل هذا الخلق وبمثل هذا الروح، وبمثل هذا النشاط الأدبي ممن يعودون إلى أوطانهم من شباننا الناهض.

محمود الخفيف

العدد 48 - بتاريخ: 04 - 06 - 1934

لذة الشراء وآفة الملكية

للأستاذ أحمد أمين

بالأمس ضحك مني بائع الكتب القديمة، إذ رآني أقلب في الكتب، وأذهب ذات اليمين وذات الشمال، وأقف على الكرسي وأنزل من عليه، والكتب بعضها بال عتيق قد غلف بالتراب وأكلته الأرضة، وكلها وضعت حيثما اتفق، لم يعن فيها بترتيب حسب الموضوع ولا حسب الحجم ولا حسب أي شيء، ولم يبذل أي جهد في تنظيفها وعرضها، فكتب في الأرض، وكتب في السماء، وكتب في الرف، وكتب على المقاعد، وكتب في الممشى، البائع رجل تقدمت به السن، زهد البيع وزهد الشراء، وإنما يبيع ويشتري لأنه اعتاد أن يبيع ويشتري، كل ما في أمره أنه فضل أن يجلس في الدكان على أن يجلس في البيت إذ يرى الرائحين والغادين، ويستقبل الزائرين، ومن حين إلى حين يبيع كتابا أو كتابين.

وسط هذه المكتبة المغمورة بالكتب، والمغمورة بالتراب، والمغمورة بالفوضى، انغمست ببذلتي البيضاء، القريبة العهد بالكواء، أبحث عن كتب نادرة أشتريها، وأتصفح كتبا أتعرف قيمتها، فضحك إذ رأى غراماً بالكتب يشبه الجنون، ورغبة في البحث والشراء تشبه الخبل.

لا تضحك - يا سيدي - فإنما هي لذة الشراء أصيب الناس بها جميعاً، وان اختلفوا في مقدار الإصابة، فقد تهور فيها قوم، واعتدل فيها آخرون، وهي ظاهرة في منتهى القوة والغرابة، تتجلى بأجلى مظاهرها في الهواة، فهذا هاوي سجاجيد يجن جنونه إذ يرى سجادة قديمة، صنعت في أصفهان القرن الخامس عشر أو السادس عشر، يحتقرها الرائي العادي، ولا يرضى أن يأخذها ولا بالمجان، ويشمئز أن يراها في بيته، فإذا الهاوي يجري ريقه ويتحلب فمه، كأنه جائع سغب أمام أكلة لذيذة، وقد لا يجد ثمنها فيستدينه، وقد ينقصه الضروري من وسائل العيش ومرافق الحياة فيعمى عنه، ولا يرى أمامه إلا السجادة وشراءها، ولتكن النتيجة بعد ما تكون، وسيتكفل الزمن بسداد الدين، وليحمل الزمن وحده عبء ما يحتاج إليه من ضرورات العيش، بل سواء حلها أم لم يحلها، فليس في الوجود ما يعدل هذه السجادة، فلأشترينها ثم لتنطبق السماء بعد على الأرض

وكذلك الشأن في هاوي طوابع البريد، وهاوي الكتب، وكل الهواة، نمت عندهم على مر الزمان لذة الشراء لما يهوون، وغذاها كثرة الشراء وأحاديث الهواة الذين يحيطون به وإظهارهم الإعجاب الشديد بما اقتني، فإذا نظروا إلى سجادة عجبوا من لونها الباهت، وخيطانها التي هلهلها الزمن، وصورها غير المنسجمة، ونحو ذلك مما يدل على إمعانها في القدم، وكلما كان خيطها أبلى، ونسيجها أبسط، كانت أشد استخراجاً للعجب، وكانوا أكثر لها تقويماً، وأشد لها إعظاماً، وكانت لذة الشراء عند الهواة أشد طغيانا، وهم أمامها أشد ضغفاً.

هذه اللذة - لذة الشراء - يستغلها أرباب (المزاد) فهم يثيرونها إلى أقصى حدودها، ويبلغون مبلغاً جنونياً، فتحتدم الذات، ويخضع الشارون لتأثير الاستهواء، ويتغالبون في أثمان ما يعرض حتى قد تفوق أثمان الشيء الجديد، ولكن الشيء الجديد يشترى والعقل الواعي في سلطانه، وأما أشياء (المزاد) فتشترى والعقل الواعي قد أسدل عليه ستار من الاستغواء والاستهواء، ومن أغرب ما في هذا النوع أنك ترى الكثيرين يندمون إذا اشتروا، ويندمون إذا لم يشتروا.

ولذة الشراء هي السبب في أنك تشتري لزوجتك وبناتك الثوب الجميل، أو الحذاء الظريف، فتعرضه عليهن فلا يعجبهن، ثم يخرجن ويشترين ما هو أقل من جمالا وظرفا ثم يعدن راضيات، قد يكون السبب أن ما اشتريته ليس على ذوقهن، وأن هناك فرقاً كبيراً بين ذوق الرجال وذوق النساء، وأنك إذ تشتري لهن تحكم ذوقك في ذوقهن، ولكن يظهر لي أن ذلك في كثير من الأحيان ليس السبب الصحيح، وإنما السبب الصحيح أنك إذ تشتري لهن تحرمهن لذة الشراء، وهي في نفسها قد تفوق الشيء المشترى نفسه، ويفسر هذا أن السيدة قد تخرج وليس في نفسها شيء معين تشتريه، ولا تحس حاجة إلى شيء يشترى، وإنما هي - في أعماق نفسها - تريد أن تغذي لذة الشراء عندها، فما هي إلا أن تمر في دكان سمعان أو شملا أو شيكوريل حتى تشتري، وتشتري كثيرا، وتشتري ما لم يخطر لها على بال، ثم ترجع راضية لأنها أشبعت لذة الشراء عندها.

ولو أن الناس - وخاصة السيدات - اقتصروا على شراء ما هم في حاجة إليه لأغلقت دكاكين كثيرة، ولقل العرض وقل الطلب - ولكن لذة الشراء عندهم دفعتهم أن يشتروا ما لم يحتاجوا، وأوهمتهم في كثير من الأحيان بالحاجة إلى ما ليس لهم به حاجة - وإلا فما حاجتي إلى شراء كل هذه الكتب والمكتبات العامة مفتحة الأبواب؟ وما الحاجة إلى سراء

نسختين من كتاب واحد والتعلل في ذلك بأتفه الأسباب؟ وما الحاجة إلى ملء البيت بهذا الأثاث وأقل منه يكفي ويزيده حسنا؟ وما الحاجة إلى شراء المرأة هذه الثياب المختلفة الألوان والأنواع، وقد لا تحتاج إليها مرة في الحياة؟ - لا شيء إلا لذة الشراء. ويحدث في هذا الباب غرائب. فما وقوفك على الدكاكين واستعرضك ما فيها إما فيها إلا نوع مما تدعو إليه هذه اللذة، فان اشتريت فيها، وإلا فهو نوع من ظل اللذة كالسكير يتلذذ قليلا في رؤية الشاربين ولو لم يشرب معهم، والمحب يسر بعض الشيء من رؤية المحبين يتواصلون ولو هجره هو حبيبه.

قد كان من المعقول والطبيعي أن الناس - وهم يتلذذون هذه اللذة الشديدة القوية بشراء - يتلذذون كذلك لذة شديدة قوية بالملكية ثم يستمرون على التنعم بها، والتمتع الدائم بملكها، ولكن جرى الأمر في هذا العالم على غير ما يتوقع، فهم راغبون أشد الرغبة في ملك الأشياء، والملكية تذهب بلذتها. فالناس مولعون أشد الولع بالملكية حتى لو استطاعوا أن يملكوا القمر في السماء لملكوه، ولو ملكوه لحرموا جماله، وهم مولعون أن يملكوا كل شيء إلى درجة الجنون، حتى لو استطاعوا أن يسلبوا السماء زرقتها، والمزارع بهجتها، والبحار جمالها ليجعلوها في حوزتهم لفعلوا - وقد أدرك مهرة الباعة هذا الجنون في الإنسان فتفننوا في عرض ما يبيعون بحسن الوضع وتزويق وإيهام الترخيص وكثرة الإعلان في شكل جذاب يوقع في الوهم أن الشراء فرصة لن تعود، وأن ملكية الشيء تملأ الحياة سعادة وغبطة - ولو أنك دخلت بيوت الأغنياء والطبقة الوسطى لرأيت كثيرا مما فيها لا حاجة للبيت إليه، بل قد حمل أكثر مما يطيق حتى ذهبت بساطته، وزاد تعقده، واحتاج إلى زيادة الخدم والاتباع للعناية بنظافته وترتيبه، وجعل الحياة أكثر تعقداً وأشد ارتباكاً، وما دعا إلى هذا كله إلا لذة الشراء وجنون الملكية، وما قصر الفقراء في هذا إلا أنهم لا يجدون ثمن ما يطلبون، ولو أتيح لهم ذلك لأفرطوا في الشراء إفراط الأغنياء، ولولا جنون الملكية لكانت الحياة أبسط، ووسائل العيش أيسر، والتنعم بها أتم.

وكأن الطبيعة العادلة أرادت أن تعاقب على هذا النوع من الجنون، فسلبت المالك أكثر ما يتصور من لذة، فالشيء جميل لذيذ ممتع، فيه كل ما يتمنى المرء من سعادة ما لم يملك، فإذا ملك لم يجد فيه المالك كل ما يتصور ويتخيل، وأصبح أقل قيمة مما يأمل، ولا تزال

قيمته في نقصان حتى يصبح عادياً تافها كأنه والحرمان سواء.

فالقصر الجميل هو أجمل ما يكون في عين من يمر به ويقل جماله شيئاً فشيئاً في عين من له به علاقة ما، حتى إذا بلغت المالك وجدت القصر لا قيمة له في نظره، ووجدت شعوره به كشعور الفلاح نحو كوخه، والفقير نحو عشه، وكلما طال الزمن بالغني تفه القصر في نظره، وحرم حرماناً تاماً من لذة الملكية، وصارت لذته خيالا لمن يمر به ويتصور نعيم سكانه أو مالكه.

وهذه قاعدة الحياة، فأجمل أيام الزوجية قبيل أيام يتخيل المرء أو المرأة ما ينتظر من نعيم مقيم، وأيام يسبح خياله أو خيالها في الآمال والأماني التي لا حد لها، ثم تصدمه أو تصدمها الملكية أو شبه الملكية، فإذا كل شيء عادي مألوف.

وأجن بالكتاب قبيل شرائه وعند شرائه، وأبيت ليلة وأنا أحلم به ولا أسمح لنفسي بالنوم ليلة الشراء قبل تصفحه ومعرفة ما فيه أو على الأقل عناوينه، ثم يوضع في المكتبة وينسى وكأنه لم يملك.

والأملاك الواسعة والغنى الوافر أمل الناس جميعاً، ولو درسوا في دقة - أربابها وحالهم وشعورهم لوجدوا الفرق الواسع بين ما يتخيلون وما يدرسون، ولو وجدوا أن أكثر الأغنياء يعانون من غناهم ما لو عقلوا وخف عنهم جنون الملكية لنزلوا للمجتمع عن شيء مما يملكون ويعانون، فسعدوا وأسعدوا.

أليس عجيباً في هذه الحياة أن ألذ شيء في الملكية خيالها؟

أحمد أمين

-

من ذكريات العراق

تأمل ساعة

بقلم أحمد حسن الزيات

في الشرفة الوسيعة في فندق (كارلتون) جلست أطالع في صفحة دجلة ما خطته يد القرون. وكانت شمس الأصيل تنفض تبرها على أمواج النهر وسطوح الكرخ وحواشي الأفق، والطبيعة الأنيفة تنعم بالصفاء والبهاء والدفء، بعد ما أجهدها رعد الأمس وبرقه، وأغصها وابل الغمام وودقه، فالسماء مصرية الأديم، والجو عبهري النسيم، والأفق الغربي مزدان بقزعات من السحاب الأبيض الرقيق، والماء قد استحال لجينه نضاراً من طول ما حمل إليه السيل من كنوز الجبل.

أخذت أصوب النظر وأصعده في النهر والجسر والشاطئ. فأرى أنماطاً من الناس، وأخلاطاً من الأجناس، وصوراً من الأشياء، تنكرها العين ويعرفها القلب، لأنها شرقية، ولأنها عربية، ولأنها مظلومة!. . . .

ذكرتني هذه المناظر مناظر غابت في سويداء القلب ولفائفه: ذكرني تقابل الرصافة والكرخ على دجلة، تقابل القاهرة والجيزة على النيل الأعلى، والمنصورة وطلخا على النيل الأسفل!.

وفي هذه الأماكن الحبيبة مدرج طفولتي وشبابي، وملتقى أحبتي وصحابي، فهاجت شجوني وسالت شؤوني. فوضعت جبهتي المضطرمة على سياج الشرفة البارد، وعدت بالذاكرة وشيكاً إلى بغداد، ثم انطويت على نفسي، وأخذت أتفكر وأتذكر وأعمه في غيابة الماضي، حتى انقطع ما بيني وبين الحاضر، وانمحى من حوالي العالم بأسره وحينئذ انبعث من جانب الكرخ صوت شاد يرجع بالنغم العربي الشجي، فخيل إلي أنني أرى دجلة (الأمين). وجسر (ابن الجهم)، وكرخ المجان والخلعاء من أهل بغداد المترفة؛ ووقع في سمعي أن هذا الشادي يقول:

سقى الله الكرخ من مُتَنزَّهٍ ... إلى قصر وضاح فِبرْكَةِ زلزل

مساحب أذيال القيان ومسرح ال ... حسان ومثوى كل خرق معذل

وصور لي أنني أسمع غناء الملاحين في الزلازل، وأبصر (الدلفين) و (العقاب) يمخران العباب بالأمين وحسانه وقيانه ونداماه!. . . وتراءت لي على الشاطئ الشرقي قصور البرامكة الحزينة، يقابلها على الشاطئ الغربي قصور الخلفاء والأمراء تعج بالجواري والغلمان، وتضج بالشعراء والندمان، وتموج بالسادة والقادة والجند، وتفيض بالنعيم والجلال والعظمة، وتمثلت في خاطري بغداد الأمس كباريس اليوم في عدد سكانها، وفخامة بنيانها، واتساع رقعتها، وازدهار مدنيتها، وانبعاث الحضارة من مجامعها ومنابرها، وانبثاق الهداية من جوامعها ومنائرها. إلا أن باريس تشع في أجواء مشرقة تسطع فيها شموس أخرى تضارعها وتصارعها، أما بغداد التي عنت لها وجوه القياصرة، وكان من جندها أبناء الدهاقين والأكاسرة، فكانت شمساً واحدة ترسل الضوء والحرارة والحياة في القارات الثلاث فتبدد ما غشيها من ظلام وخمود ونوم

لا أدري متى كنت أصحو من نشوة هذه الذكريات الحلوة المرة، لو لم يعدني إلى وجودي صوت منكر من أصوات الحضارة الحديثة، قد انطلق من جوف مركب بخاري

عظيم، كان يشق بحيزومه صدر دجلة، فسرحت طرفي في الأفق فإذا شمس الشرق تجاهد ظلام الغرب، وإذا القزعات قد ارتد بياضها سواداً ضربت في حواشيه حمرة الشفق، فصارت كأجنحة الغربان الدامية، أو كقطع من الفحم علقت بأطرافها نار حامية. ثم نظرت شمالاً فإذا المكان الذي سجدت فيه رسل (شارلمان) أمام الرشيد يخفق فوقه علم غريب، لا هو أسود ولا أبيض ولا أخضر وإذا قطع من السحائب السود قد انعقدت فوقه ملبدة هنا مبددة هناك. . . فقلت في نفسي ليت شعري أهذه بقايا أعلام الرشيد والمأمون، أم هذه أثواب الحداد لبستها سماء العراق على السعدون؟!

الزيات

حمار بوريدان

بقلم السيد محمد روحي فيصل

لعل أشد الأدواء فتكاً في النفوس، وأكثرها ذيوعاً وانتشاراً، وأعمقها أثراً وتغلغلا، هذا الضعف في الإرادة أو التردد في العمل. يقعد بالمرء عن تحقيق رغائبه وآماله، ويمسكه عن تنفيذ مشاريعه وخططه، ويحول بينه وبين الإنتاج المتصل الذي يفيد الأمة ويفيد الإنسانية ثم يدفعها نحو المثل العليا الثلاثة: الخير والجمال والحقيقة

ومن العجب أن التردد على شدة فتكه وكثرة ذيوعه وعمق تغلغله لا يحسب ولا يلتفت إليه كأنما هو عرض من هذه الأعراض الهينة اليسيرة التي لا قيمة ولا وزن، أو كأنما هو شذوذ خفيف ضئيل في اتجاه مجرى الإرادة الصحيحة القوية!! ولعمر الحق ما شيء أنكس للرقى والمدنية وأدعى إلى الجمود والموت مثل التردد والإحجام (يصيب المرء في حياته العملية فيغل يده، ويشل عقله، ويتركه فريسة للألم من ضعفه، والخجل من صحبه. تظهر أعراضه في صغار الأمور وكبارها، فيكون في انتقاء الثوب واختيار الحالة، وفي الإقدام على الزيارة القصيرة والرحلة الطويلة، ويدخل في لذاذات الرجل وأعماله، كما يدخل في إدباره وإقباله)

أجل! يكون التردد في زورة الصديق، وافتتاح الحانوت، وارتياد المقهى كما يكون في طلب العلم والقوت والمال. وسواء أدخل في حقير الأمور أم جليلها فإنما هو يقف النهضة، ويبطئ الحركة، ويعوق عن التجدد والإبداع

لقد كشف السيكولوجيون عن نفسية المتردد، وأوضحوا المظاهر المتباينة العنيفة التي تطغى عليه وتأخذه بالحيرة والقلق فقالوا إن كل فعل إرادي لابد أن يجتاز على التوالي أربعة أطوار:

1 - تصور غاية الفعل، وإدراك المقصود من تحقيقه

2 - طور الموازنة والمفاضلة. ذلك بأن كل فعل إرادي له بواعث قلبية وجدانية تخلقها الأهواء والميول، وتغذيها العواطف والنزعات، وتنميها المشاعر والأحاسيس. وعوامل عقلية ذهنية مصدرها المنطق والمحاكمة والمعرفة. فالمرء في هذا الطور يوازن بين البواعث القلبية والعوامل العقلية ويفاضل بينهما، ويقوم بعملية حسابية يزن بها قيمهما

3 - طور التقرير، ذلك أن المفاضلة بين البواعث والعوامل لابد أن تسفر عن نتيجة هي حل الفعل وتقريره

- طور التنفيذ - والتنفيذ تاج يزين هام الفعل الإرادي، ويتم محاسنه

شاء بعضهم أن يحذف من هذا التقسيم طور التنفيذ لأن الفعل الإرادي في نظره مرتبط من الوجهة النفسية بالتنفيذ أو عدمه. على أنه ينبغي أن يكون ثمة بداية في تحقيق الفعل واتجاه نحو العمل. لذلك قلنا إن التنفيذ (تاج يتمم محاسن الفعل الإرادي ويزين هامته)

فالتردد إنما يكون في الطور الثاني، طور الموازنة والمفاضلة. والمتردد إنما تتجاذبه البواعث والعوامل، يوازن بينهما ويفاضل بين قيمهما ثم لا ينتهي من موازنته ومفاضلته، ولا يضع حدا لهذا الاضطراب والفوضى. تناجيه بواعث القلب فيتفيأ ظلاله ويطمئن إلى أفنانه، ثم لا تلبث عوامل العقل أن تخرجه من طمأنينته وتغزو نفسه كلها. فهو ساحة حرب ما تكاد البواعث القلبية تنتصر فيها حينا إلا لتنخذل وتتراجع أمام قوة العوامل العقلية. وشدة منعتها، وعظمة سلطانها.

هكذا كتب الله على المتردد أن يقف بين بين، لا يقرر ولا ينفذ وإنما يخضع لطائفة من الاعتبارات النفسية المتعاكسة. وهذه الاعتبارات قد تنشأ عن خصب في الخيال، وسعة في المعرفة، وقوة في التفكير. وقد تنشأ عن تيقظ في الحيوية الانفعالية، واشتداد في

الميل والهوى، وتدفق في الرغبة والعاطفة.
ومها يكن منشأ هذه الاعتبارات القوية فان المتردد عضو أشل (يعيش على هامش المجتمع البشري) كما يقول الدكتور بلوندل
قد تسأل بعد هذا: إذا كان الأمر ما تقول فما شأن الحيوان هنا؟ ومن يكون بوريدان هذا؟ وما هي العلاقة التي تصل عالم النفس الإنسانية بعالم (الحمير)؟؟
الحق إنه سؤال وجيه ممن لا يعرف وجه الاتصال والتقارب. فأما بوريدان فهو فيلسوف من فلاسفة اللاهوت والدين المسيحي في العصور الوسطى، ولد في مدينة بيتون من أعمال فرنسا الشمالية وتوفي عام 1360 ميلادية. ينتسب إلى مدرسة (السكولاستيك) المشهورة بالجدل الديني والتفكير الغيبي، والتي من رجالها (روجر باكون) و (القديس بونا فانتير) و (دونز سكوت). وأما الحمار فقد شاء بوريدان أن يوضح (حرية الاختيار) في الحياة
والنفس بتشبيه طريف ومثل قريب فافترض وجود حمار جائع ظمآن على مسافة معينة واحدة من إناء فيه ماء عذب، ومعلف فيه تبن وشعير. . . وطفق الحمار يفكر على جوعه وظمئه بأي الأمرين يبدأ: أيملأ بطنه أولا أم يروي ظمأه؟ فما يكاد يتجه نحو الماء مثلا حتى ينكفئ راجعاً نحو التبن والشعير!! وقد كان في وسعه أن يختار الذي يريد ويلتهم ما يهوى، ولكن الحمار المسكين بقي يفكر على ذلك النحو من المنطق العقيم حتى سقط جثة هامدة، ومات جوعاً وظمأ!!
هذه القصة الموجزة الخيالية تصور، غير حرية الاختيار، طبيعة التردد وعاقبة المتردد. فأما طبيعة التردد فقد شرحناها من الناحية النفسية، وأما عاقبة المتردد فهي كما رأيت: الفناء والموت. ذلك بأن الحياة تتطلب السرعة والحركة والعمل لا الجمود والإحجام. وكل من لابس الحياة وخاض غمارها فإنما ينبغي له أن يعمل ويعمل، لا يأبه بالموانع والصعوبات التي قد يصادفها في طريقة وتتعثر بها رجلاه، وإلا فان مصيره المحتوم التخلف عن الحياة، والانحدار نحو التفكك والانحلال. يذهب غويو إلى أن العمل المستمر أو الفاعلية الشديدة إنما يجب أن تكون المثل الأعلى في الأخلاق، لأن الحياة ليست ترددا ومحاسبة وإنما هي عمل وإنتاج , ` , ` ,
ولسنا نحب هنا أن نقيد الفاعلية الشديدة بالخيرية والشرية، وإن شئت فقل إننا لن نتعرض للخيرية والشرية في صدد الحث على الفاعلية الشديدة والجهد الدائم.
وعلم الأخلاق الحديث المبني على التجربة والمشاهدة يأبى ذلك وينفر منه كل النفور. فما يدرينا أن الأمر الذي نحكم بخيريته وشرف غايته يصبح شراً كله إذا نحن طبقناه ومارسناه في الحياة العملية. فالخيرية التي نخلعها على طائفة من الأمور دون أخرى هي خيرية سابقة للتجربة ومتقدمة على المشاهدة , فلنزاول إذن كل الأمور ولنتصل بكل شيء، ولتكن حياتنا ملآى مستفيضة الجوانب، متصلة الحركة، قوية الإرادة
والإرادة العاملة المحركة كنه الوجود وأس الكون كما يقرر شوبنهور إذ يعتقد أن الأحياء جميعاً محكومون بإرادة باطنية لا شعورية عمياء، دائبة الهمة والنشاط، متجددة الشهوة والرغبة، تسيطر على الفكر والعقل سيطرة عظمى.
إن صاحب الإرادة القوية سيد عواطفه وآرائه، فرغائبه تنقلب آناً إلى إرادة فاعلة، ليس يعرف المستحيل ولا يقر بوجوده في قاموس الأعمال!!
وبعد. ما دواء التردد؟ وكيف السبيل إلى الشفاء من هذا الداء؟ ذكر أطباء النفس طائفة من العلاجات الناجعة، منها ما هو لمداواة الجسم ومنها ما هو لمداواة الروح:
ينبغي قبل كل شيء ترويض الأعضاء وتقوية الحواس وامتلاك الصحة لأن للإرادة أساساً عضوياً، ولسنا نبالغ إذا قلنا إن قوة العضلات هي الصورة الأولية الابتدائية لقوة الإرادة. فالمريض لا يستطيع تحقيق أمانيه لأن جسده فاتر العزم خائر القوى، وينبغي الطاعة وحب النظام، فالطفل إذا أطاع غيره فإنما يتعلم كيف تكون السيادة على الذات وقهر النفس، وهنا قد يكون للأسرة والمدرسة الأثر البليغ في ذلك
كذلك ينبغي تثقيف العقل وتهذيب الشعور. أما تثقيف العقل فيكون بالتفكير الصحيح، والانتباه الثابت، وتصور غاية الفعل بصورة محسوسة مسهبة، وإدراك مختلف المذاهب والنحل. وقد قال ديكارت (إن الإرادة القوية في العمل تقتضي وضوحاً شديدا في العقل). وأما تهذيب الشعور فيكون بالميل إلى المثل العليا الإنسانية، والاعتدال في الحب والهوى بحيث لا تطغى البواعث القلبية على العوامل العقلية فتجري الموازنة

!.في جو هادئ ثم تسفر عن التقرير والتنفيذ ويسلم المرء مما وقع فيه حمار بوريدان
حمص
محمد روحي فيصل
الانقلابات السياسية المعاصرة وأثرها في تطور
التفكير والآداب
للأستاذ محمد عبد الله عنان
من المبادئ الخالدة أن الفكر تراث الإنسانية، وأن ثمار التفكير البشري ملك حق لجميع الأمم والناس. وأن العلوم والآداب والفنون لا وطن لها ولا تعرف فوارق الجنس والقومية. وقد كانت هذه المبادئ وما زالت هي الغالبة في توجيه الفكر الإنساني؛ وإذا كان التفكير يتأثر في أحيان كثيرة بالعوامل والاعتبارات القومية فالمفروض دائماً أن هذه المؤثرات لا تجني على المبادئ والحقائق الخالدة. فقد مجدت الحرية مثلاً في كل العصور، واعتبرت أعز أمنية للشعوب والأفراد وأجدرها بالتضحية، وقدست حرية الفكر واعتبرت دائماً عنوان الكرامة البشرية؛ واعتبر الإخاء والمساواة منذ الثورة الفرنسية من أقدس المثل الإنسانية. ولكنا نرى اليوم هذه الحقائق تهدر في أمم عظيمة، فالحريات بأنواعها تسحق وتذم، وتعتبر العبودية نظاما، والخضوع الأعمى وطنية، والقومية المتعصبة تطغى على كل المبادئ والمثل الإنسانية؛ ونرى التفكير والآداب في هذه الأمم تنزل على وحي السياسة وإرادتها، وتغدو ألسنة مصفدة لتتأيد المبادئ والدعوات الجديدة.
وهذه ظاهرة خطيرة في عصرنا تستحق الدرس العميق. فمنذ الثورة الفرنسية لم يشهد العالم المتمدن انقلاباً في النظم الاجتماعية والفكرية كالذي نشهده اليوم كأثر للانقلابات السياسة التي وقعت منذ نهاية الحرب في كثير من الأمم الأوربية. وقد كانت الحرب الكبرى ذاتها وما ترتب عليها من النتائج السياسية والعسكرية أكبر عامل في التمهيد لهذه الانقلابات، فقد هزت الحرب دعائم المجتمع كله، وقوضت كثيراً من نظمه وآرائه ومعتقداته القديمة، وعصفت ويلاتها وأزماتها المتوالية بالنفوس والعزائم، وبعثت اليأس والاستكانة إلى كثير من المجتمعات، وظهر أثر ذلك كله واضحاً في آداب ما بعد الحرب. ونلاحظ في هذه الفترة أن النزعات الحرة والثورية تغلب على معظم ألوان التفكير والأدب، وأنها تتجه غالباً إلى الثورة على المبادئ والآراء القديمة، سواء في النظم السياسية أو الاجتماعية، أو تقدير الفضائل والأخلاق. على أن هذه الآثار العامة ليست كل شيء في هذا الانقلاب الفكري العميق الذي نريد أن نتحدث عنه. وإنما يمتاز الانقلاب بآثاره المحلية
والخاصة، فهذه الآثار تذهب اليوم في بعض الأمم إلى إنكار الماضي كله والمثل الفكرية والأدبية والإنسانية كلها.
وهذه الثورات الفكرية والاجتماعية العميقة ترجع كما قدمنا إلى الحركات السياسية والقومية العنيفة التي جاش بها كثير من الأمم عقب الحرب، فقد كان لهذه الحركات أكبر أثر في توجيه التفكير والآداب والثقافة. والحقيقة أننا لا نستطيع أن نلاحظ مثل هذا الانقلاب العميق في مناحي التفكير والآداب إلا حيثما وقع انقلاب سياسي عميق يقوم على إنكار الماضي ومبادئه وآرائه القديمة. ففي روسيا السوفيتية حيث سحقت الثورة دولة القياصرة والمجتمع الروسي القديم بكل ما فيه من نظم ومبادئ وتقاليد، وقامت نظم سياسية واجتماعية واقتصادية جديدة البلشفية، نرى التفكير الروسي يتميز بلون ثوري عميق، ونرى نظريات الثورة العالمية، وسيادة الطبقات العاملة، والإخاء الدولي، ونضال الطوائف، وسحق الرأسمالية وغيرها تغمر الأدب الروسي المعاصر، ونرى الثقافة الروسية كلها تتجه إلى غرس هذه النظريات واعتبارها قوام الحياة الروسية العامة، وغذاء التفكير والآداب والفنون. ولم يبق من الأدب الروسي القديم ما يستحق التقدير في نظر روسيا البلشفية سوى آثار المفكرين والكتاب الأحرار والثوريين، مثل ترجينيف ودوستويفسكي وتولستوي والبرنس كروباتكن، تلك الآثار التي تصف شقاء المجتمع الروسي في عصر القياصرة، والتي كانت غذاء للحركة الثورية. وفي تركيا الكمالية نرى نواحي التفكير والثقافة تصطبغ بصبغة غربية جديدة هي أثر مباشر لاتجاه ثورة التجديد التركي ودفعها لتركيا نحو الغرب، بعد أن لبثت قرونا شرقية أسيوية، ونرى زعماء تركيا الجديدة يحاولون أن يخلقوا للشعب التركي

عقلية جديدة تقوم على نسيان الماضي وبغض دول السلاطين، وتحقير العصبية الشرقية أو الإسلامية، وتمجيد الإصلاحات الجديدة، والاندفاع وراء التيار الغربي. ويذهب زعماء تركيا الجديدة إلي غرس النزعة القومية والتفكير والآداب إلى حدود الإغراق، فنراهم يغيرون قواعد اللغة التركية وألفاظها ويستبعدون منها الألفاظ المشتقة من لغة أخرى، ويضمون لتركيا تاريخاً جديداً تغفل فبه الحقائق العلمية والتاريخية الراسخة، ويقال لنا فيه إن الحضارة التركية هي أساس الحضارة البشرية، وأن اللغة التركية القديمة هي مصدر اللغات البشرية، وغير ذلك من المزاعم المغرقة التي تنقضها أبسط الحقائق التاريخية؛ وهذه المزاعم والنزعات كلها تمثل اليوم بقوة في الأدب التركي الجديد، ولا يسمح للمفكرين والكتاب الترك أن يعالجوا غيرها أو أن يعالجوها بما يخالف النظريات الرسمية؛ فالأدب التركي اليوم كالأدب الروسي، أدب حكومي تشرف عليه الحكومة وتوجهه إلى ما ترى فيه تحقيق برنامجها السياسي والاجتماعي.

وقد كانت الفاشستية بلا ريب أعظم حركة سياسية اجتماعية حدثت بعد الحرب؛ وكان لها في توجيه التفكير والآداب أعظم أثر. ونلاحظ أولاً أن الانقلاب الروسي في هذا التوجيه أبعد مدى من حيث كونه ينكر أسس المجتمع القديم كلها، سياسية كانت أو اجتماعية أو اقتصادية، ولكن الفاشستية لا تذهب في الهدم إلى هذا الحد؛ وبينما تذهب البلشفية إلى تقوية النزعات الثورية والحرة في حدود الطغيان البلشفي، إذا بالفاشستية تقمع كل نزعة ثورية أو حرة تتجه إلى محاسبتها. وقد كانت الفاشستية إلى ما قبل عامين حركة محلية إيطالية، ولكنها تغدو اليوم حركة أوربية عامة تحدث آثارها السياسية والاجتماعية والفكرية في ألمانيا وبولونيا والنمسا وغيرها. ولما كانت الفاشستية حركة طغيان شامل، فإنها تبسط سلطانها على الحركة الفكرية كما تبسطه على كل قوة معنوية أخرى، وتحاول أن تصفدها في حدود برنامجها، وأن تسيرها طبقا لوحيها وإرشادها. وهنا فرق جوهري بين موقف الديموقراطية وموقف الفاشستية من الحركة الفكرية؛ ذلك أن الثورة الديمقراطية تقع دائما في المحيط العقلي، ثم تحدث آثارها المادية بعد ذلك في الأنظمة السياسية والاجتماعية؛ ولكن الفاشستية تقوم بالعكس في المحيط المادي وبوسائل العنف المادية، ثم تحاول بعد ذلك أن تغزو الميدان العقلي وأن تجعل من الحركة الفكرية أداة لتوطيد سلطانها كما تجعل من الجيش والأسطول؛ ومن أهم الظواهر الفاشستية إنها تعمل على مطاردة القوى العقلية الممتازة التي لا تخضع لوحيها، ولا ترعى سوى الأذهان الضئيلة المتواضعة التي تهرع لخدمة كل سلطة جديدة وكل نظام جديد

ويبدو أثر الثورة الفاشستية في الحركة الفكرية الألمانية بشكل قوي واضح. ففي إيطاليا تسود المبادئ الفاشستية الرجعية في توجيه التفكير والآداب والفنون والحياة العقلية كلها كما تسود الحياة السياسية والاجتماعية، وتغمر الثقافة الإيطالية في جميع نواحيها، وتحاول أن تحدث أثرها في توجيه الثقافة العالمية. ولما كانت الفاشستية تنكر الحريات العامة، فهي لا تعترف بحرية الفكر بل تبغضها وتسحقها بكل قواها، لأنها ترى في وجودها خطراً على كيانها؛ وحرية الفكر أسمى مزايا الإنتاج العقلي والفني، وإذاً ففي ظل هذا الطغيان الذي يسلب الفكر أقدس حقوقه، لا يمكن أن يزدهر التفكير الرفيع، ولا أن تصل الآداب والفنون إلى ذرى القوة والصقل؛ وتغدو الحياة العقلية مطبوعة بطابع التماثل الممل، لأنها تسير وتسخر طبقاً للوحي القاهر. هذا إلى أن التفكير والآداب في هذا الأفق المصطنع قد جردت من أقدس المثل التي استرشدت بها في كل العصور، فأصبحت تمجد العبودية لأنها أسيرة الطغيان، وتمجد الحرب لأنها جردت من المثل الإنسانية الخالصة. وهذه الظواهر هي وليدة الطغيان قبل كل شيء تتجلى اليوم بأوضح ألوانها في ألمانيا على حداثة عهدها بالفاشستية؛ فإن الحركة الوطنية الاشتراكية الألمانية ما كادت تظفر بقلب نظم الحكم في ألمانيا، وإقامة الطغيان على أنقاض الديموقراطية، حتى أخذت تفرض مبادئها ونظرياتها على التفكير والآداب والثقافة الألمانية؛ وهي اليوم تمثل في الحياة الألمانية بقوة، ونظرياتها القومية والجنسية المغرقة تطبع التفكير الألماني في جميع نواحيه العلمية والأدبية والفنية، بل هي تذهب في الجرأة إلى حد محاولة التأثير في العقيدة النصرانية وصبغها بصبغتها.

والعلم والتفكير والآداب والفنون في ألمانيا تسخر كلها لخدمة الدعوة الوطنية والاشتراكية وتمجيد مبادئ هتلر، واثبات نظرياته المغرقة في تفوق الجنس الآري على الأجناس الأخرى، وتفوق السلالة الألمانية على سائر المخلوقات؛ واثبات صلاحية الحكم المطلق وفشل الحكم الديموقراطي؛ وتمجيد الخضوع المطلق للزعامة، والانتقاص من قيمة الحريات العامة، وغير ذلك مما تضمنه برنامج الوطنية الاشتراكية (وإنجيل) هتلر. وقد ذهب الوطنيون الاشتراكيون بعيداً في السيطرة على زمام الحركة العقلية في ألمانيا، فبسطوا إشرافهم على الجامعات، وأصدروا تشريعاً يصفد الصحافة ويجعلها مهنة شبه حكومية، ويجعل الكتاب دعاة للوطنية الاشتراكية وطغيانها. وكما أن الفاشستية الإيطالية بعثت إلى الأدب الإيطالي بصور رومة القديمة وذكريات الإمبراطورية الرومانية ومجد القياصرة، وبالطموح إلى إحياء هذه الذكريات والصور في حياة إيطاليا وآمالها، فكذلك بثت الوطنية الاشتراكية في الأدب الألماني مثل الإمبراطورية المقدسة الذاهبة، وصور ألمانيا العسكرية الظافرة الزاهرة تحمل زعامة الجنس الآري كله، وتملي على أوربا القديمة
إرادتها ومثلها.

وقد كان للانقلابات السياسية والقومية دائماً أثرها في توجيه التفكير والآداب في جميع الأمم والعصور؛ ولكن لعل التاريخ لم يشهد عصراً غمرت فيه القومية المتطرفة والنزعات الرجعية التفكير والآداب كعصرنا؛ ذلك أن التوجه القومي المعاصر يذهب إلى حد الإغراق ويتخذ صوراً من العنف لم يسمع بها، ويحاول أن يسيطر على جميع نواحي الحياة العامة، وأن يتدخل في صوغ العقلية العامة. ولا ريب أن الحركات القومية تكسب من وراء ذلك قوة، وربما كست الأمم في بعض نواحي الحياة المادية حيوية جديدة، ولكن الحركة العقلية تعرض بالعكس لأخطار كثيرة. ذلك لأن الثورات القومية العميقة تقوم على العوامل السياسية قبل كل شيء، وتستخدم في سبيل مآربها سلاح الدعوات المغرضة والنظريات الموضوعة التي لا تقرها المثل الإنسانية دائماً، ولا يقرها العلم الخالص والحقائق المنزهة. والثقافات التي تطبعها أهواء السياسية والنظريات المغرضة، والآداب التي ترغم على تصوير ألوان مصطنعة من الحياة العامة والحياة الفردية، وتحمل على تمجيد البطولة الزائفة، وتمجيد العبودية في عصر النور والحريات، وامتهان المبادئ والمثل المقدسة، وتزييف حقائق العلم والتاريخ الراسخة، هذه الثقافات والآداب ليست جديرة بأن تقود الأمم العظيمة، وليست جديرة بالأخص بأن تتخذ مكانها بين تراث الإنسانية الرفيع.

إن تطور التفكير والآداب على هذا النحو في أمم عظيمة كإيطاليا وألمانيا، هو بلا ريب ظفر جديد للمبادئ والاعتبارات المادية، ولكن ظفر المبادئ والاعتبارات المادية على حساب الحياة العقلية والروحية من ظواهر انحلال الحضارات والأمم؛ وإن حضارة تمجد فيها العبودية، وتطارد فيها العلوم والآداب لأجدر بالعصور الوسطى منها بعصرنا.

محمد عبد الله عنان
المحامي

من ذكرياتي في مصر:

ساعة عند أمير الشعراء

لا أزال اذكر تلك الساعة السعيدة التي هبطت فيها مصر لأول مرة في حياتي عام 1929 فقد كانت مليئة بالخواطر، فياضة بالآمال، محفوفة بالأحلام. وكانت الفصل بين ماض راحل، ومستقبل ماثل، لقد تذكرت وأنا أجتاز ميدان (باب الحديد) وطرفي شاخص إلى تمثال (نهضة مصر) القائم وسط ذلك الميدان الفسيح، أنني قد بلغت ما كنت أتشوف له وأصبوا إليه، فها أنا في تلك المدينة الجميلة التي طالما تاقت إلى مرآها نفسي، ونزع إليها هواي، وها أنا في ذلك البلد الأمين الذي كان ملاك خاطري وقيد ناظري، ومعقد أملي، ومحط رغابي، كم كنت أتمنى في تلك الساعة لو يتاح لي شهود مصر كلها فاجتلي ما فيها، لقد تمثلت أمامي بحضارتها المزيجة من روح الشرق الخالدة، أو نفسية الغرب الجديدة، فعملت فيها كل منهما عملها، فظهرت من الاثنتين ثالثة كانت رباط الشرق بالغرب، وجماع شخصيتيهما المتباعدتين من أقدم

العصور حتى اليوم.
وتمثلت أمامي بأعلامها الميامين، وأبنائها المقاويل، وأساتيذها الأماثيل، وشعرائها المفلقين، أولئك الذين تسمع دوي اسمهم في أنحاء الشرق يملك عليك سمعك، ويأخذ بمجامع قلبك، فرفعوا اسم مصر وبنوا لها في الأدب والفن مجداً أصبحت به محط الرجال وقبلة الآمال. . .
رحم الله (شوقي وحافظ) فقد كنت إذا ذكرت مصر أو مرت على خاطريالحياة على جنبات النيل ذكرت قبل كل شيء (شوقي وحافظ) وأنهما يقيمان في هذه المدينة القائمة في هذا السهل الوسيع، يحرسها (أبو الهول) الرابض في كنفها هازئاً بالزمن ساخرا من الحياة
الخاطفة. . والحق أن (شوقي وحافظ) أقاما لهما من المجد ما أخرس كل لسان، فملكا على الناس أسماعهم، وإنك لتسمع لهما صوتاً يرن في الآذان، حيثما وليت وجهك في هذه البلاد العربية المترامية الأطراف، فكان مما أردته وأنا في مدينة شوقي وحافظ أن أراهما حق الرؤية، وأن أعرفهما حق المعرفة، وهكذا كان. .
لقد أشربت النفوس حب شوقي فخالط اللحم والدم، لأنها كانت تجد فيه فيضاً من العبقرية لا ينضب، وكنزاً من الإبريز يزيد قدره تعاقب الأيام والسنين، هذا إلى ما كان عليه من عظيم الخلق، ونبل القصد، وسجاحة النفس، وعفة اللسان، وحب الخير، وصلابة الإيمان، والملاحاة عن بيضة الدين والعربية بما حباه الله من صارم ذرب، ولسان عضب، وقول فصل، يدعمه غزارة العلم، وضلاعة في التأثير، وشت الخصوم.
رأيت (شوقي) لأول مرة في دمشق بـ (كازينو الخديوية) وكان بالقرب من الطاولة التي كنت عندها فعرفته من غير دليل، وعرفت أنه الشاعر العظيم بلا لبس ولا مراء، وإن لم يرشدني إليه أحد فما أعظم المثلة بين هذه الأسرة والقسمات وبين تلك التي كنت أتوسمها في صوره في الكتب والمجلات. . .
لقد كنت جد شيق إلى التعرف به في تلك الفترة من الزمن، ولكن كم كنت أراني فضولياً إذا قمت بذلك في غير الفرصة السانحة التي تقضي بهذا التعارف، فحملت نفسي على إرجاء ذلك إلى الظروف والمناسبات. .
وفي عام 1930 بعد تجوال أربعة أشهر في سورية وفلسطين، عدت إلى القاهرة للمرة الثانية غب عطلة الصيف. فوجدت الكثير من الشباب العرب في معاهد مصر يزمعون إنشاء جمعية باسم (جمعية الوحدة العربية) تلك التي طالما كنا نتغنى بذكرها، ونؤكد وجوب تأسيسها في السنة المنصرمة لضم شمل أبناء الضاد وعقد تعارف وثيق بينهم على ضفاف النيل السعيد، وسرعان ما نضجت تلك الفكرة، فأتت أكلها عن قريب، ولقد وجدت من (شوقي) رحمه الله خير نصير لها، حريص عليها، مبشر بها، فأوفدت الجمعية ممثلين لمختلف أقطار العرب كنت أحدهم لتقديم الشكر إليه باسمها، وتهنئته بابلاله من علته، فما كان أعظم ابتهاجه بنا، لقد كان يحثنا على مواصلة ما نحن فيه، ويضرب لنا الأمثال بصوته الضعيف المتقطع يخرجه بتكلف وعناء، مدعماً إياه بإشارات مختلفة من يديه
يستعين بها على إظهار ما يريد، لقد كان أساي في تلك الساعة عظيما كلما نظرت إلى الشاعر وما يقاسيه، التياعاً مما سيصيب دولة الشعر في المستقبل، وإشفاقاً على شوقي مما هو فيه من داء كامن بالغ، وإعياء شامل وشحوب باد. . .
لقد كان ذلك الاجتماع أول اجتماع عقد صلة المعرفة بيني وبينه، وكنت كلما زدت تعرفاً به، ازددت إعجاباً بعبقريته الفياضة، وزدت شوقاً إلى مجلسه الجامع لافانين الأدب، وروائع الحكمة، وطرائف الأخبار وأوابد الملح والمفاكهات، ولا غرور في ذلك فشوقي يمثل عصراً بكامله، عصراً كان فيه مالك سمعه، وشاغل لبه، ومثير مشاعره، وهو خير مرآة له، بل خير من سيصوره للأجيال الآتية حق التصوير.
وفي عام 1932 عدت إلى مصر بعد أن فارقتها ما يناهز سبعة أشهر، وكنت إذ ذاك في ضيق من دروس متراكمة، أتدارك ما فات، فشغلتني مشاغل المراجعة والحياة بين الكتب، والحرص على الوقت القصير من زيارة شوقي وتجديد عهد الاجتماع به. .
وأقبلت طلائع الصيف لهذا العام، وانتهت أعوام المدرسة اللذيذة، أو قل الحياة في مصر، ودنا أوان العودة إلى الوطن العزيز، والتزود من النيل بذكريات على جنباته لا تنسى، وصور باقية لا تمحى، فقد أوشكت أن تكون الحياة المغمورة بمختلف

الخواطر، المحفوفة بشتى الألوان، ذكراً ماضياً، أو خيالاً سارياً ألم بنائم، وأطاف بحالم.

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيس ولم يسمر بمكة سامر

أي والله: لقد أوشكت أن تكون تلك العهود إذ ذاك، ذكريات دفينة يضفيها الزمن إلى خزانته، تتجدد في نفوسنا كلما جد عهد، وهاج بعد، وحالت حال، ولاح خيال، وهاهي اليوم قد أصبحت كذلك، مطمورة في الصدر، رهينة في الفكر، تبتعثها لواعج الهم، وتشب جذوتها كوامن الألم.

قلت لقد دنا الفراق، فبعد أيام معدودات امتطي القطار الزفوف، وبعده السيارة الربيدة، إلى حيث ملاعب الصبا، ومجامع الألفة والهوى، والتئام الشمل، ولقيا الأهل، فكان من الواجب بعد هذا وأنا أودع مصر عن قريب أن ألقى (شوقي)، وأن أودعه، وما كنت أحسب أن ذلك الوداع سيكون الأخير، وان ذلك الاجتماع ليس بعده اجتماع، فكنت قد عقدت النية على الذهاب إليه. والتزود بالحديث العذب، وبينما أنا كذلك إذ جاءني صديق عراقي يخبرني

بدعوة (شوقي) لي معه في داره (كرمة ابن هانئ) ضمن نخبة أمجاد من غطارفة مصر، وأهلة العصر، فما منهم إلا من استفاض ذكره، وعلا في الفضل كعبه، ونما في المجد حظه. .

ذهبت أنا ورفيقي في الموعد المنتظر إلى (كرمة ابن هانئ) ظهراً، وكنت قد زرتها قبل هذه المرة، جنة أنيقة زاهية، نسقت فيها مغارس الزهر، وخمائل النبت وأصص الورد تنسيقاً يبعث البهجة في النفس، يقوم وسطها قصر جميل يطل على النيل، ويقابل القطم مدلاً عليه بما أوتيه من جمال وجلال، وروعة أخاذة بالألباب، مستفزة للمشاعر، وذلك لأنه مقام الشاعر ومبيت جسمه، ومهبط وحيه وخياله، ومرتع شاعريته وتأمله، ومجتمع أمانيه وآماله، فله ذلك ما دام كذلك. .

دخلنا القصر فاستقبلنا سكرتير الشاعر، فجلسنا في الشرفة الأمامية منه ننتظر قدوم شوقي، ونتأمل محاسن الطبيعة أمامنا، هذه مدينة القاهرة تجاه أبصارنا، كم من خواطر تاريخية تمر على البال في تلك الساعة، إن الإنسان بهذا ليستعرض تاريخ مصر وما يتوالى عليها من حوادث وفتن وانقلاب وأحوال، تتزاحم كلها في ذاكرة الناظر إذا ما أمعن في نظره، ورجع إلى الماضي البعيد، أجل! تستثير كل تلك الذكريات مبان عالية مختلفة، ومنائر ضاربة في الفضاء، وقبب منتثرة هنا وهناك مختلفة في الأعمار، تنطق بالعبر، وتشهد على أن الزمان دول. وكان على جانبي السلم الرخامي تمثالان قائمان يحمل كل منهما شبه مصباح في يديه. فسألني صاحبي عن تعليل لطيف لذلك، فقلت إن هذا أصدق تخيل يطابق (ديوجيني) وقد حمل سراجا يدور به في شوارع (أثينا) ليفتش عن الرجل في الليل والنهار، وفي الأخير وبعد تجوال طويل عثر على امرأة خبرها فوجد فيها المثل الأعلى للإنسان الذي يبتغيه فقال (لقد بحثت عن الرجل بكل مكان فلم أجده، ولكني وجدت المرأة) وما أشبه هذا التمثال الصامت الناطق القائم في مدخل الدار حاملا بيده مصباح الحكمة والهداية بديوجيني، وكأنه هنا وقف للغادين والرائحين يقول (ها قد وجدت ضالتي المنشودة بعد عصور طويلة، لقد وجدت الرجل، لقد عرفت الرجل، هيا أدخل ترى الرجل).

وأقبل إلينا شوقي بعد فترة عاجلة من الزمن متهللاً، فتقدمنا إليه مسلمين، فرحب بمقدمنا غاية الترحيب. وانتبذنا جانب شرفة القصر ريثما يتم اجتماع الآخرين، وكان الشاعر في

هذه المرة التي لقيتها فيها خيراً منه في النشاط ودلائل القوة في كل مرة رأيته قبلها، فقد هادنته العلل في ذلك الحين، وناهض المرض وصاوله حتى تغلب عليه إذ ذاك، ولكن من كان يدري أن (شوقي) سخر صريعاً في الميدان بعد أشهر قليلة من هذا الانتصار. وان تلك العلل إنما كمنت لتتجمع للوثوب، واختفت متراجعة لتظهر على حين غفلة، وهادنت خداعاً، والحرب خدعة، من كان يدري ذلك ومن المصدق بهذا المنقلب العاجل؟. . لقد كان شوقي في تلك الساعة قرير النفس، رخي البال، طافح البشر، وكان صورة من الطبيعة الباسمة في ذلك اليوم، وهكذا يكون الشاعر هو والطبيعة صنوان لا يفترقان. . تنظر إليه فتقرأ في جبينه المتغضن خطرات السنين المتعاقبة، وأصداء الزمن الماضي بما فيه من حوادث وشئون، كان لسانها الناطق وحافظها

للأجيال المقبلة من الاندثار، فإذا أمعنت في سطور ذلك المحيا داخلت نفسك هزة وانتفاضة هي هزة الإجلال والمهابة، حيث ترى ذلك العقل الجبار وذلك الذهن المتقد يشع نوراً وحكمة، وذلك الخيال المطلق أعني به الشاعر أو روح الطبيعة الثاني، ذلك الذين يهم في كل واد، ويسبح في كل لجة، فيحلق مع الطيور في سمائها ليساجلها أنغامها، ويعانق الطبيعة في خمائلها ويتغنى بجمالها، وقد تراه فتبصر فيه خفة السرور وتقرأ عليه نضرة النعيم، وقد تراه فتجده بائساً لبؤس غيره، أنيس المحزون، وعزاء الضعيف، يشفق على المنكوبين وتذهب نفسه حسرات عليهم

وتقرأ في عينيه الذابلتين اللتين أتعب أجفانهما السهد وتعاقب الزمن، صفاء السريرة، وعفة القلب، وحدة الذكاء، وهي خير مترجم عن قلب الشاعر، ذلك القلب العامر بالفضيلة والخير. وإذا استمعت إلى حديثه العذب أسرتك طلاوته، واجتذبتك حلاوته، يبلغ إلى فؤادك قبل سمعك فلا تمل منه لغة، ولا تسأم فيه لهجة، وشوقي إذا حدث تخير ما راق لسامعه، ورقت حواشيه، وأتى بكل طريف قشيب، تستهله طرافة في التعبير، وتختتمه دعابة أو عبرة في الحديث تقتضيها الحال ويستدعها المقال، وكان الحديث جامعاً وكان إقبالنا عليه بالغاً، تناولنا شئوناً مختلفة في أحوال (العراق) والأدب العربي في هذا العصر وبعض مشهوري الشعراء والكتاب، وقضينا في هذا حينا حتى قدم علينا الأستاذ محمد عبد الوهاب، وكان حديث القدوم من العراق ثم اكتمل العقد، وانتظم الجمع فنهضنا إلى داخل الدار حيث مائدة الطعام.

ولا تسل عما كان يدور حينذاك من مفاكهات عفة. وملح آبدة، ونوادر طريفة، ساقها فرسان مشهورون في مصر في هذا المضمار، مصلون به، والفكاهة والظرف والتندر من الغرائز التي طبع عليها المصري، وهي من خصائص دمه لا تفارقه، والذي يزيد فيها قوة وحسن وقع في النفس أنها تمرق من اللسان عفوا وتنطلق من غير تكلف وتعمل. تزجيها الطبيعة، ويقذف بها الظرف الملائم، ولسرعة البديهة وحدة الخاطر أثر لا ينكر في سوقها. .

انتهى محفل الغذاء فجلسنا بعد برهة قصيرة حتى اقترب موعد سفرنا من مصر في ذلك اليوم، فتنازعنا عاملان: عامل البقاء والاستمتاع بهذه الأحاديث الطلية، وعامل الجلاء إلى حيث ينتظرنا القطار الذاهب إلى فلسطين، وفراق مصر على مضض، فتغلب العامل الثاني وإذا نحن في قطار المساء يزفر زفرة الوداع، وإذا بنا نودع من عز علينا وداعهم. وإذا بنا نستعرض صفحات وذكريات ماضية وإذا بنا نفارق أرض مصر وندخل في أرض الميعاد. . .

بغداد

كمال إبراهيم

اختلاف المزاج وأثره في الأفراد والأمم

وفي السياسة العامة

إذا رجعت معظم أسباب حوادث الطلاق التي تنشرها الصحف الإنكليزية، وجدت أن في مقدمتها اختلاف المزاج، وهو ما يعبرون عنه بقولهم ولا نفهم تماماً كيف يؤدي اختلاف مزاج الزوجين إلى تنغيص عيشتهما حتى يطلبا الخلاص منه بالافتراق.

نريد أن نقول: هل إذا كان الزوجان من أهل المزاج العصبي يكونان أقرب إلى الاختصام مما لو كان الواحد عصبياً حامياً والآخر بلغميا بارداً؟

قد يخيل إليك لأول وهلة أن الأمر كذلك، أي أن العصبي سريع الانفعال إذا لقي مثله تطاحنا وتقاتلا حتى يغلب أحدهما الآخر. ويبقى ذلك ديدنهما حتى يفرق بينهما تفريقاً لا اجتماع بعده.

ولكن العكس صحيح أيضاً. أي أن العصبي - وحدته ونزقه معروفان - لا يطيق أن يرى أمامه بلغمياً بارد الطبع، لأن الأول شعاره السرعة والثاني البطء، فيؤدي اختلافهما هذا إلى تخاصمهما بشدة لا تقل عن شدة تخاصم الأولين.

وصحيح كذلك أن العصبي حاد المزاج يطلب تنفيذ إرادته بلا تهاون، فإذا لقي أمامه صفراوياً أو بلغمياً بطيء الانفعال والتأثر فالغالب أنهما لا يعارضانه فيتم له ما يريد بلا خلاف ولا احتكاك ولا قتال

ويظهر أن هذا الحكم الأخير هو الرائج في السياسة، فقد تبدلت محالفات الأمم المختلف المزاج وتغيرت، وبقيت محالفات الأمم المتشابهة الأمزجة. فمن القبيل الأول

محالفات أوربا في القرن الماضي كالمحالفة الثلاثية بين ألمانيا والنمسا وإيطاليا، والمحالفة الثنائية بين فرنسا وروسيا. فقد زالت هاتان المحالفتان ولم يبق لها أثر.
ومن القبيل الثاني تحالف بلدان ألمانيا وتحالف ولايات أميركا. وهما تحالفان يبقيان على الدهر لأن (الدم أكثف من الماء) كما يقول المثل الإنكليزي. وعلى هذه النظرية يقدرون تحالف الأمتين الإنجلوسكسونيتين في مستقبل الزمان - أريد بهما أميركا وبريطانيا.
وقد وجد الإنكليز والفرنسيون بالاختبار الطويل أن كل سعي في التقريب بين الأمتين نجح حتى حين، ثم لم يلبث أن فشل لأن المزاج الأولين الصفراوي مضاد لمزاج الأخيرين
العصبي. ومن ذلك كانت سلسلة حروبهما الطويلة التي بلغت أقصاها في عهد نابليون، ثم انتهت حروب نابليون ولم ينته عداؤهما. وقد تمكن الملك إدوارد السابع بكياسته وحسن سياسته من عقد الاتفاق الودادي بينهما، وظهر أن هذا الوداد ازداد توثقاً بتحالف الأمتين في الحرب العالمية وانضمام أميركا إليها بعد ما تلكأت نحو ثلاث سنوات عنها. ثم لما انتهت الحرب إذا هما كانتا في تاريخهما الطويل - أمتان دائمتا النفار إذا اصطلحتا اليوم فلتختصما غداً.
وهذا شأن الفرنسويين مع أميركا، ولكن بعد الشقة بينهما وقلة تصادم المصالح حالا دون بروز وجوه الخلاف. وحالت (مديونية) فرنسا لأمريكا دون إبداء مزاجها العصبي، وكانت خير شكيمة لتمادي جماحها على رجاء أن حسن سلوكها وكظم مزاجها العصبي وإحلال المحاسنة محل المخاشنة - تؤدي كلها إلى تجاوز أميركا عن مالها من الدين على فرنسا.
ولكن الأميركيين متصلبون في عزمهم على ما يظهر تصلب شيلوك في اقتضاء رطل اللحم من غريمه مما حمل فرنسا على التظاهر بشيء من الخلق العصبي الذي طالما أخفته المحاسنة والملاينة والمجاملة. فلما احتفلوا بعيد لافاييت في الأسبوع الماضي أوعزوا إلى وزير حربيتهم المارشال بتاين العسكري العبقري أن يخطب فخطب عاتباً، والعتاب أول درجات الخناق.
ذكر في خطبته مقاتلة الجنود الفرنسوية تحت لواء وشنطن دفاعاً عن استقلال أميركا وما كان من الود القديم بينهما ثم نعاه فقال أن الأمتين ليستا من الود الآن على ما كنتا في قديم الزمان
ولكن هذا الغضب المقنع بقناع العتاب اللطيف والغمز الظريف، لابد أن يكون صاحبه قد ندم عليه بعد ما وردت أنباء أميركا بأن الأميركيين لم ينسوا جميل لافاييت، بل قاموا قومة رجل واحد يعقدون الاحتفالات في جميع أرجاء فرنسا، ويدعوا مجلس أمتهم سفير فرنسا إلى احتفال عظيم في وشنطن يكون السفير ضيف الحكومة فيه، ورئيس الجمهورية خطيب الحفلة فيها خطبة مؤثرة، ويذكر مآثر فرنسا في شخص لافاييت.
ولكن ذلك لا ينقع غلة ولا يشفى علة، ما دامت أميركا تطالب برطل اللحم منقوص، هذا كله يجيء مصدقاً للقول أن اختلاف الأمزجة هو بيت الداء بين الأمتين كما هو بيت الداء
بين الزوجين.

ق. س

في المحكمة الصلحية

بكفيا - لبنان

للأستاذ حسن عبد الجواد

بكفيا بلد من بلاد لبنان يعلو 950 متراً عن سطح البحر ويبعد 21 كيلو مترا عن بيروت. وعلى مقربة من هذا البلد تقع ضهور الشوير التي احتفلت بلديتها في الصيف الماضي بافتتاح شارع الأمير فاروق فيها بحضور كبار المصطافين المصريين.
وفي بكفيا محكمة صلحية (جزئية) يرأسها قاض على جانب كبير من الثقافة اسمه الأستاذ ناصر رعد.
والمحكمة الصلحية هي هي الجزئية. وهناك محاكم ابتدائية واستئنافية. ولديهم محكمة التمييز (النقض والإبرام).

وسراي محكمة بكفيا الصلحية بها غرفة للقاضي وقاعة للجلسة وغرفة لكتاب المحكمة (قلم كتاب) وغرفة المأمور الأجراء (المحضر القائم بالتنفيذ). - ومأمور الأجراء في تلك البلاد يتقاضى فوق مرتبه نسبة معينة على المبالغ التي يحصلها لأصحاب القضايا.

وكاتب التصديقات هناك يعمل لحسابه الخاص ويسمى (كاتب عدل) وله محل خاص أسفل سراي المحكمة يدفع هو أجرته الشهرية.

انعقدت الجلسة في الساعة التاسعة صباحاً ورأسها القاضي مرتديا الروب؛ وجلس على اليمين كاتب الجلسة مرتدياً الروب؛ وجلس المحامون بمقعدهم الأمامي يرتدي كل منهم الروب.

ووضعت القضايا على المنصة، أمام القاضي، وكل قضية في مظروف مختوم.

نادى حضرة القاضي (فتحت الجلسة علناً) وفتح مظروف القضية الأولى بين سكون شامل - فإذا ما نظر القضية فتح مظروف الثانية وقال نفس العبارة (فتحت الجلسة علناً) وهكذا في كل قضية.

ولقد أعجبنا كثيراً كثرة التجاء المحكمة إلى تعيين محكمين، بعد اتفاق الخصوم والتوقيع على محضر الجلسة بقبول التحكيم. وكثيراً ما انتهت القضايا صلحاً أمام المحكمة، وقد رأيناها تعرض الصلح على طرفي النزاع في كل قضية. وهذا طبيعي لأن المحكمة

صلحية. وأول ما يجب على القاضي الجزئي عرض الصلح على المتخاصمين.

وقد لاحظنا أن القاضي قد درس القضايا جيداً قبل افتتاح الجلسة إذ أخذ يناقش الخصوم في كل صغيرة وكبيرة - وقد تأكدنا أن القائم بتبليغ القضايا (بالإعلان) قد استجوب المدعي عليه كتابة على عريضة الدعوى. وفي ذلك تسهيل كبير لمهمة القاضي، وحصر للمرافعة في نقطة الخلاف فقط. وفي ذلك توفير كبير للوقت.

وقد رأينا القاضي يملي الكاتب أقوال طرفي النزاع بلغة عربية فصحى، ثم يطلب إليه قراءة ما كتب للتأكد من صحته

وكان يسأل القاضي الشاهد عن اسمه وصناعته وعمره، وعما إذا كان متزوجاً أو أعزب - وإن كان متزوجاً سأله عما إذا كان له أولاد. وقد سألنا عن السر في هذه الأسئلة الخاصة بزواجه وبأولاده فقيل (لمراعاة ذلك عند تقدير العقوبة على شاهد الزور)

وقد كان القاضي ظريفاً حقاً، وعلى جانب كبير من الأدب، فوق دقته وذكائه. وسمعناه يقول للشاهد عند الانصراف: (مع السلامة).

وقد حكمت المحكمة في القضايا الكيدية بمبلغ من النقود (نظير العطل والضرر) كذا، وفي ذلك القضاء حقا على القضايا الكيدية.

وفي القضايا التي تعين المحكمة فيها خبيراً، تستدعيه وتحدد له مهمته، والساعة واليوم الواجب تقديم التقرير فيهما

والتوكيلات يطلع عليها القاضي ويملي رقمها للكاتب ويردها لأصحابها.

ونظام الإكراه البدني متبع في تلك البلاد لتحصيل الديون المدنية المحكوم بها بعد الاستشهاد بشاهدين على أن المدين قادر على الدفع. ويشترط ألا يكون للمدين عقار حتى يكره على الدفع بالطريقة المذكورة؛ لأنه في حالة تملكه عقاراً يمكن اتخاذ إجراءات نزع الملكية بدلا من الإكراه البدني. والمحكمة تقضي بحبس المدين 91 يوماً مع استمرار حق الدائن في التنفيذ مدنياً. ومن أجل هذا قلت دعاوى الاسترداد، وقلت الدعاوى الكيدية المقصود منها عرقلة التنفيذ، وتأجيل إيصال الحقوق إلى أربابها.

والمحكمة تنعقد مراراً في الأسبوع لنظر قضايا الحقوق المدنية أو لنظر الجنح والمخالفات (محكمة جزاء).

والمحكمة تشدد العقوبة على سائقي السيارات المقدمين بتهمة الإسراع فتقضي بالحبس لغاية 6 شهور - والإسراع بمصر مخالفة لا يزيد الحبس فيها على أسبوع حبسا بسيطا - ولعل السبب في ذلك سوء العاقبة عند الإسراع نظراً لارتفاع الجبال وعمق الوديان.

وعند انعقاد الجلسة - جلسة الجزاء - يقف بعض رجال البوليس (الجندرمة) للمحافظة على النظام. وعسكري البوليس هناك مثقف، ويتقاضى مرتباً حسناً، (حوالي تسعة

جنيهات مصرية). وقد شاهدنا رجال الجندرمة يعاينون أدوات السيارة للتأكد من سلامتها قبل صعود الجبل، فإذا ما وجدوا تلفاً في أي جزء من أجزاء السيارة قدموا السائقين للمحاكمة. وكل هذا محافظة على أرواح الناس الذين تقلهم السيارات في طول البلاد وعرضها.

ولقد صادفنا عسكري بزحلة يحمل شهادة التجارة المتوسطة المصرية؛ وفي هذا الدليل على ما عليه رجال البوليس هناك في ثقافة ومعرفة.

تلك نظرة سطحية في نظام التقاضي بتلك البلاد الشقيقة؛ وهو في مجموعه في نظام طيب. وفقنا الله جميعا لخدمة العدالة ونصرة الحق، والأخذ بيد المظلوم.

حسن عبد الجواد

المحامي

بين المعري ودانتي

في رسالة الغفران والكوميدية المقدسة

بقلم محمود أحمد النشوي

الوطنية لدى الشاعرين

ذكرنا في العدد الماضي حديث الوطنية لدى أبي العلاء، ورأينا حنينه للمعرة وللشام، وحبه لوطنه الذي ألقى رداءه على كل ما حوله حتى على نياقه التي تمنت قويقاً والصراة حيالها؛ والتي تلت زبور الوطنية المنزل عليها في أن الصبر عن الوطن غير حلال، ونريد الآن أن نتعرف الوطنية لدى شاعر الطليان، تلك التي نكاد نلمسها في كل ناحية من نواحي كوميديته. وكأني به يخلق المناسبات، ويتعمد الاستطراد ليتحدث عن إيطاليا وآلامها وأوصابها في عهده، وليتحدث عن خائني أوطانهم وبلادهم كذلك.

ولعلك على ذكر مما حدثتك به إبان استعراض طبقات الجحيم لديه عن الدرك التاسع الذي جعله مقراً لخائني أوطانهم، يشاركهم في تلك الطبقة إبليس ويهوذا الأسخريوطي. . أوليس في تسويته (وهو غرس الكنيسة) بين خائني الوطن وخائن المسيح وإبليس اللعين ما يجعلنا نكبر فيه وطنيته، ونعلم أي حد بلغه في حب بلاده؟

وسأستعرض شيئاً من نواحي الوطنية في كوميديته، تلك التي نتلمس الوطنية الملتهبة في كل ناحية من نواحيها، حتى لنظن أن الوطنية كانت أكبر الأسباب التي دعته أن يذبح رسالته. فكم تلمس دانتي الأسباب والمناسبات ليبكي مجد إيطاليا وحروبها الأهلية التي كانت تمزق أوصالها، وتفرق بين أبنائها. . فها نحن أولاء نراه يسير في الطبقة الثالثة من السعير، فلا تكاد تقع عينه على أحد مواطنيه (تشاكو) حتى يميل نحوه ويحدثه عن الوطن وعما أحاط به من ويلات ومصائب. وتشاكو بدوره ينسى الجحيم والعذاب، وينساق مع دانتي في حديثه، فيذكر له النزاع والفشل بين أحزاب فلورنسا.

وبينا هو يجوس خلال الطبقة السادسة من السعير، وبعد أن خلص من مدينة (ديتي) وشياطينها إذا هو أمام مواطن آخر اسمه (فاريناتا فيكرر على سمعه الحديث عن فلورنسا وأحزابها وحروبها حديثاً يخفق له قلبه، ويضطرب له جنانه.

وفي (المطهر) بين النار والجنة يذكر أوجو كابيتو ونعيه على كارلو دي فالو الذي دخل فلورنسا وشرد أبناءها وأهلها. . ثم يرى في فراديس الجنان إمبراطور الدولة الرومانية الشرقية (جوستنيان فيوازن الإمبراطور بين قديم روما وحاضرها، وبين وفاقها في عهدها الأول وانحلال عراها، وتنازع أهلها وفشلهم في عصرها الحديث، ناعياً على معاصري دانتي تفكيرهم في مصالح أشخاصهم، وتركهم الوطن تعصف به رياح القلاقل والاضطرابات. وكذلك يرى جده كاتشاجويدا ينعم في الطبقة الخامسة من طبقات الفردوس، فيحدثه هو الآخر عن الأحزاب والخصومات، والحروب والويلات، موازناً أيضا بين عهده المليء بالمحبة والسلام، وعصر دانتي المترع بالنزاع والخصام. .

ذلك شيء من حواره الوطني الذي كان يهتبل الفرص فيذكره في ثنايا رسالته، وفي تضاعيف خياله.

فأما العذاب الذي تخيله ينصب من فوق رءوس هؤلاء الخائنين، فحسبك أن تعيره سمعك إذ يحدثك عنهم وهم في الدرك التاسع من السعير زرق الوجوه، مائلي الرءوس، غارقين في بركة من الثلج فسيحة الأرجاء، سار على صفحاتها فارتطمت قدمه بأحد الوجوه المشوهة، فتبين صاحبه فإذا هو (بوكا خائن الوطن، وقاتل من كان

يحمل العلم الفلورنسي غيلة، فتفرق جندها، وحقت على جيشها الهزيمة، كما حقت على خائني الوطن كلمة العذاب.

وحسبك أن ترهف أذنيك الحديثة عن الكونت أوجولينو الذي ألقت إليه مدينة بيزا مقاليدها، وخضعت لسلطانه، فأسلمها وأسلم قلاعها وحصونها لأعداد البلاد. بيد أن قومه ظفروا به فاستفتوا في أمره المطران روجيرو فاشتط المطران في فتواه، وأسرف في حكمه، وما كان جوابه إلا أن قال: ألقوه مع أطفاله وأبناء أخيه الصغار في غيابة برج من الأبراج حتى يموتوا صبراً جوعاً وعطشاً. فحبسوه وذريته الأبرياء الضعفاء في برج ألقوا بمفتاحه في النهر حتى ماتوا جميعاً؛ فكان عاقبتهما: الكونت والمطران، أنهما في النار خالدين، ينهش كل منهما رأس صاحبه

ثم اختتم دانتي جحيمه بالحديث عن بروتس وعن كاسيوس قاتلي يوليوس قيصر خيانة وغدراً، ولم يرعيا عطفه عليهما، ولا إحسانه العظيم لبلاده. وهنا أطلق لخياله العنان وافتن

في وصف العذاب لهذا الثالوث غير المقدس بروتس وكاسيوس ويهوذا، فتخيل وحشاً ذا ثلاثة وجوه متعددة الألوان، تبرز تحت تلك الوجوه أجنحة تفرغ أشرعة السفائن طولاً وعرضاً، وهي تهتز فترسل ريحاً باردة على الجحيم وعلى من فيها. ريحاً هي السبب فيما يلقونه من الزمهرير. لذلك الوحش ست عيون وثلاثة أفواه، يسحق أحدها بروتس، والآخر كاسيوس، وثالثها يهوذا، وهي دائبة على تمزيق أجسامهم؛ وكلما تقطعت أشلاؤهم عادت سيرتها الأولى، وعاد لها تمزيق أوصالها وسحقها . . .

وكم كان طريفاً حقاً إذ تكلم في المطهر عن امرأة تدعى سابيا وهي تتطهر من ذنوبها وآثامها؛ وما ذنبها إلا أنها فرحت واستبشرت إذ رأت قومها منهزمين، ولولا أن القدر أسعفها فأدركها المتاب قبل أن توارى في التراب، لكانت حصب جهنم وطعاماً للسعير.

يتبع

محمود أحمد النشوي

أعيان القرن الرابع عشر

للعلامة المغفور له أحمد باشا تيمور

سلطان باشا

هو محمد باشا بن سلطان بن أحمد، من قرية بالصعيد تسمى زاوية الأموات، بالجانب الشرقي من النيل، تجاه منية ابن الخصيب. ولد بها في سنة 1240 أو إحدى وأربعين. ورباه أبوه فسلمه لمعلم للقرآن بالقرية علمه القراءة والكتابة، وحفظه ما تيسر من القرآن الشريف. ولما بلغ أشده تركه أبوه ينظر في أمور القرية المذكورة، إلى أن نقل حسن باشا الشريعي من نظارة قسم قلوصنا، في ولاية محمد سعيد باشا على مصر، فسأله الوالي عمن يقيمه بدله على القسم المذكور فذكر له المترجم، وأثنى عليه، وضمن كفايته، فأقيم ناظراً لهذا القسم مدة ثلاث سنوات. ثم جعله سعيد باشا وكيلاً لمديرية بني سويف، وبعد سنتين جعله مديراً لها، فبقي فيها إلى أن توفي سعيد باشا، وتولى ابن أخيه إسماعيل باشا، فنقل المترجم مديراً للغربية فمكث بها نحو سنة، ثم أمر بنقله مديراً لأسيوط فأقام بها نحو سنتين، ثم جعله وكيلا لإدارة تفتيش الوجه القبلي ثم أحال عليه النظر في ضياعه التي بالصعيد المسماة بالجفالك، ثم جعله مفتشاً على مديريات الوجه القبلي، وانحرف عنه في أثناء ذلك عكوش باشا، وشاهين باشا، وعظمت الوحشة بينه وبينهما فوجد حاسدوه فرصة للإيقاع به، نظراً لمكانة الرجلين عند الخديو فسعوا به عنده، ووشوا له بأمور عنه كان يكرهها.

صداقته لتوفيق باشا

فغضب عليه وأمر بسفره إلى السودان رئيساً لمجلس الخرطوم وهو في الحقيقة نفي على جاري عادة ولاة مصر، إذا غضبوا على أحد نفوه إلى السودان في صورة تنصيبه بأحد المناصب. فصدع المترجم بالأمر وسافر، ولكنه لما وصل بني سويف وصله أمر الخديو بالرجوع بسبب تداخل ولي العهد محمد توفيق باشا وسعيه بالشفاعة له لدى والده لأنه كان يحبه. فرجع من الطريق وقصد قريته زاوية الأموات فمكث بها عدة شهور، ثم أذن له بالإقامة في القاهرة فأقام بها في داره المعروفة بجهة الإسماعيلية مدة إلى أن جعله الخديو

إسماعيل باشا مديراً للفيوم، ولكنه عاد فألغى هذا الأمر قبل سفره. وبعد نحو سنة رجع بأمر الخديو المذكور إلى بعض المناصب التي كان بها بالوجه القبلي. وخلع الخديو وتولى بعده محمد توفيق باشا، وقامت الثورة العرابية وطالب العرابيون الخديو بإعادة مجلس النواب، وكان أهمل شأنه بعد توليته فأجابهم لذلك وألف مجلس النواب، فجعل المترجم رئيساً له لما يعلمه من إخلاصه ومحبته له؛ ثم وقعت بينه وبين العرابيين وأمراء الجند منازعات وخلاف في بعض الأمور ظهر لهم منها ميله للخديو فأبغضوه ونووا له السوء.

عرابي يهدده بالقتل

وقام عليه مرة عرابي وبعض الضباط في داره، فهددوه بالقتل، وجردوا سيوفهم في وجهه، وكاد يقع في أيديهم، لولا أنهم تراجعوا عنه من تلقاء أنسهم، واشتد قلقه بعد هذه الحادثة ورأى حياته معهم على خطر، فاحتاط لنفسه، وصار إذا جلس بداره وضع بجانبه مسدساً محشواً ليدافع به عن نفسه إذا فوجئ، ولم يغن تهديهم له شيئاً، ولم يجد في تحويله عن الخديو، بل استمر علة إخلاصه، والقيام بمساعدته، والأخذ بناصره.

ثم اشتدت الفتنة، وسافر الخديو إلى الإسكندرية، فصحبه المترجم ملازماً خدمته، واستدعاه هناك درويش باشا مندوب السلطان في شعبان سنة 1299، وأنبأه بإنعام السلطان عليه برتبة روملي بيكلريكي، وأعطاه تقليدها بيده.

مع الإنجليز

ثم قامت الحرب على ساق، بين الإنكليز والعرابيين، فندبه الخديو لمساعدة الإنكليز، وإرشادهم إلى الطرق، فبذل ما في وسعه وكاتب بعض مشايخ العرب والعمد، ومن لهم شأن، يمنيهم بالخلع والرتب والأوسمة، على أن يبذلوا الطاعة للخديو والإنكليز وينبذوا طاعة العرابيين، فنجح في مسعاه ووافقه الكثيرون، فانضموا للخديو وشيعته سراً، ووقع الفشل في زمرة العرابيين، وانهزمت جموعهم، واستولى الإنكليز على مصر ودخلوا القاهرة يوم الخميس مستهل ذي القعدة سنة 1299، فأرسله الخديو إليها نائباً عنه، وأطلق يده في التصرف في الأعمال، فوصلها في 2 ذي القعدة ليلاً من الطريق بور سعيد، واستبد بالأمور أربعة أيام حتى حضر النظار إليها، وباشروا أعمالهم.

وقد تاه المترجم وتجبر في هذه الأيام الأربعة، وأمر بالقبض على كثيرين ممن كان له بغية في القبض عليهم وإذلالهم، ومنهم حسين باشا الشريعي، فإنه أوغر صدر الخديو عليه، وأشار بسجنه، ونسي له سابق فضله عليه، وذلك لخلف وقع بينهما إبان قيام الفتنة.

بعد الثورة العرابية

ولما حضر الخديو من الإسكندرية عقب إطفاء الثورة وذهب الناس لتهنئته بقصر الجزيرة يوم الثلاثاء 13 ذي القعدة المذكور أثنى أمامهم على المترجم ثناء كثيراً وقال هذا هو الرجل الذي أخلص لنا في السر والعلانية، وأنعم عليه بالوسام المجيدي الأول، وأمر بإحضاره فوضعه على صدره بيده أمامهم، ثم سعى له عند النظار للإنعام عليه بعشرة آلاف دينار مصري مكافأة على خدمته ومسعاه، فأعطيت له من ديوان المالية.

وكافأه الإنجليز بوسام (سان جورج، وسان ميشيل) من الدرجة الأولى لمساعدته لجندهم إبان الحرب، وذهب به السير مالت قنصلهم الكبير إلى داره وسلمه له يوم الثلاثاء 17 محرم سنة 1300هـ، وقال له إن من شروط هذا الوسام أن تضعه مولاتنا الملكة بيدها على صدر من تنعم عليه به، وقد أتيت إليكم نائباً عنها في وضعه على صدركم جزاء إخلاصكم وولائكم لجلالتها ولحضرة الخديو. ثم في جمادى الأولى من هذه السنة أنعموا عليه أيضاً بالميدالية الإنجليزية المضروبة بخصوص الحرب العرابية.

وبقي المترجم بعد ذلك في داره بالقاهرة بلا عمل، ملقباً بلقب رئيس مجلس النواب، ثم انتدب للإشراف على شواطئ النيل وجروفه بالوجه القبلي لما زاد في الفيضان، فصدع بالأمر على كره منه، ورأى ذلك حطاً من مقامه، واستقل العشرة الآلاف والوسامين على ما قام به للخديو والإنكليز، وانعكست آماله التي كانت ترمي إلى تنصيبه في منصب كبير، وفترت نفسه، وكثرت همومه، وانحرف عن الإنكليز، وطفق يذمهم بعد أن كان لهجاً بمدحهم والثناء عليهم في كل مجلس يجلسه، واعتزل الناس فجعل إقامته بالصعيد، ولما ذهب اللورد دوفرين إلى تلك الجهة زاره المترجم فلم يلق منه ما كان يؤمله من حسن المقابلة، وسأله في عرض حديثه عن حضور أخوي الخديو

حسين باشا وحسن باشا من أوربة، فقال له نعم حضرا، فقال ولم حضرا، فأعرض عنه اللورد ولم يجبه، ونقل حديثه مع غيره، فقام المترجم من المجلس كاظماً غيظه، وزاد في ذمه في الإنكليز، وأثرت هذه الأحوال فيه فاعتلت صحته.

رئاسة مجلس الشورى

ثم صدر الأمر العالي يوم الأربعاء 21 محرم سنة 1301 بجعله رئيساً لمجلس شورى القوانين الذي ألف حينذاك، بدلاً من مجلس النواب، حسب إشارة اللورد دوفرين في تقريره عن مصر، فتولى هذا المنصب وهو عليل، ثم ازدادت علته، فأشار عليه الأطباء بالسفر إلى أوربة للمعالجة، حيث لم تفده معالجة أطباء مصر، فسافر إلى بلاد النمسة، ونزل بنزل في مدينة غراتس، فوافاه أجله هناك يوم الاثنين 26 شوال سنة 1301.

وفاته

ونعي إلى الخديو في ذلك اليوم بالبرق، نعاه له قليني باشا فهمي فأسف عليه أسفاً شديداً وجزع، وأمر بنقل جثته إلى القطر المصري لتدفن فيه، وأقام له مأتماً من الخاصة الخديوية، وناط بمحافظة القاهرة القيام به بالنيابة عنه. ووصلت جثة المترجم إلى الإسكندرية يوم الأربعاء 6 ذي القعدة من السنة المذكورة فأمر الخديو بتشيعها تشييعاً كبيراً بالإسكندرية، فسارت في طليعة الجنازة كتيبة من فرسان الشرطة، ثم كتيبة من الجند الرجالة منكسي الأسلحة، يتلوهم قراء الأحزاب والبردة، ثم جميع كبار الموظفين بالإسكندرية، فتلاميذ المدارس، فجم غفير من الأعيان حتى أوصلوا النعش إلى السكة الحديد، فجعلوه في قطار مخصوص سافر به من هناك إلى منية ابن الخصيب، ونقل منها إلى الشاطئ الشرقي حيث دفن بمقبرة بلده. وخلف المترجم ثروة واسعة، وولداً واحداً عمره نحو سنتين، وثلاث بنات. وقد رثاه الشيخ علي الليثي بقصيدة.

أدبه

وكان للمترجم إلمام بالأدب وقرض الشعر، اشتهر عنه نظم النوع المسمى بالصعيد بالواو، وأخبرني من أثق بقوله أنه اطلع على قصيدة له في مدح حسن باشا الشريعي رحمهما الله.

وحدثني صديقنا على رفاعة باشا، ابن رفاعة بك الشهير قال: كانت بيني وبين المترجم وحشة ازدادت لما جعلت وكيلاً للمعارف إبان الثورة العرابية، ثم عزلت من هذا المنصب بعيد الثورة، وقصدت السفر إلى بلدتي طهطا، فلقيته بالقطار، فلما وقعت عينه على عيني نظر إلي نظرت الشامت ثم قال: إيه يا علي بك، لقد أجاد الشاعر في قوله:

برغم شبيب فارق السيف كفه ... وكانا على العلات يصطحبان

فقلت نعم أجاد، وأجود منه قول الآخر:

أني لأرفع حين أرفعها ... على كثير ولكن لا أرى أحدا

يقظة الشرق

للآنسة فلك طرزي

في ليلة من الليالي الشديدة القمر، الغائبة النجم، القاتمة السواد، الشديدة الحلوكة، قام طيف يخترق وحشة الليل، يسير بخطوات هادئة يتحسس طريقه على الأرض الحزون، يضرب فيها أخماساً لأسداس، ممسكاً بيده قيثارة قد أوتارها من نياط قلبه، وأنامله تلاعب هذه الأوتار بعزف يكشف رويداً غشاوة ما كان راكداً في أعماق النفس، وراسباً في قرارة القلب، من ذكرى الماضي الحافل التي طواها الزمن، وكان يشدو معها بالغناء بصوت رقيق حنون، تسبح موجاته مع تموجات الأثير تهدهدها طياته، وينقلها الهواء من شاطئ إلى شاطئ، ومن ضفة إلى ضفة، حتى ملأ أجواء الشرق بنغماته، وعبقت منه رائحة الأبدية وعبير الأزل.

أخذ الصوت يقول: تعالي إي قيثارتي نرتل لحناً نعيد به المجد البالي! تعالي نغرد أناشيد الصباح لعل الفجر يبدد الدجى! تعالي نتغنى بألحان السحر فتتحول الأرض القاحلة إلى حقول معشبة، والسهل الأجرد إلى سهول مخصبة! تعالي يا قيثارتي نوقظ النهار من غفلته والنفوس من نومها العميق! تعالي نرسل أنغامنا في سمج الدجى

فتتحول السماء السوداء إلى قبة تسطع فيها النجوم وتتلألأ فيها الكواكب.
ظل هذا الصوت يشدو، وهذه القيثارة تجيب، حتى تمزقت حواشي الليل، وآذنت ساعاته بالفناء، وإذا بالفجر يبدو مشرقا وضاحاً، وإذا بواكير الصباح تكشف عن نهار مشرق وضاح جميل، وما لبثت السماء حتى تقشعت عنها الغيوم وتبدد عنها السحاب، فبدت بلونها اللاوزردي الجميل، وتربعت الشمس على عرشها، وأشرقت من أفقها ساطعة بنورها الوهاج على الجبال والأودية، وهي مشتعلة متأججة، وأخذت أشعتها تتفرق في السهول وعادت إلى الأرض حياتها، وإلى الزهر رونقه وبهاؤه، وإلى الزرع اخضراره وجماله.
فقالت الأزهار يخاطب بعضها بعضا: انظري يا أختاه إلى هذا النور المنبثق من السماء! انظري! ما هذا الضياء المشع؟ أليس هو نور (اليقظة) يسطع من سماء شرقنا المحبوب؟ وقالت الأشجار لبعضها: ألا تعلمين يا صديقتي أن أغصاننا كادت تتحول إلى أعواد يابسة يعصف بها الشتاء، لولا تلك النغمة المقدسة التي أرسلتها اليقظة من سماء مصر فأعادت لنا
أنفاسنا وحياتنا! وقال الفجر يخاطب الليل: أنت أيها الحسود كدت أن تمحي خطوطي الزاهية إلى الأبد، لولا (هذه الفتاة الحسناء) التي عادت فرسمتها برغم أنفك! فيالك من عدو ماكر وحسود خداع!
وقالت الأطيار بعد أن عادت تغرد في الدوح: تعالوا نحلق في الفضاء ونرفرف بأجنحتنا فالجو صاف، والنسيم عليل، والعبير يعبق في جو الأفلاك! وقالت الأنهار: تعالوا نرو الأرض من مائنا السلسبيل ونطفئ ظمأها من ينابيعنا العذبة، تعالوا! تعالوا! أن غديرنا يبعث من خريره أناشيد ملؤها الغبطة والسرور!
عندئذ نظرت النفوس إلى (يقظة الكون) وتأملت طلوع شمسها البهية، واشرق محيا الصباح الجميل فتنفست الصعداء وارتسمت على الوجوه ابتسامة سرور وانشراح وقالت: لك الحمد يا رب! أنت الذي نظرت إلينا بعين الرحمة، فما أطلت علينا ليلك، وما طالت علينا حلوكة الظلام الدامس! فها نحن أولاء نستيقظ من سباتنا العميق، ودم الحياة يتدفق منا قوياً حاراً، وثغورنا تبتسم لابتسام ثغر الأدب من بين شفتي هذه النهضة المباركة التي أنشأتها أقلام الأدباء، ونظمت لحنها عقول الشعراء، وخلدت مجدها عبقرية الفنانيين، فقامت عصبة الشباب تطالب بالحرية والمساواة، ورفع راية الشرق، تستنكر الذل والخضوع، وتأبى الضيم وعار الاستلام.
هاهما حافظ وشوقي قد طواهما الخلود بعد أن غرد أناشيد الحياة المتنوعة، وخلفا ذكراهما تتناقلها الأجيال زكية الأرج، ضواعة العبير، وسجلاً صحيفتيهما في عالم الخلود!
هاهي ذي (مصر) كما تخيلها مختار تقف بجانب أبي الهول توقظه من نومه الأبدي وغفلته العميقة، لينقذها من هذه الأهوال التي جعلتها تئن تحت نيرها! هاهي ذي (الرسالة) الغراء لما تبلغ سن الفطام شبت وترعرعت، وغدت لسان النهضة الأدبية في العالم العربي قاطبة يقوم بها أسطع الكتاب اسماً، وأوسعهم شهرة، وأجلهم قدراً.
فاللهم اجعل هذه النهضة مباركة ميمونة الطالع على الشرق فيتحد أبناؤه، وتتوحد كلمتهم، وتأتلف قلوبهم، وتخفق بأمنية واحدة هي (الحرية)! وقرب لنا الساعة التي تتهلل وجوهنا فيها بالسعادة والغبطة، وترسل أعيننا دموع الفرح والسرور، فيمتلئ الجو من ندائنا، ويرتفع علمنا المحبوب يشق أجواز الفضاء، ونصيح من أعماق قلوبنا بصوت واحد
(ليحيى الشرق)
دمشق
فلك طرزي
حقائق
لميشيل أنجلو
ترجمة عامر عبد الوهاب عامر
1 - يقول بنسن في كتابه (كلمات عن كورسيكا) لقد غرس حب الحرب في قلب نابليون منذ طفولته إذا أهدى إليه أحد أصدقائه الأحداث مدفعاً صغيراً من النحاس
2 - بينما كانت جوزفين ذاهبة ذات يوم مع نابليون إلى الأوبرا استوقفها الجنرال (راب) لحظة ليضع لها الشال على طريقة السيدات المصريات. وبهذه الحادثة التافهة نجا

نابليون بحياته إذ انفجر اللغم الذي أرصد لاغتياله في تلك اللحظة وهكذا توقف مصير أوربا على تعديل وضع الشال.

3 - إن المؤامرة التي دبرت في عهد الملك شارل الثاني والمعروفة باسم - فشلت بسبب صغير. وذلك أن المنزل الذي أقام به الملك اشتعلت فيه النار فاضطر أن يرحل عن (نيو ماركت) قبل الميعاد المعين بعدة ساعات وكان ذلك سبيلاً إلى إفساد التدبيرات التي أعدها المتآمرون على جلالته

4 - إن الحريق الكبير الذي شب في لندن عام 1799 أحدثه خادم كان قد ألقى سهوا شرارة على تخشيبة كوخ. كذلك الحريق المروع الذي اندلع لهيبه في المدينة في عهد شارل الثاني يرجع إلى حادثة من هذا القبيل في مخبز قريب من جسر لندن

5 - إن طموح القائد الروماني ماريس وكل ما استتبعه من الشرور والآثام يرجع إلى تلك النبوءة الخرقاء بأنه (سيصير قنصلاً سبع مرات)

6 - هاجم الغاليون بزعامة برنوس روما عام 390 ق. م ولكن برنوس امتنع عن اقتحام القلعة الرومانية على أثر سماعه نقنقة بعض الإوز المقدس الذي أهاجه سير المحاصرين الغاليين

7 - إن اختراع الزجاج ينسب على العموم إلى بعض التجار الفينيقيين الذين أوقدوا ناراً على ساحل البحر. ثم لاحظوا بعد انطفائها تحول الرمل إلى زجاج

8 - إن اختراع الطباعة - ذلك الاختراع الخطير - أستلهمه جون جينسفليش في ساعة نشوة وطرب حيث نقش الحروف الأولى من اسمه على شجرة، ثم ساقه الخيال الحالم إلى
أن يضع عليها ورقة فانطبعت عليها هذه الحروف

9 - إن جاك لافاييت أحد رجالات المال والسياسة الفرنسيين، والذي لعب دوراً خطيراً في ثورة عام 1830 كان في الأصل بائساً معدوماً. وقد نسب العمل الذي فتح أمامه طريق اليسار والفخار إلى التقاطه دبوساً ضائعاً في شوارع باريس

10 - خطرت نظرية الجاذبية لسير اسحق نيوتن عندما رأى تفاحة تسقط مصادفة من شجرة كان يرقد تحتها في لحظة تفكير وتأمل.

11 - قال قيصر (للمصادفة أثر كبير في الحرب) ولكن أثرها أكبر في الاكتشافات العلمية والأحداث السياسية (جريدة التيمس)

12 - قد تؤدي حادثة صغيرة جداً إلى نتائج عظيمة الشأن. وأحياناً تسبب أروع النكبات (تشيمبرز)

تاريخ الأدب

بقلم الأستاذ محمود محمود محمد

سلكت دراسة التاريخ في العصر الحديث مسالك شتى، وتشعبت في فروع كثيرة؛ فأصبحنا نرى إلى جانب تاريخ السياسة تاريخاً للفلسفة، وتاريخا للعلوم، وتاريخاً للاقتصاد، وتاريخا للأدب. وسنحاول في هذه الكلمة أن نبين مدى ما يمسه تاريخ الأدب من مباحث.

1 - شخصية الكاتب

يعنى تاريخ الآداب بدراسة الآثار الأدبية من نثر ونظم. ولما كنا لا نستطيع أن نفهم الكتاب فهما صادقاً دون أن نعرف مؤلفه، أو نحلل القصيدة تحليلاً دقيقاً من غير أن نعرف ناظمها، فقد أصبح لزاماً علينا أن نجعل الكتاب والشعراء أنفسهم موضوعاً للدرس عند دراسة تاريخ الأدب، ذلك لأنه يستحيل علينا أن نفصل الأثر عن المؤثر أو نفهم النتيجة دون السبب. وإننا حين نقرأ كتاباً من الكتب تبرز لنا شخصية المؤلف الذي صب أفكاره ومشاعره في هذا الكتاب قوية واضحة، بحيث لا نستطيع إنكارها. وتشمل دراسة الأشخاص نشأتهم وتجاربهم وأخلاقهم الموروثة والمكتسبة، ونزاعاتهم وتاريخ حياتهم، وغير ذلك من مكونات الشخصية. ولكن هناك ناحية أخرى يجب أن تنال من عنايتنا أكبر نصيب عند دراسة الأديب، تلك هي السمة الظاهرة، والطابع الخاص الذي يميز البعض عن البعض، ويرفع كاتباً فوق الآخر. ذلك لأن العبقرية معنى واسع تشمل أطرافاً متباعدة، ولكنها في صميمها عبارة عن قوة الشخصية، أو قوة الابتكار والابتداع. ويقول أحد الكتاب الإنجليز: (إن كل كاتب كبير يأتي إلى هذا العالم بشيء جديد كل الجدة: ذلك هو نفسه). والكاتب المخلص لفنه يسكب نفسه ويبث روحه في

كل ما يكتب، ومن ثم اختلفت آثار الكتاب وانطبعت بصور شتى من شخصياتهم. وواجبنا عند دراسة الأديب أن نبرز طابعه الشخصي للعيان، ونفصله كل التفصيل؛ فهو أهم ما يجب أن نعرف عنه، وللأديب من الأهمية والعظمة بقدر ما لهذا الطابع من قيمة وجاذبية.

2 - المذاهب والمدارس في الأدب

ليست شخصية الكاتب إلا ناحية واحدة من نواح كثيرة، يختص بدراستها تاريخ الأدب. فلو أنا دونا مصنفاً يجمع بين دفتيه تاريخ حياة الأدباء وذكر آثارهم ومخلفاتهم متنافرة لا تؤلف بين ابعاضها فكرة، ولا تربط أجزاءها صلة، كان تأريخنا لأدب اللغة ناقصاً قليل الفائدة، لأن الأدب برمته يرتقي وينحط من عصر إلى عصر. وعلى مؤرخ الآداب أن يدرس أسباب الرقي والانحطاط، وتأثر الأدباء بها أو تأثيرهم فيها، وأن يدرس صلاتهم بأسلافهم وأخلاقهم، فان من الكتاب من يرتفع إلى درجة السمو والكمال، فيطبع عصره بطابع خاص، ويظهر من بعده أتباع له يتأثرون آراءه وأساليبه، معترفين بفضله حيناً ومنكرين أحياناً. والكتاب الذي يلقي رواجاً عند جمهور الناس لا يلبث أن يظهر له أشباه، وأن يتكرر ما فيه مرات ومرات: هكذا تنشأ المدارس في الأدب، وتظهر الحركات التجديدة التي تحيا حيناً من الدهر، ثم تموت لتخلي السبيل إلى ظهور مدرسة أخرى أو حركة جديدة حينما تتغير الأذواق وتتبدل المذاهب. فإذا قلنا - مثلا - مدرسة (بوب) في الأدب الإنجليزي، انصب قولنا على جميع الشعراء الذين تبعوه في الأسلوب الذي أذاعه بين الناس ورفعه إلى مرتبة الكمال. وإذا ذكرت (الحركة الكلاسيكية) في الشعر، حملت إلى أذهاننا عصر بوب الذي تميز بالرجوع إلى تراث الأقدمين وورود مناهجهم الأدبية. وإذا قلنا الحركة الرومانتيكية في النثر الخيالي، قصدنا ذلك المنوال الذي أنشأه (سكت) في كتابه القصص التاريخية، ونسج عليه أتباعه ومقلدوه. وقد ظهرت المدارس والمذاهب كذلك في الأدب العربي، فكان في العصر العباسي مدرسة وعلى رأسها الأصمعي، لا تحب إلا الشعر الجاهلي، ولا تحب من المحدثين إلا من قلد القدماء. وقد أدخل المتنبي والمعري الفلسفة في الشعر، فأصبحت مذهباً من المذاهب له أشياعه وأنصاره.

هذه المدارس والحركات تلعب دوراً هاماً في تطور الأدب، ولها من الأهمية في دراسة تاريخ الآداب ما لا يقل شأناً عن دراسة شخصيات الكتاب أنفسهم. فان الأديب مهما كان مجدداً مبتكراً فهو ما يزال إلى حد بعيد وليداً لبعض الكتاب السابقين، يستلهمهم الرأي ويستوحيهم الأسلوب. وقد ذكرنا مثلا أن (بوب) مجدد في الشعر الإنجليزي، له أسلوب خاص ومدرس خاصة، ولكنا إذا أمعنا في البحث عرفنا أن هذا الأسلوب لم يكن من خلقه وإنشائه، وإنما بلغ الذروة والكمال على يديه بعد ما سار شوطاً بعيدا في التقدم والترقي، ووصل إلى درجة تكاد تدانيه دقة وروعة في كتابات الشاعر دريدن. وقد تعلم سكت في مدرسة رومانتيكية قبل أن يصبح زعيماً لهذه الحركة، وظهرت الفلسفة في الشعر العربي قبل المتنبي والمعري. وكثيراً ما ينعت شكسبير بأنه يتفرد في عصره بالسمو والكمال الأدبي، وأنه ابتكر الدرام لم يتبع في ذلك أحداً ولم يتأثر أحداً، ولكنه في الواقع لم يكن إلا متماً لمجهودات السابقين من الكتاب أمثال نكولاس يودال، وتوماس فورتن، وغيرهما ممن لا يرد ذكرهما في تاريخ الأدب إلا لماماً.

وتاريخ الأدب يوضح لنا هذه الصلات ويربط كاتباً بآخر، وجماعة بجماعة، ومدرسة بمدرسة، كما يدرس أسباب التطورات المختلفة في عصور الأدب، وتأثير فحول الكتاب في الجمود بالأدب والسير به في مناهجه القديمة والنهوض به وتوجيهه وجهات جديدة. وقد عرفنا أن روح الأدب تتغير من عصر إلى عصر، وكثيراً ما يتحكم الذوق العام عند جمهور الشعب في هذا التغير، فيخرج الأدب على غراره ويتطبع بطابعه. وكما أن لكل جيل أسلوبه في الشعور، فكذلك لكل جيل ذوقه الخاص. هذا الذوق سريع التقلب والتغير، فان عصر فكتوريا في الأدب الإنجليزي (1832 - 1877) على قرب عهده وشدة صلته بالعصر الحديث يختلف في أدبه عن الأدب الحديث، كما يختلف في زيه عن الأزياء الحديثة. والفرق واضح بين لغة الأدباء في مصر الآن، وبين لغتهم منذ عشرين عاماً فقط، ذلك لأن القراء قد تبدلت أذواقهم وتغيرت طرائق معيشتهم.

وتاريخ الأدب يبحث قبل كل شيء عن أسباب هذا التطور في الأساليب والأذواق، وقد عرفنا أن شخصية الكاتب عامل عظيم الأثر في هذه الانقلابات، لأن الكاتب الفذ يخلق ذوقاً جديداً وينشئ عصراً جديداً ومرحلة جديدة في الأدب، ولكنا يجب ألا نغالي في تقدير شخصية الكاتب حتى نجعلها تبتلع العوامل الأخرى وتستغرقها جميعاً، فقد ذكرنا أن النابغة يصاغ في قالب من الثقافة والمثل العليا والاتجاهات العقلية والخلقية التي يولد فيها، مما يكون له أكبر الأثر فيما يكتب ويخرج لهذا العالم. وكما يؤثر الأديب الفحل في عصره فهو كذلك يتأثر به، ويتوقف نجاحه إلى حد كبير على خضوعه لأذواق الجماهير ومجاراته لأهوائهم، وعلى ذلك فالكاتب ابن عصره، ولابد لنا عند دراسته من معرفة العوامل التي كيفت آراءه وحددت ذوقه الأدبي، وجعلت له طابعاً خاصاً في أدبه - وقد تكون هذه العوامل أدبية ترجع إلى الكتب والمدارس كما يتميز عصر اليزابيث - مثلا - في الأدب
الإنجليزي باندفاعه وراء الآداب اللاتينية والإغريقية التي بعثتها النهضة الأوربية، فتأثر الكتاب في ذلك العصر بسحر الأدب الإيطالي، وكما انبعثت آداب العصور الوسطى وفنونها منذ سنة 1750، وتمثلت في كولروج وسكت. فالواقع الذي لا مراء فيه أن المؤثرات الأدبية تأتي بأذواق جديدة تجرف أمامها أشد الكتاب استقلالاً في الرأي.
ولكن الأدب يتأثر بعدة عوامل أخرى غير العامل الأدبي، عوامل لا تمت إلى الكتب والمدارس بصلة، ولكنها تتصل بالحياة العامة والسياسة والاجتماع بسبب، فكل ما يبعث اتجاهاً جديداً في الرأي أو في منحى الحياة أو في مجرى السياسة والشعور العام يؤثر في تكوين الآداب إلى حد كبير. ويجب علينا دراسة أي أثر من الآثار الأدبية ألا ننسى ظروف الزمان والمكان التي أحاطت بالكاتب عند تحرير كتابه.
3 - صلة التاريخ بالأدب
لكل جنس من الأجناس البشرية ولكل عصر من عصور التاريخ مميزات خاصة، ومهما تكن شخصية الأديب بالغة من القوة، فأن روح جنسه وعصره لابد ظاهرة فيه وعلى ذلك فتاريخ الأدب يتأثر بمؤثرات وطنية كما يتأثر بمؤثرات شخصية. ويكفي أن نذكر الإصلاح الديني والثورة الفرنسية وظهور الإسلام وتقدم العلوم في القرن التاسع عشر، وغير ذلك من الحوادث العظمى في التاريخ لنتبين العلاقة المتينة بين تاريخ الأدب والتاريخ العام.
ولا يقتصر تاريخ الأدب على دراسة المخلفات الأدبية لمختلف الكتاب، كل كاتب على حدة، وإنما هو يشمل كذلك دراسة أدب الأمة جملة واحدة، وإظهار مميزاته العامة باعتباره إنتاجاً لعقلية هذه الأمة ككتلة واحدة لها تفكير خاص وشعور خاص، فللأدب العربي - مثلا - مميزاته العامة، وللأدب الإنجليزي مميزاته العامة كذلك، وتختلف هذه عن تلك بمقدار ما يختلف الشعبان في الجنس والسلالة.
كل ما له أثر في تكوين الأمة له أثر في نسج أدبها، فأن أدب الأمة هو تاريخها الذي دونته بقلمها يصور لنا أخبار رقيها العقلي والخلقي. وإذا تتبعنا تاريخ الأدب في كل ما طرأ عليه من تقلبات، فنحن على اتصال مباشر بالأسباب الحقيقية، والحركات الدافعة لحياة الأمة في العصور المختلفة، ونحن مستطيعون أن نفهم نظر أهل تلك العصور إلى الحياة وألوان
مسراتها وأنواع ملاهيها وفلسفتهم في الوجود ومختلف العواطف والأحاسيس التي كانت تجول بنفوسهم، ومثلهم العليا في الأخلاق والذوق، وأي صفات البطولة كان لها سلطان قوي على النفوس، وكان لها نصيب كبير من الإعجاب، فالأدب كما يقولون مرآة تنعكس عليها روح الشعب وحياته
4 - عصور الأدب
وقد اعتاد مؤرخو الآداب أن يقسموا الأدب إلى عصور مختلفة، ولم يلجئوا إلى ذلك لسهولة الدرس فحسب، ومن قبيل تقسيم الموضوع المتشعب إلى أبواب وفصول، ولكن هناك ما يبرر هذا التقسيم، فالعصر التاريخي عبارة عن فترة زمنية يسود فيها نوع من الذوق العام، وعلى ذلك فأن أدب ذلك العصر يتسم بصفات خاصة من حيث المادة والفكرة والأسلوب. وقد تختلف آثار الكتاب البارزين بقدر ما تختلف شخصياتهم، ولكن تلك الصفات العامة تظهر فيهم أجمعين، ولا ينتهي عصر ويخلفه آخر، إلا بعد تغير حاسم في الذوق العام.

ولكننا يجب أن لا نضع الحواجز المتينة بين عصر وعصر، فليس تاريخ الإنسان أبواباً وفصولاً، ولكنه تيار واحد متدفق يتعرج حينا ذات اليمين وحيناً ذات اليسار، وليس له بداية معينة ولا نهاية محدودة، والعصور التاريخية في الواقع آخذ بعضها بتلابيب بعض، وقد يبدأ الرحل عمله في عصر من العصور ولا ينتهي منه إلا في عصر آخر، كالمخضرمين بين الجاهلية والإسلام، وكبشار وابن المقفع بين العصر الأموي والعصر العباسي. وقد عاش دريدن وملتون في زمن واحد، ولم يعمر أولهما بعد الآخر إلا سنوات قلائل، ومع ذلك فقد أعتاد مؤرخو الأدب الإنجليزي أن يضعوهما على رأس عصرين متتابعين يعرفان بعصر (دريدن) وعصر (ملتون). ومع ذلك فإن لتقسيم الأدب إلى عصور أهميته الدراسية لأنه يوجه أنظارنا إلى المراحل التي اجتازها الأدب وتميز في كل مرحلة منها بميزة خاصة، وهو أهم ما يعنى به مؤرخ الآداب.

وللمؤرخ أن يطلق على هذه العصور أسماء يشتقها من التاريخ ورجاله كعصر اليزابيث، وعصر فكتوريا، وعصر المأمون. ولكن الأجدر بنا أن نسمي تلك العصور بأسماء مشتقة من الأدب نفسه ونطلق عليها أسماء مشاهير الكتاب الذين يمثلونها فنقول عصر شكسبير وعصر ملتون وعصر المتنبي. وعصر الجاحظ. . الخ ليسهل على الطالب أن يدرك

بنظرة سريعة الصفات التي يتميز جيل عن جيل.

محمود محمود محمد

-

من طرائف الشعر

الوادي

لصوت الطبيعة الصارخ ألفونس دي لامارتين

للشاعر الدمشقي أنور العطار

(إلى التي علمتني الحب وعلمتني الألم، وجعلت من حياتي مشابه لحياة هذا الشاعر، وحرقة القلب، ومشجعي النغم، ومذيب الألم في خيبة الحب، !)

إيهِ وَادي الصَّباءِ والأَحلاَمِ ... إيهِ مَهْوَى الإيحاءِ والإلهامِ

هَبْ لِضَعْفي مَلاَذَ يوْمٍ قصير ... أَتَرَقَّبْ فيهِ دُنُوَّ حِمامي

لم يَعُدْ قَلْبيَ السَّئُوم المُعنَّى ... يرْتجي مِنْ عَمايةِ الأَيَّامِ

أَنْ تُعِيدَ المُنى إليهِ عِذاباً ... مُغْرِيَاتٍ بِثغرِها البَسَّامِ

هُوَ ذا المسلَكْ الذي ضاقَ ذرْعاً ... في ثنَايَا الوَادِي المُضبَّ النَّوَاحي

تَتَدلَّى الغَابَات حَوْلَ حِفَافيْ ... هِ وَتَبْدُو مُلْتفَّةَ الأَدْوَاحِ

بَاعِثَاتٍ إلَى جَبِينيَ فَيْئاً ... مِنْ غُصُونٍ تميدُ بالأَفرَاحِ

غَامِرَاتٍ سَاحَ الفؤادِ سَلاَماً ... مُقْصِيَاتٍ عَنِّي شَجَا الأَتْرَاحِ

هَاهُماَ جَدْوَلاَنِ في قَاتمِ البُعْ ... دِ اسْتَسَرَّ في مَسْرَبِ الأَعْشابِ

رَسما في المَسيرِ مُنْعَطفَ الهضْ ... بِ وَمَسرَى الرُّبا ومَنْحى الشِّعابِ

مَزَجَا في هُنَيهْةٍ نَاغِمَ المَا ... ءِ بَموْجٍ كَالهَادِرِ الصَّخَّابِ

ثُمَّ غَابَا عَنِ العُيُونِ وَضَاعا ... في قَصِيِّ المدَى وَخَافي الرِّحابِ

وَلَكَالجْدْوَلَيْنِ في النَّهدارِ ... فَاضَ نَبْعي وَلُجَّ في التَّسيْارِ

ثُمَّ ولَّى وَلَيسَ صَوتُ ولا اسْمٌ ... أوْ مَعَادٌ إلى حِمى التَّذكَارِ

فيهما المَاء قد ترَامى نَقيًّا ... مُشرِقَ السكْبِ مثلَ شمْسِ النَّهَارِ

غيْرَ أَنِّي، وَالهْفَ نفْسي، كَئِيبٌ ... وَمِيَاهي مُرْبدَّةُ الأَنْوَارِ

في ضِفَافٍ مِنَ الجدَاوِلِ غَرْقَى ... في دُمُوعِ النَّدَى وَسَجْوِ الظِّلاَلِ

كُنْتُ أَقْضي سَحَابَةَ اليَوْمِ مَغْلُو ... لاً بِقيدٍ ممِنَ الطَّبِيعةِ غَالِ

وَعَلى هَادِرِ المِيَاهِ تَغُطُّ النَّ ... فْسُ في حُلْمِهاَ البَعيدِ المجَالِ

مِثْلَ طِفْلٍ أَغْفى على نَغَمِ حُلْ ... وٍ غَميسٍ في زاهِرِ الآمَالِ

آهِ! هَلْ لي إلى هُنَاكَ مَعَادٌ ... حَيْثُ أَفْنى في زاخِرِ الأَمْوَاجِ

إنَّ عَيْني تَهفُو الى ذلكِ الأُفْ ... قِ وَتَهْوى تَزَاحُمَ الأحرَاجِ

ليتَني في حِمى الطبيعةِ أَبْقى ... سَادِراً في بِقَاعِهَا والفِجَاجِ

ثُمَّ أَرنُو إلَى السماوات مِفرَا ... حاً أُصَلِّي في ذَهَلتي وَأُناجي

كم تَعشقَّتُ في حياتي وَكم زوَّ ... دتُ عيني مَرْأَى، وَقَلبي شُعُورَا

غيْرَ أَنَّي رجعتُ أَدراجَ ذاك الْ ... عَيشِ أَبغي إلى الهُدُوءِ مَصيَرا
يَا مطافَ الجمَالِ باللهِ كُنْ لي ... شاطئاً للسُّلُوَّ يوْماً قَصيرَا
لَيْسَ غيْرُ النَّسْيانِ يَمْلأُ نفْسي ... أملاً وَاسعاً وَصبْراً غَزيرَا
إنَّ نَفسي في هدْأَةٍ وَفُؤادِي ... في ارتيَاحٍ يَفُوقُ كُلَّ ارْتيَاحِ
لَمْ يعكِّر صَفاءَهُ الألَمُ المرُّ ... (م) وَمَا فيِ حِمَاهُ مِنْ أَترَاحِ
والضَّجِيج القَصيُّ للسكوْنِ يَفنى ... كَفَناءِ الأَشْباحِ في الأَشبَاحِ
مِثلما يُضعِفُ المدَى الصَّوت في الأذْ ... نِ تمشَّتْ بهِ مُتُونُ الرَّياحِ
قَدْ رَأيْتُ الحياةَ بَيْنَ الغُيُومِ ... تَتَوارى في الغَابرِ المَوْهُومِ
وَيضيعُ البَرِيقُ منها وَيَخفى ... خلْفَ سِتْرٍ مِنَ الزَّمانِ القْديمِ
غير باقٍ منها سِوى الحُبَّ يَبدْو ... في إطارٍ منَ الخيالِ عظيمِ
وحْدَهُ ثابِتٌ لدُنْ قَدْ أفاقَ ال ... قلَبُ مِنْ حُلْمِهِ العميقِ الهُمُومِ
إيهِ نفسي قِفي على الملْجَأِ البا ... قي وَلُوذِي بهِ لِكيْ تستريحي
مثلما يجلِسُ المسافِرُ والقَل ... بُ مَلئٌ مِنَ المرامِ المُريحِ
هادئَ البالِ تَهَنَّأ لِمَّا ... بَلَغَ القَصْدَ بَعَدَ سَيرٍ طَلَيحِ
راح يَستنْشِقُ الهواءَ نقيّاً ... في مَساءٍ بالنَّافِحَاتِ طفُوحِ
مِثْلُهُ فلْتِرْ غُبَارَ خُطانا ... مالنا رجعَةٌ إلى ذي الطَّريقِ
مِثْلُهُ فَلْنَشمَّ في غايةِ العُم ... رِ أريجاً مِنَ الصَّفاءِ العميقِ
حُلُمٌ عَيْشُنا يَمُرُّ وَيمضي ... غيرَ حُلوِ الرُّؤى وغيرَ أنيقِ
ما بِهِ جِدَّةٌ يرِفُّ سناهَا ... وهو غَمْرٌ بِكُلِّ رثٍّ عتيقِ
إنَّ أيَّامَكِ القِصَارَ العَبُوسَا ... تِ كمِثلِ الخريفِ في الإجهَامِ
تَنطوِي مثلما يُغَيَّبُ ظِلٌ ... في ثنايا الهضابِ والآكامِ
ثُمَّ تزوي عنكِ الصداقةُ والعط ... فُ يُولِّي موَشَّحاً بظلامِ
في طريقِ القُبُور تَهوين حَسْرى ... وتضيعين في سجونِ القَتَامِ
بيدَ أن الطبيعة الرحبةَ القَل ... بِ تُناديكِ في حنانٍ عظيمِ
فَاغمسي روحكِ اللهيفَةَ فيها ... فهيَ أحْنى مِنْ كلَّ قلبٍ رؤومِ
فإذا ما ضجرتِ منْ عالمِ البُغْ ... ضِ وما في مطافِهِ منْ همُومِ
فارجعي القَهْقَري ترَىْ عَا ... لَمَ حُبٍ ضَمَّ كلَّ مرومِ
فهيَ توليكِ ظِلَّها وسناها ... وتُصَفَّي مِنَ الأثامِ هواكِ
أنصتي للصَّدى العميقِ (فبيتا ... غور) قد تامهُ صدَى الأملاكِ
فاعبُديهِ وقدِّسيه طويلاً ... إن فيهِ ما تَشتهيهِ مُناكِ
أَرهفي أذْنكِ اللَّطِيفةَ تَسْمَعْ ... في سَمَاها نشَائدَ الأفلاَكِ
اْتبَعي النُّورَ في السَّمَاءِ ومَاشي ال ... ظِلَّ في الأَرضِ وامْرَحي في الوِهادِ
واصعَدِي في رُبا النَّسيم مع الرَّي ... ح التي لا تَعي مِنَ الإنشادِ
وَاملئي الغَابَ فَرَحةً وَالسَّواقي ... وَاسرَحي طلْقةً مِنَ الأَصفَادِ
خاصِرِي ذلك الشُّعَاعَ السماويّ (م) ... وَهيَّا ارقُصي بِظلِّ الوَادي
نَفَحَ اللهُ بالذَّكاءِ بَني الأرْ ... ضِ لكي يهتْدوا إلى مُوحِيهِ
وَيُناجُوهُ ضارِعِين إليهِ ... لم يَخبْ قَطُّ في الدُّنا راجيهِ
إنَّ صوتاً يُخاطِبُ الرُّوحَ حُلْواً ... وَهيَ غَرْقى في صَمتِها والتَّيهِ
آهِ مَنْ لم يسْمَعْ نِداءً خفياً ... هُوَ في قَلْبهِ صّدَى مُلْقِيهِ

دمشق

أنور العطار

من المجمع الأدبي

حنين إلى النخلة

يا نخلةً في أعالي النهر باسقةً ... قلبي إليك يذوب اليوم تحنانا
هلا تزالين مثل الأمس وارفة ... ولم يزل سعفك المخضر ريانا؟
تشدو القمارى فيه بكرةً وضحىً ... ويسجع البلبل الغريد سكرانا
والنهر تحتك يجري باسماً مطلقاً ... والموج يغدو يجر الذيل خجلانا
والفلك دونك تسري وهي حاملة ... من أهل جنتنا حوراً وولدانا
يا نخلةً أهلها يرجون غَلَّتها ... ونرتجي ظلها الزاهي ليرعانا

قولي بربك هل ما زلت قائمةً ... ولم يزل ظلك الفينان فينانا
يا نخلةً قد سقيناها بأنفسنا ... إذ نستقي في حماها اللهو ألوانا
هل صنتِ سري وعهدي بعد أن فضحت ... سري الليالي وخان العهد من خانا
من مسَّ جذعكِ بعدي جُذَّ ساعده ... أو نال سعفك يوماً نال أحزانا
لا طاب تمرك بعد اليوم من ثمر ... ولا أفأتِ بظلٍ منك إنسانا
حتى ترد لنا الأيام غربتنا ... وترجع العيش صفواً مثل ما كانا!

بغداد

فتى شط العرب

خولة بنت الأزور الكندي

بقلم. م. أسعد طلس

في السنة الثالثة عشرة للهجرة يزعم خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفتح الشام فيجمع الصحابة ويخطبهم قائلاً (. . . وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عول أن يصرف همته إلى الشام فقبضه الله إليه، واختار له ما لديه، ألا وإني عازم أن أوجه أبطال المسلمين إلى الشام بأهليهم وما لهم؛ فماذا ترون؟) فلا يرى من المسلمين إلا ارتياحاً، فيعمد إلى بقية الأمصار الإسلامية من أطراف الجزيرة فيكتب إليهم بالأمر، ويستنفرهم خفافاً وثقالاً ليجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، وما هي إلا أسابيع حتى تقدم عليه الوفود في العدد العديد، والذراري والأموال، فيخرج إليهم المسلمون مستقبلين بوجوه باسمة، وقلوب جذلانة، ويعم المدينة روح مبارك، وكيف لا والمسلمون يجتمعون كلهم في صعيد واحد لنصرة دين الله، ورفعة شأو التوحيد.

وهاهي ذي حمير بدروعها الدوادية، وسيوفها الهندية، وتزحف بآلافها المؤلفة وعلى رأسها زعيمهاذو الكلاع الحميري، يكبر ويهلل والقوم من ورائه يكبرون ويهللون. وها هي ذي كتائب مذحج وطيء والأزد وكنانة بخيولها العتيقة، ورماحها الدقيقة، تؤم عاصمة الإسلام، فما أن يراهم أبو بكر حتى يخر لله شاكراً أن ألف من هذه القبائل المتنافرة أمة واحدة، نزع الله ما في قلوبهم من غل، وجعلهم بنعمته أخواناً ينصرون دينه وينشرون رسالة نبيه. في أطراف المعمورة.

اجتمعت هذه الآلاف العديدة فعسكرت خارج المدينة تنتظر إشارة خليفة رسول الله، وما أن تكاملت الوفود حتى خرج إليهم رضوان الله عليه في جمهرة من كبار الصحابة، فلما أشرف عليهم من علٍ ورآهم قد ملئوا السهول والجبال حتى حمد الله وقال (اللهم أنزل عليهم النصر وأيدهم، ولا تسلمهم إلى عدوك إنك على كل شيء قدير) ثم أمر الأمراء وعقد الألوية، وأوصاهم وصيته الخالدة وفيها يقول (. . . شاورهم في الأمر، واستعمل العدل، فإنه لا أفلح قوم ظلموا، وإذا لقيتم العدو فلا تولوهم الأدبار، وإذا نصرتم على عدوكم فلا تقتلوا ولداً ولا شيخاً ولا امرأة ولا طفلاً، ولا تغدروا إذا عاهدتم. وستمرون على قوم في الصوامع رهباناً يزعمون إنهم ترهبوا في الله فلا تهدموا صوامعهم ودعوهم. . .) فأمن القوم وهللوا فدوت بأصواتهم الجبال، ثم ساروا على يمين الله، وسار الخليفة وكبار الصحابة يودعونهم حتى ثنية الوداع.

سار القوم وكلهم أيمان وصبر، وعزيمة وحزم، وطاعة لأمرائهم، وجلد على السير، وتواد وتعاطف.

كان في هذا القوم شاب كندي ما جاوز العقد الثالث، جميل المحيا، عالم بفنون الحرب، فاتك في النزال، قوي الإيمان بنصرة الله عباده المخلصين، لا يعرف إلا الإقدام، يتقدم الجيوش والمنية مشهرة سهامها. ذلك هو الأمير (ضرار بن الأزور الكندي) الشاب الحدث الذي ما أغنى غناءه بطل في فتوح الشام إلا سيد القواد سيف الله خالداً.

وكان في الغازيات اللائي كن يتبعن هذا الجيش، كاعب عروب، ذات جمال باهر، وطرف فاتر، خرجت فيمن خرجن من عقائل حمير تأسوا الجرحى، وتعين على نصرة الحق. ولقد أبلت بلاء مغاوير الأبطال، فكان هذا الغزال الغرير ينقلب إلى أسد كاسر يصلي العدا ناراً حامية، يروع القلوب، وتجف من هوله الأفئدة، ولم لا وهي ابنة (الأزور) ذلك البطل الذي قضى بين يدي المصطفى دفاعاً عنه، وأخت ضرار صاحب

. . .فتوح الشام؟
المسلمون يحاصرون دمشق وأهلها في أشد الضيق، وبينا المسلمون يكادون يظفرون بالقوم، إذا هم برسول من قائد جند أجنادين، يخبر خالداً أن الروم تجمعوا عليهم في أجنادين في عدد عديد، فيشاور خالد أبا عبيدة في ترك دمشق، فلا يرى ذلك أبو عبيدة فيقول خالد (فأرى أن ترسل إليهم كتيبة عليها قائد درب، وأرى أن ترسل إليهم يا أمين الأمة رجلاً لا يخاف الموت أبداً، خبيراً بلقاء الرجال، قد مات أبوه في القتال، فقال أبو عبيدة ومن ذلك يا أبا سليمان؟ قال هو ضرار بن الأزور بن طارق، فقال أبو عبيدة لقد صدقت ووصفت رجلاً باذلاً معروفاً).
استدعى خالدا ضراراً فقال له (يا أبن الأزور أريد أن أقدمك على خمسة آلاف، قد باعوا أنفسهم من الله عز وجل واختاروا دار البقاء والآخرة على الأولى، فقال ضرار (وا فرحتاه يا ابن الوليد، ما دخل قلبي مسرة أعظم من هذه. ثم يسير ضرار على يمن الرحمن، فلما بلغ أجنادين رأى جيش الروم ينحدر كأنه الجراد المنتشر، وهم غائصون في الدروع وقد أشرقت الشمس عليهم، فلمعت دروعهم، وخوذهم، فقال أصحاب رسول الله لضرار ما لنا
والله بهم حول، فان هؤلاء جيش عرمرم، وخير لنا أن نقفل) فيكره ضرار ذلك القول ويقول (والله لا يراني الله منهزماً، ولن أزال أضرب بسيفي في سبيله وأتبع سبيل من أناب إليه، ولا أوليهم الدبر، والله يقول (ولا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله). . .) ثم تكلم رافع بن عميرة فقال (يا قوم أما نصركم الله في مواطن كثيرة وأنتم قليلو العدد؟ ألا إن النصر مقرون مع الصبر. ولم تزل طائفتنا تلقى الجموع الكثيرة، فاتبعوا سبيل المؤمنين، وتضرعوا إلى رب العالمين، وقولوا كما قال قوم طالوت (ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين). .) فيسترد القوم قواهم ويهللون ويكبرون (الله أكبر، الله أكبر، سيهزم الجمع ويولون الدبر).
التقى الجمعان وضرار يتقدم القوم وهو يرجز:
الموت حق أين لي منه المفر ... وجنة الفردوس خير المستقر
هذا قتالي فاشهدوا يا من حضر ... وكل هذا في رضا رب البشر
ثم اخترق القوم وحمل عليهم حملة نكراء فأحدقوا به، فأخذ يستصرخ قومه ويقول: (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص) فيهجم المسلمون ويصيب ضراراً سهم في عضده فيطمع الروم فيه ويحملون عليه فيأسروه. ويجيء خالداً الصريخ فيولي على جند دمشق ميسرة بن مسروق سيد بني عبس، ويتوجه بطليعة إلى أجنادين، وكان بين جنده فارس على جواد فاره وبيده رمح طويلة، قد تجلبب بجلابيب سود، وتلثم حتى لا يرى منه إلا الحدق، وكان يسبق القوم وخالد يعجب من أمره، فلما أن أدرك خالد المسلمين في أجنادين وجد هذا الفارس المتلثم يهبط على الروم كأنه النار المحرقة، فزعزع الكتائب وحطم الأجناد. وكان يخترق قلب خميس الروم، فما هي إلا جولة جائل حتى يخرج وسنانه ملطخ بالدماء، وقد جندل رجالاًوصرع أبطالاً. ثم يعود فيخرق القوم ثانية معرضاً نفسه للهلاك والناس أمامه مصروع أو فار. وكثر قلق المسلمين عليه وهم لا يدرون من هو_وقد ظنه بعضهم خالد فما هي إلا جولات خالد - ولما رأوا خالداً بينهم سألوه عنه فقال أن والله لأشد إنكاراً وتعجباً.
وما إن غابت الشمس ووقفت الحرب، حتى أحدق القوم بهذا الفارس وفيهم خالد يسألونه
عن اسمه فلا يجيب، ثم ينتحي بخالد زاوية فيقول له: (ما سكت يا سيف الله حين سألتموني عن اسمي إلا حياء منك لأنك أمير جليل، وأنا من ذوات الحجال، وإنما حملني على ذلك أني محرقة الكبد، زائدة الكمد. فقال: من أنت؟ قالت: خولة بنت الأزور أخت ضرار أسير الروم، أتاني آت بخبر أخي فركبت وفعلت ما فعلت.).
أشرقت الشمس فجدد المسلمون عزائمهم وكروا على القوم وحملوا حملة عظم أمرها على الروم، وكانت خولة تجول في كل مكان تطلب أخاها وهي لا ترى له أثراً ولا يراه أحد من المسلمين فيعم القوم حزن شديد وتبكيه بقولها: (يا ابن أمي! ليت شعري في أي البيداء طرحوك، أم بأي سنان طعنوك، يا أخي، أختك لك الفداء. . .

ليت شعري، أتراني أراك بعدها أبداً؟ فقد تركت في قلب أختك جمرة لا يخمد لهيبها ولا يطفأ، فعليك مني السلام إلى يوم اللقاء). فبكي القوم وبكي خالد لحالها. وبينا المسلمون في شدة واضطراب إذا هم بمن يخبرهم بأن الروم أخذوا ضراراً إلى صاحب حمص لينفذه إلى الملك، ففرح خالد وتهلل وجهه، وشكرت خولة الله، فدعا خالد رافع بن عمرة الطائي لينفذه إلى حمص فسار خالد في مائة منهم خولة، فما وصل القوم قرب حمص حتى كمنوا، فبينا هم كذلك إذا بنفر أقبلوا، فنبه رافع قومه، فلما قاربوهم كر عليهم رافع فإذا فيهم ضراراً فتجالد الفريقان حتى أنقذ ضراراً، فخرت خولة لله شكراً وشكر خالد لرافع بلاءه.

هذا موقف من مواقف بسالتها الخالدات، وما موقفها يوم أسر النساء في يوم صحورا والناس يغزون الشام بالأمر الذي ينسى فقد ذكر الطبري أنها أسرت في فريق من نسوة حمير. فجمعتهن وخطبتهن تستحثهن على الثورة على هؤلاء الأعلاج، وقالت (يا بنات حمير، وبقية تبع، أترضين لأنفسكن علوج الروم، وأن يكون أولادكن عبيداً لأهل الشرك، فأين شجاعتكن التي تتحدث بها عنكن أحياء العرب، ولا أراكن إلا بمعزل عن ذلك، وإني أرى القتل عليكن أهون من هذه المصائب، وما نزل بكن من خدمة الروم الكلاب) فقالت عفراء بنت غفار الحميرية (صدقت والله يا بنت الأزور، نحن والله في الشجاعة كما ذكرت، وفي البراعة كما وصفت، لنا المشاهد العظام، والمواقف الجسام. ولقد اعتدنا ركوب الخيل، وهجوم الليل. غير أن السيف يحسن فعله في مثل هذا الوقت، ولقد دهمنا العدو على حين غرة، وما نحن إلا كالغنم بدون سلاح) فقالت خولة (يا بنات التبابعة، خذوا أعمدة الخيام وأوتاد الأطناب، نحمل بها على هؤلاء، فلعل الله ينصرنا فنستريح من المعرة) فقالت عفراء (والله ما دعوت إلا ما هو أحب إلينا) ثم تناولن الأعمدة وتقدمتهن خولة وهي تقول لهن لا ينفك بعضكن عن بعض، وكن كالحلقة الدائرة، وأوسعن أرجل أفراس القوم ضرباً، ولا تتفرقن فيقع بكن التشتيت، ثم هجمت وهي تقول:

نحن بنات تبع وحمير ... وضربنا في القوم ليس ينكر
لأننا في الحرب نار تسعر ... اليوم تسقون العذاب الأكبر

وما هي إلا جولات حتى خلصن إلى المسلمين.

هذان موقفان من مواقف البطولة في هذه المرأة العربية المسلمة ولقد كان لها رضوان الله عليها مواطن أخر غر صالحات. جعل الله منها أسوة حسنة لمرأة اليوم، هداها الله أقوم طريق.

م. أسعد طلس

في الأدب الفرنسي

الدوق دي لاروشفوكو

للدكتور حسن صادق

ثم انتقل إلي وصف عواطفه فقال (إنه رحب الأناة، ناصح السريرة، لا يتملكه الغضب، ولا يضمر لأحد من الناس العداوة والبغضاء). وعقب هذا الوصف قال: (لست مع ذلك عاجزاً عن الانتقام لنفسي إذا اعتدى أحد علي أو أساء إلى شرفي. وفي هذه الحال أؤمن بأن الواجب يقوم في نفسي مقام الحقد، ويأمرني بأن أتم انتقامي في صلابة وعزم)

وليس في هذا القول شذوذ أو غرابة، ولكن ما يقوله عن الشفقة يثير الدهشة والعجب: (إني قليل الشعور بالشفقة، وأستريح إلى ذلك جد الراحة. ولكني إذا رأيت إنساناً جعجعت به المصائب، بذلت غاية جهدي في مواساته. وأعتقد حقاً أن من الواجب على الإنسان أن يسلك كل السبل التي تؤدي إلى إظهار الشفقة على من تصيبه الأرزاء والمحن، لان البائسين أغبياء إلى درجة تجعلهم يجدون في إظهار الشفقة عليهم والرثاء لحالهم راحة وعزاء. وأجد من الحزم إظهار هذه العاطفة دون الشعور بها صدقاً، لأنها لا تصلح لشيء في دخيلة الإنسان ولا عمل لها إلا إضعاف القلب وتحطيمه، ويجب النزول عنها للدهماء لأنهم لا يفعلون شيئاً بإيحاء العقل فهم في حاجة إلى عاطفة تحفزهم إلى العمل)

وقوله هذا يعبر أبلغ تعبير عن روح القرن السابع عشر الذي عرف الناس فيه بصلابة

القلب وضعف الحساسية. كانوا أثناء الحرب الأهلية يدمرون نهاراً ويقتلون، ثم يرقصون ليلاً ويمجنون، وكانوا يتحدثون عن التعذيب والقتل في بساطة الحديث عن الدعابة الفرحة، والفكاهة الشهية.

ويجمل بنا في هذا المقام أن نذكر رأى ثلاثة من قادة الفكر في هذه العاطفة، لنرى الفرق الشاسع بينهم وبين لاروشفوكو. فمونتني يقول: (إني شديد الميل إلى الرحمة والوداعة). وديكارت يرى أن ميزة النفس الكبيرة (أن يكون شعورها بآلامها أضعف بكثير من شعورها بآلام غيرها). ويتطلب لابروبير من النفس العالية (أن تكون قوية الشكيمة فلا تلين صعدتها إلا أمام عاطفة واحدة هي الشفقة)

ومما يدعو إلى العجب أن لاروشفوكو الذي ينكر هذه العاطفة في مقالة ومواعظه، يقرها في مذكراته ورسائله. فقد كتب عن ثورة الفلاحين في (بواتو) التي سبق ذكرها في تاريخ حياته يقول: (لا أنكر أن بؤسهم جعلني أنظر بعين الشفقة إلى تمردهم). ثم طلب من الوزير مازاران في ذلك الوقت أن يمنحه حق العفو. ولما أجيب إلى ما طلب أحسن استعمال هذا الحق، فلم يخدش شرفاً ولم يسفح دماً. وقبل موته بقليل أي في عام 1674 كتب إلى الآنسة دي سكوردي يقول: (بودي لو تنفق سوق الرحمة وتصبح بدعة يولع الناس بها، فلا يقع بصرنا بعد ذلك على بائسين). وكثيراً ما رأته مدام دي سفنييه (متلبساً بالحنان)، فأدركت أنه يظهر من عواطفه وقلبه غير ما يبطن. ويغلب على ظننا أن هذا الرجل لم يميز طبيعة نفسه عن الأثر الذي أنشأته فيها البيئة والبلاط. فقد اشترك في الدسائس ورأى الأمراء والعظماء يتكالبون على متاع الحياة، ويجدون في البحث عن مصالحهم الذاتية في جشع وخسة، فكرههم واحتقرهم وقسا في الحكم عليهم، مع أنه بطبعه كريم رحيم. وأثر البيئة هو الذي جعله يخلص الود لعدد قليل من الناس اختارهم قلبه، وهذا شأن المتشائمين أمثاله، يضعون كل افتقارهم إلى الحب في بعض أفراد أعزاء عليهم. وهذا الافتقار إلى الحب هو جوهر نفورهم من الناس

وكان لاروشفوكو إلى جانب الصفات التي سبقت، طموحاً ولو أنه ينكر ذلك. لم يستحوذ عليه طموح ريشيليو، أو على الأقل عجز عن بلوغ شأو هذا السياسي العظيم، فتمنع بالسعي وراء الحصول على لقب لزوجه، والسماح له بدخول قصر اللوفر في عربة. فلما أخفق في سعيه، اقتصر طموحه على كتابة (المواعظ)

وقد حال خجله دون دخوله مجمع العلماء لأنه كان يعجز عن الكلام أمام جمع كبير من الناس، وتقليدات المجمع تفرض عليه أن يرد على خطبة الاستقبال بخطبة أخرى وما كان يجيد الحديث إلا في الصالونات الأدبية التي يؤمها عدد قليل من الأصدقاء الأخصاء.

وكان من عادته أن يتكلم قليلاً، وينفر من الثرثارين الذين يدخلون الخطابة في الحديث، ويفرضون الصمت والإصغاء على غيرهم. ويعتقد أن (المصلحة الذاتية هي روح عزة النفس أو الأثرة) حتى في السمر والمناقشة، فإذا لم يفكر كل إنسان إلا في نفسه وفي قوله، شل الآخرين وبعث في نفوسهم الضيق والضجر، ويرى أن أمثل الطرق لإنعاشهم وإنقاذهم من الملل هو الإصغاء إليهم وإظهار الابتهاج بقولهم. ومن وصاياه المأثورة: (يجب الإصغاء إلى المتكلم مهما كان حديثه واهي الرباط طائش الغرض عارياً من المعنى. ولا أوصي بتجنب معارضته ومقاطعته فحسب، بل أوصي أيضاً برياضة النفس على احتمال روحه وذوقه والاطمئنان إليهما والتشبع بهما، وإطراء قوله بقدر ما يستحق، ووضع هذا الإطراء في قالب أميل إلى الحقيقة منه إلى اللياقة والمجاملة). وعرف بالتجربة والملاحظة أن لا شيء أبغض إلى النفس وآلم للأذن من أن يجعل الإنسان نفسه محور الحديث في كل موطن، فتجنب ذلك جهد المستطاع

وكان يكره من المتكلم لهجة الثقة المستبدة والتعبير الذي يدل على البحث الطويل وإعنات القريحة، ويكلف بتوزيع القسط بين المعاني والمباني. ويميل إلى الإيجاز الممتع ويفخر بذلك (من شأن العقول الكبيرة أن تدل بقولها الموجز على كثير من المعاني. ومن صفات العقول الهزيلة أن تتكلم كثيراً ولا تقول شيئاً). وقد أجاد الإيجاز في مواعظه إلى درجة كادت تبلغ حد الكمال. ولنضرب مثلاً هذه الموعظة: (يملك الإنسان دائماً ما يكفي من الجلد لاحتمال آلام الغير)، فليس من المستطاع (تكثيف)

التهكم في كلمات أقل من هذه. وهذا الإيجاز يجعل (للمواعظ) قيمة تاريخية هامة، لأنها تعين طوراً جديدا للنثر الفرنسي. وقد قدرها فولتير حق قدرها فقال: (يرجع أكثر الفضل في تكوين ذوق الأمة وجعلها تتعشق الأصالة والدقة إلى مواعظ لاروشفوكو) وذكر معاصروه أنه كان دقيقاً في الحكم على الكتب التي تعرض عليه، وأنه كان يحب قراءة الكتب القيمة التي تتطلب الحوار والمناقشة، وترغم العقل على التفكير العميق. وكان من أحب الأشياء إلى نفسه أن يستمع إلى حديث ذوي العقول الراجحة إذا تكلموا في الموضوعات الجدية وجعلوا للأخلاق النصيب الأكبر من حديثهم. وهذا يدلنا على ولعه الطبعي بكتابة المواعظ

ومن تاريخ حياته يتبين لنا أنه كان مشغوفاً بالنساء في كل أدوار حياته. ولا يذكر اسمه في كل دور إلا مقروناً باسم امرأة تحمل لقباً كبيراً، أولها في تاريخ الأدب ذكراً جميلاً. واللهجة التي استعملها في كلامه عن عفة النساء، هي لهجة الرجل الغني العظيم الحب الذي لم يصادف في حياته امرأة تدمي قلبه بالصد والدلال

وكان يفضل مجلس النساء على مجلس الرجال. يدلنا على ذلك قوله: (إني أحترم النساء

وأعاملهن في أدب جم ورفق كثير، وأعتقد أني لم أقل قط أمامهن كلمة تؤذي شعورهن. (ولكنه آلم الدوقة دي لونجفيل في مذكراته، وآلم النساء جميعاً في مواعظه) وأفضل حديثهن، إذا كن حصيفات العقل، على حديث الرجال، لأني أجد فيه عذوبة وسحراً. ويخيل إلي أنهن يعبرن عن أفكارهن في وضوح وجلاء أكثر منا، ويضعن (أقوالهن في أسلوب بهيج يسر النفس والخاطر

ومن حسن حظه أن ساق إليه القدر الكونتس دي لافاييت في شيخوخته، تؤنسه وتنسيه مرارة الحياة وتهيئ له أسباب الهدوء والسعادة الروحية

يتبع

حسن صادق

-

العلوم

جاليليو

1564 - 1642

بقلم عبد الرحمن فهمي

بكالوريوس في الآداب

يمكننا أن نقول أن الكواكب في مسارها حفظت للجنس البشري عبقرية جاليليو. وجاليليو هو الابن البكر لأب فقير، بدأ تعلمه في دير بالقرب من فلورنسا، وبينما هو على وشك أن يكون راهباً رأى أبوه أن يرسله إلى جامعة بيزه ليتعلم فيها علوم الطب، مستعيناً على ذلك بموارد الأسرة الضيقة المحدودة.

وبينا كان الطالب الصغير يقضي بعض أوقات فراغه في العبادة بكاتدرائية بيزه، لاحظ أن المصباح الهائل المعلق في سقفها يتأرجح كما لو كان به مس من تيار شارد من الهواء، ولحظ أيضاً أن قوس التذبذب سواء أكبر هذا القوس أم صغر يكمل دورته في وقت بذاته، فاستخلص من ذلك قانون اضطراد (البندول).

وسنحت له الفرصة عن طريق المصادفة، فاستمع إلى محاضرة في العلوم الرياضية في بلاط الدوقية الكبير في بيزه، ومنذ هذه الساعة تعلقت نفسه بالأبحاث الرياضية فترك الجامعة ولم يستطع أبوه إرغامه على البقاء بها، وقضى سنوات مجدبة في درس العلم الجديد الذي اختاره لنفسه في حماسة فائقة، ولكنه استطاع فيما بعد أن ينال من الجامعة أجراً ضئيلاً على محاضرات في الرياضة يلقيها على طلابها.

وكان أجره من الجامعة قليلاً، ولكن تهيأت له فيها صفحة جديدة لمستقبل مجيد من أعلى برجها المائل، وتفصيل ذلك أن أحداً لم يكن ليفكر حينئذ في زعزعة عقيدة راسخة في الأذهان هي أن سرعة الأجسام الثقيلة ترجع في هبوطها إلى أوزانها، فقذيفة المدفع مثلاً تهبط أسرع مما لو هبطت ريشة. ولكن جاليليو نسب سرعة الهبوط إلى مقاومة الهواء، ودلل على صحة ذلك بأن ألقى عدة أجسام معدنية وخشبية من حجم واحد من أعلى قمة برج بيزه، وأرى العلماء أن هذه الأجسام تصل إلى الأرض في أوقات متقاربة جداً،

وبرهن بذلك على أنه لم يكن لأوزانها تأثير مذكور في سرعة هبوطها، فقضى على اعتقادات قديمة وخلق لنفسه أعداء كثيرين. ثم بدأ يتفهم طبيعة الجاذبية التي بقيت راسخة في عقله ولكنها لم تخرج من حيز هذا العقل.

وترك بيزه إلى فلورنسا لما طردته الجامعة، وفي هذا الوقت مات أبوه، واضطره الدهر إلى أن يعول باقي أفراد أسرته. ولكنه فيما بعد استطاع أن يوجد له كرسياً في جامعة بادوه، ومن هذا الكرسي واصل بحوثه ونظرياته العلمية ثمانية عشر عاماً بين استحسان إيطاليا وإعجاب أوروبا كلها، فأضحى بذلك أحد المفكرين الخالدين.

ولم يكن جاليليو ليستفيد من بعد نظره وقوة إدراكه فقط، بل استفاد أيضاً من أبحاث غيره واكتشافاته، ويعد اختراع (التلسكوب) وهو المثل الأعلى بين كافة أبحاثه واختراعاته، ففي حوالي هذا الوقت اخترع جوان ليبرشي من هولاندا بعض العدسات، وما إن سمع بهذا الاختراع حتى استولى عليه، وأوجد من هذه العدسات أول مجهر فلكي، وبه حول أبحاثه وفحوصه إلى الفضاء حيث كشف جديداً غير معروف، وقضى على معتقدات قديمة: كشف سطح القمر الجبلي، وأثبت طبيعة إضاءته بالانعكاس الضوئي، ومحا خرافة المجرة ودلل على أنها مجموعات من الكواكب، كذلك كشف أقمار زحل وأوجه الزهرة، واستعان بكل هذه الاكتشافات على تخليد الحق في تاريخ الفلك، وهو كل ما كان يعنى به من أبحاثه الطويلة، فأخذ عالم الخرافات المظلم في هذا الحين يستنير بضوء هذا الحق.

وكان جاليلو خلفاً لكوبرنيق الذي أثبت أن الأرض والكواكب تدور حول الشمس، وليست الشمس والكواكب هي التي تدور حول الأرض كما اعتقد ارسطاليس، بل أن كبلر وهو من معاصري جاليليو أوغل في هذا البحث، فدرس طبيعة مدار الكواكب. وبينما كان جاليليو يدري هذه الحقائق الفلكية كان باقي العالم ولا سيما الكنيسة ينكرها بتاتاً.

ولم تحرك الكنيسة ساكناً في بادئ الأمر، زعماً منها أن العاصفة التي نفخها جاليليو لا تلبث أن تهدأ، ولكن بحوث الفلكي وطريقة عرضها نبهت الأذهان إلى مناقضتها، لما جاء في الكتاب المقدس، وقويت الشبهة ضده بتأثير جيوردانو برنو، وهو زنديق ثائر على المسيحية، مفكر حر، بالرغم من إن جاليليو أعلن أنه ينكر على جيوردانو أن يقول عن بحوثه العلمية أنها تبرهن على تخبط الدين المسيحي، وحاول أن يظهر للعالم أن اكتشافاته

العلمية لم تعارض يوماً ما التعاليم الدينية المقدسة، إلا أن ذلك لم يفده، بل استدعته روما إليها ليدافع عن نفسه ويبرر هرطقته. ولكن كان له في البلاط البابوي أصدقاء ومريدون من علماء غير متعصبين، فسمعوا لنقاشه، ثم سمحوا له بالعودة إلى فلورنسا. وعاد وهو يعتقد أن من حقه أن يتابع بحوثه دون إذاعتها. وكانت مهادنة بين الجانبين بعد عودته إلى فلورنسا ظل فيها سبعة أعوام ساكنا راكنا إلى قريحته العلمية الوقادة.

إلا أنه لم يكن من طبعه وجبلته أن يبقى ساكناً إلى الأبد، فطبع مطبوعات مختلفة مطولة ضمنها محاوراته ومناظراته في نظام الأرض، وعندئذ استدعي إلى روما مرة أخرى، ولكن ليقابل في هذه المرة بابا عابساً حانقا على رجل متمرد ناكر للجميل، ولم تقبل منه شفاعة، بل اضطر تحت تأثير آلات التعذيب إلى أن ينقض أفكاره، ثم حكمت المحكمة عليه بالسجن، إلا أن هذا الحكم لم ينفذ، وإنما استبدلوا به يكفر عن خطيئته بتلاوة أدعية التوبة، وهي من سبعة أبواب في الزبور مرة في كل أسبوع. وتتصل بهذا العبث الرسمي من جانب الكنيسة فكاهة طريفة وهي أن جاليليو في كل مرة عندما كان ينهض من ركوعه بعد تلاوته الأدعية وقسمه اليمين بنقض معتقداته في الفلك، كان يقول بصوت خافت (ولكن الأرض ما زالت تدور).

كانت هذه الكلمات تقال بصوت يكاد لا يكون مسموعاً ولكن فكر العالم بدأ يلتهب بهذه الشرارة، وكان جاليليو رمزاً لتوسيع حدود العالم برغم محاولات الصلف والتحكم لتضييق محيطه ولا يزال الكون دائراً على رغم عرقلة المعرقلين من رجال الدين والمتعصبين ضد دورانه.

فهل يعد خضوع جاليليو للكنيسة جبناً منه؟ إن لكل بطل ساعة جبن في حياته، وقد تقلب الزمن من عهد هذا الفلكي العظيم حتى اليوم، فرأينا الآن الجمعية الإيطالية

الملكية تطبع على النفقة العامة كل مؤلفاته في واحد وعشرين مجلداً، شاملة وثائق محاكمته ومضابطها، وكان جد راغب في تجنب التصادم مع تعاليم الكنيسة، فأذعن لحقها في تعليم كافة الناس الإيمان بالدين، وبلغ من ذلك أنه كان يؤمن في الظاهر بكل ما كانت تطلب إليه أن يؤمن به، وباعد بقدر استطاعته بين العلم والدين علماً منه بما يجب أن يكون بينهما من مسافة سحيقة، وجعل آراء كل منهما منفصلة عن الأخرى.

ولكن لم كل هذا، وغيره من الناس لم يكن ليفعل ذلك لو كان مكانه؟ ولا سيما أن الكنيسة طلبت إليه أن يقارعها بالحجة وقد كان من الطبيعي أن ينتصر عليها لو أنه قبل ذلك، لأنه على حق فيما يقول، ولأن تعاليمها متناقضة لا يصح أن يقبل عالم مثله أن تذاع على الناس فيقبلوها كأنها حقائق ثابتة غير قابلة للبحث والتمحيص. ولكنه لم يبغ قتالاً مع الكنيسة، بل سار معها موافقاً على كل ما طابت إليه، مكتفياً بالبقاء على عقيدته في نفسه واجداً فيها فضولياً متحرشاً واصفاً إياها (بأن واجبها هو تعليم الناس كيف يسيرون إلى عالم السموات، لا كيف يسير العالم السماوي).

وبذلك استطاع أن يجد في بعض الأحيان تعضيداً من سلطة الكنيسة، لولا المتعصبون الذين كانوا يضغطون عليه ويضطهدونه بين آونة وأخرى، لما وقفت الكنيسة قط في وجهه، بل كثيراً ما حماه الباباوات والكرادلة ودرأوا عنه السوء، عنه السوء، بل كان يعلم بعضهم أنه على حق في بحوثه العلمية، وكثيراً ما لمحوا إليه بالهروب من أعدائه في الوقت المناسب.

وقد بعثت الكنيسة إليه يوماً بالكردينال بللارد ليوبخه ويحذره، ولكنه بدلاً من أن يفعل ذلك أرشده إلى طريق التعبير عن نظرياته، فكتب إليه (لا تقل إن الأرض تدور حول الشمس بل قل لنفرض أنها تدور حول الشمس، لأن من الخطر عليك أن تقول بأنها تدور، ولكنه من المأمون قولك بفرض دورانها) وبذلك ظل جاليليو يفرض قي الظاهر وهو مؤمن بالحقيقة في الباطن مؤكداً أن للحق الغلبة في النهاية.

وقد ولد أسحق نيوتن في 8 يناير سنة 1642، وهو اليوم الذي توفي فيه جاليليو، وبذلك بدأ فصل جديد من حيث انتهى آخر. ولم تؤيد نظرية الأرض وموقعها من المجموعة الشمسية ودورتها فقط، بل أصبحت العقول تدرك جيداً حركات الكواكب وقانونها أيضاً.

وقد أصيب بالعمى في أواخر حياته، إلا أنه وهو أعمى كشف عن أقمار زحل، وبحث ودرس البقع الشمسية مستعيناً على ذلك بتلاميذه بدل عينيه. وهو بشير لنيوتن وطليعة له، وإذا كان نيوتن هو الذي وضع قوانين الحركة وأثبت بالدقة الرياضية قانون الجاذبية بين الكون المرئي والقاعدة المضبوطة لحركاته، فإن جاليليو هو الذي مهد إلى ذلك وقاد نيوتن إلى الحقيقة الخالدة.

ولم يستطع إي بلاط بابوي في هذا الوقت تقييد أفكاره الطامحة، وأبحاثه العلمية، بل اكتفى

بإرساله أخيراً من روما إلى دير سينا، وهو دير تطل جدرانه على سهول توسكاني، اعتكف فيه أشهراً قلائل، ثم سمح له بالعودة إلى فلورنسا حيث قضى الأعوام الثمانية الأخيرة من حياته في عزلة تامة امتثالاً لأمر روما، إلا أنها عزلة لم تعرف قط السكون بل كان جاليليو فيها يغلي بأبحاثه كالمرجل.

وقد لحقه الأسى وحلت به عاهته في كبره، وكان أعمى عندما زاره جون ملتون في إركتري عام 1638، وقد واصل رسالته العلمية وهو بعاهته فاخترع وأملى اختراعاته. وانتابته حمى بسيطة وهو يملي ملحوظاته على تلميذين من حواريه، فأسدلت حياته الطويلة ستاراً كثيفاً أبدياً، ولكن برغم ذلك بقي للعالم من هذه الحياة بحث خالد في الأرض وعقل إنساني جبار.

عبد الرحمن فهمي

القصص

الأمير السعيد

للكاتب الإنجليزي أوسكار وايلد

مترجمة بقلم اليوزباشي أحمد الطاهر

يقوم تمثال الأمير السعيد على عمود باسق يشرف على المدينة، وقد كست التمثال

لفائف من صفائح الذهب الخالص، وجعل له من الياقوت الأزرق عينان، وأمسك بسيف في قبضته ياقوتة حمراء. وكان هذا التمثال موضع الإعجاب والفخار من الناس أجمعين، فينظر إليه عضو من أعضاء المجلس البلدي فيتحدث عنه ويتكلف الوصف والتشبيه حتى يقول (إنه لجميل، وله من الجمال ما لديك الرياح، وإن لم تكن ما لذلك الديك من المنفعة) وكان هذا العضو يحاول ما استطاع في تشدقه بالحديث أن يمتاز بما للفنانين من بديع الذوق، وما للعمليين من صدق النظر.،

وتمر بالتمثال إحدى العاملات وبيدها طفلها يبكي لأنها لم تستطع أن تجتذب إليه القمر، وتقول له مفتخرة بالأمير السعيد (لم لا تكون يا بني كهذا الأمير، وما أحسبه بكي في حياته من حاجته لشيء؟)

وينظر إلى التمثال رجل قد شاع في نفسه اليأس ويقول (كم يسرني أن أرى على الأرض رجلاً قد حاز السعادة كاملة).

ويطوف بالتمثال أطفال المبرة وهم منصرفون من الكنيسة في أرديتهم القرمزية، وعباءاتهم البيضاء الناصعة فيقولون (أليس هذا التمثال شبيها بالملائكة!!) فينهرهم أستاذ الرياضة في حدة وجفاء مستنكراً هذا التشبيه (وأنى لكم هذا وأنتم لم تروا واحداً من الملائكة؟) فيجيب الأطفال (نحن لم نر الملائكة جهرة ولكنهم طافوا بنا في أحلامنا) فيعبس أستاذهم ويتولى.

في إحدى الليالي كان يطير فوق المدينة سنونو صغير، وكان رفاقه قد رحلوا إلى مصر وتقدموه بستة أسابيع وتخلف هو عنهم وقد فتن بحب مغردة تقطن شجر الغاب الذي يكتنف النهر، وكانت أجمل بنات جنسها، لقيها في الربيع وهو يطارد يراعة كبيرة صفراء، فأعجبه خصرها الناحل، فكاشفه بحبه وابتدرها في صراحة وبيان (أتأذنين لي في حبك؟)

فأومأت إليه إيماءة خفيفة، فطار من فرط الفرح، وكانت آية حبه أن يحلق في الجو طائراً حولها يرتفع أحياناً ويسف بجناحيه أحياناً حتى يضرب بهما صفحة النهر، فيخط عليه سطوراً من فضة كانت هي تقرأ فيها التحية والإجلال، وكانت هذه تحيته طوال أشهر الصيف،

ولقد شاع حديث حبه بين أبناء جنسه، فتغامزوا عليه يتساءلون عن هذه الصلة التي توثقت بينه وبين المغردة، وهي ليست بذات مال ولها من أقربائها عدد وفير، وكان النهر غاصاً بأسراب المغردات.

ثم رحل رفاق السنونو رحلة الخريف وشعر صاحبنا بعدهم بسأم الوحدة وشاع السأم في نفسه حتى غشى حبه لصاحبته المفردة، فبدا له ما يعيبها من صمتها، وحدثته نفسه بأنها فتاة مبتذلة، ولا سيما وقد رآها تداعب الهواء في خفة ودلال!! وهو أن وثق بما لها من طبيعة الاستقرار، فلا يتفق طبعها مع ما جبل عليه من حب الأسفار، ولن تكون له إذاً الزوجة الصالحة، وصارحها يوماً برأيه فسألها (أتظعنين معي؟) فهزت رأسها مستنكرة أن تهجر وطنها. ولقد ساءه منها إباؤها، وصاح في وجهها (أنت إذاً كنت عابثة في حبي؟ سأرحل عن ديارك إلى الأهرام!! وداعا!! وداعا!!) وطار طوى نهاره طائراً وأدركه الليل عند المدينة، فتحسس فيها مهبطاً سوياً، وساءه أن المدينة لم تعد له العدة لهبوطه، ثم تراءى له التمثال فطاب له النزول عليه، واستهواه من المكان هواؤه العليل واتخذ له بين قدمي الأمير مقعداً. ثم دار ببصره في المكان يتبينه، وقال معجباً (ما أجمله فراشاً من ذهب) ثم طوى رأسه تحت جناحه، وما لبث أن أحس بقطرة من الماء تسقط عليه فعجب للسماء تمطر بغير سحاب، والنجوم سافرة بغير حجاب، وما له يعجب لهذا الجو وهو في شمال أوربا أشد نكاية بالخلق وأبلغ إيذاء، ثم خطرت له المغردة وحبها لوطنها المطير وقال (إنها لمؤثرة) ثم قطرة ثانية تسقط عليه فينحى باللائمة على هذا التمثال القائم (أما فيه على طول قامته عاصم من الأمطار؟؟.) (سآوي إلى رأس مدخنة لعل فيها من المطر تقية) وهم بأن يطير فشخص ببصره إلى السماء ورأى. . . . وما أعجب ما رأى. . . . غشيت الدموع عيني الأمير السعيد، وهطل الدمع على خديه الذهبيين مدراراً، وبدا وجهه تحت سنا البدر في حلة من الجمال،

أشفق السنونو من بكاء الأمير السعيد وقال له (من أنت؟) قال (أنا الأمير السعيد) قال (وما بكاؤك في هذه الساعة وقد بللتني دموعك؟) قال (كنت حياً وكان لي قلب

كقلوب الناس، وما عرف الدمع إلى عيني سبيلاً، كنت أسكن قصر (البال الخالي) وكان الحزن لا يأتيه من بين يديه ولا من خلفه، وكنت أمضي سحابة اليوم ألهو وألعب مع رفاقي بين الزهر والشجر، وأقضي هزيعاً من الليل أطرب وأرقص في بهوه الفسيح، وكان يحيط بالقصر حائط لم أحفل بما وراءه، وكان كل ما حولي جميلاً، طربت لهذه الحياة حتى دعتني حاشيتي بالأمير السعيد يحسبون السعادة في الطرب. إلى أن أدركني الفناء فأقاموني على هذا الشرف، أرى منه كل ما في المدينة فلا يقع بصري إلا على ما تكره الأبصار، ولا يمتد إلا ليرتد حسيراً، ولي قلب قد من الرصاص ولكن لا محيد لي عن البكاء،.)

عجب السنونو في نفسه من هذه القصة، وزاد عجبه أن القلب قد قد من الرصاص، والجسم من الذهب

قال الأمير في صوت هادئ ونغم موسيقى،: (في أقصى المدينة دار فيها البؤس، وفيها الشقاء، وفيها أم قد ألح عليها الفقر العنيف. حتى شحب وجهها، وغابت نضارتها، واحمرت يداها من فرط ما تعانيان من وخز الإبر، وهي جالسة إلى منضدة وبين يديها ثوب من الحرير توشيه (بزهر العواطف) وتعده لأجمل وصيفات الملكة، تريد أن تزدهي به في مرقص يقام في القصر غداً. وإني لأرى الأم من نافذة الدار وأرى ولدها الصغير طريح الفراش، تضطرم في أحشائه نار الحمى، ولا عاصم له من شرها إلا شربة من عصير البرتقال، وأنى لهذه الوالدة بعصير البرتقال؟ - إنها تسكب في فمه ماء النهر، وهو لا يروي صداه، ولا يدفع جواه، هذه رسالتي أيها السنونو الصغير، اخلع عن قبضة سيفي هذه الياقوتة، وألقي بها بين يدي الأم البائسة، فأنا في موقفي هذا لا أستطيع حراكاً بما شدت به قدماي إلى هذا العامود).

برم السنونو بهذا الأمر واستعفى منه الأمير قائلا (إن لي في مصر من يترقب عودتي. أولئك رفاقي ترفرف أجنحتهم فوق نهر النيل يناجون أزهار اللوتس العظيمة، وما أحسبهم الآن إلا آوين إلى مضاجعهم في مقبرة الملك العظيم، المضطجع في تابوته الموشى، وقد ضمت لفائف التيل الأصفر جسده المحنط بالتوابل والأفاويه، ويحيط بعنقه قلادة من الكديش الأخضر الشاحب، وتمتد يداه كأوراق الشجر الذابلة،)

توسل الأمير السعيد للسنونو أن يقيم معه الليلة، وأن يبلغ رسالته إلى ذلك الطفل الصادي، وتلك الأم الحزينة، قال السنونو أنا لا أعطف على الأطفال، فقد كنت في الصيف الماضي مقيماً على النهر، وكان هناك صبيان يحصبانني بالحصى وهما ولدا الطحان، ولم يكن الحصى يصيبني لما اشتهرت به طائفتنا من خفة الحركة، وسرعة الطيران، ولكن الذي يحزنني هو ما ينطوي عليه عملهما من المهانة لنا والتحقير لشأننا)

طافت بوجه الأمير سحابة حزن أشفق منها السنونو ولان قلبه وقال: (الآن طبت نفساً بالبقاء معك هذه الليلة، وسأحمل رسالتك) وشكره الأمير، واقتلع السنونو الياقوتة من قبضة السيف وضم عليها منقاره وطار،. . . طار فوق برج الكنيسة ورأى تماثيل الملائكة قد قدت من الرخام الأبيض إذا رأيتها حسبتها لؤلؤاً منثوراً، وطاف بالقصر الملكي فرأى مرقصاً ونعيماً ونوراً، وخرجت إلى شرفة القصر غادة جميلة مستندة إلى ذراع صاحبها فأنصت إليهما فإذا الرجل يقول (ما أغرب الحب وما أشده) قالت الفتاة لاهيةً عن حديث الحب بحديث الثياب (ما أشد لهفتي على ثوبي الذي أعده لليلة المرقص! لقد كلفت الحائكة وشيه بأزهار العواطف، ولكن الحائكة كسول،) وطار فوق النهر وأبصر المصابيح تتدلى على ساريات المراكب، وطاف بحي اليهود، فرأى شيوخهم يتنازعون في البيع والشراء، ويزنون الدراهم بموازين من نحاس، وحط على الدار الحزينة ونظر من خلال النافذة فإذا الصبي يصطلي بنار الحمى فلا يهدأ مضجعه، وإذا الأم قد احتواها التعب فقامت إلى فراشها. ونفذ السنونو إلى الغرفة وألقى بالياقوتة على المنضدة، ثم طاف يرفرف بجناحيه على الصبي. تحرك الصبي في مضجعه وقال (ما أعذب هذا النسيم العليل، لعلي واجد من المرض خلاصاً) ثم أخذته سنة مريحة.

عاد السنونو إلى الأمير السعيد، وقص عليه ما رأى وما فعل وقال (عجباً! إنني لأشعر بالدفء في هذا الجو البارد!) قال الأمير (ذلك بما وفقت إليه من فعل الخير)

وساد صمت عميق، كان السنونو فيه مطرقاً مفكراً وهو إذا فكر نام!! ولما انبثق الفجر طار إلى النهر واغتسل بمائه فأبصره أستاذ علم الطير، وراعه أن يرى السنونو في فصل الشتاء، وعد هذا من خوارق الطبيعة، فحرر مقالاً طويلاً نشره في الصحيفة المحلية وقرأه

الناس جميعاً ولم يفهموا منه شيئاً لأنه وحشاه بألفاظ لا يفقهون لها معنى. قال السنونو وقد هزه الطرب (الليلة سأطير إلى مصر) وقام يزور آثار المدينة وأعلامها، فحط على منارة الكنيسة، وطابت نفسه بالاستراحة عليها ثم طار، وكان حيثما طار

سمع تغريد العصافير يقول بعضها لبعض: (ما أعجب هذا الطائر وما أغربه!) فلما استمتع من رحلته وطلع البدر خف إلى الأمير السعيد وقال له (هل لديك رسالة أحملها إلى مصر، فأنا ميمها الساعة)

قال الأمير السعيد (أيها السنونو الصغير هل لك أن تبقى معي الليلة؟) قال السنونو (إن لي بمصر رفاقاً يترقبون عودتي. وما أحسبهم في الغداة إلا طائرين إلى الشلال الثاني ينعمون بطلعة فرس النهر مضطجعاً بين أوراق البردي ويسعدون بلقيا الإله ممنون جالساً على عرش من الجرانيت يناجي النجم طيلة الليل، حتى إذا أقبلت نجمة الصباح حياها بصيحة عالية ثم لزم الصمت، ويرقبون الأسود الصفراء ذات العيون الخضراء تنساب إلى الشاطئ وتستسقي ثم تزأر زأرة تذوب في صداها زأرة الشلال،)

قال الأمير (أيها السنونو الصغير! في أقصى المدينة رجل يقيم غرفة وقد أكب على أوراق بين يديه، وأمامه باقة من زهر البنفسج الذابل، وله شعر مجعد، وشفتاه كجب الرمان، وعيناه ناعستان، أراه جاداً في نسج قصة تمثيلية يعدها لمدير المرسح وقد ألح عليه البرد والفقر فما يستطيع منهما خلاصاً، وما يستطيع معها التحرير،)

قال السنونو وقد رق قلبه (إني مقيم معك الليلة، فهل أنت مرسلي إليه بياقوتة أخرى؟) قال الأمير (لقد نفد الياقوت الأحمر، وما أملك إلا عيني، وهما من الجوهر الأزرق النادر، جلبت حبتاهما من ألف سنة من بلاد الهند، فاقتلع واحدة منهما وخذها إلى الرجل يبيعها للجوهري ويشتري طعاماً وناراً فيقوى على إتمام قصته) قال السنونو (أيها الأمير السعيد، لا قبل لي بما كلفتني، وما أستطيع على بعض هذا صبراً) وذرفت عيناه. قال الأمير (افعل ما أمرتك به) وفعل، وطار إلى القصصي فنفذ إلى غرفته من ثغرة في سقفها، وكان الرجل قد أسند رأسه إلى يديه فصمت أذناه، ولم يسمع حفيف أجنحة السنونو، ثم رفع رأسه وبهره بريق الجوهرة الزرقاء وسط باقة البنفسج الذابل، فأفتر ثغره عن ابتسامة فيها الزهور وفيها الإعجاب وقال: (لقد آن للناس أن يحسنوا تقديري، ما أحسب هذه العطية إلا من

عظيم قد أعجب بقصصي وما أحسبني الآن إلا قادراً على إتمام القصة) ثم أشرقت في نفسه السعادة.،.

وفي الغداة طار السنونو إلى مرفأ المدينة وجلس إلى سارية سفينة فأشرف على الحمالين وهم يجتذبون الصناديق الثقيلة وقد شدوها إلى الحبال، وألقي إليهم السمع وهم يصيحون جماعات كلما اجتذبوا صندوقاً فصاح بهم السنونو وقال (أنا طائر إلى مصر) فلم يحفل به أحد، ثم طار في ضوء القمر إلى الأمير السعيد وقال (جئت الآن لأستودعك الله) قال الأمير (هل لك أن تبقى معي الليلة؟) قال (نحن في زمان الشتاء وسيشتد البرد بهذه المدينة ومالي بها بعد اليوم مقام. سأطير إلى مصر فأنعم بشمسها الحارة تنصب على رءوس النخل الأخضر، وأسعد برؤية تماسيحها، وقد اطمأنت إلى أرض رخوة واستمرأت الكسل، ودارت عيونها تبصر ما حولها، وما أحسب رفاقي إلا جادين في اتخاذ أعشاشهم في معبد بعلبك، ترقبهم أعين الحمامات الرقطاوات تتناجى بأعذب الأنغام، أيها الأمير العزيز لست بعد اليوم مقيماً، وما أنسى فضلك وجودك، وسأعود إليك في الربيع وفي فمي جوهرتان جميلتان أعوضك بهما عن الجوهرتين اللتين جدت بهما، ستكون إحداهما أشد حمرة من الورد، والأخرى أشد زرقة من البحر.)

قال الأمير (هنا في الميدان فتاة تبيع أعواد الكبريت، ولقد سقطت الأعواد من يدها وأصابها البلل فما تصلح للبيع، وستلقى الفتاة من أبيها نصباً، وإني لأرها باكية، وأراها حافية القدمين حاسرة الرأس،. . اقتلع عيني الأخرى وجد بها عليها عل أباها يعفيها من سوط عذابه) قال السنونو (أما البقاء معك هذه الليلة فنعم، وأما ما تأمرني به فلا!

أتحسبني لا أعصيك في هذه فأقتلع عينك فتصبح مكفوفا!!) قال الأمير (بل لا تعص لي أمراً). . . فما عصاه . . .!
وطاف فوق رأس الفتاة وأسقط الجوهرة في يدها. قالت (ما أجمل هذه الزجاجة! وسارعت إلى بيتها ضاحكة مستبشرة،) وعاد السنونو إلى الأمير وقال له (أما الآن فحق علي البقاء معك، فقد أصبحت كفيفاً ولا غنى لك عني!) قال الأمير المسكين (بل ارحل إلى مصر) قال السنونو (ما بي إلى الرحلة حاجة، ولن أبرح مقامك) وطوى رأسه تحت جناحيه واستكن بين قدمي الأمير)
وفي الغداة جلس على كتف الأمير وأخذ يقص عليه من أنباء الدنيا عجباً، قص عليه أنباء طير مصر المعبود، وكيف وقوفه على ضفتي النيل يمسك بين منقاريه سمكاً ذهبياً، وقص عليه أنباء أبي الهول وقد عمر عمر الدنيا واتخذ الصحراء مسكناً، وأوتي علم كل شيء، وقص عليه أنباء التجار يسيرون الهوينى بجانب إبلهم وفي أيديهم مسابح من الكهرمان يذكرون عليها اسم الله ويسبحون بحمده، وقص عليه أنباء الأرقط الذي يأوي إلى سعف النخل، وله من الكهنة سدنة عشرون يطمعونه فطيراً ،معسولاً، وقص عليه أنباء الأقزام وما شب بينهم وبين الفراش من حرب في البحر وألقى إليه الأمير السمع ثم قال (أيها السنونو الصغير، في حديثك العجب، ولكني أرى في شقاء الرجال وشقاء وفي النساء ما هو أعجب، ليس في العالم مأساة أمعن في الأسى من الشقاء) طر أيها السنونو فوق مدينتي، وائتني بأنباء ما ترى، وما لا أرى.
طاف بالمدينة فرأى دوراً منجدة، وقصوراً مشيدة. وأغنياء ينعمون وعلى أبوابهم سابلة ،محرمون!
وطار إلى أزقة يغشاها الظلام فرأى أطفالاً يتضورون جوعاً، ترنو أبصارهم المتلهفة إلى الشوارع المظلمة، ورأى تحت جسر صبيين قد استلقيا على الأرض متعانقين يتقيان شر البرد، ويهمس أحدهما في أذن الآخر (ما أشد الجوع) فينهرهما حارس الليل ويقول (ما ينبغي لكما أن تقيما في هذا المكان) فيفران وقد صب عليهما عذاب عنيف من الجوع والبرد والمطر.!
وعاد السنونو إلى الأمير وحدثه بما رأى، قال الأمير (هذه لفائف الذهب فوق جسدي فانزعها عني ورقة ورقة وهبها إلى الفقراء، فقد جبل الناس على حب الذهب، كأنهم يرون فيه السعادة.)
وقام السنونو ينزع الذهب عن الأمير ورقة بعد ورقة، حتى بدا جسمه كالح اللون شاحباً، وطاف بها على الفقراء يغدقها عليهم أرزاقاً، فتهللت وجوه الأطفال واستخفهم الطرب، فملئوا شوارع المدينة بشراً وسروراً وقالوا (لقد أوتينا طعاماً).
ثم قسا الشتاء على المدينة وصب عليها صقيعه وجليده، وتدلى الثلج من النوافذ، وخرج الناس يبتغون أرزاقهم، وقد اكتسوا الفراء، وخرج الأطفال يلعبون ويتسابقون زحفاً على
الثلوج، كل هذا والسنونو تضنيه تباريح البرد، ولكنه لا يبتغي عن الأمير حولاً. يبتغي في الأرض رزقه من فتات يسترقه من حانوت الخباز، ويبتغي دفئه من تحريك جناحيه الضعيفين، ولكنه أحس أخيراً بدبيب الموت يسري في جسمه المقرور، وأحس بقواه تضعف وتخور، حتى لم يقو على أن يطير إلا مرة واحدة يصعد بها إلى كتف الأمير، وقال (وداعاً أيها الأمير العزيز، أتسمح لي أن أقبل يدك) قال الأمير (إني لسعيد بما عزمت عليه من الرحلة إلى مصر - أيها السنونو الصغير - لقد طال مكثك معي. خذها قبلة من فمي فإني أحبك) قال (ما رحلتي إلى مصر ولكن إلى دار البقاء، وما يفزعني الموت فهو صنو النعاس، أليس هو كذلك؟) ثم طبع على فم الأمير قبلة. . . ثم رفرف ،بجناحيه. . . وسقط بين قدميه. . . ميتاً.
في هذه اللحظة سمعت في جوف التمثال قرقعة داويه، وكان قلبه وقد قد من الرصاص قد انشطر شطرين.
وفي الصباح مر عمدة المدينة بالميدان وحوله أعضاء المجلس البلدي فشهدوا التمثال وقد أصبح عاطلاً من حلاه، وقال العمدة (ما أقبح منظر الأمير السعيد!) قال أعضاء المجلس (حقاً ما أقبحه!) وكانوا دائماً يرددون ما يقوله العمدة - ثم صعدوا إلى التمثال ليتبينوا شأنه وقال العمدة (لقد ضاعت حلاه، وسقطت عن قبضة سيفه ياقوتها الحمراء، وسقطت من عينيه جوهرتاهما الزرقاوان، وتعطل جسده عن لفائف الذهب،

وهو بهذا لا يفضل الشحاذ إلا قليلاً) قال أعضاء المجلس (وهو لا يفضل الشحاذ إلا قليلاً) قال العمدة وهاكم طائراً قد مات بين قدميه، أرسلوا في المدينة إلى الطير نذيراً ألا يموت أحد في هذا المكان، وحرر كاتب المدينة إعلاناً كتب فيه (ممنوع موت الطيور هنا).

دكوا تمثال الأمير السعيد، وما بهم إليه من حاجة بعد أن زال عنه جماله، ثم صهروا معدنه، وعقد العمدة مجلساً يتشاورون فيما يستخدم فيه معدنه المصهور.،

قال العمدة: (ما أرى إلا أن تعملوا منه تمثالاً، ويكون التمثال لي) وقال كل عضو من أعضاء المجلس: (ويكون التمثال لي) فدبت بينهما الشحناء، وماج بعضهم في بعض وما زالوا مختلفين.،

قال أحد العمال الذين يصهرون معدن التمثال (هذه قطعة من الرصاص لا تذوب في النار

(ولا تلين) والقى بها على كومة القمامة، وكان على الكومة جثمان السنونو

فلو قال الله لملائكته ائتوني باثنين من أعز ما لقيتم في المدينة، وأتاه الملائكة بقلب الأمير وجسم الطائر - لقال لهم (صدقتم فيما اخترتم - وسعت جنتي هذا الطائر الصغير يغرد فيها، وهذا الأمير السعيد يسبح بحمدي)

أحمد الطاهر

الكتب

بحث في نقد الأدب العربي

بقلم محمد بديع شريف

مؤلف هذا الكتاب الموجز شاب عراقي، يتلقى علومه في مدرسة دار العلوم، تكلم فيه عن النقد في الأدب العربي من فجر تاريخه حتى يومنا هذا، فأرانا كيف كان أهل الجاهلية يتحاكمون في أشعارهم إلى النابهين منهم كالنابغة وأضرابه، ثم قص علينا حديثاً طريفاً عن النقد في صدر الإسلام وفي عهد بني أمية مشيراً إلى ما كان عليه أهل هذين العصرين من سلامة الذوق وحسن الفهم والنزاهة كما يتضح فيما أورده من حديث عقيلة بنت عقيل ابن أبي طالب مع جميل وكثير والأحوص، وانتقل إلى العصر العباسي فأرانا كيف كان الخلفاء يهتمون بالنقد ويفطنون إلى موازينه وأوضاعه، وأخيراً تكلم عن النقد في أيامنا ويعجبني منه قوله في ذلك (والنقد في أيامنا يجري في البيت والبيتين، وهو عند الصديقين إلى تقارض المدح أقرب منه إلى النقد، وعند المغيظ المحنق أبعد عن النقد وأقرب إلى السباب، والمنصف بينهما قليل بل من القليل أقل).

وختم المؤلف كتابه بكلمة عن النقد وموازينه وطرقه مورداً في ذلك كثيراً من الأمثلة التي تدل على صدق نظره وحسن فهمه وسلامة ذوقه، وهي باكورة تبشر بمستقبل أدبي باهر لهذا الطالب النجيب.

أما اسم الكتاب فقد يبدو لي غريباً أو منحرفاً عن موضوعه فكان أولى به أن يسميه بحث في طرق النقد في الأدب العربي، فهو لا ينقذ الأدب العربي كما يشعر بذلك عنوانه، ولكنه يبحث في أساليب النقد في هذا الأدب قديمه وحديثه.

م. الخفيف

مسعود

تأليف محمود أبو النجاة

يتوق كثير من شبابنا اليوم إلى التأليف، فأول ما يستهوي الشاب في مستهل حياته الأدبية، فترة المطالعة والتأمل والاستعداد، أن يكون له كتاب يقرؤه الناس. لا جناح على الشاب أن

يعمل على رفع نفسه، بيد أن لكل غاية وسائلها ولكل أمر عدته، ولابد لمن يضطلع بالتأليف أن يكون له من الخبرة والنضوج ما يكفل له النجاح في هذه المهمة الشاقة، أما أن يعمد الشاب إلى التأليف وهو لم يدر بعد ما القراءة، فهذا إلى العبث أقرب منه إلى الجد، بل هو الهزل بعينه، وهذا الكتيب الذي أحدثك عنه مثل من أمثلة التسرع والشطط، فهو رواية شعرية في موضوع تافه لا يليق حتى الأسلوب (الحواديت) وحسبك أن تقرأ حواراً كهذا ولو على سبيل التندر والفكاهة

مسعود - ما العشاء الليلة؟

سعيد - إنه جبن وعدس

مسعود (متأثراً) - كنت أرجو الفرخة
زينب - ماتت الفرخة أمس
ثم اقرأ إحدى أغانيه وهي من أجود مقطوعاته
بسم الصبح ابتساماً ... فيه آيات الجمال
فانحنى الزرع احتراماً ... في سكون وجلال
وشعاع الشمس ضاءا ... يملأ الآفاق نورا
وسرى الزهر هواءا ... يملأ الدنيا عبيرا
ودونك حواراً لذيذاً بين المحضر والعمدة
المحضر: كم يملكون من العقار؟
العمدة: عشرون فداناً ودار
الحد من جهة الشمال: أرض مسطحة بوار
ومن الجنوب المصرف: والغرب أحمد ذو الفقار
والرواية كلها على هذا النحو وكم وددت لو اتسع المجال لأذكر لك طرفاً من ذلك الحوار البديع بين النائب والمحامي في الجلسة. . .!

وحي النسيب في شعر شوقي
تأليف أحمد محمود الحوفي بدار العلوم

حاول المؤلف الشاب أن يبرهن على صدق عاطفة الحب عند شوقي، أو بعبارة أخرى أراد أن يقيم الدليل على أن الغزل في شعر شوقي نتيجة غرام حقيقي ملك قلب الشاعر الكبير ليبطل بذلك حجة الذين يقولون أنه غزل لم تلده عاطفة ولم يبعثه حب. ابتدأ المؤلف الفاضل كتابه بكلمة في الغزل وأنواعه، ثم تكلم عن العلاقة بين الحب والشعر، وذكر طرفاً من غزل شوقي في الصبا والكبر، ثم شرح بصره بنفسية المحبين، وتعرض لشرح بيئته وصور نزعته إلى الوصف وصلتها بالحب.

ولكنه لم يخرج في براهينه كثيراً عن ذكر أبيات شوقي في الغزل مستدلاً بها على صدق حبه مع أن تلك الأبيات التي يذكرها من ينكرون عليه هذا الحب مستشهدين بوجودها في مطلع بعض قصائده دون مناسبة أو داع، وكان أولى به أن يسلك في البرهان طريقاً غير هذا، فان إثبات مواقف معينه أو إقامة الدليل على صفة خاصة في حياة شاعر لا تتأتى إلا بذكر حوادث معينة واضحة، أو الإتيان بقرائن قوية توضح الغرض من شعره.

على أننا نحمد لهذا الشاب وأقرانه من طلاب دار العلوم نشاطهم وإقبالهم على الأدب العربي بحثاً وتنقيباً، ويسرنا بنوع خاص أن ينهض الشباب لدراسة شعر شوقي من جميع نواحيه، ولنا أن نعتبر هذا الكتاب باكورة طيبة لهذا الشاب الأديب.

م. الخفيف

المدينة الإسلامية وأثرها في أوروبا
تأليف محمد سعيد بخت ولي

دعا المؤلف إلى نشر هذا الكتاب كما يتضح من مقدمته ما يراه من إقبال الشبان على دراسة مدنية الغرب مع إغفالهم مدنية العرب والإسلام، ولقد تكلم في هذا الكتاب الصغير عن عظمة الإسلام في أول نشأته، ثم تقدم المسلمين في العلوم والمعارف والآداب، ثم عن قوى الإسلام البرية والبحرية في شتى عصوره، ثم عقد فصلاً عن مبلغ ما أفاده أهل الغرب من الإسلام مستشهداً بعبارات من كلام مؤرخيهم

وإنك لتلمس غيرة المؤلف وحماسته للإسلام في كتابه هذا على صغره، فلا يسعك إلا أن تشكره على هذه الأريحية، بيد أن الموضوع أوسع من أن يلم به كتيب كهذا لا تزيد صفحاته على السبعين.

م. الخفيف

العامي النبيل
تأليف موليير وتعريب فؤاد نور الدين

عرب هذه الرواية الظريفة التي تعد إحدى طرف الأدب الفرنسي شاب من شباب سوريا، ولا ريب أن حاجة العالم العربي في هذه الأيام إلى تعريب الآثار الغربية القيمة، حاجة شديدة ملحة، بيد أن الترجمة ليست كما يتوهم البعض من السهولة، وفضلاً عن ذلك فليس كل كتاب بصالح للنقل إلى العربية، وأكبر ظني أن معرب هذه الرواية لم

يتوخ الدقة في الاختيار، فالرواية يغلب عليها عنصر الفكاهة، وأسلوب الفكاهة في لغة غيره في لغة أخرى، هذا إلى اختلاف الذوق العام في أمة عنه في أخرى وخصوصاً في الأدب الفكاهي، وهذه القصة بنوع خاص ينحصر جزء كبير من فكاهتها حول نطق الكلمات وإخراج الحروف فكيف ينقل ذلك إلى العربية؟ نقل المعرب الحروف الفرنسية كما هي، فكان موقفه أشبه بموقف ذلك الذي يتصدى لإضحاكك فلا تفهم ما يريد فتقابله بالوجوم فينقلب مرحه إلى فتور.

غير أني لا أنكر على المعرب ما بذل من جهد وما توخى من كمال كما يتضح في كثير من عبارته.

سعادة الأسرة

للحكيم الروسي الأكبر ليو تولوستوي

نقله إلى العربية (مختار الوكيل)

لا تكاد تمضي في قراءة هذه الترجمة العربية للقصة الروسية البديعة حتى تشعر بدقة المعرب وسلامة أسلوبه من الضعف والابتذال، فألفاظه منتقاة وتراكيبه عربية وجمله متزنة، ثم أنك لتشعر أيضاً بأن المعرب الفاضل يفهم الأصل فهما صحيحاً فلا التواء في الحوادث ولا اضطراب في مجرى القصة كلها، هذا إلى ما يشع من هذه الترجمة من روح الاتزان والحصافة والشغف بفن القصص مما كان له أكبر الأثر في إنجاز هذا العمل على خير ما يرجى من طالب في كلية الحقوق لما يزل بين أعماله الدراسية المرهقة، وحسبك أن تقرأ هذه الفقرة من مقدمة المعرب لتعرف الروح التي سيطرت عليه أثناء التعريب فهو يقول (أما بعد، فغاية ما أطمح فيه من نقل هذه القصة إلى لغتنا هو تغذية الفن القصصي الناشئ عندنا بضم عناصر قوية خالدة من الفن العالمي إليه، فهل يا ترى ستحقق هذه الأمنية؟ علم الله أنها غاية ما أتوق إليه. . .؟)

ولا شك عندي أن تعريبه جاء مصداقاً لمقدمته المهذبة.

ديوان الفراتي

نظم محمد الفراتي

مطبعة بابيل أخوان - دمشق

يقع هذا الديوان في أربعين ومائتي صفحة من القطع الكبير، جيد الورق متقن الطبع قسم ناظمه ما جاء فيه من قصائد إلى مصريات وسوريات وحجازيات وعراقيات وبحرينيات! ولست أذكر ديواناً في هذا الحجم تنوعت قصائده على نحو ما تنوعت القصائد في هذا الديوان، فلقد نظم الشاعر في الاجتماعات وفي شكوى الزمان وفي الرثاء والمديح والعتاب، وتغني بحنينه إلى البادية، وتفاخر بمجد الأوائل، ونظم يستنهض أهل عصره، ثم نظم في الوصف فوصف الكهرباء وصاغ شعراً في الأكسجين والنتروجين! وناجى الكواكب، ولم تكفه الأرض بما رحبت فطار على أجنحة الشعر إلى المريخ ونظم قصائد في وصفه وشط به خياله فاخترع ألفاظاً أشار في الحواشي إلى أنها من لغة المريخ!!

وهكذا أطلق الشاعر العنان لخياله في غير تحفظ ولا احتراس وسجل كل ما جادت به قريحته من غير حذف ولا إصلاح

من أجل ذلك أرجع أن الفراتي الفاضل يعنى حقاً ما أثبته في مقدمة ديوانه إذ يقول (لم أنظمة للناس وإنما نظمته لنفسي، وحسبي أن نفسي عنه راضية، ولم أقدم على نشره ليذيع اسمي ويشتهر، وإنما نشرته حرصاً عليه من الضياع) أقول أني أرجح أنه يعني ما كتب، وقد كنت أحسب ذلك منه تواضعاً أول الأمر، على أنني لست أقصد بذلك أن الديوان لا يستحق النشر، كلا ففيه عدد من القصائد يستحق الشاعر من أجلها التهنئة الصادقة، ثم أن شعره في الجملة مشرق الديباجة جيد الصياغة بله تنوعه المدهش، ومن قصائده البارعة قصيدته المسماة (درة في جبين الدهر) وأختها (نفثت مصدور) وقصيدته تحت عنوان (يا ابنة عمي) ومرثيته لسعيد وغيرها.

وإنما أقصد بما ذكرت أنه كمان ينبغي أن يحذف الشاعر من ديوانه بعض القصائد التي لا تسمو إلى مستوى شعره، ولئن فعل فما كان ذلك بضائره، فبضاعته موفورة، ولا سيما وأن هذا هو الجزء الأول، وخير له أن ينتقي من الجزءين ديواناً جيداً. ثم ليسمح

لي أن أنبهه في احترام إلى ألفاظ استعملها بكثرة وهي في زعمي مما يمجه الذوق الشعري (كالقطقط والعجنفل والصنبر ونفنف اللوح وغيرها مما يجب أن يخلص منها شعر الفراتي.

صحيفة مدارس الأقباط الخيرية الكبرى بطنطا

هذه الصحيفة التي تفضل حضرة المربي الفاضل ناظر مدارس الأقباط بطنطا بإهدائها إلى الرسالة، هي باكورة أعمال الطلبة وأول ثمرة لجهودهم الأدبية الفتية، فإذا قلبتها أعجبك وسرك أن تكون تلك الباكورة على خير ما تكون عليه المجلات المدرسية من دقة وجمال وحسن نظام، وإذا قرأتها حمدت لأصحابها روحهم الطيبة التي تتجلى في إخلاصهم لمدرستهم وبلادهم، فالصحيفة مليئة بدروس الوطنية، حافلة بالأبحاث المتنوعة في الاجتماع والاقتصاد والتاريخ والعلوم والآداب. والذي تغتبط له بنوع خاص أن هذه الأبحاث التي كتبها الطلاب من عملهم لم يعمدوا فيها إلى نقل أو تلفيق، بل هي أصدق صورة لعواطفهم وآمالهم، وإذا أنت قارنت بين هذه الصحيفة وأمثالها مما يظهر في مدارسنا اليوم، وبين الصحف التي كانت تصدرها المدارس منذ بضع سنوات أحسست بتقدم الطلاب في فهم العالم الذي يحيط بهم، واستبشرت بالخير لبلادنا على أيدي هؤلاء الشبان الذين نعتبرهم عدة الحاضر ورسل المستقبل.

صحيفة مدارس الأهرام

تفضل حضرة المربي الفاضل ناظر مدارس الأهرام فأهدى صحيفة مدارسه إلى الرسالة أيضاً، وتلك الصحيفة في مرحلتها الثالثة، متقنة الطبع، أنيقة الشكل، كبيرة الحجم، وهي

كأختها السالفة دقة وحسن نظام، تشرق صفحاتها الغر بقيم البحث في شتى المواضيع، كما أنها ثمرة خالصة لجهود الطلاب، ومرآة صادقة لعواطفهم وميولهم، التي تنهض دليلاً على وصول التعليم الأهلي في بلادنا إلى درجة يغبط عليها، فالصحيفتان ناطقتان بما يرفع رأس رجال التعليم الحر، وما جاء فيهما على ألسنة أبنائهم شاهد بما يبثونه في قلوبهم من الفضائل وما يغذون به عقولهم من المعارف.

هذا وتجد في الصحيفتين طائفة من الصور البديعة للجمعيات المدرسية المختلفة، والفرق الرياضية تتوج كلاً منهما صورة صاحب السمو الكشاف الأعظم أمير الصعيد كما تتصدر الصحيفتين صورة جلالة الملك مما يكسبهما جلالاً وعزة.

العدد 49 - بتاريخ: 11 - 06 - 1934

الامتيازات والدين

حتى على حرم الدين، وموئل علومه، ومعقل آدابه، تعتدي الامتيازات الأجنبية . . . المشئومة!! فقد حدثني من لا يجهل ولا يكذب، أن طالباً من جنوب أفريقية، يطلب العلم في أحد المعاهد الدينية، دهمه الامتحان وهو في سكرة النعيم المصري الخالص من الأذى والمن، فلم يجد في رأسه غير وساوس الشباب وغماغم الهوى، ففزع إلى الكتاب ينقل منه نص الجواب، فأخذته عين المراقب! ثم كان ما يقتضيه القانون والخلق والنظام في مثل هذه الحال من طرد التلميذ وإلغاء امتحانه.

ولكن جنوب أفريقية - وأرجو أن تتذكر - له على شمالها امتيازات بالواسطة، يُدل بها على مصر ادلال الخادم بسطوة سيده، ويصول بسيفها صولة العبد بسيف مولاه! حملها أبو الغلام على ظهره عشية الحادث، وراح يهدج بها في فناء الدار المشرفة على النيل وعلى أمة النيل، فاهتزت الدار لشكواهِ حفاظاً وأنفة، وأقبلت حجرات الحراس على حجرات الخدم يتساءلن: أين إذن الامتياز إذا تساوى الأجنبي والوطني في قانون عام؟ وأين إذن الامتياز إذا جرى المحمي والمصري في الأمر على منهاج واحد؟!

وفي الصباح الباكر كان مدير المعهد جالساً إلى مكتبه يذكر الله على إيقاع المسبحة، وذِكْر الله تطمئن به القلوب وتشجع به الأنفس، ولكن جرس التليفون كان اليوم على ما خيل إلى المدير أحدّ رنيناً، وأشد صلصلة، فزعزع القلب المطمئن، وضعضع النفس القوية!

- ألو! ألو! مَن؟

- الإدارة العليا! أعد إلى الامتحان الطالب الذي أخرجته منه أمس

- كيف وقد غش في الإجابة، وضبطت معه أداة الغش، وضاع من أيام امتحانه يوم،

وذهب من هذا النهار حصة، وأعلن إلى الملأ أمر رفضه؟؟
- أعد هذا الطالب من غير مناقشة!!
وكانت اللهجة حاسمة، والإجابة مفحمة، فخرس التليفون، وخشع المدير، وتقاصر المكتب، وخزى القانون، وبُهت الخلق، وعجب المدرسون والطلاب إذ رأوا التلميذ الذي طرد بالأمس، يعود إلى مكانه اليوم وهو أضخم مما كان جثة وانضر طلعة وأطول رقبة!!
تخالست العيون نظرات العجب، وتبادلت الشفاه بسمات السؤال، ولكن المكاتب الرسمية ظلت واجمة، والأسباب السحرية الرهيبة بقيت محجوبة، حتى أذن الله لها أن تظهر،
فسكنت طبيعة المعهد، وركدت ريح الفناء، وثقلت حرارة الجو، وأخذ الدارَ ما يأخذ الأرضَ قبيل هبوب العاصفة!
وهنالك اقتحم الدار ذلك الأفريقي الذي رأيناه بالأمس يقرع الباب الأحمر، والامتيازات تجأر بالشكوى على ظهره، ثم أثار من حلقه عاصفة هوجاء ترمي بالسباب والسفه، فلم تدع كرامة على منصة، ولا مهابة على مكتب، ولا جلالة في الإدارة، حتى تناولتها بالعيب والزراية
من الذي جرؤ على أن يطرد ابني يا. . . . . أين ذهبت أوامركم بالأمس؟ ما حال قوانينكم اليوم؟ كيف ترفعون رءوسكم غداً؟ ثم تربد وجه الرجل وتزبد فوه فأرسل على القوم من فحش البذاء ما نحمد الله على الجهل برسمه حتى نكتبه!
برح الخفاء واستعلن السر، فسكن القوم سكون الطير في ثورة الطبيعة! فلما هدأت زمجرة الأسود الممتاز، وانصرف عنهم انصراف الليل المرعد عن الصباح الوديع، أفاقت الطير من دوُار الزوبعة، وفزعت إلىالإدارة العليا تستصرخها للكرامة، وتستعديها على الرجل، وتسألها أن تعارض شكاية بشكاية، وتقول في حرارة الموتور ومرارة النادم: لقد قال الرجل فأسرف، وسكتنا فأسرفنا!
وتشاء المصادفات العجيبة أن يكون بين يدي الإدارة آنئذ دلَو من الماء النمير البارد فتلقيه على ثورة الغضاب فتقر! ثم قالت لهم بتلك اللهجة الحاسمة والإشارة الحازمة: نعما فعلتم! الحلم سيد الأخلاق
كان رجال الدين في العهود العزيزة مفزع الفضيلة المروعة، وملجأ الفضل المضطهد، يبغي الحاكم، ويجحف السلطان، ويطغى المستبد، حتى إذابلغوهم شدوا الشكيمة، وردوا الجماح، واستقاموا على الطريقة، ثم كانوا في حضرتهم يستكينون لسلطان الدين، وسيطرة الضمير، وعزة القناعة، وصراحة الخلق، وشجاعة القلب، وإعلان الحق في وجه الباطل وإن ذهبت عليه الدنيا، وأريقت في سبيله النفس
وكان من ورع رجال الدين في الأزمان الصالحة سياج على حمى الشريعة، يرد عنها خبائث الطمع، ونقائص المادة، فلا تُسخر للظلم، ولا تُستخدم للحكم، ولا تُستغل للهوى، وكانت كلمة العالم هي كلمة الله، يقولها فتعنو لها الجباه، وتجمد لها الشفاه، ويستقيم بها
ميزان العدل.
فلما ابتلى المؤمنون بنفاق الحياة، وفُتن المتقون بزهرة الدنيا، وذل العلماء لشهوة الترف، فرغبوا في وجاهة المظهر، وفراهة المركب، ورفاهة العيش، سلبهم الله ميراث النبوة، وحرمهم جلالة الدين، فأصبحوا كسائر الناس، يجري عليهم ما يجري على غيرهم من ذل الامتيازات، وغل الحزازات، وعنت السياسة
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظموه في النفوس لعظما
احمد حسن الزيات
(النيل)
تعيد مجدنا البحري
لكاتب كبير
بعد أيام قلائل - في يوم الجمعة 15 يونيه - تسير الباخرة المصرية (النيل) من ثغر الإسكندرية إلىنابل (نابولي) ثم إلى مرسيليا. وهذه الرحلة الأولى لباخرة مصرية كبيرة في عباب البحر الأبيض المتوسط، يجب أن تثير في نفوسنا كثيراً من الذكريات المجيدة. ذلك أن (النيل) تصل بهذا الفتح البحري الميمون ما انقطع من عصور

السيادة البحرية المصرية في لجة هذا البحر الخالد؛ فمنذ قرون بعيدة كانت مصر تتبوأ في التجارة البحرية، كما تتبوأ في القوى البحرية مركزاً ممتازا، وكانت السفن المصرية تتردد بين الإسكندرية ودمياط وبين ثغور الشرق حتى قاصية البحر الأسود، والثغور الإيطالية، ثم ثغور المغرب والأندلس في الطرف الأخير من البحر الأبيض المتوسط، وكانت تساهم بأعظم قسط في النقل البحري ما بين أوربا والشرق، وتمر بثغورها معظم تجارة الشرق الأقصى. وكانت بين الإسكندرية وقسطنطينية، وبينها وبين البندقية وجنوة خطوط بحرية منظمة، والسفن المصرية تقطع لجة هذه المياة ذهاباً وإياباً، وعلم مصر الإسلامية دائم الخفوق في هذا العباب

ولقد تبوأت مصر الإسلامية مركزاً ممتازاً في السيادة البحرية منذ القرن الأول للهجرة؛ وكانت السفن المصرية والبحارة المصريون عماد الفتوحات الإسلامية البحرية الأولى في شرق البحر الأبيض: في رودس وقبرس واقريطش؛ وكان العرب قبل فتح مصر يخشون البحر وأهواله، فلما فتحوا مصر، وأدركوا أهمية مركزها البحري، اتخذوا من الإسكندرية قاعدة لحشد الأساطيل، والفتوحات البحرية؛ وكان لبحارة الإسكندرية شهرة خاصة؛ وكانت تدرب بينهم خيرة الضباط والجنود البحريين. ولما سار العرب لحصار قسطنطينية للمرة الرابعة سنة 99هـ (717م)، وحل بهم الضيق تحت أسوار المدينة المحصورة، حشدت سفن المدد في الإسكندرية، وسيرها البحارة المصريون إلى مياه المرمرة. وكان للسفن المصرية والبحارة المصريين دائماً أكبر نصيب في الفتوحات البحرية التي كانت تسير إلى ثغور الدولة البيزنطية وجزائر بحر إيجه.

وظهرت براعة المصريين البحرية في عشرات المعارك أثناء الحروب والحملات الصليبية التي كانت تهبط دائماً على الشواطئ المصرية، في الإسكندرية ودمياط، ثم في يافا وعسقلان وعكا، وقد كانت يومئذ ثغوراً مصرية. وتاريخ مصر الإسلامية حافل بهذه الصفحات المجيدة من تاريخنا البحري.

أما عن الملاحة التجارية فقد كانت مصر إلى جانب البندقية تتبوأ مركز الزعامة والسيادة في البحر الأبيض المتوسط، وكانت البندقية تسيطر على الطرق الشمالية والشرقية إلى ثغور المرمرة والبحر الاسود، بينما كانت مصر تسيطر على الطرق الجنوبية، والجنوبية الشرقية؛ وكانت العلائق بين الثغور المصرية، والثغور الإيطالية ولاسيما البندقية وبارى ونابل وجنوه في منتهى الانتظام، وكانت المعاهدات التجارية والبحرية تعقد بين مصر والدول الإيطالية في كل العصور والدول. ولم تفقد مصر أهميتها البحرية والتجارية إلا بعد اكتشاف طريق الهند في أواخر القرن الخامس عشر، ثم الفتح العثماني الذي انتهى بالقضاء على جميع قواها ومواردها وحضارتها الزاهرة.

وفي عصر محمد علي استعادت مصر شيئاً من نشاطها البحري، فأنشئ الأسطول المصري، واستأنف البحارة المصريون جهادهم المجيد في المياه اليونانية. ولكن أوربا النصرانية لم تشأ أن تعود مصر الإسلامية فتساهم بقسط في السيادة البحرية في شرق البحر الأبيض، فائتمرت بالأسطول المصري فحطموه في (نافارين)؛ وكان محمد علي أكثر عناية بإنشاء السفن الحربية، فلم تتقدم الملاحة التجارية يومئذ تقدماً يذكر.

وكان القضاء على الأسطول المصري في نافارين خاتمة عصر قصير من الإحياء البحري.

وهاهي ذي مصر تستأنف اليوم بعد مائة عام أخرى، نشاطها البحري؛ وتعود البواخر المصرية، فتشق لجة البحر الأبيض جيئة وذهاباً. والفضل في ذلك يرجع إلى نشاط ذلك الصرح القومي العزيز - بنك مص -؛ وهاهي (النيل) تعود فتحمل علم مصر الإسلامية خفاقاً في ذلك العباب الذي بقيت السفن المصرية قروناً تمتطي صهوته، وتجوس خلاله في عزة وفخار.

إن مصر تستأنف نشاطها البحري في ميدان السلم، لا في ميدان الحرب؛ وليس غريباً أن يكون لها بواخر تشق العباب، ولكن الغريب أن لا يكون لها بواخر، وثغورها محط البواخر الأجنبية من أقاصي العالم. . . .

في مدينة بروسة

للدكتور عبد الوهاب عزام

هذه بروسة الجميلة تشرف العين على سهلها المشجر، تلوح سقوفها المسنّمة من خلال أشجارها منثورة في سفح الجبل وحضيضه. وهذا (يشيل جامع) الذي شاده

السلطان العظيم (مجدّد الدولة) محمد بن بايزيد، وهو الذي اختاره القدر، بعد أن تقسمت اخوته الخطوب، ليجمع شتات الدولة بعد أن انفرط عقدها في موقعة أنقرة، وثوت الصاعقة رهن المحبس والقيد وبعد أن تنازع أشبال بايزيد ميراث أبيهم، وتمادى بهم الخلاف بضعة عشر عاماً. لقد قدر لمحمد أن يستأنف المسير في سبيل المجد الذي سلكه آباؤه. أين محمد ومجد محمد؟ تجيبك هذه القبة الخضراء وراء المسجد. فهناك رفات السلطان وبعض أبنائه.

وانظر إلى اليمن فهذا المسجد المشرف بين الأشجار على السفح، والذي يحاول السرو الباسق حوله أن يطاول منارتيه، هو مسجد الأمير محمد البخاري وهذه قبة ضريحه. وكم تحت هذه الأشجار من قبور عاذت بقبر هذا الرجل الصالح. ولله هذا الرجل العظيم، فما ينسى له التاريخ صرامته في الحق، ومجابهة السلطان بالنصح واللوم.

كان السلطان بايزيد يتهم بالخمر، فلما بنى مسجده الكبير دعا الأمير البخاري ليراه، وبيناهما يقلبان النظر في المسجد قال السلطان للشيخ: ما ترى في هذا المسجد العظيم؟ قال: حسن، ولكن لابد أن تقام في كل زاوية من زواياه حانة ليأتي السلطان إليه!

وأرى ذات اليمين جامع بايزيد تلوح قبتاه ومنارته، وبجانبه قبة تحنو على قبر السلطان العظيم. سطور من الخطوب والعبر لا تجد العين منها مهرباً.

ألا ترى إلى اليسار (أدلو جامع) ذا العشرين قبة؟ هذه قبته الكبيرة التي تنفذ الأضواء منها إلى الحوض الكبير، فيسيل عليه النور في ماء النافورة المنبجس ليل نهار؛ وكأن خريرها دعوة إلى الصلاة لا تفتر، وتسبيح مع المسبحين لا يصمت. وماذا على جدران هذا المسجد من بدائع الخط وسطور الجمال؟ لقد افتن الكتاب على مر العصور في تزيينها بكل آية من الخط الجميل، وإنها لحجة قائمة على الذين يريدون هجر الخط العربي إلى الكتابة اللاتينية. وكلما أدرت عيني في هذا المسرح الرائع عادت إلى هاتين المنارتين البيضاويتين المشرفتين على الجامع كأنهما شمعتان. وكل مآذن بروسة تشبه الشمعات، وما أشبه المآذن بالمصابيح: تهدي في ظلمات الضلال، وبحق سميت منارات.

وانظر هذا البرج البعيد على سفح الجبل في مكان من القلعة القديمة حيث قبرا الرجلين العظيمين عثمان وأورخان.

لست أرى جامع مراد الثاني وضريحه والقبور التي أطافت به وبينها قبر جم الأمير التعيس، ولا أبصر جامع مراد خداوند كار شهيد قوصوه، ولا قبر مشرفا على السهل منطوياً على سره وجلاله، ولا ينابيع المياه الحارة والباردة منبجسة بفنائه. وما أجمل ينابيع الماء في بروسة مساجدها وطرقها تلقى السائر حيثما توجه متدفقة بالحياة ليلا ونهارا.

وأين مسجد أورخان أقدم مساجد بروسة؟ غيبه عن عيني الجبل والشجر، ولكنه لم يغب عن القلب وجه المتواضع

وليت شعري ما خطب هذه المآذن الصغيرة، والقباب الخاملة المنثورة في المدينة؟ بناها قوم لم يبلغوا من حظ الدنيا ونباهة الذكر ما بلغ هؤلاء. ولعلهم كانوا أسعد حياة، وأعظم عند الله شأناً. وإن الجاه والمجد والسلطان وما يحيط بها من ضوضاء هذه الحياة لأسوأ ما يكافأ به الرجل الطيب ذو النفس الزكية في هذا العالم. فلا تأس على ما فات الصالحين من جلبة هذه السوق.

لا تقع عيني في مجلسي هذا إلا على أكداس من العبر، وأسطار من حظوظ البشر. وما أشقى هذه النفوس التي لا تقلب بصرها في هذا العالم إلا لتقرأ ما وراء صوره من عظات وآلام، يا لها ذكريات تجيش لها النفس، وينطلق بها الفكر في مسالك يعيا بها جهد المفكر.

لله بروسة الجميلة سهلها وجبلها، ودورها وشجرها، ولله فيها هذا التاريخ العظيم يملأ أرجاءها، ولله هذه النفس، كلما خلت وطلبت للفراغ مجلساً انهال عليها من العَبر والفكَر ما يكدّرها ويحزنها، وينفر بها عن الناس، ويسمو بها في معارج من الحقائق والخيال تلتبس فيها السعادة والشقاء.

أيها القلم حسبك، فما يتركني الناس أبلغ من خلوتي غايتها. فهاهم قد أقبلوا يتحدثون،

وها هي أصوات النرد تُطير عنّي أسراب الأفكار. وقديماً قال أبو العلاء:
حوربتُ في كل مطلوب هممت به ... حتى زهدتُ فما حُلّيت والزهدا
إيه يا بروسة والدنيا غِيَر، والدهر قُلّب! ليت شعري، وأنا أحبك، وأود لو إنفسح الزمان للإقامة فيك أياماً، لتبلغ النفس من جمالك وجلالك أمانيها - ليت شعري أأراك مرة أخرى، أم تلك جلسة التسليم والتوديع إلى الأبد؟!ـ إنما العلم عند الله، وما نحن إلا ظلال متنقلة ليس لها من الأمر شيء.

عبد الوهاب عزام

قصاصات الورق

خمسة عشر عاماً بعد فرساي

للأستاذ محمد عبد الله عنان

مازالت الحرب الكبرى توصف بأنها أشنع وأروع مآسي التاريخ، ومازالت مصائبها وعبرها وآثارها المخربة ماثلة في أمم وشعوب كثيرة؛ وكنا إلى أعوام قلائل فقط نسمع أقطاب السياسة الدولية يؤكدون أن الدرس الأليم الذي ألقته الحرب على الدول والأمم العظمى لا يمكن أن يمر دون أن يحدث أثره؛ وأن الشعوب أشد ما يكون اليوم زهداً في خوض الحرب والتعرض لويلاتها المروعة؛ وكنا نشهد ابتهاج الساسة والحكومات كلما عقد ميثاق جديد بعدم الاعتداء بين دولتين أو أكثر، أو حلت مشكلة دولية صغيرة على يد عصبة الأمم بطريق التحكيم والحسنى، أو ظهرت بوادر تفاهم ووئام بين خصوم الأمس؛ كنا نشهد ذلك وأمثاله خلال الأعوام التي تلت الحرب، فيخيل إلينا أن نزعة الحرب والاعتداء قد ضعفت، وأن عقلية الشعوب قد تبدلت، وأن العالم مقبل على عصر جديد، تتبوأ فيه قضية السلام مكانها اللائق، وتغيض فيه الخصومات والأحقاد القومية القديمة، ويسود الوئام والحسنى بين الشعوب.

ولكنا نشهد اليوم منظراً آخر؛ فان الأفق الدولي يفيض بالتشاؤم، وعلائق الدول المختلفة في اضطراب دائم، وعبارات الوعيد والحرب والانتقام تتردد في بعض الدوائر، وأحياناً يلوح بها بعض الساسة المسئولين؛ وهنالك بعض المسائل الخطيرة التي خلفتها الحرب الكبرى مثل مشكلة نزع السلاح، ومسألة السار، ومسائل الحدود والأقليات، ومسألة المستعمرات الألمانية وغيرها تزداد اليوم خطورة وتعقيدا، بل إنا لنشهد اليوم انتحار مؤتمر نزع السلاح في جنيف، وهو ذلك المؤتمر الذي علقت عليه قبل بضعة أعوام آمال كبيرة في تخفيض التسليح والتقريب بين الأمم، ونشهد عصبة الأمم تفقد هيبتها الدولية وتنحدر بسرعة إلى زاوية النسيان، وهي الصرح الذي هللت له الأمم يوم إنشائه، وقيل إنه سيكون منارة السلام العالمي والعدالة الدولية، وملاذ الأمم الضعيفة والمظلومة. والخلاصة أن تلك الآمال العريضة التي ساورت العالم حيناً عقب دروس الحرب الأليمة في أن تعتبر الأمم بتلك العبر القاسية وبتلك الضحايا الهائلة، وتغلب الروية والتفاهم في حسم مشاكلها، قد أخذت في الأعوام الأخيرة تنهار تباعا، ولا نكاد نلمس اليوم من آثارها شيئاً.

لقد اختتمت الحرب الكبرى بعدة معاهدات للصلح بين الأمم المتحاربة. أعظمها وأهمها معاهدة فرساي، التي أريد أن تكون دستوراً جامعاً لتنظيم أوربا الجديدة سواء من الوجهة الجغرافية، أو العسكرية أو الاقتصادية. ولكن معاهدات الصلح، كأية معاهدة يعقدها الغالب مع المغلوب، أو بعبارة أخرى يمليها الغالب على المغلوب، لم تخل من المبالغة والاغراق، ولم تحرص على مراعاة الحقائق التاريخية الخالدة، ولم تراع العواطف القومية لأمم عظيمة، وإنما روعي فيها قبل كل شيء أن تحقق شهوات الظافرين ومطامعهم وخططهم في تمزيق الأمم المغلوبة وتحطيم قواها ومواردها. ففي معاهدة فرساي أرغمت ألمانيا على الإقرار بأنها مسئولة عن آثار الحرب الكبرى، وألزمت بناء على ذلك بدفع تعويضات الحرب الهائلة، ونص على تجريدها من السلاح، وتدمير أسطولها، وانتزعت منها الألزاس واللورين لترد إلى فرنسا، كما انتزعت سيليزيا العليا، ودانتزج، ووادي السار، وفرضت عليها غير ذلك قروض مرهقة كثيرة؛ وفي معاهدة سان جرمان حلت إمبراطورية النمسا والمجر القديمة لتقوم على أنقاضها عدة دول جديدة، انتزعت منها أراضي كثيرة لتعطي لإيطاليا ويوجوسلافيا ورومانيا؛ هكذا غيرت معاهدات الصلح حدود أوربا القديمة، وأثارت في كل مكان مشاكل الأقليات القومية، ودفعت بالشعوب المغلوبة إلى غمار البؤس والفاقة،

وأثارت بذلك مشاكل اجتماعية خطيرة. ولم يكن يدور بخلد الساسة الذين أملوا هذه المعاهدات المرهقة على الأمم المغلوبة، أنها ستغدو منذ يوم وضعها مثاراً لمشاكل لا نهاية لها، وأنها ستنقض غير بعيد في كثير من نصوصها، وأنها ستعتبر في النهاية أصل كل متاعب أوربا الجديدة، وأنها إذااستمرت على حالها فقد تثير ضرام الحرب مرة أخرى، ولكن هذا ما وقع بالفعل، وهذا ما نشهد اليوم، فقد عدل كثير من نصوص معاهدة الصلح في الأعوام الأخيرة، وهي اليوم مثار حملات شدية، لا من ألمانيا وباقي الدول التي أرهقت بنصوصها فقط، ولكن من إيطاليا إحدى دول الحلفاء التي اشتركت في إجتناء مغانم النصر، بل أنا لنرى مستر لويد جورج أحد الأقطاب الذين وضعوا المعاهدة وأشدهم وقت وضعها وطأة على ألمانيا ينادي اليوم بفداحة الشروط التي وضعت ويقترح مثل إيطاليا تعديل المعاهدة وأدمجه الحلفاء فيها كنتيجة لنزع سلاح ألمانيا؛ وفي أواسط أوربا وشرقها

تثار عشرات المشاكل التي ترتبت على إجحاف معاهدات الصلح بالحقوق الجغرافية والقومية لمختلف الدول. والخلاصة ان معاهدات الصلح تغدو اليوم كالثوب المهلهل. ويغدو الأفق الدولي مثقلاً بالسحب ومختلف الاحتمالات.

قبل الحرب كانت السياسة القومية المغرقة والسلام المدجج بالسلاح، وإنشاء المحالفات العسكرية الدفاعية والهجومية، وعقد المعاهدات السرية، هي قواعد السياسة الدولية، وهي التي توجه علائق الدول بعضها ببعض. ولم تكن الفكرة في تنظيم علائق الأمم قد تقدمت يومئذ كثيراً عما كانت عليه قبل ذلك بقرون؛ فقد كانت هذه القواعد هي الغالبة في العلاقات الدولية في جميع عصور التاريخ الحديث مذ قامت أوربا الحديثة على أنقاض العصور الوسطى، بل كانت هي الغالبة في العصور الوسطى والقديمة مع فروق يسيرة في علائق السلام والحرب؛ وكانت الأطماع القومية في بسط النفوذ وإجتناء مغانم الاستعمار والتجارة هي التي تحرك الأمم بعضها ضد بعض، وكانت الحرب وسيلة فريدة لتحقيق هذه المثل؛ وقد كشفت لنا الحرب الكبرى عن المدى الذي وصلت إليه الدول العظمى ما قبل الحرب في الاعتماد على التسليح والمعاهدات السرية، وفي التنافس على اجتناء المغانم الاستعمارية واستعباد الأمم الضعيفة؛ ثم جاءت معاهدات الصلح بعد محنة الحرب دليلاً قوياً على أن هذه النزعات الخطرة لم تخمد بل أذكاها الظفر في نفوس الأمم الغالبة، على أن نزعة أخرى برزت من خلال هذه الغمار ترمى إلى العمل على التقريب بين الأمم، وتخفيف حدة الأحقاد القومية التي أثارت الحرب؛ وقد أريد أن تكون عصبة الأمم رمزاً لهذا الاتجاه الجديد؛ ولكن العصبة ولدت ميتة من هذه الناحية، واستطاعت العوامل السياسية الخفية أن تسيطر عليها منذ الساعة الأولى، وأن توجهها حيث شاءت، وأن تستغل نفوذها الدولي؛ ولما أن بدت بوادر التفاهم بين ألمانيا وخصومها بالأمس، وفازت سياسة التقرب والحسنى بعقد ميثاق لوكا رنو سنة 1925، هلل العالم مرة أخرى، واستقبل هذا الميثاق الذي يجمع بين أعداء الأمس ويقضي بتأمين منطقة الرين بين فرنسا وألمانيا، بوابل من الآمال الكبيرة، واعتقد أن الميثاق سيكون فاتحة لظفر السلام وقضيته؛ وساد في الأفق الدولي مدى حين نوع من التفاؤل، وحلت أثناء ذلك عدة مشاكل دولية خطيرة بالتفاهم والحسنى؛ ثم كانت الخطوة التالية بعقد ميثاق تحريم الحرب، أو ميثاق كيلوج سنة 1929، وهو الميثاق

الشهير الذي يقضي بتحريم الحرب كأساس للسياسة القومية ووسيلة لمعالجة المشاكل الدولية، ويقضي باستعمال التحكيم كوسيلة لحسم المنازعات بين الأمم، وقد جمع هذا الميثاق بين جميع الدول العظمى وبين أعداء الأمس، وانضم إليه عشرات من الدول في أوربا وأمريكا وآسيا، ووقعته مصر أيضاً، واعتبر يوم وضعه كأنه إنجيل جديد للسلام، واستقبل بأناشيد المديح والإعجاب في كل مكان؛ وكان عقد ميثاق تحريم الحرب في الواقع ذروة لظفر النزعة السلمية التي حملت الساسة والأمم في ذلك الحين؛ ولكنه كان ظفراً نظرياً فقط؛ ولم يمض سوى عام واحد حتى ظهر أن تطبيق الميثاق مستحيل من الوجهة العملية، وأنه ولد ميتاً كمشروع عصبة الأمم.

وهكذا ظهر عبث العهود والمواثيق الدولية مرة أخرى، وانهارت جميع الجهود التي بذلها أنصار السلام من الوجهة العملية؛ ولم يبق أمامنا من تراث هذا الماضي القريب سوى عصبة الأمم. ومأساة العصبة معروفة، فقد ظهر فشلها وعقمها في كل مسألة

دولية خطيرة، وكل مسألة تقتضي العدالة والإنصاف، وظهر أنها أداة مسيرة في يد الدول الاستعمارية تتجاذب في داخلها النفوذ والوحي؛ وهذا مؤتمر نزع السلاح الذي أنشأته العصبة لتحقق على يده برنامجها السلمي يحتضر ويسير إلى الموت محقق.

ولم يشهد العالم منذ نهاية الحرب ظرفاً أظلم فيه الأفق الدولي مثل الظرف الذي نشهد اليوم؛ فاليابان قد انسحبت من العصبة لتطلق العنان لمشاريعها الاستعمارية في الصين، وهي اليوم بتوغلها في الصين وتحديها جميع الدول الأخرى تثير خطر الحرب في الشرق الأقصى؛ وقد انسحبت ألمانيا الهتلرية أيضاً من العصبة، وهي اليوم تعود إلى تسليح نفسها متحدية خصومها بالأمس ولا سيما فرنسا، وتعمل بكل ما وسعت لإثارة الأحقاد القومية في الداخل والخارج، وفرنسا من جانبها تعود بمنتهى الشدة إلى سياستها القومية القديمة وتبذل جهوداً فادحة لتقوية جيشها وتسليحاتها، وإنكلترا وأمريكا تسيران في نفس الطريق وتعملان لتقوية التسليحات البحرية والجوية؛ وإيطاليا تقوي جيشها وتسليحاتها منذ أعوام وتلوح من آن لآخر بالحرب، ولا تخفى مطامعها الاستعمارية في آسيا وأفريقية، وروسيا السوفيتية تقف لليابان بالمرصاد في الشرق الأقصى، وتركيا تطالب بالعود إلى تحصين الدردنيل بعد أن قضت معاهدة لوزان بنزع سلاحه؛ وتجري في القارة من أقصاها إلى أقصاها حركة انزعاج وتوجس، وتجري

مختلف المفاوضات بين دول البلقان وأوربا الوسطى ودول البلطيق، وتعقد المواثيق هنا وهناك لتنظيم الجباه السياسية والعسكرية وأحكام المحالفات، وتتنافس دول القارة العظمى أعني فرنسا وألمانيا وإيطاليا في تنظيم هذه الحركات وتسييرها.

والواقع أن التاريخ القريب يتكرر ويتصل؛ وما يجري اليوم في العالم من الأحداث السياسية والمنازعات الدولية يشبه من وجوه كثيرة ما كان يجري قبل الحرب بأعوام قلائل فقط، من تسابق الدول العظمى في التسليح والاستعداد الحربي، ومن تنافسها وتنازعها في إجتناء المغانم الاستعمارية والتجارية، ومن توتر أعصاب الحكومات والساسة، ومن العمل على إذكاء الأحقاد القومية؛ وقد ثارت في الأعوام القلائل التي سبقت الحرب بعض مشاكل دولية خطيرة كانت مقدمة لانقضاض العاصفة؛ والأفق الدولي مثقل اليوم بكثير من هذه المشاكل؛ ويكفي أن مسألة كمسألة السار قد تضرم الشرارة الأولى، كما أن مسألة أغادير كادت قبل الحرب بعامين تضرم هذه الشرارة؛ ونستطيع أن نشبه رحلة مسيو هريو رئيس وزارة فرنسا الأسبق إلى روسيا منذ عام، أو رحلة مسيو بارتو وزير خارجيتها إلى بولونيا ودول الاتفاق الصغير، برحلة مسيو بوانكاريه إلىروسيا قبيل الحرب الكبرى بأسابيع قلائل. ولقد وصفت المعاهدات الدولية في فاتحة الحرب على لسان بعض الساسة الألمان بأنها قصاصات ورق والتاريخ يؤيد هذا القول في كثير من المواطن؛ ولكن هذا القول اعتبر أثناء الحرب من الكبائر وسجل على ألمانيا ضمن الأخطار الفادحة التي بنيت عليها مسئوليتها في إثارة الحرب. أما اليوم، ونحن نشهد عقم المواثيق والعهود الدولية الكثيرة التي وضعت لتسوية المشاكل والعلائق الدولية؛ ونشهد انهيار عصبة الأمم ومؤتمر نزع السلاح، وميثاق تحريم الحرب، ومعاهدة واشنطون التي تعهدت الدول العظمى فيها بتحديد التسليح البحري، ونقض معاهدات الصلح سواء من جانب الغالب أو المغلوب، فانه يسمح لنا أن نكرر القول القديم بأن العهود والمواثيق الدولية تغدو دائماً قصاصات من الورق كلما شاءت السياسة والاعتبارات القومية.

محمد عبد الله عنان المحامي

الأثر اليوناني في الأدب العربي

للأستاذ فخري أبو السعود

كانت الثقافة اليونانية خلاصة ثقافات البحر الأبيض القديمة؛ لأنها إلى جانب ما استوعبته من الحضارات الشرقية تمثل نتاج العقل اليوناني الذي كان أخصب عقل ظهر في العصر القديم. فلما مضى ذلك العصر

ودالت دولة اليونان وكان العصر الوسيط كان العرب هم السابقين إلى التعرف بالثقافة اليونانية فأخذوا من علوم اليونان وفلسفتهم، ثم تعرف الأوربيون بعدهم بتلك الثقافة في عهد النهضة، وأوسعوا علوم اليونان وفنونهم دراسة ونقلا ومحاكاة. فأغنوا بذلك علومهم وفنونهم الناشئة وشادوا على ثقافة اليونان صرح حضارتهم الحديثة.

بيد أن الذي يسترعي النظر أن العرب حين اتصلوا بثقافة اليونان اقتصروا على اقتباس بعض علومهم وفلسفتهم دون الآداب والفنون، فدرسوا أرسطو وأفلاطون، وعرفوا أبقراط وفيثاغورس، ولكنهم أهملوا هوميروس وسوفوكليس وأوربيدس، على حين لم يفرق الأوربيون بين ناحية من نواحي الحضارة اليونانية وناحية أخرى، بل أكبوا على دراسة الجميع، وبينما تقدمت علومهم على مر العصور عن علوم اليونان أشواطاً بعيدة واستغنت عن معينها ظلت الآداب والفنون اليونانية مرجعاً دائماً للآداب والفنون الأوربية ومهبط وحي لا يفنى، ولم ينفك كتاب الغرب وشعراؤه إلى اليوم عن تمجيد الثقافة اليونانية والحث على الرجوع إليها دائماً، فما السر في اختلاف موقف العرب عن موقف الأوربيين حيال تراث اليونان؟

السر راجع إلى سليقة العرب المطبوعة على البيان، المفطورة على فصاحة اللسان، فان العرب نظراً لبيئتهم البدوية وحياتهم المتنقلة لم يكن لهم سوى السان أداة للتعبير عن شعورهم الفياض، فلم يكن التصوير ولا النحت ولا غيرها من الفنون ليزكو في بيئتهم تلك، ومن ثم تأصلت في العرب سجية البلاغة وارتقت بينهم مرتبة البلغاء وتوطدت لغتهم ونضج أدبهم وهم على بداوتهم وقلة حظهم من الحضارة، وكان لهم بعصبيتهم ولغتهم اعتداد شديد، فلما نهضت دولتهم بظهور الإسلام ودخلت الأمم في طاعتهم ودينهم أفواجاً ازدادوا اعتداداً بعربيتهم ولغتهم وشعرهم وقرآنهم المبين، فلم يكن في نفوسهم حافظ إلى الاطلاع على آداب غيرهم ولا لديهم رغبة في التتلمذ لسواهم، بل كانوا يرون أنفسهم هم الأجدر أن يحبذوا ويؤخذ عنهم، ولقد أخذ كثير من الأمم المفتوحة لغتهم واصطنعوا أدبهم بالفعل، وأصبح الناشئون في الأدب من أبناء الأجيال التالية لا يرون أن شيئاً يوصل إلنيل الفصاحة والحكمة وحذق الأدب وراء دراسة القرآن واستيعاب شعر فحول المتقدمين، وإنما كان العرب أميل إلى الاعتراف بالقصور وإظهار الرغبة في الأمور التي لم يكن لهم فيها إلى ذلك الوقت باع ولا يد كالعلوم والفلسفة، فلم يروا ضيراً في أخذها على أساتذة اليونان.

ولم يقتصر أثر اعتداد العرب بأدبهم وشعرهم على ذود الأدب اليوناني عنهم، بل ذاد عنهم غير الأدب من الفنون: فلقد اطلعوا في أطراف دولتهم وبلاد جيرانهم على ما كان لدى اليونان والرومان والفرس والمصريين من تصوير ونحت، فما خطر لهم أن يحاكوا شيئاً من ذلك، وكان كل ما يساور شاعرهم حين يشاهد أثراً من هاتيك الآثار أن يتمثل بطش الدهر وحلول الفناء وسقوط الجبابرة فيقول:

أين الذي الهرمان من بنيانه؟ ... ما قومه؟ وما يومه؟ ما المصرع؟
تتخلف الآثار عن أصحابها ... حيناً ويدركها الفناء فتتبع

وما ذاك إلا لانصراف كل قوى العرب الفنية إلى ضرب واحد من الفنون هو الأدب واستغراقها فيه. فهي لا تحاول وسيلة أخرى سواه للتعبير عن نفسها، ومن ثم ظل العرب طوال عصورهم لا يعرفون من الفنون سوى الأدب والموسيقى المعتمدة عليه المرتبطة به ارتباطاً وثيقاً، فلا تصوير ولا نحت ولا تمثيل، اللهم إلا ذلك الضرب الوحيد من الزخرفة ذات الأغراض العملية المحضة، ومن الخطأ نسبة انعدام تلك الفنون بين العرب إلىالدين: ففضلا عن أن الدين لا ينافي شيئاً منها فانه لم يحل دون استمتاع العرب بالموسيقى وغيرها حين أرادوا.

فالعرب إذن اتصلوا بالثقافة اليونانية في غير الوقت الملائم: في وقت متأخر، كان أدبهم فيه قد نضج وقوى، وصار له من الاعتداد بنفسه ما يثنيه عن التتلمذ لغيره، أما الآداب الغربية فعرفت تلك الثقافة في عهد طفولتها ونشأتها، وهي لما تزل عاجزة تعترف بعجزها وتتلهف إلى المعرفة حيث وجدتها، فلم تتردد في الانتفاع بتراث اليونان إلى أبعد حد،

فأثرت أيما إثراء بما أخذت عن اليونان من المواضيع والأشكال الأدبية، ومد الأدب اليوناني أمامها آفاق التفكير الواسعة وآماد المثل العليا وصور الجمال المختلفة، ووجدت في تاريخ اليونان وأدبهم وأساطيرهم ومنتجات فنونهم من صور وتماثيل وآثار منادح للكتابة والدرس والنظم، ومنابع للوحي لا تنضب.

فلا غرو أن طفرت تلك الآداب الغربية التي لم تكد في عهد النهضة تكون شيئاً مذكوراً، والتي كانت لغاتها ذاتها ما تزال في طور التكوين، فإذا هي بعد قرون ثلاثة أو أربعة

تسبق الأدب العربي وهو أعرق منها محتداً وتفوقه اتساع آفاق وتعدد مواضيع، لأن الأدب العربي الذي م يكد يستفيد بأدب أمة أخرى ظل في مكانه جامدا يكرر نفسه ويعيد على نفسه الأبواب عينها التي جال فيها المتقدمون من فخر ورثاء ومدح وهجاء، حتى إذاكان العصر الحديث إذاهو يقف من الآداب الغربية موقف التتلمذ والتلقن.
ان تمكن ملكة البيان من العرب - مما جعلهم لا يدينون إلا لنبي يأتيهم بكتاب معجز، وجعل خلفاءهم يتخذون وزراءهم من أئمة البيان - واعتدادهم بأدبهم واستغراق مجهودهم الفني فيه وحده، هذا كله في مجموعة كان عاملا شامل الأثر بعيده في تاريخهم وأدبهم، ولقد كان أثره فيما يتعلق بالتراث اليوناني بليغ الضرر، فخسر العرب خسارة كبيرة بإغفال الأدب اليوناني الحي على توالي العصور، الشديد الإيحاء القوي التأثير، الذي كان بلا ريب أغنى من أدبهم. ولو لقح به الأدب العربي لاتسعت جوانبه وانصرف عن تلك الأغراض العلمية التي احتبس فيها إلى عوالم الفن الخالص وتغير مجرى تاريخه وأفاد العرب بذلك أضعاف ما أفادتهم دراسة الفلسفة اليونانية.
ونحن اليوم بدراسة الآداب الغربية والأخذ عنها بطريق غير مباشرة عن تلك الثقافة اليونانية، وندخل في أدبنا ذلك العنصر اليوناني الذي لابد منه لكل أدب يريد له مكاناً بين الآداب العالية، وإذا وقف شاعرنا العصري أمام الأهرام فلم ينصرف ذهنه إلى بطش الدهر بالجبارين الذين أعلوها ولم يتنبأ لها باللحاق بهم، بل حيا فيها الفن وعظم قدرة الإنسان وقال:

أهرامهم تلك حي الفن متخذاً ... من الصخور بروجا فوق كيوان
لم يأخذ الليل منها والنهار سوى ... ما يأخذ النمل من أركان ثهلان

فما ذاك إلا لأننا قد تأثرنا بتلك الروح اليونانية التي تعظم الفن الخالص في مختلف صوره وتمجد قدرة الإنسان في مصارعتها للفناء، تلك الروح التي كان أغفلها أجدادنا العرب.

فخري أبو السعود

إنما يرثها المؤمنون

أحلاف الأمل

للأستاذ أديب عباسي

الحياة كالسفينة: قلعها الأمل، ودفتها الفكر، والرابط لأجزائها واللاّم لشعثها هو الأيمان. والعقل يرسم الخطة، ويبين الاتجاه، ويدل على الطريق. والأمل شراع الحياة الذي يدفعها في أوقيانوس هذا العالم المضطرب وفوق لجه المصطخب، والذي يتلقى القوى من أين جاءته وأني واجهته ليحيلها في النهاية قوى للدفع والانتظام في السير. أما الإيمان فهو هذا الذي يشد أضلاعها ويوثق أجزاءها، فلا يوهنها العاصف الشديد ولا يمزقها، أباد يد. وهو الذي يعدل انحناءها ويقوّم استواءها، فلا توهيها الصدمة ولا تزعزعها الزحمة. وبالقدر الذي تظفر به الحياة من توازن وائتلاف بين هذه القوى الثلاث يكون الخير والنجاح، وبالقدر الذي تتنافر وتضطرب يكون الفشل والخيبة. انظر إلى المتشائمين الصارخين في وجه الحياة الدافعين لها في الصدر، ترهم من أولئك النفر الذين كبرت عقولهم ونضبت آمالهم وتزعزع أيمانهم، فاضوا كالقارب قد تخرق قلعه، وحطمت دفته. يقابلهم المتهورون الذين لا ينزلون للعقل على حكم، ولا للمنطق على قاعدة، فتراهم يسيرون في هذه الحياة على غير توجيه يوجهونه، أو هدى يتوخونه، فلا يلبثون أن يرتطموا بصخورها الناشزة، فتتحطم آمالهم وتبخر الحقيقة أمانيهم كما تبخر الشمس أحلام النائم.
هذه هي صلة الأمل والأيمان بالفكر. وإذافإذا نحن ذكرنا أحدهما بعدئذ فإنما نذكره ونحن نضمر ونقدر الفكر. ذلك أن الأمل دون الفكر يضحى تهوراً ورعونة، والأيمان بلا عقل ملهم يمسي عناداً واشتطاطاً.
وماذا نقول بعد هذا الإجمال في دعامتي الحياة هاتين؟
نقول إن الأمل هو القوة الدافعة الكامنة في صدور الشباب، وهو النور الذي يبدد ظلام النفوس ويزيل حلكها عندما تتوالى النكبات وتتعاقب المصائب. هو ذلك المعبود الذي نصب له الرومان تمثالاً يجثون حواليه ويخشعون. وهو الإله الذي هجر رومة عندما عكفت على المادة تعبدها فسقطت سقوط شمشون في يد الشهوة. وهو الذي وقف في مضيق

ترموبيلي يهزأ بالقوى المادية ويفخر بالتضحية الخالدة. هو ذلك الفيض العلوي الذي كان يخوض صفوف المسلمين مردداً: كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين، فكان ملء الصدور في بدر، وكان ملء الصدور في اليرموق، وكان ملء الصدور في القادسية. هو الذي يحيل الشيخ الهرم شاباً إذا حل في صدره، والشاب شيخاً إذا زايله. وان شيخاً كبرت عدته من الأمل لا تنصفه إذ تحشره في زمرة الشيوخ وان بلغ عتياً. وان شاباً هزل أمله وفتر عمله هو والشيخ الفاني سواء. فالفتوة والشباب ليسا في السنين، إنما هما في القوى الروحية السليمة. والمهزومون في معركة الحياة الهاربون من وجهها هم الدليل. هذا شيخ مرفوع الرأس مسنود الظهر، قوي الأمل كبير الثقة بالنفس، يسير بقية الطريق في غير التواء، فيصل آخر مرحلة من مراحل الجهاد لا هو بالخائر العزيمة ولا بالخالي من الزاد. وذلك شاب (بحسب السنين فقط) خاوي الأمل فاتر الهمة، يدب كما تدب السلحفاة. . . أعياه نيل الشمس واصطياد النجوم، فلم يمدد يداً إلى ما هو في متناول اليد، وتملكه اليأس، وبث له من ترقب الخيبة نطاق، فلم يحفل كثيراً بالجني القريب، ففاته كثير من الجواهر واللآلئ التي يمر بها مرّ المجانب

إذاً فمعركة الحياة الصارمة تتطلب منك يا صاح الأمل القوي تسنده العزيمة المسددة، وتفرض عليك الاندفاع والسعي، ينير سبيلهما الاستبشار والثقة. وفي الوقت الذي يكف المرء فيه عن الحركة والدؤوب يدخل في ثبت الأموات الفانين. إن خير ما تشبه به الحياة هو الدوّامة التي ما تزال تدافع فعل الجاذبية وتقاومه بقوة الاندفاع وسرعة الحركة، ولكنها إذ تبطئ وتكف عن الحركة تسقط بعد إذ كانت مستوية على قدم قائمة على ساق.

وتفرض عليك معركة الحياة أيضاً أن يكون لك هدف تسعى إليه، لا هو بالوضيع الذي لا يستثير كل ما في النفس من استعداد ولا يستنفر كل ما فيها من قوة، ولا هو بالبعيد المنبت الذي تتقطع دونه جميع الأسباب وتفشل جميع الجهود.

ثم ليكن هدفك كالأفق العريض يتجدد على السير ويتسع مع الحياة ويغري على البذل. ولا يهمنك بعدها أنجحت أم فشلت. فالفشل ليس جرماً، إنما الجرم هي الآمال المحدودة والأهداف الوضيعة. ولا تغبطنّ من هو أحط منك هدفاً وأسعد حالاً. فقد تكون أنت بحرمانك وسمو هدفك أعظم منه في نجاحه وحطة هدفه الذي إذاوصل إليه لا يلاقي وراءه

إلا ظلام القبر وقيد الفناء وأنت فوق هذا وذاك مكتسب من فشلك الآني منعة ضد مكروب اليأس الذي يقتل النفوس ويعصف بالرجولة.

وأخيراً - الإيمان - ماذا تقول فيه؟

نقول موجزين: إنه صفة العظماء الغالبة، ومزيتهم التي يمتازون بها عن الأوساط، ومن هم دون الأوساط. فيوليوس قيصر كان كبير الإيمان حينما قطع نهر الروبيكون واستولى على رومة بشراذم جنوده. وقد كان ضعيف الإيمان في الوصول إلى تاج الملك فذبح. وكولمب كان عظيم الإيمان، لذلك لم يفتّ في عضده كل ما قام في سبيله من صعاب، ولم يثنه أن يجد نصف العالم الذي كان مفقودا. ونابليون كان له نجم يراه في النهار ويسير بهديه. والمسيح كان كبير الإيمان، فكان يشفي المفلوجين ويقيم المقعدين. والنبي العربي كان وطيد الإيمان، فعمل لقومه في حقبة قصيرة من الزمن ما يُعجز أجيالاً ويفني آجالا.

ومن صفاته أن المؤمن يكون سريع العودة إلى ما اختطه لنفسه من طريق، ورسمه لها من مسير، بعد أن تحرفه عن ذلك رجات الحياة العنيفة وحوادثها الزاخرة. شأنه شأن الإبرة المغنطيسية - مهما بالغت الحياة في هزه، لا يلبث أن يعود سيرته الأولى ويتجه اتجاهه الأول. ذلك أن ثمة قوة حية مشبوبة فيه تتجاذب وقطب الحياة العام، قطب التقدم وارقي الذي تسير نحوه جميع الأحياء عامدة، لا تلفّ ولا تدور إلا مرغمة.

ومن صفات الإيمان أيضاً أنه لا يحتقر الأحلام، لأنها عنده أساس الحقائق وعدة الحياة. لهذا فهو رفيق جد الرفق بالصغار وما يحلمون، مؤمن جد الإيمان بما يكمن فيهم من قوى غير محدودة، واستعداد غير مُستغلّ، واندفاع غير مكبوت، ونقاء غير مرنق. وهو يقيم الدليل بعد الدليل على صدق متجهة بما أثبت التاريخ والحوادث من أن أحلام الطفولة وعبث الصبى كانت في غالبية العظماء حقائق الرجولة وعدتها إلى الحياة.

شرق الأردن
أديب عباسي
ابن الهائم المصري المقدسي
للأستاذ قدري حافظ طوقان

كنت في القدس مع بعض الإخوان في زيارة المعرض العربي الثاني، وبينما نحن على مقربة من مقبرة مأمن الله سمعت أحدهم يقول: ان هذه المقبرة تضم عدداً كبيراً من فحول العلماء، وكبار الفقهاء ورجال الدين، ممن ظهروا في أيام الحروب الصليبية وقبلها. وقد سرد بعضهم أسماء بعض هؤلاء العلماء فلم يلفت نظري إلا اسم ابن الهائم، إذ تذكرت ان هذا الاسم مرّ بي أثناء مطالعتي لبعض الكتب الإنكليزية التي تبحث في تاريخ الرياضيات، وأصبح لديّ رغبة شديدة في الكتابة عنه. رجعت إلى مكتبتي لأبحث عنه فوجدت إن ابن الهائم من الذين لم يعطوا حقهم من البحث والاستقصاء، وحياته لا تزال غامضة في تاريخ المدنية الإسلامية، وهي في أشد الحاجة إلى من يتعهد جلاءها، ويقضي على غموضها. بحثت في الكتب الصفراء وغير الصفراء، قديمها وحديثها، من عربية وتركية وإنكليزية فلم أجد إلا جملاً هنا وهناك متناثرة لا يفهم منها إلا تاريخ الولادة والوفاة، وأشياء أخرى من الصعب جمعها وتكوين جملة تفي بالغرض وتشفي غلة الباحث المنقب. على كلٍّ، وبعد بحث في كتب متنوعة أمكننا أن نحصل على ترجمة متواضعة لهذا العالم من ناحية مآثره في العلوم الرياضية آملين أن نوفق في المستقبل للكتابة عنه بصورة أوسع وأوفى للمرام.

ولنرجع إلى صاحب الترجمة فنقول إن اسمه هو: شرف الدين أبو العباس (احمد بن محمد عماد) ابن الهائم المصري المقدسي، وقد اكتسب نسبته إلى مصر من ولادته فيها، وكان ذلك في المنتصف الثاني من القرن الرابع عشر للميلاد حوالي سنة 1352م - 753هـ أو 756هـ، وعرف بالمقدسي لاشتغاله في القدس ووفاته فيها. وكانت الوفاة في أوائل القرن الخامس عشر للميلاد حوالي سنة 1412م - 815هـ. وقد وجدت ثلاثة تواريخ وفاة لصاحب الترجمة في كتاب كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون، ففي ص 418 من الجزء الأول يقول إن ابن الهائم توفى في سنة 987هـ، وفي الجزء الثاني في ص 362 نجد أن الوفاة كانت في سنة 387هـ، وفي ص 417 من الجزء نفسه نجد ان تاريخ الوفاة كان في 815هـ. بينما المصادر الإفرنجية ككتاب تاريخ الرياضيات لسمث، والتركية ككتاب آثار باقية، وبعض العربية ككتاب الأنس الجليل كل هذه تقول وتتفق على أن الوفاة حصلت سنة 815هـ - وهذا التاريخ (على ما أرجح) هو الصحيح. وقد يكون الاختلاف في الوفاة الموجود في كشف الظنون ناتجاً إما عن خلط في الأسماء أو في أغلاط مطبعية. والله أعلم.

وابن الهائم كما قلنا من الذين لم يعطهم التاريخ بعد حقهم من البحث والتنقيب، وقد يكون في كتاب الأنس الجليل عن حياته ما لا نجده في غيره من الكتب. ومن الكتاب المذكور يفهم ان ابن الهائم اشتغل في القاهرة، وانه لما ولى القمني تدريس الصلاحية أحضره إلى القدس، واستنابه في التدريس، وأصبح من شيوخ المقادسة. واستمر في وظيفته التدريسية إلىأن جاء الشيخ شمس الدين الهروي من هراة وكان حنفياً فرأى هذه الوظيفة فسعى اليها، واستطاع أن يأخذها من ابن الهائم. ولكن هذا لم يرق للأخير فسعى جهده لاستردادها، واستطاع أن يجعل ولاة الأمور يقسمون هذه الوظيفة بينهما. ونشأ لابن الهائم ولد نجيب اسمه محب الدين، كان نادرة دهره، ونابغة زمانه، ولكن المنية عاجلته فلم يعش طويلاً ومات صغيراً سنة 800هـ. ومحاسن ابن الهائم كثيرة أهمها تمسكه الشديد بالدين، وكان دائماً لا يترك فرصة دون وعظ أو إرشاد، فتراه في أكثر الأوقات يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، وصار له مقام عند العامة وكان لكلامه وقع في القلوب، وتأثير على النفوس.

وتوفى ابن الهائم في القدس الشريف في شهر رجب سنة 815هـ ودفن في مقبرة (مأمن الله) وقد ذهبت بنفسي إلى القدس لأرى القبر فلم أتمكن من وقبره مشهور العثور عليه بسبب أعمال الحفر التي قامت مؤخراً في المقبرة، واتصلت بالعارفين فقالوا إن قبر ابن الهائم كان يقع في الجهة الغربية على بعد بضعة أمتار من البركة وكان القبر مبنياً على شكل غطاء التابوت.

وابن الهائم من الذين درسوا على أبي الحسن علي بن عبد الصمد الجلابري المالكي ومن الذين ألفوا في الفرائض والحساب والجبر وله في ذلك كتب ورسائل قيمة منها:
كتاب شرح الأرجوزة لابن الياسمين في الجبر والمقابلة، ألفه في مكة سنة 789هـ. وهذه الأرجوزة لدينا وقد أتتنا من الوطني العامل الأديب السيد عبد الله بن مكنون من أعيان طنجة بالمغرب، وسيأتي الكلام عنها عند البحث في ابن الياسمين. وله أيضاً رسالة اللمع في الحساب، ولدينا نسخة منها وقد نسخناها عن مخطوطة قديمة موجودة في المكتبة
الخالدية بالقدس. ويقول المؤلف (ابن الهائم) في أولها: (. . وبعد فهذه لمع يسيرة من علم الحساب نافعة أن شاء الله تعالى. .) وهذه الرسالة تتكون من مقدمة وثلاثة أبواب يبحث الباب الأول في ضرب الصحيح في الصحيح ويتكون من أربعة فصول، الفصل الرابع منه طريف جداً ويحتوي على كثير من الملح الرياضية في الاختصار وفي ضرب أعداد خاصة في أعداد أخرى بدون إجراء عملية الضرب، ولا بأس من إعطاء مثال (من النسخة) على ذلك، ففي الفصل المذكور يقول المؤلف (. . وللضرب وجوه كثيرة وملح اختصاريه فمنها:ـ . إلى أن يقول. . ومنه أن كل عدد يضرب في خمسة عشر أو مائة وخمسين أو في ألف وخمسمائة فيزداد عليه مثل نصفه ويبسط المجتمع (أي يضرب حاصل الجمع) في الأول عشرات وفي الثاني مئات وفي الثالث ألوفاً، فلو قيل اضرب أربعة وعشرين في خمسة عشر فزد على الأربعة والعشرين مثل نصفها وابسط المجتمع وهو ستة وثلاثون عشرات فالجواب ثلاثمائة وستون، ولو قيل اضربها في مائة وخمسين فابسط الستة والثلاثين مئات، فالجواب ثلاثة آلاف وستمائة. . .)
ويبحث الباب الثاني في القسمة ويتكون من مقدمة وفصل، والمقدمة تبحث في قسمة الكثير على القليل والفصل في قسمة القليل على الكثير، وأما الباب الثالث فيبحث في الكسور ويتكون من مقدمة وأربعة فصول. ولهذه الرسالة شرح لمحمد بن محمد بن احمد سبط المارديني وله أيضاً كتاب (حاوي) في الحساب وكتاب المعونة في الحساب الهوائي، ويتكون من مقدمة وثلاثة أقسام وخاتمة، وله مختصر اسمه الوسيلة وقد رأيته أيضاً على مقدمة وثلاثة أقسام وخاتمة. وقد قال المارديني في آخر شرح اللمع (ومن أراد الزيادة فعليه بالوسيلة لأنها من أحسن المصنفات في هذا الفن. .) وعليها أيضاً حاشية لمحمد بن أبي بكر الأزهري، ولها (أي الوسيلة) شرح للمارديني يسمى إرشاد الطلاب إلى وسيلة الحساب. ولابن الهائم كتاب مرشد الطالب إلى أسنى المطالب ويبحث في الحساب، ويتكون من مقدمة وخاتمة. وقد علم له مختصراً سماه كتاب النزهة. ومن مؤلفاته كتاب غاية السؤال في الإقرار في الدين المجهول، ويحتوي على أمثلة لحلول مسائل مختلفة في الحساب، والجبر، وكتاب المقنع هو قصيدة تتكون من 52 بيتاً من الشعر في الجبر، وقد شرحها في رسالة خاصة، وله رسالة التحفة القدسية، وهي منظومة أيضاً في حساب الفرائض. وكتاب المعونة في السحاب. وقد شرحه المارديني واختصره ابن الهائم برسالة سماها أسنان المفتاح.

نابلس

قدري حافظ طوقان

مشروع القرى

وجوب العناية بالقرية المصرية

للدكتور محمد حسين هيكل بك

لا أظن شيئاً مهملاً في مصر إهمال القرية المصرية وإهمال أهلها. فبينما تغدق الوزارات المتتابعة على تجميل المدائن الأموال الطائلة، وبينما تقوم في سبيل شق الشوارع وإقامة العمائر الضخمة فيها، إذا بها تضن على القرى بكل إصلاح أو تنظيم، ولقد لاحظ أهل الريف هذا منذ زمان بعيد، فقامت ضجة كبيرة في البرلمان المصري سنة 1926 حين أريد توسيع شارع الهرم، ونال نواب الريف أغلبية في مجلس النواب لم يتيسر التغلب عليها إلا باجتماع مجلسي البرلمان في هيئة مؤتمر، ومع أن حاجات الريف إلى الإصلاح كثيرة جداً سواء من الجهة الصحية، أو من الجهة التعليمية، فان ما يبذل في سبيله من أموال وجهود يسير على سنة التطور البطيء جداً كأنما يجهل الذين يتبعون هذه السياسة أن ريف مصر يحتوي عوامل النشاط والقوى الحقيقية الحيوية في البلاد، وانه إذا حوربت الأمراض التي تفتك بأهل الريف، وإذانشر التعليم

الأولي والابتدائي في ربوعه زاد الإنتاج الاقتصادي، والإنتاج الفكري، بما قدره بعض الأطباء بثلاثين في المائة من مجموع الإنتاج الحالي!!!

لذلك كان العمل الذي تقوم به جمعية مشروع القرى جديراً بأكبر التشجيع من كل إنسان، وكان ما يبذل الشباب من جهود في هذا الشأن حرياً بأن يلقى التشجيع والمعونة من جانب رجال هذه الأمة الرسميين وغير الرسميين، ونحسب الذين زاروا أوربا جميعاً ولم يكتفوا بالجلوس على مقاهي المدن الكبرى كباريس ولندن وكلفوا أنفسهم مؤونة التغلغل في أرياف فرنسا وإنجلترا وألمانيا وغيرها من الدول الأوربية، وقارنوا بين حياة ريف أوربا وحياة ريف مصر أشد شعوراً باستحقاق جمعية مشروع القرى لكل تشجيع، ويحسون في قرارة نفوسهم بشيء كثير من الأسف بل الألم لهذه المقارنة. فالمنزل القروي في أوربا يحتوي من معاني الحياة الإنسانية ما لا نجد له قط نظيراً في أحسن منازل القرى المصرية، والأماكن العامة كالكنائس والمدارس والمستشفيات في قرى أوربا تشهد بأن أهل تلك البلاد يحرصون على هذا المعنى الإنساني وعلى ترقية الذوق الفني في نفوس أهل الريف

حرصاً كبيراً، ثم أن الشباب في أوربا يشعر هو الآخر بالواجب عليه إزاء أهل الريف فينظم نفسه جماعات تجول في مختلف أنحاء الدولة التي ينتمي إليها أثناء العطلة الدراسية لتستفيد هذه الجماعات معرفة بلادها معرفة دقيقة، وليستفيد أهل الريف من اختلاط الشباب بهم فتياناً وفتيات اتصالاً بالروح العلمية، والحياة الثقافية، يربط ما بين الريف والعواصم بخير الروابط.

وليس من ذلك شيء في مصر إلى الإطلاق، بل أن المشروعات الحيوية الأولية، كتعميم المياه الصالحة للشرب، وكجعل الأسمدة بعيدة عن القرى، وكتعميم التعليم الأولي إلاجباري، وما إلى ذلك من مثله من أمور تعتبر في الدرجة الأولى بالنسبة للحياة الإنسانية ما يزال مهملاً في مصر، بل ما يزال منظوراً إليه على انه أدنى إلى الكماليات، وتلك نظرة خاطئة جد الخطأ، فإذا أريد بمصر أن تصل إلى نشاط صحيح في حيويتها. فالخطوة الأولى يجب ألا تكون شق الشوارع وإقامة المباني الفخمة في المدن، بل يجب أن تكون العناية بأحوال الريف عناية صحيحة، والعناية في المدن بالتعليم الجامعي الصحيح قبل كل شيء.

فلتعمل جمعية مشروع القرى في حدود البرنامج الذي رسمت لنفسها تلق من غير ريب تشجيعاً صادقاً من كل من يعنيهم الأمر ومن كل من يدركون مصالح بلادهم الحقيقية.

مشروع القرى

الإصلاح الاجتماعي في مصر ونصيب طلبة الجامعة

والمدارس العالية منه

للأستاذ عبد الله أمين عضو مجلس إدارة المشروع

قد يخيل إلى المتعجل في الحكم على الأمور أن الشعب المصري قد خطا خطوات واسعات في سبيل التقدم والإصلاح الاجتماعي، وذلك حين يرى ما في أمهات المدن المصرية لا سيما القاهرة الأم الكبرى، عروس الشرق، من مبان شاهقة فخمة، قد بنيت على أحدث مثال، وأثثت فأفخر الأثاث، ومن أزياء حديثة يختال في حللها القشيبة شبانها وشوابها، رجالها ونساؤها؛ ومن متاجر ودور للملاهي يُعرَض فيها من السلع والمناظر ما يُعرض في متاجر أوربا وملاهيها؛ ومن مصارف وبيوت مالية ومدارس ومستشفيات وأندية وإنزال، وغير ذلك من مظاهر المدنية الغربية الحديثة.

أما المتأمل البصير فلا يرى في شيء من هذه المظاهر دليلا على شيء ذي خطر من التقدم والإصلاح الاجتماعي في مصر، لأنها كلها مظاهر مستعارة من الغرب لا ترتكز في هذه البلاد على شيء من عناصر المدنية التي ترتكز عليها في الغرب، وهي العلوم والفنون والصناعات والذوق المصري والعادات والتقاليد والنظم الموروثة، ولذلك تعد في مصر مظاهر كاذبة. وقد تعاون على استعارتها ثلاث جماعات، هي: (1) النزلاء الأجانب (2) الوطنيون المفتونون بهم، الناسجون على منوالهم، وما أكثر هؤلاء وهؤلاء في أمهات المدن المصرية، لا سيما مصر والإسكندرية (3) والحكومات المصرية المتتابعة. وليس هؤلاء جميعاً هم الشعب المصري.

إنما الشعب المصري هو ملايين الفلاحين الكثيرة المقيمة في القرى المصرية.

وإذاجردت أمهات المدن المصرية من مظاهر المدنية الكاذبة أصبحت كالقرى المصرية شبراً بشبر وذراعاً بذراع. وأي شيء في القرى المصرية لا يحتاج إلى إصلاح؟ أمظاهر المدنية أم العماد الذي لا تقوم إلا عليه وهو عناصر المدنية؟ أم أساس هذه العناصر؟ إن كل شيء في القرى المصرية بل في مصر كلها أم المدنية القديمة والحديثة ومطمع أنظار الغرب، ومعقد آمال الشرق، فقير كل الفقر إلى الإصلاح، فالأخلاق والعقائد وهي الأساس الذي تقوم عليه عناصر المدنية، والمنوال الذي تنسج عليه برودها قد أصيب بالخلل والفساد، فهي فقيرة إلى الإصلاح. والعلوم والفنون والصناعات والآداب والعادات والتقاليد والذوق واللغة والنظم المنزلية والمدرسية والاجتماعية والحكومية وغيرها من عناصر الحضارة لم يبق من محاسنها شيء، فهي أشد فقرا إلى الإصلاح. والأزياء والمساكن والأثاث والمتاجر والمصانع والمزارع والطرق والمتنزهات والأندية والمدارس وغيرها من مظاهر المدنية أصبحت ممقوتة بغيضة إلى النفوس لبقاء أكثرها على ما كان عليه منذ آلاف السنين، ولإنشاء أقلها على مثال غربي لا يلائم أخلاقنا وعقائدنا، فلابد من إصلاحها وإصلاح كل شيء إصلاحاً نحتذي فيه مثال الأمور الصالحة في الغرب، ثم نصبغها بصبغتنا ونجعلها ملائمة لأخلاقنا وعقائدنا ومزاجنا النفسي والعقلي.

وإذ كانت الأخلاق والعقائد هي الأساس الذي تبنى كل أمة عليه حضارتها، وكانت أخلاقنا وعقائدنا محتاجة إلى الاصطلاح كل إلاحتياج، فقد وجب أن نبدأ باصلاحها، فاذا صلحت صلح كل شيء، وان لم تصلح فلا رجاء في إصلاح. ألا تذكر قوله تعالى: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم). ولا ينبغي لنا أن يعوقنا على التصدر لإصلاح ما في نفوسنا من مفاسد، وما في عقائدنا من ضلال عِلْمَنا أن الأخلاق وهي الصفات النفسية ثابتة في الأمم ثبوت صبغاتها الجسدية، وأنها لذلك لا تتغير إلا بمضي آلاف السنين، وأن العقائد لا تقل عنها ثبوتاً، لأننا إذاأمسكنا عن التصدر للإصلاح لهذا العلم فلن نتقدم له أبداً ولن نبلغ ما نريد أبداً. ولا ينبغي لنا أن ننسى بجانب هذا أن للتغيير عوامل فعالة تجعله سهلاً سريعاً وهي الحروب والنهضات القومية، والثورات الفكرية، وأن النهضة المصرية الحديثة من عوامل التعجيل للإصلاح، وان قيام المتعلمين آباء وأبناء بإثارة الأفكار وتوجيهها في القرى إلى الإصلاح مما يكفل لنا بلوغ المراد منه، فيجب أن نتعاون على هذه الإثارة لنبلغ الأمر الذي نبتغيه.

فإذا نحن أيقظنا بصيحاتنا ودعوتنا النفوس النائمة، وأصلحنا العقائد والأخلاق وهذبناها بما لابد منه من العلم والمعرفة فلنعمد بعد ذلك إلى إصلاح كل شيء إصلاحاً يلائم أخلاقنا وعقائدنا، أو مزاجنا النفسي والعقلي، وإلا وضعنا بجانب كل حجر من أحجار الصرح الذي نبنيه معولاً لهدمه، لأن الأمة التي تستعير مدنية لا تلائم مزاجها النفسي والعقلي لا تلبث أن تهدم ما بنت بثورة منها، وحسبك دليلا على ذلك الثورة البلشفية التي قوضت أركان المدنية الغربية في روسيا، فقد كانت روسيا شرقية في كل شيء، فلما ولى أمرها بطرس الأكبر حملها على تقليد الغرب بالقوة فجاءت هذه المدنية الغربية غير ملائمة لأخلاق الروسيا وعقائدها لذلك هدمتها أخيراً. وبمثل هذا يتنبأ إمام علم الاجتماع في العصر الحاضر (جوستاف لوبون) للمدنية اليابانية التي نقلت عن الغرب في خمسين سنة. وبمثل هذا يمكنك أن تتنبأ للمدنية التركية الحديثة لأنها من عمل الحكومة لا من عمل الشعب نفسه، وقد نقلتها كما هي بلا تهذيب، ولأنها نقلت طفرة لا بالتدريج.

وليس المسئول عن هذا الإصلاح الحكومة وحدها، فان الحكومات لا تقوى على كل شيء. وإن من الناس من يقصر عمل الحكومات على حماية الوطن من اعتداء بعض أبنائه على بعض، ومن اعتداء الأجانب عليه. أما ما عدا ذلك فهو عنده من علم الأمة وحدها، ولئن استطاعت الحكومات أن تعمل كل شيء وحدها فإنها لا تستطيع أن تقوم البتة بالمرافق الكبرى كالزراعة والصناعة والتجارة والتعليم والتهذيب، فان هذا بلا شك من أعمال الشعوب، ولا بأس بمعونة الحكومة فيه والمسئول من الأمة المصرية عن تحرير ملايين الفلاحين المصريين من مفاسد الأخلاق ومن البدع والخرافات والأوهام والضلالات وتزويدهم بشيء من مكارم الأخلاق ومن

العقائد والمعارف الصحيحة التي لابد لهم منها في دينهم ودنياهم ليصبحوا كأمثالهم في البلاد الراقية وليستطيعوا أن يقوموا بإصلاح عناصر المدنية ومظاهرها إنما هم أهل المعرفة من البالغين الراشدين المصريين

لاشك أن العالم مسئول عن أخيه الجاهل، فلو أن رجلين اجتازا طريقاً خطيرة، وكان أحدهما علم بما فيها من خطر ولم يكن الآخر على شيء من العلم بما فيها من خطر، ثم أصابهما فيها صائب من الأذى كان العالم حينئذ هو المسئول عن الجاهل

وإذا كان أكثر طلبة الجامعة والمدارس العالية من الراشدين المكلفين شرعاً وعرفا، كانوا من المسئولين عن الإصلاح الاجتماعي ولا يرفع عنهم هذا التكليف أننا معاشر الآباء العارفين نحمل هذه التبعة لأن الأمر أكبر من أن يقوم به فريق دون فريق، فليس هو من

فروض الكفاية التي إذا قام بها بعض الناس سقط عن الباقين. وإنما هو في الوقت الحاضر من الفروض الوطنية العينية التي يجب على كل ذي معرفة القيام بنصيب منها، وقد تكون من الفروض الدينية. وأبناؤنا الطلبة مع ذلك أطهر قلوباً وأخلص نية وأشد غيرة وحمية وأقوى أبداناً ونفوساً، فإذا خلا منهم ميدان الإصلاح فقد خلا من كل شيء

وإنا لا نبغي من أبنائنا النجباء طلاب الجامعة والمدارس العليا أن ينصرفوا عن التزود من العلم وتكميل أنفسهم إلى معالجة الإصلاح في القرى، لأننا إن طلبنا ذلك منهم كنا خاسرين مسرفين نشتري إصلاح الفلاح بإفساد الطبقة الممتازة التي نعلق عليها كل الآمال، وإنما نريد من أبنائنا الطلبة النجباء عُدّة الوطن وأعظم كنوز ثورته أن يقسموا أوقاتهم وجهودهم على ثلاثة أمور لا رابع لها وهي: (1) طلب العلم. (2) الرياضة البدنية واللهو المباح اللذين لابد منهما لحفظ الصحة وتجديد القوى والنشاط (3) خدمة الوطن من أحسن الوجوه وهو نشر العلم والفضيلة بين سواده الأعظم في القرى

أما البطالة والكسل والخمول فقد آن أن يكون بين أبنائنا وبينها ما بين المشرقين من بعد في هذا الزمن العصيب الذي يستهدف فيه للفناء كل إنسان وكل جماعة لا يكون شعاره وشعارها الجد، الاجتهاد، اليقظة، الاستقامة، العمل، التقدم. وانه ليعز علينا أن ينصرف فريق من شبابنا في أيام الدراسة وفي أيام العطل إلى اللهو غير المباح والى الكسل والخمول ناسين أنفسهم ووطنهم. وان أخسر الناس صفقة وأعظمهم غبناً في رأيي شاب آتاه الله قوة الشباب وسلامة الأعضاء والصحة وفراغ البال ورزقه من يعلوه ويكلف أموره ومهدت له سبل الاستفادة والإفادة، ثم هو مع ذلك يضيع هذه الهبات الثمينة والمواهب العقليلة التي من بها الله عليه من اللهو والبطالة فلا هو ينفع نفسه ولا ينفع غيره. لا بل قد. قد يكون بلاء على نفسه وعلى غيره

وما أشبه المصريين الآن بركاب سفينة تسير بالمجاديف مع طائفة من سفن أخرى لا أقول تسير بالبخار، وإنما أقول إنها تسير بالمجاديف مثلها، تلك السفن هي دول الغرب. وتسعة أعشار من في السفينة المصرية نيام نوم أهل الكهف، والعشر المستيقظ هو الذي يسير السفينة وحده، على حين أن ركاب كل سفينة أخرى يتناوبون العمل بينهم، فلابد لسواعد المصريين من الكلال ولابد لعزائمهم في النهاية من الخور، ولابد لسفينتهم من الانقطاع

عن السفن الأخرى. وأنت عليم بما يصيب هذه السفينة المنقطعة من البلاء ولو أن هذا العشر أيقظ تسعة الأعشار لاستغلّ جهودهم ولوصل بالسفينة وهي مصر إلى حيث تصل السفن الأخرى وأصبحت بنجوة من المهالك ونجا هو ونجوا هم معه. وليس ما يبذل من جهد ومال في تهذيب العامة وإصلاح شأنهم بكثير وان عظم. ولو علم الناس ما في تركهم أبناء وطنهم فريسة للجهل وللضلال وللفقر وللأمراض الجسدية والنفسية من الأخطار المحققة التي لا يمكن أن يسلم منها مجموع الأمة لافتدوا سلامتهم بأموالهم وأنفسهم، فما أشبه أبناء الوطن الواحد بأبناء أب واحد، عنى بتربية فريق من هؤلاء الأبناء فشبوا مهذبين قادرين على كسب قوتهم من أحسن الوجوه، ثم أدركته الوفاة قبل أن تشتد سواعد الفريق الآخر ويربيهم، ثم أهمل أخواتهم تربيتهم فشأوا جهلة مرضى النفوس عجزة عن كسب أقواتهم. فلا شك أن الفريق الأخير يصبح عالة على الأول مسئولا منه شرعاً وعرفا، فهو إما أن ينهض بأعبائهم، وإما أن يستهدف لخطرهم ويكون هو أول فريسة لهم يسلبونه ماله وراحته

وربما سلبوا روحه، وما أكثر ما يمثل أمامنا من آن لآخر من هذه الحوادث
فيا أيها الشبان المتعلمون النجباء، يا رجال المستقبل القريب، اعملوا من الآن على
إيقاظ تسعة أعشار المصريين إخوانكم لئلا يكونوا عالة عليكم غداً، بل ليكوا عوناً لكم
على إحياء الحضارة وإصلاح كل فاسد، واحذروا أن تشتروا العاجل بالآجل بأن تؤثروا
ساعات تقضونها في اللهو والكسل والخمول الآن على راحة المستقبل وسعادة
المستقبل، وتعالوا إلى الميدان الذين فتحه لكم إخوانكم الأمجاد أعضاء اللجنة
التنفيذية لمشروع القرى وجال فيه جولات صادقات في هذه العطلة الصيفية أبطال
من ذوي العزائم هم إخوانكم المتطوعون لمشروع القرى فكان هؤلاء وهؤلاء من
المجاهدين السابقين الأولين الموفقين. تعالوا واعملوا لوطنكم منذ الآن تحت العلم
الخفاق الذي يحمله علم مصر وفخرها في القرن العشرين أبو الطب غير منازع ولا
تدافع، الدكتور علي باشا إبراهيم واذكروا قول الشاعر
املأ الدنيا بما تسطيع من ... عمل يبقى إذا العمر ذهب
إنما الأعمال تاريخ الفتى ... تقرأ الأجيال فيه ما كتب
تعالوا واعملوا للخير، وفقكم الله لإسعاد أنفسا ولإسعاد وطنكم وأبقاكم ذخراً له.
عبد الله أمين

بين المعري ودانتي في رسالة الغفران والكوميدية
المقدسة

بقلم محمود احمد النشوي

الوطنية لدى الشاعرين

رأينا فيما عرضنا له من وطنية شاعر الطليان أنه كان يخلق المناسبات ليصدع بشعوره
نحو بلاده ووطنه، فيحاور شخصيات وايته في جرائمهم الوطنية، ويتخيل لهم من
صنوف العذاب ما تقشعر لهوله الأبدان، وفي الحق أن وطنية دانتي ملكت عليه كل
نفسه، وسأقص عليك حديثاً طرز به كوميدتيه، فكان حليتها وزينتها، وسأعرض عليك
تلك الأنشودة لتعلم أي حد بلغت به وطنيته، وأي مقدار بلغه النزاع والفشل بين
الطليان في عهده، وكم برح بهم الظلم، وهدت من أركانهم الفوضى، ثم تقرن حالهم
بالأمس بحالهم اليوم لتعلم أن الأمم تسقم وتبرأ، وتضعف وتقوى، فلا يخالج اليأس
نفسك، ويمتد بك الأمل فتوقن باليوم الذي تتبوأ فيه بلادك مركزها تحت الشمس
مستعيدة عصر صلاح الدين، وأيام رمسيس.

فبينا دانتي يجوب (الأعراف) مع فرجيل إذا بروح نبيل يرمقهما ملياً، ثم يسألهما قائلا:
من أنتما أيها القادمان؟ فيكون تعارف يعقبه عناق، وإذابهذا الروح روح الشاعر
سوردلو مواطن فرجيل، ولم يكد يعرفه حتى انتحى به قليلا يحدثه، وبقى دانتي منفرداً
يفكر في لقاء المواطن للمواطن، ومحبة ابن الشعب لابن الشعب. فثارت شاعريته،
وصدح بما خلدته الأجيال، فقال:

لك الله يا إيطاليا، أيتها الأمة الذليلة المستعبدة، يا موطن الآلام وميدان المظالم، لقد)
أصبحت وكأنك سفينة بغير ربان ينقذك وسط هذه الزوبعة، ويقودك إلى شاطئ
السلامة وبر الأمان، إن هذه الروح الكريمة قد وقفت تحتفل بمواطنها بمجرد أن
سمعت باسم وطنها، بينما أنت لا يستطيع أبناؤك الأحياء أن يعيشوا دون أن يتقاتلوا
ويحارب بعضهم بعضا، وحتى أبناء المدينة الواحدة قد أخذوا يتخاصمون ويتنازعون!
أنظري أيتها البلدة التعسة الذليلة، وابحثي في كل بحارك وجبالك ووديانك وفي كل
ناحية من نواحيك، فهل ترين جزءاً واحداً يتمتع بالسكينة والراحة والسلام؟ آه. إنك لو
قيض الله
لك حاكما أو رئيساً حازماً لحسنت حالك، وهدأ بالك، ولكن القياصرة يعيشون بعيدين
عن أرضك التي سيئول أمرها لا محالة إلى الخراب والدمار. إن روما تبكي وتستغيث
بالإمبراطور، وكل بلاد إيطاليا قد امتلأت بالظلمة قساة القلوب، وفي فلورنسا أصبحت
الأحوال أسوأ منها في أي مكان آخر؛ فقد تسن فيها القوانين ولا تلبث أن تلغي بين
عشية أو ضحاها، وأصبحت كالمريض الذي ألح عليه الداء، وأعوزه الدواء، وأخذ يتقلب
من جنب إلى جنب لكي يخفف من آلامه وعذابه دون أن يشعر بالراحة أو يذوق لها
طعما).

أفرأيت إذا كيف كان دانتي حدباً على وطنه يندبه ويبكي انقسامه واضطرابه، وضعف

قوانينه وتذبذبها بين الإلغاء والوضع كل عشية وضحاها؟
فلو أنه بعث الآن من مرقده ورأى بلاده اليوم وهي تنعم بالقوة وبالمنعة لقرت عيناه، ولرفأ مدمع كان هتاناً على وطن ملكت فكرته عليه كل شعاب نفسه.
الانتحار في الروايتين
كلا الشاعرين ذم هذا المرض الفتاك، وثار على ذلك الداء الوبيل؛ وما كان شاعر المعرة بالذي لا يعرض للانتحار: يهجنه ويزري به؛ فقد افتن في الزراية به بعبارة احتفل بها، وأسرف في احتفاله، فكانت جد غامضة ومبهمة. وما نحسب أن كثيراً من الأدباء يستشف غرض أبي العلاء دون أن يلحق به كبير من عناء ومن جهد. على أن في تهذيب الأستاذ كامل كيلاني لرسالة الغفران، وفيما حلى به جيدها من شرح وعنوانات، ما يجعل الطريق أمام روادها معبداً شائقاً إلى حد كبير.
ورغماً من أغراب أبي العلاء هنا فانك تراه جانف الخيال، وسلك سبيل الفلاسفة والحكماء؛ فجعل يبرهن ويعلل متخذاً من جهالة الإنسان بمصيره بعد الموت، ومن تقلبات الأيام وابتسامها بعد العبوس أدلة يهجن بها الانتحار، ويقبحه. وإني ذاكر لك شيئاً من قوله في ذلك، فاستمع إليه حين يقول: (قد كدت ألحق برهط العدم، من غير الأسف ولا الندم؛ ولكنما أرهب قدومي على الجبار، ولم أصلح بخلتي بأبار. وقيل لبعض الحكماء: إن فلاناً تلطف حتى قتل نفسه، وكره أن يمارس بدائع الشرور، وأحب النقلة إلى دار السرور. فقال الحكيم قولاً معناه: أخطأ ذلك الشاب المقتبل، له ولأمه يحق الهبل، هلا صبر على صروف الزمان، فانه لا يشعر علام يقدم، ولولا حكمة الله جلت قدرته، وأنه حجز الرجل عن
الموت بالخوف من العلز والفوت، لرغب كل من احتدم غضبه، وكل عن ضريبة مقضبه أن تترع له من الموت كؤوس)
أفرأيت في حديث أبي العلاء كيف سلك سبيل الحكماء، وكرر معنى ذكره في لزومايته، ذلك المعنى هو رهبة ما بعد الموت، وصدها عن ورود حوضه حين يقول:
لو لم تكن طرق هذا الموت موحشة ... مخشية لاعتراها القوم أفواجا
وكان من ألقت الدنيا إليه أذى ... يؤمها تاركاً للعيش أمواجا
فما هو سر ذلك وما سببه؟ أكبر الظن أن سر ذلك هو وقوع ذكر الانتحار في الرد على رسالة ابن القارح بعد أن انتهى حديث الفردوس والجحيم. ولقد نرى أبا العلاء يتطاحن خياله، بل يودعه خياله حين يودع الجنان والنيران، وحين يأخذ في الرد على ما جاء في رسالة ابن القارح وما فيها من أشخاص يساجله الحديث عنهم، ويزيد عليه بسطاً في القول، والمساجلة في الشخصيات وفي تواريخها، وفي المذاهب والعقائد أبعد شيء عن الخيال، وأحوج شيء للعبارة البينة في دلالتها، السافرة عن غرضها
ولكن دانتي يحدثنا عن الانتحار وهو في دوره الثاني من الطبقة السابعة في جهنم فأعمل خياله في تهجينه، ووصف عذاب المنتحرين وصفاً يبعث في الجلود قشعريرتها، وفي القلوب هلعها.
وموعدنا بالحديث عن ذلك العدد القادم.
محمود احمد النشوي
أعيان القرن الرابع عشر - 3
للعلامة المغفور له احمد باشا تيمور
مصطفى باشا الخزينة دار
جركسي الأصل، اشتراه عزت باشا، أحد الصدور في زمن السلطان محمود الثاني، ورباه صغيراً في القسطنطينية، ثم أتى به إلى مصر سنة 1252، فاشتراه كتخداها عباس باشا بن طوسون باشا بن محمد علي باشا، وحظي عنده حظوة عظيمة، وقدمه إلى سائر مملوكيه، ولما تولى إبراهيم باشا بن محمد علي على مصر سنة 1264 استأذن منه عباس باشا في السفر إلى الحج فسافر إلى الحجاز وأقسم بأنه لا يعود لمصر ما دام عمه والياً عليها، لوحشة وقعت بينهما، وأخذ المترجم معه، فلما وصل إلى مكة وأدى فريضة الحج وصل إليه البشير بموت عمه إبراهيم باشا، وتوليته مكانه، وصادف ذلك موت خزينة داره راغب أغا الموره لي فأقام المترجم بدله وأعتقه، ولزمه من ذلك الحين لقب الخزينة دار، ثم جعله رئيساً لمملوكيه، وأنعم عليه برتبة أميرالاي، ووظف له ألف دينار مصري في السنة، وعاد معه إلى مصر، فكبر شأنه،

وعظمت منزلته بين الأمراء، وأمر ونهى في الولاية، وحل عند سيده بمنزلة كبيرة، حتى أمر أن يكون أمر المترجم كأمره نافذاً لا يرد في كافة الدواوين، وكان يقول له أنت يا مصطفى مثل أولادي، والمترجم لا يقابل ذلك إلا بالصدق والاخلاص في الخدمة، والوالي يوالي بره، ويزيد في إعزازه، حتى أمر أن يركب مثل ركوبه في موكب بجند وحاشية، فاستعفى من ذلك وقال: عبدكم يكفيه ركوب جنديين يستخدمهما في خدمة أفندينا فقبل منه وأعفاه، وتسامع الناس بذلك فلامه بعض أخصائه على إبائه هذا الشرف العظيم، فقال له أنتم جهلاء لا تقرأون العواقب، أما تعلمون انه إذامات أو غضب عليّ أسلب هذا الشرف وينحط قدري بين الناس، أفليس الأولى لي أن أبقى على حالة واحدة لا أغيرها؟

وكان المترجم ميالاً لفعل الخير يسعى فيه جهده، ويروي انه أنقذ نحو ثلاثمائة شخص من القتل والنفي لنفاذ كلمته عند الوالي

ويروي أن عباساً باشا غضب مرة على احمد باشا المنكلي، وكان من جلة القواد، فجفاه الناس، وخصوصاً الأمراء على عادتهم مع من يغضب عليهم الولاة، حتى يبلغ بالواحد انه

لا يستطيع المرور أمام دورهم، واتفق ان المنكلي ذهب يوم العيد إلى العباسية لمقابلة الوالي وطلب العفو، فلقي إعراضاً من الحاشية ونفوراً، ورآه المترجم على هذا الحال فصعب عليه مكانه لما كان يعلمه عنه من علو المنزلة عند الولاة السابقين، فأسرع إليه وأكرمه وأمر له بالقهوة والدخان، وجلس بين يديه متأدباً، ونمى الخبر لعباس باشا فغضب واستدعى المترجم ووبخه على إكرامه رجلاً مغضوباً عليه منه، فتلطف معه وقال له: حلم أفندينا أكبر من كل ذنب، وهذا الرجل تعلمون حسن بلائه في الخدمة، وقد جرأني هذا الحلم بأن سكنت روعه وأخبرته برضاكم عنه، وإنكم دائماً تذكرونه بالخير وتقولون هذا رفيقنا بالشام يوم كنا مع عمنا في المحاربة، وأفندينا اكرم من ألا يقبل شفاعة عبده فيه، فضحك عباس باشا وقال لا بأس عليه قد عفوت عنه، ثم استدعاه فدخل وقبل الأرض من شدة فرحه، ودنا منه حتى قبل قدمه، فأجلسه وبش في وجهه وقال له أنت (أرقداش) ثم صرفه شاكراً مسروراً.

ثم لما مات عباس باشا بقى المترجم خزينة داراً لدائرته زمناً قليلا، وتولى محمد سعيد باشا على مصر وكان بالإسكندرية فتأخر بها خمسة أيام خوفاً من أن تغتاله شيعة عباس باشا إذاحضر إلى القاهرة، لما بلغه من أن الألفي يريد تولية الأمير الهامي باشا بن عباس باشا، فتأخر حتى كتب له الأعيان والأمراء بالطاعة وأرسلوا كتابهم اليه، وفيه توقيع المترجم، فاطمأن وحضر إلى القاهرة ونزل في قصر شبرا عند أخيه حليم باشا، فبات عنده ليلة لم يهنأ فيها بنوم، وأخبر أخاه انه بلغه عن المترجم ان عنده في العباسية خمسمائة فارس بسلاحهم، وانه يخشى من هجومه بهم على القصر قصد اغتياله، فصرف عنه أخوه هذا الوسواس، ثم طلب المترجم بعد ذلك إلى القلعة وخرج إليه حسن باشا المناسترلي، وقال له أفندينا يعلم انك رجل عاقل فما هذه الخمسمائة الفارس التي عندك بالعباسية؟ أتحاول أن تحدث بهم أمراً، أو تجدد لك ملكا؟ فقال معاذ الله من ذلك، إنما أنا عبد من عبيد أفندينا، وكل ما سمعه عني زور وبهتان من سعي المفسدين، وبعد، فهل هذه الفرسان في بطن الأرض أو فوق ظهرها، وكيف خفي عليكم أمرها، نحن ليس عندنا غير عشرين فارساً لحفظ قصور الحرم، فتبين لهم صدقه، ثم لما أراد سعيد باشا السفر إلى دار السلطنة لشكر السلطان على توليته على عادة ولاة مصر من بني محمد علي مع سلاطين آل عثمان وجد

خزانة مصر خالية من المال، فطلب من المترجم إقراضه خمسين ألف دينار من أموال عباس باشا التي بيده فأبى وتوقف وقال: إنما أنا أمين عليها، وصاحبها الهامي باشا باستنبول، ولا يجوز لي التصرف في ماله بغير اذنه، فتداخل بعض الأمراء في الأمر، حتى رضى بإقراضه القدر المذكور بشرط أن يكتب صكاً به ويوقع عليه، ففعل وأخذ المال، ولما حضر الهامي باشا من دار السلطنة أعطاه المترجم الصك وقال له: هذا المال أخذه عم أبيك، فان شئت طالبته به، وان شئت تجاوزت له عنه، فعدت هذه الحادثة من مواقف المترجم المحمودة.

وبقى المترجم خزينة دارا لالهامي باشا حتى رآه ينفق أمواله في غير وجهها، فنصحه بأنه إذا دام على هذا الحال لا يبقى ولا يذر شيئاً مما تركه والده، وأوصاه بالحزم، وقال

له في عرض كلامه يا سيدي أنا لا أنهاك عن الكرم والإحسان إلى الفقراء، ولكني أنهاك عن الإسراف والتبذير والإنعام على صغار الخدم بهذه الجواهر والنفائس الثمينة التي نراها في أيديهم كل يوم، ولما رأى إعراض الأمير عنه وتماديه فيما هو فيه استعفى من منصبه ولزم داره التي بالتبليطة. ثم بدا له السفر إلى دار السلطنة فسار إليها وعلم السلطان عبد المجيد بن محمود بمقدمه فطلبه إلى القصر، ولكنه لم يقابله بل أمر أولاده الأمراء مرادا وعبد الحميد ورشادا بإكرامه فقابلوه ولاطفوه، ثم قيل له إن في نية السلطان الإنعام عليه برتبة باشا وأشير عليه بعدم السفر فلم يوفق للإقامة بل سافر بغير إذن إلى الحجاز، فحج وعاد لمصر، وكان الوالي سعيد باشا أرسل إلى كامل باشا زوج أخته الأميرة زينب هانم أن يراقب المترجم مدة وجوده بدار السلطنة لأنه يوجس من سفره خيفة، فأعلمه أنه تحقق من أن الرجل ليس له مقصد سوى التنزه والسياحة فقط. وأراد سعيد باشا مرة استخدامه فشكر ولم يقبل، ولما تولى إسماعيل باشا على مصر أنعم عليه برتبة ميرميران وأمر باستخدامه عضواً في مجلس الأحكام فاعتذر عن الإستخدام وقال للرسول ان كنتم تجبروني على الخدمة لأجل رتبتكم فهاك (فرمانها) أرده لأفندينا فاقره إسماعيل باشا على الرتبة وأعفاه من الخدمة.

وبقى بعد ذلك في داره وينتقل تارة إلى ضياعه يراقبها وينفق من غلتها حتى وافاه أجله فمات محمود السيرة عف السريرة قليل الشاكين كثير الشاكرين لا يقطع فرضاً ولا يقصر

عن نافلة مع إحسان للفقراء وسعة في النفقة من غير تقتير ولا اسراف، وخلف ثروة واسعة وأموالاً طائلة من غير عقب لأنه لم يتزوج في عمره إلا بنت راغب آغا سلفه في الخزينة دارية، وكان إلهامي باشا أراد أن يزوجها لشكيب باشا مدير ديوان الأراضي الأميرية فلم تقبله واختارت المترجم فتزوجها وانتقل إلى دارها فأقام معها نحو ثلاثة أعوام ثم فارقها بكرا لم يبن بها رحمه الله تعالى.

الشيخ محمد أكرم الأفغاني

هو الشيخ الأجل، والعالم العامل، القدوة الورع، نزيل القاهرة أصله من القبيلة الأفريدية النازلة في مضيق جبل حيدر المشهور الآن بجبل خيبر الفاصل بين الهند وبلاد الأفغان، ولد ونشأ به، ثم رحل إلى الهند لطلب العلم وهو في الحادية والعشرين، فورد لكنهوه وهي حافلة بالعلماء، فقرأ العربية والمنطق والحكمة والعقائد والتصوف والفقه الحنفي والطب والرياضيات على الطريقة القديمة حتى صار من الفحول المشار إليهم مع العفة والتقوى والتشدد في الدين. ثم ساح في أغلب بلاد الهند وجعل اكثر إقامته في لكنهوه، ثم بدا له السفر إلى الحجاز لقضاء فريضة الحج فسافر إليه حوالي سنة 1272 وقعد قضاء المناسك ورد على مصر ونزل بالأزهر برواق الأفغانية المشهور برواق السليمانية، فاجتمع به هناك جلة العلماء مثل الشيخ حسين المرصفي وغيره، وبلغ خبره محمداً أفندي الأفغاني المشهور بالكشميرجي تاجر المطارف الكشميرية بجوار خان الخليلي فاجتمع به وصوب له الانتقال إلى مكان فوق حانوته فاكترى به محلا وانتقل إليه وأقام به نحو تسعة أشهر، وتسامع به الأكابر مثل حسن باشا المنسترلي كتخدا مصر وإسماعيل باشا عاصم، فسعوا إليه وزاروه، وبلغ خبره الأمير احمد باشا رفعت ابن إبراهيم باشا والي مصر من محمد أفندي الأفغاني فاشتاق لرؤيته، إلا أنه كان على قدم السفر إلى ضيعة له فأرسل له خمسة وعشرين ديناراً حباه بها.

ثم سافر المترجم إلى دار السلطنة واجتمع هناك بعارف حكمت بك الذي كان شيخاً للإسلام وبغيره من العلماء، فظن عارف بك أن مجيئه لطلب منصب علمي أو فتح (تكية) أو نوال صلة، وسأله عن ذلك ووعده بالمساعدة فعرفه المترجم حقيقة أمره، وانه ما ورد إلا للسياحة. وأقام بدار السلطنة نحو عشرة أشهر، ثم سافر منها إلى الشام، ومر بأزمير وتسامع به علماؤها فحضر له كبيرهم إلى السفينة، وسأله النزول وألح عليه فقبل، وأقام عندهم عشرة أشهر أخرى قرأ لهم فيها ديباجة الفتوحات المكية. ثم سافر على غير رغبتهم إلىالشام، فلقى من علمائها إكراماً زائداً واحتفالاً كبيراً لا سيما من كبيرهم الشيخ سليم العطار، وتلقوا عنه بعض رسائل منها تشريح الأفلاك في الهيئة، وفصوص الحكم لابن العربي، ثم أراد الشخوص إلى بغداد، ولكنه

استصعب السفر إليها براً لكبر سنه وبدانة جسمه، فعول على السفر إليها بحراً، وأتى مصر بنية السفر منها في البحر الأحمر وخليج
فارس إلى البصرة ومنه إلى بغداد، فلما وردها أنزله السيد احمد الحسيني شيخ طائفة النحاسين بداره وقام بشؤونه أتم قيام، وتراخت عزيمة المترجم عن السفر، وبدا له أن يتخذ القاهرة دار إقامة ما شاء الله تعالى فانتقل إلى 012 مكان اكتراه بخان الخليلي وأقام به بضع سنوات منكمشاً عن العالم مقبلا على شأنه، مواظباً على الإقراء والتدريس، ولم يكن معه غير أحد تلاميذه، وعلى هذا التلميذ قرأ شيخنا العلامة الشيخ حسن الطويل خلاصة الحساب لبهاء الدين العاملي.

ثم لما كانت ولاية إسماعيل باشا على مصر أجرى على المترجم عشرة دنانير في الشهر تصرف له من الحكومة، واستصوب أبو بكر راتب باشا ناظر الأوقاف إذ ذاك انتقال الشيخ إلى مدرسة محمد بك أبي الذهب التي بجوار الأزهر فانتقل إليها وسكن بها في قاعة الشيخ الصبان الذي كان موقتاً لهذه المدرسة، وأقام المترجم بها نحو أربع سنوات، ثم وافاه أجله المحتوم في ربيع الثاني سنة 1287، وقد جاوز التسعين ودفن ببستان العلماء في مقبرة المجاورين ومات من غير عقب لأنه لم يتزوج في حياته.

وكان ربعة أبيض اللون واللحية كثهاً، كبير الهامة، بديناً مهيباً إذاسار في الطريق قام له الناس من يعرفه ومن لا يعرفه، حليماً متواضعاً عفيف النفس زاهداً، مع كمال عقل وحسن فراسة. وكانت له اليد الطولى في كافة العلوم، وكان الشيخ مصطفى العروسي شيخ الأزهر يعرف له قدره، ويزوره بمدرسة محمد بك. ولما مات الشيخ الباجوري وبقى الأزهر بلا شيخ اكتفاء بالوكلاء، ولهج الناس بضرورة إقامة الشيخ قال الشيخ الأشموني لو استشرت في ذلك ما رضيت بسوى الشيخ محمد أكرم، فانه رجل له جانب مع الله، وبلغ المترجم قوله فتبسم وقال مالي وأزهرهم، لو عرضوا عليّ ولاية مصر ما قبلتها، رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

من طرائف الشعر

طيور الأماني

للشاعر الوجداني الرقيق احمد رامي

الاهداء

إلى محراب أفكاري ... ومهبط وحي أشعاري
إلى القلب الذي حرّ ... ك بالأشجان أوتاري
إلى جنة أحلامي ... إلى نزهة أبصاري
إلى الروح التي أحيت ... مُنى نفسي وأوطاري
إلى الفجر الذي رصع ... بالأنداء نوّاري
إلى الطير الذي آنس ... بالتغريد أسحاري
أقدم كأس أشعاري ... وأهدي غضّ أزهاري

احمد رامي

طيور الأماني

هتفت في الدجى طيور الأماني ... باكيات على النعيم الفاني
حائرات العيون رقّافة الأ ... جنح مطرودة عن الأفنان
كلما أوشكت تقارب غصناً ... ذادها حاصب عن الأغصان
أو أسفّت تريد نقع ظماها ... حلأتها الأيدي عن الغدران
فهي الدهرّ حائمات ترى الأ ... ثمار والماء نائيات دوان
ولو ان الرياض خلو لعزّت ... نفسها بالقنوط والسلوان
غير أن الغصون ناضجة الأ ... ثمار والنهر طافح الفيضان
هكذا نحن في الحياة نريد ال ... صفو فيها والصفو نائي المجاني
ونريد النعيم فيها ومن دو ... ن منانا سدّ من الحرمان
ونشيد البنى من الأمل السا ... مي وفأس الزمان في الجدران
ونبثُّ البذور في الأرض وال ... دهر ضنين بالعارض الهتان
ومن الزرع باسق حفت الأ ... ثمار فيه وماجنتها يدان
ومن الماء دافق جف فوق ال ... أرض ما مس قطره شفتان

لهف نفسي على شباب ذوي قب ... ل كمال واجتثّ قبل الأوان
وضياء خبا ولم يك هدياً ... للذي ضلَّ في سبيل الزمان
لو نظرنا إلى الحياة بعين ال ... حق راحت بالكره والشنآن
غير أنَّا نعيش فيها بآما ... ل تسرّى لواعج الأشجان
وإذا أخطأت ظنون فيا رُ ... بّ ظنون تريح قلب العاني
فلنعش بالمنى فكم صدع ال ... بدر حجاب السحابة المدجان
ولنعش بالمنى فكم سقت ال ... أنواءُ ذاوي الثمار والأغصان
ولنعش بالمنى فكم جرت ال ... أقدار بالعزّ بعد طول الهوان
فارفعي الصوت بالغناء قليلاً ... بدل النوح يا طيور الأماني
احمد رامي
هند
للأستاذ محمود خيرت
ومخلْخَلاتٍ يستبِينَك كلما ... يخطُرْنَ في روض الملاحة عِينا
وقدُودُهنَّ من الرماح وإن تكن ... في مثل عود الخيزرانة لِينا
كم خلّفت ألحاظُهنَّ نصبْنَها ... شرك الهوى في الآمنين طعينا
يَمَّمْنَ نحو النهر ذات عشِيّة ... بجرارهنَّ ورُحن يستَسقينا
والأرض ترقص تحتهن صبابةً ... والنهر مرتقبٌ يحنُّ حنينا
والبدر يُرسل من سماء جلاله ... نوراً كذرَّات اللجين خَفِينا
ويمُدُّ ظلاًّ خلفهنَّ كأنه ... ذيلٌ فيمشي كلما يمشينا
قد كُنَّ يقطعْنَ الطريق وقد نأى ... بالسير حيناً والتوقُّفِ حينا
والأنس يكسو حسنهن بشاشةً ... كان الشبابُ بها لهُنَّ مَدِينا
حتى اقتربْنَ فعندما أبصَرْنني ... أجفلْنَ حتى كِدْنَ يستلقينا
وقد انتثرْن على الخميلة أنجماً ... وشرَدْن مني يسرة ويمينا
إلا فتاةً كالنعيم نضارة ... والظبى جيداً والصباح جبينا
قالت عجيبٌ أن أراك على مَدى ... ما بيننا وقد احتجبتَ سِنينا
فأجبتُها يا هند بُعْدُكِ شقَّني ... ولقد ظللْتُ على هواكِ أَمينا
أين الكناس نبتُّ في أركانه ... وجداً بمشبُوبِ الضلوع دفينا
ونُعيد سيرةَ ذلك العهد الذي ... غرسَتْ لياليه الصَّبَابةَ فينا
فتراجعَتْ جَزَاعاً تُكفكِفُ دمعَها ... كالدرِّ فوق الوجنتين سخينا
وقرأتُ في إطراقها وخُفُوقها ... أن الكناس غدا يضمُّ عرينا
وكأنما خَشِيَتْ عليَّ فطوّقت ... عُنُقي مُسارعةً تئنُّ أنينا
وجرَتْ علَى شفتيَّ منها قُبلةٌ ... حرّاء كان بها السُّعُود ضنينا
إِنّي لأذكرُها الزمانَ، فعندَها ... نسِيَ الزمانُ وجوده، ونسينا
محمود خيرت
من الأدب الإنجليزي
الشعر عند ماكولي
للأستاذ محمود الخفيف
للكاتب الإنجليزي العظيم اللورد ماكولي طريقة انفرد بها في عرض آرائه والدفاع عنها، فقد أوتى بسطة في العلم، وامتاز إلى جانب عبقريته بقريحة وقادة، وذاكرة عجيبة، هذا إلى روعة في الأسلوب، وسلامة في المنطق، ولباقة في سوق المقدمات وضرب الأمثلة واستخلاص النتائج.
كتب رسالة عن الشاعر ملتن، وضح فيها آراءه في الشعر وتناول الموضوع من جميع نواحيه، ولقد أشار في رسالته إلى بعض المسائل التي يختلف فيها شعراؤنا وأدباؤنا اليوم.
كان ماكولي شديد الإعجاب بالشاعر الكبير، ولذلك أحفظه ما كتبه النقاد عنه وانبرى للرد عليهم في ماسة استثارت عبقريته وأيقظت قريحته. رأى هؤلاء النقاد يسلكون السبل الملتوية للحط من قيمة الشاعر، فبينما هم يسلمون في غير تحفظ بأن آثاره جديرة بأن تأخذ مكانها بين أعظم الآثار التي أنتجتها العقول البشرية، إذابهم يأبون على الشاعر أن يتبوأ مكاناً بين فحول الشعراء كهومير ودانتي وفرجيل وإضرابهم، وحجتهم

في ذلك أن هؤلاء نشاؤا في عهد طفولة المدنية، فلم يكن لهم من المعارف مثل ما كان لملتن الذي نشأ في عهد مستنير وتلقى علماً منظماً، واطلع على كثير من آثار المتقدمين، ولكنهم على الرغم من ذلك قد تركوا للعالم آثاراً تجل على المحاكاة، فكانت شاعريتهم طبيعية تتجلى فيها الأصالة، وتشع منها العبقرية، ولا يمكننا على ذلك أن نضع ملتن في صفهم، بل إنه لينبغي علينا إذاأردنا الأنصاف أن نحسب على ملتن، عند قياس شاعريته، كل ما أتيح له من ظروف طيبة.

يسرد ماكولي آراء خصوم الشاعر ثم يعلن في حماس ويقين أنه على الرغم مما يقولون يقرر أنه ما من شاعر قد اضطر أن يغالب من الظروف أسوأ مما اضطر ملتن إلى مغالبته، حتى لقد كان يخيل إلى الشاعر أنه خلق متأخراً عما كان ينبغي له بأجيال، ذلك لأنه كان يحس أن شاعريته لم تستفد شيئاً من الثقافة التي تثقفها، بل إنه كان يتطلع بعين ملؤها الأسف إلى تلك العصور التي فاتته، عصور الكلمات البسيطة والتأثير العميق!

يأخذ ماكولي في الدفاع عن رأيه هذا فيجره الدفاع أولا إلى العلاقة بين العلم والمدنية. ما حال الشعر في عصور التقدم؟ وكيف كان حاله في العصور السابقة؟ وهل لتقدم المدنية تأثير مطرد فيه؟

يقرر ماكولي أنه كلما تقدمت الحضارة، انحط الشعر تبعاً لذلك التقدم، ولهذا فانه إذا أعجب بتلك الآثار الشعرية التي جادت بها الأخيلة في العصور المظلمة، فليس إعجابه بها قائماً على أنها وليدة تلك العصور، كلا. فانه يعتقد أن البرهان القاطع على العبقرية إنما هو قصيدة عظيمة تظهر في عصر من عصور المدنية والتقدم، في عصر من عصور الفلسفة والتفكير.

وان الذين ينكرون هذا المبدأ ليخدعون أنفهسم في رأيه، ذلك أنهم ينظرون إلى الفنون نظرتهم إلى العلوم التجريبية والعقلية، فيقيسون الجميع بمقياس واحد متخذين تقدم العلم والفلسفة دليلا على تقدم الشعر والتصوير مثلا، وفات هؤلاء أن الفرق شاسع بين الفن والعلم، بين الخيال والتفكير، بين الحلم والحقيقة،

نسى هؤلاء أن العلوم تتقدم بتقدم العصور لأن أهل كل عصر يبتدئون دراستهم في النقطة التي وقف عندها أسلافهم، ومن ثم كان التقدم العلمي تدريجياً، وكلما تقدمت العصور، كان من أيسر الأمور على من رزق حظاً من الذكاء تحصيل العلم، فان أي شخص عادي الآن ليستطيع أن يحصل من قوانين الرياضة في بضع سنين أضعاف ما استطاع نيوتن العظيم تحصيله في نصف قرن قضاه في الكد والتأمل.

ولكن الأمر على خلاف ذلك في الفنون كالموسيقى أو التصوير أو النحت، وعلى الأخص في الشعر، فان تقدم الإنسان في الاختراع، قد يساعد على تحسين الأدوات التي يستعملها كل من الموسيقار والنحات والمصور، ولكن اللغة وهي أداة الشاعر تكون أكثر ملاءمة لفنه وهي في حالتها الفطرية الساذجة.

هذه الآراء التي يعرضها ماكولي في تحديه العلاقة بين الشعر والمدنية، تسوقه إلى نقطة أخرى قريبة من هذه، أعني بها العلاقة بين الشعر والفلسفة، فالفلسفة من عمل العقل والتحليل والتمحيص والموازنة والاستقراء والاستنباط، وتلك كلها أشياء تتقدم بتقدم العصور، إذافما موقف الشعر من الفلسفة؟ يتساءل ماكولي هل هما شيء واحد، وبعبارة أخرى هل يمكن أن يكون الشاعر فيلسوفاً والفيلسوف شاعراً؟ هي كما ترى نقطة ثار فيها الجدل بين كثير من الأدباء في الشرق والغرب، فبعضهم لا يجد غضاضة في الجمع بين الشعر والفلسفة في شخص واحد، بل وفي موضوع واحد تناوله النظم، ومن أجل ذلك تراهم يطلقون لقب الشاعر الفيلسوف على بعض الأشخاص.

ولكن ماكولي يرى أن الشعر والفلسفة شيئان، بل نقيضان، والجهل بهذه الحقيقة في زعمه جهل بمعنى الشعر وجهل بأغراضه

فهو لا يعني بالشعر كل كلام منظوم، لا ولا كل جيد من النظم، بل انه إذاأراد الشعر بمعناه الحقيقي، ليستبعد كثيراً من الكلام المنظوم، الذي ربما نال حظاً من الإعجاب في مجال آخر، وإنما يقصد ماكولي بالشعر، تلك القدرة على الوصول بواسطة الكلمات إلى ما يصل إليه المصور بواسطة الألوان، ثم ذلك الجو أو ذلك السحر الذي ينتزع الإنسان مما يحيط به ويطير به على أجنحة الخيال إلى وديان فسيحة مليئة

بالرؤى والأطياف، ثم ذلك التأثير القوي، وتلك الحرارة أو ذلك الحماس المشبوب، الذي يجعل المرء طوع قلبه، وان هو خالف في ذلك منطقه وقواعد فكره.
ذلك هو الشعر في جوهره وطبيعته، وعلى ذلك فان كثيراً من النثر الذي تتحقق فيه هذه الصفات ليعد من روائع الشعر، فإذا - ما أردنا الشعر في الاصطلاح التزمنا النظم، وبواسطة الوزن والقافية والمهارة في التوقيع، نستطيع أن نجمع بين الشاعر والموسيقار، كما جمعنا بين الشاعر والمصور.
وشتان بين هذا وبين الفلسفة. نعم شتان بين عمل العقل في التفكير والتحليل، وبين اختلاج النفس بالأحاسيس وامتلاء المخيلة بالصور، وجيشان القلب بالعاطفة، وامتلاء المحاجر بالدموع، أو إشراق الوجوه بالفرح، واهتزاز الهيكل كله بالموسيقى.
وإذا كان الأمر كذلك فما أعجب الخلط بين الشاعر والفيلسوف في موضوع لا يمكن إلا أن يكون واحداً من اثنين: فإما إلى العقل وإما إلى القلب!!
يستخلص ماكولي من ذلك أن الرجل إذامال إلى التفكير والتحليل كان أقرب إلى الفلسفة منه إلى الشعر، وإذاأسلس العنان لخياله وأحلامه، كان إلى الشعر أقرب منه إلى الفلسفة، وقل في الأمم مثلما تقول في الإنفراد.
فالأمم كالأفراد، تبدأ أولاً بالإدراك الحسي، ثم بعد ذلك ترقى إلى الإدراك العقلي أو المعنوي، وبعبارة أخرى، تبدأ أولاً بفهم الصور الجزئية، ثم تتدرج منها إلى الحدود أو النصوص العامة، وعلى ذلك كانت لغة المجتمع الراقي لغة فلسفية، ولغة المجتمع نصف المتمدين لغة شعرية، وان التطور الذي يطرأ على اللغة من تذليلها وتوسيعها وإعدادها لمقابلة التقدم الفكري ليعد شديد الخطر على الشعر عظيم الفائدة للفلسفة.
وعلى ذلك فانه بقدر ما تتزايد معارف الناس وبقدر ما يتزايد تفكيرهم، بقدر ما ينصرفون عن الجزئيات ويقبلون على الأنواع، وحينئذ يصلون إلى نظريات راقية، بينما هم في الشعور لا ينتجون إلا آثاراً سقيمة قوامها العبارات الغامضة، بدل الصور الناطقة، والحجج الجافة بدل الأخلية الرائعة، أو بعبارة أخرى يكون قوام عملهم في الشعر الصفت المجردة بدل الأشخاص والأرواح الحية.
نعم إن هؤلاء المفكرين قد يكونون أكثر ممن سبقوهم مقدرة على تحليل وفهم الطبيعة البشرية، ولكن التحليل ليس من عمل الشاعر، فعمل الشاعر أن يصور وليس من عمله أن يحلل أو يشرح، والتحليل في الفنون يذهب روعتها، ويبطل سحرها، وموقف الشاعر من الفيلسوف موقف المصور في صالته من الطبيب أمام مشرحته، كلاهما يعرف أجزاء الجسم ولكنهما لا يقصدان غرضاً واحداً، بل ولا يركبان في زورق واحد، ولقد يفهم الشاعر الفضائل العامة والطبيعة البشرية كما يفهمها الفيلسوف، ولكنه في تلك الحالة لا تؤثر عقيدته في شعره إلا كما يؤثر علم المصور بنظام الدورة الدموية في فنه إذاهو حاول أن يرسم تساقط دموع (نيوبا) أو توقد خد (أورورا)
ولو أن شكسبير مثلا قد وضع كتاباً في الدوافع التي تسيطر على سلوك الإنسان لما كان من المحتمل بأي حال أن يجيء كتابه جيداً، ولما كان من المحتمل أن يحوي من التحليل ومتانة الحجج مثل ما يحويه كتاب يخرجه عالم من العلماء المعاصرين، ولكن أي عالم لعمري يستطيع أن يخلق (اياجو) نعم! أي عالم يستطيع مع قدرته على تحليل الشخصيات إلى عناصرها أن يضم من هذه العناصر ما يريد ليخرج لنا في النهاية رجلا مثل (اياجو) له خلق خاص وطبيعة خاصة وسلوك خاص؟
ولا يكتفي ماكولي بهذه البراهين التي ساقها للتفرقة بين الشعر والفلسفة، بل انه ليخطو إلى
أبعد من ذلك فيقول انه ربما كان من المستحيل على أي امرئ أن يكون شاعراً لا ولا أن يفهم الشعر ما لم يتجرد بعض الشيء من حدة عقله، أو بعبارة أخرى ما لم يكن له نصيب من خمود الذهن، إذا صح هذا التعبير وجاز لنا أن نسمي تلك القوة العجيبة التي تملأ قلوبنا بهجة خموداً ذهنياً.
نعم ان الصدق في الشعر أمر جوهري ولكنه (صدق الجنون) ذلك لأننا في الشعر نقيم الجدل الصحيح على المقدمات الزائفة، فبعد أن نضع الفروض الأولى، يسير كل ما بعده في توافق واتزان، ولكن قبول تلك الفروض يحتاج إلى نوع من التصديق قد لا يتسنى لنا إلا إذا ألغينا عقولنا مؤقتاً، ومن ثم كان الأطفال أكثر الناس خيالاً، فانهم

يستسلمون إلى الوهم، فإذا ما عرضت أية صورة خيالية أمام أذهانهم عرضاً قوياً فأنها تفعل بنفوسهم ما تفعله الحقيقة. وليس ثمة من رجل مهما بلغت قوة إحساسه يتأثر بقراءة (هملت) أو (لير) كما تتأثر فتاة صغيرة بقصة الذئب والجدة العجوز، إن تلك الفتاة تعلم حق العلم أنه ما من ذئب في إنجلترا، وأن الذئاب لا تتكلم، ولكنها على الرغم من يقينها هذا تصدق فتبكي فترتعد، وذلك هو سلطان الخيال على العقول التي لم يصقلها العلم أو على الأمم في عهد طفولتها.

ولن يترك ماكولي أدلته دون أن يتوجها بتشبيه بديع، فهو يشبه الشعر بالفانوس السحري؛ فالشعر يرسم أطيافه في مخيلة المرء، أو كما يسميها ماكولي (عين العقل) كما يرسم الفانوس السحري لا يؤدي عمله إلى الوجه الأكمل إلا في الحجرات المظلمة، فكذلك الشعر لا يؤثر تأثيره القوي إلا في العصور المظلمة، عصور العقول الساذجة الفطرية التي لم تغيرها الفلسفة والعلوم. وكلما انتشر نور العلم وتمكنت العقول من استنباط الأصول وتقرير القواعد وكشف النقاب عن حقائق الحياة، تضاءل تبعاً لذلك عمل الخيال وتزايل تأثير الشعر، وحالت ألوانه، وتلاشت أطيافه، وهكذا نرى الفلسفة والشعر على طرفي نقيض.

تلك هي خلاصة آراء ماكولي في العلاقة بين الشعر والمدنية وبين الشعر والفلسفة. ولعلي أعرض على القارئ في القريب رأيه في شاعرية ملتن، فقد تعرض في ذلك إلى كثير من الأفكار التي تدور حول الشعر ولغته ومحسناته ومراميه.

محمود الخفيف

في الأدب الفرنسي

الدوق دي لاروشفوكو - 6

للدكتور حسن صادق

فلسفته:

لما عجز لاروشفوكو عن تحقيق آماله ويئس من إرضاء طموحه، صدف عن حياة الاجتماع الصاخبة، وانطوى على نفسه وحللها، واستعرض في ذهنه حوادث الماضي وأخلاق الناس الذين عاشروهم ولاحظهم، ثم طلع عليهم بمواعظه القاسية الأليمة التي تظهر عواطفهم في صورة دميمة، وتجعل لجميع أعمالهم مصدراً واحداً هو الأثرة.

وليس عجيباً أن يقسو هذا الرجل في الحكم على نفسه وعلى الناس، وأن يقوده التفكير إلى فلسفته اللاذعة، لأن التحليل لا ينتج التسامح، والغلو في الشك يؤدي إلى حب النفس. وأعتقد أن آراءه في معاصريه وبيئته، تنطبق على الإنسان في كل زمان، مع أن المصور الذي يرسم البحر أثناء العاصفة فقط، لا يعطينا عنه إلا فكرة ناقصة إلى حد بعيد. ولكي يكون الحكم على الجماعة صحيحاً، يجب ملاحظتها ودرسها في حالتي الهدوء والشغب، ولكن لاروشفوكو رأى الناس في عصره يعملون مدفوعين بمصلحتهم الذاتية، كما هو الحال دائماً أثناء الاضطراب الداخلي والحروب الأهلية، فاستخلص من ذلك أن المصلحة الذاتية التي يسميها عزة النفس أو الأثرة هي الباعث على جميع الأعمال الإنسانية، وينبوع العواطف البشرية. ولا شك في أن الإنسان يعمل دائماً طوعاً لمبدأ في دخليته يدفعه إلى البحث عن مصلحته الذاتية وسعادته. ولكن يعاب على هذا الفيلسوف أنه يضع لجميع الأعمال والعواطف على اختلاف أنواعها تفسيراً واحداً، على حين أن الطبيعة قد منحت الناس مواهب خاصة وغرائز متعددة وأذواقاً متباينة وملكات مختلفة تسبق الفكر في كثير من الأوقات والحالات الى الحركة والعمل، وجعلت لكل فرد طريقة يتبعها في الوصول إلى هدفه من الدنيا. وفي الحياة كثير من الناس يرثون عن أصولهم السذاجة الكريمة وصفاء القلب الجميل، فليس لهم مبتغى ولا متمني غير إسداء المعروف إلى إخوانهم في العاجلة مخلصين. وهم يلاقون في سبيل ذلك عناء كبيراً ويصادفون أخطارا جمة ويقدمون على تضحية كثيرة يستعذبونها. وطريقتهم في الحياة هذه عزيزة عليهم، يجدون فيها مثلهم الأعلى في الشرف والسعادة. وليس من الحق والإنصاف أن يسمى الباعث إلى أعمالهم أثرة بالمعنى الذي يقصد إليه لاروشفوكو ويفهم عادة من هذه الكلمة وهذا الفيلسوف أبيقوري كمعاصره (هوبز) الإنجليزي الذي يرد بعض العواطف الهامة مثل الشفقة وحب البر والإحسان إلى مصدر واحد هو المصلحة الذاتية. ولكن الحكيم الفرنسي توغل أكثر منه في النفس الإنسانية. وقليل من علماء النفس ماثلوه في دقة

التحليل، ولم يصل أحد منهم بمثل مهارته إلى هذا الجزء الخفي من النفس الذي تكمن فيه بعض الأفكار الأنانية العميقة. هذه الأفكار المبهمة ينفذ إليها لاروشفوكو بعقله ويخرجها إلى النور دون أن تستطيع الإفلات منه

ويرى هوبز أن في الحياة لذتين رئيستين: لذة البدن وهي الاستمتاع، ولذة النفس وهي الغرور، ويفضل الأولى على الثانية. أما لاروشفوكو فيعتقد أن اللذة النفسية هي الجديرة بالتفضيل على غيرها. ويقول، (اكبر مسرات النفس في اعتقادي هي المجد الصحيح والمعارف الجميلة. وأومن بأن الذين يجعلون للذة الجسدية قيمة كبرى لا يملكون من هذه المعارف إلا قليلا. وأرى أن اللذة الحسية خشنة مبتذلة تلهم الاشمئزاز، ولا تستحق البحث عنها والسعي وراءها إلا إذاكان للذة النفسية نصيب كبير فيها

ولم يقل ذلك إلا بعد أن مل العبث وكلف بالقراءة والتفكير العميق. وهو وهوبز يتفقان على أبيقور على أن الأعمال الإنسانية ليست نقية من الغرض. وقد اتبعا طريقتين مختلفتين في الوصول إلى آرائهما، ولكنهما التقيا في نقطة واحدة. أما هوبز فقد استعمل طريقة الاستنباط (أي استخراج قضية من قضية أعم منها) والتعقل. وأما لاروشفوكو فقد اتبع طريقة الاستقراء (أي الانتقال من الخاص إلى العام) والملاحظة. وكلاهما اتبع سبيلا واحدة في اتجاهين متضادين، ونجحا في قطعها إلى آخرها كل في اتجاهه

لما كف لاروشفكو عن حياة الخيال والدسيسة والشغب، بدأ حياة الفكر وتسلل بعقله إلى أبعد أغوار نفسه، ولاحظ في دقة ناردة نفوس أهل عصره. ثم وجد بأنه أينما ولى بصره لا يرى غير النفاق، يطل عليه الغرور، ويمكن خلفهما الأثرة. ودلته التجربة على أن هذه الأثرة كلما دقت واستخفت على الملاحظة، كانت قوية حادة، لأنه يجعل مقياسها مبلغ

المشقة التي يعانيها الإنسان في استكشافها.

ومن ملاحظاته التفصيلية الخاصة، استخلص فكرته العامة عن الإنسان، وهي تتلخص في أن المصلحة الذاتية تقوده في كل موطن، وحب النفس يدفعه إلى كل عمل. وصاغ هذه الفكرة العامة في تعبير دقيق: (تتلاشى الفضائل في المصلحة الذاتية كما تتلاشى الأنهار في البحر) (موعظة رقم 171). ولكي يكسبها الوضوح والجلاء رجع إلى ملاحظاته التفصيلية واختبرها ليثبت أن كل واحدة منها تدخل في حكمه العام. وهذا يدل على أن لاروشفوكو له أسلوب (مجموع المقدمات الصحيحة الموجزة الموصلة للحقائق) أو طريقة منظمة متناسقة متصلة الحلقات، ومن يلق على مواعظه نظرة سطحية يرها مفككة الأجزاء مبعثرة، ويعتقد أنها ملاحظات بسيطة دونها صاحبها مصادفة تبعاً للظروف دون أن يكترث لما سيكون لها من القيمة أو لما ستنتجه من الأثر ولكن القارئ الذي يمعن في التفكير يجدها متصلة بأقوى إيمان بالأثرة العامة الشاملة، وأشده ثباتاً وعنادا.

وهذه الطريقة تتلخص فيما يلي: الأهواء مصدر أعمالنا وأحكامنا وعواطفنا، وكل فضيلة تفنى في الأهواء التي تجاورها، كل فضيلة تقترب غاية القرب من رذيلة وتمتزج بها في ميدان العمل، وإننا نطلق عليها اسم فضيلة بدلاً من الرذيلة المجاورة خطأ أو إرضاء لكرامة غرورنا أو كبريائنا: (إن ما نعده فضائل، ليس في أغلب الأحيان إلا مجموعة من أعمال متعددة، ومصالح متنوعة يرتبها الحظ أو صناعتنا) (موعظة رقم 1). فالرحمة - مثلاً - التي نؤمن بوجودها يقول عنها: (الرحمة التي يحسبها الإنسان فضيلة، تستعمل أحياناً بدافع الغرور وأحياناً بدافع الكسل، وفي أغلب الأحيان بدافع الخوف، ودائماً بدافع هذه الصفات الثلاث مجتمعة) (موعظة رقم 16). ونرى من قوله أن كل عمل من أعمال الرحمة يتلاشى في إحدى الرذائل المجاورة أو يتلاشى فيها مجتمعة، كما يتلاشى النهر في البحر. وهذه الجملة (التي يحسبها الإنسان فضيلة) تدل على أن الرحمة ليست في ذاتها فضيلة، أو على الأقل على أن مصدرها الغرور والكسل والخوف وليس غير، مع أنها قد تصدر عن الشفقة وهي عاطفة عامة، أو عن الطيبة الكريمة التي تشعر بها النفوس العالية الكبيرة. ولنضرب مثلا: يوليوس قيصر الذي انتصر على بومبيوس في موقعة فإرسال (من أعمال اليونان الآن) في عام 48 قبل الميلاد، وأسر كثيراً من عظماء عدوه، فانه عفا

عنهم وكان في استطاعته قتلهم جميعاً. فهل يقول العقل إن هذا العفو مصدره الغرور، والغرور هو الكبرياء الذي تنشئه في النفس الأعمال التافهة الهزيلة، وانتصار قيصر على عدوه ليس من الأعمال التافهة، أو يقول إنه صدر عن كسل وهو في مقدوره أن يأمر بالقتل فيطاع، أو يقول إنه صدر عن خوف وهو منتصر قوي؟ ولكن لاروشفوكو لا يجد في الإنسان طيبة نقية، ويحرم علينا أن نؤمن بوجودها، وهو يبهر النظر بالضوء الذي يلقيه على رذائل الإنسانية، ويلقي بالفضيلة في ظلمة تحجبها عن الأبصار.

ولا شك في أن الرذيلة هي التي تسب شقاء الناس، وأن الفضيلة تهيئ لهم أسباب السعادة. فكل فكرة ترمي إلى هدم الفضيلة لتقيم على أنقاضها رذيلة، هي فكرة قاضية على سعادة البشر. والفكرة التي تقضي على سعادة البشر لا يمكن أن تشتمل على حقيقة، لأن صفة الحقيقة وعملها أن تسمو بالنفس لا أن تفسدها، وأن تشع الحياة في الجماعات الإنسانية لا أن تدمرها، وأن ترهب الطغاة لا أن تشجعهم. وقد سبق القول إن هذا الفيلسوف صور نفسه وعصره ومواعظه. ورأيه في الرحمة يدلنا على ذلك أفصح دلالة، لأنه ينطبق على سياسة الملكة آن دوتريش. فان هذه الملكة بعد أن ضحى لاروشفوكو في سبيلها كثيراً وشاكس ريشليو ورفض ما عرضه عليه من الرتب إرضاء لها، لم تحسن إليه بعد أن أقيمت وصية على العرش، بل أحسنت إلى الذين كانت تحقد عليهم. وهؤلاء كانوا أتباع ريشليو، فلما مات هذا الوزير وخلفه في الحكم صنيعته مازاران، بسط عليهم جناح حمايته كسلفه، فلم تجد الملكة بداً من مداراتهم بالرحمة التي ألهمت لاروشفوكو موعظته.

يتبع

حسن صادق

العُلوم

الفكرة الذاتية والفكرة الموحاة

للدكتور عبد الفتاح سلامه

قد يلعب الإنسان النرد مع صديقه للتسلية ولتمضية الوقت، ولكنه قد يغافل صديقه هذا فيغالطه في أثناء اللعب لأجل أن يكسبه. وقد يجلس الإنسان في المقهى فيرى غادة حسناء فيوسوس له الشيطان أن يتبعها، فيحول الضمير دون ذلك وينسى كل شيء عنها، ولكنه بعد قليل قد يجد نفسه سائراً في نفس الطريق وقد يلحق بها.

وقد يدخل الإنسان في بيت ما فيجد سلعة جميلة صغيرة فيود لو تكون له ثم ينسى أيضاً كل شيء عنها. ولكنه بعد خروجه من البيت يضع يده في جيبه ولدهشته ودهشة العالم معه قد يجد هذه السلعة فيه.

فالفكرة الذاتية اللاشعورية عن وجوب الكسب هي التي جعلته يغافل صديقه برغم وجود فكرة شعورية عنده عن وجوب اللعب لمجرد التسلية وبدون اهتمام للنتيجة. والفكرة اللاشعورية الخاصة باتباع الفتاة هي التي قادته للسير في هذا الطريق رغم احتجاج الضمير واستنكاره. والفكرة اللاشعورية الخاصة بامتلاك تلك السلعة هي التي دفعته إلى أخذها. وهكذا يبدوا أنه إذاكان اللاشعور ليس عليه إلا أن يرغب فان الشعور عليه أن ينفذ هذه الرغبة. وهذه هي القاعدة في الإنسان. ولكن كيف يتسنى لهذا الشيطان أن يملي رغبته على الشعور وكيف يتسنى للشعور أن ينفذ هذه الرغبة مع وجود الضمير القوي والعقل المميز الموزون؟

انه يلجأ في هذا السبيل إلى الحزن والتنغيص على الشعور فيضطره إلى تنفيذ ما يريد. والحزن سببه عدم التمكن من تنفيذ الرغبة أو تخيل عدم إمكان تنفيذها، والحزن يختلف من مجرد شعور بعدم السرور إلى انقباض مستمر، وفي نهايته العظمى يكون الحزن المرضي المسمى بالسوداء ففي مثلنا الأول يجلس الإنسان للعب وعنده رغبتان كما قدمنا ويبتدئ في تنفيذ الرغبة الشعورية أي اللعب لمجرد التسلية وعدم الاهتمام للنتيجة حتى إذا ما خانه الحظ وعرف أنه سيخسر الدور فان الرغبة اللاشعورية - حب الكسب - تجد نفسها على وشك عدم التنفيذ فيبتدئ مرح اللاعب يقل شيئاً فشيئاً، ثم يبتدئ أن يكون لعبه آليا أي بدون تفكير منتظم فيشعر الإنسان بالضيق فيضطر بعد ذلك أن يجد له مخرجاً يقضي به الرغبة اللاشعورية التي سببت له هذا الضيق. وقد يكون هذا المخرج عن طريق

النكتة والفكاهة وهذا من شأنه أن يقلب وضع الأمور فيخيل للمغلوب أنه غالب، وقد لا يكتفي المغلوب بهذا التخيل فيغالط إذن في اللعب عن قصد وغير قصد. هو إذ يغالط قد يعمل ذلك أيضاً على سبيل النكتة والفكاهة. والشعور في عمله لإزالة ما قعد يشعر به الإنسان من ضيق يرضي الرغبة اللاشعورية فيشعر الإنسان بالسرور والفرح. ويرضى كذلك الضمير لأنه إنما يغالط لأجل الضحك والسرور ولا حرج عليه في ذلك. فبالحزن إذن يسيطر اللاشعور على الشعور ويضطره إلى تنفيذ ما يريد. وهذه هي طريقة اللاشعور السحرية في إملائه لرغباته. أو هذا هو عمل الشيطان في وسوسته لما يبديه. ولعمري لو كان الشيطان جسماً مستقلاً عن جسم الإنسان ولم يكن ممثلاً في العقل الباطن فان هذا العقل هو صلة الاتصال بينه وبين الإنسان.

وفي مثلنا الثاني نجد أن صاحبه بعد أن أمره ضميره بالجلوس عاقلاً مؤدباً ما لبث أن شعر بالقلق في جلسته وسرعان ما فكر في مغادرة المكان، ولكنه لا يعلم سبب قلقه هذا، لأن الضمير قد طرد الفكرة اللاشعورية من الشعور، أو بمعنى آخر فان الضمير كان سبباً لنسيانه كل شيء عن هذه الفتاة. ولا يكون هناك بعد هذا النسيان ما يبرر منع المسير في هذا الطريق لو تذكر الإنسان لزوم قضاء حاجة معينة فيه. وهكذا تلجأ النفس إلى فكرة شراء شيء معين أو مقابلة شخص معين في هذا الطريق بالذات. فيقوم الإنسان من مكانه سائراً في الطريق الذي أراده اللاشعور ويزول القلق الذي سببه إذن هذا الأخير عندما منع عن تحقيق رغبته التي أبداها.

ومع أن اللاشعور يسبب للنفس المتاعب من جراء عدم تلبيتها لطلباتها فيضطرها إلى إجابتها. فانه كالطفل الذي قد يقنع من تحقيق رغبته بالأوهام دون الحقيقة الواقعة. وهكذا نرى في مثلنا الأول أن اللاشعور قد اكتفى بالنكتة والفكاهة دون تحقيق الكسب نفسه. وفي مثلنا الثاني ولو ان صاحبه سار في نفس الطريق الذي أراده اللاشعور إلا أن الغرض من السير قد التوى عليه.

ذلك هو اللاشعور، وقد رأيت أنه الطفل الذي يعيش في الأوهام أو هو الشيطان الذي يحاول أن يخرج الإنسان من الحقائق إلى عالم الخيال. وقد نجح فعلاً في هذا الأمر أي نجاح سواء مع المرضى أو مع الأصحاء. وهل نرى في العالم شيئاً غير أخيال في كل مكان؟ فالمريض العصبي مريض لأنه تخيل المرض. ويقوم الإنسان من نومه معللاً الآمال على ما وجد في رؤياه من تحقيق أمل يرقبه أو النجاة من مكروه يرهبه. ويستمد الشعراء منه الخيال فتكون الاستعارة والتشبيه والتورية. ويستمد الروائيون منه والفنانون كل دقائق الفن ومعجزاته، فالمثال لم يعمل إلا أنه رغب فتخيل فجسم خياله. وحقق رغبته تحقيقاً رمزياً. وهذا مما يدل في ذاته على أن ذلك الطفل الذي يتذرع بالحزن للحصول على تنفيذ رغباته مع انه قد يقنع بالتحقق الجزئي أو الرمزي لهذه الرغبات، قادر كل القدرة على السيطرة على النفس لأنه تريد أن تتحاشى غضبهفتنفذ له ما يشاء. فهل يمكن بعد ما تقدم أن نستخدم هذه القوة لعلاج بعض الأمراض؟

في الإمكان الإجابة على هذا السؤال بالايجاب، وذلك بواسطة طريق الإيحاء المختلفة، وسنرى فيما يلي كيف يمكن التغلب على هذا الشيطان واستخدامه في أغراض علاجية كثيرة. وإننا نود أن نشير أولاً إلى إن قوة الإيحاء تتوقف على عوامل شتى. وأهم هذه العوامل ما كان بفعل المودة والمحبة والتقدير لأنه بسببها يعتقد اللاشعور بما يوحي إليه تمام الاعتقاد. ويرسله إلى الشعور ليتولى تنفيذه.

ولما كان الإيحاء لا يمكن أن يثمر إلا في وجود الاعتقاد، وكان الاعتقاد أيضاً متوقفاً على العوامل المختلفة السالفة الذكر فانه من الواجب أن تكون شخصية الموحى بعيدة كل البعد عما يسبب الريبة أو الشك، وأن يكون هو نزيهاً يزن كل كلمة يقولها، وأن يكون صالح المريض أول ما يرمي اليه، ونحن إذاأردنا سهولة التعبير وتوخينا إظهار ما نقصده على وجه عام فانه يمكن القول بأن الإيحاء هو وضع أفكار أمام العقل على أمل قبولها والاعتقاد في صحتها. وهي لذلك تأخذ مجرى عكسياً لمجرى الأفكار الذاتية لأنها تبدأ في الشعور أو التمييز ثم تذهب بعد ذلك إلى اللاشعور إذا لم تجد ما يمنع دون الوصول إليه.

وقد يكون الإيحاء من أشق الأمور إذا وجدت أفكار ذاتية تخالفه أو تشك فيه، ويكون من أسهل الأمور إذا وجد من الأفكار الذاتية ما يعززه أو ما لا ينقضه. والإيحاء موجود

في الحياة العملية، وقد يكون الموحى أي إنسان مهما يكن مركزه أو عمره. فقد يجتمع اثنان
ويبدي أحدهما إعجابه بشيء معين وقد يكون على حق، ولكن سرعان ما يغير وجهة نظره بعد ملاحظة صغيرة من رفيقه فيبدو له قبح ما كان يعجب به، وقد ينقم إنسان على نفسه لتصرف يعتبره خاطئاً، ولكن سرعان ما يعد ذلك النوع من الإيحاء إيهاماً، لأن الأفكار الموحى بها كثيراً ما تكون مخطئة. وترك كلمة إيحاء للأفكار الصحيحة التي لا تحتمل الشك. وعلى كل حال فان الأفكار الموحى بها سواء أكانت صحيحة أم خاطئة فأنها تتبع نفس الطريق. أي إنها تسير من الشعور إلى اللاشعور حيث يحتويها ذلك الأخير فتصبح كالأفكار الذاتية ويعتقد بها الإنسان تمام الاعتقاد
والفكرة سواء أكانت ذاتية أم موحاة، تتحول في اللاشعور من مجرد تخيل إلى حقيقة متخيلة، وترسل على هذا الاعتبار الى الشعور فيتولى تحويلها من حقيقة متخيلة إلى حقيقة فعلية، أو بمعنى آخر من فكرة إلى فعل (من إلى وهكذا يكون التخيل من عمل اللاشعور، وتنفيذ التخيل من عمل الشعور. والشعور مع هذا ليس آلة ميكانيكية لتنفيذ تخيلات ورغبات اللاشعور، بل أنه قد يرد بعض هذه التخيلات إلى اللاشعور لعدم ملاءمة تنفيذها وهنا تحدث المشادة بينهما.
فإذا أمكن إقناع مريض عصبي بأن يده المشلولة قد شفيت تماماً فان فكرة الشفاء هذه تتحول في اللاشعور إلى حقيقة متخيلة أو بتعبير أدق إلى حقيقة نفسية. وترسل على هذا الاعتبار إلى الشعور حيث يتولى إثبات هذه الحقيقة بإخراجها من حيز التخيل إلى حيز الفعل فيأمر العضات أن تنقبض، وهكذا تتحرك اليد ويتحقق الشفاء الموحى به. والمريض العصبي لا يمرض إلا إذا تخيل المرض ولا يشفى إلا إذا تخيل الشفاء
وهناك قانون آخر كشف عنه كوويه وهو أنه إذا حدثت مشادة بين الإرادة والتخيل أو بين التمييز من جهة واللاشعور والشعور من جهة أخرى، فان الغلبة تكون دائماً للتخيل على الإرادة. فشارب الخمر أو الدخان عنده إرادة قوية تحاول منعه من تعاطيهما، ولكن تخيله احتياجه إلى الشرب أو التدخين يقهر الإرادة عنده ويستمر في التعاطي. وهكذا نرى كوويه يتحدث عن المشادة وهي تقرب من المشادة التي يتكلم عنها فرويد بين اللاشعور والشعور، ولو أن مشادة كوويه شعورية ومشادة فرويد لا شعورية أو تكاد. ولهذا أشار هذا الأخير بتحليلها ومعرفة أسبابها وعرض نتيجة ذلك على التمييز ليبت فيها بصورة معقولة، أما
كوويه فانه لما كانت المشادة التي يتحدث عنها شعورية فهو لا يحتاج إلى تحليل، بل يقول انه ما دامت الإرادة ضعيفة بالنسبة إلى التخيل فيجب وضع تخيل جديد أمام العقل يكون من شأنه أن يقلل من قيمة التخيل الأول الذي يتعارض مع الإرادة. وهكذا تبطل المشادة ويشفى المريض، وهو يضع التخيل الثاني بواسطة إيحاء لا يكون فيه ذكر للإرادة، فيطلب إلى مريضه أن يقول (لقد تحسنت صحتي وأنا في طريق الشفاء) لا أن يقول (أريد أن تتحسن صحتي وأريد أن أشفى)
وإذا قال أتباع نظرية فرويد بأن المرض يختفي بالإيحاء ليحل محله مرض أخف أو أشد منه. أجاب أتباع كوويه بأن من الممكن عمل إيحاء تام يشمل جميع الأمراض، والواقع أن هذا إذا نجح في كثير من الأمراض فانه يعجز عن شفاء الكثير منها أيضاً، لأن المشادة الشعورية ليست إلا أثراً أو دليلاً على وجود مشادة لا شعورية. والإيحاء إذا عمل قبل الكشف عن هذه المشادة الأخيرة قد يخفف من وطأة المرض العصبي مؤقتاً ولكنه يزيد من فعل الضمير في كبح الرغبات والأفكار الذاتية وضغطها، وذلك يؤدي إلى نتائج غير مرغوب فيها. فمعرفة المشادة اللاشعورية في هذه الأحوال وتحليلها هو من أهم الأمور أولاً، ثم يأتي الإيحاء بعد ذلك بأفكار جديدة سامية وتخيلات ممكنة معقولة. ولهذا نرى فرويد في كتبه يقول إنه لا يميل إلى إيحاء أي فكرة إلى المريض بل يجب تركه ليكون لنفسه من الأفكار والتقدير ما يراه مناسباً لها، فهو بعد الكشف عن المشادة يكون قد شفى من مرضه. وإذاكان المريض لا يزال في حاجة إلى الإرشاد فقد يوحي إليه في بعض الأفكار والمثل العليا.
ولما كان كوويه يعتقد أن وجود الإرادة من شأنه أن يزيد في عناد التخيل وتشبثه بتنفيذ رغباته فإننا نجده يعمل لإزالة التمييز وهو محل الإرادة من مريضه قبل إيحاء أي فكرة إليه، وذلك بواسطة أربع تجارب تثبت للمريض مقدار تأثير التخيل على الإنسان في

غياب التمييز. وهو بعد أن يقتنع بقوة التخيل هذه يطلب إليه أن يستخدمها في شفاء نفسه، وذلك بأن يتخيل الشفاء، ولكنه بالطبع لأي طلب إليه أن يقول إنه يتخيل الشفاء، بل انه شفى من مرضه وأن مرضه لن يعود.

وهناك طريقة أخرى للإيحاء وهي أن يكرر المريض جملة معينة في أوقات مختلفة من النهار ولمدة طويلة، وهذه هي الطريقة التي يتبعها في أمريكا وهي كثيرا ما تفيد في بعض الأحوال، لأن التمييز إذا عارض الفكرة الموحى بها في أول الأمر لا يلبث أن يتعرض لها بنقض أو شك فيما بعد فتصل في النهاية إلى اللاشعور وهو مركز التخيل كما قدمنا حيث تخرج منه حقيقة واجبة التنفيذ.

أما الإيحاء بالتنويم فلا شك أن الفكرة الموحى بها تصل إلى اللاشعور دون أن يقف في طريقها أي حائل. ذلك لأن النائم يعتقد في المنّوم القدرة الفائقة والإرادة القوية، وهو لذلك يأخذ منه الأفكار دون أي مناقشة أو شك فينفذها الشعور بعد قيامه من النوم في الوقت المناسب. وهذه الطريقة ينطبق عليها ما سبق أن تكلمنا عنه بصدد الإيحاء بطريقة كوويه. أي أن الأعراض تختفي لأجل أن يظهر غيرها، وأن الضمير يشتد في الضغط على رغبات الإنسان اللاشعورية بدل أن يسمح لها بالمثول أمام الشعور والتمييز لمناقشتها. هذا إلى أن شخصية النائم تصبح ضعيفة تتأثر بأي فكرة يوحيها أي إنسان، لأن اللاشعور عنده قد كبر على حساب عقله المميز.

أما قيمة الإيحاء العلاجية فإنها تظهر من استعراض بعض حالات تمكن كوويه من شفائها شفاء تاماً. ومن الغريب أن بعض هذه الأمراض لا يمت إلى الأمراض العصبية بصلة ما. مثال ذلك أنه تمكن من شفاء صبي عنده التهاب في عضلات القلب وهبوط قلبي يئس أطباء مشهورون من شفائه. وقد تمكن أيضاً من شفاء النزلة الرحمية والنزيف بالإيحاء. ولنذكر القصة الآتية التي تكلم عنها البروفسور بودوان. فقد حدث أن مريضاً يشكو من نوبات ضيق التنفس بات ليلة في فندق وانتابته النوبة ليلا فقام فزعاً يريد فتح النافذة يلتمس منها هواء نقياً ولكنه بسبب الظلام وللحالة النفسية التي كان بها إذ ذاك لم يتمكن من العثور إلا على لوح زجاجي تخيله جزءاً من النافذة فضربه بيده وكسره، وعند ذلك ذهبت عنه النوبة ونام مستريحاً. وعندما تيقظ في الصباح وجد أن خادم الفندق كتب له ورقة بأن عليه أن يدفع ثمن زجاجة ساعة الحائط التي كسرها. إذن فالذي أنقذه من نوبته ليس دخول الهواء النقي بل هو مجرد تخيل دخول هذا الهواء، لأنه كسر زجاج الساعة بدلا من أن يكسر زجاج النافذة. وقد ذكر الأستاذ بودوان أيضاً أن زوجة رأت وهي حام إصبعاً قبيحة الشكل فاستاءت منها وأصبحت صورتها لا تفارق مخيلتها فوضعت هذه الزوجة طفلا بإصبع مماثلة لتلك الإصبع القبيحة تماماً، وفوق ذلك فإننا نرى كوويه يقول إن المرأة يمكنها أن تلد ما تشاء من ذكر أو أنثى وما تشاء من محاسن وصفات إذا تخيلت رغبتها طول مدة الحمل.

وليس هذا الأمر بغريب علينا نحن الشرقيين فإننا كثيراً ما نسمع عما يسمونه (الوحم) هذا فيما يتعلق بتأثير الإيحاء على الجنين. أما تأثيره على الشفاء من المرض فليس هذا بغريب علينا أيضاً لأننا كثيراً ما نقرأ في الكتب القديمة عن شفاء بعض الأمراض بالطلاسم والرقي والبخور، وهذه هي الأشياء التي نسميها الآن شعوذة وتدجيلا، مع أنها مدرسة قائمة بذاتها بتعاليمها وتلامذتها وأساتذتها الخ. . والواقع أنها كانت في العصر القديم لها من الأهمية بالنسبة إليه ما للإيحاء في العصر الحاضر من أهمية بالنسبة إلينا. والفرق بين طريقة اليوم وطريقة الأمس هو أن الشخص الذي يقوم بالإيحاء الآن رجل متعلم يعمل بوازع من ضميره الإنساني النبيل ويوحي إلى مرضى مثقفين أيضاً يعرفون قيمة ذلك الإيحاء ويعرفون أن قوة الشفاء موجودة في أنفسهم إذا أمكنهم أن يتخيلوا الشفاء أو إذا أمكنهم أن يتحكموا في مخيلتهم. وهكذا نرى أننا بعد أن وصلنا إلى هذه الدرجة من المدنية والعلم قد رجعنا إلى الطرق التي كان يعالج بها في الأزمنة القديمة والتي لا نزال نرى بقاياها. والتاريخ يعيد نفسه، فالمريض يشفى في العصر الحاضر إذا أوحى إليه بالشفاء بأذن الله على شرط أن يحمل حجاباً أو يحرق بخوراً. وهو بعد أن ينفذ هذه الشروط يتخيل الشفاء فيتم له. وقد تكون هذه الطريقة القديمة أجدى وأنفع للإنسان لأنها تجعله يضع ثقته في خالقه تعالى فيستمد من هذه الثقة كل معاني القوة والاطمئنان والراحة والمواساة. بدل أن يضعها في نفسه وهو

كثيرا ما يشعر بضعفها.
وقد يساعد الإيحاء أو الإيهام على استفحال الداء، وذلك إذا كانت الفكرة الموحاة مخطئة كما يحدث في بعض حالات السل. ذلك لأن لفظة (سل) مخيفة عند الكثيرين الذين يعتقدون أنه لا سبيل إلى شفاء المريض به، وبمجرد معرفة أحدهم بأن هناك شكاً في تشخيص مرضه من هذه الناحية لا يلبث أن يعتقد بأنه مريض بهذا المرض فيتحقق له اعتقاده ويستفحل الداء ويسير به إلى الهلاك بخطى سريعة واسعة. ومع ذلك فمن منا سلمت رئتاه من هذا المرض؟ وكم رئة إذا شرحت وجدت خالية من التدرن أو من آثاره؟ فالسل مرض قابل
للشفاء ما لم يعتقد المريض بخلاف ذلك.
عبد الفتاح سلامه
بين الدين والعلم
كتاب عن فساد الداروينية
كان من نتائج الحرب العالمية الماضية طغيان موجة الكفر والالحاد، والمذهب الدهري الذي شعار أنصاره: (نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر)؛ وزوال فكرة الألوهية من بعض الرءوس الصغيرة والأحلام الضعيفة. ذلك بأن الناس تناحروا وتطاحنوا في الحرب، ثم لما رأوا أهوالها جعلوا يضرعون إلى الله سبحانه وتعالى أن يحقن دماء الباقين منهم وينجيهم من شر المخبأ لهم في عالم الغيب كما يقول شحاذونا. فلما لم يسمع لهم نادوا بالكفر، وطلقوا البقية الباقية في صدورهم من الإيمان، فكان هذا الاستهتار وكانت هذه (الكلبية) التي رانت على القلوب وبلغت أقصاها في روسيا البلشفية
لكن يظهر إن رد الفعل هذا سيعقبه رد فعل آخر من الجهة المقابلة،
ويعيد الناس إلى صوابهم مرة أخرى. ففي كل بلد من بلاد أوربا يقظة
دينية، وفي كل قلب ندامة، وفي كل ضمير شيء من الوخز يبشر
بانتعاش الإيمان من إغماء كان يخشى أن يكون طويل الأمد، وأن
ينتهي بموت الأبد، وبيقظته من سبات كان يخشى أن يكون دائماً، وأن
يليه مرض خبيث كمرض النوم لا يخلّص صاحبه منه إلا الموت
لكن أغرب من هذا كله أن يقوم من يقول لنا إن أعظم حوادث القرن العشرين فقد الناس إيمانهم بالعلم بعد عودة إيمانهم بالدين، وكما أن العلم هد أركان الدين في بعض البلدان وفي خلال القرن الماضي، كذلك نرى الأديان الآن تنتقم من العلم بتقويض أركانه، والبناء على أطلاله. فقد أعطانا العلم الحرب العالمية بفظائعها وأهوالها، فضربت أركان الديانة ضربة شديدة، ولكنها ضربت العلم ضربة أشد منها قال أحد الكتاب: لما أعلن اينشتين مذهب النسبية الذي قلب به مذهب نيوتن، قلت في نفسي ومن يدرينا متى يقوم مذهب من نوع سوبر اينشتين يقضي على مذهب اينشتين؟
ظهر بالأمس كتاب جديد عنوانه (هذا التقدم - مأساة مذهب النشوء) أي مذهب داروين الذي ينكر الخلق الفجائي، ويقول إن أنوْاع الحيوان والنبات حتى الإنسان متسلسل بعضها
من بعض، وإن بيننا وبين القرود لذلك لحمة نسب وصلة قرابة. ولا يزال مذهب داروين ناقصاً ما يسمونها (الحلقة المفقودة) التي تثبت قرابة الإنسان للقرد، ومادامت مفقودة يبقى مذهباً، ويبقى لذلك خارجاً عن دائرة اليقينيات المثبتة إذ يعوزه البرهان ومؤلف هذا الكتاب عالم إنجليزي اسمه الكبتن اكوارت، وهو يقول فيه: إن الداروينية كذبة كانت السبب الأول في تدهور الحضارة الغربية، بانياً حكمه هذا على اكتشاف اكتشفه وبرهن فيه على أن نشوء الطيور خرافة لا كما يقول المذهب الدارويني وقد عرض المؤلف فكرته التي بنى عليها مؤلفه على بعض أصحابه النشوئيين فأقروه عليها، ولم يستطع أحد منهم أن يبين وجه الخطأ فيها وهزأ في كتابه ببعض الآراء الشائعة بين علماء الطبيعة عن النور ونهاية الفضاء والأثير والفراغ والسدام وأبان في كتابه أن النشوئيين لم يهتدوا بعد إلى الحلقة المفقودة التي تصل الإنسان بالقرد كما يزعمون، مع انهم قلبوا بطن الأرض يبحثون عنها، ولكن الجيولوجيا تضحك من بحثهم عن شيء لا وجود له. وقد اعترف داروين نفسه في زمانه بأن (الجيولوجيا لا تؤيد وجود تلك السلسلة الدقيقة المتدرجة التي يتطلبها ناموس النشوء نفسه) بل

بالضد من ذلك تثبت ان الداروينية غير صحيحة، لأن وجود بقايا الحيوانات في الصخور لا يمكن تعليله بأي مذهب من المذاهب، فان عظام الفرس مثلاً كانت موجودة في قلب الصخور قبل ظهور ما زعموا أنها أسلافه لا بعد ظهورها

وقد هدم مندل بناموسه عن الوراثة ناموس الانتخاب الطبيعي الذي هو أساس الداروينية. ويقول المؤلف إن الداروينية زعزعت أسس الدين، فلو أمكننا التخلص منها لمهدنا الطريق إلى إحياء الإيمان بالخالق. وان من الغربة بمكان ان يبنى الناس تزعزع إيمانهم بالله مدة قرن كامل أو نحو ذلك على مذهب لم يثبت بالبرهان ولا يمكن إثباته. فالأيمان بالله أسهل كثيراً من الإيمان بخدع العلم وأوهامه.

ق. س

القصص

. . .النفس الرقيق

لايفان بونين

ترجمة ع. الحمدي

في المقبرة فوق أكمة نضرة مخضرة صليب جديد مصنوع من خشب البلوط، قوي ثقيل، ثابت راسخ، ناعم الملمس، بهيج المنظر. وكان الشهر أبريل ولكن الأيام غائمة كالحة. فكنت ترى من مراحل شاسعة خلال الأشجار الجرداء شواهد الأجداث قائمة في المقبرة - مقبرة رحبة ريفية أو اكبر من الريفية بعض الشيء - والريح الباردة القاصفة تصفر صفيراً مخيفاً كلما مرت من تجاويف الإكليل المصنوع من الخزف الصيني عند قاعدة الصليب. وفي الصليب نفسه ركب إطار مستدير من النحاس الأصفر. وفي الإطار صورة لفتاة حسناء فاتنة من طالبات المدارس، مهندمة الملبس، لها عينان فرحتان براقتان تنمان على الحياة والغضارة

هذه الصورة هي صورة (أولجا مسجرسكي)

لما كانت بنتاً صغيرة لم يكن لها ما يميزها في ذلك الجمع الصاخب من ذوي الأثواب السمراء الذين كان لغطهم المتنافر يدوي في ابهاء المدرسة وصفوفها. وكل ما كان يستطيع الإنسان ان يقوله عنها هو أنها ليست إلا واحدة من هؤلاء الفتيات الكثيرات الجميلات السعيدات، وإنها ذكية، لكنها لعوب كثيرة الحركة، لا تصغي لما يلقيه عليها العلم في الصف من دروس. ثم صارت إلى النمو، وأخذت تتفتح أكمامها لا بالأيام بل بالساعات. وفي سن الرابعة عشرة، وقد أصبح لها خصر أهيف، وساقان جميلتان متسقتان، برز نهداها ولاحت عليها تلك الرسوم والملامح الدالة على النضوج، ولم تستطع لغة البشر بعدُ أن تصف فتنتها وسحرها. وفي سن الخامسة عشرة قيل عنها إنها حسناء. . . وكم كان أترابها ورفيقاتها في المدرسة شديدات العناية بتنظيم شعورهن، وكم كن نظيفات محترسات في حركاتهن! ولكنها ما كانت لتخشى شيئاً فهي دائماً نظيفة الثياب حسنة الهندام، متوردة الوجه من غير قصد فمنها ولا عناء من جانبها، اجتمع لها في سنتيها الأخيرتين كل ما

يميزها من باقي المدرسة، اجتمع لها الظرف والأناقة وخفة الروح وإشراق الطلعة وبريق الذكاء. . . ذلك إلى أن أحدا لا يستطيع الرقص مثل (أولجا مسجرسكي)! ولا يستطيع العدو أو الانزلاق مثلها! ولسبب ما لم تكن لأحد تلك الألفة التي كانت لها مع صفوف الصغار والأحداث في المدرسة. ومن غير أن تشعر أصبحت فتاة، ومن غير أن تشعر ذاعت شهرتها في المدرسة. ولم يمض قليل حتى أخذت الألسن تلوك عنها الأحاديث بأنها نزقة متقلبة لا تستطيع أن تحيا بغير عشاق، وأن التلميذ (شنسين) مدله في حبها مأخوذ بجمالها، وأنها هي أيضاً لعلها تحبه ولكنها لكثرة تقلبها وسوء معاملتها جعلته يحاول الانتحار غيرة مرة. .

في خلال شتائها الأخير جن جنونها بذلك الفيض من السعادة الذي غمرها. . . كذلك قالوا عنها في المدرسة. . . وكان هذا الشتاء مثلجا قارساً تنزل الشمس فيه مبكرة وراء الأيكة الكثيفة من أشجار الشربين الباسقات خلف بستان المدرسة المكسوة بحلل من الثلج الناصع. ولكن الجو كان رائعاً بساماً على الدوام. اليوم ثلج وغدا شمس. نزهة قصيرة في شارع الكنيسة. انزلاقة في متنزه المدينة. غروب وردي دافئ؛ موسيقى. . . ثم ذلك الجمع الدائم الحركة الذي كانت (أولجا) تلوح من بينه أخفه روحاً وأشده نزقاً وأوفره سعادة. وفي ذات يوم بينما كانت مندفعة كالإعصار في

غرفة الألعاب تعدو في أثرها الفتيات الصغار يصرخن ويهتفن مبتهجات استدعتها رئيسة المدرسة على حين غرة. فوقفت بغتة وتنفست نفساً عميقاً ثم رتبت شعرها وسحبت أطراف مئزرها كي توصله إلى كتفيها. وبعينين مضيئتين هرعت إلى فوق. كانت الرئيسة صغيرة السن، لكن شعرها كان أبيض، وكانت جالسة بهدوء إلى الطاولة تحت صورة القيصر وفي يديها تطريز قد انكبت عليه واستغرقت فيه.

قالت الرئيسة بالفرنسية دون أن ترفع عينيها عن التطريز (عمى صباحاً يا (مس. مسجرسكي) - إنني آسفة لأن هذه ليست المرة الأولى التي اضطررت فيها لاستدعائك إلى هنا لأكلمك في سلوكك) فأجابت (اولجا) - لقد أخذت بإرشادك أيتها السيدة - قالت ذلك وهي تقترب من المنضدة تنظر إليها بإشراق باد وسرور ظاهر، وفكر شارد، ولم تؤد إليها من التحية إلا طرفاً ضئيلاً ظريفاً هو كل ما تستطيع تأديته من التحيات.

فقالت الرئيسة (انك لم تسمعي ما أقول - وقد اقتنعت وا أسفاه بهذا) قالت ذلك وسحبت الخيط سحبة تدحرجت لها كرة الخيوط على البلاط الصقيل اللامع، وتبعتها أولجا بنظرة مستطلعة. ثم رفعت الرئيسة عينيها إليها وقالت (سوف لا أكرر ما أقول. سوف لا أكثر من القول).

راق (اولجا) غرفة المطالعة هذه، وراقتها نظافتها الغريبة واتساعها غير المألوف. وأعجبتها زنابق الورد الجنية الزاهية التي كانت موضوعة في زهرية فوق المكتب. جلت بنظرها إلى القيصر الشاب وقد صور بكامل جسمه في بهو فاخر، ولبثت ساكتة لا تنبس ببنت شفة.

قالت الرئيسة في لهجة تدل على معنى مقصود منها. وقد شعرت في نفسها بسورة من الغضب: (انك لم تعودي الآن بنتاً صغيرة)

فأجابت أولجا في سذاجة يغلب عليها الحبور. (نعم. سيدتي!)

قالت الرئيسة ولا يزال في لهجتها معنى تقصده، وتتعمد الإلماع إليه (لكنك لم تصبحي امرأة بعد) واحمر وجهها الشاحب بعض الحمرة وقالت (خبريني أولاً: لماذا تصففين شعرك بهذا الشكل؟ انك لتصففينه كالمرأة).

فأجابت أولجا (ليس من ذنبي يا سيدتي أن يكون شعري جميلاً) وأمسكت شعرها المنظم الجميل بكلتا يديها وبشكل لا يخلو من دلال.

فقالت الرئيسة (أحقاً ما تقولين؟ أصحيح أنه لا لوم عليك؟ - ألا تلامين على الطريقة التي تنظمين بها شعرك؟ ألا تلامين على هذه الأمشاط الغالية؟ ألا تلامين إذا أفقرت أبويك باقتناء حذاء بعشرين روبلا؟ ولكني أكرر القول بأنه قد غاب عن بالك انك لا تزالين طالبة ليس إلا). وهنا قاطعتها أولجا فجأة بأدب ومن غير أن تفقد شيئاً من بساطتها وهدوئها قائلة (عفواً يا سيدتي انك خاطئة، إنني في الواقع امرأة، وهل تعلمين من يلام على ذلك؟ انه صديق أبي وجاره أخوك (الكسي ميكالوفتش). . . وقد وقع ذلك في الريف في الصيف الماضي).

بعد هذا الحوار بشهر أطلق ضابط من أجلاف القوزاق سمج أخرق، في هيئة السفلة من الرعاع والأفاقين، على أولجا عياراً نارياً أرداها قتيلة وهي في جمع من الناس على رصيف المحطة وقد وصلوا تواً بالقطار. وهكذا تحقق بهذا الحادث اعتراف (أولجا) الذي صعق الرئيسة. فقد قال الضابط للمحقق إن (مسجرسكي) قد أخرجته عن وعيه، وإنها فيما مضى كانت لها به صلة من صلات العشق الخفي، وإنها وعدته بالزواج منه، وفي محطة القطار في يوم مقتلها عند ما رأته يغادر المدينة إلى (نوفوجركاسك) أخبرته بغتة بأنها لن تفكر في الزواج منه، وان كل ما قالته له من أمر الزواج لا يتعدى السخرية منه والهزء به، وإنها ناولته مذكرتها ليقرأ فيها تلك الصفحات التي كانت قد كتبتها عنه.

قال الضابط (ألقيت نظرة عجلى على تلك الصفحات - وذهبت إلى الرصيف حيث كانت تخطر جيئة وذهاباً تنتظرني ريثما أفرغ من قراءتها وسددت إليها مسدسي فقتلتها. وتلك هي المذكرة في جيب معطفي، انظر تحت تاريخ 10 يوليو من السنة الماضية. . .). وهذا ما قرأه المحقق:

(الساعة الآن الثانية صباحاً، استغرقت في نوم عميق لكنني ما لبثت أن استيقظت مرة أخرى. . . أصبحت اليوم امرأة. أبي وأمي و (توليا) كلهم سافروا إلى المدينة

وبقيت وحدي. ما أسعد الإنسان أن يكون وحده. آه لو أستطيع أن أصف مبلغ سعادتي بوحدتي هذا اليوم. في الصباح أخذت أتمشى في البستان بالمزرعة. دخلت في الأيكة الوارفة الظل. خيل إليّ أنني وحدي في هذا العالم كله. ليس فيه غيري. لم تلم بي قبل اليوم أمثال هذه الخواطر والأفكار اللذيذة. . . ما أحلاها. . . تناولت طعام الغداء وحدي، ثم لعبت ساعة من الزمن. . . وألقت الموسيقى في روعي بأنني يجب أن أعيش أبداً وأن أكون أسعد مخلوق على وجه الأرض! ثم أخذتني سنة من الكرى في غرفة الاستقبال الخاصة بأبي. وفي الساعة الرابعة أيقظتني (كيت) وقالت لي إن (الكس ميكالوفتش) قد حضر إلى هنا. كم سررت بلقائه. كم كان جميلا أن استقبله وأكرم مثواه. جاء ومعه جوادان مطهمان. ما أجملهما؟ ظلا طيلة لبثه واقفين عند الباب الأمامي. لكنه لبث هنا لأن المطر كان ينهمر كأفواه القرب وأنه يرجو انقطاعه وجفاف الطريق عند المساء. أسف أشد الأسف لعدم لقائه أبي في البيت، كان مبتهجاً خفيف الروح مترعاً بالحياة، عاملني بكل لطف وأدب. وصار يتنادر معي ويذكر في دعابه وفكاهة أنه وقع في شراك حبي من زمن بعيد. وقبيل تناول الشاي أخذنا نخطر ،في البستان بين الرياحين والأغصان المتمايلة وكان الجو رائعاً فاتناً ولكن الرد طفق يشتد، وظللنا نمشي معاً ذراعاً بذراع، وقال كأنه معي فاوست مع مرجريت!. هو في السادسة والخمسين، إلا أنه لم يزل وسيماً جذاباً. حسن الهندام دائماً - والشيء الذي أنكرته عليه هو أنه جاء اليوم متلفعاً بملفعة تفوح منها رائحة عطر انكليزي ولا تزال عيناه عيني شاب يافع. . لحيته طويلة مسترسلة. مفروقة في وسطها فرقاً جميلا - هي فضية لامعة. - تناولنا الشاي في الشرفة الزجاجية، وشعرت بغتة أن وعكاً خفيفاً عراني فاستلقيت على السرير وظل هو يدخن. ثم جلس بقربي وشرع يقول أقوالاً لذيذة، فيها متعة، وفيها ما يستثير كامن الوجد ومكبوت الهيام. ثم تناول يدي فطبع عليها قبلة حارة. . . فجعلت من منديلي الحريري الكبير ستراً أسدلته على وجهي، وجع ينهال بالقبلات إثر القبلات من فوق المنديل على شفتي. . . لا أدري كيف وقعت الواقعة!. لا أستطيع أن أقول كيف حدثت، قد جن جنوني!. . ما كنت لأحلم يوماً أنني أكون كتلك اللحظة. . والآن لا أشعر نحوه بغير شيء واحد: الاشمئزاز الذي !!لا قبل لي بحمله. أواه! ما أشد ما ثار في نفسي بعد ذلك من المقت له المدينة في هذه الأيام من أبريل نظيفة نقية، قد ذهبت بأدرانها وأقذارها أمطار الشتاء، وبدت حجارتها بيضاء ناصعة، وأصبح السير فوقها محبباً شهيا. . . في كل يوم أحد بعد القدّاس ترى في شارع الكنيسة المؤدي إلى خارج المدينة امرأة قِمئة ضئيلة الجسم تلبس الحداد، في يديها قفازان من جلد المعز الأسود، تحمل مظلة مقبضها من الأبنوس، تراها تسير في الشارع وما تنتهي منه حتى تجوز ساحته، ثم تعبر السوق المتهدمة حثت الحدادون الكثيرون، وحيث النسيم يهب رقيقاً عليلاً من الحقول القريبة. وهناك على بعد كبير بين الدير والسجن ترى العين المنحدر الأبيض من القبة السماوية، والحقول المترامية تغتسل في تلك القتمة الرمادية. . . وبعد ذلك، بعد أن تجوز البركة الكدرة خلف الدير ترى ما يبدو لك كأنه حديقة فسيحة واطئة محاطة بسور أبيض كتب على بابه: (صعود سيدتنا إلى السماء هناك تقف المرأة وقفة قصيرة ترسم مسرعة بيديها صليباً على صدرها وتسير سالكة الطريق الأصلي؛ ومتى وصلت المقعد إزاء الصليب الجديد المصنوع من خشب البلوط، جلست في تلك الريح الشديدة وذلك الهواء القارس ولبثت كذلك ساعتين. . حتى تؤلمها قدماها من شدة البرد، وهما في ذلك الحذاء الخفيف، وحتى تكاد تجمد يداها من قسوته ولذعته. وبينا هي تستمع لأطيار الربيع تصدح بالغناء العذب، والصوت الرخيمالرقيق حتى في ذلك البرد القارس. وبينا هي تصغي إلى صفير الريح تمر من تجاويف إكليل الخزف وتضاعيفه تبرق في رأسها فكرة أنها تقدم نصف حياتها لو أن ذلك الإكليل البارد الميت لا يكون أمام عينيها. ثم إن (أولجا مسجرسكي هي التي دفنت في ذلك القبر)، هذه الفكرة وحدها، تغمرها في لجة من الدهش البالغ والحيرة المتناهية، فيبدو عليها وجوم عميق وذهول غريب وجزع مروع: كيف يستطيع الإنسان أن يجمع بين طالبة غضة بضة لا تتجاوز سنها السادسة عشرة، كانت قبل شهرين أو ثلاثة تتفجر حياة، وتسطع فتنة، وترفل بأزهى حلل السعادة والهناء. كيف يستطيع الإنسان أن يوفق بينها وبين تلك الأكمة من التراب وذلك الصليب الخشبي؟ أممكن أن

تكون هذه هي نفس هذه الفتاة التي تشع عيناها بالخلود الأزلي من هذا الإطار النحاسي؟ وكيف يستطيع الإنسان أن يجمع بين هذه الطلعة المشرقة الوضاءة وتلك الحادثة الفظيعة التي توافق الآن اسم (اولجا مسجرسكي)؟ رحماك يا رب! إن هذا ليعجز الإفهام. . ولكن هذه المرأة القمئة الضئيلة الجسم سعيدة في قرارة نفسها، سعيدة كأولئك العاشقين الذين وقفوا حياتهم على حلم عاطفي جميل. .

هذه المرأة هي معلمة (أولجا) في المدرسة. فتاة أربت على الثلاثين، ظلت منذ زمن بعيد عائشة على هوس في قرارة روحها كان هذا الهوس أول الأمر ينتاب أخاها - وهو ملازم في الجيش ليس فيه ما هو جدير بالاهتمام أو قمين بالالتفات - كل روحها كانت معلقة به، متصلة بمستقبله بأمتن الصلات، اتصالا تتصور أنه لابد يوماً مود بها إلى أرض من أراضي عبقر. وبعد ذلك لما قتل أخوها في (موقدن) أقنعت نفسها بأنها - ويا للسعادة ولحسن الحظ - ليست كالأخريات، وإنها بدلاً من الجمال، وبدلاً من أن تكون امرأة حقيقية تتمتع بما للمرأة من أنوثة، بدلاً من ذلك لها عقل راجح، وفكر ثاقب، هو أسمى من هذه الدنيويات السافلة، هي عاملة من عمال المثل الأعلى.

وأولجا الآن محور أفكارها وخيالها ومبعث كل إعجابها وسرورها، في كل عيد أو عطلة أن تهرع إلى قبرها - وقد ألفت الذهاب إلى المقبرة بعد موت أخيها - تظل ساعات طوالا شاخصة إلى الصليب الخشبي. تذكر وجه (أولجا مسجرسكي) الشاحب المصفر وسط الأزاهير في النعش وتذكر أيضاً ما سمعته ذات مرة: ذات مرة في فرصة الغداء بينما كانت (أولجا مسجرسكي) تتمشى في بستان المدرسة تقول مسرعة عجلي لصديقتها الحميمة (سبوتين) الطويلة البادنة: (كنت أقرأ في كتاب من كتب أبي - وأن لأبي لكتباً قديمة لا تحصى، أكثرها غريب نادر فيه الوفير من المتعة وفيه الجزيل من اللذة - قرأت عن الجمال الذي يجب أن تمتلكه المرأة، وما أكثر ما هو مسطور هناك، لست أذكره كله، لكنني أحفظ منه بعض الشيء؛ اسمعي: عينان سوداوان فاحمتان كالقار يغلي في جفنه، صدقيني، هكذا كان مكتوباً هناك. . . كالقار يغلي في جفنة!! حاجبان سوداوان كالليل البهيم، حمرة غضة تخضب الاهاب، قد اهيف، يدان أطول من المعتاد، قدمان صغيرتان، نهدان بارزان، ساقان مستديرتان متسقتان، ركبتان يحكى لون رضافهما لون داخل الأصداف، كتفان عاليان لكنهما منحدران - لقد كدت أحفظ أكثره غيباً، كله صحيح، ما أشده انطباقاً على الواقع، ولكن أتدرين ما هو أهم من كل هذا، هو النفس الرقيق الناعم اللين، وليس هو إلا هذا الذي أتنفسه أنا. . . . من الأعماق، أصغ إليّ، ألا تجدينه عندي!!. . أليس هو رقيقاً)

والآن قد تلاشى النفس الرقيق مرة أخرى في العالم، في ذلك اليوم الأشهب الغائم في ريح الربيع البادرة القارسة. . .

بغداد

ع. الحمدي

المارد الأناني

لأوسكار وايلد

ترجمة عبد القادر صالح

أوسكار وايلد من أبرز رجالاتِ الأدب الإنجليزي في القرن التاسع عشر، نعم في حياته بما لم ينعم به الكثيرون من مشاهير الأدب: شهرة واسعة وحسن تقدير مصحوب بالحب والإعجاب. ولكن الدهر الذي لا يستقر على حال قلب له ظهر المجن في الشطر الأخير من حياته، فقاسى من الهوان والفاقة ما حطم جناحيه، وطمس عبقريته، فمات شريداً طريداً في باريس.

ولد أوسكار وايلد من أبوين إرلنديين في سنة 1854 في دبلن حيث قضى سني دراسته الأولى، فورث عن أبيه الدكتور (ويليام وايلد) إفراطه في الميل الجنسي، وعن أمه ميلها للفن، فقد كانت شاعرة نائرة، لها مكانتها.

أتم دراسته في أوكسفورد؛ وهنالك أعجب بالآداب اليونانية والحياة اليونانية القديمة التي أوحت إليه مذهبه في الأدب، وهو: الفن للفن. وفي أوكسفورد نما فيه ميله الجنسي الشاذ، الذي كان الصخرة التي تحطم عليها مجده

اشتهر (أوسكار) منذ أيام دراسته الأولى بطلاوة الحديث ورقة المداعبة، يعبد الجمال

ويمقت القبح؛ لم يتحدث إلى إنسان إلا وود المحدث إليه أن لو يعيد أوسكار الأحدوثة من أولها. فشهرته في الدرجة الأولى ترتكز على طلاوة حديثه وظرفه، ثم على أدبه، ولا سيما رواياته التمثيلية وقصصه البديعة.

ترجمت في (الرسالة) قطع من كتابات هذه الشخصية العجيبة التي كانت تفتخر البيوتات الأرستقراطية في إنجلترا بزيارته لها. وهأنذا أترجم لقراء الرسالة قطعة أخرى من غرر ما كتب، تتجلى فيها روح الكاتب بأجلى بيان. على أنني تصرفت في ترجمة بعضها تصرفاً قليلا:

حديقة غناء، مترامية الأطراف، يكسوها العشب الأخضر الغض، ويزيد في جمالها ما يبدو فوق الحشائش هنا وهنالك من الزهور الشبيهة بالنجوم. فيها اثنتا عشرة شجرة من الخوخ، تزهر في الربيع أزهارها البهية، وفي الخريف تنوء بحمل ثمرها اليانع.

تلك الحديقة هي جنينة المارد التي اعتاد الصبية أن يلعبوا فيها بعد ظهر كل يوم إثر انتهاء وقت المدرسة. وكثر ما كان أولئك الصبية يقفون ألعابهم ليصغوا إلى أغاريد الطيور العذبة التي كانت تنبعث من بين الأغصان. ولكم كان يخاطب بعضهم بعضاً: (ما أسعدنا هنا!)

عاد المارد من زيارته لصديقه عفريت (كورنول) التي استغرقت سبع سنوات تحدث فيها إليه بما طاب له من الحديث. فلما قدم إلى قصره ورأى الأطفال يلعبون في الحديقة انتهرهم قائلاً: (حديقتي! حديقتي! كل فرد يستطيع أن يفهم ذلك، ولن أسمح لأحد أن يلعب فيها). فلاذ الأطفال بأذيال الفرار.

وعلى أثر ذلك أحاط الحديقة بسور عال علق عليه لوحة أعلن فيها أن كل من ينتهك حرمة حديقته بدخوله إليها يحاكم. فكان بذلك مثال المارد الأناني.

لم يكن للصبية مكان يلعبون فيه. حاولوا أن يلعبوا في الطريق، ولكنها كانت مملوءة بالحجارة القاسية والتراب، فلم ترق لهم؛ فصاروا يطوفون بجدران الحديقة آسفين على تلك الأيام السعيدة التي قضوها فيها.

ورد الربيع وأخذت الأزهار تشقق عن أكمامها، والطيور تغرد على الأفنان في طول البلاد وعرضها. ولكن الشتاء ما زال ضارباً بجرانه فوق جنينة المارد الأناني. فقد أنفت الطيور أن تغرد على أشجارها والأطفال بعيدون عنها، ونسيت الأشجار أن تزهر.

نجمت زهرة من بين الأعشاب اتفاقاً، فلما رأت الإعلان أسفت لما حل بالصبية فعادت أدراجها الى بطن الأرض. ولم ينعم بتلك الجنينة في غياب الأطفال سوى الثلج والصقيع اللذين استبشرا قائلين: (هجر الربيع هذه الجنينة وسنتمتع بها طيلة السنة.)

غطى الثلج أعشابها ببساطه الأبيض، وصبغ الصقيع الأشجار بصبغة الفضة. وما لبثا أن دعوا (الريح الشمالية) لتشاطرهما الإقامة في تلك الحديقة فلبت الريح الدعوة مزملة بالفراء، وأخذت تزأر طيلة النهار فتقتلع المداخن وتطوح بها.

وسرعان ما لبى (البرد) الدعوة فصار (.هذه بقعة جميلة. فلندع البَرَد إلى زيارتنا) يقارع سطح القصر ثلاث ساعات متتاليات يومياً ثم يجري بعد تحطيم كثير من البلاط حول الجنينة مزبداً.

بمثل هذا .(لا أدري لماذا تأخر قدوم الربيع: على أين وطيد الأمل بأن الجو سيتغير) كان

يتحدث المارد إلى نفسه لما طال انتظاره للربيع ولكن الربيع ظل على هجرانه وتمادى الصيف في صده.

قدم الخريف وأينع ثمر الأشجار في كل الجنائن المجاورة. لكن جنينة المارد ظلت خلواً من الثمر لأنانيته. ترقص خلال أشجارها الثلوج والأمطار، وتعبث بها الريح الشمالية والصقيع.

استيقظ المارد صباح يوم على موسيقى عذبة، خيل إليه من حسن وقعها في نفسه، أنها فرقة الملك تصدح مارة بقصره. ولم تكن في الواقع سوى ألحان طائر صغير يغرد خارج نافذته، حمله طول عهده بأغاريد الطيور في جنينته على الاعتقاد بأنها أعذب موسيقى في العالم.

وقفت الأمطار وسكنت الرياح الشمالية وأخذت النسائم تحمل إليه ريا عطرا خلال نافذته المفتوحة، فتمتم قائلاً: (ها هو الربيع قد قدم.) نهض من فراشه وأطل من النافذة. فماذا رأى؟ منظراً عجباً.

رأي الأطفال الذين قد تسللوا من ثغرة في الجدران جلوساً على أغصان الأشجار. كل شجرة تضم بين أغصانها طفلا. فكأنها اغتبطت بمرآهم فتفتحت أزهارها ومادت أغصانها فوق رؤوسهم، وكانت العصافير تحوم حولهم تشقشق شقشقة الفرح. وصارت الزهور تتسابق للظهور من بين الأعشاب ضاحكة. لكن الشتاء ما زال ماثلاً في أبعد نقطة من الجنينة حيث وقف طفل صغير لم يساعده قصره على تسلق أغصان الشجرة القريبة منه. فأخذ يدور حولها وهو يبكي أمر بكاء. عز على الشجرة أن تظل مغطاة بالثلج، وأن تظل الريح تصفر فوقها فأخذت أغصانها تدنو من الطفل وأفنانها تتدلى، ولكنه لم يستطع تسلقها لفرط قصره.

ملئ قلب المارد حناناً وهو ينظر إليه فثاب إليه رشده وأخذ يقول: (ما كان أشد أنانيتي!) الآن أدركت سبب تأخر الربيع. سأضع ذلك الصبي الصغير على قمة الشجرة وسأهدم السور (وستصبح حديقتي ملعباً دائماً للأطفال.)

هبط الدرج ودخل الحديقة بلطف، فلما رآه الصبية ذعروا وفروا. فعاد الشتاء إلى الجنينة. غير أن الطفل الصغير لم يفر. لان عينيه كانتا مغرورقتين بالدموع فلم يرد المارد عند قدومه.

أتاه المارد من خلفه وأمسك به برفق ثم وضعه فوق الشجرة فاستحالت إلى أزاهير جميلة، وتهافتت العصافير لتغرد عليها، فتح الطفل ذراعيه من شدة الفرح وطوق بهما عنق المارد ثم قبّله، فلما رأى الأطفال الآخرون ان المارد فقد فظاظته عادوا إلي الحديقة سراعاً وعاد معهم الربيع، فهش المارد إليهم، وخاطبهم بقوله: (هذه جنتكم أيها الأطفال الصغار) ثم أخذ بمعوله الكبير يقوض الجدار.

ظل الأطفال يلعبون مع المارد في حديقته البديعة حتى المساء فأتوا يودعونه (ولكن أين رفيقكم الصغير الذي وضعته فوق الشجرة؟). فأجابه الأطفال: (لا نعرف. لقد ذهب) (احرصوا على مجيئه غداً). فأخبروه بأنهم لا يعرفون مسكنه وانهم لم يروه قبل ذلك اليوم، فحزن المارد حزناً شديداً لأنه أحب ذلك الطفل الذي قبّله حباً جماً.

صار الأطفال يأتون كل يوم بعد الظهر ويلعبون مع المارد، لكن الطفل المحبوب لم يُرَ ثانية، كان المارد لطيفاً معهم جميعاً ولكنه ما زال يحن الى صديقه الطفل الصغير، وكثيراً ما كان يذكره قائلاً: (ما أشد شوقي لرؤيته!)

تعاقبت السنون وشاخ المارد وضعف، فلم يقو على اللعب، ولذا كان يجلس في كرسيه يرقب الأطفال وهم يلعبون معجباً بهم وبجنينته:

أطل صباح (لدى زهور جميلة، ولكن لا ريب في أن هؤلاء الأطفال أجمل أنواع الزهور) يوم ماطر من نافذته وهو يرتدي ثيابه، فأخذ يمرس عينيه وينظر فيطيل النظر كأنما وقعت عيناه على شيء عجيب، ولقد كان عجيباً حقاً. رأى من طرف من أطراف الحديقة النائية شجرة مكتظة بالزهور، يتدلى من أغصانها الذهبية ثمرها الفضي، ورأى تحتها الطفل الذي أحبه.

هرول إلى الجنينة مسرعاً، فلما دنا من الطفل صعد الدم إلى وجهه، واحمرت عيناه غضباً، إذ رأى راحة الطفل دامية (من نجاسر أن يجرحك؟ اخبرني لكي أذبحه بسيفي الكبير.)

فأجابه الطفل (لا. هذه جراح الحب!) فاستولى على المارد خوف غريب، ثم جثا أمام الطفل قائلاً: (من أنت؟) فأجابه الطفل مبتسماً:

سمحت لي أن ألعب مرة في جنينتك، والآن ستذهب معي الى جنينتي التي هي (الفردوس)

تراكض الأطفال بعد الظهر كعادتهم فوجودا المارد الميت تحت الشجرة مكفناً بالزهور البيضاء.

نابلس

عبد القادر صالح

الكتب

مواقف حاسمة من تاريخ الإسلام

تأليف الأستاذ محمد عبد الله عنان

نقحت وحققت وضمت إليها بحوث جديدة (الطبعة الثانية)

لئن كان لهذا القلم الضعيف أن يطمح الى ما هو أبعد من غايته، فان مما يبهج نفسي أن أتحدث عن هذا الكتاب القيم، وقصاراي أن أتم هذا الحديث على خير ما أرجو من دقة، وعلى أحسن ما أحب من إنصاف.

الكتاب كما يتضح من عنوانه، يصور لك أدوار ذلك الصراع العظيم الذي قام بين الإسلام والنصرانية منذ أن وثب العرب من صحرائهم، وأثخنوا في أراضي الدولتين الفارسية والرومانية، والذي تجلى في عدة مواقف مشهورة كحصار العرب للقسطنطينية ولقائهم أعداءهم في الغرب في موقعة بلاط الشهداء، ثم ما كان من بسط العرب سيادتهم على البحر الأبيض المتوسط واحتلالهم اقر يطش، وصقلية، وروما، وجنوب إيطاليا، إلى أن تطور هذا النزاع إلى دور الحروب الصليبية وما تخللها من لقاءات هائلة بين قوى الإسلام والنصرانية، وأخيراً ما كان من أمر العرب في الأندلس، وتقوض دعائم ملكهم العريض هناك.

وتلك المواقف الحاسمة التي يتخذ منها المؤلف الفاضل عنواناً لكتباه هي في الواقع موضوع واحد، فهو وان اختلفت مظاهره وتعددت ميادينه، وتسلسلت عصوره، لا يخرج في جوهره عن الصراع بين الإسلام والنصرانية، ولقد أعجبني من المؤلف تنبيهه الأذهان إلى ذلك في مواطن كثيرة.

ولقد صور الأستاذ المؤلف كل هاتيك المواقف تصويراً دقيقاً رائعاً، مبيناً أثرها في مصاير كل من الطرفين في وضوح يؤيد ما اشتهر به من بسطة في فنه، وسعة في اطلاعه، وإلمام عجيب بالمواضيع التي يطربها؛ ولقد أضاف إلى تلك المواقف طائفة من الفصول سماها (بحوثاً مفردة) والواقع أنها ليست مفردة، وأن اتصالها بالموضوع وثيق، بل إنها لتعد ضرورية له، ومن أمثلة تلك البحوث الهامة (الدبلوماسية في الإسلام) و (الفروسية) و (الرقي في العصور الوسطى) وغيرها مما يلقى ضوءاً على الموضوع الأصلي؛ ولا يفوتنا أن نذكر مع مزيد الإعجاب أن المؤلف مهد لكتابه بفصلين في غاية الأهمية هما (وثبة العرب) و (سياسة العرب الدينية)؛ فأرانا في الفصل الأول، في تعمق ودقة وقوة بيان، تلك الروح التي سيطرت على العرب في جزيرتهم، وأرانا في الفصل الثاني، روح الإسلام في معاملة الأمم التي كانت تدخل في حوزته مورداً في ذلك كثيراً من الأمثلة والاقتباسات، شارحاً الأحوال الاجتماعية والسياسية التي كانت تسود ذلك العصر.

فأنت ترى من هذا الوصف الموجز أن الكتاب يجمع بين الفائدة واللذة، أبو بعبارة أخرى فهو للثقافة والاستمتاع.

أما طريقة الأستاذ في كتابة التاريخ فجديرة بالإعجاب حقا، فهو لن يسرد عليك الحوادث سرداً مملا، بل ترى له طريقة انقادت له وسهلت في يديه وأصبحت وقفاً عليه، طريقة طالما تطلعنا إلى وجودها في كتابه التاريخ باللغة العربية، فهو يحلل ويدقق، ويمحص الحوادث في نظام علمي دقيق، دون أن يملك أو يطوح بك في مجاهل مطموسة الصوى، جائرة السبل، وإنك لتحس شخصيته في كل عبارة من عباراته، لأنه يفرغ على القرطاس صور ذهنه، وحماس قلبه، كما أنك تلمس آثار جهوده في كل فقرة من فقراته، فتراه يعرض عليك الروايات المختلفة، والآراء المتنوعة، ثم يقف منها موقف الناقد الذي يمكنه من الحكم والفصل، ذاكرة قوية، وقراءة واسعة، وصبر شديد؛ ولن تراه يتهرب من نقطة أو يتحيز إلى رأي؛ كل ذك في فطنة ونفاذ بصيرة، فإذا أضفت إلى هذا أن الأستاذ عناناً مشغوف بموضوعات التاريخ الإسلامي، وأنه لن يكتب إلا ما جاشت به نفسه ونبض به قلبه، أمكنك أن تفهم الروح التي يكتب بها الأستاذ التاريخ، والواقع أننا لا نعدو الحقيقة إذاقلنا إن طريقة الأستاذ عنان في كتابة التاريخ قد ثبتت عندنا ناحية من نواحي الحركة الفكرية، كما أن الأستاذ نفسه قد صار ركناً وعلماً نفاخر به أهل الغرب، فطريقته العلمية الدقيقة في كتابة التاريخ تضع آثاره في صف مثيلتها في لغة الغرب، مما يعد مفخرة للعربية وأهلها.

وهناك ناحية أخرى في كتابة الأستاذ عنان جديرة بالتنويه، تلك هي أسلوبه، فللأستاذ أسلوب خاص، تحار إن أردت شرحه؛ فعباراته قوية وسط بين المقبوضة والمبسوطة، لا

ترى فيها حشواً ولا تجد كلمة تستعمل في غير موضعها، أو تجد لفظاً يقصر عن أداء معنى، أو يتسع حتى يطغى على ذلك المعنى فيضيعه، كذلك لن تجد عبارة فاترة في موقف حماسي، أو جملة حماسية من غير داع، هذا إلى جمال ورونق في غير تكلف أو إسفاف.

أما عن مظهر الكتاب وطبعه وترتيبه، فحسبك منه أنه مطبوع في مطبعة دار الكتب، على ورق جيد من القطع الكبير، ولقد ختمه المؤلف الفاضل بثبت للمراجع العربية والإفرنجية، ثم بفهرس للأعلام التاريخية والجغرافية ومقابلها الإفرنجي، ثم بفهرس عام للكتاب.

ونحن لا يسعنا إلا أن نتقدم بعظيم الشكر للأستاذ المؤلف على مجهوداته التي ترفع رأس العربية، وتشرف أهل الضاد جميعاً.

محمود الخفيف

العدد 50 - بتاريخ: 18 - 06 - 1934

صفاء الأفق في الجزيرة العربية

عقد الصلح بين زعيمي الجزيرة، جلالة عبد العزيز بن السعود، عاهل المملكة السعودية، وسيادة الإمام يحيي حميد الدين ملك اليمن، فصفا أفق الجزيرة العربية، وقرت عيون العرب والمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، بعد أن جزعت قلوبهم حيناً لتلك الحرب التي كادت تهدد أمن الجزيرة وسلامها، وتفسح مجالاً لسعي الطامعين والمتربصين من خصوم القضية العربية. وعقدت معاهدة الطائف بين الفريقين لتنشأ بين المملكتين العربيتين صداقة دائمة، وتحتم عليهما العمل المشترك في الشؤون الاقتصادية المشتركة، وفي تنظيم العلاقات الخارجية، فلا يعقد أحدهما معاهدة مع دولة أجنبية تؤثر في مصالح الطرف الآخر إلا بإذنه وبعد مشاورته؛ ويجب على الطرفين أن يتعاونا في العمل لحماية المصالح المشتركة والدفاع عن استقلال الجزيرة العربية ضد أي خطر خارجي.

ولقد قلنا منذ البداية أن هذا الخلاف الخطير لا يعني المملكة السعودية أو اليمن فقط، ونما يعني مستقبل الجزيرة العربية باسرها، وناشدنا الزعيمين أن يتذرعا بالرواية والحكمة، وان يغلبا التفاهم والحسنى. ولكن الظروف كانت أقوى من أي إرادة، فوقعت المعارك الأولى، وتطورت الحوادث بسرعة، ووقف العالم العربي والإسلامي مدى حين ذاهلاً يتساءل عما يمكن أن ينتهي الخطب إليه. وكان اشد ما يزعجه أن يرى بعض الدول الأجنبية تتربص وتتحفز لانتهاز الفرص والظروف. ولم يكن يومئذ ثمة مجال لتحديد المسؤوليات أو توجيه اللوم؛ وكل ما كان يشغل العالم الإسلامي ويهمه، هو أن يعقد السلام بأية وسيلة؛ وعود السلام إلى الجزيرة هو السبيل الوحيد للقضاء على تلك المطامع والآمال الأجنبية التي تزدهر إلا في الكدر والخصام، والتي خشينا عواقبها حينما رست بعض السفن الأجنبية في مياه الحديدة يوم أن استولت الجنود السعودية عليها، واحتج مرسلوها بذلك العذر الخالد الذي نسمعه في مثل هذه الظروف دائماً، وهو حماية الرعايا الأجانب؛ وقرأنا في الصحف الاستعمارية غير مرة أن بعض الجهات المعروفة بمطامعها في الشرق تهتم أيما اهتمام بتطور الحوادث في الجزيرة. ولكن تفاقم الحوادث على هذا النحو كان نذيراً بركود العاصفة ثم هدوئها، فضوعفت الجهود في سبيل السلام والتفاهم، وأدرك إمام اليمن خطورة الموقف، وخطر التردد، وعبث الخصومة والمقاومه؛ فأقر الملك الوهابي على مطالبه التي اشترطها منذ البداية لوقف القتال، وهي إخلاء الجبال التي احتلتها القوات اليمنية في عسير ونجران، وإطلاق الرهائن، وتسليم الأدارسة سادة عسير السابقين؛ وبدأ الإمام بتنفيذ الشروط المطلوبة، واستؤنفت المفاوضات بين الفريقين يحدوها الرجاء تارة واليأس أخرى، حتى شاء ربك أن تحقن الدماء وان يعقد السلام، وان تصان الجزيرة من شر الطامعين والمتربصين.

وعقد معاهدة الطائف حادث عظيم في تأريخ الجزيرة العربية، ومهما قيل عن نصوص المعاهدة وأثرها في مركز اليمن، وكونها ترتب للمملكة السعودية عليها نوعاً من الأشراف، فلا ريب أنها لخير الجزيرة بصفة عامة ويكفي أنها حسمت نزاعاً كان يضطرم منذ عشرة أعوام، ويهدد الجزيرة بشره بين آونة وأخرى، ويفسح المجال

لسعي الكائدين، وأنها قررت حدوداً كانت دائماً مثار الأخذ والرد. وهذه الخاتمة السعيدة لحوادث الجزيرة العربية تحمل على كثير من الغبطة والتفاؤل: أولاً لأنها كشفت مرة أخرى عن المعاني السامية التي يحملها التضامن الإسلامي، وثانياً لأنها ستوحد بين الجهود التي تبذل لصون استقلال الجزيرة. فأما التضامن الإسلامي فقد ظهر في هذه الحوادث بمظهر رائع، وكان لصوت الرأي العام الإسلامي اكبر اثر في تلطيف حدة الخلاف وفي تحذير الزعيمين من عواقبه؛ وكان الرأي العام الإسلامي حكما في الواقع يحتكم إليه الزعيمان، فيذيع عليه جلالة ابن السعود وثائقه ومراسلاته مع سيادة الإمام ليشهده على ما بذل من الأناة والصبر، ويرجوه سيادة الإمام إلا يقف عند الإشاعات والأراجيف المزعجة؛ وكان وفد الأمم الإسلامية الذي سافر إلى الحجاز يبذل جهده لتقريب مدى الخلاف بالنصح والتوسط والرجاء. وفي ذلك اقطع حجة لدحض مزاعم أولئك الذين ينكرون قوة الرأي العام الإسلامي وقوة أثره في توجيه الأمم الإسلامية.

وأما عن توحيد الجهود العربية فيكفي أن نتلو نصوص معاهدة الطائف لنقدر ما يترتب على تنفيذها من تنظيم لجهود الأمتين العربيتين المستقلتين في سبيل خيرهما وخير الجزيرة العربية؛ ولنقدر ما تدلي به هذه النصوص من فهم الأمتين لما يهدد استقلالهما ومصالحهما المشتركة من العوامل والدسائس الخارجية. ولا ريب أن اليوم الذي يدرك فيه العرب والمسلمون قيمة التضامن والاتحاد بصورة عملية، هو اليوم الذي تتعثر فيه مشاريع الاستعمار وتتحطم، ويبزغ فجر النهضة الحقيقية للعالم الإسلامي، وتستطيع الأمم العربية والإسلامية أن تنظم جهودها لاسترداد استقلالها وحرياتها.

فإلي الزعيمين العربيين والى العالم الإسلامي كله نرفع خالص التهنئة على تلك الخاتمة السعيدة؛ ونرجو أن يوفق الزعيمان إلى خدمة الإسلام والعرب متصافيين متضامنين، ومن ورائهما عطف العالم الإسلامي.

الراحة في التغيير

للأستاذ احمد أمين

خلق الإنسان ملولاً، يمل النعيم إذا طال، ويمل الشقاء إذا طال، يمل الحر إذا دام، ويمل البرد إذا دام، يمل الأكل الشهي اللذيذ إذا استمر عليه، ويمل الأكل الخسيس إذا استمر عليه.

وقديماً ملّ بنو إسرائيل أكل المن والسلوى، وقالوا: (لن نصبر على طعام واحد، فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها). ولست أدري لم لامهم موسى عليه السلام على ذلك والملل طبيعي في الإنسان، إلا أن تكون صيغة الطلب رذيلة مذمومة: (فادع لنا ربك) ليس الصيغة المؤدبة التي تصدر من المؤمنين.

من أجل هذا استعان الناس على درء بالتنويع والتنقل ولو من حسن إلى رديء، فاشتهوا أتفه الطعام بجانب أجوده، واشتهوا عشش رأس البر وأكواخ أبي قير فراراً من القصور الشامخة والبنيان المشيد - وروعي هذا في برامج الدراسة: فحط بعد لغة، ورسم بعد حساب، ولغة إنجليزية بعد لغة عربية، دفعاً للملل من الدرس ومن المدرس؛ وروعي كذلك في برنامج الحياة: فلعب بعد عمل، ومزح بعد جد؛ وراعت الطبيعة هذا في برنامجها: فليل ونهار، وحر وبرد، وسلطان للقمر بعد سلطان للشمس وهكذا - ولولا ذلك لعرى الناس ملل لا يطاق، ولكانت الحياة عبئاً ثقيلاً لا يحتمل، ولفر الناس منها إلى الموت طلباً للتغيير والتنويع.

اخطأ الناس فظنوا أن الراحة معناها الانغماس في الكسل، والإضراب عن العمل، والتمدد على سرير مريح، أو الاتكاء على كرسي مُجنح أو نحو ذلك؛ وليس هذا بصحيح دائماً، ولو كان كذلك لما مل الناس هذه الراحة، ولما فروا منها إلى العمل، واستروحوا بالجد والتعب، إنما الراحة التغيير من حال إلى حال، من عمل إلى لا عمل، ومن لا عمل إلى عمل، ولو كان عدم العمل هو الراحة لكان السجن أروح مكان - ألا ترى الراحة تكون في الأشياء وأضدادها باستمرار؟ فلو ركب سيارة من مصر إلى

الإسكندرية لأحسست التعب من الركوب، أحسست الراحة من المشي، ولو مشيت طويلاً لأحسست التعب من المشي،
والراحة في الركوب؛ وما أحلى النوم بعد التعب، وما أحلى اليقظة بعد النوم - وفي الجلوس راحة إذا طال الوقوف، وفي الوقوف راحة إذا طال الجلوس، وفي العمل راحة بعد طول فراغ، وفي الفراغ راحة بعد طول العمل، وفي نظر الصحراء لذة بعد طول النظر إلى البحر، وفي البحر لذة بعد طول النظر إلى الصحراء - ومنظر البحر ابعد عن السأم لأنه في تغير مستمر وحركة دائمة: موجة تعلو ثم تهبط، وموجة تتكسر على الصخر أو الرمل، ثم تسير إلى الشاطئ وتفنى، وتتجدد أخرى وهكذا. ومنظر الأرض ليس نصيبه كذلك من التغير، فالإنسان به أسرع مللاً وأقرب سأماً - وهكذا كل نظام الحياة: الملل من الدوام، والراحة في التغيير.
ما أصعب الحياة الرتيبة وأشقها على النفس! إنها تميت القلب وتبعث على الخمود، ولابد لعلاجها من التجديد، وليس التجديد إلا نوعاً من التغيير، يبعث عليه السأم من القديم، فإذا مل الناس الأدب القديم جدد زعماء الأدب في الأدب. وأتوا للناس بفن جديد يستروحون به، وإذا مل الناس نوعاً من النظام الاجتماعي أتى المجددون بشيء جديد ونظام جديد يذهب بالملل ويجدد النشاط، وليس تغيير الأزياء - وخاصة عند النساء - إلا ضرباً من هذا، هن أسرع خلق الله إلى الملل، وأدعاهم إلى التغير والتجديد؛ فهن يطلعن على الناس كل عام بزي جديد في القبعات والأثواب وكل ما يتصل بهن، شعر قصير بعد شعر طويل، وفستان طويل بعد فستان قصير، وهكذا كثير ما لهن فكثر تغييرهن فراراً من السأم وطلباً للراحة لهن ولغيرهن.
وأقدر الناس في هذه الحياة من استطاع أن يتغلب على السأم والملل بالتغيير المناسب في نفسه وفي غيره. فالأديب القديم من استطاع أن ينوع نفسه وينوع كتابه حتى لا يمل ولا يُملّ، وخير المجلات من استطاعت أن تجدد نفسها من حين إلى حين تجديداً يتفق ومنفعة الناس، ويتفق والرقي؛ فتتغير في أسلوبها وتتغير في موضوعاتها، وتتغير من حين إلى لآخر في كتّابها حتى لا يسأم قراؤها؛ وخير القادة من استطاع أن يجدد في دعوته، فإذا كان له مبدأ واحد يدعو إليه استطاع أن يبرزه كل يوم في شكل جديد يستلفت النظر، ويبعث فيه حياة جديدة تدعو إلى النشاط والحركة.
وكثير من شرور هذا العالم سببه الملل، فكسل التلميذ وانصرافه عن الدرس نوع من الملل،
وخمول الموظف وقعوده عن الجد في العمل نوع من الملل، والخمود السياسي والفكري والاجتماعي نوع من الملل، والرغبة في الانتحار نوع من الملل، وكثيراً ما يكون الميل إلى الكيوف والإدمان عليها نوعاً من الملل، وكثيراً ما يكون الشقاق العائلي وشقاء المنزل والمشادة بين الزوجين أحياناً والأبوين وأولادهما أحياناً نوعاً من الملل، إلى كثير من أمثال ذلك، وكلها أمراض صعبة التشخيص صعبة العلاج، تحتاج إلى نوع من الطب النفسي أدق من طب الأجسام، وتحتاج إلى مهارة في علم النفس لا تقل أهمية عن المهارة في علوم الطب.
من اجل هذا أصبحت الحياة فناً يجب أن يدرس، وأصبحت طريقتنا في الحياة طريقة بالية، إذا ارتقى وتعقد اصبح فناً يحتاج إلى الدراسة، وأصبحت الطريقة الساذجة فيه لا تغني، فأمهاتنا يربين أولادهن حسبما اتفق، ثم أصبحت التربية فناً، ومعلمونا كانوا يعلمون حيثما اتفق، ثم اصبح فناً؛ ومغنونا كانوا يغنون حسبما اتفق، ثم صار الغناء فناً - كذلك الحياة نفسها نحياها الآن حيثما اتفق، ولكنها تعقدت واصبح حل عقدها يحتاج إلى دراسة ودراسات - وأصبحت المرأة في حاجة لان تتجدد في بيتها حتى لا يمل زوجها، والزوج يتجدد حتى لا تمل زوجته، والمعلم يتجدد حتى لا يمل طلبته، ورئيس الحزب يتجدد حتى لا يمل اتباعه، وأصحاب الملاهي يتجددون حتى لا يملوا.
والتغلب على الملل ليس من الأمور الهينة، فليس كل تغيير يصلح لإزالة السام، إنما يصلح التغيير يوم تدرس النفس ويدرس نوع التغيير، كما يدرس المرض ويدرس نوع العلاج، ويكون الدواء طبق الداء.
عن الإسكندرية
أحمد أمين

مسلمو السودان الغربي يحاولون كشف أمريكا في
أوائل القرن الثامن الهجري.
للدكتور عبد الوهاب عزام
عثر كريستوف كلمب على أمريكا على غير قصد إليها، بل كان يرجو أن يبلغ الهند من الغرب فأتيح له هذا الكشف العظيم.
وقد حاول مسلمو السودان الغربي في أوائل القرن الثامن الهجري أن يبلغوا الشاطئ الغربي من المحيط الأطلنطي (بحر الظلمات) برأي أسد من رأي كلمب، وفكرة أصح من فكرته؛ قبل كشف أمريكا بنحو قرنين.
كانت عظمى ممالك المسلمين في السودان في القرنين السابع والثامن بعد الهجرة بلاد ماليّ ومضافاتها. وكانت تعرف في ذلك الحين باسم بلاد التكرور. والتكرور كان أحد أقاليم هذه المملكة الواسعة.
وكان ملكهم أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون منسا موسى، قال في صبح الأعشى نقلاً عن العبر: (وكان رجلاً صالحاً وملكاً عظيماً له أخبار في العدل تؤثر عنه، وعظمت المملكة في أيامه إلى الغاية، وافتتح الكثير من البلاد. قال في مسالك الأبصار: حكى ابن أمير حاجب والي مصر عنه انه فتح بسيفه أربعاً وعشرين مدينة من مدن السودان ذوات أعمال وقرى وضياع.)
وقد حج منسا موسى أيام الناصر بن قلاوون سنة أربع وعشرين وسبعمائة. قال في صبح الأعشى نقلاً عن مسالك الأبصار. (قال لي المهمندار: خرجت لملتقاه من جهة السلطان فأكرمني إكراماً عظيماً وعاملني بأجمل الآداب. ولكنه كان لا يحدثني إلا بترجمان مع إجادته اللسان العربي. قال ولما قدم قدمّ للخزانة السلطانية حملاً من التبر ولم يترك أميراً ولا رب وظيفة سلطانية إلا وبعث إليه بالذهب. وكنت أحاوله في طلوع القلعة للاجتماع بالسلطان حسب الأوامر السلطانية فيأبى خشية تقبل الأرض للسلطان ويقول جئت للحج لا لغيره.
فلما صار إلى الحضرة السلطانية قيل له قبل الأرض فتوقف وأبى إباء ظاهراً وقال كيف يجوز هذا؟ فأسر إليه رجل كان في جانبه كلاماً، فقال أنا اسجد لله الذي خلقني وفطرني ثم
سجد. وتقدم إلى السلطان فقام له بعض القيام وأجلسه إلى جانبه. وتحدثا طويلاً.
ومقصدنا من هذا الكلام في الرواية الآتية عن صبح الأعشى:
قال في مسالك الأبصار قال ابن أمير حاجب سألته عن سبب انتقال الملك إليه فقال) إن الذي قبلي كان يظن أن البحر المحيط له غاية تدرك فجهز مائتي سفينة، وشحنها بالرجال والأزواد التي تكفيهم سنين، أمر من فيها إلا يرجعوا حتى يبلغوا نهاية أو تنفد أزوادهم. فغابوا مدة طويلة ثم عاد منهم سفينة واحدة، وحضر مقدمها فسأله عن أمرهم فقال سارت السفن زماناً طويلاً حتى عرض لها في البحر في وسط اللجة وادٍ له جرية عظيمة فابتلع تلك المراكب، وكنت آخر القوم فرجعت بسفينتي. فلم يصدقه فجهز ألفي سفينة: ألفاً للرجال وألفاً للأزواد. واستخلفني وسافر بنفسه ليعلم حقيقة ذلك. فكان آخر العهد به وبمن معه اهـ)
فما رأى المؤرخين والجغرافيين في هذه الرواية العجيبة؟
قد قرأنا في الجرائد قبل سنة أو سنتين أن بعض الباحثين صادف في أمريكا الجنوبية قبائل تشبه أن تكون عربيه مسلمة. فهل بلغ ملك السودان الغربي وأصحابه أمريكا في القرن الثامن الهجري وانقطعت الطريق بينهم وبين أفريقية فأقاموا هناك؟ أو ماذا؟
لعل سعادة شيخ العروبة العلامة احمد زكي باشا يدلي برأيه في هذه المعضلة.
عبد الوهاب عزام
لا تجني الصحافة على الأدب ولكن على فنيته
للأستاذ مصطفى صادق الرافعي
قالوا إن الأصمعي كان ينكر أن يقال في لغة العرب (مالح)، ويقول إنما هو ملح، وان (مالح) هذه عامية، فلما أنشدوه في ذلك شعراً لذي الرمّة يحتجون به عليه قال: إن ذا الرمّة قد بات في حوانيت البقالين بالبصرة زماناً. . . .
يريد شيخنا هذا: أن (المالح) في الأكثر الأعم يكون مما يبيعه البقالون، ولغتهم عامية

مُزالة عن سننها الفصيح، مصروفة إلى وجهها التجاري. ولكن كيف بات ذو الرمة في حوانيت البقالين زماناً حتى علقت الكلمة بمنطقه وجذبه إليها الطبع العامي، ولم يخالط عربيته غير هذه الكلمة وحدها؟ لم يقل الأصمعي شيئا، ولكن روايته تخبّر أن ذا الرمة انحدر من البادية إلى البصرة يلتمس ما يلتمسه الشعراء، فلما كان بها استضاق فلم يصب لجوفه غير الخبز، ولم يجد للخبز غير (المالح) يُسيغه به ليجد المسلك في حلقه، قالوا فيأتي البقالين فيبتاع منهم السمكة (المالحة) والبقلة (المالحة)، ويعرفونه مضيقاً إلى فرج، فيُنسئون له في الثمن إلى أجل، حتى يمتدح وينال الجائزة. قالوا ثم يمطره الممدوح ويلوي به ولا يرى في تلفيق العيش رخصاً إلا في (المالح) فيتتابع في الشراء ويمضون في أسلافه إبقاء عليه وحسن نظر منهم لمنزلته وشعره، ويرى هو أن لا ضمان للوفاء بما عليه إلا نفسه، فما بدٌّ أن يتراءى لهم بين الساعة، فيخالطهم فيحدثهم فيسمع منهم، وهم على طبعهم وهو على سجيته. ثم لا يقتضونه ثمناً، ولا يزالون يمدون له، فلا يزال (المالح) أيسر منالاً عليه، كما هو إلى نفسه أشهى وفي جوفه أمرأ، لمكان أعرابيته، وخشونة عيشه، فيصيب عندهم مرتعه من هذا (المالح).

قالوا ثم يرى البقالون أن لا ضمان لما اجتمع عليه إلا أن يكون الشاعر معهم، فيلزمونه الحوانيت بياض يومه، ويغلقونها عليه سواد ليلته، فهم يمسكونه بالنهار، وتمسكه الحيطان والأبواب بالليل.

فلما عظم الدين وبلغ الجملة التي فاتت حساب الأيام إلى حساب الأهلة أحضر الشاعر كربه وهمه، ولم يعد (المالح) ينجع فيه، ولا يجد به غذاء بل حريقاً في الدم، ورأى أنه قد امتحن بهذا. (المالح) الخبيث، واشرط نفسه فيه، وارتهنها به، فلا يزال من (المالح) هم في نفسه، ومغص في جوفه، ولفظ على لسانه ودين على ذمته؛ ولا يزال مهموماً به، إذ كان على

طريق من طريقين: إما الوفاء ولا قدرة عليه من مفلس، وأما الحبس ولا طاقه به لشاعر. وحبس ذي الرمة في ثمن (المالح) هو حبس عند الشرطة، ولكنه قتل أو شر من القتل عند صاحبته مية إذا ترامى إليها الخبر، والأعرابي الجلف الذي يحبس في ثمن (المالح) عند الوالي بعد أن بات زماناً رهناً به في حوانيت البقالين لا يصلح عاشقاً لميّ، وهي من هي! (لها بشر مثل الحرير ومنطق رخيم الحواشي) فلا (المالح) من غذائها، ولا لفظ (المالح) من الكلام الذي يكون في فمها العذب. وأبعد الله جاريتها الزنجية إن لم تأنف لنفسها ومكانها من عشق هذا الأعرابي الغليظ الخشن الذي ألحقه (المالح) باللصوص والعارمين، وأخزاها الله إن لم يكن عشق هذا الأعرابي لها سواداً على سوادها في الناس، فكيف بمي وهي أصفى من المرأة النقية، وابيض من الزهرة البيضاء؟

قالوا: ويصنع الله لغيلان المسكين، فيمدح وينافق ويحتال، ويعده الممدوح بالجائزة إذا غدا عليه، ويكون ذلك والشمس نازلة إلى خدرها، فينكفئ الشاعر إلى حوانيت غرامائه من البقالين يبيت فيه أخرى لياليه، ويغلقون عليه وقد سئموه آكلاً وماطلاً، وهان عليهم فلا يعتدونه لا فأراً من فئران حوانيتهم، غير أنه يأكل فيستوفي، ولم يعد اسمه عندهم ذا الرمة، بل ذا الغمة. . . فلم يعطوه لعشائه هذه المرة لا ما فسد وخبث من عتيق (المالح)، فهو نتن يسمى طعاماً، وداء يباع بثمن، وهلاك يحمل عليه الاضطرار كما يحمل عل أكل الجيفة، وكانوا قد وضعوه في آنية قذرة متلجنة طال عهدها بالغسل والنظافة، وفيها بقية من عفن قديم، فلصق بها ما لصق، وتراكب عليها ما تراكب، ووقع فيها ما وقع.

ثم يتهيأ الشاعر لصلاة العشاء يرجو أن تناله بركتها فيستجيب الله له ويفرّج عنه، وقد كان لديه قدح من الماء لوضوئه، ولكن (المالح) الذي تغذى به كان قد أحرق جوفه وأضرم على أحشائه وهو صيف قائظ، فما زال يطفئه بالشربة بعد الشربة، والمصة بعد المصة، حتى اشتف القدح وأتى عليه، فيكسل عن الصلاة ويلعن (المالح) وما جر عليه. ثم يعضه الجوع فيكسر خبزته ويسمي ويغمس اللقمة ثم يرفعها فيجد لها رائحة منكرة، فينظر في الآنية وقد نفذ إليه الضوء من قنديل الحارس فإذا في (المالح) خنفساء قد انفجرت شبعاً، ويدقق النظرة فإذا دويبة أخرى قد تفسخت وهرأها (المالح) وفعل بها وفعل. قالوا وتثب نفسه إلى حلقه ولا يرى الطاعون والبلاء الأصفر والأحمر إلا هذا (المالح) فيتحول إلى كوة الحانوت

يتنسم الهواء منها ويتطعم الروح وهي مضببة بالحديد، ولا يزال يراعي منها الليل ويقدره منزلة منزلة بحساب البادية، وهو بين ذلك يلعن (المالح) عدد ما يسبح العابد القائم في جوف الليل. ويطول ذلك عليه حتى إذا كاد ينشق لمع الفجر لعينه فلا يراه الشاعر إلا كالغدير يتفجر بالماء الصافي ويود لو انصب هذا الضوء في جوفه ليغسله من (المالح) وأوضار (المالح). ثم يأتي الله بالفرج وبصاحب الحانوت فيفتح له، ويغدو ذو الرمة على الممدوح فيقبض الجائزة وينقلب إلى حوانيت البقالين فيوفي أصحابها ما عليه ولا يبقى معه إلا دراهم معدودة، فيخرج من البصرة على حمار اكتراه وقد فتحت له آفاق الدنيا، وكأنما فر من موت غير الموت. ليس اسمه البوار ولا الهلاك ولا القتل، ولكن اسمه (المالح).

قالوا: ويحركه الحمار للشعر كما كانت تحركه الناقه فيقول: أخزاك الله من حمار بصري، إن أنت في المراكب إلا (كالمالح) في الأطعمة. ثم يغلبه الطبع، وينزو به الطرب، وتهزه الحياة فيهتاج للشعر ويذكر شوقه وحبه ودار ميّ، وفي (عقله الباطن) حوانيت وحوانيت من (المالح)، فيأتي هذا (المالح) في شعرة ويدخل في لغته فيقول الشعر الذي أهمل الأصمعي روايته لأن فيه (المالح)، وما أدري أنا ما هو، ولكن لعله مثل قول الآخر:

ولو تفلت في البحر والبحر (مالح) ... لأصبح ماء البحر من ريقها عذبا

أو مثل قول القائل:

بصرية تزوجت بصريا ... يطعمها (المالح) والطريا

هذه هي الرواية التمثيلية التي تفسر كلام الأصمعي ولا مذهب عنها في التعليل إذا صار (المالح) كلمة نفسية في لغة ذي الرمة على رغم أنف الأحمر والأسود، والأصمعي وأبى عبيدة، فالرجل من الحجج في العربية إلا في كلمة (المالح) فإنه هنا عامي بقال حوانيتي نزل بطبعه على حكم العيش، وغلبه ما لابد أن يغلب من تسلط (وأعيته الباطنية)

والحكمة التي تخرج من هذه الرواية أن ابلغ الناس ينحرف بعمله كيف شاءت الحرفة، ولابد أن تقع المشابهة بين نفسه وعمله، فربما أراد بكلامه وجهاً وجاء به الهاجس على وجه آخر.

وإذا كان في النفس موضع من مواضعها أفسده العمل - ظهر فساده في الذوق والإدراك فطمس على مواضع أخرى، فلا تنظر من صحافي قد ارتهن نفسه بحرفة الكلام إلا يكون

له في الأدب والبلاغة (مالح) كمالح ذي الرمة وإن كان ابلغ الناس لا ابلغ كتاب الصحف وحدهم.

و (المالح) الذي رأيناه لكاتب بليغ من أصحابنا أنه كتب في إحدى الصحف عن ديوان هو في شعر هذه الأيام كالبعث بعد موت شوقي وحافظ رحمهما الله، فيأتي بالمجاز بعد الاستعارة بعد الكناية مما قاله الشاعر ثم يقول: هذا عجيب تصوره، لا أعرف ماذا يريد، البلى للشعاع غير مقبول. ولا يزال ينسحب على هذه الطريقة من النقد ثم يعقب على ذلك بقوله: (والأصل في الكتابة أنها للافهام، أي نقل الخاطر أو الإحساس من ذهن إلى ذهن ومن نفس إلى نفس، ولا سبيل إلى ذلك إذا كانت العبارة يتعاورها الضعف والإبهام والركاكة وقلة العناية بدقة الأداء، وإذا كنت تستعمل اللفظ في غير موضعه ولغير ما أريد به، فكيف تتوقع مني أن افهم منك.)

لا، لا، هذا (مالح) من مالح الأدب، فإذا كان الضعف والإبهام والركاكة وسوء الإفهام وضعف الأداء - آتية في رأي الكاتب من استعمال اللفظ في غير موضعه ولغير ما أريد له - فان محاسن البيان من التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية ليس لها مأتى كذلك إلا استعمال اللفظ في غير موضعه ولغير ما أريد له.

وعلى طريقة الكاتب كيف يصنع في قوله تعالى: (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً).

أتراه يقول: كيف قدم الله، وهل كان غائباً أو مسافراً، وكيف قدم إلى عمل، وهل العمل بيت أو مدينة؟

ثم كيف يصنع في هذه الآية: (وقيل يا أرض ابلعي ماءك) أيسأل: وهل للأرض حلق تحركه عضلاته للبلع، وإذا كان لها حلق أفلا يجوز أن ترمي فيه فتحتاج إلى غرغرة

وعلاج وطب؟
وماذا يقول في حديث البخاري: إني لأسمع صوتاً كأنه صوت الدم، أو صوتاً يقطر منه الدم (كما في الأغاني) أيوجه الاعتراض على الصوت وجرحه ودمه، ويسأل: بماذا جرح، وما لون هذا الدم، وهل للصوت عريق فيجري الدم فيها؟
إن الإفهام ونقل الخاطر والإحساس ليست هي البلاغة وان كانت منها، وإلا فكتابة الصحف
كلها آيات بينات في الأدب، إذ هي من هذه الناحية لا يقدح فيها ولا يغض منها، وما قصرت قط في نقل خاطر ولا استغلقت دون إفهام.
ههنا خوان في مطعم كمطعم (الحاتي) مثلاً عليه الشواء والملح والفلفل والكواميخ أصنافاً مصنفة، وآخر في وليمة عرس في قصر وعليه ألوانه وأزهاره ومن فوقه الأشعة ومن حوله الأشعة الأخرى من كل مضيئة في القلب بنور وجهها الجميل. أفترى السهولة كل السهولة إلا في الأول؟ وهل التعقيد كل التعقيد إلا في الثاني؟ ولكن أي تعقيد هو؟ إنه تعقيد فني ليس الا، به ينضاف الجمال إلى المنفعة فتجتمع الفائدة والاستمتاع وتزين المائدة والنفس معاً، وهو كذلك تعقيد فني لاءم بين إبداع الطبيعة وإبداع الفكر وجاء بروح الموسيقى التي يقوم عليها الكون الجميل فبثها في هذه الأشياء التي تقوم بها المائدة الجميلة، واستنزل سر الجاذبية فجعل للمائدة بما عليها شعوراً متصلاً بالقلوب من حيث جعل للقلوب شعوراً متصلاً بالمائدة.
وهذا التعقيد الذي صور في الجماد دقة فن العاطفة هو بعينه فنية السهولة وروحيتها. وتلك السذاجة التي في المائدة الأخرى هي السهولة المادية بغير فن ولا روح، وفرق بينهما أن إحداهما تحمل قصيدة رائعة من الطعام وما يتصل به، والأخرى تحمل من الطعام وما يتصل به مقالة كمقالات الصحف.
والوجه في الشوهاء وفي الجميلة واحد لا يختلف بأعضائه ولا منافعه، ولا في تأديته معاني الحياة على أتمها وأكملها، بيد أن انسجام الجميل يأتي من إعجاز تركيبه وتقدير قسماته وتدقيق تناسبه، وجعله بكل ذلك يظهر فنه النفسي بسهولة منسجمة هي فنيته وروحيته؛ أما الآخر فلا يقبل هذا الفن ولا يظهر منه شيئاً إذ كان قد فقد التدقيق الهندسي الذي هو تعقيد فن التناسب، وجاء على المقاييس السهلة من طويل إلى قصير، إلى ما يستدير وما يعرض، إلى ما ينتأ من هنا وينخسف من هناك، كالوجنة البارزة، والشدق الغائر، فهذه السهولة المطلقة في الوضع كما يتفق هي بعينها التعقيد المطلق عند الفن الذي لا محل فيه للفظة (كما يتفق).
والطريقة التي يكون بها الجمال جميلاً هي بعينها الطريقة التي يكون بها البيان بليغاً، فالمرجع في اثنيهما إلى تأثيرهما في النفس.
وأنت فقل: إن هذا مفهوم وهذا غيرمفهوم، وذاك سهل والآخر معقد، وواضح ومغلق، ومستقيم على طريقته ومحول عن طريقته. انك في ذلك لا تدل على شئ تعيبه أو تمدحه في الجمال أو البلاغة اكثر مما تدل على ما يمدح أو يعاب في نفسك وذوقها وإدراكها.
ومعاني الاختلاف لا تكون في الشيء المختلف فيه، بل في الأنفس المختلفة عليه، فان محالاً أن تكون الجميلة ممدوحة مذمومة لجمالها في وقت معاً، وإلا كانت قبيحة بما هي به حسناء، وهذا شد بعداً في الاستحالة، وحكمك على شئ هو عقلك أنت في هذا الشيء.
ومتى اتفق الناس على معنى يستحسنونه وجدت دواعي الاستحسان في أنفسهم مختلفة، وكذلك هم في دواعي الذم إذا عابوا. ولكن متى تعينت الوجوه التي بها يكون الحكم، ورجع إليها المختلفون، والتزموا الأصول التي رسمتها وتقررت بها الطريقة عندهم في الذوق والفهم فذلك ينفي أسباب الاختلاف لما يكون من معاني التكافؤ وخاصة المناسبة. ولهذا كان الشرط في نقد البيان أن يكون من كاتب مبدع في بيانه لم تفسده نزعة أخرى، وفي نقد الشعر أن يكون من شاعر علت مرتبته وطالت ممارسته لهذا الفن فليس له نزعه أخرى تفسده.
وما المجازات والاستعارات والكنايات ونحوها من أساليب البلاغة إلا أسلوب طبيعي لا مذهب عنه للنفس الفنية، إذ هي بطبيعتها تريد دائماً ما هو اعظم، وما هو اجل، وما هو أدق. وربما ظهر ذلك لغير هذه النفس تكلفاً وتعسفاً ووضعاً للأشياء في غير مواضعها؛

ويخرج من هذه انه عمل فارغ، وإساءة في التأدية، وتمحل لا عبرة به. ولكن فنية النفس والشاعرة تأبى لا زيادة معانيها فتصبح ألفاظها صناعة توليها من القوة ما ينفذ إلى النفس ويضاعف احساسها، فمن ثم لا تكون الزيادة في صور الكلام وتقليب ألفاظه وإدارة معانيه إلا تهيئة لهذه الزيادة في شعور النفس. ومن ذلك يأتي الشعر دائماً زائداً بالصناعة البيانية لتخرجه هذه الصناعة من أن يكون طبيعياً في الطبيعة إلى أن يكون روحانياً في الإنسانية. والشعور المهتاج المتفزز غير الساكن المتبلد، والبيان في صناعة اللغة يقابل هذا النحو، فتجد من التعبير ما هو حي متحرك، وما هو جامد مستلق كالنائم أو كالميت، وبهذا لا تكون حقيقة المحسنات البيانية شيئاً اكثر من أنها صناعة فنية لابد منها لأحداث الاهتياج في ألفاظ اللغة الحساسة كي تعطي الكلمات ما ليس في طاقة الكلمات أن تعطيه.

لقد تكلموا أخيراً في جناية الصحافة على الأدب. والصحافة عندي لا تجني على الأدب ولكن على فنيته، فلها من الأثر على سليقة البليغ وطبعه قريب مما كان لحوانيت البقالين في البصرة على طبع ذي الرمة وسليقته. وكلما قرب الصحافي من الصنعة وحقها على الجمهور بعد عن الفن وجماله وحقه على النفس، وهذا واضح بلا كبير تأمل، بل هو بغير تأمل. . .

مصطفى صادق الرافعي

نزع السلاح

للأستاذ محمد عبد الله عنان

سمعنا خلال الأعوام الأخيرة كثيراً عن مسألة نزع السلاح، وعن اللجان المؤتمرات العديدة التي عقدت في جنيف وغير جنيف لبحثها؛ ومنذ أسابيع يدور حديث نزع السلاح في جنيف مرة أخرى، وتعرض مختلف الاقتراحات والتصريحات. ولكن مؤتمر نزع السلاح يعقد هذه المرة في جو قاتم يفيض بالتشاؤم، وسير العلائق الدولية أشد ما يكون اضطراباً، والدول الكبرى أشد ما يكون رغبة في التسليح؛ وليس في مناقشات جنيف ما يؤذن بتفاهم الدول على أية قاعدة أو مبدأ، بل كل ما هنالك يدل بالعكس على أن مفاوضات نزع السلاح غدت مناقشات فقهية عقيمة، تستتر وراءها الدول لتؤكد من الوجهة النظرية نياتها السلمية، بينا هي تتسابق جميعاً في فتح الاعتمادات الحربية والاستزادة من التسليح سواء في البر أو الحر أو الهواء.

وقد كان رأينا دائماً، مذ بدأت أعمال مؤتمر نزع السلاح، أن هذه المناقشات الفقهية لا يمكن أن تؤدي إلى أية نتيجة عملية، وان الدول المتفوقة في سلاحها واهباتها الدفاعية لا يمكن أن تفرط في هذا التفوق مختارة، وان أساليب السياسة القومية لم تتغير كثيراً عما كانت علية قبل الحرب، وما زالت القوة المادية عمادها. ولقد انتهى مؤتمر نزع السلاح أحياناً إلى بعض نتائج عملية خيل للعالم معها أنه سائر إلى تحقيق الغاية المنشودة من عقده، ولكن هذه النتائج لم تتعد الاتفاق على بعض المسائل التمهيدية كأنواع الأسلحة ومعيارها، وتعريف بعض الهيئات العسكرية؛ وأسفرت المفاوضات بين الدول العظمى عن عقد معاهدة تحدد نسب التسليح البحري بينها؛ ولكن هذه المعاهدة لم تحترم ولم تنفذ، ولا تعتبر اليوم سوى قصاصة ورق لا قيمة لها. وقدمت إلى مؤتمر نزع السلاح اقتراحات رسمية عديدة لتخفيض التسليح، فكانت تقابل دائماً حين عرضها ومناقشتها بكثير من التأييد والحماسة، ولكنها لم تسفر عن أي اتفاق عملي.

كانت فكرة نزع السلاح من أجل الفكر التي ظهرت عقب الحرب في أفق السياسة الدولية، وكانت المنافسة في التسليح قد بلغت أثناء الحرب مدى هائلاً استنفد موارد الامم، وحطم، إنتاجها الزراعي والصناعي، وأرهقت من جرائه بصنوف المغارم والاعباء، واضطربت

أحوالها المالية والاقتصادية؛ فكان طبيعياً أن تفكر الدول الكبرى في وسيلة لتخفيف هذه المنافسة وتدارك آثارها المخربة؛ ولم تك ثمة سوى وسيلة واحدة لتحقيق هذه الغاية، هي اتفاق الدول فيما بينها على تحديد التسلح بطريقة تراعي فيها ظروف كل دولة وحاجاتها إلى السلامة والدفاع القومي؛ وظهرت هذه الفكرة في نفس الوقت الذي ظهرت فيه فكرة عصبة الامم، واتصلت بها حتى صارت بعد جزءاً منها، ثم أدمجت في ميثاق العصبة ذاته. وكان قيام عصبة الأمم رمزاً لانتصار الدعوة إلى السلام والوئام بين الامم، والى تغليب التحكم والحسنى في فض المنازعات الدولية؛

وكان تحقيق فكرة نزع السلاح من أهم الوسائل العلمية لتحقيق المثل والأماني السلمية التي علقت على قيام عصبة الأمم. ويجب أن نعلم أن ميثاق العصبة هو قطعة من معاهدة صلح فرساي ذاتها، بل هو الفصل الأول من معاهدة الصلح؛ وفي هذا الميثاق ذاته يذكر مشروع نزع السلاح اكثر من مرة، باعتباره من وسائل تحقيق السلام بين الأمم. واليك النصوص التي وردت بشأنه في الميثاق:

نصت المادة الثامنة من ميثاق عصبة الأمم على (إن أعضاء العصبة يعترفون بان استتباب السلام يقتضي تخفيض التسليحات القومية إلى أدنى حد يتفق مع السلامة القومية، ومع تنفيذ التعهدات الدولية التي يفرضها العمل المشترك.

ومجلس العصبة مع تقديره للمركز الجغرافي والظروف الخاصة لكل دولة، يعد برامج هذا التخفيض لتبحثه وتبث في شأنه الحكومات المختلفة.

ويجب أن نبحث هذه البرامج من جديد، وأن تنقح إذا اقتضى الأمر في كل عشرة (أعوام.

ومتى وافقت عليها الحكومات المختلفة فان نسب التسليح التي تقررت على هذا (النحو لا يمكن تخطيها دون موافقة مجلس العصبة).

ولما كان صنع الذخائر وأدوات الحرب بصفة خاصة يثير اعتراضات خطيرة، فان (أعضاء العصبة يعهدون إلى المجلس بان يتخذ الإجراءات اللازمة لتلافي نتائجه السيئة، مع مراعاة حاجات أعضاء العصبة الذين لا يستطيعون صنع ما يجب لسلامتهم من الذخائر وأدوات الحرب.

ويتعهد أعضاء العصبة بان يتبادلون بمنتهى الصراحة والدقة، كل البيانات المتعلقة (بنسب تسليحاتهم، وبرامجهم الحربية والبحرية والجوية، والظروف التي يمكن بها استخدام
صناعاتهم لأغراض الحرب).

تلك هي القواعد الأساسية التي أدمجت في ميثاق العصبة بشأن نزع السلاح أو تخفيضه. وقد نصت المادة التاسعة من الميثاق على إنشاء لجنة دائمة تمد العصبة بآرائها عن تنفيذ هذه القواعد وعن المسائل العسكرية والبحرية والجوية بصفة عامة. وهذه هي اللجنة الدائمة لمؤتمر نزع السلاح.

ونصت المادة الحادية عشرة على أن كل حرب أو خطر حرب يهم العصبة كلها، وعلى أنه يجب عليها في هذه الحالة أن تتخذ ما يجب لتأييد سلام الأمم؛ ونصت المادة الرابعة عشرة على إنشاء محكمة دائمة للعدل الدولي، وفصلت المادة الخامسة عشرة الإجراءات السلمية التي يجب اتباعها لتسوية المنازعات الدولية بين أعضاء العصبة.

هذا وقد ذهبت معاهدة الصلح في التنويه بنزع السلاح إلى ابعد من هذه النصوص النظرية، وأرادت أن تعطيه صبغة عملية، فقررت في ديباجة الفصل الخامس منها وهو الخاص بنزع سلاح ألمانيا (انه لكي يمكن أن يعد مشروع بتحديد عام لتسليحات جميع الأمم، يجب على ألمانيا أن تنفذ بمنتهى الدقة ما تقرر من النصوص العسكرية والبحرية والجوية) أو بعبارة أخري، جعلت معاهدة الصلح، نزع سلاح ألمانيا مقدمة عملية لنزع السلاح العام، تحذوها بعد ألمانيا جميع الدول الأخرى، والمفروض أن الدول الظافرة التي أملت شروط معاهدة فرساي، ونصت على نزع السلاح، ستكون في مقدمة الدول التي تقوم بتخفيض سلاحها

وكان مشروع نزع السلاح في مقدمة المسائل التي عنيت ببحثها عصبة الأمم؛ ففي فبراير سنة 1921، انتدب مجلس العصبة (لجنة مختلطة مؤقتة) للنظر في تخفيض التسليحات، ولكن هذه اللجنة الأولى لم تستطع أن تتخذ أية خطوة عملية لبحث المسألة؛ وكانت الدول الغالبة ما تزال متوترة الأعصاب بعيدة عن التفكير في النزول عن المراكز الممتازة التي دفعها إليها الظفر، وكانت بالعكس قد بدأت تتسابق في وضع البرامج العسكرية والبحرية الضخمة؛ فلم تر (اللجنة المختلطة المؤقتة) أمامها سبيلاً للعمل، وقدمت تقريرها إلى العصبة بأنه لا سبيل لوضع اى مشروع عملي لتخفيض التسليح ما لم تراع فيه الحاجات السلامة القومية بادئ بدء، ثم وضعت فعلاً مشروع ضمان وتعاون متبادل وافقت عليه

العصبة. ولكنها كانت خطوة نظرية أيضاً، وكان اسطع دليل على عبثها إقدام فرنسا في الوقت نفسه على احتلال وادي الروهر لإرغام ألمانيا على أداء تعويضات الحرب، وما قامت به يومئذ من المظاهرات العسكرية الضخمة. بيد أن الدول البحرية استطاعت أن تتخذ من جانبها خطوة عملية لتحديد التسليحات البحرية، إذ عقدت في واشنطون (سنة 1922) مؤتمراً بحرياً شهدته بريطانيا العظمى وأمريكا وفرنسا واليابان وإيطاليا، وعقدت فيها بينها ميثاقاً حددت فيه نسب التسليحات البحرية لكل منها؛ فكان لهذا الميثاق اثر كبير في تلطيف المنافسة البحرية بينها.

ولما هدأت أعصاب الأمم الغالبة نوعاً وسوي كثير من المشاكل التي خلقتها الحرب، واتخذت مسألة نزع السلاح أهمية خاصة، ولكنها قرنت يومئذ بمسألة القومية والتحكيم باعتبارها مسائل ثلاثة لا يمكن التفريق بينها. وكانت فرنسا دائماً من اشد الدول تمسكاً بالجمع بين المسائل الثلاثة. وأخذت عصبة الأمم بهذه النظرية، وانتهت إلى وضع بروتوكول جنيف الشهير (سنة 1924)، وفيه نص على مشروعية الحرب إلا في بعض الأحوال وعولجت مسألة السلامة ومسألة التحكيم؛ ولكنه رفض من جانب بريطانيا العظمى لأنه لم يعالج مسألة نزع السلاح، ونص من جهة أخرى على جعل عصبة الأمم هيئة دولية لرقابة التسليح نزولاً على النظرية الفرنسية؛ وفي سنة 1925 عقد ميثاق لوكارنو لتأمين منطقة الرين بين ألمانيا وفرنسا وبريطانيا العظمى وإيطاليا، وحلت بذلك مسألة السلامة القومية نوعا، ولكن الميثاق كان محدود المدى والاثار، ولم يتعرض بشيء لمسألة نزع السلاح. بيد أن عقده كان عاملاً كبيراً في صفاء الأفق الدولي، والتقريب بين ألمانيا والحلفاء، وبث روح من التفاهم بين خصوم الأمس لم تعرف منذ معاهدة الصلح.

وكان هذا التفاهم مشجعاً لعصبة الأمم على التقدم في معالجة مشكلة نزع السلاح، خصوصاً بعد أن انضمت ألمانيا إلى العصبة. ففي سنة 1926 انتدبت العصبة لجنة تمهيدية لتنظيم مؤتمر عالمي لنزع السلاح؛ وأنفقت هذه اللجنة جهوداً كبيرة في بحث المسائل الفنية المتعلقة بأنواع الأسلحة والذخائر وعدد الجيوش والجمعيات العسكرية. وبدئ منذ العام التالي بعقد مؤتمر السلاح الذي استمر يعقد كل عام مرة أو اكثر حتى يومنا. ومن المستحيل أن نتتبع في هذا المقام الضيق أعمال مؤتمر نزع السلاح خلال الأعوام الأخيرة،

فهي في الواقع أعمال ومفاوضات تسير في دور لا ينتهي. ويكفي أن نقول انه قدم إلى مؤتمر عشرات المشاريع من مختلف الدول لتخفيض التسليح أو نزعه، وبحثت مسألة السلامة وعدم الاعتداء مراراً ولقيت وعود وتصريحات لا نهاية لها من مختلف الدول، وفي كل مرة تنتهي الجهود والمفاوضات المستفيضة بالفشل المطلق، وفي كل مرة نشعر بحق أن مؤتمر نزع السلاح قد اختتم حياته. وانتهى مؤتمر نزع السلاح الذي عقد في لندن سنة 1930 إلى نتيجة ضئيلة هي عقد اتفاق جديد بين بريطانيا العظمى وأمريكا واليابان على تخفيض التسليح البحري في حدود معينة، أبت فرنسا وإيطاليا أن تدخلا في هذا الاتفاق لتمسك إيطاليا بالمساواة مع فرنسا، وتمسك فرنسا بتفوقها في نسب التسليح البحري.

وفي العامين الأخيرين دخلت مسألة نزع السلاح في دور جديد، وزادت تعقيداً وصعوبة، أولاً لان ألمانيا بعد طول التسويف في نزع السلاح رأت من حقها أن تطالب بالمساواة في التسليح بالاعتماد على نصوص معاهدة الصلح ذاتها إذ اعتبرت تجريد ألمانيا من السلاح مقدمة لنزع السلاح العام كما قدمنا، ومادامت الدول لم تقم بتعهداتها في هذا الشأن فمن حق ألمانيا أن تعود إلى تسليح نفسها كباقي الدول؛ وثانياً لان فرنسا ازدادت تمسكاً بنظريتها في جعل حل مسألة نزع السلاح متوقفاً على مسألتي السلامة القومية والضمان المتبادل بعدم الاعتداء. وقد اشتد الخلاف بين ألمانيا وفرنسا في العام الماضي إلى حد رأت معه ألمانيا أن تنسحب من عصبة الأمم ومن مؤتمر نزع السلاح حتى تجاب إلى وجهة نظرها. وبدأت ألمانيا بالفعل بتسليح نفسها رغم احتجاج فرنسا؛ ودبت روح جديدة من المنافسة بين الدول في تقرير الاعتمادات العسكرية وزيادة التسليحات؛ وحاولت إيطاليا وبريطانيا غير مرة أن تقوم كلتاهما بمهمة الوساطة وتذليل الخلاف بين فرنسا وألمانيا، فذهبت جميع الجهود سدى. وعقد مؤتمر نزع السلاح في خريف العام الماضي في جو قاتم يفيض بالتشاؤم، وظهر منذ

المناقشات الأولى انه يستحيل أن يوفق المؤتمر إلى شيء جديد، فأجل ليتفادى الموت النهائي. وعقد هذا العام، منذ أسابيع قلائل، وعدنا نسمع الحوار العقيم بين مختلف المندوبين؛ وما زالت ألمانيا خارج المؤتمر، ومازالت فرنسا تؤكد إصرارها على تحقيق الضمانات المتعلقة بالسلامة القومية قبل اتخاذ أية خطوة في سبيل نزع السلاح.

لقد استمرت هذه الجهود والمفاوضات العقيمة في نزع السلاح أكثر من عشرة أعوام؛ وربما استمرت حيناً آخر. ولكن المحقق أن مؤتمر نزع السلاح صائر إلى موت لا ريب فيه، وانه لم يكن قط ابعد عن غايته مما هو عليه. ويرجع هذا الفشل قبل كل شيء إلى موقف فرنسا وألمانيا؛ فقد جردت ألمانيا من سلاحها طبقاً لمعاهدة الصلح وانتظرت أعواماً طويلة، وفرنسا وباقي الدول تجد في تسليح نفسها، ولم تتقدم أعمال مؤتمر نزع السلاح تقدماً يذكر؛ وكانت فرنسا بإصرارها خلال هذه الأعوام هي الصخرة التي تحطمت عليها كل الجهود التي بذلت في هذا السبيل؛ ولكن ألمانيا الهتلرية جاءت بسياستها العنيفة فزادت المسألة حرجاً وتعقيداً، وألفت فرنسا في تلك الروح العسكرية التي يبثها النظام الهتلري في ألمانيا، وفي تلك المظاهرات العنيفة التي تجري في ظله، وفي ذلك الوعيد الذي يلقيه زعماء ألمانيا الحاليين هنا وهناك، وما يبرر موقفها في التمسك بسياستها العسكرية والمطالبة بتأمين سلامتها ضد الخطر الألماني.

وهكذا بينما يمضي مؤتمر نزع السلاح في جدله العقيم، إذا بالمنافسة في التسليح بين الدول العظمى تبلغ ذروة الاضطرام، وإذا بسياسة المعاهدات السرية والعسكرية وتعود فتغدو سبيل التوازن الأوربي، وإذا بشبح الحرب يلوح بين آونة وأخرى.

محمد عبد الله عنان

المحامي

عتاب

بقلم محمد قدري لطفي

ليسانسييه في الآداب

كان النبي صلى الله عليه وسلم يود لو انهم اسلموا ليعتز بهم الإسلام، ويدعو الله أن يهبه من لدنه حكمة لعله يصرفهم عن الضلالة أو يجعلهم من المهتدين؛ وكان النبي صلى الله عليه وسلم حريصاً على إسلامهم ملحاً فيه، لان أشخاصهم عند قريش مهيبة، وأسماءهم عند العرب رفيعة؛ فلما دخل عليهم وقد اجتمعوا عنده، حياهم فردوا عليه تحيته، مخلصين أو غير مخلصين، ثم اخذ مكانه بينهم، فكان صمت، وكان جلال رهيب، ولم يلبث أن سرى بين الجمع صوت مهيب، فيه قوة لأنه صوت الحق، وفيه إيمان لأنه وحي القلب؛ وكان الصوت متجهاً نحو عتبة بن ربيعة وأخيه، يقول: أما آن يا عتبة أن تدخل أنت وأخوك شيبة في دين الله؟ ما دعوتكما لأمري ولا لشيء هو من عندي، ونما دعوتكما لأمر الله رب العالمين؛ وهذا كلامه بين يدي فاستمعاه وأصغيا إليه لعله تعالى يهديكما فتكونا من عبادة المسلمين. ولكن عتبة وأخاه لم يلبثا أن جادلاه فجادلها، واخذ النبي منهما وأخذا منه، حتى إذا غلبهما الرسول بمنطقه وقوة حجته، لم يلبثا أن عقد الصمت لسانهما، فالتفت النبي إلى العباس بن عبد المطلب وكان مصغياً يستمتع إلى قوله لابني ربيعة، وقال له انك يا ابن عبد المطلب لو اهتديت بهدى الإسلام وانه من صناديد قريش لاهتدى معك جميع كثير، فلا تكونن بصدك عن دين الله حائلاً بين الناس والجنة، ولا تضربن لقريش مثلاً من الغي والضلال، فتضل وتضل، وأنت حري أن يكون لهم منك هاد معين. فلم يرفع العباس رأسه ولم تتحرك له شفتان، ونما ود لو أن النبي تركه إلى الوليد بن المغيرة أو إلى أمية بن خلف، فلما شعر النبي أن العباس حائر بين عقله وعاطفته، ورآه مطرقاً إلى الأرض، لم يلبث أن تحول عنه إلى أمية بن خلف، قال: يا أمية، ما كان لسادة الناس أن يكفروا بسيد العالمين، الله الذي فضلهم على عشيرتهم وذوي قرباهم، وما كان لك أن تكون لقومك قدوة سوء، لعمر الله ليس بعد الكفر ذنب، وما ينبغي لك أن ترغب عن دعوة الله وتصد قومك عن الدين بإعراضك عنه. قال يا محمد أمهلني يوماً أو بعض يوم، فان الأمر اعسر عندي من يسره لديك. واتجه الرسول إلى أبي جهل بن هشام وكان يجلس بجوار الوليد بن

المغيرة، فقال لهما وقد دنا منهما: أيحق لكما أن تسبقا الناس في الدنيا حتى إذا كانت الآخرة كنتما آخر الناس عند الله؟، الله ما لكما في آلهتكم غناء، وما كنتما لتجعلا رضى الشيطان في عصيان الله. ولكن أبا جهل لم يكن ليصبر كما صبر العباس، أو يسكت كما سكت، ونما جادل النبي في عنف، فجادله النبي في لين، وآثر أبو جهل الحدة، ولم يكن النبي ليتحد. واتجه الرسول إلى القوم جاداً في دعوتهم، ملحاً في اقناعهم، يمنعهم بالوعود يوم الدين، ويحذرهم عاقبة الكفر يوم القامة، وأخذ النبي يفيض عليهم من بيانه، ويشع على القوم قبساً من إيمانه، حتى أقبل الكل عليه يستمعون له ويصغون إليه، وبينما النبي يدعوهم فينصرف إلى الدعوة بكل إيمانه، كان يسعى إليه رجل يتوكأ على عصاه يتحسس بها الطريق إليه حتى إذا بلغ مجلس النبي لم يستمع إليه ولم يلق بالا إلى قوله، ولم يدر أن النبي يدعو صناديد قريش إلى ما دعا الله، ونما بادر النبي يسأله أن أيقرئني وعلمني مما علمك الله؛ وكان النبي عنه في شغل، وكان ضيوف النبي قد تلهوا عنه بما هم فيه، فلم يلتفت إليه أحد، ولم يرد عليه مجيب؛ فقال أقرئني وعلمني مما علمك الله، فلم يكن حظه في الثانية خيراً منه في الأولى، والرجل واقف في مكانه لا يريم، ملح في طلبه لا يسأم، فأخذ يعيده، وطفق يكرره، حتى كره النبي صلى الله عليه وسلم أن يقطع عليه الحديث، وأي حديث، أو يلقى عليه قول ولما ينتبه من قوله، فعبس في وجه الرجل وأعرض عنه، ولم يلبث النبي أن انصرف القوم من عنده، فيهم الذي أوشك أن يقتنع، وفيهم الذي مازال متبرماً بالدعوة ساخطاً، وفيهم الذي ينكر على الرسول قوله، وفيهم الذي يحب أن يتريث في الأمر فلا يقطع فيه برأي؛ وكان النبي قد ظن انه بالغ منهم في يومه ما لم يبلغه في أمسه، وانه لابد اليوم مقنعهم حتى يسلموا، فلم يدر بعد ذهابهم ماذا اخذ عليه نفسه وقد كانت معه وله؟ ولا كيف ضاق صدره وقد كان واسعاً لا يضيق بشيء ولا يتبرم بسوء؟ وشعر النبي بحرج لم يدر ما هو ولا من أين اتاه، فقد كان عند أمر ربه يؤدي الرسالة في صدق وأمانه، لم يدع سبيلاً لهداية القوم إلا سلكها، أو باباً إلى قلوبهم الغليظة إلا طرقه؛ ولم يلبث النبي إذ خلا لنفسه أن أحس بما يحس به حين يريد الله أن يبعث إليه بحديث أو ينزل عليه شيئاً من آية، وإذا الوحي له لا للمسلمين، وإذا القول له لا للمشركين، وإذا الله عاتب عليه يقول انه: (عبس وتولى أن جاءه الأعمى) ،ويقول له (وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى أما من استغنى فأنت له تصدى وما عليك ألا يزكى) وإذا ربه يلومه ويقول في لومه (وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى، كلا إنها تذكرة). عند ذلك ذكر النبي قوم قريش وما كان بينه وبينهم من حديث، وهتف هاتف كأنه عمرو بن قيس يقول: أقرئني وعلمني مما علمك الله، وتصور النبي حال الرجل يسأل وليس من مجيب، ويقف وليس من يأذن له بالجلوس؛ ولكنه لم يكن يدري انه أساء إلى الرجل أو قصد إلى إساءته، فليس النبي من يسيء إلى أحد، وليس النبي من يصد عن الناس بله عن السائلين، ونما شغله أمر ربه فاشتغل عن عمرو واقبل على سادة قريش، فألهاه حرصه على إسلامهم وهم كفرة عمن إسلم، ونما يريد أن يقرأ وأن يستزيد من العلم. وبات النبي ليلته مسهد الجفن قلقاً، يفكر فيما سمع من ربه، وفيمن عبس بالأمس في وجهه، واعرض عنه، حتى إذا طلع الفجر كان النبي يلتمس ابن أم مكتوم يلقاه هاشاً باشاً، يسلم عليه ويشد على يده ويقول له: مرحباً بمن عاتبني فيه ربي؛ وكان النبي يلقاه بعد ذلك فيكرمه ويسأله حاجته، وكأنما أراد الله أن يصبح إعراض النبي عنه إقبالاً عليه، وان يغدو عبوس النبي في وجهه بشاشة له وارتياحاً للقائه، وإذا عمرو ابن قيس مؤذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وإذا عمرو بن قيس خليفة رسول الله على المدينة، لم يستخلفه النبي عليها مرة أو مرتين، ونما استخلفه عليها في غزواته ثلاث عشرة مرة، وإذا النبي يخرج إلى الحجة الوداع فلا يستخلف على المدينة إلا عمرو بن قيس. وكان حقاً قول المصطفى: أدبني ربي فاحسن تأديبي

محمد قدري لطفي

استدانة إسماعيل باشا

(م - 1879 م 1863)

بقلم عبد العزيز عبد الكريم

إن ما قام به إسماعيل باشا من جليل الأعمال لا يضارع، وما تم في عصره من

المشروعات والإصلاحات العامة لا يتسنى لأي حاكم آخر في مركزه أن يأتي بمثلها. بيد أن خطأ إسماعيل باشا كله يرجع إلى السرعة وتعدد المشروعات، وفرط الثقة بدهاة أوربا السياسيين والماليين، وعدم الاحتياط في الإنفاق على الأعمال، وخلو البلاد من المستشارين المخلصين.

أسباب الاستدانة:

كانت زيادة الثروة في البلاد في أوائل حكم إسماعيل بسبب ارتفاع أثمان القطن المصري لنشوب الحرب المدنية في أمريكا في ذلك الوقت أول عامل على تشجيع الوالي في سياسته، فعقد قرضاً كبيراً لتوهمه أن الحرب ستستمر طويلاً، ولكن الحرب وقفت فجأة في عام 1865م. ولم يقف إسماعيل باشا عند هذا الحد بل أخذ يعقد القرض بعد القرض، بشروط فادحة حتى عجز عن سداد الدين بل عن فوائده التي بلغت الخمسة أو الستة ملايين من الجنيهات في العام.

وكان إسماعيل يجد من أوربا التشجيع في سياسة الاقتراض طمعاً في ثروة مصر، ولأن كبار الماليين كانوا يبحثون عن البلاد الصالحة لاستثمار رؤوس أموالهم فيها، فوفد الكثيرون منهم إلى الإسكندرية في أوائل حكم إسماعيل، وأسسوا فيها الشركات، واخذوا يتصلون بالوالي، ولجأ كثير من الأجانب في ذلك الوقت إلى مصر لطلب الرزق، وقد أخذت مصالح الأوربيين تنتشر في مصر من ذلك الوقت.

وبعد أن فتحت قناة السويس التي أصبحت أهم طريق للمواصلات بين الشرق والغرب وظهرت مطامع إنجلترا وفرنسا الاستعمارية نحو مصر، فأخذتا تتنافسان في استغلال مصر وامتلاكها

وكان إسماعيل مسرفاً في الواقع، فكان ينفق الأموال الطائلة في إكرام الضيوف الأوربيين،

والهدايا، والقصور، والحفلات وغير ذلك؛ ولكنه انفق معظم الأموال التي حصل عليها في الإصلاحات، وكان إسماعيل سليم الطوية، على حين أن دهاة أوربا كانوا ينصبون له الحبائل بطرق غير شريفة.

ديون إسماعيل باشا:

كانت ديون إسماعيل ثابتة وسائرة؛ فالثابتة هي القروض المحدودة التي عقدها في بنوك إنجلترا وفرنسا، وقد بلغت حتى عام 1868م نحو 20. 000 , 000 من الجنيهات، وتراكمت عليه الديون السائرة الصغيرة المستحقة الدفع، فكان يجددها بفوائد باهظة حتى بلغت ثلاثة أو أربعة أضعاف المبلغ المقترض.

وفي عام 1868م ابتدأت الحكومة تتوقف عن دفع مرتبات الموظفين، فأخذ مركزها المالي يتزعزع، وكانت الضرائب تجبى مقدماً، فساءت أحوال البلاد، فأصدر الباب العالي في تلك السنة فرماناً يحرم تقديم أي قرض إلى مصر بدون استئذان الحكومة التركية، لكن إسماعيل عقد سلفة جديدة برهن إيرادات أملاكه الخاصة ومقدارها 7 ملايين من الجنيهات بفائدة 13 % فاحتج الباب العالي على ذلك لدى الحكومة الإنجليزية.

واستمرت الحكومة في عقد القرض إلى ان اقترح إسماعيل صديق (المفتش) وزير المالية في عام 1868م فكرة (المقابلة) وكان المقصود منها أداء ديون الحكومة كلها، وذلك بان يقوم الأهالي بدفع ضرائب ستة أعوام مقدماً نظير إعفائهم من نصف الضريبة بصفة دائمة. فحصلت الحكومة على 8. 000 , 000 من الجنيهات ولكن الدين الثابت بلغ في ذلك الوقت 27. 000 , 000 من الجنيهات؛ ولشدة حاجة الحكومة إلى المال الوفير لسداد بعض الديون عقدت سلفة جديدة تبلغ 4. 000. 000 من الجنيهات.

وسافر إسماعيل باشا إلى الأستانة وحصل من الباب العالي في عام 1872م على فرمان خول له حق عقد القروض بدون قيد ولا شرط، فرجع الوالي إلى مصر فوجد الحكومة في ضائقة شديدة فعقد سلفة مع أحد البيوت المالية الإنجليزية مقدارها 32. 000 , 000 من الجنيهات بفائدة 8 %.

وقد باعت الحكومة المصرية أسهمها في القناة بثمن بخس لإنجلترا، وكانت هذه الصفقة اكبر غلطة سياسية ومالية ارتكبها إسماعيل باشا في حياته.

بعثات حكومات أوربا:
(1) بعثة كيف: وبعد مضي أيام قليلة على شراء الأسهم تألفت لجنه إنجليزية برئاسة (كيف) لدرس الحالة المالية في مصر في عام 1876م، وكان هذا العام بدء التدخل الفعلي في مصر وإرسال البعثات المختلفة التي كان الغرض منها إصلاح الإدارة بوضعها تحت المراقبة الأوربية ضماناً للدائنين.
وقد اقترح (كيف) توحيد الديون المصرية كلها على أساس فائدة معتدلة تتناسب وحالة البلاد، وتأجيل الاستحقاقات لخطورة الحال، ووضع الإدارة المالية تحت رقابة أحد رجال المال الإنجليز في ذلك الوقت، ولكن إسماعيل لم يوافق على هذا النشاط الأخير واتفق مع الماليين الفرنسيين واصدر في مايو مرسومين بإنشاء (صندوق الدين العمومي) وتحويل جميع الديون السائرة والثابتة إلى دين موحد بفائدة 7 %؛ وقد عين في صندوق الدين مندوبون عن الحكومات الفرنسية والنمساوية والإيطالية.
(2) بعثة جوش: وقد امتنعت الحكومة الإنكليزية عن تعيين مندوب لها، وعارضت المشروع في بادئ الأمر، ثم تم الاتفاق على إرسال بعثة مؤلفة من (جوش) ممثلاً للدائنين الإنكليز ،و (جوبير) ممثلاً للدائنين الفرنسيين لإجراء تصفية عامة واصطحب تلك البعثة سياسيون من ذوي الخبرة لتمثيل إنجلترة وفرنسا في مصر، ووضع قواعد المراقبة الثانية (كوندومنيوم).
وقد كانت أهم نتائج بعثة (جوش - جوبير) المالية إيجاد دين ممتاز قدرة 17. 000 , 000 من الجنيهات بفائدة 5 % وتخفيض الدين الثابت إلى 59. 000 , 000 من الجنيهات بفائدة 7 % فأصبح مجموع ما يدفع من فوائد الدين سنوياً لا يبقي لمصر من الإيرادات ما يكفي للأنفاق على الإدارة وتعهد الأعمال الهامة مثل الري وغيرها التي هي عماد الثروة في البلاد.
أما نتائج البعثة السياسية فتتلخص في نظام المراقبة الثانية (الكوندومنيوم) الذي يشكر إنجلترا وفرنسا في إدارة مصر على الوجه الآتي:
(أولاً) بتعين مراقبين إنجليزي وفرنسي عامين للمالية المصرية.
(ثانياً) بتعيين مندوبين من الأجانب للدين العام تعرض أسماءهم الحكومات الأجنبية على الحكومة المصرية، وتنحصر مهمتهم في تسليم إيرادات الجهات المرهونة ضمانة لسداد أقساط الدين السنوي من يد مراقب الإيرادات العام، وتسليمها لبنكي إنجلترا وفرنسا، واتخاذ الإجراءات اللازمة لاستهلاك ذلك الدين.
(ثالثاً) بتعيين مندوبين آخرين لإدارة مصلحتي السكك الحديدية وميناء الإسكندرية، مصريين وفرنسي وإنجليزيين تحت رياسة العضوين الإنجليزيين. وتنحصر مهمتهم في تسليم إيرادات هاتين المصلحتين إلى مندوبي الدين العام وذلك علاوة على الأشغال الإدارية.
(3) بعثة ريفرس ولسن: ظلت إدارة البلاد وأحوالها وماليتها في ارتباك مستمر، وعمت الشكوى فطلب إسماعيل باشا إرسال بعثة جديدة فأصدر في عام 1878م مرسوماً يقضي بتعيين (لجنة للتحقيق) تحت رياسة المسيو دي لسبس لفحص الحالة المالية فحصاً دقيقاً، وفوض لهذه اللجنة السلطة المطلقة لإجراء ما تراه كفيلاً لتحقيق الغرض الذي أنشئت من اجله.
وقد تألفت هذه اللجنة وكان وكيلاها السير ريفرس ولسن ورياض باشا وأعضاؤها مندوبي الدول الأربعة في صندوق الدين، وكان رئيسها الفعلي ريفرس ولسن. وقد رفعت اللجنة تقريرها التمهيدي إلى الخديو وطلبت أن تدفع إلى الموظفين مرتباتهم، وختمت تقريرها بقولها (إن الحاكم الأعلى يتمتع بسلطة لا حد لها).
وبناء على ذلك كلف إسماعيل بتكوين وزارة مسئولة، فأصدر مرسوماً في 28 أغسطس عام 1878م بتأليف وزارة برياسة نوبار، وريفرس ولسن في المالية، ودي بلينيير المراقب المالي الفرنسي في الأشغال.
وألغيت المراقبة الثنائية التي قام عليها (الكوندومنيوم)، وضمنت إنجلترا لنفسها النفوذ

الأول في الوزارة الجديدة، وبذلك انتقل الحكم المطلق من إسماعيل إلى الأجانب أو إلى السير ريفرس ولسن وزير المالية الإنجليزي.
وقد واصل ولسن خطة إسماعيل فعقد قرضاً جديداً مع بيت روتشلد مقداره 8. 500. 000 من الجنيهات بضمانة أملاك الخديو، واستخدمت الوسائل القديمة في جباية الضرائب، فعم البؤس البلاد. وأخذ السير ريفرس السير ولسن يفكر في تسوية الدين بطريقة نهائية بعد أن تحققت أغراض السياسة الإنجليزية، وانتزع السلطة من يد الحاكم الشرعي؛ فاقترح على إسماعيل إعلان إفلاسه وتأجيل دفع بعض الديون وتخفيض الفوائد الفادحة إلى 5 % بيد أن هذا الحل جاء بعد ما ساءت أحوال البلاد وتدخل الأجانب في شؤون المصريين، فثارت حمية القومية في نفوس المصريين، واضطر إسماعيل إلى المقاومة فعز الوزارة الأوربية في عام 1879م، وعين وزارة وطنية بحتة برياسة شريف باشا.
وقد اشترك إسماعيل باشا مع نواب الأمة في وضع خطه مالية جديدة، وكانوا هم الضامنين لها، ولكن الدول لم تغفل عن هذه الإهانة، فسعت لدى الباب العالي إلى أن تمكنت من عزل إسماعيل في عام 1879م.
وكان من الممكن حل الأزمة المالية بوضع الإدارة تحت رقابة مالية أو أوربية كما حصل عند إنشاء صندوق الدين؛ ولكن طمع إنجلترا وفرنسا أدى إلى تحويل المسألة المالية إلى مسألة سياسية وحال دون انفراج الأزمة. وختمت الكارثة بقانون التصفية في عام 1880م والاحتلال في عام 1882م.
إسكندرية
عبد العزيز عبد الكريم
مشروع القرى
الأمية في مصر والعالم
للأستاذ محمد مظهر سعيد
أستاذ علم النفس بمعهد التربية وكلية أصول الدين
الأمم كالأفراد، تقاس مدنيتها ومبلغ رقيها وتقدمها بمقاييس معقولة، لعل اصدقها حكماً وأصحها نظراً - وإن كان أقساها وأبعدها عن التحيز - مقياس الأمية. ولا أخال فرداً واحداً من أبناء النيل المخلصين لبلادهم، الذين لم تفسد النزعة الوطنية الجانحة حكمها على الأشياء، وتقديرهم للظروف، يكاد ينكر أن مصر على الرغم مما بلغته من الرقي المطرد في عصرها الحاضر الزاهر، وأخذها بجميع أسباب المدنية في العالم لا يزال ينظر إليها بغير العين التي نرضى أن ينظر لبلادنا بها، مادامت وصمت الأمية عالقة بجبينها، وظل الجهل مخيماً على السواد الأعظم من أهلها.
ولقد أصبحنا الآن في زمن يشعر فيه الرجل الذي لا يعرف القراءة والكتابة ومبادئ الحساب - مهما كان نابهاً مستنيراً واسع الخبرة والاطلاع - أنه تحت رحمة المتعلم، بل هو قدي يكون في اغلب الأحيان تحت رحمة الطفل الصغير في الكتاب الذي لا يستطيع أن (يفك الخك) إلا في صعوبة وعسر؛ فإذا أراد أن يحرر خطاباً لأحد أقاربه أو معارفه في جهة بعيده، أو يكاتبهم في مسألة هامة لا قبل له بتأجيلها إلى زيارة أو مقابلة فيتحدث عنها شفوياً، أو إذا أراد أن يحسب حسبة بسيطة مستعجلة كبيع القطن أو المحصول، أو تحرير مستند هام يضمن له حقوقه، أو الرد على إشارة من المركز أو العمدة، وجده نفسه مضطراً إلى ارتكاب الصعب، وإراقة ماء الوجه في استعطاف من يستطيع أن يقوم له بهذه الخدمة البسيطة من أهل القرية، ويكافئه عليها بما يزيد على قيمتها من اجر أو كلمات الشكر على الأقل. ولذلك يشعر رجال القرية جميعهم بأنهم مدينون بالشكر طول حياتهم لفقيه الكتاب، أو مأذون القرية، أو كاتب المحكمة، أو المجاور الأزهري القديم، أو غيرهم ممن يقضون لهم هذه الحاجات ولو بلغة ركيكة وعبارة سقيمة. فإذا انتقل من هذه الأمور البسيطة إلى أمور اشد خطراً واعظم قيمة، كتحرير عقد بيع وتسجيله، والإطلاع على منشورات الداخلية وأوراق الانتخابات، وتعليمات وزارة الزراعة عن الطيور والحشرات، ونشرات مصلحة الصحة عن الأمراض المتفشية وطرق مكافحتها. كانت المهمة اشق، وإراقة ماء الوجه اشد، والمكافأة المالية اكبر. وكثيراً ما يدفع الفلاحون - بل قل العمد والمشايخ - الجنيهات الكثيرة في هذه الأزمة الطاحنة أجراً للكاتب العمومي، أو

مندوب المحضر الذي يقوم بتحرير محضر البيع، أو العقد، أو الشروط الوقفية؛ على ما في هذا كله من خطر كبير. فقد يحدث أن يكتب الكاتب شيئاًغير الواقع، أو يزور في العقد شيئاً لمصلحة الخصوم، فيشتري الرجل عقاراً غير موجود، أو حقلاً تقل مساحته عن المساحة الأصلية بكثير. والرجل مسكين يقبل هذا في حينه بالبركة، ثم يضع الختم أو يبصم ولا تنكشف له الحيلة إلا بعد أن يكون العقد قد استوفى سائر الإجراءات القانونية التي تجعل مطالبته بحقه أمام الناس والمحاكم أمراً عسيراً. ناهيك عن العلم بالمخترعات وما جريات الامور، وتتبع الحوادث وتذوق طعم الفن والأدب، مما يجعل رقي الأمة حقيقة ملموسة.

ويكفي أن ندلل على أهمية تثقيف الأمة، وان الجهود التي تبذل في هذا السبيل مهما كانت جبارة ومضنية ومستنفذة لمالية الدولة، ومهما كانت العقول جامدة، والقرائح مطموسة، والشعب نفوراً بطبيعته من التعليم؛ لا يمكن أن تذهب سدى، ولا بد أن تأتي آكلها بعد حين. أنا نذكر المصريين بان الأمم لا تقاس ثروتها بمقدار ما يملكه أغنياؤها من مال، ونما بمقدار نصيب كل فرد من أفرادها عامه وخاصة من هذا المال ومن الثروة القومية، فهي كذلك من الناحية العلمية لا تقاس ثقافتها ومدنيتها ورقيها بعدد من فيها من كبار المتعلمين، ونما بمقدار ما ينال كل فرد من أفرادها من مجرد التعليم الأولى. فالأمة التي يحسم كل أبنائها مجرد فك الخط هي افضل من المستوى الاجتماعي الدولي، وأرقى حضارة وأسرع تقدماً، واجدر بالاعتبار من أمة عشرها علماء وتسعة أعشارها أميون.

فلا عجب إذا تسابقت الأمم القوية الناهضة في سبيل تعميمه لكل أبنائها وإجبارهم عليه بالقانون من بدء طفولتهم، وتسهيل سبل تحصيله إلى آخر مراحله، وأرقى درجاته للنابهين الممتازين من أبناء العامة والدهماء من غير أن تكلفهم شيئاً، أو تثقلهم بالنفقات، ولو استنفذت جل مواردها ومخصصاتها. وما على المتشكك إلا أن يلقي نظرة واحدة على جدول الأمية في العالم، وان يقابل بين نصب الأمم الأخرى التي كنا نحسب أنفسنا ارقي

منها تعليما وأسرع منها تقدما. ناهيك بالأمم العظمي كإنجلترا وفرنسا وألمانيا والولايات المتحدة واليابان وإيطاليا التي محت أو كادت تمحو وصمة الأمية عن جبينها، فتحكم الأرقام الناطقة الصادقة علية وعلى حكما لا يرضاه، ويكفيه أن يعرف أن مصر ذات المجد الأثيل والتاريخ المجيد النبيل قد دار بها الزمن دورته، فأصبحت في القرن العشرين اقل شأناً وأبطأ تقديماً من شيلي وجبل طارق وارجنتينا وباراجواي وتركيا وحتى كوبا واليونان وسيام. ويهوله الأمر إذا قارن نسبة التلاميذ في مصر إلى من هم في سن التلمذة وهي (12. 4 %) بالسويد وهي (98 %) وتشيكوسلفاكيا وهي (60 %) وحتى بلغاريا وهي (31) واليونان وهي (31 %) وكولومبيا وهي (17) والبانيا وهي (25 %).

ولا ضير علينا من اتخاذ نسبة التلاميذ دليلاً على الأمية مادامت نسب الأميين ذاتهم في ممالك العالم المختلفة تعوزنا.

إحصائيات التعليم العالم

الدرجة

البلد

نوع التعليم

سن التعليم

عدد السكان

عدد التلاميذ

عدد في سن التلمذة

النسبة لسن التلمذة

النسبة لعدد السكان

1

الدنمارك

م ج

6 - 14
3. 441
758
23 %
2
كندا
م
9. 504
2. 052
3. 000
68
21
3
هولنده
ج
7 - 16
6. 865
1. 346
2. 377
58
20
4
ارلنده
م ج
6 - 14
3. 000
547
920
58
18
5
تشيكوسلوفاكيا
م ج
6 - 14
14. 000
2. 400
4. 000
60
17
6
لكسمبورج
261
43
70
61
16
7
النرويج
ج

7 - 14
2. 650
418
904
46
16
8
سويسره
م ج
6 - 15
3. 891
610
1. 083
57
16
9
إسبانيا
م ج
6 - 14
21. 000
3. 152
15
10
شيلي
م ج
3. 754
570
15
11
جبل طارق
ج
5 - 14
17
ب 3
15
12
النمسا
م ج
6 - 14
6. 536
866
1. 533
51
14
13
ارجنتينا
م
6 - 14
مليون 10

ألف 1. 204
14
14
بولنده
م ج
7 - 14
29. 249
3. 586
12. 000
30
12
15
بلغاريا
م ج
7 - 14
5. 484
667
1. 751
31
12
16
باراجواي
ج
7 - 14
800
89
11
17
السويد
ج م
7 - 14
6. 000
705
725
98
11
18
تركيا
م ج
7 - 14
13. 000
1. 331
11
19
مالطة
م
225
22
10

20
بلجيكا
ج
6 - 14
7. 812
833
1. 953
43
10
21
لاتفيا
1. 845
199
550
36
10
22
كوبا
م ج
6 - 14
3. 470
ب 320
9
23
كوستاريكا
م ج
498
ب ت 42
8
24
اليونان
ج
6 - 10
6. 600
532
1. 718
31
8
25
بناما
ج
7 - 15
442
35
8
26
بوراجواي
ج
5 - 14

1. 678
129
8
27
اسلننده
م ج
10 - 14
954
7
7. 3
28
المكسيك
م ج
6 - 12
14. 131
975
7
29
الصرب
م ج
12. 000
856 ب ت
7
30
سيام
م ج
9. 831
617
6
31
مصر
م ج
14. 178
842
6. 775
12. 4
5. 7
32
لتوانيا
م ج
7
2. 230
124
650
19
5
33
كولومبيا
7. 000

ب 361
2. 168
17
5
34
اكوادور
م ج
6 - 12
2. 000
109
5
35
جواتمالا
م ج
6 - 14
2. 000
97
758
13
4. 5
36
رومانيا
م ج
7 - 15
17. 393
738
4. 3
37
البرازيل
م
31. 000
1. 270
4
38
البوغاز
ج م
961
40
4
39
ملقا
ج
1. 147
61
349
18
3. 7
40
البانيا

م
6 - 14
850
32
125
25
3. 6
41
الكونغو
8. 000
265
2. 550
10
3. 5
42
سلفادور
ج
7 - 14
1. 582
49
3. 1
43
البرتغال
م
7 - 15
6. 000
183
3
44
الهند
319. 000
9. 600
123. 000
7. 8
3
45
بوليفيا
ج م
ب
3. 660
84
2. 6
46
هايتي
م ج
2. 500
48
2
47

بيرو
م ج
7 - 14
6. 000
ب 107
1. 5
48
الصين
343. 000
4. 000
1. 2
49
ليبريا
ج
1. 750
9
12
(ج) متوسط (و) ثانوي. (ث) ابتدائي. (ب) مجاناً. (م) تعليم إجباري.

هذه الحقائق الملوسة هي التي جعلت جماعة مشروع القرى يؤمنون بأن التعليم هو أس التقدم وسبيل الرقى، وكل ما عداه ثانوي لاحق. وأهابت بهم أن يجعلوا نداءهم فوق كل نداء، وعملهم الزم لمصر من كل عمل، فقاموا زرافات ووحدانا منظمين ومتطوعين يحاربون الأمية في القرى بكل ما لديهم من حول، وما يستطيعون من سبل، وأيدهم الله بروح من عنده، وثبت أقدامهم في جهادهم، وقوى ايمانهم، وانجلت تجربتهم الأولى في صيف العام الماضي عن تعليم أربعين ألفاً من القرويين، ردهم المتطوعون إلى حظيرة النور، واخذوا بيدهم في سبيل الحياة. وها نحن أولاء نوطن النفس على أن نتعاون مع وزارة المعارف في جهادها العظيم لنشر التعليم الإلزامي، والعمل معها جنباً لجنب تاركين لها من هم في سن التعليم مركزين جهودنا فيمن فاتتهم الفرصة من البالغين. ولكن سيل الأمية جارف وتيارها قوي في أمة كمصر فيها من الذكور البالغين الأميين ممن تجاوزا التاسعة عشرة وفاتوا سن التعليم 79 % أي حوالي 2. 853 مليون من مجموع الذكور البالغين 3. 585 ناهيك بالبنات والنساء الأميات اللاتي لم ندخلهن في حسابنا هذا. تصور بعد مراجعة جدول الأمية في محافظات القطر المصري ومديرياته مبلغ ما سيجده مشروع القرى من صعوبات جمة وما يحتاج إليه من جهود جبارة في مكافحة الأمية في مديرية كأسوان تبلغ فيها نسبة الأمية بين الذكور 91 % وأسيوط 90 % وجرجا وقنا وغيرها.

ولا يحسبن أحد أن انتشار التعليم الإلزامي سينجح وحده في قطع دابر الأمية في عشر سنوات لان المدارس محدودة وعدد الذكور كثير. أو، ن التوسع في سياسة التعليم في مراحله الأخرى يخفف الوطأة. فجملة التلاميذ الآن 655 ألفاً من الذكور أي حوالي 27 % من مجموعة الأحداث الذين في سن التلميذة من 5 - 19. البالغ عددهم 2. 487 مليون والمدارس الأولية بأنواعها فيها 470 ألفاً. وسينضم المتخلفون من الأحداث الذين لا تتسع لهم مدارس التعليم الإلزامي عاماً بعد عام إلى مجموع البالغين الأميين مادامت قد فاتتهم فرصة التعليم. ودليلنا على ذلك انه مع ارتفاع نسبة الأمية في مصر وعلى الرغم من التوسع في إنشاء المدارس فقد زاد تلاميذ المدارس من جميع أنواعها 18735 تلميذاً في مدى أربع سنوات من سنة 1927 إلى سنة 1931. خص التعليم الإلزامي منهم 7370 تلميذاً وتلميذة فقط أي نسبة 1. 5 %.

(جدول تعداد الذكور الأميين من سن 19 فما فوق)

المنطقة
عدد الذكور
عدد الملمين بالقراءة والكتابة
عدد الأميين

نسبة الأميين للذكور
القاهرة
321786
152110
169676
53 %
الإسكندرية
168766
85159
83607
50 %
القنال
38353
13425
24928
66 %
السويس
13320
5696
7624
57 %
دمياط
8378
896
7282
87 %
الحدود
29826
3712
26114
87 %
مديريات الوجه البحري
البحيرة
220696
42126
178570
81 %
الدقلية
250112
55630
194482
71 %
الشرقية
242836
51677
191159
78 %
الغربية
409485

80592
328873
80 %
القليوبية
143893
25697
118196
82
المنوفية
278397
51286
227101
72 %
مديريات الوجه القلبلي
اسوان
60755
5150
55605
91 %
اسيوط
281251
27083
254188
90 %
بني سويف
131498
18358
113140
87 %
جرجا
239871
23651
216220
90 %
الجيزة
152692
19768
132924
85 %
الفيوم
141542
32830
108892
77 %
قنا
230630
22371
208259
90 %

المنيا
221485
35450
186035
84 %
الجملة العمومية
3. 584. 983
732061
2. 852. 922
79 %
فإذا أضفنا مجموع الأميين من الذكور البالغين (سن 19 فما فوق) وعددهم 2. 853 مليوناً إلى المتخلفين عن المدارس من الأحداث (سن 5 - 19) وعددهم الآن 1. 823 مليوناً وما يستجد عليهم ممن لا تتسع لهم مدارس التعليم الإلزامي من الأحداث الذين تقل سنهم عن
خمس وأسقطنا من يموتون هؤلاء يكون لدينا على اقل تقدير خمسة ملايين من الذكور البالغين الذين يحتاجون إلى معونة مشروع القرى، فإذا صحت النية على قطع دابر الأمية في مصر بين الذكور البالغين في سن 15 سنة ولا أقول عشر أو سبع سنوات يكون لدينا في كل عام حوالي 300 ألف قروي يحتاجون على اقل تقدير إلى 15 ألف متطوع من التلاميذ المدارس الثانوية والعالية والأزهر وغيرهم ممن يهمهم مستقبل مصر وسمعتها يعلم كل منهم عشرين قروياً.
فلا عجب إذا رفعنا صرختنا عالية داويه في القطر من أقصاه إلى أقصاه نطلب المتطوعين.
فيا أيها المصريون المخلصون لبلادهم. المعترفون بما لها عليهم من جميل. العارفون مالها في أعناقهم من دين بادروا بالتطوع. وسارعوا إلى سداد الدين. يرده الله لكم أضعافاً مضاعفة
وما استحق الحياة من عاش لنفسه فقط.
ملاحظة: إحصائيات التعليم في مصر استقيتها من الأرقام التي أمكنني الانتفاع بها من إحصاء سنة 1927م وهو الأخير. ولذلك حرصت على أن تكون أرقام الأمية في العالم من إحصاء 1927م أو يقرب منها لبلاد العالم حتى تكون المقارنة صحيحة على قدر الإمكان.
مشروع القرى
روح الاجتماع تدعو إليه فيلبيها الشباب
للأستاذ محمد فريد وجدي
ما تمخضت أفكار المصلحين بشيء اكبر اثراً، واجل خطراً، تمخضها بمشروع تعليم أهل القرى بوساطة النجباء من أهلها من طلبة الجامعة وسائر المدارس في هذه البلاد، فان مصر التي تتوثب الآن للحصول على مكانتها بين الأمم الراقية، وتحاول أن تسرد مجدها التاريخي الأقدم، لا تستطيع أن تحقق أمانيها القومية هذه وتسعة أعشارها أميون لا يعرفون من أمر الوجود إلا ما تدعوهم إليه الحاجات الجسدية، فأما النواحي العقلية وما يتجلى فيها من ثمرات البحوث الأدبية، وما تنكشف فيها من أسرار الوسائل العلمية، والأصول الإصلاحية، والمبادئ الاجتماعية والعمرانية، فهم بمعزل عنها، وإذا كلفوا بشيء منها لم يفقهوا له حكمة فلا يندفعون فيه عن اقتناع وروية. ألم تضطر الحكومة إلى الاعتماد على نوع من الإجبار حين نصت للفلاحين بجميع الديدان من شجيرات القطن وإبادتها، فتلكأوا فيها لاعتبارات خرافية حتى اضطرت لإنفاق أموال طائلة لمراقبتهم في القيام بهذه المهمة؟ أما تذهب اكثر النصائح الطبية سدى فيما يختص بوجوب تصفية مياه الشرب وفي عدم التبرز في المياه الجارية اتقاء لمرض البلهارسيا والانكلستوما اللذين يفتكان بهم فتكا ذريعا؟ ألم تفشل اكثر المحاولات التي أريد بها تخليصهم من العادات السيئة والتقاليد الضارة، حتى ولو جاءتهم من ناحية الدين الذي يقدسونه ويتفانون في المحافظة عليه؟
وكيف كانت تروج حيل الدجالين، وأحابيل المتطببين، إذا كان القرويون يقرأون ما

يكتبه عنهم العارفون، وما تنشره الجرائد عن جرائمهم في العواصم والأقاليم؟
أن الجو القاتم الذي يعيش السواد الأعظم من الأميين فيه يجعل منهم كتلة متحجرة لا تستطيع بل ولا تفكر في أن تتابع خطوات المتعلمين في التقديم إلى الأمام، فيكون مجموع الأمة في حالة تخاذل: بعضه يحاول السير ويقدر عليه، وبعضه جامد حيث هو لا يستطيع انتقالاً من مكانه، بل الخير كل الخير في الإقامة على ما وجد أبويه عليه، فان حاول أن يتشبه بالمتعلمين خيل إليه أن ذلك يكون بتقليدهم في بعض القشور فيشذ عن الجماعتين، وينتهي أمره إلى حالة من الضياع يضطر معها أن يلتحق بالمجرمين ليعيش.

كل ما في الوجود يحفزنا لان نقضي على الأمية في بلادنا بكل الوسائل الممكنة، فالحكومة سائرة في طريقها من ناحية، ولكن أعباء تفريج الأزمة الاقتصادية قد لا يسمح لها ببذل الوسع في هذا السبيل، فلا بد من عامل جديد يتناول ما لا تمتد يدها إليه، وهذا العامل هو ما فكرت فيه الشبيبة المتعلمة تحت قيادة رجال مثقفين من العمل على تعليم القرويين، وتقويم أخلاقهم، واشراكهم في ثمرات العرفان الذي نالوه، ليكون اتصال أجزاء المجتمع بعضه ببعض حاصلاً ومنتجاً للغاية التي تتوخاها جميعاً، وهي أن تأخذ الأمة المصرية مكاناً بين الأمم يسمح لها أن تشاطرها العمل في خدمة الإنسانية، وإبلاغها أقصى ما ترجوه من الكمال العالمي المنشود.

هذه النزعة من الشبيبة المتعلمة ليست بثمرة تفكير عميق فحسب، ولكنها نفحة من روح الاجتماع تنزلت على اكثر النفوس حساً، وأدقها شعوراً، فحركتها إلى الوجهة التي سلكتها كل أمة نهضت قبلنا نهوضاً ثابتاً مضطرداً. فهذه النفحة التي تجعل عملنا هذا أشبه بالأمور الطبيعية الاضطرارية، منه بالأمور التفكيرية الاختيارية، وهي في الوقت نفسه تدل على أن المجتمع المصري اصبح حاصلاً على جميع المقومات الاجتماعية التي تجعل منه جسماً مترابط الأعضاء، متكافل القوة، متماسك الأجزاء، متأثراً بحياة صحيحة تدفعه النهوض دفعاً طبيعياً متزناً لا تقوى العوامل المحللة على صرفه عنه مهما تسلطت عليه.

فإذا كان اكثر محاولاتنا التي أنتجها التفكير المحض قد حبطت فأن هذه المحاولة الأخيرة التي بعثت إليها روح الاجتماع لا يجوز عليها الحبوط، بل هي ستتطور في أدوار التكمل حتى تبلغ ما بلغته أمثالها في الأمم التي سبقتنا إلى الكمال المدني.

ان جميع الأمم التي ضربت في المدنية بسهم قد ألهمت هذه الطريقة في إيقاظ عامتها، وإشراكها في نعمة الحياة الأدبية، فأن الإنجليز قد نشطوا بتعليم الشعب نشاطاً كانوا فيه المثل الأعلى، إذ تطوعت الطبقة المتعلمة لتعليم الطبقة الجاهلة، فأسسوا الدور الأهلية لتعليم الليلي وإلقاء المحاضرات التي تعين على ترقية مستواهم الأدبي. وكذلك فعل الأمريكانيون والالمان وغيرهم. وفي ألمانيا اليوم حركة اكبر لزيادة رفع المستوى الأدبي لأهل القرى بعد أن نجحوا في رفع الأمية عنهم، علماً منهم بان كل عمل يبذل في سبيل إصلاح القرى، وتحبيب سكانها لأهلها، وترقية مداركهم، يعود بأكبر النفع على مجموع
الأمة لأنهم الحجر الأساسي في بنائها، وإذا كان الأساس قوياً ركيناً كان كل ما يبنى عليه متيناً ثابتاً.

فنحن ألان حيال نهضة أدبية خاصة بالقرى، مقبلون منها على حالة مليئة بكبار الآمال، يقوم بها شباب تخفق بين جوانحهم قلوب يعمرها حب الوطن، وإيمان راسخ في النجاح، فلحي فيهم هذه الهمة الوثابة، والإخلاص الذي تضرب به الأمثال، كلل الله أعمالهم بالنجاح، أمدهم الله بروحه وعونه، انه ولي الصادقين

محمد فريد وجدي

بين المعرى ودانتي - 9

في رسالة الغفران والكوميدية المقدسة

بقلم محمود احمد النشوي

قد وعدنا أن نحدثك عن خيال دانتي في الانتحار والمنتحرين وعما وصف به ما هم فيه من عذاب. فلعلك على ذكر من أن أبا العلاء لم يتبع سبيل الخيال إبان ذلك، بل سلك طريق الحكماء، ولعلك على ذكر أيضاً من تعليله. فأما دانتي فقد انتحى نحو الخيال يستمد منه الزراية بالانتحار والمنتحرين، فبينما هو في الدرك السابع من جهنم إذ رأى

غابة موحشة، أشجارها متجعدة الأغصان، متجردة إلا من أشواكها المسممة الأطراف، وقد ملئت وحوشاً أنصاف جسومها في زي الأناسي، وأنصافها الأخرى على هيئة طيور، وهي ترفع صوتاً تنخلع منه القلوب عن أبدانها، فسار في جنبات تلك الغابة على خيفة من وحوشها، وهو يسمع أنات وزفرات لا يعلم طريقها، فسأل عنها فرجيل فأجابه: أن اقطع طرفاً من هذه الغصون لعلك تتعرف تلك الأنات، فصدع بالأمر، وامتدت يده إلى غصن لم يكد يجتذه حتى نطقت له تلك الشجرة صاحبة الغصن قائلة: لم نزعتني؟ أليس في حنايا قلبك شيء من الرحمة؟ لقد كنا رجالا مثلكم، وقد صرنا نباتاً، فأما شجرات تلك الغابة فهم المنتحرون نبتوا اشجاراً كان مأواها جهنم وبئس القرار وأما تلك الشجرة التي قطع دانتى غصنها فهي الشاعر (بيير ديللي فيني وقد كان في حياته الدنيا مستشاراً لحكومة الإمبراطور فردريك الثاني، فخدم مليكه مخلصاً في خدمته، ولكن السنة السوء عبثت به فتقولت عليه الأقاويل، فأصاخ لها الإمبراطور وفقأ عيني مستشاره، وألقى به في ظلمات السجن، فأكبر بيير ما حاق به وهو الشاعر الملتهب العاطفة، فضرب برأسه في جدران السجن ضربة أودت بحياته، وختم أيامه بتلك الجريمة الكبرى، فلم يك ينفعه إخلاصه، ولم تك تنفعه أمانته، بل دخل النار مع الداخلين، وكان شجرة في تلك الغابة الموحشة التي تنخلع لهولها القلوب.

في الطريق إلى الفردوس

لقد كان طريق الفردوس في خيال المعري مليئاً بالمفاجآت الطريفة، وبالدعابة الساخرة، ينبعث من كل عبارة فيها ما يضحك الثكلى. وسندع ابن القارح يقص علينا حديث ذلك

الطريق، وما تذرع به لدخول الجنة، إذ يحاور تميماً بن أبي ويسأله عما يريده بكلمة (المرانة) من قوله:

يا دار سلمى خلاء لا أكلفها ... إلا المرانة حتى تسأم الدنيا

فيجيبه تميم بان الحساب العسير أنساه كل شيء، فلم يدخل الجنة ومعه كلمة من الشعر أوالرجز، ثم يقول لابن القارح أن حفظك لمبقي عليك كأنك لم تشهد أهوال الحساب، فيقص عليه ابن القارح حديث الموقف، وحديث دخوله فراديس الجنان، وانه يمم شطر رضوان خازن الجنان يمتدحه بشعره، فلا يزداد رضوان إلا إعراضاً عنه، وصدا دونه، ولما لم تجد مع رضوان ضراعة الشعر، صاح ابن القارح قائلا: يا رضوان! استطالت مدة الحساب، ومعي صك التوبة، وقد امتدحتك بأشعار كثيرة، فيستجيب دعاءه ثم يحاوره، لا في دخول الجنة بل في تعريف الشعر وفائدته. وفي جمع كلة شعر، ثم ينتهي بينهما الحوار إلى منعه من دخول الفردوس دون إذن من رب العزة. فلا تنقطع أطماعه بل يذهب إلى خازن آخر اسمه زفر يمتدحه بالشعر فيقول له زفر احسب هذا الذي تجيئني به قرآن إبليس المارد، ولا ينفق عن الملائكة. فمن أي الأمم انت؟ فيقول له من أمة محمد بن عبد الله بن عبد المطلب. فيقول له زفر: صدقت ذلك نبي العرب، ومن تلك الجهة أتيتني بالقريض، لأن إبليس اللعين نفثه في إقليم العرب، وقد وجب علي نصحك، فعليك بصاحبك لعله يتوصل إلى ما ابتغيت. فيتركه ابن القارح غضبان أسفاً، ثم يسير في طريقه فيرى حمزة بن عبد المطلب فتتجدد آماله، وترجع له ثقته بالشعر: يأمل أن يجد له نفاقاً لدى ابن عبد المطلب، فيناديه وينشده، فيقول له حمزة: ويحك! أفي مثل هذا الموقف تحييني بالمديح؟ إني لا اقدر لك على ما تطلب. بيد انه يرسل مع رسولا إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ليخاطب النبي صلى الله عليه وسلم في أمره، فلما قص عليه القصص، قال له: أين صحيفة حسناتك؟ فيبحث عنها فإذا بها سقطت في شجار بين أبي علي الفارسي وبين شعراء حرف كلامهم، وأول أغراضهم، تدخل ابن القارح في فضه قائلاً: يا قوم، هذه أمور هينة، فلا تعنتوا الشيخ فانه ما سفك لكم دماً ولا احتجن عنكم مالاً. وعاد إلى كتاب التوبة يبحث عنه فلم يجده، فجزع وهلع؛ ولكن أمير المؤمنين قال له: لا عليك، ألك شاهد بالتوبة؟ فقال له نعم، يشهد لي عبد المنعم بن عبد الكريم قاضي حلب (حرسها الله) في أيام

شبل الدولة، فيناديه الهاتف فيجيبه بعد لأي شاهد بتوبته. ولعل أمير المؤمنين كرم الله وجهه اتهم تلك الشهادة فأعرض عنه. بيد أن اليأس ولم يخامر قلبه، فذهب إلى العترة متوسلاً بهم، قائلاً: إني كنت في الدار الذاهبة إذا كتبت كتاباً وفرغت منه قلت في

آخره: وصلى الله على سيدنا خاتم النبيين، وعلى عترته الأخيار الطيبين؛ وهذه حرمة لي ووسيلة. فقالوا ما نصنع بك؟ فقال أن مولاتنا فاطمة عليها السلام تخرج من الجنة كل حين مقداره أربع وعشرون ساعة من ساعات الدنيا الفانية، فتسلم على أبيها وهو قائم لشهادة القضاء، فإذا هي خرجت كالعادة فاسألوها في أمري باجمعكم، فلعلها تسأل أباها في ذلك. فلما جاءت قال لها جماعة الأبرار: هذا ولي من أوليائنا قد صحت توبته ولا ريب انه من أهل الجنة، وقد توسل بنا إليك (صلى الله عليك). فقالت لأخيها إبراهيم دونك الرجل، فقال له إبراهيم: تعلق بركابي، وطارت الخيل في الهواء من الزحام حتى بلغ الركب الرسول صلى الله عليه وسلم. فقالت له فاطمة رضي الله عنها: هذا رجل سأل فيه فلان وفلان. فقال حتى ينظر في عمله: فسأل عن عملي فوجد في الديوان الأعظم وقد ختم بالتوبة، فشفع لي، فأذن لي في الدخول.

(يتبع)

محمود احمد النشوي

أعيان القرن الرابع عشر - 4

للعلامة المغفور له احمد باشا تيمور

الشيخ محمد الاشموني الشافعي

أصله من اشمون جريس، قرية من أعمال المنوفية، وقد اخبر انه من نسل أبي مدين التلمساني، ولد سنة 1218م، وحضر إلى الأزهر لطلب العلم، فتلقى عن القويسني، والبولاقي، والفضالي، والامير، والباجوري، والمرصفي وغيرهم. وكان اكثر حضوره على البولاقي، والباجوري، واشتهر بالذكاء، وجودة التعليق وإتقان التحصيل، إلى أن تأهل للتدريس فدرس الكتب المتداولة بالأزهر من صغيرة وكبيرة وقرأ المطول، وجمع الجوامع، وكتب التفسير، والحديث، والعقائد وغيرها مرات بعذوبة منطق وحسن إلقاء، ولم يؤلف كتباً ونما كتب عنه بعض الطلبة تقييدات عن قراءته للعقائد النسفية، وكذلك قيدوا عنه نحو ثلاثين كراسة حال قراءته لمختصر السعد، واخذ عنه كثيرون من كبار علماء الأزهر، وعمر عمراً طويلاً حتى الحق الأجداد بالأحفاد وصار جميع من بالأزهر إما تلاميذه أو ممن في طبقتهم، وروى عنه أن الشيخ محمد الانبابي الذي كان شيخاً على الأزهر كان ممن تلقى عنه، إلا أن الشيخ الانبابي كان ذلك.

ولم يعقب المترجم لأنه لم يتزوج قط، وكان القائم بخدمته في داره أخت له وجارية سوداء وعبد اسمه محبوب تبناه وزوجه من الجارية، وفتح له حانوتاً بالتربيعة وصيره من التجار، ثم وقف على الثلاثة داره التي يسكنها بالباطنية بالقرب من الأزهر.

ولم ينقطع عن التدريس والإفادة إلا قبل موته ببضع سنوات لضعف أصابه من الكبر، وابطل حركته في آخر أيامه، وكانت وفاته ليلة الجمعة رابع ذي القعدة سنة 1321 عن مائة سنة وثلاث سنوات، وأمر الخديو بتجهيزه من الأوقات الخيرية، وأطلقوا منادين في الطرق للإنباء بوفاته، فسار مثنى رافعين أصواتهم بالنعي واجتمع في صبيحة الوفاة الألوف من صنوف الناس لتشييع جنازته قيل انهم بلغوا نحو أربعين الفاً، وحضر أيضاً الوزير المنبهي المراكشي وزير الحرب بالغرب، وكان ماراً بمصر للحج واحب أن تكون نفقة التجهيز والمأتم من عنده فاخبروه بأمر الخديو، وتقدم شيخ الأزهر السيد علي الببلاوي للصلاة عليه بالأزهر، وتولوا قبيل الصلاة مرثية من نظم الشيخ إبراهيم راضي مطلعها:

لا قلب للإسلام غير حزين ... فاليوم فيه انهد ركن الدين

ثم خرجوا بالجنازة إلى القرافة ودفنوه في مقبرة الشيخ الانبابي وكان رحمه الله أنيس المحضر، كثير الدعابة والمزاح مع الطلبة شديد الورع متصفاً بالزهد والتقشف وقلة الاحتفال برفاهة العيش إذا سار في الطريق توكأ على عصاه بيد ووضع الأخرى على كتف من يسايره، لاسيما بعد علو السن وضعف القوة. حضر مرة احتفالاً مما يقام لكسر السد أو المولد النبوي، ورموا بالسهام النارية كعادتهم، فتجاوز سهم منها مداه ووقع على الحاضرين، فأصاب المترجم في إحدى عينيه وذهب بها، فرق له الخديو إذ ذاك، ورتب له راتباً شهرياً علاوة على راتب الأزهر، رحمه الله تعالى.

الغازي احمد مختار باشا:

ولد في بروسة من مدائن آسيا الصغرى شهر (سبتمبر سنة 1837) وقدم الأستانة صغيراً، فدخل المكتب الحربي العالي، فنبغ من بين أقرانه، ولم يخرج منه حتى نال

رتبة قائمقام وحضر حرب القرم، ثم انتظم في عداد أركان حرب السردار الأكرم عمر باشا حين حمل على الجبل الأسود سنة 1860 وامتاز بالبسالة خصوصاً في مضايق اوستروك، وكوفئ وقتئذ بترقية رتبة ثم ما لبث أن عاد إلى الأستانة عقب ابرام الصلح فجعل أستاذاً في المكتب الحربي. وفي سنة 1866 جعله السلطان عبد العزيز مرباياً لنجله البكر يوسف افندي عز الدين، فرافقه إلى إيطاليا، وفرنسا، وانكلترا، وألمانيا، والنمسا فنال في أثناء ذلك وسام (اللجيون دونور) وغيره من فرنسا وسواها، وعاد إلى الأستانة سنة 1867م فجعل مأموراً لتحديد التخوم بين بلاد الدولة والجبل الاسود، فرجحت بسببه كفة الأولى إذ أبقى في حوزتها عدة مواقع حربية مهمة، وقوبل عمله هذا بترقية لرتبة أمير اللواء وجعله عضواً في المجلس الحربي، وفي ختام سنة 1870 أرسل مع ضباط الجيش المرسل إلى اليمن تحت إمرة رديف باشا، فاستولى على مدينة يدى، ونال رتبة فريق، ثم أقيم مقام رديف باشا في القيادة الكبرى لنقله والياً على الحجاز، فتمكن من الفوز على أهل اليمن، فرقي إلى رتبة مشير وجعل والياً على اليمن. ثم لما رجع إلى الأستانة أقيم وزيراً النافعة فاستقال منها ثم جعل والياً لكريد، ثم مشيراً للفيلق الثاني في شومله سنة 1873م، ثم مشيراً للفيلق الرابع في ارزروم سنة 1874م، ثم قائداً لجيش الهرسك بدلاً من رؤوف باشا سنة 1875م فحصن مواقعها، وقاوم الثورة حتى عقدت في ختام سنة 1876م فأعيد إلى كريد والياً عليها، ولكنه لم يبق بها شهراً واحداً حتى أمر بالذهاب إلى ارزروم لقيادة الفيلق الرابع وحماية المواقع العثمانية عند حدود القوقاز. واشتهر بالفوز في الوقائع الحربية مع الروسيا في جهة قرص، والكسندر، وبول وغيرها، خصوصاً بمعسكر جديكلر في شهر أغسطس سنة 1877 حتى استحق لقب الغازي، ولما قطع الغراندوق ميخائيل الصلات بين فرقته وسائر الجيوش العثمانية تمكن هو من النجاة، ثم استدعى إلى الأستانة فجعل ناظراً (للطوبخانة) وكان ذلك في شهر افريل سنة 1878م، وبعد ذلك عين قائداً لجيش يانيا، ثم والياً لكريد مرة ثالثة في 28 أغسطس سنة1878 فتمكن من توطيد الأمن بها وألف بين أهلها المسلمين والمسيحيين فكتبوا عريضة رفعوها للباب العالي في شهر أكتوبر
سنة 1878 بالثناء عليه وبعد ذلك أرسل إلى البانيا لتنفيذ العهدة البرلينية المتعلقة بها، فدوخ الثائرين، وعاد بعد حين إلى الأستانة ولبث يقوم فيها بالمهام الجسيمة في الجيش حتى أرسل إلى مصر معتمداً عالياً.

الشيخ حسونة النواوي:
الحنفي

هو حسونة بن عبد الله، أصله من نواي، قرية تابعة لملوي، من أعمال أسيوط، ولد سنة 1255م، ولما ترعرع حضر إلى الأزهر، وتلقى به العلم على شيوخ وقته، وكان حضوره الفقه الحنفي على الشيخ عبد الرحمن البحراوي، والمعقول على الشيخ محمد الانبابي والشيخ على بن خليل الاسيوطي. ثم درس به، وأحيل عليه تدريس الفقه بمدرسة دار العلوم ومدرسة الإدارة التي سميت بعد ذلك بمدرسة الحقوق، ودرس آخر بمسجد محمد علي بالقلعة فكان له من مجموع وظائف هذه الدروس ما حسن به حاله، وألف في أثناء ذلك كتابه (سلم المسترشدين في الفقه الحنفي) لتلاميذ مدرسة الإدارة، ونال في شهر شعبان سنة 1302م كسوة التشريف من الدرجة الثانية.
ثم لما شرع الخديو عباس باشا الثاني في أوائل توليته في تحسين حال الأزهر، وإصلاح نظامه، وطريقة التدريس فيه، وإبدال بعض الكتب التي تقرأ فيه بغيرها، وإدخال بعض العلوم فيه كالرياضيات، وتقويم البلدان والتاريخ وغيرها وذلك بسعي الشيخ محمد عبده وغيره رأى الساعون تعذر ذلك مع وجود الشيخ محمد الانبابي شيخاً عليه، ولم يشأ الخديو عزله دفعاً للقيل والقال، فألف مجلساً من العلماء ينظر في شؤونه سمى بمجلس الاداره، والتمس رئيساً له يعين على أحداث النظام المطلوب فأشير عليه بالمترجم لما عهد فيه من الشهامة والصرامة، وسعى له بعض كبار رجال الحكومة ممن سبق لهم التلقي عليه بمدرسة الإدارة فأقيم رئساً لهذا المجلس، واخذ من الاستبداد بأمور الأزهر حتى انحصرت فيه كلياتها وجزئياتها، وصار هو الشيخ في باطن الأمر حتى ضجر الشيخ محمد الانبابي ثم اعتلت صحته، فاستقال في 25 ذي الحجة سنة 1312، وأقيل في ثاني المحرم سنة 1313.

فجاءت استقالة الشيخ على وفق مأمولهم، وأقيم المترجم شيخاً على الأزهر بدله، فكانت
توليته كالشجا في حلوق أهله لأسباب منها انهم يرون فيهم من هم اكبر سناً، واكثر علماً، وأحق بالرئاسة عليهم منه. ومنها انه جاء مؤيداً لإدخال بعض العلوم المسماة عندهم بالجديدة كالحساب والهندسة والجبر وتقويم البلدان وما هي إلا علوم قديمه اشتغل بها المسلمون وألفوا فيها، وكانت تدرس بالأزهر قبل انحطاطه، ونما نفروا منها لطول عهدهم بها وحسبانها من علوم الإفرنج، وأنها ما أدخلت فيه إلا للقضاء على العلوم الشرعية أو تقليل الرغبة فيها. ومنها انه تولى بعد الشيخ الانبابي المشهود له بالعلم والفضل والتقوى بن الخاصة والعامة بل لأنه كان سبباً من باطن الأمر على إرغامه على الاستقالة. ومنها اشتهاره بشيء من الشدة والجفاء في مخاطبة الناس ومعاملتهم مع ما داخله بعد تولي من الزهو والخيلاء، وما كان يشيعه أعداؤه عنه من ممالأته للإنكليز على هدم أركان الدين بإدخال العلوم الجديدة بالأزهر حتى كثرة القالة فيه، ويعلم الله انه بريء مما يأفكون.

وحدثت في مدته حادثة الوباء التي امتنع فيها المجاورون بإغراء بعض متهوريهم من الخضوع لأوامر الحكومة، واعتصموا بالأزهر، وقاوموا رجال الشرطة ورموهم بالأحجار حتى أصيب محمد ماهر باشا محافظ القاهرة بحجر أدمى وجهه، فأحيط بهم ورموا بالرصاص، فجرح منهم من جرح، ثم قبض عليهم وحكم على البعض بالسجن وعلى البعض بالنفي، واغلق رواق الشوام لان اصل الحركة كانت منهم، وهال الناس وقوع هذه الحادثة وانتصروا للمجاورين، ووجدوا منها باباً للكلام في الشيخ ورميه بالضعف والتهاون في الدفاع عن حرمة المسجد والمحاماة عن أهله.

ثم لما توفي الشيخ محمد المهدي العباسي مفتي القطر سنة 1315 أضيف منصب الإفتاء للمترجم فجمع له بينه وبين رئاسة الأزهر كما كان يجمع بينهما للشيخ العباسي احياناً، واستمر المترجم جامعاً للمنصبين واكثر القلوب منصرفة عنه حتى وقع الخلاف الكبير بين جمال الدين أفندي قاضي قضاة مصر وبين الحكومة أواخر سنة 1316 بشأن إصلاح المحاكم الشرعية واقتراح انتداب قاضيين من مستشاري محكمة الاستئناف الأهلية ليشاركا قضاة المحكمة الشرعية العليا في الحكم، فلما عرض الاقتراح في مجلس شورى القوانين أبى قاضي القضاة قبوله، وقام المترجم بنصرته وشد أزره، وأراد رئيس النظار مصطفى فهمي باشا مناقشته فبدرت منه كلمات عدها الوزير مهينة له، ولم يقتصر على ذلك بل
() أرغى وأزبد وخرج من المجلس مغضباً وهو يتلو قوله تعالى
وشاع بين الناس ما اقدم عليه فأكبروه منه وحمدوا موقفه فيه، لاسيما وقد سرى إلى الأذهان أن الحكومة تريد هدم الشريعة لهذا المشروع، فانقلب ذمهم له مدحاً، وبغضهم محبة، ولكنهم لم يغنوا عنه شيئاً لان النظار احفظهم ما واجه به رئيسهم وحرك ذلك ما كان في صدورهم منه يوم أردوا منع الحج احتجاجاً بالوباء واستفتوه ليجعلوا فتواه عصا يتوكئوون عليها كلما أرادوا منع الحج وظنوا انه يوافقهمفاخلف ظنهم، وأفتى بعدم جواز المنع فكانت حادثته مع الوزير من احسن ما يتوصل به إلى التخلص منه، فشكوه إلى الخديو وطلبوا منه عزله، فاستدعاه يوم الثلاثاء 6 المحرم سنة 1317 إلى مصيفه بالإسكندرية ومعه القاضي وألان لهما القول وناقشهما في تعديل الاقتراح، وتغيير ما يخالف الشرع منه، فأصر القاضي على الامتناع، وتكلم المترجم منتصراً له، فقال في عرض كلامه أن المحكمة الشرعية العليا قائمة مقام المفتي في اكثر أحكامها، ومهما يكن من التغيير في الاقتراح فانه لا يخرجه عن مخالفته للشرع لان شرط تولية المفتي مفقود في قضاة الاستئناف، ثم التفت إلى القاضي وسأله هل هو مولى من الخليفة أم من الخديو؟ فقال من الخليفة، فقال إذن يجب لمن يريد مولانا الخديو إشراكه معه ولو كان هلاً ثم انصرفا. وكان كلام المترجم فيه شيء من الشدة تألم منها الخديو فمال لرأي نظاره فيه، ولكنه أسرها في نفسه حتى حسم نازلة القاضي بالحسني، ثم اصدر أمره يوم السبت 24 المحرم سنة 1317 بفصله من الأزهر والإفتاء، وإقامة ابن عمه الشيخ عبد الرحمن القطب النواوي شيخاً على الأزهر، والشيخ محمد عبده المستشار بالاستئناف الأهلي مفتياً للقطر، بعدما انتقل من مذهب الإمام مالك لمذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة.

ولما أشيع الأمر كثرت وفود العلماء والوجهاء على دار المترجم وانطلقت الألسن بمدحه والثناء عليه وتعلقت به القلوب، واقبل الناس عليه أي إقبال، وتحققوا أن ما كانوا يتهمونه به من قبل لم يكن إلا عن محض توهم. والحقيقة أن الرجل وان لم يبلغ شأو طبقته في العلم لم يعهد عليه ما يشين دينه ولا دنياه. بل عرف بالعفة، وعلو الهمة، ونقاء اليد من الرشى لولا جفاء يبر بعض الأحيان في منطقه، وشدة فيه يراها بعض الناس غلظة ويعدها البعض شهامة لحفظ ناموس العلم، خصوصاً مع الكبراء الذين أفسدهم تملق علماء السوء
وحملهم على الاستهانة بهذه الطائفة.

ولم يزل المترجم عاكفاً في داره، مقبلاً على شأنه، وحببت إليه العزلة فابتنى داراً بجهة القبة انتقل إليها وسكنها، ولم يقم ابن عمه في الأزهر طويلا بل توفي فجأة بعد نحو شهر من ولايته سنة 1317، فولى على الأزهر الشيخ سليم مطر البشري المالكي ثم استقال فأقيل يوم الأحد 2 ذي الحجة سنة1320، وأراد الخديو إعادة المترجم أو تولية الشيخ محمد بخيت فلم يوافق النظار وتولى الشيخ على بن محمد الببلاوى المالكي نقيب الأشراف على الأزهر ثم استقال يوم الثلاثاء 9 المحرم سنة 1323 فأقيل يوم السبت 12 منه، وصدر الأمر العالي يوم الأحد 13 منه بإقامة الشيخ عبد الرحمن الشربينى الشافعي ثم استقال فأقيل بأمر صدر يوم الأربعاء 16 ذي الحجة سنة 1324 وصدر أمر آخر في ذلك اليوم بإعادة المترجم شيخاً على الأزهر وهى توليته الثانية، ولكنه لم يمكث فيها طويلاً بسبب اختلال الأحوال، ونزوع المجاورين للفتن، وذهاب هيبة المشايخ، فاستقال سنة 1327 ورتب للشيخ الشربيني 15 ديناراً مصرياً في الشهر من الأوقاف الخيرية ليكمل مرتبه 25 ديناراً.

وأعيد إلى الأزهر الشيخ سليم البشري، ولزم المترجم داره التي بالقبة يزوره محبوه ويزورهم، ونال في توليته الأولى الوسام المجيدي من الدرجة الثانية، وجعل حينذاك عضواً من الأعضاء الدائمين بمجلس شورى القوانين ومن شرط هؤلاء الأعضاء انهم لا يعزلون، ولهذا بقى المترجم به بعد عزله من الأزهر والافتاء، حتى الغي المجلس واستعيض عنه بالجمعية التشريعية سنة 1332 فانفصل عنه بحكم الإلغاء.

وظل مقيماً في داره التي بالقبة في عزلة على الناس إلى آخر حياته، وقد أصيب بأمراض ووهن في القوى وضعف في النظر حتى توفي صباح يوم الأحد 24 شوال سنة 1343، ودفن في العصر بالمجاورين تغمده الله برحمته.

طرائف الشعر

الذكري

للعالم الشاعر الراوية الأستاذ احمد الزين

أدّكاراً بعد ما وَلى الشباب ... ومن الذكرى نعيمٌ وعذاب
لا تقُلْ تعزيةٌ عن فائت ... كم عزاءٍ في ثناياه المصاب
وإذا الدار جفاها أنسُها ... فمغانيها مع التُّرْب تراب
وإذا الروض ذوت أوراقهُ ... فغناء الوُرق في الروض انتحاب
وإذا ما الزهر وَلّى حُسنهُ ... فبقاياه عبُوسٌ واكتئاب
واحمرارُ الشمس في مغربها ... دمعُها القاني أو القلبُ المذاب
إنما الذكرى شجونٌ وجوًى ... يسكن القلبُ لها وهي حراب
رُبَّ نفسٍ عشقتْ مصرعَها ... كفَراش النار يغويه الشَّهاب
ولكَم أُنسٍ وفيه وحشةٌ ... واقترابٍ هو نأيٌ واُغتراب
عالِّلي القلبَ بذكراكِ وإن ... كان لا يغني عن الماء السّراب
وصلينا في الكرى أو في المُنى ... مَن أباه الصدقُ أرضاه الكذِاب
أو عِدينا عِدة ممطولةً ... قد يشام البرقُ إن ضنَّ السحاب
كم تَمنَّينا عقيمات المنى ... ودعونا وصدى الصوت جواب
ورضينا بقليلٍ منكِ لو ... أن مشتاقاً على الشوق يثاب
لا أرى بَعدكِ شيئاً حَسَنا ... آهل الأرض بعينيّ يَباب
رنّةُ العود بسمعي أنّةٌ ... وسُلافُ الخمر في الأقداح صاب
يا زماناً صَفِرتْ منَه يدي ... غير ما تُبقي الأماني الكِذاب
ليت نفسي ذهبتْ في إثره ... فذهاب الصّفو للمرء ذهاب

مَن لقلبٍ حاملٍ من وجده ... ما يذوب الصخر منه والهضاب
حَمَّلَ الأيامَ ذكرَى ومنًى ... ضاقت الدنيا بها وهي رحاب
والمنى عذرُ الليالي إن جنتْ ... وهي للشاكي على الدهر عتاب
ونعيمٌ يَعِدُ القلب به ... نفسَه حين المقاديرُ حجاب
ليتها دامت على خدعتها ... أحسب الخير ويعدوني الحساب
ربّما رقّه ظنٌ خاطىءٌ ... ولقد يجني على النفس الصواب
غير أن اليأس قد أبقى بها ... مثلَما يبقي من الشمس الضباب
لم يدَعْ لي اليأسُ ما أحيا به ... غيرَ قد كنَّا وقد كان الشباب!
احمد الزين
حلم
للأستاذ محمود خيرت
هذا الجميل هو الذي وصَلَ الهوى ... حظِّي به فكُتِبْتُ من عُشَّاقِه
ولقد شَقِتُ بهجره حتى إذا ... بلغ المدى ويئَسْتُ من إشْفاقه
نادى عليَّ فلم أُصدِّق مَسمعي ... في ليلةٍ كَرُمت على مُشتاقه
وقد استقلَّ البدرُ عرشَ سمائه ... وأطلَّ ضافي الزّهر من أوراقه
فطفقْتُ أشرح والدموعُ هواطل ... ما جَرَّعَتْ شفتيَّ كأسُ فِراقه
وأبثُّهُ عَتْبي علىَ إعراضه ... لما وَشَى بي عاذِلي بِنِفَاقه
وأخذتُ أرْوِي مِن جِنَي قُبُلاَته ... ظَمَئي وأطفئ لوْعتي بِعناقه
حتى إذا نفخ الصبَّاح ببُوقه ... في النائمين وهلَّ من آفاقه
أدركتُ أنّي عِند حُلمٍ طائفٍ ... لم يَبْقَ مِنهُ غيرُ مُرُّ مَذاقه
إنّي المَلُومُ عرضْتُ قلبي سِلْعَةً ... عند الهوى فخَسِرْتُ في أسْوَاقه
البليارد
له أيضاً
تمشَّتْ إلى بليارها ذاتَ ليلةٍ ... تُعالج في لُطفٍ صوالَجِه لَمسْا
ومالَتْ بِنَهْديها عليه فعِندهَا ... أرتْني كُرَاتِ العاجِ من فوقه خمسا
محمود خيرت
من الأدب الغربي
سانت بوف وفن النقد
بقلم علي كامل
النقد قبل بوف:
كان النقد في القرنين السابع عشر والثامن عشر قائماً على تلخيص أعمال الكتاب وإيراد مقتطفات من كتاباتهم مصحوبة ببعض تعليقات عليها. وكانت هذه التعليقات على تفاهتها وقلة اهتمام النقاد بإيرادها تمثل الفوضى المطلقة. فكان كل ناقد ينظر إلى الكتاب المنقود بمنظار فكره الخاص. فإذا اتفق تفكير الكاتب وتفكير الناقد كان الكتاب ناجحاً في نظر الناقد فيهلل له تهليلاً. وإذا خالفه كان سقوط الكتاب هو المصير الأكيد! كان النقد إذن نظرياً فلم تكن له قواعد يتبعها الناقد في نقده. ولم تكن هناك شروط معينة من المفروض توفرها فيمن يتصدرون لنقد أعمال كبار الكتاب والأدباء، لذا كان ينزل إلى ميدانه كل من ظن في نفسه القدرة على مسك القلم وتسويد بضعة سطور على القرطاس. واستمر الحال هكذا حتى صاح (جرم) قائلاً (إن الأعمال الأدبية العظيمة لا ينبغي أن تدرس بالاطلاع على ملخصاتها بل يجب أن تقرأ جيداً. أما الأعمال الأدبية التافهة فلا تستحق إلا الإهمال المطلق، إن النقد الصادق هو الدراسة والإصلاح. والناقد يجب أن يفهم المؤلف حق الفهم. ويتغلغل إلى أعماق تفكيره لا أن يخضع لفكرة الخاص).
على هذا الأساس نشأت بذرة فن النقد الحديث في أوائل القرن التاسع عشر. وكانت أول مظاهره نشوء ما سمي بالنقد التأريخي والفكرة في ذلك أن العمل الأدبي خاضع بالضرورة للحالة الاجتماعية في العصر الذي كتب فيه. فلكي نحكم على الكتاب حكما عادلاً وجب أن نقيم وزناً للظروف التي عاصرته. . . تلك كانت وجهة النظر الجديدة وكان أول من عمل على تطبيقها الأستاذ فليمان فكان النقد في نظره صورة من تأريخ، وقد اتبع طريقته في النقد عند كتابته عن الأدب الفرنسي والآداب الأوروبية

كالأدب الإنجليزي والإيطالي والإسباني.
ومن أوائل المجددين في النقد سان مارك (1801 - 1873) وقد اشتهر بمحاضراته في السوربون وبكتابه الذي قال عنه معاصره الناقد المجدد (انه كتاب أدبي ولكنه يسمو
إلى مصاف الكتب الأخلاقية العظيمة).
إذن كان فيلمان وسان مارك جيراردن صاحبي الفضل الأول في الخروج بالنقد من فوضاه القديمة، وذلك بمزج النقد بالتاريخ واعتبار الأول صورة مصغرة من الثاني. على أن فضلهما كان أشبه بمناورات طفيفة إذا قورنا بالفاتح الجديد سانت بوف.
سانت بوف وأعماله الأدبية
كان سانت بوف - مبدأ حياته طبيباً ثم انضم إلى جماعة فكتور هوجو. وفي عام 1828 نشر كتابه ثم ارتفع اسمه كشاعر عندما نشر عام 1829 مجموعة الشعرية الأولى ثم مجموعته الشعرية الثانية (1830) وفي عام 1834 نشر قصته عام 1837 نشر ' مجموعته الشعرية الثالثة
وابتداء من عام 1840 تفرغ سانت بوف للنقد الأدبي الذي نبغ فيه بسرعة نبوغاً عجيباً فلم يكن ينافسه فيه منافس. وفي عام 1845 انتخب عضواً في الأكاديمي. وفي عام 1857 عين أستاذاً في مدرسة النورمال فألقى سلسلة من المحاضرات نشرت فيها بعد بعنوان (دراسات عن فرجيل) ولقد كتب سانت بوف ما يقرب من ثلاثمائة ترجمة أدبية جمعت تحت أسماء مختلفة منها (أحاديث الاثنين) و (صور أدبية) و (صور معاصرة) و (صور من النساء) وغيرها.
عبقرية سانت بوف:
إذا كان لفيلمان وسان مارك فضل النهوض بالنقد كفن له قواعد وأصول، فان لسانت بوف فضل المجدد الطليق الذي لا يلتفت لحظة إلى الوراء ولا يرعى تقاليد الماضي. فهو الرجل الذي قلب بحق فن النقد في القرن التاسع عشر فلم يبلغ أحد ما بلغه في تطبيق طريقة (النقد التاريخي) ولم يكن هناك من يفوقه فهما لمهمة الناقد الوفي.
كان سانت بوف ناقداً بالسليقة إذ كان يجمع كل الصفات التي يجب أن تتوفر في كل من يجرؤ على خوض غمار فن النقد. ذلك الفن الذي يعتبر - إذا استثنينا بلادنا! من اصعب فنون الأدب. وهذه الصفات الضرورية التي كانت من أخص سجايا سانت بوف هي:
أولاً: حب الاطلاع. فكان يجد السعادة كلها في دراسة كل أنواع الكتاب - من يحبهم ومن
لا يحبهم - وقراءة الأعمال الأدبية من جميع العصور.
ثانياً: الجلد الذي كان يجعله لا يمل قراءة ابسط التفصيلات والإصغاء لكل كلمة قبل أن يقدم على نقد عمل أدبي. وكانت ابعد الصفات عن طبيعته أن يفر من الصفحات المملة أو أن يكتفي بقراءة الفهرس ودراسة المقدمة كما يفعل الكثيرون!
ثالثا: الذكاء الوافر الذي يهئ له القدرة على فهم نفسه والتخلص من سيطرة رأيه الخاص في المؤلف وفي الموضوع الذي يبحثه المؤلف. وكانت عبقرية سانت بوف من هذه الناحية تنحصر في أمرين. الأمر الأول في مهارته في أن يلبس شخصية المؤلف الذي ينقده فيزول بذلك ما قد يوجد بينهما من اختلاف في وجهات النظر ويصبح المؤلف في نظره رجلاً عادياً لا غرابة في أفكاره فينقده في هدوء وصفاء. والأمر الثاني في أن يخلق حول نفسه نفس الجو الذي كتب فيه الكتاب حتى تكون مواضيعه كأنها حقائق واقعة. وعندئذ يقدم على دراسة الكتاب دراسة عميقة ناظراً إليه من كل النواحي مشدداً عليه الخناق. وكان هذا في نظر سانت بوف هو الوسيلة الوحيدة لفهم الكتاب.
رابعاً: الليونة في التفكير. كانت لسانت بوف القدرة العجيبة على نقد كتاب ما، ثم الانتقال إلى نقد كتاب آخر على أتم خلاف في الرأي مع الكتاب الأول.
خامساً: عاطفة العدل. وهي سجية طبيعية نادرة الوجود لدى الناس. ويقصد بها أن الشخص إذا عهد إليه القضاء في أمر من الأمور فانه يكون أسير عاطفة تجعله لا يقضي إلا بالحق والعدل. وهذا هو السبب في أن جل أحكام سانت بوف على مئات الكتب التي نقدها كانت أحكاماً عادلة سليمة من اللوم رغم تضارب أنواع الكتب

واختلاف مذاهب مؤلفيها.
استغل سانت بوف هذه المواهب النادرة في علمه كناقد. على انه كان إلى جانب ذلك مبتدعاً لطرق جديدة في النقد لم تكن معروفة من قبل. فادخل على النقد شيئين:
أولاً: الصورة ثانيا: الترجمة
ولنشر الآن ماذا يقصد سانت بوف بالصورة ثم ماذا يقصد بالترجمة.
كان سانت بوف إذا أراد نقد كتاب من الكتب ساءل نفسه: ما هي أخلاق الكاتب؟ وما هي ميوله، وما هي طباعه؟ وكان يلح في الوصول إلى حقيقة هذه الأشياء التي قد يظن البعض
أن لا علاقة لها بالكتاب المنقود. على أنها كانت في نظر سانت بوف أهم ما يساعد على فهم الكتاب علاوة على فهم المؤلف نفسه. وكانت هذه الفكرة هي الباعثة لسانت بوف على كتابة عشرات الصور لمختلف الكتاب والأدباء. وقد كتب سانت بوف يشرح فكرته في تلك فقال (إنني احب دائماً الرسائل والأحاديث والأفكار وكل الدقائق التي تعين على فهم أخلاق الكاتب. وبكلمة واحدة احب دراسة تراجم كبار الكاتب. ولقد احبس نفسي خمسة عشر يوماً محاطاً بكتب شاعر أو فيلسوف مشهور توفي فأدرسه وأعيد قراءة ما قرأته وأسائل نفسي في هدوء وروية، وعندما انتهي من دراستي أرى أن هذه الدراسة قد أوصلتني في النهاية إلى كشف عوالم خفية فأجد أن ذلك الكاتب الغامض الذي كان في البداية لا يختلف في نظري عن نوعه من الكتاب يضم من السجايا الفنية الخاصة به ما لا يمكن تجاهله ونسيانه).
ولقد ظهرت هذه الطريقة الجديدة في النقد التي اتبعها سانت بوف ظهوراً قوياً في مجموعته الشهيرة (صور أدبية)
على أن هذا النوع من الدراسة لنفسية الكتاب وأخلاقهم كان يعتبر في نظر سانت بوف سطحياً لا يكفي لكي يكون النقد كاملاً غير منقوص، لذا كان يرى ضرورة التوسع في دراسة الكاتب وإتمام ما كان يعتبره نقصاً بإضافة ما سماه (التاريخ الطبيعي للأفكار) وذلك أن بين (أفكار) الكتاب نواحي من التشابه وأخرى من الاختلاف، فواجب النقد أن يفتش عن هذه النواحي حتى يعثر عليها ويميزها ويبين من خلالها خصائص كل كاتب واوجه التشابه والاختلاف في الأفكار بينه وبين غيره من الكتاب الذين يكونون معه أسرة فكرية واحدة. وقد لجأ سانت بوف لتحقيق ذلك إلى طريقة ما ترجمة حياة الكاتب تحت ضوء الملاحظة الصادقة والتحليل الدقيق وذلك للوصول إلى أغوار فكرة، واكتشاف (الفروق العظيمة الطبيعية) - كما يقول سانت بوف - بين العقول المختلفة.
ولقد تضمنت مجموعتاه الخالدتان التراجم الفكرية الفائقة التي تعتبر بما احتوته من الأفكار الغزيرة، والذوق السليم، خير نموذج لفن النقد الحديث.
علي كامل
في الأدب الفرنسي
الدوق دي لاروشفو - كو - 7
للدكتور حسن صادق
إننا نعجب باحتقار حطام الدنيا والزهد فيها، ونعد ذلك فضيلة، ولكن لاروشفوكو يقول عنها: (احتقار الثروة كان عند الفلاسفة رغبة مستترة في الانتقام لجداراتهم من الحظ، باحتقار النعم التي حرمهم منها، يدفعون به عن أنفسهم ذل الفقر، كان سبيلاً ملتوية يسلكونها لاكتساب الاعتبار الذي حرمتهم منه رقة العيش) (موعظة رقم 54). ومعنى قوله إن بعض الناس يزهدون في الثروة انتقاماً لجداراتهم من الحظ، وهذا كبرياء. وبعضهم يتخذون هذا الزهد سلاحاً يدفعون به أنفسهم ذل الفقر، وهذا خداع. وبعضهم يتخذونه مجازاً إلى الاعتبار، وهذا طموح؛ أي أن لاروشفوكو يجعل مصدر هذه العاطفة الراقية الكبرياء والخداع والطموح.
الاعتدال فضيلة جميلة، ولكن لاروشفوكو يقول عنها: (الاعتدال هو خوف الوقوع في جحيم الحسد واتقاء الازدراء الذي يستحقه من تثمله السعادة، انه تفاخر جديب بقوة العقل، وعلى الجملة اعتدال الناس في أرقى درجات علوهم هو الرغبة في الظهور اكبر من حقيقة مركزهم وثروتهم) (موعظة رقم 18) (الاعتدال لا يستطيع أن يتطلع إلى مناجزة الطموح واخضاعه، لأنهما لا يجتمعان مطلقاً. هو فتور النفس وكسلها، كما أن الطموح نشاطها وتوقدها) (موعظة رقم 293). (عد الاعتدال فضيلة ليخفف من

غلواء الطموح الذي يتملك العظماء، وليتعزى به صغار الناس عن ضآلة ثروتهم وجدارتهم) (موعظة رقم 308). فالخوف والغرور والكبرياء والكسل هي جوهرة فضيلة الاعتدال. وهذه الفكرة برهان آخر على أن لاروشفوكو استخلص مواعظه من عصره، لأنها تنطبق على خلق مازاران. كان هذا الوزير يتكلف البشر إذا اختلت مصالحه ليظهر للناس أن المحن لا تروعه، ويتصنع الرزانة إذا كلل النجاح أعماله، ليظهر أن الرفاهية لا تستخفه طرباً. ولكن اعتداله الكاذب لم يخف على أحد معاصريه.

أما (فوكيون) الإغريقي - مثلاً - فقد اشتهر بالاعتدال النقي وشهد له به أهل أثينا وأيدت حياته شهادتهم. ولما حكم عليه بشرب السم قال لابنه والكأس في يده: (آمرك وأرجو منك إلا تحمل للاثنين في صدرك غلا أو ضغينة من اجل موتى)

جلد الحكماء يستدر إعجابنا، ولكنه في اعتقاد لاروشوكو (ليس إلا فن كتمان اضطرابهم في دخيلتهم) (موعظة رقم 20)، أي أن الحكمة ليست شيئاً آخر غير النفاق. ولو قيد لاروشفوكو هذه الفكرة قليلاً ولم يضعها في صيغة عامة لكان اصح. إذ يروي التاريخ أخبار حكماء كان الجلد عندهم غراماً بالفضيلة لا ينال منه خوف أو أمل. ولنضرب مثلاً: سقوط الحكيم الذي جلس في سجنه قبيل إنفاذ حكم الموت فيه يحدث أصحابه عن موضوعات فلسفية هامة، وهو اشد ما يكون هدوءاً واطمئناناً (راجع فيدون لأفلاطون). وكيف نعرف أن الهدوء الظاهر يخفي اضطراباً باطنياً؟ انه في هذه الحالة ينم عن نفسه مهما حاول المضطرب إخفاءه. ومثل هذا الإنسان لا يسمى حكيماً. وإذا لم يبد لنا اثر من آثار الاضطراب، فليس من حقنا الجزم بوجوده.

وماذا يقول لاروشفوكو عن فضيلة العدل؟ (حب العدل ليس عند كثرة الناس إلا الخوف من وقوع ظلم عليهم) (موعظة رقم 78). وهو لم يميز العدل الذي يصدر عن إيهام نفساني وما يسمى صرخة الضمير وينتج الأعمال الكريمة، من العدل الذي يصدر عن التفكير والروية وينتج القانون الذي يمنع أعمال الظلم من الوقوع.

ثم يقول عن الطيبة: (الإنسان العاجز عن أن يكون شريراً، لا تستحق طيبته المديح، والطيبة في هذه الحالة - أي حالة العجز عن فعل الشر - ليست في الأغلب إلا خمولاً أو ضعف إرادة) (موعظة رقم 237). وهذه الفكرة نقد لخلق الملكة ان دوتريش

ونذكر عقب الطيبة قوله عن الفضيلة التي تمت إليها بصلة كبيرة، وهي الشفقة: (الشفقة في الأغلب شعور بآلامنا في آلام الغير. إنها تبصر ما هو في عواقب المحن التي قد تصيبنا. إننا نقدم المعونة للغير لنضمن معونته في ظروف مماثلة لظروفه. وهذه الخدمات التي نسديها إليه هي في الواقع معروف نسديه إلى أنفسنا مقدماً) (موعظة رقم 264). وهذه الفكرة لا تدعو إلى العجب بعد الذي ذكره عن الشفقة في معرض حديثه عن نفسه. وقولة (في الأغلب) يدل على إيمانه بوجود الشفقة النقية التي تتفجر من القلب وتسبق كل تفكير وتأمل، وتنتج الخير من تلقاء نفسها، وفي بعض الأحايين على الرغم مما تتطلبه المصلحة الذاتية. وهذه العاطفة الزم ما يكون للإنسانية لأنها بلسم البائسين، تربط القوي بالضعيف، والمجدود بالمحدود، ولن يصيبها العفاء مادام على الأرض بشر.

وتأتي عقب الشفقة فضيلة الشكر على المعروف، فيقول عنها: (شكر الكثرة من الناس إلا رغبة خفية في الحصول على معروف اكبر من الذي حصلوا عليه) (موعظة رقم 298).

ومن الطيبة والشفقة المتبادلة والشكر تنتج الصداقة: (إننا لا نستطيع أن نحب شيئاً لا تربطنا به اصرة، ولا نتبع غير ذوقنا ولذتنا لما نفضل أصدقاءنا على أنفسنا. وهذا التفضيل فقط هو الذي يجعل الصداقة حقة كاملة) (موعظة رقم 81)، أي أننا ننسى مصلحتنا الذاتية في سبيل أصدقائنا ونجد في هذا النسيان لذة. وهو يذكر هذه الكلمة للحط من قيمة هذه العاطفة، ولكنها لذة فيها نبل وبطولة.

ولم يلبث أن أنكر وجود الصداقة التي توهب ولا تباع، فقال: (الصلح مع أعدائنا ليس إلا رغبة في إصلاح حالنا، والملل الناشئ من عناء الحرب، والخوف من وقوع حادث سيئ) (موعظة رقم 82). وهذه الفكرة مأتاها الحرب الأهلية التي سبق الكلام عنها. فان لاروشفوكو الذي دفعته مصلحته الذاتية إلى الاشتراك في هذه الحرب، رغب في الصلح بعد أن جرح رأسه وهلك زرعه ودمر قصره، خشية أن تصيبه ملمات أخرى.

وكانت الملكة ان دوتريش أثناء هذه الحرب لا تثق بمن يلتفون حولها لأنها لم ترض

طموحهم، وتوجس منهم خيفة كما يدل على ذلك قولها: (متمناي أن يبقي الليل في مجثمه أبداً لأني لا أرى في النهار إلا أناساً يدأبون على خيانتي). فالبلاط والثائرون لم يلجأوا إلى الصلح إلا فراراً من الملل الناشئ من عناء الحرب، وخوفاً من وقوع حوادث أليمة، ورغبة في إصلاح حالهم). ثم قال في موضع آخر: (إن ما يسميه الناس صداقة ليس إلا شركة، أو إدارة وتدبير مصالح ذاتية متبادلة، أو تبادل ضروب المعروف. وهي على الجملة ليست إلا تجارة يتطلع حب الذات فيها دائماً إلى شيء يربحه) (موعظة رقم 83). (إننا نقنع أنفسنا في اكثر الأحايين بأننا نحب من هم اكثر منا قوة واشد بأسا. وفي الحق أن المنفعة هي فقط التي تنتج صداقتنا؛ ونمنحهم هذه الصداقة ابتغاء خير نروم الحصول عليه منهم، لا في سبيل خير نريد أن نهديه إليهم) (موعظة رقم 85).

تتمة البحث في العدد القادم

حسن صادق

العلوم

ما هو الزمن؟

للدكتور عبد الله صبري

كثرت المناقشات في الأيام الأخيرة بين العلماء والمفكرين في موضوع الزمن حتى سرى الاهتمام بهذا الموضوع إلى عامة الجمهور مما دعاني إلى ذكر بعض الحقائق والملاحظات التي اسردها هنا مقتبسة من المصادر العلمية الصحيحة.

لا شك أن كلامنا يعرف الوحدات العادية للزمن. ولا أظننا ناسين انه يجب علينا أن نستيقظ غداً في ساعة معينة من الصباح (مع الأسف!). وبالرغم من كراهيتنا للمنبه فنحن مضطرون لطاعته - ليس منا من يتجاهل سلطة الزمن، ذلك السيف الجبار الذي إذا لم تقطعه قطعك، وليس منا من يتجاهل أحقيته ووجوده ودقته وتأثيره في أعمالنا اليومية. غير أننا بالرغم من اعترافنا به لهذا الحد قد نقع في الحيرة عندما يطلب إلينا تعريفه أو ذكر كنهه

فبالرغم من وجود الأجهزة الدقيقة التي تبين لنا مقادير الزمن، كثيراً ما نشعر في أنفسنا باختلاف تقدير هذه الأجهزة في أحوالنا النفسية المختلفة. فكثيراً ما نشعر بطول الوقت وبطء مروره عندما نكون في انتظار صديق في موعد، وعلى العكس نشعر بسرعة مروره عندما نكون سعداء أو منهمكين في عمل هام. فهل خاننا إحساسنا الزمني في هذا الشعور؟ أم هل خانتنا الأجهزة التي تبين لنا الزمن؟ وعلى أي قياس ينبغي لنا أن نعتبر الزمن؟ أبأنفسنا أم بالساعات؟

إذا رضينا بالساعات مقاييس حقيقية للزمن، فكيف يمكننا أن نتلاعب بها إلى الحد الذي نقدمها ونؤخرها فيه حسب أرادتنا كما جرت العادة في أوروبا عند اعتبار الزمن الصيفي الذي تقدم فيه الساعات ساعة زمانية في أبريل من كل عام؟ وكيف يمكننا أن نتلاعب بالتقاويم السنوية فنضبطها ونغيرها حسب الإرادة من غير أن يؤثر ذلك كله في العالم.

أن حكاية تعديل التقويم السنوي في أوائل القرن السادس عشر حكاية معروفة. إذ اتضح في ذلك الوقت أن التقويم الجريجوري قد اخطأ في مدة أحد عشر يوماً، وقررت الحكومات حينئذ تقديم التاريخ بمقدار هذا الزمن، وبذلك حدث هياج كبير في الرأي العام، واعتقد

الناس أن الحكومة قد استقطعت من حياتهم هذه المدة لغير ما سبب، وتظاهروا صائحين: أعطونا الأيام التي اتخذتموها من عمرنا، ألا يكفيكم أن تسلبوا منا نقودنا فتسلبوا منا أيامنا كذلك؟

وفي الحقيقة أن تعيين وحدة حقيقة ثابتة للزمن من الأمور العسيرة. فقد ثبت لعلماء الفلك أن المدة اللازمة لدوران الأرض حول الشمس تزداد عاماً بعد عام، أي أن السنة الزمنية ليست ثابتة إذ كانت أطول في الزمن الغابر منها في الزمن الحاضر بمقدار محسوس. فهناك اتجاه حديث لاعتبار سرعة تحلل عنصر الراديوم مبدأ لتقدير الزمن إذ ثبت أن الراديوم في تحوله إلى الرصاص يستغرق أزمنة متساوية تماماً.

غير أن هذه الوحدة الزمنية سواء اعتبرت من الجهة الفلكية لدوران الأرض حول الشمس أو من الجهة الطبيعية لسرعة تحلل الراديوم فإنها في النهاية متوقفة على

إدراك الإنسان وتابعة لاحساسه، وقد تكون هي في ذاتها خدعة عقلية. وهذا مما جعل كثيراً من المفكرين يتساءلون إذا كان في أجسامنا جهاز طبيعي لتقدير الزمن؟
ومن التجارب التي تدل على احتمال وجود ساعات حيوية في أجسامنا إمكاننا الاستيقاظ مثلاً في ساعة معينة من الصباح بمجرد حصر ذهننا في ذلك قبل النوم. وهنالك كثير من الناس الذين يمكنهم الحصول على هذه النتيجة بغاية الدقة. وهنالك تجربة مشهورة أخرى أجريت مراراً عديدة بحضور الشهود وهي بان ينوم شخص تنويماً مغناطيسياً، ويؤمر أثناء نومه بان يكتب كلمة (الزمن) بعد استيقاظه بعد تمام مليون ثانية تماماً (أي بعد حوالي عشرة أيام). وفعلاً يحدث. فمهما كانت ظروف المنوم في حياته العادية بعد هذه المدة فانه في تمام الثانية المليون تماماً يأخذ قلمه ويكتب الكلمة المطلوبة. وبديهي أن المنوم لا يتذكر شيئاً بعد استيقاظه مما قيل له أثناء تنويمه.
ويميل كثير من المفكرين على ضوء هذه التجربة ومثيلاتها أن يعتقدوا بوجود هذا الجهاز الحيوي الذي يعد الزمن في أجسامنا. وقد اكتشف أخيراً تيار كهربائي منتظم يمر في الجسم في كل من لحظات الحياة سواء أكان الإنسان نائماً أم مستيقظاً ومهما كانت حالته العصبية أو الصحية مستمراً إلى لحظة الموت. فمن الجائز أن يكون هذا التيار هو الذي يعد الثواني والزمن الذي يمر ونحن أحياء. ومن البديهي انه لا يمكن اعتبار دقات القلب مقياساً للزمن
إذ أن هذه الدقات يتغير عددها وانتظامها بين آن وآخر تبعاً لظروف الإنسان وحالته العصبية.
غير أن احتمال وجوده هذا الجهاز الحيوي الذي يقيس الزمن في أجسامنا لا يفسر لنا كنه كثير من التجارب الشخصية التي تحدث لكل واحد منا بين آن واخر، الا وهي معرفة بعض حوادث المستقبل قبل وقوعها. فكلما شعر أن كثير من أحلامنا تصور لنا صوراً جلية واضحة من المستقبل. وقد أجريت عدة تجارب علمية لإثبات ذلك واتضح منها صحة هذه النظرية، ويظهر أن الاعتقاد بإمكان رؤية المستقبل قد صادف ميلاً كبيراً عند كثير من المفكرين والمؤلفين وعند الجمهور في الأيام الأخيرة. فهناك كثير من الروايات التي تكتب على هذا الأساس وهناك الكثير من المؤلفات العلمية التي تبحث في هذا الموضوع الغريب. فمن اشهر ما كتب حديثاً عن ذلك كتاب (تجربة عن الزمن) تأليف الكاتب الإنجليزي ج. و. دن وهذا الكتاب يفسر تجارب المؤلف الشخصية في إمكان رؤية المستقبل، ويوضح ذلك بنظرية المتواليات الزمنية. وهناك كذلك كتاب المفكر الإنجليزي المعروف هـ. ج ولز عن كنه المستقبل وهو يعطى في هذا الكتاب تاريخ العالم في المستقبل القريب لا كخيال يتوهمه، بل كحقيقة واقعية رآها صديق له عند قراءته لكتاب حقيقي للتاريخ مكتوب في سنه مقبلة
والعلم الحديث لا ينكر رؤية المستقبل. إذ لو أننا تصورنا إمكان وجودنا في طيارة سائرة بسرعة اكبر من سرعة الضوء لما أيمكننا أن نرى أو ندرك شيأ من العالم الزمني الموجود، بل إننا نصبح خارج نفوذ الزمن ونصبح أبديين. وهذا مما يقرب إلى العقل البشري إمكان خروج المادة والإنسان عن نفوذ الزمن وتقديره، ويمكن الإنسان من تصور رؤية المستقبل كحقيقة واقعية تحدث عند خروج الفكر وقتياً عن دائرة الزمن
ويميل بعض المفكرين إلى تفسير رؤية المستقبل بافتراض طبقتين للعقل الإنساني - الطبقة الأولى وهي التي نحس بها بالمقاييس الثلاثة المعروفة والتي نستعملها في حياتنا اليومية، وهي التي تشعرنا بمرور الزمن. والطبقة الثانية وهي التي نحس بها بالمقياس الرابع (وهي نتيجة نظرية اينشتين المعروفة التي ينسب فيها الزمن للمسافة) والتي تعطينا في بعض الأوقات قوة على إدراك المستقبل إذ تخرجنا وقتياً عن نفوذ الزمن وتجعلنا جزءا
من الأبدية اللازمنية.
ومهما كان مقدار الصحة في هذه الافتراضات والنظريات، فليس هناك من شك في أن هذه المعضلة الغريبة المبهمة، ألا وهي الزمن ستكون بيت القصيد في كثير من الأبحاث العلمية والاكتشافات التي قد يتم بها تغيير جوهري في تفكير البشر في المستقبل القريب والتي قد توصلنا إلى بداية الطريق الطويل الذي أراد الله أن يصل

البشر في نهايته إلى الحق المطلق.
عبد الله صبري
دكتور في الهندسة من جامعة كامبردج
إسحاق نيوتن 1642 - 1727
(من فاق جميع الرجال في النبوغ؟)
بقلم مصطفى محمود حافظ
العالم قبل نيوتن:
قد يبدو أن في دراسة حالة العالم العلمية كما وجدها نيوتن، وذكر الحقائق التي كانت معروفة ومتراكمة من قبله، والتي درسها نيوتن فاخرج منها للعالم تلك القوانين التي رفعته إلى الذروة، قد يبدو أن في ذلك غضاً من عبقريته. ولكن ذلك غير حقيقي، فالرجل الذي تمكن أن ينتزع من الرءوس الأفكار التي كانت تجول فيها حيرى لا تدري سبيلاً إلى الظهور، يستحق كل ما أعطي من شرف حتى ولو جاء مبالغاً من أبناء جلدته الذين يجعلون منه اكبر مفكر ظهر على الأرض.
كانت أوربا قد أخذت تتحرر في أوائل القرن السابع عشر من الجمود العلمي الذي لازمها في العصور الوسطى، والذي كان سببه الأعظم محاربة رجال الكنيسة لكل فكرة علمية فيها مخالفة لتعاليمهم الدينية، وكذلك اقتصار المتعلمين على البحث الكلاسيكي ودراسة كتب الأقدمين الفلسفية دون الاستعانة بالملاحظة والتجربة.
فكان العالم قد بدا ينبذ (نظرية بطليموس) في تركيب الكون، وهي التي كانت تقول بان الأرض وهي مهبط ارقي المخلوقات (الإنسان المفكر) يجب أن تكون مركز الكون، تدور حولها الشمس والكواكب والنجوم، ويرحب بنظرية (كوبرنيج) التي تقول بان الأرض كرة تدور حول نفسها فيحدث الليل والنهار، وتدور حول الشمس مع الكواكب فيحدث اختلاف الفصول. وكان الخطأ الذي وقع فيه (كوبرنيج) من اعتباره مدارات الكواكب حول الشمس دوائر قد أصلحه (تيخوبراه) و (كبلر)، الأول بما سجله من مشاهدات والثاني بما استنتجه رياضياً من هذه المشاهدات. فوصلا إلى معرفة أن مدار الكوكب حول الشمس قطع ناقص والشمس في إحدى بؤرتيه.
وجاء جاليليو وتمكن بمنظاره من تأييد فكرة النظام الشمسي الجديد برؤية مثل هذا النظام في الكون في المشتري وأقماره. وكذلك عرف معنى القصور الذاتي، ووضع أساس علم
الديناميكا بتوصله إلى قوانين الحركة التي تنسب خطأ إلى نيوتن. وبذلك يكون نيوتن قد ولد وكيفية تحرك الآجام على الأرض وتحرك الكواكب حول الشمس قد عرفت، ولكن السبب في ذلك لم يصل إليه غيره. ولقد حاولوا قديماً معرفة ذلك السبب ولكن كل ما وصلوا إليه هو انه إذا اختارت الأجرام السماوية أن يتحرك بعضها حول بعض بنظام خاص فهذا من شأنها لا من شأن الإنسان ساكن أحد هذه الأجرام.
تلك كانت حالة علم الفلك بغض النظر عن خزعبلات ما كان يسمى (علم) التنجيم. أما في الرياضة فقد كانت كتب إقليدس في الهندسة وأرشميدس في الرياضيات معروفة من زمن بعيد. والجبر كان يشارك الهندسة في قدمها إلا انه كان معقداً ليس بالسهولة التي نعرفها عنه الآن. والحساب كان مهمة شاقة، حتى أن مستر صمويل بيبس الذي صار فيما بعد رئيساً للجمعية الملكية بلندن يقول في يومياته انه كان بعد أن نال درجته من جامعة كامبردج يسلي نفسه كل مساء يحفظ جدول الضرب! أما حساب اللوغريتمات فكان نابيير قد اخترعه في سنة 1617
وفي الكيمياء كان العلماء لا يزالون في بحثهم وراء حجر الفلاسفة، وتحويل المعادن الخسيسة إلى أخرى ثمينة، ولو أن بعض العناية كانت قد اتجهت إلى استخدام الكيمياء في صنع الأدوية. ولكن حال هذا العلم لم يصلح إلا بعد أن اثبت نيوتن أن العالم مساق بقانون طبيعي عام، فاتجهت العناية إلى إيجاد القوانين إلى تحكم العالم المادي والتغيرات إلى تطرأ عليه، حتى امسك دالتون بطرف الخيط في سنة 1808 فوضع مبادئ النظرية الذرية.
أما في البصريات فقد كان قانونا الانعكاس معروفين لدى العالم العربي الحسن بن الهيثم في أوائل القرن الحادي عشر وكذلك تركيب العين وكيفية رؤيتها للأجسام. وقد ذكرنا أن جاليلو كان قد اخترع التلسكوب، وفي نفس الوقت تقريباً اخترع صانع

نظارات يدعى (زكريا يوانيدس) الميكرسكوب. وقبيل زمن نيوتن توصل (سنل) إلى معرفة قانوني الانكسار، ولو أن الذي وضعهما في صيغتهما المعروفة الآن هو (ديكارت).

تلك فكرة موجزة عن حالة العلوم التي اشتغل فيها نيوتن وكان موفقاً كل التوفيق.

طفولة وأيام المدرسة في جرانتام:

في يناير سنة 1642 وف ي مزرعة صغيرة تدعى (وولثورب) جنوب (جرانتام) ابصر إسحاق نيوتن الدنيا بعد أن كان إسحاق نيوتن الأب قد اغمض عينيه إلى الأبد. ولا يعرف شيء عن سنواته الثلاث الأولى التي تزوجت بعدها أمه فنزحت مع زوجها إلى مقر عمله تاركة نيوتن في كفالة جدته من أمه، وأرسلته إلى مدرسة القرية الصغرى لينال من التعليم ما كان يضن أن فيه الكفاية لذلك العقل الصغير الذي خلق ليكون جباراً ولكن خاله رأس قبساً من عبقريته فكان سبباً في إرساله إلى مدرسة الملك في (جرانتام)، تلك المدرسة التي رأت بزوغ نجم من المع النجوم في العلوم، والتي لا تزال تحتفظ حتى اليوم على خشب إحدى نوافذها باسم (أ. نيوتن) محفوراً فيه. كان في أول أمره خجولاً غبيا بعض الشيء يناله من زملائه الشيء الكثير من الاستهزاء الذي ازداد حتى وصل إلى أن ركله زميل ضخم الجثة في فناء المدرسة. عند ذلك انفجر ما كان كامناً فيه من عبقريته، لأنه لم يكتف بان ثأر لنفسه من هذا الزميل الضخم بان تغلب عليه جثمانياً وجعله يدلك انفه في حائط المدرسة، بل كان عليه أن يفوقه في الشئون المدرسية لأنه كان يفوق نيوتن في ذلك. وقد نال ما ابتغى واصبح (أول) المدرسة التي كانت تتكون من فصل واحد فيه عدة مجاميع، واحتفظ بذلك اللقب حتى غادرها

كان نيوتن مغرماً في طفولته بصنع الألعاب والآلات الصغيرة ليعرضها على صديقاته الصغيرات، وكانت أحبهن إليه كما يقول سير. ج. ج. تومسن (مس ستوري) التي ظلت حبيبته الوحيدة، والتي لم يتزوجها لأنه لم يتزوج. فكان يصنع الطيارات من الورق ويضع فيها شمعاً موقداً فيضنها الفلاحون البسطاء مذنبات. وكان ماهراً في عمل المزاول والساعات المائية، وقد أدار طاحونه هوائية بأن حبس بعض الفيرات في صندوق وجعلها في حركة دائمة، وكان ينتهز هبوب العاصفة ليقفز في الهواء مرة مع الريح وأخرى ضده ليقدر سرعته.

ولما بلغ الرابعة عشر من عمره رجع مكرهاً من المدرسة في (جرانتام) إلى المزرعة الصغيرة في وولثورب) ليساعد أمه التي رجعت إليها بعد وفاة زوجها مع ولد وابنتين كانا ثمرة هذا الزواج الثاني. ولكنه لم يلبث بمعونة خاله أن رجع إلى (جرانتام) في السادسة عشرة وظل ثلاث سنوات يعمل استعداداً للذهاب إلى (كامبردج) مكافحاً الفقر الذي ظل ملازماً له زمناً طويلاً.

دراسة في كامبردج

غادر نيوتن جرانتام في يونيو سنة 1661 وهو في التاسعة عشر إلى كامبردج وهناك التحق بكلية (ترنتي) كطالب خادم يقوم بتقديم الطعام لزملائه في نظير أكله بدون أجر. ولا يعلم إلا القليل عن سنواته الأولى في كامبردج، ومن ذلك انه اعفي من حضور محاضرات المنطق لأنه كان يعرف منه قدر ما يعلم أستاذه، وانه درس بنفسه كتاب البصريات لكبلر قبيل إلقاء محاضرات هذا الموضوع حتى دهش أستاذه من مقدار تمكنه من هذا الموضوع، وقد لازمه هذا الميل إلى البصريات طوال حياته. وقد كان يتتلمذ لأستاذ هو أحد أعلام عصره في الرياضيات يدعى (إسحاق بارو) وقد عرف القدرة الرياضية الكامنة في تلميذه فشجعه على التقدم فقرأ كل الكتب الرياضية، إلا انه كان دائماً ضعيفاً في الهندسة، حتى انه ممتحنيه عابوا عليه هذا الضعف في أحد امتحاناته. وقد نال درجته الجامعية في 1664 وغادر كامبردج إلى مزرعته قبل أن يصل إليها الطاعون التاريخي المشهور الذي سبب ترحيل كل طالب إلى بلدته.

وقد قضى نيوتن في المزرعة مكرها سنتين كاملتين كان فيهما بعيداً عن مكتبة الجامعة وأجهزتها ولكنه استعاض عن ذلك بما كان قد حفظ من معلومات في ذلك العقل الراجح الذي اخرج للعالم في هاتين السنتين أربعة اكتشافات كل منها يكفي للتخليد لو انه صدر من شخص غير نيوتن.

اكتشافاته الرياضية الأولى

النظرية ذات الحدين: ظهرت عبقرية نيوتن عند أول ظهورها في الرياضيات مع أن لم تبد عليه وهو في كامبردج علائم هذا النبوغ، وقد كان أول إنتاج رياضي له هو اكتشافه (نظرية ذات الجدين) وهي النظرية التي نتمكن بواسطتها بدون إجراء عملية ضرب من إيجاد حاصل ضرب مقدار على صوره (س + ص) في نفسه أي عدد من المرات، أو بمعنى رياضي آخر إيجاد ناتج رفع هذا المقدار إلى أي أس وترتيب حاصل الضرب في شكل منتظم سهل.

قد يكون هذا الاكتشاف طبيعياً مع شخص له نباهة نيوتن الرياضية ودقة ملاحظته، ولكن

اكتشاف الرياضي الآخر كان نتيجة حبه للظواهر الطبيعية وميله لفهم دقائقها وحل معضلاتها.

حساب التفاضل والتكامل:

كان ارشميدس واقليدس قد حاولا أن يقدرا بالضبط مساحات الأشكال المحاطة بخطوط منحنية ولكنهما لم يفلحا، وجاء بعدهما كبلر وجاليلو واشتدت بهما الحاجة إلى ذلك لتطبيق قانون كبلر الثاني في حركة الكواكب وهو القائل (إن المستقيم الواصل بين الكوكب والشمس يمسح في الفضاء مساحات متساوية في أزمنة متساوية) فنالهما من الفشل ما نال ارشميدس واقليدس. فجاء ذلك الشاب الذي لم يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره وحل ما عجز عنه هؤلاء، وذلك باكتشافه نوعاً آخر من الرياضة هو حساب التفاضل وحساب التكامل.

فإذا أعطينا معادلة رياضية تشمل مقدارين أحدهما يتغير بالنسبة لتغير الثاني، وذلك كتغير المسافة التي يقطعها قطار بتغير الزمن فان حساب التفاضل يمكننا من معرفة معدل تغير المسافة المقطوعة بالنسبة إلى الزمن في أية لحظة كانت، أي معرفة سرعة القطار في أي لحظة.

أما حساب التكامل فهو الذي تمكن به نيوتن من إيجاد مساحات الأشكال المحدودة بمنحن أو اكثر وذلك بتقسيمها إلى أشكال متناهية في الصغر، ثم إيجاد مجموع مساحتها في حدود معينة وهو ما يمكن الفلكيين الآن من معرفة وقت حدوث الخسوف والكسوف بتلك الدقة التي تذهلنا أحياناً.

قانون الجذب العام:

والآن جاء دور ذلك الاكتشاف الهائل الذي تضمحل بجواره دائماً اكتشافاته الأخرى على خطورتها. ذلك القانون الذي غير نظر الإنسان إلى الكون.

كان كبلر قد عرف قوانين حركات الكواكب حول الشمس ولكنه لم ير علاقة بين حركات الكواكب وحركة الأجسام التي تسقط على الأرض. وجاء جاليلو فدرس قوانين سقوط الأجسام بالتفصيل وعرف أن الأجسام تقصر قصوراً ذاتياً عن أن تغير حالتها من السكون

إلى الحركة المستقيمة. ثم جاء نيوتن فرأى من خلال ذلك اخطر قانون انقلابي وصل إليه الإنسان. لقد ربط بين قوانين كبلر الفلكية وقوانين جاليلو الديناميكية فكشف عن النظام الكوني العام في قانون الجذب العام.

فانه كما يريدنا فولتير أن نعتقد، كان جالساً في حديقته بعد عناء صرفه في حل مشكلة رياضية أو صقل عدسة زجاجية عند ما رأى تفاحة تسقط من أعلى الشجرة. فسأل نفسه ذلك السؤال القديم الذي لم يكن قد أجاب عنه أحد، سال نفسه عن علة سقوط التفاحة. وهنا كان قد قدر لتفسير الحركة الكونية إلا أن تظل لغزا فاشتغل بها عقل ذلك الشاب الصغير. لقد ذهب عقله إلى ما هو ابعد من التفاحة وسقوطها. هي تسقط لان الأرض تؤثر فيها وهي بعيدة عنها في أعلى الشجرة، فماذا يحدث أن هي ارتفعت إلى ما هو ابعد من ذلك؟ لقد رآها نيوتن بعيني عقله لا تزال تميل إلى السقوط على الأرض، ولكن بقوة تصور أنها تتناقص تبعاً لقانون التربيعي العكسي. حتى إذا ما وصل بتفاحته إلى القمر تركها ليأخذ القمر، فرآه لابد وان يكون متأثرا هو الآخر بقوة الأرض، إذن لا يمكن أن تكون حركة القمر حول الأرض، وتقيده بهذه الحركة وعدم انطلاقه في خط مستقيم على حسب قانون القصور الذاتي، ألا يمكن أن يكون ذلك راجعاً إلى تأثره بنفس القوة التي تؤثر بها الأرض على التفاحة؟

كان في هذا الإلهام بدء ظهور القانون العام الذي يحكم حركة الماديات في الكون،

فانطلق نيوتن يستعين بالرياضة على تحقيق ما وصل إليه فكان في الحاجة إلى معرفة نصف قطر الكرة الأرضية حتى يقارنه ببعد القمر عن مركز الأرض، وهنا شاء القدر ألا يظهر هذا القانون في سنة 1661 بل بعدها بستة عشر عاماً فخانت نيوتن ذاكرته في تذكر نصف قطر الأرض فاعتبره 3440 ميلاً وهو 3960 ميلاً، ولم يتمكن من التحقق من صدق ذاكرته لانزوائه في مزرعته وبعده عن كامبردج ومكتبتها ومراجعها فكان ما وصل إليه رياضياً لا يتفق مع المشاهدات العملية. عند ذلك شعر بالخيبة في ذلك الأمل البراق الذي كان يراه، وهو الوصول إلى قانون طبيعي عام، فذهب يبغي التسلية في تجاربه العملية الضوئية حيث قدر له أن يصل إلى اكتشاف لا يقل في خطورته عن قانون الجذب العام، ولكنه هذه المرة وان كان قد أتم اكتشافه فانه أخفاه عن العالم لمخالفته الآراء المأخوذ بها
في وقته.

كشفه عن طبيعة الضوء الأبيض:

عندما وجه جاليليو أول تلسكوب صنعه إلى السماء ألهاه ما شاهده من عجائب غير منتظرة عن آن يعنى بكون الصورة ممسوخة أو أن ضوءها مشوه، وهو ما نلاحظه في المناظير غير الدقيقة الصنع من تعدد الألوان. ولكنه حاول بعد قليل أن يعرف سبب هذا التشوه وطريقة تلافيه، وكان المظنون أن السبب في ذلك راجع كله إلى ظاهرة (الزيغ الكري)، وهي أن الأشعة الآتية من الجسم البعيد عند مرورها في عدسة التلسكوب تنكمش ولكن لا تتجمع كلها في البؤرة. وقد دفع نيوتن حبه للسماء إلى محاولة معرفة سبب هذا التشوه اللوني للصور فقاده ذلك إلى معرفة أن ضوء الشمس الأبيض يتركب في الواقع من عدة ألوان تبتدئ بالأحمر وتنتهي بالبنفسجي وهي ما تسمى بألوان الطيف، وذلك بان أمر الضوء الأبيض في منشور ثلاثي من الزجاج. وبذلك إن عيب التلسكوب ذي العدسة راجع إلى تفرق الضوء الأبيض الذي يمر في العدسة فيسبب ما يسمى (بالزيغ اللوني). لذلك حاول أن يصنع تلسكوباً آخر لا يستخدم فيه عدسة لامة للاشعة، بل يستخدم مرآة مقعرة تلم الأشعة أيضاً، وقد نجح في ذلك، ولا يزال أحد تلسكوباته محفوظاً في الجمعية الملكية بلندن. وتستخدم الآن المرآة المقعرة بدلاً من العدسات في صنع اكبر تلسكوبات العالم. فتلسكوب مرصد (مونت ويلسون) له مرآة يبلغ قطرها 100 بوصة ويصنع الآن تلسكوب آخر قطر مرآته 200 بوصة.

انقضت سنتا العزلة الإجبارية وبلغ نيوتن الخامسة والعشرين وحان له أن يعود ممتلئ الرأس بكل الآراء الخطيرة التي وصل إليها إلى كامبردج حيث الكتب المحبوبة والأجهزة المطلوبة لإجراء التجارب، وسنتركه الآن لنتم تاريخ حياته في مقال قادم

مصطفى محمود حافظ

الخبز الأسود

لأناتول فرانس

ترجمة حبيب المعوشي

كان في مدينة فلورانسا العظيمة بتقادم عهدها، الخالدة بنفيس متاحفها، رجل وافر الثراء يقال له نقولا نزلي، وكان إذا طلعت الشمس يتزوى في مخدعه، ويلبث سحابة نهاره جالساً إلى مكتبه يخط في دفاتره أرقاماً وينقل أخرى. وكان عاهل البلاد وبابا الكثلكة مدينين له بمبالغ باهظة، ولم يكن يعامل المراوغين والمكرة وخافري الذمم محاذرة منهم، ومخافة أن يقع في حبائلهم ويعرض أمواله للضياع. وكان من اجل هذا يقظاً حذراً، وقد جمع أموالاً وافرة، وجرد مدينيه الكثيرين من أملاكهم ومتاعهم ومقتنياتهم. وكان أهالي فلورانسا يجلونه ويخصونه بالاحترام من اجل ثرائه، وكان يقطن قصراً له لا يدخله النور إلا من كوى ضيقة مستديرة، لان الحرص والحرس يحدوان الأغنياء إلى تحصين دورهم وإيصاد أبوابها ليصونوا ما حشدوه فيها من أموال وكنوز وحلي، جمعوها بالإفك والمخاتلة والخداع. ومن اجل هذا أيضاً كان قصر نقولا نزلي محاطاً بالأسوار العالية المنيعة والسلاسل الحديدية الصلبة الثقيلة.

وكان قد استقدم امهر الفنانين وأحذقهم، فرسموا على جدران القصر الداخلية صور فتيات فاتنات، يرمزن إلى أسنى الفضائل واسماها، وصور أحبار إسرائيل وأنبيائه وملوكه. وكان معلقاً على جدران بعض الغرف كثير من النسائج الموشاة بفتوحات

الإسكندر وتربستيان ووقائع حروبهما العظيمة كما هي متناقلة بالتواتر ومدونة في بطون التواريخ.

وكان يطيب لنقولا نزلي هذا أن يظهر سواطع ثروته بما كان يأتيه من أعمال الخير: فأنشأ على نفقته خارج أسوار المدينة مستشفى نقشت على أفاريزه رسوم ترمز إلى امجد أعمال حياته. وقد علق الفلورانسيون رسمه في محراب المعبد الجديد المشيد على اسم العذراء مريم، عرفاناً بجميله، وتخليداً لذكرى مبالغ وافرة تبرع بها لإتمام بناء هذا المعبد. وقد مثل في هذا الرسم مضموم اليدين جاثياً على قدمي العذراء. وكان يدل عليه في صورته هذه وجهه الشاحب الكالح، وعيناه الحادتان، وقبعته الحمراء، ودثار مفري اعتاد الظهور به في المجتمعات. وكان رسم زوجه (منى يسمانتونا) معلقاً في المحراب أيضاً في الجهة المقابلة، قرب صورة العذراء، وكان الرسم يمثلها في موقف الصلاة وعلى وجهها بادية سمات الكابة والخفر والخشوع دلالة على احتفاظها بعفافها.

وقد كان نزلي فوق هذا في طليعة المواطنين الذين أسسوا الجمهورية؛ فلم يخالف يوماً شيئاً مما سن في البلاد من شرائع ووضع من نظم، ورسم من المراسيم، وفرض من قوانين. ولم يعن قط بشؤون البؤساء والمعوزين، ولم يتدخل في أمر من قضى عليهم رجال الحل والعقد بالعقاب أو التغريم أو الأبعاد، بحيث لم يفقد في أعين القضاة ورجال السلطة شيئاً مما أحرزه لديهم من مكانة ومقام، بوافر ثروته وحسن سيره وانقياده.

ففي ذات مساء من أيام الشتاء عاد إلى قصره متأخراً على غير عادته، فوجد نفراً من المتسولين نصف العراة محتشدين أمام الحديقة. فلما أبصروه احتاطوا به وبسطوا له أيديهم مستجدين. فزجرهم بعنف وانهال عليهم بالسب والشتم وأقصاهم عنه بفظ الكلام وقارسه فتفرقوا حلقات واجمين جزعين - غير أن الجوع وقد اخذ مأخذه منهم حملهم على لم شعثهم وإعادة الكرة على نزلي فرجعوا كأنهم مراجل تغلي واحتاطوا به ثانية بشكل نصف دائرة وطفقوا يضجون ويولولون ويلغطون ويصيحون صيحات تماثل عواء الذئاب الضارية واخذوا يسألونه بأصوات ملؤها التهدج والتهديد خبزاً يأكلونه فهم بالانحناء على الأرض ليلتقط حجارة يرشقهم بها، ولكنه ابصر أحد غلمانه آتيا وعلى رأسه طبق عليه أرغفة من الخبز الأسود جاء بها ليفرقها على المشتغلين في اصطبلات القصر ومطبخه وحديقته فأومأ إليه كي يدنو منه، ولما اقترب شرع نزلي يلقي بملء يديه على أولئك الجياع ذلك الخبز الأسود فهاجوا وماجوا وهجموا في هرج ومرج يدفع بعضهم بعضاً متزاحمين متسابقين على تلقف تلك الأرغفة والتقاطها، ولما خف صخبهم وسكن لغطهم وهدأت ثورتهم وحنقهم دخل نزلي في داره ونام، وفيما هو مستغرق في رقاده أصيب بضربة مخية أودت بحياته وكان موته سريعاً جداً بحيث خيل إليه انه لم يزل بعد على قيد الحياة. وبعد هنيهة شعر انه في مكان مقفر مظلم ثم ابصر ميكائيل رئيس الملائكة أتيا إليه قدماً وهو يحمل قسطاساً ذا كفتين، فلما أدركه الملك اخذ يضع في إحدى الكفتين ما كان في حيازة نزلي من حلى أرامل وأموال أيتام وقطع ذهبية وحجارة كريمة ونقود مختلفة كان أحرزها بالغش والربا الفاحش - ففهم نزلي انه قبض وانه إنما جيء به إلى ذلك المكان ليحاسب

فقال للملك: أما وقد وضعت في هذه الكفة ما جمعته بالغش والحرام فمن العدل أن تجعل في الكفة الأخرى ما عملتهمن مبرات وصنعته من حسنات فأرجو منك يا سيدي أن تجعل فيها ما شدته من معاهد للبر والعبادة: ضع المستشفى العظيم الذي أقمته خارج أسوار المدينة، ضع القبة الضخمة التي أنشأتها لمعبد العذراء مريم، ضع. . .

فقاطعه الملك وقال: هدئ روعك يا نقولا واخلد إلى السكينة فلن اغفل شيئاً من صالح أعمالك. قال هذا ووضع بيده اللبقة اللطيفة ذينك المستشفى والقبة في الكفة الأخرى ولكن الأولى ظلت راجحة. فقال نزلي: فتش جيداً لعلك تجد لي أعمالاً صالحة أخرى، ومع هذا أراك أهملت جرن الماء المبارك الذي قدمته لكنيسة القديس يوحنا، وغاب عنك منبر الخطابة الذي صنع على نفقتي في معبد القديس اندراوس، ونسيت بنوع خاص تمثال عماد السيد المسيح فهو عظيم جداً وقد كلفني نحته الدقيق البديع المتقن مبالغ طائلة. فجعل الملك كل هذا في الكفة أيضاً ولكن رجحان الأولى مازال عظيماً - فامتقع وجه نزلي روعة وجزعاً وغشى جبينه عرق بارد فأدرك انه هالك، وتدبران

الجحيم المعد للخطاة والأشرار سيكون مصيره، ثم التفت إلى الملك وقال: أأنت واثق يا مولاي من ميزانك وصحته؟ فابتسم الملك وقال: إن قسطاسي وان خالف بشكله موازين مرابي باريس وصيارفة البندقية إلا انه في منتهى الدقة والضبط: فقال نزلي أنى يكون هذا؟ أفلا يزيد في قسطاسك وزن القبة الضخمة والمنبر الكبير والتمثال العظيم والمستشفى الفسيح العالي بكل ما فيه من أسرة وعدد ومعدات على وزن قلامة الظفر وقشة الحقل وريشة الطائر؟ فقال الملك: لست ادري ولكن الأمر كما ترى، فمساويك وآثامك لا تزال حتى الآن ترجح كثيراً على مباراتك وحسناتك. فقال نزلي: وهو يصر بأسنانه وفرائصه ترتعد وركبتاه تصطكان هلعاً ورعباً: يا لشقائي! وما عسى أن يكون مصيري؟ أأنا هالك؟ وهل إلى النار مآلي؟ فقال الملك: رويدك يا نقولا إني لم أنجز بعد عملي إذ بقى وزن هذه، مشيراً إلى أرغفة الخبز الأسود التي ألقاها نزلي مكرهاً على الفقراء المعوزين في مساء اليوم السابق، ثم جمع الملك تلك الأرغفة وضمها إلى ما في كفة الأعمال الصالحة فإذا بهذه الكفة قد تحركت وبدأت تثقل وتهوي إلى أسفل، بينا الكفة الأخرى أخذت تخف وتشيل، ولبثت حركة الكفتين تتراوح هنيهة بين هبوط وصعود حتى سكنت، فإذا الكفتان متعادلتان وزناً ومستوىً. فدهش نزلي مما رأى وكأنه لا يصدق عينيه.

فقال له الملك: انك والأمر كما ترى لا تستحق الجنة جزاء ولا تستوجب النار عقاباً، فعد إذن إلى فلورانسا، وواصل الإحسان على الفقراء عن رضىً ولو بالخبز الأسود، ولا تدع أحداً يحس بالخير الذي تصنعه، وثق بأنك إن فعلت هذا وواظبت عليه تخلص، إذ لا يكفي أن يفتح الله أبواب الجنة للص النادم وللبغي التي تحوبت بغاها وندمت عليه وبكت من اجله وتابت عنه، بل يجب أن يخلص بواسع رحمته من النار غنياً أيضاً، فكن أنت هذا الغني ووال الإحسان ولو بالخبز بعد أن تبينت مبلغ وقعه وثقله في قسطاس العدل الإلهي.

قال الملك هذا واختفى، وبعد قليل أفاق نزلي من رقدة الموت وجلس في سريره يتأمل في ما حدث ويعجب مما رأى. ثم نهض بعد أن وطد النفس على العمل بنصح الملك وموالاة المعوزين بالصدقات والحسنات لينال الخلاص - وهكذا لبث طيلة ثلاث سنوات قضاها على الأرض بعد موته الأول كثير الإشفاق على الفقراء، وافر الرحمة على البؤساء والمعوزين، مواظباً على فعل الخير مواصلاً أعمال البر والصلاح.

حبيب المعوشي

الكتب

المسرح الغنائي

على ذكرى (غرام الشعراء)

تأليف الأستاذ احمد رامي

كتب مرة أديب من الشبان مقالاً في جريدة السياسية الأسبوعية الغراء منذ سنوات عدة حاول فيه أن يلفت أصحاب الغناء المبرزين إلى أن المرتبة التي وقفوا عندها ليست جديرة بهم، وان الغناء على تخت مكون من (أساطين رجال الفن) ليس قصارى ما يصل إليه فن الموسيقى، بل إن الميدان الفسيح للغناء هو المسرح والأوبرا. غير أن تلك النصيحة آلمت كبيراً من كبراء أهل صناعة الغناء وظن أنها تمس كرامته وفنه، وإلا فهل يليق أن يقول أحد أن غناءه يقصر عن غاية؟ أو أن في الإمكان أبدع مما كان؟ فهب إلى الرد على الكاتب واقبل على تجريحه بما لا يتفق ووداعة الفن الجميل. وإنني اليوم اجرؤ أن اكرر ما قال ذلك الأديب في مقاله السالف، فان أغاني هذه الأيام تكاد تجعل السماع حملاً ثقيلاً، وتكاد تجعل الاهتزاز إليه نوعاً من الصناعة المتكلفة. ولا شك انه قد آن لمصر أن يكون لها مسرح ثابت للأوبرا يجول عليه كبار المغنين من الجنسين ويمدهم فيه بالوحي والروح شعراء مصر المبرزون. والحق أن موت المسرح الغنائي هو الذي أمات الرواية الشعرية، وهاهي آية تدل على استعداد شعرائنا للتأليف والإبداع إذا وجد من يغرد بقولهم ويصدح بشعرهم.

وهاهو الأستاذ رامي يترك المقطعات حيناً ليظهر للملأ انه يستطيع إذا وجد من المسرح حاجة إليه أن يخلق قصة شعرية رائعة. فان بين أيدينا اليوم قطعة (غرام الشعراء) تجمع بين ما اعتاده الناس من عذوبة شعر رامي وما يتطلبه المسرح الغنائي من تصوير بديع وتأليف متسق. وقد جعلها الشاعر فصلا واحداً ونظنه قد قصد إلى ذلك

قصداً. فما نظنه إلا عارضاً على أصحاب الغناء بضاعة جديدة لعله يستطيع أن يرغبهم في ترك البسائط والطموح إلى آفاق أعلى واكثر سمواً.
وان رامي إذا فعل ذلك فإنما يرجى منه أن يلقي إلى الأدب بالآية الكاملة: بالقصة الشعرية
الطريفة: بما هو جدير به
م. ف. ا
كتاب القاهرة
للأديب عبد الرحمن زكي
ملازم أول بالأشغال العسكرية
هاهو ذا مؤلف يريد أن يقول شيئاً فيعرب في قوله. إن كثيراً مما نسمع من الأقوال لا يعدو أن يكون صوت أنين غير معرب، أو صوت نشوة لا يتبين السامع منها إلا صيحة تدوي في الفضاء، ولكن مؤلف (القاهرة) أراد أن يصف القاهرة فرسم خطة ثم أنفذها، وعرض على الناس كتاباً أن يقول لهم أن يقرأوه.
بدا بوصف فسطاط عمرو، ثم عسكر بني العباس ثم قطائع ابن طولون، ثم القاهرة المعزية، ثم ما طرأ عليها من الزيادة في أيام الدول التركية المتعاقبة. ثم أردف ذلك بوصف مختصر عن المقريزي لما كان في أيامه من خطط القاهرة، وأوضح ذلك كله بخرائط دقيقة واضحة.
ففكرة الكتاب فكرة علمية بديعة يشكر المؤلف عليها شكراً عظيماً.
غير انه لم يوفق في إنفاذ الخطة كما نظنه رسمها لنفسه، فان كتابا يصف القاهرة ينبغي أن يغلب عليه الوصف لما في القاهرة، وما اكثر ما فيها من مخلفات العصور المتعاقبة! غير انه قنع بان يغلب على كتابه ذكر تاريخالقاهرة وتطور عمرانها. فالكتاب اجدرأن يعد كتاب تاريخ نمو القاهرة لا كتاب وصف لها. ولسنا بسبيل التماس الأسباب التي دعت المؤلف إلى ذلك، غير أننا نرجو أن يوفق في مستقبل أيامه - واغلب الظن انه لا يزال في شبابه الأول القوي - إلى أن يكمل هذا البحث الطريف فيجعلنا نرى مميزات كل عصر ومخلفات كل دور من أدوار نمو القاهرة حتى يصبح ذكر القصة التاريخية ثانويا في ظهور الصورة بدل أن يكون كما هو الآن ابرز شيء فيها.
م. ف. ا
روائع من قصص الغرب
ترجمة الأستاذ كامل كيلاني
اذكر أنني منذ سنوات خمس، كنت أتحدث مع صديق حول رسالة الغفران التي هذبها الأستاذ كامل كيلاني، فقد كنت أقرا الرسالة مع الصديق قراءة الدرس والتحليل، فلما أن فرغنا من تلاوتها، قلت لصاحبي: والله إن الأستاذ كيلاني ليستحق منا الشكر لما صادفنا في هذه الرسالة من لذة وجمال. قال بل إن أبا العلاء لأجدر منه بذلك الثناء، أما الأستاذ كيلاني فماذا قدم إلينا إلا أن تناول رسالة أبي العلاء، فحذف منها شيئاً واثبت شيئا؛ قلت أن رسالة أبي العلاء لبثت مطمورة بين أكداس الكتب لا يجرؤ عليها إلا صفوة الخاصة وهم قليلون. أما وقد هذبها الأستاذ كيلاني، وشذب أطرافها النابية، وأزال ما يعترض سبيلها من عثرات، فقد باتت معبدة ميسرة للكثرة الغالبة من القراء، تتداولها أيدي الطبقة الوسطى من المتأدبين، بعد أن كانت أرستقراطية مقصورة على طبقة الأشراف! وإذن فمن الأسرف في الغبن وإنكار الجميل إلا نعترف بذلك المجهود - وأشباهه - الذي يهيئ للقراء ما لم يكن لهم إليه من سبيل.
وإذا كانت التجارة في عالم الاقتصاد دعامة قوية يرتكز عليها البناء الاقتصادي بأسره، وهي ليست إنتاجاً في ذاتها، إنما هي وساطة بين المنتج والمستهلك، ففيهم الكفر بقيمة الوساطة الأدبية بين الكاتب والقارئ؟ ولولاها لما اتصل القراء بأكثر ما تسيل به الأقلام في أنحاء الأرض إلا في دائرة ضيقة وحيز محدود. وان صح هذا القول بصفة عامة، فهو اشد صدقاً واثبت يقيناً بالنسبة إلى مصر، لأنها اليوم في عصر ترجمة اكثر منه عصر تاليف، فالمترجم الذي يقدم إلى قراء العربية صوراً من أدب الغرب، إنما يسدي إليهم يداً بيضاء، لأنه يقدم إليهم غذاء صالحاً ما كانوا ليوفقوا إليه لولا ما بذل من مجهود.
نقول ذلك بمناسبة مجموعة القصص التي عربها الأستاذ كامل كيلاني. فهي من روائع

الأدب الغربي حقاً، قد وفق في اختيارها وتعريبها إلى حد بعيد. وحسبك أن تعلم أنها طائفة من قصص بوكاتشو، وفولتير، وديدرو، وسرفنتس، وفلوبير، وسويفت، وروسو وغير هؤلاء من أئمة الأدب في الغرب!

ولسنا نشك في أن القصة القوية الرائعة التي تحلل النفس الإنسانية في أعماقها، وتحرج سرها الدفين من مكمنه، فتضع تحت أبصارها ما استتر في أحنائها حتى نلمس مواضيع النقص بارزة واضحة، لهي من افعل الأدواء لما ينتاب جيلنا من أمراض خليقة تكاد تهز كياننا من أساسه، والتي تدعو إلى تضافر الأقلام جميعاً في درء خطرها الداهم.

فهذه المجموعة القيمة وعاء اجتمعت فيه مجموعة مختلفة من طباع الإنسان، وتلمح في ثناياها مثلا عليا تؤثر في نفس القارئ من حيث يدري ولا يدري. ولا بد أن نذكر - ونحن بصدد هذا الكتاب - جودة الطبع والورق، وجمال التنسيق وسلامة الذوق.

ز. ق. م

العدد 51 - بتاريخ: 25 - 06 - 1934

ذكرى المولد

كان الناس في أبريل من عام 571، والطبيعة المشفوفة تنتظر انبثاق الروح المبدع، وانبعاث الربيع الممرع، وانتعاش الحياة الجديدة في الأرض الهامدة؛ والخليقة المئوفة ترسل النظر الحائر في الآفاق الغائمة، ترتقب لمعة النور من الشرق، ونفحة القوة من الحق، وكلمة الهدى من الله؛ والجزيرة المجهودة تصهرها الشدائد، وتطهرها الدماء، وتهيئها الأقدار ليهبط فوقها الوحي، ويتجلى لها الخالق، وتتصل عندها السماوات بالأرض؛ والهواتف الطائفة تعلن في رؤوس الجبال، وسفوح الأودية، ومدارج السبُل، وسوابيط المعابد، وأواوين القصور، بشرى الرسالة الأخيرة، وظهور الرسول المنتظر؛ والشياطين الآلهة تئن في أجواف الأصنام المنكسة أنين الخيبة والهيبة واليأس؛ وأجنحة الأملاك تخفق من وراء البصر في جو مكة القائض المغبر، فتنفض عليه النور والسرور والدعة؛ وأرواح الأنبياء من حول الكعبة تضوع بالحمد والدعاء احتفالاً بختام النبوة، وقيام الدعوة مرة أخرىفي بيت إبراهيم؛ وومضات من روح القدس وأشعة الخلد تنعقد هالات مشرقات على (شعب بني هاشم) وفوق دار آمنة؛ والنبي الوليد الذي خنس لمولده الشيطان، واعتدل بمقدمه الزمان، وخشع لذكره الكاهن والموبذان، وتصدّع من خشيته الدست والإيوان، يفتح عينيه للوجود في بيت العُدم، ويلقى ارواقه الكريمة على نهاد اليتم، ولا يظفر بمرضع إلا لأنها لم تظفر آخر الأمر بغيره!!

تبارك الله ما أبلغ حكمة وأجل شأنه! شاء لنوره وبرهانه أن يشرقا في هذا المنزل المتواضع، ولمجده أن يظهرا في هذا اليتيم الوادع، ولعلمه وقرآنه أن ينزلا على هذا الأمي الحي، لتكون آيته أبهر للعيون، ودعوته أبرع في العقول، وكلمته أنْوط بالأفئدة؛ ولو اتخذ رسله من الملوك العواهل لاتُّهمت المعجزة، والتبس على الناس فعل القدرة.

كان محمد بن عبد الله مثَل الله الأعلى للإنسان الكامل.

صوره خلقاً سويّاً ليرسم الأخلاق بالمثل، ويعلم الدين بالعمل، وينظم الحياة بالقدوة. وإلا فكيف اجتمع فيه ما تفرق في جميع الناس من خصال الرجولة، وخلال البطولة، وخلائق النبل، وبيئته لا تملك من بعض ذلك ما تعطيه؟

رعى على بعض أهله، وسعى لبعض قومه، واتجر بمال زوجه، فكان في جليل الأمر كما كان في ضئيلة صادق العزم، كريم العهد، وثيق الذمة، راجح الحلم، شاهد اللب، لين العِطف، حلو المعاشرة (يحمل الكَلَّ، ويكسب المعدوم، ويعين على نوائب الحق) ثم اصطنعه الله لحقِّه، وحَّمله الرسالة إلى خلقه، فكان في غار حراء، وفي دار الأرقم، وفي جبل ثور وفي دار أبى أيوب، وفي المسجد الجامع ثم في الرفيق الأعلى، مظهرا صحيحا لروح الله، وإعلانا صريحا لسر الدين، ومثالا عاليا لصدق الجهاد، واحتمالا ساميا لمكاره الدعوة، وأسوة حسنة لجميع الناس!

جهر الرسول بالدعوة بعد أن خافت بها في قريش ثلاث سنين، فضلل الأقوام وسفه الأحلام وهاجم الشرك في معقله، وليس وراء ظهره إلا عمه! فتألبت عليه عناصر

الشر جمعاء فما أفكتْه عن عزمه، ولا خلجته عن همه. ثم تجلت فيه الكمال الإنساني فحشد للخصومة قوى النفس وقوى الحس فجاهد بالصدق، وجالد بالصبر، وجادل بالمنطق، وصاول بالرأي، وأثَّر باللسان، وقهر باليد، وتلك مزيته الظاهرة على النبيين والرسل، فكل نبي وكل رسول إنما بان شأوه على قومه في بعض المزايا، إلا الرسول العربي فقد تم فيه ما نقص في غيره من معجزات الرجولة، فكان رسولاً في الدين، وعلَماً في البلاغة، ودستوراً في السياسة، وإماماً في التشريع، وقائداً في الحرب.

إن حياة الرسول قانون إلهي خالد لصاحب الدين وصاحب الدنيا، وان وسائل الجهاد التي جدد بها أسلوب العيش وأقام بها ميزان المجتمع لا تزال عناوين ضخمة في صفحات العلم والسياسة والخلق، وان من أساس الإسلام أن نطيع الله في كتابه، ونطيع الرسول في سننه وآدابه، فليت شعري أكان في حدود الإمكان أن يرتطم العرب والمسلمون في مراغة الخمول، فيرضون بالهُون، ويقنعون بالدون، ويتخلون عن مكانهم من صدر الوجود، لو أنهم اتخذوا من أحكام ربهم منهاجا، ومن كلام رسولهم علاجا، ومن حياة السابقين الأولين من رجالهم قوة وقدوة؟؟

أليس من خذلان الله لنشئنا الجُدُد أن يلوكوا جاهدين أسماء فلان وفلان ممن رأى رأيا أو أنشأ قصيدة أو ألف كتابا، ثم يتركوا عامدين اسم محمد الذي جمع العرب من شتات، وأيقظ العالم من سبات، أقام للسماء دينا في الأرض، وأسس للأرض دنيا في السماء؟

احمد حسن الزيات

الإشراق الإلهي وفلسفة الإسلام

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

كما تطلع الشمس بأنوارها فتفجر ينبوع الضوء المسمى النهار، يولد النبي فيوجد في الإنسانية ينبوع النور المسمى في الدين وليس النهار إلا يقظة الحياة تحقق أعمالها، وليس الدين إلا يقظة النفس تحقق فضائلها.

والشمس خلقها الله حاملة طابعه الإلهي في عملها للمادة تُحَوِّل به وتُغَيِّر، والنبي يرسله الله حاملاً مثل ذلك الطابع في عمله للروح تترقى فيه وتسمو.

ورعشات الضوء من الشمس هي قصة الهداية للكون في كلام من النور وأشعة الوحي في النبي هي قصة الهداية لإنسان الكون في نور من الكلام.

والعامل الإلهي العظيم يعمل في نظام النفس والأرض بأداتين متشابهتين: أجرام النور من الشموس والكواكب، وأجرام العقل من الرسل والأنبياء.

فليس النبي إنسانا من العظماء يُقرأ تاريخُه بالفكر مع المنطق، ومع المنطق الشك، ثم يُدرس بكل ذلك على أصول الطبيعة البشرية العامة؛ ولكنه إنسان نجميٌّ يُقرأ بمثل (التلسكوب) في الدقة، معه العلم، ومع العلم الإيمان، ثم يُدرس بكل ذلك على أصول طبيعته النورانية وحدها.

والحياة تنشئ علم التأريخ ولكن هذه الطريقة في درس الأنبياء صلوات الله عليهم - تجعل التأريخ هو ينشئ علم الحياة؛ فإنما النبي إشراق إلهي على الإنسانية يقومها في فلكها الأخلاقي، ويجذبها إلى الكمال في نظام هو بعينه صورة لقانون الجاذبية في الكواكب.

ويجيء النبي فتجئ الحقيقة الإلهية معه في مثل بلاغة الفن البياني، لتكون أقوى أثراً. وأيسر فهماً، وأبدع تمثيلاً، وليس عليها خلاف من الحس. وهذا هو الأسلوب الذي يجعل إنسانا واحداً فنَّ الناس جميعاً، كما تكون البلاغة فن لغةٍ بأكملها؛ هو الشخص المفسِّر إذا تعسَّف الناس الحياة لا يدرون أين يؤمون منها، ولا كيف يتهدَّون فيها، فتضطرب الملايين من البشرية اضطرابَها فيما تنقبض عنه وتتهالك فيه من أطماع الدنيا؛ ثم يخلق رجل واحد ليكون هو التفسير لما مضى وما يأتي، فتظهر به حقائق الآداب العالية في قالب من الإنسان العامل المرئيّ، أبلغ مما تظهر في قصة متكلمة مرويّة.

وما الشهادة للنبوة إلا أن تكون نفس النبي أبلغَ نفوس قومه حتى لَهو في طباعه وشمائله طبيعة قائمة وحدها كأنها الوضع النفساني الدقيق الذي يُنصب لتصليح الوضع المغلوط للبشرية في عالم المادة وتنازع البقاء. وكأن الحقيقة السامية في هذا النبي تنادى الناس: أن قابلوا على هذا الأصل وصححوا ما اعترى أنفسهم من غلط الحياة وتحريف الإنسانية.

ومن ثم فنبي البشرية كلها من بُعث بالدين أعمالاً مفصلة على النفس أدق تفصيل وأوفاه بمصلحتها، فهو يعطي الحياة في كل عصر عقلها العملي الثابت المستقر تنظم به أحوال النفس على ميزة وبصيرة، ويدع للحياة عقلها العلميَّ المتجدد المتغير تنظم به أحوال الطبيعة على قصد وهدى، وهذه هي حقيقة الإسلام في أخص معانيه، لا يغني عنه في ذلك دين آخر، ولا يؤدى تأديته في هذه الحاجة أدب ولا علم ولا فلسفة، كأنما هو نَبعٌ في الأرض لمعاني النور بازاء الشمس نبعِ النور في السماء.

وكل ذلك تراه في نفس محمد صلى الله عليه وسلم؛ فهي في مجموعها أبلغ الأنفس قاطبة؛ لا يمكن أن تعرف الأرض أكمل منها؛ ولو اجتمعت فضائل الحكماء والفلاسفة والمتأهلين وجعلت في نصاب واحد - ما بلغت أن يجئ منها مثل نفسه صلى الله عليه وسلم. ولكأنما خرجت هذه النفس من صيغة كصيغة الدرة في محارتها، أو تركيب كتركيب الماس في منجمه، أو صفة كصفة الذهب في عرقه. وهي النفس الاجتماعية الكبرى، من أين تدبّرتها رأيتها على الإنسانية كالشمس في الأفق الأعلى تنبسط وتَضحي وتلك هي الشهادة له صلى الله عليه وسلم بأنه خاتم الأنبياء، وأن دينه هو دين الإنسانية الأخير. فهذا الدين في مجموعه إن هو إلا صورة تلك النفس العظيمة في مجموعها، صلابته بمقدار الحق الإنساني الثابت، لا بمقدار الإنسان المتغير الذي يكون عند سبب جبلاً صلداً يشمخ، وعند سبب آخر ماءً عذباً يجري.

وهو دين يعلو بالقوة ويدعو إليها، ويريد إخضاع الدنيا وحكم العالم، ويستفرغ همه في ذلك، لا لإعزاز الأقوى وإذلال الأضعف، ولكن للارتفاع بالأضعف إلى الأقوى. وفرقُ ما بين شريعته وشرائع القوة، أن هذه إنما هي قوة سيادة الطبيعة وتحكمها، أما هو فقوة سيادة الفضيلة وتغلبها؛ وتلك تعمل للتفريق، وهو يعمل للمساواة؛ وسيادة الطبيعة وعملها للتفريق هما أساس العبودية، وغلبة الفضيلة وعملها للمساواة هما أعظم وسائل الحرية.

ومن هنا كان طبيعياً في الإسلام ما جاء به من أنه لا فضيلة إلا وهو يطبع عليها صورة الجنة بنعيمها الخالد، ولا رذيلة إلا وهو يضع عليها صورة النار الأبدية وقودها الناس والحجارة؛ فلا تنظر العين المسلمة إلى أسباب الحياة نظرة الفكر المنازع يحرص على ما يكون له، ويَشرَه إلى ما ليس له، ويمكر الحيلة، ويبدع وسائل الخداع، ويزيد بكل ذلك في تعقيد الدنيا - بل نظرة القلب المسالم بخلع الدنيا، ويسخو بكل مضنون فيها فيعف عن كثير؛ ويعرف الانسانية، ويطمع في غاياتها العليا، فيعفو عن كثير؛ ويدرك أن الحلال وإن حل فوراءه حسابه، وأن الحراموإن غر ليس إلا تعلل ساعة ذاهبة ثم من ورائه عقاب الأبد.

ويخرج من ذلك أن يكون أكبر أغراض الإسلام هو أن يجعل من خشية الله تعالى قانون وجود الإنسان على الأرض، فمن أي عطفيه التفت هذا الإنسان وجد على يمينه ويسرته ملكين من ملائكة الله يكتبان أعماله بخيرها وشرها، فهو كالمتهم المستراب به في سياسة النفس لا يمشى خطوة إلا بين جاسوسين يحصيان عليه حتى أسباب النيه، ويجمعان منه حتى نزوات الكبد، ويترجمان عنه حتى معاني النظر. وإذا قامتهذه المحكمة الملائكية وتقررت في اعتبار النفس - قام منها على النفس شرع نافذ هو قانون الإرادة المميزة، تزيد الحسنات وتعمل لها، وتخشى السيئات وتنفر منها، فإذا معا عضها بعضاً، لا لتحقيق الحكومة والسلطة، ولكن لتحقيق الخير والمصلحة؛ وإذا نواميس الطبيعة المجنونة في هذا الحيوان قد نهضت إلى جانبها نواميس الإرادة الحكيمة في الإنسان، وإذا كل صغيرة وكبيرة في النفس هي من صاحبها مادة تهمة عند قاضيها في محكمتها، وإذا كل ما في الإنسان، وما حول الإنسان - لا يراد منه إلا سلام النفس في عاقبتها؛ وإذا معني السلام هو المعنى الغالب المتصرف بالإنسانية في دنياها.

وكل أعمال الإسلام وأخلاقه وآدابه، فتلك هي غايتها، وهذه هي فلسفتها؛ لا يقررها للإنسانية حسْب، بل يغرسها في الوراثة غرساً بالاعتياد والمران الدائم، لتكون علماً وعملاً، فتمكن لسلام النفس بين الأسلحة المسددة إليها من ضرورات الحياة في أيدي الأعداء المتالبة عليها من شهوات الغريزة.

فليس يعم السلام إلا إذا عم هذا الدين بأخلاقه فشمل الأرض أو أكثرها، فان قانون العالم

حينئذ يصبح منزعاً من طبيعة التراحم، فأما انتسخ به قانون التنازع الطبيعي، وإما كسر من شِرَّته، ويولد المولود يومئذ وتولد معه الأخلاق الإنسانية.

تقرير معنى الدوام لكل أعمال النفس حتى مثقال الذرة من الخير والشر، وضبط ذلك برياضة عملية دائمة مفروضة على الناس جميعاً - هذا هو أساس العقيدة الإسلامية. ولا صلاح للإنسانية بغيره يردّها إلى سبيل قصدها، فان من ذلك تكون الصفة العقلية التي تغلب على المجتمع وتجانس بين أفراده، فتوجّه الإنسانية كلها نحو الممكن من كمالها، ولا تزال توجِّهها نحو ما هو أعلى، وتحكم فاسدها بصالحها، وتأخذ عاصيها بمطيعها، وتجعل الشرف الإنساني غرضها الأول، لأن الله الحقّ غرضُها الأخير؛ فيصبح المرء - وهذا دينه - كلما تقدم به العمر كمل فيه اثنان: الإنسان، والشريعة. ولا يعود طالب السعادة النفسية في الدنيا كالمجنون يجري وراء ظله ليمسكه؛ فلا يدرك في الآخر شيئاً غير معرفته أنه كان في عمل باطل وسعى ضائع.

والإسلام يحرص أشد الحرص وأبلغه على تقرير ذلك المعنى الإلهي العظيم، لا بالمنطق ولكن بالعمل؛ ثم في النفس وعواطفها لا في العقل وآرائه؛ ثم على وجه التعميم دون الاستثناء والخصوص، وذلك هو سر مشقته على النفس بما يفرضه عليها؛ فان فلسفته أن هذه النفس هي أساس العالم، وأن النظام الخلقي هو أساس النفس، وأن العمل الدائم هو أساس النظام، وأن روح العمل الدائم تكون فيما يشق بعض المشقة ولا يبلغ الكسل والإهمال. وللنفس وجهان: ما تعلن، وما تُسرّ. ولا صدق لإعلانها حتى يصدق ضميرها، ولا صلاح لجهرها حتى يصلح السرّ فيها، ولا يكون الإنسان الاجتماعي فاضلاً بِمشَهدهِ حتى يكون كذلك بغيبه. وللعالم كذلك وجهان: حاضره الذي يمر فيه، وآتيه الذي يمتد له. ولا يفلح حاضر منقطع لا يُوَرِّث ما بعده كما وَرِث ما قبله، وما حاضر الإنسانية إلا جزء من عمل الناس في استمرار فضائلهم باقية نامية.

وللنظام أيضاً وجهان: نظام الرغبة على الطاعة والاطمئنان لها، ونظام الرغبة على الخشية والنّفْرة منها. ولا يستقيم شأن ليس أساسه الطاعة في النفس، ولا يستمر نظام عليه خلاف من فكر العامل به. وللعمل الدائم طريقتان: إحداهما طريقة الجادّ يعمل للعاقبة يستيقنها، فلا يجد مما يشق عليه إلا لذة المغالبة للنصر، كل مرارة من قبله هي حلاوة فيه من بعد، ولا يعرف للمحنة يبتلى بها إلا معناها الحقيقي وهو إيقاظ نفسه، فيصبح الصبر عنده كصبر المحب على أشياء ممن يحبه؛ صبر فيه من السحر ما يكسو الحرمان في بعض الأحيان خيال الاستمتاع، ويذيق النفس في العجز عن بعض أغراضها - لذةً كلذة إدراكه.

تلك هي فلسفة الإسلام؛ لا قوام للأمر فيها ولامساك له إلا بتقرير الدوام لكل أعمال النفس، ووضع طابع الجنة على أعمال الجنة، وطابع النار على أعمال النار - وحياطة كل فرد من الناس حياطة رياضية عملية بين الساعة والساعة، بل بين الدقيقة والدقيقة، بما يكلف من أعمال جسمه وحواسه، ثم أعمال قلبه ونيته - وتعظيم الشخصية الروحية دون الشخصية المادية، فلا يحاول كل إنسان أن يجعل بطنه في حجم مملكة أو مدينة أو قرية بما ينتقص من حقوق غيره؛ بل تتسع ذاتية كل فرد بما يجب له على المجتمع من الواجبات الإنسانية. وبهذا لا بغيره تتعين مقاييس الأخلاق في الأرض - بالمصلحة لا باللذة - فلا يقع الخطأ ولا التزوير، وتنحل المشكلة الاجتماعية مادامت الحياة لا تجد من أهلها كل ساعة عقدا فيها.

والاستيلاء بذلك المعنى على العقل والعاطفة هو وحده الطريقة لإنشاء طبيعة الخير في الناس على نسقها الطبيعي، كما أنه هو وحده الطريقة لتطهير التأريخ الإنساني من أوبائه الاقتصادية التي جعلته كأنما هو تأريخ الأسنان والأضراس. وتركت الناس يهدم بعضهم بعضاً، كما يهدم الجار حائط جاره ليوسع بيته!

وأساس العمل في الإسلام إخضاع الحياة للعقيدة، فتجعلها العقيدة أقوى من الحاجة، فيكون الفقير معدماً ويتعفف، ويكون الغني موسوراً ويتصدق، ويكون الشرهُ طامعاً ويمسك، ويكون القوي قادراً ويحجم؛ وكما قال العرب في تحقيق ناموس الأنفة والحمية وغلبته على الناموس الاقتصادي: تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها.

تريد الإنسانية امتداداً غير امتدادها التجاري في الأرض، وتحتاج إلى معنى يقود إنسانها غير الحيوان الذي فيه، وإذا قاد الغراب قوماً - كما قال شاعرنا يمر بهم على جيف الكلاب. .

والإنسانية اليوم في مثل ليل حَوْشيٍّ مظلم اختلط بعضه في بعض، وليست معاني الإسلام إلا الإشراق الإلهي على هذه الكثافة المادية المتراكمة، وإذا رفع المصباح لم تجد الظلام إلا
وراء الحدود التي تنتهي إليها أشعته.
وقد علمنا من طبيعة النفس أن إنسانية الفرد لا تعظم وتسُمو وتتخيل وتفرح فرحها الصادق وتحزن حزنها السامي إلا أن تعيش في محبوب؛ فإنسانية العالم لا تكون مثل ذلك إلا إذا عاشت في نبيها الطبيعي، نبي أخلاقها الصحيحة وآدابها العالية ونظامها الدقيق؛ وأين تجد هذا المحبوب الأعظم إلا في محمد ودين محمد؟
وعجيب أن يجهل المسلمون حكمة ذكر النبي العظيم خمس مرات في الأذان كل يوم ينادى باسمه الشريف ملء الجو، ثم حكمة ذكره في كل صلاة من الفريضة والسنة والنافلة يهمس باسمه الكريم ملء النفس! وهل الحكمة من ذلك إلا الفرض عليهم ألا ينقطعوا من نبيهم ولا يوما واحداً من التاريخ، ولا جزءاً واحداً من اليوم، فيمتد الزمن مهما امتد والإسلام كأنه على أوله، وكأنه في يوم ولا في دهر بعيد. والمسلم كأنه مع نبيه بين يديه تبعثه روح الرسالة، ويسطع في نفسه إشراق النبوة، فيكون دائماً في أمره كالمسلم الأول الذي غير وجه الأرض؛ ويظهر هذا المسلم الأول بأخلاقه وفضائله وحميَّته في كل بقعة من الدنيا مكان إنسان هذه البقعة لاكما نرى اليوم؛ فان كل أرض إسلامية يكاد لا يظهر فيها إلا إنسانها التاريخي بجهله وخرافاته وما ورث من القدم؛ فهنا المسلم الفرعوني، وفي ناحية المسلم الوثني، وفي بلد المسلم المجوسي، وفي وجهة المسلم المعطل. . . وما يريد الإسلام إلا نفس المسلم الإنساني.
أيها المسلم!
لا تنقطع من نبيك العظيم، وعش فيه أبدا، واجعله مثلك الأعلى، وحين تذكره في كل وقت فكن كأنك بين يديه؛ كن دائماً كالمسلم الأول؛ كن دائماً ابن المعجزة.
مصطفى صادق الرافعي
(محمد)
للأستاذ علي الطنطاوي
منذ أربعة عشر قرناً ونيف ولد محمد، فلم يكد يفطن إلى ولادته إلا قليل، وبعد أربعة عشر قرناً ونيف - استضاءت فيها الدنيا بنور محمد، واهتدت الإنسانية بهدْى محمد - مرت بالدنيا ذكرى مولد محمد، فلم يكن يفطن إليها إلا قليل!
بل لم يعرف بعدُ من هو محمد!
على أن العظماء في التأريخ كثيرون، وقد عرفهم التأريخ، ولكنه لم يعرف محمداً، لأنه ليس فيهم مثل محمد!
عظمة أولئك أنهم سبقوا أوانهم، فعظموا لسبقهم، ثم جاء أوانهم فساواهم أبناؤه جميعاً، ثم جاء أوان بعده ففاقهم أهله جميعاً، ولم يبق لهم إلا عظمة الذكرى.
وان التلميذ اليوم يعرف من الطبيعة أكثر مما كان يعرف جاليليو، والضابط يعلم من فنون الحرب أكثر مما كان يعلم اينبال وطالب الفلسفة يدرك من حقائقها أكثر مما كان يدرك أفلاطون وكذلك سائر العظماء.
أما محمد فطراز من البشر لا تحتمل الدنيا منه أكثر من واحد، ولا يمتد عمرها حتى ترى مثل محمد، فمحمد عظيم كل عصر، وعظمته لا تبلى على الدهر.
وإن كثيراً من العظماء قد سنوا سنناً، وشرعوا شرائع، ولكنهم سنوها ناقصة فكملت، وقاصرة على زمان واحد فعدلت، ومحدودة ضيقة فوسعت، وما زالت أبداً في حاجة إلى التكميل والتوسيع والتعديل. أما شريعة محمد فجاءت كاملة، وعاشت كاملة، وستخلد كاملة، لأنها من عند الله الكامل، لا من عند العقل الناقص.
وستموت الشرائع كلها، والعاقبة لشريعة الله
إن روحية الشرق ستطحن مادية الغرب، ومادية الغرب ستقتل روحية الشرق، ولا يبقى إلا الأصلح، والأصلح هو الإسلام.
أي دين غير الإسلام يستطيع المرء أن يتمسك بأحكامه كلها، ثم يكون امرأ صوفياً قوياً غنياً؟
أي دين غير الإسلام يعرف للبدن حق البدن، وللروح حق الروح، ويعرف للدنيا حقها،

وللآخرة حقها؟
أي دين غير الإسلام فيه الوحدانية في الإيمان، والشورى في الحكم، والاخوة في الحياة، والجهاد في المبدأ، والقوة والاعتدال في كل شيء؟
أي دين غير الإسلام يحل المشكلة الاجتماعية الكبرى، التي ولدت الشيوعية والفاشية والنازية، وستلد الموت الأحمر، والخراب الأكبر؟
إن العظماء كثيرون، ولكن العظيم عظيم في ناحية، صغير في سائر النواحي، فهو عظيم في العلم، أو في الحرب، أو في الأدب، أو في السياسة. أما محمد فعظيم في كل شيء.
وآثار العظماء في البشر واضحة جلية، ولكن لم يعمل أحد أجل ولا أجمل مما عمل محمد.
نفخ في هذه البادية القاحلة، وهذه الأمة المتفرقة الجاهلة، فاخرج منها أمة قوية عالمة عاملة. . . حملت مشكاة النور، في وقت عم فيه الظلام، وبنورها اهتدى ويهتدي كل إنسان في كل مكان إلى آخر الزمان، ولولا محمد ما كانت أوربة ولا الأميركتان!
كانت الدنيا في نظر قريش مكة، كما أن الدنيا في نظر الفرنسيس باريس، ولكن دنيا محمد أوسع، ومحمد لا تسعه مكة، فأم غار حراء ليشرف على الأفق الواسع، ثم سما على معراج إلى السماء، فرأى الأرض كيراعه مضيئة، فاستصغرها، ولم يحفل بما عليها من ذرات هينة. .
هكذا عاش محمد، وهكذا انتقل
عاش محمد في الأرض وهو أكبر من الأرض، وترك في الأرض أثراً أكبر من الأرض، ولم يعرفه في الأرض أحد من أبناء الأرض - ذلك لأنه كان كما قال لامارتين:
(فوق البشر، ودون الإله، فهو رسول الله صلى الله عليه وسلم)
علي الطنطاوي
إحياء المولد النبوي الكريم
بعض رسومه ومناظره في مصر الإسلامية
للأستاذ محمد عبد الله عنان
كانت ليلة الثاني عشر من ربيع الأول - ليلة مولد النبوي الكريم - دائماً من المواسم والأعياد المشهودة في جميع الأمم الإسلامية؛ ومازال مولد النبي العربي من الذكريات الخالدة في المجتمع الإسلامي؛ ولكن الاحتفال بذلك الحادث العظيم في تأريخ الإنسانية كان يقترن في العصور الخالية، أيام عز الإسلام ومجده، بضروب من الجلال والبهاء والبذخ، ذهبت بها حوادث الزمن وتقلباته، وما انتهت إليه الأمم الإسلامية من الاضمحلال والتأخر. وقد بدأ هذا الاحتفال المقدس في عصر الإسلام الأول بسيطاً متواضعاً، كباقي المواسم والاحتفالات الدينية، فلما بلغت الخلافة ما بلغت من العظمة والبهاء، ظهرت فخامة الملك وروعته في الأعياد والحفلات الرسمية، وجرت الشعوب على سنة ملوكها وأمرائها في هذا الموسم من الظهور والبذخ. وكان شأن مصر الإسلامية في ذلك شأن باقي الولايات الإسلامية في عصر الخلافة الأول من بساطة في الرسوم والمظاهر؛ فلما استحالت مصر من ولاية خلافية إلى دولة مستقلة في عهد بني طولون وبني الأخشيد وقامت فيها قصور ملوكية باذخة، ظهر أثر هذا الانقلاب في رسوم الدولة ومظاهرها العامة، وغدت المواسم والاحتفالات الدينية حوادث عامة يحييها الشعب، كما تحييها الحكومة في كثير من الرونق والبهجة والحبور.
وقد بلغت هذه المظاهر والرسوم الفخمة ذروة البهاء والروعة في عهد الدولة الفاطمية، وكانت هذه الدولة القوية الشامخة تتخذ من المواسم والأعياد الدينية والقومية فرصاً للظهور في أبدع مظاهر القوة والغنى والترف، وتغمر الشعب في هذه الأيام المشهودة بوافر بذلها وعطائها؛ فكان الشعب يستقبل هذه المواسم باهتمام وحماسة ويكثر فيها من الاحتشاد والإنفاق والمرح، تشجعه الدولة على ذلك وتحثه بقدوتها ومثلها. وكان للاحتفال بهذه المواسم رسوم وتقاليد معينة تختلف باختلاف أهميتها الدينية أو القومية. وقد بلغت في ظل الدولة الفاطمية من الكثرة والانتظام ما لم تبلغه في أية دولة إسلامية أخرى. ذلك أن الخلافة الفاطمية شرعت لنفسها، إلى جانب الأعياد الدينية المأثورة، أعياداً خاصة بها

وبدعوتها ومذهبها الديني، فقررت أن تحتفل إلى جانب المولد النبوي، بموالد خمسة أخرى هي مولد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ومولد زوجه السيدة فاطمة الزهراء التي ينتسب الفاطميون إليها، ومولد الحسن، ومولد الحسين ابني علي، ومولد الخليفة الفاطمي القائم في الملك؛ هذا إلى مواسم وأعياد أخرى كيوم عاشوراء (عاشر محرم) الذي قتل فيه الحسين، وليلة أول رجب ونصفه وليلة أول شعبان ونصفه وهي ليالي الوقود الشهيرة؛ ثم كانت هنالك أعياد قومية أخرى كيوم فتح الخليج، ويوم الميلاد النصراني ويوم النوروز، ويوم الغطاس؛ ذلك أن الخلافة الفاطمية لم تنس أن تشمل رعاياها النصارى برعايتها وتسامحها في إحياء هذه الأعياد القومية القديمة بصفة رسمية، وفي أن تسبغ عليها من البهجة والبهاء ما يسبغ على الأعياد الأخرى.

وكان المولد النبوي الكريم في مقدمة الأعياد الإسلامية المقدسة، تحتفل به الدولة طبق رسوم معينة، ويحتفل به الشعب في فيض من الضجيج والمرح. وقد وصف لنا مؤرخو الدولة الفاطمية المعاصرين، كابن زولاق، والمسبحي، وابن الطوير، وابن المأمون، طرفاً من هذه المناظر والرسومالشائقة؛ وخلاصة هذه الرسوم، هو أنه إذا حل المولد النبوي، يطلق من الخزينة مبلغ كبير برسم الصدقات، ويطلق من دار الفطرة أربعون صينية فطرة ومن الخزائن سكر ولوز وعسل وزيت برسم خدمة المزارات التي بها - حسب قولهم - بعض أعضاء آل البيت، ويوزع من الحلوى بضع مائة ألف رطل، وكذا من الخبز كمية كبيرة. وفي يوم المولد النبوي - الثاني عشر من ربيع الأول - يخرج الخليفة في موكبه ليجلس في المنظرة الخلافية المجاورة للمشهد الحسيني؛ وهي أقرب المناظر إلى القصر؛ وتكون دار الفطرة قد أعدت ثلاثمائة صينية مجهزة بالحلوى اليابسة لتفرق في كبار الموظفين والقضاة، وفي مقدمتهم قاضي القضاة وداعي الدعاة، وقراء الحضرة وخطباء المساجد الجامعة. وعند الظهر يركب قاضي القضاة في موكبه من عند القصر، ويخلى ميدان القصر من الجماهير، ويترك للجمهور السلوك من ناحية أو اثنينْ، ويقوم والي القاهرة بالمحافظة على النظام مع رجاله؛ ويصل موكب قاضي القضاة من ناحية، ويصل موكب الحاجب الكبير من ناحية أخرى إلى ساحة المنظرة الخلافية وقد فرشت بالرمل؛ ويقف الجميع في الساحة متشوقين لرؤية الخليفة. وبعد نحو ساعة يطل الخليفة من إحدى الطاقات وعلى رأسه المنديل الخلافي، ومن ورائه بعض الأستاذين المحنكين ويطل أحد الأساتذة من طاقة أخرى ويقول: (أمير المؤمنين يرد عليكم السلام) ويسلم على الحضور؛ ثم يبدأ قراء الحضرة بالقراءة وقوفاً، ووجوههم إلى الجمهور، وظهرهم إلى المنظرة؛ ثم يلقى خطباء المساجد الجامعة خطبهم، فيبدأ خطيب الجامع الحاكمي، ثم خطيب الجامع الأزهر، ثم خطيب الجامع الأقمر؛ وتدور الخطبة حول المولد النبوي وقدسيته وفضله؛ فإذا انتهت الخطابة، أخرج الأستاذ رأسه من الطاقة ويده في كمه ورد على الجماعة السلام، ثم تغلق الطاقتان. ويحتجب الخليفة والأستاذ، وينتهي الاحتفال، وينفض الناس.

هذا، وإلى جانب الاحتفال الرسمي، يحتفل الشعب في كل مكان بإقامة المآدب الخاصة ليلة المولد النبوي، وفي مساء يوم المولد، وتسطع القاهرة في الليل بالأنوار الباهرة، وتغص الساحات والدروب بالجماهير المحتشدة، وتكثر النفقة والنزهة، وتقام أنواع الملاهي والمطاعم العامة، وتسير السفن في النيل والخليج محملة بالمتنزهين، ويكثر البر بالفقراء والمساكين.

وكان الاحتفال بالمولد النبوي في دول السلاطين المختلفة دائماً من الأعياد الرسمية، تحييه الحكومة والشعب، ويشهده السلاطين أحياناً؛ ولكنه لم يبلغ في ظل هذه الدول ما كان يبلغه من الفخامة والبهاء في ظل الدولة الفاطمية.

وفي عصر الحكم التركي، ذوى بهاء المواسم والأعياد الدينية كما ذوى كل شيء في الحياة العامة المصرية، وغلبت عليها التقاليد السخيفة، ولم يبق لها شيء من تلك الروعة التي كانت تهز قلوب المسلمين، وتبعث إليها الجلال والخشوع.

ويصف لنا الجبرتي طرفاً مما كانت عليه رسوم الاحتفال بالمولد النبوي في أواخر الحكم التركي وأيام الحملة الفرنسية، فيقول مثلاً في وصف احتفال سنة 1214هـ ما يأتي:

وفي يوم الثلاثاء حادي عشره (أي حادي عشر ربيع الأول) عمل المولد النبوي)

بالأزبكية ودعا الشيخ خليل البكري ساري عسكر الكبير مع جماعة من أعيانهم وتعشوا عنده وضربوا ببركة الأزبكية مدافع وعملوا حراقة وسواريخ ونادوا في ذلك اليوم بالزينة وفتح الأسواق والدكاكين ليلاً وإسراج قناديل واصطناع مهرجان).

ويقول في وصف احتفال سنة 1216هـ ما يأتي:

(وفيه (أي ربيع الأول) نودي بتزيين الأسواق من الغد تعظيما ليوم المولد النبوي الشريف فلما أصبح الأربعاء كررت المناداة والأمر بالكنس والرش فحصل الاعتناء وبذل الناس جهودهم وزينوا حوانيتهم بالشقق الحرير والزردخان والتفاصيل الهندية مع تخوفهم من العسكر. وركب المشار إليه عصر ذلك اليوم وشق المدينة وشاهد الشوارع. وعند المساء أوقدوا المصابيح والشموع ومنارات المساجد وحصل الجميع بتكية الكلشني على العادة، وتردد الناس ليلاً للفرجة وعملوا مغاني ومزامير في عدة جهات، وقراءة القرآن، وضجت الصغار في الأسواق وعم ذلك سائر اخطاط المدينة القاهرة، ومصر وبولاق. وكان من المعتاد القديم ألا يعتني بذلك إلا بجهة الأزبكية حيث سكن الشيخ البكري لأن عمل المولد من وظائفه وبولاق فقط).

وفي وصف احتفال سنة 1217هـ ما يأتي:

(فيه (ربيع الأول) شرعوا في عمل المولد النبوي وعملوا صواري ووقدة قبالة بيت الباشا وبيت الدفتر دار والشيخ البكري ونصبوا خياماً في وسط البركة ونودي في يوم الخميس بتزيين البلد وفتح الأسواق والحوانيت والسهر بالليل ثلاث ليال، أولها صبح ونستطيع أن نلمح في (يوم الجمعة وآخرها الأحد ليلة المولد الشريف فكان ذلك الاحتفال الرسمي الذي يقام في أيامنا احتفاء بالمولد النبوي الكريم بعض رسوم العصور الخالية، وبالأخص بعض المناظر التي ينقلها إلينا الجبرتي عن هيئة الاحتفال في أواخر العصر التركي، ولكنا لا نستطيع أن نلمح فيه كثيراً من تلك الروعة التي كانت تطبعه في عصور المجد والاستقلال، ولا نستطيع بالأخص أن نلمس آثار ذلك الصدى العميق الذي كان يتردد بين طوائف الشعب ويجعل من المولد النبوي الكريم عيداً دينياً وقومياً عاما يحتفي به الشعب بأسره).

محمد عبد الله عنان المحامي

من وراء البحر

للدكتور محمد عوض محمد

عزيزي الزيات

لقد غادرت القاهرة وأنا حانق عليك، غاضب ثائر. وكان مثلي كمثل هذا البحر - بحر الريفييرا - الذي ما برح هائجاً صاخباً. فاستحال عليّ أن أقضي الوقت في السباحة والاستحمام، واضطررت أن أقطع الوقت في الكتابة إليك كما ترى.

أجل! لقد تركت السواحل المصرية وأنا غاضب منك، ولحسن حظك أن بيني وبينك هذا البحر الطويل المديد العريض وإلا نالك مني بعض الأذى. فانك حاولت في العدد السابع والأربعين من (الرسالة) أن تفسد على عيشي، وتقطع عني الخبز الذي أتبلغ به في هذه الحياة الدنيا،

وتفصيل الحديث - إن كنت لم تدرك بعد ما جريرتك - أنك في العدد الأخير - الأخير بالنسبة إلي - حاولت أن تقطع عني وسائل عيشي؛ بأن تناولت أفاضل الشعراء بالنقد الشديد. لا لسبب سوى أنهم اتخذوا لأشعارهم عنوانات اقتبسوها من بيئة غير بيئتهم وأرض غير أرضهم؛ وقد تناولتهم من أجل ذلك باللوم ما شاء لك ذلك القلب القاسي الذي أتخذ جوانحك مستقراً ومقاماً.

وكأنما جهلت - يا أبا رجاء - أو تجاهلت أنني بحمد الله - الذي يحمد على الخير وعلى الشر - ما أكلت الخبز والملح (ومعهما - أحياناً - قليل من الجبن الدمياطي والخيار المصري) إلا بأمر واحد أؤديه في هذه الحياة، وهو تعليم الناس تقويم البلدان. ولست أدري أدفعتني في هذا الطريق ملائكة الرحمة أم شياطين العذاب. لكنه على كل حال هو الطريق الذي سلكت، والذي آكل منه الخبز والملح فكان الأجدر بمثلك لو انك ترى للمودة عهداً أن تشجع الشعراء على أن يقبلوا ما استطاعوا على تلك البيئات البعيدة، والأقطار النائية، يلتمسون فيها عنواناتهم وموضوعاتهم، فيضطرون إلى دراسة البلدان والأقاليم، ويبحثون في أسفار الجغرافيا عن صفة كل قطر وكل ظاهرة طبيعية، حتى إذا استوعبوا فهمها واستطاعوا الإحاطة بأسرارها سالت خواطرهم في وصفها قريضاً

بديعاً. . . وهكذا يصبح الشعراء والكتاب طلبة يدرسون علم تقويم البلدان، ورسلاً لنشر الدعوة الجغرافية وبثها بين
طبقات الأمة. وهكذا تروج بضاعتنا التي نأكل منها الخبز والملح، ومن يدري، فقد ينتهي بنا هذا لأن نصبح قادرين على التنعم بأشياء غير الخبز والملح - مما نجهله الآن كل الجهل.
إن واجب الجغرافيا - يا أبا رجاء - هو أن تدنى البعيد وأن تقرب أطراف العالم بعضها من بعض، وأن تعلمك وأمثالك كيف تتخذون الناس كلهم سكناً، وكيف تجعلون الأرض كلها داراً.
نريد لكم اليسر والسعة، ولا نريد لكم العسر والضيق، نريد أن يطلق سراح الكتاب، وألا يتقيدوا بسلاسل المكان وأغلال الزمان، فتنطلق أرواحهم في العالم الفسيح، وتشرب من كأس الحرية حتى تروى وتشفى.
أن الجغرافيا هي علم الكون، علم الوجود، ولهذا كانت أهم ما في الوجود من علم. ولهذا وجب على من كان مثلك - مهنته نشر الثقافة - ألا يقول كلمة واحدة تثبط همة المشتغلين بهذا العلم العظيم. .
لهذا أريد منك أن ترجع إلى الحق، وأن تعترف معي بأن (وراء الغمام) و (الملاح التائه) وما شابه ذلك عنوانات بديعة، وأنه لا يضير الكاتب الذي يستخدم مثل هذه العنوانات أن ليس في سماء القاهرة غمام كثير - مع أن في سماء الإسكندرية من الغمام ما يكفي لألف عنوان! - كذلك لا ضير على الكاتب أن يتحدث عن البراكين وجبال النار، والزلازل، وأمثال تلك الظاهرات التي لا نحسها في مصر إلا نادراً. ذلك لأننا معشر الجغرافيين نريد أن نبصر ثمار ما بذرناه من علم ونراها تؤتي أكلها في كل مكان.
هذا ما عنّ لي أن أقوله تأنيباً لك على أن حاولت أن تقطع عيشنا في هذا البلد الأمين. وأريد أن أزيد في التنكيل بك بأن أرسل إليك قصيدة كنت نظمتها في وصف (نهر في جبال الألب) فهي كما ترى لم تكتب عن نهر النيل. فإذا أردت أن تلومني في هذا، وليس هذا على جرأتك بعزيز - فاذكر أنني كتبت عن نهر النيل كتاباً كاملاً؛ قد أتعبني في النهار وأسهرني الليل أعواماً طوالاً. أما النهر في جبال الألب فما كان له مني سوى جلسة قصيرة جلستها بجانبه أراقب مجراه، وأصغي إلى خريره وزئيره. لم يسهد له طرف، ولم يدمع له جفن.
وعندي أن الذين يبحثون عن موضوعاتهم في غير بيئتهم لا يضربون لنا مثلاً لما نسميه (الامتيازات) في الأدب؛ بل للاستعمار في الأدب. فمادام الأسلوب عربياً، والصبغة والنزعة عربيتين؛ فلن يضير الشاعر أن يفتش أرجاء العالم في سبيل البحث عن موضوعه، أو عن استعاراته أو معانيه. والذي قد يعاب على الكاتب العربي هو هذا الولع باصطلاحات غربية تبدو للعربي بادية السخف، مثل قولهم (كوبيد رماني بسهم) أو ما شاكل ذلك من الاصطلاحات التي لا طلعت ولا نزلت. وليست عبادة الغربيين مقصورة على شعرائنا بل هي كذلك شائعة في سائر الكتاب ورجال السياسة. فكل نغمة - مهما كانت سخيفة - مطربة لهم مادامت خارجه من قيثارة غربية. وكل حكم نافذ مادام صادراً من محكمة غربية. وأكبر عار على الأديب المصري أن يكون إلمامه بأدب الغرب أكبر من إلمامه بأدب الشرق.
والآن ما خطب تلك القصيدة التي أريد أن أثأر بها منك: والتي موضوعها (نهر في جبال الألب)؟ إنها ليست من جليل الشعر ولا خطيره، ولكني مادمت أرسلها إليك للتنكيل بك فلن أهتم بتنقيحها وتهذيبها. فهاكها:

يحار لبي إذ أرى ... مَسيلَ هذا الجدول
وإذ أرى انحداره ... يسبق لمح المُقل
لا يستقر في المس ... سير لحظةٍ بمنزل
كأنه مُندفعٌ ... بالخوف أو بالأمل
أو سائر لغاية ... بعزمة لم تُفْلل
ينقض في انسيابه ... مثل هُوِيِّ الأجدل
مِن مَدْفَع لمدفع ... وجندل لجندل
فاعجب لماء شبم ... يجيش مثل المرْجل!
مصطخب مضطرب ... محتدم منفعل

وهائج في مائج ... ومدبر في مقبل
وعابس في ضاحك ... ومنجد في مسهل
وأول في آخر ... وآخر في أول
مستعجلاً وليس يخ ... شى زلة المستعجل
وليس يُعييه المسيرُ ... في الضحى والأصُل
عليه من حبابه ... ثوب كأبهى الحلل
رذاذه مثل شرار ... ناره لم تشعل
منتثرٍ منتشرٍ ... في السهل أو في الجبل
شلاّلهُ يهوى هو ... ى شُهب ليل أليل
كعمد من فضة ... أو كملاء مًسدل
أو حائط من مرمر ... يلمع كالسجنجل
أو ذوب بلور هوى ... من حالق لأسفل
في صخب ولجب ... متصل منفصل
يكاد أن يسمع من ... بالمشترى أو زحل!
زئيره يطغى على=خريره المتصل
مثل زئير الأسد يخ ... في شدو كل بلبل
أصغي إليه صامتاً ... في هيبة ووجل
أسمع في خريره ... ذكرى العصور الأول
كأنه صوت الزمان ... من قديم الأزل
ينبئ بالماضي وقد ... يهمس بالمستقبل
سفر يخط الدهر فيه ... كل سطر منزل
من كل معنى مُذْهل ... وكل سر مُعضل
يا ليت شعري إذ أرا ... هـ في سراه المعجل
هل هو رمز للخلو - د والوجود الأزلي
أم هو رمز للفنا ... يبدو وللتحول؟
وقد أراه قدوةً ... لنا وخير مَثَل
لو أن فينا بعض ما في ... هـ الخُلق العلى
من شدة وعزمه ... وقوةٍ وعمل
إذن لكنا دولة ... بين كرامِ الدول
والآن أيها الصديق تحية وسلاماً. . . أرجو أن أكون قد نكلت بك كما أردت واشتهيت؛
وان عدتم عدنا. وإلى اللقاء
أخوك المخلص
جوان لي بان في 6 حزيران
محمد عوض
بين العلم والأدب
هل يميت العلم الشعور؟
بقلم محمد روحي فيصل
(العلم يجفف القلب ويميت الشعور)
رأى أملاه على منذ سنوات أحد أساتذتي الأدباء ممن لا بأس بلبه وعقله، ولايتهم في فطنته وبصيرته، ثم سمعته من بعض الشباب الناهض المتأدب وقرأته لغير واحد من كبار الكتاب في مصر والشام والعراق. فإذا الرأي شائع معروف، ثابت الأصول منبسط الفروع يرد أبداً على طرف اللسان وشق القلم، وإذا الناس يخشون العلم ويخافون على قلوبهم ونفوسهم من بأسه وضرره، وإذا هوة سحيقة المنأى بعيدة المستقر تفصل العلم عن الأدب وتباعد بين أسبابهما وأدواتهما، أما أن بعض مصطلحات العلم جاف شديد الجفاف فهذا ما لا يختلف فيه اثنان، وأما أن قوام العلم المنطق والعقل فهذا حق إلى حد ما، وأما أن العلم ذاته يميت الشعور فهذا ما نحب أن نعالجه الآن في جرأة وإخلاص، ونناقشه في روية وهدوء ونحن نغتبط كل الغبطة حين تعنى الصحف والمجلات بالأدب، تعقد له الفصول الطوال وتدعو إلى تفهمه ودراسته، وتبذل لهذا كله قوتها وجهودها ونرجو ان تكون النهضة الأدبية مقدسة مباركة تحفها أشعة من نور

وهالة من بهاء، فليس أدل على حياة الأمة من الفن والأدب يعرض عليك، في وضوح ودقة، ميولها وأهواءها وأفكارها وسائر ما يتردد بين قلبها وعقلها من الخواطر والانفعالات. ولكن مفهومه على النحو الصحيح ما يزال مبلبلاً مهلهلاً. ما هو افقه وغايته؟ ما هو مقياسه وحدوده؟ ما صلته بالعلم؟ ما قيمته في عالم المعرفة؟ هذه أسئلة يختلف كتابنا في الإجابة عليها تمام الاختلاف، ويذهبون فيها شتى المذاهب.

أما نزال بسطاء سذجاً تخدعنا البهرجة الكاذبة، والطلاوة العابثة، وتفتننا الألاعيب اللفظية والأناقة الكلامية؟ ألسنا على ثقافتنا وجلال نهضتنا نجهل مقاييس الأدب الصحيحة، وحدود الجودة والرداءة، ومواطن الجمال والدمامة؟ ألسنا نستحسن ما تغثي منه النفس؛ وما هو حقيق بالنبذ والإهمال، ثم نستقبح ما قد يكون في الذروة من البلاغة الجميلة الرائعة؟

ذلك ناشئ عن فساد في الذوق، وجدب في التربة، وكره للعلم وابتعاد عن دراسته وتحصيله، وعندي أن كل إنتاج في الأدب لم يبدأ بإصلاح هذا الرأي فإنما هو محاولة فاشلة فائلة، ومضيعة للجهود المبذولة في غير طائل ولا نفع.

في الدنيا جمال، وفي الدنيا حقيقة، وفي الدنيا خير. أقانيم ثلاثة تتحد في السبب وتتصل في الجوهر والعرض، أو هي مثل عليا متداخلة متشابكة، ففي الجمال حقيقة، وفي الحقيقة جمال وهكذا. . . فالأدب إنما ينبغي أن يستند إلى شئ من العلوم التجريبية والنفسية والاجتماعية، ويعتمد على ما أثبته العلم في مختلف الميادين والموضوعات، والأديب والعالم إنما يجب ان يتصالحا ويتصاحبا فكلاهما ينظر إلى الطبيعة والحياة من ناحية، هذا يكشف عن حقيقتها وذاك عن جمالها، وهما بعد يتعاونان على بحثها واجتلائها.

فالعلماء مجمعون فيما بينهم على ان غاية العلم إنما ينبغي أن تكون البحث عن الحقيقة الخالدة يتحرونها في كل مظهر من مظاهر الوجود، لا لنتائجها العملية يستخدمونها في حياتهم ومعاشهم، بل حباً في الإطلاع وإشباعا للنفس. هم يطلبون العلم لذات العلم لا لآراب أخر، ويلحون في أن يكون خلواً من الأغراض والمنافع، بريئاً من كل نزعة تطبيقية. يريدون ان يكون العلم نظرياً محضاً يستهدف الحقيقة في كنهها وصفاتها ودلائلها ونسبها. يقول هنري بوانكاريه (إن معرفة الحقيقة يجب أن تكون غاية نهضتنا) ويقول شالي (كلما سما العلم وتجرد عن المقاصد والأغراض في العصر الحاضر كان للأجيال الآتية اكثر خيراً وأعظم نفعاً).

وليست المادة وحدها بالتي يتناولها العلم فيدرسها وإنما هو يبحث أيضا في حياة النفس وأحداثها، فهي في نظره موضوع للتفكير كالمادة سواء بسواء. . فالعلوم على اختلافها إنما هي دروب ما تتشعب وتنحرف إلا لتلتقي في نقطة واحدة هي (الحقيقة).

أفتظن إن معرفة هذه الحقيقة التي يبذل العالم لها جهوداً جبارة هي سبيل لتجفيف قلبه، وإطفاء معنى الشعر فيه!! لا! لعمري إن العالم الذي يصل إلى حقيقة من الحقائق إنما تمتلئ نفسه في الحال بهذا السرور وهذه النشوة العلوية، فليس أدعى للذة ولا اكثر مجلبة للسعادة من عرفان الحقيقة!! أذكر عالماً من العلماء - وأظنه الكيميائي داوي قد أخذ نفسه بدراسة (البوتاسيوم) في مخبره، فلما عرف حقيقة الجسم قام حول الطاولة يرقص بهجاً طروباً!! وكان أرخميدس يوماً في الحمام يجري عمليته في سبيكة المعدن ليعرف مقدار الذهب فيها والفضة، حتى إذا لاحت له الحقيقة خرج في شوارع المدينة عارياً حافياً يصيح: وجدتها. ففي خروجه على هذه الحال من العرى والحفاء، وفي صراخه القوي البهيج، صورة جامعة تامة الخطوط والألوان للذهول الشديد الناشئ من اللذة الفجائية الطافرة التي بعثت في قلبه المشاعر والعواطف، وأسالت منه أقصى حدود الفرح والبشر، وطبعت على شفتيه المنفرجتين بسمة حلوة مشرقة!!

ولعل الحقيقة النفسية اكثر الحقائق مدعاة للسرور، فهي التي تهمنا قبل كل شيء لأنها تتصل بنا وتؤلف الجانب الأكبر من حياتنا، فالكشف عنها إنما هو اجتلاء أفق فسيح عجيب، ملؤه الجمال والجلال.

إن العلوم التجريبية تسمو دوماً من الحوادث والواقع إلى القانون. هي تعلو وتعلو في جو التجريد حتى تحصر مظاهر الكون في هذا الرمز الصغير المدعو (قانون). فالقانون علاقة بسيطة تريك هذا النظام الدقيق الذي تتقيد به الطبيعة، وتخضع له من غير

شذوذ ولا مصادفة. فنحن حين نقرر سقوط الأجسام كلها نحو مركز الأرض نوضح هذا التجاذب القوي العام الذي يحصل بين الكتلات، نوضح ناحية من نواحي الوجود لها قيمتها ولها أثرها. وهذا التجاذب هو في الحق حلقه من سلسلة النظام الطبيعي. فالقانون هو، على حد تعبير هنري بوانكاريه، أحدث وسيله لجأ إليها العقل البشري للتعبير عن هذا النظام الطبيعي. أفلا يروقك أن تلحظ أن في هذا العالم الذي تعيش بين جوانبه، والذي أنت عنصر كريم من عناصره العديدة - اتساقاً وانسجاماً بديعينً؟! لقد كان الناس في العصور الخوالي يتطلبون من آلهتهم معجزات خوارق يثبتون بها وجودهم وقدرتهم، وإنما الأعجوبة الرائعة حقاً ألا يكون هناك أية معجزة خارقة، وأن يكون كل شيء في الطبيعة يسير على خط منتظم في حركة منتظمة، لا اعوجاج في الخط ولا تزايد في الحركة!! فنظام الطبيعة الذي يكشف عن العلم شيئاً فشيئاً هو مصدر كل جمال وكل شعر، يبعث في القلب أسمى الشعور وأدق النزوات. . .

لعل الذي يقول بتجفيف العلم للقلب إنما ينظر إلى هذه المجازر البشرية، وإلى تلك الشرور والآثام التي كان العلم فيها عاملاً قوياً لهتك الفضيلة وسفك الدماء. . هذا صحيح، ولكن العلم في ذاته لا يبغي إلا هدفاً شريفاً منزهاً عن كل النزعات البشعة، فهو يصلح للخير ويصلح للشر، ويستخدم لرفع مستوى الإنسانية ويستخدم لتدنيسها، فليس الذنب ذنبه وإنما

هو ذنب من حمله! فأنت تستطيع أن تنقم عليهم، وتستطيع أن تكيل لهم أشنع النعوت والصفات ولكنك، مضطر إلى أن تقف في محراب العلم خاشعاً متصدعاً، تتلو آي الحمد والإجلال، وترتل أناشيد الحب والإعجاب!!

أو لعل الذي يقول بتجفيف العلم للقلب إنما يزن الحقائق التي اجتلاها الإنسان خلال هذه العصور الطويلة، فوجدها ضئيلة هزيلة لا تعدل ما بذل في سبيلها من جهود. . وهذا صحيح أيضاً، فالحقيقة لا تطفو على ظاهر الأشياء ولا تستبين بارزة عارية وإنما هي خيال ما يكاد يتراءى للعين والبصيرة حتى يختفي، ولقد يضطر العالم إلى اللحاق به فيعدو ويعدو ثم يعود في الأعم من الأحوال خاسراً خائباً. فتحري الحقيقة عمل شاق مضن، ولذا اشترط على العالم الصبر والأناة والجلد. على أن ما علمناه يزيد في ثراء خزانة المعارف، ويهيب إلى القول أن الإنسان الحاضر أرقى من الإنسان الأول، واكثر منه كمالاً. أقول كمالاً ولا أقول سعادة، لأن السعادة غير منوطة بالعلم أو ناتجة عنه، ولعلها بالجهل أجدر واليق، ولعل العلم يبعث القلق والاضطراب، ويثير أحلام النفس الغافية ووساوسها الكامنة.

اكتشاف الحقيقة لا يتم إلا بالخيال والعاطفة، وهما أهم مقومات الشعر والأدب، يتخذهما العلم في البداءة جناحاً يطير به، ووسيلة يلجأ إليها، فهما أداتان لا غنله عنهما، أفيستطيع العالم تبيان مجاهل الكون إلا بالتخيل والتصور، يرسم حدودها وأشكالها على صحيفة مخيلته قبل أن يعرفها بالواقع والمحسوس؟ أفلم تكن العاطفة والرغبة حافزاً للمعرفة وداعياً إلى الإحاطة بها؟. . ومع أن العلماء حددوا مدى الخيال، وألزموا الحس بالبرهان فلقد راضوهما كثيراً واستنهضوهماً كثيراً.

فالمعهود أن ملكة التخيل والفرض قوية نامية عند العلماء والمفكرين، والمعهود أن كبار الأدباء كانوا علماء أو مثقفين ثقافة علمية متينة واسعة. فهذا جيتي الأديب العبقري كان عالماً من علماء القرن الثامن عشر، له في النبات نظرية (التحور) وله في طبقات الأرض والأحجار الكريمة آراء محترمة، يعتقد ببساطة النور ويقول إن جمجمة الرأس إنما هي حلقة من حلقات العمود الفقري تطورت ونمت فصارت إلى ما هي عليه الآن من التجسم والضخامة. أما بساطة النور فلا يؤمن بها أحد من العلماء اليوم، وأما نظرية الجمجمة فلا تتلاءم مع علم الرشيم الحديث فعدل عنها، وان شئت فقل أنها تحورت إلى نظرية أخرى.

كان جيتي أديباً كبيراً وكان عالماً حقاً، لم يمنعه علمه من الإنتاج في الفن والأدب، ولم يمنعه علمه من الاسترسال وراء الخيال الصادق الصحيح، وهل الخيال الصادق الصحيح إلا ظل الحقيقة وصورة الواقع؟؟

إنما يكشف العلم عن مصادر خصبة للجمال يجدر بالأديب أن يتأملها ويستوحيها، يهيج الخيال وينشط العاطفة ثم يسبغ عليها من روعة الحقيقة ما يلهبها ويؤججها.

حمص
محمد روحي فيصل
في الأفق الدولي
جبهة أوربية جديدة
كان اعتراف دول الاتفاق الصغير بروسيا السوفيتية واجتماع السينور موسوليني والهر هتلر أهم الأحداث الدولية التي وقعت في الأسبوعين الأخيرين. وتوجد بين الحادثين صله وثيقة، وكلاهما يرجع إلى نفس البواعث والظروف التي تدفع أوربا اليوم إلى منحدر شديد الحلك. وقد بينا في مقال سابق في الرسالة أن التأريخ يعيد نفسه، وأن أوربا القديمة تعود فتبدو للعالم كما كانت قبل الحرب مسرحاً للتنافس الحربي وعقد المحالفات السرية، وتنظيم الجباه الخصيمة. وقد بدأت فرنسا مذ رأت تصميم ألمانيا على تسليح نفسها بتنظيم جبهه سياسية عسكرية تستطيع ان تعتمد عليها في مقاومة ألمانيا إذا ما نشبت بينهما الحرب؛ ولما كانت العلائق قد فترت بين ألمانيا وروسيا على أثر قيام الطغيان الهتلري في ألمانيا وسحقه للحركة الديمقراطية ومجاهرته بخصومة روسيا السوفيتية، فقد رأت فرنسا أن تعود فتتقرب من روسيا وأن تحاول إحياء التحالف الذي كان معقوداً بينهما قبل الحرب ضد ألمانيا. فبعثت مسيو هريو رئيس الوزارة الأسبق إلى روسيا ليمهد السبيل لهذا التحالف، ورأت روسيا من جانبها أنها في حاجة لتوطيد مركزها بين الدول الغربية، وتأمين سلامة حدودها الأوربية لكي تستطيع التفرغ نوعاً لمقاومة الخطر الياباني في الشرق الأقصى، فرحبت بهذه الخطوة؛ واستمرت فرنسا في سعيها لتنظيم هذه الجبهة الشرقية ضد ألمانيا، حتى استطاعت أن تحمل دولتين من دول الاتفاق الصغير هما رومانيا وتشيكوسلوفاكيا على الاعتراف بروسيا السوفيتية تمهيداً لعقد التحالف بينهما وبين روسيا. وقد جاء اعتراف الدولتين بروسيا على أثر الزيارة التي قام بها مسيو بارتو وزير الخارجية الفرنسية لكل منهما. ونفوذ فرنسا في رومانيا وتشيكوسلوفاكيا معروف، وهو الذي يوجه سياستهما الخارجية منذ نهاية الحرب الكبرى. ونستطيع أن نقارن بين رحلة مسيو بارتو التي أسفرت عن التمهيد لهذا التحالف برحلة مسيو بوانكاريه التي قام بها قُبيل الحرب الكبرى في روسيا وما انتهت إليه من توثيق التحالف بين روسيَا وفرنسا.
اجتماع هتلر وموسوليني
وقد كان لهذه الحركة التي قامت بها فرنسا في تنظيم الجبهة الجديدة وقع عظيم في ألمانيا
لأنها هي المقصودة بها قبل كل شيء. وقد شعرت ألمانيا الآن بخطر العزلة السياسية والاقتصادية التي انتهت إليها، وكان للسياسة الهتلرية وما أبدته من العنف وقصر النظر أكبر أثر فيها. ففي عام ونصف عام فقط، منذ قيام الطغيان الهتلري في ألمانيا، فقدت ألمانيا كثيراً من عطف الرأي العالمي، وفقدت صداقة روسيا السوفيتية وما كانت تتمتع به فيها من مركز اقتصادي ممتاز، وأثار عنف السياسة الهتلرية عليها كثيراً من الأحقاد في النمسا وتشيكوسلوفاكيا، ودفعها بسرعة إلى طريق الخراب الاقتصادي. وقد شعر الهتلريون بخطورة المأزق الذي دفعوا إليه ألمانيا، ولم يجدوا قبلة يتجهون إليها اليوم في أوربا غير إيطاليا. والسياسة الإيطالية تشعر بعطف خاص نحو ألمانيا الهتلرية أولا لما بين الطغيان الفاشستي والطغيان الإيطالي من وجوه الشبه في الوسائل والغايات، وثانياً لاتفاق الرأي بينهما في بعض المسائل الخارجية مثل وجوب تنقيح معاهدة الصلح، وميثاق عصبة الأمم، وتسوية مسألة نزع السلاح على قاعدة المساواة بين الدول العظمى. هذا وإيطاليا تشعر نحو السياسة الفرنسية في القارة بغيرة شديدة وتتوجس من عواقبها ولاسيما في أوربا الوسطى، وتحقد على فرنسا لأنها تحول دون توسعها الاستعماري في أفريقية؛ والخلاصة أن هنالك أسبابا وبواعث كثيرة تجمع بين ألمانيا وإيطاليا في الظروف الحالية؛ وتقرب بينهما في الرأي والغايات.

تلك هي العوامل التي حملت هتلر زعيم الوطنية الاشتراكية الألمانية، وموسوليني زعيم الفاشستية على اللقاء بسرعة للبحث والتفاهم. وقد تم اللقاء بين الزعيمين في مدينة البندقية (فنيزيا) وأستمر يومي 14و15يونيه. ولم تذع تفاصيل شافية عما دار عليه البحث أو تقرر؛ ولكن المفهوم أنه تناول كل الوسائل الخطيرة التي تهم البلدين،

وفي مقدمتها مسألة التوازن الأوربي، ومقاومة السياسة الفرنسية في تنظيم الجبهة الخصيمة، ومسالة نزع السلاح وعصبة الأمم، ومسألة استقلال النمسا وضمان السلم في أوربا الوسطى. وقد أفاضت الصحف الألمانية في أهمية هذا الاجتماع وخطورة أثره في مستقبل السياسة الأوربية؛ وكانت الصحف الإيطالية أكثر تحفظاً. ولا ريب في أهمية الاجتماع وخطورته؛ ولكنه من جهة أخرى دليل على خطورة المأزق الذي صارت إليه ألمانيا في ظل الوطنية الاشتراكية، وعلى جزعها من عواقب العزلة السياسية التي انتهت إليها، وشعورها بالحاجة
إلى التعاون الخارجي.
(ع)
صور من الحياة البائدة
للآنسة أسماء فهمي درجة الشرف في الآداب
على ضفاف (بحر يوسف) حيث قام في العصور السحيقة قصر (التيه) أو (اللابرنته) وفي وسط الحقول النظرة ظهر في جلال على ربوة تناثرت فوقها نباتات برية مزدهرة يقوم قصر آل عباد الفخيم. ولم يشأ القصر أن ينسجم مع ما يحيط به من بساطة فأغرق في الزخرف والزينة وأبى إلا أن يجمع بين إسراف الفن القوطي من تماثيل رمزية وأبراج، وروعة الفن العربي من نقوش وعمد، فبدا وكأنه الحسناء التي طمعت أن تزداد حسناً فأسرفت في الزينة والتبرج، فهوى جمالها النظر في خضم من الأصباغ والمساحيق الجامدة. . ولكن سكان القصر واغلب زائريه كانوا يقفون مبهوتين أمام فخامته، لأن البذخ والإسراف كانا لديهم مقياس الفن والجمال.
ولم يكن داخل القصر بطبيعة الحال اقل زخرفا أو إغراقاً في التجمل من خارجه. وكان المبدأ الذي أتبع في تأثيث القصر المنيف هو اقتناء أثمن الأشياء من بلاد الشرق وممالك الغرب وتكديسها في الغرف دون مراعاة لما بين أنواعها من تفاهم أو تنافر، والواقع أن أثاث المنزل كان دوليا بكل ما في الكلمة من معنى التباين والتنافر! وسكان الدار؟ كانت أيضاً خصالهم وعاداتهم خليطاً من صفات الشعوب في عصور التاريخ المختلفة، فلقد جمعوا بين ديمقراطية العرب وسخائهم وتعصب أهل القرون الوسطى في الدين واحتقارهم للمرأة، وبين زخرف القرن الثامن عشر وانغماسه في التزين , وأضافوا إلى كل ذلك تفانى أهل القرن العشرين في عبادة المادة. .
وكان رب هذه الدار عميد آل عباد الشهيرة في الفيوم شيخاً مسناً معروفاً بالتقى والكرم في عناد وصلابة. ولكن على الرغم من تقواه كان لا يتورع من أن يزيد في ثروته الطائلة بأي وسيلة تصادفه، وكان إذا اصبح الصباح بادر بالجلوس على حصير متواضع في أحد أجرانه الفسيحة، وسرعان ما يجتمع حوله فلاحوه واتباعه يبسطون أمامه خصوماتهم ومشاكلهم فيقضي بينهم في وقار وحزم كما كان يفعل النبيل في عهد الإقطاع. . حتى إذا ما حان وقت الغداء، أمر بإعداد الموائد للاتباع والفقراء، ويأبى السيد إلا أن يأكل معهم برغم احتجاج أبنائه الذين أخذوا بقسط من مظاهر المدنية الحديثة، ودرسوا علم الجراثيم
الاجتماعية ووقفوا على أن الفقراء والمعوزين من أفتك أنواعها! ولكن الشيخ كان يرد على مثل هذا الاحتجاج باسماً قائلاً: إن الفقراءأحباب الله. . وإذا ما نادى مناد للصلاة هرول الشيخ إلى مسجد القرية تتبعه جموع الرجال. وقد أدى ورع السيد إلى تورع الأتباع حتى أكثر الأشقياء جبروتاً وعتواً. .
أما زوجة السيد فلم تكن على شيء من نشاطه وبساطته؛ قضت حياتها كلها قعيدة دارها لم تخرج منه إلا يوم وفاة أمها من أكثر من عشرين عاما. وكانت على جانب عظيم من البدانة لا ترتدي من الأثواب غير الحرائر النادرة التي يطول ذيلها أمتاراً وراءها. . وتحمل حول عنقها وأناملها ومعصميها وفي أذنيها أرطالا من اللؤلؤ والماس والذهب، فضلا عما أكثرت من الأصباغ المختلفة الألوان في الرأس والوجه واليدينوالقدمين فغاصت شخصيتها في ضخم من المساحيق والحرائر والجواهر. . وبدت في مجلسها كصنم هائل تكدست فوقه قرابين الحلي والجواهر وضعت حيثما اتفق لإرضاء عاطفة الورع.!
وقد كانت بطبيعة الحال لفرط بدانتها وثقل أحجارها الكريمة بطيئة الحركة تشتد ضربات قلبها لأقل مجهود، وقد ترتمي على مقعدها إعياء لمجرد محاولتها النهوض،

فيأتي رهط من الخدم للأخذ بيدها وإنهاضها كما لو كانت عجوزاً شمطاء قد قطعت شوطاً بعيداً في طريق العدم.

وعلى مقربه من الأم كانت تجلس أبنّتها (سمر) وهي غادة هيفاء لولا ضعفها البادي وشحوبها لما بخل عليها حتى أقسى حسادها بوصف الحسن الرائع، ولكنها كانت كالزهرة التي أقصيت عن الضوء والهواء فذبلت وتهدلت أوراقها. ولم تحاول الفتاة أن تخفي الشحوب بالأصباغ (وإن قد اجتهدت في إخفاء النحول بكثرة الكرانيش والذيول) لأن ذلك العهد لم يبح للمرأة أن تتجمل إلا إذا كانت ذات بعل. . أما المذهب الذي يدعو إلى الاهتمام بالفن للفن، فلم يكن مألوفاً عند بنات ذلك العصر، وإنما من مستحدثات هذا القرن!

كرت الأعوام على هذه الأسرة والحياة تسير على وتيرة واحدة لا تنوع فيها إلا تغيير أنواع الطعام الكثيرة، وتبديل الملابس والجواهر التي اكتظت بها الصناديق والخزائن - ولكن لم تلبث الأيام التي تلد العجائب أن تمخضت عن حادث هام أدخل في حياة الأسرة الراكدة انتعاشاً وجدة. . وحول تفكيرها إلى مجرى غير مجرى الطعام والشراب والملبس. . فلقد

خطب الشاب مراد ابنة عمه (سمر) إلى أبيها، وقبل الشيخ عباد راضياً مسروراً، لأن مرادا كان يمتاز بأسمى صفات الرجولة من نبل وشجاعة وقوة فوق جاهه العريض وجماله. وقد فرحت الفتاة سمر عند وقوفها على هذا النبأ، لأن مراداً كان رفيقها في عهد الطفولة، وهي وان كانت لم تره منذ زمن بعيد كانت تسمع الكثير عن خصاله وجماله.

وكانت الأم منذ إعلان الخطبة لا تطيق ابتعاد ابنتها عن مجلسها، وفي ذات يوم فاضت عاطفة الأم عند ما تذكرت انه لم يبق على زفاف ابنتها سوى أيام قلائل، فجّرت نفسها نحوها بمجهود غير يسير، ووضعت ذراعها الغليظة حول جسم الفتاة النحيل، وقالت وهي تلهث من التعب: - أواه يا ابنتي! عما قليل ستزفين إلى ابن عمك مراد، لا يحزنني أمر فوق ما يحزنني منك هذا النحول. . أتوسل إليك يا سمر أن تأكلي وتشربي كل ما آتيك به. . وليس هناك من دواء للنحول كشرب كوبه من السمن الخالص أو المحلى بالعسل كل صباح وكل مساء. . انظري إلى أمك! إنها لم تستمتع بهذا الهيكل العظيم من اللحم الذي يحسدها عليه جميع نساء آل عباد إلا بفضل هذا الدواء الناجع الذي أشير به عليك الآن. .

فقالت الفتاة وقد توردت وجنتاها حياء لذكر موضوع الزفاف، آسف لإيلامك يا أماه. . سأحاول مرة أخرى تعاطي هذا الدواء، ولكني أوثر البقاء بجانبك طول الحياة. . . إني لأرتعد فرقا عندما أفكر أني سأغادر هذه الدار المحبوبة قريبًا لأذهب إلى دار غريبة لا أعلم من أمرها أو من أمر ساكنيها إلا ما أسمعه من أفواه الرواة. . أني لم أر عمي (قاسما) إلا مرات معدودة، كنت فيها لا أجسر على مخاطبته أو النظر في وجهه استحياء. . أهوَ طيب القلب يا أماه؟ وزوجه؟ أحقاً ما نسمعه من أنها شديدة الورع؟ . .

أجابت الأم وهي تحاول إخفاء تأثرها: عمك يا ابنتي كأبيك نبيل كريم. أما زوج عمك فهي شديدة التقى كثيرة التعبد، ولكن ذلك قد لا يمنعها من أن تتصف برذائل الحماة. . وما أدراك يا سمر ما الحماة. . إنها نار الله الموقدة، أو أحد شياطين الجحيم المردة. . أني يا ابنتي لم أتذوق طعم الحياة الرغيدة إلا بعد أن ماتت حماتي!

ارتعدت فرائص الفتاة عند سماع هذا القول وأبرقت عيناها ببريق الكره والخوف معاً، وقالت والعبرات تكاد تحبس صوتها: - وماذا أنا فاعله يا أماه؟ . .

اخضعي لحكم القدر، واستعيني برب الفلق على شر ما خلق. . !

انهمرت عبرات الفتاة على الرغم من أيمانها الشديد. ودخل أبوها مهرولاً في تلك اللحظة فانقطع مجرى الحديث، لان الفتاة أسرعت بالاختفاء إذ أصبحت لا تجرؤ على مواجهة أبيها منذ خطبتها مدفوعة بعامل الحياء الشديد. . . ولم يحاول الأب استبقاء فتاته وان كان الموضوع الذي أتى ليعالجه مع امرأته يعني الفتاة دون سواها، لأنه أتى طبعاً ليتكلم في موضوع العرس، هذا الأمر الذي كان محور حديث الأسر، ماعدا الفتاة قضت عليها التقاليد بكتمان آرائها ورغائبها وعدم الخوض في موضوع الزواج. . .

قال الأب بعد فترة سكون لم تحاول الأم بدء الحديث في أثنائهابرغم تشوقها للوقوف على احدث تفاصيل موضوع العرس، لأنها كانت تهاب الزوج وتخشاه.

سيتم كل شي بعد أيام بأذن الله على رغم تجدد الخلاف بيني وبينهم أخي قاسم من جراء اقتسام تركه أمنا المتوفاة. انه يصر على أن يأخذ منها ما وقع عليه اختياره، وينتهز فرصة العرس ليحملني على التساهل. . كلا. . ومن بيده الملك، ولو آل الأمر إلى دك أعلام الزينة وإطفاء أنوار الأفراح. .

قالت ألام بصوت خافت لا يخلو من رعشة الوجل: - ولكنا لا نجد عريساً لأبنتنا خيرا من مراد، فلا تحجم عن التضحية من اجله.

فأجاب الأب وهو يرتجف من شدة الغضب: انك شديدة الغباوة يا (مُنى). . أني قادر على مصاهرة من يدفع لي من المهر أضعاف اضعاف ما دفع أخي لابنتي - لقد كانت على عيني غشاوة عندما قبلت هذا المهر من اللئيم أخي. .

أخذت الأم تحس بالجبن والخوف أمام غضبه، فقالت باستسلام انك على حق دائماً يا سيدي. .

نهض الشيخ بخفة الشباب وأسرع للإشراف على معدات العرس، إذ كان قد وطد العزم على إتمامه في اليوم التالي منتظراً من ورائه إتمام صفقة رابحة، وهذا نفس ما كان يرجوه أخوه. .

نصب السرادق وسطعت الأنوار، وصدحت الموسيقى، وأطلقت البنادق وزغردت النساء، وظهر قصر آل عباد في حلة قشيبة من الزينة والبهاء في ليلة الزفاف. أسرع وجهاء القوم بالحضور إلى الفيوم من الدلتا والصعيد، ليروا ابرع نموذج في البذخ والإسراف، إذ كان

لآل عباد من الشهرة ومن الثروة ما كان لخمارويه وكافور الأخشيد. . واكتظت حجرة العروس بكرائم العقائل وكرائم الجواهر، وتعالت أصوات المغنيات البدينات بالغناء، وأخذن في الرقص والانثناء أمام العروس كالحيات. .

ولكن العروس كانت عن كل ذلك في شغل، فقد غلب عليها الخوف فتركت العنان لعبراتها، ولم يستغرب منها أحد هذا الأمر، لان بكاء العروس في ليلة الزفاف كان من الأشياء المألوفة المرغوبة، إذ كان يعد رمز الحياء ودليل الوفاء والطهر. . . ومن جفت دموعها في تلك الليلة فقد حكم عليه بالجرأة وغلظة القلب. .

ولم تلبث الحياة أن استعادت مجراها الطبيعي الهادئ وانقشعت سحب الرهبة والخوف التي طالما تجمعت في سماء حياة الفتاة قبل الزواج، إذ وجدت في قرينها من العطف والود ما أنساها شكوكها وملأها سعادة وحباً وإخلاصًا له. وفي ظل زوجها ورعايته نسيت أقوال أمها عن الحماة الشريرة، بل إنها وجدت في حماتها قديسة طاهرة لا تحمل في نفسها إلا التسامح والعطف. .

وهكذا نعمت الفتاة بعيشها، وساعدتها وداعتها ورقتها وطيب عنصرها على إدخال السرور من حولها. .

ومضت اشهر قلائل والفتاة لا تفكر في مرور الوقت ولا تكترث لمعرفة الايام، اذ لم تكن ترقب حدوث تغييًر أو وقوع جديد، لأنها كانت راضية عن حياتها كل الرضا، لا تعرف ولا تطمع في خير منها. . ولكن هل يغر بطيب العيش إنسان؟

خرج مراد كعادته مبكراً مشرق الجبين للإشراف على شؤون مزارعه، وجلست الفتاة في ردهة فسيحة أنيقة تخيط بعض الثياب لأطفال الفقراء، إذ كان لا يسعدها اكثر من رؤية ابتهاج الأطفال عند ارتدائهم الثوب الجديد، وإذا بها تسمع جلبة أصوات في فناء الدار، فأرهفت السمع، وسرعان ما تبينت صوت أبيها يتهدج بالغضب وعمها يجيبه بحدة، ثم انقلبت المحاولة إلى شجار عنيف وتقاذف بالتهم والعبارات الجارحة، فاضطرب فؤادها ونزلت مسرعة تبحث عن من يأتي بزوجها، إذ توقعت حدوث أمر رهيب، وشعرت بحاجتها لحمايته. ولكنها لم تكد تخطو خطوات حتى سمعت أباها يناديها بصوته الهائل الأجش فوقفت مذعورة لا تبدي حراكا. .

وسرعان ما وقعت على مسامعها كلمات كانت كالحكم عليها بالموت (هيا معي يا سمر. . ليس لك بقاء بعد اليوم في هذا البيت. . الترمل خير لك من العيش في هذا الجو الموبوء بالخداع واللؤم. . عمك يأبى إلا الاستيلاء على أطيب جزء من ميراث جدتك. . لقد أنذرته بفسخ زواجك من قبل إن هو أصر. .)

ولكن يا أبت. . ألا ننتظر عودة مراد؟. أليس له في الأمر شيء. .؟

له في الأمر شيء؟! ما هذا الجرأة يا بنية؟ أتجرئين على مجادلة أبيك ابتغاء مرضاة

زوجك؟ - لا تزيدي حرفاً. انطلقي أمامي إلى دار أبيك.
أصابت الفتاة رعشة واعتراها دوار، فسارت أمامه متثاقلة وضاق أبوها ذرعاً بهذا البطء، فجذبها مسرعاً إلى حيث كانت بانتظاره المركبة. .
انطلقت الخيل تنهب الأرض نهباً، ولزمت الفتاة الصمت، بينما كان أبوها يصب جام غضبه على الحوذي ويتهمه بالبلادة والبطء ويتوعد باستعمال السوط!
تزاحمت الأفكار السوداء في رأس الفتاة الصامتة فداخلها الندم، لأنها تذوقت طعم السعادة، وودت لو أنها كانت تعسة في حياتها الزوجية، حتى كانت تفرح بالفرار منها والعودة إلى دار أبيها. . وأحزنها أنها لم تجد في حماتها شيطاناً مريداً، وأن زوجها لم يكن جبارا عتياً. .
وأخيراً عندما لاحت أبراج القصر خاطب الوالد فتاته بعطف إذ كانت قد بردت ثورة الغضب:
ألا تبتهجين بمرأى أمك يا سمر؟
ولما لم تنجح الفتاة في تكلف الانشراح خاطبها قائلا:
لا أشك في أن عمك قاسما وزوجك مراداً سيحضران إلينا خاضعين ذليلين عندما يشعران بفقدك، ولا أخالهما إلا قادمين قبل انطواء أسبوع واحد. .
ولكن مرت أسابيع واشهر، واكتملت دورة الأرض حول الشمس ومراد وأبوه لم يقدما، على أن الفتى كان يرغم إرغامًا على الخضوع لأبيه، إذ كان كالفتاة عبداً للتقاليد الجائرة.
وكانت الفتاة تتظاهر بالشجاعةوالابتهاج عندما شعرت بحزن أمها من اجلها. ولكن مجهود التكلف المضني والآلام المبرحة التي كانت تأكل قلبها سرعان ما أنهكت قواها وأفسحت
الطريق للمرض العضال الذي لا يعرف الرفق بالشباب ولا الجمال، ولما اشتد بها أشفق عليها ملاك الموت فأسرع لنجدتها وبسط على تلك النفس الطيعة الوفية جناح الرحمة الأبدية. .
أسماء فهمي
العلم يبحث عن الله
ترجمنا هذا المقال لكاتبإنكليزي بالعنوان المتقدم، وعنينا كل عناية بالمحافظة على معانيه وبإفراغها في قالب عربي أقرب ما يستطاع من القوالب الأصلية، ولزمنا هذه القوالب أحياناً إذ لم نجدها مختلفة عن العربية، لأننا كثيراً ما نرى الترجمة تخالف الأصل في المعاني وفي الألفاظ. وليس لذلك من سبب سوى مبالغة المترجم في تقريبها من العربية فتكون النتيجة شرودها عنهما جميعاً
جلست ذات ليلة شديدة البرد بجانب الأب رولند العالم اليسوعي عند قاعدة التلسكوب الكبير في مرصد ستونيهرست في آكام لنكشير.
ولم يكن هناك نور سوى وهج سيجارتينا وبعض النجوم المتلألئة التي كنا نرعاها من الشق المعقوف في قبة المرصد.
ولم يسمع حس سوى دوي الجهاز المعد لإدارة التلسكوب وجعل حركته مطابقة لدوران الأرض.
وكنت قد رأيت جبال القمر ومجموعة الكواكب الذرية المعروفة باسم الثريا. فجعلت الآن أمتع بصري بذلك السدام الغريب في برج الجوزاء، وأنا بين عاملين من الخوف والدهش مما لا تجلبه المناظر الأرضية.
فالتفت إلى صاحبي وقلت: (تعلم عن هذا الفلك المدار ما لا يعلم معظم الناس، لأنك قضيت ردحاً من عمرك في رصد النجوم فأصبحت لذلك أكثر إدراكاً منهم لصغر شأن الإنسان بالنسبة إلى سائر الكون. فان الأرض ليست سوى ذرة من الغبار وهي عائمة في الفضاء الخصم غير المحدود، والنوع الإنساني كله صغير القدر بالنسبة إلى قدر الأرض. فلست أفهم كيف تؤمن أنت من بين سائر الناس بالله واهتمامه بأناس مثلنا).
ولما فرغت من سؤالي هذا بقي القسيس العالم صامتاً هنيهة ثم قال:
(أفهم حقارة شأن الأرض لا حقارة النوع الإنساني ولا حقارة أرواح الناس).
فلم أحِرْ جواباًحينئذ، ولاجواب عندي الآن، لأني أدرك اكثر مما أدركت قبلاً أنه إذا كان العالم متديناً كان احسن ديناً لأنه عالم. وهو يرى حيثما كان أن البرهان يدعم إيمانه لا

لأنه يحتاج إلى البرهان، ولكنه يسرّ إذ يجده هناك
طالعت منذ عهد قريب كتاباً اسمه (القصد الأعظم) وفيه فصول كتب كلا منها عالم معروف، أبان في الفصل هذا كتبه إن يد الله وعقل الله وراء كل نظام ورقي في الطبيعة. وقد جاء في مقدمته (إن غرض الكتاب أن يبين أن العلم ليس بهادم للدين ولا بحال محله، بل انه يكشف له الحجاب عن عالم للغيب أوسع من عالم الشهادة هذا واجل شأناً فيضع بذلك أساساً اثبت للإيمان)
إن الكون بالرغم من عظم اتساعه وتعقد تركيبه وتعدد محتوياته إلى ما لا حد له هو جسم كلي عضوي متسق التركيب، ومصنوع من عناصر واحدة جوهرية، وخاضع لنواميس واحدة.
ومن أدلة النظام والعقل في الكون إن عقل الإنسان استطاع أن يستخرج هذه القواعد العظيمة العامة ويتوسل بها إلى بلوغ قوة الأنباء بالمستقبل. فهذا الكون كون مصحوب بالفكر واكثر من الفكر - كون يمثل روح واجب الوجود وغير محدود.
كتب البروفسور كروذر من جامعة رد نج فصلاً عن الإشعاع فعرفه بأنه (المادة الأساسية التي صنع الكون منها) فالنور والحرارة وأمواج اللاسلكية وأشعة اكس - هذه كلها صور للإشعاع واقعة تحت حسنا. والمادة نفسها مصنوعة من إشعاع مقيد بقيود كهربائية. قال:
في زمان بعيد جداً اهتز ذلك الخلاء الفارغ فظهر فيه البروتون والإلكترون فتكون من) بعضها تلك النظم الثابتة المعروفة باسم الجواهر الفردة التي صنعت المادة منها. وانحل البعض الآخر على مر الزمان إلى إشعاع صرف. وقد قطع العلم منذ ابتدائه أجوازاً كثيرة وكشف بقاعاً كثيرة كانت مجهولة، ودار دورته حتى جابه العلم الحديث سر عمل الخلق فلا يجد لوصفه كلاماً اكثر مطابقة له من قول الشاعر العبري (وقال الله ليكن نور فكان نور) (يريد بالشاعر العبري موسى الكليم)
وخذ البروتوبلازم - أي المادة التي تكونت الحياة منها. فقد عرف تركيبها الكيميائي، ولكننا لم نستطع تركيب الحياة: فالأميبا أدنى أنواع الحيوان وابسطها تركيباً مؤلفة من بروتوبلازم صرف، وهي قطرة صغيرة من المادة الجلاتينية تعيش في الماء. وقد حاول كثيرون أن يصنعوا الأميبا من المواد الكيمائية التي يتألف البروتوبلازم منها فعجزوا عن ذلك. فالمواد مضبوطة والنسبة بينها صحيحة والأحوال المحيطة بها ملائمة تمام الملاءمة، ولكن الشرارة الحيوية لاوجود لها، إذ الله وحده هو الذي يصنع الحياة.
قال البروفسور آرثر طمسن: (لامناص لنا من التسليم بالأولية التي وضعها أرسطو طاليس وهي انه في كل سلسة من الأعمال المتصلة لا يمكن أن يظهر في آخرها شيء لم يكن نوعه موجوداً في أولها. ولذلك فان عقلنا وقصة تحرره يقوداننا راجعين بنا شيئاً فشيأ إلى العقل الأعظم الذي بغيره لم يكن شيء مما كان)
وبعبارة أخرى انه كيفما فحص العالم تركيب الكون ونواميس الطبيعة ونشوء الحياة حتى عقل الإنسان لم ير مفرا من التسليم بأن وراء القصد الأعظم يد الله.
ق. س
أعيان القرن الرابع عشر - 5
للعلامة المغفور له احمد باشا تيمور
الشيخ محمد العباسي المهدي الحنفي
هو ابن الشيخ محمد امين، ابن الشيخ محمد المهدي الكبير الشافعي، كان جده المذكور من الأقباط، فأسلم على يد الشيخ العلامة محمد الحفني، وقرأ عليه وعلى أخيه الشيخ يوسف الحفني وغيرهما حتى صار من كبار العلماء، وترشح لرياسة الأزهر بعد الشيخ الشرقاوي ولكنها لم تتم له، وتولاها الشنواني، وقد أطال الجبرتي في ترجمته. ثم نشأ ولده الشيخ محمد أمين عالماً حنيفاً وتولى الفتوى بمصر زمناً، وتوفي سنة 1247.
وولد المترجم بإسكندرية سنة 1243 فقرأ بها بعض القرآن، ثم حضر إلى القاهرة سنة 1255 فأتم حفظه، واشتغل بالعلم سنة 1256 فقرأ على الشيخ إبراهيم السقاء الشافعي، والشيخ خليل الرشيدي الحنفي، والشيخ البلتاني وغيرهم، ثم صدر أمر إبراهيم باشا بن محمد علي بتوليته إفتاء الديار المصرية في منتصف شهر ذي القعدة سنة 1264 وهو في نحو الحادية والعشرين من سنيه، ولم يتأهل بعد لمثل هذا

المنصب الكبير، ويقال انه السبب في ذلك عارف بك الذي تولى القضاء بمصر، وكانت له الصلة بأبي المترجم. فلما ذهب إبراهيم باشا إلى القسطنطينية ليتسلم من السلطان مرسوم ولايته على مصر قابله عارف بك، وكان إذ ذاك شيخاً للإسلام وأوصاه خيراً بذرية الشيخ المهدي، وان يولي منهم من يصلح لمنصب أبيه، فكان همه السؤال عنهم عودته لمصر، وطلب المترجم لحضرته فصادفوه في درس الشيخ السقاء يحضر مقدمة مختصر السعد، فركب إليه وهو بين الخوف والرجاء، ولما قابلة أثنى عليه لاشتغاله بالعلم، ثم أنباه بأنه ولاه منصب الفتوى بمصر، وعزل عنه الشيخ احمد التميمي الخليلي وخلع عليه خلعة هذا المنصب، ثم عقد له مجلساً بالقلعة حضره حسن باشا المنسترلي والشيخ مصطفى العروسي وغيرهما، فأقروا على إقامة أمين للفتوى يقوم بشؤونها حتى يتأهل صاحبها لها ويباشرها بنفسه، واختاروا له الشيخ خليلاً الرشيدي الحنفي بدل الشيخ علي البقلي أمين فتوى التميمي، ونزل المترجم من القلعة بموكب كبير من العلماء والأمراء ووفد الناس على داره للتهنئة، ومدحه الشعراء، فمن ذلك قول الشيخ محمد شهاب:

عز يا عزة الحمى أن تقاسي ... بمهاة الصريم فيما تقاسي

ومنها قوله:

تب مفتي الهوى وتبت يداه ... ضل شرعي نهجه والسياسي

فدعيه يا عز اصطباري ... إن فتواه فتنة للناس

ولئن قلت أي فتوى البرايا ... حكمت بالنصوص دون التباس

وارتضاها الزمان قل لي وأرخ ... قلت فتوى مهديه العباسي

1264

وهي قصيدة طويلة ألحق بها هذه الأبيات الثلاثة مشيراً فيها إلى التميمي وإلى الرشيدي أمين الفتوى الجديد.

قلت لما أن تمبدر التميمي ... واعتراه نقص الخسوف الشديد

رجع الدر بالفتاوى إلى ما ... كان فيه من المكان المشيد

فلنعم الرشيد يا ابن أمين ... ولنعم الأمين يا ابن الرشيدى

وروى الفاضل محمد أفندي التميمي في الترجمة التي جمعها لأبيه الشيخ احمد التميمي أن سبب عزله عن الإفتاء أحقاد قديمة كانت في صدر إبراهيم باشا منه بسبب معارضته له في أمور تخالف الشرع كان يريدها ويعارضه الشيخ فيها، فلا يجد بداً من الإذعان بسبب إقبال أبيه محمد علي على الشيخ، فلما تخلى عن ولاية مصر وتولاها إبراهيم كان اكبر همه عزله عن الإفتاء. انتهى.

ثم أكب المترجم على الاشتغال بالعلم خصوصاً الفقه حتى نال منه حظاً وفيراً، وجلس للتدريس بالأزهر لاقراء الدر المختار فقرأ منه إلى كتاب الطلاق وأكمل قراءته في داره، وقرأ الأشباه والنظائر في داره أيضاً، وباشر أمور الفتوى بعفة وأمانة وتدقيق وتحقيق، واشتهر بين الناس بالحزم والعزم وعدم وممالأة الحكام، وحسبك وقوفه في وجه عباس باشا الأول وتعريضه نفسه للتهلكة صيانة لما استودع من أمانة العلم، وسبب ذلك ان هذا الوالي أراد أن يمتلك جميع ما بيد ذرية جده محمد على مدعياً انه ورد مصر لا يمتلك شيئاً، فكل ما خلفه لذريته إنما هو من مال الأمة يجب رده إليها، ووضعه بيد أمينها المتولي شؤونها، واستفتى المترجم فلم يوافقه وأصر على الامتناع، ولم يحفل بوعيده وتهديده حتى طلبه فجأة

إلى بنها فسافر إليها وهو موقن بالهلاك، وكان معه عند طلبه الشيخ أبو العلاء الخلفاوي، فسافر معه لمؤانسته ومواساته، فلما وصلا قصر بنها روجع المترجم في الفتوى فأصر على قوله الأول، فأمر بهما فانزلا إلى سفينة بخارية سافرت بهما ليلاً لنفي المترجم إلى أبى قير؛ واعتراه لشدة وجله زحير كاد يودي به وهو مع ذلك مصر على قوله، والشيخ أبو العلاء يهوِّن عليه الأمر ويؤانسه بالكلام إلى أن صدر الأمر بإرجاع السفينة، وانزلا منها وأمرا بالسفر إلى القاهرة وسلم الله. فكانت هذه الحادثة سبباً لعلو المترجم في النفوس وأعظام الولاة فمن دونهم لشأنه؛ وتسبب منها إقباله على الشيخ أبي العلاء المذكور وسعيه له في المناصب التي تولاها وعظم بها أمره بعد ذلك.

ثم لما كانت سنة 1287 والمتولي على القطر الخديو إسماعيل باشا، وكان انحرف

عن الشيخ مصطفى العروسي شيخ الأزهر، فأراد عزله ولكنه خشي الفتنة، لأنه شيء لم يقع من قبل لأحد من مشايخ الأزهر، فأخذ في جس نبض العلماء وسبر غورهم في ذلك، فهون عليه الشيخ حسن العدوى الأمر، وأوضح له انه وكيل الخليفة أن يعزل من يشاء والوكيل له ما للأصيل، فسر الخديو وبادر إلى عزل الشيخ العروسي في أواخر السنة المذكورة، وكان العدوى يطمع فيها، وما قال ما قال إلا توطئة لنفسه فأخلف الله ظنه، وصدر أمر الخديو في منتصف شوال بتولية المترجم والجمع له بين منتصب الإفتاء ومنصب الأزهر، فاستدعاه وخلع عليه وأنزله من عنده بالموكب المعتاد. فباشر شؤون منصبه بحزم وعزم وتؤدة وتعقل، وكان أول ما صدر منه سعيه لدى الخديو بإعادة ما كان لأهل الأزهر من المرتبات التي أبطلت زمن عباس باشا، فوافقه على ذلك وأعيدت المرتبات الشهرية والسنوية، ثم استصدر أمراً من الخديو بوضع قانون للتدريس، فأجابه إلى ذلك ووضع قانون الامتحان، وكانوا قبل ذلك لا يمتحنون بل كان من تأهيل للتدريس تصدّر له، فيحضر له، فيحضر أول درس له شيوخه وغيرهم من كبار العلماء، ويناقشونه فان وجدوه أهلاً أقروه وإلا أقاموه.

ولم يزل المترجم سائراً في طريقة المحمود، ملحوظاً بعين التبجيل من الحكام، وبين الخاص والعام، حتى ثارت الثورة العرابية المشهورة، ورأى فيه العرابيون أنه ليس بالرجل الذي يوافقهم ويساعدهم في مطالبهم، فكان من جملة ما طلبه عرابي باشا من الخديو لما زحف بالجيش على قصر عابدين عزل المترجم من الأزهر، فعزل عنه المحرم سنة 1299، وتولى عليه بدله الشيخ محمد الانبابي، وانفرد هو بالافتاء، ثم تجسمت الفتنة وجاهر العرابيون بطلب عزل الخديو، وكتبوا قراراً بذلك اجبروا العلماء والوجهاء على التوقيع عليه، فامتنع المترجم من موافقتهم على ذلك، وقال لحامل القرار: أنا لا أوقع بيدي، فإذا كان في الأمر غصب فان خاتمي معه خذوه ووقعوا انتم بأيديكم كما تشاءون.

فانحرف عنه العرابيون وضايقوه وبثوا عليه العيون حتى احتجب في داره التي على الخليج بالقرب من مدرسة الفخري المشهورة بجامع البنات، وتحامى الناس زيارته، وصار لا يخرج منها إلا لصلاة الجمعة في أقرب مسجد إليه؛ ومرت عليه أيام وليال قضاها في انتظار حتفه في كل ساعة تمر به، حتى كانت الهزيمة الكبرى على العرابيين، وتشتت شملهم، وعود الخديو إلى مقر ملكه في 12 ذي القعدة من تلك السنة، فذهب المترجم فيمن ذهب للسلام عليه وتهنئته بالظفر، ودخل مع العلماء فخصه الخديو بترحيب ورعاية زيادة عمن معه من العلماء تقديرا لحسن بلائه في الإخلاص له مدة الفتنة؛ ولحظ الشيخ الانبابي شيخ الأزهر إغماضا عنه من الخديو، وخشي أن يعزله ليعيد العباسي، فقال بيدي لا بيد عمرو، واستقال بعد أيام؛ فأصدر الخديو أمره يوم الأحد 18 منه بإعادة المترجم إلى الأزهر، علاوة على منصب الإفتاء الذي بيده، ونصه موجها لرئيس النضار:

(انه بناء على استعفاء حضرة الأستاذ الشيخ محمد ألانبابي من وظيفة مشيخة الجامع الأزهر، ووثوقنا بفضائل وعالمية حضرة الأستاذ الشيخ محمد العباسي المهدي، قد اقتضت إرادتنا توجيه هذه الوظيفة لعهدته كما كانت قبلا، علاوة على وظيفة إفتاء السادة الحنفية المتحلي بها من السابق، وصدر امرنا للمومى إليه بذلك في تاريخه، ولزم إصدار هذا لدولتكم إشعارا بما ذكر في 2 أكتوبر سنة 82 الموافق 18 ذي القعدة سنة 99)

فتمت للمترجم رياسة الأزهر على رغم انف كثيرين، فان بعض علماء الأزهر سعوا لتنصيب الشيخ عبد الهادي نجا الابياري، وكتبوا كتابة بذلك واخذوا يوقعون عليها، ويطوفون بها علىالعلماء، فلم يشعروا إلا وقد فاجأهم الأمر بإعادة المترجم، وذهب سعيهم وتعبهم أدراج الرياح.

ثم استمر المترجم جامعاً للمنصبين قائماً بشؤونهما أتم قيام، حتى كانت سنة 1304 وفيها بلغ الخديو أن جماعة من الأعيان والتجار مثل محمد باشا السيوفي، وأخيه احمد باشا يجتمعون للسمر بدار المترجم في اغلب الليالي، فيتكلمون في الأمور السياسية ويظهرون أسفهم من وجود الإنجليز بمصر، وموافقة الحكومة لهم فيما يحاولون، وغير

ذلك من هذه الشؤون، فحنق الخديو أرسل لمحمد باشا السيوفي بالحضور فلم يجدوه، بل وجدوا أخاه احمد باشا، فحضر إلى القصر وقابل الخديو، فوبخه توبيخاً شديدا وقال له: يخيل إليَّ أنكم تريدون إعادة الثورة العرابية، فتبرأ من ذاك وحلف أن اجتماعهم لم يكن إلا بقصد السمر واللائتناس، ثم قابل الخديو المترجم في إحدى المقابلات الاعتيادية فلم يهش له كعادته، بل قال له وقت الانصراف: يا حضرة الأستاذ، الأجدر بالإنسان أن يشتغل بأمور نفسه، ولا يتدخل فيما لا يعنيه ويجمع الجمعيات بداره. فلميجبه المترجم إلا بقوله: أطال الله عمر أفندينا وأدام عليه العافية، إنني ضعفت عن حمل أثقال الأزهر، فأساله أن يعفيني منه. ولم يكن الخديو يتوقع منه هذا الكلام، بل كان يظنه يجيب بجواب يصرف المسألة بسلام، فغضب وقال مستفهما: ومن الإفتاء أيضاً؟ فقال له نعم يا أفندينا ومن الإفتاء أيضاً، ثم انصرف.

ولم يكن المترجم ممن يعزب عنهم أن مثل هذا السبب لا يدعو إلى الاستقالة، وخصوصاً أن الخديو صرفه بالحسنى مع من اتهم معه، ولكن كان هناك سبب أقوى أغضب رئيس النظار نوبار باشا الأرمني، وذلك لحادثة رفعت عنها دعوى أمام المحاكم الأهلية، واستدعى الأمر طلب كشف وجه إحدى المخدرات للتحقق منها فامتنعت عن الأسفار محتجة بعدم جوازه في الشريعة، واستفتى المترجم في النازلة، فأفتى بعدم الجواز وشدد في المسألة؛ فشكا رئيس النظار للخديو وأوضح له أن الشيخ أصبح عقبة أمام القضاة معارضاً لأحكام القضاء؛ ويقال انه طلب منه إما أن يقيله من الوزارة، أو يعزل المترجم. فلما قال الخديو للمترجم ما قال تيقن أن المراد عزله فاستقال. فأمر الخديو يوم الثلاثاء 3 ربيع الثاني من السنة المذكورة بإعادة الشيخ محمد الانبابى للأزهر، وإقامة الشيخ محمد البناء للإفتاء.

وبقى المترجم بداره التي على الخليج واشتغل بإصلاح قسم منها تشعث فأعاده إلى رونقه الأول، وصبغ حيطانه بالأصباغ، وهو القسم المطل على الخليج، وصار يمضي وقته بالنظر في شؤونه الخاصة والاشتغال بالعلم، إلى أن أعيد إلى الإفتاء فقط في. . .

فبقى به إلى وفاته، وأصيب في آخر أيامه بفالج وهو يتوضأ لصلاة الجمعة أبطل حركته، ثم تعافى قليلاً وصار يخرج في عجلته للتنزه بدون فرجية بل بعباءة بيضاء من الصوف، وأشير عليه بالإقامة بحلوان لجفافها، فانتقل إليها وأقام بها برهة لم يستفد فيها شيئاً، فعاد لدارهبالقاهرة، ووافته منيته في الساعة الخامسة من ليلة الأربعاء 13 رجب سنة 1315 عن اثنتين وسبعين سنة، بعد أن لازمه المرض نحو أربع سنوات، فأذن له على المآذن، وحزن الناس لموته حزناً شديداً، وتكاثرت الجموع على داره لتشييع جنازته، فقيل إن عدد المشيعين بلغ نحو أربعين ألفاً، والمصلين عليه نحو خمسة آلاف، ثم دفن بقرافة المجاورين في زاوية الأستاذ الحفني جنب أبيه وجده، ورثاه كثير من الشعراء جمعت مراثيهم في رسالة ألفها الشيخ عثمان الموصلي نزيل القاهرة، وسماها (المراثي الموصلية في العلماء المصرية)، لأنه أضاف إليها ما رثي بها الشيخ عبد الرحمن الرافعي مفتي الإسكندرية، والشيخ سليم القلعاوي شيخ مسجد القلعة، والشيخ محمد المغربي المتوفون هذه السنة أيضا.

وكان المترجم رحمه الله ربعة إلى الطول، مليح الوجه، منور الشيبة، معتدل القامة، ذا هيبة ووقار، مات عن ثروة طائلة وولدين هما الشيخ عبد الخالق المهدي والشيخ أمين، ماتا بعده الواحد تلو الآخر. ولم يؤلف من التأليف سوى مجموع فتاواه الذي سماه (الفتاوى المهدية في الوقائع المصرية)، طبع بمصر سنة 1301 في ثمانية أجزاء كبار.

وعاش في عز وتبجيل مدة حياته، وتولى الإفتاء مدة إبراهيم باشا وعباس باشا الأول وسعيد باشا وإسماعيل باشا وتوفيق باشا، أي أربعين سنة من سنة 1264 إلى سنة 1304 لم يعزل فيها، فلم تحفظ عليه بادرة خطأ أو مخالفة للشرع، وسبب ذلك انه تولاه وهو صغير والعيون شاخصة إليه، فكان لا يفتي فتوى إلا بعد المراجعة والتدقيق والتعب الكثير، فحصلت له بذلك ملكة فيه حتى صار معدوم النظير، لا يجاريه مجار في هذا المضمار وأضيف إلى ذلك ما كان عليه من التقوى والتشدد في أمر الدين، حتى كانت مواقفه أمام الولاة لا تزيده إلا رفعة في عيونهم لعلمهم أنه لا يريد إلا نصرة الحق، فأحبوه وأغدقوا عليه بالإنعام. ومن مواقفه غير ما ذكرناه أن الخديو إسماعيل باشا أراد مره ان يستولي على الأوقاف الأهلية ويعوض عنها أهلها ما يقوم بمعاشهم،

فاستفتاه في ذلك فتوقف، وأفتاه بعضهم بالجواز، فتكدر منه وجمع بينه وبين مخالفيه، فناظرهم وفاز عليهم بعدما ألفوا
رسائل في الحادثة وأكثروا من الجلبة. ولم يقتصر الولاة على مشاورته في الأمور الدينية المختصة بمنصبه، بل كانوا يستشيرونه في غيرها من معضلات الأمور لما عرفوه فيه من سعة المدارك وجودة الرأي، حتى أن إسماعيل باشا لما عزل عن مصر قال لولده توفيق باشا فيما أوصاه به: احتفظ يا بني بالشيخ المهدي فأنه رجل لا نظير له. وبالجملة فمحاسن المترجم كثيرة، ولم يكن فيها ما يشينه، سوى ما كان يرميه به بعض شانئيه من الإمساك والتقتير، ويضعون عليه النوادر الخارجية عن حد المعقول، والمعروف عنه المشاهد للقاصي والداني أن داره كانت مفتوحة للصادر والوارد، لا تخلو مائدته يوماً عنهم، وحسبنا أنه كان يخرج زكاة أمواله كل سنة ويفرقها على المستحقين رحمه الله رحمة واسعة وأكثر في الأمة من أمثاله.
وكان حائزاً لكسوة التشريف من الدرجة الأولى، ومنحه الخديو عباس باشا الثاني الوسام العثماني الأول في 21 صفر سنة 1310 وهو شيخ الأزهر الشيخ محمد الانبابي، وقاضي القضاة جمال الدين افندي، وسبب ذلك ان السيد توفيقاً البكري نقيب الأشراف سافر في هذه السنة إلى دار السلطنة، وبرتبة قضاء عسكر الأناضول، وبرتبة قضاء عسكر الأناضول، فلما بلغ مسامع الخديو أحب أن لا يكون ممتازاً من كبار الشيوخ وهم القاضي والمفتي وشيخ الأزهر، فأنعم عليهم بهذا الوسام، وأرسل إلى السلطان ملتمساً الأنعام على المفتي وشيخ الأزهر برتبة قضاء عسكر الأناضول، وعلى القاضي برتبة قضاة عسكر الروملي، لأنه كان حائزاً لرتبة الاناضول، لكن طلبه لم يصادف قبولاً.
أحيل على المترجم قديماً أمر انتقال القضاة الشرعيين والمفتين الذين يقامون في ولايات القطر ومراكزه، فكان يختار ذوي الكفايات يتحرى فيهم النجابة والذكاء والديانة، ويحامي عنهم لدى الحكام، ويشد أزرهم، فحصل له بذلك مقام لدى أهل العلم المرشحين لهذه المناصب، وقصدوه ووجهوا وجوههم شطر داره، وهو مع ذلك لا يميل مع الهوى في تنصيبهم، ولو كان ممن يمد اليد لجمع من هذا الوجه شيئاً كثيراً، ثم رأت الحكومة أن يكون أمر تنصيبهم منوطاً بلجنة تؤلف من بنظارة الحقانية برياسة وكيلها إذ ذاك بطرس غالي باشا، وعرضوا على المترجم أن يكون من أعضاء تلك اللجنة فأبى.
وكان له في المحاماة عن أهل الأزهر ومساعدتهم القدح المعلى، ونروي عنه مواقف في
ذلك: منها أن الشيخ مصطفى العروسي مدة توليه على الأزهر استصدر من الخديو إسماعيل باشا أمراً بنفي الشيخ حسن العدوى إلى أسنا وكاد ينفذ فيه لولا أنه استغاث بالمترجم فقام بناصره وذهب للخديو مستشفعاً، ولجّ وألحّ حتى عفى عن الشيخ الأديب الحائر.

قصة تمثيلية للأستاذ توفيق الحكيم

للدكتور طه حسين

لم يكتبها بعد، ولست ادري إن يرد أن يكتبها أم لا؟ ولكن الشيء الذي لاشك فيه هو انه قد مثلها ومثلها تمثيلاً رائعاً، احب أن تشعر بروعته في هذا الحديث الذي أسوقه اليك، ولست آسف إلا لشيء واحد، وهو أنك ستشعر بهذه الروعة جملة وفي وقت قصير هو وقت نظرك في هذا الحديث، على حين شعرت أنا بهذه الروعة واستمتعتُ بلذتها الفنية تفصيلاً وفي وقت طويل، يبلغ العام أو يكاد يبلغه.
ولم يمثل الأستاذ توفيق الحكيم قصته هذه التي لم تكتب بعد، في ملعب من ملاعب القاهرة المعروفة، ولو قد فعل لشهدتها أنت وغيرك من الناس من النظارة. فأي الناس يستطيع أن يتخلف عن شهود قصة للأستاذ توفيق الحكيم يمثلها بنفسه، ويشترك معه في هذا التمثيل جماعه من المصريين المعروفين، أنا أحدهم. لم يمثلها إذن في ملعب ضيق محدود، وإنما مثلها في ملعب واسع جداً بعيد الأقطار والآماد هو ملعب الحياة. وما دام لم يمثلها في ملعب معروف، ومادام لم يخرجها للناس في كتاب، فأنا بالطبع عاجز عن أن أحدثك برأي النقاد فيها. لأن النقاد أو لأن كثرة النقاد لم يشهدوها.

وأنا أريد أن أحتاط فلا أحدثك برأي في هذه القصة، من جميع وجوهها وأنحائها لان الحر شديد، ولأن للحر الشديد تأثيراً في نفس الأستاذ توفيق الحكيم وقلمه. والناس جميعاً يعلمون أني محبٌ للأستاذ معجب بقلمه، وأقل ما يوجبه على الحب والإعجاب أن أكون رفيقاً شفيقا، حين يشتد القيظ ويخشى من شره على الرؤوس والنفوس والأقلام. وهذا العنوان الذي وسمت به هذه القصة لا يعدو أن يكون اقتراحاً قد يعدل عنه الأستاذ توفيق الحكيم إن خطر له أن يكتب قصته فما ينبغي لمثلك ولا لمثلي، بل ما ينبغي لخير منك ولا خير مني، أن يقترح على الأستاذ أو ينصح له، فالأستاذ اكبر من ان يقترح عليه مقترح، وأن ينصح له ناصح، مهما يكن مخلصاً أميناً.

وما دامت هذه القصة لم تمثل في ملعب محدود، ولم تخرج للناس في كتاب، فان نظامها وترتيب فصولها وتنسيق مناظرها وما يكون بين أشخاصها من حركاتٌ متكلفة، وحوار مصطنع، كل ذلك مشكوك فيه، قابل للتغيير والتبديل، إن أراد الأستاذ توفيق الحكيم. وإنما الشيء الوحيد الذي لاشك فيه هو هذا الهيكل الذي تقوم عليه القصة ان صح هذا التعبير، فهذا الهيكل يفرض نفسه على الأستاذ الأديب وعليّ أنا الناقد المسكين فرضاً، لأنه شيء لا تملك له تغييراً ولا تبديلاً، شيء قد كان وليس للإنسان حيلة في تغيير ما كان، حتى ولو كان هذا الإنسان أستاذنا وكاتبنا الأديب توفيق الحكيم.

أما الفصل الأول من هذه القصة كما كانت لاكما ستكون يوم يكتبها الأستاذ توفيق إن أراد، فيقع في العام الماضي في أوائل الربيع في حجرة من حجرات البيت الذي كنت اسكنه في هليوبوليس. إذ يقبل علي صديقان يحبان الأدب لأنهما أديبان، ويعجبان بالأستاذ توفيق الحكيم لأنه أديب. وهما يتحدثان إلي عن هذا الأستاذ الذي لم أكن أعرفه ولا سمعت من حديثه شيئاً. فيثنيان عليه بما هو أهله، أو بما هو أهل لأكثر منه، ثم يدفعان إلى كتاباً وضعه الأستاذ توفيق الحكيم، وكان يود أن يهديه إلي بنفسه لولا أنه لايعرفني، ولايريد أن يلقاني حتى اقرأ كتابه وأكون لنفسي رأياً فيه، ثم يقصان عليّ الكثير من أطواره الغريبة حتى يثيرا في نفسي الشوق إلى لقائه، وإلى النظر في كتابه، فإذا انصرفا اقبل صديق ثالث فلا أكاد أحدثه بما كان من أمر الصديقين حتى يثني على الكاتب ويثني على الكتاب، ويزعم لي انه قرأ الكتاب مخطوطاً قبل أن ينشر، لأن صاحبه لا ينشر شيئاً حتى يستشير فيه أصدقاءه، وينبئني كذلك بأن هذا الكتاب لم ينشر إلا نشراً ضيقاً، لأن صاحبه يريد ان يعرف رأي المثقفين قبل أن يعرض نفسه على كثرة القراء.

فإذا كان الفصل الثاني فقد أخذت اقرأ في الكتاب فأرضى عنه، ثم أعجب به، ثم أكتب عنه فصلاً في (الرسالة) أسجل فيه هذا الإعجاب، وذلك الرضى، وملاحظات يسيرة لا بأس منها على الكاتب ولا على الكتاب. وما يكاد يلقى الستار على هذا الفصل، ويستريح النظارة في وقت الراحة بين الفصول، حتى أتلقى رسالة برقية ملؤها الشكر وعرفان الجميل ومصدرها الأستاذ توفيق الحكيم.

ثم يكون فصل ثالث والخير في ألا نقسم القصة إلى فصول، بل إلى مناظر يتبع بعضها بعضاً، وليعذرنا الأستاذ توفيق الحكيم فنحن لا نحسن الكتابة في التمثيل. يكون منظر ثالث أو رابع لا أدري، وإذا الأستاذ توفيق الحكيم قد سعى إلى من إقليمه الذي كان يعمل فيه،

وهو يشكر لي تشجيعي له، ويغلو في هذا الشكر ثم يلقى أموره الأدبية كلها إلي، ويطلب مني أن أكون له مرشداً وحامياً، فأقبل منه هذا كله سعيداً به، مبتهجاً له، وأتحدث إلى الأستاذ حيث الصديق المحب المعجب، ويتكرر هذا المنظر مرات كلما اقبل الأستاذ من إقليمه الذي كان يعمل فيه إلى القاهرة ليقضي فيها بين أصدقائه يوماً أو يومين، والحديث والود يتصلان ويشتد اتصالهما بيننا وتظهر آثار هذا الاتصال فيما يكون من كتب تنشرها لنا (الرسالة)، ومن لقاء يشهده الأصدقاء. ثم يكون منظر آخر من هذه المناظر الكثيرة التي سيؤلف الأستاذ منها قصته إن أراد. نجتمع فيه مع أصدقاء لنا يعرفهم الأستاذ، ونتشاور في أمره هو لا في امرنا نحن، فهو يريد إن ينتقل من الأقاليم إلى القاهرة، لأنه ضيق بحياة الريف التي لا يجد فيها ما يلائمه من البيئة المثقفة المتحضرة وما يحتاج إليه من الكتب، ولأنه يلقى فيها بعض العناء، فحياة وكلاء النيابة في الأقاليم مضنية شاقة، وفي وزارة المعارف عمل قد يلائمه وهو يميل إلى

هذا العمل، ولكني أنا لا أميل إليه، وأنا أوافق على ان بيئة القاهرة وحياتها خير للأستاذ من بيئة الأقاليم وحياتها، ولكني أشفق عليه من وزارة المعارف لأني اعلم الناس بوزارة المعارف، ولاني واثق بأن الهواء الذي يملأ غرفاتها وحجراتها لا يلائم حياة الأديب المنتج وإنما هو هواء خانق لكل أدب ولكل إنتاج. والأستاذ وأصدقاؤه يلحون في العرض وأنا ألح في الرفض، ثم اقترح مكاناً آخر يستطيع الأستاذ أن يعيش فيه عيشة تلائم الإنتاج الأدبي. فيظهر أن تحقيق هذا الاقتراح غير ميسور، ثم يلقى الستار ويتم انتقال الأستاذ من الريف إلى القاهرة في هذه الراحة التي تكون بين الفصول، ثم يكون منظر آخر أو مناظر أخرى نجتمع فيها لنقرأ بعض الكتب التي يريد الأستاذ إخراجها للناس، ومنها شهرزاد.

فالأستاذ شديد الشك في نفسه، ضئيل الثقة بفنه، لا يظهر آثاره إلا إذا أقرها أصدقاؤه الأقربون. وهو لا ينشر فصلاً في (الرسالة) إلا إذا قرأته وأذنت بنشره. وهو لا يرى أنه قادر على أن يحتمل وحده تبعة الإذاعة والنشر. ثم نقر من هذه الكتب ما نقر، ونرجئ منها ما نرجئ ونتحدث عن أهل الكهف وعن طبعة ثانية تذاع بين الناس. فاقترح أنا أن أقدمها إلى الجمهور فيظهر الأستاذ وأصدقاؤنا الرضا بذلك والابتهاج له، ثم يلقى الستار ويرفع وقد تمت الطبعة الثانية من أهل الكهف، وأبطأت أنا بالمقدمة أسبوعين أو نحو أسبوعين.

فينشر الكتاب بغير مقدمة، وبغير أن يتحدث إلى أحد في ذلك، فيسوءني ذلك بعض الشيء فيسعى إلي الأستاذ في منظر جديد، ويعتذر إلي بمحضر من بعض الأصدقاء، فأسمع منه وأبسم له وأتجاوز عن استعجاله، وينصرف راضياً. فإذا أصبحت تلقيت منه هذا الكتاب باللغة الفرنسية وأنا أترجمه فيما يأتي:

أنا محزون حقاً. فقد فكرت، فإذا خطيئتي بديهية: فقد كان يجب على الأقل أن أستشيرك قبل أن أخرج كتبي.

فماذا ترى في موقفي منك؟ ويزيدني حزناً لطفك حين تجاوزت في سهولة وكرم عن كل هذا.

إنما أنت في حقيقة الأمر فنان كبير، فنان حقاً وإني لأعترف بأني لم امنح هذه النفس، ولست أنا خليقاً بالفن ولا بك.

واليك الآن ما تمت عزيمتي عليه إذا احتفظت بغضبك على فسأعرض عن كل حياة أدبية.

وتقبل

ت. الحكيم

وأخشى أن أكون قد أسأت الترجمة فأنشر معها النص الفرنسي لهذا الكاتب الكريم:

, -

- ? ' , ' ' '

, ' ' ' ,

ثم يكون منظر آخر يراني الله فيه حزيناً أسفاً ومشفقاً جزعاً لأني صدقت هذا الكلام، وخفت أن يكون صاحبه جاداً فيه فأنكرت من نفسي ما أظهرت من غضب، وهأنذا أسرع إلى التليفون فألتمس صاحبي في مظاله كلها، حتى يصلني به التليفون، فأداعبه ألاعبه، وأترضاه، وأتلطف له، وأقبل منه، وأهدي إليه حتى يرضى. وتطمئن نفسه الثائرة أو التي كنت أحسبها ثائرة، ويهدأ قلبه المضطرب أو الذي كنت أظنه مضطرباً، ويستريح ضميره المتعب أو الذي كنت أراه متعباً.

ثم تكون مناظر أخرى تجرى الحياة فيها بيننا كما تجري بين الأصدقاء الذين تؤلف بين قلوبهم المودة والحب والإعجاب، الا منظراً واحداً انكرته، ولكني لم اظهر إنكاري له، كان في مجلس لنا بغرفة من غرفات لجنة التأليف وكنا كثيرين، وكنا نتحدث عن الكتاب والشعراء المحدثين، وعن أصحاب القصص خاصة، وكنت أريد ان أعنى بآراء هؤلاء الكتاب والشعراء وان أتبين وأبين للناس مالهم من المحاسن والعيوب او ما أرى لهم من المحاسن والعيوب. وهنا يثور ثائر الصديق الأديب ويأبى لي العناية بهذا الأدب الحديث لأنه لا يصلح أن يكون أدباً حديثاً أو قديماً، ولأن الطابع الفني الصحيح ينقصه، فنختلف في ذلك ونفترق على غير اتفاق؟

ثم يكون منظر آخر وما اكثر هذه المناظر التي ستتألف منها هذه القصة، والتي ستقيم

لأصدقائي ولخصومي أدلة قاطعه على أني من المكر والدهاء والحذر بحيث يظنون.
أراني في حجرة من حجرات البيت الذي أسكنه الآن في الزمالك، وقد أقبل الصديق الأديب ومعه اثنان من أصدقائنا، وكنا على موعد لنقرأ فصلاً كان الصديق الأديب يريد أن ينشره في الرسالة. ولكن أصدقاء آخرون قد اقبلوا، وليس يعنيهم أن يقرأوا آثارنا الأدبية أو يسمعوها قبل أن تذاع فنتحدث إليهم، ونسمع منهم، ويطول الحديث حتى إذا تمت الساعة التاسعة انصرف الأصدقاء، وبقينا نحن فنقرأ الفصل على طوله، ونحاور فيه، ثم لا نفترق حتى تنتصف الساعة الحادية عشرة، وشهد الله لقد كان في بيتي تلك الليلة مرض هو آثر عندي من ألف أدب وأدب ومن ألف أديب وأديب، ومن الحياة والأحياء جميعاً، فما ترددت مع ذلك في أن أسمع، وأحاور، وأقترح التغيير والتبديل، كما لو كنت مستريحاً فارغ البال:
ثم تكون مناظر أخرى أسمع في بعضها اللوم لأني احب توفيق الحكيم واقرأ في بعضها الشتم لأني اكبر توفيق الحكيم، وأنا أبسم للوم اللائمين، وأضحك لشتم الشاتمين، لأني لم أحب هذا الكاتب إلا لأنه ألهمني الحب، ولم أعجب بهذا الكاتب إلا لأنه ألهمني الإعجاب:
ثم أكتب إلى المصور فصلاً عن الأدب التمثيلي في مصر فلا يكاد ينشر حتى يتحدث إلي من يتحدث بأن الكاتب الأديب مغضب من هذا الفصل لأني لم أنصفه فيه، ولأني زعمت أن قصصه التمثيلية على جمالها وروعتها قد لا تلائم الملعب المصري. فلا أحفل بحديث المتحدثين، ولا بنقل الناقلين، واقرأ في المصور بعد ذلك رداً من توفيق فيه عوج كثير
فأقوم هذا العوج مداعباً لصاحبه، ملاطفاً له، ثم يبلغني أنه قد سعى إلي في بيتي مساء الاثنين الماضي فلما لم يجدني فيه ترك لي تحيته ومودته وانصرف. ثم أكتب عن شهرزاد، فلا يكاد يظهر حديثي عن شهرزاد حتى أتلقى من صديقي توفيق هذا الكتاب صباح الخميس. لا يحمله إلي البريد، وإنما يحمله ساع خاص ولا يكتبه توفيق بخطه وإنما يضربه على الآلة الكاتبة ضرباً، ويتفضل الصديق فيمضيه بخطه. ولست اعرف آية في الأدب والمودة والوفاء وصدق الرأي في الأدب والنقد، والصلة بين الكتاب والناقدين تشبه هذا الكتاب. ولا غرابة في هذا، فتوفيق قد عاهدنا على ألا يكتب إلا كان مبدعاً مبتكراً. وأنا أنشر نص هذا الكتاب لأنه سيكون باقياً على الدهر، ولأنه سيقع من الكتاب والناقدين في هذا العصر موقع تلك الوصية التي زعموا أن عبد الحميد قد أذاعها في الكتاب القدماء آخر أيام بني أمية.
قال الصديق توفيق الحكيم:
عزيزي الدكتور طه حسين
يظهر أني سيئ الحظ معك أو أنك سيئ الحظ معي هذا الأسبوع، فلقد قرأت مقالك عن شهرزاد وما أحسبنا تلاقينا فيه عند رأي، فأما قولك أنى أدخلت في الأدب العربي فناً جديداً وأتيت بحدث لم يسبقني إليه أحد، فهذا إسراف سبق لي أن أشرت إليه في خطاب مني إليك عن أدب الجاحظ ذكرت فيه يومئذ أن للجاحظ ملكة في إنشاء الحوار تذكرنا ببعض كتاب المسرح من الغربيين. فما أنا إذن بمبتدع وإنما أنا أحد السائرين في طريق شقه الشرق من قبل. وأما نصيب قصصي من البقاء فلست اعتقد أن لنا قد معاصر حق الجزم به، وما بلغت من البساطة حد تصديق ناقد يتكلم في هذا. فان الزمن وحده هو الكفيل بالحكم للأعمال بالبقاء. فأنا كما ترى لا اسمح لنفسي بقبول مثل هذا الثناء. كذلك لست اسمح لأحد أن يخاطبني بلسان التشجيع، فما أنا في حاجة إلى ذلك، فإني منذ أمد بعيد اعرف ما اصنع. ولقد أنفقت الأعوام أراجع ما أكتب قبل أن انشر وأذيع. كما أنى لست في حاجة إلى أن يملي علي ناقد قراءة بعينها، فإني منذ زمن طويل اعرف ماذا اقرأ. وما أخالك تجهل إني قرأت في الفلسفة القديمة والحديثة وحدها ما لا يقل عما قرأت أنت: - وما أحسبك كذلك تجهل أني اعرف الناس بما عندي من نقص، واعلم الناس بما احتاج إليه من أدوات، فأرجو منك أن تصحح موقفي أمام الناس وألا تضطرني إلى أن أتولى ذلك بنفسي.
توفيق الحكيم
وأنا أسرع قبل كل شيء إلى تصحيح موقف توفيق لا أمام الناس، بل أمام نفسه

وأمام رؤسائه في وزارة المعارف. فقد كنت أشفق عليه من هؤلاء الرؤساء كما كنت أشفق عليه من نفسه إذا اتصل بهؤلاء الرؤساء. فالذين يعملون في وزارة المعارف لا ينبغي أن تظهر الصلة بينهم وبيني، لان هذه الصلة خطرة حقاً. وما رأيك في قوم يعملون في هذه الوزارة ثم يتصلون برجل لا يزال من يوم إلى يوم ينال هذه الوزارةورؤساءها بالنقد الشديد. وأؤكد لصديقي توفيق إني لم انشر كتابه هذا إلا تصحيحاً لموقفه أمام رؤسائه وأمام نفسه، فسيعلم رؤساؤه منذ اليوم انه قد أساء إلي عمداً وفي غير ما يبيح الإساءة، وانه قد قطع ما بينه وبيني من صلة، وانه قد سجل هذه القطيعة في كتاب، أني قد سجلت هذه القطيعة في صحيفة سيارة. ليشيع أمرها بين الناس. واضن أن رؤساءه منذ اليوم سيرفقون به، ويعطفون عليه، ويحسنون الرأي فيه. وأظن انه سيحس منهم ذلك فيطمئن على منصبه ويستريح إلى رضى رؤسائه عنه، ويبتسم له الأمل بالمستقبل القريب والبعيد.

والآن وقد صححت موقف توفيق أمام نفسه وأمام رؤسائه أريد أن أصحح موقفه أمام الناس وأمام الأخلاق وأمام الأدب أيضاً. فموقفه أمام هؤلاء جميعاً في حاجه إلى تصحيح لم يخطر لصديقنا ببال فيما يظهر لانه كان مشغولاً بنفسه ورؤسائه، ولعله كان مشغولاً بذلك القيظ الشديد، الذي أخرج كثيراً من الناس عن أطوارهم منذ أيام.

فأما قول توفيق إني قد أسرفت حين زعمت انه احدث بالأدب العربي حدث لم يسبقه إليه احد، فإني احمده له وإني كنت اعرف أن هذا الكلام كان يرضيه، وانه كان يحب أن يسمعه وأن يقرأه قبل هذا الأسبوع الذي هاجمت فيه وزارة المعارف مهاجمة عنيفة، ومن الحق انه تحدث إلي بان للجاحظ ملكة حوار ولكن من الحق أيضاً أنه نبهته إلى أن الحوار شيء والتمثيل شيء آخر، وإلى أن الكاتب يستطيع أن يكون محاوراً مجيداً دون أن يبلغ من التمثيل شيئاً. فإذا كان الجاحظ قد أتقن الحوار وبرع فيه فلا ينبغي أن يفهم من هذا بحال أن الجاحظ قد عرف التمثيل أو ألم به أو كان يمكن أن يخطر له التمثيل على بال. وانه

لمن المؤلم حقاً أن احتاج إلى أن أسوق مثل هذا الكلام إلى كاتب أديب كتوفيق قرأ من آثار القدماء والمحدثين مثل ما قرأت على الأقل.

وأما أن توفيقاً ينكر على أن احكم لقصصه بالبقاء، فهذا إسراف منه كثير، فنحن الناقدين أحرار فيما نعرف من ذلك وما ننكر، وفيما نثبت من ذلك وما نمحوه، ومادام الزمان هو الحكم الأخير في هذا كله فيما يضير صاحبنا أن نحكم له أو أن نحكم عليه. واغرب من هذا كله أن يرفض توفيق ما أهديت إليه من ثناء، فليعلم إني لم اهد الثناء إلى شخصه ليرفضه أو يقبله، وأن شخصه لا يعنيني إلا قليلاً منذ الآن، وإنما أهديت الثناء إلى فنه ومازلت أهديه اليه، ولن يستطيع هو أن يرده. وكنت احب له أن يرفق بين شخصه الفاني وفنه الباقي.

وأما أنه لا يسمح لأحد أن يحدثه بلغة التشجيع فقد كنت أحب أن يكون أذكى في حياته العملية من أن يشارك رئيس الوزارة في لغته، (فلا أسمح) هذه كلمه يملكها رئيس الوزراء القائم وحده. ولكن الذي يجعل نفسه دولة لا يتردد في أن يستعير لغة الوزراء وهو بعد حر في أن يسمح أو لا يسمح فسنشجعه على رغم منه، لأن فنه يستحق التشجيع، ولأن واجبنا الأدبي يفرض علينا تشجيع المجيدين فرضاً. وأما أنه لا يسمح لأحد بأن يدله على ما يقرأ، وأنه قرأ في الفلسفة القديمة والحديثة مثل ما قرأت على الاقل، فإنني احب أن يعلم أن ما قرأته لا يرضيني لنفسي ولا لغيري، وإني ابذل ما أملك من جهد لأقرأ أكثر مما قرأت ومما قرأ غيري. وأسأل الله أن يقيني وأن يقيه شر الغرور، فهو مهلك للنفوس حقاً. وأما انه اعرف الناس بما ينقصه، وأعلم الناس بما يحتاج إليه من الأدوات وانه لا يحتاج مع ذلك إلى نقد ناقد، فهذا رأيه في نفسه منذ الآن ولا يشرفه ولا يرفع منزلته عند أحد. أما أنا فأرى لنفسي الحق في أن أدل كل كاتب يخرج للناس كتاباً على رأي فيما ينقصه وفيما يحتاج اليه، وهو حر في أن يقبل أو يرفض، ولكني حر كذلك في أن أقول له ما أريد.

أما بعد، فهل صححت موقف توفيق أمام الناس، أم هل ما يزال مضطراً إلى أن يصححه بنفسه؟ أحب أن يعلم توفيق إني لن أرد عليه بعد الآن، ولن أحفل به إلا يوم يخرج لنا كتاباً نقرؤه، ويومئذ سأعلن رأيي في هذا الكتاب سواء رضى توفيق أو

سخط، وأنا أرجو أن يكون رأي في كتبه المقبلة حسناً كرأيي في أهل الكهف وشهرزاد. وأرجو بعد هذا كله
أن يتدبر الكتاب والشعراء هذه القصة التمثيلية فان فيها عبراً وعظات، وأن أمثالها مع الأسف في مصر ليس بالقليل.
طه حسين
من طرائف الشعر
عطيل
للأستاذ فخري أبو السعود
قليل رقاد الليل نابي المضاجعِ ... يبيت على مضٍّ من الشك لاذعِ
على حُرَقٍ: لا الظن قاتلُ حُبِّهِ ... ولا حُبُّهُ للظن عنهُ بِدَافِعِ
دجا عَيْشُهُ جَرّاءَ من كان ذكرهُا ... ضياءً له في داجيان المعامعِ
أطاع مقالاً للحسود أهاجه ... ولم يك لو قال النصيحُ بِطَائعِ
يقول: إِذَنْ قد نازعتْها صبابةٌ ... وغَيٌّ فألقَتْ قيدَها للنوازعِ
وأصبحَ عِرضي في بني الرُّوم مُثْلَةً ... وهُزْأةَ مِهْذَارٍ وَمَلْهاةَ صافِعِ
جَزَائي هذا: إنني كنت غافلا ... فأقحمتُ نفسي في وخيم المراتعِ
حسبتُ قلوبَ الغيدِ بالبأس تُستَبَي ... وتُملك بالبِيض الخفاف القواطعِ
جَزَائي عَدْلاً: مالمِثْلي وللهوى؟ ... لقد قذفتْ بي في المرامي مطامعي
ولم يك وجهي للحسان بفاتن ... ولا لونُ جلدي في الغرام بشافعي
ألا ليتني لم ألق أشْرَاكَ حُسْنها ... فقد كنتُ في أشراكها شَرَّ واقعِ
ألا ليتني لم أدْرِ أنباءَ بغيِها ... وكفَّتْ جفوني دونه ومسامعي
لقد أنكرتْ خَلْقي وضاقت بِكَبْرتي ... ومنظر شَيبْاتٍ برأسي طَوَالعِ
وماسَرَّها أني بلوْنَي مُعْلَمٌ ... لَدَى الحرب بَطَّاشٌ بكل مُقارعِ
ولاغُدُوَاتى في البحار زواخراً ... ولا دَلجَاتي في الفَلا والبلاقعِ
ولا أَوبتى بالغار في كل موكب ... ولاخطرتي بين السيوف السَّوَاطعِ
فلم يَثْنها عهدٌ وجُنَّ جنونُها ... بغَضِّ الصِّبا من قومها الصُّفرِ يافعِ
سباها بطبع منه هَيْنٍ ومنظرٍ ... طَرِيرٍ وخلاَّبٍ من القول رائعِ
تهيم به دونى وإن يك خادمي ... وتمنحه حقَّي وإن يك تابعي
ولم يَبقَ لي في قلبها اليومَ موضعٌ ... وما كان فيه أمس إلا مَوَاضعي
نعم هي تلقاني بنظرة مُغْرَمٍ ... وبسمةِ مفتونٍ وعَطفةِ خاشعِ
نعم وَهْيَ تسقيني خَدُوعَ رُضابها ... كما مَجَّت الأفعى الخَؤُونُ بناقعِ
وتوهمني الطُّهْرَ الذي يدعينه ... وليس سوى آلٍ بصحراءَ لامعِ
وتُوشك - لولا الرشد - أن تَسْتِخَّفني ... ويَسْتَلَّ حقدي سِحرُها من أضالعي
ويوُشك ذاك الحُسْنُ أن يستهزني ... فأنسي لديها كيدَها وهَو فاجعي
أَتْبسَمُ لي غِشاًّ ومحضُ ودادها ... لَدَى قاهري في حُبهِّا ومنازعي؟
لَعمَرْىَ ماذا يدعُوَاني إذا خلَعتْ ... إليه بمنأى عن رقيب وسامعِ؟
أتدعِيَنني فَدْماً؟ أتُفُضْينَ للفتى ... بشجوى ولأوائي وجَمِّ مواجعي؟
أيَضْحكُ من جهلي؟ أيزعم أنني ... بليدٌ غليظ الحِسِّ غيرُ مُدافعِ؟
جَناتَيْكُما - قد جُرْ تُما وغلوتما ... ورفقاً بهذا المسْتَعَزِّ المخادَعِ
سيأتيكما أمري فيَدْري كلاكما ... بأنَّ حِمَى الوَحْشِيِّ ليس بضائعِ
سأنقع ممن خانت العهد غُلَّتي ... وهيهات ما غيظُ الحِمام بِناقعِ
سأمنحها كأس المنية مُوقفاً ... بأني لتلك الكأس أوَّلُ جارعُ
سأسلِمُها للموت أوَّلَ نادمٍ ... لتلك الحُليَ تَقْضي وتلك البدائعِ
سأقتل مَن لو أستطيع فديتها ... بِبَتِّ نِيَاطي أو بِقَطْعِ الأخادعِ
فخري أبو السعود
الإنسان الآلي
للأستاذ محمود غنيم
ماذا أُشاهد؟ لا طيناً ولا ماَء ... وليس هذا الفتى من نسل حواَء
لا يشبه الناس إحساساً وعاطفة ... ويشبه الناس تركيباً وأعضاء
فتى عريق بحبل العلم متصل ... إن عدد الصيد أجداداً وآباء

هي الحضارة أُمٌّ أنجبته وما ... زالت كمريم ذات الطهر عذراء
خلق جديد إذا شاهدت طلعته ... تكاد تومئ بالتسليم إيماء
لا يشتكى مثلما يشكو الورى سقما ... ولا يهاب رسول الموت إن جاء
يرى ويسمع لكن لا يحس وإن ... هم قطعوه بحد السيف أجزاء
فياله ساعياً يمشي على قدم ... لا تشتكى إن شكت أقدام وجناء
وياله خازناً لا تستبيه ولا ... تغريه بالمال إن حاولت إغراء
وياله حارساً لم يشك من أرق ... ليلا ولا حاولت عيناه إغفاء
لن ترهب العقم بعد اليوم والدة ... أو يعدم الشيخ بعد الشيب أبناء
للشيخ ما يشتهيه الشيخ من عقب ... ولليتيم من الآباء ما شاء
لينفخوا الروح فيه مثلما خلقوا ... له يدين وشقوا العين حوراء
قم سائل العلم إذ سوى جوارحه ... هل رام هدماً به أم رام إنشاء؟
يشكو البطالة غادينا ورائحنا ... فهل نضيف إلى أدوائنا داء؟
أما ترى الأرض قد ضاقت بمن حملت ... فثارت الحرب حول القوت شعراء؟
حسب البرية أن الطب يكلؤها ... وأن سهم الردى يخشى الأطباء
يا أيها الرجل الآليّ هل لك في ... ود أساقيكه ماء وصهباء
تشابه الناس عندي في المذاق وإن ... تعدد الناس ألواناً وأسماء
لأنت أسلم يا ابن الصلب عاقبة ... من أنفس ملئت حقداً وبغضاء
أقسمت أنك بين الناس أنزههم ... يداً وأطهرهم قلباً وأحشاء
حببت فيك فتى ما قال فاحشة ... يوماً ولا عاب إنساناً ولا ساء

محمود غنيم

فولتير العظيم حتى بموته 1694 - 1778م

بقلم مهدي الجم الطرابلسي

ما أنا أول الذين يتحدثون إليك عن فولتير ولا آخرهم. بل أنا من هؤلاء الذين تلح على عواطفهم إشعاعات من أرواح العظماء فتبعثهم حينا راضين وآخر كارهين لينشروا ماضي هؤلاء العظماء ويتغنون بعبقريتهم ويسجلونهم في سجل الأفذاذ الخالدين.

أطل فولتير على الحياة سنة أربع وتسعين وستمائة وألف فشب ورأى من حوله فساد الحكومة والبيئة فعظم عند نفسه أن يرى أفراد الشعب يتضورون جوعاً والملك والحاكم ينزلون بهم أنواع العذاب عاتين جائرين. وكان كاتباً رائع الكتابة رائق الأسلوب قوي العارضة سيال القريحة سياسي المبدأ لاذع النقد. وكانت الصحف التي تنشر رسائله رائجة نافقه اكثر من غيرها، لان الشعب كان يُقبل على كل رسالة له أو كتاب فيطالعه، فتنشيه نغمة العبارات ولحن الأسلوب فيعيد مطالعته، فيؤثر في نفسه، فيهيج هياجاً شديداً، لأنه ضد الحكومة. وقد كان الشعب الباريسي يضمر لفولتير حباً شديداً حتى أضحت كلمته فوق كل كلمة، وأسمه فوق كل اسم، وحتى أضحى رسمه زينة، تحلى بها الأكاليل والمتاحف، وحتى أضحى الشعب يمحص كل كلمه من كلماته تمحيصاً ويعربها ويردها إلى اصلها مستمتعاً مغتبطاً بذلك.

وهكذا استأثر فولتير بقلوب أبناء وطنه وجعل من نفسه قائداً محبوباً يشير فيطاع. والشعب لم يقبل على فولتير ومؤلفات فولتير ولم يهتف له إلا لنقده الملك والملكة والبلاط وما فيه، النقد اللاذع الذي دعا الملك أن ينفيه من اجله.

كانت الكونت لدلنفيليه قد تكهن أن فولتير صديقه سيموت في الثلاثين من عمره، لكن فولتير الجبار لم يكن ممن يتأثرون بتنبؤات الكهنة والمنجمين، فأستمر لا يحيد عن سمته في النقد والفلسفة، ولما جاوز الثلاثين كان يداعب صديقه الكونت قائلاً: (لقد خدعتك أيها الصديق بثلاثين عاماً وخدعت نفسي بالباقي)

وأخيراً لم يرى الملك بداً من إخراجه عن فرنسا. وهكذا قضى فولتير حياته شريداً طريداً يتنقل من بروسيا إلى إنكلترا إلى غيرهما.

وقد قضى اكثر أيامه على ضفاف بحيرة جنيف في (فرني) وغيرهما حيث سالت نفسه حنينا إلى وطنه، فرق أسلوبه كثيرا وبرعت ديباجه.

ألف فولتير من الكتب والقصص (محمداً، زاير، ميروب، عصر لويس السابع عشر، تأريخ شارلي الثاني عشر، كالديد، ميكروموكاس، زاديك، القاموس الفلسفي، ملاحظات على نظريات باسكال) وغير ذلك من المؤلفات التي جعل بعضها قصصاً

تخيل وقائعها في بلدان شرقية وعصور خاليه، فقصته (زاديك) جعل وقائعها في بلاد فارس في عصور ما قبل الميلاد، فقارئها يرى من طرف خفي وظاهر ان فولتير ينتقد الملك والبلاط النقد الجارح الأليم.

لأضرب لك مثلاً في كتابه زاديك: - (زاديك شاب غني فيلسوف هجر المجتمع الخاطئ واعتزل في قصر له في البرية، فانه ليتجول يوماً في الغابة إذ مر به خصيان البلاط والحرس الملكي يسألونه متلهفين أريت كلب الملكة وحصان الملك؟ فيقول هي كلبة لا كلب، ولكن لم أرها، فيكبلونه إلى الحاكم فيحكم عليه بالجلد والنفي إلى سيبيريا فما يكاد يفعل حتى توجد الكلبة والحصان فيعفو عنه، ولكنه يحكم علية بغرامه قدرها أربعمائة من الذهب) وهكذا يريد فولتير أن ينقل البلاط وأن يقولَ إن الداخل فيه خاسر ما في ذلك شك، مدعياً كان أو مدعى عليه.

لقد كان منظر فولتير يدل على غير ما يختلج في نفسه، فقد كان الناظر إليه يحسبه سعيداً مغتبطاً، على حين أن فولتير قضى حياته بين عبرة مهراقة، وزفرة مصعدة، بدليل عبارات تقرأ في رسائله. وكان فولتير هزيلاً ناحلاً، وكثيراً ما كان يشكو ألماً في جسمه يقول ان الأطباء لم يهتدوا إليه بعد. فكان يئن في نفس، فتبدو انته على ثغره ابتسامة عذبة هادئة تجتذب إليه النفوس، وقد نعته، فكتور هوجو بالرجل الكئيب الباكي. وفولتير وان كان أكثر الشعب مناصراً له فقد كان له أعداء كثيرون يتسخطون عليه ويتبرمون بكتاباته النارية الحماسية التي كانت إحدى الشرارات الرئيسية التي أضرمت نار الثورة الكبرى من بعد. فكان هؤلاء السادة يجادلونه فلا يقف عن مجادلاتهم، ويغالبونه فلا يفتى عن مغالبتهم، وهو مع ذلك لم يهن، فهم ما كانوا ليزدادوا إلا موجدة عليه، وهو ما كان ليزداد إلا استهزاءً واستخفافاً بهم.

ولما مات لويس الخامس عشر وتربع على العرش لويس السادس عشر كان فولتير في منفاه، فاستأذن الملك الجديد العودة إلى وطنه فإذن له، ولكن بعد ان تهدده الملك وتوعده بالنفي والتشريد إن هو عاد سيرته الأولى. فعاد إلى باريس برفقته كاتبه الخاص. وكانت قد سبقته إليها زوجه والمدام دنس حفيدته التي كان يحبها كثيراً وصديقه المركيز دي فيلت ليعدوا المنزل ويهيئوا المستقر.

وفولتير إذا أتى باريس فقد أشرقت باريس وهب الناس كلهم هبة واحدة محللين فرحين. فلما أن أقبل كانت المحطة مزدحمة بالناس حتى لا مسير. وقد أخذ مخبرو الصحف يكتبون عنه الرسائل المسهبة الطويلة ويصفونه جزءاً جزءاً فقالوا انه اقبل وكان على رأسه قلنسوة أرجوانية صوفية. وانه كان مرتدياً برداء من الفرو المخطط، وانه زار صديقه الحميم القديم (دارجنتال) في شارع (اورسه)، وانه خرج بعد ذلك يقصد منزله، وان الأولاد الصغار إذا رأوا منظره الغريب أخذوا يهتفون بحياته ويصفقون، وانه لما انتهى إلى منزله اخذ الناس يفدون عليه أفواجاً فيستقبلهم بثياب المنزل معتذراً بمرضه.

وحقاً لقد امتلأ المنزل افناؤه وحجراته وأروقته بالناس من جميع الطبقات. فكان فولتير يبسم لهم ويستقبلهم بأحسن ما يستقبل مزور زائراً، وقد قيل انه لم يبق أحد في باريس إلا واقبل يهنئه بالعودة السالمة ويدعو له بطول العمر. وذلك مما دعاه أن يسن دستوراً للزيارة. فأمر حفيدتهأن تقيم في القاعة الكبرى ففعلت تستقبل الزائرين عوضاً عنه وتعتذر لهم بمرضه إلا العظماء منهم فقد كانت تقدمهم إليه فيجالسهم ساعة ثم يعود إلى غرفته يتسلى بالقراء والكتابة. وممن زاره منهم سفير إنكلترا وفرانكلن الشهير وغيرهما، لكن كان يستقبل الكل بثوب المنزل لا يخلعه إلا للنساء فقد كان يجهلن. فلما زارته الكونتيس دي باري لم يشأ أن يبدو إليها بهذا الثوب، فلم يقابلها اولاً، فرجته وألحت في الرجاء، ورجاه أصدقاؤه وألحوا في ذلك أيضاً أن يفعل فاقبل كارهاً متعثراً، فقال له من حوله انك تقول أن ثوب العقل خير من ثوب الجسد فماذا دهاك اليوم؟

ولقد كان الناس يجتمعون حول منزله كل يوم فلا يزالون يهتفون به حتى يخرج إلى النزهة فيركب عجلته فيزدحم الناس من حولها ويقبل بعض المتحمسين يدفعون الناس بمناكبهم يريدون أن يحملوا العجلة فلا يمتنعون حتى يرجوهم فولتير الامتناع شاكراً،

لكن وا أسفاه! إن هذه الاستقبالات والمهرجانات أمرضته، ولا سيما حين سمع إن صديقه (لكن)
قد قضى. ولقد كان مرضه انحباس البول، وتورم الرجلين، وقد منع طبيبه كل إنسان، وحال بينه وبين أصدقائه، فعكف فولتير في سريره يؤلف القصص ويكتب الرسائل، ويئن بين الحين والحين أنة لاشك سامعها، في أنها أنة عظيم.
عناية طبيب فولتير بفولتير وعنايته بنفسه بدت نتيجتها، فابل ونقه، وشرع يطبع روايته التي وضعها أثناء المرض وسماها - أرين - وقبل أن تعرض للتمثيل جهد فولتير جهداً عظيماً في تدريب الممثلين وتعليمهم إتقان ادوارهم، ولم تكن صحته قد عادت إليه كاملة، فرماه الكد والتبذل في سرية، فإذا الحمى تدور في جسمه، وهذا صداع شديد يهز جمجمته، وهذا ورمشديد في قدميه، وانحباس موجود في كليتيه، ثم هذا دم يخرج من رئتيه، ثم هاهو ذا يهذي ويصرخ الصرخات الداوية. وطبيبه لم يدر أصل الداء ومنبت العلة، فلجأ إلى الحكمة والدراية. فاستأجر ممرضة صبية جميلة أعجبت فولتير وسر بها كثيراً. أما الصحف فكانت تملأ أعمدتها في الحديث عنه، فإذا أكل فولتير دوى في أفق باريس إن فولتير أكل وإذا شرب فولتير قد شرب. ولم يزل الداء يلح به ويضعف من جسمه ومن حواسه حتى كاد لا يقدر أن يقرأ كتابا أو صحيفة ولا أن يستوي جالساً في سريره. لكن ماذا؟ ها هو ذا فولتير يصح وينشط فلا دم يبصق ولا قدم تتورم وها هو ذا الطبيب قد أذن له بأكل بيضة وقطعة من الخبز، وحسو كأس من الماء ومثلها من الخمر كل يوم. وإذا عادت إلى فولتير صحته فقد عادت إلى الناس المسرات والأفراح. وأما الأطباء فوقفوا وقفة الحائر أمام هذا المرض العجيب وسرعة شفائه. وكان تمثيل الرواية قد تأجل ليشهده فولتير بنفسه، فلما شفى حكم الأدباء والفلاسفة فيها فأعجبوا بها إعجاباً شديداً فمثلت، ولكن فولتير لم يشهد التمثيل فقد سقط مرة أخرى وخيف أن تكون السقطة الأخيرة الهائلة. فعاده الأطباء فوصفوا لبن اتانٍ يتناوله فشفى بعض الشيء، وخرج إلى متنزه الشانزلزيه بعربته، فالتف الناس من حولها هاتفين: ليعش فولتير! ليعش فولتير! وقد كان السعيد منهم من يحظى بشعرة من ردائه.
لكن مما يؤلم أن فولتير أمسى بعد ذلك هائج البال، فاسد الرأي فقد سأل ان يبدلوا الممرضة بأخرى غيرها قائلاً أنى استحي أن اخلع ثيابي أمام تلك الفاتنه، فأبدلت بأخرى. ولكن هاهو ذا المرض يطل عليه زائراً مرة اخرى، ولكن هاهو ذا الشفاء يأتيه عائداً ثانية.
أما الرواية (ارين) فقد مثلت ست مرات، وفي الأخيرة تجلت عظمة فولتير وكبر نفسه واضحين وقد شهدها فولتير، فلما انتهى التمثيل قام الشباب وجعلوا يتمسحون به ويلثمون يديه ويهتفون باسمه، ووصل إلى منزله تلك الليلة وما احسب أن أحداً وصل في الدنيا ليلاً إلى منزله وصوله.
أفاق الناس صباح 23 أيار من سنة ثماني وسبعين وسبعمائة وألف، فإذا هم يتحدثون أن فولتير قد تورمت قدماه وانحبس بوله واصبح يبصق أفلاذ كبده وانه لا يرجى له شفاء.
وحقاً لقد وقع فولتير هذه المرة ويأس طبيبه من نجاته، أعاده الماريشال ريشيليو، وصف له دواءً يدفع عنه الأرق فتناوله فولتير دفعة واحدة فتعقد داؤه وعز دواؤه.
أضحى فولتير بعد هذه السقطة فارغ الصبر ضيق الصدر، هلوع النفس متلكئ الجسم يسب من حوله، ويضرب ممرضته، ويجافى حفيدته، وينظر إلى الناس بغير العين التي كان ينظر بها إليهم وكان يصرخ بين الحين والحين صراخاً عظيماً احتار في تعليله الأطباء، ولم يعرفوا إلى شفائه من سبيل. وممرضته كلت وملت وأسلمته إلى يد القدر إلا قليلاً. وأشار عليه صيدلي أن ينشق الأفيون، ففعل دون أن يدري طبيبه. والأفيون أنامه إنامة طويلة استفاق بعدها فإذا معدته لا تهضم اللبن الرائب. ومر به جراح شهير يدعى (ترى) وفحص مثانته وكليتيه وتوصل بحيلته وحدة ذكاءه ان يفتح للبول طريقاً بواسطة أنبوب طبي. وارتفعت درجة حرارته بعد ذلك كثيراً فأرقدوه في الجليد فما أفادوا شيئاً!!
وا حسرتاه! لقد فقد فولتير عقله أو كاد! لقد أضحى يرجع إلى أحشائه من فيه ما يخرج من احشائه، فكانت حفيدته تبكي كثيراً وتقبل عليه وتقول: مسيو فولتير! مسيو فولتير! لقد كنت مثال النظافة فانظر إلى أية حال مؤلمة قد صرت.

ومن الأطباء الذين اعتنوا بفولتير كثيراً ترونشين طبيبه الخاص وبلوري وتياري. وقد بذل هؤلاء الأطباء الحكماء أقصى ما وهبوا من حيله وذكاء لشفائه، فخاب سعيهم وما ازدادوا إلا جهلاً بالداء. ودخلوا عليه ذات ليله فإذا هو حائل اللون، ازرق الشفتين متصلب اليدين والقدمين، فأخذوا يعالجونه ساعة حتى أفاق وقال: آه! دعوني أسير إلى ربي. ثم اخذ يصيح صياحاً شديداً تهتز له النفس، وتسيل له الأفئدةهولاً وجزعاً. فعلل أطباؤه صراخه بوجع شديد لا يعرفون مصدره، وخافت الممرضة إذ رأته على هذه الحال، وخاف الأطباء
أيضاً ولبثوا حتى منتصف الليل يعالجونه وينضحون جسمه بالماء فما أفادوه. وفي تلك الساعة المظلمة فاضت نفساً عظيمة بعد أن سجلت آثارها في سجل الخلود.
قيل إن فولتير مات مسموماً وأن يداً لم تعرف بعد قد دست له السم، وقال الأطباء نعم لقد مات مسموماً، ولكن اليد التي دست له السم هي يد دائه.
حماه
مهدي الجم الطرابلسي
في الأدب الفرنسي
الدوق دي لارشفوكو - 8
للدكتور حسن صادق
ولكي يخفف من حدة الإنكار قال في مكان آخر من كتابه (الحسد تقضي عليه الصداقة الحقيقية) (موعظة رقم 376).
موعظة رقم) (مهما يكن الحب الصحيح نادراً، فانه أقل ندرة من الصداقة الخالصة) (473). أيأنه يؤمن بندرة الصداقة النقية ولا ينكرها إنكاراً تاماً.
وحكمه على الصدق والوفاء ليس بأقل غرابة من حكمه على الفضائل السابقة: (الصدق هو إخلاص القلب ولا يتصف به إلا عدد قليل من الناس. أما الصدق الذي يرى عادة فهو مداهنة بارعة ترمي إلى اكتساب ثقة الغير) (موعظة رقم 62) (بغض الكذب هو في الأغلب طموح دقيق غير محسوس إلى جعل أقوالنا تكسب منزلة رفيعة واحتراماً كالذي يلهمه الدين) (موعظة رقم 63) (الوفاء الذي يبدو من كثرة الناس هو حيلة ابتكرها حب الذات لاجتذاب الثقة) (موعظة رقم 247).
ولنذكر الآن ما قاله عن الحب: (لا يوجد إلا نوع واحد من الحب، ولكن منه صور زائفة لا حصر لها) (موعظة رقم 74) (الحب كالنار لا يستطيع أن يحتفظ بوجوده إلا بالحركة المستمرة. ويصيبه العفاء في اللحظة التي يكف فيها عن أن يأمل أو يخشى) (موعظة رقم 75) (مثل الحب الصحيح كمثل ظهور الأشباح، جميع الناس يتكلمون عنها، ولكن قليلاً منهم من رآها) (موعظة رقم 76) (كثير من الناس لو لم يسمعوا أحاديث الحب، لما أحبوا) (موعظة رقم 136) (الغياب يخفف من وطأة الأهواء الضعيفة ويورث نار الأهواء القوية، كالريح تطفئ الشمعة وتوقد النار) (موعظة رقم 276) (إذا اعتقد الإنسان انه يحب صاحبته فهو مخطئ) (موعظة رقم 374).
ثم قال عن الغيرة: (الغيرة تستمد غذاءها من الشك، ويمحوها اليقين) (موعظة رقم 32) (مبلغ ما في الغيرة من حب الذات، اكثر مما فيها من الحب) (موعظة رقم 324) (الغيرة أكبر الشرور، واقلها استدراراً لشفقة الذين ينسجون أسبابها) (موعظة رقم 503)
وهذا الرجل الذي كان يبجل النساء في حضرتهن، ولا يقول كلمة تؤذي شعورهن، قسا عليهن في مواعظه: (تمنع النساء نوع من الزينة يضفنه إلى جمالهن) (موعظة رقم 204) (عفة النساء هي في الأغلب الحرص على سيرتهن وراحتهن) (موعظة رقم 205) (الغرور وخشية العار وعلى الأخص المزاج، تعمل في الأغلب قيمة الرجال وعفة النساء) (موعظة رقم 220) (الكثرة من النساء يبكين عشاقهن الذين يقضون نحبهم، لا لأنهن أحببن هؤلاء العشاق، ولكن ليظهرن أنهن جديرات بالحب) (موعظة رقم 362) (قليل من النساء الشريفات من لم يسأمن عفتهن) (موعظة رقم 367) (كثرة النساء الشريفات كنوز مخبأة، ليست في مأمن من العبث إلا لأن الرجال لا تبحث عنها) (موعظة رقم 368) (الخليعات يفخرن بغيرة عشاقهن ليخفين الحسد الذي يضمرنه لغيرهن من النساء) (موعظة رقم 406).
وحكمه على التواضع ليس بأقل قسوة من حكمه على العواطف والفضائل السابقة (لا

يمدح الإنسان غيره عادة إلا ليمدح) (موعظة رقم 196) (قليل من الناس من يملك الحكمة التيتجعلهم يفضلون النقد الذي ينفعهم على الثناء الذي يخدعهم) (موعظة رقم 197.) (رفض الإنسان المديح معناه الرغبة في ان يمدح مرتين) (موعظة رقم 199)
ويستمر لاروشفوكو في أحكامه على الأعمال والفضائل الإنسانية حتى يصل إلى هذا الحكم العام (تدخل الرذائل في تركيب الفضائل، كما تدخل السموم تركيب الدواء، التبصر يجمعها ويخفف من وطأتها ويستخدمها بنفع في مغالبة شرور الحياة وآلامها) (موعظة رقم 182).
وهو يعتقد أن الإنسان في حياته عبد لأهوائه وليست الإرادة شيئاً مذكوراً (في القلب جيل من الأهواء لا يفني، حتى أن زوال أحدها هو في الواقع طغيان هوى آخر عليه) (موعظة رقم 10). فالنضال الذي نعتقد انه قائم في دخيلتنا بين الهوى والعقل، بين الرغبة والواجب، هو سراب محض. (الحظ والشرف يحكمان العالم) (موعظة رقم 435) (مهما يفخر الناس بأعمالهم العظيمة، فإنها في كثير من الأحيان ليست نتيجة تدبير عظيم، ولكنها نتيجة المصادفة) (موعظة رقم 57) (جمع صفاتنا تقريباً تحت رحمة الظروف) (موعظة رقم 170) (يخيل إلى أن لأعمالنا نجوماً سعيدة وأخرى شقية ندين إليها بكثير من الثناء أو اللوم الذي يوجه إلينا) (موعظة رقم 58).
وإذا كانت المصلحة الذاتية تقود الفرد والجماعة، فكيف نفسر هذا الشعور المعقد الذي يتبع
ارتكاب أعمال مضادة للفضيلة، وهو الندم؟ يفسر لاروشفوكو الندم الخارجي، أي الاعتراف بالزلل بقوله: (إننا نعترف بخطايانا لنصلح الفكرة السيئة التي علقت بأذهان الغير عنا) (موعظة رقم 184). ويفسر الندم الباطني بقوله: ندمنا ليس أسفاً للشر الذي فعلنا بقدر ما هو خوف شر يصيبنا من جراء ما فعلنا) (موعظة رقم 180).
وبما أن المنفعة هي غرض الإنسان الوحيد، إذن يكون الخير الوحيد هو الخير المحسوس في إغفاله. وبما ان الموت هو نهاية كل شر، إذن الموت اكبر شر: الشمس والموت لا يستطيع الإنسان ان يحدق فيهما) (موعظة رقم 26).
وقد ظن بعض الناس أن لاروشفوكو يستعمل هذه الكلمات: في الاغلب، عادة، تقريباً، كثرة الناس، لياقة ومجاملة حتى يعتقد كل قارئ انه من المستثنين، ولكنه يستعملها على الأرجح لأنه يؤمن بوجود الفضيلة الخالصة، ولكنها نادرة. والدليل على ذلك انه لا يذكرها في بعض مواعظه. ولنضرب مثلاً: (الصدق إخلاص القلب. . . موعظة رقم 62) فهو لا ينكر وجود الصدق، ولكنه يؤمن بندرته. وهو يتعدى بطريقته إلى كشف اللثام عن الفضائل الكاذبة التي يدعيها اكثر الناس.
ومواعظ لاروشفوكو على قسوتها تنفع الإنسان لأنها تجعله يتأمل نفسه ويراقب فضائله ويطهرها من الرذائل التي تختلط بها.
ولهذه المواعظ اثر كبير في تفكير فلاسفة أوربا النابهين أمثال كانت، وشوبنهور، ونيتشه، وبنتام، وستيوارت مل، وبييربايل وهلفسيوس وغيرهم. وسنتحدث عن هذا الأثر في فرصة أخرى أن شاء الله.
تم البحث
حسن صادق
العلوم
استحالة الأجسام
بقلم منير غندور ليسانسييه في العلوم
لو سألت أحداً ممن لم ينالوا من العلم شيئاً من هو الكيميائي؟ لأجابك إن الكيميائي رجل يستطيع أن يحول الرصاص ذهباً، وهذا لا وجود له.
وهكذا علق في ذهن كل منا عندما قرا القصص القديمة إن الكيميائي هو الذي يستطيع ان يحول معدناً خسيساً إلى معدن ثان نفيس تحت تأثير قوة روحية سحرية.
الانتقال من عنصر إلى عنصر كان حلم الكيميائيين القدماء.
غلت المراجل أياما وليالي، واستحضر الكيميائيون الأرواح واستنجدوا بالأسرار، واوهم أناس أناساً بأنهم توصلوا إلى سر هذه المهنة، وأتت القصص تستعمل هذه المواضيع، وقضى بعضهم حياته ساعياً وراء هذا السراب الخلاب لينتظر قوة يجهلها تحول رصاصه ذهباً، ومضى عصر ثم عصر وعصور، دون أن يستحيل درهم من رصاص إلى عشر

درهم من فضة أو ذهب!
واليوم وأين نحن من تحقيق هذه الفكرة؟ أين نحن من تحقيق خيال كيميائيينا القدماء؟ لسنا بعيدين قط عن تحقيقها، وان كنا لا نزال نقف أمام رصاصنا وقفة ذلك الكيميائي القديم يستنزل القوة. نعم لقد أصبحت استحالة الأجسام شيئاً خاضعاً للقوانين العلمية الثابتة.
ولكن القوة التي كانت تنقص الكيميائي القديم ليحقق خياله لا تزال تنقصنا لنحقق يقيننا العلمي. ومن يدري؟ فلعل ذلك الخيال كان في الحقيقة إلهاماً علمياً!
أثبت (ايفيزيك) أن المادة مركبة من وحدات متناهية الصغر تدعى كهارب، تدور بسرعة هائلة حول نواة وسطية كما تدور السيارات حول الشمس، وكل نظام من هذه النظم الصغيرة يشبه ما نسميه ذرة. هذه الكهارب هي نفسها في كل ذرة وفي ذرة أي عنصر. وإنما الذي يختلف إذا انتقلنا من عنصر إلى اخر، من النحاس مثلاً إلى الذهب، أو من الأزوت إلى (الهيدروجين) هو عددها والترتيب في مركبات النواة. (النواة بدورها مركبة من أجزاء صغيرة جداً تقسم إلى كهارب وإلى بروتون. وهي تحمل، أي النواة، كهربائية إيجابية.) فالانتقال إذاً من عنصر إلى عنصر شيء ممكن إذا استطعنا تبديل عدد هذه
الكهارب أو تبديل الترتيب داخل النواة.
ان تركيب الذرة ودرس خصائصها هو في الحقيقة معقد اكثر من هذا بكثير على الأخص مع ما يكتشف في كل يوم في هذا الميدان، ودرس الذرات اصبح اليوم علماً مستقلاً بنفسه يقوم بالتنقيب فيه رجال كثيرون. ولكني اقتصر على هذا الشرح البسيط حرصاً إظهار الغرض الرئيسي من هذه الكلمة وهو إمكان استحالة الأجسام.
وهذه النظريات التي تقدم لنا الذرة على الوجه الذي شرحت لم تكن معروفة إلى عهد قريب. إذ كان من الثابت أن الذرة هي اصغر شيء يمكن الحصول عليه من عنصر ما فهي وحدة لا تتجزأ. والذي سمح للعلم أن يأخذ طريقه الجديد في شرح الذرات هي النتائج العظيمة التي قدمها درس الأجسام (ذات الإشعاع الفعال) - واكتشاف هذه الخاصة في هذه الأجسام يدين به العلم إلى فهو قد لاحظ قبل أن يكتشف مسيو كوري وامرأته الراديوم أن ملحاً من أملاح الايرانيوم يستطيع أن يعطي دون أي تأثير خارجي معروف أشعة مؤلفة من ثلاثة أقسام: أشعة ألفا (?) وهي مركبة من أجزاء مكهربة إيجابيا، من أشعة باتا (?) مركبة من كهارب ومن اشعة جاما وهي كأشعة هذه الأجسام ذات الأشعة الفعالة تتفكك عندما تذيع ألفا (?) (وهذه مؤلفه من أجزاء مكهربة إيجابيا والآن أزيد على أنها من الهاليوم) وأشعة باتا (مؤلفة من كهارب سلبية كما رأينا) وتعطى ذرات جديدة مختلفة. وهكذا فالراديوم يتفكك عندما يذيع أشعة الفا وينتج ذرة جسم جديد كانوا يسمونه ذرور الراديوم ويدعى اليوم رادون ولكن هذا يتفكك بدوره فيصبح راديوم ثم راديوم ثم راديوم. . . وهكذا إلى أن يصبح رصاصا. وهناك أجسام أخرى من ذوات الإشعاع الفعال كالايرانيوم والطوريوم (وقد عرف من هذه الأجسام أربعون تقريباً) تتحول إلى أن تصير رصاصاً.
ولكن كيميائي هذه الاستحالة هو الطبيعة، ولا يمكننا أن نؤثر على هذا الكيميائي في شئ، فنحن لا نستطيع أن نجعل سير هذه الاستحالة اكثر أو اقل سرعة، ولا نستطيع تسبيبه ولا إيقافه.
يظهر لنا من هذا المثل أن الأجسام ذوات الإشعاع الفعال، وهي كلها ذوات وزن ذري مرتفع، هي في حالة توازن وقتي فتنفجر ذراتها تحت تأثير نجهله وتتحول إلى أجسام اضعف وزناً ذرياً وتحصل عندها على توازن مطلق.
غير أن الطبيعة تقدم لنا أمثلة في الاستحالة غير هذه تدلنا على أن تحول الأجسام يمكن أن يحصل دون انهيار أو تدن في الثقل الذري. ولنا في الأجرام السماوية آية على هذه الاستحالة: فالسدم يتركب كما يظهر من فحص طيفها على الأخص من هيدروجين ومن هاليوم. وإذا تتبعنا تطورها نرى أنها تتحول تدريجياً لتؤلف كواكب فيها اكثر العناصر التي نعرفها في الكيمياء. فهاليوم السدم وهايدروجانها قد تحولا إلى عناصر جديدة اقل بساطة وارفع ثقلاً ذرياً. ودرس الكواكب ونشوئها ومعرفة ما تتركب في مختلف حالات تطورها هو الذي جعل لوكيار يقول بتحول المادة قبل ان تكشف خصائص الأجسام ذوات الأشعة الفعالة.

ولكن هذه الاستحالة كتلك كيميائيها هو الطبيعة، والقوى التي يستخدمها لا قدرة لنا على إيجاد مثلها. فالحرارة التي تسود في تلك الطبقات والضغط الهائل هما القوة المستعملة ليتألف من تلك العناصر البسيطة كل باقي العناصر.

الآن وقد ظهر لنا كيف كان من الممكن استحالة ذرة إلى ذرة وكيف أن الطبيعة تعطينا أمثلة من هذه الاستحالة أريد أن أقول كلمة في المحاولات التي أجريت لتحقيق فكرة استحالة العناصر عمليا.

إن ما يصح أن نعتقد به الآن كتجربة علمية لاشك فيها هو ما قام به العالم الإنكليزي ريتفورد لقد سلط ريتفورد مقذوفات جسم ذي إشعاع فعال، أجزاء الفا، على بضعة عناصر: الأزوت، البور، الفوسفور، الصوديوم، الألمنيوم والفليور. فتفككت هذه العناصر تحت تأثير هذه القذائف التي تسير بسرعة 20 ألف كيلومتر في الثانية وأعطت هيدروجين. غير أن كمية الهيدروجين كانت متناهية القلة.

وما عدا هذه النتيجة فكل ما قام به المجربون، وهم كثيرون، لا يزال يشك في صحته، ولذا لا أرى لذكره فائدة.

نشط العلماء في جميع أنحاء العالم يواصلون جهودهم للتوصل إلى نتيجة نهائية. وليس من العسير علينا أن نفهم اندفاع هؤلاء العلماء في هذه المضمار، فالوصول إلى استحالة الأجسام بطريقة ما يتغير فكرتنا عن المادة وعن الحياة، نستطيع أن ننتقل من عنصر إلى

عنصر، لقد ألغيت الحاجة! الحاجة كما يصورها مجتمعنا الحالي لأنه سوف تخلق حاجات لاوجود لها الآن.

لا نحتاج لنحمل إلى البشرية اختراعاً (لا يقل أهمية عن اكتشاف الرجل القديم للنار) إلا قوة اشد مما عرفنا إلى الآن، قوة من أي نوع كانت. ولنا الحق في الأمل بأننا سوف نصل قريباً، فالكهرباء تعطينا في كل يوم قوة لم نكن نتخيل الوصول إليها.

وقد توصل الدكتور (فان دي جراف) إلى توليد مجرى كهربائي تحت ضغط عشرة ملايين (فولت) وسيزيد عدد (الفولتات) ويزيد. . أو سنكتشف قوة جديدة لا نشك بوجودها فنمزق الذرة كيفما شئنا ونتصرف فيها كيفما أردنا ونحقق حلم كيميائيينا القدماء.

منير غندور

إسحاق نيوتن1642 - 1727 - 2

للأستاذ مصطفى محمود حافظ

رجوعه إلى كامبردج:

تركنا نيوتن في مقالنا السابق يغادر مزرعته ذاهباً إلى كامبردج للمرة الثانية، بعد أن احتجزه الطاعون مدة سنتين بعيداً عن مكتبة الجامعة ومعاملها، مما كان سبباً مباشراً في عدم ظهور قانون الجذب العام في هذه الفترة، وظهر متأخراً بين عاصفة من المناقشات والأحقاد

نال الأستاذية بعد سنة من رجوعه، ثم اختارته الكلية زميلاً وقد كان لهذه الزمالة فوق ميزة الشرف ميزة أخرى مادية كان نيوتن في اشد الحاجة إليها في ذلك الوقت الذي لم يكن له فيه من مورد سوى ما كانت توفره له أمه من دخلها الصغير.

اشتغل نيوتن بإتمام صنع تلسكوبه العاكس الصغير وكان طوله ست بوصات، وتمكن بواسطته من رؤية المشتري وأربعة من أقماره (المشترى له تسعة أقمار). ولكنه كان يعمل دائماً على تحسين هذا التلسكوب العاكس. وكان عدا اشتغاله بإجراء التجارب الكيميائية يقوم بمساعدة أستاذه (إسحاق بارو) في إعداد محاضراته في الرياضة، وقد ساعده أيضاً في تصحيح محاضراته الضوئية، ولكنه لم يجرؤ على أن يخطئ أستاذه فيما كان يعتقد في طبيعة الضوء الأبيض على أساس ما وصل إليه هو من تجربة المنشور الثلاثي وفي سنة 1669 غادر الأستاذ (بارو) كامبردج تاركا كرسيه في الجامعة مرشحاً خلفاً له فيه إسحاق نيوتن الشاب، وقد عين فيه، فكان يحاضر في البصريات والجاذبية وعلم الجبر، ولكنه ظل يعني بأبحاثه العلمية وإصلاح تلسكوبه الأول.

الجمعية الملكية بلندن وعضوية فيها:

نشأت هذه الجمعية في سنة 1645 من نفر من ذوي الميول الفلسفية، كانوا يجتمعون

في مواعيد معينه في لندن في كلية (جراشام). وفي سنة 1660 بلغ عدد أعضائها 41 عضواً واتفقوا على ان يدفع العضو عشرة شلنات رسما للدخول في الجمعية وشلناً أسبوعيا قيمة الاشتراك فيها.

وقد ساعد الملك (تشارل الثاني) هذه الجماعة لميله إلى العلوم وفي سنة 1661 اصبح عضواً في هذه الجمعية الناشئة التي سميت الجمعية الملكية.

ولما أتم نيوتن صنع تلكسوبه الثاني في سنة 1671 آثار به اهتماماً كبيراً، ونصح له أن يقدمه إلى الجمعية الملكية، ففعل، ولا تزال تحتفظ به الجمعية إلى الآن. وقد انتخب عضواً فيها في يناير سنة 1672 فكان أول ما قدمه إليها رسالة عن طبيعة الضوء الأبيض، فكانت أول حلقة في سلسلة المتاعب التي لازمته طول حياته.

لقد كانت نظرية نيوتن تقول بان الضوء الأبيض ليس في الواقع إلا عدة ألوان تؤثر كلها في شبكية العين فتعطي تأثير اللون الابيض، ويمكن تفريق اللون الأبيض إلى هذه الألوان المتعددة بإمراره في منشور ثلاثي من الزجاج مثلاً. ولكنه اخطأ واعتبر أن مقدار الانكسار لا يتغير لكل من مكونات الضوء الأبيض غير ملاحظ ما يسببه اختلاف نوع الزجاج المستعمل في تغير هذا المقدار.

عارضه في ذلك من معاصريه العالم (روبرت هوك) الذي ظل منافساً قوياً له فيما بعد، والفيلسوف الهولندي (كرستيان هيجز) صاحب النظرية الموجية في الضوء، والفلكي المشهور (فلامستيد). كما عارض فكرته من غير معاصريه الشاعر الألماني العظيم (جوت) رغم قصر باعه في العلوم الطبيعية.

نظرية نيوتن في ماهية الضوء

وقد جر الجدال حول هذه النقطة نيوتن إلى أن يضيع بضع نظريته في الطبيعة الضوء، وهي نظرية (الدقائق) التي قضت على النظرية الموجية بالاختفاء قرناً كاملاً.

قال نيوتن في تفسير الضوء انه عبارة عن (دقائق) صغيرة تنطلق من الجسم المضيء وتسير بسرعة كبيرة في خطوط مستقيمة، وقد فسر على هذا الأساس ظاهرتي (الانعكاس) و (الانكسار) وذلك بأن رأى لدقائقه أطواراً تجعلها تنعكس مرة وتنكسر أخرى. وقد شرح على أساس هذه النظرية كل الظواهر الضوئية التي كانت معروفة في عصره كالحيود والتداخل بشروح تتراوح بين البساطة والتعقيد وقد دافع نيوتن عن نظريته هذه بكل ما أوتي من ذكاء، فظلت مأخوذاً بها عند اغلب علماء الطبيعة حتى أوائل القرن التاسع عشر، حينما بدأت النتائج العلمية تؤيد النظرية الموجية، فاختفت نظرية نيوتن ولم يعد يؤبه لها

مما جعل البعض من المتحيزين إلى نيوتن يقولون انه لم يكن يقصد إلى وضع نظرية كاملة لطبيعة الضوء، إنما كان يقصد الرد على معترضي فكرته في الطبيعة اللون الأبيض فوضع ما يقرب من أن يكون نظرية. ولكن الأبحاث الأخيرة في (نظرية الكم) التي وضعها (بلانك) تكاد تؤيد (دقائق) نيوتن، وهي أن فعلت فان نيوتن يكون قد سبق معاصريه بما يقرب من ثلاثمائة عام.

وقد أراد نيوتن أن يثبت علمياً دوران الأرض حول نفسها فأرسل إلى الدكتور هوك، وهو سكرتير الجمعية الملكية في ذلك الوقت، يقترح تجربة لإثبات ذلك، بإلقاء جسم من مكان عال. فإذا كانت الأرض ساكنة فان الجسم يسقط في خطر رأسي، وإلا فانه يحيد عن ذلك الخط بقليل. وقد وافقه هوك ملاحظاً أن ذلك يتوقف على موضع إجراء التجربة على سطح الأرض.

ظهور قانون الجذب العام:

ذكرنا في المقال السابق أن نيوتن اعرض عن قانون الجذب العام حينما وجد أن العمليات الحسابية الخاصة بحركة القمر لا تتفق مع ما ذهب إليه من أن القمر يتحرك حول الأرض بقوة جاذبيتها له، وكان ذلك الاختلاف راجعاً كما قلنا إلى الخطاء في تقدير نصف الكرة الأرضية، وانه بتجاربه في الكيمياء والبصريات وبإلقاء المحاضرات. ولكن لما وصل إلى الجمعية الملكية نبأ قيام العالم الفرنسي (بيكار) بقياس طول محيط الكرة الأرضية وذلك بقياس المسافة بين كل درجتي طول متتاليتين (69 ميلاً) وضرب ذلك في 360 (عدد درجات الطول) أدرك نيوتن خطأه في تقدير نصف قطر الكرة الأرضية، فرجع إلى كامبردج وأكب على ما ذهب إليه في (وولثورب)، وهو أن قانون الجاذبية هو قانون كوني عام. فالأرض تجذب كل جسم على سطحها بقوة تتناسب

طردياً مع حاصل ضرب الكتلتين، وتتناسب عكسياً مع مربع المسافة بينهما. وكذلك الأرض تجذب القمر بنفس هذه القوة. والشمس بدورها تجذب الأرض وبقية الكواكب السيارة، فيتسبب عن ذلك دوران هذه الكواكب حول الشمس بدلاً من انطلاقها في خطوط مستقيمة كما ينص على ذلك قانون القصور الذاتي

ولن ينقص من قيمة هذا القانون ما يقول به (اينشتين) من أن الجاذبية شيء نسبي، وأن

التفاحة التي لاحظ نيوتن إنها تنجذب إلى الأرض يمكن اعتبارها جاذبة الأرض إليها، وان الشخص الجالس في مصعد يهوي بتأثير ثقله لا يشاهد سقوط التفاحة إلى ارض المصعد أن هو تركها من يده، بل يلاحظ بقاءها معلقة في مكانها، وان ظواهر الجاذبية يمكن تعليلها كلها بفرض تكور الكون؛ لا يمكن أن ينقص كل ذلك من قيمة قانون الجذب العام مادام هذا القانون يفسر لنا جل الظواهر الكونية. ولا صحة مطلقاً للقول الشائع بان (اينشتين) قد هدم نيوتن، فكل ما فعله هو انه نظر إلى قوانين نيوتن من ناحية غير الناحية القديمة.

اثبت نيوتن هذا القانون في سنة 1682، ولكنه لم ينشر آراءه خوفاً من حملات النقد التي كان يتحاشاها قدر جهده، وفضل ان تنشر بعد موته: وفي سنة 1683 وصل الدكتور (هوك) ودكتور (هالي) وسير (كرستوفريرن) إلى جزء من قانون نيوتن، وهو أن قوة جذب الأرض تتبع قانون التربيع العكسي وأخذوا يبحثون لإيجاد مسير كوكب متحرك إذا كان منجذباً إلى نقطة معينه بقوة تتناسب عكسياً مع مربع المسافة بينهما، وكان الأمل الذي يجول في قرارة أنفسهم هو إثبات ان حركات الكواكب حول الشمس ترجع إلى ما يشبه قانون الجاذبية على سطح الارض، ولكنهم لم يفلحوا. فوعد سير (كرستوفريرين) بإهداء كتاب قيمته جنيهان لمن يعين هذا المسير، فقال دكتور (هوك) بان هذا المسير سيكون قطعاً ناقصاً ولكنه لم يقدم البرهان على ذلك. فقصد (هالي) إلى كامبردج وعرض الأمر على نيوتن فوجده قد اشتعل بهذه المشكلة وحلها، وأخبره أن هذا المسير يكون قطعاً ناقصاً ووعده بالبرهان بعد قليل. وقد بر نيوتن بوعده فأرسل بالبرهان إلى (هالي) بعد ثلاثة اشهر. ولكن (هالي) أراد التأكد من بعض نقط فرحل مرة أخرى إلى كامبردج، ثم طلب من نيوتن أن يقدم بحثه إلى الجمعية الملكية فوافق بعد إلحاح

مصطفى محمود حافظ.

مدرس بمدرسة المعلمين بانبابة

من القصص الشعري

إسلام حمزة

بقلم فريد عين شوكه

مر أبو الحكم بن هشام (أبو جهل) برسول الله عند الصفا فأذاه وشتمه ونال منه، فلم يرد عليه. ثم انصرف أبو جهل وعاد الرسول إلى بيته وعاد حمزة بن عبد المطلب من صيده فمر بالصفا فحدثته مولاة لعبد الله ابن جدعان بما كان من أمر أبى جهل مع الرسول؛ فغضب حمزة وراح يبحث عن أبى جهل حتى إذا بصر به في ناد من قريش ضربه بقوسه فشج رأسه شجة منكرة، ثم أعلن إسلامه في هذا الجمع، وعلمت قريش أن الرسول قد عز وامتنع بإسلام عمه حمزة.

الرسول يجلس على الصفا مطرقاً إلى الأرض، تراه المولاة فتقول:

لك الله من ناصب مُتَعب ... يجاهد في بلد مشغَب

تحمل فيه صفوف العذا ... ب فلم يستبد ولم يغضب

وأوذى من أهله الظالمين ... وشرّد في حيّه الأقرب

وقاسى بمكة ذل الغريب ... وذاق من المهد يُتمَ الأب

(تسعى إليه تستضيفه عندها)

محمد (ينظر إليها)

لا تسترح بيننا ... على ذلك الحجر المجدب

ونحن جوارك تحت الظلا ... ل بوادٍ وفير الجنى مخصب

يطالعنا بشهي الثما ... ر ويجري بمورده الأعذب

الرسول (إليها):

دعيني هنا أسترح ساعة
هي (مستنكرة) ... على ذلك الجامد الملهب؟
وكيف تطيق لهيب الرما ... ل وترتاح في وهج السبسب؟
هُلمَّ إلى حيّنا فاسترح ... قليلاً بمربعنا الأرحب
يظلك فيه وريف الغِرا ... س فتغفو على ظله الطّيب
الرسول (شاكراً):
رعتكِ العناية، لن أستطيع ... ثواءً بواديكُم المُعشبِ
هي (متضرعة): أطعني
الرسول (زاهداً): دعيني
ترثي له الفتاة ثم تمضي عنه في صمت، ويطرُق ثانية إلى الأرض؛ ثم يمر به أبو جهل فيرفع رأسه بشدة:
أنت هنا ... فريداً عن الصحبة الهُرَّب
تجالد وحدَك ذل الخرو ... ج على دين آبائك الأشهب
الرسْول (في هدوء): معي الله
أبو جهل (ساخراً):
خلك من فرية ... يضيق بها صبية الملعب
وأسطورة جئت تسعى بها ... وتزعم أنك فينا نبي
وانك قائدنا في الحيا ... ة وهاد لمن ضل في الغيهب
ألا ما أضلك من قائد ... وأخسفك اليوم من كوكب
فمن أنت حتى تقود الأنام ... وتهد يهمو وضع المذهب
ومن أنت حتى نصيخ إليك ... ونمشي على نهجك الأنكب
وكيف وأنت مهيض الجنا ... ح ومن ذلك النفر المترب
أليس لدى الله من يصطفيه ... سواك من المرد والشيب
محمدُ أسرفت فيما دعوت ... ولكن غرسك لم يعقب
وأشفق منا عليك الرجال ... فجاءوك بالمال والمنصب
وأقبلتَ تسخر من عطفهم ... وتزرى برأيهم الأصوب
فلم نسعَ بعدُ بعُتب إليك ... فما أنت والله بالمعتب
ولكن سنصليك سوط العذا ... ب ونفريك بالناب والمخلب
ينصرف عنه الرسول غير مجيب فيهدده أبو جهل صارخاً:
فأما نكصت وإما هلكتَ ... وموتك ليس بمستصَعب
ثم ينصرف أبو جهل ويمر حمزة عائداً من الصيد يقول:
يوم أغرُّ على الجزيرة مشرقُ ... كالبدر في جنح الدجى يتألق
عالجت فيه الصيد جد مظفر ... ورجعت منه مجلياً لا يلحق
كم صدت من ظبي به وكواسر ... عصماء كانت في السماء تحلّق
تسمع صوته المولاة فتخرج إليه فتستوقفه لترى ظبيه:
أرنيهِ حمزةُ فينعطف عليها فتراه وتقول:
ياله من شادن ... تهوى رشاقته النفوس وتعشق
دعه لديِّ أبا عمارة منحةً
حمزة (في تيه): أمل لعمرك سوف لا يتحقق
إن كنت تائقة إليهِ مشوقة ... بجمال بزَّته فإني أشوق
هي: بل خلّه
حمزة (وهو يأخذه منها):
لن أستطيع فإنما ... هو كل ما أبني وما أتعشق
هي (وقد جدت بعد هزل)
تالله ما يغنيك ظبي صدته ... وحماك صيد مستباح مطلّق
حمزة (غاضباً):
كذباً زعمتَ فإنما أنا قسور ... تعنو لطلعته القلوب وتفرق
وأنا اعز شباب مكة كلها ... وحماي ارفع ان ينالَ واشهق
هي (ساخرة):

خفف عليك فقد تصدع شمله ... وغدا على عبث الحوادث ينتِق
حمزة (هائجاً):
كيف استبيح؟
هي: أما رأيتَ محمدا ... يرمي بما يوهي الجبال ويمحق
ومحمد أبن أخيك كيف يصيبه ... هذا العذاب وفيك قلبُ يخفق
حمزة (غاضباً):
منَ ذا استطال عليه أم من ناله ... بأذىً؟
هي (متحسرة): أبو الحكم الجهول الأحمق
لاقاهُ قبلكَ بالسفاهةِ والأذى ... وقسا عليه وهو مغض مطرق
يرنو إليه بمقلتى متضرع ... فيفيض في سفه الحديث ويُغرق
سفنه تضج له السماء العلى ... والأرض من غلوائه تتشقق
وأذى تخر له الجبال صريعة ... وتهى لمسمعه النفوس وتصعق
حتى إذا ضاق النبي بكل ما ... لاقاه من عنت يؤود ويرهق
ترك الصفا ثبت الجنان وكله ... شكوى تفيض وأدمع تترقرق
حمزة (وقد بلغ به الغضب):
ويل لعمرٍ ومن حسام في يدي=قاسي الطعان يشيب منه المفرق
ويلٌ له حتى يصير فريسة ... تفرى حشاها الضارياتِ وتعرق
لو كنتِ حاضره على هذا الصفا ... لأصاب مني مارداً لا يرفق
صبراً نبي الله سوف يصيبهم ... مما رموك به شواظ محرق
ثم يذهل عما كان معه من ظبي الطيور ويهم بافتقاد أبي جهل، ويشرف على ناد بقريش فيراه أحدهم من بعد فيحادث جلساءه وهو مرتاع:
انظروا حمزة:
فينظر ثم يقول أكثرهم:
شر مدلهْم ... بين عينيه ونار تضطرمْ
بعضهم:
ويحه أي مصاب هاجه ... فأتى يعبس كالخطب الملُم
يأتي حمزة فيقول إليه:
إنه يا حمزة:
حمزة (ثائراً): الهوبُ لظى ... بين أحشائي قاس يحتدم
ثم ينظر فيهم:
أين هذا الوغد
هم (إليه): من ذا تبتغي
هو (في اضطراب): ... أخبروني أين يا قوم جثم
يقبل أبو جهل من جهة أخرى فيراه حمزة فيضربه بقوسه قائلاً:
أنت أقبلتَ؟ فخذها ضربة=يرتوي منك بها قوسٌ نَهِم
أبو جهل (وقد وقع على الأرض):
أدركوني ... (فيقبل البعض عليه)
حمزة (وقد أحاط به بعض الشجعان يمنعونه):
بل دعوني أسقه ... أكؤس الموت وأكواب العدم
واحد منهم:
اصطبر حمزة لا تهتج فم ... سكن المهتاج إلا وندم
ثم يتحايلون عليه حتى يجلس فيتحادثون:
ما الذي نالك من عمرو
حمزة: لقد=نال مني قومي كثيراً وظلم
كل يوم يشتفي في ابن أخي ... بسباب دونه أقسى الحمم
وإذا ما شامه أغرى به ... صبية الحيّ وأوشاب الخدم
هم (في ترفق):
سوف نرجوه فلا يقربه ... بأذى
حمزة (مستنكرا) =ترجونه فيما اجترم؟

هانت الدنيا إذا لم احمه ... أينما حل وأيانَ قدم
من أناسيّ كريع دارس ... كاد من فرط البلى أن ينهدم
أسد في غير ساحات الوغى ... وهُم إن جدت الحرب نَعَم
ثم يسكت قليلاً ويهم واقفاً:
بلغي يا ريح عني واحفظي ... أيها الصحراء واشهد يا حرم
أنني أسلمت لله فلن ... أخفض الهامة مني لصنم
وسأعلي دينه الحق على ... مفرق العُربْ وهامات العجم
(ثم يمضي والقوم في لغط واضطراب)
فريد عين شوكة
الكتب
تحضير الميزانية المصرية
للدكتور محمد توفيق يونس
نشر الدكتور محمد توفيق يونس رسالته التي نال بها أخيراً إجازة الدكتوراه في الحقوق من الجامعة المصرية بدرجة (جيد جداً) مع شرف الامتياز بتبادلها مع الجامعات الأجنبية.
وموضوع الرسالة (تحضير الميزانية المصرية) وهو موضوع من أقوى الموضوعات المالية نفعاً، أعظمها خطراً، وأشدها اتصالاً بعمل الحكومة والبرلمان، أعمقها أثراً في حياة البلاد وتقدمها.
وعلى الرغم من ذلك كله ظل هذا الموضوع مجهولاً حتى جاءت هذه الرسالة القيمة أزاحت الستار عنه وألقت عليه ضوءاً ساطعاً أنار جوانبه جميعاً.
ويزيد هذا البحث جلالاً وخطراً انه بني على أبحاث قيمة عميقة، ومشاهدات واقعية ودقيقة، ووثائق أصلية ثمينة، تستفرغ الجهد المضني وتستنفد الوقت الطويل.
وقد رتب المؤلف أبحاثه ترتيباً منطقياً سليماً وصور للقارئ الميزانية المصرية تصوراً علمياً سديداً، فأرجع موضوعاتها إلى أصولها العلمية وسماها بمسمياتها الصحيحة، وطبق عليها مبادئ علم المالية العامة، أخضعها للبحث العلمي الدقيق، وجعل منها مجموعة متماسكة الأجزاء، محكمة الارتباط، واضحة المعنى.
بيّن للجمهور الحالة الحاضرة للميزانية المصرية من الوجهتين العلمية والعملية بعد ان تكلم عن حالتها في الماضي ومختلف تطوراتها. وقد درسها فوق ذلك دراسة نقدية، ووقف إزاء ما يعرضه من مسائل موقفا إيجابيا، وبين ما يراه من الوسائل المؤدية لحلها، فمهد بذلك الطريق لمن يتبعه من الباحثين، أعطى كل من يهمه أمر الميزانية المصرية من الشيوخ والنواب والموظفين والطلبه مرجعاً قيماً ثميناً، شديد الأهمية جزيل الفائده، خصوصاً ولم يكن أمامهم قبل ذلك أي بحث آخر يعبد السبيل وينير الموضوع.
وليس أدل على موضوع هذا البحث مما يقوله المؤلف في ختام مقدمته: (على هذا الأساس الواقعي بنيت رسالتي جاعلاً نصب عيني أن أرى القاريء، في تحضير الميزانية، كيف تصبح مجموعة من التقديرات الأولية المبعثرة مجلداً ضخماً منسقاً؛ وأن أصور له الميزانية المصرية تصوير الكائن المستقل له أجزاؤه ومميزاته مقدماً إليه بياناً عن جميع ألادوار التي تمر بها في مرحلة التحضير محدداً ومحللاً المبادئ والقواعد التي تتصل بها وتقوم عليها).
ولقد حقق المؤلف غرضه أتم تحقيق، وبلغ ولاشك غايته على خير ما يكون، فقدرت الجامعة المصرية رسالته اعظم تقدير ومنحته أسمى درجاتها، وصادف عمله نجاحاً عظيماً واهتماماً شديداً في الأوساط العلمية والدوائر الحكومية. والكتاب أنيق الطبع جيد الورق يباع في جميع المكاتب الشهيرة وثمنه عشرون قرشاً.
زعامة الشعر الجاهلي
بين امرئ القيس وعديّ بن زيد
تأليف الأستاذ عبد المتعال الصعيدي
الأستاذ عبد المتعال الصعيدي أديب مجتهد واسع الاطلاع، يعجبك منه إذا حادثته دماثة خلقه، ورقة طبعه، وسرعة بديهته، ومن آثاره الأدبية هذا الكتاب الذي أحدثك عنه، وهو

يقع في نحو مائة وثلاثين صفحة من القطع الكبير.

ابتدأ الأستاذ كتابه بفصل من ميزان الشعر وقد تساءل في هذا الفصل (هل يوزن الشعر بموضوعه او يوزن بألفاظه ومعانيه أو يوزن بهما معاً؟ وإذا كان يوزن بهما معاً فما الذي ينظر إليه قبل غيره منهما؟) ثم تكلم في هذا الفصل عن الشعر وأغراضه، وعقد فصلاً آخر عن الشعر الحضري والشعر البدوي ثم وصف نجداً وتكلم عن كندة وتغلب، ثم ترجم لامرئ القيس وشرح عقيدته وتعرض للغته وشعره، وأورد طرفاً من شعره في لهوه وجده، وبعد ذلك انتقل إلى عدي ابن زيد فتكلم عن الحيرة وعن حياة عدي ولغته وشعره، وأورد أيضاً شيئاً منه، ثم تكلم عن منزلة الشاعرين إجمالاً ووازن بينهما في النهاية فجعل الزعامة لعدي بن زيد.

فالكتاب كما ترى جدير بان يقرأه الأدباء، فسيجدون في قراءته متعة، وسيظفرون منه بكثير من المعلومات الشيقة المفيدة ولهم بعد ذلك أن يوافقوا الأستاذ فيما ذهب إليه أو يخالفوه.

أما أنا فأخالفه وأراه متحيزاً في حكمه، وأرى هذا التحيز نتيجة لازمة لمقدمته عن ميزان الشعر فقد جعل الأساس في وزن الشعر أغراضه، وقسم هذه الأغراض إلى شريفة وغير شريفة، دون أن يحدد هذا التقسيم، ثم اظهر ميله إلى شعر الحضر ونفورة من شعر البادية فجعله غليظاً خشناً ليس فيه من المحاسن إلا وصف جمال الطبيعة إن كان ثمة من جمال في البادية! وعلى هذا الأساس قدم عدياً لشرف أغراضه ورقته التي اكتسبها من الحضر مع انه يقول في صفحة 14 (ولا نريد من هذا ان الأدب الحضري في جملته كان خيراً من الأدب البدوي في جملته، وقد يوجد من أدباء البدو من كان خيراً من بعض أدباء الحضر ومن أدباء الحضر من كان خيراً في أدبه اقل من بعض أدباء البدو) ولكنه أراد ان يقدم عدياً فتكلف، واضطر إلى أن يغمط امرأ القيس كثيراً من محاسنه، هذا إلى أنى أخالف الأستاذ الفاضل في قوله عن الشعر (ان موضوعاته هي أغراضه وألفاظه هي معانيه، ومعانيه هي ألفاظه، ولا يمتاز اللفظ عن المعنى إلا في مظهر وجوده في اللسان ووجود المعنى في الذهن).

لا أستطيع أن اقره على هذا الرأي، ولا أجده يحتمل المناقشة أو بعبارة أخرى أجد المناقشة فيه لا تنتهي، فإن المناقشة في البديهيات تخرج عن الموضوع إذ أنها تبدأ من قضية مسلمة ومن نقطة نهائية.

أما عن قياس الشعر بأغراضه فإني أرى الأمر على عكس ما يراه الاستاذ، فلم تتسنى الموازنة بين شاعرين، إذا أردنا تفضيل أحدهما على الآخر إلا إذا اتفقا في الغرض، أو على حد تعبير أدبائنا إلا إذا اتحدا في المدرسة، أما أن يختلفا في البيئة والغرض فنجعل من ذلك مقياساً للموازنة بينهما فما لا أسلم به إلا إذا استطعنا أن نوازن موازنة تنتهي بحكم تفضيلي بين أبي نؤاس وعمر بن أبي ربيعه مثلاً أو بين البحتري والمعري أو بين شوقي والبار ودي. . . الخ.

ولكني إذا خالفت الأستاذ في بعض آرائه فلا يسعني إلا أن أعلن إعجابي بدقته في البحث واستقصائه لتفاصيل الموضوع وإلمامه به، هذا إلى جمال عبارته ودقة أدائه مما يجعل كتابه جديراً بالاقتناء، خليقاً بالدرس في روية وإمعان.

محمود الخفيف

العدد 52 - بتاريخ: 02 - 07 - 1934

في الموقف الأدبي الحاضر

كان ظهور (الملاح التائه) و (وراء الغمام)، وصدور (الوادي) في لونها الجديد سبباً قريبا في حدوث هذه الضجة الأدبية القائمة. لان الديوانين على رغم ما قيل فيهما نتاج من الطراز الأول يستحق العناية ويستوجب النقد ويستدعي الخلاف؛ ولان الشاعرين - وان كانا بحكم ثقافتهما غريبين عن العالم الأدبي - قد جذبا إليهما الأنظار، وعطفا عليهما الأنصار، بالطبع الموهوب والذوق الناقد. فلكل منهما في كل قهوة رقيب ورفيق، وفي كلحيفة عدو وصديق، وفي كل ناد مكبر ومنافس؛ ولان الوادي قد أخذت منذ حين تفتح لأدب الشباب (محضراً) في كل أسبوع، وقد تطوع للشهادة له وعليه أساتذة النقد في الجهاد والبلاغ. وكانت الحملة عنيفة على احبي الديوانين لحظهما الوافر من الإجادة ومحلهما الرفيع من الفن؛ فكابد الشاعر الطبيب مبضع العقاد، وقاسى الشاعر المهندس معول المازني. وكان الدفاع عنهما ألكن الحجة أرعن الدليل، لصرفه الجهد

في رد المآخذ، ولو عني بتبيين المحاسن كما عني بتحسين المساوئ لأخفى ما ظهر تحت مجهر النقد من ضئال العيوب في بهر الجمال وروعة الصنعة. ولكل عمل من أعمال الناس جهة للمدح وجهة للذم لا تتشابهان على ناظر. والنقدناعة دقيقة لا يحسنها في الغالب إلا شيوخ الادب، لانهم استكملوا عدتها، واكتسبوا ملكتها بإدمان الدرس وطول المران وكثرة التجربة، فرد مآخذهم إذا برئت من الشطط والاعتساف يكون في الكثير الغالب من وراء القدرة الشابة.

كان أسلوب النقد ولا سك مشوبا بصلف الاستاذية، وعنت الحزازة، وعبث التهكم. وحجة النقاد انهم بالطبيعة أولياء الفن، وأمناء هيكله، وأصحاب اذنه، فلا يجمل بهم أن يخلوا فيه من لا يثبت معدنه على شدة السبك، ويخلص جوهره على تقصي النظر؛ وان الأدب اعسر من أن ينال بالدعوى العريضة، والدعاية المريضة، والأساليب الملفقة.

وكان طبيعيا أن يأنف الشباب من هذه اللهجة، ويألموا من هذه الشدة، ويزعموا أن هناك ائتمارا بهم وإنكارا بأدبهم، فيسوء ظنهم بالنقد، وتفيض مجالسهم بالشكوى، ويقابلوا الأستاذية بالتمرد، والحزازة بالعناد، والتهكم بالحنق، وبسطوا الأمر على انه نزاع بين أدبين: قديم يشتهيه الموت، وجديد تبتغيه الحياة، وتنفرج الحال أخيرا بين جيلين مقام الأول من الثاني مقام المدرب المشفق، والمرشد الناصح، والدليل المجرب.

إن شيوخ الأدب وشبابه إنما يصطنعون أدوات واحدة، ويعالجون موضوعات متقاربة، وينتجون نتائج متشابهة. فتاريخ الأدب يوم يكتب عن هذه الفترة لا يجد للشباب أسلوبا خاصا يسجله، ولا مذهبا جديدا يحلله، ولا أثرا مستقلاً يشرحه ويعلله. إنما هي مطامح الفتوة إلى المثل الذي توحيه الطبيعة، وتقتضيه الفطرة، ويلهمه الاطلاع، تحاول همتهم الوثابة أن تدنيهم منه فيقعد بهم عجز الوسيلة ونقص العدة.

وليس يسوغ في العقل أن يعد التسامح في اللغة والتساهل في الأسلوب والتجاوز عن القواعد ميزة، فان باس الشباب لم ينكسر أمام الشيوخ إلا في هذه الناحية.

والحق أن المسارعة إلي الإنتاج العام قبل استكمال وسائله الأولى غميزة بينة في أدب الجيل الحديث. فان الإلمام باللغات الأجنبية، والوقوف على قواعد الفن الاوربية، لا يجعلان المرء كاتبا في العربية ما لم يدرس هذه اللغة دراسة قوية نزدها طيعة لقلمه، لينة على لسانه، والاعتماد في اكتساب الأدب على محاكاة النماذج وتقليد المثل لا يقوم عليه فن ثابت، ولا ينهض به فنان معدود. وما كان المثل ليغني عن القاعدة وهو لا يضيء إلا ناحية من الطريق، والقريحة نفسها، وهي غريزة الأدب وافن في الإنسان، ليست من الكمال اليوم بحيث تجزى عن القواعد؛ كذلك الذوق وهن أداة الجمال كما أن العقل أداة الحق، لا يمكن أن يكون طريقا مأمونة إلى عمل أدبيحيح. فانه موهبة طبيعية تختلف في الناس وفي الأجناس. وتحتاج إلى المران بالدرس والعادة، وليس لها ما للعقل من سلطان وثبوت؛ وانك لتجد عقلا مطلقا مستقلا لا يختلف ولا يتغير، لان هناك حقيقة مستقلة تتميز بالوضوح والجلاء، ولكنك لا تجد مهما استقريت واستقصيت ذلك الذوق المطلق المستقل الذي لا يختلف باختلاف الألوان والأزمان والأمكنة. أما القواعد فهي نتيجة التجارب وخلاصة الملاحظات على طول القرون. وضعتها القرائح المنطقية المتعاقبة بعد أن فقهت أصول الأشياء، ودرست علائق هذه الاصول، واستخلصت نتائج هذه العلائق، ثماغت هذه النتائج قواعد وقالت لك إنها امثل الطرق لاحسان العمل دون أن تخضع عبقريتك إليها، ولا أن تسمح لهواك بالخروج عليها، فان بين الاستبداد والفوضى نظاما أحق أن نؤثر ويتبع.

وبعد، فان الفنان والناقد إنما يتعاونان على فهم الجمال، كما يتعاون القاضي والمحامي على فهم العدل، فليس من الخير لأحدهما أن يكون مع الآخر على حد منكب؛ وان الأدب الشيخ

والأدب الشاب ليتعاونان على قيادة النفس، كما يتعاون البصر والجناحان على قيادة الطائر. فليس من خير أحدهما أن يكون من الآخر على قطيعة.

والأدب الرفيع من بعد ذلك كلهلة المرء بربه، ينفي الأذى عن لسانه ويذهب الغل عن قلبه.

أحمد حسن الزيات

ديمقراطية الطبيعة

للأستاذ أحمد أمين

يعجبني البحر في جماله وبهائه، وجلاله ولا نهايته، ويعجبني كذلك في ديمقراطيته، فهو لا يسمح لأحد أن ينغمس في مائه إلا إذا تجرد من كل المظاهر الكاذبة التي خلقتها المدنية، يجب أن يتجرد أولا من ملابسه التي تميز بين الغني والفقير، ومن ريائه ونفاقه ومظاهره التي اصطنعها ليجعل من الناس طبقات يتحكم بعضها في بعض. ففي البحر تتساوى الرءوس، لا غني ولا فقير، ولا ذو جاه ولا عديم الجاه، ولا عالم ولا جاهل , ولا حاكم ولا محكوم، لا يتميزون بشيء فلا بلباس البحر، وفي الحقيقة ليس هو لباس البحر، وإنما هو لباس البر، فليس للبحر لباس إلا ماؤه. ودليل انه لباس البر أن الناس حاولوا به أن يتميز بعضهم من بعض، واتخذوا منه شعارا للغنى والأناقة واللباقة والوجاهة، والبحر لا يعرف شيئا من ذلك، إنما يعرف ذلك البر، ومن اجل هذا سرعان منا ينغمس الناس في البحر، فيسدل بمائه الأزرق الجميل ستارا على كل أثواب الرياء حتى لا ترى بعد إلا رءوسا عارية لا يميز بينها شيء من الصنعة، ثم هو يرسل أمواجه تداعب الناس على المواء، فتغازل الأسود كما تغازل الابيض، وتصفع الجميل كما تصفع القبيح، وتعبث بلحية العالم، كما تلعب براس الجاهل، وأحيانا يهيج هائجه، وتثور حفيظته، فيزفر من الغضب، حتى ليكاد يخرج من لهابه، ويطفر من ثيابه، ويربد وجهه فيلفظ بالزبد، وينتفخ ويرتعد، ويرقص من غير طرب؛ وهو في هذه الحال لا ينسى ديمقراطيته، يأتي للباخرة الضخمة قد أخذت زخرفها وإزَّينت وظن أهلها انهم قادرون عليه فيبتلعها في لحظة، لا تغني عنه محصنات العلم القديم ولا الحديث، كما يبتلع أحيانابيا وديعا وشيخا ضعيفا، ليبرهن انه لا يعبا بقوة ولا ضعف، ولا يخشى باس كمي، ولا يرحم ضعف اعزل، سواء هو في هزله وجده، وسواء هو في حلمه وغضبه ـ ما اجمل البحر، وما اجله، وما ألطفه، وما أقساه!

على أنه يظهر لي أن الطبيعة في جملتها ديمقراطية لا أرستقراطية، ولا أرستقراطية إلا في الإنسان الكاذب، فالشمس ترسل أشعتها الذهبية، والقمر أشعته الفضية، على الماس سواء: على المؤمن والكافر، والأسود والابيض، والغني والفقير، والقصر الكبير. ويأتي الجو بريح سموم فتلفح وجوه الناس على السواء، لا تميز عظيما ولا حقيرا، ولا شريفا ولا وضيعا؛ ثم يأتي بريح طيبة تنعش الناس كذلك، لا يعرف في شيء من ذلك محاباة، ولا يعرف طبقات، ولا يعرف أي نوع من أنواع التفاوت التي تواضع عليها الناس، يرسل في الصيف شواظا من نار فيدخل على الأمير في قصره، وعلى الفقير في كوخه، فلا يهاب عظيما، ولا يحتقر وضيعا، ويرسل في الشتاء برده القارس فلا يستطيع أن يتقيه الغني بصوفه وملابسه، ولا بمدفأته وناره؛ كما لا يتقيه الفقير في عدمه وبؤسه؛ ثم تطلع شمس جميلة، ويعتدل الجو، فتحتضن الطبيعة الناس على السواء وتكون لهم جميعا أما حنونا، مشفقة بارة_أن تحدث الباشا أو البيك في نفسه بأنه فوق طبقات العامة، وانه يستطيع في شرع العرف والعادة أن ينعم بما لم ينعموا، فتفسح له الطريق، ويخلى له السبيل، وتفتح له أبواب المجتمعات، ويعامل أولاده وأقاربه بما لا يعامل به الفقراء، فلن تحدثه نفسه أن يمتاز من الفقير في حر ولا برد، ولا نور ولا ظلام، فان أخطأ فيذلك وظن انه يغالب الطبيعة في شيء من قوانينهافعتهفعة أمن بعدها بالقدر خيره وشره، حلوه ومره، وأدرك انه أن علا الناس بماله أو جاهه، وان تلاعب بأوضاع النام لسخف الناس، فهو أمام أوضاع الطبيعة حقير ذليل.

ثم يأتي القدر فينثر نعمه ونقمه، وشره وخيره على الناس جميعا، فصحة في الأغنياء والفقراء، وشره وخيره على الناس جمنعا، فصحة في الأغنياء والفقراء، ومرض في الأغنياء والفقراء. وتجد غنيا فاتر القوى منقوف الوجه، يبيت يتضور من الألم، يود لو خرج عن كل ماله وجاهه لتعود إليهحته، وبجانبه فقير مستحكم الخلقة، متين البنية، ممتلئ قوة وشدة وصلابة_وتجد جمالا في الأغنياء والفقراء، وقبحا في الأغنياء والفقراء، فهذه فقيرة مشرقة الجبين، افية الاديم، مفرطة الجمال، معتدلة القوام، لا تفتح العين على اجمل منهاورة، ولا أتم منها حسنا؛ وهذه سيدتها الغنية دميمة الخلقة، منكرة الطلعة، تنبو عن منظرها الأحداق، وتتفادى من مراها الأبصار، تريد أن تتجمل بالصناعة والأصباغ والحلي والملابس، فلا يزيدها ذلك كله إلا قبحا، على حين أن جارتها

!الفقيرة جميلة في طبيعتها، جميلة في بساطتها، جميلة حتى في ثيابها المهلهلة وللقدر في ذلك بدع، فاشهر طبيب في القلب يموت بالقلب، واعظم جراح يموت بالتسمم. وتلد الفلاحة الفقيرة في الطريق وهي حاملة قدرتها مملوءة ماء على رأسها، ثم يقطع
وتحمل طفلها وتذهب إلى بيتها سالمة غانمة؛ وسيدتها الغنية يحلل دمها (الخلاص) وغير دمها قبل الوضع، ويعقم كل شيء في حجرة ولادتها، ويقف مشاهير الطبيبات والأطباء على بابها، حتى إذا أذنت ساعة الولادة بالقدوم استخدم كل ما وصل إليه الطب الحديث، والكيمياء بالحديثة، والعلم الحديث، وأمعنت جمهرة الأطباء في التطهير والنظافة واتخاذ وسائل الراحة والحصانة، وغير ذلك مما لم أذكر منه إلا قليلا؛ ثم هي بعد تصيبها حمى النفاس، ويقف الطب والعلم دهشا حائرا، ثم تسلم الروح إلى ربها، هازئا بكل ذلك القدر.

وهناك نوع من الأرستقراطية غريب، هو الأرستقراطية العلمية، فالمتعلمون ذوو الشهادات يعدون أنفسهم_وربما عدهم الناس أيضا_نوعا ممتازا من الناس، يختلفون عنهم نوعا من الاختلاف، ويرتفعون عليهم نوعا من الرفعة، كما ترتفع طبقة الأغنياء وكما ترتفع طبقة الامراء، فالمتعلم ينظر إلى أخيه الشقيق الجاهل نظرة فيها شيء من التعاظم، وشيء من الازدراء، وشيء من الغرور، وان ساواه في الدم، وان ساواه في الغنى أو الفقر، وهو لغروره يظن أن شهادته تخوله الحق أن تكون آراؤه في كل شيء خير الآراء، وان غير الجامعي لا يحق له أن يبدي رأيا بجانب رايه، حتى فيما ليس له اختصاص له اختصاص فيه.

وهو كذلك نوع من الأرستقراطية الكاذبة لا تعبا بها الطبيعة ولا تعيرها أي التفات، فقد جعلت بين المتعلمين أذكياء وأغبياء، وجعلت بين الأميين أذكياء وأغبياء، بل من غرور المتعلمين أن يسموا من لم يقرا ولا يكتب جاهلا وأميا ونحو ذلك من الأسماء، ويسموا من يقرا ويكتب متعلما، كأن وسيلة العلم والحكمة والعقل القراءة والكتابة وحدهما، ونحن لو نحينا غرور المتعلمين جانبا لهزئنا بالقراءة والكتابة في كثير من الأحيان، ولوجدنا وسيلة من وسائل الرقي، ولكن بجانبهما وسائل أخرى، ولوجدنا انهما لا تستحقان هذا الغرور الذي ينشئ نوعا من الأرستقراطية، فالحكمة في تصريف الأمور لا تعتمد على التعليم الجامعي، وسعة العلم كما تعتمد على الفطرة البشرية، والغريزة الإنسانية. ومن ثم قد ترى الجامعي الحائز لاقى الشهادات العلمية وهو أخرق في الحياة، سعيه في التصرف، وأخاه الذي يسمونه جاهلا أميا حكيما في تصرفه مدبرا لشؤونه وشؤون اخوته الجامعيين، وترى الأمة قد تصاب على يد متعلميها في أحوالها السياسية والاجتماعية اكثر مما تصاب على يد
جاهليها، والفلاح القروي الأمي قد يرزق من الحزم في تصريفه، وبعد النظر في آرائه، وصدق الشعور في وطنيته، ما لا يرزقه أخوه الأستاذ في الجامعة أو العالم الحائز لأرقى الدرجات العلمية، بل قد يصدر من الرأي العام الجاهل في شؤون وطنه، وفي المسائل الهامة التي عرض عليه ما يفوق رأي متفلسفة المشرعين، وحيل القانونيين.

إن نظرنا إلى الذكاء، فالذكاء مشاع بين المتعلم والجاهل، وان نظرنا إلى حكمة التصرف، والحزم في إدارة الأمور، وتدبير شؤون الحياة، فذلك أيضا أمر مشاع بين الناس، ففيم غرور المتعلمين وإنشاؤهم أرستقراطية بجانب أرستقراطية الأموال والأعمال والطبقات. يطالبون أن يكال لهم المال جزافا، ويطالبون ألا يهينوا أنفسهم في عمل، ويطالبون أن يكون ميراثهم من آبائهم اكبر نصيب، ويطالبون أن يكون زبدة ما تخرجه الأمة لهم وحثالته لما يسمونه الجاهلين.

ما اسعد الأمة تخفف من غلوها فغي أرستقراطيتها، بجميع أنواعها، وتقلد الطبيعة في ديمقراطيتها واعتدالها.

احمد أمين

موت أم

للأستاذ مصطفىادق الرافعي

رجعت من الجنازة بعد أن غبرت قدمي ساعة في الطريق التي ترابها تراب وأشعة، وكانت في النعش لؤلؤة آدمية محطمة هي زوجةديق طحطحتها الأمراض ففرقتها بين علل الموت، وكان قلبها يحيها فأخذ يهلكها، حتى إذا دنا أن يقضي عليها رحمها الله

فقضى فيها قضاءه. ومن ذا الذي مات له مريض بالقلب ولم يره من قلبه في علته كالعصفورة التي تهتلك تحت عيني ثعبان سلط عليها سموم عينيه!

كانت المسكينة في الخامسة والعشرين من سنها، أما قلبها ففي الثمانين أو فوق ذلك؛ هي فيسن الشباب وهو متهدم في سن الموت.

وكانت فاضلة تقيةالحة، لم تتعلم ولكن علمها التقوى والفضيلة , واكمل النساء عندي ليست هي التي ملأت عينيها من الكتب فهي تنظر إلى الحياة نظرات تحل مشاكل وتخلق مشاكل؛ ولكنها تلك التي تنظر إلى الدنيا بعين متلألئة بنور الأيمان تقر في كل شيء معناه السماوي فتؤمن بأحزإنها وأفراحها معا، وتأخذ ما تعطى ن يد خالقها، رحمة معروفة أو رحمة مجهولة. هذه عندي تسمى امرأة، ومعناها المعبد القدسي؛ وتكون الزوجة، ومعناها القوة المسعدة؛ وتصير الام، ومعناها التكملة الإلهية لصغارها وزوجها ونفسها.

ومهما تبلغ المرأة من العلم فالرجل اعظم منها بأنه رجل، ولكن المرأة حق المرأة هي تلك التي خلقت لتكون للرجل مادة الفضيلة والصبر والإيمان، فتكون له وحيا وإلهاما وعزاء وقوة، أي زيادة في سروره ونقصا من آلامه.

ولن تكون المرأة في الحياة اعظم من الرجل إلا بشيء واحد هوفاتها التي تجعل رجلها اعظم منها.

ومشيت من البيت الذي ألبسته الميتة معنى القبر_إلى القبر الذي البس الميتة معنى البيت. وأنا منذ مشيت في جنازة أمي_رحمها الله_لا أسير في هذه الطريق مع الأحياء، ولكن مع الموتى، فاتبعديقا ليس رجلا ولا امرأة لأنه من غير هذه الدنيا، وامشي في ساعة ليست ستين دقيقة لإنها خرجت من الزمن، ولا أرى الطريق من طرق الحياة لأنني فيحبة ميت؛ وتصبح للأرض في رأيي جغرافية أخرى عمى الناس عنها لشدة وضوحها، كالألوهية

خفيت من شدة ما ظهرت.

يقولون: أن الحياة هي. . . هي ماذا، ويحكم أيها المغرورون؛ أفلا ترون هذه الصلة الدائمة بين بطن الأم وبطن الأرض؟

لعمري كيف تجعل هذه الحياة للناس قلوبا مع قلوبهم، فيحس المرء بقلب، ويعمل بقلب آخر؛ يعتقد ضرر الكذب ويكذب، ويعرف معرة الإثم ويأثم، ويوقن بعاقبة الخيانة ثم يخون؛ ويمضي في العمر منتهيا إلى ربه_ما في ذلك شك_ولكنه في الطريق لا يعمل إلا عمل من قد فر من ربه. . .

هبت الريح في السحر على روضة غناء فطابت لها فعقدت
عقدتها أن تتخذ بها بيتا في ذلك المكان الطيب لتقيم فيه. . .
يالها من حكمة من التدبير! تزعم الريح الإقامة على حين كل
وجودها هو لحظة مرورها، وتحلم بالقرار في البيت وهي لا
تملك بطبيعتها أن تقف.

يالها حكمة سامية! لا يسكنها من المعنى إلا اسخف ما في الحمق!

همد الحي وانطفأت عيناه، ولكنه تحرك في تاريخه مما ضيق على نفسه أو وسع، واصبح ينظر بعين من عمله أما مبصرة أو كالعمياء؛ فلو تكلم يصف الحياة الدنيا لقال: أن هذه النجوم على الأرض مصابيح مأتم أقيم بليل. وما اعجب أن يجلس أهل المأتم في المأتم ليضحكوا ويلعبوا!

ولو نطق الموتى لقالوا: أيها الأحياء، أن هذا الحاضر الذي يمر فيكون ماضيكم في الدنيا هو بعينه الذي يكون مستقبلكم في الآخرة، لا تزيدون فيه ولا تنقصون. وان الدنيا تبدأ عندكم من الأعلى إلى الأدنى، من العظماء إلى الفقراء؛ ولكنها تنقلب في الآخرة فتبدأ من الفقراء إلى العظماء؛ وانتم ترسمونها بخطوط المطامع والحظوظ، ويرسمها الله بخطوط الحرمان والمجاهدة. أن التام على الأرض من تم بمتاعها ولذاتها، ولكن التام في السماء من تم بنفسه وحدها.

يا أسفا! لن يعول الميت للحي شيئا، ومن يدرن؟ لعلنا ونحن نلحد للموتى وننزلهم في قبورهم يرون بأرواحهم الخالدة إننا نحن موتاهم المساكين، وإننا مدفونون في القبر الذي يسمونه (الكرة الأرضية)! وهل الكرة الأرضية من اللإنهاية إلا حفرة برجل نملة لتدفن فيها نملة. . .

الحياة. أتريد أن تعرفها على حقيقتها؟ هي المبهمات الكثيرة التي ليس لها في الآخر إلا تفسير واحد: حلال أو حرام.
ورجعنا مع الصديق إلى بيته، وله خمسة أطفالغار لو أنهم هم الذين انتزعوا من أمهم لترك كل واحد على قلبها مثل المكواة المحمى عليها في النار إلى أن تحمر. ولكن أمهم هي التي انتزعت منهم، فكان بقاؤهم في الحياة تخفيفاً لسكرة الموت عليها.
وغشيتها الغشية فماتت وهي تضحك، إذ تراهم نائمين تحت جناح الرحمة الإلهية الممدود، وقالت: إنها تسمع أحلامهم، وكانوا هم عقلها في ساعة الموت!
تبارك الذي جعل في قلب الأم دنيا من خلقه هو، ودنيا من خلق أولادها! تبارك الذي أثاب الأم ثواب ما تعاني، فجعل فرحهاورة كبيرة من فرحغارها!
وجاء أكبر الأطفال الخمسة وكأنه ثمانية أرطال من الحناة، لا ثمانية عوام من العمر؛ جاء إلينا كما يجيء الفزع لقلوب مطمئنة، ' ذ كان في عينيه الباكيتين معنى فقدم الأم! وطغت عليه الدموع فتناول منديله ومسحها يبدو الصغيرة، ولكن روحه اليتيمة تأبى إلا أن ترسم بهذه الدموع على وجهه معاني يتمها!
وظهر الانكسار في وجهه يعبر ببلاغة انه قد أحس حقيقة ضعفه وطفولته بازاء المصيبة التي نزلت به؛ وجلس مستسلماً تترجم بيئته معاني هذه الكلمة (رفقا بي!)
ثم تطير من عينه نظرات في الهواء كأنما يحس أن أمه حوله في الجو ولكنه لا يراها.
ولا يصدق إنها ماتت؛ فانوتها حي في أذنيه لا يزال يسمعه من أمس.
ثم يعود إلى وجهه الانكسار والاستسلام، ويتململ في مجلسه فينطق جسمه كله بهذه الكلمة (يا أمي!)
أحس_ولا ريب_أنه بمضيعة حدودها الحياة، لان الوجود كان أمه.
ولمس خشونة الدنيا منذ الساعة، بعد أن فقد الصدر الذي فيه وحده لين الحياة، لان فيه قلب
أمه وروحها.
وشعر بالذل ينساب إلى قلبه الصغير لان تلك التي كان يملك فيها حق الرحمة فد أخذت منه وتركته بلا حق في أحد، وليس لأحد أمان.
ولبسته المسكنة لان له شيئا عزيزا أصبح وراء الزمان فلن يصل إليه.
ولبسته المسكنة لأنهار وحده في المكان، كما هو وحده في الزمان.
وارتسم على وجهه التعجب بأنه يسأل نفسه: (إذا لم تكن ـمي هنا، فلماذا أنا هنا؟!)
ثم تغرغرت عيناه فيخرج منديله ويمسح دمعه بيده الصغيرة، ولكن روحه اليتيمة تأبى إلا أن ترسم بهذه الدموع على وجهه معاني يتمها!
ونهض الصغير ولم ينطق بذات شفة. نهض يحمل رجولته التي بدأت منذ الساعة.
انتهت - أيها الطفل المسكين - أيامك من الأم؛ هذه الأيام السعيدة التي كنت تعرف الغد فيها قبل أن يأتي معرفتك أمس الذى مضى، اذ يأتي الغد ومعك أمك.
وبدأت - أيها الطفل المسكين - أيامك من الزمن، وسيأتي كل غد محجباً مرهوباً؛ إذ يأتي لك وحدك، ويأتي وأنت وحدك!
الأم؟ يا إلهي، أيغير على الأرض يجد كفايته من الروح إلا في الأم؟!

مصطفىادق الرافعي

في تاريخ القضاء في مصر الإسلامية

صور من استقلال القضاء وصور من خضوعه

للأستاذ محمد عبد الله عنان

لم تعرف نظرية فصل السلطات الحديثة كثيراً في العصور الوسطى، ولم تطبق بالأخص في ظل الأنظمة المطلقة التي سادت في تلك العصور، فالسلطات الثلاث، التشريعية والقضائية والتنفيذية التي تقوم الدولة الحديثة على مبدأ الفصل بينها، كانت تجتمع في ظل الأنظمة المطلقة في نفس اليد العليا التي تصرف في سائر الشئون العامة. ولم تشذ الدول الإسلامية عن هذه القاعدة، فقد كان الخليفة أو السلطان أو الأمير نجمع في شخصه كل السلطات ويزاولها مجتمعة أو منفردة على يد عماله. نعم كان هناك توزيع للسلطات، ولكن نظري محض، فقد كانت أصول التشريع قائمة تعدل وتفسر في ظل الدول المختلفة طبقاً لمختلف النزعات المذهبية والسياسية، وكان للقضاء جهة خاصة يعمل في دائرتها، وكان الوزراء ومن إليهم من الكتاب والعمال

يمثلون الناحية التنفيذية: ولكن هذه الجهات الثلاث التي تقابل السلطات الثلاث في الدولة الحديثة كانت تمتزج دائماً من الوجهة العملية، وتخضع دائماً سواء منفردة أو مجتمعة لرأي الخليفة أو السلطان أو الأمير؛ وكان هذا الرأي دائما فوق كل قانون وقضاء ونظام، وان كان في معظم الأحيان يلتمس له ظاهر من القانون أو النظام.
وكان القضاء كالسلطة التنفيذية دائماً عرضة للتأثير والتدخل ولكن السلطة العليا كانت تؤثر، في معظم الأحيان، أن تبدو في الظاهر محترمة لرأي القضاء بعيدة عن التأثير في سير العدالة. ذلك أن القضاء كان يتشح دائما بثوب الدين، ويستمد سلطانه من كتاب الله وسنة رسوله، فكان التدخل المرغوب كثيرا ما يحمل طابع التفسير لنص من النصوص. وكان القضاة أعوان السلطان قبل أن يكونوا أعوانا للعدالة، وتقدير استقلال القضاء وحريته يرجع قبل كل شيء إلى السلطان: وقد كان ثمة خلفاء وسلاطين يقدرون استقلال القضاء، وينحنون أمام كلمته؛ وكان ثمة قضاة أقوياء النفس والجنان يتمسكون برأيهم وسلطتهم في الحكم، ويأنفون من التدخل والتأثير. وهناك أمثلة كثيرة في التاريخ الإسلامي تؤيد هذه الحقيقة نورد بعضها في هذا الفصل، وهي مما يتعلق بتاريخ القضاء في مصر الإسلامية.
كان من قضاة مصر في أوائل القرن الثالث الهجري، الحارث بن مسكين، ولي قضاء مصر الأعلى من قبل الخليفة المتوكل سنة 237هـ. ويصف لنا الكندي مؤرخ قضاة مصر حتى منتصف القرن الرابع، شخصية الحارث بن مسكين وطريقته في الحكم، نقلا عن ابن قديد، وهو فقيه ومحدث مصري عاصر الحارث وعرفه. كان الحارث شخصية غريبة قوية، وكان شديد الحرص على حريته واستقلاله، وكان مقعداً، يركب حمارا مبرقعا، ويحمل في محفة إلى مجلس الحكم بالمسجد الجامع (جامع عمرو)، وكانارما شديد الوطأة جريئا في أحكامه يأبى تلقى الولاة والسلام عليهم. وطلب إليه أن يلبس السواد، وهن شعار بني العباس فأبى حتى انتهى بعض أصحابه بإقناعه بأنه إذا لم يرتد السواد اتهم بالانحراف عن بني العباس والميل إلى بني أمية، فارتدى عندئذ كساء اسود من الصوف. وكان كثير الاجتهاد والابتكار في إجراءاته وأحكامه. ويورد لنا الكندي طرفا من هذه الإجراءات والأحكام، ويذكر لنا كيف أن الحارث بن مسكين آثر الاستقالة على قبول التدخل في أحكامه. وذلك أنه رفع إليه نزاع على ملكية دار الفيل، وهي إحدى دور الفسطاط الشهيرة، وكانت لأبي عثمان مولى الصحابي مسلمة بني مخلد الأنصاري؛ وكان قد قضى في شإنها قبل الحارث عدة من قضاة مصر، فقضى فيها أولا هرون بن عبد الله بإخراج بني البنات من العقب باعتبار أن لا حق لهم في الميراث؛ ولكن خلفه محمد بن أبى الليث قضى بإلغاء هذا الحكم، وحكم لبني السائح المدقين بنصيبهم في الدار؛ فلما رفع النزاع مرة أخرى إلى الحارث بن مسكين، فسخ حكم بن أبى الليث، وقضى بإخراج بني السائح من الميراث، فسافر ابن السائح إلى بغداد، ورفع إلى الخليفة المتوكل تظلما من حكم الحارث والتماسا بإعادة النظر في قضيته، فأحال المتوكل القضية إلى الفقهاء، فحكموا فيها على مذهب الكوفيين، وقضوا بإلغاء الحكم، وكان حكم الحارث على مذهب المدنيين. فلما بلغ الحارث ما وقع، كتب في الحال إلى المتوكل يرفع إليه استقالته من منصبه؛ وقدر المتوكل دقة الموقف فقبل الاستقالة، وكتب وزيره إلى الحارث بقبولها فيما يأتي (إن كتابك وصل باستعفائك فيما تقلدت بأمر القضاء بمصر، وأمر (أمير المؤمنين) أيده الله بإجابتك إلى ذلك. . استعافا لك مما سالت، وتفضل لما أدى إلى موافقتك فيه، فرأيك أبقاك الله في معرفة ذلك والعمل بحسبه) وغادر الحارث بن مسكين منصبه سنة 245هـ، وضرب باستقالته مثلا قويا في الكرامة والاستقلال بالرأي والحرص على حرمة القضاء وقدسه.
ولما تولى المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون قضاء المالكية بمصر سنة 786هـ، في عهد الظاهر برقوق، أبدى في تصرفاته وأحكامه تمسكا شديدا بالرأي، وإعراضا قويا عن كل مؤثر وشفاعة، خلافا لما كانت عليه أحوال القضاء يومئذ، وكان المؤرخ الفيلسوف يسبق عصره بمراحل في فهم استقلال القضاء ووجوبونه عن كل مؤثر؛ ولكنرامته في تطبيق هذا المبدأ أثارت عليه عاصفة من الحقد والسعاية؛ ويقول لنا ابن خلدون في هذا الموطن في (تعريفه) كلاما طويلا عما كان يسود القضاء المصري يومئذ من فساد واضطراب، وما يطبع الأحكام من غرض وهوى، وعما كان عليه معظم القضاة والكتاب

والشهود من جهل وفساد في الذمة، وانه حاول إقامة العدل الصارم المنزه عن كل شائبة، وقمع الفساد بحزم وشدة، وسحق كل سعاية وغرض يقول (فقمت بما دفع إلى من ذلك المقام المحمود، ووفيت جهدي بما أمنني عليه من أحكام الله، لا تأخذني في الله لومة، ولا يرغبني عنه جاه ولا سطوة، مسويا بين الخصمين اخذ الحق الضعيف من الحكمين، معرضا عن الشفاعات والوسائل من الجانبين)

وهذا تصوير قوي لاستقلال القضاء لا يتفق كثيرا مع روحالعصر، ولكن يتفق مع شخصية الفيلسوف القوية، ومع ثقته بنفسه، وسموه برأيه. وفد انتهت العاصفة التي آثارها عليه خصومه باستقالته أو إقالته من منصب القضاء لعام فقط من توليته، وينسب خصوم الفيلسوف تخليه عن منصب القضاء، لأسباب غير استقلاله برأيه ونزاهته في أحكامه، ولكن مؤرخا مصريا كبيرا قريبا من عصره هو أبو المحاسن بن تغري بردي يفر الفيلسوف على عليله، ويقول لنا مشيرا إلى ولايته للقضاء (فباشره بحرمة وافية وعظمة زايدة، وحمدت سيرته، ودفع رسائل أكابر الدولة، وشفا عات الأعيان. . .)

على أن فهم استقلال القضاء على هذا النحو كان من الأمور النادرة في تلك العصور وكان مرجعه شخصية القضاة أنفسهم، وليس روح العصر أو نظمه. وفد كانت القاعدة العامة كما قدمنا انه لا استقلال للقضاء إلا في حدود رأي السلطة العليا وهواها؛ وكان خضوع القضاء لرأي هذه السلطة ووحيها يبدو بنوع خاص في بعض القضايا الجنائية الهامة التي تريد السلطة العليا أن تسبغ فيها لون القانون والعدالة على قصاص أو انتقام ترى إجراءه، أو

القضايا المدنية الهامة التي يراد فيها اغتيال مال وثروات يطمع فيها باسم الشريعة وقضائها. وكثيرا ما كانت السلطة العليا تغفل في إجراءاتها وأعمالها هذه الصبغة الشرعية، ولكنها كانت في أحيان كثيرة ترى من حسن السياسة إلا تحمل مسئولية القصاص أو الانتقام أو مصادرة الأموال، وان ترد هذه المسئولية إلى القضاء، وهو في نظرها ورأيها أداة من أدوات التنفيذ التي تسيطر عليها وتسيرها طبقا لمصالحها وأهوائها.

وإذا كنا لا نستطيع أن نظفر في تاريخ القضاء في تلك العصور بأمثلة كثيرة لتطبيق مبدأ استقلال القضاء، فأنا نستطيع أن نظفر بالعكس بكثير من الأدلة والوقائع على خضوع القضاء للسلطة العليا ايا كانت وتبعيته لها وتوقفه على إرادتها وهواها. ونكتفي بان نورد لتأييد هذه بالحقيقة مثلا واحدا من تاريخ القضاء في أوائل الفرن التاسع الهجري، نقله إلينا المقريزي وهو من معاصريه وشهوده. وخلاصته انه في عهد الناصر فرج سلطان مصر، أنشأ الأمير جمال الدين الاستادار مدرسة عظيمة بالقاهرة، أوقف عليها أوقافا جليلة، وكان إنشاؤها على ارض عليها أبنية موقوفة على بعض الترب، فاستبدل بها الأمير أرضا من جملة الأراضي الخراجية بالجيزة، وحكم له قاضي القضاة كمال الدين عمر بن العديم بصحة الاستبدال وهدم البناء أقام مكانه المدرسة. ثم نكب الأمير جمال الدين وقتله السلطان، وحسن له بعض وزرائه أن يستولي على المدرسة وان يضع اسمه عليها، فادعى السلطان عندئذ أن الأرض الخراجية المستبدل بها كانت ملكه واغتصبها الأمير جمال الدين دون إذنه، وحكم له قاضي قضاة المالكنة، بان بناء المدرسة الذي أقيم على ارض لم يملكها الواقف، لا يصح وقفه، وانه باق على ملكية بانيه إلى حين موته، وعندئذ انتدب الشهود لتقدير قيمة البناء، فقدر باثني عشر ألف دينار ودفع المبلغ إلى أولاد جمال الدين وباعوا المدرسة للسلطان، فصارت ملكه، ثم أوقف السلطان أرض المدرسة وبنائها بعد أن قضى له قاضي الحنفية بصحة الاستبدال، وحكم له القضاة الأربعة بصحة هذا الوقف؛ بعد أن قضوا من قبل بصحة وقف الأمير جمال الدين. فلما قتل الملك الناصر، وتولى مكانه الملك المؤيد، تولى الوزارة بعض أصدقاء جمال الدين، وسعوا لدى السلطان ليرد أملاك جمال الدين المغتصبة إلى أخيه وأولاده، فأجاب السلطان ملتمسهم، وأحيلت القضية مرة أخرى على القضاة الأربعة، وعقدت لذلك جلسة مشهودة (815هـ)، وقضى برد المدرسة وأوقافا

إلى جمال الدين وما نص عليه في وقفيته؛ ورد النظر فيها لأخيه؛ ثم نزع منه النظر بحكم جديد وأعطى لكاتب السر، وهكذا يقول المقريزي (فكانت قصة هذه المدرسة

من أعجب ما سمع به في تناقض القضاة وحكمهم بإبطال ماححوهم حكمهم بتصحيح ما أبطلوه، كل ذلك ميلا مع الجاه، وحرصا على بقاء رياستهم، ستكتب شهادتهم ويسألون)

وهذا مثل بارز يصور لنا مبلغ خضوع القضاء للسلطة التنفيذية وتأثره بأهوائنا في بلك العصور، فلم يكن القضاء يومئذ هو ذلك الملاذ النهائي للحق والحرية، ولم يك ثمة احترام لما نسميه اليوم بقوة الأحكام النهائية؛ فما يفتى به اليوم تحقيقا لرغبة سلطان أو أمير أو وزير، يفتي غدا بعكسه تحقيقا لرغبة السلطان الجديد أو وزيره، ويقضي بهذه الأحكام المتناقضة نفس القضاة في كل مرة. وما يقوله لنا المقريزي من أن بواعث هذه الحالة كلها ترجع إلى ميل القضاة مع الجاه وحرصهم على بقاء رياستهم، هو أصدق تعليل لهذا الصدع الخطير في بناء الدولة ونظمها. ونستطيع أن نضيف إلى قول المقريزي، أن هنالك عاملا آخر له قيمته في خضوع القضاء للسلطة التنفيذية على هذا النحو، هو أن القضاء الأعلى لم يكن يتمتع في بلك العصور بما أسبغ عليه في العصر الحديث من الضمانات الكفيلة باستقلاله وحمايته من تدخل السلطة التنفيذية وانتقامها، وأهم هذه الضمانات كما هو معروف هو عدم قابلية القضاة الأكابر للعزل أو النقل، وعدم مسئوليتهم أمام أية سلطة أخرى؛ ولكن القضاء في العصور الوسطى لم يكن يعرف مثل هذه الطمأنينة سواء في الشرق أوفي الغرب، وكان القاضي يخاطر دائما بمركزه وجاهه ورزقه وأحيانا بحياته إذا لم يذعن لرأي السلطة التنفيذية وهواها؛ ولم يكن يستطيع مغالبة هذا التيار الخطر أو تحديه سوى شخصيات قوية جريئة تستهين في سبيل كرامتها في تلك العصور منها سوى القليل.

محمد عبد الله عنان المحامي

. . .بردى

والتاريخ العربي

للأستاذ علي الطنطاوي

سطر من الحكمة الإلهية، خطته يد الله علىفحة هذا الكون، ليقرأ فيه الناس (بردى) ببصائرهم لا بأبصارهم فلسفة الحياة والموت، وروعة الماضي والمستقبل - وخصَّته للأمة العربية، فجمعت فيه تاريخها الجليل ببلاغة علوية معجزة.

والقرآن الذي جعل الآية المعجزة في القرآن - هو الله الذي جعلها في الأكوان.

والله الذي أعجز ملوك القول، وأمراء البلاغة، بسور من آيات وكلمات وحروف، هو الله الذي أعجز قادة العقل، وأئمة الفلسفة. بسور من بحار وإنهار وكهوف.

وما (بردى) إلا سورة من قرآن الكون المعجز البليغ - وليس إعجازه في أنه يجري؛ ولكن إعجازه في أنه ينطق. وبأن في كل شبر منه تاريخ حقبة من العصور. وتحت كل شبر أنقاض أمة من الأمم: أمة ولدت في حجره، ورضعت من لبانه، وحبت بين يديه، ثم قويت واشتدت، وبنت فأعلت، وفتحت فأوغلت، ثم داخلها الغرور، وحسبت إنها شاركت الله في ملكه، فظلمت وعتت واستكبرت، فبعث الله عليها نسمة واحدة من وادي العدم، فإذا هذه العظمة وهذا الجبروت ذكرى ضئيلة في نفس بردى، وأنقاض هينة في أعماقه، وصفحة أوفحتان في كتاب التاريخ. وإذا بأمة أخرى تخلفها في أرضها، وترثها مالها، ثم يكون سبيلُها سبيلَها: فقام الفينيقيون على أنقاض الحيثيين، والكنعانيوتنن بعد الفينيقيين، والفرس بعد الكنعانيين، واليونان بعد الفارسيين، والروم بعد اليونانيين، والغساسنة بعد الرومانيين، والمسلمون بعد الغسانيين - ثم قام العباسيون بعد الأمويين، ثم قاملاح الدين، ثم جاء الترك بعد السلجوقيين - ثم جاء فيصل بن الحسين، ثم جاءت جيوش الفرنسيين.

هكذا يدور الفلك في السماء، ويدور السلطان في الأرض، فتنشأ من القبر الحياة، ويغطى على الحياة قبر، والسلسلة لا تنتهي، والناس لا يعتبرون. . . و (بردى) يبتسم ساخراً من غرور الإنسان، ضاحكاً من جهالته. يحسب نفسه شيئاً، فيضارع الكون، ويتطاول بعقله إلى الله؛ وما هو من الكون إلا ذرة من الرمل ضائعة في الصحراء، وما عمره إلا ثانية واحدة من عمر (برد ى).

وهو يجرى على الأرض، رمز لتاريخ الأمة العربية وهو يجري في الزمان. ففي (بردى) كل قسم من بردى، فصل من التاريخ:

يخرج (بردى) من بقعة في (الزبداني) منعزلةعبة، لا يبلغها إلا من كان من أبنائها عارفا

بمداخلها ومخارجها - كما خرج العرب من هذه (الجزيرة) الصعبة المنعزلة، التي لم تلن إلا لأبنائها، والتي ردت عنها الفاتحين كافة، وجعلت رمالها قبرا لكل من يجرؤ منهم على وطئها، على أنه لم يتجرأ عليها إلا كسرى، فبلغ جيشه (ذي قار)، ولكن الجزيرة قد ابتلعت هذا الجيش وهي تهتف لمحمد، ثم لم يقنعها هذا الثأر، فابتلعت دولته كلها في (القادسية) تحت راية محمد،ـ . وقالت لعالم: هذا جزاء من يطأ الجزيرة!

ويسير (بردى) في غور عميق لا يخرج الى هذه الجنان الجميلة الفتانة التي قامت على مقربة منه، يسلك قراره الوادي، تلتطم أمواهه وتصطدم: كما كان العرب في جاهليتهم يصطدمون ويقتتلون ويشتغلون بأنفسهم عن العالم، فلم يخرجوا إلى الدنيا، ولم تخضع لجزيرتهم جنات أالشام، ولا سهول مصر، ولا سواد العراق.

ثم يبلغ (بردى) (الفيجة) وهناك تصب فيه أمواهها العذبة الصافية الزاخرة، فلا تخالطه ولا يخالطها، ويسير النهر خمسين متراً، ومن إحدى جهتيه (بردى) القليل العكر، ومن الأخرى (الفيجة) الكثيرة العذبة، ثم يختلطان، فتضيع قلته وكدورته، في كثرتها وصفائها، ويعدو (بردى) قوياً عذباً زاخراً، نحو أرض الورود والثمار.

كمابت على الديانة الجاهلية، مبادئ الإسلام السامية، فتجافى العرب عنها، وأبوا أن يتبعوها، وكادوا لأصحابها، حتى غدت الجزيرة كبردى، فيها المسلمون الموحدون المتحدون، والجاهلون المشركون المختلفون، ثم مكَّن الله لمحمد، فخضعت له الجزيرة لم تخضع قبله لمخلوق، واجتمعت كلها تحت رايته، ولم تجتمع قبل تحت راية واحدة، فقادها إلى الشام والعراق، إلى أرض النخيل والأعناب.

ويبلغ (بردى) (بسيمة) ويبلغ (الجديدة) فيسير بين بسيمة والجديدة، في أجمل البقاع على وجه الأرض، ويسقي هذه الخمائل فيكون شكرها إياه، أفنان الورود، وأغصان الأشجار التي تتدلى فوقه، وتلمس خده لمساً رقيقاً، وتقبل جبينه قبلة طاهرة، وهو يلين تارة فترى حصباءه منفائه، ويشتد أخرى فيرغي ويزبد، ويكون له منظر مرعب ولكنه جميل!

مرهوب ولكنه محبوب!

كما كانت الأمة العربية بعد أن بسطت سلطإنها على العالم القديم كله محبوبة مرهوبة في آن، يفزع أعداؤها من هيبتها، ولكنهم يحبون عدلها، وينتفعون بحضارتها. أغاثت بالعدل بقاع الأرض فكان شكرإنها إياها، هذه الأموال التي فاضت بها خزائنها، وهذا النعيم الذي تفيأ ظلاله أبناؤها، وكانت تستقيم لها الأمور فتلين وتدع هذه الرقعة البسيطة من الأرض جنة يسعد بها أهلها، ويسعد بأهلها أهل الأرض جميعاً، وكانت تستغضب، فإذا غضبت غضب لها الدهر، وإذا سارت إلى عدوها سار في ركابها الموت والدمار أنى سارت: كانت نحمل في يمينها السلام والسعادة، وفي يسراها الموت والشقاء، كما يحمل بردى بين (بسيمة والجديدة) الغيث والثمرات، والطوفان والغرق.

ويبلغ بردى (الربوة) ويمشي حيال اليزبين، ذلك المعنى الذي بني من الشعر، وولد فيه الشعر، استحال إلى مقاه من عيدان تقوم على الخمر والقمر والعهر. . . وينقسم بردى إلى أقسام سبعة انتثرت نثراً بين عدوتي الوادي: يزيد، وتورا، وبردى، وبايناس، وقنوات، والديراني، وعقربا - منها القوى الممتلئ، ومنها الضعيف القليل - كما انقسمت الأمة العربية إلى طوائف وحكومات، منها القوي المتين، كحكومةلاح الدين التي ردت - علىغرها - أوربة كلها يسوقها الجهل والتعصب، وانتزعت في (حطين) الفريسة من (قلب الأسد)، وحكومة سيف الله التي هدت في (الحدث) حكومة الرومان هداً، ومنها الضعيف المستكين وقد ازدهرت الحضارة في هذا العهد وأثمرت، كما ازدهرت الأشجار في (الربوة) وأثمرت.

ثم يدخل بردى (دمشق)، فلا يصفق بالرحيق السلسل، ولا يتمايل على الورود والرياحين، بل يصفق بالأوحال والحشائش، ويميل على الأقذار والأوساخ، ويشح ماؤه وينضب ثم يضيع ويضمحل، كما ضاعت عزة العرب واضمحلت. . .

ثم يخرج إلى (الغوطة) فإذا نشق نسيمها عاودته الحياة، ونشأت في مجراه الجاف الصلب، عيون وينابيع، فإذا بلغ (جسر الغيضة) عاد قوياً زاخراً عذباً - كما عادت الأمة العربية اليوم إلى الحياة، ورفعت في الشام ومصر والعراقروحاً جديدة، لن تلبث إلا قليلاً حتى تكون خالصه لأصحابها، من دون الناس أجمعين!

وبعد، فهل أحزنك يا بردى أنك اليوم ضائع في اهلك، لا ترى حولك عزة العروبة ولا جلال الإسلام؟ كلا، لا تحزن يا بردى فما أنت وحدك المضاع، إن هناك أمة بقضها وقضيضها، هي مثلك مضاعة، وهي مثلك بنت المجد والشؤدد.

لا تحزن يا بردى! بل اصبر حتى إذا أعجزك الصبر فثر بأمواهك، وليضطرم موجك حتى تغسل عن قومك عار الذلة والخنوع، أنه لا يغسله إلا ثورتك، هذه سنة الحياة يا بردى: لا بالحق ولكن بالقوة.

وإذا غرهم منك لينك، فأرهم شدتك، إن الماء لينه يجرف جبلاً على جبروته وكبريائه، ولقد ثرت مرة، فبلغ رشاشك بواتيه من هنا، وحيدر آباد من هناك! فهل استنفدت تلك المرة قوتك كلها؟ أما فيك بقية من الشباب؟ تعبت إذ تجري هذه الملايين من السنين؟ إنها فترةغيرة من عمرك، فعلام الونى؟ انك لا تزال شاباً، ولم تنس بعد جيش خالد ولا موكب الوليد، لقد كان ذلك أمس، وسيكون مثله في غدٍ.

فاصبر ولنصبر يا بردى! إن الصبر مفتاح الفرج يا بردى. . .

دمشقعلي الطنطاوي

آراء حرة

القصة في الأدب العربي

للأستاذ فخري أبو السعود

حب تتبع الحوادث وحكايتها مركب في الطبع الإنساني، ولكن القصة كانت آخرور الأدب ظهورا، فلم تعرفها الآداب القديمة ولم تظهر في الآداب الأوربية الحديثة إلا أخيرا، ولذلك أسباب منها الوهم الذي وقر في نفوس الأدباء المتقدمين وإن يكن يبدو لنا اليوم غلطه واضحاً: أعني توهم أن القصة إن هي إلا أحبولة أكاذيب لا يليق بالأديب الراقي أن يلهو بحوكها، وأن القصص مرتبة من التأليف سهلة يستطيعها كل من رامها فلا يجمل بالأديب القدير أن يتدلى إليها.

ومن ثم كان العرب يؤثرون الأخبار التاريخية والأدبية ويخصونها بالحفظ والرواية مهما خالطها التحريف، لاعتبار إنها حقيقة لا اختلاق، وكثرت بينهم كتب التواريخ والسير دون كتب القصص، ومن ثم أيضا لم يسلك سبيل القصص من الأدباء المجيدين إلا من كان له غرض آخر دون القصص يوهم قراءه أو يوهم نفسه أنه الغاية التي إليها يقصد: إما بإعطاء القصص مغزى وعضياً كما في كتاب كليلة ودمنة، أو بإلباسه ثوباً قشيباً من الصناعة البلاغية كما في مقامات الهمذاني والحريري، بينما تركت الأقاصيص المجردة للعامة الذين يفشو بينهم القصص في كل العصور نتيجة لذلك الميل الطبعي في الإنسان، وتتداول بينهم أساطير المردة والسحرة ووقائع الأبطال الغازين ومخاطرات التجار والملاحين ونوادر الظرفاء والمعتوهين.

بيد أن القصة إن انعدمت من الآداب اليونانية والرومانية القديمة ومن الآداب الأوربية الحديثة إلى عهد قريب، فقد قامت مقامها عند تلك الأمم الرواية التمثيلية التي تؤثر في النفوس لا من طريق الميل الطبعي إلى القصص وحده، بل من طريق أخرى هي الميل إلى محاكاة الأشخاص وتقليد الحركات، ومن طريق ثالثة هي الثوب الخيالي الشعري الذي اسبغ على تلك الروايات التمثيلية.

ثم التفتت رويداً رويدا إلى أحوال المجتمع فتناولت وصف شؤونه وتصوير أخلاق أفراده، أما العرب فلم تقم لديهم لا القصة المقروءة ولا الرواية التمثيلية، فإلام يعزى ذلك؟ يعزى إلى أمرين: أولهما إيجابي هو موقف أدباء العربية من مجتمعهم، وثانيهما سلبي هو مكانة الشعر لدى العرب.

فكتاب العربية وشعراؤها عاشوا دائما بنجوة عن مجتمعهم لا يشتركون في تقلباته السياسية والاجتماعية، ولا يعبرون عن شعوره وحاجاته، ومن ثم ندر الأدب الوطني في العربية وإن كثر الأدب العصبي، وندر الشعر الاجتماعي، وكان جل شعر الشعراء فرديا يعبر عواطفهم وحاجاتهم الشخصية ويفيض بذم منافسيهم وأعدائهم الشخصيين ومدح أولياء نعمتهم من الكبراء والأمراء الذين يعتمدون عليهم دون الشعب ويبتغون رضاهم قبل رضا الشعب، فلم يكن هناك تواصل وتجاوب بين الأدباء ومجتمعهم ولا رغبة لدى الأدباء في معالجة شؤون المجتمع وتحليلها ومحاولة إصلاح فاسدها عن طريق أدبهم، فلم يقم في العربية أمثال أديسون وستيل ودكنز وجالزورذي من الأدباء الإنجليز الذين

جعلوا إصلاح الأخلاق أو ترقية المرأة أو إنهاض العامل نصب أعينهم، ولا ريب أن هذا التواصل والتجاوب بين الأدباء والمجتمع واعتماد الأدباء على جمهور القراء دون هبات النبلاء أساس نمو القصة التي تصف المجتمع وتحلل الأخلاق، ولم تنشأ القصة الحديثة في أوربا في القرن الثامن عشر إلا بقيام ذلك التواصل والتجاوب بين الأدب والمجتمع، وكانت الطباعة التي سهلت انتشار الكتابات مساعدة لذلك ولا ريب.

وأما مكانة الشعر الممتازة لدى العرب - والتي لعله لم ينلها لدى أمة أخرى - فإنها ثبطت ماعدا الشعر منور الأدب، فقد كان الشعر لدى العرب هو الوسيلة للتعبير عن العواطف قبل كل وسيلة، فصرفهم شديد اعتدادهم به وتوفرهم عليه عما عداه، وأودعوه عواطفهم وأخبارهم وقصصهم، فلو أن الشعر ترك مجالا لغيره لاحتمل أن يلجأ أديب كأبي نواس إلى القصص يودعه أنباء لهوه ووقائع غرامه ويشرح فيه ما سبر من غور العواطف وبلا من سريرة المرأة سادلاً على شخصيته ستاراً رقّ أو كثف، ولربما كان منه في العربية نظير لموباسان في الفرنسية، ولكن الشعر كان كما تقدم هو الوسيلة للتعبير عن العواطف قبل كل وسيلة، فلميتردد أبو نواس في سلوك السبيل التي سلكها ابن أبى ربيعة من قبل، سبيل الشعر القصصي أو القصص المنظوم شعراً.

إن الناظر في أدب العرب وتاريخهم لا يسعه إلا أن يرى هذه الحقيقة بارزة: حقيقة أن الشعر نال من المنزلة عندهم ما لم يبلغ عند سواهم حتى طغى على ما دونه من ضروب

الأدب، وأن الأدب على إطلاقه بلغ لديهم مكانة طغى بها على ما عداه من الفنون وصبغ ثقافتهم بصبغته - برغم بعده عن معالجة الحالة السياسية والاجتماعية فكان كاتبهم في التاريخ وتقويم البلدان وغيرهما من العلوم يتحدث عن الأدباء ويرجع إلى محفوظه من الأدب، وكم من أعلام للشعر العربي لو كان التصوير والنحت رائجين لدى العرب رواج الأدب والشعر لانصرفوا إليهما دونه أو لمارسوهما معه.

ولقد كتب الأستاذ الفاضل محمود خيرت في الرسالة أخيراً يثبت وجود التصوير لدى العرب فلم يعد أن أثبت أنه كان في حالة أولية لا يفتخر بها ولا يغتبط: فإن الفن الذي لا ترى له باقية ولا يمكث له أثر في أدب اللغة وكتبها، ولا يتوصل إلى إثبات وجوده إلا بشذرة شاردة فيحيفة من كتاب، لا يكون فنا قد نال حظا من الرقي وخالط نفوس الأمة واستدعى اهتمام مثقفيها، والحكاية التي رواها الأستاذ عن المقريزي تشهد بذلك، حكاية المصورين اللذين رسماورتين إحداهما كأنها داخلة في الحائط والأخرى كأنها خارجة منه: فإن تفاخر الرجلين بهذا العمل الضئيل ودهش الوزير له وإسباغه عليهما المنن من أجله ووقع القصة من نفس المؤرخ حتى أثبتها في كتابه، كل ذلك لا يدل على ارتقاء الفن في ذلك العصر. بل يدل على كونه في حالة بدئية، وعلى ندرة المصورين المجيدين بل المتوسطي الحظ من الإجادة، وكلام المؤرخ كله يدل على أن التصوير الذي عرف لذلك العهد لم يتعد الصناعة ذات الغرض العملي التي يزاولها الصناع كما يزاولون النقش والطلاء، ولم يرق إلى مرتبة الفن الخالص المنزه عن الأغراض العملية.

إنور المدارس الإيطالية والهولندية وغيرها منتشرة في الأقطار تملأ المتاحف وتتحدث عن نفسها وعن رقى الفن عند أهلها قبل أن تحدثنا عن ذلك مئات الكتب التي الفت فيها، فأين آثار مصوري العرب التي تحدثنا عن مثل ذلك؟ بل أين الكتب المؤلفة فيها؟ بل أين الصور العربية التي كانت وحيا لشعراء العربية كما كانت الصور الأوربية وحياً لوردزورث وتنيسون وغيرهما، أو كما كانتور الأطلال الفارسية وحيا لسينية البحتري؟ لن لخفر بشيء من ذلك إذا طلبناه، ولن يسعنا إلا الإقرار بالحقيقة التي تطالع قارئ تاريخ العرب وأدبهم: وهي أن العرب كادوا أن يكونوا أمة ذات فن واحد هو الأدب وبخاصة الشعر الذي استوعب ملكات جل نوابغهم واحتوى دراسات جل مثقفيهم ذلك بأن العرب

كانوا منذ جاهليتهم أمة لسان وبيان.

فخري أبو السعود

خصومة

للأستاذ توفيق الحكيم

بعثت إليه أول النهار بالرسالة التي سماها (باقية على الدهر) ثم أويت آخر النهار إلى بيتي فوجدت اسطوانات (بيتهوفن) التي استعارها مني قد ردها إلي، فعك إنها القطيعة. فوقفت واجماً في مكاني وزالت آثار الغضب ولم يبق في نفسي إلا ألم عميق: لقد انتهى كل شئ بيني وبين الدكتور طه حسين. . ولم أستطع أن أقرأ شيئا في ليلتي، وما إن أقبل الصباح حتى أوفدت إلى الدكتور طه حسينديقين كريمين يحادثانه في أمر الرسالة، وإذا به قد دفعها إلى المطبعة، وإذا به يأبى إلا أن يعلن الخصومة إلى الناس. وحاول الصديقان عبثا أن يحولا بينه وبين هذا الإعلان. وحاولا عبثا أن يقنعاه بإبقاء الخصومة سراً بيننا حتى يعرض أمرها على الأستاذ الجليل لطفي السيد بك وكلانا ولده وهو أولى من جمع بين القلوب النافرة وكان إلى ذلك سبيل. لكن الدكتور طه أراد أن ينتقم فتناول القلم ووضع قصة روى فيها ما كان من أمري وأمره.

قرأت القصة فدهشت. أي روعة وأي إبداع! إنها في ذاتها أثر من آثار الفن الخالد، إني أشهد أنها عمل فني عظيم. فيها من سعة الخيال وروعة الأسلوب ما يضمن لها البقاء. إنها هي التي ستبقى على الدهر.

لقد أعجبت حقيقة بهذه القصة إعجاباً شديداً، وهي عندي من أقوى ما كتب الدكتور. ولقد أنساني إطارها الأدبي ما احتوته من اتهامات قاسية، وماذا يهم؟ إن شخصي ليس يعنيني كثيراً، كما أنه ليس يعنيديقي الدكتور منذ اليوم. إنما الذي حفلت به حقيقة وأحفل به الآن، هو تلك القطعة التي تشيع الحرارة في جوانبها، ويمتلئ أسلوبها بمرارة مؤلمة. قطعة لا ينساها من يقرؤها. وأغلب ظني أن الدكتور قد أصر على نشرها لأنه يعلم أنه قد كتب شيئاً جميلاً: وأني الآن لأرضى أن يضحي شخصي الزائل في سبيل ظهور هذه القطعة الباقية. على أن القارئ وقد فرغ من القصة لابد يسأل نفسه: ما كل هذا الذي بين توفيق وبين الدكتور؟ وأني أمد القارئ بالجواب فأقول: لا شئ في رأيي غيرداقة لا يمكن أن تزول لأنهالة بين قلبين اجتمعا على حب الجمال الأعلى: جمال الفن والحقيقة، ولئن قامت خصومة بيننا اليوم أو الغد، فهي خصومة من اجل الرأي والتفكير، إن الشخصية الحرة هي كل ما يحتاج إليه الأديب الحقيقي. ومهما يكن من قيمة الصداقة الأدبية العظيمة لا ينبغي أن تقتات على هذه الحرية. إن الدكتور طه حسين العميد الرفيع المقام، والزعيم الجليل الشأن في أدبنا العربي الحديث يفهم هذا حق الفهم، وإنه ليعلم أني أقدره أحسن تقدير وأضعه من نفسي في أسمى مكان وأحفظ له على مر الزمن ما أسدى إلي من جميل، ولا أنسى أنه هو الذي ألقى الضوء على وجودي، غير أنه يخطئ إذا فهم أنداقتي له معناها التزام موافقته على كل رأي أدبي يبديه، والتسليم والتأمين على كل ما يخرج من قلمه أو من فيه. إن الحكم المطلق إذالح في دولة السياسة فهو لا يصلح في دولة الأدب. وأني لا أخالديقي الدكتور طه نفسه يرضى لي أو يرضى لفني وتفكيري هذه الحرية المقيدة. هذه هي كل الخصومة التي بينه وبيني. فهو قد استاء مني إذ عارضته في بعض آرائه في مقالات نشرت في (الرسالة) أو في (المصور) وفاته أني أجد لذة عقلية في معارضة منطقه السليم وآرائه المستقيمة دون أن أحفل بالنتائج. ولقد استاء كذلك مني يوم أخرجت الطبعة الثانية من (أهل الكهف) بغير مقدمته، وعقيدتي أنه على حق في هذا الاستياء لو أنه فهم من تصرفي أني قصدت خدش كبريائه، أو أني رأيت أحداً غيره أولى منه بهذا التقديم.

أما وقد فهم أني لم أقصد هذا ولا ذاك، وأن الحقيقة لا تعدو أني شخص بسيط لا أمقت شيئاً في الأدب مثل المقدمات، وأني روح حر يأبى أن يقيد نصوصه بتفسيرات، فضلاً عما قام في ذهني يومئذٍ من إبطائه أنه جاد في وعده بالمقدمة. فهل تراه يصر بعد ذلك اتهامي بسوء القصد؟. أني أحب الحرية، حرية التصرف، وحرية الكلام، وحرية إبداء الرأي. وأعتقد أن أثمن كنز يغدقه المجتمع على رجال الفن هو (الحرية)، وأعتقد أن خير هدية أهديهاديق العزيز علي، هي (الحرية). ولقد بلغ من إخلاصي فيداقتي لطه حسين أن أعطيته (حريتي). فهو لن ينسى أني ما أتصرف في عمل أدبي بغير رأيه، وما استشارني أحد في أمر يتصل بمكتبي إلا أحلت المر عليه، وانتظرت كلمته فيه. على أني أحب من جهة أخرى أن أستعير بعض هذه الحرية أحيانا لأناقشه في فكرة

من الفكر، أو أحاوره في مسألة، أو أرد عليه في مقال. فأنا كما يعلم الدكتور طه ذو طبيعة لا تسير على نظام.

إني أعطى كثيراً ثم آخذ فجأة، ثم أعود فأرد ما أخذت. وعلىديقي أن يكون رحب الصدر،

سخي النفس كمصرف فتح لي فيه حساب جار. وإني أشهد أن الدكتور طه يحمل نفساً من أنبل النفوس وأندرها؛ ولقد سجلت هذه الشهادة في قلبي قبل أن أسجلها في كتابي الفرنسي الذي بعثت به إليه منذ شهرين. غير أن الدكتور لم يعرفني حق المعرفة، وأراه يأخذ بعض تصرفاتي على سبيل الجد، حيث لا ينبغي أن تؤخذ على سبيل الجد. ولست أدري ماذا كان يضيره لو أنه غضب ما شاء من رسالتي العنيفة ثم مزقها دون أن يحفل بها، ودون أن يعلن للناس، ودون أن يدخل الناس بيننا؛ وهو يعلم لو رجع إلى قلبه أن لا شئ في هذا الوجود يستطيع أن يحول بيني وبينه، ومع ذلك فل ن هذه الرسالة الغريبة قد أدت إلى الأدب العربي أجل خدمة، فهي التي ألهمت الدكتور كتابة قصة من أروع القصص، وإني أؤكد للدكتور أنها خير نموذج للون جديد في الأدب كان ينبغي أن يوجد. وأخشى أن تحدثني نفسي بتكرير فعلتي كلما تاقت نفسي إلى متعة فنية، وكلما آنست في إنتاجنا الحديث فراغاً.

وبعد، فياديقي الدكتور أنا محزون حقا. فقد فكرت، فإذا خطيئتي بديهية، فقد كان يجب على الأقل أن أستشيرك قبل أن أبعث بتلك الرسالة. فماذا ترى في موقفي منك؟ ويزيدني حزناً لطفك حين تتجاوز في سهولة وكرم عن كل هذا.

إنما أنت في حقيقة الأمر فنان كبير، فنان حقا. وإني لأعترف بأني لم أمنح هذه النفس، ولست أنا خليقاً بالفن ولا بك.

واليك الآن ما تمت عزيمتي عليه إذا احتفظت بغضبك على فسأعرض عن كل حياة أدبية

توفيق الحكيم

تعليق

نقلنا في العدد الماضي عن الوادي ما سماهديقنا الدكتور طه (قصة تمثيلية للأستاذ توفيق الحكيم)، لأن (الرسالة) كانت مسرحاً لهذه الرواية، فمن حق قرائها الذين لا يصل إليهم الوادي أن يشهدوا فصلها الأخير، ولأن (الرسالة) سجل لأوان الأدب الحديث، فمن حق الأدب أن نسجل في تاريخه ما يقع بين رجاله من الخلاف الجدي فيه كاملاً غير منقوص. ولهذين السببين نقلنا أيضاً عن الوادي ما كتبه الأستاذ توفيق الحكيم تعليقاً على تلك

وأنه ليسرنا أن نسجل كذلك أن الود قد اتصل، بين الصديقين الكريمين، وأن ،(الرواية) الدكتور طه قد أعلن في الوادي (أن ما كان بين الأستاذ توفيق الحكيم وبينه من خلاف قد انتهى أمره وحي محواً بعد ذلك الكتاب الرقيق).

أما هذا الذي نشره في الواديديقي طه وسماه عتاباً فلعله من الأمور التي تسمى بغير أسمائها وتجري على غير أوضاعها في هذا العهد العجيب الذي استغل الناس فيه كل شئ حتى حياء الحيي ووفاء الوفي وتسامح الصديق.

الزيات

الرسوللى الله عليه وسلم

للأستاذ محمود حمد شاد

قرأت في عدد الرسالة الذيدر بتاريخ الاثنين 13ربيع الأول سنة 1353 باباً من القصص الشعري عن (إسلام حمزة) رضي الله عنه وقد وضع هذه القصة واضعها وهو يقصد بها - إن شاء الله - خيراً. إلا أن طريق الخير إلى ما قصد إليه قد التوى به التواء يذهب بكل ما عمد إليه، فانه وضععلى لسان الرسول شعراً نزهه الله عنه بقوله (وما عَلَّمناهُ الشِّعرَ وما ينبغي له)، ثم يلي ذلك أنه قد وضع على لسانه ما لم يقلهلى الله عليه وسلم.

وليعلماحب هذه القصة أن الرسوللى الله عليه وسلم يقول (من كذب علىَّ متعمداً فليتبوَّأ مقعده من النار) ويقول (من حَدَّث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين). فكيف بصاحبنا وهو ينطق رسول اللهلى الله عليه وسلم بما لم يقله، ثم يكون ما أنطقه به من الكلام مصوغاً في القالب الذي نزَّه الله نبيهلى الله عليه وسلم؟

هذه المسألة مما يريد بعض الناس أن يحتال لها بمنافق الكلام ليستحل ما لا يحل أبداً. وهم يراودون الناس فيها عن عقولهم أولاً ثم عن أيمانهم ثانياً، لينقادوا لهم في الرضا بها والمتابعة عليها. . . والمسألة لو تناولت أحداً غيراحب الرسالة لقلنا عسى ولعل. . .

ولنظرنا في المخرج الذين يتأولونه نظر المنطق، ولكنها تتناول إنسانية وحدها قد جعلها الله بمنزلة فوق منازل سائر البشر، وإن لم تخرج عن منزلة البشر في أعراض الحياة وما يكون فيها وما يأتي منها.

إن إنسانية الأنبياء وحدها التي أوجب الله على من حضرها من الناس أن يؤمن بها أولاً، ثم يحافظ على رواية سيرتها ثانياً، ثم يحترس ويتدبر فيما ينقل عنها أو يصف منها، لأن نسبة شئ من الأشياء إليها قد يكون مما يتوهم أحد منه وهماً يخرج - فيما يُقبل من أمر الدنيا - بحقيقة الرسالة التي أرسلوا بها عن القانون الإلهي الذي عملوا به ليحققوا كلمة الله التي تعلو أبداً، وتزدهر دائماً، وتبقى على امتداد الزمن روح الحياة البشرية وميزان أمر الناس في هذه الدنيا.

وليس يقال في قصةاحبنا أو غيرها أن ما أنطق به الرسول لا يتناول تشريعاً أو أدباً أو حكماً، وإنما يتناول الكلام المتعاطي بين الناس فليس به من ثم بأس. . . ليس يقال مثل

هذا لأن التشريع حين يوضع ويراد به سد أبواب من الشر والفتنة يأتي منعاً مصمتاً لا مدخل فيه ولا ثغر حتى يدفع المحزبين والمفسدين والعابثين ويضرب على أيديهم من كل ناحية. ولو كان الأمر على غير ذلك لتناول كل لص مفتاح الباب الذي يريد أن يدخل منه إلى عقول الناس ليستغرهم ويزلزلهم من جنة الأيمان إلى جحيم الإلحاد في الدين من الطريق الخفي الذي لا تبصر فيه العامة ولا تهدي به إلى أرشد أمرها في الحياة.

فنحن هنا نتقدم إلى الأستاذاحب القصة بأن يتدبر ما شاء، فهو سيدع ما سلك إلى سبيل أهدى، فإن الأدب الذي له نعمل لم يقتصر ولم يضق حتى ندع ما أحل الله إلى ما نهى عنه، ونترك سبيل الرشاد إلى سبيل تنحدر بنا إلى هاوية لا قرار لها، ولا عاصم منها.

محمود محمد شاكر

في الريف

بقلم عبد الرحمن فهمي

ليسانسييه في الآداب

إذا أردت أن تمتع النفس بجمال الطبيعة فانك لست واجداً هذا الجمال في المدينة لأنها دائمة الصخب والضجيج، مشتبكة المصالح العامة والخاصة بشباك يتعذر على المرء الولوج منها إلى حيث الحرية الطبيعية التي وهبها الله عباده. ولا شك أن المدينة أحد العوامل التي أرخت ظلها الثقيل على جمال الطبيعة في المدن. بل إن هذه المدينة نفسها هي التي اضطرت ابن الطبيعة إلى أن يعقها إرضاء لشهوة المدة، حتى إذا سئم حياة المدينة - وسرعان ما يملها لأنها حياة مضنية للعقل والجسد - تطلع إلى الطبيعة وارتمى في أحضانها إلى أن يرتوي ببهائها.

وجمال الطبيعة في مصر يتجلى في الريف والصحراء والبحر بصورة جلية واضحة، وقد ذقت لذة الجمال في كل فطبت نفسا بهدوء الريف وسذاجته، وأخذتني روعة الصحراء ورهبتها، ورقصت مع أمواج البحر وأعجبت بعظمته، ولكني لم ألق جمالاً أكثر تأثيراً في النفس مثل جمال الريف الطبيعي.

ولا عجب إذ تراني أقضي بعض أوقات فراغي في قريتي بالمنوفية وهي قريةغيرة بحجمها كبيرة بتاريخها، ومن أبنائها العالم الكبير، والوزير الخطير، والمدير القدير، ونسبة المتعلمين فيها طيبة. فإذا حللت بها نسيت كل شئ إلا الجمال: فهذه حقول واسعة تتزيا في كل موسم بلباس خاص قد يكون أخضر سندسياً مسترسلاً موشى بالأبيض اللامع والأصفر الفاقع في موسم البرسيم الجميل، وقد يكون ذهباً براقاً عندما تنضج سنابل القمح والشعير إيذاناً بالبركة والخير الجزيل، وقد يكون أبيضافياً عند ظهور وبر القطن ثروة القطر وأمل الجميع، وقد يأبى هذا اللباس إلا أن يكون ذا خطوط متقاطعة أو متوازية عند إطلاق الماء في المصارف قبل أن ينبت الزرع. وهذه دور ساذجة تقرأ فيها أخلاق القروي من بساطة العيش ووداعة النفس وشئ من الدهاء مقرون بالسذاجة، ونوع من الإهمال ممزوج بالجهل، يشرف على هذه الدور

جميعاً، مئذنة مسجدغير ينبعث منها كل وقتلاةوت مسترسل عذب يدعو المؤمنين إلى ربهم.
ويعجبني جمال الخلق الذي عفا معظمه في المدن، فالفضيلة لا تزال محافظة لكيانها في القرية، فلا بغاء ولا فحش، ولا يمكنك أن ترى قروياً ثملاً في أحد طرق البلدة، بل إن أغلب القوم متمسكون بالعروة الوثقى. والشرف ظاهر في جوانب الحياة، والكرم والسخاءفتان ملازمتان للقروي والقروية.
توقظك في الصباح الباكريحات الديكة المتناوبة، وزقزقة العصافير المرحة، فإذا أطلّت الشمس من خدرها مؤذنة الحياة والكد والعمل، خرج الفلاحون من دورهم إلى حيث انعامهم فجهزوها ورووها بالماء وقادوها إلى العمل طوال النهار، ويعطف القروي عليها ويحنو، عطفاً كبيراً وحنواً زائداً، ولا عجب فهي ذراعه اليمنى التي يعتمد عليها في حياته، تطعمه وتهيئ أرضه للزرع.
ينعم الفلاحون في الحقل بكثرة العمل ونقاء الهواء وضوء الشمس إلى أن يؤذنهم غروبها بوجوب العودة إلى دورهم وهم في ذلك أيضاً أول ما يعنون به بهائمهم يقودونها إلى حضائرها وينثرون أمامها التبن والفول أو البرسيم والعشب، أما هم فتمد لهم ألوان الطعام على الأرض وهو طعام دسم كثير وهو الوجبة الوحيدة التي يعتمدون عليها في غذائهم فضلاً عن وجبة أخرى أو وجبتين من الخبز والجبن المخزون.
وفي العشية والمساء يجتمع أهل القرية جماعات في البيوت أو خارجها على المصاطب يتسامرون، أو يهيئونفقة بيع أو يتفقون على ري قطعة من الأرض بعد قطعة، أو يصلحون بين متخاصمين وتلحظ عليها جميعا روح المعاونة والحب.
وعلى ضفة النهير الذهبية برملها المبلور اللامع ترى الفتيات النواهد الحسان كلهن في جلابيبهن السوداء قد بدون سافرات الوجه في زينة طبيعية جميلة، وما أجمل الوجه القروي الناعم الذي لم تعمل فيه يدناع! وقد حملن فوق رؤوسهن الجرار، هذه تغسل جرتها وقد ارتسم جسمها الجميل علىفحة الماء الصافي، وتلك تغترف من الماء ما هي في حاجة إليه، وضفة النهر في هذه الفترة من كل يوم في نظري ناد لأولئك الفتيات يتقابلن فيه ويتحدثن عنده ويستعرضن يومهن الذي خلا، وقد يغنين بصوت متناسق جميل أناشيد قروية طريفة:
وأظهر ما تلحظه في القرية اليوم نوع من الركود المالي، فبعد أن كانت عقب مواسم الحصد نشطة بحركة بيع المحصول بالأثمان العالية أصبحت متأثرة بالأزمة، فأسعار رزق
الفلاح رخيصة، وديونه كثيرة، وموارده قليلة، وقد نتج عن هذا هجرته إلى المدينة باحثاً عن عمل يلقى منه أجراً يومياً أو راتباً شهرياً.
وتقام في القرية رغم هذا سوق أسبوعية تعرض فيها أنواع التجارة فيبتاع القرويون ما هم في حاجة إليه من أقمشة أو بضاعة. ويبيعون ما هم في غنى عنه من الغلال أو الطيور أو الزبد. ويفد إليها كثير من أبناء القرى المجاورة يبتاعون ويبيعون.
ومنذ بضع سنوات لم يكن بالقرية محطة للسكة الحديدية، أو دار للشرطة، أو بكتب للبريد والبرق، وإنما كان المسافرون يحتملون عناء السفر بركوب ظهور الدواب ومتن النهر إلى أن يصلوا إلى محطة بعيدة يستقلون منها القطار، وكان ساعي البريد الجوال يصل إلى القرية كل يوم على حماره فينفخ في بوقه فيهرع القوم إليه ويقرأ عليهم الأسماء فيتناول منه كلاحب رسالة رسالته، أما اليوم فأسباب المواصلات موفورة.
ويثلجدرك بعض الشيء أن ترى بالقرية اليوم مكتباً للتعليم الإلزامي، وفكرة ناضجة في النفوس عن خطر الأمراض لا سيما (الرمد، والبلهارسيا، والانكلستوما) وغيرها، ورأيي أن أفضل ما تقوم به حكومة مصرية هو ترقية شئون الفلاح وأحوال القرية، لأن الفلاحين هم كثرة سكان مصر، ولأن القرية مما مورد ثروة البلاد الأساسي.
عبد الرحمن فهمي
أعيان القرن الرابع عشر - 6
للعلامة المغفور له احمد باشا تيمور
السيد على الببلاوي
المالكي
هو على بن محمد بن احمد المالكي الحسني الادريسي من ببلاو، قرية تابعة لعمل

ديروط الشريف التابعة لمديرية أسيوط، ولد بها في شهر رجب سنة 1251 ونشأ بها فحفظ القران ومبادئ العلوم وحضر للأزهر سنة 1269 فقرأ به على شيوخ وقته كالشيخ محمد عليش، والشيخ منصور كساب، والسيد محمد الصاوي، والشيخ علي مرزوق، والشيخ إبراهيم السنجلفي، والشيخ احمد الإسماعيلي، والشيخ محمد الانبابي، والشيخ علي بن خليل الأسيوطى، وكان له به نوع اختصاص في الحضور، وصحب مدة حضوره الشيخ حسونه النواوي، فكانا يسكنان معاً، ويحضران معاً الدروس إلا في درس الفقه فإن المترجم كان مالكياً والشيخ حسونه حنفياً. ولم يزل يجد ويجتهد حتى تأهل للتدريس فدرس بالأزهر والمسجد الحسيني الكتب المتداولة، وفي سنة 1280 سافر للحجاز فحج، ثم استخدم، بدار الكتب الخديوية بالقاهرة مغيراً، حتى كانت الثورة العرابية، واتجهت الأنظار لتنصيب المصريين في المناصب الكبيرة فساعدهديقه ومريده محمود سامي باشا البارودي على إقامته ناظراً هذه الدار سنة 1299 فتمت له نظارتها بعد ما سعى كثيرون لها فلم يوفقوا.

ثم لما هدأت الأمور وأطفئت الفتنة كان المترجم يتوقع القبض عليه كما فعل بكثيرين للملم بأنه مننائع البارودى، ولكن الله سلمه، ولم يشأ الخديو أذاته لاشتهاره عنده بالصلاح والتقوى والبعد عن الفتن فاكتفوا بفصل من دار الكتب وجبروا خاطره بالخطابة في المسجد الحسينى، ثم جعل شيخاً لخدمة هذا المسجد في ثانيفر سنة 1311. ولما غضب الخديو على السيد توفيق البكري نقيب الأشراف وشيخ الطوائف الصوفية وأمره بالاستقالة من النقابة فاستقال، سعى للمترجمديقه وروفيقه في الحضور الشيخ حسونه النواوى، وكان إذ ذاك رئيسا لمجلس إدارة الأزهر قبيل إقامته شيخاً عليه، فقبل الخديو منه وأقام المترجم نقيبا للأشراف في 6 شوال سنة 1312 فاعتنى بضبط مدخولها وجدد من أوقافها ست دور بناها بجهة الحلمية، وصار يصرف الاستحقاقات في أوقاتها، وسئل في رياسة الخدمة بالمسجد الحسيني فقال إن كانت النقابة تمنعني من خدمة سيدنا الحسين لا أقبلها فأبقي كما كان وأقام المترجم في النقابة نحو ثماني سنوات يجدد من معالمها، ويحيي ما درس منها، حتى نقل منها شيخاً إلى الأزهر، وكان سبب ذلك أن الخديو انحرف عن شيخ الأزهر الشيخ سليم البشري وانتهى الأمر باستقالته يوم الأحد 2 ذي الحجة سنة 1320، وأراد الخديو إعادة الشيخ حسونه النواوى أو تنصيب الشيخ محمد بخيت المطيعي فلم يوافق النظار على ذلك، فرشح الشيخ احمد الرفاعي المالكي وأعلمه بذلك، وكادت تتم له لولا عوارض اعترضت، ثم سعى الشيخ على يوسفاحبحيفة المؤيد ومن اكبر المقربين من الخديو للشيخ أمين المهدى بن العلامة محمد المهدي العباسي فرد عليه بأنه لا يصلح لخموله وعدم توليته أموراً قبل الآن، فأجاب بأنه وان كان كذلك فهو من بيت علم وغنى، تربى في نعمة فلا تطمح نفسه لشيء مما في الأيدي، وتدربه على الأمور قريب مدرك فرضي الخديو به، ولكن النظار لم يوافقوه عليه لأمور نقمها عليه ناظر الحقانية مدة ما أقامه عضواً بالمجلس الحسبي فحار الخديو وحنق، وطلب دفتر أسماء العلماء فوقع نظره على أسم المترجم فارتفضاه وجنح إلى توليته، ولم يكن قد خطر على بال أحد، وساعد الشيخ على يوسف على ذلك ليتمكن من رد السيد محمد توفيق البكري إلى النقابة فتم له الأمر ورضى به النظار وأعيد البكري إلى النقابة مضافة إلى ما بيده من رياسة الطرق الصوفية وصدر الأمر في 2 ذي الحجة بإقالة الشيخ سليم من الأزهر وتنصيب المترجم، فلما ذهب لشكر الخديو كالعادة استصحب معه ولده الأصغر السيد محموداً والتمس إقامته شيخاً على السجد الحسيني بدله، كما أقيم أخوه الأكبر السيد محمد قبل خطيباً له فقبل ملتمسه وأجيبت رغبته.

وكان الخديرو ذلك الحين منحرفاً عن الشيخ محمد عبده مفتى مصر والعضو بمجلس إدارة الأزهر وصاحب الكلمة العليا فيه، فكان يظن أن المترجم يوافقه في معاكسة الشيخ ومعارضته وعرقلة مساعيه، فأخطأ ظنه، لأن المترجم مال للشيخ كل الميل ووافقه في كل مشروع، واتحد به واندرج فيه حتى لم يكن له من الرياسة غير رسومها، والكلمة كلمة الفتي، وعوتب في ذلك من أحد المقربين فاعتذر بأن الرجل لا يريد غير الإصلاح فلا يرى وجهاً لعارضته، فكان ذلك سببا لميل الخديو عنه بعد إقباله عليه، وضعف المفتي عن معاندة الخديو ولم يجد من الإنكليز المساعدة التي كان يرتكن عليها فعزم على

نفض يده من الأزهر، ورأى المترجم أن الأمور لا تجري على مرغوبه فاستقال من الأزهر يوم الثلاثاء 9 المحرم سنة 1323 فأقيل يوم السبت 12 منه وأقيم بدله الشيخ عبد الرحمن الشربيني الشافعي واستقال أيضا المفتي من مجلس الإدارة مرغماً.
* * * * * * * * * * * * * * * * *

وأقام بعد ذلك المترجم بداره التي بجهة المناصرة بعد أن رتب له الخديو خمسة وعشرين ديناراُ مصريا من الأوقاف الخيرية تصرف له كل شهر، هي مواظبا على كثرة تلاوة القران كعادته، مقبلا علىالعبادة حتى ازداد به المرض سنة 1323، وتوفاه الله في غروب يوم الجمعة الثالث من ذي القعدة من تلك السنة فشيعت جنازته بعد عصر يوم السبت وصلى عليه بالمسجد الحسينى وطيف به حول المقام كوصيته، ثم دفن بقرافة المجاورين في بستان العلماء رحمه الله رحمة واسعة. وله من المؤلفات رسالة اسمها الأنوار الحسينية على رسالة المسلسل الأميرية، ورسالة فيما يتعلق بليلة النصف من شعبان، ولده السيد محمود تعليق عليها سماه عروس العرفان في الحث على ترك البدع وشوائب النقصان على الرسالة الببلاوية المتعلقة بليلة النصف من شعبان.

وأعقب المترجم من االذكور ولدين كبيرهما السيد محمد الببلاوى سس له والده حين انفصاله من نظارة دار الكتب فجعل مغيراً بها ثم جعل وكيلا لها وخطيبا للمسجد الحسينى ونال درجة العالمية الثانية بالأزهر، ثم جعل بعد ذلك نقيبا للأشراف. والآخر السيد محمود جعل شيخا للمسجد الحسينى لما أقيم والده شيخا للأزهر ثم جعل بعد ذلك شيخا للمسجد الزينبى.

الشيخ أحمد الرفاعي
المالكي

اشتغل بالحضور في الأزهرعلى مشايخ وقته حتى تأهل للتدريس فدرس الكتب المتداولة، وقرأ عليه كثيرون من كبار علمائه الآن كالشيخ محمد عبده والشيخ محمد بخيت والشيخ أبى الفضل الجيزاوى والشيخ محمد حسنين العدوي والشيخ محمد النجدى الشرقاوى وغيرم، وقد أصبح في أواخرأيامه وليس في الأزهر إلا من هم تلاميذه أو في طبقتهم إلا الشيخ الشربيني والشيخ البشري

وكان من عادته ألا يقطع الأقراء طول السنة ولا يسامح في اوقات المسامحات ولا يقعده عن الاشتغال إلا المرض، فقرأ الكتب المتداولة مراراً ومهر فيها بسبب كثرة اشتغاله حتىار المستعصي منها عنده بمنزلة السهل عند غيره. وأتقن فن التجويد فجعل شيخاً على المقارئ مد ة طويلة. ولما أقيم الشيخ حسونه النواوي شيخا علىالأزهر في المرة الأولى ولم يجد إقبالا من علمائهاحبه المترجم وتحبب إليه ولازمه في غدواته وروحاته. ثم لما انحرف الخديو عباس باشا الثاني عن الشيخ محمد عبده مفتي مصر والعضو بمجلس أدارة الأزهر وأراد كف يده عنه ساعده المترجم على ذلك واخذ في معاكسة، الشيخ وتدبير المكايد له، وتنفير الأزهريين منه، وتقرب من الخديو واكثر من الترداد على قصر القبة ومداخلة الحاشية حتى حظى عنده واقبل عليه إقبالا عظيما، فلما عزل الشيخ سليماً البشري عن الأزهر في 2 ذي الحجة سنة 1320 وأراد إرجاع الشيخ حسونه النواوى أو تنصيب الشيخ محمد بخيت ولم يرض النظار، رشح المترجم واستدعاه وأعلمه بانتخابه له فعاد إلى داره جذلا وأشاع الأمر وهيأ السكر لشرب المهنئين والرمل الأصفر لفرشه بصحن الدار، وكاد الأمر يتم له لولا أن بعض مبغضيه من المقربين للخديورفه عن توليته وذكر عنه هنات الله أعلم بها، فعدل الخديو عن تنصيبه الا أنه التمس لنفسه مخرجا من وعده الذي وعده به فأعملبعض المقربين

الحيلة واستدعوه بحضرة الخديو وسألوه عن قبوله للتولية فقال لهم نعم ولاني مولاي وقبلت، فاخذوا يذكرونعوبة مراس أهل الأزهر والمشاق التي يعانيها شيخهم لاخضاعهم ولمحوا له بأنهم لا يظنونه يقوى عليهم فقال ومن اهل الأزهر، انا أدوسهم بقدميّ فقاوا إنك

ستكون مع الشيخ محمد عبده والشيخ عبد الكريم سلمان العضوين بمجلس الادارة فهل ترضى بأن يشاركاك في الادارة؟ وكيف يكون شأنك معهما؟ فقال كلا لا أرضى بأن يشاركاني بل أشترط لقبول التولية عزلهما وهما عندي كافران لايوثق بهما،

فاستغرق الخديو في الضحك وقال شرطك لايمكن تنفيذه، ونحن نريحك من رياسة الأزهر ونعوضك عنها بشئ نجريه عليك من الأوقاف فأسقط في يده ورضى مرغما ثمرفوه

ثم وقعت منه في أواخر أيامه زلة، قيل إنه تصرف في وقف بغير وجه شرعي ولكن الله لطف به فلم يقع له بسبب ذلك غير فصله من المقارئ، وكثرت غمومه وهمومه لما لاكته الألسنة في هذه المسئلة، فانقطع عن التدريس لمرض أصابه إلى أن توفي بعد ظهر يوم الاثنين 18فر سنة 1325 ودفن يوم الثلاثاء وآذنوا له على المآذن كالعادة في موت كبار العلماء، وقد بلغ من السن نحو خمس وسبعين سنة، وكان قصيراً دحداحا خفيف الحركة رحمه الله تعالىوتجاوز عنه.

وله من الؤلفات حاشيته على شرح بحرق على لامية الافعال لابن مالك طبعت بمصر.

قس بن ساعدة الأيادى

للاستاذ عبد المتعال الصعيدى

مدرس بكلية اللغة العربية بلأزهر

نسبه: قال ابو حاتم السجستاني هو قس بن ساعدة ابن حذافة بن زفر أو زهر بن إياد بن نزار بن معد بن عدنان، وقد نقل ابن حجر العسقلنفي في كتاب الاصابة هذا النسب عن أبى حاتم ولكنه ذكر جذامة بدل حذافة، وقالاحب الأغاني هو قس بن ساعدة بن عمرو أو شمر أو عمرو بن شمر بن عدي بن مالك بن ايدعان بن النمر بن وائلة بن الطمثان بن زيد مناة بن مهدم أو يقدم بن أقصى بن دعمي بن إياد، فبينه وبين إياد على القول الأول ثلاثة اباء، وبينهما على القول الثاني اثنا عشر أبا أو ثلاثة عشر أبا، وقد يكون النسب الأول هو الثاني مع اختصار فيه، ولكن يبعد هذا وجود أسماء فيه لاتوجد في النسب الثاني، فلا بكون مع هذا مختصرامنه، ولعل كلا من هذين النسبين يمثل رأيا من رأيين في قدم قس أو قربه من زمن ظهور الاسلام، فقد ذكره أبو حاتم في المعمرين، وحكي أنهم قاوا أنه عاش ثلثمائة وثمانين سنة، ونقل المرزباني عن كثير من أهل العلم أنه عاش ستمائة سنة، ونقل الأبشيهي في كتاب ألمستطرف أنه عاش سبعمائة سنة، فهوإذا كان قد عاشقبل ألاسلام هذه ألقرون الطويلة (600 أو 700 سنة) فلابد أنه لم يكن بينه وبين إياد الا نحو هذه الثلاثة الاباء، وإذا كان لم يعمر قبل الاسلام إلا الحد المعقول في معمري عصره، فيكون بينه وبين إياد ما ذكرهاحب الأغاني من تلك الأصول، وقد يكون قس على القول بقدمه إلى ذلك الحد لم يعمر أيضا إلا التعمير المعقول، فلا يكون بينه وبين إياد إلا تلك الثلاثة الأصول ولا يكون من رجال ذلك العصر الجاهلى الذي كان قبيل الاسلام، بل يكون عصره ابعد في القدم منه، وبكون ابتداء ظهوره في نحو عصر كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار من أجداد النبلى الله عليه وسلم، وهو قريب من زمن حواريي المسيح الذين قيل إنه أدركهم، فإذا عاش إلى أن ادرك جداً أو جدين أو ثلاثة بعد كنانة يبقى بعد هذا بينه وبين عصر الجاهلية الذي كان قبيل الأسلام أزمان طويلة.

وليس هذا كل ما يحيط بنسب قس إلى الأصل الأول لقبيلته وهو إياد من الغموض، فهناك غموض اشد منه فيحة نسبته! لى إياد نفسه، ويكاد يقتلعه من هذا الأصل وتلك القبيلة التي

أجمع النسابون على أنه منها اى قبية أخرى غيرها، فقد ذكراحب الاغاني في سلسلة نسب قس أقصى بن دعمي بن اياد، وذكر أيضا في نسب النابغة الشيباني أقصى بن دعمي بن جديلة بن أسد في ربيعة بن نزار فيكون أقصى بن دعمي على هذا من ربيعة بن نزار لا من إياد بن نزار، ويكون قس من ربيعة لا من إياد، ومن البعيد أن يكون أقصى بن دعمي المكور في نسب قس غير المذكور في نسب النابغة، وأن بكون الاتفاق في اسميهما واسمي أبيهما من باب المصادفة، على أنه روي مع هذا أن الجارود بن عبد الله لما وفد في وفد عبد ألقيس على رسول الله سأله يا جارود هل في جماعة عبد القيس من يعرف لنا قسا؟ قالوا كلنا نعرفه، وفي رواية أخرى أنه لما قدم وفد بكر بن وائل على رسول الله قال لهم ما فعل قس بن ساعدة الايادي؟ قالوا مات يا رسول الله، وفي رواية ثالثة أن وفد بكر بن وائل قدموا على النبلى الله عليه وسلم فقال هل فيكم أحد من إياد؟ قالوا نعم، قال ألكم علم بقس بن ساعدة؟ قالوا مات يا رسول الله، فكل هذه الروايات تفيد اتصال نسب قس بعبد القيس وبكر وهما

من قبائل ربيعة، نعم قد يمكن أن تكون إياد مجاورة في السكن لهاتين القبيلتين فسأل رسول لله وفدهما عن قس لمجاورتهما لقبيلته، ولكن هذا لا يكفي في دفع ما يفيده ظاهر هذه الروايات مع ما يفيده ذكر أقصى بن دعمي في نسب قس ونسب شيبان وبكر وعبد القيس وغيرهما من قبائل ربيعة، بل إن سؤال رسول الله بكرا وعبد القيس عن إياد ظاهر في أن إياد كلها من ربيعة لا قسا وحده، وربما يؤيد هذا أن إياد لوكانت فرعاً مستقلا من نزار لما أمكنه أن يحافظ على وحدته ذلك العهد الطويل، لما تأباه طبيعة بلاد العرب، إذ يعيش فيها أهلها عيشة ارتحال وتنقل، وقد قضت تلك الطبيعة على فرعيمضر وربيعة أن ينقسما إلى مالا يحصى من القبائل، فلا يمكن أن ينجو من تأثيرها فرع إياد على ما يراه النسابون من تفرعه من نزار مع ذينك الفرعين في ذلك الأمد البعيد، وإذا كانت إياد من ربيعة فيكون التقاؤها مع قبائلها في أقصى بندعمي، ويكون إياد بعد أقصى لا قبله، وقد دخل أنساب القبائل تخليط كثير مثل هذا وغيره، وربما كانت إياد فعلت ذلك عن عمد بعد حروبها مع عبد القيس وغيرها منقبائل ربيعة.

قبيلة اياد: كانت قبيلة إياد نازلة في قديم أمرها بين إخوتها من قبائل معد، في تهامة والحجاز ونجد، وكانت تقيم هي وأنمار معا في أرض تهامة، بين حد أرض مضر إلى حد نجران وما والاها وصاقبها، ثم نزحت من تهامة في حرب وقعت بينها وبين ربيعة ومضر في خانق، فغلبت فيها وخرجت إلى العراق فنزلت في سواده قرب مكان الكوفة، فأقامت هناك دهرا، وانتشرت في تلك الأنحاء، وكانت تغزو أهل العراق من العجم وغيرهم، فلما كان عهد كسرى أنوشرؤان أغارت على نساء من الفرس فأخذتهن، فأرسل إليها أنوشروان جيشا أجلاها عن أرض العراق، وشتتها في البلاد،، فنزل بعضهاتكريت، ونزل بعضها الجزيرة، ونزل بعضها أرض الموصل، ثم سلط عليها أنوشروان قومًا من بكر ففتكوا بها، وفرقوها في أرض الروم، وبلاد الشام وقد اشتهرت قبيلة إياد بخطبائها، وظهور قوة الخطابة فيها، وكان خطباؤها مضرب المثل في الفصاحة وقوة البيان، وفي وصفهم يقول بعض الشعراء:

يرمون بالخطب الطوال وتارة ... وحى الملاحظ خفية الرقباء

فذكر المبسوط في موضعه، والمحذوف في موضعه، والموجز والكناية، والوحى باللحظ ودلالة الاشارة. وكانت قبيلة عبد القيس من ربيعة تسامي إياد في خطبائها، وشيوع الخطابة بين أفرادها، ولعل هذا مما يقوي ما رجحناه من اتصال نسب إياد بنسب عبد القيس وربيعة، ولكن عبد القيس لم تظهر فيها الخطابة إلا بعد أن انتقلت من البادية إلى عمان والبحرين، حتى قال الجاحظ في كتاب البيان والتبيين: وشأن عبد القيس عجيب، وذلك انهم بعد محاربة إياد تفرقوا فرقتين، ففرقة وقعت بعمان وشق عمان، وفيهم خطباء العرب، وفرقة وقعت إلى البحرين وشق البحرين، وهم من أشعر قبيلة في العرب، ولم نكونوا كذلك حين كانوا في سرة البادية، وفي معدن الفصاحة، وهذا عجب.

ولاشك أن إياد كانت في سرة البادية مثل عبد القيس، ثم انتقلت منها إلى العراق، فالظاهر أن الخطابة لم تظهر فيها إلا بعد أن انتقلت من البادية مثل عبد القيس، وقد علل ذلك بأنهم حينما تركوا سرة البادية جاوروا الأعاجم في تلك الأماكن، وكان الاعاجم أهل خطابة وكتابة، ولهذا كثر الخطباء أيضا في اليمن عند اختلاط أهله بالفرس الذين أتى بهم سيف بن ذي يزن لاخراج الحبشة منه، وهذا يفيد أن الخطابة العربية ماخوذة من الخطابة الفارسية مع أن الجاحظ قال في موضع اخر في الموازنة بين خطابة العرب وخطابة الفرس، وبيان الأمم التى انفردت بالخطابة: (وجملة القول أنا لا نعرف الخطب إلا للعرب والفرس، وأما الهند فانما لهم معان مدونة، وكتب مجلدة، لا تضاف الى رجل معروف، ولا إلى عالم موصوف؛ وليونانيين فلسفة وصناعة منطق، وكاناحب المنطق نفسه بكئ اللسان، غير موصوف بالبيان، وفي الفرس خطباء إلا أن كل كلام لهم فانما هو عن دراسة وطول فكرة، ومشاورة ومعاونة، وحكاية الثاني علم الأول، وزيادة الثالث في علم الثاني، حتى اجتمعت ثمار تلك الفكر عند آخرهم، وكل شيء للعرب فانما هو بديهة وارتجال، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ومكابدة، وخطباؤهم أوجز، والكلام عليهم أسهل، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفظ، أو يحتاجوا إلى تدارس،

وليس هو كمن حفظ علم غيره، واحتذى على من كان قبله).
وإذا كان هذا شأن خطابة الفرس وخطابة العرب، فأين احداهما من الأخرى؟ وكيف أخذت الثانية من الأولى، وهما يختلفان هذا الخلاف، ولا يوجد بينهما أدنى شبه يدل على تأثير إحداهما بالأخرى، واحتذاء خطباء العرب بخطباء الفرس في الخطابة؟ ولا يؤثر في هذا أنا لا نسلم لجاحظ ما يزعمه من انفراد الفرس والعرب بالخطابة، وانفراد العرب بالقدرة على ارتجالها، فقد يوجد في غير العرب من يقدرعلى ارتجال الخطابة في لغته، وقد يكون في العرب من لا يخطب إلا بعد ترو وتدبر، ولكن العرب لشيوع الأمية فيهم، كان يقل من يذهب هذا المذهب في خطبائهم.
فلم يبق إلا أن نعلل ذلك بأن أخبار هذه القبائل قبل انتقالها من البادية بعيدة عنا، ولم يصل الينا إلا قليل منها، فما يدرينا أنها لم يكن فيها خطباء حين كانت بسرة البادية؟ ولعله كان لها من الخطباء فيها ما لا يكون هناك محل لتعجب الجاحظ أو غيره منه.
دراسة حياته: إذا رجع الباحث إلى ما كتب عن قس
في كتب الأقدمين المختلفة لا يمكنه أن يؤلف من الأخبار التي وردت فيها عنه سيرةحيحة، متلائمة غير متدافعة، متصلة غير منقطعة، لها بداية معروفة، ووسط غير مجهول، ونهاية ليست غامضة، وانما هي أساطير لا يمكن أن يعرف منها يقيناً زمنه متى بدأ؟ ومتى انتهى؟ ولا مكانه في تلك الأمكنة التي تنقلت فيها قبيلته؟ وهل كان يعيش بينها؟ أو كان يعيش بين قبيلة أخرى غيرها؟ أو كان يعيش هائما متنقلا لا يقر في مكان؟ فقد ورد أنه ادرك حواري عيسى عليه السلام، ولكن ورد مع هذا أنه أدرك محمدالى الله عليه وسلم قبل
بعثته، بل ورد أنه أدرك بعدها وآمن به وعد من أصحابه، ولا يمكن أن يكون قد أدرك هذين العهدين المتباعدين إلا اذادقنا أنه عمر حوالي ستمائة سنة، كما يذكر هذا من يعده في معمري العرب، وهذا أمر لا يمكن تصديقه، ولم يحدث مثله من عصر الحواريين الى العصر الذي نعيش فيه الآن.
وورد أيضا أنه كان أسقف نجران، فلا بد أنه كان يعيش عيشة مألوفة بين أهلها من النصارى، ولكن أين اياد من نجران وقد كانت إياد مستقرة بالعراق في الزمن الذى ظهرت فيه النصرانية بنجران؟ بل أين هذا مما يروى من أنه لم تكنه دار، ولا يقره قرار، ويتحسى في تقفره بعض الطعام، ويأنس بالوحوش والهوام، وأخبر بعضهم أنه رآه على جبل بالشام يقال له سمعان، في ظل شجرة إلى جنبها عين ماء، فإذا سباع كثيرة وردت الماء لتشرب، فكلما زأر منها سبع علباحبه ضربه بعصا، وقال كف حتى يشرب الذي سبق، قال فتداخلني لذلك رعب، فقال لي لا تخف ليس عليك بأس، ورووا أنه كان يفد على قيصر زائراً فيكرمه ويعظمه، وقد سأله مرة ما أفضل العلم؟ قال معرفة الرجل بنفسه، فقال له فما أفضل العقل؟ قال وقوف المرء عند علمه، فقال له فما أفضل الأدب؟ قال استبقاء الرجل ماء وجهه، فقال له فما أفضل المروءة؟ قال قلة رغبة المرء في اخلاف وعده، فقال له فما افضل المال؟ قال ماقضي به الحق.
وهذا كل ما يروونه عن قس في حياته، يحيط به الغموض في بدئه، ويستمر متماشيا معه، ثم يلازمه إلى نهايته، فلا تنتهي حياته بين قبيلته إياد، ولا بين أتباعه الذين كان فيما يقال أسقفا عليهم في نجران، بل يقال إنه توفي بروحين فيلحف جبل بها، وهي قرية قريبة من حلب، وله بها مشهد يزوره الناس، ويقصدونه بالنذور، وله أوقاف محبوسة عليه، وقد زاره أبو جعبل الألبيري فقال فيه:
هذى منازل ذي العلا ... قس بن ساعدة الايادى
كم عاش في الدنيا وكم ... أسدى إلينا من أياد
قدنالها بحلى البلا ... غة مفصحا في كل ناد
قد قر في بطن الثرى ... متفرداً بين العباد
وقد قدروا له السنة التي توفي فيها سنة 600 م وذلك قبل الهجرة باثنتين وعشرين سنة.
ولكن هذا الغموض الذي يحيط بحياة قس من بدئها إلى نهايتها، وهذه الأخبار القليلة التي لايمكن أن يؤلف منها لقس سيرة متصلة تعرف منها أطوار حياته طوراً فطورا، كل هذا لايمكن أن يتفق مع عيش قس في هذا الزمن القريب من ظهور الاسلام، فك

رجال هذا العصر من شعراء وغيرهم معروفون لنا، وقد وردت إلينا أخبارم معلومة مفصلة. ولا تحيط بها هذه الأساطير من كل ناحية، ولا يتفق مع هذا إلا ما رجحناه في نسب قس من إدراكه عصر الحواريين، وتعميره فيه التعمير العقول في مثل هذا العصر، فتكون وفاته قبل الاسلام بتلك الأزمنة المتطاولة، التي تسمح بهذا الغموص الذي يحيط بحياة قس على شهرته وظهور أمره، نعم قد روى حديث قس وسماع النبي له في سوق، عكاظ من طرق متعددة، وقد أفرد بعض الرواة طريقه وفيه خطبة قس وشعره، وهو في الطوالات للطبراني وغيرها، ولكن أبن حجر العسقلاني ذكر في كتاب الاصابة، أن طرقه كلها ضعيفة، فلا يحتج بها في مثل ذلك.

عقيدته: قد ذكر الأب لويس شيخو اليسوعي قساً في كتابه (شعراء النصرانية) وقد ورد فيما روى من أخبار قس أنه كان أسقف نجران، وقد ذكر الجارود بن عبد الله فيما وصفه به النبيلى الله عليه وسلم أنه كان يلبس المسوح، ويتبع السياح على منهاج المسيح، لا يغير الرهبانية، مقراً بالوحدانية، تضرب بحكمته الأمثال، ويتنكشف به الأهوال، وتتبعه الأبدال، أدرك راس الحواريين سمعان

ولا شك أن الأب لويس لا يعنى بالنصرانية التي يثبتها لقس الا هذه النصرانية التي تكاد تتصل بموت المسيح عليه السلام، ومن أهم أصولها عقيدة التثليث وعقيدة الصلب والفداء، وما إلى هذا من أصول هذه النصرانية، ولا شك أن الأخبار التي وصلت ألينا عن قس، والاثار التي وردت إلينا عنه فيما كان يدعو العرب إليه، لا تفيد أكثر من أنه كان يدعوهم إلى التوحيد، والايمان بالبعث والحساب، ولم يرد فيها أنه كان، يدعو إلى عقيدة التثليث والصلب والفداء ونحوها، وهي العقائد التي لا تثبت النصرانية التي يريدها القس لويس إلا بها، بل لم يرد فيها أنه كان يدعو إلى، الايمان بعيسى عليه السلام، وإنما ورد أنه كان يبشر العرب بدين جديد قرب ظهوره بينهم، فلا يمكن أن تكون عقيدته هذه النصرانية إلى يدعو إلى دين بعدها، وهي ترى أنها خاتمة الأديان، وان عيسى هو اخر الأنبياء الذي بشر به موسى عليه السلام، فلا يمكن بعد هذا أن يكون قس أسقفا على نصارى نجران، ألا أن تكون نصرانيتهم نصرانية أخرى غير هذه النصرانية، ولكن الذي يفيده التاريخ أنها كانت من نصرانية الروم والحبشة، ولهذا حاربوا أهل اليمن من أجلها، ومع هذا فقد أثبتنا أن قسا كان أقدم من ظهور النصرانية بنجران، ثم انه كان من إياد وكان أهل نجران من اليمن، فلا يقبلون رآسة مثله عليهم، لما كان من العصبية بين العدنانيين والقحطانيين، وأما خبر الجارود إنح فلا يفيد إلا انه كان مثل عيسى في ذلك، وقد ورد في بعض الأحاديث تشبيه أبى ذر الغفاري بعيسى في زهده وترهبه.

فلا يعدو أمر قس إلا أن يكون من قدماء الحنفاء الذين ظهروا في بدء انحراف العرب عن ملة إبراهيم إلى الوثنية، فكان يعوهم إلى ملة أبيهم إبراهيم، ويحارب فيهم هذه البدعة، وهكذا كان شان كل أولئك الحنفاء في العرب، وهذه كانت وظيفتهم فيهم، وقد حاول الأب لويس في كتابه (النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية) أن يلحق كل أولئك الحنفاء بالنصرانية ولا يخفى أن شأنهم في ذلك مثل شأن قس بن ساعدة.

خطابة: كان قس خطيب العرب وحكيمها وحكمها في عصره، وكان على شهرته بالخطابة يقول الشعر، فإذا خطب أتى في خطابته بشيء من شعره، يناسب موضوع خطابته، وقد جدد في الخطابة العربية بعض أمور تنسب إليه، منها انه أول من قال فيها (أما بعد) وبعضهم ينسبها لغيره، وقد نسبت لداود عليه السلام، وفسر بها قوله تعالى (وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) ولكن أسلوب الكلمة عربي خالص، ولغة داود كانت عبرية، وإنما عظم شأن هذه الكلمة في الخطابة وغيرها، لأنها تساعد على الانتقال من غرض إلى غرض فيها ولا تحوج الخطباء في ذلك إلى تكلف مناسبات طامية لا تقف فيه عند حد، ويصعب على

كل واحد فيه أن يأتي بما لم يأت به غيره، وإنما تحسن (أما بعد) في الخطابة والكتابة دون الشعر، لأنها أسلوب نثري، ولأن الشعر فيه من آثار الفنون ما ليس في الخطابة والكتابة، فيحسن التفنن فيه، ويقبح التزام أسلوب وا، حد في التنقل بين أغراضه. ومما ينسب إلى قس أيضاً أنه أول من خطب على شرف، وأول من اتكأ في خطابته

على سيف أو عصا، وأول من كتب من فلان إلى فلان.
ولم يبلغنا من خطابة قس إلا قدر قليل لا يمكننا أن نعرف منه تماما كنه خطابته، ولا المميزات التي تمتاز بها من غيرها، ولا الدرجة التي يستحق أن يوضع فيها قس بين خطباء العرب، وإن كان قس في الخطابة مضرب المثل، وان كان الناسقد أجمعوا قديماً وحديثاً على تقديمه فيها، وقد قال فيه أعشى قيس:
وأحكم من قس وأجرأ مِلَّذي ... بذي الغيل من خفان أصبح خادراً
وقال الحطيئة:
وأقْوَل من قس وأمضى إذا مضى ... من الرمح إذ مَسّ النفوسَ نكالُها
وقد يمكننا أن نحكم من القدر الذي وصل إلينا من خطابة قس حكما تقريبيا بأنه كان يعنى بالخطابة الدينية أكثر من غيرها، فكانت أكثر خطابته في الدعوة إلى التوحيد، والإيمان بالبعث والحساب، وما إلى ذك ممل كان يدعو العرب إليه، كما يمكننا أن نحكم أيضاً بأنه كان يؤثر فيها الألفاظ السهلة على غيرها، وكذا السجع القصير الفواصل لما له من التأثير في النفوس، وما كان له في ثقافته وعلمه وحكمته واشتغاله بهذه الدعوة العامة، إلا أن يدع التكلف في خطابته، ويخاطب الناس بهذه السهولة التي يفهمونها، وقد أنكر عليها بعض أدباء عصرنا هذه السهولة، فحكم بأنها خطابة إسلامية مختلقة على قس، وليست خطابة جاهلية ملائمة لما كان في هذا العصر من بداوة وخشونة، ولا يخفى أنه لا يمكن أن يستقل عصر من العصور بالتأثير في خطبائه أو شعرائه، وإلا وجب أن تتحد مسالكهم فيه، وألا يختلفوا في أساليبهم من حيث السهولة والشدة وغيرهما، وكم كان في الإسلام من خطباء يؤثرون الشدة في خطابتهم، وخطباء يؤثرون فيها السهولة على الشدة، فلا بدع في أن يهون بجانب الشدة في عصر الجاهلية تلك السهولة، وان تجتمع فيه كما اجتمعت في غيره الرقة والخشونة.
عبد المتعال الصعيدي
عروس الورد
شذى الخزامى وريا النرجس العطر ... سرت بها نسمات الروض في السحر
والفجر قاد جيوش النور منتصراً ... والليل أدبر لا يلوي على أثر
إلا بقايا نجوم وهي حائرة ... في افقها ورشاش من سنا القمر
سرى فأنعشني ريح الصبا سحراً ... فرحت أستعرض الماضي من الذكَر
والذكريات كأسراب القطا كُثُرٌ ... لما تحوم على الغدران والنهَر
والقلب كالطير قد أرداهائده ... بين الظلوع خفقاً خفق محتضر
أهيم والشوق يطويني وينشرني ... والدمع طافٍ بجفني غير منهمر
حتى مررت بروض شاق منظره ... قد أتقن الصنع فيه حذق مقتدر
لا الشعر وافٍ ولا التصوير يدركه ... وإن سمت ريشة الفنان في الصور
هنا الغصون بأعطاف لها رقصت ... مثل الكواعب ذات الدَّلِّ والحور
والعندليب يغنيها فيُسمعها ... أشجى النشيد بلا عود ولا وتر
والزهر في مهرجان ريحه عبق ... ما بين منتظم زاهٍ ومنتثر
والحوض يبدو كمرآة قد انعكست ... في وجههاور الأفنان والثمر
أو خد عذراء لم يجذب بتطرية ... إذا تدلت عليه خصلة الشعر
وقفت بالباب والأشواك تحرسه ... أسأل الطائر الشادي عن الخبر
فأومأت مورفات الدوح مخبرة ... تزوج الورد بنت السوسن النضر
فالورد في حمرة الجلباب متشح ... أما العروس ففي بيض من الأزر
يحنو عليها وأحيانا يقبلها ... كمدنف آب للأحباب من سفر
كلاهما ليس يخشى عين مرتقب ... في الحب أو قول واش في الهوى أشر
يداعبان ضياء الشمس في شغف ... وظلمة الليل في أنس وفي سمر
روحان قربت الأشواق بينهما ... على اقتراب من الريحان والزهر
والكل جذلان لا الأيام توحشه ... ولا تبدلفو العيش بالكدر
ثم التفت إلى نفسي وقد عصفت ... فيها الهموم وأذوت زهرة العمر
بيني وبين الليالي ما يكدرني ... كأنني جئت ذنباً غير مغتفر
فقلت يا ليتني في الروض زنبقة ... أو بعض ورد ولم أخلق من البشر

دمشق
عبد الجبار جرمود
لوعة الربيع
وقفت - ولم أقصد - على ضفة النهر ... وطرفي ممتد إلى حيث لا أدري!
وفي النفس ما فيها! عواطف جمَّة ... يضيق بهادري، ويعيا بها فكري
عواطف، لا أدري حقيقة أمرها ... ولكنها بين الكآبة والشعر!
أراقب سير الموج، والريح سجسجُ ... تعابث وجه الماء، وهو بها يزري
ودجلة يجري في جلالٍ وروعةٍ ... وعزم كعزم الدهر، كراً بلا فرّ
تطلُّ عليه الشمس من خلف رفرفٍ ... - على الضفة الأخرى - من النخل والسِّدر
فينساب، لا يلوي على ما وراءه ... كأن به شيئاً من التيه والكبر
يجرُّ على الشطَّين فضل غلالةٍ ... من الموج، كالأملاك في غابر الدهر
رزين، قويّ، يملأ النفس هيبةً ... وقور، فسيح الصدر، متزن السير
فخيلّ لي - والماء ينساب جارياً ... كان حياة بين أثنائه تجري
ولو كان ذا روح، لعمرك - لم يكن ... بأهيب منه وهو يجري، ولا يدرى!
فحولت وجهي، ساكن النفسامتاً ... سوى خفقان خافت الجرس فيدري
فما هاجني إلا جلالة موكبٍ ... تسير به شمس الأصيل إلى الخدر
وقد برزت في حل من شعاعها ... مذهبة، في منظر فاتن مغري
ومن خلفها، يحملن فضل إزارها ... جوار من السحب المنوّرة الأز
ودرت بيميني حول نفسي فلم أجد ... سوى كل ما عند الطبيعة من سحر
فذى الأرض كيف إزَّينت وتجملت ... بثوب من الأعشاب رصّع بالزهر
وهذا النسيم الرطب، نشوان فارح ... بما نال عند الزهر من عاطر الذكر
وهاتيك أرواح تَجولُ في الفضا - ءِ محسوسة التأثير، مجهولة الأمر
لعمرك ما أدري! أأرواح جِنّة ... ترفرف، أم روح الربيع انبرت تسري
أم السحر هذا، أم خيالات شاعر ... سبت لبّه أشباح آلهة الشعر
وذانك عصفوران من خلف دجلة ... يطيران في جو من الحب والطهر
وتلك حمامات ينحن نوادباً ... يساجلن فوق الدوحادحة القمر
وكلٌّ بتمجيد الطبيعة هاتفٌ ... مُهنٍّ بميلاد الربيع ابنها البكر
بدت تعلن البشرى بشتى لغاتها ... فذا الطير بالنجوى، وذا الزهر بالنشر
وتلمح حتى للجماد بشاشة ... ووجهاً ودوداً يستميلك كالسحر!
حياة لعمري لامست كل ميت ... تحس بها نفسي، وينكرها فكرى!
فمالك ياقلبي كأنك نائم ... تساورك الأحلام غامضة السر؟
لئن كنت في ليل الطبيعة راقداً ... شتاءً، فأنت اليوم في غرة الفجر
حنانيك هذا يومك المرتجى فقم ... وباكر لذاذات الهوى الطامح العذري
حرام علينا أن يمرّ بنا سُدى ... ولم نقض منه مأرب الشاعر الحر
فجارِ الملا إن كنت منهم ومثلهم ... وطر في الفضا إن كنت من زمرة الطير
ونُح بالأسى إن كنت أسوان يائساً ... وبح بالهوى إن كنتبا أخاضر
وفيما الأسى واليأس - والكل منقضٍ؟ ... وأنت لدي عيدين جاءا على الأثر
فهذا ربيع للطبيعة ناضرٌ ... جميل المحيا، زاهر، باسم الثغر
وهذا ربيع الشباب محبب ... بأحلامه، حلو المنى، ناعم البشر
وما العمر إلا مدة ثم تنقض ... كالحلم، بما فيها من الخير والشر
لقد فاتني ما قد خلقت لأجله ... وأدركني ما يرتجي نيله غيري
فما طعم عيشي؟ لا شقاء ولا هنا ... ولا يائسة تقضى ولا أمل يغرى!
حنانيك فامرح في الضلال أو الهدى ... وهبتك ما تهوى فمالك من عذر
وخذ قسطك الأوفى - من الأرض والسما ... من الروح والريحان والنور والنِّور
العراق - العمارة
عبد الحق فاضل الصيدلي
من الأدب الهندي
الببغاء
لشاعر الهند الأكبر طاغور

ترجمة الأستاذ مصطفى كامل المحامي

كتب طاغور هذه القصيدة التي نترجمها اليوم منذ بضع سنين في بنغالي تحت عنوان (الببغاء) وقد فهم بعض الناس في الهند عند قراءتها أنها رمز لاذع عن النظام المدرسي المدخل بالهند، ثم انتشرت هذه القصيدة في بلاد أخرى من آسيا فقال الناس (من الممكن أن الشاعر قد أراد بشعره أن يشير إلى النظام الذي أدخل في بلادنا) ورأى آخرون أن غرض النظام الذي أدخله الأوربيون في آسيا هو الحصول على النتائج التي نجحت مع الببغاء؛ وتصايح بعض لأوربيين (أرأيتم الام يؤدي الأمر إذا أردنا أن ندخل التعليم العالي في شعب لا يفهم شيئاً من مبادئنا التعليمية العالية) ثم يديرون رؤوسهم والرضى ملء نفوسهم، وقليل ما هم الذين أدركوا أن ببغاءهم أيضا ينحدر إلى الموت في نفس الوقت.

- 1 -

كان عصفورا شديد الجهالة يهزج كل يوم، يقفز ويطير من هنا وهناك، دون أن يعنى بالعلم أو حسن السلوك.

فقال الملك يوما لا يصلح هذا العصفور لشيء، وهو يحدث مع ذلك أضرار جمة، فيتلف ثمار الحديقة الملكية؛ واستدعى في الحال وزيراً وأمر أن ويعلم العصفور أحسن التعليم.

- 2 -

كلف ابن أخي الوزير بتعليم العصفور، فعقد المعلمون أولاً مجلسهم، ثم تباحثوا وتجادل دون انقطاع، في الأسباب الحقيقية لجهل العصفور؛ وقرروا أخيراً أن عش الطائر المصنوع من الخشب، شديد الضيق فلن يسع العلم العريض، ورأوا قبل كل شيء أن يصنع له قفص جميل.

- 3 -

استدعواانعنا ليصنع قفصاً من ذهب، فجاء آية فنية مثيرةللإعجاب، حتى بادر الناس من كل فج لرؤيته وقالوا: (سيتل العصفور أخيراً تعليماً حسناً)؛ وصرح آخرون: (حتى ولم ينل أحسن التعليم، فإن له الحظ أن يكون له قفص جميل! ما أسعد جَد هذا العصفور! ورجع الصانع سعيداً ملئ اليدين من حسن الجزاء، وابتدأ الأستاذ درسه بعد أن جذب نفساً من غليونه، وقال لا بد لي من مكتبة. فدعا ابن أخي الملك نساخي البلاد، فنسخوا ونقلوا الكتب حتى تجمع منها الكثير، فقال كل من رأى هذه الأسفار: (مرحى سيكون له الآن من المعرفة قدر وفير)، ورجع النساخون بجوائز طردت عنهم إلى الأبد شر الفاقة.

وبذل الوزير لهذا القفص الثمين من ضروب العناية ما ليس له حدود، حتى جهر الناس جميعا وقالوا: سيتقدم التعليم بكل هذه الجهود، وتوفر على العناية بهذا القفص كثيرون، ولرقابة هؤلاء توفر نفر أكثر، وفازوا جميعاً بأسمى الهبات والعطايا.

- 4 -

تنقص الدنيا أشياء كثيرة، إلا أن الساخطين لا ينقصهم أن يهمسوا، (إن القفص معني به كل العناية، لكن العصفور على ما يظهر مهمل)؟ وبلغ الهمس آذان المليك.

فاستدعى الوزير واستخبره معنى هذا الهمس، فقال الوزير:

(يا مولاي، إذا أردتم معرفة كل الحقيقة، فاستدعوا المعلمين والنساخين والصائغ والرقباء على القفص ومراقبي الرقباء وقد قال الساخطون ما قالوا، لأنهم يتضورون من الجوع)، فاقتنع الملك وجزى الوزير، فأهدى سلسلة من الذهب إليه.

- 5 -

وتاق الملك يوماً إلى معرفة نجاح العصفور، فتوجه إلى المدرسة في حفل من الوزراء والأصدقاء والندامى، وأذاعوا زيارة الملك في الأبواق، ودقت النواقيس المعلقة فوق المدرسة، وأخذ العلماء يرتلون الأجزاء المقدسة، وهتف البناؤون والعمال والنساخ والصائغ فيوت واحد (ليحيى الملك).

وقال الوزير (مولاي! انظر!)

فأجاب الملك (مدهش! ولكن ما هذه الضوضاء؟)

فقل الوزير: ليست هذه ضوضاء فحسب، فان وراءها معنى خبيئاً؛ وطرب الملك كثيراً

وجاز الدهليز، وحين أراد امتطاء الفيل خرج الناقد من مخبئه خلف شجيرة وقال بخبث: (هل رأيت العصفور يا مولاي؟)
فأجل الملك وقال: (لم أر العصفور حقاً) وكر راجعاً مع الأساتذة وهو يقول: (أريد أن أعرف الطريقة التي اتبعتموها في تعليم العصفور، فلما رآها الملك وجدها بديعة، ولم يلاحظ نقصاً في شيء، كما أن الأوامر كلها مرعية، ما كان في القفص ماء ولا حَب، وإنما كان يحشى فم العصفور بأوراق الكتب، فلم يعد قادراً على التغريد، إذ لم تبق أدني فرجة يخرج الصوت منها؛ وما كان أبشع المنظر! وقبل أن يمتطي الملك الفيل أمر بالناقد فلكمه جنده.
- 6 -
وغدا العصفور دقيقاً رقيقاً على مر الزمن حتى بدا كالميت، لكن الحراس ظنوا أنه مازال هناك أمل، والتفت العصفور نحو ل الضوء في الصباح، ورفرف بالغريزة على حائط القفص بجناحيه، وحاول أن يقطع أسلاك القفص الذهبية بمنقاره الواهن، فصاح الحارس: (أي أحمق!) وأسرع فأحضر الحداد فصنع أسلاكا من الحديد، ثم قصوا جناحي الطائر.
وقال أصدقاء الملك وهم يهزون الرءوس: (ليست طيور هذه الملكة جاهلة فحسب، وإنما تجمع إلى الجهل نكران الجميل)، وعاود المعلمون واجبهم باليقين الراسخ، ورجع الحداد قريراً بإلعطاء الجزيل، والحارس القانع بالراتب المبذول جزاء انتباهه
- 7 -
وقضى العصفور، ولميعرف أحد متى مات، واذاع الناس قالة السوء، واستدعى الملك ابن أخيه يسأله عما حل بالعصفور:
- إن تعليمه قد تم يامولاى
- الا يقفز الآن؟
- كلا!
- أما يزال يطير؟
- كلا!
- أيغني؟
- كلا!
- فمذا يفعل إذا جاع؟
- لاشىء
- أحضره إلى فاني اريد أن أراه
واحضروه إلى الملك فلمسه وضغطه دون أن يظهر الطائر علامة على الحياة الا حفيف الورق الذي حشوا به معدته، على حين اهتزت أوراق الشجر وقد مرت بها نسمة من نسمات الربيع!
(طاغور)
العلوم
خلق المادة في الكون
بقلم فرح رفيدي
أين يخلق الكون؟ - كيف توصل ملكان إلى اكتشاف مصدر الأشعة. الكونية وبناء نظريته في خلق المادة في الكون؟ في الفضاء خليط من المؤثرات إلتي تفعل فعلها في الأجسام والأشياء وهي مستترة في الأثير، لا ترى وكأنها ترى، كائنة وكانها غيركائنة. وهي مزيج من الاشعاع المنبعث من جميع الجهات. فاشعاع من الشمس تراه العين وتحس به، واشعاع اخر من الشمس لا تراه العين ولا تحس به، وأشعة مصدرها الأرض وأخرى مصدرها النجوم وا لشمس، أشعة إكس وأشعة والراديوم، والأشعة الكهربائية واللاسلكية وأشعة الحرارة. وكل هذه تنطلق بسرعة متناهية في الفضاء ونحن لانشعر بها ولا ندري حركتها. ولهذه الأشعة تأثير خاص في الهواء المحيط بنا وبها وخصوصا الأشعة ذات الموجة القصيرة كأشعة أكس او الراديوم، فانها تحلل الهواء إلى ذرات مكهربة تكهرباً سلبيا او ايجابيا
والذرات المتشابهة بالكهربائية تتنافر من بعضها كلما تقاربت، والذرات المختلفة الكهربائية تلتصق وتتحد في تلاقيها وبذالك تفقدفة التكهرب وتصبح مادة في حالتها

الطبيعية.
لقياس مقدار تكهرب الهواء أو تحلله إلى ذرات من تأثير هذه الأشعة توجد الة خصوصية تقيس الكهربائية إلى درجة دقيقة جداً. وهذه الآلة هي (الالكتروسكوب).
جرب أحد العلماء أن يمنع الأشعة المعروفة من دخول هذه الآ له ليرى هل يبقى تأثيرها في الهواء أم يتلاشى باختفائها ومنعها، فوضع الالة في داخلندوق من الرصاص الغليظ ليمنع دخول أقوى أشعة معروفة، فوجد بعكس ما توقع من أن الآلة ظلت متأثرة بالرغم من احاطتها بالرصاص فاستنتج من ذلك وجود أشعة أقوى من الأشعة المعروفة قدرت أن تخترق سماكة الحائط الذي بناه وتتصل بالآلة التي وراءه.
ظل هذا الاكتشاف سبع سنوات غامضا، إلى أن قإم رجل سويسرى سنة 1910 وصعد إلى علو 4500 متر ومعه الالكتروسكوب، فوجد خلاف المنتظر، بان تكهرب الهو اء. أو تأينه (تحليله إلى ذرات مكهربة تسمى الواحدة منها أيون ازداد مع ارتفاعه. فقد ظن أن مصدر
هذا التأثير أشعة منبعثة من الأرض وليست من السماء، فعلى ذلك مقدار التأين يجب أن يقل بدلا من أن يزداد مع الارتفاع. بعد ذلك بقليل قام المانيان وطارا إلى علو 9 كيلو مترات فوجدا أيضا ذات النتيجة.
لم يكن العالم الأميركي أثناء ذلك ساكتاً عن هذه (التجارب ونتيجتها الواحدة، بل أثرت عليه كل التأثير، وحفزته للعمل بأن يقوم بهذه المهمه في اكتشاف أصل هذا التأثير ومصدر تلك الأشعة التي لم تكن في الحسبان ولم تخطر على بال. فقام في سنة 1926 مع مساعدة وصعد منطادينغيرين في الفضاء إلى علو 15 كيلو متراً. وكان المنطادان مرتبطين الواحد بالآخر، وحجم أحدهما مصنوعا بالقدر الذي ينفجر فيه عند العلو الطلوب، والآخر كان ليقل الأدوات الأتوماتيكية لقياس وتقييد ألتأثيرات الجوية ولارجاعها بعد بلوغ علوها إلى الأرض سالمة. فكان من هذه الآلات الالكتروسكوب لقياس الكهربائية والترمومتر للحرارة والبارومتر لمقدار ضغط الهواء، والاواح الفتوغرافية المختلفة لتنطبع عليهاور التأثيرات المختلفة، ثم الالة التي تسير كل هذه الأجهزة حركة أوتوماتيكية مطردة. ومع كل ذلك فأن وزن المنطادين مع مافيهما من غاز وآلات متعددة لم يزد على 190 جراماً أو ما يعادل 50درهماً تقريباً. وذلك مما يدل على دقة الصنع والتركيب ويبين مقدار أهتمام ملكان بالتجربة وتفرغه لها. والنتائج التي ظهرت من هذه التجربةأتت مطابقة للتجارب الأولى. فلم يعد بعد شك في وجود أشعة خفية دقيقة ذات تأثيرعظيم.
على أن ذلك لم يقنع ملكانقط، ولم يقلل من شوقه لمعرفة تلك الأشععة وما أليها. ففي ذات السنة التي أجري فيها تجربت المنطادين، عد بالأكتروسكوب الى قمم جبال مختلفة العلو في أميركا، ليرى تماما مقدار اختلاف التأين باختلاف معين في الارتفاع. وقد تحقق من ذلك شيئان: الأول أن قوة (الأشعة تزداد مع الارتفاع، وذلك يؤكد بأن مصدرها ليس هو الأرض بل السماء. والثاني أن هذه الأشعة ليست متجانسة، بل من ثلاثة أنواع، تختلف عن بعضها بقوة نفوذها فى الهواء، فمنها لقوتها من قدرت أن تخترق الهواء كله وتصل سطح الأرض، ومنها من استطاعت فقط أن تنفذ في بعضالطبقات العليا غير المتكاثفة، والأخيرة لضعفها لم تقدر على التعمق كالأوليين فظل تأثيرها محصواً في الطبقات الرقيقة من الهواء. تجارب في الفضاء وفوق سطح الأرض أكدت أن الأشعة آتية من فوق، ولكن
يتحقق من ذلك أكثر، خطر لملكان أن يجري تجاربه في داخل الأرض تحت الماء. فوضع الكتروسكوباً أدق من لأول فيندوق من الرصاص يحتمل الضغط على عمق 67 قدما في الماء، أي يحتمل ضغط كيلو جرامين لكل سنتيمتر مربع. فاذا كان مصدر هذه الأشعة حقيقة من الفضاء فالتأثيرات تحت الماء يجب أن تقل كلما ازداد الاناء عمقا، لأنه كلما نزل الاناء في جوف الأرض بعد عن مصدر الأشعة، وبذلك ضعف تأثيرها على الهواء بحكم السافة البعيدة التي تقطعها. والنتيجة أتت - كما توقع - أي أنها كانت تضعف تدريجيا في نزولها تحت الماء. وقد وجد من اختراق هذه ام لأشعة جميع طبقات الهواء، ومن نفوذها 50قدما في الماء. أن لها من ألقوة ما يعادل 100 ضعف قوة أشعة إكس، وأن طول موجتها أصغر من طول موجة الثانية ب 5000مرة تقريبا. وهي لذلك قادرة على اختراق حائط من الوصاص عرضه متران.

اجرى بعد ذلك ملكان تجارب متعددة في الليل والنهار، وفي أوقات مختلفة من الليل وأوقات مختلفة من النهار، وفي ضوء القمر وتحت ستر الظلام والنجوم بكثرتها لامعة مشعة، وفي أمكنة ببعدة عن الجبال عن المدن، وفي المغاور حيث لا تدخلها الشمس، ولا ينفذ اليها شعاع النجوم، وفي الصيف تحت تاثير حراره الشمس المحرقة، وفي الشتاء تحت تأثير البرق والرعد، ليرى هل لكل هذه الأشياء والظواهر الطبيعية تأثير خاص على الأشعة وقوة انفعالها في الهواء. فوجدها غير متأثرة بها جميعا. فكان تأثيرها واحداًيفا وشتاءً ليلاً ونهارا، وما كان ليفرق بين تأثيرٍ وتأثير إلا الارتفاع والهبوط. فاستنتج من ذلك أن الشمس والنجوم ليست مصادر هذه الأشعه.

ذكرنا أن التجارب دلت على وجود ثلاثة أنواع من هذه الأشعة، تختلف عن بعضها بقوة نفوذها. وقد وجد ملكان من الحقائق التي توصل اليها أن نسبة هذه القوى الى بعضها كنسبة الأرقام الثلاثة هذه: 35،.: 8 ' ,.،: 4.،. الى بعضها. وكل رقم منها يشيرالى نوع من هذه الأشعة. وقال ملكان من حيث ان الأشعه لا تأتينا من الأرض او من النجوموالشمس فلا بد من ان تكونادرة عن احوال ومقتضيات مضادة للأحوال والمقتضيات إلى في جوف الشمس أو في داخل النجوم. وبما أن الأحوال فيالثمس تدعو إلى انصهار وهدم المادة من شدة الحر والضغط فالأشعة هذه يجب أن تكون ناتجة عن بناء المادة

وتركيبها من ذرات (الكترونات وبروتونات) في أماكن بعيدة عنا في الفضاء، حيث تقرب درجة الحرارة من الصفر المطلق. 273 - قسم آستون العالم السويدى جميع العناصر التركب منها

الكون إلى قسمين: مشعة كالراديوم وغير مشعة كالحديد والرصاص. وقد لاحظ أنه لما كان عنصر الهيدروجين أبسط العناصر تركيبا، إذ هو مركب من بروتون واحد والكترون واحد، وأخفها وزنا، فانه يمكنافتراض أن جميع العناصر الأخرى متركبة منه كتركيب جميع الأعداد الصحيحة من الواحد الصحيح، فذرة الهليوم تساوي في وزنها أربع ذرات ذرات من الهيدروجين، وذرة الصوديوم تساوى 23 ذرة من الهيدروجين أيضا. وكذلكافترض ملكان ان الهيدروجين يدخل في تركيب جميع العناصر، وأنه الحجر الأساسي في بناء الكون. وقد افترض ملكان أيضاً طبقا لمعادلة اينشتاين (القائلة بأن انصهار جزء من المادة في داخل النجوم يولد جزءاً مقابلاً من الحرارة والقوة تشع في كل أنحاء الفضاء). إن هذه الحرارة والقوة المنبعثة باستمرار من النجوم، ستصير يوما ما وفي مكان ما مادة تحت الظروف الملائمة لبنائها، وأنه ما من مادة تنعدم في النجوم إلا ويقابلها بناء ثان في غير النجوم.

بقسمه العناصر إلى , مشعة وغير مشعة ترى أن المواد المشعة اقل من المواد غير المشعة، وهذا شيء طبيعي، لأن هذه المواد باشعاعها الدائم تتحول إلى مواد أخرى، وبذلك تقل نسبة وجودها في الكون تدريجياً. فأخذ ملكان بعد ذلك ثلاثة عناصر تولف الجزء الأكبر في تركيب الكرة الأرضية والشهب والنجوم. ووجد أن هذه العناصر الثلاثة في الهيليوم والأو كسجين والسليكون. وقال اذا كانت هذه الأشعة التي لاحظناها ناتجة عن بناء العناصر فأن الهيدروجين وهو أبسطها تركيباً الحجر الأساسي في هذا البناء. وبواسطة معادلة اينشتاين استخرج مقدار القوة الضائعة في بناء كل ذرة لكل من العناصر الثلاثة وبواسطة معادلة أخرى اشترك في إيجادها ثلاثة شباب: (ديراك شاب انجليزي، و (كلاين شاب ألماني، و (نشينا شاب ياباني، استخرج نسبة قوى هذه العناصر الضائعة إلى بعضها، فوجدها كما يأتي: 3،.: 8.،.: 4.،. وهذه كما نرى ذات الأرقام التي استنتجها من تجاربه، إلا في الرقم الأول فالاختلاف فيه تعلله قلة الضبط في التجارب فقط.

وهكذا كان نجاح ملكان في تعليل نظريته في بناء الكون من طريقين: طريق التجربة التي أدت إلى اكتشاف تلك الأشعة الصادرة عن بناء الكون، ولذلك سميت الأشعة الكونية؛ وطريق الرياضيات التي طابقة نتائج تجاربه كل المطابقة، فدلت لا على اكتشاف أشعة جديدة من مصدر جديد فحسب بل أيضا على توحيد النظريات والمعادلات الرياضية مع الظواهر الطبيعية، وعلى دقتها وتلاؤمها بعضها مع بعض.

جامعة بيروت

فرح رفيدي

اسحاق نيوتن - 3
1642 - 1727
للأستاذ مصطفى محمود حافظ
كتاب (البرنسبيا):
في ابريل سنة1676 تقدم نيوتن إلى الجمعية الملكية بكتابه المشهور (البرنسبيا) وهو في ثلاثة اجزاء. وقد شرح في الجزء الأول منهنظريته الخاصة بتحرك الأجسام مع البرهان الكامل لقانون الجذب العام. وقد أمرت الجمعية الملكية أن يطبع هذا الكتاب علىنفقتها الخاصة، ولكن ذلك لم يتم لانها لمتشأ أو لم تقدر على جميع النفقات الازمة لذالك. ولك ن (هالي) ديق نيوتن قام بذلك على نفقته الخاصة. فخرج الكتاب بالاتينية في مايو سنة1687.
ولم تكد تظهر أصول الجزء الأول من (الرنسبيا) حتى قام دكتور (هوك) ينسب إلى نفسه الأسبقية في الكشف عن قانون التربيع العكسي متهماً نيوتن بأخذ هذا الاكتشاف عنه. وبذك اتسعت شقة الخلاف بين العالمين، ولكندكتور (هالي) تمكن بتأثيره على نيوتن من أن يجعله يشير في كتابه إلى أنه مع (رن) و (هوك) و (هالي) توصلوا في نفس الوقت إلى قانون الجاذبية من قوانين (كبلر) في حركة الكوكب.
وقد اشتمل الجزءالثاني من البرنسبيا على مبادى علم الأيدروستاتيكا، والأيدروديناميكا، كما اشتمل على تطبيق قانون الجذب العام في شرح ظواهر المد ونسبتها إلى مكان القمر من
البحار، وقد أضاف إليها هو مواضع الشمس أيضا. وقد احتوى البرنسبيا أيضاً على موضوع المذنبات، فاعتبرها أجساماً سماوية تسير في قطع ناقص هائل، ولا تظهر لنا إلا وهي تقطع جزءاًغيراً من هذا القطع الناقص بالقرب من الشمس، وعلل بذلك ظهورها بعد أزمنة معينة. وبذا يكون قانون الجاذبية قد امتد خارج المجموعة الشمسية فشمل هذه المذنبات أيضاً. لقد احتوى هذا الكتاب نواة الفلسفة الطبيعية، ولكنه لم يؤخذ به كأساس هي لذلك إلا بعد سنوات، وذلك لحملات النقد الكثيرة التي كانت توجه إليه من أمثال (هوك) و (هيجنز) و (ديكارت) وأن كان البعض قد آمن به بعد حين.
وبرغم اتصال نيوتن بجامعة كامبردج طول حياته فانها لم تكن الجامعة الأولى التي أخذت بما في كتابه من فلسفة، وسبقتها في ذلك جامعات اسكتلندا.
حياته العامة:
أخذ نيوتن راحة طويلة بعد ذلك المجهود الذي مكنه من اتمام البرنسبيا في سنتين فقط. وفي سنة1688 اختير عضواً برلمانياً بعد دفاعمجيد قام به مع غيره لصيانة حرمة جامعته عندما أمر الملك (جيمس الثاني) جامعة كامبردج أن تمنح قساً جاهلاً درجة (الأستاذية)، مما كان له أثر في رجوع الملك عن أمره. وقد انصرف إلى أعماله البرلمانيهسنتين، ولو أنه لم يسجل له أي مساهمة في مناقشة سياسية. وفي ذلك الوقت اصابتة أكبر محنة لاقته في حياته، تلك هي وفاة امه التي ضحت من أجله بالكثير من القليل وساعدته للوصول إلى ما وصل اليه. فبرغم قلة دخلها السنوي الذي لم يتجاوز الثمانين من الجنيهات، كانت تقتر على نفسها لتنفق عليه في (جرانتام) وفي سنواته الأولى في كامبردج.
وفي سنة1690 عاد إلى كامبردج ليزاول التدريس مرة أخرى، كما اشتغل بدراسة تأثير الضوء على شبكية العين بتجارب أجراها في نفسه. وقد أجرى تجارب لتقدير درجات انصهار بعض المعادن وملاحظة معدل برودتها، وقال إن هذا المعدل يتناسب وزيادة درجة حرارة الجسم على درجة حرارة الوسط الذي يحيط به. ولكن بحوث (دولنج دبتي) أثبتت بعد ذلك أن هذا ليس بصحيح إلا إذا كان الفرق بين درجتي الحرارةغيراً.
وقد شاء نيوتن أن يخرج للعالم كل ما وصل إليه في علم البصريات، وهو العلم الذي كان يشغل دائما جزءاً من وقته، ولكن كارثة لا يعلم إلى الآن سببها الحقيقي سببت حرق أغلب
مذكراته. فقد ترك غرفته ليلاً وبها شمعة موقدة وأخر إلى أجل قليل، فعاد ليجد الشمعة قد انكفأت فأحرقت جُل مذكراته. ويقال إن كلباًغيراً يدعى (دياموند) كان السبب في ذلك،

ولكن لسوء الحظ لم يعرف عن نيوتن الميل إلى إبقاء مثل هذه الحيوانات برغم حبه العظيم لها. وبذا لم يتمكن نيوتن من إعادة مذكراته وإتمامها إلا بعد اثني عشر عاماً.

في دار سك النقود

لم تكن المائتي جنيه التي كان يتقاضاها نيوتن سنويا عن وظيفة الأستاذية في الجامعة لتكفي للقيام بحاجاته؛ فسعديق له يدعى (شارل مونتاج) حتى عين في سنة 1695 وكيلا لدار سك النقود بمرتب سنوي يتراوح بين 500 و 600 جنيه. فوجه كل عنايته إلى عمله بعيداً عن المناقشات العلمية، ولكنه مع ذلك كان يشتغل بحل المشكلات إلى تقابل غيره. ففي سنة 1797أعلن الرياضي الكبير (جون برتولي) عن معضلات رياضية يطلب إلى العلماء حلها، ففعل ذلك نيوتن في يوم واحد. وفي سنة1699 أصبح رئيساً لدار السك بمرتب سنوي قدره 1200 من الجنيهات، فترك مهنة التدريس التي كان يزاولها مع وكالته للدار.

وقد وجه نيوتن عنايته إلى إصلاح العملة الانجليزية مما دخلها من الغش، فوفق إلى ذلك بعدعوبات لاقاها هو وصديقه (هالي) الذي عينه مديراً لأحد الفروع، ممن كانوا يستفيدون من ذلك الغش. فاتهموه بالرشوة عندما وجدوه يرفضها.

وفي سنة 1700 اكتشف نيوتن آلة السدس (السكستانت) وعي الآلة التي يتمكن بها الملاحون من معرفة أماكنهم في عرض البحار، ولكن هذا الاكتشاف ينسب عادة إلى (هادلي).

وفي سنة 1703 نال نيوتن اعظم شرف منحه في حياته، وهو رياسة الجمعية الملكية؛ وقد لبث في هذه الرياسة حتى موته، ولا تزالورته معلقة فوق كرمي الرياسة. وبعد سنة من ذلك التعيين توفي منافسه الدكتور (هوك) وأتم كتابه (البصريات). وقد احتوى هذا الكتاب كل ما وصل إليه في علم الضوء، كما احتوى أيضا على رسالة في حساب التكامل، قال إن أساسها هو ما وصل إليه في سنة 1665 عندما كان في (وولثورب)، فقام يعارضه في ذلك العالم الرياضي (ليبنتز)، الذي اصبح بعد وفاة (هوك) شر خلف لأعند سلف. هاجم نيوتن

مهاجمة عنيفة، فاتهمه بسرقة اساس علم التكامل منه، فقام دكتور (كيل) من اكسفورد وأعلن أن (ليبنتز) هو سارق حساب التكامل من نيوتن. والواقع أن كليهما وصل مستقلاً إلى علم حساب التكامل، إلا أن نيوتن له الأسبقية في ذلك وإن لم ينشرما وصل إليه في حينه، كما أقرت بذلك اللجنة التي عينتها الجمعية الملكية للتحقق من مبلغحة أقوال المتنافسين. عند ذلك اختار (ليبنتز) ناحية أخرى يهاجم منها نيوتن، فادعى أن فلسفته إلحادية، واستمر زمناً طويلاً كان هو البادئ بالعدوان دائما.

وقد تحدي نيوتن مرة أن يحل مسالة رياضية فحلها نيوتن في ليل واحدة بعد كل اليومي في دار السك.

نيوتن الرجل

كان طويل القامة، كث الشعر أبيضه، وقد لحقه الشيب ولما يزل في سن الشباب؛ كان كثير التفكير، يندر أن يشترك في مناقشة كلامية.

ذاق نيوتن طعم الفقر والحرمان في أيامه الأولى، وحتى بعد انتخابه عضواً في الجمعية الملكية قصرت موارده عن أن يدفع رسم دخول واشتراك الجمعية، فاعفي منهما مع ضآلتهما. ومع ذلك كان كريماً يساعد أقاربه وأصدقاءه.

كان وديعاً خجولاً متواضعاً، وكان دائماً يردد قوله: (لا أعلم ماذا يعتقده الناس فيّ، ولكني أعلم أنني كطفلغير ألعب على الشاطئ فأجد من حين لآخر حصاة قدقلتها الأمواج، أودفة تدعوني إليها بحسنها، بينما محيط الحق أماي لم أكشف منه شيئاً).

لم يكن يميل إلى الظهور واسترعاء الأنظار إليه، كما كان لا يميل إلى المناقشات والمشاجرات، ومع ذلك لازمته ولاحقته بعد كل جديد كان يصل إليه. كان ضعيف الذاكرة، لا يعتني كثيراً بملابسه، غريباً في أذواقه. ولكنه كان يفني نفسه في عمله، وكثيراً ما آثر ذلك فيحته.

كان نيوتن يعتقد بوجود الله، رغم ما اتهمه به (ليبنتز) من الكفر والإلحاد. كان يعتقد بوجود قانون كوني عام يحكم كل أجزاء الكون، وهذا القانون هو إرادة الله. وقد رأى في ثبوت قانون الجذب العام سيطرة الخالق على الكون بأجمعه. وقد أنعمت عليه

الملكة (آن) بلقب الفروسية (سير) في زيارتها لجامعة كامبردج في سنة 1705. وكان يعيش في أواخر أيامه في لندن وقد أصبحت له مركبة خاصة.

لم يتزوج نيوتن برغم انه كان يحب (مس ستوري) التي تزوجت مرتين، وكانت تعتني به (حنا) أخته من أمه. وقد أخذتحته في الاضمحلال في سنة 1724، وأخذ يشكو مرض الشيخوخة، ولكنه ظل يرأس الجمعية الملكية حتى مات في سن الخامسة والثمانين في مارس سنة 1727. ودفن في وستمنستر، وقدرت ثروته بمبلغ 32 الفاً من الجنيهات، الجنيهات أوصى بها إلى أولاد اخوته.

(تم البحث)

مصطفى محمود حافظ

مدرس بمدرسة المعلمين بأمبابة

الملاح التائه

للشاعر المهندس على محمود طه

بقلم الدكتور محمد عوض محمد

بعد كتابي الذي أرسلته إلىديقي الزيات منذ أيام، قد أدرك القارئ أنني راضٍ كل الرضى عن هذا العنوان الذي اتخذه الشاعر المهندس سمة لكتابه الجديد. وكيف لا نرضى عن هذا العنوان، وكثير منا من استقل زورق العمر، يطفو به فوق بحر الحياة، تتدافعنا رياح الحوادث، وتتجاذبنا أعاصير القضاء، وتحدق بنا الصخور والأمواج من كل جانب. فإذا أبصرنا على بعد جزيرة أمل ماثلة لأعيننا، لم نلبث أن نضل السبيل في البحث عنها، فلا نزال حائرين، ولا ننفك تائهين!.

كان ظهور (الملاح التائه) لعلي محمود طه و (وراء الغمام) لإبراهيم ناجي في شهر واحد وفي سنة واحدة من أحسن النعم الأدبية على قراء العربية. وقد ظهر كلاهما في شهر أيار، حين تخرج الورود والرياحين، فتملأ الأرجاء عبيراً وبهجةً وجمالا. ولست أشك في أن هواء الأدب قد امتلأ أيضا بأريج هذه الزهرات الأدبية اليانعة.

إن شعر علي محمود طه ليس مجهولاً للقراء؟ فقد ظهر منه (الرسالة) وفي (المقتطف) وفي (أبولو) شيء كثير. ولكن هناك فرق بين أن نطالع شعر الشاعر موزعاً متفرقاً، وبين أن نتناوله مجموعاً في سفر واحد. فأنا نجده في الصحف ملقى بين مختلف المواضيع والمنشآت التي تشبه في تنوعها وكثرتها (سلطة) الفواكه، قد اختلط منها التفاح بالموز، والعنب بالبرتقال، والشليك بالكمثرى، بل قد تجد أيضاً قطعاً كبيرة من اللفت أو الفجل، لا تدري كيف اتخذت سبيلها إلى تلك البيئة الغريبة عنها.

لهذا كان ظهور تلك الأشعار مجموعة في كتاب مستقل حادثاً يسترعي الأنتباه، ويستوقف النظر الذي كان يمر بتلك القصائد من قبل مراً سريعاً. ولدينا ويا للأسف شعراء كبار مثل حفني ناصف وإسماعيلبري لم يعنوا - ولم يعن أحد بعدهم - بجمع أشعارهم في كتاب. فليس في قلبنا منهم سوىورة مبهمة ناقصة فإخراج أشعار علي محمود طه في كتاب هو الحادث الذي يتيح للمرء أن يجلس لكي يتذوقها، ويتناولها بالنقد وبالدراسة.

تمجيد الشاعر

أول ما يلفت النظر في علي محمود طه أنه شاعر يعرف للشاعر منزلته العالية، ومكانه السماوي الهائل وسط هذه المخلوقات الأرضية البائدة، ولهذا نراه يخص الشاعر بقسم كبير جداً من قصائده الممتازة؛ فنراه يخبرنا في أولى قصائده أن (ميلاد الشاعر) حادث جليل ترقص له الأرض، وتبتهج السماء، وتبرق أسارير الدهر، ويزداد له البدر إشراقاً ونوراً. فتتنادى الملائكة، وتتجاوب الأصداء: ليستبشر العالم فقد ولد فوق الأرض شاعر!

وفي قصيدة أخرى يرينا الشاعر وهو يناجي ربه، في شيء من غرور الشعراء. وإذا كنا نرى في هذه القصيدة ما يجعلنا أحياناً نصيح: (تأدب يا موسى؟) فيجب على الأقل أن نذكر أن الشاعر اقرب الكائنات إلى الله، فيجوز له ما لا يجوز لسواه.

وفي قصيدة ثالثة: تعد آية في الشعر العربي يصف لنا الشاعر في غرفته، وصفاً بديعاً لا عهد لنا بمثله، ولئن كان في هذه القصيدة ينحو نحو الفرد دي موسه أو غيره كما يقول الأستاذ طه حسين، فإن هذا لا ينقص من جمال القصيدة ذرة واحدة، بل انه ليدهشنا أن تكون المعاني الغريبة قد انسجمت هذا الانسجام الجميل في ثوبها العربي

القشيب. ولها من وزنها العربي ما يسمو بها فوق الأوزان الإفرنجية الركيكة.
وفي قصيدة رابعة يحدثنا عن (قبر الشاعر). وقد أثارها في نفسه حديث عن الشاعر الفاضل المرحوم فوزي المعلوف، الذي قفي نحبه وهو بعد في ريعان الشباب ومزدهر الشعر، وسيحس القارئ في هذا التمجيد للشاعر شيئاً من تقدير المؤلف لنفسه، وإن لم يقل كلمة واحدة عن نفسه، وهذا خير مثال نضربه للذين لم يفهموا بعد أن هنالك مدرسة جديدة ومذهباً جديداً في الشعر العربي. فالقدماء من الشعراء كانوا هم أيضاً يقدرون للشاعر قدره. ولكن هذا الشعور كان مظهره فخر الشاعر بنفسه وبأدبه:

وما الدهر إلا من رواة قصائدي ... إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا
هذا عتابك إلا أنه مقة ... قد ضُمّنَ الدر إلا أنه كلم
واني وان كنت الأخير زمانه ... لآت بما لم تستطعه الأوائل

وفي الشعر العربي من هذا الشيء الكثير جداً، ذلك كان دأب القدماء ومن نحوا نحوهم من المحدثين، وقد تلطف شوقي وسلك طريقاً جديداً حين جعل غادته تقول: (أنتم الناس أيها الشعراء!) ولكن علي محمود طه لم يقل عن نفسه شيئاً ولم يفتخر بل جعل يصف لنا
الشاعر في مولده وحياته وفي أحلامه وأوهامه وفي تفكيره وحيرته، وفي أثناء ذلك نتبين ما للشاعر من قدر جليل ومكانة سامية.
ورجائي إلى الذين لم يصدقوا بعد أن هنالك تجديداً في الأدب العربي أن يفكروا في هذا المثل وحده الذي ضربته! فلعل فيه ما يقنعهم بان هنالك نواحي جديدة قد أخذ شعراؤنا يسيرون فيها وإنها من غير شك أكثر ملاءمة لروح عصرنا، فنحن اليوم لا نعبأ بشاعر يقول لنا إنه إذا قال شعراً أصبح الدهر منشداً. فلقد كان للفخر والتفاخر زمان غير هذا الزمان. ولكننا نرحب ونستأنس بهذه الصور التي تمثل الشاعر في أطواره المختلفة كما يحكيها لنا علي محمود طه.

تمجيد الطبيعة

الظاهرة الثانية التي تكاد تبرز أمامنا واضحة قوية في كلفحة منفحات (الملاح التائه) هي تمجيد الطبيعة، وهذه الظاهرة بادية فما ظهر من أدبنا الحديث كله، ولكنها شديدة الظهور في شعر علي محمود طه، وليس ذكره للطبيعة ذكراً سطحياً بل فيه تدبر وتعمق وإمعان فكر. وهي أحياناً تسيطر على القصيدة كلها كما هي الحال في (الشاطئ المهجور) و (صخرة الملتقى) و (القطب) و (عاشق الزهر) و (إلى البحر). ولكنها إلى جانب هذا منتشرة في الكتاب كله، ولن نعدم إشارة إليها في كل موضع.
وهذا يرينا كيف يسير شعراؤنا، بفطرتهم - ومن غير تعمد على ما أظن - في نفس الدور الذي سارت فيه حركة الرومانتزم في الشعر الغربي، فقد كان من أهم مظهرها الرجوع إلى الطبيعة.
والقارئ يعلم أن للوصف - سواء كان لظاهرة طبيعية أو لغيرها - طريقتين الأولى موضوعية فيحاول الكاتب بالألفاظ والعبارات أن يعطيناورة واضحة لما يراه أمامه كقول القائل:

والريح تعبث بالغصون وقد جرى ... ذهب الأصيل على لجين الماء

وكقول علي محمود طه نفسه:

نَزَلَتْ فيه تستحمُّ النجومُ الزُّ ... هرُ في جلوة المساء المنيرِ
راقصاتٍ به على هزج المو ... ج عرايا مهدلات الشعور
وعلىدره الخفوق طوينا الليل ... في زورق رضى المسير
ورياح الخليج دافئة تثنى ... حواشي شراعه المنشور

والطريقة الثانية في الوصف يرينا فيها الشاعر تأثير الموصوف في نفسه، ويتخذ من مظاهر الطبيعةوسيلة لأخراج ما يكنهدره من عاطفة أو حب أو ذكرى. كقول مهيار:

يانسيم الريح من كاظمة ... شد ما هجت الجوى والبرحا
الصبا - ان كان لابد - الصبا ... إنها كانت لقلبي أروحا

وكقول علي محمود طه في قصيدة (عاشق الزهر):

يا ليت لي كالفراش أجنحة ... أهفو بها في الفضاء هيماناً
أروح للنور في مشارقه ... وأغتدي من سناه نشواناً
وأرشف القطر من بواكره ... فلا أرود الضفاف ظمآناً

والأمثلة على هذا ونحوه كثيرة جداً لا حاجة إلى الزيادة منها. وقد كانت عناية القدماء بالنوع الأول اقل من عنايتهم بالثاني. وأما هاهنا فسيجد القارئ من النوعين قدراً وافياً.
. ومن رأيي أن قصيدة الوصف يجب أن تشتمل على النوعين فيبدأ الشاعر بتصوير الظاهرة التي أمامه حتى يكادالقارئ أن يلمسها، ثم ينتقل إلى تأثيرها في نفسه وإلى ما توحي به من حكمة أو عاطفة، وهذا سر القوة الهائلة التي نجدها في قصيدة مثل سينية البحتري في إيوان كسرى.
الغموض
والآن فلأعد. إلى علي محمود طه. وهنا أريد أن أسر إلى القارئأن مطالعة هذا الشاعر هي أحياناً عبارة عن لذة سهلة سائغة كما يجدها القارئ في قصيدة (عاشق الزهر) أو (قبلة) أو (غرفة الشاعر). أو رثاء عدلي يكن. ولكنه أحياناً، وفي بعض القصائد الخطيرة، سيجدها لذة لا تدرك بسهولة. بل لا بد لها من التأني والتدبر. أما الموسيقى فهي هناك لاشك فيها. لكن المعاني فيها بعض الخفاء.
وقد يرجع هذا الخفاء لازدحام المعاني المتعددة في البيت الواحد. انظر مثلاً إلى قوله في مطلع (الوحي الخالد)
لوجهك هذا الكون ياحسن كله ... وجوه بفيض البشر من قسماتها
فمثل هذا البيت لابد أن يقرأ في هدوء وتؤدة وأن يعاد غير مرة حتى نستوعبه فهماً. لكن هذا النوع من الخفاء لا يعترض عليه؛ بل قد يكون جميلاً مستحسناً. أما النوع الآخر فهو الذي دار فيه الجدال في (الرسالة) من قبل. وذلك أن هنالك شعراء لا يعنون فقط بالصور الواضحة الملموسة البارزة، بل يكون كذلك بالصور التي يحيط بها غشاء من الإبهام، كالتي يراها الحالم بين النوم واليقظة أو كالظل لا هو نور ساطع ولا ظلام حالك. وهذا ما يعبر عنه في الفرنسية ذلك مذهب الرمز بين أمثال فرلين وأتباعه يمثلهم في الشعر الإنكليزي إلى حدٍّ ما الشاعر سوْنبرْن.
فالقارئ لأمثال هؤلاء الشعراء يجد في شعرهم موسيقى بديعة وأنغاماً رخيمةً. أما المعاني البارزة الملموسة فإننا قد نطلبهادائماً، ولكنا لن نجدها دائماً. ويجب أن نكتفي منهم بصورة لا نعيها تماماً. بل نفهمها نصف أو ربع فهم. وذلك بالطبع لأنهم هم أنفسهم لم يفهموها الفهم كله، وإنما تأثروا بها غامضة مبهمة خافية، وأرادوا أنينقلوا هذا ألينا هذا الأثر كما هو.
وفي شعر علي محمود طه شيء يسير من هذا. نجده في مواضيع متفرقة، في مثل قصيدة (عاصفة في جمجمة)، أو في (الله والشاعر) وفي غيرهما. وكثير منا يعز عليه أن يمر بالبيت فلا يحيط بمعناه تمامًا، أو بالصورة فلا يتبين شكلها تماماً. وهذا الطراز من الناس لا يميل إلى هذا الضرب من الشعر وينكره. وقد يكون له بعض الحق في هذا الأنكار، ولكن يجب أن نذكر أن الشاعر الذي يخلص لشعره ولشاعريته مضطر لأن ينقل إلينا ما يراه أو يتوهمه من الصور واضحة من الصور واضحةأو خافية.
والذي قد نؤاخذ الشاعر عليه حقيقة شيء واحد، ومن السهل جداً عليه معالجته إذا وافقنا على رأينا فيه، وذلك أن الشاعر خيالاً قوياً مفرطاً في القوة، وكثيراً ما يركب هذا الخيال بلا سرج ولا لجام فيذهب به فيفياف بعيده وأقطار قاصيةلا نستطيع غالباً - أن نصحبه إليها. هذا الخيال القوي الذي كثيراً ما يطربنا ويعجبنا نراه أحياناً يتعبنا وينصبنا.
يعجبنا حين يرينا الشاعر هذه الصورة:
أيها الشاعر الكئيب مضى الليل ... وما زلت غارقاً في شجونك
مسلماً رأسك الحزين إلى الفكر ... وللسهدذابلاتجفونك
ويد تمسك اليراع وأخرى ... في ارتعاش تمر فوق جبينك
وفم ناضب به حر أنفا - سك يطغى على ضعيف آذينك
أو هذه الصورة:
وأطلت الأزهار ر من ورقاتها ... حيرى تعجب للربيع الباكر!
وجرى شعاع البدر حولك راقصاً ... طرباً على المرج النضير الزهر
فهذا وأمثاله كثير في (الملاح التائه) - هو من المعجب الطريف. وقد ساعده خياله القوي على إخراج هذه الصور الرائعة انظر إلى البيت الثالث في القطعة الأولى. ما أروعه وما أبدعه، وهو مع ذلك لا يحكي سوى حقيقة واضحة ملموسة. حقاً إن أبدع

الخيال ما كان وسيلة إلى تصوير الحقيقة.
وإلى جانب هذا سيجد القارئ إن شاعرنا قد يذهب به الخيال مذاهب بعيدة: انظر مثلاً إلى قوله في (أغنية ريفية) إلى أن يمل الدجى وحشتي=وتشكو الكآبة مني الضجر بيت موسيقاه جميلة مطربة. ولكنا لا ندري كيف تشكو الكآبة منه الضجر. وكذلك نرى خيال الشاعر قد بعد عنا إلى حيث لا نلحقه في قصيدة (عاصفة في جمجمة)، ولا نستطيع أن نأتي بها هنا كلها، ونكتفي بمثال أو اثنين كقوله:
أحياة سمتهاخر ونار ... حفت الأشواك من يسلكه
تنقضي الآجال فيه والسفار ... أبدى، ويح من تهلكه!
احملوا أمس إلى حفرته ... وتخطوا هوة الوادي السحيق
واحفزوا النجم إلى ثورته ... واحطموا أنو الليل ل ايفيق،
وبالطبع عذر الشاعر في هذا كله أنها (عاصفة في جمجمة) ويجب أن تثور مثل هذه العاصفة في جمجمة القارئ لكي يستمتع بهذه القصيدة.
كذلك قد يجد القارئ أن الخيال قد ذهب بعيداً في قصيدة (النشيد) حيث يجرد الشاعر من حبه شخصاً يصاحبه إلى لقاء الحبيب. وفي بعض المواضع نجد من الصعب علينا أن نتصور الموقف تماماً.
هذا ما يبدو للناقد في خيال الشاعر، أنه قد يفرط في القوة فيذهب مذاهب بعيدة. فإذا وافق الشاعر على هذا الرأي، فمن ابسط الأمور عليه أن يخفف من حدة هذا الخيال.
الأسلوب
الأسلوب هو طريقة الأداء، وهو من المعاني كالجسد من الروح. وإذا نظرنا في أسلوب علي محمود طه نجد عبارته منسجمة طلية وألفاظه في الغالب متخيرة، ودليله في الاختيار حسن وقعها في الأذن، وهذا نجده في معظم الكتاب، حتى في المواضع التي يخفى أو يغمض المعنى لانعدام الموسيقى على كل حال.
وفي اختيار الشاعر لأوزانه نراه يكثر من الخفيف والرمل. ونصف قصائد الكتاب من هذين البحرين، وهو أحياناً يكتب القصائد الطويلة على الطراز المألوف من قافية واحدة؛ واكثر الكتاب من هذا الطراز ولكنه - لحسن الحظ - قد أتى بقصائد ذات قواف متعددة، وهذه على ثلاثة أنواع؛
في الأول منها تتغير القافية عدة مرار بلا قيد ولا شرط كما في قصيدة ميلاد الشاعر (1).
وفي الضرب الثاني تتغير القافية في كل أربع أبيات كما في (غرفة الشاعر) و (قبله) و (قبر شاعر) وترجمة (البحيرة) وقد نظم شعراء آخرون قصائد على هذا النظام الرباعي ولهذا يخيل لي أنه طراز طبيعي مستحسن. والمنتظر لهذا النوع أن ينتشر، ومن المستحسن جداً أن ينتشر (2).
أما النوع الثالث ومنه قصيدة (الله والشاعر). فان فيه كل بيتين على حدة؛ والمصراع الأول يتفق في القافية مع الثالث والثاني مع الرابع. وهذا الطراز منتشر أيضاً في الشعر الحديث (3).
وهذا النظام الجديد للقافية من الظاهرات التي نرحب بها في شعر شعرائنا المحدثين. فقد انقضى الزمن الذي يفتخر فيه الشعراء بطول النفس؛ وبأن الواحد منهم ينظم القصيدة في مائة أو مائتين بل مئات من الأبيات، لا يكرر فيها القافية. كان هذا الفخر سخفاً لا طائل تحته. فليس نظم القصائد الطوال في قافية واحدة بالشيء العسير على من أراد أن يقيد المعنى بالقافية. وان يجعل الجسم كله متوقفا على شكل الذِّنب! وأكبر شعراء العربية لم يكونوا من المطيلين مثل أبي نواس، والمتنبي. ولم يخرج عن هذه القاعدة سوى ابن الرومي. الذي كان يكرر معانيه ويفصلها ويستقصيها فتطول قصائده تبعاً لذلك.
وليس من شك في أن تنويع القافية سيشق أمام شعرائنا طرقاً كانت مغلقة أمام المتقدمين،
ويفتح لهم أبواباً جديدة.
وقد لاحظ الأستاذ طه حسين على شاعرنا أن قول فيه أحياناً غير متفقة في مثل (نورها وقبرها) وفي مثل (فاتها ويواقيتها) و (ووجهها وتيهها) في قصيدة (الله

والشاعر) وهذه الأمثلة حقيقة نادرة في الكتاب. ولكن يجمل بشاعرنا الذي ينشد الكمال أن يلاحظها:

ولقد يؤخذ على شعرائنا المحدثين انهم قلما يهتمون بدراسة موضوع العروض والقوافي في اللغة العربية. اتكالاً على أن هذا من الأشياء التي تجيء للشاعر الموهوب عفواً. هذا مع أن الكثير منهم - وليساحب (الملاح التائه) أحدهم - ربما خلط - بين الوافر والهزج، وبين السريع والكامل، وبين الكامل والرجز. ولو أنهم أتعبوا أنفسهم قليلاً في دراسة كتاب مختصر عن الوزن والقافية لكفوا أنفسهم شر هذه الزلات.

- إن العرب قد اصطلحت على أن القوا في الآتية - مثلا:

ليلى - ذْيلا - قوْلا - هولا. لايجوز أن تجتمع في قصيدة واحدة مع هذه القوافي - مثلا -:

قبلا - عدلا - جهلا - مهلا. فالمجموعة الأولى فيها حرفا علة - الواو والياء - لهما موسيقى خاصة لا تتفق مع الحروف الساكنة الأخرى. فلو عرف شعراؤنا هذا الاصطلاح العربي القديم لأمكنهم أن يتذوقوا القافية التذوق اللازم. وليس من حسن السياسة في شئ أن نجهل أو نتجاهل ما اهتدى إليه الشعراء من قبل باحساسهم وذوقهم. ومهما كما كانت غرائز شعرائنا قوية وصادقة. فان جموع غسرائز شعراء العربية في مختلف العصور والبلاد أقوى وأصدق. لهذا كان لابد لشعرائنا من دراسة العروض دراسة وافية لكي يطلعوا على زبدة تجارب المتقدمين.

وفي الختام أهنئديقاحب (الملاح التائه) على كتابه البديع الذي قد تبوأ مكاناً ثابتاً خطيراً في الأدب العربي. واذا كان الأستاذ طه حسين قد قال عنه إنه مبتدئفليس معنى هذا أنه ينقصه النضوج أو الجمال. فهذا واضح في الكتاب كل الوضوح. ولكن معنى ذلك في نظرى أن لديه ما لمبتدئ من حماس ومن قوة ومن سعي وراء الكمال.

جوان لي بان

عوض

القصص

منور الريف

كفارة. . .!!

نهار من أيام الخريف، بدأ ثقيلاً طويلا قاتماً، ومضى عاصفاًاخبا، وأقبل اليل فسال . . .

الظلام على جوانب الكون كثيفا مطبقا، الريح تعصف عنيفة باردة والساء يغشاها سحاب أسحم ومطر سخي، أوراق الشجر تساقط مستسلمة، وسهف النخيل يتخدى العاصفة، والعاصفة تداعبه وتعبث به، فتشيع في أطراف الليل حفيفاً موحشاً يشبه أن يكون أنين أرواح هائمة في أودية العذاب، أصوات الذئاب يتجاوب بها الصدى، والكلاب ترد عليها بنباح قوي مختلط يتصل حيناً طويلا، ثم ينقطع لحظات، ثم يعود فيتصل ويختلط، على ان هذه الأصوات المختلطة المبهمة كانت تنجلي أحيانا عن نداء أو غناء يردده أحد الفلاحين في حقل بعيد

سكون موحش يثير القلق، ويحمل على الشك، ويدفع الرهبة إلى النفوس دفعا. . .

وقف بيومي قليلا ثم تردد في استئناف السرى. . . لقد جسم له الوهم والخوف من الظلام أعمدة جاثمة تعترض الطريق كأنها المردة السود، وكان بيومي يقف أحياناً يتطاول بعنقه ويرهف سمعه ويضرب بعينيه فيميم الظلام كأنما يبحث عن قبس أو هدى: إنه يحمل في جيبه مالاً كثيراً وهو يوجس خيفة، وهو فوق هذا وذاك يحس شيئاً من الجوع والتعب وبين بلده ساعةً وبعض ساعة فلماذا لا يبيت بلدة (قلوصنا) وهي على بضع دقائق فقط ريثما يسفر الصبح؟ إن لهديقاً قديماً هو شيخالخفراء وأكبر الظن أنه سيطعمه من جوع ويؤمنه من خوف ويهيء له من امره راحة وأمناً. . . ومن أحق بهذا من شيخ الخفراء؟! ولكن بيومي لا يستريح إلى هذا الحل ويتردد طويلاً قبل أن يبيت فيه لأنه يعلم عن شيخ الخفراء ما ليس لنا به علم، إنه يخشى أن يجيئه الهلاك من مأمنه، فلشيخ الخفراءحائف في ثبت الأجرام، وأكبر اليقين أنه لا يتورع من أن يضيف إليها فصولاً جديدة. ولكن أتراه يعتدي على ضيف ينزل بداره ويلجأ إليه؟ ربما! وهو فوق ذلكديقه! ولنترك بيومي يضطرب بين الشك واليقين ويتصارع في نفسه الأحجام والأقدام فلعل الله أن يجعل له فرجاً من الضيق، ومخرجاً من الحيرة، ومن الخوف أمناً وهدى. . .

أما عبد الهادي شيخ الخفراء فهو رجل مديد القامة، شديد البأس، قوي مفتول، له وجه تشيع في قسماته الصرامة، وعينان ينبعث منهما التحدي والشر، كان فيما فرط من أيامه يقطع الطرق ويهدد السارينويسلب الناس، ولم يجد في القتل حرجاً ولا في السلب جناحاً، بل إنه ليعدها من مفاخره. وعبد الهادي يثبت نظرية لمبروزو في المجرمين فقد كان من القرويين الذين تغلب فيهم سيطرة الأجرام، ويتحكم في رجولتهم شر اسود في لون هذا الليل العاصف المدلهم، لم يكن يردعه قانون ولا دين، ولا يمنعه عقل ولا عاطفة، عُين شيخاً للخفراء فزاد عبثه وما زال يصل أسبابه بأصدقائه القدماء من اللصوص والقتلة، يغريهم بالناس ويدلهم على مواطن الصيد ويمهد لهم سبل الإفلات. . .

واتصلت جرائمه واضطرب الأمن في بلده والبلاد القريبة، والناس يعلون أن لعبد الهادي يداً في كل شيء، لكنهم امتون لايهمسون، لأن لعبد الهادي عيناً ترقب الثرثار، ولأن الناس يدفعون هذا الصمت ثمناً لأرواحهم وأموالهم إشفاقاً من انتقامه وهم يؤدون إليه ما يفرض عليهماغرين إذاً اختفت سوائمهمفترد إليهم من حيث يعلمون ولا يعلمون.

أما بيومي فقد قلب الأمر غير مرة وانتهت المعركة في نفسه أخيراً. . وتغلبت على وساوسه نوازع الثقة في الله ودوافع الخوف من السرى في الظلام والبرد، وتعاونت هذه الأسباب كلها على أن تسوقه إلى بيت عبد الهادي ضيفاً. . .

طرق بيومي باب عبد الهادي في رفق ففتح له وأحسن استقباله وقدم إليه طعاماً وأعقبه بالشاي مثنى وثلاث، ثم سمر معه إلى وهن من الليل وتركه ليجول في البلاد جولة بعد أن أوصى به ابنه سالماً أن يهيئ له فراشه في المنظرة، سهر بيومي وسالم ما طاب لهما، وسمرا ما تشقق بينهما الحديث وشربا الشاي غير مرة، ودخنا كثيراً ثم ثقلت أجفانهما وفترت أعضاؤهما ولحقهما الخمول، وأحسا الحاجة إلى الراحة فقام كل منهما إلى فراشه، ونام بيومي بعد أن قرأ ما تيسر من القران وتوكل على الله وأسلم إليه وجهه.

وعاد عبد الهادي بعد ما انتصف الليل وقد طوعت له نفسه أمراً، وأحسب أن هذا الأمر قد اختصم في نفسه طويلاً مع الواجب، واحسب أن بقايا المروءة المتناثرة في زوايا قلبه قد تجمعت فانطلقت تقرع أذنيه في عنف واتصال. . .! ربما لم يسمع، وأكبر الظن انه سمع، ولكنه سخر من ضميره وضحك من هذا الخور الذي لم يألفه في أعصابه، اتجه إلى الباب

ففتحه ودار ببصره في الظلام والنجوم، ثم أرسل ضحكه مكبوتة كأنها في فحيح أفعى هائلة ثم انقلب إلى الداخل ثانية وأجمع رأيه قبل أن يبدله ما يرده إلى النكول أو التردد، حمل الذئب (بلطته) وتسلل إلى المنظرة فدخل ثم وقف وأنصت وتقدم إلى النائمفناوله ضربات متصلة قطعت ما بينه وبين العالم من أسباب الحياة.

اضطرب القتيل قليلاً ثم ساد السكون مرة أخرى. . .! وتحسس عبد الهادي جيب القتيل فلم يجد معه من المال قليلاً ولا كثيراً.

عرته الدهشة. .! أين اختفى المال الذي كان مع بيومي.؟ لاشك أنه حفظه في مكان ما في نفس المنظرة. . . ولم يتردد

عبد الهادي في أن يخفي أثر الجريمة أولاً. . . فلف الجثة وحزمها ثم حملهامطمئنا آمناً، لأن الشك ينحسر عنه وإن فاض حول جميع الناس. . شيخ الخفراء طبعا. .!! وللمرة الأولى أحس عبد الهادي رجفة تأخذ أعصابه وهماً مبهماً جائشاً يستبد بروحه ويضيق عليه أنفاسه، وثورةاخبة تصم أذنيه وتدور برأسه. . . لقد أخذه الندم! وأفاق ضميره ولكن متى. . .!؟ سمع عبد الهادي وقع حوافر الخيل تخب مسرعة وتناديه أن يقف. . إنهم العسس (الداورية)! غامت الدنيا في عينيه وملكه اليأس وأسقط في يده ولم يملك إلا أن يتطامن للقضاء الأعلى ويعنو لأرادة الله التي ترى كل شيء وتدبر كل شيء. . .! قاتل! وشيخ خفراء!! جريمة ذات شعبتين، قاده الجند إلى منزله أولاً وعلى كتفه ضحيته. . وحسر الجند اللفائف وتفرسوا في وجه القتيل وصرخ عبد الهادي وخرعقا. .!

لقد قتل ابنه خطأ. . .! واستيقظ بيومي فزعا فأدرك كل شيء، وأعلن أنه كان ينوي أن يبيت في المنظرة لولا أن سالما رأى أنها رطبة لا تلائم الضيف فنقله إلى غرفة

أخرى وأخذ مكانه في المنظرة.!
وكان يوم الحكم فشرقت القاعة بالوفود ووقف القاتل في القفص يبكي في إطراق طويل وصمتاخب ومرارة ملتهبة وحسرة لجوج، وساد السكون فجأة لما ارتفعوت القاضي يدوي في القاعة قوياً جلياً هادئاً (أشغال شاقة مؤبدة).
وقاد الجند الرجل المحطم إلى قاعة النيابة في أعلى المحكمة وهو. لا يزال ينشج كالأطفال. . . وغافل الرجل المحطم الحراس وألقى بنفسه من أعلى المحكمة فهوى خليطاً
هامداً من اللحم والعظم. . . قلوصنا
محمود البكري القلوصناوي
يوميد
للأديب حسين شوقي
ما كادت تلوح بالأفق خيوط النهار الفضية الأولى، حتى كنا انتبهنا من نومنا: ديقاي وأنا، وقد أزمعنا الذهاب لصيد البط في ضواحي الهرم، وكان كل منا يحمل بندقية ذات عيارين وعدداً كبيراً من الخرطوش، عدنا السيارة ونحن أشد بهجة من فصائل اسكندر المقدوني الفتية لدى زحفها على أسيا.
أما المدينة فكانت غارقة في النوم في تلك الساعة المبكرة ساكنة بأحقادها وشهواتها، ولم يكنأحد مستيقظاً، اللهم الا محرك سيارتنا.
سارت بنا السيارة في شارع الهرم، ولما بلغنا المستنقعات الواقعة في الجهة الغربية من طريق الهرم، غادرناها وركبنا زورق طلي بالطلاء الأسود حتى لا نشعر البط بوجودنا بالمستنقع، وكان موجوداً بكثرة على سطح الماء. . هل كان البط نائماً وقتئذ؟ لم يكن لدينا شك في ذلك برغم اعتراض دليلنا - وكان فتى قرويا - وذلك لسكونه سكوناً عجيباً. .
ولكنا كنا مخطئين إذ لم نكد نقترب منه حتى انطلق في الجو. كأنه سهم ناري فأطلقنا عليه البنادق في الهواء ولكن بدون جدوى رغم عدده الكثير. . لقد ظهرنا في عيني دليلنا القرويياديين غير ماهرين، فانتزع بندقية أحدنا وأطلق طلقة واحدة أسقطت بطة في الحال!
وا أسفاه على الدروس التي تلقيتها فيياي للصيد في الهواء! كنت أتمرن وقتئذ على البيض، يقذفون لي البيض في الهواء فأطلق عليه بندقيتي فاذا أصيب البيض وهو ما كان يقع نادراً - سال فأمطرنا مطراً اصفر.
وبعد محاولات يائسة لصيد البط، غادرنا المستنقع إذ لم نجد سبيلاً إلى البط فهو شديد الفطنة. .
كيف يدرك البط الخطر على مسافات بعيدة؟ إن شأنه شأن الحمام الزاجل الذي يعرف طريق الوطن على بعد مئات من الأميال. هل تكشف لنا الطبيعة يوماً عن مثل هذه الأسرار؟
قبل أن نغادر تركنا لدليلنا القروي البطة التيادها هو، حتى لا تذكرنا فشلنا على الدوام. .
هل كنا نعود وقتئذ إلى المنزل؟ لم يكن في استطاعتنا أن نفعل ذلك، إذ لوعدنا لصرنا سخرية للجميع. . ممنا بعد ذلكعلى البحث عن طير يكون أقل فطنة من البط. .
ها نحن أولاء نسير وسط الغيطان التي كسيت بساطاًأخضر جميلاً من البرسيم. . وثم اعترضتنا ترعة لاجسر عليها للمرور، وكنا في حيرة من أمرنا حينما اقبل قروي وتطوع أن يحملنا على ظهره عبر الترعة. وقد مرت بهذه الطريقة، ومر أحدديقي. وأما الصديق الثالث وكان بديناً، فقد غرز هو وحامله في الطين، وبدلاً من أن يعمل على الخروج من الترعة، أخذ يضرب القروي المسكين!. ياله من منظر مضحك أنسانا فشلنا مع البط!
ثم أقبل قرويان آخران فقاما بعمليه النجدة. . بعد ذلك بلغنامكاناً مظللاً بالأشجار الكثيفة، حيث أخذت العصافير تزقزق جزلة مسرورة. . وقد شاهدنا على أحد الغصون يمامتين تتناجيان، كم كان منظرهما جميلاً، وقد طوق عنقاهما بطوق فاحم جميل، كما رصع منقاراهما بالياقوت. .
ثم حدث ما كنت أخشى وقوعه، فقد اقترحديقاي أن نصطادهما! لم يكن في طاقتي

أن أطلق النار على هذين المخلوقين الجميلين، إنها حقا لوحشيه! لذلك رفضت، فقال أحدديقي ليقنعني: أطلق ولاتكن غبياً، لقد حللت لك الصيد قوانين السموات والأرض! فقلت: ليكن، ولكن قلبي لا يطاوعني! ولما رآنيديقي مصمماً على الامتناع، أطلق هو عياراً
فأردى إحدى اليمامتين، سقطت وقد كسر جناحها، كما أن خرطوشة أخرى لا بد أنها اخترقت قلبها، لأن الدم كان يسيل من منقارها بغزارة.
ورغم وحشيتنا هذه. كانت عينا اليمامة ترمقاننا في حنان، كأنها قد غفرت لنا فعلنا كما غفر عيسى من قبل لمضطهديه اليهود! يا للأسف! إننا ما زلنا متوحشين نسر لرؤية الدم! كم نحن بعيدون عن المثل العليا التي ينشدها أفلاطون!
ومن ذلك اليوم كرهت الصيد، فكل عام اجدد رخصتي دون أن أجدد رغبتي.
حسين شوقي
الكتب
علم الدولة
(الجزء الأول في أصول الدولة وتطورات فكرتها)
تأليف الأستاذ أحمد وفيق
يقع الجزء الأول من هذا الكتاب الفذ في نحو أربعمائةفحة من القطع الكبير، وهو ثمرة جهود شاقة وتجاريب طويلة وحسبك أن فكرة الكتاب قد جالت في رأس مؤلفه الفاضل منذ خمسة وعشرين عاماً، وأن العمل على إصداره ظل شغله الشاغلطوال هذه المدة، ذلك لأنه أثر التريث وإمعان النظر وإطالة البحث والاطلاع حتى جاء عمله في النهاية جديراً بفضله وأدبه وواسع خبرته.
مهد الأستاذ لموضوعه الواسع بمقدمة ضافية محكمة فتكلم عن أسباب إصداره هذا الكتاب مشيراً إلى حاجة الشرق في نهوضه إلى مثل هذه البحوث، ثم عرف هذا العلم إلى القاريء وجاء بلمحة تأريخية عنه، وبين له كيف تدرس فكرة الدولة عملياً، وتعرض لآراء العلماء في ذلك وهي بحق مقدمة شيقة، تدلك على شدة اهتمام الأستاذ بموضوعه كما تشهد بحسن فهمه واستيعابه له.
بعد ذلك تكلم الأستاذ في هذا الجزء من كتابه عن أصول الدولة وعرض في إسهاب ودقة النظريات المختلفة التي وضعت للدولة، فتكلم عن نظرية الطبيعة، وعن نظرية الأصل الاصطلاح شارحاً العقد الاجتماعي واصله، مورداً آراء الفلاسفة في ذلك. ثم انتقل إلى نظرية التكوين الاختياري الضروري للدولة ذاكراً في كل نظريه ما دار حولها من الآراء.
وبعد أن انتهى الأستاذ من سرد النظريات وشرحها، عاد إلى الكلام عن التطور التاريخي لفكرة الدولة: فتكلم عن فكرة الدولة في الهند وفارس والصين ومصر ودولة الإسرائيليين واليونان والرومان، ثم انتقل إلى العصور الوسطى وعهد إحياء العلوم وعهد الإصلاح مورداً في كل هاتيك الخطوات آراء العلماء والفلاسفة شارحاً جميع الحركات الفكرية والسياسية والاجتماعية التي لم يكن منها بد لموضوعه، وقد ختم الجزء الأول عند هذا الحد، وسيفتتح الجزء الثاني بتناول الفكرة ابتداء من عهد الانتقال بين عصر الإصلاح وعصر الثورة الفرنسية.
وأني وقد أعجبتني طريقة الأستاذ وفيق في بحثه، وراقتني فصاحته وخبرته لأتقدم إليه باقتراح أرجو أن ينال عنده القبول، ذلك أن يفرد بابا من كتابه لفكرة الدولة في الإسلام وتطورها منذ عصر الخلفاء، فان القاريء الشرقي ليتطلع إلى هذه. الناحية في شوق عظيم، ولا سيما إذادرت من عالم جليل كالأستاذ وفيق له مثل هذه الخبرة عن الدولة وفكرتها.
م. الخفيف
غاندي والحركة الهندية
تأليف الأستاذ سلامة موسى
غاندي والحركة الهندية كتاب جدير بأن يطلع عليه كل شبابنا فهو حافل بدروس الوطنية الصادقة مصورة في حركة من أروع وأجل الحركات الوطنية وفي شخصية من أعظم شخصيات التاريخ هي شخصية غاندي الرجل العظيم والزعيم النادر المثال والإنسان الكامل، الذي لايجود الزمان بأمثاله من العظماء الإ كل حقبة طويلة من

الدهر.
أعجبني في هذا الكتاب تفصيل الموضوع وحسن تقسيمه وتقريبه إلى أذهان القراء في مهارة ولباقة عرف بهما مؤلفه الفاضل. ثمأعجبني أكثر من ذلك ما أحسسته من حماس الأستاذ. وصراحته وصدق تأثيره بما يكتب واندماجه في موضوعه حتى لتحار فيما لو كان الأستاذ يسرد عليك تاريخ وتطور حركة من الحركات الوطنية أم هو يسمعك آراءه الصريحةالجريئة في الاستعمار أو وما ينجم عنه من نكبات كل ذلك في أسلوب علمي دقيق جمع بين حماس القلب ورزانة العقل.
قسم الأستاذ هذا الكتاب إلى ثلاثة أجزاء، ففي الجزء الأول يتكلم عن الأحوال العامة في الهند، وفي الجزء الثاني يبسط لك سياسة غاندي وفلسفته، وفي الجزء الثالث يورد لك بعض مقالات وحكم كتبها غاندي ونشرت في المجلات الهندية.
وغاية الأستاذ من هذا الكتاب جديرة بالثناء، انظر إلى قوله (ونحن في جهادنا للمباديءالإمبراطورية البريطانية نشبه الهنود وإن كانت قدم الإنجليز في الهند ارسخ وتاريخهم أطول، ولهذا السبب نفسه يجب أن نستنير بحركتهم كما استناروا هم بحركتنا
فان زعماءهم كثيراً ما ذكروا الاتحاد بين المسلمين والأقباط في مصر ودعوا أبناء أمتهم المسلمين والهندوكيين إلى مثله في الهند. وسيجد القاريء المصري في هذا الكتاب كثيراً من المواضيع التي يهمه معرفتها، كأصل الحركة الهندية والديانة الهندوكية، والفقر والنجاسة، والدستور الجديد، وغاندي وحياته وموقفه من المدينة الحديثة وما لم يعرف عن غاندي، وصوم غاندي الأول، هذا إلى بعض مقالات غاندي نفسه، مما يجعل الكتاب جديراً بالمطالعة والانتفاع مما جاء فيه من دروس نحن أحوج ما نكون إليها.
مثلنا الأعلى
قصة وضعها عبد المجيد عباس المعلم في مدرسةتطبيقات دار المعلمين
مطبعة الحكومة - بغداد
قصة تمثيلية تقع في أربعين صفحة من القطع الكبير، موضوعها الوحدة العربية والدعوة إليها، أهداها صاحبها الفاضل المغفور له فيصل بن الحسين فقيد العرب العظيم وجاء في هذا الإهداء أنها (مُثلت في حضرة جلالته فحباها بالإعجاب، وظفرت من جلالته بالرضا).
ونحن لا يسعنا إلا الإعجاب بكل ما يكتب عن الوحدة العربية والدعوة إليها كما أني أشعر بالغبطة والارتياح بعد تلاوة القصة، وذلك لما تخللها من شعور كريم وآراء سديدة. ولكني إذا نظرت للقصة من ناحية الفن، أجدني ميالاً إلى أن أصرح لمؤلفها الفاضل بأن هذا الموضوع الكبير، كان يحتاج إلى طريقة خير من طريقته التي اتبعها، كما أن القصة يكاد ينعدم منها الجو القصصي، وكأني في مواضع كثيرة منها كنت استمع إلى مناظرة في موضوع الوحدة العربية، فالحوار ينقصه (الفن في الأداء والتوجيه، والآراء تسرد بطريقة سطحية جافة كما يجيء على لسان مدرس المطالعة عند شرح موضوع درسه، هذا إلى أنها تكاد تخلو من المواقف المثيرة والمفاجآت القوية، كما أن مناظرها محدودة وأشخاصها قليلون لا أكاد أفرق بينهم في خلق، غير أني أشعر بميل المؤلف الفاضل إلى القصة واتخاذها أداة لنشر ارائه، ولعلنا نجد منه في المستقبل ذلك الفنان الناضج الذي يجمع بين الموهبة والثقافة
م. الخفيف
العدد 53 - بتاريخ: 09 - 07 - 1934
بين أسلوبين
بين الإطناب الذي لم تؤثره (الوادي)، وبين الإيجاز الذي تحبه (الرسالة)، كادت تضيع صداقة رسخت قواعدها على الإكبار والحب، وتأكدت أسبابها على الخفض والشدة، وتمكنت الفتها على ربع قرن من الزمان المضطرب تغيرت فيه مودّات الأخوة، وتنكرت قلوب الجماعات، وتحللت روابط الأمم.
وجملة الأمر أن صديقي طه قد بنى قصة من الأدب الجميل على رسالتين خاصتين أرسلهما إليه الأستاذ توفيق الحكيم، ثم نشرها ونشرهما في الوادي؛ فلما أصبح كل ذلك للجمهور والتاريخ جاءت الرسالة فنشرته، لأنها كما قلت في العدد الماضي كانت

مسرحاً لهذه الرواية، فمن حق قرائها أن يشهدوا فصلها الأخير، ولأنها سجلٌّ لألوان الأدب الحديث، فمن حق الأدب أن نسجل في تاريخه ما يقع بين رجاله من الخلاف الجدي فيه كاملاً غير منقوص. وإن بقي لأصحاب الظنون والفروض سبب ثالث فلن يكون غير تعصب الصديق للصديق. وكان الأستاذ توفيق الحكيم فيما بين ذلك قد نشر بيانه الذي نقلناه في الأسبوع الماضي عن الوادي بعنوان (خصومة)، فلم يُتَح لي الاطلاع عليه لحالة خاصة صرفتني عن قراءة الصحف ذلك اليوم. ولو كنت قرأته وقرأت بجانبه تعريض الدكتور بالأستاذ في مقاله (أخلاق الأدباء) لشق على فهمي أن يستنتج من المقالين عودة الصفاء وزوال الجفوة.

تصافى الصديقان إذن على غير علم من الوادي ولا من الرسالة، فلما رأى الأستاذ الحكيم عودة المقالة في الرسالة خالجته في الصفاء ريبة، وأراد صديقي الدكتور أن يجلو شبهة الأمر، ويخرج من تبعة النشر، ويترضى الغاضب المرتاب، فأرسل إلى كلمته العاتبة تتنمَّر على صفحة الوادي.

كان المألوف في مثل هذه الحال أن يقف العتاب عند الترضي والتنصل، ولكن الأسلوب المطنب الذي يؤثره صديقي من خصائصه التدفق، والتدفق لا يخلو من كدورة، فأخذ يولد من العتاب ويفرع فيه، حتى خرج به إلى التلويح والتجريح والاستعداء، لأنني نشرت ما نشرت بغير إذنه. علقت على هذا (العتاب) الموجع بأن صديقي طه استغل حيائي منه ووفائي له في إرضاء الحكيم وإنصاف الوادي، لأنه يعتقد إني إذا عاتب واشتد لا أجيب، وإذا أجبت لا أعيب؛ ولكن الأسلوب الموجز الذي اصطنعته كان على ما يظهر أقرب إلى الإخلال والغموض، لأن صديقي لم يفهم (الاستغلال) على الصورة التي اقتضاها المقام وبالمعنى الذي قصدته، وإنما فهمه بمعناه الشنيع الذي لا يكون بين أخوين، ثم رتب على هذا الفهم في رده على تعليقي ما رتب مما لا أعده موجهاً إلى ما دام قائماً على هذا الأساس!

فأنت ترى أن أكثر ما حدث إنما نشأ من أسلوبين استعمل كل منهما في غير موضعه، وان الأمر كله ما كان ليقع لولا حرفة الصحافة التي تغري بالنشر كما يغرى على القتل حمل المسدس. فان أكثر من هذا يقع كل يوم بين الأصدقاء والاخوة فتزيله كلمة في التليفون أو تحية عند اللقاء.

قال الذين وقفوا على ملابسات هذا الأمر إني إذا كنت أخطأت في نشر المقالة وهي عامة، فان صديقي أخطأ في نشر الرسائل وهي خاصة، وما يُسَوِّغ موقفه من الحكيم يسوغ موقفي منه. ولكني لا أقول هذا القول ولا أستعين به، فإن الواقع أن ما صرفني عن الاستئذان في النشر إنما هو اعتقادي بارتفاع الكلفة بين طه والزيات، وبين الوادي والرسالة.

أما بعد، فإذا جاز لهبَّة الريح أن تزعزع الجبل، أو لحبة الرمل أن تكدر البحر، جاز لنشر مقال أدبي من غير إذن أن ينال من صداقة رفيقي الصبي وخديني الشباب، فينتزع المحبة من خلال النفس، ويقتلع العلاقة من صميم القلب، ويقتطع الماضي من حساب الزمن، بالسهولة التي تنشر بها كلمة في صحيفة!

وما كان ليقع في الوهم أن قلبين ألفت بينهما براءة النشأة، وطول الصحبة، ووحدة الهوى، وطبيعة الثقافة، يجرى بينهما من سوء التفاهم ما يجري بين القلوب المتناكرة والصلات الحديثة! كذلك ما كان ليسبق إلى الظن أن صديقي الذي لم تكشف الحوادث والأيام منه إلا شعوراً سليماً وخلقاً كريماً وذكاءً متقداً وضميراً يقظاً ونفساً طيبة، يخضع لأثر الحر وثقل العمل وعنت الظروف، فيقول في صديقه ما لا يحب، ويرميه بما لا يعتقد!

أخي طه!

إن بيني وبينك ماضياً جليلاً لا تمحوه طوارئ الحاضر الحقير، وصداقة خالصة لا تكدرها شوائب الظن السوء، وذمة وثيقة لا تخفرها بوادر الكلام السريع، وأخوَةً كراماً جزعوا لهذا الخلاف ويسرهم أن ينقضي.

وإذا أمكنك أن تجد في ذاكرتك القوية المعجزة غميزة في خلق أخيك على طول عهدك به،

كنت خليقاً أن تطبع فيه نوازي الغضب، وتقبل عليه شواهد الظن، وتسلكه في ذوى الخلق المعوج والطبع اللئيم!

أما إذا كان من طبيعة الصحافة أن تعبث بكل ما بقي بيننا وهو الود، وتعتدي على كل ما بقي لنا وهو الخلق، وتمتد إلى رأس مالنا الوحيد وهو الشرف، فادع الله لي ولك أن يخرجنا منها، ويغنينا عنها، ويحفظ البقية من عمرنا الكادح في كنف رعايته وفضله.

احمد حسن الزيات

حديث قطّين

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

جاء في امتحان شهادة إتمام الدراسة الابتدائية لهذا العام في موضوع الإنشاء ما يأتي: تقابل قطان أحدهما سمين تبدو عليه أثار النعمة، والآخر نحيف يدل منظره على سوء حاله؛ فماذا يقولان إذا حدث كل منهما صاحبه عن معيشته؟)

وقد حار التلاميذ الصغار فيما يضعون على لسان القطين، ولم يعرفوا كيف يوجهون الكلام بينهما، وإلى أي غاية ينصرف القول في محاورتهما؛ وضاقوا جميعاً وهم أطفال - أن تكون في رءوسهم عقول السنانير؛ وأعياهم أن تنزل غرائزهم الطيبة في هذه المنزلة من البهيمية ومن عيشها خاصة، فيكتنهوا تدبير هذه القِطاط لحياتها، وينفذوا إلى طبائعها، ويندمجوا في جلودها، ويأكلوا بأنيابها، ويمزقوا بمخالبها.

قال بعضهم: وسخطنا على أساتذتنا أشد السخط، وعبناهم بأقبح العيب؛ كيف لم يعلمونا من قبل - أن نكون حميراً، وخيلا، وبغالاً، وثيرانا، وقردة، وخنازير، وفئرانا، وقِططة وما هب ودب، وما طار ودرج، وما مشى وانساح؛ وكيف - ويحهم - لم يلقنونا مع العربية والإنجليزية لغات النهيق، والصهيل، والشحيج، والخوار، وضحك القرد، وقُباع الخنزير، وكيف نصئ ونموء، ونلغط لغط الطير، ونفح فحيح الأفعى، ونكش كشيش الدبابات، إلى ما يتم به هذا العلم اللغوي الجليل الذي تقوم به بلاغة البهائم والطير والحشرات والهمج وأشباهها. .؟

وقال تلميذ خبيث لأستاذه: أما أنا فأوجزت وأعجزت، قال أستاذه: أجدت وأحسنت، ولله أنت! وتالله لقد أصبت! فماذا كتبت؟ قال كتبت هكذا:

يقول السمين: ناوْ، ناوْ، ناوْ. . . فيقول النحيف: نَوْ ناوْ، نَوْ. . فيرد عليه السمين. نَوْ، ناوْ، ناوْ. . فيغضب النحيف، ويكشر عن أسنانه، ويحرك ذيله ويصيح: نَوْ، نَوْ، نَوْ. . . فيلطمه السمين فيخدشه ويصرخ: ناوْ. . . فيثب عليه النحيف ويصطرعان وتختلط (النّوئَوَة) لا يمتاز صوت من صوت، ولا يبين معنى من معنى، ولا يمكن الفهم عنهما في هذه الحالة إلا بتعب شديد بعد مراجعة قاموس القِطاط. .!

قال الأستاذ: يا بني، بارك الله عليك! لقد أبدعت الفن إبداعا فصنعت ما يصنع أكبر النوابغ، يظهر فنه بإظهار الطبيعة وإخفاء نفسه، وما ينطق القط بلغتنا إلا معجزة لنبي، ولأنني بعد محمد صلي الله عليه وسلم؛ فلا سبيل إلا ما حكيت ووصفت، وهو مذهب الواقع، والواقع هو الجديد في الأدب؛ ولقد أرادوك تلميذا هراً، فكنت في إجابتك هرا إستاذاً، ووافقت السنانير، وخالفت الناس، وحققت للممتحنين أرقى نظريات الفن العالي، فان هذا الفن إنما هو في طريقة الموضوع الفنية، لا في تلفيق المواد لهذا الموضوع من هنا وهناك؛ ولو حفظوا حرمة الأدب، ورعوا عهد الفن لأدركوا أن في أسطرك القليلة كلاماً طويلاً بارعاً في النادرة والتهكم، وغرابة العبقرية، وجمالها وصدقها، وحسن تناولها، وإحكام تأديتهالما تؤدى؛ ولكن ما الفرق يا بني بين (ناو) بالمد، و (نو) بغير مد؟. . . قال التلميذ: هذا عند السنانير كالإشارات التلغرافية: شرطة ونقطة وهكذا. قال يا بني ولكن وزارة المعارف لا تقر هذا ولا تعرفه، وإنما يكون المصحح أستاذاً لا هراً. . . والامتحان كتابي لا شفوي. قال الخبيث: وأنا لم اكن هراً بل كنت إنسانا، ولكن الموضوع حديث قطين، والحكم في مثل هذا لأهله القائمين به، لا المتكلفين له، المتطفلين عليه؛ فان هم خالفوني قلت لهم: اسألوا القطاط؛ أو لا فليأتوا بالقطين: السمين والنحيف، فليجمعوا بينهما، وليحشروهما ثم ليحضروا الرقباء هذا الامتحان، وليكتبوا عنهما ما يسمعونه وليصفوا منهما ما يرونه، فوالذي خلق السنانير والتلاميذ والممتحنين والمصححين جميعا - ما يزيد الهرَّان على (نو، وناو) ولا يكون القول بينهما إلا من هذا، ولا يقع إلا ما وصفت، وما بد من المهارشة والمواثبة بما في طبيعة القوي والضعيف، ثم فرار الضعيف مهزوماً، وينتهي الامتحان!

إن مثل هذا الموضوع يشبه تكيف الطالب الصغير خلق هرتين، لا الحديث عنهما؛ فأن إجادة الإنشاء في مثل هذا البابألوهية عقلية تخلق خلقها السوي الجميل نابضاً حياً كأنما وضعت في الكلام قلب هر، أو جاءت بالهر له قلب من الكلام. وأين هذا من الأطفال في الحادية عشرة والثانية عشرة وما حولهما؛ وكيف لهم في هذه السن أن يمتزجوا بدقائق الوجود، ويداخلوا أسرار الخليقة، ويصبحوا مع كل شيء رهناً بعلله، وعند كل حقيقة موقوفين على أسبابها. وقد قيل لهم من قبل في السنوات الخالية (كن زهرة وصف. واجعل نفسك حبة قمح وقل) وإنما هذا ونحوه غاية من ابعد غايات النبوة أو الحكمة؛ إذ النبي

تعبير إلهي تتخذه الحقيقة الكاملة لتنطق به كلمتها التي تسمى الشريعة، والحكيم وجه آخر من التعبير، تتخذه تلك الحقيقة لتلق منه الكلمة التي تسمى الفن.

وقد كان في القديم امتحان مثل هذا، لم ينجح فيه إلا واحد فقط من آلاف كثيرة؛ وكان الممتحن هو الله جل جلاله؛ والموضوع حديث النملة مع النمل؛ والناجح سليمان عليه السلام (قالت نملةٌ: يا أيها النمل، ادخلوا مساكنكم، لا يَحْطِمَنَّكُمْ سليمانُ وجنودهُ وهم لا يشعرون. فتبسم ضاحكاً من قولها).

إن الكون كله مستقر بمعانيه الرمزية في النفس الكاملة؛ إذ كانت الروح في ذاتها نورا، وكان سر كل شيء هو من النور والشعاع يجري في الشعاع كما يجري الماء في الماء، وفي امتزاج الأشعة من النفس والمادة تجاوب روحاني هو بذاتهتعبير في البصيرة وإدراك في الذهن، وهو أساس الفن على اختلاف أنواعه: في الكلمة والصورة، والمثال والنغمة؛ أي الكتابة والشعر والتصوير والحفر والموسيقى.

ومن ذلك لا يكون البيان العالي أتم إشراقاً إلا بتمام النفس البليغةفي فضيلتها أو رذيلتها على السواء؛ فان من عجائبالسخرية بهذا الإنسان أن يكون تمام الرذيلة في أثره على العمل الفني - هو الوجه الآخر لتمام الفضيلة في أثره على هذا العمل؛ والنقطة التي ينتهي فيها العلو من محيط الدائرة هي بعينها التي يبدأ منها الانحدار إلى السفل؛ ومن ثم كانت الفنون لا تعتبر بالأخلاق، حتى قال علماؤنا: إن الدين عن الشعر بمعزل. فالأصل هناك سمو التعبير وجماله، وبلاغة الأداء وروعتها؛ ولا يكون السؤال الفني ما هي قيمة هذه النفس، ' ولكن ما طريقتها الفنية؟ وأي عجيب في ذلك؟ أليس لجهنم حق في كبار أهل الفن، كما للجنة حق في نوابغه؛ وإذا قالت الجنة: هذه فضائلي البليغة؛ أفلا تقول الجحيم وهذه بلاغة رذائلي. وكيف لعمري يستطيع إبليس أن يودي عملهالفني. . ويصور بلاغته العالية إلا في ساقطين من أهل الفكر الجميل، وساقطات من أهل الجسم الجميل؟ . .

لقد بعدنا عن القطين، وأنا أريد أن أكتب من حديثهما وخبرهما.

كان القط الهزيل مرابطاًفي زقاق، وقد طارد فارة فانحجرت في شق، فوقف المسكين يتربص بها أن تخرج، ويؤامر نفسه كيف يعالجها فيبتزّها، وما عقل الحيوان إلا من حرفة عيشه لا من غيرها. وكان القط السمين قد خرج من دار أصحابه يريد أن يفرّج عن

نفسه بأن يكون ساعة أو بعض ساعة كالقططة بعضها مع بعض، لا كأطفال الناس مع أهليهم وذوي عنايتهم. وأبصر الهزيل من بعيد فأقبل يمشي نحوه، ورآه الهزيل وجعل يتأمله وهو يتخلع تخلع الأسد في مشيته وقد ملأ جلدته من كل أقطارها ونواحيها، وبسطته النعمة من أطرافه، وانقلبت في لحمه غلظا، وفى عصبه شدةً، وفي شعره بريقاً، وهو يموج في بدنه من قوة وعافية، ويكاد إهابه ينشق سِمناً وكدْنة. فانكسرت نفس الهزيل، ودخلته الحسرة، وتضعضع لمرأى هذه النعمة مرحة مختالة. وأقبل السمين حتى وقف عليه، وأدركته الرحمة له إذ رآه نحيفاً منقبضاً، طاوي البطن، بارز الأضلاع، كأنما همت عظامه أن تترك مسكنها من جلده لتجد لها مأوى آخر. فقال له: ماذا بك، ومالي أراك متيبساً كالميت في قبره غير انك لم تمت، ومالك أعطيت الحياة غير أنك لم تحي، أو ليس الهر منا صورة مختزلة من الأسد، فمالك - ويحك - رجعت صورة مختزلة من الهر؛ أفلا يسقونك اللبن، ويطعمونك الشحمة واللحمة، ويأتونك بالسمك، ويقطعون لك من الجبن أبيض وأصفر، ويفتون لك الخبز في المرق، ويؤثرك الطفل ببعض طعامه، وتدللك الفتاة على صدرها، وتمسحك المرأة بيديها، ويتناولك الرجل كما يتناول ابنه.؟ وما لجلدك هذا مغبراً كأنك لا تلطعه بلعابك، ولا تتعهد

بتنظيف، وكأنك لم ترقطّ فتى أو فتاة يجري الدهان بريقاً في شعره أو شعرها، فتحاول أن تصنع بلعابك لشعرك صنيعهما؛ واراك متزايل الأعضاء متفككاً حتى ضعفت وجهدت، كأنه لا يركبك من حب النوم على قدر من كسلك وراحتك، ولا يركبك من حب الكسل على قدر من نعيمك ورفاهتك، وكأن جنبيك لم يعرفا طنفسة ولا حشّية ولا وسادة ولا بساطاً ولا طرازاً، وما أشبهك بأسد أهلكه ألا يجد إلا العشب الأخضر والهشيم اليابس، فماله لحم يجيء من لحم، ولا دم يكون من دم، وانحط فيه جسم الأسد، وسكنت فيه روح الحمار!

قال الهزيل: وإن لك لحمة وشحمة، ولبناً وسمكاً، وجبناً وفتاتاً، وإنك لتقضي يومك تلطع جلدك ماسحاً وغاسلاً، أو تنطرح على الوسائدوالطنافس نائماً ومتمدداً. أما والله لقد جاءتك النعمة والبلادة معاً، وصلحت لك الحياة وفسدت منك الغريزة، وأحكمن طبعاً ونقضت طباعاً، وربحت شبعاً وخسرت لذة، عطفوا عليك وأفقدوك أن تعطف على نفسك، وحملوك وأعجزوك أن تستقل، وقد صرت معهم كالدجاجة تُسمن لتذبح، غير أنهم يذبحونك دلالاً وملالاً.

إنك لتأكل من خوان أصحابك، وتنظر إليهم يأكلون، وتطمع في مؤاكلتهم، فتشبع بالعين والبطن والرغبة ثم لاشيء غير هذا، وكأنك مرتبط بحبال من اللحم تأكل منها وتحتبس فيها.

إن كان أول ما في الحياة أن تأكل فأهون ما في الحياة أن تأكل، وما يقتلك شيء كاستواء الحال، ولا يحييك شيء كتفاوتها، والبطن لا يتجاوز البطن، ولذته لذته وحدها، ولكن أين أنت عن إرثك من أسلافك، وعن العلل الباطنة التي تحركنا إلى لذات أعضائنا، ومناع ارواحنا، وتهبنا من كل ذلك وجودنا الأكبر، وتجعلنا نعيش من قبل الجسم كله، لا من قبل المعدة وحدها؟

قال السمين: تالله لقد أكسبك الفقر حكمة وحياة، وأراني بازائك معدوما بزوال أسلافي مني، وأراك بازائي موجودا بوجود أسلافك فيك. ناشدتك الله إلا ما وصفت لي هذه اللذات التي تعلو بالحياة عن مرتبة الوجود الأصغر من الشبع، وتستطيل بها إلى مرتبة الوجود الأكبر من الرضى؟

فقال الهزيل: إنك ضخم ولكنك أبله، أما علمت - ويحك - أن المحنة في العيش هي فكرة وقوة، وأن الفكرة والقوة هما لذة ومنفعة، وأن لهفة الحرمان هي التي تضع في الكسب لذة الكسب، وسعار الجوع هو الذي يجعل في الطعام من المادة طعاماً آخر من الروح، وأن ما عدل به عنك من الدنيا لا تعوضكمنه الشحمة واللحمة، فان رغباتنا لابد لها أن تجوعوتغتذي كما لابد من مثل ذلك لبطوننا، ليوجد كل منهما حياته في الحياة؛ والأمور المطمئنة كهذه التي أنت فيها هي للحياة أمراض مطمئنة، فان لم تنقص من لذتها فهي لن تزيد في لذتها، ولكن مكابدة الحياة زيادة في الحياة نفسها.

وسر السعادة أن تكون فيك القوى الداخلية التي تجعل الأحسن أحسن مما يكون، وتمنع الأسوأ أن يكون أسوأ مما هو، وكيف لك بهذه القوة وأنت وادع قار محصور من الدنيا بين الأيدي والأرجل؟ إنك كالأسد في القفص، صغرت أَجَمَتُهُ ولم تزل تصغر حتى رجعت قفصاً يحده ويحبسه، فصغر هو ولم يزل يصغر حتى أصبح حركة في جلد، أما أنا فأسد على مخالبي ووراء أنيابي، وغَيْضَتي أبدا تتسع ولا تزال تتسع أبداً، وإن الحرية لتجعلني أتشمم من الهواء لذة مثل لذة الطعام، وأستروح من التراب لذة كلذة اللحم، وما الشقاء إلا خلتان من خلال النفس، أما واحدة فأن يكون في شرهك ما يجعل الكثير قليلا، وهذه ليست لمثلي مادمت على حد الكفاف من العيش - وأما الثانية فأن يكون في طمعك ما يجعل القليل غير قليل، وهذه ليس لها مثلي مادمت على ذلك الحد من الكفاف. والسعادة والشقاء كالحق والباطل، كلها من قبل الذات، لا منقبل الأسباب والعلل، فمن جاراها سعد بها، ومن عكسها عن مجراها فبها يشقى.

ولقد كنت الساعة أختل فأرة انجحرت في هذا الشق فطعمت منها لذة وإن لم أطعم لحماً، وبالأمس رماني طفل خبيث بحجر يريد عقري فأحدث لي وجعاً، ولكن الوجع أحدث لي الأحتراس. وسأغشى الآن هذه الدار التي بازائنا فأية لذة في السلة والخطفة، والاستراق والانتهاب ثم الوثب شداً بعد ذلك! هل ذقت أنت بروحك لذة

الفرصة والهزة، أو وجدت في قلبك راحة المخالسة واستراق الغفلة من فأرة أو جرذ، أو أدركت يوما فرحة النجاة بعد الروغان من عابث أو باغٍ أو ظالم؟ وهل نالتك لذة الظفر حين هوّ لك طفل بالضرب فهوّ لته أنت بالعض والعقر ففر عنك منهزماً لا يلوي؟

قال السمين: وفى الدنيا هذه اللذات كلها وأنا لا أدري؟ هلم أتوحش معك، ليكون لي مثل نكرك ودهائك واحتيالك، فيكون لي مثل راحتك المكدودة، ولذتك المتعبة، وعمرك المحكوم عليه منك وحدك. وسأتصدى معك للرزق أطارده وأواثبه، وأغاديه وأراوحه و. . . فقطع عليه الهزيل وقال:

يا صاحبي، إن عليك من لحمك ونعمتك علامة اسرك، فلا يلقانا أول طفل إلا أهوى لك فأخذك أسيراً، وأهوى عليّ بالضرب لأنطلق حراً، فأنت على نفسك بلاء، وأنت بنفسك بلاء عليّ.

وكانت الفأر التي انجحرت قد رأت ما وقع بينهما، فسرها اشتغال الشر بالشر. . وطالت مراقبتها لهما حتى ظنت الفرصة ممكنة فوثبت وثبة من ينجو بحياته، ودخلت في باب مفتوح، ولمحها الهزيل، كما تلمح العين برقاً أومض وانطفأ، فقاللسمين: اذهب راشداً، فحسبك الآن من المعرفة بنفسك وموضعها من الحياة أن الوقوف معك ساعةً هو ضياع رزق، وكذلك أمثالك في الدنيا، هم بألفاظهم في الأعلى وبمعانيهم في الأسفل. .

مصطفى صادق الرافعي

من روائع عصر الأحياء

حياة بنفونوتو تشلليني مكتوبة بقلمه

مثل أعلى للترجمة الشخصية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

قد تفوق الحقيقة أحياناً من حيث الغرابة والروعة والميل إلى المدهش الخارق، كل ما يتصوره الخيال المغرق. وهذه ظاهرة نلمسها في كثير من حوادث التاريخ، كما نلمسها في الحوادث الفردية. ومن الأشخاص العاديين من تهيأ له حياة فياضة بالمخاطر والمغامرات المدهشةتجعل منه شخصية فريدة تخلق بذكر التاريخ، وإن لم تؤثر في مجرى حوادثه. وكثيراً ما تبدو هذه السير الشخصية العجيبة برائع حوادثها ومفاجآتها في لون خارق لا تسبغه الحوادث العظيمة على التاريخ نفسه، ولا يسبغه الخيال المغرق على القصة المبتكرة.

ومن هذه النماذج الخارقة للحياة الفردية، حياة الفنان الإيطالي بنفونوتو وهو نموذج ليس له فيما نعتقد مثيل في الغرب أو الشرق؛ ومما يزيد في قيمته وروعته انه صورة رسمتها يد ذلك الفنان البارع الذي نقرأ حياته، عن نفسه وعن حوادث حياته. وكم من تراجم شخصية بديعة انتهت إلينا لشخصيات عظيمة وبأقلام قوية ساحرة؛ ولكنا لا نستطيع أن نلمس فيها رغم روعتها، تلك الحياة المضطرمة التي تفيض بها سيرة بنفونوتو تشلليني. ومن الغريب أن تشلليني لم يكن كاتبا ولا أديبا، يسبغ من أدبه وقلمه على حوادث حياته سحراً وقوة؛ ذلك أن معظم التراجم الشخصية العظيمة التي انتهت إلينا أتيحت لها أقلام بارعة صاغتها في أوضاع أدبية باهرة، وكثيرا ما يتفوق الجمال الأدبي فيها على روعة القصة وسحر الحوادث. ويعرف الذين قرأوا (اعترافات) جان جاك روسو، أو ترجمة المؤرخ الفيلسوف جيبون لنفسه، أي جمال يسبغه القلم ويسبغه البيان الرائع على تلك الصحف الشائقة التي يقدمها إلينا كل من روسو وجيبون عن نفسه، حتى أن سحر البيان ليسمو في مواطن كثيرة، على روعة الحوادث ذاتها. ولكن تشلليني كان اكثر من كاتب وأديب؛ كان فناناً عظيماً تتجلى عبقرية الطبيعة في مواهبه، ويستمد منها سحر البيان وآية الوصف؛ وأنا لنلمس في تلك الصحف القوية التي تركها لنا عن حياته العجيبة، روعة هذه المواهب الساذجة، وتحملنا بساطتها المؤثرة إلى أعماق هذه النفس التي تحدثنا لا بواسطة اللفظ الساحر، ولكن في نوع من الوحي والتأثير الروحي، ونكاد نشعر ونحن نتتبع تلك الصورة الحية التي يرسمها لنا تشلليني عن نفسه، إننا نرى تشلليني نفسه، لا تفصلنا عنه القرون، ونشهد معه تلك الحوادث العجيبة التي يقصها علينا، نشهد أحوال عصره ماثلة أمامنا، في ألوان ساطعة، تسبغ عليها ريشته البارعة كل ما

في الحقيقة من قوة وروعة وحياة.

كان تشلليني من غرس عصر الأحياء، ذلك العصر الذي تفتحت فيه مكامن العبقرية البشرية، وأخرجت لنا ثبتاً حافلا من تلك الشخصيات التي يزدان بها تاريخ الإنسانية؛ وقد بزغ فجر هذا العصر في إيطاليا، منذ القرن الرابع عشر، وأشرقت طلائعه على يد دانتي وبتراركا وبوكاشيو وماكيافيللي، وميراندولا وجاليلو، ثم على يد رافائيل سانزيو وميشيل انجيلو وعشرات آخرين من أبطال الفن الرائع ترجمهم لنا جميعا، جورجو فازاري في أثره الضخم؛ وكان بنفونوتو تشلليني من جنود ذلك الجيش الباهر الذي لبث ضوء عبقريته يسطع في جنبات إيطاليا زهاء قرنين. ولم يكن في الصف الأول من ذلك الثبت الحافل، ولكنه يقدم إلينا بحياته الغريبة أقوى وأصدق مثل لعصره، بكل ما فيه من حسنات ورذائل؛ ولا غرو فقد عاش تشلليني في عصر البابوية الذهبي، وعصر الحروب الأهلية والغزوات الأجنبية في إيطاليا، واشترك بقسط وافر في كثير من الحوادث العظيمة التي كانت تهز أسس المجتمع الإيطالي يومئذ، وشهد عن كثب سير أولئك البابوات والأحبار الذين كانت أقوالهم ونزاعاتهم يومئذ كل شيء في الملك والحياة العامة.

ولد تشلليني في أسرة متوسطة الحال في سنة 1500 بمدينة فلورنس (فيرنتزا) التي كانت يومئذ في طليعة المدن الإيطالية الزاهرة، وكانت موئل الفنون والآداب. وكان أبوه مهندساً وموسيقياً يجيد العزف بالمزمار، وفناناً يقوم بصنع التحف العاجية الدقيقة؛ وكان يحاول أن يغرس في نفس طفله بنفونوتو حب الموسيقى ويرغمه على العزف والغناء. ولكن بنفونوتو كان يتضجر من الموسيقى، ويؤثر عليها الرسم. ولما بلغ الخامسة عشرة التحق على كره من أبيه بحانوت صائغ ماهر؛ وكان يهوى هذه الصناعة بطبيعته؛ ولكنه لم يلبث أن

اضطر إلى مغادرة فلورنس على أثر اشتراكه في شجار دموي وقع بين أخيه وبين جماعة من جند الأمير، وقضى من جرائه بنفي الأخوين من فلورنس؛ فسار تشلليني إلى مدينة سيينا، واشتغل هنالك حيناً لدى صائغ آخر؛ ثم سعى والده لدى الكردينال دى مديتشي الذي انتخب لكرسي البابوية باسم كليمنضوس السابع، فسمح للأخوين بالعودة إلى فلورنس؛ واقترح الكردينال على الأب أن يرسل ولده بنفونوتو إلى بولونيا ليتعلم هنالك الموسيقى على أساتذة الفن بتوصية منه، فاغتبط الأب لذلك أيما اغتباط، وقبل الفتى رغم إرادته لأنه كان يكره الموسيقى وينعتها (بالفن الملعون)، ولبث مدى أشهر يتعلم الموسيقى، ويشتغل أيضاً بصناعته المحبوبة أعني الصياغة وصنع القطع الفنية الدقيقة؛ ثم عاد إلى فلورنس يزاول صناعته حتى اشتهر رغم حداثته، وتحدث الناس بمواهبه. وهنا اتصلت أواصر الصداقة بينه وبين فتى يدعى تاسو، وهو فنان حفار؛ فاقترح عليه أن يسافر الاثنان إلى رومه؛ وكانت هذه أمنية تثير خيال فتى ذكي مخاطر مثل بنفونوتو، فقبل الاقتراح. وسافر الاثنان إلى رومه، وكان تشللينى يومئذ في التاسعة عشرة من عمره

وفي رومه اشتغل تشلليني لدى أقطاب فنه، وزاد كسبه، وتفتحت أمامه الآمال الكبيرة؛ وكانت رومه في ذلك العصر مدينة الأحبار، ومعقل الفاتيكان، تنثر عليها البابوية من سلطانها وبذخها وبهائها ألوانا رائعة؛ وكان الاتصال بذلك المجتمع القويالباهر أشد ما يثير طلعة ذلك الفتى الطامح؛ وكانت البابوية وأولياؤها من الأحبار الأكابر يومئذ موئل الفن الرفيع، وملاذ الفنانين الموهوبين. فاستقر تشلليني في رومه يرقب فرصه، ولبث إلى جانب عمله يشتغل بدراسة النقوش والصور الخالدة التي خلفها ميشيل انجلو ورافائيل، في صروح رومة؛ ولم يمض سوى قليل حتى أتيحت له فرصة الاتصال بحبر كبير هو أسقف شلمنقة أصلح له بعض التحفوسر من مهارته وعهد إليه بصنع إناء بديع مزخرف؛ وعهدت إليه زوج الأمير تشيجى بصنع حلية من الجواهر. وهنا يفض تشلليني في وصف التحف والحلي البديعة التي كان يصنعها إفاضة تدل على ما كان يجيش به من شغف بفنه ومهنته، وهنا أيضا يطلق تشلليني العنان لأهوائه المضطرمة ويصف لنا بمنتهى الصراحة والجرأة مواطن لهوه، ومواطن عبثه وفسقه مهما كانت من الوضاعة، ويقص علينا كيف أصابه الوباء الذي عصف يومئذ برومة، عقب ليلة غرام قضاها مع فتاة خادمة لبغي حسناء

جاءت لزيارة صديق له، فاختص الصديق بها، واقتنص هو الخادمة خلسة عنها. وقد قص علينا روسو في اعترافاته كثيراً من مواطن لهوه وفسقه، في أحاديث صريحة واضحة؛ ولكن روسو يسبغ من بيانه على تلك الأحاديث في كثير من الأحيان لوناً من الحشمة، وتكاد تنم عن شعوره بالآثم والندم واحتقار مواطن الضعف الإنسانية. أما تشلليني فانه يقص علينا تلك المناظر الآثمة بكل بساطة، ويصف لنا طبيعته المضطرمة الجامحة دون استحياء، ويكشف لنا عن دخائل نفسه دون تحفظ، وأخص ما يلفت النظر في ما يقصه علينا من تلك الصفات النفسية، انه كان كثير الإفراط والعنف، شغوفاً بالمخاطرة، تواقا إلى الانتقام، كثير المجون والاستهتار.

ونجا تشلليني من الوباء، بينما احتمل كثيراً من أصحابه، ولكن رومه لم تكد تفيق من عيث الوباء حتى دهمتها مصائب الحرب والحصار، وزحفت الجنود الإمبراطورية - جنود الإمبراطور شارلكان - على رومه بقيادة الكونستابل دى بوربون (سنة 1527). وهنا يبدو تشلليني في ذروة الجرأة والمخاطرة، فنراه رئيس سرية من الجند المأجورين يتولى حراسة قصر الساندرو دلبيني، ثم يخف مع سيده إلى الأسوار المحصورة ليرى الجيش المحاصر. وفى ذلك الموطن يقص علينا تشلليني قصه لا ينقضها التاريخ؛ وهي أنه حينما اشرف على الأسوار مع زملائه ليرقب سير المعركة، رأى وسط الدخان رجلاً يرتفع عن الجميع، فصوب رصاصه نحوه، وأطلق مع زملائه في تلك الناحية عدة رصاصات، وحدثت على أثر ذلك في قلب الجيش ضجة كبيرة؛ وشاع بعد ذلك أن الكونستابل دى بوربون قد قتل من رصاصة أطلقت عليه من وراء الأسوار. ويدعي تشلليني أنه هو الذي أصاب الكونستابل برصاصه. وليس في ذلك ما ينقضه التاريخ، ولكن ليس فيه أيضا ما يؤيده. فقد سقط بوربون قتيلا في بدء القتال من رصاص الجند المحصورين؛ ولكن ليس ثمة ما يؤيد أن تشلليني هو صاحب الطلقة القاتلة. وعلى أي حال فأن الحادث دليل على جرأة تشلليني ووافر شجاعته. ولم يمنع مقتل بوربون جنوده من اقتحام المدينة، فدخلوها في عدة مواضع دخول الضواري المفترسة، وأضطر البابا كليمنضوس السابع أن يفر مع بطانته إلى حصن سانت انجيلو الذي يتصل بقصر الفاتيكان بأقبية سرية؛ وكان ذلك الحصن الشهير الذي ما يزال إلى اليوم قائما في رومه على ضفة نهر تفيرى، من أمنع وأعجب معاقل العصور الوسطى، يلجأ إليه البابوات بكنوزهم كلما دهم رومه خطر السقوط في يد العدو، ويتخذ في أوقات السلم سجناً تزج إليه البابوية أعداءها. واختار الجنرال دى مديتشى قائد الحرس تشلليني ضمن حرس الحصن إذ كان يعرف شجاعته؛ وكان الحصن مجهزا بالمدفعية من جميع نواحيه، فانتخب تشلليني ليتولى إطلاق إحدى وحدات المدفعية، ولبث مدى شهر يتولى هذه المهمة. ويقول لنا تشلليني انه أتى في ذلك بالعجب العجاب، وحصدت قنابله كثيرا من جند العدو، وباركه أكابر الأحبار وهنأوه على براعته. وفى خلال ذلك استدعاه البابا كليمنضوس، وكان قد عرفه من قبل وعهد إليه بصنع بعض التحف وأعجب بافتنانه، وطلب إليه أن يقوم باستخراج جميع التحف والحلي الرسولية من علبها وإطاراتها الذهبية؛ وبعد أن خبا البابا الجواهر في بطانة ثيابه وثياب بعض خواصه، أمره أن يصهر القطع الذهبية سراً؛ فأخذ تشلليني واشتغل بصهرها في ركن صغير إلى جانب مدفعيته؛ ولبث أثناء العمل يطلق القنابل على جند العدو؛ وهنا يقول لنا تشلليني انه أطلق قنابله ذات يوم على فارس يسير حول خنادق العدو فأرداه وتبين انه هو البرنس دى اورانج كبير الجيش المحاصر.

وبعد أيام قلائل عقد الصلح؛ وسار تشلليني إلى فلورنس ليزور أباه وأسرته، ملئ الجيب، يركب فرساً جميلاً، وورائه خادم خاص. وبعد أن مكث قليلا سار إلى مانتوا ليزورها، واتصل بأميرها دوق مانتوا، وصنع له بعض التحف الجميلة. ثم عاد إلى فلورانس، فألفاها تتاهب للدفاع عن نفسها ضد جنود البابا كليمنضوس. فاعتزم أن يشترك في الدفاع عن وطنه، ولكن البابا كليمنضوس أرسل يستدعيه إليه، ويعده بوعود حسنة، فعاد إلى رومه، واستقبله البابا مراراً، وعهد إليه بصنع حلي وتحف خاصة بثيابه وتاجه، ثم عهد إليه بصنع نماذج للنقود تستعمل في دار الضرب البابوية، وأبدى تشلليني في ذلك كله من المهارة والدقة ما جعل البابا يضاعف له العطف والبذل ويعينه ناظراً لدار الضرب. وهنا وقع حادث جديد يدل على صرامة تشلليني وعنفه؛ ذلك أن أخاه الأصغر

جوفانيالذي كان يومئذ في رومه ضمن جند الدوق الساندرو دى مديتشي اشتبك وبعض فتيان من صحبه ذات مساء مع جماعة من الحرس كانت تقود إلى السجن صديقاً لبعض أولئك الفتيان، فأصيب جوفانى خلال المعركة بجرح خطير، وحمل مغشياً عليه إلى قصر الدوق الساندرو، فهرع إليه
بنفونوتو، ولكنه أسلم الروح بين ذراعيه؛ وعرف بنفونوتو الرجل الذي طعن أخاه الطعنة القاضية، فسار إلى منزله ذات مساء، وكان الرجل يتنزه أمام داره، فطعنه بخنجره طعنة نجلاء خر لها صريعاً، وبذا انتقم لأخيه وشفى نفسه. وعاد إلى عمله كأن لم يحدث شيء. وكان القانون يومئذ صريع الجاه والهوى، فمن كان ذا جاه أو حماية استطاع أن يجري القصاص لنفسه وأن يستبيح دم خصومه
واستمر بنفونوتو حيناً يقوم بخدمة البابا، فأعاد صنع التحف الرسولية كما كانت قبل الحصار، وكلفه البابا بصنع تحف أخرى، فوضع رسومها ونماذجها، وكان البابا دائماً فارغ الصبر يستحثه على السرعة، وبنفونوتو لا يدخر وسعاً في العمل، وأصابه ذات يوم مرض في عينيه، وعاقه عن العمل حيناً، فغضب البابا واعتقد البابا انه يتقاعد عن إتمامه قصداً، وكان ثمة بعض رجال البطانة ممن يحقدون على بنفونوتو، ويستكثرون عليه هذه الرعاية، يدسون دائماً حقه ويلتمسون الفرص لإحفاظ البابا عليه بحجة انه مقصر في أعمال قداسته وانه كثير الحب للمال لا يقنع أبداً بما يدفع إليه من الأجور والهبات، وأنه كثير الادعاء والغرور؛ فأثمرت هذه السعاية ثمرها، وطلب البابا من بنفونوتو ما لديه من تحفه، فامتنع من بنفونوتو من تسليمها بحجة أنها لم تتم وانه لم يقبض أجرها، فقبض عليه بأمر البابا، وأخذت التحف قسراً عنه، ثم أطلق سراحه؛ بيد أنه كان قد فقد عطف البابا. فحاول أن يجد يومئذ عزائه في الحب وكان قد تعرف بسيدة صقلية ذات ابنة حسناء، هام بحب الابنة، واعتزم أن يختطفها ويفر بها إلىفلورنس.
ولكن الأم شعرت بمشروعه، فسافرت مع أبنتها خلسة إلى صقلية؛ ولجأ بنفونوتو إلى ساحر في رومه ليعاونه على الإجتماع بحبيبته، ولبث أياماً يحضر الجلسات السحرية خارج رومه؛ ولكنه لم يفز طبعاً ببغيته. ثم نسى غرامه، ووجد عزاءه مرة أخرى في فنه وفي التماس صنعبعض الحلي والتحف النادرة التي تدلل على أنه أستاذ عصره، وانه لا يجارى في ابتكاره وبراعته.
(للبحث بقية)
محمد عبد الله عنان المحامي
دق على الخشب
أو (بص وراك)
من عبارات الدعاء والتشميت لجلب الخير وطرد الشر عند الإنجليز قول الواحد منهم (مس الخشب) أو (دق على الخشب) كما نقول نحن (بص وراك) كأن هذا المس أو هذا الدق يطرد الشيطان أو العفريت الذي يتحفز غير منظور وغير مشعور به لقطع الخير عن أهله. يراد به أن يكون كالبسملة عند المسلمين أو كذكر الصليب عند المسيحيين ضماناً لحسن البدء وحسن الختام.
وقد رأينا مقالاً لعالم إنجليزي بهذا العنوان حاول فيه تعليل هذا المس وتسلط الخرافات على الناس قال:
(كلما مر يوم رأى العالم وقد عراه الدهش انه لا يزال في القرن العشرين أناس يؤمنون بالسحر. أما أنا فلا أفهم قدرة الناس على أن تدهشهم هذه الحوادث التي تتكرر في مدة قصيرة).
ففي سنة1921 كان حديث القوم عندنا ذلك المنزل المسحور الذي كانت فيه قوى غير منظورة تبعثر الأثاث والرياش في جميع جوانبه، وفي سنة1926 اتهم بعضهم بالسحر في محاكمة ملون، وفى سنة1928 روع الناس بوقائع سحرية في ولاية بنسلفانيا الأمريكية.
هذا بعض من كل، وهم كلما سمعوا بحادثة من هذا النوع دهشوا لها أيما دهش وقالوا إنها مستحيلة، ومن التخرص والأحاديث الملفقة. ثم تراهم يدقون على الخشب ويحاذرون المرور تحت السلالم الخشبية ويلقون الملح من فوق أكتافهم إلى غير ذلك، هذا كله مع علمنا بان السحر خارج عن دائرة العقل والحقائق العلمية.

فان كان ذلك كله مستحيلاً وخارجاً عن دائرة العقل فكيف قوى على البقاء آلافاً من السنين، على حين أن خصوم السحر والسحرة جعلوا ديدنهم في كل زمان ومكان القبض على السحرة وحرقهم أينما وجدوهم. فهل هذا كله مناقض للعقل؟

كنا منذ مئة وخمسين سنة نقول إن طيران الإنسان مناقض للعقل، وكنا منذ عشرين سنة نقول أن من مناقضات العقل جلوس امرئ في منزله بلندن ينصت إلى عزف الموسيقى في برلين.

وقد علل بعضهم هذه الغرائب بقوله إنها من فئة الحقائق التي تخضع لناموس طبيعي مجهول، ومتى يعرف هذا الناموس تصبح الغرائب حقائق لا علاقة لها بالسحر، لأن السر لا يخضع لنواميس الطبيعية.

وقد تكون هنالك نواميس نجهلها، ومع ذلك فهي تعمل عملها كل يوم أمام عيوننا.

وفى سنة1770 كان الناس يسمون التنويم المغناطيس سحراً أي ضبط إنسان لحركات إنسان آخر وأعماله وهو يجهله تمام الجهلفلا يمكن أن يقال أن بينهما تواطؤاً وتدبيراً سابقاً.

ثم جاءت سنة1778 فسموه بالمسمرزم وسلموا به جدلا وعلى كره منهم كما نسلم نحن الآن بالتليباتي أي انتقال الأفكارونتظر ناموساً طبيعياً لتعليله، ولكن هذا الناموس لم يكشف بعد ونحن نسميه في هذه السنة، سنة1934 بالهبنوتزم. فهل نستطيع أن نعلل بناموس طبيعي كيف يتمكن بعض الناس وفى أيديهم غصن من شجر البندق من أن يدلونا على ينابيع ماء تحت الأرض التي يقفون عليها وذلك بانحراف الغصن فجأة في أيديهم؟

وهل نستطيع كذلك أن نعلل تعليلاً طبيعياً حوادث شفاء المرضى والمفلوجين والمقعدين والمبتلين بسائر العلل في كهف لورد وتريبيه (في فر نسا) فان كنا لا نستطيع ذلك؟ وجب علينا الأيمان بالسحر ونبذ القول إننا نرفضه لأنه لا يعلل بناموس طبيعي نعرفه.

ثم ما هي هذه التي يسمونها حقائق علمية. أنا لا أعرف كثيراً منها، وإنما أعرف كثيرا من المذاهب والآراء العلمية. ففي أيام تلمذتنا كان من الأوليات أو البديهيات قولهم (إن الخط المستقيم هو أقصر مسافة بين نقطتين). ولكننا بعد مذهب آينشتين نعلم علمًا ليس بالظن أن ذلك ليس صحيحاً.

وكان من الحقائق العلمية في حداثتي أن أهل الكيمياء القديمة كانوا جهلاء وحمقى لأن القاعدة التي كانوا يبنون عليها تجاربهم وامتحاناتهم كانت فاسدة. فقد كانوا يقولون إن عناصر معدن من المعادن يمكن تحويلها إلى عناصر أخرى يركب منها معدن آخر. وعليه استدلوا أنه يمكن تحويل معدن ما ذهباً أو فضة باستعمال الوصفة الصحيحة لذلك. وبالفعل استحدثوا الذهب من النحاس، ولكن نفقات التجربة كانت اعظم من الانتفاع بها عمليا كما أن استقطار الزيت من الفحم كان إلى عهد قريب عظيم النفقة بحيث لا يمكن استخدامه تجارياً.

وبعد ما تقدمت في السن وجد العلماء أن تحويل المعادن بعضها إلى بعض حقيقة علمية كما

ظن أهل القرن الثامن عشر لا خداعا كما ظن أهل القرن التاسع عشر بعده. فصار العالم بعد ذلك أكثر إجلالا لأهل الكيمياء القدماء وصرت أنا أكثر شكاً في الحقائق العلمية.

أما المذهب السحري فخلاصته هي أنه كما أنه حولنا قوى عظيمة الفعل كالكهربائية، وهذه القوى تنتج أشياء لا نزال نجهلها إلى الآن كذلك في داخلنا قوى عظيمة الفعل كالهبنوتزم و (التبصير) نستطيع بها بعد تربيتها وإتقانها أن نأتي أفعالا لا تخطر لنا الآن على بال.

ويقول الخبيرون بالسحر إننا نستطيع بهذه القوى أن نخضع جميع الأشياء المادية التي نراها حولنا من شفاء الأمراض والتكهن بالمستقبل. والمعيشة بلا طعام. والعوم في الهواء كما صنع الوسيط دوجلاس هوم في القرن الماضي بشهادة الشهود العدول. ونحكم الإنسان في مصيره.

وقد قسم المعاصرون الأعمال السحرية قسمين: سموا ما يراد به الخير والرشد السحر الأبيض، وما يراد به الشر والنكد السحر الأسود. فمن قبيل الأول الشفاء

بالإيمان وهو الشفاء الذي يجرى على أيدي أئمة التبت. ومن قبيل الثاني سحر سحرة أفريقية بين قومهم السود. ومن غريب ما يذكر في هذا الصدد أن الموظفين الإنجليز والمبشرين في أواسط أفريقية يعودون منها وهم يعتقدون أن لأولئك السحرة قوة خارقة وإن لم يدركوها ويعرفوا لها تعليلاً.

وغاية (علم) السحر إن صحت تسميته علماً هي إضعاف شهوة الجسم بسلسلة من أعمال التمرين والرياضة والتقشف اعتقاداً أن (إماتة ما هو مادي إنما هي إحياء ما هو روحاني وما وراء الطبيعة فينا. وهكذا نتمكن بالأشياء غير المنظورة من إخضاع الأشياء المنظورة والتحكم فيها).

ولا نستغرب أن يصدق أهل أواسط أفريقية سحر سحرتهم وكهانة عرافيهم وكهنتهم ونحن نرى الأوربيين الذين يعيشون بينهم مبشرين وتجاراً ومستعمرين يحارون في تعليل بعض الحوادث التي يخبرونها بأنفسهم ويرونها بعيونهم، فما كدنا ننتهي من نقل مقالة العالم المتقدمة حتى قرانا حكاية لضابط إنجليزي فحواها أن بعض الأقوام الذين يعيشون حول بحيرة البرت نيانزا في أعالي النيل يقدسون التمساح ويقدم كاهنهم قرباناً له من آن إلى آن - فتاة صغيرة من فتياتهم لرد غضب الآلهة إذا أنسوا غضبها.

وقد روى هذا الضابط انه أنقذ فتاة أعدت طعاما للتمساح المقدس بترويع التمساح من غير أن يلحق به أذى. وأرسلها الضابط إلى مكان بعيد تشفى فيه من الروع الذي أصابها.

وفي اليوم التالي علم الكاهن بما صنع الضابط فجاءه معاتباً وقال له في جملة ما قال: (أتظن الفتاة تنال الشفاء. لن يمضي عليها شهر من هذا التاريخ حتى تموت). وكان ما قال الكاهن

وقد روى الضابط ما حدث وعلق عليه بقوله: (ومما كان سببا في أسفي أنه مع كل ما بذل من الجهد لشفاء الفتاة ماتت في خلال شهر كما أنبأ الكاهن. أفكان موتها من لعنة الآلهة أم من تأثير الروع؟ ذلك ما لا يستطيع أحد معرفته!)

ق. س

مصطفى كمال وموسوليني

كيف أجاب بطل تركيا على تهديد بطل إيطاليا

منذ بضعة أسابيع وقف دكتاتور إيطاليا وباعث نهضتها ليلقي خطبة من خطبه النارية على شباب إيطاليا الفاشيست ليزيدهم حماسة ووطنية فوق ما خلق فيهم منها كما هي عادته منذ أن تقلد زمام أحفاد الرومان، فرأى أمامه بحرا زاخرا من ذوى القمصان السود وكلهم ممتلئون حرارة وحماسة، ومتعطشون لليوم الذي تتاح لهم الفرصة فيه لإبراز مقدرتهم الجسمانية، ومهارتهم في فنون الحرب والفروسية، فغره ذلك: نعم، غر الدوتشي ذلك الجمع المحتشد وتلك الصفوف المتراصة، الثابتة كالبنيان. وخيل إليه في تلك اللحظة أن العالم كله قد ارتدى القمصان السود وجاء ليقدم آيات الخضوع وفروض العبودية لموجد إيطاليا الأوحد، ليزداد كبراً على كبريائه.

وهنا لعب الغرور دوره وزلت بموسوليني القدم زلة سياسية فظيعة. أجل، فقد أوحى الغرور إلى هذا الجبار أن يميط اللثام عن أمور كان حريصا على كتمانها حتى تلك اللحظة حرصه على حياته. . فأشار في سياق كلامه إلى رجاله، شباب إيطاليا الحاضرين ساعتئذ، أن أرض القياصرة لم تعد تسعهم وأن عليهم بعد الآن أن يتطلعوا بأبصارهم نحو الشرق ونحو الجنوب. . .

(. .!تلك البلاد التي غدا أحقر علوج الغرب يمني النفس بالسيادة عليها؟)

لقد غفل عن نفسه موسوليني هذه المرة وارتكب في غفلته هذه خطأ سياسيا لا يمكن تلافيه بالسهولة التي كان ظنها. ذلك انه قد تحرش وبالأحرى صوب سهام كلامه، بقصد أو بغير قصد لذلك الذي أثبت مراراً لأوربا، المفتونة بنارها وحديدها، انه مستعد دائما وأبداً لأن يعطيها درسا جديدا أقسى وأمر من كل الدروس القاسية التي أعطاها إياها في الماضي القريب فقط. . .

وما كاد الأثير يحمل صدى هذه الخطبة إلى قاعة مجلس الأمة الكبير ويوصله إلى آذان جبار تركيا العتيد، حتى أوعز إلى سفيره في روما أن يقابل الدكتاتور ويستوضحه عن كلمة (الشرق) التي قالها وأومأ إليها في عرضخطبته تلك. وما كاد موسوليني يعلم أن

سفير تركيا يريد مقابلته حتى انتبه للغلطة التي وقع فيها. فأسرع للقاء الوزير وأكد له بأنه ليس
إلا محباً لتركيا ومعجبا بغازيها الأعظم. ولم يقصد قط الأراضي التركية فيما أراد من (الشرق) في خطبته. وانه لا يضع تركيا في مصاف الأمم الشرقية، بل يعتبرها دولة أوربية من صديقات إيطاليا. . .
فبمثل هذه التأمينات ظن موسوليني انه يستطيع اليوم أن يلعب مع الكماليين (أو ليسوا هم في الحقيقة شرقيين أيضاً؟؟) الدور الذي لعبته إيطاليا بالذات مع حكومة (الباب العالي) في حرب طرابلس وبنغازي بالأمس القريب، فلذا شعر كأن الكابوس الذي ضايقه من يوم إلقائه الخطبة المذكورة - وربما كان لأول مرة في حياته الدكتاتورية - قد زال بانصراف سعاد بك من لدنه، فوجئ على حين غرة بضربات سياسية قوية متتالية من منقذ تركيا العظيم.
قلنا لم يكد موسوليني يضحك من تحت شاربيه الحليقين بعد انصراف الوزير الشرقي حتى ذهل ووقف واجما، إذ علم أن قيامة الجيش التركي قد قامت، ذلك الجيش الذي لم تكن كتائبه قد تنفست بعد من غمار الحرب الكبرى في وجه أوربا العاتية، قبل عشر سنوات فقط، وهددت جيوش أقوى دول العالم على أبواب الآستانة في الوقت الذي كان قد خيل إلى العالم أن حملة الـ (آل سنجاق) (العلم التركي الأحمر) قد اصبحوا في خبر كان ودخلت سلطنتهم وسيادتهم فيما قدر لها من صفحات التاريخ. .
وقف اليوم هذا الجيش اللجب، الشاب القوى، المزود بأحدث معدات الحرب الآن، وقف ليستعرضه وليرد له تحياته العسكرية الصميمة المشير (الغازي مصطفى كمال باشا)، قائده العام بالأمس القريب - يوم أن كانت الأرض غير الأرض والسماء غير السماء في الجبهة الغربية من بلاد الاناضول - ورئيسه الأعلى اليوم الذي اخذ يزور الأماكن التي قد يغر ضعف في استحكاماتها أو عدم اعتناء في حراستها من يسوقه سوء حظه من جيوش الغرب إلى أن يشتبك معها. .
وعلى اثر عودة الغازي إلى الآستانة من طوافه لغرب الأناضول ومن استعراضاته لحماة سواحل تركيا الغربية والجنوبية دوى في قاعات عصبة الأمم والقاعات السياسية الأخرى في أوربا خبر التوقيع على معاهدة أصبحت بموجبها دولالبلقان - كلها تقريباً - كتلة واحدة بزعامة سيدة البوسفور، وأعقب ذلك اتفاق بين فرنسا وروسيا السوفيتية حليفة تركيا القوية.
ومن ثم اعتراف شبكة بلقان بروسيا نتيجة للمساعي التي بذلها في ذلك السبيل (توفيق رشدي بك (ساعد الغازي السياسي). .
وليس هذا كل ما فعله الأتراك على أثر غلطة (الدوتشي) الزعيم الإيطالي الأعلى، تلك الغلطة التي ألقت في يد الكماليينسلاحاً قوياً ليستعملوه إلى أقصى حد ممكن؛ فرصة انتهزها الأتراك واستغلوها لصالحهم إلى ابعد الحدود المستطاعة. .
أمر داهية تركيا أن يخصص فورا - بحجة الخوف من غارة إيطالية - ثلث الميزانية العامة لهذه السنة لإعلاء شان الدفاع القومي وأوصى اليابان - صديقته الجديدة - بصنع بوارج وغواصات ونسافات وطرادات وغيرها من معدات القتال البحري، كما أوعز في الوقت نفسه إلى وزير خارجيته وممثله في عصبة الأمم أن يطلب إلى ممثلي الدول ان يأذنوا لتركيا لتلحق القسم المعتل الوحيد من معاهدة لوزان بأمثاله من مجموع فصول معاهدة (سيفر) التي كان توقيع الكماليين عليها قد جرى، لا كما جرى عليها توقيع باقي دول الاتفاق الرباعي، إنما برؤوس الحراب المسمومة التي مزقتها إرباً إرباً وقبرتها في مهدها فيما يتعلق بتركيا، بينما ألمانياالهتلرية الآرية العظيمة لا تزال إلى يومنا هذا تعمل المستحيل للتخلص من بعض أغلال تلك المعاهدة. وعلى ذلك تقدم ممثل تركيا إلى مجلس جنيف وأبلغ أعضاءه رغبة الأمة التركية في تحصين المضايق وتسليحها، إذ أن هذا القيد الوحيد الذي أجبرت ظروفه الدقيقة تركيا أن ترتضي به كتذكار - وقتي على الأقل - لمعاهدة لوزان التي اعترف فيها باستقلال تركيا المطلق، لم يعد الآن يقوى على نمو ساعد تركيا الفولاذي.
إن هذا القيد قد أكله الصدأ وتصدع من جوانبه كلها، ولا يلبث حتى يتفتت من تلقاء نفسه إن لم يسرع ممثلو الدول في التقاط أوصاله التي ستتطاير في القريب ليحتفظوا بما ضحوا في الدردنيل. .

ولو أن السير جون سيمون صرح حديثاً وهو، مسرور، في مجلس العموم (أن توفيق) رشدي بك قد وعده أخيراً بأن تركيا سوف لا تصر على هذا الطلب في الوقت الحاضر؟!. .)

وها هي ذي الأسلاك أخذت تنبئنا الآن بأن صاحب الجلالة رضا شاه بهلوي إمبراطور إيران العظيمة قد ترك بلاده لأول مرة في أيام حكمه، واجتاز الحدود التركية ووصل بموكبه الشاهاني المؤلف من (40) وزيراً وقائداً واختصاصياً ومرافقاً إلى (أنقرة) عاصمة الكماليين، محروساً طول الطريق بقوات مضيفه من البر والبحر والجو، ومستقبلاً ومشيعاً حيث ما مر من بلاد جارته العزيزة بهتاف الشعب التركي بحياة جلالته الغالية، وذلك إجابة منه لدعوة بلغته من زميله الحاكم الشرقي الكبير، وجاره القوي العزيز، الذي أقام على أنقاض حكومة (الرجل المريض) البائدة، هذا الصرح الشامخ، وهذا السد المنيع في وجه أوربا كلها، والذي دعاه ليرتبط وإياه بروابط ستهلع لها قلوب الكثيرين من طغاة أوربا المتجبرين. ومن بينها، على كل حال قلب الدكتاتور الإيطالي، صاحب التهديد، الذي لا بد وقد بلغته أيضا الخطب الشديدة والكلمات النارية التي ألقاها أخيرا في المجلس الوطني الكبير نواب الأمة التركية، جواباً على تهديداته المعروفة، وكذلك التصريحات الرسمية التي ختم بها هذه الجلسةشكري قايا بك بالنيابة عن زميله وزير الخارجية الغائب، عن موقف تركيا في الحرب المقبلة والتنويه الصريح الذي نوه به هذا إلى المصير السيئ المنتظر على حدود تركيا وسواحلها الصلدة الصلبة المهلكةلكل من تحدثه نفسه بأن ينظر خلسة أو بأن يمد في ساعة جنون أو غرور يده إلى الأرض التي يفتديها في كل لحظة 17 مليون تركي وتركية، من اعظم الأمم وطنية وشجاعة، وعلى رأسهم وفى مقدمتهم صناديد تركيا العظام الذين باعوا النفس في سبيل هذه التربة عشرات المرات: وهم الغازي وجماعته من كبار القادة.

وعلى كل حال فلسنا هنا في معرض الانتقاص من قدر موسوليني إنما أردنا أن نبين أن الشرق مهد البطولة والأعمال الخالدة ومهبط الوحي ومنبت العلم والمدنية لا يعدم في أيامنا أيضاً أن يرد الغرب على أعقابه خاسراً نادماً، ويرفعرأس الشرق والشرقيين عالياً.

وقد أردنا بهذا المقال إن نبين بصورة خاصة كيف أجاب جبار الشرق على تهديد جبار الغرب، وكيف أن القوة وحدها هي التي يحترمها الأقوياء ويهابون جانبها، وكيف إن القوي وحده هو الذي يطلب وده وتلتمس صداقته.

بغداد

ج. مولود

الأدب كما ينبغي أن يكون

بقلم الأستاذ أحمد أحمد بدوي

ما غاية الأدب؟ وما رسالته في الحياة؟ سؤالان إذا نحن استطعنا الإجابة عنهما أفلحنا إلى حد كبير في تحديد ما ينبغي أن يكون عليه الأدب، وما يجب أن يأخذ به الأدباء أنفسهم حتى يصلوا أو يقاربوا المثل العليا التي ننشدها في الحياة، ولا تظنوا أن الإجابة عن هذين السؤالين هينة يسيرة، بل هي عسيرة جداً، ومع عسرها تختلف باختلاف العصور إن لم تختلف باختلاف الأفراد، ولكني أستطيع أن أقول: إن الأدب الخالد، أو بعبارة أخرى ما يجب أن يكون عليه الأدب ليكون خالداً، هو تصوير المثل العليا للإنسانية، ونشدان هذه المثل، إذ أن غايتنا في الحياة هي السير إلى المثل العليا بجد وعزيمة حتى نحققها أو نقاربها، وبما أن الأدب هو المعبر الدقيق عن عواطف الإنسانية وآمالها وأحلامها، فلتكن مهمته في الحياة هي تصوير المهمة الملقاة على عاتق الإنسانية وإن الإنسانية لتسير إلى المثل العليا على قدمين: العلم الذي يحقق الناحية المادية للمثل العليا، والأدب الذي يحقق منه الناحية الروحية. وقد فرغ العلماء من إثبات ما بين الناحيتين من تآزر وارتباط، وليس منواجبي الآن أن أتحدث عن المثل العليا للإنسانية فذلك يحتاج إلى كتب تؤلف فيه، ولكنني فقط أحدثكم عن بعض هذه المثل مصورة في الأدب ومقتبسة من حياتنا المصرية الحاضرة

إذا نحن ذهبنا إلى الشعر العربي وجدنا فيه القيم الخالد، وإلى جانبه الكثير من الرديء

البائد، ولن أحدثكم عن رداءة الشعر أو جودته من الناحية اللفظية، ولكن من الناحية الروحية وناحية ما يبعثه في النفس من وجدان وشعور، يسمو بنا إلى حيث نحقق ما خلقنا له ونعيش من أجله.

في الشعر العربي صور لا أغالي إذا قلت أنها ضعيفة لا تستحق خلوداً، ولا ينبغي أن نلقنها نشأنا، ونؤدب بها أبناءنا، لأنها تنأى بنا عن بلوغ غاياتنا، وسأعرض طرقا من هذه الآداب مقتصداً في إيراده ما استطعت. ففي الأدب العربي كثير من الشعر الذي أسميه شعر الضعف والاستسلام للواقع؛ فتسمع فيه تلك النغمة التي تحقر العمل وأرباب العمل، وتدعو

بملء فيها إلى الرضا وإلى الاستسلام، ومنشأ هذه النغمة على ما أرى هو إيمان أصحابها بالقضاء والقدر إيماناً معكوساً؛ إذا هم قد حسبوا، وهم مخطئون فيما حسبوا، أن القضاء أو القدر لهما تأثير فعلي في فعل الإنسان وإرادته، وإذا كان الأمر كذلك فما قدره الله جل وعلا لابد واقع لا محالة، سواء أعمل المرء , أم لم يعمل، وإذا كان العمل، وترك العمل سواء، فمن العبث البين أن يكلف الإنسان نفسه مؤونة الجد والجهاد والمزاحمة في تلك الحياة، لأنه لن ينال على ذلك أجراً، غير ما كان يناله لو كف عن جده وجهاده، وليس غرضي الآن أن أبين خطأ ذلك التفكير، فانه من البين الواضح أن القضاء والقدر ليسا إلا علم الله فحسب بما سيكون، والعلم ليس من صفات التأثير بل هو من صفات الكشف والإيضاح لا دخل له في قدرة الإنسان وإرادته الإيمان بالقضاء والقدر على تلك الصورة التي أسلفت ذكرها هو إيمان بالجبر، وإيمان بالحظ على الصورة السطحية التي لا تتغلغل في حقيقة الأشياء، فأنكرت قدرة الإنسان وإرادته ودعتنا إلى الضعف والاستسلام وأنتجت لنا هذا اللون من الأدب الضعيف قال الشاعر:

وما فسدت أخلاقنا باختيارنا ... ولكن بأمر سببته المقادر
وفى الأصل غش والفروع توابع ... وكيف وفاء النجل والأب غادر؟
فقل للغراب الجون إن كان سامعاً ... أأنت على تغيير لونك قادر؟

وقال أيضاً:

ويجرى قضاء مالكم عنه حاجز ... فألقوا إلى مولاكمو بالمقالد

وقال أيضا:

وجبلة الناس الفساد وفضل من ... يسمو بحكمته إلى تهذيبها

وقال أيضا:

لا تمدحن ولا تذمن امرأ ... فيها، فغير مقصر كمقصر

وقال غيره:

عزت مطالب دنيا كل ذي أدب ... وهان مطلب دنيا الأحمق الخرق
وقدر الله فيها أن يذللها ... فهان مطلبها للجاهل الحمق
فليس ينفك ذو علم وتجربة ... من مأكل جشب أومشرب رنق
وذو الجهالة منها في بُلَهنية ... من مسمع حسن أو منظر أنق
تبارك العدل فيها حين يقسمها ... بين البرية قسماً غير متفق.

ذلك شعر ينبع كله من واد واحد ومعين واحد، هو الجبر والإيمان بالقضاء والقدر إيمانا معكوساً، والإيمان بالحظ إيمانا ساذجاً، وسأترككم إلى أنفسكم تحكمون على هذا الأثر الذي يتركه ذلك الشعر في النفوس، وهل يقربها إلى مثلها العليا؟! أو هو على العكس من ذلك يؤخرها ويسير راجعا إلى الوراء، إنكم رأيتموه يدعونا إلى الرضا بفساد أخلاقنا؛ لأن الفساد ليس باختيارنا، ولكن بأمر سببته المقادر، ونحن عاجزون تماماً عن تغيير أخلاقنا عجز الغراب عن تغيير لونه، ورأيتموه يدعونا إلى الضعف والاستسلام للقضاء والإلقاء إليه بالمقالد، ورأيتموه يسوي بين الناس مقصرين وغير مقصرين، فكلهم لا يستحقون مدحاً ولا ذماً، لأنهم لم يأتوا ما أتوه بقدرتهم واختيارهم، بلمجبرون على أن يفعلوا ما فعلوا، ورأيتموه يقرن الرزق الواسع بالجهل، والرزق الضيق بالعلم، لأنه يؤمن بالحظ، وإذن فعلى العلم والتعلم السلام، لأن أحداً من الناس لا يرضى برزقه مقتراً، ورأيتموه يؤمن بالحظ ويزرى بالعمل والجد، فقدروا بأنفسكم ما يبعثه هذا الشعر في النفوس من ضعف واستكانة واستسلام تبعد بنا عن المثل العليا التي لا تثبت ولا تقوم إلا على دعائم من العمل ثابتة وطيدة، حقاً أنا أومن بالقضاء والقدر، وأنا

شخصياً أومن بالحظ، ولكنه إيمان ليس كإيمان هؤلاء، إذ أني اعتقد أن الإيمان بذلك كله لا يحول بين المرء وعمله، لأنه ما يدريه أنه قد كتب له الشقاء وقدر عليه التعس، وأن حظه بائس منكود، وما يدريه أنه على العكس من ذلك قدر له السعادة، وكتب له النجح وان حظه حظ السعيد الموفق؟

وبعد ذلك آخذ بيدكم لأريكم أدب القوة والهمة والإرادة وهي هي التي تأخذ بيدنا إلى بلوغ المثل العليا، قال الشاعر:

ذريني من ضرب القداح على السرى ... فعزمي لا يثنيه نحس ولا سعد
سأحمل نفسي عند كل ملمة ... على مثل حد السيف أخلصه الهند
فان عشت محموداً فمثلي بغى الغنى ... ليكسب مالاً أو ينث له حمد
وإن مت لم أظفر فليس على امرئ ... غدا طالباً إلا تقصيه والجهد

وقال غيره:

ذريني أنل مالا ينال من العلا ... فصعب العلا في الصعب والسهل في السهل
تريدين إدراك المعالي رخيصة ... ولابد دون الشهد من إبر النحل

وقال أيضاً:

يهون على مثلي إذا رام حاجة ... وقوع العوالي دونها والقواضب

ويعجبني هنا ما قاله أحد شعراء الإنجليز وترجمه إلى العربية بعض أدباء الشباب قال:

ليَ قلب لا يهاب ... فزعت منه الصعاب
بين أيامي وبيني ... حادثات وغلاب
لست أشكو إنما الش ... كوى من الحر تعاب
أنا ربان سفيني ... هاج أو قر العباب
فلْيلنْ أو يقس دهري ... إن قلبي لا يهاب

فافرقوا بين ألاحساسين اللذين يبعثهما هذان الشعران المختلفان مورداً وينبوعاً، وإني واثق الثقة كلها من أن الإحساس الذي يبعثه فيكم الشعر الثاني هو الإحساس بالقوة والإحساس بالإرادة، وأنا نطلب من الشاعر أن يحدثنا دائما عن قوة إرادتنا، وأنا نستطيع فعل كل شيء لأن ذلك يبعث فينا إيمانا جديداً وعزيمة جديدة بل ويخلقنا خلقاً جديداً، وإن قوة الإرادة هي المنبع الفياض والمعين الذي لا ينضب للنجاح في الحياة وبلوغ المثل العليا، أما الشعر الأول فشعر ضعيف مستسلم لا ينفعنا ولا يهذب من إرادتنا.

ولون آخر من ألوان الأدب الضعيف يتصل بالأدب الجبري، وقد يكون خدينه وشقيقه لأنه يستقي من معينه وينبع من ورده، وأعني بهذا اللون أدب الزهد والقناعة، ويطول بي الحديث إذا حدثتكم عن العوامل التي أنتجت لنا هذا النوع من الأدب، وإن كنت ارجع جل هذه العوامل إلى سوء فهم الشرقي للدين، فقد فهمنا وكنا مخطئينحين فهمنا أن الدين الإسلامي هو دين العمل والجهاد ودين الرفعة والطموح - يدعونا إلى الزهد في الدنيا والقناعة بما نصيبه منها من صبابة قليلة، فهمنا ذلك، ووجدت هذه التعاليم التي أخطأنا فهمها مرعى خصباً من قلوبنا الضعيفة الخائرة، وآنست من قلوبنا ضعفا وقلة ثقة بالقدرة على الجهاد، والتغلب على ما يعترض سبيل الحياة وسبيل النجاح من صعاب وعقبات،

فقنعنا بما في أيدينا من قليل لا يرضى به إلا ضعاف النفوس ضعيفو الهمم، فكان ذلك أكبر عامل في خلق هذا الأدب الزاهد القنوع، فأصبحت تسمع كثيراً من مثل قول الشاعر:

نبغي من الدنيا الكثير وإنما ... بكفيك منها مثل زاد الراكب

وقوله:

أيها الباني قصورا طوالا ... أين تبغي؟ هل تريد السحابا؟
أأمنت الموت والموت يأبى ... بك والأيام إلا انقلابا
أبت الدنيا على كل حي ... نالها إلا أذى وعذابا
إنما داعي المنايا ينادي ... احملوا الزاد وشدوا الركابا

وقول الآخر:

مرحبا بالكفاف يأتي هنيئا ... وعلى المتعبات ذيل العفاء
ضلة لامرىء يشمر في الجم ... ع لعيش مشمر للفناء

دائبا يكنز القناطير للوا ... رث والعمر دائباً في انقضاء
حبذا كثرة القناطير لو كا ... نت لرب الكنوز كنز بقاء
يحسب الحظ كله في يديه ... وهو منه على مدى الجوزاء
ليس في آجل النعيم له حظ ... وما ذاق عاجل النعماء
ذلك الخائب الشقي وإن كان ... يرى أنه من السعداء
حسب ذي إربة ورأى جلي ... نظرت عينه بلا غلواء
صحة الدين والجوارح والعر ... ض وإحراز مسكة الحوباء
تلك خير لعارف الخير مما ... يجمع الناس من فضول الثراء

إلي غير ذلك من أدب يحمل الدعوة إلى الزهد والقناعه، وإذا نحن أردنا أن ندرك آثار هذا الأدب فانه يجب علينا أن نتصور شعباً نائماً كسلاً، لا يجد ولا يعمل إلا بقدر ضئيل، وماله يجد وماله يعمل، وقد وجد ما يمسك حوباءهووجد قوته الضروري؟ وإني أكاد اعتقد أن تأخر الشرق في ميادين الاختراع وفي ميادين العمل يعود كثير منه إلى خلق الزهد وخلق القناعة الذي غرس في قلبه وأثر في كل عمله، بل إني أكاد أعتقد أيضاً أن استغلال الغرب للشرق يعود إلى هذا الخلق الوبيل الذي يجرنا إلى الفناء، فلندع القناعة بمعناها الذي ضرنا

وأخرنا، ولنتقبلها بمعنى ألا نطمع فيما في يد غيرنا، أما بمعنى الرضا بالقليل فيجب أن نذهب بها إلى قبرْ لا تخرج منه لترى ضوء الحياة، ولنقبل على أدب الطموح وأدب الآمال الذي يسمو بنا عن الرضا بالقليل نناله من غير أن نبذل عناء في نيله ولا تعباً، -

ولنكرر دائماً مثل قول الشاعر:

ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة ... كفاني ولم أطلب قليل من المال
ولكنما أسعى لمجد مؤثل ... وقد يدرك المجدّ المؤثل أمثالي

وقول الآخر:

ذريني للغنى أسعى فأني ... رأيت الناس شرهم الفقير
وأضيعهم وأهونهم عليهم ... وإن أمسى له حسب وخير
يحقره الندىُّ وتزدريه ... حليلته وينهره الصغير
ويلقى ذو الغني وله جلال ... يكاد فؤاد صاحبه يطير
قليل ذنبه، والذنب جم ... ولكن للغنى رب غفور

وقول الآخر.

من الناس من يرضى بميسور عيشه ... ومركوبه رجلاه والثوب جلده
ولكنّ قلباً بين جنبيّ ماله ... مدى ينتهي بي في مراد أحده

وقول غيره:

يا شباب الغد وابناي الفدا ... لكمو، أكرم وأنعم بالفداء
لا تقولوا حطنا الدهر، فما ... هو إلا من خيال الشعراء
واطلبوا المجد على الأرض فان ... هي ضاقت فاطلبوه في السماء

وإني مع شوقي يوم قال واصفاً شباب مصر:

شباب قُنَّع لا خير فيهم ... وبورك في الشباب الطامحينا

ولكنه من الواجب ألا نلقي العبء كله على الشباب، بل هو ملقى على التربية والآداب، فالأدب الشعبي الدارج مليء بالقناعة والأدب المدرسي مثله.

(يتبع)

أحمد أحمد بدوي

زرياب

بقلم محمد قدري لطفي

ليسانسييه في الآداب

رجل من رجال الفن، خلق له وفطر عليه، لعل في سيرته الطريفة مثلا للموهبة الطبيعية، ترفع من شان صاحبها فتبلغ به الذروة وتجعله شيئاً مذكورا، يتحكم في حياة أمة بأسرها، فيبدل فيها ويغير منها، ويؤثر وحده في طبائع أهلها وما ورثوه من تقاليد، ويخلق فيها من العادات والفعال ما لم يكن بها وما ليس يخطر لأهلها على بال.

هو أبو الحسن علي بن نافع مولى المهدي الخليفة العباسي كان أسود اللون، حلو الشمائل، وكان شاعراً مطبوعاً فصيح اللسان، لقبه قومه بزرياب تشبيهاً له بطائر

عندهم أسود اللون، عذب الصوت، حلو التغريد، وكان زرياب رقيق الحس، دقيق الشعور، له حنجرة لم تخلق لغير الغناء، وأنامل كأنما أعدت للعود، ونفس تميل إلى الفن، وروح يهفو إلى الطرب، تتلمذ لأسحق بن إبراهيم الموصلي ببغداد يدرس عليه أصول الصناعة ويتعلم منه دقائق الفن، وكان اسحق يعلمه الأغاني ويلقنه الألحان، حتى إذا خلا زرياب بنفسه خلق من فن اسحق فناً جديداً، وهداه صفاء نفسه وسمو روحه إلى كل معجب مطرب، واسحق لا يعلم من أمر تلميذه شيئاً ولا يدري أنه أخذ منه فتفوق عليه.

وذهب اسحق إلى مجلس الرشيد يبعث فيه السحر كعادته وينطق فيه العود بالغناء الشجي والنغم العذب، والخليفة مصغ إليه معجب به، تأخذه حلاوة التوقيع وتروقه عذوبة الألحان، حتى إذا فرغ اسحق من غنائه التفت إليه الرشيد يثني عليه ويمدحه ويحادثه في صناعة الغناء، فما هو إلا أن يتشعب بهما الحديث حتى يقترح عليه الرشيد أن يسمعه مغنياً غريباً يجيد فنه ويحسن صنعته ممن لم يشتهروا عنده ولم تبلغ مكانتهم إليه، فيذكر له اسحق تلميذاً له قد علمه وأعجب به يتوسم فيه الإجادة وعلو الكعب في صناعة الغناء.

مثل زرياب أمام الخليفة فسأله عن معرفته بالغناء قال (نعم! أحسن منه ما يحسنه الناس وأكثر ما أحسنه لا يحسنونه. . فان أذنت غنيتك ما لم تسمعه أذن قبلك) وأخذ يصف له عوده وما ركب عليه من أوتار لها في الترنم والصفاء والعذوبة ما ليس لغيرها وما أن يأذن له الرشيد حتى يوحي إلى عوده فيغنى معه:

يا أيها الملك الميمون طائره ... هرون راح إليك الناس وابتكروا

ويظل يغنى والرشيد يسمع حتى يتم أبياته في نغم لم يسمع الخليفة مثله، ولحن لم تردد نظيره جنبات القصر، ويطير الرشيد طرباً ويسمع من الأنغام جديداً لم يُسمعه اسحق مثله فيعاتب اسحق كيف ترك الرجل من قبل فلم يعلمه به، ثم يأمره أن يأخذه لديه فيغنى به حتى يفرغ هو له.

أما اسحق فأسرها لتلميذه، ولم يكد يخلو به حتى عنفه واشتد في تعنيفه وصارحه بما هاج به من الحسد له والغيظ منه، وخيره بين اثنتين لا ثالث لهما، فأما أن يغادر تلك البلاد فلا يراه بعد ذلك أبداً ويعطيه على ذلك أغلظ الأيمان وأوثق العهود وله عليه ما يريد من مال أو عطاء، وإما أن يقيم على كره منه وشركة له في الصناعة وعند ذلك لن يأمن غدره ولن يغنيه الحذر شيئا، وأما زرياب فلم يكد يرى أستاذه ينفس عليه رضاء الخليفة، ولم يكد يسمع منه هذا الوعيد المخيف حتى قام من فوره يبغي بلاداً غير هذه وناساً غير هولاء، وأما الرشيد فانه لم يكد يفرغ من بعض شؤونه حتى سأل عن زرياب أستاذه فزعم له اسحق أنه رجل غر أحمق ما هو إلا أن أبطأت عليه جائزة أمير المؤمنين حتى رحل غضبان ينعى على الأيام أن أوقعته فيمن لا يقدرون النبوغ ولا يكرمون النابغين ولا يعرفون الغث من السمين فسكن الرشيد إلى قول اسحق.

سار زرياب إذن من المشرق وكان المغرب قبلته فولى نحوها وجهه، وراح في الأندلس يلتمس ما لم يظفر به في العراق من بعد الصيت ورفعة الشأن، وكتب إلى عبد الرحمن بن الحكم يعلمه بمكانه من الصناعة ويسأله الأذن له في الوصول إليه، وما هو إلا أن يقرأ عبد الرحمن الكتاب حتى يرحب بصاحبه ويوصي عماله على البلاد أن يحسنوا إليه ويوصلوه إلى قرطبة، وفى قرطبة يبدع زرياب ويملك على الأمير نفسه فيطرح كل غناء سواه ويقدمه على جميع المغنين ويقطعه الأرض ويمنحه المال ويبلغ إعجابه به حداً لا مثيل له، فيفتح له باباً خاصاً يستدعيه منه متى أراده، وزرياب يذهب في الغناء كل مذهب ويضرب في التجديد بسهم وافر: هذه أعواد القوم لها أوتار أربعة، فليزد هو عليها وتراً خامساً يستهوى النفس بما يحدثه من النغم، وهاهي أعواد المغنين كبيرة الحجم ثقيلة الوزن فليكن عوده خفيفاً مرهفاً دقيق الصنع، وهذا مضراب العود قد استعمله الناس من خشب فهو ثقيل

في اليد قاس على الأوتار ما يلازمها قليلا حتى يقطعها أو يفسدها، فليكن مضراب عوده من قوادم النسر فهو خفيف على الأنامل رفيق بالأوتار وان طالت ملازمته لها، وهاهي ألحان القوم معدودة وأغنياتهم معروفة فليجدد هو في اللحن، وليأت من النغم بكل طريف وليُسمع القوم من أغانيه وألحانه ما يعد بالآلاف.

وكان زرياب أيضاً قد جمع إلى براعة الفن وحلاوة الترجيع سلامة الذوق وترتيب الذهن

فهو سمير إذا جالس الأمير أو أشراف الأمير، وهو طيب الحديث إذا تحدث، ماهر في خدمة الملوك، يجيد استقبال الضيوف والزائرين، متأنق في ملبسه يعني بزينة نفسه حتى صار مثالاً في الأناقة يحتذى، أخذ عنه أهل الأندلس وحاكوه، فلم يعودوا إلى إرسال الشعر مفروقاً وسط الجبين مسدلاً إلى الخدين والحاجبين وإنما فعلوا كما يفعل زرياب ونساء زرياب، فحذفوا شعورهم وقصروها دون الجباه وسووها مع الحواجب ودوروها إلى الآذان وأسدلوها إلى الخدود ولم يعودوا إلى ملاحف الكتان يلتحفون بها، وإنما فعلوا كما يفعل زرياب فآثروا على الكتان أنطاع الأديم الناعمة، ولم يبق الناس على ما هم عليه من خلط بين ملابس الشتاء وملابس الصيف، وجهل بما يلائم الربيع وما يناسب الخريف، وإنما علمهم زرياب أن لكل زمان ثيابا، فللربيع الملون الزاهي، وللخريف الخفيف الملون، وللشتاء الثياب الكثيفة ذات الحشو والفراء، وللصيف البياض من الثياب، وكذلك عرف الناس مذ جاءهم زرياب صنوفا من الطعام لم تكن لهم بها دراية ولا بطعمها علم واستعمل القوم في الأندلس من العطور ما لم يألفوه من قبل، وفضلوا آنية الزجاج الرفيع على آنية الذهب والفضة لأن زرياباً كان يؤثر الزجاج ويتناول شرابه فيه.

وكان زرياب أيضاً قد علم بناته وجواريه أحسن الأغاني وأدبهن بأدبه فبرعن في الغناء وأتقنَّ الصناعة، فكانت حمدونة ابنته عند أهل بيتها في الصدر، وكانت أختها علية كذلك، وتزوجت من الوزير هشام بن عبد العزيز، أما جاريته مصابيح فقد جمعت إلى جمال الصوت جمال النبل كتب صاحب العقد الفريد إلى مولاها وقد حجبها عن الناس واختص بها مجلسه يقول له:

يا من يضن بصوت الطائر الغرد ... ما كنت أحسب هذا الضن من أحد

لو أن أسماع أهل الأرض قاطبة ... أصغت إلى الصوت لم ينقص ولم يزد

فادخله مولاها إلى مجلسه وأذن له في سماعها.

ووضع زرياب المراسم لافتتاح الغناء فما يفتتح غناء في الأندلس إلا وأوله النشيد وآخره الاهزاج فأكسب زرياب المحافل روعة وأهدى المجالس باقات من الفن زاهيات، وكان وحده فناً انتقل إلى الأندلس، وحضارة عمت قرطبة.

محمد قدري لطفي

فن البناء عند المصريين والإغريق

بقلم محمد علوي

لا شك أن أهم مظاهر الحضارة الفرعونية هو فن العمارة.

ولما كان للدين عند الفراعنة المنزلة العليا نجد أن درجة اهتمامهم به ظهرت جلية في معابدهم، وهي أهم ناحية ضرب فيها الفنان المصري بسهم. ولم تكن مصر هي البلد الوحيد الذي اهتم بأمر المعابد، فقد تبعها في ذلك الإغريق أيضاً، وكفاهم فخراً معهد (البارثينون) في (الاكروبوليس) بأثينا، فلقد كان هذا المعبد ولا يزال آية في الجمال، أجمع جميع الفنانين على أنه - لا يوجد له في العالم مثيل. فقد راعى فيه بانيه خداع النظر في الأجسام المنظورة فتلافاه بكل الوسائل، فكان معبده أشبه ببلورة طبيعية جميلة. ومع كل ذلك فإن الفنان المصري قد سبق زميله الإغريقي في تصميم معبد؛ فانك إذا وقفت أمام المعبد الإغريقي لاشك تشعر برهبة وذهول. ولكن هذه الرهبة ليست إلا نتيجة لقوة الجمال وحسن التنسيق، أو بمعنى أقرب إن تأثير هذا المعبد كتأثير حسناء كملت فيها معاني الجمال. فكأنما فن البناء الإغريقي أراد أن يأسر لب المتعبدين بسلطان الجمال. ولكن ليس هذا هو الغرض الذي من أجله كلف بتصميم المعبد، وفي رأيي أن هذا خروج عن الموضوع الديني، ولو أنه خروج لم يخل بقيمة المعبد من حيث جماله.

أما المعبد الفرعوني فهو يشعر بالهيبة والعظمة فالخضوع والرهبة، ولكن هذا الخضوع ناشئ عن الشعور بالضعف أمام القوة والرهبة الدينية، وهذا ما أحسه أنا الآن وأنا بعيد عن البيئة التي كانت تحيط بالمعبد في حداثته، وبعيد عن العقيدة الدينية التي كانت تتملك شعور أسلافنا.

إن الفنان المصري كان أعظم مما نقدره به وأوسع خيالاً، فنراه قد راعى في معبده صلاحيته للعبادة من جميع النواحي، فجعله لا يصلح إلا للعبادة، بل والعبادة لا تصلح أن تقام إلا بين جدرانه. فتصميم المعبد واختيار موقعه في مكان بعيد عن الحياة المادية

الدنيوية، والبيئة الدينية التي أحاط بها الفنان البارع معبده، كل هذا يفصل المتعبد عن العالم المادي فيحصر ذهنه في دائرة روحانية بحتة.

لست أريد أن أحكم على مقدرة هذا المهندس البارع، بل سأوضح عمله، وأترك لكم الحكم على كفايته وموهبته.

اختار هذا الفنان لجميع معابده أن تقع في نهاية طريق مستقيم جداً ومتسع، بحيث ينتهي هذا الطريق بواجهة المعبد الشامخة، يتوسطها بابه الصغير، وقد خصص هذا الطريق مهما بلغ طوله، (وقد يصل إلى ثلاثة كيلومترات) للمعبد فقط، فلم يسمح بإنشاء أي نوع من المصالح أو المباني على الجانبين، بل أنشأ على حافتيه وعلى مسافات متساوية تماثيل ضخمة متساوية ومتماثلة لمعبود معروف رأسه رأس كبش، وجسمه جسم أسد. فتصور تأثير هذين الصنفين من التماثيل المتوازية المتماثلة، والأفريزين الممتدين بجانبي الطريق، تلك المستقيمات المتوازية تظهر للرائي كأنها تتقابل وتتجمع في نقطة واحدة كما تجمع العدسات الأشعة الضوئية في نقطة واحدة، وهذه النقطة هنا هي باب المعبد الصغير الذي يظهر عن بعد. وكما أن النظر تقوده تلك المتوازيات إلى النقطة، كذلك يكون التأثير على الأذهان الشاردة، فهذا يساعدها على أن تتجمع وتتركز في العبادة. هذا بخلاف ما كان يعتقده الفراعنة من أن هذا الطريق مقدس لا يطؤه غير المطهرين الأبرياء، وأن تلك التماثيل الجانبية كانت تراقب حركات المارة وأفكارهم طوال الطريق. وكان المصريون يتوجهون إلى المعبد تحت هذه التأثيرات في موكب تتمثل فيه معاني الخشوع، يتقدمه غالباً الفرعون وحاشيته، حتى إذا اقتربوا من المعبد يمرون تحت قوس نصر فخم أشبه ببوابة شامخة يبلغ طولها نحواً من ثمانية وثلاثين متراً في معابد الكرنك. فتصور كيف يشعر المار من تلك البوابة بضآلته أمام هذا العلو الشاهق وهو يعتقد انه بمجر مروره منها تطهر نفسه مما قد يكون عالقاً بها من الأدران، فيصبح طاهراً يصلح لأن يقترب من المعبد، وبعد ذلك يمر الموكب بين مسلتين شاهقتين، كتب عليهما تاريخ إنشاء المعبد وبعض الرموز التي تمثل شارة المعبود الذي في المعبد، وهنا يجد الموكب نفسه أمام بناء شامخ مثال للقوة والبطش والجمال، وهذا هو المعبد ذو الواجهة الجرانيتية الضخمة التي تتكون من هرمين شامخين ناقصين متقاربين، يتوسطهما باب المعبد الصغير، وعلى جانبيه تمثالان عظيمان (يصل طول كل منهما إلى عشرين متراً كما في معبد (أبي سمبل شمال الشلال الثاني)، وهذان التمثالان يمثلان فرعون، ويرى الواقف بباب المعبد عدة أبواب متتالية ومتساوية الاتساع، تقع جميعها على محور واحد عمودي على الواجهة غالباً، وقد تصل المسافة بين المدخل والباب الأخير إلى ثلثمائة متر، وهذا الباب الأخير هو باب مخدع الإله الأعظم.

وأول ما يلفت نظر الداخل في المعبد هو البهو الكبير ذو الأعمدة الضخمة، وقد بلغت مساحة ذلك البهو الفخم في معابد الكرنك ثلثمائة متر في خمسين مترا، وهذا البهو مسقف بكتل عظيمة من الأحجار يحملها أربعة وثلاثون ومائة عمود، مصطفة في ستة عشر صفاً، وطول أعمدة الوسط منها ثلاثة وعشرون متراً وقطرها ثلاثة أمتار ونصف. فتصور بهواً يحوي هذا العدد من هذه الأعمدة التي بلغ ارتفاع الواحد منها ارتفاع عمارة مكونة من سبع طبقات تقريباً. كيف يكون تأثير مثل هذا البهو الرهيب الفخم في نفوس المصلين؟ ألا يمكننا اعتبار هذا البهو رمزاً للقوة والبطش كما أنه مثال العزلة والرهبنة؟ إن طول قامة البشر في هذا البهو لا يتجاوز قاعدة العمود. وبين تلك الأعمدة يقوم الشعب بتأدية الصلاة، أما فرعون وحاشيته فيستمرون في موكبهم مخترقين الردهات والدهاليز حتى يصلوا إلى مخدع المعبود، وهو مظلم لا يصله الضوء إلا من فتحة واحدة في السقف، قد وضعت بهندسة خاصة بحيث لا تضيء من المكان سوى تمثال الإله، حتى يخيل للرائي أنه يشع الضوء من جسمه. وأمام المعبود وتحت قدميه يوجد نضد عظيم من الحجر ليضع عليه فرعون قربانه بين التراتيل والتعاويذ الدينية ذات الأنغام الساحرة الرهيبة.

ولو كانت لي موهبة في الإيضاح أرقى من ذلك لاستطعت أن أضع لكم صورة اقرب للحقيقة للمعبد والدرجة، التي وصل إليها من الإبداع، ولكن عظمة ذلك الفن وروعته فوق أن يصفها قلمي الضعيف.

وهنا اقف بسيدي القارئ لأساله: هل يوجد مكان انسب لبناء المعبد من المكان الذي اختاره الفنان المصري؟ هل يوجد بناء تتمثل فيه معاني القوة والخشوع والرهبة اصلح للعبادة من تصميم هذا الهيكل الفرعوني؟ وهل يمكن إيجاد بيئة تحيط بالمعبد من الوجهة المعنوية والفنية أقرب للكمال من تلك البيئة التي هيأها هذا الفنان الحاذق؟ أظن أنه لا يمكن أن نجيب على تلك الأسئلة إلا بالنفي. ولقد أجمع عظماء الفنانين في العالم على أن المعبد المصري هو صاحب المنزلة الأولى بين معابد العالم، وإذا أمكن تصور منزلة أسمى من الأولى لكانت هي منزلة معبدنا، وبالتالي فن عمارتنا الذي نفر ونهرب منه، ونتناسى منزلته حتى في هذا العصر الذي هو عصر تجديد وانقلاب، لم يفكر أحد من كبار الفنانين
المصريين في إحياء هذا الفن الجميل، أو إدخال روحه في المنشآت الحديثة، إلا إذا استثنينا بعض الشواذ.

محمد علوي
قسم العمارة - مدرسة الفنون الجميلة العليا

بين المعري ودانتي - 10
في رسالة الغفران والكوميدية المقدسة
بقلم محمود أحمد النشوي

تحدثنا معك في المقال الماضي عن ابن القارح، وتوسله بالسيدة فاطمة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما كان من أمر هذا التوسل والأذن له بدخول الجنة والآن ماذا صنع ابن القارح؟ أنه تعلق بركاب سيدنا إبراهيم عليه السلام حتى بلغ الصراط، وأشير إليه بأن اعْبُرْهُ، فلما وجد نفسه لا يستمسك قالت الزهراء لجارية من جواريها يا فلانة أجيزيه. فجعلت هذه تمارسه وهو يتساقط عن يمين وشمال، فقال لها: يا هذه إن أردت سلامتي فاستعملي معي قول القائل:

ست إن أعياك أمري ... فاحمليني زقفونه

فقالت: وما زقفونه؟!

فقال أن يطرح الإنسان يديه على كتف الآخر ويمسك بيديه ويحمله وبطنه إلى ظهره، أما سمعت بقول الجلجلول من أهل (كفر طاب)

صلحت حالتي إلى الخلف حتى ... صرت أمشي إلى الورى زقفونه

فقالت: ما سمعت بزقفونه، ولا الجلجول، ولا كفر طاب إلا الساعة!!!

ثم تحمله وتمر به كالبرق الخاطف حتى يبلغ الجنة، فيمنعه رضوان طالبا منه جواز المرور، فيطلب ابن القارح ورقة من صفصاف الجنة ليرجع بها إلى الموقف، ويأخذ عليها الجواز، ولكن رضوان يأبى عليه هذا، فيقول ابن القارح أنا لله وأنا إليه راجعون، لو أن للأمير أبي المرجي خازناً مثلك، ما وصلت أنا ولا غيري إلى قرقوفمن خزانته.

ولا يطول بينهما الحوار، حتى يرجع إليه إبراهيم عليه السلام فيجذبه جذبة شديدة يحصله بها في الجنة. . أفرأيت إذاً كيف كان سبيل المعري إلى الفردوس مليئاً بالدعابة وبالمرح حين سقوط صك التوبة من ابن القارح، وحين تدخله في فض النزاع بين أبي على الفارسي ومشاجريه، وفى دعابته مع الجارية، وهو على الصراط في أحرج المواقف وأدقها. فهل كان طريق دانتي كطريق المعري، كله دعابة وظرف؟ لا. فقد كان طريق دانتي على العكس من طريق المعري، آلام وأوصاب، وأهوال وعذاب. . . لقد كان طريق
دانتي على النار يعيرها أولاً ثم (المطهر) بعدها حتى يصل إلى الفردوس. فما ظنك بذلك الطريق الشائك المترع بالأهوال والآلام؟!

فبينا هو في غابة موحشة إذا به يتخلص منها إلى أكمة تكلل هامتها شمس الصباح فيهم بصعودها حتى إذا سار قليلاً رأى نمراً قبيحا يسد عليه شعاب طريقه، ثم يرى أسداً مخيفاً وذئبة قاحلة حدقته بنظراتها، فكر راجعاً إلى سفح الأكمة فرقاً ورعباً، فثار في نفسه اضطرابها حتى أتاه (فرجيل) فاستغاثه فهدأ روعه، وحدثه بأن سبيل النجاة من هاتيك المخاطر هي رحلة في أعماق الجحيم، ومنها، إلى الأعراف، ثم إلى الفردوس. ثم حدثه بأن بياتريشي أوفدته لإنقاذه مما هو فيه من أخطار. فاطمأن قلبه وهدأ روعه وعقد عزيمته على اجتياز الجحيم فاجتازها بين أنين العصاة وعويل المذنبين، مما حدثتك عن كثير منه في المناسبات الماضية. حتى إذا انتهت رحلته من

جهنم أمسك فرجيل بابليس، وأمسك دانتي بعنق فرجيل، وساروا قليلاً حتى خلصوا من الجحيم، وأسلمت الجحيم دانتي إلى الأعراف فدخلها وسار في جنباتها يتحدث مع العصاة الذين يتطهرون من ذنوبهم ومن آثامهم، حتى إذا قارب نهايتها رأى نهراً ينفرج عن ماء رقراق، فبصر بالنهر وبفتاة على سيفه الآخر، وهي تغرد بصوت مطرب وتقطف الزهرات، فطرب دانتي واقترب منها فقصت عليه حديث النهر، وأن اسمه نهر ليتي نهر التوبة، من أغتسل منه طهر من ذنوبه، وبرئ من آثامه، ثم عاودت الفتاة الغناء، وعاد له من الفتاة الطرب.

ثم تراءت أمام عينيه أضواء تشع في أرجاء الغابة، وتواردت على سمعه نغمات حلوة لم يكد يطرب لها حتى تراءت له من بعيد سبعة أجسام كأنها شجرات من خالص الذهب، تبينها فإذا هي مصابيح تحمل أضواءها كل ألوان الطيف، ويتلوها أربعة وعشرون شيخاً يجللهم وقارهم، وتلقي عليهم الهيبة رداءها، وتكلل رءوسهم زهرات الزنبق وتتبعهم عربة يقودها حيوان يشبه الأسد، بيد أن له رأساً، وأن له أجنحة كأجنحة الطيور ورءوسها.

تلك العربة كانت تحمل بياتريشي جاءت تستقبله لتكون دليله في جنبات الفردوس المحرمة على فرجيل أن يلج بابها. وقد افتن شاعر الطليان في وصف بياتريشي وعربتها، وما احتف بها من راقصات، ومن سحائب الزهور افتنانا جعل ذلك الوصف في طليعة كوميديته إبداعاً وفتنة. وكذلك نرى فيرسالة الغفران وصف الطريق إلى الفردوس، وامتداح

رضوان وزفر، ودعابة الجارية على الصراط ناحية جد مخصبة من خيال أبي العلاء ومن إبداعه.

ذلك هو طريق الفردوس، وهاهو ذا وصفه في الروايتين، فأما الفردوس وطبقاته وأقسامه وما تخيله المعري من حيات يسبحن في الخلد فوق كثبان العنبر. وقد كان منهن في الدار العاجلة من تسكن في جحر بدار حمزة بن حبيب أمام القراء.

ونقمت عليه قراءته واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام (بخفض الأرحام) بعد أن كانت تسكن من قبل في دار الحسن البصري. ثم تحولت عنه لأنها رغبت عن بعض حروف في قراءته حين يقرأ الإنجيل. وفالق الأصباح (بفتح الهمزة فيهما). فأما الحديث عن تلك الحيات والرد على المعري في تخطئته حمزة فموعدنا به العدد القادم.

(يتبع)

محمود أحمد النشوي

شركة مصر للغزل والنسيج

المحلة الكبرى منشستر مصر

لمندوب الرسالة

لا يتم استقلال سياسي صحيح لأمة من الأمم ما لم تستقل استقلالاً اقتصادياً أولاً. تلك حقيقة لا يختلف في صحتها اثنان. والاقتصاد في كل الأمم هو العمود الفقري لحياتها، والمقياس لعظمتها وتقدمها، حتى أضحى شغل العقول الكبيرة إلتي تخلص لأوطانها، وتعمل لرقيها بإخلاصها وإيمانها

ولقد ظلت مصر ردحاً من الزمن تضع السياسة في المنزلة الأولى من تفكيرها، وفى غمرات ذلك الاضطراب السياسي ساءت الأحوال المالية فيها، وامتدت الأيدي إلى المصارف الأجنبية التي استغلت الفرص احسن استغلال، وأخذت تضيق على من يقع في حبائلها الخناق، حتى ضج الناس وغمرهم الذهول. هنالك تفتحت الأذهان، وحدقت العيون إلى نصير منهم يأخذ بأيديهم ويهديهم صراطاً اقتصاديا مستقيما. عندئذ قام ذلك الوطني المخلص (طلعت حرب باشا) ووضع هو وصحبه الأكرمون نواة ذلك الصرح الوطني الشامخ، فخر مصر وعنوان مجدها الاقتصادي، ووجه ذهنه الخصب، وعقله الجبار، لإنجاح ذلك العمل القومي العظيم، حتى صافح الفوز وتجاوز حد الثقة وأصاب مشاكلة الغرض

وبعد أن وصل ذلك المشروع إلى الحد الذي يحسد عليه ضاق علي جسامته وخطورته بنشاطهم وبنتاج هممهم فأخذوا ينشئون الشركة تلو الشركة، والمصنع تلو المصنع، ومن بين هذه المشروعات الجليلة التي قام بنك مصر بتأسيسها (شركة مصر للغزل والنسيج) التي أقيمت في المحلة الكبرى

نما غرسها منذ سنوات ثلاث، وأخذت أغصانها تزداد قوة وامتدادا، وتؤتي أكلها جنياً شهيا، كلما زادت الأمة في الإقبال عليها وتشجيعها، وأبواها بنك مصر و (طلعت حرب) يتعهدانها ويؤازرانها بإدخال كل مستحدث من الآلات، وكل جديد من الفن، حتى كان آخر ذلك هذا التوسع الكبير الذي يجري اليوم فيها على قدم وساق، والذي شاء لنا حسن التوفيق أن نشهده تلبية لدعوة وجهها إلينا رجال الشركة

كان يوم الخميس الماضي يوماً حافلاً حقاً، فقد شهدنا فيه بأعيننا صرحاً من صروح قوميتنا العزيزة، وغرساً من غراس تلك الأيدي العاملة الكريمة

كان في انتظارنا رتل من السيارات أمام دار بنك مصر أقلتنا إلى المحلة الكبرى، فلما دخلنا المدينة وبلغنا مقر دار الشركة كان في استقبالنا رهط من موظفيها الكرام على رأسهم مدير الشركة العام الدكتور محمد عبد الطيف محرم، فطافوا بنا أقسام المصنع يشرحون لنا مختلف آلاته ومتنوع غاياته

تبلغ مساحة الأرض التي شيدت عليها مصانع الشركة مائة فدان، وقد بنيت كلها على أحدث النظم الصحية وجميع العمال والمديرين والمهندسين من المصريين إلا اثنين من الأوربيين دعت الضرورة القصوى إلى استخدامهما

وقد افتتحت مصانع الشركة لأول مرة في 23 إبريل سنة1931 وعدد أنوالها 448فزيدت في عام 1932 إلى 1200ولن يأتي العام القادم حتى تبلغ 4000، أما المغازل فكان عددها 12000 مغزل في عام 1932 فزاد حتى بلغ الآن50000 مغزل وسيزداد إن شاء الله باطراد كل عام

وكان عمل الشركة في بادئ الأمر قاصراً على غزل القطن ونسجه، ولكن ما وافى عام 1933 حتى أدخلت فيها صناعة غزل ونسج الكتان، وفي عامنا هذا أنشئت مصانع لغزل الدوبارة والفانلات والجوارب وبكر الخيط وغيرها، ويعدون العدة منذ الآن لكي يقوم مصنع الصوف في عام 1936بصنع البدل الصوفية ولوازمها من الصوف كذلك وإن الذي يزيد في سرور كل مصري وابتهاجه أن يعلم أن عمال الشركة الآن يبلغون 6000 عامل سيزاد عددهم بعد عامين على الأكثر إلى 18000 عامل، ولحرص الشركة على أن يكون كل شيء مصرياً أنشأت مصنعاً كبيراً لصنع ما تحتاج إليه من الآلات، ولكي لا تضطر إلى استخدام أجانب فيه أوفدت عدة بعثات إلى أوربا من خريجي المدارس الصناعية. وتخرج الشركة الآن أنواعاً عديدة من الأقمشة معروفة في سائر الأسواق: منها (التيل الكاكي) و (فولار) و (دبلان) و (تيل المراتب) و (زفير) و (سكروته) و (فوط للوجه) و (بشا كير) إلى غيرها مما لا يتسع المقام لذكره هذا قليل من كثير مما قام به بنك مصر من جسيم المشروعات التي سار بها من نجاح إلى

نجاح بفضل إخلاص أولئك المجاهدين القائمين على أمره، وبفضل الأمة المقبلة على تعضيده وشد أزره.

أعيان القرن الرابع عشر - 7

للعلامة المغفور له أحمد باشا تيمور

الشيخ أحمد أبو الفرج الدمنهوري

احمد أبو الفرج الدمنهوري الشاعر الأديب، ظريف الجملة والتفصيل، حلو النادرة والفكاهة، انجذبت إليه النفوس وألفته القلوب على دمامته وغرابة شكله. ولد بدمنهور ونشأ بها في ضنك وحرقة حال، ولم يكن مشتغلاً بالأدب في أول أمره، ثم لازم الشيخ محمداً الوكيل القباني أحد أدباء دمنهور المشهورين وعليه تخرج في النظم، وصحب أيضاً الشيخ حميده الدفراوى، وهو أديب لكنة لا يبلغ درجة الوكيل، ولم يحضر المترجم العلم على شيخ، بل كان يلازم مجلس الوكيل ولا يفارقه ليلاً ولا نهاراً فيكتب عنه كل ما يسمعه من شعر ونثر ونادرة ثم يستظهره، أخبرني ثقة أنه اجتمع بدمنهور حوالي سنة 1285 فرآه شاباً نيف على العشرين مخفوض الجانب كثير التواضع لا يستنكف من خدمة الوكيل المذكور وحمل المصباح أمامه إذا سار ليلاً.

ثم نظر المترجم في كتب الأدب ودواوين الفحول وبدأ ينظم الشعر فكان يعبث بالبيت والبيتين، ثم نظم بعد ذلك القصائد والمقطعات، إلا أنه كان قليل الإجادة كثير الخطأ واللحن، يتكلف التجنيس والتورية، وأحسن شعره ما نظمه في المجون وضمنه ألفاظ العيارين والشطار. وكان حضوره إلى القاهرة صحبة الوكيل، فأوصله إلى السيد عبد

الخالق بن وفا شيخ السادات الوفائية فأعجب بظرفه ومجونه، وكان ينزل عنده كلما حضر إلى القاهرة، وهي إذ ذاك غاصة بالأدباء والأعيان وفي الناس بقية، فكانوا يهشون له ويتهادونه إذا حضر، ويراسلونه إذا غاب، فحسنت حاله قليلا بما كان يناله من هباتهم. ثم اتصل بشاهين باشا كنج في طندتا لما كان مفتشاً على الأقاليم سنة 1293 فانتظم في حلبة ندمائه، واختص به وواساه وجعله طرفة مجلسه، وجمع له من أغنياء البلاد مبلغاً وافراً اشترى به عقاراً ورمم داره بدمنهور، واجتمع عند شاهين باشا بعبد الله أفندي نديم الشهير وغيره من خاصة أهل الفضل والأدب، ثم نقل شاهين باشا إلى منصب آخر بالقاهرة فصار المترجم يتردد عليه ويقيم عنده الأيام والأشهر يجتمع في أثنائها بغيره من الكبراء وذوي الوجاهة فيهدي إليهم مدائحه ويتحفهم بطرائفه وكان على قلة إجادته في شعره مفتوناً به مبالغا في تقريظه وقت إنشاده، يمزج ذلك بإشارات وحركات تستظرف منه، ولا يكاد يقر لأحد بالتقدم عليه في النظم، ولعمري لا أرى عبارة تفي بوصفه ووصف حركاته عند الإنشاد وقيامه وقعوده والتفاته واستدعائه الحاضرين إلى استماعه، فانه كان إذا أراد إنشاد قصيدة من نظمه بدأ أولاً بتقريظها ونبه الحاضرين إلى مواضع الإجادة منها، فإذا ألقوا إليه بسمعهم أنشد المطلع وسكت هنيهة كالمأخوذ من جودته، ثم التفت يمنة ويسرة مستطلعاً خبيئة رأيهم فيه، واستحلفهم بالله وبأنبيائه هل طرق، آذانهم مثله في عمرهم، وهل تهيأ لشاعر قبل ما تهيأ له فيه من رشاقة المبنى وغرابة المعنى وتناسب الشطرين، ثم يمضي في البيتين والثلاثة ويعود إلى الصمت والتفكر. ويقول سبحان المانح! كمترك الأول للآخر! وأمثال هذه الجمل التي اشتهرت عنه وصارت من لوازمه، ثم يمضي في الإنشاد، فإذا مر بتجنيس أو تورية وثب من موضعه وتمايل طرباً، ثم نظر للحاضرين وقال لهم اسمعوا من الفتى العربي اللعوب، تُفّ على المتنبي وسحقاً له، أين له السلاسة والسهولة؟ وهكذا حتى يتم القصيدة، فان رأى من السامعين استحساناً تمادى في غلوائه وأعجب وأطرب، وربما عارضه بعض من يحضره استجلاباً لطرائفه واستئناساً بمحاورته، فتصدر عنه النوادر ومحاسن الأجوبة الحاضرة. بلغني أنه حضر مرة مجلساً جمع لفيفاً من أهل الأدب فأنشدهم قصيدة من نظمه، وبالغ في استحسانها كعادته، وأخذ يستطلع طلع آرائهم فيها. فأنتبذ له صديقنا العالم الفاضل، والشاعر المجيد، الشيخ عبد الرحمن قُرَّاعة مداعباً، وقال له أخطأت في بيت منها فأدخلت حرفاً على حرف وهو مما لا يجوزه النحاة، فإما أن تسقطه أو تأتينا بشاهد على صحة قولك، ووافقه الحاضرون ومالوا معه على المترجم، فنكس رأسه هنيهة، ثم نظر إليهم كالمتعجب وقال يا ليت قومي يعلمون! وكان كثير الاجتماع بشيخ أدباء العصر الشيخ أحمد أبي البقاء الزرقاني، فلا يخليه مرة من شعر له ينشده إياه، ويعرض للشيخ ما يشغله عن الاستماع فيستلفته ويكثر من الإلحاح عليه بترك ما هو فيه والاصاخة إليه ويضايقه بذلك مضايقة شديدة، ولكن لا يكاد الشيخ يعرض عنه حتى تصدر منه نادرة ينقلب لها المجلس ضحكاً، فكان يقول فيه إن أبا الفرج عندي مشكلة من المشاكل لا أدري أهو ثقيل أم ظريف.

وكان أول اجتماعي به في مجلس أحد الأعيان وأنا شاب يافع متعلق بالأدب وأهله، ولم اكن لقيته من قبل، بل كنت اسمع به وأشتاق رؤيته فرأيت عجباً: رأيت شيخاً قصيراً دميم الوجه قد ذهبت إحدى عينيه، عليه جبة واسعة الأكمام وهو جالس في زاوية من المكان يملي على شخص حسن الخط دالية من الطويل منصوبة الروى جعلها تهنئة للخديو محمد توفيق باشا بقدومه من الإسكندرية، فكان منه من الوقوف عند كل بيت والإعجاب به على ما تقدم ذكره ما نبهني للالتفات إليه، ثم مر ببيت قافيته لفظة (ومعضداً) فوثب من مكانه ونبه الحاضرين إلى أنها تورية باسم الخليفة المعتضد بالله فلم يوافقوه، فاعرض عنهم واقبل على الكاتب يشرح له حسن هذه التورية وأنها لم تتهيأ له إلا بعد إعمال الفكر والروية حتى أضجره ورمي الدرج من يده، فغلبني الضحك واستظرفته وقصدت محادثته، فقلت لعل سيدي الأستاذ عارض بهذه القصيدة قصيدة أبى الطيب التي يقول في مطلعها:

لكل امرئ من دهره ما تعودا ... وعادة سيف الدولة الطعن في العِدا

فسكت ثم نظر إلي شزراً ولم يزدني على قوله: تِفّ على المتنبي، فاستغربت في الضحك وسألت عنه بعض الحاضرين فخبرني به فكدت أطير سروراً بلقائه، وأقبلت

عليه امدح القصيدة وأذكر مواضع الإجادة فيها وأستعيدها منه، فأبرقت أسرته وأقبل علي أيما إقبال واسمعني بعض مقطعات من شعره، فقلت له: أما كان الأولى بهذه اللآلئ أن تنظم في سمط؟ فقال نعم يا سيدي إني مهتم بذلك وسيكون ديوانا مرقصاً، وامتد بنا المجلس فرأيت منه ما لو أردت إثباته برمته لطال بنا المقال. ثم فارقته وأنا أشوق الناس إليه، وكأني به أحد أبناء المنجم الذين ذكرهم الثعالبي في اليتيمة وأورد فصولا للصاحب بن عباد في وصفهم.

ومن غريب أمر المترجم أنه كان يستملح منه ما يستثقل من غيره، فقد رَوَوْا عن بشار أنه كان يصفر ويصفق ويتفل عند إنشاده وعن البحتري أنه كان يتقدم ويتأخر ويتلفت إعجاباً بشعره، وقد عيبا بذلك وعد من سقطاتهما التي نعاها عليهما الناعون بخلاف المترجم.

ومن غرائبه أنه كان معجباً بكنيته وكثيراً ما كان يتدرج بها إلي الانتساب لمن تكنى بها من الفضلاء المتقدمين كأبي الفرج ابن الجوزي وأبي الفرج الاصبهاني صاحب الأغاني وغيرهما، فلا يدع أحداً من المتكنين بها إلا وينتسب إليه، تارة لهذا وتارة لذاك، ثم ارتقى

درجة فادعى الشرف ولاث على رأسه عمامة خضراء، ووسع أكمامه وسعى حتى جعلوه نقيباً للأشراف بدمنهور. حدثني صاحبنا الأديب الفاضل محمد شكري أفندي المكي قال: لقيته مرة وكنت علمت بأمر تلك النسب وأردت مداعبته فقلت: يا أبا الفرج إن كنيتك تنبئ عن شرف عظيم فلعلك من نسل أبي الفرج بن الجوزي، فقال نعم يا سيدي صدقت وأصابت فراستك، ثم لقيته بعد ذلك بأيام وقد نسى ما دار بيننا فأعدت عليه الحديث وقلت له إجادتك في الشعر مع هذه الكنية تدلني على انك من نسل أبي الفرج الببغاء، فقال أي نعم وهو الواقع أ. هـ. ولا خلاف في انه كان يعلم قصد محدثه في أمر نسبه، إلا أنه كان يخرجه مخرج الجد حتى مع أخص الناس به ويغضب ممن ينكر عليه فتستظرف منه.

وادعى مرة أنه نال نصيباً وافراً من اللغة بحيث أصبحت لا يشذ عنه شيء من مفرداتها، وتمادى في هذه الدعوى وتبجح بها في المجالس، وتصدر للإجابة عن كل سؤال فيها يطرح عليه فتوالت عليه الأسئلة وهو يجيب عليها خابطاً خبط عشواء لا يبالي بمن يحتج عليه بكتب اللغة. وصار الأدباء من أصحابه يرتجلون له الفاظاً يسألونه عنها فيخترع لها معاني يجيب بها، وربما أحال تخرصاً على كتب لغوية يعينها، ونظم له بعضهم بيتاً كبيت الخنفشار وسأله عن معناه في جمع كبير من الأدباء وهو:

وبِخرْنقٍ الأقيال عاثت فالتثت ... وركاء تعترض الأكام بشيظم

فقال نعم! هذا بيت لعنترة، ذكره له صاحب الأغاني وهو يصف به حمامة، والخرنق شيء يشبه نسج العنكبوت وليس به، يكون بين أغصان الأشجار، فيقول إن هذه الحمامة عاثت بين الأقيال، أي الأشجار الكبيرة فالتثت قدماها بالخرنق أي اشتبكت به، وأما الشيظم، وأراد أن يفسره فقطعته أصوات الضحك من جوانب المجلس.

وبالجملة فقد كان خفيف الروح محبباً إلى القلوب أديباً ظريفاً حاضر الجواب حلو النادرة، وكانت وفاته فجأة بدمنهور في ثاني ليلة من شهر ربيع الثاني سنة 1310 بعد أن صلى العشاء، وكان آخر قوله أنا لله وأنا إليه راجعون، فشق نعيه على من عرفه وشيع جنازته الألوف تغمده الله برحمته.

الشيخ زين المرصفي الشافعي

هو من طبقة الشيخ عبد الرحمن الشربيني والشيخ سليم البشري، إلا أن الشيخ سليماً أكبر منهما سناً، حضر إلى الأزهر وقرأ على كبار الشيوخ به حتى برع وتأهل للتدريس، ثم جعله الخديو إسماعيل معلماً للعربية لولده الأمير حسين كامل باشا سلطان مصر الآن، وبسبب مخالطته له ولمن حوله ألم ببعض اللغات، وسافر مع الأمير إلى القسطنطينية وكانت أسواقها لم تزل آهلة بالكتب العربية فاقتنى هناك كتباً نفيسة غريبة عن أهل الأزهر، فصار ينقل منها في تآليفه نقولاً يُغرب بها عليهم. ثم استخدم بالمدارس وترقى إلى أن صار كبير المفتشين بها، ولم يزل بهذا المنصب حتى توفاه الله يوم الأربعاء الخامس من جمادي الأولى سنة 1300، , فشيع جنازته لفيف من العلماء وجمع كبير من الناس، وأمر ناظر المعارف فسار فيها من كل مدرسة فريق من، تلاميذه وأناب عنه نائباً حضرها، ولما بلغوا به الجامع الأزهر للصلاة عليه وقف

الشيخ حمزة فتح الله فأبنه ورثاه ببيتين من نظمه هما:
سقى الله من صوب الرضا أعظماً هوى ... بها ركن بيت العلم إذ دكه الحين
فلا غرو إن أضحت وجوه علومنا ... مشوهة فاليوم فارقها زين
رحمه الله رحمة واسعة.
وفى مقدمة شرح أحمد بك الحسيني لكتاب الأمّ للأمام الشافعي الذي سماه بمرشد الانام لبر أم الأمام ما نصه (زين المرصفي كان عالماً فاضلاً أخذ عن علماء وقته وجد واجتهد حتى صار من أكابر العلماء، وكان ذهب مع الرسالة المصرية إلى بلاد فرنسا زمن الخديو إسماعيل باشا وكان يجيد اللغة الفرنساوية، وله كتابات في المنطق والحكمة وكانت وفاته سنة 1300)
انتهى
شعراء الجاهلية
طرفه بن العبد
للأستاذ بشير الشريقي
مسكين طرفة! لقد ثكلته آلهة الشعر والهوى والخمور باكراً غضاً نضير العود، مسكين لم يمتع بالشباب؛ بل كان لا يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره حينما طوته المنون في سجل العدم ودفنت معه عبقرية فياضة، وذهنية جبارة، وشاعرية قوية حارة.
خمسة وعشرون حجة، إنها لحلم قصير يا طرفة. . ولكنه حلم لذيذ، وحلم جد عجيب أيها الشاعر الاغتنامي والشاب الفيلسوف المتهتك.
على رمال الصحراء الطليقة ولد طرفة، ولكن متى؟ هذا ما لا يعلمه أحد؛ كان والده من سادة (بكر وائل) ومن ذوي الشرف الرفيع والمقام المحمود في قومه، وسمع طرفة يفتخر بأصله:
لقد علم الأقوام أنا بنجوة ... علت شرفاً من أن تضام وتشتما
لنا هضبة لا يدخل الذل وسطها ... ويأوي إليها المستجير فيعصما
وتشاء الأقدار أن تسلب الشاعر والديه وهو لم يزل طفلاً في المهد فينشأ المسكين كما نشأ الحطيئة والأخطل وبشار وأبو نواس وابن الرومي، يتيماً محروماً من كل عطف ورعاية، لا يعرف سوى أعمامه الذين أهملوا تربيته وهضموا حقه.
لقد ثار طرفة في شبابه على هؤلاء الذين نبذوه وظلموه وكانوا علة شقائه، ثار على أعمامه وذوى قرباه، وفى ساعة ذكرى ماض محروق مهان، وطفولة نكدة محرومة، تلهم عرائس الشعر هذا العبقري الصغير أبياته الخالدة:
فمالي أراني وابن عمي مالكاً ... متى أدن منه ينأ عنى ويبعد
يلوم، وما أدرى علام يلومني ... كما لامني في الحي قرط بن معبد
وظلم ذوى القربى اشد مضاضة ... على المرء من وقع الحسام المهند
ولا أعلم كيف عاب بعض النقاد الأدباء هجاء طرفة لقومه في قوله:
أسامني قومي ولم يغضبوا ... لسوءة، حلت بهم فادحة
وكلهم أروغ من ثعلب ... ما أشبه الليلة بالبارحة
وكيف رموه من أجل ذلك بكثرة الشر ولؤم الطبع، ما كانوا محقين وما كانوا منصفين، انهم لم يفطنوا إلى أن الشاعر ما قال بيتيه إلا بعد أن لاقى من قومه كل احتقار وقسوة؛ وكل ما من شأنه أن يجعل الشاعر يثور على البيئة التي نشأ فيها.
ثم هل تظن أن طرفة عنى قومه فقط حينما قال: (كلهم أروغ من ثعلب) أنا لا أظن ذلك بل أرجح أنه عنى الناس أجمعين، وأنه كان سيئ الظن بالبشر شديد الحذر منهم، أليس هو القائل في ذم الأخلاّء:
كل خليل كنت خاللته ... لترك الله له واضحه
ولد طرفة عبقرياً وشب عبقرياً، فأسمعنا وهو في زهرة العمر وفجر الشباب أناشيد الحياة والموت فأطربنا بأنغامه إلى حين، نعم إلى حين، فقد أخرس الزمن لهاته قبل أن يكمل الخامسة العشرين ربيعاً؛ وكأن طرفة كان يشعر بمصيره ويعلم أن أيامه في الحياة قصيرة؛ فراح يسخر بمن يردعه عن اغتنام لذائذ الدنيا ويزجره عن الخمر والنساء واقتحام الهيجاء:
ألا أيُّهذا الزاجري أحضر الوغى ... وان أشهد اللذات هل أنت مخلدي
فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي ... فدعني أبادرها بما ملكت يدي

واعتقد طرفة أن (الكل باطل) ورأى أن هنالك شيئاً واحداً ثابتاً، هو أن الحياة تمضي، وما عدا ذلك أباطيل:

أرى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلة ... وما ينقص الأيام والدهر ينفد
لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى ... لكالطَّوَل المرخي وثنياه باليد
لعمرك ما الأيام إلا معارة ... فما استطعت من معروفها فتزود

وما دام طرفة يرى أن اسمه سيمحى من سجل الوجود وأن قبر البخيل النحام في شرع الفناء كقبر الغوي الضال الذي قضى عمره في الشرب واللعب:

أرى قبر نحام بخيل بماله ... كقبر غوي في البطالة مفسد
أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي ... عقيلة مال الفاحش المتشدد

ما دام يرى ذلك فقد صمم على أن يغتنم أويقات الحياة ويتمتع بكل ما تناله يده من لذائذ ومتع فعاش - وهذا طبيعي ممن مات ولم يبلغ الخامسة والعشرين من سنه - صريع الكأس والأعين النجل؛ واهباً روحه للجمال وحسه للذة، أما نفسه فظلت كبيرة لم يذلها الهوى ولم يخضها الحسن، أبداً محترمة مهيبة طموحة إلى المجد:

إذا القوم قالوا (من فتى)، خلت أنني ... عُنيت، فلم أكسل ولم أتبلد
فإن تبغني في حلقة القوم تلقني ... وإن تقتنصني في الحوانيت تصطد
متى تأتني أصبحك كأساً روية ... وإن كنت عنها غانياً، فاغد وازدد
وان يلتقي الحيُّ الجميع تلاقني ... إلى ذروة البيت الشريف المصمد
نداماى بيض كالنجوم وقينة ... تروح إلينا بين برد مجسد
ومازال تشرابي الخمور ولذتي ... وبيعي وإنفاقي طريفي ومتلدى
إلى أن تحامتني العشيرة كلها ... وأفردت إفراد البعير المعبد

شعر رقيق عبر به صاحبه فأحسن التعبير، وطريقة واقعية مذهبها الإباحة والصراحة، حقاً لقد خلق هذا الصغير طرفة شاعراً فياض القريحة، انظر، إنه ما فكر في غير نفسه، ولا استمد إلا من حسه.

ربما دهشت إذا قلت لك إن هذا الشاعر الشاب الذي مات قبل أن يبلغ الخامسة والعشرين من عمره، والذي عاش كما قال بشار:

عشت بين الندمان والراح والمز ... هر في ظل مجلس حسن

قد امتاز أيضاً بما نظم من الحكم البالغة والأمثلة السائرة، لا تعجب، إن طرفة لم يكن مخلوقاً عادياً، بل كان عبقرياً ملهماً، نظر بعين بصيرته إلى الحياة نظر الشيخ المجرب، فحدثنا عن الوجود والعدم حديث العارف الحكيم، وعالج لنا خلال السنوات القليلة التي عاشها كثيراً من مسائل الحياة وأحوال المجتمع وخوالج النفس. قال يطلب الغيث لديار حبيبته:

فسقى ديارك غير مفسدها ... صوب الربيع وديمة تهمى

شعر جزل فصيح، طلب الغيث على قدر الحاجة، لأن الفاضل ضار، وقد قال محمد (ص) (اللهم اسقنا سقياً نافعاً)

أنا وأنت وكل الناس نتمثل بقول هذا الشاب:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمقارن يقتدي

واسمع إنه يحدثك عن الخير والشر:

الخير أبقى وإن طال الزمان به ... والشر أخبث ما أوعيت من زاد

وتأمل قوله وهو في السجن - يخاطب قاتله عمرو بن هند

أبا منذر كانت غروراً صحيفتي ... ولم أعطكم بالطوع مالي ولا عرضي
أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا ... حنانيك بعض الشر أهون من بعض

ألا تشعر معي أن في قوله (أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا) نقاء وحرارة، وليناً وروعة واستعطافاً، وان قوله (بعض الشر أهون من بعض) آية يتمثل بها.

وذكروا أن من حكمه التي حملت فحول الشعراء كلبيد وجرير والأخطل على الاعتراف بفضله وتقدمه قوله:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ... ويأتيك بالأخبار من لم تزود

ويروى عن عائشة رض الله عنها قولها: كان النبي صلي الله عليه وسلم إذا استراب الخبر يتمثل بقول طرفة (ويأتيك بالأخبار من لم تزود) وكان ابن عباس يقول عن هذا

البيت (انه كلام نبي).
النبي محمد يتمثل بقول طرفة.!
وابن عباس يقول إن كلامه كلام نبي.
وأبو العلاء المعري يقول في رسالة الغفران (. . لو لم يكن لطرفة أثر إلا قصيدته التي على الدال لكان قد أبقى أثراً حسناً).
أما قصيدة طرفة التي على الدال فهي معلقته، اسمع مطلعها الرائع:
لخولة أطلال ببرقة ثهمد ... تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد
وقوفاً بها صحبي على مطيّهم ... يقولون لا تهلك أسى وتجلد
ونظر طرفة إلى الحياة، إلى المستقبل، بعين فيلسوف حكيم، بعين شيخ مجرب بصير بعواقب الأمور فقال:
قد يبعث الأمر العظيم صغيره ... حتى تظل له الدماء تصبّبُ
رحم الله طرفة شاعر الشباب والجمال والحكمة.
شرقي الأردن
بشير الشريقي
المحامي
من طرائف الشعر
البلبل المسحور
لشاعر الشباب السوري أنور العطار
أَلهَمْنتيالشِّعْرَ وَأَنْغَامَهُ ... وَحَسْرةَ الذكْرَى وَشَجْوِ الهَوَى
وَحَيْرَةً صَاحِبُها ذَاهِلٌ ... مُرَوَّعٌ يُصْنِيهِ فَرْطُ الْأَسَى
نَاَدْتكِ رُوحي في دُجَى صَمْتِها ... مَمْرُورَةً غَلْغَلَ فِيها الْجَوَى
وَاسْمُكِ حَوَّامٌ يُنَاغَي فَمي ... قَلْبي طَوَاهُ وَلِساني رَوَى
وَطَيْفُكِ الرَّفَّافُ في خاطِرِي ... يُنَضِّرُ المَاضي وَيُحْيِ الْمُنَى
آمَنْتُ بالْحُلْمِ فَكَمْ مَأَمَلٍ ... مُسْتَبْعَدٍ أَدْنَتْ خُطَاهُ الرُّؤَى
وَعَالَمٍ ضَلَّلَنِي لُغْزُهُ ... مَدَّ عَلَيْهِ جُنْحَهُ فَانْجَلَى
يُطْمِعُني في عُزْلَتي أَنَّني ... أَرَى بِسِتْرِ الْغيْبِ مَا لاَيُرَى
أعِي حَدِيثاً حَافِلاً بالرِّضاَ ... يُهَدْهِدُ الْقَلْبَ إِذَا مَا وَعَى
وَتَسْكُنُ النَّفْسُ إلى نَغْمَةٍ ... هَابِطَةٍ مِنْ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى
كم صُغْتُ أَشَعْارِي مِنْ وَحْيِها ... وَكم تَغَنَّيْتُ بِهَا في الدُّجَى
قُلتُ لِنَفْسي في سُجُوِّ الرُّؤَى ... لَمْ آتِ دُنْيَايَ لَعَمْرِي سُدَى
لئن شَجَاني أَنَّني مَيِّتٌ ... لَقَدْ نَفَى شَجْوي أَنِّي صَدَى
كَتَبتُ رُوحي قِصَّةً لَذَّةً ... وَصُغْتُ قَلْبي نَغَماً يُشْتَهَى
لَيْسَ يَنَالُ التُّرْبُ مِنْ مُهْجَتي ... وَلاَ يُذِيبُ اللَّحْنَ مِنْها الْبِلَى
طَوفَتِ الأَفْلاَكَ في سَبْحِهَا ... كَأَنَّها مَا حَفَلَتْ بالرَّدَى
أترَعَتِ الدُّنْيا شَذاً بَاقِياً ... وَغَلْغَلتْ طَيَّ الرِّحَابِ الْعُلَى
أغاضَنَي مِنْ فَرْحَتي حَسْرَةً ... مِنْ بَدَّلَ الضِّحْكَ بِمُرِّ الْبُكا
مَرَرتُ في دُنْيايَ مُسْتعجِلاً ... كأَنَّني في الغُمْضِ طَيفٌ سَرَى
تُزَيِّنُ الأحْزَانَ لي عِيشَتي ... وَتَرْسُمُ الشَّكَّ وَتَمْحُو الهُدَى
يَئِسْتُ مِنْ صَحْوِي وَمِنْ غَفْلَتي ... كِلاهُما بَعْضُ خَيَالِ الكَرَى
أَسْلو، وَمَا سَلْوايَ إِلاَّ الْبُكا ... أَحْيَا، وَمَا عَيْشي إِلاَّ الشَّجَا
ضاَعَتْ أَمَاني وَلَمْ يَبْقَى لي ... في عُمُري مِنْ أَمَلٍ يُرْتَجَى
وَلَمْ يَعُدْ لي مَطْمَحٌ مُشْرِقٌ ... إلا انتحَاهُ الْمَوتُ نَضْرَالصِّبَا
أَمْسِ صِبَايَ الغَضُّ وَدَّعْتُهُ ... وَغَابَ عَنِّي في سَحِيقِ الْهُوَى
وَذَا شَبَابِي الْيَوْمَ مُسْتَرجَعٌ ... يَمْشي إِليَ الْمَوتِ حَثِيثَ الخُطَى
وَقَلْبي الموْجُوعُ مَا يَأْتَلي ... يُمْعِنُ في النَّوْحِ إِذَا مَا اشْتَكى
حَنَّتْ إلى المَاضي جِرَاحَاتُهُ ... وَجُرْحُهُ قُدِّسَ لَمَّا مَضَى
آهاً عَلَى نُعْمى تَخَيَّلْتُها ... مَا جَزِعَتْ أَنْ هَدَّمتني ضَنَى
تَعْتَادُني الأَشْجَانُ في وَحْدَةٍ ... لا فَرَحُ يُسْعِدُهَا أَوْ سَنَا
دَاجِيَةٍ نَكْرَاءَ طَفَّاحَةٍ ... بالسُّهْدِ وَالبَلوَى وَبَرْحِ الأَذَى

العَدَمُ الرَّاعِبُ فيها لَقىً ... تَحْسِرُ عَنْ أَسْرَارِهِ مَا اخْتَفَى
وَالوَهْمُ مَلْمُوسٌ بِهَا بَيِّنٌ ... وَالغَيبُ فِيهَا ماثِلٌ يُجْتَلى
بُلْبُلُكِ المَسْحُورُ يَا فِتْنتي ... مَاتَ، وَعُشُّ الحُبِّ مِنْهُ خَلا
الوَرْدُ قَدْ جَفَّ عَلى قَبْرِهِ ... وَالنَّغَمُ المِطْرَابُ فيهِ ثَوَى
فَأَرْهِفِي أُذْنَكِ تَسَّمَّي ... إِنْشَادِهُ مِنْ جَوْفِ هَذَا الثَّرى
يَاطَيْفَهَا قَاسَمْتَنى وَحْشَتى ... وَظَلتَ فِي قُربى برغْمَ النَّوَى
عِشْ فِي فُؤادي بُلْبُلاً نَاغِماً ... وَابْقَ أَنِيساً لِيَ طولَ المَدَى
أَسْمِعْني الأَلحانَ عُلْوِيةً ... وَأَنسِني الدُّنيا وَهَذَا الوَرَى
وَطُفْ بِرُوحي عَالِماً سَامِياً ... عَاشَ بهِ الحُبُّ وَمَاتَ الْقلَى
تَعْتَنِقُ الأملاكُ في سَاحِهِ ... وَيُسعدُ المُشتَاقَ فِيه اللقَا
دمشق
أنور العطار
من الأدب الهندي
عود إلى محمد إقبال
للدكتور عبد الوهاب عزام
كتبت في الرسالة عام أول طرفاً من أخبار شاعر الهند العظيم، وفيلسوف الإسلام النابغة الدكتور محمد إقبال، وترجمت نبذاً من ديوانه (بيام مشرق). ولإقبال كتاب اسمه (أسرار خودي)، وهو كتاب منظوم شرح فيه (أسرار خودي) أي أسرار الذاتية، فبين بأسلوب شعري رائق أن حياة الإنسان والأمة في تقوية النفس، واستخراج كل ما فيها من قوى ومواهب، وأن الهلاك أن يغفل الإنسان عن فطرته، ويردّ د آراء الناس، ويحاكي أعمالهم. الخ
ولإقبال كتاب آخر اسمه (رموز بيخودي) أي رموز اللاذاتية، يبين فيه كيف يؤلف الإنسان نفسه القوية في الجماعة ساعياً إلى المقاصد العامة. والكتابان منظومان في بحر الرمل على القافية المزدوجة.
وسيرى القارئ في هذا المقال وما يليه نبذاً من الكتابين، على ان قارئ هذه الترجمة العربية المنثورة يفوته كثير مما يحس به قارئ شعر إقبال في لغته.
وفما لي قطعة من أسرار خودي:
قصة شاب من مرو ذهب إلى السيد المعظم علي
الهجويريفشكا إليه حيف أعدائه عليه):
سيد هجويري قبلة الأمم الذي صار مرقده حرماً في بيرسنجر، جاب الأقطار، وقطع سلاسل الجبال، وبذر في أرض الهنود بذور السجود؛ فجدد عهد الفاروق بجماله، ورفع صوت الحق بجداله؛ عزت (أم الكتاب) بحماسته، وخربت دار الباطل بنظرته، وحيت أرض البنجاب بأنفاسه، وتلألأ صبحنا بشمسه، عاشق وهو رسول للعشق سيار، تتجلى، من جبينه للعشق أسرار.
أقص عليك من أنبائه عبرة، فأطوي بستانا في زهرة:
ورد لاهور شاب من أهلمرو مرير القوى، فأمّ حضرة السيد الرفيع ليقشع بشمسه ظلمات
نفسه.
قال: يا سيدي أحاطبي الأعداء الفجار، فأنا منهم كزجاجة بين أحجار، فعلمني يا ذا السنا والسناء، كيف العيش بين هؤلاء الأعداء.
قال المرشد العليم الذي ائتلف في نفسه الجمال والجلال:
يا جاهلاً بأسرار الحياة، وغافلاً عن مبدئها ومنتهاها؛ افرغ من هم غيرك، وأيقظ القوة النائمة في نفسك. إن الحجر الذي يتوهم نفسه زجاجة بين الأحجار، ينقلب زجاجة غايتها الانكسار. ومتى ظن المسافر الضعف بنفسه، فقد أسلم لقاطع الطريق روحه. حتَّامَ تعدّ نفسك طيناً وماء؟ أخرج من طينتك شعلة الطور ناراً وضياء. ماذا التكبر على الأصدقاء، وما هذه الشكاة من الأعداء؟ لا ريب أن عدوك صد يقك، وأن وجوده رونق حياتك. كل من وعى مقامات الذاتية يحمد الله كلما ألفى عدوه في قوة.
العدو من الإنسان كالسحاب من الأرض، يغشاها، فيوقظ من سباتها قواها. وإن حجر الطريق ليسيل كالماء، أمام الهمة القعساء. وما السهل والحزن أمام السيل المنهمر،

عقبة الطريق مسن لسيف العزم، وقطع المراحل اختبار لهذا السيف، ما العيش في أكل ودعة كالحيوان الأعجم؟ وما غناء الحياة وأنت في نفسك غير محكم؟ حصن نفسك بالذاتية يسخر لك العالم كله. تجرد من نفسك إن ترد الفناء، واعتصم بنفسك إن تبغ البقاء. هل الموت إلا غفلة عن الذاتية؟ وهل افتراق الروح والجسم إلا هذه المنية؟ اتخذ من نفسك مستقراً لتنجو من الهلك؛ ثم امض قدما - كيوسف - من الإسار إلى الملك. تفكر في الذاتية وكن رجل الجلاد السباق إلى الغايات، كن رجل الحق المليء بالآيات. هأنذا أشرح بالقصص الأسرار، وأفتح بالنفحات أكمام الأزهار. (خير أن يأتي سر الأحباب حديثاً في قصص الآخرين)

(قصة الطائر الذي أنهكه العطشى)

بلغ العطش من طائر جهده، فاضطرب نفسه موجة من الدخان في صدره، فأبصر في بستان شذرة من الماس الوضاء، فخيل إليه العطش أنها ماء. وخدعت الطائر المجهود هذه الشذرة المتلألئة كالشمس، فتوهم الحجر الصلب ماء سائلا، وغره من هذا الجوهر بريقه فضرب بمنقاره فلم تنقع غلته. قالت الماسة: أيها الطائر المسحور! لشد ما ضربت بمنقار

الغرور؛ لست قطرة من الماء، ولا شربة للظماء، ليست حياتي من أجل غيري. إن محاولة التقاطي جنونوغرور، وغفلة عن الحياة الذاتية الطهور، إن مائي يكسر من الطير منقاره، ويصدع من الإنسان جوهر روحه.

خاب أمل الطائر فأعرض عن هذه الشذرة الوضاءة، وانقلب الأمل في صدره حسرات، واستحالت أنيناً هذه النغمات. ثم بصر بقطرة من الطل على فنن من الورد، تتلألأ كدمعة في عين البلبل، ضياؤها استغراق في حمو الشمس، وهي من جوف الشمس في رعدة. كوكب خفاق ولدته السماء، فلبث لمحة في نشوة الظهور والضياء؛ وخدعته ألوان الأكمام والأزهار، فلم يأخذ من الحياة نصيباً، كدمعة العاشق العليل، زانت الهدب لتسيل.

ويسرع الطائر إلى فنن الورد فيلتقط قطرة الندى.

أيها المبتغي نجاة من الأعداء! خبرني أجوهر أنت أم قطرة من ماء؟ ألم تر إلى الطائر حين أذاب العطش مهجته كيف وقى بحياة غيره حياته؟ لم تكن القطرة في صلابة الجوهر، ولكن كانت الماسة صلبة المكسر. فلا تغفل عن حفظ الذاتية لمحة، وكن قطعة ماس لا قطرة. كن ناضج الفطرة راسخاً كالجبال، وتحمل بحاراً من السحاب الهطال. وجد نفسك بقوى نفسك، واستحل فضته بجمود زئبقك. أظهر نغمه الذاتية من أوتارها، وتجل للناس بأسرارها.

(قصة الماس والفحم)

وهذا حديث آخر يفتح لك من الحقيقة بابا:

قال الفحم للماس وهما في المعدن: يا من أودعت هذا التجلي الأبدي! نحن رفيقان، وفى المنشأ صنوان، وهأنذا أموت في معدني ذلة، وأنت تعلو تيجان الملوك عزة، وقدري من سوء الجبلة دون الحصاة، وجمالك يصدع قلب المرآة. يضيء بظلمتي المجمر الوقاد، فإذا غاية جوهري هذا الرماد. منزلتي من الناس مواطئ الأقدام، وغايتي أن أكون طعام النيران. إنها لحياة جديرة بالبكاء، فما وجودي إلا هباء؛ موجة من الدخان مركومة، وأما أنت فكالنجم وجهك وسيمتك تفيض بالنور كل جوانبك. فأنت حيناً قرة عين قيصر، وأخرى حلية في مقبض الخنجر.

قال الماس: أيها الرفيق البصير إن التراب الأغبر إذا نضج فهو جوهر، وأنا ما زلت أجالد

ما حولي حتى أنضج الجلاد نفسي، فانقلبت صلباً كالحجر، مضيئا كالنجم، وامتلأ صدري بهذه التجليات. وأنت من حياتك النيئة ذليل، محتقر من رخاوة بدنك العليل، فرغ من الخوف والغم فؤادك، وانضج كالصخر وكن ماساً بجهادك. فكل من جاهد في الحياة صبوراً، يملأ العالمين نوراً. إن الحجر الأسود كان تراباً بالتكريم غير خليق، فصار حلية في صدر البيت العتيق، فاق الطور رفعة وصعد، حتى صار مقبل الأحمر والأسود.

إن في الصلابة ماء الحياة وسر البقاء، وإن في النيوءة الهوان والضعف والفناء.

عبد الوهاب عزام

بين الشك والإيمان
الشاعر الإيطالي (ليوباردي)
'
1798 - 1837
للأستاذ خليل هنداوي
(أيتها الشريعة الجميلة! أنت ستعيشين طويلا معصومة من كل خطأ، وإذا هاجمنا الضلال نعوج إليك ونجد الحقيقة تحت ردائك، ويدك وحدها تقودنا إلى شاطئ السلام) (ليوباردي)
- 1 -
في نفس (ليوباردي) سكن الألم الممض والشك العنيف متجاورين. فجعلا منه - في العمر الذي يبسم فيه كل شيء - شاعراً يحمل للناس مقاطع الأحزان، ونفاثات الأشجان.
قضى أيامه الأولى يساوره الداء من ناحية، والدرس والاعتزال ينهكان قواه من ناحية ثانية، على أن الدرس برغم متاعبه كان ينفخ فيه روح النشاط فيهب، ويحيى أهواءه النائمة فتحيا.
كان لوالده الكونت (مونالدو) شغف بالأدب، يعوج إلى مجالسه وندواته، وقد بعثه شغفه هذا على أن يغرس في ولده هذه الروح، وأن يسهل له إدراكه. فكان أدبه الأول أدب إيمان وتقوى، يتعصب لهذا الأدب، ويحله من صدره أسمى مكان، ويحسب من لا يؤمن به جاهلا، وهو القائل في ساعات شكه وجموده (أيتها الشريعة، انك ستعيشين طويلاً معصومة من كل خطأ، وإذا هاجمنا الضلال نعوج اليك، ونجد الحقيقة تحت ردائك، ويفر الضلال فرار الذئب من الراعي، ويدك وحدها تقودنا إلى السلام)
- 2 -
كان الدافع الأول إلى شك (ليوباردي) هو سأمه من كل شيء في بلده، قال في إحدى رسائله (لا تحدثوني عن (ريكاناني) إنني سأحب وطني عندما أغدو بعيداً عنه، ماذا في ريكاناني؟ هل تنظرون ما أستطيع صنعه هنا؟ فالكل يجهلونني، وأنا مؤثر الحياة في هذا الوطن الذي لا تعرفونه بدون معجم جغرافي، مستخف بكل شيء. الآن صنع الإله الوجود جميلاً، والناس يصفون العظائم في كل الأنحاء، وهنالك كثيرون من الرجال يعدون بلهاء لأنهم جربوا أن يروا وأن يعرفوا! الأرض ملأى بالعجائب)
وهكذا قضى أيامه الأولي مغترباً عن أبيه الذي دعاه مراراً وتكراراً إلى العودة، وهو يأبى ويصر على البعد إصراراً. كتب له أبوه، (وما هي الحاجة الماسة التي تدعوك إلى هجرة دارك وأهلك إلى دار لا تتمتع فيها بمثل عطفي ورضاي؟) ولكن ليوباردي كان يهمل كثيراً هذه الأسئلة، وإذا أجاب أجاب بنفس ناقمة غاضبة ثائرة، يكتب إلى أحد أصدقائه (لأسهل عليك أن تحرك الجبل من أن تدفعه (والده) إلى صنع شيء من أجلي) ثم يقول: (على أنني اخترت هذه المرحلة؛ فلا آخذ منه شيئا، ولا أطلب شيئاً) وهكذا يغلب الكبرياء على ليوباردي ويصبح شقاؤه شقاء جباراً.
أوى ليوباردي إلى الدرس يجد فيه لذته النفسية، ولكن هل كان الدرس كله راحته من عنائه، وهناءه في شقائه؟ كتب في أحد كتبه يعبر عما يجد في ساعة الدرس:
(إن سبب تعسي هو عقلي، إنني أظن أنكم تعرفون، ولكني أثق بأنكم تجهلون كيف يقتل العقل صاحبه الذي يحاول أن يفكر على غير ما يفكر به الآخرون، عندما لا يكون لهذا الصاحب من لهو غير لهو الدرس. . أما العقل فقد أعطاني ويعطيني أمثال هؤلاء الشهداء، وبهذا وحده يفرض سلطته عليَّ ويكون سبب أذاتي. وسوف يقتلني إذا لم أبدل خطتي! ألا إن العزلة ما خلقت لمن يحترقون بأنفاسهم ويذوبون بأنفسهم)
بلى! ما كان أصدق ليوباردي في كلمته الأخيرة! لأنه كان معبراً عن حالة نفسية هي فيه. فقد تسرب إليه الداء حتى أنهك قواه فشح ناظراه وساءت صحته وركبته العلة إثر العلة. ووقر على ظهره عبث الحياة فقال (إنني ناضج للموت). ولكن الموت كان يرى هذه الثمرة غير ناضجة، فتركها عشرين عاما تنضج خلالها وتحمل من آلام الحياة ما ينوء بالجبابرة حمله، تائهاً ضالاً في مسارب الشك، مستجلياً الحقيقة كما استجلاها من قبله، طالبا ما تعده من وصل، ووعدها بالوصل علالة.

أما نظرته الحادة وصوته المرنان وتألق نفسه وكل تلك الملامح القوية التي مثلها - سانت بوف - قد تغيرت في أخريات أيامه وإنما غيرها وقر الهم لا وقر الهرم، وإذا بليوباردي كما يصفه (رانيري) صديقه الوفي (ذو قامة مقوسة، ولون أبيض مشرب بصفرة، وجبهة مربعة عريضة، وعينان زرقاوين ذابلتين، وأنف دقيق، ولهجة مبهمة جافة، وبسمه ترافقها العذوبة والشقاء)

وهو يكتب عن نفسه:

(وأخيراً أتعبتني تلك الأعوام التي قضيتها في الدرس وأودت بجسدي، حتى لا يرجى لي شفاء غير الموت. وهكذا حطمت رجائي لأفهم أن الطرب لا يلائم قلبي. وإذ ذاك وجب على أن أرتدي ثياب الحداد وأن أتخذ التشاؤم رفيقاً لي لا يمكن فصله عنى إلى الأبد، نظرتُ فألفيت أن حياتي لا يمكن أن تكون إلا تعسة، ولكن هذا لم يبعثني على اليأس، فحبذا لو أن قواي تحملها بدون خوف وتحولها إلى شيء مفيد بعض الشيء)

وهكذا نستطيع أن ندرك أن أهم العوامل التي تألبت على هذا القلب فبدلت إيمانه شكلاً معذباً إنما هي عوامل جسدية ونفسية تضافرت على نضاله، وما فتئت تلح عليه وتنال منه، حتى تركته لا يهديه إلا شك، ولا يقنعه إلا جحود.

- 3 -

في هذه العزلة الموحشة التي اختارها لنفسه ارتبط مع الأديب الإيطالي (بيانرو جيورداتي) بصلات مودة متينة، وكان نجم هذا الأديب متألقاً في سماء بلاده، وهو ممن طرح القديم وأعلن شكه فيه، وراقت له المذاهب الجديدة فأخذ بها، فتمنى لو يرى ليوباردي بعد أن سمع عنه الشيء الكثير، فقصده في عزلته فمال إليه وأعجب به وكتب عنه (إذا كان دانتي نجمة صبح في سماء إيطاليا، فان ليوباردي هو نجمة مسائها)

لليوباردي صفحة مؤثرة كتبها في ليلة تحت أضواء القمر والنجوم المشعة، ذاهبة نفسه في الليل العميق كل مذهب:

(وفي ذلك المساء كانت نافذتي مفتوحة، وناظري يتمتع في هذا الصفاء السماوي وشعاع القمر المتهادي. أتروّح نسيماً عليلاً، وأصغي إلى عواء الكلاب المتناوحة في مواطن قصية عني. فخيل إلى أن صوراً ترقى إلى نفسي وأن قلبي يتسلط عليه قلق غريب، فهتفت كمن أصابه مس، طالباً رحمة الطبيعة التي خيل إليّ أنها تسمعني. في هذه اللحظة ألقيت أنظاري على ماضي، فتجمدت من الخشية أعضائي، وأنا لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن الناس أن يتحملوا الحياة بدون أوهام ولا أفراح ولا عواطف، بدون خيال ولا هيام، وبدون ما كان يملأ وجودي قبل عام، ويجعلني سعيداً برغم مخاوفي، أما اليوم فإنني يابس كالقصبة، لا عاطفة تتمشى في حنايا نفسي البائسة، وقوة الحب الخالد الطلقة قد ماتت وهلكت في العمر الذي أنا فيه).

كم مرة ذكر ليوباردي هذه الليلة العنيفة! وكم مرة تمثلت له هذه الليلة وهو ينظر في المروج الفضية الهادئة يغمرها نور القمر وهو ينجلي وراء (الابينين، وقمم الألب الشامخة) أو يتهادى على حضن البحر اللانهائي، وسائق العجلة يردد أغنيته الحزينة، مودعا آخر شعاع النهار، ثم يردد الشاعر: (وهكذا يغادر الشباب الحياة ويتركها تخمد رويداً رويداً، والأوهام الجميلة تتطاير مع الآمال التي كانت مساعدة للإنسان، ولكن أنتن أيتها الروابي التي ينحدر عنها النور، أنتن لن يغشاكن الظلام طويلا. . . ولكن حياة الإنسان بعد فرار الشباب لن يُلوِّنها شيء، وستظل غريبة حتى النهاية. . . والقبر وحده هو الذي يضع حداً لليل عمرنا!)

وفي عام 1818 نظف الشاعر رأسه من كل شيء. طلق الإيمان وودع الأوهام، فبقي وحده وسط خرائب جسده وروحه إزاء عالم فارغ وتحت سماء من نحاس، ومنذ ذلك العهد لم يتغنّ الشاعر إلا بأنشودة الشك التي رافقته حتى ودَّع الحياة.

- 4 -

وأخيراً نزع عنه الشك العابس كل إيمان بالله والخلود والعناية، فتلاشى منه كل شيء وانصرف عنه كل شيء، فلا آله عنده غير الطبيعة، تلك القوة العمياء التي لا تُدرك، يسألها عن سر الأشياء فتجيبه (وأنا طائعة للمقادير، أما أسباب الأشياء فهي ألغاز، لا أنا ولا أنت نستطيع إدراكها، فالأجدر ببني الإنسان أن يصرفوا عيونهم عن هذه الألغاز

التي تقلقهم، فإن حلها كما خُيِّل إلينا انه صار قريباً زاد عنا بعداً)
لننظر ما هو الإيمان الجديد الذي اعتنقه الشاعر في بعض مقطوعاته (مومياء تُبعث)
بعثاً مقيداً بلحظة زمنية، يسألها فيها (كيف ماتوا وماذا وراء الموت)؟ ولكنها تجيب
(اسكت! لم
يحن وقت الجواب. . .) وهكذا تكر هذه اللحظة، وتعود المومياء إلى رقادها الأبدي.
وهنالك مقطوعة صغيرة تدور حول رجل (ايزلاندي) فرّ في الأرض على وجهه من
الطبيعة، ولكنه تلاقى معها في وسط الصحراء، فألح عليها بأسئلة كثيرة منها هذا
التأنيب:
لماذا قذفتِ بي في هذا العالم دون استشارتي، ولماذا بعد إيجادك لي لم تشغلي)
نفسك فيَّ؟ فما هي غايتك؟ وما عسى تبتغين؟ وماذا تريدين؟ هل أنت لئيمة أم
(عاجزة؟
فأجابته الطبيعة: بأن ليس لها إلا سأم واحد وواجب واحد أن , تُدير دولاب العالم دورة
واحدة يناجي فيها الموت الحياة، والحياة الموت. وإذ ذاك سألها الرجل (ومن عسى
يبتهج بحياة هذا العالم الذي لا يبقى ولا يدوم إلا بموت كل الأجزاء التي تولف عناصره؟
ولكن الطبيعة لم تجشم نفسها عناء الجواب. . . وإذ ذاك انقض أسدان جائعان عليه
فالتهماه فهوى هيكله على التراب منتظراً أن يسقط كلاهما بدورهما على رمال
الصحراء.
السكوت هو الجواب البليغ على هذه الأحاجي والأسرار، لأن المستقصي عنها لن يرى
إلا جداراً يعثر به ويدفعه إلى الوراء، وإذا سار فلن يسير إلا في صحراء لا يجد منها
مخرجاً.
لم يختر ليوباردي شيئاً من حياة المستقبل ولا الحاضر، ولم ينظر إلى مستقبل
الإنسانية، ولم يجرب أن يقف هواه على شيء في الحياة، وإذ أراد أن يمجد وطنه فلن
يرى شيئاً جديراً بالتمجيد إلا ذلك الماضي، أما الغد فهو لا يؤمن به
أيها الأسلاف العظماء، ألا تزالون تصونون لديكم شيئاً من الرجاء فينا؟ ألم نهلك نحن)
جميعاً؟ إنني محطم لا أملك أية قدرة أجابه بها الشقاء، أما المستقبل فهو جهنم في
(عيني، والذي أتبينه هو الذي يريني الأمل حلماً أو جنوناً
لهجته - أينما صعدت - مبطنة بالكآبة العميقة التي لا يخفف منها مجد ولا علاء. يُسألُ
عن الرجل العظيم فيقول (هو اسم سرعان ما يصبح كاللاشيء. إن فكرة الجميل
تتبدل دائما مع الزمن. فالمسائل العلمية سرعان ما يتفوق عليها غيرها وتصبح نسياً
منسيا، وإن أدنى رجل رياضي منا يعرف أكثر مما يعرف (غاليلو ونيوتن) فالمجد ما هو
إلا خيال، والبراعة التي تكون مكافأة للمجد ليست إلا حاضراً مشؤوماً لمن يتقبلها) ثم
يتكلم عن دانتي ويقول. (وعلى هذه الأرض القبيحة لم يؤثر إلا الجحيم، وأي منزل في
الحقيقة لا يفضل على منازلنا الأرضية، إن الشقاء الذي يؤلمنا هو أقل ثقلاً وأقل شراً
من السأم الذي يخنقنا.
ألا أيها السعيد، أنت الذي حياتك في بكائك) وينظر ليوباردي إلى المستقبل نظرة
سوداء ويعتقد أن الأجيال تسفل ولا ترتقي، ويسخر من المتأملين في تسامي الأحفاد
هنالك راع يخطر على قمم جبال (هملايا) متكئاً على عصاه يطيل التأمل في السكون
المحيط به، وينظر إلى القمر الهائم مثله في السماء فيسأله: (قل لي أيها القمر! ما
قيمة حياة الراعي، وما قيمة حياتك أنت؟ بل ما قيمة حجى الفقير وسُراك الأبدي؟
أنت أيها المسافر المنعزل الخالد والملك المفكر، ربما تفهم أنت حياتنا وآلامنا
وتنهداتنا، وربما تفهم الموت والصفرة السامية، وسفر الأرض ووداع الصداقات
الجميلة. انك بلا شك تفهم أسرار كل هذه الأشياء ولكني لا افهم ولا أعرف إلا شيئاً
واحداً. ليأخذ البعض من هذه الحياة خير ما فيها، يستنقذونه من ثوراتها الهوجاء ومن
كائناتها الضئيلة. قد يمكن لهم ذلك. ولكن الحياة هي شر من اجلي)
وهل في هذه القطعة إلا اليأس من الحياة والكفر بها في شعر جميل
يتبع
خليل هنداوي
العلوم
تغير شكل الأرض من الكروية

بقلم نعيم علي راغب
دبلوم عال في الجغرافية
كلنا نعرف أن الأرض التي نعيش عليها كروية الشكل. وقد برهن علماء الجغرافية على صحة هذه النظرية ببراهين عديدة كانت ولا زالت موضوعاً من مواضيع دروس الجغرافيا في المدارس، من أهمها الظل المستدير الذي تلقيه الأرض على سطح القمر إذا ما حالت بينه وبين الشمس.
إلا أنه قد ظهر أخيراً بين العلماء المحدثين من يقول بأن الأرض يتغير شكلها من كروي وهو ما يطلق إلى شكل هرمي له أربعة أضلاع، كل منها مثلث متساوي السيقان.
والنظرية لا تعتمد في إثباتها على براهين نظرية أو خيالية، وإنما تعتمد على حقائق جغرافية ملموسة موجودة فعلاً على الأرض، فهي براهين عملية ثابتة. وسأنقل النظرية لحضرات القراء ملحقاً كل نقطة بالتفسير الكافي وذلك لخطر الموضوع الذي نبحث فيه وخطر النتيجة التي تنتج عن إثباتها علمياً.
قال صاحب النظرية:
(هناك على سطح الأرض منخفضات لم تغمرها المياه بعد، من أهمها ذلك المنخفض العظيم الذي يقع فيه بحر الكاسبيان الذي يفصل وسط وشرق آسيا عن أفريقيا وأوربا، والذي غمرته المياه في العصور الحديثة. إذا علمنا هذه الحقيقة الجغرافية وعرفنا أن هذا اتصال بالمنخفضين اللذين تغمرهما مياه المحيطين الأطلسي والهادي سهل علينا أن نفهم أو نعرف كيف أن شكل الأرض يبعد عن الكروية بالتدريج مقترباً نحو الشكل في هذه النقطة يمهد صاحب النظرية الطريق للفكر لتسوغ نظريته، وذلك بإلقاء حقائق جغرافية ثابتة يرى أنها تساعد على فهم نظريته إذا ما أراد البرهنة عليها. وهاهو ذا بعد ذلك يريد أن يعلل سبب اتخاذها الشكل الهرمي دون سواه مستعيناً في ذلك بحقائق جغرافية أخرى. فيقول:
(باطن الأرض لا زال حاراً منصهراً يبرد بالتدريج، وهو يقل حجماً بالبرودة. ولما كانت القشرة الأرضية صلبة لا يمكنها تقليل حجمها تبعاً لذلك فإنها تتقلص وتغير من شكلها تبعاً لانكماش باطن الأرض فتتخذ الشكل الهرمي).
أي أن باطن الأرض حارٌّ ملتهبٌ منصهر، ولكنه يبرد بالتدريج، فسيجيء وقت مستقبل يصل فيه إلى أقص درجة، أي لدرجة التجمد، وعندها يقل حجمه تبعاً لقانون الانصهار. وبما أن الحيز الذي كان شاغلاً له قبل التجمد سيكون جانب كبير منه بعد ذلك شاغراً، فان القشرة الأرضية أو الغلاف الخارجي سيضطر بفعل الفراغ الداخلي أن يغير من شكله لملئ هذا الفراغ مع عدم تغير في حجمه. وقد وجد الأستاذ صاحب النظرية أن الأرض سائرة في هذه الطريق، وأنها ستتخذ الشكل الهرمي دون سواه لحقائق جغرافية تبرهن على صدق قوله وصحة اعتقاده. ولظنه أن هذا الشكل يمكن القشرة الخارجية من التمشي مع وصول الباطن إلى اقل حجم ممكن دون المساس بحجم الغلاف الخارجي.
ولو أنني أعرف جيداً أن المعضدين لهذه النظرية أقلية صغيرة إلا أنني أقول إن هناك) حقائق جغرافية كثيرة تؤيد وجهة نظري وتبرهن على صحة نظريتي:
أولاً: تركز اليابسة حول مساحة مائية في النصف الشمالي من الأرض.
ثانياً: كل مساحة مائية في جهة يقابلها كتلة أرضية في الجهة الأخرى.
ثالثاً: وجود ثلاثة مناطق مرتفعة تكون عقداً أو أحزمة أرضية شمالية وجنوبية يفصل بعضها عن بعض منخفضات هي منخفضات المحيط الأطلسي والهادي ومنخفض الكاسبيان.
والشكل رقم (1) يساعدنا على فهم ذلك.
وتفسيراً لذلك نقول. أنه لما كانت الأرض في حالة الليونة الأولى وكانت تدور حول محورها بسرعة، أخذت الشكل الكرويكأي جسم لين يدور حول محور، وانبعجت عند خط استوائها ثم تفرطحت عند القطبين بفعل قوة الدوران.
وكانت الأرض في العصر الأيوزوي أقرب في شكها من الكروية التامة تغطيها المياه. فلما أخذت تبرد بدأت القشرة الخارجية في التقلص فظهرت أراضٍارتفعت عن المياه المغطاة بها (شكل 2 أ). وفى العصر ألباليوزوي مساحة اليابس تتزايد وأخذت الأرض

شكلاً كما يقول العلماء عبارة عن هرمين غير كاملين متصلين ببعضهماوكانت الأحزمة أو الكتل الأرضية بدلاً من اتجاهها من الشمال للجنوب (مثل الأمريكتين) كما هو حادث الآن. متجهة من الشرق إلى الغرب. وكانت عبارة عن كتلتين أو حزامين كما يطلق عليهما إحداهما شمالاً والآخر جنوبا يفصل سطحيهما مساحة مائية عظيمة. ولما كانت الأرض لازالت آخذة في البرودة بالتدريج فان الكتلة الجنوبية قد بدأت في الانكماش وكادت تختفي، وأخذت الأرض تسير نحو تكوين شكل هرمي واحد هو تكملةللكتلة الأرضية الشمالية (شكل 2 جـ)

هذا هو شرح صاحب النظرية لفكرته وهو شرح واضح وافٍ نعرف منه أن الأرض التي نعيش عليها سائرة في طريقها إلى تكوين شكل هرمي. وقد يعترض معترض فيقول لم لا تأخذ الأرض أي شكل آخر غير هذا الشكل الهرمي؟ ولم كان هذا الهرم مقلوب الوضع، أي أن قاعدته من أعلى. وردي على ذلك بسيط للغاية. لأن الحقائق الجغرافية والخرائط التي أمامنا يظهر عليها أن اليابس يتركز في الجزء الأعلى، وأنه من الممكن جداً أن ندخل شكل اليابس داخل أضلاع المثلث. وهذه الظاهرة إن دلت على شيئ فلا أقل من أن الجزء الأعلى يكون القاعدة. ثم إن هناك نقطة أخرى وهي أننا نلاحظ جميعاً أن القارات الجنوبية ينتهي أغلبها بأشكال مدببة، فأمريكا الجنوبية وأفريقيا وأستراليا بمجموعة جزائرها تكون أشكالاً تنتهي بمدببات، ومن جهة أخرى فأن الشكل الهرمي كما سبق ذكره يمكن القشرة الأرضية من التشكل تبعاً لنقص حجم باطن الأرض بالبرودة دون أي مساس بحجمها هي. وفي قوله هذا شرح أو رد للاعتراض الثاني أي أن شكل الأرض الآن على ماهي مرسومة عليه في الخرائط يبين أن القاعدة من أعلى لا من أسفل.

وفى هذه النظرية يقول البروفسور و. هـ. هوبز ما معناه (إن الكرة الأرضية لا يمكن أن تعتبر بأي حال من الأحوال كرة تامة التكوير إذ لابد من أن تعاقب العصور الجيولوجية المختلفة قد أثر في شكلها التأثير البين وحور فيه. وهي تقترب في الوقت الحالي نحو الشكل الهرمي. ويجب ألا ننسى أن الزوايا الحادة قد استدارت، وأن الشكل الهرم قاعدته من أعلى، يبرهن لنا على صحة ذلك رحلتا نانس أولا، وبيري ثانيا، إلى القطب الشمالي إذ أثبتت وجود كتلة أرضية في الشمال يزيد ارتفاعها على 10 آلاف قدم عن سطح البحر

يمكن اعتبارها أكبر مساحة أرضية على سطح الأرض إذا ما ضمت إليها مساحة ثلاجاتها وجزرها.)

هذه هي النظرية أقدمها لحضرات علماء الجغرافيا في مصر راجياً الإدلاء برأيهم فيها. على أنه يجدر بي أن أذكر أن هذا التغير والتطور في شكل الأرض هو تغير تدريجي، بطيء يحتاج لآلاف السنين، وأنه لذلك يمكن اعتبار الأرض التي نعيش عليها كروية أو قريبة للكروية ولو أنها في الحقيقة سائرة في طريقها إلى تغيير شكلها الذي نعرفه.

القصص

الدون جوان

لموليير العظيم

ترجمة حامد اسعد محمد

الفصل الرابع. المنظر الثاني

الدون جوان أحد فقراء الأشراف الفرنسيين. يغلق بابه دائما في وجه الدائنين. يحضر (المسيو ديمانش بائع الملابس والخائط وهو أحد دائني الدون فيطلب مقابلته)

الخادم زجانارل: سيدي. قد حضر المسيو ديمانش وهو يريد التحدث إليك.

الدون جوان: دعه يدخل. إن التهرب من مقابلة الدائنين لا يجدي نفعاً. سأعمل جهدي لاستقباله استقبالاً حسناً دون أن أدع له فرصة الطالبة بدينه

(يدخل المسيو ديمانش)

الدون جوان: أهلاً وسهلاً بالمسيو ديمانش. كم أنا مسرور برؤيتك. وكم أنا آسف لأن الخدم تركوك تنتظر في الخارج أكثر مما ينبغي. ولكن معذرة، إذ أنني أمرتهم بعدم دخول أحد، ولكن هذا لأمر طبعاً لا يسرى عليك فان لك الحق أن تحضر دائماً دون أن يمنعك أحد.

المسيو ديمانش: سيدي. أنا عاجز عن شكرك. لقد حضرت لـ . . .

(يقطع الدون جوان عليه حديثه فينادي خادمه)
الدون جوان: اسرع باحضار كرسي (فوتيل) للمسيو ديمانش.
المسيو ديمانش- سيدي. لا داعي (للفوتيل). إنني مستريح
الدون جوان: لا. أبداً- يجب أن تجلس بجانبي.
المسيو ديمانش: لا ضرورة لذلك. لقد أتيت فقط لـ. . . . .
(يمنعه الدون جوان إبداء الغرض من زيارته له فيقول للخادم)
الدون جوان: خذ هذا الكرسي الصغير وأسرع بإحضار (فوتيل)
المسيو ديمانش: سيدي أنت تهزأ بي. لقد جئت لـ. . . .
الدون جوان: لا. لا أقصد السخر منك. إنني أود أن أستقبلك كما يليق بك. وأود ألا أجعل
هناك فرقاً بيني وبينك.!
المسيو ديماننش: سيدي. . . .
الدون جوان: تفضل بالجلوس.
المسيو ديمانش: لا ضرورة للجلوس يا سيدي. أريد أن أقول لك كلمة فقط. لقد حضرت لـ. . . .
الدون جوان: تفضل بالجلوس.
المسيو ديمانش: لا ضرورة لذلك يا سيدي. إني مستريح كذلك. لقد حضرت لـ. . . .
الدون جوان: لا. لا. لن أستمع إليك حتى تجلس.
المسيو ديمانش: سيدي. سأفعل ما تريد. لقد حضرت لـ. . .
الدون جوان: ما شاء الله يا مسيو ديمانش. إن صحتك جيدة جداً!!
المسيو ديمانش: نعم يا سيدي. أنا في خدمتك. لقد حضرت لـ. . . . . .
الدون جوان: إنك في صحة حسنة حقاً. وجهك متورد. وعيناك يلمع فيهما بريق القوة.
المسيو ديمانش: أنا شاكر لعطفك يا سيدي. لقد حضرت لـ. . .!
الدون جوان: كيف حال مدام ديمانش زوجك؟
المسيو ديمانش. نحمد الله، إنها في صحة جيدة يا سيدي.
الدون جوان: إنها امرأة طيبة القلب حقاً.
المسيو ديمانش. إنها خادمتك يا سيدي. لقد حضرت لـ. . .
الدون جوان. وكيف حال ابنتك كلودان؟
المسيو ديمانش: إنها على احسن حال يا سيدي.
الدون جوان: كم هي جميلة وذكية. إني أحبها من كل قلبي
المسيو ديمانش: انه لشرف عظيم لها يا سيدي. لقد حضرت لـ. . .
الدون جوان: وطفلك كولان. ألا يزال يكثر من ضوضائه؟
المسيو ديمانش: نعم يا سيدي. لقد حضرت لـ. . .
الدون جوان: (ضاحكا) وكلبك (برسكيه) لا يزال يعض كل من يزورك؟!
المسيو ديمانش: اكثر من قبل يا سيدي. ولكني جئت لـ. . . . .
الدون جوان: لا تعجب من كثرة اسئلتي عن أسرتك فإنني أحبها كثيراً وأود سماع كل ما يتعلق بها.
المسيو ديمانش- إننا عاجزون عن شكرك يا سيدي. لقد. .
الدون جوان: (يقف ويمد يده لمسيو ديمانش مشيراً بذلك إلى أن المقابلة انتهت) ضع يدك في يدى كصديق
المسيو ديمانش- إني خادمك يا سيدي
الدون جوان: يا إلهي! كم أنت رقيق وظريف. إني أحبك كثيراً
المسيو ديمانش: انه لشرف عظيم يا سيدي. لقد حضرت لـ. . .
الدون جوان: إني على أتم استعداد لعمل كل ما تريد.
المسيو ديمانش: سيدي. لقد أحسنت إلي كثيراً.
الدون جوان. وكل هذا بدون مقابل
المسيو ديمانش: إني لا أستحق كل هذا العطف. ولكنني حضرت لـ. . . . .
الدون جوان: العفو يا مسيو ديمانش. هلا شرفتني بتناول العشاء معي هذه الليلة؟
المسيو ديمانش: شكراً لك يا سيدي. يجب أن أرجع إلى منزلي في الحال. لقد جئت

. . . . .لـ
الدون جوان: (يقف ويمد يده للمسيو ديمانش إشارة إلى أن الأخير يجب عليه أن يستأذن في الانصراف)
أسرع يا زجانارل وأحضر المشاعل لتوصيل المسيو ديمانش. وخمسة من خدمي بأسلحتهم لحراسته أثناء رجوعه إلى منزله
المسو ديمانش: (يقف أيضا مضطراً) سيدي. لا ضرورة لكل ذلك. يمكنني الرجوع وحدي، ولكنني جئت لـ. . . .
(يأتي الخادم في الحال ويأخذ الكرسي الذي كان يجلس عليه المسيو ديمانش)
الدون جوان: كيف لا يا سيدي وأنا خادمك أو بالأحرى مدينك؟
المسيو ديمانش: (تنبسط أسارير وجهه ويقول) آه. سيدي
الدون جوان: انه فضل لا يمكن أن أخفيه. وإني لأعترف به أمام جميع الناس.
المسيو ديمانش: شكراً. إذاً لقد حضرت لـ. . . . .
الدون جوان: ألا تتنازل بالسماح لي بأن أوصلك؟
المسيو ديمانش: سيدي. انك تهزأ بي. سيدي لقد. . . .
الدون جوان: ضع ذراعك في ذراعي إذا تفضلت. أود أن تكون على ثقة من أنني خادمك. وإني على استعداد لأبذل لك كل غال ونفيس
(يخرج المسيو ديمانش ويوصله الخدم إلى بيته)
حامد أسعد محمد عاشور
قصة في رسائل
سعادة لم تتم
بقلم عبد الوهاب الخطيب
صديقي:
تسألني ما بالك كثير الإطراق، دائم التفكير، حائر البصر، مشرد اللب، بادية عليك علائم السقم؛ كأنك تعالج كتمان أمر في نفسك شديد على لسانك إعلانه. أو تشكو داء لا قبل لمثلك باحتماله. وتعلم يا صديق أنني كنت قبل ذلك كنت مرحاً غاية المرح، طروباً نهاية الطرب؛ وأنني كنت في مرحي وطربي لا أخرج عن كوني شاباً سعد حقبة من الزمان بالأمل الباسم وعين الزمان نائمة - والأمل جذوة الشباب وشعلته، وروحه وقوته، ومرحه وطربه، ولهوه ولعبه - فكنت بما بين ضلوعي من أمل أجري مع الشباب إلى تلك الغاية التي رسمتها لنفسي، مستسهلاً في سبيلها وراء الأمل كل صعوبة أمام الشباب، حتى إذا كنت من آخر المضمار قاب قوسين أو أدنى، فتح الدهر عينيه، ثم تثاءب وتمطى، ثم التفت إلي ونظر نظرة أنت تعلم ماذا كان وراءها!
يا ويحي!! لقد تأنق في مكروهي القدر، أخ في الورد من أيامه بالورد عثر، وعم ظلله المشيب ففر منه ونفر، وأمل علىآثارهما تحطم واندثر. ثلاثة أشباح كانت صروح سعادة ومنتديات أحلام، لم يفارق العين خيالها، ولم يهدأ القلب من طعناتها، ولم أفتأ اذكرها من حين إلى حين.
قلت قضاء حُمَّ، وأمر من الله نفذ، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، واستعنت الله على هذه النوازل فأعانني، واستهديته فهداني. وإن كانت في القلب جمرات من الأسى، مغطاة برماد من الصبر خفيف ضئيل. ولبثت على ذلك برهة كانت أقصر من عمر آمالي وسنات أحلامي، لم أشعر فيها بشيء من معاني الحياة، الهم إلا بذكرى في قلبي تتمثل، وخيال أمام عيني يتنقل. وكنت مع ذلك أرى كما يرى الناس، وأسمع كما يسمعون، أسير كما يسيرون. غير أني كنت انظر بعينين فيهما انكسار من بقايا آثار المدامع، وأسمم بأذنين فيهما رنين من صدى تلك الفجائع، وأمشي على قدمين يؤودهما حمل هذا الهيكل السقيم الناحل المتهدم، مشى من حنت ظهره السنون، وأثقلت كواهله الليالي والأيام!!
ثم رأيتها لأول مرة، وقد ألقى عليها بارىء النسم ثوبين ضافيين من جمال وجلال، فأحسست نحوها بحنان كأنه رقة العشق، سرى في دمي سريان الكهرباء في أسلاكها، ومكثت طول يومي أفكر فيما سيصير إليه أمري بعد تلك النظرة التي كانت توفيق أقدار لأقدار.
يا لله يا صديقي! لشد ما ملكتإحساسي وشعوري في المرة الثانية، والقلب الهواء تجد

فيه كل غيداء فراغاً لها. وكان قلبي لا يزال واقفاً على أطلال الأمل، يندب شجوه ويبث لوعته. فنظر إليها نظرة كنظرة إبراهيم في النجوم وقال إني سقيم. وكأنما، أرادت أن تداويه كما يتداوى شارب الخمر بالخمر، فرنت إليه بنظرة جمعت شعبه ولمت شتاته، وأطفأت لهبه وأحيت مواته، فالتفت في مثل انكسار جفونها، ورفعالراية بالإذعان في شكر، والتسليم في طاعة. ثم كان بعد ذلك ما كان.

أخذ فكرى يسبح رويدا رويداً في ملكوت لا نهاية له من الخيال وراء هذه الظاهرة الغريبة التي ملكتني، وأصبحت أشعر بحياة جديدة فيها معنى حائر بين سعادة لا نهاية لها، ذلك أني احتويتها في جوانح القلب، واتخذت من عبقري جمالها ريشة لعبقري خيالي، فكان لا يرتسم في ذهني معنى إلا وفيه من حسنها مثال، ولا يقع نظري على شيءإلا وفيه منها رونق بهجة أو شعاع جمال، تلك سعادة علوية ساحرة قاهرة، تغطي على كل سعادة في الأرض لتظهر هي في صورتها البديعة اللطيفة فتنة لمن يراها أو يحس بها من الناس أجمعين.

لا أستطيع يا صديقي أن أصفها لك، فهي روح، والروح لا توصف، وهي حياة، والحياة لا يمكن إنسانا في الوجود تكييفها، وهي مع هذا وذاك سر لا يدركه غيري، ولا يحسه أحد سواي، وكل ما أستطيع أن أقوله لك إنها مشرقة الطلعة، معتدلة القامة. مطمئنة السير، فيها لمحات محدودة من الإنسانية العالية السامية. هبطت بها إلى هذا الملأ الذي نعيش فيه كدليل حسي على أسمى مراتب الجمال وأتم مظاهر الجلال.

لقد مضت علي يا صديقي مدة تزيد على ثمانية عشر شهراً،

لم أحاول فيها أن أطرق سمعها - على قربها مني - بكلمة واحدة تفهم منها ما يكنه قلبي من الحب لها والوجد بها، وكم تمنيت أن أسمع من فمها الرقيق الساهم الحالم كلمة واحدة،

فلم أجد إليها من سبيل، كما أني لم أملأ منها عيني حياء وخجلا، واكتفاء بصورتها المرسومة في حبة القلب وفوق صفحات الخيال، على أن طريقي كانت تتحول تبعاً لها على غير قصد مني، حتى إذا لم يكن من توديعها بالنظرة بد، وضعت يدي على صدري كمن يتلمس شيئا فقده، وما فقدت إلا قلباً تقطر كالدمعة الحمراء من بين أهداب الجفون.

لا يزال صولجان المقادير يقذف بقلبي في واد من الذكريات القديمة ذي ثلاث شعب، لا ظليل ولا يغني من اللهب، كلما طال علي الأمد في لقائها، والآن يا صديقي وقد مضت علي مدة تزيد على شهرين لم المحها فيها لمحة واحدة، أقول لك إن هذا هو سر إطراقي وتفكيري، فلا تسألن عن شيء بعدها حتى أحدث لك منه ذكرا.

صديقكجمال 1932 - 7 - 21

صديقي:

أوقد فعلتها؟ يا قلبي!! ما كان أحرصني على الاحتفاظ بالسر وكتمانه، لولا أنني أعتقد أن لي من قلبك وإخلاصك ووفائك ما يجعلني أستريح إلى أن أبوح لك (في شيء من التحفظ كثير وبعد مضي زمن على كتمان هذا السر طويل) بما كنت أقاسيه أناء الليل وأطراف النهار من لواعج قلبي، وزفرات أنفاسي ودموع عيوني، ولكن غفر الله لي ولك يا صديقي ما تقدم من ذنبنك وما تأخر، فان هذه القلوب الطاهرة البريئة، المكتهله في شبابها، الرزينة في حبها، لا يمكن أن تتصل في يوم من الأيام بغير ما يماثلها شرفا وطهرا، ورزانة ونبلا.

ولئن وقع خطابي في يد غير يدها، ورأته عين غير عينها، وطرقت نبراته الحزينة سمعاً غير سمعها لخطأ في الاسم كما يقال، فانني لسعيد مغتبط، هنئ ملئ قرارة نفسي وطوايا فؤادي، ذلك أن خطابي وقع في يد شريفة وعند قلب ذي إحساس سام، يعرف المعنى المرتسم فيه كما أريد، وأغلب الظن أن الله قد يهئ لي من أمري هذا رشداً. ولعله يكون قريباً والسلام.

صديقك جمال1932 - 9 - 14

عزيزتي:

عبثا كنت أخادع قلبي بالسلو عنها أو الإفلات من براثن حبها بعد أن جاءني خطابك الأخير، فإنها لم تدخل قلبي إلا بعد أن صهرته آلام الحياة وأحزانها، وأصبح نقيا شديد الإيمان بقضاء الله وقدره، صادق الإحساس بما يجري حوله في الحياة من مظاهر

خادعة وأخرى مخدوعة، مطمئنا إلى الحياة من حيث هي وجود ناقص أحياناً وتام أحيانا، عالماً أن لكل شيء نهاية لابد وأن ينتهي إليها
ولقد أيقنت من يوم أن أحسستها تجري في دمي أن الله قدر لي أن أحبها، فأحببتها لنفسي، وأحببتها لأن الله أراد ذلك، وكان قلبي صادق الحس بها، فلم تكن خادعة ولم يكن مخدوعاً، وكان وقوراً حكيما فاكتفى بأن يحبها هو من غير أن يتساءل ما هي ميولها نحوه؟ وهل تعلم أن في العالم المحيط بها قلبا يرفرف عليها في غدوها ورواحها، في مسائها وصباحها، في يقظتها ومنامها، في دمعتها وابتسامتها؟ ومن هو صاحب هذا القلب؟ وبعد ذلك اطمأننت إلى أن الحياة من حيث هي وجود ناقص، هي تلك الساعات التي لا تجرى فيها المدامع من شوق، ولا تسيل فيها النفوس من ذكريات وحنين، وأيقنت بعد هذا وذاك أن الحب كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها، ولا يقال في نقطة منها إنها نهاية إلا قيل في نفس الوقت إنها بداية
لقد ذهبت بك الظنون كل مذهب في أمري، بل أيقنت أنك قد أصبت المرمى حين أرسلت إلى خطابك المفوق، وإني أقول لك بلغة يقطر منها الشكر إن خطابك كان فيه الشفاء لقلبي من الناحية التي تريدينها، وإني ما سكت هذه المدة إلا لأختبر قلبي واستشير عقلي، أما القلب فلم يجد عنها حولا، وأما العقل فأشار بأخذ رأيك فيها من جهة ميولها نحوي، فان كنت عندها شيئاً فابسمي يا دنيا، وأشرق يا أمل
كنت في بعض الأيام اراها، فيحترق قلبي من الشوق إليها وهي أمامي، ولا يكاد نظري يلتقي بنظرها حتى ينقلب إلى خاسئاً
وهو حسير، وكنت أستجمع قواي كلما رأيتها لألقى إليها بالتحية في فيحتبس لساني من العي - لا طبيعة فيه ولكن جلالا لا أدرى له مدى، وجمالاً لا أعلم له غاية، وسحراً بين هذا وذاك قوياً شديداً، كانت ثلاثتها تقيد لساني عن النطق تقييداً أعتبر نفسي منه في حد من السعادة محدود - ولقد كان الجو المحيط بنا يمرح في عبق من أنفاسها وتحايا قلبي، غير أنها كانت كالزهرة تفوح رائحتها عند الصباح، وكان قلبي كعود الصندل، كلما لا
مستهالنار فاح.
مرت تلك الأيام كالأحلام الكبرى لذيذة مستعذبة، قصيرة كالنظرة، طويلة كالعبرة، وخلفتها أيام أعاني من مرها ما أعاني! فلقد سافرت إلى البلدة لقضاء بضعة أيام هناك، وكأنما كانت الأسقام مني على ميعاد:
يا ويح أهلي يروني بين أعينهم ... على الفراش ولا يدرون ما دائي
ومكثت هناك بدل سبعة الأيام التي صرح لي بها سبعة عشر يوماً. ثم عدت إلى القاهرة وفارقت الحي الذي ولد فيه هواي وترعرع، إلى حيث أنا الآن، وهأنذا ابعث إليكما منه وراء قلبي بتحيات كأضغاث الريحان لا تكاد تبلل بندى المدامع حتى تجفف، بزفرات الأنفاس، والسلام.
فبراير سنة 33 جمال
صديقي:
كتب أحد الحكماء إلى صديق له يقول (يا أخي إن أيام العمر أقل من أن تحتمل الهجر) وكنت قرأت فيما قرأت كلمة للامرتين يقول فيها (إن الحب القوي المطمئن صبور) فأنا بين هذين في حيرة، ترى متى أهتدي إلى سبيل؟.
مارس سنة34
جمال
أختي سعاد:
لماذا لا تكونين بجانبي في كل لحظة كما كنت من عهد قريب؟ أنا في شدة الشوق إليك وإلى سماع حديثك العذب الجميل، وكم أود أن أفضي إليك بسر يجيش به صدري ولا يمكن أن ينطلق به لساني لغيرك. كنت إلى الأسبوع الماضي فارغة الفؤاد، وكنت على أن أطلب إليك الحضور لأناقشك موضوعاً خطيراً قرأته ليلة أمس في رواية (مجنون ليلى) وهو لماذا حكم على ليلى بالموت قبل قيس؟ ألأنها كتمت حبها؟ إن كان الأمر كذلك فأني - خوفاً على حياتي الشابة - أقول لك يا عزيزتي - واثقة منك كل الوثوق - إنني بدأت أشعر بقلبي يميل رويداً رويداً إلى شاب كان يطالعني بعض الأحيان كئيباً حزيناً كأنه دفن

قلبه بيده، رأيته على حالته تلك منذ ثلاثة أعوام، ويخيل لي أنه محب يكتم حبه أيضاً.
ألا ما أسعد تلك الفتاة التي تتيح لها المقادير مثقال حبة من احترام هذا الفتى النبيل!!
ضعي يا عزيزتي بجانب هذه الجملة سعادة من استولت، على قلبه كله.
أرجو أن أراك يوم الخميس المقبل وإلى اللقاء.
أبريل سنة 34 أختك فتحية 2
وفى عصر الخميس تلاقت الصديقتان في منزل فتحية هانم، وكان بيد الآنسة الزائرة إحدى جرائد المساء، فجذب نظر فتحية إليها صورة شاب غضير الشباب في صدرها فتناولت الجريدة من صديقتها ورأت الصورة ورأت تحتها ما يأتي:
المرحوم جمال الدين أفندي الموظف بوزارة المالية، علقته المنون وهو في بريق (شبابه)
فامتقع لونها وأدركتها حال شديدة من الذهول والحيرة، فأقبلت عليها صديقتها تسألها ما بها، فقالت لها وهي تشير إلى الصورة الضاحكة، والخبر المبكي:
أمل لم يزدهر، وناشئة حب لم تبق، وسعادة مرجوة لم تتم!
ثم ألقت في يدها مجموعه من الرسائل البالية، وقالت والدمع يسيل على خديها، ومرارة الأسى تجري على شفتيها: إقرئيعبد الوهاب الخطيب
العدد 54 - بتاريخ: 16 - 07 - 1934
أحمد زكي باشا
رحم الله زكي باشا ورضي عنه! لقد كان علَماً من أعلام هذا العصر، ورسولاً من رسل هذه النهضة! وأعلام هذا العصر ورسل هذه النهضة معلومون معدودون، لا تزيد فيهم المجاملة، ولا تنقص منهم المجافاة، ولكل واحد منهم ناحية من نواحي الإصلاح أشرقت فيها نفسه، وانتشر في جوانبها سناء. وهم يمتازون من النابغين والنابهين بأن لهم عقيدة فطرية قوامها الإيمان والعصبية، ورسالة روحية بلاغها الجهاد والتضحية. فمحمد عبده في الناحية الدينية، ومصطفى كامل في الناحية الوطنية، وقاسم أمين في الناحية الاجتماعية، وسعد زغلول في الناحية السياسية، وأحمد زكي في الناحية القومية؛ قد بلّغوا جميعاً رسالات الفطرة على نحو ما بلغ المرسلون رسالات الوحي. نزلت على قلوبهم منذ الشباب الأول فجعلت عقولهم وميولهم ومواهبهم وقفاً عليها ودواعي إليها ووسائل لها؛ ثم لازمتهم في أطوار العمر، وحلت من نفوسهم محل الغرض من السعي والغاية من الحياة
فزكي باشا منذ بلغ سن التكليف تمثل لعينه مثَله، واستعلنت في ذهنه رسالته: رأى العروبة لفظاً تغير مدلوله في الناس، وجنساً تنكرت معالمه في الأجناس، ولساناً فشا فيه الدخيل، ودِيناً تقول عليه الباطلُ، وأثراً عبث به الجهل، وتاريخاً تطرق إليه النسيان، وحضارة غض منها التعصب، وحقاً تجهم له البغي، وإرثاً تخطفته الغزاة، ووحدة مزقتها العوادي. وكان أول ما عانى من وسائل العيش معالجة الترجمة في الديوان، ثم تعليمها في المدرسة؛ فصرف جهده في تنقيح التراكيب الديوانية، وتصحيح الأعلام العربية، وتصويب الأخطاء التاريخية، ونَقْل ما يعلن محامد الإسلام إلى اللغة الفرنسية، ثم لا يسمع بمكرمة تروى لأمة إلا التمس الأولية فيها للعرب. فالصحف الفرنسية تذكر أن وفود المهنئين دخلوا على الرئيس (بوانكاريه) يهنئونه بالرياسة فما شكر أحداً بما شكر به الآخر، فيكتب في تلك الصحف نفسها ان الوزير أبن زيدون قد سبقه إلى ذلك في موقف حرج من مواقف العزاء؛ وتتبجح أوربا باختراع الطيارة فيثبت لها أن أبن فرناس أسبق من طار في الجو وأول من مات في سبيل الطيران؛ وتشيد أمريكا بعبقرية (كولمب) فيقول لها إن العرب أول من فطن إلى وجودها وسعى لكشفها
ثم اتسع أمامه أفق الجهاد فاستشرقت نفسه إلى إحياء ثقافة العرب ونشر حضارة الإسلام، فحج الأندلس وزار العواصم الأوربية، ينقب عن نوادر المخطوطات ونفائس المطبوعات
ينسخها أو يصورها أو يشتريها لا يدخر في سبيل ذلك جهداً ولا ثروة. ثم لابس المستشرقين دهراً مليًّا، يفيدهم ويفيد منهم حتى ثقف مناهج البحث، وحذق أصول التحقيق، ومهر طرائق النشر، وأصبح لهم مرجعاً وفيهم حجة

فلما اعتزل المنصب الحكومي تسايرت قواه وهواه إلى خدمة الأمة العربية، فوفد على ملوكها، وسفر بينهم بالصدق والألفة، حتى أذهب الموجدة، ومهد لتوحيد الكلمة ثم جرد لاستقراء الدقائق واستجلاء الحقائق نشاط الصبي، وعزم الشاب، وصبر الرجولة، فشغل الصحف بالمقالات والمناظرات، وعمر الأندية بالخطب والمحاضرات، وأحيا المجالس بالملح والمحاورات، وفي كل يوم يعتكف الساعات الطوال في مكتبته الجامعة يحرر مسألة، أو يحضّر إجابة، أو يحّبر مقالة، أو يصحح تجربة، حتى إذا فرغ من ذلك كله رجع إلى بيته، فوجد ناديه قد حفل بزواره وسماره من رجالات العرب والمسلمين الطارئين على مصر، فينشر عليه الأنس، ويفيض فيه الكرم، ويبث خلاله المعرفة، فكانت حضرته كحضرة الصاحب بن عباد، مصدر العوارف والمعارف، ومثابة القصد من كل قطر وطبقة

ثم أسلم وجه إلى الله في عهده الأخير، فجعل همه وعزمه حبساً على إنشاء مسجده وبناء قبره. فكنت تراه لا يفكر إلا في هذا المسجد، ولا يعمل إلا له، ولا يتحدث إلا عنه، ولا ينفق إلا عليه، ولا يُبرد البُرُد ويرسل الرسل إلا في شأنه. فلو لم يعجله الموت عنه لتركه قطعة خالدة من الفن العربي

ثقافة زكي باشا ثقافة الأديب، فهو محيط بكل شيء، ولكنه غير راسخ في شيء؛ وذوقه ذوق الفنان، فهو أنيق في ملبسه، أنيق في مأكله، أنيق في مسكنه، أنيق في نشر مقالة، أنيق في طبع كتابه؛ وخلقه خلق العالم، فهو متطامن النفس، عذب الروح، حلو الفكاهة، سليم الصدر، يذهب في السذاجة إلى حد العُجب، ويخرج من تقرير مجهوده في العلم إلى التفاخر به

وكان تصوره وتصويره عربيين خالصين على رغم تضلعه من الفرنسية، وإلمامه بالآداب الأوربية: فتفكيره استطرادي لا يعني بالوحدة، ولا يحفل كثيراً بالتناسق، وأسلوبه أندلسي يتصيد السجع، ويلتمس ألوان البديع، ومرجع ذلك إلى اعتقاده بعربيته، واعتداده بشرقيته،

واعتماده في تكوين نفسه على أدب أمته

إن رسالة الفقيد الكريم كانت ضرورة من ضرورات الإصلاح في عصر قضى الله أن يبعث فيه مجد العرب ليحيا من حيّ عن بينة، فان نهوض الأمة على تاريخ طامس، وأثر دارس، ولغة معجمة، وهيكل منحل، يكون أشبه بنهوض الكسيح لا يقوم إلا ليقع وقد لخص الفقيد رسالته أجمل تلخيص في ثلاثة أبيات من الشعر أنشأها ثم جعلها زخرف داره، وصورة شعاره، ومرجع حديثه. وهي:

وقفت على أحياء قومي يراعتي ... وقلبي وهل إلا اليراعة والقلب
ولي كل يوم موقف ومقالة ... أنادي ليوث العرب ويحكموا هبوا
فإما حياة تبعث الشرق ناهضاً ... وإما فناء وهو ما يرقب الغرب

رحمه الله رحمة واسعة. وعوض العروبة والعربية والإسلام من فقده خير العرض.

احمد حسن الزيات

ما فعلت الأيام

للأستاذ أحمد أمين

عرفته بالإسكندرية منذ عشرين عاما، شاباً رقيق البدن، ضئيل الجسم، مسنون الوجه، شاحب اللون، أظهر مميزاته الرقة والتواضع والتدين. حيي الطبع، شديد الخجل، إن جلس في قوم اعتقل لسانه، وأطرق رأسه. وأرخى عينيه؛ وإن صدرت منه هفوة أو شيء ظنه هفوة، تمنى لو ساخت به الأرض، وظل يحاسب نفسه ويطيل تأنيبها، فآثر الانفراد وأخلد إلى الوحدة، واستأنس بالوحشة، فقلّت معرفته بالناس، وقلّت معرفة الناس به، لا يعرف من العالم إلا مدرسته التي يدرس فيها، وبيته الذي يأوي إليه، ومسجده الذي يتعبد فيه؛ فأما الحياة وشؤونها، وجدها وهزلها، وملاهيها وألاعيبها، فلا يدري منها شيئاً. لا يجلس في مقهى لأنه يخلّ بمروءته، ولا يذهب إلى تمثيل أو سينما لأنهما لا يخلوان من امرأة سافرة، ولا يشتري شيئاً من بقال عنده لحم خنزير خوفاً من أن تكون سكينته التي يقطع بها الجبن والحلوى قد مست الخنزير، فلا يطهرها مسح، إنما يطهرها عسل سبع مرات إحداهن بالتراب؛ ويغض طرفه إذا سار حذر أن تقع عينه على امرأة.

أعز شيء عليه في الوجود دينه، حياته كلها دين، ومثله الأعلى رجل ظهارته دين،

وبطانته دين، تفتير عينيه في خشوع دليل على أنه قضى شطر ليله في عبادة ومناجاة، أسبل عليه الدين نوعاً لطيفاً من الرضى بالقضاء والقدر، فلا يأسى على فائت، ولا يجزع على ميت، ولا يستخفه الفرح لخير، ولا يغلو في الحزن على شر، راض بما كان وما يكون، فكل شيء بقضاء وقدر حتى العجز والكيْس، كل أحكامه صادرة عن دين، فالرجل الطيب من تدين، ورجل السوء من لم يتدين، ويستحيل على رجل أن يكون طيباً إذا شرب كأساً من خمر، أو لعب لعبة ميسر، أو ترك صلاة أو زكاة - يوفق دائماً بين أعماله في الحياة وأوامر الدين، إذا أراد الرياضة ذهب إلى سيدي بشر لزيارته، أو لسيدي جابر لصلاة الجمعة فيه، أو أخذ جزءاً من (الأحياء) وذهب إلى (طابية قايتباي) يخلو فيها بنفسه ودينه وكتاب الأحياء. وإن أراد أن يحفظ شيئاً من الأدب حفظ في نهج البلاغة لأنه يجمع بين البلاغة والدين، وإن عرضت فرصة في دراسته للغة العربية خرج من اللغة إلى الدين، وانقلب واعظاً لتلاميذه، حتى استطاع أن يكوّن منهم فرقة دينية تلتزم الصلاة
والصوم وشعائر الدين.

عرفته اتفاقاً، ولست أدري الآن سبب المعرفة وكيف كانت، وكل ما أذكره أني عرفته، وفي لمحة تحولت المعرفة إلى صداقة فحب، فكان من خاصة إخواني وأقربهم مودة إلى قلبي، يأنس بي وآنس به، ويفضي إلى بدخيلة نفسه وكامن أسراره، وكان حبي له مشوباً بعطف عليه ورحمة له، عطفي عليه ظرف فيه، وأرأفني به رقة حواشيه، وملأ نفسي رحمة عليه قسوته على نفسه وأخذه لها في كل شيء بالأشد الأحزم، قد ملك الدين عليه نفسه، فروّعه من كل نعيم خشية السؤال، وهوّل عليه كل لذة خوف العقاب، وغلبت عليه في كل تصرفٍ فكرة الموت مخافة ما بعده، إن قال له قائل (ولا تنس نصيبك من الدنيا) قال (ثم لتسألن يومئذ عن النعيم).

على كل حال نعمنا بالصداقة حيناً تساهمنا فيه الوفاء، وتقاسمنا الصفاء، أسافر إلى الإسكندرية فأرى أول واجب عليّ أن أزوره، ويحضر إلى القاهرة فيرى أول واجب عليه أن يزورني، وأكتب اليه، ويكتب إليّ، ثم عفَّى الزمان على الصداقة ففترت حرارتها، وخمدت جذوتها، لا لسبب إلا أن الصداقة ككل حيّ إذا لمْ تغذ دائماً بالمقابلة والمكاتبة أسرع إليها الذبول فالفناء.

ثم دارت الأيام دورتها، وتعرفت في الإسكندرية بإنسان جديد، فإذاهو صديقي القديم، هو في هذه المرة بدين بطين، مطهم الوجه، ريان السواعد؛ كنت في أيامي الأولى أقرأ في أرنبة أنفه وصفاء جبهته آيات السذاجة والإخلاص، وكنت أرى في وجهه وجلسته عزوفاً عن الدنيا، وزاهداً في الاستكثار منها، ورضى بميسورها؛ وكنت ألمح في فتور عينه حياء العذراء وخجل المخدرات؛ وكنت أرى في نبرات صوته وحركات جفونه ونظرات عينه ديناً وورعاً، فإذاكل ذلك قد استحال كما يستحيل الماء إلى ثلج، علمت أنه قد ورث من أبيه فأثرى، وسمحت لي الظروف بمخالطته فأدهشني ما رأيت من تغير وانقلاب - رأيته وقد أماط عن وجهه قناع الحياء، وخلع ربقة الحشمة، يداخل الناس ويمازجهم، حسن الصحبة، جميل العشرة، يضرب بسهم وافر في المفاكهة والتنادر، جيد القصص، حسن الحديث، لا يأنف من حديث فاجر إذا كانت فيه نكتة حلوة، كثرت أصحابه على اختلاف منازعهم وطبقاتهم، وهو عند كل جماعة منهم قطب الرحى، يمتزج بأرواحهم ويتصل بقلوبهم، خبير
كل الخبرة بأندية اللهو وما إليها، يعرف جد المعرفة برامج السينما في كل أسبوع، وما يمثل من روايات في كل فصل من الفصول، وعنده الخبر اليقين عن كل مغن ومغنية، وفنان وفنانة أتت من مصر إلى الإسكندرية تغني أو تمثل، ذهب عنه خفر عينيه وأصبح يتعشق الجمال ويتتبعه، ويحملق فيه ويشتهيه، حلت المسائل المالية جزءا كبيراً من عقله فهو كثير التفكير فيها، له ديون وعليه ديون، وله قضايا وعليه قضايا، وله دفاتر حساب دقيقة، وله آمال مالية واسعة
حادثته مرة، وكان أشد ما أريد استطلاعه منه أن أعرف حال دينه الذي كان يملك عليه قلبه وعقله، والذي كان يغمر حياته ويسيطر على كل خطوة من خطواته، فإذاعقله حر شديد الحرية في تفكيره، قد تحرر من كل قيد، يعجب بالمدنية الحديثة ويستلهمها الرأي ويستوحيها االنظر، ويتخذ عماد منطقه ومصدر حكمه على الأشياء ما يفعله الأوربيون وما لا يفعلون. قد يعارض ما يراه من ضروب المدنية مبدأ من مبادئ دينه

فيظهر عليه نوع من الارتباك والحيرة، ويجمجم في القول ويتبين في قوله الاضطراب بين دين خالط لحمه ودمه شطراً من حياته، وبين عقل نزع إلى الحرية في آخر أيامه، ويشعر بثقل الموقف على نفسه فيجتهد في تحوير الحديث، وتغيير مجرى القول إلى حيث يسترد كامل رأيه، ومنتهى حريته - هذا عقله، وأما قلبه فدينه في رف من رفوفه، لم يملأه ولم يخل منه، لذلك حرت أن أسميه مؤمناً أو كافراً، ماشيته مرة على البحر فرآه جميلاً جليلاً، ورأى القمر يسطع عليه بنوره الساحر، فصاح هذا موضع سجود، فصلى على الرمل، ودعاني مرة إلى ملهى فكان فيه كمن لا يؤمن بحساب ولا عقاب، وهكذا تذبذبت حياته بين نزعة قديمة، ونزعة جديدة، ودين نشأ عليه، ولا دين مال حديثاً إليه، حينا يتحرك دينه الذي في الرف وينتعش حتى يعم قلبه، وحينا ينكمش وينكمش حتى لا يكاد يرى أو يحس

حننت إليه لما بيننا من حب قديم، ولكن لست أدري لم لم تتأكد بيننا الصداقة في هذه المرة كما تأكدت من قبل أكان يعطفني عليه دينه وقد رق؟ أم كان يحني عليه ما فيه من ضعف - مظهره الحياء والخجل، وقد قوي فلا حياء ولا خجل، أم كانت تؤلف بيننا وحدة فتعددت، وأسلوب واحد في الحياة فتفرقت بنا السبل، لعله شيء من ذلك، ولعله كل ذلك، ولعله شيء غير ذلك، على كل حال تركته وبيننا ودّ دخله العقل فخف، وصداقة جال في

نواحيها الفكر ففترت

لقد خليته، وأنا أفكر في شأنه، لقد عاش شيخاً وهو شاب، وعاش شاباً وهو شيخ - عصى هواه صغيراً وأطاعه كبيراً، فليته ولد كبيراً ثم عاد صغيراً، وليت شعري هو في أي حاليه أسعد، أيوم فر من العالم إلى دينه، أم يوم فر من دينه إلى العالم؟ - انه ليمثل في حياته العالم خير تمثيل، موجة دين تتبعها موجة الحاد، وموجة روحانية تتلوها موجة مادية، وهكذا دواليك، وما أدرى أيقف صديقنا في تطوره عند هذا الحد، أم يعود سيرته الأولى، أم يختط مسلكاً جديداً لا هو هذا ولا هو ذاك؟ الله أعلم.

أحمد أمين

سمُوُّ الفقر في المصلح الاجتماعي الأعظم

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

- 1 -

كان النبي صلى الله عليه وسلم على ما يصف التاريخ من الفقر والقلة، ولكنه كان بطبيعته فوق الاستغناء، فهو فقير لا يجوز أن يوصف بالفقر ولا تناله المعاني النفسية التي تعلو بعَرَض من الدنيا وتنزل بعرض، فما كانت به خَلّة تحدث هدما في الحياة فيرممها المال، ولا كان يتحرك في سعى ينفق فيه من نفسه الكبيرة ليجمع من الدنيا، ولا كان يتقلب بين البعيد والقريب من طمع أدرك أو طمع أخفق، ولا نظر لنفسه في الحسبة والتدبير لتدرّ معيشته فيحتلها ذهباً أو فضة، ولا استقر في قلبه العظيم ما يجعل للدينار معنى الدينار ولا للدرهم معنى الدرهم؛ فان المعنى الحيّ لهذا المال هو إظهار النفس رابية متجسمة في صورة تكبر على قدر من السعة والغنى؛ والمعنى الحي للفقر من المال هو إبراز النفس ضئيلة منزوية في صورة تصغر على قدر من الضيق والعُسرة.

إن فقرهُ صلى الله عليه وسلم كان من أنه يتَّسع في الكون لا في المال، فهو فقر يعد من معجزاته الكبرى التي لم يتنبه إليها أحد إلى الآن، وهو خاص به، ومن أين تدبّرته رأيته في حقيقته معجزة تواضعت وغيّرت اسمها. معجرة فيها الحقائق النفسية والاجتماعية الكبرى، وقد سبقت زمنها بأربعة عشر قرناً، وهي اليوم تثبت بالبرهان معنى قوله صلى الله وسلم في صفة نفسه (إنما أنا رحمةٌ مُهْدَاة)

نحن في عصر تكاد الفضيلة الإنسانية فيه تلحق بالألفاظ التاريخية التي تدل على ما كان قديما. . بل عادت كلمة من كلمات الشعر تراد لتحريك النسيم اللغوي الراكد في الخيال، كما تقول: السحاب الأزرق، والفجر الأبيض، والشفق الأحمر، والتَّطاريف الوردية على ذيل الشمس؛ وأصبح الناس ينظر أكثرهم إلى أكثرهم بأعين فيها معنى وحشيّ لو لمس لضرب أو طعن أو ذبح؛ وعملت المدنية أعمالها فلم تزد على أن أخرجت الشكل الشعري لإنسانها الغني ترفا ونعمة وافتناناً بين ذلك، من أيسر الحلال إلى الفظيع المتفاحش في الاباحة، فكأنما وضعت المدنية عقلاً في وحش، فزاغت فيه

الطبيعة من ناحيتين؛ ثم قابلته بالشكل الوحشي لإنسانها الفقير، فكأنما نزعت عقلاً من إنسان، فضلت فيه الطبيعة من
ناحيتين؛ وكان الأول سَرَف الهوى، وكان مع الثاني سَرَف الحماقة.
وقد أصبح من تهكم الحياة بأهلها أن يكون الفقير فقيراً وهو يعلم أن صناعته في المدنية هي عَمَلُ الغِني للأغنياء. . . وأن يكون الغنيُّ غنياً وهو يعلم أن عمله في المدنية هو صنعة الفقر لضميره.
وخرجت من هذا وذاك مسائل جديدة في فلسفة المعايشة الإنسانية التي يسمونها (الاجتماع)، فسؤال اسمه الاشتراكية يسأل القوة أن تجعل صاحب المال من ماله كالمرأة المطلقة من رجلها. . وسؤال اسمه الشيوعية يطلب من القوة أن تسلط على كل حيّ ما يجعله في قواه كصاحب الدار سلط عليه الطغيان فانقلبت داره سجنه، فهو يتألم من معنى نعمته بمعنى شقائه، ويكون أغيظ له أن روح السجن ليست شيئاً غير روح البيت؛ وسؤال اسمه العَدَمِيّة يأمر القوة أن تجعل الإنسان كالحيوان المُسْتَوْلِغ فيما يجده من طيب وخبيث لا يبالي ذماً ولا عاراً، وليس إلا أنه يعيش ليموت أكلاً ونوماً. . .
هذا إلى أسئلة كثيرة لو ذهبنا نعدها ونصنفها لطال بنا القول وكلها عاملة على نزع الشعور العقلي من الحياة لتظهر أسخف مما هي، وأقبح مما كانت؛ حتى أصبحت الشمس تمحو ليلاً عن المادة وتلقى ليلاً على النفس، في حين أن الدين والإنسانية لا يعملان غير بث هذا النور العقلي في الأشياء والمعاني لتظهر الحياة مضيئة ملتمعة فتصبح أوضح مما هي في نفسها، وأجمل مما هي في الطبيعة.
في مثل هذه النزعات المتقاتلة التي صعدت بالفلسفة ونزلت، وجعلت من العلم في صدر الإنسانية ملء سماء من الغيوم بسوادها ورعدها وصواعقها، وتركت العالم يضج ضجيجه المزعج في قلب كل حي حتى لتذاع الهموم إلى قلوب الناس إذاعة الأصوات إلى أسماعهم في (الراديو). . في مثل هذا البلاء الماحق تتلفت الإنسانية إلى التاريخ تسأله درساً من الكمال الإنساني القديم تطِبّ منه لهذه الحماقات الجديدة، ولو علمت أن درس هذا العصر في علاج مشاكله الإنسانية هو (محمد) صلى الله عليه وسلم الذي لن يبلغ أحد في وصفه الاجتماعي ما بلغ هو في قوله (إنما أنا رحمة مهداة) هذا المصلح الاجتماعي الأعظم يلقي فقره درساً على الدنيا العلمية الفلسفية، لا من كتاب ولا فكر، ولكن بأخلاقه وعمله وسيرته؛ إذ ليس المصلح من فكّر وكتب، ووعظ وخطب،
ولكنه الحيّ العظيم الذي تلتمسه الفكرة العظيمة لتحيا فيه وتجعل له عمراً ذهنياً يكونُ مصَرَّفا على حكمها، فيكون تاريخه ووصفه هو وصف هذه الفكرة وتاريخها. وما كان محمد صلى الله عليه وسلم إلا عمراً ذهنياً محضاً تمر فيه المعاني الإلهية لتظهر للناس إلهية مفسرة. وكل حياته صلى الله عليه وسلم دروس مفنّنة مختلفة المعاني، ولكنها في جملتها تخاطب الإنسان على الدهر بهذه الجملة: أيها الحي، إذا كانت الحياة هنا فلا تكن أنت هناك. أي إذا كانت الحياة في الحقيقة فلا تكن أنت في الكذب، وإذا كانت الحياة في الرجولة البصيرة فلا تكن أنت في الطفولة النزقة؛ فان الرجل يعرف ويدرك فهو بذلك وراء الحقيقيّ، ولكن الطفل يجهل ولا يعرف الدنيا إلا بعينيه فهو وراء الوهم، ومن ثم طيشه ونزقه، وإيثاره كل عاجل وإن قلّ، وعمله أن تكون حياته النفسية الضئيلة في مثل توثب أعضاء جسمه، حتى كأنه أبداً يلعب بظاهره وباطنه معاً. .
أيها الحي، إذا كانت الحياة هنا فلا تكن أنت هناك. أي الحياة في ذاتك الداخلية وقانون كمالها، فإذااستطعت أن تُخْرِج للأرض معنى سماوياً من ذاتك فهذا هو الجديد دائماً في الإنسانية وأنت بذلك عائش في القريب القريب من الروح، وأنت به شيء إلهي، وإذا لم تستطع وعشت في دمك وأعصابك فهذا هو القديم دائماً في الحيوانية، وأنت بذلك عائش في البعيد البعيد من النفس وأنت به شيء أرضي كالحجر والتراب.
هنا، أي في الإرادة التي فيك وحدك، لا هناك، أي في الخيال الذي هو في كل شيء. وهنا، في أخلاقك وفضائلك التي لا تدفعك إلى طريق من طرق الحياة إلا إذا كان هو بعينه طريقاً من طرق الهداية والحكمة؛ وليس هناك، في أموالك ومعايشك التي تجعلك كاللص مندفعاً إلى كل طريق متى كان هو بعينه طريقاً إلى نَهْبة أو سرقة. هنا،

في الروح إذ تشعر الروح أنها موجودة ثم تعمل لتثبت أنها شاعرة بوجودها، ماضية إلى مصيرها، منتهية بجسدها إلى الموت الإنساني على سنة النفس الخالدة؛ وليس هناك في الحس إذ يتعلق الحس بما يتقلب على الجسم فهو مهتاج لشعوره يوشك فنائه فلا يحدث إلا الألم إن نال أو لم ينلْ، هو منتهٍ بجسمه إلى الموت الحيواني بين آكل ومأكول على سنة الطبيعة الفانية.

أيها الحي، إذا كانت الحياة هنا فلا تكن أنت هناك

إن الحكيم الذي ينظر إلى ما وراء الأشياء فيتعرف أسرارها لا تكون له حياة الذي يتعلق بظاهرها ولا أخلاقه ولا نظرته، هذا الأخير هو في نفسه شئ من الأشياء له مظهر المادة وخداعها عن الحقيقة، وذلك الأول هو نفسه سر من الأسرار له روعة السر وكشفُه عن الحقيقة. ولهذا كان في حياة الأنبياء والحكماء ما لا يطيقه الناس ولا يضبِطونه إذا تكلفوه، بل ينخرق عليهم فيكون منه العجز، وينشأ من العجز الغلط، ويحدث من الغلط الزلل.

ونظرة نبينا صلى الله عليه وسلم إلى هذا الوجود نظرة شاملة مدركة لحقيقة اللانهاية، فيرى بداية كل شيء ماديّ هي نهايته في التوّ واللحظة، فلا وجود له إلا عارضاً ماراً، فهو في اعتباره موجود غير موجود، مبتدئ منتهٍ معاً. وبذلك تبطل عنده الأشياء المادية وتأثيرها، فلا تتصل بنفسه العالية إلا من أضعف جهاتها، ويجد لها الناس في حياتهم الشجرة والفرع والثمرة، وما لها عنده هو جذر ولا فرعٍ. وبهذا لم يفْتِنه شيء ولم يتعلق بشيء، وكانت الدنيا تطول الناس وتتقاصر عنه، وكانت منقطعة النماء وهو ذاهب في نموه الروحي، وكأنما هو صورة أخرى من آدم عليه السلام، فكلاهما لمس بنفسه الحياة جديدةً خالية مما جمع فيها الزمن وأهله من طمع وشَرَه، وجاء آدم ليعطي الأرض ناسها من صلبه، وجاء محمد ليعطي الناس قوانينهم من فضائله، فآدم بشخصه هو دنيا بُعثت لتتسع، ومحمد بشخصه هو دنيا بعثت لتنتظم.

وماذا يفهم من الفلسفة الأخلاقية النبوية العظيمة؟ يفهم منها أن الشهوات خلقت مع الإنسان تتحكم فيه لينقلب بها إنساناً يتحكم فيها، وأن الإنسان الصحيح الذي لمُ تزَوِّره الدنيا يجب أن يكون ذا روح يمتد فيفيض عن غايات جسمه إلى ما هو أعلى فأعلى حتى يصبح في حكم النور وانطلاقه وحريته، ولا ينكمش فيحصره جسمه في غاياته وضروراته فيرتدّ إلى ما هو أسفلَ أسفلَ حتى يعود في حكم التراب وأسره وعبوديته. فالفقر وما إليه، والزهد هو بسبيل منه، والانصراف عن الشهوات والرذائل - كل ذلك أن هو إلا تراجع النفس العالية إلى ذاتها النورانية حالاً بعد حال، وشيئاً بعد شيء، لتضئ على المادة فتكشف حقائقها الصريحة فلا تباليها ولا تقيم لها وزنا. فبينما الناس يرون الأموال والشهوات مادة حياة وعمل وشعور، تراها هي مادة بحث ومعرفة واعتبار ليس غير، وبهذا تكون النفس العظيمة في الدنيا كأستاذ المعمل، تدخل المادة إلى معمله وهي مادة وفكرة، وتخرج منه وهي حقيقة ومعرفة، وعلى أي أحوالها فهي إنما تُحس في ذلك المعمل بأصابع علمية دقيقة

ليس فيها الجمع ولا الحرص، ولكن فيها الذهن والفكر، وليس لها طبيعة الرغبة والغفلة، ولكن طبيعة الانتباه والتحرّز، وليست في أسر المادة، ولكن المادة في أسرها ما شاءت.

ولا يسمى فقرة صلى الله عليه وسلم زهداً كما يظن الضعفاء ممن يتعلقون على ظاهر التاريخ، ولا يحققون أصوله النفسية، وأكثرهم يقرأ التاريخ النبوي بأرواح مظلمةٌ تريهم ما ترِي العينُ إذا ما اختلط الظلام ولبس الأشياء فتراءت مجملة لا تفصيل لها، مُفْرغة لا تبين فيها، وما بها من ذلك شيء، غير أنها تتراءى في بقية من البصر لا تغمرها.

وهل الزهد إلا أن تطرد الجسم عنك وهو معك، وتنصرف عنه وهو بك متعلق؟ فتلك سخرية ومُثْلَةَ، وهي في رأيي تشويه للجسم بروحه، وقد تنعكس فتكون من تشويه الروح بجسمها فليس يعلم إلا الله وحده: أذاك تفسير لإنسانية الزاهد بالنور، أم هو تفسير بالتراب. . .

ولقد كان صلى الله عليه وسلم يملك المال ويجده، وكان أجوَدَ به من الريح المرَسلة، ولكنه لا يدعه يتناسل عنده، ولا يتركه ينبت في عمله، وإنما كان عمله ترجمة

لإحساسه الروحي، فهو رسول تعليمي، قلبه العظيم في القوانين الكثيرة من واجباته، وهو يريد إثبات وحدة الإنسانية، وأن هذا الإنسان مع المادة الصامتة العمياء مادةٌ مفكرةٌ مميزة، وأن الدين قوة روحية يلقىَ بها المؤمن أحوال الحياة فلا يثبت بازائها شيء على شيئيّته، إذ الروح خلود وبقاء، والمادة فناء وتحوُّل، ومن ثم تخضع الحوادث للروح المؤمنة وتتغير معها، فان لم تخضَع لم تُخْضِعْها، وإن لم تتغير لا تتغير الروح بها، وأساس الإيمان أن ما ينتهي لا ينبغي أن يتصرف بما لا ينتهي.

وما قيمة العقيدة إلا بصدقها في الحياة، وأكثر ما يصنع هذا المال: إما الكذب الصُّراح في الحياة، وإما شبهة الكذب، ولهذا تنزَّه النبي صلى الله عليه وسلم عن التعلق به، وزاده بعداً منه أنه نبيّ الإنسانية ومثلُها الأعلى، فحياته الشريفة ليست كما نرى في الناس إيجاداً لحلّ مسائل الفرد وتعقيداً لمسائل غيره، ولا توّسعا من ناحية وتضييقا من الناحية الأخرى، ولا جمعا من هنا ومنعا من هناك، بل كانت حياته بعد الرسالة منصرفة إلى إقرار التوازن في الإنسانية، وتعليم الجميع على تفاوتهم واختلاف مراتبهم كيف يكون لهم عقل واحد من الكون. وبهذا العقل الكوني السليم ترى المؤمن إذا عرض له الشيء من الدنيا يفتنه أو

يصرفه عن واجبه الإنساني - أبت نفسه العظيمة إلا أن ترتفع بطبيعتها، فإذاهو في قانون السمو، وإذا المادة في قانون الثقل، فيرتفع وتتهاوى، ويصبح الذهب - وإنه ذهب - وليس فيه عند المؤمن إلا روح التراب.

مصطفى صادق الرافعي

مجهولو الأبطال

عيسى العوام

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

وقفت إلى جانب الطريح المسكين وقد فقد المحيطون به الأمل في حياته، وكان رجلاً نيف على الستين، ظل يجاهد في عمله حتى وقع وهو يدفع عربته وعليها حملها الثقيل فكان في وقعته أجله، وهو من أهل الصعيد الأعلى كما تنم عليه عمامته وسحنته، إذ كان ثوبه المهلهل لا يكاد يتماسك في رأي العين ليكون آية دالة على منبت لابسه، فكان موته في جوار البحر الملح موت المهاجر الشهيد، لا تحيط به عناية أهل، ولا ترفه عنه شفقة البنين. ومن يدري ماذا كان يعاني ذلك المسكين قبيل ضجعته من آلام تحملها صامتاً، وجاهد في سبيله وهي تخزه وتطعنه؟ ومن يدري على أية حال من الضعف كان يدفع بحمله في سبيل القوت، وسوط الجوع من ورائه يلهب ظهره؟ ووقف حوله معي من أهل الساحل بقوامهم السمهري ولونهم الخمري، فكانوا يؤدون له تحية الوداع على غير معرفة، والشفقة بادية في محياهم، ولم يكن أحدهم خيراً منه بزة ولا مظهرا، ولكنهم كانوا جميعاً يعرفون كنه ما في هذه الحال من عظمة لأنهم يجاهدون مثله، ولعلهم هاجروا مثله من بلاد قصايا في التماس الخبز وما يبلله من رقيق الآدام. (أولئك قومي بارك الله فيهمو)

وانصرفت وفي عيني دمعة كما كان في عين سواى من الوقوف إشفاقا على ذلك المسكين، وجعلت أفكر فيما تدين به الحياة لهؤلاء. فهم عدة السلم، وهم سواعد العمل، وهم جنود النضال. وأذكرني ذلك التفكير ببطل من هؤلاء الدهماء ذكر التاريخ اسمه، وأقام له تمثالاً هو رمز لمجهولي الأبطال، فلسنا نعرف أهله ولا منبته. ولا شيئاً مما يمسه غير اسمه، وهو (عيسى العوام)

كان ذلك الرجل يعيش في عكاء ثغر الشام منذ نيف وثمانمائة عام. في أيام النضال الكبير بين الشرق والغرب - أيام الحروب الصليبية - وكان السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب في ذلك الوقت في صراع الحياة أو الموت مع ملوك الفرنج قد بلغ به الجد أن كان يتمثل بقول عبد الله بن الزبير وهو يصارع الأشتر النخمي في موقعة الجمل مصارعة من

لا يريد هوادة، إذ قال:

اقتلوني ومالكا ... واقتلوا مالكا معي

وكان الفرنج قد جمعوا جموعهم وحشدوا أمام عكاء، وجعلوا التغلب عليها مقصد همهم. فكان هناك ملوك ثلاثة هم أكبر ملوك أوربا وزعماء فرسانها. وحاصروا المسلمين في ذلك الثغر من قبل البر ومن قبل البحر، وأتى صلاح الدين من خارج

المدينة يحاول رفع الحصار عن إخوانه وجنوده.
واستمات جنود الجانبين في القتال، وبذل كل قصاراه في النضال، وعض على النواجذ من الأضراس. واستطالت بهم الحرب نيفاً وسنتين، حتى اشتد الأمر بالمحصورين، وعجز صلاح الدين عن أن يرفع عنهم نطاق الأعداء، فأخذ ذلك النطاق يتضامن ويشتد، حتى بلغت الشدة بالمحصورين مبلغاً عظيماً، وتراخت همة الدفاع من طول الجهد وشدة القتال.
فذهب جماعة من صيادي عكاء ممن درجوا على أمواج البحر ونشأوا على أمواهه، فعرفوا مداخله ومخارجه، وبرعوا في اقتحام تياراته وخوض غمراته، وعرضوا على قادة المسلمين ما في طاقتهم من المساعدة في ذلك المأزق. وتساءل القادة ماذا عسى هؤلاء يصنعون في قتال العدو؟ وماذا تراهم يستطيعون أن يرزأوا فيه؟ فأقبل عليهم الصيادون يعرضون أن يحملوا الأخبار إلى إخوانهم المحصورين، وأن يحملوا المال إليهم إذ استحال على السلطان الاتصال بهم، وقالوا انهم يستطيعون أن يستتروا بجنح الليل فيسلكوا سبيلهم بين سفن الأعداء سباحة، فإذاما تعذر ذلك سلكوا بينها غاطسين في الماء كما تسلك الأسماك وتسبح الحيتان. وكان صلاح الدين في أشد الحاجة إلى الاتصال بالجنود والقواد الذين يدافعون عن المدينة، فقبل ما عرض هؤلاء الأبطال، وكانوا منذ ذلك الوقت لا ينقطع وافدهم من المدينة إلى عسكر المسلمين، أو من عسكر المسلمين إلى المدينة. وكانوا لا يطلبون في سبيل ذلك جزاء، إن هو إلا قربان يقدمونه احتساباً، وواجب يؤدونه عن رضا وسخاء.
وظهر من بنهم (عيسى العوام) فكان أسرعهم سبحا وأجرأهم على الليل والنهار، وأكثرهم إقداما على الأخطار. فصار يهتف باسمه، ويدعى إذا ما اشتد الخطر وادلهم الخطب. وكان هو لا يخيب ظناً ولا يخيم عند دعوة. وكانت بسالته تزداد كلما ضاقت حلقة الحصار.
والتأمت فروجه واتصلت سلسلته. فكان أقر لعينه وأثلج لصدره أن يغوص في شبر بين سفن الفرنج، أو يسبح على مرمى سهم من نبالهم. وبقي على أداء واجبه مدة حتى طلع يوم، وانتظر أهل عكاء طلوع عيسى عليهم من ثنايا الموج كعادته، فلم يتحقق لهم ذلك. وطال وقوفهم وامتدت أعناقهم نحو البحر، كلما برق لهم شيء سابح، أو لمع لهم جسم طاف، أشاروا إليه إشارة الملهوف، وتوقعوا أن يكون هو عيسى، ثم تبين لهم أنه حباب الماء أو رشاش الموج، فعادوا إلى ناحية أخرى، فشدوا إليها أبصارهم ثم لم يلبثوا أن يجدوا خيبة لظنونهم وتكذيباً لأوهامهم. ولما طال بهم الوقوف وملوا الانتظار انصرفوا وفي قلوبهم هلع وتوقع للمحذور، ولم تخل صدورهم من شكوك ساورتها في أمانة عيسى وديانته. وقديماً كان في الناس الطمع وأعماهم الجشع، وقديماً فتنهم حب المال وأغواهم شيطان الغرور. أيكون عيسى كبعض من خان وافتتن؟ أيكون عيسى ممن خذلتهم نفوسهم عندما استطال بها النضال، وانخلع فؤادهم عندما اكفهر الجو وأظلم؟ لم يرد الله أن يدع تلك الشكوك تساور ذكرى عيسى، ورحم ذلك الرجل أن يهمس هامس عند ذكرى اسمه بما ثار في صدره من شك، فتسود بين الناس صحيفة بيضاء عند الله. فأرسل الموج حاملاً جسمه نحو الشاطئ، ولا تزال حولها أكياس الذهب التي كان بعث بها صلاح الدين معه إلى المدينة. فرأى الناس عند ذلك جثة شهيد قضي وهو يؤدي الأمانة، وجاد بالنفس وهو في سبيل الخير والمجد.
رحم الله (عيسى العوام)! وكم في الناس من مثل عيسى؟ غير أن التاريخ لا يذكر منهم أحداً إلا فلتة ليشير إلى أن بين المجهولين آلاف الألوف من أفذاذ الأبطال.
محمد فريد أبو حديد
من رائع عصر الأحياء - 2
حياة بنفونوتو تشلليني مكتوبة بقلمه
مثل أعلى للترجمة الشخصية
للأستاذ محمد عبد الله عنان
لم ينعم بنفونوتو تشلليني بالسكينة طويلاً بعد الحوادث العاصفة التي خاضها، وبعد أن فقد عطف البابا وحمايته. وفي ذات يوم وقعت مشادة بينه وبين صديق قديم من مواطنيه كان برومة وكان يدينه بشيء من المال، وسبه ذلك الصديق بألفاظ جارحة،

فغلب عليه عنفه المعهود وضربه في رأسه بحجر فسقط مغشياً عليه. وأبلغ الحادث إلى البابا، فأمر بالقبض على تشلليني وشنقه في مكان الجريمة. ولكن تشلليني شعر بالخطر الذي يهدده، واستطاع أن يفر من رومة في الوقت المناسب. وقصد إلى نابولي، وأقام بها حيناً، واتصل بدوقها وحظي بعطفه ورعايته؛ والتقى هناك بحبيبته انجليكا الصقلية. ثم وصله خطاب من الكردينال دي مديتشي حاميه القديم يأمره فيه بالعودة سريعاً إلى رومة؛ فسافر إليها في الحال ومعه انجليكا؛ واستقبله الكردنيال بترحاب وطمأنه على نفسه وحريته؛ وبعد أيام قلائل استطاع أن يزور البابا كلمنضوس، وأن يقدم إليه (مدالية) بديعة من صنعه، ثم سأله الصفح والرعاية بكلمات رقيقة؛ فأعجب البابا بهذه التحفة، وأمره أن يصنع له تحفاً أخرى تمثل بعض مناظر التاريخ المقدس، ووعده بالعفو والرعاية. ولكن البابا لم يعش طويلاً ليحقق وعده، ومرض وتوفي بعد أيام قلائل؛ وحدث على أثر موته ذلك الاضطراب الذي يحدث عادة قبيل انتخاب البابا الجديد؛ ولبث بنفونوتو يرقب الفرص؛ ولكنه ارتكب في تلك الأثناء جرماً جديداً، وقتل رجلاً آخر من رجال البطانة يدعى بومبيو تحرش به ذات يوم بكنيسة القديس بطرس، فسار إليه ولقيه على مقربة من منزله وطعنه بخنجره بين أصدقائه وأعوانه فألقاه صريعا. ويقص علينا تشلليتي هذا الحادث الدموي وأمثاله في عبارات صريحة هادئة، كأنها حوادث عادية لا خطورة فيها، ويصور لنا بذلك مبلغ اضطرام نفسه، ومبلغ استهتاره بالحياة البشرية

وانتخب الكردينال فارنيسي لكرسي البابوية باسم بولس الثالث، وعهد إلى تشلليني بصنع نماذج نقوده، وأعطاه عهداً بالأمان. ولكن جماعة من خصومه وأصدقاء بومبيو القتيل لبثوا يدسون له لدى السينور بير لويجي ولد البابا حتى اعتزم القبض عليه، ولكن بنفونوتو علم بهذه المؤامرة في الوقت المناسب ففر إلى فلورنس، وأقام بها حيناً يخدم أميرها الدوق الساندرو دي مديتشي. وهنالك أصابه حمى شديدة كادت تقضي عليه؛ فلما برئ من مرضه، عاد إلى رومة بعد أن استيقن أنه لم يبق ثمة ما يخشاه من كيد خصومه. وكان البابا يستعد في ذلك الحين لاستقبال الإمبراطور شارلكان، فعهد إلى تشلليني بعمل صليب بديع من الذهب المرصع بالجواهر ليهدى إلى الامبراطور، وتحلية كتاب للصلاة ليهدى إلى الإمبراطورة. ويصف لنا تشلليني هذه الزيارة التاريخية، وكيف شهد استقبال البابا لإمبراطور، وقدم إليه الكتاب المرصع وخاطب جلالته بفصاحة وجنان ثابت، وكيف عكف بعد زيارة الإمبراطور على صقل جوهرة بديعة أهداها الإمبراطور للبابا وتركيبها في خاتم بديع الصنع. وكان تشلليني دائماً هائم الذهن والخيال، يهوي التنقل والمخاطرة، فما كاد ينتهي من صنع التحف البابوية حتى اعتزم تنفيذ مشروع قديم عنده، هو السفر إلى فرنسا وسرعان ما نفذ عزمه، وسافر إلى فرنسا بطريق سويسرا وألمانيا، مع خادم فتي يدعى اسكانيو. ولما وصل إلى باريس سعى لرؤية فرنسوا الأول ملك فرنسا، فاستقبله بترحاب في فونتنبلو؛ وسافر بنفوتوتو في ركبه إلى ليون؛ وهنالك مرض ولزم فراشه، وأصابت الحمى فتاة اسكانيو؛ فكره المقام في فرنسا، وعول على الرجوع إلى رومة، وغادر فرنسا في أول فرصة، فوصل إلى رومة بعد رحلة شاقة؛ وافتتح له حانوتاً كبيراً فخما، واستأنف عمله، واتسعت موارده؛ ولكنه لم يكن يتمتع بذلك العطف البابوي القديم الذي كان يستظل برعايته وحمايته؛ وكان القدر من جهة أخرى يهيئ له أروع مفاجأة عرفها في حياته. ذلك أنه كان يستخدم عاملاً من بروجيا، وكان يدينه ببعض المال؛ ففر الرجل من حانوته ولم يؤد ما عليه، فطالبه بنفونوتو بواسطة القضاء وحصل على حكم بحبسه؛ فاستشاط الرجل غيظاً واتصل ببعض أتباع السينور بير لويجي ولد البابا وكان يعرف عندئذ بالدوق كاسترو، وأفضى إليه أن تشلليني يملك ثروة طائلة من الجواهر، وأن هذه الجواهر إنما هي من جواهر الكنيسة، سرقها تشلليني وقت الحصار حينما كان في حصن سانت انجيلو؛ وإنه يجب القبض عليه قبل أن يفر مرة أخرى. فأثمرت هذه السعاية ثمرها؛ وفي ذات صباح جاء ضابط الشرطة مع سرية من الجند إلى حانوت تشلليني، ونبأه الضابط بأنه أضحى سجين البابا، وأنه مكلف بأخذه إلى حصن سانت انجليو حيث يعتقل الأكابر والرجال الممتازون؛ ثم أحاط به عدة من الجند، وجردوه من سلاحه، ثم اقتادوه إلى

الحصن، وهنالك ألقي إلى غرفة في البرج الأعلى؛ وكانت هذه أول مرة يذوق فيها مرارة السجن، وكان يومئذ في السابعة والثلاثين

كان حصن سانت انجيلو في ذلك العصر أمنع معاقل رومة؛ ولا يزال الحصن الشهير قائماً على مقربة من قصر الفاتيكان وميدان القديس بطرس، على ضفة نهر تفيري؛ يشهد بطرازه العجيب ومناعته الخارقة بما انتهت إليه هندسة القلاع في العصور الوسطى من الأحكام والتقدم. ولقد أتيح لكاتب هذه السطور أن يزور حصن سانت انجيلو مراراً وأن يتجول في أقبيته ومخادعه المظلمة، وأن يرقى إلى أبراجه الشاهقة، وأن يتأمل طويلاً في جنبات ذلك الأثر المدهش، وهو اليوم يستعمل متحفاً حربياً تعرض في طابقه الأول أسلحة العصور المختلفة، ولكن طبقاته العليا لا زالت خالية تعرض لنا بعض الآثار الغربية، وأخصها الجناح الذي كان يسكنه البابوات كلما التجئوا إلى الحصن، وغرفة نوم البابا بولس الثالث وسريره وكرسيه. على أن أروع ما في الحصن مخادعه المنيعة الواقعة في الجهة الخلفية، وهاوياته السحيقة التي تنساب إلى أعماق مظلمة لا يدرك غورها. وهنالك مخادع معينة، اشتهرت على كر العصور بمن زج إليها من العظماء والسادة؛ فهذا مخدع تقول الرواية إنه هو الذي سجن فيه بنفونوتو تشلليني؛ وهذا مخدع تقول انه هو الذي زج إليه جاليليو، وآخر زج إليه جوردانو برونو وهكذا؛ ولقد لبث هذا الحصن المروع عصورا سجنا لمحاكم التحقيق (التفتيش)، وكان مقبرة لكثير من العلماء والأحبار الذين قضوا نحبهم فيه ضحية المطاردة الدينية؛ ولا يزال السائح المتفرج يشعر فيه برهبة تلك العصور وروعتها

زج بنفونوتو تشلليني إلى مخدع في البرج الأعلى، لا تزال تعينه لنا الرواية حتى اليوم؛ ولبث ثمانية أيام منسياً لا يفاتحه أحد بشيء، وفي اليوم التاسع قدمت إلى السجن لجنة من ثلاثة على رأسها حاكم رومة، ووجهت إلى تشلليني تهمة اختلاس مقدار من الحلي الرسولية وقت أن كان يعمل أيام الحصار بمدفعية الحصن، وأسر إليه البابا كليمنضوس أن

ينتزع الحلي الرسولية من اطاراتها؛ وأن قيمة هذه الحلي قدرت بمبلغ ثمانين ألف جنيه (كرونا)، وأن عليه أن يردها أو يرد قيمتها، وإلا فانه يترك ليرسف في سجنه. وعبثاً حاول تشلليني أن يقنع اللجنة ببراءته، وأن الحلي الرسولية مرصودة في دفاترها فلتراجع فيها، وأن دفاتره رهن تصرف اللجنة لترى أنها في منتهى الدقة، وأنه قد خدم الكرسي الرسولي بفنه وإخلاصه مدى أعوام طويلة، فلا يحق أن يجزي ذلك القصاص. ولما نقل دفاعه إلى البابا أمر بمراجعة الحلي على قوائمها فوجدت تامة لا ينقصها شيء. ومع ذلك ترك تشلليني يرسف في سجنه؛ وكان البابا يحمله سعي بطانته، قد أصبح يرى في تشلليني رجلاً شريراً يجب التنكيل به؛ وزاد حنقه عليه أن رسولا جاء إلى رومة من قبل فرانسوا الأول ملك فرنسا يسعى في إطلاق سراح تشلليني، ورد على السفير بأن تشلليني رجل شرير، لا يستحق اهتمام جلالته. وكان محافظ الحصن رجلا طيب القلب فلورنسياً من مواطني تشلليني، فعمل على تخفيف وطأة سجنه، وتركه في الحصن حراً طليقاً يتجول فيه كيفما شاء مكتفياً بعهده ألا يحاول الفرار؛ وكان تشلليني ينفق وقته في التجوال بالحصن وصنع بعض الحلي التي يأتيه بها فتاه المخلص اسكانيو، وكان يسمح له بزيارته وبأن يحمل إليه ما شاء. ويقول لنا تشلليني أنه لم يشأ أن يفكر في الفرار لولا أن حادثاً وقع في السجن وحمل تبعته، وهو أن قساً زميلاً له سرق منه قطعة من الشمع الذي يتخذ منه نماذج للحلي، وطبع عليها مفتاح غرفته ليحاول صنعه ثم الفرار فيما بعد، ولكنه ضبط واعتقد المحافظ أن تشلليني شريك في هذا العمل، فأمر باعتقاله في غرفته وألا يبرحها بعد، وشدد عليه الخناق، ولم يحله من هذه القيود إلا بعد أن أقنعه تشلليني ببراءته؛ وهنا أدرك تشلليني خطورة موقفه، وأيقن أنه سيبقى عرضة لهذه المفاجآت الخطرة؛ إذا قضي عليه بالبقاء في هذا الأسر؛ ونمى إليه أيضاً أن البابا يصر على اعتقاله، وأن مساعي الملك فرانسوا في سبيله لم تثمر شيئاً، فأخذ يفكر في مصيره ويرى ألا نجاة له من تلك المحنة إلا بالفرار

وزاده عزماً على الفرار حادث جديد وقع بينه وبين المحافظ. ذلك أن المحافظ كانت تنتابه في بعض الأحيان أعراض جنون غريب فيتصور أنه ضفدعة أو وطواط، أو يتصور

أنه ميت يجب أن يدفن، ففي ذات يوم من أيام جنونه سأل بنفونوتو هل بفر ويطير إذا استطاع، فأجابه بنفونوتو، إنه إذا أطلقت له الحرية، فانه يصنع لنفسه أجنحة يطير بها؛ وعندئذ أقسم المحافظ أنه سيعتقله كرة أخرى ويشدد عليه الحراسة؛ وفي الحال نفذ وعيده، وزج بنفونوتو إلى غرفته، ووضع تحت الرقابة الصارمة. ومن تلك الساعة أخذ بنفونوتو يدبر وسائل الفرار، وكان خادمه اسكانيو قد حمل إليه أغطية جديدة لفراشه، فمزقها شرائح وجعل منها حبلا طويلا، وكان لديه أيضاً خنجر، ومقبض حديدي كبير سرقه من نجار الحصن، فخبأ هذه الأشياء في مرتبته؛ وبدأ يعمل لانتزاع المسامير الغليظة التي تثبت بها مفاصل الباب، ويغطي مكانها بشمع قاتم حتى لا يكتشف أمره؛ وأنفق في هذا العمل جهداً كبير حتى انتهى منه. وفي ذات ليلة اشتدت فيها النوية على محافظ الحصن واجتمع حوله معظم الحرس، اعتزم أمره. ويصف لنا تشلليني فراره في عدة صحف ساحرة رائعة كنا نحب أن ننقلها بنصها لولا ضيق المقام. وقد بدأ بأن دعا الله بحرارة أن يرعاه وينقذه. ثم رفع مفاصل الباب وعالجه حتى استطاع الخروج، وثبت الحبل المصنوع من شرائح الأغطية بنتوء في سور البرج وأدلاه، وعاد فرفع بصره إلى السماء قائلا: (رباه، إنك تعلم عدالة قضيتي، فاشملني برعايتك)؛ ثم أمسك بحبله وتدلى حتى وصل إلى الأرض من ذلك العلو الشاهق؛ وظن أنه غداً حراً طليقا، ولكنه كان في الساحة الداخلية يفصله عن الخارج سوران كبيرا. بيد أنه لم ييأس، ورفع قطعة كبيرة من الخشب كانت ملقاة هنالك على السور الأول وتسلقها حتى القمة، ثم تدلى بحبل صغير كان معه إلى الساحة الأخرى؛ وهنالك رأى أحد الحراس على مقربة منه فاعتزم أن يسحقه، وقصده شاهرا خنجره، ولكن الحارس ولاه ظهره؛ ثم تسلق السور الآخر؛ وهنا خانته قواه قبل أن يصل إلى الأرض فسقط من ارتفاع، واصطدمت رأسه بالأرض وأغمي عليه، ولكنه كان عندئذ خارج الحصن.

يقول تشلليني (وقد كان النهار يسفر، فهب على الهواء الصبوح الذي يسبق بزوغ الشمس، ورد إلى حواسي؛ ولكن صوابي لم يعد تماماً، وخيل لي أن رأسي قد فصل، وأنني انحدرت إلى عالم العدم، ثم عادت إلى قواي شيئاً فشيئا، وأيقنت أني غدوت خارج الحصن، وتذكرت في الحال كل ما وقع، وشعرت بجرح رأسي قبل أن أشعر بكسر رجلي، وذلك حينما مسستها، ورأيت يدي قد خضبتا بالدماء، بيد أني رأيت بعد فحصها أن الجرح لم يكن خطيرا. ثم أردت النهوض، وعندئذ رأيت ساقي قد كسرت مما يلي الركبة؛ ولكني لم أيأس، واستخرجت خنجري من غمده وألقيت الغمد، لأنه كان ينتهي بكرة كبيرة، وهي التي اصطدمت بساقي وكسرتها، وقطعت بخنجري قطعة من القماش وضمدت ساقي؛ وأمسكت خنجري بيدي وزحفت على أربع نحو باب المدينة؛ وكان الباب مغلقاً، ولكني رأيت تحته حجراً، فأزحته فتحرك، فدفعته ونفذت من الخرق إلى داخل المدينة. وكان بين الحصن والمدينة نحو خمسمائة خطوة؛ ولما دخلت المدينة هجم علي عدة من الكلاب، وأخذت تلاحقني وتعضني عضاً أليما، فسحبت خنجري وطعنت أحدها طعنة نجلاء جعلته يصيح محتضرا، فالتف باقي الكلاب حوله؛ وأسرعت زاحفاً على اليدين والركبتين نحو طريق (القديس بطرس) (الكنيسة)؛ وكان النهار قد أسفر، وشعرت بالخطر الذي يهددني. وهنا قابلت سقاء وراء حماره المحمل بالقرب؛ فناديته، ورجوته أن يحملني إلى شرفة سلم القديس بطرس. وقلت له إنني شاب فررت من نافذة صاحبتي، فكسرت ساقي؛ ولما كان المنزل الذي اقتحمته منزل أسرة كبيرة، فإني في خطر القتل؛ ووعدته بأن أعطيه ديناراً من الذهب وأريته كيسي المنتفخ؛ فحملني في الحال على ظهره وسار بي إلى ميدان القديس بطرس ووضعني عند الشرفة، وعاد مسرعاً إلى حماره)

واستمر تشلليني في زحفه قاصداً إلى منزل قريب لأميرة يعرف أنه يستطيع الالتجاء إلى حمايتها هي زوجة الدوق الساندرو مديتشي؛ ولكن رآه عندئذ أحد حشم الكردينال كرنارو الذي يقع قصره في ذلك المكان وعرفه، فهرول إلى الكردينال ونبأه، فأمره بحمله. فلما رآه هدأ روعه وطمأنه، واستدعى الطبيب لعلاجه. وذاع نبأ الحادث في روما، فاهتز الشعب الروماني دهشة وإعجاباً لهذه الجرأة. وذهب الكردينال كرنارو مع بعض زملائه إلى البابا وسألوه الصفح عن ذلك الرجل الموهوب، فأجاب بالعفو ووعد الإثابة. ولكنه طلب إلى كرنارو فيما بعد أن يسلمه تشلليني ليقيم عنده في أحد الغرف

السرية، فاضطر كرنارو إلى تحقيق رغبته لكي يحقق له بعض مصالحه، وكانت نيات البابا نحو تشلليني غامضة؛ وحمل تشلليني إلى القصر البابوي، واعتقل هنالك عدة أيام؛ وفي ذات مساء قدمت إلى غرفته سرية من الجند وحملته إلى حصن سانت انجلو، وألقته في مخدع صغير يطل على إحدى الساحات الداخلية؛ وبذا رد إلى سجنه المروع كرة أخرى، وغاضت كل آماله في الخلاص، وغلبت عليه الروعة والاستكانة.

يقول تشلليني: (وكان قبس ضئيل من النور ينفذ إلى غرفتي التعسة من ثقب صغير مدى ساعة ونصف في كل يوم، فلا أستطيع القراءة إلا في هذه الفترة؛ أما باقي النهار والليل فكنت أمكث صابراً في الظلام، لا يفارقني التفكير في الله وفي ضعفنا الإنساني. وكنت على يقين من أنه لن تمضي أيام قلائل حتى أقضي نحبي في هذا المكان وفي هذه الظروف. بيد أنني كنت أروح عن نفسي ما استطعت ذاكرا أن الموت بضربة من سيف الجلاد أشنع من ذلك وأفظع، هذا بينما أستطيع الموت هنا هادئاً كأنني في غفوة النوم. وشعرت شيئاً فشيئاً أن لهب حياتي يخبو، حتى اعتاد جسمي البديع على ذلك الانحلال، وحتى شعرت أنه اطمأن إلى تلك الظروف التعسة؛ واعتزمت أن أحتمل آلامي المروعة في سكينة وجلد ما بقي لي شيء من قوة الاحتمال). وكان ذلك لعام ونصف من اعتقاله الأول، أعني في منتصف سنة 1539.

(الخاتمة تأتي)

محمد عبد الله عنان المحامي

الامتيازات الأجنبية والضرائب

للأستاذ زكي دياب المحامي

عبثت الامتيازات ولا زالت تعبث بمرافق الدولة العامة، ووقفت في سبيل نموها عقبة ليس من اليسير تذليلها إلا على الأيام. وأثرت فيما أثرت على التشريع المالي تأثيراً بالغا، وددتُ لخطورة شأنه أن أفرد له هذا الفصل.

إن المبدأ العام الذي يحكم تشريع الضرائب في البلاد المتمدينة هو وجوب قيام كل فرد يقطن الإقليم بقسطه في الضريبة التي تفرض، بغض النظر عن تباين الجنسيات. تلك هي القاعدة العامة التي يأخذ بها الشارع والتي تقتضيها حكمة التشريع. وهي تستند على فكرتين أوليتين: محلية الضرائب، وعمومية الضرائب.

والأولى بدورها تعتمد على الحقيقة المعروفة القائلة بأن سيادة الدولة محدودة في نطاق إقليمها. وعماد الفكرة الثانية ضرورة تحمل كل فرد نصيبه من التكاليف العامة، حتى تقوى الدولة على إنجاز المشروعات الكبار التي تضطلع بها.

والآن وقد أوردنا المبدأ العام متعجلين، نقول في أسف شديد بان مصر أكرهت تحت عبء الامتيازات على عدم التمشي مع ذلك المبدأ الذي أخذ به العالم كله؛ فالأجانب معفون أصلاً من الضرائب إلا إذا وافقت دولهم سلفا. وقد استطاعت مصر أن تحصل على هذه الموافقة بعد جهود كبيرة بالنسبة لأربعة أنواع من الضرائب يسوي في جبايتها بين الوطني والأجنبي وهي:

أولاً: الرسوم الجمركية، والضرائب التجارية المفروضة طبقاً للمعاهدات التجارية. فللحكومة أن تفرض من هذه الضرائب ما تراه لازماً كضريبة الكحول.

ثانياً: ضريبة الأراضي طبقاً للفرمان العثماني الصادر بتاريخ 7 صفر سنة 1284، وهو الذي خول لهم بمقتضاه حق تملك العقار.

ثالثاً: عوائد المباني طبقاً لاتفاق لندن سنة 1885، وللدكريتو الخديوي الصادر في 13 مارس سنة 1884.

رابعاً: عوائد مجلس بلدي إسكندرية طبقاً للمادة 31 من الدكريتو الخديوي المؤرخ 5 يناير سنة 1890.

فإذا ما حصلت الحكومة من أحد الأجانب رسوماً أو ضرائب في غير نطاق ما ذكرناه، كان له الحق في طلب استردادها أمام المحاكم المختلطة، التي تحكم طبقاً للمادة 11 من لائحة ترتيبها فيما يمس حقوق الأجانب المكتسبة بالمعاهدات.

وفي الطريق الذي استطاعت به مصر أن تحصل على موافقة الدول على تلك الأنواع المذكورة من الضرائب تفصيل رأيت أن أبسط شيئاً منه:

وافقت الدول الأجنبية على سريان قوانين الضرائب على رعاياها فيما يتعلق بالضريبة

العقارية على الأراضي الزراعية، والضريبة العقارية على أراضي البناء، وهما نوعان من الضرائب المباشرة.

أما عن الضريبة العقارية على الأراضي الزراعية فلم يكن يسمح قبل القرن التاسع عشر لأجنبي ما أن يتملك عقاراً في الدولة العلية. ولم يعف الأجانب من هذا الحظر إلا عندما حل عام 1867 إثر مفاوضات طويلة. على أنه بالرغم من ذلك المنع السابق، اعتاد الأجانب أن يسلكوا طرقاً ملتوية للحصول على تلك الملكية المحرمة، فكان الواحد منهم يبتاع الأرض باسم شخص متجنس بالجنسية التركية. وإزاء ذلك رأت الدولة العلية أن تضع حداً لتلك الحال، فأباحت تحت تأثير هذا العامل الملكية العقارية لكل فرد، بغض النظر عن تباين الجنسيات. ولقد تعرض الحظر الهمايوني الصادر سنة 1856 لهذا الموضوع، فنص صراحة على إباحة الملكية العقارية للأجانب في أراضي الدولة وولايتها، على أن يذعن هؤلاء الملاك لما يفرض على الجميع من التكاليف المالية، فاستووا بذلك مع الأهالي.

ولكن حركة الإصلاح لم تنجح، إذ تأجل نفاذ النصوص الصريحة؛ فحاول الباب العالي بعد ذلك مرة أخرى أن يخضع هؤلاء الأجانب للوائح والقوانين التي تسري على الملكية العقارية، وطلب ذلك مُلحّاً، فأجابته الدول إلى ما طلب بقانون صدر بتاريخ 10 يونيه سنة 1867 الموافق 7 صفر سنة 1284، وسمح للأجانب أن يكونوا ملاكاً عقاريين للأراضي الزراعية في الدولة العثمانية، وألزموا بالقيام بكافة الفرائض المالية على الأراضي الزراعية - أسوة بالوطنيين - في أي صورة تتشكل بها تلك الفرائض ولقد خول الأجانب في مصر حق تملك الأراضي وكلفوا في الواقع بضرائبها قبل أن يُسن

قانون 7 صفر ومن قبل أن يسمح لهم بالملكية في تركيا. ذلك أن الأجانب الذين حازوا في مصر ملكية عقارية لم يفكروا في منازعة الحكومة المصرية في حق كانوا يرون من الطبيعي الخضوع له، فكانوا يعتبرون الضريبة ديناً على الأرض نفسها لا على مالكها (دو روزاس ص465)، ومن أجل ذلك كان غير صحيح القول - كما يرى دو روزاس - بأن فرمان 7 صفر هو الذي قرر الضريبة العقارية على الأجانب في مصر. تلك هي الأدوار التي مر بها تشريع الضرائب العقارية على الأراضي الزراعية وخضوع الأجانب لها.

أما الضرائب العقارية على أراضي البناء فقد قبل الأجانب سداد الضرائب العقارية عن الأراضي الزراعية بعد اقتناع وتسليم بوجاهة الطلب. ولكنهم رفضوا جميعاً الوفاء بضريبة أراضي البناء حتى بعد صدور فرمان 7 صفر الذي صادقت عليه الدول، والذي تقضي مادته الثانية بإلزام الأجانب بالضرائب على الأراضي الزراعية والأراضي المبنية. وفي إنكار هذا الحق وعدم النزول على إرادة القانون تحميل ثقيل للنص الصريح.

ولا عجب فلقد ذهبت المحاكم المختلطة مذهبهم وعززت وجهة نظرهم في أحكامها، فقررت أنه برغم إطلاق النص في قانون 7 صفر وشموله الضرائب العقارية عن الأراضي بنوعيها، فان العرف قد أكسب الأجانب حق إعفائهم من الضرائب على أراضي البناء. ونحن لا يكفينا إزاء الدور الذي تلعبه المحاكم المختلطة في موضوعنا هذا أن نمر سراعاً على حكم لها، بل سنبين فيما بعد أكثر أحكامها معلقين على بعضها عندما نرى ضرورة لذلك.

وأخيراً وبعد لأي وافقت الدول على تطبيق دكريتو سنة 1884 المتعلق بالضريبة على الأراضي المبنية على رعاياها، وكانت تلك الموافقة سنة 1885.

هاتان الضريبتان المباشرتان يخضع لهما الأجانب حالاً في مصر بعد الجهود المضنية التي بذلت للموافقة عليهما وبخاصة للموافقة على ضريبة المباني، فمن إنكار تام لمشروعيتها، إلى عبث بالنص صريح، إلى أحكام منتقدة تصدر من المحاكم المختلطة، ولا أرْجعُ أنا هذه المحاورات والتمحل من الطرف الأجنبي إلا إلى رغبة كمينة في النفس الأجنبية تدفعها دائماً إلى أن تجعل في يدها جماع الحقوق وأكثر المنافع.

ولسنا في حاجة إلى أن نبين كيف وافقت الدول على النوعين الآخرين من الضرائب، فلقد حَمَّل دكريتو 5 يناير سنة 1890 في المادة 31 منه الأجانب عبء عوائد مجلس بلدي الإسكندرية، شأنهم في ذلك شأن الأهالي، لما لبلدية إسكندرية من شخصية معنوية ممتازة، ونظراً لتمثيل الأجانب فيها تمثيلا صحيحاً. أضف إلى ذلك كثرتهم في

الثغر، فلو تخلصوا من عبء الضرائب فقدت بذلك البلدية مورداً هاماً.
وللحكومة المصرية بما تبرمه من معاهدات تجارية مع الدول الأجنبية أن تفرض الضرائب التجارية والرسوم الجمركية.
أما المحاكم المختلطة فلقد لعبت دوراً خطيراً في الموضوع، فكلما همت الحكومة راغبة في فرض ضريبة جديدة حال بينهما وبين ما تبغي عدم اعتراف المحاكم المذكورة بحق الحكومة في فرض ضرائب جديدة تُحَمّل بها الأجانب فلا تستطيع إزاء ذلك شيئاً. فلابد من موافقة الدول سلفاً، ويجب أن توافق هي مقدماً على كل ضريبة مستحدثة. وكل إجراء مالي سن به قانون أو شرع في سنه وكان يلقي على عاتق الأجانب عبء ضريبة أو فريضة مالية أيا كان نوعها.
ووقف قرار الجمعية العمومية بالمحكمة في سبيل فرض ضريبة السيارات التي شرعت الحكومة في سنها أخيراً ورأت أن الحكومة تريد بذلك أن تفرض نوعاً مستتراً من الضرائب العقارية على الأجانب لأن تلك الضريبة كما تراها هي رسوم لاستعمال الطريق العام.
وأخيراً وبعد جهود عادت فأقرتها. وقضت تلك المحاكم في القضية التي رفعها الفيكونت روفونتارس سنة 1912 بأن الضرائب التي تفرضها مجالس المديريات للصرف منها على المنافع العامة ليست خاضعة لشروط موافقة الجمعية العمومية المقررة في مادة 24 من القانون الصادر في أول مايو سنة 1883.
وقضت كذلك في عدة قضايا، منها قضية شركة سكة حديد القاهرة الكهربائية، وقضية أوجست قساجيه ضد مديرية البحيرة.
وترى المحاكم المختلطة أيضاً فيما يتعلق بالأشخاص المعنوية أنها إن كانت مؤلفة من الأجانب تخضع للضرائب المباشرة التي تقررها الحكومة المصرية على الأشخاص الطبيعيين المصريين.
وخلاصة القول أن المحاكم المختلطة انتهت إلى التفريق بين الضرائب المباشرة وغير المباشرة، فهذه الأخيرة يجوز فرضها، أما الأولى فيجب لفرضها موافقة الدول، على أن ذلك القيد قديم نشأ نتيجة لعرف فاسد منتقد لا نتيجة نص صريح.
ومما يستنبط من ذلك أيضاً ومن مجموعة الأحكام التي لم نشأ أن نورد كل ما لدينا منها أن للحكومة أن تفرض ضريبة مباشرة أو غير مباشرة على رعايا الدول غير المتمتعة بالامتيازات، وعلى الشركات المساهمة المؤسسة في مصر وقد حكم بأن جنسيتها مصرية ولو كان أعضاؤها أجانب، وان كانت تشملها في حالة تقاضيها نظرية الصالح المختلط. ولكن ذلك لا يزيل مالها من صفة مصرية يظهر أثرها فيما يتعلق بالضرائب.
(بقية البحث في العدد القادم)
زكي دياب

نقابة للأدباء الشبان

لأديب كبير

أخرج اليوم من معتزلي إذ سمعت ضجة حسبتها ضجة معركة حربية، وتحركت نفسي لمرأى ميدان تلك الضجة، فعز عليَّ أن أرى الصرعى يئنون من الألم وجراحهم تجري بالدماء، وأن أرى العماليق تزأر، وترغي وتزبد، وسيوفها تقطر من دماء ضحاياها؛ وعولت على أن أنزل إلى الميدان لألقى فيه نصيبي من الأذى إذا لم يتح لي أن أنصر ضعيفاً أو أنتصر لمظلوم.
وقد يحسب قارئ أني أهزل في قولي - ولا بأس عليه إذا هو ظن ذلك - فإني لا يضيرني أن يحسب قارئ أني أهزل، ما دام لا يظن فيّ أني أسخر منه أو من سواه، فأني لا أحب أن يظن أحد في أنني اسخر منه، فان السخرية مُرة الطعم، وقد ذقتها فوجدت قبحها فوق كل قبح.
ولكني مع ذلك أرجع إلى نفسي فأقول: إنني لا أخشى من أن يظن أحد فيّ أنني أسخر، فقد طالما سخر كبار الأدباء من قرائهم، ولا يزيد قراؤهم مع ذلك إلا إعجاباً بهم؛ بل إن بعض شيوخ الأدب قد زاد وبرز في ذلك الباب إلى أن قال لقرائه في صراحة عجيبة إنه يسخر منهم، وإنه عالم بأن القراء لا يعجبون بالكاتب الأديب أشد الإعجاب، إلا إذا تفنن في السخرية بهم. فلا بأس عليّ إذن إذا حسب أحد القراء أنني

ساخر، فإنني قد أصل بذلك إلى إعجابه وإكباره.

وإني هنا قاصد إلى الأدباء أدعوهم إلى اتباعي والأخذ برأيي، بعد أن شهدت صرعاهم في النضال الأخير مع مشيخة الأدب وكباره. وقد يقول قائل وكيف تجعل نفسك بين الشبان وقد بلغت من السن فوق مبلغ الشبان؟ ولكن ذلك القول لن يثنيني، فأني لا أردع بمثل هذا العنف، وإني لا تزال فيّ بقية من الشباب تكفي لان تبرر مدخلي فيهم وانخراطي في سلكهم. على أن الأديب لا يعد شابا إذا كانت سنه من الشباب، فان الشباب والشيخوخة في الأدب لهما اصطلاح خاص واعتبار موضوع. فالأديب الشاب هو الذي لم يبلغ من الشهرة مبلغاً مذكورا ولو كان قد نيف على الخمسين؛ والأديب الشيخ هو من ضرب اسمه في الخافقين ولو لم يكن ممن بلغوا سن الثلاثين أو الأربعين. وعلى هذا فأنا شاب في عرف الأدباء، لأنني بحمد الله قليل الحظ من ذيوع الاسم، بل أكاد لا أسمع اسمي يذكره ذاكر إلا في أمر من أمور هذه الدنيا البعيدة عن عالم الأدب، ولقد حبب إليّ الخمول والبعد عن الشهرة منذ اقترن ذلك الخمول باسم الشباب، فأني كنت دائماً أحب الشباب واسم الشباب ولو كان مقترناً بالذم؛ وقد كان لي صديق - عفا الله عنه - عرف فيّ ذلك الطبع، وكان يحلو له أن يشتمني؛ ولكنه مع ذلك كان حريصاً على مودتي، فدفعه خبثه إلى أن يجعل سبابه لي مقترناً باسم الشباب، فكان إذا رآني بدرني بقوله: (ما هذا الذي فيك من طيش الشباب؟) وقوله: (إنك تظهر في عملك هذا ضروباً من جهل الشباب) وقوله: (إنك والله ملئ بنزق الشباب). فكنت أقبل الشتم ما دام دفيناً في وصف الشباب المعسول، وبذلك توصل صديقي إلى ما شاء من سبابي، ولم يخش أن يخسر شيئاً من مودتي. ولم أفطن إلى حيلته الخبيثة إلا بعد لأي، ولكنني مع ذلك لم أعاتبه ولم أغضب عليه، بل بقيت راضياً بما ينالني من شتمه لأحظى بوصف الشباب من ورائه. وعلى هذا فلست إلا حفياً بدخولي في زمرة الشبان الأدباء، قانعاً بوجودي بينهم. ومادمت كذلك فإني لابد مذمرهم على الشيوخ، ومعصبهم ومحرضهم. وأول آيات ذلك التعصب أنني أدعوهم اليوم إلى تأليف نقابة لهم، لتكون جامعة لكلمتهم، ورابطة لهم عند الملمات إذا ما فكر الشيوخ مرة أخرى في أن يصبغوا لهم العيون بلون الدماء.

وأي شيء يستنكر في دعوتي هذه إلى تأليف نقابة للأدباء الشبان؟ وهل في ذلك بدعة أو ضلالة؟ إن الأديب الشاب شبيه بالعامل الفقير الذي لم يدخر بعدُ مالاً، ولم يتأثل شيئاً من حطام الدنيا، والشيوخ الأدباء هم الذين ادخروا وتأثلوا. ألسنا نراهم اليوم يقولون للشبان إنكم مدينون لنا بكل شيء؟ أليسوا قد أعلنوا للملأ أنهم الأوصياء على إنتاج الأدب وتوزيعه؟ ومادام هذا هكذا - كما يقول شيخ منهم - فان الأمر لا بدعة فيه ولا ضلالة؛ فقديماً اجتمع ضعفاء العمال لكي يحموا أنفسهم من وقعة أصحاب (رءوس الأموال) بهم، فلما أن فعلوا أظهروا للعالم أن العمل شيء واجب أن يرعى فيه الحق، وأن يتخذ في معاملته العدل. فهلموا إلى العمل أيها الأدباء الشبان.

وإني منذ اليوم أجعل نفسي رداءاً لمن يدخل منكم نقابة الأدباء الناشئين أدفع عنهم عادية الشيوخ، وأوقف دونهم إذا ما سمع أحدهم يزأر أو يزمجر، أو إذا ما رؤى بعضهم يرغي أو يزبد، ولست أقف هذا الموقف لأني آنس في نفسي قوة فوق قوة الشاب أو قدرة على الدفاع لم يؤتها سواي منكم معشر مساكين الأدباء، بل أقف موقفي هذا متدرعا بدرع قلدت فيه بعض شيوخ الأدباء، فقد رأيت أحدهم عفا الله عنه، وزاده بسطة في الأدب، وأمتع به بابي الجد والفكاهة في الكتابة، وحفظ عليه دهاءه وبهاءه - ولا مؤاخذة إذا لم يسعفني الخاطر الكليل بسجعة خير من تلك - أقول رأيت ذلك الصديق القديم قد لجأ إلى حيلة خلقها له عقله القوي، وهي أن يبدأ نزاله وطعانه بأن يتبرأ من كل ما كتب في الماضي وما يكتب في الحال والاستقبال من نثر ونظم، ومن جد وفكاهة. فإذاما وثق من أن الناس انخدعوا بذلك واعتقدوه، أقبل على المسكين أو المساكين الذين اختارهم لطعانه فما زال يخزهم ويضحك، ثم يطعنهم ويضحك وهو يتسلى بما يراه من عنف حركات مساكينه وعلو صراخهم. فإذاما دفع الألم أحدهم إلى الدفاع أو الانتقام وسدد طعنته إلى عضو من أعضائه قال له ثابتاً غير منزعج (ومن أدراك ان هذا العضو يهمني أمره؟ ومن قال لك أني أعبأ بطعنتك لي في هذا الموضع أو ذاك؟)

فيصدقه المسكين وتنفجر عيناه بدموع الحنق والعجز ظناً منه أن هذا المنازل متحصن فيما لا مطمع فيه، ثم يرمي بحربته أو سهمه، ويعدل عن انتقامه، وتلك حيلة فطنت لها دون سواي من الأدباء. وستكون لي عدة في نزال الدفاع عن أفراد النقابة إذا ما التأم أمرهم، وتم اجتماعهم، فإذاهم جعلوني نقيبهم جعلت نفسي فداءهم، ولن يصيبني بفضل حيلة صديقي الشيخ أذى ولا ألم، وسأجعل همي أيها الأدباء الشبان إذا ما وفقكم الله إلى اختياري زعيماً لكم أن أقوم فيكم بدعوة أو (دعاية) كما يقول بعضهم تكون لكم فيها بركة إن شاء الله، وذلك أن أنصح لكم أن تقللوا من الاهتمام لما ينالكم من وراء ما تؤلفونه، وأن تقفوا من مؤلفاتكم موقف الناظر (المتفرج) لتروا ما يقول الناس فيها، ولكم الحق في أن تضحكوا ملء أفواهكم من سواكم سخرية إذا رأيتم أنه لم يوفق إلى فهم ما في مؤلفاتكم من جمال أو حقيقة وبذلك تكونون قد وقفتم من ناقدكم على سواة - فإذا لم تستطيعوا ذلك، ورأيتم أن الناقد قد أخذ عليكم مسامع الناس فأساء عندهم ذكركم، فأني أنصح لكم أن تروضوا أنفسكم على فلسفة الأستاذ الذي وصفت لكم حيلته حتى تصلوا بعد حين من رياضتها على تلك الفلسفة إلى مرتبة القدرة على أن تنظروا إلى مؤلفاتكم في شيء من الاحتقار، أليست مؤلفاتكم من صنعكم؟ وإذا لم تكن معجبة ولا باهرة، أليس في طاقتكم أن تخلقوا سواها؟ فإذاكانت باهرة ولكنها قد ظلمها النقاد، أليس في استمراركم على التأليف وإتيانكم بعد الآية الآية الأخرى، وإتحافكم الناس بمؤلف في أثر مؤلف أقوى دليل على حسن استعدادكم، وعلو كعبكم؟

وبعد، فهذه نصيحة أخرى، وهي أن يؤلف من يؤلف منكم لأنه مندفع إلى ذلك بميل في نفسه لا لكي يطلع الناس منه على ما يمدحونه به، فلأديب الصحيح من ألف لنفسه أولاً، ولا تظنوا أنني سأجتزئ من واجبات النقابة بالنصح لكم، بل سأتجه بكم نحو نضال يجعل المشايخ يطلبون عفو الشبان وهم جاثون خاضعون مذعنون، وليس في خطتي شيء عجيب، فإني لن افعل شيئا اكثر مما يفعله نقباء سائر النقابات، فإني إذا ما حزبكم أمر سأدعوكم إلى الاعتصاب والإضراب عن التأليف والكتابة إضرابا تاماً، فيعدل عند ذلك عن الاقتراب من الأقلام كل من يكتب منكم في مجلة أو صحيفة، أو من يؤلف الكتب سواء أكان ممن يكتبون في الجد أم في الفكاهة؛ وإذا ما رأى بعضكم أن ذلك غير ممكن لتغلب شهوة الكتابة عليه مهدنا له السبيل بأن نجعل في دار النقابة مطبعة ونجعل لها صحيفة ونقصر قراءتها على أفراد النقابة أو أعضائها كما يقولون أحياناً، وعند ذلك يجد شيوخ الأدب أنفسهم عدداً ضئيلاً، كما حدث لأشراف رومة من قبلهم منذ قرون، فلا يستطيعون أن يخرجوا جريدة ولا مجلة، ولا يجدون شيئاً ينتقدونه ويظهرون بنقده سيادتهم فتقف دواليب أعمالهم ويعضون البنان أسفاً على إحراجكم واغضابكم، ويلجئهم الحرص على مصلحتهم إلى طلب الصفح وإلى معاملتكم بالعدل والحق. حقاً قد يستريح الجمهور بضعة أيام من القراءة، غير انه قد يستجم في أثناء هذه الأيام قدرته على الاستقلال في التفكير فيكون أقدر على أن يزن أقوال مشايخ الأدباء فيكم وحكمهم عليكم، وعند ذلك لا أتشدد في مطالبي، بل سأقتصر على طلب واحد إلى مشايخ الأدباء، وذلك أنهم إذا شاءوا نقد مؤلف أحدكم فهم بين أمرين لا ثالث لهما: إما أن يذكروا محاسنه ومساويه كما قال أحد قدماء مشايخ الأدب، وأن يعدلوا في الحكم ماداموا يجعلون عنوان كتابهم (نقد كذا) وإما أن يجعلوا عنوان كتابتهم (محاسن كذا) ويكتفوا بذكر محاسنه أو (مساوئ كذا) ويكتفوا بذكر مساوئه، فإذاهم قبلوا ذلك الشرط أبحت لكم العودة إلى معاونتهم ومشاركتهم، وإن هم أبوه مضينا في الإضراب حتى تلجئهم ضرورة الحياة إلى النزول عند العدل.

فهل من مجيب أيها الأدباء الشبان؟

(أديب)

وفاء الطائر

للآنسة أسماء فهمي

درجة شرف في الآداب

امتقع وجه الشمس، وخبَت أشعتها، وعلاها اصفرار، وأصابتها رعشة، وغشي الأفق حمرة الوجد في ساعة الغروب، ثم وجمت الطبيعة، واطمأن الجدول في سيره، ورق النسيم واستولى على الكائنات شعور منقبض حزين. . .

ثم حالت نضرة الحقول في الأصيل؛ ونظر الناس إلى الشمس الغاربة فآثروا الرواح، وتململت الماشية، وقلق الصغار، فسارع القرويون إلى جمع شتات أدواتهم من فؤوس وسلاّت، وامتطوا دوابهم فصارت تعدو بهم يدفعها الحنين والشوق إلى الدار بعد نصب النهار؛ وسرعان ما ازدحمت بالعائدين الطرق والمسالك الموصلة إلى القرية. وكلهم مفتون بروعة المساء، الإنسان والحيوان في ذلك سواء. . .

وأمام الدور في القرية تجمهرت النساء والأطفال، وسرت الحياة في الأرجاء، وتطاولت الأعناق لإجتلاء طلعة القادمين كما لو أن أمد الشوق والفراق قد طال. . . والطير لمحت بدورها احتضار الشمس من بين الأغصان، فتبادلت النظرات، وتجاوبت بالأغاريد كأنها تذكرت أمراً ذا بال، وسرعان ما جمعت جموعها وغادرت أسرّة الأغصان، وحلقت في الفضاء أسراباً تندفع اندفاعاً نحو العش بقوة الحنين وعزم الجناح. . والحق ليس هناك أروع من منظر الطير، يدفعها الحنان نحو العش فلا تعود تأبه بتدليل الغصن ولا بجمال الزهر ولا بوفرة الحَب، ولا بالمرح والتغريد. . .

ولكن طائراً جميلاً يمتاز بقوة تغريده وشدة جرأته، وتدفق مرحه وحيويته، أغرته أكوام القمح الذهبية فترك أفنان الشجر وكاد يقع في شراك الفلاح لولا أن أنقذته سرعة قفزه، فنجا بأعجوبة بعد أن أصابه خدش في الجناح. ولم يدر الطائر لشدة فرحه بالنجاة حقيقة ما أصابه إلاّ عندما حان ميعاد الرحيل للعش، وناداه الرفاق فرفرف بجناحيه وفاضت نفسه بنشوة الحنين، ودفع جناحيه محاولاً أن يأخذ مكانه في مقدمة السرب، ويكون كعادته أول من تضمه أحضان الوكر. . . وصاح صيحة الطرب، واندفع إلى الأمام كالسهم، ولكن لم يلبث أن أخذ منه الجهد، إذ اتسعت شقة الجرح. فترنح في سيره، وأخذ يدور حول نفسه ثم استسلم لجاذبية الأرض. . وسرعان ما استحال طيرانه إلى قفز. . ونظر أمامه فوجد السرب قد توغل في الفضاء فداخله الهم، ولكن بقي لديه شيء من الأمل الذي كانت تحمله إليه بقايا أسلاك الشمس الغاربة، فصار يتعلق بها كما يتعلق الغريق بالأعشاب الطافية على وجه اليم. . على أن شعاع الأمل سرعان ما انطفأ مع أشعة الشمس، وانتشر الظلام في الأرجاء، وتسربل الكون بحلة سوداء. . والطائر المسكين لا يزال بعيداً عن العش، بينما الطيور الأخرى كانت في تلك الآونة تنعم بدفء الوكر وحنان الأهل، وتستقبل الظلام في هدوء واطمئنان؛ والناس والماشية بلغوا مستقرهم، والليل يهمس حولها: نعم عقبى الدار. . .

أخذ الطائر الشريد يسير على غير هدى في دياجير الظلام واليأس - يرتطم بالحوائط والجدران والأشجار، ويتعسر في الوحل والشوك، وقد كان في وسعه لو أراد أن ينزوي في ركن من الأركان، أو يقضي الليل فوق غصن من الأغصان، ولكنه لم يشأ أن يتخذ عن عشه بديلاً، بل آثر الجهد والنصب آملاً أن تسوقه الأقدار بعد طول السهاد إلى العش الوثير المحبوب. . . واستحالت في نظره حرية الفضاء إلى سجن قاتم، وجمال الشجر إلى قبح دميم، ونفح النسيم إلى شواظ من نار، وأنسى الطائر فقد العش كل ما كان ينعم به من لذة ومتعة وشدو، طليقاً في سماء الصفاء والجمال. . .

وبقي على تلك الحال من القلق والاضطراب إلى أن قاده الحظ العاثر إلى كوخ فلاح ينبعث منه نور ضئيل، فاندفع إليه في ساعة يأسه وحيرته دون تفكير. وهاجت الأطفال وماجت عند ما رأت وسطها الطائر الجميل، واجتهدت في حصاره وإلقاء القبض عليه، فاشتد هلع الطائر وقاوم مقاومة الأبطال، ولكن آلام جرحه اشتدت، وازداد تخبطه وتكرر سقوطه، وأخيراً وقع في الميدان صريعاً، فهجمت عليه الأعداء، ولكن سرعان ما تراجعت ووقفت مبهوتة صامتة مأخوذة برهبة الموت. . .

ولم يعلم الأطفال والكبار شيئاً عن سر دخول الطائر في ظلام الليل، ولو علموا سبب حيرته واضطرابه، وأنه قاوم القدر وأبى أن يهجع في غير العش الرؤوم إخلاصاً منه وولاء، لنثرت عليه الزهور والرياحين، ولشغل مكاناً من القلب أسمى من المكان الذي يشغله آلاف الناس - الذين لا يتعصبون في الحياة لأمر، ولا يتطرفون في الغرام بشيء،

ولا يفضلون داراً على دار. . بل قد لا يعبأون أن تضحّي سعادة أوطان بأكملها. . . بينما يموت طائر صغير شهيد الوفاء للعش. . .

أسماء فهمي

من الشعر المنثور
المدينة الهاجعة
للأستاذ خليل هنداوي
مهداة إلى مدينتي الصغيرة الراقدة رقاداً عميقاً على الشاطئ الأزرق. . . . . صيداء.
خليل
خاطر أزعج نفسي ... يا له من خاطر!
ما له من أول ... ما له من آخر
دعوا مدينة البحر تنم هادئة، فقد أرقتها يقظة الشاطئ،
لا توقظوها إذا جاء الفجر. . . أنها نائمة.
نامت عن الأرزاء والشجون.
واستسلمت للأحلام الجميلة وأطبقت عليها الجفون
من فاته في اليقظة الهناء
فليطلب النوم، ففيه شفاء
وليفر أحلامه بألوان الضياء
فتصبح الروح بها ناعمة
ألا لا توقظوها. . . إنها حالمة
نامت في غابر الزمن على الشاطئ الأزرق نوماً عميقاً،
وفي النوم تتبدل الخاطرات، وتتغير الأرواح،
إذ لا سكون في عالم الحركة، ولا وقوف في عالم الضوضاء.
تبدلت مدينتي وهي راقدة، وهبت فلم تر من آثار أخواتها إلا أطلالاً بالية، ورسوماً عافية.
فمشت بين مدائن غريبة حائرة ذاهلة، مشية أهل الكهف بعد يقظتهم!
رجعت إلى شاطئها الأزرق كما قفل أولئك إلى كهفهم،
لأن الحياة تنكرت لها ولهم
فنامت. . . ولا تزال نائمة
لا توقظوها. . . إنها حالمة.
يهوي على قلبي أسى مبهم
أكتمه قسراً فلا يكتم
ألا أيها الأسى في أية جانحة تجثم؟
لا خمر تقوى على أمرك!
ولا غادة تقوى على قتلك. . .
أي أسى في روحي السائمة؟
تذوقت أيها الغريب جمال الصحراء الذي لا تنتهي حدوده كما لا تنتهي لها حدود،
وفنيت مع طيوبها، وامتزجت مع ألوانها
وجريت مع (فراتها) الصامت، ورتلت مع أطيارها،
فمالك لم يشبعك جمال، ولم تذهلك هذه الأشكال؟
فيك وحشة من كل شيء، لا يغلب عليها شيء،
ولا تنير آفاقك المظلمة شمس، ولا ينفذ إليها قمر
لأن في روحك وحشة من كل شيء. . .
لا الطبيعة تشبع نفسك، ولا عبيرها يسكر روحك.
لأن مدينتك الصغيرة بعيدة عنك. . .
وإن لم يكن لك في مدينتك - أيها الغبي - إلا الصخور والأمواج، فإنها ستدعوك إليها.
لا حبيب في زواياها يناديك.
ولا صديق يناجيك.
الرمال التي تحسبها جامدة ميتة. . . الرمال التي كنت تعبث بها طفلاً تناديك.
تناديك لتحتضنك. . . هي مبعث وحشتك، وموئل ذكرياتك.
للصخور الصلدة روح، وللأمواج المتقلبة روح
تحيا كلها في حنايا روحك

. . .هي نائمة كمدينتك النائمة
لا توقظوها. . . إنها نائمة
ترقد مدينتي الصغيرة في كل شيء أراه، حتى في ذرات الرمال وقزعات السحاب.
ويرن صوتها في كل مبعث صوت، حتى في وقع الأمطار.
فأين أفر من وجهها، وكيف أصم أذني عن صوتها؟
وكل الأشياء التي نحيا فيها تحيا فينا.
هي حية في نفسي. . . مدينتي الصغيرة
هي مبعث وحشتي في هذه الحياة الغريبة.
هي التي تجذبني إليها وتخيم فوق رأسي في غربتي كالسحابة السوداء،
هي مجمع ذكرياتي التي تصطف للقائي في كل زاوية من زواياها،
وفي كل ثنية من ثناياها
سأحاول أن أنسى. . . وسيساعدني الزمان على النسيان،
وأية ذكرى وأية خطرة تستطيع أن تثبت أمام سلطان الأزمان؟
لكن شاطئك الأزرق الجميل. . شاطئك الذي امتزج دمه بدمي،
وخفق قلبه في قلبي، أنّى لي أن أنساه؟
. . .هو كالقطرة التي تنعكس فيها كل السموات والنجوم
ألا هنيئاً للجالس على شاطئك الأزرق فانه مالك كل شيء.
صيداء
خليل هنداوي
دنيا الأدب
بقلم محمد قدري لطفي
ليسانسييه في الآداب
ليست هي دنيانا، فما ينبغي أن يكون هذا الأدب منها، وليست هي عالمنا، فما لهذا الأدب أن يدخل فيه، وإنما هي طبيعة الأدب تأبى أن يكون من دنيانا في شيء، فان أكثر دنيانا قبيح، وأكثر الأدب جميل، وعماد دنيانا الحقيقة وعماد دنيا الأدب الخيال، والعقل في دنيانا عنصرها الأكبر، والعاطفة في دنيا الأدب عنصرها الأول، والمرء في دنياه يرى بعيني رأسه، ويرى في دنيا الأدب بعين قلبه، وهو في الدنيا مادي، قد يمسك بالزهرة فيقطعها في غير رحمة التماس عبيرها، فيظلّ به حتى ينفذ، ثم يلقيها كأن لم تبهره لحظة بجمالها، ولم تنعشه برهة بأريجها، وهو في دنيا الأدب روحي، إذا أمسك بالزهرة فإنما يمسها في رفق، وإذا التمس شذاها فإنما يفعل في حذر واحتياط، حتى إذا أعجبه عبيرها لم يقتطفها ولم يلقها، وإنما تراه يستخلص من عبيرها الطيب بيتاً ينظمه، أو قصيدة ينشئها، أو سطوراً يكتبها، وتراه يغوص في قرار المعاني ويصعد إلى عنان اللغة ليسجل للخالق حسن الصنعة ودقة الخلق وجمال التكوين، وتراه يوفي الزهرة حقها من الإعجاب والإطراء، ويبادلها حسنا بحسن ومتعة بمتعة. والمرء في دنياه يتكلم فيما يشاء بما يشاء، وهو في دنيا أدبه لا يتكلم إلا فيما حرك شعوره وهز عاطفته، فإذافعل فباللفظ المختار وبالمعنى المنتقى، والمرء في دنياه حين يتكلم لا يكاد يقع قوله إلا من نفوس قليلة مهما تكثر فلن تخرج عن الحصر، ولن تفوق العد، وهو في دنيا الأدب يتكلم فيلتقي بعواطف الجموع ويضرب على أوتار القلوب، وقد ينتقل قوله من لغة إلى لغة وينتشر حديثه من لسان إلى لسان، فيفنى هو وما قال باق على الدهر خالد على الأيام، وقد يظل المرء في دنياه من غير صاحب، وقوله في دنيا الأدب يلقى الصحاب في كل مكان، ويتخذ سميراً في الجماعات أو خليلاً في الوحشة، أو مؤنساً في الوحدة، يصادف من كل قلب مبتغاه، ويلقي عند كل امرئ قبولاً، ويقع من كل نفس موقع البرء من السقام
ودنيانا محدودة وان ترامت حدودها، مقيدة وان اتسعت قيودها، ودنيا الأدب لا تعرف الحد ولا تعرف القيد، فالأدب يعيش في كل مكان ويحيا في كل زمان، يتناول كل شيء، وقد
يتخذ لنفسه موضوعا من لاشيء، وليس توخي الجمال فيه ولا التزام أوجه الحسن في فنونه قيداً له ولا عيباً في دنياه، وإنما هو الجمال طبيعته وعنصره، ما أن يفقده حتى يخرج من دائرة الأدب إلى دائرة الكلام البحت والحديث الصرف. فالشعر إن فقد

الجمال كان نظما فحسب، لا هو بالشعر ولا هو بالنثر، قد وقف بين الصناعتين لا يدري أهو من هذه أم هو من تلك، والنثر إن فقد طلاء البلاغة لم يكن من الفن في شيء، وكما تغلو الأشياء في دنيانا وترخص، يغلو الأدب في دنياه، وتنحط قيمته تبعا لمقدار الجمال فيه، وأكثر موازين دنيانا الكم، وميزان دنيا الأدب الكيف.

على أن دنيا الأدب وان كانت جمالاً كلها فليست نعيما كلها، وان كانت إعجابا كلها فليست تخلو من العجب، فقد أقام البؤس فيها إلى جانب الجمال، وسكنت الفاقة فيها إلى جانب الحسن، وكثيراً ما تحالفا على غير فكاك، وتوافقا على غير خلاف، شأن دنيا الأدب في ذلك شأن دنيانا، فانك لتجد فيها الوجه الجميل في المسكن الذليل، وغالباً ما يلقاك الشرف الرفيع في الكوخ الحقير، وكثيراً ما تحل السعادة حيث ترق الحال، ويقيم الهناء حيث يحل الفقر.

ودنيا الأدب لا آخره بعدها، ولا إمهال فيها، وإنما يلقي صاحب الأدب فيها حسابه سريعاً فيجزى به أو يعاقب عليه، فما هو إلا أن يظهر أهل دنياه على ما أتى من عمل فني حتى يتولاه النقاد من قومه بالحساب، يحاسبونه حسابا فيه يسر حيناً، وكله عسر أحياناً، وحساب أهل الأدب على عسره ليس يخلو من عجب، فلا الخير فيه خير بالإجماع، ولا الشر فيه بالإجماع، وإنما الخير عند زيد شرٌّ لدى عمرو، والشر يراه هذا خيراً، والخير في عرف ذاك شر، قد تفاوتت الموازين، وتباينت المكاييل، وليت شعري متى يشاء ملائكة النقد أن يكون لدنيا الأدب ميزان يزن به الجميع، وكيل يكيل به الجميع. فقد خلق الناقدون وكل معه ميزانه، وكل في يده كيله، فاختلفت أحكامهم على العمل الفني الواحد، وتعددت أقوالهم في إنتاج الأديب الواحد، ولعل دنيا الأدب لم تظلم صاحب الأدب حين أباح له حرية الدفاع عن آثاره الأدبية والرد على محاسبيه، والتماس الحق لجانبه. ومن غريب دنيا الأدب أنها تبيح حساب المرء حياً وميتاً، فيتناول النقاد سيرته بالتحليل ويتولون حياته بالتمحيص، ويظهرون الناس على أقواله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وانك لتجد الشاعر أو الناثر قد فارق دنياه منذ قرون، وأسدلت السنون عليه وعلى قومه حجابا من النسيان، ومع ذلك فهو في دنيا الأدب حي مذكور لا يزال النقاد يحاسبونه على شعر قرضه، أو نثر كتبه، أو قصة حاك أطرافها، ولا يكتفون من ذلك بالمئات من المرات.

ومما يحاسب المرء عليه في دنيا الأدب عدا الإجادة في الفن أو التقصير فيه ما قد يرتكبه من سرقة لثمار العقول أو نتاج العواطف فينتحل لنفسه ما ليس له. غير أن الحساب على هذا الذنب ليس كما ينبغي له من العسر والشدة، وليس كما يتفق مع خطره من القسوة والقوة، وإنما هو مباح أو كالمباح حتى خشيت دنيانا هذه الإباحة من دنيا الأدب، وخافت على أهلها من دعاة الأدب أن يبيحوا فيها ما ليس إلى إباحته من سبيل، فأفسحت صدرها لمن يلجأ إليها من دنيا الأدب، شاكياً ما استحله الغير من ثمرات قريحته ووحي خاطره فحمته بتشريعها، وأحاطته بسياج من قانونها.

وفي دنيا الأدب من المفارقات العجيبة والسير الطريفة ما لا تتسع له الصحائف، فكيف يقوى كاتب على دنيا بأكملها يحصى ما بها ويعدد ما فيها.

محمد قدري لطفي

أعيان القرن الرابع عشر - 8

للعلامة المغفور له احمد باشا تيمور

الشيخ مصطفى السفطي

مصطفى السفطي بن مصطفى الفاكهاني السفطي بن علي السفطي أبن احمد شلبي، نسبة إلى سفط القطايا، ولد بمصر القاهرة حوالي سنة 1250، وأرسل إلى المكتب في السابعة من سنيه، ثم تنقل من مكتب لآخر حتى حفظ القرآن الكريم، واشتغل بتجويده في الأزهر، ثم شرع في طلب العلم على شيوخ عصره، فقرأ الكفراوي على أحد العلماء المبتدئين في التدريس، فكان يحفظ العبارات ولا يفقه لها معنى، ولما أعيي عليه أمره، وتعذّر عليه إعراب أمثلة من غير هذا الكتاب أعاد قراءته، ولكنه لم يستفد شيئاً. وكان بجوار داره دار السيد احمد البقلي أحد المدرسين بالمدارس، وله ولد أراد أن يقرأ القرآن مع المترجم، فشكا المترجم له من تعسر النحو عليه، فأشار عليه بشراء متن الآجرومية وأمره بحفظه، ثم شرع في إعرابه له على الطريقة الأزهرية، فلم يستفد شيئاً أيضا؛ وشكا من ذلك للشيخ محمد الدمنهوري،

فأمره بترك طلب النحو كلية حتى ينسى ما علق بذهنه، ففعل واقتصر على الفقه، فحضر أبن قاسم على الشيخ البيجوري، وكان يتفهمه بخلاف النحو، فمالت نفسه إليه فحضره مرة ثانية على الشيخ فتّوح البيجرمي، ثم مرة ثالثة على الشيخ عبد الرحمن القباني أحد تلاميذ الشيخ فتوح المذكور، وكان يطالعه لإخوانه المبتدئين.

ثم قرأ الكتب المتداولة بالأزهر، ولم تفتر نفسه عن طلب النحو على ما لاقاه فيه من الصعوبة، فصار يتردد على الشيخ محمد الدمنهوري ومعه متن الآجرومية فقط، وصار الشيخ يقول له اقرأ هذه الجملة ثم تفّهم معناها بنفسك ولا تنظر لأقوال الشراح، فيفعل، فتارة كان يخطئ وتارة يصيب، وسهل عليه فهم هذا العلم بهذه الطريقة؛ وكان أحد أصحابه مبتلى بمثل ما ابتلى به، وأخبره أن عند علي العروسي شرحاً للرملي على الآجرومية، فاستعاره منه وقراه معاً، فكانا بفهمان ما فيه فهماً جيداً. ثم اجتمع المترجم بانسان كفيف البصر اسمه الشيخ علي الفيومي، له باع في العربية، فقرأ عليه مع صاحبه كتاب الشيخ خالد والأزهرية، والقطر، وأبن عقيل؛ ثم أعاد المترجم القطر علي الشيخ الشبيني بالأزهر، وقرأ التحرير والمنهج على الشيخ مصطفى المبلّط، وهو آخر حضوره في الفقه. ثم قرأ علوم البلاغة بالأزهر، والعروض مع إعادة البيان بالمطالعة مع بعض تلاميذ رفاعة بك: كقدري باشا وإبراهيم بك مرزوق. وبعد ذلك انتخب مدرساً بالمدرسة التجهيزية سنة 1290 في أول نظارة رياض باشا على المعارف، وكانوا إذ ذاك يقرأون بها الأنموذج للزمخشري في النحو؛ ثم كُلف بتأليف رسالة في الصرف ففعل، وقرأها للتلاميذ نحو ثلاث سنوات، ثم اتفق مع بعض المدرسين على تأليف رسائل في البلاغة والصرف بتوسُّع أبسط من الرسالة الأولى، وقرأ بها سنوات، ثم أمر بقراءة العروض والقوافي في المدارس، فاستحسن رسالة أبي الجيش وأقرأها، ثم وضع رسالة في العروض والقوافي أتم بها ما أراده أبو الجيش، ولكن وقع ما منعه من تقديمها للمدارس، ثم كلف بوضع رسالة في علم الرسم، فوضع رسالته (عنوان النجابة في قواعد الكتابة) وقرئت بالمدارس.

ونقل بعد ذلك للمدرسة الابتدائية المسماة (بالمبتديان)، وكان ذلك سنة 1306، فألف بها رسالة بالاشتراك مع غيره في المترادفات، ثم نقل إلى المدرسة السنية الخاصة بتعليم البنات، فبقي بها سنتين ألف فيها رسالته (محاسن الأعمال)، ولما عرضت على المجلس العالي بنظارة المعارف استحسنها أعضاؤه جداً وقالوا: الأولى أن تكون بيد المعلمات لا بيد المتعلمات. ثم أخذت قوته في الوهن، وبصره في الضعف لكبر السن، فعرض استقالته على النظارة مبيناً السبب. فأحيل على الكشف الطبي، ثم أحيل على المعاش. وله من التأليف غير ما تقدم رسالة في الصرف اسمها (قرّة الطرف) أوسع من المتقدمة، وأخرى في النحو وهي (منحة الوهاب في قواعد الإعراب)، وهي نظم. ومن شعره:

الحمد الله لا فقر يضرّ ولا ... غنى يغرّ فلا حزن ولا فرح
وليس لي مطمع في الناس يلجئني ... للذم والمدح إن ضنوا وإن سمحوا
وأسأل الله حاجاتي فيمنحني ... من فضله فوق ما أهوى وأقترح

وله:

قد يسر الله أسباب المعاش لنا ... بالعقل والرزق موقوف على القسم
ليعلم العبد أن الله يرزق من ... يشاء بالفضل لا بالسعي والهمم
فيطلب الرزق بالأسباب معتمداً ... على الذي أوجد الأشياء من عدم
ولا يخاف ولا يرجو سواه ولا ... يحيد عن منهج الأحكام والحكم

وكان رحمه الله طيب الخلق، حسن المعاشرة، اعتكف في داره بعد فصله من المدارس على الاشتغال بالعبادة ومذاكرة العلم مع بعض من يسمر معهم من إخوانه وأخلائه، أو استقلالاً بنفسه، وكان في مبتدأ أمره مولعاً بالسماع، وتشبث بتعلم الموسيقى، فلازم الشيخ محمداً شهاب الدين الشاعر المشهور، وكان متقناً لها، فأخذها عنه وأتقنها، ولكثرة مطالعته لكتب الأدب صارت له ملكة أدبية، ومعرفة بجيد الشعر ونقده. ثم ما زال على هذه الحالة المحمودة حتى أرهقه الكِبر وضعف عن المشي، فلزم داره لا يخرج منها إلاّ لصلاة الجمعة في أقرب مسجد اليه، ومع ذلك فلا يبلغه إلا بمشقة زائدة. وتوفاه الله إلى رحمته في يوم الثلاثاء 21 رمضان سنة 1327.

الشيخ احمد أبو خطوة الحنفي
أحمد بن أحمد بن محمد بن حسب الله بن علي بن محمد بن علي أبن مدكور بن أبي خطوة المدفون في مطوبس أبن مدكور بن شكر بن هاشم بن محمد وهو أول من نزل بكفر ربيع منهم ودفن به، أبن سالم المدفون بالحدّين بالبحيرة، أبن موسى بن حسن بن احمد أبن علي بن شكر بن إبراهيم بن أحمد بن شاكر بن حسن بن علي أبن محمد بن علي أبن السيد عبد الرحيم القنائي صاحب الضريح المشهور بقنا أبن هريدي بن جعفر بن حمّاد بن سعادة بن عبد اللطيف القاسم بن عبد الله بن عبد اللطيف بن هاشم بن عبد الجواد أبن محمد بن عليالرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن آلاما الحسين بن الإمام علي بن أبي طالب. هكذا أملى عليّ نسبه من لفظه. . ولد في 20 ذي القعدة سنة 1268 ببلدة كفر ربيع التابعة لتلا من أعمال المنوفية ونشأ بها، فحفظ القرآن وبعض المتون، ثم سافر للقاهرة لطلب العلم بالأزهر في 16 شوال 1281 واشتغل فيه بالطلب وقراءة الفقه على مذهب الإمام الأعظم. ومن شيوخه الشيخ محمد البسيوني البيبانيّ، والشيخ أحمد الرفاعيّ الفيوميّ، والشيخ عبد الرحمن البحراويّ، والشيخ عبد الله الدرستاويّ، والشيخ حسن الطويل
وكان أكثر اشتغاله في المعقول على الشيخ حسن الطويل ولازم صحبته وتخلّق بأخلاقه، وقرأ عليه بداره العلوم الحكميّة والرياضّية فتلقى عنه شرح الهداية للميبدي، والطوالع، وأكثر المقاصد والمواقف، وإشارات أبن سينا بالشروح لنصير الدين الطوسيّ والإمام
الرازيّ، والمحاكمات، وبعض كتاب النجاة لأبن سينا، وأشكال التأسيس بشروحها في الهندسة، وتحرير أقليدس، وفي الهيئة شرح الجغميني، وتذكرة نصير الدين الطوسيّ، وفي الحساب خلاصة بهاء الدين العامليّ بشرح البورصاوي، والمعولة وشرح أبن الهائم وغيرها، وفي المنطق القطب بحواشيه والمطالع والخبيصيّ وايساغوجي وغير ذلك من هذه العلوم.
وامتحن للعالمية والتدريس في 18 صفر سنة 1293 وكان مجلس الامتحان مكوّناً من الشيخ عبد الرحمن البحراويّ والشيخ عبد القادر الرافعيّ الحنفّيين، والشيخ أحمد شرف الدين الموصفيّ والشيخ زين المرصفيّ الشافعّيين، والشيخ احمد الرفاعي والشيخ أحمد الجيزاوي المالكيّين، برئاسة شيخ الأزهر ومفتي الديار المصرية الشيخ محمد المهدي العباسي، فلما امتحنوه أعجبوا به اعجاباً شديداً لجودة تحصيله وشدّة ذكائه فأجازوه، إلاّ أنه اخر التدريس لسبب اشتغاله بتتميم ما كان يقرؤه على شيخه الطويل
ثم ابتدأ في القراءة بالأزهر سنة 1296 فقرأ به الكتب المتداولة به وغيرها، وتخرّج عليه من الأفاضل منهم السيد محمد شاكر، والشيخ محمد حسنين العدوي، والشيخ محمد بخاتي، والشيخ سعيد الموجي، والشيخ محمد الغريني، والشيخ مصطفى سلطان وغيرهم.
ثم جعل مفتياً لديوان الأوقاف فكانت له اليد الطولى في إصلاحه وعاون من به على تحسين أموره بجودة عقله وحسن رأيه، وحسبك انه دخله وإيراده مائة وعشرون ألف دينار وخرج منه وإيراده يربو على المائتين. ثم نقل عضواً في المحكمة الشرعية الكبرى بالقاهرة ورأس المجلس العلمي للنظر والفصل في القضايا الكبرى، ثم انتدب للمحكمة العليا بعد ذلك فكانت له اليد الطولى في إصلاحها ومنع شهادات الزور وإصلاح حال المحامين، وكانت وفاته في شوال سنة 1324.
حسن أفندي عبد الباسط الحُوَيّ
كان خِلاَسيّ اللون يشبه الحبش، وبوجهه أثر جدريّ، وكان أديباً شاعراً هجّاء، خبيث اللسان مجيداً، إلا أنه مقلّ، استخدم بالإسكندرية فكان رئيس قلم في الضبطية حوالي سنة 1285، وبقي بها إلى سنة 1290، وكان بها إذ ذاك مصطفى صبحي باشا الشاعر المشهور، فكان يجتمع به من بها من الأدباء والشعراء، فيسمرون معاً ويحيون الليالي بالمذاكرة وإنشاد الشعر، واتفقوا على تسمية مجلسهم بالمربد، وألا يقبلوا به أحدا إلا إذا ارتضوا به جميعاً، فكان المترجم ممن رضوا به أن يكون من شعراء المربد، وكانت تمر عليهم ليال يقترحون فيها ارتجال الشعر، ويعيّنون عدد الأبيات والوقت الذي يجب

نظمها فيه، فكان أحدهم إذا تعذرت عليه قافية وأعجله الوقت ارتجل كلمة لا معنى لها، أو لها معنى لا يوافق السياق وتمم بها البيت، فاجتمعت لهم من ذلك ألفاظ غريبة مضحكة سموها بالألفاظ المربدية.

ثم تنقلت الحال بالمترجم فاستخدم معاوناً بمديرية الشرقية، ثم فصل فضاق به العيش وفتح حانوتاً بالزقازيق للصيدلة القديمة، المسماة في العرف الآن بالعطارة؛ وكان أمره بها عجباً، فانه اقتنى كتباً من مفردات الطب وقانون أبن سينا، وصار إذا طلب منه أحدهم بيع عقّار من العقاقير، سأله عن سبب حاجته إليه وقام إلى تلك الكتب فاستخرج له منها مزاياه وما يداوي به من العلل، وبقي مدة على ذلك حتى توفاه الله بعد سنة 1300.

ومن شعره يمدح محمداً فتح الباب أفندي كبير كتّاب ديوان البحر:

رأيت العلا ترتاد بعلاً لنفسه ... وقد خطبتها قبل ذاك الأوائل

فقمنا سراعاً قاصدين لخدرها ... عساها بنا ترضى ويُجلى التواصل

فلما رأتنا واقفين ببابها ... أشارت لفتح الباب منها الأنامل

وكان رحمه الله على خبث لسانه طرفة من الطرف، وأعجوبة من العجائب: في حسن المنادمة وحضور الذهن وسرعة الجواب؛ رآه مرة بعضهم وهو مسافرَ إلى الزقازيق في القطار ومعه جراب يحمله بيده، فقال له مداعباً: أظن هذا جراب الحاوي، أي المشعبذ. فقال لا يا سيدي، هذا جراب الحَويّ!

إبراهيم بيك مرزوق الشاعر

تلقى العلم بمدرسة الألسن، وتخرّج على ناظرها رفاعة بك رافع الشهير، فقرأ بهذه المدرسة النحو والصرف وباقي علومها، وبرع في الفرنسية. وكان لرفاعة عناية خاصة في تلقين تلاميذه العربية والعلوم الأدبية، وتدريبهم على نظم الشعر، فكان للمترجم حظ من هذه الصناعة، فنظم الشعر الجيد من المقطّعات والقصائد، اعتنى بجمعها بعده محمد سعيد بك أبن جعفر مظهر باشا سنة 1287 في ديوان سماه (الدرّ البهيّ المنسوق، بديوان إبراهيم بك مرزوق) وطبع بمصر.

ولما أتم المترجم علومه بالمدرسة استخدم ديوان كان يقال له (ديوان الهرجلات) وهو خاص ببيع الخيل والماشية التابعة للحكومة، ثم نقل منه للقلم الإفرنجي بالضبطية، وفصل منه مدة عبده باشا ضابط مصر، ثم عاد إليه بعد نحو ثلاث سنوات، وكان مدة توليه لهذا القلم كثير المعاكسة للإفرنج إذا وقع أحدهم في سجن الضبطية، أو كانت له دعوى بها، قلما كان يسلم من أذاته، حتى ضج منه وكلاء الدول وأكثروا من الشكوى، فلم يكن يثبت عليه شيء عند التحقيق، والسبب في ذلك أنه كان يعتمد على إخوانه ومرءوسه بالضبطية على إيصال الأذى اليهم سراً، نكاية بهم لطغيانهم على الرعية، وتدرّعهم بدروع الحمايات.

وفي مدة وكالة إسماعيل باشا الخديو نقل المترجم معاوناً بمجلس الأحكام، ثم لما تولى هذا الخديو على مصر أرسله ناظراً للقلم الإفرنجي بالخرطوم قاعدة بلاد السودان، فبقى إلى أن توفي بها سنة 1283. وكان مربوع القامة، أبيض اللون، قد وخطه الشيب، ومات بعد ما تجاوز الستين، رحمه الله تعالى.

الشيخ مصطفى سلامة النجّاري

توفي والده وهو صغير، فتكفل به زوج أمه ورباه، فلما ترعرع مال للأدب، وقرض الشعر، فاتصل بالشيخ على الدرويش، وتخرّج عليه في النظم، واتصل بعد ذلك بأسرة المويلحي، ففتحوا له حانوتاً بالتربيعة لبيع الحرير فلم يصادفه النجاح، ثم جعل منشئاً بالوقائع المصرية، ولم يزل يكافح زمنه حتى اتصل بوالي مصر سعيد باشا، وصار شاعره وتقرب إليه ونال جوائزه، فحسنت حاله، واجتمع بأكابر الدولة ومدحهم وداخلهم فنال وجاهة وصار له شأن يذكر، وجمع ما نظمه في مدح سعيد باشا في ديوان خاص، وهو الذي جمع ديوان أستاذه الدرويش وسماه الأشعار بحميد الأشعار الكندي.

(هو من الاثني عشر عبقرياً الذين ظهروا في العالم)

كاردانو

للأستاذ قدري حافظ طوقان

مقدمة:

ليس أصعب على الباحث من الكتابة عن حياة عالم لمُ يعطه التاريخ حقه من البحث والاستقصاء، ويزيد في الصعوبة التشويه الذي نجده في حياة كثيرين من علماء العرب والمسلمين. فكم من حقائق لم تذكر، وكم من حوادث أخذت على غير حقيقتها فسيئ فهمها، وكم من اختراع للعرب نُسب لغيرهم، وكم من تلاعب طرأ على التراث الإسلامي فجعل كثيرين من شبابنا يشكون في مجد أمتهم ومدنيتها وقابليتها على الإنتاج. ومن الغريب أن تجد بعض علماء الفرنجة (لبقين) في الكتابة عن نوابغ العرب، فهناك شخصيات عربية وإسلامية لمعت في نواح عديدة من المعرفة، ومن الطبيعي أن يختلف اللمعان، فبينما تراه شديداً في فروع، تراه في الأخرى وفي الوقت نفسه غير شديد. ويأخذ بعض الإفرنج النواحي الشديدة اللمعان ويذكرونها ويهملون النواحي الأخرى إهمالاً كلياً لا يعيرونها أي اهتمام ولا يأتون على ذكرها. ولا شك أن في هذا إجحافاً لا يستسيغه عقل ولا يقبله منطق، وعلينا أن نعمل جهدنا لنظهر هذه ونعطيها حقها من التنقيب والبحث. خذ أبن سينا (مثلاً) فقد اشتهر في الطب والفلسفة، وقليلون جداً الذين يعرفون أنه كان رياضياً وطبيعياً، وأن له في كل هذه جولات وآراء سديدة قيمة، فلقد أفاد الفيزياء ببحوثه المبتكرة فيها، كما أنه استطاع أن يقدم خدمات جليلة لبعض الفروع من العلوم الرياضية. وإذا اطلعت على ترجمة حياة أبن يونس في دائرة المعارف الإسلامية تجد أن كاتب الترجمة قد وفي حق أبن يونس في نواح ولم يوفها في نواح أخرى فلقد جهل أو نسى أو تناسى (لا أدري) أن يذكر أن الرقاص (بندول الساعة) هو من مخترعات أبن يونس وناهيك بالرقاص والفوائد التي جنتها المدنية منه. ولا أكون مبالغاً إذا قلت إنه يندر أن تجد واحداً يعرف أن عمر الخيام كان من كبار رياضي زمانه ومن فحول فلكي عصره، فلقد قدم خدمات حقيقة للرياضيات والفلك لا تقل عن خدماته للشعر والفلسفة، وما يقال عن هؤلاء يُقال عن غيرهم.

منشؤه:

والآن. . . نعود إلى الكندي فنقول: قل من يجهل أن يعقوب الكندي من أشهر فلاسفة الإسلام، ولكن قل من يعرف أيضاً أن له فضلاً على العلوم الرياضية والفلكية إذ كان من الذين امتازت مواهبهم في نواحيها العديدة، ومن أوائل الذين اشتغلوا وألفوا في العلوم الدخيلة. يقول كتاب التمدن الإسلامي (. . . فبعد أن كان العرب في صدر الإسلام يستنكفون من الاشتغال حتى في العلوم الإسلامية. . أصبحوا لا يستنكفون من الاشتغال حتى في العلوم الفلسفية الدخيلة، وأول من اشتغل فيها أبناء ملوكهم. .)

كان الكندي عالماً بالطب والفلسفة والحساب والهندسة والمنطق وعلم النجوم، وتأليف اللحون، وطبائع الأعداد. وهو يمت بالنسب إلى أحد الملوك العرب، وكان أبوه أميراً على الكوفة (محل ولادته). وقد وُلد في بداية القرن التاسع للميلاد ولم نتمكن أن نعثر بالضبط على تاريخ ولادته. أما تاريخ وفاته فيرجح أنه في أواخر القرن التاسع.

درس الكندي في بادئ أمره في البصرة ثم أتم تحصيله على أشهر العلماء، هذه الفرص التي لم تكن تسنح لغيره، واستعداده الفطري واستغلاله لكل ذلك أوجد له مكاناً ذا حرمة واعتبار عند خلفاء بني العباس حتى أن الخليفة المأمون انتخبه ليكون أحد الذين يُعهد إليهم ترجمة مؤلفات أرسطو وغيره من حكماء اليونان. ولم يخل الكندي من أناس يناصبونه العداء إما حسداً وإما غير ذلك كالقاضي صاعد بن أحمد القرطبي، وأبي معشر جعفر بن محمد البلخي ويُقال إن هذا الأخير كثيراً ما كان يشاغب عليه ويشنع بحجة أخذه بعلوم الفلاسفة، وقد تمكن الكندي مرة بثاقب نظره أن يتخلص منه، وذلك بأن بعث مَنْ حسّن له النظر في الرياضيات وفعلاً اشتغل أبو معشر بها زمناً، ولكنه لم يوفق، فعدل عنها إلى علم النجوم، وقد وجد فيه لذة فعكف عليه وأحب من يشتغل فيه وأصبح من أصحاب الكندي ومن المعجبين بعلمه ونبوغه

آثاره:

والكندي أول من احتذى حذو ارسطوطاليس، كان ملماً بحكمة الهنود، فسر كثيراً من كتب الفلسفة ووضع بعض النظريات الفلسفية في قالب مفهوم حتى إن كتبه في المنطق وغيره لقيت إقبالاً عظيماً، (وله رسائل ومؤلفات في علوم شتى نفقت عند الناس نفاقاً عجيباً، وأقبلوا عليها إقبالا مدهشاً)

هذا وغيره أوجد له في قلوب معاصريه حسداً فنقموا عليه وحاولوا مراراً النيل منه، وأن يوقعوا بينه وبين الخليفة فنجحوا في ذلك، ولكن إلى زمن لم يطل أمده.

كان الكندي مهندساً قديراً كما كان طبيباً حاذقاً وفيلسوفاً عظيماً ومنجما ماهراً، وقد ترك آثاراً كباراً جليلة جعلت العالم الإيطالي (كاردانو) يعده من بين الاثني عشرا عبقرياً الذين هم من أهل الطراز الأول في الذكاء، وجعلت أيضاً (باكون) الشهير يقول (إن الكندي والحسن بن الهيثم في الصف الأول مع بطليموس) ويقول كتاب (آثار باقية) (إن الكندي أول من حاز لقب فيلسوف الإسلام.) وكان يرجع إلى مؤلفاته ونظرياته عند القيام بأعمال بنائية كما حدث عند حفر الأقنية بين دجلة والفرات. وعلى ذكر الأقنية يقال إنه كان في بلاط المتوكل أخوان اشتهرا بالهندسة والأعمال التطبيقية، وهما محمد وأحمد ابنا موسى بن شاكر، وكان يعز عليهما أن يظهر غيرهما بمظهر الماهر المتفوق، وبذلك لم يتركا فرصة للنيل من كل من عرف بالمعرفة والتفوق في علم من العلوم، ومن الطبيعي أنه لم يكن يروق لهما أن يسمعا عن الكندي وفضله، سيما وأنه ذو مركز عظيم في البلاط فسعيا في الوشاية عليه، وكان لهما ما أرادا في بادئ الأمر، واستطاعا أن يجعلا الخليفة يأمر بمصادرة مؤلفاته وكتبه. وكان يقال إن مراد ابني موسى من المصادرة هو أن يستفيدا من مراجعة الكتب في حفر القناة الجعفرية، ولكنهما فشلا في إنشائها فاستدعيا المهندس الشهير سند أبن علي لحل بعض المعضلات التي وجداها عند حفر القناة، فوعد بحلها وبمساعدتهما على شريطة أن يرجعا للكندي كل كتبه، وأن يسعيا لدى وليّ الأمر في العفو عنه وفي إزالة ما أوجداه من فتور وسوء تفاهم.

وقال الكندي بأحكام النجوم، وكان يرجع بعض الظاهرات والحوادث إلى أسباب فلكية فيستمد من أوضاع النجوم وحركاتها بعض التنبؤات. فيقال إنه نهى عن الاشتغال بالكيمياء للحصول على الذهب، وقال إن في ذلك تضييعاً للوقت والمال، وقد ألف في هذا الموضوع

رسالة سماها (رسالة في بطلان دعوى المدعين صنعة الذهب والفضة وخدعهم). وقد أفادت رسالته هذه بعض معاصريه والذين أتوا بعده، إذ لا يخفى أن كثيراً من علماء القرون الوسطى أضاعوا معظم أوقاتهم في الكيمياء للحصول على الذهب، وله مؤلفات في المرئيات والبصريات وقد وضع كثيراً من نظرياتهما في قالب رياضي، وكان لبحوثه هذه تأثير كبير على دراسات باكون وواتيل، وكتب في الموسيقى وأعطى طرقاً لإيجاد التردد.

مؤلفاته:

وللكندي مآثر جمة تظهر في أكثر العلوم بل تكاد تسجلها كلها فقد ألف في الفلسفة وعلم السياسة والمنطق والحساب والكريات والموسيقى والنجوميات والهندسة والفلك والطب والاحكاميات والجدليات والنفسيات والإحداثيات والأبعاديات والتقدميات، كل هذه وغيرها مذكورة في كتاب الفهرست لابن النديم، وتبو على 230 كتاباً، وله فوق ذلك رسائل في علم المعادن وأنواع الجواهر والأشباه وفي أنواع الحديد والسيوف وجيدها ووضع انتسابها. أما تأليفه في الرياضيات والفلك فأهمها رسالة في المدخل إلى الارثماطيقي خمس مقالات، كتاب في استعمال الهندي أربع مقالات، رسالة في تأليف الأعداد، رسالة في تسطيح الكرة، رسالة في علل الأوضاع النجومية، كتاب في أغراض كتاب أقليدس، كتاب في تقريب قول ارشميدس في قدر قطر الدائرة من محيطها، رسالة في تقسيم المثلث والمربع وعملهما، كتاب في كيفية عمل دائرة مساوية لسطح اسطوانة مفروضة، رسالة في قسمة الدائرة ثلاثة أقسام، رسالة في صنعة الإسطرلاب بالهندسة، رسالة في ظاهريات الفلك، رسالة في استخراج بعد مركز القمر من الأرض، رسالة في استخراج آلة وعملها يستخرج بها أبعاد الأجرام، رسالة في الحيل العددية وعلم إضمارها، وو. . . الخ

تلاميذه:

وقد أخذ عن الكندي طلاب كثيرون منهم أبو العباس أبن محمد بن مروان السرخسي، وكان متفنناً في علوم كثيرة من علوم القدماء والعرب، قرأ على الكندي وعنه أخذ، اشتهر في الفلسفة والطب وكان موضع سر المعتضد، وكذلك أبو زيد أحمد أبن سهل

البلخي فقد أخذ عن الكندي، وكان له مقام رفيع، ودعي جاحظ خراسان. ومن تلاميذه أيضاً حسونيه
ونفطويه وسلمويه وغيرهم كثيرون.
نابلس
قدري حافظ طوقان
من طرائف الشعر
فرحة الألم
لشاعر الشباب السوري أنور العطار
لَقَدْ صَاغَني اللهُ جَمَّ الشُّجُونِ ... وَيَأْبَى فُؤَادِيَ إِلاَّ المَرَحْ
يُبَدِّدُ أَحْزَانَ قَلْبِي الرَّجَاءُ ... وَيَمْحُو صَفَائَي طُول التَّرَحْ
أُهَدْهِدُ أَوْجَاعِيَ الصَّارِخَاتِ ... وَأُرْقِدُهَا بالمُنَى وَالمُلَحْ
سكِرتُ مِنَ الدهْرِ حَتَّى انْتَشَيْت ... فَلَسْتُ أُبَالي بِخَمْرِ الْقَدَحْ
كَأَنّي أَخُو سَفَرٍ لا غِبٍ ... تَهالَكَ مِنْ جَهْدِهِ وَارْتَنَحْ
فَطُوبَى لِجُرْحِيَ إِمَّا اسْتَفَاضَ=وَطُوبَى لِقَلْبَي إِمَّا انْجَرَحْ
تَعَلَّمْتُ بالنَّوْحِ سِرَّ النَّعِيمِ ... وَأَدْرَكتُ بالشَّجْوِ مَعْنَى الْفَرَحْ
سَجَتْ لَيْلَتِي وَتَرَامى الظَّلاَمُ ... وَمَالِيَ عَنْ خَوْضِهِ مُنْتَدَحْ
وَقَدْ رَوَّحَ الْغُيَّبُ النَّازِحُونَ ... وَأَلْقَى المُسافِرُ عِبْئاً فَدَحْ
وَفَضَّ الكَرَى سَامِرَ العَاشِقِينَ ... وَلَمْ يَبْقَ في الأَرْضِ إِلاَّ شَبَحْ
يَحُومُ عَلَى عَالَمٍ نَائمٍ ... رَمَى بَمَتاعِبِهِ وَاطَّرَحْ
يُطَوِّفُ في اللَّيْلِ مَا يَأْتَلِي ... يُنَاجِي وَيَرْعَى حَبِيباً نَزَحْ
وَقدْ سَكَنَ الغَابُ إِلاَّ صَدىً ... تَوَلَّهَ مِنْ وَجْدِهِ وَافْتَضَحْ
كأَنّيَ أُصْغِي إلى بُلْبُلٍ ... يُثيرُ المَفارِحَ إِمَّا صَدَحْ
فأَحْسَسْتُ دُنْيا مِنَ النُّعْمَياتِ ... وَأُفْقاً جَدِيدَ الأَمَاني انْفَسَحْ
وأَذْني إلى هَمْسَةٍ في الدُّجَى ... وَعَيْنِي إلى بَارِقٍ قَدْ لَمَحْ
وأَقْبَلَ طَيْفُكِ جَمَّ الجَلاَلِ ... تَدَثَّرَ بالنُّورِ حَتَّى اتَّشَحْ
مَدَدْتُ يَدَيَّ وَعَانَقْتُهُ ... فَغَمغَمَ قَلْبِي وَدَمْعِي شَرَحْ
وَضاعَ اللَّجَاجُ وَغَابَ الْعِتَابُ ... كَأَنَّ الرَّمَانَ صَفَا أو سَنَحْ
قَرأتُ بِعَيْنَيهِ فَرْطَ الحَنِينِ ... وَشَجْوًا يُذِيبُ إذا مَا قَدَحْ
وَعَايَنَ بِي غَمَرَاتِ الرَّدِى ... تَرِفُّ عَلَى هَيْكَلٍ قَدْ جَنَحْ
فَأَطْرَقَ مُسْتَعْبِراً نَادِمًا ... وَبَانَ عَلَيْهِ الأَسى وَاتَّضَحْ
فَقُلْتُ لَهُ خَلِّ عَنْكَ الْبُكَاء ... وَلاَ تَجْزَعَنْ إِنَّ قَلْبِي صَفَحْ
إِذَا مَنْ أُحِبُّ جَزَانِي الصُّدُودَ ... هَتَفْتُ عَفَا اللَهُ عَمَّا اجْتَرَحْ
صحوْتُ فَلاَ الطَّيْفُ يَحْنُو عَلَيَّ ... وَلاَ نِعَمٌ تُشْتَهَي أو مِنَحْ
وَعُدْتُ إلى وَحْدَتِي رَاضِياً ... أَرَى في الأَسَى غَايَةَ الُمقْتَرَحْ
أنور العطار
يقظة الهوى
تعالى قد سجا الليلُ ... ونام الدوح والطيرُ
تعالى قد حلا الوصل ... وطاب السهد والسمر
تعالى ضاحكي البدرا
تعالى نافحي الزهرا
تعألى طارحي الجدولْ ... نشيد الأعصر الداوي
تعالى نرشف السلسل ... ونروي روحنا الذاوي
شجتني رنة العودِ ... وصوت الناي أغري بي
تعالي أنتِ معبودي ... وهذا الروض محرابي
تعالي فجرّي قلبي
ينابيعَ من الحب
تعالي عطّري النرجسْ ... بعطر الورد والشوقِ
تعالي نوّري الحندس ... بنور الحب والعشق
أيا ليل ألا أمهلْ ... معنْى فيك ذا مأربْ

وقل للصبح لا يقبل ... وقل للنجم لا يغرب
هلمي نفحة الوردِ
هلمي ملكة الخلد
هلمي قبل أن يجفو ... ويمضي الليل والبدرُ
هلمي فالهوى يغفو ... إذا ما استيقظ الفجر
البصرة
فتى شط العرب
جائزة الأدب الكبرى
هنري دو منترلان
بقلم علي كامل
لمحة عن أدبه وفنه

منحت الأكاديمية الفرنسية جائزة الأدب الكبرى للكاتب الشاب هنري دو منترلان، فارتفع بذلك اسمه إلى مصاف أكبر الكتاب الفرنسيين المعاصرين، وتنبهت الأذهان إلى الطابع المخصوص الذي يمتاز به أدبه كفن من فنون القصة الفرنسية الحديثة:

وهنري دو منترلان كاتب من كتاب الشباب الذين تفتحت عيونهم على ضوء هذا القرن العشرين. ولد عام 1896، ودخل مدرسة سانت كروا دو نوبيي. ولما شبت الحرب الكبرى خرج من المدرسة ليشترك فيها وجرح جروحا بليغة. وكان طبيعياً أن يعود منترلان وقد ملأت نفسه نزعة التشاؤم والثورة، فقد هجر مدرسته ليخوض غمار المجزرة البشرية الكبرى وهو لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره، فعانى فيها أشهرا من الحرمان والتضحية لم يجد لهما مبرراً أمام عقله الذي يفكر وقلبه الذي يحس، كما يفكر ويحس كل أديب فنان ينزع نحو مثل عليا في الحب والرحمة والأخاء

عاد منترلان من الحرب ضائع العزم محطم الآمال. وكان استعداده الأدبي قد ابتدأ يتفتح على ضوء تجاربه ومحنه السابقة، فانصبت آلامه وثورته في أدبه تلمسها من بين خفايا السطور، وكانت إنسانيته الحزينة تدفعه - كغيره من كتاب الشباب الذين خاضوا غمار الحرب - لوصف أهوالها وما جرته وراءها من التدهور الأخلاقي والفكري. كذلك فان (أنانية الفنان) التي تغمره كانت تأبى عليه أن يضحي بشيء دون أن ينال على تضحيته جزاء يبررها ويلتمس منه العزاء. لذا لم يغفر منترلان لأمته وللمجتمع تضحيته الكبيرة حين جرفته العاطفة الوطنية كغيره دون وعي إلى ميدان القتال ليتعذب شر عذاب ويعود جريحاً بين الحياة والموت فاقد الأمل في إتمام حياته المدرسية.

ولقد كان هذا الشباب المعذب دافعاً لهنري دو منترلان إلى أن يهيم بتلك السن التي ضحى وتألم فيها، فأصبح يمجد سن الشباب (تلك السن - كما يقول - التي لا تعترف بجميل. سن القلب والنفس. نجم الحياة المتألق). ولقد تدرج منترلان من ذلك إلى الغرام بالألعاب الرياضية لأنها المظهر الذي تتمثل فيه حيوية الشباب وجبروته، ولأنها الوسيلة لإطالة عهد الشباب إلى أبعد مدى مستطاع

و (أدب الألعاب الرياضية) فن حديث جداً في الأدب الفرنسي. وترستان برنار هو صاحب الفضل الأول في تغذية القصة الفرنسية بالأفكار الرياضية ومعالجة شئونها ووصف أبطالها، وكان يحب الكتابة عن ألعاب الملاكمة وأبطالها كما في قصته على أن هذه الحركة ظلت بطيئة الخطر، ولم يتعد نشاط قادتها القليلين الكتابة في الصحف والمجلات، وإخراج عدد قليل من الأعمال الأدبية التي لم تكن ذات قيمة تذكر. . إلى أن كانت الألعاب الأولمبية عام 1924 فنشط أنصار (أدب الألعاب الرياضية) وأرادوا أن يدخلوا الفنون الرياضية في القصة الطويلة والقصيرة وفي الشعر أيضاً، وكثر عددهم واتسعت مدرستهم وأصبح كل منهم متخصصاً في الكتابة عن فن من فنون الالعاب الرياضية، فمنهم من هام بالسيارات مثل هنري كستماكرز في قصته وميشل كورداي في قصته ' واكتاف ميربو في قصته الشهيرة 628 - التي تعتبر في نظر النقاد أروع قصة في (أدب السيارات)

ومنهم من ولع بألعاب كرة القدم مثل جان برنييه في قصته ولوي هنري دستل في قصته وتعتبر قصة , لمارسيل برجيه خير ما كتب في (أدب كرة القدم)

وهناك غير هؤلاء الكتاب عدد كبير من أنصار هذه المدرسة جعلوا من شخصيات

قصصهم أبطالاً لفنون رياضية أخرى مثل سباق الخيل والطيران وغيرهما.
وهنري دومنترلان يعتبر اليوم زعيم الأدباء الشبان على الإطلاق، وأدب الألعاب الرياضية على الخصوص. وقد برع في الكتابة عن المصارعة. وسافر خصيصاً إلى أسبانيا وتعلم طريقة مصارعة الثيران ودروس نفسية أبطالها وأخلاقهم ثم عالج ذلك في قصته
كان أول أعمال منرلان كتابه كتبه عام 1916 وظهر عام 1920 وهو قطع من الشعر المنثور يصف فيها ذكرياته عن الحرب والمدرسة التي كان يتعلم فيها. وفي عام 1922 ظهرت قصته وفيها يمجد الألعاب الرياضية والصداقة التي بين الأبطال الرياضيين. تلك الصداقة التي يضعها (البان) بطل القصة فوق الحب. وفكرة (البان) عن الحب هي فكرة
الكثرة العظمى من أبطال الرياضة الذين يقعون فريسة النزاع الدائم بين نداءين: نداء القلب ونداء الواجب الرياضي الذي يطالبهم بالابتعاد عن النساء كيما يحتفظوا بعناصر القوة فيهم. وينتهي بهم الأمر إلى انتصار النزعة الرياضية وعبادة القوة والمجد فيتضاءل مركز المرأة في نظرهم. وهو لذلك لا يؤمنون بالحب العاطفي. فالحب في نظرهم ميل جسدي إذا ما تحقق مات ما يسميه الناس بالحب، ولذا نرى (البان) يرفض حب القلب بقسوة
ولألبان هذا رأي غريب إلى حد ما. فهو يقول إن العالم خاضع لفلسفتين: فلسفة النساء وفلسفة الرجال. فالأولى تتمسك بالديمقراطية، أما الثانية - وهي التي يؤمن بها بعناد - فهي تتشبث بالماضي المجيد وبالقومية.
وفي قصة , (1924) نرى منترلان يبرر اهتمامه بالألعاب الرياضية إذ يعتبرها مرحلة من مراحل تحقيق الشخصية، على أن فكرته في علاقة الرياضة بتكوين الشخصية تتكرر بشكل أقوى بروزاً في قصة (مصارعي الوحوش) (1926). إذ يعرض لنا منترلان نوعاً من أنواع المخاطرة الجريئة، تلك التي يستهدف لها مصارعو الثيران بعرضها مصاغة في قالب بارع يدفعنا لاحترام أولئك المصارعين البواسل الذين يغامرون بحياتهم حباً في السيطرة وإظهاراً للقوة وامتحاناً لشخصياتهم التي لا تعتبر كاملة في نظرهم إذا عرفت للوجل معنى!
وقد كتب منترلان في هذه الفترة القصيرة من حياته الأدبية عدداً كبيراً من القصص أهمها عدا ما ذكرنا قصة (1927) (1928) (1929). وكانت آخر قصصه قصة (العزاب)
والآن قد يتساءل القارئ. كيف يبشر منترلان بقيمة الألعاب الرياضية ويخصص أدبه لخدمتها والدعوة لنشرها وهو الناقم على مظاهر العنف، الثائر على نظام الجندية والحرب، الداعي إلى الأخاء والمحبة والتعاون؟ ومنترلان نفسه يحس بالتناقض الظاهر بين طبيعته الثائرة المتمردة وبين نظام الألعاب الرياضية الذي يدعو إليه وما فيه من معاني الترف البرجوازي. على أنه يقبل ذلك كارهاً غير مرتاح الضمير. يقبله كوسيلة لتحقيق فلسفته التي ترى في الألعاب الرياضية - كما ذكرنا - وسيلة لإبراز الشخصية والسمو بها على سائر الشخصيات التي تحيط بها. والواقع أن منترلان قد أجاد تصوير فكرته بطريقة غاية
في الإبداع. فأنت تلمح من خلال شخصيات قصصه كيف تتفتح الشخصية وتسود حين يصبح صاحبها بطلاً من أبطال الرياضة. وكيف يغمر صاحبها النشاط والحيوية وعبادة البطولة التي تدفعه للاستهداف للموت راضي النفس مرتاح الضمير
وأدب منترلان اقرب إلى الرومانتيكية منه إلى الواقعية وهو في ذلك يقول (إن الواقع والحقيقة تقع عندي في المرتبة الثانية) وإذا كان كل كاتب لابد أن يتأثر بروح بعض من سلفه من الكتاب، فان بلزاك وشاتو بريان يطبعان أدب منترلان بطابع لا يمكن إنكاره وتناسيه
ويمتاز هنري دو منترلان بأسلوبه الرائع، فثروة الألفاظ وحسن اختيارها وأدائها، والموسيقى السامية التي تلبس عباراته فتعبر عنا يدوي بين أرجاء نفسه من النزعات والعواطف هي أظهر ما يميز فنه وشخصيته بين الكتاب الفرنسيين المعاصرين.
على كامل

العلوم
مدام كوري وقصة الراديوم 1867 - 1934
للأستاذ مصطفى محمود حافظ
مسيو ومدام كوري:
توفيت مدام كوري في صباح الرابع من شهر يوليو الحالي بعد أن نالت من النجاح في حياتها العلمية والعملية ما لم تنله أخرى من قبل، فانطفأ ذلك السراج المنير الذي أضاء سبيل بعض علماء العصر الحديث في الوصول إلى أخطر انقلاب علمي حديث، وهو النظرية الحديثة في تركيب المادة
ولدت ماري سكلود وفسكا في فارسوفيا عاصمة بولونيا في 7 نوفمبر سنة 1867، ولكنها نزحت عن وطنها الأول إلى وطنها الثاني فرنسا لأسباب سياسية. فذهبت تطلب العلم في السوربون، وقد اضطرها الفقر إلى الخدمة في معامل المعهد، فكانت تغسل الزجاجات وأنابيب الاختبار لتنال من ذلك ما يساعدها على تسديد نفقات التعليم تعرفت بالمسيو (بير كوري) الذي كان يعمل في السوربون هو الآخر، وقامت تساعده في أبحاثه التي كان يقوم بها في ذلك الوقت في الكهربائية وخواص الأجسام المغناطيسية في درجات الحرارة المختلفة. وقد انتهى بها هذا الارتباط الذي ابتدأ في المعمل إلى الزواج به سنة 1895. وقد ظلا يعملان معاً أحد عشرا عاماً توصلا فيها إلى الكشف عن عدة عناصر أهمها (البولونيوم) و (الراديوم). وقد كشف الأستاذ الفرنسي (بيمون) عن وجود عنصر الراديوم مستقلاً عنهما، ولكن اسمه لا يكاد يقرن باسميهما عند الكلام عن الراديوم إلا في القليل النادر
قصة الراديوم:
لم يكن الكشف عن الراديوم من هذه الاكتشافات التي أتت عفواً وكاد مكتشفها يتعثر فيها أثناء سيره في عمله، كما حدث للأستاذ الألماني (رُنْتجن) عند كشفه عن الأشعة التي تعرف باسمه؛ ولا من تلك الاكتشافات والاختراعات التي كأنه قد أوحي بها إلى أصحابها، كما حدث للأستاذ (ويلسون) عند تفكيره في صنع (الغرفة القائمة)، وهي الجهاز الذي
يمكننا من رؤية مسار الدقائق المتحركة التي لا يمكن رؤيتها بالعين ولا بأقوى ميكروسكوب. بل كان من هذه الاكتشافات التي عمل لها أصحابها وكانوا يتوقعونها نتيجة لأبحاثهم الرياضية أو الطبيعية، كما حدث عند البحث عن السيار (نبتون) فقد رآه (لفرييه) بالرياضة قبل أن يراه (جال) بتلسكوبه
إذن لابد أن يكون قد سبق الكشف عن الراديوم دراسة بعض الظواهر التي مهدت السبيل لظهور هذا العنصر، وهذا ما أود أن أسرده الآن مرتباً ترتيباً تاريخياً في سنة 1895، وهي السنة التي ارتبط فيها (الكوريان) بالزواج، كان الأستاذ (رنتجن) يمرر التيار الكهربائي في الأنابيب المفرغة تقريباً من الهواء، وهي المعروفة بأنابيب (كروكس)، وذلك للكشف عن أشعة غير مرئية للعين. فلاحظ أن لوحاً مغطى بطبقة مومضة - وقد وضع عفواً بجوار الأنبوبة - قد تألق وأومض وهو في الظلام. فإذاانقطع التيار انقطع الوميض. هذا الوميض يحدث لمواد معينة إذا سقطت عليها أشعة الشمس، وبالأخص ما كان منها بعد البنفسجي، وامتصت جزءاً من الطاقة الضوئية، ثم آخذت إلى الظلام. فالطاقة الممتصة تنطلق ببطء، وتومض المادة حتى تزول الطاقة المخزونة. يحدث هذا إذا عرضت هذه الأجسام إلى أشعة الشمس، ولكن لوح (رنتجن) لم يتعرض تعرضاً مباشراً لأشعة الشمس ولا للأشعة الخارجة من أنبوبة (كروكس) لأنها كانت مغطاة بورق أسود يمنع نفاذ كل الأشعة التي كانت معروفة في ذلك الوقت، ولكن ما دام اللوح قد أومض فيجب أن يكون (رنتجن) قد توصل إلى أشعة غير معروفة من قبل ويمكنها النفاذ من الأجسام المعتمة، وقد سماها رنتجن (أشعة اكس) أو (الأشعة السينية) أو (الأشعة المجهولة). ولكن عدم معرفته لكُنه هذه الأشعة لم يمنعه وغيره من دراسة خواصها، فعرف أنها تخترق الصفائح الرقيقة المعدنية، وأن مقدار نفاذها من هذه الصفائح يختلف باختلاف المعادن نفسها، وأنها تؤثر على الألواح الفوتوغرافية وتلقي عليها ظلالا للأجسام المعتمة التي توضع بين مصدر الأشعة واللوح الفوتوغرافي، وأنها تجعل الغازات موصلة للكهرباء، وأنها تضيع شحنة الأجسام المكهربة

هذه هي نتائج التجارب الأولى التي أجريت على (أشعة رنتجن) في أواخر سنة 1895، وفي السنة التالية فكر أحد علماء فرنسا وهو الأستاذ (هنري بيكرل) في شيء آخر وهو:

إذا سقطت (أشعة رنتجن) على جسم مومض فانه يومض ويتألق، فهل العكس صحيح؟ هل المادة بعد تعرضها لأشعة الشمس ثم تركها تومض في الظلام، تخرج (أشعة اكس) أو أشعة نفاذة مثلها؟ للاجابة على ذلكالسؤال اشتغل (بيكرل) بأملاح الأورانيوم المومضة، فتركها في الشمس مدة ثم لفها في ورق أسود ووضعها في الظلام بجوار لوح فوتوغرافي، فوجد بعد مدة أن اللوح قد تأثر. إذن هناك أشعة خرجت من ملح الأورانيوم المومض ونفذت من الورق الأسود، فهي كأشعة رنتجن في ذلك، وقد وجد لها أيضاً بقية الخواص المعروفة لهذه الأشعة. ولكن استمرار البحث بّين له أن هذه الأشعة الخارجة ليس لها علاقة البتة بالوميض كما كان يعتقد. فالوميض يضعف عادة مع الوقت، ولكن هذه الأشعة النفاذة لم يكن ليعتريها الضعف بمقدار محسوس. أذاب الأملاح المومضة وبلْوَرها في الظلام دون تعريضها لأشعة الشمس فوجدها تخرج نفس الأشعة. أخذ أملاح الأورانيوم غير المومضة فوجدها تخرج نفس الإشعاع النفاذ.

جاءت بعد ذلك الخطوة الثالثة التي كان من نتيجتها الكشف عن (المواد المشِعّة) أو المواد الراديومية

انقسم العلماء بعد تجارب (بيكرل) إلى فريقين: الأول ذهب يبحث عن ماهية الأشعة التي تصدر من أملاح الأورانيوم، والثاني يبحث عن مواد أخرى لها نفس خواص أملاح الأورانيوم، وقد تزعم هذا الفريق (مدام كوري) وزوجها، بعد أن أبدت رأيها في مبحث الفريق الأول من العلماء بأن قالت: إن (الفعل الإشعاعي) لأملاح الأورانيوم راجع إلى خاصية في المادة لم تعرف بعد ولا تشبه في ذلك أشعة رنتجن.

وأول ما وصلت إليه (مدام كوري) في بحثها أن إشعاع أملاح الأورانيوم (خاصية ذرية). أي أن مقدار الإشعاع يتوقف على مقدار الأورانيوم أو عدد ذرات العنصر الموجودة في المادة المختبرة، وليس له أية علاقة بالمواد الأخرى الداخلة في تركيب الملح. وإلى ذلك يعزى سر نجاحها في الكشف عن مادتين مشعتين أخريين

وجدت بقياس الفعل الإشعاعي لبعض المواد التي تحتوي الأورانيوم أن قوة إشعاعها تفوق ما ينتظر أن يكون، على حساب أن الموجود في المادة أورانيوم فقط. فلو كان الفعل الإشعاعي (خاصية ذرية) كما وجدت هي فلا بد أن توجد مادة أخرى أقوى في فعلها

الإشعاعي من مادة الأورانيوم نفسها. وعلى هذا الأساس بدأت (مدام كوري) تعمل لكي تفصل هذه المادة الجديدة. وقد شجعتها حكومة النمسا على المضي في بحثها بأن أهدت إليها طناً من المعادن المحتوية على أملاح الأورانيوم المستخرجة من (بوهيميا) الموجود في الخامات، ولكنها وجدت أن الباقي كان أشد فعلاً وإشعاعاً من مقدار الأورانيوم المستخرج بأربع أو خمس مرات. فاستخرجت ملح البزموث الموجود في الخامات فوجدته متحداً مع مادة فعالة مشعة سمتها (بولونيوم) نسبة إلى وطنها الأصلي (بولونيا). ثم استخرجت ملح الباريوم الموجود فيما تبقى من الخامات فوجدته متحداً مع مادة مشعة أخرى سمتها (راديوم) أو (المشِع)، وهي تسمية موفقة، لأن هذه المادة الجديدة تفوق في إشعاعها (الأورانيوم) بمقدار مليوني مرة إذا قورنت به وزناً بوزن. وقد أعلنت (مدام كوري) عن هذا الاكتشاف العظيم في رسالة قرأتها أمام (أكاديمية العلوم) في باريس سنة 1898

وقد أثارت رسالتها الرغبة في نفوس كثير من العلماء للبحث عن ماهية الأشعة المنطلقة ذاتيا من المواد المشعة، وقد كان من قادة هذا البحث سير (جوزيف تومسون) وسير (إرنست رثر فورد) (وهو الآن لورد رثر فورد). فام تأت سنة 1900 حتى كان من المعروف أن هناك ثلاثة أنواع من الإشعاع تصدر عن المواد الراديومية.

الأول - أشعة لا تقدر على النفاذ من ورقة رقيقة، وقد سميت (الأشعة الألِفية). وقد درسها (رثر فورد) في المدة الواقعة بين سنة 1903، 1909 فعرف أنها ليست أشعة بل دقائق متحركة بسرعة كبيرة، وأنها مشحونة بشحنة كهربائية موجبة، وأنها عبارة عن ذرات غاز الهليوم الذي تملأ به المناطيد الحديثة. وقد استخدم (رثر فورد) هذه

الدقائق كقذائف يرمي بها الذرات فيحطمها، وكان من نتيجة بحوثه في ذلك أن وضع النظرية الذرية الحديثة، القائلة بأن الذرة عبارة عن نواة متركزة في الوسط موجبة التكهرب، يدور حولها الكترونات سالبة.

الثاني - أشعة يمكنها النفاذ من ألواح من الألومنيوم سمكها بضعة مليمترات، فهي أكثر نفاذا من الأشعة الألفية وقد سميت (الأشعة البائية). وفي سنة 1899 تمكن (بيكرل) و (جيزل) و (كوري) من معرفة أن هذه الأشعة تنحرف بتأثير المجال المغناطيسي، فهي ليست أشعة بل دقائق كهربائية سالبة.

الثالث - أشعة أشد نفاذا من سابقتها كشفها (فيّار) في سنة 1900، وسميت (الأشعة الجيمية) ويمكنها النفاذ من 15 بوصة من الصلب أو 6 بوصات من الرصاص. وهي من نوع أشعة رنتجن.

وفاة بير كوري:

انهالت على (الكوريين) التهاني والأسئلة بعد كشفهما عن الراديوم. وفي سنة 1903 منحتهما الجمعية الملكية بلندن مدالية (دافي). وفي نفس السنة قسمت جائزة نوبل للعلوم الطبيعية بينهما وبين (هنري بيكرل). وقد عين (كوري) أستاذاً للطبيعة في السوربون، واختير في سنة 1905 عضوا في (أكاديمية العلوم) بباريس. وبعد ذلك بعام واحد، بينما كان خارجا من الجامعة، صدمته عربة ومرت عليه فقتلته لساعته. وقد أثر ذلك في زوجته حتى خيف أن تترك الاشتغال بالعلوم بعد تلك الفاجعة، ولكنها تشجعت واستعانت بذلك الصبر الذي لازمها في أبحاثها العلمية الشاقة. وقد عينت أستاذة للطبيعة في السوربون مكان زوجها.

وقد تمكنت (مدام كوري) من فصل عنصر الراديوم من أملاحه، وهي عملية شاقة لأنه سريع التحول إلى الإيدروكسيد، وعينت وزنه الذري فوجدته 225، ولكنها تمكنت بعد ذلك من تصحيحه إلى 226 , 2، ثم وجده (ثورب) 227. وقد نالت من أجل ذلك جائزة نوبل في العلوم الكيماوية، وبذلك تكون قد نالت جائزة نوبل مرتين وهو ما لم يظفر به عالم من قبل.

تأثير الراديوم في خلايا الجسم:

استخدم الراديوم في بحوث نظرية وعملية. ومن النظرية الكشف عن كيفية تركيب المادة وتحطيم الذرة. كذلك تقدير عمر الكرة الأرضية بالاستعانة بما يوجد من الراديوم بين الصخور فانه يتحول ذاتيا إلى مواد أخرى تنتهي بالرصاص بنسب معينة في أزمنة معينة. ومن البحوث العملية التي يستخدم فيها الراديوم معالجة بعض الأورام الخبيثة مثل (السرطان). وأول من عرف تأثير الإشعاع الخارج من المواد المشعة على جلد الإنسان

وخلاياه هو (بيكرل) في سنة 1901. ولكنه دفع ثمناً لذلك التهاب جلد صدره زمناً طويلا. فقد كان يحفظ أنبوبة صغيرة بها مواد مشعة في جيب صديريته، فأصيب في مدة أربعة عشر يوما بالتهاب جلدي حاد تحت موضع الانبوبة، سمي (حرق بيكرل) ومنذ ذلك الوقت بدأت البحوث تتري في تأثير الراديوم على الخلايا المريضة في الجسم، فافتتح في سنة 1906 في باريس (المعمل البيولوجي للراديوم). وفي سنة 1909 افتتح مركز يماثله في لندن ولكن لا يزال النجاح غير كامل في استخدامه للعلاج، وان كان موثوقا به في الأضرار بالخلايا السليمة إذا أسيء تعريضها إليه.

وفاة مدام كوري

ظلت (مدام كوري) تحاضر في السوربون، وتجري بحوثها العلمية حتى هذا العام. فأصيب بفقر في الدم وانتقلت إلى مصح حيث ماتت في الساعة الرابعة من صباح 4 يوليو سنة 1934 بعد أن خلدت اسمها في صحائف المجد.

وقد خلفت (مدام كوري) وراءها ابنتها مدام (جوليو) زوجة العالم الفرنسي الأستاذ (جوليو). وهي كوالدها شغوفة بالبحوث العلمية، وهي تسلك نفس الدرب الذي شقه والداها من قبل. فقد أجرت مع زوجها في سنة 1931 بعض تجارب في إطلاق (الدقائق الألفية) على عنصر (البريليوم) مما كان من نتيجته الوصول إلى معرفة أحد الأحجار البنائية في الكون وهو (النترون). فان لازمهما التوفيق فسيكون للعلم (مسيو ومدان كوري) آخران.

مصطفى محمود حافظ
مدرس بمدرسة المعلمين بامبابه
القصص
من الواقع
طارق الليل
للأستاذ أديب عباسي
كان ذلك في ليلة من ليالي الحرب الكبرى وفي شطرها الأخير، وكنا يومئذ لا نعلم من أهوال ذلك الصراع العنيف إلاّ ما يستطيعالصغار - وما رُكّب في رءوسهم من عقول محدودة - أن يعلموا. فلم تكن الحرب عندنا إذ ذاك إلا تلك القترة وذلك الوجوم يعلوان وجوه الكبار، وإلا ذلك القلق المقيم في اللحاظ، وتلك الهمسات يتبادلونها فيما بينهم، ولا يئُون في التلطف حيناً والمخاشنة حيناً آخر، ليصرفونا عن الاستماع والإصغاء إليها. ولكنها كانت محاولات فاشلة، إذ ليس شيء أعلق بنفوس الصغار وأخلب للبّهم وألصق بخيالهم وأدعى لفضولهم من حديث يتسارُّ به الكبار فيما بينهم، ثم يُراد لهم ألا يُلمُّوا منه بشيء. فكنا - لنرضيهم ونأمن مناكدتهم - ننأى ونصد عنهم لاعبين ظاهراً، وننكفئ عليهم بالسمع نرهفه لنلتقط ما يتسارُّون به ويتهامسون. فلم يكن يفوتنا شيء من أحاديثهم عن الحرب، وما يقدرونه لها من استطالة، وما يترقبون من مفاجآت، وما يخشون من عواقب، وما يتوجهون به من عطف، وتمنى الانتصار لهذه الدولة أو لتلك.
على أن أظهر ما كان يبدو من آثار الحرب هو ما كنا نلمحه من مظاهر الفاقة والحاجة إلى الغذاء؛ وهو أثر ليس للتجمل والابتسام المقسور عليه حيلة. فالحزن والغضب، والحب والفرح، والبغض والعطف، والكره والحقد والخوف، جميعهاً يستطيع المرء بالمران والممارسة أن يروض نفسه على إخفائها، بل والظهور معها في عكس مظاهرها الصحيحة. ولكن الجوع إذا أزمن لا يستطيع وجه أن يخفيه مهما رُزق صاحبه من قدرة على الإخفاء وحيلة في التمويه.
أقول: كان هذا أكثر مظاهر الحرب بُدُوّاً عندنا وأشدها بروزا: وماذا ينتظر ممن كان في سننا وفي مثل خبرتنا غير هذا؟ وهل كان بوسعنا أن نستشرف من حوادث ذلك النضال غير هذا الأثر الذي لم يستجد علينا مع الحرب غيره؟ في الحق أننا لم نكن نعي من معاني
تلك الحرب في ذلك الحين سوى أنها شدة تقاسي فيها المعدة وتوابعها أشد ما يقاسي، وهي نظرة لم تكن من الضحولة وقرب الغور على قدر ما حسبنا لها فيما بعد، حينما بدأنا نقرأ عن الحرب في بطون الكتب وفي ثنايا الخطب! وهذا في الحق مما يُحسب للطفولة من بداهة مسدَّدة وإلهام صادق. ومن منا يشك بأن أقسى ما قاساه الناس عموماً في الحرب هو الجوع، حتى بين الجنود الذين كانت تشويهم نيران المدافع وتجزّئهم قذائفها!
أوينا إلى فراشنا ليلتئذ على هدهدة قبضة من الأخبار المتناقضة عن الحرب مما ترشَّح إلى البلدة النائية. وكنا نتلقى هذه الأخبار في كثير من الاستمتاع واللذة. وما هو إلا أن أغمضنا أجفاننا حتى نُقلنا من عالم الواقع المنغص إلى عالم الأحلام والرؤى اللذيذة: من عالم الحرمان إلى عالمالرغائب المحققة والمتع الدانية. فكان لنا من شهي الحلوى التي حرمتنا الحرب ما نشتهي، ومن طريف اللعب التي غابت مع الحرب ما نختار. على أنها كانت لعباً من نوع آخر غير الذي ألفنا. فهي لعب صورها مشتقة ومؤلفة من الأوصاف التي كانت توصف بها أدوات الحرب يومئذ: طيارات تئز في الفضاء، وسيارات تنهب الأرض وتتخطف الأميال، ودبابات تجوز الوهاد وتتخطى العقبات، وأمور أخرى شتى. وكنا في يومنا يشنُّ بعضنا الغارات على بعض، وسلاحنا هذه الأدوات التي أعارها لنا الخيال، فلم يكن يكلفنا اقتناؤها جهداً ولا نقدا، إلا أنها متع لم تدم، وأحلام رُوّعت؛ فقد هببنا مذعورين بعد موهنٍ من الليل على طرق يُوالي دراكاً على باب أحد الجيران. وأصخت بملء جوارحي أتبين ضوضاء السيارات وقعقعة المدافع، ورغاء الطيارات، فيتصل ما بين يقظتنا والمنام: وهي الصورة التي تبادرت حالاً إلى الذهن بعد ذلك الليل الحالم وبعد تلك الانكسارات والانتصارات التي عالجناها نياماً.
وأطللت فيمن أطلَّ من خصاص الباب نتبين الأمر ونجتلي الواقع، وكلٌّ في ذهنه - على

ما أقدّر - صورة تباين ما في ذهن الآخر تبعاً لأول بوادر الخيال المروَّع والبداهة المجفلة. ولم نلق صعوبة في تبين الطارق؛ فقد كانت ليلة قمراء فائضة النور كشفت لنا عن شخص في بقية أثواب لا ينفكّ يقرع الباب بجُمع يده قرعاً فيه عنف وفيه شدة، يصيح بين الفينة والفينة في نبرات شديدة يطلب فيها فتح الباب ممن كان وقتها وراء الباب

أما صاحبنا الذي كان الطارق يقصده بالطرق، وبهذه الصيغة الآمرة بفتح الباب، فقد ذهب

به الخيال مذهباً آخر. وهل يتجه في مثل هذا الحال إلى غير اللصوص خيالُ من امتلأت صناديقه بالذهب وفاضت بالأصفر الرنان؟ إن صاحبنا كان على ثروة لا بأس بها في مثل ذلك العهد. فقد كان صاحب مطحنتين، وكان لا يتخلّى عن صاع القمح بأقل من خمسة مجيديات، ليس من طمع أو جمود عاطفة كما كان يقول، بل لأنه حلف حلفة لا يبيع الصاع بأقل من هذا المقدار!! فكانت تجيئه المرأة وبيدها الخمسة مجيديات تنقص بضعة قروش تروم بها دفع أجور الطحين في مطحنته، فيبادرها بهز الرأس مشيراً في أسف إلى يمينه التي أقسم والتي ستجرُّه إن هو حنث بها إلى الجحيم!

أيقن صاحبنا إذن أن لصاً شديداً جاء يقتحم عليه الدار عنوة، وإذن فليتحصن ما تيسر له أن يتحصن، وليتخذ من العدَّة كل ما يستطيع من عدة، وليضع من الصناديق وراء الباب ما يضع، وليأخذ بيده مسدسه محشوا، وليوسط بينه وبين الباب أمه العجوز يتترَّس بها، ففي جسمها الدسم الغني بالشحم واللحم، وفي قامتها العريضة المديدة وقاء له إذا هم هذا الواغل بشيء من خلف الباب، وتشجع صاحبنا المحاصَر ونادى يصوت كالحشرجة: مَن الطارق؟! من الطارق؟! فجاءه الجواب زيادة في الطرق ولجاجة في النداء والطلب. وتكرر السؤال الذي جعله الرعب على وتيرة واحدة، وتكرر الجواب الذي جعله الاصرار على وتيرة واحدة أيضاً.

وقال كبيرنا: ليس هو باللص الذي يخشى. وعهدنا باللصوص لا يقتحمون المنازل على السكان، بل هم يتسلّلون إليها في غفوة من الناس وغفلة من الحراس. وهو كذلك ليس بالسائل والعهد بالمتسولين يقرعون الأبواب قرعاً خفيفاً في أبصار غضيضة، ورؤوس منكسة، وأصوات خفيضة لا تكاد تبين، إلا الأغرار منهم الذين لم يجربوا ولم يعرفوا من طباع البشر ما يعرف المتسولون المجربون.

ولم نشأ أن نطيل الحدس والتخمين، فتوجه كبيرنا إلى الطارق وسأله في جفاء ماذا يريد في ذلك الهزيع من الليل، ولم ذلك القرع العنيف والنداء الصاخب؛ فأجاب في نظر شارد وفي غير أناة:

لقد مضى علي ثلاثة أيام لم أطعم طعاماً، فأوشكت أن أهلك وقد طرقت فيمن طرقت حياً من أحياء الأعراب المخيمين في ضاحية البلد الجنوبية على بعد غلوتين أو ثلاث، فوصفوا

لي هذه الدار من البلدة، وقالوا انك واجد هناك قوتاً ومأوى ليلتك هذه، وعساي لم أخطئ الاستهداء.

وهم كبيرنا ليدخله بعد الذي عرف من أمره دون أن يزيد في سؤاله، فينال بعض الطعام ويبيت ليلته. غير انه حدث في هذه اللحظة ما راعانا جميعاً: ذلك أن صاحبنا المحاصر، بعد أن أنس إلى أصواتنا ولهجة الحديث الذي دار بيننا، وأيقن أن الأمر من الخطورة على غير ما توهم وجسم له الخيال الزائغ. ففتح الباب بعنف ظاهر، والمسدس يلمع في قبضة يده والعصا في قبضة يده الأخرى، ولم يتريث لنوضح له جلية الأمر، بل أقبل على المسكين بهراوته الثقيلة وانهال يكيل له بلا حساب حتى كاد يقضي عليه بين أيدينا، لولا أن لطف المولى وتداركه برحمته فسقط مما ناله بين أيدينا التي جعلنا منها شبه حاجز بين عنف الرجل المهاجم وضعف هذا الطارق. ولم يستطع صاحبنا معها أن يستعمل العصا فاندفع يكيل له بقبضة يده حيثما وجد سبيلاً إلى ذلك من بين أيدينا. وأدرك كبيرنا أي شيء يصير إليه الرجل إذا لم يحل حيلولة تامة بينه وبين مهاجمه المحنق، ولم تسعفه سنه من أول الأمر في تخليص الرجل، فلجأ أخيراً إلى أسلوب فيه شيء من القسوة، ولكنه الأسلوب الذي لم يكن بالإمكان ارتجال ما يفضله في هذا الظرف الحرج. فقد أمسك بتلابيب الرجل وجره إلى حيث استطاع أن يوقيه من لكمات مهاجمه الذي أراد أن يثبت لنا بعد ذلك الموقف من

الجبن أنه على شيء كثير من اليأس والأقدام
وبعد أن هدأ روع الرجل وتناول بعض الطعام أقبلنا نلومه مشفقين، وسألناه ما شأنه ولِمَ لم يختر له غير ذلك الأسلوب الغريب للاستجداء واستدرار العطف. فأجاب عن أسئلتنا جميعاً بقوله:
إنني جندي من فلول الجيش التركي في فلسطين، طوح بي السير إلى هذه البلاد بعد أن نال مني الجوع والتعب أقصى ما ينالاه من حي. فقد كنت لقلة خبرتي بالطرق أسير من البلد الواحد أبغي بلداً آخر فانتهى غالباً حيث أبتدئ، وأبتدئ حيث أنتهي. وكنت حيناً أصيب طعاماً أو شيئاً شبيهاً بالطعام وأحياناً أمضي ساغباً أياماً لا يخالط الماء في جوفي شيء من الزاد، وآخر عهدي بالطعام - كما أخبرتكم - كان منذ ثلاثة أيام. فقد استجديت واستجديت، مصطنعاً كل أساليب الخشوع وأنواع الضراعة، ولكن في غير طائل. وأخيراً
وصلت ذلك الفريق من الأعراب فوصفوا لي هذه الدار، فآليت لا أصبر زيادة عما صبرت فإما شبع يرد إلي الحياة، أو موت أرتاح معه من ذلة السؤال وآلام الجوع. وعوّلت على أمر. قلت أبادر أصحاب الدار بالعنف والصياح: فان كانت فيهم بقية من رحمة وآثار من إنسانية لم يمنعهم صياحي إذا ما شاهدوا ما أنا فيه، من الرثاء لحالي والجود على بشيء. وان كانت الأخرى وكانوا كبقية الناس نالني منهم ما أرجو معه أن أضع حداً لهذه الحياة المثقلة. وحياة الجندي - كما قد تعلمون - لا تساوي في هذه الأيام شيئاً، ولا تعسر على أحد، ولولاكم - جزيتم خيراً على كل حال - لكانت هذه آخر ليالي من الشقاء.
ولحظت عند هذا الحد من حديث الرجل الدمع يجول في عينيه بين متحير ومتحدر، يهبط به الحزن لحظة، وتكفكفه الرجولة أخرى. وكأنه آنس مني عطفاً صادقا عليه وإشفاقا على ما صار إليه، فأقبل علي يحدثني ويبثني شكواه. وأغلب اليقين أنه لم يكن يعتقد أنني مدرك إلى أي الأغوار والأعماق النفسية تنحدر آلامه وأشجانه. إلا أن ذلك لم يكن يمانعه قط عن الحديث. والمرء إذا زخرت نفسه بالألم وأترعها الحزن تحدث إلى كل شيء، تحدث إلى نفسه، تحدث إلى سواه، تحدث إلى الأطفال، تحدث إلى الحيوان، تحدث إلى الجماد، تحدث إلى لا شيء، فكأن المرء في ذلك الإناء يمتلئ فيفيض بالزائد على ما حوله.
كشف الجندي عن صدره وأراني أثر جرحين أو ثلاثة، وكشف عن ساقه وأراني مثل وشرع يقول: أترى يا ولدي؟ هذا بعض نصيبنا من هذه الحرب. هذا بعض ما أصابني. ولكنني كنت كلما أصبت أتغلب على آلامي وأتحامل على نفسي فألوذ بربوة أو اهبط حفرة تقيني زيادة الأذى إلى أن ينصرف العدو أو يزول الخطر، فأقوم إذا كنت قادراً، أو أحمل إلى حيث أعالج، لأعود إلى القتال أمضي عزيمة وأشد بأساً. ولكن الزمن - يا بني - والجوع والخذلان، قد ذهبت بالكثير من قوانا وصبرنا، فعدنا لا يهمنا أكنا في الطليعة أم في المؤخرة. وأخيراً رأيتني على غير إرادة مني أتخلف عن الجيش وأهيم على وجهي في غير قصد أو اتجاه، إلى أن انتهى بي المطاف إلى هذا البلد ثم هذه الدار، فنالني ما نالني على يدي ذلك العلج الذي كاد يميتني بهراوته. . . أهذا يا ولدي جزاء هذه الجراح؟ أهذه خاتمة الجندي الذي يدفع عنكم عدوان الأعداء بدمه وحياته؟! إنني من غدي مسلم نفسي إلى أقرب سلطة عسكرية تفعل بي ما تشاء. ذلك خير لي وأبقى.
والتفت إليه عند هذا الحد من حديثه وخاطبته متحمساً:
نعم! ذلك أفضل يا عماه. لو كنت محلك ما فعلت غير هذا. انك هناك لا تضرب بالعصى على ما أعتقد ولا تجر على الأرض:
ونظر ألي المسكين نظرة ذاهلة حزينة وقال:
نعم يا بني، سوف لا يضربونني بالعصي، لأن العصي ليست جزاء من يتخلف عن واجبه في الجندية! إنما هي قطع من الرصاص صغيرة يدفنونها في أحشائنا أو يولجونها في رؤوسنا، فنضحي وكأن لم نكن. ولكن يميناً غموساً لن يحول هذا دون ما أنا عازم عليه من غدي!
وخُيل إلى كأنني أدركت معنى هذا الكلام الغريب فراعني من الرجل هذا العزم، ونظرت إليه في رعب ظاهر وذعر متوسل، وبعد لحظة من الصمت خيل ألي فيها أن

الرجل يتذكر أموراً ويستعيد صوراً رفع عينيه وقال:
كلا يا ولدي الصغير! كلاّ! سأجاهد إذاً في سبيل الحياة، سأحاول أن أعيش. إن لي صغيراً في سنك. لقد نسيته حينما أقسمت، ولكنني الآن أذكره. انه ينتظرني الآن: ينتظر أن يطوقني بيديه الصغيرتين. سأعيش، سأعيش
وانحدر الدمع المعلق في مقلتيه منذ حين، وذهب يسير في أخاديد وجهه المجعد. وكان بعضه يقع على الأرض وبعضه الآخر تتلقاه كفه وفيها قِدّة من القماش أخذها من بقية قميص على صدره
وعدت إلى فراشي وليس أقر مني عيناً، وليس أدمي مني قلباً كذلك.
أديب عباسي
المغفل المخدوع
إذا أصيب الرجل بداء الغفلة فقد الثقة من نفسه، وعاد لا ينظر بعينه، ولا يسمع بأذنه، (ولا يفكر بعقله)
أولع ملك من الملوك بالجديد من الثياب، فكان يتأنق في لباسه التأنق كله، وأصبح لا يرى اللذة إلا في الأغراب فيه، وكثرة الإنفاق عليه، وما كان يعبأ بعد ذلك بأمر أمته، فترك الجند هملاً، وهم حصن الأمة وسلسلتها الفقرية، واحتقر علماء الدنيا والدين، وهم مصابيح الكون يضيئون الحياة؛ ويبصرون الناس بسبلها المعوجة وطرائقها العجيبة. وكان لا يذهب إلى التمثيل حباً فيه، وإنما ليعرض على الناس زخرف ملبسه وجميل هندامه، وكان لا يخرج للنزهة ترفيهاً لأعصابه واستمتاعاً بجمال الطبيعة، وإنما ليدهش من يقابل، ويثير فيه عاطفتين: العجب من تأنقه، والإعجاب بذوقه.
مرت الأيام هادئة في حاضرة الملك الواسعة، وأخذ يأتيها الناس من كل فج عميق. وفي ذات يوم قدم إلى الملك لصان متشردان، ضربا في فنون الاحتيال السهم، وذهبا في صنوف الخداع كل مذهب، وتظاهرا أنهما أستاذان مبرزان في النسج والحياكة؛ فأقبل عليهما الملك بسمعه وبصره. ثم قالا له: (أيها الملك المعظم، إنا نريد أن نقدم لك خدمة جليلة، إذ أنت بها خليق، وهي بك أنسب، إنا نستطيع أن نعد لك ثوباً شفيفاً جميلاً لا يراه عليك ألا من كان مخلصاً لك، معجباً بك، أو كفؤاً في عمله، قديراً عليه).
فتهلل الملك واستبشر وقال: (لله دركما يا صديقي، ما أكرمكما وما أجمل صنيعكما، إنني ولا شك أصبح بما تنسجان وتحوكان بصيراً بأحوال الخلق جميعاً، فأعرف من كان لا يحسن عمله، ولا يصلح للقيام بما وكل إليه، وأعرف كذلك المخلص من المخادع المداهن، فأبدأ من الساعة بهذا العمل الخطير، وأنا أعرف كيف أجزل لكما العطاء).
ثم أمر الملك أن يعطيا مبلغاً كبيراً من المال، وأخلي لهما قصر رحيب على مقربة من قصر الملك، ثم انتشر الجند حوله يحرسونهما من اعتداء المعتدين (من غير المخلصين وغير الأكفاء!)
جلس اللصان المحتالان في القصر الجديد، ونصبا المناسج والأنوال، وتظاهرا بالجد في العمل، والمثابرة التي لا تعرف الملل، وطلبا من الحرير أرقه وأنعمه، ومن الخيوط الذهبية أدقها وأنقاها، فجئ لهما بما أراداً ولما انفردا في المكان وضعا الحرير والخيوط وما أخذاه
من المال في حقيبتيهما، وجلسا إلى مناسجهما القائمة يديرانها على لا شيء، لا خيط عليها ولا قطعة حرير، يديرانها بهمة غير محدودة الليل كله، والملك في قصره ساهر يسمع أزيز المناسج والأنوال، وهي لا تضعف ولا تخمد. وأخذ النعاس يغالب جلالته حتى غلبه وأخضعه لسلطانه، ولم ينزح عنه حتى تنفس الصبح، وجلا الليل جلاء تاماً، فقام الملك مسرعاً إلى نافذته، تواقا إلى معرفة ما قد تم، وأخذ يقلب وجوه الآراء فيمن يبعث، فقر رأيه على رئيس وزرائه، وما كان أخلص منه ولا أكفأ في نظر الملك.
كلف الوزير الأكبر بهذه المهمة الشاقة، فانطلق في سبيله واثقاً من نفسه، ودخل على الدجالين الكاذبين فوجدهما يتصببان عرقاً، ويديران المناسج الفارغة بالقوة والعزم اللذين يميزان عمل المخلصين المصممين على النجاح، فدهش الوزير الجليل وقال في نفسه: (ماذا أرى؟ أيمكن أن أكون غير مخلص للملك أو غير جدير بمكانتي الاجتماعية العالية؟ أيمكنأني لا أرى ولو قطعة صغيرة من الخيط أو الحرير على هذه المناسج القائمة الدائرة. لله ما أشقاني!) ثم صدر من اللصين سؤال قطع عليه تفكيره الصامت، إذ طلبا منه أن يقترب قليلاً من المناسج ويخبرهما برأيه في اتساق

الألوان، ودقة التطريز وجمال الأشكال، ثم أشارا في الوقت نفسه إلى مناسجهما الفارغة.

اقترب الوزير الخطير ووضع منظاره على عينيه ليري ما لم تبصره عينه المجردة. نظر فلم ير شيئاً. ثم رجع البصر كرتين فعاد البصر إليه خاسئاً وهو حسير. اتهم الرجل نفسه وكفايته ودب الحزن في قلبه. وقال في نفسه: لا لا! لا يمكن أن يعرف الناس عني أنني غير مخلص أو غير كفء، ولن أعترف أبداً أني ما رأيت النسيج الشفاف.

لم يكد السيد الرئيس يفرغ من خاطرته المشجية المضحكة حتى فاجأه أحد المحتالين بقوله: (سيدي، يظهر أنك لا تبصر محاسن ما قد صنعنا.) فأجابه الوزير: (لا أبصره!! ومن ذا الذي يستطيع الإبصار اذن؟ ما أبدع ما أرى وما أدقه، بنفسي تلك الألوان المتسقة. وهذه التصاوير الرائعة. و. . و. . . نعم سأخبر الملك سريعاً بهذا البدع وهذا التفنن) فشكره اللصان شكراً جزيلاً على حكمته وكفايته. وأخذا يشرحان له الأشكال المختلفة الموهومة. ويذكران أسماء الألوان. ويبينان مواضع الحسن في ذلك القماش الخيالي. والوزير يصغي إليهما ويهز رأسه لبعض ما يسمع حتى يسرده على الملك عند عودته حرفا بحرف

رجع الوزير والهم حليفه إلى الملك، وأخذ يصف ذلك الجمال الذي سمعه بأذنه. وعجز عن رؤيته بعينه. والملك يترنح عجباً وسروراً. وفي اليوم التالي بعث الملك ضابطاً من ضباطه الذين سمعوا وصف الوزير وإعجابه بما شهد. فذهب الرسول ولم ير من المناسج إلا خشبا قائما لا شئ فيه. ولكنه اتهم عينيه واتهم كفايته وأخذ يفكر تفكيراً هو الحريق الداخلي ويقول لنفسه: (لا شك أني غير كفء لمكانتي ذات الأجر الكبير. أف ما أتعسني! كيف أعجز عن إبصار ما رآه السيد الرئيس وافتتن به؟ لا يجوز أن يعلم أحد عني ما أعلمه الآن من نفسي.) ثم ارتفع صوته فجأة بالإعجاب والمديح، وعاد إلى الملك يبالغ في الثناء. فازداد الوزير (وكان حاضراً) اتهاماً لنفسه وكفاءته. وسر من كذبه الصالح. ثم عزم الملك على زيارة تلك المناسج العجيبة. فقام مع حاشيته ورئيس الوزراء والضابط الممتاز وذهبوا إلى اللصين جميعاً

دخلوا حجرة اللصين فصاح الوزير الأكبر صيحة العجب والإعجاب: (ما أجمل ذلك الزخرف. وما أدق هذه الصنعة! وما أبدع تلك الألوان المتداخلة. وتلك الأشكال المتماثلة.) ثم صاح الضابط: (يا الله! ما كنت أحسب قبل اليوم أن في طاقة الإنسان أن يعمل كل هذا البدع: ثوب شفيف مطرز. وبالأشكال الجميلة مزخرف. وهو مع ذلك لا تراه إلا عيون المخلصين والأكفاء، ولا تلمسه الأيدي ولا تدركه الظنون.)

فوجم الملك وقال في نفسه: (ما هذا؟ ألا أرى شيئاً؟ إنها لمصيبة كبرى؟ هل يمكن أن أكون معتوهاً أو غير خليق بالملك؟ لا. لابد أن أسدل على الأمر ستار الخفاء.) ثم صاح (حقاً ما أجمل ذلك القماش! إني راض عنه الرضى كله) ثم ابتسم وحدق في المناسج الفارغة. ولكن هيهات لنفسه الضعيفة أن تنكر وجود شيء أقره رجلان من كبار رجاله!! وانطلق رجال الحاشية يحدقون كذلك ويصيحون: بديع! مدهش! فخم! عجيب! رائع! تلك كانت الصفات التي أخذت ترن في أنحاء المكان الواسع. ثم عطف الملك على الحائكين وأجزل لهما العطاء ورفعهما إلى الدرجات العالية، وقرر الملك أن يلبس تلك الحلة الرائعة ويسير في موكب فخم في أنحاء المدينة يعرضها على الأنظار. .

جاء يوم الاحتفال - ذلك اليوم المشهود - فخرج الناس من منازلهم، وساروا زرافات في الطرق، حتى فاضت بهم السبل، وكأن الأرض صفحة كتاب، سطورها الشيوخ والشباب.

أما الملك فقد جرده اللصان من ملابسه إلا قميصه وسرواله، ثم أوقفاه أمام المرآة، وأخذا يروحان ويجيئان، ويرفعان أيديهما ويضعانها، ويديران الملك أمام المرآة ليرى الحلة الجديدة، وأفراد الحاشية وقوف بين متعجب ومسرور، ثم صاح اللصان أن قد تم كل شيء فتقدم الخدم إلى رفع الذيل الموهوم لتلك الحلة الخيالية، وسار الملك في طليعة السائرين، والوزراء والأعيان حوله ووراءه، والنساء مطلات من المنافذ والشرفات، والناس منهومون بالنظرات. وما وقعت عيونهم عليه حتى علا الصياح يشق جوف الفضاء: (ما أجمل الثوب، وما أبدع الذيل) . . .!!

وهكذا ظل كل إنسان يخدع نفسه ويكذب عينيه، ظناً منه أنه وحده قد عجز عن رؤية الثوب، وأن الباقين يرونه كما يرى بعضهم بعضاً. واستمر الحال كذلك برهة والناس

جميعاً خادعون ومخدوعون، ثم صاح طفل ساذج: (ليس على الملك ثوب جديد! الملك عريان!) فبهت الجميع. . . ثم صاح شيخ كهل:
(اسمعوا صوت الحق، اسمعوا صوت الطبيعة التي لا تعرف الملق والنفاق). فاغتم الملك غماً شديداً إذ علم أن ما قاله الطفل حق صراح، يبصره هو ويشعر به، ثم عاد أدراجه بين سخر الساخرين، واستهزاء الضاحكين.

م. ك

سيوة

تقع واحة سيوة في صحراء مصر الغربية على الحدود ما بين مصر وطرابلس على مسافة مائتي ميل جنوبي السلوم وأربعمائة ميل غربي وادي النيل.

ويمكن القول أنها الواحة الشمالية من سلسة واحات تتبع إحداها الأخرى من الجنوب إلى الشمال في صحراء (ليبيا) وكان الأقدمون يسمون هذه الواحات (بالأراضي المقدسة) لأنهم كانوا يعتقدون أن الآلهة منحت هذه البقاع ماء وسط تلك الصحراوات القاحلة، ولأن هذه الواحات قد حمتها الطبيعة بأن أحاطت كل واحة منها بسلسة من جبال كلسية تمنع عنها الرمال الدقيقة التي تحملها معها الرياح، إذ لولا هذه الجبال لغطتها كثبان الرمال وجعلتها في عالم النسيان، كذلك عيون الماء المتفجرة في هذه الواحات سببت الحياة والرخاء وسط ذلك المحيط القاحل غرب وادي النيل.

تتكون سيوة من عدة واحات صغيرة متجاورة تقع في منخفض من الأرض يبلغ طوله حوالي ثلاثين ميلا وعرضه ستة أميال تقريبا، وينخفض عن سطح البحر حوالي عشرين متراً تكتنفها صحراء جرداء محرقة لا تسقط فيها الأمطار

ولقد زارها الاسكندر الأكبر حينما غزا مصر وتبرك بزيارة معبد (جوبيتر آمون) إرضاء للكهنة المصريين ورغبة منه في إظهار احترامه لدينهم

يبلغ عدد سكانها ثلاثة آلاف نسمة، وهم سلالة أقوام قديمة من البرابرة، ولا يشبهون أعراب الصحراء في شيء. ولهم لغة خاصة بلهجة ولكنة غريبتين، ولعلها لغة أجدادهم البرابرة القدماء، والغريب في أمرهم أنهم يتكلمون بتلك اللغة، ولكنهم لا يتكاتبون بها، بل إنهم يتكاتبون باللغة العربية، ولا شك في أن بقاء هذه اللغة البربرية راجع إلى بعد الواحة عن العمران، وصعوبة المواصلات بينهما وبين الأجزاء الأخرى من القطر فقل اختلاط السكان بالمصريين والأعراب، بل إن أهالي سيوة لهم عادات خاصة، وطباع تخالف في جوهرها طباع وسكان وادي النيل

ليس لهذه الواحة تاريخ معروف، بل إن ماضيها مظلم، وليس من سبيل لإلقاء أشعة من النور لمعرفته إلا إذا قامت بعثات علمية بالحفر في جبالها وآثارها والتنقيب في معابدها وخرائبها حتى يمكن أن يرفع ذلك الستار الكثيف عن تلك المدنية البائدة الغربية

والطريق الأكثر استعمالا للوصول إلى سيوة هو من مرسى مطروح والسلوم، ويمكن للسيارات الصغيرة الخفيفة أن تقطع ما بين مرسى ومطروح وسيوة في ثماني ساعات. أما السيارات الثقيلة المعدة للتحميل فتقطع المسافة في يومين، وتقطعها الجمال في سبعة أيام، ويقطع كثير من أعراب الصحراء المسافة من شاطئ البحر الأبيض إلى سيوة مشيا على الأقدام وهي مسافة لا يستهان بها إذا أضيف إليها ندرة الماء في الطريق.

وكل ما يعيش عليه الأعرابي في الطريق، قليل من التمر ولبن الناقة وقطرات من الماء، وبهذه المناسبة أقول إن السيارات لم تبدأ بالسير بين مرسى مطروح وسيوة إلا منذ سنة 1926 أما قبل ذلك فالمواصلات بين البلدين كانت بالجمال، غير أنه حدث أن زار الخديو السابق عباس باشا سيوة سنة 1905 مع بعض الألمان الذين كانوا ينقبون عن الآثار في مدينة (سانت ميناس) القديمة التي تقع في الجنوب الغربي من الإسكندرية وكان بصحبته الهر إيوارت فولز وقد قطع المسافة لسيوة على عربة مكشوفة (فيتون) تجرها جياد تستبدل بغيرها كلما أصابها الكلال والتعب. وهذه هي المرة الأولى التي سارت فيها عربات ركوب في الصحراء في تاريخ سيوة الحديث، وتألفت حملة الخديو السابق في هذه الزيارة من أربعة علماء من الألمان وعشرين جنديا واثنين وستين حصانا و288 جملا لحمل الأمتعة. هذا عدا خدم الخديو الخصوصيين.

وتهتم مصلحة الحدود الآن بإصلاح الطريق ما بين مرسى مطروح وسيوة. فهي تزيل الصخور من الطريق وتضع مخلوطاً من خرسانة الأسمنت في المواضع التي يغطيها مطر الشتاء، ثم إنها أصلحت بعض المستودعات القديمة الرومانية التي تجمع فيها الأمطار وسقفتها بأسقف من خرسانة الأسمنت وعملت فيها فتحات حتى يتمكن المارة من أن يحصلوا على الماء بإلقاء دلو مربوط في حبل كي يأخذوا ما يشاءون من الماء، وحتى لا يضيع أي قدر من ماء الأمطار، وازدادت تلك العناية عقب زيارة حضرة صاحب الجلالة الملك الأخيرة سنة 1928 إذ أن مصلحة الحدود تعمل على إيجاد أكبر عدد من مستودعات ماء المطر في طريق الصحراء بين مرسى مطروح وسيوة لدرجة أن العربي الذي يقطع المسافة سائراً على قدميه يمكنه أن يجد في طريقه كل يوم مستودعاً فيأخذ منه ما يحتاجه من ماء يكفيه طول اليوم، ومن أكبر هذه المستودعات أو الآبار هو بئر جلالة الملك فؤاد الأول عند البويب وهي منتصف المسافة تقريباً بين مرسى مطروح وسيوة، وتوجد آبار
أخرى في الطريق أذكر منها بئر الكنائس والحجفا وغيرها.

يقطع المسافر من مرسى مطروح الصحراء الغربية في رقعة من الأرض متشابهة الأشكال والمنظر لا تتغير فيها، فهي رمال صفراء تغطيها قطع صغيرة من الأحجار المتناثرة هنا وهناك، ويمر في طريقه ببعض التلول الصخرية القاتمة اللون، ولا يرى إلا سراب الصحراء على امتداد البصر، ولقد رسمت السيارات دروباً واضحة في الصحراء بحيث أصبح السائقون على إلمام بها بحيث لا يضلون الطريق كأنما هم يسيرون في شوارع البلاد الآهلة بالسكان، وقبل الوصول إلى سيوة بما يقرب من عشرين كيلو متراً تبدأ العربات بالانحدار في طرق متعرجة وسط الصخور التي تحيط الواحة، ولا يزال هذه الطرق تنحدر في ميلها تدريجياً حتى تتمكن السيارات في نهايتها من الوصول إلى الواحة نفسها، وذلك الانحدار طبيعي لأن هضبة الصحراء ترتفع عن سطح البحر، بينما الواحة نفسها منخفضة عن سطح البحر حوالي عشرين متراً، وما أن ينتهي ذلك الانحدار حتى ترى أشجار النخيل وقد مالت كل منها على الأخرى وكأنما هي عرائس وضعت على رؤوسها أكاليل من أوراق الربيع الخضراء، وتراها وهي في وسط الواحة الهادئة الساكنة كأنما تسر كل منها للأخرى أسرار الكون وأسرار وجود الحياة وسط تلك الصخور الصامتة الخرساء. ولا شك في أن القادم على سيوة حينما يقع بصره على أشجار الزيتون والنخيل يشعر بالفرق الشاسع بين تلك الصحراء المملة برمالها ودروبها، وبين تلك الواحة باخضرارها ووجود الحياة البالغة فيها، ثم يستمر السير وسط حقول الواحة وقد أحيط كل حقل بسياج من جريد النخل الذي لفحته حرارة الشمس فتحول لونه من أخضر زاه إلى أصفر ذهبي، وبعد مسير بضع دقائق تصل وسط البلدة مركز سيوة.

(يتبع)

كابتن

الكتب

رسائل سائر من بلاد العرب إلى بلاد اليونان

بقلم صاحب الفضيلة الشيخ محمد سليمان

من الأمور اليسيرة العسيرة، السهلة الممتنعة، التي تستعصي إجادتها إلا على ذوي الأفهام النادرة، والأقلام القادرة، وإن خدعت ظواهرها، وخيل لأوساط الكتاب أنها هنة هينة، تستطيع أرباع الأقلام وأنصافها أن تجول فيها وتبرز، هي تصوير الشعوب تصويراً صادقاً ناطقاً قوياً رائعاً. . يروى عن سائح فرنسي زار انجلترا، أنه لم يكد يقيم بها أسبوعا حتى حمل القلم وهم بالكتابة عنها، فلم يقطر قلمه إلا كلمات متقطعة وأسطر ركيكة فلم يشأ أن يرد ذلك إلى قصوره وعجزه، وزعم لنفسه أنها سبعة الأيام لا تجمع في الذهن محصولاً من الصور يكفي لإجادة التصوير، وعول على الإقامة شهراً كاملاً، فانقضى الشهر واهتز القلم، وانغمس في الدواة مراراً وجف مراراً، دون أن يهبط عليه الوحي الذي يرجو، ولكنه ليس عاجزاً ولا مقصراً، إنما هو الشهر لا ينفع ولا يجدي كاتباً يريد أن يجيد، فصبر حتى الفلك دورة كاملة، وانسلخ العام بشهوره الاثنى عشر، والذهن على ركوده والقلم على جموده، فأيقن بعجزه عن الوصف وارتحل فليست الكتابة عن الأقطار والشعوب هينة لينة كما يبدو، إنما هي مرتبة عالية، تحتاج

إلى قلب كبير حساس، يعي ما يرى من الصور وعياً تاماً ويحسها إحساسا قوياً، حتى لكأنه نشأ بينها ودرج في أحضانها، وإلى عقل راجح لا يميل به الهوى، فيزن القول وزناً دقيقاً عادلاً، وإلى قلم قدير ينطق بما يحسه القلب ويحكم به العقل. وقد اجتمعت هذه الأدوات الثلاث لدى الأستاذ الجليل الشيخ محمد سليمان، الذي طوف في أرجاء فلسطين وسوريا وزار بلاد اليونان، فلم يعوزه ذلك القلب اللاقط الحساس، ولا غربة فهو أبو التلاميذ جميعاً، الذي وسعت رحمة قلبه ألوف الأبناء، ولم ينقصه العقل الراجح المتزن العادل، فقد عرفته منصات القضاء أعواماً وأعواماً، فإذاما أحس قلبه وإذا ما حكم عقله، ألفيا قلماً بليغاً ينطقانه في بيان ساحر خلاب.

طوف الأستاذ في تلك الأنحاء، فأحس كثيراً وعلم كثيراً، فأملى على القلم إحساسه وعلمه، فصدع القلم ودبج فصولاً لست أعرف خيراً منها، أستغفر الله بل ما يدنو منها فيما كتبه

الرحالة المتجولون حديثاً، وأخذ ينشر تلك الفصول تباعاً في صحيفة سيارة، ثم نظمها اليوم في كتاب، حتى يطالعه الأخلاف كما قرأه المعاصرون، فكان هذا الكتاب القيم: رسائل سائر

قرأت الكتاب فراعتني منه جوانب ثلاثة: التصوير الدقيق، والملاحظة الصحيحة، واستخلاص العبرة، ولو أردت أن أسوق إليك الأمثلة لنقلت إليك الكتاب الذي أدعوك لقراءته من السطر الأول إلى السطر الأخير

على أن في الكتاب هنات يسيرة، كنا نرجو أن يبرأ منها كالتطويل القليل الفائدة في بعض المواطن، وقلة عدد الصور، وهذا القليل لم ينل حقه من الإجادة تصويراً وطبعاً، وكالإطناب في خالد بن الوليد، ومن رأينا أن ما يمكن تحصيله وأنت هادئ ساكن في مكتبك، ليس مما يحسن ذكره في كتب الرحالة، وبوقوع بعض الأخطاء اللغوية، أو التي نحسب أنها كذلك، ففي صفحة 7 يقول (ظاهرة حقة) ونظن أن الصفة هنا لا تؤنث كقولك رجل عدل وامرأة عدل. وفي صفحة 35 ذكر الريح مذكراً وأظنها أو يحسن على الأقل - أن تكون مؤنثة. وفي صفحة 38 ذكر (باقة زهر) والباقة لا تكون إلا للبقل، أما حزمة الزهر فيقال لها طاقة الزهر.

وإنما نذكر هذه المآخذ لضرورة ذكرها في مجال عرض الكتاب، على إنها لا تشوه من جمال الكتاب في شيء؟

زكي نجيب محمود

العدد 55 - بتاريخ: 23 - 07 - 1934

بمناسبة ذكرى حافظ

بين السياسة والأدب

ينظر الأدب المصري اليوم إلى السياسة نظر المَغيظ الحانق لطغيان جلالها على جلاله، وعدوان سلطانها على استقلاله، وعبث أهلها بأقدار أهله عبث الهوى المتحكم بقوانين العدالة!

شهد الأدب في هذه الأيام جنازة سياسية لمرقص حنا باشا. وجنازة أدبية لأحمد زكي باشا، وسمع بذكرى سياسية لسينوت حنا بك، وذكرى أدبية لحافظ إبراهيم بك؛ فأما الجنازة السياسية والذكرى السياسية فكانتا مظهرين من مظاهر الوطنية الرائعة، ومظاهرتين من مظاهرات القومية المتحدة، شملت البلاد، وشغلت الصحف، وأرهفت الشعور، وأرهبت الحكومة، ونفَّست عن العاطفة العامة المكروبة؛ وأما الجنازة الأدبية والذكرى الأدبية فكانتا شاهدين على هذا التواضع المسكين الذي يصاحب العلم، وأثرين لهذا البؤس المهين الذي يلازم الأدب، فشيَّع الأولبعض الأصدقاء وبعض الخاصة، ونسى الثانية كل الأصدقاء وكل الخاصة، ثم تهامست بين الناس الشكاوي، وتملقت من الأنصار المعاذير، وتجاوبت في الأقطار الشقيقة أصداء الأسف، ونعى كاتب سورية الكبير صاحب (فتى العرب) على مصر عقوق الأدباء وجحود العباقرة؛ وليس في نظرنا مما يبعث الشكوى من السياسة، ويثير السخط على الجمهور، ويستوجب الملامة على مصر، فان السياسة تقوم بواجبها، ولا تحول بين أحد وبين واجبه.

السياسة عقيدة، والعقيدة تحييها الشعائر، وتنميها المظاهر، ويقويها الحشد، وينشرها الإعلان، ويديمها التذكير، وتجددها الدعاية.

والسياسة مبدأ، وهذا المبدأ نفسه يريد أن يكرم في ذكرى الميت كما كان يكرم في

وجود الحي، وما حالات السياسي إلا مناسبات يُهتف فيها بفكرته لا بصورته.
والسياسة جهاد، والجهاد يدعو بتكريم البطولة إلى البطولة، وبتعظيم التضحية إلى التضحية.
والسياسة حكومة وخصومة، ومن حق السياسة المكبوتة أن تتلمس الحرية في كل فرصة، وتتنشق الراحة من كل فُرْجَة
والسياسة جاه وقوة، ومن طبيعة النفوس أن تشايع الجاه وتبايع القوة ابتغاء لمنفعة أو اتقاء لمضرة
والسياسة بعد ذلك كله للشعب، فرجالها زعماؤه، وضحاياها شهداؤه، ومواقفها مواقفه
أما الأدب فلا نصيب له من بعض ذلك، ليس عقيدة للعامة، ولا فكرة للأمة، ولا ساحة للنفوس المجاهدة، ولا مطمعة للعيون الرغيبة؛ إنما هو فن الخاصة وبغية الرجل المثقف، فإذا لم يحتفل أهله بأهله، وينوه جمهوره بفضله، ذهب أثر رجاله من الدنيا كما تذهب أنغام موسيقى الجيش بعد المعركة، ثم لا يبقى الفخر والذكر إلا للجند والقادة
الأدباء هم الملومون على هذا العقوق، والصحفيون هم المسئولون عن هذا الإهمال، وشهوة المنافسة وعداوة الحرفة، هما اللتان تفسران البواعث على هذا والدوافع إلى ذاك؛ والأديب الذي يَنْفِس على أخيه محنة الوجود، يجد الأولى أن ينفس عليه نعمة الخلود، والأدب في الحياة وفي الممات شر على صاحبه، فإنما لا نزال نشهد كل يوم معارك الأهواء بين الأدباء الأحياء تقطع وشائج الصداقة، وتخفي دلائل النبوغ، وتزيف حقائق الفضل، ثم لا تترك منهم للتاريخ إلا أشلاء منكرة من الأدب والفن والخلق. ولا نزال نسمع من يذكر المنفلوطي بالسوء لأنه اصطنع الأدب الباكي، كأن للكاتب يداً في تركيب مزاجه، وتكوين بيئته، وتأليف ظروفه، وتثقيف ملكاته. كذلك لا نزال نسمع من يشدد النكير على شوقي لأنه عالج في بعض عمره شعر المديح، كأنه نشأ في ظل الدستور وعهد الديمقراطية وعصر الجماعة، وكأنه كان يمدح عباساً لأن المتنبي كان يمدح سيف الدولة!
نعم كان أمس ذكرى حافظ، وكان أول أمس ذكرى سينوت! فهل رأيت بعينك وفاء السياسة وجحود الأدب؟. إن حافظاً رحمه الله ما يزال يقتضي أصدقاءه الخلّص حفلة التأبين وتأليف الكتاب، فهل من المعقول أن نطلب من شعبه المغلول إحياء الذكرى وإقامة التمثال؟
ولقد كان من جرائر نحسه الذي ظل بعد موته حياً يعيث، أن مواهبه السامية في الشعر والبلاغة قد أخذ ينالها النسيان وتشوهها الغفلة، فما يذكره الناس حين يذكرونه إلا بحلاوة النادرة وبراعة (النكتة) وحسن الحديث، حتى خشينا أن يصبح في الخاصة ما أصبح أبو نواس في العامة.!
فَمَنْ مُبْلغٌ حافظاً الصديق أن المودة بعده أصبحت لا تبقى على المحن، ولا تقوى على الأهواء، ولا تثبت للظروف، ولا تتجاوز كذب الحياة إلى صدق الموت!
ومَنْ مبلغٌ حافظاً الأديب أن الأدب بعده أصبح داء كداء الضرائر، تهيمن عليه المنافسة الكاذبة، وتغض منه المحاسدة اللئيمة، وتتحكم فيه الأغراض الحقيرة؟
ومَنْ مبلغ حافظاً الفنان أن فنه الجميل سيبقى على لؤم الإنسان وظلم الزمان، رائعاً ما راع الجمال، ساطعاً ما سطعت الشمس، خالداً ما دام الخلود؟.!
احمد حسن الزيات
سمُوُّ الفقر في المصلح الاجتماعي الأعظم
للأستاذ مصطفى صادق الرافعي
- 2 -
قالت عائشة رضي الله عنها: لم يمتلئ جوف النبي صلى الله عليه وسلم شبعاً قَطّ، وإنه كان في أهله لا يسألهم طعاماً ولا يتشهّاه، إن أطعموه أكل، وما أطمعوه قبل، وما سقوه شرب.
وقالت: ما شبع آل محمد من خبز الشعير يومين متتابعين حتى قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم.
وعنها: كنا آلَ محمد نمكث شهراً ما نستوقد بنار، إن هو إلا التمر والماء.
وقالت: ما رَفع رسول الله صلى الله عليه وسلم قَط غداءً لعشاء، ولا عشاء لغداء، ولا

اتخذ من شيء زوجين، لا قميصين، ولا رداءين، ولا إزارين، ولا زوجين من النعال.
ويروي عنها، قالت: توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس عندي شيء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير في رفّ لي.
وقالت: توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند يهودي في ثلاثين صاعاً من شعير.
وعن أبن عباس: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبيت الليالِيَ المتتابعة وأهلهَ طاوياً لا يجدون عشاءً، وإنما كان خبزهم الشعير.
وعن الحسن، قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: والله ما أمسى في آل محمد صاعٌ من طعام، وإنها لتسعة أبيات) والله ما قالها استقلالاً لذكر الله، ولكن أراد أن تتأسى به أمته.
وعن أبن مجير، قال: أصاب النبيَّ صلى الله عليه وسلم جوعٌ يوماً فعمد إلى حجر فوضعه على بطنه ثم قال: (ألا رُبَّ نفس طاعمةٍ ناعمة في الدنيا - جائعةٌ عارية يوم القيامة؛ ألا ربَّ مُكرمٍ نفسه وهو مهين لها؛ ألا رب مهين نفسه وهو مكرم لها)
وخُيّرَ صلى الله عليه وسلمً أن يكون له مثل (أحد) ذهباً فقال: لا يا رب، أجوع يوماً فأدعوك، وأشبع يوماً فأحمدك.
وكان يقول في دعائه ويكثر منه: اللهم أحيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين.
هذا هو سيد الأمة، يمسكه في الحياة نبياً عظيماً ما يُخرج غيره منها ذليلاً محتقراً، وكأنما أشرق صفاء نفسه على تراب الأرض فردّه أشعة نور، على حين يُلقِى الناس على هذا التراب من ظلام أنفسهم فلا يبقى تراباً، بل يرجع ظلاماً، فكأنهم يطئون المجهول بخوفه وروعته؛ ثم لا يستقر ظلاماً، بل يرجع آلاماً، فكأنهم ينبتون على المرض لا على الحياة؛ ثم لا يثبت آلاما، بل يتحول فورة وتوثباً تكون منه نزوات الحمق والجنون في النفس. هؤلاء الذين تعيش أنفسهم في التراب، ويتمرغون بأخلاقهم فيه - ينقلبون على الحياة من صنع التراب ناساً دُوداً لا يقع في شيء إلا أفسده أو قذَّره؛ أو قوماً سوساً لا ينال شيئاً إلا نخره أو عابه، فهم يوقعون الخلل في نظام أنفسهم فإذا هي طائشة تخيَّل لهم كأنما اختلت نواميس الدنيا، وكأن الله قبضهم وبسط غيرهم، وشَغَلَهم وفَرَّغ مَن عداهم، وابتلاهم على مسْكَة الرزق بالشهوة المسعورة التي لا تتحقق، فضربهم بالمجاهدة التي لا تنقطع؛ وأنعم على غيرهم في بسطة الرزق بالشجرة المسحورة التي لا تُقطع منها ثمرة إلا نبت غيرها في مكانها.
إن ما وصفناه من فقر النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه لم يكن له عتيدٌ حاضر، وأنه لم يجعل نفسه في همّ المال، ولا جعلته نفسه في هم الفقر، وأنه لقي الحياة حاملاً لا محمولاً، واستقر فيها هادئاً لا مضطربا - كل ذلك إنما يثبت للدنيا أنه خلق وبُعث وعاش ليكون درساً عملياً في حل المشكلات الاجتماعية، يعلّم الناس أنها لا تتعقّد بطبيعتها، ولكن بطبائعهم فيها؛ ولا تستمر بقوتها، ولكن بإمداد قواهم لها؛ ولا تغلب بصولتها، ولكن بجَزَعهم منها؛ ولا تُعضل من ذات نفسها، ولكن من سوء أثرهم عليها، وسوء نظرهم لأنفسهم ولها.
فإذا قرأت الأحاديث التي أسلفناها فلا تقرأها زهداً وتَقلُّلاً، ولا فقراً وجوعاً، ولا اختلالاً وحاجة، كما تترجمها نفسك أو تحسها ضرورتك؛ بل انظر فيها واعتبرها بنفسه هو صلى الله عليه وسلم، ثم اقرأها شريعةً اجتماعية مُفصَّلة على طبيعة النفس، قائمةً على أن تأخذ نفس الإنسان من قوى الدنيا عناصرها الحيوية، لتعطي الحياة من ذلك قوة عناصرها.
والحياة العاملة غير الحياة الوادعة، هما ذكر وأنثى؛ فأما الأولى فهي ما وصفنا وحكينا، وأما الثانية فهي تَغلُّل النعمة، وإطلاق قانون التناسل في المال ينمي بعضه بعضا، وينبت بعضه على بعض، ثم إقامة الحياة على الزينة ومقوّمتها، وقيام الزينة على الخداع وطبائعه، فيُقْبل المرء من دنياه على ما هو جدير أن يصرفه عنها، ويحب منها ما كان ينبغي أن يباغضه فيها. وكل ما رأيت وعلمت في رجل قُوَّته القوة فهو هناك؛ وكل ما علمت ورأيت في أنثى قوتها الضعف فهو هنا.
فالسواد الذي تراه في فقره صلى الله عليه وسلم هو السواد الحيّ؛ سواد الليل حول الروح النَّجْميَّة الساطعة؛ وذلك التراب هو التراب الحيّ؛ تراب الزرع تحت النضرة

والخضرة؛ وتلك الحاجة الجسميّة هي الحاجة الحية الدافعة إلى حرية النفس؛ وذلك الإقلال من فهم اللذة هو الإقلال الحيّ الذي يزيد قوة فهم الجمال في السماء والأرض وما بينهما؛ وذلك الضيق في حيز المتاع للحاسة هو الضيق الحي الذي يوسع حيّز المتاع للروح. وبالجملة فذلك النقص من المادة لم يكن إلا لنفي النقص عن الفضيلة، وذلك الاحتقار للعرَض الفاني الزائل هو المعنى الآخر لتقديس الخالد الباقي.

فليس هناك خبز الشعير، ولا الجوع، ولا رهن الدرع عند اليهودي. كلا، كلا، بل هناك حقيقة نفسية عقلية، ثابتة متزنة، قائمة بعناصرها السامية: من اليقين والعقل والحكمة، إلى الرفق والحلم والتواضع، تخبر هذه الدنيا العلمية الفلسفية المفكرة أن ذلك النبي العظيم هو الرجل الاجتماعي التام بأخلاقه وفضائله، وهو الذي بُعِث لتنقيح غريزة تنازع البقاء، وكسر هذه الحيوانية، وقمع نزواتها، وإماتة دواعيها، والسمو بخواطرها فهو بنفسه صورة الكمال الذي بعث لتحقيقه، وإثبات أنه الممكن لا الممتنع، والحقيقي لا الخيالي.

ليس هناك درع مرهونة في ثلاثين صاعا، ولا الفقر، ولا خبز الشعير. كلا، كلا، بل هناك تقرير أن النصر في معركة الحياة لا يأتي من المال والثراء والمتاع، ولكن من المعاناة والشدة والصبر، وأن التقدم الإنساني لا يباع بيعاً، ولا يؤخذ هوناً، بل هو انتزاع من الحوادث بالأخلاق التي تتغلب على الأزمات ولا تتغلب الأزمات عليها، وأن هذا المال وهذه الشهوات - في حقائق الحياة ومصائرها - ككنوز الأحلام لا تكون كنوزاً إلا في مواضعها من أرض الغفلة والنوم، فلا لذة منها إلا بمقدار خفيف من هذه الغفلة. وليس إلا

الأحمق أو المخذول أو الضائع هو الذي يقطع العمر نائماً أبداً ليظل مالكاً أبداً لهذه الكنوز، وهو يعلم أنه لابد مستيقظ، وأنه متى انتبه في آخرته لم يجد منها شيئاً (ووجد الله عنده فوفاه حسابه)

كلا، كلا، ليس هناك فقر ولا جوع وما إليهما، بل هناك وضع هذه الحقيقة: ينبغي أن تجد نفسك، وموضع نفسك، وإيمان نفسك، وعزة نفسك، فإذا أدركت ذلك ورفعت نفسك إلى موضعها الحق، وأقررتها فيه وحبستها عليه، وحددتها بالإنسانية من ناحية، وبالله من الناحية المقابلة - رأيت إذن أن قيمتك الصحيحة في أن تكون وسيلة تعطي وتعمل لتعطي، لا غاية تأخذ وتعمل لتأخذ - ومهما ضيق عليك، فنما أنت كالشجرة الطيبة تأخذ تراباً وتصنع حلاوة. وما قط نبتت شجرة في مكانها لتأكل وتشرب وتختزن السماد والتراب، وتحصنهما وتمنعهما عن غيرها، ولو قد فعلت ذلك شجرة لكان هلاكها فيما تفعل، إذ تحاول أن تضاعف فائدتها من قانون العالم، فيكون طمعها سريعاً في إفساد الصلة بينهما، فلا يجد القانون فيها نظامه، ومن ثم لا تجد في القانون نظامها، فيهلكها الذي كان يحييها، وتستبعد لحظّ نفسها فيفقدها ذلك حرية الحياة التي كانت لها في نفسها.

يقول نبينا صلى الله عليه وسلم: (إن المؤمن بكل خير على كل حال، إن نفسه تنزع من بين جبينه وهو يحمد الله عز وجل.) فهذا هو أسمى قانون اجتماعي يمكن أن تظفر به الإنسانية وما يأتي لها ذلك إلا إذا أصبحت تلك المعاني التي أومأنا إليها شعوراً اجتماعياً عاماً، مقرراً في النفس، قائماً فيها على إيمان راسخ بأن الفرد هو صورة المجتمع لا صورة نفسه وحدها، وأن الناس كحب القمح في سنبلة ليس لجميعه إلا قانون واحد، فموضع كل حبة من السنبلة هو ثروتها، علت أو سفلت، وكثير ما تأخذه أو قل، وإذا كان أساس الحياة في الحبة منها أن تجد قوامها وكفايتها من مادة الأرض فتمام الحياة فيها أن يغمرها النور من حولها، وأن يستمر النورمن حولها يغمرها.

فالحبة من السنبلة بكل خير على كل حال، وإنها لتُنْزَع وما بها أنها نُزِعت، ولكنها أدت ما تؤدِيّ، وانقطعت من قانون لتتصل بقانون غيره، وما اغتنت ولا افتقرت، ولا أكثرت ولا أخَفَّتْ؛ بل حققت موضعها، فإنها ما نبتت لتبقى، وما نمت إلا لينقطع نماؤها. وكذلك المؤمن الصحيح الإيمان، الصادق النظر في الحياة؛ هو أبداً في قانون آخرته؛ فهو أبداً في

عمل ضميره.

والناس في هذه الحياة كحشد عظيم يتدفق من مضيق بين جبلين ينفذ إلى الفضاء؛ فإذا هم أدركوا جميعاً أنهم مُفْضُون إلى هذه النهاية مرّوا آمنين وكان في يقينهم

السلامة، وفي صبرهم الوقاية، وفي نظامهم التوفيق، وفي تعاونهم الحياة؛ فهم بكل خير على كل حال، ما دام هذا قانون جميعهم، فأيما رجل شذَّ منهم فاضطرب فطاش هلك وأهلك من حوله، ومن عكس منهم موضعه ونكص على عقبيه أهلك من حوله وهلك. والموت أشقى الموت هنا - اعتبارُ الحاضر بنفسه، والضجرُ منه، وجعل الإنسان نفسه غاية؛ والحياة أهنأ الحياة - اعتباره بما وراءه، والصبر على شدته، وجعل الإنسان نفسه وسيلة.

فذلك معنى خبز الشعير، والقلة والضيق، ورهن الدرع عند يهودي من سيد الخلق وأكملهم، ومن لو شاء لمشى على أرض من الذهب. فهو صلى الله عليه وسلم يعلم الإنسانية أن الرجل العظيم النفس لا يكون في الحياة إلا ضيفاً نازلاً على نفسه.

ومن معاني ذلك الفقر العظيم أن خبز الشعير هو رمز من رموز الحياة على التحلّل من خلق الأَثَرةِ، والبراءةِ من هوى الترف؛ ورهن الدرع رمز آخر على التخلص من الكبرياء والطمع؛ والعُسْرة رمز ثالث على مجاهدة الملل الحي الذي يفسد الحياة كما يفسد بعض النبات النبات. ومجموع هذه الرموز رمز بحاله على وجوب الإيقاظ النفسي للأمة العزيزة التي تقود أنفسها بمقاساة الشدائد ومجاهدة الطباع، لتكون في كل فرد مادة الجيش، وليصلح هذا الجيش قائداً للإنسانية.

على أنه صلى الله عليه وسلم حثّ على طلب اليسار، والتغلّل من الأعمال الشريفة بالغلّة والمال، فقال: (إنك إن تدع عيالك أغنياء، خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس). ورأى عابداً قد انقطع للعبادة حتى أكلت نفسه جسمه، ووصفوا له من زهده وعبادته، فقال صلى الله عليه وسلم: من يعوله؟ قالوا كلنا نعوله. فقال: كلكم خير منه!. . إلى أحاديث كثيرة مروّية، هي تمام القانون الأدبي الاجتماعي في الدنيا، تثبت أن الحي إن هو إلا عمل الحيّ. ولكن حين يكون سيد الأمة وصاحب شريعتها رجلاً فقيراً، عاملاً مجاهداً، يكدح لعيشه ويجوع يوماً ويشبع يوماً، فلم يقلب يده في تِلاد من المال يرثه ولم يجمعها على طريف منه يورّثه - فذلك هو ما بيناه وشرحناه وذلك كالأمر نافذاً لا رخصة فيه على ألاّ يتخذ الغني

من الفقير عبداً اجتماعياً، لفقر هذا ولمال ذاك؛ بل هي المساواة النفسية لا غيرها، وإن اختلفت طبقات الاجتماع. والأكرم هو الأتقى لله، بمعنى التقوى؛ والأقوم بالواجب، على معنى الواجب؛ والأكفأ للإنسانية، في معاني الإنسانية.

فقر ذلك السيد الأعظم ليس فقراً، بل هو كما رأيت: ضبط السلطة الكائنة في طبيعة التملك، لقيام التعاون الإنساني على أساسه العمليّ؛ هو المحاجزة العادلة بين المصالح الاقتصادية الطاغية يمنع أن تأكل مصلحةٌ مصلحةً فتهلك بها، ويوجب أن تلد المصلحةُ مصلحةً لتحيا بها.

والنبي الفقير العظيم هو في التاريخ من وراء كل هذه المعاني كالقاضي الجالس وراء موادّ القانون. صلى الله عليه وسلم.

مصطفى صادق الرافعي

بين يدي شهرزاد

للأستاذ توفيق الحكيم

شهرزاد متكئة على الوسائد تنظر باسمة في حوض ماء من المرمر وبين يديها الوزير قمر. . . .

شهرزاد - (في مكر) أراك يا قمر تسرف في إطرائي وتبخس قدر صديقك.

الوزير - لم أبخس قدره.

شهرزاد - (في مكر) يخيل إلى أنك نسيت ما بينكما من ود عجيب.

الوزير - (في حدة) لم أنس شيئاً.

شهرزاد - (في خبث) بلى!

الوزير - (في حدة عمياء) إني لم أنسى شيئاً. إنما أبين لك لماذا أنت تحبينه أسمى الحب، فلا تزعمي لي غير هذا مرة أخرى. إني لست أخدع. لست أخدع. لست أخدع!

شهرزاد - (هادئة) قمر؟ ماذا دهاك؟

الوزير - (يثوب إلى رشده) مولاتي مغفرة. . إني. .

شهرزاد - انك أحياناً لا تملك نفسك.

الوزير - إني. . أردت أن أقول انك غيرتِه، وأنه انقلب إنساناً جديداً منذ عرفك.

شهرزاد - انه لم يعرفني.
(يسمعان طرقاً شديداً)
الوزير - (يرهف السمع) هذا هو.
شهرزاد - إن شهريار يحمل دائماً مفتاحه ولا يدخل القصر ليلاً إلا من سردابه.
الوزير - مَن هذا الطارق إذن؟
شهرزاد - اذهب وجئني بالخبر.
(الوزير يخرج مسرعاً)
شهرزاد - (كالمخاطبة لنفسها) مسكين أنت يا قمر!
(الوزير يعود على عجل)
قمر - مولاتي! أتدرين من الطارق؟ رجل عجيب الزي، يقول انه المؤلف، ويلتمس المثول
بين يديك.
شهرزاد - (في عجب) المؤلف؟ أي مؤلف؟
قمر - لم أفهم مراده. إنما هذا ما قاله لي.
شهرزاد - أدخله لنتبين أمره.
قمر - أفي مثل هذه الساعة من الليل؟
شهرزاد - وماذا يضير انك معي.
قمر - نعم سألبث معك.
(يخرج قمر في الحال)
شهرزاد - (كالمخاطبة لنفسها) المؤلف؟: أتراه أحد السحرة قد أرسل في طلبه شهريار؟
(قمر يعود وخلفه توفيق الحكيم يلتفت يمنة ويسرة منبهر البصر مما في القصر من عجائب لم يسبق لعين مثله أن وقعت على مثلها)
شهرزاد - (تلتفت إليه وتتأمل زيه وتأذن له في الدنو منها ولكنه يقف مكانه جامداً) (تقدم يا هذا)
توفيق - مولاتي. . .
شهرزاد - ماذا بك؟
توفيق - أأنا بين يدي شهرزاد؟
قمر - نعم أنت في حضرة الملكة العظيمة.
توفيق - (كالمخاطب لنفسه) نعم، لا يمكن لهذا الجمال أن يكون لغيرها.
شهرزاد - بِمَ تهمس كمن به مس؟
توفيق - مغفرة أيتها الملكة، إني. . .
شهرزاد - لماذا تنظر إليَّ هكذا؟
توفيق - هذا الجمال. . .
شهرزاد - (لقمر) أرأيت يا قمر! انك قد جئتني آخر الليل بمُعْجَب مفتون.
قمر - (لتوفيق) ماذا جئت تصنع هنا أيها الرجل؟
توفيق - (همساً) لست أدري. . . (يعود فيتأمل شهرزاد)
شهرزاد - أرجو منك ألا تطيل النظر إلى هكذا.
توفيق - مولاتي! لا أستطيع.
شهرزاد - أين الجلاد؟
توفيق - خير لك أن تأمري بي فتطاح رأسي من أن تطلبي إلى ألا أعجب بك.
شهرزاد - أتراني حقًّا جميلة؟
توفيق - نعم.
شهرزاد - إن لي جسداً جميلاً! أليس لي جسد جميل؟
توفيق - ليس الجسد وحده.
شهرزاد - اقترب.
توفيق - كلاَّ.
شهرزاد - لماذا؟
توفيق - (يشير إلى الحوض) هذا الحوض. . .

شهرزاد - أيخيفك هذا الحوض؟
توفيق - أخشى أن تزل قدمي فأسقط وأنا لا أحسن السباحة. . .
شهرزاد - انه قليل الغور
توفيق - لا شيء عندك قليل الغور.
شهرزاد - (تتفرس فيه) عجباً! انك تتكلم كما يتكلم شهريار! من أنت؟
توفيق - خادمك توفيق الحكيم.
شهرزاد - أتعني أنك صاحب توفيق أم أنك صاحب حكمة؟
توفيق - لا هذا ولا ذاك، ولكنه اسم من الأسماء.
شهرزاد - وما صناعتك؟
توفيق - أؤلف القصص.
شهرزاد - مثلي؟
توفيق - لم أبلغ شأوك. وليس لي ذكاؤك ولا خيالك.
شهرزاد - انك تسرف في إطرائي وتبخس قدر نفسك.
توفيق - قدر نفسي؟ وما أدراك به؟ وهل عرفت لي قصصاً على الأقل أيتها الملكة؟
شهرزاد - كلاَّ. ماذا صنعت من القصص؟
توفيق - قصة (شهرزاد)
شهرزاد - (في عجب) أنا؟
توفيق - نعم أنت.
شهرزاد - متى صنعتها؟
توفيق - ليس يعني الزمن الذي صنعت فيه.
شهرزاد - أصنعتها في الماضي؟
توفيق - بل في المستقبل.
شهرزاد - فهمت. هذا الزي العجيب. . .
توفيق - نعم. إني أهبط إليك الساعة من المستقبل الذي أعيش فيه لألقاك في الماضي الذي فيه الآن تعيشين كما يهبط الطائر من الشمال إلى الجنوب في غابة متسعة الأرجاء.
شهرزاد - يا للعجب! كلامك هذا يذكرني بشهريار.
توفيق - أترين هذا؟
شهرزاد - لكنك أهدأ نفساً منه.
توفيق - نعم، الآن.
شهرزاد - (تنظر إليه ملياً) إني أعجب كيف أن القدر لم يجمع بيننا قبل الآن؟
توفيق - لقد جمع بيننا دائماً.
شهرزاد - أين؟
توفيق - (يشير إلى قلبه) هنا.
شهرزاد - (في عجب تشير إلى قلبه) هنا؟
توفيق - نعم. ومن هنا خرجت أنت إلى الوجود. فما أنت إلا صنع النار والنور الكائنين هنا (يشير إلى قلبه)
شهرزاد - هذا جميل.
توفيق - أرأيت من أي مادة أنت مصنوعة يا مخلوقتي العزيزة!
قمر - (يتململ) من هذا الرجل!
توفيق - صه أيها الوزير. فكر في شأنك أنت، ودعني فيما أنا فيه. فما جئت الليلة إلا من أجل شهرزاد.
شهرزاد - جئت من أجلي؟
توفيق - نعم.
شهرزاد - وماذا تريد مني؟
توفيق - أريد أن أعيش إلى جانبك.
قمر - (في غضب وهياج) أيها الرجل! من أنت أيها الرجل؟
توفيق - أنا كائن أشقى منك حالاً.
شهرزاد - (باسمة لتوفيق) لماذا؟

توفيق - لأني أشعر ببرد الوحدة يكتنفني في تلك السماء ذات السحب.
شهرزاد - ويل للمبدعين.
توفيق - صدقت، أَجل يا شهرزاد لو لم يعش المبدع في مخلوقاته لقتله برد الوحدة.
شهرزاد - تريد إذن أن تهبط إلى الأرض.
توفيق - لقد قلتها يا شهرزاد. لا شيء غير الأرض؟
شهرزاد - أَين شهريار يسمع منك؟ وهو الذي هجر الأرض يريد السماء!.
توفيق - لا تخشى عليه من بأس. سوف يعود إليك.
شهرزاد - متى؟
توفيق - يوم يعلم أَن السماء في الأرض.
شهرزاد - يا هذا. أريد منك شيئاً. . .
توفيق - ماذا؟
شهرزاد - أَمنحك قبلة!.
توفيق - تمنحينني قبلة؟
شهرزاد - نعم.
توفيق - وهبتها قمرا.
قمر - (في استنكار) مولاي!
توفيق - خذها أَيها الأبله. من ذا يرفض قبلة من شهرزاد؟
قمر - (يخرج سريعاً) . . .
توفيق - هرب الأحمق.
شهرزاد - (تنظر إلى توفيق ملياً) عرفتك أخيراً.
توفيق - (باسما) أَعرفتني؟ من أنا؟
شهرزاد - أَأَنت هو؟ أَم أَنك تعيش فيه؟
توفيق - من هو؟
شهرزاد - شهريار!
توفيق - صه. لست أَدري. . . لست أَدري. . . هذا سؤال لا ينبغي أَن يوضع. ولا ينبغي أَن يلقى عليّ.
شهرزاد - إذن ارتفع. فما أَنت إلا شبح من الأشباح.
توفيق - شبح من؟
شهرزاد - شبح شهريار!.
توفيق - لا تقولي هذا. إنما هو الشبح وأَنا الحقيقة.
شهرزاد - أَمام الأبد هو الحقيقة التي ستبقى وهو خالقك وهو مخلدك، وما أَنت إلا خيال سوف تتبعه صاغراً على مرّ الأيام. وان ذكر اسمك على الدهر فإنما يذكر خلف اسمه. انك تزعم الآن أنك صانعنا ومبدعنا أَمام ذلك الزمن المحدود، وإنما نحن في الحقيقة صانعوك ومبدعوك في الغد أَمام الخلود. . .
توفيق - ويل لي.
شهرزاد - ماذا بك؟
توفيق - أأنا عنك شبح؟ تلك هي السخرية الكبرى! في وحدتي ينخر في نفسي الشك. فإذا هبطت بينكم ألتمس اليقين علمت إني شبح لا حقيقة. وإني وليد صنعكم أنتم أمام الدهور.
شهرزاد - كل شيء يصنع كل شيء. . .
توفيق - نعم.
شهرزاد - ليس هناك إلا حقيقة واحدة.
توفيق - ما هي؟
شهرزاد - أننا جميعاً لسنا حقيقة.
توفيق - وأَنا معكم.
شهرزاد - وأَنت معنا لا فرق بينك وبيننا.
توفيق - (بعد لحظة) صدقت! ولا أَمل لي مع ذلك في أَن أَعيش إلى جانبك.
شهرزاد - اليوم كلاّ.
توفيق - ومتى إذن؟

شهرزاد - في الغد، يوم تصبح من مادتنا، لو أَن لنا اليوم مادة.
توفيق - فهمت. وداعاً يا شهرزاد.
شهرزاد - إلى الملتقى!
توفيق الحكيم
من روائع عصر الأحياء - 3
حياة بنفونوتو تشلليني مكتوبة بقلمه
مثل عال للترجمة الشخصية
للأستاذ محمد عبد الله عنان

زج بنفونوتو تشلليني إلى غيابة الحصن الرهيب (حصن سانت انجيلو) مرة أخرى، وهو كسير الساق، طريح الفراش وألقي في تلك المرة إلى غرفة مظلمة ضيقة رطبة، تتمثل فيها روعة الأسر، ورهبة العدم؛ وشعر أن لهب حياته يخبو، فانكب على قراءة الكتاب المقدس استعداداً للقاء ربه؛ ولكنه بعد أن لبث أياماً في قراءته، شعر أن قبساً جديداً يضئ حياته، وتولاه نوع من السكينة المعنوية وصفاء النفس؛ ويصف لنا تشلليني ذلك التطور النفسي الغريب الذي حقق له خلال الألم المبرح نوعاً من السعادة، وحوّله من فتى مضطرم الأهواء والنزعات، إلى شبه قديس يتجرد بعواطفه نحو الملكوت الأعلى، لا يذكر شيئاً من ملاذ هذا العالم وحواسه؛ ويقص علينا في عدة صحف شائقة حوادث حياته في ذلك الظلام الدامس، وكيفعرضة للأحلام الروحية البديعة، ويبدو تشلليني في هذا الوصف كاتباً بارعاً، في بيانه كثير من القوة والسحر؛ والمحن تطلق البيان والشاعرية؛ أجل، وغدا تشلليني شاعراً أيضاً، يكتب فوق الصفحات البيضاء من (توراته) أبياتاً من الشعر الصوفي، ويشتغل بوضع قصيدته الكبيرة (الكابيتولو) في وصف السجن ومديحه، ووصف ما عانى من ألم، وما آنس من سعادة نفسية

ثم توفي محافظ الحصن، صديقه القديم الذي كان يرعاه ويجتهّد في تخفيف محنته وخلفه أخوه في منصبه. وكان البابا كلما خطر له أن يطلق تشلليني من أسره تدخل ولده السنيور بيرلويجي وحال دون قصده. وكان خصوم تشلليني يودون موته بأي الوسائل، وكان السم بالطبع أيسر وأنجح الوسائل التي تستعمل في هذا العصر الفياض بالجريمة والغدر. وعلى ذلك عهد أحد رجال البطانة إلى أحد حراس السجن أن يضع شيئاً من مسحوق الماس في طعام تشلليني، وعهد بسحق الماس وإعداده إلى صائغ من أريزو؛ وقدم الطعام المسموم إلى تشلليني فأكله، ولكنه لاحظ في النهاية ذرات تلمع في أحد الصحون، فخفق قلبه، واعتقد

بعد فحصها أنها ذرات الماس القاتلة. يقول: (فأيقنت عندئذ بأني هالك، وامتزج الحزن والإيمان في قلبي حينما هرولت إلى الصلاة. ولبثت مدى ساعة أواجه الموت المحقق، وأضرع إلى الله، وأشكره على أن هيأ لي هذا الموت الهين، وشعرت برضى عميق، وباركت العالم والزمن اللذين عشت فيهما؛ والآن فإني أعود إلى أرض أفضل برعاية الله التي أيقنت إني كسبتها). ولكن أملاً غامضاً في الحياة حمله على أن يتأمل الذرات اللامعة مرة أخرى، وأن يفحصها بواسطة مدية صغيرة، فانتهى بعد فحصها وسحقها إلى أنها لا يمكن أن تكون من الماس، وأنها مسحوق مادة لامعة أخرى لعلها لا تؤذي الحياة. والظاهر أن الصائغ الذي عهد إليه بسحق الماس قد طمع فيه واستبقاه لنفسه واستبدله بهذه المادة. وعلى أي حال فقد نجا تشلليني من هذه المحاولة، واستمر أياماً يرفض الطعام الذي يحمل إليه ما لم يذقه أمامه حارس السجن

وقضى ربك أخيراً أن تختم المأساة المروعة وأن يطلق سراح البريء. ذلك أن الكردينال دي فرارا مبعوث فرانسوا الأول ملك فرنسا قدم إلى رومة لمفاوضة البابا في بعض الشئون، وانتهز هذه الفرصة فالتمس من قداسته أن يفرج عن تشلليني، وأن يسلمه إليه، منوهاً باهتمام ملك فرنسا بأمره، فاضطر بولس الثالث أن يجيب ملتمسه، وأوفد رسوله في الحال إلى الحصن مع كبيرين من حاشية الكردينال، وأفرج عن تشلليني، وأخذ إلى الكردينال دي فرارا، فاستقبله بترحاب، وأنزله بقصره. فلبث به مدى حين ينفض عنه عثار السجن، ويستجمع قواه الذاهبة، ويستعيد مواهبه التي كادت أن تخبو. ولما انتعشت نفسه، عاد فانكب على عمله المحبوب، وأخذ يشتغل بطائفة من الأواني والتحف التي عهد إليه الكردينال دي فرارا بصنعها. ولما أتم الكردينال مهمته في رومة اعتزم السفر إلى فرنسا، فسار تشلليني في ركبه مع فتاه

اسكانيو وزميل له يدعى باجولو، وسبقه الكردينال إلى فرنسا، وتخلف هو حيناً في فلورنس وفيرارا، ثم كتب إليه الكردينال ليوافيه إلى باريس، فسار إليها مع عامليه، ولم يكن راضياً عن معاملة الكردينال له من الوجهة المادية، ولكنه لم يستطع التخلف قياماً بحق الوفاء والعرفان لأنه هو الذي أنقذه من إسار السجن. ووصل إلى باريس، ثم سار إلى فونتنبلو حيث كان يقيم الملك وبلاطه، وهنالك لقي الكردينال، فأكرمه وأنزله منزلاً حسناً، ثم استقبله الملك فرانسوا الأول بترحاب وأغدق عليه عطفه، وقدم إليه التحف والحلي التي صنعها لحسابه، فأعجب بجمالها ودقتها وهنأه على براعته، وعهد إليه بصنع تحف أخرى، وأقطعه منزلاً للعمل والإقامة، وأجرى عليه راتباً حسناً. وهنا يفيض تشلليني كعادته في وصف التحف التي عهد إليه ملك فرنسا بصنعها والزخارف التي وضع نماذجها لبعض أبواب قصر فونتنبلو، ثم يصف لنا حياته اليومية في عاصمة فرنسا. وكانت كالمعتاد حياة عاصفة مليئة بالشجار والمنازعات، وكان قد اتخذ له صاحبة جديدة، هي فتاة فرنسية تدعي كاترينا، تشتغل لديه كنموذج فني، فكانت هذه العلاقة مثاراً لعدة منافسات وفضائح غرامية يصفها لنا تشلليني بصراحته المعروفة. ويقص علينا كيف فاجأ ذات يوم فتاه باجولو متلبساً بالخيانة مع كاترينا، وكيف تسممت بينهما العلائق من أجل ذلك، وطرد الفتاة الخائنة وصاحبها، ثم انتهى بأن رتب لهما انتقاماً جهنمياً هو أنه عقد زواجهما بالإكراه، وسيفه معلق على رأسيهما ثم عاد بعد ذلك فاستخدم كاترينا نموذجاً وخليلة لكي يذل بذلك أنف عامله السابق باجولو، وكيف أنه استخدم بعد ذلك فتاة أخرى، وأولدها طفلة ثم صرفها مع طفلتها بشيء من المال، ولم يرهما بعد ذلك قط

ولبث تشلليني في خدمة ملك فرنسا حيناً من الدهر، ولكنه لم يحظ بعطف الدوقة دتامب صاحبة الملك، وكانت تستأثر يومئذ بالنفوذ في البلاط، وأنفت نفسه من أن يترضاها بوسائل لا تتفق مع كبريائه، فلبثت من جانبها تدس له لدى الملك وتخلق الصعاب في وجهه. ولكن الملك أعرض عن تحريضها حيناً، وعهد إلى تشلليني بأعمال فنية كبيرة منها تماثيل فضية عديدة، وأحواض زهر، وباب برنزي وغيرها، وأدى الفنان هذه الأعمال كلها ببراعته الفائقة، وأعجب بها الملك أيما إعجاب. وأخيراً شعر تشلليني بأن عطف الملك قد فتر، وعاف هذه الحياة المضطربة الفياضة بالأحقاد والدس، فاستأذن في السفر، وذهب إلى الكردينال دي فرارا يلتمس إليه العون في العودة إلى وطنه، فأجاب ملتمسه، وغادر فرنسا غير آسف على فراقها، ووصل إلى إيطاليا بعد رحلة شاقة، وقصد إلى مدينة فلورنس مسقط رأسه، وكان ذلك في صيف سنة 1445. وبعد أن أقام أياماً إلى جانب أسرته، سعى إلى لقاء الدوق كوزيمو دي مديتشي أمير فلورنس، فاستقبله بترحاب وعهد إليه بصنع تمثال (لبرسيوس) وتمثال نصفي له، وقضى حيناً في خدمته، ولكن سوء تفاهم وقع بينه وبين الدوقة زوج الأمير، حمله على مغادرة فلورنس، وعندئذ سافر إلى البندقية وأقام بها حيناً ثم سافر إلى رومة وزار هنالك ميشيل أنجلو المهندس والفنان الخالد، وكان يومئذ يعني ببناء كنيسة القديس بطرس وزخرفتها، ليفاوضه في بعض المسائل الفنية. ثم عاد إلى فلورنس، بعد أن عاد التفاهم بينه وبين الدوق، واشترى هنالك ضيعة صغيرة بما اجتمع له من المال، واستقر هنالك منكباً على تحفه وتماثيله

وهنا ينتهي ما كتبه بنفونوتو تشلليني عن حياته. وقد كتب تشلليني هذه الصحف بين سنتي 1558 و1566، ولكنه يقف فيها عند سنة 1562. وكانت أوصاب الشيخوخة قد دهمته يومئذ، وذهبت بذلك العزم المضطرم الذي كان يلتهب أبدا؛ وملك تشلليني سحر القلم فكتب في ذلك الحين أيضاً قصته (تراتاتي) يكرر فيها القصة القديمة المعروفة بذلك الاسم. وليس في حياته ما يستحق التدوين يومئذ غير زواجه سنة 1565، وهو في الخامسة والستين من خادمته بيرا دي سلفادوري، تزوجها عرفاناً بما قدمته في خدمته أثناء مرضه من الغيرة والإخلاص، ورزق منها بولدين هما أبنه أدريا سيموني، وأبنته مادلينا، وتبنى أيضاً أبناءها من زوجها الأول. وتوفي الفنان الكبير في 13 فبراير سنة 1571، بمنزله في فلورنس، ودفن باحتفال فخم، وخبت تلك الحياة التي لبثت سبعين عاماً تملأ ما حولها حركة ونشاطاً واضطراما.

هذه خلاصة لذلك المجلد الضخم الذي تركه لنا بنفونوتو تشلليني عن حياته الغريبة الحافلة. وإذا كان تشلليني قد عُدّ من أقطاب الفنانين في عصر الأحياء، فانه يرتفع

بأثره إلى صف أقطاب كتاب هذا العصر. ولم يكن تشلليني كاتباً كما قدمنا، ولم تهيئه تربيته الساذجة، ولا حياته الشريدة المضطربة لمعالجة الكتابة؛ ولكن البيان هبة الطبيعة؛ وقد كان تشلليني أبن الطبيعة، وهبته كثيراً من خلالها الباهرة؛ فكان القلم في يده يدون به حوادث حياته، كالريشة يرسم بها نماذج تحفه. وليست روعة ترجمة تشلليني في هذا البيان القوي الساذج الساحر فقط، ولكنه أيضاً في تلك الصراحة الخشنة التي يحدثنا بها تشلليني، وفي تلك البساطة الرائعة التي يكشف لنا بها عن دخائل نفسه. ويقول لنا تشلليني في الخطاب الذي يوجهه إلى صديقه بنديتو فارشي بشأن ترجمة أنه لم يكتب إلا ما وعته الذاكرة من حقائق حياته. يقول: (والواقع أنني لم أكتب سوى الصدق، وقد أغضيت عن كثير من الحوادث العجيبة التي كان غيري يعطيها أهمية خاصة. ذلك أن لدي شئوناً عظيمة كثيرة أقصها، وقد تركت كثيراً مما هو أقل أهمية منها لكي لا يفيض بي القول فأخرج مجلداً ضخماً جداً). ولم ينته إلينا قبل تشلليني أو بعده أثر كأثره يمتاز بتلك الروعة والصراحة والحقائق المدهشة، وإن كانت هنالك ثمة تراجم شخصية عديدة غربية وشرقية ترتفع إلى ذروة البيان والطرافة الأدبية. وقد أشرنا فيما تقدم إلى ما بين ترجمة تشلليني و (اعترافات) جان جاك روسو من وجوه الشبه والتباين، وأخصها أن جمال ترجمة تشلليني مستمد بالأخص من روحه التي تكاد تمثل في كل صفحة من صفحاته؛ أما جمال الاعترافات، فهو مستمد على الأغلب من السحر الذي يسبغه بيان روسو وقلمه على حوادث حياته. وفي رأينا أن ترجمة تشلليني تتفوق من ناحية الفن والطرافة والروعة على اعترافات روسو؛ وعلى أي أثر غربي آخر من نوعها.

ولدينا في العربية أثر هام من نوع التراجم الشخصية القوية. ذلك هو ترجمة المؤرخ الفيلسوف أبن خلدون لنفسه، وهي المشهورة (بالتعريف). فقد دوّن أبن خلدون حوادث حياته في مجلد خاص في أواخر القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر، أعني قبل أن يكتب تشلليني ترجمته بقرن ونصف؛ و (التعريف) ترجمة شخصية، ولكن الحياة السياسية العاصفة التي خاض أبن خلدون غمارها والتي يقصها علينا في هذا السفر، تسبغ على (التعريف) لون التاريخ العام؛ ذلك أبن خلدون ضنين علينا بمواطن الإفضاء الشخصي التي تملأ ترجمة تشلليني، وهو يؤثر دائماً أن يدون من حوادث حياته ما يرتفع إلى أهمية الحياة العامة وحوادث التاريخ؛ بيد أنه يحدثنا أيضاً عن نفسه وعن خلاله، ولا يتردد في الافضاء بكثير مما لا يحسن الإفضاء به، لا عن حياته الداخلية ولكن عن حياته العامة. وفي تعريف أبن خلدون، كما في ترجمة تشلليني عنصر القصة الشائقة لحوادث حياة حقيقية. فان فيلسوفنا يصف لنا في تعريفه كيف يجوز من قصر إلى قصر، ويتعرض لمخاطر النقمة والاعتقال والمطاردة، ويسير في ركب الجند، ويمثل إلى جانب أميره في المعارك الحربية، ويقوم بقضاء المهام الخطرة في أعماق الهضاب والصحاري. ونراه في دمشق في السبعين من عمره يجوز مخاطر جديدة، وينزل من أبراج المدينة المغلقة مدلى بحبل ليقصد إلى معسكر الفاتح التتري تيمورلنك، وغير ذلك من الحوادث الغريبة الشائقة. والواقع أن هنالك شبهاً عظيما بين ترجمة أبن خلدون وترجمة تشلليني مع اختلافهما في النوع، فكلتاهما تفيض بمواطن الجرأة والمخاطرة ومواطن الإفضاء والصراحة. وإذا كانت ترجمة الفنان الإيطالي تعتبر في الأدب الغربي نموذجاً بديعاً للترجمة الشخصية، وقطعة رائعة من العرض الساحر والقصص الشائق، فان (تعريف) أبن خلدون يتبوأ مثل هذه المكانة في أدبنا العربي.

ولأثر تشلليني فوق ذلك أهمية تاريخية، فهو يصور لنا كثيراً من ألوان الحياة الاجتماعية في عصر الاحياء، وهو عصر تطور عظيم في تاريخ الإنسانية؛ وفيه وصف شائق لكثير من أحوال البابوات وبذخهم وقصورهم، ووصف لأخلاق الأحبار ودسائسهم واستغلالهم لطبقات المجتمع الأخرى، ووصف لأحوال الجمهوريات الإيطالية في ذلك العصر وأمرائها وسادتها؛ والخلاصة أنه يلقى أكبر الضياء على تاريخ عصر من أهم عصور إيطاليا، وعصر يعتبر بحق فجر التاريخ الحديث. وفي رأينا أن كتاب تشلليني من أجدر الآثار الغربية وأحقها بالترجمة العربية؛ وقد ترجم فعلاً من الإيطالية إلى جميع اللغات الأوربية؛ فعسى أن يتقدم بعض شبابنا المثقف فيتحفنا بترجمة عربية بديعة لذلك الأثر البديع.

(تم البحث)
محمد عبد الله عنان المحامي
الامتيازات الأجنبية والضرائب - 2
للأستاذ زكي دياب المحامي
يرى بعض الشراح أن إعفاء الأجانب من الضرائب التي تفرضها الحكومة المصرية قائم على اتفاقات دولية، وهم في زعمهم خاطئون. وآية ذلك أن الاتفاقات الخاصة بالامتيازات كانت ترمي إلى إعفاء الأجانب الكيدية، وخصوصاً ضريبة الرأس وهي ما تقضي قواعد الشريعة المطبقة في الدولة العلية حينذاك بأن تجبى من كل أجنبي يقيم أكثر من سنة في بلد إسلامي. وكانت تعتبرها الشريعة أيضاً نوعاً من الجزية، فضلاً عن أن في دفعها مظهراً للاستبداد والتعسف المالي. هذا ويلاحظ أنه وإن كانت هذه الاتفاقات تحمي الأجانب من حملة المكايد إلا أنها لم تعفهم إعفاء مطلقاً من الضرائب بكافة أنواعها. وقد كان الأجنبي منظوراً إليه بعين الكراهية لنزعته الدينية، وبدراسة نصوص الاتفاقات الفرنسية والإنجليزية يظهر ذلك جلياً. على أنه وإن كانت الاتفاقات الفرنسية تعفي الأجانب من فرائض صغيرة فيها شيء من التعسف، فان ذلك الوضع لا يمنع من فرض ضرائب معروفة لدى الدول المتمدينة، فالهوة سحيقة بين الجزية القديمة التي كانت تفرض من جانب الظافر على المهزوم وبين الضرائب التي تفرض في الدول الحديثة.

وترى الأوساط الأجنبية هنا وجوب الإعفاء من كل تلك الضرائب، ضريبة الأراضي العقارية والرسوم الجمركية، ويرد على هذا بأن العامل الوحيد الذي حدا بالدول إلى طلب هذا الامتياز والحرص عليه هو وضع الأجانب في مأمن من تيار الضرائب الكيدية التي كان يفرضها الحكام في ذلك الوقت بدليل أن نص الاتفاقات لا يتضمن إعفاء عاماً للأجانب، فالدول في الواقع كانت تقصد حماية رعاياها من حيث طريقة جباية الضريبة ولكنها لا تعارض في فرضها. وما دامت قد ذهبت العلة فلا داعي لبقاء المعلول. فدوافع الكيد معدومة.

ولا غرو فمبدأ المساواة في تحميل الضرائب قد حبذته لجنة التحقيق في بيانها سنة 1878. وهي مؤلفة من أجانب عينوا بعد مفاوضات مع الدول. أليست هذه حجة قوية؟ وأليست هذه شهادة شهود من أهلها؟

وفي مؤتمر لندن سنة 1885 أكدت الدول بصراحة رغبتها في المساواة، ورأت من العدل

إخضاع الرعايا الأجانب القاطنين بمصر لنفس الضرائب التي يخضع لها المصريون. .

وقبلت (الدول) تنفيذ ديكريتو سنة 1884 الخاص بالضرائب على أراضي البناء فسرى على الأجانب والمصريين كما سبق القول. وفي قرارات ذلك المؤتمر الخطير حجة لنا دامغة لا يأتيها الباطل من بن يديها ولا من خلفها.

وفي مستهل القرن العشرين استنكرت الشخصيات الكبيرة المعروفة في عالم السياسة نظام الامتيازات في مصر فصرح اللورد ملنر في كتابه أو (إنجلترا في مصر) بأن إعفاء الأجانب من الضرائب في القطر المصري من المنح التي خلقتها الامتيازات بدون وجه حق، وفي عبارته التالية مبلغ ذوده عن رأيه الحكيم:

وأعرب لورد كرومر بأنه لا يتردد في القول بأن النظام المعروف بالامتيازات في مصر لا يتفق إطلاقاً وحالة مصر الحاضرة:

وبعد، أليس من الجور في أخص صورة أن مصر وقد خطت في سبيل المدنية الصحيحة والتقدم خطوات لم تنكرها عليها الدول؟ أليس من الجور أن مصر هذه إن أرادت فرض ضريبة جديدة تستعين بها على ما تقوم به من أعمال كبار أن تلجأ إلى اثنتي عشرة دولة تلتمس موافقتها. إنه مظهر من مظاهر قصور السيادة، وجرح لا يندمل في صميم العزة القومية.

ومن ذلك ما حدث خلال المدة التي أعلنت فيها الأحكام العرفية على البلاد، إذ جرت السلطة العسكرية على إصدار أوامر تسري على الوطنيين والأجانب سواء بسواء، وكان بين هذه الأوامر ما يتعلق بفروض مالية قبل الأجانب، والوطنيون يحملونها. فلما

ألغيت الأحكام العرفية أثار إلغاؤها دفائن العصيان المدني لأوامر الحكومة المصرية، فامتنع أكثر الأجانب عن دفع ضريبة الحفر، وأشار بذلك بعض القناصل وعللوا الامتناع بأن دولهم لم توافق عليها. وما كانوا ليقولوا كلمة وقت أن فرضتها السلطة العسكرية.
ومجمل القول أن نظام الضرائب في مصر جد متناقض، وعلة ذلك نظام الامتيازات العتيق والتوسع الضار الذي خلقه العرف السائد الآن والقواعد القديمة البالية، والأوضاع الكيدية
المهينة التي صورتها الامتيازات. وهل ترى من العدالة أن الأراضي الزراعية وجلها في يد المصريين تثقل بالضرائب حتى لتكاد تستغرق الإيراد، أما التجارة الواسعة وهي في يد الأجانب، والصناعة الممتازة المكسبة، والمصارف الكبرى وكل ذلك في يدهم، فمعفى من الضرائب.
وأخيراً فلا تردد في إبراز الحقيقة نيرة في سطور معدودة ذلك أن قيام الأجانب متمسكين في وجه مصر بامتيازاتهم كلما حاولت الحكومة المصرية السعي لإلغائها أو تخفيف وطأتها سيكون له من الأثر الخطير ما يقرب أجل الامتيازات، لأن الحال على ما هي عليه لن تدوم طويلاً ولابد لمبادئ العدالة أن تسود يوماً ما.
(تم البحث)
زكي دياب
الذكرى
للأديب حسين شوقي
مضى عام كامل منذ أن رافق (س) رفاتها إلى المقرّ الأخير، فرأى أن يزور القبر بهذه المناسبة وأن يضع على الضريح طاقة من البنفسج، لأنها كانت تحب هذا الزهر الذي طالما لاحت زرقته في إنسانيْ عينيها، ثم قصد إلى محل الشاي حيث اعتاد مقابلتها لدى خروجها من عملها، وجلس إلى المائدة التي كانت تجلس إليها وهي تنتظره في شغف وسرور. . ثم أقبل الخادم وكان هو بعينه الذي خدمهما في العام الماضي، فحياه (س) كالعادة في لطف ودعة، ثم طلب الطلب نفسه: قدحْين من الشاي، فدهش الخادم لأن الرجل لم يكن معه أحد، ثم أخرج (س) مجموعة من الرسائل التي علتها صفرة القدم ثم أخذ يتلوها واحدة واحدة للمرة المتمّمة للمائة، ولكن كان يجد فيها دائماً لذة جديدة كأنها لحن من ألحان ديبوسي الشجية التي لا تملها النفس أبداً. .
ها هي ذي ذكريات الماضي ماثلة أمامه: مقابلاته الأولى مع محبوبته، رحلاتهما، نزهاتهما، نوادرهما، جلساتهما في هذا المكان نفسه، تناولهما الشاي في هذه الساعة نفسها، كل ذلك كان يحسّ وجوده، حتى المحبوبة خيل إليه أنها بجواره. . كان يشعر بلذّة عظيمة من أجل هذا، لقد أتى عملاً يعدّ من معجزات الرسل إذ تحدّى الفناء وعلا سلطانه فوق سلطان الدهر، ولو إلى زمن قصير!
مضت ساعة، فساعة ولم يحضر أحد. . وكان الخادم يرقبه فظن أن الرجل ضحية خيبة أمل من عشيقة. . ولكن على حين فجأة تذكر قصة هذا الرجل ففهم الحقيقة المؤلمة لما كان يبدو على (س) من مظاهر اليأس المتجلد، فخجل من نفسه وأشفق على الرجل شفقة عظيمة، كما أعجب من تحدّيه للموت ومن وفائه لمحبوبته المتوفاة، ثم اقترب منه ومد إليه يده معتذراً لسوء ظنه قائلا: آسف جداً يا سيدي لقد شككت في وفائك، سامحني! فصافحه (س) في حزن وألم مردداً: لا بأس لا بأس. . وكأنه أفاق من حلمه الجميل فعاد إلى عالم الألم والشقاء، يئن تحت سلطان الزمن.
حسين شوقي
رأي عربي مسيحي في محمد
محمد والعرب
قصيدة في ذكرى مولد الرسول
بقلم وصفي قرنفلي
توطئه
عقيدتي الشخصية، أن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول كبقية الرسل، وكما جاز للمسيحيين أن يجمعوا للمسيح (ص) صفتيْ الألوهية والإنسانية الممتازتين، فقد يجوز لي أن أرى في سيّد قريش نبياً دينياً ومنقذاً قومياً في آن واحد. فأنا أحترمه (ص) كنبي جاءنا بالهدى والرجمة، وانضوى إلى لوائه كمنقذ الشرق من إسار الفرس والرومان،

وأنا أرى في الدين الإسلامي قوة للشرق في جهاده يجب استغلالها، وإذا لم يكن للقرآن من يدٍ إلا صيانة لغتنا - واللغة أجلّ مظاهر القومية - لكفاه ذلك فضيلة تحمد، ويداً تشكر.

فاعترافاً بفضل محمد وقرآنه على العرب والعربية كتبت ما كتبت، وأكتب من طوال الفصول في جرائد الفتح في (مصر) والاعتصام في (حلب) والرابطة في (دمشق) وسواها من الصحف الإسلامية، عدا رسائلي وقصائدي القومية في بقية الصحف العربية

وفي سبيل محمد وقرآنه لقيتُ وألقى ما أكابد من عَنَتِ الجهل وسخر رجاله، فُحبيتُ (الرياء) وساماً، ورُميت بالكفر والضلالة، وقيل إنني أداري الأكثرية فأصانع المسلمين، وأني حزب القوة أنّى كانت القوة، وكان أشد أولئك الغاضبين عنَتاً وغيظاً، كهل مسيحي يدعى (سمعان) قرأ لي مقالاً في (الجزيرة) فهزّه الغضب حتى لقد همّ بي لو استطاعني، ولكني هزأت به وترفعت عن خصامه، فالى (سمعان) هذا ومن أخذ أَخْذَهُ صرفتُ وجه الخطاب في مستهل القصيدة.

إنني مسيحي كما يحب (سمعان) أن أكون، ولكني لا أرى في مسيحيتي ما يمنعني عن الاعتراف بهدى محمد ويده على الإنسانية والعرب!

ولعل الضلالة كل الضلالة أن نحصر الفضيلة والهدى في دين من الأديان، فلكل دين ميزاته، ولكل دين فضائله، ومرجع كل دين إلى الله (ولله ما في السموات وما في الأرض،

(والى الله تُرجع الأمور

القصيدة

(قد يقولون (شاعر نصراني ... يُرسل الحبَّ في كذاب البيانِ)
(يتغنى هوى الرسولِ ويهذي ... بانبثاق الهدى من القرآن)
ينتحي الجبهة القوية يحدو ... ها رياءً، والشعر (لا وجداني))
(.قسماً بالمسيح، لو قام للشيطا ... ن حزب، أشاد بالشيطان)
كذبوا والرسولِ، لم يجر يوماً ... - بخلاف الذي أكنّ - لساني
ما تراءيت بالهوى، بل سقاني ... طائفُ الحبّ والهوى ما سقاني
أوَ عارٌ على فتى يعربي ... أن تغنّى بالسيد العدنانى؟
أوَ ليس الرسول منقذَ هذا (م) ... الشرق من ظلمة الهوى والهوان؟
صاح بالشرق واستثار بنيه ... فتنادوا بالفرس والرومان
ومشوا للحياة تحت رايته السم ... حاءِ صفّاً موطَّد الأركان
وبنوا مجدنا المؤثّل صرحاً ... من نِثار العروش والتيجان
وأتوا قمة الزمان فكانوا ... سادة الأرض في شباب الزمان
!أَفكُّنا لولا الرسول سوى العب ... دان؟ بئست معيشة العُبدان
أو ليس الوفاء أن تُخلص المن ... قذ حباً إن كنت ذا وجدان؟
فالتحيات والسلام أبا القا ... سم تُهدى إليك في كل آن
قلْ (لسمعان) إن ما في عروقي ... عربي، وأن ما في لساني
أتغنى بالحق، والحق يا صا ... ح لا مسلم ولا نصراني
إنما الشاعر الذي أنا منه ... فوق ذاك الارتجاف والبهتان
قد تعالى عن الرياء بريئاً ... من هوى الشيخ أو هوى المطران
كلُّ هذي الأديان - لو عقل النا ... س - سبيل هادٍ إلى الرحمن
أخذته الغاياتُ فانشعب السي ... رُ وضلت قوافل الركبان
فاذا الناس في مريج من الأم ... ر حيارى مشلولة الأذهان
يترامون بالكبائر والاث ... م ويمضون طيّة الأضغان
أيها الناس! ما أتى الرسل للتف ... ريق لكن لوحدة الإنسان
كلنا مسلمون لله، فحتا ... م الترامي بالكفر والإيمان؟
كلنا صائرون لله يوماً ... (يوم تنشق وردة كالدهان)
أتدينون بعضَكم؟ مَن حباكم ... أيها الناس سلطة الديان؟
فاتقوا الله! واتركوا الأمر لل ... هـ، وخلّوا ضلالة الكهّان
أم نراكم علمتم الغيب فأصدر ... تمُ إذ أصدرتمُ عن عيان؟

فقذفتمْ في زيداً وبوّأ ... تُم عميراً مقصورة في الجنان
جلّ سبحانه عن الشرك في الرأ ... ي وعلم المصير والسلطان!
منقذ الشرق! قد أتيناك نشكو ... ضيعة الحق وانخذال الأماني
فاحي فينا ميْتَ العزائم وابعث ... نائرات الهدى ودُرس المباني
قد أضعنا ذاك التراث وضِعنا ... في شعاب الحياة والوديان
منقذ الشرق! أنت لم تنقذ المس ... لمَ دون المواطن النصراني
فجزاء الإحسان أن ينهض الشر ... ق جميعاً بواجب المهرجان
حمص (سورية)
وصفي قرنفلي

لماذا أخفقت جمعية الأمم في نشر السلام في العالم؟
للكاتب الإنجليزي الشهير
(ولز)

من أعظم كتاب العالم اليوم، أصالة رأي وقوة بيان، يزيد كتاباته روعة نزعته الإنسانية الصادقة التي تتجلى في كل ما يكتب. لا يشاطره مكانته الرفيعة في عالم الأدب الغربي من كتاب اللغة الإنجليزية سوى (برنادشو) الكاتب الالرندي الشهير بنقده اللاذع. غير أنه يختلف عن (شو) في أنه لا يقتصر على هدم الأنظمة الاجتماعية التي يتراءى له فسادها، وإنما يكلف نفسه عناء خلق أنظمة جديدة تخلفها. فهو يهدم ليبني، وينتقد ليصلح.

من أحدث ما كتب (ولز) ومن أروع ما أنتج، كتابه (شكل الأشياء القادمة) الذي بحث فيه ما يكون عليه العالم في سنة 2116؛ فقد تصور شخصاً يعيش في هذا التاريخ، أخذ يدرس تطورات العالم الاجتماعية منذ سنة 1913، حيث انتهى ذلك التطور بحكومة عالمية يعيش فيها كل فرد سعيداً، لا استعباد فيها ولا استبداد، ولا احتكار ولا منافسة.

وليُلمّ قراء الرسالة الذين لم تصل أيديهم إلى هذا الكتاب بعض ما فيه، ترجمت فصلاً منه بالعنوان المذكور آنفاً ترجمة حرة مختصرة:

بحث في الفصل السابق لهذا الفصل معاهدة فرسايل بحثاً مستفيضاً وانتقدها انتقاداً مراً، ثم أخذ في هذا الفصل يشرح أسباب فشل جمعية الأمم كما يأتي:

قبل أن نضرب صفحاً عن ذكر (ويلسون)، ذلك الرجل الخيالي، يجدر بنا أن نلفت) الأنظار إلى العوامل التي أدت إلى فشله.

لم تكن شخصيته مكتملة للميزات الضرورية لنجاح الهدف الذي كان يرمي إليه. ولكن هذا النقص يجب ألا يجعلنا نتناسى استحالة تحقق مطمحه في ذلك الوقت.

فأنانيته الضيقة، والروح الانتقامية التي عوملت بها دول أوربا الوسطى وما إلى ذلك، جعلت من الخطر مجابهة العالم غير المستعد آنئذ بجمعية أمم.

فلم يكن في ذلك الوقت استعداد فكري كاف لقبول نظام عالمي؛ و (الحكومة العالمية) أو الحكومة الحديثة الحاضرة كانت مجرد فكرة غامضة لم تبحث جيداً. فلا ريب إذن أن وليسون تسرع في خلقه جمعية الأمم، إذ كان لزاماً أن ينتشر علم النفس الاجتماعي، وأن يطبق قبل القضاء على فوضى الحكومات الملكية واستبدالها بسلطة مركزية.

غير أن ويلسون الذي لم يسبر غور الواجب الذي ألقي على عاتقه، ولم يحط بما يكتنفه من عقبات، رأى من غير روية ولا تبصر، انه من السهل عليه توحيد البشر. فقد حاول أن يرتق نظام ذلك الزمن البالي، وأن يجيزه كنظام جديد.

لم يحلم بتهذيب نظام النقد، ولم يفكر بالحاجة إلى انتشار النظام الاشتراكي في العالم، وانقلاب النظم التربوية انقلاباً شاملاً، قبل أن يكون في الإمكان استقرار السلام في العالم.

ولكن على الرغم من كل نقائصه يظهر أنه كان أبعد رجالات زمنه نظراً.

فجمعية الأمم هذه غير الناضجة، والعديمة الأثر، لم تساعد على توطيد السلام الدولي، وإنما على العكس من ذلك كانت حجر عثرة في سبيله؛ إذ منعت الناس أن يفكروا تفكيراً حراً في هذا الموضوع.

ومن المؤسسات التي وجدت لمساعدة جمعية الأمم وعرقلة مساعي ناقديها (جمعية الأمم البريطانية) فكانوا يقولون بأن (وجود جمعية الأمم خير من عدمه). وقد فاتهم أن البد الخاطئ أسوأ من عدمه.

في العشر سنين التي تلت الحرب العالمية لم تكن أفكار مجددة في السياسة العالمية يؤبه لها، ولم يرجع البشر إلى بحث توحيد العالم، إلا بعد أن ثبت لهم ثبوتاً لا شك فيه عدم صلاحية جمعية الأمم للغرض الذي كونت من أجله.

ظلت حركة (الحكومة العالمية) في الاثنتي عشرة سنة التي تلت تلوح وتختفي. وكان من الضروري أن تتوحد جهود محبي السلام والشيوعيين والاشتراكيين، وكل من سار على نهجهم من الذين حاولوا حل المعضلات الاجتماعية، وكانوا لا يزالون يقضون أوقاتهم في مناضلة بعضهم وفي التراشق بالتهم.

وعلى كل فقد انقضى منتصف القرن العشرين قبل أن يتسع نطاق الدعاية في العالم (للحكومة الحديثة).

نابلس

عبد القادر صالح

كتاب نهج البلاغة - 1

بقلم محمد محمد العزازي

ذلك الكتاب المنسوب إلى فارس الفصاحة وصيقل البلاغة وإمام الخطابة، والضارب في ميدان البيان بما لم يلحقه فيه لاحق، ولا وصل إليه سابق. أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. كتاب نابه الشأن، رفيع القدر، بليغ الموعظة، صادق الحكمة، قد توفرت عليه سنين طوالاً أقرأ ما بين دفتيه مرة وأخرى وثالثة حتى بدت لي فيه آراء أردت بها تحقيق أمره. والكشف عن سره. مستنداً في بحثي إلى ما هدتني إليه الفكرة وطول المراس. . وجل الذي قيل في الكتاب كلمات مجملة. لا تشفي غليلاً ولا تقوم دليلاً، فالشيعة على أن الكتاب بجملته وتفصيله لأمير المؤمنين علي، والمنصفون من النقدة والنظار على أن فيه ما هو مدخول منحول بدعوى أنه يتعرض لبعض الصحابة بالطعن والتجريح. .

وهناك من يدعي أن الذي لعلي من القلة بحيث لا يصح أن ينسب الكتاب إليه. وعلى كل فهذه كلمات - كما قلنا - مجملة لا تشبع الباحث. ولا توقف الناظر عند حد أو تلزمه رأياً. وهذا ما يدعونا إلى بحث المسألة على ضوء العلم والأدب والحقيقة والتاريخ.

والكتاب في جملته عالي الأسلوب فخم العبارة صقيل الديباجة، لطيف الروح يتحدر إلى النفس بسهولة. والذي يدور عليه الكلام في الكتاب كما يقول الرضى (أقطاب ثلاثة أولها الخطب والأوامر، وثانيها الكتب والرسائل، وثالثها الحكم والمواعظ) وهذا تقسيم حسن، والمعقول ألا يخرج كلام أمير المؤمنين عن هذا. . فأمير المؤمنين أحد رجالات الإسلام غير مدافع. وله في الفصاحة والشجاعة والفضل والنبل يد طولى. بايع أبا بكر نزولاً على حكم الإجماع. ورضى بعمر نزولاً على اختيار أبي بكر، وأخطأته الشورى بعد أبن الخطاب، ثم انتهت إليه بعد عثمان. فكان أمير المؤمنين أربع سنين وتسعة أشهر أخذ يصلح فيها ما يراه فاسداً ويجمع كلمة المسلمين ويلم شعثهم. وقد نقض بعض الصحابة بيعته فكانت حروب. انتهى بعدها الحكم إلى معاوية بعد تنازل الحسن. فكل هذا يدعو أمير المؤمنين إلى الخطب في شأنه. وفي صلاح المسلمين وفي رجال جيشه. يحثهم على الأخذ بحقهم، ويستفزهم للقاء عدوهم وإلى الأوامر يصدرها إلى عماله ورجاله وأعوانه. وإلى الكتب والرسائل يبعث بها إلى الثغور والعمال، بل وتجري بينه وبين معارضيه، كل يؤيد رأيه ويقيم حجته ويدعي الحق في جهته والباطل في جهة صاحبه. أما الحكم والمواعظ فأشياء كانت في نفس على غرسها فيها حب الصلاح للناس يلقيها عليهم يبين لهم طريق الهدى ومنارة الحق ويذكرهم بالله ويفهمهم المعاش والمعاد، مما يدل على إخلاص علي وطيبة نفسه وسمو روحه وكرم أخلاقه وقوة إيمانه وحبه للمسلمين. . .

ولكن الذي يعنينا هو: هل كل ما في الكتاب من خطب وأوامر وكتب ورسائل وحكم ومواعظ لأمير المؤمنين علي.؟ أم أن فيه ما ليس له. . نريد أن نعرض أمام القارئ صوراً مختلفة من الكتاب نشرحها له تشريحاً دقيقاً ثم نخرج على ما يهدينا إليه البحث.

وليكن أول ما نعمل فيه المبضع الخطبة الأولى من الكتاب التي يقول الرضى في عنوانها إنها خطبة يذكر فيها ابتداء خلق السماء والأرض وخلق آدم، وعبارات هذه الخطبة منسجمة ميالة آخذة بعضها بحجز بعض. وهي مبتدأة بتحميد بديع يعقبه تنزيه لله عما لا يليق به، وكلام في معرفته مترتب على بعضه على مثال القضايا المنطقية،

ثم ذكر للخلق من ابتدائه إلى انتهائه على مثال ما في الكتب المقدسة، وذكر لخلق آدم ومعصيته وخروجه من الجنة. وذكر لذريته في الأرض، وكلام عن الأنبياء من أبنائه حتى انتهى إلى محمد وبعثه؛ والقانون السماوي الذي نزل به، وخص من ذلك الحق، فتكلم فيه كلاماً كثيراً. ولو نظرنا إلى هذه الخطبة لوجدنا أسلوبها أقرب إلى الأسلوب التأليفي منه إلى الأسلوب الخطابي، فهي خالية من الاندفاعات الخطابية، ويظهر على عباراتها أنها وليدة التفكير، فترتب العبارات على بعضها ترتباً مطرداً على مقتضى قوانين المنطق مما لا يتيسر في الخطابة ولا يتأتى في الارتجال، وما كان علي ليخطب غير مرتجل، والتحميد الذي في أولها (الحمد لله الذي لا يبلغ مدحته القائلون. ولا يحصى نعماءه العادُّون، ولا يؤدي حقه المجتهدون، الذي لا يدركه بعد الهمم ولا غوص الفطن. الخ.)

هذا التحميد أشبه بالتحاميد التي تبتدأ بها الكتب. وهو يخالف التحاميد في صدر الإسلام. وهو ملحق بتنزيهات كالتي تلحق التحاميد في العصر العباسي حتى أن في العصر العباسي ما يوافقه في المعنى ويكاد يشبهه في اللفظ، ويجري معه في النسق والترتيب والروح، مما يجعلنا نرجح أنه من تحاميد ذلك العصر التي منها (الحمد لله المتعالي عن تشبيه الجاهلين، وتحديد الواصفين، وتكييف الناعتين. يوصف لا بالعرض والطول، وينعت بغير الشبح

الممثول. ويحد لا بالخلق المعدود، والجسم الموجود، بل يتناهى من وصفه، إلى ما دل عليه من صنعه، ويوقف من نعته، على ما أخبر به عن نفسه. وكيف يوصف من لم يره أحد، أو يحد من لم يحده بلد، أو يشبه غير ذي أعضاء، أو يكيف غير ذي أجزاء. لو رئي لوصف، ولو وصف لمثل، ولو مثل لكان له نظير الخ) فكل هذه التنزيهات من منع التحديد والرؤية، ونفي الصفات على نسق واحد في التحميدين. مما يجعلنا لا نشك في أنها وليدة عصر واحد، ونشك في أنها وليدة عصرين، ثم لو قارنا هذا التحميد بتحميدات أمير المؤمنين التي يهدينا البحث إلى أنها له. . لوجدنا بوناً شاسعاً في المعنى والأسلوب والروح مما يظهر منه أن القائل غير واحد. . . ثم لنا نظرة في هذه التنزيهات وهي قوله في صفة الله (الذي لا يدركه بعد الهمم ولا يناله غوص الفطن، الذي ليس لصفته حد محدود. ولا نعت موجود ولا وقت معدود ولا أجل محدود. . . أول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده. وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة. فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه. ومن قرنه فقد ثناه. ومن ثناه فقد جزاه. ومن جزاه فقد جهله. ومن جهله فقد أشار إليه. ومن أشار إليه فقد حده. ومن حده فقد عده. ومن قال فيم فقد ضمنه، ومن قال علام فقد أخلى منه). . هذه التنزيهات تجري على نسق بديع من البيان والمنطق وكلها عقائد كلية في علم الكلام.

وأهم ما يطالع الباحث فيها شيئان: هما المحور الذي تدور عليه. والغرض الذي صيغت من أجله هما منع رؤية الله ونفي الصفات. فمنع الرؤية يؤخذ من العبارات الأولى، لأن الإدراك قد نفي، والرؤية أحد الأدراكات، ولأنها تقتضي تكييفاوقد دلل على بطلان التكييف. ولذلك نرى أبن أبي الحديد عند شرحه لهذا الكلام يطنطن في هذه المسألة، ويدلل عليها بأدلة المعتزلة، ويرد على الأشاعرة رداً قوياً ومعقولاً. وأما نفي الصفات فقد جاء صريحاً في قوله. (وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة). . ونفي الصفات كلام جرى بين علماء الكلام وأخذ به المعتزلة - واحتدم فيه النزاع والجدال بينهم وبين الأشاعرة. والمعتزلة ينفون الصفات بدعوى أنها تثبت تعدد القدماء، وأنه لابد من تغاير بين الصفة والموصوف،

وأن الموصوف يسبق الصفة، ولذلك يحرجون الأشاعرة فيسألونهم عن كيفية قيام الصفات بالذات إن كانت زائدة عنها. والذي يعنينا من هذا الكلام أن مسألة الرؤية ومسألة نفي الصفات لم تنشأ إلا بعد نشوء مذهب الاعتزال، وإلا بعد أن اختلف واصل بن عطاء وأستاذه الحسن البصري في مسألة الاختيار ومسالة مرتكب الكبيرة إن لم يتب. فلم يكن لهذه المسائل أثر في زمن علي. ولم يكن لعلي أو الناس وقت يخلون فيه إلى نفوسهم ويفكرون في مثل هذه الأشياء. وليس عندهم ما يدعوهم إلى التفكير

في هذه الأشياء. وإنما كانوا في زمن الرسول والخليفتين من بعده يفكرون في الفتوح وفي أنها الدين الجديد وأغلب الخلاف كان في فروع الأحكام لا في أصول العقائد. وفي زمن الخليفة الثالث حصلت فتن سياسية أفضت إلى قتله. ولم تكن هذه الفتن لتترك الناس يفكرون في مثل هذه العقائد، وفي زمن علي قام الخلاف بين أمير المؤمنين وبين ناقضي بيعته فاشتعلت به نار الحرب وانتهى الأمر إلى الأمويين. وحصل بهذا الانقسام خلاف جديد لا في الأشياء التي نحن بصددها وإنما في شيء آخر هو الإمامة، انقسم الناس به إلى شيعة وخوارج ومعتدلين. . فالمعقول إذن والمعروف من التاريخ السياسي وتاريخ علم الكلام أن هذه العقائد جاءت متأخرة عن علي وزمن علي وأنها نشأت بعد نشوء مذهب الاعتزال وصارت من مسائله وكلياته. . . فالدليل ناهض والحجة ناصعة على أن علياً لم يقل هذه العبارات ولا نشأت في عصره. . وربما كان الرضى قائلها. أو أنها وقعت للرضى منسوبة للأمام فألحقها بالكتاب

وبنظرة في هذه العبارات نجدها عبارات تأليفية محضة، فعبارة (نفي الصفات) وعبارة (لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف الخ) هي بعينها الجارية على ألسنة المؤلفين والباحثين في علم الكلام حتى أن أبن أبي الحديد يقول عند العبارة الأخيرة هذا دليل المعتزلة بعينه. . ويظهر على هذه العبارات بأجمعها أنها جاءت وليدة جدل وبحث، وان فيها تكلفا محسوسا جاء من إقامة الدليل المنطقي ومن قرع الحجة بأختها مما يشهد على أن هذا الكلام من أحد المتحمسين لهذا المذهب. والمنافحين عنه وأنه حدث بعد احتدام الجدل بين الفريقين.

أبو حماد - (يتبع)

محمد محمد العزازي

العلم الحديث ينصف العرب

العصور المظلمة تسمية تاريخية خاطئة

للأستاذ بشير الشريقي

هذا هو الموضوع الطريف الذي أثاره في هذه الأيام الدكتور جورج سارتون أستاذ علم التاريخ في جامعة وشنطون، وإني أنقله فيما يلي كما لخصته مجلة (أخبار العلم في عددها 674 سنة 1934

ليعلم المؤرخون المعاصرون بأن (العصور المظلمة) لم توجد حقيقة؛ من الجائز أن) غربي أوربا قد عانى المتاعب خلال القرن السادس حتى العاشر الميلادي من جراء تراجع الثقافة الرومانية التي لم ينعم بها غربي أوربا الاّ زمناً قليلاً؛ وان المشعل الروماني قد همد تحت أقدام البرابرة المهاجرين؛ ولكن نور الثقافة لم يخمد أبداً في الأرض التي تطل على شرقي البحر الأبيض المتوسط، والتي هي الوطن الحقيقي والطبيعي لما نسميه خطأ (بالمدنية الغربية)

لقد انتقل مصباح الثقافة الدري من أيدي اليونان البيزنطيين إلى أيدي العرب الفاتحين المؤمنين بالله وبمحمد، وكان في أيديهم أكثر تألقاً وبهاء.

إن سبب اضطراب آراء مؤرخي القرون الوسطى هو أنهم وان كانوا يجيدون اللغة اللاّتينية، فقد كانوا يجهلون اللغة العربية جهلاً تاماً، على حين كان كل تقدم في العلم والثقافة، يسجل منذ عهد محمد حتى منتصف القرن الثاني عشر باللغة العربية.

ولكن هذا لا يعني بأن مدينة الإسلام المشرقة التي امتدت من قلب الهند حتى منتهى غربي أسبانيا المتوحش كانت من عمل الفاتحين فحسب؛ يقول الدكتور سارتون، إن العرب أول من نزلوا الميدان أسياداً للعالم، لم يكونوا أحسن ثقافة من قبائل الهند الغربية، ولكنهم كانوا ذوي أهبة ممتازة فاقتبسوا بسرعة عجيبة كل ما يمكن اقتباسه من مدنية البيزنطيين، واستطاعوا في خلال جيلين اثنين فقط أن يرتقوا في العلم منزلة لم يرتق إليها أحد من قبلهم، وكذلك برهنت الثقافة التي نشروها على أنها توافق طبيعة كل الشعوب.

إن تكييف العرب لعلوم اليونان وتوسيعهم لفنونهم قد بلغ بهم الذروة في الفلك والرياضيات والطب والطبيعيات والكيمياء، وهم لم يقتصروا على نشر الثقافة فيما بينهم، بل نشروها

خارج ممتلكاتهم. إن موسى بن ميمون أعظم فلاسفة اليهود، لم يكن يكتب بالعبرية، بل بالعربية، ومن المسلم به الآن أن تأثير العرب كان قوياً في نجاح القديس توماس

أكونياس مؤسس مناهج الدرس في العصور الوسطى التي تعتبر بحق جسراً بين تفكير القرون الوسطى والتفكير الحديث.

وعلى ذلك فان سلسلة الثقافة ظلت تامة ولم تنقطع من عهد اليونان إلى ثقافة العرب إلى مدينة أوربا الحديثة

شرقي الأردن

بشير الشريقي المحامي

تحليل نفسي

الأفعال المفقودة أو الفلتات

للدكتور عبد الفتاح سلامة

إذا كانت الأمثلة السائرة والقصص المتداولة بين الجمهور تدل على شيء، فإنما يكون ذلك لأنها نتيجة لتجارب كثيرة، لمس كل فرد حقيقتها، وعرف مقدار الحكمة فيها ويمكن له الاستفادة منها بتطبيقها على ما قد يصادفه من حوادث. وقد تكون القصة الآتية واحدة من هذه القصص، وإنا لنذكرها هنا لأنها تحتوي على فعل مفقود أو فلتة. وإذا عرفنا أن راوي هذه القصة هو أحد رجال البوليس فان من السهل معرفة إلى أي حد يمكن للبوليس والقضاء الاستفادة من هذه الفلتات.

قال صديقنا - والعهدة على الراوي - إن اثنين كانا يسيران في جهة بعيدة عن العمران فأراد أحدهما اغتيال الآخر، وبعد أن استعطفه دون جدوى قال له: وهل تظن أنك ناج من القصاص؟ فأجابه: ولمَ لا؟ فقال المسكين: (الهوا يخبر). ولكنه قتله ووارى جثته التراب ورجع وحده إلى بلدته؛ ولم يهتد أحد إلى مقر القتيل المسكين. مضى على ذلك وقت غير قصير، واطمأن القاتل إلى النجاة. وفي ذات ليلة قمرية جميلة جلس القاتل وزوجه يتبادلان الحديث - والحديث ذو شجون - وتوالت الأفكار على رأسه، وإذا به يبتسم في غير موضع للابتسام، وإذا بزوجه تصر على معرفة سبب الابتسام، فيقول لها إنه تذكر كلمة قالها رجل معتوه أثناء قتله، وهذه الكلمة هي (الهوا يخَبّرْ). فلا تزال هي به حتى يعترف لها بكل شيء يتعلق بالجريمة وبمكان الجثة. فالابتسام إذن هو الفلتة التي كشفت سراً كان يحرص على كتمانه؛ وهي التي حققت المثل القائل: (مهما تبطن، تظهره الأيام). ولا حاجة بنا إلى القول بأن فلتات مشابهة لهذه قد اضطرت الزوجة إلى الاعتراف إلى صديقة لها، وهكذا شاع الأمر وأمكن إدانة القاتل. ولعلنا نكون قد توصلنا بإيراد هذه القصة إلى إيضاح ما نقصد من كلمة (فلتات، أو أفعال مفقودة)، إذ أننا بعد أن تكلمنا عن تأثير الإيحاء في بعض الأمراض العصبية وكذلك في بعض الأمراض الأخرى، نود أن نتكلم عن التحليل النفسي، لأنه هو الوسيلة الوحيدة للكشف عن المشادة اللاشعورية، وهي التي تحدث بين ذلك الشيطان - اللاشعور - والنفس.

ويكون التحليل النفسي ممكناً بالمناقشة والاستفادة من الفلتات ومن الأحلام ومن الأعراض عند المرضى. وقد سبق أن تكلمنا عن تفسير الأحلام التحليلي.

أما الفلتات أو الأفعال فإنها أفعال تصدر في الغالب عن غير إرادة الإنسان، كأن ينطق في سياق حديثه بكلمة لا يريدها، وقد ينتبه أو لا ينتبه إلى ما صدر منه، (فلتة لفظية). أو قد يكتب كلمة غير التي يريد كتابتها، أو قد ينسى كلمة كان يود أن يكتبها، (فلتة كتابية). وقد ينسى الإنسان شيئاً كان يذكره منذ لحظة قصيرة، فيبحث عن قلم وهو في يده، أو يريد أن يتذكر اسم شخص أو بلد كان يعرفهما تماماً، ولكنه لا يمكن له ذلك، (فلتة من فلتات الذاكرة، وهو ما نسميه بالنسيان).

وكذلك قد تتحدث إلى شخص وهو منتبه اليك، ولكنه لا يلبث أن يسرح ببصره في الفضاء، أو أن يتغير لونه، أو أن يلعب بأصابعه في أي شيء، ثم يسألك أو لا يسألك بعد ذلك عما كنت تتحدث به إليه لأنه (لم يأخذ باله). وهذا بالطبع معناه أنه حدث له ما صرف انتباهه إلى ناحية أخرى.

فلماذا لفظ الإنسان أو كتب ما لا يريد؟ ولماذا نسى ما كان يعرفه تماماً منذ لحظة قصيرة؟ السبب في ذلك هو في وجود رغبتين عند الإنسان، وفي أن إحداهما مكبوتة والرغبة المكبوتة قد تكون لا شعورية أو شعورية أو تمييزية كذلك، حيث لا يعرف عنها صاحبها شيئاً إلا بعد التحليل. أما إذا كانت شعورية أو تمييزية فان صاحبها ليس في احتياج إلى تحليل لمعرفتها. هذا فيما يتعلق بالرغبة المكبوتة. أما الرغبة الأخرى فإنها

في الغالب رغبة تمييزية، ولكنها قد تكون شعورية أو لا شعورية كذلك؛ فصاحب الفعل المفقود إذن يجد نفسه أمام رغبتين، وهو في أثناء تعبيره عن الرغبة غير المكبوتة عنده تتحين الرغبة المكبوتة أي فرصة للظهور، وهي عند ما تسنح لها هذه الفرصة تجد سبيلها إلى الظهور بواسطة أي لفظ أو حركة تنم عليها. وهذا اللفظ أو الحركة هو ما تسميه الفلتة أو الفعل المفقود أو الفعل غير الإرادي أو

ومع أن الفعل المفقود قد أظهر الرغبة المكبوتة فانه لم يتمكن من تنفيذ هذه الرغبة. لأن الإنسان سرعان ما يستنكر صدور هذه الفلتة منه، ويتساءل كيف أخطأ في تعبيره. والواقع أن الرغبة المكبوتة وهي التي سببت هذه الفلتة قد اكتفت بهذا التحقق الرمزي أو التلميحي

بواسطة الفعل المفقود، لأن التحقق الفعلي تأباه عليها ظروف الحياة، فهو إذن غير ممكن لها. وهكذا تكتفي الرغبة المكبوتة بالأوهام بدلاً من الحقيقة الواقعة، ومثلها في ذلك مثل الأفكار الذاتية التي سبق أن تكلمنا عنها سواء بسواء. لأن الرغبة المكبوتة مهما كانت شعورية أو تمييزية فإنها في الأصل من اللاشعور، وهو الذي يكتفي في تنفيذ رغباته بالأوهام.

وأما الفرص التي تنتهزها الرغبة المكبوتة فهي كثيرة: فالتعب واهتياج الشعور والاجتهاد الفكري وكل ما من شأنه أن يقلل من انتباه الإنسان يساعد على إيجاد هذه الأفعال المفقودة.

والرغبتان اللتان نشأ عنهما الفعل المفقود قد تكونان متعارضتين، فيكون اللفظ إذن عكس ما كان يراد تماماً، وقد تكون إحدى الرغبتين معدلة للأخرى أو مكملة أو مؤكدة لها؛ وسنذكر فيما بعد بعض الأمثلة على كل نوع منها. ولنرجع الآن إلى ابتسامة القاتل التي سببت اكتشاف سره، ونرى هل هي الأخرى وليدة رغبتين عنده؟ وهل في هاتين الرغبتين ما يدل على التعارض؟ والى أي حد يمكن استخدام الفلتات في الكشف عن خفايا نفسية المجرم؟ فلقد جلس هذا إلى زوجه وعنده رغبتان: الأولى حب الظهور بالبطولة، وإظهار بأسه وقوته. والثانية حب كتمانه لما فعل خوفاً من تسرب الأخبار والوقوع تحت طائلة العقاب، فهو إذن بين رغبتين تتنازعانه، وبينما تشتد رغبة النجاة في كبت رغبة الزهو والاعتداد بالنفس إذا بهذه الرغبة الأخيرة تنتهز الفرصة للظهور في وقت ضعف الرغبة الأولى تحت تأثير الهوى. وهكذا يتحقق الزهو والفخر، ولكن هذا التحقق إن هو إلا تحقق رمزي وذلك بالابتسام، وما الابتسام إلا رمز الانتصار، لأن رغبة النجاة مهما ضعفت فإنها لا تسمح بالاعتراف والفخر الصريح. وهكذا كان، فقد ابتسم الرجل في غير موضع الابتسام، ولكنه مع ذلك يأبى الاعتراف الصريح أولاً. وهنا نرى الزوجة تقوم بدور المحلل النفسي فتستخلص منه ما كان يأبى الاعتراف به.

وإذا كنا فيما سبق قد قلنا إن الشعراء والأدباء والفنانين يستخدمون الخيال، فان ذلك من دواعي الفخر لهم، لأن التخيل ممكن وموجود عند كل إنسان، وإنما امتاز هؤلاء بإمكان استخدام خيالهم وتحقيق أحلامهم على صورة رمزية جملية تأخذ بالألباب. وفوق ذلك فان لهم من حسن الذوق ودقة الحس ما يسمح لهم بملاحظة كل ما يمر أمامهم من دقائق الحياة،

وهكذا فان الأفعال المفقودة أو الفلتات لم تفت عليهم، بل انهم استخدموا هذه الأفعال لتجميل الأسلوب وتوضيح المقصود، وقد أظهر لنا فرويد مثلين من ذلك. ففي رواية تاجر البندقية لشكسبير تقول بورشيا لبسانيو الذي يتقدم إلى الصناديق الثلاثة ليجرب حظه في نيل يدها (إن عينيك هذه تقسمني إلى نصفين. فالنصف الأول لك وأما النصف الثاني فهو لك. . . . أريد فهو لي). والسبب في هذه الفلتة الكلامية هو أن بورشيا تريد أن تقول إنها كلها له. وفي رواية أخرى. يقول كاستنبرج لاوكتافيو. (إلى أين أنت ذاهب). فيجيب اوكتافيو (إليها. . . إلى الدوق هيا بنا) والسبب في هذه الفلتة أيضاً هو رغبة اوكتافيو في اللحاق بالفتاة التي يحبها

وأما النكت والفكاهات التي تقال على البديهة فإنها نوع آخر من الأفعال المفقودة، إلا أن قائلها يتذرع بالضحك لستر رغباته الكامنة، ومع ذلك فان هذه الرغبات كثيراً ما تكتفي حقيقة بالأوهام، فلا تصر على التنفيذ الحقيقي لها، وإنما تكتفي بالرموز والتلميح كما تقدم.

ويمكن استخدام هذه الأفعال في انتخاب الأسئلة المحرجة وفي توجيه الاتهامات

والمناقشة إلى الهدف الذي يرمي إليه المحقق، أما فيما يتعلق بالمرض فان التحليل النفسي لا يطمع من المريض أن يعترف برغباته اللاشعورية، ولكنه يطمع فقط في أن يعرف المريض رغباته في أثناء المناقشة معه، ولو أنه قد ينكرها بتاتاً، وقد يكون ذلك الإنكار خجلاً أو لأي سبب آخر، ولكن إنكاره هذا لا يمنع من وصول رغبته إلى الشعور، ومن ثم إلى التمييز لمناقشتها. فليس الاعتراف إذن ضرورياً للشفاء ما دامت الرغبة قد وصلت إلى التمييز، والإنكار نفسه قد يكون طريقة من طرق السمو بالرغبة، وهذا السمو هو في الواقع ميزة من ميزات التحليل النفسي ومن أجلها يفضل على الإيحاء.

والرغبة المحرمة يسمو بها الإنسان إذا صورها وعدلها فأصبحت غير مخالفة لنظام المجتمع وتقاليده. فقد يفكر الإنسان في الأضرار بأي شخص كان لكراهيته له، وذلك إظهاراً لمقدرته على البطش والأذى، ولكنه قد يسمو فيكتفي فقط بإظهار قدرته على الأذى ثم يعفو ويتسامح بعد ذلك. وهذا هو ما يحدث تماماً عند ما يسمو المريض العصبي رغبته. ولكن رغبة هذا المريض العصبي ليست من هذا النوع البسيط من الرغبات فإنها هي والرغبات التي تتجلى في الأحلام والتي تملي على الفنان فنه ليست إلاّ رغبات جنسية تتعلق بأشخاص من ذوي القربى، وقد عرف كل من المريض العصبي، وصاحب الرؤيا، ورجل الفن طريقه إلى تحقيق رغبته.

وإن كان هذا التحقيق رمزياً مشوهاً لا يدل في الظاهر على أي رغبة محرمة، ولكن التحليل في كل الحالات قد أثبت أن أعراض المريض والرؤيا ومنتجات الفن ليست إلاّ هذا التحقيق الرمزي المشوه لهذه الرغبات. فالرغبة المحرمة المجهولة لصاحبها لأنها مكبوتة بفعل الضمير هي أصل كل أعراض المرض، وهي أصل الرؤيا، وهي التي توحي الفن إلى الفنان، بل هي سبب التخيل وكل ما يبينه الخيال من تصورات وأمان، وإذا كنا قد ذكرنا الفنان هنا فان من الإنصاف أن نقول إنه عرف كيف يسمو برغبته ذلك السمو البارع الجميل.

ولا يمكن أن يكون هذا الموضوع تاماً إلا إذا تلكمنا عن المسألة الجنسية، وعن قصة أوديب الملك كما ينظر إليها فرويد، وهذا ما نرجو أن نتمكن من إيضاحه فيما بعد، إلاّ أن ما سبق أن أوردناه يسمح لنا أن نقول إن الإيحاء وحده لا يمكن أن يثمر الشفاء التام الدائم إلا إذا سبقه التحليل والكشف عن الرغبات الكامنة السالفة الذكر. ولنرجع الآن إلى الموضوع الذي يشغلنا وهو الفلتات أو الأفعال المفقودة. فقد بينا أن هذه الفلتات قد تكون كلامية. كأن يذكر كلمة غير التي كان يود أن يقولها أو يقرأها إذا كان يتكلم أو يقرأ من أي ورقة أو كتاب. أو فلتة سماعية، كأن يسمع كلمة غير التي قيلت له أو بمعنى آخر يتخيل سماع الكلمة المعينة، أو فلتة كتابية كأن يكتب غير الكلمة التي كان يريد كتابتها أو يمحو كلمة غير التي كان يريد محوها. أو فلتة من فلتات الذاكرة وهو ما نسميه بالنسيان - وقلنا إننا سنذكر بعض الأمثلة على كل هذا، وأن الكلمة الخطأ قد تكون عكس الكلمة المطلوبة - المخالفة قد تكون في ترتيب الحروف وفي معنى الكلمة - أو معدلة لها أو كلمة مدغومة في غيرها. الخ والواقع أن الأمثلة على كل نوع منها كثيرة ولا تدخل تحت حصر، ومن منا لم يسمع أو يلاحظ الكثير منها في كل يوم وفي كل مكان؟. ولهذا فإنني أترك الأمثلة لمن يود أن يلاحظ بنفسه هذه الفلتات وأن يتعرف إلى الغرض الذي حدثت من أجله. وأتكلم الآن عن فلتات الذاكرة أو النسيان، فقد أخبرني صديق لي أنه أراد مرة أن يتحدث عن شخص عرفه من مدة قريبة وعرف اسمه وسمع ذلك الاسم مراراً، ولكنه مع ذلك كان ينسى اسمه كلما أراد أن يتحدث عنه. وبعد جهد في محاولة استذكار الاسم فانه يذكر اسما آخر على أنه الاسم مطلوب - وهكذا يسمى صديقي ذلك الشخص (شافعي) دائما بدل اسمه الحقيقي، وذلك بعد جهد في التذكر بدون جدوى، وهو إذ يقول إن اسمه شافعي لا يقولها بصفة التأكيد أيضاً في كثير من الأحيان: وفي ذات مرة بعد لحظة قصيرة من التأملات أخذت الأفكار تتوالى على عقله ولم يكن يقصد أن يتذكر الاسم الذي ينساه دائماً وإذا به يصيح فجأة إن اسمه (شبلي)

نعم. هذا هو ما حدث لصديقي، وأراد أن يعرف لماذا نسى ذلك الاسم، ثم لماذا ذكر شافعي بدل شلبي مع شكه أيضاً في أن ذلك هو اسمه الحقيقي. ولما سألته أن يذكر لي كل ما يعرفه عن أي شخص آخر يسمى بنفس هذا الاسم (شلبي) أخبرني أنه كان يعرف شخصاً بهذا الاسم ولكن لم تكن بينهما صادقة ما. بل بالعكس فانهما كانا

متنافرين - هذا يفسر لنا نسيان الاسم (شلبي) ولكنه لا يفسر لماذا يسميه شافعي في كثير من الأحيان فسألته ان يذكر لي شيئا عمن يعرفهم باسم شافعي هذا. وهنا صاح متعجبا انه يعرف شخصاً محترماً بهذا الاسم وأن هذا الشخص المحترم (شافعي) من حيث الخلقة والشكل العمومي يشبه (شلبي) ذلك الشخص المكروه الذي مضى على معرفته إياه وقطعه كل علاقة به زمن طويل - هذا هو إذن سر إبدال الاسم، وهو جواب ما كان يسأل عنه.

وقد ذكر فرويد أن رجلاً كان بينه وبين زوجته نفور، ولكنه لم يكن قد صارحها بأي شيء، وهي مع ذلك تحبه وتخلص له. وقد أهدته كتاباً شيقاً في نظرها ليقرأه. ولكنه وضعه في جهة معينة ولما أراد البحث عنه لقراءته لم يتمكن من تذكر المكان الذي وضعه فيه برغم كل الجهود التي بذلها في هذا السبيل. ثم حدث أن والدته مرضت مرضاً شديداً حمل زوجته على أن تعتني بها وتمرضها، وكان من نتيجة ذلك أن شعر الزوج بشكره لزوجته لعنايتها بوالدته، وتحول هذا الشكر إلى تقدير، ثم رجع الحب إلى سابق عهده. ثم لما رجع إلى بيته ذات يوم فتح درجاً من أدراج المكتب بدون أي فكرة عن إمكان العثور على الكتاب ولكنه لدهشته وجده فيه، برغم مضى أكثر من ستة أشهر على وجوده فيه، وبحثه عنه على جملة مرات في هذه المدة.

أليست عوامل المودة والنفور هي التي تؤثر في النسيان والتذكر وحدها؟ فإننا سبق أن تكلمنا عن فعل الضمير في هذا الشأن، وكيف أنه يكبت الرغبة فيردها إلى اللاشعور،

ولست في حاجة إلى القول بأن الإنسان لا يذكر أو بمعنى آخر لا يشعر إلا بما يعرفه الجزء الشعوري من عقله. فكل فكرة تتمكن من الوصول إلى الشعور فهي شعورية، أي أن الإنسان يعرفها ويذكرها، وكل فكرة ترتد إلى اللاشعور أو تحفظ فيه فهي فكرة لاشعورية لا يعرفها الإنسان ولا يذكر الحوادث المتعلقة بها. على أنه من السهل التنقيب عما يوجد في ذلك المخزن - اللاشعور - إذا ترك الإنسان لحرية تفكيره العنان، فلا يعترض حرية التفكير هذه بنقد أو تجريح ولا يرمي أي فكرة تأتي إليه بأنها غير معقولة أو غير جائزة أو الخ. . . بل يترك نفسه للتفكير فلا تلبث الأفكار إذن أن تتوالى كما يقول المثل - الشيء بالشيء يذكر - لأننا سبق أن بينا أن الأفكار والرغبات مسجلة على قواعد الاصطحاب والقرينة، أي أن الأشياء المتشابهة أو المتضادة - والمتقاربة والمتباعدة مسجلة بالقرب من بعضها، وإذا ذكر أحدهما فلابد من تذكر الآخر. وإذا ذكر الإنسان صديقه فلا يلبث أن يذكر أشياء كثيرة معه كبيته أو المقهى الذي يجلسان به أو الكلام الذي حدث بينهما، وإذا تذكر هذا المقهى فقد يذكر مقهى آخر في أوربا أو أي بلد آخر، ويذكر معه الحوادث التي مرت به في هذا المقهى الآخر وهلم جراً.

فاذا كانت الفلتات تخدم التحليل النفسي لأنها توجه نظر المحلل إلى وجهات مهمة فتوحي إليه بالأسئلة الواجب إلقاؤها على المريض، وهذا يتطلب من المحلل ذهناً صافياً وفكراً سليماً، فان على المريض واجباً آخر يجب عليه أن يرعاه، وهو أن يلتزم الإخلاص في كل إجاباته على الأسئلة التي توجه اليه، ويجب أن يعلم أن مقدار إخلاصه هذا يعرفه الطبيب المحلل نفسه. وفوق ذلك فانه يجب أن يترك أفكاره حرة من كل قيد فيجيب بكل ما يخطر على باله بصرف النظر عن موافقة ذلك للمعقول والجائز أو مخالفته لهما.

ولا يفوتني أن أذكر هنا أن شاعرنا شوقي بك في روايته الخالدة (مجنون ليلى) قد ذكر فلتة على لسان ليلى العامرية، فقد ذكرت المسكينة اسم قيس مرتين دون أن تشعر، ولما نبهتها زميلة لها إلى ذلك قالت: وأي شيء في ذلك لو ذكرت قيساً ثلاثا. ثم قالت (يا قيس ناجي باسمكالقلب اللسان فعثر)

دكتور عبد الفتاح سلامة طبيب مستشفى برقاش

أعيان القرن الرابع عشر - 9

للعلامة المغفور له احمد باشا تيمور

محمد أفندي أكمل

هو محمد أكمل بن عبد الغني بك فكري بن لطف الله بن حسين، الشاعر الأديب الظريف؛ ولد بالقاهرة ونشأ بها واعتنى والده بتعليمه وتهذيبه، ثم أدخله في الديوان

الخديوي للتعليم كتلميذ، وكان كبار هذا الديوان مدة الخديو إسماعيل باشا، فجود الخط به وألمّ باللغة التركية، وكانت له حدبة بظهره شوهت خَلْقه، ورأى والده أن لا مطمع في استخدامه بمنصب لائق، لحدبته وقصر قامته، فاستحسن له طلب العلم بالأزهر، وكان يرجو أن يكون من كبار العلماء، فلازم الطلب به وقرأ النحو والعلوم العربية على الشيخ أحمد المنصوريّ، والشيخ محمد البجيرميّ، وكان أحدب مثله، وكثيراً ما كان يقعده بجواره في حلقة الدرس. ثم انقطع عن الطلب ولازم والده، وكان والده جماعة للكتب، مغالياً في اقتنائها شراء واستنساخاً، ينفق عليها جلّ ما يصل ليده، ويحي الليالي في مقابلة ما يستنسخه منها وتصحيحه وضبطه، فكان المترجم يعاونه في ذلك، واطلع بهذا السبب على كثير من الكتب العلمية والأدبية والدواوين الشعرية، وعاشر من كان يجتمع بوالده من العلماء والأدباء وتردد عليهم واستفاد منهم، وعرف مدة طلبه بالأزهر كثيراً من أدبائه وشعرائه المجيدين كالشيخ عبد الرحمن قرّاعة، والشيخ أحمد مفتاح وحفني بك ناصف وغيرهم، فاستفاد منهم أيضاً، ونظم الشعر والزجل وأدوار الغناء، واشتهر بحسن المحاضرة وملاحة التندير وسرعة الجواب وخفة الروح، وكان كثيراً ما يجعل محور تندير دائراً على حدبته، فيأتي بما يضحك الثكلى، بل كان لا يأنف من ذكرها في شعره، كقوله من زجل في الوباء الذي حلّ بمصر أوائل سنة 1320 وما فعله الأطباء من الهجوم على الدور وترويع ربات الخدور:

شاعرْ وناثرْ زّجالْ عالْ ... فنّ الأدبْ فيدُه لِعْبَهْ
لطيفْ زكي وفَهْمُهْ سَيَّالْ ... ورِقّتُهْ مِنَ اللهْ وَهْبَهْ
مخْلِصْ لأخواُنه ومَيَّالْ ... نَادْرِهْ زَمَاُنهْ ولُه حَدَبَهْ
ما فِيهْش عيْب ظاهرْ معروفْ ... قَصِيرْ ولكنِ فِيهْ أقْصَرْ
واللى يعيش يَاما يِيْشُوْف ... واللى يِيمْشى يِشُوف أكتَرْ

ومن ولوعه بحدبته شرع في جمع كتاب في نوادر الحدبان وما قيل فيهم من الأشعار، وتراجم مشهوريهم، أخبرني أنه جمع منه جزءاً إلا أنه لم يتمه

ونقل والده مدة محمد توفيق باشا الخديو من الديوان إلى المحاكم الأهلية قاضياً، وتوفي يوم الثلاثاء 29 المحرم سنة 1307 وخلف له ولاخوته ضيعة بالصعيد أصاب المترجم منها ستون (فداناً) باعها وبدد ثمنها بالإسراف حتى احتاج للاستخدام بديوان الأوقاف بمرتب قليل دون الكفاف، وعاش في ضيق ومضض بعد ما تعوده من السعة والرفاهية، وأخذ يتقرب للخديو بنظم التواريخ في كل عيد واحتفال وحل وترحال وينشرها في صحف الأخبار رجاء أن تبلغه فيأخذ بيده فلم يستفد شيئاً وراح تغزّ له في الريح، وكان قصر شعره في أواخر عمره على هذه التواريخ فنظم منها الغث والسمين. وكنا إذا قرب عيد أو سفر أو قدوم للخديو لا ننتفع به لاشتغاله بالنظم والحساب وإعمال الروية فيصير هذا ديدنه في غدوه ورواحه وقيامه وقعوده حتى يمن الله عليه بشيء يرتضيه

وترك له والده غير الضيعة داراً بسوق الزلط بيعت أيضاً، وترك خزانة كتب كبيرة قل أن تضارعها خزانة في نفائس الكتب ونوادر الأسفار، وهي التي أفنى عمره وماله في جمعها، وأتعب نفسه في تصحيحها وضبطها، وصبغ الورق وصقله لنسخ ما كان يستنسخه منها، فوق ما كان يتكلفه من السعي في البحث عنها في الخزائن المهجورة وعند الورّاقين، واتخذ له في داره مصنعاً للتجليد، واستخدم عدة نساخ أجرى عليهم المرتبات فاختصوا بالنسخ له لا يشتغلون لسواه، وكان هو وعبد الحميد بك نافع من أدباء القرن الثالث عشر يتباريان في ذلك ويتسابقان. أخبرني المترجم عن والده أنه بلغه أن تاجراً من الورّاقين قدم من سفر بكتب أوصاه عبد الحميد بك نافع بجلبها له وبينها ديوان البحتري وكان اذ ذاك لم يطبع بل لا يعرف في مصر إلا باسمه، فأسرع إليه وبذل له مالاً فوق قيمة الديوان على أن يعيره له يوماً وليلة فقط يطالع فيه، فرضى وأعاره إياه، فلما أتى به لداره أعطاه لمجلده ففك له تجليده وأحضر في الحال عدة نساخ فرقه عليهم كراريس فنسخوه وقابلوه، ولم يمض اليوم والليلة إلا وقد ردت النسخة الأصلية لصاحبها مجلدة كما كانت، ثم قابله بعد ذلك عبد الحميد بك وأخذ يفاخره بوجود الديوان عنده واختصاصه به، فقال له خفّض عليك يا أخي

هذا شيء أكلنا عليه وشربنا حتى مججناه، ثم أخرج له نسخة الديوان من الخزانة. وبلغه مرة وهو يسمر مع بعض أصحابه أن بعضهم رأى عند فلان الوراق رسالة من الرسائل، وكان هو يتطلبها من زمن وينشدها فلا يجدها، فلم يسعه إلا أن قام في الحال وأخذ يسأل عن دار الوراق من هنا وهناك حتى اهتدى إليها بعد ما مضى هزيع من الليل، فأيقظه من نومه وساومه في الرسالة بقيمة فوق قيمتها ولم يمهله للصباح بل أنزله من الدار وذهب معه إلى حانوته ففتحه ليلاً وأخرجها له ولم يهدأ له بال حتى باتت الرسالة عنده. فلما مات عرّض المترجم كتبه للبيع فبيعت وتفرقت واقتنى نفائسها ونواردها الكونت لندبرج قنصل السويد بمصر، وكان من مستعربي الأفرنج المولعين بجمع الكتب العربية، وأدركت أنا أوارخها فاقتنت منها بضعة عشر كتاباً، منها ما هو بخط عبد الغني بك نفسه، وبحواشيها آثار التصحيح واختلاف النسخ التي كان يقابلها بها

وكان أول التقائي بالمترجم في دار أبن أختي محمود توفيق بك، وهي إذ ذاك مجمع الأدباء ومحط رجال الفضلاء، فلما رأيته استغربت شكله واستملحت محاضرته، ثم رأيته يناقش الأدباء ويطارحهم الشعر، فدنوت منه وكنت صغيراً في أول الطلب، وقد تعذر علي فهم باب أفعل التفضيل، وأجهدت نفسي في درسين متوالين على تفهمه، فلم يفتح علي بشيء فيه، فسألته عنه فأوضحه لي بعبارة سهلت علي فهمه، فكان بعد ذلك كثيراً ما يقول لي ممازحاً: إذا ذكرت شيوخك فاذكرني معهم ولا تنسني. ثم تأهل ببنت حنفي بك، وكان لأسرتها نوع اتصال بنا، فاتصلت المودة بيني وبينه بهذا السبب، وازدادت ملازمته لي لما سكن بجوارنا، فكان يزورني عصر كل يوم ويبقى حتى نسمر معاً ثم ينصرف، فتارة كنا نحي الليالي بمسامرات أدبية ومذاكرات علمية، أو بمطالعة بعض الكتب، وتارة بمقابلة ما كنت أستنسخه وتصحيحه، وكان لا يمل من المقابلة مهما يطل الوقت فيها، ويقول هذا شيء دربني عليه والدي وعودني إياه من الصغر. وأشار عليّ مرة أستاذنا العلامة محمد محمود الشنقيطي أن أطالع أمالي أبى عليّ القاليّ مطالعة إمعان وتدبر، ولم تكن طبعت بعد، فاستنسخت منها كراريس عكفت على مطالعتها، وأخبرت المترجم أنني سأحتجب عن الناس بضعة أيام حتى أستوفي ما يهذه الكراريس، فغاب عني ثلاثة أيام ثم حضر ومعه زجل، ينحي فيه على الأستاذ وعلى أبي على القالى اللذين تسببا في انقطاعي عن الإخوان ويذكر فيه بعض من كان يجتمع بنا

وقد أطلعته على رسالة عندي جمعها الشيخ احمد الفحماوي صاحب الخط الحسن، المشهور بكتابة لزوم ما يلزم للمعري وسماها (بنات أفكار وعرائس أبكار في ألقاب أهل العصر) ذكر بها كنى وألقاباً وضعها لفضلاء أواخر القرن الثالث عشر عبد الحميد بك نافع، وإبراهيم افندي طاهر الشاعر الرقيق المشهور على سبيل المزاح والدعابة، فقلبا كل واحد بلقب شاعر متقدم، أو رجل مشهور يوافق اسمه هيئة الملقب به، أو شيئاً يغلب على أخلاقه وأحواله، كتلقيبهما مصطفى أفندي المنعوت بكامل بالعكوَّك، لأنه كان قصيراً جداً معوَّج القدمين، وتلقيبهما الشيخ محمد الرافعي الكبير شيخ رواق الشاميين بالأزهر وأحد كبار علمائه بملاّ مسكين، لأنه كان نحيفاً وبقوامه بعض احديداب يرى كأنه تواضع وانكسار، وتلقيبهما عبد الغني بك أبا المترجم بالأخطل، لأنه كان ضخم الجسم كبير الهامة. فلما اطلع المترجم عليها جن بها جنوناً وشرع في وضع رسالة تماثلها في فضلاء عصره، وسألني مشاركته فيها كما فعل ذانك الأديبان فامتنعت خشية اللوم، فانفرد هو بتأليفها وأتى فيها بغرائب ذهب أغلبها عن الذهن لطول العهد، فمن ذلك تلقيبه للعالم الفاضل على رفاعة باشا أبن رفاعة بك المشهور، بابن المقفع لنحافته ودخول شدقيه، وتلقيبه للعالم الفاضل يحي أفندي الأفغاني، بالقدوري لغرابة شكله وقصر ساقيه تشبهاً له بالقدر من الفخار، والقدوري اسم عالم من الحنفية مشهور. وكان الشيخ محمد الحفني المهدي أبن أخي مفتي مصر الشيخ العباسي المهدي ولعاً بذم الناس منقباً عن معايبهم، لهجاً بها في المجالس، لم يسلم منه أحد حتى عمه، واشتهر بذلك حتى أبغضه عارفوه وتحاموا عن الاجتماع به، فلقبه بابن هِرمةْ، وهي كلمة سب عند العامة، فقلت له هذا لا يستقيم لك لأن ابن هرمة الشاعر بفتح أوله فتأنف وقال لا أجد له لقباً ينطبق عليه غير هذا فدعني من شنقيطيتك. ثم لما فرغ منها سألته عما لقب به نفسه، ففكر وقال أحسن لقب ينزل

عليَّ ابن قتيبة، ثم تركه وتلقب بالمقوقس. وضاعت هذه الرسالة فيما ضاع من أوراقه وأشعاره، ويغلب على الظن أنه مزقها لأنه وقع له بسببها نفور بينه وبين بعض من لقبهم، فانه لما لقب صاحبنا وصاحبه الشيخ احمد مفتاح لسلامة طويته، بالأبله البغدادي، غضب منه وكاد يتفاقم الشر بينهم، وغضب منه صاحب آخر كان قصيراً ممتلئاً يتدحدح في مشيته كما يتدحدح البط لأنه لقبه بابن بطوطة، فأخفى الرسالة لهذا السبب وطوى ذكرها.

وكان رحمه الله في الزجل، متقناً لصياغة الأدوار التي يتغنى بها، وأكثر ما كان متداولاً منها بين المغنين في عصره كان من نظمه، وأما شعره فالإجادة فيه قليلة إلا ما ضمنه النكت والتنديرات العامية، فمن أحسن ما وقفت عليه منه قوله من مرثية في صاحبه علي رفاعة باشا

جزعت وللحرّ أن يجزعا ... وودَّعت صبري إذ ودَّعا
وجادت عيوني على بخلها ... وحُق لها اليوم أن تدمعا
وروَّع قلبي النوى بعد ما ... أمنت ومثلي كم رُوّعا
لحا الله يوماً أشاعوا به ... وقالوا أمير العلا شيعا
فما كان أصعب تأبينه ... وما كان أسوأه موقعا
وما كان حق البكاء ولكن ... فزعت ولا بدع أن أفزعا
تجرعت من هوله كل صاب ... وغيري من الناس كم جرعا
وما دار في خلدي أنني ... أرى البدر يرضى الثرى مضجعا
ولكن شأن الزمان عجيب ... فما كان أضيع عهداً رعى
يقول النعيّ عليّ قضى ... ولم يدر أن العلا قد نعى
نعى سيداً صيته طائر ... حوى الفضل في شخصه أجمعا
فدكت رواسي الدنى بعده ... وماد الزمان بما أودعا
وغابت شموس المعارف لما ... ذوى غصنه بعد ما أينعا
فقل للخطابة ذوبي أسى ... ولا تطلبي بعده مصقعاً
وقل للكتابة لا تحفلي ... بمن يتبّجح في المدعي
وقل للعلوم فقدت أميراً ... مضى تاركاً فضله مشرعاً

وقال مورّيا باسم الطبيب سعد بك سامح:

يا سعد مالك معرضاً ... عنيّ وقلبي فيك طامحْ
إني أتيتك قائلاً ... أنا تائب يا سعد سامح

وقال مورّيا باسم محمد ثابت:

ان كنت في ريب بصدق محبتي ... وسمعت عني ما تقوَّل شامت
فاعلم فديتك دائماً إني على ... عهد المحّبة يا محمد ثابتُ

ولما مرضت شقيقتي السيدة عائشة التيمورية وأحست بدنو الأجل نظمت في مرضها أبياتاً لتكتب على قبرها وتركت مصراع التاريخ لمن ينظمه بعدها وهي:

قد كنت عائشة فنوديت ارجعي ... للقبر مأوى كل حيّ فان
فأتيت صفر الكف عن مرضاته ... ومقرة بالعجز والعصيان
جرّدت من ثوب الهدى لكنّ لي ... تاجاً من الإسلام والإيمان
ونزلته مستشفعاً بمحمد ... وتوّسلي عفواً من الرحمن
أصبحت ممن زار لحديَ راجياً ... خير الدعا وتلاوة القرآن
لكم البقا إخوان ديني أرّخوا
فنظم المترجم التاريخ بقوله: (قبر لعائشة سما بجنان)
302 811 101 106
1320

وله غير ذلك مما ذهب عن الذهن الآن، ولكثرة ممارسته للتواريخ الشعرية كان يأتي فيها أحياناً بغرائب في ابراز المقصود بدون حشو كقوله في تاريخ ولادة ولده عبد الغني: (عبد الغني ابن أكمل).

وكانت وفاته فجأة قبل ظهر يوم الثلاثاء 22 ذي القعدة سنة 1321 ودفن بمقابر باب النصر رحمه الله تعالى.

من طرائف الشعر
تعالي
لشاعر الشباب السوري أنور العطار
تَعَالَيْ نَسْأَلِ الذِّكْرَى ... عَنِ الحُبِّ وَمَاضِيهِ
وَعَنْ سِحْرِ لَيَاليهِ ... وَعَنْ حُلْوِ أَمَانيهِ
حَكايَا مَا تَني تَنْ ... هَلُ مِنْ ضِحْكٍ وَتمْويهِ
قَصَصْنَاهَا عَلَى قَلْ ... بيْنِ مَغْمُورَيْنِ بالتِّيهِ
وَهَذَا اللَّيْلُ كَمْ أَصْغى ... وَكَمْ أَصْغَتْ دَرَاريهِ
لَقَدْ قَرَّبَنَا الْحُبُّ ... وَضَمَّتْنَا أَوَاخيهِ
وَلَمْ تَنْوِ القِلَى أَهْلي ... فَلِمْ أَهْلُكِ تَنْويهِ
حَيَاتي مِنْكِ في نَوْحٍ ... وَتَعْذِيبٍ وَتأْوِيهِ
فَهَلْ أَظْفَرُ في الهَجْرِ ... بطَيْفٍ مِنْكَ أُصْبِيهِ
أُفَدِّيهِ بِأَحْلاَمِي=فَيُسْليني وَأُسْلِيهِ
وَأُغْرِيهِ بِأَشْعَارِي ... فَيَبْكِيني وَأَبْكيهِ
وَكَمْ قَاسَمَني اللَّيْلُ ... أَنيناً بِتُّ أُخْفِيهِ
شَجَاني مِنْهُ مَا أَشْجى ... وَأَضْنَانيَ مُضْنيهِ
أَسًى للْقَلْبِ مَا يَن ... ْشُدُ إِلاَّ مَا يُعَنَّيهِ
وَمَا يَبْرَحُ طُولَ الدَّ ... هْرِ طِفْلاً في تَمَنِّيهِ
يُعِدُّ الفَرْحَةَ الكُبْرَى ... لِحُبٍ كامِنٍ فِيهِ
إِذَا سَاوَرَني الْوَجْدُ ... وَأَطْيَافُ لَيَاليهِ
وَأَضْنى قَلْبيَ الْهَمُّ ... وَأَحْزَانُ عَوَادِيهِ
لَمَّسْتُ الْبُرْء في اللَّيْلِ ... وَفي صَمْتِ دَيَاجيهِ
كلاَنَا موُحَشٌ رُوحاً ... سَقِيمٌ غَابَ آسِيهِ
إِذَا ضَاعَ لَكَ الحُلْمُ ... الذي عِشْتَ تُرَجِّيهِ
فَما تَطْمَعُ في الْعَيشِ ... وَلاَ يُغْرِيكَ حَاليهِ
لَقَدْ لَقَّنِتني الحُبَّ ... وَمَعْسُولَ أَغَانِيهِ
وَأَوْحَيْتِ ليَ الشِّعْرَ ... وَمَنْ غَيْرُكِ يُوحِيهِ؟
وَنَجْوَى لحْنِهِ البَاكِي ... وَأَنَّاتِ قَوَافيهِ
قَطَعْنَا الْعُمْرَ في الْحُبِ ... وَفِي غَمْرَةِ وَادِيهِ
فَلَمْ يَبْقَ لَنا مِنْهُ ... سِوَى طَيْفٍ نُنَاجِيهِ
دمشق
أنور العطار
ليلة الزورق
لعبد العزيز أفندي عتيق
حينما ذَهَّب الأصيلُ مياه الني ... ل، واختال في الرياضِ جميلا
أبصرتني أطوف حول حِماها ... سادرَ الخطوِ، حائراً، مخبولا
هتفتْ بي: إليّ يا صاح أقبلْ ... أنا مَن قد بحثت عنها طويلا
ذاك وكرُ الهوى، ألستَ تراه ... مثلما كان شاعرياً ظليلا؟
ذاك روضي، فقرَّ عيناً ونفساً=يا حبيبي، واجلسْ إليَّ قليلا
واسقني بالجمال والسحر شعراً ... شفقياً يُميت مني الغليلا
كيف جانيتَ روضكَ الفينانا ... أتسلّيتَ؟ أم نسيت المكانا؟
كلما طفتُ بالمكان أثارتْ=وقفاتُ الوداع مّني الحنانا
وأرى القلب في غيابك أمسى ... يا حبيبي موزّعاً حيرانا
أيها الغائب الذي خالط القل ... ب هواه، تعال نحي هوانا
خُذْ ذراعي إلى ذراعك واصعدْ ... ربوةَ الأمس، واسقني الألحانا
رُبَّ ليلٍ سهرتُه أتقلّى ... فيه وحدي، وأشتكي الحرمانا!
ها هو النايُ حالماً بالأغاني ... فأعِدْها سحرّيةَ الأنغام
ها هو الناي يا حبيب فؤادي ... غنّ للحِب، للنفوس الظوامي
فاذا ما شُغلتُ عنكَ بنفسي ... وبما هاج من هوى وضرام

فدع النايَ جانباً، وأدِرهْا ... قُبُلاتٍ من ثغركَ البسّام
ودع الربوةَ السحيقة تخفي ... أثرينا عن أعين الأقوام
ولنعش ها هنا كما نتمنى ... للأغاني، للحب، للالهام
وانظر الشمس! هل شجتك اختلاجاً ... وهي تخطو إلى الفناء السريع؟
كم أضاءت وجددت من الحياة ... وتجلت في كل أفق وسيع
ثم همَّتْ فليس في الكون إلا ... نائحٌ في مواكب التشييع
يا حبيبي خلِّ الوقارَ وهيا ... نوقظ اللهو بعد طول هجوع
بالأغاني، وبالحديث، وبالشع ... ر، وبالسحر، والهوى والدموع
فغداً تذهب الحياة بشمسْي ... نا وتمضي بنا لغير رجوع!
وانظر البدر في الفضاء سَبوحاً ... يغمر الكونَ وجهُه بالنور
أطَلق السحرَ في السماء وفي الأر ... ض، فبتنا في عالم مسحور!
لا نرى فيه غير ليلٍ وضئٍ ... يبعث الشوق والهوى في الصدور
. .يا حبيبي خذني إليك وأنعِشْ ... شفتينا بثغركَ المخمور
قرَّب البدر بيننا ورعانا ... فتمَّتعْ بساعة من سرور
ما غناء الساعات، تمضي خُواء ... من لقاء، أو رحلة، أو سمير؟
وارقب الزورق المقدسَ يبدو ... من بعيدٍ كالطائفِ الجّوالِ
كم عبرنا به الخَضمَّ وقد أغ ... فى وجُلْنا به كل مجال
نوقظُ الموجةَ الصغيرة بالهم ... سِ، فتبدِي تثاؤب الأطفال
وأغاني المجداف تُضِفي على اليمِّ (م) ... رداءً من رهبةٍ وجلال
يا حبيبي حان الوداع فهيا ... جئتَ نقضي حقَّ الليالي الخوالي
كم حبتنا بصفوها ورعتنا ... نضّر الله وجهَها من ليال
ورسا الزورق المقدسُ للشطْ ... طِ فيا للصفاءِ يخطو الينا
ودعانا الملاّحُ بالنغم العذْ ... ب، فأروى بصوته مهجتينا
أيهذا الملاحُ أيَّةَ ذكرى ... فوق هذا الخضم هجتَ لدينا؟
قرّب الزورقَ المقدس كالأم ... سِ، وهيئ لنَا به مجلسْينا
وامض في اليمّ حيث تسعد بالصف ... و، ونُحيي في ظلّه أملينا
طال شوقي إلى المطاف بدنيا ... كم شجتنا وأطلقتْ خاطرينا!
قلتُ والبدرُ، والدراري ... حالماتٌ، والكون وسنان صاح
يا رجاَء القلبِ الجريح - ومازا ... ل - أمَا آن أن تداوي جراحي؟
بي ظِماءٌ إلى حديثكِ عذباً ... واشتياقٌ لوجهكِ الوضاح
قد سَهوْنا عن الحياة وبتنا ... في محيطٍ من الطلاقة ضاح
فابعثي النور في جوانب نفسي ... وارحميني من وحشة الأرواح
شدّ ما ضقتُ بانفرادي وسُهدي ... واغترابي، في غُدوتي ورواحي!
أنا لولاكِ لم أعشْ في حياةٍ ... ثقلَتْ محملاً وساءت مَقرّا
ليس تصفو لنا، وهيهات تصفو ... للذي ازداد بالحقائق خِبْرا
أنتِ جَمَّلِتها لعيني ونفسي ... وفؤادي، فلست ألوكِ شكرا
فتعالَيْ نعِشْ هنا في حمى اليمّ (م) ... وننسى ما ساءنا، أو سرّا
نتناغى كالطير في كنَف الدو ... ح ونطوي الساعات أنساً وبشرا
ذاك لبُّ الحياة، بل ذاك أندى ... ما حوته الحياة برّا وبحرا
وصحا الشوقُ عارماً فإذا هِي ... في جنونٍ ورعشةٍ قبلتني
ثم ألقتْ برأسها فوق صدري ... كالذي نام من مَلالٍ وأيْنِ
وسرى الريح ليناً فاطمأنت ... واستراحتْ في جانبي المطمئن
وشجاها الهوى فألقت بأذني: ... يا حبيبي طاب المكان فغَنِ
غنّ لى غنوةَالربيع على اليمّ (م) =ورَوِّ الفؤاد من كل لحنِ
فاختضنتُ العود الحبيب إلى النف ... س، وأيقظته ورحت أُغني:
حينما يشرق الربيعْ ... في سماء الحدائق
ونرى حسنَه البديع ... في وجوه الشقائق
سوف ألقاكِ ها هنا ... فوق ذا الزورق السبوحْ
حيث تصفو لنا المنى ... ويَقرُّ الهوى الجموحْ

يا مُحياً عبدْته ... مثلما يُعبدُ الآلهْ
وجمالاً عشِقتُه ... عِشق من لا يَرى سواه
كم تمنيت لو نكونْ ... في حمى اليمّ مفردْين
في وقاءٍ عن العيونْ ... حيث نحيا كطائرين!
قدَّر الله يا حبيبْ ... للغريبين بالتلاقْ
فمتى تسعدُ القلوب ... بلقاءٍ بلا افتراق؟!
ورسا الزورق المقدس للشطْ ... طِ، فصاح الملاح: هيا، فقمنا
ومشينا على بساط من العُش ... ب ندي، يهتز في حيث سرْنا
ووقفنا في كل مجلس حُبٍ ... وادَّكرْنا من سحره ما ادكرنا
ثم ودَّعتها وعدْتُ وأحلا_مي إلى عالمي الشقيِّ مُعنّى
ثم ودَّعتها وعدْتُ وأحلا ... مي إلى عالمي الشقيّ مُعّنى
أسأل القلب: كيف يا قلب مرَّت ... ليلةُ الزورق الحبيب، وأينا؟
وأراني مُردّداً في حنين: ... ليت أنا نعيدها! ليت أنا!!

ميت غمر

عبد العزيز عتيق

بمناسبة ذكرى وفاة الإمام

وقفة على دار الإمام محمد عبده بعين شمس

للشاعر الحاج محمد الهراوي

أظلاماً وأنت في عين شمس ... وعبوساً من بعد صفو وأنس؟
كيف أصبحتِ يا مثابة غاد؟ ... كيف أمسيتِ يا منارة ممسي؟
كنت والعهد منك غير بعيد ... بيت مَلك بغير تاج وكرسي
كنتِ للفضل والمكارم والنب ... ل جميعاً، للناس من كل جنس
كنت للعلم، والمعلم، والطا ... لب، مجلي نهي، ومعهد درس
عطلت هذه الدروس وكانت ... ملء أهل الزمان في كل حس
وانطوت ثم لا يزال صداها ... بين صدر يرن فيه وطرس
فانظر الدار وهي قفر خلاء ... بعد أهل، فهل ترى من محس؟
واسأل الرسم إن أصبت جواباً ... في كلام أو في إشارة خرس
هيه يا دار بعد أنس أجيبي ... كيف أوحشت بين يوم وأمس؟
لا تراكِ العيون من دمعها المس ... بل حزناً، إلا بنظرة خلس
نظرات تعيد ذكرى إمام ... كاد ينسى، وصنعه غير منسي
حسدت مجدك الليالي فمالت ... بعد لين عليك ميلة بأس
أقفرت هذه الربوع وأقوت ... واستحالت إلى معالم درس
لا يكاد البناء يقوى على الأر ... ض ولا يثبت الجدار بلمس
ما بناك الذي بناك ليزهى ... بالذي شاد من قباب وأس
هو لو شاء شاد عرشاً وفرشاً ... من لجين ومن حرير الدمقس
إنما آثر التواضع حكماً ... للذي فيه من تواضع نفس
ليس يعني بزخرف العيش حُرٌّ ... قطع العيش بين نفي وحبس
فأقام البناء من لبنات ... خشنات أطرافها غير مُلس
لا يبالي وكل شيء سيبلى ... أن يطوف البلى عليه بطمس
أنكر النفس ثم باع هواها ... في سبيل الأوطان بيعة بخس
ومضى يحمل الكريهة فرداً ... مستعيناً بكل بأس وبؤس
مستعيناً بالله والحزم والعز ... م ووحي الحجى وتدبير رأس
نفس حر تجملت بخلال ... يتجافين عن صغار ورجس
خصه الله بالمواهب والرأ ... ي بعيد المرام صلب المجس
رجل كان حين يقطع أمراً ... يتقاضاه من مخالب يأس
ليس يثنيه عن أياديه قوم ... يصبغون الجميل صبغة ورس
فلقد عاش (عبده) في زمان ... جل من فيه أهل كيد ودسّ
حسدوا فيه نعمة الله فيهم=ورموه بكل منكر حدس
فاذا مات أيقنوا أي ركن ... هدمته يد الضلال بفأس

قل لشعب حظ النوابغ منه ... حظ سقراط حين أودي بكأس
تقتلون النبوغ حياً وتمضو ... ن بُكيا عليه في بطن رمس
أيها الناس، ههنا قام بيت ... فوق آثار خفرع وكيوبس
لم يكن من صروح هامان فرعو ... ن ولا كان من حصون الفرس
فاذا ذل فالذي قد بناه ... ليس من طينة الذليل الأخس
آه لو كان شكسبير بناه ... أو بناه أخوه (هيجو) الفرنسي
لرأى الناس أي دار تجلت ... واستحالت إلى حظيرة قدس
أثر النابغين في كل شعب ... هو ميراث كل جيل وحرس
أيها الناس ههنا سر مجد ... قبست منه نورها عين شمس
وهنا ههنا أشعة ذكرى ... تستضيء العقول منها بقبس
فأقيموا البناء من قبل أن يأ ... تي يوم يحول من متاع للبس
واجمعوا فيه ما تشتت منه ... بيد الدهر من متاع ولبس
واجعلوه للعلم داراً وللد ... ين مناراً، أو مرجعاً للتأسي
ينبري للوفود منه خطيب ... صامت القول من بلاغة قُس
يوعظ العقل للحياة ويمضي=يفتح العين من عماء ونعس
ذاك من جانب الوفاء إلى الشع ... ب نداء لصاحب غير نكس

محمد الهداوي

بمناسبة ذكرى حافظ

شاعر النيل

بقلم الأديب أحمد عثمان عبد المجيد

لولا أن الخطب في شاعر النيل هو خطب الشرق الذي كان الفقيد لساناً من ألسنته، وعموداً من عمد نهضته، وبطلاً من أبطال المحاماة عن حريمه، والذود عن حقيقته، وقائداً من قواده البسلاء الميامين، وداعية فيه إلى الإخلاص في الجهاد، والإحسان في البلاء، ليظفر بحقه في الحياة والسلطان. لولا أن الفقيد كان ذلك الرجل ما جل الخطب فيه وما فدح وما كان لمثلي أن يجاوز طوره، ويصطنع ما لا يطيق، ويدفع نفسه دفعاً في مزدحم الكرام الكاتبين عن حافظ شاعر النيل فيعرضها لشيء كثير من العنت والمشقة.

ومن أعجب العجب أن يريغ هذا القلم اللدن تلك السبيل برغم ما يتعاور حامله من تبلد القريحة، وركود الذهن، وأن يأسره ذكرى شاعر النيل وحده فيتحدث عنه يوم مضى على وفاته الأربعون، ثم العام، وها هو ذا يتحدث عنه وقد تصرم العام الثاني على وفاته أمس.

وأعتقد أن حافظاً ما ملك من نفسي إلا بما غلب عليه من إيثار الوطن وفدائه، وغلب على شعره من الحماسة الوطنية والنزوع إلى الحرية، والولوع بالاستقلال والسيادة. ولعل أقل ما نجزي به حافظاً (رحمه الله) أن نكثر الحديث عنه، وأن نقدمه إلى شعرائنا الذين آثروا أدب الصبابة واللذة، وجنحوا بالأدب عن أن يكون وسيلة من وسائل إلهاب الشعوب المستضعفة وإنهاضها للمطالبة بالحقوق والدفاع عن الذمار، وظنوا أن تزويق الحديث وتليين المعارض والمقاطع ووصف الغانيات، وأسباب الترف من الأوليات التي يجب أن يعنى بها الأديب، وأن يخلص لها الأدب.

لمثل هؤلاء يجب أن نقدم حافظاً مثلاً للأديب الذي عرف غاية الأدب السامية فجعل نتاجه الجم وقفاً عليها، وجهاداً في سبيلها، ولم يحاول أن يسلك بالأدب مسلك أكثر أدبائنا الذين جحدوا حق الوطن عليهم، وتأثروا طريقة الأدب العربي في فنونه التي خلت إلا قليلاً جداً من الشعر الوطني الذي يحدث عن آمال الشعوب ورغائبها.

لذلك لم يأل جهداً في تسجيل ما للشرق من مفاخر، عز بها حقبة من الزمن، وما ينبعث لتحقيقه في إيمان ثابت، وجهاد صادق من مآرب وغايات. ضارباً له الأمثال ليشد أزره،

ويصحح عزيمته، ويثير حفيظته، ويزيد إيمانه بحقه، واعتزازه بمجده

فتش في آثار حافظ كلها يأخذ ببصرك هذا الطابع المجيد، وتر أنه لم ينس الحديث عن مصر والشرق حتى في مدائحه، ومراثيه، لأنه لم يمدح ولم يرث إلا الغطارفة الذين عرفهم وعرفتهم مصر مجاهدين في سبيلها، مخلصين في الذود عنها، بل لم ينسه في

خمرياته التي يستعبد الحديث عنها السمع والبصر واللب جميعاً، ويأخذ بذمام الفكر فلا يدعه يجنح إلا إلى اللهو والخمر والقيان والندمان وما إليها.

لم يذهب حافظ في أدبه ذلك المذهب إلا متأثراً بمصريته الصميمة، وما أفاده من صحابة الأحرار من كره الاستعمار وضيق بالذل، وما لقيه من عناد الإنجليز بالسودان وما مني به بعد من بؤس وشدة.

كل هذه العوامل قربت بينه وبين الشعب، فأحس منه ضعف النفوس، وتزايل الوحدة، وتردد المستضعف، وخوف الذليل، وأراد الإصلاح ما استطاع فاتخذ سبيله ليرضى بسعيه عن نفسه، ويكون كما قال:

لعمرك ما أرقت لغير مصر ... وما لي دونها أبداً مرام

وقوله:

إني لأحمل في هواك صبابة ... يا مصر قد خرجت عن الأطواق

لذلك لم يدع باباً من أبواب الجهاد إلا ولجه، فكان له في سبيل الوطن والدين والأخلاق مواقف عز بها وبز، وأقعد غيره عن أن يلحق به ويدانيه، واصطنع في جميعها الجرأة والصراحة وخلطها أحياناً بالتهكم اللاذع، والسخرية المرة، لتكون أبلغ في التأثير وأبقى في الآذان. واليك حديثه مع غادة اليابان مثلاً تر فيه كيف برز حافظ في هذا المضمار، وجمع إلى سلامة الشعر وشرف المقصد دقة التصوير، وسمو التصور:

لا تلم كفى إذا السيف نبا ... صح مني العزم والدهر أبى

أنا لولا أن لي من أمتي ... خاذلا ما بت أشكو النوبا

أمة قد فت في ساعدها ... بغضها الأهل وحب الغربا

وهي والأحداث تستهدفها ... تعشق اللهو وتهوى الطربا

لا تبالي لعب القوم بها ... أم بها صرف الليالي لعبا

ثم يمضي يصف تفريط أمته. وعشقها الألقاب في غير العلا، وجهادها بالنفوس في سبيل الرتب، وتباغضها وتحاسدها، وما إلى ذلك مما يقعد بالمصلحين، ويثبط همم المجاهدين إلى أن يقول مخاطباً غادة اليابان:

قلت والآلام تفري مهجتي ... ويك ما تصنع في الحرب الظبا

فسليني إنني مارستها ... وركبت الهول فيها مركبا

وتقحمت الردى في غارة ... أسدل النقع عليها هيدبا

جال عزرائيل في أنحائها ... تحت ذاك النقع يمشي الهيدبى

فدعيها للذي يعرفها ... والزمي يا ظبية البان الخبا

وهو بذلك الحديث كله يمهد لما يريد أن يقدمه نصيحة للشباب ويجعله مثيراً لهممهم، باعثاً لهم من مراقدهم، فأي شاب يعرف للرجولة حقها يسمع حديث حافظ على لسان هذه الغادة فيرضى أن يسبغ المذلة، ويقيم على الخسف الذي يراد به فيكون أحد الأذلين؟

فأجابتني بصوت راعني ... وأرتني الظبي ليثاً أغلبا

إن قومي استعذبوا ورد الردى=كيف تدعونيَ الا أشربا

أنا يابانية لا أنثني ... عن مرادي أو أذق العطبا

أنا إن لم أحسن الرمي ولم ... تستطع كفاي تقليب الظبا

أخدم الجرحى وأقضي حقهم ... وأواسي في الوغى من نكبا

ولسنا في حاجة إلى أن نقول: إن حافظاً قد بلغ في هذه القصيدة مبلغاً من الإحسان يحسد عليه، وأشرف بها على الغاية، وأسمعت كلماته من به صمم

ولم يزل يتبع الصيحة المدوية أخرى أشد وأعلى ليستقيم له قياد النفوس. ويدفع الشباب المترف المنعم الذي سدر في شهواته وغلا في مباهجه، ونسى حق الوطن عليه - إلى ما يجب أن يعمل له ويشغل نفسه به فانه

عار على ابن النيل سباق الورى ... مهما تقلب دهره أن يسبقا

فتدفقوا أسداً وصونوا نيلكم ... فلكم أفاض عليكم وتدفقا

فمن البلية أن تباع وتشترى ... مصر وما فيها وألا تنطقا

تلك هي البلية البالغة، والهوان الأكبر، والفعلة النكراء، فأحر برجال الغد المأمول أن يلموا

الشعث، ويرأبوا الصدع، ويسعوا إلى خير هذا الوطن المسكين سعياً ملاكه التضحية بالنفس والتفدية بالعزيز

رجال الغد المأمول إن بلادكم ... تناشدكم بالله أن تتذكروا
فكونوا رجالاً عاملين أعزة ... وصونوا حمى أوطانكم تتحرروا
ويا طالبي الدستور لا تسكنوا ولا ... تبيتوا على بأس ولا تتضجروا
فما ضاع حق لم ينم عنه أهله ... ولا ناله في العالمين مقصر

لست أدري إذ أقرأ لحافظ هذا وكثيراً غيره فأرى دعوته إلى الثورة سافرة غير مقنعة، وحفيظته على الاستعمار صريحة غير منكتمة، ماذا يكون منه لو أفسح له القانون قليلاً في الحرية؟ وأي شيء بعد هذا نرتقبه من مجاهد، ونرجوه من حر.؟

إن من يعرف صرامة القانون إذ ذاك وما رمي إليه المشترع الإنجليزي من كبت الشعور، والتفزيع والكيد للاحرار، ليعتقد أن حافظاً أثر عنت القانون، وشدته ليقضي حاجة نفسه، وحاجة أمته في ذلك الوقت العصيب الذي سعى فيه كثير من الخاصة إلى رجال الاستعمار متزلفين مؤثرين أنفسهم على الوطن

فهذا يلوذ بقصر الأمير ... ويدعو إلى ظله الأرحب
وهذا يلوذ بقصر السفير ... ويطنب في ورده الأعذب
وهذا يصيح مع الصائحين ... على غير قصد ولا مأرب

لله درك يا حافظ! لقد جاهدت والغمرات من حولك منكرات والقوم مشغولون عنك بذات نفوسهم. فما فنيت عزيمتك ولا وهى صبرك، ولا دفعك ذلك إلى اليأس إلا حين ترجو الإلهاب والتهييج، فما أجمله يأساً يوقظ الشعور ويحفز الغافل إلى المناداة بالحقوق

حطمت اليراع فلا تعجبني ... وعفت البيان فلا تعتبي
فما أنت يا مصر دار الأديب ... وما أنت بالبلد الطيب
وكم فيك يا مصر من كاتب ... أقال اليراع ولم يكتب
فلا تعذليني لهذا السكوت ... فقد ضاق منك ما ضاق بي
أيعجبني منك يومَ الوفاق ... سكوت الجماد، ولعب الصبي
وكم غضب الناس من قبلنا ... لسلب الحقوق ولم نغضب

غضب الناس لحقوقهم فاستردوها، ونمنا نحن عن حقوقنا وهي ملء الأرض، وشغلنا عن مجدنا الدابر وهو ملء التاريخ، ورضينا بالدون من العيش قسما وحفظاً وقد

كنا قلادة جيد الدهر فانفرطت ... وفي يمين العلا كنا رياحينا
كانت منازلنا في العز شامخة ... لا تشرق الشمس إلا في مغانينا
وكان أقصى مُنى نهر المجرة لو ... من مائه مزجت أقداح ساقينا
والشهب لو أنها كانت مسخرة ... لرجم من كان يبدو من أعادينا
فلم نزل وصروف الدهر ترمقنا ... شزراً وتخدعنا الدنيا وتلهينا
حتى غدونا ولا جاه ولا حسب ... ولا صديق، ولا خل يواسينا

في هذه الأبيات وفي كثير غيرها يذكرنا حافظ بسلطان الشرق وملكه، وعلمه وفلسفته، وأيامه الخالية، ثم بعبوديته وفقره المادي والأدبي ليبعث من ألقى السمع إلى النهوض، وينبه الغافل الكسل إلى ماله من حقوق مسلوبة

ولبس من شك في أن شاعرنا قد أدى بقصائده هذه ما وجب عليه كمصري صميم إنيكن زاد وأربى، وأن الشعب قد أحمسه تذكير بنعمى عريضة تحولت أبؤساً، وعز باهر آض ذلاً. ولكن نفسه الكبيرة ما كانت لترضى بهذه التضحية الحق، فلولا صرامة القانون لأرتنا عجباً، فمثلها لا يقنع بما دون النجوم.

متى أرى النيل لا تصفو موارده ... لغير مرتقب لله مرتهب
فقد غدت مصر في حال إذا ذكرت ... جادت دموعي لها باللؤلؤ الرطب
إذا نطقت فقاع السجن متكئ ... وان سكت فان النفس لم تطب

وكما لم يحمد حافظ جهاده وبلاءه لم يحمد للشباب نهوضهم المقدور، وجهادهم المحدود، وهو يريدهم أسوداً ضارية لا ترتد عن الغاية أو تبيد، فأنحى عليهم باللائمة وأغلظ لهم في القول، وقرعهم وتحدى رجولتهم فقال:

أنابتة العصر إن الغريب ... مجد بمصر فلا تلعبي
يقولون في النشء خير لنا ... وللنشء شر من الأجنبي

أفي الأزبكية مثوى البنين ... وبين المساجد مثوى الأب
وكم ذا بمصر من المضحكات ... كما قال فيها أبو الطيب
هذه النابتة التي راضها حافظ على التضحية فارتاضت بعد شماس، وأدبها ذلك الأدب الجميل وطالما أوضعت في اللهو وجنحت إلى الأثرة فجنت على الأمة، هي التي تسعى اليوم غير وانية، وتمضي غير متريثة، لا يشغلها عن جهادها الشريف ما يُمنى لها من كيد، وما يراد بها من هون، لقد علمها بالصراحة، وعرض عليها شر ما فيها من الخصال لتتوقاه، وكان عليها حديد اللسان إن ترددت حين العزم وتقاعست عند النائبة حسبي هذه الصور البارعة التي تدل دلالة واضحة على أن حافظاً - أحسن الله جزاءه - كان شاعرا الوطنية الثائرة، لم يقدع ثورته الخوف، ولم يأسر قلمه التزلف والرياء، ولم يخالف بين قوله وفعله
وستظل هذه الناحية من شعر حافظ شغل الباحثين ما دام الحديث عنها يمتد ويمتد فلا يقوم بالإيفاء فيه الإطناب المطنب، وما دامت النفوس الأليمة تستروح برد الراحة في دراسة هذه الآثار التي تحدث عن أشهى أمنية من أمانيها، وما دام - حافظ - نفسه يأبى أن يحتفل بغير هذه الناحية، ويقول ما معناه (إن من قضى شبابه في الجيش، ثم انغمس بعد تسريحه في شعر الوطنية؛ هيهات أن يجد متسعاً لما وراء ذلك) وأختتم الكلام بعرض مختار من إحدى قصائده في داهية دنشواي الدهياء، وقد صاغها من حسرات نفسه وآلام شعبه، ورثى فيها العواطف الشريفة - يقتلها حب الاستعمار في نفوس أهله - فجاءت طرازاً وحدها في قوة التأثير وجمال النظم قال:
خفضوا جيشكم، وناموا هنيئاً ... وابتغوا صيدكم، وجوبوا البلادا
واذا أعوزتكم ذات طوق ... بين تلك الربى فصيدوا العبادا
انما نحن والحمام سواء ... لم تغادر أطواقنا الأجيادا
لا تظنوا بنا العقوق ولكن ... أرشدونا إذ ضللنا الرشادا
ثم يقف بعدُ من المستعمر موقف الخصم العنيد، فلا يدع له حجة ولا ينجيه من التثريب والملامة:
أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو ... أقصاصاً أردتمُ أم كيادا؟
أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو ... أنفوساً أصبتم أم جمادا؟
ليت شعري أتلك محكمة التف ... تيش عادت أم عهد نيرون عادا؟
كيف يحلو من القوى التشفي ... في ضعيف ألقى إليه القيادا؟
ثم يمضي بعدُ حسراته وزفراته حتى ينتهي إلى تقريع أبناء مصر الذين ينقلبون حرباً عليها، ويكونون عوناً للمستعمر على خضد شوكتها؛ ويخلص من ذلك إلى قوله وقد أنكر تصرف هؤلاء الأعيان وزرى عليه:
لا جرى النيل في نواحيك يا مصر ... ولا جادك الحيا حيث جادا
أنت أنبتّ ذلك النبت يا مصر ... فأضحى عليك شوكاً قتادا
أنت أنبتّ ناعقاً قام بالأمس ... فأدمى القلوب والأكبادا
إيه يا مْدرهالقضاء ويا من ... ساد في غفلة الزمان وشادا
أنت جلادنا فلا تنس أنا ... قد لبسنا على يديك الحدادا
هذه الروح القوية التي استبانت فيما أوردنا من شواهد هي التي صدر عنها حافظ في جهاده الوطني الذي صار من أجله شاعر النيل غير مدافع ولا منازع.
وما زال - رحمه الله - يغذي الحركة الوطنية، ويشيد بها حتى ألقى عصاه بدار الكتب، فصرم بها زماناً لا ينشدنا إلا لماما.
وما كان للنفوس التي خالطها حبه، وغذاها أدبه، وطبعت على أن تسمع صوته متصلاً لا ينقطع، أن تسكن إلى تلك الحال، وأن ترضى بذلك القليل يأتيها منجما في أوقات متباعدة.
فلما ترك - رحمه الله - المنصب محالاً إلى الراحة والدعة، أمّلت خيراً واستشرقت وأنست إلى مقطوعاته التي كان ينظمها اليوم بعد اليوم، ولكن ما هي إلا جولة أو جولتان حتى رفع القلم، وطوى الأثر، وودعنا حافظ
كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيس ولم يسمر بمكة سامر
أبى البؤس الذي ألح على حافظ حياته أن يدعه بعد وفاته، فكفرت الأمة بأياديه عليها، ولم تعرف لذكراه حقها، وكان أقل ما يجب عليها لمن عاش حياته مجاهداً في سبيلها،

مسبحاً باسمها، أن تجعل يوم وفاته أحد أيامها الخالدات، تهرع فيه إلى تمجيد ذكره وإعلاء قدره، وأن تنشر صحيفة جهاده للأدباء ليتأثروه فيه ويعملوا على شاكلته.
وليس هذا وحده هو كل ما أصاب حافظاً من بؤس بعد وفاته، فان خلصاءه الذين عاشروه ولابسوه ولزمهم بذلك ما يجب على الصديق للصديق، قد نفضوا أيديهم مما تعاهدوا عليه
إثر وفاته واجتمعوا من أجله، وقد كان فيه قليل من كثير جداً يجب عليهم لذلك الشاعر الصديق الذي أضحى بين هؤلاء الصفوة الأنساء أو النسيان وكلاهما شر.
وبعد، فتلك كلمة فيها إيجاز وقصور، لم أرد فيها كشفاً عن فضل مستور، وبياناً لقدر منكور، ولكني أردت أن أؤدي لشاعر النيل بعض ما وجب علّي بالأخذ عنه، والانتفاع بآثاره. فان أك قد قاربت ما أردت فحسبي، وإلا أكن فالمجتهد يعذر.
أحمد عثمان عبد المجيد
بين الشك والإيمان
الشاعر الإيطالي (ليوباردي)
للأستاذ خليل هنداوي
- 2 -
أعجب ليوباردي بالموت والفناء، فقال في مقطوعة له:
_ أيها الموت الرحيم الذي لم أزل أدعوه إلى منذ تألق صباي: تعال أغلق إلى الأبد عينيَّ، فقد طرحت بعيداً عني كل أمل خادع يتعلل به العالم، ويلهو كالطفل. أنا لا رجاء لي إلا بك، ولن أرتقب إلا النهار الذي أرقد فيه مسنداً جبيني على صدرك الطاهر)
وهكذا أصبحت نفسه لا يشبعها لون من ألوان الحياة وآمالها، لا الحب ولا زهوه، ولا الأمل وآفاقه؛ لا يشبعها ولا يطفئ رغائبها إلا لقاء الموت.
قد تسمع هذه اللهجة من غير ليوباردي فتصد عنها، ولكنك تسمعها من هذا القلب الخافق والروح المعذب فتوقظ نفسك الهاجعة وتهيج قلبك الهامد، لأن اللهجة التي ينطق بها الشاعر ليست لهجة خاصة، وإنما هي لهجة الإنسانية التي تأتي من حيث لا تعلم، وتنطلق إلى حيث لا تدري.
يقول ليوباردي: إن الجميل هو عدو الحقيقي، ولكن هذا الجمال الخادع هو - عندي - خير من الحقائق الأرضية الدنيئة. ألا فلنهذب الأشياء التي تفسح ساحات الخيال، فهي أجدى نفعاً على الناس لأنها تبعث على النسيان. إن الآداب هي رفيعة المقام، وهي القائدة إلى المثل العليا، والدرس يبعث على التعزي، وهو يبهج ويلهي النفس. أما الحب فهو نعمة لأنه يتصور ويتأمل. أما الأمل فهو الأريج الفواح الذي يعطر مسارب كل مكان. وإذا كنت أعتقد أن الموت هو خير هذه الأشياء، فلأنه يفاجئ الإنسان المسترسل في أوهامه، لا يقتل هذه الأوهام إلا بقضائه على الحياة؛ لماذا تصلح حياتنا؟ هل تصلح إلا للازدراء؟
- 5 -
ومن الغريب أن ترى ليوباردي الكاتب يناقض ليوباردي الشاعر، فرسائله لا تكاد تخلو من ذكر الله وهو في شعره جاحد لوجوده، يقول في إحدى رسالاته (والأجل الذي كتبه الله لي
لما يحن! ولكنني أرجو من الآلام التي أنهكتني أن تسوقني إلى الراحة الخالدة التي أطلبها كل يوم، هرباً من العذاب الذي أضواني.)
كان ليوباردي يجحد وجود العناية الإلهية، والآن يثبتها لأنه يحس وجودها بالضرورة التي تفرض وجودها. يقول الشقي (إذا كان هنالك كائن في السماء أو الأرض أو في قاع البحار، فلا أقول عنه إنه رحيم، ولكنه شاهد على عذابي)
كان ليوباردي يحتقر البراعة، وينسى الأسماء الخالدة اللامعة وها هو الآن في ذات مساء، في مدينة (رومة) يرقى ربوة ((سانت أتومزيو) حيث قضى (لوتاس) نحبه، ينحني إزاء قبر هذا الشاعر الكبير، ويستوي تحت ظلال الشجرة التي ألف الشاعر أن يفئ إليها متأملاً في غروب الشمس، هنالك يقول ليوباردي لا شيء جميل على الأرض؛ عظمة اليراعة التي تعيش وتخلد هي فوق كل عظمة. وكان يقول عن الحب إنه حلم فارغ، غير خليق به أن يقلق نفساً صافية، وها هو ذا الآن يجعل من الحب رسول السعادة الحقيقة، ترسله الآلهة إلى قلوب بني الإنسان. (فهو إذا هبط الأرض تحرى

عن أشرف القلوب وأطهرها، وبث فيها من روحه وعذوبته. حتى ليحس صاحب الحب أن في قلبه روحاً غريبة تثنيه عن العالم) وهو الكاتب إلى أخيه (بالله أجبني. . . أنا في حاجة إلى الحب. . . الحب. . . النار. . . الهيام. . . الحياة) وهو الذي يحدث عن صداقة أنقذته، وبدلت بؤسه هناء وجعلته يؤمن بأن في الحياة أفراحاً كان يحسبها مستحيلة.

كان ليوباردي يساير مذهب الجاحدين وجود المشاعر السامية في الإنسان، والآن أصبحت هذه الأكاذيب عنده أسمى شيء في أخلاق الإنسان، تدل على شيء هو أعظم من الرداء الترابي، فيصرف وجهه عن الأرض ليتأمل في عظمة الفضاء الشاسع والعوالم السابحة فيه، فيرى كل شيء صغيراً حقيراً عند هذه النفس، فيعرف أن النفس هي أوسع بخاطراتها وتأملاتها من كل عالم، فتشكو هذا النقص وتحس الفراغ والسأم؟ أليس هذا بما فيه برهاناً على شرف الطبيعة الإنسانية؟

هذه المشادة هي المعركة التي تقوم بين القلب والروح، ولكن هذه المعركة التي تتخذ من صدر (ليوباردي) ميداناً عنيفاً هي معركة دائمة لا انتهاء لها. يحفزها الألم ويسعر ضرامها الشقاء ذلك الألم الذي نحا بالشاعر إلى هذه الوجهة العابسة من فلسفة الشك، وطبيعي أن

تكون هذه الوجهة غيرها فيما لو قيَّضت المقادير لهذا الشاعر حياة ناعمة وعيشاً رغداً، إذا لكبست الحياة متفائلاً جديداً يشدو بمحاسنها ويلهج بالثناء على جمالها، وسيان عندها شاعر بكى وشاعر شدا:

فلله ما أظلم الفلسفة إذا كان قليل من هناء يبيض وجهها فيبيض العالم، وقليل من شقاء يسوَّد وجهها فإذا العالم كله ظلمات بعضها فوق بعض. والحقيقة - وأجدر بالحقيقة أن تكون وراء هناء الإنسان ووراء شقائه، ولكن قل لي من الذي يستطيع أن يتجرد من جميع هذه الظواهر، ومن ذا الذي يقدر على أن يضمن سلامة عقله إذا جاع بطنه، وأن يبقى على هنائه إذا عضه ألم أو فرَّ منه أمل

وهكذا ظل ليوباردي تتشاطر قلبه نوازع مختلفة، وينحط على جسده الداء إثر الداء، يحاول أن يهدئ ثائرتها عنه بتنقله من رومة إلى بولونيا، ومن بولونيا إلى فلورنسا، إلى نابولي، والداء لا يزيد إلا تمكناً منه، حتى آثر الشاعر الموت لنفسه على ان يذلها بسبب الحاجة، وقد دفعه ألمه هذا للكتابة إلى والده (. . . ان ما رتبته لي لا يكفي. . . على أنني أريد ألاّ أحيا كما يحيا الناس، ولكن الموت هو أفضل عندي، ولكن الموت يجب ارتقاب أجله، فلو كان الأمر بيدي لما طلبت إليك - والله شهيد علي - أن تمنحني شيئاً.)

تعرف في نابولي إلى صديقه (رانيري) ذلك الصديق الذي أخلص له كل الإخلاص، وظل أميناً حتى اللحظة التي غادر فيها ليوباردي الوجود، وفي نابولي اعتزل الشاعر الناس، فلا يبصر منهم أحداً، ولا يسمع عنهم شيئاً، كأنما عزلته هذه هي عزلة الموت. ينطبق عليه فيها قوله (أصبحت جزعاً يفكر ويقاسي العذاب، هو لا يزجى حياته إلا في التفكير، ولا يشغله في عزلته ألاّ التأمل. إذا رآه الناظر يخطر بين خرائب (بومباي) عند الغروب، تمثل شبحاً قديماً يزحف بين الخرائب يرثي حظها وحظ نفسه وجد على قمة جبل تنفث مائعاً نارياً نبتة ضعيفة تحاول أن تنزل فيها جذورها، فمثل الشاعر نفسه بالنبتة الحقيرة وناجاها قائلاً: (وأنت أيضاً، ستخضعين لقوة النار، وستنحنين تحت الأثقال، ولكنك لن تنحني جبانة أمام الظالم، ولن تلتفتي إلى السماء بكبرياء أهوج)

يطغى على ليوباردي هذا الشك العنيف، فينكر الخلود ويعلن قبل موته أن هذه الفلسفة

البائسة - كما يدعوها - ليست نتيجة ألمه وشقائه، ولكن نتيجة اعتقاد وايمان، ويؤلف مقطوعة الموت والحب، معنوناً إياها ببيت للشاعر (لمينادر) (هنالك يموت شاباً من تحبه الآلهة)

وإزاء هذا التناقض الذي شاهدناه بين قصائده ورسائله كتب أيضاً (وداعاً يا صديقي العزيز. . إنني أحس في نفسي رغبة هائجة لعناقك، ولكن كيف؟ وفي أي موطن أستطيع؟ أخاف جداً ألا يكون هذا بقدر طول حديقة (أسفوريل). حدثني عن دروسك، وأحببني دائماً، وداعاً لك من كل قلبي)

انتشرت الكوليرا في نابولي وكثرت ضحاياها، فنقله (رانيني) صديقه الحميم إلى (بورتيسي). وفي الرابع عشر من يونيو عام 1839 أخذت الشاعر نوبة إغماء قوية تزايلت لها أعضاؤه، ولم يكن عند الشاعر إلا صديقه وأخت صديقه، كانت تمسح العرق المتصبب من جبين العليل، وكان (رانيني) يساعده بحركات رياضية على التنفس، وكل هذا لم يغنه شيئاً. فعاد بعد لأي إلى وعيه واتسعت عيناه، ونظر إلى صديقه نظرة عميقة، وقال به بلهجة يمازجها التنهد: (لن أراك أبداً) ثم انقطعت أنفاسه وهمد قلبه الهمدة الأخيرة

ووري جثمانه في الكنيسة الصغيرة (سانت فينال) حيث يرقد غير بعيد عنه رفات الشاعر الأكبر (فرجيل). فيا لله من هذا الحظ الذي جمع بين لحدي هذين الشاعرين العظيمين، وهما على قربى في الوطن والفكر والشعر. قد انشق الاثنان من نبعة، وانطلقا ليرقدا في رقعة واحدة. كلاهما تألم، وكلاهما لقي حتفه في ميعة الصبا، وكلاهما أيس من العالم الثاني، وود أن ينتقم من المقادير ويثأر لشقائه فقالا: (هي المقادير! ما أوجدت الإنسان ليحيا، وإنما أوجدته ليموت)

وهذه الفكرة التي تجعل الموت غاية الوجود قد رددها ليوباردي في مقطوعته (أنشودة الديك)

يخيل اليَّ أن المآل الوحيد لكل موجود هو الموت، لن يموت شيء لم يوجد، ولن _ يولد شيء من العدم.

يتجه كل مخلوق بأعماله وآماله إلى السعادة.

فيسعى ثم يقف مجهوداً دون أن يدركها.

ثم يجد أن جميع أعماله - لا تؤول وا أسفاه! إلا إلى مشيئة الطبيعة المكتوبة على كل موجود - وهي الموت)

وكأنه يقول، وهو المتألم، خلقنا لنتألم، ثم لنفنى.

(بيروت)

خليل هنداوي

العلوم

تطور فكرة النظام الشمسي عند اليونان

بقلم فرح رفيدى

هذه أول مقالة من عدة مقالات في تطوير فكرة النظام الشمسي عند اليونان . . . وعند الكنيسة في العصور الوسطى، وعند العرب، ثم الانقلاب الأخير الذي حدث على عهد كوبرنيكس وجاليليو.

وقفت في مساء ليلة من ليالي الصيف متأملاً انحدار الشمس إلى المغرب انحداراً بطيئاً، وكان الشفق بألوانه ممتعاً للأنظار، محركا للنفوس. لكني لم أبال بجمال المنظر أكثر من أن الشمس ستتوارى عني وراء الجبال بضع دقائق

وأجهدت نفسي في تلك الآونة لأرى الشمس واقفة وأشعر نفسي متحركاً مع الأرض، لكن جهدي ذهب عبثاً، إذ مازلت أرى الشمس تهوي مسرعة لتختفي عن ناظري، والشفق يزداد احمراراً كلما دنت من المغيب. فبالرغم عني لم أرها إلا متحركة وبالرغم عن كل شيء لم نلاحظ الشمس تقف ثانية واحدة في مجراها اليومي، فهي أبداً في كل يوم نشاهدها صباحاً في المشرق، ترتقي رويداً في هذه القبة الزرقاء، إلى أن تصل أوجها في منتصف النهار، ثم تأخذ في الانحدار والاختفاء وراء الأفق الغربي، فتضئ هناك ما كان مظلماً، وتبقى خلفها الظلمة ترتقبها النجوم بأعين ساحرة متلألئة.

وقد نشاهد القمر أحياناً يظهر بعد اختفاء الشمس، فيسلك مسلكها، ويتبع خطاها واحدة واحدة، إلى أن يتدرج في انحداره وراء الجبال أو وراء البحار. ففي أثناء هذه الدورة العظيمة من الشمس، أو هذا الانقلاب الخطير المتعاقب من ليل ونهار، من يفكر أو يشعر أنه دائر حول محور الأرض بسرعة تقرب من الألف ميل في الساعة، وأنه في اثنتي عشرة ساعة ينقلب أسفله إلى أعلاه وأعلاه إلى أسفله؟ وكيف يكون هذا الدوران السريع ولا نرى البنايات تتهدم، والأشجار تتساقط، والمياه تتطاير في الفضاء والناس تقع وتقوم؟. إن هذا الدوران حركة عنيفة قادرة على تفتيت الأرض وهدمها. فبما أن كل هذه الأشياء لا تحدث، فالأرض إذن ثابتة لا تتحرك في وسط هذه

القبة المستديرة. نعم ذلك ما اعتقده اليونان الأقدمون وجاهر به بطليموس في القرن الثاني بعد الميلاد. فثبات الأرض في
مركزها كان النقطة الأساسية في النظام اليوناني القديم.

لنقف الآن قليلاً، ولنتصور أنفسنا في يوم 22 يوليو عند ما يكون النهار على أطوله، والشمس مشرقة تماماً على الخط المار بين الغرب والشرق منا. لندع الشمس تدر حول الأرض كعادتها ونحن نرقبها كل يوم من مسقطها ونعين موضعها بين الجبال أو ان شئنا بين النجوم، فبعد أيام نرى أن الخط المار بنا وبها قد بدأ في الانحراف قليلاً عن خط الشرق والغرب، ولا يزال الخط في الانحراف ولا تزال الشمس متنقلة بين النجوم إلى أن يأتي الخريف بعد الصيف الحار، ويقترب الشتاء ببرده القارس، ويأتي يوم 22 ديسمبر حيثما يكون النهار على أقصره، فبلغ الخط منتهى انحرافه، وبدأ بالرجوع إلى مكانه الأول. ثم لحق الربيع الشتاء، وما كاد يطرب بنضارته وجماله الشعراء حتى يباغته الصيف بحره وجفافه، ويأتي يوم 22 يوليو حيث يرجع الخط لمكانه الأول. وذلك بعد أن أنهت الشمس مسيرها بين النجوم. لأن ذلك كان ما اعتقده أرسطو وبطليموس في النظام الكوني وعللاه بقولهما: إنه لو كانت حركة الشمس هذه ظاهرية فقط ومسببة عن حركة في الأرض في جهة معكوسة، لكنا رأينا النجوم أيضاً تسير بهذه الحركة الظاهرية مع الشمس، وبما أنا لا نلاحظ أي انتقال أو تغيير في النجوم فالأرض إذن ثابتة لا محالة، وأي تغيير قد يحدث في بعض هذه اللوامع في الليل فانه راجع إلى الأجرام نفسها لا إلى حركة الأرض أو دورانها. وهذا التعبير الذي أذاعه المعلم الأول أرسطو تعبير منطقي يسلم به العقل، ولذلك ظل معتقداً راسخاً في قلوب الناس قروناً عديدة

أول ما يلاحظ الناظر في الليل إلى السماء هو الاختلاف البيّن في لمعان النجوم، فاستدل اليونان من ذلك على أن النجوم الأشد لمعاناً هي أقرب إلى الأرض من غيرها، وقد وجدوا أن من غريب أمر بعض هذه النجوم، أنها تنتقل من مكان إلى أخر، لذلك سميت بالنجوم السيارة فبثوا العيون وراءها ترصدها أينما حلت، واعتقد أرسطو أن هذه النجوم السيارة إن هي إلا أجسام طبيعية تدفعها إلى الحركة أرواح حالة فيها.

وبما أن الأرواح تسير بقوة الإله الأكبر، والكاهن هو الواسطة بين الله والإنسان، فالكاهن إذن عالم بأمر هذه النجوم. فادعى الكاهن هذه المعرفة فأخذ يدرس حركاتها، فلما لم يعلم بسر حركتها ظن أن الروح تحركها، ولما رآها تسير بنظام لا يدركه قال هي تسير بلا نظام، وأن بعضها يسلك على
حسب حظ الواحد وسعده، فمنها ما يتحرك لخير ومنها يتحرك لشرّ. ومن ذلك انتشر الاعتقاد بمعرفة حظوظ الناس من معرفة حركات النجوم، فصار العالم بالأرواح عالماً بالنجوم ومسالكها، وأصبح صاحب الدين في الدنيا وهو صاحب العلم أيضاً، ولم يمكن عند ذلك التمييز بين الاثنين.

عرف اليونان من الكواكب خمسة غير الشمس والقمر.

عرفوا: (1) الزهرة، وهي الكوكب المتألق في السماء عند الصباح أو عند المساء، وقد دعاها الرومان إلهة الحب لجمالها وافتتانهم بها؛ وليس من الغريب أن يقرن نابليون حظه بها، إذ قال لأحد جنوده ذات ليلة: (انظر! هذه نجمتي، ما دامت متألقة فلا شك في نجاحي).

(2) عطارد، رسول الآلهة، يُرى أحياناً في الشفق فقط بعد مغيب الشمس، يلبث قليلاً ثم يتبعها، وهو كالزهرة يرى أيضاً في الصباح.

(3) المريخ، ونراه أحياناً متألقاً، وأخرى ضعيف الإشعاع، أحمر اللون، وهو إله الحرب عند الإغريق.

(4) المشتري، إله الآلهة، وهو كزوس عند اليونان، وثاني الكواكب بشدة لمعانه، فلا عجب إن عرفه الناس من زمن قديم.

(5) زحل، المعروف ببطء حركته بين النجوم الثوابت، عرفه الأقدمون كأبعد سيار عن الأرض.

ليس لنا أن نبين الأبحاث التي قام بها علماء اليونان في علمي الهيئة والنجوم، ولكن المهم الآن أن نعرف بعض من قاموا بتأسيس فكرة النظام الشمسي التي عرفت بالنظام البطليموسي، والتي ما كانت إلا تعديلاً لما اعتقده أرسطو العظيم في هذا

الكون العجيب.
في سنة 532 ق. م قام فيتاغورس وأنشأ أخوية دينية كان لها اعتقادها الخاص في كروية الأرض، وكان هو أول من فرض حركة الأرض حول الشمس، لكن أرسطو رفض هذا الفرض لعدم ظهور دواع تؤيده، وكان أيضاً هبارخس أول من أظهر استدارة فلكي الشمس والقمر حول الأرض.
وفي سنة 370 ق. م، أظهر يودكس فكرة الكرات المتراكزة، فبنى على هذه الفكرة من
بعده أرسطو ورؤساء الكنيسة في العصور الوسطى.
وفي القرن الرابع قبل الميلاد قام المعلم الأول أرسطو، الذي تلقى على أفلاطون فيلسوف ذلك العصر، وجمع ورتب التعاليم اليونانية بعد أن حللها وناقشها مع تلاميذه، وقاسها بمقياس العقل والمنطق، وعزا الحوادث والتغيرات في النجوم إلى مسبباتها الظاهرة، وخلّف للملأ خلاصة التعاليم اليونانية منقحة بفلسفته المنطقية، فأكبر العالم هذه العظمة فيه، فمال على كتبه ومؤلفاته يدرسها، فوجدها غاية المنطق، وسداد الرأي، وقوة الدليل، فاقتنع وآمن بها إيماناً ذهب بالشك في صحتها من قلبه لم يكتف أرسطو بأن جعل الأرض ثابتة، بل تصور النظام الكوني كله مؤلفاً من كريات مستديرة الشكل في أحجام مختلفة والواحدة في جوف الأخرى؛ وعلى هذه الكرات جعل الأجرام السماوية تدور حول الأرض.
وقد حسب النجوم الثوابت كلها على أبعاد متساوية من الأرض، لذلك جعلها على سطح كرة واحدة، وقد علل اختلاف الأضواء المنبعثة من بعض السيارات باختلاف بعدها عن الأرض. ولما زادت العناية بمراقبة النجوم، ودقت ملاحظاتهم لها، تبينوا اختلافات كثيرة في حركاتها، لم يقدروا على تعليلها بكرة واحدة، فزادوا عليها كرات، وقالوا إن هذه الحركة الظاهرة ما هي إلا مجموع حركات دائرية على كرات مختلفة، وزاد أرسطو على هذه الكرات اثنتين وعشرين كُرة، كانت سبباً في تعقيد النظام اليوناني بدلاً من تسهيله.
الاسم الأكبر الذي كثيراً ما نصادفه في كتابات اليونان القديمة في علوم الهيئة وبين مؤلفات العصور الوسطى، وفي الكتب العربية المنقولة عن اليونانية هو بطليموس مؤلف كتاب الماجسطي الذي ترجمه إلى العربية الحجاج بن يوسف بن مطر سنة 786م. وكان لهذا الكتاب المقام الأول بعد أرسطو لمدة أربعة عشر قرناً.
عاش بطليموس من سنة 100 إلى سنة 170 ب. م. وكان مولده على أيام الإمبراطور هدريان، وكان مقيماً طول مدته في الإسكندرية، وهو معدود من أشهر رياضي ذلك العصر. وكتابه الماجسطي يحوي كثيراً من العلوم الرياضية والجغرافية عن أبحاثه في علمي الهيئة والنجوم. وقد وافق هبارخس في تراكز الأجرام السماوية ودورانها حول الكرة الأرضية، ونزع فكرة الكرات فكرة أرسطو، وأدخل نظام الدوائر الصغيرة وهو النظام
الذي عرف باسمه من بعده، وهو أن الكواكب تدور في دوائر مراكزها تدور في دوائر أكبر منها حول الأرض.
بهذه الفكرة تمكن بطليموس من تعليل حركات الكواكب السيارة في السماء ذهاباً وإياباً، ومن تعليل ثباتها مدة من الزمن عند تغييرها من ذهاب إلى إياب وبالعكس. فقد قال إن حركة الذهاب والإياب مسببة عن كون حركة الكوكب في جهة عمودية لاتجاه خط النظر وثبات الكوكب مسبب عن كون حركة الكوكب في اتجاه واحد مع خط النظر، وذلك كما يلاحظ في حركة اقتراب أو ابتعاد الكوكب عن الأرض، إذ يعجز الإنسان عن إدراك الحركة فيظن صاحبها ثابتاً.
وأما انحراف السيارات عن دائرة البروج أو فلل الشمس فهو ناتج عن ميلان سطوح الدوائر الصغيرة عن سطح الدائرة الكبيرة.
وهذا النظام الكوني نظام بطليموس وهبارخس، وان كان مرتكزاً على جعل الأرض ثابتة بالنسبة إلى عوالم النجوم حولها فان الأرصادات الدقيقة للحركات الظاهرية لم تذهب قط سدى، وهي من الأهمية بمكان في تقدم علم الهيئة الحديث. والحقيقة في فكرة النظام البطليموسي أنها لم تبتدئ مع بطليموس، فأول من عرض هذه الفكرة كان ابولونيوس في القرن الثالث قبل الميلاد، فقبلها هبارخس في القرن الثاني قبل

الميلاد، ولما أتى بطليموس في القرن الثاني بعد الميلاد، توسع فيها وزاد عليها وشرحها شرحاً وافياً في كتابه الماجسطي، وظلت أساس معتقد الناس والكنيسة في النظام الكوني أربعة عشر قرناً.

فرح رفيدي

القصص

الهيكل العظمي

للشاعر الفيلسوف رابندرانات طاغور

في الغرفة المجاورة لحجرة نومنا - نحن الأطفال - كان هناك هيكل عظمي معلقاً، يجلجل في الليل حين يداعب النسيم عظامه، أما في النهار فقد كنا نحركه بأنفسنا، وكان يدرس لنا علم العظام طالب بمدرسة طب كامبل، ذلك لأن مَن حولنا وطدوا العزم على أن يجعلوا منا أساتذة مبرّزين في كل المواد، ومهما كان نجاحنا فلم نكن لنخبر به أحداً ممن يعرفنا، كما كنا نخفي ذلك عمن لا يمت إلينا بصلة.

مرت سنون اختفى في أثنائها الهيكل من الحجرة، كما محيت بقايا علم الأستولوجيا من ذاكرتنا، ولم تترك وراءها أثرا، وفي يوم من الأيام كان منزلنا في هرج يموج بالضيوف، وقدّر لي أن أقضي الليلة في الحجرة القديمة، وعبثاً كنت أحاولإغراء الكرى ليطرق جفوني؛ وبينما أنا أتقلب في مضجعي سمعت كل ساعات الليل تدق دقة واحدة إثر أخرى في المعبد المجاور لي، وبعد عدة دقائق انطفأ المصباح الموضوع في ركن الحجرة، بعد أن ظل شعاعه الخفّاق يضطرب، فأسلمني الظلام إلى تذكر بعض أحباء فقدناهم، وتأملت خفوت الشعاع في محيط من الديجور القاتم، ومن ثم قارنت بينه وبين خروج الروح من أجسامنا البشرية الضئيلة وهالني الشبه العظيم بينهما.

وقد جعلني تداعي الأفكار أفكر في الهيكل العظمي، وبينا أنا أرسم في خيالي صورة للجسد البشري الذي كان يكسو هاتيك العظام النخرة، خيّل إليّ إني أسمع وقع أقدام تجوس خلال الحجرة وحول الفراش وتتلمس الجدران، وأحسست إني أسمع أنفاس المتجول المضطربة، وكأنما أعياه البحث فمضى يذرع الغرفة جيئة وذهوباً، وخدعت نفسي بأن ما أسمع ليس إلاّ من قبيل الوهم، وما صوره لي إلا الأرق الطويل، وتشتت العقل، ومحاكاة اضطراب أعصابي حاكي لوقع الأقدام؛ ومع ذلك فقد عرتني قشعريرة سرت في جسدي، ولكي أتخلص من هذا الوهم هتفت صارخاً: (مَن هنا؟) وإذا بالساري يقف حذاء فراشي ويقول: (إنه أنا، لقد جئت أفتش عن هيكلي الذي بارحته). فرأيت من الجبن أن أتخاذل أمام مخلوق صوّره وهمي، وجسَّمه خيالي؛ فأمسكت جيداً بالوسادة وقلت: إنه عمل جميل في هذا الوقت المتأخر من الليل! ما جدوى هذا الهيكل لك الآن؟ وإذا بالصوت يصدر من الكلة نفسها ويقول: يا له من سؤال عجيب! إن في هذا الهيكل عظاماً كانت سياجاً يقي قلبي الفتى الذي لم يجاوز السادسة والعشرين، أفلا يحق لي أن أراه مرة أخرى؟. فقلت له: (لا شك في ذلك، إنها رغبة سامية محترمة، فلتبحث عنه ما شئت، ودعني أنعم بالكرى قليلا!)

فقال الصوت: (أظنك هنا منفرداً، حسن، إني لأغتنم هذه النهزة لأجلس برهة معك، نتجاذب فيها الحديث، وتلك سجيّتي، فقيماً كنت أجلس إلى الرجال نتحادث، ولكن في الخمسة والثلاثين عاماً الأخيرة، أبدلت ذلك بأنيني مع الرياح الداوية عند قبور الأموات، وهاأنذا أتكلم مع فرد من بني البشر لأول مرة منذ مماتي).

وأحسست أن شخصاً يجلس قرب كلة سريري، فأذعنت الواقع وأجبت: (إن هذا في الحقيقة لشيء جميل جدا، وهيا بنا نتكلم في شيء طريف) فقال الصوت: (إن أجمل شيء أتذكره هو تاريخ حياتي، فدعني أقصه عليك)

وحينذاك دقت الساعة دقتين فانطلق محدثاً وقال:

(عندما كنت في ميعة العمر في دنياكم، كنت أخشى شيئاً واحداً كما أخشى الموت، ألا وهو زوجي، وكانت احساساتي أشبه باحساسات سمكة علقت بالشص، إذ كنت أحسبني هذه السمكة، وقد نزعت من ذلك الهدوء الذي شعرت به في منزل الصبا.

لقد مات زوجي عقب زواجي بشهرين ولم يكن حزنهم على وفاته أكثر من حزنهم على حظي التعس، أما أبوه فقد نظر إلى وجهي ذات يوم وقال لزوجه: ألا ترين في عينها نذير الشؤم؟

ثم قال الصوت: (أمنصت أنت لقصتي: آمل أن تكون قد أعجبتك!)
فقلت: (لقد أخذت على جماع مشاعري وإن مبدأها ليشوق المرء إلى نهايتها.)
ثم عاد الصوت يقول: دعني أتمها، لقد عدْت إلى منزل والدي، والسرور يملأ نفسي،) واستنكر الناس هذا مني، ولكني كنت أعرف جيداً إني على قسط وفير من الجمال، ألا (ترى ذلك؟
(.فقلت: لا شك في ذلك، ولكن يجب أن تتذكري إني لم أرك أبداً)
فصاح الصوت: (عجباً لك! ألم ترني مطلقاً! إذن فما هذا الهيكل العظمي، ها ها، لا بأس عليك، لقد كنت أمزح معك وهل في مقدوري أن أعرفك كيف كان في هاتين الحفرتين
الغائرتين عينان يشع منهما السحر، وألاّ تشابه بين الشفتين الياقوتيتين اللتين كانتا تفتران عن ابتسامة فتانة وبين تلك الأسنان القاتمة التي تعودت أن تراها، وإني كلما حاولت أن أصور لك ما كنت عليه من جمال عبقري، وحسن وبهاء ورقة، ابتسمت طربا كما أشعر بشيء من الحزن والغضب، وإن أشهر أطباء عصري لم يكن يخطر على بالهم أن عظامي ستكون يوماً وسيلة لتفهيم دروس الاستولوجي، أتعرف طبيباً شاباً - كما أعرف - قارن بيني وبين زهرة (الشامباك) وما دار بخلده أن هذا الهيكل المحطم لفتاة كانت هي زهرة الجمال، وكلما سرت شعرت بأني قطعة من الماس المتلألئ ألقيت في جوف الثرى، وأن كل حركة مني تثير عاصفة من الإعجاب، وكم أمضيت الساعات الطوال أتأمل هاتين اليدين اللتين تمناهما كثير من الشبان المتيمين، ولكن هذا الهيكل الجامد، لا يستطيع أن يحرك شعورك نحوي، ولست أملك وسيلة أدحض بها هذا الافتراء الذي يوحيه إليك هيكلي، ولذلك أشعر بمقت للرجال، وهاأنذا (.أطرد الكرى عن مقلتيك بوصفي لك شفتي الورديتين
فصحت قائلاً: (أقسم لك بجسدك، أنك لو كنت محتفظة به حتى الآن لما كان للاستولوجي أثر في ذاكرتي، ولكان الذي يملؤها هو صورة الحب القوي العاصف يلوح لي في غياهب الليل، ولست أذكر لك أكثر من ذلك.)
فتابع الصوت كلامه قائلاً: (لم تكن لي فتاة شقيقة، أما أخي الوحيد فقد وطد العزم على ألاّ يتزوج، وكنت أقضي الوقت منفردة في الحديقة أتفيأ ظلال الأشجار المتهدلة، وأسبح في بحر الخيال. فأتصور العالم كله يعبد جمالي، وأن النجوم الزهر تسكر من حسن طلعتي، وأن الرياح تدوي إعجاباً بي، والعشب المخضر يضطرب ثملاً حين أخطر فوقه، وكنت أحسب شباب العالم كلهم كالأعشاب التي أطؤها بقدمي، ولكن قلبي لأمر ما كان ينطوي على شيء من الألم، وكان لأخي صديق اسمه (شيكار) أتم دراسته بكلية الطب وأصبح طبيب العائلة، وكنت أرقبه عن كثب من خلال الأستار، أما أخي فقد كان رجلاً شاذاً اعتزل الناس، وأوى إلى ركن مظلم، وإذ كان (شيكار) صديقه الوحيد فقد أبيح لي أن ألقاه، وكنت إذا مضيت إلى الحديقة مساء، تخيلت كل عشبها (شيكارا) آخر. أمنصت أنت إلي؟ فيم تفكر الآن؟)
فقلت (أفكر فيما لو كنت (شيكارا) هذا!)
فقال الصوت: (تمهل قليلاً، وأنصت للقصة كاملة، ففي يوم ممطر، أصابتني الحمى، وجاء الطبيب يعودني، وكانت هذه أول مرة ألقاه فيها، وكنت أتكئ على حافة النافذة حتى تصبغ حمرة الشفق المودع وجنتي، وحين جاء الطبيب تأمل في وجهي ملياً فقلدته، وتأملت في نفسي فخيل إلى أن وجهي وردة حمراء، قد ألقيت على وسادة بيضاء، فسأل الطبيب أخي أن يجس النبض، ولم أر طبيباً أجبن منه، حتى أن أصابعه كانت تضطرب ولا تستقر حين أقبل يتلمس معصمي، وفي النهاية سجل حرارة الحمى التي انتابتني، أما أنا فقد قدرت خفقان قلبه، أعندك شك في ذلك؟)
فقلت: (كلا. كلا، إن خفقات الفؤاد لتحكي قصته!!)
فقال الصوت: (بعد أن أبللت من مرضي المنهك، ألفيت كل أحبابي قد رغبوا عني، وأخيراً أصبح الطبيب يعود مريضاً فحسب، وكنت في هذه الأمسيات أرتدي ثوباً أبيض، وقد تدلت عليه ضفائر شعري المحلاة بزهور الياسمين الأبيض، ومن ثم أتخذ مقعدي المعتاد تحت أفنان الأشجار ومرآتي في يدي، وربما تظن أن رؤية الشخص لصورته وجماله في المرآة تجعله ملولاً. ولكن الواقع غير ذلك، لأني لم أكن أرى نفسي بعيني رأسي، لقد كنت شخصين في جسد واحد، فكنت أنظر لنفسي بعين الطبيب، وشعرت

بجنون الحب، ولكن برغم هذا الدلال الذي أسرفت فيه قد كانت آهة حبيسة تتردد في صدري وتئن كما تئن رياح الليل، ولم أكن في ذلك الحين وحيدة، بل كنت حين أسير أتطلع بعين كئيبة إلى أصابع قدمي وأعجب ماذا تكون حالة الطبيب لو أنه شاهدني الآن، أما في الظهيرة، حين تتوسط ذكاء كبد السماء، ولا يسمع صوت هنا أو هناك إلا صيحة حدأة لا تلبث أن تتلاشى، فقد كان يمر خلف سور حديقتنا بائع الصقور ينادي (صقور زجاجية للبيع) وحينذاك أبسط على العشب خرقة بيضاء أجلس عليها وأعتمد رأسي بكفي، ويدي الأخرى تعبث بالحشائش، وكنت أتخيل أن هناك من يرقبني في مجلسي هذا ويعجب بي، ويود لو أنه طبع قبلة على أطراف أصابعي الوردية. . ولكن كيف أتم لك قصتي، وفي استطاعتي أن أسامرك حتى الصباح ولكن ذلك يبغضها لك. . . . إذن دعني أظل في قصتي، أما الطبيب فحين مارس صناعته جيداً استأجر غرفة في الدور الأرضي بمنزلنا وجعلها عيادة

للمرضى، وكنت أتسلى بسؤالي إياه عن الأدوية والسموم والمقدار الذي يميت من هذا الدواء أو ذاك، ولكن هذه الأحاديث أخذت طوراً آخر، فقد جعلتني أتأمل في فكرة الموت، وكان الحب والموت شاغلي تفكيري وحياتي

مضى على ذلك ردح من الزمن، لاحظت فيه على الطبيب تشتت الذاكرة، وخيل إلي أنه يحتفظ في صدره بسر يخجل أن يحدثني عنه، وفي ذات ليلة جاء مرتدياً كثيراً من الملابس واستعار مركبة أخي، وهنا ثارت الدهشة في نفسي، ومضيت استفسره عن كل شيء، وبعد أن تجاذبت معه الحديث سألته: ألك أن تخبرني يا (دادا) عن وجهة الطبيب هذه الليلة وقد استعار مركبتك؟. . . . فأجابني أخي في صوت أجش (إلى الموت) فصحت به (أخبرني حقيقة أين هو ذاهب). . فقال في شيء من الصراحة (مضى ليتزوج) فتعالت ضحكاتي طويلاً وقلت: أحقاً ما تقول؟

وعرفت حينذاك أن العروس وريثة ثرّية، ستنفح الطبيب مبلغاً كبيراً من المال، ولكن لماذا كان يخدعني طيلة الوقت بإخفائه ذلك عني، وهل توسلت إليه ألا يتزوج حتى لا يحطم قلبي؟ ولكن تلك سجية الرجال طبعوا عليها فتصديقهم ضرب من البلاهة، لقد عرفت في حياتي كلها رجلاً واحداً، ولكنه سرعان ما اختفى وتفقدته فلم أجده.

وبعد أن أتم الطبيب عمله وعاد الينا، وتهيأ للعمل سألته ضاحكة: لقد أحسنت يا دكتور، أعزمت على الزواج هذه الليلة؟ ولم يُفقده سروري ابتسامة محياه فحسب، بل أثاره ذلك فسألته: (ولمَ لم توقد الثريات ولم تعزف الموسيقى؟)

فأجابني في تنهد: (وهل تحسبين في الزواج سعادة أو لذة؟)

فانفجرت ضاحكة وقلت: لا، لا، لن يكون ذلك، وهل هناك عرس لم توقد فيه المصابيح ولم تعزف الموسيقى؟

وظللت أزعج أخي حتى أصدر أمره بإحضار جماعة الموسيقى، وكنت أبتسم طيلة الوقت، وأتحدث عن العروس وحياتها، وما سأفعله حين تأتي المنزل. وسألته: خبرني يا دكتور هل ستظل تجس النبض؟ ثم انفجرت ضاحكة؛ وتم عقد الزواج في ساعة متأخرة من الليل، وقبل ابتدائه كان أخي والطبيب قد جلسا إلى خوان صغير يشربان كأساً من الخمر، ولما هتك القمر أسداف الظلام، سألت الطبيب: (أنسيت عروسك وقد حان الوقت؟) ومضيت إلى

صيدليته أتلمس فيها قليلاً من مسحوق وضعته في كوبته حين كان مشغولاً عنها. وإذ ذاك رفعها إلى فمه وتجرّعها دفعة واحدة، ثم صوّب إلى نظرة اخترقت شغاف قلبي وقال: الآن سأذهب إلى حيث لا عودة لي أو مآب.

ولما صمتت الموسيقى للراحة، مضيت إلى غرفتي وارتديت ثياب عرسي الحريرية الموشاة بالذهب، وأخذت جواهري كلها ووضعت شارة العرس الحمراء على مفرقي، ومن ثم هيأت فراشي تحت شجرة في الحديقة.

وكانت ليلة جميلة ناعمة، ورياح الشمال الهادئة تقبّل ما تمر عليه فتحمل الطمأنينة إلى القلوب، وقد فاح في أرجاء الحديقة عطر الياسمين الشذى، وبينما الموسيقى آخذة في الهدوء شيئاً فشيئاً، كان وجه القمر يلتحف حجب السحاب المغبر القاتم، وبدأت أغيب عن الدنيا رويداً رويدا، وأفقد شعوري، وأغلقت عيني مبتسمة، وتذكرت مجيء الناس ومشاهدتهم إياي هنا، ولكن وا أسفاه على الملابس الحريرية المذهبة؛ وحين استيقظت على صوت لغط حولي، ألفيت ثلاثة شبان يدرسون علم العظام على

هيكلي، فجاشت في نفسي الآلام وأخذت زهرات الشباب تتفتح عن أكمامها، وإذا بالأستاذ يشير بعصاه إلى عظامي مسمياً إياها بأسمائها العلمية، ولكن أترى أثراً لهذه الابتسامة الأخيرة، وهل أعجبتك القصة؟ فقلت يالها من قصة رائعة!

وفي هذه اللحظة زنت أول صيحة وقلت: (أأنت هنا؟) فلم يجيبني سوى الصدى، وحينذاك كانت أشعة الصباح قد نفذت إلى الحجرة.

حسن محمد محمود

العدد 56 - بتاريخ: 30 - 07 - 1934

بين السياسة والأدب أيضاً

أشارت (الرسالة) في عددها الماضي إلى كلمة أسف وعتاب مُر كتبتها إحدى الزميلات الدمشقيات لمناسبة وفاة شيخ العروبة المغفور له احمد زكي باشا، تشكو فيها من طغيان السياسة على الأدب في مصر، وتنعى علينا تقصيرنا في حق العظماء الراحلين من أدبائنا ومفكرينا، وتلاحظ أن العلامة الراحل لم يشيع إلى مقره الأخير بما يجب لعلمه وأدبه وخدماته للإسلام والعرب، من التجلة والاهتمام؛ هذا بينما تغمر ذكرى بعض الراحلين من رجال السياسة بمظاهر الإجلال الشامل، وتفرد لها في الصحف عشرات الفصول الرنانة، ويحتفى بها أيما احتفاء.

ونعود فنعقب على ما كتبته الرسالة بأن ملاحظة الزميلة الدمشقية جديرة بكثير من التأمل، وفيما تنعيه علينا كثير من الحق. فنحن نشعر منذ أعوام طويلة بطغيان الاعتبارات السياسية على كثير من مظاهر حياتنا العامة والخاصة، ونشعر بما تجنيه هذه الاعتبارات على كرامة التفكير والأدب. وقد ظهر هذا الأثر في مواطن ما زالت تثير في نفوسنا كثيراً من الأسى والألم. ففي مثل هذا الوقت منذ عامين، توفي شاعر مصر الكبير المغفور له حافظ إبراهيم، فكان حقاً لعظمته وعبقريته أن يكون جنازه حادثاً قومياً عظيماً تشترك فيه الأمة كلها شعباً وحكومة؛ ولكن حافظاً شيع إلى قبره في حشد متواضع من الأصدقاء والمعجبين، وحالت الاعتبارات السياسية دون أن يسبغ على جنازه أية صفة رسمية أو قومية، ولم يقم لذكراه أي حفل تأبين لائق. وكان لهذا الإغفال المؤلم صداه يومئذ، فألفت لجنة من بعض الكبراء والأدباء أصدقاء حافظ لتستدرك هذا التقصير المعيب في حقه، ولتقوم بما يجب لتخليد ذكراه؛ ولكن هذه اللجنة لم توفق للأسف إلى القيام في هذا السبيل بعمل يذكر؛ ولم تبد دوائر الأدب من جانبها أي اهتمام بحافظ وتراثه، ولا زالت ذكرى الشاعر العظيم نسياً منسياً.

وثمة حادث آخر ظهر فيه طغيان هذا التيار السيئ، هو أنه لما أرادت الحكومة أن تكرم ذكرى أمير الشعراء المغفور له احمد شوقي بك في حفل رسمي دعت إليه ممثلي الأقطار العربية الشقيقة، لم تفكر في زميله وقرينه حافظ؛ ولو أنها أرادت أن تكرم ذكرى الشعر للشعر والأدب للأدب ولم تبد مثل هذه التفرقة بين رجلين اشتركا في حمل زعامة الشعر العربي زهاء ربع قرن، وساهما في مجد مصر الأدبي بقسطين متعادلين لكان عملها جديراً

بكل تقدير. ولكن ظروف هذا الحفل كلها كانت تنم عن تغلب هذه الاعتبارات الخاصة في إقامته وفي تنظيمه؛ وهي ظروف واعتبارات شعر بها ولاحظها وأسف لها جميع إخواننا مندوبي الأقطار العربية الذين شهدوا هذا الاحتفال.

وبعد فهل نسي أحد قصة مثّال مصر العظيم مختار وما جنته الاعتبارات السياسية على شخصه وفنه أثناء حياته ثم بعد وفاته؟ لقد قضى مختار معذباً منسياً مهضوم الحقوق، لا تحفل الحكومة بأمره، ولا تذكر أن له فناً وآثاراً رفعت اسم مصر عالياً؛ وحذت الهيئات العلمية والأدبية حذو الحكومة في تناسي مختار وفنه وذكراه.

وهذا الروح المعيب يكاد يتغلغل في جميع الهيئات المصرية، رسمية، وغير رسمية. وفي كل يوم ترتكب في ظله وتحت تأثيره تصرفات يأباها العلم والأدب، وتأباها اللياقة والذوق السليم. وكثيراً ما تجني هذه التصرفات على العلم والأدب، وحقوق العلماء والأدباء. والأمثلة عديدة معروفة لا يتسع المقام لذكرها، والتبعة في ذلك لا تقع على الهيئات الرسمية أو الحزبية وحدها وإنما تقع أيضاً على الهيئات العلمية والأدبية نفسها، وعلى العلماء والأدباء أنفسهم. أما تبعة الهيئات، والهيئات الرسمية بنوع خاص، ففي إنها تمزج بين السياسة والأدب عن عمد وتدبير، وتخضع الأدب والعلم لمؤثرات السياسة وهواها؛ هذا مع إن التفكير والأدب تراث قومي عام، بل هما تراث إنساني

يرتفع فوق جميع الاعتبارات والمؤثرات الحزبية والمذهبية. ومن واجب الحكومات والهيئات المستنيرة أن تقدر هذا المبدأ وأن تحترمه دائماً. وإنما تبعة الهيئات العلمية والأدبية والعلماء والأدباء، ففي أنهم بجمودهم وتقصيرهم يشجعون على تلك التصرفات المغرضة المعيبة، وأحياناً يساهمون في ارتكابها متأثرين بنفس تلك الاعتبارات التي يجب عليهم أن يحاربوها بكل قواهم.

لقد جنت هذه الاعتبارات والمؤثرات على تفكيرنا وأخلاقنا وأصابت حركتنا الأدبية بكثير من ضروب الفساد والشر، وكانت هيئاتنا الرسمية والعامة دائماً في ذلك قدوة لا تحمد. وما زلنا منذ أعوام نعاني هذا الإفساد ونستكين له. أفلم يحن الوقت إذاً لكي نحارب هذا التيار الخطر ونعمل على إقناع حكومتنا وهيئاتنا العامة بأن الحركة الأدبية يجب أن تحرر من تلك المؤثرات والاعتبارات الخاصة، وإن التراث الفكري والأدبي يجب أن ينظر إليه لذاته، وإن من حق المفكرين والأدباء أن ينالوا دائماً، أثناء حياتهم وبعد مماتهم، من رعاية

حكومتهم وأمتهم ما هو جدير بأقدارهم العلمية والأدبية قبل كل شئ؟

(ا. ع)

نجار ونجار

للأستاذ احمد أمين

استأجر دكاناً أمام منزلنا الأسطى حسن النجار.

وهو شاب في نحو الثلاثين من عمره، مهزول الجسم، أصفر الوجه، ينتعل نعلاً بالية، ويلبس ثياباً رثة، وعلى رأسه طربوش أسفله أسود، وأعلاه أحمر، وقد دفعه إلى الوراء ليظهر (قصته) من شعره، فرّعها فروعاً ورفعها إلى السماء لتناطح السحاب.

ينظر إليك بعين منتفخة كأنه قريب العهد - دائماً - بنوم طويل ثقيل، ويمشي متطرحاً كأن في رأسه - دائماً - فضلة خُمار، وعلى وجهه غبرة كأن الماء لم يمسه أبداً، أقوى شئ فيه لسانه في السباب، وصوته في النزاع.

ليس لفتح دكانه أو إغلاقه موعد ولا لعمله وراحته وقت محدد، يحلو له أحياناً أن يغلقه في الصباح ويفتحه في الظهر إذا بدأ الناس يقيلون، وأحياناً يسره أن يتركه مغلقاً طوال النهار ويفتحه ليلاً حيث يبدأ الناس في النوم، فيضئ مصباحه ويخرج عدده وأدواته في الشارع، ويأخذ في نجارته ما حلا له ذلك، فحيناً إلى الفجر، وحيناً إلى الصباح، تحاول أن تصده عن ذلك وتنصحه فيظهر الطاعة ثم يستمر في خطته؛ وأحياناً تنقلب دكانه في الليل حلبة الكميت، يتنادمون ويتشاربون حتى إذا تمشت الخمر في مفاصلهم، ودبت في عظامهم، ذهبت بهم كل مذهب، وأخذت منهم كل مأخذ. فتغنوا أحياناً، فوقع الغناء في نفوسهم أحسن موقع، وصاحوا جميعاً بصوت واحد: آه! ممدودة ما طاوعتهم أنفاسهم - وأحياناً يعدلون عن الغناء إلى تبادل النكات، ويعقبون كل نكتة بضحكة عالية تسر نفوسهم وتخرق آذان جيرانهم.

وإذا فتح الدكان نهاراً فمعرض غريب، لا لجودة المصنوعات ولا دقة المعروضات، ولكن لأصحاب الحاجات قد أتوا يطالبون بإنجاز أعمالهم، والشكوى من تأخير طلباتهم، ثم يصل الأمر في أغلب الأحيان إلى تدخل البوليس، وأحياناً يكون ما هو أدهى وأمر، إذ يكون قد سلم إليه صاحب حاجة دولابه أو كرسيه لإصلاحه فلم يجد دولابه ولا كرسيه، لأن الأسطى حسن اضطرته الحاجة الملحة فباعه وأضاع ثمنه.

وهكذا أصبح شارعنا بحمد الله معرضاً في النهار للسباب والمشاكل والخصومات والبوليس، ومنتدى جميلاً ليلاً لأهل السماح الملاح، إلى الصباح.

وأخيراً عدت من عملي يوماً فرأيت الزحام شديداً على دكان الأسطى حسن، وإذا جلبة وضوضاء، وصياح يملأ الآذان؛ وإذا المنادي ينادي لبيع عدد النجارة وأدواتها:

منشار في حالة جيدة!

عشرة قروش - أحد عشر - إثنا عشر

ألاوونا - ألادو - ألاتريه

وهكذا حتى تم بيع كل ما في الدكان وفاءاً لكرائها خمسة شهور تأخرت على الأسطى حسن. وكان شعوري إذ ذاك مزيجاً من غبطة وألم، وحزن وفرح فقد آلمتني خاتمته، وأفرحني ما منيت به نفسي بعد ذلك من نوم هادئ سعيد.

ودعوت ربي جاهداً ألا يرغب في الدكان مستأجراً بعد، فإن كان ولابد فكواء أو عطار،

لا نجار ولا بائع فراخ ولا مبيض نحاس، وقصرت شكواي على الله بعد أن جربت البوليس فوجدته لا يأبه لهذه السفاسف وليس له من الزمن، ما يلفته لهذه الصغائر.
ولكن أبى القدر أن يستجيب دعوتي - وكأن الدكان وقف على سكنى النجارين - فقد سكنها أيضاً هذه المرة نجار، ولكنه من صنف آخر - هو نجار رومي، لم أشعر بسكناه إلا بعد شهر، لأنه لم يكن في عمله شئ غير عادي، فهو يفتح دكانه وقت العمل ويغلقها عند الغروب، وينجر فتندمج أصوات دقاته ونجارته في أصوات البائعين وحركات المارين وأصوات السيارات.
دعوته يوماً لإصلاح دولاب، فإذا شاب يشترك مع الأسطى حسن في سنه، ويختلف عنه في كل شئ آخر، جميل الهندام وإن لم يكن ثمينه، صفف شعره في أناقة ولمعان بينما اعتنى الأسطى حسن (بقصته) فقط - عمل عمله في هدوء وإتقان، وكأنه يحترم نفسه ويحترم عمله، ويقدر نوع معيشته وما يلزم لها، فطلب ضعف ما كان يطلبه زميله فدفعته راضياً.
له في جوارنا ستة أشهر أو تزيد لم أسمع صوته، ولم أسمع شاكياً من تأخر موعد أو تصرف سيئ. ولم يقلق راحتي كما أقلقها من كان قبله، فهو وإن لم يكن كواء أو عطاراً كالذي رجوت فليس شراً منهما، وتبين بعد أن الأمر ليس نوع الصناعة، وإنما هو نوع
الصانع.
ونزلت بيتاً في ضاحية من ضواحي الإسكندرية، فرأيت (فيلا) جميلة على شاطئ البحر، لا يسكن مثلها - عادة - إلا من ورمت جيوبهم، وانتفخت محافظهم، راديو، وبيانو، وما شئت من أسباب النعيم ورفاهة العيش؛ ولكن لفت نظري رجل يلبس قباء، ويحزم وسطه بحزام، وعليه جاكتة بسيطة نظيفة، قد أرخى لحيته، ودفع طربوشه إلى الوراء، يحمل أقمشة على كتفه يكاد ينوء بحملها، وهو من الصنف اليهودي الذي نراه يجول في الشارع كل يوم يبيع (الدمور) و (الزفير) و (الباتستا). حيرني أمر هذه (الفيلا) بجمالها ونظافتها، وأمر هذا الرجل، يخرج صباحاً يحمل سلعته على كتفه وقد هزلت؛ أمستأجر هذا الرجل حجرة صغيرة في البيت، أم قريب فقير لأصحابه عطفوا عليه وآووه واحتملوا منه أن يعيش بينهم وينزل في مسكنهم؟ وفي الحق كان هذا لغزاً شغلني شرحه، وأعياني حله؛ ثم هدتني المصادفة البحتة إلى اكتشاف الأمر وافتضاح السر: هو رب البيت! وهو عميد الأسرة، وليس فيها إلا زوجه وأولاده، ولكن كلهم يعمل، وكلهم يكسب: هذه خياطة، وإحدى بناتها معلمة بيانو، وهذا ابنه كهربائي، وهذا الآخر يعمل في مصلحة التلغراف، وكل كاسب يعطي ما كسب لأبيه، ويجمعون من ذلك ما يجمعه موظف وسط أو فوق الوسط، ثم هم جميعاً يعلمون كيف يعيشون، وكيف ينعمون بالعيش بأقل مصرف، ويعلمون ما ينفقون وما يدخرون.
قارنت بين هذا الرجل ورجل مصري آخر كان يجول أمام بيتنا أيضاً، يحمل سلعة كسلعة اليهودي، وينادي على (حرير المحلة)، وتصورته وبؤسه، وتصورت أسرته وبؤسها، وكيف يتحد العملان، وتتباين المعيشتان.
ثم نسمع الشكوى الحارة من العمال العاطلين، والمتعلمين العاطلين، ونسمع من يرجع العلة إلى تفشي الأمية حيناً، وإلى نوع الدراسة حيناً، وإلى غير ذلك من أسباب، وليس في نظري سبب أهم من نقص الأخلاق؛ ولست أعني أخلاق العمل، من معرفة طرق الكسب، وإجادة العمل، وحسن العرض، وعدم الأنفة من مزاولة الحرفة مهما حقرت، وضبط الدخل والخرج، وفوق ذلك كله العلم بفن الحياة.
احمد أمين
القبلة الأولى. .!
هي البريد الذي حمل عني رسالة حبك، والإخلاص لك، فأداها في أمانة وطهر. .
هي الوحي الذي هبط بالألفة، وارتفع بالكلفة. .
هي الرسول الذي بلّغك ذوب عاطفتي في صدق وفطانة. .
هي طابع الوفاء ختمتُ به على يغرك الزاهي الجميل. .
هي اعتراف بالمحبة أبرقتُ به إلى قلبك من أخصر طريق. .
هي تذكار الصفاء سجّلته على لطف شفتيك. .
هي برهان الولاء استخلصته من سحر عينيك. .

. .هي التصريح الصامت لما يكنه القلب من لوعة وهيام
. .هي الضغطة الرفيقة التي تذكي في النفس الحب والغرام
. .هي السلسبيل الصافي الذي يندّى لها المدنف الولهان
. .هي النسمة الوادعة اللينة التي تطيف بالنفوس فتنتعش
. .هي الأرج الذاكي الذي تمتلئ به الصدور فتنشرح
. .هي الرحيق المختوم، والوردة النضرة، والزهرة المتفتحة
هي الجمال كله. يعلن عن نفسه في خفوت وهمس يزيدانه روعة ورهبة. ويملآنه إجلالاً وهيبة. .

كمال الدين حسين

مدرس

أحلام في الشارع

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

على عتبة (البنك) نام الغلام وأخته يفترشان الرخام البارد، ويلتحفان جواً رخامياً في برده وصلابته على جسميهما.

الطفل متكبكب في ثوبه كأنه جسم قُطّع وركمت أعضاؤه بعضها على بعض، وسجّيت بثوب ورمي الرأس من فوقها فمال على خده.

والفتاة كأنها من الهزال رسم مخطط لامرأة، بدأها المصور ثم أغفلها إذ لم تعجبه. كتب الفقر عليها للأعين ما يكتب الذبول على الزهرة: أنها صارت قشاً. . .

نائمة في صورة ميتة، أو كميتة في صورة نائمة؛ وقد انسكب ضوء القمر على وجهها وبقي وجه أخيها في الظل؛ كأن في السماء ملكاً وجه إليها المصباح وحدها إذ عرف أن الطفل ليس في وجهه علامة همّ، وأن في وجهها هي كل همها وهم أخيها.

من أجل أنها أنثى قد خلقت لتلد، خلق لها قلب يحمل الهموم ويلدها ويربيها.

من أجل أنها أعدت للأمومة، تتألم دائماً في الحياة آلاماً فيها معنى انفجار الدم.

من أجل أنها هي التي تزيد الوجود، يزيد هذا الوجود دائماً في أحزانها.

وإذا كانت بطبيعتها تقاسي الألم لا يطاق حين تلد فرحها، فكيف بها في الحزن . . .!

وكان رأس الطفل إلى صدر أخته وقد نام مطمئناً إلى هذا الوجود النسويّ الذي لابد منه لكل طفل مثله مادام الطفل إذا خرج من بطن أمه خرج إلى الدنيا وإلى صدرها معاً.

ونامت هي ورأسها مرسلة على أخيها كيد الأم على طفلها. يا إلهي! نامت ويدها مستيقظة!

أهما طفلان؟ أم كلاهما تمثال للإنسانية التي شقيت بالسعداء فعوّضها الله من رحمته ألا تجد شقياً مثلها إلا تضاعفت سعادتها به؟

تمثالان يصوران كيف يسري قلب أحد الحبيبين في الجسم الآخر فيجعل له وجوداً فوق الدنيا، لا تصل الدنيا إليه بفقرها وغناها، ولا سعادتها وشقائها، لأنه وجود الحب لا وجود العمر؛ وجود سحري ليس فيه معنى للكلمات فلا فرق بين المال والتراب، والأمير والصعلوك؛ إذ اللغة هناك إحساس الدم، وإذ المعنى ليس في أشياء المادة ولكن في أشياء الإرادة.

وهل تحيا الألفاظ مع الموت، فيكون بعده للمال معنى وللتراب معنى؟. . . هي كذلك في الحب الذي يفعل شبيهاً بما يفعله الموت في نقله الحياة إلى عالم آخر، بيد أن أحد العالَمين وراء الدنيا، والآخر وراء النفس.

تحت يد الأخت الممدودة ينام الطفل المسكين، ومن شعوره بهذه اليد خفّ ثقل الدنيا على قلبه.

لم يبال أن نبذه العالم كله، مادام يجد في أخته عالم قلبه الصغير. وكأنه فرخ من فراخ الطير في عشه المعلق، وقد جمع لحمه الغض الأحمر تحت جناح أمه، فأحس أهنأ السعادة حين ضيّق في نفسه الكون العظيم وجعله وجوداً من الريش.

وكذلك يسعد كل من يملك قوة تغيير الحقائق وتبديلها، وفي هذا تفعل الطفولة في نشأة عمرها ما لا تفعل بعضه معجزات الفلسفة العليا في جملة أعمار الفلاسفة.

وما صنع الذين جنّوا بالذهب، ولا الذين فتنوا بالسلطة، ولا الذين هلكوا بالحب، ولا الذين تحطموا بالشهوات - إلا أنهم حاولوا عبثاً أن يرْشوا رحمة الله لتعطيهم في

الذهب والسلطة والحب والشهوات ما نوّلته هذا الطفل المسكين النائم في أشعة الكواكب تحت ذراع كوكب روحه الأرضي.
ألا إن أعظم الملوك لن يستطيع بكل ملكه أن يشتري الطريقة الهنيئة التي ينبض بها الساعة قلب هذا الطفل.
وقفت أشهد الطفلين وأنا مستيقن أن حولهما ملائكة تصعد وملائكة تنزل، وقلت هذا موضع من مواضع الرحمة، فإن الله مع المنكسرة قلوبهم، ولعلي أن أتعرض لنفحة من نفحاتها، ولعل ملكاً كريماً يقول: وهذا بائس آخر. فيرفّني بجناحه رفّة ما أحوج نفسي إليها، تجد بها في الأرض لمسة من ذلك النور المتلألئ فوق الشمس والقمر.
وظهر لي بناء (البنك) في ظلمة الليل من مرأى الغلامين - أسود كالحاً، كأنه سجن أقفل على شيطان يمسكه إلى الصبح، ثم يفتح له لينطلق معمّراً، أي مخرباً. . . أو هو جسم جبار كفر بالله وبالإنسانية ولم يؤمن إلا بنفسه وحظوظ نفسه فمسخه الله بناءً، وأحاطه من هذا الظلام الأسود بمعاني آثامه وكفره.
يا عجباً! بطنان جائعان في أطمار بالية يبيتان على الطّوى والهمّ، ثم لا يكون وسادهما إلا
عتبة البنك! ترى من الذي لعن (البنك) بهذه اللعنة الحية؟ ومن الذي وضع هذين القلبين الفارغين موضعهما ذلك ليثبت للناس أن ليس البنك خزائن حديدية يملؤها الذهب، ولكنه خزائن قلبية يملؤها الحب. .؟
وقفت أرى الطفلين رؤية فكر ورؤية شعر معاً، فإذا الفكر والشعر يمتدان بيني وبين أحلامهما، ودخلت في نفسين مضّهما الهم واشتد عليهما الفقر، وما من شئ في الحياة إلا كادّهما وعاسرهما؛ ونمت نومتي الشعرية. . .
قال الطفل لأخته: هلمي فلنذهب من هنا فنقف على باب (السيما) نتفرج مما بنا، فنرى أولاد الأغنياء الذين لهم أب وأم.
انظري هاهم أولاء يُرى عليهم أثر الغنى، وتعرف فيهم روح النعمة؛ وقد شبعوا. . . إنهم يلبسون لحماً على عظامهم، أما نحن فنلبس على عظامنا جلداً كجلد الحذاء؛ إنهم أولاد أهليهم، أما نحن فأولاد الأرض؛ هم أطفال، ونحن حطب إنساني يابس؛ يعيشون في الحياة ثم يموتون، أما نحن فعيشنا هو سكرات الموت، إلى أن نموت؛ لهم عيش وموت، ولنا الموت مكرراً.
ويلي على ذلك الطفل الأبيض السمين، الحسن البزّة، الأنيق الشارة، ذاك الذي يأكل الحلوى أكل لص قد سرق طعاماً فأسرع يحدر في جوفه ما سرق؛ هو الغنى الذي جعله يبتلع بهذه الشراهة كأنما يشرب ما يأكل، أو له حلق غير الحلوق، ونحن - إذا أكلنا - نغصّ بالخبز لا أُدْمَ معه، وإذا ارتفعنا عن هذه الحالة لم نجد إلا البشيع من الطعام وأصبناه عِفناً أو فاسداً لا يسوغ في الحلق، فإذا انخفضنا فليس إلا ما نتقمم من قشور الأرض ومن حُتات الخبز كالدواب والكلاب؛ وإن لم نجد ومسّنا العُدم وقفنا نتحيّن طعام قوم في دار أو نُزُل فنراهم يأكلون فنأكل معهم بأعيننا، ولا نطمع أن نستطعمهم وإلا أطعمونا ضرباً فنكون قد جئناهم بألم واحد فردّونا بألمين، ونفقد بالضرب ما كان يمسك رمقنا من الاحتمال والصبر.
هؤلاء الأطفال يتضورون شهوة كلما أكلوا فيعودوا ليأكلوا، ونحن نتضور جوعاً ولا نأكل، لنعود فنجوع ولا نأكل، وهم بين سمع أهليهم وبصرهم؛ ما من أنّة إلا وقعت في قلب، وما من كلمة إلا وجدت إجابة؛ ونحن بين سمع الشوارع وبصرها، أنين ضائع، ودموع غير مرحومة!
آه لو كبرت فصرت رجلاً طويلاً عريضاً! أتدرين ماذا أصنع؟
- ماذا تصنع يا احمد؟
- إنني أخنق بيديّ كل هؤلاء الأطفال!
- سَوأة لك يا احمد، كل طفل من هؤلاء له أم مثل أمنا التي ماتت، وله أخت مثلي؛ فما عسى ينزل بي لو ثكلتك إذا خنقك رجل طويل عريض؟
- لا، لا أخنقهم؛ بل سأرضيهم من نفسي؛ أنا أريد أن أصير رجلاً مثل (المدير) الذي رأيناه في سيارته اليوم على حال من السطوة تعلن أنه مدير. . . أتدرين ماذا أصنع؟
- ماذا تصنع يا احمد؟
- أرأيت عربة الإسعاف التي جاءت عند الظهر فانقلبت نعشاً للرجل الهرم المحطم

الذي أغمي عليه في الطريق.؟ سمعتهم يقولون: إن المدير هو الذي أمر باتخاذ هذه العربة، ولكنه رجل غُفل لم يتعلم من الحياة مثلنا، ولم تحكِمه تجارب الدنيا فالذي يموت بالفجاءة أو غيرها لا يحييه المدير ولا غير المدير، والذي يقع في الطريق يجد من الناس من يبتدرونه لنجدته وإسعافه بقلوب إنسانية رحيمة، لا بقلب سواق عربة ينتظر المصيبة على إنها رزق وعيش.

إن عربات الإسعاف هذه يجب أن يكون فيها أكل. . ويجب أن تحمل أمثالنا من الطرق والشوارع إلى البيوت والمدارس؛ وإن لم يكن للطفل أم تطعمه وتؤويه فلتصنع له أم.

كل شئ أراه لا أراه إلا على الغلط، كأن الدنيا منقلبة أو مدبرة أدبارها، وما قطّ رأيت الأمور في بلادنا جارية على مجاريها؛ فهؤلاء الحكام لا ينبغي أن يكونوا إلا من أولاد صالحي الفقراء، ليحكموا بقانون الفقر والرحمة، لا بقانون الغنى والقسوة، وليتقحموا الأمور العظيمة المشتبهة بنفوس عظيمة صريحة قد نبتت على صلابة وبأس، وخلق ودين ورحمة؛ فإنه لا ينهزم في معركة الحوادث إلا روح النعمة في أهل النعمة، وأخلاق اللين في أهل اللين؛ وبهؤلاء لم يبرح الشرق من هزيمة سياسية في كل حادثة سياسية.

إن للحكم لحماً ودماً هو لحم الحاكم ودمه؛ فإن كان صلباً خشناً فيه روح الأرض وروح السماء فذاك، وإلا قتل اللين والترف الحكم والحاكم جميعاً. وهؤلاء الحكام من أولاد الأغنياء لا يكون لهم هم إلا أن يرفعوا من شأن أنفسهم، إذ السلطة درجة فوق الغنى، ومن

نال هذه استشرف لتلك، فإذا جمعوهما كان منهما الخلق الظالم الذي يصور لهم الاعتداء قوة وسطوة وعلوّاً، من حيث عدموا الخلق الرحيم الذي يصور لهم هذه القوة ضعفاً وجبناً ونذالة. إن أحدهم إذا حكم وتسلط أراد أن يضرب، ثم لم تكن ضربته الأولى إلا في المبدأ الاجتماعي للأمة، أو في الأصل الأدبي للإنسانية. ويحرصون على ما به تمامهم، أي على السلطة، أي على الحكم؛ فيحملهم ذلك على أن يتكلفوا للحرص أخلاقه، وأن يجمعوا في أنفسهم أسبابه؛ من المداراة والمصانعة والمهاونة، نازلاً فنازلاً إلى درك بعيد، فينشرون أسوأ الأخلاق بقوة القانون ماداموا هم القوة.

- وماذا تريد أن يصنع أولاد الأغنياء يا احمد؟

- أما أولاد الأغنياء فيجب أن يباشروا الصناعة والتجارة ليجدوا عملاً شريفاً يصيبون منه رزقهم بأيديهم لا بأيدي آبائهم، فإنه والله لولا العمى الاجتماعي لما كان فرق بين ابن أمير متبطّل في أملاك أبيه من القصور والضياع وابن فقير متبطل في أملاك المجلس البلدي من الأزقة والشوارع. . .

وابن الأمير إذا كان نجاراً أو حداداً أصلح السوق والشارع بأخلاقه الطيبة اللينة، وتعففه وكرمه، فيتعلم سواد الناس منه الأمانة والصدق، إذ هو لا يكذب ولا يسرق مادام فوق الاضطرار، ولا كذلك ابن الفقير الذي يضطره العيش أن يكون تاجراً أو صانعاً فتكون حرفته التجارة، وهي السرقة، أو الصناعة وهي الغش، ويكون في الناس أكثر عمره مادة كذب وإثم ولصوصية.

آه لو صرت مديراً! أتدرين ماذا أصنع؟

- ماذا تصنع يا احمد؟

- أعمد إلى الأغنياء فأردهم بالقوة إلى الإنسانية، وأحملهم عليها حملاً، وأصلح فيهم صفاتها التي أفسدها الترف واللين والنعمة، ثم أصلح ما أخل به الفقر من صفات الإنسانية بالفقراء، وأحملهم على ذلك حملاً، فيستوي هؤلاء وهؤلاء، ويتقاربون على أصل في الدم إن لم يلده آباؤهم ولده القانون. ألا إن سقوط أمتنا هذه لم يأت إلا من تعادي الصفات الإنسانية في أفرادها، فتقطّع ما بينهم، فهم أعداء في وطنهم، وإن كان اسمهم أهل وطنهم.

ومتى أحكمت الصفات الإنسانية في الأمة كلها ودانى بعضها بعضاً - صار قانون كل فرد

كلمتين، لا كلمة واحدة كما هو الآن. القانون الآن (حقي) ونحن نريد أن يكون (حقي وواجبي) وما أهلك الفقراء بالأغنياء، ولا الأغنياء بالفقراء ولا المحكومين بالحكام إلا قانون الكلمة الواحدة.

أنا احمد المدير. . لست المدير بما في نفس احمد، ولا بمعدته وبطنه، ولا بما يريد

احمد لنفسه وأولاده. . . كلا، أنا عمل اجتماعي منظم يحكم أعمال الناس بالعدل، أنا خلق ثابت يوجه أخلاقهم بالقوة، أنا الحياة الأم مع الحياة الأطفال الأخوة في هذا البيت الذي يسمى الوطن، أنا الرحمة، عندي الجنة ولكن عندي جهنم أيضاً مادام في الناس من يعصي، أنا بكل ذلك لست احمد، لكني الإصلاح.

هأنذا قد صرت مديراً أعسّ في الطريق بالليل وأتفقد الناس ونوائبهم.

من أرى؟ هذا طفل وأخته نائمان على عتبة البنك في حياة كأهدامهما المرقعة، في دنيا تمزقت عليهما، قم يا بني، لا تُرَع إنما أنا كأبيك، تقول اسمك احمد، واسم أختك أمينة؟

تقول: إنك ما نمت من الجوع، ولكن مضمضت عينك بشعاع النوم؟

يا ولديّ المسكينين بأي ذنب من ذنوبكما دقتكما الأيام دقاً وطحنتكما طحناً، وبأي فضيلة من الفضائل يكون ابن فلان باشا وبنت فلان باشا في هذا العيش اللين يختاران منه ويتأنقان فيه، ما الذي ضر الوطن منكما فتموتا، وما الذي نفع الوطن منهما فيعيشا؟

إن كنت يا بني لا تملك لنفسك الانتصار من هذه الظليمة فأنا أملكها لك، وإنما أنا المظلوم إلى أن تنتصر، وإنما أنا الضعيف إلى أن آخذ لك الحق.

إليّ بابن فلان باشا وبنت فلان باشا.

. . .يا هذا عليك أخاك احمد ولتكن به حفياً، ويا هذه عليك أختك الآنسة أمينة أتأبيان، أنفرةً من الإنسانية، وتمرداً على الفضيلة، أحقاً بلا واجب، دائماً قانون الكلمة الواحدة!؟ خلقتما أبيضين سخرية من القدر وأنتما في النفس أحبوشة الزنج ومناكيد العبيد.

. . . .ورفع احمد يده

وكان الشرطي الذي يقوم على هذا الشارع، وإليه حراسة البنك قد توسنهما ودخلته الريبة، فانتهى إليهما في تلك اللحظة وقبل أن تنزل يد سعادة المدير بالصفعة على وجه ابن الباشا وبنت الباشا كان هذا الشرطي قد ركله برجله فوثب قائماً واجتذب أخته وانطلقا عَدْو الخيل

منم ألهوب السوط.

. .وتمجدت الفضيلة كعادتها. .!. . أن مسكيناً حلم بها

مصطفى صادق الرافعي

أدب الرواة المسلمين

فن في الأدب العربي يحتفظ بقيمته وجدته

للأستاذ محمد عبد الله عنان

فن من فنون الأدب العربي لم تذهب الأيام بجدته؛ ولا يزال تراثه رغم كر الزمن يحتفظ بقيمته الفنية فضلاً عن قيمته التاريخية؛ ذلك هو فن السياحة والمشاهدة. ففي الأدب الغربي، القديم والحديث، تتبوأ كتب السياحة والمشاهدة مكانة رفيعة، سواء كانت لمكتشف يرود مجاهل القارات ثم يسجل اكتشافاته، أو لكاتب يجوب البلاد بقصد الدرس والمشاهدة ويدون ملاحظاته ومشاعره. وقد كانت كتب السياحة قبل قرنين أو ثلاثة تعتبر دائماً بالنسبة للمجتمعات التي كتبت لها كتب استكشاف تلقي أضواء جديدة على أحوال المجتمعات التي كتبت عنها؛ فلما تقدمت المواصلات وتقاربت الشعوب، وكثر تعارفها، وتوثقت بينها الصلات العلمية والأدبية، لم يبق للسائح المتجول ما يكتشفه من أحوال الشعوب المتمدنة أو التي تأخذ بقسط من الحضارة، إلا ما يمليه عليه الدرس الخاص لأحوال هذه الشعوب، وأصبحت كتب الاستكشاف وقفاً على رواد المجاهل والعلماء الذين يجوبون معهم مجاهل البحار أو اليابسة ليكشفوا جديداً من الآثار أو الأنواع. وكتب الفريق الأول يغلب عليها الطابع الأدبي، وأما كتب الرواد الفنيين فيغلب عليها الطابع العلمي.

وقد عرف الأدب العربي فن السياحة والمشاهدة في عصر مبكر جداً. فمنذ القرن الثالث نرى الجغرافيين العرب يطوفون أرجاء العالم المعروف يومئذ للوقوف على أحوال البلدان والأقاليم المختلفة وخواصها ويدونون مشاهداتهم في كتب لا زالت حجة عصرها. ومن أعظم هؤلاء الجغرافيين الرحل، اليعقوبي الذي طاف العالم الإسلامي من السند إلى الأندلس وتجول في جميع بلاد فارس والجزيرة ومصر والمغرب

والأندلس في النصف الأخير من القرن الثالث الهجري، ووضع كتابه الجامع (البلدان)، والمسعودي المؤرخ والجغرافي الذي طاف أنحاء العالم الإسلامي شرقاً حتى الهند والصين وجزائر الهند الشرقية، واخترق المحيط الهندي حتى شواطئ أفريقية الشرقية وجزيرة مدغشقر، وشهد عجائب هذه الآفاق، ودونها في كتبه ولاسيما مروج الذهب والتنبيه والإشراف، وذلك في أوائل القرن الرابع الهجري. بيد أننا لا نريد أن نتحدث هنا عن هؤلاء العلماء

والجغرافيين، وإنما نتحدث بالأخص عن طائفة من الرحل والمكتشفين المسلمين الذين تصور آثارهم أحوال البلاد والمجتمعات التي شهدوها، وتعتبر من الوجهة الفنية آثاراً وصفية اجتماعية قبل أن تعتبر آثاراً جغرافية. ولدينا في الواقع ثبت حافل من أولئك الرواد المشغوفين بالسياحة ودراسة أحوال الأمم، ولدينا كثير من آثارهم التي ما زالت تعتبر رغم قدمها نماذج حسنة لهذا النوع من الأدب المفيد الشائق معاً. وما نذكره منهم ومن آثارهم في هذا الفصل، نذكره على سبيل التمثيل، لا على سبيل الحصر؛ وإنما نلاحظ أن الذين عرفوا منهم وعرفت آثارهم هم أقلية صغيرة بالنسبة إلى أولئك الذين لم تصل إلينا آثارهم أو التي انتهت آثارهم إلينا، ولكنها ما زالت مخطوطات منسية في ظلمات المكاتب العامة والخاصة.

ومن أقدم أولئك الرواد الوصفيين الذين انتهت آثارهم إلينا أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي الذي أنفق نحو ثلاثين عاماً في الطواف بالأمم الإسلامية من بغداد إلى الأندلس، يدرس أحوالها وخواصها وأحوال شعوبها ومجتمعاتها، وذلك في النصف الأول من القرن الرابع الهجري (القرن العاشر الميلادي). وقد دون ابن حوقل رحلته ومشاهداته في كتاب أسماه (المسالك والممالك)، وهو أثر يجمع بين الناحية الجغرافية والناحية الوصفية. بيد أنه يعنى بالمشاهدات الوصفية عناية خاصة، وفيه يدون ابن حوقل خلال أخبار رحلته أحوال الأمم التي مر بها وما شاهده فيها من المناظر والمعاهد والآثار والخواص التي تستحق الذكر. وقد مرّ ابن حوقل خلال رحلته بمصر، في أواخر الدولة الأخشيدية، وخصص لمشاهداته فيها فصلاً طويلاً يصف فيه مصر الفسطاط ومعاهدها والنيل ومجراه، وكثيراً من أحوال المجتمع المصري يومئذ.

وأسلوبه يجمع بين الطابعين العلمي والأدبي. ولدينا في القرن السادس رحالتان شهيران أحدهما يجوب العالم المعروف يومئذ من المشرق إلى المغرب، والآخر يجوبه من المغرب إلى المشرق، والأول هو أبو الحسن علي بن أبي بكر المعروف بالسائح الهروي، نسبة إلى هراة بلدة أسرته. وقد ولع أبو الحسن بالأسفار منذ حداثته، وخرج من الموصل مسقط رأسه يجوب أنحاء العالم لغير قصد سوى التفرج والاستكشاف، وذلك نحو سنة 568هـ (1173م)، وأنفق زهاء ربع قرن في رحلته، فطاف أرجاء الشام وفلسطين ومصر، وقبرص وغرب الأناضول وزار قسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية، واخترق البحر الأبيض وتجول في جزائره حتى صقلية؛ ولم يترك، على قول ابن خلكان (براً ولا بحراً ولا سهلاً ولا جبلاً من الأماكن التي يمكن قصدها ورؤيتها إلا رآه، ولم يصل إلى موضع إلا كتب خطه في حائطه). واشتهر ذلك في الآفاق كلها، وهو الوحيد الذي تلقبه الرواية الإسلامية (بالسائح) وأسره الفرنج والقرصان مراراً، وضاعت كتبه ومذكراته، كما يخبرنا بذلك كتابه الذي انتهى إلينا، وهو سفر صغير عنوانه (الإشارات إلى معرفة الزيارات) وفيه يقص باختصار سير رحلته، وما شاهده من الأماكن والمعاهد، دون وصف ولا إسهاب. وفي أواخر القرن السادس استقر أبو الحسن في حلب بعد طول التجوال، ونال حظوة لدى أميرها وتوفي سنة 611هـ (1214م) ودفن بتربة أعدها لنفسه، وكتب عليها حسب وصيته ومن إنشائه تلك الكلمات المؤثرة: (هذه تربة العبد الغريب الوحيد علي بن أبي بكر الهروي، عاش غريباً، ومات وحيداً، لا صديقاً يرثيه، ولا خليلاً يبكيه، ولا أهطل يزورونه، ولا إخوان يقصدونه، ولا ولد يطلبه، ولا زوجة تندبه؛ آنس الله وحدته، ورحم غربته).

وأما الثاني فهو أبو الحسين محمد بن احمد بن جبير الأندلسي. رحل من الأندلس شرقاً إلى أفريقية ومصر والشام والحجاز. وكان رحالة بطبيعته قوي الملاحظة والوصف. رحل من غرناطة إلى المشرق ثلاث مرات، الأولى سنة 578هـ والثانية سنة 585هـ، والثالثة في أواخر القرن السادس، وقطع البحر الأبيض مراراً، وطاف بمعظم جزائره وثغوره الجنوبية والشرقية، وتجول في بلاد مصر والشام والحجاز، وقاسى في

أثناء تجواله كثيراً من الشدائد، وأشرف مراراً على الهلاك في البحر، واستقر أخيراً بالإسكندرية وتوفي بها سنة 614هـ (1217م) ودون أخبار رحلاته في سفر كبير ممتع يسميه (تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار). وفيه يدون مشاهداته في الأمم والبلاد التي زارها؛ ويقص حوادث أسفاره مفصلة بالتواريخ في نوع من (المذكرات)؛ وهو أثر شائق الأسلوب والوصف يعتبر نموذجاً بديعاً لأدب الرواد.

ونستطيع أن نذكر من الرواد المسلمين في هذا العصر أيضاً، عبد اللطيف البغدادي الطبيب العلامة الذي وفد على مصر في أواخر القرن السادس الهجري، وطاف بعد ذلك فلسطين والشام وبلاد الروم الأناضول يدرس أحوالها ومجتمعاتها. وقد دون عبد اللطيف مشاهداته

في مصر في كتاب كبير لم يصل إلينا، ولكن وصلت إلينا منه عدة فصول اختارها عبد اللطيف وسماها كتاب (الإفادة والاعتبار) وهي فصول قوية بديعة عن أحوال مصر وخواصها الطبيعية والاجتماعية، يغلب عليها الأسلوب العلمي الذي يمتاز به مؤلفها.

على أن أعظم الرواد المسلمين هو أبو عبد الله محمد ابن عبد الله الطنجي الشهير بابن بطوطة. ولم يكن ابن بطوطة رحالة عظيماً فقط يجوب أنحاء العالم المعروف يومئذ، بل كان أيضاً مكتشفاً عظيماً يقصد إلى مجاهل البر والبحر. وكتابه (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) وهو المعروف برحلة ابن بطوطة أجمل وأنفس أثر عربي في هذا النوع من الأدب. وقد خرج ابن بطوطة من طنجة مسقط رأسه في سنة 725هـ (1325م) يجوب أقطار العالم، واخترق بلاد المغرب ومصر والشام وبلاد العرب وبلاد الروم وقسطنطينية، وفارس وخراسان وتركستان والهند وسيلان والصين وجزائر الهند الشرقية؛ واخترق في عوده قلب أفريقية من السودان إلى بلاد النيجر؛ ووقف على كثير من مجاهل بعض الأقطار والأمم التي لم تكن معروفة يومئذ تمام المعرفة؛ ووصل إلى أعالي نهر النيجر وإلى تمبكتو وسكوتو قبل أن يصل إليها الرواد الأوربيون ويكتشفها الرحالة الإنجليزي منجوبارك بعد ذلك بنحو ثلاثة قرون. وسلخ في رحلاته نحو ربع قرن؛ وترك لنا عن أسفاره واكتشافاته ومشاهداته ذلك الأثر الذي يعتبر بحق من أبدع آثار السياحة والاكتشاف.

وقد لبث أدب الرواد متصلاً في العربية حتى العصر الحديث؛ فنجد المقري مؤرخ الأندلس - مثلاً - يصف لنا فاتحة (نفح الطيب) رحلته البحرية من المغرب إلى المشرق في أسلوب رائع؛ ونجد العلامة الصوفي عبد الغني النابلسي يجوب بلاد الشام ومصر والحجاز، وذلك سنة 1105هـ (1694م)، ويترك لنا عن أسفاره ومشاهداته أثراً نفيساً هو كتاب (الحقيقة والمجاز) الذي تحتفظ دار الكتب بنسخة خطية منه.

ومما تقدم نرى أن أدب السياحة قد بدأ في العربية في عصر مبكر، واستمر على كر العصور. وكثيراً ما قيل إن تراث الأدب العربي أضحى قديماً لا يساير العصر، وأن فنونه قد عفت، وأنه ليس في تعداد فنونه ومناحيه كالأدب الغربي. ولكنا نستطيع أن نقول هنا على الأقل، إن الأدب العربي قد سبق الأدب الغربي في فن السياحة والمشاهدة بعصور

طويلة؛ وهذا مترتب بالطبع على إن الرواد المسلمين كانوا أسبق من الرواد الغربيين إلى التجوال في أنحاء العالم المعروف يومئذ، وإلى ارتياد الكثير من الأنحاء المجهولة. والواقع أن أول رحالة غربي كبير ارتاد أنحاء المشرق وآسيا هو الرحالة الإيطالي مركو بولو؛ وكانت رحلته إلى المشرق في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر؛ هذا بينما يرجع نشاط الرواد المسلمين إلى القرنين الثاني والثالث من الهجرة (القرنين الثامن والتاسع من الميلاد). وأقدم أثر غربي قيم في السياحة هو أثر مركو بولو الذي يصف فيه أحوال الأقطار الأسيوية ولاسيما الشرق الأقصى. وقد كان أول أثر استطاع الغرب أن يقف فيه على عظمة الشرق يومئذ وبذخه وبهائه وروعة حضارته. ولكن الأمم الإسلامية كانت تعرف أقصى الأمم الشرقية ومعظم الأمم الغربية على يد جغرافييها وروادها قبل ذلك بقرون.

على أنه مما يؤسف له أن أدب السياحة في العربية قد انحط في العصر الأخير، كما انحط كثير من فنونها، وأضحى نوعاً من المشاهدات الطائرة تكرر في كل فرصة وفي كل أثر جديد، وتكتب بالأسلوب الصحفي الركيك، وتقف عند الأخبار والمشاهدات السطحية، كوصف السفينة والبحر والشوارع والفنادق والملاهي، بأساليب وعبارات

مملة؛ وقلما يعنى السائح المتفرج بالمشاهدات والدراسات العلمية أو الاقتصادية أو الاجتماعية، ومن الأسف أننا لا نستطيع أن نجد بين كتب السياحة التي أخرجت في العصر الأخير كثيراً من الآثار التي تمتاز بقيمتها الأدبية والفنية.

محمد عبد الله عنان المحامي

حول اقتراح

نقابة للأدباء للشبان

بقلم حنفي غالي

قرأت المقال الشيق الممتع الذي نشرته مجلة الرسالة الغراء لذلك الأديب الكبير مقترحاً فيه تأليف نقابة للأدباء الشبان، تجمع شملهم، وتوحد كلمتهم، ويكون لهم منها قوة ترد عنهم هجمات المعتدين، ودرع يقيهم طعنات الطاعنين؛ فراقني منه ميل خالص للعدل، ورغبة صادقة في الإنصاف، فأحببت أن أقول في هذا الموضوع كلمة صريحة لوجه الحق، غير متأثر من جانبي الشبان أو الشيوخ برغبة أو رهبة.

وكم كنت أود أن يتجه اقتراح الأديب اتجاهاً غير اتجاهه، ويرمي إلى غاية غير غايته، فيدعو إلى تكوين جماعات من الشباب تلتف كل منها حول شيخ أو أكثر من شيوخ الأدب، تفيده وتستفيد منه؛ تفيده بإعلاء ذكره وإظهار فضله وإعانته في عمله، ونستفيد منه بالاستماع لنصائحه والتشرب بروحه والتأدب بأدبه؛ ويكون هذا خيراً من تأليف نقابة تغري بالمصارعة وتغري بالمناجزة، وأليق برجال يجتمعون قاطبة حول عرش الفن، ويتعبدون له ويتقدمون بقرابينهم إليه، لا فارق فيهم بين شاب وشيخ، وخامل ونابه، ومغمور ومشهور. نعم كنت أصبو إلى تلك الأمنية وأتحرق شوقاً إليها؛ ولكنني الآن قد انصرفت عنها وزهدت فيها، فقد هممت بالعمل على تحقيقها وإنفاذها في العام الماضي إجابة لرغبة شيخ من شيوخ الأدب محبب إليّ، عزيز عليّ، فوجدت السبيل إلى ذلك شائكاً وعراً بسبب المعركة التي احتدمت حينئذ بين الأدباء الشبان والشيوخ والتي لا زال جرحها وقتالها يسقطون حتى اليوم، فرغبت في الوقف على أسبابها، وتعرف من أوقد شعلتها الأولى، أهم الشيخ أم الشباب! واستطعت باتصالي بهؤلاء وأولئك أن أستشف روح كل منهما، وأستكنه خبيئة نفسه؛ فعلمت علم اليقين أن التبعة في ذلك إنما يقع أكثرها على الشيوخ، لأنني وجدت في الأدباء الشباب كرماً وتضحية وإن كان فيهم غرور. أما الشيوخ فلست أغالي إذا وصفتهم بعنت الحزازة وصلف الأستاذية - كما يقول الأستاذ صاحب الرسالة - بل بالخروج عن طور الحكمة والرزانة المعروفة عنهم، أو المفروضة فيهم على الأقل؛ ولله ما أعجب تقلبات الأيام!

فقد كان هؤلاء الشيوخ بعينهم ينعون على رجال المدرسة القديمة واستبدادهم وتخطيهم الرقاب بشهرتهم، واستغنائهم عن الإخلاص والصدق ويفخرون بأن مذهبهم الجديد إنما يقوم على أساس من الحجج الناصعة، والبراهين الدامغة؛ ولا يبغي سوى الحرية والحق، وما زالوا يعملون المعاول في المذهب القديم حتى أحالوه صعيداً جرزاً، ولكن ما كادوا ينتصرون ويفرح الشباب بهذا الانتصار وتفيض نفوسهم غبطة وابتهاج له، حتى تبدلت نفوسهم، وتجهمت قلوبهم، وأصبحوا للشباب ألد الأعداء، بعد أن كانوا أخلص الأصدقاء، وأخذوا يضعون اللجم في الأفواه والأصفاد حول الأعضاد، والعقبات في سبيل النفوس الناشئة السائرة على الدرب، وبذلك مثل شيوخ الأدب في مصر وفي القرن العشرين المأساة المبكية المضحكة التي مثلها من قبلهم رجال الثورة الفرنسية حين ثاروا على استبداد البوربون، فقوضوا صرحه، ثم أقاموا مكانه استبداد نابليون، أليس كذلك؟!

رحم الله المدرسة القديمة وطيب ثرى رجالها الأبرار! لقد قال الأستاذ الدكتور طه حسين عن أحدهم وهو المغفور حفني بك ناصف (كنا نستعينه على أن نكون خيراً منه، وكان يعيننا على ذلك راضياً به مبتسماً له راغباً فيه). فأين هذه العلاقة الأبوية العطوفة من علاقة الإذلال والاستعباد التي يريد شيوخ الأدب أن تكون بينهم وبين الشباب؟ هم يخيرون أدباء الشباب بين أمرين أحلاهما مر، أما أن يندمجوا في أشخاصهم ويفنوا فيهم ويسبحوا لهم بكرة وأصيلا وغدواً ورواحاً، وإلا فالويل والثبور لهم أن حدثتهم نفسهم بإبداء رأي حر في كتاب شيخ أو قصيدة، أو يتربصون بهم حتى إذا وقعوا في أيديهم فرائس أثخنوهم طعناً فما يبقون فيهم ذماء من حياة؛ فالموقف الأول مفسد للنفوس مميت للضمائر، والموقف الثاني مثبط للهمم مضعف للعزائم، وكلاهما لا

يرضى الكرامة ولا العدل، وما كان للشباب وهم الذين طالما غسلوا بدمائهم الزكية طريق الحرية أن يقبلوا الابتعاد في الأدب بعد أن أبوه في السياسة.

ولست أرى مبرراً لهذا الموقف الشاذ الغريب من الشيوخ فالمألوف أن الأدباء يختلفون في الرأي ويختصمون في الفن فماذا يخيفهم من نقد الشباب لآثارهم؟ إلا أن الأمر لا يخلو من أحد اثنين: أما أن إنتاج الفني قوي لا مغمز فيه فلا يعقل أن النقد يغض من قدره وينقص من قيمته، أو أنه ضعيف فيكون من حق الفن ألا يدخل في حرمة المقدس. أما دعوى الشيوخ بأنهم وحدهم حراس الفن وأمناء هيكله فهي دعوى مرفوضة شكلاً وموضوعاً، مرفوضة شكلاً لسخافتها الظاهرة وبعدها عن الجد بعد ما بين الأرض والسماء، وهي مرفوضة موضوعاً لأن وسائل النقد هي الذوق والإطلاع وهما متوفران لكثير من أدباء الشباب.

والحق أن من شيوخ الأدب من هو مقدور فوق قدره، ولعل هذا سر فزعه من النقد وجزعه من كل يد تمتد إلى آثاره ولو كانت عاجزة ضعيفة.

على أنني لست أخلي أدباء الشباب من كل تبعة، ففيهم غرور يحمل بعضهم على النزول إلى ميادين لم يعدوا لها العدة ولم يتخذوا الأهبة، ولكن أي ضير على الشيوخ لو قابلوا نزوات الشباب بابتسام الأب البار الحنون الذي يغفر ويتجاوز عن كثير؟

ولقد نشأ عن هذا الموقف الشاذ بين الشيوخ والشبان أن غشى الحياة الأدبية في مصر غشاء من الحقد والرياء في النقد فلا يكاد يظهر مؤلف أدبي حتى يرفعه الأنصار إلى السماء، ويهبط به الخصوم إلى الغبراء بغير حق، فانظر ماذا فعل شيوخ الأدب بديواني الشاعرين المهندس وناجي؛ أوليس فيهما ما يستحق الإعجاب والتقدير؟ بلى، وإني لأترك الكلام هنا للأستاذ المنصف صاحب الرسالة إذ قال: إن ما فيهما من مساوئ هو من ضئال العيوب التي تختفي في بهر الجمال وروعة الصنعة، فالحكم في حياتنا الأدبية الآن للهوى والغرض لا للعقل والعدل، فما علاج هذه الحالة. إنني وإن كنت أرى في تأليف نقابة لأدباء الشباب ما يغري بالصراع والنضال، ولكنني أؤيد الاقتراح كل تأييد على أن يكون الشباب على حسن الظن بهم تسامحاً ونبلاً، فلا يكونوا البادئين بصبغ العيون بلون الدماء - كما يقول الأديب الكبير - فإذا بغى من الشيوخ باغٍ أو عدا عادٍ فليقف منه الشباب موقف المدافع في سبيل إعلاء كلمة الحق، وإقرار العدل في نصابه، ورد الأمور إلى مجراها الطبيعي.

فالنقابة بما تبثه من روح التعاون بين الشباب، وبما تخلقه من قوة الاتحاد في الغاية والغرض، ستزيل كل العقبات المصطنعة من طريقهم، وتبدد هذه السحب التي تراكمت في سماء حياتنا الأدبية، وحبذا لو امتد نشاطها فشمل جميع الأقطار العربية، وضمت بين أعضاءها أدبائها الشبان، فيكونون رسل محبة وسفراء خير.

ولكن النقابة لن تكون جديرة بالتقدير والاحترام، إلا إذا كان وجه الفن قبلتها وغايتها، والإخلاص له قائدها ورائدها، فلا يتقارض أعضاؤها المديح والثناء الزائف، بل يتبادلون النصح والإرشاد الصادق، فإذا مارست سفينة الشباب في هذا السبيل القويم والصراط المستقيم، فلاشك أنها بالغة غايتها منتهية إلى بر السلامة محوطة برعاية الله ملكوءة بعنايته.

قد أمن الله مجراها وأبدلها ... بحسن عاقبة من سوء منقلب

حنفي غالي

حقائق

1 - الأثينيون القدامى والفرنسيون الحديثون يبذون غيرهم من الأمم في شغفهم بجمال الحياة ومباهجها. كما يبذونهم كذلك في رقة الأخلاق وظرف الشمائل.

2 - يقول المثل (لا ألفة بين اللصوص) ومعنى ذلك أن الشر يهدم الصداقة.

3 - إن دراسة الشعر والفصاحة الموسيقى والتصوير وغير ذلك من الفنون الجميلة تبث في الناس روح الدماثة والرقة والإيناس.

4 - إن لتداعي الأفكار تأثيراً عظيماً جداً على العقل والأخلاق، فنرى إن اشغال الذوق توجه العقل إلى مواطن الجمال والسمو. وترد عنه أسباب الضعة والفساد، ذلك إنها تبحث على حب الأولى. والنفور من الثانية بقوة التداعي والترابط.

5 - كما إن الموسيقى تطرب السمع. والألوان البهيجة تفتن العين. كذلك بدائع الذوق

تهذب العقل لذلك نرى أن الموسيقي يؤلمه اختلال الألحان. والفنان يزعجه اضطراب الألوان، والذوق الرقيق تؤذيه شراسة الأخلاق وغلظة الطباع.

ترجمة عامر عبد الوهاب عامر

الموت والخلود

للأستاذ زكي نجيب محمود

أما أحدهما فكان يحب الحياة ويخشى الموت، وأما الآخر ففيلسوف يستصغر شأنها وينفذ ببصره وراء ظواهرها الزائلة إلى حيث الحقيقة الخالدة. جمعت بينهما الأيام على مائدة واحدة فدار بينهما الحديث وتشعبت أطرافه، وما لبث الحوار بينهما طويلاً حتى مس موضع التناقض بينهما. . .

تراسيماكوس - لله ما أعجب الموت! لا يكاد يمس الحي بأطرافه الباردة، حتى تنقلب تلك القوة المفكرة المدبرة الفعالة إلى جمود الصخر، يلقى بها في جوف القبر الصامت، وكأنها بعض تربته، أفتستطيع يا صديقي أن تحدثني حديثاً جلياً واضحاً لا يغمض ولا يلتوي عن قصة هذا الموت العجيب؟ ماذا عساي أن أكون بعد هذا القضاء المحتوم؟

فيلاليش - ستكون كل شئ ولن تكون شيئاً

تراسيماكوس - لم أكن والله أتوقع منك حين طرحت السؤال، إلا عبارة كهذه مبهمة مرنة، أسرفت في المرونة والإبهام حتى وسعت كل معنى، فلم أظفر مما أريد بشىء، وماذا عسى أن أفيد من جواب يتنافر الصدر فيه مع العجز، ويتناقض شطره الأول مع شطره الثاني، فيزيد المشكلة تعقيداً على تعقيد ولا يوضح منها شيئاً؟ ولكنها الفلسفة العقيمة تأبى إلا أن تعلو بنفسها فوق مستوى الإفهام فتربك العبارة إرباكاً وتغلقها إغلاقاً، كأنما أريد لها أن تقتصر على قائليها، وكأن خليقاً بها إن أرادت أن تمكن لنفسها من العقول، أن تلتمس سبيلاً طيعاً ذلولاً، لا وعراً ولا شائكاً، فيروده الرائدون جميعاً.

فيلاليش - عفواً صديقي، فما قصدت إلى التناقض عمداً بل اضطررت إليه اضطراراً، فهذه اللغة التي تواضع الناس على اصطناعها في التفاهم، لم تنشأ أول أمرها إلا لكي تكون أداة للتعبير عما يقع تحت الحس من أشياء، فلما درج الإنسان صاعداً في سلم الرقي، وبدأت تدور في رأسه خلجات من الفكر المجرد ثم أراد أن يبرزها في ثوب من اللفظ، لم تسعفه إلا هذه اللغة، التي إنما خلقت للمحسوسات، والتزم أن يجرى في قوالبها المحدودة تلك الآراء المطلقة التي لا تعرف الحدود، فلم يكن بد من هذا التناقض والاضطراب. فأنا إن فكرت في مصيرك بعد الموت، فلست أعنى بجسدك وما يطرأ عليه، بل يسيح الفكر في حقيقتك التي تكمن وراء هذا الستار من اللحم والعظم في جوهرك مجرداً عن قوالب المادة، وما أضيق اللغة عن هذا النطاق الفسيح!

تراسيماكوس - ويحك! أو تريد أن تجعل مني رجلين، فرجل من مادة في إهاب من الجلد، ورجل مجرد خبئ وراء الأستار تراه أنت من دون صاحبه؟

فيلاليش - وأي غرابة فيما أزعم يا صديقي؟ أفتظن أن هذه الأجسام والأجساد التي تنبث في أنحاء الكون، والتي تدركها بواسطة الحواس، هي كل شئ؟ اللهم إن صح هذا لكان الإنسان كتلة من اللحم والشحم والعظام، وقل على أفكاره ومشاعره وشتى مظاهره حيوية العفاء، لأنها لا تسلك إليك سبيلاً من عين أو أنف أو أذن!! لا، لكل شئ حقيقة كامنة وراء ظاهره، ما في ذلك شك ولا ريب، فإن أدركك الموت يا أخي أفنى منك هذا الفرد الذي يحاورني الآن، هذا الشخص المعين الذي أراه وأسمعه، ماذا أقول؟ هذا التراسيماكوس، فلن يكون بعد الموت شيئاً مذكوراً، ستنحل مادته وستسلك ذراتها سبلاً شتى، فطائفة إلى شجرة تدخل في تركيبها، وطائفة إلى حيوان، وثالثة إلى صخرة تلقى في طاق الكوخ لتصد عن ساكنيه الهواء كما يقول شاكسبير، ولكن ليست هذه الشخصية إلا ظاهرة فانية مع الموت، ولها بطانة باقية إلى الأبد، ليست إلا قالباً صيغت فيه حقيقتك الخالدة. فالفرد منك ظاهرة مادية عارضة محصورة في أطواق الزمان والمكان، فلها بدء وخاتمة، وهي تشغل حيزاً من الفراغ، فأما سرك وجوهرك، أما الحقيقة التي اندست في مادتك فلا تعرف زماناً ولا مكاناً، فهي في الكون منذ الأزل، أرادت أن تثبت وجود نفسها، فتجسدت في الكائنات التي ترى، فهي لا تختلف في شخصك عنها في شخصي، أو في شخص هذا الطائر الذي تراه يخفق

بين أطباق الهواء. . . فإن أدركت المنية سيفنى منك الفرد، وستخلد الحقيقة ممثلة في سائر الأحياء، لعلك الآن قد آمنت بما زعمته لك من أنك لن تكون بعد الموت شيئاً، وستكون كل شئ؟

تراسيماكوس - ولكن خلودي في أشخاص آخرين لا يساوي عندي جناح بعوضة، مادمت لن أحيا بشخصي هذا، فإن كان تراسيماكوس الذي يطارحك الحديث الآن، سيفنيه الموت، فسحقاً للحقيقة، إذ ليس لي في خلودها غناء.

فيلاليش - مهلاً! هب أنك خيرت في أن تعيش بعد الموت بشخصيتك التي تتشبث بها على شرط واحد، وهو أن تسلب منك تلك الشخصية شهوراً ثلاثة فحسب، ثم ترد إليك إلى الأبد، فماذا أنت قائل؟

تراسيماكوس - لا أتردد في القبول فرحاً راضياً.

فيلاليش - ولكنك تعلم أنا لو سلبناك الوعي والشعور حيناً من الدهر، ثم بعثنا فيك اليقظة والحياة، فلن تدرك كم لبثت في غيبتك إلا أن يقص عليك نبؤها بعد البعث. فهؤلاء أصحاب الكهف أووا إلى كهفهم فضرب الله على آذانهم عدة سنين، ثم بعثهم، فقال قائل منهم كم لبثتم؟ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم؛ مع أنهم لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنة وازدادوا تسعا. فإن كنت كهؤلاء ستفقد إدراك الزمن، فما ضرك لو أطلنا أمد الرقاد المفروض إلى آلاف ثلاثة من السنين؟

تراسيماكوس - لا شئ، أحسبك مصيباً فيما تقول!

فيلاليش - وإذا فرضنا أن تلك الآلاف الثلاثة قد تعاقبت عليك في رقدتك، وأن أحداً لن يوقظك بعدها، أفتظن أن في ذلك وبالاً عليك؟ اللهم لا! فإن كانت عشرات قليلة من السنين قد عودتك الحياة وربطتك بها ربطاً وثيقاً، يعز عليك كثيراً أن تنفصم عراه، أليس أجدر بذلك الأمد المديد أن يعودك الموت ويوثق بينك وبينه الصلات؟ وأحسب أنك لو ظفرت بمن يبعثك ويرد إليك وعيك المفقود، لن ترضى عندئذ أن تطرح حالاً لابستك طول ذلك العهد الطويل، وسيزيد في اطمئنانك حينذاك علمك أن هذه القوة السحرية العجيبة التي تحببك في الحياة الآن، ستظل تنشر من الأحياء ملايين وملايين لا تنفك متعاقبة إلى الأبد.

تراسيماكوس - ما أبرعك في الحوار، وما أروعك في سحر المنطق وطلاوة الحديث!! إني لأكاد أستخف بشخصي وأستصغر حياتي، التي طالما أحببتها وحرصت عليها أشد الحرص ولكن هيهات، فلن أنخدع بهذا الإغراء، وما زلت أريد بعد هذا كله أن أحيا بهذه الشخصية نفسها.

فيلاليش - يا رعاك الله! كأنما بلغت شخصيتك من الكمال شأواً بعيداً، بحيث يعز ضريبها على الدهر، وكأنك عاجز الخيال لا تستطيع أن تتصور حالاً خيراً وأسمى؟ عجباً! ألا تريد أن تستبدل بنفسك الناقصة المحدودة نفساً أسمى مرتبة وأبقى خلوداً؟

تراسيماكوس - ولكنني يا صديقي لست أملك في ذلك اختياراً، فشخصي بالغاً ما بلغ من نقص وتحديد، هو نفسي، وهو عندي أعز ما في الوجود، لا أعدل به شيئاً، ولا أرجو إلا أن يمتد الأجل بهذه الذات التي ترى صورتها وتسمع صوتها، ولا يعنيني في كثير أو قليل تلك الحياة الخالدة التي تظل باقية في الكائنات الأخرى، والتي تحاول بكل ما وسعك من دليل أن تقيم الحجة على أنها حياتي أنا، فلست أرى خيراً في حياة لا أحس بنفسي أنها حياتي.

فيلاليش - لست وحدك يا صاح تريد أن تبقى، فكل كائن دبت فيه الحياة يريد البقاء، وحسبك هذا دليلاً قوياً على أن هذه الرغبة الشاملة التي تنطق فيك بهذا الرجاء، إنها ليست صيحة الفرد منك، ولكنها نزعة الوجود بأسره، إنها قوة عارمة تنشد البقاء ولا عبرة عندها بالأفراد مادامت تحقق بقاءها المنشود، فرغبة البقاء، أو إرادة الحياة، وقد التمست لنفسها الوجود والخلود، وجسدت نفسها في أفراد الكائنات، وألقت في أنفسهم وهماً بأنهم غايات مقصودة لذاتها، لكي يحرصوا على الحياة ويكونوا وسيلة صالحة لبقائها، والواقع أنهم ليسوا إلا أداة تستغلها تلك الإرادة، وسواء لديها أفنى هذا الفرد المعين أم امتد به الأجل، مادامت تجد من غيره ما يضمن بقاءها. . . حسبك يا أخي أن تعلم أنك أداة لتلك الإرادة الشاملة، وأنك صورة من صورها، وإنك لست غاية مستغلة قصدت لذاتها، وإن الحياة لن تخسر بفقدك شيئاً، بل لعلك تجني من ذلك خيراً

كثيراً، لأنها كانت سجينة في قيود فرديتك، مثقلة بمادة جسدك، ثم انطلقت إلى حيث لا قيود ولا حدود! حسبك هذا لتعلم أن قصة الموت صبيانية تافهة، فليس جديراً بالخوف والإشفاق، وليست حياة الفرد خليقة بهذا التقدير العجيب، ولكم يبعثني على السخرية إنسان يتمسك بحياته ويتشبث بها، ويشفق من الموت ويخشاه، كأنه وحده الكائن الحي الذي نيط به بقاء الحياة.

تراسيماكوس - ليس لعمري أبعث على السخرية من هذا الهراء، ولولا رغبتي في السمر واللهو، لما استمعت إليك لحظة واحدة.

زكي نجيب محمود

خواطر المصيف

الماء والسماء

بقلم محمد قدوري لطفي ليسانسييه في الآداب

كلاهما أحب الزرقة فآثرها لنفسه لوناً، وكلاهما آثر الرهبة فاتخذها لنفسه وصفاً، وكلاهما يمتد فلا يبلغ البصر منتهاه، ويسرح فلا يعرف الطرف مداه، قد حجب كل منهما الذي وراءه، ولم يبد كل منهما غير صفحته، لا تمل السماء النظر إلى البحر، ولا يمل البحر التطلع إلى السماء، صفحتان متشابهتان، ووجهان متقابلان، قد يبسم كل منهما لصاحبه فيصفو أديم السماء وتنبسط أسارير البحر، ويكتنف ما بينهما هدوء يشرح الصدور وترتاح له النفوس، وقد يدل كل منهما على صاحبه، ويمكر كل منهما بمقابله، فيعلو وجه السماء سحاب خفيف، أو يسدل عليها نقاب منه شفاف، وترتسم على وجه البحر تقطيبة من الموج، لا يلبث معها أن يهدأ فتزول، وقد يتجهم كل منهما لصاحبه، ويتجنى كل منهما على الآخر، فتسدل السماء على وجهها حجاباً من السماء أدكن اللون، لا يشف عن شئ ولا ينم على شئ، ويثور البحر في عنف، ويحتد في غضب، فيرغى ماؤه ويزبد موجه، ويشتكي من لطماته شاطئه، وقد تستسلم السماء إلى البكاء، فترمي البحر برذاذ من الدمع أو بوابل من المطر، وقد يزأر البحر فترعد السماء، ويزهو بياض الموج فيشتد من البرق اللمعان.

سبحان الذي جعل بينهما هذا الفضاء مجالاً للطير ومسرحاً لكل ذات جناح، وتعالى الذي جعل بينهما هذا الهواء حياة للكون، ومطلباً لكل ذي روح، ثم شاء ألا تتقطع بينهما الأسباب وألا تبعد بينهما الوسائل، فتقاربا على بعد، وتدانيا على تناء، أضاءت السماء بنور الشمس، فأرسلت على الماء من شعاعها فضة لا تذوب، وتحلت السماء بضوء القمر، فأهدت إلى الماء صورته، ورسمت على سطح البحر ظله، وتجملت السماء بوشى النجوم، فبعثت إلى البحر منه ببريق، ويا عجباً لوفاء تلك السماء لهذا الماء، ما يكاد ينقضي النهار وتعتزم الشمس المغيب، حتى توصيها إلا ما قصدت الماء في طريقها إلى الغروب، وأبلغته سراً من الأسرار لا يلبث وجه الشمس أن يحمرّ له احمراراً ينبئ عن السر، ويفصح عن مدلول الكلام، ويا عجباً لهذه السماء تضحك من أهل الأرض، فتخيل إليهم أنها تلاقي الماء عند الأفق، وتحسب أهل الأرض لها عدّلاً، فتوهمهم أنها طوقت الماء بجناحها، وأرخت على صفحته طرفاً من ذيلها، وتمكر بأهل الأرض، فكلما قربوا من الأفق ابتعد عنهم، وكلما علو عنه اتسع أمامهم مداه، ويا عجباً لهذه السماء حين تدل على الماء، وحين تتجنى على البحر، فتغري به الشمس أن ألفحيه بشواظ من نارك تنفذ منه إلى الصميم، وارميه بسهام من شعاعك تخترق منه الفؤاد، فما تكاد الشمس تأمر بأمر السماء، حتى يضيق البحر بوهج الأشعة وألم السهام، فتذوب حشاشته، وتتبخر عزيمته، وما تكاد السماء تحس حر أنفاسه، وتشعر بلافح زفراته، حتى تسيل من الأسى دموعها، وتتقرح من البكاء مقلتاها، لله شأنها!! تريد أن تلعب بالنار فلا يمسها سوء ولا يلحق بها أذى.

ويأبى البر أن يترك الأمر خالصاً بين السماء وبين الماء، فيود أن يكون له معهما شأن أي شأن، ويجب أن يكون له من كل نصيب وافر، فيلجأ البر إلى أهله يغريهم بالبحر، وويل للبحر يومئذ من الإنسان، ويسلطهم على السماء، ويا للسماء يومئذ من أهل الأرض، أما البحر فقد قدروا عليه، وهزئوا به، فركبوا متنه، ومخروا بالسفن عبابه، وجرءوا عليه فغاصوا بالعلم إلى قاعه، لم يخفهم منه موت، ولم يرهبهم فيه وحش، أقاموا فوقه الجسور، وشيدوا عليه السدود، فقطعوه ولم تبتل لهم قدم، وعبروه ولم

يخلعوا لهم ثوباً. وهكذا قرب البحر من الإنسان فاستخف به، وتكشف البحر للإنسان فلم يخش ما فيه، ولو قد كان بعيداً لما استخف به أحد، ولو قد كان غامضاً لما اطمأن إليه إنسان، ففي الغموض سر رهيب، وفي عسر المنال رغبة في النوال.

ولم يكف هذا الإنسان أن يلزم الحد مع الماء، وأن يتخذ منه معيناً على الحياة، وطريقاً إلى الممالك والديار، وإنما أراد أن يمرح مع البحر، وأن يلهو بالشاطئ، فاتخذته الغيد مسرحاً يخطرن فيه، وميداناً يصلن في أرجائه، سلاحهن الجمال، وعدتهن الرشاقة، واتخذه الرجال معرضاً يرون في ما لم يكن من قبل إلى رؤيته سبيل، ويشاهدون فيه ما ليس يوجد عند غيره، واخذه هؤلاء وهؤلاء ملهى وملعباً ومصطافاً، فلم يبق للبحر من هيبته إلا اتساع مداه وتراكم لججه، ولم يعد للبحر من رهبته إلا خواطر المتأمل فيه، الناظر إليه حين يخيم عليه الظلام، وتضن عليه السماء بنورها.

أما السماء فلم يبلغ منها أهل الأرض ما بلغوا من الماء، وإنما تنافسوا في العلو إليها، وتسابقوا في الارتفاع إلى ذراها، فحالت الطبيعة بينهم وبينها، وأوقفتهم عند حد من الفضاء

محدود، لا يكاد المرء يعدوه حتى يضطر إلى الهبوط أو يورد نفسه موارد الهلاك، فتعلق الناس بالريح ولم يبلغوا عنان السماء، ووقفوا منها على الأبواب ولم يبلغوا منها الصميم، وقديماً تمنى فرعون لو أنه بلغ عنان السماء، وقال: (يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب، أسباب السموات فأطّلع إلى إله موسى) فهلك عنه سلطانه وصد عن السبيل. وهكذا بعدت السماء عن أهل الأرض فعزت عليهم وخارت دونها قواهم، وأسرفت في النأي عن الناس، فما زالت وراءها أسرار هيهات للمرء أن يكشف عنها، وما زال فيها من الأفلاك والأجرام ما ليس يعرفه الناس إلا أماني، وقد كان أهل الأرض يفرحون لرؤية السحاب، ويستبشرون بنزول المطر، ويضحكون لبكاء السماء، فما زالوا يرون فيها مصدر الخير وسر الطبيعة وينبوع الحياة، وما زال الناس يلتمسون ضوء النهار من السماء، ويفتقدون فيها ضياء البدر أو سناء النجوم حين يخيم الظلام، فحفظوا للسماء قدسيتها، وقدروا لها هيبتها، وعرفوا الجن في الأرض، وقالوا الملائكة في السماء.

والناس يوقنون أن الله معهم أينما حلوا، موجود أينما وجدوا، وقد كائن في كل زمان، وهو كائن في كل مكان، ولكن شاءت قدسية السماء ألا تلهج الألسن بالدعاء حتى ترفع إليها الأكف وتتطلع نحوها الأبصار.

الإسكندرية

محمد قدري لطفي

من الفصول التي يجب أن تقرأ مراراً

العاطفة في الأدب

لغوستاف لانسون الأستاذ بكلية الآداب في باريس

ترجمة الأستاذ محمد روحي فيصل

- 1 -

تعوق العقل عن التأمل والتفكير أمور شتى وعلل مختلفة، أهمها في نظرنا هذا الاعتقاد السائد أن نشاط الذهن يخمد العاطفة المشبوبة، ويقتل النزوة الحية، ويحبس القلب الخفاق، فلا أماني ترف، ولا أحلام تطيف، ولا ذكرى تلوح، ولا هوىً يبوح، وإنما العقل كله قد نأى عن ركدة الخمود، واستيقظ من نوم الجمود، رأى في أثر رأى، وخاطر يتلوه خاطر، ومقدمة تسوق إلى نتيجة، وتحليل يسلم إلى استنباط! إنه ليحسن بالأديب المبين أن يخنق صوت الفكر ويطمس معالمه، ثم لا ينطق سوى قلبه، ولا يترجم عن غير لبه. إذن لخلت لغته من ألوان الزينة المصطنعة، وصفا أسلوبه من أصباغ البهرجة الزائفة، ثم تراءت النفس على سجيتها الموهوبة من خلال السطور، وبرزت نقية رائعة من بين سواد المداد !!.

هذه دعوى - على جمالها وروعتها - عاثرة خاسرة، ووجه الخطل فيها أن القلب لا يستغني عن العقل ولا يستطيع أن ينكره في حال من الأحوال. فإن قوى النفس متحدة مشتبكة، يتصل بعضها ببعض، وتتداخل إحداها في جارتها الأخرى، ويندس الضعيف منها في القوي، والكامن في البارز، والوديع في المتمرد. وإنما القلب الكبير تراه عند من له عقل كبير، والطلعة البصير يفطن إلى ألطف ما يضطرب في الفؤاد

من الميول والنزعات، ويشعر بأدق العواطف وأهدأ الأحاسيس، وعلى قدر ما يكون العقل من الثراء والخصب، أو الفقر والجدب، يكون القلب عظيماً رفيعاً، أو وضيعاً خسيساً!! هؤلاء القديسون الصالحون ورجال البر والإحسان، هم أصحاب عقول نيرة تناهض عقول العباقرة والمفكرين، وقد يكون فيهم سذج غافلون فما يعني هذا أنهم حيوانات هائمة سائمة، وإن كانت محبة الله وبر عباده استجابة روحانية لنوازع القلب ومطالب الشعور، فإن تأسيس
المدارس والأندية وبناء المستشفيات والملاجئ صورة من صور النطق المنظم، ومظهر من مظاهر الرأي والتدبير.

- 2 -

يستبد الهوى المبرح، ويجور الألم البالغ، ويطغى الهيجان الثائر، فتختبط النفس وتهتاج الأعصاب ويغلي الدم، ثم تنطلق من شفاه العاني همسة محزونة، أو صرخة يائسة، أو قولة قوية جليلة، تجري خالدة على وجه الدهر، وتذهب في الناس مثلاً سائراً وحكمة مضروبة! أما النقد الحديث فما يحفل بهذا النوع من الكلام البليغ الجامع، ولا يمنحه التعظيم والإجلال مثلما تمنحه الأمم والأجيال، وإنما يراه من عمل الراوي المؤرخ الذي سرده لزملائه المعاصرين ولمن يليهم إلى يومنا هذا، ويستنكر نسبته إلى القائل الحساس، والمؤرخ - بخلاف الصحافي - يملي على الحادث رأيه ومذهبه، ويسرد الرواية على نحوه وأسلوبه، ويسكب الكلم في قالبه ومثاله.

ويغضب الرجل فيحول باطنه، ويختل ظاهره، ويضطرب إحساسه، ثم تستبين طبيعته الصامتة كما خلقها الله، وكونتها الوراثة، ووجهتها البيئة!! يقذف الكلمة من فيه فإذا هي كالسيف مضاءً ونقاوة، وإذا هي جماع فطرته النائمة، وعادته الراسخة، وغريزته الكامنة. .!!

لغة القلب آهة أو أنة، أو نداء أو عويل، ولكنه يكف عن التوجع والحنين حين تجتاحه موجة من الحب القوي أو الألم المميت، وقد قيل أن الهوى يعمي ويصم! فمن يفرق بين القلب والعقل ثم يروز الأول ويهمل الثاني، لزمه الإيجاز في البيان، والاقتضاب في الكلام، ذلك بأن المبين إذ يسمي شكواه ويدل على بلواه، إنما يعلن كل ما يكنه فؤاده من الخلجات، ويذكر كل ما يحز نفسه من اللواعج، ثم لا يرى شيئاً يتخذه مادة للكتابة ومفتاحاً للتحدث والإفاضة! تمثل محباً ملأ الحب جوانحه، وتغلغل في حناياه وأحشائه، واختلط بلحمه ودمه، شاء أن يصور هيامه المستفيض في إسهاب وتفصيل، فلتجدنه أحرص الناس على الإيجاز في التصوير، وأقلهم تبسطاً في الحديث، فما يكاد يسجل هذه الجملة المألوفة المبتذلة: (إني أحبك) حتى يعيد لفظها ويكرر معناها. سطران لا غير يخطهما المحب، ثم يرمي القلم في انكماش ووجوم!!

ونلاحظ أن النفس الراضية المطمئنة قد تلتوي على الكاتب، وتجهده عند الإعراب والتبيين، وتستهلك ملكاته النابهة، وأدواته القوية. أما الميول المصطدمة والأهواء المتعاكسة، فهي تظهر في يسر وسهولة، ولا تستلزم عبقرية عالية أو مبيناً كبيراً. ويرجع هذا إلى أن النفس الراضية المطمئنة، لا تتطلع لغير حاضرها ولا ترغب إلا في هدوئها وراحتها، وهي إنما تنطوي على مشاعر حلوة صافية لا سبيل إلى الخلوص إليها بلفظ أو كلام، وحسبها من ذاتها أن تستمتع بما تحس، وتتملى ما تشعر، وتذوق ما تحلم! ولكن الميول والأهواء إذ ترتطم وتتعاكس تثير ألف خاطرة ولاعجة، من ندامة على الماضي وأمل في المستقبل، وخوف من المصير، وكلها هواجس يفطن لها الكاتب الصغير، بله الألمعي القدير، ثم يبرزها مخطوطة واضحة على الطرس. . .

مظهر الألم صوت ملجلج، ووجه أغبر، ورعشة باليد، ودمعة في المحجر. فالإعراب عنه بلفظ قريب لا لبس فيه ولا غموض إنما يحتاج إلى عقل خصب يتأمل وجه الألم الذي يتحسسه ويدرك قيمته وأثره، ويعرف أين يتحد مع غيره من العواطف، ومتى يختلف ثم يعرضه تاماً صحيحاً غير منقوص ولا مشوه، وكلما كان التأمل العقلي كثيفاً نافذاً كان الألم أكثر وضوحاً وأبهر لوناً وأدق تعبيراً.

تلكم صفحات الألم الباكي فاقرأوها بإمعان، وفتشوا فيها عن القلب المنفطر، وتبينوا النفس المعذبة، ألستم توافقوننا على أن الأديب إنما اتخذ العقل مبضعاً يشق مطاوي القلب، ويسبر غور الضلوع، وينفذ إلى حقيقة البكاء ومصدر اللوعة؟!

ولقد حفظ التاريخ القديم فيما حفظ في ذاكرته الواعية رسائل طريفة انحدرت إلينا

كاملة من شيشرون ومدام سيفينيه، وهي رسائل تفيض بالشكوى وتتنزى يأساً وألماً، كشف فيها الخطيب الروماني عن الحب الأبوي حين ماتت ابنته وذهبت إلى حيث لا رجعة لها، وأبانت المركيزة الفرنسية كيف تتوجع الأم الرؤوم حين تزوج ابنتها في الديار النائية والغربة الطويلة! وإن الآباء والأمهات ليبكون أبداً أولادهم وبناتهم عند الموت ووقت الفراق، ولكنهم لا يستطيعون وصف ما تكابد مهجهم من هموم وأشجان، وليس الذنب في ذلك ذنب قلوبهم المترعة المفعمة، وإنما هو ذنب عقولهم القاحلة، وألسنتهم البكيئة، وأقلامهم الجامدة.

والطريف في هذا الباب ما يزعمه هيجو من أن الشاعر مصلح عظيم ونبي كريم، أرسله الله لقومه هادياً إلى مواطن الحرية والجمال والحب؛ وقد دفع هيجو إلى هذا الرأي الأرستقراطي غروره المسلكي، وحماسه الوطني، وتطرفه المعهود، وخياله الواثب. والحق أن الشاعر رجل مثلي ومثلك، يرى ما نرى ويشعر بما نشعر، وإنما يمتاز بنوع من الامتياز لا ينهض به إلا صف المصلحين ولا يرفعه إلى مقام الأنبياء - يمتاز من غيره من الناس بهذا العقل الحاجي المسجل الذي يقدر على الإبانة عما يرى ويشعر، ويعرف كيف يصور ما يتجاذبه من المنازع والأهواء.

فالتأمل الذهني كما ترى ضرورة من ضرورات البيان، فلا تظهر الخلجة النفسية على النحو الذي قذفتها الفطرة ودفعها التطور واكتنفتها الحياة، إلا بالمراقبة الباطنية العميقة. والممعود إنما ينبغي أن يكون على شئ من العلم بمواقع الأعضاء حتى يصف للطبيب المرض الذي ينتابه والداء الذي ينهشه، ولكن الطفل إذ يتألم لا يفقه ألمه ولا يعلنه إلا في إبهام: يصرخ ويبكي، وهذا كل ما عنده من وسائل الإعلان وأدوات الإفصاح!!

إن الأدباء المحدثين ممن نقرأ لهم ونستمع لأحاديثهم في الصباح وفي المساء، يلتزمون البساطة في اللفظ وفي المعنى، ثم ينحدرون إلى النفس المتأخرة الابتدائية التي لم يصقلها العلم ولم تهذبها المدنية، فينتزعون منها الشعور الفطير والعاطفة الساذجة، وهم موقنون أن الإخلاص في الأدب أو الصدق في التعبير لا يكون إلا حيث يكون الطفل الصغير أو الجاهل الأمي موضوع الحديث ومدار البيان، ولست أعرف انحرافاً عن الحق وخللاً في المنطق يشبه ذاك الانحراف وهذا الخلل، فإن الثقافة العلمية لن تفسد النفس والشعور، ولن تمنعهما عن البوح والظهور.

وقد كان المؤلفون اليونان يستصرخون أبطال رواياتهم، ويستدرون عبرتهم، ويتعمدون إيلامهم، وكانوا يسهبون في وصف الألم، ويذكرون بواعثه ونتائجه، ويتغلغلون إلى كنهه وحقيقته. فهم فنانون حقاً يلتمسون مواطن الجمال المنسجم، وينشرون مواضع الحقيقة الفنية، أصحاء الذوق أقوياء الحواس، يجمعون إلى تبدل اللون وتقلص العضلات واختلال الحركات تدفق الألم الداخلي، وأفاعيله النفسية، وأثره في الرءوس والقلوب. وقد ترسم شكسبير خطاهم ونهج سبيلهم، فكان يصور أوضاع الجسد ثم ينفذ إلى الألم ذاته، ويربط
بين اضطراب الحواس اللدنة، وهيجان النفس الباطنة.

وتحسب الآن إننا كشفنا عن الصلة المتينة بين القلب والعقل، ونبهنا إلى خطر التفريق بينهما، وإلى قلة الإبداع والإنتاج عند إمحال التأمل والتفكير، فإن كثيراً من الناس ليحسون أقوى الإحساس، ويشعرون بأشد الشعور، ولكنهم لا يعبرون عن إحساسهم وشعورهم، لأنهم ضعاف العقول ضئال التفكير، وأغلب الظن أن المبين لو راض عقله وصقل ذهنه بالتأمل الدائب الملح لوفق في رسالته أحسن التوفيق، ومضى إلى غايته كما يرجو ويرجو له النقاد والباحثون.

- 3 -

مادام الأديب أداة تطوير واعية مرهفة تلتقط ما يتساقط عليها من أشعة الوجود وألوان الطبيعة، وصور الحياة، فلن يحس بالفراغ يملأ ذاته ولا بالوحشة تحف نفسه وكيانه، وهو أبداً يرقب جيشان عاطفته، ويرصد خفوق قلبه. ثم يستمتع بهواه وشعوره، والاستمتاع هنا معناه إيقاف الحياة قبل أن تطوى، والإحساس بها إحساساً (مضاعفاً) قوياً. وفي النفس نزوات مبهمة خافتة، يبصرها الأديب الصناع ثم ينشرها عارية واضحة تكاد من فرط ظهورها تطفر لعين الرائي المشاهد.

ويعتقد الأستاذ إميل فاجيه أن التكلف في البيان أشر ما يبلى به الأديب الفنان من

العلل والأدواء، وهذا حق لا ريب فيه، وإنما الريب في قول من قال إن مراقبة النفس تقتضي التصنع، وتؤدي إلى التكلف، لأنها إنما تقتل الطبع الموهوب والهمة الفتية، والقوة الدافقة. والحق إن المراقبة إذا كانت منظمة متصلة توسع إطار الإحساس، وتوضح بداءة الشعور، وتنهض بالقريحة الخابية الهامدة. . . فلقد تستكين العاطفة ويخمد أوارها، وتهدأ حدتها ويبرد لهبها، وليس هذا ما نسميه النضوب والإمحال، وإنما هو أثر من آثار الإعياء والنصب الشديد، كأنما العاطفة المكدودة تنام في جو مظلم ساكن، وكأنما القريحة المتعبة تقف عن الشعور فترة غافلة من الزمان! وفي هذه الحال لقد يأخذ الأديب نفسه بوصف منظر أو تبيان خلجة فيقف مكتوف اليدين متلبد الحس، جامد القلم.

فالمراقبة إنما توقظ العاطفة النائمة أو هي تهيجها كلما غفت، ومن العجب أن تكون سبيلاً إلى التكلف المرذول والتصنع الممقوت، وعهدنا بكبار الشعراء أمثال لافونتين ولامارتين

أنهم على هيامهم بالتنقيح والمطالعة والتأمل، كانوا أطلق الشعراء لساناً، وأرقهم بياناً وأسلسهم لفظاً.

ومن الأدباء من لا يستوحي نفسه، ولا يترجم عن طبعه، وإنما يستقي من ذاكرته ومحفوظاته وقراءته، وهؤلاء يكتبون في غير جدوى ولا طائل، والمعروف المتداول أنهم يأتون غالباً بتشابيه مستعارة، وكنايات معادة، وصور مبتذلة لا تعبر عن (شخصية) ولا تنم عن جديد مبتدع. وإنما الرجوع إلى الطبع دون الذاكرة الحافظة هو مصدر الأدب الخالد والابتكار القويم، وليس من شك في أن التكلف يضمحل ويتزايل أثره، كلما رجع الفنان إلى نفسه وعول على طبعه واستقى من عبقريته. ولقد يجمل بالمبين أن يتناول ما تمده القريحة في الوهلة الأولى واللمحة الخفيفة، وألا يصطنع شعوراً لا يتردد في أطواء نفسه بل يأخذ ما جادت به العاطفة من غير جهد ولا عناء!!

وكلمة (أنا) ما يشتق منها قد تكون سبباً مباشراً من أسباب التكلف البياني، لأنها تتصف بالشمول وتجمع الشتات كأنما هي عنوان النفس ورمز العاطفة، والسبيل الذي ينبغي أن يسلكه الأدب الرفيع هو أن يحمل كل لفظ من ألفاظ اللغة جزءاً من النفس وقسماً من العاطفة، أما (أنا) فما ينبغي أن تكون إلا عيناً تتفجر منها الأفكار والمعاني، وتصدر عنها الأساليب واللغات، وتصب فيها فروع الكلام وأغراض البيان.

فإذا كان في هذا عسر ومشقة، فإن الرياضة والمران حقيقان بأن يذللا كل شئ، وكما يخلق اللاعب المرتاض لجسده الحواجز ليجتازها، والجبال ليتسلقها، والوديان ليهبط إليها، كذلك ليخلق المبين لنفسه طرائق ملتوية لممارسها، مهما تكن تلك الطرائق وهمية خيالية، مادامت الغاية محمودة تبرر الواسطة ثم تخضعها بالتجربة والعادة.

كانت العصور السالفة تقدم للمبين مواد التفكير الصحيح، وأسباب العاطفة الحية، وأدوات الكتابة الخالدة. وكانت الظروف والأحوال تنشئ المرء إنشاء جميلاً قوياً، وتعده لحياة شديدة فيها من الجد والنشاط، ومن الإبداع والإنتاج ما يزري بحياتنا الحاضرة الراكدة، ويستخف بعيشنا اللاهي الهازل. .!!

كان الطالب إذا نال الشهادة وخرج من المعهد لا يرى بضاعته من العلم إلا قليلة موجزة، ولا يعتقد في نفسه إلا القصور والجهل، فما يزال يقرأ في الكتب والأسفار، ويتلقى عمن

هو أكبر منه سناً وأوسع تجربة، حتى يريش ويهرم، فهو أبداً في دراسة دائبة، واختبار متصل. ولم يكن مقياس النبوغ سعة القراءة والرواية، وإنما هو الفهم السليم والنظرة الصائبة. وكانت الآداب على اختلافها دروباً متشعبة تنحدر كلها به إلى النفس الإنسانية يطالع منها ما يطالع ثم يجمع المتشابه ويفرز المتشابك، ويستعمل النابه ويعنى بالضعيف الخامل. أما القصة فما كانت تتلى للتسلي والمفاكهة أو لتزجية الوقت والفراغ، وهي التي قد تبلغ عشرات المجلدات مخطوطة ومطبوعة، وتلاقي من الرواج والذيوع ما يستدعي الدهشة والإكبار! هذا إلى تراجم المؤرخين، وتأملات الحكماء، ومواعظ الزهاد والخطباء، مما يوقظ العاطفة والشعور ويربي ملكة الانتباه والتفكير. وفي حضرة المرأة والطفل الناشئ كانت تثار في غير تحرج ولا تقية أعوص مسائل الدين والأخلاق والسياسة والاقتصاد. وكان العرف الديني والاعتراف الكهنوتي، وحب الفضيلة يقلق المؤمن، ويقض مضجعه، ويضطره إلى مراقبة نفسه وإلى التعبير

الدقيق عن خطراته ونياته.
ومن ثم كانت النساء اللواتي لم يتعلمن سوى الأدعية والصلوات، وكان الشبان الذين لم يفقهوا غير المبارزة والرقص - كان هؤلاء جميعاً يعبرون عن مرادهم تعبيراً حسناً، ويفكرون تفكيراً صحيحاً، فكانت الكتابة عندهم كالمحادثة والحوار، يمنحونهما الجهد والأناة، ويقصدونهما بقلوبهم وعقولهم مجتمعة متساندة.
أما اليوم فالذاكرة الحافظة هي غاية الغايات، يكدسون فيها ضروب العلوم والفنون على مدى ضيق من الزمن كما يكدسون في المركب أصناف البضائع على غير نظام ولا تؤدة لتقلها إلى المرفأ سالمة لا أكثر ولا أقل. والمرفأ هنا هو الفحص الذي ينتهي عنده الدرس، وينسى الطالب بعده ما اكتسب من العلوم. ذلك بأنه تعلم منفعلاً لا فاعلاً، تعلم كما تدور الآلة من غير وعي ولا تفهم، فالبرامج واسعة، والوقت قصير، والتمثيل منعدم، والهضم سيئ.
وجملة القول أن التربية الحديثة، لا تتلاءم مع شرائط الصحة العقلية، ولا تهيئ العاطفة للفن والكتابة. ومادام الخروج على البيئة مستحيلاً، فإن تهذيب الشعور وتنمية التفكير مطلبان جليلان ينبغي العناية بأمرهما والنهوض بهما.
حمص (سوريا)
محمد روحي فيصل
أعيان القرن الرابع عشر - 10
للعلامة المغفور له احمد باشا تيمور
الشيخ حسن الطويل المالكي
الأمام العلامة، شيخ الشيوخ، وأستاذ الأستاذين، وأحد من تفرد في مصر بالبراعة في المعقول والمنقول، وأتقن العلوم العديدة مع الزهد الصحيح والورع وعلو النفس، والتأدب بآداب الشرع والتمسك بالكمالات.
وهو حسن الطويل بن احمد الطويل بن علي، ولد بمنية شهالة إحدى قرى المنوفية، حوالي سنة 1250 كما سمعته من تلميذه الخاص العلامة الشيخ احمد أبي خطوة.
وذكر الشيخ بشير الظافر في كتابه اليواقيت الثمينة في أعيان مذهب عالم المدينة، أنه ولد سنة 1256، وتربى بهذه القرية فقرأ القرآن الكريم وحفظه بها، ثم انتقل إلى طندتا وهو صغير، فاشتغل بتجويد القرآن وحفظ المتون بالمسجد الأحمدي نحو سنتين أو ثلاث، ثم حضر للقاهرة واشتغل بطلب العلم بالجامع الأزهر، فقرأ على شيوخ العصر، مثل الشيخ محمد عليش المالكي في الفقه والحساب وغيرهما، وعلى الشيخ حسن العدوي الحمزاوي، والشيخ إبراهيم السقاء، والشيخ محمد الأشموني، والشيخ محمد الأنبابي، والشيخ احمد شرف الدين المرصفي، فظهرت عليه النجابة، وابتدأ في حضور السعد، وكان من دأبه في أول أمره معاكسة المشايخ في الدروس بكثرة الأسئلة والمناقشات، حتى حدث ما اضطره إلى الانقطاع عن الأزهر، وسبب ذلك أن أبناء العمد وأقاربهم طلبوا للدخول في الجندية بقانون وضع لذلك أمر به سعيد باشا والي مصر، ولما كان المترجم من أقارب بعض مشايخ قريته طلب معهم تجنيده بأمر سعيد باشا.
وجند مع جند فصار واحداً منهم، إلا إنه لم يسلك مسلك أكثرهم في التفريط في الفروض، فكان يواظب على الصلوات والأوراد، وكان الوالي يكره من الجند من يصلي، وحدث أن المترجم جاءه من شيخه الشيخ احمد شرف الدين المرصفي كتاب فيه استغاثة يأمره بتلاوتها عقب كل صلاة، رجاء أن تفرج كربه وتخلصه من الجندية، فوقع الكتاب في
أيديهم، وعدوه لذلك مذنباً، وكان عقاب المذنبين عندهم إهمال تعليمهم الفنون العسكرية وتشغيلهم في السكك الحديدية وما أشبهها من الأعمال الشاقة، فكان المترجم يشتغل بهذه الأعمال بهمة زائدة تأديباً لنفسه، لأنه ظن ما وقع له عقاباً على جراءته على مشايخه، وكان سعيد باشا يلقب المطيعين من الجند بالفراعنة، والعاصين المذنبين بالنماردة، فغضب مرة على النماردة وأمر بطردهم من الجيش، فخرجوا منه إلا أنهم بقوا تابعين له، وهم ما كانوا يسمونهم بالعساكر الأمدادية، وخرج المترجم معهم، فأقام بقريته مدة، وكان قبل ذلك يجتمع على الشيخ خالد أحد مشايخ الطريق فرأى أن يسافر إليه فسافر إلى بلدته المسماة بالسريرية من أعمال المنية أي منية

ابن الخصيب ولزمه بعض أشهر عكف فيها على الاشتغال بالعلم والطريق.
فراره
ثم طلب إلى الجندية مرة ثانية فذهب إليه أبوه ليحضره وأراد الشيخ خالد منعه فلم يرض هو بل عاد مع أبيه إلى قريته فوجدهم أهملوا طلبه، فحمد الله وأراد والده إبقاءه معه في القرية خوفاً من أن يعود إلى الصعيد، فضاق المترجم بهذا الأمر وخرج من غير علم أبيه من القرية وهو لا يملك شيئاً، فمشى على قدميه يبيت في كل بلدة تصادفه حتى وصل إلى القاهرة، ودخلها من جهة باب الحديد فاشترى بما معه شيئاً أكله، وذهب إلى الأزهر فصادف الشيخ محمد السقاري في طريقه، فلما رأى المترجم أسرع إليه وهش له، وأخبره أنه يطلبه من مدة. ثم أنزله بداره وحلف أن يبقى بها شهراً لا يتكلف شيئاً من عنده، وكان مراد السقاري نظم قصيدة يمدح بها أحد الأمراء، فنظمها له وأخذ عليها أربعين ديناراً جائزة. ولما انقضى الشهر حفّ الله المترجم بعنايته، فطلبه الشيخ حسن العدوي لتصحيح البخاري، وكان شرع في طبعه فانتفع بأجر التصحيح. ثم طلب إلى ديوان الجهادية لتصحيح ما يطبع به، فقابل هناك احمد عبيد بك رئيس الترجمة، وامتحنه فأعجب به، وكاد يطير فرحاً وقال هذا جوهرة خفيت عنا، واستخدمه في الحال للتصحيح بهذا الديوان، وسعى له حتى محوا اسمه من الجيش حتى لا يعاد طلبه.
ثقافة شاملة
وكان المترجم في هذه المدة عاد لطلب العلم والاشتغال به، مع القيام بالتصحيح بالديوان، حتى شهد له شيوخه بالتأهل للتدريس فدرّس بالأزهر، وكان أول درس قرأه في شوال سنة 1283. وابتدأ فيه بالقراءة في الأزهرية. ولم يقتصر رحمه الله على العلوم المتداولة بالأزهر، بل بحث ونقب، واجتمع بالشيخ محمد أكرم الأفغاني فتلقى عنه العلوم الحكمية، وبرع فيها، وتلقى عن تلميذه خلاصة الحساب لبهاء الدين العاملي، ونظر في الهندسة والجبر وسائر العلوم الرياضية، وقرأ التاريخ قراءة إمعان وتدبر، وطالع كتب اللغة والأدب، ونظم الشعر السهل، وكتب الترسل البديع، وكان لا يسمع عن أحد يعرف علماً إلا ويسعى إليه، ويتلقاه عنه كائناً من كان، حتى صار نسيج وحده، وقريع دهره، في سائر العلوم مع بعد النظر في السياسة، وسعة العقل، وسلامة العقيدة، وشدة الإنكار على البدع والمستحدثات في الدين.
مشاهير تلاميذه
وقد قرأ عليه في الأزهر كثيرون من علمائه المشهورين. فكان الشيخ الأجل احمد أبو خطوة، والشيخ محمد عبده، والسيد احمد الشريف، وإبراهيم بك اللقاني، والشيخ محمد راضي البوليني، ممن قرأ عليه في الطبقة الأولى من تلاميذه. ثم قرأت عليه طبقة ثانية منها الشيخ عبد الرحمن فوده، والشيخ محمد الغريني، والشيخ عبد الرحمن قرّاعه، وقرأ عليه أيضاً الشيخ محمد بخيت، والشيخ داغر، والشيخ محمد المغربي، والشيخ احمد الزرقاني، وغيرهم ممن لا يحصون، واختص به الشيخ احمد أبو خطوة، والشيخ راضي البوليني، والشيخ عبد الرحمن فوده، والشيخ عبد الرحمن قراعه، فكانوا يقرأون عليه في داره دروساً غير الدروس الأزهرية، وصحبوه ولازموه فانتفعوا به في دينهم وأخلاقهم فوق انتفاعهم بعلمه.
ثم نقل إلى نظارة المعارف وعيّن للتفتيش فيها، ولما مات الشيخ زين المرصفي مفتشها الأول سنة 1300، وأقيم بدله الشيخ حمزة فتح الله المفتش الثاني جعل المترجم مفتشاً ثانياً. ثم نقل مدرساً بمدرسة دار العلوم، فعم الانتفاع به، وتخرج عليه أحسن من نراهم الآن من الأساتذة المتخرجين في هذه المدرسة كالشيخ الفاضل حسن منصور، والشيخ محمد المهدي،
والشيخ محمد الخضري، والشيخ عبد الوهاب النجار وغيرهم من أفاضل الوقت.
وفاته
وبقي في هذه المدرسة إلى سنة 1317، وكانوا شرعوا في الامتحان قبل الإجازة المدرسية كالعادة، فلما كانت ليلة السبت 17 صفر سهر كعادته. ثم ذهب لداره معافى ليس به شئ، واستيقظ فتوضأ وصلى الصبح. ثم طلب الإفطار والقهوة، وأخذته غفوة كان فيها القضاء المحتوم، فلم تشرق شمس ذلك اليوم إلا والنعاة ينعونه والمؤذنون يؤذنون على المآذن كالعادة في موت كبار العلماء، وأمّ داره شيخ الأزهر

الشريف الشيخ عبد الرحمن الشربيني، والشيخ محمد عبده المفتي، وجميع العلماء والفضلاء، وكبار نظارة المعارف، وتلاميذه من الأزهر ودار العلوم، وشيعت جنازته تشييعاً سنياً، فصلوا عليه في الأزهر ودفنوه بمقابر المجاورين رحمه الله وغفر له عدد حسناته. ومن غريب المصادفات أنه زارني قبل وفاته بيومين في ليلة مقمرة، فجلسنا في صحن الدار نلعب الشطرنج، وكان مولعاً به مع قلة إجادته فيه، فقال لي عندما أراد الذهاب نحن الآن في الامتحان، وقد قربت الإجازة، وصدري ضيق في هذه الأيام من الناس، ونفسي تجنح للعزلة، فهل تعرف لي مكاناً أقضي فيه بعض أيام بعيداً عنهم؟ فقلت يا سيدي إذا انتهى الامتحان فالأوفق أن نسافر معاً إلى ضيعتنا التي بقويسنا فنخلوا فيها بكتاب نقرؤه، فقال نعم الرأي هذا، وسأستصحب معي ولدي حسناً ليشترك معنا في القراءة. ثم لم يمض يومان حتى نقله الله إلى جواره ويسّر له العزلة، ولكن في دار قراره، فأصبت فيه مصيبة لم أصبها في بعيد ولا قريب، لما كان له عليّ من الفضل ولو لم يكن له عليّ سوى تصحيح العقيدة وتأديبي بآداب الحنيفية السمحاء لكفى.

الأستاذ يرشد

أما سبب اجتماعي به وقراءتي عليه، فإني كنت خرجت من المدارس بعد تلقي ما يتلقى بها من العلوم المعروفة وأنا في سن العشرين، وقد علق بالعقيدة شئ من آثار التربية بهذه المدارس إلا إني كنت مولعاً من الصغر بالإسلام ومحاسنه، والمطالعة في السيرة النبوية، ومناقب الأصحاب والخلفاء الراشدين، فكان ينشرح صدري لأشياء، وينقبض من أشياء

تعرض لي فيها شبهات. ثم كنت أعرض ما يظهر لي من مكارم الشريعة ومقاصدها على ما عليه الناس من البدع والمحدثات التي تمسكوا بها، وجعلوها من الأصول الدينية، فأجد التناقض والتصادم، فصرت أتردد على كثير من كبار علماء الأزهر وغيرهم، لعلي أجد عندهم مفرجاً فأراهم أحرص من العامة على هذه الخزعبلات، حتى كدت أحكم بأنها من الدين، وأن الأمر دائر بين شيئين، فأما أن يكون الدين دين خرافات وخزعبلات تنفر منها الطباع السليمة، وأما أن يكون ما نراه حقاً، ولكن يمنعنا من قبوله إلحاد تأصل في النفس. حتى أرشدني بعض الأصحاب للمترجم، فأخذت في السؤال عنه من أهل العلم، فكانوا ينفرونني منه حتى بالغ بعضهم عامله الله بما يستحق ورماه بالزندقة، فقلت إذا كنت لم أجد طلِبتي عند من تسمونهم بالصلاح والورع، فلعلي أصيبها عند الزنادقة. ثم سعيت في الاجتماع به، وسألته القراءة عليه، والاهتداء بهديه، فقرأت عليه العلوم العربية والمنطق، وأعدت عليه الصرف بتوسع وعلوم البلاغة. ثم قرأت طرفاً من الحكمة في شرح الدواني على هياكل النور للسهروردي، وشرح رسالة الزوراء وغير ذلك. ولما رآني مجدّاً في التحصيل، قرر لي درساً ثانياً بعد العشاء كنا نقرأ فيه كتب الأدب ونحوها، وأنا في كل هذه المدة استوضح منه ما أشكل عليّ فيحله لي، فكان اجتماعي به ومصاحبتي إياه من أكبر نعم الله عليّ في ديني، وكثيراً ما كان يغضب مني ويؤنبني إذا رأى مني تهاوناً في الصلاة.

وكان من عاداته الخروج إلى الريف كل خميس ترويحاً للنفس فكان يذهب إلى الأميرية من ضواحي القاهرة عند تلميذه الشيخعبد الرحمن فودة فيقضي عنده الخميس والجمعة ويعود يوم السبت فلما عرفته صار يذهب للأميرية بعض الأخمسة ويسافر في بعضها إلى ضيعتنا التي بقويسنا أو إلى حلوان حينما نسكن بها شتاء، فكنت أقضي معه هذين اليومين في مطالعة واشتغال حتى في حالة المشي والتنزه كنت أحمل الكتاب معي وأسمعه فيه فيقرر لي المسائل ونحن سائران.

كان متصوفاً

وكان رحمه سنيّ العقيدة، صوفيّ المشرب، لا يحيد عن الشرع قيد إصبع، آخذاً بمذهب الإمام ابن تيمية في مسألة الاستغاثة بالقبور والاستشفاء بالموتى، منكراً على المبتدعة أشد

إنكار، آية من آيات الله في معرفة التفسير وحل مشكلات الكتاب المبين، متضلعاً من الحديث، متحصناً بالشريعة في كل علم يقرؤه من كلام أو حكمة أو تصوف أو رياضيات أو طبيعيات، وخص باستحضار الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في الاستشهاد بها على حل المشكلات الدينية، فكان أمره في ذلك عجباً وشأنه فيه مستغرباً، وذلك فضل الله

يؤتيه من يشاء. ومع انحراف علماء الأزهر عنه لإنكاره عليهم بدعهم وما درجوا عليه، فإنهم كانوا مقرين بفضله، وكثيراً ما كانوا يحتاجون إليه في معرفة أسرار الشريعة، وحل مشكلاتها والرد على الطاعنين عليها من أرباب النحل الأخرى أو المرتدين.

أخلاقه ومساعيه

أما أخلاقه فزهد غريب، وعلو نفس عن الدنايا، وبعد عن الرياء، وتواضع مع كل إنسان، وسذاجة في المطعم والملبس والمسكن، لا ينفق على نفسه من مرتبه إلا القليل ويتصدق بالباقي في الخفاء؛ فلما مات قام الصراخ في دور كثيرة يسكنها فقراء وأرامل، كان يعولهم في كل شهر بما فضل من نفقته، وما علم بهم أحد حتى من أقرب الناس إليه وأخصهم به إلا بعد موته.

وكان كثير الاشتغال بأمور المسلمين، دائم الهموم لما أصابهم من التأخر في مشارق الأرض ومغاربها، منتظراً فرجاً يأتيهم، ولطفاً من الله يحفهم، فتقوم فيهم دولة شعارها الدين، تقوى على جمع شملهم؛ ولذلك لما قام المهدي بالسودان وانتصر انتصاراته المشهورة واستولى على البلاد السودانية، أحسن المترجم فيه الظن وقام بنصرته بقلبه ولسانه، حتى اضطر الإنكليز أن يسيروا وراءه عيناً يخبرهم بحركاته وسكناته، وكاد يقع فيما لا تحمد عقباه لولا أن سلمه الله.

ولمداومة اشتغاله بالإقراء وتربية النفوس لم يؤلف تأليفاً، غير أن نظارة المعارف لما كلفت كل مدرس بجمع ما يلقيه من الدروس، وكان يدرس التفسير بمدرسة دار العلوم، شرع بجمع ذلك في كتاب سماه (عنوان البيان) لم يطبع منه غير المقدمة سنة 1316، أي قبل وفاته بسنة.

احمد تيمور

المعلقات

رأي جديد فيها

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

اختلف علماؤنا قديماً وحديثاً في سبب تسمية تلك القصائد التي جمعها حماد الراوية باسم المعلقات، وكان حماد أول من جمعها في أواخر عصر بني أمية وأوائل عصر بني العباس، وذلك أنه رأى زهد الناس في الشعر فجمع لهم هذه القصائد السبع وقال هذه هي المشهورات، فسميت القصائد المشهورة، ويراد بالشعر الذي زهد الناس على عهد حماد فيه الشعر الجاهلي القديم، وإلا فإن سوق الشعر كانت رائجة في عهد حماد، وكان الشعراء المحدثون في ذلك العهد لا يحصون من كثرة، وقد ابتدأوا يخرجون على الشعر القديم ويزهدون فيه ويخرجون مذاهبه وأساليبه، وكان أول من فعل ذلك بشار بن برد الذي يعد في رأس الشعراء المحدثين، وكان من أصدقاء حماد المقربين، فدعا هذا حماداً إلى محاولة إحياء ذلك الشعر المهجور، وترغيب الناس في حفظه وروايته، فجمع هذه القصائد لهم، ولعلها كانت أول ما جمع من هذا الشعر.

ويؤخذ من نص الرواية السابقة في جمع حماد لها تعرف بهذا الاسم (المعلقات) وإنها كانت تسمى عقب جمعه لها بالقصائد المشهورة، أخذاً من قوله بعد انتهائه من جمعها (هذه هي المشهورات) ولو كانت تسمى قبل جمعه لها باسم المعلقات لقال بدل هذا بعد انتهائه من جمعها (هذه هي المعلقات) فسماها باسمها المعروف، ولم يعدل عنه إلى ما ذكره في تمييزها، فعدوله إلى ذلك دليل على إنها لم تكن تعرف باسم المعلقات، بل إن عنايته بجمعها وما عمله في ذلك من أقوى الأدلة على إنها لم تكن تعرف بهذا الاسم، لأنها لو كانت تعرف قبل حماد به لكان لها اسم يجمعها، وكانت مجموعة بالفعل فيه، ولم يكن هناك من حاجة إلى جمع حماد لها.

فإذا أردنا أن نعرف كيف حدث هذا الاسم (المعلقات) لها بعد جمعها، فلننظر ما جرى للناس معها بعد جمع حماد لها، فلقد أخذوا يعنون بحفظها وشرحها، ثم شغفوا بذلك الحفظ والشرح واتخذوها متناً شعرياً مثل المتون التي دونت في العلوم بعد جمعها، وشغف الناس بحفظها وتعليق الشروح عليها، ولكن هذه القصائد كانت أسبق جمعاً من هذه المتون، حتى

أتى عليها زمن وهي منفردة بعناية الناس بتعليقها حفظاً وشرحاً، فشاع لها بين الناس هذا الاسم الجديد (المعلقات) ونسوا به اسمها القديم (القصائد المشهورة) ثم مضوا على ذلك إلى أن جاء من العلماء من عني بفهم هذا الاسم الجديد لها، ومعرفة سر

إطلاقه عليها، ففرض له تلك الفروض الخاطئة التي سنبين فيما بعد خطأها.
ولاشك أن اللغة تسوغ اشتقاق هذا الاسم (المعلقات) لتلك القصائد مما عني به الناس بعد جمعها من حفظها وشرحها، فإن الحفظ تعليق لما يحفظ بمحل حفظه، والشرح تعليق على ما يكون هو شرحاً له، ولا تزال الشروح التي توضع على المتون ونحوها تسمى شروحاً وتعليقات، وقد جاء في القاموس والأساس أنه يقال فلان علق علم أي يحبه ويتبعه، وعلق شر كذلك، فهذه المعلقات معلقات مما حدث للناس بعد جمعها من حبهم لها، وتتبعهم إياها بما كانوا يتتبعونها به من حفظها وشرحها، وهي معلقات بمعنى محفوظات أو مشروحات، وقد خصت بهذا الاسم لأنها كانت أول ما عني بجمعه وتدوينه وحفظه وشرحه من الشعر.
فهذا إن لم يكن هو الذي وقع في حدوث هذا الاسم (المعلقات) لتلك القصائد بعد جمعها، فهو فرض قريب يرتاح إليه العقل في بيان وجه تسميتها بذلك، وهذا شأن كل الفروض العلمية التي يراد منها تقريب فهم بعض المسائل العلمية من المعقول، إذ تستعصي عليها، ولا يمكنها بيقين معرفة سرها، وهو خير من تلك الأمور الخاطئة التي يذكرها من يذهب إلى أن تلك القصائد كانت تسمى قبل جمعها باسم المعلقات، ولا يذكرها على أنها فروض يهون الخاطئون فيها، بل على أنها أمور وقعت وكانت سبباً في تلك التسمية.
قالوا إن الشعراء في الجاهلية كانوا يقصدون أسواق العرب التي كانوا يقيمونها كل سنة بجوار مكة فيتناشدون الأشعار، وكان ينصب للشاعر فيها ربوة فيصعد إليها، وتحدق به العيون، وتشرئب إليه الأعناق، فينشد قريضه عليهم حتى يأتي على آخره، فلا يقاطعه أحد ولا يستوقفه، فإذا ما أحكم القول، وبلغ من الفصاحة ما وقع اتفاقهم على حسنه وإجادته كتبوه بحروف الذهب على نفيس الديباج وعلقوه على الكعبة المشرفة، تنويهاً بشأن صاحبه، وتخليداً لذكره.
وممن قال بهذا أو نحوه في سبب تسمية تلك القصائد بالمعلقات احمد بن عبد ربه القرطبي صاحب العقد الفريد، وابن خلدون، وابن رشيق. قال ابن عبد ربه: (وقد بلغ من كلف
العرب بالشعر وتفضيلها له أن عمدت إلى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم، فكتبتها بماء الذهب في القباطي المدرجة، وعلقتها بأستار الكعبة فمنه يقال مذهبة امرئ القيس، ومذهبة زهير، والمذهبات سبع يقال لها المعلقات).
وقال ابن خلدون بعد كلام له في ذلك (حتى انتهوا إلى المباهاة في تعليق أشعارهم بأركان البيت الحرام، موضع حجهم، وبيت أبيهم إبراهيم كما فعل امرؤ القيس، وطرفة بن العبد، وعلقمة بن عبدة، والأعشى، وغيرهم من أصحاب المعلقات السبع).
وقال ابن رشيق (وكانت المعلقات تسمى المذهبات، وذلك أنها اختيرت من سائر الشعر القديم، فكتبت في القباطي بماء الذهب، وعلقت على الكعبة، فلذلك يقال مذهبة فلان إذا كانت أجود شعره، ذكر ذلك غير واحد من العلماء).
وكان أبو جعفر النحاس المتوفي سنة 338هـ يخالف صاحب العقد ومن تابعه على هذا المذهب في علة تلك التسمية، وكان أبو جعفر معاصراً لابن عبد ربه وهو من علماء المشرق، أما ابن عبد ربه فمن علماء الأندلس والمغرب، وقد ساح في بلاد الشرق وسمع من علمائه، ثم رجع إلى بلاده.
وقد قال أبو جعفر في هذا من شرحه على تلك المعلقات (واختلفوا في جمع القصائد السبع، وقيل إن العرب كانوا يجتمعون بعكاظ فيتناشدون الأشعار، فإذا استحسن الملك قصيدة قال علقوا لنا هذه، وأثبتوها في خزانتي، وأما قول من قال إنها علقت بالكعبة فلا يعرفه أحد من الرواة).
ولم يذكر أبو جعفر من هو هذا الملك الذي كان يأمر بتعليق هذه القصائد في خزانته، وقد رجح بعضهم أنه النعمان بن المنذر لأنه هو الذي كان يعنى من ملوك المناذرة بجمع أشعار العرب، وكان عنده ديوان مكتوب جمع فيه أشعار الفحول، وقد صار ذلك الديوان أو ما بقي منه إلى بني مروان على ما رواه أبو عبد الله محمد بن سلام الجمحي في كتابه طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين.
ويستند أبو جعفر في رأيه هذا على ما قيل أن حماداً الراوية لما رأى زهد الناس في الشعر جمع لهم هذه القصائد السبع، وقال هذه هي المشهورات، ويؤخذ من ذلك كله

أن تسميتها بالمعلقات عند أبي جعفر يرجع إلى قول الملك علقوا لنا هذه، لا إلى أنها علقت في الكعبة،
ولست أدري على أي شئ يستند أبو جعفر فيما ذكر عن حماد في جمع هذه القصائد، وهو كما قلنا ينقض تسميتها بالمعلقات قبل جمعه لها، سواء كان ذلك للوجه الذي ذكره أم كان للوجه الذي ذكره غيره.
ولاشك أن عصر النعمان بن المنذر أحدث من عصر كثير من أصحاب المعلقات، مثل امرئ القيس وطرفة وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة، فلا يصح أن يكون هو الذي كان يعلق قصائدهم بخزانته، بعد إنشادهم لها بسوق عكاظ، ويكادون يجمعون على إن تلك القصائد كان ينشدها أصحابها فيه، أحدث بكثير من عهد هؤلاء الذين ذكرناهم من أصحاب المعلقات، فقد أقيمت تلك السوق بعد عام الفيل بخمس عشرة سنة، وهو العام الذي ولد فيه النبي صلى الله عليه وسلم، ثم بقيت إلى ما بعد الإسلام حتى سنة تسع وعشرين ومائة، وفي عهد إنشائها كان جيل امرئ القيس وطرفة وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة قد انقرض، أو كاد ينقرض، وإنا نستطيع أن نجزم بأن هذه القصائد السبع لم تقل في سوق عكاظ، ولا في غيره من الأسواق العربية التي كانت معاصرة له، وقد ذكروا لها أسباباً معروفة قيلت من أجلها، وأمكنة غير سوق عكاظ أنشدت فيها، وذكروا لبعضها ملوكاً غير النعمان قيلت أمامه، ولسنا في حاجة لتفصيل هذا كله لشهرته.

عبد المتعال الصعيدي

من شعر الشباب

السحاب

مُزْجِي الشتاءِ بخيله وبرجْلِهِ ... والمنذرُ الدنيا بوشْك إيابِهِ
يَشْجُوك من ماشٍ على لَممِ الرُّبَى ... طَرَّاقِ أَجْوازِ المدى جوَّابه
تسعى جنودُ البرد تحت جناحه ... والريح والإعصار حول ركابه
حيث انتحى أرخى مسائح دَجِنْه ... وتجلَّلَ الآفاقَ جَوْن حجابه
ورمى على شمس الضحى بمسوحه ... وطوى محياها دُجى جلبابه
ليس الربيع بمانعٍ رَجَعَاتِهِ ... رغم الربيع ورغم وَفْرِ شبابه
فإذا دنا انقبض الفؤاد تطيُّرَا ... بقدومه من بعد طول غيابه
وأثار في النفس القنوط وأشفقتْ ... من ثِقْلِ خطوته ومن إلبابه
فإذا سرى بردُ القلال مخالطاً ... أجزاءه وانسلَّ في أعصابه
أوْهَى عُرَاهُ وفَتَّ في أوصاله ... فانصبَّ ملَء السهل في تسكابه
فَجَرَتْ عيون الأرض بعد جفافها ... وروى نبات الأرض من أكوابه
في كل غابٍ دَاغِنٍ أو غَيْضَةٍ ... غَدِقَتْ غَوَاديهِ وأفرغ ما به
وبكل قاع مُمرعٍ ويفاعةٍ ... توقيعُ وكَّافِ النَّدَى صبَّابه
وبكل منحدرٍ تدفُّقَ مَشْرَعٍ ... ينساب في إزباده وحبابه
لم يُلْفِ شيئاً ثم يشكو جَدْبَهُ ... ظمآنَ إلاَّ لَجَّ في إخصابه
حتى إذا أفنى غزيرَ شؤونه ... همْياً وأنْفَدَ كلَّ ما بِوِطَابِه
وسخا على الوادي الينيع بروحه ... وعلى ثناياه وبين شعابه
وَلَّى وغادر بعده أسلابه ... تزهو بقاع الأرض في أسلابه
تتمايد الأعواد في أندائه ... طرباً وتَغْدَقُ في تَقِيِّ رُضابه
فأعجبْ لأسودَ ذي يدٍ بيضاء لا ... ينفكُّ يُسبغ من شهيِّ رغابه
جهم المحيا لا يُرام لقاؤه ... والجودُ والبركاتُ ملءُ إهابه
عَبَسَتْ لغُدْوته الرياضُ فإن مضى ... هشَّتْ لفيض يديه بَعد ذهابه
وترقرقت في كل روض قُضْبُهُ ... مُخْضَلَّةً رَيَّاً بِبَرْدِ شرابه
وتألَّقت حُمْرُ الزُّهور وصفرها ... حَلْياً ووَشْياً في اخضرار ثيابه
وسَرَى النسيم مُجَمِّعاً أين انتهى ... من زهره الزاهي شَذِىَ مَلابه

كمبردج

فخري أبو السعود

حيرة

إن روحي في الفضا حيرى تحوم ... مثل طير ضل عن سرب الطيور

واشتهى الشمس فأخفتها الغيوم ... واشتهى الريح فظنت بالمسير
فانثنى تهلو جناحيه الهموم ... ودعا يشكو ويبكي في دعاه
إن روحي ترتقي هذا الفضاء ... وهو ليل مظلم رطب فسيح
فيحيط القدس قلبي بالهناء ... وأحس الشك في صدري يصيح
وظلام الجو للشك وعاء ... وانفساح الأفْق للروح صلاه
هذه شتى انفعالات النفوس ... كرياح البحر تأتي عاصفات
جافلات في عَرا قلبي تجوس ... دون وعي منه بل دون التفات
أي وعي عند تهتان الكؤوس ... للذي استعبدت الراح هواه؟
ما أرى جرماً ولا قبحاً بدا ... لم يكن يغمر نفسي بعضه
أو جمالاً أو حناناً أو هدى ... لم يكن يعمر نفسي فيضه
سكن العيش فؤادي والرّدى ... وفؤادي بهما يقضي مناه!
عقد الكون بنفسي الاتصال ... فكأن الكون مني قطعةٌ
وجرى الدهر عليه كخيال ... هو مما في جفاني صورةٌ
ما احتياجي للمطايا والرحال! ... إنني للدهر والكون نواه!
الظلام الوحش حولي لا يريد ... عن محيا الحق إلقاء النقاب
فهو يغريني به كي أستزيد ... ثم يمهيه أمامي كالسراب
ليتني ألقى غشاء من حديد ... دامج الليل على عيني رماه!
لست أخشى الحق بل أخشى الوجود ... وأخاف الزهر يبكي للنسيم
وأخاف البحر هدّار الوعيد ... وأخاف الطير يشدو كاليتيم
وأخاف الغصن يذوي كالشهيد ... وتلاشيه المنايا في صباه
إنني أخشى بنفسي الانفراد ... ثم أخشى الناس أن تجمع بي
كم يصيح الدمع في ليل الفؤاد ... كهزيم عاصف مضطرب!
إنما الحيرة في فهم المراد ... مثل داء يجهل الطب دواه
أنا من شئ إلى شئ أفر ... حول نفسي مثل مخمور أدور
عقرب وسط لهيب مستعر ... لا يرى فيه سبيلاً للعبور!!
كُتب الهم على لوح القدر ... يوم حار الفهم في الفهم في معنى الحياة
هتفت عيناي بي تشتكيان ... قسوة الظلمة: خوفاً وعمى
وهما من كل نور تخشيان ... ما يوارى: حَرَقاً أو عَدَما
الحياة النور والنور الأمان ... والظلام الخوف والخوف الحياة!
انظرا هذا شعاع الحق لاح ... كشهاب يرتقي عرش السماء
كلما جئناه عن قرب أشاح ... فهو كالشمس التي تطوي الفضاء
يتبع الطفل خطاها في الصباح ... علها تقرب. . . ما جدوى خطاه؟
يا شعاع الحق في ماذا الفرار ... أترى لقياك تعمى بصرى؟
أنت للقلب ملاذ ومنار ... فأنِر قلبي وأطفئ نظري
إن يكن لابد من حمل الستار ... لن تضئ العين للقلب عماه

باريس

حسن عارف

رسالة

رسالة كفتيت المسك عاطرةٌ ... بكل ما يشتهيه القلب من وطرِ
ما إن تناولتُها حتى أحاط بها ... قلبي ولم يكُ يدري سرها نظري
ورفَّ في جنباتِ الصدر مبتهجاً ... كالطير عادت إليه الأمُ بالثمر
وبثَّها الدم في الأحشاء فانتعشت ... كالزهرِ جاد رُباه هاطل المطر
مُنى الفؤاد الذي انضمت جوانحه ... على لهيب من الآلام مستعر
أهفو إليك وما أندى على كبدي ... من أن أناديك في الآصال والبُكَر
دعني أُذِعْ بعض ما تخفيه جانحتي ... ففي الجوانح حب ثائر الشرر
وأصطفيك بشعر أنت مُلهمهُ ... عفّ عن اللغو والإسفاف والهذر
فمنك أنهل شعري ثم أبعثه ... إليك عقداً بديع النظم والدُّرر
أوْلا فإن حيائي منك يمنعني ... من أن أبوح بحب عنك مستتر

فريد عين شوكه

زهرة
زهرة في الروض تزهو ... في ثياب المترفين
جلست تستقبل الصب ... ح على العرش المكين
أُهديت من كل زهرٍ ... عاطرٍ أنفسُه
وحباها الله خدّاً ... ناعماً ملمسُه
فهي ريحان وور ... د وهي ريا الياسمين
وهي من مسك وكل الزه ... ر من ماء وطين
زينت زنداً جميلاً ... بسوار الزَّرِد
تعسل الخدين منها ... بمياه البَرَدِ
بَسَمت للشمس لما ... سطعت فوق الخميله
وبدت في الروض تزهو ... مثل حسناء جميله
فاسلمي يا زهرة الوا ... دي من الأيدي العوادي
وانبذي الماء على الأرْ ... ض إلى ماء الغوادي
محمد مصطفى حموده
بمناسبة ذكراه الثانية
حافظ بك إبراهيم الشاعر الوفي لمصر
بقلم السيد احمد العجان
حافظ شاعر النيل متعدد النواحي في الدراسات، متشعب المباحث في التناول، والتحليل الدقيق إنما يكشف كل ناحية ويبين كل مبحث، وليس الإلمام بعبقريته ونبوغه وشاعريته وخياله مما تأتي عليه هذه العجالة، ولكنا سنقتصر على ناحية واحدة هي وفاؤه للنيل وأهله، وكيف كان هذا الوفاء دفيناً في نفسه، مستقراً في جنانه العامر، يتحرك به لسانه في كل مناسبة، ويجري به قلمه كلما عنت فرصة.
والذي نلاحظه في شعر حافظ هو ما يحملنا على اليقين بصدق وفائه وإخلاصه، ومحبته لمصر وأهلها؛ فهو إذا انتقد كان لاذع النقد قويه، يظهر المثالب، ويعدد المساوئ، ويود لو نتخلص منها، ونحيد عنها. وقد يكون في النقد اللاذع المرّ شكاً في الوفاء والإخلاص لو أنه ضن بالنصيحة وبخل بالإرشاد. ولكن حافظاً حين يهزه الألم من حالة مصر حتى ليود الخلاص من الدنيا، والفرار من الحياة، وحين يسخط شديد السخط عليهم؛ لم يكن لكراهته لهم، وبغضه إياهم، وإنما لأنه يرجو لهم الخير الشامل الغامر، والرقي الدائم السديد، يحدثنا حافظ عن ذلك بأجلى عبارة وأوضح أسلوب.
أنا لولا أن لي من أمتي ... خاذلاً؛ ما بت أشكو النوبا
أمة قد فتّ في ساعدها ... بغضها الأهل، وحب الغربا
تعشق الألقاب في غير العلا ... وتفدّي بالنفوس الرتبا
وهي والأحداث تستهدفها ... تعشق اللهو وتهوى الطربا
لا تبالي لعب القوم بها ... أم بها صرف الليالي لعبا
ومما يقوي لدينا الأدلة على وفاء حافظ للنيل، وحبه لهذا الشعب أنه لم يكن يقنع بالتحدث عن الغرض الواحد عدة مرات بهذا الأسلوب العالي الرصين، كالذي نراه في وصفه للحالة الداخلية وموقف بعضنا من بعض، وموقف الصحافة منا ومن الوزارة، ثم موقفنا من دار المندوب البريطاني، وبيانه أن طريق الرقي هي العلم، وأنه الوسيلة في النجاح والظفر، وهو من وراء ذلك يضع أمله قوياً في الشباب، ويكثر من ندائه لهم، ولا يزال يستنهض الهمم ويضرب المثل باليابان كما سنوضح ذلك من شعره.
إن إخلاص المخلص لا يؤدي ثمرته إذا لم تتوفر فيه عناصر ثلاثة: نقد قوي اللهجة للمثالب حتى يحس المنتقد ضعفه، ويقف على عيوبه؛ فيجتنب الغرور ويقترب من الفضيلة، ونصح سديد الفكرة تظهر فيه سبل الخير ويبين منه طريق الهدى؛ كي يسلكه المنصوح له دون عثار أو ضلالة؛ وأمل في الله والشعب كبير رجاء التوفيق وابتغاء الإصلاح.
وهذه العناصر الثلاثة قد ظهرت بوضوح في شعر حافظ، وكان لكل منها مظاهره العدة، وأثوابه المتنوعة. وسنتناول كل منها على حدة:
1 - نقده: في الشعر السابق وصف حافظ ما نحن عليه من

كراهة الأهل وحب الغرباء، وأننا كرماء لضيوفنا، نهوى
الألقاب في غير العلا، ونعشق الرتب. ويحدثنا عن حالتنا
النفسية بلغة سليمة مستقيمة فنحن:
ألفنا الخمول ويا ليتنا ... ألفنا الخمول ولم نكذب
تضيع الحقيقة ما بيننا ... ويَصْلى البريء مع المذنب
ويهضم فينا الإمام الحكيم ... ويكرم فينا الجهول الغبي
ونراه يحدثنا عما هو واقع بيننا من الفخر بالمال الموروث أو بالرتب، ثم تأخذه حمية الغضب. فيقول إنما الفخر بالعلم والاختراع، وبالفضل والأدب:
وهل في مصر مفخرة ... سوى الألقاب والرتب
وذي إرث يكاثرنا ... بمال غير مكتسب
فقل للفاخرين أما ... لهذا الفخر من سبب
أروني بينكم رجلاً ... ركيناً واضع الحسب
أروني نصف مخترع ... أروني ربع محتسب
أروني نادياً حفلاً ... بأهل الفضل والأدب
وماذا في مدارسكم ... من التعليم والكتب
وماذا في مساجدكم ... من التبيان والخطب
وماذا في صحائفكم ... سوى التمويه والكذب
ولقد عاب علينا اعتبارنا للمظاهر، وانخداعنا بالملابس:
إن قومي تروقهم جدة الثو ... ب ولا يعشقون غير الرواء
قيمة المرء عندهم بين ثوب ... باهر لونه وبين حذاء
وضعف الرجولة داء كمين في بعض المصريين كشف عنه حافظ، وأبان طوائف الناس بين مهلل من المهللين لا يعرف له غرضاً، وبين ساع إلى دار المندوب البريطاني، أو متردد على أبواب الحكام.
فهذا يلوذ بقصر الأمير ... ويدعو إلى ظله الأرحب
وهذا يلوذ بقصر السفير ... ويطنب في ورده الأعذب
وهذا يصيح مع الصائحين ... على غير قصد ولا مأرب
وداء آخر أشد فتكاً، وأقوى بطشاً، وهو الصحف التي تطن طنين الذباب، وما هي إلا حصائد ألسن تجر إلى الويلات وأنها أيبست ما بيننا في الأخذ والرد، فصحف ترى رأي المندوب البريطاني، وأخرى تعد هذا جرماً وإثماً كبيراً، والوزارة من وراء ذلك في رغد ونعيم.
وصحف تطن طنين الذباب ... وأخرى تشن على الأقرب
وماذا في صحائفكم ... سوى التمويه والكذب
حصائد ألسن جرت ... إلى الويلات والحرب
وأرى الصحائف أيبست ... ما بيننا أخذاً وردَّا
هذا يرى رأي العميد=وذا يعد عليه عدَّا
وأرى الوزارة تجتني ... من مر هذا العيش شهدا
ومصابنا الذي يفوق كل مصاب، وداؤنا الذي يعلو على كل داء، وهو تزلفنا لدار المندوب البريطاني وهو البعيد عنا لغة، وجنساً، وديناً، والأجنبي عنا مهبطاً وميلاداً، والذي لا نلتقي وإياه إلا في وادي بؤسنا ودار نعيمه، والذي لا تجمعنا وإياه آلام ولا آمال. وحافظ يبرئ المندوب من كل ذنب، ويخليه من الملام فسبيله أن يستبد، أما نحن فشأننا أن نستعد.
وقالوا دخيل عليه العفاء ... ونعم الدخيل على مذهبي
رآنا نياماً ولما نفق ... فشمر للسعي والمكسب
وماذا عليه إذا فاتنا ... ونحن على العيش لم ندأب
أنا لا ألوم المستشار ... إذا تعلل أو تصدى
فسبيله أن يستبد ... وشأننا أن نستعدا
نصحه وإرشاده: ولكن حافظاً لم تفل من عزيمته هذه - 2
العيوب، ولم تثن همته تلك المثالب، ولم تقعد به هذه المخازي
عن إسداء النصيحة وحث الهمم، وضرب اليابان مثلاً، وجعلها

قبلة.
فهبوا من مراقدكم ... فإن الوقت من ذهب
فهذي أمة اليابان ... جازت دارة الشهب
فهامت بالعلا شغفاً ... وهمنا بابنة العنب
أيجمل من بعد هذا وذاك ... بأن نستكين وأن نجمدا
وها أمة الصفر قد مهدت ... لنا النهج فاستبقوا الموردا
ثم نراه لا يرسل النصيحة خلواً من كل سند، بل يشفعها بتلقين عظمة الآباء، والإيحاء بعزة الماضي، وجد التاريخ، ويرى أن الزمان قلب، والفلك دوار، وأنه لا علينا أن نهزم اليوم إذا كنا نتوثب للغد، وأن نبتلي في الحاضر كي نتأهب للمستقبل.
فدنياك يا نيل لا تجزعن ... إذا اليوم ولى فراقب غدا
فلا ييؤسنك قول العداة ... وإن كان قيلاً كحز المدى
أتودع فيك كنوز العلوم ... ويمشي لك الغرب مسترفدا
ويقضي عليك قضاة الضلال ... طوال الليالي بأن ترقدا
ونراه لا ينسى هذا التلقين والإيحاء والاعتداد بالماضي في كل مناسبة وفرصة كما في وداعه لصديقيه محمد بك بدر، واحمد بدر عند سفرهما إلى بلاد الإنجليز.
سيرا أيا بدري سماء العلا ... واستقبلا التم ولا تأفلا
سيرا إلى مهد العلوم التي ... كانت لنا ثم ازدهاها البلى
وخبرا الغرب وأبناءه ... بأننا نحن الرجال الأولى
لئن غدا الدهر بنا مدبراً ... لابد للمدبر أن يقبلا
ويختم حافظ نصيحته بالوسيلة الأولى للنجاح والظفر، والتغلب على الصعاب ألا وهي العلم، ويرى أن إنشاء الكتاتيب لا يغني عن العلم الصحيح، وأن ألف كتاب لا تعدل مدرسة عالية، أو جامعة منظمة تضم بين جنبيها رجالاً أكفاء يتعهدون الناس بالتعليم، والمداواة، والسهر على الأمن والأرواح، والقضاء فيهم، والإشراف على موارد المياه وتصريفها، ورصد الأفلاك والكواكب، والبحث عن بقايا القدماء، ومخلفات الآباء بالحفر والتنقيب.
ذر الكتاتيب منشيها بلا عدد ... ذر الرماد بعين الحاذق الأرب
فأنشأوا ألف كتاب وقد علموا ... أن المصابيح لا تغني عن الشهب
هبو الأجير أو الحراث قد بلغا ... حد الكتابة في صحف وفي كتب
من المداوي إذا ما علة عرضت؟ ... من المدافع عن عرض وعن نشب؟
ومن يروض مياه النيل إن جمحت ... وأنذرت مصر بالويلات والحرب؟
ومن يوكل بالقسطاس بينكم؟ ... حتى يرى الحق ذا حول وذا غلب
ومن يميط ستار الجهل إن طمست ... معالم القصد بين الشك والريب
فمالكم أيها الأقوام جامعة ... ألا بجامعة موصولة الحسب
رجاؤه في تحقيق هذه الآمال: ثم إن حافظاً - رحمه الله - 3
كان عامر الفؤاد بالرجاء في الإصلاح، قوي الإيمان - بالتوفيق، يود لو هيأ الله لمصر صلاحاً وللنيل سعادة. وقد وضع أمله بين يدي الشباب ونابتة العصر، ولا غرو فالشباب أقوى من يحمل الأمانة، ويؤدي الرسالة تحت إرشاد الشيوخ، وموعظة الكهول.
يا مصر هل بعد هذا اليأس متسع ... يجري الرجاء به في كل مضطرب
لا نحن موتى ولا الأحياء تشبهنا ... كأننا فيك لم نشهد ولم نغب
نبكي على بلد سال النضار به ... للوافدين وأهلوه على سغب
متى نراه وقد باتت خزائنه ... كنزاً من العلم لا كنزاً من الذهب
ثم هو في ندائه للشباب يضع آلام الوطن بين يديه، يثير عواطفهم لحبه والإخلاص له، بأسلوب أخاذ بمجامع القلب والنفس جميعاً.
وهو رحمه الله حين يأمل الخير للنيل وواديه، ويرجو له أن تحقق آماله وأمانيه، وألا تحلو موارده إلا للمخلصين من بنيه؛ تهيج به الآلام، وتحرك كوامن غيظه ودفين حيرته.
متى أرى النيل لا تحلو موارده ... لغير مرتهب لله مرتقب
فقد غدت مصر في حال إذا ذكرت ... جادت جفوني لها باللؤلؤ الرطب

كأنني عند ذكري ما ألم بها ... قرم تردد بين الموت والهرب
هذا حافظ الشاعر الوفي لأهله ووطنه، والمخلص لشعبه وأمته، مر عامان على وفاته، دون أن يذكره شعبه أو يحيي ذكراه؛ لولا أدبه الخالد الذي يأبى الركود ويعشق الحياة.
قد أضاعوك غير أن الذي أظ ... هرت من عبقرية لا يضيع
فرحمه الله وجزاه بإخلاصه، وعوضه عن نكران شعبه حياة أدبه.
السيد احمد العجان
من الأدب الهندي
محمد إقبال
للدكتور عبد الوهاب عزام
قدمت في الرسالة نبذاً من كتاب إقبال الذي سماه (أسرار خودى) فعرف القارئ رأي الشاعر فيما سماه (الذاتية)، ورأى كيف ضرب مثلاً من الطائر الظمآن وقطعة الماس، ومن الفحم والماس.
وفي هذا المقال يرى القارئ كلمتين من الكتاب نفسه: الأولى قصة الشيخ والبرهمن، ونهر الكنج وجبل هماله، والثانية (الوقت سيف). وإذا رأى القارئ غموضاً في بعض الجمل فمرجع هذا أن كثيراً من المعاني والعبارات غير مألوف في العربية، وأن الشاعر الكبير يعرض آراء من فلسفته الخاصة، لم تذلل لها اللغة التي كتب بها. وهو يشكو في كلامه عن الوقت من أن الألفاظ تضيق بالمعاني التي يحسها.
وكان أهون عليّ أن أكتب في موضوعات أخرى هي أقرب إلى القراء، لولا أني أود أن أبين جهد الطاقة عن جوانب مجهولة من أدبنا الشرقي، ولاسيما فلسفة شاعر الإسلام الأكبر محمد إقبال.
ويرى القارئ أني أحاول بالسجع تدارك بعض ما فات من الوزن والقافية.
- 1 -
قصة الشيخ، البرهمن، وحديث كنكا وهماله في بيان أن حياة الأمة تستمر بالمحافظة (على سننها).
كان في بنارس برهمند من الكبراء، غواص في بحر الحياة والفناء. ملك زمام الحكمة، وشحذ في الطلب والهمة، متوقد الذهن، يتحرى الدقائق، ويحلق فوق الثريا في طلب الحقائق. أوغل في لوح الجو كالعنقاء، واضطربت الشمس والقمر في شعلة فكره الوضاء. مُني زماناً بالحرمان والحسرة، لم تصب كأسه قطرة من الحكمة، وألقى شبكته في رياض المعرفة، فلم تر طائر المعنى عين الشبكة، وأدمى مخالب الفكر المجهود، ولم يحل عقدة الوجود، نطقت بعجزه آهاته، وصورت حيرة قلبه قسماته.
ذهب يوماً إلى شيخ عظيم، ذي قلب سليم، فأصغى الشيخ لحديثه حتى عرف مكنون صدره، ثم قال: أيها الطائف في الأفلاك! اتخذ في الأرض مثواك. اغتربت عن المرج والصحراء فجاز فكرك آفاق السماء. يا طاوي السماء اسكن إلى الأرض قليلاً، ودع حقائق النجوم حيناً. لا أقول لك اهجر أصنامك، أنت كافر فكن جديراً بزنارك، يا أميناً على التهذيب القديم، لا تحقر دين آبائك الأولين. فإن في الألفة حياة الأمة، والكفر كذلك من أسباب الألفة. أنت ناقص حتى في الكفر، فلست أهلاً للطواف في حرم القلب. لقد بعدنا عن جادة التسليم، بعدت عن آذر وبعدت عن إبراهيم. قيسنا ليس هائماً بالمحمل، وهو في جنون العشق لم يكمل، ما جدوى الخيال الذي يطوي السماء، إن كان شمع الذاتية إلى انطفاء.
قال نهر الكنج يوماً لجبل همالة وهو يجري في سفحه: أيها المتوج بالبرد من فجر الخليقة، والمتخذ زناراً من الأنهار الجارية. جعلك الله نجيّ السماء، ولكن حرمك التبختر في العراء، ما غناء هذا الوقار والرسوخ والرفعة، وقد سلبت رجلك الحياة والحركة؟ الحياة سعي دائم كالموج، وجوده من الاضطراب المتصل.
فلما سمع الجبل تعيير النهر، أرسل أنفاسه بحراً من نار وقال: يا من اتخذت صفحته مرآتي، وأكننت مئات من مثله في صدري إن هذا التبختر زينة الفناء، من ذهب عن نفسه فقد حرم البقاء، قد غفلت عن مقامك، وفخرت بهلاكك، ياوليد الفلك الرفيع، خير منك الساحل الوضيع، جعلت نفسك قربان المحيط، ونثرت جوهر روحك لقاطع الطريق، كن ورداً في بستانك، خلت القرون وأنا في طينتي ثابت القدم، وتحسبني إلى الغاية لم أتقدم، كلا قد عظمت حتى بلغت السماء، واستراحت على سفحي الجوزاء،

وقد ضل وجودك في البحر الخضم، وصارت ذروتي مسجد الأنجم، عيني بأسرار الفلك بصيرة، وأذني بطيرانه خبيرة، احترقت بنار السعي الدائم، فجمعت في صدري الجواهر (في صدري حجارة وفي الحجارة نار، ليس للماء سبيل إلى هذه النار) إن كنت قطرة فلا ترق نفسك بيدك، وجاهد اللجة وحارب اليم لحياتك، كن جوهراً لألاء، يزيد جيد الحسناء ضياء، أو اسمُ بنفسك وأسرع التسيار، وكن سحاباً يرمي البروق ومطر البحار، ليستجدي البحر إحسانك، ويشكو ضيقه بإنعامك، ويرى نفسه أقل من موجة لديك، ويطرح نفسه أمام قدميك.

- 2 -

أتبع الشاعر الفصل السابق بفصل عنوانه (نصيحة أمير نجاة النقشبندي المعروف ببابا الصحراوي، التي كتبها لمسلمي الهند).

وهو فصل ممتع بلغ فيه الكاتب من سمو الشعر، وعظمة النفس مبلغه. ثم أتبعه بكلمة عنوانها (الوقت سيف) وهذه ترجمتها :-

سقى الله ثرى الشافعي، كما استقى الناس من فيضه، لقد اقتطف فكره كوكباً من السماء، حين سما الوقت سيفاً ذا مضاء، ماذا أقول في سر هذا السيف الذي يفيض بالحياة ماؤه؟ إن صاحبه فوق الخوف والرجاء، ويده أنصع من يد الكليم البيضاء، يلين الحجر لضربته، ويبس البحر لهيبته، كان هذا السيف في يد موسى فعلا أمره على التدبير، شق صدر البحر القلزم، فانقلب براً ذلك العيلم، وكان في كف حيدر فاتح خيبر، ذلك السيف العظيم الأثر.

إن البصير يرى دوران السماء، ويدرك تقلب الليل والنهار في الفضاء، أنظر يا أسير الأمس والغد، تر في قلبك عالماً لا يحد، زرعت بذور الظلام في طينتك، وتوهمت الوقت خطأً بجهلك، ثم قست طول الزمان بمعيار الليل والنهار، واتخذت هذا الخيط زناراً، فملت إلى الأصنام واتخذت الباطل متجراً، كنت كيمياء فانقلبت قبضة طين، وولدت الحق ثم صرت الباطل المهين.

إن تكن مسلماً فتحرر من هذا الزنار، وكن شمعاً في محافل الأحرار. لقد جهلت أصل الزمان فجهلت الحياة الخالدة، يا أسيراً في الليل والنهار مثواه، تعرف رمز الوقت من (لي مع الله) كل شئ من سير الوقت ظاهر، والحياة سر من أسرار الوقت الباهر، ليس الوقت من دوران الشمس العلية، هو أبديّ وهي ليست أبدية، الوقت هو السرور والغم، والعيد والمأتم، وهو سر الضياء، في القمر وذُكاء، قد بسطت الوقت كالمكان، ثم فرقت بين الأمس والغد في الحسبان، يا من جفلت كالشذى من بستانك، وبنيت سجنك بيدك! إن وقتنا الذي لا أول له ولا آخر، ينبت من بستان الضمير الناضر، الحياة من الدهر والدهر من الحياة، وقد قال الرسول لا تسبوا الدهر فإن الدهر هو الله.

استمع نكتة تضيء كالدر، لتعرف فرق ما بين العبد والحر: العبد ضال في الليل والنهار،

والزمان في قلب الحر ضال. العبد ينسج من الأيام كفنه، ويخيط الليل والنهار على نفسه، والحر يخلع نفسه من الطين، ثم ينسج على الزمان عزمه المتين. العبد طائر في شبكة الصباح والمساء، حرمت روحه لذة السبح في الهواء، وصدر الحر الهمام، قفس لطائر الأيام، فطرة العبد تحصيل الحاصل، وخواطره تكرار قاتل، مقامه من الخمود واحد، وصوته بالليل والنهار راكد. والحر كل حين خلاق، يسكب وتره نغمة مجددة في الآفاق، فطرته لا تحتمل التكرار، وليس طريقه حلقة البركار، العبد في سلاسل من أيامه، والقضاء والقدر ورد لسانه. وهمة الحر مشيرة على القضاء، تصور يده الحادثات كما تشاء، الماضي والآتي ماثلان لديه، والآجل عاجل بين يديه.

هذا كلام برئ من الصوت والصدى، يأبى على الإدراك أبداً. أقول ولفظي من المعنى يخجل، ومعناي من ذلك اللفظ أجلّ، يموت المعنى الحي في هذه الحروف الجامدة، وتخمد ناره بأنفاسك الباردة. إن في القلب نكتة الغيبة والحضور، وإن في القلب رمز الأيام والمرور، مِزهر الوقت ذو نغمة صامتة، فغص في قلبك لتدرك أسراره الخافتة.

نصّر الله عهداً كان سيف الزمان، حليف أيدينا على الحدثان، فبذرنا الدين في أرض القلوب، ورفعنا الحجاب عن وجه الحق المحجوب، وحلت عقدة الدنيا أناملنا، ونضر وجه الأرض سجودنا، وشربنا الصهباء من دنّ الحق، ثم سرنا بنشوة الحق بين الخلق، يا من أترعت كأسه الخمر المعتقة، وأذابت كأسه الصهباء المحرقة، وملأه الكبر

والغرور والأثرة، فعيّرنا بالفقر والمتربة. لقد كانت كأسنا كذلك، زينة المحافل، يوم كنا وصدرنا بالقلب آهل، وثار من غبار أقدامنا عصر جديد، ينجلي بكل أمل بعيد ورويت مزرعة الحق بدمائنا، وسعد عُبّاد الحق ببلائنا، ودوّي العالم بتكبيرنا، وعمرت كعباتٌ من ترابنا. وأنزل الحق كلمة (اقرأ) فينا، ثم قسم رزقه بأيدينا. فإن يكن ذهب منا الخاتم والتاج، فلا تحقر ذلك الفقير المحتاج. إن نكن بزعمك مفسدين، وبالأفكار العتيقة مغرمين. فنحن لا نزال الأحرار أنصار التوحيد، قوامين على العالمين والله شهيد.
فرغنا من غم اليوم والغد، وحالفنا الله الأحد، فنحن في قلب الحق سر مكنون، ونحن ورثة محمد وموسى وهارون، لا يزال نورنا في الشمس والقمر مصوناً، ولا يزال سحابنا بالبرق مشحوناً.
إن ذات المسلم مرآة الحق، وإن وجود المسلم من آيات الحق.
عبد الوهاب عزام

العلوم

أصل الأرض وماهية تكوينها

بقلم نعيم علي راغب

اختلفت الآراء وتضاربت، ثم كثر الحدس والتخمين في أصل الأرض من قديم الزمان، واستمر الحال كذلك إلى أن جاء القرن التاسع عشر يحمل معه مخترعات جليلة الشأن، عظيمة الفائدة، نخص منها بالذكر المنظار المقرب أو التلسكوب، ثم آلات تحليل الطيف الضوئي، فأمكن تكوين رأي لا يزال حتى الآن غير محكم عن أصل تكوين الأرض.

وخلاصة المأخوذ به حتى الآن هو أن الأرض التي نعيش عليها جزء من المجموعة الشمسية التي تترب من عدة أجرام سماوية تتوسطها الشمس، وهي ثمانية كواكب سيارة مرتبة حسب قربها من الشمس: (عطارد. الزهرة. الأرض. المريخ. المشتري. زحل. أورانوس. نبتون). كذلك من 635 كوكباً صغيراً سياراً بين المريخ والمشتري، وكذلك التوابع وهي أجرام سماوية صغيرة تدور حول الكواكب السيارة (كالقمر بالنسبة للأرض)؛ هذا غير عدد لا يحصى من أجرام سماوية صغيرة اسمها الشهب تدور على غير هدى.

ونحن إذا رجعنا الآن إلى تكوين الأرض من هذه المجموعة، وجدنا أن الآراء متفقة على إنها كانت قبل انفصالها عبارة عن كتلة واحدة متماسكة، ثم انفصلت إلى أجزاء صغيرة كانت الأرض أحدها. وإليك بيان ذلك:

كانت المجموعة الشمسية في البداية سديماً، (وهو جسم يرى بالعين المجردة كأنه سحابة بيضاء، ولكنه في الحقيقة جسم غازي شديد الحرارة جداً، له مركز أشد صلابة ولمعاناً من باقي جسمه، وهو بيضاوي الشكل)، انخفضت درجة حرارته بعامل من العوامل فانفصلت أطرافه على شكل حلقات دائرية، واستمرت بعد عملية الانفصال تدور حوله في نفس الاتجاه الذي كان يدور فيه، فتكونت من هذه الحلقات الكواكب السيارة، وكان أولها في التكوين أبعدها عن الشمس، وهو نبتون الواقع على طرف المجموعة الشمسية؛ وكان آخرها أقربها إليها وهو عطارد. وتعرف هذه النظرية بالنظرية السديمية وهي النظرية التي قال بها العالم الفرنسي الشهير في أواخر القرن الثامن عشر.

حار العلماء في تفسير منشأ حرارة السديم ولم يتمكنوا من إيجاد تحليل معقول يستسيغه العقل فسكتوا على مضض حتى تقدم سير نورمان لوكيار بنظرية الشهب وخلاصتها أن النيازك العديدة التي تسبح في الفضاء إذا ما تقاربت نشأ عن اتحادها واحتكاكها درجة حرارة تبدأ قليلة المقدار لكنها تزداد كلما ازداد مقدار تقاربها من بعضها بفعل الجاذبية نحو المركز، وهكذا إلى أن تصل إلى حد تتحول معه النيازك إلى مادة غازية ثم يأتي وقت بعد ذلك تزيد في الحرارة المتشععة من الشهب عن الحرارة الناشئة من الاحتكاك فتتكاثف هذه الغازات ثانية. وتأخذ درجة حرارة السديم في الانخفاض تبعاً لذلك. وتكون أبعد الأماكن عن المركز أولاها في هذه العملية. ومن هنا نعلم أن أبعد السيارات عن مركز المجموعة أقدمها في التكوين كما سبق ذكره.

استمرت النظرية السديمية مأخوذاً بها طول القرن التاسع عشر غير أنه كان فيها

بعض نقط غامضة احتاجت إلى إيضاح كثير: من ذلك مثلاً إن هذه النيازك التي قيل إنها تكون السديم صغيرة الحجم إلى حد كبير تسير في الفضاء على غير هدى وبسرعة عظيمة. ومن الصعوبة أن نتصور القوة الجبارة التي سببت اتحادها بعضها ببعض. وبغير هذه القوة لا يمكن بأي حال من الأحوال تفسير النظرية السديمية. ومن الاعتراضات الأخرى التي قامت في وجه هذه النظرية حقيقة جغرافية ثابتة، وهي إن توابع كل من أورانوس ونبتون تدور حولهما من الشرق إلى الغرب على عكس باقي أجزاء المجموعة الشمسية.

وقد تقدم في القرن العشرين بعض علماء الإنجليز والأمريكان بنظرية عن أصل تكوين الأرض تعرف بنظرية المد خلاصتها أن تكون الكواكب السيارة وقيرها من المجموعة الشمسية قد نشأ عن اقتراب نجم كبير من سديم الشمس في أوقات مختلفة. فنشأ عن اقترابه أن جذب إليه جزءاً من كتلة السديم انفصل منه بقوة هذه الجاذبية.

ولا تختلف النظرية الأخيرة وهي نظرية المد عن النظرية السديمية في شئ إلا في تعليل انفصال الحلقات المكونة للمجموعة الشمسية عن جسم السديم الاصلي.

وهناك اختلاف بيّن بين قولنا هذا وبين من يقول إن الأرض أصلها جزء من الشمس لأن القول الأخير غير صحيح إذ أن الأرض والشمس جزءان من سديم واحد أو كتلة واحدة وليست جزءاً من كل بالنسبة للثانية.

باطن الأرض:

كانت الأرض كما قلنا جزءاً من السديم الشمسي وكانت حرارتها في البداية شديدة جداً ثم انخفضت وأخذت في القلة تدريجاً بفعل الإشعاع فبردت قشرتها الظاهرية شيئاً فشيئاً حتى وصلت لحالة الصلابة، ثم تجعدت هذه القشرة تبعاً لبرودة الأجزاء الباطنية وأخذت في التقلص فتكونت فيها منخفضات ملأتها الأبخرة المتكاثفة (الماء) وأخذت معالم الحياة تظهر شيئاً فشيئاً وكان آخر هذه المعالم هو الإنسان. إلا أن باطن الأرض ظل مرتفع الحرارة. تدل على ذلك ظواهر طبيعية عديدة:

1 - تزيد درجة الحرارة بمعدل درجة واحدة فهرنهيت لكل عمق مقداره 56 قدماً.

2 - سخونة المياه التي تخرج من الينابيع الساخنة. وقد وجد أن درجة حرارة الماء الخارج من نافورات أيسلندة 261 ف.

3 - خروج المواد المنصهرة من البراكين.

ولقد أثارت الظاهرة الأولى اهتمام العلماء وكانت سبباً في اختلافات كثيرة وقعت بينهم في القرن التاسع عشر، لأنه إذا كانت زيادة درجة واحدة فهرنهيت لكل 56 قدماً بعد الخمسين قدماً الأولى صحيحاً واستمرت هذه الزيادة باطراد لوجب أن تكون حرارة الباطن 1500 درجة حرارة مئوية على عمق 28 ميلاً أو على عمق 1141 ميلاً من نصف قطر الأرض. وهذه الدرجة تذوب عندها أشد العناصر صلابة. فوجب على هذه الحال أن يكون سمك القشرة الأرضية الصغرى غايته 28 ميلاً وفيما يلي ذلك يكون الباطن منصهراً.

غير أنه ثبت في القرن الحالي أن باطن الأرض صلب، وأن الأرض تتكون من طبقتين متميزتين عن بعضهما:

الأولى: طبقة سطحية تتكون من صخور قليلة الكثافة يطلق عليها اسم

الثانية: طبقة معدنية عظيمة الكثافة تسمى

وأن الطبقة السطحية تحتوي بالقرب من الظاهرات على جيوب مملوءة بالمواد المنصهرة، وهي ما تعرف بالحمم ومنها تفيض البراكين عند ثورانها. وهناك أدلة تثبت أن باطن الأرض أصلب منها:

(1) كلما تعمقنا في باطن الأرض زاد الضغط بنسبة العمق الذي نصل إليه، ومعنى ذلك أن الطبقات على عمق 100 متر مثلاً تقع تحت ضغط يساوي عمود الهواء وثقل الطبقات التي تعلوها. ولذا فإن المواد التي توجد على هذا العمق تحتاج إلى درجة حرارة اكثر بكثير من الدرجة التي تنصهر عندها نفس المواد إذا ما وجدت على سطح الأرض.

(2) لما كانت كثافة الأرض 6ر5 وكثافة السطح الخارجي 5ر2 وجب أن تكون كثافة

الباطن أعلى من ذلك بكثير حتى يكون الناتج 6ر5.
(3) تزيد سرعة الموجة الزلزالية عند مرورها في باطن الأرض عنها على السطح، فقد لوحظ أنه بينما تسير الموجة بسرعة 86ر1 ميلاً في الثانية على السطح، فإنها تسير بسرعة 05ر5 أميال في الثانية في باطن الأرض.
(4) لو كان باطن الأرض سائلاً لوجب أن يتأثر بالمد والجزر، فيظهر ارتفاع في القشرة الأرضية من جهة المد، وانخفاض في الجهة الأخرى.
(5) قد ثبت أن النشاط الراديومي محصور في دائرة ضيقة غاية قطرها 45 ميلاً من السطح الخارجي. ولو كانت الصخور التي دون هذا العمق، تحتوي على راديوم لازدادت كمية النشاط الراديومي. ولما كانت المواد الحديدية التركيب من المواد القليلة الخالية من هذا النشاط. يثبت لنا من ذلك أن باطن الأرض يتكون من مادة حديدية عظيمة الكثافة، وهذا يتفق مع النظرية الشهبية التي قال بها السير نورمان لوكيار. كما يتفق مع الحقيقة الثابتة في النقطة الثالثة.

انتهينا الآن من ماهية باطن الأرض، وسنبحث في مقال آخر في ظواهر حرارة باطن الأرض، فنتكلم عن البراكين وظواهرها وأسبابها. ثم نبين التضارب الحادث في تعريفها جغرافياً، والتغليط العلمي في شرح ظواهرها وأسبابها.

نعيم علي راغب
دبلوم المعلمين العليا قسم الجغرافيا

القصص
من التاريخ
ذكرى زينب
بقلم مهدي الجم الطرابلسي

أقبلت عليه متهادية، تحمل أذيالها الجواري السود، وجلست قربه وقالت بصوتها العذب: عمْ صباحاً أيها الأمير. فقال: عمي صباحاً أيتها الأميرة. قالت: ما لي أراك طويل التأمل، عميق التفكير، مؤرق الليل، محزون النهار؟ قال: آه يا زينب! كيف لا يأرق العربي ويموت أرقاً، ويحزن وذوب حزناً، إذا استُلب الكرامة، وفقد الحرية؟؟ حنانيك يا زينب! إني أكاد أموت هماً وكمدا! إني أريد أن استقل استقلالاً تاماً! إني أريد أن أملك زمام المشرق والمغرب!

إلى متى أنا خاضع للروم؟ إني أخاف هؤلاء اللئام يا زينب، وأرهب غدرهم، فهم لا يرعون ذمة، ولا يوفون عهداً، ولا يصدقون قولاً. إني أشفق أن يمر بنا حين نذل فيه، ونساق للهوان والصغار سوق الإبل!

إن الحرية يا زينب لا تنال بمعاهدة ولا مفاوضة، بل تنال بالدم، والدم وحده. ونحن لا جيش لنا ولا عدة، فمن اين نأتي بالدم؟ أبالشجاعة وحدها؟

أفديك يا زينب! اهدني بنور وجهك المشرق، وحبك إياي، وإخلاصك لي سبل الحرية! فقالت حييت أيها الأمير! هيئ جيشك، وحالف سابور ذا الأكتاف ملك الفرس، ولأسِر معك نحارب الروم ولا نرجع إلا ظافرين أو مقتولين. فللموت في سبيل الحرية خير ما يتصف به العربي!!

عاد أمير تدمر بعد أيام وقال لزينب: لقد سار ملك الروم بجيش جرار على سابور ملك الفرس، وخفت أن يظفر به، فصالحته من بعد ما اتفقت مع سابور عليه. إلا أن الفرس هزموا جمع الروم، وأسروا مليكهم، فأشفقت كثيراً أن يسير سابور إلينا يطلب الوتر، وما أحسبه إلا قاضياً علينا القضاء الأخير!

ولقد أرسلت إليه رسول الاعتذار، وكتاب الوفاء، وإعلان السلام، وهدية المحبة والإخلاص، فعتا اللئيم عتواً كبيراً، فأهان الرسول، ومزق الكتاب، ورفض السلام، ورمى بالهدية، وتهددني أمام الوفد الذي أرسلته إليه، ثم طرده من مجلسه، وأخشى أن يحقق وعيده! فهبت زينب تقول: الساعة يلتئم المجلس الحربي، والساعة يعلن الحرب على العِلج، والعداء على لئيم العجم. . .

وفي تلك الساعة التأم المجلس الحربي التدمري، وبدا من القادة أنهم يترددون في إعلان الحرب، لأنهم يعلمون أن سابور ملك عظيم، تتصدع له الجبال خشية. وإنهم لفي ترددهم إذا زينب تبدو على المنبر متلثمة، ثم تخطب خطاباً بليغاً، تحرك به العواطف، وتلهب القلوب، وتهيج النفوس، وتهتف قائلة: العربي لا يرضى بالذل والهوان، وإنما

يرضى بهما الفرس والرومان، فهو للعز يموت، وهما للذل يحيان.
وبعد أيام تكون الجيوش العربية في طريقها إلى الفرس، يتقدمها أمير تدمر (أذينة) وأميرة تدمر (زينب) الزبّاء.
تلاقى الجمعان، وكانت جولتان، ثم انهزم الفرس، وسبى أذينة من قصور سابور الحور والولدان، وأسر الأحرار والعبدان.
وأتي بسابور ترهقه ذلة، ووجهه قترة، فاعتذر واسترحم، وذل واستكان، ودفع الجزية عن يدٍ صاغراً، وأضحت تدمر جنة البادية بما نقل إليها من بلاد فارس.
امتلأت نفس أذينة بنشوة الانتصار، فعلم أن بعض الروم عصوا ملكهم وثاروا عليه، فسار إليهم ورد عصيانهم إياه طاعة، وثورتهم عليه استكانة، وعاد مع زينب إلى قاعدته بين هتاف ودعاء، وما انقضت أيام حتى أتى وفد ملك الروم (جاليانوس) يرأسه الأمير (سولفا)، ومثل بين يدي الملك العربي والملكة وشكرهما باسم الملك والإمبراطورية الرومانية، وقدم إليهما ولاءها وصداقتها. انفتحت أمام أذينة مدارج الآمال، وأمِل السيادة التامة، والحكم المطلق، فكتب إلى جاليان يسأله إياهما وأشياء أخرى تضر بملكه، فحنق ملك الروم وغضب وأرسل قائده (أورل) بجيش ليحرق تدمر ويخربها، ويزيل هذه العقبة الكأداء من طريق مطامعه في الشرق. فانتهز الفرصة سابور فزحف بجيشه إلى حاضرة البادية يريد الانتقام، وكان في حمص ابن أخ لأذينة يلقب بالمعنيّ، وكان يحسد عمه، ويريد سريره، فلما رأى تألب الأمتين عليه قال حان حينه. اقتله وألبس تاجه، وأرث عرشه.
فأما سابور فهزمته زينب بشجاعتها وبسالتها. وأما الروم فلم يبدأوا الحرب بعد. وأما المعني فاستأذن أذينة، ودخل عليه بوفد من أتباعه وأنصاره، فلما اشتد الهجير، وهدأ القصر، اغتاله وأعلن نفسه ملكاً على تدمر.
هاجت زينب هياجاً شديداً، وهتفت بقوادها المخلصين إلى الانتقام، وأهابت بشعبها إلى الثورة، وسارت بالجيوش إلى حمص، ثم حاربت المعني حروباً كثيرة، وصاولته بنفسها، وأخيراً أسرته، وحكمت عليه وعلى من ساعده ولاذ به بالصلب والفصد، وقالت هذا أقل ما يعاقب به خائن الوطن، وهكذا استأثرت بسرير تدمر وحدها، وما أجدر زينب بسرير تدمر، وما أليق زينب لأعظم من مثله.
كانت ميّ جميلة رائعة الجمال، حسناء بارعة الحسن، وكانت مي وفية كريمة شجاعة صبوراً، وكيف لا تكون كذلك وهي الابنة البكر لزينب ملكة العرب؟
وكان سولفا رئيس الوفد أميراً جميلاً فتاناً كريماً، اعتلقته مي اعتلاقاً شديداً، وشغفت به كثيراً، ولم يكن ما يضمر لها من الحب بأقل ما تضمر له، ولطالما اجتمعا وتشاكيا الهوى والجوى. إلا أن سولفا فارقها إلى روما ليفي عهد الرسالة، ومي تعذبت لفراقه كثيراً؛ وحنت إليه حنيناً، وبكت حتى كادت تتلف. وعلمت أمها بأمرها فعذرتها في نفسها، لأنها تعرف الحب ودلائله وأفعاله، وجنونه وفنونه. إلا أن الذي آلمها أن الروم أعداؤها وسيحاربونها، وما سولفا إلا رجل من رجالهم، بل قائد من قوادهم، فإذا خان وطنه في سبيل حبه استصغرته ولم ترض أن تصهر إليه، وإن لم يخن فابنتها مائتة غراماً ما في ذلك شك.
ولقد أقبلت عليها ذات يوم فقالت لها: أي مي! أي ابنتي العزيزة! لقد وكلت إليك ملك تدمر إلى حين، لما أعهد من حزمك ودرايتك، وأما أنا فذاهبة لأحارب الروم وأموت، أو أملك ما بين المشرق والمغرب. فتوكلت مي راضية مسرورة. إلا أنها بكت لفراق أمها كثيراً، وتجلدت لفراق سولفا وتصبرت فما ازدادت إلا حزناً ولوعة.
انقضى شهر، ثم أتى البشير يعلن انتصار مليكته على الروم، وإنها أسرت كثيراً من قادة الجيش وضباطه، فأمرت مي بسوق الأسرى إلى تدمر، وفي تدمر أطلّت عليهم من الطاق، فرأت بينهم الأمير سولفا، ففرحت كثيراً واندفعت إليهم، وحيتهم، ودعتهم إلى قصرها،
وأكرمتهم كثيراً، لأن سولفا بينهم، لا لأنهم قادة، ولا لأنهم من الروم. وهؤلاء أعجبوا بها وبحنكتها وأخلاقها كثيراً، وأول من أعجب بها سولفا. وبعد حين أقبلت زينب فارسة كمياً، فزغردت النساء، وهزجت الأطفال، وغردت طيور الأماني. وما انتهت إلى قصرها حتى سرّحت الأسرى، فأعظم الناس كرم خلقها، وهتف العرب والروم وكثير من الفرس: مرحى زينب الزباء! مرحى ملكة العرب!

لم تقنع زينب باستقلالها التام، بل أرسلت جيشاً فغزا ساحل البحر الأبيض الآسيوي كله، وأعدت جيشاً آخر لغزو النيل، وفتح مصر، فجعلت تدمر ملكية عظيمة يخشى بأسها القياصرة والأكاسرة. وملك الفرس الجديد (بهزاد) عقد معها معاهدة ليجعل منها ملاذاً وحمىً، وخطب مياً من زينب، فأقبلت هذه على ابنتها، وقالت بشراك يخطبك بهزاد ملك الفرس، فاعترفت لها مي بحبها سولفا وغرامها به. ولكن زينب تريد أن تزوجها ببهزاد لتأمن شره، فقد يكون له شر. فدعت سولفا إليها وقالت. أهكذا أيها الأمير تسيء إلى من أحسن إليك؟ قال ما كان لي ذلك أيتها المليكة المعظمة! قالت نمي إليّ أنك جاسوس لقائدك (أورل). قال اسمحي لي أيتها المليكة أن أقول لك، إن مثلي أرفع من أن يكون جاسوساً. إني لا أخفي أني صديق (أورل)، وصديق ملكي، وصديق الروم كلهم، كما أني أعترف أني صديق مخلص إليك، وإلى ابنتك. فوجمت زينب وقالت أيها الأمير! لقد وجدتك قائداً شجاعاً، ووطنياً مخلصاً، وصديقاً لي أميناً. وسأجعلك القائد الثاني للجيش الذي سأسيّره إلى مصر، فحارب وعد إليّ ظافراً منتصراً. فقال سأكون إياه، وكان إياه.

إلا أن مياً خافت أن يُقتل في هذه الحرب. وعلمت أن أمها لم ترسله إلا لتنجو منه. وبعد شهور أقبل فارس يقول. إن الجيش العربي قد انتصر، وعاد إلى المعسكر غانماً، غير أن أمراً أحزن الجيش كله، هو أن الأمير سولفا الذي ناضل كثيراً، وكان سبب النصر والفوز الأكبر، اختفى بغتة.

ما وصل الخبر إلى مي حتى صاحت قائلة: آه إنها حيلة مدبرة! إن سولفا قد قتل. ثم انزوت في حجرتها، وأنشأت تبكي وتنتحب. ولبثت على حالها أياماً، لا تأكل ولا تتكلم، حتى وهنت ووقعت في سرير المرض. فعالجها الطبيب فشفيت، إلا أن وجهها الناضر الزاهي أضحى شاحباً حائلاً، لا رونق فيه ولا حياة.

أقبل رسول بعد ذلك يقول إن الأمير سولفا حي، وهو يحارب المصريين بعيداً عن المعسكر. فطار لب مي فرحاً، وكادت تهوي على يدي الرسول تلثمهما شكراً، لكنها خلعت عليه خلعة، ووصلته بالمال والحلي.

عاد القائد العربي (زبدا) بعد أيام يرافقه الأمير سولفا فاستأذنا على زينب، ومثلا بين يديها فقال (زبدا) أيتها الملكة المعظمة، إن الأمير سولفا بطل يجب أن يفتخر بمثله، فهو هو الذي هزم المصريين، وجعل العلم العربي يخفق على ربوع النيل.

ما زال الروم يسألون زينب أن تعترف بسلطانهم عليها، وأن تدفع لهم جزية الانتداب، وما زالت زينب على شممها وإبائها، لا تعترف لهم بشيء. وأرسل إليها أورل ذات مرة يقول، تعترفين بسلطاننا عليك، وتدفعين الجزية، أو أحاربك وأخلعك، وأصلبك، وأسبي ابنتك، وأتوّج على سريرك زيد بن المعنيّ. فثارت زينب ثورتها، وغضبت غضبتها، وجمعت المجلس. وقالت إلى الحرب أيها الأبطال، إلى الانتقام أيها الرجال! إن تدمر العربية لا تستكين أبداً لتطاول الروم أو البربر. . .

وهكذا اضطرمت الحرب، ورحل الروم المقيمون في تدمر إلى وطنهم، بينهم الأمير سولفا. ولاقت زينب جيش الروم ورأت أن زيد بن المعني تحت لوائهم، فقالت الويل له من عاقبة كعاقبة أبيه، وحاربت وناضلت كثيراً، وشجعت القادة، وتقدمتهم إلى الموت.

غلب الروم، وانهزم جمعهم، فتبعتهم زينب تريد التنكيل بهم والقضاء عليهم، فما أحست إلا وفرسان جيشها في مستنقعات (العُوَيق) يغالبون الموت والموت يغالبهم، وما أحست إلا والروم قد طوق المشاة من جيشها، وأعمل فيهم السيوف، فجزعت كثيراً، وخطبت في سائر جنودها الخطب الحماسية، فما أفادت، وما زالت عددها تنفد، وعددها يقل حتى أوشكت على الهلاك فاستنجدت ملك الفرس قال مي ابنتك وأعنيك. فما رأت بداً من التراجع فتراجعت ودخلت تدمر محزونة مكتئبة، وأغلقت الأسوار.

بينما كانت زينب تحارب الروم جوار (إنطاكية) كانت مي ابنتها ترسل إليها العدد، وتدير أمر المملكة، وأقبل عليها ذات يوم رسول وقال لقد وجدنا الأمير سولفا يا سيدتي قتيلاً في سهول حماه. فقالت في نفسها إذن أهلك معه. وأمرت خادماً لها أن يأتيها بثعبان تتعلم إمساكه. ففعل. فخلت الثعبان وقربت الناب القاتل من الثدي الزاهي وهتفت قائلة: نفسي

فداء الأمير سولفا، وما كاد الناب يغرز في الثدي حتى هتفت وقالت: لا لا. نفسي فداء الوطن. ورمت الثعبان من النافذة. وإنها لتفعل إذا رسول بالباب يقول سيدتي هذه خوذة الأمير سولفا يرسلها إليك وهو جريح نعالجه وسيشفى عن قريب، فقالت: وا فرحتاه! ووصلت الرسول بما يستحقه.

حاصر أورل بجيشه تدمر، وطال الحصار فملّ، ونفدت مؤن المدينة، وتضاغى الناس جوعاً، فجمعت زينب المجلس الحربي، فلقيها القادة باكين، فقالت لم البكاء أيها الأبطال؟ إما الموت، وأما الحياة!

وصعدت ابنتها مي المنبر وقالت إن حفيدة السميْدع ميا لتضحي بنفسها فداء الوطن. أخرج بكم أيها الأبطال، من السرداب الخفي الذي يصل تدمر بنهر الفرات. ثم أسير إلى ملك الفرس وأعلن له قبول خطبته إياي، ثم نرجع بجيش وعدةٍ من عنده، فنكرّ على الروم، ونمزقهم شر ممزق!

فأكبرت زينب إخلاص ابنتها، وتفاديها وتضحية حبها في سبيل الواجب، وأكبر القواد إخلاص أميرتهم وشجاعتها.

في تلك الساعة قال زيد بن المعني لأورل قائد الروم: إن بين الفرات يا سيدي وبين المدينة سرداباً خفياً، ترسل منه زينب رسولها إلى بهزاد، ليمدها بالرجال والزاد، قال إذن الليلة تمسكون الرسول، وتفتحون الأبواب، وتدخلون المدينة، وتدكون القصر دكاً دكاً وتثلون العرش ثلاً ثلاً!

وما غشي الليل واختلط، حتى كانت مي متقلدة حمائل سيفها تتقدم القواد في السرداب، وتشجعهم. وما أطلت حتى كان زيد يطوقها بجنده، فأهابت به قائلة الويل لك أيها الخائن، وأقامت تحارب وتناضل ما تقدر أن تفعل، وودت لو تقتل ولا تؤسر، إلا أن أورل أقبل بجيشه فأسرها، وفتح المدينة، وأسر زينب، لكن لم يثل العرش ثلاً، وإنما توّج على سرير تدمر زيد الخائن.

سيقت زينب وابنتها والقواد إلى منزل الذل والهوان، وحكم أورل على زينب بالصلب، وفي الساعة التي كادوا ينفذون بها الحكم، كان قائد جميل روماني يدفع الجموع بمنكبيه، ويهب بالجلاد قائلاً: رويدك أيها العِلج. ويتقدم إلى أورل، ويركع عند قدميه، ويقول: أنا

صديقك سولفا أناشدك الصداقة التي بيننا أن تعفو عن زينب! إنها بطلة يا سيدي! إنها لم تحاربك إلا دفاعاً عن حريتها واستقلالها وكرامتها، فلا تلطخ جبين الدولة الرومانية الناصع بقتل البطلات اللائى يضحين أنفسهن في سبيل الحرية والكرامة والاستقلال!!

فصرخت زينب قائلة: لا، لا، الموت أعذب لي من الحياة بعد الآن! إن العربية لا تعرف الحياة إلا بالعز، ولن تعرفها إلا به أبداً!!

عفا أورل عن زينب وابنتها وأمر بنقلهما معظمتين إلى قصره. وتقدم الأمير سولفا يوماً من مي يخطبها فقالت: أنا لا أخفي عليك أيها الأمير أني أحبك كثيراً، ولكن لا أقدر أن ألبّي طلبك إلا حين أبعث؛ وأنا اليوم ميتة! إن العربيات اللائى دوخن الفرس والروم، وخفقت رايات نصرهن في لبنان وربوع النيل، لا يرضين التزوج بالروم، ولا يعرفن الحياة والحب إلا مع العز والكرامة والحرية.

حماه

مهدي الجم الطرابلسي

النقد

شخصية أبي شادي في ديوانه (الينبوع)

بقلم الأديب حسن كامل الصيرفي

يمر صدى المطرب أمام جهاز (الراديو) فيطوف في الأثير بين رياح عاصفة ونسمة هادئة، ويمتزج في ضجيج الحياة وجلبتها ويغرق في صمت البوادي والقفار، حتى يتلقاه جهاز الاستلام فإذا الصوت ناطق بشخصية صاحبه. . كذلك يمر ذهن الشاعر بمحيط الحياة، يسمو إلى الأفلاك فلا يسمع منه أهل الأرض إلا همسات ونجوى يستشعرون فيها حناناً وراحة، ويهبط منها إلى صخب الحياة فيحاول أن يلطف من حدة ذلك الصخب بأنغام قيثارته، ولكن جمود الحياة يستثيره فيترك القيثارة لحظات تراه فيها صاخباً ثائراً متململاً، وهو بين سموه عن الحياة وبين اندماجه فيها محتفظ بشخصيته.

وهناك شعراء يفقدون شخصياتهم في جولاتهم الواحد منهم كالمهرج عليه رقع ليس

بين ألوانها وحدة وتناسب. فالاحتفاظ بالشخصية يرجع إلى مؤهلات الشاعر الفنية، فالأول يطوف ويقف ويحلق ويهبط، وهو ينظر إلى العالم كما ينظر المصور إلى اللوحة التي يخط عليها بريشته عارفاً حدودها. أما الآخرون فيسيرون في طريقهم على غير هدى لم يرسموا لأنفسهم غاية.

وبمقدار احتفاظ الشاعر بشخصيته تكون قوته أو ضعفه، فلننظر إذاً في ديوان (الينبوع) ولنبحث عن شخصية أبي شادي، وعن مدى ظهورها أو تلاشيها. ولقد قرأت هذا الديوان فما كانت شخصية ناظمه تنأى عني أو تنمحي من أمامي قد يفقد الشاعر في أثناء حلمه الجميل ذاته ولكنه لن يغيب عن قارئه إذا استطاع أن يمزج روحه بآثاره.

فأبو شادي الذي أعرفه في حياة الناس شعلة فانية يريد أن يجمع العالم في يده فيحيله قطعة فنية في أقصر وقت كما تحيل النظرة الفاتنة دنيا العاشق لحظة قصيرة العمر مسرعة الخطى يتعجل اقتناص ما وراءها، هو نفسه أبو شادي الذي عرفته في حياة الشعر شعلة فانية يشقيها التسامي ويفنيها الكد.

فلأبي شادي شخصية واحدة تظهر دائماً وإن تنوعت ثيابها وتشكلت، فهو محب للحياة متصوف في حبه عالمي الروح، يريد الحياة خالصة سامية، يريدها قطعة فنية، فهو يحاول تهذيبها، أو هو يحاول تلوينها بألوان من السعادة تختلف فتبدو للناس عجباً، وتجتمع عنده

في قرارة نفسه، فلا يراها إلا وحدة متماسكة الأطراف متساوقة لا تناقض فيها، ويراها طريقاً إلى غايته وسبيلاً إلى أداء فكرته، وأنه ليشعر بحيرته بين كل هذا، ولكنها حيرة الشاعر أمام ربط معاني قصيدته حتى يلم بها فإذا هي آية تؤلف بين أبياتها وحدة تامة فيقول:

عييت من قلقي فيما وجدت له ... وفي المعاني لكوني أو لأحلامي
أسائل الدهر عنها وهو مضطرب ... مثلي، وأصحب كالمبهوت أعوامي
وأنتحي عن وجودي شبه منعدم ... في الصمت، والصمت آمالي وآلامي
في حيرة وكأني عالمٌ يئست ... منه الحياة فعافت روحي الدامي
أبكي وأضحك في نفسي فإن بها ... من التناقض إيساري وإعدامي
ما بين ضدين قد عاشت وليس لها ... من شاغل غير معنى عيشها السامي
تصدّرت لهموم الناس تسعدهم ... وعوقبت بين أحبابٍ وأخصام

ولقد ظلت غايته، وهي نشدان المثل الأعلى، تتبعه كظله حتى أكسبته هذه الشخصية: شخصية الصوفي العالمي؛ فهو أمام الجمال المغري صوفيّ يحوّل الشهوة الصاخبة في أعماق جسده فناً يملأ روحه ويغمرها، ولا يرى في ذلك الجمال إلا روح الوجود وروح الفن كما في قصيدته (العيون المتكلمة).

ولقد جاهر الكثيرون ممن نقدوا أبا شادي بأن في قصيدته (الينبوع) التي يقول فيها:

أيها الينبوع كم ساع إليك ... يدعي بغضاً كما أهوى لديك
كل ما يرجوه موقوف عليك ... فإذا الانعام منك وإليك!
أنت سحر غامضٌ للعالم ... أنت ينبوع الرجاء الدائم
أنت موسيقى الخلود الباسم ... أنت ومض للشريد الهائم!
أيها الينبوع يا رمز الأبد ... يا شعاع الله في طيف الجسد
كم معانٍ فيك كادت لا تحدّ ... وعزاءٍ عن حياة تفتقد!

دعوةً صريحة إلى الشهوة، وأن ليس فيها نظرة صوفية، ذلك أن فيها تقديساً للجسد، وتقديس الجسد ليس من معاني الصوفية عندهم. فهل يرى هؤلاء أن الشهوة حقيرة للدرجة التي لا تسمح للشاعر بأن يتناولها في فنه مع أنها الدافع الأول إلى خلق مواهب الفنانين،

وليست العبقريات إلا شهوة تجمعت في عدسة عين صوفية فتطهرت واستحالت سمواً. ومن منا ينكر أن هناك مثّالين عبدوا تماثيلهم وفتنوا بها بعد أن كانت فتنتهم وقفاً على المثال، وهل عيب عليهم تصويرهم جسد امرأة عارية تحمل معنى من معاني القداسة يراها المثّال ويراها كل من مسته يد الفن وإن خفيت على بعض الناس.

إن الفنان عندما يتكلم عن الأجساد أو يصفها لا تكون لديه إلا فكرة واحدة هي تقديس

الجمال، وهذا هو ما عناه الدكتور أبو شادي في قصائده عن الجمال والحب، وما عبر عنه بقوله:

عبثي هو الفن الجميل، وروحه ... روح السمو وإن يعدّ ضلالا

يعيش أبو شادي في بيئة ظالمة جاحدة، تحيط به خصومات وأحقاد وأعداء مناوئون، وقصيدته (المهزلة) التي صور فيها هذه البيئة تصويراً بديعاً سكب فيه من شعوره ما يتدفق حاراً، من أقوى الشعر الاجتماعي العاطفي. وفيها يقول:

ويلي من الدهر! يبكيني ويبتسم ... ولا يرد عوادي جَوْرِهِ السقمُ

قد عدَّ شر ذنوبي ما يفيض به ... قلبي إلى الناس من حب ويزدحم

ويلي من الدهر! ويلي! مَن أقرَّ له ... هذا العتوّ؟ وهل في الحب متهمُ

أطلّ دمعي وماء العين مضطرم ... وهاج وجدي وسخط القلب محتدمُ

أنا الذي في شكاتي يزأر الشمم ... وفي بكائي وناري يهزم الألمُ

سخرت من بيئتي لما برمت بها ... ونُحت لكن نواحي كله كرم

لست الذي إن تغالي في محبته ... فساءه الدهر عمراً ناله الندم

وهو إذ يصور لنا البيئة المصرية - وكم له من صور عنها! منها الحزينة الهادئة والصارخة الملتهبة والمتهكمة اللاذعة! - وينغمس في مناقشات ومجادلات لا يفقد شخصيته البارزة، تلك الشخصية الصوفية الزاهدة فيقول:

وعشتُ في وحدتي الموفورَ في شرفي ... أبكي وأضحك والأحداث تلتطمُ

ولقد جمع ديوان (الينبوع) صوراً شتى لصوفية أبي شادي الغالبة عليه منها هذه الأبيات من قصيدة (غليون الشاعر)

أشعل الغليون من نا ... ري وحيداً في الظلام

ناظراً نحو سماء ... في ضرام كضرامي

حبأتها غير لمعٍ ... في نجوم كابتسامي

حرقة الدنيا أطلت ... من ثقوب في الغمام

كل ما فيها جميل ... هو قلب في اضطرام

وكأن الخالق الفن ... ان يشقى بالتسامي

وهذه الأبيات من قصيدة (وداع الشاطئ في الإسكندرية) هي لوعة الفنان العازف بين الصخور الصمّاء:

إيه يا قلب تأمل ... هذه دنيا الصراعِ

يبدع الفنان لكن ... هو كالنور المشاعِ

خاسر مهما تفانى ... في وفاءٍ وابتداعِ

وفي قصيدته (عيش الألوهة) صفحة 63 نزوع قوي إلى التغلغل في أعماق كل ألوان الجمال، ليعيش في لبه وصميمه عيشة الألوهة، بعيداً عن أذى الحياة في حلم من أحلام الجنة. ولقد تلعب ريشته وترقص، فترسم لنا أخيلة لتلك السعادة التي يحكم بها في هدوئه وتصوفه

فأبو شادي ذلك الإنسان الدائم الحركة، الموزع الجهود، المختلف الصور، المتناقض السبل، رجل يحمل في طياته شخصية واحدة تظهر في شعره دائماً أتم الظهور، وفي قصيدته (بعد الكفاح) التي يتكلم فيها عن القطن المكدس بعد جنيه، فيعطينا منه فكرة، هي تلك الفكرة التي تشغل باله، والتي تشرق وتغرب فيها شخصيته، فيقول:

هذي بقايا القطن ترقد في الثرى ... كجنود حرب بعد طول كفاحِ

صرعى مجندلة، ولكن بعدما ... ضحت بأجمل نورها الوضاحِ

حتى النبات يرى الضحية واجباً ... ومُنىً فليس يضنُّ بالأرواحِ

هذه الشخصية التي تجلت لي في مطالعة (الينبوع) شخصية أبا شادي التي تلابس شعره هي بنفسها التي طالعتني وتجلت لي يوم قرأت دواوينه السابقة، وهي هي بنفسها التي يعيش بها بين الناس، فليس من الحق أن ننكر على شعرائنا ثبات شخصياتهم في شعرهم إلا إذا دققنا واندمجنا في روح الشاعر.

حسن كامل الصيرفي

العدد 57 - بتاريخ: 06 - 08 - 1934

حول باخرتنا (النيل)

بيننا وبين الأجانب

لمصر ماض بحري مجيد يرجع إلى عهد الفراعنة، وكان لمصر أساطيل حربية وتجارية تشق عباب البحر الأبيض، ليس عهدنا بها بأبعد من قرن، ولو لم تتألب أوربا النصرانية على مصر المسلمة في نافارين، ولو لم تصب مصر بعد ذلك بما أصيبت به من المحن السياسية التي هدت من إرادتها وحرياتها، لكان لها اليوم أسطول يحمي ثغورها، وكانت لها سفن تجوب البحار وتأخذ بنصيبها من حركة النقل والتجارة. فلما أتيح لمصر الناهضة أخيرا أن تبدأ بغزو الميدان الاقتصادي، اتجهت الأماني والجهود إلى إحياء الملاحة التجارية المصرية؛ ووفق بنك مصر - امتن واعز صروحنا الاقتصادية - إلى وضع الدعامة الأولى في سبيل تحقيق هذه الأمنية، فاقتنى باخرتين كبيرتين هما (زمزم) و (النيل)؛ وأدت (زمزم) في موسم الحج الماضي للحجيج من مختلف الأمم الإسلامية اجل الخدمات؛ وخصصت (النيل) لقطع البحر الأبيض والسفر بين الإسكندرية ومرسيليا، وقامت إلى اليوم بأربع رحلات موفقة، وأثارت بحسن استعدادها وفخامتها ودقة نظامها، واعتدال أجورها إعجاب كل من شهدها أو سافر على ظهرها من المصريين والأجانب؛ واغتبط المصريون أيما اغتباط إذا أصبحوا يستطيعون السفر على ظهر باخرة مصرية فخمة، تسيرها وتستثمرها أموال ومصالح مصرية، ويشعرون أثناء السفر عليها انهم بين أهلهم وذويهم.

بدأت مصر إذن بغزو ميدان اقتصادي جديد كان حتى اليوم وقفا على الأجانب، هو ميدان الملاحة البحرية؛ ومن قبل غزت مصر - خلال الأعوام الإثني عشر الأخيرة على يد بنك مصر وشركاته - مختلف الميادين والأعمال الاقتصادية والصناعية؛ ونمت هذه المؤسسات وازهرت، تحفها عناية الله، وإخلاص القائمين بأمرها وعطف الأمة كلها، حتى غدت ركنا هاما في حياة البلاد الاقتصادية التي كانت من قبل كلها غنما للمصالح والأيدي الأجنبية؛ وبثت هذه الحركة المباركة في الأمة روح الاهتمام بالمشاريع الاقتصادية والثقة فيها؛ وأخذت المصالح الأجنبية التي غصت بنجاحها تنظر إلى المستقبل بعين الخوف والجزع؛ وتلتمس لمحاربتها مختلف الوسائل والدعوات. وآخر ما أذيع عن جهودها في هذا السبيل موقفها من شركة الملاحة المصرية، ومن باخرتها (النيل)، فقد عرف إن بعض الجهات تبث ضد (النيل) دعوة سيئة، وتحث الأجانب على مقاطعتها، وتشترك بعض وكالات السياحة في هذه الخصومة فت فتأبى نشر (النيل) في قوائمها، وتأبى التعريف عنها وعن أجورها أو مواعيدها؛ وهذه خصومة غريبة في الواقع؛ أولاً لأن شركة الملاحة المصرية تدخل ميدان المنافسة المشروعة عزلاء من كل حماية خاصة، ولا تعتمد إلى على جهودها ومؤازرة شركتهم وباخرتهم؛ وثالثاً لأن هذه الدعوة في ذاتها غير صحيحة، إذ الواقع إن النيل من أفخم بواخر البحر الأبيض وأحسنها استعداداً، هذا فضلاً عن اعتدال أجورها ومصرية جوها ومحيطها.

على ان هذا التحرش من جانب المصالح الأجنبية بالجهود المصرية المشروعة لا يمكن ان يضر هذه الجهود، وإنما يرتد أثره بالعكس إلى المصالح الأجنبية ذاتها. فقد طال عهد مصر بعسف هذه المصالح التي تحيها الامتيازات الأجنبية الباغية؛ وقد عرفت مصر التي تطمح إلى استكمال حرياتها السياسية إن التحرير الاقتصادي دعامة قوية في هذا السبيل؛ وعرفت المصالح الأجنبية إن هذه الامتيازات التي تتمسك دائما بسلطانها وحمايتها لا يمكن أن تحقق لها ما تريد من عطف الشعب الذي تعمل بينه، لأن عطف الشعوب لا يكسب بالقوة والعنف، وعرفت من جهة أخرى إن هذا العطف ينثال على كل مشروع مصري خطير، ورأت أخيراً أن مصر تغزو الميدان الاقتصادي الذي احتكرته عصراً، بقوة ونجاح؛ فهذه العوامل كلها تجعل المستقبل مظلما في وجه المصالح الأجنبية، وتحملها على أن تقف أمثال هذه المواقف التي لا تعرب عن فطنة ولا كياسة من مصالح بلد ما زالت تستغل كرمه ورعايته وضعفه.

إن في هذا الموقف وأمثاله لعبرة جديدة لمصر والمصريين. وفي وسع مصر دائما -

في مثل هذه الظروف على الأقل - ان تقابل هذه الخصومة بمثلها؛ فالمصريون الذين يسافرون على البواخر الأجنبية ألوف وألوف؛ ولن تتاثر شركة الملاحة المصرية و (النيل) بهذه الدعاية الوضعية؛ ولكن الشركات الأجنبية يمكن أن تتكبد خسائر فادحة يوم يقاطعها المصريون بحق، ويؤثرون عليها (النيل) وغيرها من البواخر التي نرجو أن تقتنيها مصر في أمد غير بعيد.

فلتسر شركة الملاحة المصرية، ولتسر كل شركاتنا المصرية في طريقها محفوفة بالرعاية القومية الشاملة، فان هذا العدوان لن يضيرها في شيء، ولكنه بالعكس يكسبها عطفاً جديداً، ويمدها بروح جديد لمتابعة العمل المجيد الذي تقوم به في سبيل مصر.

(ع)

في اللهب ولا تحترق

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

أفي الممكن هذا؟

لعوب حسنة الدل، مفاكهة مداعبة، تحي ليلها راقصة مغنية؛ حتى إذا اعتدل الليل ليمضي، وانتبه الفجر ليقبل - أنكفات إلى دارها فنضت وشيها، وخرجت من زينتها، وخلعت روحا ولبست روحا، وقالت: اللهم إليك، ولبيك اللهم لبيك. ثم ذهبت فتوضأت وأفاضت النور عليها، وقامت بين يدي ربها تصلي . . .!

هي حسناء فاتنة، لو سطع نور القمر من شيء في الأرض لسطع من وجهها. وما تراها في يوم إلا ظهرت لك احسن مما كانت، حتى لتظن إن الشمس تزيد وجهها في كل نهار شعاعة ساحرة، وان كل فجر يترك لها في الصبح بريقا ونضرة من قطرات الندى.

وتحسب أن لها دما يطعم فيها يطعم أنوار الكواكب، ويشرب فيما يشرب نسمات الليل.

وإذا كانت في وشيها وتطاريفها وأصباغها وحلاها لم تجدها امرأة، ولكن جمرة في صورة امرأة؛ فلها نور وبصيص ولهب، وفيها طبيعة الإحراق. . . أن الذي وضع على كل جمال ساحر في الطبيعة خاتم رهبة - وضع على جمالها خاتم قرص الشمس فإذا رأيتها بتلك الزينة في رقصها وتثنيها - قلت: هذه روضة مفتنة اشتهت أن تكون امرأةفكانت، وهذا الرقص هو فن النسيم على أعضائها.

وهي متى نفذت إلى البقعة المجدبة من نفسك أنشأت في نفسك الربيع ساعة أو بعض ساعة.

وتنسجم أنغام الموسيقى في رشاقتها نغمة إلى حركة؛ لأن جسمها الفاتن الجميل هو نفسه أنغام صامتة تسمع وترى في وقت معا وتنسكب روحها الظريفة بين الرقص والموسيقى، لتخرج لك بظرفها صراحة الفن من إبهامين كلاهما يعاون الآخر.

وهي في رقصها إنما تفسر بحركات أعضائها أشواق الحياة وأفراحها وأحزانها، وتزيد في لغة الطبيعة لغة جسم امرأة.

وكان الليل والنهار في قلبها، فهي تبعث للقلوب ما شاءت ضوءاً وظلمة.

وهي إلى القصر، غير انك إذا تأملت جمالها وتمامها حسبتها طالت لساعتها.

والى النحافة، غير انك تنظر فإذا هي رابية كان بعضها كان مختبئا في بعض.

ويخيل إليك أحياناً في فن من فنون رقصها ان جسمها يتثاءب برعشة من الطرب، فإذا جسمك يهتز بجواب هذه الرعشة لا يملك إلا أن يتثاءب . . .

ويجن رقصها أحياناً، ولكن لتحقق بجنون الحركة أن العقل الموسيقي يصرف كل أعضاء جسمها.

ومهما يكن طيش الفن في تأودها ولفتتها ونظرتها وابتسامها وضحكها - ففي وجهها دائما علامة وقار عابسة تقول للناس: أفهموني.

ولما رأيتها شهد قلبي لها بان على وجهها من نور الجمال نور الوضوء؛ وإنها متحرزة ممتنعة في حصن من قلبها المؤمن، يبسط الأمن والسلامة على ظاهرها؛ وان لها عيناً عذراء لا تحاول التعبير، لا سؤالاً ولا جواباً ولا اعتراضا بينهما؛ وان قوة جمالها تستظهر بقوة نفسها، فيكون ما في جمالها شيئا غير ما في النساء - شيئاً عبقرياً بالغ القوة، يكف الدواعي ويحسم الخواطر، ويرغم الإعجاب إن يكون ذهولاً وحيرة، ويكره الحب أن يرجع مهابة واحتشاماً.

والرواية كلها في باطنها تظهر على ضوء من مصباح قلبها، وما وجهها إلا الشاشة البيضاء لهذه (السيما)، وهل يكون على الوجه إلا أخيلة القلب أو الفكر؟
وعندي أن المرأة إذا كان لها رأي ديني ترجع إليه، وكان أمرها مجتمعاً في هذا الرأي، وكانت أخلاقها محشودة لها، متحفلة به - فتلك هي الياقوتة التي ترمي في اللهب ولا تحترق، وتظل مع كل تجربة على أول مجاهديها، إذ يكون لها في طبيعة تركيبها الياقوتي ما تهزم به طبيعة التركيب الناري.
وليس من امرأةإلا وقد خلق الله لها طبيعة ياقوتية، هي فطرتها الدينية التي فيها؛ إن بقيت لها هذه بقيت معها تلك، ولكنها حين تنخلع من هذه الفطرة تخذلها الفطرة والطبيعة معاً، فيجعل الله عقابها في عملها، ويكلها إلى نفسها؛ فإذا هي مقبلها أغلاطها ومساوئها بطرق عقلية ان كانت عالمة، وبطرق مفضوحة إن كانت جاهلة. وما بد أن تستسر بطباع إما فاسدة وإما فيها قوة الاستحالة إلى الفساد؛ ويرجع ضميرها الخالي محاولاً أنئ من ظاهرها، بعد ان كان ظاهرها هو يمتلئ من ضميرها؛ وتصبح المرأة بعد ذلك في حكم أسباب
حياتها، مصرفة بهذه الأسباب، خاضعة لما يصرفها؛ ويذهب الدين وينزل في مكانه الشيطان؛ ويزول الاستقرار ويحل في محله الاضطراب؛ وتنطفئ الأشعة التي كانت تذيب الغيوم وتمنعها أن تتراكم، فإذا الغيوم ملتف بعضها على بعض؛ وتخذل القوة السامية التي كانت تنصر المرأة على ضعفها فتنصرها بذلك على أقوى الرجال، فإذا المرأة من الضعف إلى تهافت، تغلبها الكلمة الرقيقة، وتغترها الحيلة الواهنة، وتوافق انخداعها كل رغبة مزينة، ويستذلها طمعها قبل أن يستذلها الطامع فيها. ولتكن بعد ذلك من هي كائنة أصلا وحسبا وتهذيبا وعقلا وأدبا وعلما وفلسفة، فلو إنها امرأةمن (الإسمنت المسلح) لتفتتت بالطبيعة التي في داخلها، ما دامت الطبيعة متوجهة إلى الهدم بعد ان فقدت ما كان يمسكها أن تهدم وان تنهدم.
لقد رق الدين في نسائنا ورجالنا. فهل كانت علامة ذلك إلا أن كلمة (حرام، وحلال) قد تحولت عند أكثرهم وأكثرهن إلى (لائق، وغير لائق) ثم نزلت عند كثير من الشبان والفتيات إلى (معاقب عليه قانوناً، ومباح قانوناً. . .) ثم انحطت آخراً عند السواد والدهماء إلى (ممكن، وغير ممكن. . .).
قالت الياقوتة، أعني الراقصة:
- أخذت أبي من عهد الطفولة بالصلاة، واثبت في نفسي ان الصلاة لا تصح بالأعضاء ان لم يكن الفكر نفسه طاهرا يصلي لله مع الجسم، فان كانت الصلاة بالجسم وحده لم يزدد المرء من روح الصلاة إلا بعدا. وقر هذا في نفسي وأعتدته، إذ كنت أتعبد على مذهب الأمام الشافعي (رض)، فأصحح الفكر، واستحضر النية في قلبي، وانحصر بكلي في هذا الجزء الطاهر قبل أن أقول: (الله اكبر)؛ وبذلك أصبح فكري قادراً على أن يخلع الدنيا متى شاء ويلبسها، وان يخرج منها ثم يعود إليها؛ ونشأت فيه القوة المصممة التي تجعله قادرا على أن يتصرف بي عما يفسد روح الصلاة في نفسي، وهي سر الدين وعماده.
ويا لها حكمة أن فرض الله علينا هذه الصلوات بين ساعات وساعات، لتبقى الروح أبداً إما متصلة أو مهيأ لتتصل. ولن يعجز اضعف الناس مع روح الدين أن يملك نفسه بضع ساعات، متى هو اقر اليقين في نفسه، انه متوجه بعدها إلى ربه، فخاف أن يقف بين يديه مخطئا أو إثماً؛ ثم هو إذا ملك نفسه إلى هذه الفريضة ذكر أن بعدها الفريضة الأخرى،
وإنها بضع ساعات كذلك، فلا يزال من عزيمة النفس وطهارتها في عمر على صيغة واحدة لا يتبدل ولا يتغير، كأنه بجملته - مهما طال - عمل بضع ساعات. قالت الياقوتة:
ورأيت أبي يصلي، وكذلك رأيت امي، فلا تكاد تلم بي فكرة آثمة إلا انتصابا أمامي فاكره أن استلئم إليها فأكون الفاسدة وهما الصالحان، واللئيمة وهما الكريمان؛ فدمي نفسه ببركة الدين يحرسني كما ترى.
قلت: فهذا الرقص. . .؟
قالت: نعم، انه قضى علي أن أكون راقصة، وان التمس العيش من اسهل ثلاث طرق، والينها وأبعدها عن الفساد، وان كان الفساد ظاهرها. أريد: الرقص، أو الخدمة في بيت، أو العمل في السوق. وأنا مطيقة لحريتي في الأولى، ولكني لن املكها في

الأخيرتين ما دام علي هذا الميسم من الحسن؛ وكم من امرأةمتحجبة وهي عارية الروح، وكم من سافرة وروحها متحجبة. ان كنت لا تعلم هذا فاعلمه، وليس السؤال ما سالت، بل يجب ان يكون وضعه هكذا: هل ما ترى هو في ثيابي فقط، أو هو في ثيابي ونفسي؟

ها أنت ذا تغلغل نظرتك في عيني إلى المعاني البعيدة، فهل ترى عيني راقصة؟

قلت: لا والله، ما ارى عيني راقصة، ولكن عيني مجاهد في سبيل الله. . .!

فاستضحكت وقالت: بل قل: عيني مجاهد يهزم كل يوم شيطانا أو شياطين.

إني لأرقص وأغني، ولكن أتدري ما الذي يحرزني من العاقبة، ويحميني من وباء هذا الجمهور المريض النفس؟ فاعلم أني لا اشعر بالجمهور، ولا بروح المسرح، إلا كما اشعر بروح المقبرة والمشيعين إليها؛ فهيهات بعد ذلك هيهات! ومن هذا لا أحس بقلوبهم ولا بشهواتهم، وما أنا بينهم إلا كالتي تؤدي عملا فنيا على ملأ من الأساتذة الممتحنين، والنظارة يحكمون لها أو عليها؛ فهي في فكرة الامتحان، وهم لأنفسهم فيما شاءوا. . .

ولست أنكر أن أكثرهم، بل جميعهم يخطئ في طريقة تناوله السيال الكهربائي المنبعث من نفسي، ولكن لا علي، فهذا السيال نفسه ينبعث مثله من الزهر، ومن القمر والكواكب، ومن كل امرأةجميلة تمشي في الطريق، ومن كل جميل في الطبيعة، وحتى من الأمكنة والبقاع إذا كان لإنسان فيها ذكريات قديمة، أو نبهت ببعض معانيها بعض معانيه.

قالت الياقوتة: فإنما كما ترى؛ اضطرب وجوها من الاضطراب في جذب الناس ودفعهم معا. وإذا سلمت المرأة من أن يغلبها الطمع على فكرها سلمت من أن يغلبها الرجل على فضيلتها. وفي النساء حواس مغناطيسية كاشفة منبهة خلقت فيهن كالوقاية الطبيعية، لتسلم بها المرأة من أن تخطر عفتها لغرض، أو تغرر بنفسها لإنسان؛ فانك لتكلم المرأة، وتزين لها ما تزين، وهي شاعرة بما في نفسك، وكأنها ترى ما في قلبك ينشأ ويتدرج تحت عينيها، وكأنه في وعاء من الزجاج الرقيق الصافي تحمله على كفك ويفضح، لا في قلب من لحم ودم تخفيه بين جنبيك فيطوي ويكتم.

وليس يبطل هداية هذه الحاسة في المرأة إلا طمعها المادي في المال والمتاع والزينة؛ فان هذا الطمع هو القوة التي يغلب بها الرجل المرأة، فبنفسها غلبها: وإذا تبذل طمع امرأةفي رجل فهي مومس، وان كانت عذراء في خدرها.

ويا عجبا! إن وجود الطبيعة في النفس غير الشعور بها؛ فليس يشعر المرأة بتمام طبيعتها النسائية إلا الزينة والمتاع وما به المتاع والزينة. فكان الحكمة قد وقتها وعرضتها في وقت معا، لتكون هي الواقعة أو المخطرة لنفسها، فبعملها تجزي، ومن عملها ما تضحك وتبكي. قالت الياقوتة: ولذا أخذت نفسي إلا اطمع في شيء من أشياء الناس، وسخوت عن كل ما في أيديهم؛ فما يتكرمون علي إلا بهلاكي، وحسبي أن يبقى لعيني قلبي ضوؤهما المبصر.

وأنا اعتمد على شهامة الرجل، فان لم أجدها علمت أني بازاء حيوان إنساني، فأتحذروه حذري من مصيبة مقبلة. وإذا جاءني وقح خلق الله وجهه الحسن مسبة له، أو خلقه هو مسبة لوجهه القبيح، ذكرت أني بعد ساعة أو ساعات أقوم إلى الصلاة، فلا يزداد مني إلا بعد وان كان بازائي، فاغلظ له واتسخط، واظهر الغضب واصفعه صفعتي.

قلت: وما صفعتك؟

قالت: إنها صفعة لا تضرب الوجه ولكن تخجله.

قلت: وما هي؟

قالت الياقوتة: هي هذه الكلمة: أما تعرف يا سيدي أني أصلي وأقول (الله اكبر) فهل أنت اكبر. . .؟ أأقيم لك البرهان على صغارك وحقارتك، أأنادي الشرطي. . .؟!

تختنق بالرقص وتنتعش بالصلاة، وفي كل يوم تختنق وتنتعش. ولكني لا أزال أقول:

أفي الممكن هذا؟

أفي المترادت شرعاً! رقصت وصلت. . .؟

مصطفى صادق الرافعي

أزمة الكتاب ومصير الكتب

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كان القرن التاسع عشر عصر الآلات والاختراعات الصناعية، فحلت الآلة مكان اليد العاملة في معظم الصناعات، وحرم ملايين العمال من العمل اليدوي، وساد البؤس في الطبقات العاملة، واستمر هذا التطور طول النصف الأخير من القرن الماضي حتى استقرت الصناعة أخيراً على قواعدها الجديدة، وحل العمل النفي والآلي مكان العمل اليدوي.

واليوم نشهد انقلابا عظيما آخر في مصير الإنتاج العقلي؛ فقد كان (الكاتب) حتى أوائل هذا القرن أهم وانفس غذاء علي للطبقات المثقفة، وكانت قراءة الكتب المختارة أسمى وأمتع وسائل التربية والتهذيب والرياضية العقلية، ولكن التطورات العلمية والأدبية والاجتماعية التي حدثت منذ الحرب الكبرى كان لها اثر كبير في تطور الذوق الأدبي أو بعبارة أخرى في قيمة الكتب وفي مركز القراءة وميول القراء. وليس من ريب في أن الكتاب قد فقد اليوم كثيرا من سحره وقيمته المادية والاجتماعية، وقل الإقبال كثيرا على اقتنائه وقراءته، ولكن ذلك لا يعني أن منسوب القراءة قد هبط، فالقراءة بالعكس قد كسبت من هذا التطور بصفة عامة، وزاد منسوبها بلا ريب تبعا لازدياد نسبة المتعلمين في مختلف الأمم؛ وإذا كان الذوق الأدبي قد تطور وخسر الكتاب القيم كثيرا من قرائه، فان أولئك القراء تحولوا إلى ألوان جديدة من الأدب الحفيف والى قراءة الصحف والمجلات. والواقع أن الصحافة أول وأقوى العوامل الجديدة التي آثرت في مركز الكتاب ومدى انتشاره. ففي ربع القرن الأخير تقدمت الصحافة تقدماً عظيماً، وغزت كل ميادين التفكير والعلوم والفنون، ولم تبق دوريات خبرية فقط؛ ومعظم الصحف اليومية السياسية، في جميع الأمم، تخصص للأدب والنقد والعلوم والفنون والمسرح والاقتصاد والمالية والرياضة صحفا خاصة حافلة بمختلف البحوث والشذور القيمة، هذا عدا القصة الصغيرة اليومية، وعدا الرواية المسلسلة، وعدا الصور الكثيرة؛ ثم هنالك المجلات الأدبية والعلمية، الأسبوعية والشهرية، وقد بلغت مدى عظيما من التقدم والذيوع، وأضحت مسرحا لأعظم الاقلام، ومعرضا لمختلف البحوث وأهمها. وتمتاز المجلة على الكتاب بتنوع مادتها، فهي تجمع بين الفصول الأدبية والعلمية

والسياسية، والقصة والمسرح والأزياء، ويكاد كل عدد منها يكون كتابا مستقلا بذاته، وهي دائما متنوعة متجددة ترضي مختلف القراء والأذواق بأكثر مما يرضي الكتاب الموحد الفكرة والموضوع، والصحافة الأدبية هي بلا ريب اشد خصوم الكتاب ومنافسيه، واشدها تأثيراً في مركزه ومدى انتشاره لأنها تبدو في بعض ألوان من الكتاب، وتأخذ بالسهل الموجز منها، حتى انك لترى أحياناً موضوعات وبحوثا خطيرة تشغل في الكتاب مجلدا أو مجلدات تلخصها المجلة في فصل لا يتجاوز عدة صفحات، وربما كان ملخصها مؤلف الكتاب ذاته؛ هذا إلى ما تتوخاه المجلة من اختيار الموضوعات الشائقة والأساليب السهلة التي تغري كثيراً من القراء على تفضيلها على الكتاب.

هذه المنافسة الأدبية القوية كانت وما تزال شديدة الوطأة على الكتاب، ولم يكن في وسع الكتاب أن ينافسها، لأنها تجري طبقا للعوامل النفسية وطبقا لتطور الظروف الاجتماعية؛ أضف إلى ذلك المسالة الاقتصادية اعني مسالة الثمن، فالصحف والمجلات تعرض بضاعتها الأدبية على الجمهور بأثمان بخسة يستطيع إن يؤديها الملايين، معتمدة في ذلك على كثرة انتشارها وما تجنيه من أجور الإعلانات. ولكن الكتاب القيم لم يستطع حتى اليوم وليس في الإمكان ان ينزل إلى هذا المستوى. نعم حاول كثير من المؤلفين والناشرين أن يسايروا هذا التطور في الذوق الأدبي، فعمدوا إلى إخراج الكتب السهلة الموجزة، والى معالجة الموضوعات العلمية الخطيرة في أساليب خفيفة عادية مما يعرف اليوم بتبسيط العلوم، وهي طرية تعالج بها اليوم اخطر واعقد الموضوعات العلمية في الصحف والمجلات، وان كانت لا تؤديها دائما بما يجب من الدقة والتحقيق، وكذلك عمد كثير من المؤلفين والناشرين إلى إخراج الموضوعات الخطيرة العلمية والسياسية والاجتماعية وغيرها في ملخصات صغيرة، وفي فصول متناثرة، أو إلى جمع القطع المختارة في كتاب وأحد ليكون له بذلك ما

للمجلة أو الصحيفة من التنوع، وعمدوا فوق ذلك إلى إخراج هذه الكتب في طبقات شعبية رخيصة لتكون في متناول جميع الطبقات، ومن المعروف أيضاً أن كثيراً من كتاب القصص العالميين يخرجون اليوم كتبهم في طبعات شعبية عديدة، ويتحرون اختيار القصص والحوادث المثيرة والشائقة، وكثير منهم يفضل كتابة القصص الشرطية، وقطع السينما لأنها تدر عليهم أرباحا حسنة. والخلاصة ان الكتاب اضطر تحت
ضغط هذه المنافسة الشديدة التي شرحناها أن يتطور نوعا وان يساير الذوق الأدبي والظروف الاجتماعية الجديدة. ولكنه مع ذلك لا يزال بعيداً عن أن يسترد مركزه أو يقاوم هذا التيار الجارف الذي يهدد مركزه وقيمته وتقاليده وقد غدت السينما والراديو من اشد خصوم الكتاب، ففي السينما تلخص أو تمسخ أمهات القصص حتى يمكن إخراجها في صور تلائم الجمهور، ولا يقع الجمهور منها إلا على الجانب القصصي، ولا يلمس شيئا من قيمتها الأدبية أو الفنية الهامة، وتذاع فيه ملخصات عن معظم المباحث والموضوعات الخطيرة التي تعني بها الحركة الفكرية، ومزيته في انه ينقل ذلك كله للسامع وهو جالس في مكانه الوثير في المقهى أو المنزل، لا يكلفه عناء القراءة، وخطره على الكتاب والحركة الفكرية في أن الإذاعة الموجزة السهلة تمسخ معظم الموضوعات العلمية والأدبية التي تتناولها، وتصرف بذلك ملايين السامعين عن قراءتها وتتبعها في مصادرها القيمة.

وفي ظل الطغيان السياسي الذي يسود اليوم بعض الأمم المتمدنة تواجه الحركة الفكرية ويواجه الكتاب اشد المخاطر والأزمات، ففي بلاد كإيطاليا وألمانيا وتركيا وبولونيا وروسيا تسودها النظم (الدكتاتورية)، وتخمد الحريات السياسية والفكرية، تصطبغ الثقافة والتفكير بنفس الألوان التي يفرضها الطغيان وتقتضيها مصلحته وغاياته السياسية؛ وحيثما تنعدم حرية الفكر، تخبو حركة التأليف الحر وتغدو الصحافة والمفكرون والكتاب طوعاً أو كرها جنود النظام القائم، ويطارد المفكرون الأحرار، وتطارد كتبهم بلا رافة؛ وفي ظل هذه الأنظمة الطاغية، التي يزعم فيها الطغاة وأعوانهم انهم يعبرون عن رغبات الشعب وأماله وتفكيره، يختفي الإنتاج الفكري القيم ويتحول إلى نوع من الأدب الذليل الخاضع، يشيد جله بالطغاة ونظمهم ومبادئهم وأعمالهم. وقد شهدنا من مناظر هذا الاضطهاد الفكري في العهد الأخير ألوانا شنيعة في ألمانيا، في ظل الطغيان الهتلري، حيث طورد جميع المفكرين والكتاب الذين لم يسايروا الطغيان الجديد ولم يرتضوا فظائعه، ففر منهم من فر خارج ألمانيا، وقتل من قتل، واعتقل من اعتقل؛ وشرد كثير من أقطاب الأدب الألماني المعاصر، وحظرعلى دور النشر الألمانية أن تتعاقد معهم أو تنشر لهم شيئا، ومنعت كتبهم من التداول، واحرقت كتب كثيرة في أوائل عهد النازي في شوارع برلين على نحو ما كان يجري في العصور الوسطى على يد محاكم التحقيق؛ والخلاصة إن الإنتاج الأدبي في ألمانيا قد أصيب في عهد الطغيان الهتلري بضربة مميتة، وأضحت الثقافة الألمانية والأدب الألماني الحاضر والصحافة الألمانية الحاضرة صورة متماثلة مملة للمبادئ والنظريات والآراء التي يفرضها الطغيان السياسي يمر الإنتاج الأدبي دائما بهذا الدور، ويصاب التأليف بمثل هذا العقم والتماثل ويواجه الكتاب اشد المحن.

وهنالك أخيرا روح العصر؛ فعصرنا عصر سرعة ورياضة، والسرعة تدفع كل الناس بلا هوادة، وشغف الرياضة يستغرق اهتمام الشباب وفراغه؛ فلا يجد من الوقت أو الرغبة ما يحمله على التماس القراءة، ولا سيما القراءة الرزينة الهادئة. وإذا أتيحت للشباب فرصة القراءة اليوم فماذا يقرأ؟ الكتب أو المجلات الخفيفة، المبتذلة غالبا، لأنه لا يقرأ وإنما يقرأ للهو فقط، ولا يريد أن يبذل جهودا عقلية في استيعاب كتب الثقافة الرفيعة، وهذه الروح السيئة بلا ريب، من أقوى العوامل في صرف أنظار الشباب عن الكتاب.

وهل نحن بحاجة للقول بان جميع ما قدمنا من العوامل والظروف ينطبق على سير الحركة الفكرية والإنتاج الأدبي في مصر كل الانطباق؟ إن الكتاب يواجه في مصر نفس الأزمة الخطيرة التي يواجهها في جميع الأمم المتمدنة؛ وقد صرفت الصحافة والمجلات الأدبية والقصصية ولا سيما المجلات الخفيفة والماجنة أنظار الشباب عن القراءة الرزينة المفيدة؛ وافسد الأدب المبتذل، ولا سيما الأدب الجنسي ذوق الشباب وعقليته، فأنحط مستوى تفكيره وتقديره؛ وأضحى الكتاب القيم لا يجد بكل أسف بين

الشباب كثيرا من الأنصار. أضف إلى ذلك ظرف مصر الخاص وهو انتشار الأمية فيها، وضعف نسبة المتعلمين إلى حد لا يزال يزري بكرامتها، ولولا إن الشعوب التي تتكلم العربية التي نكتب بها في مصر تبلغ زهاء سبعين مليوناً، لكان خطب الإنتاج الأدبية العربي مضاعفاً؛ ومع ذلك فالمعروف أن الكتب العربية القيمة تواجه اشد الأزمات، وان الكتاب الذي لا يطبع منه سوى ألفي أو ثلاثة آلاف نسخة يمكث أعواماً طويلة قبل أن تنفذ نسخه بين السبعين مليوناً من الشعوب التي تتكلم العربية والخلاصة أن الكتب تواجه اشد أزمة عرفتها في العصر الحديث. وقد تتفاقم هذه الأزمة، ويزداد ذيوعه كساداً، ولكن الكتاب لا يمكن مع ذلك أن يختفي أو يموت. ذلك أن الكتاب قد ولد مع المدنية الإنسانية، ولبث مدى العصور اقدس متنفس للذهن البشري، وما دام الذهن البشري ينتج ويعبر عما يجول فيه، فلا بد من التجائه إلى الكتاب،

وقد مر الإنتاج الفكري ومرت الكتب خلال العصور المظلمة بمحن شديدة، ولاذت بالاختفاء أيام الغزوات البربرية في عهد الهون والوندال، ولبثت في الأمم الأوربية مدى قرون تقبع في ظلمات الاديرة، ولم تجد متنفساً وملاذاً إلا في الدول الإسلامية، في ظل المدنية الإسلامية الزاهرة؛ واستمرت محاكم التحقيق (التفتيش) عصورا تجد في مطاردة التفكير الإنساني وفي مصادرة الكتب وحرقها؛ ولكن هذه الخطوب والمحن كلها لم تخمد جذوة التفكير الإنساني، ولم تقض على حياة الكتاب؛ وخرج الكتاب ظافرا من هذه المحن، وجاءت المطبعة في فجر العصر الحديث فاستطاع بعونها أن يغمر العالم؛ ولم تقو عصور الطغيان ونظمه على مغالبة الذهن البشري؛ فإذا كان الكتاب يجوز اليوم أزمة فكرية اجتماعية، نظرا لتطور الحياة والاختراعات العلمية، فتلك أزمة مؤقتة، سوف يتاح للكتاب أن يتغلب عليها متى استطاع أن يهيئ نفسه للسير مع الظروف الجديدة في ألوان لا تغض من قدره ورفيع مكانيه.

محمد عبد الله عنان المحامي

إبراهيم بك مرزوق ومحمد سعيد بك

بقلم الأستاذ محمود خيرت

نقلت الرسالة في عددها الرابع والخمسين ما دونه المغفور له تيمور باشا من حياة المرحوم إبراهيم بك مرزوق وانه كان شاعرا مجيدا نظم كثيرا من المقطوعات والقصائد. ولكنه مع توسع في ذكر مولده ونشأته وأدوار تقلبه في مناصب الحكومة أوجز كثيرا في حياته الأدبية مقتصرا على ان المرحوم محمد بك سعيد هو الذي جمع ديوانه ونشره في سنة 1387هـ، فلم يتعرض إلى شيء من شعره ليعيطنا صورة ريانة من تلك الحياة.

وقد كنت أود لو أن بين يدي ديوان هذا الشاعر الذي لم اهتد إليه في المكاتب، فاسد هذا الفراغ، ومع ذلك فانه لا يزال عالقا في ذهني منه هذان البيتان:

لم يُرضِني الهجرُ حتى ... عُمر الحبيب تقضى

والأرض ضمَّتهُ قبْلي ... يا ليتني كنت أرضا (أرضى)

وقد لا يكون هذا القدر القليل كافيا للحكم على هذا الشاعر من حيث ميوله المختلفة في مجموعها وعلاقتها بالبيئة التي عاش فيها، ولكنه على كل حال شاهد صدق على ما كانت عليه نفسه من الرقة وكان عليه أسلوبه من الفخامة والحلاوة والسهولة، فهذان البيتان مع انهما من المجزوء تضمنا قصة بحالها يجول فيها الحب وجناته والهجر وأناته، والموت وأظفاره، والدمع وانهاره، وهو بين الحبيب الذاهب، واليأس الغالب، يعود باللائمة على نفسه التي لم تقنع بالهجر وتجد لذاتها فيه، حتى ضمته الأرض قبل أن تضمنه حنيا قلبه الشجي المحترق، وهو مع كل هذا لا يفوته الحكم الصناعة فيخرج لنا جناسا لا نحس عنده جهدا ولا تكلفاً ولا مللاً، يجمع بين الندم على عدم الرضى، والحسرة على فوز الأرض بالحبيب من دونه.

على أن الذي هداني إلى هذا الديوان وأنا فتى هو نفس المرحوم محمد سعيد بك الذي عنى بجمعه ونشره، فقد كان كثيرا التردد على المرحوم جدي، (وكان صديق أبيه)، وكان من تردده علينا أن حبب إلى نفسي قرض الشعر في ذلك العهد.

ولقد كان محمد سعيد بك واسع الاطلاع غزير المادة فياضا مجيدا. اذكر انه زارنا مرة فوجد معي قريبا جميل الطلعة، فمال علي هامساً في إذن ي ما اسمه؟ قلت مصطفى، وعند

ذلك انفرد بنفسه في ركن من الغرفة، حتى إذا مضت أربع دقائق اقبل علي يقول بصوت خافت: اسمع، ثم أنشدني هذا البيت:

وأعطشني وجدي إلى رشف ريقه ... لفرط صبابتي فمذ قال مُصْ طَفَى

ومن شعره رحمه الله في سيدة رثاها:

أيها المغرور بالدنيا اعتبر ... فبوعظ كم ينادى الزمن

بينما الإنسان في الدنيا إذا ... قائلٌ هذا فلان يدفن

ها هنا درة خدر فارقت ... قصرها الزاهي وهذا المسكن

أنشد الرضوان في تاريخها ... رحمة الله عليها جلشنُ

وجمل عجز البيت الأخير يعطيك تاريخ السنة التي توفيت فيها تلك السيدة، وإذا علما ان محاولة الحصول على التاريخ عند قرض الشعر من الأمور المعقدة التي لا يمكن فيها الجمع بين التاريخ وحلاوة الشعر أدركنا من هذا الشعر مقدرة هذا الشاعر الكبرى في تذليل هذه الصعوبة، فان إرسال الرحمة في هذه الصيغة التي ألفها الناس وذكر اسم المرثية والحصول مع ذلك على التاريخ المطلوب في شعر من بحر الرمل حلو الألفاظ والمعنى كاف للتدلي على مكانته. ولق بل من مقدرة محمد بك سعيد انه نظم مرة قصيدة من عشرين بيتا كان كل صدر وكل عجز منها تاريخاً، وقد سمعت ذلك من جدي رحمه الله، وكان وقتئذ وكيلا للمطبعة الأميرية، ولعل هذه القصيدة منشورة بالوقائع الرسمية التي كانت تنشر وقتئذ له وللمرحوم الليثي وغيرهما من الشعراء.

وقد روى لي محمد سعيد بك رحمه الله انه هو الذي وضع القطعة الغنائية المشهورة التي مطلعها:

بستان جمالك من حسنه ... أبهى وأجمل م البستان

على خلاف ما شاع بعد وفاته من أنها للمرحوم إسماعيل باشا صبري هؤلاء الناس الموفقون في الأدب والشعر قد لا يعلم الناس عن كثير منهم شيئاً، وهكذا يذهبون وتذهب معهم آثارهم. روي لي المرحوم السيد مصطفى لطفي المنفلوطي ان كتبة محكمة الإسكندرية الشرعية كان رئيسهم (الباشكاتب) في وقت ما رجلا نسيت اسمه خفيف الروح جيد الشعر، ولكنه كان مولعا بالشراب. وقد صادفه مرة أحد أصدقائه وهو يحتسي في

حانوت خمار فطلب إليه أن يسايره حيث هو ذاهب (وكان لا يزال في القنينة نحو ثلثها) فأبى قائلاً وبلسانه التواء من اثر السكر.

مضى بها ما مضى من عَقل شاربها ... وفي الزجاجة باقٍ يطلب الباقي

ولا أدري إذا كان هذا البيت من مقولة أو قديم، ولكنه على كل حال دليل على سرعة ارتجاله أو سرعة خاطره.

ومما يدل على ظرف هذا الرجل أن حضرة القاضي رئيس المحكمة كان معتاداً أن يقبل الموظفون (وهو معهم) يده عند كل صباح. ولكنه بلغه مرة انه مدمن على الخمر، وانه يعترض في الطرقات الفتيات المتجرات بالهوى، فغضب عليه وأسرف في تعنيفه حتى إذا ضاقت نفسه خرج من صمته صائحا ليكن ما بلغ فضيلتك عن صحيحا فمالك وسلوكي في غير أوقات عملي. وعند ذلك جن جنون الشيخ وصرخ فيه ان اخرج من هنا. أنت طالق. أنت طالق. أنت طالق. . . !

وفي صباح اليوم التالي لم يره الشيخ مع باقي الكتبة فتذكر ما كان من أمره معه بالأمس، وأرسل في طلبه، ولكنه أبى أن يحضر فذهب إليه بنفسه، وعند ذلك أسرع صاحبنا فغطى وجهه بطرف ثوبه. . . وفي هذه الحركة من حسن الإشارة ما فيها بعد صدور ذلك اليمين. . .

رحمهم الله جميعاً

محمود خيرت

بقلم قضايا وزارة المالية

في ربوع جوته وفرتر

من الرسالة

فرنكفورت - صباح الأحد 8 يونيو سنة 1924

الأسرة التي أقيم فيها مؤلفة من أرملة وأولادها: بنتين وصبيا أصلهم من الريف، . . . من وتسلار حيث كان جوته موظفاً، وحيث عرف شرلوت واحبها، وكتب الأم فرتر -

نزحوا إلى فرنكفورت طلبا للعيش، وسأقص عليك الآن قصة كبرى الابنتين، ويبلغ عمرها أربعة وعشرين عاما -
عرف قلبها الحب وهي في السادسة عشرة حينما كانت في وتسلار، وأحاطت بحبها ظروف قاسية اضطرته ان يتزوج من سواها، فلم تطق البقاء في وتسلار فرحلت إلى فرنكفورت تبحث عن وظيفة. . . وتبعها شاب من مواطنيها كان يحبها ولا يجرؤ على التصريح لها بحبه. تبعها ليدرس بالجامعة، واصطحبا وتكتم الحب ثلاث سنوات قضي اثنتين منها في ميدان القتال، فلما انتهت الحرب عاد إلى فرنكفروت ليتم دراسته، وعادت علاقة فلتر بحبيبته تيا
باح لها بحبه وطلب يدها، وظنت هي أنها تحبه فأجابته بالقبول، وتمت الخطبة، ومرت سنتان وهو يستعجل الزواج فتؤجله محتجة بغلاء الأثاث وهبوط قيمة المارك في ذلك الحين، فلما زاد إلحاحاً صارحته برغبتها في فسخ الخطبة، لأنها لا تستطيع أن تجد معه السعادة التي تنشدها، فهي مادية وهو خيالي، هي تحب الرقص ولا تفهم الموسيقى، وهو يحب الموسيقى ولا يعلم الرقص، فكانت بينهما القطعية.
وهنا انقل إليك أيها الصديق قطعا من رسائله التي كتبها بدموعه بل بدماء قلبه، والتي أطلعتني الأم عليها ذات مساء وتركتها لدي ليلة لأقرأها.
يقول فلتر في خطابه الأول: (مهجور! أنا مهجور! وما أطول الليل على مهجور مثلي في هذه المدينة الكبيرة! لو كنت في قرية صغيرة لخرجت إلى الجبال والغابات أشكو إليها حبي وأحدثها عن بؤسي، ولكني في هذه المدينة الكبيرة إذا خرجت لا أجد إلا السكارى وهم عائدون آخر الليل إلى مساكنهم، والنساء الخليعات وهن يتسكعن في زوايا الطرق وعلى مقاعد المتنزهات) وعلم أن (تيا) أخذت ترفض تسلم كتبه، فكتب إلى أمها يقول:
قول لتيا إنني ساكون من نفسي شخصا آخر كما تحب هي أن أكون. قولي لها إنني) تقدمت في دروس الرقص وأصبحت غيري بالأمس. قولي لها تسمح لي بان أراها مرة واحدة، وسوف لا أحداثها عن حبي ولا اذكر لها شيئاً عن الماضي. قولي لي ترحمني فإني بدونها لا يمكنني أن أعيش. اسأليها عن ذنبي لديها، فان كان لي ذنب غير شدة حبي فسأكفر عنه بدمي وحياتي).
وكتب في ثالث: (في مثل الغد ولدت، ولقد تعودت منذ خمس سنوات أن أتناول هديتي من المحبوبة (تيا) قبلة وعهدا على حبنا، قولي لها إنني انتظر هديتها غدا، وان تسمح بالعودة إلى مثل ما كنا. سأحضر بنفسي إليكم وكلي امل، فاستحلفكم إلا تصدموني في كل آمالي).
وعلمت انه لما حضر رفضت تيا أن تقابله فأرغمتها أمها على ذلك، فأساءت لقاءه، فكتب إلى أمها: (قولي لها تجربني شهرا وأحدا، وسولا لا أحدثها عن حبي، غدا تبدأ حفلات بيتهوفن السنوية. ذكريها إنها لما سمعتها لأول مرة، وكانت معي بكت. . . وفي تلك الليلة حدثتها لأول مرة عن حبي. . . لقد اشتركت لها ولي، وسأمر بكم غدا لأرافقها).
ولما بلغه إنها تخطب إلى آخر كتب إلى أمها:
أني آمل وآمل ولا أستطيع أن أيأس قبل أن يضع القسيس على رأسها إكليل الزواج) من غيري، أمل لأن حبي لها لا يفنى، ولأني بدون هذا الشعور لا أستطيع أن أحيا).
وكانت آخر رسائله هذه الكلمات: (سوف تتزوج من غيري! أن هذا يطن في رأسي طنين حلم مروع، وما كنت لأتصور حدوثه يوما من الأيام، وهل هناك أحد في العالم يستطيع أن ينيلها من السعادة ما أستطيع؟. قولي لها أني أتمنى لها الهناء من صميم فؤادي، وان الشيء الوحيد الذي أحذره أن تذكرني يوما من الأيام بالأسف حين لا ينفع الأسف. . . وداعاً إلى الأبد!. . .).
وفي الشهر القادم موعد حفلة زفافها إلى خطيبها الجديد، دميم الخلقة، قصير، أعرج، ولكنه غني، فلقد كان أيام هبوط قيمة المارك يضارب - مع اليهود - على إسقاط عملة بلاده فأثرى وقد سمعتها أمس فقط تقولانها تأسف على فلتر، فصرخت أمها في وجهها تقول (ألم يكن ذلك من قبل؟.) فقلت لهما إنني أتعهد بأن أرده إليهم لأنه معي في الجامعة. فقالت الأم (هذا مستحيل، انك لا تعرفه، أن كبرياءه جرحت بلا شفقة، فلا يمكن أن يعود، انك لا

تعرفه) - والحق يا صديقي انك لو رأيته لما رأيت إلا الكبرياء والعظمة، هو ليس بالجميل. . . طويل القامة كبير الوجه، واسع العينين، تحيط بهما هالة سوداء، بوجهه خطوط كثيرة وتجعدات عميقة، يتكلم بصوت خافت يكاد لا يسمع مع كبر جسمه، واظهر ما يتجلى عليه الكبرياء والتكتم، وقد سألته يوما عما ينوي عمله بعد حصوله على الدكتوراه فقال: انه سوف يرحل إلى أمريكا الجنوبية ليعيش هناك، فقلت له إلا يعز عليك مفارقة أهلك ووطنك؟ فأجاب (لا. ليس هنا أحد يهمه أمري).

البغاء

بقلم حبيب المعوشي

لقد كثرت في هذه الأيام الأقاويل وتباينت الآراء في البغاء ومنعه من البلاد، وأقصاء البغايا الأجنبيات عنه عملا بقانون يسن لهذا الغرض. فمن مؤيدين لهذا القانون، ومن معارضين له، ولكل فريق فيما يدعيه حججه وبراهينه. فالذاهبون إلى تحريم البغاء مدنيا يقولون انه آفة الاجتماع ومصدر الفاحشة ومجلبة البوائق، وانه لحائل الكبير دون الزواج وتكوين الأسر، وانه العقبة القائمة في وجه كثرة المواليد إلى غير ذلك من الأدلة.

والقائلون مدنياً بإباحته يؤيدون دعواهم بأنه السور الذي يصون الكثير من شرف المحصنات، والحاجز الذي يخفف - أن لم يقف - الأعداء على شرف العذارى وأعراض الأسر. أما أنا فلست أريد بهذا المقال أن أؤيد رأيا أو أخالف آخر، ولكنني إجابة لطلب بعض الإخوان من الأدباء رأيت أن انشر بإيجاز ما اعرفه من هذا القبيل وما قيل بهذا الشان في العصور الخالية وما كان للبغايا لدى مختلف الأمم من المنزلة والمقام.

كانت البغايا في العهد القديم من بواعث الحمية في الرجال. فكن ينبهن فيهم الحماس البدني والنشاط العقلي ويحملنهم على الدفاع والجهاد والتضحية، والتفاني في سبيل الوطن والعقيدة. ففي حرب شعواء شهرت على قورونتية قامت البغايا في اليونان يشجعن الرجال ليذودوا عن الحمى، فهب الرجال هبة واحدة وخرجوا بحشدهم زمرا وكتائب لمواجهة العدو مستبسلين مستميتين بفضل حض البغايا وأغرائهن. ولم تقف البغايا عند هذا بل قمن وجذذن شعورهن - وكان الشعر في ذلك العهد انفس حلى النساء واجمل أزيائهن - وقدمنها قربانا للزهرة آلهة الجمال كي تساعد الإغريقيين على أعدائهم وتهبهم الفوز والظفر، وبفضل ما أبدينه من ضروب التضحية والحض والتنشيط واستفزاز الهمم انتصر الإغريقيون انتصاراً عظيماً، وعزوا أهم أسباب فوزهم للبغايا، فاكبروا عملهن واعلوا قدرهن - ومثل هذا كان يجري أيضاً في كثير من البلاد الأخرى بحيث خصهن رجال تلك العصور الخالية بالمكان الأول في الاجتماع وقالوا أن التمدين لا يقوم إلا بهن ولا يزداد انتشارا إلى بمعاونتهن، وقد شبههن بعض الكتاب الأقدمين بأريج ذكى يعطر الجو ويولي مستنشقيه الاغتباط ويحرك فيهم الهمة والجرأة والإقدام.

وظل فيهن على هذا حتى ظهر الدين المسيحي فحرمت النصرانية البغاء تحريما مطلقا وجعلت من أهم أسس الكمال في الدين قهر الجسد وكبح الشهوات البدنية، ومنذ العهد الذي انتشرت فيه هذه تعاليم أخذ نجم البغايا في الأفول، وبدأ مجدهن في الزوال، فأرمت كنيسة المسيح بنبذهن من الاجتماع، فأقصين من المجالس، واضطهدن وحقرن، حتى غدون أحط من سقط المتاع وعند ما كانت الأوبئة كالطاعون والهواء الأصفر تتفشى في العالم أو تصيب الأمم نكبات ومجاعات كان الناس ينفون البغايا من البلاد ويرهقونهن بألوان العذاب ويذيقونهن شر الميتات ظنا منهم انهم بما يفعلون يلطفون غضب السماء.

ففي بعض البلاد كان الزواج محرما على البغايا، وفي بعضها كانت البغايا يعزلن في الحظائر شأن المواشي، وفي عهد البابا بولس الرابع أي في القرن السادس عشر كان الشبان الأشراف في إيطاليا يعدون التغاضي عن حرق منازل العهر عارا وفضيحة.

وفي مدينة تولوز في فرنسا كانت البغي التي تجرؤ على اجتياز عتبة أحد الأديرة تعد جانية فيقبض عليها وتلقى في السجن، ثم تساق للمحاكمة فيحكم عليها بأقسى عقوبة.

وفي مدينة بوكير من أعمال فرنسا أيضاً كان يفرض في كل عام على البغايا الجري عاريات في أحد الميادين إلى أن تنقطع أنفاسهن وتسكت دقات قلوبهن، وفي مدينة

مانطو في إيطاليا كانوا يوجبون على البغي شراء ما تلمسه من الأشياء لدى مرورها في الأسواق بحجة إنها دنسته بلمسها ولوثته بيدها النجسة الذليلة وأفسدت تجارته على صاحبه. وفي هذه المدينة أيضاً كان يحتم على البغايا تعليق الجلاجل في أعناقهم عندما يطفن في المدينة أسوة بالمصابين بداء الجذام تنبيهاً للمارة كي يبتعدوا وتحذيرا لهم من العدوى.

هذا قليل من كثير مما كان يجري على البغايا في القرون الوسطى، ولكن عندما أخذ التمدين الحديث يتمشى في أنحاء العالم قل اضطهاد البغايا وأبيح لهن مخالطة الناس والظهور في المجتمعات والأندية والمجالس، بل عد البعض وجودهن من عوامل النهوض والارتقاء، وللبلوغ بالتمدين إلى أرقى درجات الكمال. السن هن اللواتي يبتدعن التأنق في المعيشة، ويطلقن الأزياء البديعة في العالم، ويروجن أسواق الحلي الغالية، والملابس الأنيقة، والمنسوجات الناعمة، والمطارف الثمنية، والمفروشات الفاخرة؟ أو لسن هن اللواتي يخرجن من خزائن الشيوخ الأشحاء ما اكتنزوه من تحف، وكدسوه من نفائس، وخبأوه من أموال، فيغدقنها على الأسواق وينتفع بها المجموع الإنساني.

هذه هي الكلمة التي توخيت نشرها في هذا الباب لعل فيها فائدة، ومنها يرى ان البت في تحريم البغاء أو إباحته يسلتزم كثيرا من التروي والتفكير لمعرفة أيهما افضل وأصلح للبلاد، ولا نخال حكومتنا وهي لم تزل مترددة في سن قانون التحريم إلا مواصلة الفحص والتمحيص حتى تهتدي إلى الأصوب والأنفع فتقره.

وبهذه المناسبة اذكر ما قاله ديموستين كبير خطباء أثينا، من ثلاثة وعشرين قرنا ونيفا في النساء والبغايا وما يبتغيه الرجال منهن وهذا تعريبه :-

(نحن الرجال، بحاجة إلى ضروب ثلاثة من النساء: المرأة الرشيدة المثقفة لنشغل بها العقل ونلهي بها النفس والمرأة البارعة في الجمال لنرضي بها الحواس ونسكن ثورات الجسد.

والمرأة الصالحة الحكيمة لتلد لنا البنين وتدبر لنا المنازل). وقد رأى أن وجود البغايا في البلاد ضروري لاستفزاز همم الرجال إبان الحروب لأن المحصنات قد يحجمن عن ذلك كيلا يعرضن أزواجهن وفلذات أكبادهن إلى الهلاك.

وقال أحد علماء الفرنسيين وكتابهم في البغاء وفي الدفاع عن البغايا ما معناه:

(ينحى الناس باللائمة على البغي التي تبيع جسدها وينبذونها ويصمونها بالعار، ويمطرونها وابلا من السب والثلب، على حين ان الكثيرين منهم يبيعون عقولهم وأفكارهم وضمائرهم، فإذا كان العقل في حكم الناس افضل من الجسد وأسمى منه منزلة، فلماذا يحجم عن نبذ ممتهنيه ويغضي عن تعيير بائعيه، بينا ان بيعه اجلب للعار والثلب والاستنكاف من بيع الجسد.؟

ثم لماذا نرانا نجل من الرجال العظام والعلماء الأعلام من باعوا فكرهم وحريتهم وأباحوا عقولهم لقاء الدرهم. أليس هؤلاء ادعى للاحتقار والازدراء والنبذ من البغي التي تبيع جسدها وهو المادة الدنيئة الحقيرة الخاضعة للعقل ودونه قيمة ومقاماً.؟

اجل، ولكن بينا الناس يتخطبون في الخطأ والغواية ويعمهون في كثير من الضلال، وشر الضلال احتقار المرأة البائعة جسدها وإجلال الرجل الذي يسلم للعار عقله وفكره وضميره وحريته الوطنية والأدبية.

فلا مراء أن في هذا الكلام حقائق يحسن النظر فيها وتعاليم يجدر بالعاقلين والنابهين التسليم بصحتها والاستفادة منها - سدد الله خطواتنا وهدانا سواء السبيل.

حبيب المعوشي

مخترع الرقاص منجم مصري

للأستاذ قدري حافظ طوقان

يعتقد كثيرون أن الرقاص (بندول الساعة) من مخترعات العالم الإيطالي الشهير غاليلو (1564 - 1642م)، وان هذا العالم أول من استطاع ان يستعمله ويستفيد منه. وهؤلاء الكثيرون يستغربون إذا قيل لهم أن هذا غير صحيح، وان الفضل في اختراعه يعود إلى عالم مسلم عربي، عاش في مصر ونشأ على ضفاف النيل، وقد سبق غيره في استعماله في الساعات الدقاقة، وبذلك يكون غاليلو مسبوقا بهذا الاختراع بستة قرون.

أقول انهم يستغربون وأزيد على ذلك وأقول انهم قد يستهزئون، ولكن ما كان لنا أن نجرؤ فننسب هذا الاختراع الجلي إلى العرب لولا اعترافات المنصفين من علماء الإفرنج، فإذا تصفحت كتاب تاريخ العرب للعالم الفرنسي المنصف سيديو تجد نصا صريحا بأسبقية العرب في اختراع الرقاص: (. . . وكذا ابن يونس المقتفي في سيره أبا الوفاء ألف في رصد خانته بجبل المقطم الزيج الحاكمي، واخترع الربع ذا الثقب، وبندول الساعة الدقاقة). وكذلك يقول (تايلر و (سدويك ان العرب استعملوا الرقاص لقياس الزمن.

من هنا يستنتج أن سبقوا غاليلو في اختراع الرقاص وفي استعماله في الساعات الدقاقة. أنا لا أقول أن العرب وضعوا القوانين التي تسيطر على البندول، ولا أقول انهم وضعوا ذلك بقالب رياضي على الشكل الذي نعرفه الان، ولكني أقول انهم سبقوا غاليلو في اختراع الرقاص وفي استعماله، وفي إيجاد علاقته بالزمن؛ وفوق ذلك كان لديهم فكرة عن قانون الرقاص (قانون مدة الذبذبة). يقول سمث العالم الأمريكي في كتابه تاريخ الرياضيات في ص 973 من الجزء الثاني ما يلي: (ومع أن قانون الرقاص هو من وضع غاليلو إلا أن كمال الدين بن يونس لاحظه وسبقه ففي معرفة شيء عنه، وكان الفلكيون يستعملون البندول لحساب الفترات الزمنية أثناء الرصد. . .).

يظهر مما مر أن العرب عرفوا شيئا عن القوانين التي تسيطر عليه، ثم جاء من بعدهم غاليلو، وبعد تجارب عديدة استطاع أن يستنبط قوانينه، إذ وجد ان مدة الذبذبة تتوقف على طول البندول وقيمة عجلة التثاقل، ووضع ذلك بشكل رياضي بديع وسع دائرة استعماله وجني الفوائد الجليلة منه.

وأخشى أن يختلط الأمر على القارئ فيظن ان كمال الدين بن يونس هو نفسه ابن يونس الذي ذكره سيديو، مع أن هذا خلاف الواقع، فكمال الدين بن يونس كان (علامة زمانه، وواحد أوانه، وسيد الحكماء، قد أتقن الحكمة، وتميز في سائر العلوم). ولد في الموصل سنة 1156م، وتوفى بها سنة 1242م، وتلقى العلم في بغداد في المدرسة النظامية. كان ذا اطلاع واسع على العلوم الشرعية، وتعين مدرسا في الموصل، قرأ الطب والفلسفة (ويعرف من فنون الرياضة من اقليدس، والهيئة والمخروطات والمتوسطات والمجسطي وأنواع الحساب المفتوح منه والجبر والمقابلة والارثماطيقي بطريق الخطائين، والموسيقى والمساحة، معرفة لا يشاركه فيها غيره إلا في ظواهر هذه العلوم دون دقائقها والوقوف على حقائقها، واستخرج في علم الأوفاق طرقا لم يهتد إليها أحد. . .).

ولنرجع الآن إلى ابن يونس المصري، فهو مخترع الرقاص، واسمه أبو سعيد عبد الرحمن بن احمد بن يونس بن عبد الأعلى الصدفي المصري. كان من مشاهير الرياضيين والفلكيين الذين ظهروا بعد البتاني وأبي الوفاء البوزجاني، ويعده سارطون من فحول علماء القرن الحادي عشر للميلاد، وقد يكون اعظم فلكي ظهر في مصر، ولد فيها وتوفى بها سنة 339هـ - 1009م. ويقول بعض معاصريه انه كان ذا طباع شاذة، يضع رداءه فوق عمامته، إذا ركب ضحك الناس منه لسوء حاله وشذوذ لباسه، (وكان له مع هذه الهيئة إصابة بديعة غريبة في النجامة لا يشاركه فيها غيره، وكان متفننا في علوم كثيرة، وكان يضرب على العود على جهة المتأدب). وهو سليل بيت اشتهر بالعلم، فأبوه عبد الرحمن بن يونس كان محدث مصر ومؤرخها، وأحد العلماء المشهورين فيها، وجده يونس بن عبد الأعلى صاحب الأمام الشافعي، ومن المتخصصين بعلم النجوم. وقد عرف الخلفاء الفاطميون قدر ابن يونس وقدروا علمه ونبوغه، فاجزلوا له العطاء وشجعوه على متابعة بحوثه في الهيئة والرياضيات، وقد بنوا له مرصدا على جبل المقطم قرب الفسطاط، وجهزوه بكل ما يلزم من الآلات والأدوات، وأمره العزيز الفاطمي أبو الحاكم أن يصنع زيجاً، فبدأ به في أواخر القرن العاشر للميلاد، وأتمه في عهد الحاكم ولد العزيز، وسماه (الزيج الحاكمي). ويقول عنه ابن خلكان (وهو زيج كبير رأيته في أربعة مجلدات، ولم أر في الازياج على كثرتها أطول منه). ويعترف سيديو بقيمة هذا الزيج فيقول: إن هذا الزيج كان يقوم مقام المجسطي والرسائل التي ألفها علماء بغداد سابقا. ويقول سوتر الشهير في دائرة المعارف الإسلامية: (ومن المؤسف حقا انه لم يصل إلينا كاملا، وقد نشر وترجم (كوسان) بعض فصول هذا الزيج التي فيها أرصاد الفلكيين القدماء،

وأرصاد ابن يونس نفسه عن الخسوف والكسوف واقتران الكواكب). وكان قصده من هذا الزيج أن يتحقق من أرصاد الذين تقدموا وأقوالهم في الثوابت الفلكية، وان يكمل ما فاتهم، وان يضع ذلك في مجلد كبير جامع (يدل على أن صاحبه كان اعلم الناس بالحساب والتسيير). وابن يونس هو الذي رصد كسوف الشمس وخسوف القمر في القاهرة حوالي سنة 1978م، واثبت منها تزايد حركة القمر، وحسب ميل دائرة البروج، فجاء حسابه اقرب ما عرف إلى أن أتقنت آلات الرصد الحديثة.

وأصلح ابن يونس زيج يحيى بن أبي منصور، وعلى هذا الإصلاح كان تعويل أهل مصر في تقويم الكواكب في القرن الخامس للهجرة.

وبرع ابن يونس في المثلثات وأجاد فيها، وبحوثه فيها فاقت بحوث كثيرين من العلماء، وكانت معتبرة عند الرياضيين، ولها قيمتها الكبيرة في تقديم علم المثلثات. وقد حل أعمالا صعبة في المثلثات الكروية واستعان في حلها بالمسقط العمودي للكرة السماوية على كل من المستوى الأفقي ومستوى الزوال. وهو أول من استطاع ان يتوصل إلى إيجاد القانون الآتي في المثلثات الكروية:

1 1

جتاس جتاص=_ جتا (س + ص) +__ (س - ص)

22

وكان لهذا القانون قيمة كبرى عند علماء الفلك قبل اكتشاف اللوغارتمات، إذ يمكن بواسطته تحويل عمليات الضرب إلى عمليات جمع، وفي هذا بعض التسهيل لحلول كثير من المسائل الطويلة المعقدة. وفي زمن ابن يونس استعملت الخطوط المماسة في مساحة المثلثات. ويقول سيديو: (ولبث ابن يونس يستعمل في سنة 979 إلى سنة 1008م إضلالاً أي خطوطا مماسة، وإظلال تمام حسب بها جداول عنده تعرف بالجداول الستينية، واخترع حساب الأقواس التي تسهل قوانين التقويم وتريج من كثرة استخراج الجذور المربعة. . .)

وهو الذي اخترع الربع ذا الثقب، وبندول الساعة الدقاقة، وفوق ذلك فوق كان ينظم الشعر نأتي على بعض منه للتنويع، فمن قوله في الغزل:

أحَملُ نشر الريح عند هبوبه ... رسالة مشتاق لوجه حبيبه

بنفسي من تحيا النفوس بقربه ... ومن طابت الدنيا به وبطيبه

لعمري لقد عطلت كأسي بعده ... وغيبتها عني لطول مغيبه

وجدّد وجدي طائف منه في الكرى ... سرى موهناً في خفَية من رقيبه

نابلس

قدري حافظ طوقان

ذكرى أدبائنا

بقلم محمد محمد مكين

كتب الدكتور زكي مبارك في البلاغ ينصح أصدقاء شيخ العروبة بجمع ما تناثر من مقالاته وبحوثه وضمها في كتاب، وخشي في نهاية الأمر أن يلحق بشيخ العروبة ما لحق حافظا وإسماعيل صبري من إهمال ونسيان. وكتب الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني مقالاً أرسله من لبنان يذكر فيه انه خجلان لأن إخواننا السوريين يخلدون ذكرى الأمام الشيخ محمد عبدة ونحن نهمله. وكتب الأستاذ احمد حسن الزيات في الرسالة كلمة بكى فيها حظ الأدب والأديب وما يلاقيان من جحود وإنكار. وكتب الأستاذ محمود الشرقاوي كلمة بمجلة الأسبوع عن المنسيين (من الأدباء) قال في ختامها انه يجب على كل أديب ان يعد نفسه كالذبيح ثم يموت مدحورا لا ينال حتى كلمة الذكر.

فهل يا ترى نستخلص من تلك المقالات إننا استيقظنا وتلمسنا تلك الظاهرة المعيبة - ظاهرة عقوق الأدباء وجحود العباقرة. . .؟ أخشى أن تكون اليقظة يقظة الموت.

نعم مات حافظ فلم نوفه حقه ولم نقم بالواجب نحوه، ووالله إن أبناء العروبة في أمريكا لخير منا ألف مرة، فقد قاموا بواجبهم نحو حافظ وشوقي خير قيام.

ومات من قبله الأديب محمد السباعي وذهب كأنه لم يخلق، وكأنه لم يخلق آثاراً أدبية لو كانت أمة غير مصر لصعدت بها إلى الأوج.

وانتقل إلى جوار ربه المرحوم احمد باشا تيمور، وفضله على الأدب والعلم غير منكور، فماذا قدمناه لإحياء ذكراه؟

ورحل المرحوم إسماعيل صبري عن هذه الدار، وما زال شعره متفرقا لم يجمع في ديوان.

تمضي الأعوام فنحي المنفلوطي بطعنات داميات، ونرمي خير الدين يكن بالمروق، ونتهم جبران بالسخف. ثم ننسى البارودي، وصروف، وجورجي زيدان، وحفني ناصف. ولولا وفاء أبناء دار العلوم لذهب شعر عبد المطلب هباءً منثوراً.

اذكر من سنين قليلة أن أدباء مصر أرادوا الاحتفال بذكرى ابن خلدون فتقاعست همهم، وقام أدباء المغرب على ما اذكر بذلك العمل الجليل. واذكر انهم يتحدثون عن الاحتفال بذكرى المتنبي والمعري. فهل تراهم يفلحون؟

ها هو ذا عام 1934 عام حافل بالذكريات. فيه مناسبات كثيرة لإحياء ذكرى أدبائنا وعلمائنا. ففي هذا العام كانت مناسبة صالحة لذكرى قاسم امين، ولكنها ضاعت بكل أسف فلم نفعل أكثر من كتابة مقالات تافهات نشرتها الصحف وذهبت بذهاب الأمس.

على إن في ذلك عبرة، هي إن دعوته لما تثمر الثمر الطيب، وإلا لعرفت المرأة المصرية قدر محررها فقامت بواجب غفل عنه الرجل.

أقول أن عام 1934 عام حافل بالمناسبات، ففيه يكون قد مضى خمسة عشر عاما على وفاة جفني ناصف، ويكون قد مضى عشر سنين على وفاة المنفلوطي.

وفي أغسطس القادم يكون قد مضى عشرون عاما على وفاة جورجي زيدان. وفي ديسمبر القادم يكون قد مضى ثلاثون عاما على وفاة أمير الشعراء محمود سامي البارودي.

وفي هذا العام يكون قد مضى حولان على وفاة حافظ وما يزال (يقتضي أصدقاءه المخلص حفلة التأبين وتأليف الكتاب).

فماذا نعد لهذه المناسبات؟ أندعها تمر فنضع رؤوسنا في الرعام ونرمي بأنفسها في وهدة الذل والصغار، أم ننهز هذه الفرصة ولا ندعها تفلت من أيدينا؟

لست ادري ماذا تفعل جماعاتنا الأدبية على كثرتها حتى تهمل ذلك الواجب المقدس؟ أحق عليها ما كتب بمجلة كل شيء في عددها الأخير من إن جماعاتنا الأدبية تقوم على صرح واه لأنها ترمي إلى أغراض تلعب فيها الحزازات الحزبية والمآرب الشخصية الدور الأول!! وانه ينقصها روح التعاون والقدرة على كبح جماح العواطف الشخصية في سبيل الفكرة التي تعمل من اجلها الجماعة. . . إلى جماعة الأدب العربي، وجماع أبولو، والى أعضاء لجنة التأليف والترجمة والنشر أتوجه بالرجاء أن يعالجوا ذلك النقص المعيب، فهم خير من يعهد إليهم ذلك الأمر.

وأخيراً اذكر الأدباء قاطبة بان يفوا لأسلافهم حتى يفي لهم إخلافهم. وإلا كان مصيرهم مصير من سبقهم: جحود وإنكار ونسيان.

طنطا

محمد محمد مكين

جولة بين أطلال بومبي

للأديب حسين شوقي

كانت بومبي المدينة التي يقصدها سراة روما وعظماؤها للمتعة واللهو، لما توافر فيها من أسباب ذلك، كما يقصد اليوم المترفون من الغربيين ساحل الرفييرا الساحر. . .

وقد يرى المتجول بين أطلال بومبي آثار الطريق التي كانت تصل روما - حاضرة الدولة الرومانية العظيمة - ببومبي. . .

وبومبي اليوم تبعد كيلو مترات قليلة عن البحر، أما في زمانها الغابر فقد كانت تشرف على البحر، كما كانت ترسى في مينائها يخوت أقيال الرومان الأنيقة.

وبومبي التي لم يزد عدد سكانها على خمسة وعشرين ألف نسمة، كان فيها من المسارح والحانات والحمامات العامة وأماكن المصارعة ما يجذب النفس ويستهوي الفؤاد. . .

وكل ذلك باق أكثره على رغم الزلزالين الكبيرين اللذين منيت بهما بومبي من عشرين قرنا خلت. . .

وما اجمل الدور التي شيدها سراة روما في بومبي ليخلوا إليها في أوقات فراغهم للهو اللعب، وقد حليت أرضها وسماؤها بالفسيفساء الملون الرائع، وبالصور الزيتية الجميلة، المنقولة عن الاساطير، وقد شيد أكثر هذه الدور على طراز خليط من

الطرازين الروماني والإغريقي. . . لأن الرومان اعجبوا بالحضارة اليونانية، فنقلوا منها إلى بلادهم فنونها، وآدابها، وديانتها. .! وقد بلغ إعجاب القيصر نيرون بالإغريق انه تعلم لغتهم فأتقنها، وكان يشجيه أن يغني بها، وقد وهب صوتاً رخيماً. . .

وقد شيدت هذه الدور على النظام الآتي: باب ضخم على الشارع، يلج منه الزائر إلى دهليز ضيق يوصل إلى فناء فسيح ليس له سقف، سوى سماء نابولي الصافية الزرقاء، وقد زين هذا الفناء بالأزهار النادرة، كما حلى بالتماثيل المرمرية الجملية التي تمثل الآلهة، وبعض هذه التماثيل لا يزال قائما في مكانه وبعضه هدمته الزلازل، والبعض الآخر نقل إلى متحف نابولي. . .

وفي وسط هذا الفناء تقوم نافورة من المرمر، يتفجر منها الماء عذبا سلسالا. . .

وحول جنبات هذا الفناء بنيت حجر الدار، وقد بلغت عناية القوم بأولادهم انهم أنشئوا لهم حجرا خاصة زينوا جدرانها بالصور الزيتية الفكاهية التي تلائم مزاج الأطفال. . .

كما أن بومبي كانت لها معابد فخمة صدعتها الزلازل فأودت بمعظم عمدانها الكورنتية الأنيقة. . . وقد شيدها القوم زلفى للآلهة حتى يغمضوا أعينهم عما يقترفونه من كبار الآثام الخلقية بين جدران هذه المدينة المتهتكة. . .

كذلك الآلهة المصرية ايزيس، التي ذاع صيتها في العالم القديم وعظم شأنها، لها معبد خاص في بومبي، وقد عبدها الرومان في صورة سيدة رومانية!

وقد شاهدت تمثالها في متحف نابولي. . .

وهناك حي للمتبذلات كن يقبلن من أهل المرح وعودهم بان يدفعوا شيئا. . . وشاهدت في إحدى الحجرات اسما منقوشا على الحائط يتعهد صاحبه بان يدفع الإتاوة في الزيارة المقبلة!

وشوارع بومبي مرصوفة مرصعة بالحجر، وقد وضعوا في مفترقاتها أحجاراً بعلو الأرصفة، ليعبر عنها المارة من الشعب في الأيام الممطرة، أما المترفون فكانوا يسيرون في عربات محمولة على أكتاف عبيدهم. . .

ولكن يلوح لي أن أهالي بومبي قد بالغوا في الاستهتار واقتراف الرذائل، حتى اغضبوا الآلهة عليهم برغم ما شيدوه لهم (رشوة) من معابد، فسلطوا على المدينة جارها الرهيب بركان فيزوف فزلزل أرجاءها، وأخذ يرميها بشواظ من النار السائلة والدخان الكبريتي الخانق، حتى تصدعت قصورها ودورها، وهلك معظم أهلها، وقد رأيت على عتبة إحدى تلك الدور أسرة قد أدركتها القارعة وهي على أهبة الفرار فتحجرت جثثها، وكانوا في فرارهم يحملون حليهم، ففنوا وبقيت هذه الحلي إلى اليوم معروضة في متحف نابولي، شاهدة على حرص الإنسان حتى وهو ملاق حتفه!

أي بومبي! أيتها المدينة الساحرة كنت هوة الأخلاق وبؤرة الرذيلة، فضربتك الآلهة، فأصبحت اليوم مثلا خالدا على الدهر جزاء فجورك، وما انبث في كل شق من شقوقك من دعارة وفساد. . .

أي بومبي! أيتها المدينة الفاتنة، لقد كان ما حل بك من عقاب عدلا، حتى لتجزع الطير من ان تحوم بين أسوارك رهبة وذعرا، على رغم مضى عشرين قرنا على نكبتك!

أي بومبي! أيتها المدينة الخالدة! لا تجزعي على ما أصابك فالدنيا دول، فكم من مدن كانت اعظم منك شأنا، وارفع بنيانا اندثرت كان لم تكن، حتى أن بعضها تلاشى فلا يعرف الآن مكانه. . .!

حسين شوقي

أدب الزراعة

للأستاذ محمد محمود جلال

ما زلنا نحس حنينا إلى الأدب، ولو أقصتنا ظروف الحياة عن بيئاته ومجامعه، ويهفو بألبابنا شوق ملح إلى كتبه ورسائله برغم الفارق الظاهر، والحجاب الذي تكاد تسدله شواغل الحياة في الزراعة والمال والاقتصاد. فنتلمس في أجوائنا جهد الطاقة نسيمه المنعش، وهو للروح حاجة كحاجة الزرع للماء.

والأدب في عرفي روح كل كيان، ولا ينقبض بفضله عن أي عمل أو مهنة، وإنما يتلون ويختلف باختلاف الأعمال والبيئات. وهو عنوان الحياة والذوق - فلا يعرض نفسه إلا لراغب الاجتلاء. وعندي انه شيء من التفهم، وحسن النظر يجده المرء ماثلا. ويجد

غذاءه دافقا بغير من.
وها هي ذي رحمه الله تقرب البعيد، وتعوض من طرف ما يخال ضنا من طرف آخر.
فتبسط لنا يده جل شأنه - فيما تبسط - من صحيفة الحقل قصائد عامرة الأبيات، شجية النغمات. وفي أمثال أخواتنا الفلاحين وإشاراتهم واستعاراتهم قطع من المنثور المليء بالمعاني الدقيقة القيمة، ولكن بالأسلوب الذي يتفق والنشأة، ويتسق مع البيئة.
رافقت مرة أحد مفتشي الجمعية الزراعية متعهدا حقلا للقطن من الزراعة الخاصة، سائرين خلف ناظر الزراعة، نطوف باحثين كل منا بقدر علمه، وعنينا جميعا بالتحقق من خلو الحقل من الآفات. ثم من النبات الغريب، وتدرجنا إلى حالة الزرع ودرجة العناية به. ثم إلى البذرة وانتقائها، والناظر في كل ذلك فخور بنتائج اشرافه، ينتظر الحكم في ثقة وثبات.
ظننا حين هنأناه بحسن عمله، أننا فرغنا وليس لنا إلا أن نعود أدراجنا!! وإذا بالناظر يغير السير، ويتجه إلى أقصى الجهة الشرقية في خطوات متئدة، وفي معان من التوسل للاقتداء به. ثم نظر نظرة هادئة إلى أسفل، أعقبها بإحدى أبعد مدى إلى الغرب، وقال يخاطب المفتش: (أرجو أن تنظر لترى النبات في خطوط لا تشكو عوجا؟ ثم انظر في أي ناحية، إلا تجد النبات في مستوى وأحد في الارتفاع؟
أليس هذا الحقل قصيدة إذن؟ أليست خطوط القطن مفصولا بينها (بالمساقي) المقاطعة لها - أبياتاً من الشعر من صدر وعجز؟
ثم أليس في نغمة الناظر على سذاجتها شاعرية؟
أي والله! ولقد روحت عني هذه الملاحظة كثيرا من العناء، وسرى في جسمي ما يسري عندما اخرج من عملي مكدود الذهن، كليل الخاطر، فاقرأ قصيدة للمتنبي أو مقطوعة لشوقي بك رحمهما الله!
على أني بين مشاغل المادة من مرور وفحص وإرشاد، وبين متعة الأدب الذي خبرت فذكرت، لم أزل بين القطن، ولم اعد الحقل وفيه ريان، وذكرت قول شوقي بك في (باريس):
إن كنتِ للشهوات رياً فالعلى ... شهواتهن مُروَيات فيك
ولطالما عز القطن وعز معه زارعوه، فلم تكن تسمع بيننا إلا تنويها بذكره، وتدليلا لاسمه، ففاز من أدب الزراعة بأقشب الأثواب، وأجذب الأسماء والاشارات، فدعى (بذي العين البيضاء) وسمى (أبا الذهب).
حتى إذا دهمت الأزمة، وحلت الكارثة، في سنة 1931 بتدهور اسعاره، لم يبخل عليه أدب الزراعة (بذي القلب الأسود) فإذا تساءلت دهشا أو أنكرت عدم الوفاء لمن سبقت على الفلاح نعمه!! قيل لك: أو ليس بذوره سوداء حقا؟ أو ليست تقع من (اللوزة) في الصميم؟.
تقول هذا مجاج النحل تمدحه ... وان ذممت فقل قيء الزنابير
ألم ترى إلى حقل القطن في أواسط شهر أكتوبر، وقد كادت تجف سوقه وقد اشتد سواد لونها، ودنت قطوفها بيضاء تحلى عاطله وتلين من وحشة جفافه. أليست الأولى أشبه بالليل، جاءته الثانية نجوما ذات لألاء تخفف من قساوة ظلمائه، منتشرة بين أعاليه وأسافله وأواسطه هدى للساري.
فإذا حان القطاف، وانتشر في الحقل الصغار يجمعون ثمار عمل طويل الأمد، عوضوا من شدة السوق وآذاها طراوة القطوف لينة طيعة في بياض ناصع خلال سواد قاتم يمزج الوصل بالصدود وياما ... أعذب الوصل من خلال الصدود!.
فإذا انتهى اليوم وقاربت الشمس المغيب، ففي آخر الحقل (الموازين القسط) منصوبة للعاملين، تحدد نتائج أعمالهم. وتحدد لكل ما يستحق من جزاء، ويؤجر الإنسان بقدر عمله. ولقد يمر الصبي وما جمع بأكثر من يد. فهذا ينظر إلى خلو الطقن من طين الأرض، وذاك
يحقق خلوه من الرطوبة (عب الندى)، وآخر ينظر في النظافة عموما، كما يفعل جمهرة الأدباء وصفوة النقاد حين يطالعهم بديوانه شاعر، أو ينشر كتابه ناثر، فكل وذوقه، وكل وما يستسيغ من المعاني، فيرهفون أقلامهم بما يعن لكل منهم، وكل يؤدي أمانته.

بل ان اليوم الواحد في موسم (الجني) ليمثل رواية كاملة للدنيا. فمن جد للسعي، إلى تشعب للعمل، إلى تنافس فيه، إلى اختلاف في النظر والمذاهب، إلى وضع لنظريات الحياة، فينما فريق يجمع بكلتا يديه ما تصلان إليه ايا كان نوعه، إلى فريق ينتقي ويدقق عن يقين بماله ونتائج سعيه، فالأولون يفرحون بالكم، والآخرون يدخرون النوع والدرجة شفيعا إذا نقصت الموازين. في نهاية اليوم ما يشبه تصفية الحياة، والنظر في صحيفتها، فمن مقل مجيد، إلى مكثر مسيء، إلى سابق بالخيرات.

ثم ما هي إلا لحظات حتى لا ترى للازدحام أثراً، وينصرف كل بما افاد، ويتفرق الجمع إلى مختلف الجهات، وتمر أيام قليلة فتجعل من تلك البقاع التي تشبه المناجم الغنية، أحطاباً سمراء مهجورة، ثم تحيلها الأيام هشيما تذروه الرياح، وكان الله على كل شيء مقتدرا.

محمد محمود جلال

الرسالة

للأديب احمد علي المكي

كان صدور (الرسالة) فتحا جديدا في الأدب العربي، وخطوة كبيرة في ميدان العلوم والفنون، وهي الآن في شكلها الحاضر تعد آية في غزارة موادها، وحسن طبعها، وأنيق رسمها، وسحر مقالاتها، وبديع منظرها، ومنظر غلافها الرائع.

وإذا أنعمنا النظر إليها من حيث مركزها الأدبي في الوقت الحاضر، نجدها - مع قرب صدورها - قد أصبحت في طليعة المجلات العربية الأدبية، وكونت لنفسها مركزا ساميا، بين كثير من أخواتها التي مع قدمها لا تزال سائرة متطلعة إلى مثل هذه الدرجة العالية والمنزلة الرفيعة.

وصدورها في (مصر) العربية - التي لها الحق في ان تفتخر وتزهى على بقية الأقطار العربية بكثرة مجلاتها المتنوعة، ووفرة جرائدها المختلفة - لم يكن حاجزا دون انتشار صداها في عموم البلاد العربية وأبنائها، ولم يمنعهم وجود البون الشاسع، والحواجز الطبيعية الجغرافية، وتفرقهم في مختلف الأقطار، من أن يجعلوها (منبرا) عاما لنشر ثمار قرائحهم الوقادة، وعصارة أفكارهم الثاقبة، ونتائج تجاربهم الأدبية والعلمية، وآرائهم القيمة العالية، واقتباساتهم الطريفة الظريفة، من الثقافة العربية لملائمة للذوق العربي الشرقي.

خذ أي عدد من أعدادها الثمينة فلن تجده إلا عنوانا للرابطة الأدبية العربية الوثيقة. فهذه المقالة لكاتب مصري بليغ، وتلك قصيدة منشأة أو مترجمة عن الإنجليزية أو الفرنسية لشاعر في سوريا أو العراق أو الموصل، من غير أن تتعصب لطائفة مخصوصة - شأن كثيرة من المجلات - أو تقديم كاتب وطني على غيره، أو التشدق بالنعرة الوطنية.

هذه الظاهرة الجليلة التي امتازت بها هذه المجلة الغراء تحملنا على أن نسميها بحق: مجلة العالم الأدبي العربي - ولا تتجاوز سياج الحقيقة والواقع، إذا سميت بهذا الاسم أو اتخذته شعارا لها.

وهذه الميزة الواضحة السامية، هي التي ألجأتني وحفزتني إلى كتابة هذه الأسطر، مع إظهار الأسف الزائد إذ لم تقع عيني وأنا أراجع الفهرس للسنة الأولى، وأتتبع إعداد السنة الثانية على اسم كاتب حجازي يكون قد اشترك مع إخوانه وزملائه المعاصرين في الأدب،

على صفحات هذه الصحيفة الغراء، ليساهمهم في هذه النهضة العلمية الفكرية المباركة، وليتعرف إليهم، ويعرفهم بنفسه، وإلا يكون بعيدا عنهم، إذ هو اقرب الناس إلى هذه المجلة الراقية علاقة ورابطة، وأحوجهم إلى الاشتراك في مثل هذه الخدمات الأدبية الجليلة، وباشتراكنا معهم يمكننا أن نؤمل من مديرها المفضال الأستاذ الزيات، كذلك إذا أراد أن يشيد بذكر أبناء الرافدين والنهرين إلا ينسى (الحرمين).

مكة المكرمة

أحمد علي

مهمة الناقد

بقلم نظمي خليل

شغلت الصحف في الأيام الأخيرة ببعض الدواوين الشعرية وانبرى النقاد والكتاب لهذه

الدواوين بالعرض والتحليل. وهذا أمر مألوف، فقد اصطلح الناس على أن يتناولوا كل اثر فني جديد يعرضون له تارة في شيء من التقدير والإعجاب، وتارة في شيء من التحقير والسخط، وحجة كل ناقد أو مستوعب لهذا العمل الفني انه يراه كذلك، وان ذوقه الأدبي يوحي له بهذا.

ولست أريد اليوم أن اسلك هذا الطريق أو أتناول ديوانا من هذه الدواوين بالعرض أو النقد. ولكني أريد أن أتساءل في هدوء ما فائدة النقد وما مهمة الناقد؟

لا ارغب من طرح هذا السؤال أن أثير ضجة في ميدان النقد، أو أن أحط من شأن النقاد، ولكني أتساءل مخلصا ما الفائدة الحقيقة التي تعود على الفن من نقد النقاد وتحليلهم؟

لقد انحط فن النقد عندنا حتى صرنا نرى الناقد لا يعدو أحد رجلين: رجل يكيل المدح في كرم وسخاء، وآخر يرمي بالشتائم والهجاء اللاذع المؤلم في غير تحرج ولا استحياء، وليس هذا عمل الناقد الفنان، فما كان النقد في يوم من الأيام مدحا أو هجاء، ولن تكون مهمة الناقد في يوم من الأيام أن يقف من الأثر الفني موقف من يقول انه حسن أو انه قبيح، ولكن الناقد الفنان هو الذي يستوعب ويقف على هذا الخلق الفني سواء في الأدب أو النحت أو التصوير أو الموسيقى، ويقول لماذا هو حسن وأين موضع القبح فيه.

ويجب عليه إلا يبني حكمه هذا على ذوقه الشخصي، فلو اعتمد النقد على الذوق فقط لنالته الفوضى وعمه الفساد. ولكن النقد لابد له من قواعد وأصول تقوم بجانب هذا التحكم الفردي فتخفف من غلوائه وتوقفه عند حده. ولست اذهب إلى ما ذهب إليه تين المؤرخ الفرنسي من أن زماناً معيناً ومكاناً معيناً وجواً معيناً تنتج أدباً خاصاً. فأنا لا أريد أن احشر النقد في زمرة العلوم، ولكني أرى انه لا يمكن أن يكون فنا خالصا يقوم على الذوق، أو علما محضا مرجعه القواعد والأصول.

أعود بعد هذا الاستطراد إلى سؤالي السابق الذي طرحت، والذي شغلني كثيرا ولا سيما في هذه الأيام، إذ لا يكاد ينقضي يوم حتى اقرأ في صحيفة أو أكثر من صحيفة بحثوا

مستفيضة تارة عن ديوان (وراء الغمام) وتارة عن ديوان (الملاح التائه) وهكذا، أتساءل في شيء كثير من الإخلاص ما الفائدة الحقيقية التي عادة على أصحاب هذه الدواوين، ولست اعني بأصحاب الدواوين أشخاصهم ولكني اعني ملكة الإنتاج وقوة الإبداع فيهم. هل استفاد هؤلاء الشعراء من تلك البحوث المستفيضة؟ هل زادت ثروتهم الفنية؟ هل نجد في آثارهم المستقبلة أثراً لهذه البحوث؟ ليس من شأني أن أتجعل الزمن فاحكم على آثار هذه البحوث ومواضيع النقد التي كتبت وتكتب حول هذه الدواوين. ولكني اعرض لكاتب من كبار كتابنا الذين ظهروا حديثا وهو الأستاذ (توفيق الحكيم) لم يكن هذا الكاتب معروفا لدى القراء قبل عام، ولكنه استطاع ان يتبوأ مكانة سامية بين كبار كتابنا في اقل من أسبوع، إذ ما كاد يذيع باكورة آثاره الفنية الرائعة (أهل الكهف) حتى ذاع صيته وعرف في كل مكان. وهنا ألقى السؤال (هل كانت شهرة الأستاذ توفيق الحكيم آتية من جانب النقاد الذين تناولوا روايته أو قصته التمثيلية في إعجاب وتقدير شديدين؟ أم من تلك المسرحية نفسها وما فيها من فن صاحبها وقدرته على تفهم أصول القصة والمحاورة؟.)

أني لا أتردد في الإجابة على هذا السؤال معلنا رأيي في صراحة أن شهرة توفيق الحكيم استمدت غذاءها من روح فضل أساتذة النقد عليه، فقد شادوا بفضله، ووقفوا الناس على فنان كان أمره مجهولا من الكثيرين.

ولكني أسال ما الذي عاد على فن الأستاذ الحكيم من هذا التهليل والتكبير. قد يكون أساتذة النقد أفادوا الأستاذ كمؤلف يريد أن يتعرف للجمهور ويتحدث عنه الناس ويقبلوا على شراء كتبه. وقد يكون أساتذة النقد أفادوا القراء بما استكشفوه في نتاج توفيق الحكيم من فن رائع وعبقرية كامنة. فأقبل القراء على مؤلفاته متزاحمين مدفوعين على قراءتها بما كتبه هؤلاء الأساتذة عنها. ربما كان في هذا الكلام الصواب كله أو بعضه، فكلنا يعرف أن القراء إنما يقرأون بالتأثير كما يتمغطس بعض المعادن من بعض.

فإذا قرأ القارئ كتابا واعجب به أخذ يبدي هذا الإعجاب لمن حوله فيثير فيهم الرغبة

القوية لقراءة هذا الكتاب. وهو لا يقنع بهذا ولا يهدأ حتى يقبل أصدقاؤه على هذا الكتاب، وق يكون الأمر على عكس ذلك، فقد يقرأ قارئ كتابا فيضيق به ويسخط على صاحبه ثم هو لا يبقى على هذا السخط في نفسه بل يخلق المناسبات لإعلانه في المجالس وفي الأندية
والمجتمعات، ثم هو لا يرتاح ولا يستقر حتى يجد من يشاركه هذا السخط والضيق بالعاطفة والشعور سواء أكانت هذه العاطفة جميلة أو غير جميلة. وسواء كان هذا الشعور في جانب صاحب الكتاب أو عليه.
وقد يكتب أحد أساتذة النقد مقالا يتناول فيه كتابا من الكتب بالبحث والتحليل فيستهوى هذا المقال لب قارئ من القراء - وقد يستهوى كثيرين - فيعلن هذا القارئ آراء هذا الناقد في ذلك الكتاب بين أصدقائه وإخوانه وتكون النتيجة أن يتزاحم هؤلاء الأصدقاء على قراءة هذا الكتاب مدفوعين بما سمعوا أو قرأوا عن هذا الكتاب. فيقرأونه وهم تحت تأثير هذا المقال. وأني أسوق إلى القارئ مثالاً على هذا.
كنت منذ أربعة أعوام اكره الشاعر (تنيسون) وأضيق به كلما هممت أن اقرأ شيئا من شعره. كان هذا منذ أربعة أعوام لم اكن قرأت قبلها نقدا أو تحليلا لشعر هذا الشاعر. قضيت على ذلك عامين وأنا اكرهه، بل كنت اقرأ كل من يذكر اسمه أمامي أو يعجب به، حتى كان لي مع الأستاذ (سكيف) أستاذ الدراما وشكسبير بكلية الآداب نقاش شديد حول هذه الكراهية الغريبة. فأخذ الأستاذ يبسط لي جمال شعر ذلك الشاعر، ثم كان ان قرأت كتابه الصغير وهو ثلاث محاضرات كتبها مستوعبا بعض قصائده مقدرا فنه. فأخذ رأيي يتغير وأقبلت على قراءة شعر ذلك الشاعر في حب وتقدير عظيمين.
وأني اقف اليوم من الشاعر بروننج ما وقفته بالأمس من الشاعر تنيسون، ولست ادري أوفق إلى أستاذ كذلك الأستاذ أو إلى كتاب كذلك الكتاب يحبب إلى قراءة شعر هذا الشاعر، أو أني سأقبل عليه من نفسي أو أظل على انصرافي عنه بقية أيامي.
أعود إلى سؤالي الأول (هل استفاد الأستاذ توفيق الحكيم شيئا من هذه الضجة الكبرى التي آثارها بمؤلفاته الثمينة. أني أرى أن الفائدة الفنية معدومة، ولكني مع ذلك لا أتجاهل فائدة النقاد للقراء وللمؤلف. للقراء كمرشد يأخذهم إلى مواطن الحسن الفني، وينبههم إلى مواضع الضعف ومواطن القبح، وللمؤلف كإعلان عن كتابه وكإشادة بفنه السامي.
ليس في هذا الكلام تعسف ولا مغالاة. وإني أرجو كل من يرى أو يخيل إليه انه يرى أن في هذا إجحافاً بحقوق النقاد إلا يثور ويحنق، بل أرجو منه أن يهدأ ويخلو إلى نفسه يسائلها هل غير الأستاذ توفيق الحكيم شيئا في فنه نزولا على رأي أو تنفيذا لنقد، هل تفتحت طبيعته عن أشياء كانت أثراً للنقد أو نتيجة لنصائح النقاد. هل زادت ملكة الإنتاج وقويت عنده بعد نشر هذه البحوث وكتابة هذه المقالات. كلا.
أرجو كل من يرى في هذا تطاولاً على النقد والنقاد إلا يحنق ويسخط بل يهدأ ويخلوا إلى نفسه يسائلها ما الفائدة التي عادت على فن شكسبير من مئات الكتب التي كتبت عنه. لقد كتب عن شكسبير ما لم يكتب عن أي إنسان آخر. وانك لترى اختلافاً كبيراً فيما كتب عنه. فمن النقاد من تناول حياة شكسبير الأولى ومنهم من تحدث عن شكسبير شاعر الإنسانية، وشكسبير الممثل، وشكسبير المؤلف المسرحي، وشكسبير المصور المبدع، وشكسبير الفنان وهكذا.
هناك مئات الكتب عن شكسبير وهناك عشرات الكتب كتبت في غرض واحد مثل شكسبير (المؤلف المسرحي) ولكنك لن تجد رأيين يتفقان، ولن تعثر على كاتبين قد سلكا مسلكا وأحدا في بحثهما، ثم أرجو أن تسأل نفسك هذا السؤال: (ما بال أولئك النقاد يصلون لياليهم بأنهارهم صامدين للبحث صابرين على الشدائد في هذه البحوث الطويلة المستفيضة؟ ستقول انهم يريدون أن يحلوا الغاز شكسبير ويشرحوه حتى يعرف الناس من هو شكسبير. ستقول انهم يريدون أن يحللوا مسرحيات شكسبير ويطبقوها على الحياة الواقعية التي نحياها كل يوم. يريدون أن يبرزوا مواهب شكسبير الفنية ودقة فهمه للطبيعة الإنسانية وما فيها من شتى العواطف والأهواء من حب وبغض وحقد وغيرة وحيرة ويأس وأمل وخيبة وخيانة وغدر. انهم يريدون أن يكشفوا عن اثر الطبيعة في فن شكسبير واثر الحياة الطبيعة في شعره.
انهم يريدون هذا وغير هذا، ولكن هل وفقوا إلى شيء من هذا الجواب. لا. لم يوفقوا

إلى إزاحة الستار عن سر تلك العبقرية الشاذة وعن ذلك الفن الخالد. لقد كتب كثيرون عن مآسي كتب برادلي كتابه (المأساة عند شكسبير) وهو احسن ما كتب في هذا النوع: حلل في أبطال مآسيه الكبرى عطيل وهاملت والملك لير وماكبث. وكتب كثيرون غير برادلي عن فن شكسبير الدرامي أو التمثيلي. ولكن هل استطاع كاتب من مئات الكتاب ان يكشف الستار عن سر هذه العبقرية وجلالها؟ هل افلح كاتب من مئات الكتاب أن يقدم لنا صورة واضحة لنفسية هاملت الحائر وطبيعته العميقة وفلسفته الغامضة؟ هل استطاع كاتب أن
يحدد لنا غرض شكسبير من مأساته الخالدة (الملك لير) وهل استطاع علم وظائف الأعضاء وعلم النفس الحديث أن يفسرا ظواهر الجنون في الملك لير وهاملت، وغرائز الغدر والخيانة في (ياجو)، والشعور بالغيرة في عطيل، ومطامع الإنسان في ماكبث؟ بل هل استطاع كاتب أو وصاف بارع أن يصف لنا شكسبير شاعر الطبيعة الفذ في كوميدياته: (كما تحبها)ـ (وحلم ليلة في منتصف الصيف)، (والعاصفة) لا. لا. لقد اجهد مئات الكتاب أفكارهم في شرح رجل وأحد وفي تفهم نفسية فرد فلم يفلحوا. بل تشعبت بهم البحوث وتباعدت آراؤهم وتضاربت.

فعلام كان كل هذا الإجهاد والنصب؟ وعلام كان كل الاهتمام؟ لم يأت هذا الإجهاد بثمرة، ولم تكن لاهتمامهم نتيجة، فقد فشلوا جميعا وعجزوا عن تفهم روح الشاعر نفسه، عجزوا عن أدراك سر عبقريته.

فيا ليت شكسبير الذي أبدع كل هذا المسرحيات وجاء بهذه المعجزات الفنية في الشعر أراح أولئك النقاد وأراحنا نحن القراء، فكتب موجزا صغيرا لمآسيه وكوميدياته يشرح فيه فكرته وأغراضه، ولكن شكسبير معجزة الدهر قد أبى أن يقف الناس على أسرار فنه، ومن يدري؟ ربما لم يعرف هو نفسه من أمر فنه شيئا فمات وبقى لغزا لن يحل. فإذا القينا نفس السؤال (هل استفاد فن شكسبير من هؤلاء النقاد الذين يعدون بالمئات؟ كان الجواب بالنفي طبعاً، لأن شكسبير لم يعض حتى يرى هؤلاء النقاد، واغلب الظن انه لم يعن بأمر هؤلاء النقاد ولم يأبه بمعاصريه الذين تناولوا مؤلفاته بالنقد سواء المعجبون المشجعون أو الناقمون الحاقدون. فان شكسبير لم يكتب ليعجب النقاد أو يسخطهم، بل اغلب الظن انه لم يفكر في إغضابهم أو إعجابهم، وهذا شأن الفنان الحر الطليق لا يفكر إلا في نفسه وفي نفه ولا يأبه إلا لرأيه ولا يخلص إلا لفنه.

ولكني مع ذلك لا أنكر إن هذه المئات من الكتب التي كتبت عن شكسبير قد أعانت وستعين كل دارس لشكسبير؛ ستعينه بقدر ما وصل إليه هذا الكاتب من تفهم لروح شكسبير ووقوف على أسرار عظمته الفنية. أقول أعانت القارئ وستعينه، ولكنها لن تقفه على مواطن الإعجاز في شكسبير الأصيل، فلن يعرف قارئ هذه الكتب موطن الإعجاب بهاملت والغرض الأساسي الذي كتبت من اجله، وسيظل البطل هاملت حيرة الألباب والعقول ما
بقى في العالم إنسان مفكر.

فإذا كان هذا أمر النقاد والشراح من الفنانين العظام، ففيم إذن تنحصر مهتمهم؟ هل لهم رسالة يؤدونها كالكتاب؟ في رأيي أن الناقد عالة على الكاتب، أرى أن الناقد شخصية ثانوية تعيش على غيرها؛ فلولا الكاتب لما وجد الناقد، ولولا الخلق والابتكار والإنتاج لما وجد النقد ولما سمعنا صياح النقاد الذي يصم الآذان. فلولا شخص وأحد كشكسبير لما وجد مئات النقاد الذين وان كانوا قد أرشدونا إلى بعض مواطن الحسن والإعجاز في فن شكسبير، إلا أني أرى أن هذه المهمة وإن كانت عظيمة الفائدة في ذاتها، اقل من أن تكون مهمة مئات من الرجل قد استمدوا حياتهم الفنية ووجودهم الأدبي من عبقرية فرد وأحد هو شكسبير.

نظمي خليل

بكالوريوس آداب

جواب عن سؤال

الإلياذة والأوذيسة

أشرتم في كتابكم (تاريخ الأدب العربي) إشارة موجزة إلى ديواني الإلياذة . . . والاوذيسة. فهل تتفضلون وانتم. . . بكلمة في الرسالة عن موضوعي هذين

. . .الديوانين
م. ع. خ (سنغافورة)
الإلياذة والاوذيسة منظومتان يونانيتان نسبتا إلى هوميروس، واستفاضتا في الشعوب والأجيال تحملان اثر العبقرية الإغريقية، وترددان صدى الحرب الطروادية، وتمدان الآداب العالمية بالغذاء والقوة. موضوع الإلياذة غضب اخيل، وهو حادث بسيط من حوادث حرب طروادة وقع في السنة العاشرة من حصارها، واستغرق وأحدا وخمسين يوما، تبتدئ بشجار اخيل وأغاممنون وتنتهي بقتل هكطور. وتنقسم هذه الملحمة إلى أربعة وعشرين نشيدا تمثلت فيها صور الحياة اليونانية بأساطيرها وعاداتها وآدابها جلية رائعة مؤثرة. وأهم أبطالها من الإغريق أغاممنون ملك أرجوس ومسينا وأمير الجيش، ومينيلاس أخو اغاممنون وملك اسبارطة، واخيل ملك الفذيوتيد، وبتروكل صديق اخيل، ونسطور ملك بيلوس، وأوليس ملك اتيكا؛ ومن الطرواديين هكطور وفاريس ابنا فريام ملك طروادة، واينوس حمو فريام الخ. وللآلهة في الإلياذة شأن خطير واثر كبير: فزحل ومنيرقفا مع الإغريق، وابولون والمريخ مع الطراوديين. فهم يدبرون القتال، ويحمون الأبطال، ويتقارعون فيما بينهم انتصارا لطائفة على أخرى. وملخصها أن أبولون سلط الوباء على معسكر الإغريق، فاعمل فيهم منجله انتقاما منهم على سبيهم بنت كاهنة كريريس. ثم جل الخطب بوقوع الخلاف بين اغاممنون واخيل من اجل سبيه نفسها الأول على الثاني فاستأثر بها دونه من غير حق. ولما عجز اخيل الباسل عن الأخذ لنفسه من امير الجيش اعتزال الحرب وهو يكاد ينشق من الغيظ والحنق، فرجحت كفة الطرواديين باعتزاله، وحالفهم النصر منذ استراحوا من قتاله. ودارت الدائرة على الإغريق فجرح ديوميد وأوليس، وأخذ هكطور يحرق أسطولهم وأحدق بهم الخطر من كل جانب. فلما رأى ذلك بتروكل استعار سلاح اخيل وصمد إلى العدو فأجلاه عن موقفه. إلا أن أبولون أسعف الطرواديين فتصدى للبطل فاسقط خوذته ونزع درعه، حتى امكن هكطور ان يضربه الضربة القاضية. وجاء نعى بتروكل إلى صديقه اخيل فسارع إلى الخنادق، وما كادت العيون تأخذه حتى وقع الرعب في قلوب الطرواديين، وسرت الحمية في نفوس الإغريق. فاستخلصوا جثة بتروكل، وشق على اخيل أن يطل دم صديقه، فصالح الزعماء وأزمع قيادة الجيش. وأرسل أمه إلى فلكان اله النار تأتيه منه بسلاح ولامة. فلما تسربل بالحديد خاض المعركة فأوقع بالطرواديين وقذف بهم في نهر الاجزنت، والتقى بهكطور فحمل عليه وقتله، ثم شده إلى مركبته وطاف به مسحوبا على وجهه حول جدران طروادة على مشهد من أسرته الضارعة الحزينة. ثم احتفل بعد ذلك بجنازة بتروكل؛ واوحى اله من الآلهة إلى فريام أبي هكطور ان يذهب إلى اخيل يسأله جثة ولده؟ فذهب الشيخ يسترحم البطل المنتصر، ويتوسل إليه بذكرى أبيه حتى رق له ورد إليه أشلاء القتيل.

أما موضوع الاوذيسة فهو مخاطر أو ليس بعد سقوط طروادة ورجوعه إلى اتيكا بعد أن عوقته عن هذه الأوبة أقدار الإلهة المعادين عشر سنين. وتنقسم هذه الملحمة إلى أربعة وعشرين نشيدا أيضاً، وقعت حوادثها في خلال أربعين يوما، وهي دون الإلياذة في الأسلوب والقوة والجاذبية، حتى كان هذا الاختلاف الشديد دليلا من أدلة الأستاذين الناقدين فيكو الإيطالي، وولف الفرنسي، على أن هاتين الملحمتين ليستا من صنع مؤلف وأحد. وملخصها أن أوليس لدى عودته من حصار طروادة حل عليه غضب نبتون اله البحر فأضله بين جزره وسواحله؛ وطال نزوحه عن وطنه حتى ندبه أهله وبكاه قومه، وحتى جرؤ الطغاة من الأمراء على أن يستبيحوا ذماره ويهلكوا ماله، ويكرهوا بنيلوب زوجه، على أن تختار أحدهم لها بعلا. وغضب تليماك ابن أوليس على حداثة سنه لانتهاك حرمته، وإنتهاب ثروته، وابتذال فنائه؛ فخرج في البحث عن أبيه عند رفاقه من أبطال طروادة، ائتماراً بمشورة الآلهة منيرفا. فذهب إلى نسطور في بيلوس، والى منيلاس في اسبارطة، فقص كل منهما عليه ما كابداه في أوبتهما من الأهوال، ونعيا إليه بتروكل واخيل واغاممنون واجاكس؛ اما أوليس فانهما لا يعلمان شيئا عن مصيره.

وكان أوليس في ذلك الحين أسيراً في جزيرة (اوجيجي) عند الحورية جاليبسو، فظفر بالنجاة على ظهر طوف، ولكن عاصفة هوجاء هبت عليه فقذفت به في ساحل جزيرة

(الفياسين) على حالة بين الحياة والموت؛ فاقتاده أهلها إلى ملكهم السينوس، فقص عليه
أوليس ما عاناه من الشدائد منذ غادر طروادة، فاعجب الملك بشهامته وفصاحته، واعد له سفينة أقلته إلى اتيكا، فلما وطئت قدمه أرضه تنكر في زي سائل، ونزل عند الشيخ (اوميه) حارس قطعانه؛ واتفق أن رجع تليماك إلى وطنه في ذلك الحين فلقى أباه وعرفه، وأخذ يديران الحيلة معا لهلاك أولئك الأمراء المعتدين بمعونة الخدم المخلصين. وكانت بنيلوب طوال هذه السنين قد نجحت في مماطلة هؤلاء الخطاب الملحفين بان علقت قبولها الخطبة على فراغها من الثوب الذي كانت تنسجه، وهيهات أن تفرغ منه، لأنها كانت تظل النهار كله تنسج فيه، حتى إذا جاء الليل نقضت ما نسجته. فلما طال الزمن وانقطع الرجاء من أوبة الغريب، وكلت الحيلة، وأهلك الخطابة الزرع والضرع، أوشكت ان تذعن لولا أن دخل أوليس متنكرا إلى قصره وفتك بأعدائه، وتعرف إلى زوجه الوفية بنيلوب، وجده الشيخ لابرت، وأخذ يجمع أهبته لمقاومة أهل المقتولين، إلا أن منيرفا حلت في شخص منطور صديق أوليس ومشير تليماك، فضمنت بحكمتها لمملكة اتيكا السلام الدائم والرخاء العميم.
(الزيات)

أعيان القرن الرابع عشر - 11

للعلامة المغفور له احمد باشا تيمور

الشيخ علي الليثي

سيد الندماء

ولد سنة 1236، كما تحققه من بعض أفراد أسرته، كان في ابتداء أمره مقيما بمسجد الأمام الليث، وكان ينزل إلى الأزهر لطلب العلم، ويعود للمبيت هناك، وكان كريما على فقره. ثم ورد على مصر الشيخ السنوسي الكبير قاصدا الحج، فاتصل به، وأخذ عنه الطريق وحج معه، ولما عاد إلى مصر لم يفارقه. بل سافر معه إلى جغبوب، وأقام هناك مدة لم يفتأ فيها يطلب العلم ويستفيد. ثم فارقه وعاد لمصر، واتصل بأم عباس باشا الوالي فجعلته شيخا على مجلس دلائل الخيرات عندها. ثم اتصل أيضاً بالأمير احمد باشا رفعت بن إبراهيم باشا الكبير. فاعتقد فيه، واطلعه على خزانة كتب عنده، فاطلع على ما فيها واستفاد منها. وبسبب سفره إلى جهة المغرب اتهموه بمعرفة الزايرجة والاوفاق، فلما تولى سعيد باشا على مصر، أمر ضابط مصر عبده باشا بجمع من يأكلون أموال الناس بالباطل بهذه الخزعبلات، ونفيهم إلى السودان، فسيق المترجم معهم لما علق به من هذه التهمة، فبقى في السودان إلى أن عفى عنه وعاد لمصر.

ولما تولى إسماعيل باشا على مصر، تلالا نجم المترجم، وبدا سعده، فاتصل به، وقربه هو والشيخ عليا أبا النصر، وجعلهما نديمين له كنديمي جذيمة، وصار لا يصبر عنهما في مجالس انسه، فكانا إذا حضرا تلك المجالس أزاحًا الكلفة وتبسطا معه في القول والتندير، فكانت لهما في ذلك من النوادر ما يملأ الأسفار. وقد بلغ من شغفه بهما ان خصص لهما قاعة بديوانه يجلسان بها كأنهما من المستخدمين فيه. وحدث مرة أن أمر بكتابة ألواح على باب كل قاعة في الديوان، ليعرف من بها، كقلم التشريفات، وقلم التحريرات ونحوها، وسألهما العالم عم يكتبه على قاعتهما، فقال المترجم اكتب عليها: إنما نطعمكم لوجه الله. وبسبب تقرب المترجم من الخديوي قصده الناس في الشفاعات عند الكبراء، ونفع الله به خلقا كثيرا، جزاه الله عز مسعاه خير جزاء.

ثم لما عزل الخديو، وتولى ولده محمد توفيق باشا، شغف أيضاً بالمترجم واحله محله من القبول. حتى كانت الفتنة العرابية وسفر الخديوي إلى الإسكندرية، فانضم المترجم إلى العرابيين اضطرارا أو اختيارا، فلما عاد بعد الفتنة لم يؤاخذه، وصفح عنه، وقابله المترجم بقصيدة مطلعها.

كل حال لضده يتحوّل ... فالزم الصبر إذ عليه المعوّل

تبرأ فيها من الفتنة، وأبان عذره في الانضمام إلى العرابيين، فإنه كان إذا سافر إليه كل أسبوعين، ركب من هنا سفينة بحلوان، فانه كان إذا سافر إليه كل أسبوعين، ركب من هنا سفينة بخارية وذهب بها إلى ضيعة المترجم التي بشرق اطفيح، فيقيم عنده يوما ويتغدى فيها، وهو شيء لا يفعله مع غيره. ولهذا السبب اعتنى المترجم بتلك

الضيعة، فغرس فيها البساتين والكروم، وبنى قصرا صغيرا لنزول الخديو، وحرمه وحاشيته، ولم يزل هذا شأنه معه حتى مات الخديوي، فلم يكن له حظ مع ولده عباس باشا، كما كان مع أبيه وجده، فجعل أكثر إقامته بتلك الضيعة، يشتغل باستغلالها ومطالعة كتبه، فإذا حضر لمصر نزل بداره التي بجهة باب اللوق، فيقيم بها أياما. ثم يعود، ولم يزل كذلك حتى اعتلت صحته وطال مرضه اشهرا، حتى توفاه الله إلى رحمته في يوم السبت 10 شعبان سنة 1313 عن سن عالية، وقد شبع من الأيام وشبعت منه، ونال من العز والجاه إلى مماته ما لم ينله غيره.

وكان رحمه اله أية في حسن المجالسة، محببا إلى القلوب، أديبا شاعرا، حاضر الجواب، فكه الحديث، إذا عرفه إنسان تعلق به، وكره مفارقته، مع انه كان دميم الصورة، اطلس، ليس في وجهه إلا شارب خفيف، وشعرات على ذقنه. ولما حضر لمصر السلطان برغش ملك زنجبار، فلازمه مدة مقامه بالقاهرة، واعجب السلطان به إعجابا شديدا. ثم لما عاد لبلاده. صار يتعهده بالرسائل والهدايا من العنبر ونحوه كل سنة، فيهدي هو بها أخصاءه وأصحابه وكذلك ما كان ينتج ببساتينه من غرائب الفاكهة، وأصناف الأعناب النادرة، كان موقوفا جميعه على الهدايا لا يبيع منه شيئاً. واقتنى خزانة كتب نفسية اجتمعت لها بالإهداء والشراء، والاستنساخ وغالي فيها، وبذل الأثمان العالية، فجلبت له من الأفاق وعرفه نجار الكتب والوراقون فحصوه بكل نفيس منها. ثم لما مات اقتسمها ورثته، وبقيت إلى الآن محبوسة تحت أيديهم لا ينتفع بها.

وكان أدباء مصر وفضلاؤها يقصدونه في تلك الضيعة، فينزلهم على الرحب والسعة، ويقيمون عنده الأيام والأشهر، وهو مقبل عليهم بكرم خلقه ولطائفه، ومحاضراته المستحسنة، وقد يقيم الإنسان عنده شهرا أو أكثر، وهو يؤنسه كل يوم بحديث جديد لا يعيده. وبالجملة فقل أن يوجد مثله، أو يجتمع لإنسان ما اجتمع له، مع الورع والتقوى خصوصا في أواخر أيامه رحمه الله رحمة واسعة

الشيخ محمد شهاب الدين

المصريّ الشاعر

شريف النسب اشتغل أولا بالقبانة، ثم دخل المحكمة الشرعية تلميذا للتعلم، ومال للأديب، ونظم الشعر، وداخل الأعيان حتى اتصل بعباس باشا والي مصر، وتقرب إليه ومدحه بالقصائد فاحبه وقربه حتى صار كبير جلسائه وندمائه، وجعل له في كل قصر من قصوره حجرة يبيت فيها الليلتين والثلاث إذا كلبه للمجالسة والمنادمة، وأفاض عليه من نعمه، وقبل شفاعته حتى صار له بذلك جاه طويل عريض، وله معه نوادر غريبة، منها ان المترجم كان جالسا في حجرته مرة في أحد القصور، ومعه بعض جلساء الوالي ينتظرون الإذن بالدخول إليه، فقال في عرض كلامه، يقولون إن البغلة لا تحمل، أفلا يكون ذلك بسبب رطوبات أو ما أشبهما تعيق حملها؟ أفلا يكون ذلك بسبب رطوبات أو ما أشبهها تعيق حملها؟ وعند افندينا أطباء كثيرون، فلو انه اطال الله بقاءه أمر بعضهم بالبحث في سبب هذه العلة وأزالتها، فلست اشك في أنها تحمل بعد ذلك. وأسرع بعض العيون، فبلغ عباسا باشا كلامه، فجاءه بعد هنيهة أحد رجال القصر يقول له: يا أستاذ يقول لك أفندينا أننا سنأمر الأطباء بما اشرت، ولكن إذا لم تحمل البغلة ماذا يكون؟ فبهت القوم لنقل المجلس بهذه السرعة إلا المترجم، فانه وقف قال: بلغ أفندينا ان عبده شهابا له كذبتان كل سنة أيام البذنجان، هذه إحداهما.

وكان رحمه الله رقيق المزاج، أنيس المحضر، لا يمل جليسه من نوادره، وتلعق بعلم الموسيقى فبرع فيه، وأخذه عنه كثيرون وجمع فيه كتابا سماه سفينة الملك. وله ديوان شعر طبع بمصر، وكانت وفاته سنة 1274.

الشيخ محمد أبو الفتح الحنفي

مفتي الإسكندرية

ولد في أوائل القرن الثالث عشر، وطلب العلم بالأزهر على الشيخ الصاوي وغيره من شيوخ الوقت، ثم انتقل لرشيد وتزوج بها بنت السيد عباسي من مشهوري رشيد. وكان ملازماً للشيخ محمد البنا الكبير، فلما انتقل الشيخ إلى إسكندرية انتقل المترجم معه وبقى

بها وانتخب أميناً لفتواها، وكان مفتيها إذا ذاك الشيخ الدويري، ثم لما مات الدويري تولى البناء الإفتاء فنقل المترجم لمنصب آخر، ولما مات البناء تولى هو إفتاء الثغر وبقى به إلى ان مات. وكان له شغف زائد بجمع الكتب واقتناء نفاسئها، حتى اجتمعت له خزانة نفيسة بيعت بعد موته بثمن بخس. وكان رأى بناته وزوجته إبقاءها فلم يرض ولده، فذهبت وتفرقت بعد ما عانى أبوه ما عانى في شرائها واستنساخها. وكان له ولع أيضاً بجمع الساعات فجمع منها نوادر وطرفا بيعت بعد موته أيضاً، ولم يترك شيئا من الحطام سوى دار بإسكندرية كان يسكنها في أواخر أيامه وكانت وفاته يوم الاثنين سادس شهر صفر سنة 1294 ودفن يوم الثلاثاء، ورثاه الشيخ عبد الرحمن الأبياري قاضي إسكندرية بقصيدة مطلعها:

أهذي سيوف الدهر جرّدها الدهر ... أما السنة الشهباء جفّ بها الزهر

ومن مؤلفاته كتاب تبويب الأشباه والنظائر لأن نجيم، وشرع في كتاب آخر في الفقه لم يكمله، وكانت له يد طولي في علم الميقات، وهو جد صاحبنا العالم الفاضل الشيخ حسن منصور لامه.

احمد تيمور

في الأدب العربي

أبو العتاهية

بقلم عبد الحليم عباس

لا اعرف. ما هو هذا الشيء الذي يجذبني إلى قراءة هذا الشاعر، ومعاودة هذا القراءة الفينة بعد الفينة.

فليست جودة شعره هي كل شيء، فهناك من يفوقه طلاوة لفظ، وصحة أداءه، وسمواً في الشاعرية.

لا لأنه يعيد لنا صورة حقبة رائعة للمجد العربي، والحضارة العربية، التي نما في أحضانها وتقلب في أعطافها، والتي تغذي فينا هذه العزة القومية، التي نشعر أنها مثلومة، كلما رأينا الوطن نهباً مقسما مهيض الجناح. . . هناك غيره من الشعراء، يمثلون أروع الحقب، وأزهى الأزمنة للفتح الإسلامية ثم نحن لا نستطيب احاديثهم، ولا نستملح سيرهم بهذا المقدار. . . ولعل السبب يعود إلى هذه العواطف والفكر، التي يبعثا فيك هذا الشاعر، والى هذا التركيب النفساني، الذي يبعث فيك صدى متضارب النغمات، ومزيجاً من العواطف فيها السخرية المشوبة بالعطف، وفيها الضحكة العالية، تنطلق لتقطعها عواطف الرثاء والرحمة. . . وليس هذا بالقليل، وآية متعة أسر للنفس، واخصب للفكر، من أن تفخر وترثى وتتفكه وتعبث. ثم تستعبر لتعود فتضحك ملء أشداقك. إنها الحياة مصغرة في سيرة شاعر ما أحراها منا بدراسة مستفيضة.

نسب أبي العتاهية وعصره

قوام النقد في العصر الحديث

النقد الحديث يقول أن العبقري ثمرة عصره، غذتها هذه الأصلاب، وهذه البطون تتلقفها، وهي تنسل من الاجيال، وتتمشى ببطء إلى زمنها المقدور وميقاتها المحتم، فللبحث في خصائص العباقرة، يجب أن تتناول قبل كل شيء البحث في أزمانهم، وتحليل هذه العوامل التي تتضافر على خلقهم. ثم مقياس إبداعهم الفني، وما يتركون من آثار، بمقاييس الجمال والفن المتواضع عليها في أزمانهم. . .

ولا مشاحة في أن هذه النظرية ارتفعت بالنقد إلى حيث أصبح مأمون الجانب من عبث الأهواء، وتقلب الميول، وألقت ضياء على هذه الدياجير التي كانت تعتور الباحث، وتتكاءد المنقب؛ بيد إنها من وجهة ثانية جادت على العبقري، ولم تحسب لهذا السر يودع في نفسه حسابا في أبحاثها، فليس الزمن، وليست قوانين الوراثة، هي كل شيء في إيجاد العبقري وتكوين رسالته. وإنما هو سر غامض مستعص حله كغيره من هذه الأسرار التي تحيط بهذا العالم الأكبر والأصغر، والتي يحاول العقل جهده إماطة اللثام عنها، ثم لا يجد غنيمة بعد الكد إلا سلامة القفول. . . وإلا فأي شيء هذا الذي يخلق الاثنين من صلب وأحد، وفي زمن بعينه، ثم تتسامى نفس أحدهما وتفتح أفكاره، فإذا هو يغذي الإنسانية بزاد المعرفة، ويتسامى بها، ويزيد في ذخيرة الخلود. وأما الثاني فيعيش خاملا مغمورا ويندس في سواد الناس. . . فقمين بنا أن نحسب لهذا حسابا في أبحاثنا. . . ثم نحسب لهذا المزاج والتركيب النفسي في الشاعر، وهو اثر من آثار

هذه الهبة ألقته القوة المجهولة، في نفس الفنان وركبت أعصابه على مثال خاص، ليتلو رسالته ويهتف بلحنه على نغمة مرقومة ونحو خاص: حسابا عله لا يقل أهمية عن عوامل الزمن وقوانين الوراثة. . .

وما أحرانا ونحن نبحث بحثا مقتضبا عن الشاعر - أبي العتاهية - أن نغفل - ولو إلى حين - عوامل العصر والوراثة لنتكلم عن مزاجه، وحسبنا أن نعلم عن العصر والأصل. . أن أبا العتاهية تحدر من أصل وضيع، ومن الموثوق انه اشتغل ببيع الفخار، ورافق المخنثين. أما الزمن فيكفينا أن نعلم انه من هذه الأزمان التي كان تنكر كل فضيلة، والتي يطلق عليها كلمة المتشائمة والتي كانت لاشك، والإغراق في المجون اظهر مميزاتها.

مزاج أبي العتاهية

وأول ما يطالعك من مزاج أبي العتاهية هذا التناقص، وهذا الاضطراب، فيما يأخذ ويدع، وفيما ينهج من سبل.

فلقد تجاذبت نفسه طرفي النقيض، وكان يرى الدنيا ويلابس الوجود على هدى نزعتين بينهما من الاختلاف ما بين النقيض ونقيضه. . . فهو آونة مندفع بتيار اللذة مستغرق بهذا المجون، الذي وصل بعصره حد الشناعة، وطورا تتقمصه أرواح الزهاد، فيلبس المسوح ويهجر اللذائذ، وتتملكه تملكا عنيفا فكرة الخوف من الموت. فإذا هذه الدنيا باطل، وإذا هو

موف من الصلاح على الغاية. . . حتى ليحار فيه أهل عصره، وقد تصل بهم الحيرة إلى حد أن يحيلوا أمره إلى العبث، ويرموه بالتدجيل، والحق أن ليس في هذا عبث ولا تدجيل، وان الأمر صادر عن عقيدة خالصة طهور، وهذا التناقض قريب المرد إذا رحنا نستوضح خافيه على ضياء مزاحه، حتى لنرى أن قد تقاربت هذه المتناقضات، فإذا هي تنبع من عين واحدة. . .

فأبو العتاهية - لم يكن مستقيم المزاج وإنما هو مضطربة، وقد طغى فيه الجانب العاطفي، ولم تتح له نشأة صالحة، ولا بيئة هادئة، تخفف من حدة هذا الاضطراب، وتأخذ بزمام هذه العاطفة إلى حيث يتمكلها العقل، ويفرض عليها سلطانه، وقد بلغ من طغيان هذه العاطفة أن أصبح الشاعر عرضة لانفعالات مخيفة مستهجنة في عرف العقل، والعاطفة الصحيحة، كان يتخذ - مثلا - لباسه من قوصرتين يدخل رأسه في إحداهما، ويدخل رجليه في الأخرى، كل ذلك زهادة في الدنيا وكرها لنعيمها، ولكن أية سخرية تتملكن إذا رأيته يلقيهما بعد حين ليتخير على المنى، ويجري مع الغواية، وليسيم سرح اللهو، على أن ينفض يده كرة أخرى من نعيم الدنيا، ويجلس حجاماً لأبناء الفقراء، يبتغي المثوبة، ويطلب الباقيات الصالحات، ثم تكون آخر أمنياته. وقدمه في حياض الموت أن يسمع غناء مخارق.

كل ذلك جائز في عرف هذا المزاج المضطرب وليس بمستغرب منه، وإنما المستغرب ان يمشي وفاق نظام معين، وخطة مقررة. . . وإذا عرفنا هذا من أبي العتاهية، فقد عرفناه ظاهرا وباطنا، وأصبح سيرنا معه مأمون الغرابة. وأصبح لهذه الخطرات المستغربة علتها الأصيلة المعروفة المنبع والمورد. وأصبحنا نرقب منه في كل أمر شذوذا وانحرافا إلى ضده. فإذا رأيناه مثلا ينعى على الناس حرصهم ويقول:

تعالى الله يا سلم بن عمرو ... أذلَّ الحرص أعناق الرجال

ارتقبنا منه ان يكون نادرة في الحرص.

وإذا نهض ليرى الناس صغارة دنياهم وحقارة بدرهم وأموالهم.

إن مال المرء ليس له ... منه إلا حظه الحسن

كل حي عند ميتته ... حظه من ماله الكفن

عرفنا انه أعجوبة الزمن، ونادرة العصر، في البخل والتقتير. . . عاتبه صديق له على هذا البخل المنقطع النظير وقال له: أن الناس يزعمون انك من شدة بخلك، وفرط تكالبك على حطام الدنيا لا تأكل اللحم - أو الأصح تشتريه - إلا في العيدين، فتأوه أبو العتاهية وقال: والله لقد ظلموني. وأني قد اشتريت لحما وتوابل في يوم عاشوراء.

على أننا نرى هذا البخل في حاجة إلى كلمة خاصة، فلقد كان من المنتظر أن يهب أبو العتاهية ولو مرة ليتلف هذا المال ويبذره جريا مع هذا المزاج، ولكنه لم يفعل هذا ولا جال بنفسه. وعلة هذا تعود إلى أمرين، أولهما انه نشأ في صميم الفقر، وذاق غصته،

وعرف ان المادة هي كل شيء في قيم الرجال.
ما الناس إلا للكثير الما ... ل أو ما دام في سلطانه
وكان سيئ الظن بالناس، يخشى عادية الفقر، ويخشى ان طاح به غدر الزمان ألا يجد أخاً معينا.
أنت ما استغنيت عن صا ... حبك الدهر أخوه
فإذا احتجت إليه ... ساعة مجك فوه
والسبب الثاني، انه أرضى مزاجه الغريب، بمناضة الناس وشدة حرصه وتكالبه، فكلما عن له ان يتلف ماله ذكر سوء المنقلب. فيندفع غلوا في التقتير.
وابو العتاهية سوداوي المزاج من نوع خاص يميل إلى ما يميلون إليه، ولكن أعصابه ما كانت لتقوى على السير على منهاجهم. فهو يتبرم بالناس وينشد الوحدة.
برمت بالناس وأخلاقهم ... وصرت أستأنس بالوحدة
ولكنه لا يقوى على وحشة الوحدة. فيعود ليندفع بشدة في صخب الاجتماع، فهو ضعيف الأعصاب من جهة، ومضطربها من جهة ثانية، واصدق مظهر يدل على ضعف أعصابه ما كان من أمره في شأن الدين. فقد زعم أهل عصره انه كان زنديقا، وقد انتابه الشك في أمر العقائد، وجاراهم في هذه النظرة رجال النقد الحديث، ولكنهم لم يبينوا لنا مدى هذه الحيرة في أمر الدين، ومقدار هذا الشك. فهو قد شك وحار، ولكنه شك الطفل وحيرته، تروعه الأشباح وتتملك وعيه الهواجس، فلا يجد بدا من الاستسلام فيروح يتعلق بالدين تعلق الخائف. ويستسلم إلى خرافاته استسلام العجائز.
إلهي لا تعذبني فإني ... مقرٌّ بالذي قد كان مني
فمالي حيلة إلا رجائي ... لعفوك إن عفوت وحسن ظني
وانظر إليه لتتحقق صدق هذه النظرة وهو يناجي الموت، فما كان ليقف عنده وقفة المعري يسأله ويستوحيه عن أسراره وغوامضه، وإنما هي وقفة الخائف الرعديد، تلجمه روعة الموقف وتأخذ عليه الدهشة مسارب الفكر، فإذا كل ما يهجس بخاطره ويدور بخلده، خشوع عميق، ووصف مقتضب للموت يلوذ بعده، إلى إظهار التوبة والضراعة.
كلنا في غفلة والموت يغدو ويروح لبنى الدنيا من الدنيا غبوق وصبوح رحن في الوشن وأصبحهن عليهم المسوح نح على نفسك يا مسكين إن كنت تنوح ويزيد في رخاوة هذه الأعصاب واضطرابها أن أبا العتاهية لم ينل حظا وافيا من الثقافة، وكان أيضاً ضعيف الخبرة بالدنيا لم يمر عليه من التجارب، ما يصقل هذه العاطفة المستوفزة.
ولمعترض ان يقول: كيف يكون ضعيف الخبرة، قليل التجربة من طفحت بأمثاله كتب الأدب وأسفاره. فهو قد نظم أرجوزة فحسب، أودعها مئات بل آلاف الأمثال والحكم الرائعة، وصحيح هذا، بيد أن هذه الأمثال ونحن نقلبها ونعيد تلاوتها، لا نجدها تدل على علم مستفيض وخبرة واسعة، فكلها في معنى وأحد، وان تجاوزته فإلى معان متشابهة مطروقة، فهو يرى أن الدنيا ما برح مقدورا عليها الفناء، فخير زاد للمرء التقي، أو السمعة الحسنة، ومن يقل غير هذا؟
حسبك مما تبتغيه القوت ... ما أكثر القوت لمن يموت
هي المقادير قلمني أو فذر ... إن كنت أخطأت فما أخطأ القدر
كأن كل نعيم أنت ذائقه ... من لذة العيش يحكى لمعة الآل
وهكذا دواليك من العبر الرخيصة القريبة المتناول، والتي لا تحتاج إلى سعة في العلم ولا سمو في التفكير كالتي تجري على لسان المتنبي مثلاً: وإنما نحتاج إلى هذا اللسان الذرب، والشاعرية السمحة. ومن أولى بها من هذا الذي كان يتناول الشعر من كمه كما يقول الأصمعي، ولعل هذا هو السبب الذي يعود إليه كثرة السقط في شعره.
شرقي الأردن
عبد الحليم عباس
أغنية النيل
للشاعر الحضرمي علي احمد باكثير
يا جسر إسماعيلْ ... بُورِكْتَ من جسرٍ
أنت سِوَار النيلْ ... رُصِّع بالدُّرَّ!
حلا بهِ وازدَانْ ... مِعصمُهُ الناعمْ

كأنَّهُ وسنانْ ... بالأملِ الحالِمْ!
بين المصابيحِ ... في نورها الفاتِرْ
تُوحِى بما توحى ... للمهُلْهَم الشاعرْ
من نجمةٍ وسنى ... لنجمة وسنى
قد كسرت جفنا ... فأغربت حُسنا!
مَنْ عَلَّم النُّورا ... فلسفةَ الكسرِ؟
أستَلْهَمَ الحورا ... دقائق السِّحْرِ؟!
مَنْ عَلَّم النُّورا ... ترنيقةَ الطَّرفِ؟
أستلهم الحورا ... صناعة الحَنْفِ؟!
في شطِّهِ قامّتْ ... بواسقُ النَّخلِ
عرائس هامَتْ ... بالمَيْسِ والدلِّ
برَزْنَ ممشوقاتْ ... ورافعات الهامْ
يُحسَبْنَ - منسوقات - ... علامَ الاِسْتفْهام!
والقمر المحزون ... مبتسم النَّغَّرِ
يبكى لمن يبكون ... من عَنَت الدهر
يسامر العاشق ... ويسعد الولهان
ويسعف الغارق ... في لجج الأحزان
وساخراً يبسمْ ... بَسْمَةَ فُولْتيرِ
من هالك ينعمْ ... بعيشٍ مغرورِ
سخريَّةٍ تعلمْ ... بواعث السّخرِ
من عالَمٍ يحلمْ ... وقَدَرٍ يجرى!
يطوف بالأرضِ ... في سِحْنةِ الناقم
لسُنَّةٍ تَقْضىَ ... فراقَها الدائم
منعكس نورُه ... في صفحة الماء
راقصة حُورهُ ... بلحن لألاء!
كأنه أحلامْ ... أحلام حسناَء
لا تعرف الالأم ... تعصف أهواَء!
والنَّسَمُ الهامِسْ ... في إذن الليلِ
يَبُلُّ ما لامَسْ ... بطَرَفِ الذيلِ
يمسُّ - في رفق - ... جسمك مبتلاّ
كصالحٍ يَرقى ... بالذكر معتلاّ!!
والزورق الناعِسْ ... يغفو على الماءِ
كالبائس اليائس ... في وسِطْ نعماءِ!
يرتّل الشِّعرَا ... مجدافه اللاغبْ
يشيّع العمرا ... ويندب الصاحبْ
يجري فيرعاه ... - في ألمٍ - بالى
يهيجُ مسراه ... ذكرى الهوى الخالى!
غنّى به الملاّحْ ... أغنيّة الحبّ!
يكرّر النَّصداحْ ... بالنَّغم العذب
يمدّها: يا ليل! ... يا ليل! يا عيني!
مناديا بالويل ... من ألم البينِ
يجري على نهرِ ... سِماؤه العطفُ
يهفو على مصرِ ... وشَدَّ ما يهفو!!
يمشي على هَوْنَ ... مشىَ الطواويسِ
من عهد فرعونِ ... موسى ورمسيس
يطوي لها البُعدا ... شهراً على شهرٍ
من خلف (اوغندا) ... في لَهفٍ يجري!
يخترق السودانْ ... لأختهِ مِصْرِ
قطُران معدودان ... ألدهرَ كالقُطرِ!

حتى إذا وافى ... من بعد ما أعيي
طوّف تطوافا ... بكعبة الدنيا!
وراح ينصبُّ. . . ... للبحر في اطمئنانْ
كما قضى الصّبُّ ... بعد اللّقا جذلانْ!!
ما جشّم النَّهرا ... تلك المشقّاتِ؟
علَّ بها سِرًّا ... من أجله ياتى
أراحِمٌ يسقى ... جُرْد صحاريها؟
أم عاشقٌ يبغي ... لثم عذاريها؟!
فَقَطْرَةٌ منهُ ... برشفها غَادَهْ
لاهيةٌ عنهُ ... تكفلُ إسعادْه!!
أوّاه! هل نجهلْ ... ما عرف الماءُ؟
في عزِّها تقُتَلْ ... ونحن أحياء!!
يا مصر نفديكِ ... نحنُ بنى يعربْ!
آمالنا فيكِ ... كالشمس لاتغرب!!
مَنْ ذا يواسيكِ ... إن لم نكنْ نحنُ!
لَحْنُ أمانيكِ ... لكلّنا لَحْنُ!!
جزيرة العُرب ... مصُر لها أُمٌّ
عقيدةُ الربّ ... تجمع والجِذْمُ
ليس لها عنها ... صرفق ولا تحويل
معدودة منها ... ما دام يجري النيل!
يحميها ... مليكها العادِلْ (فؤاد)
من طامع فيها ... مخادعٍ خاتِلْ
وراءه الشَّعبْ ... نَسلُ الفَراعينِ
تحفزه العُرب ... وعِزَّة الدين
مَلْكٌ به باهَتْ ... ممالك الدنيا
بفضله نالتْ ... رتُبتَها العُلْيا
قَلَّدَها نالتْ ... رُبّتَها العُليْا
جدَّدّ أو ردَّا ... جلالها الخالِدْ
في عهده الميمون ... ارتقت (الفُصْحى)
إذ كان كالمأمون ... لم يألها نُصحا
الآداب ... و (الدار) و (الأزهرْ) (جامعة)
تهَّيُ الطلاب ... للحادث الأكبر!
يختصُّ بالإعظام ... وخِالصِ الُحبِّ
جامعةَ الإسلام ... ووحدَةَ العُرْبِ
عاشَ و (فاروقا) ... لبَيْضة الإسلام
كلأهما يُوقَى ... من نُوَب الأيام
للوحدة الحقَّ! ... للوحدة العظمى!
مُبلَغةِ الشرق ... مكانه الأسمى
يا مصر نفديك! ... نحن بنى يعربْ
آمالنا فيك ... كالشمس لا تغرب!
مَنْ ذا يواسيكِ ... إن لم نكن نحنُ؟
لَحْنُ أمانيكِ ... لكلّنا لَحْنُ!!
علي أحمد باكثير
يا طبيب
// لا تقل يا طبيب إنك ماض ... بشحوبي ولوعتي وذبولي
حبذا الضعف والهزال دواءً ... لفؤاد المشَرِدَّ المتبولِ
إيه يا لحظة الوداع، لقد جُرْ - تِ على المدنَفِ الطريد العليلِ
قبلاتٌ مسكوبةٌ في سكونٍ ... وعناقٌ في ضجَّةٍ وعويلِ
ودموعٌ ممزوجةٌ بدمٍ يجري من القلب، مستفيضِ الهطولِ

وزفيرٌ يكاد يحرق أحشاء المُعَنَّى ... من وَقْدهِ والغليلِ
وذراعٌ هوتْ تعانق خصراً ... صِيغَ من تربة الضنى والنحولِ
ويَدٌ في يَدٍ تُسِرَّانِ أشياء ... بِضغطٍ مُحَبَّبٍ وذهولِ
وعيونٌ تَقُصُّ بالنظر الفَاتِرِ ... أقصوصةَ الغرامِ الجميلِ
وتَنُصُّ الآمال تاجاً من السِحْرِ ... على مفرق الزمانِ الجهولِ!
. . .حين سار القطار طارَ صوابي ... وتمايلتُ في ذهولٍ طويلِ
وطَغَتْ عِلَّتى. وجُنَّ جُنونى ... ووَهَتْ قُوَّتى. وضلَّ سبيلي!
لا تقل يا طبيبُ إنك ماضٍ ... بشحوبي ولوعتي وذبولي
ثغرُها يا طبيبُ طِبِّى فَعَجِّلْ ... بِبَواكِير رِيقِهِ المعسولِ!

مختار الوكيل
في الأدب الإنجليزي
ديكنز وولز
بقلم رشدي ميخائيل السيسي

فترات تقصر أحياناً، وأحياناً تطول وتطول، ليس يعنيني أن اعرف أهي من صفاء الذهن وراحة البال، أم ضجر طارئ وملال، اعكف فيها على القراءة والاطلاع، فأذهب إذا ذاك إلى دنيا غير هذه الدنيا، ويغمرني إحساس غير ما يغمرها من إحساس، وسأخفق أن حاولت أن اظفر بتعليل لهذا العكوف: أتدفعني إليه رغبة الأعراض عن حقائق الحياة خشية الاصطدام بها، أم يغريني به نزوع إلى تفهم هذه الحقائق ونشدان هذا الفهم فيما ضمته صفحات الكتب من عصارة الأذهان؟

لن اظفر بجواب قاطع، ولا يعنيني أن اظفر به، إنما أؤكد انه ليس احب إلى نفسي في مثل هذه الفترات من أن أتناول بيدي أثراً من آثار (ديكنز) معبود الإنجليز ومهبط وحيهم بعد شكسبير، وان اذهب معه في سلسلة من الرحلات نغشى في خلالها رياضا من الأمل الواسع العريض فنستنشق العبير ونتفيأ الظلال، ثم نروح تائهين في صحارى من الشقاء، فنكتوي بلافح الحر وقاسي الهجير، ثم لا نحرم في هذا المدى الترامي من الشقاء القاحل ان نلمح واحة الرجاء من بعيد فنتسابق إليها نتقي وهج الحر ولفح الهجير، ولكنا لا نأمن بين الحين والحين على أقدامنا وجسومنا ان تدميها أشواك من إلياس والخيبة، ثم لا نلبث ان نرتفع على أجنحة الخيال إلى سماء من السعادة والثراء.

وديكنز في هذه الأثناء لا يفتأ يحدثني في لهجة تلين وترق حتى لكأنها حفيف الأشجار وموسيقى الالهة، ثم تعلو وتشتد حتى لكأنها دوى العواصف وقصف الرعود، يروح يحدثني عن القناعة وعن البؤس والبائسين، ويحدثني أيضاً عن التمرد وعن الظلم والظالمين، وكأنه يسكب على جراحات التمرد من نفسي بلسما من القناعة والرضا، ولكنه لا ينى بعد ذلك ان يمزق بيده ما عالج من جراحات في قسوة الحقيقة وعنف الواقع، بينما هو يتحدث إلى في لهجة يفعمها الألم والغضب عن استبداد الغني بالفقير، وعن افتراس القوي للضعيف، ويهيب بي وبقارئيه جميعا في فكر عنيف وفي لفظ ملتهب شديد: ان ارحموا البائسين ودافعوا عن المظلومين!! ذلك هو ديكنز الكاتب الإنجليزي الكبير الذي يملأ عين القارئ بالدموع وفمه بالضحكات في الفترة الواحدة! والذي يمزج الجد بالهزل، ويخلط الحكمة بالدعابة، ويسوقها جميعا في كتاباته طعمة سائغة فيها تنوع وجدة، وفيها قوة وحق وجمال.

وقد يعلم القارئ إن ديكنز مات عن ثورة كبيرة تبلغ عشرات الألوف، فهو إذن قد ذاق حياة الترف والثراء وتنعم بها، وهو لهذا لم يعجز عن تصوير هذا الضرب من المعيشة تصوير فنان خبير، ولكنك إذ تقرأه وهو يقص تاريخ طفولته الحزينة القاتمة وما لاقاه أبانها من صدمات متتالية ومن متاعب جمة مع شظف العيش والحرمان، لابد ستأخذك رعدة عنيفة من فرط التألم لهذه الطفولة المعذبة الشهيدة، وستعلم السر آنئذ في قدرة ديكنز على التعبير عن الأم البائسين وشقاء الفقراء والمعوزين تعبيرا رائعا مفعما بالحياة.

وليس يخلو مؤلف لديكنز من آهات متوجعة، ومن صرخات حزينة، ومن دموع ملتهبة، يسكبها في غير حرص أو تقتير على مذبح الإنسانية المضطهدة المعذبة، إلا انه لم يكن في كتاباته ناقما عنيفا إلى الحد الذي يثير الفقراء على الأغنياء ويدفعهم إلى إلحاق

الأذى بهم، بل كل ما كان يرمي إليه أن يهز النخوة ويلين القلوب ويستدر منها العطف والرحمة والإيثار. . .

ولد ديكنز عام 1812 وعاش ثمانية وخمسين عاما قاسى في العقدين الأول والثاني منها ما قاسى لفقر والديه المدقع ولزجهما في السجن وفاء لديونهما، ولكنه بدأ يرقى سلم المجد منذ استهل العقد الثالث. . . واشتغل في أوائل شبابه بالصحافة فكان مخبرا لبعض الصحف، ثم مندوبا برلمانيا فمحررا، فكان بحكم عمله هذا مضطرا إلى ان يزج بنفسه في كل بيئة، وان يختلط بكل طبقة ويعاشر كل طائفة من الناس، فاكتسب خبرة وافية بمختلفة الشخصيات ومختلف النفسيات بعد دراستها دراسة وافية، فأفاد كل الفائدة بهذه الخبرة، إذ تيسير له ان يوفق إلى أبعد حد في تصويره للشخصيات المختلفة التي تناولها في قصصه ورواياته.

ويشبه ديكنز من هذه الناحية بعض الشبه (ولز) الكاتب الإنجليزي المعاصر الذي اشتغل بالصحافة فأصبح لا يكف عن التعرض لمشاكل العالم الاجتماعية الراهنة والاجتهاد في معالجتها وفرض الحلول المختلفة لها في أسلوب رائع مفيد، بيد أنه على الرغم من هذا لن يكون الخلود من نصيب كتبه، لأن قيمتها موقوفها على الجيل الذي عاش فيه، وان طال

اجلها فلن تتعدى الجيل الذي يليه، إذ سيجد العالم المتطور إذ ذاك إن كل ما جاء بها من نظريات ومبادئ قد تحقق جميعه أو جله، واقتصرت أهميتها على الناحية التاريخية دون غيرها، ذلك (لان النزعة الصحفية في الكاتب إنما تعمل لفنائه لا لخلوده، وهذا الفناء هو في الواقع تضحية الكاتب بنفسه في سبيل جيله) على حد قول بعض كتابنا الاجتماعيين.

وإذا صدق هذا الرأي عند تطبيقه على (ولز) الذي لم يكترث لغير علاج المشاكل الاجتماعية فهو لا يصدق إذا أرسلناه على إطلاقه، وخاصة إذا أردنا تطبيقه على ديكنز. صحيح أن ديكنز قد كتب معظم قصصه الرائعة للصحف إذ ذاك، ولكنها ستظل خالدة على مدى العصور، خلود ما فيها من قوة ومن حق ومن جمال، ولأنها انتزعت من صور الإنسانية انتزاعا، فملأتها عواطف هذه الإنسانية التي لن تتغير، اجل، وستظل خالدة لأنها صورة من الفن الخالد رسمتها ريشة أديب فنان سيعيش تراثه على مدى العصور، وليست موضوعا اجتماعيا يتغير ويختلف وفقا للحوادث والظروف، ويزداد مقدار ما فيه من الصحة أو يقل تبعا لقدرة كاتبه على وضع الفروض والاحتمالات الصحيحة والاستطراد منها إلى تقرير نتائج يثبت المستقبل القريب أو البعيد صحتها، فولز إذن ليس كاتبا اجتماعيا فحسب، ولكنه كاتب ثاقب البصر بعيد النظر، صادق الفراسة، سليم المنطق والاستدلال. أما ديكنز فأديب فنان ينقل إلينا أحاديث الطبيعة والإنسانية وعواطفها، ويعبر عنها جميعاً اصدق تعبير وأجمله، وهو في مهمته السامية لا يختلف بأي حال عن المصور المبدع أو الشاعر المطبوع. في الحق انه يكفيك أن تقرأ أي كتاب لديكنز حتى تصل إلى هذه النتيجة الصحيحة عنه دون لأي دون إجهاد.

والأديب إذا تناول أي موضوع من المواضيع التاريخية أو الاجتماعية - أو حتى الاقتصادية الجافة - وجعله مادة لكتابته تراه لا يفتأ يرويه بدماء قلبه الحية ويغذيه، ولا يفتأ يسبغ عليه من روحه ونفسه وشتى عواطفه واحساساته، حتى يبعث في الحياة بكل معانيها وصفاتها، ويكفينا إذا أردنا تطبيق هذا القول على ديكنز ومخلفاته الأدبية ان نستعرض كتابه أو بتعبير أدق طرفته الفنية الرائعة (قصة عن مدينتين) فتؤمن بصحته كل الإيمان، نعم! فبالرغم من ان موضوع هذه القصة تاريخي جاف وهو تاريخ الثورة الفرنسية، وبالرغم من انه تاريخ دموي مروع تقشعر منه الأبدان، وأنه غير حديث العهد بنا، فإننا مع

هذا لا نكاد نقرؤه حتى نحس في أعماقنا أن هذه القصة في جوهرها إنما قد كتبت لنا وبيننا، والتعليل المعقول لهذا أن الكاتب قد استمدها من وحي الإنسانية الخالدة غير المتغيرة - الإنسانية التي تؤلف بين جميع المشاعر وشتى الاحساسات - وانه قد استلهمها من معنى الحياة غير الزائلة، التي هي حق للجميع دون استثناء، والتي قد ترك أمر فهمها وإدراكها لهذا (الجميع) كل حسب اجتهاده ومدى تفكيره.

بيد أن هذا لن يكون حال كل اجتماعي مهما علا كعبه ونبه أمره، لأنه إنما يعالج المشاكل الراهنة في عصره التي لابد أن تقتصر أهميتها على العصر الذي كتبت فيه،

وهو قد يفرض لها حلولا مختلفة يصدق بعضها أو معظمها كما هو الحال مع ولز في كتابه الذي نشره قبل الحرب الكبرى وقدر فيه احتمالات صدقت فرأسته فيها، حتى لقد اعتبرها البعض من قبيل النبوءات، ولكن بالرغم من صدقها فلن يقدر لها الخلود بأي حال كأي (تراث أدبي فني) من مخلفات ديكنز العظيم.

رشدي ميخائيل السيسي

العلوم

فكرة النظام الشمسي عند الكنيسة في العصور الوسطى

بقلم فرح رفيدي

ما هب صرح مدنية روما ينهر بقدوم البرابرة الأوربيين من الشمال حتى انتشرت الديانة المسيحية انتشارا سريعا، وصادفت في قلب الشعب التعس تربة خصبة تنمو فيها، لإفتتانه بوعودها الجميلة، ولأنها واسطة انتقال من حياة ملأى بالمصائب والعذاب إلى حياة السعادة والهناء. فتأسس من معتنقي هذه الديانة الجديدة جماعات أخوية تحت رعاية أحدهم يرشدهم إلى الحياة القويمة، أو يلقنهم دروسا في الحصول على الحياة الأخرى. ومن هذه الجماعات أو رؤسائها تكونت طبقة الاكليروس، وفي يدها أمور الشعب الدينية والمدنية. وكان نظام هذا الاكليروس أشبه بنظام دائرة التامين على الحياة: تتاجر بالنفوس؛ فكان الإنسان يعطى ماله وأرضه ودينه، وحتى عقله للكنيسة، لكي يؤمّن حياته بعد الموت. فان راعى قوانينها أعطى تلك الحياة في الجنة، وان خالفها حرمته من الكنيسة وكان نصيبه جهنم بعد الموت.

لكن الكنيسة لم تنشأ فقط بعقائدها الدينية، ولم يكن الكتاب المقدس دعامتها الوحيدة في بناء صرح نفوذها وتحكمها في الشعب؛ بل كان هناك مع الديانة المسيحية المدنية اليونانية، وهير ثروة كبيرة وتركة ثمينة خلقها الأقدمون، فلم تقدر على إهمالها وطرحها جانبا والاكتفاء بتعاليم المسيح وحدها. ويرجع السبب في هذا إلى إن اثر المدنية اليونانية في قلوب الناس لم يذهب باعتناقهم الديانة الجديدة، وليس من السهل أن يذهب تأثير قرون طوال بقيام نزعة جديدة، وفي أمد قصير؛ دعك مما كان لأرسطو وكتاباته من التأثير الجسيم في العقلية اليونانية أولا وفي الكنيسة ثانيا.

قد نرى هنا الكنيسة بازاء الدين المسيحي والمدنية اليونانية تكاد تقع في مأزق حرج من احتمال تناقض العلم القديم بالدين المقتبس الجديد، وقد ينتج عن رأينا هذا السؤال: كيف تمكنت الكنيسة إذنمن التوفيق بين الاثنين؟ أو كيف قدرت أن تستمسك في تلك النقطة الحرجة؟ الجواب على ذلك هو أن الدين المسيحي والمدنية اليونانية لم يتناقضا قط، وكيف يتناقضان والأول خرج من تأثير الثاني؟ فمثلا لم تكن هناك فكرة واحدة أساسية في أصل الكون عند اليونان، حتى تناقض قصة الخليقة في كتاب التكوين، وأساطير اليونان القديمة

تحتوي على قصص كثيرة مختلفة في أصل الكون؛ فليس من الغريب إذن أن تقتبس شعوب أوربا المتنصرة في ذلك الحين فكرة التوراة عن بدء العالم، وان تطرح خرافاتها القديمة جانبا. فالديانة المسيحية أتت موافقة للتعاليم اليونانية.

فاستمرت الآراء والمعتقدات اليونانية في النظام الشمسي وحركته آراء ومعتقدات للناس في العصور الوسطى. ولم يحدث هناك أي تغيير جديد أو انقلاب أساسي في النظام اليوناني القديم، إلا ما زيد عليه بسبب الدين المسيحي، من إدخال فكرتي الجنة والنار فيه. وذلك ظهر بالنظام الذي تصوره الشاعر الإيطالي دانتي في منتصف القرن الثالث عشر:

تصور دانتي الأرض ثابتة في وسط الأفلاك السبعة، ووراء الفلك السابع أي فلك زحل تصور منطقة البروج مكان النجوم الثوابت، وفوق منطقة البروج ما يسميه بسماء السماوات أو عليين ووضع جهنم في وسط الأرض، وفوق الأرض تحت الأفلاك قسمه إلى طبقات مختلفة العلو، الأولى طبقة الماء من حيث تنزل الأمطار، والثانية طبقة المطهر حيث يطهر غير الواقعين في الخطيئة المميتة، وأخيراً طبقة الجنة الأرضية، وتقع ما بين فلك القمر والمطهر.

هذا النظام دليل بين على مقدار توافق العلم والدين، وامتزاج الاثنين معا بصورة يصعب فيها تميز الواحد من الآخر. ولان دانتي شاعر خيالي يتصور نظاما شمسيا يدلن على عدم سير العلم حينئذ في الطريق الذي يضمن له التقدم الصديد أو الانقلاب إلى

ما هو صحيح وغير ذلك، فقد كان الاعتقاد الشديد بان منقطة البروج لها تأثير في جسم الإنسان. فالإثنتا عشر برجا كل وأحد منها له تأثير خاص على عضو خاص في جسم الإنسان، فمنها ما يؤثر على الرأس، ومنها ما يؤثر على القلب، ومنها ما يؤثر على الأطراف وباقي الأعضاء. وقد تخيلوا أيضاً إن بعض الكرات التي تدور عليها السيارات تختلف بحسب نظام خاص في العدد والموسيقى، وان هذه الكرات تحدث في دورانها نغمات متلائمة، لا يحظى بسماعها إلا أناس مخصصون. وهذه النغمات هي ما يسمونه بموسيقى الأفلاك تصعد لتمجيد الله الجالس فوق الأفلاك في سماء السماوات.

وأما لماذا لم يتقدم العلم في العصور الوسطى، فذلك ليس لتناقض العلم والدين، وعدم مقدرة الشعب والكنيسة على التوفيق بينهما، كما قال الدكتور سارطن بل لأن الديانة المسيحية

زادت تأثير المدنية اليونانية على الشعب تأثيرا جسيما، حتى لم يكن عنده شك في صحتها وضرورة الاستسلام إليها. من الأمور الظاهرة أن بعض العلوم اليونانية، بصورتها كما تلقاها أهل العصور الوسطى، لم تكن قابلة للتطور الاساسي، وخصوصاً في علمي الهيئة والنجوم، وذلك لأن الأساس المبني عليه علم الهيئة مثلا كان خطأ محضا. فنظام اليونان الشمسي مهما آتى أهل العصور الوسطى بالبراهين والحجج الدامغة، ومهما زادوا عليه من تفاصيل وشروح، لم يكونوا ليزدادوا إلا تعمقا في الخطأ وبعدا عن الصواب. وبعظم تأثير الكنيسة وارسطو معا على عقول الشعب كثر الاختلاف والتناقض في الآراء والتعابير العلمية والدينية، فعم الغموض وتولد الشك في قلوب الناس في كثير من المعتقدات السائدة. إلا إن الأرض ظلت ثابتة بين يدي الإله أطلس مدى أربعة عشر قرنا إلى أن آتى كوبرنيسك في أواخر القرن الخامس عشر، وحركها من بين يديه. وذلك لأنه رأى الاعتقاد بدوران الأرض حول الشمس اسهل من الاعتقاد بان الكون بجلاله وعظمته وعدد شموسه يدور حول ذرة صغيرة في الفضاء تدعى أرضا.

فرح رفيدي

مظاهر الحرارة الباطنة للأرض

بقلم نعيم علي راغب

دبلوم عال في الجغرافية

إذا كان هناك شك وتضارب في الآراء الجغرافية عن ماهية باطن الأرض وحالته التي هو عليها، سائلا كان آم صلبا، فانه ليس هناك أدني شك في ان هذا الباطن حار، تدل على حرارته مظاهر ثابتة منها:

1 - المناجم والحفر العميقة: من المعلوم أن هواءها اشد حرارة من هواء السطح الخارجي، وكلما زاد العمق ارتفعت درجة الحرارة تبعا لذلك. ففي منجم بالقرب من الذي عمقه 2445 قدما ترتفع درجة الحرارة إلى 94ف يقابلها في الخارج 50ف، كذلك شأن الحفر العميقة، فان الماء يخرج منها في درجة حرارة مرتفعة، وبالقرب من باريس بئر عمقها 1798 قدما يخرج الماء منها في درجة 81. 5 فهرنهايت.

2 - ينابيع الحارة: وتلك ظاهرة تكاد تكون عامة في العالم اجمع، وعلى الأخص في المناطق البركانية، ومن أمثلة ذلك تلك الينابيع التي توجد في مدينة وكرلسباد، وشمال غربي اسبانيا، إذ يخرج الماء منها في درجات حرارة عالية 158 ف و167 ف و192 ف على التوالي حسب الترتيب السابق.

3 - النافورات: وهي عبارة عن ينابيع ساخنة توجد عادة في المناطق البركانية، وتمتاز من الينابيع السالفة في رقم 2 بارتفاع درجة حرارة الماء الخارج منها، إذ قد تبلغ 261ف كذلك بقوة اندفاعه منها إلى علو كبير قد يزيد على 200 قدم ويطلق عليها بعض الجغرافيين أحياناً اسم البراكين المائية.

ويحسن بنا في هذا المقام أن نعرف النافورات وأسباب ثورانها فنقول: - إنها عبارة عن عيون تتصل بباطن الأرض بواسطة قصبة على شكل أنبوبة يتراوح قطرها كثرة وقلة تبعا للنافورة نفسها (في النافورة الكبرى بجزيرة الجليد يبلغ قطر النافورة 8 أقدام ويحيط بها شبه حوض قطره يبلغ 56 قدما وارتفاعه 15 قدما).

ولتفسير أسباب النافورات يجب أن نذكر حقيقة جغرافية وطبيعية وهي أن الماء يغلي

عند درجة 212 فهرنهايت أو 100 مئوي تحت ضغط يعادل الضغط الجوي، لذلك إذا زاد
الضغط وجب أن ترتفع درجة الغليان، وعلى هذا فان الماء الذي يوجد في أسفل قصبة النافورة قد تزيد درجة حرارته على درجة الغليان ولكنه لا يغلي عندها لوجوده تحت ضغط عمود الماء الذي يعلوه، إلا أن ارتفاع درجة الحرارة يسبب تمدد الماء ويرفعه إلى مستوى أعلى من المستوى الذي كان عليه في قصبة النافورة، وهذا يسبب تمدد الماء السطحي فيفيض على جوانب الحوض، ولما كان الضغط قد قل بذلك على الماء الموجود في أسفل القصبة فانه يتمكن من الغليان ويتحول جزء كبير منه إلى بخار يدفع طبقات الماء التي تعلوه، ويسمع لمحاولته الخروج إلى السطح العلوي أصوات شديدة كأصوات الفرقعة، وعلى قدر قوة البخر يكون ارتفاع الماء المندفع.

وتوجد النافورات في مناطق ثلاث من العالم هي: -

1 - أيسلندا: ويوجد بها ما ينيف على 100 نافورة تزدحم منطقة بركانية صغيرة المساحة لا تزيد على ميلين مربعين.

2 - منطقة يلوستون في الولايات المتحدة وتقع في الغرب منها وفيها بضع مئات من العيون، منها ما يزيد حجما وقوة على النافورات العظمى بأيسلندا واشهرها نافورة دقيقة في مواعيد تفجرها حتى لتكاد تضبط عليها ساعتك، إذ إنها تقذف كل مدة تتراوح بين 60 و80 دقيقة نحو عنان السماء عمودا من الدخان الأبيض إلى ارتفاع 150 قدما مكونا منظرا من اجمل المناظر الطبيعية.

3 - في نيوزلندا: توجد الجزيرة الشمالية التي تشتهر نافوراتها بعظم مقدار السليكات التي تخرج ذائبة في مائها والتي ترسب حولها وتكون مدرجات كانت إلى ما قبل سنة 1886 مجموعة من اجمل المناظر الطبيعية في العالم حتى حدث أن ثار بركان في نفس السنة هدم الجانب الأكبر منها.

4 - البراكين: وهي المظهر الرابع لمظاهر الحرارة الباطنة للأرض ومن أهمها ان لم يكن أهمها، ولذا سنترك الكلام عليها إلى مقال آخر يتسع للكلام عنها بالتفصيل اللائق بخطر موضوعها.

نعيم علي راغب
دبلوم المعلمين العليا قسم الجغرافية

القصص
من الأدب التركي

فتاة الصحراء

رآها اليوم مرة في صحراء فلسطين فاحبها وتزوجها، ونقلها من تلك الصحراء المقفرة الهادئة، من وطنها العزيز إلى وطنه استنبول، إلى ضوضاء المدن وجلبتها.

عاش الزوج سنين طويلة في البلاد النائية، في الأماكن البعيدة عن وطنه، ثم عاد ومعه كنز حبه، تلك الفتاة التي تشبه زهرة ذابلة، والتي نشأت وترعرعت في الصحراء بجانب نخلة عارية وفوق رمال حارة، عاد بها إلى استنبول تلك البلدة العظيمة التي تجمع أصنافاً من الناس وأنواع من البشر، وتعج بمن فيها من السكان. أراد أن يجد لها في استنبول العظيمة مكانا تعيش فيه هانئة لا تذبل فتنصل ولا تجف فتسقط.

كان متوسط الحال، فهو لا يستطيع أن يقدم إليها في بلد كاستنبول حياة صحراوية، فلابد له ان يجد لها في أقاصي البلدة مكانا هادئا منزويا.

لم يتركا مكانا في أستا بنول ولا محلة إلا بحثا فيها عن دار فلم يجدا ما يوافقهما، وبالأحرى لم تجد الزوجة ما يلائمها وما يلائم روحها الصحراوية، وكانت تظنانها إذا بحثت كثيرا في أنحاء البلدة العظيمة وجدت منزلا في روح الصحراء.

كلما زارا دارا كان ينظر الزوج بطرف عينه إلى زوجته ليرى في عينيها الصافيتين ما ينطبع فيهما من انقباض أو انشراح، إلا إنها كانت بعيدة الغور لا يظهر في عينيها ما يجول في قلبها. وكان زوجها أيضاً يود من صميم فؤاده أن يجد مكاناً ترى فيه فتاة الصحراء ولو شيئاً صغيراً يذكرها بالصحراء وطنها العزيز.

وفي يوم من الأيام نهضا صباحاً ليذهبا إلى دار قيل لهما إنها موافقة لرغائبهما وهي في محلة (السلطان أيوب) فذهبا إليها وتسلقا الهضبة التي قامت عليها تلك المحلة حتى بلغا الدار المقصودة، كانت الزوجة كعادتها لا تبدي اعتراضاً أبداً، بل كانت تمشي

بجانبه كآلة صماء، وقد تعبت من البحث عن الدار التي تريدها في تلك البلدة التي لم تر أولها ولم تعرف آخرها.

كانت الدار صغيرة مشرفة على البحر فيها غرفتان وبهو وحديقة صغيرة، وكانت فتاة الصحراء تنظر إلى كل ذلك بفتور وملل فإذا بشيء يعلق به نظرها، لقد لمعت أمام عينيها شمس الصحراء: هناك في الحديقة الصغيرة شجرة نخل، نعمانها صغيرة هزيلة، ولكنها كانت كافية لأن تمثل لها وطنها العزيز. لقد أثر منظر تلك الشجرة في فتاة الصحراء تأثيراً عظيماً، وأعطى روحها حرارة شمس لطيفة أجرت الدم الذي جمد في عروقها منذ فارقت صحراءها، وفتحت تلك الشجرة الطريق بين عينيها وبين الصحراء النائية عنها: فرأت أباها وأمها واخوتها، وعلى قيد غلوة منهم رأت جملها الذي يغمض عينيه السوداوين الكبيرتين أمام الشمس وهو يمد عنقه إلى الأمام.

لقد جاءتها هذه الشجرة بالصحراء، الصحراء العزيزة عليها، وبكل شيء قد تركته هناك، وألقته في أحضانها فكأنها بجانبه تلامسه ويلامسها.

نظرت إلى زوجها بعينين يلمع فيهما بريق السعادة لأول مرة بعد عدة شهور، كانت تلك النظرة تفيد معنى: إنني وجدت مبتغاي، وإني هنا، هنا فقط أستطيع أن أعيش بجانب هذه النخلة الصغيرة.

لقد حلت تلك الدار المشرفة على مياه الخليج من قلب المرأة محلاً رفيعاً، فأحبتها بعد زوجها، بقدر حياتها، بقدر وطنها. نزلا في الدار وعاشا فيها سنة طويلة.

كانت تعيش هنا بعيدة عن الناس لا تخرج لزيارة أحد كائناً من كان، بعيدة عن الحياة الغريبة، عن الوجوه الغريبة، في تلك البلدة الغريبة.

لقد زارتها جاراتها يوماً، فلما رأينها لا تبتدئ معهن خطاباً ولا ترد عليهن جواباً إلا بنظراتها الفاترة الحزينة التي تطلب بها الرحمة والشفقة، ذهبن في الحديث عنها مذاهب شتى كل واحدة ترى فيها رأيا، فلما علمن أن بينها وبينهن حاجزاً من الاختلاف في اللغة يمنعها من الاتصال بهن تألمن لها أشد الألم، ثم أخذت تلك الرحمة تستحيل إلى سخرية واستهزاء.

إن أهل المدن فطروا على أن يعدوا أهل الصحراء دونهم في كل شيء، وهكذا كان شأن نساء تلك المحلة، كن يستهزئن بالمرأة المسكينة، وكن يضحكن منها ويقهقهن، لأنها لا تفهم ما يقلنه من الكلمات فيها، وكن يجدن في ذلك لذة عظيمة كما يجد الأولاد القساة لذة في تعذيب الحيوان الذي لا حول له ولا قوة، فشعرت فتاة الصحراء بذكائها الفطري أنهن كن
يضحكن منها، فنفرت منهم ولم تعد تقابلهن.

لقد نسى نساء الحي وجود فتاة الصحراء بينهن، عدا عجوز دردبيس كانت تتردد على نساء الحي فتقص عليهن أحاديثها وجدالها مع كنتها، وتقلق راحتهن بتلك الأحاديث التي لا تعرف الانتهاء، حتى مللنها وسئمن ثرثرتها، فكانت تتردد على فتاة الصحراء فتجلس أمامها وتبدأ حديثها باسم الله وتبقى مدة طويلة تتكلم وتتكلم، ثم تختم القصة بدموع ترسلها من عينيها وتغادر البيت وهي تقول للمرأة التي لم تفهم منها غير دموعها: (إلى الملتقى يا بنيتي لقد أزعجتك بثرثرتي، شرفينا).

كانت العجوز لا تني عن زيارة فتاة الصحراء، وأخيراً شعرت إنها وحدها التي كانت تتكلم طيلة هذه الأيام، فقالت لفتاة الصحراء: ما لك لا تتكلمين يا ابنتاه؟ أبكماء أنت أم ماذا؟

فلما رأت فتاة الصحراء لم تجبها إلا بابتسامة مبهمة ولم تقل إلا برأسها نهضت وغادرت المكان على إلا تعود إليه مرة أخرى.

لم يبق من يطرق باب الدار الصغيرة، ولم يبق من يوقظ شمس الصحراء النائمة هنا من أحلامها، إلا إنها أحياناً كانت تنزل عند إرادة زوجها ورغبته وتذهب معه إلى النزهة، ولكنها كانت تعود إلى بيتها وهي مريضة قلباً لا جسماً، لقد كانت تشبه طائراً صغيراً فارق عشه ليطير، فوهى جناحاه ووقع على الأرض.

إنها لا تكون سعيدة إلا إذا كانت في منزلها منفردة بنفسها أمام شجرة النخل مستغرقة في رؤياها، وفي ذلك الحين فقط تظهر الشمس لعينيها؛ إنها حين تجلس تلك الجلسة، في تلك الساحة التي يبدو لها منها وجه السماء، والتي تشبه في نظرها قصرا من القصور تنسى ذلك الدور الأخير من أدوار حياتها، وتعود بخيالها في غفلة

لذيذة إلى تلك البحار الرملية التي تجري فيها بقوة هائلة س يول أشعة شمس بلادها فتغمرها غمرا، وتملأ أرجاءها ونواحيها.
إنها في ذلك الحين حين تجلس إلى تلك النخلة التي تشبهها في محبة الوطن، وتشاركها الأسف والحزن، وترتسم على شفتيها ابتسامة حزن يائسة، لوقوعها بعيدة عن وطنها وعن شمس وطنها وعن سماء وطنها، تجمع تلك الهضاب والتلال التي أمامها بعضها إلى بعض، حتى يغيب عن نظرها ذلك البحر الذي أمامها، وترى أشعة الشمس تغمر تلك الصحراء،
وتبصر ألوف النخيل المنتشرة فيها يسلم بعضها على بعض من بعيد بأغصانها الخضراء العالية الرءوس فإذا رسمت في خيالها هذه الصورة الجميلة، وأتقنت صنعها كل الإتقان، وأعطتها من حسن تمثيلها حياة حقيقية، خيل إليها إن آباها وأمها واخوتها وجملها ذا العينين الواسعتين السوداوين أمامها وتحت نظرها، فخفق قلبها لهم، وحاولت أن تهجم عليهم مسلمة معانقة.
وربما ذهبت بعض الأحيان في النهار إلى الحديقة ووضعت حصيرا تحت النخلة التي لا ترد أغصانها عنها أشعة الشمس واضطجعت عليها، ورفعت عينيها إلى السماء، وسافرت بفكرها إلى أقصى حدود الخيال.
كانت ترى قطع السحب تمشي في السماء على غير انتظام، فهي إذن أما ذاهبة نحو قومها، أو آتية من عندهم؛ فالسحب إذن قد رأت قومها أو سترأهم، فكانت تبتسم لهؤلاء السائحات وتسألهن: ألم يجئنها بسلام من قومها وصحرائها؟ أو تسألهن أن يتركن لها في أجنحتهن مكانا صغيرا يسع خبرا عنها لقومها وأهلها.
في أعقاب خريف السنة التي قضتها في تلك الدار رأت الطيور تطير أسرابا أسراباً في السماء، فاهتمت لذلك وسألت زوجها عنها فقال لها: (إنها ذاهبة إلى بعيد! إلى البلاد الحارة). فقالت في نفسها إنها ستمر إذنبوطنها العزيز. فكانت تضطجع تحت نخلتها وتغني بصوت حزين أناشيد قومها وألحانهم الشجية، مضمنة ذلك شوقها الشديد، متوهمة إن تلك الطيور ستقفل راجعة إليها تحمل إليها أجوبة تلك الألحان والأشواق.
جاء الشتاء بخيله ورجله، وأصبحت فتاة الصحراء لا تقدر على الجلوس تحت نخلتها، والتمتع بظلها، وشم رائحتها، فأخذها من اليأس ما زاد في الأم نفسها، وأصبحت تقعد بجانب نافذتها ساعات فراغها من عمل المنزل غارقة في بحر من الألأم والأفكار، فما يدري ما الذي كان يشغل خيالها ويقلق بالها في ذلك الحين، أمنظر النخلة التي كانت تخشى عليها من البرد القارس، والهواء العاصف؟ أم انتظار الطيور تقبل عليها من ناحية من نواحي السماء المستورة بالغيوم، تنقل إليها أخبار أهلها ووطنها؟
كانت فتاة الصحراء كلما مضى يوم من الشتاء هزلت وضعفت، وأخذ نور عينيها يخبو تدريجا. فلم يخف ذلك على زوجها، فقال لها: (ما بك؟ أراك تخفين عني شيئا يمضك ويؤلم، لقد سئمت الوحدة وتشوقت لرؤية أهلك وصحرائك). كانت تنكر ذلك، ولكنها كانت شوق زائد إلى رؤيتهم، إنها اشتاقت إلى الصحراء، إلى شمسها، إلى جوها الصافي، إلى نخيلها، إلى والديها واخواتها، إلى جملها، اجل! أشتقات إلى كل هؤلاء، ولكنها كانت كالأطفال تنكر شوقها وتصر على الانكار، ومع هذا كانت تدير وجهها تحت تمثال صحرائها، إلا وهو نخلتها وتنظر إليها بحزن عميق.
اقبل الربيع:
علمت ذلك من زوجها فابتهجت وفرحت: جاء الربيع، كانت تظن انه إذا جاء الربيع. أتاها بتذكار جميل من أهلها ومن قومها، ولكن هيهات، جاءها الربيع بالمصيبة الكبرى: ستباع الدار، وهما مضطران إلى النزوح عنها إلى غيرها.
الدار يبيعها صاحبها: ستفارق إذنفتاة الصحراء حلمها الجميل، ستفارق النخلة، خطر لها خاطر فجائي وهو أن تأخذ معها شجرتها إلى الدار التي ستسكنها، ذكرت لزوجها رأيها فوافقها على ذلك، وقرراً أن يأخذا معهما النخلة سلوتها الوحيدة.
رحلا إلى دار صغيرة مظلمة في حي فقير مظلم فصنعا للشجيرة محلا أمام النافذة ووضعاها فيه وربطاها إلى حديد النافذة.
لقد قنعت فتاة الصحراء بهذه الدار الصغيرة المظلمة، ما كانت ترى في هذه الدر السماء الصافية، ولا الشمس المشرقة، ولا القمر الزاهي، ولا النجوم الزاهرة، ولا

الدور الشاهقة، لكنها كانت ترى نخلتها المحبوبة فيسكن قلبها لرؤيتها، فحياتها منوطة بها. تجلس دائما بقرب النافذة واضعة رأسها على يدها، وتنظر إلى رفيقة وطنها بقلب أضناه الشوق وبرحت به الذكرى. ولكن النخلة كانت تذوى كطفل أخذ غصبا من حضن أمه، وفتاة الصحراء تذبل بذبولها كشجيرة انتزعت من مغرسها، فاستحكم الذبول في الاثنتين، فكان يظن الناظر إليهما أن سراج حياتيهما ينطفئ تدريجا.

نهضت يوما من فراشها وذهبت كعادتها إلى نخلتها، ولكنها تراجعت إلى الوراء دهشة، ماذا ترى؟ رأت نخلتها العزيز رفيقتها ومؤنستها قد انكسرت من وسطها حيث الرباط، وسقط رأسها إلى الأرض، فهدت تلك المصيبة من قوة الفتاة، فجلست بجانبها وذرفت دموعا غزيرة خرجت من أعماق قلبها المحطم لفراق الوطن والأهل.

عاد زوجها مساء فألفاها على تلك الحالة باكية حزينة. فسألها قائلا: (ما بك؟ أعلميني أسباب حزنك وكدرك، ما الذي يبكيك؟) فاعترفت لأول مرة قائلة: (لنذهب! لنذهب إلى هناك!) وأشارت بيدها إلى بعيد، إلى ديار أهلها وقومها.

عادت الطيور ولم تأتها بخبر من أهلها، ولكن ما الذي يهمها من ذلك ألان، إنها ذاهبة بنفسها إلى الصحراء، إلى الوطن الذي طالما فكرت فيه أضناها بعدها عنه، وذرفت لذلك دموعا غزيرة. . . لقد ذهبا إلى الصحراء ومضى على ذهابهما زمن طويل. . .

فليت شعري، أفتاة الصحراء لا تزال تجلس تحت ظل أشجار النخيل، تغني أناشيدها القومية فرحة مسرورة بالوطن العزيز الذي كانت ترى بجانبه جمال الآستانة قبحا، وماءها ملحا، وهواءها رديئا، وجوها وبيئا، وشمسها قاتمة، ونجومها مغمضة نائمة، أم هي نائمة نوما أبديا تحت أطباق الثرى، وحيدة منفردة وظلال أشجاب النخيل تبكي عليها؟

(حلب)

فتاة الفرات

من المسرح الغنائي

سافو - 1

لأوجييه أميل

ترجمة الأستاذ محمود خيرت

مقدمة

ليس الفونس دوديه بمجهول من المشتغلين بالأدب الفرنسي وهو ذلك الكاتب الوجداني الرشيق الأسلوب، السليم الذوق، البارع في وصف الحقيقة، فهو المنبع الصافي، والسهل الممتنع، يأخذك خلال ما يكتب، ويسحرك بيان ما يصور، فلا يلبث أن يشد أعصابك شدا، ويجري دموعك سيولاً، ويلهب مشاعرك إلهابا وأنت ذاهل تشارك بالرغم منك أشخاص قصصه ما يوزعه عليهم من مختلف العواطف المضطربة المتباينة.

وسافو إحدى آياته الكبرى التي جمع فيها بين الشهوة الثائرة، وعاطفة الأمومة الطاهرة، ظهرت في سنة 1884 وهو في الرابعة والأربعين من عمره (لأنه ولد سنة 1840) وقد امتلأ تجربة وخبرة، وشبع شهرة وصيتا، فكانت من القصص الخالدة، حتى إن قطعة سافو التمثيلية الغنائية (أوبرا) التي أخذت عنها دائما متجددة الشباب تمثل في فرنسا إلى الان، وفي مصر بدار الأوبرا الملكية كل موسم تقريبا. وهذه القطعة هي التي غنينا بنقلها (للرسالة) إلى لغتنا العربية الكريمة.

واسم سافو على ما يظهر غير فرنسي، لأنه اسم امرأةإغريقية اشتهرت ما بين القرن السادس والسابع قبل الميلاد بشعرها، كما اشتهرت بخلاعتها واستهتارها، حتى إنها لما ملك اليأس عليها كل سبيل ألقت بنفسها من أعلى صخرة (لوكاد) في اليم.

ولقد وضع براديه المثال الفرنسي الشهير في سنتي 1848 و1852 تمثالين أولهما من البرونز والثاني من المرمر كانا محل إعجاب الناس، حتى إن كثيراً منهم حصلوا على نسخ منهما، وقد سماهما باسمها. ولا يمكن أن يكون أراد بهما تخليد تلك القصة الشهيرة التي لم تظهر كما قدما إلا في سنة 1884 لأن أول هذين التمثالين تم ودوديه في الثامنة من عمره، وظهر ثانيهما قبل نشر قصته بنحو اثنتين وثلاثين سنة. ومن هذا يتضح أن براديه

إنما وضع التمثالين المذكورين تخليدا لذكرى تلك الإغريقية.
وإذا علمنا ان دوديه رجل (شأن كل كاتب) واسع الاطلاع مفروض وقوفه على تاريخ تلك الإغريقية وظروف حياتها، وكذلك علمه بآمر هذين التمثالين جزمنا بأنه ما تب تلك القصة إلا وهو متأثر بهذين الظرفين لقيام وجه الشبه بين هذه المرأة وبين سافو ربيبة قلمه من حيث الحب والخلاعة والاستهتار. ولأن قصته والقطعة الغنائية المأخوذة عنها تناولتا ذكر التمثال المرمري الذي أشرنا إليه.
على ان من العجيب ما لحظناه من انه جعل فتاة قصته مصرية، وان واضع القطعة التمثيلية المنقولة عنها جعلها أندلسية؟
أما الناقل فقد يكون التبس عليه الأمر بين هذه المصرية وبين راقصة أخرى أندلسية جاء ذكرها أيضاً في نفس القصة. ولكن دوديه أكد وصف سافو بالمصرية في أكثر من موضع منها، فلابد إذن أن واضع تلك القطعة تعمد جعلها أندلسية، لأن سافو كما وصفها دوديه امرأةفطرت على الحب العنيف المتقعد، وهي أيضاً كثيرة الأهواء لا تستقر عند حبيب وأحد، ولا تطيب حياتها إلا بالتنقل من حب إلى حب، وكلها صفات تتوافر كثيرا في الأسبانيات، حتى أن بروسبير ميريميه اضطر إلى اختيار (كرمن) في قصته البديعة من بينهن.
ودوديه الكاتب القدير لا يفوته ذلك أيضاً، ولكنه قصد إلى تمصير سافو قصدا، وقد خصها بالإجادة في رقص (البطن) فإذا كان هذا ما أراده فقد التوى عليه قصده، لأن مثل هذا النوع من الرقص ليس من عادات الباريسيات، وقد أراد بقصته وصف تلك العادات، ولأنه كان عليه ما دام هذا قصده إلا يسمى فتاته سافو، لأن سافو الإغريقية لا تعرف مثل هذا الرقص، ولان المصرية لا تتسمى بهذا الاسم.
وعلى كل حال فقد رأى إلا يجعل الخاتمة واحدة في سافو التاريخ وسافو القصة، فغلب هذه على اليأس الذي ذهب بحياة أختها، وأحياها الحياة الكبرى حياة الأم التي تحطم قلبها وتتطهر من أقذار الآثم لتنصرف إلى تربية طفلها. فكان فيما اختار عظيما رائعا، وهو ينزل على حكم الطبيعة، ويساير غريزة التكوين البشري.
محمود خيرت
الرواية
الفصل الأول
بهو ينتهي إلى مصنع المثال كاوودال. يموج البهو بالمقنعين والعذارى المقنعات، لأن) الليلة راقصة، وأما المصنع فتدوي فيه نغمات الآلات الوترية، وسافو (واسمها المستعار فني) ترقص وتغني، والمجتمعون يصيحون من النشوة والطرب. وأخيراً يظهر في البهو (كاوودال ولا بودري مقنعين
كاوودال - انظروا آيها الشبان كيف أصبح الشيوخ أكثر فتوة منكم!
لابودري - إني راحل يا أستاذي
كاوودال - طبعا لأن المجلس لم يعجبك
لابودري - كلا، ولكني لا أستطيع البقاء فوق هذا
كاوودال - بل قل إن هذه الراقصة ذات العيون السود لم تفتنك، إن رشاقة هذه الأندلسية لا تدع عقلا لعاقل، وهي تجتمع دائما هنا بأصحابها، فلم لا تشاركهم هذا الانس؟ (يغني)
يا غضون الشباب
الجميع - يا غضون الشباب
فني (سافو) - إن عذْب القُبل=هان فيه العذاب
وسواد المقل ... طاب فيه الجنون
الجميع - يا شباب الغصون
لابودري - مهما كان من الأمر فآني سأرحل
كاوودال - يا عدوّ الملاح
الجميع - ما علينا جناح=فانتظر للصباح
كاوودال - ما أغربك آيها الفتى. تفر من هذا الأنس وتزعم انك شاب
لابودري - وكأني بك في سن العشرين

كاوودال - مع إني في الستين (ثم يخاطب حنا) وأنت لم لا ترقص يا حنا؟ كنت أظنك في مجلي هذا السرور أكثر نشاطا ومرحا
حنا - إنني ما رقصت عمري
كاوودال - ولكن الرقص ينفض عنك تراب القرية. تشجع
لابودري - العبرة بالخطوة الأولى. هيا
كاوودال - ألا تعرف هؤلاء الفتيات الجميلات؟
حنا - لا يا سيدي.
كاوودال - وكيف تراهن
حنا - رائعات
كاوودال - إلا أقدمك إليهن
حنا - أشكرك واعتذر، فقد أكون محل سخريتهن
السيدات - ها ها ها (ضحكات)
لابوردي - (وكأنه يكلم نفسه) ولم؟ ما ابسط هذا الفتى!
كاوودال - تعال معي
حنا - دعني بالله (يمتنع فينصرف كاوودال ومن معه إلى المصنع)
كإنني في حلم. هذه هي السعادة التي يتغنون بها!
(هنا يسمع ضجيج المجتمعين في المصنع وهم يغنون):
نماذجُ المصنَعْ ... سافو لها تاجُ
جبينها يسطعْ ... كالتِّبرِ وهَّاج
سُبحان من أبدع ... جمآلها سافو
ماذا اسمع؟ كل شيء في هذا المصنع يشد أعصابي. فأين أنا من قريتي كنز السكون والنور؟ ومن خمائلها يحمل النسيم ارجها فيعطر الأرجاء. لقد كنت في المساء أجوب غاباتها النضرة فتهزني الأحلام، وهواؤها العليل يشدو ومن خلال أوراقها فأنسى قسوة الشتاء. قريتي التي تفيض بالأمل والحب ما أبعدها ألان عني!
(يسمع هرج في المصنع وضحك طويل ثم يخرج بعضهم يتعقب فني)
أحدهم - قلة يا فني
فني - اخسأ
هو - (الذي يتعقبها) قبلة واحدة صدقة عن هذا الحسن. . .
فني - تظهرون الغرامَ لي=في ابتسام مُغرّر
خِدعٌة ليس ينطلي ... سبكها في نواظري
إنكم تصدعونني ... أنكم تخدَعونني
(تفلت منهم وتسأل كاوودال)
من هذا الفتى الجميل (مشيرة إلى حنا)
كاوودال - لا اعرفه
فني - ولم لا أساله آنا؟
كاوودال - شأنك معه (يبتعد ضاحكا)
فني - (تقترب من حنا) ما اسمك يا صاحبي؟
حنا - حنا جوسين
فني - قروي؟
حنا - نعم
فني - وهل أنت مصور؟
حنا - لا يا سيدتي (مطرقا)
فني - أحسنت. ولكن لم أنت مطرق؟ وماذا رابك مني؟
حنا - بالله لا تسخري مني يا سيدتي
فني - آنا؟ انك بالعكس سحرتني وان كنت غير مصور (يسمع صوت كاوودال ولا بودري يناديان)
الطعام. . . الطعام
فني - (في إذنحنا) إلى الملتقى يا حنا
كاوودال - هيا يا أخواني

الجميع - (داخل المصنع) الغداء! الغداء!
إن لذة الأنام ... في تذوق الطعام
الغذاء! الغذاء!
كاوودال - (من الداخل) سافو!
(يحاول حنا الدخول فتمنع مضطربة)
فني - لا تدخل يا حنا. تعال معي
حنا - ولكن. . .
فني - تعال. تعال
حنا - (يخضع) غلبتني مقلتاها=فسبيل قدماها
عقل فني فيك تاها ... سهم عينيك رماها
حنا - يا لهيبي!
فني - يا حبيبي!
(يذهبان بينما المصنع في هرج وانس)
(يتبع)

العدد 58 - بتاريخ: 13 - 08 - 1934

ذكرياتنا القومية

تعاودنا في كل عام بعض الذكريات الأليمة التي يغص بها تاريخنا الحديث؛ وفي الأمم المغلوبة التي سلبت أعز ما تزهو به الأمم، أعني حرياتها القومية، تنسخ الذكريات الأليمة كل ماعداها من ذكريات الفخار والمجد؛ وإذا أتيح لها يوماً أن تحتفل بإحدى هاته الذكريات المجيدة، فان محنتها الحاضرة تكدر دائماً صفاء شعورها القومي، وتذهب بكل ما يمكن أن تأنس به من كبرياء وغبطة وفخار.

وقد مرت بنا منذ أسابيع قلائل بعض هذه الذكريات السود في تاريخنا: حوادث الإسكندرية المشئومة في 11 يونيه؛ وضرب الأسطول الإنجليزي للإسكندرية في 11 يوليه؛ وستحل بعد أسابيع قلائل ثالثة الذكريات المفجعة، أعني تمام احتلال الإنجليز لمصر في 15 سبتمبر؛ ومنذ عامين كان قد انقضى على ضياع الحريات القومية وقيام الاحتلال الأجنبي في مصر خمسون عاما. فكيف نستقبل هذه الذكريات المؤسية في تاريخنا القومي؟ وماذا نفيد منها من عظات وعبر؟

الواقع أننا لا ننسى هذه الذكريات التي تعاودنا كل عام، وينبهنا إليها دائماً استمرار المحنة واستمرار الاعتداء على حقوقنا وحرياتنا. وقد تكون الذكرى وحدها فضيلة. ولكن الذكرى المجردة لا تكفي دائما للإفادة من عبر الحوادث وتغذية الشعور القومي وإذكاء الهمم للنضال في سبيل استرداد الحقوق المسلوبة. وما الخير في أن نستقبل هذه الذكريات كل عام بعدة فصول ومقالات في الصحف تكاد تتفق دائماً في ألفاظها ومعانيها: بكاء على الماضي، ورثاء للاستقلال الذاهب، واستنكار للاعتداء الواقع، وتنديد بنكث المعتدي، وتشهير بأساليب الاستعمار؟ هذا ما نقرأ دائماً في صحفنا في هذه المناسبات، وهذا كل ما نفعل لاستقبال ذكرى الحوادث والخطوب التي ذهبت بحرياتنا واستقلالنا. وهذا حسن بلا ريب؛ ولكنه لا يكفي لتحقيق الغاية القومية التي يعلق تحقيقها عليه.

وليس هنا مقام تفصيل ما يجب أن تعمله أمة كأمتنا في مثل هذه المناسبات. ولكن الجهاد السلمي لإحياء الشعور القومي، وإعداد الأمم للنضال في سبيل استرداد حقوقها متعدد الوسائل والصور. وترديد النواح والعبارات المؤثرة لا يفيد شيئاً في سبيل استقلال الأمم؛ وإنما يفيد أن تثير دعوة مقنعة لبيان حقك، وأن تتخذ هذه المناسبات لتنظيم جهود سلمية جديدة، سياسية أو اقتصادية في سبيل الكفاح القومي؛ وأن تعقد الاجتماعات والمحافل

السلمية، وأن تنظم الاحتجاجات بالقول والفعل، وأن تلقى رسالة المستقبل إلى الشباب بطريقة عملية؛ ويحسن أن يدوي صدى احتجاجك في الخارج، في جميع أنحاء العالم، فقضايا الأمم المغلوبة دائماً بحاجة إلى التعريف، وقد يلقى التعريف أحياناً شيئاً من التأييد أو العطف في ثنية الضمير الدولي. ومن جهة أخرى فان هذه المناسبات يمكن أن تتخذ ذريعة حسنة للقيام ببعض الأعمال والمشاريع الوطنية النافعة، فتكون دائماً رمزاً عملياً لإذكاء الشعور القومي.

ونود بهذه المناسبة أن نشير إلى نقطة أخرى جديرة بالتأمل، ذلك أننا نشهد في مصر احتفال بعض الأمم الغربية بأعيادها القومية؛ ومن هذه الأمم من تسيطر بقوة الغصب والاستعمار مع شعوب عربية وإسلامية شقيقة، وتسومها أمر ضروب الاضطهاد والذلة، ففي مثل هذه المناسبات نجد بكل أسف صحفنا ومجلاتنا تشيد بأعياد هذه الأمم المستعمرة وتشاركها في الاحتفاء والابتهاج. خذ مثلا عيد 14 يوليه الفرنسي الذي يزف إلينا دائماً بأنه عيد الحرية والإخاء الإنساني، وتأمل كيف تفيض صحفنا كل عام في الإشادة به وبآثار الحوادث التي ارتبطت به في تحطيم صروح الظلم والاستبداد، وكيف يشترك كثير من شبابنا الأغرار في الحفلات التي تقام لهذه المناسبة، وكيف ينسى هؤلاء وهؤلاء أن هذه الأمة التي تتغنى بنشيد الحرية والإخاء والمساواة، هي نفس الأمة التي تفرض نير الذلة والاستعباد على ملايين المسلمين، وتعصف سياستها الاستعمارية الحديدية بدينهم ولغتهم وكل تراثهم القومي؛ هذا بينما يقضي الواجب الوطني وواجب التضامن الإسلامى أن نقف دائماً من هذه المناسبات موقفا سلبيا، بل أن نذكّر هذه الأمم الاستعمارية بما في دعواها من تناقض، وبأن الأمم المغلوبة لا يمكن أن تؤمن بنداء الحرية، وهي ترى أن أولئك المنادين به هم نفس الجناة على حرياتها واستقلالها.

إن تقدير الذكريات القومية، وتنوع الاحتفاء بها، وحسن الاستفادة منها، من شواهد اليقظة القومية؛ وإن المتغلب المستعمر لا يفوته أبداً أن يلاحظ هذه المواقف في حياة الأمم المغلوبة لأنها في نظره مقياس للشعور القومي؛ وهو أشد ما يخشى هذا الشعور وأحرص ما يكون على محاربته وإخماده، وإن كثيراً من الخطط والوسائل التي يدبرها الغالب لتثبيت نيره أو مصانعة فريسته يتوقف على مبلغ ما يأنسه فيها من قوة الشعور القومي أو ضعفه، ومن

الأسف أننا نجوز مرحلة فتر فيها الشعور القومي، وفترت فيها قوة المقاومة؛ فلنعمل بكل ما وسع الجهاد المشروع لإذكاء هذا الشعور، ولنلتمس دائما لإذكائه ذكريات المحن القومية، فالمحنة تشحذ همم الأمم الحية، والشعور القومي لا يكفي في تغذيته أن تردد الفصول الفاترة المتماثلة كل عام، والحريات لا تغنمها إلا شعوب فياضة الوطنية، فياضة الشعور بكرامتها.

(ع)

-

حول الحر

للأستاذ أحمد أمين

اشتد الحر وشغل الناس بالتفكير فيه، وبطرق التغلب عليه، وبالتأفف منه، فهذا يدبر المال للإقامة في مصيف فيوفق ويرحل، وهذا لا يواتيه المال فيقيم على مضض، وهذا نزاع عائلي بين ميزة الاصطياف في أوربا والاصطياف في الإسكندرية، وهذا غني أفلس يأتي عليه الحر فيذكره بأيام هنية قضاها في أجود المصايف وأنزه الأماكن، فتجتمع عليه لذعة الحر ولذعة الذكرى - وهذا بائع المرطبات والمبردات يسأل الله أن يزيد في الحر حتى يكثر بيعه، ويزيد ربحه؛ وهذا يرقب درجة الحرارة من حين لآخر ليعلم أتحسن الجو أم ساء، وهو يتبع المقياس في رضاه وسخطه، وهذا يقرأ نشرات مصلحة الطبيعيات ليقارن بين القاهرة والإسكندرية، والقاهرة وبور سعيد، فإن كان في الإسكندرية رثى لمن في القاهرة، وإن كان في القاهرة حسد من كان في الإسكندرية؛ وإن كان في أسيوط عزى نفسه بقلة الرطوبة وجفاف الهواء؛ ومن كان في مصر كلها حمد الله على أنه ليس في أمريكا حيث يختنق الناس - وهذه شغلها التفكير في المقارنة بين حمام ستانلي وسيدي بشر: أيهما أكثر ناساً، وأنظف مرتاداً، وأحسن للعرض وأمتع للنفس. وهذا يرتقب غروب الشمس التي تكويه بنارها، ليخرج إلى الجزر والأنهار والمقاهي المفتوحة والملاهي في الجو الطلق، فينتقم في ليله من نهاره - وهذا وهذا وهذه وتلك مما لا يعدو ولا يستقصى؛ ولكن لابد من ناحية أخرى أُنسيتُها، فهاذ كاتب وشاعر شغله الحر من ناحية أخرى فهو يريد تشبيهاً جميلاً للحر أو تعبيراً بليغا، فيقول: هذا الجو أحرّ من الرمضاء، وأحرّ من دمع الصب، وأحر من قلب العاشق، ومن فؤاد الثاكل؛ ثم لا تعجبه هذه كلها فيريد تشبيهاً مخترعاً، أو عبارة مبتكرة، أو استعارة بديعة، فيسبح في الخيال، وينسى الحر، وهي حيلة لطيفة للتخلص

منه!!
أما أنا فقد ضايقني الحر، وحرت بين مصر والاسكندرية، تؤلمني الأولى بحرها القاسي، وتؤلمني الثانية برطوبتها الثقيلة، ووددت أن لو كان لي من المال ما يمكنني من أن أطير صباحاً فأقضي النهار في الإسكندرية، وأطير مساء فأقضي الليل في القاهرة وأخيراً رأيت أن أهرب من الحر حيناً بالتفكير في الكتابة فيه، وقلت إنها فرصة جميلة أن أكتب في
الحر، فان خرج المقال قيماً ممتلئاً حرارة وقوة ربحت ربح المحسن في عمله - وليس لي كبير أمل في ذلك - وإن خرج المقال بارداً أكون قد أحسنت إلى الناس فرفهت عليهم، وانتقمت من الحر، وأعنتهم عليه؛ وأية فرصة للكاتب خير من هذه؟ يَحسن إذا أحسن، ويحسن إذا أساء؛ وللإنصاف لابد أن أعلن أني لست مبتكراً لهذا المعنى، إنما سرقته من نادرة لها اتصال بالحر، فقد أنشَدَ بعضهم بيتاً من الشعر، فقال سامعه: إن هذا البيت لو طرح في نار المتنبي لأطفأها، ويريد ببيت المتنبي قوله:
ففي فؤادِ المحب نارُ جَوىً ... أحرُّ نار الجحيم أبرَدُها
فكذلك أدرت أن أثأر لنفسي وللناس من حر هذا العام بكتابة مقالة تطفئه، وأخشى ما أخشاه أن تخرج فاترة، لا بالحارّة فتعجب، ولا بالباردة فتطفئ.
أول ما خطر لي في الحر أني الآن لابس ثوباً خفيفاً أبيض، واسعاً فضفاضا، مكشوف الرأس، عاري القدمين، جالس في حديقة، أشجار عن يميني، وأشجار عن يساري، وحوض زهر أمامي، وقد رشت الأرض من حولي، وبجانبي إناء مما يحفظ فيه الماء مثلوجاً، لا أدري ما اسمه بالعربية، وأخشى أن أقول (ترمس) فينقدني علماء اللغة؛ وكل شيء حولي يرطب الجو ويلطفه ويعدّله، وأنا مع هذا كله برم بالحر، ضيق الصدر، مغيظ محنق، أتلمس أقل سبب، لأعلن الغضب - وعلى البعد مني أصوات ترتفع بالنداء، هذه تحمل قفصاً مملوءاً بالفراخ، وهذا يجر عربة ملئت بأصناف الخضر، وهذا ثالث يحمل على رأسه سفطاً كبيراً قد ملئ بالتين أو العنب، وهو سائر طول نهاره في هذا القيظ ينادي، لا يعبأ بشمس ولا حر، ولا يضجر كما أضجر، ولا يألم كما ألم، ولا يفكر في الحر كما أفكر - أليس في الأرض عدل؟ أليس الشقاء قد أكسبه مناعة وقوة؟
أو ليست الرفاهية والمدنية والنعيم قد حرمتني الجلد والاحتمال؟
إنه ليسعد بما أشقى به، إنه ليسعد بشربة ماء من كوز من حنفية، ويسعد بالارتماء في ظل بيت في الشارع بعد أن أعياه التعب وأضناه السير، ويسعد بقريش يكسبه ليشتري به خبزاً جافاً يأكله فينعم به - إن كانت السعادة في اللذة والطمأنينة وهدوء البال فمما لاشك فيه أن هناك مجالاً للتفكير العميق (أينا أسعد) وتباً للعيش الناعم، والمدنية المعقدة، والرفاهية المترفة، التي أرهفت حواسنا وإحساساتنا، وأفقدنا الصبر واحتمال المكاره، وجعلتنا نفر من
نعيم إلى نعيم أدق منه نظن فيه السعادة، وما السعادة إلا في العيش البسيط والمران على الجلد، واحتمال ألوان الحياة وصنوف التعب، وأقلها الحر والبرد، إن تحتمل الحر فلا حر، وان تحتمل البرد فلا برد، وان تعتدْ بساطة العيش تكره نفاق المدنية، وان السعادة لخيرُ ما يحقق مذهب (آينشتين) في النسبية، فكل شيء في الحياة من لذة وألم نسبي، وليست اللذة والألم يعتمدان على الشيء الخارجي فحسب، بل هما نتيجة تفاعل بين الشيء الخارجي والنفس، ويختلف هذا التفاعل اختلافاً كبيراً باختلاف النفوس، فليس الألم من الحر والبرد يعتمد على درجة الحرارة وحدها، بل إن صلح الترمومتر أن يكون مقياساً لحرارة الجو، فلا يصلح ان يكون مقياساً لألم النفس من الحر، وليس لهذه الحال ترمومتر مشترك يتساوى فيه الناس، إنما لكل إنسان في الألم من الحر والبرد ترمومتره الخاص، ولذلك ترى من يموت من الحر، ومن يموت من الضحك على الحر - ومن الغريب أن يتوجه كل الناس بكل مجهودهم للتخلص من الحر بالاصطياف وسكنى الشواطئ والمراوح والمرطبات، ولا يبذلون أي جهد في الناحية الأخرى وهي الناحية النفسية بترويضها وتمرينها على الاحتمال، وتعويدها الصلابة، وهذا في نظري ليس أقل شأناً ولا أصغر قيمة من العلاج الأول.
وخطر لي أن علماء الجريمة يذكرون أن هناك أنواعاً من الأجرام تكثر في الصيف كالأجرام الجنسي، وأنواعاً تكثر في الشتاء كأجرام السلب والنهب، فقلت لعل ذلك

أيضاً في الأدب، فالأدباء يهيج بعضهم على بعض صيفاً أكثر مما يهيجون شتاء، ويهيجون في القاهرة أكثر مما يهيجون في الاسكندرية، إن شئت مصداق ذلك فانظر ما كان بين من يسمونهم أدباء الشيوخ وأدباء الشباب، وانظر ما كان بين أدباء الشيوخ بعضهم وبعض، وأدباء الشباب بعضهم وبعض، أليس هذا كله فعل الحر؟

أو ليس من كان في الإسكندرية على شاطئ البحر كان يعجب من فعل الحر في أدباء القاهرة؟ - ولئن كان الحر يؤاخَذ على ما جنى من تعريض العلاقات بين بعض الأدباء لخطر، فانه يشكر على أنه استطاع أن يستخرج من الأدباء قطعاً فنية بديعة أكملت أبواب الأدب، فان القدماء قد عدوا من أبوابه باب الهجاء كما عدوا باب المديح - كما أنه يشكر إذ لم يسلط ناره الحامية على الأدباء طويلاً فقد حوَّل، عدسته إلى غيرهم ليتنازعوا فنجا

الأدباء، من ثورته، وهدأت عواطفهم وتصافت نفوسهم.

وأخيراً خطري لي محمدة جليلة للحر القائظ، والبرد القارس وقلت إن هذه المحمدة تفوق كل ما كان للحر والبرد من سوء ولولاها لما تقدمت الإنسانية، ولما رقى النوع البشري هذا الرقي، ولظل هائماً على وجهه كالوحوش، ذلك أن الشمس بنارها اللافحة، والحر بشدته اللاذعة، والبرد بحدُته القاسية، وأمطار المنهمرة، وببرَده وثلوجه، والطبيعة العنيفة - بعواصفها ورياحها - كل ذلك هو الذي ألجأ الإنسان قديماً إلى أن يبحث له عن ملجأ يأوى إليه من الحر والبرد، فسكن الكهوف نشأته الأولى وظل يرتقي في ضروب من الارتقاء حتى أسس البيت، وأسس الاسرة، وكونت الأسر القبائل والمدن وكونت هذه القبائل الأمم، ثم تعاونت الأمم على ترقية النوع الإنساني فلولا الحر والبرد ما أظن أن قد كان بيت، ولولا البيت ما كانت أسرة، ولولا الأسر ما كانت أمم - أليس الحر والبرد إذن كانا أفعل في ترقية النوع الإنساني من كل مظاهر الحياة وظواهر الكون؟ فإذا قلنا إن تقدم النوع البشري مدين في تقدمه لرداءة الجو، وشدة الحر والبرد، لم نُبْعِد.

خطر لي كل هذا حينما حاولت أن أكتب في الحر فبدأ الضجر يقل، والألم يحتمل، والنفس تهدأ، والعاصفة تسكن والاحتمال يقوى - فهل هذا مستمر؟ سأجرب.

على كل حال قد هزئت بالحر ونسيته - ولو إلى حين - بكتابة مقال فيه.

احمد أمين

قصة أب

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

حدثني المسكين فيما حدَّث وهو يصف ما نزل به قال:

رأيت الناس قد أنعم الله عليهم أن يكونوا آباءً فَنَسأ بالولد في آثارهم، ومدَّ بالنسل في وجودهم، وزاد منه في أرواحهم أرواحاً، وضم به إلى قلوبهم قلوباً، وملأ أعينهم من ذلك بما تَقّر به قُرّةَ عَين كانت لم تجد ثم وَجدت، فهم بهؤلاء الأطفال يملكون القوة التي ترجعهم أطفالاً مثلهم في كل ما يسرهم، فيكبر الفرح في أنفسهم وإن كان في ذات نفسه ضئيلاً صغيراً، ويعظم الأمل في أشيائهم وإن كان هو عن شيء حقير لا يُؤبْه له؛ وتلك حقيقة من حقائق السعادة لا أسمى ولا أعظم منها إلا الحقيقة الأخرى، وهي القوة التي يتحول بها الكون في قلب الوالدين إلى كنز من الحب والرحمة وجمال العاطفة، بسحر من ابتسامة طفل أو طفلة، أو بكلمة منهما أو حركة، على حين لا يتحول مثل ذلك ولا قريباً منه بمال الدنيا ولا يملك الدنيا.

رأيت الناس قد أنعم الله عليهم أن يكونوا آباءً، ولكنه ابتلاني بأن أكون أباً، وأخرج لي من أفراح قلبي أحزانَ قلبي!

ولقد كنت كرجل ملك داراً يستمتع بها، فتمنى أن يشرع في جانب منها غرفةً يُزخرفها، فلما تم له ذلك وبلغ المقْترح إنهدمت الدار، وبقيت الغرفة قائمة!

عَمْرَك الله، أيشعر هذا الرجل في نكبته بالغرفة أم بالدار؟

وهل تراه زاد أو نقص؟ ويا ليتهما بيت وغرفة من بيت؛ فان الحجارة تحيا بالبناء إذا ماتت بالهدم، ولكن من ذا يحي الزوجة ماتت بعد أن وضعت بِكرَها الأول والآخر:

إنها طفلة وِلدتْ وكأنما أخرجت من تحت الردم إذ وُلدت تحت ماضٍ من الحياة منهدم.

وهل فرقٌ بين هذا وبين أن تكون أمها قد ولدتها في الصحراء ثم أكرهت أن تدعها وحدها في ذلك القفر تصرخ وتبكي! فالمسكينة على الحالين منقطعة أولَ ما انقطعت

من حنان الأم ورحمتها.
طفلة وُلدت صارخة، لا صرخة الحياة، ولكن صرخة النوْح والندب على أمها.
صرخة حزينة معناها: ضعوني مع أمي ولو في القبر!
صرخة ترتعد كأن المسكينة شعرت أن الدنيا خالية من الصدر الذي يُدفئها!
صرخة تترد في ضراعة كأنها جملة مركبة من هذه الكلمات: (يا رب ارحمني من الحياة بلا أم!).
قال المسكين هو يبكي امرأته:
ولما ضَرَبها المخاض ضاعفت قوتها من شعورها أنها ستكون بعد قليل مضاعفة، وستكون روحين لا روحاً واحدة، وتلد لي الحياة والحبَّ والإلهى معاً، وتأتي لقلبي بمثل طفولته الأولى التي يستحيل ان تأتي الرجلَ إلا من زوجه. كل ذلك ضاعف قواها ساعة وشدّ منها، ولكن ما أسرع ما تبينتْ أنه الموت إذُ عضَّلتْ وعسر خروج مولودها وجاءها اِلجراحّى بمبضعة، وكأنما رأته ذابحاً لا طبيباً فجعلت تعبر بعينها إذ لم تملك في آلامها القاتلة غير لغة هاتين العينين.
كانت بنظرة تبكي عليّ وعلى بؤسي، وبأخرى تبكي على بؤس مولودها وشقائه؛ وبنظرة تودعني، وبأخرى تدعو الله لي جزاء ما أحسنت إليها؛ وبنظرة تتوجع لنفسها، وبأخرى تتألم من أنها تراني أكاد اجن.
نظرات نظرات.
يا إلهي! لقد خيل إليّ أن ملك الموت واقف بين عشرين مرآة تحيط به، فأنا أراه موتاً متعدداً لأموتاً واحداً. وكل نظرة عيْني زوجتي إليّ كانت منها هي نظرةً، وكانت عندي أنا مرآة الروح للروح.
ولكنها لم تنس أنها تموت لوضع مولودها، وإن هذه الآلام الدموية الذابحة هي الوسيلة لأن تترك لي بقية حية منها؛ فيا للرحمة والحنان والحب! لقد ابتسمت لي وهي تموت، وهي تلد، وهي تذبح!
ليست رحمة المرأة المحبة خيالاً إلا إذا كانت حرارة الشمس التي تحي الدنيا خيالاً أيضاً؛ إن هذا القلب النسوي المستقر فوق أحشاء تحمل الجنين صابرة راضية فرحة بآلامها، وتغذوه وتقاسمه حياة نفسها - هذا القلب يحمل الحب أيضاً صابراً راضياً فرحاً بآلامه، ويغذوه ويقاسمه حياة نفسه. وللرحمة الإلهية أدلة كثيرة تدل الإنسان عليها دلالاتٍ مختلفة؛ فالشمس تدل عليها بالضوء الذي تَطعمه الحياة، والهواء يدل عليها بالضوء الذي تتنفسه
الحياة، والماء يدل عليها بالضوء الذي تشربه الحياة، وهكذا إلى أن يأتي في الآخر قلب المرأة فيدل على رحمة الله بالحب الذي تقوم به الحياة.
ابتسامة الحب غالبت زفراتِ الموت التي تعتلج من تحتها حتى غلبتها، وأعادت الحياة لحظة إلى وجه زوجتي لأراها آخر ما أراها في صورة المُحبة، فكان كل جمال نفسها منتشراً على ذلك الوجه، وظهرت فيه روحها وعواطفها تودعني وداعاً حزيناً متبسما يتكلم؛ يتكلم بعجزه عن الكلام.
ابتسامة لا ريب أن فيها أشياء ليست من جمال هذه الدنيا ولا من حقائقها؛ فكأنما التمعت بأشعة من الخلد ترفّ رفيفها على وجه الحبيب ليظهر ساعة الموت أن حبه أقوى من الموت.
قال المسكين: ونثر الطبيب ذا بطِنها فكانت طفلة، وما كانت زوجتي تقترح أن يكون الجنين غيرها، بل كانت مستيقنة أنها تضعها أنثى، وصنعت لها ثيابها، ووشتها بزينة الأنوثة، وعرضت أسماءَ البنات فاخترت اسمها أيضاً، وكنت أكره ذلك منها وأريد ولداً لابنتا، فكانت تغايظني بعملها وإصرارها غيظ دعابة لا غيظ جفاء.
ومضت لا تذكر إلا بنتها مدة الحمل، ولا تتكلم إلا عن بنتها، وقد كانت أعجب لذلك، فلما قضى الله فيها قضاءه علمت أن ذلك أمر من أمر الروح، فكان الإلهام فيها أنها على باب قبرها وأنها لن ترى طفلتها ولن تعيش لها، فعاشت أيام الحمل مع ذكراها، تضم ثيابها إلى صدرها، وتحملها على يدها، وتناغيها وتقبّلها، وتأخذها من الوهم وتردّها اليه. وكذلك نعمت المسكينة بالمسكينة!
لك الله يا معجزة الرحمة؟، يا نفس الأم!
ولما قيل: ماتت - جعل يكلمني المتكلم ولا أعقل، فان الكلمة التي تأتي بالمصيبة

المتوقَّعة طال ارتقابها - لا تأتي بمعان لغوية كغيرها من الكلام، بل بأسلحة تضرب في النفس وفي العقل، وتُثْخنُها جراحا وفتكا.

وجعلني موتها كأني ميت يحمل نفسه، ما حوله إلا المشّيعون، وأحسست كأن قوة أخذت بإحدى رجليّ فوضعتها في الآخرة، وتركت الثانية في الدنيا، ولحقني من الجزع ما الله عالم به، ووجدت أحرق الوجد، وبكيت أحر البكاء؛ وجعلتْ أفكاري تنحدر من رأسي إلى

حلقي فأختنق بها، ثم لا يُنفّس عني إلا الدمع، كأن أعضائي اختلّت مما ضغطني من الحزن فأنا أتنفس برئتّي وعيّني.

بموتها شعرت بها، ولعله من أجله ذلك لا يشعر الإنسان بلذة الحب كاملةً إلا في آلام الحب وحدها، وكانت في حياتها تضع من روحها في سروري، وهذا هو سرّ المرأة المحبوبة، يجد مُحبُّها في كل سرور لمحات روحانية، وكذلك فعلت بعد موتها، فجعلت روحها في أحزاني؛ ولولا أن روحها في أحزاني لقتلتْني المصيبة.

وكنت أدلف وراء النعش وقد بطل في نفسي الشعور بالدنيا، وكان الناس يمشون حولي بما فيهم من الحياة، وكانوا ذاهبين إلى المقبرة على أنهم سائرون كما يذهبون إلى كل مكان، أما أنا فكنت أمشي بما فيّ من الحب منكسراً منخذلاً متضعضعاً، لأني وحدي سائر وراء مالاُ يلحق.

وثقل الناس على قلبي، ورجع كل أمرهم عندي إلي العيب والنقيصة، إذ كان لي عقل طارئ من الحالة التي أنا فيها ليس مثُله لأحدٍ منهم، وكنت وحدي المصاب يبينهم، فكنت وحدي بينهم العاقل.

أنا أمشي لأنتهي إلى آخر مصيبتي، وهم يمشون لينتهوا إلى آخر الطريق؛ وشتّانَ ما نحن وشتان!

ولما رأيت قبرها ابتدرت عيناي تنظران بالدموع لا بالنظر، ورأيت التراب كأنه غيوم ملوَّنة بألوان السحب السوداء تتهيأ في سمائها تحت الظلام لتخفي كوكباً من الكواكب؛ وظهر لي القبر كأنه فم الأرض يخاطب الإنسان بحزم صارم، يخاطب الفقير والغني، والضعيف والقوي، والملوك والصعاليك: (إن كل قوة تُنزع هنا).

قال المسكين: وكما يجد الإنسان في أيام المطر رائحة النسيم المبتلّ بالماء كنت أستروح في رجعتي إلى الدار رائحة نسيم مبتلّ بالدموع، وحضرت المأتم وعزّاني الناس فكنت فيهم كالمأسور بينهم لا أتمنى إلا أن يَدَعوني فأنجوَ على وجهي، ولا أرى إلا أنهم يجرّعونني الوجودَ غُصصاً كما تجرعت الفقدَ غصة غُصة، إلا أن تفرقوا مع سواد الليل، فانكفأت إلى الدار فإذا كل شيء قد تغير ولمسه الموت لمسة، وإذا الدار نفسها كالعين المقروحة من آثار البكاء، مآتَمّ إلا ليطالعني بأن مسراتي قد ماتت!

ولاح الصبح ليعنّي الساهرتين صبحاً فاتراً تبينتُ فيه الخجل كأنه يقول: (لم أطلع لك)، فانسللتُ من البيت، وذهبت أمشي في دنيا هي الكآبة المضيئة، سِخرت الأقدار منها بإظهارها في هذا الضوء مظهرَ وجه العجوز المتصابية في زينة لا تزيدها إلا قبحاً!

ومضيت على وجهي لا غاية لي، أضرب في كل جهة كأنما أريد أن أهرب من نفسي!

وما خطر لي قط أني في يوم جديد، بل كنت عند نفسي لا أزال في أمس، وتغير عندي الزمان والمكان؛ فأحدهما ساعة موت لا تترك ما فيها، والآخر قبر ميّتة لا يرد ما فيه.

آه من الوقت الذي ينتهي فيه الموجود ليعذبنا بالتذكر أِنه كان موجوداً!

قال المسكين: ثم أعادتني قدماي إلى البيت لأرى طفلتي - وما كنت رأيتها - ولقد كانت ولادتها أولَ الحياة لها، وأول الحياة لي أيضاً، إذ لولاها لانتحرت غيرَ شكٍّ.

يا ويلتا! لم تلتق عيني بعين الطفلة حتى انفجرت تبكي، أتبكين لي يا ابنتي أم عليّ؟ أهذا بكاؤك أيتها المسكينة، أم هو صوت قلبك اليتيم؟

أصوتكِ أنتِ، أم هي روح أمكِ تصرخ ترثى لي وتتوجع لفرط ما قاسيت!

يا ابنتي، إنما أنت الحقيقة الصغيرة التي خرجتْ لي من كل تلك الخيالات الشعرية الجميلة - خيالات الأيام السعيدة التي مرّت! يُخلَق المواليد من اللحم والدم، وأراكِ أنتِ يا مسكينة، خلقتِ من اللحم والدم والدموع!

بقَّية حياةٍ ماتت! فهل معنى ذلك إلا أنكِ بقية موتٍ يحيا؟

مسكينة، مسكينة، لو أن نواميس العالم متغيرة لشيء لتغير من أجل بؤسك فردّت لك

الأم، ولكنها لم تتغير، وما بكاؤنا وآلامنا وتعاستنا إلا تراث الحياة في أجسامنا الأرضية؛ كل ذلك طبيعة، ولكن بقعة أنظف من بقعة، وأراكِ يا بنتي كالبيت الذي هُدِم أوَل ما بنى يملؤه ترابه!

لن تتغير النواميس، فلن تجدي عطف الأم، ولكن لن يتغير قلبي أيضاً، فلن تحرمي عطف الأب.

وإذا صبر الناس على الحياة فمن أجلكِ يا مسكينة! من أجل ضعفك وانقطاعك سأعاني الصبر لك، وأعاني الصبر لي، وأعاني الصبر من أمك، سأصبر على الصبر نفسه!

يا ابنتي، يا ابنتي، لماذا وضعتك الأقدار من هذه الحياة في الناحية التي ليس فيها إلا قبر

مظلم مقفل على أمكِ، وأب مسكين مقفل على آلامه؟!

قال المسكين: وهكذا كتبتُ من أهل البؤس والهم، فلم أتزوج إلا لتصنع لي حبيبتي دموعي، ثم لم تمت إلا بعد ان تركت لي حبيبةً أخرى ستظل زمناً طويلا تصنع لي دموعي.

(طنطا)

مصطفى صادق الرافعي

مجهولو الأبطال

ابنا النقيب

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

أرأيت التاريخ اتسع يوماً لذكر الألوف المؤلفة ممن سيروا حوادث الدهر، ودفعوا تيارات الزمان نحو مستقرها؟ قد يذكر التاريخ عظيما أو بعض عظماء، وهؤلاء قد يكونون من قادة الحرب وزعماء أرباب السيف، وقد يكونون من أهل السياسة وأصحاب الدهاء والكياسة، الذين تألفوا الناس وحركوا الأحزاب، وقد يكونون من أهل القلم، لا بل قد يكونون من أصحاب العلم الذي أضاءوا للناس سبلهم في الحياة. ولكن كم يكون هؤلاء الذين يذكرهم التاريخ؟ أيكونون بضع مئات في كل عصر؟ أم لعلهم يبلغون بضعة ألوف؟ وأين يقع هؤلاء من ذلك التيار الأتيَّ الذي تزدحم به الأيام والليالي من الناس؟

قد يزعم زاعم أن الأفذاذ كانوا أبداً قليلي العدد، وأن التاريخ لا يذكر إلا هؤلاء الأفذاذ. وذلك زعم أكِل الحكم فيه لكل من وقعت عينه على هذه الكلمات، فإني لا أخال فيهم الكثيرين ممن بلغت بهم الأنانية إلى تطلع لذكر التاريخ والخلود في صحائفه. فإذا كان أكثرنا لا يطمع في ذكر التاريخ والخلود فيه، أأيأ]

أيأينبتيسنبتيمسبتيسننيستبيسبينبتيسنبتيسبسأيكون ذلك مُخَذلاً لنا عن القيام بما يجب علينا؟ إن من الناس من يعطي المسكين أمام أعين الناس. حتى يشتهر بينهم بالأفضال والاحسان، وإن منهم من يرفع رأسه بكلمة الحق، وهو على مسمع من قوم يطمع أن يقولوا عنه إنه حر أبي كريم النفس، وإن منهم من تدفعه الحمية وهو على مرأى من الناس إلى أن يخوض الأخطار في سبيل المكارم، لتكون له بذلك ذكرى بينهم وحسن أحدوثة. وهذا الحق لا بأس على الناس ان يأتوه، فان الخير لا يضره أن يكون من ورائه منفعة لمن يقدمه. غير أن تلك المرتبة في المحل الثاني من المكارم، وأما المحل الأول فقد سبق إليه من يواسي في الخفاء، وهو لا يطمع في شكر من يواسيه، ولا يتطلع إلى إعجاب من حوله من الناس، ومن يصدع بالحق لا يبتغي من وراء ذلك إلا أن يقوم بواجبه أمام نفسه، ومن يصنع الخير للناس لا ليجازوه بالاجلال، ولا ليفوز منهم بالإعجاب. بل لأنه يطيع طبيعته في ذلك وينطل على سجيته. ومن ثم كان الأولى بشكر الإنسانية من يقوم على المكرمات،

ويمضي في الخير، وهو في غمار الناس لا يستشرفه أحد من الناس، ولا يشرئب هو بعنقه إليهم. فإذا نحن رضينا بذلك كان انتدابنا إلى أداء الواجب من تلقاء أنفسنا غاية ما يحرص عليه أماثلنا، ولم يكن إعجاب الناس ولا ثناؤهم بما يطمع فيه الكرام أو تطمع فيه الكرام أو تطمح إليه النفوس العالية.

ولقد كان في مصر في مختلف العصور جماعات كثيرة، بلغت من سمو النفس أنها أدت واجبها، ولم تعبأ بأن يتخلف عنها في التاريخ ذكر. ومضى التاريخ بذكرياته

وأسمائه، فلم يذكر من هؤلاء إلا النزر اليسير. ونحن اليوم موردون ذكر اثنين من هؤلاء أبى الله إلا أن يحفظ لنا اسميهما لتكون تلك آية دالة على أن فيمن مضى جماعات لا عد لأفرادها أدوا واجبهم، ومضوا في ثنايا ضباب الماضي، ولم يعبأوا بأن يلتفتوا التفاتة واحدة إلى الناس يطلبون منهم شكراً ولا ثناء. وتلك هي مكارم الأخلاق ومروءة الحياة.

كان في مصر جماعة الأمراء المصريين الذين يظلمهم التاريخ بأن يطلق عليهم اسم (المماليك)، وكانوا يسمون أنفسهم الأمراء المصريين. ومهما يكن من محامدهم أو مساوئهم، فقد كانوا معتزين في كل الأحوال بمصريتهم يحبون هذه البلاد كأعظم ما يحب الرجل بلاده.

وكان من هؤلاء الأمراء من استقل بمصر استقلالاً تاماً وأحاط ذلك الاستقلال بسياج من قوة قلبه وحماسة نفسه. ثم عدت على ذلك الاستقلال العوادي فآثر أن يبذل دمه قبل أن يبصر صرحه ينهار، وقضى قتيلاً في دفاعه كما يموت الأسد وهو يدفع عن عرينه. وكان أحد هؤلاء أمير مصر الأشهر على بك بلوط قبن المعروف بعلي الكبير.

وقد كان في أيام هذا الأمير كثيرون من الأفاضل الأمجاد، منهم أخوان من نسل هاشمي حسيني: أحدهما اسمه السيد علي بن موسى الحسيني الأزهري المصري، والآخر اسمه بدر الدين الحسيني المصري. ويعرف كل منهما بابن النقيب، لأنهما من سلالة بيت كان منه نقباء في بيت المقدس. وكانا عالمين، نالا من العلم أقصى ما ينال من زمانهما. وبلغا من ذلك مرتبة التدريس، فكان أكبرهما (على) يدرس في المشهد الحسيني التفسير والفقه والحديث، وتبعه أخوه الأصغر بعد موته في إملاء الحديث في المشهد الحسيني نفسه. وكانا مع ذلك كاتبين مبرزين، فكان السيد على يتبع في النثر طريقة طريفة (لا يتكلف السجع، وإذا سئل من مسئلة كتب عليها الجواب أحسن من الروض جاده الغمام).

غير أن هذين الأخوين لم تقنع نفساهما بما بلغتا من مرتبة العلم، إذ رأيا أن دونهما واجبا عاما يجب عليهما أن يضطلعا به، وذلك أنهما رأيا الحياة العامة محتاجة إلى كثير من التقويم والتهذيب، فكان الأخ الأكبر يخرج في دروسه عن التلقين المجرد (إلى الرد العنيف على أرباب الأموال والأكابر وملوك الزمان) حتى انه اضطر للهجرة في سبيل الحق من مصر إلى بلاد السلطنة العثمانية، ثم اضطر مرة أخرى إلى أن يهاجر إلى مصر هارباً من حكومة السلطان لأنه لم يرضها ولم ترضه.

وكان الأمراء يعرفون له إخلاصه، ويقدرون له صراحته في الحق، فان الأمير محمد بك أبا الذهب الذي آل إليه الأمر بعد علي بك الكبير سأله مرة على سبيل المباسطة فقال له: (كيف رأيت أهل اسلامبول؟) فقال له: (لم يبق باسلامبول ولا بمصر خير) فلم يغضب الأمير من شدة رده، بل قضى ديونه وأعانه بما يتصدق به على الفقراء.

وكان السيد على فارساً شهما (لا يخلوا (اصطلبه) من الخيل، ويضمرها ويعتني بأحوالها، ويرغب في شرائها لمعرفته بالفروسية في رمي السهام واستعمال السلاح واللعب بالرماح وغير ذلك) فكان مقصد اللاجئين من الناس، وموئل المظلومين من العامة، ومكان الإجلال من أهل الحكم، يقضون ما يأتي فيه شافعا، ويخشون نقده ويكرمون نصحه. ثم مات السيد علي وتبعه أخوه الأصغر السيد بدر الدين. فسار على منهج أخيه من (التردد إلى الأعيان والأمراء، والسعي في حوائج الناس، والتصدي لأهل جهته وخطته في دعاويهم، وفصل خصوماتهم وضلحهم، والذب عنهم، ومدافعة المعتدي عليهم، ولو من الأمراء والحكام)، وصارت له مكانة كبرى في البلاد وعند الأمراء) يخشون جانبه وصولته) ثم ذهبت أيام هؤلاء الأمراء المصريين وهبطت على مصر كارثة الأجنبي، إذ دخل الفرنسيون مصر، فدمروا وهدموا وغيروا، وأبوا إلا أن تكون مصر على مثل خطتهم ومدنيتهم. فغضب كرام المصريين لذلك، ورأوا في تلك المحاولة قضاء على شخصيتهم وازدراء لمدنيتهم الموروثة التليدة. فانتهزوا الفرصة وثاروا على الفرنسيين، وكان السيد بدر الدين من زعما الثوار. (فجمع جموعه من أهل الحسينية والجهات البرانية، وانتبذ لمحاربة الفرنج ومقاتلهم وبذل جهده في ذلك) غير أن الثورة لم تنجح كما هو معروف، فخرج السيد بدر الدين من مصر منذ رآها غير صالحة لمقامه فيها. وأي مقام للحر الكريم المجاهد في بلاد الضيم وبلاد الله واسعة يستطيع أن يهاجر فيها؟ واتبعه غضب الفرنسيين في داخل البلاد وفي

خارجها، وانتقموا منه بهدم ما ترك في مصر من أبنية، وسلب ما خلف فيها من أموال، غير أنه لم يبال شيء من ذلك، ولم يكن مثل بدر الدين ليعبأ بما يصيبه في المال من خسارة، ومازال في خارج مصر يجاهد مع المجاهدين حتى عاد النصر كما أنه لم يضعف في أيام المحنة من الخيبة والخذلان، ولما عاد إلى مصر استأنف السعي في خير المجموع وهو قرير العين بما نال من توفيق، وكان مما يزيد قلبه اطمئناناً وسلاماً أن يذكر ما أصابه من الألم في جهاده.

ولم يكن ابنا النقيب سوى درتين من عقد أبطال سمى التاريخ بعضهم ونسى البعض، ورحم الله من سمى ومن لم يسم. لقد طوى الماضي في بطون الثرى ألوف الألوف من الأجداد، وقد يكون منا من يتهم هؤلاء الجدود ببعض التهم، وجدير بنا أن نفكر مرتين قبل أن نجرؤ على ذلك الاتهام.

لقد كان من الماضين من هم أقوى منا مروءة في حياتهم وجهادهم وسعيهم إلى الخير، منذ كانوا يؤدون أمانتهم غير طامعين في أن يعرف الأحفاد عنهم ما صنعوا. وحري بنا أن نتسامى إلى مثل هذا الكرم فنسعى إلى أداء الأمانة، ونحن في ستر الخفاء لا يطلع علينا إلا الله، ولا ترقبنا بعد الله سوى عين الضمير.

محمد فريد أبو حديد

شعب شرير

النور

نشأتهم وخواصهم وفنونهم

النور (الغجر) جنس غريب من البدو الرحل، مشتت في سائر أنحاء العالم، في أوربا وغرب آسيا وشمال افريقية وأمريكا وأستراليا، ويقدر تعداده بنحو تسعمائة ألف نسمة، منهم في المجر وحدها نحو 280 ألفاً، وفي رومانيا نحو 250 ألفاً، وفي تركيا نحو مائة ألف، وباقيهم مشتت في سائر الأنحاء. ويقول بعض علماء اللغة أن كلمة ومثيلاتها في الأوربية، ومعناها النور، مشتقة في الأصل من كلمة أعني مصر، ويستدل البعض بذلك على أن النور ربما نزحوا من مصر إلى أوربا في غابر العصور. بيد أن أصلهم غامض جداً، وكل ما يمكن أن يقال في ذلك أن النور يظهروا في أوربا، وبالأخص في بلاد البلقان، منذ القرن الرابع عشر، ثم انتشروا في جميع البلدان الأوربية حتى سواحل البلطيق وانكلترا، وعرفوا بالبداوة وعدم الاستقرار، يتنقلون دائماً ويقيمون في الحقول والغابات في خيام يحملونها، ويسافرون على الخيل والعربات المقفلة، ويزاولون الحرف المريبة كالسحر والتنجيم؛ وعرفوا أيضاً بكثير من الخلال السيئة وبانحلال الأخلاق والأقدام على ارتكاب الجرائم.

ولما اشتد عيثهم في أواخر القرن السادس عشر، قررت فرنسا ومعظم دول أوربا نفيهم وعقاب المخالفين بالإعدام، فطوردوا في كل مكان وعذبوا وأحرق منهم كثيرون لأنهم (نور) فقط. وفي القرن السابع اشتهروا بخطف الأطفال، وهبت عليهم من أجل ذلك ريح جديدة من المطاردة، وكانوا في كثير من البلاد ولاسيما رومانيا وألمانيا يعتبرون رقيقاً يحل بيعهم وشراؤهم. ولكنهم من القرن الثامن عشر، أخذوا يتقدمون في اكتساب الحقوق العامة، ومنحوا الحرية في المجر، واهتمت بأمرهم الإمبراطورة ماريا تيريزيا، وأمرت بتعليمهم الزراعة، وتحسنت أحوالهم وأطوارهم نوعا. وفي القرن التاسع عشر اعترفت بهم معظم البلدان كرعايا، ومنحوا الحقوق والحريات السياسية.

وفي سنة 1906 عقد النور ومن يهتم بأمرهم مؤتمراً في صوفيا عاصمة بلغاريا، وطالبوا بالاعتراف لهم بكافة الحقوق التي تمنح لباقي الرعايا وعرفت النور منذ عصور بإتقان بعض الحرف مثل صنع الحلي والأواني

النحاسية الدقيقة، وأجراس الكنائس، والنجارة، وصنع السلاسل، والحفر أحياناً، واشتهروا بالاتجار في الخيل؛ بيد أنهم اشتهروا بالأخص بالبراعة في الموسيقى، وهي موسيقى خاصة بهم، وذهب بعض النقدة الموسيقيين في تقدير الموسيقى النورية إلى حد بعيد، حتى قال الموسيقي المجري الكبير (لسزت) إن الموسيقى المجرية ترجع إلى أصل نوري. كذلك برع النور في الغناء والرقص، واشتهر نساؤهم بالتنجيم وقراءة الكف والورق، ولنساء النور جمال شرقي خلاب، ولكن تغلب عليهم الرثاثة، ولهن ولع بالثياب والحلي، ويغلب عليهن الانحلال الخلقي.

وليس النور دين خاص بهم، ولكنهم يعتنقون في الغالب دين البلد الذي يحلون به،

وتغلب عليهم التقاليد الوثنية والخرافات، كذلك ليس للنور لغة خاصة معروفة، ولكنهم يتكلمون لهجات عديدة، وقد دل البحث على أن هذه اللهجات ترجع إلى بعض اللهجات الهندية، حتى اعتقد البعض أنهم نزحوا أصلا من الهند.

هذا وقد قرأنا عن النور وخواصهم وأخلاقهم وفنونهم بحثاً ممتعاً للكاتب المجري الكبير يوليوس كودلاني، رأينا أن ننقله لقراء (الرسالة) فيما يلي، وحديث الكاتب يتعلق على الأخص بالنور المجريين، وهم كما رأينا أكبر كتلة من النور في العالم. قال الكاتب:

لبث النور المجريون حتى أحدث العصور يقاومون كل محاولة لتمدينهم، وقد كانوا كأبناء جنسهم في البلاد الأخرى يعيشون في جماعات بدوية متنقلة لا ترتبط برباط المواصلة، ولم ينتهوا إلا في أيامنا إلى البدء بالاستقرار ومزاولة الأعمال المنظمة. ويوجد في المجر نوعان من النور: (نور الكولومبار)، (ونور الفلاج) وكلاهما يرجع إلى أصل آرى كباقي النور ولكن توجد بينهما فروق ظاهرة في طرق الحياة وفي اللغة والأخلاق، وكذلك في القوام والمحيا، وبينما يميل الكولومبار إلى الرباعة والغلظة، إذا بالفلاج غالباً ممشوق القد، وسيم المحيا. ولنور الكولومبار لدى الفلاحين سمعة سيئة، ويشعر الفلاحون نحوهم ببغض مقرون بالخوف، فإذا ما نزلوا بجوار قرية ما بذل الفلاحون كل ما استطاعوا للتخلص منهم، واتخذوا كل تحوط للمحافظة على دجاجهم ومواشيهم وثيابهم.

ويشتغل نور الكولومبار بصنع الآنية وأقمشة الخيام وبعض أعمال الحدادة. ويزاول نساؤهم السحر ولهن فيه براعة، ويتبعن في مزاولته كثيراً من الرسوم الوثنية التي اختفت من بين الشعوب المتمدنة، وهن يتنبأن بالمستقبل ويكشفن الأوراق، ولهن براعة مدهشة في الوقوف على عواطف الرجال وغرائزهم، ويعربن في نبوءاتهم عن الأماني الخفية، والشهوات المكتومة؛ ويلجأن إلى الرسوم الرمزية، ويكتشفن ما يجول في صدور قصادهن من الرغبات والشهوات. وقد بثت الحياة الخشنة المضطربة، والعزلة الدنيوية، والحرمان المستمر، في نفوس هاته القبائل ميلاً إلى تحقيق الغاية دون عنف وبوسائل ملتوية؛ فهؤلاء النور يكذبون ببراعة، ولهم فصاحة مقنعة، ومثابرة مدهشة. ولو أردنا أن ندرس من الوجهة النفسية أساليبهم وتأثيرهم الغريب، شبه الروحي، الذي يبثونه في نفوس ذوي الغرائز المضطربة لانتهينا إلى نتائج في منتهى الأهمية. وهم الشعب الوحيد الذي استطاع أن يحتفظ في قلب أوربا، وفي قلب المجتمعات المتمدنة بالحياة البدوية التي تذكرنا بحياة الهنود الحمر في أمريكا الجنوبية أو الزنوج في التي تذكرنا بحياة الهنود الحمر في أمريكا الجنوبية أو الزنوج في أفريقية. ذلك أنهم معرضون دائماً لنزعات الطبيعة، ولهم علاقات دائمة مع قواها، فهم يحملون بذلك إلى كل ما يقرب من الحيوان والغريزة.

والنور لا يملكون شيئاً، ولذا فهم لا يحترمون الملكية؛ فإذا استطاعوا الاستيلاء على شيء استولوا عليه بأي الوسائل، وحياتهم العائلية منظمة على قاعدة الشيوع، وأن لا ملكية يعترف بها ونور (الفلاج) أظرف وأفضل خلالاً من نور الكولومبار؛ وهم يشتغلون عادة بصنع الآلات الخشبية بمهارة، ويطوفون القرى لبيعها، ويبدون في جميع الأسواق مثقلين بالسلع. ويرتدون ثياباً وأزياء غير تلك التي يرتديها زملاؤهم، ويسكنون غالباً في السهل، عند أطراف القرى، في بيوت من الطوب الأخضر، ويعنون بتربية الماشية. وفي أقاليم المجر الغربية ينشئون نوعاً من القرى المنعزلة بجوار الغابات، ويعلب أطفالهم عراة بين الأعشاب والماء. ولهاته القبائل قضاة منها يختصون بالفصل في المنازعات الصغيرة؛ ولا يعيشون عيشة العائلة إلا حيثما اكتسبوا نوعاً من الملك كقطعة أرض أو منزل قروي. ولهم ولع بالخيل واقتنائها بأي الأثمان.

وأهل القرى لا يبدون لنور (الفلاج) من البغض ما يبدونه لنور الكولومبار. وهم يعاملونهم بكبرياء واحتقار ولكن بنوع من العطف؛ ولا يخشون منهم على متاعهم وأموالهم بمثل ما يخشون من زملائهم؛ ويكثرون من التصدق عليهم، ويعهدون اليهم بصنع الأشياء الخشبية.

وعلى ذلك فإذا كان النوري الفلاجي لا يمكن أن يعتبر عضواً في المجتمع، أو إنساناً متمدناً، فانه في طريقه ليصير كذلك. وهو منذ الآن ينزل عن بعض العادات التي كان يتمسك بها دائماً فيقص شعره ويرتدي السراويل، ويعتاد العمل، ويرغب في اقتناء

الملك شيئاً فشيئاً؛ وهذا بلا ريب أساس قوي للتطور.
وأخلاق النوري نتيجة محتومة لنوع حياته، فهو لا يملك أرضاً ولا بيتاً؛ وما يملك من المؤن والأدوات وغيرها ليس له في الواقع، بل هو ملك الجماعة كلها؛ وهو لا يشعر بشعور الأسرة ولا يقدر معناها، ولما كان لا يرث ولا يورث، فسواء لديه أكان ولده منه أم من آخر. وكذلك المرأة النورية لا تختص برجل واحد كنساء الشعوب المتمدنة، فهي مخلوق همجي، لا تنكر غرائزها، ولا تستطيع أن تكبح جماحها، والطفل النوري يعيش مع أسرته في نفس الخيمة أو الكوخ، ويشهد عن قرب حياتها التناسلية، فإذا شب اتجهت شهواته الجنسية الأولى إلى الأسرة، فيعاشر الأخ أخته، والولد أمه، والأب ابنته، وتجري هذه المعاشرة دون ذرة من الحرج أو الندم. ولا حاجة للقول بأنه لا وفاء بين الأزواج، فهم كاثوليك ويذهبون إلى الكنسية في الحفلات الكبرى، ولكن مبادئهم الأخلاقية ليست نصرانية في شيء، بل هم غالباً صرعى غرائزهم الوحشية.
وقد اهتم الارشيدوق يوسف (1833 - 1905) بأمر النور وأبدى نحوهم عطفاً، وبعث ذلك إلى الاهتمام بشأنهم، وكان هذا الأمير العظيم الذي يعشق حياة البداوة والبساطة، ينفق كل أوقات فراغه بين النور، ويدرس حياتهم، ويتذوق رقصهم وأغانيهم وأمثالهم وأطوارهم وخلالهم، وقد حاول أن يعودهم الحياة المنظمة، وأن يجمعهم في مكان مستقر، ولكنه لم ينجح كثيراً في محاولته، ثم عكف الباحثون على جمع الأغاني والأمثال النورية وترجمتها، ولكن هذا الاهتمام فتر فيما بعد، ولما كان النور اليوم في طريق التحضر والاندماج في المجتمع المتمدن، فقد يعود هذا الاهتمام بعد فوات الوقت، وبذا تضيع معالم جنسية ونفسية إلى الأبد. بيد أنه قد يكون ثمة أسر أو قبائل مازالت تحتفظ بخلالها الوثنية، وبأساطيرها، وقصصها، وأغانيها ورقصاتها، وتلك يمكن تخليدها بواسطة السينما أو (الجراموفون).
وقد قلنا إن إبعاد النور عن المجتمع المتمدن، واضطهادهم المستمر، وحياتهم البدوية، تحملهم على الريبة والوجل والعنت وانتهاز الفرصة وسرعة التأثر، وهم لا يهتمون بِغَدِهم،
ويحتملون شقاء الحاضر بجلدِ الشريد، كالأطفال أو الشعوب الهمجية. وهذه الصفات ذاتها تمثل في فنهم، فرقصاتهم عاصفة مضطرمة الروي، فياضة بالغزل، ونصوص أغانيهم فياضة بالرموز الغرامية، والكلمات الضخمة، والإخلاص الساذج، وألحانهم محزنة منكسرة، روى مطبق، وغزل مطلق، وفسق خالص يلهب أعصابهم، وهذا ما يشحذ مشاعرهم بنوع خاص، ويعاونهم على التمكن من روح الموسيقى والقوافي الأجانب تحدث فيهم نفس الأثر؛ فالنوري الروماني ينشد الأغاني الرومانية، والنوري السربي ينشد الأغاني السربية، والنوري السلافي ينشد الأغاني السلافية، ويجمعون في كل مكان عناصر الموسيقى الخاصة بالشعب الذي يعيشون بين ظهرانيه؛ والنوري المجري، هو الوحيد الذي لا تتأثر موسيقاه بخواص الموسيقى الريفية المجرية. وذلك لأسباب خاصة به وبظروفه ذلك أن الموسيقيين من النور المجريين هم أشراف النور، فهم يرتفعون فوق مستوى جنسهم، وفي أحيان كثيرة نراهم وقد نسوا لغتهم الأصلية، وغيروا كل ظروف حياتهم. وفي القرى يتحول النوري من حرفته العادية إلى الموسيقى، وفي يوم الأحد وأيام الحفلات أو السوق يحمل آلاته الموسيقية، القيثارة أو المزمار أو غيرهما، ويذهب مع بعض زملائه إلى مجالي النزهة، ولموسيقاه ضجيج مروع، وصخب يصمهم، ولا تشترك مع موسيقى الحضر إلا في الروي، ويتحول النور إلى احتراف الموسيقى شيئاً فشيئاً، ويهجرون صنع الأواني والسلع الخشبية والآجر، ويجتمع بعضهم فيؤلفون فرقة (أوركستر) ويتجولون يوم السوق من قرية إلى قرية، ويلاحظ أيضاً أنهم أخذوا يستبدلون ثيابهم النورية بثياب الحضر، وبين النور المجريين كثيرون ممن درسوا في معهد الموسيقى الأعلى (الكونسر فتوار)، ومنهم من درس الموسيقى نظرياً وعلمياً، ومنهم فانون يعجب بفنهم العالم كله، فهم حقاً من أمراء الموسيقى، لهم مقامهم في المجر وفي الخارج؛ وممن قدر موسيقاهم وأعجب بها أساتذة عظام مثل هيبرمان وكيبورا ولسزت.
وقد كان من المستطاع أن نحمل النور المجريين على درس الموسيقى الريفية الأصلية، كإخوانهم نور رومانيا أو سلوفينا أو روسيا؛ فالنور يتلقون ببراعة مدهشة كل فن وكل روي، وتلك أعظم خواصهم؛ والنوري يغتبط جد الاغتباط إذا ألفى مستمعاً

يستطيع أن يرشده وأن يعلمه الأسلوب الحق؛ وعندئذ يدرك معنى الموسيقى الريفية وينفذ إلى روحها،
ويترك تلك الألحان الصاخبة التي يملأ بها أغانيه. ولسنا ممن يجاري بعض المتشائمين من نقدتنا الموسيقيين في قولهم بوجوب القضاء على الموسيقى النورية؛ فإن لديهم خواص عجيبة ترجع إلى مقدرتهم على التشبه والاقتباس.
هذا وقد استطاع النور في إسبانيا وإنكلترا وبسارابيا واليوكرين أن ينشئوا ثقافة موسيقية خاصة. وأغاني النور الأوكرانيين ورقصاتهم ذائعة معروفة في كل مكان. أما النور المجريون فلا يعرضون علينا فنهم قط، حتى ليقال أن ليس لهم فن. ولكنهم في الواقع ينشدون أغانيهم فيما بينهم، ويرقصون رقصاتهم، ويتلون أمثالهم وقصصهم. وهم يعيشون في عزلة مطبقة حتى أن البحث عن خواصهم الجنسية والفنية ليصطدم بأكبر الصعاب. ولديهم وسيلة أخرى للدفاع هي لغتهم التي هي مزيج من العناصر السلافية والرومانية وغيرها. وهم يضمرون البغض والريبة للأجانب لما فرض عليهم من الحياة الوضيعة التي تكاد تنحط إلى المستوى الحيواني، وشأنهم في ذلك شأن القبائل الهندية التي غزاها الأوربيون. والنوري يقدر ما بينه وبين الغير من الفروق، ويعرف أن الغير لا يعتبره إنساناً بالمعنى الصحيح؛ ولا يجد سوى الموسيقى للتعبير عن نفسه ومقدرته؛ فإذا سنحت له فرصة العزف، فانه يملأ موسيقاه وألحانه بكل ما يشعر به من الشهوات وألوان البغض والغضب، والحنان، والثورات، والاحتقار، والفرح، واليأس؛ ويبقى النوري في ذلك المجتمع المتمدن الرأسمالي، النصراني، الذي يرغمه على الاستقرار والاعتراف بالملكية، والتنصير، والخضوع للقوانين بين الغابات والسهول الوحشة - يبقى دائماً وثنياً، جامع العاطفة، مخلوق الغريزة، ويلجأ إلى الموسيقى لبث مقاومته وشكواه؛ ولو نبذ النوري أساطيره وسحره، ونسي لغته، وترك قصصه وأناشيده ورقصه، فانه يبقى مع ذلك نورياً بالموسيقى.
ولن تمضي أعوام أخرى حتى يغمر النور ذلك البحر الإنساني الذي يحيط بهم؛ ولن تمضي أجيال قليلة حتى يغدو النور كالزراع، وينسون كل خوصاهم وتقاليدهم؛ ولن يبقى من الفن النوري سوى قليل من الأغاني والقصص، ذلك الفن الذي هو أعجب الفنون الشعبية وأكثرها طرافة؛ وعندئذ لن نجد سوى بعض الفنانين الذين ينحدرون من أصل نوري، يتجولون هنا وهنالك في بعض المدن؛ بقية شعب كبير كان يجوب السهول والغابات،
يزاول السحر والكهانة، ويخاطب الأرواح، ذليل عزيز مع ذلك لأنه حر. وتلك خسارة فادحة للنور وللوثنية والقصص والحرية. . بيد أنه يستحيل علينا أن ننقذ النور في ذلك المجتمع الذي يناقضهم في كل شيء.

بين توفيق الحكيم وأهل الكهف

بقلم شهدي عطية الشافعي

قرأت لتوفيق أهل الكهف فيمن قرأ. وأحببتها حباً فوق حب الناس لها. ولكن ناحية منها لم ترضني، وليس ذلك بجريرة للمؤلف آخذها عليه. ولكنه شعور نفسي تملكني.

منظر

في إحدى جنان الخلد. ثلاثة رجال متكئون على الأرائك وأمامهم أبارين وأكواب من ذهب وفضة، والأطيار من حولهم تشدو مرنوش: (متأملاً حوله) - يا لله! ما أبدع هذا وما أجمله! مشلينيا أيها الكسول. إلا تستيقظ لتستمتع بهذا الجمال.
مشلينيا: (يفرك عينه) أهذا أنت يا مرنوش! أين نحن؟ لسنا في الكهف.
مرنوش: (في حدة) الكهف؟ تباً لك! لا تذكرني به، لقد كان كابوساً مخيفاً.
مشلينيا: لعنة الله عليه ما أشامه. . . وهذه الثلثمائة عام التي لبثناها فيه.! وملك آخر مسيحي مكان دقيانوس الوثني. . . وبريسكا غير بريسكا. كيف كان كل هذا؟
يميخا: (مستيقظاً) حمداً لك يا خالق السموات والأرض. اللهم إنا نمجدك ونؤمن بعيسى نبيك.
مرنوش: (مأخوذاً) يمليخا؟ كيف أنت؟
يمليخا: (في خشوع) ألا تحسان فيضاً من النور الإلهي يخترق شغاف القلب. كأني على قيد ذراع من الله. يا لروعة هذا!
مرنوش: (في عجب) إنك لتبدو جميلاً يا يمليخا. أنّى لك هذا الثور المزركش وذلك

الوجه الصبوح؟
مشلينيا: (في دهش) ولكنك لم تر ثيابنا يا مرنوش. إنها موشاة بالذهب. مَن أتانا بها (ناهضاً) مرنوش يا للعجب!
لقد شف جسمي حتى لأرى ما بداخله! مرنوش! مرنوش. لقدَ خف ثقلي حتى لاحسبني طيراً ذا جناحين!
مرنوش: مشلينيا، ماهذا؟ لقد صدقت. ألا تذكر استكراش بطني وانتفاخ رجليّ. لقد ذهب كل هذا (بتحسن وجهه) لله ما أنعم وجهي وما أرقه!
مشلينيا: وأنت يا يمليخا (لا يجيب ولكنه يذهب بعيداً) يمليخا! أتاركنا؟ إلى أين؟
يمليخا: إلى حيث قطمير كلبي.
مرنوش: (ضاحكا) أليس لك في هذا الجمال سلوى عن قطمير؟
يمليخا: (مبتئساً) قطمير. عزيز قطمير. حارس غنمي ورفيق طريقي وصاحبي في السراء والضراء (متهللا فجأة) يا لله! هاهو ذا مقبلاً. انه يهز ذيله فرحا.
مشلينيا: (عابثاً) أهذا قطمير كلبك؟ أين هذا ذو الشحم واللحم من قطمير الضاوي البطن البارز الأضلاع؟
يمليخا: (في سرور) إنه قطمير بعينه. إنني مستطيع أن أتبينه من كلاب الأرض جميعاً. تعالت قدرتك يا إلهي. لقد أنلتني بغيتي وجمعتني بكلبي!! سبحانك اللهم نسبح بحمدك!
مرنوش: (متجهاً بنظره) وما يدريك لعله امرأة. (بعد برهة) إنه يضع قرصاً أحمر فوق رأسه ويشد عنقه بمنديل.
يمليخا: انه اسرع في خطاه نحونا.
مرنوش: لعلع ذلك لحاجة له. إنني أرى تقاطيع وجهه جيداً. إنه رجل يا مشلينيا. يا لغرابة لباسه. إنه يشد عنقه بحبل ملون لا بمنديل.
توفيق الحكيم: (بلباس إفرنجي وفوق رأسه طربوش متبينا القوم) ميشلينا! مرنوش! يمليخا!. وقطمير أيضاً هنا! يا لحسن حظي. كيف أنتم؟ لقد كنت أتوق لرؤيتكم.
(أهل الكهف يتلاومون ويتأملون توفيقاً في خوف غير قليل)
يمليخا: (متشجعاً) ومن عساك تكون؟ ومن أنباك بأسمائنا؟
توفيق: ألا تعرفونني؟ لكنني أعرفكم حق المعرفة، وأحفظ وجوهكم كأني عشت بينكم ألف عام. أنا توفيق الحكيم.
مشلينيا: ماذا يقول؟
يمليخا: (هاماً) انه يخبر عن صناعته. فهو حكيم.
مرنوش: (في اضطراب) ولكن ليس بنا من مرض يا سيدي.
توفيق: لا. لا. إنه اسمي. توفيق الحكيم. لقد قرأت سيرتكم وتحدثت عنها في قصة حوت فن باريس وفلسفة أثينا وحكمة الروم.
يمليخا: (في همس) إنه يذكر الروم.
مرنوش: (في ذكاء) آه. لقد فهمت يا سيدي. لعلك - رأيتنا إذ بعثنا من كهفنا بعد نومنا الطويل.
توفيق: لا، لا، ليس هذا. إني قرأت عنكم وامتزجت روحي بروحكم، ولكنني لم أركم قط رؤيا العين.
مشلينيا: ولكن أنى لك بمعرفة وجوهنا؟
توفيق: (في دلال) إنه الفن يا سيدي. يسمو بالمرء حتى ليرى ما تختلج به نفوس القوم، وما تضطرب به أفئدة البشر، إنه الفن الذي يصل الماضي بالحاضر. لقد ترجمت عما في نفوسكم واستكشفت خباياها بعد موتكم بعشرات القرون. أفيعجزني الآن أن أتعرف إلى وجوهكم؟
مرنوش: (هامساً في خوف) لعل به مسّاً من الشيطان!
يمليخا: (معترضاً كالهامس) لعله قديس وهبه الله قبساً من نوره فقرأ ما في نفوس البشر.
مرنوش: (في همس) لقد عرفنا وعرف أسماءنا، برغم انه لم يرنا قط.
مشلينيا: بل ويزعم أنه استطلع ما في نفوسنا.
توفيق: (عابثاً) نعم. ألست أنت مرنوش (مشيراً إليه). ألم يكن لك زوج تحبها. وبنيت

بها في الخفاء فأنجبت لك غلاماً، ثم نجوت بنفسك إلى الكهف خوفاً من دقيانوس وشروره!!
يمليخا: (هامساً) ألم أقل لكما أنه قديس؟ (في صوت عال) صدقت أيها القديس.
توفيق: (متمماً حديثه) ولولا زوجك هذه يا مشلينيا لما كنت مسيحياً، ولمت وثنياً، ونقمت على المسيح والمسيحيين. أنت يا ساعد دقيانوس الأيمن في مذابحه قبل زواجك. . . فإذا ما افتقدت زوجك وغلامك انقلبت ساخطاً على السماء والأرض (ومت مجرداً من كل شيء عارياً كما ظهرت، فلا أفكار ولا عواطف ولا عقائد).
مرنوش: أتعنيني أنا؟ (هامسا إلى زميله) لقد حسبت به مساً من الشيطان، ولكني واثق الآن أنه الشيطان نفسه.
ولعله كان يسكن هذا الكهف المظلم المشئوم الذي لبثنا فيه حقبة من الدهر. ولابد أنه تحسس أخبارنا ونحن في ظلمة لنتبين من أمره شيئاً.
(ثم يتوجه بكلامه إلى توفيق في صوت عميق حار) لا يا سيدي لد عشت مسيحياً، ومت كما عشت، ولقد أرتني زوجي الطريق إلى الله فأحببته بكل جارحة، وما عبأت بدقيانوس ولا بمكاني عنده.
مشلينيا: (هامساً) لنمتحنه! فلعل ما يدريه عني خير مما عرفه عنك (في صوت مرتفع) وماذا عندك لي يا. . يا. . معذرة يا سيدي الفاضل.
توفيق: (متردداً) مشلينيا الذي أحب بريسكا وأحبته، بل عبدته، حتى لقد اعتنقت المسيحية من أجله، ورضيت بدين عشيقها عن دين آبائها بديلا.
مشلينيا: (محاولات كتمان غضبه) تا لله لقد أخطأت. إنها أرادت لنفسها هذا الدين وآمنت به قبل أن تدري عن مسيحيتي شيئاً. لقد كان دين الحب، وكانت تعاليمه البساطة عينها والنبل نفسه، فآمنت بريسكا الطاهرة الساذجة، وكان إيمانها قوياً.
ألا تذكر يا مرنوش كيف كانت تمزج قبلاتها لي بالصلاة لله شاكرة له أن هداها سواء السبيل، وأن أرشدها إلى نوره الحق؟ أو تذكر عند هروبنا تحت جنح الليل، وقد كشفوا أمرنا كيف كانت مطمئنة واثقة أن الله سينجي عباده المخلصين؟ وكيف أخذت على نفسها عهداً أن تصلي وتصلي لعل الله ينجينا.؟
يمليخا: (هامس في ذعر) إن هذا الرجل لا يعجبني! ماذا يقفه ببابنا؟ ما أقبح عينيه! انه ليشع منها ذكاء خبيث!
مشلينيا: ألم تحسبه قديساً؟
يمليخا: لقد نسيت أن الشياطين تتخذ أحياناً ثوب القديسين.
توفيق: (محاولات التقرب بعد ما أحس منهم نفوراً) ويمليخا. . . الراعي الذي آمن في اخلاص، وأحب الله في قوة.
ورضى قرير العين أن يترك غنمه ليرشدكم إلى الكهف تلجئون إليه.؟
مرنوش: ولماذا جعلته من بيننا وحده المؤمن؟
توفيق: (بين التردد والأحجام) لم يكن له أهل (وكان قلبه خليّا، فلا يضيره أن يمنح قلبه لله).
مرنوش: (هامساً لزميليه) ألا تشمان في عبارته رائحة الخبث والسخرية المخبوءة؟
مشلينيا: (في ضجر) لقد صدقناك يا سيدي. ولكن ما دفع بك إلينا؟
توفيق: لقد اتصلت روحي - روح الفنان بروحكم، ولم تستطع الأجيال أن تفصل بيننا، فبعثت قصتكم بعثاً جديداً إلى القرن العشرين.
مرنوش: (في تهكم خفيف) أكنا في حاجة إلى هذا البعث.؟
توفيق: (في غيظ) أتنكرون فضلي؟. لقد أصبح القوم ولا حديث لهم إلا أهل الكهف. ولقد أخرجتكم إلى الناس في ثوب من الفن أنيق، أتقنت في الصياغة، وأجدت فيه الانسجام، وسخرت له كل ما قرأت من فلسفة اليونان، وفلسفة القرن العشرين؟!!
مرنوش: ولكنك مسختنا وأنكرت علينا إيماننا ومسيحيتنا التي كانت كل شيء لنا.
مشلينيا: ولقد أهنت بريسكا الطاهرة الجميلة.
يمليخا: (في سأم وضيق) سيدي القديس! لعل في جوارنا أهل كهف آخرين. فلتبحث عنهم. أما نحن فلسنا من ذكرت.!!

شهدي عطية الشافعي
بكالوريوس آداب

مصر تنسى شاعرها حافظ إبراهيم
للأستاذ كرم ملحم كرم
تألم صاح (الرسالة) المصرية لحظ الأدباء المنكود. وأوجعه أن يسير حافظ إبراهيم إلى مثواه الأخير بين حفنة من رجال الفضل والأدب، وألا يمشي وراء نعش أحمد زكي باشا رجل العلم والهدى غير نفر معدود، على حين أن السياسيين إذا ماتوا اندفعت وراءهم الأمة بأسرها على في شبه مظاهرة، وأبدت عليهم من الأسف واللوعة مالا تفكر أن تبديه حيال أي أديب.
ومما زاد في إيلام صاحب (الرسالة) أن القوم في مصر تناسوا أدب حافظ إبراهيم، وبات الرجل لديهم أشبه بأبي نواس في مجونه. فهم إذا ذكروه تحدثوا عن نوادره لاعن أدبه، كأنما شاعر البائسين أضحى من الهازلين، كأنما أضحى جحا في مداعباته مع أن حافظاً خالد في شعره ونثره، فقد أبقى من المنظوم والمنثور ما يحق للغة العربية، وخصوصاً لمصر، أن تفاخر به. فان حافظاً شاعر الوطنية وشاعر الأدب البائس. وقد أحيا في قصائده كما أحيا شوقي والمطران. عهداً للأدب مشرقاً في مصر، فأعادوا على ضفاف النيل عهد الفرزدق والأخطل وجرير على ضفاف بردي.
ومصر مدينة لحافظ بشيء من هذه النهضة الوطنية البادية فيها. أما هز النفوس بقصائده في ضرورة إنقاذ مصر من الطغيان الأجنبي؟ أما أظهر استبداد المحتلين وجورهم وسعيهم لي إذلال مصر؟. . .
لقد ترددت قصائد حافظ تحت سماء وادي النيل كأنها أنفاس بوق يدعو المصريين إلى الجهاد والاستشهاد، ومع كل هذه الغيرة الملتهبة على مصر من حافظ، لم يجد حافظ من المصريين أي وفاء، فما اعترفوا له بمكرمة ولا بمأثرة في غير بطون الكتب والصحف والمجلات. أما عامتهم، ولاننسى خاصتهم، فما فكروا في أن يقيموا لشاعرهم ضريحاً. ولقد ضل الوفد اللبناني طريقه إلى هذا الضريح وهو يحمل إليه إكليلاً مضفوراً من فلذة أكباد اللبنانيين الذين يجاهدون في سبيل أدبهم، الأدب العربي، ويقدرونه قدره، والذين لا ينسون لحافظ أقواله فيهم وحبه لهم وإعجابه بهم مع أن من واجب مصر ألا تجحد فضل شاعرها عليها، من واجبها أن تقيم له ضريحاً يليق به، من واجبها أن تذكره كشاعر قبل أن تذكره
كما جن، فالمجون في حافظ لا يغلب على الشعر.
وكنا نعتقد أن صداقة حافظ لمحمد محمود باشا ستدفع به إلى تخليد ذكرى الشاعر بإنشاء ضريح فحم يضم رفات فقيد الأدب. ومما حملنا على هذا الاعتقاد ما يتمتع به محمد محمود باشا من ثروة، ولقد أخلص حافظ إبراهيم للرجل، ولقي من عنت حكومة إسماعيل صدقي باشا ما لقي لأجل إخلاصه لمحمد باشا محمود وصداقته له، أيكون هذا جزاءه منه؟. . .
أيضن الرجل المصري العظيم الثروة بقليل من المال في سبيل تشييد ضريح يرد فيه جثمان حافظ بأمان؟. . .
من حق صاحب (الرسالة) أن يتألم، وإننا لنشاطره ألمه ونأسف على مصير الأدب والأدباء في البلاد العربية. فالأديب لا يجد من ينصفه، لا في حياته ولا في مماته. فان قيمته لدى الناس لا تزيد على ما يملك في جيبه من المال. فإذا كان ذا ثروة وجد من يحفل به ويشيعه إلى مرقده الأخير. أما إذا خانته الثروة فلا صديقه يتأثر لفقده ولا بنو قومه. فالمال هو كل شيء في هذه الحياة.
ولو لم يمت شوقي عن ثروة ضخمة لكان نصيبه من بني قومه نصيب حافظ، وربما كان دون نصيب حافظ. وربما كان دون نصيب حافظ. إلا أن ثروة شوقي شفعت له في حياته ومماته، فساعدته على التربع في عرش أمارة الشعر، وحلمت الناس على الإطناب فيه، وهي هي التي دفعت الحكومة المصرية إلى إقامة ذلك المهرجان العظيم لرثاء شوقي والاحتفال بذكراه.
نعم، هي المآرب السياسية وصلات القربى التي مالت بإسماعيل صدقي باشا إلى إقامة ذلك المهرجان نكاية في الوفديين والأحرار الدستوريين الذين أخلص لهم حافظ، وتودد إليهم في أيامه الأخيرة إلا أن الوفديين والأحرار الدستوريين هم الفئة الكبرى في مصر فكيف تناسوا حافظاً ولم يحتفلوا بتخليد ذكراه، ولو لأجل النكاية كما اختلفت حكومة إسماعيل صدقي بتخليد ذكرى شوقي؟.

إن حافظاً ليس في حاجة إلى ضريح خاص يقام له ليخلد، ولا بحاجة إلى مهرجان أدبي تقال فيه قصائد الرثاء ليمس الرجل ذا قدر في عالم الأدب، فان آثاره تكفي لتخليده، وتلك المظاهر الزائلة ليست ذات شأن في مقام حافظ الأدبي، بل هي عديمة الشأن، إلا أن
الفضل يجب أن يعلن، والوفاء واجب على من طوق حافظ جيدهم بجميله، وعلى كل ذي مروءة وحمية إلا يصدف عن هذا الواجب المفروض.
لسنا نجهل أن حكومة إسماعيل صدقي ماتت، ولكن الوفديين والأحرار الدستوريين لم يموتوا، وما فاتهم بالأمس يجب إلا يفوتهم اليوم، وعلى مصر بأجمعها ألا تنسى بنيها ذوى الأدمغة النيرة فيها، وتلك النشرة الخاصة التي أذاعتها جريدة (السياسة) لإحياء ذكرى حافظ لا تكفي، فمن الواجب الدعوة إلى المهرجان، من الواجب تشييد الضريح، وإن مجلة (الرسالة) لا تخطئ إذا خصصت أحد أعدادها بحافظ، فتدعو أدباء الأقطار العربية جمعاء إلى إعلان كلمتهم في الشاعر المبدع الموهوب، فان نشرة كهذه يذهب لها صدى بعيد، وتحمل كل ذي شمم على الاهتمام بشاعر كل عيبه أنه رغب في توطيد دعائم الأدب في وادي النيل وفي الإشادة بوطنه، وفي لفت أنظار سائر البلاد العربية إلى ذلك الأدب الريان المورق في خمائل مصر.
وإن تكن (الرسالة) تطمع في المساواة بين حافظ وشوقي فلتخصص نشرة من نشراتها بحافظ ونشرة أخرى بشوقي، فذلك إليها، على أن تثبت الدعوة إلى مهرجان حافظ وإلى بناء ضريحه، وبهذه الهمة تخدم الأدب وبنيه خدمة لم تسبقها إليها صحيفة عربية، ويكفي أن تعظ المصريين بتذكيرهم بواجبهم حيال علم من أعلامهم خفق في ميدان الوطنية والأدب، فان هذا التذكير لابد منه لأجل مصر قبل الجميع، لئلا تتحقق كلمة المتنبي وحافظ فيها:
فما أنت يا مصر دار الأدي ... ب ولا أنت بالبلد الطيب
نحن نتألم لنصيب حافظ من بني قومه كما يتألم صاحب (الرسالة) الأستاذ الزيات. وإنا لعلى اعتقاد تام أنه لن يغفل عما نبدي من رأي. وحرام وألف حرام أن يطرح حافظ جانباً كالمنبوذين من الناس، وأن يقصد الغريب عن مصر إلى ضريحه يحج إليه فلا يجد من يهديه إلى هذا الضريح، وقد تناسب مصر واجبها حيال شاعرها، فما جادت ببضعة دنانير تحفظ بها بقاياه!
بيروت
كرم ملحم كرم صاحب مجلة العاصفة
والرسالة نرجو أن توفق إلى رأي الأستاذ
حول مقال
نجار ونجار
بقلم محمد السيد محمد المويلحي
تشاء سخرية القدر اللاذعة أن تحملني قسراً، وأن تضطرني اضطراراً، وأن تخرج قلمي عما اعتاده نحو أساتذته من الإشادة بنتاجهم والفخر بأدبهم الذي يضفي علينا ألواناً من الثقافة الحق التي هي جماع ما في الأدب من رقة ودقة وجمال. . .
أقول: تشاء هذه السخرية المرة أن تحملني على نقد مقال لصاحب فجر الإسلام، وضحى الإسلام، بل صاحب الثقافة الناتئة في شمم المجد، السامقة في سماء الخلود. . . لِزَلَّةٍ زّلهَا، وكبوة كباها، ولا أحب أن أكون قاسياً شديداً فأقول: (إنها زلّة وطنية، وكبوة قومُّية) سوف تكون سلاحاً ماضياً، وحجة دامغة في يد أعدائنا الذين يتصيدون هفواتنا، وأخطاءنا، والذين يستغلون عيوبنا الصغيرة الناشئة من جهل بعضنا، لتكون سيفاً يشهرونه في وجوهنا كلما هممنا أن نطلب العزة، وأن ننشد الكرامة، وأن ندَّعي الكفاية. .
إنما أحب أن أكون هادئاً ومرشداً إلى حقيقة ربما تجاهلها الأستاذ ليرفه عن قرائه، ويضحكهم بذكر عيوب إخوانهم وأبناء وطنهم، وليهرب في الوقت نفسه من عناء البحث المضني والتفكير المرهق، الذي لا يتفق مع هذا الحر.
وهذه الحقيقة: هي أن ضيوفنا الأجانب الذين يمتصون دماءنا، ويسلبون أموالنا، بمختلف الطرق وشتى الأساليب. . . يؤلمهم جداً، ويخيفهم جداً، أن يروا تلك النهضة المباركة التي قام بها المصريون، وتلك المزاحمة التي أوشكت أن تغلغل في كل شيء

بعْد أن كان أغلب المهن المُزَاحَم فيها وقفاً على الأجانب دون غيرهم. لذلك تراهم يسرفون في اتهامهم وفي محاربتهم لجهودنا، بل تراهم يقاومون كل عمل مثمر لنا أشد المقاومة وأخسها وأبعدها عن الشرف والكرامة. . فكيف بهم، وهم يرون أستاذاً جليلاً، وعالماً رزيناً، يعتقد المصريون فيه كل الخير، ويؤمنون بوطنيته أعمق الايمان، كيف بهم، وهم يرون الأستاذ يتطوع للدفاع عنهم بطعن شخصية مصرية بلُغة تبعث على احتقراها وتشويهها. ثم ينبري لتمجيد نفر منهم، وتكريم شخصيته بأسلوب يطفح إعجاباً، ويشجع على لئم يد صاحبها التي تعمل بسكون وهدوء، والتي لا تقلق راحة الأستاذ، بل تدفعه إلى النوم، لأنه لا يحس بها ولا يحاملها. .

أكبر الظن أن الأستاذ نال منا أكثر مما ناله الأجانب، وحقَّر فئة منا لم تحقرها الأجانب، لأنها مشتركة معها في عيبها وكيف لا يكون قد نال منا وحقرنا وهو يصف بقلمه الخصب المطاوع شخصية شاب مصري يمتهن النجارة. ويعمل في حانوت أمام منزل الأستاذ الذي كان يراقبه عن كثب، ولا ينصرف عنه إلا ليصف (قُصتَه ُ) الكبيرة الخارجة من طربوشه صاعدة إلى السماء. . وإلا تلك الملابس القذرة الممزقة التي تعلو جسمه. . وإلا تلك الحفلات التي كان يقيمها (ليلا) في حانوته ليشرب وإخوانه بنت الحان. . وإلا تلك الأشياء التي إن يأخذها المسكين ليرممها فيبيعها، فيأتي أصحابها ويلتحم الجميع في معركة حامية لا يعيرها البوليس أدنى اهتمام لأنه كما يقول أستاذنا: لا يهتم بهذه السفاسف. . وإلا تلك الضجة الهائلة التي كان يحدثها عندما يشتغل ليلا والناس نيام. . فيأمره الأستاذ بالكف عنها رحمة بالجيرة فلا يصدع بما يؤمر. . وإلا هذا الحجز الذي وقع عليه. .

أفرأى الناس. . وبخاصة القاصّين منهم كيف أن الأستاذ قد بذَّهم في ابتكار شخصية مصرية ليطعنها كل هذه المطاعن؟.

فتارة يرميها بالقذارة والعربدة والكذب، وطوراً يرميها بالنصب والعمل على إقلاق راحة الناس؟؟

هب يا سيدي الأستاذ أن هذه الشخصية المصرية حقيقية.

فهل يجوز أن تذكرها في مجلة نبيلة واسعة الانتشار في مشارق الأرض ومغاربها.؟

على أنني أستميح عذر الأستاذ وحلمه فأقول:

إنني أشك كثيراً في هذه الشخصية المسكينة. . . فكلنا يعلم أن زمن (القُصة) قد انمحى. . وكلنا يعلم أن قذارة المليس، وتمزيقه لا تكون لنصاب يبيع أدوات الناس وأثاثهم. بل كلنا لم يشاهد نجاراً واحداً يغلق حانوته نهاراً، ويفتحه ليلا ليشرب ويعربد ثم يقوم فيشتغل!! أين البوليس الذي يقوم بالحراسة والمحافظة على راحة الناس، وبخاصة في الأحياء الراقية التي يقطنها الأستاذ؟؟

هل كان يترك الأسطى حسن يعربد، ويشرب، ويدق، ويشرق، ويتركك ترجوه وتستعطفه دون أن يعبر هذا أدنى اهتمام أم كان كما تقول في حديثك عنه (لا يهتم لهذه السفاسف).؟؟

وإذا كان النصب والاحتيال، والسكر والعربدة، وإقلاق راحة الناس سفاسف، فما هي الكبائر. .؟؟

أعترف أن الحر يؤثر في نشاط العقول حتى الكبيرة منها، وأعترف أيضاً أن جو ضاحية الأستاذ قد ظلم الأسطى حسن المصري أفحش الظلم، وأشاد بفضل الأسطى (الرومي) كل الإشادة، حتى أن الأستاذ لفرط إعجابه به لم يسمع شقه ودقه. لأنه يشق، ويدق في حرير لا في خشب!! وإلا لما قال ما معناه. .

وحلَّ محل الأسطى حسن شاب رومي يماثله سناً ومهنة. ويختلف عنه نظافة . . .) وأدباً وإتقاناً وصدقاً. . حتى أنني لم أحسن به إلا بعد ستة شهور. لأنه يفتح حانوته نهاراً، ويغلقه قبيل الغروب. . وأذكر أنني استدعيته مرة ليصلح دولاباً فطلب ضعف ما كان يطلبه الأسطى حسن فأعطيته ما طلب لوثوقي من وفائه، وصدق ميعاده. .)

يالله. . . وكيف لا يكون وفياً صادق الوعد، وقد أعطيته ضعف ما كان يأخذه المسكين حسن الذي لو جرؤ وطلب هذا الضعف لرميته بالجشع والطمع. .

لعلي في هذا الكلمة قد أرضيت الحقيقة التي تكلمت عنها في كلمتي السابقة بالوادي الأغر، والتي قلت فيها.

أنني لا أحب إلا الحق، ولا أكتب إلا له، وله وحده: لا فرق عندي بين شيخ وشاب،) ومشهور ومقبور).
ولعل الأستاذ يعتقد أنني لم أكتب هذه الكلمة إلا لأني أحب أن أقرأ لصاحب فجر الإسلام وضحاه شيئاً غير هذا الأدب الذي يبعث الأجانب على احتقارنا.
ولعلي أيضاً لم أغضب أستاذنا فيتقبل كلمتي بقبول حسن، ويحملها محملاً خالياً من الغرض، بريئاً من اللؤم. فإنها لا ترمى إلا إلى تمجيد أمة فتية تتوثب نحو الكمال والنور.
نعتقد ويعتقد معنا الكاتب الفاضل أن الأستاذ الجليل احمد أمين لم يرد بما (الرسالة) كتب تحقير العامل المصري ولا إيثار الأجنبي عليه، وإنما أراد إيقاظه وإصلاحه من طريق المقارنة والمثل. وإخفاء العيوب خوف الشماتة مظنة لعدم الشعور بها، ومن حق الناقد الاجتماعي أن يجسم بعض العيوب لتتمثل في الإحساس الضعيف، وتبرز أمام العين الكليلة. ولأن نسمع عيوبنا من أساتذتنا نقداً ونصيحة، خير من أن نسمعها من خصومنا سباً
ونقيصة!
نسبة شعر
قرأت في مقال (إبراهيم بك مرزوق) المنشور في العدد السابع والخمسين من الرسالة بقلم الأستاذ محمود خيرت فيما روي عن المرحوم المنفلوطي هذا البيت:
مضى بها ما مضى من عقل شاربها ... وفي الزجاجة باقٍ يطلب الباقي
أورده في قصة حكاها عن رجل قال إنه كان رئيساً (باشكاتب) لكتبة محكمة إسكندرية الشرعية؛ ثم قال الراوي: (ولا أدري إذا كان هذا البيت من مقولة أو قديم).
والبيت قديم من قصيدة لعبد الله بن العباس الربيعي يقول فيها:
ومستطيلٍ على الصهباء باكَرَها ... في فتيةٍ باصطباح الراح حُذّاقِ
يمضى بها من عقل شاربها ... وفي الزجاجة باقٍ يطلب الباقي
فكل شيء رآه خالُه قدحاً ... وكل شخص رآه ظنه الساقي
والذي نسبتْ إليه القصة لم يكن رئيساً للكتبة، ولكنه كان أحدهم، واسمه الشيخ احمد، وكان مليح النادرة معروفا بالنكتة، سمعت عنه مضحكات كثيرة، منها انه كان ذات يوم نازلا من المحكمة فالتقى برجل صاعد يطلب مقابلة الرئيس، فسأله الرجل:
يا شيخ احمد هل الرئيس فوق؟. قال هو فوق ولكن أعضاءه نزلتْ. . ومنها أن عمى المرحوم الأستاذ الشيخ عبد الرحمن الرافعي، وكان نقيباً لمحكمة إسكندرية، سئل في ميراث يراد معرفة ما يُفرض منه لكل وارث، وكان الشيخ احمد هذا يكتب عنه الفتاوي، فكلفه المفتي أن يعمل ما يسمونه (شبّاكا) وهو رسم ذو بيوت يُذكر فيه الورثة أصولا وفروعا وفريضة كل منهم، ولما كان الغد سأله: يا شيخ احمد هل عملت (الشباك)؟ فقال يا سي الشيخ: ما ليش (طاقة).
أما النادرة التي رواها الأستاذ خيرت وحكاها له المنفلوطي فليست بصحيحة على ذلك الوجه البتة، إذ لا يعقل أن عالما فاضلا رئيساً لمحكمة شرعية يقول لرجل: أنت طالق.
والذي رُوِي لي أن أحد الموظفين مع الشيخ احمد قاطعة مع طريقته فطلقه ثلاثاً، وجاء الباقون يسعون في الصلح بينهما وأخذوا المعتدِي إلى المعتدَي عليه ترضيةً له، فلما دخلوا (بالمطلق) على الشيخ احمد فعل بجبته ما تفعل المطلقة بملاءتها إذا استترت ممن لا تحلُّ له. . فضحك الجميع وشاعت النادرة، ولعل الشيخ احمد نظر فيها إلى نادرة قريبة منها رواها صاحب الأغاني في كتابه والله أعلم.
مصطفى صادق الرافعي
فصول مدرسية في الأدب الدرامي
الرواية المسرحية في التاريخ والفن - 1
بقلم أحمد حسن الزيات
الرواية تمثل طائفة من الناس لحادث متحقق أو متخيل لا يخرج عن حدود الحقيقة أو الإمكان. فكونها تمثيلاً يخرج الملحمة لأنها حكاية صرفة، والرواية مدارها على التطبيق والعمل، فليس لمؤلفها وجود في المسرح ولا حضور في الذهن، وإنما يرى المشاهد ويسمع الأشخاص يعملون بعينه وأذنه.
وكون الحادث متحققاً أو متخيلاً يفيد أن الحقيقة التاريخية ليست شرطاً في الرواية،

فيستطيع الكاتب أن يكملها بالزيادة ويجملها بالمبالغة كما فعل كورني في (بوليكت)، أو يختلق الحادث وحده اختلاقاً كما فعل في (السيد)، أو يخترع الحادث والأشخاص اختراعاً كما فعل فولتير في (زيير).

وقولنا (لا يخرج عن حدود الحقيقة أو الإمكان) احتراس من إدخال الخوارق في الرواية، لأن قانونها الأساسي أن تكون صورة للحياة البشرية ما استطاعت. ولن تستطيع أن تتصور الحياة أو تقلدها إلا بتوخي الحوادث الحقيقية الواقعة أو الممكنة.

وشرط الإمكانية يوجب على الكاتب أن يقف عند حدود الممكن المعقول في الموضوعات المتخيلة، وأن يضحي بالواقع أحياناً إذا بعد احتماله لشذوذه وغرابته في الموضوعات المتحققة. على أن من الجائز استعمال الخوارق قليلاً في الرواية إذا كان الكاتب قادراً والمخرج المسرحي ماهراً كما وقع في رواية (فيلوكتيت) لسوفوكليس، ورواية (أتالي) لراسين؛ ومحل ذلك حين يراد تقوية الشعور وإثارة العاطفة وتحريك الهوى في شخص من أشخاص الرواية، بإبراز هواجس فكره ووساوس نفسه في صورة مشخصة مجسمة، كما صنع شكسبير بشبح (هملت) وساحرات (ماكبث). وليس من الضروري أن يهبط الآلهة والأشباح والهواتف على منصة المسرح، بل يجوز أن يحدث ذلك في ظاهرة ثم يخبر به شخص من الأشخاص، كما حدث مثلاً في حلم أتالي وبولين، وفي موت هيبوليت وأوديب.

منشأ الرواية وتأثيرها

كان منشأ هذا النوع من الأدب تلك اللذة التي يبعثها في نفوسنا ويفيضها على حواسنا تقليدنا لطبيعة الإنسان وعمله.

فتمثيل الطبيعة الناطقة والصامتة والأحجار والألوان والألحان إنما يلذنا منه ذلك التقليد الذي أجاده الفنان وأحكمه. قال أرسطو طاليس في كتاب (الشعر): (إن الإنسان مقلد بطبعه، وأشد ما يطربه ويعجبه من الفنون إنما هو التقليد). وليس من شك في أن التقليد في الرواية أكمل صنعاً وأقوى ظهوراً منه في غيرها من سائر الفنون. لأن التقليد فيها لا يقف عند الأشكال الخارجية للإنسان كالنحت والتصوير، وإنما يتغلغل في باطنه، فيصور نوازع نفسه وخواطر فكره ودواعي عمله. أضف إلى ذلك تلك الحاجة الملحة التي تدفع الإنسان إلى السبوح في أجواء الخيال فراراً من وحدة العيش وضيق الحياة وثقل الحقيقة وجد الإنسان تلك اللذة وقضاء هذه الحاجة في التمثيل المسرحي، فسرَّه أن يخرج من نفسه، ويقلد أبناء جنسه، ممثلاً لعينه ذلك المثل الأعلى الذي طالما رسمه في خياله، وتمنى أن يعيش على مثاله. ظهر ذلك أولاً عند الإغريق في أعياد باخوس إله الخمر، إذ تقدم (إبيجين) من أهل (سسيون فمثل ذلك الآلة على المسرح، وقطع مابين الأناشيد بحكاية بعض الحوادث الحماسية، فاستغل (يسبيس) ذلك الابتكار، وجاء (أسخيلوس أبو المأساة، فأضاف إلى الممثل الأول ممثلاً آخر، فخلق الحوار ثم اخترع الوجه الكاذب، والثوب الضافي والحذاء العالي واستعمل الألفاظ الجزلة، والتراكيب الفخمة، واختصر الأناشيد التي سميت بعد ذلك (خورس)، فضعف شأنها في الموضوع.

على هذا النحو نشأت المأساة، وهي أحد فرعي الرواية كما ستعلم بعد. أما فرعها الآخر وهو الملهاة فمنشؤه ذلك التهريج الذي كان يستبيحه الشعب الإغريقي لنفسه في مواكب باخوس وهو يجول جولان الفرح في قرى (أتيكا). ومن ذلك يعلم أن الرواية منذ خلقها الإغريق تنقسم إلى قسمين مستقلين: هما المأساة والملهاة أو التراجيدية والكوميدية كما سيجيئك تفصيله بعد قليل.

أما تأثير الرواية أو المسرح فلا جدال في قوته وخطره، فالحكاية مهما قويت في التعبير وبالغت في التأثير لا تبلغ شأو الرواية في ذلك، إذ القصص الحكائي لا يخاطب إلا المخيلة، وهي تختلف في الناس ضعفًا وقوة، فلا يكون تأثرها إلا بمقدار، أما القصص الروائي فيخاطب الخيال والحس، ويملأ البصر والسمع، فيكون فعله أقوى وأثره أشد، أرأيتك إذا قرأت أو سمعت حادثة قتل مثلا، فهل يبلغ أثرها منك مهما عظم واشتد ما يبلغه ذلك الأثر الذي يستولي على نفسك وحسك حين تسمع استغاثة المذبوح، وترى انسكاب الدم المسفوح؟ لذلك كان حقاً على الكتاب أن يتوسلوا بهذه الوسيلة الناجعة إلى إقرار الخير في النفوس، واقتلاع الشر من الرءوس، وتغذية القلوب المريضة

بالعواطف النبيلة بتصوير مُثلها العليا كما في المأساة، أو إلى إصلاح الفاسد وتقويم المعوج من العادات والأخلاق باتخاذ أهلها مضحكة للناس كما في الملهاة. أما تلك القطع الداعرة التي يلفقها ضعاف الكتاب، ويمثلها صغار الفرق، تمليقاً للشهوة وتصيُّداً للمال، فهي من عمل الزور وتجارة المحظور وإذاعة الفاحشة، وهي لا تجد مكانها إلا في الشعوب البهيمية الجافية التي لم يثقفها علم ولم تهذبها حضارة، فواجب النقد الأدبي يعن مهاجمة هذا الخطر، فان ضرره لا ينال الخلق وحده، وإنما ينال الأدب والذوق والفن جميعاً.

العمل الروائي

العمل الروائي هو الفعل الذي يجري على المسرح من قيام وقعود وحركة وسكون. وبعبارة أدق هو العراك الناشب بين الوسائل والحوائل التي تتنازع حادثا من الحوادث، فالأولى تعمل لوقوعه، والأخرى تعمل لمنع أو إنتاج ضده.

فمن هذا التعريف نستنتج أن العمل لابد أن يكون مريباً غير مؤكد، ثم لا يزال في عماية من الشك وغيابه من الظن حتى آخر الرواية، لأن عقدة العمل إذا لم يكن لها إلا محل واحد يدل عليه المنطق، ويتنبأ به المشاهد، فقد المداورة، وهي تحول ذهن الشاهد من الضد إلى الضد تبعاً لتصرف الأشخاص وتقلب الظروف، فتارة يقدر النتيجة على نحو معين، وتارة يقدرها على نحو آخر، وهكذا دواليك حتى ينتهي العمل، وربما انتهى على غير ما فكر وقدر. فالتباس العمل هو الذي يوجد هذه المداورة ويفرض كثيراً من الحلول، ويف المشاهد بين الخوف والرجاء، وعلى ذلك كله يقوم أساس التشويق والجاذبية، ولكن ماذا عسى يصنع الكاتب لو كان للعمل حلان ممكنان فسبقه ذكاء المشاهدين إليهما، ووقف قبل النهاية عليهما؟ أو لو كانت روايته على ما يريد الفن، ولكنها مثلت غير مرة، فعرف الناس كيف تتعقد وكيف تتحلل، إلا يكون معنى ذلك أن إبهام العمل لا يفيد المشاهد ولا يجذبه إلا أول مرة؟ وجواب ذلك أن تذليل هذه العقبة ليس في طوق الكتاب ولا هو من واجبه، وإنما هو عمل الممثل وأخص واجباته. وهل يكون الوهم المسرحي بالغاً كماله إلا إذا أنساك ما تعلم وشغل فكرك بما ترى؟

كذلك نستنتج من التعريف أن الحوادث المتعارضة كلما كانت مسافة الخلف بينها بعيدة، ومناقضة بعضها لبعض شديدة، كان شأنها أهم وجاذبيتها أقوى، وذلك حق لا جدال فيه، فان حوادث العمل إذا تتابعت طائفة منها مفرطة في الحزن، وأخرى مفرطة في السرور، كان حلها أمتع وألذ مما لو سارت ضعيفة في جهة وقوية في أخرى، أضرب لك مثلا برواية بُوليُكت لكورني: لو أن كورني جعل (بولين) مشغوفة الفؤاد بحب زوجها لكانت المشكلة أعقد وأصعب، وموقف بولين أقسى وأرهب، ولكن كورني جعلها عاشقة (لسفير) ففضل جاذبية الإعجاب على جاذبية الإرهاب، وأطاع عبقريته في هذه القطعة فحرك الدهش وسكّن الفجيعة.

وليس تعاقب الحزن والسرور والخوف والرجاء من خواص المأساة، وإنما يكون في الملهاة أيضاً، فان جاذبيتها لا تتم إلا بشيئين: أولهما أن تجعل المشاهد يتمنى أن يؤول أمر الأضحوكة إلى السخرية والاحتقار، ثانيهما أن تولد في نفسه القلق والفضول والرغبة في أن يرى هذه الأمنية كيف تتحقق. ففي رواية البخيل يدور في نفس المشاهد هذا السؤال: أيتزوج البخيل من مريان أم يتخلى عنها لابنه؟ وفي رواية ترتوف أو الشيخ متلوف تترد على خاطره هذه المشكلة: أيفتضح أمر ترتوف عند أُرجون ويبوء باللعنة والخزى أم يتمتع بثمرة حبه وخبثه؟ على أن الحزن في الملهاة يجب ألا يتعدى أشخاص الرواية إلى جمهرة المشاهدينفان ذلك ميزة المأساة. ومن حق النظارة عليك أن تسرهم على حساب أشخاصك فتضحكهم من بكائهم وتسعدهم بشقائهم. وسيمر بك تفصيل ما أجمله التعريف من صفات العمل وتحليله فنجتزئ الآن بذلك.

يتبع

(الزيات)

بمناسبة الفيضان المبارك

النيل

للأديب حسين شوقي

عند ما انتهى المصريون من تشييد معبد الكرنك الفخم، تكريماً للإله (آمون)، دعا (آمون) الآلهة الآخرين إلى اجتماع خاص ليختاروا أحسن هدية تقدم لبني مصر مكافأة لهم على عملهم، ولا سيما أن المصريين ما برحوا يبنون مثل هذه المعابد الشاهقة لآلتهم من آن الآخر. . فاقترح (هوروس) الإله الشاب أن تقدم إلى فرعون آلة سينما لتسليته هو وأولاده في ليالي الشتاء العابسة، ولكن الإله (سوكر) وكان شيوعي النزعة اعترض على هذا الاقتراح قائلاً: إن الشعب المصري هو الذي أرهق في بناء المعبد، فالهدية يجب أن تكون له لا لفرعون، فثار بعضهم على اعتراض (سوكر) وكاد المجلس ينقلب إلى عراك بين شيوعيين وفرعونيين، إلا أن (أنوبيس) - آله الموتى - صاح فيهم بصوته المزعج: أنصتوا إليّ لقد وجدت ضالتكم، أقيموا للمصريين جبلاً الذهب بجوار طيبة أو منفيس فانهم يعبون هذا المعدن في حياتهم، ويستصحبونه معهم في قبورهم بعد مماتهم. ولكن (حوتيب) آله الحكمة اعترض على هذا فقال: إن وجود الذهب بمثل هذه الكثرة في مصر يعلّم أهلها الجشع والكسل. . ثم هنالك الأجانب الذين يرهقون البلاد وهي فقيرة، فما بالك إذا عرفوا وجود مثل هذا الكنز؟ إن هؤلاء القوم لا حدّ لطمعهم، تصوّر انهم أنشئوا بوارج في السموات ليستولوا بها على عالمنا العلوي بعد ما انتهوا من الاستيلاء على الأرض؟

ثم رأى إله ثالث غرس غابات في مصر حتى تخف حرارة الجو في الصيف، ولكن (ست) وكان إلها أنانياً صاح: هل جننت حتى ترى مثل هذا الرأي؟ إلا تدري أن الجو إذا رطب صارت هياكلنا رماداً في سنين قليلة.؟

ثم نهض (آمون) الإله الأكبر الذي لازم السكوت طول الحديث وقال: أبنائي الأعزاء لا تتبعوا أنفسكم، ولا تجهدوا قرائحكم، لقد وجدت ما تنشدون وعرفت أحسن هدية تقدم لمصر ولشعبها الوفي، سأعطيها حياة هنيئة سعيدة، سأعطيها نهراً عظيما ينتفع به الحاكم والمحكوم، الإنسان والحيوان على السواء. سأعطيها وادياً خصباً. . سأعطيها النيل. .

فوافق الآلهة بإجماع الآراء على هذا الرأي المفيد، ثم استمر (آمون) قائلاً: وسندعو الآلهة الأجانب إلى الاحتفال بهذا الحادث الجليل، ثم جلس (هوروس) الإله الشاب الذي كان يقوم بأعمال السكرتارية في المجلس، بناء على إشارة من الرئيس، إلى آلته الكاتبة فكتب الدعوات على وجه السرعة، ثم ناولها إلى (آمون) فمهرها بخاتمه، ثم أعطيت إلى (أبس) الإله الطائر فحملها في منقاره وطار بها إلى الأقطار الأجنبية. . بعد ذلك أخذوا يبحثون عن المكان الذي يبدأ منه النهر فرأى أحدهم أن تكون بدايته أسوان، ولكن الحكيم (حوتيب) اعترض مرة أخرى قائلاً: إن مصر سوف يزيد عدد سكانها مع الزمن، فيحسن لذلك أن نعطي لها فسحة. . وبعد البحث اختيرت إحدى بحيرات بلاد (البونت) المقدسة لارتفاعها، ولتكون تحت إشراف الآلهة ورعايتها. . ثم جاء يوم الاحتفال وكان يومًا فريداً في التاريخ، شرب فيه الآلهةكثيراً من نبيذ قبرص اللذيذ الذي جاء به (دينوزيس) إلهِ الخمر الإغريقي هدية (لآمون)، كما أن (إيزيس) الآلهة الساحرة قامت بألعاب سحرية مدهشة سرّ لها الناظرون، منها أنها قطعت بالسكين رأس دجاجة، ثم أشارت بعصاها إلى ذلك الرأس فعاد فالتحم بالجسد. وقد أعجب بهذا المنظر، بصفة خاصة، (بعل) إله آشور الكبير فأخذ يضحك ملء شدقيه. . ثم قصد الجميع إلى جبل قائم بجوار البحيرة، فأشار (آمون) إليه بيده وأخذ ينادي أرواح الماء بصوت عظيم يشبه الرعد، فتفجرت المياه نقية عذبة من الصخور. . في جلال وروعة. . وكان (بنتاؤر) الشاعر، البشري الوحيد الذي دعا إلى الحفلة، ليخلد على قيثارته ذلك اليوم المهيب، ولكنه أرتج عليه من هيبة المنظر وظل صامتها لحظة، وقد أخضلت عيناه بالدمع، ولم تحل عقدة لسانه إلا بعد أن شرب جرعة من ماء النيل، فأنشد: (سلامٌ عليك أيها النيل! يا من يتفجر من الصخر حياة ويسراً! إنك حينما تهبط تخضّر الأرض، كما أن عيدان القمح تنحني لك إجلالاً، وتقدم لك بذورها قرباناً. . إنك تخلق للصانع العمل، وللأرض الغبطة. كما أن كل معدة تسر لمقدمك، كذلك يهتز كل منكب من شدة الفرح. . دم أيها النيل حياة لمصر ويسراً للمصريين!)

فصاح الحاضرون: آمين! آمين!

حسين شوقي

للعلامة المغفور له احمد باشا تيمور
الشيخ أحمد مفتاح
العالم الشاعر الناثر، أحمد بن مفتاح بن هرون بن أبي النُّعاس ينتهي نسبه إلى عُمار بضّم العين المهملة وتخفيف الميم، أحد العرب النازلين من الصفراء إلى أرض مصر حوالي القرن العاشر، وبين أبي النعاس وعُمار جدان أو ثلاثة، ولما ورد عمار مصر قطن بإقليم منية ابن الخصيب في صعيد مصر، وقامت بين عرب تلك الجهة منازعة أدت إلى مقاتلة، كان لجّد المترجم أبي النعاس اليد الطولي فيها، ويقال إنه حضر بعض الوقائع بدون سلاح، ولقوّته أمسك جحشاً صغيراً من رجليه وضرب به حتى مات الجحش.
وقطن هرون الجدّ الأدنى للمترجم في بلدة على الشاطئ الغربي للنيل بإقليم المنية تابعة لبني مزار، أنشأها حسن بن عبد العزيز أحد أجداد المترجم من جهة والدته، وهي بلدة صغيرة اشتهرت بين العامة باسم أبي عجيز محرفاً عن أبي عزيز، يعنون به حسن بن عبد العزيز مؤسسها، على عاداتهم في تكنية الرجل باسم أبيه، وما زال هرون المذكور بها حتى ولد له مفتاح أبو المترجم سنة 1229، وكان في هذه البلدة رجل اسمه علي أبو محمد، من أقارب والدة المترجم، جعلته الحكومة شيخ المشايخ، وهو لقب كان يطلق إذ ذاك على من يحكم عدّة بلاد، وكان جائزاً في معاملته فاعتدى على أناس من أهل البلد بالضرب حتى أشرفوا على الهلاك فاضطر بعض أهلها إلى الشكوى للمدير مستعينين بعلي افنيدي الشريعي والد حسن باشا الشريعي، وبعد اللتيا والتي ساعدوهم على الانفصال فانفصلوا واختطوا بلدة أخرى شمالي أبي عزيز سنة 1264 سموها نزلة عمرو، وانتقل إليها هرون بولده أبي المترجم، وبني بها دارًا كبيرة، وبقي بها حتى مات بعد أن أسن، وكان سديد الرأي يُرجع إليه في المشكلات.
ثم سكن في هذه البلدة بعده ولده مفتاح، وتزوج بها وأعقب جميع وأولاده، وحج سنة 1304 فأرخ حجه ولده المترجم بقوله:
حَجَّ مفتاحُ أبي معتمرا
سنة 1304
ومات سنة 1308، وكان طويلاً خفيف اللحية، وقد وخطبها الشيب، وكان اشتغاله بالزراعة دون غيرها، ويتحرى الحلال في كسبه، ويقول الحق ولو على نفسه، وتعلم القراءة والكتابة في الكبر ولم يجدهما، ولما وصل ينعيه إلى ولده المترجم بالقاهرة رثاه على البديهة بقوله:
قضى والدي بالرغم مني وليتني ... سبقت لأمر ساورتني غوائله
لقد عاش دهراً لم يشبه بريبة ... حياة سخيّ فاض بالقوم نائله
وقام بعبء الدين والفضل صادقا ... وما المرء إلا دينه وفضائله
عليه سلام كلما غاب كوكب ... وسالت من الجفن القريح هو أمله
وكانت ولادة المترجم ليلة السبت الرابع من شعبان سنة 1274 ونشأ بالبلدة المذكورة في حياطة والده، وابتدأ القراءة على الشيخ جاد المولى، فقرأ عليه القرآن وبعض المتون، ومكث بعدها نحو ثلاث سنوات، ثم حضر إلى القاهرة سنة 1289 لطلب العلم بالجامع الأزهر، وتلقى عن شيوخ وقته، فقرأ النحو على الشيخ محمد الشعبوني المغربي، والشيخ عرفة سالم السفطي، والشيخ عبد الله الفيومي، والشيخ محمد البحيري، والشيخ سالم البولاقي، والشيخ محمد الانبابي؛ والفقه الحنفي على الشيخ عبد الرحمن السويسي، والشيخ صالح قرقوش، وحضر بعض دروس الأستاذ الكبير الشيخ محمد العباسي المهدي شيخ الجامع الأزهر، ومفتي مصر إذ ذاك؛ والبيان على الشيخ عرفة، والشيخ علي الجنائني، والشيخ محمد البحيري؛ وآداب البحث على الشيخ محمد البحيري المذكور، والمنطق على الشيخ محمد عبدة، والشيخ أحمد أبي خطوة، والشيخ سالم البولاقي، والشيخ محمد البحيري، والعروض على الشيخ محمد موسى البجيرمي.
وفي أثناء مجاورته بينما كان مسافراً من بلدته إلى القاهرة في سفينة كبيرة أيام زيادة النيل، نزل يغتسل على سكان السفينة مع جماعة فانحدر مع الماء في وسط النيل، وتبعه أحد المغتسلين لإنجاده، فما زال سابحاً حتى كلت سواعده وكاد يغرق، ثم نجا

وخرج على الشاطئ الغربي للنيل وأرسل إليه من بالسفينة زورقا وصل به إليه، وسافر مرة من القاهرة عائداً إلى بلدته في سفينة، فتشاحن مع ربانها تشاحناً أدى إلى إخراجه منها، فخرج إلى بلدة يقال لها الرّقة بإقليم بني سويف، لا يملك شروي نقير، سوى كتاب مخطوط رهنه في أجرة القطار لبلدته، وله نوادر كثيرة أمثال ذلك من المشي على القدمين بعيدة، والمبيت على الطوى في كل غدوة وروحة بين القاهرة وبلدته.

وبعد أن قضى سبع سنوات بالأزهر مجداً في طلب العلم ومباحثة الشيوخ، عاد إلى بلدته ومكث بها نحو سنتين مشتغلاً بحفظ الشعر ونظمه، ولم يكن له بالأزهر كبير عناية به لانصرافه إلى تحصيل العلوم، ثم حضر إلى القاهرة، ودخل مدرسة دار العلوم سنة 1298 فأعاد بها معظم العلوم العربية مع الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون المشهور بالمقدمة على الشيخ حسين المرصفي، ثم خلفه في تدريس اللغة العربية شيخنا الشيخ حسن الطويل فتلقى عنه بعض المثل السائر، ورسالة ابن زيدون الهجوية، والزوراء للجلال الدوّاني في الحكمة، وانتفع به كثيراً، وقال فيه وفي الأستاذ المرصفي:

دار العلوم شكت فراق أبي الهدى ... المرصفي الحبر أو حد ذا الزَمنْ
فأجبتها حَسن المعارف بعده ... لا تجزعي إن الحسين أخو الحسن

وتلقى التفسير والحديث بالمدرسة عن الشيخ احمد شرف الدين المرصفّي، والفقه الحنفي عن الشيخ حسونة النواوي، والعلوم الطبيعية والرياضية على أساتذة آخرين بالمدرسة، ثم خرج منها بعد أن نال الشهادة الدالة على براعته سنة 1302، فقال بعد مفارقته المدرسة مضّمناً:

دار العلوم نثرتِ نظم أحبة ... كانوا بدوراً في سماء علاك
حتى بَلى عهدي بهم وتغيروا ... يا دار غيّرك البلى ومحاك

واشتغل بعد خروجه من المدرسة بالكتابة في صحف الأخبار كالأعلام والقاهرة، وبالتدريس لبعض أناس منهم السيد توفيق البكري، ولما اتصل به حسّن له خلع العمامة والجبة وإبدالهما بالملابس الإفرنجية، والطربوش، ثم فارقه واستُخدم كاتباً بمحكمة بني سويف الأهلية نحو عشرة أشهر، ثم انفصل وورد القاهرة فكتب في المؤيد أياماً قليلة، ثم امتحن للدخول بمدرسة دار العلوم مدرساً للإنشاء فحاز قصب السبق وعاد للعمامة والجبة، وأقام بها تسع سنين انتفع فيها الطلبة وتخرّج عليه كثيرون ممن يحسنون الكتابة الآن. ثم نقلوه بعد ذلك مدرساً للنحو بالمدارس الابتدائية في الأقاليم، فحطوا من درجته إلا أنهم أبقوا له مرتبه، وكان أخيراً بمدرسة بني سويف ومرض بها فأحيل على المعاش واختار السكنى بالقاهرة، وابتغى مكاناً يعتزل فيه الخلق ويشتغل بالمطالعة وإتمام بعض تآليفه، فاختار مصر الجديدة واكترى بها داراً صغيرة أقام فيها بمفرده مع خادم مسنّ كان يقضي له حاجاته من السوق، ويقوم بتنظيف المكان، وكان الشيخ مريضاً بمرض يعرف عند الأطباء بتصلّب الشرايين وهو لا يعلم بأمره ولا يهتمّ بنفسه، حتى اشتد عليه أخيراً وهو يظنه ضيفاً مرتحلاً، ثم تركه الخادم وعاد لبلده، فبقي وحيداً بالدار حتى أدركه أجله المحتوم فجأة والأبواب مغلقة عليه، وبقى أياماً لا يعلم به أحد، حتى ظهرت رائحته للجيران فأخبروا رجال الشرطة فحضروا وكسروا الأقفال فألفوه مائلاً في سريره وجزء من كتاب الأغاني ملقى بجانبه، وكان ذلك يوم الأحد 28 محرم سنة 1329، وقرر الطبيب أنه مضى على وفاته ثلاثة عشر يوماً، فنقلوه ودفنوه تغمده الله برحمته.

ولم يكن اشتغاله بالعلوم على السواء، بل كان جلّ اعتنائه بمتن اللغة والشعر والنثر، فحفظ من اللغة مقداراً وافياً من الغريب وغيره، وكلف بتصحيح شرح القاموس عند طبعه برّمته المرة الثانية. وكان اشتغاله بالشعر في الأزهر قليلا كما قدمنا، ولم يبرع فيه إلا عند دخوله دار العلوم طالبا، وقد أرّخ أو إجادته فيه بقوله:

أقول الشعر عن فكر سليم 1298

ونظم بعد ذلك القصائد المتينة والمقطّعات الثمينة، وكان ينهج فيها منهج العرب لكثرة نظره في دواوينها واقتناء الكثير منها استنساخاً أو نسخاً بيده، ولو تم له الخيال الشعري كما تمت له الديباجة وجزالة الألفاظ لكان أشعر أهل زمانه بلا منازع. ولما عاد الأمير محمود سامي باشا أشعر شعراء العصر من منفاه بسيلان، وكان بعيد العبد

بشعراء مصر ومن حدث منهم لم يعجبه إلا شعر المترجم في رصانة البناء وسلامة التراكيب. وأما نثره فتوأم شعره في الأسلوب العربي، وكان مولعاً بالتضمين فيه من شطر عربي أو مثل سائر، لا تكاد تخلو قطعة منه من ذلك.

وقد ترك من التآليف (رفع اللثام عن أسماء الضرغام) جمع فيه ما ينيف على خمسمائة اسم للأسد، طبع بمصر؛ و (مفتاح الأفكار في النثر المختار) جمع فيه مختار النثر من رسائل وخطب من الجاهلية إلى هذا العصر، وهو كتاب جليل الفائدة، طبع بمصر أيضاً؛ و (مفتاح الأفكار في الشعر المختار) جمع به مختار الشعر من الجاهلية إلى عصرنا هذا، لم يطبع ولم نطلع عليه؛ وله ديوان حماسة من الشعر العرب استدرك به على أبي تمّام مافاته؛ و (مفتاح الإنشاء) لم يكمله، وأخذ في أواخر أيامه في جمع شعره ونثره وترتيبه في ديوان، ولا أدري ما فعل الدهر به.

وكان رحمه الله غريب الأطوار، سريع الغضب سريع الرضا، مع صفاء الباطن، له شذوذ في أخلاقه يتحمله من عرفه وعاشره، أسمر اللون، أسود اللحية والشاربين كبيرهما، أميل إلى الطول، له هزة وتبختر في مشيته لمرض كان أصابه في ظهره ورجليه. ولما انتقل إلى مدارس الأقاليم صار يحضر إلى القاهرة في فترات فينزل عندنا ويجتمع به إخوانه وأصدقاؤه في ليال كنا نحييها بالمطارحات الأدبية وإنشاد الأشعار.

ومات لم يعقب غير بنتين زوجهما في حياته، رحمه الله.

الشيخ أحمد وهبي

كان طالب علم فقير ثم تزوج بإحدى الموسرات فحسنت حاله وفتح له حانوت طرابيش بالغورية جعلها مجتمع الأدباء والشعراء ولم ينجح في التجارة فتركها وأخذه الشيخ مصطفى سلامة النجاري معه في الوقائع المصرية وجعل محرّراً ثانياً بها ثم فصل وتقلبت به الأحوال فاتصل بأسرة المويلحيّ ثم بالشيخ علي أبي النصر شاعر الخديوي إسماعيل باشا فسعى له في الاستخدام بنظارة المعارف فلم يوّفق.

احمد تيمور

بهذه الترجمة انتهى ما كتبه العلامة الجليل المرحوم أحمد باشا تيمور من (الرسالة) تراجم علماء القرن الرابع عشر وأدبائه، وسيدرك القراء ولا ريب حزاز من الأسف على انقطاع هذه السلسلة الفريدة في روحها اللطيف، وأسلوبها العذب، ومعرضها المشرق، وصدقها الأخاذ، وطابعها الجميل. فهل لشيخ من شيوخ الأدب اجتمعت له مزايا الفقيد من فهم العصر، وملابسة الأشخاص، وتذوق التاريخ، وتوخى الايجاز، وصراحة اللهجة، يصل ما انقطع من هذه السلسلة؟ ومَنْ أحق بهذه الخدمة الجليلة للأدب والعلم والوطن من الأستاذ عبد الوهاب النجار؟

في تاريخ الأدب

رأي جديد في المعلقات

نقد وتعقيب

بقلم محمد طه الحاجري

كتب الأستاذ الفاضل الشيخ عبد المتعال الصعيدي فصلاً في (الرسالة) جعل عنوانه: (المعلقات. رأي جديد فيها)، وقد والله فتننى هذا العنوان أيما فتنة، واستوقفني عن قراءة المقال برهة، وأسلمني إلى طائفة من الخواطر غير قليلة. فقد طال عهدنا بالطريف من الآراء في تاريخ الأدب، واشتدت حاجتنا إلى إعادة النظر وتقليب الفكر في تراثنا الأدبي، واستشفاف الحقيقة المستكنة في ثنايا النصوص المختلفة، والتأويلات الكثيرة، ولا سيما فيما يتعلق بالعصر الجاهلي، وقد وقفنا منه في مجهل لا يتبين الباحث فيه إلا لمحات خاطفة، وأثارات ضئيلة، يكتنفها الغموض ويحيط بها الإبهام وتلعب بها الأوهام. . . وما نشك في أن المعلقات صورة صحيحة من ذلك العصر، مهما كان أمرها، ومهما اختلفت فيها مذاهب الباحثين وآراؤهم. فكل رأي جديد فيها جدير أن تلتفت إليه القلوب. وتصغي إليه العقول، ويتلقاه المتأدبون بالبشر والترحيب، إذ الجديد وحده هو الذي ينتظر منه أن يبدد الظلمات ويزيل الشبهات، ويفسر المشكلات. وليس الأستاذ الصعيدي ممن يتهم بأن له مع المستشرقين علاقة هوى، فيميل ميلهم، ويفسد الأدب والتاريخ بآرائهم! فجديده لابد أن يكون الجديد الخالص لا يشوبه شوب من تقليد.

وهو رجل محافظ بطبعه، فيما يظن الناس، فجديده خالص لوجه العلم والحقيقة، لا عن رغبة في الخلاف وهيام بالتجديد.

حدثتني بهذا الحديث نفسي، وأنا واقف عند حد العنوان، ولكني كنت أنتقل في مدارج الغبطة والفخر والسرور، حتى أقبلت على المقال ألتهمه التهاماً، فإذا بي لا أحس شيئاً مما خيله لي المقام، وزينته لي الأوهام، ثم اتهمت مشاعري فعدت إلى المقال أقرؤه جملة جملة وكلمة كلمة. فإذا بي أر تكس على عقبي، وأحس في نفسي ما يحسه الطاعم لقاء طعام سئمته نفسه، ومجه حسه، وبرمت به معدته من كثرة ما تقلب فيها.

أما هذا الرأي (الجديد) فليس رأيا في المعلقات من حيث هي صورة للجاهلية، نلمح فيها

صفاتها، ونقرأ فيها خلائقها وعاداتها، وليس بحثاً فيها من حيث وثاقة رواتها، أو الوضع في أبياتها، ولكنه رأى في سبب وتسميتها، ثم ما يحتاج من توجيه وتعضيد، وإنحاء على الآراء الأخرى بالمحاجة والمجادلة ثم التوهين، وهذا بحث جليل لا يضع من قيمته جزئية موضوعه، مادام متمشياً مع الأسلوب العلمي، قائماً على أصول البحث الصارمة.

يقول الأستاذ في سبب التسمية: (فهذه المعلقات معلقات مما حدث للناس بعد جمعها من حبهم لها وتتبعهم إياها بما كانوا يتتبعونها به من حفظها وشرحها، وهي معلقات بمعنى محفوظات أو مشروحات، وقد خصت بهذا الاسم لأنها كانت أول ما عنى بجمعه وتدوينه وحفظه وشرحه من الشعر).

فهو يذكر هنا سببين متداخلين: الحب والتتبع، ثم التتبع بالحفظ والشرح، وما أدري فيهم هذه المعاظلة؟. أما كان الأدنى إلى الاستقامة أن يقتصر على السبب الأول، ويكون ما بعده مرتباً عليه، راجعاً إليه ناتجاً منه، فيكون سبيل التسمية هو هذه الدرجة الرفيعة التي قدرها الناس لهذه القصائد، فتعلقوا بها، وأولها حبهم وإعجابهم، وما يمليه عليهم الحب والإعجاب من القيام عليها بالاستظهار والشرح، أما التعليق بمعنى كتابة الشرح على المتن فما نسحبه مما كان يسوغ في عرف اللغة حينذاك.

هذا هو الجديد فيما يزعم الأستاذ، ولوددت والله لو كان جديداً حقاً، فنرفع به رءوسنا تيهاً وفخراً، ولكنه رأي مقرر، يدرسه طلاب المعلقات فيما يدرسون من الآراء فيها منذ أصبح لدراسة المعلقات في مصر سبيل علمي معبد، وأسلوب جامعي ثابت، فليس الجديد في حقيقة الأمر إلا اعتبار هذا الرأي جديداً اليوم.

وإذا كان لابد من ثبت لما ندعيه من قدم هذا الرأي وإمعانه في الشيوع بين جمهرة العلماء، فها هو العلامة المستشرق الجليل نولدكه وهمك به من علامة ذائع الصيت، يقول في الفصل الذي كتبه عن المعلقات في دائرة المعارف البريطانية، وهي أدنى ما يقصد إليه الباحثون:

(إن قصة القول بأن هذه القصائد كتبت بالذهب ترجع إلى تسميتها بالقصائد المذهبات، وهي تسمية مجازية للدلالة على عظم أمرها، وكذلك يجب أن نؤول تسميتها بالمعلقات على هذا الأساس نفسه، فمن المحتمل جداً أن تعنى هذه التسمية أن هذه القصائد قد سمت إلى

درجة خاصة مجيدة، وأن هناك اشتقاقاً آخر من المادة نفسها، وهو كلمة (علق)، ومعناها الشيء النفيس) فمدار القول هو الاعتبار المجازي في فهم الكلمة وإغفال المعنى الحرفي لها. فأين هي الجدة التي يسندها الأستاذ إلى رأيه؟.

وأما قوله إن المعلقات هي أول ما عنى بجمعه وتدوينه وحفظه بدعوى لا نحسب إلا أن علم الأستاذ وفضله ينوءان بها، وأيا كان الأمر، فان تعيين الأولية في هذا العصر البعيد أمر ليس من السهولة بحيث يلقى في كلمة في درج الكلام، بل لابد من النص الواضح أو الاستنتاج القاطع.

وبعد أن انتهى الأستاذ من عرض هذا الرأي وتوجيهه عمد إلى ما يخالفه من الآراء عرضاً ومناقشة، وقد اكتفى من هذا برأيين: الأول رأي ابن عبد ربه وابن خلدون وابن رشيق، والثاني رأي أبي جعفر النحاس المصري، وكان المنتظر أن يعرض إلى غير هذين الرأيين من آراء المحدثين، فقد جعل مستهل مقاله أن العلماء قد اختلفوا قديماً وحديثاً في سبب تسمية هذه القصائد، فالقارئ معذور إذا ظن أن الأستاذ يعرف مذهب المحدثين إلى التفسير المجازي، ثم أغضى عنه تمهيداً لوصف رأيه بالجدة والابتكار،

وإلا فأين ما خالف فيه المحدثون عن رأي المتقدمين؟ ولكنا لا نقول بهذا، فليس مذهبنا في النقد أن ندخل إلى الضمائر ونحاسب على النيات، ولا نقول هنا إلا أن أول واجب يفرضه العلم على الباحث المؤرخ هو التقصي في طلب النصوص ومعرفة الآراء، والتثبت في وصف الرأي، والعصمة لله وحده.

أما أول الرأيين فيقول إن المعلقات كتبت بالذهب، وعلقت على أستار الكعبة، وكأن الأستاذ رأي هذا الرأي بين البطلان ظاهر الاستحالة، فاكتفى بعرض أقوال القائلين به وأغفل مناقشته ونقضه.

وأما الرأي الآخر فينكر دعوى تعليق المعلقات على أستار الكعبة، ويذهب إلى أن الملك كان إذا استحسن قصيدة مما كان ينشد في سوق عكاظ قال علقوا لنا هذه وأثبتوها في خزانتي فانظر ماذا يصنع النقد في هذا الكلام؟ يقول أبو جعفر (الملك) مطلقاً من غير تعيين، فيأبى الأستاذ إلا أن يفترض أن هذا الملك هو النعمان بن المنذر، ثم يبني على هذا الافتراض الذي افترضه هو اعتراضه موجهاً إلى أبي جعفر، فيقول إن عصر النعمان

أحدث من عصر كثير من أصحاب المعلقات فلا يصح أن يكون هو الذي كان يعلق قصائدهم بخزانته بعد إنشادهم لها بسوق عكاظ واستحسانه إنشادها، وهذا ولا ريب سبيل ملتو، وتحكم في النقد غير محمود، وتحريف للكلم عن مواضعه، وتخصيص للعام بدون مخصص.

ويتوارد العلامة نولدكه والأستاذ الصعيدي في نقد عبارة النحاس عند هذه النقطة، أما الأستاذ الصعيدي فقد ذهب إلى ما رأينا من التحكم والبناء على الفرض، وأما نولدكه فيقول إن من الصعب احتمال أن ملكاً عربياً كان يشهد سوق عكاظ. ويؤلمنا والله أن يكون هذا العلامة الأعجمي أكثر توفيقاً، وأهدى إلى الجادة في فهم الكلام وتخريج النصوص.

ثم ينتقل الأستاذ إلى وجه آخر من وجوه النقد، فيقول إن سوق عكاظ التي أجمعوا على أن تلك القصائد كانت تلقى فيها أحدث بكثير من عهد أصحاب المعلقات، لأنها أقيمت بعد عام الفيل بخمس عشرة سنة، ولوددنا والله دلنا الأستاذ على مصدر هذا القول، فلسنا نذكر أن ياقوتاً تعرض في معجمه إلى تاريخ إنشائها، والذي نحسبه أن عهد هذه السوق أقدم مما ذكر الأستاذ، ففي سيرة ابن هشام أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، شهد حرب الفجار وعمره أربع عشرة سنة، ويذكرون في سببها أن قريشاً حين بلغها مقتل عروة الرحال، كانت في عكاظ، وفيها قامت الحرب، وسميت باسمها، وقال ابن الزبعري في مدح العنابس:

وفي يوم عكاظ منعوا الناس من الظلم.

بل إنهم ليذكرون فجاراً آخر قامت وعمر الرسول صلوات الله عليه عشرة أعوام، ويذكرون في سببها أن أحد الغفاريين كان له مجلس في سوق عكاظ يفتخر فيه، ويزعم أنه أعز العرب فوثب عليه رجل فضربه بالسيف على ركبته.

وأوضح من هذا في الدلالة على قيام هذه السوق قبل التاريخ الذي حدده له الأستاذ ما جاء في أخبار عبد شمس بن عبد مناف أن زوجته عبلة بنت عبيد كانت قبله تحت رجل من بني جشم ابن بكر فبعثها بأنحاء سمن تبيعها له بعكاظ، فباعت السمن وراحلتين كان عليهما وشربت بثمنها الخمر. . الخ القصة، وهي مذكورة في الجزء الأول من الأغاني في أخبار عمر بن أبي ربيعة، وهي تدلنا دلالة قاطعة على قيام سوق عكاظ في عهد عبد شمس،

وأين عبد شمس مما ذكره الأستاذ؟ فكيف يصح مع هذا أن يكون عام 586 تاريخياً لبدء قيامها؟

والأمر بعد هذه النصوص كلها بعيد الاحتمال بالنسبة للأمة العربية، وهي أمة تجارية منذ أقدم عصورها، وقد جعلت من أسواقها نطاقا يحيط بالجزيرة، ونظمت قيامها تنظيماً يتفق مع سير التجارة، وكانت عكاظ حلقة من هذه السلسلة. فكيف يسوغ القول بأن إنشاءها كان في هذا العهد المتأخر؟ ولكن لعل الأستاذ قد اعتمد على نص صريح قوي يضعف ما قدمنا من النصوص، ويهدما ما رأينا من منطق الأمور.

وبعد، فلا يحسبن القارئ أننا ندافع بهذا القول عن رأي أبي جعفر النحاس، فلسنا، ولله الحمد، من القائلين بالتفسير الحرفي لكلمة المعلقات، وما نبغي من كل ما أسلفنا إلا

أن نقر الأمور في نصابها، فلا نغمض في الإقرار بالحقوق لأصحابها، وأن نصطنع الإنصاف يفي نقد ما نراه جديراً به، فلا نتجنى على الشيء مالا يحتمل، ولا نستعصم إلا بالقاطع من الأدلة والصحيح من الحجج. ونرجو أن نكون قد وقفنا على الجادة في هذا النقد فلم يستزلنا الهوى ولم يخطئنا التوفيق.

محمد طه الحاجري بكلية الآداب

مِن طرائف الشِعر

نادرة

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

ما أنتِ إلا نادرة ... في كل فنّ ساحره
للسمع أنتِ متْعةٌ ... ومُتعةٌ للباصره
أنتِ لشعبٍ كُسِرَتْ ... منه القلوب جابره
أميرةَ الفَنّ على ال ... إبداع أنتِ قادره
أنتِ جديرة بح ... قٍ أن تكوني الآمره
وأنتِ عبقرية ... من أكبر العباقره
معجزة بالغة ... من معجزات القاهره
بين أغانيكِ ووج ... هكِ الجميل أصره
ليلتنا من بيضاء مِنْ ... خير الليالي الساهره
حسُبكِ أن الناس حو ... لَ الرافدَين شاكره
أما الأغاني فهي ... من قلب رقيق صادره
في جوّها الأرواح من ... أفراحهنّ طائره
بما بعينيكِ من ... السحر القلوبُ شاعره
رفقاً فإنا لا نطي ... ق النظرات القاهره
ما حيلة الضعيف تل ... قاء السيوف الباتره
ليس له من حُجَّة ... غير الدموع الطافره
تعطي القلوبُ جِزيةَ ال_غرام وهي صاغره
من الجمال ليس تش ... بع العيونُ الناظره
الغادة الحسناء تش ... به النجومَ الحاسره
أنحن فوق أرضنا ... أم في السماء الزاهره؟
لو كان يحيا المَيْتُ أح ... يته الأغاني الساحره
فحبذا الفن وح ... بذا أغاني (نادره)
نحن بحفل جامع ... للنخبة المؤازره
كأنما عاد الربيع ... ناثراً أزاهره
يا عندليب الروض غرّ ... د للوجوه الناضره
أميرةَ الفن تحيّ ... تي إليك عاطره
كوني لشيخ قد صبا ... إلى الجمال عاذره
لا تحسبي الشيوخَ أم ... ثالَ الرسوم الدائرة
كل امرئ يتبع في ... أمياله عناصره
وهل إذا النفس صبت ... في الشيخ فهي وازره؟
وقد يعود لي الصبا ... وعهدُه في الذاكره
أبكي إذا ذكرته ... على سنيه الغابره
إن لم أجلَّ الفن فَلْ ... تَدرْ عليَّ الدائره
وَلْنَتَمَلَّ قبل أن ... نردي الحياةَ الحاضره
إن الحياة كلها ... إلى الحتوف صائره
ولْنكسِب الدنيا وربّ ... ي غافرٌ في الآخره
هذا غناء فيه آ ... ثار النبوغ ظاهره
أجدتِ يا نادرتي ... أوّلَهُ وآخره
أشيم ناراً سِعُرت ... وأنتِ أنت الساعره
والناس في حرب الهوى ... مدحورةٌ وداحره
يا زهرتي حيّتْكِ أن ... داء الربيع الماطره

تحذّري تحذّري ... من الزهور الغائره
هذا الهتاف المستطي ... ر كله لنادره
غنَّتْ فكانت فتنة ... في النغمات الثائره
وردّدت فهيجت ... فينا الشجون الحادرة
تجسّ نبضَ العود أح ... ياناً بأيدٍ ماهره
فيصرخ العودُ كطف ... لٍ دغدغته الخافره
العودُ شاعرٌ بها ... وهي به لشاعره
غنّى لحرّيتنا ال ... حبيبة المهاجره
كنا بها في حقبة ... من الشعوب الظافره
قضت على آمالنا ... يدُ الزمان الغادره
هوت بنا ساعةَ أد ... لجنا الجدودُ العاثره
ماكان هذا في مظن ... ة النفوس الثائره
وربما دار الزما ... نُ معُلِناً بشائره
فخوّل الشعبّ حقو ... قَ الأمم المجاوره
بغداد
جميل صدقي الزهاوي
ثمالة كأس
للأستاذ فخري أبو السعود
بقية أيام تَقَضَّى كثيرها ... بنعماَء أو بأساَء والعيش قُلَّبُ
غدوتُ أقضِّيها بأرضٍ عَلقْتهاَ ... وطاب بها لي مستراد ومذهب
وطاب اجتلاء الحسن بين شعابها ... أشرِّق فيها تارة وأغرِّب
تَبَسَّمُ أحياناً فيعذب بِشْرُها ... ولستُ بخاَشٍ سُخْطَهَا إذ تُقَطِّب
بها مُسَتجَمٌّ للجسوم ومتعة ... وَرِيٌّ وللنفس الشجية مهرب
إذا ما سقاها الغيث صفىَّ أديمها ... ونقَّى ثراها حيثما يتصبب
قرفَّ بها عشب وشفَّ بها صفاً ... وماد بها غصن نديٌّ مُرَطَّبُ
وفاح بها عطر ورقَّت نسائم ... وتاه على البلور قاعٌ ومَشْعَب
فكم ثَمَّ من حُسن نثير منظَّم ... وشِعْرٍ إلهيّ هنالك يُكتب
على هَامهَا حيناً وفي وهَدَاتِها ... أصَعَّدُ في جنح الدجى وأُصَوِّبُ
وفي نشوة الآصال أو يقظة الضحى ... وعند شروق الشمس أو حين تغرب
فكم ليلة قد جَمَّدَ البردُ ماَءها ... بأحشائها أقبلت لا أتهيَّب
وقد عَوتِ الأرواحُ فيها وأطفأتْ ... مصابيحها لم يَبْد ثمَّتَ كوكب
وكم مَشْرِقٍ بادرته في طلوعه ... ومازال ماء المزن في الغصن يضرب
وقد عظَّ أهلوهاَ وَأقبلتُ مِثْلَ مَنْ ... له عند قرص الشمس في الأفقْ مأرب
يُنَقِّطُنى غصُن بُمنْهَلٍّ قَطْرِهِ ... ويعبق من حولي نسيمُ ويلعب
صَحَابي هاتيك الشِّعابُ أَلِفْنَني ... ويعرفه خطوى حيثما رُحْتُ أدأب
لقد آذنتْ بالبين صُحبتنا سوى ... ثمالة كأس عن قليل ستنضب
أَبَا كِرُها صَفْواً وأَعْلّمُ موقنا ... بأن ثَّمالَ الكأس أشْهَى وَأطيَبُ
سأذكرها يوماً فَأَحْمَدُ عَهْدَها ... وأهفُو إليها مستهامًا وأطرب
فخري أبو السعود
العودة إلى الريف
بقلم فريد عين شوكة
أمل على رغم الزمانِ يوافى ... يا طالما ضنّ الزمانُ الجافي
لج الحنين بمقلتيّ إلى القرى ... مأ وى صبايَ ومُنتدَى إلا في
يا نفسُ فاستبقى الزمانَ إلى غد ... فغدٌ قرارُك بعد طول طواف
إسكندرية يا عروس الشرق من ... ماضي العصور وغابر الأسلاف
ومُنى الشباب وُبغية الفتيات في ... الصيف الحرور ومتعة المصطاف
مهماَ حبتْكِ يد الرشاقةَ حليها ... ولبستِ أبراد الجمال الضافي
وبهرتِ شبان البلاد وشيبها ... برُوائك المتوقرق الرّفاف
فالريف أزين من حِماك حرائراً ... وأحبُّ لي من هذه الأطياف

خطرت عليه يد الإله فأبدعت ... ما شاء من وشيٍ ومن أفواف
وصفت أصائله وطاب نسيمه ... كنسيم جنات النعيم الصافي
وسعى إليه وران فوق ربوعه ... سحرٌ عن العين الكليلة خاف
سحر تحيرت النُّهي في كنهه ... فسمتْ به عن رائع الأوصاف
يا ريفُ شاهَ جمالك السحريّ من ... سيل الخطوب الماِحق المِتلاف
وعدتْ عليك يد المدائن فاجتنت ... ما فيك من ثمرٍ وطيبِ قطافِ
وازدانَ مغناها بماِ لك فاغتدت ... فتانة الأحشاء والأطراف
حتى استطال الفقر فيك وصوَّحتْ ... دنياك من تحفٍ ومن ألطاف
وتكبكب الفلاحُ في أزماته ... وغدا بمصر ضحية الإسراف
وأمضّه الفقر العضوض فحاله ... ما بين مسغبةٍ وبين كِفافِ
وبنوه - يا لبنيه! - من غول الضنى ... زهرٌ ذوىَ من حُرقة وجفاف
إن ضجّ بالشكوى فما من مُسعد ... أو ضاق بالبلوى فما من واف
آذانهم صمّاء عما يشتكى ... وعيونهم عما دهاه غوافِ
لكنهم متدافعون عليه كالطير ... الصِديّ على النمير الشافي
يجبون من دمه العزيز نقودهم ... لتضيع في سرفَ وفي إتلاف
يا شِقوةَ الفلاح في مصرَ التي ... لولاهُ لم تك غير بعض فَيافَ
إسكندرية كم رثيتكِ إذ رأي ... تكِ للأجانب سهلة الأكناف
سيلُ الأجانب فيك كم ألقى على ... عيني المضيئةِ حالك الاسداف
يلقوْن منك التبر في جوف الثرى ... واللؤلؤ المشفوف في الأصدافِ
ويرون فيك النُّعميات وليتهم ... جازوك غير الكفر والإجحاف
صِيغَ الأجانبُ في ربوع الشرق من ... فرط الجحود وقلة الأنصاف!
غَفراً (منوفُ) إذا هجرتكِ حقبة=وحُرمت روعةَ حسنك الشفاف
سأزيح عن قلبي تباريح النوى ... وأحُطُّ عبء البعد عن أكتافي

فريد عين شوكة

رسالتان فلسفيتان

بين فولتير وروسو

للأستاذ خليل هنداوي

طوَّح بليسبونة زلزال روَّع النفوس وذهب بكثير الضحايا، فواع فولتير - وهو رسول العطف - أن تعمد العناية الإلهية إلى مثل هذه الوسائل في أعلاه الشر، فهاجم ربوع القائلين بنظرية الخير الشامل، وأين هو الخير؟ ونظم هذه المقطوعة يرثى بها من نكبهم الزلزال، ويتخذ منه برهاناً يؤيده في جحوده العناية الإلهية، ويرى أن الوجود مبنيٌّ على الشر والعذاب. وأجابه رو سو على مقطوعته برسالة فلسفية عميقة ينكر عليه هذا الإسراف في التشاؤم، وهذا الاستسلام الأعمى لسلطان العاطفة، ويظهر فلسفة الرضا عن الوجود وعن أنظمته برغم ما يشيع في بعضها من فساد، ويعتقد أن هذا الكون هو خير ما أبدعته فكرة المبدع (إذ ليس في الإمكان أبدع مما كان).

وهذه هي المقطوعة:

(أيها الأموات التعساء! أيتها الأرض الخاشعة!

أنتم يا من قذفتكم قواذف لا معنى لوقعها).

وأنتم أيها الفلاسفة الذين تصيحون في الأرض (ليس على الأرض إلا الخير).

تعالوا معي واهرعوا إلى هذه الخرائب الدامية، هذه البقايا الهاوية، انظروا الرماد الحائل، وهؤلاء النساء والأطفال يتهاوى بعضهم على بعض مهشمي الأعضاء تحت الحجارة، وهناك ألوف الضحايا التهمتها الأرض.

وجوه دامية، وقلوب خافقة، وأشلاء ممزقة.

قد ماتوا! ولم يدركهم مسعف.

ماتوا! وهم ينظرون إلى الموت

أتقولون أيها الفلاسفة،

وأنتم تسمعون أنينهم وترونهم وهم يحتضرون:

(إن هذا إلا صنع الشرائع الخالدة، وإن إلهاً حراً في مشيئته شاء لهم ذلك).

أتقولون: إن الآلة قد انتقم لنفسه منهم لأنهم كانوا آثمين، وما كان تقتليهم إلا جزاء آثامهم.
فأية جريمة أم أي رجس فعل هؤلاء الأطفال الذين لقوا مصارعهم على صدر أمهاتهم؟
ليسبونة التي أمست لاشيء، أكانت أكثر رذائل من (لوندرة) ومن (باريس) الغارقة في بحر من الملذات. ليسبونة هوت في الهاوية. وباريس لا تزال ترقص.
إن بعض المشاهدين يتأملون في مصيبة إخوانكم وهم يتحرون عن أسباب العاصفة بهدوء وسلام.
ولكنهم حين يشعرون بضربات الحظ الأعمى تنصب عليهم، يتحرك في نفوسهم معنى الإنسانية، ويبكون مثلنا على مصارعهم.
آمنوا إني صادق الشكوى واللوعة!
وأن مظالم الحظ شائعة في كل مكان. .
ذروني أشْكُ!
كل شيء في العالم يئن، بعضه يفني بعضاً!.
وكل شيء يولد للهموم والأذى.
وأنتم - هنا - تجعلون من شقاء كل موجود سعادة مطلقة، فأية سعادة أسندوها إليك أيها الإنسان الذي يكتنفه الموت والضعف والشقاء. . .؟
أنتم تصيحون هاتفين (ليس على سطحها إلا الخير!)
الوجود يكذبكم، وقلوبكم تدحض أراءكم!
وهذه عناصر المادة، حيوانها وإنسانها وجمادها، كلٌ في نزاع مستمر!. . .
يجب أن تقولوا معي (ليس على سطحها إلا الشر)
إن سر الوجود لا يزال مجهولاً. . .
فهل يصدر هذا الشر عن مصدر صاحب الخير نفسه؟ ولكن يكف يُدرك الفكر أن رباً يزجي إلى أبنائه الخير الذي يرتضيه لهم، هو بذاته يصب عليهم سوط عذابه؟ أية عين تستطيع أن تتبين في هذه الأغوار العميقة؟. لا يمكن أن يكون مصدر الشر كله من الوجود.
والشر لن يرسله أحد غير الله، لأنه هو سيد الوجود وهو الكائن في كل موجود.
يالها من حقائق مؤلمة!. .
ويا له من مزيج لعناصر متباينة!. . .)
وهذه هي الرسالة التي كتبها رو سو جواباً على هذه المقطوعة: (اسمح لي أيها العزيز بأن أشكو إليك من هذه العقيدة، إذ كنت أرتقب منك ما هو خير وأهدى لهذه الإنسانية التي تريد منك أن تنفس عنها. أنت تلوم (بوب) و (ليبنتز) لأنهما خففا عن الإنسانية عذابها بإعلانهما (أن لاشيء عليا إلا الخير) ورحت ترينا شقاءنا وتهدينا إلى تعسنا، تدفعك إلى هذا عاطفتك الهوجاء؛ وبدلاً من أن تكون رسول تعزية لي لم تعمل إلا على إثارة حزني. قد يقال إنك تخشى أنني لا أرى مبلغ شقائي في هذا الوجود، وأنك إذا تركتني أسيء الظن بالكون تخفف عني شقائي.
قال لي (بوب وليبنتز): صبراً أيها الإنسان فان الألم شيء ضروري في الطبيعة والوجود، فان الموجد الخالد الحسن الذي يحكم هذا العالم ودّ أن يعصمك فيه عن كثير من الأنظمة المطلقة، فانتخب نظامًا هو أصلح الأنظمة وأقلها شراً وأكثرها خيراً، فلماذا المكابرة؟ لنقل هذه الكلمة وان كانت قاسية: (إذا لم يصنع إله الكون خيراً مما صنع، فلأنه لا يقد على أن يصنع خيراً منه) وأنت ماذا تقول لي في قصيدتك؟ تقول: تألم إلى الأبد أيها الشقي، فإذا كان - ثمت - خالق أوجد فهو قادر بدون شك على أن يزحزح عنك آلامك ويطلق نفسك من قيودها. ولكن لا ترج من آلامك أن تتزحزح، لأن من المحال أن تعرف لماذا وجدت إذا لم توجد للألم والموت.
إنني لأراني أتحرى عن أسباب الشقاء الأدبي في الإنسان الحر الكامل والإنسان الفاسد. وأما الشقاء المادي فإذا صح ما أشعر به فان بين المادة الحساسة والمادة الجامدة الميتة نزاعاً مستمراً، فهذا الشقاء وجوده محتم في كل جزء يتصل به الإنسان. وإذ ذاك يصبح سؤالنا (لماذا لم يخلق الإنسان سعيداً) لغواً لا معنى له. وإنما يسأل (لماذا وجد الإنسان)؟
وأقول: إن كل مصائبنا - ما عدا الموت - إنما نوطن لها بأسباب تتقدمها، وجل مصائبنا

المادية تجنيها علينا أيدينا، عد إلى موضوع قصيدتك نفسها، وهب أن الطبيعة لم ترفع هنالك عشرين ألف منزل بطبقات مختلفات، وأن سكان هذه المنازل قد توزعوا فرقاً فرقاً في مساكن حقيرة، أفليست النكبة تكون أهون شراً إذا كان لا مفرَّ من النكبة؟ ولكن يتسنى لنا العودة إلى المذهب الذي ضربته، فلا غنى لنا حال تجريبه وامتحانه عن أن نميز الألم الخاص الذي لا ينفي وجوده فيلسوف من الألم العام الذي ينفي وجود التفاؤل. ولا ينبغي هنالك أن يسأل أحدنا الآخر: أذقت ألماً أنت أم لم تذق؟ وأنا ينبغي أن نفهم إذا كان الوجود بني على أساس الخير، أو إذا كانت آلامنا فيه محتمة لا محيص عنها؟

وهكذا أرى قولنا (مجموع الكل هو خير) أدنى إلى الحقيقة من قولنا (كل شيء هو خير) وإذ ذاك لا سبيل لأحد أن يأتي ببراهين لأثبات شيء أو لدافع شيء. لأن هذه البراهين تتعلق رأساً بمعرفة عمارة الكون والاطلاع على غاية خالقها، وهذه المعرفة يبعد على العقل البشري أن يُلم بها، والقواعد الصحيحة لمذهب التفاؤل لا تستمد من متاع المادة ولا من ميكانيكية العالم، ولكنها تُستَمد بواسطة العقل من كمالات الله التي يدبر بها كل شيء.

إذا عدتَ بهذه الأسئلة المتباينة إلى مصدرها الشامل رأيتها كلها تعود إلى مسألة وجود الله، فإذا ثبت وجود الله فلابدَّ أن يكون كاملا، وإذا كان كاملا فلابد أن يكون عاقلا وقديراً وعادلاً، وإذا كان عادلاً وقديراً فكل شيء مبني على خير وصلاح، وإذا كان عادلاً وقديراً فروحي هي خالدة، وإذا كانت روحي خالدة فان ثلاثين عاماً من عمري لا توازي شيئاً عندي، وربما كانت ضرورية لإنقاذ الكون. فإذا ما سلمتَ لي بالقضية الأولى فلم تتزعزع هذه النتائج التي وقفها عليها، وإذا لم تسلم بها وكان نصيبها منك الجحود فان كل مجادلة في توابعها تذهب عبثاً.

بيروت

خليل هنداوي

العلوم

بلوتو

السيار التاسع

للأستاذ مصطفى محمود حافظ

في العدد (56) من مجلة الرسالة مقال ذكر به أن الكواكب السيارة ثمانية، وأنها - مرتبة حسب قربها من الشمس - (عطارد، الزهرة، الأرض، المريخ، المشتري، زحل، أورانوس، نبتون). وقد كان هذا القول صحيحاً حتى شهر مارس سنة 1930، فكان مدار (نبتون) يحدد نهاية المجموعة الشمسية التي تنتمي إليها كرتنا الأرضية، ثم اتسعت هذه المجموعة باكتشاف سيار تاسع هو (بلوتو) وإلى القارئ قصة هذا الكشف.

الفرق بين النجم والسيار:

في المقال المشار إليه سابقاً نظريتان من النظريات التي وضعت في تفسير كيفية تكوين السيارات حول الشمس، ولعل أقرب هاتين النظريتين إلى الصحة هي أحدثهما، وهي نظرية المد التي يؤيدها الآن كثير من العلماء تأييداً رياضياً، منهم العالم الإنجليزي المشهور (سير جيمز جينز)، فشمسنا الحالية ومعها كل ما انفصل منها على شكل كواكب وذرات متحطمة وإشعاع كانت في الماضي السحيق تكون نجماً هائلاً، اقترب منه نجم ثان - ربما كان أكبر منه - فجذب إليه جزءاً من الأول على شكل السيجار ومن هذا السيجار انفصلت الكواكب السيارة. ولعل ترتيب السيارات بحجومها الحالية يؤيد هذه النظرية، فأضخمها في الوسط وأصغرها في الطرفين. وهذه المجموعة الشمسية تسبح كلها في الفضاء تفصلها ملايين ملايين الأميال عن أقرب نجم إليها. فإذا نظر الإنسان وهو على الأرض إلى القبة السماوي رأى بعينه المجردة آلافا من هذه النجوم، وقد يكون الوقت ملائماً لأن يرى سياراً أو أكثر. ويمكنه أن يميز السيار عن النجم بشدة لمعانه وعدم تألقه وتغييره لمكانه النسبي بين النجوم الثوابت على مر الشهور والأعوام (ومن هنا نشأت تسميته بالسيار أو التائه) وكذلك يميز السيار بظهوره على شكل قرص صغير في عدسة التلسكوب، على حين أن النجوم لا يمكن أن تظهر أكثر من نقطة، ولكن ذلك لا يساعدنا

دائما على الكشف عن السيارات، فعطارد لا يبعد عن أمه الشمس إلا قليلا، فتصعب رؤيته بالعين المجردة إلا في البقعة المنبسطة قبيل شروق الشمس أو بعيد غروبها، وأورانوس ونبتون لا تراهما العين المجردة لبعدهما عن الشمس والأرض بعداً يجعل الزاوية التي يحدثها قطر كل منهما عند العين لا تمكنها من الرؤية، وهذا هو السبب في عدم معرفة العرب القدماء لها قبل اختراع التلسكوب.

وكلما ابتعد السيار عن الشمس صعب كشفه وتمييزه عن النجوم، وقد كشف (هر شل) عن اورانوس (أب زحل آله الزرع) عفواً في سنة 1781 هو يوجه منظاره إلى جزء من السماء، وقد ظنه في أول الأمر (مُذَنبا) وكشف (جال) عن نبتون (آله البحر) في سنة 1846 بعد بحوث (ليفرييه) الرياضية.

البحث عن سيار تائه:

وفي أوائل القرن الحالي كان الأستاذ (برسيفال لول) يقول بوجوب وجود سيار آخر تابع لمجموعتنا الشمسية أبعد من نبتون، وقد جاء هذا القول نتيجة لبحوثه الرياضية في مدارات السيارات المعروفة في ذلك الوقت، وعدم اتفاق المدار الرياضي مع المدار المشاهد. فانطلق الفلكيون هواة ومحترفين يبحثون عن ذلك السيار التائه، ولعل لولا التعاون الدائم بين فروع المعرفة العام في الوصول إلى الحق لما تمكن أحد إلى الآن من الكشف عن هذا السيار، فان محاول الكشف عنه كان عليه أن ينظر إلى جزء من السماء في وقت معين من كل ليلة ويطيل النظر إلى آلاف النقط اللوامع التي يراها، ويحاول أن يجد أيها يغير موضعه على مر الليالي، وبذلك يميز السيار عن النجم الثابت، فهذه النجوم (الثوابت) وإن كانت في حركة مستمرة إلا أن بعدها السحيق يخفي عنها هذه الحركة ولا يظهرها إلى على مر الأجيال الطويلة، وذلك كما يلاحظه الإنسان أن القطار السريع البعيد يدب دبيبا.

وعملية ملاحظة حركة السيارات هذه عملية شاقة تحتاج إلى صبر كثيرة ودقة وأمانة في التقدير، فان إطالة النظر إلى عدسة التلسكوب تثقب شبكية العين وتجعلها ترى ما ليس له وجود، ولكن تضافر نواحي المعرفة للوصل إلى الحق هو الذي مكن العلماء من الوصول إلى السيار التاسع، وذلك باستخدام الكمرا في تصوير السماء بدلا من الملاحظة والتخطيط، فأغلب تلسكوبات العالم الآن مجهزة بآلات فوتوغرافية تمكن الفلكي من تصوير أي جزء

من السماء بكل دقة وأمانة، كما أنها تزيد من قدرته على الملاحظة، فالجسم الضعيف النور قد لا يؤثر في العين باستمرار النظر إلى موضعه، ولكنه يؤثر في اللوح الحساس باستمرار تعريضه إليه عدة ساعات، وأحياناً عدة ليال، وذلك بادرة التلسكوب إدارة تعادل حركة الأرض، فيصبح اللوح دائماً في مواجهة الجزء المارد تصويره.

الكشف عن بلوتو:

قلنا إن الأستاذ (برسيفال لول) كان قد تنبأ في أوائل القرن الحالي بوجود تابع تاسع لمجموعتنا الشمسية، وقد تكمن فلكيو مرصد (لول) في (أريزونا) من الكشف عن هذا السيار، وبذلك أصبحت التوابع المعروفة لشمسنا تسعة إذا استثنينا مئات التوابع الصغرى التي تقع بين مداري المريخ والمشتري، والتي قد تكون بقايا سيار منفجر أو متحطم ابتدأ البحث عن هذا السيار الجديد بأن عرضت الألواح الفوتوغرافية إلى أجزاء السماء المشتبه فيها مدة من الزمن تكفي لانطباع أثار كل ما في السماء على الألواح، وتكررت هذه العملية في الليالي المتتالية، ثم امتحنت الألواح المختلفة فلوحظ أن جميع النقط اللامعة لم تغير مواضعها بالنسبة لبعضها البعض، إلا نقطة واحدة جعلت تسبح بين مواضع النجوم الثابتة، فكانت هي السيار المنشود مادامت جميع السيارات المعروفة بعيدة عن الموضع المصور، وبهذه الطريقة تم الكشف عن السيار التاسع، فان الفلكي الشاب مستر (كليد تمباو) لاحظ بامتحان لوحين أخذا في 2 مارس سنة 1930، 5 مارس سنة 1930 أن نقطة لامعة قد غيرت موضعها تغييراً محسوساً.

وبذلك يكون هو أول من كشف عن (التائه) التائه. وكان بعده عن الأرض في ذلك الوقت 4000 مليون ميل، أي أن الضوء المنعكس عن سطحه يصل إلى الأرض بعد خمس ساعات ونصف ساعة من وقت انعكاسه، وقد سمى بلوتو (آله العالم السفلي)، وهو الاسم الذي أطلقته عليه فتاة كان سنها 11 عاماً تدعى (فينيتا). وهي ابنة أخي

الأستاذ (مادن) أستاذ العلوم في كلية (ايتون) ولا يعرف الآن كل شيء عن هذا السيار، وذلك لبعد المسافة التي تفصلنا عنه، ولكن مداره حول الشمس قد عرف بدارسة الألواح الفوتوغرافية التي يظهر فيها من وقت لآخر، ويعتقد أنه يعادل الأرض حجماً، ولكنه أكبر منها كتلة، فمادته أكثر كثافة من مادة الأرض.

ولا يمكن أن يقال الآن إن بلوتو يحدد نهاية مجموعتنا الشمسية، فقد تفسر دراسة الخرائط السماوية عن وجود سيار آخر فتتسع مجموعتنا الشمسية، ولكن ذلك قليل الاحتمال لأن قوة جاذبية الشمس لهذه السيارات تضعف مع البعد، فتقل قدرتها على الإمساك بالسيار وجعله يدور حولها.

مصطفى محمود حافظ

مدرس بمدرسة امبابة للمعلمين

القصَص

من صور الريف - قصة واقعية

الشقراء المجنونة. . .!!

بقلم محمود البكري

فتاة مثقفة على خلق عظيم، تناولت من التعليم حظاً غير قليل وفيها شيء من . . . الجمال: عينان ساجيتان، شعر يشبه أن يكون خيوطاً من ذهب. . . ثم نفس شاعرة متمردة تحس الجمال وتتذوق الأدب. . كانت (فتحية) صورة نادرة في الفتيات: امتزج فيها سمو الروح بجمال الصورة، تعلمت في وقرأت جوت ولا مارتين ودوي موسيه. فظمئت روحها إلى حب عنيف، وعرفت (سامي) فوجدت عنده رياً لروحها الصادى، فأنست إليه وهام بها، وكان حب بينهما، حب جبار قوي كأنه الإعصار لا تسيره المنافع ولا تغيره المطامع ولا توهنه أحداث الحياة، وهو فوق هذا نبيل بصورة لا تقع في الوهم، طاهر بشكل لا يتعلق به ظن.

وكانا يقضيان حياة فيها حظ من الشعر والخيال: يتقابلان في الحدائق فيجلسان . . . على العشب الندي، ويخلوان إلى نفسيهما فيأخذان في فتون من الحديث والأدب، حتى يتقدم الليل فيفترقان إلى عود. . . وكانا يتفقان على الإعجاب بالأدب الفرنسي، وينفقان في القراءة وقتاً غير قليل، ويستطيل كل منهما على صاحبها أحياناً في رقة ورفق ودعابة.

ومضى على هذا الحب سنوات ثلاث. ثم أحيط أبوها بخبره، وكان صارماً قاسياً شديد القسوة، عنيداً مسرفاً في العناد، فاستعدي فتحية فجأة. .

وكان يوم الوداع ثقيل الظل سريع الخطو. . . وجاء القطار! فجاشت الدموع في . . . صدر فتحية، ولكنها تجلدت ونهنهت عينها، وأخذت نفسها بصمت عميق، وإن كانت روحها تكتم ثورة صاخبة تضطرم في عينيها الحالمتين في ذهول واستغراق. . وكانت تخرج منديلها الأزرق الصغير من حين إلى حين فتلقط به دمعة أو دمعتين. . ثم تحرك القطار وغاب في أحشاء الطريق. فاهتدت الدموع الضالة إلى عين فتحية وغلبتها على أمرها، فاستسلمت للغريزة، وأرسلت عينيها في حرارة وغزارة وذلة وصمت. . .!!

وخطبها إلى أبيها رجل كبير من أعيان الريف أوتى بسطة من المال، إلا أن بضاعته من الثقافة والعلم مزجاة، وكان يكبرها بثلاثين سنة أو تزيد!. . . مانعت وتمردت. وثار بينها وبين أبيها نقاش قصير ولكنه حاد. أيهما أشد إسرافاً في الجريمة؟ أهو لأنه يريد أن يقضي على سعادة ابنته؟! أم هي لأنها تخالف أباها في أن تتزوج رجلا لا تفهمه، وليس بينهما صلة من عاطفة أو سن أو ثقافة، وكان جدال عنيف في شيء لا يحتمل الجدال ولا يستدعي الحجة. لأنه بين لا لبس فيه ولا غموض، ولأن حق حرية اختيار الزوج لا يسخط الله ويرضى الناس، يقره العل ولا يرى القانون بأساً في أن يسمح به، ولكن الحق مهما يكن، ينكره ويلتوي به المكابرون، والمكابرون لا حيلة فيهم ولا دواء لهم. والوالد يحتال حيناً ويتطلف، ويقسو حيناً آخر ويهدد، والفتاة على كل حال تتمرد وتثور. . .!

وأخيراً استقرت ثورتها وانتهت إلى مثل ما تنتهي إليه ثورات النساء في منازلنا: . . . استسلام مغلوب.

وأخيراً!! تبددت في مهب الظلم آمال، وتحطمت على شعاب العناد أحلام، . . . وضاعت في غمرة الطمع أماني. . .

وأخيراً. . . زفت فتحية التي تعلمت في إلى الرجل الذي اختير لها وأكرهت عليه . . . إكراهاً. . .
أغدق عليها مالا وحلياً وثياباً، فلم تبهرها هذه المظاهر، ولم تكسر من حدة نفارها ولم ترد جماحها. . . كانت تبكي في اتصال ومرارة.!
وكان حب سامي لما يزل يستبد بها فينسيها في النهار الراحة والقرار، وفي الليل المنام. . . كانت تغفو أحياناً قليلة، ثم تفيق صارخة مضطربة روعتها الأشباح، وطاردتها أرواح الذكريات في إلحاح وقسوة، فراحت حياتها خليطاً مشوشاً من الصور المرعبة، كانت تحبه حبا طاغيا عنيفاً جعل حياتها في البعد عنه سلسلة طويلة متصلة من الشقاء.
حاولت جهدها أن تنسى: فكانت تخرج إلى الحقول، وتقرأ كثيراً، ولكنها كانت تفر من عذاب إلى عذاب.
وكان زوجها سخيف العقل ضعيف الرأي ضيق النظر؛ وعنده أن المرأة لم تخلق إلا لتكون ماء أو شيئاً يشبه الماء يطفئ به الرجل جذوة الحيوانية. . . فأما أن تتعلم أو تقرأ أتكتب
أو تحب، فكل ذلك حياد عن القصد وجور عن السبيل، وخروج عن العرف، وانتقاض على التقاليد.
كانت الهوة بينه وبين فتحية عميقة سحيقة لا حد لها ولا غاية ولا قرار: انصرفت هي إلى حبها وذكرياتها وكتبها فاستغرقتها واستأثرت بها، فلم تجعل لشيء آخر في قلبها مستقراً ولا مقاماً.
وتولى هو إلى مزارعه وماله عن كل شيء عداها، وكان حقير النفس فقير العاطفة مجدب الشعور، لا يضطرب في نفسه إحساس ولا تعرف العواطف إلى قلبه سبيلا: كل أيامه بعد أعماله أكل ونوم. . . يمر النهار فلا يكاد يتحدث إلى زوجه بأكثر من كلمات آلية معدودة، وإن تحدث ففي شئون مزارعه وماشيته حديثاً تافهاً ضئيلا لا يدل على معنى، وإن كان يدفع السأم ويرد إلى الضجر القاتل.
ضاقت فتحية بهذه الصور المتشابهة من العيش، وأسقمها هذا اللون من الحياة المضطردة الباردة، فاندفع السأم واليأس إلى نفسها اندفاعا قويا.
وضاعت في تيه الذكريات والظلم هذه المخلوقة الشقية التي تستقبل الصباح بالدموع وتودع النهار بالدموع. . . فزعت إلى الكتب تقرؤها إذا كان وجه النهار إلى الضحى، فإذا أقبل العصر خرجت إلى الحقول مطرقة ذليلة لا تحدث إنساناً ولا تستمع إلى إنسان فتقضي وقتاً ما، ثم تأخذ طريقها الصامت إلى المنزل فتخلوا إلى نفسها في غرفتها، ثم تخرج صور سامي فتتحدث إليها وتسكب أمامها الدمع كأنها عابد في المحراب. . .!
وظهر زوجها على صور سامي ورسائله، فثارت نفسه وارتد وحشاً ضاريا عاتياً . . . ديس عرينه وأبيح حرمه واستحل حماه، وبدت في خلقه صورة جديدة، الغيرة الصارخة العنيفة. فمسخت تصرفاته كلها وصبغت حياته بلون قاتم ظالم مستبد.
العرض والشرف في الريف شيئان يهون معهما كل شيء. . .! ومضى الوحش يفكر في انتقام هائل مروع بعيد الأثر. فكر في قتلها وفي طلاقها: ولكن هذه الصور لم ترض شعوره المحنق، ولم ترو نفسه الصادية إلى الدم، لأن في كل هذا موتاً سريعاً مريحاً، ولكنه يريدها أن تموت على مهل في نزع طويل بطيء واستقرت نفسه الحائرة أخيراً على تجربة بدأها حالاً، فعمد إلى كتبها وأوراقها فجعلها وقوداً للنار، ثم أخذها هي بالقسوة وسوء
الحساب: يضربها إذا كان النهار، ويهجرها إذا كان الليل، وهو فوق هذا يكلفها من أعمال المنزل مالا طاقة لها به. . .
ومضى السجان الجبار في تجربته والضحية البريئة تذبل على مهل. تمادت بها الآلام فأغرت بها اليأس، وردها اليأس إلى لون من الحسرة ملح، عميق يسوقها إلى الجنون سوقا متداركا سريعاً.!
وكل هذا قصته على أختي عن صديقتها زوج جارنا الغني.
ولأيام خلت كنت أجلس في حديقتي في ظل شجرة هرمة إلى جانب الساقية التي تنوح أبداً. . . سمعت صرخات متصلة ومتقطعة، وكلها ثائرة ومجنونة، وسمعت كلمات

مبهمة مختلطة. . . صمتّ وصمتت الساقية وحسبت دموعها، ومالت الغصون على الغدير هامسة (إذن أفلحت التجربة وجنت الشقراء!!) واستأنفت الساقية نواحها. . . وأرسلت دموعها. . . على الشقراء المجنونة .!!
(قلوصنا)
محمود البكري القلوصناوي
من المسرح الغنائي
سافو - 2
لأوجييه اميل
ترجمة الأستاذ محمود خيرت
الفصل الثاني
(منزل حنا جوسين بباريس وبه حنا ووالده سيزار ثم أمه ديفون وإيرين ابنة عمه)
حنا - إنك تتعب نفسك يا أبي.
سيزار - صه. صه.
حنا - (متأملا صورة فوق الحائط) ما أجمل منزلنا وهو يتحكّم في السهل، وتمتد كرومه نحو الأفق. وما أحلى ما ألمح أمي عند الباب فيتضاعف اجتهادي. ولكن أين هي؟
سيزار - في الدير يا ولدي عند ابنة عمك إيرين.
حنا - وهل تعود إيرين معكما؟
سيزار - نعم لنتسلّى بها في غيبتك.
حنا - حسناً تفعلان يا أبي.
(تدخل ديفون وإيرين)
ديفون - آه يا ولدي ما هذه المدينة. ما أكثر مبانيها، وما أكثر الحركة فيها. إن طرقاتها تموج بالعربات والناس، فأين هي بجلَبَتها من قريتنا الهادئة. آه يا ولدي المسكين!
سيزار - قضى الأمر فلا محل للتبرّم الآن.
ديفون - ولكن هل نسيت إيرين يا حنا؟
حنا - حقيقة كيف أنت يا ابنة عمي؟
ديفون - وكيف تراها الآن؟ أليست صَبُوحةً كالنهار، جملية جمال المِلكات. ولقد ضمّك صدري من الصغر (لزوجها) يجب أن نرحل يا سيزار فهيئ نفسك، بينما ألقي نظر إلى غرف الدار (لولدها وهي خارجة مع سيزار) ضمّها يا حنا (يخرجان).
حنا - ما كان أسعدني بهما، فأنا أغبطك يا إيرين لأنك ستكونين معهما بقريتنا، هبة الشمس وموطن الأمل والحب.
إيرين - ولعلك تذكر أيام كنا نقصد إلى الغابة فوق حمارنا بلا تشبيه بينما أجراسه تُجلجل تحت عنقه وهو ينهب بنا الأرض.
حنا - نعم يا إيرين وأذكر أيضاً ساعة كنت أضع يدي في يدك وأنا معتزٌ بك مباهٍ بحسنك.
إيرين - كنا نقلد اليهود عند فرارهم من مصر وأنا أسميك يوسف وأنت تدعوني مريم. هل نسيت؟
حنا - لا. لم أنس.
إيرين - وكنا بعدئذ نفر إلى المنزل كأنما يطاردنا هيرود العاتي الذي أسرف في دم الأبرياء، وأذكر أيضاً اغتباطنا عند عودتنا ونحن نسمع صياح الإوز يحمله إلينا النسيم.
حنا - وإن إيرين عندما كنت تقترب من الدار كانت تسرع فتضمني.
إيرين - ما كان عليّ وقتئذ من حرج.
حنا - والآن؟
إيرين - آه. . .
حنا - إذن لا تغضبين لو أنني ضممتك.
إيرين - كما كنا نفعل فيما مضى؟
حنا - نعم كما كنا في ذلك العهد (يضمها ويقبلها في جبينها)
(يدخل سيزار وديفون وفي يديها مصباح وقد رأياهما)
ديفون - (هامسة في أذن زوجها) أرأيت يا سيزار؟

سيزار - رأيت.
ديفون - في رعاية الله يا ولدي.
حنا - دعيني أصحبك يا أميِّ.
ديفون - (تمنعه) مكانك. فهذا المكتب أولى بك. إن العمل في هذه المدينة الواسعة هو الذي يدفع عنك خطرها.
سيزار - صدقت يا ديفون.
ديفون - الوداع يا حنا. ثم احتفظ بها المصباح القديم. فقد كنت على ضوئه أهيئ لك الثياب، وأنظر إلى وجهك من خلل الأستار وأنت طفل في المهد.
إلى الملتقى يا ولدي.
حنا - (متألماً) أمي. . .؟
سيزار - (لديفون وهي متأثرة) ديفون!
ديفون - ثم عليك يا ولدي بالدرس. واجعل نصب عينيك أن تكون رجلاً. والله يرعاك.
حنا - (باكياً) ما أكرمك يا أماه.
ديفون - (متأثرة جداً) تشجّع يا ولدي.
سيزار - (متأثراً مثلها) حنا. . .
ديفون - أراك على وشك البكاء أنت أيضاً.
إيرين - ولكن ألا تشعر بالوحدة هنا.
حنا - يجب يا إيرين. . .
سيزار - إلى المتلقى يا ولدي.
حنا - إلى الملتقى يا أبي. إلى الملتقى يا أمي. إلى الملتقى (يخرجون ولا يبقى إلا حنا ثم فني)
هاهم رحلوا وها أنا في وحدتي. ولكن كيف تطيب حياتي هنا بعد أن ذهبت لذة لقياهم، وبعد أن عشت معهم تحت سماء ذلك المنزل. لقد أصبحت فريداً في باريس تدوي بضوضائها من حولي كما تدوي العاصفة من حول السفينة. آه لم لا يحين الفراق إلا في الساعة التي يحلو عندها الحب؟ لقد دلوا الألم على طريق قلبي. وعرّفوا الدموع مكان أجفاني. . .
(تدخل فني ببطء بحيث لا يشعر بها)
فني - بيبى.
حنا - (يلتفت) أنتِ. . .؟
فني - نعم أنا. أظننت أن كل شيء انتهى. إنني ممن ليس لحبهن مدى. وإذا كنت قد انقطعت عنك فلأنني علمت بمقدم أهلك. ولكن قل لي: من تكون تلك الفتاة الصغيرة التي كانت معهم؟ أختك. هِه؟ (ثم تضحك).
حنا - بل ابنة عمي.
فني - (ببرود) إنها لطيفة حقاً. . . إنني أخذت أرقبهم حتى رحلوا فأسرعت إليك.
حنا - لقد أعدّت لي أمي هذا المنزل لأنصرف فيه إلى درسي.
فني - إذن أذهب حتى لا أضيع وقتك.
حنا - ولم؟. أما كنت أشتغل من قبل وأنت إلى جانبي.
فني - على أنني سأكون عاقلة وحكيمة يا حنا (يقع نظرها على تمثال لها من المرمر) ولكن كيف حصلت على هذا التمثال؟
حنا - إنه لسافو التي صورها كاوودال. إلا تعرفينها.
فني - سافو!. . . أسمع يا حنا إنني أمقت أولئك الفنانين فلا تذكرهم لي فكم أساؤا إلي.
حنا - ولكن الفن جميل يشرح النفس ويرسل السرور إلى المتُّقد. الجميل هو تلك النفس التي يرفعها الحب فوق مستوى النفوس فتدرك أن السعادة لا تكون إلا حيث تأتلف القلوب
(يحاول هنا حنا أن يقبلها فتشير إلى مكتبه)
عد إلى عملك يا بيبى.
حنا - لا بأس من لحظة.
فني - إذا كنت تحبي فانصرف إلى درسك.

(يعود إلى عمله متظاهراً بالمطالعة وهي يراقبها وكأنها تناجي نفسها)
يا مَن تملّكني هوا ... هُ وقد سرى بمفاصلي
خُذلي أماناً من لِحَا ... ظِكَ إنهنَّ قو اتلي
حنا - آه يا فني ليتك تنشدينني دائماً شعر هذا الحب
أنِعشي مسمَعي وغني ... قصة الغرامْ
واعلَمي يا مناي أني ... فيك مُستهامْ
كلما هجتٍ مسمَعي ... لا أرى خاطرِي مَعي
فارحمي المُتيّم
فني - هل تُرى حلَّ قلبهُ=صادق الهيامْ
هل تُرى حلَّ قلبهُ ... صادق الهيامْ
أم تُرى أنَ حُبَّهُ ... مالهُ دَوامْ
ربّما خاب مَطْمِعي ... وانطوى فيه مصرعَي
فالرحيل أسلَمْ
(تحاول الذهاب فيمنعها)
حنا - أنت مِلْكِي لا مَرَد
فني - لستُ ملكاً لأحَدْ
حنا - آه ما كنتُ أظنْ
فني - إن تُردني فليكنْ
حُّبنَا ملكُ الأبَدْ
حنا - أنا يا فنيّ فقيرْ
فني - في الهوى كل الغنَى
إنما البؤسُ يصيرْ ... في حِمى الحبِّ هَنا
حنا - مستحيلٌ مستحيلْ
فني - ليس في الحُب مُحالْ
أنا في البيت أزيلْ ... عنكَ أسباب الَملاَلْ
كلما أبصرتني ... أتثني زدتَ جِد
فاجتهد لا تثني ... ولنكن ملك الأبدْ
حنا - دعي شفتي تَغتنمْ قبلةً=من الوجنتين لأحيا بها
فقد صار حسنك لي قبلةً ... يصلي غرامي بمحرابها
فني - ودعني لصدرك أنسى به=عذاباً بقلبي وحظاً قسا
فيالتهم علِموا ما بهِ ... وما جرّعوني كؤوس الأسى
معاً - نعمنا على غفلةِ من رقيبْ=وتمَّ المرامْ
كذاك الحياةُ فليستْ تطيبْ ... بغير الغرام
(قبل وعناق)
الفصل الثالث
المنظر الأول
(في مطعم (نعيم البطون) بحديقة مدينة أفريسي في يوم أحد)
(فني في نافذة تطل على الحديقة وحنا من خلفها)
فني - ما أطيب الحب تغمره مثل هذه الشمس، ألا نخرج يا حنا؟
حنا - نعم نخرج (محاولا ضمها)
فني - ألا تخشى أن يرانا الناس.
حنا - بعد سنة. . . ونحن هنا، ما أسرع مر الأ يام.
آه كم ملكت مشاعري يا فني؟
فني - ولكنك مع هذا لم تصبح كلك لي. إني أود أن تكون لي وحدي. وألا تشوب سماءً
هذا الحب غيومُ حياتي الأولى.
حنا - ألم نقطع شهى الحياة في هذه المروج الساحرة؟
فني - وأنا أرقب عودتك عند كل مساءٍ.
حنا - فإذا ما عدت هزّتنا أحلام القُبَلِ وأناشيد الحب والأغصان خفاقة نشوى بتغريد
الطيور (يجذبها إليه) آه يا فني؟

فني - ليس هكذا. دع ليس ساعدك ليشعر الناس أنك إلى جانبي.
حنا - (يفعل ما طلبت)
فني - نعم هكذا. هلم الآن.
حنا - (يغني).
أضاءتَ حياتي فيوضُ السّنا ... فليلي نهار
وأطْربني بنشيد المُنى ... لسان الهزاز
فني - وطوّق خصري حبيب الهنا=وحسني إزار
أنا مِعْصُم الحسن يزهو أنا ... وأنت السوار
(يختفيان حيث يؤم الحديقة لا بودري وبعض فتيان وفتيات وكذلك كاوودال حيث تقع عينه على المطعم فيشير إليهم)
كاوودال - من هنا. من هنا.
لا بودري - حقاً إنه مكان بديع.
كاوودال - (مشيراً إلى اسم المطعم)، ثم انظر إلى هذا العنوان.
لا بودري - لقد صدق والله. إن الطعام في الواقع نعيم البطون (يقترب الباقون لاغطين فرحين)
(يتبع)
محمود خيرت
سيوة - 2
باني سيوة
إذا تسامحت كثيراً يمكنني أن أقول إن سيوة في مبانيها ومنازلها وصوامعها تعادل في تفصيلها وشكلها أحقر قرية من قرى وادي النيل. فالمنازل في تلك الواحة تبنى بقطع من الملح والطين بغير نظام في البناء أو حفر لوضع الأساس في الأرض، بل إن البنّاء و (أسميه بناء على سبيل المجاز) إذا أراد أن يبنى منزلاً فانه يضع قطعة من الحبل يحدد بها أربع حوائط المنزل، ثم يبني بعد ذلك فوق سطح الأرض بقطع من الملح والطين بارتفاع متراً آخر وينتظر أسبوعاً ثانياً ثم يكمل البناء لسقف المنزل. وفي العادة أن الحجرات في سيوة لا يزيد ارتفاع سقفها على مترين ونصف متر أو ثلاثة أمتار، والحوائط يكون سمكها في نهاية ارتفاعها أقل كثيراً منه وهي قريبة من سطح الأرض، وتتكون الأسقف بعد ذلك من خشب النخيل، وطريقة ذلك أن يشقوا بالطول خشب بعض النخلات المتينة ثم يضعوا أنصاف النخيل فوق الحوائط ويسمونها (قناطر) ثم يضعون فوقها ألواحاً يقطعونها من النخيل أيضاً ثم يغطون هذه الألواح بالطين.
ولبعد الواحة وصعوبة المواصلات إليها لا يمكن للسكان أن يحصلوا على أخشاب ليصنعوا منها أبوابًا ونوافذ المنازل، ولذا فنوافذ المنازل الصغيرة، لا يزيد اتساع إحداها على نصف متر مربع، ويصنعون النافذة نفسها من خشب صناديق البنزين التي تحملها سيارات النقل معها، ولذا فالنافذة الصغيرة تعمل من أربعة مصاريع رغم صغير حجمها، وتتكون المنازل عادة من طابقين، وبعض الأغنياء يقيمون أمام منازلهم مظلات يجلسون تحت وقت الحر الشديد، لأنه من الصعب أن يتعرض إنسان لحرارة الشمس في سيوة مدة الصيف، إذ تصل درجة الحرارة فيها إلى 48 سنتجراد، وتمتاز سيوة بدروبها الضيقة وحواريها المتعرجة المتلوية، حتى ارتبك مأمور البلدة كيف يضع أحد مصابيح الإنارة في إحدى الجهات لأنه وجد أن المصباح لن ينير إلا الموضع الذي هو فيه لكثيرة الالتواء والانحناء، ولأن المنازل متنافرة غير منسجمة الوضع.
وعدا ذلك فان جزءاً من القرية وهو الجزء الغربي مبني على صخرة ترتفع تدريجياً عن باقي القرية، ولذا تجد منزلين متقاربين يرتفع أحدهما عما يجاوره بما يقرب من ثمانية أمتار.
ومن الظواهر الواضحة في سيوة أن الزائر لها يرى وهو في وسط سوق صخرة مرتفعة تشرف على ميدان السوق وقد علتها منازل من الملح والطين ونزعت سقوفها وتهدمت جدرانها، وظهرت بشكل بشع مخيف، وليست تلك المنازل إلا سيوة القديمة هجرها أهلها من فوق الجبل بأمر الحكومة من زمن غير بعيد وأقطعتهم أراضي في سفح الجبل وفي الأرض الواطئة المجاورة له فبنوا منزلهم الحالية.
وكان الأهالي يقطنون فوق الجبل في تلك المنازل المتلاصقة، وقد أحاطوا منازلهم

بسور مرتفع يضم القرية كلها، وفتحوا في ذلك السور فتحات صغيرة كفتحات الحصون الكبيرة التي تعملها الجيوش لرؤية العدو ولإطلاق النار منها، ووصل ارتفاع هذا السور في بعض الجهات إلى نحو خمسين متراً، وصنعوا في ذلك السور عدة أبواب ضخمة من خشب النخيل كانت تقفل أثناء الليل حينما يأوى سكان الواحة إلى منازلهم.

وقد سألت عن الغرض من سكنى السيويين في الماضي في مثل هذا الحصن فوق الجبل، فعلمت أنهم إنما فعلوا ذلك حفظاً لأنفسهم من هجوم أعراب الصحراء الغربية، إذ أنهم كانوا يحضرون بالليل لنهب سيوة وسبلها.

وبدأت منازل سيوة القديمة فوق الجبل متجاورة كالمعتاد في كل القرى، ولكن لما زاد عدد سكان الواحة بنوا منازل أخرى فوق المنازل القديمة حتى لا يخرجوا على السور الخارجي الذي هو حصن لهم، ولذا فبدلا من أن تسع رقعة الواحة كلما ازداد سكانها بدأت ترتفع أبنيتها وهي في نفس المساحة الضيقة التي ابتدأت فيها. وهكذا استمر الحال وبمرور الزمن ازدحمت الأبنية فوق بعضها، وضاقت أزقتها وشوارعها وتعرجت منافذها حتى أصبحت أشبه شيء بخلية النحل، بل وصل الأمر ببعض المنازل أن أصبحت وهي داخل السور أكثر ارتفاعا من السور نفسه وأصبحت الشوارع لاتسع رجلين يسيران متجاورين فيها، وأظلمت جميع أنحاء القرية من ارتفاع المنازل وضيق المنافذ التي توصل الضوء إلى فتحاتهم الصغيرة التي كانوا يفتحونها على أنها نوافذ، وأصبح السائر فيها يحتاج في الواقع إلى مصباح يحمله معه أثناء النهار لينير له الطريق. على أن الذي يقف فوق تلك المنازل يرى أمامه الواحة بحقولها الخضراء وحدائقها اليانعة بأشجار الزيتون والليمون، ونخيلها الهادئ الساكن، فيأخذه هذا المنظر الجذاب، ويرجع بذاكرته إلى تلك المواقف البهيجة التي أكثر عمر الخيام من وصفها في رباعياته.

وطبيعي أن الحرارة تكون شديدة في منازل القرية، لأن الشمس شديدة التأثير بينما التهوية تكاد تكون معدومة.

وفي وسط القرية في مكان متسع قليلاً بين هذه المنازل المرتفعة المظلمة توجد بئر منحوتة في الصخور بها ماء عذب، لأن في أسفل الصخر عين ماء تتغذى تلك البئر، وأيضاً تغذى بئرين صغيرتين مجاورتين للبئر السالفة. عند قاعدة هذا الجبل بنى الأهالي منازلهم الحديثة بعد أن تركوا تلك القرية التي كانت مزدحمة بهم وهم الآن آمنون من الهجوم، بل إن هذه الفكرة لا تتطرق إلى مخيلتهم، فالحكومة مسيطرة على الصحراء بإعرابها وقبائلها جميعاً، وقد فضل كثير من السكان أن يبنوا منازلهم وسط حدائقهم وحقولهم في ناحيتي السبوخا والمنشية، وللأغنياء منهم منازل للشتاء حيث يرجون الدفء وسط القرية، ومنازل للصيف وسط الحدائق المتسعة يقضون فيها فصل الصيف حينما تشتد حرارة الشمس وتصبح غير محتملة، وتمتاز منازل المشايخ والأغنياء بطلاء جزء منها بالجير الأبيض من الخارج، ولذا فانهم يغضبون إذا حاول أحد الفقراء أن يطلي منزله بالجير تشبهاً بهم، بل إن معظم الفقراء لا يفكرون في ذلك تلافياً لغضب مشايخهم عليهم، وبهذه المناسبة فان كل الأضرحة للأتقياء منهم تمتاز بطلائها بالجير إكباراً لشأنها وشأن أصحابها. وهذا الدهان يكون عادة من تبرعات يدفعها السكان تبركاً بصاحب الضريح.

توجد بسيوة ثلاثة أسواق كبيرة لبيع البلح والزيتون تسمى بالمساطيح، والمسطاح مكان متسع تكتنفه حائط يبلغ ارتفاعها مترين، وهذه الحوائط تخالف في بنائها حوائط المنازل، إذ أنهم رغبة منهم في توفير العمل صنعوها من جريد النخيل، ثم أحاطوا الجريد من الوجهين بقطع من الملح والطين، فإذا جف الطين تماسك بسعف الجريد وهي في الحقيقة فكرة قديمة للخرسانة المسلحة ورغبة منهم في الإقلال من سمك الحائط، وضعوا الجريد رأسياً وهو يعادل أسياخ الصلب في الخرسانة. وأحد هذه المساطيح للسكان الغربيين من الواحة، والثاني للسكان الشرقيين، والثالث هو أكبرهم وأعمهم لجميع سكان الواحة. ويقطن رجل سوداني أو كفري (نسبة إلى واحة الكفرة) منزلاً صغيراً عند مدخل المسطاح ليحرس بلح الناس وزيتونهم طول العام نظير هبات يعطونها إياه من الشعير والبلح والزيت، ويحضر الأعراب عادة في فصل الخريف من وادي النيل ومن الصحراء ليشتروا البلح من سيوة، ثم ينقلونه على الجمال لوادي النيل حيث يباع في الأسواق بثمن معتدل

وحول هذه المساطيح أقام بعض الأعراب الذين يتاجرون بالبلح حظائر لجمالهم ومنازل لهم، وفي فصل الخريف ترى مئات من هؤلاء الأعراب بأرديتهم البيضاء يجوبون أنحاء المساطيح بين أكوام البلح ذات الألوان المختلفة من أحمر إلى أصفر إلى داكن بين الحمرة والسود يساومون أصحابها في أثمانها على حين تنتظر جمالهم خارج المساطيح مجلجلة بأصواتها كأنما تنادي أصحابها في الداخل، وتزيد الحركة ببعض العبيد وهم يحملون البلح المشتري مكبوساً داخل (مقاطف) كبيرة من الخوص ليحملوه على الجمال. وما أجمل منظر الناقة تحمل حملها وتسير وسط السوق تشق طريقها بين الناس كأنها باخرة تشق طريقها في الماء، أضف إلى ذلك صهيل خيول الأعراب ونهيق الحمير ونباح الكلاب، منظر يدل على أن في البلد حركة كبيرة، ولا شك فان البلح والزيتون هما عماد الثروة في واحة سيوة.

ويقضي العرف بين الناس بالسماح لكل من يشاء أن يأكل ما شاء من البلح في المساطيح من غير مقابل، غير أنه ممنوع أن يأخذ معه شيئاً خارج المسطاح، ولذا ينتهز الشحاذون من الأعراب فرصة هذا الموسم ويدخلون المساطيح سائلين أصحاب البلح أكلة منه ليفوزوا بالشبع.

وبيع (العجوة) شائع في السوق أكثر من غيره، وبعض الناس يبيعونها من غير (نوى)؛ وفي عرض البلح للبيع بهذه الطريقة خطورة كبيرة: فالذباب يملأ المساطيح، والناس يطأون البلح بأقدام قذرة، ويعبئونه بأيد لا يفكر أصحابها في نظافتها. ولو أن العناية تصل إلى تنظيم طريقة البيع لكان في ذلك أمان وطمأنينة لمن يأكلونه.

(يتبع)

كابتن

العدد 59 - بتاريخ: 20 - 08 - 1934

صراع بين ثقافتين

فتنة الثقافة الأجنبية

ظاهرة في تفكيرنا وأدبنا تحمل على جد الأسف، هي أن الشؤون والنواحي القومية ما تزال مهملة منسية، في حين أن الشؤون والنواحي الأجنبية تلقى بيننا دائماً كثيراً من العناية والاهتمام.

وتلك ظاهرة قديمة في تاريخنا الحديث، ترجع إلى سبب معروف، هو سيادة النزعة الأجنبية في برامج التعليم التي تفرض على مصر منذ نصف قرن، والتي يلحظ فيها دائماً إقصاء عناصر الثقافة القومية أو إضعافها حتى لا تكون عاملاً في تغذية الشعور القومي وإذكائه؛ وإذكاء الشعور القومي شر ما يخشى المستعمر من أمة مغلوبة تطمح إلىاسترداد حريتها

وقد رجونا خيراً يوم قيل لنا إن برامج التعليم سوف تحرر من أصفادها القديمة ويعنى فيها بكل ما يرفع شأن الثقافة القومية، وتتخذ فيها لغة البلاد وتاريخها ومسائلها وشئونها مكانها اللائق؛ ولكن سرعان ما خاب هذا الأمل، وإن كانت اللغة العربية قد استردت في العهد الأخير شيئاً من حقها المسلوب؛ وما زالت النزعة الأجنبية تبث اليوم في برامجنا وثقافتنا كما كانت تبث بالأمس، ولم تتغير الغاية وإن تغيرت الوسائل.

ومازالت هده النزعة الأجنبية تتجلى في تفكيرنا وأدبنا بشكل واضح. ففي بضعة الأعوام الأخيرة مثلاً صدرت بالعربية كتب عن الدكتور مازاريك رئيس جمهورية تشيكوسلوفاكيا، والسنيور موسوليني، والغازي مصطفى كمال، وجيته شاعر ألمانيا الأكبر، وأخيراً عن الهر أدولف هتلر؛ وصدر بالعربية أيضاً كتابان عن باريس وكتاب عن لندن. فهذه كلها كتب عربية أخرجتها أقلام مصرية في موضوعات أجنبية في بضعة أعوام فقط. هذا إلى ما تنشره صحفنا ومجلاتنا من فصول ومباحث لا نهاية لها عن الموضوعات والشخصيات، وما يغرق فيه بعض أدبائنا الناشئين من الكتابة عن الكتاب الغربيين والأدب الغربي مما يسمونه بميسم الطرافة والتجديد.

وهذا حسن في ذاته لو أن مثل هذه العناية بالموضوعات الأجنبية يبذل لتناول الموضوعات الأجنبية والمسائل القومية. ولكن ماذا أخرجنا من الكتب والرسائل عن عظمائنا؟ وماذا

نشرت أو تنشر عنهم صحفنا ومجلاتنا؟ لقد أصدرنا كتباً عن مازاريك وموسوليني ومصطفى كمال وجيته وهتلر، ولكن لم نصدر في تلك الفترة كتاباً واحداً عن أحد عظمائنا الذين يحفل بهم تاريخنا الحديث مثل عرابي، والبارودي، ومحمد عبده، وعلي مبارك، وقاسم أمين، وصبري، وسعد زغلول، وحافظ، وشوقي، وغيرهم ممن يغمطون إلى اليوم حقهم من الناحية الأدبية، ولا يفكر أحد من كتابنا في أن يعني بدراستهم وترجمتهم بما يجب من إفاضة وتحقيق.

نعم إن الأدب لا وطن له، والتفكير تراث الإنسانية كلها، والقلم حر له أن يجول أنى شاء؛ ولكن هذه الفتنة الغربية التي تأخذ علينا سبل التفكير في تراثنا القومي جديرة بكثير من التأمل والاهتمام؛ ففي الأمم الحرة التي يزدهر تفكيرها وأدبها في ظل الاستقلال والحرية، تأخذ جميع ألوان التفكير والأدب، قومية كانت أو خارجية مكانها من النهضة الأدبية العامة. ومع ذلك فإن التراث القومي يحتفظ دائماً بالمقام الأول، ويعتبر دائماً أقوى وأنفس غذاء للشعور القومي. فإذا كانت هذه الأمم التي يحتفظ فيها الشعور القومي بكل قوته واضطرامه تقدر دائماً فعل التراث والذكريات القومية في تغذية هذا الشعور وتكوينه، فأولى بالأمم المغلوبة التي يعمل فيها الغالب الأجنبي على محاربة الشعور القومي وإضعافه أن تجعل تراثها وذكرياتها نصب عينها دائماً، وأن تتخذها عدة وذخراً لتغذية هذا الشعور وإذكائه. ولما كان التفكير والأدب خير أداة لتحقيق هذه الغاية، فإن الواجب الوطني يقضي على كتابنا أن يرعوا هذه الناحية وأن يجعلوا لها أوفر نصيب من عنايتهم، وأن يؤثروها دائماً بدرسهم واهتمامهم.

إن الآداب القومية التي نضجت وازدهرت في كل النواحي والفنون لا غبار عليها إذا عنيت بالنواحي والشؤون الأجنبية ما شاءت وما وسعت، فهي بذلك تكسب دائماً ثروات جديدة، ولكن حيثما كانت الآداب القومية فقيرة كآدابنا، وحيثما كان التاريخ القومي منسياً مغموطاً، وحيثما كانت برامج التعليم والتربية عرضة لأهواء المستعمر ينفث فيها من وحيه الخطر، ويعمل دائماً على محاربة عناصرها القومية، يجب على قادة الفكر أن يتداركوا هذا النقص بأقلامهم وتفكيرهم، وأن يقاوموا هذا الخطر، فيقدموا دائماً إلى الشباب الذي يحرم في معاهد الدرس من الإلمام الشامل بعناصر الثقافة القومية، كل ما يقوم الشعور الوطني ويصقله ويغذيه؛ ويجب على الأدباء الناشئين أن يفكروا طويلاً في اختيار الطريق المنشود قبل أن يحملهم تيار هذه الفتنة الأجنبية المضللة من عالم الآداب القومية إلى فوضى موضوعات وشئون لسنا في كبير حاجة إليها.

يجب علينا قبل أن نقرأ عن مازاريك وموسوليني وهتلر، وقبل أن نشيد بذكرهم في كتب خاصة، أن نقرأ عن أبطالنا وعظمائنا الذين يغمرهم النسيان والجحود، وأن ندرسهم ونكتب عنهم؛ فذلك دليل الأدب القوي المستنير، وذلك دليل الوطنية الرفيعة، والشعور القومي الحي.

(ع)

عرش الورد

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

كانت جَلوة العروس كأنها تصنيف من حلم، توافت عليه أخيلة السعادة فأبدعت إبداعها فيه، حتى إذا اتسق وتم، نقلته السعادة إلى الحياة في يوم من أيامها الفردة التي لا يتفق منها في العمر الطويل إلا العدد القليل، لتحقق للحي وجود حياته بسحرها وجمالها، وتعطيه فيما ينسى ما لا ينسى.

خرج الحلم السعيد من تحت النوم إلى اليقظة، وبرز من الخيال إلى العين، وتمثل قصيدة بارعة جعلت كل ما في المكان يحيا حياة الشعر؛ فالأنوار نساء، والنساء أنوار، والأزهار أنوار ونساء، والموسيقى بين ذلك تتم من كل شيء معناه، والمكان وما فيه، وزن في وزن، ونغم في نغم، وسحر في سحر.

ورأيت كأنما سحرت قطعة من سماء الليل، فيها دارة القمر، وفيها نثرة من النجوم الزهر، فنزلت فحلت في الدار، يتوضحن وتأتلقن من الجمال والشعاع، وفي حسن كل منهن مادة فجر طالع، فكن نساء الجلوة وعروسها.

ورأيت كأنما سحر الربيع، فاجتمع في عرش أخضر، قد رصع بالورد الأحمر، وأقيم في صدر البهو ليكون منصة للعروس، وقد نسقت الأزهار في سمائه وحواشيه على نظمين: منهما مفصل ترى فيه بين الزهرتين من اللون الواحد زهرة تخالف لونهما؛ ومنهما مكرس بعضه فوق بعض، من لون متشابه أو متقارب، فبدا كأنه عش طائر من طيور الجنة أبدع في نسجه وترصيعه بأشجار سقي الكوثر أغصانها.

وقامت في أرض العرش تحت أقدام العروسين ربوتان من أفانين الزهر المختلفة ألوانه، يحملها خمل من ناعم النسيج الأخضر على غصونه اللدن تتهافت من رقتها ونعومتها.

وعقد فوق هذا العرش تاج كبير من الورد النادر كأنما نزع عن مفرق ملك الزمن الربيعي، وتنظر إليه يسطع في النور بجماله الساحر سطوعاً يخيل إليك أن أشعة من الشمس التي ربت هذا الورد لا تزال عالقة به، تراه يزدهي جلالاً كأنما أدرك أنه في موضعه رمز مملكة إنسانية جديدة تألفت من عروسين كريمين. ولاح لي مراراً أن هذا التاج يضحك ويستحي ويتدلل، كأنما عرف أنه وحده بين هذه الوجوه الحسان يمثل وجه الورد.

ونص على العرش كرسيان يتوهج لون الذهب فوقهما، ويكسوهما طراز أخضر تلمع نضارته بشراً، حتى لتحسب أنه هو أيضاً قد نالته من هذه القلوب الفرحة لمسة من فرحها الحي.

وتدلت على العرش قلائد المصابيح كأنها لؤلؤ تخلق في السماء لا في البحر، فجاء من النور لا من الدر؛ وجاء نوراً من خاصته أنه متى استضاء في جو العروس أضاء الجو والقلوب جميعاً.

وأتى العروسان إلى عرش الورد، فجلسا جلسة كوكبين حدودهما النور والصفاء؛ وأقبلت العذارى يتخطرن في الحرير الأبيض كأنه من نور الصبح، ثم وقفن حافات حول العرش، حاملات في أيديهن طاقات من الزنبق، تراها عطرة بيضاء ناضرة حيّة، كأنها عذارى مع عذارى، وكأنما يحملن في أيديهن من هذا الزنبق الغض معاني قلوبهن الطاهرة؛ هذه القلوب التي كانت مع المصابيح مصابيح أخرى فيها نورها الضاحك.

وأقتعدت درج العرش تحت ربوتي الزهر ودون أقدام العروسين - طفلة صغيرة كالزهرة البيضاء تحمل طفولتها، فكانت من العرش كله كالماسة المدلاة من واسطة العقد وجعلت بوجهها للزهر كله تماماً وجمالاً، حتى ليظهر من دونها كأنه غضبان منزو لا يريد أن يرى.

وكان ينبعث من عينيها فيما حولها تيار من أحلام الطفولة جعل المكان بمن فيه كأن له روح طفل بغتته مسرة جديدة.

وكانت جالسة جلسة شعر تمثل الحياة الهنيئة المبتكرة لساعتها ليس لها ماضٍ في دنيانا.

ولو أن مبدعاً أفتتن في صنع تمثال للنية الطاهرة، وجيء به في مكانها، وأخذت هي في مكانه لتشابها وتشاكل الأمر.

وكان وجودها على العرش دعوة للملائكة أن تحضر الزفاف وتباركه.

وكانت بصغرها الظريف الجميل تعطي لكل شيء تماماً، فيرى أكبر مما هو، وأكثر مما هو في حقيقته. كانت النقطة التي أستعلنت في مركز الدائرة، ظهورها على صغرها هو ظهور الأحكام والوزن والانسجام في المحيط كله.

لا يكون السرور دائماً إلا جديداً على النفس، ولا سرور للنفس إلا من جديد على حالة من

أحوالها؛ فلو لم يكن في كل دينار قوة جديدة غير التي في مثله لما سر بالمال أحد، ولا كان له الخطر الذي هو له؛ ولو لم يكن لكل طعام جوع يورده جديداً على المعدة لما هنأ ولا مرأ؛ ولو لم يكن الليل بعد نهار، والنهار بعد ليل، والفصول كلها نقيضاً على نقيضه، وشيئاً مختلفاً على شيء مختلف - لما كان في السماء والأرض جمال، ولا منظر جمال، ولا إحساس بهما؛ والطبيعة التي لا تفلح في جعلك معها طفلاً تكون جديداً على نفسك - لن تفلح في جعلك مسروراً بها، لتكون هي جديدة عليك.

وعرش الورد كان جديداً عند نفسي على نفسي، وفي عاطفتي على عاطفتي، ومن أيامي على أيامي؛ نزل صباح يومه في قلبي بروح الشمس، وجاء مساء ليلته لقلبي

بروح القمر؛ وكنت عنده كالسماء أتلألأ بأفكار كما تتلألأ بنجومها؛ وقد جعلني أمتد بسروري في هذه الطبيعة كلها، إذ قدرت على أن أعيش يوماً في نفسي؛ ورأيت وأنا في نفسي أن الفرح هو سر الطبيعة كلها، وأن كل ما خلق الله جمال في جمال، فأنه تعالى نور السموات والأرض، وما يجيء الظلام مع نوره، ولا يجيء الشر مع أفراح الطبيعة إلا من محاولة الفكر الإنساني خلق أوهامه في الحياة، وإخراجه النفس من طبائعها، حتى أصبح الإنسان كأنما يعيش بنفس يحاول أن يصنعها صناعة، فلا يصنع إلا أن يزيغ بالنفس التي فطرها الله.

يا عجباً! ينفر الإنسان من كلمات الاستعباد، والضعة، والذلة، والبؤس، والهم، وأمثالها، وينكرها ويردها، وهو مع ذلك لا يبحث لنفسه في الحياة إلا عن معانيها.

إن يوماً كيوم عرش الورد لا يكون من أربع وعشرين ساعة، بل من أربعة وعشرين فرحاً، لأنه من الأيام التي تجعل الوقت يتقدم في القلب لا في الزمن، ويكون بالعواطف لا بالساعات، ويتواتر على النفس بجديدها لا بقديمها.

كان الشباب في موكب نصره، وكانت الحياة في ساعة صلح مع القلوب، حتى اللغة نفسها لم تكن تلقي كلماتها إلا ممتلئة بالطرب والضحك والسعادة، آتية من هذه المعاني دون غيرها، مصورة على الوجوه إحساسها ونوازعها؛ وكل ذلك سحر عرش الورد؛ تلك الحديقة الساحرة المسحورة التي كانت النسمات تأتي من الجو ترفرف حولها متحيرة كأنما تتساءل: أهذه حديقة خلقت بطيور إنسانية؛ أم هي شجرة ورد هبطت من الجنة بمن يتفيأن ظلها ويتنسمن شذاها من الحور؛ أم ذاك منبع وردي عطري نوراني لحياة هذه الملكة

الجالسة على العرش؟

يا نسمات الليل الصافية صفاء الخير، أسأل الله أن تنبع هذه الحياة المقبلة في جمالها وأثرها وبركتها من مثل الورد المبهج، والعطر المنعش، والضوء المحي؛ فإن هذه العروس المعتلية عرش الورد:

هي ابنتي.

(طنطا)

مصطفى صادق الرافعي

شخصية نسوية أندلسية

صبح أو صبيحة - 1

للأستاذ محمد عبد الله عنان

حظية خليفة، أم خليفة؛ سيدة مطلقة الرأي، تولي وتعزل الوزراء والقادة؛ وتدير شئون السلام والحرب، حسناء يغنم جمالها ملكاً، ويأسر خليفة، ويسيطر على قصر وحكومة؛ صاحبة السلطان المطلق في دولة من أعظم دول الإسلام؛ نصرانية نافارية مع ذلك؛ تلك هي صبح أو صبيحة أو (اورور) قرينة الحكم المستنصر بالله الأموي خليفة الأندلس، وأم ولده هشام المؤيد بالله يقدم إلينا التاريخ الإسلامي أمثلة كثيرة لنساء أجنبيات من الرقيق أو الأسرى، سطعن في قصور الخلفاء والسلاطين، وتمتعن بالسلطان والنفوذ؛ ولكنه لا يقدم إلينا كثيراً من لمواطن التي تستأثر فيها أجنبية نصرانية بالسلطان والحكم المطلق في دولة إسلامية قوية، وتسهر على مصاير هذه الدولة بذكاء وعزم، وتقودها لخير الإسلام والخلافة. والواقع أننا لا نستطيع أن نجد لذلك مثلاً أسطع من مثل صبح أو (اورور)، تلك الفرنجية الحسناء التي لبثت زهاء عشرين عاماً تسيطر بسحرها ونفوذها على خلافة قرطبة، وتقوم بتدبير شئونها في السلام والحرب مع أعظم رجالات الأندلس. ولم تك صبح سوى إحدى كواكب هذا الثبت الحافل من النساء الفرنجيات اللائي يقدمهن إلينا تاريخ الأندلس منذ الفتح، واللائي يتركن أثرهن في سير الحوادث أحياناً. ونستطيع ان نذكر منهن (ايلونا) القوطية أرملة ردوريك (لذريق) ملك القوط عند الفتح، وهي التي يسميها العرب (بأم عاصم)، فقد تزوجها عبد العزيز بن موسى بن نصير أول حاكم للأندلس بعد الفتح، وكان نفوذها ووحيها السيء من الأسباب التي أدت إلى مقتل عبد العزيز بن موسى (سنة 95 هـ)؛ ومنهن لامبيجيا الفرنجية الحسناء ابنة اودو أمير اكوتين، تزوجها عثمان بن أبي نسعة الذي تسميه الرواية الفرنجية (منوزا) أو (مونز)، وكان حاكماً للولايات الشمالية (البرنيه)، وتحالف مع أبيها الدوق اودو، وأخذ يدبر الخروج على حكومة

الأندلس والاستقلال بولايته؛ ولكن عبد الرحمن الغافقي أمير الأندلس يومئذ وقف على مشروعه وأرسل لقتاله جيشا قوياً لبث يطارده في الجبال حتى أخذ وقتل وأسرت زوجته الأميرة الحسناء لامبيجيا وأرسلت إلى بلاط دمشق (سنة 113 هـ)؛ ومنهن ماريا الأسبانية النصرانية زوج الأمير محمد بن محمد ووالدة عبد الرحمن الناصر أعظم خلفاء الإسلام في الأندلس ويسميها العرب (مزنة)؛ ومنهن أخيراً (ثريا) النصرانية زوج السلطان أبي الحسن النصري ملك غرناطة، وهي فتاة أسبانية وأبنة قائد شهير، أخذت أسيرة في بعض المعارك التي وقعت بين المسلمين والنصارى وألحقت وصيفة بقصر الحمراء، فأحبها السلطان أبو الحسن وتزوجها؛ وكان لنفوذها ودسائسها أثر كبير في إضرام نار الحرب الأهلية في غرناطة وفي سير الحوادث التي أدت إلى ذهاب دولة الإسلام في الأندلس.

ظهرت صبح في بلاط قرطبة في أوائل عهد الحكم المستنصر بالله (350 - 366هـ) (961 - 976م). ولسنا نعرف كثيراً عن نشأتها وحياتها الأولى؛ وكل ما تقدمه إلينا الرواية الإسلامية في ذلك هو أن (صبحاً) كانت جارية بشكنسية أي نافارية؛ ولا تذكر الرواية إن كانت قد استرقت بالأسر في بعض المواقع بين المسلمين والنصارى، أم كانت رقيقا بالملك والتداول؛ ولكنها تصفها بالجارية والحظية. وصبح أو صبيحة ترجمة لكلمة (اورورا) ومعناها الفجر أو الصبح الباكر، وهو الاسم النصراني الذي كانت تحمله صبح فيما يظهر. وكانت صبح فتاة رائعة الحسن والخلال فشغف بها الحكم، وأغدق عليها حبه وعطفه وسماها بجعفر، ولم تلبث أن استأثرت لديه بكل نفوذ ورأى. وكان الحكم حينما تولى الملك بعد وفاة أبيه عبد الرحمن الناصر قد بلغ السابعة والأربعين من عمره، ولم يكن رزق ولد بعد؛ وكان يتوق إلى ولد يرث الملك من بعده؛ فحققت أمنيته على يد صبح، ورزق منها بولد سماه عبد الرحمن سنة 352هـ (962م) وفرح بمولده أيما فرح، وسمت لديه مكانة صبح؛ ثم ولدت له بعد ذلك بثلاثة أعوام ولدا آخر سماه هشاماً (سنة 354هـ)، ولكن الحكم رزئ بعدئذ بقليل بوفاة ولده عبد الرحمن فاشتد حزنه عليه، وعقد كل آماله على ولده هشام؛ ولبثت صبح تستأثر في البلاد والحكومة بكل نفوذ وسلطان. بيد أنها كانت وافرة الذكاء والحزم، بارعة في تدبير الشؤون، مخلصة لسيدها تعاونه في تدبير مهام الحكم بذكاء وبصيرة، وتسهر معه على سلامة الدولة والعرش. ولم تك صبح يومئذ جارية أو حظية فقط، بل كانت ملكة حقيقية. ولا تشير الرواية الإسلامية إلى أنها غدت زوجة حرة للحكم المستنصر بعد أن كانت جارية وحظية؛ ولكن هنالك ما يدل على أن صبحا كانت تتمتع في البلاط والحكومة بمركز الملكة الشرعية، فالرواية الإسلامية تنعتها بالسيدة صبح أم المؤيد، وتصفها التواريخ الأفرنجية (بالسلطانة صبح). بيد أن هنالك ما يقطع مع ذلك بأنها بقيت من الوجهة الشرعية جارية و (أم ولد) فقط. وتصفها الرواية الإسلامية بعد موت الحكم بأنها (أم ولد)، وهو في الشريعة وصف الجارية التي حملت من سيدها وأصبحت أماً لولده.

وعلى أي حال فقد كانت صبح تحتل مكان الملكة الشرعية، وتتمتع في البلاط والحكومة بنفوذ لا حد له؛ وكان الحكم يثق بإخلاصها وحزمها ويستمع لرأيها في معظم الشؤون؛ وكانت كلمتها هي العليا في تعيين الوزراء ورجال البطانة. وكان كبير الوزراء، الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي يجتهد في خدمتها وإرضائها، ويستأثر لديها ولدى الحكم بنفوذ كبير. واستمرت الحال حيناً على ذلك حتى دخلت في الميدان شخصية جديدة قدر لها أن تضطلع فيما بعد بأعظم قسط في توجيه مصاير الأندلس. تلك هي شخصية فتى مغمور يدعى محمد بن عبد الله بن أبي عامر المعافري؛ أصله من الجزيرة الخضراء من قرية طرش، ووفد على قرطبة حدثاً ودرس في معاهدها درساً مستفيضاً، وبرع في الآداب والشريعة. وكان طموحاً مضطرم النفس والعزم، رفيع المواهب والخلال، وكان في نحو السابعة والعشرين من عمره حينما أراد الحكم أن يعين مشرفاً لإدارة أملاك ولده عبد الرحمن، ورشحه الحاجب المصحفي في من رشح لتولي هذا المنصب. وأعجبت صبح بذكائه وحسن روائه وظرف شمائله فاخترته دون غيره، وعين بمرتب قدره خمسة عشر ديناراً في الشهر، وذلك في أوائل سنة 356هـ (967م). ولما توفي عبد الرحمن عين مشرفاً لأملاك أخيه هشام. وتقدم بسرعة في وظائف الدولة فأضيف إليه النظر إلى الخزانة العامة، ثم عين للنظر على خطة

المواريث، فقاضياً لكورة إشبيلية، ثم عينه الحكم مديراً للشرطة، وفي أواخر أيامه عينه ناظراً على الحشم (ناظراً للخاص).

ويرجع الفضل في تقدم محمد بن أبي عامر بتلك السرعة إلى مواهبه وكفاياته الباهرة، ولكنه يرجع بالأخص إلى عطف صبح عليه وحمايتها له. وقد انتهى هذا العطف غير بعيد إلى النتيجة الطبيعية. كانت صبح امرأة حسناء لا تزال في زهرة شبابها، ولا يزال قلبها يضطرم حباً وجوى، وكان سيدها الحكم قد أشرف على الستين وهدمه الإعياء والمرض؛

أما ابن أبي عامر فقد كان فتى في نضرة الشباب، وسيم المحيى، حسن القد والتكوين، ساحر الخلال، وكان يفتن من جهة أخرى في خدمة صبح وإرضائها ولا ينفك يغمرها بنفيس الهدايا والتحف، حتى لقد أهداها ذات مرة قصراً صغيراً من الفضة بديع الصنع والزخرف لم ير مثله من قبل بين تحف القصر وذخائره، وشهده أهل قرطبة حين حمله من دار ابن أبي عامر إلى القصر، فكان منظراً يخلب الألباب ولبثوا يتحدثون بشأنه حيناً. فكانت هذه العناية تقع من قلب صبح أحسن موقع وتزيدها عطفاً على ابن أبي عامر وشغفاً به. وكان الحكم يشهد هذا السحر الذي ينفثه ابن أبي عامر إلى حظيته وإلى نساء قصره جميعاً ويعجب له؛ ويروى أنه قال يوماً لبعض ثقاته: (ما الذي استلطف به هذا الفتى حرمنا حتى ملك قلوبهن مع اجتماع زخرف الدنيا عندهن، حتى صرن لا يصفن إلا هداياه، ولا يرضين إلا ما أتاه؛ إنه لساحر عليم أو خادم لبيب. وإني خائف على ما بيده)، ولم تلبث علائق صبح ابن أبي عامر أن ذاعت وغدت حديث أهل قرطبة؛ ولم يك ريب في أنها استحالت غير بعيد إلى علائق غرامية. وربما ارتاب الحكم في طبيعة هذه العلائق، وثاب له رأي في نكبة ابن أبي عامر؛ وسعى لديه بعض خصومه واتهموه بأنه يبدد الأموال العامة التي عين للنظر عليها في شراء التحف والأنفاق على أصدقائه؛ فأمره الحكم أن يقدم حساب الخزانة العامة ليتحقق من سلامتها؛ وكان بالخزانة عجز لجأ ابن أبي عامر في تداركه وسده إلى صديقه الوزير ابن جدير فأغاثه؛ وتقدم إلى الحكم سليم العهدة برئ الذمة؛ فزالت شكوكه، وتوطدت ثقته فيه، واستمر ابن أبي عامر متمتعاً بنفوذه، ينتدب لعظيم المهام والشئون؛ وهو خلال ذلك كله يحرص على عطف صبح ويستزيد منه، ويصانع الحاجب جعفر ويجتهد في إرضائه وكسب ثقته، ويخلق حوله حزباً من الصحب والأنصار بسحر خلاله، ووافر بذله ومروءته وبارع وسائله وأساليبه.

وكانت أعظم أمنية للحكم في آخر أيامه أن يضمن البيعة من بعد وفاته لولده أبي الوليد هشام، وهو يومئذ غلام في نحو العاشرة من عمره؛ وكانت أمه صبح تشاطره هذه الأمنية؛ وكان أشد ما يخشاه الحكم أن ينتزع الملك من بعده أخوه المغيرة بن عبد الرحمن الناصر؛ فرأى تفادياً من ذلك أن يعلن بيعة ولده أثناء حياته ويضع رجال الدولة والأمة أمام الأمر الواقع. نفذ هذا المشروع في جمادي الآخر سنة 365هـ (فبراير سنة 976 م) وعقدت البيعة لهشام في حفل جامع بالقصر، وأعلن الحكم أنه يقلد ولده الخلافة من بعده، وأخذت البيعة من الحاضرين ودعي له في الخطبة على المنابر ونقش أسمه في السكة، وأنفذت الكتب إلى النواحي لأخذها من الأكابر والأعيان، وتولى تنظيم البيعة والشهادة محمد بن أبي عامر، وهو يومئذ مدير الشرطة وناظر المواريث، وميسور الكاتب مولى صبح، واطمأن الحكم بذلك على مصير ملكه ومستقبل ولده نوعاً. ولكنه لم يعش بعد ذلك سوى بضعة أشهر؛ وكان المرض يشتد عليه منذ حين، ثم أصابه الشلل، وتوفي في الثالث من صفر سنة 366 (أول أكتوبر سنة 976م).

ولما توفي الحكم المستنصر بالله كانت مقاليد السلطة مجتمعة في أيدي ثلاثة: هم صبح أم هشام، والحاجب جعفر بن عثمان المصحفي، ومحمد بن أبي عامر، وكان قد أضيف إليه النظر على الحشم (نظر الخاص). ولم يكن يعترض على بيعة هشام سوى صقالبة القصر، وكانوا زهاء ألف، ولهم نفوذ عظيم؛ وكان رأيهم أن تؤخذ البيعة للمغيرة بن الناصر أخي الحكم؛ ولكن الحاجب جعفر وقف على مشروعهم في الحال، واستدعى القواد والجند الذين يثق بإخلاصهم تحوطا للطوارى، واتفقت الكلمة على توليت هشام، وقتل المغيرة؛ ولم تمض ثلاثة أيام على وفاة الحكم حتى بويع ولده

هشام ولقب المؤيد بالله، وتولى الحاجب جعفر ابن أبي عامر تنظيم البيعة، وتولى ابن أبي عامر في نفس الوقت تدبير مقتل المغيرة بن الناصر، فنفذ إليه الجند ليلة البيعة وقتلوه؛ ومنحت السيدة صبح الوصاية على ولدها، وكان في نحو الثانية عشرة من عمره؛ وتم بذلك مشروع الحكم المستنصر، ومشروع الثلاثة ذوي السلطان من بعده. وكان طبيعياً أن تحرص صبح على تولية ولدها لتحكم باسمه؛ وكان طبيعياً أن يؤازر ابن أبي عامر صاحبته والمحسنة إليه ليستمر بواسطتها محتفظاً بنفوذه، وليستطيع أن يحقق على يدها ومن طريق تغلبها على ولدها ما يضطرم به من الأطماع الخفية، أما الحاجب جعفر فكان له مثل ذلك الباعث في تولية هشام، إذ كان يخشى أن يتولى الملك رجل قوي كالمغيرة فيفقد نفوذه وسلطانه. وهكذا جمعت البواعث والغايات المشتركة بين الثلاثة، ولكن هذا التحالف الذي أملته الضرورة المؤقتة لم يكن طبيعياً، ولا سيما بين الحاجب جعفر ومنافسه القوي محمد بن أبي عامر، وكانت العلائق بين صبح ابن أبي عامر تزداد كل يوم تمكناً ووثوقاً، وكان ابن أبي عامر يرى عندئذ في صبح ملاذ حمايته ورعايته لدى الحكم، وكان وجود الحكم يحد يومئذ كثيراً من أطماعه ومشاريعه، ولكنه مذ توفي الحكم، وأضحت جميع السلطة الشرعية مجتمعة في يد صبح بوصايتها على أبنها هشام، أخذ يتأهب للعمل في طريق آخر، ويرى في خليلته صبح أداة صالحة هينة يستطيع أن يخضعها لإرادته، ويسخرها لمعاونته، وكانت صبح من جانبها تغدق كل عطفها وثقتها على هذا الرجل الذي سحرها بخلاله وقوة نفسه وباهر كفاياته، وتضع كل آمالها فيه لحماية العرش الذي يشغله ولدها الفتي. فلم تمض بضعة أيام على تولية هشام، حتى رفع ابن أبي عامر من خطة الشرطة إلى رتبة الوزارة، في نفس الوقت الذي أقر فيه هشام حاجب أبيه جعفر المصحفي حاجباً له، وهكذا أشرك ابن أبي عامر في تولي السلطة المباشرة مع المصحفي، ولم يعترض أحد من رجال القصر أو الحكومة على ذلك الاختيار سوى الحاجب جعفر، فقد كان يرى في هذا التعيين انتقاصاً لسلطته ونكراناً لجميله، بعد أن حمل أعباء السلطة كلها دهراً، وكان يرى في ابن أبي عامر بالأخص منافساً يخشى بأسه، ويرتاب في أطماعه ونياته ومن ذلك اليوم أضطرم بين الرجلين صراع عنيف صامت لم يك ثمة شك في نتيجته.

(للبحث بقية)

محمد عبد الله عنان المحامي

الحرمان

للأستاذ علي الطنطاوي

كتب الأديب المكي الغيور السيد أحمد علي، في الرسالة السابعة والخمسين: (يظهر الأسف الزائد إذ لم تقع عينه - وهو يراجع الفهرس للسنة الأولى، ويتتبع أعداد الثانية، على أسم كاتب حجازي، يكون قد اشترك مع إخوانه وزملائه المعاصرين في الأدب، على صفحات هذه الصحيفة الغراء. . . ويؤمل من مديرها المفضال الأستاذ الزيات، إذا أراد، أن يشيد بذكر أبناء الرافدين والنهرين، ألا ينسى الحرمين، كذلك)

فأحببنا أن نلحق بكلمته هذه الكلمة:

ألم يشد أستاذنا الزيات بذكر الحرمين يا سيد أحمد علي؟ فما هو إذن عدد الهجرة الممتاز، وما هي تلك المقالات الإسلامية العربية؟

أما إن الرسالة إذا نظرت إلى أمر، فإنما تنظر إليه نظرة سامية فيها حكمة وفيها جلال، ولا يعنيها من (الحرمين) أخبار دائرة الصحة، ورسوم الحج، ولكن يعنيها حياة محمد (ص) وظهور الإسلام، وعظمة الفتوح، وجلال حكومة الراشدين؛ ولا يهمها من (النيربين) تنظيم الميزانية، ومناقشات المجلس البلدي، ولكن يهمها تاريخ بني أمية، وسعة الفتوح، وعز العروبة؛ ولا تحفل من (الرافدين) بقرارات الغرفة التجارية، وأخبار الجند، ولكن تحفل بحضارة الإسلام، ومجد المنصور والمأمون، ونهضة العلوم والفنون.

وتحفل بعد هذا كله، بالصورة المشرقة الوضاءة، صورة هذا الماضي الجليل، حين تظهر في صفحة الأمل الجميل، ذلك لأنها (تصور مظاهر العبقرية للأمة العربية) ولأنها ليست جريدة يومية أخبارية.

فهل تراها بعد. لم تشد بذكر الحرمين؟

وهل نسي أستاذنا الزيات الحرمين يا سيد أحمد علي؟ وهل يستطيع مسلم واحد على

وجه الأرض أن ينسى الحرمين، وهو يستقبل الحرم خمس مرات كل يوم؟
يستقبله إذا سمع المؤذن يشق سكون الليل، بهذا النداء العلوي الجليل: (حي على الفلاح، لا إله إلا الله) فينهض من فراشه، يستأنف الحياة والليل يولي ساكناً خاشعاً، والنهار يقبل
مشرقاً زاهياً، والأطيار تتلو بلغة الطير سورة الحمد والشكر، فيتوضأ، ويحس في نفسه السمو والجلال - ذلك السمو الذي حالت الحضارة الغربية. . . بيننا وبينه، فقطعنا مذ لبسناها أجمل مراحل الحياة نياماً، وغفلنا عن داعي السماء، حين ينبعث في تلك الساعة هاتفاً بالنفوس المؤمنة الطاهرة: ألا من مستغفر فاغفر له؟ ألا من داع فأستجيب له؟ ألا من سائل فأعطيه؟
يتوضأ، ثم يستقبل (الحرم) وينسى كل شيء إلا (الحرم)، ثم يخشى أن يشغله الحرم عن الصلاة، والصلاة انقطاع الدنيا الفانية، واتصال بجلال الله الباقي، فيرفع يديه ويقول: الله أكبر، ويدخل في الصلاة فينسى كل شيء، إلا الله الذي يقوم بين يديه.
ويستقبله إذا زال النهار، وقامت الدنيا على قدم وساق، تدعو أبناءها وعبادها، إلى ما أعدت لهم من اللهو واللعب، فاستبقوا إليه، واقتتلوا عليه. . . معرضاً عن نداء الدنيا، مجيباً داعي الله، فيقوم بين يدي رب العالمين، مولياً وجهه شطر المسجد الحرام، تاركاً وراء ظهره الدنيا وما فيها!
ويستقبله إذا أخذت نفسه حظها من طعامها وشرابها وراحتها وقنعت من الدنيا بما نالت منها - وما الدنيا إلا ما يملأ بطناً، ويكسو جسماً، ويريح نفساً. . . يستقبله حامداً شاكراً.
الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، (يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم) إياك نعبد وإياك نستعين (لا نعبد غيرك، ولا نخشى سواك، ولا نرجو النفع إلا منك، ولا نخاف الضر ممن دونك. أنت الضار وأنت النافع، وأنت المعطي، وأنت المانع؛ لا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا يجير عليك من نبي ولا ولي، ولا يشفع عندك إلا بأذنك ملك ولا رسول)
ويستقبله إذا أطفئ المصباح الأعظم، وغطى الليل بسواده الفاحم على بهاء الدنيا وجمال الأصيل، فلا تشغله الرياض والجنان، ولا الورود والثمار، عن واد غير ذي زرع، عند بيت الله المحرم.
ويستقبله إذا عم الظلام ونام الكون، وأقبل على الفراش يسلم روحه إلى خالقها. لا يدري أتعود أم تبقى في عالم الخلود، فيكون (الحرم) آخر ما يقبل عليه ويذكره من هذه الدنيا.
فهل ينسى مسلم (الحرمين)، أو هل ينساهما أستاذنا الزيات وهو الذي يذكر الناس؟!
أولم تر يا سيد أحمد علي كاتباً حجازياً في الرسالة؟ أين أنت يا سيدي؟ وأي شيء يكون كتاب الرسالة إذا لم يكونوا مسلمين عرباً حجازيين؟ أهم روم؟ أهم يونان؟ أهم فينيقيون؟ أهم فرس؟
أليس أهل مصر وأهل العراق وأهل الشام من أبناء الحجاز اللذين خرجوا من الجزيرة تحت راية محمد، ففتحوا العالم واستقروا فيه؟ أليس عمرو وجيشه من أهل الحجاز؟ أليس سعد وجنده من أهل الحجاز؟ أليس أبو عبيدة وخالد وأصحابهما من أهل الحجاز؟ أليس بنو أمية حجازيين؟ أليس بنو العباس حجازيين؟
كأني بك تريد أن تقول: هاك كتاب الرسالة السابعة والخمسين: إن مختار الوكيل مصري، وطوقان فلسطيني، وعباسي أردني، وفتاة الفرات عراقية، وباكثير حضرمي. ولكن لا. ليس في قاموسنا مصري ولا شامي! ولكن فيه مسلم، وفيه عربي.
وأي مسلم لا يرى الحجاز وطنه الأول من جهة النسب ومن جهة الدين؟
وأي عربي (كائناً ما كان دينه) لا يرى الجزيرة محتده وأصله، ومحمداً سيد العرب فخره؟
وهل ينسى مكة مسلم يتلو قول الله:
(لتنذر أم القرى وما حولها)
(والتين والزيتون، وطور سينين، وهذا البلد الأمين)
(لا أقسم بهذا البلد، وأنت حل بهذا البلد)
(وليطوفوا بالبيت العتيق)

(جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس)
(رب أجعل هذا البلد آمناً وأجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام)
(ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم)
ويتلو قول رسول الله (ص) حين فارق مكة مهاجراً:
إني لأعلم أنك أحب البلاد إليّ، وأنك أحب أرض الله إلى الله، ولولا أن المشركين) (أخرجوني منك ما خرجت
ومن ينسى مكة وفيها تاريخ أشرف أمة. وهي أشرف مدينة: لم تدن مذ خلقها الله لملك أجنبي عنها، ولم يؤد أهلها أتاوة لأحد، كانت تحج إليها ملوك حمير وكندة ولخم وغسان،
فيدينون للحمس من قريش، ويرون تعظيمهم والإقتداء بآثارهم فرضاً مفروضاً، وشرفاً لهم عظيماً، وكان أهلها آمنين، يغزون الناس ولا يغزون، ويسبون ولا يسبون:
أبوا دين الملوك فهم لقاح ... إذا هيجوا إلى حرب أجابوا
وكان أهلها في جاهليتهم حلفاء متآلفين، ومتمسكين بكثير من شريعة إبراهيم عليه السلام، ولم يكونوا كالأعراب الأجلاف، ولا كمن لا يوقره دين، ولا يزينه أدب، وكانوا يختنون أولادهم، ويحجون البيت، ويقيمون المناسك،
وكانوا يتزوجون أي القبائل شاءوا، ولا شرط عليهم في ذلك، ولا يزوجون أحداً حتى يشرطوا عليه بان يكون متحمساً لدينهم، يرون أنه لا يحل لهم ولا يجوز لشرفهم حتى يدين لهم
وكان العرب منذ الجاهلية يحجون البيت، ويعتمرون ويطوفون. فإذا أرادوا الانصراف أخذ رجل منهم حجراً من حجارة الحرم، يتذكرها به ويجله. . .
هذا ولك الحق يا سيدي الأديب، في أن تأسف إذ لم تر لواحد من سكان بلدك بحثاً أو مقالة في الرسالة، ولكنما هم الملومون يا سيدي لا الرسالة. وما أحسب الرسالة تنشأ (لتسجل ظواهر التجديد في الأدب العربي، وتكون ديوان العرب المشترك) ثم تسد بابها في وجه قوم هم خلاصة العرب، وبنو خلاصتها، فانشروا فيها يا سيدي، ونقرأ لكم، ونستفد منكم، ونشكركم. وعليك يا سيدي الأخ الأديب السلام ورحمة الله.
دمشق
علي الطنطاوي
قرطبة
نبذة تاريخية عنها
كانت قرطبة تعد من المدن العالمية المهمة، وكانت أعظم مدن الأندلس جميعاً، سواء بأبنيتها الجميلة الفخمة، أم بدور كتبها الكثيرة الواسعة، أم بحدائقها وبساتينها البديعة.
وقد أتخذها عبد الرحمن الداخل عاصمة له، وشيد فيها القصور والحدائق والأبنية والمساجد، ولا سيما الجامع المعروف (بجامع قرطبة) وظلت عاصمة للأندلس حتى زمن عبد الرحمن الناصر، ثامن ملوك بني أمية هناك، إذ أنشأ على مقربة منها مدينة الزهراء المشهورة، وجعلها عاصمة له بدلاً منها، وفي عهد الحكم المستنصر ازدهرت البلاد ازدهاراً عظيماً، وكثرت دور الكتب والمدارس، وانتشرت العلوم والآداب بين طبقات الأمة، وكان لقرطبة النصيب الأوفر من عنايته، حتى لقد عين أخاه الأمير عبد العزيز مديراً لإحدى مكاتب (دور كتب) تلك المدينة العظيمة، ثم جاء هشام الثاني، فعجز عن إدارة المملكة، وتدخل أرباب المصالح والمطامع في أمورها، وكانت النتيجة انفصال الأقاليم واستقلالها، ومن جملتها (قرطبة) إذ استقلت سنة 421هـ - 1029م، واستولى عليها (أبو الحزم بن محمد بن جهور)، وأسس الدولة الجهورية فيها (422هـ - 1030م)، ولما مات (435هـ - 1043م) تولى الأمر بعده أبنه (أبو الوليد محمد بن جهور)، ثم توفى وخلفه ابنه عبد الملك بن محمد، فكرهته الرعية لسوء معاملته لهم، ثم خلعوه، وأخرجوه من قرطبة (461هـ) متحدين مع جيش محمد بن عباد. وبسقوطه انقرضت دولة بني جهور، ومنذ ذلك الوقت بدأت قرطبة في التأخر، وفي سنة 1236م استولى عليها الإفرنج، وطردوا أهلها، واتخذوها حصناً على حدود مملكتهم، وهي الآن من المدن الصغيرة، ويبلغ عدد نفوسها (80000) نسمة. . .
معيشة أهلها وصنائعهم
أما في تلك العصور الزاهرة فكان عدد نفوسها يربو على المليون، وكلهم يعيشون في

خفض من العيش ورفاهية وسعادة، ومما ساعدهم على تلك الرفاهية إتقانهم لفنون وصنائع كثيرة، وزيادة نسبة المتعلمين والمثقفين بينهم، كما كان الحال في باقي المدن الأندلسية المتوسطة والكبيرة، فاشتهرت غرناطة بجودة حريرها وطليطلة بتفننها في صنع الأسلحة،
وقونقة بجوخها الأخضر والأزرق، وقرطبة بصناعة السروج ودباغة الجلود الخ. . وكان في قرطبة مصانع كثيرة مختلفة، تصدر أنواع السلع الأخرى إلى المدن الأندلسية، وإلى خارج البلاد أيضاً. .

العلم والأدب

نقل صاحب نفح الطيب عن ابن سعيد (مؤلف الحلة المذهبة في مملكة قرطبة): (أن عرب قرطبة كانوا يتفاخرون بثلاث: بأصالة
البيت، وبالجندية، وبالعلم. قال: وهي أكثر بلاد الأندلس كتباً، وأشد الناس اعتناء بخزائن الكتب، صار ذلك عندهم من آلات التعين والرياسة، حتى أن الرئيس منهم الذي لا تكون له معرفة، يحتفل أن تكون في بيته خزانة كتب، ويحتفظ فيها، ليس إلا لأن يقول: عندي خزانة كتب، والكتاب الفلاني ليس عند غيره، والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصله وظفر به. . .)

وكان فيها مكاتب كثيرة كبيرة، تحوي أثمن الكتب وأجلها وأفضلها، ولهذا فاق القرطبيون غيرهم من أهل الأندلس والأقطار الأخرى، بكثرة علمائهم وأدبائهم، وبشدة إقبالهم على التعليم والتثقف، وعلى حبهم للعلماء والأدباء، واحترامهم لهم، ولصناعة العلم والأدب.

وكان للحكم الثاني في قرطبة مكتبة، فيها ستمائة ألف كتاب لها أربعة وأربعون فهرساً، في كل فهرس 20 ورقة لأسماء الدواوين فقط!!. ويقول جستاف لوبون - بهذه المناسبة - إن شارل الحكيم الذي تولي أمر فرنسا بعد خلافة الحكم بأربعمائة سنة (1364م) بذل جهده في أن يجمع أكبر عدد ممكن من الكتب للمكتبة الأهلية ببارِيس - حين أسسها - ولكنه لم يستطع أن يجمع أكثر من تسعمائة مجلد ثلثها دينية!. . .

وكانت الكتب تردها من بغداد ودمشق وخراسان والأستانة، وكان فيها 80 مدرسة جامعة، يقصدها طلاب العلم الراقي والأدب الرفيع من أنحاء العالم المختلفة، ومنهم البابا سلفستر الثاني، وكان قد ذهب إلى أشبيلية فدرس فيها زمناً، ثم إلى قرطبة، وذلك قبل أن يصبح بابا (999م)، وكان يسمى قبلاً الراهب جربرت، وممن تخرجوا في جامعات قرطبة، بطرس فنرابل وقسيس كولوني، وكذلك (شانجة) ملك ليون، وغيرهم كثيرون من الأوربيين الذين نذهب اليوم إلى جامعاتهم التي حلت محل الجامعات العربية، والله يغير
ولا يتغير، والله على كل شيء قدير!. . .

وكان في قرطبة علماء وأدباء وفضلاء كثيرون، نذكر منهم (أبو بكر يحيى سعدون الأزدي القرطبي) الملقب (بصائن الدين) وهو أحد الأئمة المتأخرين في القراءات وعلوم القرآن والحديث والنحو واللغة الخ. . ولد بقرطبة (486هـ) ومات بالموصل (567هـ). وأبو الوليد عبد الله بن محمد يوسف المعروف (بابن الفرضي) وكان فقيهاً عالماً من مؤلفاته (تاريخ علماء الأندلس) و (حسن في المختلف والمؤتلف) و (في أخبار شعراء الأندلس)، وقد ولد سنة 351هـ. وقتله البربر يوم فتح قرطبة سنة 403هـ ابن زيدون ولد سنة 394هـ. ومات بأشبيلية سنة 463هـ.

وأحمد بن محمد بن البر، من موالي بني أمية، له كتاب في الفقهاء بقرطبة، ومات في السجن ليلتين بقيتا من رمضان. ومنهم (أحمد بن محمد بن موسى) له مؤلفات كثيرة في أخبار الأندلس، توفي في 12 رجب سنة 344هـ. وولد في (10) ذي الحجة سنة 274.

و (خالد بن سعيد القرطبي) أحد أئمة الأندلس، مات فجأة في سنة 352هـ في الستين من عمره، وحسن بن الوليد بن نصر وابن الدباغ الأزدي، وغيرهم. وغيرهم. . .

خطط قرطبة

تقع قرطبة على الشاطئ الغربي من نهر الوادي الكبير، وبينها وبين البحر خمسة أيام، وذكر ياقوت الحموي في معجمه أنها كانت (أعظم مدينة في الأندلس، وليس لها في

المغرب شبيه في كثرة الأهل وسعة الرقعة، ويقال إنها كأحد جانبي بغداد، وان لم تكن كذلك فهي قريبة منها، وهي حصينة بسور من حجارة، ولها بابان مشرعان في نفس السور إلى طريق الوادي من الرصافة - والرصافة مساكن أعالي البلد متصلة بأسفله من ربضها وأبنيتها، مشتبكة محيطة من شرقيها وشماليها وغربيها وجنوبيها، فهو إلى واديها، وعليه الرصيف المعروف بالأسواق والبيوع ومساكن العامة يربضها. .)
وكان طول قرطبة أربعة وعشرين ميلاً، وعرضها ستة أميال (وكان عدد اربضها 21ربضاً، في كل ربض من المساجد والأسواق ما يقوم بأهله، ولا يحتاجون إلى غيره، وكان بخارج قرطبة ثلاث آلاف قرية في كل واحدة منها منبر وفقيه.)
،وكان فيها (200000) بيت و (600) مسجد و (50) مستشفى و (900) حمام سوقي فضلاً عن الثمانين مدرسة التي ذكرنا، وكان فيها قنطرة طولها 800 ذراع وارتفاعها 60. ذراعاً وعرضها 20 ذراعاً، وفيها ثماني عشرة حنية، وتسعة عشر برجاً
وقد تنافس الخلفاء والأمويون في تعمير هذه المدينة وتزينها وتجميلها، فبنى عبد الرحمن الداخل (القصر الكبير) وجعله مقراً له، وشيد المنصور بن أبي عامر قصر الزهراء سنة 360 على نهر الوادي الكبير، وأنتقل إليه سنة (370هـ) وبنى باقي الملوك والوزراء والعظماء قصوراً كثيرة نذكر منها (الحائر)، الروضة، المعشوق، المبارك، التاج، السرور الخ. .
ولكن أعظم بنايات قرطبة، بل الأندلس كلها، المسجد الجامع، الذي شيده عبد الرحمن الداخل، وكان في الأصل كنيسة فأعجبه موقعها فأخذها من النصارى مقابل أموال وأراض كثيرة.
جامع قرطبة
والواقع أن هذا المسجد آية من آيات الفن العربي، ودليل قاطع على علو كعب العرب في النقش والبناء، وبرهان ساطع على سمو الذوق العربي، والمقدرة الفنية العربية.
ولم يكن يضاهيه من المساجد والقصور في ذلك العصر سوى الجامع الأموي بدمشق، وليس من السهل وصف عظمة جامع قرطبة وتصويره للقارئ وصفاً وتصويراً صادقين، بل ليس من السهل على القارئ أن يدرك عظمته إذا ما نظر إلى عدة صور فوتوغرافية عنه، ومع ذلك فنحن باذلون جهدنا في أن نعطيك فكرة عامة عنه:
فطول المسجد 600 قدم وعرضه 250 قدماً وارتفاعه 20 متراً، وفي عرضه الأيمن 38 صحناً، والأيسر 29 صحناً، وفيه 1293 عموداً من الرخام، تيجانها منقوشة بمختلف النقوش الرائعة. (وفيه من جهة الجنوب 19 باباً مبطنة بصفائح من النحاس المتوج (نحاس المدافع)، وأوسطها مرصع بصفائح من الذهب، وبأعلاه ثلاث كرات ذهبية فوقها رمانة من العسجد)
أما الباب العمومي - وهو باب المنارة - فهو من النحاس أيضاً، عرضه 8 م وارتفاعه 20 م، وفي الزاوية القبلية من لمسجد تقوم منارته العظيمة، وهي مربعة الشكل، وطول كل ضلع منها 12 م وارتفاعها 13 م، وتتحلى بتفاحات فضية وذهبية، محيط كل منها نصف
متر أو أكثر بقليل. ويقول صاحب (رحلة في الأندلس): أنها خمس طبقات في كل طبقة عدد كبير من الأجراس.
وكانت قبة المسجد مشيدة على 365 عموداً من المرمر، والمحراب والمقصورة من أجمل ما في المسجد، ففي تلك المقصورة كان الخلفاء يصلون (وهي بناء مرتفع مربع مزين بنقوش جصية بديعة جداً، وعليها كتابات قرآنية وأحاديث نبوية) وأما المحراب ففسيح واسع، ويتكون سقفه من قطعة رخامية واحدة وفيه كتابات كوفية قرآنية، وكان فيه المصحف العثماني الشريف، وقد نقله عبد المؤمن بن علي إلى مراكش عند استيلاء الموحدين على الأندلس سنة 552 هـ.
وفي المسجد (4700) قنديل من الذهب الإبريز، واحد منها في المحراب، وكان يصرف عليها سنويا (24000) رطل زيتاً و (120) رطلاً من العنبر والعود القاقلي. . .
قال الأستاذ سديو: (وكانت هذه المدينة تصبح مضيئة، وحاراتها مطيبة، بما يلقى فيها من الزهور، مع استعمال الألحان المطربة في المتنزهات والميادين العامة. .)
هذا بعض من كل، وقليل من كثير، عن حالة قرطبة في تلك العصور التي بلغت العظمة العربية فيها الحد الأقصى من الرفعة والسمو، والتي خلد فيها أبطال العرب

أسماءهم في أنصع صفحات التاريخ، ورفعوا أمتهم إلى المكانة اللائقة بها.
البصرة
عبد الكريم وعبد الصمد الناصري
شلفون بعد نصف عام!. . .
بقلم منير الجم الطرابلسي
رحم الله هذا الموسيقي الراحل، فقد عاش طريداً شريداً، غريباً في وطنه، منبوذاً من أهله ومن الناس، ومازال مع الخطوب في صراع حتى فجئته كارثة دهماء أجهزت على حياته المنكودة، فكان ضحية غالية على مذبح الفن لم يدر أحد من أمرها شيئاً!
عاش في دنياه مجهولاً، وجاهد في سبيل الفن مغبوناً، ولقي حتفه باليأس والبؤس، ثم لجأ إلى بارئه يشكو مكر الإنسان، وختل الصديق، وجور الدهر!
وقعت الواقعة، ونزلت النازلة، وأنهار صرح (كوكب الشرق) في بيروت، فكانت نكبة نكباء، وجبت لهولها الأفئدة، وهلعت القلوب، والناس حول الضحايا في مأتم يبكون، هذا يرثي لأباه، وذاك يبكي أخاه، وآخر يذرف الدمع على صديقه مدراراً. إلا هذه الضحية المجللة بروعة الفن، كانت في عزلة عن اهتمام الجمع، فأنهم جهلوها أو تجاهلوها، ونسوا ماضيها وحاضرها، وما أسرع الناس في نسيان الماضي، وجحد الفضل، ونكران الجميل!
ولكن لم تخل الأرض من أخبار بررة قاموا بواجب التأبين في محفل الوليد، وشاركتهم بعض صحف حرة في نشر الترجمة، وتعديد المناقب والمزايا، فكانت تعزية للراحل الكريم في الأولى والآخرة؛ ثم أسدل الستار على ذكراه، فلم يفطن إليه محفل أو ناد، حتى ولا تلاميذه، وما ذلك إلا لأنه كان بائساً معدماً، أبي النفس، عالي الهمة، كارهاً للشهرة والظهور، شانه في ذلك شأن عظماء الفن، يصهرون نفوسهم الزكية في مثلهم العليا، ثم يتلاشون في سكون وهدوء!
كان موسيقياً نابغاً فياض العواطف والشعور، وكان أديباً كبيراً مملوء بنفس سامية تأبى أن تذل، جاهد في مصر زمناً ينشر علينا من أريج (روضة بلابله) الغناء ما يسر النفس، وينعش القلب، حيث المبتكر الساحر، والجديد السائغ في الموسيقى والأدب؛ ثم ناهضه الحساد فرحل إلى دمشق عله يخفف اللوعة فيها والأسى، فكان نصيبه الصد والفشل والإخفاق! فلما ضاقت الأرض عليه بما رحبت سعى إلى عاصمة لبنان، وكأنه كان على
موعد من منيته، فداهمته أشنع ميتة يموتها إنسان، فلا حول ولا قوة إلا بالله!
مات ولما يتمم جهاده الشريف، ولم يجن ثمار أدبه وفنه، وأبى حظه العاثر أن يكون موفقاً في حبه وإخلاصه، بل في حياته ومماته، فقد كان يعلم ذلك كل العلم، ويتأكده كل التأكيد، فألف قطعته الخالدة (الألم) رمزاً لذاته، وشعاراً لبؤسه، وعزفها على مسمعنا يوم كنا لديه في عاصمة الأمويين، فسحرنا بأنغامها الشجية، وغمرنا في ذهول من الحزن عميق، نرثي لحاله ونتألم، ولا غرو فحياته سلسلة آلام مبرحة، ختمت بفاجعة مروعة، قضت على آماله الجسام، وذهبت بنبوغه الرائع.
أما ورثاء نوابغ الفن علينا واجب، وذكر الفقيد البائس أوجب، فقد أديته قسطي على قدر المستطاع، كما أرجو أن يذكره كل مخلص غيور، ففي ذمة الله والتاريخ فقيدنا الكريم، وفناننا المجهول!
حماه
منير الجم الطرابلسي
العامل الاقتصادي في الأدب
للآنسة فكرية زكي دبلوم في التربية والآداب
أريد أن أعالج موضوع الأدب من الوجهة الاقتصادية، لأن كثيراً من الأدباء يمنعهم الحياء من التبسيط في شرح ذلك، مع أن هذا الموضوع جدير بالبحث والنظر، لأن هناك صلة تصل المؤلف بالقراء، فالمؤلف لا يكتب إلا لقرائه، سواء في الجيل الحاضر أو في الأجيال الآتية، ولم يخلق بعد المؤلف الذي يكتب لنفسه. وإذا رجعنا بالبصر قليلاً وجدنا أن كثيراً من أمهات الكتب القديمة التي ننعم بها لم يكتبها مؤلفوها إلا تحت رعاية عظيم أو تشجيع كبير، مما لا نتبسط في شرحه وبيانه، غير أن هذه الكتب لم تكن فتحاً

في الأدب.
فالأدب الصحيح الذي يصور الحياة في صورها الصادقة لا يولد في كنف عظيم أو رعاية كبير، لأنه إذ ذاك لا يصدر عن نفس حرة طليقة من قيود المادة، لذلك لم تولد أمهات الكتب في الأدب الحديث إلا مع وجود القراء، وإذا أردت دليلاً على ذلك فإن لويس الرابع عشر أغدق المال على رجال العلوم والفنون إغداقاً ليس له نظير ولا ضريب، ثم لم ينبغ في عصره كاتب ولا فنان، لأن يد الإحسان كانت تعقل أفواههم، فلا يقولون إلا ما يرضيه، ولا يعملون إلا ما يحسن لديه ويجمل في ناظريه، ولم أجد كاتباً فصل ذلك في وضوح وجلاء إلا (بكل) كتابه الممتع تاريخ الحضارة في إنجلترا.
والكاتب مهما قنع بالقليل يجب أن يعيش قبل كل شيء، فإذا كانت رعاية الكبراء تحول دون الإنتاج البكر في الأدب، بله عدمها
الآن، فليس هناك وسيلة للأدب والأديب غير القراء. ولذلك نتساءل: هل يوجد الآن بيننا جيل القراء الذين يقبلون على قراءة
الكتب القيمة فيساهموا في أحياء الأدب؟. أم نحن نعيش في عصر لم يخلق فيه القراء بعد؟ ولا يمكننا أن نعلل ذلك بفقر القراء، أو غلاء الكتب، لأن ثمن أكبر كتاب لأشهر مؤلف لا يتجاوز ثمن تذكرة من تذاكر دور السينما.
وإذا قال مكابر بأننا تعيش في ذلك العصر فأننا نطالبه بالدليل على ذلك، أين هي الكتب التي طبعت مراراً؟ لا أعلم كتاباً طبع للمرة العاشرة، بله الثالثة أو الرابعة، وتكرار الطبع دليل على رواج الكتب وانتشار الأدب. إذن ففي أي عصر نعيش؟ أنعيش في ذلك العصر
الذي باع فيه ملتون روايته الخالدة (الفردوس المفقود) بعشرة جنيهات؟ أم في العصر الذي كان يعيش فيه جنسون موحد اللغة الإنجليزية فلا يجد قوت يومه؟ أستغفر الله بل نحن نعيش في عصر الانتقال، في عصر تتكون فيه أجيال القراء، (فالرسالة) تطالعك كل أسبوع، والجرائد اليومية تطالعك كل صباح، وهي تؤدي عملاً نافعاً لا يفطن إليه كثير منا، فهي تخلق جيل القراء المقبل الذي سيساهم في رواج الأدب، ومتى وجد هذا الجيل فلا شك في تطور الأدب تطوراً آخر غير ما نراه الآن.
وإني أرى بعين المستقبل أديباً كبيراً يقول لنا كما قال ماكولي عن أدباء عصره: (إنهم ينعمون بالثراء ومباهج الحياة، بينما أشباههم ونظراؤهم من سبعين عاماً كانوا يتضورون جوعاً.) غير أني أدعو الله أن تكون هذه الفترة في تاريخ أدبنا أقل من سبعين سنة، فأنها وإن كانت قليلة في أعمار الأمم طويلة في حياة الأفراد.
فكرية زكي
إبراهيم بك مرزوق وشعره
بقلم صلاح الدين الوداعي
قرأت في العدد السابع والخمسين من الرسالة ما كتبه الأستاذ محمود خيرت عن الشاعر المصري إبراهيم بك مرزوق تعقيباً
على كلمة المغفور له أحمد باشا تيمور التي لم يلم فيها بنواحي حياته الأدبية إلماماً وافياً، فوجدته في مستهل كلمته يقول انه كان يود لو أن بين يديه ديوان هذا الشاعر ليسد الفراغ الذي تركه تيمور باشا، ويسرني أن أحمل هذا الواجب الأدبي عنه، فقد أتيح لي أن أقرأ نسخة مخطوطة من هذا الديوان، سأنقل هنا شيئاً منها يعطينا صورة لحياة هذا الشاعر ومقدرته الأدبية.
أسلوبه في الشعر:
أما غزله فهو من الملاحة بمكان، قال رحمه الله:
أشجتكَ شمس ملاحةٍ ... في غيهب الليل استنارتْ
أم بدر حسنٍ طالع ... من حسنه الأقمار غارت
نَظرت له عين المها ... فتعجبتْ منها وحارت
مَن منصفي من أعين ... في حكمها في القلب جارت
يا جنة نيرانها ... في قلب عاشقها استعارت
ما ضرها لما نأت ... لو أنها زارت
يا شمس حسن بالحجا ... ب السندسي عني توارت
غصن القوام عليه ك ... ل قلوب أهل العشق طارت

ودوائر الأحزان من ... أطواقها بالصب دارت
وركائب الأشواق بال ... قلب الأسير إليك سارت
وقال أيضاً من قصيدة:
ما احتيالي قد صير الصد عاده ... ليته حين أسقم الصب عاده
ما احتيالي وكل من هام وجداً ... سلب الحب لبه ورشاده
بين كأس الهوى وكأس الحميا ... قدرٌ غالبٌ له وإراده
فهو في حالتيه حيران ألقى ... بيد الذل والهوان قياده
ومن قصائده أيضاً هذه الخمرية البديعة:
هيا اسقياني ثلاثاً واشربا قدحاً ... يا ساقيّ فزند اللهو قد قدحا
وأحييا دولة القصف التي دثرت ... وخليا الزهد للوعاظ والنصحا
وبادرا فرص اللذات واجتنبا ... من لام في رشف كاسات الطلا ولحا
فقد خلعت عذارى غير معتذر ... ورحت أرفل في برد الصبا مرحا
وقلت للرشد مالي فيك من أرب ... فارحل وقمت بثوب الغيّ متّشحا
وفيها يقول بالتورية:
فعاطياني وعين النجم شاهدة ... شمساً يقصّر عن أوصافها الفصحا
لو أن عائبها قد ذاق لذتها ... ما كان عاب لها كأساً ولا (قدحًا)
وعلى ذكر التورية هنا أقول إنه كان ولوعاً بها مجيداً لها، فمن ذلك قوله في الرثاء:
يا راحلاً فيه ذقنا ... ما كانا منه احترزنا
كم قد حوينا هموما ... لما رحلت (وحزنا)
ومن محاسن اقتباساته قوله:
ومليح له سلاسل شعر ... وقلوب الورى بهن أسارى
كلما جال طرفه ترك النا ... س سكارى وما هُم بسكارى
وقوله أيضاً:
قد كنت سليماً لا تدري ... ماَ حلو الوصل من الهجر
فأطعت النفس وشهوتها=إن الإنسان لفي خسر
وللشاعر في التخميس والتشطير مقدرة عظمى تشهد له بالتمكن في النظم مع سمو الخيال، واتساق المعنى، وقد نظم في ذلك مقطوعات كثيرة لفحول الشعراء فخمس أغلب القصائد والمقاطيع المتداولة على ألسنة أهل الأدب للمتنبي، والكمال ابن النبيه، وتقي الدين السروجي، والمعري وغيرهم، وكلها في غاية الطرافة والحكمة، ولولا طولها وكثرتها لأوردت هنا طرفً منها لإثبات كفاية هذا الشاعر النادر، وأنا لذلك أكتفي بذكر تشطيره للبيتين المنسوبين إلى إبليس - على سبيل المثال - قال:
كوجنة خود راعها لثم سارق ... (وحمراء قبل المزج صفراء بعده)
إذا صبّها في عسجدي مخضب ... (بدت بين ثوبي نرجس وشقائق)
على نهبها الألحاظ من كل وامق ... (حكت وجنة المعشوق صرفاً فسلطوا)
وصاغ حباب الماء في حال صبه ... (عليها مزاجاً فاكتست لون عاشق)
وعلى قلة الوصف والتشبيه في شعره بلغ حد الإجادة والإبداع، فمن ذلك وصفه لمنشية النزهة بإسكندرية:
بإسكندرية للصفا منشية ... غراء واضحة البها غناء
سطعت شموس الحسن في أرجائها ... وبدوره فلها سنىً وسناء
حيث ألتفتّ رأيت أبهى روضة ... (سال النظار بها وقام الماء)
وقال في (فسقية) يتصاعد منها الماء
لله بل للحسن ماءٌ أحكمت ... فسقية تصعيده فتقطّرا
فجرى لجيناً أو مذاب الدر أو ... سيّار بّللور سما فتقنطرا
ومن قصائده في الفخر والحماسة هذه القصيدة:
قامت تساجلني العلا جدودي ... حتى تحقق فيّ رأي جدودي
واستنجدت فينا شمائل ماجد ... واستنجزت شيم الوفاء عهودي
وتغبّ في ذم الخمود مليحة ... لتشب ناري غير وشك خمود
وبمسمع مني تقول لمن دنت ... منها أهذي حالة المجدود
أيُردّ عما يبتغيه وعزمُه ... ماض وطالعه بسعد سعود

أولم يكن من لم تغر طلابه ... يوماً عليه لفضله والجود
أو ليس من بهر الكواكب رفعةً ... بعلوّ صائب رأيه المعهود - الخ
وفي الديوان غير ذلك من المدائح والتهاني والمراثي والتعازي وباقي الفنون الأدبية من القصائد الشيء الكثير، وكلها مليئة بالمحاسن والغرر - ولا سبيل إلى استقصائها هنا لكثرتها وتشعب أغراضها.
أسلوبه في النثر
وقد عثرت للشاعر على هذه الرسالة الفريدة، المسماة (برحلة الكرامة) التي كتبها إلى سعادة
خيري باشا مهردار، واقتصرت
على بعض فقرات منها خشية الإطالة، وهي التي ضمنت وصف رحلته إلى الخرطوم، قال رحمه الله:
(أهدى إلى نسيم الصبا، الحاملة لرياض الربا، ووفود النسيم، المتحملة بالتكريم والتعظيم، ورسل الأصائل، المتضوعة بنشر الخمائل، وما يزري بنور الرياض، وتغازل المقل المراض، أرق من الدموع، في الربوع، وألعب من الراح، بالعقول والأرواح، وأشهى من الأمان، في الزمان، ووفاء الأخوان، وألذ من عناق أهل الاشتياق، بعد الفراق، وأعذب من الرحيق، على الريق، وأحلى من الإقبال، ببلوغ الآمال، وأحب من الأتحاف بالأسعاف، وأهنأ من الورود، على حياض الوعود، وأشفى من الوصال، وأوفى من طيف الخيال. . . ولكني حيث تنقلت في البلاد، وهمت في كل واد، من أقطار السودان، القاصي منها والدان، واعتسفت طرقها، وشسوعة أسواقها، حيثما ذكره الأستاذ في الوقائع، وجنيته من ثمرها اليانع، التزمت أن أذكر بوجه الاختصار، ما يتذكر به ألو الأبصار، وعسى أن تنفق عنده بضاعتي المزجاة، وأفوز ببركة دعائه بطريق النجاة، فأقول معتمداً على الله، وما توفيقي إلا بالله. . . (قد اقتعدنا غوارب الأقتاد، وجبنا الصخور والأوتاد مسئدين في المهامة والقفار، مستندين إلى أعواد الأكوار، مصطحبين ما يفت في عضد الإصطبار، ويقلب قلب القرار على النار، إلى أن وصلنا إلى بندر الخرطوم، فكانت المحفوفة بالقذى، المحروسة بالأذى، لأنها القرية الظالم أهلها، المستحيل مثلها، بسبب هوائها الوخيم، ووبائها المستديم، فكنت تراها أقذر من بيت الدجاج، وأهون من تبالة على الحجاج، لما بها من الحشرات، المجهولة الأسماء والصفات، التي ليس منها خلاص، ولا للجروح قصاص، لتواردها من الست الجهات، إلى شن الغارات، ويكاد المقيم بها وقت القيظ، يتميز من الغيظ، ويستغيث بالسعير، في أوقات الزمهرير، فهي بين رياح متخالفة، وزعازع متوالفة، وظلل من الضباب، كأول يوم الحساب.)
بلاد لاسمين من رعاها ... ولا حسن بأهليها اليسار
إذا لبس الدروع ليوم بؤس ... فأحسن ما لبست لها الفرار
قلت مما اتفق لي نظمه في بلاد السودان وأهلها من جملة أبيات هذا البيت:
قوم تخيلتهم جاناً لرؤيتهم ... وقلت أن خديوينا سليمان
فلو مكثت غير بعيد، واجتلبت خيل المعتصم والوليد، واستعديت بذي القرنين، واستنجدت من وراء الصدفين. ونشرت أبا مسلم الخراساني، وخرجت في رايات السفياني، وبعثت بالرياح السوافي، ورميت بثالثة الأثافي، ورصدت الكواكب، وميزت بين المغلوب والغالب، وزحفت في جنود صفين، وقاتلت إلى يوم الدين، لما كنت ظفرت على حشراتها بالفتوح، ولو عمرت عمر نوح، فأنا كنا في مصادمة الأمطار، ومزاحمة الأقدار. . . . .)
وبعد، فهذه صورة من أسلوب الشاعر المجيد إبراهيم بك مرزوق المصري في الشعر والنثر، أعرضها على قراء الرسالة علها تجد من أدبائنا من يولي أمثال هذا الشاعر المجيد، ما يستحق من ذكر وتخليد
القاهرة
صلاح الدين الوداعي
الحركة الفكرية لشباب العرب
خبا بريق الثقافة العربية بعد أن بلغت أوجها في القرون الوسطى عقب غارة التتار على البلاد العربية.

وقد قال جوستاف لوبون: (إن الكلام على الشعب العربي وتاريخه وتألقه وعظمة مدنيته لهو كلام عن شعب كان أكثر من أضاف إلى ميراث المدنية وزاد في ثروة الإنسانية العامة
والمدنية العربية آخر هدية قدمها الشرق إلى الغرب وأكبر مدنيات الشرق أهمية، لأنها نتاج كثير منها، وقد تركت في محيط العلم آثاراً لا تمحى)
حتى إذاكان القرن الثامن عشر وهو عهد تقسيم الإمبراطورية العربية التي طبقت كل البلاد العربية وآسيا الصغرى والعجم والهندستان ومصر وشمال أفريقية وكل أسبانيا تقريباً، عانت الثقافة العربية عهداً طويلاً من الجمود بله القهقري.
فقد غلت سيادة الأجانب ملكات الذكاء التي أوتيها العرب، وقتلت حبهم الشديد للمعرفة، وأضعفت قوتهم المبدعة، حتى إذا كان عام 1906 قامت نخبة تسعى إلى إحياء الفكرة العربية وتجديد ثقافتها القديمة. فكانت هذه الحركة الذهنية، هي على أشد ما تكون من المضاء في سوريا، القبس الأول الذي سطع منه عهد الإحياء العربي الجديد، مما كان له دوي في باقي البلاد العربية وصدى عميق في نفوس الشعب الراسف في الجهالة والجمود.
ولقد واجهت هذه اليقظة الذهنية الحركة السياسية التي يقوم بها فتيان الأتراك من أجل (تتريك) كل العناصر غير التركية في إمبراطوريتهم، فكان من أثر هذه السياسة انبثاق وطنية الشبيبة العربية، وبذلك نشأت وطنيتان متعارضتان: العربية والتركية، يقود كلاً منهما شباب الشعبين المثقفون، فنجم عن هذا التعارض بينهما حركة عنيفة أدت إلى تكوين جمعيات تطالب ببعض الحقوق والإصلاح وعلى رأسها شباب الضباط والطلبة الذين تلقوا علومهم في القسطنطينية مما جعل الجامعات مركزاً لوحدة الشباب وألفته.
وصارت وعود الإصلاح التي وعدها الترك لتحسين حال العرب ومن بينها إدخال اللغة العربية في مدارس الأقاليم هباء، فلم يتورع الأتراك عن استعمال كل وسيلة للضغط ومقاومة هذه الكتلة العربية المفكرة مما ألجأ معظمها إلى النزوح إلى مصر التي غدت مثابة للثقافة العربية.
ولقد كان من جراء هذا الخطر الأجنبي توثيق عرى الاتحاد بين شباب العرب الذين استشهد منهم طائفة كبيرة على مشانق الأتراك في سبيل المسألة العربية ومثلهم الأعلى
ولم يكن لدى هذه الشبيبة إلى حين قيام الحرب العالمية إلا بعض المدارس الحكومية تلقن العلوم باللغة التركية وغير المدارس الأولية الخاصة لتتلقى فيها لغتها وآدابها. وأما العلوم العالية فلم يكن هناك سبيل إليها إلا القسطنطينية أو أوربا أو الأزهر
ولما كانت الدراسة العالية غير ميسورة إذن إلا للموسرين، والحكومة التركية لا تكترث لمصير الشباب العربي أضطر هؤلاء بمواردهم الخاصة إلى الخروج من هوة الجهل التي ألقوا فيها عمداً حتى يسلس قيادهم ويسهل إخضاعهم، إذ كانت سياسة الأتراك نحو العرب تركهم ضلالاً في ظلام الجهل
وفي خلال سني الحرب العصيبة قاد الشباب العربي حركة العصيان ضد المستعمر وانحازوا إلى الحلفاء الذين وعدوهم باستقلال البلاد بعد النصر، فهجر شباب الضباط والطلبة كلياتهم واستبدلوا بأقلامهم وكتبهم البنادق لإنقاذ ثقافتهم ونصرة حقهم بالمهج والدماء
ولشد ما كانت دهشة العرب بعد الحرب! أملوا من الحلفاء استقلال بلادهم بالوعود المأخوذة فإذا بهم يقسمونها إلى سوريا وفلسطين والعراق، لتكون تحت انتداب إنجلترا وفرنسا، دون أن يكون لرغبات العرب ومصالحهم حساب، وإذا بالعرب يقاسون بعد الحرب كما قاسوا قبلها عنت الحكم الأجنبي وظلمه، وكان لهذا التقسيم السياسي أوخم العواقب في تكوين العقلية العربية للجيل العربي بعد الحرب، فإن الطرق التعليمية المختلطة التي تمارس في هذه البلاد ترمي إلى تطورات متنافرة وعقليات متعارضة لتكسر من حدة الثقافة العربية والوحدة الوطنية مما عانت منه البلاد كثيراً ولاسيما سوريا
ثم كان من توزيع التعليم بين مدارس الحكومة الرسمية والمدارس الأجنبية الخاصة، كمدارس الفرير، والفرنسيسكان والجزويت، والاتحاد الإسرائيلي، والمدارس

الأمريكية، وجميعها لا تخضع لأية رقابة، ومن تباين الطرق التعليمية المختلفة فيها، والتنافس القوي الأعمى بينها، شر النتائج مما لم يكن يقع غبنه وغرمه إلا على الشباب العربي وحده، فأفسدت الاتجاهات المختلفة والأهواء المتباينة والمؤثرات المتعددة روح الشباب، وباعدت بين بعضهم وبعض فأصبحوا كأنهم غرباء لا يجمع بينهم تفاهم ولا تناسق، فتردوا بذلك في عذاب أدبي مروع، وفوضى فكرية فظيعة، وجهلوا أو لم يعرفوا إلا لماماً أدبهم الوطني
وتاريخ أسلافهم الباهر
وإن الشبيبة التي لا تتغذى ثقافتها الوطنية بالإعجاب بالماضي والزهو بالأسلاف، لا يمكن أن تتعاون وتعمل في سبيل رفعة الوطن فلقد لاحظنا أن طلبة مدارس الإرساليات مثلاً وجلهم من المسيحيين قد خلوا تماماً من الوطنية وحل مكانها التعصب الديني، وهذه حالة نفسية تساعدهم على قبول الاستعمار الأجنبي وتباعد بينهم وبين إخوانهم المسلمين.
على أن من الحوادث السعيدة والجديرة بالذكر أن نخبة من مفكري المسيحيين قد ألقوا منذ سنين نير الرق الأدبي، وبرئوا من الريبة التي خامرت النفوس ومدوا يد المودة إلى إخوانهم المسلمين.
أما تنظيم المدارس الحكومية فقد تم وفقاً للنظام الإنجليزي في فلسطين والعراق، والنظام الفرنسي في سوريا، دون أن يتفق مع حاجات البلاد.
وقد أنشأت هذه الحالة مسألة غاية في الدقة والخطورة، وهي مسألة توحيد التعليم القائم على الثقافة الوطنية، وتحقيق هذه السياسة التعليمية هو الوسيلة الوحيدة السريعة لإنضاج ذكاء الشباب العربي وتحقيق الوحدة مهما كان وسطها أو دينها.
فتوحيد التعليم ينتج وحدة الفهم والتفكير والإرادة، وهي العوامل الثلاثة الأساسية اللازمة لتخلق في الشباب قوة التعاون على توحيد الجهود وإنهاض البلاد مادياً وأدبياً.
ولقد اشتدت الضرورة إلى وحدة التعليم بازدياد عدد الشباب المتعطش للدراسة، فإن عدد المقبلين على التعليم ازداد عقب الحرب كثيراً من الذكور والإناث على السواء.
ومع ذلك فإن المدارس الرسمية أضيق من أن تسع الطلاب، مع أنه ليس للبلاد العربية مصروفات حربية، وميزانيتها تسمح بفتح مدارس جديدة وعلى الأخص في القرى كما تسمح بتحسين المدارس الحالية على وجه السرعة، وفي نظرنا أن هذا الواجب هو من أول الواجبات الملقاة على عاتق الحلفاء. فلماذا أهمل؟
ومن جهة أخرى، فإن المتعلمين يعانون الآن أزمة شديدة في جميع البلاد العربية لما يصادفونها من العقبات في المهن الحرة، إذ لا يجدون بعد سنين طويلة من الدراسة الطويلة الشاقة في أوربا أو في الوطن ما يحتاجونه من عوامل الكمال بعد أن سدت في وجوههم كل طرق الحياة أو ألقيت فيها العراقيل، دون أن تفكر أية حكومة في معونتهم وتمهيد
الطريق لإنماء معارفهم وجني ثمار عملهم، بل أنهم أبعدوا عمداً عن وظائف الدولة وجميع الأعمال المتصلة بها تقريباً إذ يشغلها طبعاً رجال الانتداب، فرنسيون وإنجليز، وكل ذنبهم أنهم تنكروا لنظام الانتداب ففرت منهم معظم وظائف الإدارة في بلادهم، وحرموا من مورد عدل مشروع.
وهاكم مثلاً لتوضيح ما تقدم: إن بمجلس النواب كثيرين أميين، على حين أن البلاد تزخر بالمتعلمين الذين لا يبغون إلا أن يخدموا بلادهم بمعارفهم، وتفسير هذا الأمر أن حكومة الانتداب ترغب في توطيد مركزها بسهولة.
أما الوظائف القليلة التي شغلوها بعد لأي فلا تتناسب مع مستوى تعليمهم، والحاجة هي التي أرغمتهم على قبول وظائف أبعدتهم تماماً عما تخصصوا له، ولطالما خضعوا لرؤساء من رجال الانتداب لا يحملون أية درجة جامعية
وكذلك كانوا في ميادين الحياة الأخرى، تميز الأجانب عليهم وارتفعوا على أكتافهم بفضل سلطات الاحتلال
ولا ينبغي أن ننسى أن بالبلاد العربية أراضي شاسعة ما تزال بكراً كان يمكن أن تقوم بها مشروعات زراعية وصناعية فتشغل كل هذه الطبقة العاطلة
ولقد كان لهذه الأزمة الفكرية أثر نفسي سيئ في الشباب فألقوا نفوسهم دون وعي في أكثر الدراسات قدرة على تأمين مكسب متواضع سريع مما أدى إلى وقف النضوج

الذهني وقتل الطموح
وأحس الجميع بهذه الأدوار المادية والفوضى الذهنية المنتشرة فإذا أضفنا إلى هذه الحالة المعنوية ما يعانيه الشباب من الإذلال والامتهان المستمرين فهمنا بجلاء سبب جنوحه عن غرضه الأصلي بالنسبة له ولبلاده واندفاعه بحرارة وحماسة نحو السياسة لكفاح الاستعمار الأجنبي الذي سبب كل هذه الأدواء، وهو لم يكن قد أدرك إلا بعد سنين طويلة أن حاله تزداد سوءاً، وأن بلاده تشرف على الهلاك، وأن الضرر لابد أن يقتلع من أساسه لكنه إزاء الصعوبات الحاضرة والانقلابات الاجتماعية المتوالية ظل مغلولاً محروماً من كل وسائل الكفاح فالحاضر يفلت منه إذ لا يعاونه نظام البلاد الاقتصادي والسياسي، والمستقبل لا يمثل له إلا نذيراً من الإبهام والقلق المخيف ولطالما شل المستعمرون المتعاقبون على البلاد الحركة الفكرية فيها فقاست منهم الأمرين
واليوم قد نهضت هذه الحركة برغم كل القيود، وأحس الشباب الذي يقاسي شر هذه الأدواء هذه الحاجة وترسم ذلك المثل، فهبت ريح من الوطنية الحارة تقوض كل الحواجز الزائفة التي وضعتها القوى الأجنبية، وتدعم أواصر هذا الشباب الذي وحد بينه التاريخ والعادات واللغة
وإن هذه الوطنية لتتغلغل اليوم بقوة في الطبقات الدنيا من هذا الشعب الذي قوته ذكريات ضحايا الحكم التركي ونظام الانتداب ودفعته لإنقاذ ثقافته وحريته
وقد بدت في هذه الأيام نفسية عجيبة في روح هذا الشعب، هي التعطش لتعليم الأبناء حتى يصبحوا قادرين على نيل الاستقلال وتتجه الحركة الفكرية بالشباب العربي نحو إحياء مجد أورشليم وبغداد القديم من الوجهة الذهنية والسياسية، وستستعين في ثقافتها بكل العوامل الضرورية لارتقائها روحياً وسياسياً.
(آسيا الفتاة)
أ. الجابري
فصول مدرسية في الأدب الدرامي
الرواية المسرحية في التاريخ والفن
بقلم أحمد حسن الزيات
صفات العمل
من صفات العمل الأساسية الوحدة، والسرعة، وتوجيه الأثر إلى الذهن
فوحدة العمل هي اتحاد الأجزاء المختلفة التي يتركب منها العمل الروائي على إيجاد حادث واحد أو منعه. ولا يتحقق ذلك إلا بحصر الاهتمام كله في بطل الرواية، وجعل هذا البطل في خطر واحد لا يختلف من ابتداء التمثيل إلى انتهائه. لأن الخطر إذا زال انتهى العمل، والبطل إذا وقع في خطر غير الأول ابتدأ بوقوعه في عمل آخر. على أن العمل قد يكون مركباً متشعباً تملؤه التغيرات وتعوقه المفاجآت ولا يؤثر شيء من ذلك في وحدته. إذ يكفي أن تكون هذه التفصيلات وتلك الاعتراضات مسوقة إلى غرض واحد، موصلة إلى نتيجة واحدة. وقد يتسامحون أحياناً في تطبيق شرط الوحدة، فيكتفون في تحققه بأن يتحد الخلق الفعال في الرواية، فيجيزون أن تتنوع المواقف وتتعدد الحوادث ما دامت تدور كلها حول خلق واحد تحلله وتفصله
الوحدات الثلاث
ولقد كان القدماء من أشياع المذهب الأتباعي في فرنسا أثناء القرن السبع عشر يشترطون في العمل غير هذه الوحدةوحدتين أخريين: هما وحدة المكان، ووحدة الزمان، ويسمون ذلك قانون الوحدات الثلاث، وظلوا يطبقونه في غير لين ولا هوادة حتى ظهر المذهب الأبتداعي في صدر القرن التاسع عشر فهاجم هذا القانون فيما هاجم من قوانين القدماء. وكان من أثر هذا النضال العنيف بين أنصار المذهبين أن تجوز الأدباء في تطبيقه، وأغضوا النظر قليلا عن تحقيقه، فذهب ما يشينه من تكلف وتعسف، وبقي ما يزينه من دقة وتحديد. فماذا كانوا يريدون بوحدتي المكان والزمان؟ كانوا يريدون بوحدة المكان أن يفرض وقوع العمل كله في مكان واحد لا يتعداه، فإذا وقع في مدينة أو معسكر أو طابق بيت ظل ذلك المنظر واحداً في كل فصل من فصول الرواية من بدأ التمثيل وختامه. وإن

اقتضى الحال أن يعمل أحد الأشخاص عملاً يحتاج إلى نقلة أو رحلة عمله خارج المسرح ثم نبأ به المشاهدين في وقته المناسب. وكانوا يريدون بوحدة الزمان ألا يستغرق العمل الروائي أكثر من أربعة وعشرين أو ست وثلاثين ساعة. وكان أرسططاليس يحتم ألا يتجاوز هذا الزمن دورة الشمس. وعلتهم في اشتراط هذه الوحدات الثلاث مجاراة السلف من الإغريق في سلوك هذه الطريقة، والمحافظة على الإمكانية بمقاربة الحقيقة؛ فإن الذوق السليم يقتضي أن ما يمثل في ثلاث ساعات أو أربع يكون قد حدث حقيقة أو فرضا في زمن يسير ومكان واحد. ولكن المحدثين يقولون لماذا تستطيع المخيلة أن تتصور الحادث لذي أتت عليه القرون حاضراً، ولا تستطيع أن تتعقب الحادث من مكان إلى آخر؟ وإذا قبلت مخيلاتنا أن يمثل لها في ساعة أو ساعتين ما لا يحصل إلا في يوم وليلة، فكيف ترفض أن يمتد العمل إلى ما وراء ذلك؟

الواقع أن الكتاب يتوسعون في هذه القاعدة حتى القدماء منهم ما داموا محتفظين بالإمكانية ووحدة الجاذبية. وقد أصبح اليوم تغيير المكان وتطويل الزمان من الأمور الميسورة على المسرح الحديث، فعالجوا الأول بإرخاء الستار هنيهة ريثما ينتقل الممثلون إلى مكان آخر - والستار ميزة لم تكن لمسرح القدماء من قبل - وعالجوا الثاني بتقسيم الرواية إلى فصول يفرضون مرور الزمن الذي يريدونه في الفترات القصيرة التي تتخللها. على أن هذا الزمن وإن يكن غير محدود لا ينبغي أن يطول حتى يخرج عن حدود الإمكان، فلا يجوز مثلاً أن يكون البطل صغيراً في الفصل الأول ثم يدركه المشيب في الفصل الأخير.

أما السرعة فيجب أن يكون العمل في الرواية أسرع منه في الملحمة، لأن الملحمة مسرحها الطبيعة، ومرماها ذهن القارئ، فهي تحتمل من التطويل والتفصيل والاستطراد والوصف ما لا تحتمله الرواية لضيق مسرحها وقرب مداها. فهي لابد أن تبدأ في عنفوان العمل وعلى مقربة من الحل، لأن طبيعتها من قوة الحركة وشدة الاندفاع، وما تحدثه في نفس المشاهد من شدة القلق وقوة الانجذاب، تأبى الإسراف في خلق الظروف وابتكار الوسائل، فلا تسيغها إلا بقدر الحاجة الملزمة. فالرواية ولا سيما المأساة، سيل يقطع السدود ويقتحم الحواجز، ولكن الملحمة نهر فياض ينحدر هادئاً طليقاً إلى مصبه، فيطول مجراه بكثرة منعطفاته وتعدد محانيه. وإذا امتازت الملحمة بالتنوع والغزارة والفخامة، امتازت المأساة بالسرعة والتأثير والحرارة.

بقيت الصفة الثالثة وهي توجيه الأثر إلى الذهن لا إلى الحواس، لأن المسرح إذا غلب التأثير في الجسم على التأثير في الفكر كان أقرب إلى الملعب وهو مظهر العجائب البدنية من الحيوان المروض والإنسان الممرن، وكان جزاءه أن يفقد سلطانه ومكانه في قليل من الزمن. وعلة ذلك أن التأثير المادي محدود متشابه، فلا يلبث الناس أن ترى أعينهم مداه وتتعود آذانهم صداه، ويدركوا أن ما قرع أسماعهم أول مرة من أصوات الألم المروعة، وأنات الاحتضار الموجعة، إنما هو صوت واحد متكرر الأثر، ويؤول الأمر بالمشاهدين والمؤلفين حتماً إلى أن يفقدوا التأثر منه والتأثير به لتشابه موضوعاته وتكرر مؤثراته. من أجل ذلك لا ترى على المسرح تفاصيل الحوادث المرعبة كالقتل مثلاً، بل يفرض حدوثها في ظاهره ثم تلقى إلى المشاهد على لسان شخص من أشخاص الرواية. ومسرح الإغريق نموذج المسارح في هذه السبيل. أما المسرح الروماني فقد دعاه غلظ الطبع وجفاء الشعور إلى أن يسمع النظارة أنين مصارعي الثيران وهم في سياق الموت، ويريهم دماء الضحايا وأشلاء القتلى مبعثرة على أرضه، فتأخر الفن الروائي عند الرومان من جراء ذلك كثيراً.

يتبع

(الزيات)

في الأدب العربي

كثير عزة

مدى التطور في شعره، خلقه وخلقه، شيعي وشاعر الأمويين،

عشقه

بقلم عبد الحليم عباسي

يعجبك في الأدب العربي القديم ظاهرة جديرة بالبحث العميق، وهي شيوع هذا الأدب الغنائي، فالشعر الجاهلي الذي وصل إلينا لا يتعدى هذا النوع في الأعم، فهو غنائي في لفظه، وفي موضوعه، بينا تجده في الأمم ذوات الأدب لم يسم إلى هذا الضرب إلا بعد قيام الدولة وازدهار النهضة. . . فالشعر اليوناني لم يصل إلى هذه المرتبة إلا بعد أن اشتد أمرهم وعظم سلطانهم، فأخذوا يقيمون المستعمرات على شواطئ البحرين، وكذلك الشأن في الأمم الأخرى، فهو عند الرومان مثلاً لم تقع عليه قرائح الشعراء إلا بعد قيام الدولة ببضعة قرون، وهو في الأمم الأوربية الحاضرة كذلك قد ساوق النهضات وقيام الدول. ويجيء على الضد من ذلك في الأدب العربي، فقد نهض وما برح العرب يهيمون في أوديتهم القاحلة، لا يلم شعثهم بأس الدولة، ولا يحكم أمرهم شرف الملك؛ ولعل البحث في علة هذا يعود إلى ضرورة البحث في خصائص الخيالين: الآري والسامي، وإلى تفهم المزاج العربي الأصيل، مما نرجئه إلى وقت يكون أكثر ملاءمة من هذا الوقت الذي نخصصه للبحث عن كثير، وحسبنا هنا نشير إلى ذلك، وأن نشير إلى أن من هذا الشعر الغنائي ما يتصل بكل نفس، ويخلد على وجه الدهر، وهو الشعر الذي ينبعث من نفس الشاعر، لا يبتغي من ورائه غرضاً، وإنما يقوله إرضاء لرغبة الجمال والفن في نفسه، ومنه الغزل والحنين، وهو شائع في الأدب العربي شيوعاً كبيراً، استطاع معه أن يلون خيالهم، وأساليب تفكيرهم، وأن يجعل الرقة في الحديث والحوار، والبكاء على الدمن من أظهر صفات العرب. . ومن هؤلاء الشعراء الذين زادوا في ذخيرة الأدب الوجداني كثير بن أبي جمعة.

مدى التطور في شعره

كانت الحقبة التي أعقبت عاصفة الفتح الإسلامي المجتاحة، والتي دوخت بلاد فارس، وأدخلت في حوزة المسلمين كثيراً من الأيالات الرومية، حقبة فيها شيء من الهدوء والاستقرار على الأقل - في الأطراف النائية عن مقر الملك الأموي، وكان من ذلك، ومن هذا الرخاء الذي اخذ يمتد بما هيأ له الفتح الإسلامي من فيء يفيض عن الحاجة، أضف إلى هدا ما اقتضته سياسة الملك من ضرورة مشايعة الشعر والأخذ بناصره أن نهض الشعر، وأزدهر سلطانه، وقامت له مدارس كثيرة من أشهرها هذه المدرسة التي لم يقتصر التطور على تغيير أسلوبها اللفظي، وإنما تناول مع القالب الشعري الفكرة، وكثير أقرب إلى هذه المدرسة منه إلى أية مدرسة أخرى. . .

وقد غايرت هذه المدرسة الأنماط الشعرية المتواضع عليها من القديم، فقد أنشأت القصائد يقصد بها النسيب فحسب، ويقصد بها موضوعات غير هذه المعروفة قديماً من الهجو والمدح والاستجداء.

وكثير وأن يكن من هذه المدرسة إلا أن العوامل والمؤثرات التي أثرت في نفوس أصحابها لم تكن عميقة الأثر في نفسه، فقد مدح وهجا، وكل ذلك بلفظ شيق سمح صقلته الحضارة الإسلامية التي بدأت تتفتح، وباعدت بينه وبين وعورة الأسلوب الجاهلي، وليس لذلك من تعليل غير أن النفسية العربية لم تتطور بعد التطور كله، ولم يحن لهذا التمازج الهين مع الثقافات والأمم الذي أخذ يظهر، أن يبدو عنيفاً. . كما أن كثيراً لم يك له هذا الحسب الباذخ والغناء الفاضح، الذي للعرجي وابن أبي ربيعة، فالزمن يقسره على المدح ويضطره إلى الهجاء، ليأخذ الجوائز والهبات، ويستفيد من موالاة هذه العصبيات التي أراد القابضون على مقاليد الأمر انبعاثها حية، ليطرد لهم الملك. . بعد أن جاهد الإسلام في إخفائها زمناً طويلاً. . .

ولكنه إذ يمدح يجانب بعض الشيء هذا المثل الذي يحتذيه شعراء العرب، وهو النمط الجاهلي. . فهو يضيف إلى رقته شيئاً من هذه الصور الوضاءة، التي بعثتها عيشة الهدوء والاستقرار.

إذا ما أراد الغزو لم تثن همه ... حصان عليها عقد در يزينها

نهته فلما لم تر النهي نافعاً ... بكت فبكى مما شجاها قطينها

وهو يجيد بصفة خاصة مدح الملوك إجادة منقطعة النظير، حازت إعجاب معاصريه حتى كانوا يرون من أبرز صفاته القدرة على ذلك. فلا غرو بعد هذا إن كان أثراً عند ملوك بني أمية يعلمون أبناءهم شعره:

خلقه وخلقه

عن الوقاصي قالت: رأيت كثيراً فمن حدثك أنه يزيد على ثلاثة أشبار فقد كذب، وقد

تشاجر هو والشاعر الحزين، فقام كثير وحمل على الحزين ولكزه، فحمله الحزين في يده مثل الكرة، ورمى به الأرض. . وهو إلى ذلك دميم أحمر، أما أخلاقه فكان شديد التيه والكبر، كثير العجب بنفسه، تقع من ذلك على نوادر مضحكة. فمن ذلك أن بعضاً من فتيان قريش كانوا يتحدثون على مسمع منه، بأن كثيراً من تيهه لا يلتفت إلى ورائه، ثم يتبعونه بمن يسحب رداءه فلا يلتفت أبداً، وقد عرف عنه أنه أحمق وفيه غفلة، ولسنا نشك في ذلك، ولكننا نشك في عامة هذه الروايات التي تقص علينا نوادر حمقه، والتي توصله من الغفلة والانتكاس في العقل حداً يصعب تصوره، في مثل من هو مثله في قوة شاعريته. . فمن ذلك أنه قال لعمته مرة: أتدرين من أنا؟ فقالت: نعم، أنت فلان بن فلان، فقال: لا، وإنما أنا يونس بن متي!. . . وقال لأصحابه وهو في مأدبة الموت: سترونني بعد أربعين ليلة طالعاً على فرس عتيق من شعاب هذا الوادي. . وقد كان له إلى ذلك آراء في الرجعة والتناسخ، وهذه من العوامل التي جنت عليه في عامة هذه الروايات، فما عرف الناس منه هذا حتى راحوا يختلقون ويضيفون إليه شتى الروايات التي تؤيد مزاعمهم انتقاما من تيهه وكبره، ثم يتعاقب الزمن، فتصبح هذه المزاعم حقائق ثابتة يتناولها الكتاب دون ما نظر ولا تمحيص، وليس لدينا ما يقوي هذا الشك في صدق هذه الروايات، غير ما نلمحه في سيرة كثير من أنه كان محاطاً بزمرة حبب إليها التندر والفكاهة، ومن أولى بهما من هذا القزم الذاهب بنفسه. . من ذلك أن أبا هاشم عبد الله محمد بن علي وضع عليه من يأتيه بأخباره، فكان يلقاه فيحدثه بما كان منه في خلال يومه، وكثير يعجب من هذا، حتى جاءه يوماً بكلام جرى بينه وبين آخر، وقال له: لقد جرى منك اليوم كيت وكيت. . . فقال كثير: أشهد أنك رسول الله. . .

فمن هنا نرى مبلغ ولوع الناس بالعبث به حتى كانوا يرصدون له بمن كان يأتيهم بأنبائه،

لا يسقط منها حرفاً. .

وزاد في الطين بلة أنه كان دعي النسب إلى قريش، وأكثر الرواة يلحقونه بخزاعة، ولكنه يأبى إلا أن يكون من كنانة قريش، ويأبى إلا أن يدل بهذا النسب المختلق على القرشيين أنفسهم، وإذا عوتب في ذلك وأعوزته الحجة قال: لديع النسب في قريش خير من صريحه في غيرها من القبائل. ومن هنا ندرك مبلغ ما انطوت عليه نفسه من حماقة، وما ركب فيه من تبجح وإدعاء.

على أننا إذا شككنا في كثرة هذه الروايات التي تمثل حمقه وغفلته، فلا نشك في انه كان دميماً إلى حد البشاعة، وكان تيهاً بنفسه، وهذا ما يكفي لصد لناس عنه واستثقالهم لظله.

شيعي وشاعر الدولة

من المعروف عن كثير أنه كان متشيعاً مغالياً في التشيع، وكان ملوك بني أمية يعلمون ذلك، ولكنهم يحسنون مع هذا وفادته، بل يذهبون إلى أبعد من هذا في إكرامه، فينعتونه بشاعر الدولة، وتعلل الروايات الإسلامية هذا بلطف مدخل كثير وجلاله في أعين الخلفاء، وهي قولة ليس فيها سداد منطق ولا عمق بحث. . فأين لطف المدخل عند هذا البغيض الروح؟ وأين هذا الجلال عند من لا يزيد طوله على ثلاثة أشبار ومن هو دعي النسب في قريش؟. . ولا سيما إذا علمنا بأن صدر الدولة الأموية لم يكن يتسع للشيعة، فكم أخذتهم بأساليب العنف والقوة، وكم صرعت من جلة الناس، وما حوادث زياد بن سمية وتنقيبه عنهم تحت كل حجر ببعيدة المدى، بل هذا الحجاج في العراق، يقتفي آثارهم ويأخذهم هبراً بالسيف وبعجاً بالرماح.

إذن فلا بد من أن يكون في الأمر شيء غير هذا الجلال المزعوم، ولطف المدخل الموهوم، مكن لكثير من أن يحتمله الأمويون، وأن يستحلفه الخلفاء بمجالسهم بعلي؛ إذا ما أرادوا أن يصدقهم بخبر دون أن يروا في ذلك غضاضة.

ولنبحث بإيجاز في طبيعة هذا التشيع الذي كان يعتنقه كثير فلعل فيه العلة، وما نخال إلا ذلك. . .

نشأت الشيعية فكرة بسيطة، تتلخص في أن علياً وأحفاده أحق بالخلافة من كل من عداهم، ثم أخذت تتطور هذه الفكرة حتى اصبح الشيعيون في هذه لفترة التي نكتب عنها فرقاً

متباينة لا يستهان بها. . .
وأشهر هذه الفرق فرقتا الزيدية والأمامية، ومن هذه الأخيرة تتشعب فرق متعددة يختلفون في أشخاص الأئمة، منها هذه التي تنتظر خروج محمد بن الحنفية. وقد كان من أتباعها شاعرنا كثير، فهو يمدح هذا الأمام وينعت أحفاد علي بالأنبياء الصغار، وليس في طبيعة هذا التشيع ما يضير الأمويين إذ هو لا يتعرض للقضية الكبرى وهي قضية الملك والخلافة، وأن أحفاد علي أحق به من آل مروان، فقد ألهته هذه الأمور أو ألهى بها نفسه - لا ندري - عن القضية الأساسية الكبرى كما أسلفنا.

اقر الله عيني إذ دعاني ... أمين الله يلطفُ بالسؤال
وأثنى في هواي عليّ خيراً ... ويسأل عن بني وكيف حالي
هو المهدي خبرناه حق ... أخو الأحبار في الحقب الخوالي
وسبط لا تراه العين حتى ... يقود الخيل يقدمها اللواء
تَغَيَّب لا يرى عنهم زماناً ... برضوى عنده عسل وماء

فهل ترى في هذا النوع من التشيع ضيراً على الأمويين؟ بل نزعم أكثر من هذا وهو أن الأمويون ما كانوا ليروا حرجاً في أن يشيع هذا النوع، ليمدوا أسباب الخلف بين فرق الشيعة من جهة، وليلهوهم من جهة ثانية، وما عليهم أن قعدت بهم هممهم، ينتظرون هذا الذي يقود الخيل يقدمها اللواء.

فلا جرم أن لم يأبهوا لتشيع كثير، وما عليهم وهو يجيد مدح الملوك، وقد تغلغل حب القرشيين في صميمه، يحب من والاهم، ويعادي من عاداهم، أن اتخذوه شاعرهم يقدمونه ويروون شعره، وهو بعد الشاعر البعيد الصيت، المستفيض الشهرة.

عشقه

يشك بعض الرواة، في أن كثير كان صادق العشق لعزة، ويدللون على ذلك بروايات نرى فيها اثر الاختلاف والتكلف، فمن ذلك أن كثير تبع مرة بثينة وقال لها متغزلاً:

رمتني على عمد بثينة بعدما ... تولى شبابي وارجحن شبابها

فالتفت فرأى وراءه عزة فاستدرك وقال:

ولكنما ترمين نفساً مريضة ... لعزة منها صفوها ولبابها

وهكذا دواليك من هذه المزاعم التي يلحظ فيها الإنسان أثر الصنعة، ولا نعرف من أين غلب على الرواة هذا الظن، لعلهم ظنوه قلد جميلاً في غزله، دون أن يعرف قلبه هذا الحب المبرح. . والذي نعتقده ونحن ندرس شعره الذي تركه في عزة، فنرى اللوعة وبرح الهوى ووقدة العاطفة، أنه أحب عزة حباً قوياً جارفاً كما يقولون، وكان من أثر هذا الحب أن زفر بهذا الشعر الذي يحمل نجيع القلب، وذوب العاطفة؛ وهاك ما قاله فيها لما أخرجت إلى مصر، ولك أن تحكم:

وقال خليلي مالها إذ لقيتها ... غداة السنا فيها عليك وجوم
فقلت له إن المودة بيننا ... على غير فحش والصفا قديم
وإني وإن أعرضت عنها تجلداً ... على العهد فيما بيننا لمقيم
وإن زماناً فرق الدهر بيننا ... وبينكم في صرفه لمشوم

ولكن أنى لهذا الحب أن يدوم وقد فترت دواعيه. فمن الرواة من يشك في أن كثير رأى عزة واجتمع بها، والذي صح عندنا أنه رآها، ولكن في مرات معدودة، وأنها لم تكن تبادله الحب قوياً كحب بثينة لجميل بن معمر، فمن هنا مال لغيرها وقصد القصائد في أم الحويرث، وأخرى أسمها ظلامة، والمرء إذ يطالع شعره في هاتين، يراه بارد العاطفة ركيك الصنعة.

تقطع من ظلامة الوصل أجمع ... أخيراً على أن لم يك الوصل ينفع

وقس هذا بهذين البيتين يقولهما في عزة:

واجمع هجراناً لأسماء إن دنت ... بها الدار لا من زهده في وصالها
فإن شطحت يوماً بكيت وإن دنت ... تذللت واستكثرتها باعتزالها

وأخيراً فشعره في عزة هو الذي زاد في ذخيرة الأدب الوجداني، ومحال أن يكون مجرد صياغة وصناعة.

عمان

عبد الحليم عباسي

من طرائف الشعر
إلى شبان المسلمين
للشاعر الحاج محمد الهراوي
قل للشباب المسلمين تحيةً ... من سلم ثبت إيمانه
ويزيده في الله حُسنَ عقيدة ... ما جَّره الإلحادُ من خسرانه
الغربُ مجلبة الخسار جميعهِ ... والشرقُ مفتتنٌ به عن شَانه
متودَدٌ، والغربُ لم يأبه له ... لا في مودته ولا شنآنه
ماذا من الغربيِّ في إحسانه ... والشر غلاَّ بٌ على إحسانه
ما زال يرمي الشرقَ من نيرانه ... حتى تردَّى في لظَى نيرانه
في كل يوم معقدٌ لِلجَانه ... والمشكلاتُ تئزُّ تحت لجانه
لو أخلص الغربيُّ في نيَّاته ... ما ثَارت النيرانُ من بركانه
ما باله، والعدل من ألحانه ... تبكي العدالةُ في صدَى ألحانه
لو يحفظُ الشرقيُّ طابعَ قومه ... لم يطوِهِ الغربيُّ في سلطانه
أو كان يزهدُ في الحياةِ لعزِّه ... ما هان بعد العزِّ في أوطانه
أو كان متبعاً لآي كتابه ... لَمضَي، وهذا الدهرُ طوعَ بنانه
لكن سَبَتْهُ حضارةٌ غربيةٌ ... ألقى إلى مضمارِها بعنانه
أين الغزاةُ الفاتحون وأين ما ... فتحت سيوفُ الله من بُلدانه
أين السراةُ الخيِّرون وأين ما ... شادوا لدينِ اللِه من بُنيانه
أين البيوتُ العامراتُ بأهلها ... سل كلَّ بيتٍ دالَ من سكانه
والأزهرُ المعمورُ أين مكانُه؟ ... سل عنه: أين، وأنت فوقَ مكانه
فرِحوا وهم يبنون كلياته ... فليفرحوا بالطوب تحت دهانه
من يوم أن نقلوه عن جُدرانه ... قد طار سر الله عن جدرانه
فأسأل عن الأحياءِ من علمائه ... والفتيةِ الأطهار من شبانه
المتَّقينَ اللَه حقَّ تقُاتِه ... الحافظِين لدينِهم وكيانه
العالِمِين بشرعة وكتَابِه ... العامِلين بروحه وبَيَانه
خرجوا وحتى الزي لم يبقوا له ... ظِلاًّ لجبته ولا قفطانه
مولاي يا ملكَ البلادِ وذخرَها ... وملاذَ هذا الدينِ عند هوانه
مصرٌ بأزهرها القديمِ كما بدا ... بالطابع الموروث منذ زمانه
فأعِدْ إليه عهدَه وأستَبْقِهِ ... تدفعْ به الإلحادَ في عُدوانه
أدعو شبابَ الشرق من أجناسه ... وعلى اختلاف الشرق في أديانه
أدعو لجامعةٍ تضمُّ شَتاتَهُ ... من صينِهِ الأقصى إلى تطوانه
إن لم يكن في الدين جامعة له ... كبرى، ففي آلامه ولسانِهِ
ما بالُنا والغربُ غربٌ دائماً ... في ظِلِّهِ نمضي وتحت ضمانه
فخذوا سبيل الدين فَهْوَ كفيلكم ... ليردَّ سيلَ الغرب عن طُغيانه
والدين للدّنيا وللأخرى معاً ... وسعادة الدارَيْنِ في قرآنِهِ
أهذه الأرض؟
للأستاذ فخري أبو السعود
مَنْ غَازَلَ الرَّوْضَ حتى اْفتَرَّ جَذلاناً ... وكان منقبضاً بالأمس غضبانا؟
ونضَّرَ الزرعَ فاخضرتْ لفائفه ... وأنبث في الأرض آكاماً ووديانا
وأخرج الزهر من أقصى منَابِتِهِ ... فرصَّعَ العُشْبَ أشكالاً وألوانا
وصاح بالريح حتى قرَّ ثائرُها ... إلاَّ نسيماً بِعَرْفِ الزَّهر مَلآنا
وكفكفَ الغيثَ فانجابتْ عوارضُه ... وكان لا يَأتَلي هَطْلاً وتهتانا
وقَشَّعَ السُّحْبَ عن أُفْقِ السَّما فَبَدَا ... طَلْقاً وَأطلعَ وجهَ الشمس ضَحْيانَا
وَرَدَّ غَائلَ بَرْدٍ كاد يُهلكنا ... عاتٍ وأرسلَ دفئاً منه أحيانا
أَهذه الأَرضُ ما زالت كما عُهِدَتْ ... أَمْ بَدَّلَتْها جنودٌ من سليمانا؟
قد ظلَّ ملتحفاً بالدَّجْنِ محتجباً ... حُسْنُ الطبيعة طولَ العامِ وسنانا
حتى انجلى فبدا من طول لهفتنا ... إليه آخَذَ بالألبابِ عُريانا
وللطبيعة حُسْنٌ حيثما سفرتْ ... في الشرق والغرب سَاب أينما بانا
ليست أَقَلَّ بأَرْض الثلج فِتْنَتُهُ ... منها بِوَادٍ يغذِّي النَّخْلَ والبانا

وَدِدْتُ لَّما تمَشَّي في الجزيرة لو ... يُتاح لي حماها الخُلْدُ أزمانا
عَلّي أَعُبُّ مَلِياً مِن مَنَاهِلهِ ... ويفتدي القلبُ من رَيَّاهُ رَيَّانا
ذَرَعْتُها من جنوب الأرض مبتغياً ... شمالها ممعنًا في السير إمعانا
والشمس ترمي شُواظاً من أشعتها ... آناً وَيَفْتَرُ عنّي وَقْدُها آنا
مُقَلْقَلَ الشخص تعلو بي غَوَارِبُها ... حيناً وتهبط بي الأغوارُ أحيانا
تبدو على الأفق الآطامُ مائلةً ... خلف المزارع أسراباً وأُحْدَانا
وَقَدْ عَلَتْ بينها الأبراجُ راسيةً ... طَوَتْ بموضعها دهراً وحِدْثانا
إذا هَبَطْتُ قراها أو مدَائنَها ... رأيت خيراً وإثراءً وعمرانا
ماجت بمن دَرَ جُوافيها ومن ركبوا ... كالنمل تَعْمُرُ أَلْوَاذاً وكثبانا
وإن أَوَيْتُ لأحضانِ الطبيعة لمْ ... أُلاَقِ أَحْنى على الأبناء أحضانا
أَهْدَتْ إليَّ وفوداً من نسائمها ... تترى وظلاًّ من الأغصان فينانا
قداً مَّنَ العدلُ قُطّاناً وَسَابِلةً ... بها وظَلَّلَ أجوازاً وبلدانا
وَفاَء للحق شعبٌ في مناَكِبِها ... عَلى الإباءِ لوَجْهِ الحقّ قد دانا
فخري أبو السعود
زفرة
للأستاذ محمد خورشيد
ذِكّرُوني كيفَ أبتَسِمُ ... قد طوى عهدَ الهَنا الألمُ
وشؤوني باتَ زاخرها ... بدَمٍ ابنِ الجنبِ يلَتطِمُ
وربيعي للخريفِ حَبَا ... وشَبابي اغتاله الهرَمُ
أشتكي همي فيشمت بي ... زمنٌ أنوارُه ظُلَمُ
أنا في ليلِ الشقا همدت ... جذوتي وأجتاحني السَّحَمُ
لم يَشأ ليلي السُّرَى فغَفا ... وطلبتُ الفجرَ أعتصِمُ
فذوى في مهده أملي ... حين زلَّت بالُمنى القَدَمُ
فحياتي - والأسى قدرٌ - ... صفحاتٌ كلُّهُنَّ دَمُ
حسبوني بينَ مَن وُجِدُوا ... ووجودي - لو دَرَوا - عَدَمُ
زفرةٌ كالجمرِ لاذِعةٌ ... سَلَّها من صدريَ القلمُ
القدس
محمد خورشيد
أستاذ الأدب العربي بالرشيدية الثانوية
خبيئة نفسي
للأديب سيد قطب
خبيئةَ نفسي، قد غفا الكونُ فأسفُري ... وكوني سميري، بعد إذ نامَ سُمَّرِي
سها الدهرُ والأقدارُ رنَّقَها الكَرى ... وهوَّم في جوفِ الدُجَى روحُ خيِّرِ
يُطيف على العانين بالعطفِ والرضا ... ويغمرُ بالإغفاءِ رأسَ المفكرِ
وينتظم الدنيا هدوءاً كأنها ... عوالمُ في وادي المنى لم تُصوَّرِ
فلا صوتَ إلا خفقةٌ من جوانحٍ ... كما خفقتْ للضوءِ عينُ المصوِّرِ
ولمَ يبقَ من هذي الحياةِ وأهلها ... سوى طيفِها السَّاري بوادي التذكرِ
خبيئة نفسي من عهود سحيقةٍ ... ومن جوف آباد مضت قبل مولدي!
أمسّكِ في أغوار نفسي ولا أرى ... محيَّاكِ إلا كالخيال المشرد
علمتُكِ حتى أنتِ مِنّيَ بُضْعةُ ... جهلتك حتى أنت في غير مشهدِ!
ويا لطالما أخلفتِ لي كلَّ موعدٍ ... ويا لطالما ألقاكِ في غير موعدِ!
عجبتُ فكمْ مِنْ نفرةٍ تنفرينها ... على فرطِ ما تبديه من توددِ!
حديثُكِ من نفسي قريبٌ وإنما ... إخالُكِ في وادٍ من التِّيهِ سرمدِ
خبيئةَ نفسي، ما ترى أنت؟ إنني ... أريدك في جوٍّ من الضوءِ مَعلَمِ
أعنصرُكِ الأيمانِ والطهرُ أصلُه ... وإلا إلى الكفرانِ والرجسِ مُنْتَمِ
وفي أيِّ وادٍ أنت تسرينَ خلسةً ... ومن أي عهدٍ في الجهالات منهمِ
وكم فيكِ من نصرٍوكم من هزيمةٍ ... تجاورتا في حشدكِ المتزَحِّمِ
وكم فيكِ من يأسٍ وكم فيكِ مأملٌ ... وكم مِنْ تردٍّ أو وثوبِ تقحُّمِ
وكم فيك من حبٍّ وكم فيكِ بغضةٌ ... ومن رشدِ إلهامٍ إلى خبطِ مظلمِ

خبيئةَ نفسي في ثناياكِ معرضٌ ... لما لقيتهُ الأرضُ في الجولانِ
وفيك من الآباد سرٌّ وروعةٌ ... وفيكِ صراعات بكل زمانِ
وفيك التقى الإنسان من عهد خلقِهِ ... وفيكِ التقى الروحيُّ والحيواني
وإنكِ طلَّسْمُ الحياة جميعها ... وصورتها الصغرى بكل مكان
أبيني إذن عن ذلك العالم الذي ... تضمَّنتِهِ من صورةٍ ومعانِ
أبيني أطالعْ في ثناياكِ ما مضى ... وما هو آتٍ من رؤى وأمانِ
سيد قطب

بين الشك والأيمان - 2

بيرون

للأستاذ خليل هنداوي

تسمع قلبه يخفق، وتصغي إلى ضميره يهتف، فتعرف أن الشك قد فتح في قلبه الذي يريد ألا يحس شيئاً جراحات لم تفقده الحياة ولا يرجى له منه شفاء. (وباطلاً ترتسم الابتسامات على شفتيه، وباطلاً يتحرى الطرب عن سبيل ينفذ منه إليه في الليالي التي يثور فيها قلقه)، ويشبه نفسه بذلك الإكليل الغض ظاهره، الذاوي باطنه، وإزاء هذا الشقاء قد نراه ينتفض كالجبار فيقول بلهجة صارمة (ليقل عني من رآني حاني الجبين ومن أورثه قلق نفسي ضعفاً)

إن الشاعر لا يعاند في احتمال الشقاء، ولكنه يريد أن يقابله وهو قوي لا ذليل مستكين، يريد أن يصبر عليه كما يصبر الرجل عند البلاء، يريد أن يموت كالسراج الذي لا ينطفئ حتى يشيع ما حوله بشعلة ساطعة يختم بها حياته، ولكن هذه الانتفاضات المؤقتة سرعان من تتلاشى ليبدو وراءها (بيرون) نفسه.

يقول هارولد (إن آلامنا العاصفة تترك وراءها أثراً بعد ذهابها: قليل من شيء يسقط على ذلك القلب فيهزه إلى الأبد وقد يكون هذا الشيء نغمة شائعة، أو رنة موسيقية، أو ذكرى ليلة من ليالي الصيف، أو ربيع بهي، أو زهرة أو ريح، أو البحر الذي يفتح على حين فجأة جراحاتنا)

وراء هذه الخاطرات يكمن بيرون الذي يصف نفسه ونفوس كثيرين مثله، فهو سئم من الماضي القاتم، وهو شاك من الحاضر الظالم، ويائس ناقم من الغد القادم. تقرا في أسارير وجهه المتجعد هذه الآيات التي كانت كل همه في الحياة.

وروح بيرون هل ارتاحت إلى شقائها أو غلب عليها أمل في غد هو أزهى من الحاضر؟ وإنما يهمها من ذلك الغد أن تجتمع فيه إلى أحبابها وأصدقائها.

وما عسى يحول إليه هؤلاء الأحباب المختفون؟ وهل نراهم بعد أن تواروا في الثرى؟ (ألا يبقى منهم شيء غير الأسماء المنسية؟)

وقف بيرون على قبر صديق له مات في مقتبل عمره وقال: (هل يمكنني أن أومن أنك أمسيت لا شيء وأنت حي مقيم في ذاكرتي. أجل! إنني أعلم بأننا سنجتمع معاً. وهذا الوهم سيملأ فراغ قلبي)

وهكذا نجده لا يذكر المستقبل إلا مصحوباً بوهم أو بحلم، ولكنه وهم خلقته له الحاجة، فهو لو لم يرغب في لقاء من مات من أترابه لما خلق هذا الوهم.

وبيرون هو الذي يهتف: (أصدقائي يتهاوون على الثرى من كل جنس، وأنا سأرسو على الأرض كشجرة منفردة قبل أن يغشاه ذبول. يستطيع الرجال الآخرون أن يلوذوا بأهليهم وأنا لا ملجأ لي إلا عواطفي التي لا تريني في حاضري وفي غدي إلا الرضا الأناني ببقائي حياً بعدهم، إنني لشقي!)

وقد يبلغ به اليأس مبلغاً أشد وأقوى فيقول (أيها الإنسان! ترفع عينيك إلى السماء وأنت لاصق بالأرض، ألا يكفيك أن تعرف من أنت؟ وهل كان الوجود منحة ثمينة تنعم بها مرة ثانية بعد هذه؟ وترغب في التوجه إلى مكان لا أدريه، جل ما تطلبه أن تستعجل الفرار من هذه الأرض، والفناء في السماء)

وفي حالة يأس كتب بيرون هذه الفقرة (الموت! وا أسفاه! ذهاب دائماً! فإلى أين يذهبون! وإلى أين يذهبون؟ أسأحول إلى العدم الذي كنت فيه قبل حياتي وشقائي الحي؟)

وهذه الفقرة الثانية (الحياة تحلق بين عالمين: كالنجمة المعلقة في حاشية الأفق يكتنفها عالماً الظلمة والنور. إن أوقيانوس الزمن الخالد يمشي ويجرف معه (حباً

خفيفاً). الحبب القديم يتلاشى والحبب الحديث يتألف منفصلاً من زبد العصور. وخلال ذلك ترى بقايا هذه الممالك تجرفها أمواجه الهاربة)

ولكن هذه الثورة النفسية يتخللها شيء من الهدوء. أو قل هدوء الخضوع للقدر المجهول الذي يعمل دون أن يرى. فيخلق الشاعر من هذا الرضا شيئاً يبعثه على الرجاء فيناجي الموت قائلاً: (أيها الموت القاسي، قد ملكت مني كل ما تستطيع أن تأخذه: سلبتني أمي، ثم صديقي، والآن نزعت مني أسمى من صديق، ولكنني أنحني بوقار أمام الله) وإذا بهذا الوقار ينمو في نفس الشاعر ويوقظ فيه الأيمان القديم ويحني فيه حنيناً إلى السماء، فيأسف على القيود التي تحول بينه وبين الصعود إلى السماء التي تدعوه إليها بنظراتها الخلابة، وإذا بشعره تبدو على ديباجته مسحة روحانية صوفية.

قال الكونت (غامبا): لأول مرة فتحت حديثاً دينياً مع الشاعر بيرون في نزهة لنا قضيناها على ظهور الجياد بين غابات الصنوبر، فكانت تلك العزلة باعثة على التأملات. فقال: والنهار مشرق الصفاء (كيف يشك الإنسان في وجود الله على الأرض إذا رفع عينيه إلى السماء وخفضهما على الأرض، ثم أنحدر بهما إلى نفسه، أفي استطاعتنا أن نشك في أن هنالك شيئاً هو أسمى وأبقى من التراب الذي نشأنا منه؟.) وهو الذي كتب قبيل وفاته: (يخيل إلي إن الإنسان إذا تأمل في أعمال الروح لا يستطيع أن يجد شكاً في خلودها، إنني شئت أن أشك، ولكن التأمل أبدى لي خطئي. أما هل حالتنا الثانية تشبه حالتنا الحاضرة؟ فهذا سؤال آخر. أما أن الروح هي خالدة، فهذا شان ثابت عندي ثبات فناء الجسد.) ولكن بيرون الذي يؤمن بالحياة الثانية نراه لا يؤمن بها على المثل الذي جاءت به الكتب الإلهية، فهو يجعل من الجنة مستقراً للجميع، ولا يود أن يحشر في النار أحداً. ويقول في هذا الموضوع: (إن كل بعث جسدي هو غريب منكر لا يقبل به العقل إلا إذا كان المراد منه إنزال العقاب. ولكن كل عقاب غايته الانتقام من المذنب لا تهذيبه فهو عقاب سيء غير أدبي. والأهواء الإنسانية هي التي بدلت - كما يتبادر إلى الظن - المذاهب الإلهية. والخلاصة إنه سر عظيم.) وتراه يطلب إلى الدين أن يحقق ما أبت الفلسفة أن تميط عنه اللثام: (ما هي الحقيقة؟ ومن هو الذي يملك دليلها؟ الفلسفة؟ كلا: لأنها تنفي كثيراً من الأشياء! الدين؟ بلى. ولكن أي دين؟ أما قد حان للإله أن يحيي إيماننا فيرسل إلينا نبياً جديداً.)

وهكذا تتوزع بيرون نوازع مختلفة، منها ما يدنيه إلى الجحود بعد أن تجهد نفسه في التنقيب والتفكر، فلا تصل إلى شيء. ومنها ما يصرفه إلى الإيمان بعد أن تكل عزيمته، ويأخذ منه الإعياء كل مأخذ. فآيته منها الآية الشاكة الجاحدة، ومنها الآية المؤمنة الزاهدة، هو كالعصفور الذي يود أن يحلق فيحلق في الأجواء حتى يبلغ الاوج الذي يستطيع، ثم يهبط ويرضى بهبوطه لأن ارتفاعه لم يغنه شيئاً.

وكيف انتهى بيرون؟ وهو الذي كان يرجو الموت فلا يلقاه. ويكرهه أشد الكراهية إذا تمثل في الانتحار، أراد موتاً شريفاً في ساحة الأبطال، فيمم أرض اليونان حيث دعاه داعي تحرير الإنسان من الإنسان، فوجد نفسه يحيط بها القلق ويغلب عليها الاضطراب. وهناك

وهو في السادسة والثلاثين من عمره نظم مقطوعة ودع بها الشباب والحياة، وهو في أزهى ريعان الشباب والحياة، فلم يتمن إلا قبر الجندي البطل. فناجى نفسه قائلاً: (إذا فقدت من الحياة أعذب شيء، فمن أجبرك على احتمال هذه الأعباء الثقيلة؟ هي هنالك ساحة الشرف، فأذهبي واختاري مضجعاً عظيماً، اذهبي وتخيري موطناً يهدأ فيه رمادك ثم استريحي) وفي اليوم الموعود طار النبأ بأن (الرجل العظيم قد مات) وقد أفرد النقادة الفرنسي (تين) في كتابه (تاريخ الأدب الإنجليزي) صفحات مختارة، تناول فيها الشاعر (بيرون) ووصف بحذق ودراية (مرض العصر) الذي فشا بين الأدباء، فأسقط كواكبهم، وصرع عظمائهم.

يقول تين: (وهكذا عاش ومات هذا الرجل العظيم التعس، فكان فريسة سمينة لم يعلق بمثلها مرض العصر، ومن حولها يتساقط الآخرون ضحايا. . . . . البعض انطفأ غارقاً في الذهول والنشوة، والبعض قتله السرور والغناء. أما هؤلاء فقد آل أمرهم إلى الجنون والانتحار، وأولئك غلب على أمرهم العجز والداء. وكلهم عاشوا ناقمين حانقين متألمين، وأشدهم عزماً من استطاع أن يحتمل جرحه حتى صار كهلاً، وأكثرهم هناء

من تألم كما يتألم الغير، يحرص على جراحه وهي بريئة. قد ملأ أنينهم العصر كله ونحن وقوف حيلهم نصغي إلى قلوبنا التي تردد هتافهم همسا، ونحن كئيبون مثلهم، تسيطر علينا الثورة، فالديمقراطية قد فتحت مطامعنا دون أن ترويها، والفلسفة أضرمت رغائبنا دون أن ترضيها. فرجل الشعب يشكو وضاعته. والشاك من شكه! وإنما هذا الرجل - كالرجل الشاك مصاب بسويداء حلت في قلبه قبل أوانها. . . . فتراه يستسلم بعواطفه للشعراء الذين يقولون باستحالة السعادة، وفساد بناء المجتمع وسقوط الإنسان

لا رجاء في شفاء هذا الداء. لأنه داء لا تقوى على محوه عوامل السرور ولا الدين ولا أي شيء. . . وطويلاً سيشعر الناس بأن عواطفهم ترتعش لأنين شعرائهم العظماء. وطويلاً سينقمون على قدر يفتح لأهوائهم فضاء بدون حدود، ولن يقدر لهم الشفاء حتى يحطموها. . . أن ذريتنا مصابة كالسابقين بهذا المرض نفسه. . إننا ذاهبون إلى الحقيقة لا إلى السكون، كل ما نستطيع أن نعالجه في هذه اللحظة هو عقلنا. . . إذ ليس لنا ما نؤخذ به

عواطفنا، إن لنا الحق بأن نتفهم آمال غيرنا التي ليس لنا مثلها، وأن نهيئ لمن يأتي بعدنا سعادة لن نتمتع نحن بها، وستكون لهم أرواح صافية المعدن عند ما ينشئون في محيط صافي المعدن.

ولكن أين يكمن مورد هذا الصفاء؟ إن مورده العلم وحده، فإن في استخدام العلم وفي أدراك الأشياء، فناً وأدباً وسياسة وشريعة جديدة، وإنما واجبنا اليوم أن نتحرى هذه الأشياء)

(بيروت)

خليل هنداوي

العلوم

فكرة النظام الشمسي عند العرب

بقلم فرح رفيدي

امتدت الممالك العربية في أيام الدولة العباسية، والكنيسة حينئذ في أول عهد نفوذها، وما قويت شوكة الخلافة في بغداد، حتى هدأت الزوابع السياسية التي كانت شديدة في أيام بني أمية، وانصرف هم الخلفاء إلى نقل العلوم اليونانية والزيادة عليها. وأقول كما قلت في أمر الكنيسة، إن العرب تلقنوا هذه العلوم، وخصوصاً علمي الهيئة والنجوم من اليونان، لكنهم شرحوها شرحاً أقرب للحقيقة مما شرحته الكنيسة. والسبب في ذلك واضح، لأن الكنيسة كان غرضها الأكبر من تفسير العلوم اليونانية المحافظة على مقامها وتعاليمها لدى الشعب، فأبقت العلوم لديها مختلطة بالدين أو جزءا منه. لكن العرب لم يختلط عندهم العلم بالدين اختلاطه عند الكنيسة، فكان ما نقلوه وزادوا عليه هو لأسباب علمية بحتة، وأيضا لم يكن عندهم هيئة خاصة كمحكمة التفتيش تحاسب الفرد على اعتقاده ودينه.

لكنا إذا سلمنا بكل هذا، فلماذا لم يحدث الانقلاب العلمي في أيام العرب؟ أي لماذا لم يتوصل العرب إلى حل رمز هذا الكون الجليل بطريقة تبين اعوجاج النظام اليوناني؟ نذكر لذلك سببين:

لما ابتدأ العالم العربي في نقل العلوم كان ذلك فقط في أيام المأمون في أوائل القرن التاسع للميلاد، أي في بداية العصر العباسي الثاني، ونعلم إنه قبل القضاء على الخلافة العباسية في القرن الثالث عشر للميلاد قامت دول شتى في كل أنحاء البلاد فعمت الفوضى وكثرت القلاقل والحروب، فلم يستتب السلام في أيام بني العباس إلا مدة قصيرة جداً. أي أن الوقت لم يكن كافياً للعرب ليقوموا بانقلاب أو تجديد في العلوم اليونانية، فإذا قابلنا مثلاً المدى الذي تطورت فيه حضارة اليونان بالمدة التي قام فيها العرب بنهضتهم العلمية وجدنا الفرق كبيراً. فلو اقتصرنا ببدء حضارة اليونان من عصر تاليس وبيتاغوراس فقط في القرن السادس قبل الميلاد، إلى عهد بطليموس وبوكليد في القرن الثاني بعد الميلاد لوجدنا المدة تقرب من الثمانية قرون. أما عند العرب، فيمكن أن يقال إن ترجمة العلوم اليونانية ابتدأت فقط من العصر العباسي الثاني، أي في ابتداء القرن الثالث للهجرة، وبقيت حتى أواخر

القرن الخامس للهجرة وهي مدة لا تزيد على الثلاثة قرون. فإذا كان اليونان بعظمة نبوغهم، وباعتبار أن قسماً كبيراً من مدنيتهم مرتكز على المدنية المصرية القديمة، لم ينتجوا ما أنتجوه في أقل من ثمانية قرون، فكيف يقدر العرب أو غيرهم، أن يستوعبوا ما أبدعه اليونان من تعاليم طبيعية وفلسفية وغيرها في مدة لا تتجاوز ثلاثة قرون؟ خصوصاً والعرب كانوا حينئذ أمة جديدة على الحضارة، لم تتعود ما أعتاده اليونان قبلا. زد على ذلك أنه لو لم يعتن العرب بعلوم اللغة والدين والتوسع فيهما توسعاً زائداً، في عهد بني أمية وما بعده وصرفوا اهتمامهم الكافي لبعض العلوم اليونانية، لكان العرب عندئذ أولى بأن يقوموا بحركة علمية جديدة.

لم يكن علماء العرب في ذلك الوقت راضين عن النظام اليوناني أو محبذين له. فإنه عندما بدأ العرب ترجمة العلوم اليونانية، ورأوا فكرة اليونان في المجموعة الشمسية، وما هي عليه من التعقيد والتناقض وعدم تلاؤم أجزائها ببعضها داخلهم الشك في صحتها وارتابوا في كثير من أقسامها. وجعل هذا الشك منهم عيوناً دقيقة الملاحظة، حريصة في التنقيب، لا تدع شيئاً مهما كان حقيراً دون بحث أو تفسير. ولم يتركوا سبباً إلا فحصوه وشرحوه ووازنوه مع غيره من الأسباب، وقابلوه مع ما تأتى لها من نتائج أرصادها، فأنقصوا من النظام اليوناني أشياء، وزادوا عليه أشياء، واعتمدوا في كل شروحهم وتعليلاتهم على ما يستسيغه العقل ويقبله المنطق محاولين بذلك اتباع طريق غير طريق بطليموس وشرح نظام جديد ربما تصوروه ولكن لم يدون.

قام حينئذ من العرب ابن رشد وابن طفيل وتلميذه البتروغي في القرن الخامس للهجرة، وانتقدوا كتاب الماجسطي حتى أنهم لعدم اكتفائهم بتفسير النظام البطليموسي أتوا بأفكار مبتكرة في حركات الكواكب السيارة، وألفوا نظاماً جديداً يقال له خلاف النظام اليوناني، فأنكروا وجود الدوائر الصغيرة وبذلك عللوا حركة الكواكب من الغرب إلى الشرق وبالعكس تعليلاً مخالفاً لكتاب الماجسطي، ومنهم من اعتقد أن الكواكب لم تبعد مسافة واحدة ثابتة عن دائرة البروج بل هي في أبعد مختلفة، إذ هذا هو السبب في اختلاف شدة الضوء المنبعث منها.

ومن المشهورين في تطور النظام الشمسي من العرب الخوارزمي سنة220 هـ. وهو صاحب الأرصاد المختلفة والمرتبة بنظام خاص يقال له الزيج والفرغاني سنة 225هـ. وله قياسات في أبعاد وأقطار الكواكب الخمسة، وكتابه (كتاب في الحركات السماوية وعلم جوامع النجوم) ترجمه أكثر من واحد إلى اللغة اللاتينية.

وثابت بن قرة (سنة 235هـ) ويعد اكبر المشتغلين في العلوم الهندسية من العرب، أصلح ترجمة إسحق بن حنين لكتاب أقليدس، ووضع عدة شروح عن النظام اليوناني، محاولاً فيها كلها ابتكار نظريات جديدة، وشروح سهلة لدرس النظام البطليموسي، وله أرصاد مختلفة في قياس بعد الشمس وتحديد السنة الشمسية، وقد أضاف فلكاً تاسعاً إلى النظام القديم وراء فلك النجوم الثوابت، وكان أول من وصف الكرات المتراكزة من العرب.

البتاني سنة 270هـ. وهو الذي اشتهر بدقة أرصاده من أيام هبارخس إلى كوبرنيكس، حتى فاق الخوارزمي بدقة ملاحظاته في الكواكب السيارة. وكان من منتقدي بطليموس وقد وجد ميل دائرة البروج عن دائرة خط الاستواء 35 23° وهو رقم مطابق لقيمة الميل الحديث، وعمل ملاحظات دقيقة عن القمر واختلاف حركاته، وعن أوقات الخسوف والكسوف. وهذا ما قاله عنه ابن خلكان. (له الأعمال العجيبة، والأرصاد المتقنة، وأول من أبتدأ بالرصد سنة 264هـ، وله من التصانيف: الزيج، وكتاب معرفة مطالع البروج، وشرح أربع مقالات بطليموس، وأصلح قيمة مبادرة الاعتدالين، وقيمة ميل دائرة البروج على دائرة خط الاستواء).

الزدكلي سنة 460هـ. اشتهر بصنع أدوات الرصد وخصوصاً الأداة المسماة بالصفيحة وهي لقياس أبعاد وأقطار الكواكب السيارة. كتب شرحاً ترجم على أيام الملك الفونسو ملك وقد أخذ عنه وعن البتاني كوبرنيكس في تعليل نظريته الجديدة

ولعل أشهر التجارب العملية التي قام بها العرب أيام المأمون

هو قياس الدرجة من خط نصف النهار، بواسطة ثلاثة أخوة

يقال لهم بنو موسى، وبطريقة غير التي عمل بها اليونان

الأقدمون ذهبوا إلى موضع في سهل سنجار في العراق، فذهب بعضهم شمالاً والبعض جنوباً حتى رأوا في الشمال النجمة القطبية ترتفع درجة وفي الجنوب تهبط درجة. ثم قاسوا المسافتين ووجدوا الوسط بينهما، ولكنهم أتخذوا الرقم الأكبر منهما وهو 32 56 ميلاً

وغير هؤلاء الذين ذكرناهم، قام أناس كثيرون من العرب أتوا بأبحاث جليلة مختلفة في شكل النظام الشمسي، وتعليقات شديدة النقد على النظام اليوناني لا يسعنا ذكرها الآن.

قد يبدو النظام اليوناني للبعض بسيطاً بالصورة التي شرحناها، ولكنه في الحقيقة معقد وغاية في الصعوبة، وفيه كثير من المتناقضات لعدم ثبوته على أساس راسخ، والذي زاد في المسألة تعقيداً هو نظرهم للظواهر كما ترى لا كما يستسهلها العقل البشري.

فتعقد النظام اليوناني وتناقضه، من كثرة ما زيد عليه من الكرات والدوائر الصغيرة، ولد الشك في قلوب الكثيرين من العرب. وهذا الشك هو الذي حرضهم على البحث والتدقيق في ملاحظاتهم، وعلى التأمل في نتائج أرصاداتهم في الكون، وربما يمكن أن تكون أسباب التناقض وعلل النقائص ومسببات الحركات الشاذة والمختلفة التي لاحظوها ولاحظها اليونان من قبلهم. لكن هذا الشك الذي نرى في كثير من شروحهم ومؤلفاتهم لم يتخذ طريقاً محسوساً معيناً يمكن معه أن نسميه انقلاباً علمياً كالذي قام به كوبرنيكس وكبلر وغاليلو فيما بعد.

ومع أن العرب لم يتوصلوا إلى اكتشاف جديد في ميزة هذا الكون العجيب، وتعليل ظاهراته تعليلاً صحيحاً، فإن دقة ملاحظاتهم وحسن ترتيب نتائج أبحاثهم، جعلتهم يفوقون الإغريق ويبذونهم في أشياء كثيرة. فقد مهدت السبيل لاكتشافات مقبلة، وجعلت فكرة النظام اليوناني سهلة التغيير قابلة للانقلاب إلى الفكرة الصحيحة، حتى لم يكن بينهم وبينها إلا مسافة قصيرة جداً بدليل أن كوبرنيكس مبتدع الفكرة الجديدة لم يتوصل إلى ما توصل إليه إلا بعد مراجعة كتب العرب، وقد عاش بعد ما انطفأ نور العلم في الشرق بمدة غير طويلة

فرح رفيدي

القصص

رجل. . . وامرأة

بقلم محمد سعيد العريان

- 1 -

جلس شوكت أفندي كاظم في حجرة الانتظار في مدرسة. . . يجيل طرفه في قطع الأثاث المبعثرة، وينقل النظر بين السقف والأرض والحيطان. لم يتغير شيء فيها عما رآه لآخر مرة منذ سنوات أربع؛ هذا النضد الصغير في زاوية الحجرة كأنه قطعة من أرض المكان فلم يتزحزح عن موضعه؛ وهذه الأريكة الكبيرة طالما تمدد عليها ولوى ذراعيه تحت رأسه وسبح في أحلام اليقظان؛ وهذه الصور على الحيطان تطل منها الوجوه الصغيرة، في أساريرها مرح الطفولة، وفي عينيها بريق الأمل - إنها في موضعها حيث صففها بيديه قبل سنين، ولكنها زادت أخرى، لاشك أنها صور الفرق التي أتمت دراستها بالمدرسة منذ نقل منها. . . ودفعه حنين وشوق فنهض يتأمل صور تلاميذه الذين عاش بينهم شطرا من حياته في منزلة الأب الثاني، ثم فارقهم وفارقوه منذ سنين بعيدة فوجاً بعد فوج إلى حيث لا يدري من فجاج الحياة. ما أسرع ما تمر السنون! أيهم الآن يذكره كما يذكرهم؟ لعل منهم صاحب المنصب الرفيع والجاه العريض وهو ما يزال حيث تركوه في منصبه وجاهه!. . . ووقف لدى صورة من عديد الصور المعلقة، ولم ينتقل عنها ولم يخفض بصره؛ لقد طافت برأسه ذكريات من الماضي، ذكريات حية ما يزال قلبه بدمها ينزف. وحدق في الصورة طويلاً تحديق العانس في المرآة تنعى الشباب وتتهم الزمن. . . منذ ثمان سنوات حين دعي ليجلس بين تلاميذه في هذه الصورة كان شخصاً آخر غير الشخص الذي يعيش اليوم، لقد كان يومئذ يعيش في واد من الأحلام: أحلام الشباب والمرأة والحب. أين هو اليوم مما كان؟ أما الشباب فقد أنهكته أحداث الزمن، وأما الحب فقد دفنه هناك ولفه في أكفان

. . .اليأس، وأما هي
ودخل الضابط يحيه بصوت غليظ، في يده عصا ومن وراءه غلام. وأندفع عادل شوكت إلى أبيه حين رآه باسطاً ذراعيه، فلم يخشى عصا الضابط ولا صوته البغيض؛ وضم الرجل ولده إلى صدره ومال عليه يقبله في ظمأ وشوق؛ وطأطأ الولد رأسه يعبث بأزرار معطف أبيه ويداعب سلسلته؛ وسبح أبوه في ذكريات ينشرها ويطويها:
لقد كان يحبها أعنف الحب وأرقه، ولم يكن يتمنى غير أن يظفر بها زوجاً يصفيها الحب ويخلص لها الوداد؛ وقد ظفر بها ونالها، فأين هو اليوم من سعادة الحياة؟! لقد أفلتها فلم يبق بين يديه من تلك المنى الساحرة غير لمحة ضئيلة يراها في عيني هذا الغلام.
وعاد إلى الماضي يسترجع ساعاته ولياليه، ويحصي على الزمن سيئاته وأياديه: لقد عرفها فتاة في إحدى الحدائق العامة مع أخيها الصغير فعطفه عليها دل متواضع وكبرياء تبتسم، وأحبها منذ ذلك اليوم وراح يعيش في وهم الأماني. . . واستطاع أن يلفتها إليه وأن يجعلها تهتم بأمره؛ ومدت إليه خيط الرجاء فتعلق، ومضت الأيام تقرب بينهما وتدني نفساً إلى نفس حتى أشعرتهما أنها كل شيء في حياته، وأنه كل شيء في حياتها. وشاركته سعادة الأمل، وأخذ يعد العدة للأمر العظيم يوم تكون زوجه، وأخذت تسابق الأيام فمنحته من ودها على غفلة الأهل أشياء في إباء الراغب ورغبة المتأبي؛ ولم تكن أيام الوصال على وتيرة؛ فيوماً دلال، ويوماً عتاب، ويوماً يتنبه الرقيب من حيث يريد وتريد. . . وهكذا راح الزمن يذكي في صدريهما لواعج الشوق، ويضرم لهيب الوجد - أربع سنين متوالية بين لهفة وشوق وأمل؛ ثم زفت إليه. لقد شعر يومئذ أن الدهر أتم عليه نعمته وأسبغ عارفته، ولكنه أعطاها مقادته من اليوم الأول، ولم يتلقها إلا بتقديس وعبادة، وظل بعدها في العبادة والتقديس!. وإنها لتحب السيطرة والسلطان، بعض ما في دمها من طباع الشركس؛ وإن فيه لطراوة ولينا من ضعف العاشق الذليل؛ فأخذت تملي عليه أرادتها وهو كالكرة في يد الصبي. ولم تجد فيه رجل أحلامها الذي قدرت أن يكون، فراحت تنتقص من سلطانه وهي تتمنى أن يعاصيها ويتمرد على إرادتها فتشعر به زوجاً له مثل سيطرة الرجال. وكانت كلما راحت تستثير فيه نخوة الرجل استخذى لها وتلاشت إرادته؛ لقد كان يجيد الغزل وحديث الحب، ولكنه لم يكن يعرف كيف يملي أرادته، ويلوح للحب بالبغض؛ وكان يعرف كيف ينزل عند رغبتها حين تريد، ولا يستطيع أن يكون رجلا حين يريد. . .
- 2 -
ورأت كل حاجاتها لديه مقضية؛ ووجدت نفسها الآمرة الناهية في هذه المملكة الصغيرة،
حتى الرجل الذي كانت تخشى سلطانه وتهواه كان أطوع لها من بنانها. وراحت تبالغ في مطالبها، لا تقف عند حد ولا تنتهي إلى غاية. وحين جاء الصيف رغبت أن يسافرا إلى الإسكندرية فلم يجد في نفسه قوة على العصيان وهو يعلم أن أكلاف الاصطياف هناك فوق ما يتحمل مرتبه الضئيل. . وقضيا في المصيف شهرين استمتعت فيهما زوجة بكل ما اشتهت من حرية وانطلاق، وكان لهما في نفسه لذع ومرارة. وأخذ الحب الذي كانت تحسه لزوجها من قبل يتلاشى رويداً رويداً؛ لأنها بدأت تعنى بأشياء أخرى؛ وصار همها من دنياها ثوباً جديداً تختال به على صوحباتها، أو ليلة ساهرة فيها متاع القلب والنظر، أو سفرة إلى هنا أو هناك تجتلي من مشاهدها أنساً وبهجة. ولم يكن يضن عليها بشيء. . ونسيت تدبير البيت وشئون الزوج؛ فكانت تقضي نهارها زائرة أو طائفة بالبيوت التجارية والحدائق ودور اللهو، وأخذت تنفلت من قيود المرأة المتزوجة قليلاً قليلاً، حتى اطمأنت إلى حريتها كاملة في الغدو والرواح، وفي السهر أيضاً؛ وتاقت لأن تبسط إرادتها إلى ما وراء جدران البيت مؤمنة بجمالها وسلطانها على القلوب!. .
وألف شوكت أن يعود إلى البيت في النهار وأول الليل فلا يجد هناك غير الخادم تخلع عنه ملابسه وتهيئ له الطعام، ولم يكن ليسوءه ذلك كثيراً، فحسبه من الزوج الحبيبة أن تكون سعيدة هانئة، وأن يستيقظ في الصباح على نغمات من صوتها الندي الرقيق، وأن يمسي ووجهها آخر ما يراه من الدنيا اليقظة. ولكن الكرة ما زالت تتدحرج ويخاف أن تبعد عن منال يمينه!. .
وعاد ليلة متعباً مكدوداً يلتمس الراحة في البيت، ودق الباب فلم يجب أحد، وعاود الدق فلم يسمع غير الصدى يرن ثم يتلاشى في مثل ضحكة ساخرة من فم امرأة. . .

ترى أين ذهبت الخادم، وأين زوجة الآن؟ لقد تعودت الغياب عن البيت كأنما لا يعنيها منه إلا أن تأكل وتنام! أليس له عليها مثل حق الأزواج؛ فما لها لا تدرك عليها واجباً ولا تعترف له بحق؟. . وأخذ يذرع الطريق غادياً رائحاً ويداه خلفه ورأسه إلى الأرض، يمد بصره بين حين وحين يرقب الطريق. . ورأى زوجه مقبلة في سرب من رفيقاتها تهتز أعطافهن في فتنة مغرية، ويجاهرن بالحديث عابثات ضاحكات. ورأته زوجه فقالت: (أنت هنا؟) ولم تزد، وسبقته تفتح الباب وأنصرف صواحبها. ولما اطمأن بهما المكان قال لها:

- (لقد ضايقني الانتظار يا إلهام، أين الخادم؟). قالت:

- (الخادم؟ لقد سافرت لترى أباها. ألم أنبئك؟)

قال وقد رسم الاستياء خطين على جبينه:

- (وهلا قدرت أن أعود مبكراً فتكوني في انتظاري ولا تتركيني بالباب؟!)

ومالت عليه فطوقته بذراعها ويدها تعبث بشعره وعيناها تبرقان، وقالت تداعبه في لين وتكسر: (ليتك لا تغضب يا شوكت، أنا احبك!) ثم كانت قبلة نسى معها الغضب والعتاب. . .

وتتابعت أيامها من بعد بين غضب ورضى، وأدركت إلهام أن زوجها يحاول أن يعود رجلاً وأن يبسط عليها سلطانه، ولكن بعد أن عرفت من أين تناله وكيف تسلبه أرادته. . . ومر عام، وصار شوكت أباً. هذا ولده عادل.

ودق الجرس في فناء المدرسة، فأنفلت الغلام من بين يدي أبيه كما فرت سعادته من قبل. .!

أين هي الآن؟ أنه مازال يحبها أعنف الحب وأرقه، ولكنه قد فارقها إلى الأبد! وآلمته الذكرى، فأخرج علبة من جيبه فأشعل دخينة، واعتمد بذراعه على حافة المقعد، وأسند برأسه إلى راحته، وزفر زفرة، وتلوت ثعابين الدخان صاعدة، وراح يتابع الذكرى الأليمة:

لقد كافأته زوجه على حبه ووفاءه وطاعته - بالسخر والتمرد والعصيان! ليته استطاع أن يكون معها أصلب قناة وأغلب إرادة، فلعله كان أحب إليها صلباً غلاباً صاحب إرادة وعنفوان. . .!

إنه كان يحبها حباً بعيد الأمل، ليس له حدود تحصره في دائرة الممكن، ولا حرية تطلقه وراء المستحيل؛ فلما ظفر بها ظل الطريق إلى السعادة، وراح يلتمس قلبها فهوى على قدميها. .!

وحين أراد أن يهيئ لها سعادة الرضى في جواره لم يعرف كيف يجعل إرادته تسبق إرادتها فيما تشتهي فيمنحها ما تشاء قبل أن تدعوه إليه أمرة مطاعة. . .!

ولو إن الحجاب بينهما فيما بين الخطبة والزفاف لم يكن في حراسة التقاليد، لتفاهم قلباهما على الود الكريم، ووضع الأساس لحيات الغد على غير جرف هار من الوهم والخيال. . .!

لم يكن يومئذ يدري أن المرأة تعشق الرجل المتسلط الذي يغلبها ويفوقها، بقدر ما تحتقر الرجل الذي يترامى على قدميها في ضعف وهوان، ولو كان ضعف المحب وهوان العاشق. . .!

لقد عاشرته خمس سنين كانت معه في البيت كضيف على ميعاد، وكان حظ صواحبها منها أكثر من حظه! وربما قضى الساعات في البيت وحيداً، وهي هناك تنتقل زائرة من بيت إلى بيت، فلم تكن تعرف دارها إلا يوماً واحداً في الأسبوع، هو يوم الاستقبال. . . ولقد كان في البيت مرة وسمع بأذنيه أي الشئون يتحدث فيها النساء: حديث الأزواج، وشح الأزواج، وغفلة الأزواج، ثم الأزياء والملاهي ولا شيء غير ذلك!. . بل لعله رأى بعينيه ماذا يصنعن يوم الاستقبال. لقد نقم على كثيرات من صاحبات زوجه، وعاب عليهن سوء الأدب وقلة الاحتشام، ولكنه لم يجرؤ حتى فيما بينه وبين نفسه أن يسيء الظن بأخلاق زوجه، ولم يجرؤ أن يحدثها عما رأى وسمع؛ خشية أن تلومه على استراق الحديث والنظر. .!. . آه لو كان يدري يومئذ أنها واحدة من هؤلاء حين تكون بعيدة عنه، فلعله كان حينئذ يستطيع أن يردها إلى الصواب!

وطالت غفلته عن حديث الناس بسلوك زوجه، حتى حين مرض بالإسكندرية صيف عام

واشتدت به العلة، وأمره الطبيب أن يعود إلى بلده، فأبت زوجه أن تعود قبل أن ينصرم الصيف، وتركته يخلفها وحدها هناك على الشاطئ في حراسة الشيطان، تداعب أمواجاً في البحر وأمواجاً في البر، لقد كان لها يومئذ رغبات نسيت في سبيلها وفاء الزوجة وبر الأم، فلم تعد إلا بعد شهر!

لم تهنأ إلهام بالحياة في بلد زوجها على ما فيه من جمال وفتنة، وحالت بعد عودتها امرأة أخرى؛ فلم تعد تهتم باسترضاء زوجها، تمحو غضبه بابتسامة الخداع وبهرج الكلم، ومزقت القناع عن وجه عابس، وكشفت صدرها عن ألم وضيق بحياتها في كنف الزوج الحبيب، وراح شوكت يستميلها فلا تزداد إلا نفوراً، ويتحبب إليها فلا تبدي غير البغض والكبرياء. . . وآلمه ما تغير من أخلاقها، وراح يحاسب نفسه على ما قد يكون أساء به إليها، ويحصي ما قصر في حقها وما اقترف، فلا يبدو له إلا صفحات كلها حب ووفاء وتضحية. وأخفق فيما سعى إليه ولكنه لم ييأس.

وترامت إليه الأخبار بما يتحدث الناس من شأنها؛ وكان آخر من عرف. . . يا للهول! وأفاق من وهم الحب. لقد مد لها أسباب الغواية وتركها تتدحرج حتى استقرت في أعماق الهاوية وجذبته معها!

واستعاد رجولته، ولكن بعد أن فقد من يأتمر بأمره، وفارقها في صمت، عيوفاً أبياً، ولكنه خلف قلبه هناك. . . تحت وسادتها وبين الحشايا!

وكان له ما أراد، ونقل من البلد الذي دفن فيه الشباب والحب والأمل، ينشد العزاء والسلوان بعيداً بعيداً؛ وقد أقسم ألا يكون له من بعدها زوج.

وهاهو ذا يعود بعد سنوات ليأخذ ولده يعيش في حضانته، بعيداً عن عار الخطيئة - عن المرأة التي كرهت أن يكون ولدها معها فيعلن للأصدقاء بوجوده أنها أم . . .!

وصلصل الجرس وما يزال شوكت غريقاً يجاهد موجات الذكرى الأليمة في يأس؛ يأس المحب الوفي جوزي بحبه ووفائه غدراً وخيانة!

وحياه زميله الأستاذ مختار وهو يصيح: (أهلاً، شوكت، متى حضرت؟)

وهز يده بقوة، وربت على كتفه بحنان ثم أردف:

إن صديقنا (أحمد) لموفق، فقد كان يذكرك اليوم ويتمنى أن تحضر زفافه، وقد) - حضرت.)

قال شوكت: (زفافه؟ وماذا تراني أصنع له في زفافه؟)

ودهش مختار أن يتحدث شوكت كذلك وأجابه: (لا أحسبك نسيت ما كان بينكما من ود؛ أفليس من حقه عليك أن تهنئه أن ظفر بالفتاة التي يهواها، وأنك لتعرف أين كان أمله!)

وابتسم شوكت في ألم، وقطب جبينه، واسترجع كل ماضيه الأليم في لمحة، وقال لصديقه ساخراً: (وهل تراه ظفر بشيء يستحق التهنئة، أم تراني أعزيه. . .!)

وتولى عن صاحبه وهو ممسك بيد ولده، والأرض تجاذبه إلى الخلف - إلى حيث يرى المرأة التي أحبها فخانته. ولكنه عرف كيف يكون رجلاً، وكيف يقمع في صدره ذلك الحب الذليل الذي نزل به إلى الهوان والعار. ومضى في طريقه إلى البلد الثاني وكأن ما كان يدوس بقدميه قلبه الدامي فيحس وخزاً أليما فوق ما تخزه الذكرى وتؤلمه.

ومضت الأيام تسدل بينه وبين الماضي حجاب النسيان، وهو يغالب هواه ويصارع نفسه، حتى برأ من دائه. وأخذت ذكريات الماضي تتضاءل في رأسه حتى أوشكت أن تتلاشى، وانقشعت عن عينيه غشاوة العاطفة التي كانت تغلبه على عقله وتزين له أن يبيع بالحب كرامة الرجل.

وانقضت سنوات ثلاث، ثم رأى نفسه وجها لوجه أمام المرأة التي كان يحبها أرق الحب فعاد يبغضها أعنف البغض، ويبغض من أجلها النساء جميعاً. لقد أخفقت فيما سعت إليه، فلم تظفر بالسعادة التي انطلقت وراء أوهامها وحطمت في سبيلها عش الزوجية، وحالت الثمرة التي كانت تشتهي حلاوتها مرة كريهة المذاق حين عرفت منزلتها الحقيقية من نفوس المعجبين بها والمزدلفين إليها من الرجال، لقد انفضوا عنها جميعاً بعد أن ملوها، وراح كل منهم يلتمس لحظات سعيدة في غرام جديد أبي، يذوق فيه سعادة الظفر بالمغيب المجهول. . وتنكرت لها الحياة فعادت إلى الماضي تستلهمه، فإذا هي ما تزال تحب شوكت. . . وذكرت في النهاية الرجل الذي كان يحبها،

والذي كان يبيع من أجلها كل شيء، فجاءت تسعى إليه معترفة تائبة. هيهات! لقد أضلها السراب طويلاً، فلما همت أن تعود إلى المناخ كان الركب قد تحرك، فلم تدرك غير الغبار يقذي عينيها وتتكاءدها عقبات الطريق!
وأغلق الرجل دونها بابه، ووقفت بينه وبينها الذكريات المؤلمة عن ماضيها وماضيه. لم تؤثر فيه دموع الندم، ولم يعطفه عليها ما ناشدته الحب القديم، فقد علمته من قبل كيف يكون بليد العاطفة، فبقى معها بليد العاطفة، وعلمته ألا يؤمن بالحب، فأثبت لها أنه لا يؤمن بالحب، وعلمته ألا يثق بوعود امرأة، فأكد لها أنه أبداً لن يثق بوعود امرأة.
وحين عادت المسكينة امرأة ذات قلب. . . . عاد المسكين رجلاً بلا قلب!.
محمد سعيد العريان
سافو - 3
لأوجييه اميل
ترجمة الأستاذ محمود خيرت
كاوودال - (ينادي) هي. هي
لابودري - يا صاحب المطعم
الجميع - أنت يا رجل
(يظهر صاحب المطعم)
كاوودال - أسرع فلقد قتلنا الظمأ
صاحب المطعم - أهلاً اهلاً بأسيادي (وكأنه يعرف كاوودال)
سيدي كاوودال. . . ما أطيب هذه الفرصة تفضلوا.
فأجلسوا عند هذه البراميل أو تحت هذه الشجرة الظليلة
كاوودال - نبيذك الطيب أولاً!
لابودري - الأبيض؟
كاوودال - أصبت
صاحب المطعم - كما تشاؤون. والطعام!
كاوودال - عند المساء متى عدنا، ولكن ماذا عندك منه
صاحب المطعم - كل ما تشتهون
كاوودال - شواء مثلاً؟
صاحب المطعم - نعم. وفرختان!
لابودري - حسناً
صاحب المطعم - وضلع
كاوودال - لا بأس
صاحب المطعم - ثم. . .
الجميع - هذا يكفي
كاوودال - (منشداً) ولكن أيها الشيطان
لابودري - إذا أهملت في الألوان
آخر - والمزات
ثان - والسلطات
ثالث - وحذار أن تنسى كذا البصطرمة
رابع - معها وإلا فالجزاء
صاحب المطعم - (الصرمة)
(ضحك عام)
صاحب المطعم - (منادياً) نبيذ أبيض حالاً (ينظف الموائد ويرتب المقاعد حيث يجلسون، وعندئذ يظهر الخدم حاملين قناني الشراب والكؤوس)
كاوودال - ليحيى النبيذ=ليحيى الشراب
الجميع - ليحيى النبيذ=ليحيى الشراب
كاوودال - شراب النبيذ=شراب لذيذ
يرد الشاب=لصرعى الخضاب
الجميع - ليحيى النبيذ=ليحيى الشراب
كاوودال - ألا فأشربوا=ولا تحسبوا

لهم حساب=فهذا الصواب
الجميع - ليحيى النبيذ=ليحيى الشراب
صاحب المطعم - ليحيى الصنم
الجميع - لتحيى الصرم
(ضحك عام)
(يظهر حنا)
كاوودال - (وقد لمحه) حنا؟
حنا - (يقترب ويحيي بقبعته) نعم أنا
كاوودال - ما أجمل هذه الصدفة
لابودري - كيف أنت يا حنا. أنت مقيم هنا
حنا - بل هناك (مشيراً) لأني أميل للغابات أتفيء ظلها وأملئ عيني منها. نعم أن الحياة
بالقرب منها خير من حياة المدن حيث السكون والنسيم العليل
كاوودال - وهل لازلت مع سافو؟
حنا - سافو؟ من هي سافو
لابودري - فني. نموذج المصنع
حنا - (مفكراً) إذا هي سافو (متردداً ثم يتكلم) لا. إنني تركتها.
كاوودال - تركتها؟ إنها فتاة حسناء. ولكنها مع ذلك. . .
حنا - ولكنها ماذا؟
كاوودال -. . . لا شيء
حنا - لاشيء؟ ولكنك قلت إنها. . .
كاوودال - فتاة لا وفاء لها. نعم إنها تحفة من تحف الحسن. ولكن حبها مشوب بالآلام. على أن من يقع في شركها يصعب عليه أن يسلوها.
لابودري - لقد صدقك كاوودال يا حنا
كاوودال - ومع ذلك فدليلي قصتها مع ذلك الحفار الفنان
لابودري - فرومان
كاوودال - بعينه. فلقد دفعته إلى تزوير زج بسببه في السجن. على أني لا أزال أذكر يوم أخذوه إليه وهي تودعه بأطراف أناملها وتقول له تشجع يا بيبي فعما قريب تخرج ونعود إلى سيرة حبنا
حنا - (لنفسه وهو مفكك) أنها تناديني بمثل هذا أيضاً
كاوودال - ما لك يا صديقي؟
حنا - الحقيقة أني كذبتكم. فأنا من سنة أتلوث بصحبة هذه الفاجرة. ولقد استسلمت لمكذوب حبها، ومعسول كذبها حتى أبحتها قلبي ومشاعري لأني كنت أجهل أمرها ولكني الآن أقسم لكم أن كل ما بينها وبيني قد أنقطع وانتهى
(تظهر فني من بعد)
آه. . .
كاوودال - (يلمحها) سافو
سافو - (وحنا يفر منها) حنا
حنا - دعيني (ثم يختفي)
سافو - (في نفسها) نمو عنده علي (لهم بحدة) الآن وقد فر بسعيكم فلن أخشاكم أيها الأنذال
كاوودال - (يسكن ثورتها) هوني عليك يا سافو. اسمعي
لابودري - عودي إلى رشدك ولا تحتدي
فني - لقد أكلكم الحسد على حبه الذي أسعدني وغير سبيل حياتي فصورتموني له في أشنع صور الرذيلة حتى ألتوى وفر مني. إنكم غلاظ قساة (للابودري) وأنت أيها المنافق طالما أسهرت جفني وأجريت دمعي. ولا زال صدرك طافحاً بالحقد على صفوي فحطمت قلبي الذي أصلحه هذا الفتى، وهكذا لم أخطئ في حسباني إذ علمتم فوشيتم فأنتقمتم. فأنا الآن إذا كنت أتعلق بأذيال الحياة فلكي ألعنكم واستنزل غضب الأقدار عليكم.

الجميع - (بغضب) سافو (يتجاذبونها كأنهم يحاولون جرها معهم)
فني - دعوني فما عادت تطيب بعد ذلك نفسي للحب. لقد أصبحت أمقتكم جميعاً أيها الاخساء
(تهجم علي لابودري فيضحك ويضحكون)
(يتبع)
محمود خيرت
سيوة
تجارة سيوة
يجاور مسطاح البلح الكبير مقام سيدي سليمان، وهو عبارة عن بناء بسيط يحتوي على مقبرة، إلا أن له مكاناً محترماً في قلوب سكان سيوة، ويحيط بهذا المقام بعض قبور أخرى يقال أنها للمقربين إليه من أتباعه، ويعلو المقام سعف نخيل معلقة في نهايته قطع من أقمشة مختلفة الألوان؛ ويلاصق هذا المقام مسجد جلالة الملك فؤاد الأول، وبدأ في بناء هذا المسجد في عهد الخديو السابق عباس باشا، حتى وصل ارتفاعه أربعة أمتار، غير أن العمل وقف فيه لقلة المال وكثرة التكاليف، ثم تم بناؤه في عهد صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول في سنتي1928و1929، وأصبح مسجداً يضارع مساجد القاهرة الكبيرة في كبر حجمه وروعة بناءه. ولقد تحريت عن السبب الذي حدا بالخديو السابق أن يفكر في بناء مسجد كبير كهذا في واحة منعزلة مثل سيوة على الرغم من صعوبة المواصلات وقلة وسائل العمل في الوقت السابق، فروى لي أنه كان يقصد ببنائه أن يكون جامعة إسلامية في الصحراء الغربية، يؤمها السنوسيون وغيرهم لتكون لهم بمثابة الأزهر في وادي النيل، وأنه كان يتصور أن مثل هذه الجامعة تمكن له في قلوب السنوسيين فيفيدوه في الصحراء وقت الحاجة. وعدا هذا المسجد الكبير توجد مساجد أخرى مقامة على نظام المنازل السيوية من الملح والطين، والسقوف من خشب النخيل، ولها مآذن غريبة الشكل، أشبه بمداخن المعامل، وسمك حائطها من أسفل حوالي مترين، ثم يقل سمكها تدريجياً كلما أرتفع بناؤها حتى يصل في النهاية إلى ثلث متر تقريباً
وكان أئمة هذه المساجد يدرسون في الوقت الماضي القرآن للصبيان على طريقة عتيقة غير مألوفة، وهي أن يحفظوهم القرآن من غير أن يعرفوا القراءة والكتابة، ولكن مصلحة الحدود أنشأت مدرسة أولية بسيوة تتبع في تدريسها منهاج وزارة المعارف العمومية، ويؤمها أولاد السكان؛ غير أن الإقبال عليها غير كثير برغم كل تسهيل يقدم للأولاد، وتتساهل المدرسة فلا تطلب من الطلبة إلا أن يلبسوا جلباباً نظيفاً وطاقية نظيفة، على أن معظم الأطفال يحضرون حفاة من غير أحذية، ومع كل ذلك فالرجل يفضل أن يشغل ابنه في الحقل أو الحديقة على أن يعلمه أبسط المبادئ من القراءة والكتابة والحساب، ووصل
الأمر بعناية الحكومة بهؤلاء الناس أن أرسلت أثنين منهم للجامع الأزهر ليتلقوا فيه العلوم الدينية على أحسن الأساتذة، غير أنهما بعد بضع سنين كرها الإقامة في القاهرة ودفعهما الحنين إلى سيوة فعادا إليها ولم يحصلا من العلم إلا قليلا
تتكون السوق في سيوة من بضعة حوانيت متجاورة تبيع كل ما يحتاجه السكان من مختلف الأصناف، وأثمان جميع الحوانيت واحدة، ولذا فلا يهم الشاري أن يشتري من هذا أو من ذاك ما دام الثمن واحداً، وإذا دخلت حانوتاً من هذه الحوانيت خيل إليك لأول وهلة إنك في مخزن بضائع إذ ترى فيه عدة رفوف من خشب قديم وميزان وبعض الأكياس (والمقاطف) فيها دقيق وعدس وفول وسكر، وفي ركن من أركان الحانوت بضعة أثواب من البفتة، ومعلق بسقف الحانوت بضعة مناديل للرجال وللنساء ذات ألوان متنافرة غريبة. وترى في ركن ثان من الحانوت بضع صفائح بها زيت الزيتون وأبسطة من الصوف تنسجها نساء العرب بأيديهن ويبعنها للتجار. ويربح بعض التجار كثيراً من حوانيتهم وبخاصة من بيع البلح وزيت الزيتون، على أن النقود المتداولة في سيوة هي النقود المصرية بجميع أنواعها، ولم أر بها عملة أخرى كما هو الحال في السلوم، إذ إنني رأيت فيها العملة التركية القديمة وبعض النقود الإيطالية متداولة في أيدي التجار والأهالي، وقد أعتاد الأهالي أن يرهنوا حدائقهم وحقولهم لبعض التجار نظير أرباح باهظة، حتى أن بعض التجار يتمادى في الجشع فيطلب من

المدين أن يسدد دينه بلحاً وزيتوناً، ولكنه ينص في شروط الرهن على أن يكون سعر البلح والزيتون نصف سعره المعتاد في السوق، وبذلك يكون التاجر قد ضاعف مبلغه الذي أقرضه للمدين زيادة على الأرباح التي ينالها عن مبلغه الذي دفعه للمدين، وفي ظروف كثيرة يقبل المدين كل تلك الشروط الباهظة لحاجته للمال. وقل أن يرى المرء امرأة أمام حانوت من حوانيت البلد، والعادة أن تمر زوجة التاجر أو أمه ببضاعتها على المنازل ليشتري أصحابها ما يشاءون، وما تشتريه النساء عادة. يكون الكحل والحناء وبعض حلي من الفضة: كالدمالج، والأقراط الكبيرة الحجم التي تتدلى أطرافها من الأذن حتى تصل كتفي المرأة أو الفتاة. ثم إنهن لا يلبسن العقود الملونة من حبات متلاصقة كما هو الحال في المدن. بل إنهن يلبسن أطواقاً من الفضة حول أعناقهن بأن يدخلن رؤوسهن فيها. ولذا فهي تباع كثيراً لدى التجار، وأيضاً فإنهن يشترين أحذية
من جلد أحمر رقيق، وملاءات يلتففن بها وقت خروجهن، وهي من قماش قطني ذات خطوط زرقاء تجاورها خطوط رمادية، وهذه الملاءات يحضرها لسيوة أحد التجار المصريين، إذ أن لعمه مصنعاً خاصاً ببلده بمديرية الجيزة، ويشترين أيضاً بعض الأصباغ الخضراء والحمراء والزرقاء، لصبغ سعف النخيل الذي يصنعن منه (مراجين) وسلات وغيرها
وكثيراً ما تبيع زوجات التجار الأحجية والتعاويذ الفضية التي عليها آيات من القرآن الكريم. وقد لاحظت أن النساء لا يحاولن أن يغيرن ملبسهن بأحسن منه، وكلهن في ذلك سواء. وليس في السوق سوى قصابين يبيعان عادة لحم الجمال للأهالي والعرب، ولكنهما مكلفان ببيع لحم الضأن ثلاثة أيام في الأسبوع هي الأحد والثلاثاء والجمعة، وهذا طبعاً ليتمكن الموظفون الحكوميون من أكل لحم الضان. ولذلك لا يذبح القصاب إلا كبشاً واحداً يكفي الموظفين، لأنهم يشترون في الأيام الثلاثة اللحم الذي يكفيهم كل أسبوع.
وأهم ما يشتريه الأهالي من التجار الشاي والسكر فهما عماد الحياة والعمل لدى السيويين والعرب، ولا يمكن أن يستغني عنهما منزل قط، ولاحظت أن إقبال السيويين على شرب القهوة قليل جداً بل يمكن القول بأنه معدوم، وحدث أن أحتاج خادمي بناً لعمل قهوة فبحث في حوانيت الواحة كلها فلم يجد.
يحيك السيويات ملابسهن وملابس أزواجهن وأولادهن بإتقان ودقة، وبعضهن يطرزن ملابسهن بخيوط حريرية مختلفة الألوان، غير أنه يخالف ما ألفناه في القاهرة، وبعض السيويات يغزلن الصوف وينسجنه ويصنعن منه جباباً للرجال يلبسونها وقت الشتاء القارس، وهذه الجبب وأن كانت رديئة المنظر إلا أنها تساعد الرجال على تحمل برودة الشتاء على كل حال.
على أن للسيويين والسيويات طباعاً نراها نحن شاذة لا تتمشى مع ما ألفناه من عادات وأخلاق، وسنأتي على سرد تلك العادات تباعاً إن شاء الله.
كابتن
الكتب
كلمة إلى الشبان الطلبة على ذكر كتاب
مرشد المتعلم
ترجمة الأستاذ محمد أحمد الغمراوي
للأستاذ محمد فريد أبو حديد
كثيراً ما هممت أن اكتب في أمر من أمور التعليم إلى الرسالة الغراء، عالماً أن صدرها الرحب يتسع لذلك البحث لما فيه من مساس بناحية حيوية من نشاطنا، غير أني كنت كلما هممت بذلك قعدت بي معان صدتني عن عزيمتي. فأنني معلم بي ما بصاحب الفن من حب لفنه وانصراف بقلبه إليه. غير أن التعليم مرتزقي، وسبيل الأرزاق غير حبيب، فما يكاد الرجل ينصرف من مضطرب عيشه حتى يود أن يتناسى ما اعتراه في ذلك المضطرب، فتراه يقبل على كل حديث غير حديث فنه، ويحب الخوض فيما يبعد به عن ذكر صناعته. ومع ذلك قد رأيتني أقرأ كتاباً أهداه إلي صديق كريم قد ترجمه عن الإنجليزية إلى العربية، وهو الأستاذ محمد أحمد الغمراوي، فبدأت قراءته لأنه كتاب صديق، ثم رأيتني أسير في قراءته مقبلاً عليه لما فيه، واضمحلت

صورة الصديق شيئاً فشيئاً من ثنايا السطور حتى صرت بعد لا أجدها، وصرت أعاود الكتاب لنفسه، وأطلب صحبته وحديثه لما أجده فيه من فائدة ولذة ونشاط.
ذلك الكتاب سفر قيم. أقل ما أصفه به للشبان أن قراءته ضرورة لازمة لهم إذا شاءوا أن يخرجوا من دراستهم على أكبر قسط من الفائدة من وراء جهدهم وعملهم. وإذا كنت أخاطب الشبان بذلك فأني أفعل ذلك لعلمي بأنهم أحوج الناس إلى قراءة مثله، ولكن ليس معنى هذا أن من هم من طبقة أعلى من الشبان سناً قد بعدوا عن أن يجدوا في قراءته فائدة، أو استغنوا عن أن ينتفعوا بما فيه من بحوث طريفة فأني أقول غير مجامل ولا مبالغ أنني قد خرجت من قراءة ذلك الكتاب وقد علمت كثيراً مما كنت أجهل، واستوضحت كثيراً مما كان غامضاً مبهماً عندي، وغيرت كثيراً مما كنت متجهاً إليه، قانعاً به. وفضل ذلك الكتاب لمن يقرؤه من الكبار أنه يوحي إليهم معاني جديدة بما يأتي به، مما قد يكون معلوماً لهم، فيرى القارئ المعاني تهم في نفسه وهو يقرأ كأنما تلك القراءة تثيرها وتوقدها.
قلت أن الطالب الشاب لا غنى له عن قراءة ذلك الكتاب، وذلك لأنني أعرف أن الطالب الشاب في حياته اليومية يسير سيراً غير مهتد. فلا هو يجد من يهديه ولا هو إذا وجد من يهديه يأخذ عنه نظاماً تاماً شاملاً يستطيع أن يهتدي به في كل جهوده وأعماله على اختلافها. فالطالب يقرأ، ولكنه وهو يفعل ذلك يتجه إلى حيث تدفعه المصادفة أو المثل، وقد يكون موفقاً في طريقته كما أنه قد لا يكون موفقاً، ولكنه على أي حال لا يكون في اتجاهه مرتكناً على أساس قوي علمي. ولا أظن أن بين المعلمين أو أساتذة الجامعة من يجد فرصة في وقت درسه يستطيع أن يرشد الطالب فيها إلى خير الطرق التي يسلكها في دراسته، فإن الوقت مخصص كله لمادة الدروس بطبيعة الحال. ولقد كان من أشد الأمور إيلاماً لنفسي أن أرى في بعض الأحيان بعض تلاميذي وهم ينكبون على دراستهم انكباباً غير موفق إذ يتبعون في ذلك طريقة تجعلهم كمن يحاول السباحة في وجه التيار، فلا هو موفر جهده، ولا هو سالك سبيله. وكنت إذ أرى ذلك أحاول جهدي أن أرشد بمقدار علمي، ولكني كنت لا أستطيع أن أبسط المعنى بسطاً تاماً يستقر في النفس استقرارا متمكناً، ويحيط بالمصاعب من جميع أطرافها.
فكنت أتمنى لو أتيح لهؤلاء المساكين كتاب يستطيعون أن يجدوا فيه الهداية.
وما كنت أجد تلك الطلبة حتى أتحف الصديق الغمراوي قراء العربية بكتابه.
يبدأ ذلك الكتاب بمقدمة ككل كتاب في مثل موضوعه، يهيأ فيها المؤلف عقل الطالب إلى أن يدخل على عمله بذهن مفتوح وعقل فاحص يقظ، وهذا هو الفصل الأول وعنوانه (تولى المرء أمر نفسه) ثم يلقي عليه في الفصل الثاني خطة العمل ويسميها (خطة الغزو) يبين له كيف يقسم وقته للمذاكرة والدراسة، وما مقدار الوقت الذي يجب عليه أن يجعله لتلك المذاكرة، وطريقة تقسيم ذلك الوقت على مختلف المواد، وأي المواد يبدأ بمذاكرتها، وأيها يؤجله في ترتيب المذاكرة، ثم يبين للطالب أي الطرق أصلح في توزيع لوقت على الدروس: هل الإصلاح أن يجعل لكل مادة قسطاً صغيراً كل يوم، أو أن يجعل قسطاً أطول من ذلك بين حين وحين، وهو في كل ذلك يستضيء بنور التجارب العلمية الثابتة.
وأسلوبه في ذلك البيان أسلوب حي بديع، فهو يقول مثلاً، (ومن الخطر الكبير في استعمال جدول المذاكرة الجمود. أن من الصعب أن نفرغ من عملنا في كل مادة في اللحظة التي يحل فيها وقت مادة أخرى، وقد يخطر لنا تخلصاً من هذه الصعوبة أن نفرد كل ليلة في نهاية المذاكرة حصة صغيرة، قل خمس عشرة أو عشرين دقيقة نجعلها كزمن احتياطي ننهي فيه أي شيء صغير قد نكون اضطررنا إلى إغفاله في أية حصة عادية من حصص المذاكرة، لكن هذه الخطة محفوفة بالمخاطر.) وهكذا يسير بالطالب حتى يستقر معه على خير الخطط وأوثقها.
ومن خير ما جاء في هذا الفصل ما كتبه على التعب وماهيته في المذاكرة، وطرق التغلب عليه أو تقليل ضرره.
وفي الفصل الثالث بحث طريف في (تصريف الذاكرة) وطرق الحفظ، ويليه في الفصل الرابع بحث آخر في مثل طرافته في (طبيعة الدراسة والتفكير) والفصل الخامس بيان (طريقة المذاكرة) وهو بحث عملي لا يستغني عنه الطالب، وقد أفاض

فيه المؤلف إفاضة أحاطت بالموضوع من أطرافه
وأجد نفسي ضنيناً بأن أترك باباً من أبواب الكتاب لا أكتب عنه كلمة، بل أجد نفسي ميالاً إلى أن انقل إلى القارئ منه نموذجاً لعله يعرف أي قول فيه وبأي أسلوب، غير أني أعود إلى نفسي فأذكر أنني إنما أنوه بكتاب رأيت فائدته، على صفحات مجلة قد لا تتسع لكل ما أريد ذكره من ذلك. ولكن لابد أن أنوه بالفصل الثامن الذي يعالج فيه المؤلف (الإصغاء وأخذ المذكرات) فإن هذا الفصل يسد حاجة ماسة عند طلبة المدارس ولا سيما طلبة الجامعة والمدارس العليا
وقد أضاف المعرب فصلاً بعد الفصل العاشر ألحقه بالفصل السابع وجعل موضوعه (كتب المراجعة في اللغة العربية)ـ والحق أن هذا الفصل بحث عميق في تراثنا اللغوي والعلمي، وفق فيه المعرب كل التوفيق، وأصاب في أضافته كل الإصابة، وقد تناول فيه أمهات المراجع العربية بالوصف والتحليل فكان فصله دليلاً يرجع إليه من شاء المراجعة في تلك الأمهات ليهتدي إلى أيها شاء.
فأزف إلى الأستاذ المعرب إعجابي الذي لا حد له بذلك الكتاب وأرجو أن ينتفع به أبناؤنا في جهادهم العلمي، وأوصي من يطلع على كلمتي هذه من الأخوان أن يصفوه لمن حولهم
من الأبناء، ففيه خير عون لهم ونعم الهادي.
محمد فريد أبو حديد
جولة في ربوع الشرق الأدنى
للدكتور عبد الوهاب عزام
سمعت بسياحات الأستاذ محمد ثابت، فأعجبت به واغتبطت، أن كان من المصريين سياح يجوب الآفاق إلى أقصى الأرض ليرى ويصف، ويقص على أمته من أنباء الأمم الأخرى. ولم يتح لي أن اطلع على ما كتبه هذا الرحالة المصري إلا الأسبوع الماضي، إذ اطلعت على كتابه (جولة في ربوع الشرق الأدنى) وقرأت ما كتبه عن العراق وإيران، فإذا الرحالة الهمام يعوزه العلم والتثبت في مواضع كثيرة، وأنا أربأ به أن يكون كبعض سائحي الأمريكان؛ يقدم واحدهم إلى القاهرة فيرى في ساعات قليلة الأهرام والأزهر والقلعة ومسجد السلطان حسن، وخان الخليلي، ويرى في الشوارع أناساً لا يعرف وجوههم ولا يفهم لغتهم، ولا يفقه عاداتهم ثم ينقلب إلى أهله فيكتب أو يحدث عما يضطرب في رأسه من خوفو باني الأزهر، وجوهر الصقلي مشيد الأهرام، والسلطان حسن مؤسس القاهرة وهلم جرا!! ثم يتحدث عن أخلاق المصريين وتأثير تاريخهم وجوهم في هذه الأخلاق
إنما يراد بالرحلات المشاهدة، والعلم عن عيان، وبحث بعض الأمور في مواطنها وإفادة علم جديد، أو إبطال وهم قديم، أو التثبت من رواية شائعة. وأما أن يطوف الإنسان بالبلاد مسرعاً كراكب القطار يخيل إليه أن الأرض والجبال والشجر سائرة وأن السيارة التي تجري إلى جانبه واقفة فذلك قلب الحقائق أو تشويهها، وتلك سبيل علمها شر، وجهلها شر.
وأحسب رحالتنا أعتمد في بعض ما كتب على كتاب من الأدلة الأوربية، وبهذا يفسر كثير من الغلط والتحريف في الأسماء، وتاريخ الحادثات الإسلامية بالتاريخ الميلادي، ونحن معشر المسلمين، يكذب علينا كتاب أوربا ويفترون على ديننا وتاريخنا وأخلاقنا، ويسيئون بنا الظن إساءة تقلب حسناتنا سيئات. فينبغي للسائح المسلم ألا يشركهم في ضلالاتهم، فيكتب كل ما يسمع غير متثبت، ولكن الرحالة المصري المسلم لم يتوق الغلط والغلوا مع نية حسنة وقصد سليم. وأصل البلية أن الأمم الإسلامية قد تقطعت بينها الأسباب، وجهل
بعضها بعضاً إلا ما يقرءون في كتب الأوربيين، فصار المصري إذا رحل إلى العراق وإيران وتحدث عن أخلاق أهليها ومذاهبهم، فإنما يقص عن بلاد مجهولة لم يعرف ماضيها ولا حاضرها، على قرب ما بين الأمم الإسلامية وكثرة ما بينها من أواصر، وسهولة تفهم أحوالها ودرس تاريخها.
وفيما يلي نماذج من الأغلاط التي وقع فيها المؤلف:
من الغلط في بديهيات التاريخ الإسلامي قوله أن الحسن بن علي رضي الله عنه فر من العراق وقتل، وإن الحسين قتلته جنود معاوية، وقوله إن بلاد الفرس فتحها

المسلمون في ستين عاماً، وجعله معاوية بن أبي سفيان فر من خالد بن الوليد في قيادة الفتوح أيام عمر، وقوله عن خلافة عثمان بن عفان (ثم جاء عثمان وقتل عاجلاً) كأنه لم يل الخلافة إحدى عشرة سنة، وقوله في أثناء الكلام عن الحجاج: (وكان زياد في البصرة) كأن زياداً والحجاج وليا العراق في وقت واحد، وبين موت زياد وولاية الحجاج زهاء عشرين سنة، وقوله أن خالد بن الوليد صلى في جامع همذان، وقوله إن الفرس رأوا في العباسيين أعداءهم فحاربوهم بالتشيع، وهذه كما يرى القارئ أغلاط كنا نربأ بالأستاذ أن يقع فيها.

ومن التحريفات كتابته مدينة هيرات بالياء. ونصر الدين شاه بدل ناصر الدين بالألف. وجبل الفند، ودمافند. وكرفان سراي بالفاء بدل الواو في الكلمات الثلاث. وقصر جولستان بالواو بعد الجيم. وهذا تحريف النقل من الكتابة الإفرنجية وأشنع من هذا أنه قال عن الإيرانيين اللذين سافروا معه إلى مشهد إنهم كانوا يصيحون بين الحين والحين: (لا هم سل إلى مهمد آلي مهماد) فهل عرف الرحالة المدقق أن هذه الكلمة التي سمعها هي (اللهم صل على محمد وآل محمد) فإن كان قد عرفها فلماذا لم يفسرها بالكتابة الصحيحة، وإن كان لم يعرفها فلماذا لم يسأل عنها؟ وأفضع من هذا كله قوله عن إخواننا شيعة إيران أنهم يفضلون مشهداً على مكة. وكيف يعقل أن أمة مسلمة شديدة الغيرة على دينها تعتقد أن الحج إلى مكة فرض وقاعدة من قواعد الإسلام - كيف يعقل أن هذه الأمة ترى زيارة مشهد أفضل من الحج إلى مكة؟ ربما بالغ عامة الإيرانيين في تعظيم مشهد وغيرها من المزارات الشريفة كما يبالغ عامة المصريين في تعظيم مسجد سيدنا الحسين والسيدة زينب والسيد البدوي وإبراهيم الدسوقي، ولكن عمل العامة لا تفسر به عقائد الأمة. وهذه كتب الشيعة بين أيدينا تنطق بخلاف ما زعم الكاتب، ولست أنسى غضب إخواننا شيعة العراق من قول بعض أساتذتنا: إن الشيعة الأمامية يتبرءون من الشيخين، ولست أنسى عتب أحد علمائهم في بغداد، ولا عتب السيد الحجة محمد الحسين آل كاشف الغطاء حينما شرفنا بزيارته في النجف فقال: لماذا تكتبون عنا ولا تقرءون كتبنا. لقد كان عتاب الأخ للأخ يود ألا يكون بينهما من الغلط ما يكدر صفو الأخوة الإسلامية، وقد اعتذرنا للسيد يومئذ واعترفنا بتقصيرنا في الاطلاع على كتب أئمة الشيعة. وأنا اعتذر هنا مرة أخرى عن الرحالة محمد ثابت واثقاً بحسن نيته، وإن كان حسن النية لا يعد عذراً كافياً لمن لم يتحر الحق في كلامه.

وفي الكتاب أغلاط أخرى، أرجو أن يتوقى أمثالها في رحلاته المقبلة.

وإنني لراج أن يتم التعارف بين الأمم الإسلامية، حتى لا يكتب بعضها عن بعض إلا عن علم وروية، وتثبت وإنصاف، والله ولي التوفيق.

عبد الوهاب عزام

التجديد في الأدب الإنجليزي الحديث

تأليف الأستاذ سلامة موسى

للأستاذ سلامة موسى في خدمة الأدب العربي المعاصر همة تذكر فتشكر، فهو ما ينفك يتحف جمهور المثقفين بأبحاثه الطريفة على صفحات مجلته الغراء وغيرها من الصحف ومن آثاره الأدبية الأخيرة كتابه هذا عن التجديد في الأدب الإنجليزي ويقع في نحو مائة صفحة من القطع الكبير. شرح الأستاذ الحركة الفكرية في العصر الفيكتوري، ثم تكلم عن بعض المذاهب الأدبية في ذلك العصر، وذكر بعض الأجانب وأثرهم في الأدب الإنجليزي. كذلك ذكر اثنين غيرهما وجارى ماكس نورداو في تسميتهما المنحطين وهما: والتر باتر وأوسكار وايلد، ولخص مذهبهما في أنه ينحصر في الدعوة إلى الجمال بلا اعتبار للأخلاق أو العرف،

ثم ترجم الأستاذ لبعض أعلام الأدب الإنجليزي مثل كبلنج وهو في رأيه شاعر الاستعمار، وبرناردشو وداروين وولز وجالزورثي وغيرهما، ولقد تعرض لمذاهبهم وفلسفتهم في دقة ومهارة. ولقد يبدو موضوع الكتاب غريباً عند من لم يكن له إلمام بالأدب الإنجليزي، والحقيقة أنه نافع لكل مثقف فهو يدرس حركة فكرية، والحركات الفكرية وثيقة الصلة بالحياة، ومن ثم فأنت تقرأ في هذا الكتاب ملخص الحياة الاجتماعية في إنجلترا منذ عام 1830، بيد أن الأستاذ المؤلف يغالي في بعض آراءه مغالاة تنتهي بأحكام لا يمكننا

أن نمر عليها دون أن نعارض الأستاذ فيها، وخصوصاً لصدورها من أديب نابه كالأستاذ سلامة موسى. فهو ينعت العصر الفيكتوري ما بين 1830 و1900م بأنه عصر خمول في الأخلاق والأدب، مع انه من أرقى عصور الأدب الإنجليزي وأحفلها بالحركات والاتجاهات الأدبية الجديدة، بلغت فيه المدرسة الرومانتيكية غاية نموها وتطورها، وتعددت فيه مذاهب الكتاب وأتسع الأدب في نواح عديدة كالقصة والشعر والتاريخ وأدب المقالات وغيرها. يتجلى ذلك في شعر الشعراء اللذين افتتحوا هذا العهد ولم تمهلهم المنية كشلي وبيرون وفي شعر غيرهم ممن عاشوا بعدهم كورد ثورث وتنسن، كما يتجلى في قصص سكوت العديدة وقصص شارلز دكينز العظيم وثكري ومن ذهب مذهبهم أو خالفهم من القصصيين، كما يتجلى في كتابات ماكولي وكارلي ورسكن وغير هؤلاء وهؤلاء ممن ارتفعوا بآدابهم إلى درجات المجد، وما التجديد الذي يشير الأستاذ إلى ظهوره في عام 1900 إلا ثمرة من ثمار العصر الفكتوري الناهض، وأنك لتلمس أسبابه في حركات ذلك العصر وترى هذه الأسباب واضحة في كتاب الأستاذ نفسه مما يتفق مع وصفه هذا العصر بالجمود. لذلك لا أستطيع أن أشايع الأستاذ في قوله إن الأدب الإنجليزي قد أتجه طول مدة القرن التاسع عشر نحو الصياغة اللفظية دون التفكير و (الاقتحام)، هذا مع احترامي لآراء الأستاذ الفاضل ومزيد إعجابي بطريقته في عرض آرائه وثقافته الواسعة، فهو كما يتجلى وفي كتابه هذا وفي سواه من مؤلفاته العديدة يعتبر بحق مثالاً للأديب العصري المثقف

محمود الخفيف

العدد 60 - بتاريخ: 27 - 08 - 1934

من فضائل الأزمة

المصري يكتشف بلاده

من صفات الأزمات الاقتصادية أنها تعلم الناس الاقتصاد. وتحملهم على الاعتدال في كثير من مواطن الإسراف والتطرف، وقد دهمتنا الأزمة الاقتصادية منذ أربعة أعوام، فقضت على كل أسباب الرخاء والسعة، وألقت على ذوي البذخ والترف دروساً قاسية؛ ولكنها علمتنا من فضائل الاقتصاد ما لم نكن نعلم، وفتحت عيوننا إلى أمور كثيرة كانت دعة الرخاء تحملنا على إغفالها، وبثت إلى الأعصاب المضطرمة كثيراً من عوامل الهدوء، وإلى النفوس الجامحة كثيراً من عوامل الاعتدال.

وكان الاصطياف من الأمور التي كشفت لنا الأزمة بعض أسرارها؛ ففي أعوام الرخاء والسعة، كان المصريون في كل صيف يهرعون ألوفاً إلى عواصم أوربا ومصايفها، وينفقون مئات الألوف في فنادقها ومنتدياتها وملاهيها، ثم يعودون وقد استنفد التجوال الممتع كل ما في جيوبهم؛ وكان ما ينفقه المصريون كل عام في الاصطياف خارج القطر يبلغ زهاء المليونين، تذهب كلها إلى يد الأجانب. فلما حلت الأزمة، وذهبت بالدخل الفياض، قبع كثير من المترفين السابقين الذين كانت تجذبهم (موائد) دوفيل وبيارتز ومونت كارلو في دورهم، وذكر كثيرون أن هنالك مصايف مصرية يمكن انتجاعها، ولا تكلفهم ركوب البحار وإنفاق المئات والألوف، وذكر كثيرون أيضاً أن هنالك مصايف شرقية قريبة لا بأس بها.

كان للأزمة فضل هذا الاكتشاف. فبالأزمة وحدها اكتشف المصريون بلادهم، وعرفوا بعد فوات كثير من الوقت أن إنفاق الملايين خارج القطر على هذا النحو سفه لا يغتفر، وانهم يستطيعون بقليل من المال أن ينتجعوا الراحة والعافية في مصايف بلادهم كالإسكندرية وبور سعيد ورأس البر؛ وكان لما بذلته مصلحة السكك الحديدية لتسهيل الاصطياف أحسن الأثر، فقد شعر الناس أخيراً أن الاصطياف ليس ترفاً، وليس وقفاً على الأغنياء، ولكنه ضرورة صحية، وأنه في متناول جميع الطبقات.

وأتجه كثير من المصريين، ممن شاءوا الاصطياف خارج القطر، إلى مصايف البلاد الشرقية القريبة التي لا تجشمهم كبير نفقة، فأموا فلسطين والشام ولبنان، واستطاعوا أن

يتصلوا عن قرب بإخوانهم في تلك البلاد الشقيقة، وأن يعملوا على توثيق الروابط المشتركة بينها وبين مصر، وكان ذلك من فضائل الأزمة أيضاً.

نذكر إنه لما وقعت كارثة النقد في فرنسا سنة 1925، وهبط الفرنك إلى نحو نصف قيمته، بادرت الصحف الفرنسية إلى نصح الشعب الفرنسي بأن يقلل من شراء العملة

الأجنبية جهد الاستطاعة، وأهابت بالفرنسيين الذين اعتادوا السفر والسياحة أن يبقوا داخل فرنسا حتى لا تبدد ثروات البلاد وقت المحنة النقدية في بلاد أجنبية، وأهابت بهم بالأخص أن يحاولوا أن يكتشفوا فرنسا أولاً، فيجدوا فيها من بدائع الطبيعة وساحر النره، وتنوع المناظر في البر والبحر، ما يخفف من شغفهم بارتياد مواطن السياحة والنزهة الأجنبية. فاستمع الفرنسيون إلى هذا النداء القومي، وكانت فرصة اكتشفوا فيها بلادهم على نحو ما قالت صحفهم يومئذ، واقتصدت فرنسا يومئذ مئات الملايين، وازداد الفرنسي شغفاً بالتجوال في بلاده، وتفضيلها على غيرها في قضاء فترات العطلة والراحة.

ولما وقعت الأزمة الاقتصادية الحالية، واضطربت أحوال النقد في كثير من البلاد الأوربية، وضعت ألمانيا والنمسا والمجر ويوجوسلافيا وغيرها قيوداً شديدة على شراء العملة الأجنبية لتحول دون تسرب أموالها إلى الخارج، ولتمنع مواطنيها جهد الاستطاعة من السفر خارج بلادهم وإنفاق أموالهم في بلاد أخرى. ووضعت دول أخرى قيوداً شديدة على شراء المنتوجات والحاصلات الأجنبية، واشترطت أن يكون الدفع بعملتها أو من منتوجاتها، وكان للقيود الأولى أثرها في ركود موسم السياحة المصري، وكان للثانية أثرها في كساد سوق صادراتنا.

ولكننا في مصر نغفل هذه الاعتبارات دائماً، ومال المصري مباح أبداً، وعرض للتبديد خارج القطر حتى في أحرج الأزمات؛ ولم توفق الحكومة المصرية حتى اليوم إلى أن تضع لها أية سياسة أو تقاليد ثابتة في مثل هذه الشئون؛ فهي لم تفكر مطلقاً في اتخاذ أية إجراءات للمحافظة على أموال المصريين الذين لا يحملهم أي وازع على حفظها، وللحد من حريات ذلك النفر الذي ما زال في كل صيف يحمل الأموال التي يعتصرها من عرق الفلاح إلى (موائد) العواصم والمصايف الأوربية، وإلى مراقصها وفتياتها.

يقولون إن لمصر موسم سياحة، وإنها تغنم من ذلك الموسم مالاً لا بأس به؛ فلماذا لا ينفق المصريون مثل هذا المال في مواطن السياحة الأوربية. والحقيقة أن مصر تظلم بهذا القول أيما ظلم، ففي مصر موسم سياحة حقاً، ولكن معظم الغنم في هذا الموسم لا يعود إلى مصر والمصريين، وإنما يعود إلى الأجانب: إلى شركات السياحة الأجنبية، وإلى شركة الفنادق الأجنبية؛ وما بضع عشرات الألوف التي تعود على خزينة الحكومة من أجور السكك الحديدية وتذاكر الآثار، ثم على بعض المصريين المتصلين بهذا الموسم، إلا فضلات ما يجنيه الأجانب باسمنا.

لقد بدأ المصري يكتشف بلاده، وعلمته الأزمة شيئاً من الاقتصاد والاعتدال؛ فهل سيعتبر بهذا الدرس دائماً، ويذكره أيضاً أيام الرخاء، فيظن قدر الاستطاعة بماله أن ينفق في غير بلاده؟ أم هو درس الساعة فقط، يزول أثره بزوال الظرف الذي ألقاه؟ وعلى أي حال فإنه يبقى للأزمة فضل التذكرة وفضل العبرة.

(ع)

الشخصية

للأستاذ أحمد أمين

أعجب ما في الإنسان شخصيته، وقد تنوعت الشخصيات بعدد ما على ظهر الأرض من إنسان؛ فترى الشبه الكبير بين الحجر والحجر، ويصعب عليك أن ترى بينهما فرقاً، وترى المطبعة تخرج آلافاً من الكتب تتشابه وتتماثل، ولا تميز بين أحدها والآخر؛ وترى الشبه الكبير بين الوردة والوردة في رائحتها ولونها وكل شيء فيها؛ وترى الحيوانات من فصيلة واحدة تتشابه وتتقارب حتى ليلتبس عليك بعضها ببعض - أما الإنسان والإنسان فلا، حتى ليكاد يكون كل إنسان فصيلة وحدها - فإن كان علماء (الأثنولوجيا) استطاعوا أن يقسموا الإنسان إلى أنواع، وأن يضعوا لكل نوع خصائصه ومميزاته، فذلك عمل تقريبي محض؛ أما إن أرادوا الدقة التامة فلابد لهم أن يضعوا كل فرد في قائمة وحده، له مميزاته الخاصة في جسمه وعقله، وروحه وخلقه؛ فإذا أردنا أن نحصي الشخصيات في هذا العالم فعلينا أن نحصي عدد الناس فنضع ما يساويه من عدد الشخصيات - وكانت اللغة عاجزة كل العجز عن أن تضع لكل شخصية اسماً خاصاً، فاكتفت في الجسم بأن تقول: طويل أو قصير، وسمين أو نحيف، وأبيض أو

أسمر؛ مع أن كل كلمة من هذه تحتها أنواع لا عداد لها، فهناك آلاف من أنواع الطول، وآلاف من أنواع القصر، وآلاف من الألوان؛ ولكنها عجزت فقاربت، ولو حاولت أن تضع اسماً خاصاً لكل نوع من أنواع العيون وحدها، على اختلافها في الألوان واختلافها في النظرات، واختلافها في السّحر، واختلافها في السعة والضيق لوضعت في ذلك معجماً خاصاً، وهيهات أن يغنيها.

وعجز علماء الجمال فاكتفوا بقولهم جميل وقبيح، مع أن هناك آلافاً من درجات الجمال، وآلافاً من درجات القبح، بل إنك لا تستطيع أن تنزل إنسانين في منزلة واحدة من الجمال والقبح، فلما أعياهم الأمر قنعوا بقبيح وجميل، واكتفوا بالإجمال عن التفصيل.

وعجز علماء الأخلاق فوقفوا في ذلك مثل موقف إخوانهم علماء الجمال، فقسموا الأعمال إلى خير وشر، وقسموا الصفات إلى فضيلة ورذيلة، وسموا الإنسان خيّراً أو شريراً، وهيهات أن يكون ذلك مقنعاً، فالخير والشر يتنوع بتنوع الأفراد، ولو كان للأخلاق ميزان دقيق لاحتاج إلى سنج بعدد ما في العالم من إنسان.

الحق أن علماء كل علم عجزوا عجزاً تاماً عن يجاروا الشخصيات في كل مناحيها، وأن يسيروا وراء تحديدها تفصيلاً، ووجدوا العمر لا يتسع لهذا ولا لبعضه، فعنوا بوجوه الشبه أكثر مما عنوا بوجوه الخلاف، وعنوا بالموافقات أكثر مما عنوا بالفروق، وفضلوا أن يضعوا مسميات شاملة وإن شملها الخطأ، وأن يضعوا قواعد عامة وإن عمها الغموض والإبهام، وقالوا ليس في الإمكان أبدع مما كان.

هذه الشخصية لكل فرد هي التي ميزته عن غيره من الأفراد، وجعلتني أنا أنا، وأنت أنت، وهو هو، ولولا هذه الشخصية لكان أنا وأنت وهو شيئاً واحداً - هذه الشخصية هي مجموع صفاتك الجسمية والعقلية والخلقية والروحية، تتكون من شكلك ونظراتك ونبراتك وطريقة حديثك، ودرجة صوتك من الحسن أو القبح، وإيمائك وإشارتك كما تتكون من عقليتك وكيفية قبولك للأشياء، وحكمك عليها ومقدار ثقافتك - كما تتكون من تصرفاتك وموقفك نحو المال ودرجة حبك له؛ وعلى الجملة كل علاقتك بالحياة، وكل علاقة الحياة بك - وإذ كان الناس مختلفين في هذا كله اختلافاً يسيراً أو كثيراً كانت الشخصيات كذلك مختلفة، وبين بعضها وبعض وجود شبه في بعض الأشياء، ووجود خلاف في بعضها، وكانت بعض الشخصيات تتجاذب وتتحاب، وبعضها تتباغض وتتنافر - وفي الواقع إن معنى أحبك أو أبغضك، وأعرفك أو أنكرك، أن شخصيتي تحب شخصيتك أو تكرهها، وتعرفها أو تنكرها وصَدَق الحديث (الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف) وليس معنى حب الشخصية لشخصية أخرى أن الشخصيتين من جنس واحد، وإن ميولهما متقاربة، بل إن ذلك يرجع إلى قانون أكثر تعقيداً مما نظن، فقد يتحاب الشخصان لأن ميلهما العلمي في اتجاه واحد، أو ميلهما إلى كيف من الكيوف متحد، وقد يتحاب الشخصان لأنهما مختلفان ويكمل نقص أحدهما الآخر، كما يحب أحياناً كثيرُ الكلام قليلَ الكلام، وكما يحب الساكن الهادئ المتحفظُ المَرِحَ النشيطَ المتحرك، وكما تتعاشق الكهربائية السالبة والموجبة - على كل حال ليس قانون تجاذب الشخصيات وتنافرها قانوناً بسيطاً سهلاً يمكن الفصل فيه بكلمة.

هذه الشخصيات الإنسانية تختلف قوة وضعفاً واختلافاً أكثر مما بين الآلات الميكانيكية والمصابيح الكهربائية، فهذه شخصية عاجزة ضعيفة ذليلة، لا يكاد يتبينها الإنسان إلا بعسر، ولا يكاد يراها إلا بمنظار، ولا يكاد يحسها إلا بمجهود، هي (كاللمبة) قوتها شمعة واحدة، بل هي فوق ذلك مغبشة لكي تضعف قوتها، هي من جنس ما يستعمل في حجر النوم، نور كلا نور ووجود كعدم، لا تتعب نظر النائم لأنه لا يشعر لها بوجود، ولا تستهلك مقداراً يذكر من التيار لأنها كامنة الحياة، مسكينة في فعلها وانفعالها، ضعيفة في تأثيرها وتأثرها، وهذه شخصية أخرى قوتها ألف شمعة أو ألفان أو ما شئت من قوة، تضئ فتملأ البيت نوراً، بل هي أكبر من أن تضاء في بيت إنما تضاء في شارع كبير أو ساحة عامة، إذا وضعت في بيت أقلقت راحة أهله بقوتها، وأعشت الناظر بضوئها، وعُد وضعها غير ملائم لجوها، وكان مثل ذلك مثل من وضع (فناراً) في بيت، أو أشعل أكبر وابور جاز ليصنع عليه فنجان قهوة - وبين اللمبة الأولى الضعيفة الخافتة، والثانية القوية الباهرة درجات لا تحصى، فكذلك الشخصيات، بل أكثر من ذلك - ولكن

هناك فروقاً بين الشخصيات واللمبات، أهمها أن اللمبة الكهربائية لا يمكنك أن تنقلها من قوة إلى قوة، فاللمبة التي قوتها شمعة واحدة هي كذلك أبداً، والتي قوتها مائة أو مائتان هي كذلك أبداً، وكلما تستطيع أن تفعله أن تنظف اللمبة وتجلوها حتى لا يضعف غبش من قوتها، ولا يقلل غبار من ضوئها - أما الشخصية الإنسانية فقابلة للتحول، بل هي قابلة للطفرة صعوداً وهبوطاً، علواً وانحطاطاً - فبينا هي خاملة ضعيفة إذ اتصل بها تيار قوي أشعلها وقواها حتى كأنها خلقت خلقاً آخر، وكأنه لا اتصال بين يومها وأمسها، هي اليوم مخلوق قوي فعال يلقي أشعته إلى أبعد مدى، وكانت بالأمس لا يؤبه بها، ولا يحس بضوئها - كذلك ترى شخصيات أخرى يخبو ضوءها، فإذا هي مظلمة بعد نور، وضعيفة بعد قوة، ليس لها من حاضرها إلا ماضيها - وكذلك شاء الله، يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، ويخلق الإنسان في أحسن تقويم، ثم يرده أسفل سافلين - وتأريخ الإنسان مملوء بالأمثال، فكم من نابغ بعد خمول، وخامل بعد نبوغ، وميت في الحياة الأدبية والاجتماعية حي، وحي مات، وهكذا شخصيات الناس في مد وجزر دائماً.

وهذا التغير المستمر في الشخصيات هو الذي أبقى على أمل المصلحين في إصلاح الناس، وباعد بينهم وبين اليأس.

وكل شيء يواجه الإنسان في حياته يؤثر في شخصيته أثراً صالحاً أو سيئاً فالغنى بعد الفقر، والفقر بعد الغنى، واليأس بعد الأمل، والأمل بعد اليأس، وما يعتريه من شدائد وكوارث، وما يبذله في صراع الحوادث، وما يلاقيه من رخاء ونعيم، وما يبعثه ذلك من هدوء واطمئنان - كل هذا وأمثاله له أثر في تكوين الشخصية يختلف ضعفاً وقوة؛ وأهم غرض للتربية الصحيحة في نظري أن تجعل ممن تربيهم شخصيات هي أقوى ما يمكن أن يكون الأشخاص من حيث استعدادهم وأهليتهم، فأنجح مرب هو الذي يستطيع أن يصل بطلبته إلى أقصى ما في استعدادهم من رقى، ويبلغ بشخصياتهم إلى آخر حدودها الممكنة - ولكن بجانب هذا التأثير العادي اليومي تحدث حوادث بارزة في تاريخ الإنسان وخاصة العظماء يكون لها الأثر البالغ والتغير الخطير - وهذه الحوادث يصعب ضبطها وتعليلها وحصرها - فقد تنقلب شخصيات الأفراد فجأة على أثر عقيدة دينية تملأ نفوسهم حماسة وقوة وعظمة كما رأينا في فعل الإسلام في رجاله أمثال عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد، فلولا الإسلام ما كانت لهم هذه الشخصيات البارزة، ولكانت عظمتهم محدودة محصورة، ولو سبقوا زمنهم بسنين لماتوا كأمثالهم من عظماء الجاهلية، وقد يكون بروز الشخصية وظهور النبوغ في الإنسان على أثر مقابلته عظيماً، فيحس بعدها كأن عود ثقاب أشعل في نفسه فألهبها، وأضاء ما بين جوانبه وحفزه للعمل، وهون عليه الأخطار، بل قد تكون العظمة نتيجة لشيء أتفه من ذلك، فقد يقرأ جملة في كتاب، أو يسمع عبارة من خطيب، فكأنها كانت مفتاح عظمته، وكاشف حيرته، بل قد تكون العظمة لم تأت من شيء خارجي بل أتت من تفكير الشخص في نفسه وتحليلها وتبين موقفها في العالم، وموقف العالم منها، وتساؤله لها ما رسالتها في العالم وكيف تؤديها - فإذا هو يشعر بعد طول التفكير كأن قبساً من نور إلهي ألهب نفسه، وأضاء العالم أمامه، فهو يسير على هدى، ويؤدي رسالته كما بُلّغ، إلى كثير من أمثال هذا مما لا يستطاع حصره.

ويظهر أن النفوس إذا نضجت تلمست الوسائل المختلفة لبروزها، وظهور عظمتها، والصوفية يقولون: (صاحب الخصوصية لا بد أن يظهر يوماً ما) ولكن كم في العالم من شخصيات كامنة لو هيئ لها عود الثقاب لاشتعلت، ولو أتيح لها القبس لأنارت، وكم من بذرة صالحة قوية لم تجد تربتها اللائقة بها، فغلبتها على الحياة بذرة فاسدة، وكم من زهرة بدأت تتفتح فأصابتها ريح هوجاء عصفت بها - وعمل المصلحين والشخصيات القوية في كل أمة أن يستكشفوا هذه الكوامن فيقدموا لها الغذاء ويتعهدوها بالنماء.

أحمد أمين

الإنسانية العليا

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

من أوصاف النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، طويل السكت، لا يتكلم في غير حاجة، ليس بالجافي ولا المَهين، يعظّم

النعمة وإن دقت لا يذم منها شيئاً، ولا تغضبه الدنيا ولا ما كان لها، فإذا تُعُدّيَ الحق لم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها، وكان خافض الطرف، نظره إلى الأرض أطول، من نظره إلى السماء، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه، ولا يطوى عن أحد من الناس بشْرَه، قد وسع الناس بسطُهُ وخُلقُه، فصار لهم أبا، وصاروا عنده في الحق سواء، يحسن الحسنَ ويقويه، ويقبّح القبيح ويوهيه، معتدل الأمر غير مختلف، وكان أشد الناس حياء، لا يثبت بصره في وجه أحد، له نور يعلوه، كأن الشمس تجري في وجهه، لا يؤيس راجيه، ولا يخيب فيه، ومن سأله حاجة لم يردّه إلا بها أو بميسور من القول، أجود الناس بالخير.

صلى الله وسلم على صاحب هذه الصفات التي لا يجد الكمال الإنساني مذهباً عنها، ولا عن شيء منها، ولا يجد النقص البشري مساغاً إليها، ولا إلى شيء منها، ففيها المعنى التام للإنسانية، كما أن فيها المعنى التام للحق، ومن اجتماع هذين يكون فيها المعنى التام للإيمان.

هي صفات إنسانها العظيم، وقد اجتمعت له لتأخذ عنه الحياة إنسانيتها العالية، فهي بذلك من براهين نبوته ورسالته.

ولو جمعت كل أوصافه صلى الله عليه وسلم، ونظمتها بعضها إلى بعض، واعتبرتها بأسرارها العلمية - لرأيت منها كوناً معنوياً دقيقاً قائماً بهذا الإنسان الأعظم، كما يقوم هذا الكون الكبير بسننه وأصول الحكمة فيه، ولأيقنت أن هذا النبي الكريم إن هو إلا معجم نفسي حي ألفته الحكمة الإلهية بعلم من علمها، وقوة من قوتها، لتتخرج به الأمة التي تبدع العالم إبداعاً جديداً، وتنشئه النشأة المحفوظة له في أطوار كماله.

ولن ترى في الإنسانية أسمى من اجتماع هذه الصفات بعضها إلى بعض، وإني لأكاد كلما تأملتها أحسب هذا السمو قضاء وقدراً بإنسان على الإنسانية كلها. وهي دليل على أنه

الإنسان الذي خلق للدنيا لا لنفسه، فهو لا ينمو بما يكون له على الناس من الحق، ولكن بما يكون للناس عليه من الواجبات، كأنما هو حقيقة كونية تعيش عيشها، فما تكون في الوجود إلا لتقرر وجودها هي، ولا تنتهي حين تنتهي بذاتها إلا لتبدأ معانيها في غيرها، فهو صلى الله عليه وسلم إنسان غُرِسَ في التاريخ غرساً ليكون حداً لزمن وأولاً لزمن بعده، وما كانت حياته تلك إلا طريقة غرسه، وهو أبداً قائم في مكانه الاجتماعي، إذ كان الزمن كلما تقدم زاد في إثباته. وقد أصبح في الدنيا كأنه جهة من الجهات لا إنسان من الناس، فلن يتغير أو يمحى إلا إذا تغير أو مُحي المشرق والمغرب.

ونحن حين نقرأ تلك الصفات وما فاضت به كتب الشمائل من أمثالها - لا نقرؤها أوصافاً ولا حلية، بل نراها صفحة إلهية مصنفة أبدع تصنيف وأدقه، ومن وراء تأليفها تفسير طويل لا يتهدّى الفكر البشري لأحسن منه ولا أصح ولا أكمل، فقد اجتمعت تلك الصفات في إنسانها اجتماع الأجزاء في المسألة الرياضية لا ينبغي أن تزيد أو تنقص، إذ كان في مجموعها ما وجد له مجموعها.

ويكاد الارتباط بين أجزاء هذه المسألة يكون هو بعينه صورة للارتباط بين أجزاء تلك الصفات الشريفة، فان كل جزء منها موضوع وضعاً لا يتم الكل إلا به، حتى لا موضع فيها لقلةٍ أو كثرة، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم: (أدبني ربي فأحسن تأديبي) وأنت إذا دققت في هذا الحديث أدركت من معناته أن هناك طبيعة أخلاقية مفردة تجري على قانونها الذي وضعه الله لها وأحكمها به.

وأعجب ما يدهشنا من مجموع صفاته صلى الله عليه وسلم - أن فيها دليلاً بيناً على أنه مخلوق خلقة متميزة بنفسها كخلقة القلب الإنساني، نظامه حياته وحياته نظامه، وكأنما اعترته حالة نفسية كالتي تعتري القلب في استشعار الخطر فتخرجه من طبيعته إلى أقوى منها، فلا يزال يمد أعضاء الجسم بمدد لا ينفد - من القوة والصبر يجعل الحياة فيها على أضعافها كأنها حياة كانت مخبوءة وظهرت بغتة؛ وفي هذه الحالة تتجه غرائز النفس كلها إلى جهة واحدة كأنها مقدرة بميزان، مضبوطة بقياس؛ فترجع على تناقضها واختلافها متعاونة يؤازر بعضها بعضاً، وكان قانونها الطبيعي أن

تتجاذب وتتساقط وتفسر الواحدة منها عمل الأخرى، فيجيء بها الشيء وضده معاً: كالصدق والكذب، والطمع والقناعة،
والشهوات الثائرة والخمود الساكن، إلى آخر ما تعد من هذه الغرائز؛ ولكنها في استشعار الخطر تكون كالأشباه لا كالأضداد، فيشد بعضها بعضاً، ويتمم النقيض منها نقيضه، وتجري كلها في قانون واحد: هو الدفاع بأجزائها عن مجموعها؛ فترى النازع منها وإنه لمستقر في أشد من القيد، وكأن فيه غير طبيعته.
وهل ينبئك مجموع صفاته صلى الله عليه وسلم إلا أنه يعيش معيشة القلب إذا اختلف ما حوله وفجأته بغتات الوجود فتجاوز أن يكون منبعاً للحياة إلى أن يكون حافظاً للحياة في منبعها. وتلك الحالة - كما مر بك - تجعل وجود الإنسان هو وجود إرادته وعقله، لا وجود شهواته وغرائزه؛ وبذلك نبينا صلى الله عليه وسلم، فهو مدة حياته في وجود إرادته لا غيرها، حتى ليس عليه سبيل لغميزة أو لائمة، كأنه خُلق تشدّه نية مستيقظة قد نبهها ما ينبه النفس من الغرر والخطر. ولعل هذا الشعور في نفسه صلى الله عليه وسلم هو التفسير لقوله: (نيةُ المؤمن خيرٌ من عمله) إلى أحاديث كثيرة مما يجري في معنى هذه الكلمة الجامعة؛ يريد بها: أن نية المؤمن لا تنطوي إلا على الخير الكامل، فهو ما دامت نيته على صلاحها، وسرُّه على إخلاصه - لا يعد اليسير من الشر يسيراً، ولا يرى الكثير من الخير كثيراً؛ فالأصل القائم في تلك النية المؤمنة ألاّ يبدأ الشر كي لا يوجد، وألاّ ينتهي الخير كي لا يفنى؛ فالمؤمن من ذلك على الخير والكمال أبداً، في حين أن عمله بطبيعته الإنسانية يتناول الخير والشر جميعاً، ثم لا يكونون إلا عملاً إنسانياً على نقص واضطراب والتواء.
وقد لا يستطيع المؤمن أن يأتي الخير في بعض أحواله، ولكنه يستطيع دائماً أن ينويه ويرغب فيه ويعزم عليه ليحقق ضميره الطيب في كل ما يهم به، ويحصر أفكاره في قانون نيته المؤمنة. وهذا هو الأساس في علم الأخلاق، لا أساس من دونه.
والنية من بعد هي حارس العمل، فكل إنسان يستطيع أن يذعن وأن يأبى، ومن ثم تكون هذه النية رداً ومدافعة من ناحية، واستجابة ومطاوعة من الناحية الأخرى؛ فهي على الحقيقة متى صلحت كانت استقلالاً تاماً للإرادة. وكانت مع ذلك ضبطاً لهذه الإرادة على حال واحدة هي التي ينتظم بها قانون المبدأ السامي.
ثم إنه لا ضابط لصحة العمل واستقامته إلا النية الصحيحة المستقيمة؛ فالتزوير والتلبيس
كلاهما سهل ميسور في الأعمال، ولكنهما مستحيلان في النية إذا خلصت.
وهي كذلك ضابط للفضائل توجه القلوب على اختلافها وتفاوتها اتجاهاً واحداً لا يختلف، فيكون طريق ما بين الإنسان والانسان، من ناحية الطريق ما بين الإنسان وبين الله.
وأشواق الروح بطبيعتها لا تنتهي، فيعارضها الجسم بجعل حاجاته غير منتهية، يحاول أن يطمس بهذه على تلك، وأن يغلّب الحيوانية على الروحانية، فإذا كانت النية مستيقظة كفّتْه وأماتت أكثر نزعاته، ووضعت لكل حاجة حداً ونهاية؛ وبذلك ترجع النية إلى أن تكون قوة في النفس يخرج بها الإنسان عن كثير مما يحدُّه من جسمه، ليخرج بذلك عن كثير مما يحده من معاني الأرض.
وهي بعد هذا كله تحمل الإنسان أن ينظر إلى واجبه كأنه رقيب حي في قلبه، لا يرائيه ولا يجامله، ولا يخدع من تأويل، ولا يُغر بفلسفة ولا تزيين، ولا يُسكته ما تسول النفس، ولا يزال دائماً يقول للإنسان في قلبه: إن الخطأ أكبر الخطأ أن تنظّم الحياة من حولك الفوضى في قلبك.
وجملة القول في معاني النية أنها قوة تجعل باطن الجسم متساوقاً مع ظاهره، فتتعاون الغرائز المختلفة في النفس تعاوناً سهلاً طبيعياً مطرداً، كما تتعاون أعضاء الجسم على اختلافها في اطراد وسهولة وطبيعة.
وكل صفات النبي صلى الله عليه وسلم - مما ذكرناه وما لم نذكره - متى اعتبرت بذلك الأصل الذي بيّناه انتظمها جميعاً، فجاء بعضها تماماً على بعض في نسق رياضي عجيب، وظهرت حكمة كل منها واضحة مكشوفة، ورأيتها في مجموعها تصف لك عمراً هندسياً دقيقاً قد بلغ الغاية من الكمال والروعة والدقة، لا يُعَدُّ جزءٌ منه جزءاً، بل كله أجزاؤه، وأجزاؤه كله؛ كالوضع الهندسي؛ إما أن يكون بكله، وإما ألا تكون فيه الهندسة كلها.

وليس مجموع تلك الصفات في معناه إلا صنعة الإنسان صنعة جديدة تخرجه موجوداً من ذات نفسه، وتكسر القالب الأرضي الذي صب فيه وتفرغه في مثل قالب الكون، فإذا هو غير هذا الإنسان الضيق المنحصر في جسمه ودواعي جسمه، فلا تخضعه المادة، ولا يؤتى من سوء نظره لنفسه، ولا تغرّه الدنيا، ولا يمسكه الزمان؛ إذ كانت هذه هي صفات المستعبَدِ بأهوائه لا الحر فيها، والخاضع بنفسه لا المستقل بها، والمقبور في إنسانيته لا
الحي فوق إنسانيته. ومثل هذا المستعبد الخاضع المقبور لا وجود له إلا في حكم حواسه، فعمله ما يعيش به لا ما يعيش من أجله؛ ويتصل بكل شيء اتصالاً مبتوراً ينتهي في هوى من أهواء الحيوان الذي فيه.

ومن المقابلة العجيبة أن يكون في الإنسان الاجتماعي حيوان تقابله الحكمة في الحيوان الأليف بإنسان؛ وحكمهما واحد ومنطقهما لا يختلف. فلو أنك سألت حيوان الأعصاب عن صاحبه الإنسان لقال لك: هو غلّتي ومزرعتي. ولو سألت كلباً عن حبّه صاحبه ومبلغ هذا الحب في نفسه لما زاد في جوابه على أنه يحبه حبّ اللقمة والعظمة. . .

ومتى كان الإنسان في حكم حواسه لم تعد الأشياء عنده كما هي في نفسها بمعانيها الطبيعية المحدودة، وانقلبت كما هي في وهمه بمعان متفاوتة مضطربة، فلا يشعر المرء بائتلاف الوجود وتعاونه، ولكن باختلافه وتناقضه، فمن ثم لا تكون أسباب اللذة إلا من أسباب الألم، ويدخل في كل حب بغض، وفي كل رغبة طمع، وفي كل خير شر، وفي كل صريح خبث، وهلم جراً؛ إذ لابد من هذا كله متى غلب الفاني على الباقي، ولابد من كل هذا في تمثيل رواية الحواس الخادعة التي أساسها التغّير والتقلّب، حتى لكأن النفس إنما تعيش بها في ظاهر من الحياة لا في الحياة نفسها.

وهذا الخداع جاعل كل شيء من أشياء النفس لا يبدأ إلا لينتهي، ثم لا ينتهي إلا ليبدأ؛ فما تزال هذه النفس طامعة فيما لا تناله، ولا يزال من ذلك مصدر لآلامها الحسية؛ ثم إذا هي نالت منالها سئمت، فلا يزال من ذلك مصدر آخر لآلامها المعنوية. ولن يجئ الصحيح من غير الصحيح، فالكون كله ليس إلا كذباً في النفس الكاذبة بحواسّها.

ولذا كان أخص أوصافه صلى الله عليه وسلم راجعاً إلى خروجه من سلطان نفسه، فلا يغضب لها، ولا يطلقها من الدنيا فيما تذمه أو تمدحه، ولا يحب فيها، ولا يبغض من أجلها، ولا يهاونها، ولا يستلين لها في مأكل ولا ملبس، ولا يأخذها إلا من ناحية الإيمان بالله والإيمان بالإنسانية؛ فأفراحها أحزانها، وآمالها أشواقها، وأملاكها أعمالها، وحسابها في طبيعتها، وحوادثها من العقل لا من الحواس، وعظمتها إثبات ذاتها في غيرها، لا إثبات غيرها في ذاتها؛ وغايتها في الباقي لا الزائل، وفي الخالد لا الفاني. وما دام الحاضر متحركاً فهو طارئ عابر أو شكُ أمورِ الدنيا زوالاً، والعمل له على مقداره في قلة لبثه
وهوان أمره، والاهتمام أبداً بما وراءه لا به.

فأول النفس النية العاملة لآخرتها، وآخر النفس ما تؤدى إليه أعمال هذه النية؛ فليس في إنسان الدنيا إلا إنسان العالم الآخر؛ وبهذا يقدّر صمته وكلامه، وحركته وسكونه، وما يأتي وما يدع، وما يحب وما يكره؛ إذ كل شيء منه على الاعتبار إنما هو صورة الحقيقة العاملة فيه.

وجماع الأمر ألا يكون مستقبل الإنسان علامة استهزاء بجانب ماضيه، ولا علامة استفهام، ولا علامة إنكار.

وتدل صفات النبي صلى الله عليه وسلم باجتماعها وتساوقها على حقيقة عظمى لم يتنبه إليها أحد؛ وهي أن جميع خصائصه النفسية مرهفة متيقظة، وهذا مما يندر وقوعه وإمكانه؛ فان الرجل من الناس ليكون حياً بالحياة، ولكن جوانب كثيرة من نفسه قد طاح بها الموت، أو هي مريضة، وذلك أول الموت؛ أو غافلة، وذلك شبه الموت. أما الحيّ العظيم فهو الذي يحيا بأكثر خصائص نفسه، وأما الحي الأعظم فهو الذي يحيا بجميع خصائصها، تملؤه الحياة فيملأ الحياة، ويتمدد السر فيه ليريه حقائق الأشياء، ويهديه ويدلّه، فيكون بنفسه رؤية للناس وهداية ودلالة؛ ومثل هذا يعظم ثم يعظم حتى ليرى الفرق بينه وبين غيره كالفرق بين نور لبس اللحم والدم، وبين تراب لبس الدم واللحم.

وذلك لا يكاد يتفق إلا في مراتب أعلاها الامتياز في النبوة، ثم النبوة؛ ثم تنزل إلى الامتياز في الحكمة، ثم تهبط إلى عبقرية الشعر. فأكبر الشعراء قاطبة كالنبي في معناه إلا أنه نبي صغير، وإلا أنه في حدود قلبه.

وهذه القوى الثلاث هي التي أبدعتها الحكمة الإلهية لتحويل الحياة والسموّ بها؛ فالشاعر يستوحي الجمال إذا تألّه الجمال في قلبه، والحكيم يستوحي الحقيقة إذا تألّهت في نفسه، والنبي يستوحي الألوهية نفسها.

ولكنها أحزان النبوّة تكسو الحياة فرح (كان صلى الله عليه وسلم متواصل الأحزان) النفس الكبيرة، وهو فرح كله حزن وتأمل، وفكرة وخشوع، وطهر وفضيلة. وما فرح أعظم الشعراء بطرب الوجود وجمال الموجودات إلا شيء قليل من حزن النبي.

إذ هو مكلّف أن يصنع الإنسان الجديد وينقح الآدمية (وكان دائم الفكرة ليست له راحة) فيه. وفكرة النبي هي معيشته بنفسه مع الحقائق العليا، إذ لا يرى أكثرها تعيش في الناس. وهي الفردية واستقلالها وسموّها لأنها إطاقة النفس الكبيرة لوحدتها، بخلاف الأنفس الضعيفة التي لا نطيقها، فدأبها أبداً أن تبحث عما تستعبد له، أو تنسى ذاتها فيه، أو تستريح إليه من ذاتها. ومتى كانت النفس فارغة كان تفكيرها مضاعفة لفراغها، فهي تفر منه إلى ما يلهيها عنه. ولكن العظيم يعيش في امتلاء نفسه، وعالمه الداخلي تسميه اللغة أحياناً: الفكرة، وتسميه أحياناً: الصمت.

ومن الصمت (وكان صلى الله عليه وسلم طويل السكت لا يتكلم في غير حاجة) أنواع، فنوع يكون طريقة من طرق الفهم بين المرء وبين أسرار ما يحيط به؛ ونوع يغشى الإنسان العظيم ليكون علامة على رهبة السر الذي في نفسه العظيمة، ونوع ثالث يكون في صاحبه طريقة من طرق الحكم على صمت الناس وكلامهم، ونوع رابع هو كالفصل بين أعمال الجسد وبين الروح في ساعة أعمالها؛ ونوع خامس يكون صمتاً على دويٍّ تحته يشبه نوماً ساكناً على أحلام جميلة تتحرك.

على هذا النمط يجب أن تفسر كل أوصافه صلى الله عليه وسلم؛ فهي بمجموعها طابع إلهي على حياته الشريفة يثبت للدنيا بكل براهين العلم والفلسفة أنه الإنسان الأفضل، وأنه الأقدر، وأنه الأقوى.

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

بضع كلمات

خير زمام لمطية الشجاعة الحلم

لا تستقل أمة نفوس أفرادها غير مستقلة

لا يخرج أبو الهول من صمته حتى نتكلم

الحياة كأس تحلو وتمر، ثم تتحطم

لا تنهر السائل فقد ينهرك غداً

العفاف كالمعدة يشبع ويجوع، فإذا لم يجد ما اعتاده من طعام الزوجية الطيب انصرف إلى غيره من خبيث الطعام

المرأة شيطان جميل

السكير يملأ في آخر أيامه قواريره عقاقير

ما رأيت أستاذاً يعلمني الحلم خيراً من زوجتي وأولادي

شباب التاريخ يتجلى في آثاره القديمة

الطبيعة الجميلة ليست ملكي ولكنها ملك عينيّ، فلم لا أتمتع بها؟

الأولاد مصابيح البيت

المرأة كالطفل، نفر منه فيتبعنا، ونتبعه فيفر

أعمى البصيرة أعمى مرتين

المخدرات كالمرابي، ولكنها تتقاضى ربحها من صحتك

محمود خيرت

شخصية نسوية أندلسية

صبح أو صبيحة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تتمة

تولى محمد بن أبي عامر مقاليد الحكم مع الحاجب جعفر بمعونة صبح وتدبيرها كما بينا، وبدأ الصراع بين الرجلين على الاستئثار بالسلطة. وكان أبن أبي عامر هو القوى بلا ريب، سواء بمواهبه وقوة نفسه أم بمؤازرة صبح له. ولم تكن هذه المؤازرة ترجع فقط إلى ذلك الحب القديم الذي تضطرم به جوانح صبح نحو ذلك الرجل القوي، ولكنها كانت ترجع أيضاً إلى ثقة صبح في مقدرته وبراعته، وفي أنه هو الرجل الوحيد الذي يستطيع أن يحمي ملك ولدها الفتى، وأن يوطد السلام والأمن في المملكة. فكان ابن أبي عامر في الواقع هو السيد المطلق، وكانت صبح تفوض إليه كل سلطة وكل أمر، فكان يدير الشئون كلها بمهارة تثير إعجاب خصومه وأصدقائه على السواء.

وكان الأمير الفتى، هشام المؤيد بالله، ميالاً بطبعه وسنه إلى اللهو والدعة، ولم يكن له شيء من تلك الخلال الرفيعة التي تهيئ الأمراء للاضطلاع بمهام الملك، فكان يلزم القصر والحدائق، ويقضي كل أوقاته في اللهو واللعب بين الخصيان وآلات الطرب. وكان أبن أبي عامر يشجع هذا الميول السيئة في نفس الأمير ويراها ملائمة لمقاصده؛ ومذ ولى هشام، حجر عليه أبن أبي عامر؛ ولم يسمح لأحد غيره برؤيته أو مخاطبته، وكان يحمل صبحاً بدهائه وقوة عزمه على أن تخلق الأعذار لحجب ولدها، حتى غدا هشام شبه معتقل أو سجين في قصره لا يعرف شيئاً من العالم الخارجي إلا ما يسمح له من ضروب اللهو واللعب. وفي ذلك يقول لنا مؤرخ أندلسي: (حجر المنصور بن أبي عامر على هشام المؤيد بحيث لم يره أحد مذ ولى الحجابة. وربما أركبه بعض سنين وجعل عليه برنساً فلا يعرف، وإذا سافر وكل من يفعل به ذلك). ويروي كوندي أن سيداً فارسياً يدعى سابور كان من أمناء القصر أيام الحكم، جاء من ماردة إلى قرطبة يوم البيعة لهشام ليؤدي يمين الطاعة، وحاول رؤية الأمير فلم يستطع. وفي الفرص النادرة التي كان يسمح فيها للأمير بالخروج

كان ابن أبي عامر يتخذ أشد التحوطات، فيحيط موكب الأمير حين يخترق شوارع قرطبة بصفوف كثيفة من الجند تمنع الشعب من رؤيته أو الاقتراب منه. وكان الحجر على هشام عماد ذلك الانقلاب العظيم الذي اعتزم ابن أبي عامر أن يحدثه في نظم الدولة لتمكين سلطانه وطغيانه وجمع سلطات الخلافة كلها في يده.

ولا يتسع المقام للإفاضة في شرح الوسائل والإجراءات المتعاقبة التي تذرع بها ابن أبي عامر لتحقيق مشروعه؛ ولكنا نقول فقط إنه سار إلى غايته بسرعة مدهشة، ولجأ في تحقيقها إلى أشد الوسائل؛ واستطاع بعزمه وصرامته وبراعته أن يستحق كل عقبة، وأن يروع كل منافس ومناوئ. وفي ذلك يقول لنا ابن خلدون: (ثم تجرد (أي ابن أبي عامر) لرؤساء الدولة ممن عانده وزاحمه، فمال عليهم، وحطهم عن مراتبهم، وقتل بعضهم ببعض، كل ذلك عن أمر هشام وخطه وتوقيعه حتى استأصل شأفتهم ومزق جموعهم). وكان أشد ما يخشى منافسة الحاجب جعفر، ودسائس الخصيان الصقالبة بالقصر؛ فبدأ بالتخلص من الصقالبة وحمل جعفر على نكبتهم وتشريدهم، فقتل منهم عدد كبير واعتقل الباقون أو شردوا؛ ولبث بعد ذلك حيناً يتربص بجعفر، ويحرض صبحاً عليه، وينوه كلما سنحت الفرص بقصوره وسوء تدبيره، ثم اعتقله أخيراً وأودعه السجن حتى مات؛ وجدّ بعد ذلك في مطاردة كل من يخشى بأسه من بني أمية أو غيرهم من زعماء القبائل، وسحق كل من يصلح للولاية والرآسة. وفي ذلك يقول ناقم منه:

أبنى أمية أين أقمار الدجى ... منكم وأين نجومها والكوكب
غابت أسود منكم عن غابها ... فلذاك حاز الملك هذا الثعلب

وعمد ابن أبي عامر إلى الجيش فنظمه من جديد ليؤكد عونه وإخلاصه، وأبعد عنه كل العناصر المريبة، وملأه بصفوف جديدة من البربر والمرتزقة؛ وفي سنة ثمان وستين وثلاثمائة أنشأ مدينة جديدة في ضاحية قرطبة على ضفة الوادي الكبير وسماها بالزاهرة، ونقل إليها خزائن الأموال والأسلحة والدواوين؛ وأنشأ له حرساً خاصاً من البربر والصقالبة؛ واتخذ سمة الملك، وتسمى بالحاجب المنصور، ونفذت الكتب والأوامر باسمه، وأمر بالدعاء له على المنابر، ونقش اسمه في السكة؛ وتم بذلك استئثاره بجميع السلطات والرسوم، ولم يبق من الخلافة الأموية سوى الاسم.

ماذا كان موقف صبح إزاء ذلك الانقلاب؟ لقد كانت أكبر عون لابن أبي عامر على إحداثه؛ وكان حبها المضطرم لذلك الرجل الذي ملك عليها كل مشاعرها وعقلها يدفعها

دائماً إلى مؤازرته والإذعان لرأيه ووحيه؛ وكان إعجابها الشديد بمقدرته وتوفيقه يضاعف ثقتها به، ويعميها دائماً عن إدراك الغاية الخطرة التي يسعى إلى تحقيقها؛ هذا إذا لم نفترض أن تلك الفرنجية المضطرمة الجوانح كانت تذهب في حبها إلى حد الائتمار بولدها وتضحية حقوقه ومصالحه. والظاهر أن علائقها بابن أبي عامر، أو المنصور كما نسميه فيما بعد، انتهت بالخروج عن كل تحفظ، وغدت فضيحة قصر ذائعة، شهر بها مجتمع قرطبة وتناولها بلاذع التعليق والهجو؛ وظهرت في ذلك الحين قصائد وأناشيد شعبية كثيرة، في التشهير بحجر المنصور على هشام، وعلائقه بصبح. فمن ذلك ما قيل على لسان هشام في الشكوى من الحجر عليه:

أليس من العجائب أن مثلي ... يرى ما قل ممتنعاً عليه؟
وتملك باسمه الدنيا جميعاً ... وما من ذاك شيء في يديه؟

ومن ذلك ما قيل في هشام وأمه صبح؛ وقاضيه ابن السليم:

اقترب الوعد وحان الهلاك ... وكل ما تحذره قد أتاك
خليفة يلعب في مكتب ... وأمه حبلى وقاض . . .

وهذه المقطوعات اللاذعة وأمثالها تعبر عن روح العصر، وتدل على ما كان يثيره موقف صبح وسمعتها من الحملات المرة. وتتفق الرواية الإسلامية في الإشارة إلى هذه العلائق الغرامية بين صبح والمنصور، وإن كانت تؤثر التحفظ والاحتشام؛ ولم نجد ما يعارضها سوى كلمة لكاتب مغربي يدافع فيها عن المنصور ويدفع عن صبح تهمة شغفها به، ويرمي أولئك الشعراء بالتحامل والكذب.

ولم يخمد جذوة هوى صبح زواج صاحبها المنصور، بل كان موقفها من هذا الزواج دليلاً جديداً على إخلاصها ووفائها، وكانت زوج المنصور أسماء ابنة غالب مولى الحكم وصاحب (مدينة سالم)، وهي فتاة بارعة الجمال والخلال؛ زفت إلى المنصور سنة 376، في حفلات كانت مضرب الأمثال في البذخ والبهاء؛ ونظم الاحتفال في قصر الخليفة ذاته بإشراف الخليفة، وبعبارة أخرى بإشراف أمه صبح؛ وأغدقت صبح على العروس رائع الهدايا والتحف؛ وكان زواجاً سعيداً موفقاً لبث مدى الحياة وإن كان غالب قد خرج بعد ذلك بأعوام قلائل على صهره المنصور، ووقعت بينهما حرب هزم فيها غالب وقتل.

لبث المنصور زهاء عشرين عاماً يقبض بيديه القويتين على مصاير الأندلس، ويسير من ظفر إلى ظفر، ويثخن في ممالك أسبانيا النصرانية؛ ولم تبلغ أسبانيا المسلمة ما بلغته في عهد المنصور من القوة والسؤدد، ولم تبلغ أسبانيا النصرانية ما بلغته في عهده من التمزق والضعف؛ وقد غزا المنصور زهاء خمسين غزوة، وجاز إلى أمنع وأنأى معاقل أسبانيا النصرانية، ومع ذلك لم يشغله تعاقب الغزو عن مهام السلام؛ فكانت الأندلس في عهده تتمتع بفيض من الرخاء والأمن؛ ووطد أيضاً سلطة حكومة قرطبة في المغرب الأقصى، وكان قد فُتح في عهد الحكم المستنصر؛ ولكن المنصور كان يفرض على الأندلس حكماً من الطغيان المطبق، وكانت وسائله العنيفة الصارمة، الدموية في أحيان كثيرة، تذكى من حوله أوار البغض والتربص؛ وكان اجتراؤه بالأخص على مقام الخلافة واستلاب سلطاتها، والحجر على صاحبها الشرعي، تقدمه دائماً إلى الشعب في ثوب الطاغية المغتصب، فكان الشعب يعجب به ولا يحبه. على أن المنصور كان يسير دائماً في طريقه، معتمداً على قوته ووسائله، لا يحفل برأي الزعماء أو الشعب؛ فلما استتب له كل أمر، واجتمعت في يده كل السلطات ثاب له رأي في الاستئثار بما بقى من رسوم الملك ومظاهره، فبدأ بالتخلي عن لقب الحاجب، وخلعه على ولده عبد الملك، وهو فتى في الثامنة عشرة؛ وتسمى بالمنصور فقط؛ ثم أصدر أمره بأن يخص دون سائر أهل الدولة بلقب (السيادة) في المخاطبات، وتسمى عندئذ (بالملك الكريم) وكانت هذه دلائل واضحة على حقيقة الغاية التي يعمل لها المنصور ويرجو أن ينتهي إليها، وهي أن ينسخ الخلافة الأموية حكماً كما نسخ سلطانها فعلاً، وأن ينشئ دولة عامرية تتمتع بمراسيم الملك والخلافة.

ولم تك ثمة معارضة يخشى بأسها المنصور؛ وكان هشام المؤيد قد أشرف على الثلاثين من عمره، ولكنه لبث خاملاً ضعيف العزم والإرادة، لا تسنده أية قوة؛ وقد سحق المنصور كل زعامة وكل قوة خصيمة، وجمع حوله الجيش. ولكن كانت ثمة قوة لم يحسب المنصور حسابها: تلك هي صبح أو (أورور) صاحبته القديمة، وعونه السابق

في الوصول إلى ذرى الحكم، وفي الحجر على الخليفة واستغلال ضعفه. ثارت صبح لما تبينته من نيات
المنصور وغايته، وكانت صبح يومئذ في نحو الخمسين من عمرها، وقد تضرم ذلك الحب الذي شغفها بالمنصور دهراً، وأضحت تبغض ذلك الرجل الذي سلب ولدها كل سلطة؛ وأخذت تبث في نفس ولدها هشام مثل هذه العاطفة، وتدفعه بكل ما وسعت إلى مناوأة المنصور ومنازعته واسترداد سلطانه، وتولى مقاليد الحكم بنفسه؛ وأذاعت بواسطة أعوانها من الناقمين على المنصور دعوة شديدة، واتهمته بأنه يسجن الخليفة الشرعي ويحكم رغم إرادته ويغتصب سلطته. ولم تقف عند هذا الحد، بل فكرت في القيام بمحاولة عملية لمقاومة المنصور وإسقاطه، ففاوضت زيرى بن عطية حاكم المغرب الأقصى من قبل المنصور وأرسلت إليه الأموال سراً ليحشد الجند وليتأهب للعبور إلى الأندلس؛ وكان زيرى بن عطية أقوى زعماء المغرب، وكان مخلصاً لبني أمية يقوم بدعوتهم ويؤيدها، فلبى دعوة صبح، وأخذ يشهر بالمنصور وسياسته وحجره على الخليفة. ولكن المنصور فطن إلى المؤامرة قبل نضجها فبادر برؤية هشام المؤيد سراً، وتفاهم معه، وانتهى بأن أخذ منه تفويضاً كتابياً جديداً بالحكم؛ ونقل الأموال من القصر إلى الزاهرة حتى لا تمتد إليها يد خصومه. ثم تحول إلى زيرى بن عطية فعزله من منصبه وقطع رواتبه؛ فرد زيرى بأن محا اسمه من الخطبة وطرد عماله بالمغرب، وتأهب للحرب. وبعث المنصور إلى المغرب الأقصى جيشاً ضخماً بقيادة مولاه واضح فهزمه زيرى وارتد إلى طنجة؛ واستمرت الحرب حيناً بين الفريقين، وسار المنصور بنفسه إلى الجزيرة الخضراء وبعث إلى المغرب جيشاً كثيفاً بقيادة ولده عبد الملك، ونشبت بين الفريقين معارك شديدة هزم في نهايتها زيرى ومزق جيشه وفر إلى الصحراء الداخلية (388هـ - 997م).

وهكذا فشلت صبح في محاولتها، ولم يسفر ذلك الصراع المتأخر إلا عن توطيد سلطان المنصور وسحق البقية الباقية من خصومه ومعارضيه. ولم تك صبح في الواقع أهلاً لمقاومة ذلك الرجل القوي، خصوصاً بعد أن مكن له في كل شيء، ولم يكن الخليفة الأموي سوى شبح فقط. ونستطيع أن نقول إن الدولة الأموية بالأندلس قد انتهت فعلاً بانتهاء عهد الحكم المستنصر، ولم يكن استمرارها صورة على يد هشام المؤيد، أيام المنصور، ثم تجددها بعد ذلك على يد الزعماء الثائرين من بني أمية، إلا مرحلة السقوط النهائي. ولما أيقنت صبح أن المقاومة عبث، وأنه لا منقذ لولدها من ذلك النير الحديدي، لجأت إلى
السكينة والعزلة؛ فلا نسمع عنها بعد ذلك في تأريخ الأندلس؛ ولا نعرف تأريخ وفاتها بالتحقيق؛ ولا نعرف إن كانت وفاتها قبل وفاة المنصور (سنة 393هـ - 1002م) أو بعدها، وكل ما تقوله الرواية الإسلامية في ذلك إن وفاتها كانت أيام ولدها هشام. والظاهر أنها توفيت قبيل وفاة المنصور حوالي سنة 390هـ، لأننا لا نعثر باسمها بعد ذلك في حوادث الأندلس. وقد أورد صاحب يتيمة الدهر للشاعر الأندلسي أبي عمر بن محمد بن دراج القسطلي قصيدة يرثى فيها صبحاً (أم هشام المؤيد بالله) نقتطف منها ما يأتي:

هل الملك يملك ريب المنو - ن أم العز يصرف صرف القضاء
ألم تر كيف استباحت يدا - هـ حريم الملوك وعلق النساء
هو الرزء أودى بعزم الملو - ك مصاباً وأودى بحسن العزاء
وحاشا لرزئك أن يقتضيه ... عويل الرجال ولدم النساء
لبيض أياديك في الصالحا ... ت تمسك وجه الضحى بالضياء
فتلك مآثرها في التقى ... وبذل اللهى ما بها من خفاء
جزاك بأعمالك الزاكيا ... ت خير المجازين خير الجزاء
ولقيت من ضنك ذاك الضريح ... نسيم النعيم وطيب الثواء

(تم البحث)

محمد عبد الله عنان المحامي

في السعادة

للورد افبري من كتابه (فائدة الحياة)

ترجمة الأستاذ بشير الشريقي

لا تسير الرفاهية مع السعادة دائماً، وإن كثيراً من الناس بؤساء وإن كانوا يملكون في الظاهر كل ما من شأنه أن يجعلهم سعداء.
يمكن أن تقدم الطبيعة إلى أحب عشاقها الغنى والقوة والشهرة والحياة الطويلة، ولكنها لا تستطيع أن تجعله سعيداً. إذ يجب أن يعتمد في ذلك على نفسه.
إذا لم تكن عناصر السعادة موجودة في نفس الرجل فإن كل ما في العالم من جمال ومشاهد وملذات ومبهجات لن تستطيع أن تهبها له.
أكثر ما تتوقف عليه السعادة إنما هو ضبط الرجل لأفكاره وقيادته لها متجنباً ما هو مؤلم، مستعيداً أجمل الذكريات.
يقول (شوبنهور) - يرى أحدهم العالم قاحلاً مظلماً حقيراً، ويراه الآخر غنياً مبهجاً مملوءاً بالمعاني.
السعادة شيء يحتاج إلى المران كالعزف بالناي.
إذا سرنا على الصراط المستقيم وصلنا إلى ما تصبوا إليه نفوسنا ولكن حذار أن نبحث عن هذا الصراط باهتمام شديد.
يقول (فرانكلن) - اتبع السرور يتبعك.
لا تفكر كثيراً في نفسك، أنك لست الوحيد في هذا العالم،
يقول (راسين) - لا تفتش عن اللهو، ولكن كن مستعداً دائماً أن تلهو.
إنه من الصعب أن تجعل الحياة تعاقب لذائذ،
يقول (تشفورت) - إن أضيع يوم في حياتنا هو اليوم الذي لا نضحك فيه.
إذا كان اليوم مظلماً فأضئه.
يقول أحد القساوسة - إن البشاشة هي تسعة أعشار المسيحية.
يحتاج النزاع إلى شخصين فلا تكن أنت أحدهما.
لا تدع الشمس تغرب على غضبك.
إن أنت فكرت في نفسك كنت تعساً، وإن أنت فكرت في غيرك كنت سعيداً.
يتذمر بعض الناس دائماً، ولكنهم مساكين لم يدركوا أنه لو قدر لهم فولدوا في جنات عدن لوجدوا هنالك أشياء كثيرة يتشكون منها ويتذمرون.
الغبطة مقوٍ أخلاقي عظيم، وكما أن الشمس تفتح الأزهار وتنضج الأثمار، كذلك الغبطة.
الشعور بالحرية والحياة يبعث فينا كل بذور الوجود.
ما دام الإنسان محافظاً على بشاشته فهو محافظ على قوته وشبابه.
يظن بعض الناس أن السرور دليل عدم التفكير وهذا خطأ، إذ ليس من علاقة ضرورية بينهما.
لا نستطيع أن نمنع آلام هذه الحياة عنا، ولكننا - إذا أردنا - نستطيع أن نسمو فوقها؛ ولذلك يجب أن نعلق على جدران غرفة ذكرياتنا صوراً جميلة ضاحكة. وكما يلأم الزمن الجراح يشفي الزمن الأحزان.
يقول (كوكريتوس) يخاف بعض الرجال في النور بقدر ما يخاف الأطفال في الظلام.
إن العقل المثقف، ولا أعني بالمثقف عقل الفيلسوف، بل كل عقل فتحت له منابع المعرفة فعرف كيف يمرن قواه، سيجد في كل ما يحيط به منابع للسرور والتسلية لا ينضب معينها؛ سيجد في بدائع الفن غبطة، وفي جمال المرأة راحة، وفي خيال الشعراء وحوادث التأريخ سلوة، وفي عقائد الناس تفكهة.
الطبيعة نعمة لمن لا يكفر النعمة.
لا الغنى ولا الجاه بضامنين لك السعادة.
قد تكون غنياً وعظيماً وقوياً من غير الحب والإحسان والاطمئنان، ولكنك لن تكون سعيداً.
لقد اتفق أحكم الحكماء على أن السعادة لا يمكن أن تشترى بالمال ولا أن تنال بالقوة.
يقول (هريو) لسيمونيدس: لقد أغرت مفاخر الأمارة وعظمة الملوك ورفاهيتهم السواد الأعظم من الناس؛ أنا لا أعجب من ذلك، لأن الناس كما يظهر لي يحكمون على بعضهم بمجرد الظواهر فقط؛ إنني أؤكد لك باسيمونيدس أن الملوك يملكون أقل نصيب من (المسرات العظيمة)، وأعظم سهم من (البلايا العظيمة).

لا ينبغي أن نخاف الموت، فالموت كما يقول (باسكال) هو المصيبة الوحيدة التي لا نشعر
بها.
ما دمنا كائنين فما ثمة موت. وإذا جاء الأجل فما ثمة وجود.
يجب ألا ننشد السعادة في الخارج بل في نفوسنا، في عقولنا.
الجنة فيك، فإن أنت لم تستطع أن تكون سعيداً على الأرض فكيف تنتظر أن تكون سعيداً في السماء؟
يقول (سقراط): (خير الرجال من يسعى لضبط نفسه، وأسعدهم من يشعر بأنه ضابط لها).
خذ الغبطة إلى بيتك
واسمح لها أن تنمو ودارها.
إنها ستخفف من آلامك وأحمالك
وتغني لك وأنت تجاهد في حراثة أرضك.
إنه لعمل عادي أن تكون مسروراً.
(شرقي الأردن)
بشير الشريقي المحامي
حول كتاب (هتلر)
قضية طريفة أمام القضاء الباريسي
نعرف أن للهر أدولف هتلر رئيس الحكومة الألمانية الحالية، وزعيم الحزب الوطني الاشتراكي الألماني، كتاباً كتبه أيام المحنة، وقت أن كان زعيم جماعة صغيرة وحزب ناشئ، وكان وقتئذ معتقلاً في إحدى القلاع يقضي حكماً صدر عليه لاشتراكه في مؤامرة دبرت في ميونيخ لقلب الحكومة. ولم يكن لهذا الكتاب الذي صدر في سنة 1925 بعنوان جهادي أهمية سياسية أو أدبية، وفيه يقص هتلر سيرة حياته، ويعرض برنامج حزبه، وآراءه السياسية في أسلوب عادي لا يمتاز بشيء إلا بما يتخلله من المبادئ، والآراء المتطرفة. فلما تطورت الحوادث، وغدا هتلر زعيم أعظم الأحزاب الألمانية، واستولى على مقاليد الحكم، اتجهت الأنظار إلى كتابه، وتخاطفته الملايين، وطبع مراراً عدة، وترجم إلى عدة لغات، واتخذ أهمية جديدة يسبغها عليه مركز مؤلفه وما انتهى إليه من السلطان والنفوذ.
وقد رأى أحد الناشرين الباريسيين أن يخرج الكتاب باللغة الفرنسية لما للكتاب من خطر في نظر الجمهور الفرنسي بعد أن غدا مؤلفه أعظم خصم لفرنسا، فأرسل إلى شركة فرانز أيهر الألمانية التي فوضت جميع حقوق النشر يستأذنها في الترجمة، فأجابت بالرفض المطلق. والظاهر أن ذلك يرجع إلى أسباب سياسية أكثر مما يرجع إلى أسباب مالية، لأن الهر هتلر لم يشأ أن يطّلع الشعب الفرنسي على ما كتبه، وفيه كثير مما لا يدعو إلى الطمأنينة. ولكن الناشر الباريسي لم يعبأ بهذا الرفض؛ وأخرج لكتاب (جهادي) ترجمة فرنسية بديعة كاملة بقلم ثلاثة من الكتاب المعروفين. فبادرت شركة فرانز أيهر الألمانية إلى رفع الأمر إلى القضاء الفرنسي، واستصدرت أمراً بالحجز على النسخ المطبوعة لدى الناشر الباريسي، ورفعت عليه دعوى تطلب مصادرة النسخ المحجوزة، والحكم عليه بغرامة قدرها ألف فرنك عن كل نسخة، والحكم عليه فوق ذلك بتعويض مالي كبير.
وكانت نظرية الشركة الألمانية أمام المحكمة أن نشر الترجمة دون إذن يعتبر اعتداء واختلاساً، وقانون سنة 1793 الفرنسي الذي يحمي الملكية الأدبية يعتبر ذلك (تزويراً) تترتب عليه جميع حقوق التعويض والمصادرة.
ولكن الناشر الباريسي أجاب على لسان محاميه الأستاذين جاييه وفيليب لامور أن هذه الحالة لا يشملها قانون سنة 1793. ذلك أنه لا يمكن أن نشبه كتاب هتلر بكتاب عادي أو رواية لمؤلف عادي؛ والواقع أن كتاب (جهادي) إنما هو كتاب عمومي لرجل من الرجال العموميين، ورؤساء الحكومات الذين تغدو كتاباتهم ملكاً للجميع على نحو ما يغدو تصريح وزاري أو خطبة عرش؛ فلكل إنسان الحق، بل ومن واجب كل إنسان يهمه الاطلاع على الشئون العامة أن يعرفها وأن يقرأها. هذا إلى أن العقد الذي تزعم الشركة الألمانية أنها حصلت بمقتضاه على حقوق النشر لا يوجد ولم يقدم، وليس

لديها غير تصريح شفوي من (الزعيم) هتلر. ورفع الدعوى بهذه الصورة باطل، وكان واجباً على هر هتلر، إذا شاء أن يحمي حقوقه أن يتقدم بنفسه، وعلى أساس الاعتبارات السياسية التي هي جوهر القضية؛ ولكنه لم يكن لديه من الشجاعة أو الصراحة ما يحمله على اتباع هذا الطريق، ولهذا آثر أن يتقدم بواسطة شركة للنشر وعلى أساس الاعتبارات التجارية.

وقد أثارت هذه القضية اهتماماً كبيراً في الدوائر القضائية والأدبية، ولا تزال منظورة أمام محكمة السين التجارية، رهن صدور الحكم فيها. على أنه يرجح منذ الآن أن يأخذ القضاء الفرنسي بنظرية الناشر الباريسي في اعتبار كتابات الرجال العموميين وأقوالهم ملكاً مباحاً يسوغ لكل إنسان أن يحصل عليه وأن يذيعه.

صورة من صدر الإسلام

عبد الله بن مسعود

بقلم محمد طه الحاجري

أخذ الناس في مكة يحسّون شيئاً جديداً يداخل روح الحياة عندهم، وينشر ظلالاً خفيفة من حولهم، ويبعث في أنفسهم شعوراً شديد الغموض لا يتبينون كنهه ولا يتحققون أمره، شأن الجماهير في فجر الأحداث الخطيرة. وكأن لهم من وراء الحواس الظاهرة حساً باطناً لا يستند إليها فيما يدرك، ولا يدرك إلا المعنى العام الذي لا يحدد. وكان الجو في تلك المدينة المقدسة يزخر بشتى التيارات، ويموج بلمحات النبوة ونفحات السماء، كما يموج الأثير بأمواج الكهرباء: تحمل في أطوائها معاني القوة دون مظاهرها، وتخفى في أثنائها الصوت المجلجل، والضوء الساطع، كامنة كمون الروح، خفية خفاء القدر، حتى تتاح لها الظروف المواتية، والحالات الملائمة، فتجهر وتستعلن وتؤدي رسالتها. . . وكذلك كان الأمر في الأيام الأولى للبعثة: تنزل الملائكة وتصعد، ويترادف الوحي ويمتد، ويزخر الجو بنفثات الرسالة، والناس مستمرون في شأنهم، لا يحسون شيئاً إلا حفيفاً لا يعبئون به، ولمحات خفيفة لا ينظرون إليها، حتى تصادف قلباً أعد لها، و (جهازاً) صالحاً لقبولها، فتجهر وتستعلن وتؤدي رسالتها. . .

وفي يوم من هذه الأيام، خرج الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، ومعه صاحبه وصفيه أبو بكر، وأخذا يسيران في ظاهر مكة، على نجوة من العيون، وأمنة من الأسماع. يتناجيان نجوى المودة الصادقة، ويتحدثان حديث العقل المتزن، وقد أقبل الرسول على صاحبه ليجد عنده راحة نفسه، وطمأنينة قلبه، لقاء ما ألقى عليه ربه. وبيناهما كذلك لقيا شاباً في نحو العشرين، ضئيل الجسم، ضعيف المنة، آدم البشرة، تلمع عيناه ذكاء وعزيمة وصفاء سريرة يرعى قطيعاً من الغنم، هو ذا عبد الله أبن أم عبد الهذلي، مولى أخوال الرسول من بني زهرة، يرعى غنماً لأبن أبي معيط أحد السادة المتجبرين من بني أمية. فوقفا عليه واستسقياه بعض اللبن فسقاهما، حتى إذا ما فرغا من شرابهما أقبل بدوره عليهما، وأخذ يسائل الرسول عما سمع بعض الناس يهمسون به، من كلام بدع تتضاءل أمامه كل صنوف الكلام، وأمر جديد يتنزل عليه من السماء، يدعو إلى عبادة الله وحده ونبذ الأصنام.

فهش له الرسول ومسح على رأسه، وجعل يقرأ عليه، وإن صوته ليتجاوب بين قلبه وعقله، وجعلت كلمات التنزيل تتنزل على نفسه، كما تتنزل قطرات الماء على حلق يتحرق ظمأ، حتى شرح الله صدره للإسلام. ومضى الرسول وصاحبه، رضى النفس مغتبط الضمير. وخلفا عبد الله وقد ملكته نشوة هذا الأمر، وقد جعلت كلمات الرسول يتردد صداها بين سمعه وقلبه، وهو يحسب أنه قد ظفر بسعادة الأبد. وما يزال كذلك حتى يقبل الليل، فينطلق إلى دار الأرقم، يلفي الرسول وصحبه يتذاكرون آيات التنزيل، ويضرعون إلى الله أن يسدد خطاهم ويمكن لهم دينهم.

أي رجل هذا؟ شاب يافع محروم من أسباب القوة ووسائل المنعة، ليس له عشيرة يلجأ إليها، ولا عصبة يعتمد عليها. ضعيف في ذاته الجسمية، قضيف العظام مترهل العضلات مجرد من وسائل الحياة المادية، يعتمل نفسه لأشراف مكة في الخدمة ورعى الغنم، لقاء ما يحفظ عليه روحه ويمسك عليه الرمق. ثم لا يعبأ بعد هذا أن يخرج عليهم، وهو يعلم مقدار حميتهم لدينهم، وتعصبهم لأنفسهم، ولا يأبه لما لابد أن يصيبه في هذا السبيل من تصرم وسائله، واستهداف حياته في تعرضه لعداء سادته وهم من هم: سدنة البيت الحرام، والقوام على ميراث إسماعيل عليه السلام، والخيرة

المتخيرة من أبناء العرب، وأصحاب الحول والطول في كل أنحاء الجزيرة.
ولكن عبد الله كان يملك من أسباب السماء بقدر ما حرم من وسائل الأرض. كان قوي النفس، متين الخلق، بقدر ما كان هزيل القوام ضعيف الجسد. كان يشعر بالسؤدد الروحي يوجهه ويملي عليه، وإن كان يضطرب في أسمال الخدمة وأهدام الحاجة. فلم تكن الضرورات المادية لتخضع روحه أو تغلب ضميره، وما كان للخوف أن يغشي بصيرته فيخلد إلى الأرض. وكذلك انطلق مع روحه فاعتنق الإسلام وأخلص له، وأحب محمداً إلى غاية ما يبلغه الحب الروحي، فاصطفاه الرسول ليكون تابعه الأمين، وخادمه الذي ليس من دونه حجاب، فكان يرى وكأنه واحد من آل بيته، مما كان يركن إليه ويطمئن له ويتلطف معه ويحسن عشرته، فأخلص للرسول الإخلاص كله، ووصل حبه له إلى قرارة قلبه، حتى صار جزءاً من حياته، بل لقد اصطبغت حياته كلها به، وتأثر به في مخبره ومظهره، فكان أقرب الناس له سمتاً، وأدناهم إليه دلاً، وأشبههم به في سكينته ووقاره.
مضت الأيام والإسلام نجوى الضمائر، وحديث القلوب، وهمس الشفاه. والقرآن لا يعدو بيت الرسول ودار الأرقم وأطراف مكة القاصية. ثم جاء أمر ربك فأتيح للخافية أن تظهر، وللسر أن يستعلن، وللدعوة أن تأخذ سبيلها في وضح النهار؛ واجتمع ذلك النفر من المسلمين يتدبرون الأمر، وكانوا يعرفون موضع الإحساس الدقيق في نفس العربي، وموطن التأثر البليغ من قلبه: إنما هي تلك الحاسة البيانية المرهفة التي أمسكت بقياده، وسيطرت على حياته؛ وجاء القرآن وافياً بها متحكماً فيها؛ فكان من الطبيعي أن يكون سبيل الدعوة. فقالوا من لقريش يسمعها هذا الكلام؟ فانبرى عبد الله يقول: أنا لها. وهو يعلم مقدار ما يستتبعه هذا من الأذى، ولا عاصم له من قوم ولا عشيرة. فراجعوه في هذا الأمر، وبصروه بعاقبته، وذكروه ضعفه ووحدته؛ فأبى أن يفوته هذا الشرف، أو أن يرده عنه اعتبار لا قيمة له في ميزان المجد. فاعتصم بإيمانه القوي، ويقينه الثابت أن لا إله إلا الله، فلا نافع ولا ضار إلا الله، وأن لو اجتمعت الجن والإنس على أن ينالوه بشيء ما استطاعوه إلا بقضاء الله وقدره، وأحبب به أذى في سبيل الله وإعلاء كلمته. ثم تخير غداة الغد حين تكون قريش مجتمعة في أفناء الحرم حول الكعبة، يدبرون أمورهم، ويتحدثون عن أموالهم، ويتكهنون بمقادير أرباحهم ويتراهنون على ما يدور بخواطرهم، وتذهب إليه مطامعهم وتراوحهم به مخاوفهم. فلما كان موعده أقبل إلى البيت الحرام، واستقبل الكعبة بوجهه، وأخذ يتلو من كتاب الله:
(بسم الله الرحمن الرحيم، الرحمن علم القرآن، خلق الإنسان علمه البيان، الشمس والقمر بحسبان، والنجم والشجر يسجدان، والسماء رفعها ووضع الميزان، ألا تطغوا في الميزان، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان).
أي صوت رهيب دوى في أرجاء الحرم، فالتفتت إليه أسماعهم، ودهشت له قلوبهم، واستطارت منه ألبابهم، وأذهلهم عماهم فيه من حجاج ولجاج في تجارتهم وحياة أموالهم؟! فانصرفوا إليه يقولون: ما شأن ابن أم عبد وماذا يقول؟ فلما علموا أنه يتلو بعض ما جاء به محمد أقبلوا عليه يضربونه في وجهه ويدفعونه في صدره، ما شاءت لهم الحمية ونخوة الجاهلية، حتى نالوا منه وتركوا آثار الدم في وجهه. ثم عاد إلى أصحابه وهو يقول: (ما كان أعداء الله قط أهون على منهم الآن، ولئن شئتم غاديتهم بمثلها غداً) فقالوا له: حسبك.
وتم لهم ما شاءوا.
استشرف عبد الله إذن لعواصف النكير والاستهزاء، واستهدف لسهام التنكيل والاعتداء. إن كان في بيت الرسول فهناك جيرانه: أبو لهب وعقبة بن أبي معيط والحكم بن العاص وعدي بن حمراء الثقفي يترصدون له وينالون منه. وإن كان في السوق فما شاءت جماهير قريش من أذى وتجهم وسخرية، وإن كان في المسجد، وقد جلس إلى الرسول عليه الصلاة والسلام في المستضعفين من أصحابه فكذاك؛ وما يفتأ القوم يمرون بهم، فيتغامزون عليهم ويسخرون منهم، ويقول بعضهم لبعض: (أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا، ولو كان خيراً ما سبقونا إليه).
وهكذا مضت الأيام بعبد الله، وما يزيده هذا إلا صفاء في نفسه، وصلابة في يقينه، واستشراقاً لهدى الله جل شأنه، وسنة محمد صلى الله عليه وسلم، وصنعت منه هذه

الخطوب ما تصنع حرارة الأرض وضغطها من الماس وكرائم الأحجار، فأصبح كالماسة الصافية صلابة وإشعاعاً.

فلما اعتدل ميزان الأمور، وتمت كلمة ربك الحسنى على المسلمين، وأصبحت القوة في جانب الحق، وأصبح الإسلام في يثرب صاحب الكلمة، كان عبد الله سيفاً قاطعاً ونجماً ساطعاً، فشهد المشاهد كلها مع رسول الله، لم يقعد به ضعفه. ولم يخلفه هزال جسمه، إذ كان قوي القلب ثابت الإيمان. وكانت بصيرته في الدين قوية الإشعاع دائمة السطوع، حتى لقد أوصى الرسول صلى الله عليه وسلم بالتمسك بعهده، وشهد له كبار الصحابة كعلي وحذيفة، ومكانهما من هذا الأمر ما نعلم، وكان من العلم بالقرآن في المكان المرموق: ما من سورة في القرآن أو آية من سورة إلا وهو يعلم سبب نزولها، ومكان مجيء الوحي بها، لا ينكر عليه ذلك منكر. ولقد كان إيمانه يتلألأ في قراءته كما كان يتألق في جبينه؛ حتى كان يحبب إلى رسول الله أحياناً أن يسمع القرآن منه. فقال له مرة: اقرأ عليّ سورة النساء. قال: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: إني أحب أن أسمعه من غيري. فقرأ عليه حتى بلغ قوله تعالى مخاطباً رسوله: (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد، وجئنا بك على هؤلاء شهيداً، يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوّى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً) فبلغ التأثر من الرسول مبلغه، وفاضت عيناه بالدموع.

وحين نذكر فصاحة منطقه، وخلوص لسانه، لا ننسى أنه هذلي الأصل، مع عرق فيه يمت إلى زهرة؛ ثم هو مع هذا قرشي المولد والمربى؛ فلا غرو أن كان جيد الأداء حسن القراءة، بعد أن اجتمعت له مقومات لسانه ونصاعة إيمانه.

انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى، فانتقلت الدعوة إلى الشمال، تكافح بالسيف ولاة فارس وعمال الروم، فما كان أسرع عبد الله إلى الجهاد في سبيل الله، وقد مكن له فقهه وبصره وورعه أن يتولى أمر الأنفال، فكان لا يفتأ فيما بين هذا يعلم القرآن، ولا يترك فرصة دون أن ينتهزها لتفهيمه والتبصير به، وإنه لجالس ذات مرة في حمص وقد جيء إليه بسبائك من الفضة، فجعل يذيبها، وإنها لتتلون ألواناً، فرأى في ذلك صورة بينة للمهل الذي جاء به القرآن، فالتفت إلى أصحابه يقول لهم: أتدرون ما المهل؟ هذا أشبه شيء به. لله أنت يا ابن مسعود! ما كان أبصرك بكتاب الله وأحرصك عليه!

ثم بعثه عمر إلى أهل الكوفة معلماً حين بعث عماراً عليهم أميراً، وكتب إليهم هذه العبارة التي تدل دلالة واضحة على قيمة ابن مسعود في نظر أصدق الصحابة بصراً، وأنفذهم رأياً، وأعرفهم بقيم الرجال: (إني بعثت عمار بن ياسر أميراً، وعبد الله ابن مسعود معلماً ووزيراً، وهما من النجباء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، من أهل بدر، فاقتدوا بهما، وأطيعوا واسمعوا قولهما، وقد آثرتكم بعبد الله على نفسي) وكفى بهذه الجملة الأخيرة شاهداً بمكانة الرجل.

فلبث فيها ما لبث قيما على بيت المال، قائماً بتعليم القرآن وبث تعاليم الإسلام، وحديث الرسول عليه الصلاة والسلام، وكان فوق هذا يضرب بخلقه وورعه خير الأمثال، حتى كان أصحابه يقولون: (ما رأينا رجلاً أحسن خلقاً، ولا أرفق تعليماً، ولا أحسن مجالسة، ولا أشد ورعاً من ابن مسعود). فكون فيها مدرسة تحبه وتتعصب له، فلما كان عثمان وأخذ يقلب بين الولاة والعمال، بعث إلى ابن مسعود يستقدمه إليه، فجزع أصحابه أيما جزع، واستشعروا أثر النازلة، إذ يوشك أستاذهم الذي وهبهم قلبه وألهمهم حبه أن يفارقهم، فاجتمعوا إليه يرجونه أن يقيم بينهم، وله عليهم أن يمنعوه مما عسى أن يصل إليه من مكروه، ولكن عبد الله ما كان ليعبأ بالمكروه يصيب شخصه، فما أهونه في ذات نفسه لقاء الخير يصيب أمته، ولكنه كان يرمي ببصره إلى ما وراء الشخوص الماثلة أمامه، فيرى بوادر شر تتربص بالأمة الدوائر، ودلائل فتنة توشك أن تنقض. وما كان له أن يفتح بعصيانه ثغرة في بناء المسلمين، فصرف القوم عنه وهو يقول: (إن له على حق الطاعة، وأنه ستكون أمور وفتن، فلا أحب أن أكون أول من فتحها) فمضوا عنه وهم يشدون على قلوبهم، ثم أخذ أهبته وسار إلى المدينة.

وقد لبث فيها وإن الفتن لتموج بالناس من حوله وهو قارّ ساكن، يسأل الله العصمة وإطفاء الثائرة، ولا يكاد يلفته شيء إلا كتاب الله الذي تلقاه عن رسول الله، فهو

موضع عزته، ومناط كرامته.
ولم يطل به العهد حتى اصطفاه الله لجواره، رضي الله عنه.
محمد طه الحاجري
بكلية الآداب
القضاء عند قدماء المصريين
بقلم حامد أسعد محمد عاشور
قبل أن نطرق هذا الموضوع يجب أن ألفت نظر القارئ إلى أن مصر كانت على درجة عظيمة من الرقي والحضارة، وأن العدالة كانت مستتبة الأركان موطدة الدعائم؛ وأن النظم الديمقراطية التي يدعي الأوربيون اليوم أنها من بنات أفكارهم أو مما ورثوه عن الإغريق والرومان، لم تكن إلا وليدة النظريات السياسية الفرعونية في عصور سحيقة؛ وأن الحريات المدنية والسياسية وحماية الملكية الفردية التي يباهي بها القرن العشرون بعد الميلاد، عُرفت في مصر وتوطدت أركانها في القرن العشرين قبل الميلاد تحت حكم ملوك مصر وفراعينها العظام.
كذلك قبل أن أبدأ الكلام أرى لزاماً عليّ أن أذكر أنني استقيت معلومات هذا المقال من مصادر تأريخ مصر المعروفة من كتابة على جدران القبور والمعابد إلى ما كتب في أوراق البردي، ثم من محاضرات أستاذي الدكتور زكي عبد المتعال في كلية الحقوق، ثم من كتاب (وصف مصر) الذي وضعته الحملة الفرنسية بعد رجوعها من مصر.
يرجع أصل سكان البلاد إلى بعض العناصر الآسيوية التي غزت مصر من الشرق، ثم امتزجت بعناصر أخرى من السود آتية من الجنوب.
أما تكوُّن الإقليم فهناك رأيان فيه: الأول يقول إن البلاد كانت تتكون من قبائل اتحدت فكونت مدناً، ثم اتحدت هذه فكونت أقاليم ومقاطعات، ثم تكونت مصر العليا مستقلة عن مصر السفلى إلى أن وحد سكوربيون ملك نخعة (مصر الوسطى) قسمي الإمبراطورية، ومن بعده جاء مينا فأتم ما بدأه سلفه.
أما الرأي الثاني فيقول: إن مصر لم تمر بهذا التطور التدريجي بل أنها من يوم أن دبت الحياة فيها وهي أمة موحدة، ويستند أصحاب هذا الرأي الأخير إلى أن نهر النيل هو منبع الثروة الوحيد في البلاد، فلا يمكن إلا أن توحد جهود السكان في سبيل الغرض المشترك وهو حب البقاء، والدفاع عن أموالهم ومورد رزقهم؛ هذا إلى أن الوثائق وأوراق البردي لم تذكر أن البلاد مرت بالدور التطوري السابق ذكره.
ولما تكون الإقليم وجدت الأسرات. ففي عهد الأسرتين الأولى والثانية كان الحكم مطلقاً،
فكان المُلكُ قائماً على الحق الإلهي. وبذا كان الملك ممثلاً للسلطتين الزمنية والدينية، فكان يصدر القوانين بنفسه وبمساعدة كتبة خصوصيين.
وفي عهد الأسرة الثالثة كان المِلكُ مصدر جميع السلطات، يستعملها بمساعدة موظفيه المدنيين لا الدينيين، وكان خاضعاً للقوانين التي يصدرها وتسري على شعبه، وبذا كان الحكم مطلقاً مشبعاً بروح العدالة والإنصاف، فالجميع متساوون في الحقوق لا فرق بين أمير وحقير أو غني وفقير، وكانت الدولة إذ ذاك زمنية لا دينية أي لم يكن للكهنة نفوذ كبير فيها.
وفي عهد الأسرة الرابعة أصبحت الدولة دينية، وأصبح الملك ممثلاً لرع وهاتور الإلهين، وقدمت الديانة الملكية على الإدارة الحكومية، والكهنة على الموظفين، وكانت هناك إدارات حكومية كثيرة، منها (إدارة الري ومياه النيل، وإدارة الحربية، وإدارة الإحصاء والضرائب، وإدارة المالية، وإدارة العقائد والتموين.) وكل هذه الإدارات كانت تحت إشراف مجلس العشرة الملكي، وهو يقابل مجلس الوزراء الآن، وكان الوزير الأكبر هو الذي يرأس هذا المجلس.
هذه نظرة عامة عن اختصاصات السلطة التنفيذية، أما فيما يتعلق بالتشريع والقضاء - وهو موضوع هذا المقال - فإن القوانين عرفت ودونت في مجموعات عندما اخترعت الكتابة في القرن الخمسين قبل الميلاد، فوضع (نحوت) إله القانون مجموعته القانونية في سنة 4241 قبل الميلاد.
وقد شملت هذه المجموعة الالتزامات والأموال وجميع العقود الأخرى، والزواج والطلاق. وكان مما نص عليه في هذا الشأن أن الزواج يتم بعقد مدني بطريق الشراء،

ثم يجري بعد ذلك احتفال ديني. أما العلاقة المالية بين الزوجين فكان يتفق عليها في مشارطة الزواج على أحد بأمور ثلاثة: (1) فصل مال كل من الزوجين عن الآخر فيكون للزوجة في هذه الحالة حق التصرف في مالها بدون إذن الزوج (2) تخصيص جزء من مال الزوجة لمساعدة الزوج على المعيشة العائلية، ويكون للزوج في هذه الحالة حق الانتفاع بأموال الزوجة وعليه ردها عند الانفصال (3) اشتراك الزوجين في بعض الأموال أو جميعها. وكان للنساء امتيازات كثيرة عللها المؤرخ ديودور الصقلي باحترام المصريين للآلهة
إيزيس.

أما الطلاق فقد أجازه الشارع الفرعوني كما أباح للمرأة أن تتزوج، بشرط أن يكون لها الحق في فسخ الزواج كما كان لها حق الرهن العام على أموال زوجها ضماناً لعدم تعرضها لخطر الطلاق منه.

ويترتب على البيع الصحيح (باليمين والشهود) التزام البائع بتعهدين: الأول وموضوعه تسليم سندات الملكية - والثاني وموضوعه ضمان كل تعرض للمشتري. وينقسم عقد البيع إلى عقدين أحدهما اتفاقي والآخر عيني وبه تسلم العين المبيعة.

وقد أخذت سائر العقود الأخرى صورة عقد البيع، حتى أن الوصية كان يكتب لها عقد اتفاقي بين الموصي والموصى له بشرط ألا يتم استلام الأخير للوصية إلا بعد وفاة الموصي وتسلم الوارث العقد العيني من باقي الورثة.

ولما تشتت مجموعة نحوت جاء بو خوريس مؤسس الأسرة الرابعة والعشرين وجمع شتاتها وعدلها في مجموعة نظم بها جميع المعاملات المدنية والأحوال الشخصية في مجموعة قوانين سميت باسمه كما سماها اليونانيون بمجموعة العقود.

ولما جاء أحمس أحد ملوك الأسرة السادسة والعشرين أصدر مجموعته المسماة باسمه. ثم جاء من بعده الملك نفريت فأعاد العمل بمجموعة بو خوريس بعد أن نقحها، واستمر العمل بها حتى نهاية العهد الفرعوني. ثم طبقت على المصريين فقط في العهد الإغريقي حتى جاء الرومان فمنحوا ممتلكاتهم الرعوية الرومانية في عهد الإمبراطور كراكلا، وبذا طبقت في مصر القوانين الرومانية.

هذه نظرة عامة عن تطور التشريع في عهد قدماء المصريين حتى الفتح الروماني، والآن نستعرض نظام المحاكم واختصاصاتها وسلطة القضاء في الدولة.

كانت سلطة القضاء العليا في يد الملك يباشرها إما بنفسه أو بواسطة موظفين مدنيين أو دينيين تبعاً لازدياد نفوذ الكهنة في الدولة. وفي حالة ازدياد نفوذ رجال الدين (كما كانت الحال في عهد الأسرة العشرين) كان يجري العمل على استفتاء الإله آمون في القضايا الجنائية والمدنية، فكان يقدم المتهم أمام تمثال الإله فيقر بذنبه، وإذا أنكر أعيد إلى السجن، وفي حالة تعدد المتهمين كان الإله يشير بيده إلى السارق مثلاً قائلاً هذا هو السارق، فإذا
أنكر أعيد إلى السجن حيث يلاقي أشد أنواع العذاب، إذ لا يمكن تكذيب الإله، ثم يعاد إليه فيقر بذنبه ويؤمن التمثال على كلامه، ومن ثم يقدم إلى المحكمة بعد أن يقسم اليمين الآتية:

أقسم بآمون والملك أن أقول حقاً، ولئن كذبت فلأعودن إلى السجن ولأسلمن إلى) الحراس (ثم تأخذ المحكمة بأقواله وتحكم عليه.

وكان القضاة يقسمون يميناً أمام الملك بعد تعيينهم يتعهدون فيها بعدم طاعته إلا فيما يوافق العدالة. وكان يرجع إليه كثيراً عند تعذر الحكم في بعض القضايا الهامة.

أما المحاكم فكانت على أنواع كثيرة: محاكم جزئية بالقرى والمدن، ومحاكم ابتدائية في عواصم الأقاليم، ومحكمة استئناف عالٍ بعاصمة الدولة، ثم محاكم عسكرية للجند، ومحاكم عائلية تفصل في المسائل المتعلقة بالأسرة، ثم محكمة للأموات يقوم الكهنة بتكوينها ومحاكمة كل ميت أمامها، فإن كان سيئ السيرة قضت بحرمانه من الدفن.

أما المحاكم الجزئية فكان يرأسها حكام المدن، وقد أعطي لرئيس مقدري الضرائب اختصاص الفصل في المنازعات التي تقوم بين دافعي الضرائب والمقدرين.

أما المحاكم الابتدائية فكان يرأسها حاكم الإقليم وأعضاؤها الأعيان، وكانت مختصة بالفصل في المنازعات المدنية فقط، وترفع أمامها عريضة دعوى وجميع الإجراءات أمامها كتابية.

أما المحكمة العليا فقد كان يرأسها رئيس أسرار الملك وأعضاؤها كتمة الأسرار. وكان الملك يقوم بالقضاء فيها بنفسه، وعلى الأخص في القضايا الجنائية.

وكانت هذه المحاكم ترجع في اختصاصها إلى الإدارة القضائية وهي تشبه وزارة الحقانية الآن.

وقد وجدت وظيفة النائب العام في عهد الأسرة الثانية عشرة، وكان يسمى إذ ذاك (لسان الملك) ولكن كان له بجانب سلطته القضائية، وظيفة أخرى يقوم بها بصفته مدير شئون السراي الملكية وكبير الأمناء، وكان له وكلاء في الأقاليم يباشرون الدعوى العامة أمام المحاكم الجنائية.

وفي عهد الأسرة التاسعة عشرة قسم القضاء إلى مدني وجنائي منفصلاً كل منهما عن الآخر، وكان للجميع حق رفع الدعوى المباشرة الجنائية.

هذا فيما يتعلق بالقضاء الجنائي العادي أي الذي يتعلق بأفراد الشعب، أما القضاء الجنائي

غير العادي الذي يتعلق بشخص الملك أو الدولة، فقد كان موكولا إلى محكمة خاصة تشكل من أثنى عشر قاضياً بعضهم من رجال الجيش، وكان النائب العمومي هو الذي يختارهم بناء على أمر من الملك ذاته، فتتكون المحكمة وبمجرد انعقادها تنقسم إلى هيئتين تفحص كل منهما الدعوى على حدة، ثم تجتمعان، وكانت محاضرها مختصرة وسرية، فكانت تصدر الأحكام دون نشر الأسباب، وبالرغم من أن النائب العمومي هو الذي يختار هؤلاء القضاة فقد كان لا يتدخل مطلقاً في عملهم حتى أن اسمه كان يأتي بعد أسمائهم وقبل أسماء كتاب الجلسة.

هذا ما كانت عليه حال القضاء في عهد قدماء المصريين، ومنها يرى القارئ أنها كانت على درجة عظيمة من الثبات والاستقرار، وأن العدالة كانت مستتبة الأركان قوية الدعائم. وقد ظلت كذلك حتى انتهى العهد الفرعوني السعيد، ودخل الإغريق البلاد فأفسدوا نظمها، وقد كان للبطالسة شأن كبير في طرد العدل من البلاد، إذ أدخلوا امتيازات أعطوها للإغريق دون المصريين في القضاء وفي الضرائب، فكان على المصري الغُرم ولهم الغنم، ومما يدل على صحة ما قلت تقسيم المحاكم في عهدهم إلى إغريقية ومصرية، وكانت الإجراءات أمام الثانية معقدة تتبع شكل القانون الضيق دون التوسع فيه، بعكس المحاكم الإغريقية التي كانت طبقاً لقواعد العدالة والإنصاف والقانون الطبيعي. وكان نظام المحاماة معروفاً في المحاكم الإغريقية بعكس المصرية حيث كان الخصوم ملزمين بالدفاع عن أنفسهم كما كانت تقدم الوثائق والمستندات أمام المحاكم المصرية، فإذا لم تكن كافية مُزقت علانية في الجلسة.

حامد أسعد محمد عاشور

فصول مدرسية في الأدب الدرامي

الرواية المسرحية في التاريخ والفن - 3

بقلم أحمد حسن الزيات

أجزاء العمل

العمل الروائي كالعمل الحكائي يتألف من العرض والتعقيد والحل.

فالعرض فكرة عامة مجملة عن العمل الروائي يتقدم بها الكاتب في الفصل الأول، ليهيئ الأذهان إلى الحادث، ويشوق النفوس إلى المتأخر، ويعرف الظروف والأمكنة والأشخاص إلى المشاهد. وهو في الرواية أصعب منه في الملحمة، لأن أداءه لا بد أن يكون بالعمل، ولأن الأشخاص وهم مشغولون بأعمالهم الحاضرة وأحوالهم القائمة، ملزمون بتقديمه إلى المشاهدين في معرض حديثهم الخاص دون أن يظهر عليهم أنهم يريدون ذلك. فالطبيعة إذن هي الصفة الجوهرية للعرض. وهناك صفة أخرى لا تقل عنها خطورة، وهي أن يكون العرض وسطاً بين الغموض والوضوح: فيكون واضحاً بقدر ما يدلك على أدوار الأشخاص الأساسيين، ويضع يديك على الخيوط التي سيحيك العمل منها عقدته؛ وغامضاً بقدر ما يخفى عنك الحل ويدخر لك سرور المفاجأة.

ولقد كان عرض المأساة في الفن القديم بائن الطول، قوي الفعل، شديد الأثر؛ ولا تزال عروض اسخيلوس وسوفوكليس مضرب الأمثال في ذلك. فأصبح في الفن الحديث سريع الحركة، ضعيف التأثير، ولكنه أدق وأبلغ. إذ من القواعد الأولية المقررة في فن المسرح أن تتدرج الجاذبية في أجزاء الرواية، فتبدو ضعيفة في العرض، ثم

تنمو على التدريج رويداً رويداً حتى تبلغ الغاية في النهاية. فإذا ما بدت قوية في صدرها فأسالت العيون من الرحمة، وخلعت القلوب من الرعب، كان من الصعب على الكاتب أن يُدرج المواقف الروائية ويرتبها في الفصول. لذلك تجد كتاب العصر لا يضعون الجاذبية في العرض، وإنما يكتفون بالتهيئة لها والدلالة عليها.

إن العرض يسهل بناؤه ويخف أداؤه كلما اشتهر موضوع الرواية أو كان مما ألفه الناس في اجتماعهم، وعرفوه من طباعهم. ولذلك كان في الملهاة أسهل منه في المأساة، لأن العمل فيها قريب العلاقة محدود الفكر، لا يخرج في معظم الأحوال عن دائرة الجماعة أو الأسرة. والمآرب والأخلاق، والعادات والأهواء، في هذه الدائرة معروفة مألوفة، توضحها كلمة وينبئ عنها منظر. ومع ذلك فلبعض الملاهي عروض بلغت حد الإعجاز من الفن كعرض ترتوف، والمريض المتوهم، والنساء العوالم لموليير.

والتعقيد هو الجزء الذي تشتبك فيه الظروف والوقائع والمنافع والمنازع والأخلاق في اعتراضها طريق البطل، فينشأ عن اشتباكها الشك والتطلع والقلق وفروغ الصبر وبذلك تقوى الجاذبية. وأفضل التعقيدات وأجدرها بالفن ما نشأت فيه العوائق من أخلاق الأشخاص وأهوائهم، لا مما يصدر عن غير طبيعتهم ولا إرادتهم، كالأخطاء القهرية، والحوادث الخارجية. ولا بد أن يسر التعقيد على سنن الطبيعة حتى يسهل على المشاهد أن يتصور وقوع الحوادث كما يراها. ولحوادث الطبيعة كما تعلم نتيجة وعلاقة وتسلسل، فينبغي إذن أن يكون التعقيد سلسلة من الحوادث بينها من التواصل والتفرع ما بين الحلق.

لم يكن للتعقيد في المآسي القديمة ماله اليوم من شأن وخطر. فقد قسم أرسططاليس الموضوع تقسيماً كمياً إلى أربعة أقسام. وهي المقدمة والوقائع والنتيجة والخورس. (والقسم الأخير قد حذف اليوم)، ثم تكلم عن التعقيد دون أن يُعنى به، وقسم الموضوع إلى بسيط وهو ما كان العمل فيه مستمراً متحداً ينتهي من غير انقلاب ولا تعرف، ومركب أو معقد وهو ما اشتمل على هذين الموقفين أحدهما أو كليهما. فالقاعدة التي وضعها أرسططاليس للنوعين جميعاً هي أن تستمر سلسلة الحوادث متصلة، وألا يكون تسلسلها تعاقبياً، بل يتوالد بعضها من بعض على غير ما يترقب المشاهد حتى تنتهي إلى الحل. والحق أن أرسططاليس لم يكن محتاجاً إلى غير هذا مادام كل ما يبغيه هو حادثاً يبعث في القلوب الرعب والرحمة. فهو لا يشغل باله إلا بالحل، أما التأثير الداخلي للموضوع فذلك مالا يحفل به كثيراً. فأنت ترى أن المسرح الإغريقي كان يعتبر الموضوع الذي يتمخض عن الفاجعة الأليمة المحزنة بسيطاً. وما كانت تلك البساطة في الواقع إلا فراغاً في عمل عقيم بطبعه، وكيف يكون في مثل هذا الموضوع الساذج محل لتناقض الأخلاق وتصادم الأهواء، وأسباب حوادثه خارجة عن إرادة الأشخاص أو سابقة للعمل الروائي نفسه؟ ففي رواية أوديب الملك ماذا ترى؟ ترى كل شيء قد وقع قبل ابتداء العمل. (فلبُّوس) قد قتل، وأوديب قد تزوج من (يوكاست)، فلم يبق إذن بين البطل وبين الشقاء إلا أن يعلم أنه زان بأمه قاتل لأبيه، فرويداً تنكشف الحجب وتنجل الحوادث، ويستيقن أوديب أنه نفذ إرادة الآلهة فيعاقب نفسه. تلك هي رائعة الأدب الإغريقي وكل ما فيها انكشف عن جريمتين وقعتا قبل عملها، فكان ذلك الكشف الرهيب الأليم كافياً لشغل المسرح وملئه. فكيف استطاع الإغريق إذن أن يشغلوا خمسة فصول بحادث محتوم لا حيلة للأشخاص فيه ولا منجى لهم منه؟ كانوا يمثلون على التتابع مآسي كثيرة في يوم واحد، وكان الخورس يقتل جزءاً من الزمن، وما بقي من الفراغ كانوا يملأونه بالشكاوي والوعظ والوصف والإنشاد والمجادلات في الفلسفة والسياسة.

تلك حال التعقيد الروائي في الفن الإغريقي، وهو كما ترى ضئيل الخطر قليل الأثر. لا يقوى الجاذبية ولا يزيد التشويق، وإنما كان سبيلهم إلى ذلك هو التعرف وحده، وكان شعراؤهم يؤثرونه ويرونه أنجع الوسائل لإيقاظ المسرح وإحياء الرواية. ولولاه لما كان لمعظم روائعهم الفنية شأن يذكر كأوديب وإيفجيني وفيلوكتيت.

أما التعقيد في الفن الحديث فهو جسم الرواية وروح العمل، وكان سبب ما أحله تلك المكانة هو امتداد نواحيه، وتشعب أطرافه، وحرية وجهه، فقد تخلص من ربقة القضاء والقدر والكهانة، وأصبح مظهراً للعواطف المؤثرة المنتجة، وصدى لأصوات الحياة

الصاخبة المزعجة، وصورة للبيئة الحاضرة المعقدة؛ وصارت جاذبية المسرح معقودة بما يحدثه اصطدام الأهواء واضطرام النفوس وتباين الأخلاق وتعارض الأطماع من خير أو شر، وأخذ الحب والبغض والانتقام والطمع والغيرة تحل من حياة الإنسان محل الأقدار والحظوظ، وتعقد العمل بتفاوت الشعور وتنازع النفس واختلاف الهوى وثورة العاطفة فبعث في المسرح الحديث حركة شديدة وروحاً قوية كان القدماء يجهلونها كل الجهل، لأن مسرحهم كان يقوم على حكم الضرورة، ومسرحنا يقوم الآن على نظام الطبيعة، والضرورة عامل قاهر، ومتسلط مستبد، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه. أما الطبيعة فلها مبادئ وقوانين تُصدر عنها وتسير عليها، فكل حادث لعلة، وكل غاية لأصل، حتى في اضطراب الأهواء وفوضى الميول تجد نظاماً خفياً لا تستطيع أن تقلبه دون أن تصرخ الطبيعة في نفسك بأنك خرقت قانونها وانتهكت حماها، لذلك كان بناء المأساة الحديثة من أدق الأمور

وأشقها على الكاتب: فالحوادث تتدرج في الصعوبة بحكمة، والجاذبية تتوزع في الأجزاء بدقة، والعمل يتسلسل بعضه من بعض في حدود الطبيعة سواء أكان منتزعاً من جوهر الموضوع أم من خلق الأشخاص. ولو شاء ربك أن يبعث الآن أرسططاليس فرأى كيف نسجت العقدة في أمثال بُلْيُكْتَ وألزِيرَ لملكه الدهش وأخذه العجب، ولاعترف أن هناك فناً آخر أسمى وأبلغ من فن أوربيدس وسوفوكليس يدور العمل فيه على الأخلاق والعادات، لا على الضرورة والخرافات.

بقى الحل وهو الجزء الذي تنتهي به الرواية وتتحلل فيه العقدة بزوال الخطر أو قضاء الوطر أو تذليل العقبة أو حلول الكارثة. وبراعة الحل أن يدبر دون أن يظهر. فتدبيره يكون بوضع العمل على طريقة تجعل اللاحق ناتجاً عن السابق. فإن بين الحوادث المتوالدة والحوادث المتعاقبة بوناً بعيداً كما قال ارسططاليس، وبذلك يكون الحل طبيعياً منطقياً متفقاً مع أخلاق الأشخاص وأعمالهم؛ وعدم ظهوره هو أن يكون فجائياً ولا سيما إذا كان ساراً، لأن الجاذبية إنما تقوى بتعاقب الرجاء والخوف على قلب المشاهد، ولا مصدر لهذا التعاقب إلا الشك، فإذا علم من قبل أن الحل سيكون ساراً انتفى سبب الرجاء والخوف، وسكن بانتفائه محرك الجاذبية. حتى في الموضوعات المعروفة يجب أن يخفى الحل. وخفاؤه إنما يرجع إلى براعة الكاتب في سوقه العمل على وجه ينسى المشاهد ما يعلمه من قبل. وتلك هي قوة الوهم وعبقرية الفن، ولولاهما لما رأينا ذوي الحساسة من المشاهدين يبكون للمأساة الواحدة عشرين مرة.

إن معنى فجائية الحل هو انتقاله طفرة من حالة مبهمة إلى حالة واضحة. وتقريب ذلك أن حظ الأشخاص في سياق العمل أشبه بسفينة تناوشتها الأمواج واصطلحت عليها العواصف - وتلك هي العقدة - فأما أن تغرق وإما أن تبلغ الساحل - وذلك هو الحل ثم إن الحل قد ينتهي إما بالتعرف إذا تعقد العمل على أساس الجهل والتناكر، ثم تحلل بجلاء الموقف وتعارف الأشخاص؛ وإما بالانقلاب إذا حدث تغيير فجائي فقلب حال البطل من نعيم إلى بؤس أو من بؤس إلى نعيم، وفي الحالة الأولى يسمى الحل محزناً وفي الحالة الأخرى يسمى ساراً. وكان أرسططاليس يفضل الحل المحزن ويقول بإبعاد الفضيلة المطلقة والرذيلة المطلقة من المسرح، ليكون لأشخاص الرواية نصيب من كلتيهما

بارتكابهم جرائم عن غير عمد فيعاقبون عليها جميعاً في النهاية. أما سقراط وأفلاطون فرأيهما على خلاف رأيه: يريان أن المأساة لا بد أن تتفق مع القوانين فتقف البريء على المسرح إزاء المجرم ثم تحكم للأول على الثاني. وعلى الجملة فالحل عند القدماء كان يعوزه اجتماع التأثير والمغزى وهما قوامه وكماله، لأن الحوادث التي تؤدي إلى الحل كانت خارجة عن إرادة البطل صادرة عن سواه، والشقي إذا أشقته أخطاء غيره لا يكون مثلاً، وإذا أشقته أخطاء نفسه لا يستحق عطفاً. أما الحل في الفن الحديث فمن السهل اجتماع هاتين الخلتين فيه، لأن الرجل إذا أضله الهوى وأعماه الغي فتردى في هوة الشقاء وهو طيب القلب نبيل النفس، كان مثلاً قوي التأثير شديد الروعة جليل المغزى، يشعر قلبك الخوف دون أن يفزعك بالبلاء، ويثير في نفسك الرحمة دون أن يثيرك على القضاء. وليس الكاتب في حاجة إلى أن يغمس يد أشخاصه في الجرائم ليهز النفوس ويبكي العيون، فانه يجد لهم في صميم أفئدتهم العدو الكاشح، والطاغية المستبد، والسياف القاسي، وإذن يكون عذابهم ومصابهم من

طريق الهوى المضل أبلغ مثلاً وأقوى أثراً وأفظع صورة. وفي ذلك يتجلى فضل الطريقة الحديثة على القديمة في الحل المحزن. أما فضلها عليها في الحل السار فهو أظهر وأكبر، لأن هوى النفس مقروناً بسلامة القلب لا يقابل على المسرح بما تقابل به الدناءة الغريزية والشر الصادر عن روية من الزراية والمقت. وإذن يستطيع الكاتب أن يجد للبطل الذي أضله هواه مخرجاً من شقوته ومخلصاً من ورطته، وهو جازم بوقوع هذا الحل السار من نفوس المشاهدين موقع الرضا والمسرة، لأنهم طالما ابتأسوا لبؤسه، وشقيت نفوسهم لشقاء نفسه.

ويجمل بنا قبل أن نفرغ من الحل أن ننبه الكتاب إلى عيب أصلي من عيوبه وهو الطول.

ومنشأ ذلك العيب سوء توزيع العمل على خمسة فصول، فيجعلون الفصل الأول للعرض، والثلاثة التالية للتعقيد، والخامس للحل. وطبيعة ذلك التقسيم تقضي بأن يبلغ الخطر أقصى درجته ومنتهى قوته في الفصل الرابع. فإذا جاء الفصل الخامس وجد الكاتب نفسه مضطراً أن يحل العقدة ببطء وتدرج ليملأه، فيطول بذلك الحل ويفتر، والجاذبية إذا انتهت في الزيادة بدأت في النقص، أو هي كالنار تغذى بالوقود فإذا ما سكت عنها انطفأت. فينبغي الإسراع فيه على شرط ألا تضر السرعة بالإمكانية، ولا الإمكانية بالشك. أما حل الملهاة

فهو بحكم العادة كشف خديعة وإزالة غرور وفضيحة خبث وقطيعة سخرية. ويغلب أن يكون الحب محور التعقيد الهزلي فينحل بالزواج. وهو يشارك حل المأساة في ترتبه على ما قبله وانتزاعه من نفس الموضوع وتولده من تسلسل الحوادث. ويختص دونه بعدم المفاجأة، فقد يزداد هزله كلما وضح أمره. وفي المأساة يخدع المشاهدون، أما في الملهاة فيخدع الأشخاص.

(يتبع)

(الزيات)

من الشعر المنثور

موعظة الحكيم

للأستاذ خليل هنداوي

وسمعته وقد جمع إليه تلاميذه في الساحة يودعهم ويشجعهم، وقد لمعت بوارق الأمل في وجوههم، وكأنما كل واحد منهم رسم على صفحة وجهه ما يوارى له الغد.

قال لهم: يا أبنائي، إنكم داخلون في أقطار تعرفونها وتجهلونها، وحاملون إليهم ما يعرفونه ويجهلونه، فابذلوا تعاليمكم في سبيل الحياة، لأن من يعمل للحياة تضمه الحياة إلى صدرها. لا تكونوا كأولئك الحكماء الدجالين الذين يسخرون من جهل الناس وما عرف جهلهم إلا أنفسهم، يقولون للناس: هلموا الينا، إننا أتيناكم بالحياة، وما يحملون إلا الموت. لتعط ألسنتكم من خزائن قلوبكم، وليخرس اللسان إذا أراد القلب ألا ينطق.

الكلمات المنثورة - من غير صدق اعتقاد - تمضي كما تمضي الأصداء، وتنقش في الصدور، كما تنقش على الرمال السطور!

أريد أن أسمع كلماتكم في عزلتي، وأريد أن ترسخ على وجوه الجبال وصفحات البحار. ولن تقدروا على تخليدها إلا إذا اعتقدتم بخلودها.

اذهبوا كما تذهب السوافي من البحر مبشرة بنعمة البحر. لا تمدحوا عذوبتها قبل أن تذكروا ملوحته. البحر يوزع الحياة على الأرض، ويُعطي بلا نفاد، لأن لذة حياته لم يقفها على الأخذ دون العطاء.

تذهب السافية من البحر لتعود إلى البحر نقية طاهرة لامعة تؤوب كما ذهبت. لأن الأرض لا تقابل يد الطاهر إلا بجسدها الطاهر، ولا تقابل الرجس إلا بالطهر.

اذهبوا أنتم وعودوا إليّ أنقياء طاهرين كما تذهبون طاهرين، أما الطاهر فلن يعود إلا طاهراً كالسافية النقية تذهب حبلى بأسرار البحر، وتعود حبلى بأسرار الأرض! وأما الدنس فانه لن يعود إليّ كالسافية التي خبثت نفسها فعرجت على بطون الرمال تتهادى فيها ولا تنفع الحقول. فهي إلى موت لا حياة بعده، وهي موطن لا ترتقب فيه ساقية ثانية تحملها إلى مستقرها.

كونوا كالسافية الأولى، تذهب مرنمة على أجنحة الغيوم، وتعود كرّارة ثرثارة بين تعاريج
الجبال والوديان.
الماء لا يحيا إلا إذا كان يغني، وإذا سكن هديره فهو آسن قد فقد الحياة.
الماء يغني في صدر البحر والجداول والأنهار، ولا يسكت إلا في الغدران الراكدة، وأية حياة في هذه الغدران؟ غنوا إذاً، وليكن غناؤكم في سبيل الحياة كما يغني كل حي من أجلها. وعلموا الناس أن يبتسموا لأن غاية الحياة هي أسمى من أن توجدنا لنشقى ونتألم، ومتى علمتموهم أغنية الرجاء هان عليكم تعليمهم غريها من الأغاني:
ما أكفرك أيها الإنسان!
كل شيء يضحك للحياة إلا أنت
(بيروت)
خليل هنداوي
أعيان القرن الرابع عشر - 13
أحمد باشا تيمور
بقلم حسن عبد الوهاب
والده المرحوم إسماعيل باشا بن محمد كاشف تيمور بن إسماعيل، تقلب في الوظائف الكبيرة إلى أن كان رئيساً للديوان الخديوي في عهد المغفور له إسماعيل باشا.
جده محمد كاشف تيمور كان ضابطاً في جيش محمد علي وساعده على إبادة دولة المماليك وترقى حتى كان والياً على الحجاز وتوفي سنة 1262 هـ (1847م)
مولده
ولد في 22 شعبان سنة 1288 هـ 1871م وقد تلقى دروسه الأولية على مدرسين خصوصيين، ثم تلقى اللغة العربية على المرحوم العلامة الشيخ رضوان محمد العالم الشهير في علمي القراءات والرسم
ودرس اللغة الفرنسية بمدرسة كليبر وعلى الأستاذ عبيد بك حتى نبغ فيها مع نبوغه في اللغتين التركية والفارسية.
وتلقى علم المنطق وعلوماً أخرى على الأستاذ الكبير الشيخ حسن الطويل، ثم تلقى علم اللغة على اللغوي الثقة الشنقيطي الكبير، فحضر عليه شرح المعلقات وغيره، فكان يذهب إليه الفقيد في منزله ويتلقى الدرس عليه وهو جالس، فكان حينما يشعر بألم ويبدل رجلاً بأخرى يقول له لا تتألم يا أحمد فقد كنا نقطع بالراحلة شهوراً وراء البحث والاستقصاء عن مسألة علمية.
وظل مثابراً على الدرس ومجالسة العلماء والأخذ عنهم حتى أصبح الحجة في اللغة بعد الشنقيطي في عصره والوحيد بعده.
ناديه بسراي درب السعادة
يرى السائر الآن في شارع درب سعادة بجوار مسجد آسنبغا فضاء كبيراً هو سراي تيمور، وقد كانت منتدى يؤمه شيوخ الأدب واللغة في القاهرة للبحث والمناقشة في المواد العلمية والأدبية، أمثال المرحومين الشيخ أحمد مفتاح والعلامة الشيخ طاهر الجزائري الحجة الثقة
في المؤلفات العربية، والمرحوم الشيخ محمد عبده، ويحيى أفندي الأفغاني وأصدقاؤه الأجلاء السيد رافع والسيد محمد الببلاوي والشيخ حسن منصور والشيخ محمد شاكر أطال الله بقاءهم، وغيرهم كثيرون ممن يضيق المقام عن سرد أسمائهم، وقصارى القول أن تلك الدار كانت كعبة العلماء والأدباء في مصر والأقطار العربية، وما كتبه في الصحف والمجلات من مباحث علمية وتنقيب عن حضارة العرب بأسلوب شيق وتمحيص للحقائق أكبر دليل على ماله من أدب ونظر سديد فيما يعانيه من الأبحاث.
وقد جمع خزانة كتب هي مفخرة مصر بل والشرق.
الخزانة التيمورية
بدأ في تكوين خزانته سنة 1319هـ (1901م) وقد كان لديه نواة صغيرة لها من جمعه أيضاً، وظل طوال تلك السنين ينقب عن النوادر من المخطوطات القيمة ويشتريها بأغلى الأثمان حتى اجتمعت لديه نوادر يندر وجود مثلها في خزائن أخرى، بل انفردت

بتحف كثيرة.
ويبلغ عدد كتبها 15000 كتاب في نحو 20000 مجلد غالبها خط، جميعها مجلدة تجليداً متقناً، واستنسخ في عهده الأخير مجموعة صالحة من مكاتب أوروبا بالفوتوغرافيا. وبها القليل من المؤلفات الفرنسية والإنجليزية مما له علاقة بحضارة العرب أو تاريخ مصر ونشرات المجمع العلمي الفرنسي.
وتمتاز هذه المكتبة بوفرة كتبها الخطية وخاصة في التاريخ واللغة، ولعل القارئ يعجب إذا أكدت له أن هذا العدد من الكتب قد اطلع عليه رحمه الله وعلق عليه ملاحظات له ما بين وفاة مؤلف، أو بيان ذيول وضعت على الكتاب، أو الإشارة إلى قوة المؤلف والاعتماد عليه في النقل. هذا ما يتعلق بالكتب المطبوعة.
أما الكتب الخطية وهي أكبر قسم فيها، فقد استنفدت منه مجهوداً لا يقدر عليه أشخاص. ومن يطلع على جميع الكتب الخطية يجدها مبتدأة بترجمة المؤلف ومنمرة، ثم فهارس بالتراجم الواردة فيه، والموضوعات المهمة، وآخر بأسماء البلدان والأماكن. وبيان الكتب الواردة فيه، ومن حبه للعلم ومساعدته على نشره لم يبخل على من أراد طبع بعض هذه الكتب بالترخيص له بطبع فهارسه، وهذا مشاهد في كتاب الطالع السعيد للأدفوي المطبوع
سنة 1914 فانه محلى بالفهارس التي أشرت إليها، وكما حصل أخيراً من إعطائه مفتاح الخزانة، وهو مجموعة الفهارس التي وضعها لكتاب الخزانة للبغدادي إلى المطبعة السلفية لدرجها في الطبعة الجديدة، وفعلاً طبعتها، وأمثال هذا كثير.
ومن اللطيف في هذه المكتبة تدقيقه رحمه الله في انتقاء كتبها، فإذا اطلع مطلع على نسختين من كتاب فلا بد وأن يكون هناك فرق بينهما، وكأن تكون هذه كتبت في عصر المؤلف أو قرئت عليه، والأخرى طبعة بمصر أو أوربا أو الهند.
أما المجاميع الخطية فقد وضع لها فهارس بمشتملاتها، وكل هذا المجهود بخطه. وكثيراً ما أعار المكاتب والمستشرقين أو استنسخ لهم لحسابه هدية منه، كما أنه أعار دار الكتب الملكية بعض نفائس خزانته لتصوير نسخ منها مثل الأجزاء التي كانت تنقصها من كتاب عيون التواريخ لابن شاكر الكتبي، وما لديه منه بخط المؤلف. وأخيراً أعارها الجزأين الأول والسابع من كتاب الضوء اللامع للسخاوي، وتاريخ ابن الفرات الذي استنسخه من فينا بالفوتوغرافيا، وسمح للدار بتصوير الفهارس التي وضعها لكل جزء في أوله، وعدد أجزائه سبعة عشر جزءاً.
أما النفائس التي امتازت بها المكتبة فكثيرة ولا تسعها تلك العجالة، ومن مميزات تلك المكتبة النادرة وجود تواقيع مئات من أكابر العلماء في القرن السادس والسابع والثامن والتاسع والعاشر الهجري، وقد حصرها جميعها، وبعد وفاته رحمه الله أهديت مكتبته إلى دار الكتب المصرية، فأفردت لها مكاناً خاصاً بها.
مقالاته ومؤلفاته
كان رحمه الله دقيقاً في البحث والتمحيص، وقد نشر مقالات كثيرة في المؤيد والضياء والمقتطف والمقطم والأهرام والهلال والهندسة والزهراء والهداية الاسلامية، وكلها في حضارة العرب وتحقيقات تاريخية.
فمن مقالاته الممتعة (الخلافة والسلطنة) نشرت في المقطم سنة 1922 ومنها (المهندسون الإسلاميون) نشرت تباعاً في السنة الثانية 1922 والثالثة 1923 من مجلة الهندسة، وأيضاً خص تلك المجلة بفصول قيمة من كتابه (التصوير عند العرب) نشر منها (التصوير على الجدران) في العدد الأول والعدد الثاني من السنة الثامنة يناير وفبراير سنة
1928 (التماثيل المتحركة والمصوتة) - في العددين 3و4 مارس وأبريل سنة 1928 وسبق أن نشر بمجلة الهلال الغراء مقالات عن التصوير عند العرب.
وقد انفردت مجلة الزهراء بنشر قسم كبير من مقالاته نذكر منها: بئر الثنيتين - حول تصحيح القاموس - شعر يزيد - دار ابن لقمان بالمنصورة - انتشار المذاهب الأربعة - الكرات العربية الأرضية والفلكية - الكتابات الدقيقة، غرائب أخرى في الكتابة - لقب الطواشي - الطربوش وتاريخه - وصف ساعة المدرسة المستنصرية - المشتهى وتحقيق موضعه بالروضة.
ومن مقالاته التي كان يوافينا بها أخيراً (الآثار النبوية) خص بها مجلة الهداية الإسلامية

ونشر منها تسع مقالات في الأعداد محرم، وربيع ثاني، وجمادى الأولى، وجمادى الآخرة، ورجب وشعبان، ورمضان، وشوال، وذي القعدة سنة 1348 وظهر المقال العاشر في عدد الحجة بعد وفاته رحمه الله، تكلم فيه عن الآثار النبوية في الأقطار الإسلامية بإسهاب لم يسبق، وتحقيق وتمحيص نادر، وباقي هذا البحث معد للنشر أيضاً.

وكلها مباحث تدل على سعة الاطلاع والتعمق في البحث، بل هي خلاصة معلوماته وعصارة أفكاره، وآثار تنقيبه في خلال السنين الماضية.

والحق أنها رسائل فريدة وليست بمقالات، وذلك لغزارة مادتها ودقة مباحثها التي لم تطرق من قبل.

مؤلفاته

هذه المؤلفات قسمان: ما نشر وما لم ينشر. أما ما نشر فهو:

1 - تصحيح لسان العرب نشر القسم الأول منه سنة 1334هـ.

2 - القسم الثاني من تصحيح لسان العرب نشر سنة 1343هـ.

3 - تصحيح القاموس طبع سنة 1343هـ.

4 - 1344 نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الأربعة وانتشارها طبعت سنة.

5 - 1346 قبر الإمام السيوطي وتحقيق موضعه مزين بالصور طبع سنة.

6 - 1347 اليزيدية ومنشأ نحلتهم طبع سنة.

7 - 1347 تاريخ العلم العثماني مزين بالصور. طبع سنة

أما مؤلفاته التي لم تطبع فهي:

1 - الأمثال العامية: وقد رأيتها بعيني تملأ مجلدات كبيرة وكلها معدة للطبع صرف في جمعها زهرة شبابه، حتى أنه رغم جمعها بنفسه أعد جوائز لمن يأتي بمثل لم يدونه.

2 - التصوير عند العرب: اطلعت على قسم كبير منه وجميعه معد للنشر، ومن يطلع على ما نشر منه في مجلة الهندسة يعلم مقدار حاجتنا إلى مثل هذا المؤلف بعد أن رأينا ما ظهر من مؤلفات الغرب في هذا الباب وجلها اقتصر على ما عثر عليه من التصوير الفارسي وكلها لا تسمن ولا تغني من جوع بجانب هذا السفر القيم العديم المثال.

3 - معجم تيمور في العامية المصرية: وهو بمثابة إصلاح للأخطاء الدخيلة على العربية فيذكر الكلمة وأصلها الصحيح، وبيان التحريف الذي طرأ عليها ومنشأه. وقد اطلعت على قسم كبير منه فإذا هو مجهود مضن لا يستطيع المضي فيه إلا من أوتي بسطة في العلم مثل تيمور رحمه الله، وقد نشر منه قطعاً في مجلة المجمع العلمي بدمشق، ونقلت البلاغ الغراء قطعتين منه في العددين المؤرخين 25 و 26 مايو سنة 1926.

4 - السفن الإسلامية وأسماؤها.

5 - شرح التبرّي من معرّة المعرّي.

وهو كتاب لطيف جمع فيه أسماء الكلب بمناسبة ما قرأه في ترجمة الإمام أبي العلاء المعري من أنه دخل على أبي القاسم المرتضى فعثر برجل فقال من هذا الكلب فقال له أبو العلاء الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسماً.

6 - ولديه أيضاً مجموعة كبيرة من الوفيات منذ العصر الذي يلي العلامة الجبرتي إلى عصرنا هذا، ويكاد يكون منفرداً بها أيضاً.

هذا قليل من كثير، ولديه أشياء لم يطلع عليها أحد ومقالات لم أشر إليها في عجالتي هذه.

أعماله ومآثره

كان عضواً في مجلس الشيوخ منذ تكوينه حتى أوائل دورة العام الذي توفى فيه واستقال لانحراف صحته.

وكان عضواً بلجنة حفظ الآثار العربية. والمجمع العلمي العربي بدمشق. والمجلس الأعلى لدار الكتب الملكية، ومن مؤسسي جمعية الشبان المسلمين وجمعية الهداية الإسلامية، ومن

مؤسسي جمعية نشر الكتب العلمية، وفي سنة 1924 أهدى إلى المجمع العلمي بدمشق مجموعة من الموازين (الصنج) الزجاجية مع قسم كبير من الكتب.

وأهدى إلى دار الآثار العربية خنجراً مرصعاً بالأحجار الكريمة وسيفاً كان لجده تيمور كاشف وأهدى إلى جمعية الشبان المسلمين كتباً قيمة وأيضاً منح جمعية الهداية الإسلامية في شهر أبريل سنة 1930 120 كتاباً.
ولو لم يكن من مآثره إلا مكتبته النادرة لكفى.
أخلاقه
كان رحمه الله مثلاً عالياً في الأخلاق. حلو المعاشرة هادئاً حليماً، على دين متين ولهجة صادقة، وسمت حسن، وعقل وافر ووقار، محباً للخير لا يصل إلى الشر مطلقاً.
وقد كان محسناً متواضعاً لا يحب الظهور ولا المباهاة، وانظر إلى تواضعه الملموس في مقدمة كتابه تصحيح لسان العرب وهو أكبر كتاب في اللغة حيث يقول:
(ولسنا في ذلك بمدعين عصمة أو متبجحين بفضل)
وما أجمل تواضعه حينما يصف لنا مقالاته (التصوير على الجدران) و (التماثيل المتحركة) بأنهما من رسالة التصوير عند العرب، يمين الله أن المقال الواحد منهما حري بأن يكون رسالة وافية فما بالك بكتاب ضخم يصفه لنا برسالة.
وكان مثلاً عالياً في التقوى والغيرة على الإسلام والمحافظة على العوائد القومية.
خاتمته
لقد كانت حياته حافلة بجلائل الأعمال قضى معظمها في البحث والتنقيب والذود عن الإسلام، وجمع نفائس الكتب، حتى نكب بوفاة نجله المرحوم محمد بك تيمور في أوائل سنة 1921 فكانت صدمة قوية لم يقو على كفاحها، فأثرت في صحته، ومن ذلك الحين أصبح يميل إلى العزلة.
ومع أن مصيبته بفقد نجله هذا من أكبر المصائب فإنها لم تنته عن المثابرة على الكتابة والبحث، غير أن نوبات المرض كانت تنتابه بين آونة وأخرى، وخاصة في أعوامه الأخيرة وهو لم يرحم نفسه ولم يشفق عليها.
وفاته
في الساعة الرابعة من صبيحة يوم السبت 27 ذي القعدة سنة 1348 - 26 أبريل سنة 1930 انتقل إلى رحمة الله تعالى فانطوى ذلك العلم الخفاق، واندك ذلك الركن الركين، وكان لنعيه رنة حزن وأسف جزعت لها القلوب وفاضت بالبكاء العيون إنا لله وإنا إليه راجعون. ودفن وقت الغروب بمقبرة عائلته المجاورة لقبر سيدنا الإمام الشافعي، رحمه الله وطيب ثرى تربته.
حسن عبد الوهاب
في المعلقات أيضاً
للأستاذ عبد المتعال الصعيدي
وكنت عازماً على العودة إليها بتكملة رأيي فيها، وأقول رأيي وإن حاول بعضهم أن . . . يجعله رأي عالم أوربي سبقني إليه فلا يكون لي جديد فيه، وقد اشتغلت بالكتابة في العلم والدين والأدب والتاريخ من نحو خمس عشرة سنة، ولى في ذلك بفضل الله آراء كثيرة جديدة خالصة جدتها لي، ولم يحاول أحد في رأي منها ماحوول في رأيي الجديد في المعلقات، اللهم إلا ما كان من الأستاذ الجليل أنطون الجميل فيما كان بيني وبين الأستاذ زكي مبارك في نقد تسمية العصر الأدبي قبل الإسلام باسم العصر الجاهلي، لأنها تسمية دينية لا أدبية، وكان بيننا في ذلك جدال فيمن هو صاحب ذلك الرأي مني ومنه، فذكر الأستاذ الجميل أن هذا الرأي ليس لي ولا له وفلاناً مسبوق به، فأما أنا فذهبت إليه فلم أجد عنده في ذلك شيئاً فاكتفيت بذلك منه، وأما الأستاذ زكي فإنه سكت على ذلك، وهو من عادته ألا يسكت عن شيء، وألا يرضى بالهزيمة وهو منهزم، ولعله رضى من ذلك بما رضيت به إحدى المرأتين اللتين تنازعتا في ولد عند سليمان عليه السلام.
وكذلك هذا الرأي الذي أذهب إليه في المعلقات ليس هو رأي الأستاذ نولدكه، ولا رأي الأستاذ كليمان هيار، وإنما هو توجيه جديد لتسمية هذه القصائد باسم المعلقات أصح من توجيههما لها، فإني أرى أن المعلقات اسم مفعول مشتق من التعليق بمعنى الحفظ أو الشرح أو الحب والتتبع كما قال الشاعر:
علقتها عرضاً وعلقت رجلا ... غيري وعلق أخرى ذلك الرجل
وكما يقولون فلان علق علم أي يحبه ويتبعه، وعلق شر كذلك.

وأما الأستاذ نولدكه فيحاول أن يحمل اسم المعلقات معنى علق، وهو الشيء النفيس فتعني هذه التسمية عنده أن هذه القصائد قد سمت إلى درجة خاصة مجيدة، وهي محاولة خاطئة، لأن العلق بمعنى الشيء النفيس صفة مشبهة لا يشتق منها اسم مفعول هكذا (معلقات)، وإنما يشتق اسم المفعول من المصادر وما في معناها، ولم يقل أحد إن اسم المعلق يطلق على الشيء النفيس، وإنما الذي يطلق عليه اسم العلق فقط فاخذ أحدهما من الآخر خبط وخلط.

وأما الأستاذ كليمان هيار فيرى أن المعلقات جمع معلقة بمعنى القلادة بدليل أنهم يسمونها أيضاً السموط بمعنى العقود أو القلائد وهو أيضاً توجيه خاطئ لأن كلمة معلقة تطلق على التميمة وعلى المرأة المعلقة وهي التي ليست بذات زوج ولا مطلقة وعلى غير ذلك من أمور كثيرة وهي أشهر في المرأة المعلقة من التميمة والقلادة وغيرهما من كل ما يعلق ولو كانوا يريدون هذا المعنى في تسمية هذه القصائد بالمعلقات لسموها باسم القلائد كما سموها باسم السموط حتى يكون هذا الاسم نصاً في ذلك المعنى ولا يحتمل معنى التميمة أو غيرها مما يصح أن يطلق عليه اسم المعلقات. وقد جاء في الأساس أنه يقال أعلقت المصحف جعلت له علاقة يعلق بها واشتقاق اسم المعلقات لهذه القصائد من نحو هذا أجدر من اشتقاقها من المعلقة بمعنى القلادة.

وقد ذكر بعض شيوخ الأدب ما يقرب من هذا في سبب تسمية تلك القصائد باسم المعلقات فقال إن العرب لم تكن تكتب في دفاف ولم تكتب قبل القرآن كتاباً مدفقاً، وإنما كانوا يكتبون في رقاع مستطيلة من الحرير أو الجلد أو الكاغد يوصل بعضها ببعض ثم تطوى على عود أو خشبة وتعلق في جدار الرواق أو الخيمة بعيدة عن الأرض حرصاً عليها من قرض فأرة أو عث أو نحو ذلك من دواب الأرض، وذلك تأويل قوله تعالى (يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب) إذ يظهر أن السجل ومعناه الصحيفة أو الكاتب الذي كان يعلق الكتب أو يطويها لعله كان يستعمل مثل هذا العود في طي الكتاب وتعليقه.

فهذا هو رأيي في المعلقات مع رأيي الأستاذين نولدكه وكليمان هيار وهذه ميزته عليهما ولا أقول الفرق بينهما، لأنه من الوضوح بحيث كان يغني ذلك الناقد عن نقده، ويغنيني عن هذا الرد عليه إلى ما هو أنفع عندي منه. ولا أثقل على نفسي من أن يقول ناقد رأيي إنني أغفلت مناقشة ونقض رأي القائلين بأن هذه القصائد سميت بالمعلقات لأنها كانت تكتب بالذهب وتعلق بأستار الكعبة فيلجئني إلى أن أعيد له ما ذكرته في نقض هذا الرأي عن أبي جعفر النحاس من أنه لا يعرفه أحد من الرواة، فكيف أكون مع هذا قد أغفلت مناقشته ونقضه.

ولا أثقل على نفسي من أن يذكر ناقد رأيي أن أبا جعفر النحاس أطلق الملك الذي كان يأمر بتعليق هذه القصائد في خزانته إطلاقا وأني أنا الذي حملته على النعمان بن المنذر ليتأتى

لي نقض رأي أبي جعفر فيلجئني إلى أن أعيد له ما قلت من أن أبا جعفر لم يذكر من هو هذا الملك الذي كان يأمر بتعليق هذه القصائد في خزائنه وأن بعض علماء الأدب هو الذي رجح أنه النعمان بن المنذر، فلم أكن أنا الذي حملته عليه ليتأتى لي بذلك نقض رأيه، ثم إني لم أكتف بهذا في نقض رأيه بل ذكرت ما ينقضه، ولو كان ذلك الملك ملكاً آخر قبل النعمان بن المنذر وأشرت إلى الأسباب المعروفة التي قيلت المعلقات من أجلها والى الأمكنة التي قيلت فيها وهي أمكنة غير تلك الأسواق التي يقول أبو جعفر وغيره أنها كانت تقال فيها.

ولا أثقل على نفسي من أن لا يطلع ناقد رأيي على النص الذي أخذت منه أن سوق عكاظ أنشئ بعد عام الفيل بخمس عشرة سنة. ثم يطلع على نصوص أخرى قد تخالف ذلك فيمضي فيها إلى أن يعود فيسألني عن النص الذي اعتمدت عليه في أمر قيام تلك السوق بعد عام الفيل، فيلجئني إلى أن أدله في ذلك على كتاب المتداول مشهور هو كتاب (الوسيط) للأستاذين الفاضلين الشيخ أحمد الإسكندري، والشيخ مصطفى عناني، وإني أذكر لناقد رأيي نصاً أقدم مما ذكره من النصوص التي ذكرها في إثبات قدم سوق عكاظ.

قالوا في تفسير المثل المشهور (الحديث ذو شجون) إنه يضرب في الحديث يتذكر به غيره، أي ذو طرق يتصل بعضها ببعض ويؤدي بعضها إلى بعض، والواحد شجن قاله

ضبة بن أد ابن طابخة بن إلياس بن مضر، وقد نفرت إبل له فطلبها أبناء (سعد وسعيد) فوجدها سعد فردها، ومضى سعيد فلقيه الحارث بن كعب فأخذ منه برديه وقتله واختفى خبره على أبيه إلى أن وافى عكاظ فرأى بردي سعيد على الحارث فسأله عنهما فأخبره بأنه رآهما على غلام فطلبهما منه فأبى فقتله بسيفه، فقال له ضبة: أعطينيه أنظر إليه فإني أظنه صارماً، فأعطاه له فهزه في يده وقال: (الحديث ذو شجون)، ثم قتله به، فقيل له يا ضبة: أفي الشهر الحرام؟! فقال: (سبق السيف العذل) فذهب أيضاً مثلاً.

ولا شك أن عصر ضبة أقدم بكثير من عصر عبد شمس بن عبد مناف، ولكنها نصوص قد تحمل على الاشتباه وان ذاكرها يريد سوقاً أخرى غير سوق عكاظ فاشتبهت عليه لشهرتها، وهكذا يغطي كل مشهور على كل شيء سواه، فيبقى النص الذي يعين قيام سوق عكاظ بعد عام الفيل غير قابل للتأويل ويقدم على غيره من النصوص الأخرى لأنه نص سيق لبيان

تأريخ بدء هذه السوق ونهايتها، وتلك نصوص في حكايات أخرى ذكرت هذه السوق عرضاً فيها، فيمكن حملها على الاشتباه كما ذكرنا.

وإذا أراد ناقد رأيي بحثاً في وثاقة رواية هذه القصائد وأمثالها فيمكنه أن يجد ذلك في بحث صحة أشعار امرئ القيس من كتابنا (زعامة الشعر الجاهلي) فلعله يقتنع بأنّا قد نحسن هذا النوع من البحث، وأراني بعد هذا قد أطلت، ومنعني الأستاذ الحاجري من العود في هذا المقال إلى تكملة رأيي في المعلقات فليكفه هذا منى وليتركني في سبيلي وجزاه الله خيراً.

عبد المتعال الصعيدي

من طرائف الشعر

على الشاطئ

للأستاذ محمود خيرت

أنظر الشاطئ البهيَّ الرّواء ... ضاحكاً كالخميلة الغنَّاء
كل غصنٍ به تمثَّلَ قَدّاً ... أنبتَتْ وَردَه خدُودُ الضباء
فاتناتٍ وقد خَطرنَ سَكارى ... برحيقٍ من الرِّضى والصَّفاء
سافراتٍ وكيف يحتبس الحُس ... ن وقد كان من فيوض السَّماء
عارياتٍ كأنما قد تسترْ ... نَ عليه بحُلَّةٍ من رياء
باسماتٍ والابتسامةُ تحيي ... في قرار النفوس ميْت الرّجاء
فتَرَى أعيُنَ الشباب عليه ... نَّ خفافاً من كل قاصٍ وَنَاء
وتراهنَّ آمِناتٍ بمنأى ... عَن تَجَنٍّ أو نُفرَةٍ أو جَفاء
قد تأكَّدْنَ أنَّها نظراتٌ ... أرسلَتها العيون بالإطراء
والغواني يهزُّهنَّ كما قد ... قال شوقي العظيم سحر الثناء
وانظر البحر هل ترى لمداهُ ... آخراً رائعاً كرحب الفضاء
وهو حيٌّ له نصيبٌ من الحِ ... س وحالاتُ فتنةٍ والتِواء
فإذا مسَّه النَّسيم عليلاً ... كان مثل الصحيفة الزَّرقاء
وتراه كأنما الرّعدُ يَدوي ... حول أمواجه من الأنواء
قام يُزجي مياهَه صاعداتٍ ... نحو أقدامهنَّ في إغراء
فتواثَبْنَ كالعرائس لكن ... كنَّ فيه عرائساً من ضياء
وتناثرْن كالدُّمى سابحاتٍ ... في انحرافٍ عن سطحه واستواء
هادياتٍ لقاعِه غائصاتٍ ... ثم يظهرْنَ عند سطح الماء
ثم يأخُذْن في التَّراشُق بالما ... ء رشاشاً وهنَّ في ضوضاء
هكذا ينعَمُ الملاح على الشَّا ... طئ حتى يرفّ ظلُّ المساء

(الإسكندرية)

محمود خيرت

بقسم قضايا المالية

ليلة الأهرام. . .

مَوثِقُ الحبِّ الذي صِحْنا به ... شَهِدَ الأهرامُ والبدرُ عليهِ
شقَّ كلٌّ صدرَهُ عن قلبه ... ومضى يبعثُ بالعهدِ إليهِ

ومَضَتْ أعيُنُنَا تروي الغَرَامْ ... وتَبُثُّ الوَجدَ وحياً خالدا
رَفرَفَ الأمنُ عليها والسلام ... وضياءُ البدرِ يسري هاجداً
آهِ من فرصةِ لثمٍ وعِناقْ ... لم تُتَح إلاَّ لِسكَّان الجِنان
!. .اختلسناها، وعُدنا في احتراق ... نَحقُرُ الدنيا، ونُزرِي بالزمان
ثغريَ الصديانُ كم لاذَ بثغركْ ... يرشفُ النورَ الذي رَفَّ وحام
!.وذراعي كم هوتْ تعطف خَصْرِكْ ... والهوى الصادقُ في الأعْيُنِ نام
لا تقولي ما مضى فاتَ، فما ... يَطَّبِينِي غيرُ ماضي الذكريات
أنا أهواك جَبيناً وفَماً ... وضياءً شاع في كلِّ الجهات
:قُلتِ لي، والبدرُ للأهرام يرنو، ... وأنا في سَكرَةٍ مِمَّا أرَى
(أتُرَى أحبَبْتَنِي أم أنت تحنو ... مُشفِقاً، أم ذاكَ حُلمٌ في الكرى؟)
قلت: (أهواكِ ولا أهوى سواكِ) ... ثم لاذَ الثغرُ ضمآناً بِثَغْرِكْ
!وطعِمْتُ الحُبَّ حلوى في لَمَاكِ ... وشربتُ الضوء من جاماتَ سِحْرِكْ
ثم قثمنَا، وانحدرنا في الطريق ... مِثلَ مخمورَيْنِ لَجّا في الغبوق
!ضَمَّ صدرانا من الوجدِ حريق ... وثوى في ثغرها حُلْوُ الرحيق
مختار الوكيل
في الريف
للشاعر محمود غنيم
عشقوا الجمال الزائف المجلوبا ... وعشقتُ فيكَ جمالك الموهوبا
قدست فيك من الطبيعة سرها ... أنعم بشمسك مشرقاً وغروبا
ولقد نزلتك فادكرت طفولتي ... وتمائمي. طوبى لعهدك طوبى
زعموك مرعى للنبات. وليتهم ... زعموك مرعى للعقول خصيبا
فهي القرائح أنت مصدر وحيها ... كم بت تلهم شاعراً وخطيبا
حييتُ فيك الثابتين عقائداً ... والطاهرين سرائراً وقلوبا
والذاهبات إلى الحقول حواسراً ... يمشي العفاف أمامهن رقيبا
سلبت عذاراك الزهور جمالها ... فبكت تريد جمالها المسلوبا
كست الطبيعة وجه أرضك سندساً ... وحبت نسيمك إذ تضوع طيبا
بسط تظللها الغصون فأينما ... يممت خلت سرادقاً منصوبا
وحنت على الماء الجذوع كأنها ... أم تضم وليدها المحبوبا
وبدا النخيل غصونه فيروزج ... يحملن من صافي العقيق حبوبا
أرأيت عملاقاً عليه مظلة ... أو مارداً ملء القلوب مهوبا؟
يا رب ساقية لغير صبابة ... أنَّت وأجرت دمعها مسكوبا
وحمامة سمع الفؤاد هتافها ... فحسبته بين الضلوع مجيبا
والغيد تغمس في الغدير جرارها ... فيظل يضحك ملء فيه طروبا
سربان من بط وبيض خرّد ... يتباريان سباحة ووثوبا
وترى الجداول في الأصيل كأنها ... من فضة فيها النضار أذيبا
يا بدر أنت ابن القرى وأراك في ... ليل الحواضر إن طلعت غريبا
نشر السكون على القرى أعلامه ... فتكاد تسمع للفؤاد وجيبا
بدت الحياة هناك في ريعانها ... ولو أنها سارت تدب دبيبا
ولقد ينام القوم ملء العين في ... زمن يقض مضاجعاً وجنوبا
وهي السعادة كم أوت كوخاً وكم ... هجرت أشم من القصور رحيبا
قالوا الحضارة قلت أسفر وجهها ... وبدت محاسنها فكن عيوبا
ما ضر أهل الريف ألا يحفلوا ... بالطب أو لا يعرفوا (الميكروبا)
ضمنت سلامتهم سهولة عيشهم ... وصفا هواؤهمو فكان طبيبا
رضعوا رحيق السائمات ومادروا ... غير النمير وغيره مشروبا
وسرى شعاع الشمس في أبدانهم ... فجرى بأوجههم دماً مشبوبا
شمس القرى كست الوجوه نضارة ... أرأيت وجهاً في القرى مخضوبا؟
سر في الحقول تر الرياضة عندهم ... فناً. وخطاً عندنا مكتوبا
أكبرت في القروي صحة عزمه ... وحسبته في صبره أيوبا
ورأيت طيب النفس فيه سجية ... ووداده سهل المنال قريبا

فيه ترى الخلق الصريح ولا ترى ... ضحك النواجذ بالخديعة شيبا
أنا لا أقول: تشينه أميَّة ... كن خيِّراً لا كاتباً وحسيبا
كم ضل من أهل الحواضر قارئ ... فاغتال أعراضاً وشق جيوبا
في الريف فتيان تسيل جباههم ... عرقاً فيصبح لؤلؤاً مثقوبا
لا فتية مرد بأيد بضة ... في كل يوم يلبسون قشيبا
بذلوا لمصر فوق ما في وسعهم ... ورضوا بما دون الكفاف نصيبا

محمود غنيم

العلوم

البراكين

بقلم نعيم علي راغب

دبلوم عال في الجغرافيا

هي ظاهرة من أهم الظواهر التي تدل على حرارة الأرض الباطنية. وأنه لمن المدهش حقاً أن نجد حتى الآن وبين مدرسي الجغرافية من يخطئ في تعريف هذه الظاهرة، ولذلك سأبدأ بحثي بتعريف البركان ووصف أجزائه بالتفصيل، ثم أختتمه ببيان الغلطات الشائعة في تعريف البركان ووصفه:

البركان عبارة عن شق يصل باطن الأرض بظاهرها، فهو بمثابة قصبة تخرج عن طريقها المواد المنصهرة من باطن الأرض إلى سطحها إذا كان البركان ثائراً. فإذا ما همد لسبب ما وخمدت ثورته سدت القصبة إما بتجمد المواد المنصهرة فيها، أو تجمع المواد المفتتة بها.

أجزاء البركان

يتكون البركان عادة من أقسام ثلاثة هي: -

1 - القصبة واسطة الاتصال بين باطن الأرض وسطحها. تخرج منها المواد المنصهرة ومقذوفات البركان وهذه القصبة تظل مفتوحة ما دام البركان مستمراً في ثورانه حتى إذا ما سكنت ثورته أو خمدت تجمدت فيها المواد الذائبة وتراكمت في الفتحة الصخور والأحجار فتنسد.

2 - الحوض تجويف يقع في نهاية القصبة البركانية يختلف في اتساعه تبعاً لقوة ثوران البركان. ففي البراكين الصغيرة يصغر مقدار قطر الحوض كما في بركان كوتابكس وفزياما.

3 - المخروط عبارة عن تراكم المقذوفات على جوانب الفتحة أو القصبة. والمخاريط على أنواع فهي إما لابية كمخروط بركان ترابية كما في بركان (الواقع على الساحل الغربي لجمهورية بيرو) أو أن يكون المخروط جامعاً بين النوعين وهذا شائع الوجود. وقد تتجمد المواد المنصهرة هنا بين الطبقات الترابية والحجرية وتكون عروقاً صلبة يطلق

عليها اسم السدود أما ارتفاع المخروط البركاني فيختلف باختلاف قوة البركان وقد يبلغ ارتفاعاً كبيراً: فمخروط فيزوف يبلغ ارتفاعه 4000 قدم واتنا11000 وكوتابكس 18876.

ثوران البركان

إذا ما ثار البركان جمع الشياطين معه ليقوموا سوياً بعملية الهدم والتخريب فيقذف من فوهته بالحمم ويلقي في الجو بالصخور مكوناً سيلاً من مواد منصهرة مخربة ينحدر على المدن والقرى القريبة ليدمرها. ينحدر إليها ببطء حقيقة ولكنه ينحدر بلا تردد.

ويسمع للبركان الهائج دمدمة تصم الآذان وينتشر مع الثوران دخان يعمي العيون، فتذبل الأزاهير وتتحطم الأشجار، وتعود الأماكن التي كانت كالجنان جحيماً ثارت فيه الشياطين، ويغدو الجو الذي كان عطراً بالأريج خانقاً لا يحتمله الصدر ولا مجال للتنفس فيه.

ويغلب أن يحدث الثوران البركاني بعد مقدمات تسبقه بدقائق معدودات لوحظ منها: -

أ - ارتفاع صوت كصوت الرعد يرتفع منقطعاً لكنه لا يلبث حتى يزداد شدة فتصحبه هزات أرضية شديدة تتعاقب بسرعة كبيرة.

ب - انخفاض مستوى الماء في الآبار المجاورة وذلك ناشئ من تسرب المياه في الشقوق الحادثة في باطن الأرض.

ولو أنه قد يثور البركان دون إنذار سابق كما حدث في بركان فيزوف عام 1853 ميلادية. ويجب أن لا نظن أن البركان إذا ثار اندفعت منه المواد المنصهرة دفعة واحدة فهذا غير حقيقي لأن للمقذوفات البركانية ترتيباً يقرب من الترتيب التالي حين الثوران:

1 - يبدأ الثوران البركاني بخروج الأبخرة والغازات قاذفة معها أثناء خروجها أتربة كثيرة وفتات الصخور التي كان قد سبق أن تجمدت في فوهة البركان. ويعلو في الجو إلى ارتفاعات عظيمة بخار الماء المتصاعد وما معه من الغازات الأخرى (بلغ ارتفاعه في بركان كركاتو 17 ميلاً) وعلى أثر ارتفاع الأبخرة المائية إلى هذه الارتفاعات العظيمة تتكاثف وتنهمر على شكل أمطار غزيرة تمتزج بالأتربة الكثيرة فتكون أنهاراً طينية

2 - يتلو ذلك الأتربة والأحجار المفتتة التي تندفع على أثر البخار والغازات وتنشأ عن انفجار الصمامات البركانية والتصدع الناشئ في الجوانب الداخلية للمخروط بفعل الاضطرابات البركانية وقد ميزوا بين أنواع مقذوفات الدور الثاني بالنسبة للحجم فهناك

أ - التراب البركاني وهو عبارة عن فتات رفيع يتراوح حجمه بين حبة الرمل والدقيق.

ب - القنابل البركانية وهي عبارة عن كتل حجرية مستديرة أو بيضاوية أصلها صخر منصهر قذفها البركان وهي في حالة السيولة فتجمدت واستدارت أثناء وجودها في الهواء وتكون مسامية غالباً.

جـ - وهي كتل لابية الأصل تخرج من البركان جامدة.

3 - يأتي بعد ذلك خروج المواد المنصهرة وهي ما يطلق عليها اسم اللابة من القصبة المركزية أو من الفتحات الجانبية. وهي آخر ما يقذفه البركان، وبخروجها يتعين هدوء الاضطرابات البركانية. وهذه تخرج في درجة حرارة عالية ثم تبرد تدريجاً بتعرضها للجو الخارجي، ويقتم لونها إذا ما بردت كما أنها عندما تتجمد تصير كثيرة الثقوب.

وتختلف سرعة سير المادة اللابية باختلاف درجة سيولتها وانصهارها كذلك تبعاً لانحدار الأرض ولذلك تكون سرعتها في المبدأ كبيرة نسبياً تقل تدريجاً كلما بعدت عن فوهة البركان. وقد يحدث أن تحتفظ هذه الأنهار المكونة من المادة اللابية بسيولتها لمسافات طويلة فمثلاً في سنة 1783م ثار بركان في جزيرة الجليد خرجت منه مقادير عظيمة من المواد المنصهرة ملأت مجاري الأنهار والبحيرات والفتحات المجاورة لمكان البركان لمسافات كبيرة فبلغ امتدادها في إحدى هذه الجهات 28 ميلاً وفي الأخرى 50 ميلاً وارتفاعها 100 قدم وعرضها 15 ميلاً. وليتصور القارئ الكريم معي بعد ذلك مجرى بهذه المقاييس مكوناً من مواد منصهرة تشع حرارة وتصعد أبخرة وغازات خانقة.

ومما يدل على عظم مساحة الأراضي التي كانت تغمرها المواد اللابية المنصهرة ما هو مشاهد الآن من وجود مساحات كبيرة على الأرض، طبيعة تكوينها لابية تكسوها مادة لابية إلى أعماق كبيرة خرجت من باطن الأرض في عصور جيولوجية حديثة. أشهرها هضبة الدكن وكولومبيا والحبشة.

ويميز عند ذكر كلمة بركان بين ستة أنواع للبراكين.

1 - البراكين الثائرة وهي دائمة الثوران كسترامبولي، ومتقطعة الثوران كفيزوف.

2 - البراكين الساكنة وهي التي تهدأ لمدة من الزمن ثم لا تلبث أن تثور فتهدم ما يقوم بجانبها من مدن أو مساكن كما حدث في فيزوف سنة 69م.

3 - البراكين المتآكلة أو ما يطلق عليها اسم نسبة إلى بركان بهذا الاسم سكن وأثرت عليه عوامل التعرف فتآكل مخروطه ولم يبق منه إلا فتحة تخرج منها الغازات.

4 - البراكين الهامدة أو المائية وهي ما ينعدم فيها كل أثر للثوران ولا يبقى منها إلا المخاريط على شكل تلول كتلك التي وجدت قرب أسوان ومثل براكين أوفيرون في هضبة وسط فرنسا.

5 - البراكين الطينية وهي نوع تخرج منه كميات كبيرة من الماء مختلطة بالأتربة فيسيل الوحل على الجانبين مكوناً أنهاراً طينية، وتوجد هذه الظاهرة في كثير من المناطق البركانية وتعين آخر مظهر للثوران البركاني مثل براكين صقلية ونيوزلند وباكو وجنوب بلوخستان.

6 - البراكين المائية. وفيها لا يخرج سوى الماء كما في الينابيع الحارة والنافورات.

أسباب البراكين

سبق لي القول في العدد 53 من هذه المجلة الغراء الصادر بتأريخ 9 يوليو الماضي، أن القشرة الظاهرة للأرض عرضة لعامل الانكماش بفعل انخفاض حرارة الباطن وانكماش الجزء الداخلي فتلتوي القشرة الظاهرية لكي تتلبس على الباطن الذي نقص حجمه. وقد يكون الالتواء الحادث من الانكماش في بعض الجهات أكثر منه في جهات أخرى، ولذلك فإنه حيث ينظم الالتواء تنكسر الطبقات الأرضية، وتشقق مكونة مناطق ضعف في القشرة الأرضية

ولما كانت مناطق البراكين في توزيعها على العالم تتبع هذه المناطق الضعيفة فإننا لا نشك لحظة في أن السبب الرئيسي لحدوث البراكين هو تكوين هذه الشقوق أو العيوب التي تستفيد من وجودها المقذوفات البركانية والمواد المنصهرة، فتندفع خلالها، وتخرج منها إلى السطح الخارجي.

على أن هذا السبب يحتاج لبعض التفسير، فهناك قوة البركان القاذفة، وتكرار الثوران بين كل آونة وأخرى، وهذان يمكن تفسيرهما بوجود الشقوق البركانية مجاورة للمساحة المائية العظيمة، ولذلك فإن الماء المتسرب إلى الباطن يتحول إلى بخار بتأثير الحرارة، يجتمع مع الغازات الأخرى التي في الباطن، ويكوّن منها قوة دافعة عظيمة تقذف بالمواد المنصهرة

وغيرها إلى السطح.

هذا وهناك من يرى أن المادة المنصهرة التي تخرج في نهاية الثوران مصدرها (جيوب) في أسفل القشرة الظاهرة، وتوجد هذه بكثرة في الجهات المرتفعة حيث يكون الضغط قليلاً.

غلطات شائعة

لا زلت حتى الآن، وأنا أكتب هذا المقال، أذكر كيف كنا نحفظ تعريف البركان بأنه (جبل يخرج ناراً ودخاناً) ولعلي لا أكون مبالغاً إذا قلت إن هناك اليوم من لا يعرف إلا هذا التعريف للبركان.

البركان ليس جبلاً. وقد جاء في تعريفي الأول للبركان، أنه فتحة أو شق في ظاهر الأرض يوصل بينه وبين الباطن، وليس الشكل المخروطي الذي هو حقيقة شبيه بالتل أو الجبل إلا المقذوفات والأتربة التي قذفها البركان، فتساقطت وانحدرت حول الفتحة البركانية مكونة هذا الشكل المخروطي.

وليس البركان جبل نار. إذ أن ذلك الذي يراه الناس فيحسبونه ناراً ليس إلا خطأ أو خداعاً نظرياً لأن انعكاس لون باطن البركان المتوهج على الغازات المتصاعدة يوحي إلى الناظر أن المتصاعد نار. ويجب أن نعرف أن هناك بين النار والتوهج فرقاً عظيماً فقد تكون قطعة من الحديد تتوهج احمراراً من الحرارة ولكن لا يصلح أن نطلق عليها اسم نار.

وهناك من يقول بأن البركان يخرج دخاناً وليس هذا القول صحيحاً، لأن ذلك الذي يطلق عليه اسم الدخان ما هو في الحقيقة إلا بخار الماء المتصاعد من باطن الأرض بفعل حرارتها عند ثوران البركان. كذلك لا يشترط في ثوران البركان أن يحدث الانفجار من أعلى المخروط أو بمعنى آخر أن تكون الفوهة في أعلى المخروط، لأنه يحدث كثيراً أن تكون الفتحة جانبية وأن يكون للبركان الواحد أكثر من فوهة واحدة.

ويحسن بي الآن قد انتهيت من الكلام على البراكين أن أذكر ظاهرة طبيعية تقترن بثورانها، وهي الاهتزاز الذي يحدث في المنطقة المحيطة بالبركان الثائر، وهذه يطلق عليها اسم الزلزال البركاني، وهذا النوع من الزلزال ولو أنه محلي إلا أنه عنيف، وقد يحدث تلفاً وأضراراً عظيمة كما حدث في زلزال جزيرة (في خليج نابلي) سنة 1388 الذي أهلك ألفي نسمة.

نعيم علي راغب

دبلوم المعلمين العليا قسم الجغرافيا

القصص

القابلة

للأستاذ محمود خيرت

تقيم تلك القابلة مدام دوبوا في ركن عند ملتقى شارع سان لازاك وشارع روشفوكولد

حيث كتبت اسمها على باب منزلها بخط كبير.
وهذا المنزل أو تلك (العيادة) التي لا تقتصر في اريس على مساعدة الحاملات عند وضعهن. . . لا تجرؤ الفقيرات على الدنوّ منها، لأن مدام دوبوا تشتطّ في الأجر فلا تستقبل فيها إلا طبقة السيدات الغنية التي ترى في الحمل عبئاً ثقيلاً.
وفي ذات يوم نزلت من العربة أمام تلك الدار فتاة رشيقة ثم صعدت إلى الطابق الثاني. وبعد أن استقبلتها الخادمة وأدخلتها عند سيدتها أخذت هذه تطيل النظر فيها كأنها تستطلع أمرها، لأن الزائرة كانت مع حسنها وصباها يشق جبينها من وقت لآخر خط ينم عن تفكيرها وتكتّمها حالتها.
على أن القابلة لم يخْفَ عليها من أول نظرة أن هذه الفتاة حامل، ولكنها مع ذلك تجاهلت أمرها، وسألتها عن سبب زيارتها وقد عادت إليها حالتها العصبية السالفة:
(لقد اقتضى مجيئي إليك كثيراً من الشجاعة يا سيدتي لأنني لم يعد في وسعي الأحجام بعد ذلك الصبر الطويل الذي غلبني. بل إنني لا أدري كيف قدرت على كتمان أمري إلى الآن. لذلك قصدتك وأنا أرجو السلامة على يديك فما أنا بذات بعل ولا أنا مخطوبة، حتى إنني لأخشى أن يفتضح أمري فيلحقني العار ويلحق بأهلي)
وعند ذلك عادت القابلة تسألها: لماذا لم توحي لأمك بذلك فلعلها كانت تهيئ لك أسباب السفر إلى مكان قصي تضعين فيه حملك. ولكنها كانت يتيمة من أمها، وما كانت لتجد شجاعة على مكاشفة أبيها بأمرها وإن كان يحبها ويُعزّها خشية أن تنغص حياته وتكدر صفوه.
وقد علمت منها القابلة أن عشيقها مات قبل أن تشعر بهذا الحمل الذي مضى عليه أربعة شهور، فلامتها على إهمالها شأن نفسها إلى تلك اللحظة قائلة إنها لو كانت قصدتها قبل ذلك فربما كانت وُفّقت إلى الأخذ بيدها. أما بعد هذه المدة الطويلة . . .
وعند ذلك سقطت الفتاة باكية عند قدميها تستصرخها وتتوسل إليها صائحة: أنقذيني يا سيدتي فإنك قديرة على ذلك. على أنني ما قصدتك إلا بعد أن هدتني إليك إحدى صاحباتي.
أما القابلة فتجاهلت تلك الصاحبة قائلة إنها ما أقدمت مرة على عمل ممقوت كهذا، فأخذت الفتاة تنوح وتستعطفها وتنشد مروءتها إن لم يكن إكراماً لتلك الصاحبة فشفقةً بها، ثم قالت إنني لن أبخل بما تطلبين، وأقسم لك أيضاً أنني لا أخرج من هنا إلا صمّاء فلن يعرف أحد شيئاً من أمرك وأمري.
ولقد هدّأت هذه الأقوال من روع القابلة سيما بعد أن اطمأنت على أجرها، ولذلك قالت لها إني أعرف هنا جرّاحاً شهيراً في وسعه أن يخلصك من هذا الحمل بغير عناء ما دمت تدفعين له ما يطلب، ولكنه لا يقبل أقل من ثلاثة آلاف فرنك. فلما قبلت المسكينة أوصتها بالعودة إليها في صباح اليوم التالي.
وفي الموعد وقفت عربة الدكتور تيسو عند باب منزل خلوي كان يعدّه لعملياته الجراحية المحرمة. وكان قد علم من القابلة بأمر هذه الفتاة وأنها جاءت كما أوصتها، وناولته الأجر الذي اتفقت معها عليه. وعند ذلك سألها ما إذا كانت قد عرفت من هي أو من هم أهلها، فقالت له إنها لم تشأ أن تذكر لها شيئاً من ذلك، ولكنها سلمتها خطاباً أوصتها أن لا تفضه إلا إذا كتب لها أن تموت لا قدر الله.
وعند ذلك هز الطبيب كتفيه ثم قصد إلى معمله قائلاً، إذهبي أنت فخدريها بينما أغسل أنا يدي وأعقم سلاحي.
وبعد لحظة كان الطبيب بغرفة العملية، والفتاة نائمة عارية إلا أن وجهها كان مختفياً تحت حجاب المخدر.
وعند ذلك شرع في عمله بغير شفقة على هذا الشباب المنطرح أمامه، ولكنه فوجئ بمضاعفاتأخطأ حسابها، وقطع القطن تتساقط من يديه فوق الأرض وقد صبغها الدم بينما القابلة تراقب تأثير المخدّر في ضربات القلب، وكان قد مضى على بدء العملية عشرون دقيقة. غير أنه صاح فجأة: ما هذا؟ لقد ثقبت الجدار. فصرخت شريكته، إذن هلكنا.
ولقد اضطر الطبيب إلى اتباع آخر وسيلة كانت أمله الأخير فأخذ يقتطع من لحم الفتاة، والغضب والاضطراب باديان على وجهه ولكن القابلة صاحت فجأة صيحة مزعجة: لقد

وقف قلبها. ماذا تعمل الآن. وكيف ندفع عنا شر هذه الخاتمة المشئومة. ثم أخذت تستر جسم الفتاة بغير أن تنزع عن وجهها ذلك القناع.
أما هو فبعد أن غسل يديه كما يغسل القاتل يديه من دم قتيله صاح: كيف حصل هذا؟ وما عسى أن نفعل بعد ذلك؟ لقد قضى الآن علي وعلى اسمي وشهرتي، وابنتي التي تعلم أنني رجل شريف ماذا يكون الآن حكمها عليّ؟ ثم تحقيق النيابة ثم محكمة الجنايات. . اسمعي يا دوبو: قولي إذا سئلت أنها لم تكن حاملاً وأنها. . ولكن القابلة أفهمته أنه لن يصدّقها أحد ثم ذكرته بأهلها الذين قد لا يسكتون أيضاً. وعند ذلك تضاعف يأسه وتذكر ذلك الخطاب الذي نوهت له به فطلبه منها لعله يهتدي منه إلى مكان أهل الفتاة، وربما إذا غمرهم بالمال اكتفوا ووقفوا عن الشكوى.
ولكن ما كادت تقع عيناه عليه وأصابعه ترتجف وعرقه يتصبب حتى صرخ صرخة دوت لها الغرفة ثم أسرع فنزع ذلك القناع، فإذا بتلك الفتاة ليزا ابنته!
ولا تسل بعد ذلك عما حلَّ به فقد أخذ يلطم خديه ويدق صدره ويدفع رأسه دفعاً شديداً في الحائط كمن جُنّ. وأخيراً جحظت عيناه فأخذ مبضعاً قريباً منه وغيبه في صدره حيث سقط ميتاً بعد أن جر ابنته إلى جانبه عند سقوطه.
محمود خيرت
سحر المرأة
بقلم محمد عبد الحميد
وأنت يا أمين ألا تتزوج؟
. . .أنا؟ لا. لن
بهذا الرد القاطع أجابني (أمين) يوم سألته وكنا في رفقة من الزملاء، نقطع الوقت بالحديث، وأغلب ما يدور حديث الشباب حول المرأة.
كان ذلك في أوائل سنة 1930، وكان (أمين) معاوناً في وزارة الأوقاف، مات والده قبل أن يبدأ مرحلة الدراسة الثانوية، وهو ما يزال صبياً لم تثقله الحياة بهمّ أو تصبه بكارثة، فشاء أو شاءت له الظروف أن يختصر طريق التعليم، فلم يكد يقطع شهوراً في مدرسة مشتهر الزراعية، حتى لحقت أمه بأبيه.
قضى أمين زهرة حياته محروماً من عطف أبيه وحنان أمه، لم تكد تتفتح نفسه، ويلمع بريق الحياة في عينيه، حتى ألفى نفسه وحيداً، لا تضمه إلى صدرها أم، ولا يتولاه بالإرشاد أب. لم ينسكب في نفسه هذا النور الذي تشعه عيون الأمهات حناناً ورحمة، وخرج إلى الحياة بقلب صلب لم تصهره قبلات الأم الحارة البريئة، ونفس جافة لم ترفقها شفقة الوالد ورعايته. كذلك أخوته الثلاثة قطعت الحياة بينهم وبينه، فلم يلمس حنان الأخوة، ذهب أولهم في بعثة إلى أوروبا لدراسة الطب، والتحق الثاني والثالث قبل وفاة أبيهما بوظائف الحكومة، وعاش كل منهما مع زوجته في منزل وحده.
وكذلك عاش أمين وحيداً أكسبه جفاف حياته خشونة لم تكن تروق في أعين الذين يحتكون به، فكان صريحاً جافاً، لا يفكر في أحد من الناس، ولا يفكر في الاتصال به أحد من الناس.
غير أنه كان يضم في كيانه قلباً حياً نائماً لم يتح له أن يثور، فرقت بيننا ظروف العمل، فنقل إلى مأمورية الأوقاف في طنطا، وهناك ولأول مرة بعد وفاة والديه اتصل برجل من أهله. فقد كان له في هذه المدينة (خال) لم يتصل به منذ صباه. زار منزل خاله، فرحب به أهل الدار: خاله وزوجته وابنه وابنته (زينب)، وهي عذراء، أتمت السادسة عشرة من عمرها.
مضت الأيام وتوالت الشهور دون أن يعنى كثيراً بزيارة أقاربه حتى أحسّ يوماً بالمرض يسري في جسمه، وإذا هي الحمى، وإذا هو مضطر أن يستريح كما أشار عليه الطبيب، ولكن أين يجد الراحة وهو (أعزب) ليس في منزله من يعنى به أو يهتم بأمره، وهو مضني لا يكاد يستطيع الوقوف على قدميه. إذن لتكن دار خاله ملجأه اليوم في مرضه، لعله يجد فيها بعض الراحة مما يعاني.
لقيه أهله في عطف، وأحاطوه بقلوبهم، ووقفت إلى جوار سريره (زينب) لا تكاد تخرج من بين شفتيه كلمة حتى تسعفه بما يبغي، وتقوم له بما يحتاج، وما تكاد الساعة تدق حتى تسرع إلى الدواء تسكب له منه بالقدر الذي أشار به الطبيب، وهي ما تفتأ بين الحين والحين، تضع يدها على جبينه تجس بها حرارته. كانت تقضي النهار إلى جواره،

وتقطع الليل أو أغلبه حول سريره، ما يكاد يلمع ضوء الفجر حتى تهب إليه تسأله في كلمات رقيقة عذبة، ألم يشعر بتحسن؟ ألا يزال يمقت ماء الشعير؟ أتستطيع أن تحضر له مقداراً يغذي جسمه وتستريح به معدته؟ وهي إلى جانب هذا لا تنقطع كلما صحا من نومه المتقطع تعمل على راحته وتسعى جهدها لتغتصب الابتسامة من بين شفتيه اغتصاباً، واشتدت به العلة يوماً فارتفعت درجة حرارته، وأغمض عينيه، ووقف حوله أهله يبتهلون إلى الله من أجله، حتى إذا كان الليل وهدأت الحياة، واستسلم الجميع للنوم، أفاق أمين قليلاً وارتفع جفن عينه المغمض فإذا هو يواجه (زينب) إلى جواره تنظر إليه بعين قد التهبت من البكاء.

ماذا؟ هل تبكين؟ ثم انهمرت من عينه دمعة لعلها أول دمعة تفيض بها عينه منذ وفاة والدته.

توالت الأيام وزال عن (أمين) ما كان قد أقعده فعاد إلى عمله يستعيد مع الأيام الطويلة بعض الذي فقده.

لم يكن يعيش مع أقاربه في مدينة واحدة، بل كان يعمل في (منطقة) من مناطق الأوقاف القريبة من طنطا فلم يكد يقطع اليوم الأول في مقر عمله حتى أحس في أعماق نفسه شعوراً قوياً يدفعه إلى العودة.

إنه يحن إلى طنطا، بل هو يحن إلى منزل أهله. طغى على قلبه شعور قوي لم يكن يدركه

قبل اليوم يدفعه إلى العودة.

إلى أين؟ إلى منزل أقاربك. ولكن لماذا؟ لقد شفيت ولم تعد لي بالعودة حاجة، وأنا لم أقض بعيداً عنهم يوماً كاملاً؟ لقد كانت هناك حاجة قوية تدفعه، وشعور جبار يغريه.

نام ليلته الأولى بعد تفكير طويل لم يكد يتبينها واضحة جلية، فإذا هو يقطع الليل في أحلام متقطعة رأى فيها أشباحاً بيضاء رقيقة تدور حوله، فلما حاول أن يتعرفها لم تتمثل له غير (زينب).

زينب العذراء الحلوة الفاتنة، زينب الجميلة الساحرة، هذه عيونها تلمع بفتنة الحياة، وهذا قوامها البديع، وهذه يدها الرقيقة تمتد إليه في دلال ولين، وهذا صوتها العذب يتدافع إلى أذنيه حلواً سائغاً.

هب من نومه مع الصباح الباكر فألفى السماء ساكنة صافية وهذه الأشجار لا تزال تلمع بقطرات الندى، والقرية ساكنة إلا من أصوات أفراد قلائل يصل إليه وقع أقدامهم وهم في طريقهم إلى المسجد يؤدون فريضة الصباح، غير أنه يشعر بوحشة ويحس بالهم والحاجة. . .

لا بد أن يكتب إلى خاله يشكره على عنايته به في مرضه، فإذا هو يختتم خطابه في حرارة لم يكن يحسها قبل اليوم، وإذا هو يحاول أن يختص زينب بتحية يقنع نفسه أنها ستدركها رغم أنها صادرة للجميع.

لقد أحب أمين.! أمين الجامد الصلب قد تفجر قلبه فإذا اللهب يكاد يحرقه، وإذا العاصفة التي ثارت في أعماقه تكاد تسحقه، فإذا هو يعود إلى منزل أقاربه، وإذا هذه الزيارة تتكرر في الاسبوع الواحد مرات، وإذا هو لا يصمد لهذه الثورة المجتاحة.

لقد نفذت العاطفة الحارة إلى قلبه فألهبته وصهر العطف نفسه فإذا هو يرى في الحياة ألواناً جديدة، هو يهواها ويفني نفسه في سبيلها. لقد لمسته المرأة بالعصا السحرية فانبثق النور في أعماقه، فإذا هو مفتون.

كانت الأيام قد توالت، وكنا على وشك أن نختتم عام 1932 فإذا أنا أتسلم منه كتاباً لم يزد فيه على كلمات:

عزيزي محمد:

لقد أدركت سر الحياة لأول مرة، في عيني المرأة، سأتزوج.

أخوك. أمين

لقيته بالأمس فإذا هو كالعصفور يكاد يطير. ينطلق في حديثه فإذا هو ينساب في رقة وعذوبة، وينقطع عنه، فإذا ابتسامة مشرقة تنشر على صفحة وجهه نوراً لامعاً جذاباً.

أتذكر يا أمين يوم سألتك عن الزواج، فأجبت في لهجة الواثق أنك لن تتزوج؟ لا يصديقي. لقد كانت الحياة إذ ذاك قاحلة جدباء. هيا هيا نشتري معاً (تربية الطفل) لزوجتي تقطع به الوقت، وتخفف به عن نفسها عبء الحمل، ونشتري لعبة مما أعده

للمستقبل لابنتي المرتقبة (كامليا)
محمد عبد الحميد
سافو - 4
لأوجييه اميل
ترجمة الأستاذ محمود خيرت
المنظر الثاني
غرفة بدار حنا بها دولاب ومائدة فوقها شمعة موقدة وحنا وحده ينزع من الدولاب) (ملابسه بيدين مرتجفتين ويضعها في حقيبة
حنا - (كارهاً الحياة) نعم أفر من وجه هذه المدينة فلعلي لا أعود أشعر بآلامها وأقصد إلى قريتي فلعل نسميها ينسيني مرارة هذا الحلم.
(يعثر في الدولاب على علبة من صنع اليابان فيتأملها)
علبتها. والحفيظة على ذكرياتها. لم تعيدين لخاطري أيتها العلبة صورة ذلك الماضي القذر (تظهر فنى)
فنى - (جازعة وهي تراه يستعد للرحيل) حنا. لا ترحل.
حنا - قضى الأمر
فنى - لقد كذبوا عليك حسداً. ثم كيف أصغيت إليهم وكيف صدقتهم.
حنا - سافو. (متعمداً لكي تفهم أنه يعلم ما تخفي من أمرها) يا لها من خيانة. أنت التي أبحتك قلبي، واتخذتك معبودي تقدمين على خيانتي. أهكذا في وسع امرأة أن تعبث بنفس هادئة مطمئنة وأن تحطم قلباً لم ينغمس في إثم. ليتك تشعرين بما أشعر به الآن من مرير الألم. ولكني أرحل فلعلي في وحدتي أنسى وأنا أستنزل غضب الله ولعنته عليك. لقد بلغ من جهلي أن أكرمتك واتخذتك امرأتي، حتى انكشف لعيني ماضيك الذي سترته عني. وبلغ من نفاقك أن أعميتني فتمكن سلطانك من إيماني، ولكن الحمد لله فقد نضب الآن معين حبي ووقف من دونك شبح كراهيتي ومقتي. فعودي إلى ما كنت سافو الخليلة العاهرة الفاجرة.
فنى - (وقد صدعها الألم والفضيحة) هب كل ما سمعت صحيحاً أفنسيت أن المصادفة هي التي جمعتني بك. ثم ألم تقم هذه المصادفة سداً بين سافو الغابرة وفنى الحاضرة. أقسم لك
أن سافو ماتت من يوم أن عرفت فنى.
حنا - كما أقسمت لغيري
فنى أنا ما أحببت سواك يا حنا
حنا - تكذبين
فنى - (مضعضعة) بل إني لصادقة وإني لأعبدك.
حنا - إذن لم احتفظت بهذه العلبة؟
فنى - (مفكرة) أو علمت بها؟
حنا - (مشيراً إلى الدولاب) إنها لا تزال هنا. أنظري
فنى - ولكنها لا تحوي شيئاً. . .
حنا - أبداً؟ (يتناول العلبة بين يديه ليفتحها)
فنى - (بصوت خائر خافت) ما هذا الجنون
حنا - إنها تحوي الشواهد الناطقة بفجورك
فنى - مهما جرعتني من القسوة فما زلت أحبك
حنا - (بخشونة) أين مفتاحها؟
فنى - لا أدري
حنا - (مهتاجاً يعالج فتحها بالقوة) سأعرف كيف أحتال على فتحها.
فنى - (تحاول منعه ويكون قد فتحها) ولكنك تعالج النار بالنار.
حنا - ها قد أفلحت. أنظري. إنها هنا مكدسة منكمشة خشية أن يفوح نتن عارها.
فنى - أحرقها إن شئت فهي لك.
حنا - لي أنا يا سافو. . .
فنى - لم أعد سافو يا حنا (تتناول بيد مرتجفة بعض رسائل سقطت على الأرض) نعم أحرقها أو فمزقها لتصدق أنني أصبحت لك وحدك (بلطف) بالله لا تجر خلف شكوكك

ودع ما أقاسي يتصاعد في دخانها. إنها ما كانت غير سحب بعيدة فلا تحجب الآن بها سماء طهارتي.
حنا - (ببطء وألم) كنت أود أن أقف على ما فيها.
فنى - إذن أنت تريد أن يصل الهم إلى قرار نفسي (تقترب وإحدى يديها إلى ظهرها حيث تمسح بيدها اليمنى خده كما كانت مع كاوودال)
حنا - (منفجراً) إنك بهذه الحركة تعيدين إلى ذهني صورة ما اعتدته مع سيدك كاوودال (تأخذ بحالة عصبية لفافة وتشعلها).
وعلى هذه الصورة أيضاً كنت تدخنين لفافاتك معهم. إنك لا زلت تكلمينني بلغة المصنع وأسلوب العاهرات حتى كأني بين عشاقك أسمعهم وأراهم.
فنى - (تلقي اللفافة بغضب وتفركها بقدمها) ما أقساك.
حنا - كل هذه الرسائل على ما بها من صفرة القدم وتأثير الزمن . . .
فنى - (تقطع حديثه) دعني أنا أشعل النار فيها.
حنا - بعد أن أتبين ما بها (يقرأ إحداها): (ليتك يا سافو تعلمين كم أحرقت من دمي لأجري الحياة في المرمر الذي نعم بتصوير جسمك الغض. . .)
فنى - (معترضة) بالله عليك (تخطفها وتحرقها)
حنا - (يتناول كتاباً آخر) إنه شعر هذه المرة.
سافو لقد ذقت الهوى ... من مقلتيك فذقت أنسا
لكن بُعدك شفني ... وجنى علي فكيف أنسى
ماذا فعلت معهم حتى تركتهم على هذه الحال (متأثراً).
فنى - (حزينة) ليتني أدري.
حنا - (يقرأ رسالة أخرى ورقها وردي اللون): أنا بانتظارك الليلة في دار التمثيل (تطرق فنى خجلاً. أما هو فيحرقها ولكنه يحس كأن سهماً مسموماً أصابه حين يقع بصره على تخطيط يصورها عارية)
وهذا الرسم؟ إذن كانوا يصورونك عارية (ثم يقرأ ما هو مكتوب تحته): (حبيبتي سافو. . .)
فنى (متحببة إليه) إنني ما استبقيته إلا لشهرة مصوره.
حنا - (يلقيه إليها) احتفظي به.
فنى - (ترده إليه) بل احرقه واحرق كل ما بقى معه (بحزن) كفى يا حنا وارحم ألمي وليتك تعلم كيف نشأت، فلقد كنت وأنا طفلة على ما يُروى زهرة القرية (يشتد حزنها) أمرح في الطرقات وقد تيتمت من أمي وربما أيضاً من أبي، وما كان يعود إلا آخر الليل يترنّح من السُكر، وكان شديد القسوة معي حتى إذا ما بلغت سن الخامسة عشرة، وأنا أجمل فتيات الناحية فررت إلى هذا المصنع. أما أولئك الفنانون فانتهزوا فرصة احتياجي وبؤسي فعبثوا بطهارتي، ولكنهم مع ذلك لم يهتدوا إلى طريق قلبي ولا تركوا في نفسي من الأثر غير الحقد واللعنة، فهذا القلب ما كان لهم يوماً ما فحطّمه إن شئت فانه لك.
حنا - وما هذه الرزمة المخبأة.
فنى - (تصرخ متألمة) لا إلا هذه يا حنا.
حنا - وما الفرق بينها وبين أخواتها.
فنى - حنا. دعني أحرقها. أتوسل إليك.
حنا - إنك تحيرينني.
فنى - قلت لك دعها (تحاول اختطافها فيتغلب عليها) إذن ليكن ما يكون.
حنا - (متهكماً) طابع السجن! (ينظر إلى الإمضاء) فرومان! فرومان المزور؟
فنى - بل فرومان القدير. أما التزوير فما يعيبه، وما دفعه إليه غير فقره.
حنا - (باحتقار) إنه مجرم.
فنى - (متلطفة به) بيبي.
حنا - (يستيقظ غضباً) هذه الكلمة كنت تداعبين بها أيضاً ذلك اللص.
فنى - ليكن، ولكن مالك به وأنا لك.
(يتبع)
محمود خيرت

الكتب
صلاح الدين الأيوبي
لمؤلفه الأستاذ محمد فريد أبو حديد
بقلم عبد الحميد حفني الشواربي
لجنة التأليف والترجمة والنشر، هي بلا ريب في مقدمة الجمعيات العلمية الحديثة، التي ساهمت - إلى حد كبير - في النهوض العلمي والإنتاج الفكري في الشرق العربي، الذي يقاسي فوق فقره المادي من أثر الاستعمار الأوروبي فقراً أشد فتكاً وأبعد خطراً، هو غزو اللغات الأجنبية له، فقامت هذه اللجنة في جهد الجبابرة، تنشر وتترجم وتؤلف بلسان عربي في مناح مختلفة في الفلسفة والعلوم والآداب والاجتماع.
والذي يحز في قلوبنا وينال من إحساسنا القومي، أن تنهض هذه الجمعية على أكتاف أفرادها، دون أن نمكن لها من مال الدولة أو الأمة بالقدر الكافي، أو ما يوازي على الأقل ما حصلت عليه الجمعيات العلمية الأجنبية مع ما فيها من مكمن الخطر التبشيري وما تحمله من نزعات الشر والكراهية لمصر والمصريين.
هذه الجمعيات قد منحت من أملاك الدولة، في الصميم من قلب المدينة وخير بقاعها، فضلاً عما تمدها به حكوماتها وشعوبها، بينما ترى مركز لجنة التأليف والترجمة والنشر، في ركن متواضع من أركان بيت ضج بالسكان، أو المرضى من الناس في شارع الساحة. هذا فضلاً عن حرمانها من امتيازات لو منحتها لدرت من أنواع الثقافات أفضلها وأعظمها قدراً.
وأذكر أن المرحوم ثروت باشا قد أشار إلى وجوب إصدار سلسلة معارف عامة تعين على ثقافة الشعب، فكانت هذه اللجنة هي أول من لبى أمنية وزير مصر الكبير.
وكان أستاذنا النابه (محمد فريد أبو حديد) أول من وقع اختيار اللجنة لرسالته كسلسلة معارف عامة في صلاح الدين الأيوبي. والمؤلف غني عن التعريف لولا ما تأخذنا به أصول التحليل والنقد. فهو أستاذ تخرج في المعلمين العليا، وفي مدرسة الحقوق المصرية، وتقلب في مناصب عدة في التعليم الثانوي، على أن هذه العناوين ليست كل شيء في
الرجل، فإن كثيرين قطعوا مراحل التعليم منفعلين لا فاعلين، ومروا بها مر امتحانات متأثرين لا مؤثرين، ولكن هذا الرجل وقد عاشرته عن كثب - تجد فيه الابن المصري البار الذي كلف نفسه حمل رسالة النهضة من وجهتين: أخلاقية وعلمية - ليؤديها إلى الناس في نفس كبيرة وجسم ضئيل.
وإذا كانت النفوس كباراً ... تعبت في مرادها الأجسام
أنظر إليه وهو يلقي عليك هذا السؤال في مؤلفه صلاح الدين ما الحياة؟ فانك لتستشف من جوابه على هذا السؤال ناحية أبية من نواحي النفس المصرية النادرة، أو قليلة العدد على الأقل، التي يغتبط بوجودها، بل ويفتقر إليها المجتمع المصري، وهاك جوابه: (أليست تلك الأنفاس التي تتردد في تلك الفترة المحتومة ما بين واجب البلاد وواجب الموت؟ ألا إنها فترة مملة مسئمة إذا لم يكن بها ما يهز النفوس).
ثم هاك كتابه وقد تناول بالبحث الشيق بطلاً من أبطال العالم الإسلامي تقف فيه على خير عصر من عصور التاريخ عانى من غشاوة الجهل والتعصب التي اكتنفت أوروبا في القرون الوسطى. وترى كذلك كيف تكون السياسة الحكيمة يمليها رجل الشرق فترتفع الحواجز وطلاسم الحياة التي بيننا وبين أية أمة بالغة ما بلغت من العظمة والسلطان، اسمعه يقول في تقدير صلاح الدين (والناس إذا تولى أمرهم عظيم تساموا إلى مستوى عظمته فأتوا بالعجب) وهاكم رجل الساعة مصطفى كمال مصداق لما ذهب إليه المؤلف الجليل. والكتاب في جملته وتفصيله حافز للهمم دافع للعزم الصادق في نفوس شباب طغت به مدنيات الاستعمار حتى ماع، وبهره سراب خلّب حتى هوى واستسلم إلا من عصم ربك، فبعث فينا من يعاني النظر في أمراضنا والبحث في وسائل علاجها.
ولولا مغالاة المؤلف في أسلوبه العلمي وتوخيه البحث على نمط مدرسي وهو يكتب للشعب، لكان مؤلفه قد بلغ الغاية وأوفى حتى انتهى إلى درجة الكمال. ولكم نشكره على جهده وما بذل في وسط كوسطنا المصري يعاني ذكرى مؤلمة لمجدنا السالف، ومحنة راهنة بسبب فقرنا العلمي.

قليوب البلد
عبد الحميد حفني الشواربي
يوم 11 يوليو سنة 1882
للدكتور محمود النشوي

استقبلت صباح اليوم وهو ينبلج عن عامل البريد يزدلف نحوي ويحمل بين أعطافه هدية ثمينة، بل منة خالدة من الأمير الأكبر (عمر باشا طوسون) تلك هي كتابه الذي طوق به جيد مصر وأسماه (يوم 11 يوليه سنة 1882) ولم أكد أتصفحه حتى ذكرت الأمير الأموي خالد بن يزيد بن معاوية مشرع الترجمة ومبتكرها في الأمة العربية وإبان فجر المدنية الإسلامية. ثم انتقلت بي الذاكرة إلى أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور وجالت في خيالي صورته وهو يهيب بالإمام مالك رضوان الله عليه أن يؤلف الموطأ فيأبى، ثم يرضى متأثراً بإلحاح المنصور. ثم يرسم له خطة التأليف حتى يقول إمام دار الهجرة لقد علمني المنصور التأليف.

ثم تذكرت الرشيد ومجالسه الأدبية وشعره الرقيق. وانتقل بي الخيال إلى المأمون وحدبه على العلماء وعلى العلم. وتفرده بكثير من مسائله ثم ذكرت قابوس بن وشكمير وشعره العالي الرصين، وعضد الدولة بن بويه، وسيف الدولة الحمداني، وأبا فراس بن عمه. وتلك الحلقة من الأدباء والشعراء والمؤلفين التي كانت تحف بهؤلاء الملوك والأمراء فتستمد منهم ومن مشاركتهم في الشعر والعلم روحاً تبعثها للأمة قوة ونهوضاً. ذكرت ذلك كله، وعهداً ساهم فيه الأمراءوالملوك في العلم. فكان عصر العلم وكان عصر النهوض. وعلمت أن مؤلفات الأمير هي تباشير الصباح، وبواكير النهضة العلمية في مصر وفي غير مصر.

وإنك لتواجهك الوطنية المخلصة في كل حرف من حروف كتاب الأمير الجليل حتى . . في اسم الكتاب، وفي مقدمته.

فاسم الكتاب يذكر باليوم المشؤوم. يوم الاحتلال. ومقدمته لا أصفها. بل أذكر فقرات من أولها. وأدعها توحي للقارئ بالغيرة على الوطن. وبالتفاني في حب مصر. فاستمع للأمير الجليل حين يقول.

يقبل علينا شهر يولية في كل سنة فيذكرنا باليوم الأسود يوم 11 يوليه ذلك اليوم) الذي

داست فيه إنكلترا المعاهدات الدولية وتعلقت بأوهى الأسباب. وضربت مدينة الإسكندرية فاقترفت بذلك سبة الاعتداء على أمة لم يكن بينها وبينها إلا السلام واجترحت إثم التهجم على بلاد لم تناوئها الحرب. ولم تبادئها بالعدوان والخصام). ثم نراه يرسل زفرة الأسى محيياً أبطال مصر وضحايا يوم 11 يوليه فيقول (فحيا الله أولئك الأبطال الذين راحوا ضحية الدفاع عن الأوطان، وتغمدهم برحمته ورضوانه) وكذلك ترى حدب الأمير على مصر يحدو به أن يذكر شهادة الأعداء ببطولة مصر فيحدثنا عن الماجور تلك أنه دهش من بطولة جنود مصر حتى وثب إلى حافة السفينة ورفع يده قائلاً: لقد أجدت العمل أيها الجندي المصري.

ثم يروى عن الأميرال سيمون قائد الأسطول إذ يقول في تقرير يرفعه إلى سكرتير الأميرالية (ولقد قاتل المصريون قتال الأبطال بأقدام ثابتة). ثم يختم أميرنا الجليل شهادة الأعداء لأبطال مصر بالأسف على الشهداء، وعلى الوطن فيقول (رحمهم الله وعزانا وعزى هذا الوطن الأسيف) ذلك قل من كثر. وغيض من فيض من الوطنية في كتاب الأمير.

وإن في الكتاب من وراء ذلك لضبطاً ونقلاً عن مصادر لا تلين قناتها لغير الأمير حين يعتمد دار المحفوظات المصرية، وحين ينقل عن تقرير القائد الأمريكي (جون دريتش) الذي قدمه لحكومته، ثم نرى الأمير ينقل عن الإثبات، فيروى عن ابن عبد الحكم مما ذكره في كتابه (فتوح مصر)، وعن خليل شاهين الظاهري مما سطره في كتابه (كشف الممالك)، وعن صاحب الخطط التوفيقية، وغير هاتيك المراجع التي ذكرها الأمير وذكر صفحاتها، فأرانا كيف يكون الضبط، وكيف يكون البحث العلمي الدقيق. فلتهنأ الأمة بأميرها.

وليهنأ العلم بمؤلفات الأمير.

محمود النشوى
دكتور في الآداب
العدد 61 - بتاريخ: 03 - 09 - 1934

الأخلاق والتشريع

إذا كان الصيف موسم التنزه والاستحمام وجوب الشواطئ، فهو أيضاً موسم التحدث عن الأخلاق. ففي كل صيف يتجدد لدينا حديث الأخلاق وانحلالها، وما تجنيه عليها مناظر الاستحمام والعري المثيرة؛ وقد بلغت هذه المناظر على شواطئ الإسكندرية فيما يظهر حداً مزعجاً من التبذل والتهتك، وأثارت عاصفة شديدة من الاحتجاج والسخط، وارتفعت الصيحة بوجوب وضع حد لهذه الإباحة الخطرة؛ فاهتمت الحكومة وتدخلت إدارة الأمن العام، ووضعت قيوداً جديدة على الاستحمام والنزه البحرية والركوب أو الجلوس بملابس البحر، تحقق في نظرها مستوى معيناً من الحشمة والحياء والصون وثار أيضاً حديث الأفلام والمناظر السينمائية المنافية للحياء، وانتهى إلينا صدى تلك الحملات القوية التي تنظم في أمريكا، وتنظمها الكنيسة بالأخص لمحاربة هذه الأفلام والمناظر المثيرة المفسدة لأخلاق النشىء والشباب؛ وقيل بحق إننا في مصر أشد حاجة إلى مقاومة هذا الخطر الأخلاقي؛ فاهتمت لذلك لجنة الرقابة الأدبية، واقترحت على وزارة الداخلية أن تشدد الرقابة على الأفلام المصورة الواردة من الخارج، فأقرت الاقتراح وستعمل لتنفيذه.

وهكذا كلما ارتفعت الشكوى من خطر على الدين أو الأخلاق، اتجهت الأنظار إلى الحكومة، وطلب إليها العمل لمقاومة هذا الخطر. والحكومة في مصر هي حامية الدين والأخلاق. والحكومة في جميع الأمم المتمدنة تضطلع بمثل هذه المهمة وتحمل مثل هذه التبعة؛ ولكنها لا تنفرد بتأدية هذا الواجب، وإنما تقوم به إلى جانب القوى المعنوية والاجتماعية الأخرى، وتمد إليها يد العون متى احتاجت. أما في مصر فالمفروض أن الحكومة تقوم في هذا السبيل بكل شيء، وتحمل كل تبعة، وعليها وحدها يقع عبء التقويم والإصلاح

وليس هنا مقام التحدث عن أسباب هذه الظاهرة، وإن كان وجودها طبيعياً في بلد تقبض حكومته على جميع السلطات، وتسيطر على جميع الحريات والقوى المادية والاجتماعية؛ ولكنا نتساءل فقط: هل يكفي تدخل الحكومة لدرء الشر، أو بعبارة أخرى هل يعتبر التشريع وسيلة ناجمة لتقويم الأخلاق؟ لقد اعترض بعض النقدة حينما فرضت الحكومة تلك القيود الجديدة على ملابس البحر والنزه البحرية، وقالوا إن الأخلاق لا تقوم بالتشريع، وإن

تيار الفساد أقوى من أن تحده مثل هذه القيود. وربما كان ذلك حقاً في ذاته؛ فالتشريع وحده لا يكفي لقمع الفساد وتقويم الأخلاق، بل يجب أن تتضافر معه جميع القوى والعناصر التهذيبية الأخرى، في البيت والأسرة والمدرسة والمجتمع، ولكن التشريع لابد منه في بلد تسيطر الحكومة فيه على كل شيء: على التعليم والتربية، وتكوين التفكير والأخلاق؛ وتنظيم المجتمع، والتشريع أول وأهم خطوة في بلد لم يستكمل نضجه في التهذيب والثقافة، وفي بلد تغزوه أسفل عناصر المدنية الغربية؛ وفي مجتمع لا يفهم التمدن إلا بأنه اقتباس للخلال والأزياء الغربية الخليعة، والانحدار إلى مهاوي التهتك، وإهدار قواعد الحياء والحشمة، والانغماس في شر ما تنغمس فيه العناصر الأجنبية الوضيعة.

وحيثما يسري الفساد إلى مجتمع ضاع فيه وازع التربية والحياء والأخلاق، وجب أن يمثل وازع التشريع والإكراه، ونريد هنا التشريع الحكيم النزيه المبني على دراسة عميقة وتمحيص مستنير. نعم إن التشريع لا يحدث أثره سراعاً، ولكنه يذلل الطريق دائماً للغاية المثلى، وفي جميع الأمم الغربية يتخذ التشريع وسيلة لحماية الأخلاق وتقويمها؛ ففي إنكلترا قوانين لحماية الأحداث من خطر ارتياد المقاهي والملاهي منفردين ولحماية أخلاقهم في المصنع؛ وقد لجأت الفاشية في إيطاليا إلى التشريع لمعالجة الفساد الأخلاقي الذي بثته فوضى ما بعد الحرب إلى كل طبقات المجتمع، فأصدرت قوانين عديدة لمحاربة الخلاعة والتهتك ومطاردة الملاهي المبتذلة، وتناول التشريع أزياء المرأة فحتم أن تكون ذات طول معين؛ ورُدت المرأة الإيطالية بقوة التشريع إلى الأسرة والمنزل، وحملت على تقديس الزواج والأمومة، واحتقار الإمعان

في التبرج واللهو الخليع؛ وحذت الوطنية الاشتراكية في ألمانيا حذو الفاشية في ذلك، فلجأت إلى التشريع في مطاردة الفساد الأخلاقي والملاهي المبتذلة، وأغلقت مئات الحانات والمنتديات المريبة في برلين وغيرها، ورُدت المرأة الألمانية إلى حظيرة الأسرة، وبوعد بينها وبين العمل الخارجي جهد الاستطاعة، إلى غير ذلك من الوسائل والإجراءات التي أريد منها صون الأخلاق بعد ما وصلت إلى أبعد حدود الانحلال، ورفع مستوى الحياء والحشمة بعد أن هبط إلى الدرك الأسفل.

وفي تركيا الكمالية، كان التشريع وسيلة التحرير والتمدن، فلما طغى سيل الفساد الأخلاقي في مجتمع لم ينضج بعد لمثل هذا الإغراق والتطرف، عادت حكومة أنقرة فلجأت إلى

التشريع أيضاً لكبح جماح ما أطلقت عنانه بادئ بدء، وحماية النشء والشباب من الاندفاع في حريات لم يألفوها، وكانت وبالاً على أخلاقهم ونفوسهم.

والخلاصة أننا لا نعترض على التشريع في ذاته كوسيلة لحماية الأخلاق والآداب؛ فلنا في ذلك أسوة بكثير من الأمم الغربية ذات الأخلاق والمدنية؛ وما دمنا نخضع لمثل هذه الظروف والنظم، فلا مناص من الالتجاء في الإصلاح إلى وسائل الإكراه؛ ولكن الذي نعترض عليه حقاً هو أن هذه القوانين التي توضع لمعالجة هذه الشئون ليست دائماً على جانب كبير من الحكمة والاتزان، ولا تقوم دائماً على نزاهة القصد والغاية؛ وإنما توضع في الغالب لتهدئة بعض الحملات المزعجة، ومعالجة بعض الحالات المؤقتة، والتماس شيء من المديح والرضى.

(ع)

تربية لؤلؤية

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

كتبتْ إليّ سيدة فاضلة بما هذه ترجمتهُ منقولاً إلى أسلوبي وطريقتي:

أما بعد فهذا الذي كنا ظننا وظنت، فاقرأ الفصل الذي انتزعته لك من مجلة. . . . وستعرف منه وتنكر، وترى فيه النهار مبصراً والليل أعمى. . . وتجد فتاةَ اليوم على ما وقع بها من الظِنّة، وكثر فيها من أقوال السوء - لا تَشْمس على الريبة ولا تريد أن تنتفي منها، بل هي تعمل لتحقيقها، وتبغي مع تحقيقها أن يتعالم الناس ذلك منها، وتريد مع هذين أن يطلقوا لها ما شاءت، ويسوّغوها مقارفة الإثم، ويُقِرُّوها على منكراتها.

أمَا إنه إذا كانت أمهاتنا الجاهلات هنّ أمسنا الذاهب بلا فائدة، فإن فتياتنا المتعلمات هن يومنا الضائع بلا فائدة، غير أن الجاهلة لم تكن تَكْسَد ومعها الفضيلة، فأصبحت المتعلمة لم تكد تَنْفُق ومعها الرذيلة، ولَتَاجرُ أمّيّ طاهر الاسم تتحرك سوقُه وتحيا، خير من تاجر متعلم نجس الاسم قد ماتت سوقه وخمدت، فما نتنفّس من درهم ولا دينار.

لقد احتذينا على مثال المرأة الأوربية، فلما أحكَمَتْه المتعلمات مناكن بين الشرق والغرب كالسَّبِخَةِ النشّاشة من الأرض، طرف لها بالفلاة وطرف بالبحر؛ فهي رمل في ماء في ملح، لا تُخْلُص لفساد ولا صحة، فاعتبر هذه وهذه فستجدهما بحكاية واحدة، أصلاً وطبق الأصل.

وقرأت الفصل الذي أومأت إليه السيدة وكان في كتابها فإذا هو لكاتبة تزعم (أنها ممن رفعن علم الجهاد لحرية المرأة) وإذا في أوله: (كتبت آنسة أديبة في عدد سابق من. . . الأغر تقول: (أجل، لنفتش عن هذا الرجل كما يفتشون هم عن المرأة، فإن أخطأناهم أزواجاً فلن نخطئهم أصدقاء. . .) وكتب بعد هذا أديب فاضل، كما كتبت آنسة فاضلة ينحيلن (كذا) هذا المنحى ويطرقان نفس السبيل (كذا) التي اختطتها الآنسة الجريئة في غير حق، الثائرة في نزق. ثم قالت بعد ذلك: (قرأت مقال الآنسة الثائرة في حيوية صارحة. . . فجزعت لأن قاسم أمين عندما رفع علم الجهاد من أجل حرية المرأة، وولى الدين يكن عندما جاهر بعده في سبيل السفور، وهدى شعراوي عندما رفعت صوتها عالياً تطالب بحرية المرأة - ما ظنت وما ظن واحد من هذين الرجلين أن ثورة المرأة ستتطور

إلى حد أن تقف آنسة مهذبة تكشف عن رأسها تبكي وتستبكي سواها معها من أجل الزواج. . .)

وأنا فلست أدري والله ممَّ تعجب هذه الكاتبة وإني لأعجب من عجبها وأراها كالتي

تكتب عبثاً وهزلاً وهويني مُظهرة الجد والقصد والغضب. أئن أطلق للنساء أن يثرن كما تقول الكاتبة، وجاهد فلان وفلان في هذه الثورة فأخذت مأخذها، فانطلقت لشأنها، فأوغلت في حريتها، فامتد بها أمدها شوطاً بعد شوط - ثم جاء خُلُقٌ من أخلاق المرأة يسفر سفوره ويرفع الحجاب عن طبيعته ثائراً هو أيضاً في غير مداراة ولا حذق ولا كياسة يريد أن يقتحم طريقه ويسلك سبيله، ثم وقف على رغمه في الطريق منكسراً مما به من اللهفة والوثبة يتوجع، يتنهد، يتلذّع بهذه المعاني وهذه الكلمات - أئن وقع ذلك جاءت كاتبة من كاتبات السفور تقول للمرأة: جرى عليك وكنتِ حرة، وتزعزعت وكنت طاهرة. أفلا تقول لها: سفرت أخلاقك إذ كنت سافرة بارزة، وضاع حياؤك إذ كنتُ مُخلاة مهملة، وغلوت إذ كنت في المبالغة من البدء. أفلا تقول لها: لقد تلطفت فجئت بالمعنى المجازي لكلمة (العُرى) ولقد أبدعت فكنت امرأة ظريفة اجتماعية مخيلة للشعر والفن، وحققت أن واجب الظريفة الجميلة إعطاءُ الفن غذاءً من، ومن لحمها. . . .ومن

نعم إن قاسم أمين - رحمه الله - لم يكن يظن. . ولكن أما كان ينبغي أن يظن أن بعض الصواب في الخطأ لا يجعل الخطأ صواباً؟ بل هو أحرى أن يلبسه على الناس فيُشبهه عليهم بالحق وما هو به، ويجعلهم يسكنون إليه ويأمنون جانبه فينتهي بهم يوماً إلى أن ينتسف خطؤه صوابه، ويغطي باطله على حقه، ثم تستطرق إليه عوامل لم تكن فيه من قبل، ولا كانت تجد إليه السبيل وهو خطأ محض، فتمد له في الغي مداً. ثم تنتهي هي أيضاً إلى نهايتها، وتؤول إلى حقائقها؛ فإذا كل ذلك قد داخل بعضه بعضاً، وإذا الشر لا يقف عندما كان عليه، وإذا البلاء ليس في نوع واحد بل أنواع.

ما يرتاب أحد في نية قاسم أمين، ولا نزعم أن له حفِيّة سوء أو مُضمَر شر فيما دعا إليه من تلك الدعوة، ولكني أنا أرتاب في كفايته لما كان أخذ نفسه به، وأراه قد تكلّف مالا يُحسن، وذهب يقول في تأويل القرآن وهو لا ينفذ إلى حقائقه ولا يستبطن أسرار عربيّته، وكان مناظروه في عصره قوماً ضعفاء فاستعلاهم بضعفهم لا بقوته، وكانت كلمة الحجاب

قد انتفخت في ذهنه بعد أن أفرغت معانيها الدقيقة، فأخذها ممتلئة وجاء بها فارغة، وقال للنساء غَيّرن وبدّلن؛ فلما أطعنه وبدّلن وغيّرن، وجاء الزمن بما يفسر الكلمة من حقائقه وتصاريفه لا من خيالات المتخيّل أو المتشيّع - إذا معنى التغيير والتبديل هو ما رأيتَ، وإذا الحجاب الأول على ضلاله كان نصف الشر، وإذا المرأة التي ربحت الشارع هي التي خسرت الزوج! وإذا تلك الدعوة لم تكن نفياً للحجاب عن المرأة، ولكن نفياً للمرأة ذاتِها وراء حدود الأسرة كأنها مجرمة عوقبت على فساد سياستها؛ وهي في بيتها، ولكنها مع ذلك منفية من مستقبلها.

كانوا يحتجون لنفي الحجاب بالفلاّحات في سفورهن؛ وغفلوا أقبح الغفلة عن السبب الطبيعي في ذلك، وهو أن السفور إنما عمّهنّ من كونهن لسن في المنزلة الاجتماعية أكثر من بهائم إنسانية مؤنثة. ومثل هذا السفور لا يكون على طبيعته تلك إلا في اجتماع طبيعي فطري أساسه الخلط في الأعمال لا التمييز بينها، والاشتراك في شيء واحد، هو كسب القوت لا الانفراد بما فوق ذلك من أشياء النفس.

ولست أرى هذه اللجاجة، أو (الحيوية الصارخة) التي ثارت بفتياتنا - إلا تمرداً من طبيعتهن على الأحوال الظالمة المتصرفة بها؛ ويحسبنه توسعاً من الطبيعة في الحرية، وطلباً للعالم كله بعد الشارع، وللحقوق كلها بعد نبذ الحجاب؛ وهو في الحقيقة ليس إلا ثورة الطبيعة النسوية على خيبتها مما أصابت من الحرية والشارع والعالم والحقوق، ورغبة منها في أن تُحدّ بحدودها ويُؤخذ منها العالم كله بما فيه، وتُعطَى البيت وحده بما فيه.

إذا أنت كشفت جذور الشجرة لتطلقها بزعمك من حجابها وتخرجها إلى النور والحرية فإنما أعطيتها النور، ولكن معه الضعف؛ والحرية، ومعها الانتقاض؛ وتكون قد أخرجتها من حجابها ومن طبيعتها معاً؛ فخذها بعد ذلك خشباً لا ثمراً، ومنظرَ شجرة لا شجرة! لقد أعطيتها من علمك لا من حياتها، وجهلت أنها من أطباق الثرى في قانون حياتها، لا في قانون حجابها. أفليست كذلك جذور الشجرة الإنسانية؟

كل ما يتغير يسهل تغييره على من شاء، ولكن النتائج الآتية من التغيير لا تكون إلا حتماً مقضياً كما يُقضى فلن يسهل تبديلها، ولا تحويلها ولا رَدّها أن تقع. وقد أخطأ جماعة

السفور، بل أنا أقول: إنهم جاءونا بالجاهلية الثانية، وإنهم طبّو للمرأة المسلمة كذلك الطبّ
الذي أساسه الرائحة الذكية في البخور. . .!
وما هو الحجاب إلا حفظ روحانية المرأة للمرأة، وإغلاءُ سعرها في الاجتماع، وصونُها من التبذل الممقوت لضبطها في حدود كحدود الربح من هذا القانون الصارم؛ قانون العَرض والطلب والارتفاعُ بها أن تكون سلعة بائرة ينادَى عليها في مدارج الطرق والأسواق: العيون الكحيله، الخدود الوردية، الشفاه الياقوتية، الثغور اللؤلؤية، الأعطاف المرتجّة، اليهود الـ. . الـ. . أو ليس فتياتنا قد انتهين من الكساد بعد نبذُ الحجاب إلى هذه الغاية، وأصبحن إن لم ينادين على أنفسهن بمثل هذا فإنهن لا يظهرن في الطرق إلا لتنادى أجسامُهن بمثل هذا؟ وهذه التي كتبت اليوم تطلبهم مخادنين إن أخطأتهم أزواجاً، وتفتّش عليهم تفتيشاً بين الزوجات والأمهات والأخوات! هل تريد إلا أن تثب درجة أخرى في مخزيات هذا التطور، فتمشي في الطريق مشي الأنثى من البهائم طموحاً مطروقة، تذهب عيناها هنا وهنا تلتمس من يخطو إليها الخطوة المقابلة. . .
ما هو الحجاب الشرعي إلا أن يكون تربية عملية على طريقة استحكام العادة لأسمى طباع المرأة واختصها الرحمة؛ هذه الصفة النادرة التي يقوم الاجتماع الإنساني على نزعها والمنازعة فيها ما دامت سنة الحياة نزاعَ البقاء، فيكون البيت اجتماعاً خاصاً مسالماً للفرد تحفظ المرأة به منزلتها، وتؤدي فيه عملها، وتكون مغرساً للإنسانية وغارسة لصفاتها معاً.
لقد رأينا مواليد الحيوان تولّد كلها: إما ساعية كاسبة لوقتها، وإما محتاجة إلى الحضانة وقتاً قليلاً لا يلبث أن ينقضي فتكدح لعيشها؛ إذ كانت غاية الحيوان هي الوجود في ذاته لا في نوعه، وكان بذلك في الأسفل لا في الأعلى. غير أن طفل المرأة يكون في بطنها جنيناً تسعة أشهر؛ ثم يولد ليكون معها جنيناً في صفاتها وأخلاقها ورحمتها أضعاف ذلك سنة بكل شهر. فهل الحجاب إلا قصرُ هذه المرأة على عملها لتجويده وإتقانه وإخراجه كاملاً ما استطاعت؛ وهل قصرها في حجابها إلا تربية طبيعية لرحمتها وصبرها، ثم تربية بعد ذلك لمن حولها برحمتها وصبرها؟
أعرف معلمة ذات ولد، تترك ابنها في أيدي الخدم بعد وصاة علمية سيكولوجية. . وتمضي ذاهبة عن يمين الصباح ويمضي زوجها عن شماله. . وقد رأيت هذا الطفل مرة فرأيته شيئاً جديداً غير الأطفال، له سمة روحانية غير سماتهم، كأنما يقول لي إنه ليس لي أب
وأم، ولكن أب رقم (1)، وأب رقم (2). .
وقد كنت كتبت كلمة عن الحجاب الإسلامي قلت فيها: (ما كان الحجاب مضروباً على المرأة نفسها، بل على حدود من الأخلاق أن تجاوز مقدارها أو يخالطها السوء أو يتدسس إليها؛ فكل ما أدى إلى هذه الغاية فهو الحجاب، وليس يؤدّي شيء إلا أن تكون المرأة امرأة في دائرة بيتها، ثم إنساناً فقط فيما وراء هذه الدائرة إلى آخر حدود المعاني.)
وهذا هو الرأي الذي لم ينتبه إليه أحد، فليس الحجاب إلا كالرمز لما وراءه من أخلاقه ومعانيه وروحه الدينية المعبديّة وهو كالصدفة لا تحجب اللؤلؤة ولكن تربيتها في الحجاب تربية لؤلؤية؛ فوراء الحجاب الشرعي الصحيح معاني التوازن والاستقرار والهدوء والإضطراد وأخلاق هذه المعاني وروحها الديني القوي الذي ينشئ عجيبة الأخلاق الإنسانية كلها؛ أي صبر المرأة وإيثارها. وعلى هذين تقوم قوة الدافعة، وهذه القوة هي تمام الأخلاق الأدبية كلها، وهي سر المرأة الكاملة؛ فلن تجد الأخلاق على أتمها وأحسنها وأقواها إلا في المرأة ذات الدين والصبر والمدافعة. إنها فيها تشبه أخلاق نبي من الأنبياء.
وقد مُحق الدين والصبر، وتراخت قوة المدافعة في أكثر الفتيات المتعلمات، فابتلين من ذلك بالضجر والملل، وتشويه النفس؛ ووقع فيهن معنى كمعنى العفن في الثمرة الناضجة؛ وجهلن بالعلم حتى طبيعتهن فما منهن من عرفت أن طبيعتها سلبية في ذاتها، وأنه لا يشدّها ويقيمها إلا الصفات السلبية، وملاكها الصبر فروعه وأصوله، وجمالها الحياء والعفة، ورمزها وحارسها والمعين عليها هو الحجاب وحده. إنه إن لم يكن في المرأة هذا فليست المرأة إلا بهذا.

وما تخطئ المرأة في شيء خطأها في محاولة تبديل طبيعتها وجعلها إيجابية، وانتحالها صفات الإيجاب، وتمردها على صفات السلب كما يقع لعهدنا، فإن هذا لن يتم للمرأة، ولن يكون منه إلا أن تعتبر هذه المرأة نقائض أخلاقها من أخلاقها كما نرى في أوربا، وفي الشرق من أثر أوربا. فمن هذا تلقى الفتاة حياءها وتبذؤ وتفحش، إن لم يكن بالألفاظ والمعاني جميعاً فبالمعاني وحدها، وإن لم يكن بهذه ولا بتلك فبالفكر في هذه وتلك؛ وكانت الاستجابة لهذا مافشا من الروايات الساقطة والمجلات العارية؛ فإن هذه وهذه ليست شيئاً إلا أن تكون علم الفكر الساقط.

وعادت الفتاة من ذلك لا تبتغي إلا أن تكون امرأة رواية؛ إما فوق الحياة، وإما في حقائق جميلة تختارها اختياراً وتفرضها فرضاً على القدر! وتنسى الحمقاء أنها أحد الطرفين، وليست الطرفين جميعاً، فتحاول أن تقرر للحياة الجديدة تأويلاً جديداً لمعاني الشرف والكرامة والعرض والنسب وما إليها؛ فانسلخت من كل شيء، ثم لما أعجزها أن تنسلخ من غريزة الأنوثة طاشت طيشها الأخير فانسلخت من إنسانية الغريزة

أما إن غلطة الرجل في المرأة لا تكون إلا من غلطة المرأة في نفسها، وهي قد أعطيت في طبيعتها كل معاني حجابها؛ فإحساسها محتجب مختبئ أبداً كأنه في أتب وملاءة وبرقع وأفكارها طويلة الحذر لا تبرحها كأنها الحارث الثابت في موضعه القائم بسلاحه على حفظ هذا الجسم الجميل؛ وطول التأمل موكل بها كأن عمله مصاحبة وحدتها لتخفيفها على نفسها والترفيه منها؛ والدنيا حول المرأة بمذاهب أقدارها، ولكن لها دنيا في داخلها هي قلبها تذهب الأقدار فيه مذاهب أخرى؛ وضغطة الحياة طبيعته فيها حتى لا يساورها هم من الهموم إلا صار كأنه من عادتها والتي تمزقها الحياة كلما ولدت لا تكون الحياة إلا رحيمة بها إذا ضغطتها.

فخروج المرأة من حجابها خروج من صفاتها، فهو إضعاف لها، وتضرية للرجال بها، وماذا تجدي عادة الحذر إذا أفسدتها عادة الاسترسال والاندفاع، فيكون حذراً ليكون إغفالاً، ثم يكون إغفالاً ليعهد الزلة والغلطة؛ ومتى رجع غلطةً فهذا أول السقوط ومبدأ الانقلاب والتحوّل. وليس الفرق بين امرأة نفور من الريبة، شموس لا تطالع الرجال ولا تُطمعهم؛ وبين امرأة قرور على الريبة، هلوكٍ فاجرة - إلا حجاب الحذر أسدل على واحدة، وانكشف عن أخرى.

وإذا قرتْ المرأة في فضائلها فإنما هي في حجابها ودينها، وإنما ذلك الحجاب ضابط حريتها الصحيحة، باعتبارها امرأة غير الرجل؛ فهو مسمى بالحجاب لاتصاله بالحرية وضبه لها، ولكن الضعفاء الذين يعرفون ظاهراً من الرأي لا يدركون مذهبه، ولا يحققون ما ينتهي إليه، وينفذون في حكمهم على الظاهر لا على البصيرة - هؤلاء لا يعرفون معنى الحجاب إلا في القماش والكساء والأبنية، كأن حجاب الأخلاق النسوية شيء يصنعه الحائك والباني والمستعبد، ولا تصنعه الشريعة والأدب والحياة الاجتماعية، فهم كما ترى حين

يأتون بنصف العلم يأتون بنصف الجهل.

لم يخلق الله المرأة قوة عقل فتكون قوة إنجاب، ولكنه أبدعها قوة عاطفة لتكون قوة سلب؛ فهي بخصائصها والرجل بخصائصه؛ والسلب بطبيعته متحجب صابر هادئ منتظر، ولكنه بذلك قانون طبيعي تتم به الطبيعة.

وينبغي أن يكون العلم قوة لصفات المرأة لا ضعفاً، وزيادة لا نقصاً؛ فما يحتاج العالم إذا خرج صوتها في مشاكله أن يكون كصوت الرجل صيحة في معركة، بل تحتاج هذه المشاكل صوتاً رقيقاً مؤثراً محبوباً مجمعاً على طاعته كصوت الأم في بيتها.

أيتها الفتاة، إن صدق الحياة تحت مظاهرها لا في مظاهرها التي تكذب أكثر مما تصدق؛ فساعدي الطبيعة واحجبي أخلاقك عن الرجل، لتعمل هذه الطبيعة فيه بقوتين دافعتين منها ومنك، فيسرع انقلابه إليك وبحث عنك؛ وقد يجد الفاسق فاسقات وبغايا، ولكن الرجل الصحيح الرجولة لن يجد غيرك.

وإنما سفورك وسفور أخلاقك إفساد لتدبير الطبيعة، وتمكين للرجل نفسه أن يُرجف بك الظن ويسيء فيك الرأي، وعقابك على ذلك ما أنت فيه من الكساد والبوار؛ عقاب الطبيعة لمستقبلك بالحرمان، وعقاب أفكارك لنفسك بالألم.

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

في الأفق الدولي
حديث الحرب
للأستاذ محمد عبد الله عنان

في الآونة الأخيرة كثر الحديث عن الحرب المقبلة، وعن أسبابها المحتملة، وعن مواطن نشوبها والدول التي قد تشترك فيها. وكلما أظلم أفق السياسة الأوربية، وتفاقمت مشكلة من المشاكل، تكرر حديث الحرب، وازداد المتشائمون تمسكاً باعتقادهم في قرب نشوبها. ومنذ أشهر نشهد في جو السياسة الأوربية ما ينذر فعلاً باضطراب العلاقات الدولية وتوترها؛ فمن محالفات سياسية وعسكرية تعقد بين مختلف الدول، ومن اعتمادات مالية ضخمة تقررها معظم الدول لتعزيز قواتها واستكمال أهباتها الحربية، ومن تصريحات سياسية هنا وهناك تحمل على التشاؤم والجزع. ولقد كشفت الأزمة النمسوية التي وقعت منذ أسابيع قلائل من جراء الثورة التي أضرمها دعاة التحريض الألماني لقلب النظام في النمسا والتمهيد لإعلان انظمامها إلى ألمانيا عن مبلغ توتر أعصاب الدول العظمى، وعما يجثم في ثنية المشكلة النمسوية من خطر على السلام الأوربي؛ ولم تحجم إيطاليا في هذا الظرف الدقيق عن حشد جنودها على حدود النمسا الجنوبية استعداداً للطوارئ. فإذا ذكرنا أن الحرب الكبرى أضرمت شرارتها الأولى في تلك المهاد، أي في إمبراطورية النمسا والمجر القديمة، استطعنا أن نقدر طرفاً من العوامل التي تملى بحديث الحرب ونبؤاتها.

على أننا مع تقديرنا لخطر هذه الظواهر المزعجة في سير الحوادث الأوربية، نخشى أن يكون خطر الحرب جاثماً في جهة أخرى غير أوربا القديمة؛ ففي الشرق الأقصى تقع حوادث ذات مغزى خطير؛ وهذا التلاحم المستمر بين اليابان وروسيا يبطن من الخطر على السلام أكثر مما يدلي به ظاهر الحوادث. ولنلاحظ أولاً أن هناك خصومة تاريخية خالدة بين اليابان وروسيا منذ الحرب الروسية اليابانية في سنة1904؛ وأن بينهما منافسة قديمة مستمرة مدارها التنازع على النفوذ في الصين واقتسام المصالح الصينية؛ وهما يلتقيان في الصين في مناطق ومراكز في منتهى الأهمية. وفي الأنباء الأخيرة أن حادثاً جديداً قد وقع في منشوريا، وزاد في تحرج العلائق بين البلدين. ذلك أن سلطات منشوكيو (منشوريا) قد قبضت على عدد كبير من الموظفين الروس في الخط الحديدي الشرقي، وأنها تتحرش بممثلي روسيا القنصليين. وحكومة منشوكيو كما نعلم هي التي أنشأتها اليابان في منشوريا بعد افتتاحها، وهي التي تسيرها كما شاءت. وليس هذا التصادم هو الأول من نوعه، فقد تكرر مراراً في الفترة الأخيرة، ومصدره دائماً هو النزاع على الخط الحديدي الشرقي. ولكي نعرف أهمية هذا الخط الذي يجمع بين الدولتين المتنافستين، نقول إنه يخترق منشوريا من غربها مبتدئاً من مدينة منشولي، ثم يسير نحو الجنوب الشرقي في قلب منشوريا حتى يتصل بخط (أسوري) الذي يمتد إلى ثغر فلاديفوستك على شاطئ المحيط الهادي. ومنه يمتد فرع إلى الجنوب من هربين ويتصل بخط منشوريا الجنوبي. وقد أنشئ هذا الخط في أوائل القرن الماضي بالاتفاق مع حكومة الصين الإمبراطورية بأموال روسية وفرنسية، وتحملت روسيا أكبر قسط في نفقاته، واشتركت الحكومة الصينية فيه بقسط ضئيل؛ وبع الحرب ادعت حكومة منشوريا بتحريض اليابان على الخط حقوقاً؛ ثم ظهرت اليابان في الميدان واحتلت القسم الشرقي من الخط بحجة حماية مصالحها وحماية الخط من العصابات؛ ولما افتتحت اليابان منشوريا منذ نحو عامين أصبحت تسيطر على الخط الشرقي كله. وكان النزاع قد اشتد بين الروسيا واليابان على شئون هذا الخط الحديدي في سنة 1929، ووقعت بين قواتهما بعض المعارك الدموية، وخشي يومئذ أن تقع بينهما الحرب. ولكنهما انتهيا بالاتفاق والتفاهم على شئون الخط ونظامه في مؤتمر عقد بينهما في سنة 1930.

ومنذ افتتحت اليابان منشوريا وسيطرت على شئونها، شعرت روسيا أن مصالحها في هذه المنطقة من الشرق الأقصى أضحت مهددة، وأضحى التلاحم مستمراً بينهما. ولروسيا في الخط الحديدي الشرقي مصالح حيوية جداً. لأنه يتصل بخط سيبيريا الكبير، ويقصر أمد المسافة إلى فلاديفوستك، وهو الآن تحت رحمة اليابان. ثم إن

حلول اليابان في منشوريا واقترابها بذلك من منطقة النفوذ الروسي في منغوليا، يهدد الروس في هذه المنطقة، ويحول دون التوسع الروسي؛ ولا تخفي السياسة اليابانية مذ وطدت أقدامها في منشوريا أنها تعمل على سحق النفوذ الروسي في تلك الأنحاء؛ ولا تخفي حكومة موسكو من جانبها أنها تحرص على مصالحها ونفوذها في الشرق الأقصى كل الحرص، وأنها دائماً على أهبة لحمياتها بالقوة المادية؛ وروسيا تحتفظ منذ أعوام بقوات كبيرة في منطقة شيتا على مقربة من الحدود المنشورية؛ وهي تحيط بمنشوريا من الشرق والشمال والغرب، واليابان تحتفظ في منشوريا بقوات كبيرة وتحتل الخط الحديدي الشرقي كله، وتثبر في وجه موظفي الخط الروس كل الصعاب الممكنة وتعتقلهم من آن لآخر بتهم مختلفة على نحو ما حدث أخيراً. وقد احتجت حكومة موسكو لدى الحكومة اليابانية احتجاجاً شديداً، وطالبت بالإفراج عن رعاياها المعتقلين، ونوهت في مذكراتها بروح العداء الذي تبديه بعض المقامات اليابانية نحو روسيا، وحملت اليابان كل تبعة فيما يترتب على هذه السياسة من العواقب الخطيرة.

ومما يلفت النظر أنه في نفس الوقت الذي يتفاقم فيه النزاع بين اليابان وروسيا إلى هذا الحد، تذاع أنباء عن عقد معاهدة أو تحالف بين اليابان وبريطانيا العظمى. ولهذا الحادث إذا صح مغزى دولي خطير، ذلك أن المنافسة الصناعية والتجارية بين اليابان وإنكلترا بلغت في العهد الأخير مدى بعيداً، واستطاعت اليابان أن تنفذ بتجارتها إلى جميع الأسواق التي تسيطر عليها التجارة البريطانية، وأثارت بذلك في وجه التجارة البريطانية صعوبات فادحة. واستعملت بريطانيا كل نفوذها وسلطانها المادي لمحاربة هذا الخطر؛ فإذا صح أن التفاهم قد عاد بين البلدين، وأنهما سيؤكدان أن هذا التفاهم بمعاهدة سياسية تجارية، أو أنهما قد عقدا بالفعل مثل هذه المعاهدة، فمعنى ذلك أن نوعاً من التوازن الدولي يقوم في الشرق الأقصى، وأن اليابان قد استطاعت بعد عزلتها منذ نحو عامين على أثر حوادث منشوريا وانسحابها من عصبة الأمم، أن تجد حليفة قوية تؤازر سياستها في الشرق الأقصى ضد روسيا. والمعروف أن بريطانيا العظمى هي ألد خصوم روسيا البلشفية، وأشدهم مقاومة لسياستها، وأنها مثل اليابان تخشى دائماً من تقدم نفوذها ودعواتها الثورية في الصين، وتخشى بالأخص من دسائسها في الهند؛ على أن مثل هذا التحالف سيحمل روسيا بالطبع على التماس المعونة من جهة أخرى، والظاهر أن أمريكا هي الدولة التي يمكن أن تميل إلى محالفة روسيا على مقاومة التوسع الياباني؛ والمنافسة شديدة بين أمريكا واليابان على سيادة المحيط الهادي، وقد ظهرت خصومة أمريكا لليابان في العهد الأخير حينما احتجت غير مرة ضد توسعها في الصين وأنذرتها بسوء عواقب هذه السياسة، وظهر تصميم اليابان على تحدي أمريكا وغيرها من دول الغرب حينما أعلنت أنها ستعتبر الصين منذ الآن فصاعداً ميداناً للتوسع الياباني وحده، وأنها ستقاوم كل مجهود تبذله الدول الغربية لاكتساب نفوذ جديد في الصين. وعلى ذلك فقد نشهد في القريب العاجل قيام هذا التوازن الخطر في الشرق الأقصى بين الدول ذات الشأن، وقد تتفاقم الحوادث بسرعة، ويضطر البلاشفة أخيراً إلى خوض حرب ما زالوا منذ بعيد يحاولون اجتنابها.

هذا ونرى مثل هذه السحب القاتمة يحلق أفق القارة الأوربية. وصحافة أوربا كلها تفيض اليوم بحديث الحرب، بعد أن كانت منذ أعوام قلائل تفيض بحديث السلام والتعاون الدولي. وقد توارت عصبة الأمم من الميدان وغاضت كل الآمال التي علقت على جهودها في تعزيز السلم؛ ولا يحجم الساسة المسئولون اليوم عن التحدث بوقوع الحرب؛ وأقرب شاهد على ذلك ما صرح به السنيور موسوليني في خطاب ألقاه أخيراً على أثر انتهاء الجيش الإيطالي من تمارينه السنوية، من (إن الشعب الإيطالي يجب أن يكون شعباً عسكرياً لأن بقاء الأمم رهين بقوتها، ومن أنه إذا لم يكن أحد في أوربا يرغب في الحرب، فإن نذير الحرب يرى مع ذلك ظاهراً في الأفق، ومن المحتمل أن تنشب الحرب في أية لحظة، فعلى إيطاليا أن تستعد لحرب اليوم لا حرب الغد؛ ولقد نشأت في أواخر شهر يوليو (يريد حوادث النمسا) حالة تشبه الحالة التي كانت عليها أوربا قبل نشوب الحرب الكبرى، فلبت إيطاليا في الحال دعوة الخطر وأرسلت جنودها إلى الحدود، وقضت بذلك على الأزمة). والسنيور موسوليني سياسي عملي، وقد كانت تلميحاته إلى الحرب تثير منذ أعوام في أوربا كلها عواصف من النقد

القارص. ذلك أن أوربا كانت ما تزال يومئذ غارقة في أحلام السلام؛ وكانت الآمال معلقة على مواثيق السلام والتحكيم التي سادت الأفق الدولي حيناً، وظن المتفائلون أنها ستقضي على كثير من أسباب الاحتكاك بين الأمم؛ ولكن الأمم الأوربية تشعر اليوم أنها تعيش في جو من التشاؤم والجزع؛ وقد توالت في العامين الأخيرين أحداث سياسية خطيرة، كقيام الوطنية الاشتراكية في ألمانيا وعملها لأحياء الروح العسكري القديم، وتفاقم المشكلة النمساوية من جراء تهديد ألمانيا بالقضاء على استقلال النمسا، ونشاط السياسة الفرنسية لجمع أمم أوربا الشرقية والوسطى حولها بمعاهدات سياسية وعسكرية، وتفاهم فرنسا مع روسيا واهتمامها بمضاعفة تحوطاتها وأهباتها العسكرية رداً على نشاط ألمانيا العسكري، واهتمام إنكلترا بزيادة تسليحاتها البحرية والجوية، وتصريح المستر بلدوين زعيم حزب المحافظين الإنكليز بأن حدود إنكلترا تمتد

حتى نهر الراين؛ فهذه كلها أحداث وتطورات ترجع بأوربا إلى عهد ما قبل الحرب، وتثير في أفقها سحباً قاتمة، وتجعلها تشعر بأن تصريحات كالتي يلقيها السنيور موسوليني إنما تعبر عن الحقيقة والواقع.

والخلاصة أن خطر الحرب يجثم في الشرق والغرب معاً. والدول العظمى تعمل كلها لمضاعفة تسليحاتها وأهباتها. ولكن متى تقع الحرب، وفي أي ساحة، ومن أي جانب؟ هذه أسئلة تستحيل الإجابة عنها الآن. وكل ما يمكن قوله أن ما نراه اليوم من توتر أعصاب أوربا يجعل خطر الحرب محتمل الوقوع لأي بادرة أو احتكاك يحدوه التحرش أو سوء القصد، كما دلت عليه تطورات المسألة النمساوية، فلو لم تبادر ألمانيا بوقف تحريضاتهم الثورية وتعديل خطتاه نحو النمسا، ولو دفعت ألمانيا الجرأة إلى حد إرسال الخوارج النمساويين الذين تجندهم في أرضها إلى النمسا، لبادرت إطاليا باختراق الحدود النمساوية، ولتحركت في الحال دول الوفاق الصغير، ووقعت مصادمات يخشى أن تثير حرباً عالمية أخرى. وقد تقع الحرب نتيجة للنزاع الألماني الفرنسي أو الإيطالي الفرنسي، أو نتيجة لما بين إطاليا ويوجوسلافيا من التنافس؛ وقد تقع في الشرق الأقصى بين روسيا واليابان؛ وقد تكون ساحتها الأولى في النمسا أو في ألبانيا أو على حدود الرين. تلك احتمالات تبررها الحوادث والتطورات الجارية، ولكنها لا تخرج عن حد الاحتمالات.

لسنا من المغرقين في التفاؤل أو التشاؤم، ولكنا لا نستطيع أن نؤمن بقول مستر لويد جورج أن الحرب لا يمكن أن تقع قبل عشرة أعوام.

محمد عبد الله عنان

المحامي

. . .ما هو أدب اليوم؟

للأستاذ كرم ملحم كرم

أدب اليوم رواية وقصة،

فالمنشئون من أي طبقة كانوا لا يعتمدون في معظم مؤلفاتهم على غير الحكاية والرواية، فالفن القصصي هو السائد. وأكثر الأدب بلغوا القمة في إخلاصهم لهذا الفن. ولا بدع، فالرواية محك الأدب. المنشئ البليغ يظهر فيها، والكاتب الركيك السمج يفضح نفسه إذا توكأ عليها.

أكابر الأدب في العالم لجئوا إلى القصة يذيبون فيها بلاغتهم وقوة بيانهم. فما أحجم عنها (فولتير) ولا (جان جاك روسو) ولا (لامارتين) ولا (ألفرد ده موسيه) ولا (فكتور هوجو) ولا (فرنسوا كوبيه) ولا (تولستوي) ولا (أد جار والاس) ولا (كونان دويل)، فكلهم مال إلى القصة يعالجها.

وإذا لم تكن رواية (غرازبيلا) أو رواية (رافائيل) أسمى من شعر لامارتين فهما لا تقلان سمواً عن هذا الشعر. وإذا لم تكن رواية (البائسون) لفكتور هوجو أرفع من منظومة فلقد عادلت هذا المنظوم، ونفحت الشاعر بشهرة فوق شهرته، وزادت في تخليده، وحملت عشاق الأدب الروائي على التحدث عنها في العالم أجمع. فإن شهرة (البائسون) شهرة عالمية لا يجهلها ناد أدبي. وما يقال فيها يقال في (غرازبيلا) و (رافائيل) للامارتين، وفي اعترافات جان جاك روسو. أليست اعترافات جان جاك روسو حكاية من الحكايات وفيها يحدث الرجل عن نفسه؟ . . .

نعم لقد تربع جان جاك روسو في (عقده الاجتماعي) في ذروة الفلسفة، على أن (اعترافاته) رفعت من مقامه كأديب، وباتت خالدة كمؤلفه الفلسفي، فمن شاء الوقوف على حياة الرجل فليس له إلا أن يقلب (الاعترافات) فيدرك من هو جان جاك روسو.

و (أناتول فرانس) استاذ الأدب في مطلع القرن العشرين مدين بشهرته لروايته، ومثله بلزاك، وأميل زولا، وموريس بارس، ومارسيل بريفو، وهنري بوردو، ورينه بازان، وبول بورجيه، فإن اعظم أدباء فرنسا لا تقوم شهرتهم على سوى الروايات التي أنشأوها، ومثلهم أدباء إنكلترا وروسيا. فالقصة إذا أساس الأدب العالمي.

والدين نفسه يقوم على الروايات. فما هو كتاب التوراة، وما هو كتاب الإنجيل، وما هو القرآن؟ أليس للرواية من هذه الكتب الدينية أكبر نصيب؟

وإن تكن التوراة أقدم كتاب تتداوله الأيدي ويتسنى للجميع الاطلاع عليه، جاز لنا القول أنه أول كتاب عرفه العالم مشيد الأركان على القصة. فهو يبدأ بقصة وينتهي بقصة. والكتب الخالدة في معظمها - إذا استثنينا كتب الفلسفة والعلم - كتب قصصية سواء صبت نظماً أو نثراً.

ولا شأن اليوم في المؤلفات الأدبية لسوى المؤلفات القصصية، وهذه الكتب التي تتمتع بالجوائز الضخمة، ولا سيما جائزة (نوبل)، لا تخرج في سوادها الأعظم عن النطاق الروائي.

ولقد جاء الأدب العربي في عهده الأول بما يعجز عنه الغرب من قصص وروايات. فما هي (كليلة ودمنة)، وما هي (ألف ليلة وليلة)، وما هو (عنتر)، بل ما هي (الأغاني)، وما هو (المستطرف)، وما هو (العقد الفريد)، وما هي (نهاية الأرب)؟. . . كلها روايات وقصص: وإن لم تكن كليلة ودمنة غير عربية المولد فهي لم تخلد في سوى النص العربي. وباستطاعة لغة الضاد أن تتبناها، خصوصاً ولها عليها باستبقائها يد بيضاء وما يقال في كليلة ودمنة يقال في ألف ليلة وليلة. فالأدب العربي احتضن ألف ليلة وليلة وتعهدها بالبقاء. ويمكن الإدعاء أنها عربية الوجه واللسان. أما رواية (عنتر) فقد روى أنها من سبك الأصمعي. والأصمعي - ألف رحمة الله عليه - خير من لفق وأختلق، وروى وتحدث، وسرد وأبتكر وأخترع. ولقد أتى بالعجائب وهو في تلك الصحراء الكاوية اللاذعة. فبهر العيون وملك اللباب بغزارة علمه وفرط ذكائه وعذوبة حديثه وفيضان بحره. فانه ليتدفق كالسيل في الحديث عن الأعراب وعشقهم وغرامهم. ويروي حكاياتهم بدقة وإبداع، فيسحر سميعه وجليسه، ويستدر رفد الملوك والعظماء، ويجود بالمعجزات فيقصر عنه المتطاول والمقلد واللاحق، كأن سر الرواية في الأدب العربي القديم لم يفتح على غير الأصمعي.

ولو ظهرت كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة في هذا العهد لكان الأدب العربي سيداً في الفن الروائي، حتى وإن يكن ثمة من يزعم أن الكتابين ليسا من مبتكرات الأدب العربي، فليس من أدب غير الأدب الشرقي يسبح في هذا الخيال الرحيب الخصيب.

ولا ننسى أن أداء القصة وسياقها في كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة يختلفان كل الاختلاف عن مثلهما في روايات اليوم. فهما جديدان مبتكران لقوة المخيلة فيهما اليد الطولي. ومن المحال أن يوفق فيهما ويهتدي إليهما من لم يكن يحلق في الأفلاك.

واختلافهما عن روايات اليوم يحببانهما إلى عشاق الروايات ويفسحان لهما المقام الأول في الأدب العالمي، ولكن أين من يقوى على توفير ذلك النسيج؟

ربما جهل الأدب العربي يوم طلعت في سمائه (كليلة ودمنة) و (ألف ليلة وليلة) قيمة هذين السفرين. ربما أعرض عنهما وشغف بمقامات الهمذاني والحريري - ومقامات الهمذاني والحريري فن روائي خاص - على أنه اليوم يدرك شأنهما ولا يتنكر لهما بل يفاخر بهما وإن يكن استمدهما من بلاد الهند وفارس كما ذاع وشاع

لقد كان الأدب اليوناني يحفل بهذه الأقاصيص البارزة في كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة. ومن هذا الأدب نهل (لافونتين) في أقاصيصه الفرنسية ذات الشعر الطليق. على أن ثمة من يقول، ويثبت ما يقول، أن (لافونتين) سمع بكليلة ودمنة فاقتبس منها وصاغ تلك الأقاصيص الواقفة في طولها عند الفتر، وإن تجاوزته فإلى الشبر، الملأي بالمغزى الرائع والإرشاد البليغ، فاستعان بالحيوانات على تأذيب الملوك شأن أبن المقفع في كليلة ودمنة. ومما يدل على اقتباس (لافونتين) من كليلة ودمنة أن بين أبن المقفع

ولافونتين نحواً من ألف سنة، وأين كان الأدب الفرنسي يوم كان الأدب العربي زاهراً ريانا يناطح السماء؟. .
قد نسمع ممن نحدثه عن كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة أنهما شيء قديم. غير أن هذا القديم لا تخلق جدته. فهو أبداً جديد. وعشاق الروايات وقد ملوا طراز اليوم، وبعضه يشبه بعضاً، يميلون إلى الجديد. وروايات ألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة مما يجوز أن نسميه جديداً، وإن تكن انبثقت منذ ألف عام.
ولا نكير في أن ثمة خرافات وأساطير، على أن الخرافات والأساطير إذا عرضت على الناس في غناء مزخرف براق وكانت دسمة طيبة أزدردها الناس وهضمتها المعد. وخرافات ألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة كالفاتنة الحسناء، وكل ما يعاب على ألف ليلة وليلة المجهولة الأم والأب أنها ركيكة ضعيفة في قالبها، ولو أتفق لها من يصوغها في بيان ابن المقفع لنافست كليلة ودمنة في متانة تعبيرها وصحة مبناها.
ومما نستدل به على أن كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة يثيران ضجة بعيدة الصوت في الأدب العربي، لو برزوا اليوم إلى النور، ويتربعان في القمة العليا من الفن الروائي، ما يلقيان من غزو الروائيين الأجانب. فكل يوم يرزحان تحت غارة جديدة. وليست رواية (حديقة على العاصي) للكاتب الفرنسي المشرق الديباجة (موريس بارس) غير قبس من ألف ليلة وليلة. وما رواية (الأتلانتيد) لبيير بنوا غير صفحة من صفحات ألف ليلة وليلة. فكأنها مستوحى أدباء الفرنج يسلبونها أطايبها المباحة دون أن يقف في سبيلهم من يقول لهم: ماذا تفعلون؟.
ومع كل احترامنا للتوراة وتقديرنا لها نجرؤ على أن نقارن بينها وبين ألف ليلة وليلة مقارنة صادقة لا ترمي مطلقاً إلى الحط من قدر الكتاب الكريم. إن هي إلا مقارنة أدب بأدب. وكل ما نريد إثباته أن ألف ليلة وليلة أضحت لدى كتاب الغرب أشبه بالتوراة. فكما يغيرون على التوراة يستوحونها يغيرون على ما جادت به علينا شهرزاد الملسانة، أو الثرثارة، التي لا تسكت عن الكلام المباح إلا حين يطلع الصباح.
ولا تقف غارة كتاب الغرب عند ألف ليلة وليلة، بل هم يشنون أبداً الغارة علينا ويستأثرون بكنوزنا ونحن عنهم في غفلة، فلا نراهم إلا يشدون الرحال إلى هذا الشرق، هذا الشرق الحافل بكل غريب، الطافح بالأسرار، المنبثقة منه الأديان، المتصاعدة من معابده روائح البخور تنفثها المجامر الحمراء هذا الشرق القديم في حضارته وهياكله وآلهته، المثقل بالرموز والأشباح والعفاريت، المخيمة عليه حسرات داود وحكمة سليمان، هذا الشرق الراسخة فيه المساجد العالية القباب، والمآذن الناطحة السحاب، والمستوردة فيه المرأة وراء ألف حجاب وحجاب. هذا الشرق مهد الناقة والبعير، المتهادية فيه العمائم والقلانس والطرابيش، المكردسة فيه الذكريات أطباقاً فوق أطباق، من عهد الفراعنة، إلى عهد العبرانيين، إلى عهد الآشوريين، إلى عهد الفرس، إلى عهد العرب، إلى عهد الأتراك.
وعلينا ألا ننسى الصليبيين أموا هذه الديار. ومنذ أقبلوا والغارات علينا تتلو الغارات في الميادين كلها، في السياسة والأدب، فمن غزو إلى استعمار!.
ومن غزاتنا في أدبنا (بيير بنوا) القصصي الفرنسي فهو يفكر اليوم في وضع رواية فصولها جماعة الصليبيين وتدور حوادثها عليهم. فهم أبطالها وسادتها وحجر الزاوية فيها،
ولبيير بنوا أن يقول في الصليبيين ما شاء. فالقول ذو سعة، مخيلة الكاتب قد تأتيه بالمبتكر، ولكن هل عوّدنا بيير بنوا الابتكار؟. . .
كل ما رأينا من بيير بنوا لا يزيد على كونه مقتبساً، وهذا الاقتباس لا غبار عليه لو عرف الكاتب كيف يتلاعب به ويمنحه من قوة الخيال والجمال ما يرفع من شأنه ويزيد في قدره، أما أن يكتفي بالاقتباس دون أن يضيف إليه الابتكار المورق السمين فأي عمل أتاه؟. . .
وبيير بنوا ليس من المبتكرين في إنشائه ولا حوادث روايته فهو من الطبقة الوسطى في الروائيين، وفي طبقة دون الوسطى في المنشئين، حتى وإن يكن يكتب باللغة الفرنسية. فليس كل ما يكتب باللغة الفرنسية وبسائر اللغات الحية بليغاً عالي الديباجة باقياً على ممر الأيام. فكل لغة حافلة بالمبتذل السخيف. كل لغة يتلاشى منها معظم ما يكتب الكاتبون وينشر الناشرون. ولا يخلد من ثمار القرائح غير جزء من

عشرة آلاف جزء. وإذا بقي شيء من مواليد (بيير بنوا) الأدبية، فلا ريب بأن روايته (ربة قصر لبنان) - وقد استمدها من لبنان - ليست بذلك الجزء الباقي، فهي تحت رحمة الفتاء، وربما استطعنا أن ننعاها منذ الآن.

قد تبقى منه رواية (الاتلانتيد)، على أن رواية (الاتلانتيد) من سرقاته لا يمكن من مبتكراته. وكل تفننه فيها أنه انتقل بها إلى أفريقيا، إلى الصحراء، إلى تلك الديار القاحلة العجراء. وماذا يقال عنه فيها؟. . . يقال إنه صاحب (الاتلانتيد) ليس غير. وقد يجوز لك أن تقرأ (الاتلانتيد) كما يجوز ألا تقرأها. فإذا قرأتها خرجت منها صفر اليدين. وإذا وقفت عن قراءتها ربحت الوقت إن يكن الوقت عزيزاً عليك. وقد تسأل: كيف بلغت رواية (الاتلانتيد) هذه الشهرة العالمية؟. . . وجوابنا أن المؤلف أجاد بث الدعوة لروايته، فذاع لها الصوت العاطر في الأندية الأدبية جمعاء قبل أن تقف هذه الأندية على مضمونها. وشاق الذين طالعوها من الغربيين تلك الصبغة الشرقية فيها. وجاءت دور السيمياء ترفع من مكانتها. والحق يقال إن (الاتلانتيد) نجحت في عالم السيمياء أكثر منها في عالم الأدب.

واليوم و (بيير بنوا) يفكر في وضع روايته الصليبية سوف نرى أي وحي هبط عليه. أيدرك التوفيق أم لا يوفق، ونحن نرتاب في توفيقه لمعرفتنا شأنه الأدب ي. غير أننا لا نستطيع الإنكار أن الرجل من الغزاة الفاتحين. فهو يقبل علينا ينتزع منا موضوعاته الروائية ونحن نشاهد ما عندنا من كنوز ولا نكلف أنفسنا نبشها وإبرازها إلى النور. فالرواية في الأدب العربي الجديد لا تزال في المهد، مع أن الأعصر العباسية حفلت بها وراحت تفاخر العالم بثمارها اليانعة الشهية، ولا يبرح العالم يتذوق هذه الثمار وسيتذوقها ما دام الأدب وضاء الجبين.

وليت أدباء اللغة العربية يدركون اليوم شأن القصة، فتعالجها أقلامهم بما يعيد إلى الأدب العربي مكانته الأولى وعزه القديم. فالرواية حجر الزاوية في كل أدب، وفي كل نهضة، وفي كل دين!

بيروت

كرم ملحم كرم

صاحب جريدة (العاصفة)

لا تحزني. . .

بقلم جورج وغريس

لا تحزني يا سيدتي. فهكذا شاء القدر أن يدفع بك إلى محيط هذا العالم ذرة مضطربة من ذراته التي لا تستكين ولا تهدأ. كلما حضرني أمرك أيتها السيدة، شعرت بالألم يحز في قلبي، وأحسست بالحياة كلمة غامضة في سجل مبهم، ورأيت السعادة كذبة هائلة انحدرت من شفاء الأبالسة إلى آذان هذه الأجيال التعسة الحالمة. .

لا تحزني أيتها السيدة الكريمة، كفكفي دمعك لأنك لست بمستطيعة أن تغطي الأفق الوسيع بكفك الصغير، ولست بقادرة أن تحولي دون الريح وهبوبها، أو النهر وجريانه. . قبل أن تغرب شمس اليوم رافعة بأشطانها أوزار العالم وأوحاله لتقدمها إلى صاحب العرش الأعلى. . . . جاءني طفلك الصغير، وكأن أحزان العالم قد وسعها قلبه الغض وهو يلهث من التعب، وأخذ يبكي ويقول لي في كلمات يقطعها البكاء: (تعال لتخفف عن أمي. . . إنها حزينة من الصباح. . . إنها طريحة الفراش. . . باكية ومنتحبة. . . وكلما سألتها السبب قالت: إن أباك لم يعد. . . فمن يكون أبي؟ ومتى يعود. .؟ إنني لا أفهم ما تقوله أمي. .)

فيا رحمة الله أدركيني. . . بأي لسان ينطق هذا الطفل. .؟ أتستطيع ملائكة الرحمة أن تظل واجمة ساكنة؟ أتظنين يا سيدتي أن الرياح حملت فيما تحمل تلك الكلمات التي نطق بها هذا الصبي البريء. . .؟ كلا بل إنها ستبقى خالدة في نفسي ما بقيت. . . وستظل حائمة في فضاء هذا العالم لتصرخ في آذان الجيل بعد الجيل أن الإنسانية ما وجدت إلا لتشقى، وأنه ما من أرض إلا وزرعت فيها التعاسة، وما من حاصد فيها إلا وهو للبؤس ربيب. . .

من يقول لطفلك أيتها السيدة الحزينة إن أباه هو الشر الذي ولد الخير، والحبة النتنة التي أنبتت الزرع الجميل، والحشرة القذرة التي انبثق منها الشهد، والريح الخبيثة التي خلفت النسمة الطيبة، والغيم الحالك الذي بعث ببهجة الأرض، وهو اليد التي دفعت به

. . . .إلى الحياة. ثم تراجعت متخفية كاليد السارقة التي تأخذ غادرة ولا تعترف بعطاه
من يقول لطفلك يا سيدتي إنه ما من وليد من أمثاله إلا وله أب يرعاه بعنايته. أما هو
فيتيم وإن كان أبوه حياً يرزق، ولكنه يشاء اليتم لابنه ويريد العقم لنفسه، وليس وا أسفاه في
قوانين الأرض ما يرد تلك المشيئة أو يمنع تلك الإرادة، وليس وا أسفاه في نتاج
الإنسانية بعد جهاد القرون ما يخفت أنين الطفل وهو يسائل الحقيقة (من يكون أبى. .
. .؟)
يا سيدتي الحزينة - خففي عن نفسك فما أردت أن أثير أشجانك. . . دعي الماضي يمر
أمامك كالأطياف السريعة. . . ماذا يؤلمك وماذا يبكيك، وأنت ربيبة الألم ووليدة
البكاء؟. . . لقد كنت فتاة في منزل أبيك تقاسين من غلظته، وتعانين من زوجته،
وتشكين فراق أمك المطرودة البعيدة. . . وكما خرج موسى من أرض مصر، خرجت
أنت من سجن أبيك إلى دار زوجك، ولكنك لم تجدي في صحرائه مَنّاً ولا سلوى. .
فمسكينة أنت أيتها السيدة. . لقد رضعتِ الشقاء. والشقاء ما زال في أحضانك رضيعاً
. . .يترعرع. . . ورشفت الكأس وثمالته أشد مرارة
مسكينة أنت أيتها السيدة. بل مسكينة كل امرأة تعيش في كنف زوجها الغاصب، لأنها
لا تستطيع أن تلامس أطراف السعادة ولو كانت الجنة تحت قدميها. . . غريب أمر
الرجل في هذه الحياة، خلق الله له المرأة ليأتنس بها فخلق هو لها الوحشة، وجعل
الله له القوة ليحمي ضعفها فنازلها بقوته. . . ومنذ انحدر آدم إلى هذه الأرض
. . .والفضيلة والرذيلة تعتركان، أما الحق فمخبوء أبداً
لا تحزني يا سيدتي لأن الحزن لا يقدم من شأنك ولا يؤخر، فإنما أنت مخلوق ضعيف
أسلمته يد الأقدار إلى قبضة عاتية. . . وما دامت المرأة في دولة الرجال، فسوف لا
تعيش إلا ذليلة مسكينة. . . لأنهم يصنعون الشرائع ويحتكمون إلى أنفسهم ثم
. . .يحكمون
لا زلت أذكر يا سيدتي اليوم الذي أتيت فيه إلى جوارنا، وكان زوجك يتعهد هذا الوكر
برعايته، يبادلك الوفاء ويقاسمك السعادة، ولكنه كان متكلفاً في هذا العناء فقبل أن
يرى طفلك النور. انسل كاللص السارق ليعيش في الظلام. . . ومنذ ذلك الحين إلى
. . .الآن وزوجك مقبور في حفرة الأحياء، لا يتلمس النور ولا يتسقط الماء
ما أغرب هذه الطبيعة البشرية وما أعجب أمرها. . . إذا أصابها التقلب والتلون نسيت
ما فعله يومها في أمسها، وبَعُد خيرها عن شرها، وتنكر حاضرها لماضيها. . . فإذا
بصاحبها إنسان لا يستأنس، وإن كان الحيوان قد بدأ ينسى ما في أحط غرائزه من
. . .غدر وفتك وبطش
قومي يا سيدتي ورفهي عن نفسك فلكل بداية نهاية، ولابد لحقك أن ينتصر اليوم أو
غداً. لأن الألم الذي تعاني لم يحترق بمثل ناره قلب من قبل، والدمع الذي ينهمر من
عينيك الغائرتين على وجهك الشاحب لم تدانه في حرارته ما سكبته عيون الشقاء منذ
. . .ولادته
للمريض آلام وللفقير آلام، للمتعب آلام وللضعيف آلام، للغريب آلام وللطريد آلام. . .
وآلامك أنت أيتها الشقية المظلومة تسمو على كل ألم. فيجب أن تسمو نفسك بقدر
.سموها
ويجب أن ترفعي رأسك فوق الطوفان الذي يغمرك، وليكن مثلك في ذلك مثل الحادي
وراء الإبل يقطع الفيافي على قدميه، وقد أمضه التعب وأضناه الجوع وعضه الفقر،
. . .وهو يغنى أنشودة الحياة والحب والفرح
في بكائك المتواصل (قولي ما يقوله الفلاحون عن غيث السماء: هذا المطر كله
. . .حنطة)
في ظلامك الدامس تطلعي إلى الخيوط الرفيعة البيضاء التي تتراءى لك من وراء
. . .الأفق، وارفعي نحوها بصرك
قومي يا سيدتي. ولا تجعلي للألم سلطاناً على نفسك. فقد فعلت بك العلة فعلها. .
وارحمي طفلك الذي هوى على صدرك ليمزج أنات قلبه بدقات قلبك. . قومي يا
. . .سيدتي وهات يدك
. . .!قلت هذا بجوار سريرها. . ثم مددت يدي إلى يدها. فإذا بها باردة

يا لشقاء نفسي!. لقد كنت بكلماتي الأخيرة أخاطب الأرواح الحائمة حولي. . في استطاعة المرء أن يذكر كل ما يجول بخاطره، ولكنه ليس في استطاعته أن يقول كل ما يبدو لناظره.

أيها الرجل. . . لقد ماتت تلك المرأة!

إسكندرية

جورج وغريس

الأزمة كما يراها الاقتصاديون

بقلم عبد العزيز عبد الكريم

كانت الشعوب القديمة تشكو من القحط والجماعات. قال الله تعالى في كتابه العزيز في سورة يوسف: (وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات، يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي أن كنتم للرؤيا تعبرون). هذا ما رآه ملك مصر في منامه، فلم يعرف أحد تأويل رؤياه، وكان يوسف حينئذ في السجن، فاستدعاه الملك واستفتاه في أمر الرؤيا، ففسر يوسف المنام قائلاً له: إنه سيمر عليكم سبع سنين خصبة، فازرعوا فيها واخزنوا ما زرعتم وهو في سنابله إلا قليلاً مما تأكلون، ثم يعقبها سبع سنين مجدبة، تأكلون فيها مما ادخرتم.

وقد تطورت الآن وسائل المعيشة وأحوالها، وتبدلت طرق الكفاح في سبيل العيش، وارتقت الزراعة والصناعة والتجارة؛ فنشأت بازاء هذا التبدل مشاكل جديدة، وظهرت معضلات خطيرة. وأشد ما نعانيه الآن من النظام الاقتصادي الحالي هو الأزمة التي انتابت العالم بأسره؛ وقد خلقت للعالم مشاكل عديدة لا تنحل ولا تزول إلا بالسلاح.

الأزمة هي اضطراب فجائي في التوازن الاقتصادي؛ ولها أعراض وعلامات تشابه أعراض الأمراض التي تصيب الإنسان، فبعض الأزمات يقتصر على بلد واحد، وبعضها وبائي ينتقل في أنحاء العالم كمرض الكوليرا.

عرف الاقتصاديون بعد طول البحث أن ظواهر الأزمة وأعراضها هي في كل الأزمات تقريباً. وأول ما يشير إلى نشوء الأزمات تناوبها؛ فقد رؤى أنها تتبع بعضها بعضاً في القرن التاسع عشر بنظام منتظم عجيب، فبين كل أزمة وأخرى مدة تبلغ عشر سنوات أو اثنتي عشرة سنة، نصفها يمثل حالة صعود والنصف الآخر يمثل حالة هبوط، ويظهر ذلك في تقلبات الأسعار والأجور، وأسعار الفوائد.

ومن ظواهر الأزمة وبائيتها، ففي بادئ الأمر يزيد الإنتاج في إحدى الصناعات أو ينقص، ويتنقل هذا الاضطراب من صناعة إلى أخرى ومن بلد إلى آخر.

هناك ثلاث علامات خاصة تسبق الأزمة، وتعلن قرب حلولها:

(1) ارتفاع في الأسعار يدل على نشاط الاستهلاك، ووفرة الأموال المتداولة وسهولة الإقراض.

(2) ارتفاع في قيمة الضمانات القابلة للتحويل وخصوصاً الأسهم والسندات، ويدل ذلك على تقدم المشروعات التجارية وزيادة الإنتاج، وزيادة الحصص في رؤوس الأموال.

(3) ارتفاع في الأجور يشير إلى نشاط سوق العمل، وزيادة الطلب للعمال.

غير أنه بعد وقت ما، تتغير الحال وتنقلب حالة الصعود إلى حالة هبوط، ونجد أمامنا:

(1) تدهوراً في الأسعار: يدل على عجز الاستهلاك، وندرة الأموال المتداولة وصعوبة الأقراض.

(2) تدهوراً في قيمة الضمانات: يدل على تدهور الأرباح والحصص، وفشل المشروعات الكبرى الخطيرة، وسقوط يرافقه ارتفاع في سعر الخصم والقطع.

(3) تدهوراً في الأجور: يدل على شلل الإنتاج، ووقف طلب العمال، والأشارف على الوقوع في خطر العطلة والعاطلين.

والأزمات التي وقعت في القرن التاسع عشر تواريخها كما يلي:

1815

1857

1890

1827

1866

1900

1836
1873
1847
1882

وقد لاحظ جيفونز من هذه التواريخ أن الأزمات والت بعضها في خلال فترات ومسافات منتظمة تبلغ كل واحدة منها عشر سنوات تقريباً. وقد ظن أن الأزمات يرجع سببها إلى ظاهرة فلكية لا سلطان لأحد عليها. ولكن القرن العشرين قد دحض نظريته هذه، فإن أول
أزمة وقعت فيه كانت في عام 1907

اهتم الاقتصاديون بالبحث عن أسباب الأزمات، وأخذوا يبحثون عن علة توالي الأزمات وتناوبها، فاهتدوا أخيراً إلى الأسباب الآتية:

(1) وفرة الإنتاج - لا تنشأ وفرة الإنتاج إلا عن تقدم الصناعة الكبرى. فمن البديهي أن البضائع المعروضة في السوق سوف تزيد يوماً ما على حاجة الاستهلاك، ويصبح من العسير تصريف شيء ما من هذه المقادير؛ فينتج عن ذلك تدهور عام في الأسعار، ولكي يتجنب الصناع البيع مع الخسارة يحصلون على الأموال من المصارف، أو يبيعون الأسهم، فينشأ عن ذلك ارتفاع في الفوائد، وتدهور في قيمة الأسهم، حتى يصبح المال نادراً، وذلك راجع إلى زيادة السلع المعروضة. وسرعان ما يصبح هؤلاء الصناع في حال من الإفلاس والضنك يرثى لها.

وها قد رأينا كيف يسبق الإنتاج الاستهلاك، وكيف يقف الإنتاج عن السير عند حد معين، وكيف يسير الاستهلاك حتى يلحق الإنتاج، فيسبقه بدوره؛ وهذا السبق لا بد منه. فظاهر لنا في هذه الحال علة تناوب الأزمات: وكل أزمة يعقبها وقت تعوض فيه الصناعة خسارتها، وتنتعش حالتها، ويتجدد إنتاجها ليسد مطالب الأفراد الحديثة.

(2) قلة الاستهلاك - ويذهب بعض الاقتصاديين إلى أن الأزمات هي في الغالب راجعة إلى زيادة الإنتاج الناشئة عن شراهة أصحاب رؤوس الأموال الذين يحاولون استرداد ما فقدوه من الأرباح عن طريق الكمية؛ ولكن السبب الأساسي هو عدم كفاية ثروة أغلب المستهلكين - وأغلبهم من طبقة عمال اليومية - لابتياع ما أنتجوه وما صنعوه بأيديهم، فزيادة الحاجة إلى الصناع لتوسيع الإنتاج وزيادته، وزيادة عمال الأجور، وعدم القدرة على تسديد أجورهم، تؤدي إلى اضطراب التوازن في وقت من الأوقات. ويزيد الاضطراب وتشتد الأزمات حتى يحين الوقت الذي يقضي فيه على نظام الرأسمالية. فهذا النظام مقضي عليه بالفناء بسبب النتائج التي أدى إليها.

(3) زيادة الرأسمالية - اتفق الاقتصاديون على أن زيادة الرأسمالية أخطر من زيادة الإنتاج في إحداث الأزمات. إن المصانع الكبرى يلزمها ترتيب حركة دولاب العمل بتجهيز الآلات، والمناجم، والعربات، والسفن وغير ذلك. وإذا كان المصنع على أهبة الاستعداد للعمل، فقد يرسل غلالاً لا حصر لها إلى السوق. وليس في الإمكان وقف هذه الحركة متى رغبنا، لأن رأس المال ثابت لا يمكن سحبه بأي حال من الأحوال. تتدهور الأسعار تبعاً لذلك، وتفلس أكثر المشروعات، أو تستسلم للأمر، حتى تتصرف الزيادة بزيادة الاستهلاك نظراً لتدهور الأسعار.

والاقتصاديون يعتبرون أن قلة الإنتاج ليست سبباً من أسباب الأزمات أو ظاهرة من ظواهرها: فلماذا؟ ألا يضطرب الميزان الاقتصادي بقلة الإنتاج كما يضطرب بزيادته؟ بالرغم مما تحدثه قلة الإنتاج من البؤس والفناء والموت، وبالرغم من القحط والمجاعات التي سجلتها الحوادث المخيفة والشهيرة في تاريخ الشعوب كلها؛ فإن الاقتصاديين لم يجمعوا الآراء على أن القحط والمجاعات نوع من أنواع الأزمات، إذ ليس من خواصها التناوب، ولا ارتفاع الأسعار قبلها، ولا هبوطها بعدها.

أما علاج الأزمة: فيقف على نوع الأسباب التي أدت إليها. فإذا اعتقدنا أن السبب هو زيادة الإنتاج، وجب علينا أن نعمل على تحديد ذلك الإنتاج، فيمكننا توحيد الشركات وتضامنها، وتنظيم إنتاجها لنتمكن من منع زيادة الأسعار المطردة وهبوطها أيضاً؛ ويمكننا إيجاد حركة تعاون بين الشركات لتنظيم حركة الإنتاج تبعاً للحاجات لا تبعاً للأرباح.

ولو اعتبرنا أن سبب الأزمة هو أن طبقة العمال ليس لديها من الثروة ما يعينها على

زيادة الاستهلاك كلما زاد الإنتاج، كان من الضروري أن نبحث عن نظام يضمن للعامل نجاح كل ما ينتجه.

وإذا نظرنا إلى زيادة الرأسمالية، وجب أن نلجأ إلى المصارف إذ هي أكبر عضد لمساعدة الشركات وإمدادها بالأموال. قد تتدخل المصارف، إما برفع سعر القطع لديون الآجال المحدودة، إذا رأت أن سرعة التداول تزداد إلى درجة مقلقة، وإما بإنقاذ البيوت الكبيرة الوشيكة السقوط والضياع، إذا كان لسقوطها الأثر الفعال في إحداث الاضطراب وشل الحركة التجارية.

والأزمة الناشئة عن زيادة الرأسمالية تزداد وتشتد وطأتها بسبب الذعر والتشاؤم الاقتصادي. والتنبؤ بالأزمة يزيد الخطر ويعوقنا عن العمل على تلافيها، فما أجدرنا ألا نعتقد ذلك، فالخوف من الشر يولد الشر، والتفاؤل بالخبر يجلب الخير.

إسكندرية

عبد العزيز عبد الكريم

فصول مدرسية في الأدب الدرامي

الرواية المسرحية - 4

في التأريخ والفن

بقلم أحمد حسن الزيات

أجزاء أخرى للعمل

ذلك هو التقسيم الأساسي للعمل، وهناك تقسيم آخر أغفله اليونان واستعمله الرومان، وهو تقسيم العمل إلى فصول، والفصول إلى مناظر. فالفصول هي مراحل العمل أو درجاته، تفصل بين كل درجة وأخرى فترة تسمى استراحة، والمناظر أجزاء الفصل المختلفة، وتحدد بدخول ممثل أو خروجه. ولعلك لا تكتفي بالتعريف في شرح هذه الكلمات، فدونك شيئاً من التفصيل:

الفصل: لم يعرف الإغريق كما قلت تقسيم الرواية إلى فصول، وإنما كانوا يعرفون شيئاً يشبه ذلك في تمثيل ثلاث مآس في موضوع واحد، كل مأساة لها كيان مستقل عن الأخرى. أما اللاتين فقد قسموها إلى فصول حصرها هوراس في خمسة لا تزيد ولا تنقص. ففي الأول يعرض العمل، وفي الثاني يبسط، وفي الثالث يُعقد، وفي الرابع يهيأ حله، وفي الخامس يحل. ولكن جعل هذا التقسيم قاعدة مطلقة لا يخلو من ضرر. وإلا فماذا يصنعون في موضوع يعرض في منظر ويحل بكلمة؟ أيترك وهو طريف مؤثر صالح للتمثيل، أم يملأ بالتطويل والحشو حتى يكمل؟ وما حكمهم على مأساة أو ملهاة محكمة النسج لا تبدأ عقدتها إلا في الفصل الثالث، ثم يخصص لحلها الفصل الخامس؟ إن التعقيد هو جسم العمل وروحه كما علمت، فينبغي أن ينزل من الرواية في أوسع محل، بل يجب أن يكون كالتيه، مدخله العرض ومخرجه الحل. وأمهر الكتاب وأقدرهم من عجل بالتعقيد ثم طوله ما استطاع محكماً لقوته، متدرجاً في عقدته.

الحق أن جريان العرف بتقسيم الرواية إلى خمسة فصول ليس قائماً على أساس متين فيفرض، ولا هو خالياً من الفائدة الفنية فيرفض، إنما المرجع في ذلك كله إلى طبيعة الموضوع، فإذا كان قوياً غنياً يستطيع أن يملأ خمسة الفصول كان ذلك التقسيم أدعى إلى

انفساح العمل وتقوية الجاذبية وتحليل الأخلاق واطراد الحوادث من غير ضغط ولا اصطدام ولا مباغتة. وأما إذا كان بسيطاً لا يحتمل البسط ولا يقبل التطويل فخير لك أن تغلب حكم الطبيعة على حكم العرف فتتصرف في التقسيم تصرفاً يلائم الموضوع ويتفق مع الإمكانية ويعصمك من الحشو والتكلف. على هذا الرأي يسير الكتاب اليوم فتجد الروايات تتردد بين فصل واحد وخمسة. على أن الشرط الأساسي هو الدقة في هذا التقسيم حتى يحسن توزيع العمل، ويمكن تدرج الجاذبية في الفصول والمناظر بحيث يكون العمل كالساعة: فالحوار يرصد الثواني، والمناظر ترصد الدقائق، والفصول ترصد الساعات، لأنك إذا أرحت العمل في منظرين متعاقبين فترت الحركة وخمد الأثر. اقرأ رواية ترتوف لموليير - وهي منقولة إلى العربية - وراقب فيها سير العمل وتدرجه وتقسيمه تجسدها في كل ذلك المثل الأعلى تجسدها في كل ذلك المثل الأعلى. علام يدور العمل في هذه القطعة الخالدة؟ يدور إما على هتك الحجاب عن نفاق ترتوف وخبه، وإما على استيلائه على بيت أرجون وثروته، وحرمانه ابنه،

وزواجه من ابنته. فماذا صنع موليير في الفصل الأول؟ عرض على أنظارنا صورة المنزل الداخلية، وأرانا سلطان ترتوف المنافق على أرجون الساذج وأمه العجوز، وأطلعنا على سوء رأي الباقين من الأسرة في هذا اللئيم. أعلن كل ذلك في المنظر الأول فاشتبكت المعركة وابتدأ العمل بقوة. وفي الفصل الثاني حمل أرجون على الإقرار بطاعته العمياء لترتوف، وترتوف قد قطع ما بينه وبين بنيه وزوجه، وأفسد ما كان صالحاً من نفسه، وجعله يعلن أن ترتوف سيكون زوج ابنته، وابنته تحب فالير، ولكنها لك تجرؤ على عصيانه. ومن ثم نشبت المعركة المضحكة بين العاشقين. وفي الفصل الثالث كاد داميس بن أرجون يفضح أمر ترتوف، وأوشك العمل أن يشارف الحل لولا براعة المنافق وسذاجة أرجون، فاستحكمت العقدة وقويت الجاذبية بعزم أرجون على معاقبة بنيه بالخروج عن ماله كله لترتوف. وجاء الفصل الرابع فانكشف سر ترتوف وانجلى أمره لأرجون فهم بطرده، إلا أنه عارضه بعقد الهبة، وهدده بوثائق تتهمه وتجرحه، فاضطرب البيت ونال من أهله الهمم والجزع. وفي الفصل الخامس زاد الاضطراب، واشتد القلق حتى حانت ساعة الانقلاب فعرف الملك خيانة الماكر فقبض عليه وعفا عن أرجون. فأنت ترى أن العمل قسم بدقة، وأن الجاذبية وزعت بحكمة، وأن
الموضوع كان كافياً لتغذية الفصول فبرئت القطعة من الاستطراد واللغو
الاستراحة:
هي فترة بين فصل وآخر من فصول الرواية يقف أثناءها التمثيل وينقطع انتباه المشاهد، أما العمل الروائي فلابد من فرض استمراره خارج المسرح مجاراة للطبيعة والواقع، ومحافظة على شرط الإمكانية. فهي راحة للمشاهد وضرورة للمسرح، ولكن الممثل يجب أن يشتغل فيها، وإن كان في الواقع يستنشي هو أيضاً نسيم الراحة في ظاهر المسرح (الكواليس). ولا مناص للكاتب من أن يراعي ذلك وهو يُكوّن هيكل الرواية ويقسم العمل على الفصول. فلا يجوز مثلاً أن يحرك العمل عندما وقف في الفصل الأول. بل يفرض أن العمل قد قطع في أثناء الاستراحة مرحلة طويلة أو قصيرة على حسب الظروف، فحكمه في ذلك حكم مهندس البناء يرسم في تخطيطه الأماكن الفارغة والمشغولة ولكل منها نصيب من عنايته وتقديره. وبعد، فإن الاستراحة عظيمة النفع جليلة الخطر. وحسبك أنها أجل مزايا المسرح الحديث، اهتدى إليها فخفق بها مبدأ الإمكانية، ووثق بها عقدة الجاذبية. أما الإغريق فما كانوا يقفون التمثيل، وإنما كانوا يشغلون ما بين الفصول بالقيان (الخورس) وكان يساعدهم على اتباع هذا النظام اشتراط وحدتي الزمان والمكان. فلما تحلل المحدثون من سلطان هاتين الوحدتين وأجازوا لأنفسهم الخروج عن مداهما لم يكن بد من هذه الاستراحة يسدون بها خلل التمثيل، ويتقون بها ملل التطويل، ويفرقون ما بين الحوادث والواقع.
وأظن في هذا الكلام شيئاً من الغموض فإليك توضيحه:
لا شك أن في الطبيعة كثيراً من الأشياء لا يمكن أن تمثل على المسرح، ولا أن تغفل في الرواية، فإذا أسأنا تمثيلها أضعف الوهم المسرحي، وإذا أغفلنا ذكرها شوهت العمل الروائي. فلا مخرج لنا إذن من هذه الحيرة إلا الاستراحة، نفرض حدوثها في خلالها، ثم نكتفي بعد ذلك بذكرها. كذلك لا يخلو العمل المسرحي غالباً من تطويل لازم وتفصيل واجب يملان المشاهد ويَفُتّان في طبعه، وهو يأبى إلا أن يظل مشغول القلب متمتع الحواس بتأثير لذيذ قوي، فنستطيع إذن أن نوفق بين شعور المشاهد وحقيقة الواقع، بأن نعرض على المسرح ما يلذ ويؤثر، ونبقي للاستراحة ما يمل وينفر. بقى أن الكاتب بفضل الاستراحة يستطيع أن يحقق مبدأ الإمكانية الزمنية بفرضه حدوث
أشياء لو مثلت على حقيقتها لاقتضت من الزمن ما لا تتسع له مدة التمثيل
المناظر: المناظر هي أجزاء الفصل المختلفة كما علمت، وتحدد بدخول شخص أو خروجه، وليس لها عدد معين. ولكن لها قاعدة عامة، وهي ألا يبقى المسرح خالياً من ممثل حرصاً على الوهم واستبقاء للخديعة واستدامة للأثر. فإذا اضطر الممثلون جميعاً إلى تركه ليخلفهم عليه آخرون، وجب إما أن يوجهوا الخطاب إليهم، وإما أن يعلنوا دخولهم عليهم، حتى لا يدخل المسرح أحد أو يخرج منه دون أن يُعلن المشاهدون بسبب دخوله، أو يكونوا قد علموه من قبل حصوله. أما أن يخرج ممثلو المنظر

السابق ويدخل ممثلو اللاحق من غير مخالسة النظر ولا مبادلة الكلام فذلك إخلال بشرط الإمكانية
الأشخاص: يشترط في أشخاص الرواية أن تكون صفاتهم وعاداتهم (محلية) تلائم الزمان والمكان اللذين يعيشون فيهما، (مناسبة) تتفق مع عمرهم وجنسهم وطبقتهم، (ممكنة) لا تناقض التأريخ ولا التقاليد ولا الأساطير، (ثابتة) تلازم الشخص من بدء العمل إلى انتهائه، (متنوعة) لا تتشابه في شخصين، بل يختلف كل شخص عن الآخر في صفته وعادته، جارية مع العرف، فلا تكون شاذة ولا غريبة كوصف اللص بالكرامة، وقاطع الطريق بالشهامة، والسفاح بالنبل. وتلك نقيصة من نقائص المسرح الحديث.
أداء العمل
يحدث العمل في نفس الممثل فيؤديه بالعبارة مستعيناً بالإشارة. والعبارة تكون حواراً وقد تكون نجوى نفس. وبحث هذه الكلمات الأربع يحتاج إلى شيء غير قليل من الأناة والعناية
العبارة: الأسلوب الروائي هو أسلوب الحديث النبيل المونق. فشرطه أن يكون طبيعياً لا تفسده الصناعة والتعمل، حياً لا تخمده الغثاثة والتبذل، بسيطاً لا تعقده الروية والتأمل، ملائماً تتناسب لهجته مع نشأة المتكلم وتربيته وطبيعته وعادته وموقفه. ولن يتسنى للكاتب أن يحقق هذه الشروط إلا إذا نسى نفسه وفنى في أشخاصه، فيطرح المقاطع الوجدانية والمحسنات البديعية والتشابيه الغريبة من كل ما ينم على الدرس والبحث والتحذلق. اللهم إلا المأساة بنوعيها فأنها تقتضي الأسلوب الرائع، واللفظ المختار، واللهجة المؤثرة، لعلاقتها بالوجدان وصلتها بالعواطف. والبيان كان وما زال شرك العقول وسحر القلوب. وأكثر المآسي لم يضمن لها الخلود إلا روعة الأسلوب وبلاغة الأداء. ولقد أخطأ بعض الروائيين
القصد فغلَّبوا جانب الحركات والإشارة، على جانب الكلمات والعبارة، فوجهوا التأثير للعيون لا للقلوب، وهيأوا الرواية للتمثيل لا للقراءة. وفاتهم أن العمل المسرحي مؤلف من الكلام والحركات. فلا الممثل متكلم لا غير كالمحدث، ولا هو متحرك لا غير كالخيال الشمسي، وإنما الكمال أن يُعنى بالطريقين جميعاً، فما كان من العمل قوياً مادياً علمياً أدته الحركة، وما كان منه جليلاً دقيقاً عميقاً كآثار العادات وصور الأخلاق وتباين العواطف وتضارب الأهواء وتعارض المنافع شرحته العبارة. فظواهر الغيرة والاشمئزاز والغضب تستطيع الحركات والملامح أن تؤديها واضحة جلية، ولكن تحليل القلب البشري وهو سر الجمال في أدوار ديدون واريان وفدر وهرميون لا يضطلع به إلا البيان المعجز. وهل يعلق بذهنك من القطعة الفنية بعد تمثيلها غير مواقفها الشعرية القوية التي أوحاها اليراع فانتقشت في لوحة ذهنك؟
إن العمل الروائي يتجه إلى العين أو إلى القلب تبعاً لطبيعته وملاءمته للبلاغة أو التصوير، ولكن الأثر الذي يحدثه في النفس عن طريق الأذن أهدأ وأبطأ ولكنه أبقى وأعمق، أما ما يحدثه فيها عن طريق العين فهو قوي فجائي سريع، ولكنه قريب الغور قليل البقاء، لأن الأذن إنما تنقل الفكرة وهي نامية ولود، والعين إنما تنقل الإحساسة وهي جدباء عقيم. ذلك إلى أن القطعة إذا قامت على الحركات فحياتها ومماتها رهن بقوة المسرح وقدرة الممثل. ولك فيما تشهده على المسارح المصرية من روائع الفن الغربية دليل قائم على صحة ما نذهب إليه، فإن بعض المتعسفين من أدعياء الكتابة ينقلونها نقلاً لفظياً، فيهدمون فيها ركن البلاغة وهو عمادها الأقوى، فتثير الضحك وهي فاجعة، وتستوجب الهزء وهي رائعة!!
ولا يقعن في بالك أنا نريد أن نضع من قدر الحركات أو ننكر أثرها في الفن، فإن ذلك ليس في حسابنا ولا هو مفهوم من كلامنا، وإنما نريد أن يوفي الكلام حقه من العناية أيضاً حتى تقوم الرواية على قدميها فلا تسير عرجاء ولا شوهاء
بقي علينا أن نعرض لمسألة دقيقة خلقتها فوضى الأدب في مصر، ودعوى كل أديب حق التشريع لهذه اللغة الأسيفة، وانصراف القادرين من الكتاب عن الأدب المسرحي انصرافهم عن كل جليل مثمر. تلك هي لغة الرواية! فقد يزعم بعض الكاتبين أن لغة المسرح
المصري يجب أن تكون العامية تثبيتاً للون المحلي وتحقيقاً لشرط الإمكانية. وكل ما يمكن أن يقولوه تأييداً لمذهبهم إن العامية لغة الأشخاص التي سايرتهم في كل سن،

ولابستهم في كل ظرف، فعبرت عن خلجات نفوسهم ونبضات قلوبهم، وأنها حملت خلاصة تجاربهم وثمرات قرائحهم من لطيف الكنايات وبديع الأمثال وبليغ الحكم، وأنها مرآة لبيئتهم انعكست عليها صور حياتهم ومظاهر معيشتهم، وأنها أكمل دلالة وأسهل إبانة عن التصورات الجديدة التي تخرج من أعماق النفس أو تدخل في ثنايا الحوار. ذلك كلام وجيه لا غبار عليه ولا نكير فيه، وما يسوغ في رأينا أن ننقصه وقد قررناه من قبل. ولكن ليقولوا لنا متى طبق قانون الإمكانية بنصه على اللغة والأسلوب؟ إن الناس في كل زمان وفي كل مكان لا يتكلمون في الواقع كما يجعلونهم يتكلمون على المسرح. وهذه جميع المآسي ومعظم الملاهي قديمها وحديثها مكتوبة بالشعر الرصين، ذي اللفظ المنضد والأسلوب الفخم، فهل يزعمون أن أشخاصها كانوا في الحقيقة يتحاورون بالشعر ويتجادلون بالمجاز؟ أم يزعمون أن لغة راسين وشكسبير وهوجو وجوت وهي نموذج البلاغة للكتاب، وموضوع الدراسة للشباب، كانت لغة الشعب الذي كانوا يمثلونه أو يمثلون له؟ وإذا جاز لهم أن يجعلوا الفرنسيين والإنجليز يتكلمون على المسرح المصري بلسان عربي، فلم لا يجوز لنا كذلك أن نجعل خاصة المصريين بل عامتهم أيضاً يتكلمون بلهجة عربية فصحى، وهي أقرب إلى هؤلاء منها إلى أولئك؟ ليفرضوا أن العامية لغة أجنبية ننقلها إلى لغتنا العربية، وليغضوا على تلك القذاة الضئيلة ابتغاء رقي اللغة ونهضة الأدب وتعليم الشعب. إن الفن الحقيقي أبدى خالد، ومن المحال أن تخلده لغة جيل واحد، ولهجة قطر واحد، لأن العامية تتغير من جيل إلى جيل، وتختلف في قطر عنها في قطر. ونحن لا نريد أدباً مصرياً فحسب، وإنما نريد أدباً عربياً يمثل حضارة مصر وثقافة المصريين، وينقلهما إلى الأقطار النائية، والأجيال الآتية

على أن أحداً من الناس لم يقل بأن المسرح لابد أن يعرض الحقيقة جرداء عارية، بل المعروف أن من واجبه أن يحسنها بالخيال ويزينها بالكذب، وفي ذلك التحسين والتزيين سحره وجاذبيته. والمشاهد ذاهب إليه وفي نفسه أنه سيخدع، وهو راض بهذه الخديعة ما دام فيها لذته وفائدته، ومن قواعد المسرح أن الصدق يتوخى فيما يؤثر في الذهن والنفس

من الأفكار والعواطف، أما ما يؤثر في السمع والبصر فلا بأس فيه من الكذب؛ فشكل الأسلوب من النظم والنثر والعامي والفصيح كشكل المسرح من المناظر والستائر والأضواء والأصباغ، تعرف الآذان والعيون أنه صناعي مختلق، ولكن الأذهان والنفوس لابد أن تتأثر لما يقع في الإمكان من المواقف والعواطف والأخلاق والعادات

إن المسرح مهبط البيان ومورد البلاغة وطريق النفوس إلى الجمال والخير والحق، فليس من غايته التأثير واللهو، وإنما يعمد إليهما تخفيفاً لثقل الحكمة عن النفوس كما يساغ الدواء الشديد المرارة بالسكر أو العسل. فإذا لم يخرج المشاهد من المسرح وهو أوفر علماً وأرجح حلماً وأحسن حالاً من قبل أن يدخل فقد أخطأ المسرح غرضه وضل طريقه. ولعمري كيف يستطيع أن يرفع النفوس في مراقي الكمال، إذا لم يترفع هو عن حقارة الحياة العامية، ويصور للناس المُثل العليا من الجمال والفضيلة فيرتفع الشعب إلى سمائه، بدل أن يسف هو إلى حضيضه ودهمائه؟ وعافني نشدتك الله من احتجاجك على بنجاح الرواية الفلانية وهي مكتوبة باللغة العامية، فإن نجاح الرواية لا يقدر بما تستدره من المال والدموع، وإنما تقدر بما يبقى في نفسك منها بعد أن يسكن الممثل وينسدل الستار

إن الضوء الباهر يبقى أثره في العين ملياً بعد اختفائه، والنغم الجميل يرن صداه في الأذن طويلاً بعد فنائه، وكذلك الفن الساحر يستولي على نفسك وحسك حيناً بعد انتهائه. فهل تجد الأمر في هذه الروايات كذلك؟ أم الحقيقة المخجلة أن أكثر هذه القطع تسود في ليلتين وتمثل في ليلة، ثم تذرو أوراقها عواصف البلى والعدم؟!

يتبع

(الزيات)

مثل أوربي لعرفان الجميل!

منزلي هو منزلك

(قصة مقتبسة عن تمثل آراء هؤلاء الأوربيين الذين يعيشون بيننا، ويأكلون خبزنا ثم يجزوننا عن الكرم لؤماً وعن المعروف نكراناً)

- الشرق، آه على الشرق!
همست الفتاة بهذه الكلمات، وقد رأت رودلف فالنتينو في رواية الشيخ.
وكان بير ازناي المدرس في تجهيز فالاندر قد طوّحت به الحاجة مرّة إلى مصر فكان معلماً في المدرسة العلمانية الفرنسية في (النزهة؟) ولبث فيها عشر سنين. ثم عاد إلى فرنسا منذ عشرة أشهر، وليس في جيبه شروى نقير، ولم يربح إلا حكايات وتجارب حملها معه من الشرق، فلما سمع مقالة الفتاة اغتنم الفرصة فقال:
- الشرق يا سيدتي؟ هل تحبين أن أقصّ عليك حادثة وقعت لي فيه، إنها مأساة هازلة عن الصداقة العربية. كان في مدرستي الفرنسية عشرون معلماً أوربياً ومعلم واحد عربي، عربي قحّ، ذو وجه أسمر مستطيل، يلبس القفطان والجبة الواسعة، ويبدلهما كل يوم بلون جديد. وهو مدرس للغة القرآن - الإجبارية في مصر - ومعرّض دوماً لاحتقار الأساتذة الأوربيين الذين يرون أنفسهم أرفع منه، فلا يتنزلون لمصاحبته.
أما أنا فكنت أحييه التحية المعتادة لا أبالي بسخط زملائي ودهشتهم، ولا بدهشته هو المسكين الذي ما كان يجرؤ على رد تحيتي إلا بابتسامة عريضة، ونظرات ملؤها العطف والاحترام. ولا تمتد صحبتنا إلى أكثر من هذا، لأنه لا يعرف كلمة من الفرنسية، ولأنني أجهل العربية إلا المائة كلمة التي لابد منها للسير في الشارع مثل عندك هنا عربجي اسمع فين شارع فؤاد.
ثم شاء القدر أن تلتقي مرّة في شارع فؤاد صباح يوم من ديسمبر حار ملتهب كأنه الظهيرة من أغسطس في فرنسا، وكان معه ابن عم له أقل عروبة منه، له إلمام بالإنكليزية. إلا أننا لم نكن نتفاهم إلا بصعوبة، وكان علينا أن نفترق، ولكن رغبتي في تعرف الحياة الشرقية وضجري من الوحدة أبقياني معهما. والفضل في بقائي لابن عمه هذا. . وللغة الإنكليزية (وأي إنكليزية؟.) ولم تكن إلا أيام حتى كنا أصدقاء.
كان طيب القلب، بسيطاً محبباً، ولكن فيه شيئاً من العنجهية والجفاء، وكنا نذهب كل خميس وكل أحد إلى النزهة جميعاً: أنا وهو وابن عمه، فنزور معاهد النزهة ومتاحفها في عربة أو سيراً على الأقدام.
وكان ابن العم كثيراً ما يتخلف عن الموعد، هرباً من مهمته الشاقة في الترجمة بيننا، فنبقى وحيدين، وتصوري موقفنا إذن: نسير جنباً إلى جنب ونحن ساكتان، نتبادل النظرات في ابتسامة ساخرة حزينة! ونسلم على المارة، وكنت قد تعلمت التحية العربية، وهي الإشارة باليد إلى الجبهة والشفة والصدر، رمزاً إلى أن الصداقة تشغل العقل بالتفكير، واللسان بالنطق، والقلب بالعاطفة، وكان صاحبي يتعلم بالفرنسية، ولكنه كان يحفظ مقطعاً واحداً في كل ساعة بعد أن أردده عليه مرات ويعيده علي محرفاً، فأشكره بابتسامة.
وكنا إذا بلغنا مسجداً ودخل هو وقفت أنا على الباب أستشعر الزهو بأنني رومي لا كالأورام، وأنني صديق الشيخ، وأنني تشرفت بالوقوف في عتبة قبور الصالحين.
وكان مساء السبت، وكنت في المدرسة، فدنا مني أحد الطلاب وأعطاني رسالة من الشيخ، مكتوبة بالفرنسية باللغة التي يحسنها طالب صغير، ففتحتها فإذا فيها:
(يا صديقي الغربي العالم الفاضل، تفضل بالمجيء غداً إلى داري الحقيرة، لنتناول الغداء معاً، واعلم أن منزلي هو منزلك. . .)
منزله منزلي! ولكن من الظهر إلى الساعة الرابعة، وطعامه طعامي، وكنت وا أسفاه مضطراً إلى الإجابة، لأن أي رفض مني يكسر هذا القلب الطيب، ولا أنسى ما حييت تلك الأكلة المنحوسة وهي التي يسمونها (الملوخية)، ولا أنسى كيف يأكلون من غير صحاف ولا شوكات، إنما يغمسون خبزهم جميعاً في صحفة واحدة، وكان على أن آكل بأصابعي هذه الدجاجات المحمرة التي أكرمني بها، وجعل نصيبي منها اثنتين. وقد ذهبت من الدعوة رأساً إلى الفراش، فلبثت ثلاثة أيام مريضاً!
ورأيت في هذه الزيارة عقيلة الشيخ سافرة، لأن المعلم كالقس ليس كالرجال، ولا ضرورة للتحجب دونه (هكذا. . .)
وتوثقت صداقتي مع الشيخ، فعرفني بالقاهرة وحياتها، ولم يكن غنياً، غير أنه لم يمكني من فتح كيسي مرة واحدة حينما أكون معه، بل يكون السابق إلى دفع الحساب المطلوب، كنا

نزور الأهرام، ونجول في القاهرة وهي أشبه بعشرين مدينة مجتمعة منها بمدينة واحدة، بل هي عالم لا بد لرؤيته من ثلاثة أشهر. أما أنا فقد لبثت فيها مع الشيخ مدة قصيرة وإن أنس ذكراها لا أنس وقوف القطار بنا يوماً في المحطة، ورؤيتنا قريب الشيخ ينتظرنا ومعه البلح والبرتقال والموز المصري الصغير وغير ذلك مما لا أدري من أين أتى به، وما كنا نتحدث إلا بالابتسامات والجمل المقطعة والإشارات، كأن صداقتنا صداقة صامتة تتكلم فيها القلوب لا الأسنة، ولما اعتزمت العودة إلى فرنسا، في منتصف تموز، ودعني على المحطة وألقى عليّ نظرة كلها حب وعطف، وقال لي: إلى الملتقى! ولا تنس أن منزلي هو منزلك. ثم اختفى بين الجموع وإنساني البحر الواسع، وشواطئ الوطن المحبوب كل ما عداهما.

فقالت الفتاة:

- أهذا هو الشرق؟ يا ضياع أحلامي!

فهز الأستاذ كتفيه، وعاد يقول بصوت خافت: وبعد أمد من رجوعي عينت مدرساً في مدرسة ماجيدي الثانوية في الألب، فلبثت فيها مدة، وتزوجت فيها، وكنت جد مشغول بأمور المدرسة، حتى أنه لم يكن في وقتي ساعة واحدة خالية، وإذا أنا ذات يوم أفاجأ بكتاب عليه خط رديء، وطابع من طوابع (النزهة)! فإذا هو من الشيخ، وإذا هو يخبرني بمجيئه مع امرأته وولديه ليقضي عندنا عدة أشهر، كأنما جاء يتقاضاني بدل ما أحسن إلي، وتصوروا وقع هذه المفاجأة على امرأتي التي أغمي عليها من شدة الدهشة، ولم أر أبداً من الانغماس في هذه المهزلة، ولا سيما وأنهم أبحروا دون انتظار جوابي.

نزلت إلى مرسيليا أنتظرهم، فوجدت شيخاً غريباً في سراويل متهدلة وطربوش، ومعه امرأة ضخمة، على رأسها منديل أسود وإلى جانبها بنت صغيرة. واتفق أن تفتحت أبواب السماء يومئذ فهطل المطر غزيراً، حتى شعرنا أن السماء قد هبطت على الأرض فدخلنا مقهى قريباً، ولكن البنت ارتاعت منه، فملأت الدنيا بكاء ولم تشأ السكوت، وأخيراً أزفت ساعة القطار فركبناه إلى ماجيدي، والناس يرمقونني يحسبون أني أنقل إلى البلد (سركا) غريباً. وبلغنا المنزل، فكان استقبال زوجتي بارداً، وجاءت ساعة الطعام، فلم تألف أيديهم الأكل بالشوكات والصحاف، وانتشروا بعد الطعام في قاعة الأكل وفي الغرف المجاورة، وبكى الطفل بكاء شديداً، فبكت زوجتي أيضاً، ووقعت أنا في حيرة بينهما، فلعنت الشرق ومن شاد بذكره.

ولما كانت صبيحة الغد سمعت وأنا نائم أصواتاً غريبة تمتزج بأحلامي، فصحوت فإذا بزوجتي ترقص أمام السرير، وتغني وتصيح: لقد سافروا يا بيير، لقد سافروا!. .

ونظرت فإذا الشيخ قد ترك لي بطاقة صغيرة، فيها جملة واحدة عربية، حملتها إلى من يترجمها لي، فإذا فيها: - وداعاً! لقد علمت الآن أن منزلك ليس منزلي دمشق.

(ذو الطاءين)

ناحية خفية من نواحي السودان

القعب

مصحة ومصيف جميل

بقلم أبو القاسم محمد بدري

القعب واحة مشرفة بين صحراء محرقة، يشتد بها الحر ويعنف فيها القر، تكاد تصعب فيها السكنى وتستحيل الإقامة، لولا أن الله وهب لنا تلك الواحة البهيجة، والروضة النضرة، فتوقت إليها السكنى وطيبت بها الإقامة وحببت فيها الحياة.

ليس القعب واحداً في عدّه، ولا شاسعاً في بعده فهو عدة واحات متقاربة الأطراف مختلفة الأسماء، متحدة المنفعة والدواء، سُميت بالقعب في مجموعها، ولكن لكل قعب منها اسم خاص به، كقعب اللقية وهو أشهر، والسواني، وأبو نمل، وما إليها، مما يبلغ العشرة أو ينيف عدّاً.

يشغل القعب جزءاً كبيراً في الجزء الغربي من مديرية دنقلا، ويبعد عن النيل بضع ساعات، ويسافر إليه بالمطايا نظراً لقلة السيارات في هذه المدينة، ولكنها ستعم في المستقبل القريب كل أنحائها ولا سيما بعد أن انتظم طريق المواصلات بالسيارات بين مديريتي دنقلا وحلفا. ولا يفوتنا أن مشقة السفر هذه لا تمنع الوصول إليه على متون

الإبل بأجرة زهيدة وزمن وجيز، وخصوصاً إذا توجه المسافر إليه من مدينتي دنقلا وأرجو، أو من إحدى القرى المنتشرة بينهما على طول الطريق، ويبتدئ موسمه عادة في آخر فصل الصيف في الزمن الذي يقرب أو يتم فيه نضج البلح الذي له - على ما يزعم البعض - أثر كبير في الشفاء وصحة البدن، ويصنع منه شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس، منه ما هو سائغ الطعم لونه أصفر مشرب بحمرة، حلو لذيذ لا يسكر، يسمى (الشربوت) ومنه ما هو مُر المذاق حائل اللون يسكر في الغالب، ويطلق عليه (الدكاي) وكلا النوعين مفيد للصحة، محدد للنشاط، مقو للبدن.

والقعب بلدة طيبة المناخ غنية خصبة الثرى وافرة النعيم، يؤمها البدو صيفاً ويرحلون عنها شتاء ينتجعون الكلأ والماء، ويطلبون الغنى والثراء من أكف المرضى وأيدي السائحين

الذين يفدون إلى القعب زرافات ووحداناً من أقصى جهات السودان وبعض البلدان الأخرى. يقاضونهم أجراً على عملهم ومسكنهم، ويمنحونهم فيضاً من نعمهم. وفضلهم، على أن هاته الأجور وتلك المنح لا يأخذونها من جراء الكراء وتملق النزلاء وحب الاستجداء، كلا، ففطرة البدوي الصميم تأبى عليه أن يتطلب الغنى والجاه من سبل كهذه، لولا أن حاجات العيش الملحة ومطالبه الكثيرة ترغمه على أن يتقبلها كارهاً طائعاً إذ لا سبيل لعيشه بدونها؛ وهو لسمو نفسه وكرم يحتده لا يقبلها إلا بعد أن يرهق بدنه في هناء ضيفه وخدمة نزيله لما رُكّب فيه من طباع الكرم والنجدة والمروءة، وبعد أن يقدم له قرى فاخراً وهدايا جميلة من حمر النعم، وطيب الغنم، ومشتهى الأزاذ، وهي كل ما تصل إليه يد ذلك البائس الكريم، والبدوي إلى ذلك لطيف المعشر بسام الثغر، سريع البدار إلى لقاء الزوار، يستقبلهم بطلاقة ويحييهم يبشر، ويستدبرهم بكرم غيب وطيب ذكر، تلمح في وجهه سمات السذاجة المشوبة بالجهل، وآيات الوداعة الممزوجة بالأنفة والإخلاص مع بساطة عيش وهدوء نفس، وصبر جميل على معاناة النوائب والشدائد.

وهؤلاء البدو لا يختلفون - عادة - عن باقي العرب في أساليب العيش والسكنى وطرق التفكير والتدبير في شئون الحياة، فعيشهم تغلب عليه البساطة، يعتمدون في غذائهم على الألبان واللحوم وبعض التمر والحبوب، أما مسكنهم فحقير متواضع، مصنوع من القش والوبر وخشب النخيل، إلا أنه مع تواضعه وحقارته نظيف الحجرات بارد الظل والنسيم، بديع الشكل. ويعتمد البدو كثيراً في جلب قوتهم على الاحتطاب، وهو أهم موارد رزقهم لفقر بلادهم المجدبة التي لا تصلح أن تكون إقليماً زراعياً مع خصوبتها لندرة الأمطار وصعوبة الري.

وأرض القعب رملية ناصعة تصمد طوراً حتى تكون نجداً، وتهبط آخر حتى تنحدر إلى وهد أو سهل فسيح تنتشر فيه هنا وهناك كثبان الرمل المتقاودة، وقد قامت فوقها أشجار النخيل الباسقة حانية أغصانها الخضراء المورقة فوق سفح الوادي وحول حافة الينبوع، ومن بينها تتدلى أقناء البلح موشاة بصفرة الذهب وحمرة العقيق، فيتكون من ذلك منظر طبيعي جميل تتجلى فيه الطبيعة بأجلى معانيها وأروع صورها الفاتنة الساحرة. هناك تحت ظلال النخيل وفوق الرمال وحوالي الينبوع، حيث تخلد النفس إلى الراحة وتنعم بالهناء

والصفاء، تحسن المتعة وتطيب المسرة ويلذ الأنس، بل هنالك وحده يصفو العيش، وتسعد الحياة ويحلو المقام. .

وكأني بك وقد جلست عند الأصيل فوق ربوة عالية تسرح الناظر وتمتع الخاطر بمشهد الغزالة عند الغروب، وهي تستل أشعتها الشاحبة من أحضان الوادي الكئيب بعد أن زفت إليه تحية الوداع، وبعدما ألقت عليه نظرة ساجية تفيض بالألم الممض والحزن العميق. أو نهضت من فارشك مبكراً فألفيت الشمس تهبط من خدرها باسمة مشرقة تشيع الحرارة وتنشر الضياء، وتبعث الحياة في جوف ذلك المهمة القفر، وبين جوانب الطبيعة الصامتة، فيستيقظ الطير من سباته الطويل ويصدح بأغاريد الصباح بنغمة سحرية أخاذة وصوت عذب حنون. وهنالك حول الينبوع النمير وبين مدارج السبل ترى فتيات البدو السذج في ثياب فضفاضة وقد بدون سافرات الوجه في صورة مليحة تسحر اللب وتستهوي القلب، لم تعبث بها يد الحضارة الفاسدة، ولما تنل منها مظاهر التجمل الخادع والتكلف المزري الشائن، خرجن يردن الماء وبأيديهن الجرار وهن

ينشدن نشيداً يدوياً ساذجاً في لفظه حلواً في معناه، فتمتزج تلك الأغاريد العذبة بهاته الأناشيد السحرية فتتولد منها نغمة قوية مشجية هي كل ما في تلك الطبيعة الجافة الغليظة من موسيقى رائعة، وصوت رخيم. في المساء، وما أسعد سويعات المساء في ليالي القمر البيضاء، إنها والله داعية أنس ومسرح لبانة، ومذادهم، ومعهد سرور. وما أجمل تلك السويعات التي تنفقها في السمر مع بدوي ساذج وديع، يجلس معك ويسمع منك، ويتحدث إليك بأحاديث ممتعة خالية من الحقد والحسد والنميمة. أو تلك التي ترتاد فيها مواطن الرقص في سبيل لذة بريئة، ووراء متعة طاهرة، حيث ترى الفتيان يصفقون والفتيات يغردن، والكل يقف في حركة مستديرة ومن بينهم الراقصة النحريرة، ترقص على توقيع الدف ونغمات العزف، وتتمايل في حركات ريفية واهتزازات بدوية تستلهمها من فن الطبيعة، وتستوحيها من جمال الطبيعة، ولكنها مع سذاجتها وبساطتها بديعة، لأنها صدرت عنها عفو الخواطر، وبدرت منها دون تكلف في الظاهر، وقد يستمر هذا الأنس حتى مغيب القمر ومطلع السحر، وفي النهار تشغل الوقت في عملية الدفن، وماذا عسى أن تكون عملية الدفن هذه؟ وهل هي نوع من أنواع التسلية أو وسيلة من وسائل المعالجة، أو ضرب من ضروب الرياضة؟ وهل اتخذت المعالجة

بالقبر طريقة للحياة؟ وليس بعجيب أن تنشأ من القبر الحياة كما قد يطغى على الحياة القبر.

إن عملية الدفن هذه ضرورية للقعب ضرورة (الحمام) للمصيف و (الدفء) للمشتى. ولا أعدو الحقيقة إن قلت إن أثرها في جلب المنفعة ودفع الداء أبعد من ذلك وأسمى: فهي بمثابة العلاج الناجع والدواء الوحيد لشتى الأمراض التي استعصى علاجها بالعقاقير والأدوية المختلفة. وكم من مريض لصب جلده من الهزال، وارتهكت مفاصله من الإعياء، وطحطته العلل والسقام، وكان إلى الموت أقرب منه إلى الحياة، جاء إلى القعب ومكث به قليلاً فاستحال هزاله سمناً وضعفه قوة، وتجددت فيه قوى الحياة المضمحلة، وانتعش فيه روح الأمل البائد. وأنواع الأدواء التي يمكن علاجها في القعب عديدة، منها ما هو عضال يصعب علاجه، وما هو وسط يخشى استفحاله، وما هو يسير يسهل استئصاله. وهي في الغالب كل أنواع الأمراض العصبية والروماتزم (داء المفاصل) وبعض العلل الباطنية المزمنة، والشلل بنوعيه الجزئي والعام. . الخ. ومهما يكن من شيء، فعلاجها أمر موكول إلى التجربة والاستقصاء أكثر منه إلى شيء آخر. على أنه قد يشفى منها الكثيرون بعد ما يقطع الأمل في شفائهم. ولا يزال الأطباء في حيرة من أمر القعب لم يهتدوا حتى الآن إلى معرفة حقيقته معرفة تامة تستند إلى البحث العلمي الصحيح، وقد اكتفوا من ذلك بالإشارة إلى جودة هوائه وصحو سمائه، وأثرهما الحسن في نفوس المرضى، وإسداء النصح لمن يستشيرهم في الذهاب إليه من ذوي العاهات والأمراض. وللناس أقوال متضاربة وإشاعات عديدة يتناقلونها ويروونها عن القعب. فمنهم من يذهب في القول إلى أن مصدر قوته السحرية هذه إنما هي عذوبة الماء، ويزعم أناس أنها جودة الهواء، ويجزم فريق آخر أنها أكل الأزاذ والشواء. وعلى كل حال فحقيقة القعب لا تزال غامضة حتى يستجليها البحث والاستقصاء، ويتولى ذلك نخبة من شبيبتنا المثقفة تحت إشراف الحكومة وبتعضيد الشعب. وبالمناسبة ألفت نظر الجميع إلى وجوب العناية والاهتمام بشأن القعب، وذلك طبعاً بتوفير كل معدات الراحة والرفاهية، وتشييد المساكن الفخمة، وتنظيم طرق المواصلات حتى يسهل السفر إليه والإقامة فيه، فيكثر بذلك عدد المصطافين والمرضى، وحينئذ نحصل على مورد لا بأس به من موارد الرزق نصلح به أحوال البلاد خصوصاً هذه المديرية البائسة في مثل هذه الأزمة الطاحنة

ولعلك تشتاق إلى معرفة طريقة الدفن، ولشرحها نقول في إيجاز: تشق الأرض على شكل أخدود أو حفرة أو قبر أو كما شئت فسمه، ثم ينصب حول هذا القبر المزعوم سياج من أعواد النخيل يسقف ويغطى من الجوانب بأغطية كثيفة تحجب أشعة الشمس عنه، ويكون في شكله أشبه شيء بالتابوت، ويترك حتى يبرد أديمه، ثم يأتى بالشخص المراد دفنه، وبعد أن يجرد من جميع ثيابه يضطجع ويهال عليه التراب ويدفن كل جسده ما عدا رأسه ووجهه، ويستمر على هذه الحال بضع دقائق يضيق خلالها نفسه، وتسري في جسمه حرارة خفيفة في بدء الأمر تأخذ في الاشتداد كلما طال

مكثه، ويشرع في إخراجه متى بدت عليه مظاهر التعب والضيق. والمدة المحددة لدفنه تستغرق ما بين عشر دقائق وخمس عشرة دقيقة. وبعد خروجه من ذلك القبر يكون مغبر الصورة معفر الوجه والبدن ملبداً بالتراب الممزوج بالعرق في شكل يثير منك الضحك والعجب وبعد الانتهاء من الحمام يشعر بخفة في بدنه وسرور يغشى نفسه، ويلتهم بعد ذلك طعامه بشهية ونهم عجيبين، وتكرر هذه العملية مرة أو مرتين أو مرتين في اليوم على حسب استطاعة المرء ورغبته، وهي تفيد - على الوجه الأصح - جميع لأمراض العصبية والروماتزم والفالج، ولعل مفعول هذه الحرارة المكتسبة من الدفن يقرب في الغالب - على ما أظن - من مفعول الحمام الشمسي في معالجة هذه الأمراض. ويبتدئ زمنه المناسب من الساعة الثامنة صباحاً والساعة الخامسة في المساء في الزمن الذي تلائم فيه الحرارة الجسم. والدفن ضروري للمرضى. أما ما عداهم فعلى سبيل التسلية والرياضة، ومع ذلك فمنفعته لا يستهان بها في الفتك بالأمراض عند بدئها وإزالة الضعف والنحافة وتقوية العضلات والبدن.

كلية غردون (سودان)

أبو القاسم محمد بدري

مصطفى كمال

سيرة حياته

للكاتب الإنجليزي آرمسترونج

تلخيص وتعليق حنفي غالي

هنالك في الجي العثماني بسالونيك في بيت حقير متهدم، قائم فوق أحد التلال في ظل حصن عتيق، رأى الطفل مصطفى نور الحياة عام 1881، في عصر كانت الإمبراطورية العثمانية تعالج سكرات الموت من جراثيم الأمراض الخلقية والاجتماعية التي تنخر فيها، وتكاد تلفظ النفس الأخير، لولا أن قضت السياسة الأوربية في ذلك الحين أن يبقى (الرجل المريض) ليذود الدب الروسي عن حياته، ويحول دون امتداد طغيانه حتى يوافيه أجله المحتوم. فكأن العناية الإلهية قد أرسلت الطفل العظيم في هذا العصر لتبصره بموطن الداء، وتهيئه لتأدية رسالته لإنقاذ أمته.

كان أبوه علي ريزا رجلاً مغموراً نزح من ألبانيا إلى سالونيك طلباً للعيش وسعياً وراء القوت، فابتسم له الأمل فيها نوعاً ما، واشتغل كاتباً بإدارة الدين العثماني، ولم يكن مرتبه الضئيل ليقوم بمطالب أسرته، فزاول تجارة تعينه على الحياة.

أما أمه زبيدة فكانت كسائر النساء العثمانيات، قعيدة البيت لا ترى نور الشمس إلا من قوته، ولا تغادره إلا في رفقة أحد محارمها لتعود ذويها أو جيرانها الأقربين، فظلت في ظلام دامس من الجهل بشئون العالم الخارجي لا تلم حتى بمبادئ القراءة والكتابة، ولكنها كانت ربة أسرة بحق تعرف كيف تدبر أمورها بحزم، وتسوسها بنظر بعيد، في مزاجها شيء من الحدة، وفي محياها سيماء النبل والسيادة. يمتزج في عروقها الدم الألباني بالدم المقدوني، وكانت أقرب إلى الرجولة في بنيانها، مديدة القامة، قوية الصحة، وقد آثرت الحياة بجوار الريف الذي أحبته ونشأت في أحضانه، فظل لها خلق أهله من إيمان عميق ووطنية صادقة، واستمساك بالقديم، وعقل رجيح صائب الحكم في مسائل الحياة الأولية، وكانت ككل امرأة عثمانية تهب نفسها، وتصفي ودها لزوجها وأطفالها الثلاثة الذين توفي أحدهم في طفولته، ولم يبق سوى مصطفى وأخته مكبولا.

كان مصطفى هزيلاً نحيلاً، وكان طفلاً في سنه، كهلاً في خلقه. فلست ترى فيه جذل الأطفال ومرحهم. بل وقار الرجال ورزانتهم، وكان عصي النفس عسير القياد، كثير التمرد على أوامر والدته، فإذا همت بتأديبه ثار واهتاج، وكان قليل المخالطة للداته من الأطفال مستقلاً بنفسه عنهم، اعتزل أبوه منصبه فأراد أن يعلمه الاتجار ليساعده ويعينه، ولكن أمه أرادت أن تفقهه في دينه، فأرسل إلى مكتب ليتعلم مبادئ القراءة والكتابة ويستظهر القرآن. ثم إلى مدرسة شمس أفندي حيث بدت بواكير نبوغه.

وفي ذلك الحين فجعت الأسرة بموت عائلها، فأضحت في فقر مدقع، وبؤس ملح، فلجأت زبيدة إلى أخيها فأوى إليها وعطف عليها، واحتضن مصطفى وأخرجه من المدرسة وأبقاه معه، وناط به رعي الماشية وإطعامها، ومال الفتى إلى هذا اللون من الحياة واطمئن إليه، إذ كسب منه قوة في بنيته ومتانة في صحته، ولم تزده الأيام إلا حباً له وشغفاً به، وإباء لكل ما يرمي إلى انتزاعه منه، ولكن الأم الحكيمة لم تنزل

على هوى الفتى الغرير، فأغرت أختاً لها بالإنفاق على تعليمه وكان لها ذلك. ألحق فتانا مرغماً بإحدى مدارس سالونيك، فألفى البون شاسعاً بين حياته الأولى الحرة الطليقة، وبين حياته الجديدة السجينة المقيدة، فأضحى دائم الثورة كثير التبرم بنظام الدرس، ولكنه ظن كما كان شديد الإعجاب بنفسه، كثير التفاخر على أقرانه، قليل المخالطة لهم حتى في ألعابهم المدرسية، فإذا هموا بمضايقته والتحرش به، ناضلهم بشدة، وردهم على أعقابهم مدحورين، فاشتد بغضهم له ونفورهم منه وإنكارهم لكبريائه، حتى اشتبكوا في شجار معه وشكوه إلى أحد المدرسين فصفعه صفعة أطارت صوابه، ففر من المدرسة وعاد إلى ذراعي أمه، وعبثاً حاولت أن تعيده إليها رغم توسلها بالترغيب حيناً وبالإرهاب أحياناً، فاقترح خاله إرساله إلى المدرسة الحربية بسالونيك، لأن التعليم فيها لا يكلفهم من النفقات كثيراً ولا قليلاً، وهي تحت رعاية السلطان عبد الحميد، فإذا ظهر تفوق الفتى ارتفع إلى مرتبة ضابط، وإلا التحق جندياً بالحرس السلطاني. فمستقبله على أي حال واضح مأمون. وما كانت الأم لترضى بهذا أو تميل إليه، إذ كانت تريده فقيهاً على غرارها في التقى والورع، ولكن فتانا الثائر نال منه الاقتراح كل منال، وأخذ منه كل مأخذ، فما كانت نفسه الطموح لتقنع بما تريده الأم. بل هو يريد أن يرتدي حلة الجندية التي يرتديها تربة أحمد ابن أحد جيرانهم، ويخطر بها غادياً

رائحاً في زهو وإعجاب، ويمني نفسه بأن يكون ضابطاً يصدر أوامره فيتلقاها مرءوسوه بالإذعان والخضوع، ولم يطل بفتانا الانتظار بل عول على نفسه في تحقيق غايته. فلجأ إلى ضابط متقاعد من معارف أبيه، ورجاه أن يكون ولي أمره لدى المدرسة المذكورة. ثم تقد م للامتحان فجازه، والتحق بها دون أن تعلم أمه من الأمر شيئاً، وهكذا أرادت الأم شيئاً وأراد الله شيئاً آخر، فكانت إرادته جلت قدرته أرحم بالفتى وبأمته من الأم الورعة الزاهدة، وفي المدرسة وجد الفرصة التي هيأتها له الأقدار في عالمها المحجوب، فبرزت مواهبه رائعة في الرياضة وسائر العلوم الحربية، أما خلقه فظل كما هو، بل زاد مزاجه حدة وطبعه تمرداً، يثور لأقل نقد يوجه إليه، أو لوم يلقى عليه، وكان يحب دائماً أن يكون قبلة الأنظار ومدار الحديث، ولم يكن أبغض إليه من أن يرى نفسه خاملاً ذاهباً في غمرة الإهمال، إذ كان شديد الشعور بشخصيته، قوي الإحساس بارتفاعها عن أقرانه، حتى كان يرد من حاول الاتصال به منهم قائلاً (أنا لا أريد أن أكون واحداً من أمثالكم) ويمضي في سبيله قدماً لا يلوي على شيء، كذلك كان لرغبته الملحة في التفوق والتبريز، شديد الحسد لكل من بذه منهم، ولعلك تعجب حين تعلم أن هذا الفتى الجافي الخلق الفظ الطباع يلعب الغرام برأسه، فيرى دائماً يخطر في أبهى ملابسه وأزهاها، مداعباً للفتيات مغازلاً لهن، محاولاً الاستيلاء على قلوبهن، ولكن لم العجب؟ أو ليست هي الطبيعة تأبى إلا أن تبرز العظيم في جميع أدوار حياته نمطاً شاذاً؟

ومهما يكن من أمر فتانا فقد نبغ نبوغاً لفت نظر أحد أساتذته وأسمه مصطفى، فأختاره مشرفاً على إحدى الفرق الصغرى ووكل إليه إلقاء بعض الدروس، ولتشابه الاسمين ميز الأستاذ تلميذه بإضافة اسم كمال، فأصبح يعرف منذ ذلك الحين باسم مصطفى كمال، وقد تخرج في المدرسة في سن السابعة عشرة. ثم أرسل إلى المدرسة الحربية العليا بموناستير

(يتبع)

حنفي غالي

مشهد ومكة

بقلم الأستاذ أمين الخولي

المدرس بكلية الآداب

سارت الرسالة في عددها التاسع والخمسين، بكلمة ناقدة للأستاذ عبد الوهاب عزام، عن كتاب (جولة في ربوع الشرق الأدنى) للرحالة محمد ثابت، وقد عناني من هذه الكلمة تفضيع الأستاذ عزام خطأ الرحالة في قوله عن شيعة إيران: إنهم يفضلون مشهداً على مكة فنشطت لكتابة هذه الكلمة لا إنصافاً للناقد والمنقود، فهذا شيء قد يكون عند غيري حسابه، إنما عنيت بذلك لثلاث: إحداهن حب الحقيقة، وإنها لحقيقة أن تبتغى لذاتها، ويجمل إلى الناس تصحيح وخالفها تطوعاً. وثانيتهن: أن في هذا الحديث

عن تفضيل الشيعة مشهداً على مكة مثلاً شيقاً طريفاً للباحث النفسي عن فرق ما بين العقيدة والفكرة، وصلة ما بين العقل بمنطقه، والاعتقاد بسلطانه. كما أن أمثال هذه الحقائق النفسية هي الأصول القوية لتفسير التأريخ تفسيراً صحيحاً صادقاً. والثالثة: أننا حين نعمل جادين، وندعو محبين الوحدة الإسلامية، وتقريب ما بين الشعوب الإسلامية على تنائي ديارها، واختلاف أنظارها، يجب أن نعرف الحقائق على ما قد يكون بها من قسوة أو شدة، إذ لا غناء في إنكارها، ولا خير لنا في تناسيها أو نسيانها.

قال الأستاذ الناقد (وأفظع من هذا كله قوله عن إخواننا شيعة إيران، إنهم يفضلون مشهداً على مكة، وكيف يعقل أن أمة مسلمة شديدة الغيرة على دينها تعتقد أن الحج إلى مكة فرض، وقاعدة من قواعد الإسلام، كيف يعقل أن هذه الأمة ترى زيارة مشهد افضل من الحج إلى مكة؟. ربما بالغ عامة الإيرانيين في تعظيم مشهد وغيرها من المزارات الشريفة، كما يبالغ عامة المصريين في تعظيم مسجد سيدنا الحسين، والسيدة زينب، والسيد البدوي، وإبراهيم الدسوقي: ولكن عمل العامة لا تفسر به عقائد الأمة. وهذه كتب الشيعة بين أيدينا تنطق بخلاف ما زعم الكاتب) (ص1399 عدد 59 من الرسالة).

والأستاذ عزام خير من يعرف أن القياس قليل الجدوى وضائع الأثر في مثل هذا المقام. فما لا يعقل وما يعقل قد يُعتقد ويهرب معتقده من الحوار فيه أو الجدال حوله، بل يهرب من طلب النفس تفسيره؛ على أن الأستاذ لو أنصف لذكر من كتب الشيعة التي بين أيدينا

شيئاً بعينه يفند هذا الزعم، أو يحتسبه على العامة، فيرد عليهم بدعتهم، كما ترد على عامة المصريين بدعمهم في تعظيم المشاهد المصرية والقبور، ولكنه لم يفعل فلم يرح القارئ.

وكيف يكون الأمر إذا كانت كتب الشيعة تقرر هذا التفضيل المكاني بقسوة وعنف؛ وتجعل مكة وبيتها الحرام ذنباً متواضعاً ذليلاً مهيناً غير مستنكف ولا مستكبر لكربلاء، وإلا هوى الله بها في نار جهنم!!. وهذا عالم فارسي شيعي من المحدثين قد أشرب روح العصر واعتداله أو تساهله إن شئت، وهو مع ذلك ينقل عن قديم كتبهم هذا التفضيل؛ بل يعد المروى فيه متواتراً عندهم!! ذلك العالم هو الشيخ أحمد بن عبد الله الكوزه كناني، صاحب روضة الأمثال في تفسير آيات التمثيل بالقرآن الكريم، وكتابه مطبوع في فارس ومنه نسخة في دار الكتب المصرية.

عقد الشيخ فصلاً (في فضيلة أرض مكة وفضائل بيت الله.) الخ ص187. واستطرد في خلاله بفصل عنوانه (في أن أرض كربلاء أفضل من الكعبة) ص 188 وفيه يقول ما نصه: -

(أقول قد ورد في أخبارنا الخاصة أن أرض كربلاء أفضل من الكعبة مثل ما في البحار عن. . . عن أبي عبد الله. . . قال إن أرض الكعبة قالت منْ مثلي: قد بني بيت الله على ظهري، يأتيني الناس من كل فج عميق، وجعلت حرم الله وأمنه؛ فأوحى الله إليها أن كفي وقري، ما فضل ما فضلت به فيما أعطيت أرض كربلاء إلا بمنزلة الإبرة غرست في البحر، فحملت من ماء البحر، ولولا تربة كربلاء ما فضلتك، ولولا ما تضمنته أرض كربلاء ما خلقتك ولا خلقت البيت الذي افتخرت به، فقري واستقري، وكوني ذنباً متواضعاً ذليلاً مهيناً، غير مستنكف ولا مستكبر لأرض كربلاء، وإلا سخت بك وهويت بك إلى مرويات أخرى في هذا المعنى آخرها قول الرسول عليه السلام (في نار جهنم يقير ابني في أرض يقال لها كربلاء هي البقعة التي كان عليها قبة الإسلام التي نجى الله عليها المؤمنين الذين آمنوا مع نوح في الطوفان)، ونختم هذا الفصل بقوله (والأخبار في هذه المعاني في خصوص كربلاء متواترة من أرادها فعليه المجلد الثاني والعشرون المسمى بمزار البحار).

فليس الأمر من مبالغة العامة، ولا من عمل العامة الذي لا تفسر به عقائد الأمة ولا نكر على الرحالة، ولا فظاعة فيما أخبر به.

أنا لا أقول بصحة هذه المرويات بل تواترها، وليس يعنيني في شيء مطلقاً أن يستمسك إخواننا الشيعة بها؛ بل أحب ألا يكون لذلك أثر حتى تتضاءل الفروق بين المسلمين، ويهون التقارب، لكن ما لا نحبه قد يواجهنا صارخاً به الواقع.

واكتفى بهذه الكلمة قائلاً مع الأستاذ عزام في ختام كلمتي: إنني لراج أن يتم التعارف

بين الأمم الإسلامية، حتى لا يكتب بعضها عن بعض إلا عن علم وروية، وتثبت وانصاف، والله ولي التوفيق.

أمين الخولي

اليابان تلقي على الشرق درساً

للأستاذ محمد مختار المحامي

جاء في الصحف اليومية منذ عهد قريب أن مصانع اليابان أخرجت سيارات زهيدة الثمن في طاقة كل شخص أن يقتنيها وهي تريد أن تغمر بها أسواق العالم، وقد كان لهذا الخبر رجة عنيفة في جميع الدول، فقد أوقعها في حيرة شديدة إزاء هذا التيار الجارف الصادر من أقصى الشرق.

منذ نصف قرن تقريباً استيقظت اليابان من أحلامها، وبخطوات العمالقة اقتحمت الهوة التي تفصلها عن الحضارة الغربية الحديثة فتركت وراءها قروناً غطت فيها في سبات عميق، ورفعت الحجاب عن أعين الشرق ونبهته إلى الحقيقة التي غابت عنه، وأظهرته على باطل ما يلقي إليه المستعمرون من أن الشرق يعيش في الماضي، وأن من المحال إحياءه وجعله يسير في طريق التقدم لأن وجهه دائماً إلى الخلف، وقد قبلنا هذا الاتهام وآمنا به، وفعل فينا فعل التنويم المغناطيسي إلى أن أتت اليابان ففكت طلاسم هذا السحر، وكنا قد نسينا أن نشأة الفلسفة والعلم والآداب وكل أديان العالم لم تكن إلا في الشرق، فكيف تتهم أراضيه بالعقم وعقوله بالخمود، وهي التي قد حملت مشاعل الحضارة وقت أن كان الغرب يتخبط في الظلام؟

لقد دهش العالم أيما دهشة حين حطمت اليابان الحواجز التي كانت تحجزها عن العالم بين يوم وليلة، ثم خرجت منتصرة أيما انتصار، فقد فعلت ذلك في وقت قصير كالوقت الذي تغير فيه الثياب، لا الوقت الذي توضع فيه أسس حضارة جديدة، وقد أظهرت أصدق مظاهر قوة الخصب والقدرة على العيش في هذه الحياة الجديدة، فقيل إن هذا الانقلاب ليس إلا مسخة من مسخ التاريخ، أو فقاعة كفقاقيع الصابون كاملة في استدارتها ولونها، جوفاء في قلبها ومادتها. ولكن اليابان أثبتت أن تطورها لم يكن لحظة دهشة قصيرة، أو فرصة من فرص مد الزمن وجزره.

الحقيقة أن اليابان قديمة وحديثة في آن واحد، فهي لم تترك تراث الشرق القديم وثقافته التي تدفع الإنسان إلى البحث عن القوة والسعادة الحق في أصل نفسه والتي توحي إليه برباطة الجأش عند مواجهة الخسائر والأخطار، وبالتضحية التي لا تحسب حساباً للكسب

وبتحدي الموت. فاليابان زهرة من أزهار اللوتس تنمو بسهولة ورشاقة محافظة على الأعماق التي منها نمت، ومع ذلك فقد تسلقت اليابان إلى آخر ما وصل إليه الغرب وصارت تعج فيها الحضارة الحديثة بكل مسئولياتها.

إذن الحياة والقوة كائنتان في الشرق، ولكنهما كامنتان تغطيهما قشرة ميتة يجب أن تزول، لأن الاحتماء بالميت موت، واحتمال أخطار الحياة حياة.

ولا يظن أحد أن اليابان قد وصلت إلى ما وصلت إليه بالتقليد، لأننا لا نستطيع تقليد الحياة والقوة لأمد طويل، بل إن التقليد مصدر من مصادر الضعف، فهو يعوق طبيعة الأمة الحقيقية، لأنه كالباس هيكل عظمي لإنسان ما، إهاب إنسان آخر.

لقد استمدت اليابان غذاءها من الغرب، ولكنها لم تستمد منه حيويتها، بل احتفظت بروحها، وهذه هي المعجزة التي بهرت أعين العالم، فقد علمت عن حق ويقين أنه لا يمكن قبول المدنية الغربية على علاتها، تلك المدنية التي لم تحل بعد أعظم مشاكل الوجود كالتنازع بين الفرد والدولة، وبين العمل ورأس المال، وبين الرجل والمرأة، والتنازع بين شره الكسب المادي والحياة الروحية للإنسان، وبين أطماع الأمم المنظمة والمثل العليا للإنسانية، تلك المدنية التي تتغنى بالحرية، ثم تأتي بأقسى ضروب العبودية، تلك المدنية التي يفقد الإنسان تحت تأثير سحرها كل ثقة في المثل العليا التي جعلته من قديم الزمن إنساناً.

والحق يقال إن النفس الشرقية بما انطوت عليه من قوة روحية وحب للبساطة واعتراف بالواجبات الاجتماعية عليها أن تحكم العقل الشرقي إذا أرادت أن تشق طريقاً وسط هذه المعمعة الغربية، وعليها ألا تلقي وراء ظهرها تراث الأجيال الماضية كما تلقي الملابس البالية، إذ أن هذا التراث في دمها وفي نخاع عظمها وفي تكوين

لحمها، وفي ألياف مخها، وهو يكيف دون أن تشعر ودون أن تريد كل ما تضع عليه يديها بتكييفه الخاص.
ومن تراث الماضي وغذاء الحاضر المستمد من الغرب عليها أن تخرج خلقاً جديداً لا مجرد تكرار، ولتكن لنا من اليابان عبرة
إنّا لنصغي إلى ما يقوله الغربيون من أن مدنية الشرق ليست إلا فلسفة لاهوت، فإن الأصم يرى في اللعب على (البيانو) حركات أصابع مجردة عن نغم الموسيقى، وهم لا يعرفون إننا قد بنينا تقاليدنا على أساس من الحقائق التي تدخل الطمأنينة والسلوة في قلب الإنسان،
والتي تجعل وجدانه دائم اليقظة والحياة.
لقد واجهت الشمس المشرقة العالم فكانت الأولى في الشرق في هذا السبيل، ولقد أشعلت الأمل في فؤاد الشرق فحق عليه أن يقدم لها الثناء، ومن يدري فقد يكون هذا بشيراً بأن يعم النور الخالد هذا المكان الذي بزغت فيه شمس الآدمية لأول مرة.
محمد مختار المحامي
ليلى العفيفة
للمرحوم الأستاذ محمد عبد المطلب
لعل أسمى مراتب العظمة الإنسانية في الحياة الدنيا هي تلك الكلمة الصغيرة . . . التي تفني الأجيال وهي باقية، وتتقلب الأزمنة وهي ثابتة، وتخفت الكواكب والأقمار وهي متلألئة متوهجة، والتي اسميها؛ ويسميها الناس معي (. . الخلود. .)!!
نعم. . إن أعظم ما في الحياة الدنيا وأبقى ما فيها من خير هو الخلود من غير شك. . وإذا قلنا إن الخلود هو أمتع ما في الحياة من جمال وروعة، فلأننا نريد أن نقول أيضاً إنه صعب المنال عسر الإدراك. لا يتشرى إلا بأعز ما في النفس البشرية، وأغلى ما فيها. . وهي الحياة. . فمن ضحى بحياته، أو كان على استعداد لتضحيتها في سبيل سعادة غيره ورفاهيته ورفع الظلم عنه نال الخلود لأنه أناله لغيره، أو حاول أن ينيله - إياه - إن قصر أجله عن إتمام ذلك
ومن ضحى بوقته وراحته في سبيل تثقيف الغير وتعليمهم، وتهذيبهم ونشر نور العلم بينهم. لن يفنى وإن فني جسمه، ولن يُنسى وإن اختفى شخصه، ورجع إلى الأرض التي منها نشأ وعليها تربى.
فالحياة والذكرى ليستا وقفاً على الجسوم الحية المتحركة. . وإنما هي رهينة تلك الأعمال الجليلة التي أداها أصحابها، وعلى تلك الخدمات الصادقة التي بذلوا في سبيلها راحتهم وشبابهم، والتي لن تفنى حتى يفني الفناء، ولن تزول حتى تتبدل الأرض غير الأرض والسموات.
فكم من حي لا تعرفه إلا نفسه، وكم من ميت بلى عظمه وفني جسمه، ومع كل فهو يملأ القلوب بحبه، ويملأ الدنيا بذكره واسمه.
ومن هؤلاء الخالدين المرحوم الأستاذ (محمد عبد المطلب) الذي تعرفون عنه أكثر مما أعرف، وتقدرون أعماله الجليلة كما أقدر، وتؤمنون بعبقريته الفذة كما أؤمن، وتعترفون بشاعريته الخصبة السامية كما أعترف، وتفخرون بدرره اللامعة - التي حلى بها جيد العربية - كما أفخر.
لهذا فإني أعتقد أنكم تودون أن تقرءوا له شيئاً لتمتعوا أنفسكم بسحر هذا الشاعر البدوي
الذي سيدهشكم الآن بأسلوبه الحضري الرقيق، وبتفكيره المصري الذي نعجز عنه ونحن فيه.
وقبل أن أعرض للأستاذ المرحوم شيئاً أود أن أقول: إنه كان من أسبق الشعراء إلى تأليف الروايات، فله في دار الكتب من عشرين سنة مضت روايتا (المهلهل) و (امرئ القيس) وله أيضاً عدة روايات وضعها للمدرسة السعيدية وقت أن كان مدرساً بها:
وكأن المرحوم شعر بحاجة المسرح المصري إلى روايات عربية سليمة التفكير رقيقة التعبير، فوضع له في سنة 1909 رواية (ليلى العفيفة)، ولكن حظ المسرح التعس حال دون ذلك لأن الأستاذ لكثرة أعماله في مدرستي دار العلوم والقضاء الشرعي لم يستطع إتمام القصة، وحاول في أواخر أيامه أن يتمها ولكن الموت القاسي عاجله، فحرمنا من تراث أدبي نافع. على أننا سنعرض الجزء الذي كُتِب من (ليلى العفيفة)

بنت لكيز، وهي التي حاربها الزمن على يد أبيها بضع سنوات، فأذاقها مُرّ الحياة وشقاء العيش، وذل الأسر. . . ولكن الله جلت قدرته أنالها سعادتها مضاعفة، ورد عليها فتى قلبها وبطل أحلامها جزاء وفائها وإخلاصها. . .

ولعل القارئ يدهش من هذا ويعجب، إذ كيف يحارب رجل ابنته ويذيقها الألم الممض، ويمنع عنها سعادتها ورفاهيتها. والمعروف أن الآباء يتسابقون إلى جلب السعادة لبناتهن؟!

ولعله لا يدهش ولا يعجب عندما أقول له: حقاً إن الآباء يفعلون هذا وأكثر من هذا، ولكنهم في مسألة واحدة، بل وفي لحظة واحدة يهدمون حياة بناتهن، ويسقونهن كأس الموت مترعة، ويقاومون شعورهن، ويتجاهلون إحساسهن، ويدفعونهن إلى الهاوية باسم المحافظة عليهن. فترى الرجل منهم عندما يعلم أن ابنته تهوى إنساناً وتحبه، وتود من صميمها أن يكون رجلها. تراه في هذه اللحظة قد تنمر وركب رأسه الأخرق، ووقف بينها وبين من تحب رافضاً زواجهما، آبياً جمعهما؛ بل يزوجها ممن يحب هو ويريد، محتجاً بأنه أعرف منها بمصلحتها! فتكون الطامة، وتكون النهاية السوداء في أغلب الأحايين!.

وهذا ما حصل فعلاً مع ليلى بنت لكيز فإنها كانت مخطوبة لابن عمها البراق، وكان الحب يجمعهما برباطه المقدس. فرأى لكيز بعقله الأخرق، وحماقته المجنونة أن يفسد هذه الخطبة، وأن يقبل خطبة عمرو بن ذي صهبان لابنته طمعاً في ماله وشجاعته!. . فأنظر

إليه وقد زاره أحد بني كليب لينهاه عما فعل حرصاً على البراق ورحمة بابنته التي تحبه وتهواه:

كليب: ما لأبي ليلى حزيناً مطرقاً؟

لكيز:

أرقني شغل بليلى أرقا ... جمّع من همي ما تفرقا
عمرو بن ذي صهبان لما حققا ... أن لها في الحسن جدا صدقا
وفي المعالي غاية لن تلحقا ... بادر في خطبتها مستبقا

كليب:

رام ابن ذي صهبان صعب المرتقى ... إن سمع البراق أو تحققا
بأن عمراً باب ليلى طرقا ... أرعد كالليث لنا وأبرقا
وطبق الأرض علينا طبقا

لكيز:

ولكن عمراً بالأيادي سبقا ... قلدنا نعماءه وطوقا
يجود كالغيث علينا غدقا ... إذا بنا صرف الليالي أحدقا

كليب:

لكنه ليس من البراق ... أحق بالطاهرة النطاق
نقية الأعراض والأعراق ... وهو فتى الجيش لدى التلاقي
وما لبكر غيره من واق ... إذ تأخذ الخطوب بالخناق
وتلعب الأرواح بالتراقي ... في يوم هول مظلم الآفاق

حتى إذا يئس كليب هدده بقوله:

إياك يا ابن العم أن تجيبا ... فإن فيه اللوم والتأنيبا
وإن ليلى - إن تكن أريبا - ... تأبى سوى ابن عمها خطيبا
وهو وان كان لها حبيباً ... فما أتت نكراً ولا عجيبا
فلا يزال السيد الأريبا ... في قومها والبطل المهيبا
يكفيهم البأساء والكروبا

فيغضب لكيز من قول كليب ويستأسد قائلاً:

ويحك! هل ليلى ترد أمري ... برد هذا وقبول عمرو؟
رضيتُ عمراً أن يكون صهري ... ما حجتي في رده؟ ما عذري؟
أليس في منعيه عين الغدر ... ولو أبى البراق إلا هجري؟
فليجر في قطيعتي ما يجري

وقد أنصف كليب كل الإنصاف حينما ذكره بأنه غدر بابن أخيه فقال له:

يا أبا ليلى كفى. فالحقوق. أنكرتها. ذلك الغدر
وأحاديث الجفا. والعقوق. كررتها. حلوها مر
غضب البراق. مر لا يطاق. وله العذر
ولكن أترى لكيزاً يأبه لهذا ويهتم به؟ كلا وإنما يمعن في قسوته، ويسترسل في شدته، ويأبى إلا تنفيذ ما رآه. ولو كان ما رآه هو الخطل بعينه، فاسمع إلى ابنته ليلى وقد عرفت من أمرها ما عرفته: فأخذت تشكو إلى الله ظلم أبيها، وتعدد مناقب ابن عمها، وتبثه لواعج غرامها. ثم تعرج على خطيبها المكروه فتتمنى من الله أن يقبض روحها قبل أن تزف إليه، فتواسيها صديقتها سلمى فلا تستمع إليها، ولا تزداد إلا أنيناً، وإلا حسرة على بعاد براقها.

ليلى:

رب! كم تبلو وتمتحن ... إن قلبي شفه الحزن
كلما قلت انجلت محن ... عاودتني بعدها محن

سلمى:

هل أتى عن ركبنا نبأ ... محزن، من بعد ما ظعنوا؟

ليلى:

لا، ولكني أرى جللاً ... عاجلاً يسعى به الزمن
يا ابن عمي إن لي كبداً ... قد يراها بعدك الشجن
إنما البراق خير فتى ... فيه بنت العم تفتتن
صده عني أبي سفها ... وأبي في رأيه أفنن
وأتى عمرو ليخطبني ... فأذلتهم له المنن
ليت شعري ما الذي خبأت ... لي من أحداثها اليمن
ليتني يوم أزف له ... يحتويني قبله الكفن

سلمى:

إن في الأيام معتبراً ... والليالي بيعها غبن
اصبري ليلى! ولا تهني ... إن عزم الحر لا يهن

ليلى:

ارحمي يا سلم والهة ... غلقت من قلبها الرهن
وارحمي البراق فهو بنا ... قد جفا أجفانه الوسن

وكما قلنا من قبل أن أرواح العاشقين متجاوبة تشعر بشعور واحد، وتحس بإحساس واحد وفي وقت واحد. فإننا نستطيع أن نقول هنا إن براق أحس ما أحسته ليلى، وشكا مما شكت منه، فقال لصديقه عقيل:

براق:

يا عقيلا، يا عقيلا، ... ما ترى الليل طويلا؟
ما لنجم الليل لا يبغي عن الأفق أفولا؟

عقيل:

طال ليلى وهو أولى ... بعد ليلى أن يطولا

براق:

بالأسى قد عيل صبري

عقيل:

أي نعم، صبرك عيلا
يا ابن روحان رويدا ... واصبر الصبر الجميلا

براق:

إن يحل دوني فإني ... عن هواها لن أحولا
يرتضى مثل ابن ذي صهبان من ليلى حليلا
إن ليلى يا عقيل ... لا ترى مني بديلا
ظلموني ظلموها ... أغضبوا السيف الصقيلا
أنا إن لم أسق عمي ... بالردى كأساً وبيلا. . .

فيخاف عقيل من هذا التهديد ويخشى عاقبته. . ويشفق للكيز أن يقتله ابن أخيه فيقول لصديقه بخبث:

عقيل:
أوَ ترضى يُتْمَ ليلى؟
فيستفيق براق حينما يسمع اسم ليلى، وتأخذه عليها الشفقة والرحمة، ويخاف كرهاً إن هو نفذ تهديده. . فيكرر صديقه الخبيث قوله:
عقيل:
أوَ ترضى يُتْمَ ليلى؟
براق:
لا ولا، حسبي ذهولا
قطع السيف يميناً ... تترك العم قتيلا
والفتى من كان للأهل ... ين مسماحاً وصولا
غير أن براق يرى أن من المستحيل عليه معاشرة أهله، وقد حطموا قلبه وفتتوا كبده فيقول:
غير أني لا أرى عن ... أرضكم إلا الرحيلا
يا لقومي للنوى زم ... وا عن الحي الحمولا
والى البحرين في ... صبح غد، حثوا الرعيلا
حتى إذا كان الصباح رحل براق إلى اليمامة ليأسو جرحه، وينسى ما هو فيه من عذاب وألم. فهل ترى الأقدار ساعدته؟ أم أنها كانت تعد له من مخبآتها ما أثار شجونه واستفز رجولته وألهب حميته وهو العربي الصميم؟
نعم إن الأقدار حاربته وعذبته، فإنه ما كاد يستقر في اليمامة حتى علم أن قومه في حرب ضروس مع طيئ وخزاعة. فماذا يعمل؟ أيذهب ويحارب معهم حتى ينتصروا وهم هم الذين عذبوه ومزقوا قلبه. .؟ أم يتركهم لأعدائهم يسومونهم سوء العذاب يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم؟ إنه إن فعل هذا فقد لحقه العار وركبه الذل، وناهيك بعار العرب وذلهم، على أنه مع هذا وذاك لم ينس أن يتهكم ويعتد بقوته فيقول:
أتاني أن قومي جد فيهم ... من الحدثين شر مستطير
أناخت بينهم حرب عوان ... ضروس للردى فيها زئير
وما أدري أيذكرني لكيز ... إذا استعرت وطار لها زفير؟
وهل هو بابن ذي صهبان يغني ... إذا عميت على القوم الأمور؟
وما إن ينتهي براق من قوله حتى يخبره خادمه بضيوف يطلبونه، وسنرى الآن من أخلاق براق ما يدهشنا، وما يثير إعجابنا.
الضيوف:
نزلنا بأبي نصر ... سلام يا أبا نصر
دعوناك إلى أمر ... فهل تصغي إلى الأمر؟
بنو عمك قد جاروا ... ومدوا سبب الشر
وقد خانوك من قبل ... بمحض البغي والغدر
فخالفنا وأيدنا علي ... هم واسع في النصر
نحالفك على منشئ ... ت في بر وفي بحر
براق:
ذروني لست أترك آل قومي ... وأرحل عن فنائي أو أسير
بهم ذلي إذا ما كنت فيهم ... ولكن لي بهم شرف خطير
أأنزل بينهم إن كان يسر ... وأرحل إن ألم بهم عسير؟
وفي أثر هذا القول الذي خيب ظن القوم يخرجون وهم يتميزون غيظاً ويحترقون ألماً. بل وفي إثره أيضاً يعلم براق بموت أخيه وانكسار قومه، وأسر أغلبهم وفيهم (ليلى) فيطير عقله، وينخلع قلبه، ويسافر تواً إلى قومه ويجمع شملهم وينظم عقدهم. ويشاء الله أن ينتصر انتصاراً حاسماً وأن يشتت أعداءه، ويمزقهم شر ممزق ثم يرجع بحبيبته ليلى ليستأنفا سعادتهما وحبهما، وهو يقول:
يا ليل قومك عنك قد نكلوا ... يا خجلتي يا بئس ما فعلوا
أفأسلموك وأمعنوا هرباً ... وتخطفتهم دونك السبل؟
أم كانت الجلى فما ثبتوا ... وعن الحريم لهولها ذهلوا؟

أهلوك لا ميل ولا كُشُف ... عند اللقاء، إذا هم نزلوا
إن يخذلوك فرب معترك ... عميت به النجدات والحيل
هذه عجالة رأينا من الخير للأدب أن ننشرها للناس لتكون ذكرى طيبة للأستاذ الخالد، ولتكون نواة صالحة، وقدوة حسنة لمن يود أن يكتب الشعر العربي الرصين للمسرح المصري. رحم الله الفقيد وأسكنه مساكن الشهداء والصالحين.
محمد السيد المويلحي
من طرائف الشعر
وحي المصيف
ليلة البدر
للشاعر الوجداني أحمد رامي
غبرت أعدّ ليالِي العُمُر ... وأرتقب البدر حتى ظهرْ
وفي القلب أمّنية للقاء ... وفي النفس عاطفة للسمرْ
أسوق إليك حديث الشجون ... وأشكو إليك صروف القدر
وأرسل شعري على مِزهري ... فأسمع منك حنين الوتر
تعالَيْ إلى زورق سابح ... نشقُ عليه عُبَاب النَّهَرْ
ونبصر بدرَ الدجى زاهياً ... يرصّع أعطافه بالبِدَر
وفي الشاطئين حسان المغاني ... تجلّت لأعيننا كالصوَر
سجا الليل إلا اصطفاق الشراع ... وأبلس إلاّ حفيف الشجر
بقلبي شكاةٌ تكتمتها ... وقد كتم القلب حتى صبر
توالى المغيب وكان الغروب ... وعيني على الموعد المنتظر
ظللت أودع شمس النهار ... وأستقبل الليل بين الذّكر
خلا الكون إلا نجيّ الفؤاد ... تناغى مع الموج لمَّا هدر
هنا البحر أقبل آذيُّه ... هنا النيل طالَعه وانحدرْ
تلاقى الغريبان بَعد النوى ... وضِنّى الذي ارتجى ما ظهر
تعالي
له أيضاً
تعالي نسعد الروح الحزينا ... فقد قرّت نواة الوجد فينا
حرمت هوى ترضين إلفاً ... وعزّ عليّ من أهوى خدينا
كلانا ناشد قلباً حنوناً ... وكلّ يحتوي القلب الحنونا
تعالي كفكفي الدمع السخينا ... فكم أرسلت بالدمع الجفونا
عرفتِ الحزن في فجرِ الليالي ... وذقت من الأسى فيه فنونا
وملت عن الهوى ونأيت عنه ... فذكرنا اللقاء وما نسينا
بكيت مودة وبكيتُ شجواً=ومن يبك العهود يكن أمينا
فواسيني ترى قلبي حنوناً ... وباكيني ترى دمعي هتونا
أحمد رامي
من الأدب الغربي
الضجر
للشاعر الإنجليزي هنري لنجفلو
ترجمة محمد متولي بدر
يا قَدَما من سُرى الليالي ... ورحلة العمر والسنين
أدمتكِ أحجارها ففاضت ... فجاجها بالدم الثخين
تجرين بالعبء - والأماني ... تفرُّ - موصولةُ الأنين
ها أنا أوشكت أن أوافي ... لبيتك الهادئ الأمين
هناك ننسى الذي رعانا ... ومصَّنا، في حمى السكون
لشدَّ ما أرهقت فؤادي ... يا قدمي رحلةُ السنين!
ويا يداً، لا أراكِ إلا ... كثيرة الوثب والنضال
آناً مليكاً ومستبداً ... وتارة موطئ النعال
الجود يُعْليكِ بالعطايا ... والفقر يدنيك بالسؤال
أنا الذي خضت مستميتاً ... معترك العيش بالمقال

يا طالما رحتِ في شقاء ... تَشكيَن من كثرة الأمالي
!كم أنا يا عدتي حزين ال ... فؤاد من دائكِ العضال
وأنت يا قلب يا صغيري ... يا دائم الخفق والوجيب
أراكَ تهتاج بين هذي ال ... ضلوع كالثار الغضوب
كأنما أنت - والأماني ... بعيدة - ملتَ للغروب
يا عجباً! هل رماك رامٍ ... غير أمانيك بالخطوب؟
نار كنار الغضى وجمر ... متقد ثائر الشبوب
الآن فاهدأ فسوف نرضى ... وتنطفي شعلة اللهيب
وأنت يا روح، يا حياتي ... يا هبة الرب والسماء
هبطتَ من عالم خفي ... أنقى وأصفى من الضياء
يا روح، هذي سحائب العم ... ر كالأواذيَّ في الفضاء
تُمْعُن في سيرها وراحت ... تنتهب النور في ظَمَاء
!يا لي من العمر! كيف ولّى ... وانحدرت شمسه ورائي؟
!يا لي من الموت! كيف حانت ... واقتربت ساعة اللقاء؟

محمد متولي بدر

العلوم

بعض الأسماك الغريبة بالبحر الأحمر

للدكتور كرسلاندا

مدير محطة الأحياء البحرية بالغردقة

لم تمض بضع سنوات قليلة على إنشاء الجامعة المصرية حتى فطنت إلى أهمية البحر الأحمر من الوجهة البيلجية. فأقامت على شاطئه الغربي محطة الأحياء البحرية بالغردقة لمساعدة البحاث من العلماء على دراسة هذا البحر واستنباط أسراره.

وهنالك في هذه المحطة يمكننا أن نشاهد دون ما عناء تلك الحيوانات الغريبة التي تختلف كثيراً عن حيوانات البحار الشمالية والبحر الأبيض المتوسط، والتي لم يرها حية إلا نفر قليل من العلماء تكلفوا في سبيل ذلك من المال والعناء الشيء الكثير.

ويكفي أن تجرف قاع البحر - قريباً من مرسى المحطة حيث تغزر الحشائش - بجرافة صغيرة كي تحصل على نحو من ثلاثين نوعاً من الأسماك الصغيرة، أغلبها غريب في شكله وعاداته. ومن هذه الأسماك فرس البحر والأسماك الأنبوبية الفم ولا يبدو فرس البحر لأول وهلة من الأسماك، لولا زعانفه الصغيرة. وقد فقد زعنفته الذنبية فليس يفيد الذنب في العوم، وإنما يلتف حول الحشائش التي يعيش بينها فرس البحر فيمسك بها. أما الأسماك الأنبوبية الفم فبرغم جسمها العضوي الشكل الكثير الحراشيف، فهي أشبه بالأسماك العادية من فرس البحر ويمكننا أن نرى جلياً حلقة الاتصال بينها وبين فرس البحر. فهنالك واحدة من الأسماك الأولى ذات ذنب قابض قد فقد زعنفته، فإذا أخذت هذه السمكة وثنيت رأسها بزاوية قائمة ونفخت بطنها حصلت على فرس البحر. . كل هذه الأسماك تشابه الحشائش البحرية في لونها، وتحمل نقطاً حمراء قاتمة أو سمراء تشبه تماماً صدأ الحشائش التي تعيش بينها.

وتبلغ مشابهة الأسماك للحشائش أقصاها في نوع ماصة الفم

فهذا النوع يبلغ في الطول ثمانية سنتيمترات، ومع ذلك تصعب رؤيته جداً بين الحشائش التي يعيش بينها، حتى خارج الماء. ويخيل لناظر الصورة أن هذه السمكة سهلة الرؤية

لشكلها الغريب، ولكن جسمها الرقيق ذا اللون الأخضر وزعانفها الصدرية العريضة والنقط السوداء المنتشرة عليها، كلها تكسبها شكلاً يحول كثيراً دون رؤيتها الحشائش خارج الماء. فكم تتعذر رؤيتها في مكانها الطبيعي؟

وهناك جنس آخر لا يمُتّ إلى الأسماك الأنبوبية الفم بصلة يعرف بالأمفسيل يشبه الأولى في فمها الأنبوبي الماص، وتغطي جسمه حراشيف كبيرة ملتصق بعضها ببعض، تكسب السمكة صلابة في الحركة - وجسم أسماك هذا الجنس مفرطح رقيق صلب، فهو أشبه شيء بحد السكين، ولا ينتهي بالذنب كالمعتاد، فقد تحول هذا من مكانه الأصلي وتقدم قليلاً نحو الجهة البطنية. وستدل من زعانفها الصغيرة على بطء حركتها - ولا يمكننا أن نتكهن كيف يعيش هذا السمك الغريب، إذ يصعب الحصول عليه حياً أو

على الأقل في حالة جيدة، وذلك بالرغم من صلابة حراشيفه التي هي بالنسبة إلى حجمه أقوى من درع التمساح. والمفروض كما وصف بولانجيه في كتابه (المربي المائي) أن هذه الأسماك تتغذى على الحيوانات المائية الدقيقة تمتصها بفمها الأنبوبي. وتعطينا الأسماك الأنبوبية الفم مثلاً من الأمثلة النادرة بين الأسماك، إذ يحتفظ السمك ببيضه حتى يفقس، وبيرقاته حتى تتطور وتصبح قادرة على الأخذ بأسباب الحياة. والذكر وحده هو الذي يرعى النسل، فله كيس بطني تضع الأنثى بيضها وتثبته ببعض على شكل كرة، تمسكها بفمها فتسد فتحته حتى ليستحيل الغذاء، والغريب أنها مع ذلك تتنفس - ومن طبيعة الأسماك الكبيرة أن تأكل الصغيرة، سواء أكانت من نوعها أم لا. وهنا نرى جلياً ظهور غريزة تخالف تماماً الطبيعة العامة للأسماك، وهي تشبه في ذلك غريزة بعض الأقراش الكبيرة يقال إنها تأوي صغارها في فمها - ولا يمكننا أن نقول إن مثل هذه الأسماك يمكنها أن تتعرف صغارها، فإن عقل الحيوانات لم يصل إلى الدرجة الدنيا التي يمكنه معها تمييز صغارها إلا في ملايين السنين بعد أن بلغت الأسماك نهاية تطورها المخي.

وعائلة السكوربينويد كلها أسماك قبيحة المنظر، لها أشواك حادة في كل مكان يمكن أن يظهر فيه الشوك. وكلها ضارة إذا أمسكت، وبعضها خطر يهدد الحياة. إذ أن للأشواك غدداً سامة - ومن أفراد هذه العائلة أسماك صغيرة تعيش بين الحشائش المائية أيضاً، ونحصل عليها بالجرافة. وهذه أدنأ أفراد العائلة وأقلها تخصصاً. فنشأت من ناحية أسماك منتفخة كثيرة التجاعيد والنتوءات (شكل3) هي أقبح المخلوقات، يبدو التمساح بجانبها حيواناً جميلاً وديعاً. وقد بلغت هذه الأسماك حد مشلبهة الصخور المرجانية في شكلها ولونها حتى لتكاد تستحيل رؤيتها في موضعها الطبيعي إذا وطئها إنسان عاري القدم أو بحذاء رقيق أصابه ألم مبرح قد ينتهي بالموت، وهيغير منتشرة هنا، وأن كان يوجد منها نوعان. وشيء واحد نحمده لها، ذلك أنها تلوذ بالفرار إذا أوجست خيفة أو لمحت إنساناً يسير على الشعاب، فإذا هرعت سهل رؤيتها لوضوح زعانفها الصفراء الفاقعة، في أحد النوعين، وخطوط عريضة بيضاء في ذنب النوع الآخر، فيها تحذير من شرها.

وذهب التطور من الناحية الأخرى إلى سمكة تعرف هنا بالجنّخ - (شكل4) - وهي وأن شابه جسمها جسم الأسماك العادية ملاسة، إلا أن لها رأساً مجعداً كبقية أفراد عائلتها. والزعانف في هذه السمكة تأخذ شكلاً غريباً، إذ تطول أشعتها كثيراً وتصير أشبه شيء بريش الطيور، وليست كزميلاتها تهاب أعداءها، وتحاول التخفي بمشابهة الصخور والأعشاب، بل تبدو جلية واضحة بألوانها الزاهية الجميلة. فجسمها مخطط أسمر وأشهب، بينما ريشها الطويل ملون بالأحمر والأسمر والأبيض. وتكثر الجنانخ (جمع جنخ) هنا - وقد اعتدت أن أزور صخرة مرجانية قريبة من المحطة لأتمتع بمشاهدة المرجان اللين النامي عليها ولألاحظ النجوم الريشية تخرج من جحورها، وتنشر ريشها ساعة الأصيل. وقتئذ يخرج الجنخ من مضجعه ويعوم بتؤدة وهوادة، حتى إذا وصلت إلى هذه الصخرة، دفعت برأسها إلى أسفل، ونشرت أجنحتها الكبيرة أفقياً، ورفعت زعنفتها الذنبية، وهي كالزعانف الظهرية الخلفية والشسرجية رقيقة شفافة تصعب رؤيتها في الماء. وتمكث هكذا طويلاً دون حراك، ولا تزال الغاية من عملها هذا سراً خفياً.

البحر الأبيض المتوسط بحر النور والألوان، ولكن الخبيرين بأحيائه يشدههم كثيراً زهاء الألوان في أسماك البحر الأحمر عندما يزورون الغردقة - لا يقتصر ذلك على الأسماك الدقيقة، التي تسبح كالفراش بين الشعاب المرجانية، أو التي يحاور بعضها بعضاً في الكهوف بين المرجان - بل يتعداها إلى الأسماك الغذائية الكبيرة. وقد يظن من ليس لهم خبرة إلا بأسماك المنطقة المعتدلة، أن الصور التي نشرها روبل سنة 1829 لم تكن إلا محاولة ضعيفة لتصوير ألوان هذه الأسماك، وأن فيها قدراً من المغالاة غير يسير، إذ ما كان في استطاعة الطباعة في ذلك العصر أكثر من ذلك. والحقيقة إن روبل لم يغال مطلقاً، بل أن معظم الصور جاءت كأدق ما يكن عمله الآن بالطرق الحديثة، فقد يجتمع في بعض الأحيان الأحمر والأخضر والأزرق والأصفر إلى غير ذلك جنباً إلى جنب في خطوط أو بقع، دون أن يختلط أحدهما بالآخر وأحياناً تمتزج هذه الألوان الواحد

بالآخر في أجمل صورة. وأخرى قرمزية لا يداخلها لون آخر، غير أن لها بريقاً فضياً يكسبها جمالاً لا نجده في أي سمكة فارقت الحياة، مهما بلغت من الجمال في حياتها.

كيرس كرملانر

مدير محطة الأحياء البحرية بالغردقة

القصص

أقصوصة من الأدب المجري

الأنشودة

بقلم الكاتب المجري يوليس كرودي

إن ينفق المرء وقته في الليل، تحت نافذة، ومن وراء حجاب، ولا يعمل شيئاً إلا أن يفكر في امرأة، أمر حاوله بلا ريب كل إنسان في هذه الحياة (والحق أنه من السخف. أن تجد رجلاً رزيناً يسير في الطريق نهاراً رافع الرأس، يحمل من وقت إلى آخر، إذا ما جاء الليل على ارتكاب الحماقة تحت تأثير الجوي والأفكار التي تحملها الخفافيش؛ فيذهب ليلاً ويتربص تحت نافذة، بينما لا يشعر إنسان بأمره، وليس لعمله أي معنى، إذ ربما كانت السيدة المنشودة تحلم في مثل هذا الوقت بأوراق (اليانصيب، أو تحلم برجل آخر؛ أو يعمد إلى تلاوة نظم بوشكين تحت الأشجار، بينما لا يصغي إليه إنسان سوى الليل. . . والله شهيد على إنه ليس ثمة حياة أكثر خزياً وإثماً من حياة رجل عاشق!)

دونت هذه الأسطر فيما مضى حين كنت أعتقد من الضروري أن أسطر على الورق بعض مشاعري، في مذكرة عتيقة ذات غلاف أحمر، وقد مرّ على ذلك زمن طويل، وكنت يومئذ في العشرين؛ وكنت ألاحظ كثيراً من الأشياء المختلفة التي لا أتنازل اليوم بالالتفات إليها. وكنت أحب السياحة في العربة من مدينة إلى أخرى، فكنت أحفظ أسماء نسيت أصحابها، وأدون في مذكرتي بكل عناية ما أقف عليه في الفنادق العتيقة، محطات أسفاري؛ ففي فندق (الوردة البيضاء) كانت هناك آنسة خادمة تدعى فالي، وكانت تتعلم الفرنسية خفية؛ وسمعت صاحب حانة ليلية في الطريق الأعظم يتحدث عن الإمبراطور فرانز يوسف، ويقول أنه مرّ وهو فتى من هذا الطريق في عربة تجرها أربعة جياد؛ وفي بلدة صغيرة تحف بشوارعها الأشجار وتتدلى أغصانها ذابلة، وتأتي إليها أصوات الأجراس خافتة من وراء التل كأنما تأتي إليها من أجراس البلدة المجاورة، كانت هِرَرة هزيلات تجوب طرقاتها يوم الخميس المقدس، وثمة رجل في فناء داره يشمر عن ساعديه ويحتسى النبيذ الأحمر ويقرأ في جريدة عتيقة، وهو كئيب كأنه متسول ترك هنالك جيش الإمبراطور؛

وترى فوق التل أطلال كنيسة متهدمة تنعى حظها، وعن بعد مجرى نهر يترقرق بين القصب القصير؛ ففي تلك البلدة كنت أطوف ذات مساء، غريباً لا يعرفني أحد، لأن سائقي احتسى من الشراب أكثر مما يجب، وأبى قطعاً أن يواصل السير في ذلك الحلك الذي يغمر كل شيء.

والحق أني لست أذكر بعد اسم تلك البلدة، ولابد أنها تقع في ناحية من شمال المجر، فقد كان لها قنطرة مغطاة ودار بلدية ذات تماثيل للقديسين. وكان المطعم يسمى (الفندق الأرجواني) فذهبت أتمشى وحيداً غريباً، لأن سائقي أبى إلا أن يتسلل هذا المساء إلى مكان معين، وأذكر أني اخترقت حديقة صغيرة؛ وكان ثمة في المقهى الصغير محصلة تقرأ جريدة مصورة وهي تعتمد رأسها بيديها اللتين تغوصان في شعرها المتهدل ووراء باب مدهون باللون الأبيض يبدو فناء صغير يجلس فيه بعض الموظفين في صديريات سود وهم يدخنون (السيكار) إلى جانب الكؤوس الصغيرة؛ وكنت تسمع عن بعد شخصاً لعله طالب ينفخ في مزمار، ويغني تلك الأنشودة التي أولها: (إذا ما ابتعدت يا حبيبي) فقلت لنفسي: أجل توجد هنا أيضاً قلوب، وتوجد عواطف. . . وكان ذلك المساء ربيع، وربما كان الطالب المذكور قد رسب في الامتحان

وكانت الحديقة تمتد جانباً في قفر مطبق، يذكرك بقفر فناء المحكوم عليهم، ولابد أنها تكون في العصر منتجع الشيوخ، والضباط أو ذوي المعاشات، يفكرون في موتاهم أو في خليلاتهن القديمات؛ وكانت أشجار الصنوبر التي ترتفع فوق كل مقعد هزيلة محزنة كأنها حياة تصرمت وانطفأت في غمار السل؛ وكان يعمر هذه المقاعد أحذية عتيقة وسترات خرجت عن الثرى، وفوق الحصى الصغير الذي يغطي الممشى، ترسم

العصى الباهتة التي ربما كانت في شبابها أيادي مظلات، خطوطاً ذاهلة
جلست على مقعد، وأخذت أفكر في شتى الأمور المحزنة: في نساء البلدة
المسكينات اللاتي يرتدين أثواباً شديدة الحفيف ويبكين أكثر مما يضحكن، وفي الرجال
الحزانى الذين يتجملون توقعاً لرؤية الأميرة الحسناء، ولن تأتي الأميرة قط، وفي
المحادثات العقيمة التي تدور حول المائدة المقفرة أو في السرير المضني لمعرفة من
هو أغنى إنسان في البلدة؟ وفي الشهر القادم ستأتي فرقة تمثيلية إلى (الفندق
الأرجواني). . . وكثيراً ما يعرف
الأزواج أن لزوجاتهن عاشقاً!
آه، تباً لحياة البلدة الصغيرة من حياة محزنة ذات رائحة كرائحة كسرات الخبز؛ وفيها
يضج المرء بالضحك، ولكنه لا يستطيع أن يتناول فيها عشاءه. رباه، إن النساء هنا لا
يتكلفن العناية بالنظافة، إذ يستوي ذلك عند الرجال.
شعرت أنني جد تعس، إذ قضى على أن أضيع وقتي في تلك النزهة الحقيرة المحزنة
في البلدة الصغيرة، بدلاً من أن أجلس في مقهى فخم في مسكولك أو كأساً أو
بودابست.
وكانت نغمات المزمار قد انقطعت حيناً، ولكنها عادت فدوت في الحديقة ذاتها. وإذن
فقد كان الموسيقي الفتى موجوداً هنالك؛ وكان يقوم في ركن المكان إلى جانب
الحاجز منزل عتيق له نوافذ صغيرة جداً، حتى لا يتسنى لغير رأس امرأة رشيق جداً
وهزيل جداً أن يبرز منها
وكانت النجوم مزورة لا تسطع في ذلك المساء المظلم، وربما لم تك ثمة نجوم فوق
تلك البلدة الموحشة. وكان هنالك مصباح زيتي ينشر ضوءه، ويتأمل ذات اليمين وذات
الشمال وجلاً كأنما يخشى أن يقيم رجال المطافئ احتفالهم في تلك الليلة، وعلى بعد
تقوم منازل ضيقة، لا يعمل ساكنوها بلا ريب شيئاً طول حياتهم إلا أن يقتصدوا وأن
يبكوا، ولا يفكر نساؤها منذ العشرين في شيء سوى غسل الثياب
وكان صاحب المزمار يعزف أنشودة محزنة تحت الأشجار، ولا ريب أنه كان يقصد
بعزفه ما وراء الحاجز، وربما كانت لأنشودته صبغة غرامية، وربما كان مؤلفها الشاعر
المتوفى يحيى فيها القمر أو الصبية ذات العينين البراقتين؟ بيد أنني لم آنس فيها شيئاً
غير الذلة والمرارة والفقر، والسلوة الوحيدة لفتى مسكين من القرية. . . رباه، وكنت
قد عرفت يومئذ خادمات فرنسيات
وأخذت الموسيقى تنحدر إلى الأنين شيئاً فشيئاً، وكانت الأنشودة تضرع تضرع السائل،
إلى سيدة لا تريد - وربما كانت أيضاً حمقاء آثمة - أن تصغي من فوق الحاجز إلى
اعتراف فتى، لعله في ظروف أفضل كان يصلح أن يكون فارساً في ملعب، أو حاجباً
في حانة ليلية في بودابست يلقي على الغانيات أجوبة ساخرة. . . كان المزمار يئن
كالهرة المريضة، وكأنك ترى وجهاً شاحباً لفتى تعس لا يملك من المال ما يمكنه من
التلهي بلعبة
وكان البؤس المؤلم الساحق والثياب الخلقة، ،(لعبة مجربة قومية) (الخشب)
والمستقبل الذي ينذر بما هو أشنع، كلها تبكي في الأنشودة، ذلك المستقبل الذي ربما
استجابت فيه السيدة الخفية إلى التضرع، وأتت للفتى البائس بعدة أولاد لا خير فيهم
نهضت من مكاني وسرت لأبحث عن ذلك الفتى الذي يعزف بمزماره بين الأدغال
وقد كان حدثاً ذا محيا حزين بائس، وربما كان كاتب مسجل في البلدة؛ وكان مكشوف
الرأس، وشعره الأشقر كث منفوش قائم كالمسامير
فقلت له بمنتهى الخشونة: عد إلى منزلك، ولا تسمم هواء هذه الحديقة؛ ألا تشعر
بالخزي إذ تذل نفسك على هذا النحو من أجل امرأة؟
ثم هرولت فأيقظت سائقي من سباته؛ وفي الليلة نفسها غادرت البلدة الصغيرة، التي
شعرت فيها بمثل ذلك الأسى من جراء عازف سخيف.
5 - سافو
لأوجييه اميل
ترجمة الأستاذ محمود خيرت
حنا - لنر الآن ماذا أكتب إليك: (لا أنسى عطفك على بزيارتي يا فني) ولكن متى كان
. . .ذلك (يقرأ) إبريل من هذه السنة. . إذن فقد أقدمت على زيارته وأنت معي

فني - شفقة به وحياتك عندي
حنا - (يقرأ): (وإني أفكر الآن في أمر ولدنا. .) ولك منه ولد؟
فني - نعم. فماذا تريد الآن
حنا - ها. ها. ما أكبر فخرك بهذه البذرة التي نبتت في السجن!
فني - (صارخة شامخة في غضبها) لا تزد على ذلك حرفاً
حنا - وما أجمل طفلاً أبوه فرومان وأمه سافو!
فني - لا تسبه فهو ولدي
حنا - (وقد غلبته صرخة الأمومة) حسناً
فني - (بصوت مخنوق) قضى الأمر بيننا، فعد إلى أهلك لعلك تسعد إلى جانبهم
حنا - يا لك من قذرة!
فني - يا لأمك وابنة عمك من حواصير!
حنا - ماذا؟ (يهم بضربها فتحتقره هازة كتفيها)
فني - حقيقة إنك نذل. أخرج الآن من هنا.
حنا - على هذا عزمت (يأخذ حقيبته وعند ما يصل إلى الباب يلقي الخطاب في وجهها ثم يختفي فتتناوله وتضعه فوق المائدة وهي تبكي وتنشد)
فني - ظلموني وأسرفوا=حين نّموا وأرجفوا
كم تخيّلت أنه ... ذو شعورٍ فيعطف
فإذا الطبع واحدٌ ... دبّ فيه التعسف
وإذا من بذكرِه ... كنت في الحب أهتف
حانثٌ في يمينه ... واعدٌ وهو مخلف
قُضى الأمرِ لم يعد ... لي من الناس مُنصفُ
الفصل الرابع
في أفينون منزل أسرة جوسين إلى اليمين، وله حديقة بئرها في الجهة اليسرى،) وعلى بعد نهر الرون. والأشخاص حنا ووالداه وإيرين ثم سافو وهم عدا سافو على المائدة حيارى لحزن جنا، وعندئذ تشير ديفون إشارة فيخلو المكان إلا منها ومن ولدها.)
ديفون - مالك يا حنا؟
حنا - أمي!
ديفون - (تمسح رأسه بكفها) مم تشكو يا ولدي؟
حنا - لا أدري!
ديفون - لا تكذبي. أحدث لك حادث هناك؟
حنا - كلا. يا أمي
ديفون - إذن لم تعجلت العودة حتى كأنك فررت إلينا فراراً؟.
حنا - لا، لا شيء يا أمي
ديفون - لعل امرأة خدعتك أو حباً غير موفق صادفك؟.
لا تخف عن أمك شيئاً يا حنا. إنك لا تجهل مالك في فؤادها من الحب.
حنا - أمي. ما أخطأت ولكني شفيت
ديفون - أصدقني يا حنا
حنا - كانت يا أماه ثورة ولكني نسيتها، فهل أستحق بعد ذلك صفحك عني؟.
ديفون - وماذا فعلت مما يستوجب صفحي يا ولدي؟
حنا - آه ليتك يا أماه تنزلين إلى أعماق نفسي؟
ديفون - إن حنو الأمهات يخترق الحجب فتتكشف لهن الأحزان والدموع
حنا - ليقاسمن أبنائهن إياها
ديفون - نعم يا بني حتى تغسلها قبلاتهن. تشجع يا حنا وإذا عادت إليك همومك فأستحلفك ألا تكتمها عني
حنا - سأفعل يا أماه ودعيني أضمك
ديفون - نعم. نعم تعال فادفن همك عند صدري (يضمها)
حنا - الآن خف حمل ألمي. وهدأت ثورتي. وربما أخطأ الحزن بعد ذلك طريق قلبي ما دمت إلى جانبي

ديفون - إذن أدعك لأزف إلى أبيك هذه البشرى، فإنه يطرب إذا رأى نور السكينة يتلألأ في عينيك
حنا - نعم أسرعي إليه يا أمي (تخرج أمه)
إيرين - (مقبلة على حنا) ماذا يحزنك يا أبن عمي؟
حنا - لست السبب على كل حال يا إيرين
إيرين - ألست صديقتك. أنسيت مريم ويوسف؟. إنني ساعة الأسى أندفع إلى صدر صديق تذيب حرارته همي ويطرد حديثه وحشي
(يدخل سيزار)
سيزار - (مسرعاً إليه) حنا
حنا - (مندفعاً إليه) أبي
سيزار - (لإيرين) اذهبي أنت لديفون
إيرين - ولم لا لأبقى؟
سيزار - قلت لك اذهبي
إيرين - كأنك غاضب عليّ؟
سيزار - لا. ولكن دعينا الآن (تخرج حزينة) (لولده) آه يا ولدي المسكين. إنها هنا. . .
حنا - (مضطرباً) هنا؟ أو عادت؟
سيزار - نعم وتلح في أن تراك!
حنا - سافو؟
سيزار - نعم هي يا ولدي. أحسبتني عميت عن أمركما وأنت تكتمه عنا. ولكن تشجع عند مقابلتها يا حنا
حنا - سأكون عند نصيحتك يا أبي، ولقد كنت من برهة أنتفض وأتلوى. أما الآن فسأستقبلها بقلب ثابت. نعم نعم يا أبي (سيزار يخرج وتتقدم سافو بخطى بطيئة وهي تنظر حولها حتى إذا وقع بصرها عليه أسرعت نحوه ثم وقفت فجأة)
سافو - (بعد سكوت طويل) لا تعتب على إذ عدت وما ودعتك الوداع الأخير. وقد كنت وأنا بعيدة عنك أشعر بألم خفي يعذني. أما الآن وقد رأيتك فقد ذهب ألمي.
حنا - إنني لا أحمل لك في نفسي غلاً
سافو - (والألم يرجها) ماذا؟ آه لو تعلم كم بكيت وكم هدني الجهد حتى لا ادري كيف أنني لم أزل من بين الأحياء (بدهشة) أتراني تغيرت؟
حنا - وهل تقيميين دائماً هناك؟
سافو - وأين تريد أن أقيم، وهناك تلك الذكريات التي أحيا عندها باللم. وكثيراً ما كنت على أثر البكاء تقتلني وحدتي فأضطر إلى العمل لأتسلى. وكم من مرة كنت أستيقظ عند الصباح باسمة فأرتدي ثوبي الأبيض وأصلح شعري على ما كنت تحب، ثم ألزم نافذتي إلى مغرب الشمس، وأنا أتسمع خطواتك وأتلمس عودتك، حتى إذا يئست أغلقها واستسلمت لحزني.
(يتبع)
محمود خيرت
الكتب
ما قل ودل
بقلم أحمد الصاوي محمد
جزءان في نحو 580 صفحة طبع دار الكتب
عنوان هذا الكتاب هو نفس العنوان الذي يتخذه مؤلفه منذ أعوام عنواناً لما يكتب كل صباح في جريدة الأهرام الغراء، وما يحتويه الكتاب هو مجموعة مختارة من هذه القطع التي غدت تقرن باسم كاتبها.
ولمؤلف ما قل ودل طابع خاص يسبغه على مقالاته؛ فهو يتناول من مادة الحياة اليومية مسائل الساعة، ما بين اجتماعية وأدبية واقتصادية، ويعالجها بايجاز ولكن بوضوح؛ ويميل بنوع خاص إلى تناول المسائل الاجتماعية وعلاقات الجنسين ومسائل الزواج والأسرة، ويبسط فيها آراءه المحدثة وتعليقاته، ولكنك تأنس دائماً فيما يكتب حرارة الإخلاص، وحسن المقصد ومحاولة الإصلاح.

وعندنا أن عنصر الفن يتغلب عند الأستاذ الصاوي على عنصر الكتابة، فهو يكاد يرسم أكثر مما يكتب؛ ومقالاته تبدو كأنها صور سريعة لما يتناول، ويخيل إليك في كثير من الأحيان أنك تتأمل فيما يكتب صورة رمزية ناطقة لما يجول في ذهنه. وأسلوبه بسيط واضح ينم عن خفة روح ودعابة مستملحة في كثير من الأحيان، وهو لذلك لا يتكلف اختيار اللفظ أو إجادة البيان، لأنه يتجه دائماً في خطابه إلى الرجل (المتوسط)، والى الشباب اليافع؛ ولا يهمه أن يمزج من مقتضيات البساطة والسلاسة في عرض ما يريد لمن يريد. وهذا أسلوب له أنصاره ومؤيدوه؛ ولكن له معارضوه أيضاً، ممن لا يسيغون مثول الألفاظ العامية إلى جانب الألفاظ العربية بمثل هذه الحرية وهذا الإسراف؛ وقد يسيغون وجود اللفظ أو العبارة العامية لضرورة محلية لا يؤديها البيان الفصيح؛ ولكن كثرة الألفاظ العامية مما يذهب دائماً بقوة الأسلوب وروائه، وإن كانت تكسبه في بعض الأحيان لوناً من الخفة والدعابة.

ولسنا بحاجة بعد ذلك إلى أن نقدم الكتاب ومؤلفه، ففيما يكتبه الأستاذ الصاوي كل صباح

في الأهرام الغراء خير تقدمة، ولكن الذي نريد أن نهنئ الأستاذ الصاوي عليه حقاً، هو توفيقه في حل مشكلة النشر والتوزيع بطريقة يغبط عليها، فما زال الكتاب في مصر يعانون متاعب هذه المشكلة؛ وليس في مصر ناشرون يعتمد على فطنتهم وأمانتهم وحسن تقديرهم؛ وما زالت معظم جهود المؤلفين نهباً لتجار الكتب. وقد وفق الأستاذ الصاوي إلى تجنب طغيان هؤلاء السادة، واستطاع في شجاعة ولباقة أن يتجه إلى قرائه رأساً وأن يقدم إليهم كتابه بطريق الاشتراك؛ واستطاع أن يخرج لهم كتابه في جزءين كبيرين، وفي أتقن طبع وأجوده، محلى بالصور الرمزية الممتعة؛ وذلك كله بثمن لا يتجاوز عشرة قروش للجزءين!

وإنا لنرجو أن يكون في هذا المجهود الموفق عبرة للناشرين فيحد من جشعهم وطغيانهم؛ وأن يكون فيه درس يستفيد منه الكتاب والمؤلفون.

كما نرجو لمؤلف (ما قل ودل) ما هو جدير بأدبه وفنه من تشجيع وتقدير.

المهاتما غاندي

حياته وجهاده

للأستاذ فتحي رضوان المحامي

أثارت شخصية غاندي وحياته ومبادئه الروحية، وأساليبه السياسية في الأعوام الأخيرة كثيراً من الاهتمام في جميع أنحاء العالم؛ وكان غاندي منذ سنة 1920 أعظم شبح يروع السياسة البريطانية في الهند، وكان لذلك الرجل الذي يضطرم جسمه النحيل بقوة روحية هائلة في الأعوام الأخيرة مواقف اهتزت لها السياسة البريطانية، واضطرت أن تنحني أمامها، أشهرها موقف سنة 1930 حينما أعلن العصيان المدني الأكبر، وأشهر دعوة عدم التعاون، واضطرمت الهند من أقصاها إلى أقصاها بدعوته، واضطرت حكومة الهند إلى اتخاذ أشد الإجراءات الدموية لسحق الثورة، واضطرت الحكومة البريطانية أن تصرح على لسان اللورد ايروين حاكم الهند أنها ترمي إلى السير بالمسألة الهندية إلى منح الهند استقلالها الذاتي، وأنها تعقد لبحثها مؤتمراً خاصاً هو الذي عرف بمؤتمر المائدة المستديرة، والذي استدعى غاندي من أعماق سجنه إلى شهوده، بعد أن التزمت حكومة الهند بوقف الإجراءات الاستثنائية، وإعادة النظر في ضريبة الملح؛ ومن مواقف غاندي المشهورة أيضاً، موقف منذ عامين في مسألة المنبوذين حينما أعلن أن يصوم حتى الموت ما لم تعدل الحكومة البريطانية موقفها نحو المنبوذين؛ وليث غاندي في صيامه حتى أشرف على الموت، واضطرت الحكومة البريطانية في آخر لحظة أن تنزل عند وجهة نظره نحو المنبوذين اتقاء لموته، وما يجره ذلك الموت في الهند من العواقب الخطيرة.

هذه الحياة العظيمة الفياضة بمواطن الكفاح القومي المضطرم، ومواطن القوة الروحية الهائلة، يتناولها الأستاذ فتحي رضوان في سفر كبير تربى صفحاته على الثلاثمائة. وقد سبق أن نشر الأستاذ فتحي رضوان عن غاندي عدة فصول قيمة في بعض الصحف اليومية، ولكنه يقدم الينا الآن دراسة كاملة متصلة عن حياة هذا البطل القومي الممتاز. فأعوام غاندي الأولى، ثم مراحل الدراسة في الهند وفي انكلترا، ومرحلة الحياة العملية الأولى في المحاماة، ونزوح غاندي إلى جنوب أفريقية. حيث

هاله ما رأى من اضطهاد مواطنيه وجهاده في سبيل إنصافهم، وبث الدعوة الأولى إلى عدم التعاون، وظفره في هذا
الكفاح؛ ثم استئناف العمل في الهند، ونمو الدعوة إلى عدم التعاون، وحياة السجن والمحاكمات المختلفة، ومراحل الكفاح القومي المختلفة حتى سنة 1930 - هذه كلها يفصلها الأستاذ فتحي رضوان في إفاضة وترتيب ووضوح - ونلاحظ فقط أن المؤلف فاته أن يشرح أدوار المسألة الهندية، وما اتخذته السياسة البريطانية نحوها في الأعوام العشرة الأخيرة، وأعمال لجنة الإصلاح الدستوري وما يتعلق بها. فهذه كلها مسائل هامة يجب أن يستوعبها كتاب بوضع عن غاندي؛ ونلاحظ أيضاً أنه لم يتناول مراحل الكفاح التي خاضها غاندي في الأعوام الثلاثة الأخيرة، وقد كان حرياً به أن يتناولها.

وفي حياة غاندي عبر قومية عميقة يجب أن يستعرضها شباب الأمم الشرقية المغلوبة. ومن واجب الشباب المصري أن يدرس هذه الحياة الفياضة بمواطن الكفاح القومي. وبين الهند ومصر محنة مشتركة، وعدو مشترك. فيجدر بشبابنا المثقف أن يقرأ حياة المهاتما غاندي. وأن يدرس ما فيها من أسرار العظمة ومقومات البطولة القومية.

(ع)

العدد 62 - بتاريخ: 10 - 09 - 1934

حقائق التاريخ لا يمكن أن يطمسها التشريع

صفد القلم، وصفدت حرية الرأي والفكر في مصر، في الأعوام الأخيرة، بأغلال وقيود شتى لم نعرفها حتى في أشد أيام الاحتلال؛ والتمس المشرع لصوغ هذه الأغلال والقيود مختلف المعاذير في مختلف الفرص؛ فتارة يقال لنا إنه يشرع لحماية النظم الأساسية للدولة من الدعوات والمبادئ الثورية، أو لحماية الحكومة والهيئات العامة من مطاعن خصومها السياسيين؛ وتارة يقال لنا إن سيل الأدب الملحد أو الماجن يكاد يطغى على الدين والأخلاق، فهو يشرع لحماية الدين والأخلاق؛ وكان التشريع يجري في هذه الحدود إلى ما قبل بضعة أعوام؛ وكنا نعتقد أن المشرع قد وصل في مختلف القوانين التي أصدرها إلى ذروة الشدة والتحوط لما يريد تحقيقه من الغايات السياسية والاجتماعية، وإنه لم تبق للقلم والرأي حريات حقيقية يستطيع أن يحد منها بعد؛ ولكن صدرت في الأعوام الثلاثة الأخيرة عدة قوانين جديدة للقضاء على ما بقى من مظاهر حرية الرأي والقلم، أولها قانون الصحافة المعروف، وثانيها قانون تحريم نشر الأخبار الجنائية والقضائية والإدارية إلا في حدود معينة، وثالثها قانون تعديل العقوبات الخاصة بجرائم النشر والسب والقذف، ودفعها إلى حدود لم يسمع بها من قبل، وأخيراً، في هذه الآونة، يقال لنا أن المشرع ينشط من جديد لفرض أغلال وأصفاد جديدة لا على الصحافة وحدها، بل على ناحية أخرى هي عرض التاريخ أيضاً.

إذاً لم تنته حلقات هذه السلسلة المدهشة من قوانين وأحكام فريدة في شذوذها وشدتها، بل يراد أن تكمل بما يرى المشرع أنه نقص في حلقاتها حتى يكمل سحق البقية الباقية من هذه المظاهر الضئيلة التي يستطيع القلم المصفد أن يبدو فيها خلال هذه الخطوب التي تغمره؛ ويراد فوق ذلك أن يتناول التشريع الجديد ناحية علمية أدبية محضة كان المشرع يحوم حولها من قبل بطرق ونصوص غير مباشرة؛ ولكنه يزمع اليوم أن يتناولها صراحة وبطريقة مباشرة؛ فيفرض قيوداً خاصة على كتابة التاريخ، ويعاقب أولئك الذين يسمحون لأنفسهم بحرية العرض أو النقد في تدوين حوادث التاريخ أو تراجم أشخاصه.

ليس هنا موضع التحدث عن هذه القوانين من الناحية الدستورية أو السياسية فقد قتلتها الصحافة السياسية من هذه الناحية بحثاً ومناقشة؛ ولكنا نريد فقط أن نتحدث عن أثر هذا التشريع المنشود في سير الحركة الأدبية والمباحث التاريخية.

لا ريب أن هذا الحجر الجديد على عرض الحقائق التاريخية سيثير صعاباً علمية جمة، وسيكون ضربة شديدة لحرية البحث ونزاهته؛ بيد أنه لن يحقق الغاية التي يعقد عليه تحقيقها؛ وقد أشير إلى طرف من الأسباب التي تتخذ حجة لتبرير هذا الحجر، فقيل إنه قد ظهرت في العهد الأخير كتب ومباحث تاريخية بها مطاعن ومثالب في حق بعض الأمراء السالفين ورؤساء الحكومات الأجنبية الحاليين، واتخذ العرض التاريخي شعاراً لهذا التجريح؛ وأنه يجب أن يوضع حد لذلك. وجوابنا أن حقائق التاريخ لا تتجزأ،

والمؤرخ المحقق لا يمكن أن يتقيد في سرد هذه الحقائق إلا بالمراجع والأسانيد والوثائق، ولا يمكن أن يخضع لغير ضميره ومقتضيات الحق والنزاهة. وحياة الذاهبين من الزعماء والقادة ملك التاريخ، لا سلطان لإنسان عليها غير سلطان العلم؛ فالتوسل بالتشريع إلى طمس الحقائق التاريخية تدخل غير مسوغ في حرية العلم والبحث، وتجن على الحقيقة لا يخلق بعصرنا عصر العلم والحقيقة والنور.

والحجر على حرية البحث والكتابة على هذا النحو يلقى سحباً من الشك على قيمة الكتب والمباحث التي تصدر في ظله حتى ولو كانت جديرة بالتقدير؛ ومن المستحيل أن تنقلب المثالب إلى مناقب بقوة التشريع؛ والعلم ليس له اليوم حدود ولا وطن، فإذا استطاع المشرع أن يصفد الأقلام في مصر، فليس في وسعه أن يصفدها في أي أرض أخرى؛ وأرض الله واسعة. والتاريخ يكتب بكل اللغات الحية؛ وهذه اللغات تقرأ في مصر، كما تقرأ في غيرها. هذا إلى أن ما لدينا اليوم من الكتب والمباحث في الميادين والموضوعات التي يراد حمايتها بقوة القانون يلقى عليها ضياء لا يمكن أن تطمسه أية قوة أو بطش.

كان لويس الخامس عشر يعتبر حتى عصرنا أشنع مثل للملكية الظالمة الباغية المسرفة؛ وكانت النشرات القاذفة تنثال عليه إبان حياته من أقلام قاسية لاذعة كقلم فولتير؛ فكان الباستيل مأوى القاذفين؛ ولكن هل استطاع الباستيل وكل ضروب البطش والمطاردة الأخرى أن تخمد الصيحات المنبعثة أو تطمس الحقائق الثابتة في هذه الحياة الفياضة بالإثم والبغي؟ ومع ذلك فقد وجد في أيامنا من كتاب التاريخ من يذهب في سيرة هذا الملك رأياً آخر، ويقول إن التاريخ قد ظلمه، وأنه كان في أخطائه ومثالبه دون ما يصوره بكثير.

وكانت لوكريزيا بورجيا ابنة البابا إسكندر السادس تعتبر حتى عصرنا أشنع مثل للأميرة الفاجرة التي تضطرم بأوضع الأهواء والشهوات، وتنحط إلى أسفل درك من الرذيلة والأثم، فجاء أخيراً مؤرخ بارع هو العلامة فونك برنتانو، وأصدر كتاباً عن حياة هذه الأميرة، وفيه يصورها لنا امرأة عفيفة فاضلة، ويدفع عنها كل الجنايات والآثام التي نسبت إليه. وكان الباستيل يعتبر حتى عصرنا أروع سجون التاريخ فجاء فونك برنتانو أيضاً يقول إن الحياة فيه كانت ناعمة، وكانت تنتظم بين جدرانه القاتمة جميع مجالي اللهو والأنس والترف.

والخلاصة أن التاريخ ملك البحث الحر وملك الزمن، فاتركوه يجر مجراه الحر؛ وثقوا أن من المحال أن يحول التشريع دون ظهور الحقائق غير المرغوب في ظهورها؛ فللتاريخ مسمع جاد يصل إلى ما وراء الجدر، وبصيرة ثاقبة تنفذ إلى أعمق الظلمات. وإنما تطلب الحماية للحقيقة لا لغيرها.

(مؤرخ)

سيدنا

للأستاذ أحمد أمين

كان لسيدنا الشيخ سيد عبد الرحمن كتاب في حي وطني في قسم الخليفة، أسلمني له أبي وأنا في السادسة من عمري.

كان هذا الكتاب بيتاً من بيوت الوقف، يتكون من طابقين، طابق أرضي فيه حجرتان أحدهما سبيل لسقي الماء كان قد هجر عندما ذهبت إليه، والأخرى لسيدنا ينام فيها أحياناً، وفي الطابق العلوي حجرتان كذلك، إحداهما لأولاد الكتاب يقرءون فيها، والأخرى لسيدنا أيضاً، وبين الحجرتين (فسحة) في أحد أركانها زير ماء لا تعرف لونه مما توالى عليه من أحداث الزمان، وعليه غطاء من خشب، قد كسر ولم يهتم أحد بإصلاحه، وعلى الغطاء كوز صفيح قد شد بحبل في مسمار في الحائط، حتى لا يذهب به الأولاد من مكان إلى مكان، وخشية أن يقع الكوز في أسفل الزير، فإذا كان مربوطاً ووقع استطعنا أن نشده بالحبل، والماء إن تلوث بوقوع الحبل فيه، فهو أقل ضرراً من مد اليد عارية وغوصها لاستخراجه.

وأدوات الكتابة: حصير فرش على البلاط، يبلى أحياناً فتتناثر عيدانه، ومع ذلك يبقى إلى أنيحنن الله على سيدنا فيشتري حصيراً جديداً، وصندوق من صناديق السكر أو الجاز وضع في زاوية من زوايا الحجرة، نضع فيه ألواحنا - وهذه الألواح أكثرها صفيح، تسود أحيانا ويذهب طلاؤها حتى لا نتبين الكتابة منه - وكيف يبين أسود من أسود؟

وأقلها خشب قد طلي بدهان أبيض، وله إطار لون بلون بني، وذلك خاص بأولاد الذوات وأشباههم.

هذا كل ما بالكتاب من أدوات، ومعاذ الله أن أنسى شيئاً أهم من ذلك كله، وهو مجموعة عصى من جريد النخل، تختلف طولاً وقصراً، أما القصيرة فيستعملها سيدنا لمن يسمع عليه اللوح أو (الماضي) فيخطئ فتدركه هذه العصا، وأما الطويلة فعندما يرى سيدنا طفلاً في آخر الحجرة لا يهتز وقت قراءته أو يتهاون في حفظه، فما يشعر إلا والعصا الطويلة نزلت عليه وصحبها من سيدنا (اهتز يا ولد) - وقد كان لهذه العصا ما طال منها وما قصر، أثر في نفوسنا لا ينكر، فكثيراً ما رعبنا لأن خيالنا صور لنا أن سيدنا يريد أن

يهوي علينا بعصاه، وفي الواقع لم يكن شيء من ذلك، وإنما هو الرعب ملك نفوسنا، ويحصل هذا أحياناً حتى في البيت، فننسى أننا خرجنا من الكتاب، وأننا بين أهلينا، فنرتجف بغتة لحركة تشبه حركة سيدنا في الكتاب.

وإلى جانب هذه العصى (فلقة) وهي عصى غليظة من خشب متين قد ثقب في وسطها ثقبان يبعد ما بينهما نحو شبر، وركب في هذين الثقبين سير من جلد أو نحوه، فإذا شكا الولد أبوه أو غضب عليه سيدنا أدخل رجليه في هذا السير ولواه عليهما، وأمسك بطرفي الفلقة ولدان كبيران شديدان من أولاد الكتاب، فلم تستطع الرجلان حركة، وانهال عليه سيدنا ضرباً بالعصا والولد يصيح (في عرضك يا سيدنا) (حرمت) (أتوب)! ولست أنسى مرة أفرط فيها سيدنا فشق عقبي وسال منه الدم؛ وكان عزائي الوحيد أني مكثت بعيداً عن سيدنا نحو أسبوعين.

وهذا كل ما كان في الكتاب من (موبيليات).

كان سيدنا يحفظ القرآن حفظاً جيداً، ويكتب كتابة عاجزة، وهذا كل ما له من ثقافة، كان يطوف في الصباح على البيوت يقرأ فيها ما تيسر من القرآن، ويخرج من بيت إلى بيت حتى يتم دورته، وكان موظفاً في مسجد يؤذن فيه، فإذا حان وقت الظهر أو العصر خرج من الكتاب للآذان والصلاة - وفي غيابه صباحاً أو ظهراً أو عصراً يتركنا لعريف يقوم مقامه، ولكن كان العريف ولله الحمد أهون علينا من سيدنا. فكنا نتنفس الصعداء إذا خرج، ونصاب بالرعشة إذا حضر. وكان برنامج الكتاب ينحصر في كلمة هي (تحفيظ القرآن) فيبتدئ بتعليم حروف الهجاء على طريقة غريبة، فأول درس كان هو (أألف) وهي كلمة حفظتها ولم أفهمها إلا وأنا طالب في مدرسة القضاء. إذ فهمت أننا لو تهجينا كلمة ألف لكانت ألفاً ولاماً وفاءً، وما أدري ما السر في هذا البدء على هذا الوضع - حتى إذا عرف الولد شيئاً من القراءة والكتابة بدأ بكتابة جزأ من القرآن في اللوح يحفظه كل يوم وهو في أثناء ذلك (يثبت الماضي) ويمضي النهار كله في هذا الباب، فلا إملاء ولا حساب، ولا يعرف سيدنا شيئاً من ذلك، ولا نستريح من هذا العمل إلا وقت الغداء

فإذا حان الظهر جمع (سيدنا) من كل ولد مليمين أو ثلاثة أو خمسة ثم بعث بولد كبير فأتى له بماجورين مملوءين، أحدهما فيه قليل من فول نابت وكثير من مرق، والآخر مملوء

مخللاً بمائه وخله، وتحلق الأولاد حلقة، وأخرج كل رغيفه، وكان قد أحضره معه في الصباح تحت إبطه، وضربوا بأيديهم في الماجورين وأكلوا هنيئاً مريئاً - وقد رحمني الله من تمثيل هذا الفصل إذ كان بيتنا بجوار الكتاب أستطيع أن آكل فيه وأعود - وبين هؤلاء المريض والقذر ومن تلوثت يداه بالحبر.

لا تعجبن من هالك كيف توى ... بل فاعجبن من سالم كيف نجا

كان (سيدنا) غريب الأطوار عرف في الحي باسم الشيخ سيد المجذوب، يلبس المرقع من الثياب فلم أره يوماً لبس (مركوباً) جديداً ولا عمة نظيفة ولا قباء ولا عباءة جديدين، فكأنه كان يتحرى القديم من كل شيء ويشتريه، كان يتزهد في أكله ولبسه وحديثه، ويهزأ بالناس ولا يعيرهم التفاتاً. فهو يمشي مسرعاً مشياً يشبه الجري، ويأكل في الشارع وهو على هذه الحال، وإذا ناداه منادٍ لا يلتفت إليه، فكان بذلك يلفت أنظار الناس والأطفال، ويعجب منه بعضهم، ويتبرك به بعضهم، وكان في المجالس العامة غريباً ينتحي ناحية وحده ويفر من الناس ويستوحش منهم، وفي مجالسه الخاصة واعياً أنيساً لطيفاً.

لم أره يقرأ في كتاب، وما أظنه كان يعرف ذلك، ولكني مع هذا اذكر له حادثة حيرتني حقاً - فقد خرجت من كتابه، وأتممت التعليم في مدرسة ابتدائية، ثم قطعت مرحلة بعدها في التعليم - ثم ذهبت إلى مدرسة القضاء ومكثت فيها نحو أربع سنوات، ثم لقيت سيدنا في الطريق فسلمت عليه في احترام وإجلال اعترافاً بفضله عليّ في أول مراحل التعليم، ولكني أطوي بين جنبي إدلالاً بنفسي عليه، فأين هو الآن مني؟ لقد درست طبيعة وكيمياء، ودرست رياضة نظرية واسعة من حساب مثلثات وتوافيق وتراتيب ولوغارتمات، ودرست علوماً دينية مختلفة الأشكال والأنواع، وعلوماً مدنية من تاريخ وأصول قوانين ونظام إدارة وما إلى ذلك - فأين سيدنا من هذا كله فهو لا حظ له من علم إلا أن يحفظ القرآن، ولكن ما أدهشني حقاً أنه أخذ يسألني عن حالي وجرى من ذلك إلى الإدلاء برأيه في العالم وفلسفة الكون عن طريق صوفي، فإذا أنا أسير معه ملتذاً من حديثه معجباً بقوله إعجاباً يفوق ما كنت أضمره لأساتذتي في المدارس العالية، وإذا أنا أذهب معه حيث يذهب وأجلس معه حيث يجلس حتى أتم حديثه الممتع اللذيذ في ساعتين أو أكثر، ولوددت أنه طال أكثر مما كان - لست أذكر الآن حديثه وقوله، ولا أذكر ماذا
كانت نظراته في الحياة، ولكني أذكر لذة حديثه وفائدة درسه.
ثم راحت أيام وجاءت أيام، وإذا لي ولد، وإذا بي أرسله إلى (روضة الأطفال)، وإذا مكان الكتاب ذي السبيل والحصر، بناء فسيح ذو حديقة غناء، وتخت وأدوات شتى، ومكان العصي و (الفلقة)، بيانو وآلات موسيقية، ومكان مواجير الفول والمخلل، لبن وبسكوت في الساعة العاشرة، وأكل نظيف يشرف عليه الطبيب في الظهر ومكان برنامج كتابنا الذي ليس فيه إلا حفظ القرآن برنامج دقيق مفصل محدود بالساعة والدقيقة فيه غناء وفيه لعب، وفيه مبادئ القراءة، وفيه ما شئت من تنوع واختلاف، ومكان سيدنا الشيخ سيد عبد الرحمن أنساتنا العزيزات.
وأتى ابني يوماً يقول أن (أبلة) فلانة علمتهم اليوم درساً جديداً، قالت هذه (ستي) أ، وهذه (ستي) ب، وستي ألا شيء عليها، وستي ب من تحتها نقطة، فقلت أين هذا مما (كنا نتعلمه من أألف، بابا ليف، بوبا واو بي با يه).
ورأيته ينشد أناشيد (سمير الأطفال) ونحوها فقلت أين أنت من أبيك وقد كان ينشد في العصر قبل الذهاب إلى البيت الأناشيد الدينية.
ورأيته يزكم فيجلس في البيت ثم يذهب إلى المدرسة فتأبى عليه إلا أن يأتي بشهادة طبيب بأنه برئ ولم يكن مرضه معدياً، فقلت لحا الله زماناً لم نكن نعرف فيه طبيباً، وكان حولنا في الكتاب مرضى لا يعرفون أن الزكام مرض، وكان أصحاءهم ومرضاهم يشربون من زير واحد بكوز واحد.
ورأيته في سنه لا يحفظ شيئا، وكنت أنا في سنه أحفظ جزءا كبيراً من القرآن.
ورأيته يعرف من الأشغال اليدوية والرسم والتلوين ما لا أعرفه إلى اليوم.
ورأيته ورأيته، ورأيتني ورأيتني
أخشى أن نكون في كلا الحالين مفرطين ومفرطين، وأن نكون في (كتابنا) قد غلونا وفي (رياض أطفالنا) قد غلونا
أخشى أن يكون الكتاب قسا وأسرف في القسوة، ورياض الأطفال ماعت وأسرفت في الميوعة، أخشى أن نكون في كتابنا قد وضعنا أمام الطفل كل العقبات فلم يستطع أن يجتازها إلا القليل، ونحينا في (رياض الأطفال) كل العقبات فاجتازوها جميعاً، ولكنهم
خرجوا لا يعرفون كيف يجتازون عقبة عرضت، ولا يصبرون على شدة ألمت، ولا يتحملون مشقات العلم ومعانات الدرس، ولا يعالجون ما يعن من مصاعب الحياة - وآية ذلك أن الجيل السابق - مع كثرة من تخلف - كانوا أصبر على الدرس وأحمل للمكاره والمشاق، وأن الجيل الحاضر أنعم وأظرف وألبق، ولكنهم لا يصبرون على مكروه حتى العلم.
أحمد أمين
قصيدة مترجمة
لحوم البحر. . .
للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

لكأنما والله قد تمدد على سيف البحر في إسكندرية شيطانٌ ماردٌ من شياطين ما بين الرجل والمرأة. يخدع الناس عن جهنم بتبريد معانيها. . وقد امتلأ به الزمان والمكان؛ فهو يرعش ذلك الرمل بذلك الهواء رعشة أعصاب حية؛ ويرسل في الجو نفخاتٍ من جرأة الخمر في شاربها ثار فعربد، ويطلع الشمس للأعين في منظرٍ حسناء عريانة ألقت ثيابها وحيائها معاً؛ ويرخي الليل ليغطي به المخازي التي خجل النهار أن تكون فيه.

ولعمري إن لم يكن هو هذا المارد فما أحسبه إلا الشيطان الخبيث الذي ابتدع فكرة عرض الآثام مكشوفة في أجسامها تحت عين التقي والفاجر لتعمل عملها في الطباع والأخلاق؛ فسول للنساء والرجال أن ذلك الشاطئ علاج الملل من الحر والتعب حتى إذا اجتمعوا فتقاربوا، فتشابكوا، سول لهم الأخرى أن الشاطئ هو كذلك علاج الملل من الفضيلة والدين.

ولئن لم يكن اللعينان فهو الرجيم الثالث، ذلك الذي تألى أن يفسد الآداب الإنسانية كلها لفساد خلقٍ واحد، هو حياء المرأة؛ فبدأ يكشفها للرجال من وجهها ولكنه استمر يكشف. وكانت تظنه نزع حجابها فإذا هو أول عريها. . وزادت المرأة، ولكن بما زاد فجور الرجال، ونقصت ولكن بما نقص فضائلهم، وتغيرت الدنيا وفسدت الطباع. فإذا تلك المرأة ممن يقرونها على تبذلها بين رجلين لا ثالث لهما: رجل فجر ورجل تخنث. .

هناك فكرة من شريعة الطبيعة هي عقل البحر في هؤلاء الناس، وعقل هؤلاء الناس في البحر؛ إذا أنت اعترضتها فتبينتها فتعقبتها، رأيتها بلاغة من بلاغة الشيطان في تزيينه وتطويه، وأصبت فكره مستقراً فيها استقرار المعنى في عبارته، آخذاً بمداخلها ومخارجها. وما كان الشيطان عيياً ولا غبياً، بل هو أذكى شعراء الكون في خياله، وأبلغهم في فطنته، وأدقهم في منطقه، وأقدرهم على الفتنة والسحر. وبتمامه في هذا كله كان شيطاناً لم تسعه الجنة إذ ليس فيها النار، ولم ترضه الرحمة إذ ليس معها الغضب، ولم يعجبه الخضوع الملائكي إذ ليس فيه الكبرياء، ولم يخلص إلى الحقيقة إذ لا تحمل الحقيقة شعر أحلامه.

وما أتى الشيطان أحداً، ولا وسوس في قلب، ولا سول لنفس، ولا أغوى من يغويه إلا بأسلوب شعري ملتبس دقيق، يجعل المرء يعتقد أن أطراح العقل ساعة هو عقل الساعة، ويفسد برهانه مهما كان قوياً إذ يرتد به من النفس إلى أخيلة لا تقبل البراهين، ويقطع حجته مهما كانت دامغة، إذ يعترضها بنزعة من النزعات توجهها كيف دار بها الدم لا كيف دار بها المنطق.

فكرة من شريعة الطبيعة ظاهرها لبعض الأمر من الشمس والهواء والبحر وما لا أدري، وباطنها لبعض الأمر من فن الشيطان وبلاغته وشعره وما لا أدري، وما كانت الشرائع الآلهية والوضعية إلا لإقرار العقل في شريعة الطبيعة كي تكون إنسانية لإنسانها كما هي حيوانية لحيوانها، وليجد الإنسان ما يحفظ به نفسه من نفسه التي هي دائماً فوضى، ولا غاية لها لولا ذلك العقل إلا أن تكون دائماً فوضى. .

وبالشرائع والآداب استطاع الإنسان أن يضع لكلمة الطبيعة النافذة عليه، وأن يرى في هذه الطبيعة أثر جوابه؛ فكلمتها هي: أيها الإنسان أنت خاضع لي بالحيواني فيك؛ وكلمته هو: أيتها الطبيعة وأنت لي خاضعة بالإلهي فيّ.

والآن سأقرأ لك القصيدة الفنية التي نظمها الشيطان على رمل الشاطئ في إسكندرية؛ وقد نقلتها أترجمها فصلاً بعد فصل عن تلك الأجسام عارية وكاسية، وعن معانيها مكشوفة ومغطاة، وعن طباعها بريئة ومتهمة، حتى اتسقت الترجمة على ما ترى

قال الشيطان:

. . .ألا إن البهيمية والعقلية في هذا الإنسان؛ مجموعهما شيطانية

ألا وإنه ما من شيء جميل أو عظيم إلا وفيه معنى السخرية به.

هنا تتعرى المرأة من ثوبها، فتتعرى من فضيلتها.

هنا يخلع الرجل ثوبه، ثم يعود إليهفيلبس فيه الأدب الذي خلعه.

رؤية الرجل لحم المرأة المحرمة نظر بالعين والعاطفة.

يرمي ببصره الجائع كما ينظر الصقر إلى لحم الصيد.

. . .ونظر المرأة لحم الرجل رؤية فكر فقط
.تحول بصرها أو تخفضه، وهي من قلبها تنظر
. .يا لحوم البحر! سلخك من ثيابك جزار
.يا لحوم البحر! سلخك جزار من ثيابك
. .جزار لا يذبح بألم ولكن بلذة
.ولا يحز بسكين ولكن بالعاطفة
. .ولا يميت الحي إلا موتاً أدبياً
.إلى الهيجاء يا أبطال معركة الرجال والنساء
.فهنا تلتحم نواميس الطبيعة ونواميس الأخلاق
للطبيعة أسلحة العري، والمخالطة، والنظر، والأنس، والتضاحك، ونزوع المعنى إلى المعنى. .
.وللأخلاق المهزومة سلاح من الدين قد صدئ، وسلاح من الحياء مكسور
. .يا لحوم البحر! سلخك من ثيابك جزار
.الشاطئ كبير كبير، يسع الآلاف والآلاف
. . .ولكنه للرجل والمرأة صغير صغير، حتى لا يكون إلا خلوة
. .وتقضي الفتاة سنتها تتعلم، ثم تأتي هنا تتذكر جهلها وتعرف ما هو
. . .وتمضي المرأة عامها كريمة، ثم تجيء لتجد هنا مادة اللؤم الطبيعي
.لو كانت حجاجة صوامة، للعنتها الكعبة لوجودها في (استانلي)
.الفتاة ترى في الرجال العريانين أشباح أحلامها، وهذا معنى من السقوط
. . .والمرأة تسارقهم النظر تنويعاً لرجلها الواحد، وهذا معنى من المواخير
أين تكون النية الصالحة لفتاة أو امرأة بين رجال عريانين؟
. . .يا لحوم البحر! سلخك من ثيابك جزار
.هناك التربية، وهنا إعلان الإغفال والطيش
.وهناك الدين، وهنا أسباب الإغراء والزلل
.وتكلف الأخلاق، وهنا طبيعة الحرية منها
.والعزيمة بالقهر يوماً بعد يوم، وهنا إفسادها بالترخص يوماً بعد يوم
. .والبحر يعلم اللائي والذين يسبحون فيه كيف يغرقون في البر
.لو درى هؤلاء وهؤلاء معرة اغتسالهم معاً في البحر، لاغتسلوا من البحر
.فقطرة الماء التي نجستها الشهوات قد انسكبت في دمائهم
. .وذرة الرمل النجسة في الشاطئ ستكبر حتى تصير بيتاً نجساً لأب وأم
. .يا لحوم البحر! سلخك من ثيابك جزار
يجيئون للشمس التي تقوى بها صفات الجسم،
.ليجد كل من الجنسين شمسه التي تضعف بها صفات القلب
يجيئون للهواء الذي تتجدد به عناصر الدم،
.ليجدوا الهواء الآخر الذي تفسد به معاني الدم
يجيئون للبحر الذي يأخذون منه القوة والعافية،
. .ليأخذوا عنه أيضاً شريعته الطبيعية: سمكة تطارد سمكة
.ويقولون ليس على المصيف حرج
.أي لأنه أعمى الأدب، وليس على الأعمى حرج
. .يا لحوم البحر! سلخك من ثيابك جزار
.المدارس، والمساجد، والبيع، والكنائس، ووزارة الداخلية، هذه كلها لن تهزم الشاطئ
فأمواج النفس البشرية كأمواج البحر الصاخب، تنهزم أبداً لترجع أبداً؛ لا يهزم الشاطئ إلا ذلك (الجامع الأزهر)، لو لم يكن قد مسخ مدرسة. فصرخة واحدة من قلب الأزهر القديم، تجعل هدير البحر كأنه تسبيح، وترد الأمواج نقية بيضاء، كأنها عمائم العلماء.
وتأتي إلى البحر بأعمدة الأزهر للفصل بين الرجال والنساء، ولكني أرى زمناً قد نقل روح (الكازينو) إلى المدارس. حتى
. . .يا لحوم البحر! سلخك من ثيابك جزار!
.هنا على رغم الآداب، مملكة للصيف والقيظ، سلطانها الجسم المؤنث العاري
.أجسام تعرض مفاتنها عرض البضائع، فالشاطئ حانوت للزواج!

. . .وأجسام تعرض أوضاعها كأنها في غرفة نومها لا في الشاطئ
. .وأجسام جالسة لغيرها تحيط بها معانيها ملتمسة معانيه، فالشاطئ سوق للرقيق
وأجسام خفرة جالسة للشمس والهواء، فالشاطئ كدار الكفر لمن أكره.
!. . .وأجسام عليلة تقتحمها الأعين فتزدريها، لأنها جعلت الشاطئ مستشفى
وأجسام خليعة أضافت من استانلي وأخواتها إلى منارة إسكندرية، ومكتبة إسكندرية،
. . .مزبلة إسكندرية
كان جدال المسلمين في السفور فأصبح الآن في العري.
فإذا تطور، فماذا بقي من تقليد أوربا إلا الجدال في شرعية جمع المرأة بين الزوج
وشبه الزوج.؟
انتهى ما استطعت ترجمته، بعد الرجوع في مواضع من القصيدة إلى بعض القواميس
.الحية. .، إلى بعض شبان الشاطئ
طنطا
مصطفى صادق الرافعي
حول ذكرى الشاعرين
(شوقي وحافظ)
كتب كثير من الأساتذة الغير، يأسفون على إهمال حافظ، ويتألمون على أن كتاباً لم يصدر عنه. ولم يذكر واحداً منهم، أن المكتبة العربية في دمشق، قد أخرجت كتاباً في ذكرى الشاعرين في (750) صفحة كبيرة. فيه (12) مقالة عن حافظ لطائفة من أكبر كتاب مصر والشام كالرافعي والمازني وطه حسين وهيكل والبشري والمغربي و (16) قصيدة في حافظ لطائفة من كبار الشعراء كشوقي (رحمه الله) والزهاوي ومطران والعقاد ومحرم والبزم والهراوي وجبري، وأكثر من ألف بيت من شعر حافظ الذي لم ينشر في ديوانه، ومثل هذا عن شوقي، وخمس مقالات في المقارنة بينهما للزيات وطه حسين والمازني ومطران وسعيد الأفغاني.
أفليس من الحق أن ينوه بهذا العمل، وأن يشكر لدمشق؟
دمشق
متأدب
أعظم حادث في حياة روسو:
روسو ومدام دي فرنس
للأستاذ محمد عبد الله عنان
صدر أخيراً في باريس كتاب عنوانه (مدام دي فرنس) وهو عنوان لا يثير لأول وهلة كبير اهتمام؛ ولكنا متى علمنا أن صاحبة هذا الاسم هي المرأة التي كان لها أكبر أثر في حياة جان جاك روسو الكاتب والفيلسوف الأشهر، وأنها إذا لم تكن معروفة شهيرة لذاتها فان روسو يخلدها في آثاره، ويفرد لها في (اعترافاته) أو ترجمة حياته أكبر مكانة، استطعنا أن نقدر أهمية بحث يتناول هذا الجانب من حياة روسو، وما كان له من عظيم أثر في تكوين تفكيره وفلسفته.
نلمس أثر المرأة في حياة كثير من عظماء الرجال، وتمتاز هذه الشخصيات النسوية في أغلب الأحيان بخلال قوية بارزة تمكن لها في النفوذ والتأثير؛ ولكن مدام دي فرنس تبدو لنا في صورتها وخلالها شخصية عادية، لا تخلق في ذاتها لأن توحي بشيء من مقومات العظمة أو البطولة؛ وكان مثولها في حياة روسو أيام كان فتى مغموراً شريداً لا قيمة له في مجتمع وطنه وعصره. على أن هذه الصلة طبعت نفس روسو وروحه بأعمق طابع، وأثرت في عواطفه وتفكيره أعظم تأثير، وأثارت من قلمه عن مدام دي فرنس وعن صلاته بها تلك الصحف المؤثرة البديعة التي نعتقد إنها أجمل ما في (الاعترافات).
كانت لروسو مع مدام دي فرنس قصة من أغرب القصص وأجملها، قصة (أم) وولد، ومربية وتلميذ، وحامية ومحسوب، وأخيراً قصة عاشق ومعشوق، وصاحب وخليلة؛ وكان اتصاله بها سنة 1728 وهو حدث في نحو السادسة عشرة من عمره؛ ففي ذلك الحين فر روسو من جنيف مسقط رأسه، وغادر أسرته بعد أن التحق حين كان صبياً بمكتب محام ولم يأنس ميلاً للعمل فيه، ثم بحانوت حفار لم يطق خشونته وسوء معاملته؛ وسافر على غير هدى إلى بلدة كفنيون من أعمال سافوا، وقصد قسيسها

المسيو دي بونفير وكانت بينه وبين أسرته صداقة، فأرسله بتوصية منه إلى سيدة خيرة محسنة هي مدام دي فرنس، لكي تعاونه على البحث عن عمل يعيش منه. وكانت مدام دي فرنس تقيم يومئذ في بلدة (أنسي)؛ فقصد إليها الفتى جان جاك، وقلبه يتردد بين الخيبة والأمل. ويقول لنا روسو إنه لما وصل إلى (أنسي) فكر في وسيلة مؤثرة يكسب بها عطف مدام دي فرنس، فكتب إليها خطاباً منمقاً ضمنه كل ما وسع من الكلمات والعبارات البليغة، ووضع معه خطاب المسيو دي بونفير. ثم ذهب إلى منزلها فلم يجدها هنالك، وقيل له إنها سارت تواً إلى الكنيسة على مقربة من المنزل، فهرول في أثرها ولحق بها وناداها. ثم يقول؛ (وإني لأذكر هذه البقعة بلا ريب. وكثيراً ما بللتها بعد بدموعي وغمرتها بقبلاتي. وإني لأود أن أسور هذه البقعة السعيدة بقضيب من الذهب، وأود أن ألتمس لها إجلال العالم. ومن يقدس آثار إنقاذ الإنسان فعليه أن لا يقربها إلا راكعاً). وشد ما كانت دهشة روسو حينما رأى مدام دي فرنس لأول مرة، وكان يتصورها عانساً مظلمة المحيى شديدة الورع، وما كانت المحسنة التي يختارها القس دي بونفير لتكون في نظره غير ذلك. ولكنه رأى بالعكس محيا يفيض بالسحر، وعينين زرقاوين نجلاوين تفيضان بالرقة، وبشرة ناصعة باهرة. فاستقبلته باسمة وتناولت الخطابين وقرأتهما. ثم طلبت إليه برفق أن ينتظرها في المنزل حتى تعود من القداس.

وهنا يحدثنا روسو طويلاً عن مدام دي فرنس؛ فهي لويزا لينور دي فرنس، سليلة أسرة نبيلة من لوزان؛ تزوجت صغيرة بالمسيو دي فرنس؛ وكان الزواج عقيماً، ولم يكن سعيداً؛ فعافت حياة الأسرة؛ وانتهزت فرصة وجود الملك فكتور أمدية (ملك سافوا) ذات يوم في أفيان، فغادرت أسرتها ووطنها واستغاثت به، فمنحها حمايته ورعايته ورتب لها نفقة حسنة. ثم ذاع بعد ذلك إنه يهواها، فأبعدها إلى (أنسي)، وهناك نبذت مذهبها البروتستانتي واعتنقت الكثلكة إرضاء لمليكها وكان كاثوليكياً متعصباً. وكان قد مضى عليها ستة أعوام في أنسي يوم وفد عليها روسو؛ وكانت يومئذ في الثامنة والعشرين من عمرها. وكانت حسناء (جمالها من ذلك النوع الباقي الذي يبدو في المحيى أكثر مما يبدو في التقاسيم، هذا إلى أن جمالها كان ما يزال في ذروته الأولى؛ وكانت ذات هيئة ناعمة جذابة، ونظرة ساحرة، وبسمة ملائكية. وكانت صغيرة القد، أميل إلى القصر، عبلة نوعاً ولكن دون قبح، بيد أنه لم يك أجمل منها رأساً، ولا أجمل صدراً ويدين ومعصمين).

وقد تلقت مدام دي فرنس تربية مضطربة متنوعة ترجع إلى أنها فقدت أمها عند مولدها، فتعلمت شيئاً من مربيتها، وشيئاً من والدها، وشيئاً من أساتذتها، وكثيراً من عشاقها. وتلقت بالأخص عن والدها قشوراً من الطب والسمياء، وكان للأفاقين من الأطباء والسميائين نفوذ كبير عليها، فكانت تقلدهم في عمل المركبات والأدوية، وتبدد في ذلك ذكاءها وسحرها اللذين كانا يخلقان بأرفع المجتمعات. بيد أنها لبثت خلال هذه الغمار محتفظة بطيبة قلبها، ورقة شمائلها، وبشرها وصراحتها، وحبها للبائس والمسكين، وكان جديراً بذكائها ورفيع خلالها أن تشغل مكانة غير التي وجدت فيها، وأن تؤدي عملاً أجل من ذلك الذي كانت تؤديه.

ولقي روسو مدام دي فرنس (فغزت لبه وحازت ثقته من أول مقابلة وأول كلمة وأول نظرة). ولا يستطيع روسو أن يدرك كنه هذه العاطفة العميقة التي بثتها إليه مدام دي فرنس منذ الساعة الأولى، ويتساءل إذا كانت هذه العاطفة حباً، فكيف اقترنت منذ البداية بسلام القلب، والسكينة، والبشر، والثقة؟ وكيف أنه وهو في حضرة امرأة رفيعة رائعة الحسن، يتوقف عليها مصيرمستقبله في معنى من المعاني، استطاع أن يشعر بمنتهى الحرية والطمأنينة، ولم يخالجه أي اضطراب أو وجل؟ هذا وهو الحدث الحيي الذي لا يعرف شيئاً عن العالم.

وسألته عن أحواله ورغباته، فقص عليها قصته، وبعد أن فكرت ملياً في أمره ولم تجد له حلاً موافقاً، اقترح أحد ضيوف المنزل على مضيفته أن يسافر الفتى الشريد إلى تورينو ليلتحق هنالك بمعهد لتخريج الكهنة، وفيه يلقى العون المادي والروحي، فوافقت مدام دي فرنس لأنها لم تجد حلاً آخر، وساعدت روسو ببعض المال، فسافر إلى تورينو

بعد أن أقام لديها بضعة أيام أسرته فيها بساحر خلالها وبثت إليه شعوراً خالداً بالمحبة والعرفان؛ وهنالك قدم أوراق التوصية التي يحملها. وكان المعهد معهد تبشير للكثلكة، فلم يمض حين حتى حمل روسو على تغيير مذهبه البروتستانتي واعتناق الكثلكة، ثم أخرج على أثر ذلك من المعهد ونفح بمكافأة صغيرة فلبث حيناً يتجول في المدينة، وينتقل من مسكن إلى آخر، وهو شريد لا يدري ماذا يصنع، حتى ألقى به القدر إلى خدمة سيدة نبيلة تدعى الكونتة دي فرتشلي. وكانت أرمل متقدمة السن ولا ولد لها، وكانت أديبة قارئة، فكان روسو يكتب ما تمليه عليه من القطع والخطابات؛ ولكنها لم تلبث طويلاً حتى مرضت ثم توفيت؛ وغادر روسو المنزل آسفاً شريداً؛ حتى سنحت له فرصة أخرى، فألحق بتوصية من بعض

الأصدقاء بخدمة الكونت دي جوفون أحد رجال البطانة، وتعرف عندئذ بالأب دي جوفون أحد أعضاء هذه الأسرة، وتلقى عليه دروساً في اللاتينية والأدب القديم، ولبث في عمله الجديد أشهراً أخرى، ثم أقيل منه فخرج خالي الوفاض مهموم النفس وكره البقاء في تورينو، وأعتزم العودة إلى أنسي وإلى مدام دي فرنس.

فغادر تورينو على قدميه، ووصل إلى أنسي بعد رحلة شاقة، وقصد إلى منزل المحسنة إليه؛ وآنس في الحال منها ذلك العطف القديم، فارتمى على قدميها وهو يلثم يدها فرحاً، وفاض قلبه سعادة إذ علم أنها أعدت له غرفة بالمنزل وأنه سيقيم إلى جانبها باستمرار. وهنا يفيض روسو في وصف عواطفه نحو هذه السيدة البارة الساحرة، فيقول إن علائقهما لم تثر منذ الساعة الأولى أية كلفة، فكانت تسمية (ولدها الصغير) ويسميها (أمه) وأن هذه التسمية كانت أصدق معبر عن بساطة هذه العلائق وسذاجتها، وبالأخص عن تجاذب قلبيهما، وأن الشهوة الجنسية كانت بعيدة عن ذهنه، ولكنه كان سعيداً إذ وجد (أماً) فتية حسناء تغمره مداعباتها وقبلاتها - أجل قبلاتها - سحراً، وإنه كان يشعر إلى جانبها ولدى نظراتها وأحاديثها بمتعة خالدة لا يستطيع أن يدرك كنهها، يقول روسو: (كان يأخذني سحر المقام معها، ورغبتي المضطرمة في أن أقضي حياتي إلى جانبها، فكنت أرى فيها دائماً، أكانت غائبة أم حاضرة، أماً رؤوماً، وأختاً محبوبة، وصديقاً ممتعاً، ليس غير؛ وكانت صورتها التي لا تفارق قلبي قط لا تفسح مجالاً لأية صورة أخرى، فلم أك أرى في العالم امرأة سواها، وكانت عذوبة المشاعر التي تبثها إلي تمنع حواسي من أن تنتبه إلى مشاعر أخرى، وتحميني منها ومن جنسها كله، وبعبارة أخرى كنت عفيفاً لأني أحببتها، فتأمل هذه النتائج التي لا أكاد أحسن عرضها، وقل لي من ذا الذي يستطيع أن يصف طبيعة شغفي بها. . .)

البقية في العدد القادم

محمد عبد الله عنان المحامي

من المدنية الإسلامية

الأرقام الهندية شرقية لا غربية

الأستاذ محمد عبد السلام البرغوثي

ثلاثة عوامل أساسية دفعت الإنسانية من حظيرة الهمجية التي رتعت فيها أجيالاً إلى مستوى المدنية الذي تتبوأ في يومها هذا. ولا تزال هذه العوامل دعائم مدنية الإنسان الثابتة وهي

(1) التقاليد الاجتماعية المتوارثة جيلاً بعد جيل، وقد انتهت هذه التقاليد بالعقائد الدينية الراسخة التي حولت وجه البشرية شطر المثل العليا.

(2) اللغة التي تطورت إلى آداب رفيعة سمت بالإنسان إلى مدارك الحياة العليا.

(3) العلم الذي توج بانتصارات باهرة سلمت للإنسان مقاليد الحياة.

ولقد كان هذا الشرق مهبط وحي الأديان الحنيفة التي خلصت البشر من ديجور الجهل وأنارت لهم سبل الحياة القويمة. وقدم هذا الشرق للعالم الحروف الهجائية فكانت واسطة تخليد آدابه الرفيعة واكتشافاته المجدية في مجاهل الحياة، ومفتاح ثقافة متماسكة مسرعة الخطى نحو الكمال. ومن قرائح أبناء هذا الشرق أخرج الله للعالم الدعامة الثالثة لصرح مدنيتهم هي - ألف باء الحساب - أسس العلم الحديث، فتم بذلك للإنسان ثلاث وسائل فعالة تتحد وتأتلف لتدفع به في سبيل القوة نحو غاية سامية قدرها الله.

لقد بلغت الحضارة الإغريقية شأواً بعيداً من السمو، ووضعت العقلية الإغريقية قواعد

المدنية الأساسية، وخطت للبشرية معالم مدنيتها فكانت مبرزة في كل مضمار إلا في الحساب والجبر لعوزها الأرقام وهي اللبنات الأساسية في بناء هذا العلم.
ولو لم تزد الحضارة الإسلامية على تراث الإغريق سوى تلافيها هذا النقص الذي كان يعتريها لكفاها مأثرة وفخراً.
حوالي سنة 156هـ وفد إلى بغداد تاجر هندي يحمل مقالة في الرياضيات وأخرى في الهيئة. فكانت الأولى أول رسالة رياضية ترجمت إلى العربية ترجمها إبراهيم الفزاري بأمر من الخليفة. وكانت هذه المقالة على ما هو شائع ومتعارف تحوي الأرقام التسعة والعمليات الحسابية الأساسية. ولهذا كان للحساب عند العرب اسمان: (الهندي) وهو ما كان
على الطريقة الرقمية الهندية، والأرتماطيقي وهو ما نسج على أسلوب الإغريق الخالي من استعمال الأرقام.
لعل أول إشارة إلى أصل هذه الأرقام، العالم سفيروس سيبوخت أحد أعلام مدرسة نيسابور على ما يظن في القرن السابع الميلادي، فقد جاء في كتاب له مؤرخ سنة 662م عن براعة أهل الهند في العلم ما يأتي: -
ولا يتسع المقام لشرح ما كان للهند من حذق للفلك وبراعة في الاختراعات التي . .) تفوق براعة الإغريق والبابليين. ونخص بالذكر طرق حسابهم للمقادير والكميات وتفوق كل وصف، وصفوة القول في هذا الصدد أن هذا الإحصاء والتقدير يتمان باستعمال فعلى من يعتقد من الإغريق أنهم قد بلغوا نهاية القصد في العلم أن) .(علامات تسع أهـ .(يفقه ذلك ويدرك أن من الأمم غير الإغريق من ضرب في العلم بسهم وافر
وعلى هذا كان الاعتقاد السائد في العالم العربي وفي أوربا طيلة القرون الوسطى أن الأرقام من أصل هندي. وقد نشر العلامة الفرنسي ووبوك في المجلة الآسيوية التي تصدر في باريس عام 1863 بحثاً مستفيضاً عن تاريخ الأرقام مرجعاً إياها إلى الأصل الهندي، فكانت كلمته فصل الخطاب في ذلك العهد.
وفي مستهل القرن الحالي أثيرت ضجة حول هذا الموضوع كان فرسان حلبتها وحاملوا لوائها ثلاثة من علماء الغرب الأعلام، أولهم كيس الأمريكي البحاثة في علوم الهند، والثاني كارادفو الفرنسي الحجة في تاريخ المدنية الفارسية، وثالثهم نيقولاوس بهنوف الروسي وهو ضليع في اشتقاق اللغة. وقد شك هؤلاء في صلة الهند بالأرقام، وقدم الأخيران فرضاً جديداً لتاريخ الأرقام.
نشر الأستاذ كيس عدة مقالات عام 1907 في المجلة الآسيوية في البنغال عن تاريخ الرياضيات في الهند. وكتب دفو بحثاً في مجلة سنة 1917 عن أصل الصفر. أما بهنوف فقد أخرج مؤلفين عام 1908 أولهما (استقلال الثقافة الأوربية في العلوم الرياضية) وقد ترجم إلى الألمانية عام 1918 وثانيهما (تاريخ الأرقام)
تصدى الأستاذ كيس في تحرياته إلى سبع عشرة لوحة نحاسية بها مخطوطات هندية يرجع تاريخها إلى ما قبل القرن العاشر الميلادي وتحوي أساس استعمال القيمة المنزلية للأرقام و
الأرقام، وأثبت أنها جميعها مزيفة إلا واحدة مؤرخة سنة 867 م. أما أقدم مخطوطة هندية تحوي الأرقام العشرة فترجع إلى سنة 1050.
على هذا الأساس رفض كيس قول المؤرخين السابقين الذين ذهبوا إلى أن الأرقام كانت معروفة لدى الهنود منذ القرن الثالث للميلاد. ورد على من زعم بأن الفلكي الهندي وعاش في القرن السادس الميلادي هو مخترع الأرقام زعمه عليه.
كان ووبوك قد عرض في أبحاثه عن تاريخ الرياضيات إلى مخطوطات عربية جاءت على ذكر بعض مسائل حسابية كطريقة تحقيق عمليات الضرب والقسمة بإسقاط التسعات، ونعتها بالطريقة الهندسية. ولما خيل إليهأن هذه الأعمال حسابية بحتة ولا صلة للهندسة بها، قرر أن الكلمة مصحفة عن (هندية). أما كيس فقد استطاع أن يثبت أن شرح هذه الطرق الحسابية ممكن هندسياً وأنه كان فعلاً معروفاً لدى العرب. وعدا ذلك فقد تحري جميع المراجع العربية التي عثر عليها فوجد أن معظم هذه المراجع لم يبحث فعلاً عن العمليات الحسابية بالطريقة المعروفة برغم أن عناوينها تشير إلى ذلك. فمن هذه المؤلفات وأقدمها مؤلف الخوارزمي الذي عثر على ترجمة لاتينية له عنوانها وليس فيها ما يشير إلى استعمال الأرقام غير هذا الاسم.

وقد عثر كيس على مخطوطات هندية جاء فيها نظام للأعداد التسعة دون الصفر يخالف النظام الآخر الذي وجد وفيه الصفر فرجح أن النظام الأخير جاء الهند من البلدان المجاورة في أزمنة متأخرة.

ومما قوى عزيمة كيس على إنكار نسبة الأرقام للهند أن الأعداد تكتب من اليمين، أما الكتابة الهندية فمن اليسار.

أما العالم الفرنسي دفو فقد كان أشد جرأة في رفض فضل الهند على الأرقام إذ قال إن مؤلفي العرب جروا في تسميتهم الأرقام الهندية على ما جاء في حادث الفلكي الهندي الذي وفد إلى بغداد في عهد المنصور وهي حكاية يراها هو أنها مدسوسة من علماء النساطرة والسريان نكاية في الإغريق الذين كانوا يتوخون التنقيص من فضل مدنيتهم، وإشارة سبوخت إلى ذلك واضحة في روايته التي مر ذكرها. وقد تناقض رواة هذه الحكاية في تاريخها: فالبيروني في مؤلفه (تحقيق ما للهند من مقولة) المطبوع بلندن سنة 1887 (ص

يسند هذه الحكاية إلى عام154 هـ ويشاركه في ذلك المسعودي في كتابه (208 (مروج الذهب). أما القفطي صاحب طبقات الأطباء (ص177 طبع مصر) فيسندها إلى عام 156 هـ نقلاً الزيج الكبير لأبن الآدي. والمظنون أن البيروني المتوفى سنة 1038 م أخذ روايته عن المسعودي المتوفى سنة 943 م دون تحقيق لها، ونستدل على ذلك من اقتضابه هذه الرواية وعدم شرحها أو تمحيصها على خلاف ما عهد عنه من الإطناب والتمحيص في أخباره الأخرى عن أهل الهند.

ويجري دفو في حكمه على روايات المؤلفين العرب على طرفي نقيض من ووبوك إذ يرى أن كلمة (هندي) مصحفة عن هندسي في كتب الرياضيات العربية. ولقد برع العرب حقاً في تحقيق الأعمال الجبرية والحسابية هندسياً.

والعالم الروسي بهنوف بحث القضية من وجهة لغوية وذلك اختصاصه. وله في اشتقاق اللغة سبق. فلم يرتح إلى نسبة الأرقام إلى الأصل الهندي. ويذهب إلى أن مبدأ استعمال القيمة المنزلية للأرقام كان أولاً في (العداد إذ يقول إن بعض هذه العدادات كان يتكون من صفوف في كل صف حبات عشر كل واحدة تخالف الأخرى شكلاً وترمز إلى رقم من الأرقام العشرة الأساسية، وأن الأعمال الحسابية كانت ممكنة باستعمال هذه العدادات. ثم قلدت هذه الرموز كتابة فجاءت الأرقام على الصورة المعروفة. ويعتقد إن قدماء الإغريق واليونان استعملوا هذه العدادات بالرغم من عدم قيام أي حجة أو دليل يدعم مقولته.

إذا صح ما ذهب إليهبهنوف من أن الأرقام تطورت من العداد فمن المتعذر نسبتها للهند، لأن الهنود القدماء لم يثبت استعمالهم للعداد، وقد أخذ العرب هذه الآلة عن الفرس، وفي تسميتهم إياه (بالتخت) الدليل القاطع على ذلك.

لقد شهد الأستاذ كاجوري المؤلف المعروف في تاريخ الرياضيات بأمانة كيس في البحث وتوخي الدقة العلمية وعدم التحيز والمغالاة، والحقائق التي توصل إليها تضعف النظرية الهندية ولكنها لا تنقصها من الأساس.

أما العالم الفرنسي فقد ركب متن الشطط ومرق من أمانة العلم إلى خسة التعصب والأثرة. فقد ذهب إلى أن الأرقام من تراث المدنية الإغريقية انتقلت إلى الشرق عن طريق الثقافة الإغريقية فيما بين النهرين على العهد الفارسي، وأخذها العرب عن الفرس. بينما نقل

الرومان هذه الأرقام إلى أوروبا، ولهذا تباينت هذه الأرقام شكلاً عند مختلف الأمم. وليس من باعث على هذا الاعتقاد الواهن إلا ما وقر في نفوس علماء الغرب من إعلاء شأن الثقافة الإغريقية ونعتها بما لا تستحقه من صفات، والحط من قدر الشرق واستهجان مدنيته. ولقد طمس هذا التعصب الخسيس مآثر المدنية الإسلامية إذ رماها بالتقليد والتقيد والليس بينما قصر الابتكار والسمو والوضوح على مدنية الإغريق.

ومما لا ريب فيه أن الأرقام تداولتها أمم الشرق في العهد الإسلامي أجيالاً قبل أن تعرفها أمم الغرب، وعن العرب أخذتها أوروبا، ولا تزال تسميها بالأرقام العربية. فإن كان تداولها في القرن العاشر الميلادي على ما يقرر كيس فلا بدع أن هذه الأرقام نشأت في طرف من أطراف الإمبراطورية الإسلامية الشاسعة، ثم عمت هذه الإمبراطورية قبل أنم تعرفها أمم الفرنجة.

وللمستقبل أن يلقي شعاعاً على ما غمض من تاريخ هذه الأرقام ويردها إلى منبتها الذي فيه نشأت. وليس لعالم غربي أن يستأثر بهذه المبرة الشرقية في غفلة من الشرق وعجز عن التمتع بحقوقه كاملة غير منقوصة وويل من العلم لمن ينتهك حرمة العلم! هذا وفي فصل آخر سنأتي على انتقال الأرقام إلى أوربا.

محمد عبد السلام البرغوثي
مدير مدرسة حيفا الثانوية

الشخصية

للأستاذ محمد عطية الأبراشي المدرس بكلية الآداب بالجامعة المصرية

مقدمة:

إذا تقدم أحد أقاربك من الشبان لوظيفة من الوظائف، ثم سئلت عما تعرفه عنه بالتفصيل، فقد تجيب بأنه: شاب أمين نزيه، صادق في قوله، كريم الخلق، حسن السلوك، سليم القلب طاهر السريرة، كثير التفاؤل، قليل التشاؤم. يقول ما يعتقد، ويعتقد ما يقول، هذا من الوجهة الخلقية. أما من الوجهة العقلية فهو: ذكي، حاضر البديهة، حسن البصيرة، صافي الذهن، صادق الحس؛ وأما من الناحية الاجتماعية فهو محب للتعاون، عدو للأثرة، يشارك الناس في مسراتهم، ويواسيهم في أحزانهم، يوقر الكبير، ويعطف على الصغير. مطيع للرئيس، وفيّ للنظير؛ وأما من الناحية الجسمية. فهو قوي الجسم، معتدل القامة، حسن الهيئة، جميل الذوق؛ وأما من الوجهتين العلمية والعملية فهو مثل في النشاط وأداء الواجب، واسع الإطلاع، غزير المادة. . . . . وما إليها من الصفات المختلفة التي يتصل بها ذلك المثل الأعلى من الشباب فمجموع هذه الصفات هو عبارة عن شخصيته العليا بصورة واضحة مفصلة. وقد أثبت علم النفس التطبيقي أن الشخصية شرط أساسي للنجاح في الحياة، وأن المؤهلات العلمية وحدها لا تكفي للنجاح، بل يجب أن تصحب بالشخصية القوية. فكثيرون من الأطباء والمدرسين والمحامين وغيرهم قد فشلوا في حياتهم العملية لضعف شخصياتهم مع كفايتهم من الوجهة العلمية.

ولكن ما تلك الشخصية التي طالما سمعنا الناس ولا نزال نسمعهم يتكلمون عنها، ولا ندري من أمرها شيئاً؟ وإجابة عن هذا السؤال نقول:

تعريف الشخصية

ليس من السهل أن نحدد الشخصية ونعرفها تعريفاً علمياً جامعاً مانعاً؛ فهي كالكهرباء والمغناطيسية والجارس (الراديو) لا تعرف إلا بآثارها. ولكن هذا كله لا يمنعنا أن نحاول البحث عن سرها وتعريفها ولو تعريفاً تقريبياً فنقول:

(1) الشخصية هي مجموع الصفات والمزايا الذاتية التي يمتاز بها الشخص من غيره.

أو هي:

(2) مجموعة الصفات العقلية والخلقية والجسمية والإرادية التي يتوج بها الإنسان.

أو هي:

(3) مجموعة الفروق التي تميز الشخص من غيره.

والحق أن هذه التعريفات كلها تقريبية، وأن الشخصية لا يمكن تحليلها إلى عناصرها الأولية تحليلاً محساً، ولكنها تبدو لنا في مقدار ما عند الشخص من الاستقلال الفكري، وحضور البديهة، وسرعة الخاطر، وقوة الروح، وهي كالحب والكره اللذين لا يمكن تعليليهما عادة، فقد تحب شخصاً أو تبغضه لمجرد رؤيته بدون معرفة سابقة، وقد لا يمكنك إبداء السبب. وكل ما تستطيع أن تذكره هو أن تقول: إني أحبه أو لا أحبه. أما السبب فلا يمكن تعليله لأنه أمر معنوي وسر خفي يتعلق بشخصية ذلك الرجل. وقد يكون الشعور بالحب أو البغض ناشئاً عن صفات أو عيوب خاصة في الشخص الذي تعرفه وتقابله من حين لآخر، فنحن نحب فلاناً مثلاً لأنه مخلص كريم شجاع متفائل، يواسي الفقير ويساعد البائس. ونكره فلاناً لأنه لا يعرف الإخلاص، والإخلاص لا يعرفه، يتمثل فيه البخل، والجبن، والتشاؤم، والقسوة والغلظة، لا يحن إلى مسكين ولا يتألم لحزين. وفي مثل تلك الأحوال نعرف إلى حد ما سبب المحبة أو الكراهة، ولكن ليس ذلك بسهل دائماً؛ فقد نحب الشخص في أول لحظة نقابله فيها، وقد نبغضه لأول وهلة قبل أن نعرف شيئاً عنه، نحبه لمظاهره أو نكرهه لهذه المظاهر، ولا يمكننا أن نوضح الأسباب التي جذبتنا إليه، أو التي نفرتنا منه. والسبب الجوهري هو أن شخصيته

محبوبة أو مكروهة.

هل الشخصية هبة طبعية أو صفة مكتسبة؟

والجواب أن الشخصية توهب بالفطرة، وقد تكتسب بالتربية الحق، ولكن الطبيعية أقوى من المكتسبة. ولو كانت الشخصية هبة طبيعية فحسب لكنا ضحايا الظروف، وما كان للتربية أي أثر في تكوين العظماء من رجال الدين والعلم والأدب والفن. ولكن أثرها لا ينكر في تكوين الشخصية والعظمة في نفوس العظماء. وهنا نسأل هل قامت التربية وقام المربون حقيقة بواجبهم نحو تربية الشخصية؟ هل قاموا بواجبهم وقد أصبحنا نفكر فيما فكر فيه غيرنا، ونتكلم بما قاله سوانا، ونفعل مثل من سبقنا؟ إننا أصبحنا مقلدين في أفكارنا وأقوالنا

وأفعالنا، مهملين أنفسنا وشخصياتنا، لأن التربية تربية إتكالية، لا تعرف معنى الثقة بالنفس والاعتماد على النفس في التفكير والقول والعمل. وقد نادى كبار المربين وبخاصة (السر برسي نن) المربي الإنجليزي الكبير بأن الغرض من التربية هو تربية الشخصية المستقلة، ولكن كتب التربية في واد، والمدارس في واد آخر. فبينما نقول: يجب أن يربى الفرد تربية كاملة من كل الوجوه، جسماً وعقلاً وخلقاً واجتماعاً، نجد أن الفرد مهمل إهمالاً تاماً من جميع الوجوه، وأن شخصيته تطبع بالطابع المدرسي، وتصب في قالب خاص، فتفقد مظاهرها الطبيعية. كل ذلك حباً في النظام، ولسنا ننكر أن النظام يجب أن يكون سائداً، بل إننا ننادي بالنظام، ونقول دائماً: النظام هو الحياة، ولكننا نعترض على الطريقة التي يسود ذلك النظام، تلك الطريقة التي تقتل شخصية الطفل وتضعف مواهبه، ونريد طريقة أخرى بها يستتب النظام من غير إضرار بعقلية الطفل أو وجدانه أو إرادته أو جسمه أو شخصيته، وليست هذه الطريقة بسهلة، لأنها تتطلب مشاركة في الوجدان، وفهماً لكل فرد من حيث الذكاء والميول والبيئة والظروف. . وما ذلك بالأمر الهين، فنحن لا نفكر إلا في المظاهر، والنظام الشكلي، والسكون العسكري. مهما ضحينا في سبيل هذه الأشياء من الضحايا. وإذا تحققت الثقة بين المعلم والمتعلم؛ ووجدت الصلة الروحية بينهما فمن المحال أن تكون هناك صعوبة في نظام أو غيره، ولن تضحي شخصية الفرد أو الأفراد بعد.

الاختلاف في الشخصية

كما أن الناس يختلفون في الذكاء والميول الفطرية كذلك يختلفون في الشخصية؛ فبينما تجد هذا قوي الشخصية قد تجد ذاك خاملاً ضعيف الشخصية، وكما أن الشخصية تختلف باختلاف الأفراد كذلك تختلف باختلاف الشعوب؛ ففي الشخصية الألمانية تتمثل الروح العسكرية، والطاعة العمياء، والاتكال على الحكومة في كثير من الأشياء. وفي الشخصية الإنجليزية تبدو الثقة بالنفس، واحترام الذات، وتقدير الحرية الشخصية والاستماتة في سبيلها. وفي الشخصية الأمريكية تظهر الروح العامة أو (الديموقراطية)، وعدم الاكتراث للتقاليد، لأن أمريكا كأمة حديثة لا تقاليد لها. وفي الشخصية الفرنسية تتغلب العاطفة على التفكير، والنظريات على الأعمال. وتكثر الآمال، والميل إلى الخيال، وحب الظهور؛ فكل فرنسي يريد أن يكون ضابطاً إذا تقدم للحرب. ولا ندري من أين يؤتى بالجنود إذا كان

الجميع ضباطاً، وإذا كانوا ضباطاً فإنهم لا يفكرون في الجنود ولا يحتفظون بهم خوفاً من أن يقل احترامهم. والمثل يقال في العلاقة بين المدرسين والتلاميذ، فأولئك في واد، وهؤلاء في واد آخر، والصلة بين هؤلاء وأولئك لا تتجاوز صلة الحجرة الدراسية تزول بمغادرتها وتتجدد بالعودة إليها.

والشخصية صفة نسبية وقوة سرية توجد في كل شخص إلى حد ما، وتختلف في نوعها وقوتها باختلاف الأشخاص. وقد تكون بارزة واضحة في بعض الأفراد يشعر بها الإنسان في الحال، وقد تكون كامنة خفية في البعض الآخر.

وليست الشخصية مقصورة على جنس دون آخر. ولا على طبقة دون طبقة أخرى، فكما تكون بين المتعلمين تكون بين غيرهم، وكما تكون بين المدنيين تكون بين القرويين. وكما تكون بين الرجال تكون بين النساء، وكما تكون بين الأغنياء تكون بين الفقراء، ولكل تفكيره وتقاليده وطرقه ومعيشته الخاصة. والعاديون من الناس قد يكونون في ضنك من العيش، ولكن لهم شخصية خاصة، فهم يستطيعون أن يتحدثوا عن الحوادث المحلية، ويذكروا حقائق قومية، بروح قوية لا تنقص عن روح الكبار من

القوم وقد يمتازون عنهم لأنهم لا يرددون ما يقرؤون من أفكار غيرهم، ولكنهم يصلون إلى هذه الحقائق بتفكيرهم الخاص.

(يتبع)

محمد عطية الأبراشي

صورة

بغير عنوان!

للأستاذ علي الطنطاوي

(هذه صورة من صور الحياة، أعرضها على علاتها في الرسالة، ليلحق عليها من شاء من القراء شرحاً وحاشية وتعليقاً.)

ذهبت أمس إلى الحلاق، وتخيرت آخر ساعة من النهار كي يخلو لي المكان، ولا تغروني نظرة. . فوجدت عنده شاباً، وكرهت أن أدخل فأنظره، وأنا أكره الناس للانتظار، فهممت بالرجوع. ولكن الحلاق أومأ إلي أن أدخل، لن يلبث حتى يقوم فقد أوشك أن ينتهي. فدخلت

وكان الشاب قد انتهى حقاً، وكان قذاله وعذاره وسالفته مقصوصة، وكانت جمته مرجله مصففة، وكان وجهه كالمرآة الصقيلة ما فيه (والحمد لله) أثر من لحية أو شاربين! فما باله لا يزال قاعداً على الكرسي؟ وماذا ترى الحلاق صانعاً به بعد؟ ثم اطمأننت وقلت: قد انتهى وإنه لقائم. وقعدت أرقبه فلم يرعني إلا الحلاق يقبل على شعره فينفشه نفشاً وهو ساكت لا ينكر عليه. فقلت: لعله قد بدا له، فأحب أن يقصر من هذا الشعر، ولن يطول أمد هذا التقصير، وإني منتظر.

وتنظرت والحلاق ماض في عمله، حتى إذا تم النفش غدا على رأس صاحبنا شجرة ذات فروع. . . فعجبت كيف كان هذا الشعر كله مصففاً مستقراً، ورثيت له إذ يحمل على رأسه أبد الدهر هذا الحمل الثقيل، وأعجبني منه أن يزمع الخلاص منه.

ولكنه لم يقصه كما قدرت أن يفعل، بل أشار إلى الحلاق فعمد إلى هنات سوداء لا والله ما عرفتها من قبل وسنّى سنّى! فأدخلها النار حتى احمرت ثم أدناها منه، فأشفقت أن يصيبه منها أذى، ثم فكرت فقلت: لعله مريض يكتوي، وقديماً قالت العرب: آخر الدواء الكي. ونظرت فإذا هو يقبض على شعره بإحدى هناته تلك، ويديره عليها، ثم يستلها منه استلالاً، ثم يفعل مثل ذلك وأنا أعجب، حتى انتهى فإذا صاحبنا قد عاد جعد الشعر، وقد كان سبطا، فقلت: إنا لله! رجل أصله من البربر فهو يحب أن يتشبه بأصله، والتمست له المعاذير.

وحسبته قد انتهى وظننت أنه قائم، ولكنه لم يقم بل أشار إلى الحلاق. فضمّخ رأسه بماء (كلونية) وأقبل فسرحه تسريحاً، وعاد فمسحه بدهن استخرجه من حق صغير، فصار

لرأسه وميض ولمعان، فقلت الحمد لله قد انتهى، ونزعت عني طربوشي، ثم أعدته إلى رأسي حين لم يقم. ولبثت أنتظر، وجاء الحلاق بكمهٍ فوضع فيها رأسه وشدها من حوله شداً، فقلت مصدع متألم فهو يخفف من صداعه.

ثم أخذ الحلاق الملقاط، وعمد إلى حاجبيه، فجعل ينتش منهما نتشاً وأنا أرثي له، وألح عليه بالنظر، علّ عينيه تقع على عيني، فأبذل له عوني ونصرتي، فإن هذا الحلاق لا يكاد يرحمه فلا يبصرني. ثم أدركت الحلاق رحمة فعفا عنه وأبقى عليه، فنظرت فإذا حاجباه خطان كأنما خطا بقلم؛ فقلت سبحان الله أي فتاة تعطى مثل هذين الحاجبين ثم لا تنزل راضية عن سنين من عمرها.

وفتح الحلاق خريطة فاستخرج منها كبة، أخذ منها خيطاً لفه بين أصابعه وجعل في وسطه فرجة تضيق وتتسع كلما شدها أو أرخاها، وأمر هذا الخيط على وجهه يتمعر ويخيل إلي أنه يقاسي ألماً شديداً، ثم كف عنه. فلا والله ما ترك في جبينه زغبة إلا واجتثها هذا الخيط.

فقلت: قد انتهى، ولم يبق في وجهه ما يذهب به، إلا أن يكون أنفه، فيكون كباغي الجمال بجدع الأنف، ولكن سرعان ما خاب ظني في أنه انتهى، ورأيت الحلاق يدلك وجهه دلكاً ويقرصه قرصاً، فقلت: لا حول ولا قوة إلا بالله، قد جن الرجل. . وإلا فماذا يكون هذا القرص من الحلاق، ثم كف فنظرت في وجه الشاب فإذا عليه حمرة الخجل، وأنعمت النظر والتفكير فعلمت أنها حمرة الصحة والحياة، أو حمرة الدلك

والقرص، فهممت أن أقوم إليهفألتزمه وأهنئه على هذا الاختراع: يصيب الناس الصحة بالغذاء وبالرياضة ويصيبها هو بالدلك وبالقرص، ثم تخاذلت ورحت أنظر مشدوهاً إلى الحلاق وهو يصبغ وجهه بالأبيض والأحمر، ورأيتني لا أطيق احتمال هذا منه وأنا أكره من النساء أن يفعلنه، وعجبت كيف لا ينكره هو؟ وكيف لا يغضبه أن يعامل كامرأة.
ولكنه لم ينكر شيئاً، بل أشار إلى الحلاق، فجاء بإصبع حمراء فمس بها شفتيه كما تفعل فتيات السينما سواء بسواء، فلم أستطع المكث بعد هذا وقمت فجلت في السوق جولة. ثم عدت لما فارق الكرسي.
وما أدري بعد كيف أصفه؟ أأبدأ من رأسه أم من رجليه؟ أما رأسه فقد عرفت أي شيء
هو! أما صدره وظهره فبادٍ أعلاهما، وأما ذراعاه فمكشوفان. . . ولو أنت عرضته على الناس بزينته تلك ما عرفوا أرجل هو أم امرأة
أما (بنطلونه) فأبيض رقيق يبدو ما تحته واضحاً إلا شبراً تستره سراويلات قصار.
ثم كانت الطامة الكبرى وأقترب مني الشاب يسلم عليّ ويزعم أنني أعرفه.
- أنا أعرفك؟ كلا. أراك مخطئاً.
- أوه؟ كيف؟ أنا تلميذك منذ كذا سنين في مدرسة كذا، وأنا الآن معلم في المدرسة التي فيها ابنك.
- أنت معلم؟!
وندت مني صرخة تعجب ولم أجب.
دمشق
(علي الطنطاوي)
فصول مدرسية في الأدب الدرامي
الرواية المسرحية في التاريخ والفن - 5
بقلم أحمد حسن الزيات
أداء العمل - الحركات
هي أحد لساني العمل. ومصاحبتها للكلام في إبانة الفكرة طبيعة في الناس منشأها ضعف العبارة وعجز اللغة عن تصوير ما يجول في النفس من خواطر ومشاعر. لذلك تجد حركات الجسم وملامح الوجه تشتد وتحتد كلما أصاب اللسان عي أو لكنة. ومن ثم كانت الشعوب ذات الخيال القوي والإحساس الشديد أكثر الأمم حركة وأشدها لهجة. والمرء إذا ما التاث عليه القول لنقص طبيعي في منطقة أو لضعفه في اللغة التي يعبر بها، اعتمد على هذه الدلالات المنظورة فمرنها وقواها كما ترى في الأخرس والبادئ في تعلم لغة جديدة. وأشد ما تكون الحركات قوة وظهوراً حين تثور النفس وتضطرم العواطف، فتتفجر من اللسان والجوارح والملامح. لذلك كانت الحركات عنصراً من العمل الروائي، وجزءاً من الفن الخطابي، لشدة انفعالاتهما وكثرة مفاجآتهما وازدحامهما عادة بالمواقف الثائرة أو الساخرة. على أن الحركات قد تقوم بنفسها مقام الكلام كما ترى في الخيال الشمسي والخيال الظلي والرقص التمثيلي مثلاً. وليس من شأننا أن نتعرض لهذه الأبحاث فلها فن آخر، وإنما حملنا على ذكر الحركات ذيادنا عن حق البلاغة في العمل الروائي والمسرحي، وقد مر شيء من ذلك عند الكلام عن العبارة، وربما عدنا إليهعند بحثنا في الدرامة.
الحوار: الحوار هو مطارحة الحديث بين شخصين أو ثلاثة على الأكثر، أما الرابع فقلما يكون له شأن في الحديث أو خطر. ومن الصعب أن تشركه فيه ما لم يكن دوره أن يظل صامتاً أثناء الحديث، أو يؤيد بعض المتحدثين بكلمات قليلة. وشرطه أن يكون جيد المناقلة، سديد المساجلة، حسن التقطيع، مطابقاً لموقف المتكلم وخلقه، متغير اللهجة والجرس تبعاً لمقتضى الحال، سريع الجواب قصير الخطاب، فلا يشبه دفاع المحامي ولا خطبة الخطيب، لأن ذلك يزهق روح الجاذبية ويبعث السأم في النفس. وأجدر الأساليب به أسلوب الطباق والمقابلة
نجوى النفس. نجوى النفس هو حديث الممثل مع نفسه بصوت مسموع، ومحله حين تضطرب حال الشخص، فيغلبه الجزع ويفترسه الشك، فينفجر بالكلام الجهير معلناً عن ضميره مصرحا بسره، ولو لم يكن هناك من يسمعه. وقد غالى رجال المذهب الإبتداعي في استعمال نجوى النفس، قاصدين بذلك إلى حذف الأنجياء وهم أشخاص

كان كتاب الإغريق ومقلدوهم من القدماء يضعونهم في الرواية لا لشيء غير أن يسر إليهم البطل ما يفكر ويقدر بدل أن يتحدث إلى نفسه. ولكن الأبتداعيين بإسرافهم في النجوى، وإسهابهم فيها لم يبرئوها من النقص والإملال. فلهوجو مثلاً في رواية هرناني نجوى ألقاها (دون كارلوس) على قبر شرلمان بلغت ستين ومائة بيت! وجمال النجوى أن تكون قصيرة إلا إذا كان اضطراب الشخص قوياً فلا بأس أن تطول قليلاً.

أنواع الرواية

موضوع الفن الروائي هو حياة الناس بأسرها. فهو يصور المضحك والمبكي من الحوادث، ويصف الخامل والنابه من الناس. فإذا كان العمل الذي يمثله جدياً، والأشخاص الذين يصورهم من الطراز الأول والطبقة العالية سمي مأساة. وإذا كان العمل هزلياً منتزعاً من حياة العامة مصوراً لعيوبهم سمى ملهات. أما إذا جمع بين الجد والهزل، أو أقتصر على الجد ولكن أشخاصه من طبقة العامة والسوقة، فتلك هي المأساة الحديثة أو الدرامة. وكل ذلك يؤدى عن طريق الإلقاء، فإذا أدي عن طريق الموسيقى والغناء، كانت الغنائية وفروعها. وسنتناول كل نوع من هذه الأنواع بالشرح والتفصيل والتحليل، إلا الغنائية فسنلم بها إلماما على قدر صلتها الواهية بالأدب والبيان.

المأساة.

تعريفها: المأساة هي تمثيل عمل عظيم يبعث في النفوس الرعب والرحمة والإعجاب. وليس من الحتم أن تسفك الدماء وتنثر الأشلاء فوق المسرح لتحدث تلك الآثار، بل يكفي أن يكون العمل جليلاً والشخص نبيلاً، والهوى المتحكم رفيعاً، حتى ينشأ ذلك الحزن الرهيب الذي يجدر بالمأساة. ومعنى ذلك أن يكون العمل خطيراً كإرجاع ملك مغصوب، أو إخضاع هوى مستحكم؛ وأن يكون الأشخاص من ذوي التيجان وطلاب العروش، لأن وجيعة النفس لمصاب الملوك أشد من وجيعتها لمصاب السوقة؛ وأن يكون الموضوع مقتبساً من الماضي ليكسب العمل جلال القدم؛ وأن يكون الهوى المحرك للرواية هو الطمع أو الانتقام أو الحب.

هكذا كانت المأساة بعد كوزني: أرستقراطية العمل والأشخاص والأسلوب والغرض. وقد درج الناس دهوراً يوجبون أن تكون نهايتها فاجعة محزنة، أخذاً برأي أرسططاليس كما علمت، ولكن هذا الرأي جانبه المنطق وخالفه الواقع فأصبح غير واجب ولا محتوم، لأن العمل قد يثير الإعجاب ويبعث الرهبة والرحمة، ثم ينتهي مع ذلك بالسرور والغبطة.

غرض المأساة: فغرض المأساة إذن هو إصلاح النفوس بإثارة الرهبة من الجرم الفاضح، والرحمة للفضل المعذب، والإعجاب بالصنع الجميل. وطريقها إلى ذلك أن تمثل لنا أمثالنا وهم يصارعون الخطر ويكابدون المصيبة، على شرط أن يكون هذا الخطر مما يفزعنا، وتلك لمصيبة مما يروعنا، وأن يكون هذا التمثيل مصبوغاً بلون الحقيقة حتى يخدع أبصارنا ويملك بصائرنا، فنتأثر التأثير الذي نحبه

على أنك تسألني ما لذة المرء في شهوده نوائب الناس وسماعه أنين غيره؟ يقول ارسططاليس إن مصدر هذه اللذة هو إتقان التقليد، ويقول (لكريس) إن مصدرها شعور الإنسان بالنجاء والأمن من مصائب يصلاها غيره وهو بعيد عنها، كلذة الجالس على شاطئ البحر يبصر في عرضه سفينة تصارع الموج وتكافح الخطر وهو رخي البال هادئ السر. ويؤخذ من خطاب الشاعر الهندي طاغور الذي ألقاه في مسرح الأزبكية حين مر بمصر أن مصدر هذه اللذة تمثيل الحقيقة. (لأن الحقيقة من حيث هي، جمال لا يعد له جمال. ألست ترى إلى صورة المرأة العجوز أبدعها فنان ماهر؟ إنك تنظر إلى الصورة فتقر بجمالها، ولكن العجوز التي فيها ليست على شيء من الجمال، وإنما جمال الصورة أنها تمثل هذه المرأة على حقيقتها)

ونحن لا ننكر أن المرء يروقه أن يفزع من الخطر وهو بعيد، ويلذه أن يألم المصاب غيره وهو آمن، وأن تفكيره في سلامته من هذه الأرزاء وبراءته من تلك الأدواء سبب من أسباب سروره حين يشهد مأساة على المسرح، ولكن السبب الذي يبعث فينا تلك اللذة الغريبة من رؤية الألم وسماع الأنين غير هذا كله. فإن الأطفال وهم لا يفكرون هذا التفكير

يلذ لهم أن يستشعروا الرعب والرحمة من سماع الحكايات المروعة المؤثرة. يظهر أن منشأ هذه اللذة فينا عند مشاهدة المنظر الفاجع هو ميلنا الغريزي إلى تمرين قوانا الجسمية والنفسية، وما يحدثه ذلك الميل في نفوسنا من قوة الشعور بحيويتنا وعقليتنا وحساستنا وقدرتنا على العمل والتصرف. وما الأمن الذي نشعر به عند شهود هذه الفجيعة إلا شرط ضروري لإحداث منظرها تلك اللذة لا مسبب لها. وذلك التمرين الطبيعي هو علة ما نجد في الطفل من شرهٍ إلى سماع الخوارق التي ترعبه، والحوادث التي ترهبه. وهو كذلك سبب ما نرى من سعي العامة والسوقة إلى الساحة التي كان يشنق فيها المجرمون أيام كان الشنق علنياً، وهو السبب أيضاً في ميل الأمم الغليظة أو القوية إلى صراع الثيران وأناشيد الحماسة، وميل الأمم الرقيقة أو الضعيفة إلى تمثيل العواطف وقصائد الغزل.

أما السبب في جعل الجاذبية المزدوجة من الرعب والرحمة أساس المأساة وروحها، فهو ما لهاتين العاطفتين دون سائر العواطف من التدرج مع الحادث، والترقي مع الخطر، والأخذ بمجامع القلب شيئاً فشيئاً إلى أن يبلغا الغاية عند انتهاء العمل. أما عواطف الحماس والفرح مثلاً فإنها تنشأ بقوة ثم تضمحل بسرعة.

موضوع المأساة: يقع الرجل في التهلكة والبؤس لأسباب خارجة عنه؛ أو صادرة منه. فالأولى تنشأ من حظه وموقفه وواجباته وعلاقاته، ومن صروف الحياة وأحكام الآلهة، وأفاعيل الطبيعة وأضاليل الناس. وأفجع هذه الأسباب وأوجعها ما دهمت البائس من مأمنه، وأتته ممن لا يتوقع منهم إلا الخير والنفع. والأخرى تنشأ من ضعفه وغفلته وميوله وأهوائه ورذائله، وقد تأتيه أحياناً من فضائله. وأسباب الهوى المقرون بطيبة القلب وسلامة النية، هي أقوى الأسباب تأثيراً وأكثرها خصوبة وأروعها حكمة. ومن هذا الفرق بين الأسباب الداخلية والخارجية نشأ للمأساة مذهبان: مذهب القدماء أو مذهب القضاء والقدر، ومذهب المحدثين أو مذهب النفس والهوى.

مذهب القدماء: فأما مذهب القدماء أو الإغريق بتعبير أصح فيعزو مصائب الأشخاص دائماً إلى سبب خارج عن إرادتهم، حتى لو اتفق أن حدث لهم ما يكرهون بسبب غفلتهم أو ضعفهم أو ميلهم كأوديب وهيكوب مثلاً حرص الكاتب على أن يخلق لهذه الأسباب أسباباً أولى كمشيئة القدر وغضب الآلهة. ولقد انتقل مذهب الإغريق إلى من خلفهم من كتاب

العالم باقتباس رواياتهم أو موضوعات تاريخهم، واستعان المقلدون من كتاب الفرنج بالوهم المسرحي على تمثيل العادات والعبارات، فظهرت مقتبسات ميروب وأوديب وإيفجيني وأورست لراسين وفولتير على المسرح الفرنسي، أقوى وأروع وأبدع مما ظهرت به لوربيذس وسوفوكليس على مسرح أثينا.

والذي حمل الإغريق ومن لف لفهم على الأخذ بمذهب القضاء والقدر في الرواية أنه أشد تأثيراً وأقوى فجيعة. فإنك لا تجد أبعث للرعب وأدعى إلى الرحمة من رجل يعميه القدر فتسيره قوة غير قوته، وتسخره مشيئة غير مشيئته، وتعبث به إرادة متحكمة غير إرادته، ثم تراه يجهد عبثاً في الفرار من جريمة تراصده، أو النجاء من مصيبة تطارده. وذلك هو مذهب الرواقيين الذي لخصه (سنيكا) في هذه الجملة: (إن القدر يقود ذوي الإرادة ولكنه يجر فاقديها) ذلك فضلاً عن موافقه هذا المذهب لمسرحهم وعبادتهم وسياستهم وعادتهم مما لا نجد داعياً لشرحه وتفصيله.

مذهب المحدثين: على أن القدماء كان لهم بجانب مذهب القدر الذي أملاه عليهم الدين والتاريخ والإقليم مذهب آخر هو مذهب النفس والهوى، ولكنهم أغفلوه إما لضعف تأثير وإما لعدم انطباقه على نظام مسرحهم في سعته وشكله ووسيلته، حتى جاء المحدثون وأولهم كرني أبو المأساة الحديثة، فأخذوا به وساروا عليه، وجعلوا المأساة صورة لمصائب الرجل الخاضع لهواه، لا لمصائب الرجل الطائع لحظه؛ وأصبح الرجل الحر الذي يخضع لإله عادل يسمح بالشر ولا يأمر به، ويتعرض لأرزاء الدهر بسبب أهوائه وأهواء غيره، موضوع المأساة الحديثة وينبوع الأثر المروع الموجع الذي يأخذ بأذهاننا ووجداننا. ومزايا هذا المذهب هو أنه أخصب إنتاجاً لاستمداده من ينابيع القلب البشري الفياضة، وأتم شمولاً لتحليله الإنسان في كل زمان ومكان دون الاقتصار على شعب معين وتاريخ معين؛ وهو مع ذلك أبلغ حكمة وأتم ملائمة للمسرح الحديث، وأروع جمالاً في التمثيل العصري. ولولا الخوف من أن يسأم القارئ من

تفصيل قد لا يعنيه لأفضت في شرح هذه المزايا واحدة فواحدة، ولكن فيما ذكرته غناء للقارئ المستفيد. وأما عمل المأساة وصفاته كالإمكانية، والوحدة والجاذبية والتأثير والمغزى، وأجزاؤه الأساسية كالعرض والتعقيد والحل وما إلى ذلك من الانقلاب والتعرف والأسلوب، فقد سبق القول فيه.

يتبع

(الزيات)

بمناسبة عيد موزار

تكريم النوابغ

للأستاذ عبد الحميد فهمي مطر

في الوقت الذي وصل فيه العدد الأخير من الرسالة إلى أيدي القراء كان سكان مدينة سالزبرج خاصة والنمساويون عامة. قد انتهوا من عيدهم الذي يقيمونه سنوياً ذكرى للموسيقار النابغة الذي لم يطل عمره أكثر من ستة وثلاثين عاماً بذّ فيها جميع معاصريه الموسيقيين وأحدث في الموسيقى الغربية حدثاً عظيماً لا يمحوه الزمان. ولد هذا النابغة في 27من يناير سنة 1756 في مدينة مدينة الحدائق والجمال، ونشأ وترعرع في حضن والده ليوبولد الذي كان موسيقاراً في خدمة الكنيسة في تلك المدينة، وقد ظهر ميله إلى الموسيقى ولما يبلغ الثالثة من عمره، وبدأ في سن الرابعة يعزف بعض القطع الصغيرة وفي سن السادسة رحل مع والده إلى ألمانيا فحاز عزفه إعجاب الملوك والأمراء حتى الإمبراطور فرنسوا الأول أجلسه بجواره وسماه (الساحر الصغير) كما أن البرنسيس ماري انتوانت التي صارت فيما بعد ملكة فرنسا رفعته بين ذراعيها لشدة إعجابها به، فقال لها الطفل عندئذ: (حقاً إنك لطيفة وعندما أكبر سأتزوج منك) وفي سن السابعة بدأ يعزف على الكمان والأركون في رحلاته مع والده كما بدأ يؤلف بعض قطع صغيرة. وفي أبريل من سنة 1764 زار مع والده إنجلترا. فكان إعجاب الأسرة المالكة به كبيراً، وقد أملى على الملكة قطعة موسيقية من تأليفه، كما أنه أهدى إلى المتحف البريطاني مقطوعة (الله ملجأنا) ولما بلغ الحادية عشرة ألف أول أوبرا له أسماها بناء على إشارة الإمبراطور جوزيف الثاني قالت عنها لجنة الفحص (إنه عمل لا يضارع) ومن ذلك الوقت أخذ يظهر حقد الموسيقيين عليه وهبوا يدسون له الدسائس في قصر الإمبراطور، فكان ذلك سبباً في البؤس والفاقة الذين لازماه طول حياته تقريبا. غير أن هذا لم يمنعه من إبلاغ رسالته وإخراج تأليفه العظيمة أثناء جولاته في إيطالياوغيرها من بلاد أوربا وفي يوليه 1769 أي عندما كانت سنه ثلاثة عشر عاماً تقريباً منحته أكاديمية بولونيا لقب (مؤلف) مع أن القانون يحرم منح هذا اللقب لمن هو أصغر من عشرين عاماً. ولقد كان عجباً أن يخرج هذا الصبي النمساوي المولد والنشأة واللغة في26 ديسمبر سنة 1769 ولما يبلغ الرابعة عشر من عمره أوبرا باللغة الإيطالية في ميلانو أسماها أحرزت نجاحاً منقطع النظير، ومنذ ذلك الحين اعتبر هذا الفتى سيد الموسيقى وزعيمها. وفي سنة 1773 وبعد أن عاد إلى مسقط رأسه أخرج أوبرا بمناسبة زواج البرنس فرديناند فاقت كل ما أخرجه قبل ذلك حتى قال عنه أكابر الموسيقيين (إن هذا الصبي سيجعلنا نسياً منسياً) وزاد حسدهم له وحقدهم عليه كما زادت دسائسهم عليه في قصر الإمبراطور. وبالرغم مما كان يلاقي بسبب ذلك كله من ويلات، وما كان يعاني من ضيق وضنك، فإنه أستمر في إتمام رسالته بما كان ينفثه في الموسيقى من سحر، حتى اعترف له الجميع بأنه أدخل عليها تعديلات وتحسينات غيرت من طبيعتها. وكان أشد الحاقدين عليه في حياته ولما توفي في يوم 5 من ديسمبر سنة 1791مات معتقداً أن هذا الرجل هو الذي دس له السم في الدسم كما كان يعتقد الكثيرون، فراح بذلك ضحية نبوغه وعبقريته. ولكن النمساويون الذين يقدرون الفضل لذويه إن كان فاتهم أن يواسوه في حياته، فلم يفتهم أن يكرموه بعد وفاته فلقد رأيت له تمثالين عظيمين رفع أحدهما بين القصر الإمبراطوري ودار الأوبرا في فينا يحف به تلاميذه بآلاتهم الموسيقية ورفع الثاني في أفخم ميدان في مدينة وهم فوق ذلك يقيمون لذكراه في هذه المدينة عيداً سنوياً في شهر أغسطس من كل عام حيث يهرع إليه أكابر الموسيقيين والممثلين من فيّنا وغيرها من بلاد النمسا لإقامة الحفلات وتمثيل

مختلف الروايات، فتراها غاصة بالجماهير من مختلف الشعوب بين إنجليز وأمريكيين وغيرهم. وقد بدأ عيد هذا العام يوم 28 يوليه وانتهى يوم 2 سبتمبر وكان لي حظ مشاهدة كثير من مظاهره في تلك المدينة الجميلة. وقد مثلت هذا العام في هذا العيد بعض الروايات المشهورة مثل , ست مرات كما أعيد تمثيل كثير من الروايات الأخرى في ال وفي مدينة مسرح اسمه لا يعرف له قط نظير في العالم وقد حضرت فيه تمثيل رواية يرفع الستار فترى أمامك دمى لا يزيد طول الواحدة على ثلاثين سنتمتراً تتحرك أمامك على المسرح وتتكلم وتمثل أدوارها بغاية الدقة والإتقان تسطع عليها أنوار قوية زاهية مختلفة الألوان. ولقد كنت دهشاً طوال مدة التمثيل لحركات تلك الدمى العجيبة وللمناظر الرائعة التي كانت تسحر الأنظار وتأخذ بمجامع القلوب. فلعل أحد علمائنا يفسر لنا حركة تلك الدمى على المسرح.

وبعد فلا يسعنا إلا أن أعلق أمنيتي العظيمة في أن يحل الوقت الذي يكرم فيه الشعب المصري نابغيه كما يكرم الأوربيون عامة والنمساويون خاصة نابغتهم العظيم موزار

عبد الحميد فهمي مطر

من الأدب الإغريقي

الشاعر الصائم

بقلم بسام كرد علي

لقد أطبق شفتيه ولم يرد - بعد أن قضى الأيام الطوال ينشد أهل أثينا شعره الرائع العذب - أن يظل مثابراً على ما بدأ به، فألقى نفسه في داره والتزم حياة العزلة، وانقطع ذلك الصوت الذي كان يغذي جميع سكان أثينا، وسكنت تلك العواطف الثائرة وخليق بها ألا تسكن، وتشرق بأنوار الجمال لكل من يريد الجمال

فدخل عليه هوبول وكان من أصدقائه الملازمين، فوجده مستلقياً على فراشه النابي، وصاح به هوبول وقتئذ:

يا قيثارة الأرض! ويا عندليب السماء. هل حبست صوتك انتقاماً منا نحن أهل الأرض الذين أصمت آذاننا كلمات الحسد، وأعمت عيوننا ترهات النعيم، وشغلت عقولنا سفاسف الملذات، فلم يبقى منا إلا هذه الأجسام المركبة من عظم الكبر ولحم الفرائس، ودم نجس كالخمر المسكوبة في مجلس الدعارة.

فقام هايكلوس من مكانه وحمل جسمه المنهوك وحاول إخراج جملة قصيرة من صدره المتهدم قال: إني لا أزال أرى في نومي ويقظتي ملائكة أبولو تحاسب أهل أثينا عما حفظته من أشعار هوميروس، وعما تعي من كلم زيوفراست، وهيراقليط، وسقراط، فلا تجد غيرك يا هوبول، وتصرخ في أعلى السماوات بصوت موحش مهول لقد نسى أولئك الطاغون أشعار اليونان وكلمها، وتركوا عبادة آلهتها، فدعهم يا هايكلوس في ظلمات الجهل يعمهون.

دعهم فقد عبدوا البطون والقدود، وأضحوا قوقعات نجسة تدنس الأرض بسائلها اللزج، ما أشدهم طغياناً وفجراً، إنهم نسوك يا هايكلوس فثابر على صومك ولا تعد تنشدهم شيئاً، وإن الثلاثين يوماً التي انصرمت على انقطاعك لا تكفي، بل ثابر على صمتك فهؤلاء قوم قد نسوا ماضيهم وحاضرهم، وعليك أن ترحم نفسك. لأني أرى أن كل كلمة من أشعارك الباهرة قد سلبت خلية من جسمك الغض.

إني يا هوبول رأيت الملائكة تخاطبني غضبى: (سنترك المدينة طمعاً للشياطين، وسنحرسك فقط بعنايتنا)

وكان هوبول جاثياً على ركبتيه بجانب الشاعر هايكلوس مصغياً لما يفسر له من أقوال فوخزه هايكلوس وأشار إليهليرى المدينة، فأبصر الشياطين تمرح في (الملائكة أسواقها وقد خيمت عليها السحب الربداء، وأعقبها قصف الرعود الصاخبة، فصرخ الأهلون. . . وجزعوا، وهرعوا إلى الجبال والآكام ومنهم من فر واختفى في الغابات. . . ومنهم من رضى بالاستسلام للشياطين، فلم يستطع هوبول أن يبقى صامتاً ساكتاً، فألقى نفسه من النافذة، وركض نحو القوم صائحاً:

ألم أذكركم بصوم هايكلوس، ألم أبين لكم غضب الآلهة لعدم انقيادكم لصوت الحق. إنكم لم تعوا الحكم المرسلة على ألسنة شعرائكم، ولم تعبئوا بما صاغ لكم خطباؤكم من الأقوال المأثورة.

إن هايكلوس قد بلغ به الإعياء حد النزع، وأضحى لا يستطيع مقاومة مرضه الممض،

وإن جوبيتر يرثي لحالكم الأسيفة بعد أن فقدتم كل ما في الحياة من معنى، وأصبحتم في حياة لا روح فيها، فإن أثينا بعد اليوم ستقفر من الفن، ستقفر من مواهبها السماوية، ستقفر من بلابلها الغريدة. لم يعد يخرج بين ظهرانيكم شعراء وحكماء يفنون أجسامكم لتغذيتكم، وينشرون الرائحة لتعطيركم، ويصوغون الحكمة لإرشادكم.

وما زال هوبول يجول في أحياء المدينة ويقص ما سمع من هايكلوس عن جوبيتر وأبولو والملائكة، حتى فزع القوم، فانتدبوا من يذهب إلى هايكلوس ويرجو وساطته بينهم وبين الآلهة، لئلا تستمر الشياطين في تمردها، فانتدبوا أشخاصاً من كل طبقة وتوافدوا مستجدين أشعاره صائحين: لقد أيقنا بحكمة الحكماء، وآمنا بحاجاتنا لأمثالكم الرفقاء. . . .

. . . . .فخرج هايكلوس من داره وأخذ ينشد دعاءً يعيد لأثينا حياتها الأولى

بسام كرد علي

رد على نقد

مكة ومشهد

للدكتور عبد الوهاب عزام

قرأت وأنا على أهبة السفر كلمة في الرسالة لأخي الأستاذ أمين الخولي عنوانها (مشهد ومكة) فلم أجد بين مشاغل السفر فراغاً لإجابته ومناقشته، وعزمت أول الأمر أن أترك كلمته حتى تتهيأ لي المناقشة فيها، ثم بدا لي أن أكتب كلمة كعجالة الراكب، أو لهنة الضيف، يروي بها الأستاذ بعض ظمئه للحقيقة (وإنها لحقيقة أن تبتغي لذاتها).

أترك كلام الأستاذ عن (فرق ما بين العقيدة والفكرة وصلة العقل بمنطقه، والاعتقاد بسلطانه) فهذه فلسفة لم أتهيأ لفهمها، وأعمد إلى الموضوع:

أخذت على الرحالة محمد ثابت في مآخذ أخرى تاريخية ولغوية قوله إن الشيعة يفضلون مشهد علي مكة، فقلت: (وأفظع من هذا كله قوله عن إخواننا شيعة إيران أنهم يفضلون مشهداً على مكة، وكيف يعقل أن أمة مسلمة شديدة الغيرة على دينها تعتقد أن الحج إلى مكة فرض، وقاعدة من قواعد الإسلام كيف يعقل أن هذه الأمة ترى زيارة مشهد أفضل من الحج إلى مكة الخ)، ففقه المسألة أن الشيعة يعتقدون أن الحج قاعدة من قواعد الإسلام، ولا يرون زيارة مشهد كذلك، خلافاً لما رواه محمد ثابت.

فهل استطاع الأستاذ أن ينقض هذه الدعوى بما روى من حديث هذا (الكوزة كناني) الذي تسلح به للجدال ولم يستطع إخفاء فرحه به؟

قلت: (ربما بالغ عامة الإيرانيين في تعظيم مشهد وغيرها من المزارات الشريفة كما يبالغ عامة المصريين في تعظيم مسجد سيدنا الحسين والسيدة زينب والسيد البدوي وإبراهيم الدسوقي، ولكن عمل العامة لا تقاس به عقائد الأمة. وهذه كتب الشيعة بين أيدينا تنطق بخلاف ما زعم الكاتب) فطالبني الأستاذ متحدياً بأن أذكر له من كتب الشيعة التي بين أيدينا شيئاً بعينه ليرتاح القارئ.

ثم قال: (وكيف يكون الأمر إذا كانت كتب الشيعة تقرر هذا التفصيل المكاني بقسوة وعنف إلخ) وساق ما نقله من كتاب الكوزة كناني. وظاهر أن دليل الأستاذ الخولي لا يفي بدعواه، فقد ادعى أن كتب الشيعة تقرر هذا التفضيل ثم لم يرجع إلى كتب الشيعة ولم يتحر أقوال أئمتهم، ولكنه اكتفى برواية في كتاب فرد لمؤلف لا يعرف عنه الأستاذ إلا أن له كتاباً مطبوعاً منه نسخة في دار الكتب. فلو فرضنا أن كتب الشيعة الأخرى تؤيد رواية الكوزة كناني لكان الأستاذ مجازفاً في الاستشهاد بكتب الشيعة قبل الإطلاع عليها أنا لا أطيل على القارئ بنقل نصوص من كتب أئمة الشيعة، ولكن أعرض عليه خلاصة قراءتي:

في كتب الشيعة روايات في تفضيل كربلاء على مكة، وفيها روايات يؤخذ منها تفضيل مكة على غيرها مثل هذا الحديث المروي عن جعفر الصادق في كتاب (وسائل الشيعة إلى أحكام الشريعة) (ما خلق الله خلقاً أكثر من الملائكة، وأنه لينزل كل يوم سبعون ألف ملك، فيأتون البيت المعمور فيطوفون به، فإذا هم طافوا به نزلوا فطافوا بالكعبة، فإذا طافوا بها أتوا قبر النبي عليه الصلاة والسلام، فسلموا عليه، ثم أتوا قبر أمير المؤمنين فسلموا عليه، ثم أتوا قبر الحسين فسلموا عليه، ثم عرجوا، فينزل مثلهم

أبداً إلى يوم القيامة.)
وفي كتب الشيعة أيضاً روايات عن فضل زيارة الحسين والرضا، ولكن خلاصة الروايات كلها، وفقه النصوص الكثيرة أن الحج والعمرة الواجبين لا تعدلها زيارة أحد، وأن زيارة الحسين قد تعدل عمرة أو حجة أو أكثر من ذلك من الحج والعمرة المندوبين بعد أداء حجة الإسلام المفروضة. وفي (وسائل الشيعة): قلت لأبي عبد الله (جعفر الصادق): ما تقول في زيارة قبر الحسين، فإنه بلغنا عن بعضكم أنه قال: تعدل حجة وعمرة، فقال: ما أصعب هذا الحديث. ما تعدل هذا كله، ولكن زوروه ولا تجفوه، فإنه سيد شباب أهل الجنة. . الخ.
فهذه خلاصة قراءتي في كتب الثقات، وذلك تصديق ما قلته في مقالي السابق، وفي صدر هذا المقال.
وقد ختم الأستاذ الخولي مقاله بعد أن أثبت عليّ الخطأ بقوله: (واكتفى بهذه الكلمة، قائلاً مع الأستاذ عزام في ختام كلمتي: وإنني لراج أن يتم التعارف بين الأمم الإسلامية، حتى لا يكتب بعضها عن بعض إلا عن علم وروية، وتثبت وإنصاف، والله ولي التوفيق.)
وإعادة كلمتي هنا تعريض معناه أن محمد ثابت كان ثبتاً فيما كتب، وأنني أنا غير المتثبت. ولعل الأستاذ قد عرف الآن أينا ينقصه التثبت، على أن من فاته التثبت وهو يصف أمة مسلمة بما هو حري بها وبدينها خير ممن فاته التثبت في الإدعاء على بعض المسلمين أنهم
يفضلون زيارة كربلاء على الحج، وهو قاعدة من قواعد الإسلام عند المسلمين كافة.
عبد الوهاب عزام
فجيعة الحياة
(أبي)
للأستاذ محمد محمود جلال
يا أبعد الناس عن لغو وإيذاء ... جوزيت بالخلد عن هَمٍّ وعن داء
مضت حياتك ركناً يستظل به ... سُغْب العُفاة ويؤوى البائس النائي
فكنت آية خير، في حمايتها ... دفع الخطوب بحزم دون ضوضاء
وإذ يمينك بالإحسان في شُغُل ... تمد يسراك ستراً عيب أعداء
عف اللسان كثير العفو في أدب ... كم طوح الخصم في وعظ وإطراء
تغار للحق والدنيا على ملق ... وتصرع الظلم والدنيا بإملاء
حتى أتى القدر الغلاب عن أجل ... على الصبابة بين السين والراء
فهز نعيك في الدنيا مكارمها ... وقوّضت من حياتي كل سراء
في غربة فجعتني قبل موعدة ... وهونت بعد رزئي فيك أرزائي
التوبة
يا حبيبتي هَدَأ الحب ... فَما يُجْدِي التَّمنِّي
واستَرَحْنَا من غرامٍ ... وعذابٍ وتجنِّي
وانْتَهَيْنَا لِسُكُونٍ ... هَاتِفِ الصَّمْتِ يُغَنِّي
وفَرَغْنَا من أمانٍ ... قَرَّبَتْ بالأمْسِ حَيْنِي
يا حَبيبي هَدَأ الحبُّ ... بقَلْبي وَضُلوعِي
وتراءى الكَوْن ليْلاً=في سُكونٍ وخشوع
وَطُيُوُر الرَّوْض غَنَّتْ ... في الضُّحَى لحنَ الربيع
أقْفَر القَلْبُ مِنَ الحبِّ ... فَما جَدْوَى دُمُوعِي؟
كان هَذا الحبُّ لحناً ... مِنْ لُحُونِ الأَبَدِيَّهْ
كان هَذَا الحبُّ إشعا ... ع الأماني القدُسيَّه
كان رَوْضاً من جمالٍ ... وزهورٍ ذهَبِيهْ
وَهْوَ طيْفُ الله في الأرْ ... ض وَلِي أسْنَى عطيَّهْ
يا حَبِيبي كمْ تغنَّيَّ ... نا بألحانِ الإلهْ
وَشَدَوْنَا فَوْقَ نايِ ال ... حبِّ أصْدَاء نداهْ
وَتَذوَّقْنَا مداماً ... من سُلافَاتِ الشَّفاه

وَهتفْنا في حَنِينٍ: ... إنَّماَ أُلحبّ الحياه!
حسن محمد محمود
على هامش اللزوميات
إلى المعري
لعل موتاً يريح الجسم من نصب ... إن العناء بهذا العيش مقترنُ //
(المعري)
للشاعر التونسي محمد الحليوي
أبا العلاء، أحقّاً أنتَ في دَعةٍ ... من الخُطوب، وفي سِلمْ منَ الكُرب
هل في رُقاَدِك في بيتٍ تُقيم به ... على الغضاضة، ما أغْنَى عن النَّصب
وهل طريق الرّدى زهراءُ مونقَةٌ ... أم حفَّها الله بالوْيلات والحَرَب
وكيف كأسُ الرَّدى هل في ثمالتها ... خَمْرٌ، وهل شربها أشهى منَ الصَّرَب
وما رأيتَ وراء القَبْر من عمهٍ ... حارت عقُول الورى في سِره العَجَبِ
أبا العلاءِ، لقد حاولتَ مُجْتهداً ... فكَّ الرُّموز، وكشفَ السرَّ عن كَثَبِ
فما رأيتَ سوى طخياَء حالكةٍ ... وكنتَ تنظر خلف الباب من ثقب
واليومَ ها أنتَ لا بابٌ ولا حجبٌ ... فقل لنا مَا وراَء الباب والحُجبِ
ما علة الكون. . . ما سرُّ الوجود، وما ... في هذه الأرض من صدقٍ ومن كذب
ما غايةُ الحيّ من دنيا يُقيم بها ... وما يُراد بها من عَيْشه اللَّجب
والموتُ ما هو. . . هل جسر نمرُّ به ... أم هُوَّ غايتنا من كلَّ ذا التَّعب!
هيَ الحقيقة تحكي ربةً ملكتْ ... عرش الألُمبِ على الأرْباَبِ والرسُلِ
وجرّبتْ سحرَهاَ في الأرْض فافتَتَنَتْ ... به الخليقةُ من فَسْلٍ ومن بَطل
خلفَ النّقاب بَدَتْ هَيْفَاَء ساحرةً ... تبادل الصبَّ أفناناً من الغزل
أهلُ الصَّبابة في الأشواقِ ما برحوا ... يَسْتَشْهدون ولا يحظَوْنَ بالقبَل
كم من قتيلٍ قَضى في حُبَّ ربّته ... وكم رماه الهوى بالحادث الَجلَلِ
لكنَّ رَّبتَهُ ظمأى إلى دمه ... لا ترْتَوي الدهرَ من علٍ ومن نَهل
أبا العلاءِ، لقد راعتك نَصْرَتها ... فهمتَ مفتتناً في حبّها الأزلي
وعشتَ رهنَ العمى والحبس في شظفٍ ... تنهى لها كلَّ ما تأتيه من عمل
وقد مضيتَ وما أدْخلتَ هيكلَها ... ولا أحَلَّتْكَ يوماً قنةَ الجبل
وكَيْفَ! وهي التي في الدهر ما رفعتْ ... عنها النّقاب، ولم تُسْفرْ إلى رجل
كلَّ مشوقٌ وكلُ آملٌ ظفراً ... بوصل لَيْلَى، وكلَّ خائبُ الأمل
يا ليتَ شِعْرِيَ هل تُخفي غلالتُها ... ملاحةً، أم حِمَى ليلى على دَخَل
أبا العلاء، وهل أجدَتْك موجدةٌ ... على الحياةِ وتجديفٌ على القدر
الكونُ ما زال مثل العَهْدِ مشكلةً ... وسرهُ مُضمَرٌ في مُعْمَرِ العُصُر
والدهر يمشي. . فلا شكْواك تُوقفه ... ولا سبابك يثنيه عن الوطن
يمشي لِطِيَته والحيّ يتبعه ... يأتي على الكُرْه أو يأتي على قدَر
رحاهُ لا تنتهي في الدّهر ضجّتْها ... ولا تدورُ الرَّحى إلاّ على البشر
وما عَلِمْنا على التحقيق من خَبرٍ ... سوى القُصور على الإتيان بالخبَر
نمشي على الدَّرب في جَهْلٍ وفي عمةٍ ... والليل في حلك والدَّربُ في خطر
ما تطلعُ الشمس مصباحاً لترشدَنا ... كلا، ولكنّها رمْز على الَحَقر
والبدرُ يضحك في عليائه أبداً ... وكيف لا. . وهو يَلْقانا على سَخَر
وذا الفضاءُ كتابٌ نُصْبَ أعيُننا ... يُتْلَى فيلْقي علينا خالد العِبَر
يقول في كلِّ سطر من صحائفه: ... (أفٍ لكم ما لكم في الكَوْن من خطر)
ما أنتمُ في قضاء الله من أحدٍ ... سوى هباء على الأكَوْان منتَثَر
سَوْأي لكم يا هباءٌ هل ضجيجكُمُ ... ولعنةُ الأرض تثني الدَّهر عنْ سفر!
(تونس)
محمد الحليوي
في تاريخ الأدب المصري
أيدمر المحيوي
للأستاذ أحمد أحمد بدوي

في عصر الدولة الأيوبية، حينما كانت مصر زعيمة العالم الإسلامي ترفرف رايتها عليه، وتقف في وجه المغيرين من الصليبين وتصد هجماتهم، وتدفع عن بيت المقدس وتذود عن حياضه، وتحمي مدينة الشرق وتحوطها بسياج من المناعة والقوة، وحينما كانت مصر تقف أمام أوربا مجتمعة، يريد الأوربيون أن ينالوا منها منالاً، فتأبى مصر أن ينكسر عودها أو تلين قناتها، في ذلك العصر المليء بأسباب القوة، المفعم بالعظمة المصرية والمجد المصري، عاش الشاعر أيدمر المحيوي، وربى في أرض مصر، وفوق ثراها المخصب الندي، وهو في أصله ينتسب إلى الترك، وإن كنا نجهل ما يتعلق بأسرته وآله، ويظهر أن التاريخ يجهل كذلك أسرته، ولا يذكر إلا أنه كان مملوكاً للأمير محي الدين محمد بن محمد بن سعيد، ثم أعتقه وأصبح حراً، غير أنك إذا ذهبت تبحث عن السنة التي ولد فيها شاعرنا بله الشهر واليوم، فإنك غير مهتد إلى شيء، اللهم إلا أنه نشأ في عصر الدولة الأيوبية في منتصف القرن السابع الهجري، نستنبط ذلك استنباطاً من قصائده التي مدح بها بعض سلاطين تلك الدولة، وإذا أنت سألت التاريخ عن تربيته وتعليمه فإنك سوف تجد غموضاً وإبهاماً لا تستبين خلالهما إلا ما قد ينم عنه شعره من أنه درس اللغة، واطلع على كثير من شعر الشعراء السابقين والمعاصرين، فتثقف به وتأثره، وعارضه أحياناً كما فعل ذلك مع ابن المعتز وابن النبيه ومسلم بن الوليد والمتنبي - وإلا ما قد يكون قد تثقف به من علوم اللغة العربية على يد ولي نعمته محي الدين الذي نسب إليه والذي ظل أيدمر حافظاً لنعمته عليه يذكرها، ويمدح سيده بغرر القصائد والموشحات.

2

ليس لنا اليوم إلا أن نحدثك عن شعره الذي بين أيدينا، وقبل أن نصفه لك أو نحدثك عنه حديثاً مسهباً، يحسن بنا أن نخبرك أن ما سوف نتحدث عنه ليس بكل شعره، بل هو مختار

منه أبقته لنا الأيام، ولسنا ندري إن كنا سنعثر على كل شعره أو أن الزمن بذلك ضنين؟

أول مميزات شعر شاعرنا طول نفسه، فقصائده أغلبها طويلة، وقد يبلغ بها الطول إلى أن تقارب المائتين، وذلك إن دل فإنما يدل على تمكن في اللغة، واطلاع واسع يهيئه لأن يطيل كما يشاء حق يوفي ما بنفسه ويستوفيه. ثانيها الرقة وجمال الأسلوب مع متانته، فلست تحس بالتنافر أو نبو الألفاظ أو أن تركيباً قلق في موضعه غير مستقر، أو إنك تجد عسراً في فهمه، أو تحتاج إلى وقوف طويل حتى تستبين معناه، فهو سلس سهل، يسبق معناه إلى قلبك قبل أن يسبق لفظه إلى سمعك، وإنك لتجد نفسك مسوقاً إلى قراءته متى بدأت أول القصيدة لطلاوته وعذوبته، وهو يذكرنا بالبحتري حينما نجذ الألفاظ منقادة متخيرة، مع السهولة والعذوبة. ولا يذهبن بك الوهم إلى أنه لم يستعمل ألفاظاً غريبة في شعره، فإنه قد استعمل منها طائفة صالحة، غير أنه كان حكيماً في استخدامها، حصيفاً في استعمالها، لا يكثر منها ولا يضعها في غير موضعها. ثالثها استعمال بعض المحسنات البديعية من غير إكثار منها ولا تكلف، بل إنها تجيء سلسة سهلة، لا تذهب برواء القصيدة، ولا تضيع من بهجتها، ولقد استخدم في شعره التورية والجمع والجناس، وحسن التعليل، والطباق، والاقتباس، فهو يقول:

في جوده السفاح أم في عزمه المنصور، أم في غيبه المأمون

ويقول:

قضت لك الشيمتان: العدل والكرم ... أن تخضع الأمتان العرب والعجم

وشرف الدين والدنيا بدولتك ال ... غراء، والأشرفان العلم والعلم

ويقول:

ملك إذا امتدت يداه إلى العدا ... يوم الوغى تتقاصر الأعمار

ويقول:

هو الناهب الأرواح والواهب اللهى ... وباني العلا والناسك المتورع

ويقول واصفاً حماماً أحمر العين والرجل:

وأليف غصن لا يفارقه ... صب الفؤاد به متيمه

يدعو بصوت أستبين به ... معنى الحنين، ولست أفهمه

فيميل بي طرباً تمايله ... ويهزني شوقاً ترنمه
يبدي أسى الباكي ورقته ... في نوحه، والدمع يكتمه
نحر الأسى إنسان مقلته ... فجرى فخضب رجله دمه
ويقول من موشح:
أنت يا موسى رجائي أنساً
نار جدواه فوافي قابساً
رحت في حضرة قداس دائساً
في طوى السؤدد، فأخلع نعلكا ... وادعه يأت بكبرى يوشع
وكان أكثر ما أتى به من شعره حسن التعليل، على أن كل المحسنات التي أتى بها قليلة، فهو غير مغرم بها، ولا ملزم نفسه كغيره السير على منهاجها.
3
شعر المحيوي ينضوي تحت لواء واحد وفن واحد من فنون الشعر الغنائي، هو المدح، فهو الغرض الأول في شعره، يقصد إليهقصداً ويلم بغيره عرضاً من غير قصد، يبدأ به قصيدة المدح أو يختم به الموشح، وكان ما أتى به عرضاً يدخل في الوصف أو في الغزل، ولنقف وقفات قصيرة لدى كل غرض من هذه الأغراض التي طرقها واصفين ودارسين.
أول ما نلمسه في شعره المدحي أنه قد خلا من الغزل في أوله حينما يمدح سلطاناً من سلاطين الدولة الأيوبية، بينما هو يبدؤه بالغزل عندما يمدح ولي نعمته محي الدين بن سعيد أو غيره من الوزراء، فأي شيء تستطيع استنباطه من تلك الملاحظة؟ وعلى أي شيء تدل؟ لقد قلبنا الأمر على وجوهه، ثم خرجنا بنتيجة قد تكون قريبة من الصواب: تلك هي أن هؤلاء السلاطين لم تكن عنايتهم موجهة للغواني والحب والغرام حتى يأسرهم الحديث عن الحب ويسترعي انتباههم، وإنما كان كل همهم موجهاً إلى الحرب والقتال، وقهر الأعداء، ورد العادين من المغيرين على دولتهم، فقد كانوا كما قال أيدمر في أحدهم:
متفرغ للمجد، لا هو من دد ... يلهيه عن كرم ولا منه دد
البيض من صنع القيون لدى الوغى ... يطربنه، لا البيض مما يولد
والأسمر الخطار يبهج نفسه ... ويسرها لا الأسمر المتأود
وإذا كانت عنايتهم متجهة نحو ميادين الحروب فماله يشغل نفسه بشيء لا يملك عليهم نفوسهم، ولا يأسرها؛ حقاً لقد كانت لهم مواطن لهو ولذة، ولكنها لذة العظمة وأبهة الملك
كذلك يسترعي نظرك في شعره كثرة مدحه لسلاطين هذا العصر بذبهم عن حياض الدين وحياطته بسياج من العزة والمهابة فهو يقول للملك الصالح:
ملك يلوذ الدين منه بمعقل ... أشب، سطاه سوره والخندق
فالدين بعد تفرق متجمع ... والكفر بعد تجمع متفرق
ويقول له:
فأسلم لدين قد هديت إليه من ... لا يهتدي، وجمعت ما لا يجمع
وحميت حوذته، فأصبح وهو في ... أيام دولتك الأعز الأمنع
ويقول للملك الكامل:
فالله يشهد أن دين محمد ... بمحمد، وله الخليفة تشهد
ويقول له:
لولاه كان الدين سرحاً ما له ... راع، وزنداً ما عليه سوار
وذلك نتيجة طبيعية لهذا العصر الذي صبغ بالصبغة الدينية وكان القتال يدور فيه باسم الدين، فليكن الشعر كذلك مصبوغاً بهذه الصبغة، مثنياً على السلاطين لأنهم خدموا الدين وقاموا على صيانته.
تلمس في شعره المدحي كذلك قوة ملوك مصر في هذا العصر حتى لكثيراً ما يسميهم ملوك الملوك وكثيراً ما تسمعه يقول لهم:
من ألقت الدنيا مقالد أمرها ... بيديه وهو بها أحق وأليق
ذو صورة تنبيك عنه أنه ... ملك الملوك الحق حين يحقق
إلى أن قال:

فجلست حيث جلست منه تزينه ... شرفاً فطاف بك الملوك وأحدقوا
كل يغض من المهابة طرفه ... فتراه، وهو لغير فكر يطرق
هيهات جزت مدى الملوك إلى مدى ... رجم الظنون إليهلا يتطرق
ويقول:
منح رآك الله أهلاً أن تقل ... دها فقلدك الذي تتقلد
ذكرت مفاخرها الملوك وخير ما ... ذكرته منها أنها لك أعبد
ذكراك فيهم سجدة مسنونة ... فلذا متى تذكر لديهم يسجدوا
فإذا هم نظروا إليك فأعين ... حسرى، وأفئدة تقوم وتقعد
ملك الملوك وخير من عقدت له الت ... يجان في قدم الزمان وتعقد
وإذا علمت أن ملوك مصر في ذلك الحين كانوا حقاً زعماء الملوك في العالم، وكانوا أكبر رؤوس تطأطأ لها هام الملوك، وتنخلع من هولها قلوب الأعداء؛ وإذا أنت علمت أن مصر في تلك الأزمان كانت أكبر مملكة في الشرق والغرب، وأقوى دولة يقصدها الأوربيون بجموعهم، فلا ينالون منها إلا ما ناله الوعل من الصخرة، وإذا أنت علمت أن الجيش المصري هو الذي حمى الشرق وحفظه من الأجنبي الذي يريد أن يتحكم فيه وإذا أنت علمت أن الإسلام وحرية الأديان كانت تسهر عليهما مصر وملوك مصر، ويحيطونهما بسياج الحفظ والمناعة، إذا أنت علمت كل ذلك أيقنت أن هذا الذي مدح به هؤلاء الملوك لم يكن بالكذب ولا المغالي فيه، وأمامك كتب التاريخ فاقرأها تعد مؤمناً بصدق ما قاله في قوة مصر وملوك مصر.
شعر شاعرنا المدحي يعطيك صورة عن بعض نواحي الحياة المصرية في ذلك الحين، فهو يحدثك عن النزاع الذي كان قائماً بين المصريين والصليبين حينما وجه هؤلاء تيار حروبهم إلى مصر نفسها قلب العالم الإسلامي؛ فأغاروا على دمياط، ولكنهم فشلوا أيما فشل، واستطاع المصريون أن يخلصوا دمياط من حوزتهم ويرجعوهم بخفي حنين، وهو يحدثك عن هذه الجموع الكثيرة التي كانت أوربا تمد بها الجيش المحارب لدمياط، والذي يريد الغلبة عليها، قال أيدمر:
أيام قال الشرك بغياً للهدى ... دمياط لي، ولك الغداة الموعد
وأتى بما ملأ البسيطة كثرة ... والله ربك هادم ما شيدوا
جيش إذا مسحت يداه بقعة ... جف المياه بها، وذاب الجامد
كالسيل إلا أنه لا ينقضي ... والليل إلا أنه يتوقد
وأتى بك الإسلام وحدك موقناً ... أن سوف تهزم جمعهم وتبدد
حتى إذا التقيا طلعت عليهما ... بالنصر تشقى من تشاء وتسعد
فرددت شخص الشرك، وهو مسربل ... خزياً، ودين الله وهو مؤيد
حكمت بأسك فيهم: فمكلم ... ومجدل، ومشرد، ومصفد
كما يحدثك عن هذا النزاع الذي كان قائماً حول جلق (دمشق) أتبقى في حوزة المصريين، أم يحكمها غير المصريين، وكانت الغلبة غالباً في جانب المصريين، وهو حين يحدثك عن هذا الفتح يشعرك بما في نفوس المصريين من حب لأن تبقى دمشق ضمن حدود مملكتهم، وأن يخفق عليها علم الإمبراطورية المصرية. حتى إنه حينما كان يأتي البشير بفتح دمشق يزين المصريون دورهم، ويرفعون الأعلام على شرف الجدران تخفق كما تخفق قلوبهم بالفرح والسرور، واستمع إليهيقول:
قد قلت إذ جاء بالفتح البشير به ... الله أكبر هذا غاية الأمل
ترنح الدهر، واهتزت معاطفه ... وراح يسحب ذيل التيه والجذل
والأرض قد أخذت للناس زخرفها ... وازينت، فهي في حلي وفي حلل
مسرة في قلوب الناس قد ظهرت ... حتى على شرف الجدران والقلل. إلخ
وهو يؤمن بأن دمشق سوف تنال الخير والسعادة، وسوف تصبح في دعة وأمن ما دامت ضمن المملكة المصرية:
فليهن جلق أنها قد أصبحت ... في مستقر الملك، لا تتحول
وأنا الضمين بأن سيسلي جلقاً ... عما مضى من غمرها ما يقبل
ونختم حديثنا عن مدحه بتلك القطعة الصغيرة لتكون نموذجاً لبقية مدحه، قال يمدح الملك الكامل:
الله جارك، والورى أنصار ... فانهض، ونل بهما الذي تختار

خضعت لهيبتك الأقارب والعدا ... وجرت بوفق مرادك الأقدار
ملك إذا امتدت يداه إلى الظبا ... يوم الوغى تتقاصر الأعمار
من وجهة قمر ينير، وسخطه ... قدر يبير، وحدسه إبصار
وإذا القلوب تطايرت في موطن ... نزلت عليه سكينة ووقار
ملك له من باسه وغنائه ... حصن أشم، وجحفل جرار
ملك يميل إلى المكارم لا الدمى ... وتهزه العلياء لا الأوتار
ملك تهيم به بنات قلوبنا ... حباً وتعشق مجده الأشعار
لولاه كان الدين سرحاً ما له ... راع، وزنداً ما عليه سوار

فأنت تحس حقاً بأنك تقرا أسلوب البحتري وتحس جماله وعذوبته، مدحه لغير الملوك يبدأ بالغزل، وهو وإن لم يكن مقصوداً لذاته لا بأس بجماله وعذوبته، حتى لتتمنى حين تقرأ غزله أن لو كانت القصيدة كلها غزلية، وإن كنا نؤكد أنه في غزله مقلد آخذ معاني من سبقه من الشعراء، واستمع إليهيقول من موشح:

قال لي العاذل لما نظرا
من غدا قلبي به مشتهرا:
أكذا تعشق؟ ماذا بشراً؟
حاش لله؟ أراه ملكاً ... مثل ذا فاعشق، وإلا فدع
هز عطف الغصن من قامته
مطلعاً للشمس من طلعته
ثم نادى البدر في ليلته:
أيها البدر تغيب ويحكا ... ما احتياج الناس للبدر معي؟!

فأنت لا شك تحس بالعذوبة في ألفاظه وإن كان الكثير من معانيه مقتبساً، وكم كان بودنا لو أطال الحديث في الغزل أو لو قصد إليهقصداً وظل يروي لنا عاطفتنا الظامئة إلى غزله.

البقية في العدد القدم

أحمد أحمد بدوي

بمناسبة الذكرى الأولى للملك فيصل

فقيد الأمة العربية

للشاعر القروي

لَحيٌّ برغم القبر فليخسإ الردى ... وقد سلم الغازي فلا يهنأ العدا
ولو كل موتٍ يضمنُ الخلدَ سارعت ... إليه ملوك الأرض مثنىً وموَحْدا
ولو كل حظٍ حظُ غازي من العلى ... تفاءلَ بالدنيا مُهلٌّ فأنشدا
بنيتَ له المُلكَ الذي هو أهله ... وأطرفتَ ما هارون بالأمس أتلدا
فمكَّنت أساساً وزخرفت قبةً ... وذهَّبت آفاقاً وأطلعت فرقدا
ورمَّمت في بغداد عرشاً مهدماً ... وخلَّفت في الأكباد عرشاً مؤبدا
وما أنت إلا السيف أعقَبَ خنجراً ... بلوناهُ في الجُلَّى فكانَ المهندا
لدن أدَّب الجبَّار بالصفعةِ التي=تداول أسماعَ النجوم لها صدى
وصبَّ على رأس السفير صواعقاً ... نزلن على أكبادنا البرد والندى
رآه وقد ظلَّ الهدى فانتضى له ... يداً قدحت من عينيه النور فاهتدى
يمينَ شريفٍ تقِعد الطود قائماً ... ولو شاءت اليسرى أقامته مُقعدا
أذابت قلوبَ الخائنين وفوَّرت ... دما في عروق الإنجليز تجمدا
لَيِرْض عليك الله يا سبط أحمد ... فإنك قد أرضيت جدك أحمدا
شفيت بهذا الموقف الحر نفسه ... وزحزحت عن صدر العروبة جلمدا
وكم غضبٍ أدنى من الحلم للتقى ... وأهدى إلى المجد الرفيع من الهدى
وما شأن ملكٍ سامه العبد ذلة ... وأبرق صعلوك عليه وأرعدا!.
وكم تاج ملك صار نِيراً لربه! ... وكم صولجان عاد في العنق مِقْوَدا!.
أيزعم ذو القرنين أنك عبده=ومثلك من يلقى السلاطين أعبدا
تعَّودِ منا أن نغضَّ على القذا ... فعَّودته نسيانَ ما قد تعودا
ليعلمْ عبيد التاج أنك سيد ... تزيد به التيجان مجداً وسُؤددا

وأن قريشاً أعظم الخلق هيبة ... وأكرم أخلاقاً وأشرف محتدا
تخرّ منيعات الجبال مهابة ... لبيت على رَمل الحجاز تشيدا
زكى أصله قبل النبي محمد ... فكيف وقد أزكى النبيَّ محمدا
بتمكينه عهد من الله خالد ... على الدهر ما كرّ الجديدان جُددا
تشيب الثريا قبل إنذار شيبه ... ويوشك خدُّ الشمس أن يتجعدا
أفيصل أني مرسل فيك شُرَّداً ... يثبن إليك اللانهاية غُرَّدا
أكلِّفها نَوْحا فتمضي شواديا ... أوَابيَ أن ترثيك حياً مخلدا
كأن حروف الخط أعواد جنة ... على كلِّ فرع بلبلٌ للعلى شدا
وقلَّدتُ منها كلَّ شطرٍ مهندا ... يظل على هام العدا مجردا
إذا قرَع الراوي به سمعَ خائنٍ ... تذوَّقَ طعمَ الموت شعراً مُردَّدا
وحسب القوافي أنها فيك ألهِمت ... لأغدو بها رب البيان المسوَّدا
فقد يهب الحقِ الغرابَ فصاحة ... وقد يُخرِسُ البُطلُ الهزارَ المغردا
سبيلُكَ لم تسلكه إلا منورا ... وسهمكَ لم ترسله إلا مسدَّدا
وكنت لأشتات البلاد موحدا ... كما كنت في الدين الحنيف موحدا
وكنت لأجل المجد بالمال زاهداً ... وكنت لأجلِ العرب بالمجد أزهدا
وكم خضت لاستقلال شعبك لجة ... وكم جبت آفاقاً وكم جزت فدفدا
بعيد المنى لم تُلقِ مِرساةَ مطمحٍ ... إلى المجد إلا سامك المجد أبعدا
مشيت له تستبطئ البرق مركباً ... وأدركته تستوطئ النجم مقعدا
أرِحْ كبِداً حَمَّلتها كلَّ فادح ... من الهم يعي الشُّم لو كنَّ أكبدا
طَعامٌ على مضٍ وشربٌ على قذى ... ومشيٌ على جمرٍ ونومٌ على مُدى
تصبرَّتَ حتى الصبرُ كاليأسِ قاتل ... وحتى ذممنا في الخطوب التجلدا
صعدت جبال الألب تنشُد راحة ... وعدت كأن الألب في القلب صعَّدا
كلاكِل هّمٍ لو أنيخت (بيذبلٍ) ... لعاد (يزوفاً) يقذف الجمرِ والردى
خيانةُ أحلافٍ وإخلافُ ساسةٍ ... وغدر الذي أكرمَته فتمردا
مشَوا بك بين الجيش والتاجِ موكباً ... أعدَّت له نَظَّارةُ الخلد مِرصدا
فلم يرَ أهلُ الأرضِ أروعَ مشهدا ... ولم تَرعينُ الغيبِ أفظعَ مشهدا
يمدون للتسليمَ في لندنٍ يدا ... ويخفون للتسليح في نينوى يدا
وقالوا مليك العرب في الغرب مكرَمٌ ... فقلت إذن باتَ المليكُ مهددا
نصحتك لا تمدد إلى أبرص يدا ... ولو مطرت كفاه درا وعسجدا
لأمرٍ يلقيك الفرنجيُّ باسماً ... فزد حذراً ما زاد ذئب تودُّدا
تراه صحيحَ الود وهو سقيمه ... كما تُكْسِبُ الحمَّى الخدود تورُّدا
حفيدَ رسول الله يا غوث أمة ... إذا استنجدت لم تلق غيرك منجدا
بكل لسان رتلت لك آية ... وكل جنان شيدت لك معبدا
أذبت عليها حبة القلب ساهراً=فسافر بحبات القلوب مزودا
الشاعر القروي
من العصبة الأندلسية
رسول الوحدة العربية!
للشاعر الحضرمي علي أحمد با كثير
يا أبا غازي! وما فينا سوى ... مُستطار يمزج الدمع بْدم
يا أبا غاري وما فينا فتِيً ... (عربيٌّ دمعُه) إلا انسجم
يا أبا غازي وما فينا فتيً ... ما براه - يوم ودّعتَ - الألم
ليت شعري، سامعٌ أسئلتي ... أنت؟ أم في مسمع الموت صمم؟
فيم ودّعَت علي أجراحها ... أمة العرب ولَّما تلتئم؟
فيم غادرت بني قحطان في ... مِرْجل يغلي. ونار تحتدم؟
أولم تشرع لها وحدتها؟ ... لو تلبث بها حتى تتم!
لم تجب قولي. . بلى! هذا صدى ... رنَّ في أعماق قلبي كالنَغَم:
مُكرهٌ. . لو كان أمري بيدي ... لم أمت إلاّ وقد فقنا الأمم
ورأيتُ العرب في وحدتها ... كشعاع النور يجري في الظّلم!
همُّها أن تُصلح العالَم، في ... يدها السيف، وفي الأخرى القلم!

هذه (الخُلد)! وما أبغي بها ... وبنو الضاد ببؤس وضَرَم؟
!وأرى (الحوض) فأوّاه متى ... ترد العرب ينابيع الحِكَم؟
وأرى (الحُور) فلا يُنسِيْنَ ما ... لفتاة العُرب عندي من ذِمم
ربّ لا نقض لما أبرمته ... فارزق العُرب هُمَاماً ذَا شَممْ
بدوي الطبع والخلقِ معاً ... حَضَريّ العِلم، غربيّ الهِمم
!!طابُع (الوحدة) في تاموره ... بعد توحيدك مرقوم بدم
يخرج البدو فيبْني منهمُ ... ثكنَ الجيش كأمثال الهَرَم
يجعل (العرفان) كبرى آيهِ ... ويرى (القوة) في الدنيا الحكم
ذلكم (فيصلٌ) فابكوه وقد ... غاب عنكم شخصه، والرُّوحِ لم
من إذا ما عزَمَ الأمرَ مضى ... وإذا ما أبصر الرأي عزَم
!وإذا ما قدمٌ زلّت به ... قام يمشي - غيرَ وانٍ - بقدم
!وإذا ما وقف الدهرُ مضى ... وإذا ما عبس الدهرُ ابتسم
يا مليكاً هاشمياً ما له ... غير توحيد شعوب العرب هِم
!يختم النومُ عليه جفنَه ... فيراه في تهاويل الحُلُم
بِسَناهُ كنت في (سوريةٍ) ... مَلِكاً في عرش (أقمار الحكم)
وبه في (ميسلون) استُشْهدت ... مُهَجٌ لو لم تقمها لم تَقم
.وبه اخترتَ - على كرهِكه - ... عرش (بغداد) ولم تأنف ولَم
واثقاً أنك تشفِي داءه ... بطريق الحرب أو طرق السَّلَم
فيصلٌ يَفْسَح للخطب إذا ... جاءه لا ينثني، لا يصطدمْ
!فإذا الخطب الذي قد أمه ... قد تولّى خلفه كالمنهزم
فيصلٌ لا يعرف اليأس، ولا ... يرهب الموت، ولا يخشى الغُمم
فيصل العامل يمتدُّ لَه ... أملِ النهضة ما امتدّ الألم
فيصل يعمل ما يعمله ... صامتاً في غير عيٍ أو سَأم
يسهر الليل تناجيه المنى ... من رعى آمال شَعْبٍ لم ينم
هذه (يعرب) ضلّت سيرها ... فهي حيرى تترامى في ظُلِم
بعضها يعثر بالبعض؛ وقد ... غرب الطالع، والليل ادْلَهَمْ
وفم (الغرب) - وأخفى شخصه - ... جاهداً ينفخ في النار الضرم
!أيها الآوي إلى فردوسهّ! ... طالما أسهرتَ عينيك فنَم
لا تخف شراً على العرب، فقد ... لَقِنَتْ مبدأك الحُرَّ الأشم
وسرى فيها، فلن يهضمها ... طامع أجنبُ، أو طاغٍ صَنَم
ولقد خلّفت فيهم (غازياً) ... علَماً يهديهمُ بعد عَلَم
لم يمت من عاش (غازي) بعده ... يرفع الملك، وللشَّعث يُلم
قم تهّياً للقاء (المصطفى) ... جدّك المبعوث فينا بالحِكم
فسيدنيك إليه فرِحاً ... بمساعيك كباراً والخِدَم
!وألق (آل البيت) وأرتع بينهم ... في كروم الخلد أمثال النَّجُمْ
علي أحمد با كثير

بين الشك والإيمان

الشاعر الإنجليزي بيرون
(1788 - 1824)

للأستاذ خليل هنداوي

روح هائمة ونفس معذبة طغى عليها الشك في جميع أدوارها، فارتعشت واضطربت وجدفت، وما تجديفها إلا صدى تلك الحرقة الملتهبة في قلب الشاعر الذي يريد أن يزيح ذلك الغطاء عن الحقيقة المحتجبة.

قضى الشاعر طفولته الأولى حراً لا تقرعه عصا الأبوة، لأنه نشأ تحت رعاية أم كثيرة الإشفاق عليه، دخل المدرسة وشيطان الشعر والفن أخذ يوسوس له ويقويه وهو لما يلبس أردية الشباب، فأنفق أيامه يزجي الفراغ متسلياً بالنظم لاهياً بالطرب. وفي هذا العمر الزاهي تسرب إليهالشك ودعاه زهوه إلى الجحود، فجحد باليوم الآخر وحطم قيود التقاليد. ولكن سرعان ما أعياه التفكر في حقائق الوجود وكم أعيت من قبله؛ فتعب من نفسه وهو الرقيق النفس، وتعب من الناس وهو ذو الروح الشاعر.

هجر وطنه وفي خلال هذه الهجرة بدأ ينظم مقطوعته الخالدة (طواف شيلد هارولد)
ومن هو هارولد؟ (هارولد عرفه الناس شر من جاور الناس، يعيش مستقلاً عنهم مزهواً بيأسه، يعرف كيف يتلمس الحياة في زوايا نفسه. كذلك الكلداني الذي أرسل عينيه في النجوم، وما زال يحدق فيها حتى أسكن نجومها المضيئة كائنات مثلها مضيئة، فإذا استطاع أن يرقى بنفسه في هذا الأوج كان سعيداً، ولكن الطين الذي جبل منه يثقل عليه، وتراه - وهو الراغب في النور الساطع - يبتغي أن يهدم السد الذي يحول بيننا وبين السماء، تلك السماء التي تتفتح لنا في أعاليها عوالم مضيئة. وأنه لهائم في منازل بني الإنسان يغلب عليه القلق ويزعجه التعب؛ مظلم النفس كثير الهم كاسف اللون كالصقر المهيض الجناح لا يجد له وطناً إلا الفضاء الفسيح، فيأخذه هيمان يسلبه عقله، فهو يريد إنقاذه منه، فيهيج ويدأب كالطائر الذي يقرع قضبان قفصه فيصبغ كساءه بدمائه، ونفسه السجينة المضطرمة
(. . .أخذت ترتشف هذه الدماء، دماء قلبه
فأي فتى يتوارى وراء هذه الأبيات؟ هل هو غير الشاعر؟ وكل من قدر له أن يتذوق ما وراءها من يأس ومرارة يحس أن الشاعر لا يستطيع أن يخرج عن نفسه، لأنه يستمد كل عوامل نظمه من نفسه، فلندعه يخلق الأشخاص ويولد الأبطال. فلن ترى وراء هؤلاء كلهم ناطقاً غير الشاعر، ولا قانطاً غير الشاعر، فهو ذلك الفتى النبيل الذي غامر في ملذاته حتى عاده السأم، والسأم داء يقتل في المسرات كما يقتل في الأشجان، فتراه يهجر عالم الإنسان كالمسحور (هائماً وراء أحلام مظلمة، يخنقه السرور ويهفو إلى الشقاء والحزن لأنه يجد فيهما مروحاً عن نفسه، مغادراً وطنه، حاملاً معه إلى المواطن التي وطئها - وهي الأنس ومرابع النزهة - فكرته التي تسعى وراءه كأنها شيطان لاحق به).
عرج على الأندلس ونزل في (أثينا) مدينة الفلسفة، وهنالك استفزته هذه المشاهد التي تحمل طياتها التراث الفكري الذي استلمه الحاضر من الغابر. وهذه المشاهد هي التي أوحت إلى (رينان) صلاته الخالدة، وفجرت في قلب (شاتوبريان) ينابيع العاطفة والتصور. هنالك وقف (بيرون) إزاء هذه الآلهة المتناثرة على الحضيض، فسخر من الإله الموجود والإله المفقود.
. . . .يا أبن يوم واحد! انهض وأدن مني
أنظر إلى هذا المكان. . . هو وطن شعب، ومأوى آلهة تبعثرت هياكلهم
!. . .الآلهة نفسها تتلاشى، ولكل شريعة أجلها
بالأمس ساد (جوبيتر) واليوم يسود (محمد) والعصور الآتية ستتخذ لها من مذاهب القوم مذهباً حتى يجيء عصر يجد فيه الإنسان أن ما يضرمه من بخور ويهدره من أضاحي يذهب عبثاً!
. . .أيها الولد الحقير! يا قذفة الشك والموت! يا من يتوكأ رجاؤه على أقدام من قصب
(!.
وقف الشاعر إزاء (البريتون) وتحت قبته المنقوبة فرحب بالعدم وجعل عصره خير عصر لنا وغده خير غد لنا. فقال: (هاهنا قبة العقل، هاهنا مأوى النفس. كل ما كتبه القديسون والسفسطائيون والعقلاء، أقادر على أن يعمر هذا الجوب المنعزل؟ ألا إن الراحة تنتظرنا على شواطئ (الأشيرون). هنالك لا يكره الذي شبع من الحياة على أن يستوي على هذه
المأدبة المملة، ولكن السكون يعد ذلك المرقد الذي يحمل للجالس عليه السبات الأبدي).
ولكن بيرون لم يكن بذلك الجاحد الذي استراح ضميره وأراح، فالحيرة لا تزال تغشاه، والتردد لا يزال يطغى عليه كأنما اتسع قلبه لنوازع يأكل بعضها بعضاً، ويدمر بعضها بعضاً، شأن الذي يركبه الشك، ويتوارى عنه اليقين. وإنما يتميز بيرون من غيره من شعراء الشك بثورة دامية في نفسه يقدم وقودها من قلبه ليحرق بها قلبه، وهو قلب قتله الظمأ إلى اللانهاية، هذا الظمأ الذي عجزت عن إطفائه سواقي الأرض.
قال (لاميني) لزملائه يوماً: أتعرفون ماذا جعل الإنسان أشقى الكائنات؟ هذا لأن له قدماً وضعها في العالم المتناهي، وأخرى في العالم اللامتناهي، وهذه هي حالة بيرون.
ولكن وجه الغرابة في ثورة بيرون أنها اضطرمت في صدره ولما يبلغ الثامنة عشرة،

وحق لمثل هذه الثورات أن تثور على مهل لأنها تأخذ غذائها من العاطفة لا من العقل.
وقد طغى اليأس عليه وهو مازال في ميعة الشباب ولكن قلبه يخفق ويخفق معلناً (أن الشباب ولى، وأن الحياة بليت، وأن الرجاء نفسه قد أسدل على وجهه حجاباً.)
جاز بيرون بأحد القبور فقال: (يا أحلام طفولتي! كم حسرة تتصاعد مني عليك. أنا لا أستطيع أن أنساك، لأنني أجد ما حولي ظلمات متراكماً بعضها على بعض، لا شيء أعز على قلبي منك يا شعاع الماضي.)
وكتب وهو في فينوس (إنني سأنفق شبابي حتى ينفد، وبعدئذ أقول: عمي مساء أيتها الحياة، فقد عشت وكنت مسروراً.)
ولكن يا له من سرور! وهو القائل (أتيقظ في كل صباح وبي يأس وسآمة من كل شيء حتى من الذي يبطن سهدي بالسرور.)
مم يشكو الشاعر؟ وما هي الأسباب التي أورثت قلبه هذه السآمة وهو ممن لم تعوزهم أسباب الهناء، ولا ممن نزلت بهم حوادث الدهر، وهذه المواطن التي جابها في سياحته تشفي البائسين وتداوي أصحاب الهموم، ميدان الهوى أمامه رحب الفناء، ومجال الحرية والمجد والبراعة واسع الفسحة، فأية سعادة يطلبها، ويلح في تناولها، ويشقي نفسه في تتبعها، وأين يجب أن يتحرى عنها إذا لم يجدها هنالك؟
قد علل بعض النقاد أسباب هذه المظاهر بإفعام نفسه بالسرور الذي يخلق السأم، ولا عجب
إذا قتل السرور الكثير صاحبه كما يقتل الحزن صاحبه، ولنسمع الشاعر نفسه يعلل هذه السآمة قائلاً:
وا أسفاه! عواطفنا الفتية تذوب ضائعة، حيث لا تنتج إلا قفراً فارغاً، ولا ينبت منها إلا) أشواك مؤذية. . ونبات بقدر ما يروق للعين منظره، يؤذي القلب ويؤلمه. وأشجار يقطر منها السم القاتل، هذه الأشجار التي تولد تحت أقدام الأهواء.
أيها الحب! لست أنت من سكان هذا الوجود! أيها الساروفيم الذي لا يرى، نحن نؤمن بك. أنت شريعة أصحاب القلوب المنكسرة فيها، هم الشهداء، ولكن العين لا تراك، ولن تراك بحقيقتك.
الحب هو هذيان، وهو جنون الشباب، لكن علاجه أمر من عذابه، وعند ما نرى تلك الجواذب تتلاشى الواحدة بعد الثانية من أصنامنا الغرامية، وعندما نرى تلك الروعة التي كانت تتمثلها مخيلتنا في حالة التسامي قد زالت، فسرعان ما يذهب هذا الانجذاب عنا، وبعد أن زرعنا الريح لم نحصد إلا العاصفة.
يأتينا الذبول ونحن في فجر العمر. . نشقى ونسأم ونسعى إلى الغاية، والغاية تمعن في الفرار. . وظمئونا لا ينقع غلته شيء. . وفي اللحظة الأخيرة، ونحن على حافة القبر يعودنا خيال جميل هو خيال السعادة التي تحرينا عنها في مطالع الحياة، ولكنه زاد متخلفاً، وجاد بالوصل حين لا ينفع الوصل، فنذوق الشقاء مرتين. . .
الحب والطمع والبخل، كل هؤلاء سيء، ما هي إلا شهب واحدة تجيء باسم واحد. والموت وحده هو الدخان القاتم الذي يطفئ نارها.)
ما أدنى هذه العواطف من القلب، لأنها ما خرجت من قلب إلا لتدخل في قلب. . .
ولكن بيرون المظلم قلبه ما وجد على الأرض إلا الظلام؛ وما أبصر إلا خيال السعادة مولياً أمامه، فقيد الحقيقة - التي هي حقيقة الدهر - بهذا الخيال. وهو الشاعر قبل أن يكون فيلسوفاً. ولكن هل كل جمال مآله الزوال؟ أكل حب يستقي من نبعة واحدة، فهنالك أنواع كثيرة لجمال يزول وجمال يبقى، وحب يتلاشى وحب يحيا، فبأي نوع قيد الشاعر سعادته؟
هاهو حائر كيف يقضي أعوامه هنا؟ وكيف يستقبل ذلك العالم الهامد؟ يأتيه الضجر فيبدع أشخاصاً وأبطالاً تغلي فيهم نزعة الضجر لأنهم يستمدون عواطفهم من عاطفته.
فهذا (ما نفرود) يملك عليه السأم، سأله الجني: ماذا تتمنى؟ فأجابه: النسيان، نسيان نفسي.
وهذا هارولد كان يدعى: (الفتى السائم من الوجود) وهذا (جيور) كان لا يجد أقفر من صحراء القلب الفارغ.
وأخيراً آل به هذا الشك إلى جحود كل شيء، فخلا قلبه من الحب وفرغ من الأمل.
واستحالت كل هذه الصفات النبيلة إلى كره للبشر، وهل في استطاعة من كرههم

وأوسعهم ذماً أن يبدلوا ظلمة قلبه نوراً إذا لم يكن النور ابن قلبه؟
لنصغ إليه وهو يحدثنا عن الناس (هل أعود إليهم كرة ثانية أتحرى عما يرجوه قلب هادئ في هذه المواطن التي يغلب فيها إنهاك أصحابها في المنكرات، وحيث الضحكات ترتفع عبثاً لتخفي حقيقة القلب. هذه الابتسامة هي تؤلف أخدوداً لدمعة طافرة ستنسكب).
لم يستطع أن يحمل نفسه فطار بها في الآفاق يسليها بالوحدة فطابت له حياة منعزلة تقصيه عن الناس في مواطن آهلة بالجيال التي يدعوها أصدقاءه، منتحياً عن قوانين وحكومات أقسم ليكرهنها حتى يقضي نحبه.
وكان هذا الألم قد أكسبه قوة ومناعة (أما الجمل فإنه يحني ظهره تحت الحمل يمشي ساكتاً، والذئب يموت ساكتاً، ونحن الأولى تسمو جبلتنا على جبلتهم، لنتعلم أن نتألم مثلهم)
ويقول بلسان أحد أبطال روايته (إنني شبيه بهذه الريح المشتعلة التي لا تسكن إلا الصحراء، ولا تهب لوافحها إلا على الرمال. . الأسد وحده أتخذه لنفسي مثلاً) وبمثل هذا الكبرياء حلى بيرون أبطال رواياته، وجعلهم ناقمين ثائرين غير راضين عن الوجود، فأتعب نفسه كثيراً وأتعبهم كثيراً. فإذا كان القعود عن الشيء يعد عجزاً فإن التحليق فوق حدود الإمكان ما هو إلا ضرب من ضروب العجز، وأن يرفض الإنسان الوجود رفضاً باتاً بحجة نقصه، وأن يهرب منه ومن أصحابه بداعي هذه الحجة هما من نقائص النفس التي تستر عجزها وترددها وراء هذا التهور الفارغ.
هذا هو الوجود؛ إن وجدت فيه الجميل فاملكه، وإن وجدت القبيح فحسنه وأصلحه، وإياك أن تعف عن الأول بسبب الثاني، لأن قوانين الحياة قاسية تسحق من يحاول أن يسحقها. هكذا أرادت أن تكون، وهكذا تريد أن تمشي.
وفي النهاية لا تجدي هذه الكبرياء شاعرنا شيئاً، فهو تعس يود أن يعترف بتعسه لنه لا يستطيع أن يمشي كالجمل ساكتاً أو يموت كالذئب صامتاً. فيقول:
(ما أشد تعسي؛ أيامي أمست تجري علي وتيرة واحدة، وليالي اقضيها بالسهاد، لا أخالط المجتمع البشري إلا قليلاً، إذا جاءني أحد منه لذت بالفرار. . إنها لحال مؤلمة لا ينقذني منها إلا الجنون)
كل هذه الأهواء الصاخبة، والأنات المتصاعدة يرسلها الشاعر وراء محبوبته، الحقيقة. . ولكن أين يجدها؟
(بيروت)
خليل هنداوي
العلوم
التلفزة في عهدها الأول - 1
للأستاذ محمود مختار
بكلية العلوم
مقدمة:
ليس لعالم اللاسلكي حد ينتهي عنده. فهو يأتينا كل يوم بمعجزات لم تخطر على قلب بشر. فما كاد وليده بالأمس يكبر ويترعرع ويلعب دوراً جدياً في الحياة يملأ الدنيا بهجة وسروراً بما ينشر من موسيقى شجية وأحاديث عذبة ومسامرات طريفة، أقول ما كاد هذا الوليد يكبر حتى قال الإنسان الطماع (لو أن لي أن أرى ذلك الذي يشجيني بتلك الموسيقى، ويبعث إلي بأحاديثه. لو أن لي أن يكشف عن بصري كما كشف عن سمعي. إذاً لكنت إنساناً آخر). وسرعان ما وصلت هذه الأحلام إلى العقل البشري الجبار حتى يقوم لفوره يقول (ليس في الوجود معنى لكلمة مستحيل) فلم تكن كلمته محض هراء وهو الذي لا يلقي الكلام جزافاً.
ففي سنة 1926طلع علينا العالم الإنجليزي الكبير جون بيرد بجهازه الأول في عالم التلفزة وعرضه بالمعهد الملكي في لندن ونقل به صوراً لأجسام بسيطة كانت موضوعة بغرفة مجاورة. وبالرغم مما كانت عليه الصورة المتلفزة من صغر واهتزاز وعدم وضوح، كانت فكرة جبارة جريئة شغلت العالم بعدها وملأت الرؤوس فقام الكثير يعمل على تحسينها وإنمائها فلم يمض عليها بضعة أشهر حتى قامت مصلحة التلفونات والتلغرافات الأمريكية بعرض هائل لتلفزة بعض الجسام ما بين واشنجتون

ونيويورك، وقد كان من بين من اشترك في هذا العرض ما لا يقل عن ألف مهندس كهربائي.
تخطى الوليد دور المهد بعد سنوات ثلاث تحت رعاية مخترعه الأول الذي تمكن من إذاعته مع أخيه الأكبر بنجاح تام من محطة للإذاعة اللاسلكية في لندن على موجتين مختلفتين كما استقبلهما بجهازين منفصلين أيضاً.
ولأترك الآن النقطة التاريخية في الموضوع لأنتقل إلى شرح جهازي بيرد للإرسال والاستقبال كل على حدة. ويلاحظ أن التلفزة يقصد بها إرسال الصور الثابتة أو الأجسام
المتحركة على حد سواء كما يمكن أن تنقل بواسطة أسلاك أو بدونها.
وتأخذ عملية الإرسال ثلاث خطوات. نبدأ أولاها بتقسيم الجسم المتلفز إلى مساحات صغيرة، وثانيتها بتحويل الأضواء المنعكسة من هذه المساحات إلى دفعات كهربائية، وثالثتها بتكبير هذه الدفعات وإذاعتها على التعاقب بواسطة أسلاك أو بالأثير إلى جهاز الاستلام.
وللاستلام خطوات ثلاث أيضاً هي بنفسها خطوات الإرسال مأخوذة في الاتجاه العكسي. فتبدأ باستقبال هذه الدفعات الكهربائية من الأثير وتكبيرها ثم تحويلها إلى دفعات ضوئية، ثم أخيراً جمعها وإعادة تركيبها لتخرج صورة الجسم المتلفز.
ولأبدأ ببحث كل من هذه الخطوات على حدة متدرجاً من أبسط الأجهزة إلى ما تطور منها.
جهاز الإرسال
فلتحليل الجسم المتلفز - ولنفرضه الصورة أ1 أ2 ي2 ي1
شكل (1) - يستعمل القرص المثقب ويكون عادة من معدن
خيف كالألمونيوم ويبلغ قطر دائرته حوالي 40 سنتيمتراً
ويحوي قرب حافته المستديرة ثلاثين ثقباً صغيراً مربعاً تقع
على منحن على شكل لفة مفردة من حلزون صغير الزاوية
كما هو مبين بالشكل، ويوضع الجسم المراد تلفزته خلف هذا
القرص كمايوضع أمامه ضوء قوي من قوس كهربائي.
ويكون موضعي الجسم والضوء بحيث أن الخط الواصل
بينهما يكون متعامداً على مستوى القرص وماراً بأحد ثقوبه.
ويدار هذا القرص بسرعة منتظمة قدرها 12 12 دورة في
الثانية بواسطة محرك كهربائي مركب على محوره.
ولنفرض الآن أن القرص في موضع بحيث أن شعاع أضوء المر من المربع (1) يقع على النقطة (11) على الجسم فيضيئها، وتعكسه هذه بقوة تتناسب مع قدرتها على العكس، فإن كانت قاتمة كانت نسبة الانعكاس صغيرة، أو ناصعة كانت نسبتها كبيرة. فإذا تحرك القرص في اتجاه بحيث يحمل معه المربع (أ) إلى أعلى تحرك تبعاً له شعاع الضوء الساقط على الجسم إلى أعلى فيضيء على التعاقب نقطاً من الجسم تقع على خط رأسي حتى إذا ما انتهى عند حافة الجسم العليا عند (أ 2) بدأ شعاع آخر يخرج من المربع ب ويقع على الجسم من أسفل عند (ب1) الملاصقة للنقطة (أ1) وهذا هو الغرض من وضع ثقوب القرص على لفة من حلزون حتى يكون كل ثقب مزاحاً عن سابقه بقليل بحيث يرمي شعاع الضوء الخارج منه على نقط ملاصقة لنقط الثقب الذي قبله.
فإذا ما أتم القرص دورة كاملة شاهدنا ظهور الضوء أولاً عند (أ1) ثم سيره إلى (أ2) ثم اختفاءه وظهوره ثانياً عند (ب1) وسيره إلى (ب2) ثم اختفاءه وظهوره عند (جـ1) وسيره إلى (جـ2) وهكذا حتى (ي2) وبذلك تكون كل نقط الجسم قد أضيئت على التعاقب، ويمكن أن نشبه حركة النقطة المضيئة على الجسم بحركة العين عندما تقرأ كتاباً كتبت أسطره في اتجاه من أسفل إلى أعلى.
وعند ما يأخذ القرص سرعته العادية (12 12 دورة في
الثانية) لا يمكن للعين أن تتبع حركة هذه النقطة المضيئة على
الجسم بالتفصيل، ولا حتى هذه الخطوط الرأسية المتلاصقة
المتتابعة. بل سيخيل إليها أن الجسم كله مضاء إضاءة واحدة

منتظمة من مصدر واحد مستمر.
ويوضع عادة بين الجسم والقرص عدسة لامة تعمل على جمع الأشعة الخارجة من الثقب على نقطة واحدة من نقط الجسم كما يغطي مصدر الضوء حتى لا يتسرب منه ضوء إلى
الجسم بطريق غير طريق الثقب.
وقد وجد أن هذه الطريقة تستلزم مصدراً ضوئياً قوياً إذ أن الجزء الساقط منه على الجسم صغير، وهذا يسبب قلة استضاءة الجسم. هذا فضلاً عن أن هذه الطريقة تستلزم أيضاً وضع الجسم المتلفز في ظلام حالك لا يتسرب إليه أي ضوء خارجي وذلك مما يمنع تلفزة أجسام موضوعة في ضوء النهار. فنقحت هذه الطريقة بإضاءة الجسم ذاته من مصدر الضوء ثم وضع عدسة أمامه لتكون له صورة تقع على حافة القرص المثقب. بحيث لا يمكن أن تغطي أكثر من ثقب واحد في أي موضع من مواضع القرص كما هو مبين بشكل (2) ففي أي موضع من مواضع القرص ينفذ من ثقب واحد منه شعاع ضوئي تتناسب شدته وشدة استضاءة نقطة الصور الباعثة له. وبحركة دوران القرص يسير كل ثقب على الصور على التعاقب في اتجاه رأسي من أسفل إلى أعلى حتى إذا ما خرج من حافة الصورة العليا بدأ الثقب الثاني له يظهر في أسفل الصورة ليمسح من الصورة خطاً رأسياً آخر يلاصق الأول وهكذا حتى إذا ما أتم القرص دورة كاملة أرسلت من ثقوبه على التعاقب أشعة تمثل في شدتها وضعفها شدة استضاءة نقط الصورة كلها.
وفي السنوات الأخيرة استبدل هذا القرص المثقب بعجلة على شكل الطبلة تتثبت على حافتها الخارجية مرايا مستوية صغيرة بعدد ثقوب القرص تميل كل منها بزاوية صغيرة جداً على سالفتها شكل (3) فتعكس الضوء الساقط عليها من المصدر على نقطة واحدة من نقط الجسم بمساعدة عدسة لامة وبدوران العجلة تمسح أشعة الضوء المنعكسة من المرايا المتعاقبة الجسم المتلفز بطريقة تشبه تمام الشبه الطريقة الأولى للقرص
كذلك استعمل لنفس القرص حلزون المرايا وهو شكل ثان لطبلة المرايا. وميزة أجهزة المرايا هذه أنها لا تشغل فراغاً كبيراً.
وبأي طريقة من الطرق السالفة لتحليل الجسم المتلفز إلى نقط
صغيرة نجد أن كل عملية التحليل لا تستغرق سوى 1 من 12
جزءاً من الثانية كما أسلفت. ومعنى هذا أنه يرسل للجسم 12
صورة في الثانية الواحدة. فأن كان متحركاً اختلفت 12 12
كل صورة عن سابقتها اختلافاً طفيفاً بحيث أنه عند عرضها
في جهاز الاستقبال بنفس السرعة 12 12 صورة في الثانية
تظهر للرائي حركة الجسم كما هي الحال في ظهور حركته
بواسطة آلة السينما مثلاً.
هذه الأشعة المنعكسة من الجسم المتلفز في حالة القرص الأولى أو المارة من ثقوب القرص في حالة طريقة القرص الثانية أو المنعكسة من المرايا في جهاز طبلة المرايا أو حلزون المرايا. كل هذه الأشعة تتحد في خاصية واحدة كما أسلفت، وهي أن كلاً منها تمثل في تغيراتها من حيث الشدة والضعف اختلاف نقط الجسم المتعاقبة من حيث الضوء والظلام. وعند هذه تنتهي الخطوة الأولى من خطوات الإرسال.
هذه الأشعة الضوئية المتعاقبة التي حصلنا عليها. نريد الآن أن نحولها إلى دفعات كهربائية تختلف شدة وضعفاً تبعاً لاختلاف شدة هذه الأشعة. وهذه هي الخطوة الثانية من خطوات الإرسال.
العين الكهربائية أو ما نسميها علمياً بالخلية الكهرضوئية هي المحور الأساسي والجزء المهم في جهاز عرض السينما الناطقة. ولها أنواع كثيرة منها ما هو مبين بشكل (4). وهي عبارة عن انتفاخ زجاجي مفرغ من الهواء أو به غاز مخلخل وتحوي قطبين بداخلها، أحدهما يبطن الزجاج من الداخل ويسمى الكاثود ويكون عادة من معدن البوتاسيوم، أو الصوديوم، أو الربيديوم أو السيزيوم. والقطب الآخر وهو الأنود، ويكون عادة على شكل سلك رفيع في وسط الانتفاخ. ويوصل الأنود هذا بالطرف الموجب من جهد كهربائي عال يتراوح بين100 و150 فولتاً، ويوصل الكاثود بطرفه السالب.

ولهذا الكاثود خاصية غريبة، وهي أنه إذا ما سقط عليه ضوء انبعثت منه ألكترونات واتجهت نحو الأنود، وتسبب تياراً في دائرته تتناسب قوته مع شدة الضوء الواقع على الكاثود.

فإذا ما سلطنا الأشعة الضوئية المتعاقبة التي حصلنا عليها سابقاً من تحليل الجسم على كاثود هذه الخلية سببت تيارات كهربائية في دائرة الخلية تتغير تبعاً لاختلاف نقط الجسم

المتلفز بالنسبة للضوء والظلام، وتكون هذه التيارات عادة ضعيفة جداً، أي إنها لا تتعدى بضعة ميكروأمبيرات (الميكرو أمبير يساوي واحداً من مليون من الأمبير). لذلك كان من الواجب تكبيرها قبل إرسالها، وهذه هي ثالثة خطوات الإرسال.

أما كيفية تكبيرها وإرسالها فهذا موضوع آخر يختلف تمام الاختلاف في بحثه عن موضوع اليوم. وهو موضوع قائم بذاته يتطلب دراسة وافية لعلم الصمامات. فكل ما يهمنا الآن هو أن نعلم أن هذه التيارات الكهربائية المتغيرة المارة في دائرة الخلية الكهرضوئية تؤخذ إلى هذا الجهاز المكبر ومنه إلى جهاز الإذاعة حيث تذاع في الأثير بنفس الطريقة التي تذاع بها الأمواج اللاسلكية. ومن ثم إلى جهاز الاستقبال وموعدي به الرسالة القادمة.

محمود المختار

الضيف. . .

بقلم الأستاذ محمد سعيد العريان

ود توفيق لو يهجر المدينة وأهلها ويقطع صلته بالناس فترة من الزمان، فإنه ليجد لذة ويحس أنسا أن يفارق هذه الصور التي يطالعها وتطالعه كل صباح ومساء، لقد أطافت به نوبة من الضيق والملل حتى لا يلقى أهله إلا بوجه عابس وطلعة متجهمة، ودق حسه حتى أصبح سريع التأثر قريب الانفعال. وكان في إجازة طويلة، والجو حار يهيج الأعصاب ويثير النفس ويبعث على السأم؛ وإنه ليعيش بين أهله ولكنه يشعر بالوحشة والانفراد فلا طاقة له على البقاء في البيت ساعة من نهار، ولا يجد في القهوة ما يسلي نفسه ويشغل فراغه؛ وقد هجره أصدقاؤه جميعاً إلى المصايف أو إلى بلادهم وخلفوه ونفسه يصارع الهم والوهم والوحدة والألم. .!

وتصورت في خياله القرية التي مس ترابها جلده منذ ربع قرن، والتي لا يذكر - لبعد العهد - متى هاجروا منها إلى المدينة، ولمه. . . لاشك أنه سيجد هناك من جدة العيش وطرافته ما يحمل عن صدره أثقال الهموم، ويهدي إلى نفسه الموحشة بعض الأنس والهدوء والدعة.

وتراقصت أمام عينيه صور جذابة من حياة القرية ويسر الحياة فيها بعيداً عن أسر التقاليد وتكاليف الحضر؛ وحضرته ذكريات حلوة من زياراته القليلة لأخته في القرية، فذكر مجالسه مع شبانها على حافة الساقية تحت شجرة التوت الغليظة تساقط عليه ثمراً شهياً، ورياضاته في جلبابه الفضفاض تحت المعطف الأبيض على شاطئ الترعة وبين الحقول، يتملى بجمال القرويات غاديات رائحات من الترعة وإليها أسراباً يجررن الذيول، ويحملن الجرار على رؤوسهن، ويهمسن بالغناء الساحر تسيل في نبراته الرقة والعذوبة والحنين. وذكر مجالس الأنس والسمر في الليلة المقمرة على مصطبة الدار، وحديث القرويين ينتقل في لذة وسحر بعيداً عن التزويق والإدعاء الفاخر. . . وزهته مظاهر التبجيل والاحترام التي تحوطه هناك.

وفي اليوم التالي كان القطار يغذ السير بتوفيق إلى القرية، وقد أشعل بين إصبعيه دخينة وسبح في أحلام لذيذة بهدوء القرية وسحر بناتها. . .

وتلقته أخته بالترحيب والعناق، وجلست إليهقليلاً تحدثه ويحدثها، ثم تركته لتهيئ له الطعام بيدها، طعام القرية الشهي الدسم اللذيذ. وتوافد عليه عارفوه وشبان أسرته يحيونه ويتجاذبون وإياه أطراف الحديث يقطعون بين فتراته بالتحية المكررة والسؤال عن الصحة والأحوال. . .

وخرج معهم في العصر يطوف بأزقة القرية يتعرف إلى الوجوه والأبنية. واخترق سبلاً وعرة بين الحفر وكومات السماد، وبيوت متواضعة متقاربة كأنما تدانت للعناق. وانتهى به المطاف في دار له بها عهد، لأن صاحبها من ذوي قرابته، واجتمع لفيف من شبان القرية وشيوخها يبعثون التاريخ، ويتناولون شتى الذكريات، ويخوضون في كل حديث،

ويتبادلون أنباء القرية وحوادثها، وأنباء السياسة أيضاً، وإن لهم في السياسة أحاديث لا تخلو من حكمة وبعد نظر.

وأعجب توفيق بحديثهم كما تعجب بحديث الطفل، فأنصت إليهفي لذة وأنس، كما يستمع السائح المؤرخ إلى خرافيات دليله الجاهل عن سر أبي الهول وأطياف وادي الملوك.!

وأديرت فناجين القهوة وانعقدت في جو الغرفة سحائب الدخان، واشتد الحر وأسال العرق على الجباه؛ وشعر توفيق أنه يكاد يختنق وأن أعصابه تخونه، وهم بالانصراف ولكنهم ألحوا عليه أن يجلس فجلس، وأخذوا في حديث الشياطين والجن، فراح كل واحد منهم يحدث بما سمع وما رأى! وتفننت عبقرية الجهل في اختراع القصص المروعة والروايات الغريبة، وطفقوا يعددون الشياطين بأسمائها وحوادثها وضحاياها. . . وأشار (الشيخ) بيده فأنصتوا ومالوا برؤوسهم إليهوقد أخذ يرقص شاربه وترتجف شفتاه في انفعال عصبي، وشرع يقص على الحاضرين قصة العفريت الذي كان يتسور عليه البيت وهو شاب ليالي متتابعة، فيقاسمه طعامه وشرابه وفراشه أيضاً فلا ينصرف إلا مع آذان الفجر، والزنجية الحسناء التي كانت تصحبه ليالي فتحتل موضعه من الفراش، وتضطره أن يقضي الليلة معقودة يداه خلف ظهره ورأسه بين ركبتيه إلى حائط الدار، ثم لا يفارقه العفريت وصاحبته قبل الصباح إلا بنفحة من دراهم، أو عصوين من نار تلهبان ظهره، جزاء رضاه أو سخطه على ما يصنعان .!

وكان حديثاً غريباً على الضيف فحاول أن يتفلسف وينكر ويعلل، ولكنهم أنكروا منه ذاك،

وطلبوا إليهالتسليم أو يتعرض لغضب الشياطين وأذاهم، وكانت أعصابه مهيئة للتسليم فسكت، واستمروا يتحدثون. وأحس رعدة خفيفة تتمشى في جسده فسحب رجليه في هدوء فدفنهما في أطراف ثيابه، وجمع يديه في حجره ومال إلى المحدث يستمع إليه هادئاً منصتاً في شبه إيمان. لقد حطمت هذه الليلة الصاخبة أعصابه، وهاجت وساوس نفسه المريضة.

وانتهت السهرة ولكن صاحبنا ظل جامداً في مكانه لم يهم بالقيام حتى دعوه، فنهض كسلاً متراخياً يكاد يسقط من إعياء.

وشيعوه إلى دار أخته، وهو سارٍ بينهم يتعثر في أوهامه. . ووجد أهل البيت نياماً فلم يبق ساهراً إلا مصباح ضئيل موقد في الردهة يرقص لهبه على عزيف الهواء وكان يعلم أنهم أعدوا له غرفة في الطبقة الثانية فصعد في السلم بطيئاً متثاقلاً يتلفت بين الخطا والمصباح في يمينه، ودفع باب الغرفة بيسراه فسمع صوتاً يشبه أنين المستصرخ، فأدار ظهره في فزع ليرى من هناك ولكنه لم يجد شيئاً، وعاد يدفع الباب فسمع حشرجة خشنة، ثم سمع ضحكة بشرية ناعمة .!

ووقف في وسط الغرفة يقلب بصره بين زواياها في رعب وفزع، وكانت به رغبة في التدخين، ولكنه لم يجرؤ أن يذهب إلى الغرفة الثانية - حيث أودع حقيبته - ليستحضر بعض التبغ. وخلع نعليه وهو جالس على حافة السرير ويداه ترتعشان، وتتجاوب في أذنه أصوات غريبة تفزعه وتسلبه الطمأنينة. ودفن نفسه في الفراش، واستلقى على ظهره وقلبه يدق دقات عنيفة، وكأن يداً غليظة تقبض على عنقه، وأشباحاً خفية تطيف به.

وكان يعلم أنه ليس فوق السطح غير أكداس من الحطب والوقود، ولكنه أحس دبيب أقدام، وسمع أصوات غريبة هامسة ليست من صوت البشر! أتراه أغضب الشياطين فأرسلوا إليهعفريتاً ينتقم منه؟

وضاقت أنفاسه، واضطرب فكره، واشتد ضغط الوهم على صدره، وهم أن يصرخ ويستنصر، ولكن صوته احتبس ولم يتحرك لسانه. وشبه له أنه يرى شبحاً من الضباب في شكل غير إنساني - وإن كان يمشي على رجلين - ينسل من النافذة مع ضوء القمر، ويشير إليهبالصمت في إنذار وتهديد!. . وسحب الغطاء يخفي عينيه في حركة آلية، ولكنه أحس شيئاً بارداً يلمس أطراف قدميه، فاستوى جالساً وأفلتت منه صرخة مكتومة. وتوارت

الأشباح فلم يعد يبصر شيئاً، ولكن همهمة غير مفهومة، ودبيباً وهمساً وأصواتاً غريبة كانت تصك أذنه من بعيد. واستلقى ثانية على الفراش وهو يحدق في الحائط الذي

أمامه تحديق الخائف المذعور، فقد أبصر ظلاً أسود مطبوعاً عليه يحرك رأسه ويشير بيديه كأنه يتحدث إلى شخص بعيد. وود توفيق أن ينظر إلى ما وراء ليرى المشار إليه، ولكنه خاف؛ واستمر الهمس والدبيب يرنان في أذنيه، وتتراقص الرؤى والأشباح أمام عينيه، فلم ينم ليلته؛ وفي الصباح مع أول خيط من ضوء النهار كان جالساً في فراشه يصفق بيديه في عنف يستدعي الخادم، ودخلت أخته تحييه، فراعها ما رأت في وجنتيه من صفرة الخوف وإعياء السهر، وقالت له:

(توفيق ماذا بك؟)

- (لا شيء، ولكني مسافر اليوم فأعدي لي ركوبة إلى المحطة)

- (مسافر؟ ولكنك عرفتني أمس أنك قد تمكث لدينا شهراً، فلماذا غيرت رأيك؟)

- (لاشيء، لاشيء، قلت لك لاشيء. إن حقيبتي في الغرفة الثانية!.)

وآلمتها لهجته فمطت شفتيها آسفة وخرجت تنفذ ما أمر به، ثم عادت تسأله:

- (حدثني يا توفيق، هل تألمت من شيء هنا؟)

- (لا، ولكني لم أخبر أمي أمس أني مسافر، فأخشى أن يقلقها غيابي أو يألمها.)

- (ليتك لم تحضر يا توفيق!) وانصرفت لبعض شأنها.

وحين تناول توفيق حقيبته من حيث وضعها أمس أفلتت منها ورقة فظنها سقطت منه ودسها في جيبه قبل أن يقرأها.

ولما جلس في القطار وضع يده في جيبه ليخرج شيئاً فعثر بالورقة، ونشرها بين أصابعه يقرؤها. . . وضحك توفيق وشاع في وجهه السرور حين عرف ما هناك؛ لقد كانت أخته تربي له ماعزة ولوداً، فكتبت له هذه الورقة أمس تخبره أن في ضيافة ماعزته فوق السطح جدياً فلا يفزعه دبيبهما ريثما ترد الجدي إلى صاحبه في الصباح. . .

لقد خاف توفيق وفزع ليلته لأنه كان يظن أنه وحده ضيف البيت!. . .

محمد سعيد العريان

سافو 6

لأوجيبه اميل

ترجمة الأستاذ محمود خيرت

حنا - إن الشتاء قارس هناك فلم لا تقصدين إلى باريس؟

سافو - وماذا أعمل فيها وأنت بعيد عني. ثم إنني ما عدت أجد في الوسط الذي كنت قديماً فيه غير أسباب الأسى والهم. ولقد امتلأت يدي منك فحسبتها امتلأت من حب كتب له الدوام، وما لبثت امرأتك أكثر من سنة. عد يا حنا فتعود تلك الأيام من جديد، وتعود السعادة فتملأ جوانب قلبك وقلبي. تعال معي وسأكون كما تريد محبة طائعة، وسأفتح لك صدري وأنزلك في عيني. تعال إنك لازلت تحبني. رق لحالي فليس غيرك يروي ظمئي وينسيني همي

حنا - لا يا فتى لم يعد هذا في طوقي

سافو - ولمه؟

حنا - لأنني لا أريد!

سافو - وآلامي وعذابي؟

حنا - وماضيك؟ (مبكتاً)

سافو - (وقد ملكها اليأس) الذنب فيه على الأيام. ومع ذلك ألم يمت؟

حنا - بل هو حي يحول دون كل أمل في الحياة معك بغير عذاب ودون كل أمل في الحب بغير ريبة وعار. على أنني سأرحل

سافو - قل إنهم هيأوك للزواج وأنت تسخر من دموعي وتلتذ على حساب ألمي. لقد حطمت قلبي ونثرت البقية الباقية من رجائي

حنا - (بشدة) ماذا؟

سافو - سامحني فما عاد لي أمل واحد هو أنت.

حنا - وهو وا أسفاه أمل ضائع!

سافو - إنني أحييك يا حنا. أحبك ولن أجد سواك يملأ فراغ قلبي. رق لحالي. إرحمني، إنني أجثو عند قدميك

حنا - (وهي تحاول وقد تزعزع صوابه) فني!
(هنا يدخل سيزار وديفون فجأة)
سيزار - كفى يا ولدي وتعال
حنا - آه يا أبي. . .
سافو - لا. لن أصبر على بعده (تتعلق به وأبوه يجتذبه فتدفعها أمه)
ديفون - (لها) دعيه واذهبي من هنا
سافو - ولكن من أنت؟
ديفون - أنا أمه
سافو - آه سامحيني فما كنت أعلم يا سيدتي
ها أنا ذاهبة يا حنا (تمد ساعديها نحو حنا وأبوه يجره وهو يلتفت إليها وهي تبكي)
ديفون - (لا تستطيع أن تنظرها وهي على هذه الحال) آه يا مسكينة
الفصل الخامس
الفصل شتاء والمنزل في أفري ويظهر منه غرفة لها باب به)
(مربعات
(من الزجاج يطل على الفضاء وقد كساه الثلج)
سافو - (حزينة مفكرة ثم تنشد)
حال عهد الهوى ... بعدما تبسمْ
فهو حلْم حوى ... يَقظة الألم
وكؤوس المُنى ... في سنا القبلْ
جرعتني العنا ... من يد الملل
واستبدَّت معي ... قسوة القدَرْ
فجرت أدمعي ... تشبه المطر
ها حبيبي هجَرْ ... إنَّ هجرَهْ
مثل وخز الإبَرْ ... ما أمرَّهْ
ليته أنصفا ... قبلما رحَلْ
يا فؤادي كفى ... أخطأ الأملْ
(بعد سكوت)
سافُ هنّي فأكرمي ... ساعة الواجب
إنَّه مهجتي. دَمي ... طفلِيَ الغائب
قم فقّبله يا فَمِي ... قبلة التائِب
علِّ طُهَر السّنينْ ... الذي ما عَرفْ
أين قلبي. يزين ... قلبه بالشرف
فإلى الواجِبْ ... عقَّنِي الصاحِبْ
حنا - (يدخل فجأة) فني؟
فني - (ذاهلة) أنت؟
حنا - نعم فلقد خانني جلدي ولم أقو على البعد
فني - وعدت
حنا - ساءتك إذن عودتي؟
فني - ولكنني سأرحل يا حنا فأولى لك أن تنسى
حنا - (فاقداً صبره) نعم ترحلين. ولكن إلى غير صدري
فني - قسماً بك لا
حنا - إنني حطمت من أجلك قلبي وأهلي وأعزائي ومزرعتنا والغابة والنهر وكل ما هو عزيز عليّ. وكذلك أمي التي كانت في منتصف الطريق تستبقيني وتبكي. وبعد هذا كله ترحلين وتطلبين إلي أن أنسى. اذهبي إذن. اذهبي ولا تطيلي ساعة عذابي.
سافو - (منتبهة) لازلت تحبني. إذن أبقى وأعبدك يا حنا (يتعانقان ويلبثان هكذا برهة)
ولكن ما لوجهك مصفراً يا بيبي
سافو - ماذا قلت. إن هذه الكلمة تعيد إلى ذهني تلك الذكريات الأليمة
حنا - (باكية) هكذا طاب لك أن تعذبني من جديد.
فهل لهذا عدت إلى من كنت تلتمس قبلة العفو عند شفتيك.

سافو - لقد أخطأت يا فني فاحملي ذلك على جنوني
(يذهب فيرتمي فوق مقعد وقد خارت قواه)
سافو - لا بأس عليك فإن شفتيك تختلجان وعينيك تصهرهما الحمى
حنا - خانتني قواي وما نمت إلى الآن
سافو - إذن نم يا حبيبي
حنا - ولكن إلى جانبك
سافو - بل عند صدري
حنا - (ينام ورأسه عند صدرها) آه لو تعلمين كم أحبك
سافو - إنس تكن سعيداً
حنا - نعم إن السعادة في النسيان (ينام)
سافو - ولكن كيف نسيت. خير لي أن أرحل من الآن
(تتخلص منه وتسند رأسه فوق وسادة)
حنا - (حالماً) زوجتي. . .
سافو - (تضطرب وتنحني عليه) هل أستيقظ؟ لا.
(تبتعد رويداً نحو الباب وهي تنشد بصوت خافت)
ساعة الرحيل - ساعة العذاب - شتت فكري
أيها الجميل - أقصر العتاب - واجبي عذري
يا لها ليال - عهدها النضير - مر كالفجر
هكذا الجمال - عمره قصير - فهو كالزهر
أيه يا دموع - أنت المتاع - بعده فاجري
أسعفي الضلوع - ساعة الوداع - من لظى الجمر
(وأخيراً تودعه بأطراف أصابعها ثم تختفي)
(تمت الرواية)
محمود خيرت
بقلم قضايا المالية
بعض الكتب الجديدة
فيصل ملك العرب
حياته. أثر فاجعته. أربعينه
بقلم عبد الجبار الرجبي
وضع هذا الكتاب الصغير أحد أدباء دير الزور الأفاضل. وقد حلاه بكثير من الصور وأهداه إلى جلالة الملك غازي. وفي هذا الكتاب تجد كثيراً من المعلومات الشيقة النافعة عن المغفور له صاحب الجلالة الملك فيصل عاهل العرب العظيم وعن أثر فاجعته في العالم العربي. والعالم الأوربي. كما تجد فيه كثيراً من نصوص برقيات التعازي، وقصائد الرثاء. وبالجملة ترى في هذا الكتيب على صغره ما يعجبك من هذا الحديث العطر حديث تلك الحياة الحافلة بجلائل الأعمال، وما أجدر شبابنا وشبان العالم العربي أن يقرأوا سيرة هذا العظيم الراحل في تبصر واعتبار.
الخفيف
إبراهيم في الميدان
تأليف الأستاذ حبيب جاماتي
عنيت بنشره إدارة الهلال بمصر
يقع هذا الكتاب في نيف ومائتي صفحة من القطع الكبير وهو مجموعة أقاصيص تاريخية تدور حول معارك البطل المصري العظيم إبراهيم باشا، وقد أصدره الهلال هدية لقرائه هذا العام، ولاشك في أن الهلال قد أحسن صنعاً باختياره هذا، فهي مجموعة أقاصيص تجمع بين اللذة والفائدة، ولصاحبها الفاضل قدم راسخة في فن الأقصوصة، ولقد أضاف بكتابه هذا إلى ذلك الفن الناشئ ثروة يعتد بها، ومن أقاصيصه التي راقتني بنوع خاص، الأخذ بالثأر، وخرساء البادية، والضريح الخاوي، والحقيقة أن كل ما يكتبه الأستاذ جاماتي في باب القصص جدير بالعناية والاهتمام.
رواد الشعر الحديث في مصر
تأليف مختار الوكيل

كتاب صغير يقع في نحو ثمانين صفحة افتتحه مؤلفه الفاضل بكلمة رشيدة في النقد الأدبي وشروطه وما يجب على الناقد، ثم بكلمة أخرى في الشعر وأغراضه ومظاهره في المدرستين القديمة والحديثة، وبعد ذلك ترجم لهؤلاء الشعراء الذين سماهم رواد الشعر الحديث في مصر وهم بحسب ترتيبه الأساتذة خليل مطران، وعبد الرحمن شكري، وأحمد زكي أبو شادي، وعباس محمود العقاد. ولقد أعجبني دقة المؤلف الشاب ونزاهته في بحثه، وحسن ذوقه في النقد، كما راقتني فطنته في تعرف مواضع الجمال أو القبح في شعر هؤلاء الشعراء، مما يجعل بحثه متفقاً تمام الاتفاق مع ما جاء في مقدمة كتابه من شروط النقد، ومما يجعل هذه الرسالة على صغرها جديرة بالقراءة في تمهل وإمعان.

الخفيف

العدد 63 - بتاريخ: 17 - 09 - 1934

على ذكر إعانة الكبتن كرسويل

تشجيع التأليف

أذاعت الصحف نبأ هذه الهبات السخية التي أغدقتها وزارتا المعارف والأوقاف على الكبتن كرسويل المحاضر المنتدب بالجامعة المصرية في الآثار الإسلامية، وقد بلغ مجموع هذه الهبات بضعة آلاف جنيه، دفعت إليه معاونة له على إخراج مؤلف يضعه بالإنكليزية عن العمارة الإسلامية في مختلف العصور؛ وقد أخرج منه إلى الآن الجزء الأول من أربعة أجزاء، ويتعهد الأستاذ كرسويل مقابل هذا السخاء الحاتمي الذي شملته به الحكومة المصرية أن يسمح لوزارة المعارف بترجمة مؤلفه إلى العربية، وأن (يهدى إليها) خمسين نسخة من كتابه.

وتشجيع المباحث العلمية والتاريخية على هذا النحو أمر مستحب لذاته. ولنترك البحث فيما إذا كانت جهود الأستاذ كرسويل ومباحثه جديرة بمثل هذا التشجيع. ذلك أننا نحمد المبدأ لذاته ونؤيده بكل قوانا؛ بيد أنا نود أن نلاحظ أنه لم يسبق لوزارة المعارف أو وزارة الأوقاف أن أبدت مثل هذا العطف أو أسبغت مثل هذه الرعاية على أحد من المصريين الذين يشتغلون بهذه المباحث أو غيرها، مما يجدر تقديره وتشجيعه؛ ولم تضع وزارة المعارف أو الجامعة المصرية وغيرهما من الهيئات العلمية الرسمية لنفسها أي تقاليد في هذا الشأن بالنسبة للعلماء المصريين وإن كان من تقاليدها أن تشجع العلماء الأجانب لأي مناسبة.

ربما قيل في ذلك إن المباحث العلمية والتاريخية لم تبلغ في مصر مستواها المنشود من التقدم والنضوج، وأن جهود العلماء المصريين لم تظهر بعد بمظهر يجدر بالتقدير والتشجيع. ولكنا نبادر فنقول إن هذا الاعتراض لم يبق له محل بعد، وإنه يرجع إلى نوع من التحامل القديم الذي نألفه دائماً في حكومات يطبعها الأجنبي بوحيه وتأثيره، والذي يتخذ مظهره في انتقاص الجهود القومية والاغضاء عن تقديرها وتشجيعها حتى لا تنمو وتزدهر وتكون قوة معنوية في الأمة. ومن التحامل أن ننكر أنه يوجد بين العلماء والباحثين المصريين عدة ممن ينافسون الكبتن كرسويل ومن هم في مستواه من العلماء الأجانب، على الأقل في ميدان المباحث الإسلامية؛ وإنه إذا كانت جهودهم مغمورة غير ظاهرة، فذلك لأنهم يعملون في جو من العزلة واليأس، ولا يأنسون لدى حكومتنا أو لدى هيئاتنا العلمية أي عطف أو تشجيع. وإذا سلمنا جدلاً بأن علماءنا وباحثينا لم يبلغوا بعد من العلم والكفاية ما يبلغه أمثال صاحب كتاب العمارة الإسلامية، فانه ليس من الحكمة أو العدل أن يتركوا حيث هم؛ وأن تضن عليهم حكومتهم بالعطف والتشجيع؛ وإنما السبيل إلى شحذ هممهم ومواهبهم وإبراز جهودهم في المستوى اللائق، هو أن تشملهم حكومتهم بشيء من ذينك العطف والبذل اللذين تغدقهما على العلماء الأجانب. خذ مثلا مسألة المباحث الأثرية التي كانت إلى ما قبل أعوام فقط وقفاً على العلماء الأجانب. فقد لبث المصريون نحو قرن محرومين من التنقيب عن آثارهم في نفس بلادهم وأرضهم؛ وكانت البعثات الأجنبية والعلماء الأجانب. يستأثرون بهذه المباحث في أرضنا بفكرة أنهم دون غيرهم يستطيعون إجراءها. ومع أن معظم آثارنا الفرعونية قد تسربت إلى الخارج، وغصت بها المتاحف الأجنبية في مختلف أنحاء العالم، فأن حكومتنا لم تكن تضن عليهم بكل صنوف التشجيع المادي والمعنوي. فلما أن قررت

الجامعة المصرية إجراء بعض الحفريات على يد بعض أساتذتها من المصريين، ولما بذل للمصريين ما كان يبذل لزملائهم الأجانب من العون والتشجيع، ظهرت كفاية المصريين ناصعة في الكشف عن آثار بلادهم واستقرائها، وظهر خطأ النظرية القديمة الجائرة التي كانت تنكر على المصريين كل كفاية لتقصيهم عما هو من صميم حقوقهم وميادينهم لكي يتسع المجال للأجانب.

لقد ظهرت في العهد الأخير طائفة قيمة من التآليف والمباحث الإسلامية، والآثار الأدبية الرفيعة، ولقيت كثيراً من التقدير بين العلماء الأجانب؛ فماذا كان نصيبها من التشجيع الرسمي في مصر؟ كل ما يطمح إليه المؤلف الذي أنفق كل ذكائه ووقته وماله على إخراج مؤلفه، هو أن تتفضل عليه وزارة المعارف بتقرير كتابه لمكتبات مدارسها وشراء بضع عشرات نسخ منه، وذلك بعد أن تفحصه لجنة فنية تقره وتوصي به، وهذا كل ما يعرفه المؤلفون المصريون من تشجيع وزارة المعارف، ولا يحظى بهذه المؤازرة الضئيلة سوى القليلين منهم. أما أن تشمل وزارة المعارف برعايتها مجهوداً علمياً أو أدبياً معيناً قبل أن يتم إخراجه، وتبذل لصاحبه شيئاً من العون المادي على نحو ما فعلت مع الكبتن كرسويل، الذي استطاع بمجرد الطلب أن يحمل ولاة الأمر على بذل هذه الآلاف المؤلفة له قبل أن يتم مؤلفه أو يخرج منه سوى الجزء الأول فقط، - فهذا أمر لم نسمع به قط، ولا نعتقد أنه تقرر بعد بالنسبة للمصريين في تقاليد وزارة المعارف.

على أننا نرجو أن يكون في الضجة التي أحدثها تصرف وزارة المعارف ووزارة الأوقاف في هذه المسألة، والأثر المؤلم الذي تركته في أذهان المصريين جميعاً، ما يلفت نظر ولاة الأمر في وزارة المعارف وفي غيرها من الهيئات الحكومية المتصلة بالشئون العلمية والأدبية، إلى التفرقة الجائرة بين المصريين والأجانب في نفس الميدان الواحد، وإيثار الأجانب على المصريين بالعطف والتشجيع.

لا بأس أن تشجعوا العلماء الأجانب بأموال المصريين، وإن كان هذا التشجيع لا يصادف أهله في معظم الأحيان، ولكن الحكمة والعدالة وحسن الذوق تقضي كلها بأن يبذل للعلماء والكتاب المصريين من أموال المصريين أضعاف ما يبذل لزملائهم الأجانب حتى لا تبقى جهودهم ضحية الانتقاص والنسيان والنكران.

(ع)

س. ا. ع

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

هؤلاء ثلاثة من الأدباء تجمعهم صفة العزوبة، ويحبون المرأة حباً خائفاً يقدِّم رجلاً ويؤخر أخرى؛ فلا يُقْبل إلا أدبر، ولا يعزم إلا انحل عزمه. بلغوا الرجولة وكأن ليست فيهم؛ وتمر بهم الحياة مرورها بالتماثيل المنصوبة، لا هذه قد وُلد لها ولا أولئك؛ وما برحوا يجاهدون ليحتملوا معاني وجودهم، لا ليطلبوا سعادة وجودهم، ويُمَخْرِقون في شعوذة الحياة بالنهار على الليل وبالليل على النهار، يحاولون أن يجدوا كالناس أياماً وليالي، إذ لا يعرفون لأنفسهم من العزوبة إلا نهاراً واحداً نصفه أسود مقفر مظلم.

فأما (س) فرجل (كشيخ المسجد) يكاد يرى حصير المسجد حيث وطئت قدماه من الأرض. . . . ذو دين وتقوى ما يزال بهما ينقبض وينكمش ويتزايل حتى يرجع طفلاً في الثلاثين من عمره. . . . وهو حائر بائر لا يتجه لشيء من أمر المرأة وقد فقد منها ما يحل وما يحرم، ولا جرأة لنفسه عليه فلا جرأة له على الموبقات، ولا يزين له الشيطان ورطة منها إلا أملس منه، فان له ثلاثة أبواب مفتوحة للهرب؛ إذ يخشى الله، ويتوقى على نفسه، ويستحي من ضميره.

وأما (أ) فرجل معزابة، ولكنه كالإسفنجة امتلأت حتى ليس فيها خلاء لقطرة، ثم عُصرت حتى ليس فيها بلال من قطرة؛ وقد بلغ ما في نفسه وقضى نهمته حتى اشتفى مما أراد؛ ثم قلب الثوب. . . فإذا له داخلة ناعمة من الخز والديباج، وإذا هو (الرجل الصالح) العفيف الدخلة ما تنطلق له نفس إلى مأتم، ولا يعرف الشيطان كيف يتسبب لصلحه ومراجعته الود. . .

وأما (ع) فهو كالأعرج؛ إذا مشى إلى الخير أو الشر مشى بطيئاً برجل واحدة، ولكنه يمشي. . . وهو (ملك الشوارع) لا يزال فيها مقبلاً مدبراً طرفا من النهار وزُلفا من الليل؛ فإذا لم يكن في الشارع نساء ظن الشارع قد هرب من المدينة وخرج من

طاعته. ولهذه الشوارع أسماء عنده غير أسمائها التي يتعارفها الناس ويستدلون بها. فقد يكون اسم الشارع مثلاً (على الحكيم) ويسميه هو (شارع ماري). . . ويكون اسم الآخر (شارع كتشنر) فيسميه (شارع الطويلة). . . ودرب اسمه (درب الملاح) واسمه عنده (درب المليحة) . . .

وهلم جراً ومسخاً. وإذا أراد صاحبنا هذا أن يسخر من الشيطان دخل المسجد فصلى، وإذا أراد الشيطان أن يسخر منه دحرجه في الشوارع. . .

وافيت هؤلاء الثلاثة مجتمعين يتدارسون مقالة (تربية لؤلؤية) يناقشونها بثلاثة عقول، ويفتشونها بست عيون؛ فأجمعوا على أن المرأة السافرة التي نبذت (حجاب طبيعتها) على ما بينته في تلك المقالة - إن هي إلا امرأة مجهولة عند طالبي الزواج بقدر ما بالغت أن تكون معروفة، وأنها ابتعدت من حقيقتها الصحيحة قدر ما اقتربت من خيالها الفاسد، وأتقنت الغلط ليصدقها فيه الرجل فلم يكذبها فيه إلا الرجل، وجعلت أحسن معانيها ما ظهرت به فارغة من أحسن معانيها. . . . .

وأردت أن أعرف كيف تنتصف الطبيعة من الرجل العزب للمرأة التي أهملها أو تركها مهملة. . . وأين تبلغ ضرباتها في عيشه، وكيف يكون أثرها في نفسه، وكيف تكون المرأة في خائنة الأعين؛ فتسرحت مع أصحابنا في الكلام فنا بعد فن، وأزلت حذارهم الذي يحذرون حتى أفضوا إليّ بفلسفة عقولهم وصدورهم في هذه المعاني.

قال (س): حسبي والله من الآلام وآلام معها - شعوري بحرماني المرأة؛ فهو بلاء منعني القرار، وسلبني السكينة؛ وكأنه شعور بمثل الوحدة التي يعاقب السجين بها مصروفا عن الحياة مصروفة عنه الحياة؛ تجعله جدران سجنه يتمنى لو كان حجرا فيها فينجو من عذاب إنسانيته الذليلة المجرمة المخلى بينها وبينه توسعه مما يكره؛ شعور بالوحدة والعزلة حتى مع الناس وبين الأهل، فما فيّ إلا عواطف خُرس لا تستجيب لأحد ولا يجاوبها أحد في (ذلك المعنى).

وتمام الذلة أن يجد العزب نفسه أبداً مكرهاً على الحديث عن آلامه بكل من يخالطه أو يجلس إليه، كأنه يحمل مصيبة لا ينفس منها إلا كلامه عنها. وهذا هو السر في أنك لا تجد عزباً إلا عرفته ثرثاراً لا تزال في لسانه مقالة عن معنى أو رجل أو امرأة، وأصبته كالذباب لا يطير عن موضع إلا ليقع على موضع.

ومع جهد الحرمان جهد شر منه في المقاومة وكف النفس، فذلك تعب يهلك به الآدمي إذ لا يدعه يتقار على حالة - من الضجر - فيما تنازعه الطبيعة إليه، وهو كالمزع في أعصابه يحسها تشد لتقطع، ودائما تشد لتقطع.

وقد رهقني من ذلك الضنى النسوي ما عيل به صبري وضعف له احتمالي؛ فما أراني يوماً على حمام من النفس، ولا ارتياح من الطبع؛ وكيف وفي القلب مادة همه، وفي النفس علة انقباضها، وفي الفكر أسباب مشغلته؟ وقد أوقدت سورة الشباب نارها على الدم، تلتعج في الأحشاء؛ وتطير في الرأس، وتصبغ الدنيا بلون دخانها، وفي كل يوم يتخلف منها رماد هو هذا السواد الذي ران على قلبي.

وما حال رجل عذابه أنه رجل، وذله أنه رجل؟ يلبس ثيابه الإنسانية على مثل الوحش في سلاسله وأغلاله، ويحمل عقلاً تسبه الغريزة كل يوم، وتراه من العقول الزيوف لا أثر للفضيلة فيه؛ إذ هو مجنون بالمرأة جنون الفكرة الثابتة، فما يخلو إلى نفسه ساعة أو بعض ساعة إلا أخذته الغريزة مجترحاً جريمة فكر. . .

وفي دون هذا ينكر المرء عقله؛ وأي عقل تراه في رجل عزب يقع في خياله أنه متزوج، وأنه يأوي إلى (فلانة) وأنها قائمة على إصلاح شأنه ونظام بيته، وأنه من أجلها كان عزوفاً عن الفحشاء بعيداً من المنكر، وفاءً لها، وحفظاً لعهد الله فيها وقد دلهته بفنونها التي يبتدعها فكره؛ وهي ساعة تؤاكله على الخوان، وساعة تضاحكه، ومرةً تعابثه، وتارة تجافيه، وفي كل ذلك هو ناعم بها، يحدثها في نفسه، ويسمر معها، ويتصنع لها وتتصنع له؛ ويعاتبها أحياناً في رقة، وأحياناً في جفاء وغلظة؛ وقد ضربها ذات مرة. .؟

ألا إن المرأة عندي هي هذا الجنون الذي يرجع بي إلى عشرة آلاف سنة من تاريخ الدنيا، فيرمي بي في كهف أو غابة رجلاً عارياً متوحشاً متأبداً ليس من الحيوان ولا من الإنس، أحجار وأشجار، وهو حجر له نمو الشجر.

لقد توزعت المرأة عقلي فهو متفرق عليها وهي متفرقة فيه، لا أستطيع والله أن

أتصورها كاملة، بل هي في خيالي أجزاء لا يجمعها كل؛ هي ابتسامة، هي نظرة، هي ضحكة، هي أغنية، هي جسم، هي شيء هي هي هي. أكل تلك المعاني هي المرأة التي يعرفها الناس، أم أنا لي امرأة وحدي؟

وإني على ذلك لأتخوف الزواج وأتحاماه؛ إذ أرى الشارع قد فضح النساء وكشفهن؛ فما يريني منهن إلا امرأة تزهي بثيابها وصنعة جمالها، أو امرأة كالهاربة من فضائلها؛ والبيت إنما يطلب الزوجة الفاضلة الصناع، تخيط ثوبها بيدها فتباهي بصنعته قبل أن تباهي

بلبسه، وتزهى بأثر وجهها في، لا بأثر المساحيق في وجهها. وإن مكابدة العفة، ومصارعة الشيطان، وتوهج القلب بناره الحامية، وإلمام الطيرة الجنونية بالعقل - كل ذلك ومثله معه أهون من مكابدة زوجة فاسدة العلم أو فاسدة الجهل، أبتلى منها في صديق العمر بعدو العمر.

إن أثر الشارع في المرأة هو سوء الظن بها، فهي تحسب نفسها معلنة فيه أنوثتها وجمالها وزينتها، ونحن نراها معلنة فيه سوء أدب وفساد خلق وانحطاط غريزة. ومن كان فاسقاً أساء الظن بكل الفتيات، ووجد السبيل من واحدة إلى قول يقوله في الأخرى؛ ومن كان عفيفاً سمع من الفاسق فوجد من ذلك متعلقاً يتعلق به، وقياساً يقيس عليه؛ والفتنة لا تصيب اللذين ظلموا خاصة.

آه لو استطعت أن أوقظ امرأة من نساء أحلامي. .!

وقال (أ): لقد كانت معاني المرأة في ذهني صوراً بديعة من الشعر تستخفني إليها العاطفة، ولا يزال منها في قلبي لكل يوم نازية تنزو. وكانت المرأة بذلك حديث أحلامي ونجي وساوسي، وكنت عفيف البنطلون؛ ولكن النساء أيقظنني من الحلم، وفجعنني فيه بالحقيقة، ووضعن يدي على ما تحت ملمس الحية. ولو حدثتك بجملة أخبارهن، وما مارست منهن لتكرهت وتسخطت، ولأيقنت أن كلمة تحرير المرأة إنما كانت خطأ مطبعياً، وصوابها: تجرير المرأة. . فهؤلاء النساء أو كثرتهن - لم يذلن الحجاب إلا لتخرج واحدة مما تجهل إلى ما تريد أن تعرف، وتخرج الأخرى مما تعرف إلى أكثر مما تعرفه، وتخرج بعضهن من إنسانة إلى بهيمة.

لقد عرفت فيمن عرفت منهن الخفيفة الطياشة، والحمقاء المتساقطة، والفاحشة ذات الريبة؛ وكل أولئك كان تحريرهن أي تجريرهن - تقليداً للمرأة الأوربية؛ تهالكن على رذائلها دون فضائلها، واشتد حرصهن على خيالها الروائي دون حقيقتها العلمية، ومن مصائبنا نحن الشرقيين أننا لا نأخذ الرذائل كما هي، بل نزيد عليها ضعفنا فإذا هي رذائل مضاعفة.

كان الحلم الجميل في الحجاب وحده، وهو كان يسعر أنفاسي ويستطير قلبي، ويرغمني مع ذلك على الاعتقاد أن ههنا علامة التكرم ورمز الأدب وشارة العفة، وأن هذه المحصنة المخدرة عذراء أو امرأة لم تلق الحجاب عليها إلا إيذاناً بأنها في قانون عاطفة الأمومة لا

غيرها؛ فهي تحت الحجاب لأنه رمز الأمانة لمستقبلها، ورمز الفصل بين ما يحسن وما لا يحسن، ولأن وراءه صفاء روحها الذي تخشى أن يكدر، وثبات كيانها الذي تخشى أن يزعزع.

قال حكيم لأولئك الذين يستميلون النساء بأنواع الحلي وصنوف الزينة والكسوة الحسنة: (ياهؤلاء، إنكم إنما تعلمونهن محبة الأغنياء لا محبة الأزواج) وأحكم من هذا قول ذلك الرجل الإلهي الصارم عمر بن الخطاب: (اضربوهن بالعرى.) فقد عرف من ألف وثلثمائة سنة أن تحرير المرأة هو تجريرها، وإنها لا تخرج لمصلحة أكثر مما تخرج لإظهار زينتها. فلو منعت الثياب الجميلة حبستها طبيعتها في بيتها. فماذا تقول الشوارع لو نطقت؟ إنها تقول: يا هؤلاء، إنما تعلمونهن معرفة الكثير لا معرفة الواحد. . .!

لقد والله أنكرت أكثر ماقرأت، وسمعت من محاسنهن وفضائلهن وحيائهن. ولقد كان الحجاب معنى لصعوبة المرأة واعتزازها، فصار الشارع معنى لسهولتها ورخصها؛ وكان مع تحقق الصعوبة أو توهمها أخلاق وطباع في الرجل، فصار مع توهم السهولة أو تحققها أخلاق وطباع أخرى على العكس من تلك مازالت تنمى وتتحول حتى ألجأت القانون أخيراً أن يترقى بمن لمس المرأة في الطريق من (الجنحة) إلى (الجناية). وتخنث الشبان والرجال ضروباً من التخنث بهذا الاختلاط وهذا الابتذال، وتحللت فيهم

طباع الغيرة، فكان هذا سريعاً في تغيير نظرتهم إلى النساء، وسريعاً في إفساد اعتقادهم، وفي نقض احترامهم، فأقبلوا بالجسم على المرأة وأعرضوا عنها بالقلب، وأخذوها بمعنى الأنوثة وتركوها بمعنى الأمومة؛ ومن هذا قل طلاب الزواج، وكثر رواد الخنا.

ولقد جاءت إلى مصر كاتبة إنكليزية وأقامت أشهراً تخالط النساء المتحجبات وتدرس معاني الحجاب، فلما رجعت إلى بلادها كتبت مقالاً عنوانه (سؤال أحمله من الشرق إلى المرأة الغربية) قالت في آخره: (إذا كانت هذه الحرية التي كسبناها أخيراً، وهذا التنافس الجنسي، وتجريد الجنسين من الحجب المشوقة الباعثة التي أقامتها الطبيعة بينهما - إذا كان هذا سيصبح كل أثره أن يتولى الرجال عن النساء، وأن يزول من القلوب كل ما يحرك فيها أوتار الحب الزوجي فما الذي نكون قد ربحناه؟ لقد والله تضطرنا هذه الحال إلى تغيير خططنا، بل قد نستقر طوعا وراء الحجاب الشرقي، لنتعلم من جديد فن الحب الحقيقي.).

وقال (ع): لست فيلسوفا، ولكن في يدي حقائق من علم الحياة لا تأتي الفلسفة بمثلها، وكتابي الذي أقرأ فيه هو الشارع. فأعلم أن العزاب من الرجال يتعلم بعضهم من بعض، وهم كاللصوص لا يجتمع هؤلاء ولا هؤلاء إلا على رذيلة أو جريمة. وحياة اللص معناها وجود السرقة، وحياة العزب معناها وجود البغاء والفسق.

ومن حكم الطبيعة على الجنسين أن الفاسق يباهي باظهار فسقه قدر ما تخاف الفاسقة من ظهور أمرها؛ وهذه إشارة من الطبيعة إلى أن المرأة مسكينة مظلومة. فما ابتذال الحجاب، ولا استهتاك النساء إلا جواب على انتشار العزوبة في الرجال، وكيف يتحول الماء ثلجاً لولا الضغط نازلاً فنازلاً إلى مادون الصفر؟ فهذا الثلج ماء يعتذر من تحوله وانقلابه بعذر طبيعي قاهر له قوة الضرورة الملجئة، وكذلك المرأة المذالة أو الطامحة أو المتبذلة أو المتهتكة - ما صفاتهن إلا توكيد لأعذارهن. وكان على الحكومة أن تضرب العزوبة ضربة قانون صارم، فالعزب وإن كان رجلاً حراً في نفسه، ولكن رجولته تفرض للأنوثة حقها فيه، فمتى جحد هذا الحق واستكبر عليه رجع حاله مع المرأة إلى مثل شأن الغريم مع غريمه؛ ليس للفصل فيه إلا الدولة وأحكامها وقوتها التنفيذية.

وإذا أطلقت الحرية فصاروا كلهم أو أكثرهم أعزاباً فماذا يكون إلا أن تمحي الدولة، وتسقط الأمة، وتتلاشى الفضائل؟ فالعزوبة من هذا جريمة بنفسها، ولا ينبغي أن تتربص بها الحكومة حتى تعم، بل يجب اعتبارها باعتبار الجرائم من حيث هي، ويجب تفسير كلمة (العزب) في اللغة بمثل هذا المعنى: إنها شخصية مذكرة ساخطة متمردة على حقوق مختلفة للمرأة والنسل والأمة والوطن.

وما ساء رأى العزاب في النساء والفتيات إلا من كونهم بطبيعة حياتهم المضطربة لا يعرفون المرأة إلا في أسوإ أحوالها وأقبح صفاتها، وهم وحدهم جعلوها كذلك.

إن لهم وجودا محزنا يستمتعون فيه ولكنهم يَهلكون ويُهلكون به. هم والله أساتذة الدروس السافلة في كل أمة، وهم والله بغاة من الرجال في حكم البغايا من النساء، يجرون جميعا مجرى واحدا. ومن هي البغي في الأكثر إلا امرأة فاجرة لا زوج لها؟ ومن هو العزب في الأكثر إلا رجل فاسق لا زوجة له؟ على أن مع المرأة عذر ضعفها أو حاجتها. ولكن ما عذر الرجل؟

ماذا تفيد الدولة أو الأمة من هذا العزب الذي اعتاد فوضى الحياة، وسيرها على غير نظامها، وتحققها على أسخف ما فيها من الخيال والحقيقة؛ وأي عزب يجد الاستقرار أو تجتمع له أسباب الحياة الفاضلة، وهو فقد تلك الروح التي تتمم روحه وتنقحها وتمسكها في دائرتها الاجتماعية على واجباتها وحقوقها، وتجيئه بالأرواح الصغيرة التي تشعره التبعة والسيادة معاً، وتمتد به ويمتد بها في تاريخ الوطن.

كيف يعتبر مثل هذا موجوداً اجتماعياً صحيحاً وهو حي مختل في وجود مستعار، يقضي الليل هارباً من حياة النهار، ويقضي النهار نافراً من حياة الليل؛ فيقضي عمره كله هارباً من الحياة، وكأنه لا يعيش بروحه كاملة، بل ببعضها، بل بالممكن من بعضها !. أية أسرة شريفة تقبل أن يساكنها رجل عزب، وأية خادم عفيفة تطمئن أن تخدم رجلاً

عزباً؟ هذه هي لعنة الشرف والعفة لهؤلاء الأعزاب من الرجال!
قال الراوي: وهنا إنتفض (س) و (أ) وحاولا أن يقبضا على هذه اللعنة ويرداها إلى حلق (ع). ثم سألني ثلاثتهم أن أسقطها من المقال، بيد أني رأيت أن خيراً من حذفها أن تكون اللعنة لأعزاب الرجال إلا (س) و (أ) و (ع). . .
طنطا
مصطفى صادق الرافعي
أعظم حادث في حياة روسو:
روسو ومدام دي فرنس - 2
للأستاذ محمد عبد الله عنان
والحقيقة أن مدام دي فرنس نفثت في جان جاك ضرباً غريباً من السحر والجوى، لا هو بالحب الجنسي الخالص، ولا هو بالحب البنوي الخالص، ولا هو بالصداقة الحميمة، بل كان مزيجاً من ذلك كله، يقترن بنوع من عبادة الجمال والسحر، وعاطفة عميقة من العرفان وشكر الصنيعة. وسنرى أن له إلى جانب هذه الناحية الأفلاطونية ناحية أخرى. وعلى أي حال فقد كان لهذا السحر الذي بثته مدام دي فرنس في جان جاك أعظم أثر في تكوين عواطفه وفلسفته في الجمال والحب والمرأة، وكان مستقى خياله ومشاعره في بضعة الأعوام التالية التي اكتمل فيها شبابه، وتفتحت أمامه عوالم الحياة. وفي ظلال هذه السعادة أقام جان جاك معززاً مكرماً يقضي أوقات فراغه في القراءة ودرس الموسيقى والأحلام اللذيذة، والسمر مع مدام دي فرنس. وكان يشعر أن السعادة قد بلغت ذروتها، وأنها لذلك لن تدوم، ويرتجف فرقا كلما تصور يوم البعاد وانقضاء هذا العهد الأمثل.
وأقام روسو على هذا النحو زهاء عام وبعضه، ثم رأت مدام دي فرنس أن ترسله إلى ليون لقضاء بعض المهام، فسافر إليها، ولم يغب سوى أيام قلائل. ولكنه لما عاد إلى أنسى لم يجد (أمه) وموئل سعادته، ولم يستطع أن يعلم شيئاً عن غيابها سوى أنها سافرت إلى باريس مع خادمها كلود آنيه، فلم ير سبيلا سوى الانتظار، وأقام وحده بالمنزل يتنسم أخبارها وموعد عودها، وهو يدرس الموسيقى ويؤلف الأناشيد. وهنا يقص علينا روسو عدة حوادث غرامية تافهة وقعت له خلال هذه الفترة. وكانت معرفته بالموسيقى سبباً في اتصاله ببعض الهواة. ولما طالت غيبة مدام دي فرنس، سافر إلى جنيف، ثم إلى نيوشاتل، وهناك استقر حيناً يكسب عيشه بتدريس الموسيقى، ولكن شبح مدام دي فرنس كان يساوره أبداً، وكان العود إليها أبداً أعز أمانيه، فلم تمض عليه بضعة أشهر في هذا التجوال حتى عاد إلى سافوا وكانت مدام دي فرنس، قد غادرت يومئذ أنسى إلى شامبرى واستقرت هناك. فسافر إليها وتحققت أمنيته بالمقام إلى جانبها كرة أخرى، واستطاع بنفوذها أن يحصل على وظيفة في ديوان مسح الأراضي في تلك الناحية نفسها، فكانت سعادة مزدوجة، وكان الهدوء والسكينة والاستقرار، وكان ذلك سنة 1732.
وهنا فقط يكتشف روسو حقيقة مرة غابت عنه طيلة هذه الأعوام الثلاثة؛ تلك هي علاقة مدام دي فرنس بخادمها وأمينها كلود آنيه؛ فقد عرف روسو فجأة أن الخادم ينعم بحب سيدته؛ وعرف ذلك من مدام دي فرنس ذاتها، ففي ذات يوم ثارت بين السيدة وخادمها مناقشة عاصفة وجهت إليه خلالها بعض الألفاظ الجارحة؛ فهرول كلود آنيه خفية إلى زجاجة من (اللادونوم) فابتلع ما فيها لكي يزهق نفسه، ثم أوى إلى غرفته ينتظر حشرجة الموت؛ ورأت سيدته وخليلته الزجاجة الفارغة فأدركت الأمر، وهرولت صارخة إلى غرفته، ونادت روسو واعترفت له بكل شيء ورجت منه العون؛ فعاونها على إسعافه، ونجا الخادم المحبوب. ودهش روسو لغبائه إذ خفيت عليه هذه الحقيقة من قبل. ولكنه لم يشعر نحو كلود آنيه بشيء من الحقد، برغم أنه يسلبه معبودة قلبه، لأنه يحرص على سعادتها وهنائها. .
ولبث روسو مدى الأعوام التالية إلى جانب مدام دي فرنس، ولم يفارقها إلا في فترات قليلة ولأسباب طارئة. كانت شامبرى موطنه ومستقره، وكانت مدام دي فرنس أمه وأسرته وكل شيء في الوجود بالنسبة إليه. وكانت الحياة عندئذ هادئة منظمة، وقد أخذ روسو يشعر بشيء من الثقة بنفسه وبمستقبله؛ وكان يوزع وقته بين عمله، ودرس الموسيقى، ومدام دي فرنس. وكانت ثمة سعادة أخرى لم يكن يتوقعها روسو،

ترفرف عليه في ذلك المقام الرغد، بل كان ثمة حادث لعله أعظم مفاجأة في حياة روسو. ذلك أن علاقته الساذجة الأفلاطونية مع مدام دي فرنس تحولت فجأة إلى علاقة حب عملي. ولذلك التحول قصة غريبة يرويها لنا روسو في عدة صفحات ساحرة مؤثرة. فقد كان روسو يعطي دروساً في الموسيقى لبعض أكابر السيدات في شامبرى، وكانت علائقه النسوية تزداد يوما عن يوم؛ وكان بين أولئك السيدات، سيدة تدعى الكونتة دي منتون كان روسو يعلم ابنتها الغناء؛ وكانت سيدة مضطرمة الأهواء تحب الدسائس الغرامية، وبينها وبين مدام دي فرنس صلة ومنافسات نسوية. فلما اتصلت بجان جاك وقدرت ذكاءه ومقدرته على الكتابة الساخرة ونظم الأناشيد والأغاني، فكرت في استهوائه والانتفاع بمقدرته، واستقبلته بعطف وإكرام، وشعرت مدام دي فرنس بذلك، ففكرت في إنقاذ روسو من شراكها وشراك غيرها من النسوة اللائي

يحطن به. والتمست لذلك أغرب وسيلة يمكن تصورها. فاختلت بروسو ذات يوم، وأفهمته أنها لم تر وسيلة لانقاذه من أخطار الشباب سوى أن تقدم نفسها إليه، وأن تفتدي بجسمها كل ما يهدده من الأخطار، وأنها تمهله ثمانية أيام للتفكير والعزم. ويقول لنا روسو إنه دهش لهذه المفاجأة أيما دهشة، وإنه لم يكن يتوقع قط هذا المصير لعلائقه مع المحسنة اليه؛ بيد أنه يقول لنا إن ذهنه لم يكن بعيداً عن تصور هذه السعادة؛ فقد كان يضطرم جوى نحو النساء؛ ولم يكن قد لامس إحداهن بعد؛ وإن مدام دي فرنس وإن كانت تكبره بنحو عشر سنين، كانت ما تزال فتية فتانة وافرة الأنوثة والسحر، ولم يثره أنها كانت خليلة غيره، وأنها بذلك توزع متاعها على أكثر من رجل، فقد كانت هذه الشركة مؤلمة حقا، ولكنها لم تغير ذرة من عواطفه نحوها.

ويحاول روسو أن يحلل عواطفه نحو مدام دي فرنس مرة أخرى. لقد كان يحبها حقاً، بل كان يهيم بها حباً؛ ولكن ذلك الهيام كان أقوى من أن يحمله على الرغبة في وصالها. وقد أنفق هذه الأيام الثمانية في اضطراب ذهني لا يمكن تصوره، وكأنها كانت قروناً ثمانية، ولكنه كان يبغى المزيد منها. ثم جاء اليوم المروع أخيراً؛ فهرول روسو إليها، وصرح بالقبول والأذعان؛ وبر في الحال بوعده. ويصف لنا روسو ذلك اللقاء المدهش في تلك العبارات القوية المؤثرة: (لقد توج قلبي كل نذوري دون أن أرغب في المكافأة. بيد أني حصلت عليها، وألفيت نفسي لأول مرة، بين ذراعي إمرأة - وامرأة أعبدها. فهل كنت سعيداً؟ كلا! ولقد تذوقت السرور، ولكن شعوراً قاهراً من الحزن كان يسمم سحره؛ وكنت أشعر أني أرتكب عشرة محرم؛ ولقد بللت صدرها بدموعي مرتين أو ثلاث مرات، بينما كنت أضمها إليّ في شغف وهيام. أما هي فلم تكن حزينة ولا مضطرمة، ولكنها كانت ناعمة هادئة. ولم تكن تحدوها الشهوة، ولم تكن ترجو المتاع، ولهذا لم تشعر بمتعة، ولم يؤنبها الضمير قط).

وهنا يفيض روسو في تحليل عواطف مدام دي فرنس وميولها الغرامية، ويحاول أن يعتذر عن أخطائها وزلاتها؛ فقد نشأت نشأة حسنة، ذات فضيلة واستقامة، وذوق رفيع، وخلال بديعة، ولكنها كانت تصغي إلى العقل والفلسفة دون القلب؛ وقد عنى معلمها وأول عشاقها، مسيو دي تاقل، بأن يغرس في ذهنها جميع المبادئ التي تسهل له إغواءها؛ فعلمها أن

الاخلاص الزوجي سخف، وأن الاجتماع الجنسي أمر تافه، وأن الفضيلة والعفة والحشمة أمور ظاهرية فقط. فغزتها هذه المبادئ وطغت عليها حتى أصبحت تعتقد دائماً أنه لا يصفد الإنسان بحب امرأة قدر الوصل. وفي تلك الصحف التي يصف لنا فيها روسو ذلك التحول في علائقه مع مدام دي فرنس، يبلغ روسو ذروة البلاغة والافتنان، ولعلها أبدع قطعة في (الاعترافات).

وهكذا تحولت القصة البنوية الأمومة إلى قصة غرامية، وغدا روسو خليل المرأة التي لبث بضعة أعوام يقدسها كأم رؤوم. واستمرت هذه العلاقة ما بقى إلى جانبها، واستمر الخادم كلود آنيه شريكه في الوصل مدى حين، ولكنه لم أن توفى. ثم انتقلت مدام دي فرنس وروسو إلى منزل خلوي في ضيعة (لاشارميت)، وهنالك قضى روسو، في ذلك المقام المنعزل أياماً سعيدة في الدرس، مستأثرا بصحبة (أمه) وحبيبته. ثم اعتلت صحته، واشتد به الهزال والضعف، وفكر في السفر لينتجع العافية، وأشير عليه أن يسافر إلى مونبلييه حتى يجد من الأطباء من يستطيع معالجته، ولم تمانع مدام دي

فرنس في تنفيذ ذلك العزم، فسافر إلى مونبلييه، ووقعت له أثناء رحلته بعض حوادث غرامية بثت في ذهنه إضطرابا وجوى. وبعد أشهر عاد إلى (أمه) وكانت تلك العاطفة المضطرمة التي لبثت مدى أعوام تدفعه إلى جانب مدام دي فرنس قد خبت نوعاً، واستحالت إلى نوع من الصداقة الهادئة، والظاهر أيضاً أن مدام دي فرنس كانت تبحث عن صداقة جديدة وغذاء جديد لعواطفها الهائمة، فلما عاد روسو ألفى إلى جانبها في المنزل رجلاً آخر يدعى فنتز نريد، ولم يلبث روسو أن أدرك من تصرفاته ولهجته أنه غدا صاحبا لمدام دي فرنس، وأنه قد حل مكانه، فحزن روسو لذلك ولم يطق البقاء حيثما هدمت سعادته، فسافر إلى ليون، ولم تبد (أمه) كبير أسف لسفره. وبعد أن أقام بها حيناً عاد إلى مدام دي فرنس كرة أخرى، وأقام بالمنزل حيناً في عزلة عنها لا يكاد يراها إلا وقت الطعام، وكانت آخر زياراته لها. وكان يومئذ قد أشرف على الثلاثين من عمره، ونضجت دراساته ومواهبه وأنس في نفسه طموحاً إلى غزو ميدان الحياة الواسع، فاتجه ببصره إلى باريس، فودع (أمه) الوداع الأخير، سافر إليها تحدوه مختلف العواطف والآمال. .

وكان ذلك ختام قصة روسو ومدام دي فرنس، فلم يرها بعد ذلك ولم يحاول رؤيتها، وألقى

به القدر في باريس إلى غمار حياة جديدة عاصفة، ولكنه لم ينس ذكرى المحسنة إليه قط، ولما توفيت بعد ذلك بنحو عشرين عاماً - سنة 1764 - اشتد حزنه لفقدها، وهو يعرب لنا عن ذلك الحزن في نفثة مؤثرة في (الأعترافات).

محمد عبد الله عنان المحامي

ماذا يعني؟

سيدي الأستاذ البليغ صاحب الرسالة

إني قرأت في رسالتكم الواحدة والستين كلمة ندت من الأستاذ كرم ملحم كرم، وهو يتحدث عن (أدب اليوم) صغيرة في ذاتها، ولكن فيها طبيعة كطبيعة (الديناميت) لا يمس شيئاً إلا جعله يباباً، فأكبرتها، وأعددت فصلا طويلا في الرد عليها، ثم بدا لي فقلت: لعل الأستاذ كرم، لا يعني هذا الذي يفهم من كلمته، ولعله إذا نبه إليها نظر فيها ثم رجع عنها، فكفى الله المؤمنين القتال، وعهدنا بالأستاذ أنه ذكي متأن، وكاتب مفكر، فطويت فصلي وبعثت بهذه الكلمة إليكم راجياً منكم أن تنشروها وتسألوه الجواب عنها:

ماذا يعني الأستاذ كرم بقوله، وهو يتحدث عن روايات فولتير وروسو ولامارتين وهوغو: (والدين نفسه يقوم على الروايات، فما هو كتاب التوراة، وما هو الانجيل، وما هو القرآن؟ أليس للرواية من هذه الكتب أكبر نصيب؟) اهـ.

هل يعني دين التوراة والإنجيل فقط، فلا ننازعه ولا يكون لنا أن ننازعه وهو صاحب الدار وأدرى بما فيها، أم يعنى دين القرآن؟

وهل يعني أن القرآن رواية كروايات روسو ولا مارتين؟ وان ما فيه من عبرة التاريخ الصحيح، هو ملهاة الرواية الباطلة؟

هذا ما أرجو أن تتفضلوا بسؤال الأستاذ عنه، وأن يتفضل بأيضاحه.

علي الطنطاوي

عضو (جمعية الهداية الإسلامية) بدمشق

الشخصية - 2

للأستاذ محمد عطية الأبراشي

المدرس بكلية الآداب بالجامعة المصرية

العناصر الرئيسية التي تكون منها الشخصية القوية:

إن العناصر الجوهرية التي تكون منها الشخصية القوية كثيرة منها:

(1) الجاذبية: وهي قوة طبيعية إن وجدت في الشخص استطاع أن يجتذب قلوب غيره ممن يتصلون به بدون أن يتكلف أو يتصنع: وهذا العنصر يعد أقوى العناصر التي تتكون منها الشخصية إن لم نقل أقواها، ولكن بماذا يجتذب الإنسان غيره من الناس؟

والجواب أنه يستطيع أن يجتذبهم ويسيطر عليهم بأدبه وعلمه، وضبط نفسه، وسداد رأيه، وسرعة خاطره، وحسن حديثه، وكرم خلقه، ومراعاة شعورهم ومشاركتهم في وجدانهم. وهذه الصفات بعضها وراثي، وبعضها يمكن أن يكتسب بالتربية والتعلم، في

البيت والمدرسة والملعب والمجتمع،
النشاط العقلي أو الذكاء: العنصر الثاني من العناصر المكونة للشخصية القوية هو (2)
النشاط العقلي أو الذكاء، وبعبارة أخرى حضور الذهن. وسرعة الخاطر، وصفاء القريحة. فقد يكون الرجل مثقفاً، واضح التفكير، غزير المادة، واسع الاطلاع، ولكنه قد لا يكون متقد العقل، وضاء الفكر، حاضر البديهة، فلا يستطيع أن يدرك ما يرمي إليه محدثه، ولا أن يشاركه في رأيه؛ وقد تكون المرأة وسيمة الوجه، حسنة المنظر، جميلة الملبس، ولكنها قد تكون فاقدة ذلك النشاط الفكري والاتقاد العقلي، فتعجز عن التأثير في غيرها أو اجتذابه والسيطرة عليه. فهي كصورة جميلة المنظر، ولكنها فاقدة الروح الفنية، تلك الروح التي تؤثر في الصورة فتعطيها قوة وتأثيراً وحياة معنوية.
فللنشاط العقلي تأثير حسن في شخصية الإنسان، وفي ارتفاع منزلته بين إخوانه وذويه، وللغباوة وقلة الفطنة والكسل العقلي أثر سيئ في خمول الشخص وتأخره، وعجزه وارتكابه الجرائم أحياناً، ولا عجب إذا قلنا إن معظم المجرمين من الأغبياء وضعاف العقول، وتبدو شخصية الأذكياء في أعمالهم وأقوالهم كما تبدو في منطقهم وتفكيرهم المنظم، وآرائهم
المرتبة، وحججهم القوية، وقدرتهم على التخلص بسهولة من المشكلات التي تعترضهم بما أوتوا من نشاط عقل وحدة ذهن وصدق حس.
ومن كان لذكائهم أثر في نجاحهم في حياتهم (ابراهام لنكولن)، أحد رؤساء الولايات المتحدة الذين تدين لهم تلك الولايات اليوم بما فيها من تقدم ورقي وإصلاح. ولد في 12 من فبراير سنة 1809، وكان أبوه بحاراً، نجاراً عادياً. توفيت والدته ولما يبلغ من العمر عشر سنين، تعلم مبادئ القراءة والكتابة وهو طفل، وكانت أمه قبل وفاتها تعني به العناية كلها، اختارت له من الكتب الكتاب المقدس وكتاباً عن حياة (جورج واشنطون) قرأهما وأعاد قراءتهما مراراً حتى كاد يحفظهما. وكان في بعض الأحيان يسير أميالاً ليستعير كتاباً يقرؤه. كان في حياته الأولى عاملاً، ثم ثقف نفسه بالقراءة في أوقات الفراغ، وكان في الليل يوقد قطعاً من الخشب، يتدفأ بنارها ويقرأ على نورها، ولولا ضيق المقام، والخوف من الخروج عن الموضوع لكتبنا عنه الكثير فارجع إلى تاريخ حياته أن شئت، وكل ما نريد أن نذكره هو أنه درس القانون أخيراً، ثم كان محامياً مدرهاً يشار إليه بالبنان، حاضر الذهن متقد الفكر، قوي الشخصية، ثم كان عضواً بمجلس النواب، فسياسياً، فرئيساً للولايات المتحدة بأمريكا. فضلته زوجته - وكان فقيراً - على منافس آخر من الأغنياء، وقد اختارته زوجاً لذكائه وإخلاصه وشخصيته. تنبأت أنه سيكون عظيماً، وقد كان مثلاً للعظمة؛ ولئن قام واشنطون بتحرير الولايات المتحدة، فقد قضى لنكولن على ما كان فيها من الاضطراب، وقام بكثير من الإصلاحات، وقد ترك لنكولن اسماً خالداً محبوباً لا من الأمريكيين فحسب، بل من أبناء الإنسانية في جميع الشعوب، فقد كان يعمل للإنسانية ويفكر كثيراً في الإنسانية وينسب إليه كثير من الحكايات التي تقرب من الخيالات والروايات.
وممن كان لحدة ذهنهم وشخصيتهم أثر كبير في نجاحهم أيضاً (اللورد ماكولي) الاسكتلندي، فقد كان كاتباً وشاعراً، وكان مؤرخاً وقانونياً، وكان خطيباً وسياسياً، ولد في 25 من أكتوبر سنة 1800 م وتوفى في 28 من ديسمبر سنة 1859 م.
أظهر حباً للقراءة وتعطشاً للعلم منذ نعومة أظفاره، توسم فيه أبوه كثيراً من علامات الذكاء والمقدرة العقلية منذ طفولته؛ فقد قلد (السير وولتر سكوت) في كتابته وعمره لم يزد على سبع سنين، فكتب ثلاث قصائد، ومختصراً تاريخياً عاماً، وهو طفل. كان قوي الذاكرة،
محباً للعمل مولعاً بالأدب وبخاصة الروايات. وكثيراً ما لامه أبوه على قراءتها، التحق في أكتوبر سنة 1818 بجامعة (كمبردج). وحصل على أربع جوائز منها. وكنا نود أن نكتب عنه كثيراً لولا الخوف من التطويل. وكل ما يمكننا أن نقوله هو أنه اشتغل بالقضاء، ثم اتخذ الأدب مهنة، ثم انتسب إلى أحد الأحزاب السياسية، ونجح في حياته النيابية نجاحاً باهراً لنشاطه العقلي، وتأثيره الخطابي، وإخلاصه في قوله. وكان ينضم لآرائه كثيرون حتى المعارضون لحزبه. وله خطبة هي آيات بينات يدافع فيها عن تعميم التعليم المجاني، تدل على غيرته، وحضور بديهته. ولم يفخر الشعبان: الإنكليزي والاسكتلندي إلى اليوم بأحد من رجال السياسة والأدب فخرهما بماكولي: ومن كتابته

تكاد تلمس قوة حجته، وروح خطابته، ووضوح لغته، وصفاء ذهنه، وسلامة ذوقه في كتابته، وجمال تعبيره، وحسن أسلوبه، ووفاءه لبلاده وأقاربه وأصدقائه، تكاد تلمس نقده المر البريء الذي ينبئ عن الإخلاص والإيمان بما يقول. .

وممن كان يشهد لهم بالذكاء وحضور البديهة كثير من رجال العرب ونسائهم نذكر لك منهم: معن بن زائدة؛ فقد دخل على أبي جعفر المنصور، فقارب خطوه، فقال المنصور: (لقد كبرت سنك؛ قال في طاعتك. قال وإنك لجلد؛ قال على اعدائك. قال: وأرى فيك بقية؛ قال: هي لك.) فانظر إلى أجوبة معن تجد أنها تدل على سرعة الخاطر وحسن الجواب.

فالنشاط العقلي يساعد على النجاح في الحياة، وينقذ الإنسان من أدق المراكز، ويحفظ شخصيته في أشد المواقف، ويسهل الصعب، ويقرب البعيد وله أثر كبير في حسن الخلق والسلوك. وبالإحصاء وجد أن أكرم حكام أوربه خلقا في القرون الثلاثة الأخيرة الماضية كانوا على قسط كبير من الذكاء. .

المشاركة الوجدانية (3):

العنصر الثالث من العناصر التي تكون منها الشخصية يدعى المشاركة الوجدانية؛ فاذا لم نشعر بشعور الناس ونشاركهم في مسراتهم وأحزانهم، ونتأثر بآرائهم وأفكارهم، فهذا دليل على أننا في حاجة إلى أن نضع أنفسنا موضعهم، مهما كانت علاقتهم على شرط أن يكون لدينا استعداد للفهم والتفكير والشعور، مهما كانت مراكزنا بالنسبة إليهم، من غير نظر إلى رئيس أو مرءوس، غني أو فقير، عظيم أو حقير، رفيع أو وضيع، وألا تكون مناصبنا

العالية حجر عثرة في سبيل فهمنا لغيرنا، وتقدير ظروفه المحيطة به؛ بل تكون معينا على أن نشاركه في حالاته، فنسر لسروره، ونتألم لآلامه، وبذلك نمتلك قلبه.

أما صاحب المزاج البارد الذي يتمثل فيه الجود والقسوة والغلظة فلا يتأثر لما ينتاب غيره من نكبات، ولا يحب أن يتفاهم مع أحد؛ فهو ينفر من الناس، والناس ينفرون منه. وهو يؤثر في غيره بالإيذاء، كما يؤثر الهواء البارد في النبات الغض الشديد الاحساس، فيتجمد قبل أن ينمو أو يترعرع.

ومن أكبر عيوب نابليون التي كان يتخلق بها شدة قسوته على النوع الإنساني، وعدم مشاركته له في شعوره، ومن ثم كانت شخصيته غير كاملة. وإننا في الوقت الذي نطالب فيه بالعدالة نطالب أيضاً بالرحمة.

ومن الحكمة إذا كنت رئيساً أن تصل بالمشاركة الوجدانية إلى تنفيذ جميع رغباتك من غير التجاء لإظهار سلطتك، وأن تفوز بطاعة مرءوسيك من غير احتماء بالقانون. ومن المهارة أن تبين لمرءوسيك أخطاءهم، ونقط ضعفهم، وتسيرهم كيف تشاء، بدون أن تحط من كرامتهم، وبدون أن تظهر لهم أنك أعلى أو أرقى منهم، ومن غير اضطرار إلى اتخاذ شدة أو عنف. إذا أمكنك الوصول إلى كل هذا كانت شخصيتك قوية، وكان تأثيرك كبيراً.

وإن قوة التأثير لا تستدعي قسوة أو غلظة، ولكنها تستدعي أن تشارك الناس في شعورهم ووجدانهم، وتتألم لما يدهمهم من حوادث الدهر، وتواسيهم فيما يلم بهم من نوائبه، وتنظر إلى حسناتهم قبل سيئاتهم، وفي صوابهم قبل خطئهم، وتقدر حسناتهم إذا أحسنوا، وتفكر في البواعث التي اضطرتهم إلى الخطأ إذا أخطأوا، وتعدل في أحكامك إذا حكمت، لا تنزع إلى جانب الظلم، ولا تميل إلى ناحية التهاون، وبهذه الوسيلة تكون قوياً، ليناً في غير ضعف، متواضعاً في غير ذلة، موفقاً في عملك محبوباً عند غيرك.

أما هؤلاء الذين يلجأون إلى الشدة والقسوة دائماً فهم ضعفاء، يشعرون بالضعف فيلجأون إلى الغلظة، ظانين أنهم بتلك الطريقة يسترون ذلك الضعف، ويكملون ذلك النقص. مثلهم مثل الكلاب، تنبح في الطرق لا في ضوء النهار، بل في ظلام الليل، كي تبحث عن فريسة تفترسها، أو خيانة تخونها، أو طعام تسرقه، هم كالكلاب تسرهم عيوب غيرهم، ويفرحون لهفوات سواهم. وأمثال هؤلاء لا شخصية لهم، فأشخاصهم مكروهة، وأسماؤهم

منبوذة، وأفعالهم مذمومة مشئومة.

فالمشاركة الوجدانية من أهم عناصر الشخصية تجعل القلب متقداً يشعر بشعور غيره،

ويقيس نفسه بمقياس سواه من الناس. يقول (السير وولتر سكوت) الكاتب الاسكتلندي الكبير: (إن المشاركة الوجدانية هي الحلقة الفضية أو الرباط الحريري الذي يصل القلب بالقلب، ويربط العقل بالعقل، والجسم والروح) فإذا كانت الشخصية هي القوة التي بها يجتذب الغير فالمشاركة الوجدانية من أهم الأشياء التي بها نتصل بقلوب غيرنا وأرواحهم. .

وإذا قدرنا غيرنا، وفكرنا فيه، وسررنا لسروره، وتألمنا لألمه، فإننا ننتظر منه أن يقابل المثل بالمثل، فيقدرنا ويفكر فينا، ويشاركنا في سعادتنا وشقائنا بوجدانه وقلبه، أما إذا لم نقدر أحداً، ولم نفكر في أحد، فإننا لا نترقب أن يقدرنا أو يفكر فينا أحد.

ومن المشاركة الوجدانية أن يخلص الأستاذ في نصح طلبته وإرشادهم، والتفكير في عملهم وظروفهم ومستقبلهم، فيقابل الطلبة ذلك بالوفاء والطاعة والتقدير.

فالشخصية تستدعي أن نتأثر للغير، ويتأثر الغير لنا، ونشعر بشعورهم، ويشعروا بشعورنا. ولا أثر للتربية والتعليم إذا لم يصحبا بمحبة غيرنا، والتفكير فيهم بقلوبنا، فالمشاركة الوجدانية يجب أن تتحقق في القادة، قادة الفكر وقادة العمل، حتى تكون لهم شخصية جذابة. غير أنه ينبغي ألا يتدخل الوجدان والعاطفة في أقوالنا وأفعالنا وحركاتنا وسكناتنا تدخلاً كبيراً، حتى نستطيع أن نزن الشيء بميزان العدالة لا بميزان العاطفة. ويجب ألا ننظر إلى الأمور من ناحية واحدة وهي الناحية الوجدانية، لئلا يختل التوازن، ويصبح العقل عبداً خاضعاً للتأثيرات الوجدانية العاطفية التي تعمينا عن حقائق الأشياء وعلاقاتها بغيرها.

ونظراً لطول الموضوع وتشعبه أرجئ البقية إلى بعض الأعداد التالية من الرسالة.

محمد عطية الأبراشي

الصقور البحرية في البحر الأحمر

للدكتور كرسلاند

مدير محطة الأحياء البحرية بالغردقة

تقل الطيور البحرية في شمال البحر الأحمر حيث محطة الأحياء البحرية التابعة للجامعة المصرية. وأكثرها الصقر البحري وبدهي أن تندر الطيور البرية في أرض مجدبة لم تجدها الأمطار منذ أثني عشر عاماً. أما الغربان فكثيرة الانتشار وتعتمد في غذائها على جماعات الإنسان، ولكني لم أعثر للآن على النسر البحري المصري الذي كان يوجد بكثرة عند المحطة التي كنت أديرها على شاطئ السودان.

أما في فصلي الربيع والخريف فيمر بالمحطة عدد كبير من الطيور من كل نوع، كنوعين من البط وبعضها كالخطاف وأبي فصاده ينساب طوال الفصل. أما الصفير (العصفور) فيمر فرادى.

وصقر البحر يختلف في نوع فريسته وطرق صيده عن الطيور البحرية الأخرى. إذ لم يتأقلم تماماً للحياة البحرية، فبرغم تشوك أصابعه واندثار الريش الطويل من أرجله ما زال يشبه الطيور الأخرى من فصيلته. ولا يمكنه أن ينقض على جماعات الأسماك التي تعوم بسرعة قريباً من سطح الماء كما تفعل النورزة والخطاف البحري بل يفترس عادة الأسماك البطيئة كأبي صندوق , والحجم والدرمة والمشط وهذه الأخيرة سمكة زرقاء اللون تزينها بقعة صفراء فاقعة، وتكثر حول الشعاب المرجانية. وكثيراً ما نرى عظام هذه الأسماك وجلودها بكميات كبيرة حول أعشاش الصقر. وإنه وإن بدت هذه الأسماك محصنة من الأسماك المفترسة بكيفية لا نعرفها إلا أن ذلك لا يقيها شرين: حربة الصياد، ومخالب الصقر.

وقد التجأ الصيادون هنا إلى استعمال الحراب لانتشار الشعاب المرجانية مما أدى تحديد صلاحية الشباك للصيد. وقد لا يجدي الصيد بالشص كثيراً إذ تتحصن الأسماك المصيدة بالشعاب فيفقد السمك والشص معاً، لذلك انتشر استعمال الحراب. وتتكون الحربة من قضيب من الحديد يبلغ سمكه سنتيمتراً أو سنتيمترين، ويصل طوله إلى ثلاثة أمتار، أحد طرفيه مدبب وبالآخر ثقب صغير يثبت به الخيط. ويشتغل الصيادون مثنى في كل هوري

ينظر أحدهما في منظار الماء بينما يجدف الآخر ببطء، (قارب منحوت من الأشجار) ويبحثان عن صدف اللؤلؤ، ولكن إذا ما تراءت لهما سمكة أمسك أحدهما الحربة من منتصفها وصوبها ثم قذف بها بمهارة لا تفلت منها الأسماك الصغيرة. وأكثر ما يصاد

عادة بهذه الطريقة الأسماك البطيئة الحركة. وقد تقتنص الأسماك السريعة كأنواع البياض وأميز هذا الجنس ما يسميه الأوربيون خطأ فأنه يتلون بألوان براقة جميلة حينما يحتضر خارج الماء.

وقد صادفت مرة جماعة من صيادي اللؤلؤ وقد أمسكوا درمة (جنس من السمك) فسألتهم (كيف أمسكتم هذه السمكة وليس معكم حربة واحدة؟) فأجاب أحدهم (أمسكتها بيدي).

والدرمة سمكة معروفة بأنها سامة، ولكنها تأكل كثيراً بالبحر الأحمر، ويقال إن لحمها جيد وإن كان قليلاً.

وعلى شاطئ البحر الأحمر لا توجد جروف ولا أشجار يبني في وقايتها الصقر عشه. فيلجأ إلى أفرع نباتات الأرض الملحة على الشاطئ المنبسط مثل الشمرة البحرية والحزيس والساليكورنيا وغيرها من النباتات التي تنمو على الأرض المنخفضة بجانب البحر بل وعلى رمل الشاطئ نفسه، وكذلك على الأعشاب البحرية وجلد الأسماك وعظامها والأجسام الطافية على سطح الماء من أي نوع. والصقر لا يغير عشه بل يضيف إليه كل عام حتى يصبح ربوة عالية - وعلى مقربة من المحطة عش يربو ارتفاعه على المترين. ورأيت آخر على شاطئ السودان كان يسكنه صقر مدة خمسة عشر عاماً ولست أدري كم أقام به الصقر قبل ذهابي إلى السودان.

وبيض هذا الصقر كبير الحجم وعليه نقط سمراء داكنة، أما الصغار فسمر الألوان، وإذا أزعجت خرجت من عشها وجثمت بين الأعشاب المجاورة.

ومما يساعد على وقاية هذه الطيور عزلتها في الصحراء ورغبة (البشاريين) عن أكل الطيور وبيضها. ولكن انتشار السيارات في الصحراء قد سلبها عزلتها. وكم نشفق الآن على بعض هذه الطيور التي ما زالت تأوي عشاً لا يبعد إلا قليلاً من الأمتار عن الطريق الموصل بين آبار البترول ومحطة الأحياء البحرية! أما الجزر فما زالت ولن تزال حصناً منيعاً لها.

وقد أقمت عدة علامات لتحدد الشعب المرجانية، وسرعان ما انتفع بها الصقر للاستراحة والتهام فريسته، ولا شك أن هذه العلامات توسع نطاق صيدها. إذ أن الصقر طير بري، ولا بد له من الرجوع إلى الشاطئ لأكل فريسته، ولكنه الآن لا يحتاج إلى ذلك كثيراً بفضل انتشار العلامات على بضعة أميال من الشاطئ. وكثيراً ما يرى الصقر ممسكاً بفريسته بين مخالبه باحثاً عن مكان يلتهمها فيه؛ وهو يمسك فريسته موازية لجسمه، بخلاف الطيور الأخرى التي تمسكها في اتجاه مستعرض.

كرلس كربلاند

. .الامتيازات والديك

للأستاذ محمد محمود جلال

منذ عشر سنوات كنت أعالج (ضرساً) لدى طبيب إنجليزي يقيم في مصر من زمان طويل بل لعله ولد بها. والعجيب من أمره أنه خالف سنة قومه فأكثر من معاشرة المصريين وأتقن الكلام بالعربية، واندمج في مختلف بيئاتهم، وهو على خفة في روحه وظرف في طبعه حلو النكتة حتى لتحسبه (ابن بلد).

ففي يوم من أيام العلاج، وقد أخذ يعد دواءً، أراد أن يروح عني من شدة الألم ومرارة الانتظار بنادرة مما حفظ فقال: إن أحد الشيوخ مر ذات يوم بشارع ضيق من شوارع القاهرة، وبينما هو في سيره إذ قفز من أحد المنازل ديك على عمامته فأتلفها وهوى بها، فاستاء الشيخ وبحث عن صاحب المنزل ثم رفع أمره للقضاء. ولم يشك المدعي يوم الجلسة في صدور حكم لصالحه، فحقه في التعويض واضح، زكته اعترافات المدعى عليه في أول إجابته.

بيد أنه ذهل إذ سمع المدعى عليه يدفع بعدم الاختصاص!! والخصمان مصريان والمحكمة مصرية، وصرخ عجباً!! قال المدعى عليه (كل ذلك حق) ولكن الديك (رومي)!!!. فقضت المحكمة بعدم اختصاصها.

إحدى الخراقات الفكاهية التي لا يعدو أثرها حين تطلق في مجلس أن تنتزع ضحكة، ولا نفيد منها إلا نصيباً من الترويح، لكنها من خير ما يصور الأثر الذي تركه ذلك النظام في بلادنا، والطابع الذي أقامه في روح الحياة بعد أن نال من مصالحنا وكرامتنا وآدابنا. فكم تعطلت إجراءات عادلة بدعوى أفاق، حتى إذا فصل في أمره كان الزمن قد ذهب

بالمصلحة والغرض، وكم من عاث تعب في أمره رجال الأمن وهو كل يوم يظهر بحيلة جديدة، وكم من حقوق مصرية بحتة أخرجت من دائرتها الطبيعية ودفعت لمجرد شبهة في صالح أجنبي، إلى محاكم استثنائية.

يعيش بيننا كثيرون يسيئون إلى سمعة دولهم أكبر الإساءة. فهم يؤجرون للتعرض في التنفيذ ويتخذون ذلك مهنة لهم، وإني لأذكر واحداً تعرض مرة في تنفيذ حجز على محصول لقاء مبلغ الإيجار - وكان المتعرض شخصاً معروفاً للناس تأنف منه الجالية التي ينتسب إليها ولا يملك شيئاً إلا هذه المهنة - ومع ذلك فقد ادعى بأنه اشترى المحصول، وكان هذا وحده إشكالاً رجع معه المحضر ليتلافى الأمر من طريق الإجراءات - فلما أخذنا المتعرض بشيء من الحزم اعترف وأخرج من جيبه (جنيهاً واحداً). قبضه أجراً لتعرضه.

هذا وغيره كثير الوقوع وقد أصبح حديثاً مردداً. ولكن اليوم تشاء سخرية القدر أن يقع ما هو شر من الخرافة.

قضت أعمالي أن أغيب عن مصيفي ببور سعيد في أوائل أغسطس الماضي، فلما عدت أخبرت أن ضابطاً مصرياً جاء إلى المنزل بأمر الحكمدار الإنجليزي، وأبلغ الخادم أن (ديكاً) يزعج الجار الأوربي، فهو يأمر بنفيه إلى (السطوح) أو ذبحه!!

ليس بالمنزل سلم (للسطح)، ومكان الطيور بالحديقة بناه المالك ولا يد لنا بتغييره، لأننا نشغل المنزل لموسم الصيف، وإذن نفذ الأمر، وذبح (الديك) مأسوفا عليه من الدجاج مسطراً بدمه صحيفة عن آثار الامتيازات والعبث بالكرامة!! ضابط خلق لمهمات عالية من صيانة أرواح وأموال وأعراض، يحمله الرئيس الإنكليزي رسالة حقيرة في أمر حقير!!

عندما يحس الجار إقلاقا لراحته يكفي في دفعه عادة كلمة طيبة لجاره، وتقفه رسالة من خادم لخادم. هكذا نفعل، ولكن الاعتزاز بالامتيازات والاحتلال بدل الجوار الحسن تفرقة وتحكما.

ولست أشك في أن المناحة التي أقامتها الدجاج حزناً كانت قوية مؤثرة تضاعفت معها حركة الأقلاق، مما جعل الجار يندم على شكواه والحكمدار يرفه عنه، ولعلهما نسيا بهذه الصيحات المزعجة صوت الديك (الفقيد).

وأمام ما تخيلت ثقة بوفاء هذه الطيور تساءلت: (ألم يتجدد الأمر بذبح البقية المقلقة؟) فلما أجبت بالنفي قلت: لعل الآمرين قد أخذا بروعة الوفاء وصعقة الحزن فنسيا الجريمة!! أو لعل في ذلك إشارة إلى قرب الخلاص!! والله سميع مجيب.

على أن في بيت الجار التالي (دجاجاً) سمعت صوتها وصياحها ولكن الشاكي لا يتحرك!! والحكمدار الإنجليزي لا يهتم! والضباط المصريون لا يسخرون! لأن الجار يتمتع بالامتيازات، وما في كنفه تابع له، ولو أن الديك (بلدي).

ولقد هممت أن أكتب إلى الحكمدار - واحدة بواحدة - ولكني خشيت أن أكون سبباً في نكبة تحل بواحد أصله (مصري) وأنا الذي أفدي الوطن وما ينسب إليه بكل غال.

أنظر إلى ما حدث على تفاهته - انه سيصبح حديثاً يتناقله خادم طارئ عن خادم مقيم! وينشره الأول والثاني - ثم يصبح موضوعاً يتنادر به أكثر من جماعة في مقهى أو شارع أو مجلس، ثم تبني عليه نوادر وخرافات أصلها حقيقي عن أمر صدر من رئيس كبير وبلغه مرءوس كبير، ثم قل بعد ذلك ما شئت في التسلسل الطبيعي وأثره في البيئة وما ينشأ عنه من إكبار النفوس البسيطة للنفوذ الأجنبي - وما يتبع ذلك من صبغها بنوع من الخنوع أو نوع من الوجل.

ولكن الله سبحانه وتعالى يتدارك الشعب بأبنائه النابهين وما أظن نافذاً بإذنه إلا مشيئة البلاد.

ولقد راجعت نفسي وواجبي فكتبت إلى الحكمدار منبها إلى كرامة الضباط وغرابة الحادث، ودخول البيوت بغير إذن، وهم العاملون المكلفون بطبيعة وظائفهم بالسهر على الحقوق.

وبعد: أليس في الخرافة الأولى حق وعظة؟

محمد محمود جلال المحامي

الرياضيات في الشعر

للأستاذ قدري حافظ طوقان

يقولون إن عداء مستحكما موجود بين الرياضيات والأدب بما فيه الشعر، ولكن الحقيقة تنقي وجود هذا العداء، والواقع لايؤيده، إذ ليس في أحدهما ما يناقض الآخر، وكثيراً ما استعان العلماء بأحدهما على الثاني. وإذا كان هناك عداء موضوع أو خصام موهوم، فهو في الحقيقة والواقع بين الرياضيين من جهة، والأدباء من جهة أخرى؛ وما علمت لهذا سبباً، وما قدرت أن أجد الدافع لذلك. فالأديب أو الشاعر يغيظه أن تذكر أمامه كلمة رياضيات، ويزيد في حنقه أن تجري أمامه بحوث في الأرقام والمعادلات والأشكال والخطوط، يتملص من جلسات الرياضيين ويشمئز حين الاجتماع بهم. وليس هذا خاصاً بالأدباء، فكذلك الذين يعنون بالعلوم الرياضية هم أشد حنقا على الأدباء من الأدباء عليهم، لا يتركون فرصة دون ذكر النوادر عن الأدباء والشعراء، وقد يتمادى بعضهم فيستهزئ بلغة العواطف والنسيم والطلول وهند وليلى ومجنونها. وتراهم (أو على الأقل يتظاهرون) بأنهم لا يفهمون معنى لأبيات يتخللها وصف بديع أو مجاز بليغ. هذا صراع موجود لا يمكننا إنكاره. وقلّ أن تجد أديبا أو شاعراً يعنى بالأرقام، كما أنه قل أن تجد رياضياً يعنى بالأدب أو الشعر. وأصبح الجمع بين الرياضيات والأدب والشعر في شخص واحد من الخوارق، بل من ضروب الشذوذ التي تثير الدهشة والاستغراب.

فإذا قيل هذا أديب أو شاعر، فمعنى ذلك ضمناً أنه يمج الرياضيات ويكره كل شئ يحتوي على الأرقام والمعادلات. وإذا قيل هذا رياضي فمعنى ذلك ضمناً أنه يكره الأدب والشعر، ولا يفهم إلا الملموس المحسوس، ولا يتكلم إلا بلغة الأرقام. ولكن برغم ذلك فإننا نجد أشخاصاً برعوا وبرزوا في الناحيتين، وكان لهم فيهما جولات موفقات، فهناك رياضيون اعتنوا بالأدب ووجدوا فيه تسلية، وسحرهم الشعر وفنونه، ووجدوا فيه ملهاة، ولم تمنعهم الرياضيات من النظم أو من الغوص على كنوز الأدب، بل قد بلغ في بعضهم حب الجهتين أن استعمل الشعر في التعبير عن القوانين والمعادلات الرياضية. وإذا اطلعت على كتاب (مخطوط) للبيروني: (التفهيم لأوائل صناعة التنجيم) رأيت أدباً عالياً، ودقة في التعابير بالغة الدرجة العليا من الإجادة. وهناك شعراء عكفوا على دراسة الرياضيات والفلك، وشعروا بلذة في دراستهما، وبلغوا فيهما ذروة عالية يحسدهم عليها الكثيرون.

لا أعرف شاعراً أو شاعرة قبل زرقاء اليمامة نظم شعراً وضمنه مسألة حسابية. ومما لاشك فيه أنها لم تكن تقصد وضع معضلة رياضية في قالب شعري، إنما جل ما في الأمر أنها كانت حادة البصر، وقد رأت سربا من الطيور، فرغبت في وضع عدده شعراً. وأرجح أن إيجاد العدد يحتاج إلى عملية حسابية يعجز عنها الكثيرون من فحول الشعراء وكبار الأدباء، أما الأبيات فهي:

ليت الحمام ليه ... ونصفه قديه
إلى حمامتيه ... صار الحمام ميه

والمعنى المقصود من هذين البيتين أنه إذا أضيف إلى هذا السرب نصفه وحمامة واحدة لكان حاصل الجمع مئة، فإذا أخذت الحمامة كان الباقي تسعاً وتسعين، وهذا العدد يعدل عدد الحمام ونصفه، أي أن عدد الحمام ست وستون. وقد علق النابغة الذبياني على هذه الأبيات، ويظهر منها أنه يعرف عدد الطيور مع أنه لم يذكر ذلك صراحة. قال النابغة:

أحكم كحكم فتاة الحي إذ نظرت ... إلى حمام شراع وارد الثمد
يحفه جانباً نيق وتتبعه ... مثل الزجاجة لم تكمل من الزمد
قالت: ألا ليتما هذا الحمام لنا ... إلى حمامتنا ونصفه فقد
فحسبوه فألفوه كما زعمت ... تسعاً وتسعين لم تنقص ولم تزد
فكملت مائة فيها حمامتها ... وأسرعت حسبة في ذلك العدد

وإذا اطلعت على ديوان أبي نؤاس وقد غمره الحب والخمر واستوليا عليه ودخلا في كل أعماله الصغيرة والكبيرة، أقول إذا اطلعت على ديوانه العجيب الغريب وجدت فيه بعض أبيات أشار فيها إلى تقسيم قلبه بين جنان حبيبته والساقي والعشاق تقسيماً حسابياً غريباً في بابه تقسيمات أبي نؤاس:

جنان حصلت قلبي ... فما إن فيه من باق

لها الثلثان من قلبي ... وثلثا ثلثه الباقي
وثلثا ثلث ما يبقى ... وثلث الثلث للساقي
فتبقى أسهم ست ... تجزأ بين عشاق

ولقد وجد في الغرب من استطاع أن يضع كثيراً من الطرق والقوانين التي تتعلق بالأرقام والأعمال الأربعة شعراً. واعتنى بعض علماء الرياضة بالشعر والأدب، ورغب غير واحد منهم في وضع الجبر شعراً، فابن الياسمين وضع أرجوزة في علم الجبر وقد شرحها كثيرون. وفي هذه الأرجوزة نجد خلاصة كثير من القوانين والمعادلات الجبرية التي يجدها القارئ في كتب الجبر الحديثة. وتدل الأرجوزة على تضلع الناظم في الجبر وبعد غوره فيه، على أن ثروته الأدبية لا يستهان بها، وتدل أيضاً على أن لديه شاعرية قوية قد لا نجدها في كثيرين من شعراء زمانه، وإني أعتقد أنه لولا إحاطته بالجبر والشعر إحاطة كلية لما استطاع أن يضعهما في قالب سلس جذاب. ولدينا نسختان من أرجوزة ابن الياسمين، أخذنا الأولى عن مخطوطة قديمة موجودة في المكتبة الخالدية في القدس وهي (شرح الياسمينية للمارديني)، والثانية أرسلها إلينا الصديق الأديب عبد الله كنون من شباب طنجة بالمغرب ومن نجومها اللامعة في سماء الشعر والتاريخ.

ولنرجع إلى الشعر الموجود في أرجوزة أبن الياسمين فنجد أنه يبدأ بذكر خواص القواعد الأربع الأصلية وشرح طرق حلها للأعداد الصحيحة والكسرية، وبعد ذلك ينتقل إلى علم الجبر فيقول:

على ثلاثة يدور علم الجبر ... المال والأعداد ثم الجذر

ثم يفسر كل واحد من هذه الأشياء الثلاثة بقوله:

فالمال كل عدد مربع ... والجذر واحد تلك الأضلع
والعدد المطلق ما لم ينسب ... للمال أو للجذر فافهم تصب

من هنا يفهم أن المال هو كل عدد مربع، والجذر أحد ضلعيه، والعدد المطلق هو الذي لم ينسب إلى جذر ولا إلى مال ولا إلى غيرهما، فالاثنان (مثلاً) عدد.

والجذر والشيء بمعنى واحد ... كالقول في لفظ أب ووالد

أي أن الجذر والشيء مترادفان، وبعبارة أخرى يمكن أن يقال إن الجذر هو العدد المجهول ويعبر عنه بالحرف (س) في علم الجبر وعلى ذلك يكون المال (س2). ثم يبحث ابن الياسمين في المعادلات وأقسامها وأنواعها وطرق حلها ويأتي بعد ذلك على شرح طريقة إكمال المربع لحل المعادلة ذات الدرجة الثانية، وإذا تتبعت خطواتها بالدقة تجدها هي بنفسها الخطوات المتبعة في الكتب الجبرية الحديثة.

فربع النصف من الأشياء ... واحمل على الأعداد باعتناء
وخد من الذي تناهى جذره ... ثم انقص التنصيف تفهم سره
فما بقى فذاك جذر المال ... وهذه رابعة الأحوال

ولم يستطع العرب أن يدركوا القيم السالبة، أي أنهم لم يعتبروا من جذور المعادلة إلا الموجب. ثم يشرح طريقة استخراج المجهول في المعادلة التي يكون فيها معامل (س 2) غير الواحد، وهي نفس الطريقة التي تجدها في كتب الجبر للمدارس الثانوية. وأعطى طرقاً لكيفية حل بعض المعادلات التي تكون في أوضاع مخصوصة مثاله:

فاجمع إلى أعدادك التربيعا ... واستخرجن جدرها جميعا
واحمل على التنصيف ما أخذتا ... فذلك الجدر الذي أردتا

ولم يقف ابن الياسمين عند هذا الحد، بل نجده يشرح بعض النظريات التي تتعلق بالقوى والأسس وطرق ضربها في بعضها وقسمتها على بعضها. ولم ينس أيضاً أن يذكر معنى كلمتي (جبر) و (مقابلة) فقال:

وكل ما استثنيت في المسائل ... صيره إيجاباً مع المعادل
وبعد ما يجبر فليقابل ... بطرح ما نظيره يماثل

ولولا الخوف من الملل الذي قد يتسرب إلى القراء ولا سيما الأدباء منهم لأتينا على شرح هذين البيتين تفصيلاً. ولقد سبق أن شرحت معنى الكلمتين (جبر) و (مقابلة) في مقالي في المقتطف.

وتنتهي الأرجوزة بالصلاة والسلام على النبي.

ويوجد شعر كثير حوى مسائل حسابية وهندسية ومعضلات فلكية من الصعب فهمها وقد يكون حلها أيضاً.

وفوق ذلك أخذ الشعراء بعض الاصطلاحات والأسماء والآلات الفلكية والرياضية واستعملوها في شعرهم فقد كتب أبو إسحاق الصابي في يوم مهرجان مع إسطرلاب أهداه إلى عضد الدولة ما يلي:

أهدي إليك بنو الآمال واحتفلوا ... في مهرجان جديد أنت مبليه
لكن عبدك إبراهيم حين رأى ... علو قدرك عن شيء يدانيه
لم يرض بالأرض مهداة إليك فقد ... أهدى لك الفلك العالي بما فيه

وكتب أيضاً مع زيج أهداه - والزيج هو كتاب يتضمن جداول وحسابات فلكية -:

أهديت محتفلا زيجا جداوله ... مثل المكاييل يستوفى بها العُمر
فقس به الفلك الدوار واجر كما ... يجري بلا أجل يخشى وينتظر

ومما كتب إليه في يوم نيروز مع رسالة هندسية من استخراجه:

رأيت ذوي الآمال أهدوا لك الذي ... تروق العيون الناظرات محاسنه
وحولك خزان يحوزونه وما ... له منك إلا لحظ طرف يعاينه
ولكنني أهديت علماً مهذباً ... يروق العقول الباحثات بواطنه
وخير هدايانا الذي إن قبلته ... فليس سوى تامور قلبك خازنه

وأخذ بعضهم من الأفلاك والكواكب ومن الظواهر الطبيعية والفلكية ميداناً لنظم الشعر ومسرحاً للخيال، قال أحدهم، ولا يحضرني اسمه الآن:

أما ترى الزهرة قد لاحت لنا ... تحت هلال لونه يحكي اللهب
ككرة من فضة مجلوة ... أو في عليها صولجان من ذهب

وقال التهامي في البقع السوداء التي تظهر على سطح القمر:

فبات يجلو لنا من وجهها قمراً ... من البراقع لولا كلفة القمر

وقال ابن المعتز في وصف الهلال:

أنظر إليه كزورق من فضة ... قد أثقلته حمولة من عنبر

وجاء في سقط الزند للمعري وصف للسماء وما فيها من أجرام وقد صورت أحسن تصوير في قالب شعري جميل:

كأن سهاها في مطالع أفقه ... مفارق إلف لم يجد بعده إلفا
كأن بني نعش ونعشاً مطافل ... بوجرة قد أضللن في مهمه خشفا
كأن سهاها عاشق بين عود ... فآونةً يبدو وآونةً يخفي
كأن قدامي النسر والنسر واقع ... قصصن فلم تسمُ الخوافي له ضعفا

وجاء أيضاً:

سقتها الذراع الضيغمية جهدها ... فما أغفلت من بطنها قيد أصبعِ
بها ركز الرمح السماك وقطعت ... عُرى الفرع في مبكى الثريا بأدمعِ
ويستبطأ المريخ وهو كأنه ... إلى الغور نار القابس المتسرع
وتبتسم الأشراط فجرا كأنها ... ثلاث حمامات سدكن بموضع
وتعرض ذات العرش باسطةً لها ... إلى الغرب في تغويرها يد أقطع

وجمع الشيخ اليازجي أسماء البروج في ثلاثة أبيات فقال:

من البروج في السماء الحملُ ... تنزل فيه الشمس إذ تعتدل
والثور والجوزاء نعم المنزلة ... وسرطان أسد وسنبله
كذلك الميزان ثم العقرب ... قوس وجدي دلو حوت يشرب

وقال أبو العباس ابن الخليفة المعتز بالله في مخاطبة القمر:

يا ساقي الأنوار من شمس الضحى ... يا مثكلي طيب الكرى ومنغصي
أما ضياء الشمس فيك فناقص ... وأرى حرارة نارها لم تنقص
لم يظفر التشبيه منك بطائل ... متسلخ بهقا كلون الأبرص

ولا يمكننا في هذه العجالة الإتيان على أكثر ما قاله الشعراء وعلماء الفلك والرياضة في مبادئ العلوم الرياضية والفلكية فهو أجل من أن يحاط به في مقالة أو مقالتين آملين العودة إلى البحث فيه بصورة أوسع وأوفى للمرام.

(نابلس)

قدري حافظ طوقان

فصول مدرسية في الأدب الدرامي
الرواية المسرحية في التاريخ والفن - 6
بقلم أحمد حسن الزيات
المأساة في خلال القرون
لعلك تذكر أنني أشرت عند الكلام عن منشأ الرواية إلى أن أصل المأساة هو تلك الأناشيد التي كان يغنيها القيان (الخورس) إجلالا لباكوس إله الخمر يوم عيده. وكلمة (تراجيدي) اليونانية لا تزال تحمل دليل هذا الأصل. فمعناها غناء الجدي، وهي مركبة من كلمتين: (تراجوس جدي، و (أودي غناء. وذلك لأن الجدي كان مخصصا للقربان في ذلك اليوم، ولأن القيان كن ينشدن تلك الأناشيد أثناء ذبحه. وقلت إن (إبيجين) وضع الحجر الأول في بناء المأساة، ولكن اسحيلوس (525 - 456 ق م) هو الذي صورها وسواها بخلقه الحوار؛ ثم أبقى على القيان، وبث في المأساة الرعب على الأخص، وجعل تصريف الأشخاص بيد القدر. وجاء سوفو كليس (495 - 405 ق م) فقلل من عمل القيان، وأضعف من شأن القدر، وعزا جزءاً من العمل إلى أهواء الإنسان وحريته، وأحكم العقدة الروائية. وأشهر مآسيه أنتيجون، وإلكتر، وأوديب الملك، وفيلو كتيت. ثم كان أوريبيذس (480 - 420ق م) فكاد يلغي القيان، وأخفى أثر القدر من رواياته، وجعل الأمر كله لتصارع الأهواء، وبث فيها الرحمة على الأخص. وأطلق عليه أرسططاليس اسم أمير المأساة. ولكنهم أخذوا عليه الإغراق في تعقيد العمل، والالتجاء إلى معونة الآلهة في الحل، وحشوه القطعة بالحكم الفلسفية. وأشهر مآسيه ألسست وهيكوب وإيفجيني وأوليس. ثم نضبت قرائح اليونان من المأساة بعد أوربيذس فلم ينبغ فيها منهم أحد.
أما الرومان فميلهم الغريزي إلى المشاهد الوحشية الدموية كمصارعة الوحوش والثيران أزهق فيهم روح الفن الروائي، وشغلهم عن إجادة المأساة. وما نسبوه من المآسي إلى سنيكا (61 - 30ق م) ليس إلا تطبيقات مدرسية صيغت في أسلوب روائي. ثم درست معالم المأساة، وانقضى أمرها في العصور الوسطى، فلم تعد ثانية إلى الظهور إلا مع النهضة العامة في القرن السادس عشر. ظهرت في فرنسا واستمدت موضوعاتها من الأساطير
اليونانية واللاتينية، واقتبست قواعدها من الأدب القديم، حتى جاء اسكندر هاردي فاستقاها من موارد الاسبان والطليان أيضاً. وظلت المأساة على هذا النحو من التقليد والفوضى حتى أدركها كرنيي زعيم المسرح الفرنسي، وخالق المأساة الحديثة. فزاد على غرضيها الأوليين وهما الرعب والرحمة، غرضاً ثالثاً وهو الإعجاب، وحصر أسباب هذه الأغراض الثلاثة في قلب الرجل وهواه، ووصف الناس كما ينبغي أن يكونوا، وجعل الخلق الغالب على أشخاصه النبل والبطولة، وضحى بالهوى على مذهب الواجب، وأضعف أثر الحب في رواياته ماعدا (السيد). ثم أعقبه راسين فحرك الرحمة في النفوس على ضحايا الأهواء، ولا سيما ضحايا الحب والغيرة، وأرخى عقدة الرواية إيثاراً لجاذبية التصوير الخلقي على جاذبية التعقيد الروائي، وجعل للحب المحل الأول في رواياته، ووصف الرجل كما هو لا كما ينبغي أن يكون كما فعل كورنيي. ثم يأتي فولتير في حسن الأثر وعظم الفضل ثالثاً لكورنيي وراسين، ولكنه دونهما في البراعة والإجادة. فقد أنكر النقاد عليه مزجه الحكاية بالفلسفة، وقصوره عن تصوير أخلاق أشخاصه، غير انهم يذكرون له حسن صنيعه في تقويته حركة العمل الروائي، وحرصه على حفظ اللون المحلي في المسرح.
ثم جاء القرن التاسع عشر، وظهر المذهب الابتداعي فهاجم المأساة وطاردها في المسارح حتى قضى عليها، واستبدل بها المأساة العصرية أو الدرامة، ولم يبق من أنصارها المؤلفين فيها والمناضلين عنها إلا تلما المتوفي سنة 1826، وراشيل المتوفي سنة 1858، ودلافني المتوفي سنة 1868 مؤلف لويس الحادي عشر وأطفال إدوار. ثم بنسار المتوفى سنة 1867 مؤلف لُكريس، وأنبيس دموراني، وشرلوت كردي. وقد ظل هذا الكاتب حينا من الدهر زعيم المعارضة لفكتور هوجو عميد المذهب الابتداعي.
أما أمر المأساة في غير فرنسا فقد كان ساقط الشأن قليل الجداء، اللهم إلا في إنجلترا فقد ألف شكسبير جملة من المآسي الخالدة كروميو وجوليت، وعطيل، والملك لير، ومكبث، وهملت، ويوليوس قيصر، وانطوان وكليوبطرة، وكريولان. وكلها ماعدا

الثلاث الأخيرة مقتبسة من التاريخ الحديث.
تحليل موجز لأشهر الماسي
نريد بتحليل ما اخترناه من المآسي الرائعة الكشف عن هيكلها العظمي ليتبين القارئ فيها
كيف يتوزع العمل في الفصول وتتدرج الجاذبية في الحادث، وتراعي الوحدة في الموضوع، وتسير الرواية على حكم ما قرأ من القواعد. وسنختار ما نحلله مما خلد على الدهر وعلق بالقلول من روائع كورنيي وراسين وفولتير وشكسبير عسى أن يكون في اختصارها له حادياً لقراءتها ودراستها.
مآسي كورني: (السيد
وقعت حوادث هذه المأساة في أشبيلية أواخر القرن الحادي عشر في ساحة من ساحات المدينة، ثم في دار كُنت جرماس، ثم في قصر الملك. وأهم أشخاصها: الدون ديبيج أبو رُدريج، والدون جوميز كنت جرماس أبو شيمين، وردريج حبيب شيمين، وشيمين خطيبة ردريج، والدون فردناند الأول ملك قشتاله، والدون سانش منافس ردريج في حب شيمين. وموضوعها زواج ردريج من شيمين، والحيلولة دونه بلطمة الكنت للدون ديبيج، وانتقام ردريج لأبيه من والد خطيبته.
ففي الفصل الأول:
بينما كانت أسرتا الأميرين (دون ديبيج) ودون جوميز على وشك الاتصال بالصاهرة أسند الملك إمارة (الانفانت) إلى الدون ديبيج، وكان الدون جوميز يرى نفسه أحق بها وأهلها. فيتمارى الأميران وهما خارجان من مجلس الملك وتتسعر بينهما نار الجدل حتى يلطم الدون جوميز صاحبه لطمة يريد أن يدفع عارها عنه بالسيف فيخونه عزمه ويظهر عليه خصمه. فليجأ إلى ولده ردريج يطلب منه أن ينتقم له. فيتردد ردريج هنيهة، ثم يقول: هما خطتا خسف لا معدى لي عن واحدة منهما: أما سمة الإهانة إلى الأبد، وإما الانتقام من أبي الحبيبة. ثم لا يلبث أن يغلب واجبه على هواه فيقبل.
الفصل الثاني:
يأبى الكنت أن يعتذر عن فعلته للدون ديبيج على الرغم من إلحاح الملك. ويدخل في أثناء ذلك ردريج فيدعوه إلى المبارزة ويقتله. ويعلم الملك فردناند بغزو العرب وقتل الكنت في وقت معاً، وينعى الناعي لشيمين أباها فترفض الزواج من ردريج القاتل وتطلب إلى الملك عقابه، ويتولى الدفاع عن ولده الدون ديبيج.
شيمين (للملك): أنا أطلب العدل.
دون ديبيج: اسمعي دفاعي.
شيمين: لقد كسر أيها الملك عضادة صولجانك، وهدم ركناً من أركانك. إنه قتل أبي.
دون ديبيج: انه انتقم لأبيه!
شيمين: إن من واجب الملك أن يحقن دماء رعيته.
فيسمع الملك لها وله، ثم يحيل الفصل في القضية إلى مجلسه.
الفصل الثالث:
وفي أثناء انتظار الحكم يدخل ردريج على شيمين يسألها أن تقتله هي بيدها، فتقف موقف الحيرة ملياً بين الحقد والحب، ثم يفوز الشرف فتصرفه من وجهها وهي مصرة على القصاص. ويلقى الدون ديبيج ولده فيهنئه بفوزه، ويمدحه على شهامته، ويرسله إلى قتال العرب وقد أوشكوا أن يفتحوا أشبيلية، عسى أن يكون بلاؤه الحسن في جهاد العدو وسيلة إلى عفو الملك وصفح شيمين.
الفصل الرابع:
يهزم ردريج العرب تحت أسوار أشبيلية ويعود مظفراً بالأسرى وقد لقبوه بالسيد - وهي كلمة السيد بالعربية محرفة - فيقص على الملك أنباء مجده ونصره، وتأبى شيمين مع ذلك إلا القصاص. فيجيها الملك ويأمر بالمبارزة القضائية، وهي أن تختار من تشاء ليبارز السيد على أن تكون زوجة الغالب، فاختارت الدون سانش.
الفصل الخامس:
يلقى السيد شيمين فيصرح لها أنه لن يدافع عن نفسه، وانه لم يجئ إلا ليودعها الوداع الأخير فتحاول صده عن عزمه، ويأبى هو إلا إنفاذه، فتقول له: (دافع عن نفسك وأنقذني من دون سانش، وإذا خرجت من المعركة فائزاً كنت لك).

فيخرج من عندها قويا بهذا الوعد وينقض على خصمه فيجرده من سيفه، ويحكم الملك عليه أن يحمل سيف السيد لشيمين، فينالها الجزع الشديد ظناً منها أنه قتل، ولكن الملك يطمئنها على حياته، ويعلنها أنها تستطيع أن تتزوجه متى كفكف من دموعها الزمن.

(هوراس

وقعت حوادثها في روما في غرفة من بيت هوارس عام 668 قبل الميلاد. وموضوعها انتصار روما على (ألب) في موقعة شعواء دامية نشبت بين بني هوراس وبني كرياس، ومغزاها إيثار محبة الوطن على محبة الأسرة، وأهم أشخاصها ملك روما، والشيخ هوراس فارس روماني، وهوراس ولده، وكرياس أحد أشراف ألب وحبيب كاميل، وفالير فارس روماني وعاشق كاميل، وسابين زوجة هوراس وأخت كرياس، وكاميل حبيبة كرياس وأخت هوارس، وجوليا نجية سابين وكاميل.

الفصل الأول:

أزف يوم المعركة الحاسمة بين الرومانيين والألبيين، فتجد سابين جالسة تشكو إلى نجيتها صرامة القدر الذي جذم الحبل بين ألب مسقط رأسها، وبين روما بلد زوجها، وتألم لحظها المنكود وهمها المتقسم. وتبثها كاميل إشارة من الآلهة، ولكنها ترى رؤيا تقلق بالها وتقلب حالها. ويقدم خطيبها كرياس فينبئها أن المعركة لن تكون، وأن قوميهما رأوا حقناً للدماء أن يقصروا المعركة على ثلاثة أبطال من كلا الفريقين، ويكون فوز الثلاثة فوزاً لقومهم.

الفصل الثاني:

يجتمع مجلس الشيوخ الروماني فيختار للمعركة أبناء هوراس الثلاثة. ويقبل كرياس خطيب كاميل فيهنئ صهره بما أحرز من ثقة وشرف. ويأتيه النبأ بعد قليل بان مدينة ألب اختارت عنها أبناء كرياس الثلاثة. يتأهب الأبطال للذهاب إلى المعركة، ولكن خطيب كاميل يكره أن يقاتل إخوة حبيبته، بينما زوج سابين لا يرى في أصهاره إلا أعداء لروما وأخصاماً للوطن. وتجهد كاميل وسابين في تخذيل الأبطال عن القتال، ولكن الشيخ هوراس يقبل فيشجعهم على الحرب ويبعث بهم إلى الميدان.

الفصل الثالث:

تدخل جوليا فتنبئ سابين وكاميل بأن الأقران برز بعضهم لبعض، وأن الجيشين أدركتهما الشفقة فعارضا في تقاتل الاخوة، وطلبا إما المعركة بين الجيشين، وإما الاختيار من غير هاتين الأسرتين. ولكن الشيخ هوراس يقبل وعلى لسانه الخبر المشئوم بأن الملك استشار

الآلهة في هذا الاختيار فأقروه، وأن المبارزة بين الاخوة قد بدأت. وتطالع جوليا القتال عن بعد فترى اثنين من بني هوراس يسقطان مجندلين، والثالث يلوذ بالفرار، فتبادر القوم بإعلان هزيمة روما. ويتحدم الشيخ هوراس حنقاً وغضباً من جبن ولده. فتقول جوليا: وماذا يصنع واحد أمام ثلاثة؟ فيجيبها الأب في شدة وحدة: يموت! ثم يقسم الشيخ جهد اليمين ليغسلن عار الرومان بدم هذا الابن الجبان.

الفصل الرابع:

ولكن فالير وقد شهد نهاية المعركة يعود ويقول: استغفروا الآلهة فقد ظلمتم بطل روما! انه لما بقى وحده أمام بني كورياس الثلاثة، وهم مجروحون وهو سليم، رأى أنه أضعف منهم مجتمعين، وأقوى عليهم منفردين، فعمد إلى الخديعة وأوهمهم أنه يفر فطلبوه. حتى إذا انفرد كل عن الآخر كر عليهم واحداً بعد واحد فقتلهم، وبذلك انكسرت ألب! فتنساغ غصة الشيخ، ولكن كاميل تجزع على حبيبها جزعاً شديداً يفقدها الرشد فتنحى باللعنة والسخط على أخيها ووطنها. ويدخل حينئذ أخوها المنتصر فيسمعها، فينزو في رأسه الغضب. فيلطخ انتصاره بدم أخته.

الفصل الخامس:

يجعل هوراس حياته في يد أبيه تكفيراً عن الجريمة التي ارتكبها، ويجئ الملك مهنئاً هوراس بفوزه. فيتقدم إليه فالير متهماً الأخ بالقتل طالباً موته، ويستسلم القاتل لعدل الملك. ولكن الشيخ هوراس يتولى الدفاع عن أبنه فيقول: (معشر الرومانيين!! أترضون أن تقتلوا رجلا لولاه ما كانت روما اليوم؟ قل لنا يا فالير وأنت تريد قتل هوراس: في أي مكان يقتل؟ أبين هذه الجدران، ولا تزال آلاف الأصوات ترن في

جنباتها بأعماله العظيمة؟ أم في وسط هذه الساحات ودماء بني كرياس لا تزال تدخن فيها؟ أم بين قبورهم الثلاثة في ميدان الوغى وكلها شواهد على شرف روما وشهامة هوراس؟. . . .) ثم تكون نتيجة هذا الدفاع البليغ البراءة.

ومما أخذه النقاد على كورنيي في هذه القطعة الخالدة أنه لم يراع وحدة العمل. فجعل فيها عملين مختلفين، الأول حرب روما مع ألب، وينتهي بالمنظر الثاني من الفصل الرابع.

والثاني قتل كاميل ومحاكمة هوراس وينتهي بالرواية.

يتبع

(الزيات)

شخصية ابن خلدون في كتاب الأستاذ محمد عبد الله عنان

للأستاذ مصطفى عبد اللطيف السحرتي

هيأت لي فرصة حسنة قراءة كتاب الأستاذ عنان الأخير عن ابن خلدون وتصفح مقالات بعض كتابنا المصريين في التعليق عليه، وبخاصة مقال الدكتور هيكل والأستاذ العقاد. وقد لفت نظري في مقال هذا الأخير ملاحظة تتضمن أن عنانا لم يتناول شخصية ابن خلدون في كتابه! ولعل الذين درسوا الكتاب يذكرون أن كل فصل من فصوله حوى مادة غريزة عن هذه الشخصية، وإن لم تجمع هذه المادة في فصل مستقل.

فلقد أفاض المؤلف كثيراً في ذكر صفات ابن خلدون الخلقية والعقلية أي في العناصر المهمة التي تقوم عليها كل شخصية. ولعل كتابه وعى من هذه الصفات أكثر مما وعى عن تراثه الفكري الذي لازال الكثير منه مبثوثا في طي مجهول.

أبرز الأستاذ عنان صورة تقارب الحقيقة من صفات ابن خلدون المنيرة والمظلمة أبرزها كما هي بين النور والظلمة، كما يفعل النابهون في كتابة التراجم. ووقف من شخصيته موقفاً نزيهاً.

فلم يقف منه موقف المحامي الذي يدافع عن الحقيقة حيناً، ويستخدم فصاحته في الظفر أحياناً، بل وقف موقف القاضي النزيه الفطن الذي لا هم له إلا الوصول إلى الحقيقة، والحقيقة دون سواها. وهذا هو موقف المؤرخ العلمي.

فها نحن أولاء نراه لا يقطع برأي في خلال ابن خلدون حتى يرجع إلى الثقات الأذكياء من المؤرخين، ويتخذ مقاييسه في الحكم من أعماله وتصرفاته. ونراه أيضاً يربأ بضميره أن يطاوع بعض الكتاب في الزراية بابن خلدون ونسبة القبيح إليه، لئلا يكونوا قد اندفعوا في هذا السبيل جريا وراء الانفعال الأعمى أو العاطفة الهوجاء. وبخاصة إذا علمنا أن لابن خلدون اعداء حداداً أسرفوا في ذمه، وتدفقت أقلامهم في الطعن عليه غيره منه وحقداً.

وقد حفل الكتاب بذكر صفات ابن خلدون الخلقية والعقلية إلا أنه مَرَّ مَرَّ الكرام على صفاته الجثمانية ومظهره الخارجي. فقد نقل إلينا المؤلف عن السخاوي أن ابن خلدون كان فصيحاً مفوهاً جميل الصورة، ونقل عن ابن حجر أنه كان يتمسك بزيه المغربي، ولم نعثر في

الكتاب على شيء من ملامح وجهه وسمات جسمه، ولا أعلم ما إذا كانت هناك مادة في هذه الناحية تعمد المؤلف إغفالها لأن بحثها ليس من عمله، بل من عمل الفنان والأديب، أو أنه لم يجد هذه المادة في كتب القدماء كما هي مع الأسف عادتهم في إغفال صفات الجسم، ولعل هذا هو الأرجح.

ومن حسن الحظ أن المؤلف أمدنا بمادة وافرة عن خلال ابن خلدون وخلقه، فنقل إلينا طائفة من أقوال الكتاب الأذكياء أمثال المقريزي والسخاوي وابن تغري بردى، والجمال البشبيشي، والعنتابي، وابن الخطيب، وابن حجر. فذكر أن المقريزي وكان تلميذاً له وسمه بسمات حميدة وذكره بالخير، ولسان الدين بن الخطيب، وكان من معاصريه، نعته بحسن الخلق والطموح وعلو الهمة، وأبو المحاسن بن تغري بردى أشاد بمقدرته ونزاهته في ولاية القضاء بقوله: (إنه باشر القضاء بحرمة وافرة وعظمة زائدة وحمدت سيرته) وأبو المحاسن من ثقات المؤرخين المصريين.

إلى جانب هذه الصورة النبيلة لابن خلدون نجد أقلاما ضئيلة مسمومة تشوه صورته وتبهت عليه، وتزري بخلقه، وترميه بالتهمة المؤذية الجارحة. فالعنتابي مثلاً ذكر أن ابن

خلدون كان يتهم بأمور قبيحة (ص94) - والجمال البشبيشي اجترأ بقوله إن ابن خلدون كان في أعوامه الأخيرة يشغف بسماع المطربات ومباشرة الأحداث، وأنه تزوج امرأة لها أخ أمرد ينسب للتخليط! (ص94).

جمع الأستاذ عنان هذه الأقوال وعلق عليها بقوله: (إنها أقوال تنم عن خصومة مضطرمة، ومبالغة في الانتقاص تنحدر إلى معترك السباب والقذف) وقد يكون الأستاذ محقاً في هذا التعليق لأن نسبة أمثال هذه التهم إلى هذا العبقري بلا سند، مما لا يقبله الضمير النزيه، وقد تكون هذه التهم أراجيف أذاعها الكاشحون عن قصد وتعمد ولا ظل للحقيقة فيها، فليس على الأستاذ المؤلف من غبار إذا حكم حكمه الحاسم، واحتقر هذه التهم كي لا يجري الوهم إلى تصديقها، وتصير في الأذهان اعتقاداً وهي مجرد إرجاف ومراء.

ومع هذا فقد أورد المؤلف كثيراً من صفات ابن خلدون غير المحمودة، واعتمد في إيرادها على أقوال ابن خلدون نفسه وأعماله، فلقد نعى عليه خلتين: أولاهما تلونه ووصوليته، وثانيتهما كبرياؤه وصلفه. أبرز هاتين الخلتين إبرازاً جلياً، فانه ليقول في القسم الأول من

كتابه أن ابن خلدون كان من عباد الحوادث، وكان ينتهز الفرص ويسعى لها بأي الوسائل (ص 28) مهما نافت الوفاء والولاء والعرفان (ص 48) وجلا هذه الخلة في مكان آخر من الكتاب قال: (وكان ابن خلدون يصدر في خططه وأعماله عن احتقار عميق للعاطفة والأخلاق المرعية، وكان يسيره مثل ذلك الروح القوي الذي أعجب به مكيافللي فيما بعد.) وأشار في كثير من المواضع إلى خلته الثانية من خلاله البارزة وهي خلة الكبرياء، وهذه الخلة قد تدل على عزة النفس وعظمتها فتكون خلة محمودة، وقد تكون متغالية فتصير كريهة مذمومة، ولقد أيد المؤلف تخلق ابن خلدون بها في بعض الأوقات وأنها كانت سبباً من الأسباب التي جعلت كثيراً من المصريين يناصبون الرجل العداء.

ومن دلائل هذه الخلة ما يقوله البشبيشي من أن ابن خلدون كان يكثر الازدراء بالناس (ص 95) وما يقوله ابن حجر في كتابه رفع الأصر من أن ابن خلدون كان معروفاً بخلق الكبر والازدراء بمقام غيره، وروي أن القضاة دخلوا للسلام عليه حين تولى منصب القضاء فلم يقم لأحد منهم، واعتذر لمن عاتبه على ذلك.

وأورد المؤلف غير هاتين الخلتين البارزتين خلالاً أخرى عول في إيرادها على طائفة من الكتاب أثنت على ابن خلدون وأخذت عليه بعض المآخذ، فمن هؤلاء نذكر ابن تغري بردي وما قاله في المنهل الصافي من أن ابن خلدون كان محباً للمنصب، وما قاله ابن الخطيب الذي وسمه بالفضائل الجمة يأخذ عليه الخفة فيقول: (إنه كان بعيداً عن التأني)، وعلل تحامل رجال الدولة عليه إلى هذه الخلة. وابن حجر نقم عليه سوء الأدب أيام كان قاضياً فقال: (كان فظاً جافي الطبع، وكان يعزر الخصوم بالصفع).

ولم يقتصر المؤلف في سوق هذه الحقائق على أقوال الكتاب السالفين، ولكنه اعتمد في ذكرها على أقوال ابن خلدون نفسه في كتاب - التعريف - وهذا الكتاب هو ترجمة ابن خلدون لنفسه. وهذا التعريف الذي يتركه لنا ابن خلدون عن نفسه وحوادث حياته قطعة فريدة في الأدب العربي، فهو صورة حقيقية ممتعة لتلك الشخصية الممتازة الجريئة، رسمت في كثير من الحرية والصراحة، حتى إنها لتفصح في كثير من المواطن عن خلال صاحبها، وليست هذه الخلال دائماً مما يحمد أو مما تقر الأخلاق الفاضلة، فهناك الكبرياء والزهو والأثرة، وهنالك الطمع وحب التقلب وشغف الدس، وانتهاز الفرص بأي الوسائل،

ثم هنالك الجحود ونكران الصنيعة، هذه الخلال كلها أو بعضها نلمحها من آن لآخر ماثلة في أعمال المؤرخ ومواقفه حسبما يقصها علينا بنفسه (ص 140).

وبعد هذا الدرس الطويل الحر لخلق ابن خلدون كشف الأستاذ عنان في الجزء الثاني من كتابه ركناً من أركان شخصية ابن خلدون المضيئة، وهذا الجزء يلقي ضوءاً قوياً على عبقرية ابن خلدون، تلك العبقرية التي صيرته موضع إجلال السلاطين والملوك وذوي النفوذ والجاه، فهاهم سلاطين المغرب والأندلس يخطبون وده، وهاهم بنو عريف يكرمون مثواه وينزلونه ضيفاً عزيزاً مع أسرته بأحد قصورهم أربع سنين، وها هو شعاع العبقرية يسبقه إلى مصر المتحضرة، فيلقاه أهلها بالحفاوة والتعظيم،

ويولونه الدرس في الأزهر النابه في ذاك الحين، ثم يتولى بعد ذلك قضاء المالكية عدة مرات، وهاهم الكتاب يجمعون على قوة عقله وحدة ذكائه وعلو تفكيره، حتى أنصفه الحاقدون عليه، فجمال الدين البشبيشي وهو من ألد خصومه اعترف له بالفصاحة والتفوه، وابن حجر الذي زرى عليه خلقه، يظهرنا على ناحية من نواحي عقله يقول: (كان لسناً فصيحاً حسن الترسل وسط النظم، وكان جيد النقد للشعر، وإن لم يكن بارعاً فيه) (ص93).

ولقد كشف لنا الأستاذ عنان عن عبقرية هذا الرجل الفذ وعن شاعريته أيضاً، وأتى بقليل من قصائده، وأبان أن هذه القصائد كان يطبعها طابع المرح الصوفي، وهذه الأبيات تجري بين دفتي الكتاب كالنهر العذب في الأرض المثمرة، ولقد أضاف المؤلف في القسم الثاني من كتابه أراء كتاب الإفرنج في عبقرية ابن خلدون وتراثه الفكري فذكر ما قاله جمبلوفتش من أن ابن خلدون درس الظواهر الاجتماعية بعقل متزن، وأنه أتى في هذا الموضوع بآراء عميقة (ص152) وذكر أيضاً ما قاله فون كريمر من أن ابن خلدون نثر بيدين نديتين ثمرات تأملاته الناضجة عن سير التاريخ البشري.

وأظن بعد هذا البيان يمكن للقارئ أن يخرج بصورة صحيحة عن شخصية ابن خلدون، صورة لا تشيع فيها ولا تحيز، ظهرت فيها الظلال كما ظهرت فيها الأنوار. وهذا المنحى الذي نحاه الأستاذ عنان في درس هذه الشخصية جدير بالتفات كتابنا المصريين المغرمين بتراجم العظماء، ولعل الذين وقع في وهمهم أن كتاب عنان لم يتناول شخصيته، يصححون رأيهم بعد هذا البيان الموجز.

وأحب قبل أن أختم هذه الكلمة أن أدعو القراء إلى قراءة هذا الكتاب القيم ليتذوقوا فيه حرية البحث ونزاهة الحكم، ودقة الأسلوب وثباته وإيجازه ورزانته.

وأسمح لنفسي بعد هذا أن أهنئ الأستاذ المؤلف على كتابه، فلقد أعجبت به وبخاصة بالفصل الذي عقده عن (ابن خلدون والتفكير المصري) الذي أبان لنا فيه خلق ابن خلدون وأوقفنا على تفكير المؤرخين المصريين في القرن التاسع الهجري. وأعجبت كذلك بالفصل الذي عقده عن (ابن خلدون والنقد الحديث لأعلام الغرب). والذي كشف به عن تفكير ابن خلدون الدقيق الذكي.

وأرجو الله أن يزيد المؤلف قوة ليتم ما أخذ به نفسه من التنقيب عن التاريخ الإسلامي، وحياة أعلام مصر النابهين.

(ميت غمر)

مصطفى عبد اللطيف السحرتي المحامي

مشهد ومكة - 2

للأستاذ أمين الخولي

المدرس بكلية الآداب بالجامعة المصرية

أصبح من الواجب أن أعود إلى الحديث عن مشهد ومكة، إذ عاد الأخ الأستاذ عبد الوهاب عزام إلى الموضوع، ففتح أبواباً كثيرة للكلام، وإنها لحقيقة من حقها علينا أن تنجلي وتتكشف.

ويأذن لي القارئ أن أرسل أول الأمر تحية خالصة إلى الأخ في حله ورحيله، ودعوات صالحة بأن يوفقه الله دائماً، وسلاماً إليه. . . ثم سلاماً على عبارات مهتاجة وردت في كلمته التي رد بها كل ما في الأمر: 1 - أن الأستاذ قال ما لفظه: (وأفظع من هذا - أي الخطأ كله؛ قوله - الرحالة - عن إخواننا شيعة إيران أنهم يفضلون مشهدا على مكة).

فقلت له: (لا خطأ ولا فظاعة، لأن فلاناً العالم الشيعي قال في كتاب كذا صفحة كذا نقلاً عن كتاب البحار الذي يعد من أمهات كتب الشيعة: (إن كربلاء أفضل من مكة، فلا خطأ). قضايا محدودة، قصيرة، وجيزة، واضحة، متقابلة الأطراف؛ لا أجد فيها محلاً للمخالفة. . . وليس يقال مع هذا التحديد إني مجازف في الاستشهاد بكتب الشيعة قبل الاطلاع عليها، لأني قرأت بلا شك ما نقلت، وقلت بقدر ما قرأت وفهمت. قرأت في كتاب شيعي عن كتاب شيعي من أكبر إن لم يكن أكبر ما يرجع إليه في بيان عقائد الشيعة ومذاهبهم، كتاب عن كتاب، فهناك على الأقل جمع منطقي أيسره اثنان. . . . ثم ماذا قرأت؟ قرأت أخباراً تنعتها كتب الشيعة بأنها متواترة أي رواية جمع عن جمع، كما تنعتها بالكثرة، ويدل مرجعي على مكانها من أجزاء الكتاب الكبير الذي يعزو إليه. . . فدليلي واف بدعواي؛ وليس من الموضوع في شئ أني فرحت بالكتاب أو لم أفرح؛ .

وليس يجب في شئ أن يكون لي بالشيخ مؤلف الكتاب صداقة قوية أو صلة شخصية.
2 - مع هذا كله يقول الأستاذ عزام في رده علي: (فقد ادعى أن كتب الشيعة تقرر هذا التفضيل، ثم لم يرجع إلى كتب الشيعة؛ ولم يتحر أقوال أئمتهم، ولكنه اكتفى برواية في كتاب فرد لمؤلف. . . الخ) فهل لم أرجع إلى كتب الشيعة!!. وهل اكتفيت برواية في كتاب؟! وهل هو كتاب فرد؟!. على أن الأستاذ بعد هذا بقيراط من الورق ذكر (كتب
الشيعة) وما فيها مرتين، فتتوقع من صاحب الملاحظة السابقة أن يحتج من (كتب الشيعة) بأقل الجمع ولو عند المناطقة وهو اثنان، ولكنك لا تراه يذكر إلا كتاباً فرداً هو (وسائل الشيعة إلى أحكام الشريعة) على حين يكرر الحديث عن قراءاته وخلاصة قراءاته في كتب الثقات، ويتحدث عن قراءاته في كتب الثقات وهو ذاكر أني اكتفيت بكتاب فرد، وأنه لا يرى ذلك، فكيف يجئ هذا؟!.
3 - لما أراد الأخ الأستاذ نقد خبر الرحالة (تفضيل الشيعة مشهداً على مكة) استنتج استنتاجاً وقال: (وكيف يعقل أن أمة مسلمة. . . الخ) فسلمت له اختصاراً واقتصاراً أن هذا غير معقول، وقلت عرضاً إن مالا يعقل قد يعتقد، وان العقل ومنطقه شئ، والاعتقاد وسلطانه شئ آخر. فقال أعزه الله: إن هذه فلسفة لم يتهيأ هو لفهمها. فيسمح لي إذن أن أقول في غير فلسفة:
أ - إن من المعقول أن يكون الحج إلى مكة فرضاً وأن تفضل الشيعة مع ذلك مشهداً على مكة! فالأخ يعرف أن الوقوف بعرفة ركن في فريضة الحج، ويعرف أن زيارة الرسول عليه السلام ليست ركناً في تلك الفريضة ولا واجباً؛ ويعرف في الوقت نفسه أن المسلمين جميعاً يفضلون زيارة الرسول عليه السلام ويتطوعون بهذه الزيارة في غير موسم الحج من أيام السنة؛ ويشدون الرحال لها، ويتمنون المجاورة بالمدينة المنورة، ويؤثرون الموت فيها. ولا أعرف واحداً منهم جاور بعرفة أو حرص على زيارتها. فتفضيل مشهد على مكة يتفق تعقله مع كون الحج إلى مكة فرضاً. هذا هو القدر المعقول في المقام، والذي يتصل بفرضية الحج إلى مكة وتفضيل مشهد عليها.
ب - لكن الأستاذ عزاما لا يقول هكذا، بل يقول: (وكيف يعقل أن أمة مسلمة شديدة الغيرة على دينها تعتقد أن الحج إلى مكة فرض، وقاعدة من قواعد الإسلام، كيف يعقل أن هذه الأمة ترى زيارة مشهد أفضل من الحج إلى مكة). ولنا هنا مواقف: إن الرحالة ناقل يخبر، ولا يرد الخبر بهذا الاستنتاج العقلي؛ فأثم التناقض على المفضلين لا على المخبر. ولا يقال لناقل الخبر إنك خاطئ، بل يقال إنه كاذب أو غافل أو غير متحر أو ما إلى ذلك. على أنا لو جاوزنا هذا نرى التناقض المعقود غير ما نحن فيه. فخبر الرحالة أو دعواه - ان شئنا - أن الشيعة تفضل مشهداً على مكة؛ وكذلك تقول عبارة الأستاذ عزام في نقده،
وتفضيل مشهد على مكة تفضيل زيارة مشهد على الحج إلى مكة، كما لم يلزم من تفضيل مسجد الرسول عليه السلام على عرفات تفضيل زيارته على الوقوف بعرفة؛ ولن ننسى أن الرحالة - في نقل الأستاذ عزام - يخبر بتفضيلهم مشهداً - لا زيارتها - على مكة - لا على الحج إليها -.
ج - والعجب أن الأخ الأستاذ يقحمني أيضاً في مسألة الزيارة والحج ويضع في رده خطاً تحت قوله (زيارة مشهد أفضل من الحج) وكأني كنت فيما كتبت مشتغلاً بنقد استنتاجه لا بتصحيح خبر الرحالة من كتاب شيعي غير عامي؛ والأستاذ بذلك يقول عني إني أدعي (على بعض المسلمين أنهم يفضلون زيارة كربلاء على الحج وهو قاعدة من قواعد الإسلام) وأنه فاتني التثبت في ذلك الادعاء. . الخ. ومن الفكه أن لفظتي (حج) و (زيارة) لم تردا في كلمتي مطلقاً، بل لم تقعا كذلك فيما استشهدت به من كلام العالم الشيعي المحدث مطلقا؛ ولم تردا إلا في الفقرة المنقودة التي نقلتها من كلام الأخ عزام، فكيف حملني عبء هذا الادعاء؟ لا أدري! ولعله هو يدري.
وأخيراً، نقل الحالة ثابت تفضيل الشيعة مشهداً مكة متفق مع ما ينقله عالم شيعي عن عالم شيعي ويعد انه متواتراً، وليس يتنافى هذا التفضيل مع فرضية الحج إلى مكة، وليس يلزم من هذا التفضيل زيارة مشهد على الحج المفروض، وهذا التفضيل لمشهد على مكة شئ آخر مغاير لتفضيل زيارة مشهد على الحج إلى مكة؛ وأسأل الله لي ولأخي الثبات والتثبت دائماً.

أما الوصف في شعر شاعرنا فهو وإن كان غير مقصود له بالذات يحدثنا كذلك عن بعض نواحي الحياة المصرية، وبعض الجمال فيها، يحدثك عن الطبيعة المصرية في زمن الربيع، فيصفها وصفا دقيقا، ويحدثك عن الاحتفال بوفاء النيل، فيصفه كأنك تراه، ويصف لك الأبنية التي بناها الملك الصالح فيجعلك تشعر بالعظمة والأبهة اللتين تمتعت بهما تلك الأبنية. ويصف لك الجيش المصري فتحس بالمجد المصري والقوة المصرية والشجاعة المصرية التي لا تنثني عن قصد ولا تهزم أمام حصن مهما كان عظيما. قال يصف الجيش المصري الذي فتح دمشق:

جيشا تغص به الأرض الفضاء كما ... تراكم الغيم يوم الدجن ذا زجل
من الكماة التي تطوى ضلوعهم ... على العزيمة والاقدام، لا الفشل
من كل أمضى من الهندي في يده ... عزما، وأنفذ إقداما من الأسل
يكون أثبت يوم الروع من جبل ... راس، وأجول في الصفين من مثل

ولننصت إليه حين يصف لنا الاحتفال بوفاء النيل، وكأنه يصف لنا الاحتفال الذي لا نزال نراه بأعيننا في كل عام، قال:

يوم تجلى الدهر منه بزينة ... لما غدا المقياس وهو مخلق
هو ثالث العيدين إلا أنه ... للهو، ليس على العبادة يطلق
جمعت لمشهده خلائق غادرت ... فيه رحيب البر، وهو مضيق
وعلى عباب البحر من سباحه ... أمم يغص بها الفضاء، ويشرق
كادت تبين لهم على صفحاته ... طرق، ولكن يفتقون ويرتق

ثم مضى يصف الأنوار، ويصف المليك تحف به حاشيته إلى آخر ما وصف به ذلك اليوم، فإذا أنت ذهبت تستمع إليه، وهو يحدثك حديث إبداع عن طبيعة مصر في الربيع سمعته يقول:

الروض مقتبل الشبيبة مونق ... خضل يكاد غضارة يتدفق
نثر الندى فيه لآلئ عقده ... فالزهر منه متوج، ومنطق
وارتاع من مر النسيم به ضحا ... فغدت كمائم زهره تتفتق
وسرى شعاع الشمس فيه، فالتقى ... منها ومنه سنا شموس تشرق
والغصن مياس القوام كأنه ... نشوان يصبح بالنعيم ويغبق
والطير ينطق معربا عن شجوه ... فيكاد يفهم عنه ذاك المنطق
غردا يغني للغصون فينثني ... طربا جيوب الظل منه تشقق
والنهر لما راح وهو مسلسل ... لا يستطيع الرقص ظل يصفق
فتمل أيام الربيع، فإنها=ريحانة الزمن التي تستنشق

فهو قد رسم لك بشعره ذلك صورة جميلة للرياض والزهر المتفتح الذي إرتاع من مر النسيم في الضحا فتفتحت أكمامه، وقد كان الندى عليه كحبات العقد فأضحى عليها كالتاج أو النطاق، ثم هذه الغصون المياسة كأنها سكرى والطير يغني على تلك الغصون فتهتز لهذا الغناء طربا، والنهر يصفق فرحا، والشمس تلقى أشعتها على هذا الجمال كله، فيبدو للمرء منظره وأبدع ما في الطبيعة من مناظر الجمال.

4

لشاعرنا المحيوي موشحات عارض بها سواه، وهي تعد بحق من أجمل الموشحات وأبدعها، وأنت تحس في بعض موشحاته بآثار الصنعة اللفظية ظاهرة جلية، وهو حين يعارض سواه في موشحاته يضمن موشحه أول بيت من الموشح الذي عارضه، ولذلك يضطره الحال إلى أن يدع المدح وينتقل منه إلى الغزل على عكس السنة المعروفة لدى الشعراء.

ولقد كان شاعرنا فخوراً بشعره الفخر كله، مملوءا به تيهاً، يعتقد أن شعره يفوق شعر غيره ويسمو عليه حتى قال:

إن القري - وإن تكاثرساكنو ... أفيائه - للعبد فيه الأوحد

وكان أحياناً لا ينشد الممدح قصيدته إلا بعد أن ينشده سواه ليتمكن الممدوح من أن

يرى الفرق بين شعره وشعر غيره، غير أنه في بعض الأحيان كان لا يجد مركزه وما يواتيه به الدهر متناسبا مع جودة شعره وبلاغة قوله فيشكو ويلح في الشكوى، ويتألم أشد الألم، ولقد كان شعره فضلا عن عذوبته التي تحس بها جاريا على قوانين النحو والصرف إذا استثنينا
بعض أخطاء لا تكاد تذكر، غير أنه قد أخطأ حقا حين قال يهنئ بالعيد:
لا أهنئ مولاي بالعيد إلا ... خوف تعطيل سنة تعتاد
فمن الجهل أن يهنأ بعيد ... من به الدهر كله أعياد
فمع صحة المعنى لا نشك مطلقا أنه ليس من أدب الخطاب أن يقال لأحد لا أهنيك بالعيد في مفتتح الكلام، ولكن شاعرنا لم يعن إلا بالمعنى وصحته بدون نظر إلى جمال الافتتاح وهو ليس أول من هفا تلك الهفوة بل سبقه بها سواه من الشعراء والشعراء المبرزين.
نظم شاعرنا قصيدة طويلة سماها الوسيلة المشفعة في مناقب الخلفاء الأربعة، وهي قصيدة طويلة تبلغ تسعة وسبعين ومائة بيت، عدد فيها مآثر الخلفاء وذكر فضائلهم، وبدأها برأيه فيهم كلهم وهو:
كل من الخلفاء غير محلأ ... عن مورد الشرف الذي لايورد
ولهم سوابق أنزلت كل امرىء ... حيث اقتضاه له التقي والسؤدد
وأقر بعضهم لبعض بالذي ... يسمو به من فضله ويمجد
فمضوا، ولم يتدافعوا حسناتهم ... كل لصاحبه يقر ويشهد
ثم مضى يعدد فضائل كل مبتدئا بأبي بكر، ذاكرا مآثره في الإسلام: فهو أول من آمن بالنبي، ولما مرض النبي أنابه عنه في الصلاة، فكان ذلك من النبي تقليدا له بالخلافة، ولذا كان أولى الناس بها، ولقد جمع أبو بكر أمر المسلمين بعد أن كادوا يتفرقون يوم السقيفة، وحارب أهل الردة حربا موفقا أعاد للإسلام بهجته، ثم حارب الروم والفرس، وكانت خاتمة حسناته أنه ولي الأمر عمر من بعده، وعمر هذا طالما نزل القرآن موافقا لرأيه وما بدا له، كما أن النبي كان يطلب من الله أن يعز الإسلام بدخوله فيه، حتى إذا دخل فرح المسلمون، وجهروا بدينهم بعد أن كانوا يخفونه، لما كان له من المكان له من المكان العظيم بين قومه وعشيرته، حتى إذا ولي أمر المسلمين بعد أبي بكر سهر على الرعية ومصالحها بعين لاتغفل، ففتحت الدنيا في عهده، ودرت الخير الوفير على المسلمين، فإذا أنهى عمر وتحدث عن عثمان ذكر له إعانته للمسلمين، بماله، وصومه وصلاته، وزواجه من بنتي النبي وفضله يوم جيش العسرة، ويوم بيعة الرضوان، ثم رد على من ينتقصه بقوله:
نطق الكتاب بفضله فمن الذي ... يرتاب فيه جهالة أو يجحد
إلا كفور للهدى متنكب ... أو جاهل في غيه متردد
ولكبر ما نقموا عليه ضلة ... قربى تبر، وهفوة تتعمد
ثم انتهى إلى علي فحدثنا عن قربه من النبي، وتربية النبي له، وزواجه من ابنته، وإسلامه صبيا فلم يدنس الكفر نفسه، ولم يسجد لصنم طوال حياته، ثم وصف عدله، وعلمه، وتواضعه، وعبادته وورعه وزهده وشجاعته وبلاغته، وكل هذا الحديث عن الخلفاء الراشدين ينطق أن شاعرنا سني يفضل الخلفاء كلهم لا شيعي يقدم علياً على سواه بل هو يرتبهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة، غير أنه مما يلاحظ أنه أثنى على أبي بكر وعمر بأعمالهما بعد الخلافة ثناءً مستفيضاً، حتى إذا جاء إلى علي وعثمان أثنى عليهما بفضائلهما الشخصية أكثر مما أثنى عليهما بأعمالهما بعد الخلافة، ربما يكون منشأ ذلك أن أبا بكر وعمر كانت أعمالهما بعد الخلافة في تثبيت دعائم الإسلام ونشر دعوته أكثر من زميليهما، ومن أجل هذا كان الثناء المستفيض.
قبل أن نختم حديثنا عن صاحبنا المحيوي نريد أن نشير إلى أنه كان ناثرا مثلما كان شاعرا، غير أن نثره لم أعثر عليه، ولعلي أوفق يوما ما إلى الاطلاع عليه ودراسته، ولقد ألف كذلك كتابا أهداه إلى ولي نعمته محي الدين محمد بن سعيد لا نعلم اسمه وإن كنا نستطيع أن نفهم موضوعه حين نقرأ قوله واصفا إياه.
العبد أيدمر تطلب تحفة ... تكسي القبول لسيد الأصحاب
فرأى أجل هدية تهدى له ... ذوب النهى، ونتائج الألباب
فأجال في روض القرائح فكره ... ثم انتقى منه لباب لباب:

من طيب نادرة، ولطف فكاهة ... وبديع بادرة، وحسن خطاب
وسوائر الأمثال قد وشحتها ... فيه بمعجز سنة وكتاب
والجد موصولاً بهزل ينشط ال ... قارئ، ويطرب أيما إطراب
ونوادر الحكماء والبلغاء، وال ... خطباء، والشعراء، والكتاب
وجمعت فيه إلى سلامة رقة ال ... حضر اللطيف جزالة الأعراب
فأتاك كالحسناء قد لبست على الإ ... ثراء ثوب نضارة وشباب
والروضة الغناء أهدت نشرها ... ريح الشمال ضحى غداة سحاب

فهو مجموعة فيها النوادر والفكاهات، وفيها الأمثال والحكم، وفيها طرف من نثر الخطباء والكتاب، وبعض من شعر الشعراء، فأنت تنتقل فيه من جد إلى هزل ومن هزل إلى جد، فتطرب ولا تسأم القراءة، وتلك طريقة معروفة لدى مؤلفي اللغة العربية فهم من قديم قد استنوا تلك السنة وساروا عليها في مؤلفاتهم.

6

لم نهتد إلى تعيين عام وفاته كما ضن علينا التاريخ بمعرفة عام ولادته، غير أنه مما يروى عنه أنه كان لطيف المحضر فاضلا مهذبا، أحضر ديوان شعره إلى ابن العديم وكان قد حضر رسولا عن السلطان الملك الناصر فتصفحه وأعجبه، وكتب على الديوان:

وكنت أظن الترك تختص أعين ... لهم إن رنت بالسحر فيها وأجفان
إلى أن أتاني من بديع قريضهم ... قواف هي السحر الحلال وديوان
فأيقنت أن السحر أجمعه لهم ... يقر لهم هاروت فيه وسحبان

وعسى أن يواتينا الزمن يوما بكل شعره ونثره، وتاريخ حياته مفصلا فندرسه دراسة مستفيضة تليق ببلاغته.

أحمد أحمد بدوي المدرس المنتدب بثانوية نابلس

من طرائف الشعر

بين الليل والصبح

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

انظر إلى الكواكبِ ... يسبحن في الغياهبِ
من ذاهب في شوطه ... ولاحقٍ بالذاهب
إلى الطوالع الوضا ... ء الزُهر والغوارب
إلى الجمال آخذاً ... إلى الشعاع السائب
والليل ساجٍ قد خلا ... من العَصوف الصاخب
يعبرنَ عُرضَ بحره ... من جانبٍ لجانب
غَرقى إلى الجيد، إلى ... الثدى، إلى الترائب
أرسلن شَعراً من أش ... عةٍ على المناكب
وقد خللن ما على الر ... ؤُوس من عصائب
ما إن رأت عين امرئ ... أبهى من الكواكب
يلمعن مثل الماس أو ... كَوَمضة الحُباحب
يمشين أسراباً كأتر ... ابٍ من الكواعب
يذهبن من مشارق ال ... أرض إلى المغارب
والليلُ ضاربٌ روا ... قه على الجوانب
كلّ الجمال في النجو ... م اللُمّع الثواقب
العاريات للخلا ... عات من الجلابب
الغامزات بالعيو ... ن النُجل والحواجب
ما إن لهن غير نش ... ر النور من مآرب
يضحكن من شيبي ... ومن آماليَ الكواذب
أشدو بما لهنَّ من ... حسنٍ ومن مناقب
كأنهن الحور يُط ... لِلْنَ من المَراقب
أمن بنات الليل هُنّ ... أم من الربائب؟
أم من طيور الخُلد يرـ ... ـفنَ على المشارب
عصائب يقعنَ أس ... رابا على عصائب

والماء في المَجَرَّة ال ... بيضاء غير ناضب
وربما اختلفن في ال ... ميول والمذاهب
خاطبتهن لو سمع ... نَ القولَ من مُخاطِب
يا لهفتي على ضيا ... ع للشهاب الثاقب
قد خر من عين الدجى ... ليلا كدمعٍ ساكب
وخيم الليل ونا ... م القطبُ في المضارب
ماذا الذي قد خلّف ال ... قطبَ عن الصواحب
ما أجهل الليل، وقد ... خيّم، بالعواقب
فليس يدري ما يلا ... قيه من المصائب
لقد رماه الفجر في الص ... در بسهم صائب
وكان لمّا ناله ... بالسهم غير كاذب
وكشر الليلُ عن ال ... أنياب كالمغاضب
وجرد الصبح علي ... هـ السيفَ كالمحارب
وظلّ يفري جلدَه ... فَرْىَ حَنيقٍ غاضب
جرّ الغَرورُ الليلَ مخ ... ذولا إلى المعاطب
ملاقياً جزاءه ... من ثائرٍ معُاقِب
والليل لا يقوى على ... ردّ الصباحِ الواثب
يفر كالمغلوب من ... وجه القويّ الغالب
وهو جريح، دمهُ ... يجري على الجوانب
ما أنتصر الليلُ بما ... جَمَّعَ من كتائب
بل إنه اختفى عن ال ... عين كلمحٍ ذائب
إِن عبس الليلُ فلي ... س الذنب للكواكب
فهنّ يبتسمنَ حِت ... ى للعدوّ الناصب
هو الذي جنى فَكُن ... نَ عرضة النوائب
وظلت الشعرى تنا ... جي الصبحَ كالمعاتب
بين الصباح مُسفِرا ... والليل ذِي الغياهب
ثأرٌ سيبقى فتقَهُ ... دهرَاً بغير رائب
غمَّ النجومَ ما تقا ... سيه من المصائب
والصبحُ لما راعها ... ما كان بالمداعب
كأنه بازٌ جرى ... يسطو على أرانب
أو قَسْوَرٌ حُمارِسٌ ... سطا على ثعالب
يريد أن يفترس ال ... أنجمَ بالمخالب
فغرنَ جمعاء من ال ... خشية في المذانب
إني لأقرأ الأسى ... في الأوجه الشواحب
أجفلن لا يحملنَ غي ... ر الخوف في الحقائب
تؤذي العذارى فيالحيا ... ة قِلّةُ التجارب
تا لله ما هذى الوجو ... هـ الغرُّ للنوائب
والعندليب هبّ يَشْ ... دو بانتصار الغالب
والديك صاح يْعلن ... السرورَ للصواحب
كأنما قد فرحا ... بنكبة الكواكب
يا كوكب الصبح لك الص ... بح من الأقارب
ما كان ينبغي له ... صفعُك كالمعاقِب
لا تيأسَنَّ وأنتظر ... ليلَ الغد المقُارِب
تكن كما قد كنتَ في ال ... عين من الرغائب
يا أيها الصبح الجمي ... ل يا ملاذَ الراعب
لقد قسوتَ حين أخ ... نيتَ على الكواكب
رميتَ شملهنّ بالت ... شتيت والمصاعب
ما ضرّ لو حميتهنّ ... مثل أمٍّ حادب

كنّ ينبرنَ عنك في الْ ... لَيل الطويل اللازب
وكن زينةَ السما ... ء في عيون الراقب
ما أجمل الشمسَ بدت ... مُرخيةَ الذوائب
قد طلعت في موكب ... من أفخم المواكب
تنثر من ضيائها ... تبراً على الجوانب
على البحار والجبال ... الشُمّ والسباسب
يا شمس أنت للورى ... من أكبر المواهب
حبيبةٌ أنتِ إلى ... الشبان والأشايب
!أكْثِرْ بما تُهدِينَ من ... نورِ ومن كهارب
بغداد
جميل صدقي الزهاوي
بسمة
للأستاذ محمد خورشيد
هاتها مِن فم القَدَرْ ... بَسمةً تَفتِنُ البشرْ
تُفسحُ الصدرَ للرَّجَا ... ء وتَفنى قوى الكدرْ
إنَّما الحظُّ خِلسةٌ ... فاغتنِمْ منهُ ما بَدَر
إجعلِ الهنا ... كعبةَ المُنَى
يضحكِ العُمُرْ
أهمِلِ الدَّهرَ ما طَغَى ... لا تَخَفْ منهُ إن بَغَى
وأدَّرِعْ بابتسامةٍ ... تُحرِزِ النصرَ في الوغى
لم يُجندلْهُ غيرُ مَن ... لاذ بالهُزء والسَّخَرْ
عِشْ لِحْربِهِ ... لا تَثِقْ بهِ
طَالَما غَدَرْ
أمسِ، كالحُلمِ أَدْلَجَا ... عَوُدُه ليسَ يُرتَجَى
وغَدٌ، مِن ضميرِهِ ... لمْ يَرَ الغيبُ مَخرَجاً
فابتغِ (اليومَ) كلَّ ما ... يشتهي السمعُ والبصَرْ
روِّ بالأمَلْ ... فُسحَةَ الأَجَلْ
تصرفِ الغِيَرْ
دَغدغِ النايَ واعزِفِ ... لحنَ هَيمانَ مُترَفِ
واسقِني قبلَ صحوتي ... ريقَ عذراء قَرقَفِ
فندامايَ أكوُّسٌ ... راحُهَا يخطفُ البصَرْ
رحمةُ الصَّمَدْ ... صَاح لا تُحَد
!كمْ وكم غَفَرْ
القدس
محمد خورشيد
النفس الضائعة
للأديب سيد قطب
!أثِني أنا؟ أم ذاك رمزٌ لغابر؟ ... لأنكرتُ من نفسي أخصَّ شعائري
لأنكرتُ إحساسي، وأنكرتُ منزعي ... وأنكرت آمالي، وشَتَّى خواطري
وأنكرتُ شِعري، وهو نفسي بريئةً ... ممحضةً من كل خِلطٍ مخامر
ويفصلني عما مضَى من مشاعري ... عهودٌ وآباد طوال الدياجر
!وأجبها ذكرى، ولكنَّ بُعدَها ... يخيَّل لي أن لم تمر بخاطري
أنقَّب عن ماضيَّ بين سرائري ... فألمحه كالوهم أو طيف عابر
أعيش بلا ماضٍ كأنيَ نبتةٌ ... على السطح تطفو في مهب الأعاصر
وما غابرُ الإنسان إلا جذوره ... فهل تمَّ نبت دون جذر مؤازر
أنقب عن نفسي التي قد فقدتُها ... بنفسي التي أعيا بها غير شاعر
وأطليها في الروض إذ كان همها ... تأمله، يُفضي بتلك الأزاهر
وفي الليل إذ يغشى وكانت إذا غفا ... تيقظ فيها كل غاف وسادر
وفي الليلة القمراء إذ تهمس الرؤى ... وتومئ للأرواح إيماء ساحر

وفي الفجر، والأنداء يقطرن، والشذى ... يفوح، ويشجي سمعه لحن طائر
وفي الحب إذ كانت شواظا وحرقة ... ومهبط آمال ومطمح ثائر
وفي النكباء، والغبطة التي ... تجود بها الأقدار جود المحاذر
ولكنني أيئستُ أن ألتقي بها ... وتاهت بوادٍ غامر التيه غائر
سأحيا إذن كالطيف، ليست تحسهُّ ... يدان، ولا يجلوه ضوء لناظر
سيد قطب
من وحي المرض.
إلى صورتها الحبيبة. . .
بقلم مختار الوكيل
يا صورةً قد عبدتُ فيها ... صورةَ مَنْ أبدعَ الوجودْ
أنتِ التي قد ضمنتِ خلدي ... بوحيك الباسم السعيد
أعيش في عَالم الدنايا ... سأمان من حِصَّة العبيدِ
الداءُ! يا ويلتا، غزاني ... بجيشه الساغب المبيدِ
والصحب! أواه من صحابي ... لم يرأفوا بالفتى العميدِ
يا ليتهم حين أهملوني ... لم يطلقوا الهجوَ كالرعودِ!
يا طلعة قد لمحتُ فيها ... تهلّلَ الوردِ في الخدودِ
وبسمةً قد قَبَسْتُ منها ... بشائرَ العالم الجديدِ
أموت والنورُ منكِ ضافٍ ... على دُجَى قلبيَ الشريدِ!
يا ما أُحَيْلَي الممات، لولا ... مرارة الحَبْس في اللحود!
كم هاجس ضجَّ في خيالي ... وَثارَ في خاطري البليدِ
وأنت يا فِتْنتي أمامي ... وبين كفّيَّ كالوليدِ!
غَفَرْتُ كلَّ الذي دهاني ... في عالَم الظُلم والكنودْ
ببسمةٍ منكِ لا تُرَائي ... ونظرةٍ تضمن الخلودْ!
مختار الوكيل
الأدب الإنجليزي في القرن التاسع عشر
للأستاذ بشير الشريقي
اطلعت في عدد الرسالة التاسع والخمسين على كلمة موجزة للأستاذ محمود الخفيف في نقد كتاب (الأدب الإنجليزي الحديث) الذي قدمه الأستاذ سلامه موسى للجمهور مؤخراً، وقد ظهر لي من هذه الكلمة.
أولا - إن الأستاذ مصنف الكتاب أو مؤلفه قد نعت العصر الفيكتوري ما بين 1830 - 1900 بأنه عصر خمول في الأخلاق والأدب، بينما يرى الأستاذ محمود الخفيف هذا العصر من أرقى عصور الأدب الإنجليزي وأحفلها بالحركات والاتجاهات الأدبية الجديدة.
ثانيا - إن الأستاذ سلامه يشير في كتابه إلى تجديد في الأدب الإنجليزي ظهر عام 1900 فيوافقه الأستاذ محمود على ظهور هذا التجديد ويذكر أنه ثمرة من ثمار العصر الفيكتوري الناهض.
وأنا بدوري أود أن أقول كلمة في الموضوع أختلف فيها مع الأستاذين الفاضلين في مسائل، وأتفق معهما في أخرى، فأرجو أن توسع مجلة الرسالة الغراء صدرها لهذه الكلمة:
1 - إن مؤرخي الأدب الإنجليزي الحديث لا يوافقون الأستاذ سلامه موسى على قوله: (إن الأدب الإنجليزي قد اتجه طول مدة القرن التاسع عشر نحو الصياغة اللفظية دون التفكير والاقتحام) ويرونه قد حاد كثيراً حين رمى الأدب الإنجليزي في القرن التاسع عشر بالضعف والقبح والفساد لأن هذا العصر الذي يمتد من عام 1798 إلى عام 1892 من أزهى عصور الأدب عندهم اشتهر بمذاهبه الأدبية الجديدة وبتنوع شعرائه وكتابه الذين خرجوا فيما ينظمون ويكتبون عن أساليب القدماء. وإلى القارئ ما يذكره المؤلفان الإنجليزيان (وايت و (كلي عن الأدب الإنجليزي في القرن التاسع عشر في كتابهما (الأدب الإنجليزي الحديث. ص1 - 3:
إذا كان من أن نقع على تاريخ يحدد لنا نهاية عصر من عصور الأدب أو بدايته، وكان من النادر أن يتفق مثل ذلك التاريخ مع فسحة الزمان إلى قرون أو عصور أو أجيال، فان

القرن التاسع عشر قد أمتاز بأنه كان ممثلاً أحسن تمثيل لدور انتقال بين في الأدب الإنجليزي. نشر (وردثورث) و (كوليردج) (قصائدهما الغنائية) قبل بزوغ فجر القرن التاسع عشر بعامين فقط في عام 1798، فكان ذلك النشر خدمة عظيمة للفن والأدب وعاملاً من أهم العوامل التي قلبت المذاهب الشعرية الأولى وهدمت النظريات الأدبية القديمة، وكأني بتلك القصائد قد أعلنت نهاية الطريقة الاتباعية في الشعر بإحياء الطريقة الابتداعية

إن الروح الرومانتيكية لم تكن حتى أيام (ورد ثورث) و (كوليردج) قد استيقظت والأساليب الشعرية القديمة لم تكن قد نسخت.

هذا ما يذكره المؤلفان العالمان عن أهمية عام 1798 بالنسبة لتاريخ الأدب الإنجليزي، فلنصغ إلى حديثهما عن وحدة الأدب في القرن التاسع عشر:

فعام 1798 إذن يكاد ينفرد في إنه يعين بوضوح ابتداء عصر جديد للأدب، عصر إصلاح) وتجديد أطلق الشعر فيه من قيود (الاتباعيين) والقرن التاسع عشر يبدو لنا ذا وحدة تامة كما كان عصر الياصابات 1660 - 1798 فلم يفقد فيه الشعر الروح الابتداعية. التي أمده بها (ورد ثورث) ومعاصروه، وقد ظلت رواياته النثرية في تقدم مطرد. إن أدب العلم والتاريخ والفلسفة قد امتاز في هذا العصر بطريقته الجديدة التي أدنت مسائله وأوضحتها، والتي اختلفت عن طريقة القرن الثامن عشر اختلاف (دارون) عن (لوك)

قد ترى الأجيال المقبلة في مذاهب (ماثيو أرنولد) الاتباعية أو في الطريقة (الابتداعية) الجديدة التي دعا إليها (روسيتي) و (موريس) ما لم نره نحن من خطورة وأهمية، غير أن ما يمكننا قوله الآن هو أنه لم يقم حتى العهد الذي ظهر فيه (ورد ثورث) و (كوليردج) ثورة تهدم الطرق القديمة وتكون جديرة بأن تعتبر فاتحة عصر جديد.

لا ينبغي أن نطنب - طبعا - في وحدة أدب القرن التاسع عشر أو بالفروق التي كانت بينه وبين أدب القرن الثامن عشر، إن كل ما ننوي التحدث عنه هنا هو أن نظهر أن الوحدة الأدبية كانت فيه تامة، وأن الفارق الذي يدعونا إلى درس أدبه كأدب عصر خاص كان ظاهراً جلياً. ولقد تظهر فوارق الشعر أكثر وضوحاً في هذا العصر، يرجع ذلك إلى النزاع العنيف الذي قام بين شعراء المدرسة القديمة في القرن الثامن عشر وبين شعراء الطريقة الابتداعية في فجر القرن التاسع عشر؛ أما الروايات النثرية فمن المؤكد أنه لم يدخلها تبدل ظاهر، لأن روائي القرن التاسع عشر كان يرضيهم بوجه عام ان ينشروا فن أساتذتهم فحسب - أساتذة القرن الثامن عشر.

ولو تتبعنا حقل النقد الأدبي الآن لأمكننا أن نقع على تغير واضح في طرقه وأساليبه وقواعده، وهذا التغير يظهر بارزا جليا منذ اليوم الذي تفتحت فيه عبقرية (كارليل) ودفعت بالنقد في طريق جديدة. كان النقد في الربع الأول من هذا القرن يتفق في أصوله وأساليبه مع نقد القرن الثامن عشر، وكان الناقد هو من يحسن وضع الخلاصات، ويجيد المديح والهجاء، حتى إذا جاء (كارليل) كان أول مبشر بطريقة النقد الحديثة الصحيحة، التي يهمها الشرح والتفسير والإيضاح الأصولي للمبادئ الجديدة).

دور 1798 - 1832. وخطره.

ويقول المؤلفان الفاضلان:

مات (اسكوت، وكريب، وبنتام) عام 1832 وعاش من بعدهم (ورد ثورث) ثمانية عشر عاماً أيضاً، و (كوليردج ولامب) عامين، و (مور) عشرين، و (سواسي) أحد عشر، و (كامبيل) اثنى عشر، لقد أدى كل واحد من هؤلاء الأعلام رسالته قبل عام 1832، أما (كارليل) و (ماكولي)، و (تنسون) و (هود) و (بالوير) و (ليتون) والسيدة (براوننك) من مشاهير الكتاب فلم يكونوا قد نشروا حتى عام 1832 سوى خواطر صباهم. وفي عام 1798 كان عمر كيتس وشيلي وبيرون يتراوح بين الثالثة والعاشرة، ثم لم يأت عام 1832 حتى كان قد مضى على وفاة الثلاثة ثماني سنوات أو أكثر، وهكذا تظهر لنا أهمية الخمسة والثلاثين عاما التي بين 1798، 1832 من الناحية الفنية الشعرية.

وفي الحق أنه ما من عصر من عصور الأدب الإنجليزي حتى عصر الملكة الياصابات يستطيع مناظرة هذا الدور 1798 - 1832 في سمو التصوير وسرعة الانتاج، فقد بذ ببدائعه الفنية الرائعة عصر الملكة الزاهر.

إن في مجرد تعداد كتاب الطبقة الأولى والثانية شيئا من الغرابة والقوة والتأثير، يكفي أن نذكر من الشعراء (ورد ثورث) و (كوليردج) و (بيرون) و (شيلي) و (كيتس) و (لاندور) و (مور) و (ساوس)، ومن الكتاب (اسكوت) و (اوستن) و (هازت) و (ويلسن)، حتى نجعلك تؤمن بعظمة هذا الدور، ثم إليك نتاج عام واحد: في عام 1806 ظهرت رواية (ايما) لجان أوستن، و (تشايلد هارولد)، (وحصار كورنث) و (سجين تشيلون) لبيرون، و
لاسكوت، (وحاجتنا إلى الجحود) لشيلي، وكثير من المؤلفات القيمة (الفناء القديم).
بعد كل ما تقدم ما أحسب أن القارئ يشايع الأستاذ واضح كتاب (التجديد في الأدب الإنجليزي الحديث) في قوله: (إن الأدب الإنجليزي قد اتجه طول مدة القرن التاسع عشر نحو الصياغة اللفظية دون التفكير والاقتحام)، وفي قوله: (ان العصر الفيكتوري ما بين 1830 و1900 كان عصر خمول في الأخلاق والأدب. . الخ) بل أعتقد أنه يرى الصواب والحكمة في معارضة الأستاذ محمود الخفيف له في رأيه هذا.
أما هذا التجديد الذي أشار الأستاذ سلامة موسى إلى ظهوره في الأدب الإنجليزي عام 1900 ووافقه عليه الأستاذ محمود فانه في رأي (وايت) و (كلي) لم يوجد حقيقة، وان الشعر في هذا العام وما أعقبه من أعوام (من عام 1892 - 1919) قد سرى إليه الضعف، وجهل أربابه (روبرت بريدج، بلانت، وليام ونسون، ارثر سيمون، حنا دافيد سون، كبلنج، هاردي) الغرض منه، فمالوا إلى زخرف القول وتدبيج اللفظ بأنواع البديع وأوغلوا في ذلك حتى قبحت مبانيهم وسمجت معانيهم. وإلى القارئ ما يذكرانه في كتابهما المشار إليه ص211 - 212.
يرينا الشعر في هذا الدور 1892 - 1919 ضعفا بينا؛ ليس في صور التعبير وآداب) النظم، بل في النجابة واتساع أفق التفكير؛ لقد تجنب فيه معظم الشعراء السجايا النفسية وعواطف الحب وفتنة الجمال، فاكتفوا بمغازلة الوداد العائلي، وقراءة أفكار الرجل من غير أن يتعرضوا لخوالج نفسه؛ كانوا أطفالا في تفكيرهم ونظراتهم، قل أن يخوضوا في البحث والجدل والتفسير، بل كان مجرد (التبليغ) هو كل ما تصبو إليه نفوسهم؛ يطربهم الجمال الطبيعي (الفيزيكي) أو أن يكتشفوا في صورة اصطلح الناس على تقبيحها شيئا يدعونه جمالا حقا؛ تقيدوا بأوزان العروض وعانوا طول الدرس ليتمكنوا من تحسين عباراتهم وتطبيقها على ما يتخيلون من التشابيه والاستعارات؛ هم تلامذة (لورد ثورث) نبذوا مثله الأسلوب الشعري ونظموا معظم منظوماتهم غنائية، إنما كانوا يوقعونها على أوتار خرساء، نعم على أوتار خرساء لأنها تقف بمعزل عن الحياة ومسائلها، ولا تدعونا إلى التفكير في سر الوجود والعدم تفكيراً يجعلنا نرى بعين عقلنا العالم أكثر وضوحا. .).
هذا ما رأيت أن أثبته تعقيبا على كلمة الأستاذ محمود الخفيف التي انتقد فيها كتاب (التجديد
في الأدب الإنجليزي) تأليف الأستاذ سلامة موسى.
شرق الأردن
بشير الشريقي
العلوم
التلفزة في عهدها الأول - 2
للأستاذ محمود مختاربكلية العلوم
جهاز الاستقبال
تحدثت في رسالة سابقة عن جهاز الإرسال للتلفزة. والخطوات التي مرت بها صورة الجسم المتلفز من بدء تحليلها إلى مساحات صغيرة بواسطة القرص المثقب أو حلزون المرايا، ثم إسقاط الأشعة الضوئية المنعكسة من هذه المساحات الصغيرة على التعاقب على خلية كهرضوئية حيث تحولت إلى دفعات كهربائية، ثم تكبيرها فإذاعتها في الأثير.
والآن نحن عند جهاز الاستقبال حيث تصل إلينا هذه الدفعات الكهربائية بعد أن التقطها الهوائي وأرسلها إلى الكاشف اللاسلكي
وتأخذ عملية استقبال هذه الأمواج حتى إخراج الصورة النهائية ثلاث خطوات أيضاً هي بعينها ما يناظر خطوات الإرسال مأخوذة في ترتيب عكسي. فتبدأ أولى الخطوات

بكشف هذه الأمواج وفصلها عن باقي الأمواج اللاسلكية المنتشرة في الأثير وتكبيرها. ثم تليها الخطوة الثانية وهي تحويلها من دفعات كهربائية إلى أخرى ضوئية. ثم تأتي الخطوة الثالثة وهي إعادة تركيب هذه الدفعات الضوئية بجوار بعضها لتخرج صورة الجسم المطلوبة.

أما خطوة الكشف والتكبير فهي كنظيرتها في جهاز الإرسال - خطوة التكبير والإذاعة - في المقام الثاني من الأهمية لباحث التلفزة. ويكفي لنا الآن أن نعلم أنها تتم بواسطة دائرة من الصمامات هي بنفسها دائرة أجهزة السمع العادية - ولا داعي للخوض في تركيبها وعملها في مثل هذه العجالة - وكما تؤخذ تلك الأمواج الكهربائية المكبرة في جهاز السمع إلى البوق لتحويلها إلى دفعات صوتية تؤخذ هذه بعد تكبيرها أيضاً إلى المصباح الغازي أو إلى خلية كر لتحويلها إلى دفعات ضوئية، وهذه ثانية خطوات الاستقبال.

والمصباح الغازي ولو أن لفظه ليس مطروقا إلا أنه كثيرا ما تقع عليه أبصارنا على واجهات المحلات التجارية الكبيرة في شكل أنابيب ضوئية كهربائية للإعلانات تأخذ ألوانا مختلفة أحمر أو بنفسجيا أو أزرق أو غيرها. هذه الأنابيب الضوئية ما هي إلا شكل تحور

من المصابيح الغازية المستعملة في التلفزة لتحويل الطاقة الكهربائية إلى أخرى ضوئية. وهي عبارة عن انتفاخ زجاجي في حجم الصمام الكهربائي العادي يحوي بداخله غاز النيون أو الآرجون أو بخار الزئبق تحت ضغوط صغيرة جدا تقرب من بضعة مليمترات. وبه قطبان أحدهما الكاثود، ويكون القطب السالب للمصباح وهو عادة على شكل صفيحة رقيقة من النيكل. والثاني الأنود، ويكون القطب الموجب، ويكون عادة على شكل سلك حلزوني أو قضيب قصير يواجه صفيحة الكاثود. وعندما يوصل الأنود بالطرف الموجب لجهد كهربائي عال - حوالي 150 إلى 300 فولت - ويوصل الكاثود بالطرف السالب لهذا الجهد يتوهج المصباح بأحد هذه الألوان التي نراها في أنابيب الإعلانات تبعا لنوع الغاز الموجود به. وأفضل هذه الغازات هو بخار الزئبق إذ يعطي لوناً بنفسجياً فاتحاً. والسبب في هذا التوهج في المصباح هو انبعاث إلكترونات الكاثود - تحت تأثير فرق جهده عن الأنود - وسيرها بسرعة نحو الأنود، ومصادمتها في طريقها بذرات الغاز المنتشرة في المصباح التي تتذبذب سريعا تحت تأثير الصدمة فتتوهج. وربما عن لسائل أن يقول إننا كان يمكننا أن نحول الطاقة الكهربائية إلى أخرى ضوئية بطريقة المصباح المتوهج البسيط المستعمل في الاضاءة، فما هو إلا جهاز لتحويل طاقة كهربائية إلى أخرى ضوئية. والجواب على ذلك: إن عملية تحويل الطاقات في هذا المصباح نشأت من مرور تيار كهربائي في سلك المصباح ذي المقاومة الكبيرة الذي ترتفع درجة حرارته كلما اشتد التيار عليه حتى يحمى فيتوهج. وبمقارنة هذه النظرية في التوهج بنظرية المصباح الغازي السالفة الذكر نرى أنهما يختلفان تمام الاختلاف. ولكن لم فضلنا هذه على تلك؟ ذلك لأن المصباح الغازي يفوق المصباح المتوهج بحساسيته الشديدة للتغيرات الكهربائية، فلو أمر في كليهما تيار سريع التغير لظهرت إضاءة الأول متذبذبة تبعا لذبذبة التيار، على حين تظهر إضاءة الثاني منتظمة مستمرة، لا يلاحظ فيها أي ذبذبة أو تغير، وهذه طبعا ميزة لاستعمال المصباح المتوهج للإضاءة العادية. ولكنها ليست المطلوبة في التلفزة، بل المطلوب هو المصباح الأكثر حساسية للتغيرات حتى يمكنه أن يترجم ترجمة حرفية ما يصله من دفعات كهربائية سريعة التغير خارجة من جهاز الكشف والتكبير. ويوجد سبب آخر لتفضيل المصابيح الغازية، وهو أن الطاقة الضوئية المنبعثة منها تتناسب تناسبا طردياً مع الطاقة الكهربائية الداخلة إليها.

وقد يستعاض عن مصباح الغاز بخلية كر، وهذه فكرة حديثة صائبة، يتوقف عملها على خاصية سائل النيتروبنزين في استقطاب الضوء إذا ما وقع تحت تأثير مجال كهربائي. وربما عدت لشرح هذه النظرية في فرصة أخرى.

والآن بعد أن حصلنا على دفعات ضوئية متعاقبة تختلف شدة وضعفا باختلاف الدفعات الكهربائية المستقبلة من الأثير والتي كان اختلافها يتبع اختلاف نقط الجسم المتلفز نفسه في ضوئها وظلامها، لم يبق علينا إلا أن نعود فنركبها بنفس الطريقة التي حللناها بها، وذلك بوضع كل نقطة في مكان يناظر المكان الذي انبعثت منه على

الجسم المتلفز، وهذه هي خطوة تكوين الصور النهائية.
وتتم هذه الخطوة بنفس الجهاز الذي حللها، وهو كما تقدم: إما القرص المثقب أو طبلة المرايا، أو حلزون المرايا. ولأقصر الكلام على القرص المثقب وحده إذ علمنا أن الطبلة أو الحلزون يمكن أن يستبدلا بدون أي تغيير.
فيوضع مصباح الغاز أمام القرص تجاه ثقوبه، ويوضع حاجز في الجهة المقابلة له من القرص ليتلقى الصورة ويدار القرص بنفس السرعة التي يدار بها نظيره في جهاز الإرسال - 12 , 5 دورة في الثانية - ويكون دائما في خطوة واحدة معه، ويخرج المصباح الغازي دفعاته الضوئية المتتابعة، والتي تتم كل دفعة منها عن خواص نقطة واحدة من نقط الجسم المتلفز في لحظة من لحظاته. فتقع على القرص الذي هو صورة مضبوطة لقرص الإرسال في حجمه وشكله وعدد ثقوبه وسعتها وسرعته وخطوته، فيعمل هذا على وضع كل نقطة في مكان على الحاجز يناظر تماما مكانها الذي انبعثت منه على الجسم المتلفز، وبذلك تظهر الصورة.
غير أن العملية لا تتم بمثل هذه السهولة، غير أن العملية لا تتم بمثل هذه السهولة، فنقطة الصعوبة فيها هي إمكان ضبط سرعة دوران القرص بحيث تساوي تماما سرعة دوران قرص جهاز الإذاعة. وظاهر تماما انه لو اختلفت السرعتان ولو اختلافا بسيطا لحصلنا على خيال لا يدل إلا على سحب غير مفهومة من الضوء والظلام. والطريقة الوحيدة لضبط السرعتين هي إرسال دفعات كهربائية ثابتة التردد من مصدر منفصل آخر لا علاقة
لها بالجسم المتلفز أو توزيع الضوء أو غيره. بل تتوقف ذبذبتها على سرعة دوران قرص جهاز الإرسال فحسب. وهذه تستقبل عند جهاز الاستقبال بجهاز منفصل أيضاً حيث يكشفها ويكبرها ويسلطها على محرك القرص لتضبط سرعته تبعا لسرعة قرص الإرسال. وهذه طريقة فضلا عن أنها تستلزم جهازي استقبال منفصلين فهي تزيد الإذاعة والاستقبال تعقيدا على تعقيد.
فكر (بيرد) في أن يرسل من نفس جهاز الإذاعة بإشارة يكون ترددها لا يتوقف إلا على سرعة دوران القرص، وذلك بأن جعل شعاع الضوء الخارج من ثقب القرص في جهاز الإرسال عند ما ينتهي من رسم خطه الرأسي من الضوء على الجسم المتلفز لا يبدأ شعاع الثقب التالي له إلا بعد وقت قصير، وهكذا بين كل ثقب وآخر يمضي مثل هذا الوقت الذي يسبب دفعة ضوئية مظلمة في الخلية الكهرضوئية ترددها ثابت ويتوقف على سرعة القرص، أي يساوي 30 12. 5=375 ذبذبة في الثانية، لأن بالقرص ثلاثين ثقبا وسرعته 12. 5 دورة في الثانية. هذه الإشارة ترسل وتستقبل مع باقي دفعات الجسم كأنها واحدة منها، ولكن يمكن فصلها بسهولة عنها، لأن ترددها صغير جدا بالنسبة لتردد دفعات الجسم. وعلى ذلك تفصل عند جهاز الكشف الأول وتأخذ طريقا آخر حيث تكبر ثم تسلط على محرك قرص الاستقبال لتنظم سرعته.
وقد تتساوى سرعة القرصين تماماً، ولكنا نرى الصورة النهائية مشطورة إلى نصفين وينشأ هذا من اختلاف الخطوة. ومن أمثلة اتحاد السرعة واختلاف الخطوة ما نشاهده إذا لاحظنا صمامي عجلتين متشابهتين في دراجة مثلا أثناء سيرها. كلتا العجلتين تسيران بنفس السرعة، ولكن ذلك لا يستلزم أن يأخذ صماماهما موضعين متشابهين تماما. فهما في هذه الحالة متحدتان في السرعة ومختلفتان في الخطوة. واختلاف الخطوة هذا هو ما يسبب شطر الصورة وأظن ذلك واضحا بقليل من التفكير.
وبالرغم من كل هذه المجهودات الجبارة مازال جهاز التفلزة للاستقبال محروما من دخول المنازل. وبالرغم من نجاح التجارب التي عملت عليه حتى الآن نجاحا كافيا، فان الأجهزة مازالت على شئ من التعقيد وصعوبة التداول لشخص عادي. والعالم بطبيعته يرغب في البساطة بقدر الإمكان كما يتمنى أن يتخلص - في منزله على الأقل - من الأجهزة ذات
المحركات الميكانيكية. فهو يأمل في جهاز للتلفزة له سهولة جهاز السمع في استعماله. فهل يقف العلم دون ذلك؟؟ . . .
قريبا سوف يتحقق له ما يريد. فمذبذب أشعة الكاثود على الأبواب والجميع ينتظره. وآمل أن آتي على ما وصل العلم فيه في رسالة قادمة.
وقبل أن أختتم هذه اللمحة عن التلفزة أريد أن أنوه ببعض نواح مختلفة تخرج عن

مجرد إرسال صور أو أشخاص.
أولا: التليتوكي وهي تلفزة أفلام سينمائية ناطقة كما تذاع الاسطوانات الموسيقية.
ولنقدر من الآن ما سيهدد دور السينما بانتشار هذه التلفزة.
ثانيا: التلفزة في الظلام أو وذلك باستعمال الأشعة تحت الحمراء بدل الضوء العادي.
وستكون هذه ساعد البحار الأعظم لخوض البحار المجهولة في ظلام حالك، وكأنه في وضح النهار. كذلك في الحروب سوف تمكن هذه من رؤية حركات العدو وسكناته وهو في ظلام حالك بدون أن يشعر.
ثالثا: التلفزة بالألوان الطبيعية، وذلك باستخدام قرص ذي ثلاث لفات من الثقوب مغطاة بثلاث زجاجات شفافة ملونة بالألوان الأحمر والأزرق والأصفر. واستعمال ثلاث خلايا كهرضوئية وثلاثة مصابيح غازية كل منها يعطي أحد الألوان السابقة.
رابعا: التلفزة المجسمة أو عرض الصور مجسمة بدل أن تكون في مستوى واحد.
خامسا: حاكي التلفزة - وكما يدل عليه أسمه هو جمع ما بين الحاكي) الجرامفون) والمتلفز. وهو إشراك الصور وحركات الأشخاص مع حديثهم وموسيقاهم على اسطوانة واحدة من اسطوانات الحاكي. بحيث برى وتسمع في آن واحد.

محمود مختار معيد بكلية العلوم

القصص

من صور الحياة - قصة واقعية

ظمأ الروح

(مهداة إلى:

للأستاذ عبد الحليم عباسي

كان فتى خيالي النزعة، أغرته هذه الأفكار السوداوية، فاندفع فيها، لا يرى أن الحياة تتسع لغير هذا الشقاء يعلق بها من مفتتحها إلى حيث الحد بين الدنيا والآخرة، ومضى تعبث الكآبة بناضر شبابه، إلى أن غدا وهو في ميعة العمر. ناحل القد، حائل اللون، رطب الجفن كأنما علق به أثر من أدمع البارحة. . وإذا ما أصغيت إليه وهو يتحدث أسرتك هذه الغنة في صوته، وهذا العمق في أفكاره، ورحت تعجب كيف يستطيع هذا الظل حمل كل هذه الشجون؟.

عرفته في بلدة الجمال - الشام - فقامت بيننا صداقة موثقة العقد، متينة الأواصر، يشوبها الإجلال من جانبي، والرثاء من جانبه، فقد كنت في نظره واحداً من هذه الملايين التي تتعثر بآمالها، وتتمرمر بأمانيها، وغبرنا على هذا زمناً إلى أن فرقت بيننا دواعي الحياة، وبقي خالداً في فكري، خالداً في روحي، ومضت سنون لم نتلاق فيها، إلى أن جاءتني منه هذه الرسالة أثبتها للقارئ، ففيها قصة طريفة:

يا صديقي:

ما كنت أظن أن كلامك يكون جداً وأنت تهزل، فلقد اعترضتني هذه - الجنية - التي شد ما حدثتني عنها، واستطاعت أن تلامس حياتي بعصا سحرها، فتغير منها. . ثم تمر بأناملها الجميلة على أجفاني فأغدو أبصر وأرى أن هذا الوجود ينطوي على أشياء كثيرة جميلة.

وتفصيل الخبر أني هبطت هذا البلد، وشدتني إليه ضرورات لا أستطيع الإفلات . . . منها، ومرت الأيام والشهور متشاكلة متشابهة، وقد كنت لا أزال أسدر في كآبتي، وأتخبط في مآتي أشجاني، حتى كان يوم اللقيا بهذه الساحرة، فكأنما بعثت خلقاً جديداً، واستطاعت

أن تنقي حياتي من كل هذه الأفكار الشائكة. . فلقد كانت تكبرني بأعوام، وكانت تكبرني بهذه الأفكار نقتها التجارب وأخلصتها من كل خطل، وشاء الدهر الساخر أن يكون بين أبي وزوجها علاقة. . وزوجها هذا - غفر الله له - ليس له ميزة من علم أو جاه.

غير هذا الجاه الرخيص الذي تبعثه المادة، وهو يجمع بعد إلى قبح الجهل، دمامة الشكل، وسمح لي أن أتردد إلى بيته، وراقه أن يجد أن زياراتي تبعث في زوجه روح الغبطة والسرور، فينضر فرعها الذابل، وتدب الحياة في روحها الرازح تحت هذا الألم الحبيس الذي يعج في صدرها. . وكأنه كان يشعر أن بينه وبينها عدا فارق العمر، تبايناً في الروح والفكر. .

وكنت أشعر وأنا أتردد إليها أني أقاد إلى الهاوية، فهذا الصوت الهادئ المتزن، يعيد إليك ذكرى لذة غابرة، وهذه العين غرقى في صفائها تغازل النور، محال أن يقوى على ندائها روح يتعشق الجمال. . . ولقد كنت قادراً على أن أكتمها حبي، وما حاجتي إلى الإفضاء به، وأنا لا أطلب أكثر من أن أجلس إليها ساعات ترفه عن روحي، وتغذي مشاعري، غير أنا في إحدى جلساتنا، وقد تشعب بنا الحديث، وأخذت علينا الغبطة يقظات الإرادة، سمعت صرخات روحي في داخل البدن. . . أنني في حاجة إلى الامتزاج بها، إلى الفناء في ذاتها، وكأنها أحست بما أحسست به فالتحمنا بالنظر. وقالت عينها، لا حاجة إلى الثورة - إني أحبك - فأجابت روحي من عيني - وأنا أحبك - ولكن عينها عادت فقالت إني احتقر ملذات البدن، فلا تطمع بها، فقلت وأنا أحتقرها، لقد مللتها، إن روحي هي الصادية.

. . . . .وفي تلك الجلسة أعلنت لها حبي، وباحت لي بمثله

ومن ذلك الحين، أصبحت لا أقوى على فراقها، ولا أطيق الابتعاد عنها دقيقة، ولقد تعاظم أو تضاءل الوجود - لا أدري - فأصبحت هي كل شئ فيه، واستقر حبها في أعماقي ناراً، فغدوت بجانبها أحترق.

ومرت الأيام مفعمة بالهناءة، فكنا نلتقي كل يوم، لا أرتوي من هذه الكلمات تند عن هذه الشفاه الجميلة، ولاأشبع من النظر إلى هذا المحيا الذي يبعث إليك في كل لمحة فكرة تحمل معاني الرضى عن الحياة. . .

وأشهد أن جمالها أدناني كثيراً من حمى الله. . وارتفع بنفسي إلى عالم أندى من عالمنا

هذا، يرى منه الإنسان مبلغ ما تتردى فيه الخلائق من سخافات، ومبلغ ما تنطوي عليه البشرية من حماقة.

وكنا نتخير من الأمكنة أهدأها، ونهرب بسعادتنا بعيدين عن الضوضاء والصخب، وكأنها وهي ترقى القمم، أو تنساب معي إلى الوادي دنيا من الفتنة تتحرك. . على أن هذه التشابيه والصور كانت تجيش بنفسي ولا أجرؤ على إسماعها إياها. . . فهي لا تسمح لي أن أصور تموجات النسائم على غدائرها، ولا كيف تفتضح الموسيقى والشعر، قبالة ضحكتها وبسمتها، ولقد سألتها مرة عن سر هذا الامتعاض، فقالت: ذلك أن الجمال ليس في الشكل، وإنما هو فيما وراءه. . على أن في كلامك غلواً، قلت: نعم ولا، الجمال في ما وراء الأشباح، وليس في كلامي غلواً، وكذا أنت ترين أن جمالك أمثل من أن نتطاول إلى وصفه، فصمتت ثم قالت: دع هذا وخذ في غيره.

قلت: فليكن فقد يجر إلى ما أخذنا على أنفسنا العهد بالابتعاد عنه. . . ثم تأخذ الحديث بلباقة وتديره على الوجه الذي تريد، مبتعدة فيه عن كل ما من شأنه أن يستثير فيك هذا الذي يطمع فيه عباد البدن. وهي إذ تحدثك لا تجهد في إقناعك، بل تلقي الفكرة موجزة واضحة، ثم تتركك تتخيل، وتقيس وتقارن، ولك أن توافقها أو تخالفها فهذا ليس بالشيء المهم، وإنما المهم أن تفكر!.

شارف العام أن ينتهي، وأنا لا أزال في غمرة حبها أضوي جسماً، وأنمو فكراً وإحساساً، أصبحت شغلي الشاغل، لقد لهوت عن العالم، ونسيت أن به خلائق يعز عليها أن ترى آلافاً تمتزج بالمحبة، وتلتحم بالروح، حتى كان اليوم الذي سحق فيه قلبي، وتحطمت كأس سعادتي، فقد جئتها في عصاراه كالعادة، لنذهب إلى نزهة اتفقنا عليها، فجلست إليها ريثما تنهي عملها، وتصلح من شأنها، ولكني أوجست خيفة، وأنا ألاحظ عليها أثر اضطراب تحاول إخفاءه، ثم رأيتها تتحفز للكلام، وبعد لأى استطاعت أن تجمع شتيت إرادتها فقالت:

. . . . .أصغ إلي. . . . . قلت: كلي آذان

. . . . . لقد أكلتنا الألسنة. . . قالت: أو لم تسمع؟!.

قلت: لا أدري ما تقصدين؟ قالت: ستدري. إن هذه البشرية المتمرغة بالخسة، المتهفتة على الساقط من اللذة، لا ترى من الممكن أن تقوم علاقة بين متحابين، لا تمت إلى هذه الأسباب

الدنيا، ولا تنبع من هذه المنابع الآسنة التي منها يستقون علاقاتهم.

قلت، وقد قام بنفسي أن أداري ألم الصدمة: ليكن هذا فخلهم وصغائرهم، فما تصاحبنا لبذل في الخلق.

فوجمت قليلاً، ثم قالت: ليس عن غباوة تتكلم، وعاجلتها دموعها، وقد والله يا صاح رأيت أنواعاً من الدمع، فما رأيت أشجى ولا أبعث للأسى من دموع هذه الحسناء البريئة المظلومة، إنها بهذه القطرات تحاول أن تستنطق العناصر وتستشهدها على طهرها وظلم الإنسان.

قلت: هوني عليك أو بلغ الأمر إلى هذا الحد؟!. . .

قالت: أجل! ومن حين وأنا أكتمك إياه، وزوجي وأقرباؤه لقد طلبوا مني أن اقطع معك هذه العلاقات، انهم يرونها خطراً على كرامة الأسرة، وغدا يسافر بي إلى بلد ناء كتم عني أسمه وإخاله لن يعود إلا متى رحلت!!. . . . .

ودارت بي الأرض الفضاء وصرخت كالمذعور:

محال هذا، إنهم يملكون منك الجسد، أما الروح فهو وقف على محبتي، لن أدعهم - وأنا قادر - يحطمون كأس حياتي. .

كيف يفصلونك عني؟! أيفرق الروح عن الجسد دون أن يتقوض؟. . . .

ثم كانت ساعة افتضح فيها جلدي، فطفقت أبكي، لقد بكيت كثيراً، وما صحوت إلا وهي تضمني، وتبللني بمدمعها، ثم طبعت على فمي قبلة، طبعت على فمها مثلها، هي أنل وآخر قبلة، هي أثمن ما أمتلك من ذكرى. .

ومالي أشق عليك، لقد انتزعوها مني كما ينتزع الطفل عن ثدي أمه، لقد ذهبوا بأجمل حياتي، وموئل ذكرياتي.

لقد كانوا قساة، فلم يرحموا غرباء جاءوا دنياهم على عجل، ويمضون كما جاءوا.

لقد ذهب معها الصبر، فأصبحت هذه الدنيا في نظري كشراك الطائر ضيقة قفراء من كل ما يلهم العزاء.

وأنى لي أن أحمل كل هذه الدنيا من الأوصاب، فسقطت مريضاً خائر القوى، ولي هاهنا - بالمستشفى - شهران لا أبل إلا لأنتكس. .

وقد جاءتني بالأمس منها كلمة هي: (إلى الملتقى. .) إذن فهي تعرف أني بالمستشفى، بدليل أنها كتبت العنوان ورقم الغرفة، فخبرني أين تكون لقيا المرضى. . وأكبر ظني أنها مثلي مريضة.

إن الدنيا أضيق من أن تتسع للقيا القلوب الطاهرة.

إلى الملتقى. . حيث يتبع الحسن دون رقيب، وحيث تروى القلوب الظامئة إلى الجمال. . . إلى الملتقى. . . إلى الملتقى. . .

شرق الأردن

عبد الحليم عباسي

الكتب

القيثارة السارية

لطاهر محمد أبو فاشا

قرأت ديوان هذا الشاعر الشاب فأعجبني منه تنوع موضوعاته وراقني هذا النشاط الذي يبدو في قصائده، وهذه الحركة التي تنتقل به من الوصف إلى نقد بعض مظاهر الاجتماع.

بيد أني أصارح شاعرنا بأنه قليل العناية بتهذيب شعره وإحكام قوافيه، فإن في قصائده بعض العيوب اللفظية وبعض المجازات والأخيلة التي لا يستسيغها الذوق، كما أني ألاحظ على الشاعر الفاضل أنه شغوف بالتلاعب بالألفاظ، يتدفق في غير روية، وعهدي به سليم الذوق سريع إلى معرفة مواضع الجمال فيما يقرأ من الآثار الأدبية، وليت شعري كيف تنسب مثل هذه الأبيات إلى من كانت هذه صفاته إلا أن يكون أساس ذلك الإهمال. أنظر إليه يقول:

وأني قد دعوت وبح صوتي ... وأنك لا ترق ولا تجيب

وانظر إلى قوله:

اهدمي مهجتي بصبرك هدما ... واسألي الحب في الفؤاد المهدم

وإلى قوله:

أنا بين هاتيك الحمام حمامة ... تصف الشعور بشعرها الرنان

المرء يقتله الشعور وربما ... هز الشعور الميت في الأكفان

وانظر إلى قصيدته في ملكة الجمال عند سفح أبي الهول:

يكاد أبو الهول لولا الجلال ... يعربد مما رأى حوله
وكم سبع قد من صخرة ... يحب الجمال ويصبو له
وأوهمها أنه كالجماد - لتأمنه فتطيل الوقوف
ولولا مخافته أن تخاف ... لقام يدق لها بالدفوف
إلى غير ذلك من الأخيلة التي نحب أن يخلص منها شعر طاهر إن شاء الله.
الخفيف
همام
قصة تمثيلية شعرية لعلي أحمد باكثير
ناظم هذه الأقصوصة أديب حضرمي تعجبك فيه براعة نظمه وعربية ديباجته، ويحمل بين جنبيه قلباً يخفق للعروبة التي خالطت دماءه كما يتبين لك ذلك من مقدمته النثرية التي يقول فيها (والشعب الحضرمي شعب عربي صميم تجري في عروقه دماء قريش وهمدان وحمير وكندة ومذحج) وتدور القصة حول محور واحد، ألا وهو حفلات الزواج في عاصمة الأحقاف. . . والناظم ممن يتشيعون لتعليم البنت فيقول على لسان همام (ص5)
صار فرضاً عليك أن تنشري هـ ... ذا الهدى في جماعة النسوان
فهدى الشعب من هدى أمهات ... الشعب في كل موطن وزمان
ويقول في موضع آخر في هذا الموضوع نفسه على لسان فتاة:
فيم غادرتم البنات علىجَهْـ - ل وقمتم تعلمونّ البنينا
كيف نستطيع بالجهالة يوماً ... أن نؤدي أمانة الله فينا
والناظم يجيد الوصف ويحسن التصوير مما يدل على ذوق محمود، ومقدرة قوية في رسم ما تقع عليه عيناه، فيقول مصوراً الشاي في الكأس:
لولا انتصاف الكأس خيل أنها ... في كف ساقيها تقوم بذاتها
ويسوؤه أن يرى الألاعيب والمهازل تمثل في وطنه تحت ستار الدين وهو برىء من تلك الأفاضيح الساقطة، ويهزأ برجال الدين الذين يدعون أنهم يذودون عن حياضه، ويدافعون عن بيضته وهم أبعد الناس عنه، فيسخر بهم قائلاً:
ولي الله ذو الحب ... وة والأردية الخضر
وذو المسواك في العمة ... قد أربى على الشبر
ورب المسبحة الغارق ... في التسبيح والذكر
بها يذكر في الناس ... ولا يذكر في السر
والأقصوصة على هذا المثال البديع من النظم التقليدي، وهي في أسلوبها وفنها أروع منها في روحها ومعناها، وهناك هفوات كنا نود أن يترفع عنها الناظم كما في قوله:
يوه ما أجملها من فتاة ... يوه ما أصلحها لهمام؟
صلوات الله تغمر طه ... وحماها الله من عين رام
ومثل المبالغة الممجوجة في قوله يصور الحب:
ولقد لقيت به دواهي لو ... رُعْنَ الجبال تركنها تربا
ومن حسن الحظ أن مثل هذه الأبيات قليل، ولا يشين أقصوصته مثل هذا المغمز، وإنا لنهنئه على ذلك خاصة وهو ما زال في غضارة الصبا وميعة العمر.
م
تربية الطفل
للدكتور شخاشيري
وهذا الكتاب أيضاً من الكتب التي نتناولها في غبطة وإعجاب، فما أحوجنا في حياتنا الاجتماعية إلى مثل هاتيك الكتب القيمة التي تبحث في الصحة وعلى الأخص ما يتعلق منها بالطفل.
والكتاب الذي أحدثك عنه قد سار على نهج فريد، فهو سلسلة أحاديث موضوعة على طريق الحوار بين طبيب وإحدى الأمهات، ويتناول كل حديث ناحية من نواحي حياة الطفل كتغذيته ونظافته وخصائص الأطعمة الصالحة له، وما يطرأ عليه من الأمراض. . . . الخ مما جعل الكتاب سهل المأخذ بعيد المرمى، خفيف المحمل، هذا إلى علم واسع وتفاصيل دقيقة ما أجدر الأمهات والآباء أن يستوعبوها لخير أطفالهم، ولقد أضاف الدكتور الفاضل إلى الكتاب نص محاضرته التي ألقاها في دار جمعية الحشرات

الملكية في مؤتمر المجمع المصري للثقافة العلمية وموضوعها التأمين على صحة الطفل، كما أختتم الكتاب ببعض الآراء القيمة في موضوع الطفولة لثلاث من فضليات المربيات، وإنا لنشكر للدكتور الفاضل عمله الإنساني وإخلاصه الذي يتجلى في كتابه للطفل ووالديه.

الخفيف

أدولف هتلر

زعيم الاشتراكية الوطنية مع بيان المسألة اليهودية

تأليف أحمد محمود الساداتي بدار الكتب

كتاب يقع في نحو مائة وستين صفحة من القطع المتوسط جيد الطبع، متين الورق، وضعه مؤلفه الفاضل ليشرح به حركة من أهم الحركات التي تشغل بال العالم الآن، وإنه ليسرنا أن يكون بين إنتاجنا الأدبي ما يشهد باهتمامنا بتلك الحركات الشعبية التي تخرج عنها المطابع في الغرب مئات الكتب، وإن هذا الكتاب الذي أحدثك عنه ليزيد في اغتباطنا أنه بحث منظم واف بالغرض تقرؤه فتقف على الأحوال السائدة في ألمانيا اليوم وموقف حركتها الوطنية من العالم، ولقد أحسن المؤلف جدا بما أورده من مقدمات تاريخية عن ألمانيا منذ عهد تأسيس الإمبراطورية إلى الحرب العالمية، ثم بما قام به من شرح المسألة اليهودية، وشرح النازية وبرنامجها وروحها والشيوعية في ألمانيا وموقف النازية منها إلى غير ذلك من الأبحاث الوافية، وليس ثمة ما يؤخذ على المؤلف الأديب سوى تحمسه لهتلر تحمساً ظاهراً، كاد أن يفقده في بعض المواضع اتزان المؤرخ وإنصافه، وفيما عدا ذلك فالكتاب يشهد بمجهود محمود، وهمة مشكورة.

.

محمود

ديوان صالح جودت

أتممت قراءة هذا الديوان لشاعرنا الشاب، فأحسست بروح لطيفة ونبرات ساحرة هادئة تظن في أذني، وأشهد لقد أعجبتني موسيقاه وصفاء ديباجته، ولكني عدت فنظرت في بعض القصائد نظرة تمحيص وتعقيب فوقعت عيني على بعض الأخطاء اللغوية وصدمتني بعض القوافي، ولو أن شاعرنا قد عني بنظمه أكثر من ذلك لكان لقصائده شأن غير هذا الشأن، ففيها روح وفيها شاعرية لا يمكنك أن تنكرهما عليه، بل إن شاعريته لتستميلك حتى ولو لم تكن ممن يقبلون على الشعر، هذا وإني لأنكر عليه وأعاتبه في شدة على تلك النزعة الطائشة التي جعلته وهو ذلك العصفور الغريد الوديع يضطرب في أجواء خانقة ويتعثر في أشواك موبقة، ما كان أغناه عنها، فإنه في الحقيقة لم يرجع بطائل ولم يفد شيئاً، ولعله كان في نزعته تلك متأثراً بقراءته أو مقلداً لغيره، فانك لا تجد في تلك القصائد التي جرته إليها المغالاة، تلك الروح العذبة الرقيقة، ولا تلك النغمة الهادئة الساحرة، التي تجدها في باقي قصائده. والخلاصة أن شعر صالح جودت كالذهب، ولكنه (خام) لابد أن يستخلص مما يعلق به من الأوشاب.

الخفيف

المرافعات والتوثيقات الشرعية

عني فضيلة الأستاذ الشيخ علي قراعة رئيس محكمة الزقازيق الابتدائية الشرعية بوضع (كتاب الأصول القضائية في المرافعات الشرعية - وكتاب مذكرة التوثيقات الشرعية) استوعب في الأول طرق القضاء وقواعد المرافعات الشرعية، وفي الثاني كل ما يلزم الموثق والموثقين في كتابة الإشهادات المنوعة وصور الدعاوي الشرعية، والوثائق المختلفة، مما لا يستغني عنه موظفو المحاكم الشرعية، وطلاب الحقوق، وأقسام التخصص في القضاء الشرعي، ويكون مرجعاً للقضاة والمحامين ومدرسي القانون والشريعة، ويطلبان من المكاتب الشهيرة.

العدد 64 - بتاريخ: 24 - 09 - 1934

طغيان النيل

على الشاطئ الغريق. . .

هكذا الطغيان يا نيل يجعل مصدر الحياة مورد هلكة، ومنبع الخيرات مغيض بركه، وأصل العمارة غاية دمار وخسر!!

هذه شواطئك الخضر يا نيل كانت بالأمس تتنفس بالنعيم، وتتدفق بالخير، وتترقرق

بالجمال، فأصبحت اليوم تختنق بالأخطار، وتلتطم بالمخاوف، وتهدد الحقول الغنية الخصيبة بالفاقة والجدب، وهذه مدنك البيض وقراك السمر كانت تتفيأ على ضفافك ظلال الخفض، وترمق من خلال النخل أمواجك المرسلة المسلسلة، وهي تقع بين القصب الألف ألحان الثراء والغبطة فتعز بك وتقدس لك، فأصبحت تحشد في وجهك الجنود، وتقيم بينها وبينك السدود، وتضرع إلى الله أن يصرف عنها طغيانك وجورك! وهؤلاء أبناؤك الوادعون كانوا يتعهدون بالعمل الدائب غرسك الزكي وثمرك الغالي، فيدفعون الحشرات عن القطن، ويدرؤون الطفيليات عن الذرة، ويسلسلون في الحقول نضارك الذائب، ويستقبلون بالشوق الأمل موسمك الآئب، فأصبحوا هم من هولك قائمون على رجل، لا يستقر لهم جنان من الروع، ولا يطمئن بهم مجلس من الجزع، ثم أمسوا وهم محشودون بقوة السلطان على جانبيك، من أسوان إلى مصبيك، يدافعونك مدافعة العدو، ويكافحونك مكافحة الوباء، ويكابدون في صد غارتك الجهد والجوع و (السخرة)! ذلك والقرويات ينتظرن بالقلق الجازع الغرق المخشي، ويرصدن الأهبة للهجرة المتوقعة، فهن يجمعن المتاع، ويشددن الغرائر، ويلقين النظر الحزين على القطن المكتهل على اعواده، والذرة الناشئ على سوقه!. وهكذا الطغيان يا نيل السكينة في القلب، ويفزع العدالة في الدولة، ويجعل سلام الأرض وسلامة الناس لمشيئة فرد!! وقفت منذ أيام على شاطئ من شطئانك المنكوبة، أرسل طرفي الساهم في تيارك الجارف، وداراتك المدومة، ولحجك الفائرة، ثم أرده إلى السواحل الغصانة والمزارع الغرقى، وفكري بين هنا وهناك يستقبل الذكريات القديمة، ويستخرج المشابهات الأليمة. فذكرت بهذا المنظر المحزن ترة بيني وبينك موروثة! فقد طغيت في عام 1878 على قريتي الصغيرة، فاحتملتها هي ومئات من أمثالها كما يحتمل السيل الدافع أكوام الهشيم! وكان قومي قد سمعوا بانفجارك على مقربه من سمنود، وبيننا وبينها عشرات من الأميال، ولكن ماءك الطاغي نحر هذا المفيض حتى انحدر فيه مجراك كله، فلم يكن بين السماع والرؤية إلا ريثما جزموا المتاع وشدوا المطايا، ثم أدركهم فيضانك قبل الرحيل، فتركوا الأرزاق وطلبوا النجاة. فحمل الكبار الصغار، والطوال القصار، والنساء الأطفال، ومضوا يتحسسون الطرق وتحت الماء، ويتلمسون المصاعد فوق الارض، حتى بلغوا - وما كادوا يبلغون - ساحل نهر (شبين)، وهو على بضع دقائق من القرية، وهنالك وقف المهاجرون على الشاطئ العالي بين البحرين، يودعون بالنظر العبران قريتهم الهالكة، والماء يغيب الدور ويبتلع الشجر، حتى لم يبق ظاهرا منها الا شرفات بيت الله، وغرفات بيت العمدة. ثم تمزقوا في البلاد يطلبون المأوى عند ذوي القربى أو عند أولي المودة، حتى أنحسر الماء فعادوا، واستأنفوا عمارة القرية فعادت ثم لا يزالون يؤرخون الحوادث بهذه (الغرفة)، ويهولون في أحداث تلك الهجرة، ويستعدون كل عام لطغيان النهر، قبل أن يئون أوانه بشهر! وهكذا الطغيان يا نيل يفرق الآلاف، ويشتت الوحدة، ويوهن بين الأوداء أسباب المودة! يطغى الحكم كما طغيت يا نيل فيجرف السدود، ويتعدى الحدود، ويتخطى الحواجز. ثم يدور بالتجسس، ويفور بالإرهاب، ويقذف بالتهم، ويسخر قوى الدولة وموارد الأمة ومرافق الناس لسلطان أمره وطماح نفسه ونفاذ حكمه. وأصل الطاغية كان مثلك يا نيل فياض اليد فقدسه الناس، جارف التيار فاتبعه الشعب، ثم ناصرته شهوته الخاصة، وساعدته غفلة العامة، فرد أهواء النفوس إلى هواه، وشورى العقول إلى رأيه، وحدود القوانين إلى أرادته، وسطوة الجماعة إلى يده، ثم تفيض هذه القوى المتجمعة عن طاقة الفرد فيطغى، ويزيد السلطان المفرط على غرور الإنسان فيتأله، ويومئذ لا تسأل عن حدود الله كيف تطمس، ولا عن رسوم العدل كيف تدرس، ولا عن حقوق الناس كيف تسفه، ولا عن نظام الأمر كيف يتبدد، ولا عن جموح الأثرة كيف يبغى ويتحكم.

وهكذا الطغيان يا نيل يعطل منابع الخير، ويبدل طبائع الفطرة، ويقتل مواهب العقل، ويغمر بالظلام آثار العلم ودلائل العقل وشواهد الكفاية.

ويطغى الأدب كما طغيت يا نيل فلا يكترث للقواعد، ولا يعوج بالأصول، ولا يحفل بالمنطق، ولا يأبه للخلق، ثم يرغي بالبذاء، ويزيد بالهراء، ويطفح باللغو. وكان الأدب الطاغي مثلك يا نيل عذب الشمائل، سهل الشريعة، فروى الناس من نبعه، وبردت أكبادهم على نداه. ثم أنتكس المجتمع، وانقلبت الأوضاع، وفسدت المقاييس،

استفاضت الدعوى، وتبجح الغرور، وأستبهم الأمر، فرأى سلاطة اللسان أجدى عليه من براعة الذهن، والتواء الفكر أنفع له من سلامة القياس، ولؤم الوقيعة أشد لسلطانه من كرم النفس، وشهوة الجدل أقرب إلى قلبه من حب الحقيقة. وفي العهود التي تسطو فيها اليد ويستخذى القانون، يسلط فيها اللسان ويستكين المنطق!

ثم يمكن لمثل هذا الطغيان تكرم الأدباء عن مقام المسافهة، ضنا بأخلاقهم على الغمز، وبإحساسهم على المضاضة وفي التاريخ السياسي والأدبي يا نيل أمثال وأشباه! ولكنها تنحسر كلها عن جوهر الحق، ومحض الخير، ولباب الجمال، كما تنحسر أنت عن هذه السواحل والجزر والقرى، بحكم الطبيعة ومشيئة الله!

أحمد حسن الزيات

أستنوق الجمل. . .

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال الشاب: لا قبل لي بهذا التعب المعنى الذي يسمونه (الزواج) فما هو إلا بيت ثقله على شيئين: على الأرض، وعلى نفسي، وامرأة همها في موضوعين: في دارها، وفي قلبي، وما هو إلا أطفال يلزموني عمل الأيدي الكثيرة من حيث لا أملك إلا يدين أثنتين، وأتحمل فيهم رهقا شديدا كأنما أبنيهم بأيامي، وأجمع هموم رؤوسهم كلها في رأس واحد هو رأسي أنا، يولد كل منهم بمعدة تهضم لتوها وساعتها، ثم لا شئ معها من يد أو رجل أو عقل ألا هو عاجز لا يستقل، متخاذل لا يطيق ولا يقدر.

قال: وإذا كان أول الزواج أي عسله وحلواه أنه امرأة تذهب عزوبتي - فأنا وأمثالي ما نزال في عسل وحلوى، ولكل وقت زواج، ولكل عصر أفكار، وما أسخف الليالي إذا هي ترادفت على ضرب واحد من أحلامها، فهذا يجعل النوم حكماً بالسجن عشر سنوات. . .!

قال: وإذا أردت أن تستكشف القصة فأعلم أننا نحن العزاب قوم كرجال الفن، رذيلهم فنية، وفضيلهم فنية، فتلك وهذه بسبيل، وكل شئ في الفن هو لموضعه منه لا من غيره، فإذا قلت: هذا خال من الفضيلة عار من الأدب، وعبت الفن لذلك - فما هو إلا كعيبك وجه المرأة الجميلة لأنه خال من لحية. .! هات الظلام سواده، فانه لون كالنور وإشراقه، لا بد من كليهما، إذ المعنى الفني في تناسب الأشياء لا في الأشياء ذاتها، ويد الفني كيد الغني، هذه لا يقع فيها الذهب إلا ليتعدد ثم يتعدد، وتلك لا تقع فيها المرأة إلا لتتعدد ثم تتعدد، وفي كل دينار قوة جديدة، وفي كل امرأة فن جديد.

قال: ومذهبنا في الحياة أن نستمع بها ضروبا وأفانين، من أطلق أنواعاً لم يقتصر على نوعين، ومن قدر على نوعين يرض الواحد، ولو أن زوجة كانت من أشعة الكواكب أو من قطرات الندى لثقل منها على حياتنا ما يثقل من الحديد والصوان، إذ هي لا تلد أشعة الكواكب ولا قطرات ندى، وحسب الجسد برأس واحد حملاً.

قال: ومن الذي تعرض عليه الحياة سلامها وتحياتها وأشواقها في مثل رسالة غرام ثم يدع هذا ويسألها غضبها وخصامها ولجاجتها في مثل قضية من قضايا المحاكم، كل ورقة فيها تلد ورقة. .!

ثم قال الشاب: لا تحسبن أن المرأة هي السافرة عندنا، ولكن اللذة هي السافرة، وما أحكم الشرع! أقول لك وأنا محام يقرر الحقيقة: - ما أحكم الشرع الذي لم يرخص في كشف وجه المرأة الا لضرورة، فأن الواقع في الحياة أن هذا الكشف كثيرا ما يكون كنقب اللص على ما وراء النقب، وإذا كسر ما فوق القفل من الخزانة المكتنز فيها الذهب والجوهر فالباب الحديد كله سخرية وهزؤ من بعد. .!

هذه عقلية شاب محام طوى عقله على الكتب القانونية وطوى قلبه على مثلها من غير القانونية. وليس يمترى أحد في أنها عقلية السواد من شبابنا المثقف الذي لبس الجلد الأوربي. ومن البلاء على هذا الشرق أنه ما برح يناهض المستعمرين ويواثبهم غافلا عن معانيهم الاستعمارية التي تناهضه وتواثبه، جاهلا أن أوربا تستعمر بالمذاهب العلمية كما تستعمر بالوسائل الحربية، وتسوق الأسطول والجيش، والكتاب والأستاذ، واللذة والاستمتاع، والمرأة والحب. ولو أن عدوا رماك بالنار فاستطارت في ثيابك أو متاعك لما دخلك الشك أن عدوك هو النار حتى تفرغ من أمرها. فكيف لعمري غفل الشرقيون عن أخلاق نارية حمراء يأكلهم بها المستعمرون أكلا كأنما ينضجونهم عليها ليكونوا اسهل مساغاً، وألين أخذاً، وأسرع في الهضم. لم افهم انا من كلام صاحبنا

الشاب ومعانيه الا أن أوربا في أغصابه، وأما مصر ونساؤها ورجالها فعلى طرف لسانه لا تكون إلا صيحة، وليس بينه وبينها في الحياة عمل إلا من ناحية لذته بها، لا من ناحية فائدتها منه.

وتلك المعاني كلها مشتق بعضها من بعض، ومرجعها إلى اصل واحد، كالأمراض التي يبتلي الجسم

يمهد شئ منها لشيء، ما دامت طبيعة هذا الجسم زائفة أو مختلة، أو متراجعة إلى الضعف، أو ذاهبة إلى الموت.

وأولئك شبان وقف بهم الشباب موقف بلاده، فلا يخطر إلى الرجوله، ولا يكمل بنموه الاجتماعي كما يكمل الجل الوطني، فمن ثم يكون خواراً لا يستطيع أن يحمل أثقالا مع أثقاله ويستوطئ العجز والخمول فلا يكون إلا قاعد الهمة رخو العزيمة، قد استنام إلى أسباب عجزه وتخاذله، ولا يكون في بعض الاعتبار إلا كالمريض يعيش بمرضه حميلة على ذويه ضجعة لا يمشي، ثومه لا ينتهض، مستريحاً لا يعمل.

وبهذه المكسلة الاجتماعية في الشبان يبدأ الشعب يتحول من داخله فينصرف عن فضائله ويتخذ في مكانها فضائل استعارة يقلد فيها قوما غير قومه، ويجلبها لبيئة غير بيئته، ويقسرها على أن تصلح له وهي فساد، ويكرهها على أن تنفعه وهي ضرر، وتلك حالة يغامر فيها الشعب بكيانه فلا تلبث أن تصدعه وتفرقه،

ولو أن في السحاب مطراً وغيثاً لما كان له في كل ساعة لون مصبوغ، ولو أن في الشباب دينا لما صبغته تلك الاخلاق الفاسدة، وما ذهاب الحارس عن مكان إلا دعوة للصوص اليه، وهل كان الدين إلا واجبات وتبعات وقيوداً يراد من جميعها إعداد الإنسان لأمثالها في الأجتماع، حتى يقر في إنسانيته الصحيحة على النحو الذي يصلح له منفرداً ويصلح له مجتمعاً؟ فليست الزوجة وحدها هي التي خيرت الشاب بل خسره معها الوطن والدين والفضيلة جميعاً، وبهذا أنعكس وضعه من الجماعة، فوجب في رأيه أن تسخر الجماعة له وان يستقل هو بنفسه. وبهذا العكس وهذا السقوط وهذا الاستمتاع الذي يجد سعادته في نفسه اصبح أولئك الشبان كأنما حقهم على المجتمع أن يقدم لهم بغايا لا زوجات. . . . بغايا حتى من الزوجات. . . .!

قبح الله عصراً يجهل الشاب فيه أن الرجل والمرأة في الوطن كلمتان تفسر الإنساني إحداهما بالأخرى تفسيرا إنسانيا دينيا بالواجبات والقيود والأحمال، لا بالأهواء والشهوات والانطلاق، كما تفسر الحيوانية الذكر والأنثى.

والنفس الدنيئة أو المنحطة في أخلاقها ومنازعها من الحياة لا تكون إلا دنيئة أو منحطة في أحلامها وأخيلتها الروحية، دنيئة كذلك في طاعتها إن قضت عليها الحياة بموضع الخضوع، دنيئة في حكمها إن قضت لها الحياة بمنزلة من السلطة. ولو تنبهت الحكومة لطردت من عملها كل موظف غير متأهل، فأنها إنما تستعمل شراً لا رجلاً يمنع الشر، وكل شاب تلك حاله هو حادثة ترتدف الحوادث وتستلزمها، وما يأتي السوء إلا بمثله أو بأسوأ منه.

ليس للزواج معنى إلا إقرار طبيعة الرجل وطبيعة المرأة في طبيعة ثالثة تقوم بالاثنتين معاً، وهي طبيعة الشعب. فمن سقوط النفس ولؤمها ودناءتها أن يفر الشاب القوي من تبعة الرجولة، فلا يحمل ما حمل أبوه من واجبات الإنسانية، ولا يقيم لوطنه جانبا من بناء

الحياة في نفسه وزوجه وولده، بل يذهب يجعل حظ نفسه فوق نفسه وفوق الإنسانية والفضيلة والوطن جميعا، ولا يعرف أن انفلاته من واجبات الزواج هو إضعاف في طبيعته لمعنى الإخلاص الثابت، والصبر الدائب، والعطف الجميل في أي أسبابها عرضت.

ومن ُفسولة الطبع ولؤمه ودناءته أن يهرب هذا الجندي من ميدانه الذي فرضت عليه الطبيعة الفاضلة أن يجاهد فيه لأداء واجبه الطبيعي متعللا لفراره المخزي بمشقة هذا الواجب وما عسى أن يعاني فيه كما يحتج الجبان بخوف الهلاك وعناء الحرب. ومن سقوط النفس أن يرضي الشبان كساد الفتيات وبوارهن على الوطن، وأن يتواطئوا على نبذ هذه الأحمال وإلقائها في طرق الحياة وتركها لمقاديرها المجهولة كأنهم أصلحهم الله لا يعلمون أن ذلك يضيع بأخواتهم الفتيات، ويضيع بوطنهم في أمهات الجيل المقبل، ويضيع بالفضيلة في تركهم حمايتها وتخليهم عن حمل واجباتها وهمومها

السامية. إن الجمل إذا أستنوق تخنث ولان وخضع، ولكنه يحمل، وهؤلاء إذا استنوقوا تخنثوا ولانوا وأبوا أن يحملوا.

ومن سقوط النفس في الرجل النكس العاجز المقصر أن يحتج لعزوبته بعلمه وجهل الفتيات، أو تمدنه وزعمه أنهن لم يبلغن مبلغ الأوربية، ولا يدري هذا المنحط النفس أن الزواج في معناه الإنساني الاجتماعي هو الشكل الآخر للاقتراع العسكري، كلاهما واجب حتم لا يعتذر منه إلا بأعذار معينة، وما عداها فجبن وسقوط وإنخذال ولعنة على الرجولة.

ومن سقوط النفس أن يغنى الشباب عن الزواج لفجوره فيقره ويمكن له، وكأنه لا يعلم أنه بذلك يحطم نفسين، ويحدث جريمتين، ويجعل نفسه إلى الدنيا لعنتين.

ومن سقوط النفس أن يغتر الشاب فتاة حتى إذا وافق غرتها مكر بها وتركها بعد أن يلبسها عارها الأبدي، فما يحمل هذا الشاب إلا نفس لص خبيث فاتك، هو أبداً عند من يسرقهم في باب الخسائر والنكبات، لا في الربح والمكسب، وعند المجتمع في باب الفساد والشر، لا في باب المصلحة والخير، وعند نفسه في باب العمل والشرف.

فسقوط النفس وانحطاطها هو وحده نكبة الزواج في اصلها وفروعها الكثيرة التي منها المغالاة والشطط في المهور، ومنها بحث الشاب عن الزوجة الغنية وإهمال ذات الدين والأصل الكريم لفقرها، ومنها ابتغاء الزوجة رجلاً ذا جاه أو ثراء عزوفها عن الفاضل ذي الكفاف أو اليسير على غنىً في رجولته وفضائله، كأنما هو زواج الدينار بالسبيكة، والسبيكة بالدينار، وكأن الطبيعة قد ابتلت هي أيضاً بالسقوط، فأصبحت تعتبر الغني والفقير، فتجعل في دم أولاد الأغنياء روح الذهب واللؤلؤ والماس، وتلقى في دم أولاد الفقراء روح النحاس والخشب والحجارة. . . على حين أن الجميع مستيقنون لا يتدافع اثنان منهم في أن الطبيعة لا تبالي إلا بوراثة الآداب والطباع.

وأعظم أسباب هذا السقوط في رأيي هو ضعف التربية الدينية في الجنسين، وخاصة الشبان، ظناً من الناس أن الدين شأن زائد على الحياة، مع أنه هو لا غيره نظام هذه الحياة وقوامها في كل ما يتصل منها بالنفس. وليست المدنية الصحيحة كما يحسب المفتونون هي نوع المعيشة للحياة ومادتها، بل نوع العقيدة بالحياة ومعانيها. وإلى هذا ترى كل مبادئ الإسلام، فأن هذا الدين القوي الإنساني لا يعبأ بزخارف كهذه التي تتلبس بها المدينة الأوربية القائمة على الاستمتاع وفنون اللذات وانطلاق الحرية بين الجنسين، فهذا بعينه هو التحطيم الإنساني الذي ينتهي بهدم تلك المدينة وخرابها، وإنما يعبأ الإسلام بالعقيدة التي تنظم الحياة تنظيماً صحيحاً متساوقاً وافياً بالمنفعة، قائماً بالفضيلة، بعيداً من الخلط والفوضى.

ويقابل ضعف التربية الدينية مظهراً آخر هو سبب من أكبر أسباب السقوط، وهو ضعف التربية الاجتماعية في المدرسة، وإلى الدعة والراحة، وفرارها من حمل التبعة (المسئولية) التي هي دائماً أساس كل شخصية قائمة في موضعها الاجتماعي. وبذلك الضعف وذلك السقوط وضعت المرأة البغي العاهرة في الموضع الطبيعي للأم، ونزل الرجل السافل المنحط في المكان الطبيعي للأب، وتحللت قوى الوطن بانحراف عنصرية المعظيمين عن طبيعتهما، وجعلت فضيلة الفتيات المسكينات تتآكل من طول ما أهملت، وأخذ سوس الدم يتركها فضائل نخرة ولا عاصم ولا دافع إلا قوة القانون وسطوته، ما دامت الفضيلة في حكم الناس وتصريفهم قد تركت مكانها للقوانين. وما دامت قوة النفس قد أخلت موضعها للقوة التنفيذية. لقد قتلت روحية الزواج، وهي على كل حال جريمة قتل، فمن القاتل يا صاحبنا المحامي؟

قال الشاب: هو كل رجل عَزَب

قلت: فما عقابه؟

فسكت ولم يرجع إلي جواباً

قلت كأني بك قد تأهلت وخلاك ذم. فما عقابه؟

قال: إلى أن تبلغ الحكومة أو أن تعاقب هؤلاء العزاب، فليعاقبهم الشعب بتسميتهم أرامل الحكومة. . . وأحدهم: رجل أرملة الحكومة. . .

ثم قال: اللهم يسرها ولا تجعلني رجلاً بغلطتين: غلطة في نساء الأمة، وغلطة في ألفاظ اللغة.

طنطا
مصطفى صادق الرافعي
انقلاب عظيم في السياسة الدولية
روسيا البلشفية في عصبة الأمم
للأستاذ محمد عبد الله عنان

تجوز العلائق الدولية في تلك الآونة أعظم انقلاب عرفته منذ الحرب الكبرى، وتستعد عصبة الأمم لإستقبال أعظم حادث عرفته في تاريخها، فمنذ أشهر يجري الحديث بأن روسيا السوفيتية ستدعى إلى الالتحاق بعصبة الأمم. وستغدو عما قريب عضواً فيها، وتتمتع بكرسي دائم في مجلسها. وقد كان ذلك مثار دهشة وريب ممن يعرفون ظروف روسيا السوفيتية، ونزوعها إلى التباعد عن الدول الغربية، وما تقضي به طبيعة ونظمها من مخاصمة الحكومات (الرأسمالية)، ومناوأتها بكل الوسائل الخفية، والعمل على هدمها وهدم النظم التي تحميها، إضرام نار (الثورة العالمية). وقد كان للبلاشفة في عصبة الأمم منذ قيامها رأي يناقض ما يرونه اليوم كل المناقضة، فقد كانت في نظرهم عصابة من الدول الرأسمالية تحركها هذه الدول وتوجهها كيف شاءت، وهيئة إستعمارية منافقة تعمل من وراء ستار لتحقيق غايات الاستعمار الغربي، وأداة لتمكين نير الأمم القوية الغالبة من أعناق الأمم الضعيفة المغلوبة، وكانت الحوادث تؤيد كثيراً من هذه الريب الظنون، فلم تر الأمم الضعيفة ولاسيما الأمم الشرقية شيئاً من الأنصاف على يد عصبة جنيف، بل إبتدعت لها نظام الانتدابات أو الحماية المقنعة لتسبغ على استعبادها صفة مشروعة، ولم تحول مرة أن تحد من مزاعم الدول الاستعمارية أو أطماعها - وهذه الدول هي بعينها التي تسيطر على مجلس العصبة - ولم تجرؤ مرة على أن تصدر في أي المسائل التي طرحت أمامها أي قرار يناقض آراء هذه الدول أو غاياتها، ولازلنا نذكر موقفها من النزاع بين تركيا وإنكلترا على كردستان، والصراع بين الصين واليابان على منشوريا، وخذلانها حينما احتلت إيطاليا كورفو، وتملها فيما اقتضته من العراق شرطاً لالتحاقها بالعصبة، وموقفها من أماني فلسطين وسوريا، ولا زلنا نذكر بالأخص موقفها العقيم من مسألة نزع السلاح وفشلها الذريع في معالجتها، وسواء كانت روسيا السوفيتية مخلصة في رأيها بالنسبة لعصبة الأمم أم كانت تمليه بواعث السياسة فقط، فأن العصبة لم تحقق خلال هذه الأعوام العديدة من حياتها شيئاً مما علق عليها من الآمال في إنصاف الشعوب المظلومة أو تخفيف الخصومات القوية أو توطيد دعائم السلام.

والآن ماذا حدث؟ لقد تورطت العلائق الدولية خلال الأعوام الأخيرة تطوراً سريعاً مدهشاً، وأخذت روسيا تخصم من خصومتها للدول الغربية شيئاً فشيئاً، وأخذت الدول الغربية في التقرب من حكومة موسكو البلشفية، بعد ما لبثت أعواماً تحاول القضاء عليها، وتحشد لمناوأتها كل ما استطاعت من القوى الخفية والظاهرة، وعاد عهد التوازن الأوربي القديم وعهد المعاهدات السرية والمحالفات السياسية والعسكرية، وغاض ذلك الأفق المصطنع الذي ساد فيه حديث السلام والتضامن الدولي مدى حين.

وقد كان من الطبيعي أن يعتبر التحاق روسيا بعصبة الأمم عاملاً في صفاء الأفق الدولي، وتعضيد قضية السلام، لأن تباعدها عن الدول الغربية كان عقبة دائمة في سبيل تقدم التفاهم الدولي واستقرار العلائق الدولية، وعدم اعترافها بالعصبة يعرض جهودها في سبيل السلام للانهيار: هذا على الأقل ما كان يتردد في دوائر جنيف حبط مسعى في سبيل التفاهم أو مجهود في سبيل نزع السلاح. ولكن التحاق روسيا اليوم بعصبة الأمم يدلي بمعان أخرى. وروسيا لم تغير رأيها في العصبة ولا في الدول (الرأسمالية) التي تتكون منها، ولكن روسيا اليوم تعلق على هذا الانضمام آمالاً كبيرة وترى أنه يحقق لها من المصالح ما لم تحققه سياسة القطيعة والعزلة، والسياسة الغربية التي تسعى منذ حين لتحقيق هذا الانضمام تحاول أن تقنعنا بأنه يزيد العصبة قوة ويزيد كلمة أوربا توحيداً، ويقرب أمد التفاهم في مسألة نزع السلاح، ويعاون على استقرار السلم في أوربا، ولكن الحقيقة أن هذه النظرية القديمة قد تطورت اليوم، وما ترشيح روسيا لدخول العصبة إلا نتيجة لسياسة التوازن الأوربي الجديدة التي ظهرت بوادرها قوية منذ قيام الحركة الوطنية الاشتراكية في ألمانيا وظهورها بمظهر المهدد لسلام أوربا، وفشل مفاوضات نزع السلاح وعود فرنسا صراحة إلى السياسة

القومية القديمة بحجة الدفاع عن نفسها أمام الخطر الألماني. ومنذ عامين ونحن نشهد نتائج هذا التطور الجديد، في وقوع الجفاء بين ألمانيا وروسيا أولاً، ثم انتهاز فرنسا لهذه الفرصة وتقربها من روسيا، وتفاهم الدولتين على إحياء التحالف الفرنسي الروسي القديم الذي كان قائماً قبل الحرب، ثم مساعي السياسة الفرنسية المتواصلة في جمع كلمة دول أوربا الشرقية حولها في كتلة واحدة تخاصم ألمانيا جميعاً، وحملها حليفاتها دول الاتفاق الصغير على الاعتراف
بروسيا السوفيتية إلى عصبة جنيف.

ولروسيا صلة قديمة بعصبة الأمم وإن لم تكن من أعضائها، فقد اشتركت في لجنة نزع السلاح ومؤتمراته بصفة رسمية منذ سنة 1925، وقدمت أليها عدة مشاريع لنزع السلاح كانت جميعها مثار البحث والمناقشة ولكنها رفضت جميعاً، وكانت السياسة الروسية خلال هذه الأعوام تثار على خصومتها لعصبة الأمم وعلى الطعن فيها وفي نزاهة مقاصدها، وتتخذ من فشل مؤتمر نزع السلاح دليلاً على نفاق الدولة الغربية وتمسكها بسياسة الحرب السوفيتية. أما اليوم فأن روسيا لا تأتي التفاهم مع الدول الغربية والاندماج في عصبة جنيف. ووراء هذا التطور الخطير في سياسة البلاشفة عاملان جوهريان: الأول حوادث الشرق الأقصى، والثاني موقف الدول الغربية من روسيا السوفيتية، فأما من الشرق الأقصى حيث تسيطر روسيا على أراض ومصالح عظيمة، فقد نشط الاستعمار الياباني في الأيام الأخيرة نشاطاً عظيماً وأنتزع إقليم منشوريا من الصين، ولم تحفل اليابان باحتجاج الدول الغربية أو تدخل عصبة الأمم، وآثرت أن تنسحب من العصبة لكي تكون مطلقة اليدين في تنفيذ برنامجها الاستعماري، ولم تحجم عن أن تصرح بأنها تعتبر الصين ميدان نشاطها وتوسعها دون غيرها من دول الغرب، وإنها ستقاوم كل محاولة جديدة تقوم بها الدول الغربية لتوسيع نفوذها أو مصالحها في الصين، ولما كانت روسيا تجاوز اليابان في الشرق الأقصى في أكثر من منطقة، فأن هذه السياسة اليابانية الجديدة التي تؤازرها عسكرية قوية تهدد أملاكها ومصالحها أعظم تهديد، وروسيا تريد من أجل ذلك أن تصفي خصومتها مع الدول الغربية لكي تستطيع أن تتفرغ لمقاومة هذا الخطر. وأما عن موقف الدول الغربية إزاء روسيا السوفيتية، فأن هذه الدول قد نبذت خصومتها المطلقة القديمة لروسيا بعد ما اقتنعت بأنه يستحيل عليها أن تسحق الثورة البلشفية، وبعد ما تطورت البلشفية ذاتها وتركت كثيراً من تطرفها القديم وآثرت جانب الاعتدال، أصبحت روسيا تميل إلى العودة إلى حظيرة أوربا القديمة والتفاهم مع الدول الغربية و! عطاء بعض الضمانات السياسية والاقتصادية، وقد كانت السياسة الفرنسية روح هذه التطور كما بينا لأن فرنسا أشد الدول اهتماماً باكتساب تلك القوة العظيمة في شرق أوروبا، لتعود كما كانت قبل الحرب مصدراً للخطر على ألمانيا يزعجها ويشغلها.

وقد نجحت السياسة الفرنسية في إقناع إنكلترا وإيطاليا بتعضيد التحاق روسيا بالعصبة، وهذه الدول هي التي تسيطر على مجلس العصبة (بعد انسحاب اليابان وألمانيا) وجرت مفاوضات تمهيدية بين فرنسا ومعظم الدول المنضمة إلى العصبة لتوافق على قبول روسيا، واستطاعت أن تحقق الأصوات اللازمة لذلك، ويشترط لقبول الدولة المرشحة أن يؤيد قبولها ثلثا أصوات الجمعية العمومية وإليك ما ورد في ميثاق العصبة بخصوص ذلك.

كل دولة، أو ملك مستقل (دومنيون) أو مستعمرة تحكم نفسها حرة لم يرد أسمها) في الملحق (ملحق الدول المنضمة) تستطيع أن تغدو عضواً في العصبة إذا وافق على دخولها ثلثا الجمعية العمومية بشرط أن تقدم الضمانات اللازمة على إخلاص مقاصدها وعلى مراعاة تعهداتها الدولية، وأن تقبل القواعد التي تقررها العصبة بخصوص القوات (والتسليحات العسكرية والبحرية والجوية) (المادة الأولى الفقرة الثانية).

تتآلف الجمعية العمومية من ممثل أعضاء العصبة، وتجتمع في أوقات معينة أو في) وقت آخر إذا اقتضت الظروف ذلك في مركز العصبة أو في محل آخر يختار لذلك، وتختص الجمعية بالنظر في كل مسألة تدخل في دائرة نشاط العصبة أو تتعلق بسلام العالم، ولا يجوز لأي عضو في العصبة أن يختار لتمثيله في الجمعية أكثر من ثلاثة (مندوبين ولا يحق له اكثر من صوت) (المادة الرابعة)

وأما عن مجلس العصبة فقد ورد الميثاق ما يأتي: (يتكون المجلس من ممثلي الدول

الكبرى المتحالفة والمشتركة، وكذلك من ممثلي أربعة أخر من أعضاء العصبة. وهؤلاء الأربعة تختارهم الجمعية حسب رغبتها وفي الوقت الذي تختاره لذلك. . . ويستطيع المجلس بموافقة أغلبية الجمعية أن يعين أعضاء آخرين من أعضاء العصبة يكون لهم كرسي دائم في المجلس، ويستطيع بنفس الطريقة أن يزيد في عدد أعضاء العصبة الذين تختارهم الجمعية للمثول في المجلس) (المادة الرابعة فقرة أولى وثانية)

أوردنا هذه النصوص لنبين الإجراءات اللازمة لالتحاق دولة ما بالعصبة، ثم لنبين أهمية الكرسي الدائم في المجلس، ذلك أن روسيا مرشحة للفوز بكرسي دائم في المجلس إلى جانب باقي الدول العظمى، وقد تمت الإجراءات الخاصة بترشيح روسيا في الجمعية العمومية، وحصلت روسيا على أكثر من ثلثي أصوات الجمعية، ولم يعارض في قبولها

سوى ثلاث دول أو أربع هي سويسرا وهولندا والأرجنتين وبلجيكا، وعقب ذلك دعوة العصبة لروسيا للانضمام إليها وقبول روسيا لهذه الدعوة، وبذا تمت الإجراءات وغدت روسيا عضواً في عصبة الأمم، أو بعبارة أخرى في الهيئة التي شد ما خاصمتها وحملت عليها، ومما يلفت النظر أن هذه الإجراءات تجري وروسيا بعيدة عنها لا تحرك ساكناً ولا تصرح بشيء ولا تعلق صحفها بكلمة، ولتفينوف المشرف على الشئون الخارجية الروسية يقيم في أحد مصايف فرنسا الجنوبية. ذلك أن هذه الحركة كلها من صنع فرنسا وهي التي تحمل كل أعبائها وتسهر على تنفيذها، وقد جرت جميع المفاوضات بشأنها وراء الستار مما أدى إلى احتجاج بعض أعضاء العصبة، فقد حمل مستر دي فاليرا ممثل أيرلندة على هذه السرية، ونوه بما فيها من الشذوذ. ولكن كل شيء يسير مع ذلك وفقاً للبرنامج المرسوم.

ومن المعروف أن دخول تركيا في العصبة إنما هو نتيجة لدخول روسيا فيها. وقد كانت تركيا تحذو حذو حليفتها الكبيرة في موقفها إزاء العصبة وتنظر إليها بنفس نظرتها، وهي الآن تسير وراءها في سياستها الجديدة.

ولهذا التطور الذي انتهى بإقبال روسيا على عصبة الأمم واندماجها في زمرة الدول الغربية مغزى عظيم فيما يتعلق بمصاير روسيا البلشفية ذاتها، فقد كان شعار موسكو منذ ظفر البلشفية في سنة 1917، خصومة العالم (الرأسمالي) كله، والعمل على إضرام نار الثورة العالمية في سائر جنباته، ولم يقبل البلاشفة في ذلك أي مناقشة أو هوادة، وكانت الشيوعية تتقدم في غزو الدول الصناعية تقدماً حثيثاً، وتؤازرها موسكو بكل ما وسعت. ولكن البلشفية لم تستطع أن تعيش طويلاً بمثلها وغايتها المتطرفة ولم تلبث أن تأثرت بقطيعة العالم ومقاومته، اضطرت أخيراً أن تسلك مسلك الاعتدال سواء في سياستها الداخلية أو الخارجية. ورأى سادة موسكو أن موارد روسيا البلشفية وقواها المادية والمعنوية تتحطم تباعاً أمام ضربات الدول الغربية، وأن روسيا لا تستطيع الحياة إلى الأبد في ظل نظام يؤلب عليها العالم كله، ويحرمها من كل عطف وتعاون، فجنحوا إلى تغيير السياسة القديمة ومدوا يدهم إلى الدول الغربية، ولم تهمل الدول الغربية الانتفاع بهذه الفرصة فمدت يدها إلى روسيا وجذبتها إلى حضيرتها، فالآن نستطيع أن نقول أن البلشفية قد دخلت في دور

انحلالها، وأنها تنزل شيئاً فشيئاً عن مثلها وغاياتها الثورية المتطرفة، وأن روسيا تعود شيئاً فشيئاً إلى حظيرة الماضي، في ظل نوع من اشتراكية الدولة لا يلبث أن يستقر أو يختفي مع الزمن.

وترى الدولة الغربية أن دخول روسيا في العصبة بقوتها كهيئة دولية ويزيد في هيبتها ونفوذها في سير السياسة الأوربية خصوصاً بعد أن غادرتها اليابان ثم ألمانيا. وقد يكون ذلك صحيحاً من الوجهة المحلية، لأن العصبة تتخلص بذلك من خصم قوي كان يشتد في مناوأتها، وتكسب نفوذاً جديداً في مسائل أوروبا الشرقية. ولكن العصبة لا تكسب كثيراً من الوجهة العامة، ذلك لأنها قد خسرت كثيراً من هيبتها ونفوذها خلال الأعوام الأخيرة، ونستطيع أن نقول إنها فقدت نهائياً ثقة العالم كعامل في توطيد السلم العالمي، وأداة من أدوات التفاهم الدولي والعدالة الدولية، وقد اختفت مثل العصبة القديمة بعد تخبط وفشل استمرا منذ قيامها، وبعد أن قدمت الأدلة العملية العديدة على أنها لا تستطيع العمل إلا في الدائرة التي ترسمها الدول المستعمرة المسيطرة على مجلسها وعلى إرادتها. على أنه تترتب على هذا التطور نتيجة هامة هي توطيد

دعائم التوازن الأوربي وإقصاء شبح الحرب من أوروبا إلى حين. ذلك أن وقوف روسيا إلى جانب فرنسا ودول الاتفاق الصغير على نحو ما بينا القوى الجبهة الشرقية المعادية لألمانيا، ويحمل ألمانيا على التأمل والتريث، ويزيد من جهة أخرى في طمأنينة فرنسا، وفرنسا وألمانيا هما طرفا الخصومة الأوربية، وعلى موقفها وعلائقهما يتوقف السلام والحرب إلى حد كبير. وهذا التحالف بين فرنسا وروسيا يعود بنا إلى ما قبل الحرب، وهو نتيجة طبيعية للسياسة التقليدية التي سارت عليها روسيا وفرنسا منذ الحرب الفرنسية الألمانية في سنة 1870، وأثناء الحرب الكبرى.

محمد عبد الله عنان المحامي

هذه المعركة المزمنة بين أدبين!

للأستاذ كرم ملحم كرم

إنها لمعركة مزمنة حقاً هذه المعركة بين الجديد والقديم. فهي معركة حامية لا تنطفئ لها نار ولا يخبو منها أوار. فالشباب والمشيب يتطاحنان. المتربع في القمة يصارع الواقف في ساحل الحياة، الضاحك للمستقبل، المتقلب في أحضان الربيع، الناعم باخضرار العيش، يقاتل من يحاذر الوقوع في اللجة. الهاتف بملء فيه (الغد لي) يغالب التمسك بأذيال الحياة لئلا يبتلعه الموت! ومعركة القديم والجديد بدأت منذ الأزل وسوف تتصل بالأبد. فأن هذا التطاحن بين الأمس وأبن اليوم حديث كل يوم. هذا التطاحن بين أبن الأمس الخائف على مكانته من التهشيم والتحطيم، وأبن اليوم الراغب في أن يشق لنفسه طريقاً إلى الشمس، القائل للقديم المزمن: (دعني أحتل مقعدك!.)، هذا التنافر أبن عصور ودهور، انبثق يوم انبثاق الكون، وسيرافق الكون في مراحله الطوال لا يزول منه إلا يوم يزول فالشباب يغيظه أن يطأطيء الرأس للمشيب، أن يعترف له أبداً بالسيادة، أن يقف حياله مكتوف اليدين، فيصيح به: (نلت نصيبك من دنياك فلا تحرمني نصيبي!. . .) فيأبى من أدركهم المشيب أن يتزحزحوا من أماكن استقروا فيها بعد جهد ومشقة. ويغضب الشباب وفي أعصابه جمر ونار فيثور وتنشب المعركة. ولا يسلم الفريقان من شظايا القدح والنقد والتعريض. الشيخ العتيق يسخر بثمار عقول الشباب. والرائع في مقتبل العمر يهز بيده المهند الصقيل مهدداً متواعداً، وتتساقط الضحايا في الميادين. ويقول القائلون: (المعركة بين القديم والجديد!. . .) ويخيل إلى بعضهم أن الأدب القديم هو ما جاد به الطاعنون في السن. وأن الأدب الجديد هو ما يتحفهم به كل ناضر العود. على حين أن بين ذوي الأنياب الصفر فئة لا يبلى لها طارف ولا تليد. فالجديد ما تنفث وتكتب وتنظم، كما أن بين الفتيان الأفراخ الزغب الحواصل، فريقاً لا يحسن الابتكار ولا التوليد، فانه لغارق في القديم إلى الأذنين، ويأبى أن يحارب كل من أسن وشاب وشاخ، وبات على قيد خطوة من يومه الأخير!

وهذه المعركة لا يصح القول عنها أنها بين أدب قديم وأدب جديد. إن هي إلا بين المشيب والشباب، بين قوم تمتعوا بأطايب جهرهم وأدركوا الشهرة الواسعة والصيت البعيد، وقوم يريدون قسمتهم من قرص الحلوى. فهم نهمون شرهون جائعون، يلتمسون الأكلة الشهية يتذوقها، مع، انهم في الخطوات الأولى من عهد الفطام.

ومثل هذا النظام ما خلا منه عهد. أما سمعنا جريراً يقول حين سئل في الأخطل: أدركته وله ناب واحد، ولو أدركته وله نابان لأكلني!

فالأخطل أكبر من جرير سناً. وقد تحكك به جرير ليدرك المنزلة العليا فأدركها، وهناك من شاء الإقتداء بجرير في التحكك بالطاعنتين في السن. نريد بشار بن برد الشاعر الفحل الضرير. فقد راش بسهامه جريراً. على أن جريراً لم يرد عليه. وكان يقول حين يبلغه طعن بشار: مالنا ولهذا الغلام الخامل الغر نرفع قدره!

فقيل لبشار: بم أساء إليك جرير؟ قال: لم تنلني منه إساءة. على أني وددت أن يهجوني. ولو فعل لكنت لأشعر شعراء العرب أجمعين!

وغاظ المعري أن يسمع: (هل غادر الشعراء من متردم؟.) فانشد قصيدة من عالي الشعر جاء فيها:

وإني وإن كنت الأخير زِمانه ... لآت بما لم تستطعه الأوائلُ

فالتطاحن بين القديم والجديد ليس ابن يومه. فكل يريد المقام الأول. والشجيرة

يؤلمها أن تخيم عليها الشجرة فتسعى إلى امتصاصها كي تذبل وتجف. هي سنة تنازع البقاء. الشاب يدفع الشيخ إلى الهوة ليقوم مقامه، والقوي ينشب أظفاره في الضعيف لتخلو له الساحة. وقد يكون هذا الشيخ من أنصار التجديد. ولكن الشاب لم يطق ظلمه، فحفر له الحفرة ووقف يشهد مصرعه فيها.

إذاً من هم أنصار الأدب القديم؟

من هم المتمسكون به والداعون إليه؟

لا جدال في أن الأدب القديم ركن الأدب الجديد. فالأدب الجديد لم ينشأ عفواً، بل تسلق قواعد القديم وشيد عليها قواعده الخاصة يستند إليها ويحيا بها. فالأدب القديم أبوه، على أن الابن وأن يكن تغذى من أبيه فقد أظهر فيما شيد لنفسه من بنيان انه مستقل. فأن حجارة هيكله تختلف في حجمها ولونها وشكلها عن حجارة هيكل المتقدمين. بل هو خالفهم في البناء نفسه. فجعلوا هيكلهم مستطيلاً. فأبى إلا إن يشيد هيكله مستديراً، وبنوه عالي القباب

فرفعه ناتئاً يشك في الأجواء. بدا هيكله في منظر خشن فتلألأ هيكله لطيف الشكل، مصقول الجدران ترتاح العين لرؤيته وينعم فيه النظر بلا ملال. والأدب الجديد ليس وليد عصر معروف، فكل عصر يحفل بالقديم والجديد، كل عصر يبرز فيه هيكلان يختلفان شكلا ولونا وذوقا. كل عصر يدين بهذين المذهبين ويقوم فيه من يناصر القديم ويظاهر الجديد. وليس نصير القديم من وقف على الأطلال فبكى واستبكى، فأن بعضهم يقف على الأطلال ويجود بالشائق الرضي. أما انشد داود عمون:

هاج أشواقي إلى الدمن ... طائرٌ غنى على فنن

وداود عمون شاعر ثوى منذ سنوات قلائل في مقره الأخير وقد جاء شعره في الدمن من أرق الشعر، فلا هو بالخشن المبتذل ولا الجاف الغليظ، فالعذوبة وافرة فيه، والقوة محكمة في دباجته العالية. وليس كل من تحدث عن الإبل والنوق بنصير القديم. فالمنخل اليشكري لم يكن من أنصار القديم حين قال:

وأحبها وتحبني ... ويحب ناقتها بعيري

لا، فأن في هذا الشعر لظرفا، وان فيه لإمعاناً في التوكيد على نحو ما جاء في قول أبي نؤاس:

إلا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر ... ولا تسقني سراً إذا أمكن الجهر

إن فيه لرونقاً، فهو بعيد عن التكلف في سبكه ومعناه. وكل شعر جامع للرونق خال من التكلف والغلو الفحاش يطمئن إليه كل جيل، ويرضى عنه الأدب الجديد. فما هو الأدب القديم إذاً؟. . . الأدب القديم هو الحافل بغريب الكلام ووحشي الألفاظ، المثقل بالتقليد، الراكد في معناه ومبناه، فلا ابتكار ولا روعة ولا سهولة ولا ذوق، هو المنسوج على منوال خشن، الضخم الكلمات، الطنان الأجوف القائم على صناعة الألفاظ، المحشو تكلفاً وتعقيداً، البارد لفرط ما لاكته الألسن ومضغته الأفواه. الأدب القديم هو الأدب المطبوع بطابع عصر معلوم، جاءه من يبعثه حياً في عصر لم يخلق له، فإذاً نحن رأينا في شعر أمريء القيس شيئاً جديداً فهناك ما لا يصح قولاً في عصر غير عصر الشاعر الضليل، فقد قيل في زمن يجب إلا يتخطاه إلى زمن آخر، وقد تبدلت العادات وتبدل الناس، والجديد الجديد في شعر امرئ القيس تشابيهه واستعاراته. وهذه التشابيه والاستعارات ملك الشاعر لا

يجوز لأحد أن يسطو عليها وإلا كان سارقاً. كان أشبه بالضاحك من نفسه ليخدعها وإنما يهين نفسه. فالابتكار في الأدب والاختراع في سائر الفنون. فمن أبتكر في أسلوب الإنشاء مذهباً جديداً بات هذا الأسلوب معروفاً باسمه، ومن جادت قريحته بتشبيه جديد لا يجوز لأي أديب بعده أن يأخذ عنه هذا التشبيه ويتبناه وهو ليس من تواليده، وإلا كان سالخاً ضعيف المخيلة، قاصر اليد. والأديب العربي لا يكون اليوم مبدعاً إذا أتحف الأدب بروايات أشبه بمقامات الهمذاني والحريري، فأن ذلك النسيج من ثمار عصر مضى، وهو مما تستحسن حياكته في أيام الانحطاط لإنهاض اللغة وإذاعة مفرداتها، فتلتقطها الأذهان وتستعين بها الأقلام، أما اليوم فأن أسلوب المقامات لا يحتسيه أبناء العصر ولا يستسيغونه، فقد تبدل أسلوب الإنشاء تبدلاً عظيماً، فمات السجع، ومات التقعر والتحذلق والانصراف إلى الألفاظ دون المعاني، وأضحى الأسلوب الساري كل واضح جلى قريب إلى الذهن والفهم. ولا فرق في هذا

الواضح الجلي سواء أنتقل إلينا من الجاهلية أو صدر الإسلام، أو الأعصر العباسية، أو عصر الإنحطاط، أو عصر الانبعاث فأن أتشاء أبن المقفع لا يبلى في أي عهد، ومثله الجاحظ، وأبن الأثير، والأصبهاني، وأبن عبد ربه، وأبن خلدون، مع أن إنشاء أبن خلدون أخذ يتقادم عهده وفيه من التطويل ما فيه. واللغات كلها طافحة بأساليب الإنشاء. وأنها لتحوي من الأساليب الممتعة ما لا تقوى على محوه يد الدهر، ولا تؤثر فيه سنة بقاء الأنسب، فهي صامدة للصروف لا ترث منها القوى ولا ينصل لونها وهي صافية نقية كزرقة السماء. وهذه الأساليب يصح أن نطلق عليها أسم الأدب الجديد، وهي الخالدة، وهي مرجع الطلاب والأدباء، كساها منشئوها المعنى الجميل في المبنى السليم، فأضحت لا تنبو عنها الأذن ولا ينكرها أي جيل، وهو بها قرير ضنين.

وما يقال في النثر يقال في الشعر. فالشعر الناضج بالعصير الشهي لا يفنى، على حين أن الشعر اليابس لا تقوم له قائمة في سوى يومه ولو أنشد المتنبي، فأن شعر عمر بن أبي ربيعة، وجميل بثينة، وكثير عزة، وأبن الدمينة، وعباس أبن الأحنف، وأبن زريق، وأبي نؤاس، والشريف الرضي، والبهاء زهير، وأبن المعتز، وأبي الفراس، وشعراء الأندلس في معظمهم، مما أن يصح أن يقال اليوم وينشد، وتقتبس طريقته، ويهتدي بنوره، اللهم إذا تغاضينا عن بعض مناحي هذا الشعر اقتضاه روح العصر، وكثيراً ما يكون هذا الروح

نائيا عن حضارة العصر الذي يلي.

فأن هؤلاء الشعراء جمع منظومهم الرقة والروعة والوضوح، وكل شعر يرتع في هذه الميزات لا يعرف الأنقاض، خصوصا وهو مستمد من العاطفة، والعاطفة لا تموت، فالقلوب تخفق أبدا بها. وكل شعر أوحت به العاطفة وعته الذاكرة، ورده اللسان، وأبتهج به الخاطر، وتناقلته الكتب والأفواه من عهد إلى عهد، وهو الشعر الذي يفرض مشيئته على الأيام والسنين.

وللشعراء الهجائين منزلة وشأن لدى الحفاظ والرواة. ويمكن القول أن شعرهم يقوم على العاطفة، أفلا تتبدل هذه العاطفة بما يتبدل به القلب؟. . ألا تخضع لسلطان الهوى؟. . . وشعر الهجاء يثيره الهوى. إذا فهو شعر عاطفي. ولهذا الشعر حظه من البقاء والخلود أن يكن جميلا وفريدا، على طراز ما أتحفنا به الحطيئة والأخطل والفرزدق وجرير وبشار ودعبل وأبن الرومي والمتنبي. فأن شعر الهجاء أقرب إلى الحفظ وأبقى أثرا. فالنفس وهي الأمارة بالسوء تميل إلى الهجاء وترتاح له أكثر منها إلى إحراق البخور وتقبيل الأذيال.

ولسنا ندعو بالخلود لكل شعر عاطفي، ولكننا نقول أن شعر العاطفة يملك ميزة الخلود أكثر من أي شعر آخر، ويأتي بعده شعر الوصف، على أن يكون بليغا رشيقا غير مسبوق إليه. ويقبل في الدرجة الثالثة شعر الحكمة إذا أفرط فيه قائله تبرأ منه الشعر.

ولا يكتب الخلود لشعر الحكمة إلا إذا قاله من أرغم الدهر على الإصغاء إلى إنشاده وأسمعت كلماته من به صمم، ومع أن المتنبي يسير في طليعة من صاغ هذا الشعر فلا يستطاع الجزم بأن حكمياته تستساغ في كل عصر، فهي من بنات عصرها. وقد ظهر خاتم ذلك العصر فيها. ومن المحال أن يحاول تقليدها أي عصر جديد. وكل من استهواه تقليدها فهو من طبقة المحافظين.

لا نكير في أن في هذا الشعر قوة ومناعة وحسن صياغة. ولكن صب الحكمة في الشعر ليس مما يشمله الأدب الجديد. فالأدب الجديد في الشعر عاطفة ووصف. وما جاوز العاطفة والوصف بليد. ويجوز أن تطفو الحكمة في بعض المواقف. الا أن الإغراق فيها يذهب برونق الشعر. ويرصف هذا الشعر فوق أكداس القديم.

ومن الواجب على الأدباء والمتأدبين الإكثار من مطالعة أبي تمام والمتنبي وأبي العلاء. ففي مطالعة هؤلاء الأئمة ما يساعد على اقتباس العصمة والقوة والفخامة. الا أن التشبه بهم يدل على العقم والعجز عن التوليد، يدل على الانغماس في التقليد، على الغرق في بحيرة ملأى منذ ألف عام. فمن خاض عبابها، أن يبلغ شاطئها الآخر وإذا بلغ هذا الشاطئ فأي فضل هو فضله وقد كان تابعا لا متبوعا، وقد وقف حيث وقف سواه؟. .

ولماذا الإقتداء بأبي تمام والمتنبي وأبي العلاء في شعرهم الضخم الجانح إلى القديم

أكثر منه إلى الجديد، وهناك عمر بن أبي ربيعه في قالبه الصحيح العذب الرسيل؟. . .
فإن ابن أبي ربيعه أبن كل عصر، على حين أن المتنبي أبن عصر أو عصرين أو ثلاثة.
فأن شعر زعيم الغزليين يقال وينشد ويردد اليوم وغدا وبعد غد، ويدغم فيما يقال اليوم وغدا وبعد غد كأنه منه وفيه. فلا يجفوه عصر ولا يعرض عنه أي عهد. بينما المتنبي لا يرحب بأسلوبه كل جيل، وأن يكن ثمة من اعترف به سيد الشعراء. وكيف تسمع عمر بن أبي ربيعة ينشدك أبياته:

تقول وليدتي لما رأتني ... طربت وكنت قد أقصرت حينا
أراك اليوم قد أحدثت أمراً ... هاج لك الهوى داء دفينا
وكنت زعمت أنك ذو عزاءٍ ... إذا ما شئت فارقت القرينا
بعينك هل رأيت لها رسولاً ... فساقك أم لقيت لها خدينا
فقلت شكا إلى أخ محب ... كبعض زماننا إذا تعلمينا
فقص على ما يلقى بهند ... يذكر بعض ما كنا نسينا
وذو القلب المحب وإن تعزى ... مشوق حين يلقى العاشقينا

كيف تسمع هذا الشعر ولا تحسبه من مواليد اليوم، بل من مواليد كل يوم، وهو الوضاء الصافي، الأنيق الرقيق؟. .
وهذا أبن الدمينة هلا أصغينا إليه في قوله:

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد ... فقد زادني مسراك وجداً على وجد
أإن هتفت ورقاء في رونق الضحى ... على فنن غض النبات من الرند
بكيت كما يبكي الحزين صبابة ... وذبت من الشوق المبرَح والصد

هلا أصغينا إلى هذا الشعر البهيالقشيب وهو يحدثنا بلغة اليوم وروح اليوم؟. . .
قيل كان العباس بن الأحنف إذا سمع هذا الشعر تترنح منه الأعطاف، وكاد لفرط إعجابه به ينصح برأسه العمود. فقد تعتقه أبن الدمينة بلا خمر.
وأبو فراس أي عصر لا يفتح له صدره وقصائده من بنات كل عصر:

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر ... أما للهوى نهي عليك ولا أمر

وماذا تقول في شعر المنازي يوم فزع إلى الوادي الظليل هرباً من الحر.

نزلنا دوحة فحنا علينا ... حنوَ المرضعات على الفطيم
تروع حصاة حالية العذارى ... فتلمس جانب العقد النظم

ألا يسير هذا الشعر في ركاب كل عصر؟.
والبهاء زهير؟. . . أتنسى البهاء زهيراً؟. . .

أنا من تسمع عنه وبَرى ... لا تكذب في غرامي خبرا

وماذا نطلب في الشعر إلا أن ينهج هذا النهج، إلا أن يصدر عن هذا المورد؟. ماذا نبغي منه إلا أن يبقى أبداً شهي المذاق، إذا رددناه في كل ثانية أطربنا ورجونا أن نستزاد منه، فلا يتنكر له زمن من الأزمان، ولا تشد دونه الأسماع كلما قام للأدب العربي كيان.
فالأدب الجديد إذا هو المبتكر، الفريد، السائغ، الرائع الديباجة، الواضح الجلي، الذي يرضى عنه كل عصر، ويهضمه كل جيل، فلا يؤلم السميع بغريب الألفاظ، ولا بالنافر من المعني، ولا بالتكلف والتعقيد. والأدب القديم هو المثقل بالتقليد، المطبوع بطابع عصر خاص لا يعدوه، المنغمس في السجن في نثره، والمتوكئ على الألفاظ والتفلسف في شعره، العويص، الخشن، الوحشي الكلمات والمعاني، هو ما يحتاج إلى القاموس كلما خطر لك أن تجيل الأنظار ومثل هذا الأدب شؤم على اللغة والبيان، إلا أن المحافظين يستمرئونه، بينما أنصار التجديد يشنون عليه الغارة، وينادون إلى استئصاله وهو أدب راكد، والأدب الراكد لا يعيش! وقد طال التطاحن بين الأدبين، وسيطول كلما بقى في الأدب قديم وجديد. وعندنا أن الأدب الجديد بالحياة ما استوفى شروط البيان، وحفل بالمبتكر، وهز النفس، وأرغمك على قراءته والإصغاء إليه، هو ما أطربك كلما رويته ووقفت على بدائعه وآياته. هو ما رمى إلى أبعد مما يرمي إليه مقال في صحيفة سيارة بنشر اليوم ليطوي غداً. . .!

بيروت
كرم ملحم كرم
صاحب جريدة (العاصفة)

الشريف الإدريسي يضع اقدم خريطة جغرافية للدنيا القديمة

للأستاذ محمد عبد الله ماضي
عضو بعثة تخليد ذكرى الإمام محمد عبده بألمانيا

1 - تمهيد:

إنني إذا تحدثت عن الخريطة الإدريسية فإنما أتحدث عن مجهود علمي خالد من مجهودات أحد أسلافنا الأمجاد، عن مبرة من مبرات رجل من رجالاتنا في التاريخ، ويدمن الأيادي البيضاء التي أسداها أحد علماء الإسلام وأبناء العرب إلى العلم والعالم يوم كانوا قادة المعرفة وحملة لوائها على وجه البسيطة، ويوم كان الشرق يملي كلمته على الغرب ويقوده إلى مسالك الحياة الحق على ضوء العلم، وفي سبيل الهدى والمعرفة. أتحدث عن اقدم خريطة عالمية جغرافية صادقة عرفها التاريخ ووصلت إلى أيدينا، وأقرب صورة عرفت في تلك العصور السالفة مطابقة لما وصل إليه العلم الحديث ولما نعلمه الآن علم اليقين، تلك هي (خريطة الشريف الإدريسي) التي أظهر في وضعها براعة علمية فائقة، وخلد لنفسه بها ذكرا طيبا حسنا بين العلماء الأمجاد سوف لا يزال يضوع شذاه وينتشر عبيره ما دام للعلم أهل يقدرونه، وما دام هناك من يعرف للعلماء حقوقهم.

ولم يكن كتابة (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) إلا شرحا لهذه الخريطة وتعليقا عليها، وهو كتاب ضخم يقع في جزئين كبيري الحجم، وإن كثيرا من علماء البحث في الشرق والغرب وفي مختلف العصور، قد بحثوا بحوثا مستفيضة في هذا الموضوع الشائق، ولقد كان آخر من عنى بذلك من علماء البحث الجديد الأستاذ (كونراد ميللر) أحد العلماء الألمان الإجلاء فانه أخرج الخريطة في ثوب قشيب، وطبعها طبعة ملونة سنة 1928 وكتب عنها الفصول الطوال، وعقد الموازنات بينها وبين الخرائط الجغرافية القديمة والحديثة، وأشاد بمنزلتها كأساس قوي متين، ومرجع منظور إليه بعين التجلة والاحترام من مراجع هذا العلم وأسسه.

2 - من هو الشريف الأدريسي؟

الإدريسي هو الشريف أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريسينتسب إلى بيت الأدارسة الذي حكم مدينة (مالقة) في النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي بعد سقوط خلافة قرطبة في بلاد الأندلس.

هذا البيت يمت بصلة القرابة إلى الأسرة الأدريسية التي حكمت في مراكش 135 سنة من 791 إلى 926 م.

وهاتان الأسرتان ترجعان معا في نسبهما إلى إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

إدريس هذا افلت من يد العباسيين بعد اشتراكه في ثورة العلويين عليهم في ولاية موسى الهادي، وفر من وجههم إلى بلاد الغرب سنة 784 م وهناك أسس مملكة الأدارسة التي ورثها أبناؤه من بعده. بعد أن بسط يده على تلك الجهة التي نزل بها، بعضها بموالاة سكانها له، والبعض الآخر بواسطة الحرب وبعد تحكيم السيف، وما زال الأدارسة هناك يدبرون ويحكمون حتى غلبهم الفاطميون على أمرهم وانتزعوا الملك من يدهم. صاحبنا الإدريسي ولد سنة 110 ببلاد المغرب في (تطوان) على إحدى الروايات أو في (سبتة) كما في الروايات الأخرى حيث هاجر والده وبعض أقاربه في نهاية القرن الحادي عشر، وأين أتم الإدريسي دراسته وتلقى دروسه؟ لم يذكر المؤرخون ذلك. ولكن الأمر كما قال الأستاذ (ميللر) ليس بعير، فان القارئ لوصفه الدقيق الوافي لمدينة (قرطبة) يستطيع أن يستنبط من ذلك أنها كانت مقر دراسته وموطن تخرجه نشأ هذا الرجل وقد حببت إليه الأسفار من صغره، فبدأ أسفاره وهو في السادسة عشرة، وسافر إلى البلدان الواقعة على البحر الأبيض المتوسط، وتغلغل في شمال إفريقية، ودرس خصائص أهل هذه البلاد وعوائدهم. فوق هذا سافر إلى سواحل فرنسا في المحيط الأطلانطي، وإلى سواحل إنكلترا كما حدث في بعض كتاباته، وفي نهاية الأمر دعاه رجار (روجر الثاني النورماني) ملك صقلية إلى الرحلة إليه والنزول عنده في (بالرم) على الرحب والسعة والإقامة ببابه كأحد أفراد الحاشية معززا موفور الكرامة. رجاه ذلك الملك الجليل في هذا بعد أن وصل إلى مسامعه من

هو الإدريسي. وبعد أن علم منزلة الأمير العلمية. قبل الإدريسي هذه الدعوة الكريمة وشد رحاله نحو صقلية ليأخذ منزلته في البلاط الملكي، وليحدث هناك الدوي الهائل في الأفق العلمي الذي مازلنا إلى الآن نسمع صداه، شجعه على القول هذه الدعوة رغبته في الفرار من وجه أعدائه وأعداء أسرته في البلاد العربية الذين بالغوا في اضطهاده وطلبه، وسعوا جهدهم في النكاية به. رحل الأمير إلى صقلية وأقام بها مدة حياته حتى قبض إلى رحمة ربه سنة 1166 م. وهكذا كان حظه حظ جده الأول إدريس. كلاهما أستخلص لنفسه الحياة من مخالب الموت، وفر من حظيرة الاضطهاد الضيقة الأنحاء إلى بحبوحة الملك الواسعة الأرجاء. كلاهما شاد بجده وعزمه دولة أدريسية، غير أن دولة جده انقضت وأخنى عليها الدهر، ودولته هو خالدة لا تنقضي. والأمر ليس بغريب. فهذا شأن دولة العلم نصيبها الخلود والبقاء بينما تقضى دولة الملك وتفنى. رحل هذا العالم الجديد والأمير النبيل إلى صقلية وقضى بقية أيامه هناك، قضاها في الأنتاج والعمل المثمر. لم يحدد المؤرخون الوقت الذي رحل فيه الإدريسي إلى صقلية تلبية لدعوة مليكها رجار (روجر الثاني) ولم يذكروا في أي سنة كان هذا. غير أننا نستطيع أن نأخذ برأي الأستاذ (كونراد ميللر) ونستنبط ذلك من الحوادث التاريخية المرتبطة بالموضوع، وعليه فلنا أن نفرض أن ذلك حدث قبل سنة 1138 م بقليل. فأننا نعلم في تلك السنة عقد (رجار الثاني) العزم على العمل لوضع خريطة جغرافية ووضع كتاب يشتمل على وصف أجزاء المعمورة المعروفة في ذلك الوقت. خذا الأمر الخطير الذي لعب الإدريسي فيه دور البطل.

3 - صقلية في ذلك العهد وحالة البلاط الملكي في الدم

كانت صقلية في ذلك العهد ملتقى العقول المفكرة، ومحط رحال العلماء يأتون إليها من كل فج عميق، وكانت بالرم العاصمة كعبة رجال العلم يسعون إليها من الشمال والجنوب لما عرف عن مليكها رجال الثاني النورماني من محبته للعلم وتقديره للعلماء واحترامه لهم من أي جنسية كانوا، والى أي ملة انتسبوا. فقد كان بلاطه بحق حرم العلم، من دخله من العلماء كان آمناً. هنا التقت الحضارة الإسلامية بالحضارة المسيحية، وتعرف فن الشرق المسلم إلى فن الغرب المسيحي فتآخيا وأخذا يعملان جنباً إلى جنب إخواناً متحابين لمصلحة العلم وفي سبيل خير العالم. هناك ورث النورمانيون حضارة العرب الذين حكموا الجزيرة 242 سنة من سنة 830 إلى 1072 م والذين ورثوا حضارة الروم من قبل. في ذلك الوقت كانت الحروب الصليبية قائمة على قدم وساق، فكان هذا سبباً لوفود كثير من رجال دول أوربا ودول العلم المختلفة إلى بالرم. هؤلاء الرجال الذين كانوا للكثير منهم شأن في بلادهم ومعرفة بأحوالهم السياسية والاجتماعية والجغرافية. كان ذلك الوقت هو العصر الذهبي للنورمانيين في صقلية الذي عمت فيه سيادتهم جميع أنحاء الجزيرة، والذي دخلت تحت سلطانهم في خلاله قسم من إيطاليا وشمال أفريقيا. كل هذه العوامل سهلت للإدريسي القيام بمهمته الكبيرة الشأن، ومكنته من أن يجمع إلى معارفه الخاصة وملاحظاته الشخصية التي أكتسبها بأسفاره الطويلة ورحلاته المتعددة، وأن يضم إليها ما جعله يضع خريطته العالمية ويكتب كتابه (نزهة المشتاق) عنها بوجه لم يسبق اليه، حتى كانت هذه الخريطة وذلك الكتاب مرجع المؤلفين الجغرافيين من بعده.

4 - مؤلفات الإدريسى في المدة التي قضاها في صقلية

لم يقتصر عمل الإدريسي في تلك المدة التي قضاها في بلاط الروم على وضع تلك الخريطة، ولكنه ألف غير ذلك أربعة كتب (1) كتاب نزهة المشتاق أو كتاب رجار الذي سبقت الإشارة إليه، والذي أختصر فيما بعدتحت هذا الاسم عينه، ولقد أطلعت على نسخة من هذا المختصر في مكتبة المعهد الشرقي بهامبورج مطبوعة بروما في سنة 1592 م ومكتوب على هامشها أن هذا الكتاب أول ما طبع باللغة العربية (2) كتاب الممالك والمسالك الذي لم يصلنا منه إلا بعض مقتبسات اقتبسها أبو الفدا عند كلامه على الجغرافية العربية. كذلك حدثنا عنه الشاعر أبن بشرون الأندلسي، وحدث أن الإدريسي ألف هذا الكتاب سنة 1161 لنجل رجار الثاني (فلهلم) الذي حكم من سنة 1154 إلى سنة 1166 م (3) كتاب روض الفرج، وهو كتاب جغرافي صغير اكتشفه أحد الباحثين من نحو ثلاثين سنة بمكتبة خاصة في (إستانبول) (4) كتاب يبحث في

وسائل العلاج البسيطة. فوق هذا نقل الأستاذ (ميللر) عن المؤرخين أنه كان شاعرا وأنه لم يصلنا من شعره إلا بعض مقطوعات، ولكنني لم اعثر على شئ من هذه المقطوعات لأعرضه على قراء الرسالة.

5 - كيف فكر روجر الثاني في وضع هذه الخريطة وكيف عهد إلى الإدريسي بذلك؟

عنى روجر الثاني عناية خاصة بالمسائل الجغرافية واخذ يشتغل بدراسة الكتب الجغرافية المختارة الموجودة في ذلك العهد، ولا سيما العربية منها، ولكنه لما لم يجد بعد البحث الطويل ما يطفئ غلته ويقضي به لبانته ويريح ضميره كباحث مجد، لما لم يجد جواباً واضحاً وحلاً موفقاً لما كان يجول بخاطرهم، المشكلات العلمية أخذ يستحضر رجال الخبرة الأجانب الذين وفدوا على مملكته من كل فج ويسألهم بواسطة المترجمين منفردين أو مجتمعين عن مواقع البلدان وحدودها، وعن كل ما يتعلق بها جغرافيا كلا بقدر ما تصل إليه معرفته، وقد كانوا كثيري العدد، فأن توافقت أجوبتهم ولم تتضارب أقوالهم اعتبر إجابتهم صحيحة وأعطاها قيمتها العلمية وقيدها وإلا ردها عليهم ولم يعتبرها، وبعد أكثر من خمس عشرة سنة قضاها بلا إنقطاع مع صاحبة الإدريسي في هذا العمل الخطير والبحث الشائق أستقر الرأي على تقييد ما وصلوا إليه ورسمه في خريطة عالمية كاملة تبين فيها مواقع البلدان والبحار والأنهار والجبال إلى غير ذلك كما وصل إليه البحث وانتهى إليه الاستقرار، فأعطيت القوس باريها، وعهد بهذه المهمة الكبيرة إلى الشريف الإدريسي الذي رسم أصل هذه الخريطة، ثمبعد هذا أراد الملك أن تحفر هذه الخريطة ثانية على لوح من الفضة، فأحضر الصناع المهرة الذين أتموا هذا العمل تحت رعاية الإدريسي ورقابته، وبعد أن جعل الملك مقدار أربعمائة ألف درهم من الفضة كما روى خليل الصفدي تحت تصرف الإدريسي لهذا الغرض اتخذ الإدريسي أقل من ثلث المقدار مائدة مستطيلة يبلغ طولها كما قدر الأستاذ (ميللر) ثلاثة أمتار ونصف متر وارتفاعها مترا ونصف متر تقريبا، ثم حفر عليها بواسطة الصناع المهرة كما قدمنا خريطة بغاية الدقة والإتقان وتمام الموافقة لتلك الخريطة التي رسمها قبل القيام بعملية الحفر، وكان الفراغ من هذا العمل الجليل الشأن في يناير سنة 1154 م. وكشرح لهذه الخريطة وتعليق عليها ألف الإدريسي كتابه نزهة المشتاق في إختراق الآفاق أو كتاب رجار الذي أشرنا أليه، وإنه لجدير بهذه التسمية بعد أن بذل هذا المليك الجليل تلك العناية الكبيرة، وقدم هذا السعي المحمود خدمة للعلم وحبا فيه، وقد كانت العناية بتآليف هذا الكتاب شبيهة بأختها في وضع الخريطة. فقد اختار رجار الثاني والإدريسي عدة من الرجال الذين بصح الاعتماد عليهم في مثل هذه العظائم وبعثوهم إلى جهات العالم المختلفة ليدرسوا احولا البلدان النائية ويدرسوا أهلها وعاداتهم وأحوالهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ويدرسوا حاصلات البلاد وحيواناتها وكل ما تنتجه ويعيش فيها إلى غير هذا مما له أهمية جغرافية وما يتعلق ببعض نواحي علم طبقات الشعوب وعلم الاجتماع. أمرهم بان يدرسوا هذا ثم يضعوا تقريراتهم عنه، ولقد حمل هؤلاء الرسل إذنا من الملكالنورماني رجار الثاني ليحضروا معهم كل ما يعدونه غريبا في بابه ذا أهمية جغرافية خاصة من الأمور الخارقة للعادة في باب الطبيعة، بعد أن تم ذلك وعاد أفراد تلك البعثة الاستكشافية من الجهات التي أرسلوا إليها، وقدموا تقاريرهم أجتمع لدى الإدريسي ما مكنه من وضع كتابه نزهة المشتاق.

6 - كيف كانت صورة الأرض في نظر الإدريسي عند وضع خريطة؟

ولا بد لنا قبل أن نتكلم عن شرح الخريطة وبيان بنائها أن نشرح الصورة الأرضية التي كان يعتقدها الإدريسي عند وضع خريطته. كان الرأي الشائع إلى أواخر العصر المتوسط أن الأرض مسطحة عائمة على وجه الماء. نعم لقد شك بعض علماء اليونان في ذلك وثار عليه أفراد آخرون بعدهم، ولكنه لم يزل رأي الأغلبية حتى نهاية ذلك الوقت. أما رأي الإدريسي يشاركه فيه علماء الجغرافيا الأخصائيون من العرب فقد كان غير ذلك، أعتقد الإدريسي أن الأرض مكورة على شكل بيضة يحيط بها الماء ويتعلق بها بواسطة قوة جاذبية طبيعية، فالماء يغمر نصفها وينحسر عن النصف الآخر

مع كون هذا النصف الأخير المنحسر عنه الماء آخذاً شكلاً بيضاوياً منقسماً بواسطة خط الاستواء إلى قسمين متساويين: شمالي وجنوبي، المعمور منها الشمالي فقط. أما الجنوبي فهو خراب غير معمور لشدة الحرارة ولعدم وجود الماء، ولا يفوتنا أن ننبه إلى أن أبن رشد الطبيب والفيلسوف والفقيه المسلم (1126 - 1198) عارض الإدريسي في هذه النقطة، فلقد روى عنه أبن خلدون (732 - 808 هجرية) في مقدمته أنه ارتأى النصف الجنوبي من الكرة موافق للنصف الشمالي منها تمام الموافقة في الجو والطبيعة وأنه مأهول بالسكان مثله، وأن النقطة القريبة من خط الاستواء سواء كان شمالا أو جنوبا شديدة الحرارة، ثم تتدرج درجة الحرارة في الانخفاض بقدر بعد المنطقة عنه. ووافق ابن خلدون أبن رشد في اصل نظريته وأيدها بما ساق من الأدلة، إلا انه رأى أن النصف الجنوبي لا سكان فيه كما في الشمال، وعلل ذلك بأن معظم القسم الجنوبي الصالح لسكن مغمور بالماء.

يتبع

محمد عبد الله ماضي

الصورة والتصور والتصوير

للأستاذ الحوماني

صاحب مجلة العروبة

هنالك في حيز الشعر صورة وتصور وتصوير , ولكل منها نصيب من الجمال في الحياة، ومناط الجمال في كل منها إنما هو الفن إذا صح إطلاق الفن وحده على الشعر كما سترى. فالصورة إحدى ظواهر الطبيعة وهي إما حقيقة أو خيال - والتصور مرور الفكر بهذه الحقائق يتصفح صورها - والتصوير إبراز هذه الصور إلى الخارج بشكل فني، فالتصور إذن هو العلاقة بين الصورة والتصوير وأداته الفكر فقط، وأما التصوير فأداته الفكر واللسان، والصورة يتعاقب عليها فنان: فن المبدع وفن المصور، ويقال للمصور مبدع إذا كانت الصورة من خلقه، وهو يتصفح الحقائق فينتزع منها صورة مركبة نسميها خيالا. فالخيال لا يخلو من رمز يشير لك إلى المبدع الأول مهما افتن الشاعر في صرفك عن لحظة. فالمرأة ظاهرة من ظواهر الفن الطبيعي، وتصويرها إحدى ظواهر الفن الصناعي. فجمال النفس فيها إنما هو جزء من روح مبدعها الأول، وجمال الشعر في تصويرها إنما هو من روح مبدعها الأخير.

والتصور الذي هو لحاظ الفكر صور الحقائق يختلف شدة وضعفا باختلاف الفكر الذي هو أداته، فتصور الشاعر جمال الفن في إحدى ظواهر الحياة إنما هو الإحاطة بدقائقها واكتناه السر الذي كانت له، والصورة الفنية إنما تتكون من جليل تحف به دقائق يمتاز بالوصول إليها شاعر الفن من غيره، ومناط الجمال في تصوير الشاعر وقوفه على دقائق لا يتبينها في الصورة الفنية سواه، ففي كل صورة فنية طبيعية كانت أم صناعية من معجزات الفن ما هو ظاهر وما هو خفي. فالشاعر يمتاز من غيره بتصور هذا الخفي ثم لا يكون فنانا حتى يصوره. فالرسام إنما يصور لك المرأة الجميلة حتى كأنك ترى شخصها، والشاعر إنما يصفها لك حتى كأنك تلمس روحها، إنما يصور ذلك ويصف هذا، وكلاهما شاعر فنان، بفضل ما يدركان من خفي ما أبدعه الفن في الصورة الجميلة فيصورانها. من ذلك نصل إلى أن الشاعر لا يفهمه كالشاعر وناقد الفن يجب أن يكون فنانا، ولا تنس أن الشاعر إنما يفهم الشاعر الذي هو دونه أو مساو له، وأما من حلق عليه فلا ينبغي له أن يمد بصره إلى أفقه وهو يحاول نقده حتى يكونه، على أن الشاعر لا يجب في النقد أن يكون فنانا، فرب شاعر غير فنان يستطيع بما أوتيه من فكر أوتى دقة التصوير أن ينقد الشاعر الفنان.

فالدكتور طه حسين يستطيع أن ينقد أمير الشعراء لا من حيث كونه شاعرا فقط، إذ هو في الفن دون أمير الشعراء، ولكنه في تذوق الفن قد يكون فوقه أو مساويا له، فليس الشعر مرادفا للفن ولا الفن مرادفا له. وقد يكون الشعر فنا كما فد يكون الفن شعرا. والشاعر الفنان يستطيع أن ينقد الشاعر فنانا وغير فنان، فكل من أبدع في التصوير كان في حيزه الإبداع في التصور، وقد يكون في حيز الإبداع في التصور الإبداع في التصوير، وإذا صح لنا أن نطلق على الشعر أنه تصوير الجمال في الحياة صح لنا أن نطلق عليه جمال التصوير، فحيث يكون تصوير الجمال يكون جمال

التصوير، وقد يخامر السامع ريب في صحة الأول، وأن الشاعر قد يصور قبيحا في الحياة فلا يخرجه عن كونه شاعرا فيما صور، وجوابه سهل فيما إذا لحظنا ثبوت كون الجمال نسبيا في الحياة وانه لا قبح فيها، وإنما هو جميل كما مر بك في القول على الجمال.

وأما إذا اعتمدنا القول في أن الصور الفنية في الحياة ما هو حسن وما هو قبيح لزمنا القول في أن حد الشعر بجمال التصوير أصح، ولزمنا من جهة أخرى نفي الجمال المطلق عن الفن الطبيعي وهو مرآة الفن الصناعي، فلزم الفرق بين فن الطبيعة وفن الإنسان من حيث حده وتعريفه، وهما فن واحد، إلا أن يكون القبح في الصور الفنية عارضا بعد كونها والجمال ذاته فيها فيستقيم إذ ذاك تحديده الثاني. فالطبيعة لم تبدع غير جميل، وما يتراءى لنا قبيحا فلعارض حور مجراه الطبيعي في نفوسنا، أو لسر فيه خفي عنا إدراكه فعز علينا مناط الجمال فيه، وليس الجمال في الصورة أو التصوير مناطا للجمال في التصوير، ولا شئ من جمال التصوير أو قبحه يستلزم جمال الصورة أو قبحها، فأي جمال في صورة الأحدب يستلزمها جمال تصويرها في قول الشاعر:

قصرت أخادعه وغاب قذاله ... فكأنه مترقب أن يصفعا
أو انه قد ذاق أول صفعة ... وأحس ثانية لها فتجمعا

فاللازم إنما هو جمال التصوير فقط، وجمال التصوير يتحقق في نقل الصورة على أتم وجه وبأسلوب جميل، والصورة أعم من أن تكون في الخارج كصورة الأحدب التي مرت بكأو في النفس كما في قوله:

أعانقه والنفس بعد مشوقة ... أليه وهل بعد العناق تدان؟
وألثم فاه كي تزول حرارتي ... فيشتد ما ألقي من الهيمان
وما كان مقدار الذي بي من الجوى ... ليطفيه ما ترشف الشفتان
كأن فؤادي ليس يطفي غليله ... سوى أن ترى الروحان تمتزجان

فلم يكن الشاعر ليصف لك في هذا المشهد صورة العناق في الخارج، وإنما يريد أن يصور لك حالة نفسية تعتريه كما تعتري كل عاشق، وهي انفعال النفس بما تجده في قرب من تحب. وبلوغها حدا لا تشعر معه حتى تبلغ النهاية في ثورتها وهي امتزاج الروحين، ولم يكن ليطفئ ثورتها تلاصق الجسدين، ووضع الشفاه على الشفاه وهما طريقها إلى الغاية التي تصبو إليها. على أني لا أرضى عن الشاعر في إنكاره أن وراء العناق تدانيا، فالحب أسمى من أن تناله المادة وهو وليد الروح، ولعل دموع الحب عصارة هذه النفس المتألمة من وراء انفعالها به، فإذا كانت الروح مناط هذا الحب فأنى للجسم أن يطفأ ثورته بالتقبيل أو العناق، والصلة بين المتحابين إنما تتحقق في امتزاج روحيهما، فقد يتلاصقان ولما يزول هنالك بعد بين الروحين، وحجاب كثيف يحول دون امتزاجهما. أفلا يكون إذ ذاك تدان وراء العناق؟ على أن في البيت الأخير وجعله امتزاج الروحين مناط شفاء النفس دليلا على أنهإنما يقصد بقوله (وهل بعد العناق تدان) أن العناق أقصى ما يبلغه الحب في الصلة بين شخصي المتحابين لا أن مطلق التداني مرة وراء الحب قاصر على العناق إذ صرح فيما بعد أن هنالك امتزاجا في الأرواح، وهو أشد ارتباطا في الحب من العناق، وأبلغ تدانيا منه. إذا وصف الشاعر قبيحا فأبدع في تصويره، فقد صور لك جمال الفن فكان صادقا عليه إذ ذاك أنه مصور لجمال الحياة إذ الفن من الحياة، فتصويره تصوير لجمالها أو لناحية من نواحي الجمال فيها. فقد لا تجد أثرا للجمال في كوخ بال قذر يمرح فيه الفأر وتعلو جدره العناكب ويسود أفقه البق، وقد جلس في إحدى زواياه شيخ بالي الطمر وبين يديه سراج ضئيل يقاسي إلى جانبه آلام البؤس. وقد يبدو لك ذلك قبيحا وأنت تشرف عليه أو تلج إليه فتصفر الحياة في عينك ماثله بين جدره. ثم إذا صور لك رسام مفنن حرك منظره من نفسك بين روعة الفن وجمال التصوير ما يقف بك خاشع الطرف بين يدي الفن وجلاله، وهكذا تراك وأنت تقرؤه في قول الصافي:

أكافح البرد في سراج ... يكاد من ضعفه يموت
في غرفة كلها ثقوب ... أو شئت قل كلها بيوت
يسكن فيها بلا كراء ... فأرُ وبقٌ وعنكبوت

فمناط الشعر في ذلك إنما هو جمال التصوير، ولعل الخيال أوفى نصيبا من الحقيقة

فيه. ففي قوله (يكاد يموت) و (كلها بيوت) و (بلا كراء) من جمال الفن ما لم تكد تعثر عليه فيما لو جردت الأبيات منها، ولم يكن ليستطيع الصافي أن يصور لك الجمال في البؤس لو لم يكن هو بائساً، ولعل أشعر الناس بالبؤس هو ألصقهم به وأقربهم نفسا منه. إذ البؤس إحدى ظواهر الحياة في الحي، والصورة الفنية إما أن تكون حقيقة محضة أو ملفقة من الحقيقة والخيال، فالأولى تتحقق في نقلها لك كما في الواقع حتى كأنك تراها حقيقة مجردة عن الخيال كما مر بك في تصوير الأحدب في قول أبن الرومي، والثانية نقلها لك وليدة خيال يوهمك وجودها في الخارج كقوله:

خلا يدك البيضاء ذمٌ وللندى ... على حافتيها مسرح ومقيل

حمت غصن المعروف أن يخطئ الجني ... وزهر الندى أن يعتريه ذبول

لم يشأ أن ينقل صورة الغصن أو صورة المعروف ولا صورة الزهر أو صورة الكرم، وإنما شاء أن ينقل لك صورة لفقها الخيال من كلتا الصورتين عن طريق الاستعارة ومن وراءها التشبيه المطوي كما يحققه علماء البيان.

بيروت

الحوماني

الشخصية - 3

للأستاذ محمد عطية الأبراشي

المفتش بوزارة المعارف

العناصر الرئيسية التي تتكون منها الشخصية القوية:

تكلمنا فيما مضى عن الشخصية وماهيتها، وقلنا أنها قد توهب بالفطرة، وقد تكتسب بالتربية الحق، وبينا أن الناس يختلفون في شخصياتهم كما يختلفون في ذكائهم وميولهم الفطرية، وذكرنا من العناصر الرئيسية المكونة للشخصية القوية ثلاثة عناصر وهي: الجاذبية، والنشاط العقلي، والمشاركة الوجدانية. واليوم نتكلم عن العنصر الرابع وهو الشجاعة فنقول:

ربما كانت الشجاعة أهم عنصر من عناصر الشخصية القوية في أوقات الرخاء والشدة على السواء، ولكن ما الشجاعة؟ الشجاعة قوة بها يتمكن الإنسان من السيطرة على قواه مع ضبط نفسه وقت الخطر الذي يهدده، سواء أكان ذلك الخطر حقيقيا أو وهميا.

وكما أن الشجاعة فضيلة في الجندي والملاح فكذلك هي فضيلة في غيرهما من بني الإنسان وهي خير مقياس يقاس به الشخص في أوقات الشدة حيث يتطلب الثبات أو الأقدام. وبهذا المقياس يمكن وضع الشخص في مرتبته الخاصة بين الشجعان أو الجبناء وبين العظماء أو العاديين.

وقد قيل، وقيل حقا، أن الشجاعة تتوقف على القوة الجسمية والعصبية والعقلية والخلقية التي لدى الإنسان. وأن المدنية الحاضرة قد قللت من الشجاعة بين الأفراد، فقد صرح أحد النظار السابقين لمدرسة (أيتون) الإنجليزية المشهورة بأنه رأى غلاما قد دخلت في عينه ذبابه، فحاولت أمه وأخواته الثلاث إخراجها بغير جدوى، ولم يكن الأمر بحاجة إلى أكثر من يتحمل الولد الألم دقيقة واحدة، ولكنه لم يتحمل الألم دقيقة - إن كانت هناك آلام. فأخذ في عربة إلى طبيب في مدينة تبعد خمسة أميال عن القرية. كل هذا من أجل شئ يسير كان في استطاعة أي فرد من الأسرة أن يقوم به بسهولة.

هذه حكاية عن شبان الأمس وأمهات الأمس بإنجلترا. أما اليوم فتجد الأمهات والآباء يغرسون الشجاعة، وخلق الرجولة في نفوسأبنائهم من الصغر، ويعودونهم الصبر، وضبط النفس وكتمان الشعور، وتحمل الألم من الطفولة الأولى. وبهذه الوسيلة يبثون الشجاعة فيهم. ولا يظهر الخلق المتين ولا تبدو الشخصية القوية إلا بهذا النوع من الشجاعة، وهو القدرة على احتمال الآلام. وان من يستطيع أن يحتمل خمس دقائق اكثر من غيره يمكنه أن يفوز بالنجاح والنصر، سواء أكان جنديا أم قائدا، متعلماً أم معلماً، غنياً أم فقيراً. وبالشجاعة يظهر الفرق الكبير بين الشخصية القوية والشخصية الضعيفة. والآن نريد أن نبين مظاهر الشجاعة وأثرها في النجاح في العمل وفي

الحياة الاجتماعية فنقول: مظاهر الشجاعة:
أولاً: الشجاعة في ضبط النفس، وذلك بأن تقف موقفا طبيعيا بكل شجاعة عند مقابلة الرؤساء أو عند الظهور أمام مجتمع لإلقاء محاضرة أو الاشتراك في مناضرة، أو التعبير عن رأي، أو الدفاع عن مبدأ أو عقيدة، بحيث لا نرتعد أو نضطرب، ونظهر بأحسن مظهرفي حديثنا وإلقائنا ونبرهن بأعمالنا وآرائنا بكل لطف وأدب. وإذا لم يكن لدى الإنسان قدرة على إظهار مقدرته بالعمل وضبط النفس فقد تضيع منه الفرصة الذهبية التي قد لا تصادفه مرة أخرى. وكثيرا ما تضيع الفرصة من الشخص، ثم يندب سؤ حظه، ويشكو الظروف والمقادير، مع انه لم يكن في حاجة إلى أكثر من الشجاعة في انتهاز الفرصة حين سنوحها. ولا سبب يدعو الإنسان إلى الخوف من أبناء جنسه. وقد يكون الخوف مبنيا على وهم لا أساس له. وإذا وثق المتكلم من نفسه، وعرف ما يريد أن يقوله، وعرف كيف يعبر
عن خواطره، وكيف يبرهن على نظريته بالعقل والمنطق، فأنه يستطيع أن يطمئن إلى نفسه، ويمسك بزمامها، ويقابل من يشاء، ويخاطب من يريد، ما دام متحليا بالأدب، واثقا من نفسه، وكان عقله مرتبا وأفكاره منطقية، بحيث لا يتسرع في ذكر شئ يدل على عقل مضطرب، أو روح قلق، ولا يتظاهر بما ليس فيه. وإذا وفقت مما تريد أن تقوله فهذا وحده كاف لأن تؤثر في نفوس سامعيك، وتنظر إليهم وتقابلهم بكل قلبك وجها لوجه، وتجعل قلبك وروحك في إثبات ما تريد أثباته، أو نفي ما تريد نفيه، فتتكلم بقلبك لا بلسانك. ولا شئ يبرهن على الشجاعة ويخضد شوكتهااكثر من الهلع؛ فحيثما وجد وجد الألم، والقلق النفسي، وتعب الضمير، واضطراب العقل، فتضطرب شخصية الإنسان. ولأن كان الخوف ثمنا ندفعه في سبيل المحافظة على الحياة فالإفراط فيه عيب من العيوب الإنسانية التي يجب تهذيبها، والتي تقضي بأن يفكر الإنسان في الشيء وفي نتائجه.
وبجانب المخاوف التي تلحق الشخص في حاضره، وتحيط به من وقت لآخر، مخاوف وهمية يتوهمها، ويتخيل حدوثها في المستقبل، فيقلق باله، ويضطرب فكره، وتضعف شخصيته. وكثيرا ما تكون هذه الأوهام المخيفة المبنية على غير أساس، وندر أن تقع. وكم إغتممنا لتوقع مصائب لم تحدث، ولن تحدث. وتكثر هذه المخاوف عادة لدى الشخصيات الضعيفة. أما ذوو الشخصيات القوية فلا يكثرون من الهموم من غير ما سبب، ولأقل سبب، بل يستقبلون الحياة كما هي، ويواجهونها بما فيها من مسرات وأحزان، وسعادة وشقاء على السواء، يبتسمون بهدؤ حتى في مواطن البكاء، ويصبرون في مواقف البأساء. هؤلاء جديرين بالنجاح في الحياة لشدة ثقتهم بالله. والحياة مملوءة بالحوادث والمصائب، والعجائب والغرائب. ولا يستطيع الإنسان أن يعرف ما ينتظره في الغد من المقادير، وقد تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، فيفاجأ الإنسان بأشياء ما كان ينتظرها، كمرض أو فقد مال أو خسارة. فبهذه وبكثير أمثالها من الحوادث تختبر رجولتنا، ويعرف معدن الرجولة فينا، وبالروح التي نقابل فيها هذه الحوادث تظهر شخصيتنا أو تستتر. ولا تظهر الرجال إلا عند الشدائد والمصاعب. وبما أن النجاح في الحياة ليس من السهل فيجب أن يتعلم الإنسان كيف يبتسم في الأيام المظلمة، كما يبتسم عند المسرات في أيام السعادة والهناءة. وينبغي أن يتعود الشجاعة والاحتفاظ بقواه عند الملمات
حتى يكتسب إعجاب رفقائه وأحترامهم، ويثبت ثبات الطود في مهب الرياح. وليس من الشجاعة أن تكثر من شكوى الحياة والظروف والأيام، فشكوى سوء الحال لن تغير ما حدث، بل تذهب بنظرة العقل، وقوة القلب، وأن الفرق من الخذلان والهزيمة يؤدي إلى الهزيمة، وقوة الأمل في النجاح مع التشجيع والمثابرة تحفظ روح الإنسان وهمته، وتبعث فيه كثيراً من الرجاء في الفوز، وبخاصة إذا عمل بعقله وقلبه ويده، وأن الاعتراف بالنقص فضيلة، والعمل على علاجه شجاعة. فنحن في حاجة إلى الشجاعة التي بها نستطيع مواجهة المخاوف ومقابلتها بكل ثبات وصبر وتفكير حتى نتغلب على مصاعب الحياة، ونقلل من الخوف الذي يهدم الرجولة من أساسها، ويقتل الشخصية في مهدها.
وأن أعظم انتصار في الحياة هو الانتصار على النفس
بضبطها وكبح جماحها، والتغلب عليها. وليست الشجاعة في

أن تنتصر على سبع مفترس فحسب، ولكن الشجاعة في أن
تسيطر على نفسك التي بين جنبيك. وأرقى مظاهر الشجاعة
الصبر والتحمل عند القدرة. ثانياً: هناك مظهر آخر للشجاعة
يتبين في التغلب على الصعاب التي تعترض الإنسان في
الحياة، وإصلاح الأخطاء التي تمر بنا سواء أكانت الأخطاء
منسوبة إلينا أو منسوبة إلى غيرنا. وهناك كثير من المصاعب
التي يمكن التخلص منها بقليل من الشجاعة والحزم والثبات؛
وكثيراً ما يكون الجبن سبباً في الفشل وعدم النجاح في العمل.
وكما تكون الشجاعة في الأقدام على الشيء تكون في الأحجام
عند تحقيق التهلكة. ولا تقل الشجاعة في الأحجام والتريث
حينئذ عن الشجاعة في الأقدام.
وممن كانوا مثلاً للشجاعة واقتحام المخاطر بين العرب خالد أبن الوليد: ومن أقواله:
لقد لقيت كذا وكذا زحفا، وما في جسدي موضع شبر إلا وفيه طعنة أو رمية، ثم هاأنذا
أموات على فراشي حتف أنفي، فلا نامت أعين الجبناء.
ثالثاً: تظهر الشجاعة في الإجابة وفي إبداء الرأي: ومن
الشجاعة أن يجيب الإنسان بكل أمانة وإخلاص عما يسأل،
وأن يبدي رأيه بكل صراحة، ويدافع عنه من غير تغيير
الحقائق، ومن غير اضطرار إلى الإنكار أو ذكر نصف
الحقيقة خوفاً من أن تظهر بنفسه الحقيقة كما هي، وإذا اعترفنا
بكل إخلاص أننا فعلنا كذا، ولم نسمع رواية كذا، أو لم نقرأ
كتاب كذا، أو أننا لا نحب فلاناً فقد يعجب المستمع العادي،
ولكننا لو ذكرنا السبب بطل العجب. وهذا أفضل من تشويه
الحقائق بالتغيير والزخرفة وتضليل الغير. وهناك أسئلة
شخصية تدل على تطفل السائل، وتدخله في شئون غيره، فمثل
هذه الأسئلة يجب أن تحارب برفضالإجابة عنها بكل أدب،
عقابا لذلك المتطفل؟
محمد عطية الأبراشي
فصول مدرسية في الأدب الدرامي
الرواية المسرحية في الفن والتاريخ - 7
بقلم أحمد حسن الزيات
تحليل موجز لأشهر المآسي
مآسي كورني: سنا موضوعها حلم أغسطس على سنما،
وعفوة عنه وعن يائر المؤتمرين به، ومغزاها أنتصار العفو
على الأنتقام. وقد وقعت حوادثها في قصر أغسطس بروما
عام 23 قبل الميلاد. وأهم أشخاصها: أغسطس أول امبراطور
لروم، وسنا حفيد (بمبيه) وزعيم المؤتمرين بالأمبراطور،
ومكسيم زعيم نخر من زعماء المؤامرة، أميلي بنت
طورانيوس قتيل أغسطس ظلماً، وأوفورب عتيق مكسيم.
الفصل الأول: تناجى اميل نفسها أولاً، ثم تصارح نجيتها
ثانياضص بعزمها على الأنتقنم من قاتل أبيها، ولا تجد آلة
لأنتقامها إلا سنا حبيبها. فتشترط عليه ألا تقبله زوجاً إلا إذا
أنتزع من الأمبراطور السلطان والحياة. فيجتهد سنا في تدبير
المؤامرة، ويعود اليها فينبئها باستعداد المؤتمرين للعمل في
الغد. ويفجاه المبرطور باستدعائه اليههو وشريكه مكسيم،
فترتعد مفاصلهم مخافة أن يكون أمر المؤامرة قد افتضح.
الفصل الثاني: على أن جزعهم كان سابقاً لأوانهن فأن
الأمبراطور ما زال يجهل امرهم. وانما يريد أن يستشير
الزعيمين في نزوله عن الملك، فقد سئمه وزهد منه. فيشير
عليه مكسيم بترك العرش، ويتوسل اليه سنا بالأحتفاظ به. فان

الشعب لا يصلح امره ولا يهنأ إلا إذا كان له سيد. أما حكومة
الشعب فهي شر الحكومات. فينزل الأمبراطور على رأي سنا.
،ما يضمر. فيعلن إليه سنا أن موت الطاغية هو مهر اميلي
!وفي نزوله عن الملك إخفاق هذا الأمل
الفصل الثالث: يغار مكسيم من سنا لأنه يحب اميلي ايضاً، ويحاول إحباط زواجهما.
ويغريه مولاه (أوفورب) لأن يفشي سر المؤامرة الىأغسطس. ويخز سنا ضميره
ويشتد ألمه وندمه كلما دنا الوقت العصيب فيتردد. وتدخل عليه اميلي وهو في تلك
الحال فتوقد صدره وتجمع أمره فيذهب، ولكن في نيته أن يقتل نفسه بعد أن يقتل
المبراطور. الفصل الرابع: يبلغ أوفور خبر المؤامرة إلى أغسطس من قبل مكسيم،
ويوهمه أن سيده القى بنفسه في نهر التبر كراهة للحياة بعد اقتراف جريمتين: جريمة
التآمر وجريمة الوشاية. فيدهش الأمبراطور ويناجي نفسه بالأمر نجوى جميلة، ويقلب
الرأي فيما يحسن أن يفعل، فتنصحه زوجه بالعفو فأنه أجدر بالقادر، ولكنه يخرج على
غير رأي، وتخلفه اميلي على المسرح، ويدخل عليها مكسيبم يتضرع اليها أن تفر معه
فتأبى إلا الوفاء لسنا. وتعرف من الواشي الخيانة فتحتقره، ويندم مكسيم على
غطاعته مولاه فيعزم على قتله قبل أن يقتل هو. الفصل الخامس: يجمع الأمبراطور
رأيه علىأن يمن بالعفو فيدعو إليه سنا ويذكره بنعمه عليه، وطول إحسانه إليه، ويعجب
أن يكافئه على حسن صنيعه بقتله. فيحاول سنا أن ينكر، ولكن أغسطس يظهره على
أنه يعلم سر المؤامرة. وتدخل حينئذ أميلي فتحمل
تبعة المؤامرة وتعلن انها تثأر لأبيها. ويبرئها سنا ويقرر انه هو المسئول عن تدبيرها
وحده. ويظهر مكسيم فيعترف بخيانته، وتتحرك في قلبأغسطس عواطف الكرم
والأريحية فيعفو عنهم جميعاً، وهو يقول: أنا سيد نفسي كما انا سيد العالم! بوليكت
موضوعها استشهاد القديس بوليكت من اضطهاد الأمبراطور (ديس)، ومغزاها انتصار
الأيمان على الحب. وقد وقعت حوادثها في ميليتين عاصمة أرمينية في قصر فيلكس
عام 250 للميلاد، واهم أشخاصها فيلكس احد أعضاء مجلس الشيوخ الروماني وحاكم
ارمينية، وبليكت أمير ارمني وزوج ابنة فبلكس، فارس روماني وحظى الأمبراطور،
ونيارك أمير أرمني وصديق بوليكت، وبولين بنت فيليكس وزوجة بليكت.
الفصل الأول: اعتنق بليكت الدين المسيحي ولكنه لا يجرؤ على الخروج إلى
المعمودية، فخافة أن يؤلم زوجته بولين. فقد رأت في النوم رؤيا مروعة اخافتها على
حياة زوجها فمنعته من الخروج. ولكن صديقه نيارك يلح عليه فيذهب معه خفية. وفي
غيبته تقص بولين على وصيفتها الحلم الذي ازعجها، وتعلن غليها انها أحبت سيفير
وهيفي روما، ولكن أباها رفض أن يصادق على زواجه منها، ثم قدمت أرمينية مع أبيها
وفي ظنها أن سيفير مات، فتزوجت من بليكت، وفي الليلة البارحة رات فيما يرى
النائم أن سيفير منتصر وانه منتقم. ويدخل عليها ابوها فيخبرها بقدوم سيفير وبخطوته
عند الأمبراطور، ويخشى أن يعزله من منصبه لترويجه ابنته من غيره، ويطلب إلى
غبنته من غيره، ويطلب إلى ابنته أن تحسن أستقباله وتكفكف من غربه. الفصل
الثاني: ينزل سيفير في قصر الحاكم، ويعلم بزواج بولين فيملكه الذهول والدهش
ويريد أن يراها: فإذا ما لقيها تعترف له بأنها تزوجت من بوليكت نزولاً على حكم ابيها
ولكنها احبته منذ تزوجته، وتطلب إلى سيفير الا يراها مرة أخرى وفاء لزوجها فيتركها
بعد أن يتمنى لها الخير. ويعود بوليكت من المعمودية فلا يرتاب في حضور سيفير
لثقته بزوجه، وتأتيه دعوة إلى حضور القربان الذي يقدمه الحاكم ابتهاجاً بانتصار
سيفير، فيذهب إليه مع صديقه نيارك، وفي نيته أن يحطم الأصنام. الفصل الثالث:
وبينما يعبث القلق والخوف بقلب بولين إذ تدخل عليها وصيفتها فتخبرها بأن نيارك
وبليكت حطما الأوثان على ملأ من الشعب. ويستقل الغضب بفيلكس فيحكم على
نيارك بعذاب الموت. ويعلن إلى ابنته أن بليكت إذا لم
يرعو عن زيغه ويتعظ بمصير صاحبه حل به ما حل به، ثم يريدها على أن تعيده إلى
حظيرة الوثنية، وإلا خشى أن يسخط الأمبراطور عليه إذا تساهل في امره. الفصل
الرابع: تعلن إلى بوليكت زيارة بولين. فيخشى دموعها اكثر مما يخشى تهديد فيلكس،
ويبعث في طلب سيفير. وفي غضون ذلك يعبر عن عواطفه الدينية بقطعة من الشعر
الخالد وينبو على حنان زوجته. ثم يطلب لها الهداية، ويرجو سيفير أن يتزوج من بولين،

فقد صمم على أن يموت في سبيل عقيدته، ولكن بولين تصرح انها لا تتزوج رجلاًكان سبباص في موت زوجها ولو غير عامد. فيقرر سيفير في نفسه أن يسعى في نجاة خصمه ليكون اهلا لحب بولين. الفصل الخامس: ولكن فيلكس يظن أن سيفير لا يطلب العفو عن خصمه إلا تدبيراً لمكيدة، فهو يخشى أن يرميه عند المبراطور بالتساهل والمحاباة. فيدعو إليه بليكت ويحاول أن يفتنه عن دينه، وتساعده بولين بدموعها فما يرجعان بطائل، ويمشي بليكت إلى الموت مشية الظافر، وتتبعه بولين ثم تعود إلى ابيها بعد أن شهدت زوجها يموت، فتوبخه على وحشيته وتعلن إليه أنها مسيحية، ويهدده كذلك سيفير على عدم أعتداده برأيه وقبوله لشفاعته، فيتنصر فيلكس ايضاص ويستعد للموت. ولكن سيفير يؤثر فيه هذا المشهد فيطلب اليه البقاء في منصبه، ويعده أن يمنع الأمبراطور عن اضطهاد المسيحيين.

مآسي حادثة من الحوادث التي أعقبت حرب طروادة وهي سبى أندروماك أرملة هيكطور في أيبريا. وقد وقعت حوادثها في بطرون من مدائن أيبريا في غرفة من قصر بيروس. واهم اشخاصهاأندروماك ارملة هيكطور وسيبية بيروس، وبيروس بن أخيل وملك ايبريا، وأوريست بن أغاممنون وهرميون بنت هيلين وخطيبة بيروس، وبيلاد صديق أوريستالفصل الأول: بيروس يهوى أندروماك التي سباها بعد سقوط طروادة، وجلبها إلى أيبريا مع ولدها أستياناكس، ويهجر خطيبته هرميون بعد أن شغفها حبا. ويقدم أوريست عاشق هرميون إلى بيروس موفدا من الأغريق يطلب منه تسليم أستياناكس ليقتلوه، فأبى الملك تسليمه، وينبئ أندروماك بالخطر الذي يترصد ولدها، وياخذ على نفسه أن يحميه على شرط أن ترضى به زوجا. ولكن اندروماك ترفض إخلاصا لذكرى زوجها الأول، فيثور الغضب في وجه الملك ويخرج وهو يقول: أن الولد سيكفر عن احتقار الأم. الفصل الثاني: تتلقى هرميون المر من أبيها بالعودة مع الأغريق إذا أبى بيروس أن يسلم

أستياناكس. فيرفض بيروس ولكن هرميون ترفض أن ترحل لأنها تغار من أندروماك. على انها تلين لألحاح أوريست خطيبها الأول، فيزهوه النصر. ولكن بيروس يحنق على أندروماك لإيبائها، فيعلن إلى أوريست انه يسلم أستياناكس ويتزوج من هرميون. الفصل الثالث: يتحرق أوريست من اليأس، وتطفر هرميون من الفرح، وتتقطع أحشاء اندروماك من الحزن، وتتوسل إلى هرميون أن تنقذ ولدها، فتدفعها هذه بأحتقار، فتذهب إلى بيروس فتجثو بين يديه وتسأله ولدها، فيرضى أن يدفعه إليها إذل قبلت أن تنتظره عند الهيكل، وهناك أما أن تربح التاج، وأما أن تخسر الأبن. فتذهب أندروماك مشردة اللب إلى قبر هكتور تستشير روحه. الفصل الرابع: تستكين اندروماك أبتغاء حياة ولدها وترضى أن تتزوج بمبيد أسرتها على نية أن تنتحر بعد الزفاف، وترغب وصيفتها أن تموت هي أيضا، ولكنها تنصح لها أن تعيش لتنفع أستياناكس، ولتمكن له عند بيروس، ولتحدثه عن أبطال قومه. ويثور ثائر هرميون فتطلب من أوريست أن يقتل بيروس على أن تتزوجه من بعده، فيتردد طويلا ثم يطيع. الفصل الخامس: يذهب أوريست مع الأغريق إلى الهيكل فيقتل الملك ثم يعود، فيقص على هرميون مافعل، فتقابله بالأزدراء وتصفه بالخيانة، ويصيبها الخبال من الحزن واليأس فتطعن نفسها بالخنجر فوق جثة الملك، ويرى أوريست نفسه محاطا بالأشلاء والدماء، فيظل عقله ويفقد صوابه. ويسدل الستار على هذه الفجعة الأليمة.

أنالي

موضوعها حادثة من تا بني أسرائيل وهي موت أتالي وتتويج جواس في القرن الرابع قبل المسيح. وذلك أن أتالي أن اتالي بنت آكاب، وأرملة جوارم ملك يهودا. ذبحت أبناء ولدها أوكزياس جميعا بعد موته ليخلو الطريق لها إلى العرش والسلطان، ولم تدر أن واحدا منهم أخطأه القدر، فأنجته (جوزابيت) عمته وزوج الكاهن الأكبر جواد، وربته هي وبعلها سرا في معبد أورشليم باسم الياسمين حتى جاء يومه فرفعاه على عرش أبيه. وأهم اشخاصها جواس ملك يهودا وأبن أوكزياس، وأتالي أرملة جورام وجدة جواس، وجواد كبير الكهنة، وجوزابيت عمة جواس وزوجة جواد، وزكريا بن جواد، وسالوميت اخت زكريا، وابنير ضابط الملك، وقد وقعت حوادثها في معبد أورشليم في دهليز مسكن الكاهن الأكبر. الفصل الأول: يظل أبنير قائد جيش أتالي مخلصا الدين لله. وفي يوم عيد العنصرة يبكر بالذهاب إلى الهيكل فيلقى هناك جواد، فيفضى إليه

يمكنون صدره من الأسف على الماضي، والأسى على الحاضر، والأنكار لما اقترفت أتالي من ظلم، وأحدثت من بدع، ويبدى له ما يساوره من الخوف عليه من سطوتها وبغيها. فيهدئ الكاهن روعه ويجدد أمله، وبعده أن يبوح إليه بسر خطير في الساعة الثالثة من النهار. ثم يصرح لزوجته بانه سيعلن نسب جواس في ذلك اليوم نفسه. وتشدو القيان بتمجيد آلاء الله وإعلاء دينه. الفصل الثاني: تجئ أتالي إلى الهيكل فيغلق الكاهن دونها أبوابه، فتظل في الفناء مع أبنير وماتان، وتقص عليهما أنها رأت حلماً أزعجها وراعها: رأت أن أملها أيزابيل جاءتها في المنام منذرة بحلول كارثة فادحة. ثم ظهر لها بعد ذلك غلام طعنها بخنجرة في أحشائها طعنة قاضية. وما كان أشد عجبها ودهشها حين ترى في الهيكل شبيه الغلام الذي طعنها فينصح لها ماتان أن تقتله. ويشير عليها أبنير أن تدعوه وتسأله، فتأمر به وتستفهمه عن أمره. ولكنه لا يقول أكثر من أنه يحب الله ويبغض الأوثان وأهل الشر ثم يذهب. فيشتد قلقها وفرقها من هذا الجواب وتخرج. فيطهر الكاهن الأكبر الهيكل من أثرها النجس. ثم تجدو القيان بسعادة الأبرار وشقوة الفجار. الفصل الثالث: يفد ماتان من قبل أتالي على كبير الكهنة يطلب منه تسليم الغلام رهينة الصلح بين الملكة وبينه، فيطرده الكاهن طرداً قبيحاً فيذهب مهدداً،

ويوقض شكوك أتالي فيه. فيشتد الخطر ويفدح الأمر. ولكن جواد يزداد بالله أيماناً وثقه، فيطمئن أمرأته ويتنبأ بسقوط أورشليم وقبيام الكنيسة المسيحية. ثم يأخذ في أسباب التتويج ويحرض اللاويين على القتال دفاعاً عن الهيكل، وتنشد القيان أناشيد الخوف والرجاء. الفصل الرابع: يعلن الكاهن إلى جواز حقيقة مولده، ويبصره بحقه وواجبه، ويقدمه إلى اللاويين ولياً لعهد داود، ويأخذ عليهم الأيمان أن يوازروه وينصروه. وما هي الا لحظة حتى يحمل اليه لاوي خبر محاصرة الهيكل بجنود أتالي. فتضطرب جوزابيت جزعاً على جواس، وينظم الكاهن صفوف المدافعين، وتنشد القيلن نشيد الغوث والمعونة من الله. الفصل الخامس: يدخل أبنير الهيكل المحصور سفيراً إلى الكاهن يحمل شروط أتالي الأخيرة وهي تسليم الياسمين، وتقديم الكنز المدفون في الهيكل، فيجيبه الكاهن: لتدخل الملكة فتأخذ ما تشاء بنفسها. ثم ينصب في أثناء ذلك عرشاً لجواس، وتدخل أتالي المكان المقدس يحف بها ثلة صغيرة من الحرس وهي تقول: أين الغلام وأين الكنز؟ فيريها الكاهن جواس على العرش، ويقول لها: هذا كل ما بقى من كنز داود!!! فتحتدم الملكة من الغيظ وتصيح: يا للخيانة!! يا للجند!! ولكن الجنود يأخذهم الفزع فيتمزقون شر ممزق، ويقبض اللاويون على الملكة ويسحبونها خارج الهيكل، ويذيقونها عذاب الموت بما كسبت، ويقول جواد لجواس في كلام طويل: (لا تنس يا ملك اليهود أن للملوك قاضياً جباراً، وللبرئ منتقماً عزيزاً ولليتيم أباً رحيماً.!!) يتنع الزياتحول 14 سبتمبر للأستاذ محمد محمود جلال دعوت الله الا أراه القاهرة في الرابع عشر من سبتمبر. وكنت مقيماً بين مزارعي وشواغلي إلى الثاني العشر منه، فجد لي عمل هام يقتضيني سفراً اليها قد يستغرق يومين أو ثلاثة. لست أكره الذكرى، بل أعمل لها، وعقيدتي أن ذكريات المحن كذكريات المنح في نتيجها. لانها تشحد العزائم وتبعد تكرار الأخطاء، وليست ذاكرتي بالضعيفة، وأنما تعذبني في الواقع بشدة أحساسها، ولكنهما خيل إلى أن أعصابي لا تحتمل شنهود العاصمة المحبوبة في ذلك اليوم!!! كبر على أن أشهد المدينة القاهرة الزاهرة التي عاش أهلها في طهارة الأستقرار وعزه، يعيشون منذ 14 سبتمبر سنة 1881 غارقين في رجس الأحتلال وذله. . . ما كدت أصل القلهرة مساء الثاني عشر من سبتمبر حتى أستعرضت برنامج عملي على أن أعجل منه ما أستطيع وأرجئ منه ما لا يضيره إرجاء. فلما أصبحت

أسرعت إلى عملي وفرغت منه. في نحو العاشرة صباحاً، وذكرت على التو أن قطاراً يغادر القاهرة إلى بور سعيد في الحادية عشرة، وفي هذا زوال ما أخشى. وازمعت السفر لأعود بأسرتي من المصيف وقد قرب أفتتاح معاهد الدرس، وخيل ألي انيسأتلافى بسفري جواً خانقاً ويوماً من الدهر حانقاً!. . . سيتحقق إذن ما تمنيت على الله، فلا أكون بالقاهرة يوم تشرق شمس جاء أصلها على البلاد بمحنة المحن. فإذا جيش الأحتلال يدخل قلب البلاد، وإذا نائب عن الخديو يلازم الجيش!!. . . وهل شر من احتلال أجنبي يظله اضطراب لا يستقيم معه فكر، ولا يتسق وأياه منطق؟!!. الفكونت

ولسلي يرفع لأنجلترا في مصر راية، وسلطان باشا يؤمن تلك الراية باسم الخديوي!. وأين عرابي واين الجيش؟ وفيم كانت الحرب؟ وأي فكرة تنطبع في ذهن البلاد لصورة هي التناقض بذاته فوق ما تحمل من عار؟. والله ما ابتلى شعب بمثل ما أبتلى به شعبنا في ميداني المادة والمعنى، ولولا أن الشعب كان قوياً بدينه وتقاليده، عظيماً بآثار المحن الغابرة في عزائمه، عزيزاص بكرامته، لنالت منه الأحداث أضعاف ما نالت، ولو حلت بغيره لأفنته. جلست في القطار أتسلى بالقراءة، واتفاقاً بدأت بكتاب صغير أشتريته من (كشك) ليفاداس بالمحطة - مؤلفة فرنسي - والكتاب عن حصار (باريس) سنة 1870. اخذتاقرأ وفي نفسي أني واجد في وطنية الفرنسيين الهائمين بعاصمتهم وبمجدهم، وفي كفاءة الألمان وحسن تنظيم جيوشهم خير عبرة وتسلية. ولقد اجاد المؤلف في المقدمة، وفي وصف الحالة العامة، ثم إذا به فجاة يتكلم عن باريس في 19 سبتمبر، فيصف الطوارئ، وحالة الرأي العام وصعوبة التموين، وضعف خطوط الدفاع!. إذن ما زلنا في شهر سبتمبر! ولا زالت هناك سلسلة من هموم في ثناياه إذا خلفتها في القاهرة ذكرتها عن باريس في محنة مماثلة! وفي المثل: يؤتى الحذر من مأمنه. ما عتمت أن تمثلت بالكلمة الخالدة التي أنتزعتها من فم الرجل الحزين سيدنا كعب بن مالك - خطاب عاهل غسان إليه، فقلت معه رضى الله عنه: (وهذا أيضاً من البلاء) يقول المسيو (سارسي) مؤلف (حصار باريس) بعيد اعلان الجمهورية: (وبينما يشتد ضغط الجيش البروسي وتتوالى انتصاراته وتكتمها الحكومة عن الشعب كنت كثيراً ما تسمع واحداً يقول لرفيقه: (إنهم لن يجرؤا على دخول باريس ما دمنا حصلنا عليها) أي ما دمنا أعلنا الجمهورية فلن يجرؤ البروسيون على فتح باريس). وهكذا تلهى الباريسيون

بأعلان جمهوريتهم عن الغرض الأساسي وهو حماية باريس من هجوم الأعداء. أو لم نصب بهذا يوم أطلق سراح المرحوم سعد باشا زغلول وصحبه. ويوم ذهب اللورد ملنر يفاوض الوفد، ثم يومأعلن الدستور سنة 1924 ففترة ثورتنا وتشتت شملنا؟ كان لأحد أدباء باريس في ذلك العهد غرام بجمع المؤلفات الأدبية ذات الغلاف الأنيق. فأقتنى منها ما يعد ثروة ضخمة رتبها في منزل بجوار باريس. ثم صدق ما كانت تردده الصحف من أستحالة باريس على الهاجمين فمضى في تنسيق تراثه. ثم إذا به بين يوم وليلة يتحقق أن الصباح قد لا يشرق الا مغبراً بخيل العدو. أسرع بما أستطاع حمله، وأوى إلى أول فندق ثم أستراح الراحة الأبدية. فقد وجدوه ميتاً في بكور الصباح. وكان بذلك مشدود الحظ سعيداً. فلم يرسنا بك الأعداء في العاصمة الحبيبة. وإذن لست أول الناس في هذا الشعور الذي أقض مضجعي قبيل 14 سبتمبر ولو أني لم أحضى بنصيبه، فلعل الله يريني يوماً ميموناً بالخلاص. اغرق اهلباريس في تحية الحكومة الجديدة بقدر ما أسرفوا في الطعن على الأمبراطورية وما جرت من ويلات، حتى رسخ في ذهن الجمهور أن بروسيا لا تحارب فرنسا، ولكنها تحارب الأمبراطورية. وقد يعجب القارئ إذا علم أن الأمبراطورية التي باتت مثالاً للشقاء في أعين الفرنسيين هي النظام بذاته الذي تأيد بثمانية ملايين من أصوات الناخبين قبل ذلك بشهر. ولقد كان موقف نابليون الثلث شبيهاً بموقف عرابي باشا، ولعل الخير كل الخير كان في أن يموتا في ميدان القتال. ليست العبرة فيما ينفع أنه يرضى الناس بائ الأمر، وأنما العبرة في أن يكون نافعاً وكفى. ولا بد من تعويد النفس أحتمال الكروب في سبيل العقيدة، وثبات العزم على صحيح الرأي. الف الجنرال (تروشي) في عهد الأمبراطورية كتاباً نقد فيه حالة الجيش وخطوط الدفاع من الوجهة الفنية نقداً أغضب الأمبراطور ورجاله ذلك العهد حتى أضروه بسببه. فلما حوصرت باريس وبدا الضعف واضحاً في خطوط التحصين عادت بالشعب ذاكرته إلى الجنرال المؤلف والى كتابه، ووصل الرجل وكتابه إلى الذروة، ولكن الوقت لم يكن يسمح يومئذ بتنفيذ شئ مما أشار به. ولا بد لنا - لأحاطة أخلاقنا بسياج يقيها العثرات - أن نرجع البصر إلى خطوات الماضي، والى عظات من سبقونا من رجالات مصر - فذلك كفيل بحسن التوجيه. شئ من الثبات، وعود إلى أدابنا القومية، وتقاليدنا الشعبية، وشئ من الشجاعة الأدبية، لنقول للمخطئ أخطأت، وللمصيب أصبت. جعل الله لنا في الماضي عظة، وفي الحوادث عبرة. وجمع على الحق شتاتنا إنه كريم مجيب. محمد محمود جلالالمحامي

من اللزوميات:
من أبي العلاء
الى الشاعر التونسي محمد الحليوي
(أبا العلاء أحقاً أنت في دعة=من الخطوب وفي سلم من الكرب)
(الحيلوي)
أبا فلان! جزاك الله صالحة ... فان وصلك حبلي أطيبُ القُربَ
هذا جوابك - لكني أُسِرُّبه ... فاشحذ لتسمعنا أذنيك واقترب
منقبضاً ... عن رفقة طبيعهم أعدي من الجرب (قد عشتُ رهن العمى والحبس)
لم أعدُ أنى عددت القوم مذ نضجت ... حمقاً جلودهمو صنفاً من القرَبِ
وما يضير الورى أن بت مكتفياً ... من الطعام بمثل الصَّرْب والصَرَب
أغربت عند أناس من غباوتهم ... بأننى مِزْت عود النبع والغرَب
أمَّا الولاة، فقوم أنت تعرفهم! ... يُمنى مخالطُهم بالويل والحَرَب
كماسرب منهمو خوفاً وآمننى ... في السِّرْب أنى اتخذت الدار كالسَّرّب
فدع (أَلْمَبَكَ) أني لست أعرفه، ... من لي بذاك، وصحن الدار مضطرَبي
وما مررت بقصَّاص فأسمعني ... ألا وألفيتنى أمعنت في الهرب
فليس يعمر قلب بات يملؤه ... بالإفك يصدره عن قلبه الخرب
قد عشت ماعشت رهن الحبسين ومن ... يعاشر النس باع التمر بالكَرَب
فجاء يوماً أبو يحيى وفي يديه ... كأس مذاقتها أشهى من الصَّرَب
فأسكرتني بلا خمروجدَّبنا ... من شربها طرب ناهيك من طرب
واذ بعينىَ عادت وهي مبصرة ... واذ بذهنَى ذهن الحاذق الدَّرِب
نظرت حولي فأبصرت الألى سبقوا ... على غرار وإذ بالعُجم كالعرب
حتى إذا النفس ثابت بعد دهشتها ... لاحت مجرّدة من ثوبها التَّرب
فراعنى انها المرآة منعكساً ... نور الحقيقة فيها غيرَ مضطرِب
أمانة حملتها النفس قد خفيت ... على البصائر لم تدرك من التَّرَب
ماكنت مدركها لو لم أمت أبداً ... أو كنت مبصرَها أو بالغاً أربى
ومن يمت مرة في الدهر واحدة ... نال الخلود فما يخشى من الكُرَب
من يصقل النفس يكشف عن حقيقتها ... ولست تكشفُها بالمنطق الدَّرِب
مصطفى العلوي
من الأدب الأندلسي
التوابع والزوابع
بقلم محمد فهمي عبد اللطيف
نشأ أبو عامر بن شهيد الاشجعي في الاندلس في قرطبة احدى مدن العلم والادب، وكان هذا الرجل اديبا مغموراً توغل في شعاب البلاغة وطرقها كما يقول ابن خاقان، وله في الادب مجالس معمورة يبث فيها تعاليمه وآراءه، ويالها من تعاليم قيمة، وآراء مبتكرة، ولكنه كان مبتلى بحقد جماعة من معاصريه قصروا عن شأوه فناصبوه الخصومة، فكان وهم كما يقول.
وبلّغت أقواما تجيش صدورهم ... علىّ وأنى منهم فارغ الصدر
أصاخوا الى قولي فأسمعت معجزاً ... وغاصوا على سرى فأعياهمو أمري
ولكنه لم يلبث أن ضاق صدره بهم، وشغله أمرهم، فاصلاهم ناراً حامية من التهكم المر والتعريض اللاذع، وتفنن في الانتقاص من قدرهم، والحط من شأنهم، وتحداهم بآرائه في النقد والبيان، وازدهى عليهم بقدرته في الشعر والنثر، وساق ذلك كله في قصة خيالية زعم أنها وقعت له في وادي الجن، وان حوادثها جرت بينه وبين شياطين الشعراء والأدباء - هذه القصة هي (التوابع والزوابع) موضوع بحثنا اليوم - وهي رسالة أدبية ممتعة تعد من خير ماخلف في تراثنا الأدبي قوة وجدة وطرافة. ولما كان في التوابع والزوابع شبه من رسالة الغفران، وكان عصر ابن شهيد مندرجاً في عصر المعري، رجح لدى الأدباء ان يكون احد الرجلين ضرب على غرار الآخر، وانساق مع تياره، فاهتموا ببحث الصلة بين الرسالتين، وتلمسوا فضل الأسبقية للسابق من الرجلين، وكان من رأى الدكتور احمد ضيف

ان ابن شهيد هو الذي احتذى شيخ المعرة وحاكاه، واحتج لذلك بان شهرة ابي العلاء كانت ذائعة في الخافقين، وقد كان اهل الاندلس مولعين بتقليدالمشارقة في آدابهم وأفكارهم بل وفي كل شي؛ ولكن الدكتور زكي مبارك أمعن في البحث والتدقيق، ونظر الى المسألة من جانبين: الجانب الأول التاريخ الذيوضعت فيه التوابع والزوابع وقد استخلصه بالتقريب من قول صاحبها يخاطب جنية (من اخواننا من بلغ الامارة، وانتهى الى الوزارة). وقال: وفي هذا اشارة الى انه وضعها وهو كهل، اي بعد سنة اربعمائة واثنتي عشر للهجرة، واما الجانب الآخر. فهو التاريخ الذي كتبت فيه رسالة الغفران، وقد قال في تحقيقه: إن هذه الرسالة كانت جواباً على رسالة ابن القارح، فاذا علمنا بأن هذا الرجل وضع رسالته بعد أن نيّف على السبعين كما وقع في ثنايا كلامه، واذا علمنا بأنه ول سنة احدى وخمسين وثلثمائة، ثبت لدينا أن رسالة الغفران كتبت حوالي سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة، أي بعد التوابع والزوابع بنحو عشر سنين، وعلى هذا صار من المرجح أن يكون أبو العلاء هو الذي قلّد ابن شهيد.!!

فالدكتور زكي مبارك قد أنصف ابن شهيد حقاً، واستطاع أن يثبت له فضل السبق على صاحبه، ولكنه لم يستطع ان يثبت تهمة التقليد التي رجحها على المعري، وهي تهمة كبيرة لو صحت لكان لها شأن كبير في الأدب، خصوصاً اذا طاوعنا الذين يقولون بأن (دانتي) و (ملتن) - أخذا عن المعري في (الكوميديا الآلهية) و (الفردوس المفقود) والواقع أنه ليس في الرسالتين مايدل على تقليد أو محاكاة؛ نعم إن بينهما شبها في بعض الوجوه، فكل منهما عبارة عن سياحة خيالية إلى عالم آخر، كما أن كل منهما عرضاً لكثير من المشاكل الادبية واللغوية، وزيادة على ذلك فقد اهتم كل من الرجلين بالتهكم بمعاصرين في رسالته؛ ولكن هذا كله تشابه في امور عامة تتوارد فيها الخواطر غالباً، وربما تكون من وقع الحافر كما يقولون. ولو أنك نظرت الى وجه الخلاف بين الرسالتين لرأيته اقوى وادل على تباعد الرجلين واستقلالهما في الفكر والغرض؛ فقد قصد المعري في سياحته الى الفردوس والجحيم في العالم الآخر؛ وذهب ابن شهيد الى وادي الجن في عالم الحياة؛ واختار المعري اشخاص قصته من الرواة والشعراء والملائكة، وارتضاهم ابن شهيد من الشياطين - شياطين الشعراء والأدباء، وعنى المعري بالتعرض لكثير من المسائل الفلسفية والدينية، ولم يتعد ابن شهيد القول في البيان والنقد والشعر، وكتب المعري رسالته باسلوب وحشي غريب فلا يستطيع القارئ ان يأتي عليها الا بشق النفس، وقوة الصبر، وبعد الاستعانة بمعاجم اللغة، وساق ابن شهيد قصته فياسلوب عذب رقيق يخلق اللذة في نفس القارئ، ويدفع به الى استيعابها بلا ملل او سآمة؛ ولقد اظهر المعري كثيراً من التباهي بحفظ الغريب والتمكن في قواعد النحو والتصريف، واطال ابن شهيدالقول في الغض من قيمة هذه الامور وتحقير الذين يجعلونها كل همهم؛ ثم بعد هذا كله لاتجد في احدى الرسالتين فكرة اشتملت عليها الأخرى، او رأياً اتفق لكل من الرجلين؛ فلكل منهما فضله في عمله، ولكل منهما شخصيته في رسالته؛ واظن في ذلك مايكفي لدفع تهمة الاخذ والتقليد، سواء اكانت في جانب ابن شهيد كما يقول الدكتور ضيف؛ ام ناحية المعري كما يريد الدكتور زكي مبارك. وحسبي بعد هذا ان افرغ معك للحديث عن التوابع والزوابع، وان استعرض امامك ما احتوته من الاراء والافكار؛ ويقيني انك ستجد فيها كثيرا من الابداع والامتاع، بل سترى شيئاً جديداً يثمره الفكر العربي، وستشهد لصاحبها بالدقة في الوصف، والقوة في التصوير، خصوصاً وصف احوال الشعراء السابقين، وتوصير ميولهم ونفسياتهم، وستعجبك منه روح خفيفة، ونفس مرحة طروب يلذّ لها أن تضحك فتجيد الضحك، ويهمها النادرة الحلوة فتوفق كثيرا الى الحلاوة النارة وبراعة النكتة

استهل ابن شهيد رسالته بمقدمةقصيرة اراد ان يبين فيها كيف وقعت له حوادثها، وكيف رحل الى وادي الجن فقال: (كنت في ايام الحداثة احن الى الاداب، واصبوا الى تأليف الكلام، فابتعت الدواوين، وجلست الى الاساتيذ، فنبض في عرق الفهم، ودر لي شريان العلم، ويسير المطالعة من الكتب يؤيدني، إذ صادف شن العلم مني طبقة، ولم أكن كالثلج تقتبس منه ناراً، ولا كالحمار، اسفاراً؛ وكان لي في اوائل صبوتي هوى اشتد له كلفي، ثم لحقني بعض ملل في اثناء ذلك الليل، فاتفق ان مات من كنت اهواه مدة ذلك الملال، فجزعت، واخذت في رثائه فقلت:

تولى الحمام بظبى الحدود ... وفاز الردى بالغزال الغرير
إلى ان انتهت الى الاعتذار من الملل الذي كان فقلت:
وكنت مللتك لاعن قلي ... ولا عن فساد ثوى في الضمير
ثم ارتجع على القول، فاذا انا فارس بباب المجلس، على فرس ادهم قد اتكأ على رمحه، فصاح بي اجز يافتى الأنس، فقتل: لا وأبيك، للكلام احيان، وهذا شأن الانسان؛ فقال قل بعده:
كمثل ملال الفتى للنعيم ... اذا دام فيه وحال السرور
فأثبت اجازته، وقلت: بابي من انت؟ قال: (زهير بن نمير) من أشجع الجن، تصورت لك رغبة في اصطفائك؛ قلت: اهلاً بك ايها الوجه الوضاح، صادفت قلباً اليك مقلوباً، وهوى نحوك محبوباً، وتحادثنا، وتذاكرت معه اخبار الخطباء والشعراء، ومن كان يألفهممن التوابع والزوابع، وقلت له هل من حيلة في لقاء من اتفق منهم؟ قال حتى أستاذن شيخنا، وطار عني، ثم انصرف وقد اذن له فقالجل على متن الأدهم فسرنا عليه؛ وسار بنا كالطير يجتاب الجو فالجو، ويقطع الدوّ فالدو، حتى لمحت ارضاً لا كأرضنا؛ وشارفت جواً لا كجونا، متفرع الشجر، عطر الزهر، فقال: حللت ارض الجن ابا عامر، فبمن تريد ان تبدأ؛ قلت: الخطباء اولى بالتقديم، ولكني الى الشعراء اشوق. . .).
وابن شهيد كما ترى يحاول الايجاز في سرد الحوادث، ويود ان ينطلق على طبيعته في ايراد القول، ولكنه لم يوفق كثيراً في هذه المقدمة كما يود، وكما وفق في عرض الرسالة؛ فظهر على أسلوبه مسحة التكلف، ووقعت بعض جملة قلق نابية، كأنه كان يدفع بها إلى غير موضع، ويضعها حيث لا مستقر؛ فمثلاً في قوله: (ويسير المطالعة من الكتب يؤيدني، إذ صادف شن العلم منيطبقة، ولم أكن كالثلج تقتبس منه ناراً، ولا كالحمار يحمل اسفاراً) ثقل يحس به القارئ في اللسان وفي الذوق؛ وزيادة على ذلك فقد اضطرب الرجل في وضع الكلام، واختل به نهج القول. الا تراه يقول في بدء كلامه (كنت في ايام الحداثة احن الى الأداب. . .)، ويسير في الحديث على هذه الكينونة؛ كأنه رحل إلى وادي الجن غض الاهاب، نضر الشباب؛ مع أنه فيما بعد سيشكو الى احدى التوابع مافعلت الايام به!! وسيذكر لها ان من اخوانه من بلغ الامارة. وانتهى الى الوزارة! وفي هذا ما يفيد انه طعن في الكهولة على اقل تقدير ثم تجده يصف صاحبه (زهير بن نمير) بأنهمن اشجع الجن، وكان الاوفق بداهة ان يجعله في الادباء، ما دام القول في الادب والشعر وما دام الحديث عن الادباء والشعراء.
ولكن هذه هنات هينات. على انها ترجع الى العرض، ولا تمس الجوهر في شيء، وقد تكون هي كل ما في الرسالة من المآخذ؛ ولقد سلك الرجل طريقه بعد ذلك على احسن ما يكون، يجد ويهزل، ويتهكم، ويضحك. ويعالج كثيراً من الآراء العميقة، والافكار القويمة، وهو في كل ذلك طريف خفيف؛ ملء قلمه الفصاحة والبيان، وملء تعابيره البلاغة والايجاز السليم؛ ولقد حدثنا بعد هذه المقدمة أنه لما نزل بوادي الجن، ورغب في البدء بلقاء الشعراء؛ طلب من صاحبه (زهير بن نمير) أن يقدمه الى عيينة بن نوفل شيطان امرئ القيس، فصاح به زهير: يا عيينة بن نوفل، أقسمت عليك بسقط اللوى فحومل ويوم دارة جلجل؛ الا عرضت لنا وسمعت من الانسي، وعرفتنا كيف اجازتك له - يقول ابن شهيد - فظهر لنا فارس على شقراء كأنها تلتهب، فقال حياك الله يا زهير وحيا صاحبك، أهذا هو وحق ابي؟ ثم قال أنشد، قلت: السيد اولى بالانشاد، فتطامح طرفه، واهتز عطفه، وضرب عنان الشقراء، ثم انشد: (سما لك شوق بعد ما كان اقصرا) حتى اكملها. ثم قال انشد، فهممت بالحيصة، ثم اشتدت قوى نفسي وأنشدت: (شجته مغان من سليمى وأدؤر) حتى انتهيت فيها الى قولي:
ومن قنة لا يدرك الطرف رأسها ... تزل بها ريح الصبا فتحدر
تكنفتها والليل قد جاش بحره ... وقد جعلت امواجه تتكسر
ومن نحت حصنٌ أبيض ذو شقائق ... وفي الكفّ من عسّالة الخط أسمر
هما صاحباي من لدن كنت يافعاً ... مقيلان من جدّ الفتى حين يعثر
(للكلام صلة)
محمد فهمي عبد اللطيف
مِن طرائف الشّعر

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي
فجعت الأمة العراقية الكريمة منذ أسبوعين باستشهاد خمسة من طياريها البواسل، سقطت بهم الطيارة على مقربة من مطار الهنيدي، فرثاهم شاعر العراق الكبير بهذه القصيدة

(1)

خمسة طاروا من عيونالشباب ... فوق طيّارة كمثل العقُاب
أخذت في الجوّ الرفيع تَعالى ... ثم خرّت من أوجها كالشهاب
إن ذاك الصعود في الجوّ منهم ... كان للجد والعُلا والغِلاب
صدمٌة في هبوطها أهلكتهم ... بعد أن حلّقت بمجرى السحاب
لا ترى بعدها على الأرض منهم ... غير أشلاءٍ أو دمٍ مُنساب
انما أوقف المحرّكَ فيها ... سببٌ قاهرٌ من الأسباب
هلكوا في شرخ الشباب فيا للـ - رزء لّما عرا ويا للمصُاب

(2)

فتيةٌ طارت تبتغى المجدّ ذخراً ... ولأوطانها تخلّد ذكرا
فوق طيّارة بهم في الْـ ... جوّ هدّارةٍ فتشبه نسرا
كلما استذكرتُ الفجيعةَ أحسـ ... تُمن الحزن في فؤادي جمرا
ليس عندى ما أستقى منه شعرى ... غيرُ عين من الكآبة عَبْرى
أنا في الحزن أرسل الشعرَ دمعا ... ساخناً ثم أرسل الدمعَ شعرا
حسبُ مَن مات عند خدمته أو ... طانَه أنه بها كان بَرّا
عاش مَن بَرَّ بالمواطن محمو ... داً فان فهو بالحمد أحرى

(3)

فتيةٌ صرعى فارقتها الحياة ... فبكتها الآباء والأمهات
وبكاها العراق حزنا عليها ... وبنوه ودجلةٌ والفرات
أينما ألْتَفِتْ أشاهد شحوباً ... في وجوه عيونها خَضِلات
شّيعتها الى مقابر شتى ... عبراتٌ وراءها عبرات
إنما المجد لا يموت وان كا ... نَ ذووه لحادث قد ماتوا
أيها الشعب لا يثّبطك يأسٌ ... انما في الموت المُلِمّ حياة
أيها النسر ما دهاك وقد كنْ ... تَ اذا طرتَ لم يخنك الثبات

(4)

هي دنيا كثيرة الإمتاع ... وَدَّعوها ولات حين وداع
وهو المجد بالمساعي اقتنوه ... حبذا المجدُ يُقتنى بالمساعى
قد أضعناهم خمسةً ليس فيهم ... مَن به رِعدةٌ فيها للضياع
مشهدٌ للحياةن والموت يُشجى ... ما به من تنازع وصِراع
لهف نفسي على شباب تردّوا ... فنعاهم إليّ فيالصبح ناع
شاع ذاك النعيّ حول الفراتين ... فأثِقلْ به على الاسماع
جنحت للغروب شمسُ نهارى ... ثم منها لم يبق غيرُ شعاع

(5)

وقف الموت للأنام رصيدا ... كلّ يوم يريد منها شهيدا
شطّت الدار بالأحبة عنا ... وعسى مَن نأى به ان يُعيدا
فتيةٌ كادتها صروفُ الليالي ... والليالي من شأنها ان تكيدا
أنا لولا شيخوختي ثم دائى ... كل يوم نظمتُ فيهم قصيدا
حبذا الليل والنهار لو انا ... فيهما نستطيع ألاَّ نبيدا
فات مَن قد رأى السلامَ رغيبا ... أن يرى في الاخطار موتا حميدا

(6)

حلّ يودي بخمسةٍ أطهار ... قدرٌ نازلٌ من الاقدار
بنسور قد حلّقت قبل أن يؤ ... ذن ضوءُ الصباح بالإسفار
خطرٌ كله الظلام ولكن ... لا تبالى النسور بالأخطار
ركبوها طيّارةً لم تخنهم ... في تمارينهم وفي التكرار
ما دهاها حتى هوتكشهاب ... خَرّ من جوّه بلا انذار

ثم دارت بهم على نفسها بالرَّ ... غم عن كل حيلة الطيّار
ثم كان الذي به جرت الأقـ ... دار من سقطةٍ لهم وبوار
(7)
كلّ يوم تُعطى الحياةُ ضحايا ... تبتغى إرضاَء بها للمنايا
إن هذا الجيل الذي نحن منه ... هو من هاتيك الضحايا بقايا
نَبتغي تخفيفَ الرزايا بلهوٍ ... نرتضيه فلا تخفّ الرزايا
لا أظن الحياةَ تَلقى سلاماً ... من بلايا وراءهنَّ بلايا
ان مَن اعطانا العقولَ اذا ما ... شاء ان نردى يستردّ العطايا
والذي أنشأ البرايا من البوَ ... ر مُعيدٌ الى البوار البرايا
كِبَرٌ شفّنى فلم يبق عندى ... غير قلبٍ يئنّ تحت الحنايا
بغداد
جميل صدقي الزهاوي
في النقد الألماني
النقادة الكبير ليسنغ
حياته ومذهبه
(1781 - 1729)
للأستاذ خليل هنداوي
ما عرف الأدب ناقداً كليسنغ جباراً صحيح المقاييس، بليغ التاثير، لا يبني مذهبه على المدرسة القائمة في عصره، وانما يبني مدرسته الجديدة لترتكز عليها مدرسة للأدب جديدة، يوم لم يكن عند الجرمانيين أدب بارز. فحار الناقدون في تفهم هذا الناقد الذي افتتح ادب امة عظيمة بالنقد، وانما عهدهم ان يخلق الادب النقد كما يخلق الاديب الناقد.
نشأ ليسنغ ميالافي بدء عهده الى ادب الاوائل، وما كاد يتمكن من هذا الادب حتى تفت لعينيه افق جديد يريد استكشافه، يحث معاصريه على السعي معه حثيثاً ليكون لهم مثل حظه من هذا الاستكشاف، وما اصدق من قال: (كان الادب الالماني قبل ليسنغ مفازة يفتقر السائر المتخبط فيها إلى هادٍ، وهذا الهادي لم يكن إلا إياه) هذا الذي انار المسالك وهدى الادباء الى سبيل في الادب قويمة، يبدى لهم مكامن الابداع ومواطن الخطأ، واسس الادب الجديد على قواعد النقد، وصاغ الشعر مزيجاً من الفن والادب والفلسفة، فكانت نفسه في جميع حالاتها مصابة بطلب المعرفة، هذه المعرفة التي ظن انه لابدّ ملاقيها، فذهب وراءها في احناء الكتب والصحف، وتحرى عنها في مشاهد الوجود.
دخل في اول نشأته احد الاديرة يتلقى اللغات القديمة التي كانت لب برامج التعليم القديم، فأبدى من الذكاء والانتباه ما ترك اساتذته في دهشة منه، حتى قال عنه احدهم: (نحن لا
نستطيع ان نقوم بواجب الشكر لهذا الطالب، فان الدروس التي كان رفاقه يستثقلونها كان يجدها لسولتها كالالهية، انه لجواد يبتغي علوفة مضاعفة). حتى اذا بلغ السابعة عشرة من عمره انكب على علم اللاهوت، ثم تتلمذ للحياة بعد ان انجز تتلمذه للكتب، تلك الكتب التي قال عنها في احدى رسالاته (إنها صنعت مني عالما عارفا ولم تصنع مني انسانا، سأبدا عاجلا بدرس اطواري) فترك علم اللاهوت وعمل على جميع روايته التمثيلية، وقد حثه قريب له اديب على الاختصاص بهذا الفن، الى هذه الحلبة، حتى ظن ان هذا الفتى لن ينصرف بعد اليوم عن الفن الروائي.
على ان الضعف ليبرز في هذه القطع التي عرضها، ويغلب على اسلوبها اللون الفرنسي الذي كان يصبغ جميع الاثار الالمانية، وكان مذهبه فيها نفس المذهب المدرسي الذي كان (راسين وكورني وموليير) يبتدعونه ويتبعونه. كأنه كان يؤمن بجمال هذا المذهب ويحمل نفسه على الأخذ به. ولكنه في بعض نظراته يشن الغارة على هذا المذهب، ويطلب الى معاصريه الا يكونوا مقلدين لأذواق غيرهم. وانما الأجدر بهم ان يتفهموا مذاهب غيرهم والا يكونوا مقلدين لها. ونهاهم عن التهافت على ادب امة واحدة كالامة الفرنسية، وهنالك اداب مهملة كأدبها جديرة بالدرس والتمحيص، وفي هذا الصدد قال كلمته المأثورة (اذا اراد الالمان ان يتبعوا مذهباً يلائم طبيعتهم

وجبلتهم فليتبعوا الادب الانجليزي الذي هو ادنى لهم من الادب الفرنسي).
وقد اشار في اكثر من موضع الى هذه الروح التي شاء ان يغرسها في ادباء عصره.
وهو الذي كتب في احدى رسالاته ينتقد المؤلف المسرحي (جوتشيد) ويؤاخذه لاسترساله الى الروح الفرنسية: (يطمع هذا الكتاب في ان يمثل دور المبدع في مسرحنا الجديد، ولكن ما هو هذا المسرح الجديد؟ انه مسرح نصف روحه فرنسية. . . ولعل صاحبنا لا يحفل بهذه الصفات ان لاءمت الروح الالمانية او لا؟ وهو لو انعم النظر في اثارنا القديمة لاوحت اليه ان الادب الانجليزي هو اكثر ملاءمة لروحنا، واننا نتوق الى التامل والتفكر اكثر مما يسمح به الادب الفرنسي لنفسه، وان الادب الذي تتمثل فيه الروعة والعظمة والظلمة هو اكبر سلطانا علينا من ادب الرقة واللوعة والحب، وان البساطة في الادب لتضنينا اكثر من حالاته المركبة المهوشة. . . يجب عليك ايها المؤلف ان تخط لك طريقا يحملك الى المسرح الانجليزي. . .)
وقد كان انقلابه فجأة الى هذا المذهب وهذا الادب موضع دهشة، اذ تبادر الى اذهان بعض النقاد ان شكسبير وجده هوالذي اثر في ليسنغ، على ان الاسباب الحقيقة التي ساقته الى هذا الادب كانت اعمق من ذلك. فليسنغ بعد ان درس حق الدرس اخلاق الشعب الالماني وجد ان الماساة الحماسية هي التي تبسط تأثيرها في النفوس. وان المأساة المجردة ينبغي لها ان تهبط درجة الى عالم الحقيقة، وان الكوميديا قد تكون ادنى الى الحقيقة، وهي التي تثير ما تثير من ضحك ومن بكاء.
وفي النهاية انغمس ليسنغ في التأليف المسرحي. فكان في اول امره يترسم اقدام من تاثر بهم من الاقدمين، وهو خلال ذلك لا يترك الجهاد الا استعداداً لجهاد آخر يفتقر الى عنف كثير وصبر كثير، والغاية التي يتطلبها من وراء ذلك عظيمة، لا الا لمثل هذا النوع من الجلاد، فهو يريد ان يخلق اسلوبا جديداً وتفكيراً جديداً، وما زال يدأب ويجهد حتى وفق الى سعيه بعض التوفيق، وضرب لعصره مثلا عاليا للرواية التي تمثل احسن تمثيل صفات قومه واخلاق قومه. وهو - وان لم يبلغ برواياته القمة التي لا تلين خياشيمها الا للعباقرة فقد كاد. . .
ثم طفق ليسنغ يكتب في احدى خلواته مقاطيع من الكتاب الذي خلد اسمه على الدهر في عالم النقد، كتاب] اللاوكون [الذي حشر فيه خلاصة نظراته في التأليف المسرحي. وفيه عالج الشعر وعُني بأسلوبه والوسائل التي ترمي الى إحيائه.
وما هو مذهب ليسنغ في الشعر؟
لقد كانت المدرسة الويسرانية تعتقد أن الشعر إن هو إلا تصوير صامت. والشاعر الألماني (فينجيلمن كان يرد أصول الفن مهما تنوعت فروعها إلى مثل عال واحد تنضوي تحته. وهذا المثل هو العظمة المتجلببة بالسكينة. . . وهذا المثل الأعلى مثله كالبحر العميق يبقى هادئاً مهما تقاذفته قواذف الريح. وحاله حال تصاوير اليونان فهي في أحدى ثوراتها وأهوائها الجامحة تظل مالكة لعظمتها ولنفسها، ومثل هذه الروح يمثلها تمثال (اللاوكون) بوجهه وأعضائه المتصلبة في ساهة الألم العنيف. وقد لام هذا الشاعر الألماني شاعر إيطاليا الكبير (فرجيل) لأنه وصف (اللاوكون) بصورة شعرية خالف فيها الصورة التي
نحتها الحفار. إذ تركه في مقطوعته الشعرية يصيح من الألم صيحات منكرة، ولكن ليسنغ يجابه في كتابه نقد الشاعر الألماني، ويعتقد أن للشعر قواعده الخاصة، وللنحت قواعده الخاصة، ويرى أن في استطاعة الفن الشعري أن يمثل لنا الشيء حتى نحدق به من جوانبه. بينا أن الفن الثاني لا يمثل لنا من هذا الشيء إلا لحظة موقوتة هي كل شيء في هذا الشيء. وبينما نرى الرسم يخضع للهيئة الجامدة التي يتلبس بها نرى الشعر حرا طليقا يحيا بحركته واضطرابه واختلافه. وهكذا لبث هذا الكتاب أثراً ناطقاً للرجل، وقد ترك وراءه صدى بعيدا وتأثيرا ترامى في الأقطار. وهو كما قال فيه (جوته) شاعر الألمان يجب أن تكون فتى أيها الكتاب في أرواحنا وكفى بهذه الكلمات التي يرددها جوته شهادة.
وهكذا أراد ليسنغ أن يبني نقده على نظريات ثابتة لا يذهب بها الوهم. فاستمد قانون (أرسطو) يعمل به لتنظيف الأهواء. ومن هذا القانون قد استمد ليسنغ أكثر نظراته التقدية كأنما كان يحاول أن يقتل الحدة والجموح والطيش في الأدب ويترك إلى العقل

سبيلاً ينفذ منه ليبقى مالكا على الأهواء في أعنف ثوراتها. وقد شاء ليسنغ أن يغزو حقل الأخلاق دأبه في كل حقل يغزوه، فكتب مقطوعات في الحكمة دلت على سمو نفسه. فهو يعتقد أن قيمة الرجل ليست بالفضيلة التي يحرزها، أو بالفضيلة التي ظن أنه يحوزها، ولكن قيمته تنحصر في الجهود التي يقوم بها في سبيل إحرازها، لأن المجد لا يتوقف على صفة الإحراز، ولكن على العمل للفضيلة التي يكثر به جنودها. ويعتز هو بانتصارها. ويقول أيضاًإذا الله قبض على الفضيلة الكاملة بيده اليمنى ووضع في يده اليسرى التوق الخالد - توق القلب - الى الفضيلة. مازجا معه انخداع الانسان؛ وقال لي: انتخب، فانني إذ ذاك آخذ بيده اليسرى بكل تواضع وأقول. أعطني ياإلهي. . . لأن الفضيلة الكاملة التي وضعتها في يمينك لم تصنع إلا من أجلك وقد ولَّدت عنده هذه الحكمة حكمة دينية أبداها في بعض مقاطيع صغيرة. حيث أبدى أن الوحي الإلهي ليس بواحد ولا بثابت ممتنع عن التغير. ولكنه يتنوع ويتقلب ويتقدم كالإنسانية نفسها. وقد أدرك ليسنغ الذروة العالية في روايته (الحكيم ناتان) اذ أعلن أن الحكيم الحقيقي هو الذي يتروض على الفضيلة ويخضع لأحكام العناية الإلهية الخالدة.

لقد فهم رجال الأدب بعض جوانب هذا الرجل العظيم، ولن تظهر عظمته واضحة إلا بعد أن يرجعوا الى البذور الفنية التي نثرها في طريقه، وهل كان (جوته) و (هير دار) إلا أول فنن من هذه الشجرة، أورق وأزهر وأثمر، ثم أتى أكله فكان نعم الأكل.

العلوم

بحث في تاريخ الانسان

بقلم نعيم علي راغب

دبلوم عال في الجغرافيا

إذا أردنا الكتابة أو البحث في تطور الإنسان على ممر الدهور والأيام، فانما نعني في الحقيقة تاريخ الانسان، تاريخ حياته وجهاده وكيف. . ومتى. . ومن أين أتى بشكله الطبيعي المألوف الذي نراه به اليوم. وكيف تكونت همده القوى العقلية والقدرة على التكلم والتفاهم.

من الواضح الجلي أننا إذا حاولنا الكتابة في هذه الحادثات التاريخية القديمة، يجب علينا أن نوجه أبحاثنا وننظر بعيداً الى عصر قديم جداً من العصور، يقع قبل التواريخ المدونة في الكتب بمراحل كبيرة جداً. ونجد لزاماً علينا في هذه الحالة أن نقص عليك أطيب القصص عن عصر لميوجد به رأي يفكر أو يد تسطر لنا ثمرات هذا التفكير.

ولقد خيل للعلماء أجمع استحالة تتبعهم وتفهمهم لما حدث في تلك الأحقاب السحيقة، ثم تسطير تلك الحوادث التي حدثت منذ آلاف السنين، لو لم تأت المصادفات ويساعد الحظ الحسن على كشف أستار الماضي الكثيفة. فانه في حوالي سنة 1825 قامت بعثة أيرية دنمركية بالبحث عما قد يكون مندثراً في أراضي بلادها من أيلحة أو حلي أو آنية قديمة، ثم وضعت كل ما وجد في متحف كوبنهاجن.

وفي سنة 1830 حينما ازدادت كمية المحفوظ به فكر مدير قسم الآثار س. ج. تومسون تقسيم المحفوظات الى أقسام ترتب حسب نوع المعدن المصنوعة منه. إلا أنه في ذلك الوقت أتته فكرة طارئة، كانت ذات أثر بين في سير التاريخ الانساني، وذلك أنه ساءل نفسه عما إذا كان من المحتمل أن تكون تلك المحفوظات عنده في المتحف كل منها يمثل عصراً خاصاً من عصور الانسانية. وجاءت الحوادث بعد ذلك لتحقق صدق حدسه الذي خمَّنه، فقد وجدت أشياء أخرى بطريق المصادفة لفريق منعمال البناء عند حفرهم آبار

منازل كلها من مرافق الإنسان الذي عاش في العصور السالفة، وكان أقربها لسطح الأرض الحديدية والبروتزية فالحجرية.

فأخذ علماء الدنمرك حينذاك يعرفون أن الأرض نفسها سجل صامت ثابت يحفظ تاريخاً صحيحاً لأعمال وحياة الإنسان في العصور السالفة، ووجدوا ذلك صحيحاً في كل جهة من جهات بلادهم: في المقابر القديمة، في الآبار وفي شواطيء الأنهار مما يملي عليهم التاريخ الصحيح للانسان القديم.

من كل تلك الأشياء وصل تومسن الى نتيجة نهائية، هي أن تاريخ الإنسان القديم مقسم الى ثلاثة عصور: الحجري والبرنزي فالحديدي، وبذا كانت الدنمرك أحدث

الجهات في التكوين جيولوجيا، هي أول مكان بحث التاريخ السحيق للانسان على هذا النمط العلمي الجديد.

حول العلماء الفرنسيون بعد ذلك طريق كتابتهم لتاريخ الإنسان وجاروا الدنمركيين في طريقتهم، ووجدوا مادة بحثهم الجديد في كهوف مقاطعة وبدأ ادوارد لابيت ومعاونوه البحث فيها حزالي عام 1860 فوجد أن معظمها كان مستعملاً قبل ذلك كمساكن أو مقابر في كل عصور التاريخ القديم، وكان من عدم اعتناء السكان الأقدمين بالنظافة وترك كهوفهم مملوءة بالبقايا والأدوات حظ حسن للتاريخ، وكان من تساقط المياه الملحية من سقوف الكهوف خير معوان وخير عامل على حفظ تلك البقايا الانسانية بعيدة عن الضياع أو التلف، وارتفع قاع الكعوف بالعوامل الطبيعية والجيولوجية، فحفظت الأرض بين ثناياها على ارتفاع ينيف على الثلاثين قدماً آثاراً عظيمة الشأن للحياة الانسانية من مدة طريلة من الزمن.

ولم يطل الزمنبعد ذلك حتى عرف الفرنسيون أن كهوف بلادهم تحفظ تاريخ الإنسان لمدة أقدم بكثير مما تحفظه مقابر اسكندينـاوه أو قدماء المصريين. ولم تكن العصور الامسانية الثلاثة المعروفة لهم سوى عصور حديثة جداً إذا ما قيست بما تنم عليه آثار كهوف فرنسا، ومن بينها الهياكل العظيمة المتحجرة للحيوانات التي كانت تعيش في تلك العصور، كغزال الرنة، والضبع ودب الكهوف. ولقد قسم اللورد ايفبري العصر الحجري إلى قسمين: أسمي أحدهما العصر الحجري الحديث القريب من العصر البرنزي وهو ما وجدت آثاره

في الدنمرك، وأسمي الآخر العصر الحجري

وكلما ازداد الفرنسيون تعمقاً في حفرياتهم ازدادوا يقيناً بصحة ترتيب تلك العصور المختلفة وبتغيرات عديدة قد حدثت للمناخ وقتذاك، وعرفوا أنه لم يكن هناك عصر حجري قديم واحد كما ظن السير ايفبري بل جملة عصور متتابعة متناهية في القدم يمتاز كل عصر منها بميزات مختلفة، أمكن انتزاعها من الآثار التي وجدوها. وزاد يقينهم في هذه النظرية تكرار وتماثل ترتيب الطبقات في كل الكهوف التي بحثوها. وقد وجد علماء الانجليز والألمان والطليان والاسبان بدورهم نفس الظواهر والترتيب الذي وجد في كهوف فرنسا.

وهكذا نرى أن الكهوف قد أمدتنا بالمعلومات والحقائق الخاصة بتاريخ الإنسان القديم، وأمكننا تسطير تاريخ دقيق لا عن المدة التي كشفت عنها حفائر الدنمرك فقط، بل عن مدة تتناهى في القدم عن تاريخ قدماء المصريين أو تاريخ بابل القديم. وإنك لتدهش حقاً إذ تعرف أن تلك الحفريات قد كشفت لنا عن ظاهرة ليست غريبة عن عصرنا، وهي مسألة الزي، أو المودة فقد ثبت منها أن مجرد وضع زي خاص لملبس أو زينة في بلد في تلك العصور كان كافياً لانتشاره في العالم القديم أجمع، ولذلك ترى أن أجدادك وأجدادنا الأقدمين كانوا مثلنا عبيداً للزي المتفشي في العصر. ولو أن زيهم كان أثبت قدماً وأطول بقاء من زينا الذي يتغير سريعاً بتغير الفصول والمناسبات.

لنر الآن إلى أي حد تعمق البحث في تاريخ الكهوف القديم. من الشكل رقم 1 يرى القاريء قطاعاً رأسياً في كهف مثلى كملت فيه الطبقات والعصور التي وصل العلماء إلى الكشف عنها. ومنه يمكنه أن يلاحظ أن العصور الثلاثة المعروفة (الحديدي والبرونزي والحجري) تقع في أحدث جهات الكهف كشفاً، ومن بعدها عصر سماه العلماء (لأن الحفريات التي دلت على وجوده عملت بالقرب من قرية , في فرنسا) يجيء بعده عصر سموه (نسبة الى كهف في مقاطعة الدردون) يتبعه عصر سمي (نسبة الى جهة بالقرب من ماسون بفرنسا) فعصر أطلق عليه إسم (نسبة إلى قرية في أعلى الجارون) وآخر هذه العصور عصر أطلق عليه إسم نسبة إلى الكهف في مقاطعة داردوني

وليس هناك أدنى شك في صحة ترتيب العصور السالفة الذكر، لأن الابحاث التي قام بها

العلماء بعد ذلك لم تكشف لنا إلا عن تتابع صورة طبق الأصل لما قد بيناه في هذا المقال. إلا أننا نقف لحظة ونسائل أنفسنا ما هي فترة كل عصر من تلك العصور؟ ومتى بدأ كل عصر منها؟. . ومتى انتهى كل منها؟.

إن السنين المذكورة في شكلنا رقم 1 ما هي إلا عدد تقديري تقريبي غير ثابت تمام

الثبوت، وربما كشف لنا العلماء حديثا ما يدفعنا إلى تغيير في هاته الأرقام. لكننا مع ذلك نعلم أن فترة الكهوف قد انتهت بانتهاء عصر الجليد. ولقد استطاع علماء السويد وعلى الأخص البارون دي جير أن يضعوا لنا تقديرا معقولا انتزعوه من آثار عصر الجليد وعرفنا منهم أن عصر الجليد قد بدأ في السويد من مدة 12000 سنة مضت تقريبا.

ونحن إذا قدرنا أن حياة الإنسان في الكهوف قد انتهت من مدة 10000 سنة أو 8000 قبل الميلاد لأمكننا أن نقرر لأقدم عصر من عصور الكهوف تقديرا غير مبالغ فيه وهو 42000 سنة.

ولكي تعلم أيها القاريء أن أقدم عصر من عصور الكهوف هو أهم عصر في هذه العصور جميعا، يكفي أن نخبرك أنه بين طبقات الأرض في هذا العصر قد وجدت بقايا عظام متحجرة لعنصر من عناصر المخلوقات يختلف اختلافا عظيما جدا يبعده عن الصورة التي كان عليها أقدم الأجناس البشرية المعروفة. هذا النوع أو الجنس يعرف باسم انسان النيادرانتال ويمتاز هذا النوع بفرطحة الجمجمة وبروز عظام محاجر العين. كان رجاله ونساؤه ذوي قامات محدودبة يعتمدون كما تعتمد القردة على أيديهم في المشي.

وقد بدأ هذا النوع من أنواع الإنسان القديم يظهر واضحا جليا بآثاره ومخلفاته في أواخر أقدم عصر من العصور التي ذكرناها مستر يان.

ومن الآثار والمخلفات التي وجدت في الكهوف القديمة في جميع أنحاء العالم أمكن تتبع حياة الإنسان لمدة تنيف عن 40000 سنة في وقت كانت فيه أوروبا مسكونة بعنصر من العناصر الانسانية يختلف اختلافا بينا عن العنصر الذي نحن منه. عنصر أطلقنا عليه كما سلف وثبت أن أوربا كان سيكنها في العصر القديم الذي أطلقنا عليه اسم عنصر من الإنسان النياندرتال.

وبرغم أن الإنسان الذي وجدت آثاره كان فطريا أقرب في حياته الى الحيوانية فانه كان
رجلا أو إنسانا بكل ما في جسمه من صفات وما في عقله من خواص وتفكير. وما دمنا نرمي الى الوصول لفجر الانسانية ومعرفة تاريخ النشأة البشرية فانه يجب علينا أن نتخذ لنا طريقا آخر يساعدنا على تفهم ما نريد ومعرفة ما نرمي اليه. هذا الطريق هو البحث في الأنهار والمجاري المائية. وإن البحث والتنقيب اللذين قام الناس بهما فيها، دلا على أن هناك آثارا ومخلفات قديمة تحفظها الأنهار والمجاري في قاعها وشواطئها ومدرجاتها، وكأنها تقدر مجهود الإنسان لحفظ كيانه، فعملت على حفظ آثاره وتخليد ذكره تنويهاً منها بعظمته وقوته. ولنا في مدرجات نهر التيمس اكبر دليل على ذلك.

ولقد ساعدت عملية الردم والتكوين التي تقوم بها الأنهار بما تحمله من غرين وغيره اثناء طريقها على حفظ اثار الانسانية، حتى جاء بورشيه دي بيرث فوجد في بلده ابفيل صخورا نارية (كان الناس وقتذاك يعقتدون انها من مخلفات الصواعق) اعتقد انها من عمل الإنسان ووجد بها اثرا من فن الانسان، واعتقد ان الإنسان قد استعملها قديما كـ (بلطات) يقطع بها الاشجار وغيرها، او يدافع بها عن نفسه وقت الخطر. كذلك وجد في نفس الجهة عظاما متحجرة لحيوانات قديمة منقرضة، وهنا نظر اليه الناس كنظرتهم الى من بعقله مس من الشيطان، لأن العظام التي كشف عنها ترجع الى عصر وهو عصر اعتقدوا ان الإنسان لم يوجد فيه. فكيف بهذا الرجل يقول ان الصخور التي وجدها من قطع وتشكيل من لم يكن قد وجد بعد؟

يتبع

نعيم علي راغب

من الأدب التركي

المعلمة الصغيرة

ترجمة الآنسة الفاضلة (فتاة العرب)

ركبت عربة الترام ولم يكن فيها غير السائق الذي كان مغمضاً عينيه يستريح قليلاً من عناء أربع عشرة ساعة، أما بائع التذاكر فكان جالساً في المكان المعد للسيدات يقرأ جريدته على ذلك الضوء الشاحب الهزيل الذي كان ينفذ من زجاج ذلك المصباح الأغبر، وليس يعلم إلا الله كم مرة أخرجها من جيبه وأعادها أليهوكأن دخولي إلى تلك العربة وهي آخر

العربات في ذلك الوقت من تلك الليلة الشاتية نفخ فيها حياة بعد أن كاد يقتلها الإعياء، فقد من نومه وفتح عينيه المغمضتين، وأبعد بائع التذاكر الصحيفة عن وجهه وصعد بصره في كأنه يقول:

وهل بقي من راكب بعد أن مضى الهزيع الأول من هذا الليل الممطر؟ـ ثم قام الاثنان ونظرا إلى الخارج كأنهما يريدان أن يريا المطر الذي كان يسفع زجاج العربة بشدة، وعاد في الحال كل إلى مكانه لأن وقت الحركة لم يحن بعد، فأغمض السائق عينيه، ورفع بائع التذاكر جريدته إلى وجهه وأخذ يقرأ.

جلست وفي نفسي أن انتظاري سيطول، لقد كان منتظر العربة مؤلماً جداً، كانت أطرافها ملوثة بالطين، وكان زجاجها مستوراً بطبقة من مياه الأمطار التي كانت تسيل عليها، وكان نورها ضئيلاً، وهي واقفة تحت سيل الأمطار الذي لم ينقطع منذ ساعات وقفة حزن وملل تنتظر الوقت لتسير. كم كان مؤلماً منظر الخيل وهي تنتظر بفارغ الصبر العودة في تلك الساعة إلى اصطبلها الدافئ، ومنظر السائق الذي هدّ التعب جسمه وغلبه النعاس فلا يكاد يرفع رأسه، ومنظر بائع التذاكر الذي كان يود النزوح ولو بخياله عن خط الترام الذي هو كل ما تراه عينه في كل يوم منذ الصباح حتى المساء، فهو يتلهى بالنظر إلى جريدته كلما سنحت له الفرصة. .

كنت وأنا أنظر إلى المياه التي كانت تسح من مظلتي التي ابتلت من المطر الغزير فتؤلف دوائر، أقول في نفسي: (أن هذه العربة التي كادت قطعها تنفصل عن بعضها لكثرة ما حملت من الناس لأراحتهم، وهذين الحيوانين اللذين أكل عليهما الدهر وشرب، وهذين الرجلين البائسين، وهذا الخط الحديدي الذي يفسح لنفسه الطريق بين الأوحال من (الجسر) حتى (جنبرلي طائش). كل هؤلاء مكلفون في هذا الليل المدلهم بحملي وحدي بأجرة لا تزيد على قرش واحد).

دق الجرس فجأة ففتح السائق عينيه ونهض يتمطى، ونظر آلي ما حوله حيران كأنه يعجب من وجود عمل يجب القيام به في ذلك الوقت من الليل لإتمام عمل النهار. ففرك يديه وسار. فتنح الباب فهجمت منه موجة هوائية باردة، ثم خرج وأغلقه خلفه وبقي وحده معرضاً لموجات الهواء التي كانت تلطم عربة الترام.

انتفضت تلك العربة الكبيرة الثقيلة وتمطت واهتزت كأنها هي أيضاً كانت نائمة. وتحركت بحركة مزعجة، وأرسلت أصواتاً كأنها شكوى عميقة يثيرها اضطراب دائم، ثم سارت وهي تحمل مع اضطراب ألواحها الزجاجية جسمين مضطربين وهما بائع التذاكر وزبونها الوحيد.

تقدم بائع التذاكر من الراكب الوحيد وسلمه تذكرته وأستلم نقوده من غير ان ينبسا ببنت شفة، ثم عاد بائع التذاكر إلى جريدته يقرؤها، وعاد الراكب إلى ما أجتمع تحت مظلته من المياه ينظر أليها.

في تلك الأثناء كثر اهتزاز العربة. وأخرجت أصواتاً مزعجة كأن أسنان تلك العربة. ذلك المخلوق البطيء، تعض الخط الحديدي بشدة. مظهرة ألمها واستياءها، وصلنا إلى (سركه جي) فلم ير بائع التذاكر حاجة إلى وقوف العربة، وهي آخر العربات حركة، لوثوقه أنه لا يوجد راكب في مثل هذا الظلام البهيم، فصفر معلناً الحركة، ولكن السائق صاح قائلاً:

- راكب!

وقفت العربة فقلت في نفسي (شيء مؤلم! كم كنت مستريحاً وحدي!) ثم فتح الباب فما كدت أبصر الداخل حتى تغير رأيي، فقد كان الراكب الجديد فتاة شابة قد ابتلت ثيابها من المطر لأنه كان ينزل عليها فلا ترده عنها مظلتا الصغيرة، كانت صفراء الوجه من البرد، وكانت شفتاها متقلصتين وأسنانها مصطكة، وعليها ثوب أبيض فوقه معطف بني اللون لا يشك الناظر أليه في أن ذلك الشتاء لم يكن أول شتاء مر عليه. فجعلت بهذه الهيئة الفقيرة المؤلمة في الجهة المقابلة لي، وفي الحال مدت يدها الجامدة من البرد في قفازها الذي امتدت منه أطراف أصابعها والمحيط بأسلاك بيضاء، إلى جيب معطفها لتخرج منه حقيبة النقود، فأخرجت منديلاً أبيض ثم حقيبة تقادم عهدها وحال لونها لكثرة الاستعمال وتمزقت جوانبها، فأخذت تعالجها لتفتحها فلم تقدر كأن قفلها قد تعطل. فعالجتها المسكينة كثيراً، والحقيبة مصرة على ألا تنفتح، وبائع التذاكر واقف أمامها يهتز ذات اليمين وذات الشمال من حركة الترام وجريدته تحت إبطه، ينتظر

النقود منها، لقد ملك النظر إلى الماء المتجمع أمامي من المظلة فرفعت رأسي أخذت أنظر أليها نظري إلى شيء جديد كانت هي على ما يظهر من حالها متألمة من عدم تمكنها من فتح الحقيبة بسرعة لأنها كانت تعالجها كمن يود كسرها، وأخيراً فتحت الحقيبة فأدخلت إصبعها فيها وأخذت تطوف يهما في جوانبها على ضوء العربة الضئيل.

لقد شعرت وأنا في مكان أن الحقيبة لا تحوى أشياء كثيرة يحتاج المرء معها إلى كثرة البحث والتنقيب. أدخلت يدها وهي في القفاز الممزق حتى غابت في الحقيبة وأخذت تبحث عن شيء صغير مختبئ هناك.

بعد بحث طويل بين أصابعها شيء صغير وهي تخرجه من الحقيبة فناولته إلى بائع التذاكر الذي لم يشأ أن يقطع لها التذكرة قبل أن يستلم النقود. . . فتنفست الصعداء كأنها خرجت من مهمة صعبة وتمكنت من مقعدها كل التمكن. ثم رفعت عينها اللتين لم أستطع أن اعرف لونها تماماً.

لقد كانت تارة تنظر والعربة سائرة إلى قطع الجلود المتدلية من المسامير التي في سقف العربة، وآونة إلى المطر الذي يسمح من زاوية العربة، ثم إلى ما فوق رأسها لتعلم أين مكانها منه، وطوراً تقارب بين جفنيها وتتأمل في ضوء المصباح الضئيل، إلا أنها ضجرت من كل هذه الأشياء وسئمتها، فمسحت بظهر يدها زجاج العربة المبتل ونظرت إلى الشارع، لترى أقرب مكان نزولها أم لا يزال بعيداً؟ إلا أنها لم تر غير أشعة المصابيح الضئيلة التي تشع من الحوانيت القليلة في هذه الليلة الباردة فترقص أشعتها فوق الطين المتراكم في الشوارع.

وأخيراً نظرت إلى نظرة عجلي كأنني آخر ما يمكن أن يعرض على نظرها من الأشياء التي حولها. ولكنها وجدتني كبقية الأشياء التي استعرضتها أمام ناظريها ولم تجد فيها ما يوجب العناية، فاعترضت عني واستندت على مسند المقعد، ومدت رجليها وفيهما حذاءان عتيقان قد زر أحدهما وتمزقت عروة الثاني ولكنهما كانا جميلين، ووضعت إحدى رجليهما على الأخرى، ثم أصلحت قبعتها أسندت رأسها إلى ما خلفها وأخذت تنتظر.

هل كانت جميلة؟ لا أدري! ولكنها مع ذلك كانت مركبة من أعضاء صغيرة، حتى ليخيل للناظر إليها أن رجلاً من المولعين بالأشياء الدقيقة قد صاغها هذه الصياغة وركبها هذا التركيب، فهي مليحة بعينها الصغيرتين، وفمها الرقيق، وأنفها الدقيق، ووجهها المخروط، ولم يكن في ذلك الجسم المركب من تلك الاعضاء الصغيرة طويل غير قامتها، فقد كان طولها لا يتفق وصغر أعضائها، ولكنها مع ذلك لم تكن خالية من الملاحة. لقد كنت أشعر بشيء غريب لوجودي في تلك الليلة الشاتية في تلك العربة بجانب تلك الفتاة منفردين، كنت أشعر بلذة غامضة كالتي يتوهمها الإنسان عند قراءة شعر لا يفهم معناه. وفي تلك الأثناء رفعت رأسها بسرعة ومسحت زجاج النافذة ونظرت طويلاً نظرة تدل على ضجرها من التأخر. وكنا في ذلك الوقت نسير في محلة (جيفته حاووضلر) وكنت أقول في نفسي (أين تذهب هذه الفتاة في مثل هذا الوقت في مثل هذه الحالة الجوية؟). ثم ارتدت مسرعة عن النافذة، وانحنت قليلاً كأنها تريد أن تكلم بائع التذاكر الذي كان مغطياً وجهه بجريدته يغالب النوم ويغالبه، ولكنها لم تجرؤ أن تكلمه فنظرت إلي نظرة تدل دلالة واضحة على أنها تريد أن تسألني عن شيء، فنظرت إليها نظرة أسألها فيها عما تريد، إلا أنها بصورة من الصور لم تجد قدرة على الكلام فسكتت، ونهضت على رجليها ونظرت ثانية من النافذة، وفي هذه المرة ارتدت مصفرة فقلت لها:

- قالت بصوت رقيق يشبه جسمها الصغير بلهجة تدل على الحشمة والوقار:

- عفواً يا سيدي، فهل (الجسر) بعيد عنا؟

- فقلت:

- الجسر؟ أنتِ مخطئة أبتها الآنسة، إن هذه العربة تسير بنا إلى (آق سراي)

- فنظرت إلى وجهي نظرة جامدة كأنها لم تفهم شيئاً، وبعد أن وقفت مدة على هذه الصورة لا تجد في نفسها قوة على الاستيضاح قالت:

- إذن نحن الآن لا نسير نحو (الجسر)؟

- لفظت جملتها هذه بصورة تدل على فزع شديد علمت منه أنها ارتكبت خطأ، فداخلتني عليها شفقة وقلت:
- أنا آسف جداً يا آنسة، أنت تريدين الذهاب إلى (الجسر) إلا أنك ركبت عربة تسير عنه لا إليه، وقد أوقعك في هذا الخطأ ظلام الليل ودهشة المطر.
- كانت تسمع كلامي والبكاء يكاد يغلبها على عينها وتقول بصوت مسموع: لقد تاخرت كثيراً. ثم قالت بصوت يخالطه شيء من الأمل:
- إذن سأعود أدراجي من أول موقف.
- لقد وصلنا إلى موقف (صالقم سكود) فقلت لها:
- إنك مضطرة إلى الرجوع راجلة، فهذه آخر عربة ولا أظن أنك تجدين عربة في هذا المطر.
- فلما سمعت ذلك اضطربت اضطراباً عظيماً، وفي ذلك الوقت استيقظ بائع التذاكر واقترب منا يشاركنا في الحديث، ثم قال مبرئاً نفسه من التبعة:
- لماذا لم تذكري لنا المحل الذي تريدين أن تذهبي اليه؟. فلم تجد تلك المسكينة حاجة إلى الجواب، فنظرت إلي نظرة حائرة تطلب بها المد والمعونة، وقالت:
- لطفاً يا إلهي، في مثل هذه الساعة، في مثل هذا المطر، وفي مثل هذه الأزقةالمظلمة الخالية كيف أستطيع السير وحدي؟.
- لم أجد حاجة لا تخاذ قرار بعد ذلك في هذا الشأن، فقلت لها
- أيتها الآنسة، هل لك أن تقبلي مرافقتي حتى الجسر؟.
- فنظرت إليه بدهشة وصاحت:
- كيف ذلك يا سيدي؟ كيف تعود لأجلي في هذا الهواء؟
- وكيف أستطيع أن أقبل هذه النصيحة؟ . .
- على أنه لم يكن أحسن من هذا الحل، لأن السائق كان بفارغ الصبر ينتظر الحركة، وبائع التذاكر ينتظر أن نعطى نتيجة حاسمة فقلت لها مصراً:
- أنت لا تقدرين على العودة منفردة في مثل هذا الوقت، ومن هذا المكان، مع أني أتمكن من أن أركب عربة وأعود من الجسر، وذلك يسير علي.
- فنظرت إلي عند ذلك نظرة فاحصة، وبتلك النظرة علمت صفاء نيتي وصدق عزمي فأظهرت الاطمئنان وقبلت مرافقتي قائلة:
- سمعاً وطاعة يا سيدي، لقد أظهرت إنسانية نبيلة وعطفاً كريماً، وأنا أقبلها مع الشكر.
- فتح بائع التذاكر الباب ليشرح للسائق القصة، فنزلنا نحن من الباب الثاني، وتحركت العربة في الظلام كأنها خيال ذو عينين صفراويتين، كان المطر إذ ذاك إلا أنه كان متوالياً، ففتحت الفتاة مظلتها، فلما تأملتها وجدتها ممزقة الأطراف، وفتحت أنا أيضاً مظلتي وأخذنا نمشي متكاتفين بقدر ما تسمح لنا المظلتان. كانت في ذلك الظلام الدامس قي تلك الشوارع
الخالية تشعر أنها محتاجة إلى الاقتراب مني بدافع غريب مجهول المصدر يدفعها إلى ذلك، وكنت أنا أشعر بلذة منشؤها حمايتي لفتاة في مثل هذا الوقت. على تلك الحال كنا نمشي صامتين لا نتكلم، وكانت توسع خطاها لئلا تضطرني إلى المشي البطيء.
- كنت وأنا في الترام في شك من جمال هذه الفتاة ذات القامة الهيفاء، ولكنها الانفي الظلام كانت تتراءى لي جميلة.
- إن هذه المصادفة غريبة جداً، وأظن أن تلك الفتاة التي رأيتها لأول مرة في حياتي وبسطت عليها ظل حمايتي لو كانت غير جميلة لكانت اللذة التي أشعر بها الان ناقصةكنت أقول وأنا سائر بجانبها يا لجمال عينيها الصغيرتين.

نزيلة بعلبك (فتاة الفرات) (البقية في العدد القادم)

تاريخ العالم القديم

تأليف الأستاذ عبد الفتاح السرنجاوي

للأستاذ المؤلف شغف كبير بالتاريخ القديم، فهو ما ينفك يقلب صفحاته، ويطيل النظر في أدق موضوعاته، حتى صار لهذا العلم المحل الأول من اهتمامه في درسه وفي أوقات فراغه، ولقد قام بتدريسه سنين متوالية في المعاهد الدينية، وعرف ما يوافق طباع الطلاب منه، ووقف على الاسباب التي تحبب إليهم موضوعاته، أو التي تنفرهم

منها. وكانت ثمرة هذه الخبرة هذا الكتاب الذي أحداثك عنه، وهو في طبعته الرابعة هذه على خير ما تصدر به الكتب دقة طبع وسلامة ذوق.

أما عن موضوعاته فهو وفق المنهج الاخير لوزارة المعارف والمعاهد الدينية، يشمل تاريخ قدماء المصريين والإغريق والرومان على أن أهم ما في الكتاب هو تلك الطريقة الفريدة التي أتبعها الأستاذ في كتابة التاريخ، فلقد نبذ تلك الطرق التي تقتصر على سرد المعلومات الجافة يقصد بها استيفاء المنهج المقرر، ونفذ بخبرته إلى صميم الموضوع، فأهتم بالحياة الاجتماعية ومظاهرها في تلك العصور القديمة، إلى جانب اهتمامه بتفاصيل المنهج، كل ذلك في عبارة طلية متينة، مما جعل كتابة جم الفائدة، خفيف المحمل، أضف إلى ذلك ما يحتوي عليه ذلك الكتاب الفذ من الصور والخرائط، وكلها موضوع لغرض إيضاحي في تدبير حصيف وترتيب محكم مما لا نجد مثيلاً له في غيره من الكتب، ولاشك هذه خير طريقة تحبب الى الاطفال دراسة التاريخ والاستزادة منه.

لئن كان أثر المؤلف مرآة نفسه، فإن كتاب الاستاذ السرنجاوي خير شاهد على ذلك، فإنك تلمس فيه هدوء طبعه، وقوة منطقه وعذوبة روحه وسلامة لفظه، واني لأتقدم الى الاستاذ بالثناء على بذل من جهد، وبصادق التهنئة على ما صادف عمله من نجاح الخفيف.

الرائد

في تاريخ الأدب العربي ونصوصه ومتن اللغة.

هذا كتاب جديد في تاريخ الأدب العربي أخرجه في هذه الايام صديقاي الفاضلان الاستاذ عبده زيادة عبده المدرس بمدرسة الخديوي اسماعيل الثانوية الملكية، والاستاذ محمد السيد عامر المدرس بمدرسة بنبا قادن الثانوية الملكية، وهو يتألف من جزأين أولهما في منهاج تاريخ الأدب الاخير للسنة الثالثة للمدارس الثانوية ومدارس المعلمين والمعلمات، وثانيهما في منهاج تاريخ الأدب الأخير للسنة الرابعة للمدارس الثانوية.

وقد ألف في منهاج الأدب للسنتين الثانويتين كتب غير كتاب الأستاذين، ولكنه جاء آخرها فتداركا به ما فاتها وامتاز عليها بأمور كثيرة، وقد قال الاستاذان في ذلك: (ولسنا ننكر أن للكتاب أنداداً، غير أن بعضها على قيمته جاوز المنهج الجديد فعاد كتاباً للمتأدبين، لا لطلاب يتقدمون الى الامتحان في موضوع بعينه، وبعضها جاء مقصوراً على فن واحد من فنون كتابنا هذا، وبعضها علا أسلوبه ودقت إشاراته على الناشئين حتى ما يستطيعون في غير عناء أن يدركوا ما يريد.

وقد عنيا في هذا الكتاب أن يعالجا مسائل الأدب بذكر المقدمات في شيء من البسط ليخلصا الى مسائلة واضحة معقولة، وأن يحللا نصوصه الأدبية من جميع نواحيها لغة ومعنى وأعراباً وبلاغة الا أن يتركا لقدر التلاميذ بعض الأبيات والجمل ليحاولوا شرحها على مثال ما فعلاً ولا يهملوا مداركهم فتنشأ لا تبنى الا على مثال.

وقد سار الاستاذان على هذه الخطة القويمة التي خطاها بأنفسهما في كتابهما بما نعهده فيهما من علم واسع وانشاء مهذب وترتيب محكم، فيسرا لطلاب هاتين السنتين منهاجيهما الأدبي تيسيراً، وأصبحت طلبتهم منهما فيه سهلة المنال دانية القطوف، فنحمد للاستاذين ما بذلاه من جهد نقدره لهما، وتترك من أجله بعض أمور نخالفهما فيها وقد تابعا فيها غيرنا، ولكل وجهة هو موليها.

عبد المتعال الصعيدي

رواية ابنة الشمس

تأليف فرنسيس شفتشي

نالت هذه القصة التمثيلية جائزة وزارة المعارف العمومية في مباراة سنة 1932، ولقد قرأتها دون أن يكون لهذا الاعتبار تأثيراً في نفسي فألفيتها قصة ممتعة طريفة، جديرة بما نالت من حظوة واستحسان فلقد نجح المؤلف نجاحاً عظيماً في تصوير المجتمع المصري في عهد الملك رعمسيس الثاني، كهانة وسحراً وطباً وعرافة وسياسة، كما أنه قد نجح في تصوير بعض العواطف الإنسانية تصويراً بارعاً كالشفقة والحب والشك والطمع والحسد والاخلاص والخيانة وغيرها. كذلك أحسن المؤلف

تصوير أشخاصه ففنه في هذه الناحية قوي. ولقد استمر على فطنته ويقظته في ما يتعلق بصفات أشخاصه حتى آخر القصة.

بيدي أني أرى في القصة بعض المآخذ. لابد لي اذا توخيت الإنصاف من مصارحة المؤلف الفاضل بها وأول هذه المآخذ أن عقدة القصة مبهمة. فقد حاولت أن انتخب من بين حوادثها حادثة أعتبرها الرئيسة فلم اوفق الى ذلك. فهنا بنت أنات تحب بنطاؤر. وهناك نيفرت تحب سينا. وهذا بعاكر قائد الطليعة يريد أن يكيد للملك. نعم إن هذه الحوادث لاتعدم رابطاً يربطها، غير أنها روابط سطحية وليست روابط البسط أو حل العقدة التي تتشعب منها القصة مما كاد يخلي القصة من التطور ويفقد القارئ الانتظار. فكل منظر يكاد يكون مستقلاً، هذا إلى أن المؤلف قد جعل خاتمة المأساة متوقفة على نصيب رمسيس في الحرب، وهذا معروف للقارئ، فكأن القارئ يعرف ما سيؤول اليه أمر العصاة ومدبري الثورة، وهذا ما يقضي على استمتاعه قبل نهاية القصة، ولو أن المؤلف علق انتهاء القصة على حادثة غير هذه لاحتفظ بروعتها حتى النهاية.

كذلك نجد في القصة عدة مواقف قوية، ولكن المؤلف أضعفها بفتور العبارة أحياناً وبسذاجة الحوار أحياناً أخرى، أو بارسال الحوادث على غير ما يتفق مع الموقف وما ينتظره القارئ في ذهنه. هذا الى أنه في بعض المواقف أورد حوادث ما كان يتصور وقوعها بمثل

هاتيك السهولة كرجوع بنطاؤر عن فلسفته بتلك السرعة وانقياده الى بنت أنات كأنما كانا يتباحثان في موضوع تافه. وكتصريح بنطاؤر بحبه الى صديقه نبشت دون تردد أو تحفظ. وكسرعة انتقال وردة من الألم الشديد الى الهدوء لدنو لقاء الأميرة. . الخ.

ولقد كان المؤلف يحاول تغطية هذه العيوب بحوار على لسان الأشخاص. ولكنه في رأيي كان يكشفها بذلك.

ولم يعجبني من المؤلف الجمع بين التأليف والتمثيل في كتابته فكان يشير كثيراً الى ما ينبغي أن يحدث على المسرح وأظن ذلك من عمل المدير الفني.

ولقد قدم لكتابه بتحليل ضاف إذا قرأته عرفت القصة كلها فلن تعجب بها إلا على المسرح.

ولكن هذه المآخذ على تنوعها لاتذهب ببهاء القصة، ولاتنقصها قدرها، ولاتضيع طرافتها، ورجائي الى المؤلف الفاضل أن يثابر على التأليف للمسرح، فعنده استعداد عظيم وملكة قوية تضمن له التبريز في هذا المضمار.

الخفيف

العدد 65 - بتاريخ: 01 - 10 - 1934

الأزمة والغلاء!

مضت أربعة اعوام، وريح الأزمة الاقتصادية العالمية تهب على مصر بقوة، تضاعفها وتذكيها الظروف المحلية، وملايين الزراع والفلاحين يرون جهودهم وآمالهم تذهب هباء، ومحاصيلهم تباع بأبخس الاثمان، والدين يرهقهم، والحاجة تنذرهم بشرالعواقب، وباقي الطبقات تشاطرهم هذا البؤس الاقتصادي. ولما كانت الحياة الاقتصادية كلها متصلة النواحي، وكان الإنتاج والاستهلاك مرتبطين أشد الارتباط، فقد اضطر الناس إلى الاقتصاد بحكم الضرورة والنزول على أحكام الأزمة. وكان في هبوط نفقات العيش بعض التنفس، ولا سيما للطبقات الفقيرة، ولكن الضيق لبث مع ذلك يرهق كل الطبقات.

وإذا كانت الأزمات الاقتصادية محنا شعبية عامة تعانيها جميع الطبقات، فإنها تغدو في كثير من الأحيان ميداناً لنشاط بعض المستغلين الذين لا ذمة لهم، والذين لا تزدهر ثرواتهم إلا في أيام المحنة والضيق. وكذلك وقع خلل الأزمة الأخيرة، فقد ظهر المستغلون في الميدان، فظهر المصطنع في حاجات العيش الضرورية، وهي التي تشتري من المزارع والفلاح بأبخس الأثمان، وصرخ الناس غير مرة، ولكن ماذا يجدي الصراخ والحكومة لا تعنى بأمر المستغلين والمضاربين؟

واشتدت وطأة الغلاء منذ أسابيع، وظهرت بنوع خاص في أثمان الخبز - قوت الشعب - واللحم، والزبد، وغيرها من ضرورات العيش، وضج الناس ولا سيما الطبقات الفقيرة من هذا العنت الذي لا تبرره ظروف الأزمة، ولا يتناسب مع نتائجها، واتجهوا ببصرهم

إلى الحكومة لكي تتدخل لحمايتهم وإنقاذهم من شره المضاربين والمستغلين.
خصوصاً وأن هذا الارتفاع الطارئ في أثمان الحبوب، وهو الذي ترتبت عليه هذه الموجة من الغلاء، لم يرتفع إلا بعد أن خرج معظم المحصول من يد المزارع والفلاح، فلن يفيد منه سوى القليل.
فماذا فعلت الحكومة؟ قررت أن تشتري ربع مليون أردب من القمح الأسترالي لتستدرك - على ما صرح به رئيس الوزراء - النقص في المحصول المحلي، ولتنذر بذلك الضاربين والمستغلين بأنها سوف تضرب على يدهم إذا لم يقفوا عند حد الاعتدال.
ومن حق الشعب أن يتطلع في مثل هذا المأزق إلى حكومته، والحكومات في جميع الأمم المتمدينة تضطلع بمهمة محاربة الغلاء المصطنع أو الحقيقي، وتسن لذلك القوانين الرادعة إذا اقتضى الأمر، وكثير من الحكومات والبلديات يتولى الإشراف على تموين الشعب،
فيحدد وزن الخبز ونوعه وأثمانه، ويتخذ غير ذلك من الإجراءات الكفيلة بالضرب على أيدي المحتكرين والمستغلين؛ وإذا فليس علينا لوم إذا نحن تطلعنا إلى الحكومة لتتخذ ما يجب من الوسائل لحماية المستهلكين ومكافحة الغلاء، ولحفظ التوازن المعقول بين ما يجنيه المزارع من محصوله، وما يقتضيه التاجر من المستهلك ثمناً لوساطته.
وليس من وسائل الحماية الناجعة أن تستورد الحكومة مقداراً محدوداً من القمح الأجنبي على نحو ما قررت، ولكن الوسيلة الأولى هي أن تخفض الرسوم الجمركية على الحبوب الأجنبية، وهى التي رفعت في وقت كانت فيه وفرة المحصول المحلي تبعث إلى هبوطالأثمان هبوطاً شديداً.
لتتخذ الحكومة هذه الخطوة وغيرها مما تراه ضرورياً لدرء كارثة جديدة تنذر ملايين الفقراء بالجوع، ولا يستفيد منها سوى قلة من المحتكرين والوسطاء، على أن هنالك عاملاً آخر لم يتوفر لدينا بعد، ذلك هو المقاومة الشعبية، فمن الواجب أن نعود أنفسنا هذه المقاومة التي لابد منها في مثل هذه الظروف. ولو أن الجمهور يعني بالحرص على حقوقه الشعبية، لكانت المقاومة الفردية والشعبية في مثل هذه الأحوال خير وسيلة للحماية. ولو عني كل فرد بأن يقتصد حيثما وجب الاقتصاد، وأن يحرم نفسه بعض الكماليات وقت الضرورة، وأن يجرب جميع الوسائل الممكنة لمقاومة طغيان المحتكر، وإنقاص منسوب الاستهلاك، لكانت حاجته إلى حماية الحكومة في مثل هذه الظروف اقل بكثير مما نشهد اليوم، إذ لا حول لجمهورنا ولا قوة إلا أن تنجده الحكومة، وإذا أجابته فإنها لا تستطيع أن تذهب معه دائما إلى حيث يريد وهذا ظرف يستطيع الجمهور فيه أن يبدي إلى جانب ما يمكن أن تقوم به الحكومة شيئاً من المقاومة الفردية الحكيمة، فإذا استطاع أن يفعل فانه يبرهن على حيويته، وعلى أنه حريص على حقوقه، وأنه لا يذعن لنير المؤتمرين به من رهط المستغلين والمستفيدين الذين يعملون على سلبه دون أفة، ويبرهن أخيراً على أنه ليس عالة مطلقة على حكومته في جميع شئونه ومرافقه.

عدو الديمقراطية

للأستاذ احمد أمين

لندع الديمقراطية السياسية، فلها نظرياتها ولها رجالها، ولها نزاعها الحار بين دعاتها وأعدائها.
ولنتكلم في الديمقراطية الاجتماعية وأعدائها - فاكبر مظاهر الديمقراطية الاجتماعية الاشتراك في مرافق الحياة من غير أن تتميز طبقة من طبقة، فإذا رأيت في القطار درجة أولى وثانية وثالثة فهذا مظهر أرستقراطي، وإذا رأيت ذلك في عربات الترام والسيارات العامة والسينما والتمثيل فهذا مظهر من مظاهر الأرستقراطية، وإذا رأيت أحياء يعنى فيها بالكنس والرش والنور وأحياء لا يعنى فيها هذه العناية. فهذا مظهر من مظاهر الأرستقراطية، وإذا رأيت في المآتم والأفراح كراسي ضخمة مذهبة، وأخرى عادية ساذجة، وقوما يستقبلهم آل الميت وال العرس بالحفاوة فيجلسونهم في الصدر، وآخرين يستقبلون في غير حفاوة فيجلسون في الذيل فهذا أيضاً مظهر من مظاهر الأرستقراطية - وإذا رأيت في قاعات المحاضرات أماكن حجزت لكبار المدعوين، وأخرى حقاً مشاعاً للدهماء. فهذا كذلك مظهر من مظاهر الأرستقراطية وإذا رأيت

الحجاب على الأبواب يفتحونها لمن نزل من سيارة، ويغلقونها في وجه ذي الجلباب الأزرق. فذلك نوع من الأرستقراطية. وإذا رأيت مقهى إفرنجيا فيه فنجان القهوة بخمسة قروش أو تزيد ومقهى بلديا فيه فنجان القهوة بخمسة مليمات أو تنقص، فهذا مظهر من مظاهر الأرستقراطية، ولا استرسل في ذلك، فلعلك - يا صاحبي - فهمت مظاهر الأرستقراطية والديمقراطية، وعلمت انك في كل خطوة تخطوها ترى هذه المظاهر في أشكالها المختلفة، وألوانها المتعددة.

وهناك دعاة يدعون إلى هذه الديمقراطية الاجتماعية، كما أن هناك دعاة يدعون إلى الديمقراطية السياسية، ولهم على ذلك حجج وبراهين.

ولكن لعل أعدى أعدا الديمقراطية واهم طعنة توجه إلى دعاتها، وأقوى حجة يتسلح بها دعاة الأرستقراطية شئ واحد هو (الوساخة) أو (القذارة) أو ما شئت فسمه. فاكثر تصرفات الأرستقراطيين وأشباههم، عذرهم فيها طلب النظافة والترفع عن الوساخة.

قد يركب راكب الدرجة الأولى في القطار أو الترام أو السيارات طلبا للوجاهة وخشية أن يراه الناس بين جمهور الفقراء أو نحو ذلك نحو ذلك من أعذار كلها سخيفة، ولكن عذراً واحدا يصح أن يقام له وزن، وهو وساخة ركاب الدرجة الثالثة والخوف من أذاهم ومن عدواهم.

وقد يتطلب بعض الناس أغلى مطعم وأغلى مقهى حبا في الظهور ورغبة في الجاه، وطلبا لمخالطة العظماء، ولكن العذر الصحيح انه ينشد النظافة في هذا المطعم وهذا المقهى، ويفر من قذارة المطاعم الرخيصة والمقاهي الرخيصة.

فلوعني الناس بالنظافة، وكان من لبس لبس نظيفا، ومن فتح مطعما أو مقهى عنى بنظافته، وكان الفرق بين لبس الغنى والفقير ليس فرقا في الكيف، فالكل نظيف، وإنما هو فرق في النوع والكم، لانهارت الأرستقراطية الاجتماعية في كثير من نواحيها، ولما تقززت أوساط الناس وخيارهم من أن يخالطوا الفقراء في مأكلهم ومشربهم ومركبهم، ولسلحوا الديمقراطية بسلاح قوي متين، ولهذا ترى الأمم التي عنيت بالنظافة والتزمتما في صغيرها وكبيرها، وفي فقرها وغناها قد أفسحت الطريق أمام محبي المساواة ودعاة الديمقراطية. وتراهم وقد قضوا على اختلاف الدرجات في السيارات العامة، وقل منهم من يركب الدرجة الأولى في القطار، وقل من يتطلب أفخم مطعم وأغلى مقهى، علماً منهم بأن الكل نظيف والكل مريح، وأن الذين يركبون بجوارهم أو يجلسون بجانبهم لا يؤذونهم بمنظرهم ولا برائحتهم ولا بأي شيء فيهم، إنما تتميز هذه الطبقات بوضوح وجلاء، في مرافق الحياة الاجتماعية حيث تفشو القذارة.

إن عقلاء الناس يحتملون الديمقراطية الاجتماعية بل يعشقونها، ولكن إذا وصل الأمر إلى احتمال عدوى مرض، أو آلمت أنوفهم رائحة كريهة، أو آلم عيونهم منظر بغيض، سهل عليهم بيع الديمقراطية للأرستقراطية.

لو جرى الأمر على المعقول لكان المسلم من انظف الناس في العالم، فقد ربطت صلواته الخمس بالوضوء، وفرض عليه الاستحمام في أو قات، وكان أول باب من أبواب فقهه باب الطهارة.

واغتبط إذ اسمع وصف (ابن سعيد) لمسلمي الأندلس فيقول: (انهم أشد خلق الله اعتناء

بنظافة ما يلبسون وما يفرشون، وغير ذلك مما يتعلق بهم، وفيهم من لا يكون عنده إلا ما يقوته يومه فيطويه صائماً، ويبتاع صابوناً يغسل به ثيابه، ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها).

ويؤلمني اشد الأم ما ذكره أبن سعيد نفسه، وقد زار القاهرة، وركب منها حماراً إلى الفسطاط يقول (فأثار الحمار من الغبار الأسود ما أعمى عيني، ودنس ثيابي، وعانيت ما كرهت، وقلت:

لقيت بمصر اشد البوار ... ركوب الحمار وكحل الغبار

أَلِمَ من منظر الفسطاط، وقال انه رأى شوارعها غير مستقيمة، ورأى حول أبوابها من التراب الأسود والأزبال ما يقبض نفس النظيف، ويغض طرف الظريف، ورأى البياعين يبيعون في مسجد عمرو، والناس يأكلون فيه، ورأى في زوايا المسجد العنكبوت، قد عظمة نسجه في السقوف والأركان والحيطان ورأى حيطانه مكتوباً عليها بالفحم

. . .والحمرة بخطوط قبيحة مختلفة من كتابة فقراء العامة الخ
آلمني هذا الوصف لمصر، ولو زارها اليوم لما عثر بحماره، ولأقلته سيارة فخمة من باب زويلة إلى الفسطاط في أرض معبدة ممهدة، لا تثير غباراً ولا تدنس ثياباً، ولرأى مسجد عمرو نظيفاً، لا يأكل فيه أكل، ولا يكتب على حيطانه كاتب.
ولكن هل كان يعدل عن حكمه القاسي في مقارنته بين أهل مصر وأهل الأندلس في النظافة؟ ذلك ما أشك فيه كل الشك. لست ادري لمَ لمْ يلتفت الدعاة إلى هذا الأمر في الأمة، فيدعون ويلحون في الدعوة إلى النظافة، ويضعون الخطط الدقيقة لها، فأنها خير وسيلة للتقريب بين طبقات الأمة، فلا يأنف بعد مثقف أن يجلس مع غير المثقفين، ولا متعلم أن يجالس غير المتعلمين، وفي هذا الاختلاط نشر للثقافة، ودعوة للآداب العامة، وغلبة للعنصر المهذب.
يظن الناس أن النظافة غالية، وأنها مرتبطة بالغنى، وهذا خطأ بين، فكم من غني قذر، ومن فقير نظيف، والأمر يتوقف على تعويد النظافة أكثر مما يتوقف على المال، فليست النظافة أن تلبس أغلى اللباس، وأن تأكل أفخم الطعام، وانما النظافة أن تلبس نظيفاً ولو كان أحقر الثياب، وأن تأكل نظيفاً ولو أحقر الطعام.
هذه بديهيات أولية، ولكنا مع الأسف مضطرون أن نقولها.
لعل الأمر في العلماء والأدباء على نحو ما بينا في الماديات، فالذي يفرق بين عالم أرستقراطي وعالم ديمقراطي، وأديب أرستقراطي وأديب ديمقراطي، هو نظافة آراء الأولين وأفكارهم وأسلوبهم، وعكس ذلك في الآخرين - ولو التزم كل العلماء والأدباء نظافة نظرياتهم، ونظافة كتابتهم مهما اختلفت في النوع والقيمة لانهارت الأرستقراطية العلمية والأدبية أيضاً، ولكان الكل سواء.
أحمد أمين
كلمة وكليمة
للأستاذ مصطفى صادق الرافعي
نحن من التنظير بين المدنيتين الأوربية والإسلامية، كأننا بازاء جوادين أحدهما مخلى له الطريق إلى غايته، والأخر يُضرب وجهُه مرةً ويصرف بالعوائق مرة؛ ومع ذلك يقابل بينهما في السابق! لو حكم الشرق أوربا لظهر جوادها حماراً
أربعة آلاف كلمة في الثرثرة، اقل من أربع كلمات في الحكمة
لا تغضب من حماقة امرأة تحبها، ولا تغضبي من حماقة رجل تحبينه، وإلا فأين تدسُ الحياةُ سُمها إلا في ألذ أطعمتها؟
. . .يموت الحيُ شيئاً فشيئاً؛ وحين لا يبقى فيه ما يموت، يقال مات
قضت الحياة أن يكون النصر لمن يحتمل الضربات لا لمن يضربها.
غلَبَ رجل على امرأة كانت تهواه وجعل يباهي بما صنع، فقلت له: يا هذا إن من السخرية أن تزعم انك تعبت في فتح باب مفتوح. . .
حق الإرادة؛ هي في الذكور مذ كرة، وفي الإناث مؤنثة؛ فعند ما يغلب سحر الحقيقة التي في الرجل على الحقيقة التي في المرأة تلتمس المرأة إرادتها لتعوذ بها فلا تجدها إلا صورة. . فإذا امتنعت كانت في صورة امتناع على استجابة، وإذا غضبت كانت في صورة غضب على رضى. ولهذا ما يكره بعضهن الحجاب فانه يذكرهن تأنيث الإرادة ويُبعدهن ويحذِّرهن؛ ويا شؤمَ من إذا نجت من ذلك الخطر نجت كارهة. .
هناك حب يسمو ولا يزال يسمو؛ إذ يكون المحبوب فيه مع المحب كالتَّرجمان مع السائح؛ ذلك حب بعض الشعراء لبعض الأجسام المترجمة.
. . .تكون الأمانيُّ مرةً كَسْبُ أفكارنا ومرة لصوصية أفكارنا!
ينفُر الإنسان من الكلمة التي تحكمه، ولكنه في الحب لا يبحث إلا عن الكلمة التي تحكمه.
من خُلقَ بطلاً فل عجب أن توجِد له الأقدار دائماً من كل ما حوله مادة حرب، مائةٌ من مائةٌ في التوكل على الله تكون مائةً من مائة في النجاح؛ ولكن تسعة وتسعين من المائة في التوكل لا تكون إلا خيبة محققة.
هل أستطيع أيتها الجميلة السوداء أن أقول في وصف خديك انهما في حمرة الورد؟ فلماذا

تغضبين إذا قلت انهما في التماع الزيتون الأسود. .؟ وأنت أيتها الحسناء المتكبرة السخيفة! لماذا تغضبين إذا رأيت في قلبك الزيتون ولم أر الورد؟
في بعض أحوال الحب، تكون العواطف المحبة لك في الباطن هي المعادية لك في الظاهر.
لا يسعد أحد بشعور غيره؛ وطبيعي أن يكون هذا هو الذي يجعل السعادة ممكنة في الناس؛ ولكن العجيب انه هو الذي يجعلها غير ممكنة، إذ لا يريد كل إنسان لنفسه إلا شعور غيره.
الناس يزاحمون في الدنيا لأجسامهم، فأما بؤس وأما سعادة، والحكماء والمحبون يزاحمون لأرواحهم، فأما بؤسان وأما سعادتان ما أظرفها كانت وابلغها حين قالت لي: ألا تنظر ثانياً فتفهم ثالثاً. .؟
يخيل إلى والله أن قلب المرأة امرأة معها؛ فأما أن تأخذها نكبتين أو معونتين.
فلسفتي أن الكبرياء على المتكبرين هو أعلى التواضع.
مصادفة التعس حظاً تحتاج في اتفاقها إلى مصادفة تجئ بها
تستطيع أن تقول في كل نابغة عظيم: انه أذكى البلداء. .
فان كذبك الناس لم يكذبك هو.
المودَّة القوية تتحمل العتاب والمحاسبة لتثبت أنها قوية
الحب يُخرج من نفسك شخصا غيرك، والبغض يخرج من هذا الشخص غيره. فتحب بنفسين وتبغض بثلاث.
إن رضى المحب قال في الحبيب احسن ما يعرف، وما لا يعرف؛ وان غضب قال فيه أسوأ ما يعرف، وما لا يعرف، وما لا يمكن أن يعرف
إذا رأيت كبراء قوم همُهم عيشهم؛ فاعلم أنها أمة مأكولة. فلو شهرت السيف الماضي لقاتل بروح مِلعقة. . ولو رعدت بالأسطول الجبار لصلصل كآنية المطبخ. . .
لم تعد التربية في كل أمة تربية للناس ولكن للمطامع؛ فما يكبر جيل إلا كبرت معه الحرب. . .
يراد من التجمل الصناعي حين تبالغ فيه المرأة أن يخف فيثقل؛ ويراد من الجمال الطبيعي أن يخف فيزداد خفة. . .
من النساء من إذا رايتها حسبت روحها زجاجة ملئت عطراً؛ ومنهن من إذا رايتها حسبت
روحها ملئت زيت خروع. . .
أول فلسفة الشريعة في الزواج انه حصرُ المعاني البهيمية من كل رجل وامرأة في الرجل والمرأة بذاتيهما. فاخر فلسفة الشريعة في الزواج انه إذا عم وانتظم تراجعت بهيمية العالم فصغرت وصغرت حتى تكون كأنها في اثنين فقط. . .
إذا سألت السياسي الداهية فسكت عن الجواب فقد قال لك قولا
من لا يملك على الأرض شيئاً يملك على الأقل أن يفرح وان يحزن. . .
مات واصبح كأن لم يوجد، ومع ذلك فقد وجد، ومع ذلك فكأن لم يوجد. إن خرج من هذا التركيب المنطقي معنى يثبت في الفهم، كان للحياة في الفهم معنى ثابت. . .
أيا غاضباً من صر وف القضا ... بنفسك تَعْنُفُ لا بالقدَرْ
ويا ضارباً صخرةً بالعَصَا ... ضربت العصا أم ضربت الحجر؟
طنطا
مصطفى صادق الرافعي
صفحة من التاريخ
روح مصر
للأستاذ محمد فريد أبو حديد
دع من شاء يتغنى بفرنسا وما في فرنسا، ودع من شاء يتغنى بإنجلترة وما في انجلترة؛ دع هؤلاء جميعا يعنفون مصر وما في مصر وينكرون ماضيها، فما نحن منهم في شئ. وليس في الأمر علينا من مضاضة إلا ألم الساعة نشعر به كلما وقعت أعيننا عفوا أو قصدا على كلمة لبعض هؤلاء؛ حتى إذا مرت الساعة لم يبق من اثر لكلمتهم إلا كما يبقى من اثر قول الولد العاق في نفوس أهله، فان الحب يغلب الكراهة، وسعة صدر الوالد لا يدوم معها الغل ولا تبقى عليها الحفيظة. ثم لن تكون إلا أعوام فتنضج

العقول الفجة، ويتسع الأفق الضيق، ويغزر المحيط الضحل، فيعود هؤلاء جميعاً إلى تقديس مصر ومعرفة روحها، وإعطائها ما يجب لها من الإجلال.

وأما نحن فما بنا ولله الحمد غير مصر وحب مصر، والإعجاب بها والإشفاق عليها: نعجب بما فيها من جليل، ونشفق على ما بها من عليل أو ضعيف. ليس في القلب نحوها موضع لغير عاطفتي الحب والإشفاق. هذه كلمة نفرج بها عن النفس مما تحسه، إذ كثر في هذه الأيام حديث الزراية بمصر من قوم لا نجد في نفوسنا ميلاً إلا للدعاء لهم بالتوفيق إلى ما هو خير من ذلك واكرم.

ولنعد إلى الماضي نقلب فيه صفحة من صفحات تاريخ مصر، لنرى أن روحها كان أبداً روح الكريم الأبي، ولو علا تلك الصفحة صدا القدم، أو غشاء الوهم.

لا حاجة بنا إلى أن نعود إلى أيام الفراعنة، أو إلى أيام مجد الدول الإسلامية التي كان فيها لمصر ذلك الروح المتوثب القوي، بل نعود إلى أيام القرن الثامن عشر الذي يصفه بعض المؤرخين بالظلمة والانحطاط، ولم يتورعوا أن يتهموه بأقسى التهم وأشنعها، وتعدوا فيه الوصف الشنيع إلى السب المقذع حتى في التسمية، فلا يعرفونه إلا باسم (عصر المماليك) كأننا بهم يعيرون حكامه بأنهم كانوا في أول أمرهم يشترون بالمال. وأنا إذا عدنا إلى ذلك العصر لم نجدروح مصر خفيا، بل نراه واضحا مجلواً على عهده من الكرم والأباء: لئن كان حكام مصر الأسبقون يشترون فيأول حياتهم بالمال، فقد كانوا رجالاً طالما ذادوا عن

حوض مصر، وحملوا ذمارها. ولقد كانوا يفاخرون بمصريتهم ويعتزون بها، ويسمون أنفسهم منتسبين إليها، فكانوا يعرفون أنفسهم باسم (الأمراء المصريون) وما أجدرنا نحن اليوم أن نسميهم بذلك الاسم ونتجنب تلك منذ أيام إبراهيم ورضوان، ومن جاء بعدهما مثل علي بك الكبير ومحمد بك أبى الذهب. وشهد أهل مصر في أيام هذين الحاكمين الضعيفين تغيرا في نظام الحكم ونمط السياسة، وأخذت شوكة الدولة تتجه نحو جوانب الناس تخزهم وتؤذيهم وتفسد عليهم أحوال حياتهم، وما كان عهدهم بشوكة الدولة أن تكون أداة أذى لهم. فان الأمراء المصريين كانوا منذ القدم إذا تشاحنوا كان تشاحنهم فيما بينهم، وإذا اعتدى بعضهم فإنما كان يعتدي على بعض، وإذا غصبوا مالا أو سفكوا دما فإنما كان الحزب الغالب منهم يغصب مال الحزب المغلوب، ويسفك المنتصرون منهم دماء اتباع الحزب المخذول. وقديما تشاحن الأحزاب على الحكم وتنافسوا على السلطة، وما كان بأهل مصر باس من ذلك، إذ كانوا في كل هذه الحركات بمعزل عن الأذى. دماؤهم محفوظة، وأموالهم محرمة، وأعراضهم مقدسة؛ وأما منذ تولى أمر الحكم إبراهيم ومراد، فقد تغيرت الحال، وخرقت الحدود، وإذا بجنود الدولة تعسف بالناس، وتنتهك حرماتهم، فلم يرضهم ذلك، بل احتجوا وشكوا، ثم تحركوا واضطربوا، وكان اضطرابهم ذلك، قبل أن يتحرك شعب فرنسا في ثورته الكبرى بنحو أربع سنوات.

قال صاحب (عجائب الآثار) في حوادث سنة مائتين وألف للهجرة: أي في سنة ألف وسبع مائة وخمسة التسمية الجائرة التي رددها من قبل أعداء مصر ظلماً منهم وعدوانا. فقد ألصقت بهم هذه التسمية منذ أطلقها عليهم فرنجة الحملة الفرنسية الذين جاءوا إلى مصر لينزعوها من أيديهم ويحلوا محلهم في حكم البلاد، فكانوا يحاولون في كل مناسبة أن يشهروا بهم ويحملوا عليهم، بغية أن يفسدوا عليهم قلوب أهل مصر. ولهذا حبب إليهم أن يسموهم باسم (المماليك) وان ينعتوهم بأشنع النعوت، ويتهموه بأبشع التهم.

أما نحن فما أحرانا أن ننظر لأنفسنا بأعين مجردة عن الهوى، وان ننظر إلى صفحة تاريخهم بغير حقد ولا كراهة، فما كانوا بأهل لذلك، وما كان حكمهم إلا كسائر حكم الدول التي تعاقبت على مصر في مختلف العصور. فلقد تعاقب في عهدهم حكم العدل والظلم، وأختلف في زمانهم زهو النصر، وذلة القهر - وأي عصر في التاريخ قد خلا من مثل هذا

التقلب والاختلاف؟ وكان شعب مصر في مدتهم يزن الدولة، فيرى ما فيها من حسنة وسيئة، فإذا رأى الحسنة غالبة، غفره السيئة في سبيلها، وهو في ذلك مثل سائر الشعوب المتمدينة المستقرة، لا تستخفهالحوادث إلى العنف ضناً بالسلام والطمأنينة، غير أن ذلك الشعب الوديع كان يرى أحيانا من الحكام من لا يستحق عطفه ولا إجلاله،

فكان عند ذلك يرفض الاعتداء بإباء العازم على عدم الاستكانة. وما اكثر الآيات الدالة على هذا لمن أراد النظر لنفسه، ومن لم يتلق وحيه عن أساطير الكارهين الكاشحين.

ولي أمر الحكم في مصر في أواخر القرن الثامن عشر أميران من اضعف من ولي أمر الحكم فيها، وهما مراد وابراهيم. فكان حكمهما في مصر أشبه شئ بالمرض يعتري جسم الشاب الناشئ؛ وتهدم في أيامهما ما بناه أكابر الأمراء السالفين قبلهم وثمانين للميلاد ما يأتي:

(وفي صبيحة (يوم الجمعة) ثارت جماعة من أهالي الحسينية بسبب ما حصل في أمسه من حسين بك (تابع مراد بك) وحضروا إلى الجامع الأزهر ومعهم طبول. والتف عليهم جماعة من أوباش العامة والجعيدية، وبأيديهم نبابيت ومساوق، وذهبوا إلى الشيخ الدردير، فونسهم وساعدهم بالكلام وقال لهم: أنا معكم، فخرجوا من نواحي الجامع وقفلوا أبوابه، وصعد منهم طائفة على أعلى المنارات يصيحون ويضربون بالطبول، وانتشروا بالأسواق في حالة منكرة، وأغلقوا الحوانيت، وقال لهم الشيخ الدردير: (في غد نجمع أهالي الأطراف والحاران وبولاق مصر القديمة، واركب معهم وننهب بيوتهم كما ينهبون بيوتنا ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم) فلما كان بعد المغرب حضر سليم اغا مستحفظان، ومحمد كتخدا ارنؤد الجلفي كتخدا إبراهيم بك وجلسوا في الغورية، ثم ذهبوا إلى الشيخ الدردير وتكلموا معه، وخافوا من تضاعف الحالة، وقالوا للشيخ: (أ. كتب لنا قائمة بالمنهوبات ونأتي بها من محل ما تكون) واتفقوا على ذلك وقرأوا الفاتحة وانصرفوا، وركب الشيخ في صبحها إلى إبراهيمبك. ولم يقف الأمر عند حدود (. .أرسل إلى حسين بك فأحضره بالمجلس وكلمه في ذلك القاهرة، بل اشترك أهل الأقاليم في ذلك، فلم تمض السنة نفسها حتى تحركت مدينة طنطا في أيام مولد وليها المشهور السيد البدوي، وكان الشيخ الدردير على راس الحركة هذه المرة أيضاً.

قال صاحب تاريخ (عجائب الآثار):

(فذهبوا (أي أهل طنطا) إلى الشيخ الدردير، وكان هناك بقصد الزيارة، وشكوا إليه ما حل بهم، فأمر الشيخ بعض اتباعه بالذهاب إلى (الكاشف الظالم) فامتنع الجماعة من مخاطبة ذلك الكاشف، فركب الشيخ بنفسه وتبعه جماعة كثيرة من العامة، فلما وصل إلى خيمة كتخدا الكاشف دعاه فحضر إليه والشيخ راكب على بغلته، فكلمه ووبخه وقال له: (انتم ما تخافون من الله) ففي أثناء كلام الشيخ لكتخدا الكاشف هجم على الكتخدا رجل من عامة الناس وضربه بنبوت، فلما عاين خدامه ضرب سيدهم هجموا على العامة بنبابيتهم وعصيهم، وقبضوا على السيد احمد الضاني تابع الشيخ وضربوه عدة نبابيت، وهاجت الناس على بعضهم، ووقع النهب في الخيم وفي البلد، فنهبت عدة دكاكين، وأسرع الشيخ بالرجوع إلى محله. . . ثم حضر كاشف المنوفية وهو من جماعة إبراهيم بك الكبير وحضر إلى كاشف الغربية وأخذوا وحضر به إلى الشيخ، واخذوا بخاطره وصالحوه ونادوا بالأمان. . . ولما رجع الشيخ الدردير إلى منزله حضر إليه إبراهيم بك الوالي واخذ بخاطره أيضاً، وكذلك إبراهيم بك الكبير، وكتخدا الجاويشية.)

غير أن الحوادث السياسية التي وقعت في ذلك الوقت حالت دون استمرار سعى أهل مصر نحو إصلاح نظام الحكم بأنفسهم، وذلك أن السلطان أرسل عند ذلك جيشاً لمعاقبة المفسدين في زعمه. فانخدع أهل مصر وتركوا ما كانوا فيه من مسعى ظناً منهم أن السلطان كفيل لهم بإزالة المظالم وإصلاح الأمور. وبقى جيش السلطان في مصر قليلاً، ثم دعته الدواعي إلى مغادرة البلاد فعاد الأمر إلى ما كان عليه من عبث مراد واتباعه، وعاد الناس يفكرون في الدفاع عن أنفسهم والتحرك لإزالة العسف، وأضحت مصر والجو فيها مكفهر، والقلوب غير مستقرة، والشعب متحفز، وأهل الدولة في وجل وترقب.

قال صاحب (عجائب الآثار) في وصف هذه الأيام:

(وركب إبراهيم بك الكبير في ذلك اليوم وذهب إلى الشيخ البكري وعيد عليه، ثم إلى الشيخ العروسي، والشيخ الدردير، وصار يحكي لهم، وتصاغر في نفسه جداً، وأوصاهم على المحافظة وكف الرعية عن أمر يحدثونه أو قومة أو حركة في مثل هذا الوقت، فانه كان يخاف جداً.)

ثم أراد الله مرة أخرى أن يحول دون تمام تلك النهضة، إذ لم تلبث البلاد أن شهدت طلائع الحملة الفرنسية، فكان في تلك الحملة المشئومة آخر قضاء على حركة مصر في القرن الثامن عشر.

أمن الحق أن يقول قائل مع هذا إن أهل مصر ظلوا منذ القدم على الاستكانة والخضوع للمظالم؟

محمد فريد أبو حديد

حركات الشباب

خواصها وأثرها في بناء أوربا الجديد

للأستاذ محمد عبد الله عنان

من أهم الظواهر التي يمتاز بها المجتمع الأوربي الجديد، أن الشباب يقوم في بنائه وتوجيهه بأعظم قسط؛ وقد هلكت زهرة الشباب الأوربي القديم في الحرب، وخلفها شباب جديد حائر يتخبط في غمار المتاعب والأزمات العديدة التي خلفتها الحرب؛ ولكن الحركات والانقلابات السياسية العنيفة التي تمخض عنها العهد الجديد أفسحت للشباب مجالاً كبيراً للعمل، وأسبغت عليه كثيراً من النفوذ والسلطان، وخصته في بناء الدولة الجديدة والمجتمع الجديد بأعظم قسط. ويلاحظ أن هذا التطور قد بدأ في أواخر الحرب ذاتها؛ حيث قامت الثورة البلشفية في روسيا وحطمت صرح المجتمع القديم كله، ولبثت منذ قيامها تعمل بجد ومثابرة على خلق جيل جديد وشباب جديد يضطرم بالمبادئ والمثل الجديدة ويكون لها في المستقبل عماداً وسياجاً، ثم قامت الثورة الفاشستية في إيطاليا بعد نهاية الحرب بأعوام قلائل، وأدركت ما للشباب من أهمية في بناء المستقبل، فأقبلت عليه واجتهدت في حشده وتنظيمه وتدريبه، وطبعته بطابعها القوي فاصبح من طلائعها وجندها المخلصين؛ وأخيراً قامت الثورة الوطنية الاشتراكية في ألمانيا (الثورة الهتلرية) وكان قوامها منذ البداية ذلك الشباب البائس الذي دفعته خيبة الأمل إلى أحضان التطرف والى لواء أولئك الذين يعدونه بالعمل ورفاهة العيش في ظل دولة جديدة يكون الشباب فيها كل شيء؛ ويستأثر بكل شيء، وفي تركيا الكمالية يشغل الشباب في المجتمع التركي الجديد اعظم مكانة، ويعلق عليه زعماء الثورة الكمالية اعظم الآمال، وقد حذت الثورة التركية حذو الثورة البلشفية والثورة الفاشستية في حشد الشباب وتدريبه وطبعه بالمبادئ والمثل الجديدة، وفي معظم الأمم الأوربية الأخرى مثل إسبانيا وفرنسا وبولونيا يجتمع الشباب حول المثل الجديدة، ويحاول أن يشق طريقه إلى بناء دولة جديدة ومجتمع جديد يكون له فيهما ما يطمح إليه من السلطان والنفوذ. وحتى في إنكلترا التي عرف شعبها بالروية والاتزان إزاء الآراء والتطورات الجديدة يبدي الشباب الإنكليزي ميلاً كبيراً إلى التطور، ولا يأبى تأييد الشيوعية والفاشستية إلى حد ما.

ونلاحظ أيضاً أن الشباب اشد ما يكون تطوراً ونفوذاً في بناء الدولة الجديدة والمجتمع الجديد في ظل حركات الطغيان، كالبلشفية والفاشستية والوطنية الاشتراكية الألمانية. ذلك أن هذه النظم الطاغية تقوم على القوة والعنف وتحتاج أولاً إلى السواعد الفتية توازنها وتحقق لها ما شاءت من ضروب العنف والإرهاب، فإذا ما استقرت بفضل هذه السواعد القوية والأذهان الملتهبة الطامحة، اضطرت أن تفسح لها مجال النشاط والعمل تحت إشرافها ووحيها، وان توليها من النفوذ والمكانة ما يحقق بعض أطماعها، على أنها لأتقنع بحشد الشباب الناضج المكتمل، لأنها لا تأمن تطوره وانقلابه، فتعمد إلى الشباب الفتى تبث إليه تعاليمها، وتدربه على أساليبها؛ ولا تفر الأحداث والأطفال، لأنها ترى فيهم أجيالاً متعاقبة من الشباب الذي ترى أن تخلد زعامتها على يده؛ ولذلك نراها تخضع نظم التعليم والتربية لصولتها، وتطارد حرية التفكير والرأي بكل ما وسعت من ضروب العنف والشدة حتى لا تفضح مثلها ووسائلها، وحتى لا يلقى الشباب الذي تستعبده وتذله لغاياتها من النور والضياء ما يهديه إلى الحقيقة ويدفعه إلى تحطيم ذلك النير الوحشي الذي تضعه في أعناقه. وتلجأ هذه الحكومات الطاغية دائما إلى حشد الشباب في جماعات شبه عسكرية، تحت أسماء وصفات مختلفة، وتعنى عناية خاصة بتنمية الميول العسكرية والرياضية في نفسه، لتعوده أولاً على الطاعة العمياء، ثم لتحكم قيادته وتوجيهه بواسطة رياسة متدرجة مباشرة؛ وقد استطاعت الفاشستية الإيطالية أن تحشد حولها بهذه الوسيلة ملايين الشباب والأحداث، وحذت حذوها

الوطنية الاشتراكية في ألمانيا فجندت الملايين باسم فرق الهجوم والحرس الأسمر، وجيش العمل، والشباب الهتلري وغيرها. ويتخذ الطغيان، الوطنية والغايات القومية ستارا لهذه الحركات؛ وقد يحقق بالفعل كثيرا من الغايات القومية المحلية أو القريبة المدى، ولكنه يعمل دائما بروح حزبي عميق، ويؤثر المبادئ والغايات الحزبية على غيرها، ويخضع الدولة لسلطان الحزبية، كما فعلت الفاشستية في إيطاليا والهتلرية في ألمانيا.

وتثير حركات الشباب اليوم في أوربا كثيرا من الاهتمام، ولا سيما بعد أن أصبحت عماد انقلابات خطيرة في نظم القارة ومجتمعاتها القديمة، وأضحت عاملا قويا في حياة أوربا السياسية. هل توجد بين حركات الشباب في مختلف البلدان خواص مشتركة؟ وما هي هذه الخواص المميزة وما علاقتها بالتطور الاجتماعي والسياسي في كل بلد؟ وهل تحفز الشباب في جميع البلدان آمال وغايات مشتركة؟ هذه الأسئلة وما إليها تثير كثيرا من البحث والجدل. وقد ظهرت في الأعوام الأخيرة عدة كتب ومباحث هامة بأقلام جماعة من كبار الباحثين والساسة عن حركات الشباب الأوربية وخواصها وآثارها، ومن اشهر هذه الدراسات وأحدثها كتاب بقلم الكاتب الفرنسي ايليا ايرنبور عنوانه (اليوم الثاني من أيام الخلق) وفيه يدرس حركات الشباب في روسيا السوفيتية، ويستعرض خواصها وتطوراتها بطريقةروائية، وفي رأيه إن الشباب الروسي إنما هو شعب جديد، يفيض بمادة جديدة تستنفد اليوم في مرحلة التوطيد الاشتراكي، كل قواه بملء الحرية؛ وان الماركسية (الشيوعية) قد انسابت إلى دمه، واصبح يتذوق الأوضاع التي تقررها، وأنها قد أسبغت عليه بالأخص صفتين: الأولى عاطفة التضامن البشري الذي دعا إليه من قبل سولوسييف، وتولستوي، ودستويفسكي؛ والثانية هي الثقة التي لا حد لها بالعقل والمنطق وما يترتب عليهما من الطموح المستمر إلى النور، واستعمال القوة المفكرة، ونبذ الخرافات القديمة. ومن هذه الدراسات أيضاً كتاب الدكتور جريندل عن حركات الشباب الألماني وعنوانه: (رسالة الجيل الفتي) وقد ظهر قبل قيام الطغيان الهتلري في ألمانيا، ولكنه لا يزال مرجعا في موضوعه. ويصف الدكتور جريندل الشباب الألماني بأنه (وطني) يخاصم الشيوعية اشد الخصومة، وانه يطمح إلى إقامة (اشتراكية ألمانية) تضع حدا لمساوئ النظام الرأسمالي وتقضي على الشيوعية أتم قضاء، وتوفق بين مصالح جميع الطبقات والأفراد. ويمتاز الشباب الألماني بصفة خاصة، هي انه يعتبر نفسه ذا قيمة في نفسه، ولا يكتفي بان يعتبر ذخر المستقبل كما هو الشان في معظم الامم؛ فليس الشباب في نظره حالة نضوج ينتهي عملها بعد حين، ولكنها حالة نضوج تام تترك ورائها كل الأجيال السالفة والقادمة، وهي ذات قيمة في نفسها تتمتع بأعظم الخلال؛ وإذا كان الشباب يتكون في الأمم الأخرى على مثل الرجل الناضج، فانه يرى في ألمانيا أنه أتم نضوجاً وأوفر قيمة من الرجل الكامل. وليس أدل على ذلك من (حركة الشباب) الألمانية الشهيرة التي استطاعت أن تنشئ ثقافة شباب حق لها كل مميزاتها، ولها مثلها الأعلى الخاص؛ ومن المعروف أن الطموح الألماني إلى المثل الأعلى، الذي غدا منذ الفيلسوف (كانت) ظاهرة الحياة العقلية الألمانية،

هو مصدر هذه النزعة التي تدفع الشباب الألماني إلى الأمام، فهو يتقدم في سبيله لا يقعده شيءٌ من الاعتبارات العملية التي تسحق الرجل الناضج، وهو لا يعبأ بالمصاعب الخارجية، بل يتحرى الغايات البعيدة دون النظر إلى الحقائق، وهذا الطموح الحر إلى المثل الأعلى هو الذي خلق الشباب الألماني.

هذا عن الدراسة الخاصة لحركات الشباب، وقد صدرت كتب وبحوث عديدة عن الفاشستية وأثرها في تكوين الشباب الإيطالي. وهناك بحوث عامة عن حركات الشباب الأوربي، منها كتاب لرنيه دبوي والكساندر مرك عنوانه (أوربا الفتاة) وكتاب لارنودانديه عنوانه (الثورة المحتومة) وكلها تدور حول تنظيم أوربا الجديد من الوجهتين السياسية والاجتماعية، وحول تطور المجتمع الأوربي القديم، وفشل الديمقراطية في حشد الشباب، وخصومة الشباب للنظم الرأسمالية والشيوعية معا. وسر هذه النزعة نحو النظم الاقتصادية القائمة، هو أن معظم شباب ما بعد الحرب من اسر فقيرة ومتوسطة؛ وهو يشعر بأنه ضحية إغراق النظم الرأسمالية في استثمار

الطبقات العاملة، ويشهد من جهة أخرى أخطار الشيوعية ووسائلها المخربة، فهو يرغب عن النظامين، ويطمح إلى نوع من الاشتراكية المعتدلة؛ وأحياناً يرى مثله الأعلى في الفاشستية، وأحياناً في الاشتراكية الوطنية؛ غير أن الفاشستية والاشتراكية الوطنية لم تتمخضا بعد عن مثل هذا النظام الاجتماعي والاقتصادي الذي ينشده الشباب. ومن الغريب أن هذه الحركات الطاغية قد استطاعت أن تستعبد هذا الشباب الطموح المتوثب وأحيانا بالوعود الخلابة، أحياناً بالمنح المتواضعة في ميدان الكسب والعمل، ولكنها تعمد بنوع خاص إلى كسبه بالملق، فتصوره دائما بأنه كل شي في حياة البلاد، وانه صاحب السلطان المطلق في شئونها، وتمنحه من اجل ذلك بعض المناصب الرئيسية، ثم تسيره من ورائها وفق مشيتها، مصوره إياه بأنه هو الذي يقود نفسه بنفسه، على يد زعمائه الشبان.

ومن الحق أن نقول إن هذه الحركات الطاغية - الفاشستية والوطنية الاشتراكية والكمالية - كان لها مع ذلك في تكوين الشباب من بعض النواحي الخلقية والقومية آثار حسنة، تدعو أحياناً إلى الإعجاب، فهي فضلا عن العناية بتكوينه من الوجهة الرياضية والعسكرية، والسهر بذلك على رعايته الجسمية والصحية، تعني عناية خاصة بصقل رجولته وتقوية

خلاله ومبادئه الأخلاقية، وتعويده على الحياة الخشنة العملية، وتدريبه على احتمال المشاق، والاعتماد على النفس، فهي تنشئه من هذه الناحية نشأة إسبارطية حسنة؛ وأما من الوجهة القومية فان لها كل الفضل في جعله جنديا متحمسا من جنود الوطن، فهي تحشده باسم الوطن أولاً وتذكي في نفسه حب الوطن وكل ما يتصل به، تاريخه وماضيه، ومدينته، وربوعه، وخواصه، ثم تبعث إليه حب المثل القومية التي تجيش بها الزعامة السياسية وتدخره لتحقيقها، وتذكي في نفسه العزة القومية إلى أقصى حدودها؛ وتحميه من أخطار المبادئ الشيوعية والثورية الهدامة، أو بعبارة أخرى تتخذه درعا لحمايتها منها. ولا يستطيع منصف أن ينكر ما لهذه التربية الأخلاقية والقومية من المزايا البديعة. على أن هذه الحركات تذهب أحياناً إلى حدود بعيدة، وتركب متن الإغراق في تصوير العواطف والغايات القومية، ففي ألمانيا مثلا تبث الاشتراكية الوطنية في نفوس الشباب نزعة قومية مغرقة تذهب إلى حد الأحقاد الجنسية؛ وشعار الاشتراكية الوطنية (الهتلرية) في هذه الناحية أن الجنس الألماني هو خير الأجناس البشرية، وانه يتفوق عليها جميعا بمواهبه وخواصه، وتستتر الوطنية الاشتراكية وراء التفرقة بين الأجناس الآرية والسامية، وتعلم الشباب والشعب الألماني جميعا أن الجنس الآري (ويجب أن نقرا دائما الجنس الألماني) هو اجدر الأجناس بإنشاء المدنيات، وان الشعوب السامية والآسيوية كلها شعوب هدامة للحضارة يجب أن تستعبد وان تستغل لمصلحة المدنية الآرية والجنس الآري؛ وتنظر الشبيبة الألمانية اليوم إلى جميع أمم العالم من عل وتتوغل في الأحلام المغرقة، وكان من آثار هذه المبادئ المغرقة التي تبثها زعامة محدثة متطرفة لا تتمتع بشي من المواهب الممتازة أن وقعت تلك الحوادث والمناظر الدموية المثيرة في ألمانيا باسم خصومة السامية ومطاردة اليهودية؛ ومن الأسف أن هذه المبادئ المغرقة تهيمن اليوم على الثقافة الألمانية كلها. وقد شهدنا بأنفسنا آثار الفاشستية في إيطاليا واثار الثورة الكمالية في تركيا، فأما في إيطاليا فان الفاشستية تغذي العاطفة القومية بقوة، ولكن في نوع من الرزانة وحسن التوجيه. وقد تحمل الشبيبة الإيطالية بعيدا في كبريائها وأحلامها، بل تذهب أحياناً إلى حد التعصب والخشونة، ولكنها لم تذهب قط إلى تلك الحدود المغرقة التي انتهت إليها الوطنية الاشتراكية في ألمانيا. وتتجه الشبيبة الإيطالية اليوم ببصرها إلى ماضي إيطاليا المجيد،

إلى مجد روما ومجد القياصرة، فتتصور بعث الدولة الرومانية بكثير من حدودها وأملاكها القديمة، وتتجه أيضا إلى إحياء الفضائل والخلال الرومانية القديمة؛ وهي اليوم افضل مما كانت عليه بكثير من حيث الأخلاق والهمم والثقافة. وأما في تركيا فان العاطفة القومية تبلغ بالشباب حد التعصب الأعمى، ومع أن الشبيبة التركية لا تتمتع بدرجة محترمة من التعليم والثقافة، فإنها مع ذلك شديدةالكبرياء والغطرسة تتصور أنها سيدة الشباب في العالم كله، وأنها على حداثة عهدها بالمدنية الأوربية وضالة ثقافتها تضارع أرقى شباب أوربا ذكاء وثقافة ومدنية، وليس هذا بغريب في بلد يدعي

زعماؤه انه هو مهد الحضارات البشرية، وان لغته (أي التركية) هي اصل اللغات البشرية، ويحسبون أن ما اسبغ على تركيا الجمهورية في أعوامها القلائل من قشور المدنية الأوربية يكفي لوضعها إلى جانب اعظم الأمم رقيا وحضارة.

هذا وأما عن حركات الشباب في الأمم الإسلامية والعربية فلا نستطيع أن نبسط القول، ومن الأسف انه لم تنتظم في أممنا الإسلامية والعربية حركات منظمة قوية من الشبيبة. نعم قام الشباب في مصر وفي البلدان العربية بحركات متقطعة، واشتركوا في الحركات القومية، وكان لهم فيها يوم قيامها اكبر الأثر. ولكن هذا العمل القومي لم يكن منظما ولا مستمرا، ولم تدعمه من الناحية الأخرى تلك المزايا القومية والأخلاقية التي ننشدها. ومن الأسف أيضاً أن شباب الشرق يتأثر من آن لآخر بنزعات الشبيبة الأوربية، فيحاول أن يقلدها تقليدا أعمى. مثال ذلك ما أذيع من أن شباب بعض البلدان العربية يحاول أن يقتبس من مبادئ الحركة الهتلرية، مع أن الحركة الهتلرية هي من اشد الحركات الحديثة نزعة إلى الاستعمار، وابلغها عداوة للحرية، واشدها احتقارا للأمم الشرقية؛ فمن الواجب على شبابنا أن يسترشد في حركاته وأمانيه بالظروف المحلية والغايات القومية قبل كل شي، ومن الواجب أن يعمل ولكن في روية واستنارة؛ ومن الواجب أن يسترشد دائما بمحن الوطن وماضيه المجيد في تغذية العاطفة القومية، وأن يكون شعاره العمل الرزين المنظم في سبيل الأماني القومية.

محمد عبد الله عنان المحامي

الناي السحرية

للأستاذ بشير الشريقي المحامي

حين قدم موزار (1756 - 1791) الناي السحرية للجمهور لم تلق ما تستحق من نجاح. ويقال إن مدير الجوقة الموسيقية لأول مرة ظهرت فيها الناي السحرية، وبعد أن هدأت عاصفة التهليل، تسلل إلى موزار وكان يشرف على الإخراج، وقبل يده، فربت موزار على رأسه، لنا أن نذهب من ذلك إلى أن المدير قد فهم ما عنته الموسيقى، وان موزار أدرك أن المدير قد فهمها. كلاهما لم يستطع وضعها في كلمات رواية غنائية وهي في الواقع لم تكن مثبتة في كلمات؛ وما كانت كلمات الرواية الغنائية لتحول دون إدراك المعاني الموسيقية لو لم يتساءل النظارة عن معاني تلك الكلمات. لقد نجحت الناي السحرية بعد موت موزار؛ وسبب هذا النجاح ولا شك أن النظارة لم يعودوا يتساءلون عن معاني كلمات الرواية وأدركوا شيئا من معاني الموسيقى.

كلمات الناي السحرية هي عناوين لموضوعات ضخمة، ونحن نمر خلالها بسرعة إلى موسيقى بابا كينو الواضحة، ولكنا سوف نضيع ذلك الوضوح إن نحن سعينا إليه عن طريق الكلمات أو نشدنا موضوع الرواية في هذه الكلمات. إن حوادث الرواية ليس لها ارتباط بالكلمات بعضها ببعض، كما أن منطق الرواية كله في الموسيقى التي تخلق عالما تقع فيه الحوادث عفوا، عالما تصدر فيه النغمة عن أختها أو تنعكس عنها كما تنعكس قوى الطبيعة أو أفكار الرجل؛ هذا العالم هو الكون كما يراه موزار، والرواية بكاملها هي إيضاح لأيمانه الخاص. وعلى هذا فهي بذاتها عمل ديني وان كانت سليمة مما نجده في الدين من مسائل مبهمة وورع جبان. لقد عاش موزار في هذا العالم أشبه ما يكون بملك همه أن يضحك، ولكن بلا أذى ولا حقد، همه أن يضحك من شقاء بني الإنسان، وشر المصائب ما يضحك. وكان يعطف حتى على الفجار (انهم أطفال خبثاء يمكن لمن عنده سر السحر أن يجعل منه أهل خير وصلاح) وفي الناي السحرية يعمل السحر، انه يعمل في الناي نفسها، وفي قيثار بابا كينو. عند موزار سر الموسيقى، وقد بلغ من جهل العالم بحكمته أن حسبه مجرد شحاذ يعزف بأنغامه في الشوارع؛ وبعد جيل اصبح الناس يذكرونه كلما ذكروا الأنغام، وأصبح الشعب ينظر إليه كما ينظر إلى سوسن الحقل؛ ولا تزال الناي السحرية إلى اليوم اكثر من رواية غنائية عادية ذات أنغام وأسلوب بسيط قديم، يمكنك أن تتمتع بها على كل حال إذا لم تقف إزائها موقف المتهيب؛ يمكنك أن تنعم بها كما تنعم (بهملت) تلك الرواية المشجية؛ وهي مثل (هملت) تحوي معاني دقيقة بعيدة، معاني لا تدركها أفهامنا. إن بابا كينو صورة مجازية؛ ولكنها من اعظم الصور في جميع روايات العالم؛ انه كل شخص كما كان (هملت)، وإذا كنا نملك مهارة معرفة أنفسنا وجد فيه كلا منافسه؛ وبكلمة أخرى انه ذلك العامل المستولي علينا والذي نحبه في أنفسنا

ونحتقره في الآخرين؛ انه ذلك العامل الذي لا نعترف به للحظه، إلا وهو عامل الخوف والاعتزاز والكذب.

قدم موزار إغانيه لسارسترو وبابا كينو، حتى إذا أخذا في الغناء أحسسنا كانا نشاركهما غناءهما، وأي غناء؟! غناء ليس فوق مقدرة فهمنا ولا سرورنا؛ غناء الملاك الذي تعلم لساننا الأرضي وادخل عليه الإصلاح أقام بذلك سماء على الأرض؛ سماء لا تبعد عنا ولا تصعب علينا؛ سماء من غابة مقفرة نقدر فيها أن نضحك بقدر ما نقدر ان نغني؛ سماء تضحك فيها الملائكة منا وتضحك معنا؛ وفي هذا الفردوس الذي خلقه لنا موزار سرعان ما يتحول جلال الموسيقى إلى هزل، وسرعان ما تعود الموسيقى إلى جلالها، وهذا التبدل يظهر دائما طبيعيا. ذلك هو عقل موزار الذي رماه الشعب بالطيش لسبب واحد هو انه وقد أوجد في سمائه مكانا لكل شي لم يوجد مكانا لمجد سليمان المتبذل، أو للعنف والبشاعة والبلادة، لا يوجد في الفن أبداً ما هو اعمق أو اجمل من أصول موسيقى سارسترو. لقد بلغ من وضوح عقيدة موزار أنها تبدو وكأنها ليست بعقيدة وإنما هي مجرد بهاء، مثلها في ذلك مثل القديسين الحقيقيين الذين يبدو عليهم انهم ليسوا من أهل الصلاح بل من أهل الفتون.

وهنالك من الناس من لا يجد في جمال موزار فنا، وسبب ذلك أن جماله جمال حق. هم يحسبون انه احتال على هذا الجمال احتيالا؛ انهم ينشدون صرير الجهود، وينشدون الأنانية؛ لقد بلغ من نقاء جهوده ومن كثرتها أن حسبوها رخيصة لا ترضي إلا العوام.

يصعب علينا أن نشاهد الناي السحرية تمثل تمثيلا مرضيا على مسرح اليوم، ولكنا برغم ذلك سنسر ولا ريب من أي تمثيل لهذه الرواية التي حوت روح الموسيقى، والتي يمكن للمرء أن يرى منها كيف تكون الناي السحرية؛ لقد بلغ من رقة موسيقاها ورقة أنغامها أنها تقدر أن تجدد موسيقى هذه الأيام المسرحية الغريبة.

يمكننا أن نصف تامينو وبانينا كما نصف احسن صور في مجمع فني، وان نتخذ كلا منهما مثالا لأبطال الروايات الغنائية وبطلاتها في كل عصر ومصر، بلى قد لا تنتسب ثيابهما لعالم الحقيقة أو الفن، وقد تعرض نماذج مصطنعة ومنمقة، ولكن الموسيقى تلطف من ذلك وتساعد كل شخص على أن يقوم بدوره احسن قيام. من الواضح أن موسيقى الناي السحرية تجلب السرور وتوافق أولئك الذين ينشدونها فإذا بهم كأنهم يقومون بعمل ديني اكثر مما لو كانوا يقومون بعمل مسرحي، وانك اكثر ما تشعر بذلك عند انسجام الأنغام حينما يتراءى لك أن ريح الفردوس تهب على جميع المغنين فيتمايلون لها تمايل الأزهار بالرغم من ثيابهم الكثيفة. ولكن الناي السحرية مفتقرة إلى عالم متجانس في النظر كما هو متجانس في السمع حتى تظهر بمظهر كامل مرض، ولهذا فنحن أحوج ما نكون لفترة إصلاح تتناول كل عاداتنا المسرحية؛ نضرب لذلك مثلا سارسترو، انه يعيش بين مناظر مصرية، على حين إن هذا العالم المصري لا يناسب الموسيقى وهو يعني لدينا أعاجيب القاعة المصرية، ولكن هنالك عالما مفردا يناسب الموسيقى كل المناسبة، عالما تستطيع أن تمر فيه من العبث إلى الجمال مرورا طبيعيا؛ وفيه تكاد تكون جميع الصور متناسبة وواضحة، ذلك العالم هو العالم الصيني كما عرفناه في الفن الصيني حيث يوجد في هذا الفن الخيال الروحي والهزل البهي؛ حيث يوجد في هذا الفن مزيج من طفولة وقداسة يوحي إلى العين ما تحويه موسيقى موزار إلى الأذن؛ وفي الفن الصيني فقط يقدر بابا كينو أن يكون قديسا: في ذلك العالم فقط تعيش روح موزار بضحكتها وحكمتها، وكأنها في بيتها؛ في هذا العالم تساوت الأزهار وجميع الحيوانات في الخطر مع جنس الإنسان، في هذا العالم يظهر الأفعى والثعبان وكأن كلا منهما مصنوع من ورق مقوى؛ في هذا العالم لا يظهر السحر انه مجرد تعاويذ؛ في هذا العالم يمكن للمرء أن يقع على مناظر طبيعية وصور جميلة؛ وفيه لا يكون سارسترو ساحرا مسرحيا بل كاهنا كنسيا.

في الحق إن الفن الصيني هو عالم الناي السحرية حيث تتدلى الأجراس الفضية من كل شجرة مزهرة، وتزدحم الحدائق بالبلابل الساحرة؛ هو عالم الحماسة والتأمل، حيث يجلس الحكيم في السرادق في ضوء القمر، ويبتسم ابتسام عاشق، وحيث يبتسم العشاق كالحكماء. حيث يوحي كل شي للعين ما توحيه موسيقى موزار للأذن. وفي العالم الصيني يمكننا أن

نتجنب كل تشدق في الغزل الشهواني اعتاد أن يلفظ به المسرح الحديث؛ كما يمكننا أن نخضع أنانية أوربا الثقيلة للشرق المنكر لذاته.

لقد تمرس موزار بالألم، ولكنه لم ينغمس في؛ انه يعني بجمال العالم اكثر مما يعنى بجمال نفسه؛ عنده أن الشر من عمل الشياطين الذين تقدر الموسيقى على طرد أرواحهم.

لقد كان موزار اورفيوس هذا العالم الذي يستطيع إن نحن أصغينا إليه أن يذلل الحيوانية الكامنة فينا جميعا؛ ومع ذلك فان أقصى وقاره ومنتهى سر جماله إنما هو في رحمته التي وسعت كل شي؛ وهو حين يترحم علينا أو على نفسه لا يأخذه البكاء، بليطلب إلينا أن نجفف دموعنا وان نكون من الصالحين، وان نصغي لنايه السحرية.

وهذا الحنان الذي ينبعث من أصواته خلال الناي السحرية يبعث في الناي السحرية جمالاً وهزة وعجبا، لا يمكن أن تبعثها أية عاطفة إنسانية. سارسترو ليس بساحر، إن هو إلا قسيس، لأن فيه حكمة الرحمة المحببة، ولأنه خصص مكانا في فردوسه لبابا كينو ابن الطبيعة يلهو فيه مع صاحبته بابا كينا. مرت ببابا كينو وهو في فردوس سارسترو الموحش لحظة فكر فيها أن يشنق نفسه، لأنه لم يجد من يشاطره الحب، ولكنه لا يكاد يضع حبل المشنقة على عنقه حتى تسمع في الموسيقى قهقهة تنبئك انه يتململ من حبل المشنقة؛ ولكن سرعان ما تقدم إليه بابا كيناوسرعان ما يعود إلى الفردوس انسه، ويأخذ الاثنان في غناء دورهما في نهاية الرواية.

نحن على يقين بان عدالة الناي السحرية قضت ببراءة ملكة الليل؛ والزنجي البشع وجميع معاونيه؛ لم يعاقب منهم احد؛ لقد شقوا لغير ما سبب؛ فجاءوا نادمين مستغفرين؛ وهكذا تنتصر الناي السحرية على شرورهم وشقاواتهم، فتدق الأجراس الفضية من كل شجرة؛ وتغني البلابل غناء يخلب الألباب، ويبتسم الحكماء والمحبون ابتسامة الأطفال، فتدخل ابتساماتهم دخولا طبيعيا في دين موزار المقدس؛ هذا الدين المهيب الذي تالف فيه الابتسام والعبوس، ولم يتنافرا تنافرهما على الأرض.

بشير الشريقي المحامي

خيال الشاعر بين الطبع والصنعة

للأستاذ عبد العزيز البشري

لعل من الفضول أن يقول قائل: إن الشاعر يتكئ اكثر ما يتكئ في فنه على الخيال. أما العالم فوجهه كله إلى الحقائق مادية كانت أو معنوية، ذاتية كانت أو نسبية. نعم لقد يكون هذا من فضول الكلام إذا قرر لذاته. ولكنه يرتفع عن هذا الموضع إذا سيق لتوجيه بعض القضايا التي قد تدق على كثير أو على قليل من الإفهام. ولعل الموضوع الذي نعالجه اليوم من هذا الطراز.

وبعد، فإذا كان شعر الشاعر إنما يتكئ اكثر ما يتكئ على الخيال، فاعلم أن هذا الخيال مهما غلا، ومهما حلق وارتفع، ومهما استحدث واخترع، ومهما لون من الألوان وشكل من الأشكال - فانه مستمد في تصرفه جميعه من الحقائق الواقعة. مبتدئ لابد بها، منته لا مفر في الغاية أيليها. فمن الحقائق الواقعة مادته، وهي مستعارة في كل ما سَّوى وفي كل ما صوَّر وشكَّل ولوَّن.

وذلك بان الإنسان مهما رزق من شدة العقل وأوتي من قوة الخيال، لا يستطيع أن يتصور شيئاً لم يقع عليه حسه. وكيف له بهذا والحس وحده هو السبيل لا سبيل غيره إلى إدراك الإنسان، والى إدراك الحيوان. فدنيا الحيوان هي ما يحيط به ويشهده في مضطربة لا اكثر؛ ودنيا الإنسان في الواقع، هي ما يرى وما يسمع، وما يدرك من الحقائق بسائر الحواس الأخرى، وليس يعدو العلم من طريق القراءة حاستي السمع والبصر. بل إن هذا الإنسان نفسه لو قد كفَّ من أول مولده في محبس لما قدَّر أن دنياه شي غير ما هو فيه، وما يتصل من الأسباب بما هو فيه، ولقد يعمد ذهنه إلى التقصي، ولقد يتبسط في القياس، ولقد يذهب في إدراك ما لم يشهد إلى قريب أو إلى بعيد، ولكنه في النهاية لن يقع على جديد لا يتصل بمحيطه، ولا يرتبط بأسبابه.

لك الحق بعد هذا الكلام أن توجه هذا السؤال: إذا كان الخيال لا يمكن أن يعدو الواقع الذي يدركه الحس. فما الفرق بينه وبين الحقيقة؟ أو ما الفرق بين أخيلة الشعراء وبين حقائق العلماء؟

لقد توجه، بادئ الرأي، هذا السؤال، على انك لو فكرت وتدبرت لبان لك الفرق بينهما دون
جهد في التفكير والتدبير: فالعالم إنما يطلب الحقيقة كما هي، سواء أكان ذلك بأخذها كما قررها مقرروها، أو باستظهارها، أو باستكشافها، أو نحو ذلك من وسائل إصابتها والتهدي إليها. أما الخيال فانه يعمد إلى الحقائق الواقعة فيتناولها بالتأليف والتلفيق، ويأخذها بالتشكيل والتلوين، حتى تستوي له منها صورة توائم في قوتها وروعتها وتناسقها حظ مسويها من قوة التخييل، وجودة الصنعة، ودقة الذوق، والعكس في العكس.

فقد بان لك أن الصورة المتخيلة مهما غلا فيها صاحبها واطرف، ومهماابعد بها عما طالعة الفكر، فإنها مشكلة من حقيقة واقعة، أو ملفقة من حقائق واقعة. ولست أصيب مثلاً لتوضيح هذا الكلام احسن مما أجراه أصحاب المنطق من التمثيل للممكن العقلي (المستحيل الوقوعي) بقيام جبل من الذهب، وتموج بحر من الزئبق. فذلك وان كان غير واقع بالفعل، إلا أنه مما يمكن إيقاعه في الذهن بالتلفيق والتشكيل: فالجبل موجود والذهب موجود. والبحر كائن والزئبق كائن. وكل سعى الخيال في تجلية مثل هذه الصورة هو استعارة هذا المعدن لذلك الجرم، فيكون جبل الذهب، ويكون بحر الزئبق.

كذلك تستطيع أن تفرق بين الشاعر والعالم، بأن الشاعر في الجملة، مُعطٍ، أما العالم، في الجملة، فاخذ: الشاعر يبتكر ويستحدث بقلب الحقائق، والتلفيقبينهما، وإفراغها في غير صورها، وتلوينها بغير ألوانها. أما العالم فابلغ جهده في تلقي الحقائق. فإذا كان فيها استحداث أو ابتكار فبمجرد الانتفاع بما انكشف له فيها من الآثار، وما جلى عليه من مكنون الأسرار.

ولقد علمت أن الشاعر إنما يتكئ في فنه اكثر ما يتكئ على الخيال، حتى لقد ذهب اكثر النقدة إلى انه ليس شعراً ذلك الكلام الذي يجري في الحقائق المجردة، وان كان مقفى موزوناً. ولقد عرفت اثر الخيال في تلفيق الحقائق وتزييفها، وطبعها على غير صورها الواقعة. لهذا نفى الله تعالى أن يكون كتابة الحكيم شعراً، ونفى أن يكون رسوله الكريم شاعراً: (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ). (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ، إن هُوَ إلا ذِكرٌ وَقُرْءانٌ مُبينٌ) يرد جل مجده بهذا وبغيره دعوى الكفار من أن القران شعر، على معنى انه من تلفيق الخيال وتزييفه، كما رد دعواهم بأنه سحر، والسحر ما يواري حقائق الأشياء، ويجلوها على صور تتمثل للأوهام بخداع الأسماع والأبصار: (سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ).

إنما الكتاب كله حق وصدق ومنطق صحيح (لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكيمٍ حَميدٍ). (إِنْ هُوَ إلا ذِكْرٌ وَقُرْءانٌ مُبينٌ). وهذا هو الأليق بحجة الرسالة، وآيات الله المُعلِمة على طريق الهدى وعلى طريق الضلالة.

ومن البديه أن الشعراء لا يطلقون أخيلتهم في فنون المعاني لمجرد العبث بقلب الأوضاع، ومسخ الأشكال، والتلفيق بين الحقائق. إنما الغاية أن تجلو عليك هذه الأخيلة صوراً طريفة بديعة لهذا الذي أدركته من الواقع، أو تترجم لك عما يدق عن فهمك من معانيه ومغازيه، او تكمل لك وتبسط بين يديك ما ترى أن الطبيعة قد قصرت فيه وانقبضت دون حبكه وتسويته، ونحو هذا مما يرهف الحس، ويمتع النفس بمطالعة صورة من صور الجمال الفني في أي وضع من أوضاعه، وعلى أي شكل من أشكاله.

ولا شك في أن أبدع هذه الصور وأروعها، وأذكاها للحس، وأجملها موقعاً من النفس، هي أدقها حبكاً، واحكمها سبكاً، حتى إذا طالعتها التبست عليك بالحقيقة، أو إنها لتكاد. وهنا تتفاوت منازل الشعر بتفاوت الشعراء في قوة التخيل، ورهافة الحس، ودقة الصياغة، وبراعة الأداء.

وفي هذا المقام يجمل أن نوضح معنى لعله يحتاج عند الكثير إلى التوضيح. قال المتقدمون: إن أعذب الشعر أكذبه. وهذا كلام صحيح إذا اتجه على أن أعذب الشعر ما كان من نسج الأخيلة لا ما وقع على مجرد تقرير الحقائق الثابتة. ولكننا إذا تحولنا بالنظر إلى ناحية أخرى من نواحي هذا الموضوع لرأينا كذلك أن أعذب الشعر اصدقه: ولسنا نعني بالصدق هنا المطابقة للواقع، على تعريف أصحاب المنطق، وإنما نريد به

الصدق في الترجمة عن شعور الشاعر. فأعذب الشعر في الواقع هو الذي ينفض عليك ما يعتلج في نفس الشاعر، وما يتمثل لحسه في إدراكه للأشياء.
ولا يذهب عنك أننا نحن سواد الناس تعرض لنا الأشياء فندركها، في الغالب، كما هي ماثلة لأعياننا أو لأذهاننا. وهذا الإدراك لا يتعدى ظاهر الصور، أما الشاعر، أعنى به من يستحق هذا الاسم، فله نظرة نافذة في مطاوي كثير من الأشياء، تسلكها دقة حسه، وهنا يتقدم خياله السري فيسوي منها صورة جميلة بارعة. فإذا واتته قدرة النظم، فاداها كما
أدركها، وجلاها كما تمثلت له، خرجت على حظ من الإحسان والإجمال يوائم حظه من قوة الخيال، ودقة الذوق، وحسن الأداء.
والشعر الذي تتوافر له هذه الخلال هو الشعر الذي يروعك، ويصقل حسك، وقد يغمز كبدك، لان الشاعر قد رفعك به إلى نفسه، فأشهدك ما لم تكن تشهد، وكشف لك من دقائق الأشياء عما لم تكن ترى، وبعث عاطفتك فحلقت في عالم الروح كل محلق، وترقرقت في سرحات الجمال كل مترقرق.
وأعود فأقول لك: إن الصورة الشعرية، في هذه الحالة، وان كانت خيالاً في خيال، إلا أنها لقوة موقعها، ودقة صنعها تشبه عندك الصور الواقعة؛ بل لقد تلتبس عليك بالحقائق الثابتة. وكيف لا يكون لها في نفسك هذا الأثر، وهي نفسها قد تمثلت لأدراك الشاعر واضحة سوية، في غير تعسر ولا تعمل، فنفضها في الشعر عليك كما تراءت لذهنه، وتمثلت لحسه.
أرجو أن يكون قد صح عندك الآن إن أعذب الشعر، من هذه الناحية، اصدقه لا أكذبه.
الصناعة الشعرية
ولست أعني بالصناعة هنا إلا صناعة الخيال. فانه إذا كانت الصناعات البديعية، لفظية وغير لفظية، قد ساءت إلى الشعر العربي إساءة بالغة، فان الصنعة الخيالية لقد كانت في الإساءة اشد وابلغ. وتلك أن الشاعر أو من يتصدى لقرض الشعر، على العموم، لا يشعر شيئاً ولا ينفذ حسه إلى شيء. فيبعث خيالة من مجثمه، ويستكرهه استكراها على أن يصنع له صورة شعرية، فيمشى متعثراً هاهنا وهاهنا في الارتصاد لما عسى أن يسنح له من المعاني واقعة حيث وقعت. حتى إذا لاح له شبحها شكها ولو لم يتبين شخصها. ثم جعل يعالجها بالترويض والتذليل، ويضيف إليها ما ظنه من جنسها، أو ما حسبه مما يلابسها. ويطبع من هذه الامشاج صورة شعرية (والسلام)، صورة لا الشاعر أحسها من أول الأمر أو تذوقها، ولا من يقرؤه شعر بالألف لها، أو ذكا حسه بها.
وهذا الخيال المصنوع المتعمل المجهود به ليس من الشعر في كثير، وهذا على ارفق تعبير. بل انه لأشبه بصنعة النجار أو الحداد في بسائط المصنوعات. بل انه كثيراً ما تخرج الصورة الشعرية ملتوية شائهة، تخفي معارف وجهها على ناظمها فكيف بقارئيه؟
وعلى عيني أن أقول إن شيئاً من هذا يقع في بعض ما نقرؤه من شعر هذه الأيام!.
ودعنا من الحديث الآن حتى نفرغ من شان القديم. وخبرني بعيشك أي شيء هذا الذي ساقه علماء البلاغة شاهداً على حسن التعليل!.
لو لم تكن نيةُ الجوزاء خِدمتَه ... لما رأيتَ عليها عِقد منتطق
وقول الآخر في هذا الباب أيضاً:
لم تحكِ نائِلكَ السحابُ وإنّما ... حُمَّت به فَصيبِها الرُّحضاءُ
اللهم افكان من السائغ في الذوق أو في الخيال أن نظرة الشاعر للجوزاء تحيط بها دقاق النجوم لم تلهمه إلا إنها إنما تمنطقت لتقوم على خدمة ممدوحه؟
وهل كان من السائغ أن نظرة ثاني الشاعرين في السحاب وهي تهمي، لم تشعره إلا أنها غارت من كرم ممدوحه لقصورها عن مجاراته، فأخذتها الحمى، فلم يكن ما تسح به إلا من عرقها!
اللهم اشهد أن هذا وهذا كلام بارد مليخ، وهذا وهذا من الخيال الفسل السخيف!.
وبعد، فهذه فسولة الكلام وسخفه إنما ترجع في قرض الشعر في الجملة، إلى أحد شيئين: إما لان الناظم لا طبع له ولا شاعرية فيه، فهو يتصيد الخيال تصيداً ويصنعه صنعاً، ليجئ بنحو ما يجئ به الشعراء، وأما للرغبة في شدة المبالغة، والإيفاء على الغاية من المديح ونحوه، فيسف الشاعر ويسخف، ويأتي بمثل هذا الهذيان الذي أتى

به ذانك الشاعران. إلى أن طبيعة هذه الموضوعات ليس فيها مجال عريض لشعور صحيح، ولا لخيال واضح صريح. والحمد لله الذي عفى على كثير من هذا الأدب في العصر الذي نعيش فيه. والنظر، بعد هذا، كيف يقول زهير بن أبي سلمى في مدح هرم بن سنان ووصف كرمه، وكيف، على انه غلا في ذلك اشد الغلو، أتى لهذا الكرم بصورة قوية مسبوكة سائغة.

قد احدث المبتغون الخير من هرم ... والسالكون إلى أبوابه طرقاً

من يلق يوماً على علاته هرما ... يلق السماحة منه والندى خلقاً

وذلك لان يوماً ممدوحه كان جواداً حقاً، وانه هو تأثير بشدة جودهحقاً، وهو إلى هذا شاعر فحل، خصب الذهن سري الخيال، فلم يتعمل ولم يتعسف، بل لقد أنتضح شعره بالصورة التي جادت بها شاعر يته فجاءت، على إمعانها في الغلو، سائغة مسبوكة لا نشوز فيها على

الأذواق. وهذا هو الفرق بين الخيال المطبوع، وبين الخيال المصنوع.

ولقد عرض ذكر الذوق في بعض هذا الحديث. وللذوق محله غير المنكور في الشعر وفي غير الشعر. ولقد كان ينبغي أن نفصل القول فيه بعض التفصيل لولا أن طال بنا الكلام. فلنرجئ هذا إلى مقال آخر.

عبد العزيز البشيري

بين فن التاريخ وفن الحرب

خالد بن الوليد في حروب الردة

للفريق طه باشا الهاشمي

رئيس أركان حرب الجيش العراقي

لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما في بدني شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة، وهاأنذا (أموت على فراشي كما يموت البعير! فلا نامت أعين الجبناء)

خالد بن الوليد

يعد خالد بن الوليد من اكبر قادة العرب في عهد الفتوح الأولى، وهو بلا منازع من أفذاذ الرجال الذين حالفهم النصر ووأيدهم الظفر في الممامع والحروب بلا استثناء.

ولم يذكر قط له التاريخ وقعة خسر فيها المعركة وهو قائدها، حتى في معركة موته التي وقعت في السنة الثانية للهجرة في شرقي الأردن بين الطفيلة والكرك، أنقذ خالد المسلمين ببطولته وإقدامه، برغم تفوق الأعداء الأكيد وموت الذين تولوا القيادة على التعاقب عملا بوصايا الرسول. وفي غزوة أحد كان خالد يقود خيالة قريش فبقى في الميمنة يشاغل ربيئة المسلمين الموفدة لحماية الميسرة بالهجوم عليها من حين إلى آخر، ويراقب سير القتال بين المسلمين وقريش إلى أن رأى ربيئة المسلمين تركت موقعها وسارعت للاشتراك في الغنيمة. فهجم بخيالته ملتفا وراء المسلمين وقاطعا عليهم خط الرجعة، فقلب نصر المسلمين إلى انكسار انتهى إلى انهزام المسلمين وجرح الرسول.

قلنا من الوقائع التي اشترك فيها خالد بن الوليد في عهد إشراكه وإسلامه أن تلك الوقائع جميعا انتهت إلى النصر المبين.

ومما لا شك فيه أن خالدا من اقدر قواد العرب على القيادة. فجدير بالضباط أن يدرسوا حركاته إن في حروب الردة أو في فتح العراق أو فتح سوريه. ومن الواضح انهم سيطلعون على الأسس القويمة التي كان يسير عليها ويرون فيها تنفيذ مبادئ الحرب التي لا تزال مرعيه حتى يومنا هذا.

ولقد قال خالد قبل وفاته انه شهد مائه زحف أو زهاءها، وما في بدنه موضع شبر إلا وفيه

ضربة أو طعنة. ولا نبالغ إذا قلنا انه خرج من تلك الزحوف بأجمعها غالبا منصورا.

1 - مصادر البحث:

من العسير جدا البحث في أخبار الفتوح الأولى بحثا يمكننا من الاطلاع على الخطط العسكرية والأسباب التي أدت إلى وضعها والنتائج التي أسفرت عنها الحركات. ذلك لان القصاصين أو مدوني السير والمغازي أو مؤرخي الفتوح ليسوا من أبناء الجيل الفاتح، فقد دونوا الأخبار بالسماع أو نقلاً بالإسناد. وقد نراهم غير متفقين في تدوينهم الأخبار على التاريخ والمكان اللذين وقعت فيهما المعركة، ولا على مقدار القوة التي

اشتركت فيها، ومن المعارك ما لم يتفق المؤرخون على زمن وقوعها. والحقيقة أن التاريخ العسكري يثبت المعارك التي جرت قبل الميلاد بمقدماتها ونتائجها وتفاصيلها، وقد يستخرج منها الباحث الأسس الحربية دون عناء.

فالمعارك التي نشبت بين الجيش المكدوني بقيادة الاسكندر والجيش الفارسي في نهاية القرن الرابع قبل الميلاد تم تدوينها بصورة اقرب إلى الصحة من الوقائع التي نحن بصددها.

أما المعارك التي جرت بين الجيوش الرومانية وجيوش الأقوام المهاجرة، والقتال الذي نشب بين القياصرة والقواد المطالبين بالعرش، فأخبارها مفصلة في كتب التاريخ إلى حد أن الباحث فيها لا يرى مشقة في استقصاء الحوادث.

فمعركة (كانية) التي نشبت سنة 216 قبل الميلاد بين الجيش القرطاجي بقيادة هنبال والجيش الروماني، كانت ولا تزال مثالا ينسج القادة العظام على منواله تعبئة الجيش في ميدان المعركة، وهي بلا منازع معركة نموذجية تتوق نفس كل قائد إلى تقليدها.

والسبب في تدوين أخبار هذه المعارك تدوينا صحيحا مع أنها نشبت قبل الفتوح العربية بعدة قرون، هو أن المؤخرين الذين اثبتوا أخبارها إما أنهم اشتركوا فيها فعلا، وأما انهم قادوها بأنفسهم، وأما انهم عاشوا في زمن وقوعها.

فالقائد زينوفون اليوناني الذي قاد العشرة الآلاف من بلاد بابل إلى اليونان راجعاً بهم إلى بلاده سجل حوادث تلك الرجعة في كتابه (الزحف) (اناباسيس وهذا الكتاب لا يزال مرجعا ثقة للباحثين العسكريين. وكذلك سجل يوليوس قيصر أخبار فتوحه في بلاد جرمانية
في كتاب (الحروب الغالية).

أما المؤرخون العرب الأولون فلم يدونوا أخبار الغزوات النبوية وحروب الردة والفتوح التي تمت في النصف الأول من القرن الهجري إلا بعد انقضاء جيلين على اقل تقدير.

وأول من جمع الوثائق الباحثة في الغزوات والفتوح الأولى عروة بن الزبير المتوفى سنة 94 هجرية. فان عروة جمع تلك الوثائق في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان - أي بعد وفاة الرسول بستين سنة، ودونها دون إسناد. ويلى عروة في التدوين ابن اسحق المتوفى سنة 151 هجرية مقتبسا معلوماته من عروة. أما ابن هشام المؤرخ للسير النبوية فاستقى أخباره من ابن اسحق، مع انه توفي بعده بقرن ونصف قرن - أي سنة 312هـ. ويأتي بعده ابن سعد الواقدي الباحث في حروب الردة والمدون للمفتوح العربية في العراق وفي سورية، وتوفي سنة 230هـ، بعد أن عاش 62 سنة. ويليه المؤرخ المشهور الطبري وهو بلا منازع أول مؤرخ عربي اثبت الأخبار التاريخية بطريقة علمية. وتوفي سنة 310هـ بعد الفتوح العربية الأولى بقرنين ونصف قرن على اقل تقدير.

والحقيقة أن كتاب تاريخ الطبري هو العمدة في استقصاء أخبار الفتوح العربية وهو المرجع الأول والأخير. وهكذا يتضح لك أن رواة الفتوح أو مؤرخيها لم يشتركوا في وقائع الفتوح أو انهم لم يعاصروا أولئك الفاتحين، بل انهم دونوا أخبارها سماعا أو نقلا بعد مرور مدة غير يسيرة على الفتوح. وكان لزاما أن تأتى الأخبار ناقصة ومشوشة ومتناقضة. حتى أمسى الباحث فيها لا يهتدي إلى استنباط بعض الحقائق إلا بشق النفس. والذي يزيد البحث إشكالا كثرة الرواة الذين استند إليهم المؤرخون في تدوين الأخبار. وأنت تراهم يسخون برواية غثها ويبخلون بسميها.

وثمة تناقض بين أخبار الرواة المنتمين إلى الديوان الحجازي والرواة المنتمين إلى الديوان العراقي. وكذلك نجد تناقضا في الروايات التي ينقلها المضري والربيعي واليماني والقيسي، لان كلا من هؤلاء حاول أن ينسب مفخرة الوقعة إلى قبيلته وقد يكون غير مشترك فيها.

2 - دار الحركات

إن الساحة التي جرت فيها الحركات تمتد من سواحل البحر الأحمر في الحجاز وتنتهي في ارض الدهناء التي تفصل مقاطعة الحسا ومقاطعتي العارض والسدير، وهذه الساحة تتناول
شمالي الحجاز وجبل شمر وبلاد نجد.

والأرض التي تتكون منها هذه الساحة صحراوية الوصف على العموم، والمياه فيها

قليلة، والغابات لا اثر لها فيها، وتتخللها واحات نبتت فيها أشجار النخيل وبعض أشجار الفاكهة. وقد تكونت في المنخفضان التي تتصرف إليها مياه الأمطار بسهولة حيث تكثر الآبار الضحلة، وتقطع الوديان هذه الساحة، وتكاد تبدأ جميعا من هضبة نجد المرتفعة فتجري في جهات مختلفة، ويصب بعضها في البحر الأحمر والبعض الآخر في خليج فارس أو في جهة الربع الخالي. والوديان يابسة على العموم وهي ضيقة ووعرة عند اجتيازها المناطق الجبلية وعريضة سهلة عند مرورها بالبادية.

وينبت في بعض أنحائها شجر الأثل والشوك والطلح وغير ذلك من الأشجار التي تتحمل العطش، وعندما تنزل الأمطار تجري إليها المياه من كل جانب فتغطي الوديان سيول المياه الجارفة الجارية بسرعة، وتصب أما في البحر وأما في الانفدة الرملية.

والجبال في المنطقة التي جرت فيها الحركات قليلة. وهي لا تتعدى سلسلة طويق في نجد تمتد من الشمال إلى الجنوب في جبلين متوازيين، ويشرف الجبل الغربي على الانفدة الغربية بين نجد والحجاز. ويشرف الجبل الشرقي على رمال الدهناء الواقعة بين خليج فارس ونجد. والسلسلة جرداء، لا نبت فيها ولا ماء. وفي القسم الجنوبي من منطقة العارض يفصل وادي حنيفة هذين الجبلين أحدهما عن الآخر، فيجري أولا من الشمال إلى الجنوب بعد أن تصب فيه عدة شعب من الشرق والغرب، وفي جنوبي الرياض يغير مجراه إلى الجنوب الشرقي فيصب في رمال الاحقاف.

وما عدا سلسلة طويق نجد سلسلتين أخريين في منطقة جبل شمر وهما جبل اجا وجبل سلمى، وهما موازيان يفصل أحدهما عن الآخر وادي العش. ويمتد كلا الجبلين من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي. وجبل اجر باتصاله بالجبال المنفردة الواقعة في جنوب غربية يكون سلسلة طويلة تمتد إلى حرة خيبر في الحجاز.

والسلسلتان حجريتان ارتفاعهما من 50. إلى 180. متر. والجبال المتفرقة التي تتشعب من هاتين السلسلتين تحيط بها الكثبان الرملية. والبادية الواقعة بين الحجاز وسلسلة طويق متكونة من هضبة مرتفعة يتفاوت ارتفاعها من 100. متر إلى 150. متر، ويكتنفها بعض

الروابي الحجرية المنفردة. وهذه الهضبة تنفصل عن هضبة جبل شمر بوادي الرمة الذي يبدأ من حرة خيبر، ويجري من الغرب إلى الشرق، وبعد ان يسقى بآبار منطقة القصيم الغنية يغير جهته إلى الشمال الشرقي إلى أن يصب في ارض السواد بجوار البصرة.

والوادي هنا اخطر الوديان الواقعة في دار الحركات، وهو يفتح خطوط الحركات بين الحجاز ونجد. وعندما تقطع الوديان وشعابها السلاسل الجبلية تكون العقبات المضائق والمنعطفات التي تنساب فيها الطرق.

والساحة مملوءة بالانفدة الرملية، والكثير منها يتجه من الشمال إلى الجنوب، أو من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقى، لذلك تعترض الوديان الطرق الممتدة من الغرب إلى الشرق.

ومن جملة العوارض التي تتصف بها دار الحركات الحرات، وهي الأراضي البركانية التي تكتنفها الحجارة الخامدة. وهذه الحرات واقعة إلى شرقي الحجاز، وأخطرها حرة خيبر الواقعة في شمالي المدينة مسافة بضع مراحل.

والبقاع الأهلة بالسكان في هذه الساحة هي الواحات في بطن الوديان أو في الأرض المنخفضة التي انصرفت إلى بطنها مياه الأمطار، وأخطرها واحة المدينة في وسط وادي الحمض، ثم واحة بريدة وعنيزة في وسط وادي الرمة. وواحات العارض الممتدة على طوار وادي حنيفة، ثم واحات السدير وواحة خبير وواحات جبل شمر.

وتمتد الطرق في الوديان للاستفادة من المياه المتراكمة فيها في زمن الأمطار من الآبار المحفورة على طوارها. وهذه الطرق تبدا من المدينة، ومنها ما يتجه شمالا، فبعد أن يمر بخيبر يمتد إلى وسط جبل شمر سالكا السفوح الجنوبية لسلسلة اجا، ومنها ما يتجه نحو الشمال الشرقي إلى أن يهبط إلى وادي الرمة فيسلكه حتى يصل إلى واحات نجد الغنية. ولا سبيل إلى السير على خارج الطرق لوعورة الأرض وندرة الماء فيها.

يتبع

طه الهاشمي

2 - الشريف الإدريسي
يضع اقدم وأصح خريطة جغرافية للدنيا القديمة
للأستاذ محمد عبد الله ماضي
عضو بعثة تخليد الإمام محمد عبدة بألمانيا
7 - الإدريسي يضع خريطة بناء على نظريته السابقة.
وبناء على نظرية الإدريسي التي شرحناها وضع خريطته العالمية هذه، فهي تمثل القسم المعمور من الكرة الأرضية وهو القسم الشمالي منها كما قدمنا. هذا القسم يشمل القارات الثلاثة: أفريقية الشمالية في الجهة اليمنى العليا (الجنوب الغربي)، أوربا في الجهة اليمنى السفلى (الشمال الغربي) يفصل بينهما بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط)، واسيا في النصف الشرقي تشمل جميع الجهة اليسرى. وأمريكا طبعا لم تكن عرفت بعد، وكذلك هذا التقسيم إلى القارات الثلاث لم يكن معروفا لدى العرب على الإطلاق، وإنما كانوا يقسمون الكرة الأرضية إلى الأقاليم السبعة من الجنوب إلى الشمال، ثم كل إقليم إلى عشرة أقسام من الغرب إلى الشرق، وفوق هذا كانوا يقسمونها إلى الدول والممالك التي كانت معروفة في ذلك الوقت.
8 - الأقاليم السبعة وخطوط العرض.
والأقاليم السبعة كانت عند قدماء اليونان عبارة عن خطوط أفقية تبتدئ من خط الاستواء نحو الشمال وتحدد النقط التي تتم فيها زيادة النهار نصف ساعة على طوله في المنطقة السابقة من جهة الجنوب، ثم استعمل العرب الأقاليم وأرادوا منها المناطق التي تقع بين هذه الخطوط، وتلك المناطق لم تكن متساوية عندهم. أما الإدريسي فانه أراد من الأقاليم السبعة التي قسم خريطته إليها هذهالمناطق التي كانت معروفة عند العرب، ولكنها عنده متساوية المقدار إذا استثنينا الإقليم الأول الذي يمتد إلى درجة 23 شمال خط الاستواء؛ فالأقاليم الستة الباقية يشمل كل منها ست درجات من درجات العرض، وعليه فالإقليم الثاني من 24 - 29، والثالث من 30 - 35 والرابع من 36 - 41، والخامس من 42 - 47، والسادس من 48 - 53، والسابع من 54 - 59. ولما كانت نظرية الإدريسي إن
المسكون من جهة الشمال هو لغاية درجة 63 فقط، لان المنطقة التي تقع بعد ذلك شديدة البرودة ومغمورة بالثلوج فهي غير صالحة للسكنى والعمران. لما كانت هذه نظريته أضاف إلى الإقليم السابع الذي ينتهي بدرجة 59 أربع درجات أخرى من جهة الشمال من 60 - 63 وبذلك يتم الجزء المعمور من الأرض. ومما يذكر للإدريسي بالإعجاب والفخر انه حاول بتقسيمه الأرض إلى الأقاليم السبعة إثبات درجات العرض وتحديدها، وانه افلح في محاولته هذه إلى حد بعيد يجعل علماء الاختصاص في الوقت الحديث يطأطئون الرأس له إعجابا وتقديرا. أبتدأ الإدريسي بإثبات درجات العرض من درجة 28 إلى درجة 63 على التوالي، والدرجات التي أثبتها توافق الدرجات الحقيقية تمام الموافقة في جميع البحار وفي معظم اليابسة حيث توفرت لديه الأسباب أمكنه إجراء المقاييس الصحيحة؛ وفي بعض جهات قليلة من اليابسة حيث لم تتم لديه الأسباب تختلف الدرجات التي أثبتها عن الدرجات الحقيقية اختلافا بسيطا. فمثلا وضع الإدريسي مدينة (كلمار) ببلاد السويد عند درجة 56 , 3 وهي تقع عند درجة 56 , 5، وجعل الدانيمرك ابتداء من 54 , 5 إلى 58 والصحيح أنها من درجة 54 إلى 57 , 5، وجعل إنكلترا من 52 - 58 بدلا من 50 - 58 , 5، وهذا طبعا فرق بسيط في جهات قليلة دعا إلى ارتكابه عدم توفر الأسباب كما تقدمنا، ولم تنقصه عناية الإدريسي ودقته. أضاف الإدريسي إلى القسم الشمالي من الكرة الأرضية جزءا بسيطا من القسم الجنوبي إلى درجة 16 جنوب خط الاستواء، هذا الجزء الذي تقع فيه منابع النيل، وبين عليه منابع النيل بشكل واضح يدل على مقدار براعته العلمية، ومد الساحل الشرقي لأفريقيا نحو الشرق وجعله حدا للمحيط الهندي من جهة الجنوب، وطبعا لم يلق هذا الجزء عناية الإدريسي لخلوه من السكان وعدم صلاحيته لذلك طبقا لنظريته التي شرحناها. كذلك لم يثبت الإدريسي درجات العرض إلى درجة 28 شمال خط الاستواء، وإنما اكتفى بوضع أرقام بجانب أسماء البلاد التي تقع في هذه المنطقة. ولما كانت هذه الأرقام لا تتطابق مع درجات العرض للبلاد الموضوعة بجوارها وإنما تختلف عنها اختلافا كبيرا فإننا نستطيع أن نفهم السر في أن العلامة الإدريسي لم

يثبت هنا درجات العرض متوالية كما فعل بعد تلك المنطقة، بل اكتفى بوضع الأرقام التي وصلت إليه في مواضعها كما اخبر بها.

9 - التقسيم الثاني (تقسيم كل من الأقاليم السبعة إلى عشرة أقسام).

وبعد هذا قسم الإدريسي كلا من الأقاليم السبعة إلى عشرة أقسام متساوية من جهة الغرب إلى جهة الشرق، فالإقليم الأول يبتدئ من القسم الأول غربا إلى العاشر شرقا، والثاني من الحادي عشر إلى العشرين، وهكذا إلى الإقليم السابع الذي يبتدئ بالحادي والستين وينتهي بالسبعين. وعليه فأول الأقسام السبعين يوجد في الجهة العليا من الغرب، وآخرها في الجهة السفلى من الشرق. بحث الأستاذ (ميللر) هذا التقسيم الثاني فتبين له كما ذكر أن الإدريسي لم يرد به إثبات درجات الطول، وان الباحث لخريطته والقارئ لكتابه نزهة المشتاق لا يستطيع اخذ ذلك منهما، فضلا عن أن هذا التقسيم يختلف اختلافا كبيرا عن درجات الطول. لهذا أريد أنا هنا أن افرض أن الإدريسي اتخذ هذا التقسيم الثاني تسهيلا للقيام بالمهمة ورسم الخريطة لا غير.

10 - البحار السبعة.

وبعد هذا نريد أن نتكلم على البحار السبعة التي ضمنها الإدريسي خريطته، وهي شي آخر غير البحر المحيط أو بحر الظلمات الذي يحيط بالكرة الأرضية.

(1) البحر الشامي أو الرومي (البحر الأبيض المتوسط) الذي يتفرع من بحر الظلمات الغربي ويمتد نحو الشرق.

(2) خليج البندقية (بحر الادرياتيك).

(3) خليج النطاس (البحر الأسود) وهذان يتفرعان من بحر الروم.

(4) البحر القزويني أو بحر الخزر وهو بحر داخلي غير متصل بالمحيط الأعظم.

(5) بحر الهند (المحيط الهندي) وهو يحتوي على ثلثمائة جزيرة يستمد ماءه من بحر الظلمات الشرقي.

(6) البحر الفارسي.

(7) بحر السويس أو بحر القلزم (البحر الأحمر) وكل من هذين يتفرع من بحر الهند.

11 - الإدريسي يسير في وصفه للكرة الأرضية بناء على التقسيم الثاني.

هذه البحار السبعة تخترق الأقاليم السبعة بحسب مواقعها، ولقد وصفها الإدريسي وصفا مسهبا دقيقا ووصف جزرها والبلاد التي تقع عليها إلى غير ذلك في كتابه نزهة المشتاق عند كلامه على الأقاليم السبعين التي شرحناها في التقسيم الثاني. فانه اتخذ في طريقة وصفه للكرة الأرضية أن أبتدأ بوصف القسم الأول من الإقليم الأول متدرجا نحو الشرق إلى العاشر، ثم عاد إلى القسم الأول من الإقليم الثاني متدرجا إلى العشرين، وهكذا سار في طريقه إلى أن تم الكلام على القسم الأخير من الكرة وهو القسم السبعون، وعند كلامه عن كل قسم منها حدده وبين موقعه، وتكلم عن مدنه وجباله وبحاره وأنهاره وعن كل ما يحتويه من ماء ويابس، وعن الدول التي تشغله وعن سكانه وجنسياتهم وعاداتهم وعما يعيش فيه من حيوان وما ينبت فيه من نبات، مبينا كثيرا من خواص ذلك. طبيعية وطبية إلى آخر ما ضمنه نزهة المشتاق من الشرح المسهب والملاحظات الدقيقة.

12 - مصير المائدة الفضية واثر خريطة الإدريسي الذي تركته في علم الجغرافيا ورسم الخرط.

شرحنا كيف وضع الإدريسي خريطته وكيف ألف شرحها، ولقد تم حفر المائدة الفضية ورسم الخريطة وتأليف الكتاب ونشرهما واختيار الأسماء لهما بأمر رجار الثاني في يناير سنة 1154 كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وبعد إتمام هذا العمل الجليل بستة أسابيع عاجلت المنية رجار الثاني، ولكن ولله الحمد بعد أن استراح ضميره ووصل إلى حل ما استعصى عليه السنين الطوال، وبعد أن قدم للعالم والعلم على يد الإدريسي خدمة من اجل الخدمات في التاريخ، ولعله يشوق القراء الآن أن يعلموا مصير المائدة الفضية وماذا فعل الله بها وان كان مصيرا يوجب الأسف ويثير العبرة، ففي سنة 116. ميلادية بعد وفاة رجار الثاني بست سنوات وفي عهد ابنه (فلهلم) هاجم الثوار القصر الملكي واقتحموه وكان أشنع أعمالهم التي لم تكن موجهة إلى الأسرة النورمانية

فقط، وإنما قد ارتكبت - علم الثوار أو لم يعلموا - ضد العلم والعالم اجمع. كان أشنع هذه الأعمال انهم كسروا هذه المائدة واقتسموها فيما بينهم وما هي حقا إلا ثورة، والثورات لا عقل لها، تم هذا الجرم على
مرأى ومسمع من الإدريسي الذي بذل مع مليكه من الجهد ما استغرق السنين الطوال وما كلفهما كثيرا من التضحيات، حتى ابرزا عملهما القيم للوجود، والذي كان يستطيع اكثر من غيره أن يقدر قيمة عمله العلمي والفني. لم يبق بعد هذا إلا خريطة الحائط وخريطة الكتاب الموزعة في السبعين قطعة التي هي أقسام الأقاليم السبعين كما ذكرنا. انتشرت هذه الخريطة فيما بعد اشد الانتشار وأعمه، وتركت أثرا واضحا في المؤلفات والخرائط الجغرافية التالية لهذا العصر في الشرق والغرب، وظلت مع شرحها مئات السنين المرجع الوحيد لعلماء الجغرافيا من العرب والافرنج، ومعينهم الذي يستمدون منه معلوماتهم. ولقد ذكر الأستاذ ميللر بعض أسماء المؤلفات التي يظهر فيها اثر خريطة الإدريسي وكتابه بوضوح عند أول نظرة، منها كتاب الجغرافيا لابن زيد المولود بغرناطة سنة 1214 والمتوفى بتونس سنة 1274 ومنها خرائط مارينو زانوتو التي وضعها (بطرس فيسكونتي في سنة 1318 - 1320م. والتي انتشرت في جميع أنحاء أوروبة. إلى آخر ما عدد من أسماء المؤلفين والمؤلفات التي قد يكون لنا أن نكتفي منها بما ذكرنا.

يتبع

محمد عبد الله ماضي

في الأدب الدرامي

الرواية المسرحية في الفن والتاريخ - 8

بقلم احمد حسن الزيات

تحليل موجز لأشهر المآسي

فدر موضوعها أسطورة من أساطير الإغريق في عهد الحروب الطروادية، وأهم) أشخاصها تيزيه بن ايجيه ملك أثينا وفدر امرأة تيزيه وبنت مينوس، وهيبوليت بن تيزيه من انتيوب ملكة الامازون، واريسي أميرة من أميرات اثينا، وتيرامين مشير هيبوليت، واونون مرضعة فدر ونجيتها. وقد وقعت حوادثها في تريزين إحدى مدن (بيلوبونيز) وملخصها أن فدر امرأة تيزيه تبوح إلى مرضعتها (اونون) بهواها الدخيل وحبها المضمر لهيبوليت بن زوجها، ويستفيض الخبر في الناس فجأة أن تيزيه قتل في أثناء رحلته، فهتبل هذه الفرصة فدر، وتعلن إلى هيبوليت غرامها، فيقابل إعلانها بالدهش والإباء، ويظل مخلصا لحبيبته ايريس. ثم يعلمون أن الملك حي وانه قدم المدينة، فتياس فدر من هيبوليت، ويتسعر قلبها بالغيرة، ويمضها الندم ووخز الضمير. فتخجل من لقاء الملك وتفر من وجهه، وتظن ان هيبوليت سيفضي إلى أبيه بما كان منها فتترك اونون تؤلف المكيدة له، وتدبر الوقيعة به، فتهمه عند أبيه بمراودة سيدتها عن نفسها فيثور ثائر الملك فينفي ابنه، ويكله إلى غضب (نبتون). ويستيقظ ضمير فدر، فتنفجر باللعنة والعقوبة على مرضعتها الأثيمة، ويرجع تيرامين فيقص على الملك في أسلوب بليغ مؤثر جموح الجوادين بمركبة هيبوليت، وموته تلك الميتة الشنيعة. فيجزع الملك، وتقوم الأدلة على براءة ابنه مما اقترف به، فيتضاعف الحزن ويجل الخطب، فيذهب إلى فدر يسألها جلية الامر، فتعترف له بخيانتها، وقد كانت من قبل قد شربت سما فيفعل في جسمها، ولا تلبث أن تلفظ نفسها على المسرح.

مآسي فولتير

اشهر مآسي فولتير اثنتان وهما: (زيير) وميروب:

زيير موضوعها ذكرى من ذكريات الحروب الصليبية، وقعت حادثتها لفتاة مسيحية) أخذها أحد فرسان المسلمين في سبيه منذ طفولتها فرباها أراد أن يتزوج منها، ولكنها عرفت أباها وأخاها وهي على وشك الزفاف فأغرياها بالتنصر، وهذه المأساة مكتوبة على مثال عطيل لشكسبير. أما أهم أشخاصها فهم: اورسمان وهو سوداني من سكان أورشليم وخطيب زيير، ولوزينيان أحد أمراء أورشليم وابنته زيير وابنه نير ستان، وثلاثتهم من أسرى صلاح الدين، وشاتيليون فارس فرنسي، وفاطمة جارية من جواري السوداني، وقد وقعت هذه المأساة في أورشليم.

ففي الفصل الأول:

تبوح زبير لفاطمة بسر زواجها المقبل من السوداني. فتذكرها الجارية أنها مسيحية. وكان نيرستان قبل ذلك قد نال الأذن من مولاه اورسمان ان يذهب إلى فرنسا ليأتي بالفداء له ولعشرة من الأسرى. فيعود ويطلب من اوزسمان فك رقبة زبير وفاطمة وعشرة فرسان من الأسرى. فتفعل هذه الأريحية في نفس الأمير، فيمنحه مائة أسير ليس فيهم زبير ولا لوزينيان.

وفي الفصل الثاني:

تريد زبير أن تقضي نيرستان حق الشكر على مروءته وفضله، فتحمل اورسمان على إطلاق سراح لوزينيان. فيتحرر هذا، ولكنه يعرف ابنته زبير بصليب قد احتفظت به، وابنه نيرستان بأثر جرح فيه. ويأخذه المقيم المقعد من الهم والحزن حين يعلم أن ابنته مسلمة، ولكن زبير ترتمي في أحضان أبيها، وتعده أن تتنصر.

وفي الفصل الثالث:

يلقى نيرستان اخته، وينعى إليها لوزينيان أباها، ويحضها على أن تجعل باعتناق النصرانية. فتوافقه على ذلك، وتقسم له أنها لن تتزوج من اورسمان. ويأتي هذا بعد قليل يطلبها إلى المسجد ليعقد عليها، فتستمهله ريثما تدبر وسيلة للهرب.

وفي الفصل الرابع:

يمهلها اورسمان يوما للاستعداد للزواج. وفي غضون تلك المهلة يرسل نيرستان كتابا إلى أخته، يرشدها فيه إلى طريق الهرب، ويدلها على باب سري تنجو منه، فيقع هذا الكتاب

في يد اورسمان، فيظن أن نيرستان يزاحمه في حب زبير وهو يحاول الفرار بها. فيعد الوسائل للقبض عليه.

الفصل الخامس:

وفي جنح الليل البهيم تتسلل زبير إلى المكان الذي دلها أخوها عليه، وتناديه فلا يجيبها غير اورسمان بطعنة نجلاء بخنجره، ويسحب نيرستان في المسرح إلى موضع الجثة، فيصيح الأخ المنكود: واأخاه!! فيعرف اورسمان خطأه، ويعتلج في صدره الندم واليأس فينتحر.

يأخذون على هذه القطعة فقدان اللون المحلي منها في دوري زبير واورسمان. فقد يخيل إلى من يسمع تلك العواطف التي اكناها وشرحاها انهما من المختلفين إلى أندية السمر الأوربي في القرن الثامن عشر، فضلا عن انه جعل ذلك الأمير الكريم الحليم الوديع ينتقل فجأة إلى جنون الغضب لرؤيته رسالة لم يتحقق ما فيها.

(ميروب موضوعها استيلاء ايجسط بن ملك مسينا على العرش، ومدارها على انتصار الحب. واهم أشخاصها:

ميروب أرملة كريسفونت ملك نسينا، وولدهما ايجسط، وبوليفونت قاتل الملك، ونرباس خادم كريسفونت الخ. وقد وقعت حوادث هذه المأساة في مسينا.

الفصل الأول:

قبل خمسة عشر عاما من ابتداء المأساة قتل كريسفونت هو وولدان من أولاده في ثورة. أما ايجسط ثالث بنيه فقد أنقذه من المذبحة نرباس خادم أبيه، ونجا به في بلد غريب، وكان القاتل هو بوليفونت؛ ةقد استطاع أن يكتم سر الجريمة خمس عشرة سنة، فيبدأ الفصل بتحريض إحدى الوصيفات ميروب على المطالبة بحقها في العرش، وهي تتربص قدوم ولدها الغائب، ولكن الشعب يصمم على انتخاب ملك، ويفاضل الآن بينهما وبين بوليفونت. ويوهم بوليفونت الشعب انه المنتقم للملك، فيفضلونه وينصبونه عليهم ملكا. ويريد هو أن يجعل تملكه شرعيا فيحاول الاقتران بميروب فترفض وتطالب بحق ولدها، فيرسل طغمة من السفاكين يبحثون عن ايجسط ليقتلوه.

الفصل الثاني:

وفي أثناء ذلك يقدم إلى المدينة شاب فيتهم بقتل ايجسط ويساق إلى قصر الملك، وتسمع بأمره نيروب فتشفق أن يكون ابنها فترغب في ان تراه وتسأله هي بنفسها، فيجيب الفتى على أسئلتها في طهارة قلب وسلامة ضمير، فتأبى أن تحكم عليه. ومع ذلك تستفيض الإشاعة في الناس ان ايجسط قد قتل، وان قاتله هو ذلك الشاب الغريب. وأقوى الأدلة على حدوث القتل منه أن سلاح القتيل معه، فيستولي الهم واليأس على الملكة.

الفصل الثالث:
تعزم الملكة الرأي على الشاب، وتحرص على أن تقتله بيدها انتقاما لولدها وإطفاء لكبدها. وبينما هي ترفع يدها بالضربة القاضية عليه يقبل نرباس لحسن - الحظ في الوقت المناسب فيمنع الضربة، ويفشي لها سر هذا الغريب، ويخبرها ان القاتل الحقيقي لزوجها هو بوليفونت.
الفصل الرابع:
يدهش بوليفونت ان المتهم لا يزال حيا يرزق، ويرتاب في أمر هذا الغلام، ويرى ميروب مقبلة فيأمر حراسه أن يضربوا الساعة عنق هذا الغريب، فيضيق ذرع ميروب وتعييها الحيلة ويغلبها الجزع، فتصيح بالجند: ويحكم أيها البرابرة، كفوا انه ابني!
الفصل الخامس:
يقبل بوليفونت أن يبقى على الولد إذا رضيت أمه أن تكون له زوجة. ولا ترى الأم بداً من الخضوع لقاتل زوجها إبقاء على ولدها، ويذهب الناس جميعا إلى الهيكل ليحتفلوا بعقد الزواج، ويأخذ الناس فيما هم فيه، ويتقدم ايجسط إلى الهيكل يريد أن يقسم يمين الطاعة للملك، فيأخذ مدية القربان ويطعن بها بوليفونت طعنة نجلاء فيصرعه، ويهتف الشعب بعد تردد قليل لملكه وابن ملكه.
يأخذون على هذه القطعة الرائعة، بعد الإمكان في بعض الحوادث، فيسألون كيف يقتل بوليفونت الملك، ثم يسير سمعه بالناس خمسة عشر عاما بأنه المنتقم له؟ وكيف يتهم الفتى القادم إلى مسينا بقتل ايجسط وهو نفسه ايجسط؟ ولماذا تريد ميروب أن تقتل بيدها هذا
الغلام؟! والجاذبية مع قوتها لم تسر نامية، فان الخطر الذي حاق بايجسط ساعة أن همت أمه بقتله في ختام الفصل الثالث أقوى من الخطر الذي يهدده في الحل.
وكان في النية أن نختار نماذج من مآسي شكسبير إلا أن ما اخترناه لغيره قد كثر حتى حبسنا طويلا عن الموضوع، فلنكتف بما شاع له في مصر من ملخص ومترجم، ولنأخذه فيما نحن بسبيله.
يتبع
(الزيات)
2 - مصطفى كمال سيرة حياته
للكاتب الإنجليزي ارمسترونج
تلخيص وتعليق خنفي غالي
وفي ذلك الحين لم يكن يسمع في موناستير سوى صفير الرصاص ودوي المدافع، ولم يكن يرى فيها سوى جحافل الجيوش المتأهبة لمقاتلة اليونان الذين استولوا على كريد، وكان الجو يضطرب بإشاعة الحرب واقتراب ساعة الخطر على الإمبراطورية، وأخذت نسور أوربا تتأهب للانقضاض على الجثة محاولا كل منها أن يظفر بنصيب الأسد. أما في داخل الإمبراطورية فهناك فقر مدقع، وبؤس ملح، وحكم فاسد، واستبداد خانق، أضحت معه حياة الأتراك حلما مروعا وكابوسا ثقيلا، إذ سلب السلطان عبد الحميد الأتراك أمنهم وحريتهم، فنشر عيونه في كل مكان، وألقى بالأتراك في أعماق السجون. فعم الذعر وساد القلق كل الناس، ونادى الشبان بالإصلاح، واضطرمت النفوس بالثورة، ولا سيما في بلاد البلقان حيث يوجد مستودع البارود على وشك الاشتعال عاجلا أو آجلا وكان الشاب مصطفى قد هضم كل الأفكار الحديثة الشائعة في أوربا في ذلك الحين وتشبع بها فخالطت لحمه ودمه، فكان إذا تأمل حالة وطنه وما يقاسيه من ألوان العسف والإرهاق إلى مرجل قلبه ومني نفسه أن يكون على راس ثورة تقتلع الاستبداد من اساسه، ويكون هو بطلها البارز وسيدها المطاع، وهكذا تتجلى عظمة بطلنا في حساسية نفسه الكبيرة التي تأبى أن يطمئن له بال أو يهدئ له ضمير حتى يتحقق مثله الأعلى وغرضه الأسمى في الحياة.
وفي أيام العطلة كان يذهب إلى سالونيك لزيارة أمه، ولكنه كان ينأى جهد استطاعته عن الحياة المنزلية، وظل الصفاء بينهما حتى تزوجت، أنكر عليها الزواج ولم يرتح إليه وصارحها بهذا، فتشاجرا وحل بينهما بعض الجفاء.
وقد تعلم إبان إقامته في سالونيك مبادئ اللغة الفرنسية بمعونة الرهبان الدومنيكان، فتعرف إلى شاب يكبره قليلا يدعى فتحي كان حييا أنيس المحضر، وكانا يقران معا

في شغف شديد أدب روسو وفولتير وبعض الكتاب الفرنسيين كما قرأ كتب استوارت مل وهبز في الاقتصاد، وكان بطلنا لا ينئ عن حث الطلبة على إنقاذ الوطن من استبداد الخليفة ومطامع الدول الأجنبية كما كان يكتب وينظم القصائد النارية متغنيا بجمال الحرية،

وصاحبه التوفيق في مدرسة موناستير كما صاحبه من قبل في مدرسة سالونيكا، وكتب أساتذته عنه انه (شاب متقد الذكاء عسير النفس تستحيل مخالطته) وبعد أن أتم دراسته أرسل إلى المدرسة الحربية بالأستانة برتبة ملازم ثان، وهناك انغمس في حياة الإثم والفجور من لعب القمار ومخالطة النساء، ولم يعرف عنه انه احب إحداهن ذلك الحب الأفلاطوني النبيل، بل كان يقبل عليهن إقبال النحل على الزهرة يمتص رحيقها ويتركها ذاوية ذابلة، وقد انصرف فجأة عن هذه الحياة واقبل على عمله بجد ونشاط، ووفق فيه توفيقا بالغا يعزى قبل كل شي إلى تعويله على نفسه واعتماده على مجهوده، وقد جاز كل امتحاناته بتفوق باهر، ورقي إلى رتبة كبتن سنة 1905، وكان يمزج السياسة بعمله دائما، وقد ألفى نفسه في الاستانه بين ضباط صغار يقاربونه في السن ويضطرمون بالثورة على استبداد الخليفة وتدخل الدول الأجنبية. وكان أساتذتهم بالمدرسة يعطفون عليهم ويتغاضون عما يفعلون، ولكن لا يجرؤون على قيادتهم ومظاهرتهم.

وكان لهؤلاء الضباط بالمدرسة جمعية تدعى جمعية الوطن تلقي الخطب وتذيع النشرات مهاجمه فيها نظام الحكم وأخلاق الموظفين واستبداد الخليفة ورياء رجال الدين، بل لم يخل الدين نفسه من مطاعنها لحيلولته - كما كانوا يعتقدون - دون التقدم والارتقاء، فضلا عن فساد النظم المؤسسة عليه، وقد تعاهد أعضاؤها على تقويض حكومة الخليفة واستبدالها بحكومة دستورية، وإنقاذ الناس من كابوس رجال الدين، وتحرير المرأة من عبوديتها. والواقع أن تركيا في ذلك الحين كانت تحتضر، وما كانت الحياة لتعود إليها إلا إذا لقحت بدم نقي جديد، وقد انخرط الشاب مصطفى في سلك أعضائها، واخذ يكتب في نشرتها مقالات نارية وشعرا ملتهبا، ويلقى في اجتماعاتها خطبا لاذعة، ولكن السلطان عبد الحميد لم تكن لتخفى عليه خافيه، فعلم بأمر الجمعية من جواسيسه المنبثين في كل مكان، وجزع جزعا شديدا إذا رأى فيها نواة عمل سينتهي بثل عرشه. فخاطب أحد أعوانه المدعو إسماعيل حقي، وتحدث هذا بشأنها إلى ناظر المدرسة الحربية بالاستانة، فحرم الناظر عقد اجتماعاتها، ولكن لم يفت هذا في عضد أعضائها الثائرين، فاخذوا يعقدون اجتماعاتها في الخارج، وأضحت إحدى تلك الجمعيات السرية المنتشرة في الأستانة تعمل على هدم الظلم ومحو آثاره.

وبعد أن جاز مصطفى الامتحان بمدرسة الأستانة أستأجر غرفة لتكون مكتبا للجمعية تطبع فيه نشراتها، وكان الأعضاء يجتمعون في منازل خاصة يأتون إليها خفية يترقبون، وقد ارتاح بطلنا إلى هذه الحياة لتأصل حب المغامرة في نفسه واستقراره في طبعه، واخذ يتعلم أساليب الجمعيات الثورية ونظمها، ولكن عيون عبد الحميد لم تال جهدا في مراقبة هذه الجمعية وتضييق الخناق عليها ليفاجئوا الأعضاء متلبسين بالجريمة، ولم يكن هذا بالعسير عليهم، إذ كان الأعضاء ينقصهم الدراية بأساليب هذه الجمعيات، وان لم تعوزهم الحماسة والشجاعة.

واستطاع أحد الجواسيس أن يتسلل إلى الجمعية ويتصل بها، وازدادت على توالي الأيام ثقة الأعضاء به واعتمادهم عليه، فتمت خديعته لهم وجازت حيلته عليهم؛ وبينما هميقسمون قسم الجمعية في يوم من الأيام إذا برجال البوليس السري يفاجئونهم ويقبضون عليهم، فزج مصطفى وسائر الأعضاء في السجن الأحمر بالاستانة، وكان بطلنا من بينهم مثار الريب والمخاوف، واعتبر في عداد الخطرين على النظم القائمة، فعزل عن زملائه في مكان قصي، وتراءى له المستقبل مظلما قاتما، إذ لو بدا لعبد الحميد انه نظير خطر عليه لاختفى من الحياة كما اختفى أمثاله من قبل كوميض البرق.

وقد راع الأم الحنون مصير ابنها، فأسرعت يحدوها الأمل والخوف لزيارته، فأبوا عليها ذلك ولم يسمحوا لها إلا بإرسال بعض النقود إليه، ومضت على حاله هذه أسابيع نقل بعدها إلى (زنزانة) ضيقة مظلمة قذرة لا ينفذ إليه فيها إلا قبس ضئيل من النور من كوة صغيرة، فاثر هذا السجن الموحش في نفسه ابلغ تأثير، وزاد خلقه غلظة ووحشية.

وفي يوم من الأيام اقتيد من غير إنذار إلى مكتب رجل من رجال العهد القديم ومن أنصار عبد الحميد المقربين هو إسماعيل حقي باشا، فاخذ الرجل يديم النظر في ملامحه، ثم قال له: (لقد أظهرت مقدرة فائقة وكفاءة ممتازة، وأمامك مستقبل باهر ينتظرك في خدمة صاحب الجلالة، ولكنك من جهة أخرى شنت نفسك ولوثت شرفك الحربي، فخالطت أسوأ الخلان، وأخذتم تقامرون وتشربون وتختلفون إلى الأمكنة الموبوءة، أشنع هذا واشد نكراً انك نكثت عهد الإخلاص لمليكك، فزججت بنفسك في موج السياسة، وظاهرت الدعاية الخائنة ضده، وحرضت زملائك على احتذاء مثالك، والاقتداء بك، ولكن جلالة الخليفة قد وسعتك رحمته وشملتك رعايته ومغفرته إذ رآك شابا احمق، لعلك قد انقدت لهواك من غير تبصر أو تقدير للعواقب، فاختارك للذهاب مع فرقة الفرسان إلى دمشق، ويتوقف مستقبلك على ما يعلم من مسلكك، ولكن عليك أن نتجنب هذا الحمق وتتوفر على أداء واجباتك الجندية، وخذ لنفسك الحذر فانك لن تحظى بفرصة أخرى)

وفي نفس الليلة رحل في سفينة إلى سوريا بدون أن يسمح له بروية أمه أو أصدقائه، وبلغ بيروت بعد سفر شاق، فامتطى جواده وعبر به جبال لبنان حتى انضم إلى الفرقة في دمشق فوجدها تتأهب للزحف على الدروز المقيمين بجنوب دمشق والذين كانوا دائمي الثورة على الدولة العلمية، وقد كانت هذه الغزوة أول تجربة لنشاطه ولكنها لم تكن ترضى الجندي النظاميإذ كانت بلاد الدروز عبارة عن جبال مجدبة تتقاطع مع وديان ضيقة عميقة لا ماء فيها ولا طريق معبد، وكان الدروز قوما أقوياء الشكيمة صعاب المراس دارسين كل شبر من ارضهم، ومضت الأيام بين الفريقين في كفاح غير مثمر، إذ لم يستطع الأتراك الظفر بأعدائهم، فاحرقوا قراهم ودمروا حقولهم وعادوا القهقرى إلى دمشق لهجوم فصل الشتاء ببرده القارس وجوه المكفهر المظلم، وهناك اخذ بطلنا الثائر يعد العدة لإنشاء فرع لجمعية الوطن، ولم تغير الأيام السود التي قضاها في سجن الأستانة منه شيئا، ولم تضعف نفسه القوية، ولم تلن قناته الصلبة، ولم ترد قلبه الكبير عن غرضه، إذ كان مصطفى ثائرا على كل شيء: على الدين والناس والنظم والتقاليد، ولم يكن لشيء ما في نفسه حرمة أو قداسة، ولكنه كان يجمع إلى حماسة الشباب حذر الشيوخ ونظرهم البعيد، وكان قد هجر الأدب لما وجده مدعاة للشك، مجلبة للتردد موجبا للخطأ لما بين الحكمة النظرية والحكمة العملية من تناقض، واقبل على درس أساليب الثورة ووسائلها، وقد وجد التربة صالحة للبذر. فصغار الضباط مضطرمون بالسخط، ورؤساؤهم يعطفون عليهم ويميلون إليهم، وقد وجد مصطفى من بينهم زميلاً قديما له، فاتخذ منه نصيرا ومعيناً له في عمله، وسرعان ما اشتد ساعد الجمعية وتكاثر عدد أعضائها، واخذ بطلنا يشعر بمكانته وخطره، ولكن سرعان ما فطن إلى خطئه وعاد إلى صوابه، فعلم أن أهل البلاد ليسوا متهيئين لقبول دعوته، وان كان ضباط الحامية التركية متأهبين لتلبيتها وإبرازها إلى حيز العمل.

وقد أرسل إليه أصدقاؤه يخبرونه بان البلقان هي مهد الفتن والقلاقل، وان عليه أن يسعى لنقله إلى سالونيك ليضمن نجاح حركته وانتشار دعوته، فاعتزم تنفيذ ما أشاروا به عليه، سواء أجابته الحكومة إلى طلبه أم أبته عليه، وكان صاحب شرطة يافا عضواً بجمعية الوطن، فاتفق معه على كتمان وجهته، وحصل على الجازة بضعة أيام رحل خلالها إلى يافا وأبدل اسمه واتخذ له لباساً مستعاراً، فاستطاع أن يعبر البحر منها إلى أثينا، ثم إلى سالونيك حيث ألفى السخط والقلق يساوران كل النفوس، وهناك اعتكف في منزل أمه، ووجد أن الجو صالحاً لإبلاغ رسالته، إذ كانت سالونيك قلب الحركة ومهد الثورة، فاخذ يتعرف بمعونة أمه وأخته إلى صغار الضباط من زملائه القدماء، وطلب نقله إلى سالونيك ليتسنى له الإشراف على تنفيذ خطته، ولكنه قبل أن يخطو خطوة أخرى صدرت من الأستانة الأوامر بالقبض عليه فعمل حكمدار سالونيك على خلاصه، فنبهه إلى الخطر المحدق به واخبره أن أمر القبض سينفذ بعد يومين، وعليه أن يتأهب للرحيل، فعاد مصطفى بطريق البحر إلى يافا وكانت أوامر القبض عليه قد سبقته اليها، ولكن لحسن طالعه قيض الله له كبير الشرطة في يافا، وكان عضوا بجمعية الوطن، مهد له سبيل الفرار إلى غزة، وأراد أن يحكم الحيلة لتجوز على

حكومة الأستانة، فكتب إليها يطلب أن تزوده بتعليمات أوضح وأدق عن مصطفى كمال، ويقول إن ما وصل إليه منها فيه كثير من الخطأ، لان مصطفى كمال كان طوال المدة السابقة مقيما في غزة، ولم يبرحها إلى سالونيك، وصادق على مفيد لطفي الضابط بغزة.

وهنا تظهر حكمة بطلنا ونظره البعيد. فقد رأى انه لو وقع في يد عيون الخليفة مرة اخرى، لما رأى نور الحياة بعد ذلك لحظة واحدة، فاعتزل الحياة العامة زهاء عام، ليزيل ما أحاط به من ريب وشكوك، واقبل على عمله بجد ونشاط، حتى لفت أنظار رؤسائه إليه، فاعجبوا به واثنوا عليه قائلين. انه لا يعنى بغير واجبه، وهو يؤديه على اكمل وجه، وأتم شكل، فأحسنت به حكومة الأستانة الظن، ورجحت أن جواسيس سالونيك قد ظلموه باعتباره في عداد الخطرين، ولكن خيال سالونيك لم يبرح راس بطلنا، وأنى له ذلك وفيها نذير الثورة التي يريد مصطفى أن يكون بطلها الذي يشار إليه بالبنان، وبينما هو غارق في تفكيره وتدبيره إذا به يتسلم أمر النقل إلى سالونيك وهو يكاد أن يكون له من المكذبين.

يتبع

حنفي غالي

إلى النهر الغاضب

للأستاذ محمود الخفيف

غضبتَ فسهدتَ أجفانها ... وزاد هياجك أحزانها
وقد أنِسْتُك لطيف الأناة ... ضحوك الأسرة ّفتانها
جميل الوفاء شهى الصفاء ... عريق السماحة هتانها
وفاؤك عيد يعم البلاد ... ويغمر بالخير أركانها
تهز الحقول على جانبيك ... ويملأ فيضُك غدرانها
وتذكر مصرُ إذا ما خطرت ... وسال نضارُك، سودانها
فأنت لمصر وريد الحياة ... ولم تر غيرك شريانها
حليم عليك سماة الجلال ... تقابل بالبشر قربانها
وتلقى برفقك في المهرجان ... وجوه البلاد وأعيانها
تود الرياض على شاطئيك ... لو انك تسمع شكرانها
وتهفو الخمائل شوقا إليك ... فتنشر حولك أغصانها
تردد مصر أناشيدها ... وتبدأ باسمك ألحانها
ويطربها منك حلو الخرير ... فترهف للسمع آذانها
فتلقي إليها حديث القرون ... وتحفز للمجد غلمانها
وما نسيت مصر هذا الحديث ... ولا صرفت عنه تحنانها
تجهم وجهك بعد الصفاء ... وروع باسُك سكانها
لبست الجفاء على غرة ... فالم غدرك وجدانها
تركت الكنانة في غمرة ... يهدد سيلك بلدانها
كأنك جيش تخطى الحدود ... وانذر بالموت قطانها
تقيم السدود على ضفتيك ... وتحشد حولك فتيانها
تراقب موجك في حسرة ... تجدد للنفس أشجانها
ولم أر مثل جفاء القلوب ... تفيأت من قبل رضوانها
ولا كالإساءة من راحة ... تعود كفُّك إحسانها
ترفق بمصر فقد نالها ... خطوب تزلزل بنيانها
توالت عليها عجاف السنين ... وأعمى التنابذُ رُعيانها
وذاق بنوها بأوطانهم ... صنوف العذاب وألوانها
ألم تر كيف دهاها الكساد ... وكاد يدمر عمرانها
وكيف توقف فيها النماء ... وأخرجت الأرض ديدانها
فأضحى فتاها كسير الجناح ... كئيب الملامح خزيانها
وجاس الغريب خلال الديار ... قوي المخالب يقظانها
ألم يكف يا نيل هذا الشقاء ... فجئت تضاعف خسرانها؟
تحيرت يا نيل ماذا دهاك ... وأوحى لنفسك طغيانها

اساءك من مصر هذا السكون ... فقمت تحرك شبانها؟
وأوغر صدرك يأسُ البلاد ... فجئت تجدد إيمانها؟
ورحت تكذب ظن الدخيل ... وتوقظ للجد أعوانها
تحركُ وحدك في أمة ... أذل التفرق وحدانها
بلوت بنفسك ماضي البلاد ... وأدركت بالأمس سلطانها
وكيف تناهي إليها النبوغ ... فراحت تعلم جيرانها
تَلَقى من الوغى شتى الفنون ... وترفع في الأرض ميزانها
تدب الحياة على جانبيها ... فتشعر بالعز ولدانها
على البر تحشد أجنادها ... وفي البحر تنصر ربانها
تذكرت (أحمس) يزجي الصفوف ... ويدعو إلى النصر فرسانها
و (رمسيس) يخطر في جنده ... فخور المواكب مزدانها
وانست في مصر عهد الرشاد ... قد شمل العدل أركانها
تَلَقَّى الرسالة في غبطة ... ولو كره الروم إعلانها
تسير إلى الحق منقادة ... إليه وتخلع بهتانها
وتمسي من الأمن في جنة ... وقد كرهت قبلُ حرمانها
أسفت لحاضرها المستكين ... وأنكرت يا نيل خذلانها
كرهت هدوءك في أمة ... أطاعت إلى اللهو شيطانها
فجن جنونك يا ابن السماء ... وقمت تنبه وسنانها
ألا فلتقر فقد بايعتك ... وسوف تقدم برهانها
ستحذو مثالك في فعلها ... وتجعل عهدك قرانها
ستنفض عنها غبار القرون ... وتنزع يا نيل أكفانها

محمود الخفيف

مدينة الأحرار

للأستاذ محمد محمود جلال

الله أكبر (يا جنيف) ... فوق الجمال (دم خفيفْ)
طُهِّرت كالجنات من ... لغو ومن هم مطيفْ
وخلوت للأحرار إلا ... من نسيم أو حفيفْ
يلقى الربيعَ بك المُش ... رَّد بعد إعنات الخريفْ
كم صنتِ عزة أنفس ... ووقيتها ورد الحتوفْ
فوقفت سداً مانعاً ... دون العواصف والصروفْ
فيك التقيت بنخبة ... هم عدة الشرق المنيفْ
وغنمت أمتع جلسة ... في (بارك لجْرَنجَ) الرفيفْ
يذر الفؤاد مردداً ... (الله أكبر ياجنيفْ)

بين الشهرة والخلود

لأميل لدفيج

تلخيص محمد أمين حسونة

خطر يبالي ذات شتاء أن أمضى شطراً طويلاً منه في منطقة الألب لاستمتع بدفء الجبال، فكان مما استرعى اهتمامي في منطقة التيرول، تلك الكنيسة الفخمة التي اشتهرت منذ القرون الوسطى بأثرية ناقوسها وروعته، فلما مر بخاطري زيارته، صعدت إلى القبة لأشبع العين من فتنته، وهناك تملكتني الدهشة والعجب، إذ كانوا يعلقون صورة (شيللر) إلى جانب صورة القديسين الأبرار، كتذكار لمقطوعته الخالدة (نشيد الناقوس)!

فشللر الكاتب الملحد، عدو الكنيسة والكثلكة، يجعلون منه رمزاً للقداسة والخلود؟ ولكن لا عجب فقد تكون شهرته كشاعر مخلد لذكرى (الناقوس) هي التي حدت بهم إلى رفعه في مثل هذا الموضع الذي يرتكز عليه، وهكذا تكون الشهرة حامية للأغلاط.

إننا نذكر جميعاً غلطة (كوك) المعروفة، وكيف دفعته إلى مصاف العظماء، وقذفت باسمه إلى أول قائمة المكتشفين الخالدين، ولو أن لعبته لم تكتشف إلا بعد مرور فترة طويلة!

إذن فالشهرة ليست بمعناها المعروف، هي (العظمة)، وقد لا تهدينا شهرة الرجل إلى

تقدير مناحي عظمته في ثوبها الحقيقي، وإلا كان من حقنا أن نفاخر (بشارلي شابلن) عن (برجسون) وان نفضل (مستنجيت) على (مدام كوري). مع أننا كمؤرخين في عنقنا دين تجب تأديته للأجيال المقبلة، ذلك هو تصحيح الأخطاء التي تلابس أولئك الذين يستحوذون على الشهرة عن طريق المخادعة.

وقديماً ذكروا: ألا يجوز البتة إعلان كون الناس سعداء ما داموا أحياء! فإذا جاز لنا أن نحكم بان حياة الإنسان إن هي إلا رواية تمثل مشاهدها، ففي مكنة (فصل خامس) منها أن يطفئ أنوار فصول أربعة تقدمته، وفي ضوء هذه النظرية لا يمكننا الحكم على أعمال الرجال إلا بعد موتهم، ولا أن نخلع عليهم ثوب العظمة وهم أحياء، فمن المحتمل أن يأتي هذا الثوب فضفاضاً عليهم، أو يحدث في أواخر أيامهم ما يدفعهم إلى تشويه هذه الصفحات التي نكون قد ملأناها حمداً وثناء عليهم!

إن سرعة انتشار الأخبار تمكننا من معرفة أي رجل اشتهر في اقل من لمح البصر، فاسم قاهر الجو - عرفه في ليلة واحدة خمسمائة مليون شخص من أقاصي - (ليندبرج) منشوريا إلى جنوب استراليا؛ كذلك كان أمر (كوك) حين انتحل لنفسه اكتشاف القطب الشمالي، ولو أن خدعته اكتشفت فيما بعد، ولكن بعد فوات الفرصة، وبعد أن رسخ اسمه في قلب كل إنسان كمكتشف عظيم!

إن الآلة التي تخرج لنا العظماء اليوم غيرها قبل خمسين عاماً مضت، فليس الرجل العسكري هو الذي ينال إعجاب أبناء هذا الجيل، وليس من حقنا تدوين اسمه في ثبت العظماء، كما فعل الاسكندر وقيصر ونابليون، كلا! فالشعوب أصبحت لا تتهافت على معرفة اسم القائد المنتظر في الميدان، لكنهم يتساءلون عن الآلة الجهنمية التي أحرزت التغلب، وخفقت فوق ربوعها بنود النصر. وخذ اسم المارشال هيندنبرج مثلا، فلا يتطرق إلى أذهاننا أن شهرة اسمه راجعة إلى عظمته الحربية وحدها، بل لذلك الاعتقاد السائد في النفوس، وهو اعتباره (أباً للشعب). والإعجاب اليوم لا ينال الجيوش الظافرة في ساحات الوغى، اكثر مما ينال ذلك (الجندي المجهول) الجامع لرفات الانتصار والانكسار.

إن شهرة كبار القواد الذين خاضوا غمار الحرب العظمى، وكان النصر حليفهم في المعارك الكبرى، قد تضاءلت حتى كادت تتلاشى؛ كذلك مال بلسودسكي ومصطفى كمال وموسوليني، فسوف يصبح اسم كل منهم خرافة سائدة في أفواه الأجيال المقبلة.

ومن يحرز الشهرة إذن؟ إن رجال الألعاب الرياضية وأبطال الملاكمة ونجوم السينما هم وحدهم الذين يحرزون الشهرة دون غيرهم. أما الأولون فلأن الجماهير تساهم بقسط وافر في الشهرة التي يحرزونها عن طريق المراهنة في مبارياتهم؛ وأما نجوم السينما فيستولون على الشهرة بفضل الملابس الزاهية وإتقانهم الأدوار التي تتطلب المثل العليا في الحب والتضحية.

ولأنهم جميعاً يشغلون قلوب الجماهير ويستدرون عواطفهم في كل مناسبة، فملامحهم وصورهم وحياتهم الخاصة مطبوعة على صفحة كل قلب بفضل الصحافة المصورة التي تمهد لهم سبل الشهرة والدعاية فكاروزو مثلا اشتهر اكثر من غيره من المغنين السالفين بفضل اختراع (الفونوغراف) الذي خلد صوته.

إن مهمة المؤرخ دقيقة وعسيرة في هذا العصر فيجب ألا يعتمد على الشهرة وحدها في جعلها مقياساً للعظمة، وإني باعتباري مؤرخاً لا يحق لي مطلقاً أن اخدع نفسه وقرائي بجعل الشهرة عظمة. إني لا أجد اليوم موسيقياً بعد (مولر)، وأذكر (ليبرمان) في أول قائمة الفنانين العالميين، وأسائلنفسي وقرائي عن (كاتب القرن الحالي) الذي يحق له إحراز هذا اللقب النبيل، والذي له الفضل في تربية ملكة الذوق لجيلنا الحاضر فلا أجد (برنارد شو)، كما كان (فولتير) كاتب القرن الثامن عشر، نعم إن هناك كتاباً يفوقون (شو) سواء في قوة الابتكار أو سلاسة الأسلوب ومتانة التعبير، واذكر منهم: ابتمان، وهمسون، ومان، ودانزيو، وبيراندللو، ورولان، ولويس، ولكن (شو) قد اثر بآرائه ومداعباته واستحواذه على لب القارئ اكثر من سواه.

وإذا خطر لنا أن نتكلم عن السياسة حق لنا أن نعترف بأن رجالها قد احتضروا واختفوا

من الأفق سراعا: ويلسن، ولينين، وكليمنصو. أما (لويد جورج) فشيخ رجال السياسة الحاليين وأكثرهم دهاء، و (موسولينى) أخطرهم وأصغرهم سناً، ولكن إذا تحدثنا عنه كسياسي، أيحق لنا أن ننعته بالعظمة؟ كلا! في الحكم للمستقبل. وموسوليني يؤدي الآن دوره على خشبه المسرح، وقد انصبت الأنوار فجأة عليه من كل جانب فاخفت (الرتوش والمكياج) التي تخفي شخصيته الحقيقية، وتظهره أمام الجماهير في ثوبه الخيالي معبودا للشعب؛ انه لا يزال في الفصل الثاني من الرواية التي تمهد القيام بدور البطل فيها، وليس لأحد أن يتكهن إذا كانت الستار سيسدل عن تصفيق واعجاب، او عن استهزاء وسخرية!

وإذا ذكرت سياسي الجيل الحاضر، فإني أتحدث عن (فينزيلوس) اليوناني و (ما زاريك) التشيكي. فالأول سياسي محنك ورجل داهية، والثاني حلم بني وطنه لعشرين عاماً، كما أن زعماء المضطهدين - لسان حال الشعوب المظلومة - قد أحرزوا الإعجاب بمبادئهم الاشتراكية السامية، وضربوا احسن الأمثال لأممهم في التضحية، وأخص بالذكر منهم: (مكسويني) محافظ كورك الذي ذهب ضحية إخلاصه لمبدئه، و (غاندي) نجم الهند - بل الشرق - الوحيد.

أما رجال العلم والصناعة فقد كان الجيل الماضي حافلا بالكثير من شخصياتهم البارزة.

أما جيلنا الحاضر فمفتقر إلى طائفة كبيرة منهم، فانه لا يوجد اليوم علماء للآثار القديمة جديرين بإحراز هذا اللقب الذي استخلصه لنفسه شامبليون، ولا مؤرخون يستطيعون ارواء ظمأ المتعطشين إلى نظريات حديثة، ولا علماء في الاقتصاد والتشريع والفلك كعلماء القرن الماضي من الإنجليز أو الألمان.

إن عالمنا اليوم لا عمل له سوى الجمع بالنسبة للماضي، والتمهيد بالنسبة للمستقبل، ومع كل فهناك شخصيات برزت في بعض الصناعات التي كان العالم في اشد الافتقار إليها. فبركلند، وايد النرويجيان انتشلا شعوباً من المجاعات بإقدامهما على استخراج النتروجين من الهواء؛ و (هابر، وارنست، وارينوس) أول من أحدثوا نظريات جديدة بشان السوائل، كذلك (بور) الدنمركي و (بلانك) الألماني، والى جانبهما تأخذ (مدام كوري) مكانتها العلمية كامرأة واصلت البحث والدرس بعد موت بعلها بعشرين عاما.

أما علماء النفس فعلى رأسهم (فرويد) الذي أيقظت نظرياته الحديثة شعور ألوف المثقفين في العالم؛ ويجئ دور (اينشتين) شيخ علماء الحكمة الطبيعية الذي زحزحت نظرياته الرياضية الكثير من الاعتقادات العلمية التي كانت سائدة في أذهان علماء الأجيال الغابرة.

وهناك (مركوني) الإيطالي و (اركو)، والى جانبهما (اخوان رايت) و (فورد) والى جانبهم أبطال الصناعة الذين لهم الفضل في ابتكار اللاسلكي وبناء الجسور وحفر الترع وتشييد المنشآت الهندسية الحديثة كمحطات الكهرباء والخزانات والمصارف وناطحات السحاب.

ولكن أين هم هؤلاء الأبطال؟ من هم أساتذة الصناعة والفن اليوم؟ من يعرف منشئ جسر اليشون أو ارث الخامس أو خزان أسوان؟ من الصعب أن نعرف أسماء كل هؤلاء الأبطال، لان أعمال الشركات خيمت على جهود الأفراد، وجهود الأبطال قد اندمجت في أعمال الشركات. وعندما تنحدر الشمس إلى المغيب ونجد مكانها الأنوار الكهربائية المتلألئة، لمن نتوجه بالحمد على كل هذا؟ لمن الفضل في سر الاتصال بين الأمم بأسلاك التلغراف وفي نقل الرسم والصوت من مكان قصي فوق ثلوج سيبيريا إلى عبيد الكونغو مثلا؟ إن أحدا لم يستطع تذليل العلم وتسخيره في أغراض المجتمع وأفادته كما استطاع ذلك خالد الذكر (اديسون).

وهكذا نأتي في النهاية لنشيد بذكر اكبر عالم نظري إلى اعظم مخترع عملي، أولهما ألماني وهو عقل العالم الذي يميز به حقيقة الاشياء، وثانيهما أمريكي وهو عين العالم التي ترى بها الضوء، كلاهما نشأ فقيرا معدما، ليس مدينا لأحد ألا لعبقريته ونبوغه، هما (ايمانيس)

الذي وهب الثقافة وحرية الفكر للعالم، و (بروميسثيس) الذي اختطف النور من الآلهة ليهديه إلى البشرية هما:

انيشتين واديسون.
محمد أمين حسون
العلوم
بحث في اصل الإنسان - 2
بقلم نعيم علي راغب
دبلوم عال في الجغرافية
استمر (بوشيه) برغم كل معارضة قامت في وجهه، ولم يتطرق إليه خمول أو تهاون، فنشر في عام 1847 كتابا عن اكتشافاته قوبل بالاستنكار، ونظر إليه الناس نظرتهم إلى مجنون. وظل على هذا الحال حتى أتى بعض العلماء الإنجليز يساعدونه عام 1858 فاختبروا صخوره وفحصوا ما وجده من عظام متحجرة، وظلوا يجادلونه ويجادلهم حتى اعترفوا وجاهروا - بعد التثبت والاقتناع - أن هذه الصخور من عمل الإنسان وتشكيله. وهكذا ثبت أن الإنسان كان موجودا في وادي نهر السدم بفرنسا عندما كان المدرج الموجود الآن على ارتفاع 10. قدم مكونا مجرى النهر في ذلك الوقت حيث كانت تعيش أنواع غريبة من الحيوانات؛ وبذا يفتتح العالم أول باب لتاريخ حياة الإنسان في المدرجات.
وعندما عاد العلماء الإنجليز إلى بلادهم وجدوا في مدرجات نهر التيمس نفس الصخور النارية او وعظاما متحجرة تماثل تمام التماثل تلك العظام التي وجدت في نهر السدم. وبذلك بدأ باستخدام حفريات الأنهار لمعرفة تاريخ الإنسان القديم منذ مائة عام تقريبا، ولكنها لم تتحول إلى فن صحيح ذي قواعد إلا في السنوات الأخيرة.
سبق لنا أن تتبعنا تاريخ الإنسان القديم مما وجده الباحثون في الكهوف، وسنحاول الآن أن نرى ما قد تكشف لنا عنه هذه المدرجات. وفي الشكل (2) ترى مثلا عاليا لتتابع المدرجات، ومن الطبقات السطحية للمدرجات السفلى نجد شواهد الكهوف نفسها ونفس الأدوات الحجرية عينها، بل وهياكل أنواع الحيوانات البائدة والعنصر الإنساني الذي كان سائدا في ذلك الوقت. تأتى بعد ذلك مدرجات احدث من الأولى تكونت في عصور متتابعة هي: سولتريان واورجنتيان وماجدالينان وموستريان وهو العصر الذي يقع قبل عصر الجليد مباشرة، وبدا نصل إلى عصر غمرت فيه الثلوج القارة الأوربية، وفي هذه الفترة يقع عصر أطلق علية اسم اشيوليان ومن عصر الموستريان حتى الآن تقع فترة يبلغ
طولها 4. ألف سنة. وليس هناك أدنى شك في انه كلما اتسع أفق العلم أمامنا وازدادت الأبحاث أمكننا تقسيم فترات ما قبل التاريخ إلى حلقات متتابعة - وفي هذه الفترة نجد أنواعا من فؤوس - صنعت من الصخر الناري، عليها اثر الصنع بل والاستعمال. وإذا أنعمنا النظر في المدرجات عدنا إلى البقايا القديمة للعصر المسمى شيليان وهو السابق المسمى اشيليان امتياز بزيادة دفء جوه عن جو العصر الجليدي. وفؤوس هذا العصر كبيرة نوعا ما عن فؤوس عصر الاشيليان. ونحن إذا قدرنا لها مدة ليسفيها مبالغة وهي 4. ألف سنة، فإننا نصل إلى فترة من فترات تطور الإنسان تبعد عنا بنحو 12. ألف سنة. ويأتي قبل عصر الشيليان عصر لا يسعنا لجهلنا به إلا أن نسميه ما قبل عصر الشيليان - وقد وجدت اثار تدل عليه على عمق 10. قدم في مدرجات نهر التيمس بإنجلترا، ومن هذه الفترة نصل إلى بدء عصر البلشتوسين ولهذا العصر أهمية خاصة عند الباحث في تطور الانسان، اذ انه في فجر هذا العصر أخذت الحيوانات شكلها الحالي، وتطور الإنسان تطوره الأخير الذي جعل له من الخصائص ما يمتاز به اليوم من سائر المخلوقات. وبابتداء هذا العصر يمكن القول بان العالم الحي اخذ شكلا جديدا من مظاهر التطور الحديث، ولذلك فان علماء الحيوان يضعونه في المرتبة الأولى من فترة حديثة لتاريخ الإنسان أطلقوا عليها اسم كواترناري ولسنا نعرف متى بدأت هذه الفترة، ولو أن بعض العلماء قدر لها مليون سنة، إلا أننا لا نبالغ في التقدير إذا قلنا إن هذه الفترة بدأت من 200 ألف سنة.
ولحسن حظ التاريخ الحديث أن يصنع الإنسان الأول أدواته وأسلحته من الصخر الناري، لأنه قد مكننا من معرفة التاريخ وتتبع حركاته وأدواره حتى عصر البليستوسين بتتبع الآثار التي تركها لنا في أدواته وحاجاته. وقد وجد الباحثون القواعد التي قطعت وشكلت عليها الأدوات الصخرية، بل وجدوا عظاما من بقايا من قام بصنعها. إلا انه

برغم الأبحاث المتتابعة لم يوجد إلا بقايا قردين ممن سكن أوربا في فترة البريشيليان: أحدهما سمي إنسان هيدلبرج، وكل ما وجد منه فكه الأسفل. وقد وجد في اسفل واد من أودية نهر الرين القديم مع عظام متحجرة من عظام نوع من الحيوان كان عائشا في أوربا في الفترة الأولى من عصر البليستوسين، وكان معاصراً لإنسان هيدلبرج. ولقد لوحظ أن الفك خشن كبير
واصلب من أي فك لأي عنصر من العناصر المعروفة؛ أما نظام أسنانه فانه يماثل تمام التماثل نظام أسنان القردة، إلا أن الأنياب الحادة البارزة في قرد الانسترويد قد انخفضت واستوت هنا مع باقي أسنان الفك عند إنسان هيدلبرج.

وأما القرد الآخر الذي كشف عنه ومر ذكره بك، فقد عرفنا عنه معلومات تزيد كثيرا عما نعرفه عن إنسان هيدلبرج، كان يسكن أوربا في عصر ما قبل الشيليان - وقد وجدت بقايا من عظامه المتحجرة في جهة بلتداون بإنجلترا، ولذلك سمى باسمها إنسان بلتداون ولنا من البراهين القوية ما يثبت ان هذه الجهة اقدم بكثير من الجهة التي وجد بها فك إنسان هيدلبرج. ولذلك فإننا نرجح ان يكون الحلقة الإنسانية التي سبقت إنسان هيدلبرج بما فيها من تطور. ويرجع فضل الكشف عن هذا الإنسان إلى الأستاذ شارلس داوسون الذي كان محاميا في ليوس ثم تفرغ لدراسة جيولوجية منطقة حيث وجد هذا الإنسان.

في عام 1908 قبل أن يموت ذلك الأستاذ مأسوفا عليه ممن قدر قيمة شفه ممر على طريق جديد قد رصف بنوع من الصخور النارية التي لم يكن قد رآها من قبل، ولكنه كان يعرف إن هذا النوع كان يستعمله الإنسان القديم في صنع أسلحته وأدواته، ولذلك اخذ يستعلم عن مصدر ذلك الصخر حتى علم انه يستورد من منخفض في وسط مزرعة على حدود ولما كان يتردد كثيرا على هذه الجهة فانه عقد أواصر الصداقة مع عمالها، وبمساعدتهم حصل بعد سنوات قلائل على لوح سميك من العظم اشتبه في أن يكون جزءا من جمجمة إنسان قديم. ولكنه لم يتمكن من الحصول على باقي الجمجمة إلا حوالي سنة 1911.

ثم قام بعد ذلك هو والسير ارثر سميث وودوارد بالحفر في هذه المنطقة، فوجدا بقايا أخرى من هيكل الرجل الذي وجدت جمجمته، ووجدا أيضاً هياكل متحجرة لحيوانات قديمة بائدة، وبقايا أدوات وأسلحة غالبها ينتسب إلى عصر ما قبل شيليان - ومنها ما يمت إلى عصر اقدم من ذلك وهو عصر
وأمكن بعد ذلك معرفة حجم الجمجمة وشكلها، وتخيل شكل لها قبل التحلل والتكسير، ثم بواسطة صب عجينه من المصيص داخلها أمكن معرفة حجم وشكل المخ الذي كان يسير سكان العالم الأول خلال صعاب الحياة. وقد لوحظ أن حجم مخ البلتداون يرتفع عن المستوى المقدر للأجناس المنحطة من العناصر الإنسانية، إلا انه من جهة أخرى يبتعد كل
البعد من مميزات الجنس الحديث.

أما تلافيف المخ فقد لوحظ أن هناك شبها كبيرا بينها وبين الإنسان بعكس إنسان النياندرتال الذي يشبه مخه مخ القرد. مع أن تكوين وجه إنسان البلتدون يقربه كثيرا من القردة.

وأما نصف الفك فهو عجيب حقا، لأنه قد وجد انه وتركيب السنان فيه يمتان إلى القردة تماما، وان شكل الأنياب عنده لا يختلف عن شكلها أبداً عند صغار القردة. وهذا الفك يشبه تمام الشبه فك الشمبانزي مع انه في إنسان هيدلبرج برغم كبر حجمه كبرا غير متناسب مع الإنسان الحديث، لا يختلف في شي كثير عن فك الإنسان العادي المعروف لدينا جميعا.

وبذلك نرى أن إنسان البلتدون يصل بنا إلى درجة أو عصر لم يكن قد تغير فيه شكل رأسه أو أسنانه عن شكلها عند القردة إلا قليلا، وبمعنى آخر أن التطور والارتقاء قد حدثا عنده في المخ وقوى التفكير، قبل أن يحدث في شكله العام وعلى الأخص شكل وجهه بفكه وأسنانه.

ونحن إذا خامرنا الظن أو الشك في نشأة النوع الإنساني، وجال بنا الحدس انه قد انحدر من عنصر أولي منحط يشبه القردة إن لم يكن منها بالذات، فانه يلزمنا أو يلزم من يقول بذلك البرهنة على صحة هذا الظن أو ذاك القول.

ولذلك نظن ظنا كافيا أن نقول تدليلا على صحة ذلك أن العلماء حينما كانوا يبحثون عن اصل الإنسان الجيولوجي قد وجدوا انه في منطقة بإنجلترا كان يعيش عنصر إنساني قديم جدا جمع في جسمه وعقله صنعة الإنسان المعروف، وفي وجهه وفكه شكل القردة وصنعتها.

وربما اعترض معترض علينا في ذلك بأنه ربما كان يسكن هذه المنطقة من إنجلترا نوع منحط من الإنسان وعنصر راق من القردة أو الشمبانزي، وان الجمجمة التي بنيت عليها الأبحاث، وجاءت هذه النظرية نتيجة لها، لم تكن جمجمة قرد واحد، بل مجموعة أو خليط من جمجمة إنسان وجمجمة قرد انحلتا واختلطا بعد التحلل!.

إلا لن ذلك الاعتراض يمكن الرد عليه بقولنا إن الأجزاء التي تجمعت وتكاملت أجزاؤها مكونة جمجمة كاملة تتكامل أجزاؤها تمام التكامل، وتتفق كلها في المقاييس المقدرة لها، كما أنها من نوع قد تحجر في وقت واحد، وهذا كله لا يمكن القول بأنه وليد المصادفة، وبذا

يثبت أن الجمجمة هي لفرد واحد هو إنسان البلتداون. وقد بلغ اهتمام السير ارثر سميث وودوارد بهذا العنصر الإنساني الجديد الشبيه بالقردة مبلغا كبيرا حتى انه اعتبره عنصرا إنسانياً لم يكن معروفا قبل اكتشاف بقاياه في وأطلق عليه اسم الإنسان الأول أو

يتبع

نعيم علي راغب

دبلوم المعلمين العليا قسم الجغرافية

القصص

من الأدب التركي

المعلمة الصغيرة

ترجمة الآنسة الفاضلة (فتاة الفرات)

تتمة ما نشر في العدد الماضي

لم تكلمني حتى وصلنا إلى (سركه جي) حيث موقف الترام هناك فقالت:

هنا كنت انتظر يا سيدي، وفي كل يوم كنت اركب الترام هنا، ولا ادري كيف أخطأت في هذه الليلة وركبت الترام الذاهب عن (الجسر) لا اليه؟ ولا ادري كيف لم انتبه لذلك؟ كان السبب كما قلت يا سيدي الظلام الحالك والمطر الكثير الذي ادهشني، لو تدري يا سيدي كم انتظرت هنا تحت سيول الأمطار معرضة للهواء الذي يعصف بشدة، وكم لقيت من الانتظار، لقد ظننت أن غشاء اسود قد ستر عيني، لا اقدر أن اصف لك اضطرابي حينما علمت منك أنها آخر عربة تسير في الليل، آه لقد تأخرت كثيرا. - لقد كانت كأنها في حمية عن الكلام ثم تركتها فذهبت فيه مذهبا بعيدا وقالت:

- غريب جدا أن المصادفات في بعض الأحيان تظهر للمرء عجائبها وغرائبها كأنها تسخر منه، لقد فاتني القطار أيضا في (مقرى كوى) لذلك تأخرت حتى ذلك الوقت لأني انتظرت هناك طويلا، ولم يكن يخطر لي على بال أنى هنا سأركب في آخر عربة تسير في الليل وفي غير الجهة التي اقصدها.

فسألتها:

- إذن أنت آتية من مقرى كوي؟

أخذت الكلفة ترتفع بيننا شيئا فشيئا لان وجودي بجانبها طول المسافة التي قطعناها أظهرها على حسن نيتي وجعل لي في قلب هذه الفتاة الشابة موقعا حسنا فأجابتني على سؤالي جواباً طويلا مفصلا، قالت:

اجل يا سيدي إني اذهب مرتين في الأسبوع إلى (مقرى كوي) لإعطاء درس خصوصي هناك لإحدى السيدات، اه يا سيدي! إن حياتي شقية جدا، محتم علي أن اشتغل من الصباح

حتى المساء في جميع أنحاء هذا البلد الكبير، تصور المسافات التي اقطعها كل يوم: ذهبت اليوم صباحا إلى (طرابية) وعدت منها إلى (مقرى كوي) وأنت تعلم تباعد هذه المسافات وتنائي بعضها عن بعض. على هذه الصورة يجب أن اشتغل في أربعة أطراف البلد؛ فإذا كان الصيف احتملت كل ذلك، لان النهار طويل أتمكن فيه من تأدية دروسي من غير كبير مشقة ولا عناء، أما في الشتاء فالمشقة فوق الطاقة وخاصة في

مثل هذه الأيام عند شدة النوء وكلب الشتاء، لقد غلبني اليوم البكاء اكثر من مرة، ولا أتذكر أني تأخرت مثل هذه الليلة، وما الذي أقوله الآن في البيت لوالدي؟
وهنا انقطعت عن الكلام ولم تجسر على إتمام جملتها، لأنها فجأة شعرت بخجل من سردها تاريخ حياتها، ولما لم تجد في نفسها القوة على إتمام كلامها غيرت مجرى الكلام وقالت وهي تنفض ذراعها المبتلة من المطر.
- لقد ابتلت ثيابي.
فقلت لها:
- إن مظلتك صغيرة فاطويها وخذي مظلتي فهي تحفظك من المطر.
ولكنها لم تقبل وقالت:
- أشكرك يا سيدي! لا أود أن تبتل ثيابك اكثر مما ابتلت، ألا يكفي ما تحملت حتى الآن من اجلي؟
أردت أن أعود بها إلى الحديث عن حياتها فقلت لها.
- إذن لك والد فقط يا آنسة؟
- نعم يا سيدي. ثم قالت:
- أضننا قد بلغنا الجسر؟
وسكتت كأنها لا تريد أن تبحث عن شيء أبدا، ولكنها لم تتمكن من ذلك لأنها كانت في حاجة إلى أن تتكلم عن نفسها وان تحدثني عن حياتها، اجل! بحاجة شديدة إلى ذلك، فقالت:
- فقدت والدتي منذ سنتين، ومنذ ذلك الوقت اضطررت إلى العمل الكثير. كانت والدتي في حياتها هي التي تشتغل لنا، فلما ماتت ورثت تلك الوظيفة عنها وانتقلت إلى بمرارتها والمها.
هل لك والدة يا سيدي؟
فأشرت لها برأسي أن نعم، على أنها ما كانت تنتظر مني جواباً، لأن سؤالها هذاكان مقدمة لما تريد أن تحدثني به فقالت:
- إن اكبر تغيير يطرأ على حياة المرء يبتدي من تاريخ وفاة امه، لقد كنت حتى وفاتها اجهل الحياة وما فيها، كنت في مدرسة داخلية لا اعرف من الحياة إلا قدر ما يقع عليه نظري بين جدرانها السامقة، لا اعرف شيئا ولا اعرف أحدا ابدا، فلما توفيت والدتي واضطررت إلى ترك المدرسة والبقاء في البيت علمت أنني اجهل كل شي حتى أبى، أما الآن فقد عرفت الحياة جيدا، واختبرت أبناء آدم ظواهرهم وبواطنهم. لقد علمت كل ذلك، ولم يكد يمضي على دخولي في معترك الحياة اكثر من شهر. ولكن من المؤلم جدا أن يقف المرء على تلك الحقائق دفعة واحدة لان أعصابه تتزلزل بتلك الصدمة. لقد وصلنا إلى (الجسر) يا سيدي. أشكرك شكرا جزيلا، وهذه عربة هنا تقلني إلى البيت.
وهنا تهيأت لوداعي، ولكني رأيت أن المصادفات قد وقفتني على قصة حياة مؤلمة، فكنت أفكر في وسيلة أمد بها مرافقة تلك الفتاة حتى البيت، فقلت لها.
كلا أيتها الآنسة، إني سأرافقك حتى الجانب الآخر من (الجسر) لأني عدلت عن الرجوع إلى بيتي في مثل هذه الساعة وسأبيت بفندق هناك، فلم تعارضني بل اكتفت بتلك الإيضاحات وسرنا نقطع (الجسر) ونحن ساكتان.
كنا نمشي معا على أحد جانبي الطريق، وكنا نلاقي مشقة شديدة في إمساك مظلتينا بسبب ذلك الهواء الشديد البليل الذي كان يعصف من أحد جانبينا فيبلل ذلك الجانب.
وفي تلك الأثناء أدارت نظرها فيما حولها وقالت:
- نعم إن بقاء الفتاة الشابة كل حياتها محرومة من عطف الوالدة وحنانها مصيبة ليست تضارعها مصيبة.
ثم استأنفت كلامها فقالت:
هل تدري يا سيدي ما الذي يقلق فكري اكثر من كل شي بعد هذا التأخر؟
كانت مضطربة تماما واضطرابها يزداد شيئا فشيئا، كانت تشعر أنها في حاجة إلى أن تقص على الرجل الذي لا تعرفه ولا يعرفها الناحية التي خفيت من نواحي حياتها.
فسألها بسكون قائلا:
- ما هو أيتها الآنسة ذلك الذي يقلقك؟

قالت والدي!. ثم سكتت قليلا ثم قالت:
- أراني لا اقدر أن اصف لك والدي وصفا دقيقا، لا ادري كيف تنظر إلى فتاة تشكو إليك من والدها لأول مرة رأيتها فيها، ولكنك بمرافقتك لي حتى هذا المكان اثبت لي طيبة قلبك وصفاء نيتك، وانك بحسن تلك النية وبصفاء ذلك القلب ستدرك سلامة الأسباب التي ساقتني إلى تلك الشكاية، أليس كذلك يا سيدي؟.
كان الهواء يعصف بشدة، فلم نقدر أن نضبط مظلتينا ونقاوم الهواء الشديد فأغلقناهما وأخذنا نمشي غير مبالين بالمطر القليل الذي ينزل، بل خففنا السير لندرك وقتا كافيا للتكلم معا، وقد اقترب كلانا من الاخر، وكنا نسير متلاصقين بقلبينا وجسمينا كأننا قد تعارفنا منذ سنين لا منذ دقائق.
كانت هي في حاجة إلى أن تشكو إلى همومها، اجل! كانت في حاجة شديدة جدا إلى أن تنشر كل ما خفي من نواحي حياتها، وتبسطه أمام ذلك الرجل الذي ربما كان اجتماعها به مصادفة واتفاقا أول اجتماع وآخره، فقالت:
- اعلم يا سيدي أنى الليلة ككل ليلة ساجد والدي سكران طافحا، وحينما يراني يستقبلني بكلمات الشتم والتحقير، وفي بعض الأحيان. . . ولم تتم جملتها كأنها رأت أنها قد اعترفت لي بأكثر مما يجب، لذلك قطعت كلامها بسرعة وأتمت جملتها التي شرعت فيها بصورة أخرى، فقالت:
- لا أذكر أن والدي عمل يوما ما عملا مثمرا يعود عليه وعلينا بربح؛ كان في شبابه صاحب مقهى صغير في (بك اوغلى)، وكان يأتي بمغنيات في الشتاء إلى قهوته، وكانت والدتي إحدى أولئك المغنيات، اشتغلت عنده ثم تزوجها، وقد علمت هذه التفصيلات واحدة بعد أخرى مصادفة واتفاقا، ولا ادري كيف تم الاتفاق بين أبى وامي على الزواج الذي كنت ثمرته، ولكن ظهوري في الحياة كان سببا لأمراض كثيرة أصابت والدتي ومصائب أخرى اضطرتها إلى ترك العمل وأرغمت والدي على ترك المقهى. كانت والدتي موسيقية بارعة، فبعد أن تركت المسرح صارت معلمة تعطي النساء دروسا في الموسيقى؛ وأنا
اعرف والدتي وهي معلمة فقط، لم تكن تملك دقيقة من دقائق حياتها، بل كلها كانت رهن التعب والشقاء والتعليم والكدح في سبيل القوت، حتى اضطرت إلى وضعي في مدرسة داخلية، اخرج منها في الأسبوع مرة إلى البيت، أقول (البيت) وأنت تدرك بثاقب فكرك ما هو هذا البيت. كنا نسكن في غرفتين في الطابق الرابع من بناء كبير عال. كنت إذا جئتهما في يوم عطلة أو في يوم جمعة وجدتهما بعيدين عن الحياة العائلية كل البعد، فاهرب منهما إلى المدرسة. وكيف يكون البيت إذا كان لا يطبخ فيه الطعام، ولا تغسل فيه ثياب، ولا يعمل فيه شي مما يعمل في البيوت؟ كانت والدتي تشتغل بلا انقطاع لتحصيل القوت، وكان والدي بلا انقطاع يشرب الخمر، فهذان المخلوقان وان كانا متقاربين جسما يعيشان تحت سقف واحد، فقد كانا متباعدين كل البعد معني، وكنت أنا في سرور لأنني بعيدة عنهما، حتى أنى لم اكن أجد لهما في قلبي مكانا. استدعتني يوما مديرة المدرسة إليها وأخبرتني بوفاة والدتي ثم قالت: (ان المرء تصيبه في حياته مصائب جمة، فيجب أن يتلقاها بكل ثبات وصبر)، لم أجد في ذلك الوقت وفاة والدتي مصيبة كبيرة كما قالت المديرة، ولكني أصبحت احب والدتي بعد وفاتها، آه لو تعلم كم احبها الآن. . . كم احبها!
سكتت هنا قليلا، وقد شعرت أن صدرها يعلو وينخفض من حسرة كامنة في أعماق قلبها، ثم قالت:
- منذ ذاك الوقت أصبحت الحياة على أضيق من سم الخياط. أخرجني والدي من المدرسة، واخذ يسوقني من مكان إلى مكان. اجل! اخذ يسوق فتاة في السادسة عشر من عمرها، لا تعرف من الحياة إلا ما رأته من نافذة المدرسة، إلى الأماكن التي كانت والدتها تعطي دروسا فيها لتقوم مقام أمها في تحصيل اللقمة! منذ ذاك الحين انتقلت إلى وظيفة السعي وراء كسب القوت. وأنا الآن أسعى بكل قواي وأعطي دروسا، وكل يوم اقطع مسافات شاسعة متعبة، فمن (طرابية) إلى (مغري كوي)، ومن (اسكدار) إلى (بك اوغلي)، ولكني لا ادري لماذا اشتغل هذا الشغل؟ ولماذا اسعي كل هذا السعي؟. . انهم يقولون لي (اشتغلي) وأنا اصدع بالأمر. .!

كنا على وشك الوصول إلى آخر (الجسر) فتراءت لنا أضواء (غلطة)، فرأيت من الواجب أن أقول لتلك الفتاة المسكينة كلمتين اسليها بهما، فقلت لها:
- لا تجزعي يا انسة، اصبري وتجلدي، فالصبر أقوى من يعتمد عليه المرء في طريق الحياة. فهزت رأسها الصغير وقالت:
- الصبر يا سيدي؟ إن الإنسان أوجد لنفسه كلمات خداعه يخدع نفسه بها ليتحمل مصائب الحياة. وازداد اضطرابها فقالت:
هل تعلم يا سيدي ماذا ينتظرني في البيت بعد كل هذه الأتعاب وهذه المشقات من الصباح حتى هذا الوقت المتأخر من الليل؟ إن والدي في مثل هذه الساعة يعود من الحانة يرسم في مشيته لام الف، فإذا دخل المنزل جلس في غرفته يتم ما فاته في الحانة انتظارا لي، وهو قد جعل لنفسه في البيت حانة صغيرة، فغرفته مملوءة بالزجاجات الفارغة والأقداح المكسورة والصحون القذرة، لو رأيت كل ذلك لدهشت، كثيرا ما سعيت لتكون غرفته نظيفة ولكني لم افلح، فعدلت عن ذلك الآن وصرفت همتي إلى ترتيب غرفتي الخاصة وتنظيفها، لله تلك الغرفة الصغيرة! انه صغيرة إلا أنني أجد فيها راحة كبيرة، انزوي فيها بعد عودتي من العمل ليلا وبعد أن اخذ قسطي من كلمات التحقير والشتم التي يستقبلني بها أبى إرضاء لنفسه وكسرا لحدته، هناك في غرفتي فقط افهم معنى الراحة وأفسح المجال لدموع عيني أن تسيل فأجد السعادة في ذلك البكاء، اغسل به قسما مما تراكم على قلبي من الهم والبؤس.
تقول المسكينة (فأجد السعادة)، حتى هذه الفتاة البائسة ترى أن في البكاء سعادة، وفي هذه اللحظة لو لم اخش أن ترتاب بي لأمسكت يدها وشددت عليها بكل قوتي مظهرا ما في قلبي من الرحمة لها والإشفاق عليها.
فقالت بعد صمت قصير:
- أنا على يقين أنني هذه الليلة لن اقدر على تهدئته، آه ليت شعري ما الذي سيكون لي منه؟
فقلت لها:
- ولكنك أيتها الآنسة تشتغلين لأجل والدك، أفلا يدرك تلك الحقيقة فيشكرك عليها؟
وقفت عن السير في الحال ورفعت وجهها إلى ونظرت في وجهي ولم تقل شيئا، إلا أنني أدركت في الحال مغزى نظرتها هذه وما تقصده منها، كانت تريد أن تقول بها لمخاطبها الذي يدعي انه خبير بالحياة (أنت غر قليل التجربة) ثم خطر ببالي خاطر فجائي فقلت لها:
- أيتها الآنسة: إذا كانت مرافقتي لك حتى البيت وإعطائي الإيضاحات اللازمة لوالدك يفيدانك شيئا فاسمحي لي أن أرافقك حتى منزلك. فرددت قليلا ثم فكرت مليا وقالت - واكثر ظنها أن ذهابي معها سيخلصها من تحقير أبيها ويقلل من حدته -: - نعم يا سيدي اقبل لطفك هذا.
ثم أضافت إلى جملتها هذه قائلة:
- لقد اثر البرد في جسمك فهل لك في قدح من الشاي أقدمه إليك إذا انتهينا إلى البيت؟
ارتفعت الكلفة بيننا وأصبحنا صديقين. كنا في ذلك الحين نتجه نحو (غلطه قوله سي) فقالت:
أتراني لو لم تكن معي كنت اجسر على المرور وحدي من هذه الاماكن؟ ثم وقفت فجأة أمام دار كبيرة وقالت (هنا)
دخلنا إلى صحن الدار المفروش بأحجار المرمر ثم أخذنا نصعد الدرج الحلزوني، لا ادري كم صعدنا، ولكني شعرت بدوار في رأسي وضعفت رجلاي عن حملي لأننا كلما انتهينا من طابق وقفنا قليلا نستعيد قوانا للصعود إلى الطابق الذي فوقه. وقفت أخيرا وأنا أتنفس بقوة، فقالت ضاحكة: لم يبقى درج نصعده!
فدخلنا في دهليز صغير فيه ضوء ضئيل ووقفنا أمام باب، فنظرت إلى وجهي ولم تجسر أن تطرق الباب فطرقته بظهر يدي فلم يجبني أحد؛ طرقته مرة ثانية فسمعت صوتا يشبه صوت حيوان وحشي، ثم سمعت وقع أقدام تخطو رويدا رويدا خطوات غير منتظمة، وشعرت باقتراب أنفاسه منا، وأخيراً فتح لنا الباب وعاد من غير أن ينظر إلى

ما ورائه وفي قلبه من الغضب والسخط عواطف يخشى بأسها.
دخلنا في ممر ضيق ووقفنا أمام غرفتين متقابلتين إحداهما مفتوحة فدخلناها وعلمنا أن الرجل لم يتبين أننا شخصان إلا بعد دخولنا غرفته، فنظر إلي متحيرا بعينيه المحمرتين من تأثير الكحول فقلت له: إن ابنتك اليوم قد وقعت في خطأ.
كان عند كل كلمة القيها عليه في شرح موقف الفتاة وحالها ترتسم على وجهه المغطى بسحابه من البلاهة منشأها ذلك الإدمان ابتسامة خفيفة وترتخي أعصابه وتنحل
كنت وأنا اسرد له القصة، انظر إلى تلك السحنة البلهاء تارة، والى غرفته أخرى. كان غائر العينين بارز عظام الخدين قد رجل شعره بدهن اللوز ليلمع، وعلى وجهه مسحة شباب ميت قد أقامت ذلك الهرم المتصابي بقوة العلاج الذي كان يستعمله.
وكانت الغرفة قذرة ما تحويه هذه الكلمة من معنى، وكان كل ما فيها عبارة عن كراسي عتيقة مكسرة، ومنضدة صغيرة كمناضد المقاهي عليها مشمع اسود اللون، وزجاجات خمر ونبيذ فارغات، وصحون قذرة، ومصباح قد طار من زجاجة قطعة فجعل مكانها ورقة سيجارة وينشر ضياء ضئيلا كأنه أنين باك موجع، وفيها فراش إن صح أن يسمي مثله فراشا، حولت نظري المتألم عن كل هذه الأشياء وقلت له:
- لقد جئت بالآنسة إلى هنا وهاأنذا أسلمها إليك.
فلما سمع مني تلك الكلمة ظهر ما لم يكن في الحسبان: ذلك أن والد تلك الفتاة المسكينة السكير البغيض الذي أبتدأ حياته أجيرا في أماكن الريب في (غلطه) أمضى قسما منهما في مرقص أنشأه بنفسه، تقدم مني مشيرا إلى فتاته الطاهرة التي كانت تنتظر النتيجة، وقد تجلت عليه تماما إمارات البلة وقال:
- لقد ظهرت الحقيقة أيها السيد. . .
- ثم اقترب مني وقال وهو ينظر إلى نظرة مرتاب:
- يظهر أن الآنسة قد وقعت من نفسك. . .
فأدركت سوء نية ذلك الرجل. كم كانت يدي في تلك الدقيقة تود أن تصفع ذلك السكير! حولت نظري إلى ابنته فوجدت وجهها قد علاه الاحمرار، لأنها أدركت غاية والدها.
لله أنت أيتها المعلمة الصغيرة! أيتها المخلوقة التي تشتغلين من الصباح حتى المساء لإشباعوالدك، هل أنت حقا ابنة ذلك الرجل؟!
حولت وجهها عني فلم اشك أنها في تلك الدقيقة كانت تود لألمها من تلك المهانة التي لحقها في عصمتها وعفتها، والجرح الذي أصابها في كرامتها، أن تهرب من بين يدي وتذهب إلى حيث لا أراها فتبكي. . . وتبكي. . .
لم اجبه بشي ما، إن الرجل كان لا يزال ينظر إلى نظرة المرتاب، فأدركت أن من الواجب البعد عن ذلك المكان. وكأنه أدرك ما دار في خلدي، فعرض علي مستهزئا كأسا من
(الكونياك) فقلت:
- شكرا. ليس لدي من الوقت ما يتسع لذلك.
وسرت نحو الباب، فظهرت من الفتاة حركة تدل على أنها تود أن تخرج معي حتى الباب تودعني. لكنها لم تجسر على ذلك في بادئ الأمر، ثم أقدمت عليه وسارت ورائي. بقى والدها في غرفته يضحك ضحكا عاليا كأنه يعلن به ما قاله أولا: (يظهر أن الآنسة وقعت من نفسك!!)
تبعتني الفتاة حتى باب الدار وقلت بصوت وتخنقه العبرات:
- سيدي. . .
ثم اضطربت ولم تستطع أن تتم جملتها.
حينذاك أخذت يدها وهي في القفاز بكلتا يدي، وشددت عليها مظهرا ألمي على تلك الزهرة الناضرة التي نبتت في ذلك المكان الملوث، وحكم عليها أن تعيش فيه عيشة حقارة ومهانة وقلت لها:
- أيتها الآنسة: اكرر لك جملتي السابقة وأقول. إن الصبر أقوى ما يعتمد عليه المرء في طريق الحياة. لا أظن أننا نلتقي مرة أخرى، ولكن كوني على ثقة أنني دائما سأتمنى لك من صميم قلبي السعادة والهناء.

فانحدرت من عينيهادمعتان كبيرتان وسالتا على خديها ثم استقرتا على صدرها، أعلنت بهما شكرها لي.
ففررت من ذلك المحل، وكنت وأنا انزل الدرج أقول في نفسي:
(لقد وعدتها أن أتمنى لها دائما السعادة، ولكن أين منها السعادة؟!).
لعمري لو رايتها حين يبدي الربيع نواره، وينثر على بسط الزبرجد أزهاره، على عربة من تلك العربات الضخمة، التي يركبها صائدات القلوب وسالبات الجيوب وهي متجهة نحو (شيشلي) حيث تموت الفضيلة، وتحيا الرذيلة، تسلم على أحبابها بابتسامات غريبة وإشارات مريبة، لم اعجب لذلك بعد الذي رأيت من حالها مع أبيها.
ما أتعس تلك الفتاة الصغيرة! إنها بين شقاء ين: شقاء الحاضر بابيها المختبل، وشقاء المستقبل بشرفها المبتذل.
نزيلة بعلبك
فتاة الفرات
العدد 66 - بتاريخ: 08 - 10 - 1934
نهضتنا الاقتصادية
بمناسبة النمو العجيب في شركة مصر للغزل والنسيج
نهضتنا الاقتصادية هي وحدها الدليل الناهض على نضوج شعبنا المظلوم. لأنها نَسقَ من الضرورة والقدرة على النظام والثقة قائم بذاته لا يقوم على الهوى، ولا ينتظم على الطيش، ولا يصبر على الفساد، ولا يتقدم على العجز، ولا يبلغ شيئاً وراء الزعامة الرخوة. فبينما نجد النهضة السياسية تنتكس فترجع إلى الموت، والحالة الأخلاقية تنحل فتعود إلى المهانة، والحركة الأدبية تضطرب فتنقلب إلى الفوضى، وحمية الشباب تنكسر فترتد إلى الفتور، نجد هذا الركن القوي الذي يقوم على بنك مصر وشركاته يثبت أصله في الأرض، ويسمو فروعه في السماء، ويمسك هذا الوطن المنكود في مهب الأزمات ومضطرب الكوارث. واطراد النجاح في هذا العمل الشعبي الخالص مبعثه إخلاص القادة، وثقة الأمة، وضمان من الله يسميه الدين إيمانا، والخلق ثباتاً، والعلم كفاية، ونسميه نحن: طلعت حرب.
إن هذا اللحن الذي يتألف من صريف الأموال المصرية في (البنك)، وهدير البواخر المصرية في البحر، وأزيز الطوائر المصرية في الجو، ودوي المصانع المصرية في (المحلة)، لهو النشيد القومي القوي الذي يعلن استقلال البلاد، ويملأ مسامع الأجانب، وينبه مطامع الشعوب إلى أن هنا أمة حية لها ماض تستهديه، ووطن تستغله، وغرض تسعى إليه؛ وأن هذا التوسع المطمئن الحازم في شركة مصر للغزل والنسج في الوقت الذي تُتَّهم فيه كفاية البلد، وتطير الشائعات السود في جو السياسة، تصحيح للإفهام الأجنبية التي تحاول استنتاج الحقيقة المصرية من أخطاء جماعة.
كان نجاح شركات (بنك مصر) نجاحاً حقيقياً طبيعياً يطّرد اطراد الزمن من غير بطئ ولا طفرة. ولكن نجاح هذه الشركة - شركة مصر للغزل والنسج - وهي كأخواتها مصرية الرجال والأموال والعمال والمادة، جاوز حدود الظن، وفات معاقد الأمل؛ فقد أنشئت منذ ثلاث سنوات وعدد أنوالها 448 نولاً فأصبح اليوم أربعة آلاف، وعدد مغازلها اثنا عشر ألف مغزل فبلغ هذا العام خمسين ألفاً، وعدد عمالها ستة آلاف فأصبح مع هذا التوسع ثمانية عشر ألفاً، وكانت مصانعها تنشأ بادئ الأمر على قدر الحاجة، فبسطها النجاح السريع، والفرص المواتية، والإدارة الرشيدة، حتى بلغت مساحة الأرض التي تقوم عليها اليوم مائة فدان؛ وكان عملها مقصوراً على غزل القطن المصري ونسجه، فصنعت الآن
(الدوبارة، والفانلات، والجوارب، وبكر الخيط، والقطن الطبي). فأصبحت بهذا النمو العجيب في هذا الوقت القريب من أكبر المصانع العالمية.
عمل جسيم من أعمال الإدارة والفن، غزت به هذه الشركة ميادين الاقتصاد في البلاد، وفتحت الطرق الموصدة أمام الرءوس المصرية، والأيدي المصرية، لتفكر بنفسها، وتعمل لنفسها، وتنسج من القطن المصري الجميل، مجد الكنانة واستقلال النيل.
هذه هي الوطنية المثمرة بوسيلتها وغايتها. فأما ثمرة وسيلتها فتوظيف الأموال المصرية في أضمن مكان وأرج مورد، وتخفيف العطلة باستخدام هذا الجيش الكثيف من العمال وما يتبعه من مرشدين ومهندسين وكتبة، واستهلاك مقدار من القطن

المصري قد يربو على خمسمائة ألف قنطار، ثم نشر الثقافة الآلية الحديثة في هذه الصناعة بمن ترسله من البعوث إلى أوربا، ومن تدربه من الأحداث في المصانع. وأما ثمرة غايتها فدفع هذا الاحتلال الاقتصادي الذي أفقر البلاد وأذل الشعب، وحبس أموالنا في بلادنا حتى لا تخرج ذهباً من أيدينا لترجع حديداً في أرجلنا، وإنماء العزة القومية بشعور المصري انه يلبس من زرعه ومن صنعه، وترفيه الحياة المصرية بكثرة الإنتاج ووفرة المكسب وتوزيع الثروة، ثم تمكين النفوذ المصري في الأسواق الشرقية والأقطار العربية، وذلك مجد ورثناه ثم حرمناه منذ طويل.

قَدَرت الأمة الرشيدة غاية هذه الشركة، وعقد آمالها بمستقبلها، وأخلدت بثقتها إلى رجالها، فلم تضن عليها بالعطف والمساهمة. وآية ذلك أنها أصدرت منذ ثلاثة شهور 17500 سند بثلاثمائة وخمسين ألف جنيه بفائدة 5 % فبينت كلها على رغم هذه الأزمة! وهاهي ذي تريد اليوم أن تطرح للاكتتاب العام خمسة وسبعين ألف سهم اقتضاها نمو المشروع، واتساع العمل، والتقدير الدقيق لحاجة البلاد، وضرورة التصدير، وضمان المستقبل. ولا ريب أن الأمة التي تئن أنين الأسير المُعاني من الاحتلال والاستغلال والامتيازات، لا تني عن تعضيد هذه الشركة وأخواتها بالأموال والآمال. بعد ما علمت بدلائل التجربة وشواهد الواقع أنها أنجح الوسائل وأقصر الطرق لإدراك الاستقلال الصحيح.

. . . أرملة حكومة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

فيما تواضعنا علينا بيننا وبين قرائنا هو الرجل العَزَب، يكون مُطِيقاً (أرملة الحكومة) للزواج قادراً عليه ولا يتزوج؛ بل يركب رأسه في الحياة، ويذهب يُمَوِّهُ على نفسه كذبا وتدليساً، وينتحل لها المعاذيرَ الواهية، ويَمْتَلِق العللَ الباطلة، يحاول أن يُلْحق نفسه بمرتبة الرجل المتزوج من حيث يَحُطُّ الرجلَ المتزوجَ إلى مرتبته هو؛ ويضيف شؤَمه على النساء إلى هؤلاء النساء المسكينات، يزيدهن على نفسه شرَّ نفسه؛ ويرميهنّ بالسوء وهو السوءُ عليهن، ويَتَنَقَّصهُنّ ومنه جاء النقص، ويَعِيبهُنّ وهو أكبر العيب؛ لا يتذكر إلا الذي له، ولا يتناسى إلا الذي عليه، كأنما انقلبت أوضاع الدنيا، وتبدلت رسومُ الحياة، فزالت الرجولة بتبعاتها عن الرجل إلى المرأة، وانفصلت الأنوثة بحقوقها، فوجب أن تَحمل تلك ما كان يحمل هذا، فتُقْدِمَ ويَقَرَّ وادعاً، وتتعتب ويستريح، وتعاني الهمومَ السامية في الحياة الاجتماعية، ويعانَى المخنَّثُ ابتساماتِه ودموَعه، متّكئاً في مجلسه النّسيميّ تحتَ جناح المِرْوحة. . . فأما المرأة فتشرِف على هَلَكَتِها، وتخاطِرُ بحاضرها ومستقبلها، وأما هو فيبقى من ثيابه في مثل الخِدْر المصُون. . . !

هو ذلك الشاب الزائف المُبهْرَج، يُحْسبُ في الرجال كذبا وزوراً، إذ لا (أرملة الحكومة) تكمل الرجولةُ بتكوينها حتى تكمل بمعاني تكوينها، وأخصّ هذه المعاني إنشاءُ الأسرة والقيامُ عليها، أيْ مغامرةُ الرجال في زمنه الاجتماعيّ ووجودِه القوميّ، فلا يعيش غريباً وهو معدود فيه؛ ولا طُفَيْليّا فيه وهو كالمنفيَّ منه، ولا يكونَ مَظْهراً لقوة الجنس القوي هاربةً هروب الجبن من حَمْل ضَعف الجنس الآخر المحتمي بها، ولا لمروءة العشير مُتَبرِّئةً تَبَرُّؤَ النذالة من مؤازرة العشير الآخر المحتاج إليها؛ ولا يرضى لنفسه أن يكون هو والذل يعملان في نساء أمته عملاً واحداً، وأن يصبح هو والكساد لا يأتي منهما إلا أثرٌ متشابه، وأن يبيت هو والفناء في ظلمةٍ واحدة كظلمات القبر، تنتقل الأجداثَ إلى الدور، فتجعل البيت الذي كان يقتضيه الوطنُ أن يكون فيه أبٌ وأمٌ وأطفال - بيتاً خاوياً كأنما ثكل الأم والأطفال، وبقيت فيه البقية من هذا الرجلِ العَزَبِ الميت أكثرُ تاريخه. . . !

لقد رأيت بعينيّ أداةَ العزب وأثاثه المبعثر في بيته، كأنما يقصّ عليه كلُّ ذلك قصةّ شؤمه ووحدته، وكأنما يقول له الفَرْش والنَّجْدُ والطراز: (بعني يا رجل وردَّني إلى السوق؛ فأني هنالك أطمع أن يكون مصيري إلى أب وأم وأولاد، أجدُ بهم فرحةَ وجودي، وأصيب من معاشرتهم بعض ثوابي، وأبلى تحت أيديهم وأرجلهم فأكون قد عملت عملاً إنسانياً. أما عندك فأنت خشبة مع الخشب، وأنتِ خِرقة بين الخِرق. واسمع الكرسّي إنه يقول: أفّ. وأصغِ إلى فراشك انه يقول: تفّ. . .)

شهد العزبُ وربِّ الكعبة على نفسه أنه مُبْتَلىً بالعافية، مستعبدٌ بالحرية، مجنون

بالعقل، مغلوب بالقوة، شقي بالسعادة. وشهدتْ الحياة عليه ورب البيت أنه في الرجولة قاطع طريق يقطع تاريخها ولا يؤَّمنُه، ويسرق لذاتها، ولا يكسبها، ويخرج على شَرْعِها ولا يدخل فيه، ويعصي واجباتها ولا ينقاد لها. وشهد الوطن - والله - عليه أنه مخلوق فارغ كالواغل على الدنيا؛ إن كان نعمةً بصلاحه، انتهتْ النعمةُ في نفسها لا تمتد؛ وأن كان بفساده مصيبةً امتدتْ في غيرها لا تنقطع. وأنه شحّاذ الحياة أحسن به الأجداد نسلاً باقياً، ولا يُحْسن هو بنسل يبقى، وأنه في بلاده كالأجنبي، مهبطة على منفعةٍ وعيشٍ لا غيرِهما، ثم يموت وجوُد الأجنبي بالنَّقْلةِ إلى وطنه، ويموت وجودُ العزب بالانتقال إلى ربه، فيستويان جميعاً في انقطاع الأثر الوطنيّ، ويتفقان جميعاً في انتهاب الحياة الوطنية، وأن كليهما خرج من الوطن أبْترِ لا عَقِب له، ويذهبان معاً في لحج النسيان: أحدهما على باخرة، والآخر على النعش!

جاءني بالأمس (أرملة حكومة) وهو مهندس موظف. ومعنى الهندسة الدقة البالغة في الرقْم والخط والنقطة وما احتمل التدقيق؛ ثم الحذُر البالغ أن يختلّ شيء أو ينحرف، أو يتقاصر أو يطول، أو يزيد أو ينقص، أو يدخله السهو، أو يقع فيه الخطأ؛ إذ كان الحاضر في العمل الهندسيّ وإنما هو للعاقبة، وكان الخيال للحقيقة؛ وكان الُخرْق هنا لا يقبل الرُّقعة. ومتى فَصلت الأرقام الهندسية من الورق إلى البناء مات الجمع والطرق والضرب والقسمة، ورجع الحساب حينئذ وهو حساب عقل المهندس؛ فأما عقل دقيق منتظم، أو عقل مأفون مختلّ.

بَيّد أن المهندس - على ما ظهر لي - قد خَلَتْ حياته من الهندسة. . . وانتهى فيها من التحريف المضحك - حتى فيما لا يخطئ الصغار فيه - إلى مثل التحريف الذي قالوا إنه وقع في الآية الكريمة (إياك نعبد وإياك نستعين). فقد رَوَوا أن إمام قرية من القرى في الزمن القديم كان يخطب أهل قريته ويصلي بهم في مسجدها، فنزل به ضيف من العلماء فقال له الخطيب: إن لي مسائل في الدين لم يتوجّه لي وجهُ الحق فيها، ولا أزال متحّير الرأي، وكنت من زمن أتمنى أن ألقى بها الأئمة فأريد أن أسألك عنها. قال العالم: سَلْ ما أحببت.

قال الخطيب: أشْكَلَ عليَّ في القرآن بعضُ مواضع، منها في سورة الحمد (إياك نعبد وإياك). . . أيّ شيء بعده. (تسعين، أو سبعين). . .؟ أشكَلَتْ عليَّ هذه فأنا أقرأها: تسعين. . . أخذاً بالاحتياط!

كذلك مهندسنا فيما أشكل عليه من حسابه للحياة، فهو عَزَب أخذاً بالاحتياط. قال وهو يحاورني: -

كيف تُكَلّفني الزواج وتُكرِهني عليه، وتَعنِّفني على العزوبة وتعيبني بها؛ وإنما أنت كالذي يقول: دع الممكن وخذ المستحيل. إن استحالة الزواج هي جعلتْني عَزَباً، والعزوبة هي جعلتني فاسداً، وفي هذا الجو الفاسد من حياة الشباب إما أن تكسد الفتاة، وإما أن تتصل بها العَدْوَى. والعزب لا يأبى أن يقال فيه إنه للنساء طاعون أحمر أو هواء أصفر، فهو والله مع ذلك موت أسود وبلاء أزرق.

قلت: لقد هوَّلت عليّ؛ فما مستحيُلك ياهذا، ولِمَ استحال عليك ما أمكن غيرَك، وكيف بلغت مصر خمسة عشر مليوناً؟ أمِنْ غير آباء خُلِقوا، أم زُرِعوا زرعاً في أرض الحكومة؟ أسمع - ويحك - ألا يكون الرجال قد أقبلوا وتراجَعْت، وتجلدوا وتوَّجعْت، أو أقْدَموا وخنسْت، واسترجلوا وتأنَّثْت؟

قال: ليس شيء من هذا.

قلت: فان المسألة هي كيف ترى الفكرة، لا الفكرةُ نفسها، فما حملك على العزوبة وأنت موظف وظيفتك كذا وكذا ديناراً، وأنت مهندس يصدق عليك ما قالوه في الرجل المجدود: لو عَمِد إلى حَجرٍ لانفلق له عن رزق.

قال: أليس مستحيلاً ثُمّ مستحيلاً أن يجمع مثِلي يده على مائة جنيه يدفعها مهراً؛ وما طرقت - علم الله - بابا إلا استقبلوني بما معناه: هل أنت معجزة مالية، هل أنت مائة جنيه؟

قلت: فان عملك في الحكومة يُغِلّ عليك في السنة مائة وثمانين ديناراً فِلمَ لا تعيش سنة واحدة بثمانين فتقع المعجزة؟

قال: (بكل أسف) لا يستطيع الرجل العزب أن يدخر أبداً؛ فهو في كل شيء مبدَّد ضائع متفرق.

قلت: فهذه شهادتك على نفسك بالسفه والخرق والتبذير؛ تنفق ما يكفي عدداً وتضيق بواحدة، وماذا يرتئي مثلك في الحياة؟ أعند نفسه وفي يقينه أن يتأبّد فيبقى عزباً فهو ينفق ما جمع في شهوات حياته، ويتوّسع فيها ضروباً وألواناً، ليكون وهو فرد كأنه وهو في إنفاقه جماعة، كل منهم في موضع رذيلة أو مكان لهو؛ وكأن منه رجالاً هو كاسبهم وعائلهم، ينفق على هذا في القهوة، وعلى هذا في الحانة، وعلى ذلك في الملاهي، وعلى الرابع في المواخير، وعلى الخامس في المستشفى. . .؟ إن كان هذا هو أصل الرأي عند العزب، فالعزب سفيه مجرم، وهو إنسان خرب من كل جهة إنسانية، وهو في الحقيقة ليس المتّسِعَ لنفقات خمسة، بل كأنه قاتل خمس من أبناء وطنه؛ إذ كان بهذا مطيقاً أن يكون أبا ينفق على أبنائه، لا سفيهاً ينفق على شياطينه.

فان كان قد بنى رأيه على أن يتعزّب مدة ثم يتأهل، فهذا أحرى أن يعينه على حسن التدبير، وهو مَصْراةٌ له على شهوة الجمع والادخار؛ إذ يكون عند نفسه كأنما يكدح لعياله وهو في سعة منهم بعدُ، وهم لا يزالون في صُلبه على الحال التي لا يسألونه فيها شيئاً إلا أخلاقاً طيبة وهمماً وعزائم يرثونها من دمه فتجيء معهم إلى الدنيا متى جاءوا.

إنما العزب أحد رجلين: رجلٍ قد خرج على وطنه وقومه وفضائلِ الإنسانية، قاعدته: جُرَّ الحبل ما انجرَّ لك. وهذا داعر فاسق، مبذر متلافٌ إن كان من المياسير؛ أو مُرِيب دنيء حقير النفس إن كان من غيرهم - ورجلٍ غير ذلك، فهو وثاق الضرورة إلى أن تُطْلِقَه الأسباب، ومن ثم فهو يعمل أبداً للأسباب التي تُطْلقه، ويعرف أنه وإن لم يكن آهلاً فلا تزال ذمته في حق زوجة سيعولها، وفي حقوق أطفال يأبوهم، وواجبات وطن يخدمه بإنشاء هذه الناحية الصغيرة من وجوده، والقيام على سياستها، والنهوض بأعبائها. فانظر ويحك أيّ الرجلين أنت؟

قال: فتريدني أن أقامر بتعب سنة وأنا بعد ذلك وما يُقْدِرُ لي، وقد أشتري بتعب سنة من العمر تعب العمر كلّهِ؟

قلت: فهذه هي خسّة الفرديّة ودناءتُها الوحشية في جنايتها على أهلها، وسوءِ أثرها في طباعهم وعزائمهم؛ فهي فرديّة تضرب فيهم العاطفةَ الاجتماعية ضرْب التلف، وتبتليهم بالخوف من التبعات حتى ليتوهم أحدهم أنه إن تزوج لم يدخل على امرأة، ولكن على معركة. وهي تصيبهم بالقسوة والغلظة؛ فما دام الواحد منهم واحداً لنفسه، فهو في تصريف حكم الأثرة، وفي قانون الفتنة بأهواء النفس ومنافعها؛ كأنما يعامله الناس رجلاً كلّه مَعِدَة، أو هو فيهم قوة هضم ليس غير.

قال: ولكن الزواج عندنا حظّ مخبوء (لوتريّة) والنساء كأوراق السحب، منهن ورقة هي التوفيق والغنى بين آلاف هن الفقر والخيبة المحقّقة.

قلت: هل اعتدت أن تتكلم وأنت نائم؟ فلعلك الآن في نومة عقل، أولا فأنت الآن في غفلة عقل.

إن هذا المسكين الذي يمسح الأحذية ويشتري من تلك الأوراق لا يخلو منها - يعلم علماً أكثر من اليقين أن عيشه هو من مسح الأحذية لا من الأخيلة التي في هذه الأوراق؛ فهو لا يعتدّ بها في كبير أمرٍ ولا صغيره، وما يُنزِلها في حساب رغيفه وثوبه إلا يوم يُخالطُ في عقله فيتنزّه أن يمسح أحذية الناس، ويرى أن عظيماً مثله لا يمسح إلا أحذية الملائكة. . .

أنت يا هذا مهندس، ولك بعض الشأن وبعض المنزلة، فَهَبْك ارتأيت أنه لا يحسن بك أو لا يَحْسُنُ لك إلا أن تتزوج بنت ملك من الملوك، فهذه وحدها هي عندك (النمرة الرابحة) وسائر النساء فقر وخيبة ما دام الأمر رأيك وهواك؛ غير أنك إذا عَرضْت لتلك (النمرة الرابحة) لم تعرفك هي إلا صعلوكاً في الصعاليك وأحمق بين الحمقى.

إن تلك الأوراق تُصْنع صنعتَها على أن تكون جملتُها خاسرة إلا عدداً قليلا منها؛ فإذا تعاطيتَ شراءها فأنت على هذا الأصل تأخذها، وبهذا الشرط تبذل فيها؛ وما تمتري أنت ولا غيرك أن القاعدة هاهنا هي الخيبة، وشذوذها هو الربح؛ وليس في الاحتمال غير ذلك؛ ومن ثمّ فقد بريء إليك الحظّ إن لم يصبك شيءٌ منه، وأين هذا وأين النساء، وما منهن واحد إلا وفيها منفعة تكثر أو تقل، بل الرجال للنساء هم أوراق السحب في

اعتبارات كثيرة، مادامت طبيعة اتصالهما تجعل المرأة هي في قوانين الرجل أكثر مما تجعل الرجلَ
في قوانينها. وهل ضاعت امرأة إلا من غفلة رجل أو قسوته أو فسولته أو فجوره؟
قال المهندس: فإني أعلم الآن - وكنت أعلم - أن لا صلاح لي إلا بالزواج، وإن طريقي إلى الزوجة هو كذلك طريقي إلى فضيلتي والى عقلي. وتالله ما شيءٌ أسوأ عند العزب ولا أكره إليه من بقائه عزباً غير أنه يكابر في المماراة كلما تحاقرت إليه نفسه، وكلما رأي أن له حالاً ينفرد بها في سخط الله وسخط الإنسانية. ولا مَكْذِبة، فقد والله أنفقتُ في رذائلي ما يجتمع منه مهر زوجةَ سريّة تشتطّ في المهر وتغلو في الطلب؛ ولكن كيف بي الآن وما جبَرني من قبلُ إصلاحٌ، ولا أعانني اقتصاد، ومن لي بفتاة من طبقتي بمهرٍ لا أتحمل منه رهَقاً، ولا تتقاصر معه أموري، ولا تختل معيشتي؟
قلت: فإذا لم يحملك الحمار من القاهرة إلى الاسكندرية؛ فانه يحملك إلى قليوب أو طوخ. وفي النساء إسكندرية، وفيهن شبرا، وقليوب، وطوخ، وما قرب وبَعد؛ وما رخص وغلا.
قال: ولكن بلدي إسكندرية. . .
قلت: ولكنك لا تملك إلا حماراً. . . وللمرأة من كل طبقة سِعْرها في هذا الاجتماع الفاسد؛ ولو تعاون الناس وصلحوا وأدركوا الحقيقة كما هي، لَمَا رأينا الزواج من فقر المهور كأنما يركب سلحفاة يمشي بها. . . ونحن في عصر القطار والطيارة، وقد كان هذا الزواج على عهد أجدادنا في عصر الحمار والجمل - كأنه وحدة من السرعة في طيارة أو قطار.
حين يفسد الناس لا يكون الاعتبار فيهم إلا بالمال؛ إذ تنزل قيمتهم الإنسانية ويبقى المال وحده هو الصالح الذي لا تتغير قيمته. فإذا صلحوا كان الاعتبار فيهم بأخلاقهم ونفوسهم؛ إذ تنحطّ قيمة المال في الاعتبار، فلا يغلب على الأخلاق ولا يسخرها. وإلى هذا أشار النبي (صلى الله عليه وسلم) في قوله لطالب الزواج: (التمس ولو خاتماً من حديد.) يريد بذلك نَفي المادَّية عن الزواج، وإحياء الروحية فيه، وإقرارَه في معانيه الاجتماعية الدقيقة. وكأنما يقول: إن كفاية الرجل في أشياء أن يكن منها المال فهو أقلها وآخرها، حتى إن الأخسّ الأقلّ فيه ليُجْزئ منه كخاتم الحديد؛ إذ الرجل هو الرجولة بعظمتها وجلالها وقوّتها وطباعها، ولن يُجْزئ منه الأقلُّ ولا الأخسّ مع المال، وإن ملء الأرض ذهباً لا يُكَمّل للمرأةِ رجلاً ناقصاً؛ وهل تُتِمُّ الأسنان الذهبيةُ اللامعة يحملها الرجل الهرم في فمه شيئاً مما ذهب منه؟ وما عسى أن تصنع قُواطعُ الذهب الخالص وطواحُنه لهذا المسكين بعد أن نطق
تحَاتُّ أسنانه العظميَّة وتناثُرُها أنه رجل حلَّ البَلى في عظامه. . .؟
طنطا
مصطفى صادق الرافعي
عصبة الأمم والأمم الشرقية
لمناسبة انضمام أفغانستان إليها
للأستاذ محمد عبد الله عنان
انتظمت في سلك عصبة الأمم دولة شرقية جديدة هي أفغانستان، وكان قبولها في العصبة بإجماع الآراء تقريباً، ولم يبق خارج العصبة من أمم الشرق الأدنى والأوسط بعد دخول تركيا وأفغانستان سوى مصر وسوريا والمملكة السعودية واليمن. ولعلائق الأمم الشرقية بعصبة الأمم وموقفها منها تاريخ خاص، يصح أن نستعرضه بهذه المناسبة. وقد بدأت هذه العلائق منذ مولد العصبة ذاتها، وكانت العصبة يومئذ إحدى نفثات ذلك الإنجيل الجديد الذي بشر به توماس ودرو ولسون أعظم ذهن هائم في التاريخ المعاصر، والذي انهارت مبادئه ووعوده في فرساي مهد تطبيقه. كان إنجيل الصلح بين الأمم المتحاربة على قواعد التسامح والعدالة، وإنجيل السلام والتفاهم، وإنجيل الحريات الدولية والاعتراف بحقوق الشعوب في تقرير مصايرها، فاستحال في فرساي، وفي نصوص معاهدة الصلح، إلى بركان من الشهوات القوية، ومزقت باسمه شعوب، وأرهقت أخرى، ومنحت الحرية لشعوب، وسلبت أخرى حرياتها، وفرضت عليها العبودية بأسماء وصور جديدة. وكان المفروض أن عصبة الأمم ستغدو عصبة دولية إنسانية تجمع الأمم على احترام السلام والمثل الإنسانية الخالدة، ولكنها جاءت

منذ مولدها نفثة من تلك الروح التي أملت معاهد الصلح؛ روح الظفر والأثرة؛ وكان موقفها من الأمم الشرقية بالأخص مناقضاً لجميع العهود التي قطعت، والمبادئ التي قررت.

كانت اليابان والصين والهند وسيام والحجاز هي الأمم الشرقية التي وقعت على ميثاق عصبة الأمم ومعاهدة الصلح (وميثاق العصبة هو القسم الأول من المعاهدة) منذ وضعهما في يونيه سنة 1919، وبذلك غدت أعضاء في العصبة منذ إنشائها، وقد أبى الوفد الصيني أن يوقع معاهدة الصلح احتجاجاً على بعض نصوصها التي تمنح الانتداب لليابان على بعض الأراضي الصينية التي كانت بيد ألمانيا، ولكن الصين اعتبرت عضواً في العصبة لأنها وافقت على الميثاق. أما الحجاز فقد كانت يومئذ هي المملكة العربية الجديدة التي أنشأها الإنكليز للحسين بن علي، والتي انهارت قبل أعوام قلائل. وكانت فارس من الأمم

التي دعيت إلى دخول العصبة منذ إنشائها، وقد انضمت إليها غير بعيد، وإما تركيا فقد كانت من أمم الأعداء، وكان مقضياً عليها بالتمزيق والإعدام، وكانت أفغانستان تخوض يومئذ حرب الحرية مع الإنكليز. وأما العراق وسوريا وفلسطين، فقد كانت من ضحايا الانتداب الذي ابتدع لتوزيع أسلاب الدولة العثمانية الذاهبة على الحلفاء. وكانت مصر ضحية الحماية الإنكليزية التي أعلنت عليها قسراً أيام الحرب، وكانت تضطرم بثورتها التحريرية التي انتهت بعد ذلك بعامين بإلغاء إنكلترا للحماية وإعلان استقلال مصر من الوجهة النظرية. والواقع أنه لم يكن للشرق في العصبة عند قيامها سوى صوت قوي واحد هو صوت اليابان. ولكن اليابان كانت من دول الحلفاء، وكان دخولها في العصبة لتأييد نفس المبادئ وتحقيق نفس الغايات التي تؤيد وتعمل على تحقيقها الدول الغربية، وكان لها نصيبها من أسلاب الحرب، ولم تكن في سياستها الاستعمارية أقل شرهاً من إنكلترا أو فرنسا. وأما الصين فقد كانت تتخبط في غمار الحرب الأهلية، وكان تمثيلها في العصبة على يد وحدة صغيرة فيها هي جمهورية كنتون الناشئة. وأما الهند فقد دخلت باعتبارها من الأملاك البريطانية لتشد إلى جانب استراليا وكندا وجنوب أفريقية أزر بريطانيا العظمى في سياستها ومشاريعها داخل العصبة. ودستور العصبة يجيز دخول الأملاك المستقلة والمستعمرات الحرة. وأما الحجاز فلم تكن لها يومئذ أية أهمية سياسية أو دولية، ولم يكن مثولها في مؤتمر الصلح، ودخولها في العصبة إلا ضرباً من المجاملة النظرية.

كانت عصبة الأمم منذ قيامها إذاً هيئة غربية في روحها وفي جوهرها، ولم تكن تمثل من الوجهة العملية شيئاً من المبادئ الرنانة التي أعلنها الرئيس ولسون في ختام الحروب، والتي أريد أن تكون قاعدة لعقد الصلح الحر بين الأمم المتحاربة وقيام عصبة حرة من الأمم تعمل على تخليد مبادئ الحرية والعدالة والوئام فيما بينها، ومع ذلك فقد بعثت مبادئ الرئيس ولسون المتعلقة بحريات الأمم ومصير الشعوب في بعض الأمم المغلوبة شيئاً من الأمل، وكان مفروضاً أن ذلك الهيكل الجديد الذي أقيم ليعاون في تطبيق هذه المبادئ الخالدة - أعني عصبة الأمم - سيكون بالفعل سنداً للأمم الشرقية في جهادها في سبيل الحرية والاستقلال، ولكن ذلك الأمل كان وهماً، وجاءت عصبة الأمم بالعكس لتقر من المبادئ والأساليب إزاء بعض الأمم الشرقية ما يخالف كل عدالة وكل حق وكل عهد

مقطوع. ونذكر بهذه المناسبة أن الوفد المصري برئاسة المغفور له سعد زغلول باشا كان يوم وضع معاهد الصلح في باريس يعمل في سبيل القضية المصرية، وقد احتج عبثاً على نصوص معاهد الصلح التي تمس مصر، والتي تقر حماية إنكلترا المفروضة عليها رغم إرادتها؛ ونذكر أيضاً أن سعد باشا أرسل إلى الرئيس ولسون يرجوه باسم مبادئه مقابلة يبسط له فيها ظروف القضية المصرية، فلم يجبه الرئيس ولسون إلى هذا الرجاء. وكانت أول خطوة عملية اتخذتها عصبة الأمم لتأييد الاعتداء الواقع على الأمم العربية هو أنها أقرت نظام الانتداب الذي وضعه الحلفاء لتقسيم البلاد العربية وحكمها رغم العهود الصريحة التي قطعت خلال الحرب بمعاهدات ووثائق رسمية، فأقرت الانتداب على سوريا لفرنسا؛ وأقرت انتداب إنكلترا على فلسطين وشرق الأردن والعراق. وأقرت عهد بلفور وما ترتب عليه من إنشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين؛ ولم تحاول العصبة أن تتدخل يوم قسم الحلفاء تركيا إلى مناطق ودفعوا

اليونان لاحتلال أزميرا والتوغل في قلب الأناضول؛ ولما وقع الخلاف بين تركيا وإنكلترا على مسألة الموصل واتفقنا على رفع الأمر إلى عصبة الأمم، كان موقف العصبة مريباً ظاهر التحيز؛ وكثيراً ما حاولت الأمم العربية أن تتقدم إلى العصبة بالشكوى من نظام الانتداب وما يرتكب في ظله من ضروب الجور والتعسف، فلم تفز منها بالإصغاء قط؛ ولم تكن لجنة الانتدابات الدائمة بالعصبة إلا سيف المستعمر الشرعي مصلتاً على رقاب الأمم الواقعة تحت الانتداب.

هكذا كان موقف عصبة الأمم الشرقية المغلوبة منذ البداية. وقد أثبتت العصبة خلال أعوامها الأربع عشرة أنها غير أهل لتحقيق شيء من المبادئ والمهام العظيمة، التي عهد إليها بالعمل على تحقيقها. وأسطع مثل لذلك موقفها إزاء مسألة تخفيض السلاح، وعجزها المطبق عن أن تحقق شيئاً في هذا السبيل، لأن تحقيقه لا يروق للدول المسيطرة على مجلس العصبة؛ وأسطع مثل لوقوع العصبة تحت نفوذ الدول القوية ووحي النزعة الاستعمارية، موقفها في مسألة منشوريا، التي ثارت منذ ثلاث أعوام بين اليابان والصين، وكلتاهما من أعضاء العصبة؛ فقد استغاثت الصين بالعصبة حين غزو اليابان لمنشوريا، فلبثت العصبة بين التردد والتمهل حتى تم استيلاء اليابان على منشوريا ولم تستطيع أن تتخذ أي إجراء حاسم تنوه فيه باعتداء اليابان على الأراضي الصينية، مع أنه قد نص في ميثاق العصبة على عدة عقوبات تأديبية واقتصادية يتقرر اتخاذها ضد الدولة المعتدية في مثل هذه الظروف. ولم ترض اليابان عن هذا التدخل رغم عقمه. فانسحبت من العصبة لتكون مطلقة اليدين في تنفيذ سياستها الاستعمارية. وقد كان فشل العصبة في مسألة منشوريا ذروة ضعفها وانحلال هيبتها، فعملت الدول الغربية التي تستتر في العمل وراء العصبة على تدارك هذا الضعف، بحمل روسيا السوفيتية على الالتحاق بعصبة الأمم، ولبت روسيا هذه الدعوة، والتحقت بالعصبة بعد أن كانت تخاصمها وتعتبرها من أدوات الاستعمار المستترة حسبما فصلنا في فصل سابق في (الرسالة). وأرادت الدول الغربية من جهة أخرى أن تقوي المظهر الشرقي لعصبة الأمم، فسعت لدى تركيا حتى التحقت بالعصبة، وكان التحاقها بها نتيجة مباشرة لانضمام روسيا إليها، لأن السياسة التركية الخارجية تسير مع السياسة البلشفية الخارجية جنباً إلى جنب، ولأن موقف الخصومة الذي اتخذته تركيا نحو العصبة من قبل لم يكن إلا مجاراة لسياسة حليفتها موسكو. ثم كان دخول أفغانستان أخيراً نتيجة أيضاً لنفس السياسة؛ وأفغانستان تتأثر بنصائح موسكو، وهي مدينة باستقلالها الأخير إلى معاونة موسكو ومؤازرتها، وهي تتأثر أيضاً بنصائح إنجلترا، وإنجلترا يهمها تقوية المظهر الشرقي لعصبة الأمم؛ ولذلك رأينا أغاخان مندوب الهند وأحد أبواق السياسة الإنكليزية يقول في خطابه الذي ألقاه لمناسبة انضمام أفغانستان: إن أخطار الطابع الغربي للعصبة كانت واضحة، وكانت دائما تغشى صبغتها العالمية، فدخول أفغانستان يقوي طابعها العالمي، ويزيدها قوة في القيام بمهمتها.

هذا ويجب ألا ننسى أن العراق أيضاً عضو في عصبة الأمم، وقد دخلت العصبة منذ نحو عامين، وكان دخولها نتيجة لعقد المعاهدة العراقية الإنكليزية التي نالت بها العراق استقلالها الذاتي (سنة 1930) وخروجها بذلك من ربقة الانتداب الذي كان مفروضاً عليها من قبل عصبة الأمم لمصلحة إنكلترا. ويجب ألا ننسى أن دخول العراق في العصبة كان مقروناً من جانب العصبة بمظاهرة تؤكد صبغة الغربية والاستعمارية معاً، فقد وضعت العصبة لقبول العراق شروطاً تلفت النظر بتحاملها وشدتها، ولاسيما فيما يتعلق بحماية الأقليات الدينية والجنسية، وحرية البعثات التبشيرية في القيام بأعمالها، وتقرير الحق لكل دولة أن تشكو العراق إلى العصبة إذا رأت أنها قصرت في تنفيذ تعهداتها.

ولم تنضم المملكة السعودية (نجد والحجاز) بعد إلى عصبة الأمم، وليس في سياستها ما يدل على أنها تنوي أن تسعى إلى هذا الانضمام في القريب العاجل، غير أنه يلاحظ أن المملكة السعودية معترف بها من جميع الدول الكبرى التي تسيطر على مجلس العصبة، وأن علائقها بهذه الدول ولاسيما إنكلترا حسنة؛ وقد يكون في الحوادث الأخيرة التي انتهت بدخول تركيا وأفغانستان في العصبة ما يحمل المملكة السعودية على التفكير في السعي إلى الانضمام إلى العصبة، إما اليمن فليست لها سياسة

خارجية منظمة معروفة، ومن الصعب أن يعرف موقفها في هذا الشأن، وإن كان المرجح أن الإمام لا يعلق على مثل هذا الانضمام أية أهمية. أما سوريا فهي لازالت ترزح تحت الانتداب الفرنسي، ومن المعروف أن السياسة الفرنسية تنوي متى استطاعت أن تعقد المعاهدة المنشودة مع سوريا، أن تحذو فيها حذو المعاهدة الإنكليزية العراقية من حيث العمل على التحاق سوريا بعصبة الأمم.

بقيت كلمة عن مصر وعن موقفها من العصبة، فأما عن حق مصر في الدخول في عصبة الأمم فليس عليه غبار من الوجهة الدولية، أولاً لأن مصر قد نالت استقلالها من الوجهة الدولية بتصريح فبراير سنة 1922، وهي طبقاً لهذا التصريح دولة مستقلة ذات سيادة، وثانياً لأنه لا يوجد في ميثاق العصبة ما يمنع دولة في ظروف مصر السياسية من الانضمام إليها، فالفقرة الثانية من المادة الأولى من الميثاق تنص على أنه يحق لكل (دولة أو ملك مستقبل (دومنيون) أو مستعمرة حرة في حكم نفسها أن تغدو عضواً في العصبة إذا وافق على انضمامها ثلثا أعضاء الجمعية العامة)، ومصر ليست ملكا مستقلا ولا مستعمرة، بل هي من حيث المركز الدولي دولة مستقلة ذات سيادة، وقد سلمت السياسة البريطانية لمصر بهذا الحق في مشروع المعاهدة المصرية الإنكليزية الذي وضع سنة 1929، فنص فيه في المادة الثالثة على ما يأتي (إن مصر رغبة منها في أن تصبح عضواً بجمعية الأمم، ستقدم طلباً للانضمام إلى تلك الجمعية، طبقاً للشروط التي تنص عليها المادة الأولى من عهد الجمعية، وتتعهد حكومة جلالة الملك البريطانية بتأييد هذا الطلب) ونص في مشروع المعاهدة المصرية الإنكليزية الذي وضع سنة 1930 على ما يأتي (بما أن مصر تنوى أن تكون عضواً في جمعية الأمم فان صاحب الجلالة البريطانية يعترف بحقها كدولة مستقلة ذات سيادة في أن تصبح عضواً في جمعية الأمم عندما تقوم بالشروط التي نص عليها في عهد الجمعية).

ولكن هل تفيد مصر من الانضمام إلى عصبة جنيف سواء في الحال أو الاستقبال؟ لسنا ممن يعتقد ذلك. إن تاريخ عصبة الأمم إزاء الأمم الشرقية والأمم الضعيفة حسبما بسطناه لا يدلي بأن العصبة تأخذ بمبادئ المساواة والعدالة الدولية بين مختلف الأمم؛ والعصبة سواء بنشأتها أو القوى المهيمنة عليها، أو الغايات التي تعمل لها، تنم عن روح غربية عميقة، وربما نمت أيضاً عن روح نصرانية كما ظهر من موقفها نحو العراق فيما اشترطته عليها ثمناً لانضمامها إليها. ولن يكون شأن المثول في العصبة في ظروفنا الحاضرة إلا كشأن التمثيل السياسية الذي يكبد مصر مئات الألوف دون أن تجني من ورائه مزايا عملية يعتد بها. وحتى لو سويت المسائل المعلقة بين مصر وإنكلترا وعقدت المعاهدة المصرية الإنكليزية المنشودة، وتأكد استقلال مصر من الناحية العملية، فأنا لا نجد ما يحمل مصر على السعي إلى الالتحاق بعصبة جنيف. ومن الخطأ أن يتصور البعض أن المثول في العصبة من مظاهر الاستقلال، فان بين أعضاء العصبة مستعمرات وأملاكاً مستقلة طبقاً لما ينص عليه ميثاقها.

لقد تمزق الحجاب أخيراً عن ذلك الرياء الدولي الذي استمر زهاء خمسة عشر عاماً، والذي لبث حيناً يحتضن الدعوى إلى السلام وتفاهم الأمم، ويعقد المواثيق للتحكيم وتحريم الحرب؛ وعادت أوربا القديمة إلى سياستها القومية القديمة، عمادها القوة والعنف، وغايتها افتراس الأمم الضعيفة؛ وما عصبة الأمم إلا عرين الأمم المفترسة قبل كل شيء، ولا خير لأمة ضعيفة أن تقر الذئاب على ريائها، ولا خير لها بالأخص في أن تندمج معها في صعيد واحد.

محمد عبد الله عنان المحامي

4 - الشخصية

للأستاذ محمد عطية الابراشي المفتش بوزارة المعارف

العناصر الرئيسية التي تتكون منها الشخصية القوية: -

تكلمنا فيما مضى عن الجاذبية، والنشاط العقلي، والمشاركة الوجدانية، والشجاعة، من العناصر الرئيسية المكونة للشخصية القوية. والآن نتكلم عن بعض العناصر الأخرى المقوية للشخصية كالحكمة، والتفاؤل، والتواضع، ومظهر الإنسان وقوامه، وقوة البيان وأثرها في الشخصية فنقول.

الحكمة:

إن شخصية الإنسان لا تكون متينة إلا إذا زانتها الحكمة والعلم والحزم، ووضع الأشياء في مواضعها، وقدرها حق قدرها. والرجل الحكيم هو السديد الرأي، البعيد النظر، الحسن التقدير، الذي يعرف الحق فيتمسك به، ويفعل ما يجب أن يفعل، ويترك ما ينبغي أن يترك، ويقول ما يجب أن يقال، يرى الفرصة فينتهزها، ويشعر بالطريق المستقيم فيسلكه، يحس بنتيجة الشيء حتى قبل حدوثها، ويعامل غيره بما يحب أن يعامل به، ويحكم على غيره بما يود أن يحكم به عليه، يحب لأخيه ما يحب لنفسه. وإذا حكم على غيره كان حكمه بعيداً عن الأهواء والأغراض، تتمثل فيه النزاهة والعدالة. كل هذه الصفات نتيجة الحكمة وحسن التقدير. والحكمة صفة أساسية في تكوين الشخصية السامية. أما إذا انتفت الحكمة فان الإنسان يكون واهن الرأي، مضطرب البصيرة، سيئ الحظ، عاثر الجد، ضعيف الشخصية، يعجز عن تقدير الأشياء، ويفعل ما يجب ألا يفعل، ويهمل أموراً تجبُ العناية بها، ويهتم بأشياء لا قيمة لها، يحب ما ينبغي أن يكره، ويكره ما ينبغي أن يحب، فيصبح ضحية لوجداناته وأقواله وأفعاله، ويصير مكروهاً لدى من يعرفونه.

ومن الحكمة أن نجتهد في إرضاء الناس - وإن كان إرضاؤهم جميعاً غاية لا تدرك - من غير أن نضحي بمبدأ من مبادئنا، أو مظهر من مظاهر رجولتنا حتى نمتلك قلوبهم، وهذا دليل على وجود الشخصية القوية الجذابة.

وكثيراً ما تفسد الحكمة وتشوه بالفخر، أو التكبر، أو الحقد، أو الغيرة، أو الغش. فينبغي أن يهذب الإنسان نفسه، ويترك الفخر جانباً ولا يتكبر أو يحقد على غيره، ولا يغش أحداً أو يضله، حتى تكون علاقته بغيره حسنة وتكون شخصيته محبوبة لدى من يتصلون به أو يعرفونه.

التفاؤل:

من العناصر التي لا تقل أهمية في تكوين الشخصية الممدوحة: التفاؤل والتيمن والنظر إلى الأشياء بمنظر الفأل الحسن؛ ويمن الطالع، لا بمنظار التشاؤم والتطير، ذلك المنظار الأسود، منظار الشؤم والطِّيَرَة. فقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يحب الفأل ويكره الطيرة. ولا نقصد بالتفاؤل أن نغمض أعيننا عن الحقائق نتائج الأمور، بل نقصد أن نعتاد في تفكيرنا النظر إلى الأشياء بعين الأمل والرحمة، لا بعين اليأس والقنوط، وننظر إليها في نور الأمل لا في ظلام اليأس، من الناحية المضيئة من الطريق، لا من الناحية المظلمة الحالكة. والمتفائل يرضى بالماضي خيره وشره ويثق بالمستقبل، ثم يؤدي الواجب ويترك النتيجة لله سبحانه وتعالى. وتعتبر هذه العادة العقلية - عادة التفاؤل - من الأمور الجوهرية في تقوية الشخصية. وكثيراً ما ينشأ التفاؤل عن نشاط الشخص وقوته العقلية والعصبية، وعن نوع الأفكار التي يسمح لها بالدخول إلى العقل، وإذا تعود الإنسان أن يزود نفسه بالأفكار الصحية السارة فانه لا يتجنب التشاؤم والحزن فحسب، بل قد يطل من نوافذ على الناحية السارة المضيئة من الحياة.

وينشأ التشاؤم عن ضعف النشاط وضعف القوة العصبية، وهو الرقابة العقلية في الإنسان؛ فيسمح لنفسه بأن تسبح في جو مظلم من الأوهام حتى يصبح عقله متلبداً بغيوم لا حقيقة لها، ودخان لا أصل له، هي الغيوم التطير ودخان التشاؤم. وإن ضبط النفس والنظر إلى الناحية السعيدة دائماً مما يزيل عن أولئك المتشائمين وهؤلاء المتطيرين هذه الهموم والأحزان التي تسيطر على نفوسهم. وإذا كان التفاؤل موقظاً للعقل، ومدعاة للنشاط وباعثاً على الإقدام، ومحرراً للإنسان، ومنشطاً لجميع قواه العقلية، فالتشاؤم سبب في الخمول والكسل وكثرة التردد والفشل والشقاء والضعف لا في التفكير فحسب، بل في الشخصية أيضاً.

فالشخصية الحية القوية ينبغي أن تتمسك بالتفاؤل، وتلتزم الناحية السارة، يقودها الأمل، ويحييها الرجاء. تفكر في النجاح أكثر من الخيبة، وفي التقدم أكثر من التأخر. وتميل إلى جانب الثقة أكثر من الميل إلى جانب التردد، وتثق بما تقول وما تفعل، ولديها كل علاج وهي منبع النشاط والقوة. قال (روبرت بروننج): (من الحكمة أن ترجح جانب الخير على جانب الشر، واللين على الشدة، والتعقل على الطيش، والأمل على اليأس،

والنور على الظلام).

التواضع وعدم التصنع:

العنصر السادس من عناصر الشخصية التواضع وعدم التصنع، وذلك بأن يكون لدى الإنسان استعداد به يقدر نفسه ومركزه تقديراً يدل على التفكير والحكمة من غير تصنع أو تظاهر بما ليس فيه.

فإذا تصنع المرء وادعى صراحة أو ضمناً ما ليس فيه؛ كأن يقدر نفسه فوق قدرها ويعطيها أكثر من حقها، ويتعظم وما هو بالعظيم، ويَدّعى العلم وما هو بالعالم، والثروة وما هو بالثري، والقوة وما هو بالقوي - إذا ادعى شيئاً من هذه الأشياء فقد يتضح أمره لدى الناس، ويتبين جهله أو فقره أو ضعفه على عكس ما ادعى، فيعلمون كذبه، فيحتقرونه ويزدرونه، وينفرون منه ويتباعدون عنه، ويصبح ممقوتاً عندهم جميعاً.

وإن مدح الإنسان نفسه ثقيل لا يقبل، وإذا قبل فانه يجب أن يستند إلى حقائق. والأولى أن يترك الإنسان عمله ليدل عليه ويتحدث عنه، بدلاً من أن يتحدث هو عن نفسه. وإن كان المرء جديراً بالمدح فسرعان ما تظهر حقيقته، ويقدر الناس كفايته، ويزنون أعماله، ويعترفون بشخصيته ومقدرته. فالتواضع سبيل النجاح والرفعة، والتصنع سبيل الفشل والذلة.

وإننا وإن كنا ضد التصنع والتظاهر لا نمنع أن ننزل أنفسنا منزلتها ونعدها، وحدة من المجموع، لها ماله وعليها ما عليه، ونستحسن أن نترك للغير الحكم لنا أو علينا، وأن نتحلى بالتواضع في غير ضعف أو ذلة. فالتواضع أساس للشخصية المحبوبة الجذابة. وإننا نجتذب غيرنا بقدر ما يحبنا الغير. وإذا كانت الشخصية مظهراً لقوة النفس فهي عدوة الكذب والتضليل. فليس المهم في أن تَدَّعِى كذباً، ولكن المهم في أن تعمل حتى تثبت لنفسك العظمة إن كنت عظيماً.

مظهر الإنسان وقوامه:

لمظهر الإنسان أثر في شخصيته، فالرجل الصحيح الجسم الحسن القامة، قد لا يحتاج في إظهار شخصيته والتأثير في غيره إلى ما يحتاجه الشخص النحيف الجسم، المشوه الخلقة؛ فبينما تجد الأول طبيعياً في معاملته لأنه لا يشعر بنقص خارجي يريد أن يكمله، إذ تجد الثاني محباً للتظاهر، متكلفاً في أقواله وأفعاله، متخذاً كل وسيلة يستطيع أن يظهر بها نفوذه، فيتظاهر بالعلم تارة، ويفخر بحسبه ونسبه تارة أخرى. وقد يتخذ أحياناً وسائل ثعبانية أو ثعلبية، ليظهر بها نفسه أمام من يبغي الظهور بينهم، فيلجأ إلى الوشاية حيناً، وإلى الملق حيناً آخر. وقد يضطر إلى التجمل في جسمه ولبسه، أو المداعبة في حديثه، كل ذلك ليكمل ما فيه من نقص جسمي.

فالإنسان حينما يحس بنقص من الناحية الجسمية مثلاً تراه يعمل على أن يسد هذا الفراغ، ويكمل ذلك النقص من الناحية العقلية أو الخلقية حتى يظهر شخصيته للملأ. فسقراط مثلاً شيخ الفلاسفة من اليونان، كان أفطس الأنف، غليظ الشفتين، جاحظ العينين، قبيح المنظر، ولكنه قد وصل بمواهبه العقلية والخلقية الأخرى إلى ذروة المجد. ويكفيه فخراً أنه أستاذ أفلاطون، وأنه أكبر فلاسفة اليونان. والجاحظ كان أديب العلماء، وعالم الأدباء، وما لقب بهذا اللقب الذي كان مبغضاً إليه إلا لأنه كان جاحظ العينين (بارزهما)، دميم الخلقة، حتى قيل إن الخليفة المتوكل سمع بمنزلته من العلم والفهم، فاستقدمه إليه (بسر من رأى) ليؤدب ولده، فلما رآه استبشع منظره، وصرفه بعشرة آلاف درهم. ولكنه بجانب ذلك كان خفيف الروح، ذكي الفؤاد، واسع الاطلاع، وكان يعد دائرة معارف في الآداب والعلوم واللغة والتاريخ حتى أصبح لقبه - الذي كان يكرهه - دليلاً على التبحر في العلم والآداب، والتفوق في فنون البلاغة والبيان، سئل كيف حالك يا أبا عثمان؟ فقال: (حالي أن الوزير يتكلم برأيي، وينفذ أمري، ويواتر الخليفة الصلات إليَّ. . .) والتاريخ حافل بكثير من العظماء المشوهة أجسامهم، السامية أرواحهم وعقولهم، فلا حاجة بنا إلى التطويل. وكل ما نريد أن نقوله هو أنه إذا نقص الإنسان من جهة حاول أن يكمل نفسه من جهة أخرى.

قوة البيان:

إن قوة البيان، وفصاحة اللسان، وحسن المنطق والقدرة على التأثير في السامع مع رجاحة العقل، تكسب الإنسان شخصية وتجعل له منزلة بين سامعيه، ولذلك لما أمر سيدنا موسى عليه السلام أن يذهب إلى فرعون، شكا موسى العي في القول، وطلب

من الله أن يرسل معه أخاه هرون لفصحاته قائلاً: (وأخي هرون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدقني) يريد فرعون. وإننا لا نريد بالفصاحة والثرثرة والتشدق والتوعر في الكلام، كما لا نريد بها أن يزيد كلام الإنسان على عقله، بل نريد حسن التعبير عما في النفس، وقوة التأثير في المستمع، والتكلم من غير تهيب أو تخوف بحيث يكون الكلام حلواً رشيقاً، سهلاً عذباً مؤثراً. أما العيّ والحصر واللجلجة، والتمتمة والفأفأة وكثرة التردد في القول، والخجل في أثناء التكلم فتقلل من تأثير الشخص في سامعيه. وإن حُسْن التعبير عما في النفس شرط أساسي لقوة الشخصية، وهو يتطلب العلم بالشيء الذي نريد التكلم عنه؛ لأن أفكارنا إذا عرفت كان من السهل التعبير عنها. وكما يجب أن نعرف ما نريد أن نقول، وما نريد أن نفعل، كذلك يجب أن نحسن القول ونحسن العمل. وما أجمل الكلمة الصائبة في اللحظة المناسبة. وكما ينبغي حسن التكلم والخطاب، كذلك ينبغي حسن الإصغاء والاستماع للغير. وقد تكون لدينا الأفكار السامية ولكننا نحتاج إلى شجاعة في إظهارها حتى ينتفع بها غيرنا. . .

محمد عطية الابرشي

بين فن التاريخ وفن الحرب

2 - خالد بن الوليد في حروب الردة

للفريق طه باشا الهاشمي رئيس أركان حرب الجيش العراقي

(لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما في بدني شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة، وهأنذا أموت على فراشي كما يموت البعير! فلا نامت أعين الجبناء)

خالد بن الوليد

3 - أسباب الحروب:

مات رسول الله والإسلام لم يتمكن من قلوب جميع العرب الساكنين في الجزيرة. وادعى بعض الرؤساء النبوة في آخر أيام الرسول، وارتد الكثير من العرب بعد وفاته. والثابت أن الذين تمكن الإسلام من قلوبهم ولم يتزعزع إيمانهم هم المهاجرون والأنصار وقريش وثقيف والقبائل الساكنة بين المسجدين (المدينة ومكة) على ما يذكره الطبري.

ولم يكن تأثير الردة في القبائل على نمط واحد، بل كان الأثر يختلف باختلاف العوامل، وهي تتلخص فيما يلي: -

(أ) قرب المنطقة التي تسكنها القبيلة من المدينة أو بعدها.

(ب) علاقة القبيلة بالمدينة.

(ج) قرب عهد القبيلة بالإسلام أو بعده.

ولقد ناقش المستشرق الطلياني لئونه كايتاني هذه العوالم في كتابه (تاريخ الإسلام) فصنف العرب من حيث علاقتهم بحروب الردة إلى خمسة أصناف، فوضع في الصنف الأول القبائل التي أسلمت منذ مدة طويلة وخضعت لسلطة المدينة خضوعاً تاماً، وهي القبائل التي تسكن بالقرب من المدينة ومكة وفيما بينهما كجهينة ومزينة وبلي وأشجع وأسلم وهذيل وخزاعة وغيرها.

ووضع في الصنف الثاني القبائل التي تعاقدت مع الرسول واشتركت في المدة الأخيرة في حروبه وقد كان فيها على إسلامها أقلية مختلفة تنتهز الفرص للتملص من سلطة المدينة ومن هذه القبائل هوازن وعامر بن صعصعة وطي وسليم وخثعم.

ووضع في الصنف الثالث القبائل الساكنة على حدود المملكة الإسلامية، فخضعت هذه القبائل سياسياً لسلطة المدينة، ودفعت الصدقات إلى الرسول، وفيها أكثرية تتحين الفرص للرجوع إلى حالتها القديمة. ومن أخطر هذه القبائل بنو أسد وبنو غطفان وبنو تميم الساكنون في مناطق نجد الغنية.

ووضع في الصنف الرابع القبائل التي لم تخضع لسلطة المدينة، بل اكتفت بإرسال الوفود إلى الرسول وتظاهرت بالخضوع له. فيها أقلية مسلمة ضئيلة تستند إلى قوة المسلمين في المدينة للاحتفاظ بمنزلتها. ومن أخطر هذه القبائل بنو حنيفة وعبد القيس وأزدعمان وأكثر قبائل حضر موت واليمن. أوفد الرسول إليها عمالاً ليمثلوا الإسلام، وليعلموا المسلمين أمور الدين.

أما القبائل التي وضعها في الصنف الخامس فهي القبائل التي لم تسلم وكانت نصرانية أو مشركة. وهي القبائل الساكنة في الشمال كبني كلب وبني تغلب وبني

غسان وقضاعة وتنوخ وبني بكر. وبعض القبائل في حضر موت واليمن.
ولكني لا أجاري المؤرخ الطلياني في تصنيفه هذا؛ بل من الثابت أن تأثير الإسلام في القبائل العربية كان يختلف باختلاف العوامل التي ذكرناها قبلاً، والواقع أن الرسول لم يمت إلا وقد ظهرت حركة الردة في القبائل، فمنها من طلب إعفاءه من إعطاء الزكاة، ومنها من امتنع من إعطائها، ومنها من قدم رجلاً وأخر أخرى في ذلك فأمسك عن الصدقة، وأخيراً منها من ارتد وطرد عمال الرسول أو قتل المسلمين ومثل بهم.
وكان الرسول في حياته قد حرض عماله في اليمن على مقاتلة الأسود العنسي الذي ادعى النبوة واستولى على أكثر مقاطعات اليمن.
أما أبو بكر فرد الوفود التي أتت المدينة وطلبت منه أن يعفيها من إعطاء الزكاة، وقال كلمته المشهودة (والله لو منعوني عقال بعير لقاتلتهم عليه) ولما وردت الكتب من أمراء الرسول تنبأ أبو بكر بأن الناس ارتدوا عامة وخاصة وأنهم تبسطوا بالتمثيل فحاربهم.
4 - قوات الفريقين:
1 - أهل الرّدة: إذا استقصينا الأخبار التي رواها الرواة توصلنا إلى النتائج التالية:
(أولاً) غير لم ترتد القبائل الساكنة إلى شرقي مكة وغربها وجنوبها، بل ظلت على الحياد ميالة إلى أحد الفريقين، وهي قبائل كنانة وأزد وبجيلة وخثعم وعك وأشعر وحكم وغيرها.
(ثانياً) تأثر بحوادث الردة القبائل الساكنة إلى شمال شرقي مكة كهوازن وعامر بن صعصعة وجذيلة. أما بنو سليم فقد ارتد الكثير منهم، بيد أن هذه القبائل جميعاً لم تشهر سلاحها في وجه المسلمين.
(ثالثاً) أما قبائل طيء فأنها إلى أي جانب تميل ومع ذلك فان قسما قليلاً منها انضم إلى جيش طلحة الأسدي مدة قصيرة.
(رابعاً) وأما قبائل قضاعة الساكنة إلى شمالي المدينة فأنها شهرت سلاحها على المسلمين.
ومع ذلك لا يصح أن يقال إن هذه القبائل جميعاً ساعدت أهل الردة الذين ثاروا في وسط الجزيرة، بل إن بعضها ظل في منطقته إما على الحياد وإما متردداً لا يحرك ساكناً، وإما أنه طرد العمال الموفدين من المدينة في عهد الرسول.
لذلك لا يجوز اعتبار هذه القبائل من القبائل الساكنة في وسط الجزيرة التي حشدت رجالها وأغارت على ضواحي المدينة، أو أنها تأهبت لمنازلة جيش المسلمين.
أما القبائل التي اشتركت في حروب الردة فعلاً فأليك بيانها:
1) بنو فزارة وبنو غطفان الساكنون إلى شرقي المدينة على طريق نجد. فقد توافد رؤساء هذه القبائل إلى المدينة وطلبوا من أبي بكر أن يعفيهم من الزكاة. ولما لم يجب طلبهم رجعوا فجمعوا رجالهم وتأهبوا لمباغتة المدينة.
2) بنو أسد الساكنون على منتصف الطريق التي بين الحجاز ونجد إلى جنوبي جبل شمر. ويزعم الرواة أن طليحة بن خويلد الأسدي ادعى النبوة في حياة الرسول وجمع رجاله في السميراء.
ولما توفى الرسول وامتنعت القبائل من إيتاء الزكاة سعي إلى جمع القبائل حوله، واقترح عينية بن حصن الفزاري ترك المنازعات بين بني أسد وبني غطفان وعقد حلف بين بني فزارة وبني غطفان وبني أسد.
لبي بنو فزارة هذه الدعوة واتحدوا مع بني أسد، وكذلك البعض من بطون طيء أيضاً انضم إلى طليحة، حتى أن رئيس جديلة بن طي، ثمامة بن أوس، جمع خمسمائة رجل وانضم إلى بني أسد.
3) بنو تميم الساكنون في نجد في منطقة القصيم.
وتتألف هذه القبيلة من عدة بطون. ولما بلغها نعى الرسول امتنع أكثر بطونها عن أداء الزكاة. وكان الاختلاف قد دب فيما بينها، ولما ظهرت سجاح من شمالي الجزيرة بجموعها من تغلب مدعية النبوة، ودخلت حتى بني تميم لأنها كانت تمت إليهم بنسب، التف حولها بعض من تميم. ويزعم الراوي سيف بن عمر أنها كلفت مالكا بالمسير معها نحو المدينة للهجوم على أبي بكر. وكان البعض من بطون بني تميم لم يرتد

فالتجأ إليه المسلمون الهاربون من البطون الأخرى فقاتل سجاحا ومن معها من بني تميم ومنعها من التقدم نحو المدينة. والرواة يزعمون أنه انتصر عليها وعلى حلفائها من بني تميم وألجأها إلى مغادرة ديار بني تميم والذهاب إلى مسيلمة الكذاب.

بنو حنيفة الساكنون في اليمامة. ادعى رئيس هذه القبيلة مسليمة النبوة فآمن (4) بنبوته جميع بني حنيفة. ويظهر أن دعوة الإسلام لم تنتشر فيها وكان معظمها مشركا. فلما ادعى مسليمة النبوة آمنت بنبوته. وهي ولا ريب من أخطر القبائل التي اشتركت في حروب الردة وقاتلت المسلمين قتالاً عنيفا. وذاق المسلمون الأمرين في حروبها. ويزعم الراوي سيف بن عمر أن جيش بني حنيفة المحارب بلغ أربعين ألفاً.

ومن العسير معرفة قوات هذه القبائل التي اشتركت في المعارك، والواضح أن قبائل غطفان وفزارة التي حاولت مباغتة المدينة حتى اضطر أبو بكر إلى مقاتلتها كانت دون القبائل شأناً. ولعل القوات التي جهزتها لم تزد على آلفي رجل.

أما القوة التي استطاع طليحة أن يجهزها ويقاتل بها جيش المسلمين فكانت تربو على أربعة آلاف مقاتل، وانضم خمسمائة رجل من جديلة طيء وسبعمائة فارس بقيادة رئيس بني فزارة عيينة بن حصن.

أما بنو تميم فلو اتفقت بطونها وقابلت جيوش المسلمين لبلغت قوتها زهاء عشرة آلاف مقاتل، غير أنها لم تتفق فيما بينهما، بل حارب بعضها بعضاً، ولما وصل خالد بن الوليد بجيشه إلى ديار بني تميم كانت البطون قد تفرقت.

أما بنو حنيفة فكان جيشهم من أقوى الجيوش التي حاربت المسلمين، ومع أن سيفاً يزعم أن قوتهم بلغت أربعين ألفاً، بيد أننا لا نميل إلى اعتقاد صحة روايته، ولعل قوة جيش بني
حنيفة لم تزيد على خمسة عشر ألف مقاتل.

والذي جعل الرواة يبالغون في تقدير جيش بني حنيفة هو وعورة المنطقة التي حارب فيها المسلمون، والحقيقة أن أرض اليمامة أرض وعرة فيها وديان وشعاب وجبال وعقبات وثنايا. والذي زاد في مناعة الأرض القرى المحصنة بالأسوار والحدائق المسورة بالأحجار المكدسة شأن الكثير من قرى العارض والسدير في بلاد نجد.

ب. المسلمون:

جهز الرسول جيش أسامة قبل وفاته بمدة قليلة وكان يقصد إيفاده إلى الشمال. واجتمع الجيش في الجرف في شمالي المدينة، ولما علم بمرض الرسول أجل حركته. وبعد وفاته أوفده أبو بكر لينفذ الخطة التي رسمها له الرسول في حياته. ونصح بعض الصحابة أبا بكر أن يبقيه لكي يعتز به بعض الإسلام وأراد بعضهم تبديل قائده، بيد أن الخليفة لم يجب طلبهم، ولم يرض أن يبدل ما قرره الرسول. وليس لدينا معلومات موثوق بها عن قوة هذا الجيش، لأن المؤرخين القدماء جريا على عادتهم، بحثوا في قائده والأوامر الصادرة إليه، والغاية المتوخاة من إيفاده وغير ذلك ولم يذكروا مقدار قوته.

وإذا تأملنا في سبب إيفاده، ظهر لنا أن قوته يجب أن تكون كافية. وسبق أن جهز الرسول جيشين لهذه الغاية ذاتها وهما: جيش جعفر بن أبي طالب الذي قاتل الروم في البلقاء في وقعة موتة، وكانت قوته ثلاثة آلاف مقاتل، والجيش الذي قاده الرسول بنفسه ليغزو به تبوك، وقد بالغ المؤرخون في قوته، وزعموا أنه بلغ ثلاثين ألفا، أما جيش أسامة، فهو الجيش الثالث، ونعتمد أن قوته يجب ألا تقل عن خمسة آلاف.

وكان المهاجرون والأنصار نواة هذا الجيش. فالمهاجرون والأنصار عماد الجيش الإسلامي، وهم كالحرس الذي كان يؤلفه الملوك للاعتزاز به في تنفيذ خططهم، إصلاحية كانت أم حربية

واشترك هؤلاء في غزوات الرسول وحروبه من أولها إلى آخرها. وكانوا يؤثرون النبي على أنفسهم في جميع أعمالهم، فكان الإسلام متمكناً من قلوبهم، فلا غرو إذا رأينا الإسلام يقوم على سواعدهم بعد وفاة الرسول، ولعل عددهم كان يتفاوت بين الألف والخمسمائة وبين الألفين لما توفى النبي.

وكان أكثرهم في جيش أسامة، ماعدا البعض منهم فانه بقي في المدينة مع أبي بكر، أو أوفد في حياة الرسول عاملاً أو معلماً أو مبشراً إلى الأقطار العربية النائية، أو جابياً أو معلماً إلى القبائل العربية القريبة.

ويلي المهاجرين والأنصار قريش التي أسلمت بعد فتح مكة وأبلت بلاءً حسناً في الإسلام بعد ذلك. أجل، إنها لبت الدعوة أخيراً وقسراً، إلا أنها اقتنعت أن عز الإسلام من عزها فناصرت الرسول في حياته من أعماق قلبها، حتى أن الرسول بعد فتح مكة رضى أن يظل البعض من قريش مشركاً حتى يفتح الله قلبه، ومع ذلك لم يحجم هذا البعض عن الجهاد معه في غزوة صفين أو في محاصرة الطائف.

ولعل القوة التي كانت قريش تستطيع أن تجهزها للقتال زادت على ألفي مقاتل على أقل تقدير.

ويلي قريشاً القبائل الساكنة بين الحرمين، مكة والمدينة، وهي التي ناصرت الرسول في دعوته. وقد اشترك بعضها في الغزوات، وجاهدت أخيراً في حروب الرسول. فقربت هذه الحروب بينها وبين المهاجرين والأنصار وربطتهما برباط متين. فلا مندوحة إذن من أن نرى أبا بكر يدعوها إلى الجهاد لما كان جيش أسامة بعيداً عن المدينة، فلبت دعوته راغبة مطيعة، وهذه القبائل هي: أسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينة وكعب وغيرها.

ولعل القوة المحاربة في هذه القبائل لم تزد على ثلاث آلاف.

وتليها قبيلة بني ثقيف الساكنة بين مكة والطائف وهي خير من أسلم من قبائل الحجاز. واشتهرت بشدة مراسها وصلابة عودها؛ وكانت تعتز بعاصمتها الطائف المسوَّرة. ولم ترتد ثقيف على ما سبق ذكره، بل بقيت متمسكة بالإسلام، وكانت قوتها المحاربة تقدر بأكثر من آلفي مقاتل.

هذه خلاصة القوات التي كان الخليفة يعتمد عليها في محاربته أهل الردة. وقد ظهر لك أنها كانت تبلغ عشرة آلاف متى تيسر جمعها. والواضح أن جيش أسامة بن زيد كان مؤلفاً من معظم المهاجرين والأنصار وبعض رجال القبائل. وذلك لما كان أسامة بعيداً عن المدينة إذ أخذت القبائل المرتدة الواقعة إلى شرقي المدينة تهددها.

ولعل من الفائدة أن نذكر بهذا الصدد مقدار القوات التي استطاع الرسول أن يجمعها في
حروبه:

كانت قوة المسلمين في غزوة بدر لا تزيد على ثلاثمائة رجل؛ أما في غزوة أحد فكانت زهاء الألف، وفي غزوة الخندق بلغت ثلاثة آلاف. أما في فتح مكة إذ ظهرت سطوة الإسلام، وقويت شوكة المسلمين فكان جيش المسلمين عشرة آلاف، نواته المهاجرون والأنصار، وقوامه رجال القبائل الضاربة إلى شرقي المدينة وشمالها وجنوبها.

ويزعم الرواة أن جيش الرسول بلغ ثلاثين ألفاً في غزوة تبوك، كان عشرون ألفاً منه رجالاً وعشرة آلاف فرساناً. أجل إن الموقف العسكري كان ملائماً لمبادرة رجال القبائل إلى الالتفاف حول راية الإسلام للهجوم على بلاد الشام وهي المشهورة بخيراتها، وذلك يجعل جيش المسلمين يصل إلى حده الأقصى، إلا أننا لا نظن أنه بلغ القوة التي ذكرها الرواة، ولعلها بلغت أكثر من خمسة عشر ألفاً.

ولما امتنعت القبائل العربية عن أداء الزكاة وارتد البعض منها لم يكن في وسع الخليفة أن يجمع كل القوات التي يستطيع أن يعتمد عليها على ما سبق بيانه. لأن جيش أسامة كان في الشمال، وفيه نخبة الجنود المجاهدين. أما قريش وثقيف فكانتا بعيدتين عن دار الحركات، لذلك دعا أبو بكر القبائل الضاربة بين المدينة ومكة أولاً؛ ولما رجع جيش أسامة استنجد به. ثم أخذ رجال قريش وبعض ثقيف ينضمون إلى الحملات.

ومن الثابت أن قوة المسلمين كانت جد ضعيفة لما تأهب بنو غطفان وفزارة للهجوم على المدينة، ولعلها لم تجاوز بضع مئات.

(يتبع)

طه الهاشمي

من مشاهداتي في أوربا:

معجزات طبيب

للأستاذ عبد الحميد فهمي مطر

في بطن واد من وديان بلاد النمسا بين التلال والسهول المكسوة بالأشجار الباسقة

والخضرة الضاربة، قرية صغيرة كانت قبل خمس سنوات مجهولة لا يطرقها طارق، ولا يذكر اسمها ذاكر. ولكنها أصبحت منذ سنة 1929 محط الرحال، ومهبط الآمال، تعرفها شعوب الأرض قاطبة، ويحج إليها المريض الأوربي إنجليزياً كان أو ألمانياً أو إيطالياً أو تركياً أو مجرياً كما يحج إليها مرضى القارات الأخرى أمريكا واستراليا وآسيا وأفريقيا، تلك هي قرية جالزباخ الصغيرة التي تبعد عن فينا أربع ساعات في القطار، وتعلو عن سطح البحر بنحو300 متر تقريباً.

عرفت تلك القرية منذ أنشأ فيها (فالنتين تسايلايس) رجل المعجزات والعجائب كما يسميه أفراد تلك الشعوب، مصحته العظيمة التي كلفته نحو الأربعين ألفاً من الجنيهات. وإذا كان تسايلايس استطاع بمهارته وقدرته ومخترعاته أن يعالج بالألكتروراديوم الأعمى فيبصر، والأخرس فينطق، والمقعد فيمشي، والأشل فيبرأ، وغير ذلك من المرضى فيشفون، فقد حق لتلك الشعوب أن تطلق عليه اسم الساحر أو طبيب المعجزات والعجائب.

ولقد مكنت لي الظروف صيف هذا العام أن أتعرف إلى الكثيرين في تلك المصحة من المرضى النازحين إليها من مختلف شعوب الأرض، بعضهم لعلاج العمى، وبعضهم لعلاج الشلل، وبعضهم لعلاج الربو، وهكذا من شتى المرضى بالعاهات المختلفة، ورأيت فيهم جميعاً روحاً غريبة هي روح الثقة بالشفاء على يدي هذا الرجل إن عاجلاً أو آجلاً، كل حسب شدة المرض عنده. وقد تحدثت هنالك إلى رجل نمساوي كان أعمى وأبصر، فعلمت منه أنه مستمر في العلاج بالألكتروراديوم لتحسين قوة نظره، وهو يتطوع أبداً لقيادة العميان وأخذهم في صف واحد ممسكاً كل واحد منه بقميص الآخر من الخلف في دخولهم إلى حجرة العلاج وخروجهم منها. كما أني تحدثت مع فتى إنجليزي، وآخر ألماني، كان كل منهما أشل لا يستطيع أن يحرك نصفه الأيسر، وبعد العلاج مرتين أو ثلاث مرات أصبح كل منهما قادراً على المشي بعرج بسيط، وكلاهما يأمل في الشفاء التام بعد تكرار

العلاج مرة أخرى أو مرتين، وهناك فوق هؤلاء وهؤلاء عشرات من الشيوخ الذين يحجون إلى مصحة هذا الساحر لاسترجاع شبابهم واستعادة قوتهم. وقد قابلت هناك من المصريين عبد الرحمن فهمي بك السكرتير السابق للوفد المصري، وقد ذكر لي أنه كان يعالج عينيه مما يسمى بالذباب الطائر، وأنه قد برئ منه، وأن هذه سابع مرة يحج فيها إلى تلك المصحة لأنه يشعر بعد كل مرة أن الشباب والقوة يتدفقان في جسمه، وقد حدثني كثيراً عما رأى من معجزات تسايلايس، وكان مما ذكره أنه رأى اخرس علاجه هذا الرجل بطريقته الشاذة العجيبة حتى أنطقه. ورأيت هناك أيضاً من المصريين أحمد حجازي بك عضو مجلس النواب السابق وأسرته لأول مرة له، ليعالج نفسه من الربو، وليعالج كريمته التي عجز نطس الأطباء في أوربا عن شفائها، وهو وإن لم تطل مدة إقامته هناك إلا أنه ذكر لي أنه استفاد فائدة محسوسة من العلاج، وأنه لابد أن يعود في العام المقبل مع كريمته ليستأنف علاجها مدة حتى تشفى على اعتقاده نهائياً. أما أنا وصديقي الأستاذ علم الدين القوصي فقد جمعتنا ظروف المرض العصبي الذي عجز أطباء مصر عن علاجه، فقصدنا لأول مرة تلك المصحة حسب نصيحة الدكتور يوسف قابيل مأمور القنصلية المصرية بفينا، والذي نسجل له على صفحات الرسالة جزيل شكرنا على ما لقيناه منه من مساعدة ونصيحة. قصدناها فعالجنا الساحر النمساوي ثلاثة أسابيع بالألكتروراديوم، فأحس كل منا بالتحسن الكبير في صحته، وعدنا شاكرين الله سبحانه على اهتدائنا لهذا الطبيب.

وقد حصلت على إحصاء رسمي عن آلاف المرضى الذين عولجوا في تلك المصحة في خمس سنين من سنة 1929 إلى سنة 1933 فكان كالآتي.

سنة 1929: 10100مريض، سنة 1930: 16354مريضاً، سنة 1931: 10155مريضاً، سنة 1932: 12092مريضاً، سنة 1933: 7670مريضاً، وكان عدد المرضى في شهور سنة 1934 كالآتي.

يناير 364، فبراير 304، مارس 416، أبريل 602، مايو 604، يونيه 725، يوليه 883.

والذي يتتبع هذا الإحصاء يرى تناقصاً في العدد في سنتي 1933، 1934 ويرجع السر في ذلك إلى إقفال الحدود النمساوية الألمانية، فقد قررت حكومة ألمانية في يونيه سنة

على كل ألماني يرغب في اجتياز الحدود النمساوية أن يدفع ألف مارك، أي نحو 1933 75 جنيهاً، فكان هذا سبباً في صد تيار الألمان الذي كان يتدفق قبل ذلك إلى جالزباخ، ويكفي للدلالة على ذلك أن تعلم أن عدد الأجانب الذين هبطوا تلك القرية أخذ في التناقص من 74 % من جميع المرضى في سنة 1929 إلى 55 % في سنة 1933 إلى 47 % فقط في شهور سنة 1934.

أما تسايلايس ومصحته وطريقته في العلاج فقد أثارت ضجة عظيمة في الجرائد الأوربية عامة والنمساوية والألمانية خاصة بين سنتي 1929، 1931، وقد اطلعت على بعض المقالات التي نشرت في الجرائد الإنجليزية تحت عناوين مختلفة، منها مقالة في (الديلي ميل) بتأريخ 17 12 1930 تحت عنوان أطرت فيها استخدام الكهرباء بدل (عمليات بالآلة الكهربائية) المشرط في العمليات الجراحية، ومقالة أخرى طويلة في تحت عنوان (معجزات النمساوي صاحب العصى السحرية) وغيرها مما لا يتسع المقام لتفصيله. وسنأتي فيما بعد على طرف من أخبار انتصاره على أساتذة الطب في النمسا وألمانيا، كما سنذكر شيئاً عن الطرق التي يستخدمها في العلاج والأمراض التي يعالجها.

عبد الحميد فهمي مطر

الشريف الأدريسي يضع أقدم وأصح خريطة - 3

جغرافية للدنيا القديمة

للأستاذ محمد عبد الله ماضي عضو بعثة تخليد ذكرى الإمام محمد عبدة بألمانيا

تتمة

الأستاذ كونراد ميللر يُعنى عناية خاصة بدرس خريطة - 13 الإدريسي وطبعها طبعة ملونة لأول مرة.

لم تخف قيمة هذه الخريطة العلمية والفنية على علماء الجغرافيا المستشرقين، فالكثير منهم قد اشتغل بدراستها في مختلف العصور، وكلنهم شغلوا أنفسهم بنواحي خاصة منها، ولم يجر واحد منهم بحثا شاملا مستقصيا مع اعترافهم جميعا بمنزلتها وتقديرهم لها.

ومازالوا على طريقتهم هذه ولم يخرجوا عنها إلى أن أتى الأستاذ كونراد ميللر فأجرى عن هذه الخريطة البحوث المستفيضة وكتب عنها الفصول الطوال التي استغرقت أعداداً كاملة من مجموعته العربية تلك المجموعة التي ضمنها أبحاثه في الجغرافية العربية، ثم توج هذا العمل الجليل الذي نشكره عليه ونقدره له بطبع الخريطة سنة 1928 لأول مرة طبعة ملونة. أبرزها في تلك الحلة الفاخرة المتناسبة الأجزاء، فدل على المدن بدوائر ملونة باللون المذهب، ورسم الأنهار والبحيرات بلون أخضر فاتح، والجبال بألوان مختلفة أحمر وأصفر وبنفسجي إلى جانب بعضها، كل هذا فوق أرضية فاتحة اللون تدع نفسها متميزة بوضوح عن لون البحار المدلون عليه باللون الأزرق السماوي المموج بخطوط رفيعة بيضاء، كما أنها تساعد على تحديد المسالك بعضا عن بعض بسهولة. ولقد كتب أسماءها بحروف لاتينية مميزاً الأقاليم السبعة بخطوط رفيعة حمراء وجعل طولها مترين وارتفاعها متراً تقريباً. وبهذا تكون مساحتها 47 مساحتها الأصلية التي قدمنا أنها كانت بطول ثلاثة أمتار ونصف متر، وارتفاع متر ونصف متر تقريباً. وهذا وقد يظن أن المساحة الأصلية كانت كبيرة بشكل زائد على اللزوم، ولكن سوف يتلاشى هذا الظن إذا علمنا أنها تتضمن من أسماء المدن فقط التي كانت مائجة

بالعمران في ذلك العصر 2064 اسماً: (365) بأفريقيا،
بأوربا، (959) بآسيا، ويوجد بين هذه الأسماء كل (740)
أسماء المدن الشهيرة المهمة في ذلك الوقت.

قبل هذه الطبعة لم تكن الخريطة موجودة بشكل تام مشتبكة الأجزاء بعد فقدان الأصل للخريطة الحائطية، وإنما كانت موجودة في قطع متفرقة داخل كتاب نزهة المشتاق أو مستقلة بذاتها. ومجموع هذه القطع الموجودة إلى الآن منها يبلغ 255 قطعة كما ذكر الأستاذ ميللر، توجد بمكاتب باريس وأكسفورد وأستانبول وليبننجراد والقاهرة؛ وكانت هذه القطع من الأصل الذي طبع عنه الأستاذ ميللر تلك الطبعة التي بين أيدينا.

وهناك خريطة أخرى تدعى الخريطة الإدريسية الصغيرة طبعها الأستاذ ميللر كذلك في مجموعته، وهي ليست لصاحبنا الإدريسي وإنما هي لابنه محمد وضعها سنة 1192، واسمها روض الفرج. ولقد وجدها بعض الباحثين كذلك في أستانبول في 73 قطعة، وإذا وازنا بينها وبين خريطة والده فأننا نجده قد أخذها صورة طبق الأصل عنها بشيء يسير من التغيير، ومع هذا فقد فاتته عناية والده في الرسم.

14 - خريطة الشريف الإدريسي اقدم خريطة عالمية يعرفها
التاريخ- موازنات بينها وبين بعض الخرائط وباق مميزاتها.

بقى أن نذكر مع الفخر والإعجاب أن الخريطة الإدريسية أقدم خريطة عالمية صحيحة كبيرة مفصلة وموضوعة بغاية الضبط والإتقان والوضوح عرفها التاريخ إلى الآن- نعم لقد وصل إلى أيدي علماء الجغرافيا خريطة من عهد قياصرة الروم لها من العمر ضعف ما للخريطة الأدريسية وهي خريطة (بويتنجر) التي وضعت في عام 365 بعد الميلاد، ولكنها ليست خريطة عالمية للدنيا القديمة كخريطة الإدريسي- وإنما هي خريطة لبيان طرق المواصلات فقط، فضلا عن أن المدن والمحطات التي ذكرتها أصبحت كلها أنقاضاً لا يعرف لها أثر، فالناظر إلى هذه الخريطة وإنما يستطيع أن يتصور موضعها بالتقريب. وإما خريطة الإدريسي فهي فوق كونها عالمية تمثل الدنيا القديمة، وبالرغم من أنها تبلغ من العمر نحو ثمانمائة سنة فكل المواضع التي ذكرتها يستطيع الباحث أن يعثر عليها ويتثبت منها إلى الآن، ومازال أغلبها يعرف بنفس الأسماء التي ذكرها الإدريسي إلى يومنا هذا. نحن لم نرث من العصر القديم خرائط جغرافية عالمية وإن كان قدماء اليونان قد وضعوا خرائط من هذا النوع مبنية على طريقة فلكية متقنة، وأشهرها خريطة الدنيا لبطليموس التي تزيد على خريطة الإدريسي بألف سنة في القدم، ولكنها ليست خريطة للدنيا بالمعنى الذي نعرفه ولا على منهج خريطة الإدريسي تبين الممالك ومواقعها إلى آخر ذلك، وإنما هي خريطة للدنيا بمعنى أنها تعطي نظرة عامة فقط في الدنيا القديمة وتبلغ مساحتها 35 سنتيمتراً في 52 سنتيمتراً. هذه الصورة التي أعطتها خريطة بطليموس ظلت معتبرة في بلاد الشرق والغرب إلى آخر العصر المتوسط. ولقد اخذ الإدريسي حدودها واستعان بها عند وضع خريطته، ولكن من حسن الحظ كما عبر الأستاذ ميللمر أن الإدريسي قطع النظر بالكلية عما احتوته خريطة بطليموس بعد الصورة والتحديدات العامة تنفيذا لأمر رجار الثاني، نقول من حسن الحظ لأن الأسماء التي ذكرها بطليموس في خريطته على كثرتها غير مطابقة للواقع بأكثر من 1 % مع التسامح في هذا النسبة، وكذلك درجات العرض والطول المثبتة في خريطة بطليموس تختلف عن الحقيقة بمئات من الأميال، لهذا كان من الحكمة والسداد قطع النظر عما أثبت في تلك الخريطة بالكلية، وكذلك فعل الإدريسي ووصل بمجوده المستقل إلى أن يعطينا صورة صحيحة مطابقة للعصر الذي عاش فيه بما لا ينتظر خيراً منه. الأمر الذي جعل لتقسيمات الممالك في الخريطة الإدريسية وللتقسيمات السياسية على الإطلاق قيمة علمية فائقة. نعم أظهر بطليموس مقدرة العالم الفلكي عند وضعه لخريطته في الوقت الذي أثبت فيه درجات العرض والطول بناء على حساباته العلمية المبنية على القواعد بمقدار لم يصل إليه الإدريسي- ولكن هذا لا يغنيه شيئاً بجانب عدم التحري للحقيقة. وعند الموازنة بين خريطته وبين خريطة الإدريسي نجد أن بطليموس اثبت خطوط العرض والطول معاً ولكنها تختلف عن الواقع بشكل غير مقبول. أما الإدريسي فأنه اثبت درجات العرض فقط ولكن بعد قياسات صحيحة، فهي مطابقة للحقيقة

بمقدار يدعو المقدر للخريطة الإدريسية علمياً إلى أن ينظر إليها بعين الإكبار والإجلال.
وأما خطوط الطول فقد ترك إثباتها الإدريسي عن قصد، إذ تبين له أن مقادير المقاييس التي وصلت إليه غير صحيحة، ولأنه لم يتيسر له بعد هذا إجراء قياسات أرضية لبيان درجات الطول وقياس الكرة السماوية، وإن كان في الاستطاعة فانه لا يعطي نتيجة مقطوعاً بها.
هناك خريطتان أخريان
(1) خريطة نسبة للدير الذي وجدت فيه بمدينة هانوفر من أعمال ألمانيا.
(2) خريطة التي وجدت بإحدى كنائس هرفورد بإنجلترا.
وهاتان الخريطتان بالرغم من أنهما وضعتا بعد الخريطة الإدريسية بمائة سنة فلم تكونا عملاً علمياً، وإنما كانتا عبارة عن تخطيطات زخرفية كما عبر الأستاذ ميللر، تمثلان شيئاً من العصور السابقة لعصرهما، غير محتويتين إلا على شيء يسير من الجغرافية المعاصرة لهما.
لعل القارئ يتساءل الآن عن مقياس الرسم للخريطة الأدريسية، وهنا أقول إن مقياس الرسم بالمعنى الحديث الذي نعرفه والذي بمساعدته يستطيع الإنسان أن يعرف مساحة جهة من الجهات بقياس مساحتها فوق الخريطة، مقياس الرسم بهذا المعنى لا نجده في خريطة الإدريسي، وهو طبعاً لم يوجد في جميع الخرائط القديمة، وإنما وجد بعد وضع خريطتنا بمئات السنين. على أن الإدريسي قد أشار إلى طريق الوصول إلى معرفة مثل هذا المقياس الحديث. الإدريسي ذكر درجات العرض وقدر الدرجة بخمسة وعشرين فرسخاً، والفرسخ بثلاثة أميال، وعليه فالدرجة 75 ميلاً، ولكن الذي لم يذكر قدره الإدريسي هو الميل، فان قدرنا الميل بما كان معروفا عند الروم وهو كيلو متر ونصف تكون الدرجة مقدرة عنده بـ 112. 5 كيلو متر، وبهذا يكون الإدريسي أعطانا مقياس الرسم لخريطته بشكل واضح.
في الختام أريد أن أذكر لحضرات القراء بعض المميزات التي تزيد في قيمة الخريطة الإدريسية، وقيمة شرحها نزهة المشتاق:
(1) تجنب الإدريسي ذكر الخرافات التي كانت شائعة في العصر المتوسط، والتي تورط في ذكرها غيره من المؤلفين. ولقد كان من حنكته أنه إذا ذكر شيئاً خارجا عن حدود العادة نسبة إلى ناقله، ثم أعقبه بكلمة احتياط كقوله: والقادر على كل شيء أعلم بما في هذا من الحقيقة. ولم يرسم ما كان شائعاً رسمه عند علماء الجغرافية مما يمثل الغرائب الخرافية، وطبعاً كان لتعاليم الإسلام الفضل الأكبر في هذا.
(2) انفردت خريطة الإدريسي بأنها هي الخريطة الوحيدة التي تعطينا صورة صحيحة عن البلاد الواقعة حول البحر القزويني وصحراء العجم في مدة من الزمن تبلغ نحو قرن، هذه المدة التي لولا خريطة الإدريسي لظلت حلقة مفقودة في تاريخ هذه البلاد.
(3) إن خريطة الإدريسي وحدها هي التي مثلت لنا دولة الإسلام العربية وهي في عصرها الذهبي، تلك الدولة التي كان حظها حظ المائدة الفضية التي علم خبرها والتي قضى عليها في وقت وجيز على يد التتار والمغول. فما لم تصل إليه يد جنكيز خان بالتدمير من المدن الغربية وحضارتها إلى عام 1219 ميلادية صعقته يد هولاكو التتري يوم ضرب العواصم الإسلامية، وترك جنوده يعيثون في بغداد فساداً في فبراير سنة 1258، سبعة أيام كاملة
قتلوا فيها أهلها، وخربوا عامرها، وحرقوا كتبها أو أغرقوها.
ومن هذا الوقت تغيرت العواصم، وتبدلت الأسماء وخلفت الدولة العربية دول المغول والأتراك، وأخذت الخرائط التي وضعت بعد ذلك وجهاً آخر جديداً. فالخريطة الإدريسية إذن هي آخر تمثال لدولة العرب الغابرة يلهمنا العظة ويحدثنا عن فتوحهم وعن مجدهم وفخارهم بأنصع عبارة وأجلى بيان.
وإنني في الختام أدع الحكم على قيمة هذا العمل العلمي الكبير، وعلى مجهودات الإدريسي ورجار المشكورة لرجل خبير درس الخريطة وشرحها (نزهة المشتاق) دراسة وافية، لرجل لم يجر في عروقه الدم العربي، ولا مجال لاتهامه بالتحيز في حكمه، ذلك هو الأستاذ (كونراد ميللر) إذ يقول في آخر بحث أجاره لشرح الخريطة ما معناه: (إن رجار الثاني والإدريسي بوضعهما لهذه الخريطة قد وضعا أهم حجر أساسي في تاريخ انتشار العلم الإنساني) واليكم عبارته بالنص الألماني:

أما كلمتي أنا فأني أوجهها إلى ورثة الأمة العربية، وأخص شباب مصر الناهض وأبناءها البررة العاملين، أوجهها إلى هؤلاء جميعاً بعد أن نشرت بين أيدي القراء صحيفة ناصعة من صحائف أسلافنا الأمجاد، وبعد أن عرضت عليهم بعض ما يجعلنا نعتز بتاريخنا، ونفخر بماضينا، وأناشد هذا الشباب المصري ليجدَّ في العمل كل في ناحيته راجياً أن نوفق في مسعانا، ونربط حاضرنا بماضينا لنصل بوطننا العزيز بمشيئة الله وعونه إلى مكانه الذي أخذه فوق ذروة المجد، وعلى قمة العلياء تحت قيادة مليكنا المحبوب قائد النهضة وحامل لوائها في مصر والشرق.

محمد عبد الله ماضي

لننشد الجمال!

للأديب حسين شوقي

في مقدور شبابنا اليوم ولاشك أن يتعلموا في مصر تعلماً صحيحاً بفضل الجهود التي بذلتها حكوماتنا في السنوات الأخيرة لاستجلاب الفنيين والأساتذة الأعلام من الخارج. .

حتى زادت بفضل ذلك نسبة المتعلمين في مصر زيادة عظيمة، وهو أمر محمود بطبيعة الحال، ولكن. . . مما يؤسف له عدم اكتراث أولياء الأمور المسيطرين على تربية النشء بتنمية الذوق. . . أجل، الذوق أهمل أمره في مصر إهمالاً شائناً. . . إنهم يزوّدون الشباب بمختلف العلوم، ليدخلوا بها الحياة، ولكنهم لا يحببونهم في الحياة نفسها. . إنهم لا يرشدون الشباب إلى ما في الحياة من أسباب الجمال، مع أن الحياة الخالية من الجمال هي طعام خالٍ من الملح. . .

يجب أن يتذوق الناشئ ما في الطبيعة التي تحيط به من جمال رائع، لأنه كلما أنعم النظر فيها، وتذوق جمالها، ازداد عبادة للخالق تعالى وتقرباً منه، فاستقامت بذلك أخلاقه بلا حاجة إلى واعظ أو مرشد. . .

على طالب النبات قبل أن يدرس السماد الكيماوي الذي يزيد في إنتاج زهرة ما، أن يشم عبق هذه الزهرة، وأن يملأ ناظريه من ألوانها البهجة. .

كذلك على طالب علم الفلك المنهمك في تقدير عمر القمر، أن ينظر قبل هذا إلى جمال خيوط القمر الفضية وهي منعكسة على سطح الماء، أو على رمال الصحراء، وقد تلألأت كالماس النقيّ.

كذلك يجب أن يرشدوا النشء إلى ما في الطبيعة من تآلف رائع غريب في الألوان، سواء في الزهور أو في الحيوان. . حتى إذا كبر الطفل. . صار ذوقه سليماً، فلا يلبس مثلاً حذاء أبيض على رداء أسود. . .

كذلك ليتهم أرشدوا الأبناء إلى العناية بالطعام! يجب أن يتعوّدوا تنسيق المائدة بالأزاهير الناضرة، حتى يدخلوا الغبطة على قلوبهم. أليس لنا أسوة في آبائنا الأولين - المصريين القدماء - الذين كانوا يتناولون الطعام على أنغام الموسيقى الشجية. تلك العادة اللطيفة التي ورثها عنهم الأوربيون؟. .

كذلك يجب اهتمام النشء برشاقة أجسامهم، فحذار ثم حذار من السمن الذي يشوه الشباب، فضلاً عن أنها مضرة بالصحة إذ تسبب مع الزمن أمراضاً كثيرة للجسم. .

ويا حبذا لو شجعوا ميول الشباب منذ الحداثة إلى الفنون الجميلة!. فإذا آنسوا مثلاً ميلاً في طفل إلى عادة التصفير لقّنوه الموسيقى. . وإذا رأوا في آخر حب إقتناء الصور علموه الرسم. .

اذكر بهذه المناسبة الواقعة المؤلمة الآتية التي حدثت منذ سنوات قليلة لأحد طلبة الطب الشرقيين في لوزان:

كان هذا الطالب يكشف على مريض تحت إرشاد أستاذه، فلم يرق للأستاذ طريقة نقر الطالب على بطن المريض، بل وجدها غليظة فقال له:

انقر على بطنه كأنك تلعب على البيانو. .

فأجاب الطالب: ولكني لا أعرف البيانو. .

- إذن أي فرع من الموسيقى تعرف؟.

- لم أتعلم الموسيقى بتاتاً!!.

- إذن كيف قضّيت شبابك؟.

فخجل الطالب ولم يعرف كيف يجيبه. .

كذلك علينا أن نوفر على النشء في المستقبل، مشاهدة بعض المناظر المؤلمة في مجتمعنا الحاضر. .
ويا لله مما في مجتمعنا من مضحكات!.
هذا مغرم بالمظهر. . يقتني سيارة فخمة تبهر الأنظار، بينما الدجاج يسرح في حجر داره. . وأثاثه ليس له طراز معروف، وإنما هو طراز (الشيخ أحمد) كالذي يفرش في المآتم والأفراح. .
وذاك يبني داراً فخمة، فلا يترك مكاناً لحديقة، إذ ماله ومال الأزهار والأشجار وهي لا تزيد على كونها حشائش في نظره تنبت بكثرة في أطيانه الواسعة؟. .
كرمة ابن هاني
حسين شوقي
في الأدب الدرامي
الرواية المسرحية في التاريخ والفن - 9
بقلم أحمد حسن الزيات
الملهاة
تعريفها: الملهاة تمثل حادث منتزع من الحياة العامية يبعث اللهو ويثير الضحك. وموضوعها الجهة الوضيعة من طبائع الناس وعادات المجتمع ونقائص الحياة. أما جهة الإنسان الرفيعة ونكبات الدهر الفظيعة وجرائم الهوى السفيه فموضوع المأساة. ويخيل إليّ أن الفرق بين الملهاة والمأساة لا يزال غير واضح ولا محدد، فيحسن هنا أن نفصل القول فيه. فالملهاة تختلف عن المأساة في المبدأ والواسطة والغاية. فمبدأ المأساة حساسة الإنسان وشعوره، وواسطتها التأثير، وغايتها الرهبة من الهوى المضل، والرعب من الجرم الفظيع، والرغبة في الخلق الكريم. وأما الملهاة فمبدأها خباثة الإنسان وضعفه، وواسطتها السخرية والضحك، بأن تنظر إلى عيوب الناس نظرة الضاحك الساخر مادامت غير مؤلمة فتثير الرحمة، ولا محنقة فتثير البغض. ولا مخطرة فتثير الفزع. ثم تصور هذه النقائص بمهارة ودقة، وتستعين على تقوية هذه الصورة بالمفارقات والمفاجآت لتكون مثاراً للاستهزاء والضحك. ولا ريب انه كان أجدر بنا وأنفع لنا أن نقابل عيوب الناس بالرثاء الأخوي والنظر الفلسفي بدلاً من هذه الضحكة الهازئة، ولكنهم وجدوا أن أقرب الطرق وأنجع الوسائل أن يستخدموا فساد بعض الناس في إصلاح فساد الآخرين، كما تستخدم ذبابة الحجر من الماس في صقل الماس نفسه. وإصلاح العيوب بالعيوب هو غاية الملهاة. ومن الناس من يفرق بين الملهاة والمأساة بكيفة الأشخاص وكمية العواطف، فيقولون إن أشخاص المأساة من طبقة الخاصة، وأشخاص الملهاة من طبقة العامة، وإن درجة العواطف في الأولى قوية وفي الأخرى ضعيفة، وذلك فرق لا يميز ولا يوضح، لأن الآلهة والملوك قد يتخذون في بعض الأحيان أضاحيك كما ترى في رواية (امفتريون) لموليير، ولأن اليأس القاتل الذي استولى على بخيل موليير حينما فقد خزانة ماله، لا يقل في درجته وشدته عن يأس فيلوكتيت سوفوكليس حينما خطفوا منه سهام هرقل.
إن النوازل الفادحة والمهالك الجائحة والعواطف الخارقة مرايا المأساة ودلائلها، ولكن المنافع الخاصة والأخلاق العامة والعيوب الشائعة كيان الملهاة وخصائصها، فالأولى صورة من التاريخ، والأخرى صورة من المجتمع، والرذيلة تدخل في باب الملهاة إلا وهي مضحكة محتقرة. فإذا كانت ممقوته مضرة دخلت في باب المأساة. فموليير جعل المنافق المحتال شخصاً مضحكا في (ترتوف)، وشكسبير جعله شخصاً محزناً في (جلوسستر)، وذلك بالطبع راجع إلى طبيعة النفاق والحب في الحالين.
سبب الضحك في الملهاة: سبب الضحك هو خطأ حقيقي أو ادعائي لا ضرر منه ولا تبعة له. فنحن وإنما نضحك إذا لحظنا بين الشيء وبين الواقع اختلافاً لا يكون فيه مضرة لأحد.
فالرجل المفلس الذي يظن نفسه كفؤاً لأن يعلم الناس جمع الثروة، والشيخ المتهدم الفاني الذي يتصابى في مشيته، ويتظرف في لهجته، يبعثان على الضحك ويستوجبان السخرية، لأنهما يريان الأشياء على غير حقيقتها. والدمامة في ذاتها ليست مضحكة، وإنما تصبح كذلك إذا ظن الدميم نفسه جميلاً، أو رجا أن يظنه الناس كذلك. ولهذا

السبب نفسه نضحك من اريجون بخيل موليير حين يطبق على خزانته ما يقوله له فالير عن ابنته، وكذلك نضحك من (مينالك) لابروبير حين أخذ نعله وهو يحسبه كتاب القداس، كما حدث لأحد إخواننا من المعلمين الكهول إذ وضع (دفتر التحضير) في شباك المرحاض بجانب قطعة بالية من قفة خوص. ولما قضى أمره سها فأخذ (البرش) بدل الدفتر، ودخل به الفصل فكركر التلاميذ في الضحك من هذا السهو الغريب.

على أن حدوث السهو أو الخطأ من إنسان لا يكفي في حدوث الضحك، بل لابد أن نلحظ ذلك الخطأ منه، وندرك التباين بين فكرته عن الشيء، وبين حقيقة ذلك الشيء نفسه. فإذا اتفق أن أحد الناس لم يفطن إلى هذا الخطأ لفتور ذهنه أو قلة علمه بقى جاداً لا يضحك ولا يبتسم. وذلك سبب ما نرى من أن الشيء يضحك بعض الناس ولا يضحك البعض الآخر. ولا يلزم أن يكون الخطأ المضحك حقيقياً، بل يكفي أن نراه نحن كذلك، أو يتظاهر

المضحك بأنه غلط في شخص أو في شيء. والمازح إذا أراد أن يمزح فإنما يدعى الحماقة والسذاجة وهما مصدر السهو والخطأ. كذلك يجب ألا يكون لهذا الخطأ تبعة محزنة ولا نتيجة مشئومة كما ذكرت من قبل، وإلا أثار الرعب والإشفاق، بدل أن يثير الجذل والضحك. فميروب حين أخطأت في ولدها فظنته قاتلاً، وأرادت أن تقتله لم يضحكنا ما تفعل، وإنما ملأ قلوبنا رعباً وخشية؛ والمتكبرون لا يضحكون من أنفسهم إذا أخطأوا، لأنهم يجدون في هذا الخطأ جدعاً لكبرهم وإهانة لصلفهم فيتألمون.

ومنشأ الخطأ الذي يولد الضحك إما نقص في الخلق، وإما ضعف في الذكاء، وإما ظروف خارجة عن شخص المخطئ. والخطأ يستتبع في أكثر الأحوال أقوالاً وأفعالاً تخالف المرعي من العادة أو العرف أو القوانين أو الذوق؛ وتلك هي السمات التي تحدد لك أخلاق الملهاة. ففي ملهاة (المتوحش) لموليير تجد كل ما يقوله (ألسِسْت) ويفعله مناقضاً للعادة الجارية، لأنه فقد قوة الحكم على الأشياء، فبالغ في تقدير الفضيلة إلى حد أن يرى فيما أجازه العرض وأمضاه خطورة ليست فيه.

أنواع الملهاة: الملهاة ثلاثة أنواع: وهي الملهاة الإشكالية ' وتؤلف من الحوادث المضحكة الغريبة المتشاكبة المعقدة التي تأخذ على المشاهد أنفاسه وتملك حواسه، حتى تنتهي بحل مرغوب غير متوقع. فالحوادث روحها وقوتها. أما وصف العادات، وتصوير الأخلاق، فهما في المحل الثاني منها، كملهاة المريض الواهم، والطائش، والحضري الشريف لموليير، والملهاة الاجتماعية وتؤلف من الهزؤ بخيال الناس وسخف المجتمع، وتصوير ما أحدثته العادات السيئة في الأخلاق من تشويه ومسخ، وذلك في طبقة خاصة وعصر معين. ويجب أن يكون كل شيء فيها مهيئاً ليظهر مع غيره عيباً من عيوب الاجتماع. فالحوادث تختار عن قصد لبلوغ هذه الغاية، والظروف ترتب بدقة لأحداث هذا الأثر، والفرد يكبر ويعظم حتى يتضمن الجنس بأسره، والحوار يجري على طريقة تبرز فكرة المؤلف واضحة في كل خطاب وجواب، كالمتحذلقات السخيفات لموليير، ونصف العالم، ومسألة النقود، والأب المبذر، لاسكندر دوماس الصغير. والملهاة الخلقية وهي تهاجم العيوب والنقائص المسيطرة على الأخلاق في كل زمان ومكان، ونزعتها إلى الإفادة والإمتاع أقوى منها إلى السخر والإضحاك. كالبخيل، وترتوف، والمتوحش لموليير. وهذا

النوع أنفع الأنواع الثلاثة وأقواها وأصعبها. فأما أنه أنفع، فلأنه يرجع إلى مصادر العيوب وأصولها فيهاجمها في مبادئها ومناشئها؛ وأما أنه أقوى فلأنه يقدم إلى الناس المرآة فيخجلهم من صورهم ويضحكهم من أنفسهم، وأما أنه أصعب فلأنه يطلب من المؤلف دراسة عميقة للأخلاق، وبصيرة نافذة في الملاحظة، وخيالاً قوياً ليجمع شتات الملحوظات الكثيرة في نقطة واحدة.

هذه هي أنواع الملهاة الثلاثة، دون أن نعد منها تلك الأنواع التي تعتمد في الإضحاك على النكات اللفظية، أو على المواقف الخليعة المجونية، فإنها بضاعة الأذهان الكليلة، والأذواق السقيمة. ولها مع ذلك اسم غير هذا الاسم وموضع غير هذا الموضع. على أن هناك نوعاً رابعاً هو أسمى من تلك الأنواع وأقوى. ذلك هو الملهاة المختلطة التي تستوعبها جميعاً. فتجمع إلى هزل المواقف هزل الأخلاق والعادات، فترى فيها الأشخاص مدفوعين بضعف عقولهم، أو مرض قلوبهم إلى أن يقفوا مواقف مخزية

تعرضهم إلى سخر المشاهدين واحتقارهم. . كالموقف الذي وقفه أرباجون بخيل موليير مع ولده حينما أقبلا يتعاملان بالربا دون أن يعرف أحدهما الآخر، فكانت مقابلة الأب المرابي والابن المبذر من سخريات الحياة وغرائب الأمور.
ماذا يجب في عمل الملهاة: إن الغرض الذي يتوخاه واضعو القواعد للعمل الروائي هو التقريب بين الافتراض والحقيقة.
وأقوى الوسائل إلى هذا التقريب هي قاعدة الإمكانية. ولما كان عمل الملهاة منتزعاً من العادة المألوفة، والأخلاق المعروفة، والنكتة الحاضرة، كان بعده عن الحقيقة، ومخالفته للواقع أمراً سهل الملاحظة صعب الاحتمال. لذلك وجب أن تراعى القواعد في الملهاة مراعاة شديدة، وعلى الأخص وحدة العمل، واستمرار الخلق، وسهولة الأسلوب، وبساطة التقعيد، وطبيعة الحوار، وصدق العاطفة. وقوة الفن في إخفاء الفن، بحيث يكون كل ما يحدث ويقال على المسرح صورة ساذجة للمجتمع حتى ينسى المشاهد أنه في مشهد من مشاهد التمثيل، لأن الصورة إذا رسمتها يد عاجزة اتجه فكرك فيها بعد النظرة الأولى إلى الرقعة والألوان والإطار. قبل أن يتجه إلى التدوير والنتوء والبعد.
يتبع
(الزيات)
بين فتاتين
فصل من رواية لم تنشر
للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني
أفاقت (خيرية) - في غرفتها - على صدر (سارة)، أو لعل الأصح والأقرب إلى الصواب أن نقول إنها استعادت سكينة نفسها فيما ترى العين، بعد أن اسلبت ملء حفنةٍ من الدموع روت بها زهور خديها النضيرين، وأصارت أرنبة أنفها كالجزرة. وفي قليل من البكاء شفاء للصدر وجلاء للبصر، وغنى عن المساحيق!
وأحست (سارة) بانتظام أنفاسها فضمتها إليها في رفق وحنان، فجاوبتها (خيرية) بضغطة خفيفة. وطاف برأسها وهي تفعل ذلك أن لو كان هذا صدر شاكر!؟! وتنهدت كالمتحسرة، وذهبت تتصور ساعديه القويين على خصرها يهصرانه، وثدييها يُعْصران على ثندوتيهما، وأنفساه على شعرها، وكلامه العذب في أذنها. فأخذها من هذا الخاطر مثل الدوران في رأسها، وأظلمت عيناها، وشعرت بمثل النار تندلع في أحشائها وترقي إلى صدرها ونحرها وتأخذ بكظمها، على حين كانت تحس بالبرد في قدميها.
وشدت (سارة) على خصرها في هذا اللحظة الحافة بالاحتمالات، فرفعت (خيرية) وجهها المضطرم ونظرت إلى صاحبتها بعين ثابتة الحملاق إلا أن عليها كالضباب فهي لا تبصر، وأقبلت على فمها تقبله - قبلة حارة طويلة عصرت فيها روحا ونسيت نفسها، وإذا (بسارة) تهتز وتنتفض وترسل راحتها تتحسسّ علواً وسفلاً، و (خيرية) كالسكرى: تضم، وتئن، وتبوس، وتمسح الخد بالخد، وعينها مغمضة، وأصابع يمناها تتقبض على لحم (سارة) والأخرى تعبث بشعرها وتتخلله وتشده، وهما في عناقهما تميلان يمنة ويسرة، وتقبلان إلى الأمام تارة، وتنثنيان إلى الخلف طوراً، وتزحف كل منهما إلى صاحبتها كأن بينهما متسعاً فتتزحزحان على الطارقة حتى تهاوتا فتحاجزتا، وصار صدراهما كالخضم المضطرب.
وقالت (سارة) بصوت يذوب من الرقة:
(أحسن؟)
فدانت (خيرية) بين جفونها وألقت إلى صاحبتها - بمؤخر عينها - نظرة فيها من الرضى والشكر والرجاء معان، وكانت كلتاهما مضطجعة، فمدت (سارة) يدها وتناولت راحة (خيرية) وأطبقت عليها أصابعها - في صمت - وظلتا هكذا برهة، ثم شخصت (سارة) إلى السقف وقالت كأنما ترى من تخاطبه فيه (ليتك كنتِ أخاك!)
ثم ثنت إلى (خيرية) وجهاً ينضح بالبشر ويغري بالعبث والمصارحة، فرفعت (خيرية) حاجبيها وأمالت رأسها على الوسادة ثم ردت وجهها إلى سارة وقالت:

(. . .إنك سعيدة يا سارة)
فسألتها (سارة):
(. .وأنت؟)
قالت خيرية (موزعة. .)
- موزعة؟
نعم!. . . وعسى أن أكون واهمة. . ولكنه يخيل إليّ أحياناً أني أحب (عبدة) وهو - لاشك يحبني. . . على طريقته. . . حباً صامتاً. . . أخرس. . . يحيرني. . . أعني يا سارة انه يحرك نفسي لحظة ثم يدعها فارغة لا أثر فيها له. . . ليس عنده كلام يقوله. . . ينظر إليّ كأنه يشتهي أن يأكلني بعظامي. . . فهو يخيفني ويفزعني، ويسحرني أيضاً ويجذبني حين يفتح عليّ عينه بهذه النظرة المنهومة، ولكنه يخيفني أكثر مما يسحرني. .. . آه لو كان ينطق. . .! ولكنه لا يعرف الكلام. . . ولا المغازلة
!جسمه ضخم ولسانه أبكم. . . فهو قوة مرعبة. . . لو كان يرق فينفي الخوف . . .
(. . .لو كان يشعرني أن الحب يلينه أو يذيبه قليلاً!؟. . . ولكنه ليس مثل . . .
وأمسكت، ونزعت يدها من يد سارة، وظلتا مفترقتين برهة وهما تفكران في الغزل!
(خيرية) في بكم عبدة وفي خلو حبه من هذا العنصر الذي يلطف الوقدة، ويخفف الحدة، ويسلب العاطفة المشبوبة لذعها وكيها، ويجعل الحديث أحلى من التقبيل والعناق. أما (سارة) فقد فتح لها كلام (خيرية) باباً جديداً من التفكير أعانتها دراستها العلمية على ولوجه، فراحت تقول لنفسها إن الغزل ليس عبثاً ولا تكلفاً، وإن الرقة فيه واجبة وليست ضعفاً، وإن الطبيعة لا تزال تطلب التوازن وتسعى له وتحدثه، فلولا رقة الرجل القوي، في غزله، لأرعب المرأة حبُّه ولما احتملته، وهو حين يجثو أمامها ويريح خده على ساقها، أو يناجيها بهواه ويشكو إليها ضعفه عن احتماله، ويصف لها ضيق صدره بما يجن، وقلبه
بما يجد، ويتذلل لها ويتوسل إليها، وإنما يفعل ذلك بغريزته ليعتدل الميزان، فيذهب عن المرأة الخوفُ من قوته، وتَشعر أن فيه موضع ضعف تستطيع أن تستغله وتقاوم به طغيان القوة، وعلى قدر ما يبدي الرجل من الرقة في موقف الغزل والمناجاة تحس المرأة أنها قوية وأنها كفء له، فتطمئن وتعتقد أنها نده، وإن كان في ظاهره أقوى، وتبادله حباً بحب غير مكرهة ولا محمولة على ذلك، ولا شاعرة بتفريط في كرامتها أو تضييع لشخصيتها أو محو لإرادتها. .
ولم يشعرا أن الصمت طال بينهما أو أن الحديث انقطع لما قالت (سارة) بعد ذلك:
(ولكنك تحبينه. .! لاشك في ذلك)
فقالت (خيرية) بلهجة المفكر لا المستفسر.
(هذا ظنك؟)
قالت (سارة):
(لقد كنت تفكرين فيه ونحن متعانقان)
فاعتدلت (خيرية) في جلستها، وواجهت (سارة) وقالت بلهجة حازمة:
(كلا. . أبداً)
فوضعت سارة يدها على كتف صاحبتها وقالت:
(تعالي. . تعالي. . اطرحي عن صدرك هذا العبء. . . لماذا لا تبادلينني حبي؟)
فسألتها خيرية وهي تضحك:
(أتحبينني؟)
(أتسألين؟)
(أعني كحمادة؟)
(لا أزعم ذلك ولكني أحببتك)
(من أجله؟ لأني أخته؟)
(لذاتك)
(صحيح؟)
(أتشكين؟)
(لا أشك. . ولكني غيره. . أعني أني فتاة مثلك)
وما دخل هذا؟ ما قيمته؟ ألم نكن نتعانق على حب قبل دقائق؟ قد يختلف الغرض من)

(الحب أو نوع الإحساس به ولكنه يظل حباً
(!سارة)
(نعم)
(لا أدري كيف أقول. . إني لم أعرف من هو إلا الليلة)
ودفنت وجهها في راحتيها فصاحت بها (سارة)
(أهو ذاك؟)
فرفعت (خيرية) رأسها كأنما تتحدى الدنيا والناس وقالت وهي تسوي شعرها وترد عن جبينها خصلة.
(نعم. وقد عرفت الآن)
فقالت (سارة) بإخلاص:
(يا حبيبتي هذا أسعد يوم في حياتي. أنا لأخيك. وأنت لأخي)
فقالت (خيرية) وهي تكاد تبكي:
(!كيف يمكن؟ كيف يمكن؟ إنه لم يرني قبل اليوم إلا مرة واحدة)
فسألتها (سارة) وهي تنظر إليها نظرة من يُحْيي ذكرى تمعن في الغمض:
(قبل اليوم؟ أتعنين. .؟)
قالت (نعم كنت خارجة من سمعان فعثرت. .)
فصاحت بها سارة وقد صح ظنها:
(هو أنت؟)
(أهو أنا؟ ماذا تعنين؟)
(أعني أنك فتاته التي يحبها ويبحث عنها. . يا لسعادتي
فتعلقت بها خيرية وأمطرتها وابلاً من الأسئلة، وسارة تضحك ولا تعرف كيف تجيب، وإذا بحمادة ينقر ويسأل قبل أن يسمع الأذن بالدخول.
(سارة! ما هذا الذي يقول عبدة؟)
فوثبت الفتاتان ووقفتا مبهوتتين من المفاجأة، واحتاج حمادة أن يعيد سؤاله
(أهو صحيح؟)
فقالت (سارة) وهي تبتسم له وترف: (ماذايا روحي؟) فأذابته ابتسامتها وراح يتلعثم . . . أ. . . أ . . .
فقالت سارة (تعال يا حبيبي. . . أم نخرج؟؟ أظنه آن لي أن أخرج. يكرهني يا روحي. . فتعال احملني إلى سيارتك. . . وفيها. . . إلى بيتي)
فنسى حمادة ما أفضى به إليه عبدة. . .
إبراهيم عبد القادرة المازني
من الأدب الأندلسي:
التوابع والزوابع - 2
بقلم محمد فهمي عبد اللطيف
دخل ابن شهيد وادي الجن، ورغب في البدء بلقاء الشعراء على ما بيَّنا في المقال السابق، وقد حدَّثنا الرجل أنه طلب من صاحّبه زهير بن نمير أن يقدمه أول ما يقدمه إلى تابع امرئ القيس، وإنما حق له هذا، أولاً: لأن امرئ القيس سابق في عمر الزمن، وحساب الأيام؛ وثانياً: لأن النقاد جميعاً على أنه أمير الشعراء في العصر القديم، وشيخهم الذي أوضح لهم الطريق، فهو مقدم بالطبع والوضع كما يقول المناطقة، ولم يرد ابن شهيد أن يخرج على ما قضت به الأيام، وما تواضع عليه النقاد، فأنزل الرجل منزلته المقررة، ووضعه في مكانته المعلومة، ولذا قدمه على نفسه في الإنشاد، ووصفه بتطامح الطرف، واهتزاز العطف، علامة الغرور والثقة، وأخذته الهيبة منه، فهم بالحيصة والهرب من أجازته، لولا أن شدَّ في قوى نفسه، وأنشده ما أنشد.
وعلى هذا النهج راح ابن شهيد يتحدث عن توابع الشعراء واحداً بعد واحد، ويقرر ما وقع له معهم، وما جرى بينه وبينهم من الإنشاد والمساجلة، وهو في أثناء ذلك يعرض بالتصور لأحوال الشعراء، ويهتم بوصف نفسياتهم وميولهم ويشير إلى ما اشتهر عنهم في أخلاقهم وسلوكهم وآرائهم، تارة بالتلميح، وطوراً بالتصريح. ومن حين لآخر تجده يجمل كلامه بالنادرة المستملحة، فيجعل القارئ يقبل عليه في سرور وائتناس، أستمع إليه وهو يحكى ما وقعه له مع (بغلة) من التوابع أقبلت تحكمه في شعرين لبغل وحمار

أختلف فيهما الفريقان، فقال لها حتى أسمع، فقالت الشعر الأول لبغل من بغالنا وهو:
على كل صب من هواه دليل ... سقام على جد الهوى ونحول
ومازال هذا الحب داء مبرحا ... إذا ما اعترى بغلاً فليس يزول
بنفسي التي أما ملاحظ طرفها ... فسحرٍ، وأما خدها فأسيل!!
تعبت بما حملت من ثقل حبها ... وإنيٍ لبغل للثقال حمول!
وما نلت منها نائلاً غير أنها ... إذا هي بالت بلت حيث تبول
والآخر لدكين الحمار وهو:
دهيت بهذا الحب منذ هويث ... وراثت إراداتي فلست أريث
كلفت بألفي منذ عشرين حجة ... يجول هواها في الحشا ويعيث
وغيرّ منها قلبها لي نميمةٌ ... نماها أحم الخصيتين خبيث
وما نلت منها محرماً غير أنها ... إذا هي راثت رثت حيث تروث
قال ابن شهيد: (فاستضحك زهير وتماسكت، وقلت للمنشدة ما هويث؟ قالت: هويث بلغة الحمير؛ قلت والله أن للروث لرائحة كريهة، ولقد كان أنف الناقة أجدر أن يحكم في الشعرين، فقالت فهمت عنك) ثم يتفكه ابن شهيد في القول اكثر فيقول (وقالت لي البغلة: أما تعرفني أبا عامر؟ قلت لو كان ثم علامة، فأماطت لثامها فإذا هي بلغة أبي عيسى، والخال على خدها فتباكينا طويلا! وقد أخذنا في ذكر أيامنا فقالت: ما أبقت الأيام منك؟ قلت ما ترين! قالت: شب عمرو عن الطوق! وما فعل الأحبة، قلت شب الغلمان، وشاخ الفتيان، وتنكرت الأخلاق ومن إخواننا من بلغ الأمارة، وانتهى إلى الوزارة؛ فتنفست الصعداء، وقالت؛ سقاهم الله سبل العهد، وان حالوا عن العهد، ونسوا أيام الود. .)
فالرجل كما ترى فكه ظريف، وفي رسالته كثير من الفكاهات النوادر، وكلها على غرار هذه الفكاهة ملاحة وخفة وطرافة، وإنما براعة الرجل تظهر أكثر في تصويره - كما قلنا - لأحوال الشعراء والكتاب، ووصف ميولهم، والتحدث عما جرى له معهم، ولعل من أعذب ماله في ذلك، وصفه لما جرى بينه وبين صاحب أبي نواس، ذلك الشاعر الذي قطع العمر في نشوة السكر، وشرك الخمر، واستطراده في الحديث عن (دير حنة) مقام هذا الشاعر وما أشتمل عليه من الرهبان والغزلان!! فقد أجاد الرجل في ذلك وأبدع؛ أنظر إليه وهو يصور ذلك فيقول (ثم قال لي زهير فمن تريد، قلت صاحب أبي نواس قال هو (بدير حنة) قد غلب عليه الخمر، فركضنا ساعة، وجزنا في ممرنا بقصر، فقلت لمن هذا القصر يا زهير؟ قال لطوق بن مالك أبي الطبع صاحب البحتري، فهل لك أن تراه؟ قلت: أجل، إنه من أساتيذي وقد كنت أنسيته، فصاح يا أبا الطبع، فخرج لنا فتى على فرس أشهب وبيده قناة، فقال له زهير: إنك موفق، قال لا، صاحبك أشمخ مارنا من ذلك لولا تنقصه!! قلت يا أبا الطبع إن الرجال لا تكال بالقفزان، وأنشدنا من شعرك فأنشد:
(ما على الركب من وقوف الركاب)
حتى انتهى منها، ثم قال هات أنت شيئاً فأنشدته:
(هذه دار زينب والرباب)
حتى أتيت فيها إلى قولي:
فكأن النجوم بالليل جيش ... دخلت للكمون في جوف غابها
وكأن الصباح قانص طير ... قبضت كفه برجل غراب
فكأنما غشى وجه أبي الطبع قطعة من الليل، وكر راجعاً إلى الوراء دون أن يسلم، فصاح به زهير أأجزته؟ قال أجزته لا بورك فيك من زائر!!
قال ابن شهيد (ثم سرنا حتى انتهينا إلى (دير حنة) فضرب زهير الأدهم، فسار بنا في قنته، ففتق سمعي قرع النواقيس فقلت فصحت عن منزل أبي نواس ورب الكعبة، وسرنا نجتاب أدياراً وكنائس وحانات إلى دير عظيم تعبق روائحه، وتضوع نوافحه، فوقف زهير ببابه وصاح به: سلام على أهل (دير حنة) فأرقلت نحونا الرهبان مشدودة الزنانير، قد قبضت على العكاكيز، مبيضّة الحواجب واللحى! مكثيرين للتسبيح، عليهم هدى المسيح، فقالوا أهلا بك يا زهير من زائر، وصاحب أبي عامر، ما بغيتك؟ قال (حسن الدنان)، قالوا: إنه لفي شرك الخمر منذ أيام عشرة، وما نراكما منتفعين به، فقال وعليّ أنا ذلك، ونزلنا وقادني إلى بيت قد اصطفت دنانه، وعلفت غزلانه، وفي

دير حنة شيخ طويل الوجه والسبلة، قد افترش أضغاث الزهر، واتكأ على زق خمر، وبيده طرجهارة وحواليه صبية كالظباء، فصاح به زهير: حباك الله أبا الإحْسان، فجاوب جواباً لا يعقل لغلبة الخمر عليه، فقال لي زهير: اقرع أذنيه بإحدى خمرياتك، فانه ربما تنبه لبعض ذلك، فصحت أنشد:

ولربّ حان قد شممت بديره ... خمر الصبا مزجت بصرف عصيره
في فتية جعلوا السرور شعارهم ... متصاغرين تخشعاً لكبيره!!
والقس مما شاء طول مقامنا ... يدعو بعود حولنا بزبوره
وترنم الناقوس عند صلاتهم ... ففتحت من عيني لرجع هديره

فصاح من حبائل نشوته، أأشجعي؟ قلت: أنا ذاك، فاستدعى ماء قراحا فشرب منه وغسل وجه فأفاق، واعتذر إليّ من حاله، فأدركتني مهابته، وأخذت في إجلاله لمكانه من العلم والشعر. .)

فهذه صورة دقيقة، تشتمل على حال أبي نواس كأنك تراه، وتمثل أمامك (دير حنة) بغزلانه ورهبانه تمثيلا رائعاً كله براعة وقوة، والواقع أن ابن شهيد لم يستمد هذه الصورة من خياله، ولكنه صورها من الواقع، ونقلها كما رأى وأبصر، فقد كان هذا الرجل ولوعاً بالتردد على كنائس النصارى في قرطبة لا يتحرج من المبيت فيها مع الرهبان، يرشف الكأس، ويبهج النفس، ومن ذلك (أنه بات ليلة بإحدى كنائس قرطبة، وقد فرشت بأضغاث آس، وعرشت بسرور وائتناس، وقرع النواقيس يبهج سمعه، وبرق الحميا يسرج لمعه، والقسّ قد برز في عبدة المسيح، متوشحاً بالزنانير أبدع توشيح، قد هجروا الأفراح، واطرحوا النعم كل إطراح:

لا يعمدون إلى ماء بأنية ... إلا اغترافا من الغدران بالراح

وأقام بينهم يرشق حميا، كأنما يرشف من شفة لميا، وهي تنفح له بأطيب عرف، كلما رشف أعذب رشف، ثم ارتجل في وصف ذلك هذه الخمرية، التي قرع ببعضها سمع أبي نواس، فتنبه من حبائل نشوته، وصحا من سكرته!!

وابن شهيد يذكر أنه تقابل في طريقه بصاحب البحتري بعد أن قد أنسيه مع أنه من أساتيذه. ويذكر أنه أجازه فخذله حتى لقد هرب بخزي (وكر راجعاً إلى الوراء دون أن يسلم) وهذه شنشنة ابن شهيد مع كثير من الشعراء والكتاب، خصوصاً شعراء المشارقة وكتابهم، فهو يحدّث أنه التقى (بزبدة الحقب) تابع بديع الزمان، وبعد أن تمَّ التعارف بينمها، طلب منه ابن شهيد أن يجري على سمعه وصفه للماء، فتطاول زبدة بذلك الوصف، وقال إنه من العقم بحيث لا يبلغه أديب، ثم انطلق يقول، (أزرق كعين السنور، صاف كقضيب البلور، انتخب من الفرات، واستعمل بعد البيات، فكان كلسان الشعمة، في صفاء الدمعة) فعارضه ابن شهيد فقال (انظر يا سيدي كأنه عصير صباح، أو ذوب قمر لياح، ينصب من إنائه، انصباب الكوكب الدريّ من سمائه، كأنه خيط من غزل فلق، أو مخصرة ضربت من ورق، يرفع عنك فتردى، ويصدع به قلبك فتحيا) فلما سمع ذلك زبدة غار في الأرض، وهو مبهوت خجل!!

وقد حسب الدكتور زكي مبارك ذلك غروراً من ابن شهيد وعَذَره في هذا الغرور نظراً لنبوغه وعبقريته، والواقع أن الغرور صفة تكاد تكون ملازمة لكل أديب، وقد يكون ابن شهيد مغروراً في نفسه إلى أبعد حد، ولكن كلفة بالتفوق على الشعراء والكتاب لم يكن مبعثه الغرور، كما حسب الدكتور مبارك، فان الرجل كما قلنا كتب رسالته في جماعة من معاصريه، حطوا من قدره حسداً له، وغمطوه فضله حقداً عليه، فأراد أن يطلعهم على مكانته في الأدب، وأن يبين لهم قدرته حسداً له، وغمطوه فضله حقداً عليه، فأراد أن يطلعهم على مكانته في الأدب، وأن يبين لهم قدرته في الشعر والنثر، ولذلك فهو يحصر على الظهور أمامهم بالتفوق والتغلب، ليس في إجازة الشعراء والكتاب فحسب! بل إنه ليذكر أن التوابع والزوابع احتاروا في أمره، وشدهوا لقدرته في الشعر والنثر والخطابة، وأن أحدهم فتن ببيت من شعره فقام ينشده ويرقص، وأنه قرأ عليهم رسالته في وصف الحلواء فأعجبوا بها أيما إعجاب، وقالوا (إن لسجعك موضعاً من القلب، ومكاناً من النفس، وقد أعرته من حلاوة طبعك، وحلاوة لفظك، وطلاوة سوقك، ما أزال أفنه، ورفع غبنه، وقد بلغنا أنك لا تجاري في أبناء جنسك) وأظن في الجملة الأخيرة ما يكفي للفصل بيننا وبين الدكتور زكي مبارك.

على أن ابن شهيد لم يقف عند هذا الحد من التعالي وإظهار التفوق أمام معاصريه، بل راح يحط من قدرهم، ويتهكم بعلمهم وأدبهم فوصفهم ببلادة الطبع، فهم - كما يقول - ينحتون عن قلوب غليظة كقلوب البعران، إلى فطن حمئة، وأذهان صدئة لا منفذ لها في الرقة، ولا مدبّ في شعاع البيان، كل بضاعتهم من الأدب، كلمات من غريب اللغة، وبعض مسائل من النحو والصرف لا يفهمون منها إلا ما يفهم القرد اليماني في الرقص على الايقاع، والزمر على الألحان. . . قال ابن شهيد: (ومن خلق هذه العصابة أنهم إذا لمحتنا أبصارهم قابلونا بالملق، وهم منطوون على الحسد والحنق، فإذا جمعتنا المحافل، وضمتنا المجالس، نراهم إلينا مبصبصين، وإنما يتبين تقصير المقصر، وفضل السابق المبرز إذا اضطكت الركب، وازدحمت الحدق، واستعجل المقال.
(للكلام صلة)
محمد فهمي عبد اللطيف
الغد المجهول
للأديب سيد قطب
يا ليتَ شعري، ما يُخَبِّئهُ غدي ... إني أروحُ مع الظنون وأغتدي
وأُجيلُ باصِرَتي بها وبصيرتي ... أبغِي الهُدَى فيها، وما أنا مهتدِ
حتى إذ لاحَ اليقينُ خِلالَها ... أشفقتُ من وجه اليقين الأسود
وأشحْتُ عنه، ولو أطقتُ دعوتُه ... وطرحتُ عنّي حيرتي وتردُّدي
فكأنني الملاَّح تاه سفينةٌ ... ويخافُ من شطٍّ مُخِيفٍ أجردِ
ماذا سيولَدُ يومَ تُولَدُ يا غدي؟ ... إني أحِسُّ بهول هذا المولد!
سيُصَرِّحُ الشكُّ الدفينُ بمهجتي ... فأبيتُ فاقِدَ خَيرِ ما ملكتْ يدي
ستروغُ من حولي عواطف لم تزلْ ... تُضْفي عليَّ بعطفها المتودد
ستَجِفُّ أزهارٌ يفوح عبيرُها ... حولي، وينفحُل بها الأرَجُ الندى
والمشعَلُ الهادي سيخبو ضوؤه ... ويَلُفُّني الليلُ البهيمُ بمفردي
ماذا تُخَلِّفُ يومَ تذهبُ يا غَدِي ... لاشيء بعد الفقدِ للمتفقِّدِ
ستخلِّفُ الأيامَ قاعاً صَفْصَفاً ... تذرو الرياحُ بها غُبارَ الْفَدْفدِ
لا مُرتجَى يُرْجى ولا أسفٌ على ... ماضٍ يضيعُ كأنه لم يُوجد
أبداً، ولا ذكرى تجدَّد ما انطوى ... حتى التألمُ لا يعودُ بمشْهَدِي!
ربَّاه إني قد سئمتُ تردُّدي ... فالآن فلتقدْم بهولِك يا غدِي
. . .إلى طائر
للأديب فايد العمروسي
إلى أي وادٍ ترسل الصوت يجتلى ... سرائر هذا الليل والليل ساهرُ
وفي أي معنى تبعث اللحن صارخاً ... فتطويه في جوف السكون الدياجر
وقد غفلت عين الحياة وأسدلت ... على الكون من وهم الظنون ستائر
هتكتَ حجابَ الليل يا طير فانَّئدْ ... ورفه، فقد هاجت بنفسي خواطر
هنالك أعشاش على دوح شاطئ ... يمازجها طيب من الروض عاطر
تداعبها الأهواء وهي عوازف ... وتهفو بها الأرواح وهي فواتر
هنالك أفراخ إذا ملت نحوها ... تثنت ومالت نحو فيك المناقر
فرُدْها، وخلِّ الليل عنك لشاعر ... يطوف بها سهران والفكر حائر
وفي أي واد في الظلام مقدس ... هتفت به يا طير والقلب ثائر
أذلك وادي الدهر يقضي شؤونه ... على الخلق والأقدار فيها سواهر
تطل على الأكوان في غفلاتها ... فتكشف عما خبأته السرائر
إلا حدِّث الأقدار يا طير وائتني ... بما حجبته في الغيوب المقادر
وأكبر ظني والظنون خواطر ... بأنك مثلي في المقادير حائر
في النقد الألماني
صفحة من كتاب اللاوكون
طريقة التعبير عن الفن
للنقادة ليسنغ
للأستاذ خليل هنداوي
وهكذا بعد الملاحظة وجدنا أن الفن في العصور القديمة كان يتمتع بمقاييس أكثر

اتساعاً، وكان بإمكانه أن يتناول جميع الأشياء الطبيعية المرئية التي يُعد الجمال فيها جزءاً صغيراً، فكانت الحقيقة وطريقة التعبير هما فيه المطلب الأول. وكما أن الطبيعة تضحي في كل لحظة بالجمال بناء على نظرات لها سامية، فكذلك الفنان نفسه ينبغي له أن يخضع للطبيعة برسمه الموضوع دون أن يطمع في أكثر من الظفر بالحقيقة والتعبير، فإذا انقادا له فقد أوتي القدرة بهما على أن يُحيل القبيح في الطبيعة جميلاً في الفن.

هبْ أننا نريد أن نتقبل بدون مجادلة - عمر لحظة واحدة - هذه الأفكار صالحة كانت أم سيئة، أفلا يبقى هنالك مجال فسيح لندرس سبب اضطرار الفنان إلى مراعاته مقياساً خاصاً في التعبير دون أن ينتخب الحالة التي يكون فيها الأثر المرسوم على أشد ثورته.

ولكن مثل هذا الدرس سيكون رده سهلاً بدرس تلك اللحظة الواحدة التي تحدد أوضاعها الأوضاع الفنية. فإذا كان الفنان في الطبيعة المتقلبة دائماً لا يستطيع أن يلتقط منها إلا لحظة واحدة؛ وإذا كان المصور بعد ذلك لا يستطيع في هذه اللحظة نفسها أن يلتقط إلا جانباً واحداً من جوانبها، وإذا كانت آثار هذا الرسام إنما صُنعت لا ليمد إليها الناظر عينيه فحسبُ، ولكن ليتأمل فيها طويلاً، فان من الحق أن هذه اللحظة الواحدة قد انتخبها المصِّور ولم تكن مخصبة كثيراً. على أن المخصب حقاً هو ما يترك حقل المخيلة وسيعاً فسيحاً يجول فيه البصر كيف يشاء.

وبقدر ما نرى الأثر الفني عميقاً يحتوي جوه على خاطرات كثيرة نرى قدرته على توليد الأفكار، وبقدر ما نرى توليده الكثير للأفكار نتصور أننا نرى فيه أشياء وخواطر كثيرة.

في كل مظهر لعاطفة نرى ساعة احتدادها هي التي تنعم بهذا الامتياز وعملك على إبداء

هذا التأثير المثير للعين هو أن تسلم بأجنحتك إلى المخيلة، فإذا لم يكن في استطاعة المخيلة أن تعلو فوق ما تريد لها صورة التعبير فهي ولابد هابطة إلى أوضاع دانية، ووراء هذه الأوضاع يُخشى عليها أن تتقيد (بإفراط في التعبير) فيقف بذلك مدى ارتفاعها وسموها. فإذا تنهد تمثال (اللاوكون) كان في استطاعة المخيلة أن تسمعه يصيح؛ ولكنه إذا صاح أصبحت المخيلة لا تستطيع أن تعلو درجة ولا أن تسقط درجة عما تفرضه الصورة، ولا تقدر أن تفرض جواً له أكثر احتمالاً وإن كان بنتيجته أكثر أعزاء. وإنما هي مضطرة إلى حالتين: فإما أن تسمعه ينوح وإما أن تراه يموت.

وبما أن هذه اللحظة الواحد قد اكتسبت بواسطة الفن خلوداً لا يتغير فلا يجب عليها أن تُعبر إذ ذاك عن شيء يعرض ويزول. فان كل الحوادث التي تحكم عليها بطبيعتها تبدو وتتوارى فجأة، والتي لا يمكن تمثيلها بحقيقتها إلا لحظة واحدة؛ هذه الحوادث مهما كانت طبيعتها إنما تمثل على قدر الخلود الذي وسمها به الفن منظراً غير طبيعي؛ كلما مددنا إليه أبصارنا ضعف تأثيره فينا حتى لا يبقى بعد ذلك من هذا التأثير وهذا المنظر إلا الملل والسأم.

أنظر إلى تمثال (ديموقريطس) الفيلسوف اليوناني الضاحك من جنون الإنسان، فإنه لا يضحك إلا للوهلة الأولى حين تراه، ثم يغدو الفيلسوف بليداً وضحكته تشنجاً ملتوياً، وكذلك الحال في الألم الشديد الذي يرافقه الصياح، فهو إما أن يهدأ، وإما أن يشوه وضع المتألم ويذهب بجماله، وإذا كان الإنسان الجلد القوي لا يقدر على مواصلة الصياح بصورة دائمة، فكذلك الأمر في الصورة التقليدية الفنية تحيل مواصلة الصياح فيها ضعفاً لا يأتيه إلا الأطفال في ساعات الألم. وهذا ما تحاشاه رسام (اللاوكون) في نفس اللحظة التي لا يضر الصياح فيها مظاهر الجمال، وفي نفس اللحظة التي تبيح له قواعد فنه أن يمثل الألم بدون الجمال.

قد أدرك الرسام (تيموماك) بين معاصريه الأقدمين مقاماً سامياً لحذقه التعبير عن الأهواء الجامحة. فللخلود صنع صورة (اجاكس الغاضب) وصورة (ميدي) الساحرة وهي تقتل أولادها. وبعد هذه الأوصاف التي جئنا بها نقول: قد اتضح أن الفنان قد وقف على تلك اللحظة التي ترك فيها الناظر سارحاً في تأملاته يدرك من معاني التمثال هذه القسوة العنيفة

الملتهبة أكثر مما يرى. . . . فهو لم يأخذ (ميدي) في اللحظة التي قتل فيها أولادها، ولكنه رسمها قبل لحظات حين كانت تتنازعها عاطفتا الأمومة والغيرة. وإنما نحن نتنبأ نهاية المعركة، ونحن نضطرب إذا نراها في ثورة غضبها ونقمتها. ومخيلتنا قد تذهب

في مسارب أبعد غوراً قبل أن يحملنا الرسام على النزول في مساريه في مثل هذه الساعة الهائلة. وبهذا وحده نرانا أمام هذا (البقاء) الذي يفرضه الفن لحيرة هذه الأم كمن أرتطم بشيء. إذ نريد أن يكون الوضع في الطبيعة كهذا الوضع، حيث لا تنتهي معركة الأهواء في النفس، وإذا قدر لها الانتهاء انتهت ناضجة حتى يستطيع الزمن وإدمان التأمل أن يضعفا الغضب ويخففا غرب الحدة، ويحققا انتصار عاطفة الأمومة.
وحكمة هذا الرسام قد رفعته مقاماً عالياً، ووضعت مرتبته فوق مرتبة رسام غيره مجهول، إذ أراد هذا المجهول أن يرسم (ميدي) وكان غير فطن؛ فرسمها في ثورتها العنيفة، فأعطى هذه الثورة الحالية من صفة البقاء ما يتجاوز الحد الطبيعي، وهنالك شاعر نظر إلى هذه الصورة وقد انتقدها بعقل صائب، وناجى الصورة: (هل أنت ظمأى إلى الأبد لدماء أبنائك؟ هل هنالك ولد جديد وابنة جديدة، تجدين من أجلهما غضبك وتصبين سوط نقمتك؟ إلا فاذهبي إلى الشيطان وأنت بهذه الهيئة المرسومة).
والصورة الثانية صورة (اجاكس الغاضب) لم يمثله الرسام في غضبه العنيف حين كان يُقيد البهائم ويقتلها بدل الناس، وإنما رسم هذا الرجل بعد هذا العمل الوحشي وقد أنهكه التعب وغلب عليه الوجوم وهو يتأمل في عاقبة عمله. . هذه الصورة تمثل حقاً (اجاكس الغاضب) لأنها تمثله في سورة غضبه، ولكن لأنها مثلته بعد غضبه، ولأن الناظر يدرك بواطن هذا الغضب من وراء الوجوم الذي يراه مرتسما على وجهه، واليأس البادي على ملاحمه؛ ألا يرى الناس العاصفة إذا رأوا الخرائب التي دمرتها والجثث التي بعثرتها على التراب؟
(بيروت)
خليل هنداوي
العلوم
بحث في أصل الإنسان - 3
بقلم نعيم علي راغب دبلوم عال في الجغرافية
مهارة الإنسان الأول:
لم يكن الإنسان الأول إنسان عقله وتركيبه فقط، بل كان إنساناً تميزه حقائق أخرى كثيرة عرفناها عنه. وإن الأدوات الحجرية التي وجدت عن ذلك الوقت الغابر لا تدل على مدى تفكيره فحسب، بل تدل على ميل للفن والمهارة في الصناعة. وقد وجد المستر داوسون قطعة مستطيلة من العظام المتحجرة شكلتها يد الإنسان القديم له بوظيفة صنعها من أجلها، وتشبه في شكلها شكل مضرب اللعبة المعروف (بالكريكيت) وحالة التحجر ودرجته تماثل تماماً ما وجد في أقدم عصور إنسان البلتداون. وعند فحص هذه القطعة العظيمة اكتشف أنها قد اقتطعت من عظمة فخذ نوع من أنواع الفيلة الضخمة البائدة التي تشبه الماموث كانت تعيش في إنجلترا في أوائل عصر البليستوسين؛ فإنسان البلتداون كان ذكياً ماهراً إلى حد ما، أو لدرجة أوصلته إلى أن يشكل من عظام فخذ هذه الفيلة أسلحة مشوهة الشكل، ومن العدل حينئذ أن نضيف إلى ذكائه ومهارته شجاعته وقدرته في الصيد والقنص.
سبق أن بينت أن إنسان الكهوف كان أسير التقاليد والأزياء. وكيف كان نوعٌ وشكل واحد من أنواع الأدوات أو الأسلحة أو غيرها يعم استعماله القارة كلها، وكيف أن بقاء الزي الواحد كان لمدة أطول بكثير مما هو عليه الآن.
وإذا نحن بعدنا إلى عصر الأودية فإننا نجد براهين أخرى على ما ذكرنا. حقيقة لا يمكننا معرفة وقت بدء استعمال هذه الآلات والأدوات الحجرية سواء في عصر الأشيلية والشيلية أو البريشيلية، إلا أنه يمكننا مع ذلك أن نقول واثقين كل الثقة أن المرأة كانت تحمل نفس الشعور والحواس النفسية التي تدفع أي امرأة في أي عصر من العصور إلى طريق العبودية للأزياء. وفي الوقت الحاضر بما فيه من وسائل مواصلات حديثة، يكفي الزي الواحد أسابيع قلائل كي ينتشر ويعم استعماله العالم أجمع، ولو أنه سريع الذهاب قليل البقاء أو الثبات، وهذا الأمر هو ميزة العصر الحالي، عصر السرعة والتقلب في كل
شيء. بعكس القديم الذي نحن بصدده، والذي ذكرنا في فقرتنا السابقة أن انتشار الزي الواحد كان يلزمه وقت طويل، ولكنه عند ما ينتشر يستمر عشرات آلاف السنين دون أن يتغير.

قد استطعنا من الآثار والمخلفات التي وجدناها في المقابر والكهوف وسواها أن نتتبع تاريخ حياة الإنسان من نحو مائتي ألف سنة، وبذلك وصلنا إلى عصر من العصور سماه علماء الجيولوجيا عصر البليستوسين ولدينا من البراهين القوية ما يثبت أن الإنسان في هذا العصر قدُ وجد كامل التكوين جسما وعقلا، ولذلك نجد أنفسنا مضطرين لأن نرجع إلى ما قبل هذا العصر، إلى عصر أطلق عليه اسم عصر البليوسين وبذا نجد أن مخلفات العصر السابق ليست ذات أهمية لنا، ونجد ضروريا أن نبحث عن آثار أقدم. وقد وجد أن الأنهار الشمالية ومنها التيمس والرين والألب وغيرها تحفظ في قاعها وبين طبقات شواطئها من مخلفات العصر الذي نحن بصدده ما يجعلها تفوق في الأهمية أي متحف جيولوجي أو طبيعي.

كانت مصبات الأنهار الشمالية تصل إلى أقاصي القارة الأوربية وتصب في بحر الشمال. وكانت إنجلترا تتصل بباقي أوروبا عن طريق سهل فسيح جداً ممتد بينها وبين القارة. إلا أن هذا السهل قد ذهب ضحية عوامل الانخفاض في القشرة الأرضية فغمرته المياه ولم يبق منه إلا شريط مستطيل رفيع يمتد في شرق انجليا. وإنك لترانا مازلنا في بحثنا عن إنسان البليوسين نعتمد على مخلفات الأنهار وما تحفظه المجاري المائية بين طبقات قاعها أو كهوف سواحلها. وحقيق بي أن أذكر هنا عبارة حين قال: , وهذا معناه أن الأنهار تحفظ لنا بين ثناياها التاريخ الصحيح لقديم الزمان، وعلى العالم الجيولوجي أن يقرأن لنا هذا التاريخ ويفسر ما التبس منه وما غمض.

قلنا إن شرق انجيليا يكون جزءاً من سهل بحر الشمال البليوسيني، فإذا كان هناك إنسان قد عاش في أوربا وسكنها في ذلك العصر فلابد أن نجد آثاراً أو مخلفات تدل على سابق وجوده. وقد حدث أن المستر ريد موير بدأ يبحث في طبقات البليوسين في شرق انجيليا تلاحظ أنه على أعماق مخصوصة وجد قطعاً صخرية صماء دلّته دلالة نقض فيها على إنُها من عمل الإنسان. وبعد سنوات عديدة أمكنه أن يكوّن مجموعة من هذه الصخور

تختلف اختلافاً بيّناً في الشكل والنوع عما وجُد من مخلفات عصري البريشيليان والشيليان. ثم وجه بحثه وراء إنسان البليوسين فبحث في شواطئ سفولك ونورفولك، حيث تكشف الأمواج المتلاطمة عن طبقات الربوات العالية البليوسينية. وقد ساعده الحظ في العثور على صخور نارية دلت على عمل الإنسان وقدرته على التشكيل والابتكار. لكنه لم يعثر ولم يعثر غيره على هيكل متحجر من هياكل ذلك الإنسان الذي صنعها وشكلها في تلك الأزمنة السحيقة المتناهية القدم وهي عصر البليوسين.

وقبل أن نتقدم بعيداً عن ذلك نقف لحظة هنا لنقدر عمراً لهذا العصر. قال العلماء إن سمك طبقات البليوستوسين يبلغ 4000 قدم، وأن سمك طبقات البليوسين 5000 قدم. فإذا علمنا أنه يلزم لتراكم طبقات البليوستوسين (4000 قدم) 200 ألف سنة فانه من الممكن أن نقول إن طبقات البليوسين (5000 قدم) تحتاج إلى 250 ألف سنة أي ربع مليون سنة. وهذا ما يمكن أن نقدره عمراً لعصر البليوسين. وقد كانت أقدم جهة وجد فيها ريد موير مخلفاته الصخرية تقع في خمسي المسافة، فإذا اعترفنا بذلك وجب أن نعترف أنه من مدة تبلغ نحو 1. 300 ألف سنة كان يسكن العالم عنصر بشري كان له من الذكاء والمقدرة ما كشف له عن طريق عمل واستخدام الآلات والأسلحة.

ولم تكن صخور ريد موير التي وجدها في شرق انجيليا أقدم آثار لعصر البليوسين، لأن هناك جهة تعرف باسم لوحظ أن بها مناطق لا تجري فيها مجار مائية في العصر الحالي وإنما تدل الدلائل على أنه كانت توجد بها أنهار سريعة الجريان. وذلك من البقايا الرسوبية التي وجدت. في هذا الجهة بدأ بنيامين هاريسون بحثه في عام 1864 فوجد أدوات صخرية نحتتها يد الإنسان، وقد سميت هذه الصخور باسم ويعترف ريد موير أن هذه الصخور أقدم مما وجده في شرق انجيليا. وقد وجد مدير دار الآثار الملكية البلجيكية في أمثلة أخرى كثيرة لمحاولة الإنسان الأول تشكيل الصخور واستعمالها أدوات وأسلحة.

ولم يقتصر البحث على مخلفات الطبقات الجيولوجية لمناطق بحر الشمال البليوسينية، بل تعدها إلى كل أنحاء العالم. ففي هبترلاند وفي السهول الشمالية

لأواسط آسيا دار البحث والتنقيب عن إنسان البليوسين.
ولعل الدكتور هنري فيرفيلن أوزبورن كان يتوقع العثور في آسيا على الحلقة المفقودة لسلسلة تطور الإنسان في مخلفات عصر البليوسين.
وبرغم الأبحاث المتوالية والجهود الجبارة التي قام بها العلماء في مختلف جهات العالم، لم يعثر إلا على بقايا فرد واحد من العنصر الذي عاش في عصر البليوسين، وجد في منطقة ترتفع عن مستوى سطح البحر بنحو 50 قدماً وتقع على الساحل الشرقي لنهر بنجوان في أواسط جاوة، وقد عثر عليه شاب هولندي طبيب ذهب إلى جاوة سنة 1891 واثقاً من عثوره على ما يدله على خطوات التطور الإنساني في هذه الجهة.
وكانت شواطئ نهر البنجوان غنية بالهياكل المتحجرة لحيوانات بائدة، ولذلك استرعت هذه الجهة نظر الطبيب الشاب فوجه بحثه إليها.
الحلقة المفقودة
وبعد بحث وحفر طويلين وجد هيكلاً لمخلوق غريب أطلق عليه اسم أي الإنسان القرد، إذ أنه قد ظن أنه وجد بقايا من يتكلم عنه الناس أجمع ولم يروه، ألا وهو الحلقة المفقودة بين القرد والإنسان.
وقد ظهر أن هذه الطبقة الأرضية التي وجدت بها بقايا هذا العنصر أو المخلوق لم تتكون إلا في أواخر عصر البليوسين، ولذلك يمكننا أن نقول أنه إذا كان هذا الإنسان القرد عاش هو وأخوته وأعمامه وأخواله وكل أفراد عائلته في جزيرة جاوة في العصر الذي تم فيه تكوين طبقات شرق انجيليا، فإنه يمكننا أن نقدر لعصره عمراً يتراوح بين 200 و300 ألف سنة.
بعد أن قدرنا هذا العمر لهذا المخلوق العجيب يجب علينا أن نبحث لنعرف نوع هذا المخلوق وأصله. فما الذي وجدناه منه؟
كل ما عندنا من آثار: غطاء الجمجمة، عظمة فخذ، ثلاث أسنان منها ضرس من أضراس العقل.
فلندرس هذه كلها، ولنر ما يمكن أن تكشف لنا عنه.
(يتبع)
نعيم علي راغب
البريد الأدبي
ذكرى الفردوسي
تحتفل الحكومة الفارسية في هذه الأيام بذكرى الفردوسي الشاعر الفارسي الكبير بمناسبة مرور ألف عام على مولده. ولا يعرف تاريخ مولد الفردوسي بالتحقيق، ولكنه يوضع عادة بين سنة 935 وسنة 940م؛ وكانت وفاته نحو سنة 1020م. واسمه الحقيقي هو أبو القاسم منصور، وأما الفردوسي فهو اسمه المستعار. وأعظم آثاره قصة (الشاهنامة) الشهيرة، وضعها نظما، واستمد موضوعها وحوادثها من تاريخ فارس القديم. وترجمها بالعربية نثراً الفتح بن علي البنداري. وقد ترجمت الشاهنامة إلى بعض اللغات الأوربية كالإنجليزية والفرنسية والألمانية وظهرت منذ أوائل القرن الماضي. وظهرت الترجمة العربية مكملة محققة منذ عامين بعناية الدكتور عبد الوهاب عزام، أستاذ الفارسية بالجامعة المصرية.
وقد اهتمت الحكومة الفارسية بتنظيم هذا المهرجان الأدبي اهتماماً عظيما، ودعت معظم الحكومات والجامعات والهيئات العلمية لشهوده بصفة رسمية؛ وسينزل المندوبون الرسميون ضيوفاً على الحكومة الفارسية منذ دخولهم الحدود الفارسية؛ وتنظم الحفلات والزيارات الأولى ما بين الثالث والثامن من أكتوبر. ثم يفتتح جلالة الشاه الاحتفال الرسمي الكبير في الثاني عشر من أكتوبر في مدينة طوس حيث يرقد الشاعر العظيم، وسيكون الافتتاح برفع الستار عن أثر تذكاري أقيم تخليداً لذكراه.
وقد وفد على فارس مئات من العلماء والمستشرقين ممثلين لحكوماتهم وجامعاتهم؛ وانتدب لتمثيل مصر في هذا المهرجان العظيم الأستاذان عبد الوهاب عزام وعبد الحميد العبادي. وقد بلغ عدد المدعوين إلى حفلة ذكرى الفردوسي الألفية من أوربا وأمريكا 90 عالماً، ومن الشرق الإسلامي 24، وأعدت لهم الحكومة جميع مظاهر الضيافة والكرم، وسيعودون إلى بلادهم في 25 أكتوبر إذ تنتهي الاحتفالات القومية

الفارسية.
وترجو الرسالة أن توافي قراءها بتفاصيل شائقة عن هذا المهرجان وعن الخطب التي ستلقى فيه.

ألمانيا تحتفل بذكرى الفردوسي

احتفل في برلين بذكرى مرور ألف سنة على مولد الفردوسي شاعر الأمة الفارسية بحضور بعض سفراء الدول الأجنبية وأساتذة الدراسات الشرقية من الألمان. وقد تكلم المستشار وهلن باسم وزير المعارف فقال: إن الفردوسي قد أثبت القرابة الموجودة بين أوائل الفرس وأوائل الجرمان، وتكلم سفير فارس فقال إن الفرس سعداء فخورون لأن كلمة إيران التي تطلق على بلادهم معناها: وطن الشعوب الأرشية الآرية الأوربية.

اللغة الفارسية

يدور في محافل وزارة المعارف الإيرانية أن هناك فكرة ترمي إلى عقد مؤتمر لغوي فارسي بعد الاستئناس بآراء المستشرقين الموجودين في طهران لحضور حفلات الفردوسي. والغرض من هذا المؤتمر هو: الأصلح أن يستمر تقدم اللغة الفارسية في طريقها الحاضر مع إحياء المفردات القديمة، أم اقتباس طريقة مصطفى كمال في جعل اللغة التركية مجردة من الألفاظ العربية وسواها؟ ويؤيد الرأي الأول فريق الشباب. أما المعارضون فهم أكثرية الشعب الإيراني لاعتبارات دينية وتقليدية.

اللغة التركية

إن المؤتمر اللغوي التركي قرر أن يكون يوم 26 أغسطس من كل سنة، وهو اليوم الذي انعقد فيه المؤتمر الأول، عيداً قومياً للغة التركية في جميع أنحاء الوطن التركي، وكانت الجمعية قد احتفلت بهذا العيد في العام الماضي احتفالاً اقتصر على إقامة مأدبة رسمية في مركز الجمعية في أنقرة. أما في هذه السنة فان النية اتجهت إلى صبغ هذا الاحتفال بالصبغة القومية العامة، وفي اليوم المقرر يلقي أعضاء لجان حزب الشعب الخطب والمحاضرات بواسطة الراديو لتعميم فكرة استقلال اللغة القومية، وفي هذا اليوم تصدر الصحف التركية أعداداً خاصة تتناول فيها الموضوعات المتعلقة بمسألة اللغة القومية وتركيزها.

أول مؤلف في اللغة اليابانية عن الإسلام

نشر في طوكيو أخيراً كتاب جليل باللغة اليابانية اسمه (تطور الأمم الإسلامية) عنى بتأليفه ونشره الأستاذ أوقوباشي خدمة للإسلام، ويجمع هذا الكتاب بين دفتيه خمسمائة صفحة من الحجم الكبير زين معظمها بالصور الشمسية التي تمثل نواحي الحياة والعادات في بلاد
الإسلام.
والكتاب يحوي كثيراً من المعلومات العامة عن الإسلام وأهله، وقد اعتنى مؤلفه بعالم الترك اعتناء عظيما فنشر فيه مقالات وفصولاً طويلة في تاريخ الترك والمدنية التركية، وأحصى الدول التي أنشأها الأتراك، وأعرب عن وحدة المدنية التركية بوضوح تام، ثم وضع الانقلاب التركي الأخير في مكان رفيع، وشرحه للأمة اليابانية شرحاً وافياً كما شرح أحوال الأتراك المقيمين في روسيا والصين، وأسهب في الكلام عن المسلمين عامة، وزين الكتاب بصور عظماء المسلمين من أتراك وغيرهم كما زينه بصور زعماء ايديل أورال وتركستان وقريم وقوقاز.

البحث عن أصل النوَر

سبق أن نشرنا بحثاً مستفيضاً عن النوَر (الغجر) وخواصهم، ومازالت آراء البحث الحديث متضاربة في أصل ذلك الشعب البدوي الجوال؛ وأكثر الباحثين على أنهم نزحوا في الزمن الغابر من الهند إلى الشرق الأوسط، ثم تسربوا بعد ذلك إلى مختلف الأقطار الأوربية. ومازالت منهم جموع عظيمة في المجر ورومانيا وبولونيا وتركيا وأسبانيا وغيرها. وتعني معظم الحكومات بتحضيرهم وتهيئة عوامل الاستقرار لهم لتجعلهم من الرعايا الخاضعين للقانون. ولكنها لم تنجح حتى اليوم في تحقيق هذه الغاية. وقد ألفت أخيراً لجنة علمية دولية لتقوم بالبحث عن أصل النوَر، وعن منشئهم الأول، في الهند ذاتها، وفي نفس المنطقة التي يظن أنها كانت موطنهم الأصلي، وهي منطقة تسمى (زجر بستي) وتقع بين نهري الكنج والسند. وتتألف هذه البعثة من عضو

إنكليزي هو الأستاذ فرنك فيلو، وعضو أمريكي هو الأستاذ جاكوب كوركي، وعضو روماني هو الأستاذ لازوريكا وهو نورَي الأصل، وعضو بولوني؛ ويصحب البعثة الأستاذ فالني كانجا الروماني، وهو علامة في اللغة السنسيكرتية التي يظن أنها أصل اللهجات النورَية؛ وسيقوم ببحث الوثائق التي يمكن الحصول عليها من المعابد والأديار البوذية والبرهمية بمعاونة الحكومة الهندية، وقد يكون فيها ما يلقي الضياء على حياة النوَر الأصلية وهجرتهم من موطنهم فراراً من اضطهاد المغول أيام جنكيز خان وتيمورلنك؛ وستزور البعثة إقليم مالا بار حيث توجد طائفة تتكلم لغة فيها كثير من العبارات والألفاظ التي توجد في لهجات النور. وستنشر البعثة خلاصة مباحثها عن النور في كتاب لا ريب أنه سيثير عند ظهور كثيراً من الاهتمام.

سر الحياة

قرئت أخيراً أمام أكاديمية العلوم الفرنسية وثيقة غريبة أودعها بالأكاديمية نائب وعلامة اقتصادي يدعى فرنسيس لور في 5 سبتمبر سنة 1895، واشترط ألا تفتح ألا في 5 سبتمبر سنة 1934، وكثيراً ما تودع بالأكاديمية أمثال هذه الوثائق، وتحترم الأكاديمية رغبات مودعيها. وإليك نص هذه الوثيقة الغريبة: (أعتقد أني قد استطعت وضع طريقة لإطالة الحياة. ولكني لما كنت مهندساً، فأني لا أعتقد بالنظريات إلا إذا تحققت بالعمل. ولهذا فأني أعلن اليوم أنني أريد أن أعيش حتى يوم 5 سبتمبر سنة 1934 على الأقل، وفي هذا التاريخ أكون قد بلغت سن التسعين، وهي سن أرجو أن أبلغها، إذا كنت مصيباً في طريقتي لإطالة الحياة). وقد توفي المسيو فرنسيس لور في شهر مايو الماضي، أعني قبل الميعاد الذي حدده لوفاته بأشهر قلائل فقط. ومعنى هذا انه بلغ أمنيته ومات معمراً في سن التسعين. ولكن الذي يؤسف له أنه لم يرفق تصريحه ببيان طريقته، وعلى أي حال فسواء أكان هذا العمر الطويل نتيجة نظام غذائي أم أية تحوطات صحية أخرى، فانه مما يدعو إلى الدهشة أن يؤكد هذا المعمر أنه سيعيش أربعين سنة ثم يعيشها حقاً. وقد أحيلت وثيقته إلى القسم الطبي بالأكاديمية لبحثها.

القصص

مُقَطَّفَة

للأستاذ إبراهيم بك جلال وكيل محكمة أسيوط الأهلية

كنا في حاضرة صغيرة في صعيد مصر، يجري في سفحها النيل زاخراً فياضا، وينطلق بين أغوارها رعاة الماشية في إثر الكلأ، وتستقيم على أنجادها بواسق النخيل يسطع بريق الضحى من سعفها كالأسنة في متون القنا.

وكان في أقصى المدينة خليج صغير يأخذ من النيل، يجري فيه الماء غديراً رقيقاً، يفيض بركة ويمناً حول ربوة عالية فيها أكواخ بالية لقبيل من الناس، عدتهم بين العشرين والثلاثين، فيهم الشيخ والطفل، وبينهم حفنة دون العشرة أهل باس ونجدة. وتمتد أكواخهم في ذرى النجد كالحة الجدران، تنساب بين شعابها عنزات عجاف، وتنيخ بأفنائها الأباعر، وتسبح في أفقها أسراب الحمائم.

ولأهل ذاك القبيل حقل صغير فوق الربى العالية عزّ على القوم سقياه، فشقوا له في السفح ثلاثة (شواديف)، يستقي أدناها من ماء الخليج فيسقي الذي يليه، وذاك يحمل ما تعلل به من البلل إلى الثالث، وذلك يلقى سقياه إلى الحقل.

ويتناوب أهل النجد تلك الشواديف؛ فهم أبداً جاثمون تحت السعير المتقد من جمرة الصيف في أثمال كشفها البلى عن سواعد دونها الفولاذ، فيشتدون في ساريات الشواديف جذباً ودفعاً حتى يستوفي الحقل رياً، فيُفيئون إلى صفصافة في الحي بها ظل وارف.

وكنا في دهشة الحرب العظمى، فخيم حول المدينة طائفة من جنود بريطانية يحرسون شعاب الصحراء ومفاوزها من أشياع السيد السنوسي، فكنا نصطبح بفرسانهم دارعين يمشون إلى المصاف ثم يعرجون إلى المضارب.

وجاء فيض النيل غمراً كأحسن العهد بالوفاء، وجرى الماء كثيفاً في خليج أهل القبيل، فاندفع الغلمان يسبحون فيه، وتوافد النساء يرتعن ويلعبن.

وكان بالنجد عذراء فتية، لونها الخمر إذا صفا، وغرتها البدر، وخطرتها الظبي، وحدقها المها، تسري بين الربى في قميص قُدَّ من قُبل في غير إثم ولا حرج، وفي خصرها

نطاق من نسيج قرمزي كبرزخ الحسن، يعلو بك صعداً إلى معاقد ما بين ثدييها حيث الفتنة
نائمة، ثم يهوي بك إلى كثيب تنوء به ساقاها.
ونشأت (مقطَّفَة) في حمى اليتم، فكفلها أخواها تحت جناحيْ رحمة، وجمعا لها زخرف الثياب والعقود والأقراط، وجمَّلا قدميها بخفين فيهما كل طليّ من صنع المدينة، وضربا لها خدراً كريماً بين الحمى، فإذا أقلها الخدر وربض أخواها ببابه بات عريناً دونه جبهة الأسد.
وكرّت مقطفة إلى مشرع الخليج وحولها أتراب من الغواني، فأشرق النجد أغواره ورباه، ونضت ثيابها عن قامة كالغصن، فغمرها مدلا بروعة حسنها، ونسج الأتراب من معاصمهن حولها شفقاً رقيقاً كالذي نراه عند مغيب الشمس، فكانت غرّتها تشرق بينهن ثم تغرب في دجى فرعها.
وقدمت فصيلة من جنود الإنجليز إلى الخليج أفراداً وجماعات حتى أكملوا المائة، فنزعوا نعالهم الغليظة، وبعثروا فوق الثرى قلانسهم ومناطقهم، ثم نضوا بقية الثياب وافترشوا أديم الأرض، يستقبلون النيل في فورته واندفاعه إلى الخليج، وكانوا بمعزل عن أهل الحي تحجبهم هضاب وشعاب.
وخرج من صفوفهم فتيان يسبحان في الماء، وظلا في مرح واستباق وتراش بالماء، حتى رنت في أفقهما أغاريد بنات الحي من أقصى الخليج، فهوى أحدهما إلى القاع يسترق الخطى ويسبح الهوينا، حتى كشف له عذاري النجد كالحلقة المفرغة حول (مقطفة).
فخلب لبه ما صاغ المشرق من الحسن، فهو كامن في أفنان النخيل، وطيف النسيم العليل، وصفاء الماء السلسبيل، وملاحة ذلك القد الأسيل.
وسرّح الإفرنجي حدق المأخوذ في دمية النجد وغانية الحي، وبهره وضح جبينها ودقة تكوينها، وسولت له الفتنة أن يستقي حميا ذلك الثغر المصفى.
ونم على الذئب حر أنفاسه فنفر الظباء في ذعر وفَرَق، وتخلفت مقطفة تجمع أشتات العقود والعصائب، وأسبلت قميصاً فضفاضاً يجري ماء الحسن من جيبه إلى ذيله، وهمت في إثر أترابها لولا أن لاحقها الإفرنجي فرأت بشراً من غير معدنها في قميص مندى يكاد يلوكها بماضغ عينيه، ويعتصر جموح غريزته الملحة، فمد يمينه إلى جيدها الغضّ، ولكنها انتثرت كما ينتثر العقد بدراً، وفرت إلى خدرها تملأ الحي رجعاً موجعاً والرجل يشتد في إثرها، وتعلقت فتاة الحي بدروة خدرها ولوحت لأهلها بالعصائب القرمزية فكانت نفير
النجدة.
وأبطأ الفتى الجندي على رفاقه من الإنكليز، فحفوا في أثره وتسنموا ذرى النجد، فخرج عليهم من ظلال الصفصافة حفنة من الفتيان غضاباً للأعراض والأحساب الكريمة، يحملون ساريات الشواديف وفلولاً من أعجاز النخيل، وانهالت الساريات تدق الضلوع، وتفلق الهام، وتطهر باب الخدر بالدماء، واستعر لهب الملحمة واشتد أوارها، وصرع من عامة الجند نيف وثلاثون.
وجاء النذير إلى دار الشرطة بالمدينة، فقدموا إلى ضوامر الخيل، وطوقوا الحي سهله ونجاده، وحُمل الجرحى إلى مضاربهم، وسيق الفتيان إلى السجن مصفدين في الأغلال.
وحشر أهل المدينة في الدروب والمشارق يستعرضون تلك الفئة القليلة التي غلبت فئة كثيرة بأذن الله، فإذا هم بضعة نفر من البدو غرا محجلين، يمشون في سكينة وعزة ويقين، مشيئة آبائهم مفاتيح النصر إلى اليرموك والقادسية، حيث دكوا عروش الروم وفارس، وجاء على أعقابهم نساء النجد يبكون حماة الحريم ورفات المجد القديم، وفي طليعتهن مقطفة تندي النقاب، وتهتك الحجاب، وتندب الأهل والأصحاب.
وعقد مجلس التحقيق فكان مستفيضاً، وطال أمده يومين كاملين.
وجاءت البينات من جنود الإنجليز تشهد جراحاتهم وما تركت الساريات بأضالعهم وسواعدهم وأعجازهم وهامهم، وأنف حماة النجد من الكذب، وراحوا يصورون للقاضي ما كانوا فيه من دعة وسكينة بين الأهل والولد، حتى وثب الجند بالعقائل يستحلون المحارم ويستبيحون الخدور، فقامت سواعدهم بغريزة الذود وسجية الدفاع المشروع.

وكشف للناس فرسان من الإنجليز يمشون في ركاب أمير الجيش إلى المحكمة، ودخل القائد مجلس التحقيق في عتاده وشارات حسن بلائه، فساور القوم قنوط ويأس وظنوا بالله الظنون، وظلوا واجمين بالباب محتسبين عند الله أكرم القرابين. ولهم معذرة، فان مصر كانت في أغلال عرفية لا خيار لها ولا سلطان.

واستنار القائد بدخائل التحقيق وأسراره فنهض إلى الوثائق يجمعها ويطوي سجلها ويحكم رتاجها، ثم عاد إلى مضاربه وبين يديه الجارمون من أهل النجد.

وهلل الفجر فغصت محاريب المساجد بأهل الدعاء، يرفعون العقائر ويعلنون السرائر، وتواري بعضهم بين الشعاب المفضية إلى المضارب يتسمعون دوى البنادق وزفرات الشهداء.

فكشف الناس في أفق الصبح قوافل من السيارات تنوء بالعتاد والمضارب وفيها أشباح يخفقون، وهي تطوي ما بين المضارب والمحطة.

وسارع الناس فرادى إلى الأفاريز فتبينوا بارقا من الرحمة، وتوسموا الخير كله في نواصي السيارات. فقد كان ركبها من الذين استباحوا حمى مقطفة وأهل نجدها، طوح بهم القائد إلى أطراف الديار.

وذخر القطار يمشي بهم في غير ذمة الله تشيعهم من ناحية القائد عين ناقمة متبرمة.

وأومأ أمير الجيش إلى سيارة موصدة فانفرجت عن فتيان النجد في أمن ودعة، واستمعوا حكم البراءة مهللين مكبرين، يلوحون بالعمائهم ويملؤون الأفق حمداً وثناء على مكارم القائد ونبله. وتقدمتهم إلى النجد مقطفة تلوي عصائبها القرمزية، وحولها حلقة مفرغة من بنات الحي يغنين نغم البيد، ويرتلن حلو الأغاردي.

إبراهيم جلال

الكتب

ابنة الشمس

بقلم فرنسيس شفتشي

نشرت مجلة (الرسالة) الغراء في عددها الصادر بتاريخ 24 سبتمبر الماضي نقداً لحضرة الأديب الفاضل (الخفيف) عن روايتي ابنة الشمس. وإني لأتقدّم بمصافحته، راجياً أن يكون ذلك بدء التعارف بيني وبينه، وأرى لزاماً في عنقي أن أشير قبل كل شيء إلى روح النزاهة التي بدت في نقده، وعدم تأثره بأية عوامل في إصداره ذلك النقد، وهو ما أرجو أن يتقبّل عنه مني خالص الشكر، غير أني قد رأيت أن أدفع المآخذ التي أخذها حضرته عليّ بما يأتي:

قال حضرة الناقد المحترم: إن عقدة القصة مهمة، وإنني لم أوفق إلى انتخاب حادثة رئيسية، فهنا بنت أنات تحب بنطاؤر، وهنالك نيفرت تحب مينا، وهذا رئيس الكهان يشترك مع والي مصر في إثارة الشعب ضد الملك، وهذا يعاكر قائد الطليعة يريد أن يكيد للملك.

ولعل حضرة الناقد يوافقني على أن الرواية المسرحية لا يجب أن يكون قوامها حادثة واحدة، ولكن محور واحد تدور عليه الحوادث المختلفة، وإن قليلاً من الإمعان في روايتي يبين للقارئ بسهولة: إن ذلك المحور هو النزاع القائم بين الكهنة والعرش. وأن جميع حوادث الحب والثورات والمظاهر المختلفة، وإنما تشعبت من ذلك الأصل. كما يوضح له أنني لم أحل العقدة التي كان أساسها ذلك النزاع إلا في الفصل الرابع من الرواية، أي في الفصل الأخير.

وقبل ذلك كان لزاماً عليّ أن أحيط العقدة بغموض وإبهام كما يشير حضرة الناقد، حتى يكون المتفرج في شوق إلى معرفة الغاية التي أسير به إليها.

إن الكهنة يتآمرون على العرش، وهم بحاجة إلى شخص يكون آلة في أيديهم، وهذا الشخص يجب أن يكون حاقداً على الملك، وهو قائد طليعته. فيجب إذن إيجاد سبب لذلك الحقد. هذا السبب هو حبه الشديد لنيفرت، وعدم توفيقه في الوصول إليها بسبب أوامر الملك. هذا من جانب واحد، جانب الهجوم - إذا صح هذا التعبير - أما من الجانب الآخر

- جانب الدفاع - فقد كان الملك غائباً عن دياره، وحلّت ابنته محله في إدارة شؤون البلاد، وقد اطلعت بواسطة حبيبها بنطاؤر على دسائس الكهنة. فتعاونا معاً على كشف الجريمة واتخاذ التدابير الكفيلة بانتصار رعمسيس.

وبسبب غياب رعمسيس وتنبه الكهنة إلى نفوذ ابنته كانت سياستهم موجهة ضدها، فاخترعوا لذلك قصة الدنس وما تفرع عن ذلك من الحوادث التي ليست في مجموعها إلا إطاراً زاهي اللون لذلك المحور الذي ذكرناه، وهو العامل السياسي، ولو خلت القصة من تلك الزخارف، فلا شك أنها تكون جافة لا يستسيغها القارئ ولا المتفرج، ولاسيما في التراجيديات الكبرى التي تتطلب جهداً وانتباهاً عظيمين. وبراعة المؤلف هي في حسن سبك هذه الحوادث وصبغها بصبغة الأهمية. وإعطائها اللون الذي يجعل لها في نظر المطلع عليها قوة الموضوع الأساسي وعظمته، وفي أن يشعره بأنها متصلة به اتصالاً وثيقاً. وهذا ما توخيته في روايتي. ولقد قال حضرة الناقد في موضع آخر من مقالة: إن كل منظر في الرواية يكاد يكون مستقلاً، فلعلي لا أكون مخطئاً إذا لفت نظر حضرته إلى أن القاعدة الفنية المعمول بها في معظم المآسي العالمية الكبرى هي التي أوحت إليّ السير على هذا النمط الذي أجده معقولاً، فان موضوع القصة يجب أن يقسم تقسيماً عادلاً بين الفصول، بحيث أن الحادثة أو جزء الرواية الذي يتناوله المؤلف في أحد الفصول يجب أن تكون جزئياته كاملة بحثي لا يسدل الستار على شيء أبتر والمتفرج فاغر فاه في انتظار شيء يشعر بلزومه. إن المتفرج يجب أن يشعر إزاء كل جزء من الرواية أنه إزاء رواية كاملة بجميع جزئياتها في دائرة جزء القصة المخصص لذلك الفصل، على أن يربط هذه الحوادث جميعاً بحوادث الفصل التالي للموضوع الأصلي، وهذا بالذات ما فعلته.

أما قول حضرة الناقد أنني جعلت خاتمة المأساة متوقفة على نصيب رعمسيس في الحرب وأن هذا معروف للقارئ. فليسمح لي بأن أقول لحضرته إن المعروف للقارئ عن انتصار رعمسيس لم يتطرق إلى ذهنه بواسطة روايتي إلا في النهاية، ومعرفة القارئ هذا الانتصار من كتب التاريخ لا يقلل من أهمية القصة، بل بالعكس يجعل لها قيمتها التاريخية من حيث أن المؤلف مطالب بالاحتفاظ بروح التاريخ وإثبات الحوادث الكبرى المعروفة. فما يعتبره الناقد عيباً من هذه الناحية هو حجتي في الدفاع عن الرواية. إن المؤلف لا يبالي

معرفة الجمهور بحادث تاريخي معين وإنما هو يسير في عمله على حسب ما يقتضيه سياق القصة وحسن سبكها، ومهمة المؤلف هي في إيضاح تلك الحوادث المعروفة وتصويرها بدقة وإلباسها الثوب القشيب الذي يجعل الجمهور يتقبلها بغير عنت ولا نفور. فإذا نجح المؤلف في ذلك فلا شك أن الاستمتاع بالعمل الفني يكون كاملاً.

أما ما يأخذه عليّ حضرة الناقد من سذاجة الحوار في بعض الحوادث فان ذلك كان يتبع روح الأشخاص الذين كنت أتكلم بلسانهم.

أما ما يتعلق برجوع بنطاؤر عن فلسفته بسرعة وانقياد إلى بنت أنات، فأني أوافق الناقد على انهما لم يكونا بصدد موضوع تافه بل بصدد موضوع خطير للغاية، ولكن بنطاؤر كان مدفوعاً بعدة عوامل أظهرناها جميعاً بجلاء تام في سياق القصة، وخلاصتها أنه كان يحب بنت أبات حباً مبرحاً منذ عام، وأنه كان يخالف في قلبه جميع معتقدات الكهنة ويدين بما تدين به حبيبته، وأنه خاف عليها أن يتولى عقيدتها الطاهرة الفساد. هذا فضلاً عن قوة الحجة التي أدلت بها بنت أنات في حضرة الكاهن وثورتها عليه ولين عاطفة بنطاؤر ونفسه الشاعرية الحسّاسة. لقد اجتمع لديه كل ذلك في وقت واحد فسلّم السلاح. على أن ضميره عاد يؤنبه بعد ذلك فكاشف صديقه نبسشت بعد تردد قليل بما يكنه قلبه. ولا غرابة في ذلك فان بنطاؤر ونبسشت صديقان حميمان وكلاهما يعد نفسه أمين سر للآخر وموضع ثقته وملاذه.

وأما أنني جمعت بين التأليف والتمثيل بإشارتي إلى ما ينبغي حدوثه على المسرح فلا أظن في ذلك مايعيبني، ولاسيما أن هذه هي الطريقة المتبعة في كل المسرحيات الحديثة.

هذا ما وجب أن أدفع به المآخذ الموجهة إلى روايتي، فلعلي أكون قد وفقت في بياني، والله سبحانه وتعالى يهدينا جميعاً إلى ما فيه السداد.

فرنسيس شفتشي

همام

قرأت ما كتبه الأخ الأديب (م) عن قصة (همام) في (الرسالة) الغراء، وأشكره على حسن ظنه في تقريظه، وأدبه في نقده، وأرجو أن أكون أكثر إرضاءً له في المستقبل.

وما أريد أن أعقب على شيء من كلمته إلا قوله: (تدور القصة حول محور واحد، ألا وهو حفلات الزواج في عاصمة الأحقاف) والواقع أنها تدور حول العادات السيئة بحضر موت وإصلاحها، ولم يرد وصف حفلة الزواج إلا عرضاً.

ولابد لي من التنبيه على أن البيت (لولا انتصاف الكأس الخ. .) ليس لصاحب القصة، بل هو لصديق له من كبار شعراء الأحقاف، ورد اسمه في القصة تنويهاً بفضله وأدبه.

علي أحمد باكثير

العدد 67 - بتاريخ: 15 - 10 - 1934

شوقي. . .! بمناسبة ذكراه الثانية

للأستاذ عبد العزيز البشرى

لقد خرج في هذه الدنيا شعراء ما أحسب أحداً منهم كان يستطيع إلا يكون شاعراً لقد تتصل الشاعرية بالطبع والجبلّة. وليس بملك المرء أن يخرج عن جبلته وطبعه. ولست أجد مثلاً اضربه لهذا الطراز من الشعراء أبلغ من أبي نؤاس في الغابرين واحمد شوقي في المحدثين واغلب اعتقادي أن الشاعر من هؤلاء حين ينزل عليه الشعر لا يقدر عليه على صرفه عنه أو حبس لسانه أو قلمه عن الجريان به إلا برياضة ومطاولة وجهد.

هؤلاء يطلبهم الشعر اكثر مما يرتصدون له، ويتجردون في إصابته.

وبحسبك أن تطالع دواوين شوقي - والحديث فيه اليوم - لتعلم انه لو كان رزق اعظم حظ من العزم والقوة والجبروت ما كان ليقوي على كتم شاعريته الفائضة الجياشة وهيهات للسد بالغا ما بلغ من المتانة والمناعة أن يكف النيل عن جريانه، وأن يكبح إذا طغى من طغيانه!. تقرا شعر شوقي فتتعاظمك هذه الكثرة الكثيرة من فاخر الشعر وبارع الصنعة ورائع البيان. أية قوة بدنية هذه التي احتملت كل هذا المجهود الفكري؟ وكيف تهيأ لهذا الرجل أن يعيش ما عاش!. . .

والواقع الذي لا يتداخله الشك إن شوقي لم يكن على حظ كبير من صحة البدن، بل لقد تستطيع أن تقول إنه كان رجلا مضعوفاً مختل الأعصاب من أول نشأته. فإذا طلبت السر في شأنه، فالسر كله في أنه لم يكن يجهد في قرض الشعر لأنه لا يكلفه ولا يتعمل كما قلت لك في طلبه ولا يرهف في ذاك حساً ولا يحد عصباً، إنما هو الينبوع ينبثق فيجرى الماء دفقاً ما يحتاج إلى متح ماتح.

نعم، لقد كانت تكاليف الحياة تقتضي شوقي كما تقتضي غيره أن يستفتح الشعر ويبعثه في مديح، أو رثاء تهنئه، أو في غير ذلك من الأسباب الخاصة أو العامة التي لا يرى بداً من القول فيها. على أنه لا يكاد يقبل على صناعة الشعر فيما طلبه، حتى تتحرك شاعريته، فتجرّه عما هو بسبيله جراً، وتملى عليه هي ما تشاء اكثر مما يملى عليها هو ما يريد ولست اطلب في هذا دليلا ابلغ من أن شوقي لم يمدح أحداً قدر ما مدح سمو الخديوي السابق. على أنه حين جرد تلك القصائد من ذلك المديح ليدخلها في ديوانه، ظلت سوية

قوية رائعة بما فيها من رقيق غزل، أو من بارع وصف، ومن بالغ حكمة وجليل مثل، كأن لم تفقد شيئا، ولم يعوزها شيء!. . .

إذن كان شوقي شاعراً مطبوعاً أتم طبع، سرياً أجزل السراء، موفقاً إلى أبعد غايات التوفيق. تصرف في فنون الشعر كلها فما ضعف قط في واحد منها، بل قل أن يتعلق بغباره في أي باب من أبواب القصيدة شاعر، اللهم خلا الهجاء، فلم يؤثر عنه فيه بيت واحد. ولعل ذلك يعود، كما قلت في (مرآته)، إلى لطف نفسه، وأنفته من أن يشهر الناس ويطلب معايبهم، أو لعله يعود إلى الخوف والورع من أن يزيد في ثورة خصومه به، لعله فطن إلى أن الزمان سيعفى على هذا الضرب الحقير من الشعر. وأما احسبه لو عالجه إلا موفياً فيه على الغاية والإحسان على أن الله تعالى كان الطف به من أن يدليه في هذا الهوان.

وإذا كان عجباً من كثير من الشعراء أن يكون حظهم من البراعة في فنون الشعر بدرجة سواء - فإن هذا من شوقي وأمثال شوقي غير عجيب. فالرجل، كما زعمت لك، لا يملك من شاعريته. اكثر مما تملكه شاعريته وما أن اجتمع لقول الشعر، ومضى يجيل الفكر ويطير الخيال، إلا ملكته تلك الشاعرية عن نفسه، وراحت تجوده بالهاتن الحنان من وحي القريض. فإن أصابت ما احتفل له، وإلا ففي فنون المعاني الآفاق

العرائض. أرجوك أن تراجع شعر شوقي في كل ما يتورط فيه الشاعر، ولا ينبعث له من نفسه لو كان أمره كله إليه، لتزداد إيماناً بما أقول.

وأرجوك إلا تحسبي غالياً ولا متزايداً إذا زعمت لك إن شعر شوقي كان في بعض الأحيان، بل في كثير من الأحيان، يتخطى إدراكه العادي. أعني إنه لقد كان يصيب ألواناً من المعاني لو انك راجعته فيها غداة نظمها لاحتاج في فهمها إلى فكر وتدبير!.

ولقد وقع لي اكثر من مرة إن راجعته في بعض شعره أرى أنه قد مس فيه معنى رفيعاً جداً، ولكن اللفظ اقصر من أن يطوله بواضح البيان، وإني لأضمر ما المح، وأحياناً ما كان يلمح غيري، فإذا هو بادئ الرأي كقارئة متحيرٍ متردد، وإذا هو في فهم مرامي الكلام في حاجة إلى حبس والى استخبار! وأريد أقول لك أن هذا الرجل لقد كان يفاض عليه ساعة وحي الشعر ما لم يكن لفكره في الحساب. ولقد ذكرت هذا من بضعة أيام لنفر من الأدباء

ممن كانت لهم صلة بشوقي، فأكد لي بعضهم أنه وقع له مثله هذا أمير الشعراء.

صنعة شوقي

وإذا كان هذا الشاعر صنعة، أو كان له في شعره ما بعد من عمله، فهو للمعنى أولاً، فإن واتى اللفظ ولأن ونصع واشرق، وإلا فلأم هذا اللفظ الهبل!.

لم يكن شوقي إذن يكلف بالديباجة، ولا يجهد في تسوية اللفظ وصقله، ولكنه مع هذا لقد يجيء بالعجب العاجب! بل لقد استحدث شوقي في العربية صيغاً أوفت على الغاية من حلاوة اللفظ، ومتانة النسج، وقوة الإشراق. وأحسب إن قوة المعاني هي التي أرادته على هذا ودفعته إليه دفعاً.

ولقد مما يعدّ على شوقي أنه يكثر من الغريب قي شعره، حتى لقد كان يُضطر هو إلى تذييل ما يفشى من قصائده في الصحف بالشرح والتفسير. ولا أحسب هذا سائغاً في العصر الذي نعيش فيه، بل أني لأزعم أن محصول شوقي من متن اللغة لم يكن يواتي هذا القدر الذي يشعره استكثاره من الغريب في قصيدة، فلقد كنت تسأله معنى الكلمة المفردة تكون قد خلت في بعض شعره، فإذا هو لا يدريه في بعض الأحايين. وإنني لأرجح أن الرجل يكن يعمد بهذا للتكثيرٍ بسعة العلم، ووفرة المحصول من اللغة، ولكن لأنه كان يصيب من دقائق المعاني ما لا يتيسرٍ له أداؤه باللفظ الشائع، كما كان يطيل أحياناً كثيرة في القصائد إطالة يحتاج معها إلى الكد في التماس القوافي، فكان يضطر في هذا وفي هذا إلى التماس الألفاظ من القواميس ينزعها انتزاعاً.

التجديد والمجددون

وهنا احب أن أقول شيئاً يسيراً في التجديد والمجددين، وإنني اوجه هذا الكلام، بنوع خاص، إلى الناشئين من المتأدبين.

إذا كان من آيات الحياة في الكائنات تطورها، ونموها، وتجددها. فالأدب، ولاشك، من هذه الكائنات التي لا تكتب لها الحياة إلا على التطور والنمو والتجديد، وإلا كان ميتاً أو أشل على ايسر الحالين.

ولكنني احب أن الفت في هذا المقام، إلى مسالة قد تدق أفهام الكثير أو القليل. وتلك إن هناك فرقا بين التربية والتحديد، وبين المسخ والتغير. ولست أجد مثلاً أسوقه في هذا الباب خيراً من حياة الطفل وحياة النبات. كلاهما ينمو ويربو، وكلاهما يطول ويزكو، حتى يبلغ الحد المقسوم لكماله؛ وقد تتغيرٍ بعض معارفه، وقد تخول بعض أعراضه، ولكنه، في الغاية، هو لا شيء آخر، فحسن الوليد، هو حسن الطفل، هو حسن الفتى، وهو حسن الشاب، هو الكهل، وهو حسن الشيخ، وتلك الفسيلة الصغيرة هي هذه النخلة الباسقة، كل نما وربا بما دخل عليه من الغذاء، وما اختلف عليه من الشمس والهواء لقد أصاب كل منهما ما أصاب من أسباب التربية والإزكاء، فاحتجز منهما ما واءمه وما تعلقت به حاجته، ونفى عنه ما لا خير له فيه وما لا حاجة به إليه. ثم أساغ ما أمسك وهظمه، فاستحال دما يجري في عرقه، ويزيد في خلقه.

ولا شك في أن لأدبنا العربي عناصر، وله مقومات، وله شخصية بارزة معينة، فمن شاء فيه تجديدا - ومن الواجب الحتم على القادرين أن يجدوا - فليتقدم، ولكن من هذه السبيل.

ولا شك في أن لأدبنا العربي عناصر، وله مقومات، وله شخصية بارزة معينة، فمن شاء

فيه تجديداً - ومن الواجب الحتم على القادرين أن يجددوا - فليتقدم، ولكن من هذه السبيل.

ولا تنسوا إن من أهم هذه المقومات، إن لم يكن أهمها جميعا، هو صحة العربية وتحري فصحها. فمن تهاون هذا وتجاوزه، فليس ما يصنع من الأدب في شيء أبداً. ومما يتصل بهذا المعنى ما لعلي لا أخطي إذا دعوته تقاليد العربية، فالعربية كسائر اللغات القوية تقاليد المأثورة على الزمان.

وهنالك مقومات آخران لهما خطرهما العظيم، إلا وهما التخييل والذوق العام. ولا أحسبك تنكر أن للامة ذوقها الخاص بها في كثير من أسباب الحياة، ولقد تشارك غيرها من الأمم في بعض هذا، ولقد تفارقها في بعض فراقا شديداً أو يسيراً.

أما التخييل فقد قلت لك في مقال مضى إن خيال المرء مهما حلق وعلا، ومهما أسرف وغلا، فهو لا يمكن إن يخرج عن كونه مجرد تلفيق من الحقائق المحسة الواقعة. وأنت بعد خبير بأن اصدق خيال وأروعه، وإن أحكم تشبيه واطبعه هو اشتقه الشاعر مما يحيط به وبقائه، ويقع لأسماعها ولأبصارهما جميعاً. وألا نبا عن السمع، ونشز على الطبع، ولو كان بالغاً غاية الغاية في بيئة أخرى.

نعم، لقد يشهد الشاعر من مجال الطبيعة ما لم يشهد عامة قومه ولقد يظهر على كثير مما اتضحت به بلاغات أئمة البيان في الأمم الأخرى ولقد يتذوق هذا في لغاهم، ويتأثر به إلى حد بعيد، ولقد يرى أن ينقل ما يطول من ذلك إلى معشره بإخراجه في لغتهم لينعّمهم ويلذّهم ويرهف حسهم، ويفتق في أذهانهم، ويفسح في أدبهم بإدخال جديد عليه، وإضافة بديع من الآداب الأخرى إليه، فإن له من ذلك ما يجب، على أن يصوغه في صحيح لغته، ويطبعه على غرار أدبه، ويحتال على تسوية خلقه، حتى يصبح تام المشابه بما ألف قومه، حتى لا يحسوا فيه غربة، ولا يشعروا منه بوحشة، فإذا وفق الأديب إلى هذا وأجاده وأحكمه فهو المجدد التام.

شوقي أمام المجددين:

ولقد ضرب شوقي في الأرض كثيراً، ورأى من صور الطبيعة ومن بدائعها ما لم تتهيأ رؤيته لكثير. وقرأ في الفرنسية لأئمة البيان في الغرب ما لا يكاد يملكه الإحصاء. ولقد أساغ ما استعار، وجرى في أعراقه طلقاً، واستطاعت شاعريته الفخمة أن تجلو منه ما شاء أن يجلو عربياً خالصاً لا شك فيه. وهذه دواوينه تزخر بهذا البدع زخراً.

فاللهم إن كان التجديد ما ذكرنا فشوقي أمام المجددين في هذا العصر غير مدافع. أما إن كان التجديد هو المسخ، واستحداث صور شائهة، وستكراه ألوان من المعاني لا تمت ألينا بسبب، على صيغ لا هي بالعربية ولا هي بالأعجمية. فاللهم اشهد أن شوقي ليس مجدداً بل ليس شاعراً أبداً.

ولقد جال شوقي في كل غرض، وقصد كل قصد، وأصاب من كل معنى، وطال نفسه في اكثر قصيدة إلى ما لم يطله كثير من أنفاس الشعراء، فما ضعف ولا تخلخل ولا أسف، ولا فسلت أخليته، ولا شاهت معانيه، بل لقد يأتي أكثر ما يأتي بالجوهري الرائع من حر الكلام.

وليس شوقي يستدل على مكانة بالبيت أو البيتين في القصيدة، أو بالقصيدة والقصيدتين في الديوان، بل إذا طلبت عليه دليلاً فهذه دواوينه، شق منها ما تشاء، وقع منها على ما تريد لك المصادفة، فلن تصيب إلا ارفع الشعر وافخر الكلام.

وبعد، فلقد مات شوقي وإنحسمت جميع أسبابه من الدنيا، وفرغ من مودّات الناس ومن عداواتهم، واصبح شعره حبساً على التاريخ، فمن كان يرى حقاً أن شوقي لم يبلغ هذه المنزلة، أو أنه لم يبلغ بعضها، أو أنه لم يكن شاعراً البتة، فهذا له رأيه، وعليه تبعته. ولا حيلة لنا ولا لغيرنا فيه. وأما من يقدر شوقي حق قدره، فينزله هذه المنزلة أو ما هو اقرب إليها، فمن واجب الذمة أن يشيد بقدره، ويدل على جلالة محله، لا قضاء لحق الأنصاف وحده، ولا أداء لشكر النعمة فحسب، فلقد كان شوقي نعمة عظمى اسبغها الله على أبناء العربية جميعاً، بل لاستدراج نشئ المتأدبين إلى استظهار شعره، وإنها لهم من أدبه، واتخاذه النموذج المحتذى إذا اجتمع أحدهم للبيان.

هذا واجب الذمة للحق وللبيان جميعاً، وخاصة بعد هذا التبلبل الذي لا احسب أن البيان العربي شهد مثله في أي عصر من عصور التاريخ. وحسبي هذا، فما احب أن اقذف

بنفسي في هذه الحرب الناشبة من أنصار قديم وأصحاب جديد.
عبد العزيز البشري
من قول شوقي يصف تمثال نهضة مصر ويشير إلى المرحوم
المثال مختار:
تعالوا تروا كيف سوى الصفاة ... فتاة تلملم سربالها
دنت من أبي الهول مشى الرؤوم ... إلى مقعد هاج بلبالها
وقد جاب في سكرات الكرى ... عروض الليالي وأطوالها
وألقى على الرمل أرواقه ... وأرسى على الأرض أثقالها
يخال لأطراقه في الرمال ... سطيح العصور ورمالها
فقالت: تحرك فهم الجماد ... كأن الجماد وعى قالها
وما الفن إلا الضريح الجميل ... إذا خالط النفس أوحى لها
وما هي إلا جمال العقول ... إذا هي أولته اجمالها
قصة زواج وفلسفة المهر
للأستاذ مصطفى صادق الرافعي
قال رسول عبد الملك: ويحك (يا أبا محمد) لكأن دمك والله من عدوك فهو يفور بك لتلج في العناد فتقتل، وكأني بك والله بين سبعين قد فغرا عليك؛ هذا عن يمينك وهذا عن يسارك، ما تفر من حتف إلا إلى حتف، ولا ترحمك الأنياب إلا بمخالبها.
ههنا هشام بن اسماعيل عامل أمير المؤمنين، أن دخلته الرحمة لك استوثق منك في الحديد، ورمى بك إلى دمشق؛ وهناك أمير المؤمنين، وما هو والله إلا أن يطعم لحمك السيف يعض بك عض الحية في أنيابها السم؛ وكأني بهذا الجنب مصروعاً لمضجعه، وبهذا الوجه مضرجاً بدمائه، وبهذه اللحية معفرة بترابها، وبهذا الرأس محتزاً في يد (أبي الزعيزعة) جلاد أمير المؤمنين، يلقيه من سيفه رمى الغض بالثمرة قد ثقلت عليه.
وأنت (يا سعيد) فقيه أهل المدينة وعالمها وزاهدها، وقد علم أمير المؤمنين أن عبد الله بن عمر قال فيك لأصحابه: (لو رأى هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم لسره) فإن لم تكرم عليك نفسك فليكرم على نفسك المسلمون؛ أنك ن هلكت رجع الفقه في جميع الأمصار إلى الموالي؛ فقيه مكة عطاء، وفقيه اليمن طاوس، وفقيه اليمامة يحيى بن أبي كثير، وفقيه البصرة الحسن، وفقيه الكوفة إبراهيم النخمي، وفقيه الشام مكحول، وفقيه خراسان عطاء الخراساني. وإنما يتحدث الناس إن المدينة من دون الأمصار قد حرسها الله بفقيهما القرشي العربي (أبي محمد سعيد ابن المسيب) كرامة لرسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد علم أهل الأرض إنك حججت نيفاً وثلاثين حجة، وما فاتتك التكبيرة الأولى في المسجد منذ أربعين سنة، وما قمت إلا في موضعك من الصف الأول، فلم تنظر قط إلى قفا رجل في الصلاة؛ ولا وجد الشيطان ما يعرض لك من قبله في صلاتك ولا قفار رجل؛ فالله الله يا أبا محمد، إني والله ما أغشك في النصيحة؛ ولا أخدعك عن الرأي، ولا انظر لك الأخير لنفسي؛ وإن عبد الملك ابن مروان من علمت؛ رجل قد عم الناس ترغيبه وترهيبه، فهو آخذك على ما تكره إن لم تختم أنت على ما يحب؛ وأنه والله يا أبا محمد، ما طلب إليك أمير المؤمنين الو أنت عنده الاعلى، ولا بعثني إليك إلا وكأنه يسعى بين يديك، رعاية لمنزلتك عنده وإكباراً لحقك عليه؛ وما أرسلني اخطب إليك ابنتك لولي عهده إلا وهو يبتذل نفسه إليك ابتذالا ليصل بك رحمة، ويوثق آصرته؛ وإن يكن الله قد أغناك ان تنتفع به وبملكه ورعا وزهادة فما احوج أهل مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينتفعوا بك عنده، وان يكونوا أصهار (الوليد) فيستدفعوا شراً ما به عنهم غنى ويجتلبوا خيرا ما بهم غنى عنه؛ ولست تدري ما يكون من مصادر الأمور ومواردها. وإنك والله إن لججت في عنادك أصرت إن تردني إليه خائبا، لتهيجن قرم سيوف الشام إلى هذه اللحوم ولحمك يومئذ من أطيبها ولأمير المؤمنين تارتان: لين وشدة وأنا إليك رسول الأولى، فلا تجعلني رسول الثانية. . .
وكان أبو محمد يسمع هذا الكلام وكأنة لا يخلص إلى نفسه إلا بعد أن تتساقط معانيه في الأرض، هيبة منه وفرقاً من أقدامها عليه؛ وقد لان رسول عبد الملك في دهائه حتى ظن عند نفسه أنه ساغ من الرجل مساغ الماء العذب في الحلق الظامئ، واشتد

في وعيه حتى ما يشك أنه قد سقاه ماء حميماً فقطع أمعاءه والرجل في كل ذلك من فوقه كالسماء فوق الأرض، لو تحول الناس جميعا كناسين يثيرون من غبار هذه على تلك لما كان مرجع الغبار إلا عليهم، وبقيت السماء ضاحكة صافية تتلألأ.

وقلب الرسول نظره في وجه الشيخ، فإذا هو هو ليس فه معنى رغبة ولا رهبة، كأن لم يجعل له الأرض ذهباً تحت قدميه في حالة، ولم يملأ الجو سيوفاً على رأسه في الحالة الأخرى؛ وأيقن أنه من الشيخ كالصبي الغر قد رأى الطائر في أعلى الشجرة فطمع فيه فجاء من تحتها يناديه: أن انزل إلى حتى آخذك والعب بك. . .

وعد قليل تكلم أبو محمد فقال:

(يا هذا، أما سمعت، وأما أنت فقد رأيت، وقد روينا أن هذه الدنيا لا تعدل عند الله جناح بعوضة، فانظر ما جئتني أنت به، وقسه إلى هذه الدنيا كلها، فكم - رحمك الله - تكون قد قسمت لي من جناح البعوضة. . .؟ ولقد دعيت من قبل لي نيف وثلاثين ألفاً لأخذها فقلت: لا حاجة لي فيها ولا في بني مروان، حتى ألقى الله فيحكم بيني وبينهم. وهأنذا اليوم أدعى إلى أضعافها وإلى المزيد معها؛ أفأقبض يدي عن جمرة، ثم أمدها لأملأها جمراً؟ لا والله ما رغب عبد الملك لابنه في ابنتي، ولكنه رجل من سياسته إلصاق الحاجة بالناس ليجعلها مقادة لهم فيصرفهم بها؛ وقد أعجزه أن أبايعه، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى

عن بيعتين. وما عبد الملك عندنا إلا باطل كابن الزبير، ولا ابن الزبير إلا باطل كعبد الملك، فانظر فإنك ما جئت لابنتي وابنه، ولكن جئت تخطبني أنا لبيعته. . .

قال الرسول: أيها الشيخ، دع عنك البيعة وحديثها، ولكن من عسى أن تجد لكريمتك خيراً من هذا الذي ساقه الله إليك؟ انك لراع وإنها لرعية وستسأل عنها، وما كان الظن بك أن تسئ رعيتها وتبخس حقها، وأن تعضلها وقد خطبها فارس بني مروان، ولن لم يكن فارسهم فهو ولي عهد المسلمين، وان لم يكن هذا ولا ذاك فهو الوليد بن أمير المؤمنين؛ وأدنى الثلاث أرفع الشرف فكيف بهن جميعاً، وهن جميعاً في الوليد.؟

قال الشيخ: أما إني مسؤول عن ابنتي، فما رغبت عن صاحبك إلا لأني مسؤول عن ابنتي. وقد علمت أنت إن الله يسألني عنها في يوم لعل أمير المؤمنين وابن أمير المؤمنين وألفافهما إلا يكونون فيه إلا وراء عبيدها وأوباشها دعها وفجارها. يخرجون من حساب هؤلاء إلى الحساب على السرقة والغضب، إلى حساب هؤلاء إلى حساب التفريط في حقوق المسلمين. ويخف يومئذ عبيدها وأوباشها ودعارها وفجارها في زحام الحشر، ويمشي أمير المؤمنين وابن أمير المؤمنين ومن اتصل بهما، وعليهم أمثال الجبال من أثقال الذنوب وحقوق العباد.

فهذا ما نظرت في حسن الرعاية لابنتي، لو لم أضن بها على أمير المؤمنين وابن أمير المؤمنين لأوبقت نفسي. لا والله ما بيني وبينكم عمل، وقد فرغت مما على الأرض فلا يمر السيف مني في لحم حي.

ولما كان غداة غد جلس الشيخ في حلقته في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم للحديث والتأويل، فسأل رجل من عرض المجلس، فقل يا أبا محمد أن رجلا يلاحيني في صداق ابنته ويكلفني مالا أطيق. فما اكثر ما بلغ إليه صداق أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم وصداق بناته؟

قال الشيخ: روينا أن عمر رضي الله عنه كان ينهى عن المغالاة في الصداق ويقول: (ما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا زوج بناته بأكثر من أربعمائة درهم) ولو كانت المغالاة بمهور النساء مكرمة لسبق إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وروينا عنه صلى الله عليه وسلم انه قال: (خير النساء أحسنهن وجوها وأرخصهن مهورا.)

فصاح السائل: يرحمك الله يا أبا محمد، كيف يأتي أن تكون المرأة الحسناء رخيصة المهر، وحسنها هو يغليها على الناس؛ تكثر رغبتهم فيها فيتنافسون عليها؟

قال الشيخ: انظر كيف قلت. أهم يسامون في بهيمة لا تعقل، وليس لها من أمرها شيء إلا أنها بضاعة من مطامع صاحبها يغليها على مطامع الناس؟ إنما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم إن خير النساء من كانت على جمال وجهها، في أخلاق كجمال وجهها؛ وكان عقلها جمالاً ثالثاً؛ فهذا إن أصابت الرجل الكفء، يسرت عليه ثم يسرت؛ إذ تعتبر نفسها إنساناً يريد إنساناً لا متاعاً شارياً، فهذه لا يكون رخص القيمة

في مهرها، إلا دليلاً على ارتفاع القيمة في عقلها ودينها؛ أما الحمقاء فجمالها يأبى إلا مضاعفة الثمن لحسنها، أي لحمقها؛ وهي بهذا المعنى من شرار النساء، وليست من خيارهن ولقد تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض نسائه على عشرة دراهم وأثاث البيت، وكان الأثاث: رحى يد، وجرة الماء ووسادة من أدم حشوها ليف. وأولم على بعض نسائه من شعير، وعلى أخرى بمدين من تمر ومدين سويق وما كان به صلى الله عليه وسلم الفقر ولكنه يشرع بسنته ليعلم الناس من عمله أن المرأة للرجل نفي لنفس لا متاع لشاربه والمتاع يقوم عند المرأة بما يكون منه؛ فمهرها الصحيح ليس هذا الذي تأخذه قبل ان تحمل إلى داره ولكنه الذي تجده منه بعد أن تحمل إلى داره؛ مهرها معاملتها، تأخذ منه يوماً فيوماً، فلا تزال بذلك عروساً على نفس رجلها ما دامت في معاشرته أما ذلك الصداق من الذهب والفضة فهو صداق العروس الداخلة على الجسم لا على النفس؛ أفلا تراه كالجسم يهلك ويبلى أفلا ترى هذه الغالية - إن لم تجد النفس - قد تكون عروس اليوم ومطلقة الغد؟!

وما الصداق في قليلة وكثيرة إلا كالإيماء إلى الرجولة وقدرتها، فهو إيماء ولكن الرجل قبل، ولكن الرجل قبل. إن كل امرئ يستطيع أن يحمل سيفاً والسيف إيماء إلى القوة غير انه ليس كل ذووي السيوف سواء وقد يحمل الجبان في كل يد سيفاً ويملك في داره مائة سيف؛ فهو إيماء ولكن البطل قبل، ولكن البطل قبل.

مائة سيف يمهر الجبان بها قوته الخائبة لا تغني قوته شيئاً ولكنها كالتدليس على من كان جباناً مثله ويوشك إن يكون المهر الغالي كالتدليس على الناس وعلى المرأة كي لا تعلم ولا يعلم الناس انه ثمن خيبتها؛ فلو عقلت المرأة لباهت النساء بيسر مهرها فإنها بذلك تكون قد

تركت عقلها يعمل عمله، وكفت حماقتها أن تفسد عليه فصاح رجل في المجلس: أيها الشيخ، أفي هذا من دليل أو أثر؟

قال الشيخ: نعم؛ أما من كتاب الله فقد قال الله تعالى (خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْها زَوْجَها) فهي زوجة حين تجده هو لا حين تجد ماله وهي زوجه حين تتممه لا حين تنقصه؛ وحين تلائمه لا حين تختلف عليه: فمصلحة المرأة زوجة ما يجعلها من زوجها، فيكونان معاً كالنفس الواحدة، على ما ترى للعضو من جسمه، يريد من جسمه الحياة لا غيرها.

وأما من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد روينا (إذا أتاكم مَنْ تَرضَوْن دِينَهُ وأمانته فزوجوه. إلاَّ تفعلوا تكن فتنةٌ في الأرض وفساد كبير).

فقد اشترط الدين، على أن يكون مرضياً لا أي ذلك كان ثم اشترط الأمانة وهي مظهر الدين كله بجمع حسناته؛ وأيسرها أن يكون الرجل للمرأة أميناً وعلى حقوقها أميناً، وفي معاملتها أميناً، فلا يبخسها، ولا يعنتها، ولا يسيء إليها لأن كل ذلك ثلم في أمانته.

فإن ردت المرأة من هذه حاله وصفته من اجل المهر - تقدم إليها بالمهر من ليست هذه حاله وصفته، فوقعت لفتنة، وفسدت المرأة بالرجل، وفسد هو بها، وفسد النسل بهما جميع، وأهمل من لا يملك وتعنست من لا تجد ويرجع المهر الذي هو سبب الزواج سبباً في منعه، ويتقارب النساء والرجال على رغم المهر والدين والأمانة؛ فيقع معنى الزواج ويبقى المعطل منه هو اللفظ والشرع.

هل علمت المرأة إنها لا تدخل بيت رجلها إلا لتجاهد فيه جهادها، وتبلو فيه بلاءها، وهل يقوم مال الدنيا بحقها فيما تعمل وما تجاهد؛ وهي أم الحياة ومنشئتها وحافظتها. فأين يكون موضع المال ومكان التفرقة في كثيره وقليله، والمال كله دون حقها؟.

ولن يتفاوت الناس بالمال تختلف درجاتهم به وتكون مراتبهم على مقداره، تكثر به مرة وتقل مرة - إلا إذا فسد الزمان، وبطلت قضية العقل، وتعطل موجب الشرع، وأصبحت السجايا تتحول، يملكها من يملك المال، ويخسرها من يخسره؛ فيكون الدين على النفوس كالدخيل المزاحم لموضعه، والمتدلى في غير حقه؛ وبهذا يرجع باطل الغي ديناً يتعامل الناس عليه، ودينُ الفقير بَهَرجاً لا يروج عند أحد. وليس هذا من ديننا دينِ النفس والخلُق، وإن ألف بعير يقنوها الرجل خالصة عليه ثابتةً له لا تزيد في منزلة دينه قدر نملةٍ ولا ما

دونها. والحجران: الذهب والفضة - قد يكون في هذه الدنيا أضوآ من شمسها وقمرها، ولكنها في نور النفس المؤمنة كحصاتين يأخُذها الرجل من تحت قدميه، ويذهب يزعم

لك انهما في قدر الشمس والقمر.
وهلاك الناس إنما يُقضي بمحاولتهم أن يكونوا أناسًا بعيونهم وذنوبهم؛ فهذا هو الإنسان المدبرُ عن الله وعن نفسه وعن جنسه؛ لا يكون أبوه أباً في عطفه، ولا أمه أما في محبتها ولا ابنه ابنا في بره ولا زوجته زوجة في وفائها؛ وإنما يكونون له مهالك كما روينا عن رسول الله عليه وسلم (يأتي على يد زوجته وأبويه وولده، يعيرونه بالفقر وبالفقر، ويكلف مالا يطيق؛ فيدخل المداخل التي يذهب فيها دينه فيهلك).
وصاح المؤذن، فقطع الشيخ مجلسه وقام إلى الصلاة، ثم خرج إلى داره فتلقته ابنته وعلى وجهها مثل نوره، قالت يا أبت، كنت اتلو الساعة قوله تعالى: (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنه). فما حسنة الدنيا؟ قال: يا بنية هي التي تصلح أن تذكر مع حسنة الآخرة، وما أراها للرجل إلا الزوجة الصالحة، ولا للمرأة. . .
وطرق الباب فذهب الشيخ يفتح، فإذا الطارق (أبو وداعة) وكان يجالسه ويأخذ عنه ويلزم حلقته، ولكنه فقده أياماً. فدخل فجلس. فقال الشيخ: (أين كنت؟)
قال: (توفيت أهلي فاشتغلت بها)
قال الشيخ: (هلا أخبرتنا فشهدناها؟) ثم أخذ يفيض في الكلام عن الدنيا والآخرة.
وشعر أبو وداعة أن القبر ما يزال في قلبه حتى في مجلس الشيخ، فأراد أن يقوم؛ فقال (سعيد):
(هل استحدثت امرأة غيرها؟)
قال: (يرحمك الله، أين نحن من الدنيا اليوم، ومن يزوجني وما املك إلا درهمين أو ثلاثة؟)
قال الشيخ: (أنا. . . . . .)
أنا، أنا، أنا. . دوي الجو بهذه الكلمة في إذن طالب العلم الفقير، فحسب كأن الملائكة تنشد نشيداً في تسبيح الله يطن لحنه: (أنا، أنا، أنا. . .)
وخرجت الكلمة من فم الشيخ، ومن السماء لهذا المسكين في وقت واحد، وكأنها كلمة زوجته إحدى الحور العين.
فلما أفاق من غشية إذنه. . . قال: (وتفعل؟)
قال (سعيد): (نعم) وفسر (نعم) بأحسن تفسيرها وابلغه، فحمد الله وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم، وزوجه على ثلاثة دراهم (خمسة عشر قرشاً). ثلاثة دراهم مهر الزوجة التي أرسل يخطبها الخليفة العظيم لولي عهده بثقلها ذهباً لو شاءت.
وغشي الفرح هذه المرة عيني الرجل وإذنيه، فإذا هو يسمع نشيد الملائكة يطن لحنه: (أنا، أنا، أنا. . .)
ولم يشعر انه على الأرض، فقام يطير، وليس يدري من فرحه ما يصنع، وكأنه في يوم جاءه من غير هذه الدنيا يتعرف إليه بهذا الصوت الذي لا يزال يطن في إذنيه: (أنا، أنا، أنا)
وصار إلى منزله وجعل يفكر ممن يأخذ، ممن يستدين؟ فظهرت له الأرض خلاء من الإنسان، وليس فيها إلا الرجل الواحد الذي يضطرب صوته في إذنيه: (أنا، أنا، أنا. .)
وصلى المغرب وكان صائماً، ثم قام فأسرج، فإذا سراجه الخافت الضئيل يسطع لعينيه سطوع القمر، وكأن في نوره وجه عروس تقول له: (أنا، أنا، أنا. . .)
وقدم عشاءه ليفطر، وكان خبزاً وزيتاً، فإذا الباب يقرع؛ قال: من هذا؟ قال الطارق: سعيد. . !
سعيد؟ سعيد؟ من سعيد؟ أهو أبو عثمان؛ أبو علي؛ أبو الحسن. فكر الرجل في كل من اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيَّب؛ إلا الذي قال له: (أنا. . .)
لم يخالجه إن يكون هو الطارق، فان هذا الأمام لم يطرق باب أحد قط، ولم ير منذ أربعين سنة إلا بين داره والمسجد.
ثم خرج إليه، فإذا به سعيد بن المسيب، فلم تأخذه عينه حتى رجع القبر فهبط فجأة بظلامه وأمواته في قلب المسكين وظن أن الشيخ قد بدا له، فندم، فجاءه للطلاق قبل أن يشيع الخبر، ويتعذر إصلاح الغلطة! فقال: (يا أبا محمد، لو. . لو. . لو - لو أرسلت إليَّ لأتيتك!)
قال الشيخ: (لأنت أحق أن تؤتى)
فما صكت الكلمة سمع المسكين حتى أبلس الوجود في نظره، وغشى الدنيا صمت

كصمت الموت، وأحس كأن القبر يتمدد في قلبه بعروق الأرض كلها! ثم فاء لنفسه ونقدر أن ليس
محل شيخه إلا أن يأمر، وليس محله هو إلا أن يطيع، وإن من الرجولة إلا يكون معرة على الرجولة، ثم نكس وتنكس، وقال بذلة ومسكنة: (ما تأمرني؟)
تفتحت السماء مرة ثالثة، وقال الشيخ: (انك كنت رجلاً عزباً، فتزوجت فكرهت إنَّ تبيت الليلة وحدك؛ وهذه امرأتك!)
وانحرف شيئاً، فإذا العروس قائمة خلفه مستترة به، ودفعها إلى الباب وسلم وانصرف.
وانبعث الوجود فجأة، وطن لحن الملائكة في إذن أبي وداعة: (أنا، أنا، أنا. . .)
دخلت العروس الباب وسقطت من الحياء، فتركها الرجل مكانها، واستوثق من بابه، ثم خطا إلى القصعة التي فيها الخبز والزيت، فوضعها في ظل السراج كي لا تراها؛ واغمض السراج عينه ونشر الظل. .
ثم صعد إلى السطح ورمى الجيران بحصيات؛ ليعلموا إنَّ له شأناً اعتراه، وإنَّ قد وجب حق الجار على الجار (وكانت هذه الحصيات يومئذ كأجراس التليفون اليوم) فجاءوه على سطوحهم وقلوا: ما شأنك؟.
قال: (ويحكمّ! زوجني سعيد بن المسيب ابنته اليوم، وقد جاء بها الليلة على غفلة.)
قالوا: وسعيد زوَّجك! أهو سعيد الذي زوَّجك! أزوَّجك سعيد؟.)
قال: (نعم)
قالوا: (وهي في الدار! أتقول إنها في الدار؟.)
قال: (نعم)
فانثال النساء عليه من هنا وههنا حتى امتلأت بهن الدار.
وغشيت الرجل غشية أخرى فحسب داره تتيه على قصر عبد الملك ابن مروان، وكأنما يسمعها تقول: (أنا، أنا، أنا. . . .)
قال أبو وداعة: (ثم دخلت بها، فإذا هي من اجمل الناس وأحفظهم لكتاب الله تعالى، وأعلمهم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعرفهم بحق الزوج.)
قال: (ومكثت شهراً لا يأتيني سعيد ولا آتيه، فلما كان بعد الشهر أتيته وهو في حلقته فسلمت، فرد عليّ السلام، ولم يكلمني حتى تفرق الناس من المجلس وخلا وجهه، فنظر إليّ وقال:
(ما حال ذلك الإنسان. . . . . .؟)
أما ذلك (الإنسان) فلم يعرف من الفرق بين قصر ولي العهد ابن أمير المؤمنين وبين حجرة أبي وداعة التي تسمى داراً. . .! إلا إن هناك مضاعفة الهم، وهنا مضاعفة الحب.
وما بين (هناك) إلى القبر مدة الحياة ستخفت الروح من نورٍ نورٍ، إلى إن تنطفئ في السماء من فضائلها.
وما بين (هنا) إلى القبر مدة الحياة - تسطع الروح بنور على نور، إلى أن تشتعل في السماء بفضائلها.
وما عند أمير المؤمنين لا يبقى، وما عند الله خير وابقى.
ولم يزل عبد الملك يحتال (لسعيد) ويرصد غوائله حتى وقعت به المحنة، فضربه عامله على المدينة خمسين سوطاً في يوم بارد، وصب عليه جرة ماء، وعرضه على السيف، وطاف به الأسواق عارياً في تبانٍ من الشعر، ومنع الناس أن يجالسوه أو يخاطبوه.
وبهذه الوقاحة، وبهذه الرذيلة، وبهذه المخزاة قال عبد الملك بن مروان: (أنا. . . . . .؟)
طنطا
مصطفى صادق الرافعي
الترجمة في الأدب العربي وتراجم عظمائنا المحدثين
للأستاذ محمد عبد الله عنان
في العام الماضي فكر جماعة من الأساتذة والكتاب في إصدار مجموعة من التراجم القوية المحققة لعظماء مصر في العصر الحديث. وكانت الغاية من إصدار مثل هذه المجموعة علمية قومية قبل كل شئ؛ فليس في تراثنا التاريخي المعاصر مثل هذه

السلسلة؛ وما زالت سير الكثيرين من عظمائنا مجهولة مغمورة، وما زال شبابنا المتعلم يتوق إلى استعراض هذه السير في بحوث محققة ممتعة تغري بالقراءة والدرس فلا يجدها. وسير العظماء زينة التاريخ القومي، والتاريخ القومي غذاء للشعور الوطني.

ولكن هذا المشروع العلمي الجليل لم يجز مع الأسف طور التفكير، وطوي كما طويت مشاريع مثله من قبل.

إن تراجم العظماء تشغل في آداب الأمم العظيمة وفي تاريخها أسمى مكانة، فأقطاب الأمراء والساسة والقادة والعلماء والشعراء والأدباء والفنانين، هؤلاء جميعاً يأخذون مكانهم في التاريخ القومي العام، ثم يأخذون مكانهم في تراجم خاصة، تذهب أحياناً إلى البحوث النقدية المستفيضة التي تشغل مجلدات بأسرها وتخصص للمراجعة العلمية والدراسة العليا؛ وتقتصر أحياناً على صور موجزة، ولكن قوية ممتعة تخصص لدرس الشباب وللقراءة العامة. ويخص هؤلاء العظماء بالدرس في كل عصر ووقت، ويحظون بمختلف البحوث والدراسات، وقد تصدر عن أحدهم عشرات التراجم والسير، ولكل مقامها العلمي والأدبي. أما نحن فكما أن النقص يعتور تاريخنا القومي، وكما أن هذا التاريخ لم يكتب بعد بما يجب من تحقيق وإفاضة، فكذلك يعتور النقص لدينا هذه الناحية الخاصة، أعنى ناحية التراجم والسير المفردة؛ وقلما حظيت آدابنا التاريخية بترجمة محققة وافية لعظيم من عظمائنا المحدثين.

على أن هذه الناحية الخاصة من الباحث التاريخية تشغل في الأدب العربي القديم مكانة هامة. وقد بدأت العناية بها في عصر مبكر جداً. فمنذ القرن الثاني للهجرة يعني الرواة والمؤرخون المسلمون بالسير والتراجم المفردة.

وقد لبثت تراجم العظماء الخاصة حتى أوائل القرن الثالث عشر الهجري تملأ فراغاً كبيراً

في الآداب التاريخية العربية؛ ولم تقف الترجمة الخاصة عند نوع معين أو طائفة معينة من العظماء، بل تناولت رجال السيف والقلم، والملوك والوزراء، القادة والمفكرين، الكتاب والشعراء من كل ضرب؛ ومنها الموسوعات العامة، ومنها المجموعات الخاصة لطوائف معينة، ومنها التراجم والسير الفياضة، ومنها الموجزة. وفي الآداب العربية، ونهضت فيه الآداب الأخرى. غير أن هذا التراث الحافل يقف مع الأسف عند بدء تاريخنا الحديث، وينقطع سيره انقطاعاً تامًا، فلا نكاد نظفر في ذلك العصر بآثار قيمة في التراجم العامة أو الخاصة؛ وهذه ثغرة في آدابنا التاريخية لم نوفق إلى تداركها حتى اليوم.

ويجدر بنا أن نستعرض بهذه المناسبة طرفاً من تراث التراجم والسير الخاصة في الأدب العربي، لنذكر شبابنا المتعلم بما خص به هذا الفن في أدبنا من العناية والاهتمام، وما انتهى إليه من النضج والتقدم. وما نذكره هنا هو على سبيل التمثيل فقط، إذ يقتضي الإلمام بجميع آثار هذا الفن فصولا بأسرها. وفي مقدمة هذه الآثار السيرة النبوية الكريمة، وأشهرها وأنفسها سيرة أبن إسحاق التي دونت في منتصف القرن الثاني من الهجرة. وكتب ابن النديم كتاب الفهرست الشهير في أواخر القرن الرابع، وألم فيه بطائفة كبيرة من تراجم الفلاسفة والمفكرين والكتاب وآثارهم حتى عصره؛ ومنذ القرن الخامس يعظم ميدان هذا الفن ويتسع، وتوضع فيه الموسوعات الكبيرة؛ فنجد الخطيب البغدادي المتوفى في أواخر هذا القرن يستعرض في كتابه الضخم (تاريخ بغداد) مئات من تراجم العظماء والخاصة في جميع الدول الاسلامية؛ وفي القرن السابع وضع القاضي الأجل شمس الدين بن خلكان موسوعته العامة (وفيات الأعيان) في تراجم العظماء من كل ضرب. ولا ريب أن معجم ابن خلكان من أنفس آثار الترجمة العربية إن لم يكن أنفسها جميعاً. فهو موسوعة شاسعة تحتوي على أكثر من ثمانمائة ترجمة لأعلام الأمم الاسلامية، ومنها تراجم ضافية تملأ جميعاً بالتحقيق ودقة التصوير؛ وقد عني ابن خلكان عناية خاصة بتحقيق الأسماء والتواريخ، ونستطيع أن نقول إنه أول مؤرخ عربي جعل من الترجمة فناً حقيقياً، وما زال معجمه إلى عصرنا من أهم المراجع التاريخية وأنفسها. وبلغ فن الترجمة ذروة ازدهاره في القرنين الثامن والتاسع؛ وظهرت فيه الموسوعات الغنية الشاسعة، وخص كل عصر وكل قرن بأعيانه وأعلامه، ونستطيع أن نذكر من آثار هذا العصر، كتاب (أعيان العصر

وأعوان النصر) لصلاح الدين الصفدي المتوفى سنة 764هـ، وهو موسوعة كبيرة في تراجم الأعلام المعاصرين لم يصلنا منها سوى بضع مجلدات. وللصفدي أيضاً كتاب (الوافي بالوفيات)، وهو موسوعة عامة في تراجم أعلام الأمم الإسلامية من سائر الطبقات والطوائف منذ الصحابة إلى عصره، ولم يصلنا منها أيضاً سوى بضعة مجلدات؛ وقد ذيل عليها مؤرخ مصر أبو المحاسن بن تغري بردي بكتاب الأعلام منذ منتصف القرن السابع إلى عصره أي إلى منتصف القرن التاسع. ولدينا منذ القرن الثامن سلسلة متصلة من معاجم الترجمة، يختص كل معجم منها بقرنه، وأولها كتاب (الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة) للحافظ بن حجر العسقلاني؛ ثم كتاب (الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع) لشمس الدين السخاوي، وهو من أنفس معاجم الترجمة وأقواها من الوجهة النقدية؛ ثم كتاب (الكواكب السائرة بمناقب أعيان المائة العاشرة) لنجم الدين الغزي العامري، ثم (خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر) للمحبي الحموي؛ ثم (سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر) لأبي الفضل المرادي. وقد ترجم لنا عبد الرحمن الجبرتي مؤرخ مصر في عهد الفتح الفرنسي طائفة كبيرة من أعيان مصر في القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر، وهو يصل بذلك سلسلة التراجم. وترجم لنا المغفور له العلامة علي باشا كثيراً من أعيان مصر في العصر الأخير في كتابه (الخطط التوفيقية)؛ ووضع المغفور له العلامة أحمد تيمور باشا عدة تراجم لبعض أعيان مصر في القرن الرابع عشر، وهي التي نشرتها (الرسالة) تباعاً في أعدادها الأخيرة.

هذا عن التراجم العامة. وأما عن الترجمة المفردة التي تقتصر على سيرة شخص معين، والترجمة الخاصة التي تعالج طائفة خاصة من الأعلام، فلدينا منها الكثير أيضاً، ونستطيع أن نمثل للترجمة المفردة بسيرة عمر بن عبد العزيز لمحمد بن عبد الحكم المتوفى في أوائل القرن الثالث؛ وسيرة المعز لدين الله لابن زولاق المصري المتوفى في أواخر القرن الرابع، وقد ضاعت ولم يصلنا منها سوى شذور قليلة؛ وسيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزي من علماء القرن السادس، وتاريخ تيمورلنك المسمى (بعجائب المقدور) لابن عربشاه الدمشقي من علماء القرن الثامن؛ وترجمة المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون بقلمه؛ وترجمة الحافظ ابن حجر بقلم تلميذه السخاوي، وترجمة ابن الخطيب للمقرى، وغيرها.

ولدينا الكثير أيضاً من تراجم الطوائف الخاصة كالفلاسفة والأدباء والقضاء والنحاة وغيرهم، مثل أخبار الحكماء للقفطي، وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة، ويتيمة الدهر للثعالبي، ومعجم الأدباء لياقوت، وقضاة مصر لابن حجر، وكثير غيرها؛ هذا عدا كتب الطبقات الخاصة بتراجم فقهاء المذاهب المختلفة وهي كثيرة لا يتسع المقام لذكرها.

والخلاصة أن الأدب العربي غني بتراثه في فن الترجمة، وقلما تنافسه في ذلك آداب أخرى، إذا استثنينا العصر الحديث. ولكن هذا التراث الحافل يقف مع السف عند بدء تاريخنا الحديث؛ ولو لم يوهب لمصر مؤرخها البارع عبد الرحمن الجبرتي في القرن الثاني عشر (القرن الثامن عشر الميلادي) ويتحفنا بموسوعته النفيسة (عجائب التراجم والآثار) لضاعت إلى الأبد حقائق ومعالم كثيرة عن تاريخ مصر في هذا العصر؛ ولطمست سير الكثيرين من أعلامه. نعم إن الترجمة العربية لم تعرف الأسلوب النقدي، ومنهج التحقيق العلمي، لأنها ازدهرت في عصر كان التاريخ فيه أقرب إلى الرواية؛ ولكنها مع ذلك تتمتع فضلاً عن غزير مادتها بكثير من التحقيق التاريخي، وفي وسع المؤرخ الحديث أن يستخرج منها نفائس مادته؛ وقد كان الجبرتي خاتمة هذا الثبت الحافل من مؤرخين عنوا بتدوين الحوادث والتراجم المعاصرة، ولم يقع لتراثنا مثل هذا الأثر النفيس منذ الجبرتي أي منذ أوائل القرن التاسع عشر. وقد تقدمت المباحث لتاريخية في العصر الأخير تقدماً واضحاً، وبدئ بكتابة تاريخ مصر الحديث؛ ولكنا حتى في هذه الناحية العامة ما زلنا في مستهل جهودنا؛ ومما يبعث على أشد الأسف واللم أن نجد عناية الكتاب الغربيين بكتابة تاريخنا الحديث سواءً من الوجهة العامة أو من بعض الوجوه الخاصة أوفر من عنايتنا، وان نجد في مختلف اللغات الأوربية من الآثار المتعلقة بتاريخنا أكثر مما نجده في لغتنا العربية.

أما النواحي الخاصة في تاريخنا القومي، وأما سير عظمائنا، وهي التي أوحت إلينا بكتابة هذا الفصل. فما زالت مغمورة منسية، وأي نسيان، بل وأي نكران أشد من أن

يبقى ذلك الثبت الحافل من عظمائنا ومفكرينا في لعصر الحديث دون ذكر محقق منظم؟ أليس مما يشين نهضتنا العلمية والأدبية أن يحرم رجال مثل عرابي والبارودي وعلي مبارك ومحمد عبده ومصطفى كامل وسعد زغلول وغيرهم من أبطال نهضتنا القومية من تراجم ضافية،
نقدية محققة يقرأها الشباب والخلف؟ إن العظماء في الأمم المتمدينة يذكرون دائماً أثناء حياتهم بما يخلد ذكرهم بين مواطنيهم، فإذا توفي أحدهم صدرت غداة وفاته الفصول والكتب المحققة، هذا عدا ما يكون قد صدر منها أثناء حياته. أما نحن فننظر إلى التاريخ المعاصر نظرة الجمود والاستخفاف، ونكتفي يوم يذهب أحد عظمائنا بأن نشيعه إلى قبره ببعض المقالات والمراثي، ثم لا يلبث أن يغمره النسيان إلى جانب أسلافه! وهكذا يتكدس أمامنا ثبت عظمائنا فلا نتلقى من سيرهم وأعمالهم إلا صوراً مشوهة، بينما نعرف الكثير عن عظماء الأمم الأخرى، لأننا نجد في سيرهم كتباً محققة ممتعة تشوق قراءتها.
ولا ريب أن معظم التبعة في ذلك الإهمال المشين ترجع إلى نوع الثقافة التاريخية الذي نتلقاه في مدارسنا؛ فهذه الثقافة ما تزال قاصرة، بعيدة عن أن تذكى الشعور الوطني في نفوس النشء. والشعور بالكرامة القوية هو أول دافع للشباب والباحثين على استقصاء سير عظماء الوطن ثم على تحقيقها وتدوينها.
هذه كلمة أخرى نرسلها على صفحات (الرسالة) لننبه على إحدى مواطن الضعف في ثقافتنا وآدابنا التاريخية؛ ولنذكر بها إخواننا الذين فكروا منذ عام في وضع تراجم وافية محققة لعظماء مصر في العصر الحديث أن يعاودوا البحث في هذا المشروع العلمي الوطني الجليل، ولعلهم موفقون هذه المرة إلى تحقيقه وإخراجه؛ فيسدون بذلك ثغرة مشينة في تاريخنا القومي ويضعون سنة حسنة في آدابنا التاريخية، ويستحقون بذلك عرفان الجيل الحاضر والأجيال القادمة.
محمد عبد الله عنان المحامي
بين فن التاريخ وفن الحرب
خالد بن الوليد في حروب الردة - 3
للفريق طه باشا الهاشمي
رئيس أركان حرب الجيش العراقي
لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما في بدني شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة، وهأنذا) أموت على فراشي كما يموت البعير! فلا نامت أعين الجبناء(
خالد بن الوليد
5 - أسلوب القتال:
من الخطأ القول بأن ليس للعرب أسلوب في القتال قبل الإسلام. فان من تتبع أخبارهم في الجاهلية اتضح له أن للقوم مبادئ يسيرون عليها في قتالهم، وكانت هذه المبادئ ملائمة لاستعمال سلاحهم ومنطبقة على البيئة التي يقاتلون فيها.
أجل، إن العرب لم تقاتل بالجموع التي يقاتل بها الفرس أو الروم الذين كانت جيوشهم كبيرة قد تربو على المائة ألف في بعض المعارك. وجيش بهذه القوة يحتاج إلى تنظيم لسوقه قبل المعركة وتعبئته فيها. فجيش بهذه القوة يحتاج إلى تنظيم لسوقه قبل المعركة وتعبئته فيها. فجيش أولئك الأعاجم كان ينقسم إلى راجلين وفرسان والى طاعنين وضاربين ورماة. وكانت الفيلة عند الفرس والعجلات الحربية عند الروم، تقوم مقام الأسلحة الثقيلة كالدبابات والمدافع الضخمة في يومنا هذا.
فنظام القتال عند اليونان كان مستنداً إلى (الفيلق) (الفلانكس) وهو وحدة تعبوية يبلغ متوسط قوتها (4000) مقاتل، يصطف الجنود فيها على ستة عشر صفاً طول كل صف (256) مقاتلاً. والجنود في (الفيلق) (الفلانكس) من المشاة مسلحون بالرمح والسيف والحربة والمغفر والدرع والترس. ويتكون من (الفيلق) القلب ويقف في الخط الثاني الذي يسبقه الخط الأول المؤلف من الرماة ويليه الخط الثالث. وتقف الخيالة في الميمة والميسرة لحماية الجانب.
ويتألف الجيش عادة من أربعة فيالق (فلانكسات) متى تيسرت القوة فيه. فتقف الفيالق

متى تيسرت القوة فيه. فتقف (الفيالق) جنباً إلى جنب وبينها فاصلات (فلانكسات) صغيرة تتراوح بين عشرين وأربعين خطوة.
وكان هذا النظام لا يصلح للقتال إلا في الأرض السهلة المنبسطة، والمقدرة على الحركة فيه قليلة، ولا يستطيع تغيير الجبهة متى اقتضى الموقف ذلك، فضلاً عن أنه معرض للخسارة إذا أصيب برمي السهام.
أما نظام القتال عند الرومان فكان مستنداً إلى (اللجيون)، وهذا ينقسم إلى الكراديس ومجموعها عادة عشرة. وكانت الكراديس سابقاً تُعبأ على خطين كل خمسة منها في نسق وبينها فاصلة جهة كردوس، على أن تقف كراديس الخط الثاني وراء فاصلات الخط الأول.
ثم تطور هذا النظام في عهد يوليوس قيصر، فكان اللجيون يقف على ثلاثة خطوط: في الخط الأول أربعة كراديس، وفي كل من الخطين الباقين ثلاثة، وتبلغ قوة كل كردوس ألف مقاتل وتؤلف الكراديس القلب، ويقف أمامه الرماة الذين يرمون العدو بسهامهم أو بحرابهم قبل الاصطدام ثم ينسجون إلى المجنبات أما الخيانة فتحمى المجنبتين.
وكان نظام الكراديس يفوق نظام (الفيلق) (الفلانكس) في المقدرة على القتال والحركة والسير بسهولة، وكان في استطاعة الكراديس أن ينجد بعضها بعضاً.
والجانب في اللجيون قوى بخلاف جانب (الفيلق) (الفلانكس)، لأن كراديس الجانب متى غيرت ناصيتها استطاعت آن تقابل العدو الملتف حولها.
وسار الروم أو البيزنطيون في قتالهم على نظام الكراديس فأخبار الفتوح الأولى تدل على انهم كانوا يبعثون قواتهم كراديس ويحمون مجنبتهم باليمنة والميسرة. وكانت قوة الجيش تختلف باختلاف عدد اللجيونات وتقف على خط واحد، فأما آن تؤلف القلب تؤلف الخيالة وحدها الميمنة، وأما آن تؤلف القلب والميسرة والميمنة وتكون الخيالة على الجانبين.
وإذا كان عدد اللجيونات كثيرا يحتوي القلب عادة على أكثرها. وقد زادت قوة الخيالة على ما كانت عليه في زمن الرومان، لان الأقوام المتوحشة التي هاجرت من أسيا ودخلت أوربا باغتت رومية بجيوشها الخيالة الكبيرة، وجهزت الجنود لجيوش رومية زادت عدد الخيالة فيها واصبح للفارس شان خطير في القتال.
ولا يختلف نظام القتال عند الفرس عن نظام القتال عند الروم إلا اختلافا يسيراً والجيش الفارسي ما يظهر كان منقسما إلى كتائب - والكتيبة تقتل الكردوس وتبلغ قوتها ألف مقاتل - وكان خط القتال فيه ينقسم إلى القلب والميمنة والميسرة، وكانت كتائب الخيالة تحمى الجانبين على ما هو شائع. وكانت الفيلة تتقدم في جبهة القتال وعلى ظهورها الجنود المسلحون بالحراب والقسى. والذي يلفت النظر انه كان للرماة شان خطير في الجيش الفارسي. ولعل المشاة كانوا جميعا مجهزين بالقسى وجد ماهرين في الرماية. ومن الأساليب التي كان الجيش الفارسي. يلجا إليها في حرج الموقف ربط الرجال بعضهم ببعض بالسلاسل لكي يثبتوا في محلهم مهما كلفهم الآمر.
فإزاء هذه الأنظمة الشائعة بين الدول الكبرى المجاورة لبلاد العرب، كان طبيعيا ان يسير الحرب على أسلوب معين في قتالهم ولم ينزو العرب في عقر دارهم في السنوات التي سبقت الفتوح فالرواة يروون هجوم الحبشة على بلاد اليمن، وتوغلهم فيها بعد انتصارهم على الجيش اليماني، ويشيرون إلى التجاء تابعة اليمن إلى أكاسرة فارس وطلب النجدة منهم. فخاض الجيش الفارسي عباب البحر على أسطوله، وأرست سفنه على شواطئ اليمن، وحارب الأحباش وانتصر عليهم وطرهم من اليمن.
والقصاصون ينقلون أخبار المناذرة والغساسنة في حروبهم ومساعدتهم لكسرى أو لقيصر في الحرب الطاحنة التي دارت رحاها بين الفرس والروم. وقد ورد في القرآن الكريم نتف من أخبارها أما مؤرخو الرومان فيد كرون انتصارا ملك تدمر إذنيه على الرومان واعتزاز زوجه
الزباء (زنوبيا) بالعاصمة تدمر.
فهذا الاحتكاك المستمر بين العرب والأمم المجاورة لهم والاشتراك في القتال مع الجيوش الأجنبية منجدين أو مستنجدين، والغارات المتوالية على أرض السواد في

العراق أو ارض الشام كل أولئك حمل العرب على اقتباس بعض الأساليب الحربية الشائعة عند
الفرس والروم، لذلك لا يأخذنا العجب إذا سمعنا ان للمناذرة كتيبتين، أي كردوسين:
الدوسر والشهباء، وان بكر بن وائل قاتلت الفرس في يوم ذي قار على تعبئه
ومن المبادئ الحربية التي كان العرب يتمسكون بها في قتالهم مبدأ المباغتة، والمقدرة على
الحركة، والأمنية فالمباغتة من أخطر المبادئ التي كانوا يتوخون منها الفوز في جميع
خططهم لذلك تدل أخبار أيامهم ووقائعهم في الردة على عنايتهم الزائدة بالاستطلاع
فكانت العيون تسبق حركاتهم، فأما أن يباغتوا عدوهم بأخذه على غرة، أو أن يكمنوا
له فيفاجئوه.
أما مبدأ المقدرة على الحركة فظاهر من سيرهم على ظهور خيلهم أو جمالهم خفقاً
مسافات بعيدة بسرعة فائقة وأما عنايتهم بمبدأ الأمنية فمعلوم من إيفادهم الأرصاد
والعيون، ووضع الخيالة في المجنبة في القتال، ومراقبة جاني العدو مراقبة مستمرة
للهجوم عليه عند سنوح الفرصة.
ومن المحتمل إننا لا نرى في كتب التاريخ مثالا للحركة السريعة التي قام بها خالد بن
الوليد حين أمره عمر بنجدة جيش سورية وهو يحارب في العراق فقطع ابن الوليد
البادية بجيش يبلغ عدده آلاف مقاتل على ظهر الخيل والجمال، وابتدع وسيلة لضمان
الماء اللازم لخيله، وذلك عمل يدل على نبوغ نادرة، وسنشير إلى ذلك عند البحث في
فتح العراق.
وفي غزوة أحد كانت قوة المسلمين ألف رجل، تختلف منها ثلاثمائة رجل. وكانت قوة
قريش ثلاثة آلاف رجل، فنظر الرسول في كثرة قوة العدو، فأخلى المدينة وأنسحب
إلى شمالها جاعلاً جبل أحد خلفه، للاستفادة من مناعة ومن وضعه المشرف على ما
حوله ولما لم يكن الجانب الأيسر مسنوداً بقوة، وضع فيه مفرزة رماة بقوة خمسين
رجلا لحمايته. أما جيش قريش فرتب صفوفه للهجوم بعد ان وضع قوة الخيالة على
مجنبته، وكانت تبلغ مائتي رجل، وقدم الرماة في الخط الأول.
وكان خالد على رأس خيالة قريش في الجانب الأول يراقب رماة المسلمين ويشاغلهم
ويتحين الفرص للهجوم عليهم، لكي يقطع خط الرجعة على المسلمين. وفعلا استطاع
ذلك لما سنحت الفرصة، فقلب فوز المسلمين إلى انكسار مروع. فهذا كله يثبت لنا
إن للعرب أسلوبا في القتال، وان مبدأ الأمنية كنا من اخطر المبادئ التي ساروا عليها.
وفي يوم ذي قار نرى بوضوح النظام الذي سار عليه العرب في قتالهم الفرس، وهو
يؤيد ما ذهبنا إليه.
ولا يخفى ان معركة ذي قار وقعت بين غزوة بدر وغزوة أحد، فانتقم فيها العرب من
الفرس، ونالوا ظفراً حاسما شجعهم على الاستهانة بقوة فارس، وساعدهم على غزو
بلاد السواد غزواً متواصلاً، حتى آل الأمر إلى فتحهم تخوم العراق.
ويروى لنا صاحب الأغاني أخبار ذلك اليوم بالتفصيل والواضح من ذلك ان العرب عبأوا
صفوفاً وقسموها إلى كتائب، وجعلوا الطعن في الوراء ليحموه بقلبهم، وكان بمنزلة
القاعدة التي يتمنون منها الجيوش في يومنا هذا وتوضع الخطط الحربية لحمايتها.
وأقاموا قوة في الميمنة من بني عجل، وقوة في الميسرة من بني شيبان. أما القلي
فالفته قبائل بني بكر بن وائل. ومن الأساليب لبتي ساروا عليها انهم لم يقدموا
الصفوف للقتال دفعة واحدة لكي لا تصيبها سهام الفرس فتفتك بها وكان الفرس على
ما نعلم ماهرين في الرماية والحقيقة إن تقديم الصفوف بأجمعها في وقت واحد
يجعلها عرضة للسهام دفعة واحدة بينما البدء بالحركة بكتيبة واحدة يجعل الصفوف
الأخرى في مأمن من ضررها. وهذا من الأساليب التي كانت تراعى في هجوم الخيالة
على المشاة، إذ تبدأ الحملة بخط منتشر ضعيف من الخيالة وتليها الخطوط المنظمة.
فالعرب على ما يظهر جلياً دخلت ميدان القتال بنظام لم يكن اقل شأنا من نظام
الفرس. وكان منأمره أن هزومهم شر هزيمة، وطاردوهم إلى أرض السواد بعد أن
غنموا أحمالهم وأثقالهم.
ولعل الطريقة التي سار عليها الرسول (ص) في غزوة بدر تدل على فكرة التعبئة عند
العرب. كانت قوة المسلمين تبلغ ثلاثمائة مقاتل. بينهم خيال أو خيالان فقط، بينما

كانت قوة قريش تربو على الألف وفيها مائة خيال.
وكان القصد من هذه الغزوة مباغتة قافلة قريش عند عودتها من الشام إلى مكة. ولما وصلت قوة المسلمين إلى مياه بدر علمت من الأسرى إن قريشاً أنجدت القافلة بقوة كبيرة كانت ثلاثة أضعاف قوة المسلمين. وكان لابد من الاصطدام، لأن انسحاب المسلمين دون القيام بعمل مما يؤثر في سطوة الإسلام ويشجع المنافقين على الشغب.
لذلك قرر الرسول إن يقاتل قريشاً بقوته الضعيفة على ان يزيد مناعتها بالتدابير التعبوية الموافقة. فاختار موضعاً يهيمن على معسكر قريش وقسم قوته إلى ثلاثة اقسام، وجعل لكل قسم قائداً، ورتب الأقسام بعضها بجانب بعض، وعبأها صفوفا كالبنيان المرصوص، وعرض الصفوف بنفسه فقدم المتأخر من الجنود وأخر المتقدم فأصبحت الصفوف متراصة. ومنع المسلمين من رمى السهام ومن التفاخر، وطلب منهم أن لا يتقدموا من
ملهم، ولا يرموا إلا بعد أن تدنوا قريش منهم على مسافة قريبة. وكان يقصد بذلك أن تصيب السهام قوة قريش الفائقة فلا تتبعثر. وبفضل هذه الترتيبات انتصر المسلمون على قريش مع قلة عددهم وضآلة سلاحهم ولاشك في أن القتال بالكر والفر كان شائعا عند العرب ولعلهم كانوا يستعملونه كثيراً في غزواتهم لأخذ الثأر أو لجر مغنم.
وكان يقع بين متقاتلين يبلغ عددهم العشرات ولا يجاوز المئات ولما كانوا يقاتلون بالجوع في أيامهم الشهيرة أو في مقاتلتهم الفرس أو الروم كانوا بلا ريب يعبئون قواتهم صفوفاً.
(يتبع)
طه الهاشمي
لبيك! لبيك! . . .
للأستاذ كرم ملحم كرم
رأى أديب دمشقي فاضل أن يسألني ماذا اعني بقولي: (إن للتوراة والإنجيل والقرآن من الرواية اكبر نصيب)، وعلى أن أوضح للأديب الكريم ماذا أعني وإن يكن فيما أوردت في مقال (ما هو أدب اليوم؟. . .) بيان مسهب جليّ.
فقد تحدثت في أدب اليوم عن الرواية، وقلت أنها ركن الأدب في كل عصر وكل آن القصد منها فلا يعدو تغذية النفس بالمواعظ، والحث على الفضيلة، ومحاربة الفساد، وقد تخرج روايات كثيرة عن هذا الهدف، فينصرف قائلها أو واضعها إلى امتلاك سامعيه أو قرائه بحوادث رائعة مدهشة ترمى إلى التفكهة وقضاء الوقت، والوقوف على غرائب لا وجود لها في أحيان كثيرة في غير مخيلات ناسجيها.
والرواية نوعان: منها التاريخية ومنها الخيالية. بل هي محبط واسع تشمل الحقائق والأكاذيب، تشمل الملموس المحسوس والخيالي المجهول. فمن حق الراوي أن يتفنن في سرد حكايته على ما شاء. له أن يستعين بالتاريخ وأن يسخر بالتاريخ. له أن يقدس الحقيقة وأن يعرض عنها.
فهو حرّ مطلق في أن يقول ما شاء. وما يقول رواية تختلف قيمتها باختلاف قدر قائلها وقوة تركيبها ومن تتناول من الأفراد. والكتب المقدسة تحمل روايات عديدة. ففي كل فصل من فصولها رواية، ولنبدأ بالتوراة. ففي سفر التكوين رواية، وفي تمرد الملائكة وسقوطهم إلى الجحيم رواية، وفي عصيان آدم وحواء مشيئة الله وأكلهما الثمرة المحرمة رواية، وفي حكاية إبراهيم وهاجر رواية، وفي موقف عيسو من أبيه اسحق رواية، وفي حب يعقوب لابنة خله رواية، وفي حكاية يوسف وأخوته رواية، وكم من حكاية وحكاية في التوراة. فالكتاب يجمع بين دفتيه حكايات العهد القديم في معظمها.
ولننتقل إلى الإنجيل. فالمسيح نفسه صارح سامعيه بأنه يخاطبهم بالأمثال لكي يفهموا. فحدثهم عن الابن الشاطر، وعن تجار الوزانات الخمس، وعن العاملين في الكَرْم الذين أقبلوا في أوقات متعددة ونقدم رب الكرم أجراً واحداً، وعن العذارى اللواتي يحملن زيتاً في مصابيحهن.
وهناك حكايات لا نحصى ضربها المسيح مثلاً لتلاميذه وسامعيه.
والقرآن ما خلا من هذه الحكايات. خصوصاً الحكايات الواردة في التوراة.
من حكاية سفر التكوين، إلى حكاية سقوط الملائكة، إلى حكاية زكريا، إلى حكاية

مريم بنت عمران وربك نفسه قال في سورة يوسف: (آنا أَنزَلناه قراناً عربياً لعلكم تَعقلُون. نَحْنُ نقص َعليكَ أَحسْنِ الَقصَصِ بِما أَوحْينا إِلَيْكَ هذا القُرآنَ وإِن كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الغافِلينْ إذ قال يُوسُف لأبيهِ يا أَبت إني رأيتُ أَحدَ عَشَر كوْكباً والشَّمسَ والقمرَ رأيتهُم لي ساجدينْ) فان قول ربك: (نحن نقص عليك أحسن القصص) دليل ناطق على أن القرآن لا يخلو من الرواية.

ولماذا يخلو من الرواية؟. أتكون الرواية نقيصة؟. أليس من شانها تهذيب النفس ورد الخاطئين إلى الله اتعاظا بما سبق ونال الضالين من عقاب وقصاص كما أتفق لعاد وثمود؟. .

فلا غضاضة إذا على الكتب المقدسة، والقرآن منها، إذا حوت الروايات؛ وفي الروايات عظات بليغة. ولا حاجة لقول الأديب الدمشقي عن التوراة والإنجيل: (صاحب البيت أدرى بما فيه!. . .)، فلا مجال في بحثنا للطوائف والنيل من الأديان.

فالحديث حديث أدب، والطائفية في واد ونحن في واد، وكل قصدنا مما قلنا أن الرواية تتغلغل في أي مكان، في الكتب المقدسة وفي سواها. كل قصدنا أن نقول إن الرواية انبثقت بانبثاق الكون، وأنها أدب كل يوم. كل قصدنا أن نحث أدباء العرب على الاشتغال بالفن الروائي، فان آثار هذا الفن تكاد تمحى في الأدب العربي.

أما أن نكون رمينا إلى الحط من منزلة الكتب المقدسة، فذلك مما لا نفكر فيه ولا يحق لنا أن نفكر فيه، فنحن نحترم هذه الكتب، وكيف لا نحترمها والملايين من البشر تدين بتعاليمها، وتؤمن كل الأيمان بآياتها؟. .

والكتب المقدسة تطبع العقول على الخير، وتثقف النفوس وتقودها في الطريق السوي، وإذا كان بعضنا يرتاب في أصلها وطريقة وضعها ورموزها فليس له أن يعلن هذا الارتياب لئلا يؤثر في عقول العامة ويخرج بها عن إيمانها وتقواها، ويثير في قلوبها الشكوك. فلولا الدين لعم الإنسانية البلاء، وتفاقمت الشرور، وتعاظمت الويلات، وأنغمس الناس في الرذيلة، وعاشوا لأهوائهم، وباتوا كالأنعام!.

فليطمئن الأديب الدمشقي إذا بالاً، نحترمه ونرغب في أن نصونه ممن يتاجرون به لو استطعنا إلى صونه منهم سبيلاً وما حديثنا عن الرواية في كتب الدين غير حديث اقتضاء الأدب لا الطعن على الدين. والأديب الفاضل رأى بعينه، مما أوضحنا له، أن للرواية من أي كتاب ديني أكبر نصيب. فليهدأ روعة القلق، ولتسكن حدته، ولينظر مرة أخرى في مقالنا.

فيثبت له أننا وضعنا الكتب الدينية على مسافة بعيدة جداً من (. .ما هو أدب اليوم؟) روايات (فولتير) واعترافات (جان جاك روسو) وغراميات (لأمارتين) . . .

وعهدنا بالأديب الدمشقي تكفيه الإشارة!

بيروت

كرم ملحم كرم

صاحب مجلة (العاصفة)

-

من ذكريات الصبى

الذهاب إلى المدرسة

للأديب حسين شوقي

حينما أعيد على نفسي الآن بعض ذكريات صباي، أدهش من الشخصية المؤلمة التي كانت لي في ذلك العهد.

كنت مضرباً أولاً عن الذهاب إلى المدرسة، برغم تقدمي في السن، وقد بلغت الثامنة. وكان والدي يحبني كثيراً، فلا يعارضني في رغبتي، برغم إلحاح أفراد أسرتي جميعاً، . وبخاصة مربيتي العجوز، وكانت امرأة شركسية شديدة المراس، تفشل معها حيلي وتوسلاتي. . كانت هذه المربية مغرمة بالمشاكسة، فإذا لم تجد من تشاكسه، عمدت إلى ضرب القطط والكلاب وكنا جميعاً نتحمل هذه المربية المتعبة، لأنها قديمة العهد عندنا إذ كانت مربية لوالدتي قبل أن تكون مربية لنا.

وكان لا يروق هذه المربية أن تثير موضوع إرسالي إلى المدرسة إلا أثناء الطعام، فتنغص علي فكان والدي رحمه الله يثور عليها، وينحى عليها باللوم القارس فتسكت، ولكن تعود فتتمتم شتائم - بالتركية - تتناول الجميع. . فكنت من جانبي أنتهز هذه الفرصة للثأر منها، إذ أعيد بالعربية في صوت عال هذه الشتائم. . فيهيج عليها الجمع ويضطرونها إلى مغادرة الحجرة مغضبة ثائرة. .

ولكن لما تكررت مني هذه (الدسائس الشرقية) أفتضحأمري، وأخذت مربيتي تقابل دسائس بالدس لي، فألحت إلحاحاً شديداً في إرسالي إلى المدرسة حتى تمكنت من ذلك، للتخلص مني غالباً، لا حباً في العلم.

أدخلت مدرسة الأباء اليسوعيين (بالظاهر) بالقسم التحضيري الذي تديره الراهبات. .

وكان بين مربيتي وبيني نضال كل يوم في الصباح، إذ كنت أحاول إلا أذهب إلى المدرسة، متعللاً بالمرض. ز ولكن مربيتي الخبيثة كانت تفهم حيلتي، فتقول: حسين. .

إذا كنت مريضاً فابق بالمنزل، ولكن عليك أن تأخذ مسهلاً، فكانت بقولها هذا تضعني بين أمرين أحلاهما مرّ. . وكنت في النهاية أفضل المسهل لأن المدرسة كانت سجناً؛ إذ أغادر المنزل الساعة السابعة صباحاً (وكنا وقتئذ نقيم في المطرية)، ولا أعود إلا في الساعة

السابعة مساءً، أي أن النهار كان يولد ويموت وأنا بعيد عنه وعن ضوء شعاعه البهيج. . حقاً، ما أتعس حياة التلميذ.

كان الخادم المكلف بمرافقتي من المدرسة إلى المنزل يتأخر أحياناً لدى الخروج، فكنت أجهش بالبكاء مخافة أن أقضي ليلى أيضاً بالمدرسة. .

وكان لى رفيق بالمدرسة، مصري كذلك، يبكى مثلي إذا تأخر عنه خادمه، فيا لنا وقتئذ من جوقة ندابة

أما داخل المدرسة فكان الراهبات الطيبات لا يألون جهداً في تحبيب الحياة المدرسية ألينا، فكن يغمروننا بالهدايا، من ورق ملون وحاوى وغيرهما. . ولكن برغم هذا كله كنت أطمح إلى استرداد حريتي المفقودة، فما أبعد الفرق بين حياة تقضى بين جدران أربعة في وسط الغرباء وبين حياتي الأولى التي كنت أقضيها في رياض المطرية الغناء، متنقلا بين الخضرة والزهور.

إن الحرية لا تقدر في كل وقت وفي كل زمن؟

كم كان يرهقني في ذلك الوقت حفظ أشعار لافوتين؟

فكنت أبغض ذلك الشاعر المسكين، كما كنت اسخر منه، لأنه يجعل الحيوانات تتكلم شعراً. . من رأيي إلا يدرس لافوتين وأمثاله في مثل هذه السن التي لا يمكن فيها تقدير هذه النفائس الأدبية. .

ولكن ذهابي إلى تلك المدرسة لم يدم طويلاً، فقد فصلت منها لكثرة انقطاعي عنها، فجيء لي حينئذ - بفضل تعضيد والدي - بمدرسين في المنزل فكان هذا بداية عهد سعيد، لم يطل مع الأسف، إذا نفينا بعده بأشهر قليلة إلى أسبانيا

وأذكر من ذلك العهد أيضاً حادثاً يدل على مقدار حقد الطفل وعلى روح الانتقام الكامنة فيه، وذلك خلاف ما ينسب إليه من طهر وبراءة.

اشترى والدي وقتئذ سيارة (توربيدو) ذات أربعة مقاعد، وكنت أطمح إلى أن أقودها مثل أخي وهو يكبرني بسنوات قليلة؛ ولكن السائق رفض لصغر سني، فرفعت الآمر كعادتي إلى والدي فلم ينصفني على خلاف عادته، بل أعطى الحق للسائق إشفاقاً منه على حياتي. . فأقسمت أن أثار من السائق، وإليك كيف أتيحت لي الفرصة أن أحقق هذه الأمنية:

كانت هناك في المطرية في ذلك الوقت حانة تديرها أجنبية فاسدة، يحذروننا منها. فاتفق ذات يوم أنني كنت عائداً في المساء من المحطة المطرية إلى المنزل - مشياً على الأقدام - فاعترض في الطريق جنديان بريطانيان يستفهمان عن عنوان تلك الحانة، فأعطيتهما من فوري عنوان منزل السائق! فكان ما قدرته، إذ عندما جاء السائق - إلى منزلنا - في صباح اليوم التالي، كعادته، كانت عينه اليمنى زرقاء اللون، فقد تشاجر مع الجنديين البريطانيين ذيادًا عن عرضه!.

حسين شوقي

من ذكريات لبنان
النفوس المغلقة
للأستاذ أديب عباسي

نهضت في الصباح الباكر ودعوت حمالاً يحمل الحقائب إلى المحطة. وكنت قبلها قد هممت مرتين في صباحين متوالين أن أسافر، ولكنني كنت كل مرة أصل المحطة متأخراً عشر دقائق أو نحوها. وكنت بالطبع ألقى اللوم على أصحاب الفندق الذين يتعمدون التلكوء عن تنبيهي صباحاً حتى يستنزفوا البقية من دراهمي! والحقيقة التي لا مراء فيها أن أصحاب الفندق لم يهملوا تنبيهي في الوقت الذي سألتهم أن يفهموني فيه، ولكنها الرغبة الكامنة في هذا البلد الجميل - لبنان - كانت كل مرة تتغلب على الإرادة الشاغرة فتغمض العينين بعد انفتاح، وتضرب على الإذنين بعد انتباه، وتهوم للشعور فيغفو بعد صحو وبقيت بعد حضور.

وكنت بعد أن ابلغ المحطة وأحملق في القطار الذاهب في حنق مكذوب أعود أرضى نفساً وأوفر بشراً مما لو كنت لحقت بهذا القطار - قطار لبنان العجيب - ليحملني بين أنفاسه الفاسدة في أنفاقه المتعددة، وسيره المتخلع البطيء ويلفظني بعد مسيرة سبع ساعات على حال شر من الحال الذي خرج عليه يونان بعد ضيافة ثلاثة أيام قضاها في بطن الحوت في غير رحب ولا سعة.

وسمعت، وآنا لا أزال في الطريق، مناديا ينادي؛ يا أفندي، تفضل! وأدركت إنني آنا المقصود بهذا النداء. فاستدرت ونظرت وإذا شاب حسن البزة واقف بجانب سيارته البديعة وعينه إلي ويديه تشير إلى السيارة. ودنوت أساله في تلكوء متكلف ماذا يريد أجابني متلطفا: أوتوموبيل جميل. وخير لك أن تسير فيه من أن تيسر في القطار.

وبعد أن أستنزف بلاغته في صرفي عن السفر في القطار الجميل قال أنني لا آخذ إلا مثل ما آخذه من كل راكب. وذكر مبلغاً هو ضعف ما يؤخذ عادة أجراً على مثل هذه المسافة. وعندها أدركت أني البس سدارة، ومن هنا سيأتيني الخطر في هذه الصفقة، وبادرت أصلح الموقف على قدر ما يمكنني الإصلاح وقلت: لتعلم أن من غير العراقيين من يحب أن يلبس السدارة (وإخواننا العراقيين - سامحهم الله - يبعثون، حيثما حلوا، موجة من الطمع
في نفوس الساقة والباعة. على أن السدارة من ناحية أخرى (حماية) وصاحبها لا يزرأ إلا في نقوده. وفيما عدا ذلك فهو من نفوس القوم حيث تشاء الكرامة ويسموا الأباء والعزة). وبعد مساومة قصيرة رضى صاحبنا بنصف القيمة التي ذكرها.

ووقف السيرة أمام فندق جميل من فنادق (عاليه). وبعد نفخة أو نفختين من بوق السيارة أقبل راكبان: رجل وامرأة يجري أمامها طفلان صغيران.

والرجل ربعة القامة، تخطى العقد الرابع من عمره، جامد الملامح، محني الظهر كأنه يحمل عبئاً ثقيلا. أما الفتاة ففي ربيع الحياة، في قامة هيفاء يخيل إليك أنها نحيلة وما هي بنحيلة؛ ضحوك المبسم في وجه صبوح، ونظرات تشع ذكاء، يكسر منها قليلاً خفر طبيعي ووداعة ملازمة.

وانطلقت بنا السيارة في بطء ملحوظ. فكأن سائقها الذكي فهم من تلفتنا ونظراتنا الشائعة أننا نودع عزيزاً ونشيع غالياً، فلا تحمد السرعة في هذه الحال.

وأطلت زوجة المزامل من نافذة السيارة، وأخذت تجيل الطرف في كل ما يمكنها من اتجاه. والتفت إليها زوجها ونصحها متراضياً بأن تكف عن النظر والالتفات، وإلا أصابها الدوار، ثم إذا كان لابد من النظر إلى الأمام فقط.

والتفتت إليه الفتاة وقالت في وداعة ظاهرة: لست أرى أمامي إلا الزفت؛ فهل تريد لي أن أغادر لبنان وليس ما بقع عليه ناظري إلا الزفت؟ إنني أحب أن أشبع النظر من لبنان، وأشبع الخاطر من فتنته قبل آن أغادر. فبادرها بقوله: ماذا في لبنان مما يفتنك ويتصباك، ويجعلك تعرضين نفسك لخطر الدوار المؤكد؟

عندما خاطبته في شيء من التبرم وكثير من الأغراء في استثارته إلى مشاركتها في متعتها وقالت:

الله! إلا ترى هذه الجبال كيف تهاوت صخورها عند الحضيض، وكيف شخصت برؤوسها الممدة كأنها أعسال رصت صفاً وراء صف؟ ثم إلا ترى إلى هذه الأخاديد، والوهاد كيف تقطعها تقطيعاً بديعاً فتجعل منها مثل ما تجعل الشوارع من المدينة؟ وإليك هذه

الأشجار، منها الجبار يقف ثابتاً لا تلويه ريح ولا يثنيه إعصار تستكين إلى ظلها هذه الشجيرات الصغيرات كإنها الحجلان تفيء إلى جنح الأم وتلوذ بحنوها وتدنو قدر ما تدنو من قلبها
الخفاق. إلا ترى في ذلك جمال أولاً جلالاً؟؟ وأي جمال وأية فتنة في هذه الجبال الجرداء الشامخة تقوم إلى جانبها هذه التلال الوطيئة في هذا الحقل من شجر الأرز، والسنديان يكلل رؤوسها، وكأن كل ربوة من رباها دوحة جبارة واحدة أغصانها جذوع هذه الأشجار وأوراقها أغصانها!! ثم هذه الغيوم ومنها الذي أسف إلى قعر الوادي وأختلط بأهله اختلاط الألفة، وجاورهم جواراً زالت معه الكلفة؛ ومنها الذي أبى إلا تصعيداً ومنافسة لأعلى هذه الجبال فيختم على رأسه إكليلاً من ذهب صباح مساء، ومن فضة فيما بين ذلك؛ ومنها الذي أبى إمعاناً في التحليق والتصعيد فوق ذلك، فجعلت من التيارات القوية ما يجعله النسر من ريش الطائر، وقد شد النسر عليه مخالبه وألهبه سعار الجوع؟ ثم هذا البحر المسجى من ورائنا، جاث عند ركبتي لبنان يبللها بزبده ويغسلها بموجه، ويهمس في إذنه أن خل مكانك، وتعال أبوئك الصدر بدل أن تكتفي مني بالزبد، والزبد دائماً يذهب جفاء. وقديمًا أغراء همس البحر السحري فتحرك وتناول خير ما أنبت، وبعث به جواري من الارزملء ضلوعها رجولة وقلوب كبيرة. . . أو نسيت الباروك وماءه القر النمير؟ أنسيت ينابيع لبنان المثلجة وكيف كنا نتجرع ماءها قطرة قطرة لما كانت تفعل الجرع الكبيرة المتوالية في الأسنان؟ ثم هل نسيت البارحة وكيف أمطرتنا السماء وابلاً أتضطرنا أن نتعطف المعاطف كأننا من العام في شهر آذار؟ أمثل هذا يجتمع ويتيسر لغير لبنان من بقاع الدنيا؟ أوه! وماذا أقول في هذه المدن المنثورة المنورة، وقد ألهبتها في الليل مشاعل الكهرباء، فغدت نجوماً تومض على الأرض، وتتحدى السماء فتحار أيهما أجمل وأروع: تلك التي تحتك، أم هذه التي فوقك؟ وهذه البيوت المبثوثة هنا وهناك، لا هي بالقرى المتراصة ولا هي بالصوامع، المنعزلة، ترف عليها وحولها أغصان السنديان والصنوبر رفيفاً كأن يداً سحرية ترّوح عليها؛ وأخيراً هذه الحمائم البيضاء في عرض البحر تمد أجنحتها للريح تتلقى منه المدد، فتسير باسم الله مجراها ومرساها؟ أنسيت كل هذا لتسألني ماذا في لبنان من جمال وماذا أرى من فتنة؟ إلا يفتنك بالله هذا التعانق الشديد بين السماء والماء والغبراء، وهذه الألفة الفاتنة بين هذه العناصر حتى لكان هذا ما خلق إلا ليكمل ذاك، ولا ذاك إلا ليكمل هذا؟؟!
وبعد أن غمرت فتاتنا فتاها بهذا السيل الجارف من الأسئلة صمتت ترقب وتتأمل. وفتح صاحبنا فاه. . أو تدري بماذا أجاب عن كل ذلك؟ قد تحسبه أضاف لوناً آخر إلى هذه اللوحة التي رسمها خيال فتاتنا بهذه السرعة الطائرة؟ لا! إن شيئاً من لم يحدث، إذ لم يزد صاحبنا أن قال:
هذه الجبال قد رأيت مثلها وأعلى منها في البرازيل. والأشجار - كذلك - في البرازيل لفةّ منداحة تكاد لا تدع لأحد منفذاً. والبحر رأيت أضعافاً سعته في طريق إلى أمريكا. والمطر كثيراً أيضاً في تلك البلاد. والباروك يعد (حنفية) ماء بالنسبة إلى الأمزون.
عندما كدت أنشق غيظاً، وهممت والله أن أتناول شيئاً واطرحه في وجه هذا الجلف الغليظ القلب، الذي لا يرى إلا أن يقيس الجمال بالأميال، ويكيله بالمكيال. وحاولت الفتاة محاولات يائسة أن تنبه من هذا الصخر مكامن الإحساس بالجمال، فكانت - كما يقولون - كالصاروخ في واد، وكالنافخ في رماد.
وأدركت أخيراً من الفتاة ومن فتاها: هي شعلة من الذكاء والثقافة العالية، والإحساس العميق بالحياة، والتفطن إلى همس الجمال بله صوته. أما هذا الذي يجالسها فهو من هؤلاء الذين ذهبوا إلى أمريكا ورجعوا خلواً من كل شيء، إلا المال، فتقدموا بهذا الطعم المغري، فاصطادوا خير الفتيات جمالاً وعلماً وذكاءً.
وصاحبنا هذا - مع الأسف الشديد - ليس بالمثال النادر في الشرق ولا الشاذ، وإلا ما كنا نعني به ونغثى على القارئ الكريم بعرض صورته البغيضة، إنما هو يمثل لنا طغمة من الناس في شرقنا كثيرة كثرة مفزعة حقا، لا تتفتح نفوسهم على جمال ولا تنبسط لفتنة ولا تنشط لمتعة من متع الفن. يعيش الواحد من هؤلاء في بقعة ركم الجمال فيها ركماً، ولكنه يحيا - آن صح انه يحيا - ويموت، وكان هذا الجمال لا يعنيه بحال من الأحوال، وكأن هذه المفاتن لأناس من غير طينته، وفي عالم غير عالمه، وقد يصيب

بعضهم من ينبه فيهم مراكز الجمال، والتفطن إلى مواطن الملاحة فتتبدل النفوس غير النفوس وتنقلب حياتهم انقلاباً شديداً، وتتفسح أمامهم متع الحياة إنفساحاً يمتد مداه على قدر ما تكشف لهم من مفاتن الطبيعة ومجالي الجمال، إلا أن السواد الأعظم منهم يظلون على جهودهم ونضوب أنفسهم مهما حاولت أن تثير فيهم مكامن الإحساس بالجمال، وتذوق الفن. وإذا رايتهم يستملحون أو يستظرفون فإنما يفعلونها من طرف لسان ومجاراة، خشية أن يرموا بتبلد الإحساس وعقم العاطفة، ولسنا نعزو هذا إلى نقص طبيعي في الإحساس، ونضوب معين العاطفة في الشرقيين؛ إنما نعزوه متأكدين إلى نقص في التربية وتقصير في التوجيه. فمدارسنا قلما تعنى بتنبيه مواطن الإحساس بالجمال الصغار، وإذا فعلت ففي صورة سطحية ميكانيكية، وهو تقصير يدفع الشرقيون؛ اليوم ثمنه غالياً - يدفعون ثمنه ضعفاً في الوطنية، وجموداً عن التضحية. وهل ترجو خيراً ممن لا يرى في جبال بلاده ولا في سهولها، ولا في حزونها ولا في أنهارها، ولا في ينأ بيعها ولا في أشجارها، ولا في أطيارها، ولا في سمائها، ولا في مائها سحراً ولا فتنة يربطانه بها بعرى من الشوق والهيام لا تنفصم ولا نهى؟؟ هذا الأوربي إجمالاً، والإنكليزى على التخصيص، أنظر كيف ينقل ذكرى جباله وأنهاره، وقراه ودساكره، ووديانه وينأ بيعه ومدنه إلى أمريكا وأفريقيا وأستراليا وغيرها من قارات العالم؛ لم يستطيعوا أن ينقلوا هذه الأشياء العزيزة عليهم بالذات فتقلوا ذكراها المحبة. فظلت تربطهم بها رابطة من الشوق والهيام يؤكدها التذكير ويديمها النوى.

ولنعد إلى فتاتنا. فقد شاقني حقاً أن أتابع هذه الدراما الصغيرة إلى النهاية، أبت الفتاة إلا تطلعاً وإسرافاً في التطلع، برغم نصائح زوجها الغالية، فكأن حديثها السابق قد أذكى شعورها وفتح لها أفقاً أوسع للتفطن والاستشراف، وقد آلمني حقاً أمر هذه الفتاة. فهي تشعر شعوراً عميقاً بهذا الجمال الغزير وتأبى إلا أن تشرك غيرها معها في هذا الشعور، وهي نزعة طبيعية ملحوظة في جميع الناس. فليس أحد يشعر بجمال الفن سواء أكان طبيعياً أم صناعياً. إلا يرغب أن يرى من يساهمه فيه الإحساس ويشاطره المتعة، ولعل المتع الفن هي المتع الوحيدة التي لا يحس بها ارهف الإحساس واحده، إلا إذا كان من يشاركه. فكان كثرة النازرين أو السامعين لآيات الفن، المرايا تتقابل خجول الصورة الأشباح وتزيد الصور.

ويئس صاحبنا من صرف الفتاة عما تريد من النظر التلفت، فراح يتلهى بالصغيرين ويناغيهما، وانتهى به الحديث معهما والمناغاة إلى صيغته بعينها جعلها لازمة حيثه وهي: يا بابا صباح الخير يا بابا وراح يرددها ويدهورها في حنجرته طوال الطريق. وخيل إلى أن الرجل لن يكف عن ترديدها ولو أمسى المساء، وضاقت به الزوجة الوديعة ذرعاً (وللصبر حد) وطلبت إليه متوسلة ان يكف عن الحديث، أو يغير هذه العبارة التي يوشك

أن يتبرم بها الصغيرين! وصمت قليلاً. فحيل إلينا إننا قد ارتحنا بهذا القليل من الجرأة من هذه القدر المقرقرة. غير انه ما عتم حتى عاد وكان عشرين ضفدعاً تنق في حلقه! ولعله خشى إذ صمت أن نحسبه ذل وخنس. فضاعف الصخب وزاد الجلب. وقلت: ليتك يا فتاتي لم تحاولي إسكاته، فقد زدته ضرامًا على ضرماً. على انه لم يمض حتى فاجأه أحد الصغيرين بقي شديد ملا صدره واحد يسيل إلى اسفل، وهنا عبس الأب وانقطع عن المناغاة، واضطر أن يشتغل بإماطة ما علق بصدره من هذا السائل المبارك، وقلت في نفسي: عوفيت معدة يا صغيري؛ فقد أبرأت سقمنا، وجازيته جزاء وفاقا، وليت معدتك أوسع قليلاً فقد نحتاج إليها مرة أخرى.

وبلغت السيارة دمشق. وغادرتها وفي القلب ما فيه من غصة وألم بهذا الدهر الأهوج الذي يجمع بين الإنسان وشبه الإنسان.

أديب عباسي

في الأدب الدرامي

الرواية المسرحية في التاريخ والفن - 10

بقلم احمد حسن الزيات

الملهاة في خلال القرون

أول ما نال الملهاة الإغريقية من العناية كان في صقلية. وكانت يومئذ مقصورة على

تصوير العادات العامة دون تلميح إلى السياسة. وكان عميدها في هذا القطر أبيكارم (450ق م) فأما انتقلت إلى أثينا تقلب بها الزمن. فمر بها على أدوار ثلاثة: دور الملهاة القديمة، دور الملهاة الوسطى، ودور الملهاة الحديثة. فالقديمة تمتاز بكثرة النقد الشخصي الصريح، فتسمى الأشخاص وتعين الحوادث. وكانت تسمد موضوعاتها من الواقع اليومية. وتتمتع بالحرية المطلقة في مهاجمة العظماء. والوسطى ظلت كتلك تهاجم أشخاصاً معينين، ولكنها عفت عن ذكر أسمائهم، وأخذت تمثل أنماطاً من الناس وصوراً من الأخلاق، وأما الحديثة فلم تطلب الجاذبية والتشويق في الحوادث اليومية والأهاجي الشخصية، وإنما طلبتهما في تعقيد العمل الروائي، وتصوير الأخلاق العامة.

واشهر من عالج الملهاة القديمة أرسطفان (450 - 387 ق. م) وقد كان معروفاً بصفاء الأسلوب، ومرارة الهزل، وشدة الوطنية. غير ان مناظره كانت خليعة فاحشة.

أما الملهاة الوسطى والحديثة فلم يؤثر منهما غير قطع منثورة مشتتة، حتى سنة 1907م، فعثروا على ملهاة تكاد تكون كاملة، وهي ملهاة التحكيم لميناندر.

وكان للملهاة عند الرومان من العناية والحظ ما لم يكن للمأساة، فقد نبغ فيها كثير منهم أشهرهم (بلوت 227 - 183ق. م) وقد سار على نهج أبيكارم، إلا أنه عرف بسرعة العمل الروائي، ونشاط الحوار، دون تصوير للمادة، ولا تحقيق للخلق. ثم (تيرانس) (192 - 159ق. م)، وقد قلد مينياندر، في هزله بالحرارة والأناقة والأدب وتنويع الأخلاق والصدق في وصفها.

ثم هجرت الملهاة في القرون الوسطى، وخلفتها في الشهرة والذيوع الرواية الرمزية الخلقية والملهاة العامية والأحموقة فلم يدب فيها دبيب الحياة إلا في القرن السادس عشر. فعادت

إلى الظهور في ثوب الملاهي الإغريقية والرومانية، غير أنها كانت مصبوغة باللون الحديث، مطبوعة بالطابع الفرنسي. ومازالت الملهاة تتردد بين الكساد والنفوق، وتترجح بين الهبوط والصعود، حتى جاءها موليير (1622 - 1673) فأقرها في نصابها، وشرع السبيل إلى كتابتها، وطبعها بطابع الملاحظة القومية والحرارة القلبية والذوق السليم. وقد عالج موليير أنواع الملهاة المختلفة بالنظم والنثر: فلهو غير الملاهي المجونية والاشكالية، ملاهي اجتماعية: كالمتحذلقات السخيفات، والنساء العوالم، والحضري الشريف؛ وملاه خلقية: كترتوف، دون جوان، والمتوحش، والبخيل.

كان موليير يتناول العيب أو الحمق وهو في عنفوانه، فيصور منه مناظر طبيعية صادقة، ثم ينتهي من هذا التصوير ببيان عواقبه الوبيلة على صاحبه وعلى المتصلين به فتصوير العيوب هو أكثر ما في ملاهي موليير. أما التعقيد الروائي فهو ضعيف، والحل في جملته يعوزه الإمكان والمنطق، إذ ليس نتيجة طبيعية لحوادث العمل. ثم ذهب موليير وأعقبه رنيار (1655 - 1709) فكتب طائفة من الملاهي الإشكالية كالمقامر والذاهل، ولكن أخلاق أشخاصه ليست محددة الرسوم، وإنما ملئها بالنكات المضحكة، حتى قال فيه (جوبير) (رنيار يهزل هزل الخدم، وموليير يمزح مزاح السادة) ومر القرن السابع عشر، ولم يشتهر في الملهاة غير هذين الكاتبين. ولما جاء القرن الثامن عشر ظهرت فيه طائفة من الملاهي الجيدة. كملهاة تركاريه أو المالي، الكاتب لساج (1698 - 1747) فضح بها حديثي النعمة من المثرين، وحلاق اشبيلية، وزواج الفيجارو لبومارئيه (1732 - 1799) وهما ملهاتان قويتان إلا أنهما لم تراعيا حقوق الأسرة. ثم المسارات الباطلة، والوصية، والتجربة، لمارسيفو (1688 - 1763) وهي ملاهي عني فيها كاتبها بتفصيل الدلال، وتحليل الحب، دون العناية بتصوير الأخلاق ووصف العادات.

ثم أشتهرالقرن التاسع عشر بنخبه من الملاهي القيمة لطائفة من نوابغ الكتاب. كبيار (1769 - 1828)، وسكريب (1791 - 1861)، ولأبيش (1815 - 1888)، واوجيه (1820 - 1889)، وأسكندر دوماس الصغير (1824 - 1896)، وفيكتوريان ساردو (1831 - 1908). وقد كان النوع الغالب على هؤلاء الكتاب هو الملهاة الاجتماعية مشوبة بالمذهب الطبيعي، فقد أخذ أوجييه ودوماس يقللان فيها من تعقيد أسكريب وجاء هنري بيك (1837 - 1899)

مؤلف (الغربان) فمحا التعقيد وتوخى بساطة العمل وسذاجة الأسلوب. ثم أنقلب المذهب الطبيعي من هؤلاء إلى مذهب المسرح الحر، وهو مذهب سطحي الفكرة خامد الحركة، يهزأ بالقواعد المسرحية، ولا بتقيد بالعمل الروائي، وغنما يكتفي بتكثير

المناظر المضحكة، وتصريف الحوار في مختلف النكات المستطرفة الحديثة. ولم يدم هذا المذهب الخليع إلا قليلاً، ثم أودى به إسرافه وتهوره. وظلت الملهاة الاجتماعية أو الجدية أو المبكية تسير مع الزمن، وتتطور مع أهله ونظمه، حتى حلت محل الدراسة الابتداعية وأصبحت اليوم موضوع المسرح الحديث كما سنبينه عند الكلام في الدراسة.
تلك حال الملهاة في فرنسا. أما حالها في إيطاليا فقد ظلت خافتة الصوت ضعيفة الأثر قليلة النجاح حتى القرن الثامن عشر. فما كان يظهر منها قبل ذلك العهد إلا نوع غير مسطور، يرتجله الممثلون تبعاً لخطة مرسومة من قبل. فلما نبغ الكاتب (جولوديني) (1707 - 1793) وهو عند الإيطاليين كموليير عند الفرنسيين، أسس قواعد الملهاة ونهج سبيلها لبنى قومه. وأما في أسبانيا فملهاتها الوطنية كانت ملهاة المعطف والسيف وهي نوع من الرواية المنزلية، بطلها دعي من أدعياء الشجاعة الذين يسمونهم ماتامور (أي قاتل العرب) لأن الرجل من هؤلاء كان يملأ ماضغيه فخراً بكثرة ما قتل من العرب كذباً وادعاء وكانت عنايتهم في هذا النوع لتعقيد الحوادث أشد من عنايتهم بتصوير الأخلاق. وأشهر تلك الملاهي: الطاحون، وكلب البستاني، للوبي دي فيجا (1562 - 1635)؛ وساخراً أشبيلة، ونديم بطرس، لجبريل تلز؛ والحقيقة المريبة لرويز دالر كون (1639) وهي التي أستمد منها موليير أخلاق ملهاة (الكذب).
وأما في إنجلترا فلم ينبغ في الملهاة غير شكسبير (1564 - 1616) فقد كتب: (ثرثارات وندسون الفرحات)، وجعجعة ولا طحن وتيمون الخ، وهذا كل ما تجده من الملهاة الأصيلة في الأدب الإنجليزي.
أما غيره فقدا أكتفى باقتباس الملاهي الفرنسية أو تقليدها. وأما في ألمانيا فلم ينفق فيها غير الملهاة العامية في العاب (المرفع)، وهو نوع من التمثيل المضحك البذيء. أما الملهاة الأدبية فلم يؤثر عن الألمان منها إلا شيء قليل القيمة عديم الأثر، على رغم كوتزبيو وأمرمان، وبلوم، وبينديكس، وهكلندر من الفوز.

تحليل موجز لأشهر ملاهي موليير

كانت الملهاة قبل موليير تعتمد على قوة المواقف بدلاً من تصوير العواطف، وعلى المضحكات الخيالية بدلاً من المضحكات الطبيعية، وعلى أسماء الأشخاص، وعلى العمل الخارق المستحيل بدلاً من العمل الواقعي الممكن. فكانت خليطاً مهماً من الأسماء، ومكارم ساقطة من السماء، عفواً في موضع الانتقام، ومزيجاً غريباً من التقاليد الإغريقية والرومانية والأسبانية والإيطالية. فجاء الملهاة الفنية الحقيقة لجميع العالم، ولذلك نكتفي بان نحلل بعض ملاهيه نموذجاً لبناء الملهاة، وتقسيم فصولها، وتدبير عملها، وتدريج جاذبيتها.

صورة لرجل طريم غالي في الصراحة والتشدد حتى كان موضع الهزء والسخرية، وهي من الملاهي الخلقية التي لا وجود للعمل الروائي فيها. أهم أشخاصها: ألست المتوحش، وهو خطيب سليمين، وفيلنت صديق ألست، وهو رجل لطيف المعاشر، إلا انه مفرط المزاح، وسليمين فتاة أرملة تسعى إلى الإعجاب من طريق الزهو والصلف، وأورنت حبيب آخر لسليمين، وليانت بنت عم سيليمن، وآكاست وكلتياندر مركيزان، وارسيونية صديقة سليمين. وقد وقعت حوادثها في باريس في قصر سليمين.

الفصل الأول:

السست وصديقه فيلنت في قصر سيلمين ينتظران خروجهما عليهما، وفي أثناء، ذلك يؤنب ألست صديقة فيلنت على أنه لقي رجلاً في عرض الشارع لا يكاد يعرفه، فبالغ تحيته وإكرامه. فهو يقول له: إن مثل هذا العمل لا يزكو بالحر ولا يتسع له العذر. فيلنت يجيبه في مداعبة ورفق: إن المرء مادام في الناس مقضى عليه أن يسايرهم بالمصانعة، وبعاشرهم بالموادعة، والحياة تحب التظرف، والعقل يكره التطرف. ولكن الست مسرف في بغض الناس فلا يستمع له، حتى أن له قضية منظورة في المحكمة لا يفكر فيها ولا يشغل باله بها إعتماداً على ظهور حقه، بل يتمنى أن يخسرها لتهيئ له أسباب السخط والحفيظة على ظلم الإنسان. على انه بالغرم من انقباضه واستحياشه يحب الفتاة أرملة تدعى سليمين، ولكنه يعترف بدلالها وخلاعتها، وبأسف لأنها تستقبل في بيتها كثيراً من الخطاب والأحباب، وهو لذلك يريد أن يستطلع رأيها في الموضوع. ويدخل على الصديقين

في الساعة أورنت - وهو خطيب آخر لسليمين مولع بقرض الشعر - فينتظر معهما.
وهو أثناء ذلك يرجو منهما أن ينشدهما قصيدة من نظمه، فيستحسنهما فيلنت ويستهجنها ألست، ولكنه يمسك على ما في نفسه منها، ثم يلمح بما فيها من المآخذ، وينتهي به الأمر إلى التصريح بأنها سخيفة ركيكة، فيخرج الشاعر غضبان بتوعد. ويقول فيلنت لصديقه وهو يحاوره: هاك خصومة جديدة جلبتها على نفسك بإفراطك في الصدق وغلوك في الصراحة.

الفصل الثاني:

(بهو سليمين والغيبة) يلقى الست سليمين فيلومها على خلاعتها، ويريدها ان تصرح له بحقيقة حبها ورغبته قلبها، فينقطع عليها الحديث قدوم (آكاست) و (كليتاندر)، ثم (اليانت) و (فلينت) فيأخذون مجالسهم، ويخوضون في أعراض الناس، وتجيد سليمين وصف النفوس اللئيمة، فيعجبون بها ويصفقون لها ولكن الست ينكر ذلك منها، ولا يجرؤ على مجابهتها بالإنكار، فتنفجر مراجل غضبه على المراكيز لتصويبهم رأيها. فإذا ما تساير الغضب عن وجهه عاد إلى سليمين يسألها ان تعلن من اختارته من الخطاب، ولكن شرطياً يقتحم الباب فجأة ويدعوه إلى المحكمة للفصل في الخصومة التي بينه وبين أورنت.

الفصل الثالث:

(خبث الرياء وعبث الدلال) كذلك المركيزان آكاست وكليتاندر يريدام سليمين على أن تعلن من اختارته منهما، وتقبل (ارسيونيه) صديقة سليمين فيخرج المركيزان وتختلى الصديقتان فتتبادلان السباب في أسلوب المناصحة: تحكى أرسيونيه لسليمين في لهجة مرة ما يرميان به الناس في الأندية والمجامع من الخلاعة والتهتك، وتحكى سليمين لأرسيونية ما بتقوله الناس عليها من المراءاة بالحشمة وهي داعرة. ويدخل عليهما ألست فتخرج سليمين لتكتب رسالة وتتركه مع أرسيونيه فتنتهز هذه الفرصة لإيعاز صدر ألست على سليمين فتريه أنه مخدوع وأنها خادعة، وتعده أن تقيم له على خيانتها إياه الدليل.

الفصل الرابع:

(رسالة سليمين) يأتى فيلنت فيعلن أن الخصومة بين ألست وأورنت قد انتهت بالصلح، ويدخل من بعده ألست وهو ينتفض من الغضب، وفي يده كتاب غرام من سليمين إلى أورنت جاءته به أرسيونيه دليلاً على خيانة خطيبته فيقول: آه! لقد خاب الرجاء، وضاع الأمل، وظهرت الخديعة، وبان الغدر؟ فتترضاه سليمين بالدهاء، وتفثأ غضبه بالملاطفة، ويجري بينهما الحديث، ولكن خادمه يأتي مسرعاً إليه ينبهه إلى أن شرطياً جاء يقبض عليه في خصومة.

الفصل الخامس:

(المقاطعة) يخسر ألسست قضيته التي أهملها فينحى باللوم والسخط على فساد الحياة ولؤم الناس، ويعثر أكاست وكليتاندا على رسائل لسليمين فيقرآنها على ألسست ويستيقنون جميعاً بأنها تخونهم وتخدعهم وينصرف عنها المركيزان ويبقى ألسست مقيداً بسلاسل هواها، فيعدها بالعفو عن ما سلف إذا رضيته زوجاً وعاشت معه في خلوة الريف، فترفض طلبه. فييأس المستوحش ويعتزل الناس وهو يقول:

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى ... وفيها لمن خاف القلى متعزل

ملحوظات عن الرواية:

الفصل الأول أية من آيات الفن، فقد عرض فيه المؤلف في حوار قوي على لسان فيلنت وألسست أسماء الأشخاص الأصليين وأخلاقهم وذكر غضب ألسست وغرامه، وبرودة قلب فيلنت، وخلاعة سليمين، واخلاص اليانت، ورياء أرسيونيه الخ.

أما التعقيد فيؤخذ عليه ضعفه وبطؤه، إلا أن العمل كاف وبسط الأخلاق متدرج. والحل يعيبه بعض النقاد بالنقص من غير حق. فإن سيليمين جوزيت على خلاعتها وخبها بأن هجرها خطابها جميعاً. والسست أعتزل العالم، والمركيزان ذهبا يعرضان زهوهما الأجوف في مكان آخر، وفيلنت واليانت يستعدان لحفلة الزفاف.

يتبع

(الزيات)

في المعلقات أيضا
للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

ولابد من المضي في تكميل رأينا في المعلقات أن نعود إلى الكلام على . . . . . مذاهب علماء الأدب، قدمائهم ومحدثهم في تسميتهم، فان الذي يراه أبو جعفر النحاس ليس كما ذكرناه في (الرسالة) وذكره غيرنا قبلنا فتأثرنا به، إن هذه القصائد سميت باسم المعلقات من قول الملك (علقوا لنا هذه وأثبتوها في خزانتي) فيكون أبو جعفر على هذا مشاركا لغيره من القدماء في قدم هذه التسمية، ولا يخالفهم إلا في توجيههم لها بأنها مأخوذة من تعليقها على الكعبة. ويذهب علماء العربية الأوربيون بفضل الرأي الراجح ألان في هذه التسمية، أنها حديثة مصنوعة في عصر التدوين أو قبله بقليل، وأنا ننقل هنا كلام أبي جعفر في ذلك لنرى مذهبه حقيقة فيه.

قال في افتتاح شرحه للقصائد السبع: (الذي جرى عليه أمر أكثر أهل اللغة في تفسير غريب الشعر، إغفال لطيف ما فيه من النحو، فاختصرت غريب القصائد السبع المشهورة، وأتبعت ذلك ما فيها من النحو، ولم اكثر الشواهد ولا انساب، ليخف حفظ ذلك ان شاء الله تعالى).

وقال في آخر شرحه لها: (فهذه القصيدة آخر السبع المشهورات، واختلفوا في جمع القصائد السبع، فقيل العرب كان أكثرهم يجتمع بعكاظ ويتناشدون، فإذا استحسن الملك قصيدة قال: علقوها وأثبتوها في خزانتي. فأما قول من قال إنها علقت في الكعبة فلا يعرفه أحد من الرواة، وأصح ما قيل إن حمادا الراوية لما رأى زهد الناس في الشعر، جمع هذه السبع وحضهم عليها، وقال لهم هذه المشهورات، فسميت القصائد المشهورة لهذا).

فهذا صريح في أن أبا جعفر لا يرى في المعلقات أيضا رأي من يذهب إلى تسميتها بذلك مأخوذة من قول الملك (علقوا لنا هذه) وإن كان يراه ارجح من رأى من يرى ان تسميتها بذلك مأخوذة من تعليقهم لها بالكعبة، فكلا الرأيين عنده مبني على ان هذه القصائد كانت مجموعة قبل جمع حماد لها، فكانت معروفة عندهم بهذا الاسم (المعلقات) أو غيره إن كان لها اسم غيره، لأن جمعها هو الذي يجعل لها وجوداً خاصاً تحتاج أن تتميز فيه إلى اسم من الأسماء.

وأبو جعفر ينكر جمع هذه القصائد قبل جمع حماد لها، فهو عنده هو الذي جمعها، لما رأى زهد الناس في الشعر، فجمعها لهم من الشعر القديم، وحضهم عليها، وهذا الرأي آخر عند أبي جعفر غير ذينك الرأيين، وقد رآه أصح ما قيل في هذه القصائد فهناك لقدمائنا إذن في هذه القصائد ثلاثة آراء لا رأيان، وأصح هذه الآراء الثلاثة عند أبى جعفر أن هذه القصائد لم يكن بعضها يمت إلى بعض قبل جمع حماد لها، بل كانت مغمورة في الشعر العربي الجاهلي مثل غيرها من القصائد الجأهلية، ولم تكن تمتاز عليها باسم يجمعها من اسم المعلقات أو غيره، فلما جمعها حماد للناس قال لهم هذه المشهورات، فسميت القصائد المشهورة لهذا، وهو الاسم الذي ذكرها به أبو جعفر في افتتاح شرحه لها وفي آخره أيضاً. ولا شك أن تحاشيه ذكرها باسم المعلقات كما يسميها غيره ويوجهه بأحد ذنيك التوجيهين دليل على انه لا يرى صحة تلك التسمية مستحدثة مصنوعة بعد الإسلام، وبعد جمع حماد لها، وهذا هو الذي ننسبه ألان ألي علمائنا الأوربيين ليذهبوا بفضله، وينسى فيه فضل أبي جعفر رحمه الله.

هذا وقد رأيت فيما رجعت إليه قبل كتابة هذا المقال من شروح المعلقات، وقد تعلقت نفسي باستقصائها حتى يجئ بحثي وافياً فيها من تلك الناحية، رأيت ما يتفق مع رأيي في المعلقات في مقدمة الطبعة المنيرية لشرح الخطيب التبريزي على المعلقات العشر، إذ جاء فيها: (وذهب فريق إلى ان وجه تسميتها بالمعلقات علقوها بأذهان صغارهم وكبارهم ومرءوسيهم ورؤسائهم، وذلك لشدة اعتنائهم بها) وهذا قريب من رأيي في المعلقات، وهو من عجائب توارد الخواطر، ولكنه في تلك المقدمة هل يذهب من يرى هذا في المعلقات إلى أن تلك التسمية على توجيهه قديمة أو مصنوعة، والظاهر انه يراها قديمة، وهو خلاف ما نراه فيها على توجيهنا لها.

وقد جمعت هذه القصائد السبع بعد جمع حماد لها جمعاً آخر مع قصائد أخرى يبلغ جميعها تسعاً وأربعين قصيدة، قال عنها المفضل الضبي إنها عيون أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، وانفس شعر كل رجل منهم، وهي التي جمعها أبو زيد محمد بن أبي

الخطاب القرشي في كتابه جمهرة أشعار العرب.
ويخالف المفضل حماداً في أصحاب هذه القصائد السبع، فهم عند حماد: أمرؤ القيس، وطرفة، وزهير، وعمرو بن كلثوم، والحارث بن حلزة، ولبيد بن ربيعة. وهم عند المفضل: أمرؤ القيس، وزهير، والنابغة، والأعشى، ولبيد، وعمرو بن كلثوم، وطرفة. وقد تبع المفضل في هذا أبا عبيدة، وقال عن الشعراء السبعة: (هؤلاء أصحاب السبع الطوال التي تسميها العرب السموط، فمن قال أن السبع لغيرهم فقد خالف ما اجمع عليه أهل العلم والمعرفة). ثم ذكر بعد هذا السبع المجمهرات، والسبع المنتقيات، والسبع المذهبات. والسبع المرائي، والسبع المشوبات، والسبع الملحمات.
وإذا كان المفضل يخالف حماداً في هذا فهو يوافقه في انه لم يرد فيما رواه أبو زيد القشرشي عنه تسمية هذه القصائد السبع بالمعلقات، ولم يذكر إلا أن العرب تسميها السموط، فإذا كان يعني الأقدمين فهي تسمية جاهلية، وإذا كان يعني العرب في عصره فهي تسميه إسلامية. وقد كانت العرب قبل الإسلام تطلق هذا اللفظ على غير هذه القصائد السبع، ومن ذلك ما رووا إن علقمة الفحل كان يأتي مكة فيعرض شعره على قريش، وكانت العرب تعرض شعره على قريش، وكانت العرب تعرض أشعارها عليهم، فما قبلوا منها كان مقبولا، وما ردوا كان مردودا، فاتاهم مرة فعرض عليهم قصيدته:
هل ما علمتَ وما استُودعت مكتومُ ... أم حبلُها إذ نأتْك اليومَ مصرومُ.
فقالوا: هذا سمط الدهر، ثم عاد إليهم في العام المقبل فأنشدهم قصيدته في مدح الحارث الغساني، وكان اسر أخاه شاساً فرحل إليه يطلبه:
طَحا بك قلب في الحسان طَروب ... بُعيْد الشباب عصر حان مشيبُ
فقالوا هاتان سمطا الدهر
ويمكننا بعد هذا أن نجزم بأن اسم السموط كان يطلق عند العرب على قصائد غير هذه القصائد السبع، ولا يدل ما ذكره المفضل على حصر هذه التسمية (السموط) في هذه القصائد السبع، وإنما معناه أنها كانت تسميتها السموط فيما كانت تسميه بذلك من قصائدها، فلا يدل ذلك على إنها كانت مجموعة متميزة عند العرب بهذا الاسم قبل جمع حماد لها، بل يتفق هذا أيضاً مع ما رجحه أبو جعفر النحاس من أن حماداً هو الذي جمعها، ولا يخالفه في شئ من المخالفة.
هذا وقد كانت وفاة حماد الراوية سنة 155 هـ، ووفاة المفضل الضبي سنة 168 هـ، ووفاة أبي زيد القرشي صاحب الجمهرة سنة 170هـ، فنستطيع مع هذا أن نحكم بان هذه القصائد السبع ما كانت تعرف باسم المعلقات إلى سنة 170هـ، وإنما كانت تسمى القصائد المشهورة آخذاً من قول حماد فيها بعد جمعها هذه القصائد المشهورة، وكان يقال السموط كما كان يقال لبعض قصائد أخرى، فلم يكن اسماً خاصاً بها، وقد سماها المفضل السبع الطوال فيما نقله أبو زيد في الجمهرة عنه.
وقد نقبنا في المقدمة التي ذكرها أبو زيد في جمهرته قبل القصائد السابقة التي أوردها فيها، فلم نجد فيها ما يمكن أن يؤخذ منه أن السبع الأولى كانت تسمى في عصره باسم المعلقات. وكان الواجب على طابعي الجمهرة أن يلاحظوا ذلك فلا يضعوها تحت اسم المعلقات، ولا يذكر قصيدة امرئ القيس (قفيناك) تحت اسم معلقة امرئ القيس، ولا قصيدة زهير (أمن أم أوفى دمنة لم تكلم) تحت اسم معلقة زهير، وهكذا في باقي السبع، وهو خطأ ضاهر، وتسمية لهذه القصائد بما لم يسمها به صاحبه الجمهرة، فان كان هذا في الأصل الذي طبعوا منه فهو خطأ من ناسخه قطعاً. ولعلنا نظفر بعد هذا بأول من سماها باسم المعلقات في الزمن الذي بين زيد القرشي وأبي جعفر النحاس وهو الذي أورد فيها ما نقلناه عنه من ذلك الخلاف.
عبد المتعال الصعيدي
من طرائف الشعر
شوقيتان لم تنشرا
1 - قصيدة لم تتم للمرحوم شوقي بك في (سعد) والثورة
يا شبابُ اقتدوا بشيخ المعالي ... فالمعالي تَشَبُّهٌ وتحدي
هو لو لم يكن له من الفضل إلا ... هذه كان غايةَ الفضل عندي
قد تصدّى لنائبات حقوق ... غيرُ سهلٍ لمثلهن التصدّي

حزَنَتْه بلادُه وهي صَيْدٌ ... بين نابَيْ مُظفَّر الناب وَرْد
أمَّةٌ من غرائب النصر نَشْوَى ... تَسلُبُ المُلْكَ مَنْ تشاء وتُسدي
أخْرَستْ أفصحَ القياصر سيفاً ... بأساطيلَ في الخصومة لُدِّ
جاءها سعد شاهرَ الحق يدعو ... سيفها المنتضَى لُخِطّة رُشد
أعْزَلَ المنكبْين إلا من الحق ... ومن حجة كنَصْل الفِرِنْدِ
خاطبَ النارَ وهي في شَفَة المِدْ ... فع والسيفَ وهو في غير غمد
غَمْرةٌ يُشفق الضياغِمُ منها ... خاضها لم يَهَبْ عواقب وِرْد
فنَفوْا فانتفى فصادف حظاً ... حبذا الجِدُّ ان أعينَ بِجَدّ
وإذا مصرُ كاللبوءِةِ غَضْبى ... لابنِها تبذُلُ الدماء وتفدى
قصيدة أخرى للمرحوم لم تتم في (موليير) الشاعر - 2
الفرنسي
وأن (مُولْيير) نجمٌ لا أُفولَ له ... وان تغيِّب في الأحقاب واحتجبا . .
شريعة من بيان الغرب صافية ... وان يك الشرق أحياناً بها شربا
وآيةُ الأدب الروميّ في لغة ... لم تخل من سرها عجماً ولا عرباً
لو استطاع ذووها من عنايتهم ... بنشرها علّموها الجنَّ والشهبا
فاحفظ لسانك وأجهدْ في صيانته ... كما يصون الكريمُ العرضَ والحسبا
كأنما كانت الدنيا على يده ... يصورّ الناس عنها كلما كتبا
إذا مضى يعرض الأخلاق عارية ... أراك من كل نفس صورةُ عَجَبا
يأتي النفوس فينضو عن طبائعها ... ستراً ويهتك عن أهوائها الحجبا
فربما ازددتَ علماً بالبخيل وإن ... نشأت تلقاه جَدَّاً أو تراه أبا
وقد يزيدك بالكذاب معرفةً ... وأنت تُضحى وتُمْسِى تسمع الكَذِبا
وقد يريك أخا الوجهْين منكشفاً ... وأنت تلقاه في الإخوان منتقبا
ومن جيد ما نشره المرحوم من الشوقيات قوله يعتب على بني وطنه اختلافهم وتنازعهم:
وأين الفوز لا مصر استقرت ... على حال ولا السودان داما
وأين ذهبتمو بالحق لما ... ركبتم في قضيته الظلاما
لقد صارت لكم حكماً وغماً ... وكان شعارها الموت الزؤاما
شببتم بينكم في القطر ناراً ... على محتله كانت سلاما
إذا ما راضها بالعقل قوم ... أجد لها هوى قوم ضراما
تراميتم فقال الناس قوم ... إلى الخذلان أمرهمو ترامى
وكانت مصر أول من أصبتم ... فلم تحص الجراح ولا الكلاما
إذا كان الرماة رماة سوء ... احلوا غير مرماها السهاما
وقال يوجه الخطاب إلى توت عنخ آمون عقب كشف قبره:
قل لي: أحين بدى الشرى ... لك هل جزعت على العرين؟
آنست ملكاً ليس بالشا ... كي السلاح ولا الحصين
البر مغلوب القنا ... والبحر مسلوب السفين
لما نظرت إلى الديا ... ر صدفت بالقلب الحزين
لم تلق حولك غير (كر ... تر) والنطاسيَّ المعين
أقبلت من حجب الحلا ... ل على قبيل معرضين
تاج الحضارة حين أشر ... ق لم يجدهم حافلين
والله يعلم لم يرو ... هـ من قرون أربعين
حصن طارق
للأستاذ فخري أبو السعود
أقام على شط الجزيرة مفرداً ... ورانت عليه وحشة وسكون
على الصخرة الصماء يصخب دونه ... من اليم لج زاخرٌ ومُئُون
مُضِبٌّ، يجيش الشرق والغرب حوله ... صَمُوتٌ على كرِّ العصور مبين
به صَدْفَةٌ عَمَّا يَرَى في زمانه ... وفيه إلى ماضي الزمان حنين
تغيرتِ الدنيا، وبادَ قَبِيلُهُ ... وغيَّرَهُ دَهرٌ مضى وقُرُون
وقَطَّبَ لَمَّا أَنْكَرَ العَصْرَ حوله ... وسارت بما لا يشتهيه شؤون

وأَنْكَرَ خيلاً حوله وأعاجماً ... تقرُّ لهم تلك الرُّبى وتَدينُ
تَدين لرئبالٍ بكل مفازةٍ ... له في أقاصي العالمين عَرين
تَعَطَّلَ مِن بَعد اعتصامٍ ومَنعة ... أسيرٌ بأيدي الغالِبين رَهين
وكان يصون القومَ فارتَدَّ أعزلاً ... وأصبحَ حتى النَّفْسَ ليس يَصون
إذا لم تكن همَّاتُ قومٍ حصونَهم ... تداعتْ وراسٍ دونهم وحصون
حَوَتْ منِ تلاد المجد صخرةُ طارقٍ ... على الدَّهر مالا يحتويه رَقينُ
تعالتْ بها، الله أكْبَرُ، مَرَّةً ... فمادتْ سهولٌ دونَها وحُزُون
وسالتْ شعابٌ بالصوارم والقنا ... وأحرق خلف الفاتحين سفين
وقامتْ بأطرافِ الجزيرة دولةٌ ... وأزهَرَ عرفانٌ وأشرق دين
جَلا أمسِ عنها آلهاً، وبَنُوهُمُ ... عَلَى الضَّفَّةِ الأخرى الغَدَاة قَطِين
فَمنْ لي بمن يُنبي الجدودَ بأنَّنا ... وقد عزَّ عُبدانُ الجُدود نهون؟
وأنَّا إذا اعْتَمْنَا رُسُوم عَلائهم ... تناهبتِ القلبَ الحسيرَ شجون
خشعتُ وعادتْني لدى حصن طارق ... همومي وابْتَلَّتْ لديه جفونُ
لشعبٍ يُسيغ الذلَّ مِن بَعد ماسَمَا ... له في الورى مُلك أشَمُّ مكِين
القاهرة
فخري أبو السعود
الوحيد المريض
محمد خورشيد
سالَ ذَوْبُ الفؤاد في أَنَّاتِهْ ... وتَلاشى بُكاهُ في آهَاتِهْ
ساكِنُ الطّرفِ لا يرفُّ لهُ جَفنٌ ... ولا يعزفُ الضَّنَى عن أذَاتِهْ
واجفُ الصدرِ، شاحب الوجه خُطَّت ... نفثاتُ الأسى على قسماتِه
كادت الروح تستحيل أريجاً ... تتملّى الجِنانُ من نَفَخاتِه
وظلامُ المنون مَدَّ رواقَيْهِ ... ليطوِى في الليلِ فجرَ حياتِه
وأبُوهُ المرور ضَمَّ إلى الصد ... ر فتاهُ ليفتديهِ بذاتِه
حابساً ما استطاع أنفاسَ صدرٍ ... شَبَّ جمرُ اللأواءِ في جَنَباته
ولو استطاعَ اسكت القلبَ حتى ... لا يَضِجَّ الصغيرُ من خفقاتِه
كلما أرسل ابنه زفراتٍ ... كاللظى خالَها صدى زفراته
كلما أسبل الدموعَ فتاهُ ... كالآلى تَشِفُّ عن حسراته
ظنَ وجهَ الفطيمِ أصبحَ مرآ ... ةً أرتهُ المدرارَ من عَبَرَاته
باتَ قلبي طيَّ الضلوعِ سجلاً ... لجَنَانِ الوحيدِ في نبضاته
أن هفا مسرعاً حكاه ابنُ جَنْبِي ... أو تأنَّي شاكلتُهُ في أنَاتِه
وضميري ناجَي الحبيبَ فأصغَى ... وهو رهنُ الضَّنَى إلى همساته
قد حُرمتُ السُّباتَ والدَّاء يقظ ... انُ يُوالي مُسَدِّداً رَمَياته
حارَ إذا عادنا الطبيبُ ولمَّا ... يدرِ أيَّا يَطبُّه بأدائه
أ (نزاراً) وقد ذَوتْ مُقلتاهُ ... أم أباهُ والرُّوح قُربَ لَهاتِه
أن سُقمَ الأبناءِ أقسَمَ إلا ... أن يكونَ الآباء مرمى تِراتِه
يا رسولَ الردى أماناً فهذا ... قد عقدنا المُنى على بسماتِه
أن أردتَ الفداء دونك روحي ... تلكَ عند الشبابِ أغلى هِباتَه
يَرِثُ التاجَ أولياء العُهودِ الصِّيدُ ... والمجدُ مُوقِعٌ نغماتِه
فاعفُ عنّي، وليَّ عهدي، لأني ... خِفتُ دهري فكنتُ من أقواتِه
لم أورِّثكَ غيرَ شعرٍ شجيٍ ... سال ماءُ الفؤاد من أبياتِه
أصبحَ البؤسُ تَوْأَمَ الشعرِ عندي ... يزدهيني بندبهِ وشَكاتهِ
إنّ وحيَ الأسى المروِّعِ يحبو الشاعِرَ ... الفذَّ مُجتَبى خَطَرَاتِه
القدس
محمد خورشيد
توماس كارليل 1795 - 1881م
بقلم عبد الكريم الناصري
- 1 -
العبقرية الحق، هي التي تعمل ولا تشبع، وتجد في الألم لذة، وفي الموت من أجل)

(. .!العمل حياة، ولا تحسب يوماً أنها وجدت ما تنشده وتصبو إليه
العبقرية الحق، هي التي تخلق وتنشئ، وتنظر دائماً إلى الممكن والى المستقبل؛ هي)
باذرة بذور الخير والحب والطيبة والجمال في الوجود، والطامحة دائماً إلى ألحسن،
والآخذة بالناس من الظلمات إلى النور، ومن العبودية إلى الحرية. ويخلد العبقري بقدر
ما تترك رسالته من أثر على وجه البسيطة؛ فكلما كانت رسالة العبقري إنسانية،
(.كالإعجاب بها شديداً والثناء عليها قوياً
ولد توماس كارليل في قرية (اكلفكان) - بأقليم أناندال - بجنوبي اسكوتلندة، في
تشرين سنة 1795. وكان أبوه بنّاء، وهو الذي بنى البيت الذي ولد فيه ابنه؛ وكان
صلب الرأي، ميَّالاً إلى الجد والعمل. أما أمُّه فكانت امرأة صالحة حنوناً طيبة القلب.
أدخله والده - أول الأمر - في مدرسة القرية، فتلقى فيها مبادئ العلوم، ثم في
مدرسة قرية (نان). ولما بلغ الثالثة عشرة من عمره دخل جامعة ادنبرج. وفي سنة
1814 عينّ مدرساً للرياضة بمدرسة أمان. وكان قد بلغ التاسعة عشرة من عمره.
ولم تمض عليه ثلاث سنواتٍ حتى صار رئيس مدرسةٍ ببلدة (كركالدي).
وفي سنة 1818 ترك حرفة التعليم متبرماً بها، ساخطاً على المنتسبين إليها؛ وذهب
إلى ادنبرج باحثاً عن عمل يعيش منه؛ ودرس هناك علم المعادن الذي أفاده فائدة
كبيرة إذا اضطره إلى تعلم الألمانية (التي كانت من أسباب ظهوره ورفعته.) مع أنه
كان يمقته مقتاً شديداً. وكان يتقن الفرنسية أيضاً ويترجم عنها مقالات علمية فيتكسب
من ذلك. . .
- 2 -
اجتمعت في كارليل صفات أبيه وأمه ورث عن أبيه صلابة الرأي، ومضاء العزم، . . .
وخصب الخيال، وقوة التصور؛ وورث عن أمه دماثة الخلق، وسلامة النية، وطيبة
القلب،
وكثرة الحنان، وخفة الظل.
وفيه أيضاً اجتمع فيه هدوء الإنكليزى ووطنيته الصادقة، واعتزاز الألمانى بقوميته،
واعتداده بنفسه واستبداده برأيه، وفكاهة الفرنسي ومزاحه.
كان فيلسوفاً نابغة، ومؤرخاً مدققاً، وناقداً صائب الرأي قوي الحجة ساطع البرهان،
وكاتباً بليغاً ساحر البيان، عجيب التصور للحقائق، مدهشاً في عرضها على قارئيه أو
سامعيه واضحة جلية، وكان خياله يشبه النافورة التي يتدفق ماؤها فيسقي هياكل
الأبطال القدامى العظيمة، ويحيلها إلى أناسي مثلنا يتحركون ويضطربون. . .!
كان في كتاباته جاداً وهازلاً، مكتئباً وضاحكاً، تلمح من خلال سطور كتاباته نفساً هادئةً،
مؤمنةً، قنوعاً ولكن تجده أحياناً ليثاً كاسراً، غضوباً متمرداً. . . وكان متبرماً بالوظائف
والحرف المقيدة لحريته، ولما ترك مهنة التعليم صاح محتداً ساخطاً: (لا طاقة لي بعد
بهذه الحرفة الممقوتة!. . .).
وأرى أنه كان في آرائه وأقواله قومياً ومتعصباً أحياناً، , إنسانياً أحياناً أخرى. يتعصب
حين يحدثك عن (كرومويل) أو عن فريديريك الكبير ملك بروسيا، فيغرق في مدحهما
والإشادة بذكرهما، ويحملك على تصديق أقواله بسحر بيانه وقوة برهانه، لأن الأول
إنكليزى، والثاني بروسي، وكان كارليل حريصاً على إرضاء البروسيين. ويقول الكاتب
الناقد الإنكليزى ج. ك. تشسترتون: (لقد سلط كارليل تيار خياله القوي المتدفق على
شخصية هي كالجمجمة جفافاً ويبوسة وصلابة (أي فرديريك)، وسكب عبقريته الخلاقة
المبدعة ليخلق من أسفل وادنى وأوحش شخصية عرفها التاريخ إنساناً شهماً، كريماً
عظيماً!.).
فهو إنساني حين يحدثك عن محمد صلى الله عليه وسلم والإسلام مثلاً، فيقول: (لقد
أصبح من اكبر العار على أي فرد متمدن من أبناء هذا العصر أن يصغي إلى ما يظن
من أن دين الإسلام كذب وان محمداً خداع مزور؛ وآن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل
هذه الأقوال السخيفة المخجلة، فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول ما زالت السراج
المنير مدة اثني عشر قرناً بنحو مليون من الناس.) أو حين يقول: (ما محمد بالكاذب
ولا الملفق، وإنما هو قطعة من الحياة قد تفطر عنها قلب الطبيعة، فإذا هي شهاب قد
أضاء العالم أجمع. . .)

وقد قال (ريتشارد جازييت): (فلما كتب كارليل مقالته عن الإسلام ينافح فيها عن محمد ويناضل عن دينه، لم يبق هجاء أطلق يده في عرض محمد (ص) إلا قبضها مجذومة شلاء ولا فجاش ذلك الأديم الأملس، وتلك الصحيفة البيضاء بسهام السباب إلا وردت سهامه في نحره حتى راح شرف النبي في تلك الديار بفضل الفيلسوف الأكبر صحيح الأديم موفور الجانب. . .).

ومن هنا ترى أن الرجل كان يعتمد على ذكاءه وصفاء ذهنه، واستقامة منطقه القوي، وبلاغته وخياله أيضاً، في حمل الناس على اعتناق مذاهبه، والأخذ بآرائه، والإيمان بمعتقداته، وقد نجح في ذلك نجاحاً عظيماً وفاز فوزاً جباراً. . !

- 3 -

وقد أحب ذلك الفيلسوف فتاة جميلة تدعى (مرغريت جوردون)، وقد ابتدأ ذلك الحب حين صار رئيس المدرسة التي ذكرناها ببلدة كركالدي. ووصفها في كتابه (فلسفة الملابس). وكان كارليل (يعبد الجمال ويكبر ملكات العالم (أي نساء) ويقدسهن، ويرى لهن جلالاً إلهياً!) ولكن حظه منهن (لم يكن إلا حظ اللمس من الخيال، والغليل من الآل!)

لقد كان حبه عنيفاً جداً لمارغريت، ولا تكاد تقرأ بضع صفحات - بل بضعة أسطر - من كتابه فلسفة الملابس حين يصفها، إلا وتؤمن انه لم يكن هوى أو حباً، بل لاعجاً محرقاً، بل هياماً جنونياً، ولكن العبقري المسكين أخفق في ذلك الحب ولم يتزوج من بلومين (كما يسميها في ذلك الكتاب) لتعرض أصدقائها. . .

أسمعه يقول باكياً. . . (فكن للفتى (أي كارليل) كأنهن من الهواء مخلوقات، ومن الضياء مصوغات، أرواح في أشباح، وأذهان في ألوان. . .

وكأنهن ملائكة تحمل كل منهن معراجاً يرتقي فيه العاشق إلى مقامات الأبرار في الجنان، فليت شعري هل قضى الله للفتى المنفرد (يعني نفسه) أن يظفر يوماً ما بإحدى هذه الملكات؟ بل أين منه ذلك، هيهات هيهات!!).

أما والذي خلق الهوى وجعله جنة المحب وجحيمه، لئن قضى الله للفتى أن تهبط) عليه واحدة من تلك الخيالات المليحة، فتتحول له جسماً حياً ملموساً، وحقيقة محسة، ثم تلحظه بنظرة انعطاف وتودد، وتقول له بعينيها: (لك الآن أن تحب وتحب!) إذن فأي بركان هائج

يثور، وأي جحيم كان يجيش ويفور!!).

وقد اشتعل مثل هذا الحريق يوماً ما في فؤاد الفتى المنفرد اشتعالاً بركانياً؛ وكيف) يكون الأمر غير ذلك والفتى مزاج رقيق، وطبع سريع الهياج - فيه (كاربون) الحدة، و (فسفور) الشهوة، و (كبريت) الانفعال - تنتظر أدنى شرارة من لحاظ دعجاء المحاجر، قتالة الألحاظ، فتتأجج وتشتعل؛ وما شرار اللحظ في هذا العالم بالشيء المفقود؛ فليت شعري إذا هبطت عليه من آفاق العزة مليحة حسناء، فرمت (كبريته) بشرارة من لحظها ماذا يكون المآل؟ . . . . . .)

وأسمعه يخاطب فتاته المحبوبة: (وما هي إلا هنيهة حتى قرب إلى الغادة وقدم لها! يا رعاك الله أيتها الآنسة! أنك لتشرقين بين أترابك من الفتيات، وتبهرين صواحبك من الغانيات؛ كأنك الكوكب الدري هبط من السماء فتوسط طائفة من المصابيح والشموع! يا أشرف الفتيات! وسيدة النساء! يا سبيت الخامل المسكين فتهافت عليك بدناً وروحاً؛ وهو مع ذلك منكس الجيد في حضرتك، من فرط هيبتك خاشع الطرف، تعروه لذة أليمة وتعلوه حيرة لذيذة، أحقاً أصبح الفتى المسكين يشهد مجلسك ويجتلي نور طلعتك، وبهاء غرتك، وحقاً تشرق عليه أشعة لحاظك!؟ وحقاً يتكلم فتنصتين، ويقول فتسمعين، ويمزح فتضحكين، ويعظ فترقين، ويشكو فتتوجعين؟ وحقاً كان الحب متبادلاً، والغرام متداولاً، والعطف متقارضاً، والود متقايضاً، والقطبان يخفقان للالتصاق، ويرجفان للاعتناق،؟!! وقلب العاشق المسكين يجيش ويثور كالبحر يزخر ويعب في حضرة القمر!؟ حقاً كان كل ذلك).

البصرة

عبد الكريم الناصري

العلوم

بحث في أصل الإنسان - 4

بقلم نعيم علي راغب دبلوم عال في الجغرافية

بدراسة الجمجمة التي وجدت في جزيرة جاوة، إحدى جزائر الهند الشرقية، وجد أنها تشبه جمجمة نوع من القردة، وهو المسمى جيبون وهذا القرد معروف أن نسبة مقاس جمجمته تتناسب تناسبا إطرادياً مع ارتفاعه وحجم جسمه. بمعنى أن مقاس كذا هو لقرد ارتفاعه كذا. . الخ.

فإذا نحن طبقنا هذه القاعدة على تلك الجمجمة التي وجدت خرجنا منها بنتيجة، هي إن ذلك المخلوق الذي تخلفت عنه هذه الجمجمة لابد وأن يكون في ارتفاع قامة الإنسان، على عكس قردة ذلك النوع المشار إليه فإنها لا تتعدى في القامة قامة ابن خمس سنوات من الأطفال.

وإذا لاحظنا أن سطح الجمجمة وعظام محاجر العين وشكلها تعين عدم وجدود جبهة لصاحب تلك الجمجمة، نجد لزاما علينا من ذلك ومن نتائج أبحاث العلماء أن نقول إن هذا الذي يمثل إنسان البليوسين كان عبارة عن قرد كبير، وتبين لنا بعد ذلك من قياس تلك الجمجمة أننا لم نكشف عن الإنسان القرد فحسب، بل كشفنا عن أحط درجة من درجات التطور الإنساني، وإذا كان للإنسان صفات تميزه ويختص بها عن سائر أنواع الحيوان، فإنما هي ذكاؤه وقابليته للتعلم، ثم حدة الشعور، وهذه كلها تأتي من المخ مصدر الشعور والوجدان.

وإن قصة تدرج الإنسان ما هي إلا تاريخ لتطور قواه العقلية. فعند ما كشف الأمر عن جمجمة إنسان النياندرتال عام 1875، قال بعض من العلماء إنها بجمجمة أشبه منها بجمجمة الإنسان. لماذا؟. لأنه لوحظ بها البروز الكبير الظاهر في محاجر العين، وهو ما تمتاز به أنواع الغوريلا، كذلك لاحظ أن غطاء الجمجمة الأعلى واطئ منخفض ومفرطح. لكن الكشف الذي تلا ذلك دلنا على المقدرة والقوة الفكرية عند هذا النوع من الإنسان، وهو إنسان النياتدرتال. وأنها قد تفوق كثيرا من الأجناس البشرية في القدرة والمهارة والدقة والجمال في صناعة الأدوات الصخرية النارية.

ولم يجد الدكتور أي أثر في طبقة الأرض التي وجد بين ثناياها الإنسان القرد، وليس هناك ما قد يلقي لنا ضوءا على مقدار ذكاء هذا النوع وقدرته، إلا أنه يمكننا أن نتكهن بشيء من ذلك من حجم فراغ جمجمته التي استطاع الدكتور دبوا أن يصورها لنا.

فأما من جهة حجم المخ فإن الإنسان القرد أو إنسان جاوة (كما سنسميه) يقع تحت أسفل درجة من درجات المخ الإنساني. فالابورجونيز سكان استراليا يتراوح حجم مخ القرد فيهم من 1300 إلى 1400 سم مكعب، ولو أن هذه النسبة تقل في نسائهم فتصل إلى 1000 سم مكعب أو إلى 930 سم (كما يبالغ السير وليام تيرنر) ولكي نقول إن الرجل أو المرأة يفكر أو يستطيع التفكير يلزمه مخ لا يقل عن 950 سم مكعبا، ولكن أبحاث الدكتور ديبوا دلت على أن حجم مخ إنسان جاوة لم يتجاوز مقدار 900 سم مكعب. برغم أن الأستاذ ج. هـ. ماك جريجوري يرتفع به إلى 940 سم مكعبا. وهكذا نرى أن الإنسان المذكور لم يكن ليستطيع التفكير الصحيح كما نراه أو كما نعقله، إلا أنه قد اقترب وسار على عتبة باب الإنسان الحق بتفكيره وقوته العقلية.

وإذا قارنا إنسان جاوة بالغوريلا وجدنا أن حجم مخ الذكر من هذه القردة يبلغ في المتوسط 520 سم مكعبا، ولو أنه قد يرتفع إلى 650 سم مكعبا أو ينخفض إلى 470 سم مكعبا بينما نجده يرتفع إلى ستة أمثاله عن حجم مخ هذه القردة برغم التشابه العظيم بين شكل سقف جمجمة إنسان جاوة وقرد الجيبون.

إلا أن هذا النوع الإنساني وهو إنسان جاوة إذا قورن بالإنسان الأوروبي الحديث وجد بينهما فرق كبير جدا. إذ أن الأخير يزيد في حجم المخ على الأول بما لا يقل عن 560 سم مكعبا إذا ما قدرنا للأخير متوسطا قدره 1500 سم مكعب.

أما عن حجم مخ إنسان البليوسين فإنه يرتفع كثيرا عن مستوى أكبر أنواع القردة المعروفة، ويصل إلى أسفل درجات الإنسانية، ونصل إلى نفس النتيجة إذا ما قارنا بين مخ إنسان جاوة والغوريلا، أو مخ امرأة الأبوجيز الأسترالية. وبفحص مخ قرد من القردة لوحظ أن الطبقة الظاهرية منه وهي التي تتصل بالقدرة على السمع والإبصار والحس كاملة التكوين، وأن الطبقة الظاهرية التي تليها وهي التي تتصل بالقدرة على الفهم والتذكر تكاد تكون معدومة التكوين، بينما نجد أنها في إنسان جاوة برغم تناسب أجزائها وأتساعها

لا تصل إلى تلك التي تعيش على سطح الأرض في عصرنا هذا. ولذلك أمكننا بفضل اكتشاف الدكتور العلامة ديبوا أن نعرف الماهية التفكيرية والمقدرة العقلية التي كان يتمتع بها الجنس الذي عاش في عصر البليوسين.

ونحن لا يمكننا مع ذلك كله أن نقرر ما إذا كانت عندهم القدرة على التخاطب والكلام. إلا أنه قد أمكننا أن نعرف من تلافيف المخ عند الإنسان المعروف بإنسان جاوة مقدار ما كان له من استعداد لذلك، وما قد وجد عنده من عوامل تساعده عليه، ومن المحتمل أنه قد تكلم وتفاهم، ثم عبر عما يجول بخاطره بعبارات صوتية غير منتظمة تعبر عن رغبة أو شعور، ولكنها لم تكن لتعبر عن فهم. ويمكننا أن نقارن بين قدرتهم على الكلام وقدرتهم على صناعة الأدوات والمرافق بما نسمعه من لغات اليوم وما نراه بين أيدينا من مرافق وأدوات كادت أن تبلغ حد الكمال.

ونحن إذا اعتبرنا أن إنسان جاوة بالقوى العقلية التي سبق الكلام عنها وشرحناها في الفقرات السابقة، هو الحد الذي وصل إليه الإنسان في أواخر عصر البليوسين، وأن إنسان البلتدون هو مثل لما قد وصل إليه الإنسان في أوائل عصر البلستوسيين، لوجب علينا أن نعترف أن هناك فترة تقع بين العهدين يمكن أن نطلق عليها فترة التطور العقلي للإنسان القديم. لأننا نعرف أن حجم مخ إنسان البلتدون الذي وصل إلى 1400 سم مكعب يتناسب مع حجم مخ الإنسان الحديث، ويقترب به إلى الإنسانية الحق.

بينما نجد أن إنسان جاوة بمخه الذي يمكننا أن نقدر حجمه بمقدار 940 سم مكعبا ينزل إلى أسفل الدرجات، ولا يصل إلى أحط نوع من الأنواع البشرية المعروفة، وأن تلافيف المخ في إنسان البلتدون، ولو أنها لا تصل إلى ما نراه من تلافيف مخ الأنواع المنحطة من الأنواع الحديثة، إلا أنها تفوق وترتفع كثيرا عن مستواها عند إنسان جاوة.

وإذا كنا قد أوضحنا في مقالاتنا السابقة مدى أهمية فحص العلماء لمخ الإنسان وما كشفه لهم حجمه من حيث تاريخ تطوره، فيجب إلا ننسى أهمية فحصهم لأسنانه وما كشفت عنه الحفريات. فإنه قد لوحظ أن أسنان القرد كانت أسنانا إنسانية لا تختلف في شيء عن أسنان الإنسان الحاضر إلا من حيث كبر الحجم. ولا بد لنا أن نذكر مما قد سبق ذكره، أن إنسان البلتدون قد تمتاز بأنياب حادة مدببة، لا تختلف في شيء عن أنياب القردة، بينما نجد

أنها تصغر عند إنسان جاوة، وتتناسب مع باقي أسنان الفم كما هو الحال في إنسان هيدلبرج وجميع الأنواع الإنسانية الأخرى. فهل يمكننا القول أن أسنان الإنسان بعد أن تعدل شكلها في عصر البليوسين قد رجعت فزادت حجما في عصر البلستوسين، كي ننكمش بعد ذلك وتناسب باقي نظام أسنان الفم في النهاية؟. . وهذا ستجد له شرحا وافيا في مقال قادم. وفي الوقت نفسه لا يمكننا شرح كل هذه الغرائب إلا إذا اعتبرنا أن الإنسان القرد وإنسان الهوموهيدلبورجينز يمثل كل منها فرعا من أصل الشجرة التي نشأ وتطور منها الإنسان، والتي لم تكتشف من فروعها إلا أغصان قليلة محطمة. . .

يتبع

نعيم علي راغب
دبلوم المعلمين العليا قسم الجغرافيا

البريد الأدبي

القصة في الأدب الصيني

تناولت مجلة الأخبار الأدبية (نوفيل لترير) في عددها الأخير ذكر كتاب صدر أخيراً في باريس بالفرنسية عن (القصة الصينية) بقلم كاتب صيني هو مسيو (أواتاي). والقصة الصينية حديثة النشأة؛ وكانت القصة حتى عصرنا تعتبر في الأوساط الأدبية الصينية ضربا من العبث؛ وكان التاريخ والشعر والفلسفة وحدها تعتبر خليقة بجهود العلماء وذوي الذوق الحسن. أما كتابة الحوادث والمغامرات الخيالية، فقد كانت تعتبر خفة لا تليق برزانة العلم والأدب، وكانت تترك لصغار الكتاب والمتأدبين. أما اليوم فان الأدب الصيني يقتفي أثر الآداب الغربية في تقدير القصة ويتجه إليها، ويخرج في ميدانها أثاراً شائقة جديرة بالاهتمام.

على أن ما أخرج الأدب الصيني في ميدان القصة في القرن الماضي ليس مما يخلق إغفاله والحط من شأنه. صحيح انه لم يصل في السعة والتنوع إلى ما وصل إليه

القصص الغربي، ولكنا نستطيع أن نحصي منه مع ذلك كثيراً من الآثار الشائقة الجميلة. وقد ظهرت بعض هذه الآثار في أوربا مترجمة إلى الألمانية والفرنسية والإنكليزية، فاستطاع العالم الغربي أن يقف على صفوة الأدب القصصي الصيني . . .

ويقول مسيو (أواتاي) في مقدمته إن القصة الصينية ترجع في أصلها إلى الحكايات والأساطير الدينية. ففي العصور الغابرة كان الشعب يشهد ظواهر الطبيعة الخارقة فلا يستطيع أن يدرك كنها ويعتقد أنها فوق مقدرة البشر، ثم يحاول أن يفسرها ويفهمها في شروح وأقوال غدت أصل الأساطير الصينية، ومن ثم تجيء أهمية عنصر السحر في القصة الصينية. وقصص السحر هي اقدم واغرب ما في الأدب الصيني من عنصر القصص، ثم تجيء بعد ذلك القصة التاريخية أو التي تقوم على بعض حوادث التاريخ، ثم القصة العاطفية، ثم القصص الإباحى؛ وقد كان هذا النوع مما يطارد ويحرق، ولكن نجا منه الكثير.

ومن أحب القصص إلى الذوق الصيني، ذلك الذي يعالج (المعرفة) وتعرض فيه المعلومات والمعارف الغربية، في صور قوية واضحة من البيان والعبارات الرشيقة. وللقصص الساخرة مكانة أيضاً، ولكن معظمها سياسي، ويرمي إلى بث دعوة معينة. أما قصص المغامرات الشائقة والحب والبطولة فقد ظهرت حديثاً ولم تتقدم إلا في القرن التاسع عشر؛ ومنها آثار خطيرة فياضة بالمخاطرات والعجائب.

وقد كان هذا التراث كله مغموراً حتى هذا العصر، ولكن الجيل الفتى يقبل عليه اليوم ويستكشفه، ويتذوق ما فيه من كنوز الطرافة والخيال والجمال. بل لقد أنشئت في الجامعات الصينية دراسات للقصص القديم، وهو ما لم يكن يتصور منذ خمسين عاماً.

أزمة الأدب

يظهر أن أزمة القراءة والكتب أخذت تشغل الأذهان في جميع الأمم المتمدنة؛ فقد ضعفت حركة القراءة وركدت ريح الأدب والكتب في الأعوام الأخيرة بدرجة محسوسة. وكان للراديو والسينما أثر كبير في ذلك التطور. وقد رأت الحكومة الإيطالية أن تعالج هذه الأزمة بالدعوى إلى القراءة عن طريق الراديو وإثارة الاهتمام بالآداب الإيطالية القديمة. ونشرت إحدى الصحف الأدبية الفرنسية فصلاً في ذلك الموضوع نوهت فيه بانحلال الذوق الأدبي، وانشغال الهيئات العلمية والأدبية بتنظيم الحفلات وتوزيع الجوائز، وإغفال الحكومة لكل ما يذكى شغف القراءة ويصقل الذوق الأدبي، حتى إنها لم تفكر يوماً في أن تنشى (وزارة للآداب) تقوم بالإشراف على الحركة العقلية، مع أنها تقوم بالإشراف على إدارة الشرطة وإدارة الجمارك. وتخلى الحكومة عن هذه المهمة يحول دون القيام بأي حركة منظمة لتوجيه الحركة الأدبية، وإحياء الذوق الأدبي بعد أن تولاه الذبول والضعف. ويرى الكاتب أن تنظيم المكتبة من أنجع الوسائل لمعالجة هذا المشكل، ويقترح ان تعنى إدارة معرض باريس الكبير الذي سيقام في سنة 1937، بإنشاء مكتبة نموذجية يكون فيها من الطرافة وحسن الابتكار والتنسيق ما يذكى شغف القراءة ويبعث إلى الذوق الأدبي حياة جديدة.

حرارة الأزهار

نذكر أن العلامة الهندي جاجاديس بوز صاحب نظرية (حس النبات) زار القاهرة منذ بضعة أعوام، وعرض تجاربه العلمية النباتية على جمهرة العلماء والمثقفين؛ ورأى النظارة الذين شهدوا تجاربه كيف يرتجف النبات ويتأثر بمختلف العوامل، والآن يتقدم العلامة الفرنسي، بلار نجم، الذي قضى حياته في دراسة خواص النبات إلى أكاديمية العلوم الفرنسية بنتيجة مباحثه عن (حرارة الأزهار).

ويرى العلامة بلارنجم ان الأزهار كالإنسان والحيوان، يمكن ان تصاب بالحمى، وان حرارتها تختلف باختلاف درجة نموها وباختلاف الوقت. فمثلا يبدي معظم الأزهار حرارة اعلى من حرارة محيطها ببضع درجات، وتبلغ بعض الأزهار أقصى درجة حرارتها بين الساعة العاشرة والظهر. ولبعض الأزهار مثل النرجس واليقطين والهندباء أوقات تصاب فيها بالحمى، ويلاحظ مسيو بلارنجم أيضاً، أن الأزهار المذكورة في النباتات المزدوجة، أي التي تحمل أزهارها المذكرة وأزهارها المؤنثة كل على أعواد مختلفة، وفي النباتات الفردة، أي التي تحمل أزهارها مختلطة على نفس العود اكثر حرارة من

الأزهار المؤنثة في نفس الشجرة. وهنالك أيضاً تختلف درجة الحرارة فيها باختلاف مواضعها؛ وغير ذلك من المشاهدات والحقائق المدهشة.

فلوبير والمسرح

لما وضع القصصي الفرنسي الكبير فلوبير قصته الشهيرة (مدام بوفاري) فكر أحد كتاب المسرح في اقتباسها وتقديمها للتمثيل، ونفذ فكرته بالفعل، وقدم الرواية إلى المسرح، وأرسل إلى فلوبير يستأذنه، فأبى بشدة أن يأذن له، وكان فلوبير قد عاف المسرح وحقد عليه، مذ فشلت قصته (الطالب) حين مثلت لأول مرة. واستمر فلوبير يعارض كل اقتراح بتمثيل (مدام بوفاري) حتى وفاته.

ولكن حدث بعد وفاته، أن ابنة أخيه ووارثته مدام جرول صرحت لأحد كتاب المسرح باقتباس بعض المناظر من مدام بوفاري لكي تمثل على المسرح، وكان ذلك سنة 1906. ولكن القطعة لم تشتهر يومئذ، ولم تلق نجاحا يلفت الأنظار.

ومنذ أشهر قلائل عادت (مدام بوفاري) تلفت أقطاب السينما، وانتهى الأمر باقتباسها للشاشة البيضاء، وتلحينها للسينما الناطقة. ولن تمضي اشهر أخرى حتى يستطيع المعجبون بأدب فلوبير يشهدوا اعظم قصصه، وقد أخرجت في ثوب مسرحي بعد كتابتها نحو تسعين عاماً.

ويقال أيضاً إن قصة فلوبير التاريخية (سلامبو) ستظهر قريباً على المسرح السينمائي، وان العمل يجري بالفعل لإخراجها في وقت قريب.

أمير شرقي شاعر

في البريد الإنجليزي الأخير إن صاحب السمو نظام حيدر آباد عميد الأمراء المستقلين في الهند، واعظم رجالات المسلمين فيها ينظم الشعر ويجيده. وعما قريب يصدر في الهند الجزء الأول من ديوان سموه، وفيه قصيدة مطولة في مولد المسيح.

المستشرق شخت

وصل إلى القاهرة الأستاذ شخت ليشغل كرسي أستاذ فقه اللغة واللغات السامية بكلية الآداب بالجامعة المصرية خلفا للأستاذ شادة الذي انتهى عقدة وعاد إلى جامعة همبرج.

والأستاذ شخت أحد تلاميذ المستشرق الكبير المرحوم برجستراسر وقد درس اللغة العربية بجامعة برسلاو وعين مدرساً في جامعة فريبرج فاستاذاً بجامعة كونسبرج، ثم وقع اختيار الجامعة المصرية عليه ليشغل كرسي اللغات السامية.

وقد طاف الأستاذ شخت بلاد الشرق في طلب المخطوطات المجهولة فتمكن من العثور على عشرات الكتب في تاريخ العلوم الإسلامية ونشرها بعد أن ترجم بعضها إلى اللغة الألمانية منها:

1 - رسالته في كتاب الحيل والمخارج للخصاف وقد حصل بها على دكتوراه من جامعة برسلاو في عام 1925.

2 - ترجمة وشرح كتاب الحيل في الفقه للقزويني والمقارنة بينه وبين الحيل الحنفية.

3 - المخارج للأمام محمد بن الحسن الحنفي.

4 - كتاب الشروط للطحاوي.

5 - كتاب جالينوس في الأسماء الطبية وقد اشترك مع الدكتور ماكس مايرهوف في ترجمته وشرحه وتقديمه.

6 - كتاب بالألمانية عنوانه: مجموعة متون إسلامية. وفي هذا الكتاب جمع كثيراً من تاريخ العلوم الإسلامية. مبتدئاً بالأحاديث النبوية ومنتهيا برسالة التوحيد للشيخ محمد عبدة.

7 - كتاب ملتقى الأبحر للشيخ إبراهيم الحلبي، وقد كان أصل هذا الكتاب عند المستشرق المرحوم برجستراسر ولم يتم شرحه وتقديمه.

8 - أخبار القضاة لوقع.

جورج دوهامل مرشح الأكاديمية

منذ أشهر خلا بالأكاديمية الفرنسية كرسي بوفاة صاحبه المسيو كاميل جوليان المؤرخ الكبير. وقد تقدم للحلول في كرسيه عدة من مشاهير العلماء مثل الأستاذ شارليتي

مدير جامعة باريس، ومسيو ركولي المؤرخ، ومسيو ليون بيرار الكاتب الشهير، ولكن أحداً منهم لم يظفر بالعدد اللازم من الاصوات. وسيعاد الانتخاب مرة أخرى. وفي هذه المرة يطرح مع المتنافسين اسم جورج دوهامل الكاتب والروائي الشهير، وقد رشح نفسه للكرسي الخالي بصفة رسمية. وجورج دوهامل طبيب سابق حمله تيار الأدب وصرفه عن المهنة؛ واشتهر برقة خياله وسحر أسلوبه وبراعة نقده. ويمتاز أسلوبه بالأخص بنزعة إنسانية مؤثرة، وعطف عميق على المنكوبين في الحياة. وتدور معظم نظرياته وفلسفته حول الدفاع عن الإنسان، ورفعة الفرد والأخلاق.

بنت مدام كوري تتابع أعمال أمها

- قالت (البتي جورنال) أن ابنة مدام كوري مكتشفة الراديوم وزوجها سيذيعان قريباً الطريقة المطلوبة منذ عهد طويل لإيجاد الراديوم الاصطناعي.

وسيعلنان هذه الطريقة لمؤتمر من العلماء في لندن وكمبريدج بين اليوم الأول واليوم السادس من شهر أكتوبر.

أسبانيا ترشح شاعرا لجائزة نوبل

اقترحت جامعة سلامنكا الأسبانية على الحكومة ترشيح العالم الشاعر ميجل دي أونا مونو لجائزة نوبل للآداب في العام الحاضر. فقبلت الحكومة اقتراحها.

النقد

أصدقائي الشعراء!

بقلم معاوية محمد نور

ظهرت في الشهور الأخيرة عدة دواوين شعرية، فأثارت كثيراً من اللغط في الصحف، وكثرت عنها الكتابة الرديئة والحسنة، وشاع الحديث بمناسبتها عن الشعر والأدب.

ولقد كان في نيتى إلا أتعرض لهذه الدواوين بخير أو شر، لأن نفوس الأدباء بمصر تضيق ذرعاً بالملاحظة والنقد، ولا تتسع الصدور لكلمة الحق، ويقل التسامح، وتغلق أبواب النظر وسعة الفكر ورحابة العطف الفكري. ولأن معظم من يكتب أو ينظم الشعر يعتقد أن الأدب نوع من الملكية الفردية يسوء صاحبها إلا تقول كلمة الإطراء عن بضاعته.

غير أن الحديث قد تشعب في الآونة الأخيرة في الصحف والمجلات الأدبية عن هذه الدواوين. ويسوء الناقد المخلص أن يرى أن معظم ما كتب في هذا الموضوع لا يوجه القارئ الراغب في الفهم، ولا يصلح الأذواق الأدبية ويوجهها وجه الصدق وطريق الصلاح الأدبي.

وسبب آخر كان ينأى بها عن الكتابة في هذا الموضوع، وهو إن صاحب (وراء الغمام) صديق عزيز علينا، اهدى إلينا ديوانه ليلة ظهوره، وكذلك فعل صاحب (الملاح التائه). وهما ولا شك ينتظران المديح والثناء من صديق يجلس معهما ويأنس صحبتهما. غير أن الموضوع في رأينا قد تعدى أخيراً هذين الأدبيين إلى ما هو اخطر وابعد شأناً؛ تعداه إلى الحديث عن طبيعة الشعر والكتابة، وان الأقلام قد خطرت في هذا الطريق بكلام نعد معظمه خطرا على الحركة الأدبية في مصر، وفهم الفنون الأدبية على الوجه الذي يفهم منها في الجيل الحاضر.

ولهذا رغبها في كتابة هذه الكلمة لا لنمدح أو نذم، ولكن لندلي برأي في الشعر كما نقرؤه ونفهمه، وكما ننتظر من الكتاب والقراء أن يقرأوه ويفهموه.

وأول ما يلاحظ على هاتين المجموعتين أن ديوان (وراء الغمام) يكاد ينحصر في الحب ومطالبه، وأن موضوعات (الملاح التائه) تكاد تنحصر في النظم عن مظاهر الطبيعة الكبرى كالبحر والليل، وان أكثر أخيلته وألفاظه هي عن النسائم والأمواج والشواطئ العامرة أو المهجورة، وما إليها من (الشعريات) التي تواضع العرف الدارج على أنها (الطبيعة). فأولهما إذن يمكن تسميته (بشاعر الحب) والثاني (بشاعر الطبيعة). فكيف يفهم صحابنا الأول الحب، وكيف يعي الثاني الطبيعة، والى أي شيء منها يلتفت ذهنه؟

والمفروض بالبداهة أن مثل هذا الشعر يكتب ليقرأه الرجل المصري أو العربي المثقف، الملم بشيء من حضارة هذا العصر وثقافته، الشاعر (بوعي) هذا الزمن الذي يعيش فيه، والذي تشغله مناظر وآراء ومسائل تثير شكوكه أو تبعثه على التفكير والتأمل والإنتاج الفني.

فلنتكلم عن الحب كموضوع شعري يتناوله أي شاعر عصري، يود أن يقرأه أي مخلوق

حي شاعر في القرن العشرين، فليس ثمة شك في أن الحب كحاجة (فسيولوجية) هو كحاجة أي مخلوق حي إلى الأكل والنوم. وهو مظهر عادي تشترك جميع الإحياء فيه (ويمكن ان يقال ان النبات والجماد يعرفان الحب أيضاً والسلب والإيجاب من قوانين الكون بأجمعه) فلم يختص إذن بنظم الشعر والنشيد والأغاني؟

فإذا حدثني صديق أو عشير بأنه يحب امرأة بذاتها، وانه لا يطيق الابتعاد عنها، وأنها تثير لواعج أشجانه وأمراض نفسه، فقد يسمع مثل هذا الحديث ويحمل حينما أجلس إلى أي صديق هادئ فيحدثني عن متاعبه، وما يسمن من الآكال وما يستهجن، وعما يحب أو يكره من ألوان الثياب، ولكني لا أطيق كقارئ حي أن استمع إلى شعر لا يتعدى نفسه نغمة مثل ذكر هذه الأشياء الأولية، وإلا لكان كل فرد منا شاعراً، لان لكل فرد حاجاته وأذواقه وشؤونه التي تتعلق بالحب والأكل والنوم والمجيء والذهاب. فإنما هذه (أبجدية) كل إنسان.

أصدقائي!. . . إن هذا (الشيء) الذي نسميه شعرا والذي نود أن نقرأه نحن الأحياء العارفين لعالم الحبر والورق، هو خلاف (كلام الحسن) عن الأشياء العادية. إنه يتطلب وجود شاعر يأكل كبقية الناس ولا شك، ويحب مثلهم، ولكن نظره وأحاسيسه والتفاتات ذهنه وقفزات وعيه نحو هذه الأشياء العادية (غير عادي)؛ وهو شيء آخر خلاف ما يحس عامة الناس ويقفون عنده. ومن هنا كانت قيمة الشاعر الحق. أي انه (ولو أنني لا أود استعمال الكلمة ولكنها كبيرة الدلالة) فيلسوف. فالحب يصبح موضوعاً جديراً بالشعر كما

تصبح أية حاجة إنسانية أخرى حينما يكشف لنا الشاعر معنى ونغماً وراء مظاهره المعروفة ومصاحباته العادية. وربما لا يقع من نفس القارئ هذا النغم وذلك المعنى، وقد يبدو سخيفا أو غير صادق، فالأمزجة تختلف، والثقافات تتباين وتفترق، ولكنه لا يخطئ في أن يبده أي قارئ محس بأن هنا شيئا جديراً بالالتفات والعناية.

أما الشاعر الذي يبدي ويعيد في الحديث عن ملذاته وآلامه وحسراته التي يثيرها شخص المحبوب أو ذكراه فحسب، (مهما اختلفت القافية وتعدد الإيقاع) لا يعد ان يكون إنسانا لم تتسع أنانيته إلى أكثر من حاجته البسيطة المتعارفة، وهو يشبه العليل الذي اكتشف لذة الخبر لأول مرة، أو الرجل الصحيح الذي حيل بينه وبين النوم، فيفرح الأول حينما يتناول وجبة فاخرة، ويتألم الثاني لذلك النوم الهنىء الذي طلقه الآن، وهذه ولا شك أشياء إنسانية عادية لا غبار عليها ولا نقد فيها، ولكن ليس فيها ما يبرر وضعها فناً يسترعي اهتمام القارئ الصحيح، وربما يصلح مثل هذا الشعر ويجمل عند أناس هم دون طبقة هذا (الكوكب الجديد) الذي اكتشف (قارة الأكل) أو (قارة المرأة) وثم وقف يسبح بحمدها.

والدكتور ناجي بعد كل هذا قد قرأ بعض قصائد (لورنس) (وت. س. ايليوث) واضربهما من الشعراء المحدثين والقدماء عن الحب، أولئك الشعراء الذين نراهم جاهدين يفتشون عن الله، ويبحثون في الجنس ونشوة العفاف الروحي، ثم يعود كل منهما (وحقيبة وعيه) ملأى بالأحاسيس المختلفة، والأفكار المريرة أو العذبة، ملأى بالثعابين التي تبرق كاللؤلؤ، وبالسلام الذي تعقبه أشد فترات الحرب تمزيقاً للأجسام والأرواح، وبالذهول الذي تعقبه اشد فترات الحرب تمزيقاً للأجسام والأرواح، وبالذهول الذي يسموه إلى طبقات السماء، وبالسخر الذي (يرى القمر في أمسية حب أشبه ببالون يلعب به صغار الأطفال)، ثم يذكر أن المساء ينام كرجل عليل ينتظر مبضع الجراح، وبالاختصار (بمعنى) أو (لا معنى) عظيم أو (بتيار وعي) ربما يرى في أنامل الحبيب أقطاراً متسعة ولو أنها بادية التناقض، أو بأحاسيس متناقضة بعيدة، حالكة الظلمة، أو شديدة الوهج.

ونحن لا نريد من هذا الحديث أن يقلد أي أديب أحاسيس غريبة عن نفسه بعيدة عن مطارح فكره، ولكن كقراء مخلصين نطلب منه إذا لم يكن لديه ما يؤلم ويحير، ويسعد ويشقي الشاعر والمفكر والقارئ المعاصر، أن يريحنا ولا يكلف نفسه هذا الجهد. ففي الحياة من التفاهات اليومية، وفي اطراد هذه الحاجات التي نشعر بها في صباحنا ومسائنا ما يجعلها عسيرة الاحتمال، ويضاعف مشقة العيش، فليس بنا ثمة حاجة إلى أن نقرأها في عالم الحبر والورق.

والشاعر العصري - سواء في مصر أو في الصين - الذي لا تثيره تيارات الفكر

المعاصر، واكتشافاته ومتاعبه، والذي ليس له وجدان يتغير ويتفاعل بما يسمع ويقرأ ويفكر ويشاهد من عيوب نظام حياتنا الحاضرة، أو نشوز في أنغام فكرنا المعاصر، أو ألوان تسترعي الاهتمام في نسيج الثوب الذي يلفنا، أو فراغ في إنسان بادي الامتلاء، أو أغنية في زاوية من زوايا بيتنا المعنوي، ليس له، بل لنا الحق في إلا نعده في عدد الشعراء المخلصين.

والظاهر أن شعراءنا يعيشون في أجسام محدودة الفكر والإحساس بحدود جسدها وغرفتها التي تسكن، وأن الأشياء منه أو هو لم يعرفها قط. إن نظرة واحدة حيث يتقاطع شارع عماد الدين بشارع فؤاد الأول مثلاً في أي مساء لحرية بأن تبعث في الفنان أحاسيس وأفكاراً تصلح لأن تكون قصيدة جيدة إذا كان له من الشعر نصيب.

والذي يبدو لي من قراءة هؤلاء الشعراء والحديث معهم أيضاً ان ليس في حياتهم الفكرية والشعورية أي شيء يشبه الصحاري العارية الجرداء، أو الظلمات الحالكة، أو البريق الخاطف، أو الحيرة الشاعرة، أو أي اشتغال جدي بناحية من نواحي حياتنا الراهنة، وان الشكوك والمذاهب والقيم الفكرية التي تحرك الفنان العصري في أوروبا إلى الثورة حيناً، والى السام حيناً آخر. أو إلى أي فلسفة أو (عدم فلسفة) يكتشفها الفنان المرهف الإحساس، الواسع العطف، القدير الفهم، وراء مظاهر الحياة اليومية من عمل ونوم، وأكل وحب، ومال وجنس، ما يجعله يقف وقفة قصيرة أو طويلة يحاسب نفسه ويحاسب العالم باجمعه، أو يجرؤ على حوار مع الطبيعة أو الأحياء أو ما رواءها، لم تدن منه أو هو لم يعرفها أبداً.

ليس الشعر أيها الأصدقاء بالمادة الكاملة الصنع التي يمكن أن نشتريها جميعاً من الحانوت. أو يمكن صنعها كما تصنع الثياب على هذا الطراز أو ذاك. إنما الشعر هو (تجربة حية) يحسها شخص حي، ويبصرها وجدان نير، وهي تجربة فردة لم تحصل ولم تر إلا كما

حصلت وكما رآها ذلك الشخص الحي، ثم يحاول نقلها وإيصالها عن طريق الكلم والإيقاع - على قدر مهارته - إلى أمثاله من الأحياء الشاعرين.

وشعر صديقنا ناجي ما زال نغماً واحداً بسيطاً لا يتعدى - بعد زخرفة النظم - إحساس رجل عادي حينما يرى وجهاً مشرقاً، أو جسماً جميلاً أو عملاً عظيماً. فيقف مشدوهاً ويقول: (ما احلى ذلك الوجه، وأي ألم أحس به لحرماني من ذلك الشكل البديع) إلى آخر الأحاسيس التي تحسها أي مادة تحس، وإنها لتبدو لي في بداءتها وطفولتها بما يسمى (رد الفعل) وليصدقني القارئ أن هذا هو كل ما يخرج به الإنسان من شعر ناجي بعد تجريده من صناعة (الكلم) ورنين القافية. أما الرنين (والكلام العالي) كما يسمونه، فقد افضل ان اسمع الأول من (الجازبند) والثاني من الخطابة، ولا اهرع للشعر لا سمع شيئاً من ذلك!

بقية المقال في العدد القادم

الكتب

ابن سعود سياسته. حروبه. مطامعه

بقلم مصطفى الحفناوي

كتاب كبير يقع في نحو مائتين وخمسين صفحة من القطع الكبير، افتتحه مؤلفه بمقدمة بليغة عن بلاد العرب منذ عصورها القديمة حتى ظهور جلالة الملك عبد العزيز بن سعود، ثم تكلم عن والد الملك وعن البيئة التي نشأ فيها، واخذ يسرد بعد ذلك تاريخ ابن سعود، فشرح كيف استولى على الرياض، ثم كيف اصبح أمير نجد وأما الوهابيين، وتكلم عن حالة بلاد العرب، وظروفها قبيل الحرب العظمى، وموقف الإنكليز منها، وموقف الملك حسين من هذه الظروف وما لعبه من الأدوار، إلى أن أرانا ابن سعود مل الحجاز ونجد، ثم صوره لنا بطل بلاد العرب، وأخيراً اخذ يشرح لنا إصلاحاته ومقاصده إلى أن اختتم الكتاب بملحق عن الحرب الأخيرة بين الحجاز واليمن، وما آل إليها أمرها.

فأنت ترى أن الكتاب حافل بالمعلومات التي يتوق إليها من يميل إلى معرفة سيرة ابن سعود وبلاد العرب، والحقيقة أن حاجة مصر إلى هذه المعرفة حاجة شديدة، ولذلك كان اغتباطي بهذا الكتاب عظيما، ولقد وضع صاحب السعادة محمد علي علوية باشا مقدمة قيمة له، تحدث فيها عما شاهده في بلاد العرب أثناء سفره في مؤتمر الصلح،

وإني أشاطر الباشا رأيه إذ يدعو مصر (أن يكون لها هناك صوت مسموع ومشورة نافذة، وان تتبوأ المركز الذي وضعتها فيه العناية الإلهية في الأقطار الشرقية، وفي مقدمتها مملكة العرب).

ولقد قرأت هذا الكتاب القيم النافع، فبرزت لي فيه بعض مظاهر، رأيت مع احترامي لآراء مؤلفه الفاضل، وتقديري لمجهوده أن أشير إليها أشارة وجيزة.

الكتاب شيق جذاب، لن تضعه حتى تتمه، ومن حسناته البارزة كثرة ما احتوى عليه من المعلومات، مضافا إلى ذلك حسن ترتيبها ومهارة سياقها، غير إنني آخذ على المؤلف موقفه في الغالب موقف من يكتفي بسرد الحوادث، ولعل هذا يفسر لي ما أشار إليه المؤلف في نزاهة وصراحة على غلاف الكتاب من أنه عن (وليمز وآرمستنج بتصرف) فان إعجابه بابن سعود أولاً، وبما كتبه هذان المؤلفان ثانياً، قد حفزه إلى وضع كتابه، فحماسته فيه ظاهرة، وتحيزه إلى الملك واضح، لذلك اكتفى كما ذكرت بسرد الحوادث، ولم أجده برغم

استعداده وما يتجلى في عباراته من آثار ذكائه، يعلق عليها معللاً استحسانه إذا استحسن، أو استنكاره إذا استنكر، وأظن ذلك أمراً جوهرياً في صدد الكتابة عن بطل من الأبطال، فالمؤرخ في مثل هذه الحالة مطالب بان يشرح الحوادث شرحا علمياً، مفنداً اوجه الصواب أو الخطأ مع ذكر الأدلة العلمية والأمثلة التاريخية كلما أمكن ذلك، وبهذا تظهر شخصيته، ويصبح لكتابه إلى جانب ما يحوي من معلومات قيمته العلمية.

كذلك ليسمح لي الأستاذ أن أعيب عليه هذا التحيز لابن سعود، فهو لا يرى في إلا بطلاً، فان إعانته الظروف ارجع الفضل إليه، أو اكتفى بقوله انه نصر من عند الله، وان اخطأ استخدام الظروف، أشاد بعبقريته ونفوذه. ومما لاحظته بنوع خاص ان المؤلف يحمل على الإنجليز حملات مباشرة مشيراً إلى أطماعهم ومظالمهم في عبارات سطحية أشبه بمقالات الجرائد، وكان خيراً له فيما اعتقد واجدى عليه، ان يوضح أطماعهم، ويترك للقارئ التعليق عليها، فالأبحاث العلمية يجب ان تطبع بطابع الهدوء والرزانة، ولن يعدم المؤلف القدير أن ينال من أعدائه بهدوئه ومهارته أضعاف ما يناله بحدته وضجيج عبارته.

على إن هذه المآخذ لن تغير من جوهر الكتاب، ولن تقلل من نجاح المؤلف النابه فيما قصد إليه، ولئن قدرت كتابه بما ترك في نفسي من أثر، فضلا عما احتوى عليه من شتى المعلومات، فأني اشهد أني استمتعت بقراءته واستفدت منه كثيراً، وإنى أدعو كل أديب إلى قراءته موقناً أني ادله على اثر نافع طريف.

الخفيف

أصول التدريس الحديث

عن كتاب (التربية الممارسة) لشاريه

تعريف واقتباس سامي الدهان

يبحث هذا الكتاب في طريقة تدريس المواد المختلفة، وهو مطبوع طبعة جيدة في مطبعة الجدي بحلب، على ورق جيد، ويقع في نيف ومائتي صفحة من القطع المتوسط. تعرض مؤلفه لطرق تدريس الأخلاق، والقراءة، والخط، واللغة، والإملاء، والمحادثة، والإنشاء، والتاريخ، والجغرافيا، والتدبير المنزلي، وانك لا تكاد تقلب صفحاته حتى تشعر بمتانته ودقته، وتحس بما لمؤلفه من خبرة ومران وسعة اطلاع، ودقة بحث.

خذ لذلك مثلا: أصول تدريس الخط، فترى المؤلف قد ألم بجميع نواحي الموضوع، فهو يتكلم عن درس الخط وفائدته، ثم يتكلم عن الخط والصحة مشيراً إلى مساوئ الجلسة المعوجة، ومحاسن الجلسة المستقيمة، ثم يذكر كيفية تدريسه، والى فائدة النماذج الخطية. . . الخ.

من ذلك ترى مقدار اهتمامه بموضوعه. ولقد أعجبني بنوع خاص ما ذكره عن تدريس التاريخ فتساءل أولاً عن فائدة هذه المادة، ثم بين فوائدها الوطنية والاجتماعية والخلقية، وشرح أهمية التاريخ من وجهة الثقافة العقلية، وبين مقدار ما يجب أن يوزع منه في المناهج بحسب الفصول الدراسية، وأخيراً ذكر طريقتي تدرسيه. ولقد تبينت في بحثه الروح الفنية العلمية، التي تميز الراسخين في العلم من سواهم، لذلك اقرر أن الأديب الفاضل سامي الدهان قد احسن إلى اللغة العربية والناطقين بها بنقل هذا

الكتاب إليها، واعتقد أن المدرسين سيجدون فيها فائدة عظيمة، فإنى وأن كنت اعتقد إن الطرق الخاصة بتدريس المواد تختلف في مملكة عنها في أخرى، بل وفي مدرسة عنها في مدرسة، فضلاً عما يطرأ من الظروف المحلية والمؤقتة، مما يجعل التمسك بطريقة خاصة أمراً مستحيلاً، أقول إني على الرغم من هذا اعتقد ان القواعد لابد منها، والمدرس الكفء جدير بان يستأنس بها وان يكيف ظروف على ضوئها، ولهذا احمد للمعرب مجهوده، واثنى على مقدرته في التعريب، ولا شك أنها نتيجة لصحة فهمه ما عرب وصدق ميله إليه.

الخفيف

العدد 68 - بتاريخ: 22 - 10 - 1934

في سبيل التحرير الاقتصادي

موسم السياحة

أقبل موسم السياحة. ولمصر موسم للسياحة مشهور في جميع أنحاء العالم، لا لأنها أغنى بقاع الأرض من الناحية الأثرية فقط، ولكن لأنها تتمتع أيضاً في الشتاء بجو بديع وطبيعة ساحرة. وفي جميع الأمم التي تشتهر بتراثها الأثري أو جمالها الطبيعي، يوجد موسم أو مواسم للسياحة؛ وتنظم هذه المواسم بحيث تغدو موارد ينتفع بها أهل القطر من الناحية المادية؛ بل توجد أمم وبقاع تعيش على السياحة كسويسرا مثلاً وبلاد التيرول، وساحل الريفييرا والبندقية وغيرها. وتعتبر السياحة في مصر أيضاً مورداً له قيمته وأهميته، وتبذل الحكومة لترويجه كثيراً من المال ومن وسائل الدعاية؛ ولكن هل استطاعت مصر أن تنظم موسم سياحتها على نحو يكفل مصالحها ومصالح أبنائها الذين يتصلون به كما تفعل جميع الأمم؟ وهل تجني مصر ويجني المصريون منه ما يحق لهم أن يجتنوه من المزايا المادية والمعنوية؟ الجواب معروف، وهو أن مغانم موسم السياحة المصري مازالت نهباً للأجانب، يستغلونها باسم مصر والمصريين، ولكن دون مصر والمصريين؛ وما تفيده الحكومة من أجور السكك الحديدية وتذاكر الآثار، وما يفيده بعض المصريين المتصلين بالموسم لا يعد شيئاً بالنسبة لما تحققه الفنادق ووكالات السياحة الأجنبية من الأرباح الوفيرة.

هذه حقيقة لا ريب فيها، ولكن هناك حقيقة أخرى هي أن تبعة هذه النتيجة المؤلمة تقع على عاتق مصر حكومة وشعباً. فالحكومة لم تفعل حتى اليوم شيئاً جدياً لتنظيم موسم السياحة على نحو تراعي فيه المصالح المصرية، ويوضع فيه حد معقول للاستغلال الأجنبي؛ والمصريون من جانبهم لا يفكرون في العمل على استثمار هذا الموسم الذي تهيئه لبلادهم مزاياها الأثرية والطبيعية. فمن المعروف مثلاً أن الفنادق تستأثر بأهم موارد الموسم، وأن هذه الفنادق كلها أجنبية؛ ولكن هل فكرنا نحن في إنشاء فنادق يستطيع أن يؤمها السياح؟ إن إنشاء الفنادق صناعة لها قيمتها وأهميتها ولاسيما في مراكز السياحة المشهورة؛ ففي سويسرا مثلاً تعتبر صناعة الفنادق من أهم الموارد القومية، وقد عرف الأجانب في مصر هذه الحقيقة بإنشاء الفنادق واحتكروا صناعتها، ولكن المعروف أنهم يذهبون في استغلالها إلى حدود مرهقة، حتى إن كثيراً من السياح الذين يفدون على مصر يضجون بالشكوى من غلاء الأجور والأثمان التي تفرض عليهم. وهذا بلا ريب عيب في موسم السياحة المصري له أثره السيئ في سير الموسم، وهو بلا ريب يصرف الكثيرين من متوسطي الحال عن القدوم إلى مصر والتمتع بآثارها وشتائها.

ونذكر أن الحكومة قدرت خطر هذه المسألة منذ أعوام وفكرت فعلاً في إنشاء فندق كبير فخم يقتضي من السياح أجوراً معتدلة، ولكن الفكرة ماتت في مهدها ككل فكرة يخشى منها على المصالح الأجنبية في مصر. وإذاً فليس لنا إلا أن نعتمد على الجهود الخاصة في غزو هذه الصناعة التي يحتكرها الأجانب في بلادنا، ويجنون منها الثروات الطائلة، وهي صناعة لا تقتضي فنوناً أو مواهب خارقة، ولا تقتضي سوى الإقدام وموهبة التنظيم وحسن الذوق؛ وهي ليست أجل خطراً من الشئون المالية الدقيقة التي استطعنا أن نغزوها وأن نبرع فيها على يد بنك مصر وشركاته القوية الميمونة. ولقد أتيح لهذه المؤسسة القومية العتيدة أن تبدأ بالفعل بغزو ميدان له صلة وثيقة بالسياحة وموسمها؛ فقد أنشأت شركة للمواصلات الجوية وأسطولاً جوياً يقوم اليوم بنصيبه في الموصلات المحلية؛ وأنشأت شركة للملاحة لها اليوم أسطول بحري لا يزال

في مستهل حياته، ولكن يشق اليوم عباب البحر الأبيض، ويربط مصر بالقارة الأوربية؛ وإذا كنا ننبه اليوم على تقصيرنا في العمل على استثمار موسم سياحتنا والأخذ بنصيبنا في صناعة الفنادق المحلية، فإنما نتجه في تلافي هذا التقصير بادئ بدء إلى بنك مصر أيضاً، وإلى تلك العصبة الميمونة من زعمائنا الاقتصاديين الذين أتوا في الميدان الاقتصادي بالعجائب، فهم أحق الناس بأن يتولوا الزعامة في هذه الناحية أيضاً، فينشئوا لنا شركة مصرية حقيقية تقوم بإنشاء بضعة فنادق فخمة تشترك في استثمار موسم السياحة لحساب المصالح المصرية، وتفتح بذلك باب هذه الصناعة واسعاً أمام المصريين، فيقتدون بها في الإقدام والعمل؛ ولا ريب إن صناعة فنادق مصرية إذا أقيمت على أسس مستنيرة تلقى نصيبها الأوفر من النجاح، نظراً لقناعتها واعتدالها.

هذا وفي وسع المصريين أن يحققوا بغزو هذه الصناعة، فضلاً عن الأرباح المادية لبلادهم، مزايا أدبية جليلة عن طريق الاتصال بموسم السياحة؛ فالسياح من مختلف الأمم،

لا يتصلون عند مقدمهم إلى هذه البلاد بكثير من المصريين المستنيرين، إذ يتلقفهم الأجانب والفنادق الأجنبية، ويأخذون معظم معلوماتهم عن مصر من الأجانب؛ وليست هذه المعلومات دائماً دقيقة ولا نزيهة. فإذا أتيح للمصريين أن يتصلوا بطبقات السياح عن غزو ميدان السياحة، فإنهم يستطيعون أن يقدموا لضيوفهم عن بلادهم كل المعلومات المطلوبة، وأن يذيعوا بذلك مآثرها ومحاسنها بين السياح من مختلف الأمم، فيكون لها بذلك حسن الذكرى في كثير من البلاد.

هذه كلمة أوحى بها إلينا إقبال موسم السياحة الذي يتجدد كل عام في مثل هذا الفصل؛ والذي ما يزال الأجانب يستأثرون بمغانمه باسم مصر؛ نرجو أن يكون لها بعض الصدى والأثر.

(ع)

قُبحٌ جميل

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

دخل أحمد بن أيمن (كاتب ابن طولون) البصرة، فصنع له مسلم بن عمران التاجر المتأدب صنيعاً دعا إليه جماعة من وجوه التجار وأعيان الأدباء، فجاء ابنا صاحب الدعوة، وهما غلامان، فوقفا بين يدي أبيهما، وجعل ابن أيمن يطيل النظر إليهما، ويعجب من حسنهما وبزتهما وروائهما، حتى كأنما أفرغا في الجمال وزينته إفراغاً، أو كأنما جاءا من شمس وقمر لا من أبوين من الناس، أو هما قد نبتا في مثل تهاويل الزهر من زينته التي تبدعهما الشمس، ويصقلها الفجر، ويتندى بها روح الماء العذب. وكان لا يصرف نظره عنها إلا رجع به النظر، كأن جمالهما لا ينتهي فما ينتهي الإعجاب به.

وجعل أبوهما يسارقه النظر مسارقة، ويبدو كالمتشاغل عنه، ليدع له أن يتوسم ويتأمل ما شاء، وأن يملأ عينيه مما أعجبه من لؤلؤتيه ومخايلهما. بيد أن الحسن الفاتن يأبى دائماً إلا أن يسمع من ناظره كلمة الإعجاب به، حتى لينطق المرء بهذه الكلمة أحياناً، وكأنها مأخوذة من لسانه أخذاً، وحتى ليحس أن غريزةً في داخله كلمها الحسن من كلامه فردت عليه من كلامها.

قال ابن أيمن: سبحان الله؛ ما رأيت كاليوم قطُّ دميتين لا تُفتح الأعين على أجمل منهما؛ ولو نزلا من السماء وألبستهما الملائكة ثياباً من الجنة ما حسبتُ أن تصنع الملائكة أظرف ولا أحسن مما صنعت أمهما.

فالتفت إليه مسلم، وقال أحب أن تعوّذهما. فمد الرجل يده ومسح عليهما، وعوّذهما بالحديث المأثور، ودعا لهما، ثم قال: ما أراك إلا استجدْت الأم فحسُن نسلك، وجاء كاللؤلؤ يشبه بعضه بعضاً، صغاره من كباره؛ وما عليك ألا تكون تزوجت ابنة قيصر فأولدتها هذين، وأخرجتهما هي لك في صيغتها الملوكية من الحسن والأدب والرونق، وما أرى مثلهما يكونان في موضع إلا كان حولهما جلال المُلك ووقاره، مما يكون حولهما من نور تلك الأم.

فقال مسلم: وأنت على ذلك غير مصدّق إذا قلت لك إني لا أحب المرأة الجميلة التي تصف، وليس بي هوى إلا في امرأة دميمة هي بدمامتها أحبّ النساء إليّ، وأخفّهن إلى قلبي، وأصلحهن لي، ما أعدِل بها ابنة قيصر ولا ابنة كسرى.

فبقى ابن أيمن كالمشدوه من غرابة ما يسمع، ثم ذكر أن من الناس من يأكل الطين ويستطيبه لفسادٍ في طبعه، فلا يحلو السكّر في فمه وإن كان مكرراً خالص الحلاوة. ورثى أشد الرثاء لأم الغلامين أن يكون هذا الرجل الجلف قد ضارها بتلك الدميمة أو تسرّى بها عليها. فقال وما يملك نفسه: أما والله لقد كفرتَ النعمة، وغدرتَ وجحدتَ وبالغتَ في الضُّر، وإن أم هذين الغلامين لامرأة فوق النساء، إذ لم يتبين في ولديها أثر من تغير طبعها وكدر نفسها، وقد كان يسعها العذر لو جعلتهما سخنةَ عين لك، وأخرجتهما للناس في مساوئك لا في محاسنك، وما أدرى كيف لا تندّ عليك، ولا كيف صلُحت بمقدار ما فسدتَ أنت، واستقامتْ بمقدار ما التويتَ، وعجيب والله شأنكما! إنها لتغلو في كرم الأصل والعقل والمروءة والخلق، كما تغلو أنت في البهيمية والنزق والغدر وسوء المكافأة.

قال مسلم: فهو والله ما قلتُ لك، وما أحب إلا امرأة دميمة قد ذهبتْ بي كل مذهب، وأنستني كل جميلة في النساء، ولئن أخذتُ أصفها لك لما جاءت الألفاظ من القُبح والشّوهة والدمامة؛ غير إنها مع ذلك لا تجئ إلا دالة على أجمل معاني المرأة عند رُجلها في الحظوة والرضا وجمال الطبع. وانظر كيف يلتئم أن تكون الزيادة في القبح هي زيادة الحسن وزيادة في الحب، وكيف يكون اللفظ الشائه، وما فيه لنفسي إلا المعنى الجميل، وإلا الحس الصادق بهذا المعنى، وإلا الاهتزاز والطرب لهذا الحس؟

قال ابن أيمن: والله إن أراك إلا شيطاناً من الشياطين، وقد عجّل الله لك من هذه الدميمة زوجتك التي كانت لك في الجحيم، لتجتمعا معاً على تعذيب تلك الحوراء الملائكية أم هذين الصغيرين، وما أدرى كيف يتصل ما بينكما بعد هذا الذي أدخلتَ من القبح والدمامة في معاشرتها ومعايشتها، وبعد أن جعلتها لا تنظر إليك إلا بنظرتها إلى تلك. أفبهيمةٌ هي لا تعقل، أم أنت رجل ساحر، أم فيك ما ليس في الناس، أم أنا لا أفقه شيئاً؟

فضحك مسلم وقال: إن لي خبراً عجيباً: كنت أنزل (الأُبُلّة) وأنا متعيّش فحملت منها تجارة إلى البصرة فربحت، ولم أزل أحمل من هذه إلا هذه فأربح ولا أخسر، حتى كثر مالي، ثم بدا لي أن أتسع في الآفاق البعيدة لأجمع التجارة من أطرافها، وأبسط يدي للمال حيث يكثر وحيث يقلّ، وكنت في ميْعة الشباب وغُلَوائه، وأول هجمة الفتوة على الدنيا، وقلتُ: إن في ذلك خلالاً؛ فأرى الأمم في بلادها ومعايشتها، وأتقلّب في التجارة، وأجمع المال والطرائف،

وأفيد عظةً وعبرة، وأعلم علماً جديداً، ولعلني أصيب الزوجة التي أشتهيها وأصور لها في نفسي التصاوير، فإن أمري من أوله كان إلى علوّ فلا أريد إلا الغاية، ولا أرمي إلا للسَبَق، ولا أرضى أن أتخلف في جماعة الناس. وكأني لم أر في الأبلة ولا في البصرة امرأة بتلك التصاوير التي في نفسي، فتأخذها عيني، فتعجبني، فتصلح لي، فأتزوج بها. وطمعت أن استنزل نجماً من تلك الآفاق أحرزه في داري؛ فما زلت أرمي من بلد إلى بلد حتى دخلت (بلخ) من أجلّ مدن خراسان وأوسعها غلّة، تحمل غلّتها إلى جميع خراسان وإلى خوارزم؛ وفيها يومئذ كان عالمها وإمامها (أبو عبد الله البلخي) وكنا نعرف اسمه في البصرة؛ إذ كان قد نزلها في رحلته وأكثر الكتابة بها عن الرواة العلماء؛ فاستخفّتني إليه نزّية من شوقي إلى الوطن، كأن فيه بلدي وأهلي؛ فذهبت إلى حلْقته، وسمعته يفسر قول النبي صلى الله عليه وسلم: (سوداءُ ولود خيرٌ من حسناء لا تلد) فما كان الشيخ إلا في سحابة، وما كان كلامه إلا وحياً يوحى إليه. سمعت والله كلاماً لا عهد لي بمثله، وأنا من أول نشأتي أجلس إلى العلماء والأدباء وأداخلهم في فنون من المذاكرة، فما سمعت ولا قرأت مثل كلام البلخي، ولقد حفظته حتى ما تفوتني لفظة منه، وبقي هذا الكلام يعمل في نفسي عمله، ويدفعني إلى معانيه دفعاً حتى أتى عليّ ما سأحدّثك به. إن الكلمة في الذهن لتوجد الحادثة في الدنيا.

قال ابن أيمن: إطو خبرك إن شئت، ولكن اذكر لي كلام البلخي، فقد تعلّقت نفسي به.

قال سمعت أبا عبد الله يقول في تأويل ذلك الحديث: أما في لفظ الحديث فهو من معجزات بلاغة نبينا صلى الله عليه وسلم، وهو من أعجب الأدب وأبرعه، ما علمت أحداً تنبه إليه؛ فإنه صلى الله عليه وسلم لا يريد السوداء بخصوصها، ولكنه كنى بها عما تحت السواد، وما فوق السواد، وما هو إلى السواد من الصفات التي يتقبّحها الرجال في خلقة النساء وصورهن؛ فألطف التعبير ورقّ به، رفعاً لشأن النساء أن

يصف امرأة منهن بالقبح والدمامة، وتنزيهاً لهذا الجنس الكريم، وتنزيهاً للسانه النبوي؛ كأنه صلى الله عليه وسلم يقول: إن ذِكر قبح المرأة هو في نفسه قبيح في الأدب، فإن المرأة أم أو في سبيل الأمومة؛ والجنة تحت أقدام الأمهات؛ فكيف تكون الجنة التي هي أحسن ما يُتخيّل في الحسن تحت قدمي امرأة، ثم يجوز أدباً أو عقلاً أن توصف هذه المرأة بالقبح.

أما إن الحديث كالنص على أن من كمال أدب الرجل إذا كان رجلاً ألا يصف امرأة بقبح الصورة البتة، وألا يجري في لسانه لفظ القبح وما في معناه، موصوفاً به هذا الجنس الذي منه أمه: أيودّ أحد أن يمزق وجه أمه بهذه الكلمة الجارحة؟

وقد كان العرب يفضلون لمعاني الدمامة في النساء ألفاظاً كثيرة؛ إذ كانوا لا يرفعون المرأة عن السائمة والماشية. أما أكمل الخلق صلى الله عليه وسلم، فما زال يوّصي بالنساء ويرفع شأنهن، حتى كان آخر ما وصى به ثلاث كلمات كان يتكلم بهن، إلى أن تلجلج لسانه وخفي كلامه؛ جعل يقول (الصلاة. . الصلاة. وما ملكت أيمانكم، لا تكلفوهم ما لا يطيقون؛ اللهَ اللهَ في النساء.)

قال الشيخ: كأن المرأة من حيث هي إنما هي صلاة تتعبد بها الفضائل، فوجبت رعايتها وتلقيها بحقها. وقد ذكرها بعد الرقيق، لأن الزواج بطبيعته نوع رق؛ ولكنه ختم بها وقد بدأ بالصلاة، لأن الزواج في حقيقته نوع عبادة.

قال الشيخ: ولو أن أماً كانت دميمة شوهاء في أعين الناس لكانت مع ذلك في عين أطفالها أجمل من ملكة على عرشها؛ ففي الدنيا من يصفها بالجمال صادقاً في حسه ولفظه، لم يكذب في أحدهما، فقد انتفى القبح إذن، وصار وصفها به في رأى العين تكذيباً لوصفها في رأى النفس، ولا أقل من أن يكون الوصفان قد تعارضا فلا جمال ولا دمامة.

قال الشيخ وأما في معنى الحديث، فهو صلى الله عليه وسلم يقرر للناس أن كرم المرأة بأمومتها، فإذا قيل: إن في صورتها قبحاً فالحسناء التي لا تلد أقبح منها في المعنى. وانظر أنت كيف يكون القبح الذي يقال إن الحسن أقبح منه . . .!

فمن أين تناولت الحديث رأيته دائراً على تقدير أن لا قبح في صورة المرأة، وإنها منزهة في لسان المؤمن أن توصف بهذا الوصف، فإن كلمات القبح والحسن لغة بهيمية تجعل حب المرأة حباً على طريقة البهائم، من حيث تفضلها طريقة البهائم بأن الحيوان على احتباسه في غرائزه وشهواته لا يتكذب في الغريزة ولا في الشهوة بتلوينهما ألواناً من خياله، ووضعهما مرة فوق الحد، ومرة دون الحد.

فأكبر الشأن هو للمرأة التي تجعل الإنسان كبيراً في إنسانيته، لا التي تجعله كبيراً في حيوانيته. فلو كانت هذه الثانية هي التي يصطلح الناس على وصفها بالجمال فهي القبيحة لا الجميلة، إذ يجب على المؤمن الصحيح الإيمان أن يعيش فيما يصلح به الناس، لا فيما يصطلح عليه الناس؛ فإن الخروج من الحدود الضيقة للألفاظ إلى الحقائق الشاملة هو الاستقامة بالحياة على طريقها المؤدي إلى نعيم الآخرة وثوابها.

وهناك ذاتان لكل مؤمن: إحداهما غائبة عنه، والأخرى حاضرة فيه، وهو إنما يصل من هذه إلى تلك، فلا ينبغي أن يحصر السيماوية الواسعة في هذه الترابية الضيقة. والقبح إنما هو لفظ ترابي يشار به إلى صورة وقع فيها من التشويه مثل معاني التراب. والصورة فانية زائلة، ولكن عملها باقٍ؛ فالنظر يجب أن يكون إلى العمل. فالعمل هو لا غيره الذي تتعاوره ألفاظ الحسن والقبح.

وبهذا الكمال بالنفس، وهذا الأدب، قد ينظر الرجل الفاضل من وجه زوجته الشوهاء الفاضلة، لا إلى الشوهاء، ولكن إلى الحور العين. إنهما في رأى العين رجل وامرأة في صورتين متنافرتين جمالاً وقبحاً؛ أما في الحقيقة والعمل وكمال الإيمان الروحي فهما إرادتان متحدتان تجذب إحداهما الأخرى جاذبية العشق وتلتقيان معاً في النفسين الواسعتين، المراد بهما الفضيلة وثواب الله والإنسانية؛ ولذلك اختار الإمام احمد بن حنبل عوراء على أختها، وكانت أختها جميلة، فسأل: من أعقلهما؟. فقيل: العوراء. فقال: زوجوني إياها. فكانت العوراء في رأي الإمام وإرادته هي ذات العينين الكحيلتين، لوفور عقله وكمال إيمانه.

قال أبو عبد الله: والحديث الشريف بعد كل هذا الذي حكيناه يدل على أن الحب متى

كان إنسانياً جارياً على قواعد الإنسانية العامة، متسعاً لها غير محصور في الخصوص منها - كان بذلك علاجاً من أمراض الخيال في النفس، واستطاع الإنسان أن يجعل حبه يتناول الأشياء المختلفة، ويرد على نفسه من لذاتها، فإن لم يسعده شئ بخصوصه، وجد أشياء كثيرة تسعده بين السماء والأرض، وإن وقع في صورة امرأته ما لا يعدّ جمالاً، رأى الجمال في أشياء منها غير الصورة، وتعرّف إلى ما لا يخفى، فظهر له ما يخفى.

وليست العين وحدها هي التي تؤامر في أي الشيئين أجمل، بل هناك العقل والقلب، فجواب العين وحدها، إنما هو ثلث الحق. ومتى قيل (ثلث الحق) فضياع الثلثين يجعله في الأقل حقاً غير كامل.

فما نكرهه من وجه، قد يكون هو الذي نحبه من وجه آخر، إذا نحن تركنا الإرادة السليمة

تعمل عملها الإنساني بالعقل القلب، وبأوسع النظرين دون أضيقهما (وعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيرا.)

فوثب ابن الأيمن، وأقبل يدور في المجلس مما دخله من طرب الحديث ويقول: ما هذا إلا كلام الملائكة سمعناه منك يابن عمران. قال مسلم: فكيف بك لو سمعته من أبي عبد الله؛ إنه والله قد حبب إلي السوداء القبيحة والدميمة، ونظرت لنفسي بخير النظرين، وقلت: إن تزوجتُ يوماً فما أبالي جمالاً ولا قبحاً، إنما أريد الإنسانية كاملة مني ومنها ومن أولادنا، والمرأة في كل امرأة، ولكن ليس العقل في كل امرأة.

قال: ثم إني رجعت إلى البصرة، وآثرت السكنى بها، وتعالم الناس إقبالي، وعلمت أنه لا يحسن بي المقام بغير زوجة، ولم يكن بها أجلّ قدراً من جد هذين الغلامين. وكانت له بنت قد عضلها وتعرض بذلك لعداوة خطابها، فقلت: ما لهذه البنت بد من شأن، ولو لم تكن اكمل النساء وأجملهن ما ضن بها أبوها رجاوة أن يأتيه من هو أعلى، فحدثتني نفسي بلقائه فيها، فجئته على خلوة . . .

فقطع عليه ابن أيمن وقال: قد علمنا خبرها من منظر هذين الغلامين، وإنما نريد من خبر تلك الدميمة التي تعشّقتها.

قال: مهلاً فستنتهي القصة إليها. ثم إني قلت: يا عم، أنا فلان بن فلان التاجر. قال: ما خفي عني محلك ومحل أبيك. فقلت: جئتك خاطباً لابنتك. قال: والله ما بي عنك رغبة، ولقد خطبها إلي جماعة من وجوه البصرة وما أجبتهم، وإني لكارهٌ من إخراجها عن حضني إلى من يقوّمها تقويم العبيد. فقلت: قد رفعها الله عن هذا الموضع، وأنا أسألك أن تدخلني في عددك، وتخلطني بشملك. فقال: ولابد من هذا؟ قلت: لابد. فقال: أغد عليّ برجالك.

فانصرفت منه إلى ملأ من التجار ذوي أخطار، فسألتهم الحضور في غدٍ. فقالوا: هذا رجل قد ردّ من هو أثرى منك، وإنك لَتُحرّكنا إلى سعى ضائع. قلت لابد من ركوبكم معي. فركبوا على ثقة من أنه سيردهم.

فصاح ابن أيمن، وقد كادت روحه تخرج: فذهبْت فزوجك بالجميلة الرائعة أم هذين، فما خبر تلك الدميمة.

قال مسلم: يا سيدي قد صبرتَ إلى الآن، أفلا تصبر على كلمات تنبئك من أين يبدأ خبر الدميمة، فإني ما عرفتها إلا في العرس.

قال: وغدونا عليه فأحسن الإجابة وزوجني، وأطعم القوم ونحر لهم، ثم قال: إن شئت أن تبيت بأهلك فافعل، فليس لها ما يُحتاج إلى التلوّم عليه وانتظاره.

فقلت: هذا يا سيدي ما أحبه. فلم يزل يحدثني بكل حسن حتى كانت المغرب، فصلاها بي، ثم سبّح وسبّحت، ودعا ودعوت، وبقي مقبلاً على دعائه وتسبيحه ما يلتفت لغير ذلك، فأمضّني - علم الله - كأنه يرى أن ابنته مقبلة مني على مصيبة، فهو يتضرع ويدعو. ثم كانت العتَمة فصلاها بي، وأخذ بيدي فأدخلني إلى دار قد فُرشت بأحسن فرش، وبها خدم وجوار في نهاية من النظافة. فما استقر بي الجلوس حتى نهض وقال: أستودعك الله، وقدّم الله لكما الخير وأحرز التوفيق.

واكتنفني عجائز من شمله، ليس فيهن شابة إلا من كانت في الستين. . . فنظرت فإذا وجوه كوجوه الموتى، وإذا أجسام بالية يتضام بعضها إلى بعض، كأنها أطلال زمن قد انقضّ بين يديّ.

فصاح ابن أيمن: وإن دميتك لعجوز أيضاً. . .؟ ما أراك يا ابن عمران إلا قتلت أم الغلامين. . .!
قال مسلم: ثم جَلَون ابنته عليّ وقد ملأْن عينيّ هرماً وموتاً وأخيلة شياطين وظلال قرود؛ فما كدت أستفيق لأرى زوجتي، حتى أسرعْن فأرخين الستور علينا؛ فحمدت الله لذهابهن، ونظرت.
وصاح ابن أيمن وقد أكله الغيظ: لقد أطلت علينا فستحكي لنا قصتك إلى الصباح، قد علمناها، فما خبر الدميمة الشوهاء؟.
قال مسلم: لم تكن الدميمة الشوهاء إلا العروس!
فزاغت أعين الجماعة، , اطرق ابن أيمن إطراقة من ورد عليه ما حيره. ولكن الرجل مضى يقول: ولما نظرتها لم أر إلا ما كنت حفظته عن أبي عبد الله البلخي، وقلت: هي نفسي جاءت بي إليها، وكأن كلام الشيخ إنما كان عملاً يعمل فيّ ويديرني ويصرّفني. وما أسرع ما قامت المسكينة فأكبّت على يدي وقالت:
يا سيدي، إني سر من أسرار والدي، كتمه عن الناس وأفضى به إليك إذ رآك أهلاً) لستره
عليه، فلا تُخفِر ظنه فيك. ولو كان الذي يُطلب من الزوجة حسن صورتها دون حسن تدبيرها وعفافها لعظمت محنتي. وأرجو أن يكون معي منهما أكثر مما قصّر بي في حسن الصورة؛ وسأبلغ محبّتك في كل ما تأمرني. ولو أنت آذيتني لعدَدْتُ الأذى منك نعمة، فكيف إن وسعني كرمك وسترك؟ إنك لا تعامل الله بأفضل من أن تكون سبباً (في سعادة بائسة مثلي. أفلا تحرص يا سيدي على أن تكون هذا السبب الشريف؟
ثم إنها وثبت فجاءت بمال في كيس وقالت: يا سيدي، قد أحل الله لك معي ثلاث حرائر وما آثرْته من الإماء؛ وقد سوّغتك تزويج الثلاث وابتياع الجواري من مال هذا الكيس، فقد وقفته على شهواتك، ولست أطلب منك إلا ستري فقط.
قال احمد بن أيمن: فحلف لي التاجر: إنها ملكت قلبي ملكاً لا تصل إليه حسناء بحسنها، فقلت لها: إن جزاء ما قدمتِ ما تسمعينه مني (والله لأجعلنّك حظي من دنياي فيما يؤثره الرجل من المرأة، ولأضربن على نفسي الحجاب ما تنظر نفسي إلى أنثى غيرك أبداً) ثم أتممت سرورها فحدثتُها بما حفظته عن أبي عبد الله البلخي. فأيقنت والله يا أحمد أنها نزلت مني في أرفع منازلها، وجعلت تحسن وتحسن كالغصن الذي كان مجروداً ثم وخزته الخضرة من هنا ومن هنا.
وعاشرتُها فإذا هي أضبط النساء، وأحسنهن تدبيراً، وأشفقهن عليّ، وأحبهن لي؛ وإذا راحتي وطاعتي أول أمرها وآخره؛ وإذا عقلها وذكاؤها يظهران لي من جمال معانيها ما لا يزال يكثر ويكثر، فجعل القبح يقل ويقل، وزال القبح باعتيادي رؤيته، وبقيت المعاني على جمالها؛ وصارت لي هذه الزوجة هي المرأة وفوق المرأة.
ولما ولدت لي جاء ابنها رائع الصورة، فحدثتني أنها كانت لا تزال تتمنى على كرم الله وقدرته أن تتزوج وتلد أجمل الأولاد، ولم تدع ذلك من فكرها قط، وألف لها عقلها صورة أجمل غلام تتمثله وما برحت تتمثله. فإذا هي أيضاً كان لها شأن كشأني، وكان فكرها عملاً يعمل في نفسها، ويديرها ويصرّفها.
ورزقني الله منها هذين الابنين الرائعين لك؛ فانظر أي معجزتين من معجزات الإيمان. طنطا
مصطفى صادق الرافعي
صفحة من التاريخ
ميدان القَبَق
بين السعد والنحس
للأستاذ محمد فريد أبو حديد
صف لي ملاهي قوم من الأقوام أصف لك خلقهم ونصيبهم من الحياة - وإذا أخطأني حظ الإصابة مرة لم يكن الخطأ إلا مؤقتاً، ويكون تطاول الأيام كفيلاً بتحقيق ما أتوقع - وليس ذلك ناشئاً من أن الله قد وهبني ما لم يهب سواي من قدرة على التكهن أو التنبؤ، بل هي مجاري الأقدار تنساق في سبيل لا حيلة في الحيد عنها، ولا وسيلة إلى الانفلات منها. .
وقد علمت أن الرومان أقبلوا على ملاهٍ يقشعر بدن الإنسانية من تصور ما كان يجري

فيها من فظائع. . وأيمن الحق ما كان لامرئ أن يتنبأ لشعب الرومان إلا بالانحدار والانحلال مادامت نفوسهم لا تهتز إلا بسفك الدماء، ولا ترتاح إلا إلى مناظر الوحشية. وقد رأيت ما تنم عليه آثار مدنية بومبي من هُوى إلى سحيق الدعارة، وما كان لك أن تتطلع في مستقبل ذلك الشعب إلا إلى نزول وهبوط، إذ إن النفوس لا تلهو إلا بما مرنت عليه واطمأنت إليه وسرى في عاداتها وتغلغل في حياتها. وللحياة القوية مطالب وتكاليف، إذا اعتادت النفوس القيام عليها صارت لذتها في مباشرتها. ودونك من الشعوب القوية ما يوضح ذلك أتم إيضاح، فذلك شعب الإنجليز ترى لذة شبانه وكهوله في ممارسة الرياضة بأنواعها، والجولان في البحر والبر والهواء، يجدون اللذة القصوى في مقارعة الأخطار ومقابلة العقبات. وإذا شئت مثلاً آخر فلا تعوزك المثل؛ فالشعوب القوية ولله الحمد كُثر في كل عصر، ولن ترى شعباً قوياً تنزو به الحياة وتثب به القوة إلا رأيت لذته في مثل مقارعة الخطوب ومنازلة قوى الطبيعة. ولقد كان لنا آباء - رحمهم الله - لم يكونوا من المتخلفين في ميدان الحياة. بل كانوا حماة عصرهم وسادة جيلهم. ولست أتردد في أن أسميهم بالآباء، على أنهم قد لا يكونون لي آباء. كما أنني لا أتردد في أن أسمي الفراعين آبائي، ولعلهم لم يكونوا من آبائي. فإنني لا تجري فيّ دماء الملوك. ولئن كان فيّ شئ منها فقد جهلته. فالملوك الأقدمون منذ خلدوا على صفحات التاريخ قد أصبحوا اليوم آباء لنا في أنهم كانوا الحفظة لمُثلنا العليا، والقوّام على آمالنا القومية. فهم آباؤنا في التراث القومي وإن بعدت بيننا علاقات النسب. لا، بل وإن اختلفت ألوان الدماء وتباينت مواطن الشعوب.

في جانب القاهرة المعزية من الشمال الشرقي حي اسمه الآن حي العباسية الشرقية، ومن ورائه من ناحية الجبل مساحة عظيمة مسطحة لا تكاد ترى فيها نشزاً. وقد اختطت في بعض جهات هذا المتسع في أيامنا الحاضرة مدافن حديثة شقت ما بينها الشوارع وأنشئت الحدائق، وهذا السهل يتصل إلى جنوب القاهرة فيما يلي قلعة الجبل لا تكاد ترى في كل هذه المسافة تلاً تعكر سهولة السطح، وهذه المساحة هي بعينها الميدان القديم الذي أنشأه أحد أجدادنا العظام الذين قدمت الإشارة إليهم، وهو الملك العظيم الظاهر بيبرس البندقداري؛ وكان اسم هذا الميدان الفسيح في تسمية العامة: (الميدان الأسود) أو ميدان السباق. وكان في تسمية الخاصة: (ميدان القَبَق).

أما القبق فهو آلة من آلات التمرين الحربي، وهو عبارة عن قرص كبير من الخشب يوضع فوق سارية عالية، ويوضع وراءه هدف يرمي إليه الجنود سهامهم؛ وكان الرمي بالقسي والسهام من أكبر وسائل الرياضة عند أهل ذلك العصر من سني القرن الثالث عشر الميلادي أو القرن السابع الهجري.

وكانت مصر حينئذ قلب الشرق الإسلامي وكنانته. إذ كانت بلاد ما بين النهرين قد أكلتها نيران التتار، وأصبحت دامية صريعة تئن تحت سنابك خيل أحفاد جنكيز خان. وكانت بلاد الشام لا تزال تعاني بقايا الفتح الأوربي الذي اعتراها في مدة الحروب الصليبية، وكانت أوربا لا تزال في أول أدوار النهضة بعد أمد العصور الوسطى، ولا تزال على عقليتها القديمة التي دفعتها إلى الحروب الصليبية تحاول ما استطاعت أن تبطش بدول الإسلام.

فكان على دولة مصر أن تحفظ مدنية الإسلام، وتراث العلم والنور من موجة التتار المخربة المدمرة من جانب الشرق، وأن تدفع عادية أوربا المحنقة الثائرة من جانب الغرب. ولهذا كان لا مفر من أن تكون مصر على رباط دائم، وفؤاد يقظ حديد. وكان بيبرس ممثل الدفاع في القرن الثالث عشر الميلادي؛ حمل الراية مدة حكمه الطويل فكان بطلاً موفقاً مجدوداً.

لم تكن أعوامه تخرج عن عام غزو في بلدة من بلاد الشام، أو عام موكب انتصار عقب فتح من الفتوح. وما كانت مواسم مصر على يديه إلا تلك المواسم النابضة بالحماسة، الجياشة بمعاني الرجولة والحياة القوية.

وكان ميدان القبق مشهد أكبر للمواسم وأحبها إلى الناس، سواء في ذلك العامة والخاصة. وها نحن أولاء نصف واحداً من تلك المواسم البيبرسية التي سادها السعد والتوفيق؛ فكان مبعث سرور للآلاف من الناس وآية مجد وجلال للدولة ورجالها.

كان ذلك في يوم شديد الحر في شهر رمضان؛ وكانت العادة أن ترش أرض الميدان الأسود بالماء قبل أن يبدأ فيه الاحتفال؛ فرأى السلطان الجليل (بيبرس) إن رش هذا

الميدان الفسيح في مثل هذا اليوم القائظ وفي شهر الصيام فيه تكليف شاق على الناس. وأشفق أن ينالهم من ذلك أذى، فأمر أن يكف الناس عن الرش وأن يتحمل جنوده مشقة الاحتفال في القيظ بغير ترطيب الأرض بالماء.

وأبى الله أن يجزى مثل هذا العطف بغير جزائه. فكان من دلائل سعد السلطان ويمن أيامه أن ساقت الرياح غمامة في ذلك اليوم على غير عادة في مثل ذلك الوقت، فأمطرت الميدان حتى رطبت أرضه، ثم أقلعت. وما أتى وقت الاحتفال حتى رأى بيبرس وفرسانه ميداناً دهساً غير ملبد ولا زلق.

دخل السلطان العظيم على رأس قواته وجنوده، فكلف كبارهم بإظهار ما عندهم من البراعة في الرماية. ووقف الناس ألوفاً حولهم يعجبون بما يرون، وتثب قلوبهم سروراً بما يعجبون به، إذ رأوا حماتهم جديرين بما أولوهم من زعامة في الدفاع المجيد.

ثم ركب السلطان في قمة الصف، واصطف وراءه القواد والجنود بحسب المراتب المرسومة، وحمل كما يحمل إذ يكون في ميدان الحرب وحمل وراءه أتباعه كباراً وصغاراً، كأنما هم رجل واحد، ولهم إرادة واحدة. فإذا كر السلطان كانت الألوف وراءه كجزء منه، وإذا لف كانت الألوف من خلفه كأنما هي قطعة واحدة - وتعالت عند ذلك أصوات الإعجاب والحماسة، واختلطت بزفرات الدعاء والولاء، فلقد كان بيبرس العظيم مليكاً على الناس مسيطراً على الأفئدة.

وانتهى اليوم على ما ابتدأ به من السعد، ووزعت الهبات والصلات، وتتابعت العطايا والهدايا، ونال الناس من بر ذلك اليوم ما لم يفت طبقة من الطبقات، فقد قرت أعين الأمراء بالتكريم، وأثلجت صدور الفقراء بالعطاء.

وما كان مثل عصر (بيبرس) ليذهب بغير أثره، فقد أصبح الناس جميعاً ولا همة لهم إلا في تقديس أبطال الفرسان، ولا مسرة إلا ما تبعثه مناظر الكر والفر، وأصبح بفضل هذا الروح في مصر جيش من أبطال مازالوا مضرب الأمثال في النظام والشجاعة والمهارة، وأصبح الشعب وذهنه منصرف إلى ناحية حياة الرجولة والدفاع والنضال، لا يقبل على لهو إقباله على شهود أيام الاحتفال. قال المقريزي في وصف ذلك: (وصارت تلك الأمكنة لا تسع الناس وما بقى لأحد شغل إلا لعب الرمح ورمي النشاب).

غير إن ذلك الميدان لم يشهد السعد وحده، بل شهد بعض ساعات من النحس بعد أن تغير الزمان وتبدل الحال. ولم يكن في الإمكان أن يجود الزمان بالأفذاذ يتبع بعضهم بعضاً بغير انقطاع. وإلا فلم سمي الأفذاذ أفذاذاً؟

فحكم مصر في أواخر القرن الثالث عشر المسيحي سلطان آخر يمتاز عن بيبرس بأنه من سلالة ملكية، إذ كان أبوه سلطاناً قبله غير أنه لم يكن في مثل قوة بيبرس ولا في مثل توفيقه وسعده، وذلك هو السلطان الأشرف خليل بن قلاوون.

أراد يوماً أن يحتفل احتفالاً مجيداً كمن سبقه من السلاطين العظام، واختار ميدان القبق لذلك الاحتفال، وأراد أن يجعل ذلك الاحتفال على ما شاء له الملك الضخم والغنى الواسع وبيت العز الجليل. وكانت الخاتون الجليلة زوجة السلطان على وشك أن تضع ولداً. وكان أكبر أمل الملك العظيم أن تلد له غلاماً يكون وارثاً لملك جده وأبيه، وسبق السلطان الأقدار إلى إعداد العدة لاستقبال المولود السعيد المنتظر، وكان يرجى أن يكون يوم ذلك الاحتفال هو يوم الوضع الموعود.

ومهد الميدان ورشت جوانبه، وجهزت أدواته وآلاته، وزينت طرقه وحواشيه، وأقبل السلطان في موكبه الفخم وركابه المهيب. وابتدأ الاحتفال يباهي الأيام الماضية بجلاله وضخامته، غير شئ واحد كان غير ماثل فيه، وهو جلال بيبرس العظيم وتعلق قلوب الشعب والجنود به. وجرى كل شئ على سننه المعتاد غير أمر واحد، وهو سعد السلطان بيبرس العظيم وتوفيقه. فما هي إلا جولة حتى أغبر الجو وأظلمت السماء، وثارت عاصفة

هوجاء يكاد الواقف فيها لا يرى جاره أو يستبين ما حوله. فتحول اليوم من احتفال وعيد إلى فوضى واختلال، وهدم في ساعة ما قضى السلطان في إعداده أياماً طوالاً وبذل في سبيله أموالاً طائلة. ثم وضعت الخاتون طفلها أنثى، ولم يتحقق أمل السلطان في وارث يحفظ الملك عقبه في بيته.

وهكذا تجري الأقدار في مسالكها الغامضة، وإنما يرى الناس منها الآثار التي تدهش لها الألباب وتعشى منها الأبصار، بغير أن يستطيعوا رؤية ما وراء ذلك من تدبير القضاء،

فكان ذلك اليوم آخر ما شهده ميدان القبق من جليل الاحتفال. حقاً لقد عاد إليه بعض الملوك حيناً وأرجعوا إليه الحلبة، غير إن الروح لم يعد إليه، والروح سر عجيب لم تستطع البشرية أن تسمو إليه، فإنه يحل فلا تعرف أنه حل إلا من آثاره، ثم يذهب فلا تدرك ذلك إلا من آثار ذهابه، ولكنه غامض غموض المغيب المحجوب. ومن أعجب ما فيه أن السعد إنما يقبل مع إقباله، والنحس إنما يحل عند إدباره، وإنه إذا كان أدبر يوماً فلا جرم أنه يدبر لكي يعود في يوم آخر، ولو بعد حين.

محمد فريد أبو حديد

القتل السياسي

جريمة مرسيليا المروعة

عرض تاريخي لظروفها وبواعثها

للأستاذ محمد عبد الله عنان

لم يشهد العالم منذ مقتل الأرشيدوق فرنز فرديننـد ولي عهد الإمبراطورية النمسوية في يونيه سنة 1914، جريمة سياسية أشد روعة وأبعد أثراً من تلك الجريمة التي وقعت في التاسع من هذا الشهر في مرسيليا، والتي ذهب ضحيتها المرحومان الملك اسكندر ملك يوجوسلافيا، ومسيو لوي بارتو وزير الخارجية الفرنسية. وقد كان مقتل الأرشيدوق فرنز فرديننـد فاتحة الأزمة الدولية الخطيرة التي انتهت بنشوب الحرب الكبرى، وكانت من أسبابها المباشرة. ومن المحقق إن جريمة مرسيليا ستحدث أثرها في شئون يوجوسلافيا الداخلية، وفي سير السياسة الأوربية بوجه عام؛ ومن الصعب أن نقدر منذ الآن مدى هذه الآثار، وإن كنا نشهد منذ الآن نذرها ومقدماتها.

كان الاغتيال وما زال على مر العصور وسيلة لتحقيق مآرب السياسة. وجريمة الأمس جريمة سياسية وقومية كما كانت جريمة سنة 1914. وقد شهدت أوربا في العصر الحديث طائفة حافلة من الجرائم السياسية الرنانة؛ وكان الملوك، والملوك الطغاة بنوع خاص هدف هذه الجرائم، ولم تكن هذه الجرائم شخصية، ولم تقع على الملوك أو الطغاة لمجرد أشخاصهم، ولكن لأنهم يمثلون في نظر الجناة نظاماً أو فكرة لا تتفق مع مثلهم القومية أو الديموقراطية. وكانت (النهليزم) الروسية أعظم مصادر الوحي للقتل السياسي خلال القرن التاسع عشر؛ وفي ظلها وبتدبيرها ارتكبت عدة جرائم رنانة على أشخاص القياصرة وأعوانهم من الطغاة؛ وذهب ضحية هذه الجرائم قيصران: اسكندر الثاني سنة 1881، واسكندر الثالث سنة 1885، وعدة من أكابر الحكام والساسة. ولما خبت ريح النهليزم في أواخر القرن الماضي خلفتها الدعوة اللاحكومية (الانارشي) في تنظيم الجريمة السياسية؛ وذهب ضحية هذه الدعوة عدة من الملوك والأكابر مثل كارنو رئيس الجمهورية الفرنسية، والإمبراطورة اليزابيث النمسوية، وماكفللي رئيس جمهورية الولايات المتحدة، ثم الملك أومبرتو ملك إيطاليا الذي قتل سنة 1900 بعد عدة محاولات دموية مروعة. ووقعت في الأعوام الأخيرة على الملوكية عدة محاولات جديدة دبرها اللاحكوميون أيضاً، كان منها الاعتداء الذي وقع على الفونسو الثالث عشر ملك أسبانيا السابق (سنة 1926)، والاعتداء الذي وقع على جلالة ملك إيطاليا (سنة 1928).

هذه أمثلة قليلة من ثبت القتل السياسي الحافل الذي شهدته أوربا في العصر الأخير. ولكن جريمة مرسيليا تختلف عما تقدم في ظروفها وبواعثها؛ فهي جريمة قومية عنصرية كما سنرى؛ وهي أثر بارز من آثار ذلك الصراع الجنسي الذي تضطرم به أمة ينقصها التناسق الجنسي، والتضامن القومي، وتمثل فيها اقليات قومية غير راضية عن مركزها ومصايرها؛ وهي كذلك أثر من آثار ذلك الطغيان الحديدي الذي تعيش في ظله يوجوسلافيا منذ ستة أعوام، والذي تشعر بوطأته الأقليات الساخطة بنوع خاص. والقاتل بتروس كاليمن كرواتي الأصل، ينتمي إلى الشعب الكرواتي، أو إلى تلك الأقلية القوية التي ترزح تحت حكم الأغلبية الصربية ولا تشعر نحوها إلا بعواطف الغيرة والسخط. وقد وقعت الجريمة المروعة في ظل هذه المعركة الجنسية المضطرمة. واندفع الجاني أو الجناة في طريقهم بوحي الفكرة الجنسية التي تسيطر على شعب يعتقد أنه مغبون مضطهد مسلوب الحقوق.

ويجب لكي نفهم ظروف الجريمة وبواعثها الحقيقية أن نعود بضعة أعوام إلى الوراء، ففي سنة 1928، وقع الفصل الأول من حوادث هذه المأساة في بلغراد في بهو

الجمعية الوطنية (اسكوبشتينا) ذاتها، وكان ذلك في مساء 20 يونيه، وكانت المناقشة تدور حادة بين نواب الأكثرية من الصرب والسلوفين، ونواب الاقلية المعارضة، وهم نواب الشعب الكرواتي حول العلائق اليوجوسلافية الإيطالية وموقف الحكومة منها، وكانت المعارضة ممثلة في حزب الفلاحين الكرواتي ورئيسه استيفان رادتش زعيم كرواتيا الوطني، والحزب الديموقراطي المستقل وزعيمه بربتش فتش؛ فلم تلبث المناقشة أن تحولت إلى نوع من السباب والتراشق المقذع؛ وعندئذ نهض أحد نواب الحزب الراديكالي الصربي، وهو حزب الأغلبية أو حزب الحكومة، وأطلق الرصاص على مقاعد حزب الفلاحين فقتل من نوابه اثنان أحدهما بول رادتش قريب الزعيم رادتش وأحد أقطاب الحزب، وجرح ثلاثة آخرون منهم استيفان رادتش نفسه زعيم كرواتيا الوطني. ووقع على أثر هذه الجريمة المروعة

اضطراب لا يوصف في بلغراد وفي كرواتيا، وأوقفت جلسات الجمعية الوطنية واستقالت الوزارة القائمة، واستمرت الأزمة الوزارية نحو شهرين. ثم كانت الطامة الكبرى بوفاة استيفان راديتش زعيم كرواتيا متأثراً من جراحه بعد ذلك بأسابيع قلائل؛ فشيعه مواطنوه إلى قبره في مظاهرات فخمة مؤثرة تجلت فيها البغضاء الجنسية التي يضطرم بها الكرواتيون نحو الصربيين ونحو حكومة بلغراد.

كان لهذه الفاجعة الوطنية أثر عظيم في إذكاء الأحقاد الجنسية في مملكة يوجوسلافيا الجديدة، وهي أحقاد تقوم على تراث التاريخ، وتنافر العناصر التي تتألف منها. ذلك أن مملكة الصرب القديمة المتواضعة استحالت عقب الحرب الكبرى إلى مملكة جديدة تسمى مملكة الصرب والسلوفين والكروات؛ تضم مملكة الصرب القديمة، وأمارة الجبل الأسود، وسلوفينا، وكرواتيا، ودلماسيا، والبوسنة والهرسك، وبعض أنواع أخرى من إمبراطورية النمسا والمجر القديمة. والشعب الصربي هو الكثرة بين هذه الأجناس المتنافرة، وهو صاحب الحكم والسيادة، وإليه تنتمي الأسرة الملكية ومعظم الوزراء والحكام والقادة. وكانت كرواتيا أو بلاد الكروات بين الولايات الجديدة أشدها مراساً وأعرقها قومية وتعصباً. وتشغل كرواتيا نحو خمس المملكة الجديدة وعاصمتها (زغرب) أو (أجرام) مدينة قديمة سكانها نحو ربع مليون وبها جامعة. والكروات شعب جبلي فلاح ساذج يبلغ زهاء ثلاثة ملايين من مجموع قدره ثلاثة عشر مليوناً. وكان الشعب الكرواتي قبل الفتح التركي في القرن الخامس عشر يتمتع باستقلاله في ظل مملكة بلقانية قوية، ثم غدت كرواتيا كما غدت صربيا والمجر ولاية عثمانية، وضمت منذ أواخر القرن التاسع عشر إلى النمسا والمجر. ولم ينس هذا الشعب الجبلي الوعر استقلاله ونزعته القومية، فكان في ظل الإمبراطورية النمسوية يجيش بالأماني الوطنية، ويطمح إلى الاستقلال الذاتي؛ ولم يقف إلى جانب آل هبسبورج أثناء الحرب إلا طمعاً في تحقيق شئ من أمانيه القومية. واستمرت تحفزه مثل هذه الأماني في ظل يوجوسلافيا الجديدة؛ وكان بطل كرواتيا الوطني استيفان رادتش رئيس حزب الفلاحين أقوى الأحزاب الكرواتية وأشدها نفوذاً؛ وكان هذا الزعيم القومي الذي كونه مزيج من الثقافات الألمانية والفرنسية والروسية يسيطر ببيانه الساحر وخلاله القوية على مواطنيه ويقودهم حيثما شاء؛ وكان حزب الفلاحين حتى سنة 1925 جمهوري النزعة

يطالب بالاستقلال الذاتي؛ وكانت كرواتيا تضطرم من حين لآخر بالقلاقل والمظاهرات القومية؛ فتخمدها حكومة بلغراد الصربية بمنتهى الشدة؛ وتذكى بذلك أحقاد الكروات الجنسية. وفي سنة 1925 أدرك الملك اسكندر خطر هذه الحركة على وحدة يوجوسلافيا؛ فاستدعى الزعيم رادتش وتفاهم معه؛ وعقد اتفاق بين الصرب والكروات يمنح به الكروات بعض الحقوق والمزايا القومية؛ فهدأت حركة الكروات الاستقلالية نوعاً وأبدى الشعب الكرواتي شيئاً من الولاء نحو العرش والحكومة. واحتل الكروات مقاعدهم في الجمعية الوطنية؛ واشتركوا في حكم البلاد؛ وكان لهم في الجمعية 85 كرسياً أي نحو ربع مجموع الكراسي. ولكن هذا التفاهم لم يلبث طويلاً؛ لأن الجبهة العسكرية المحافظة التي تحكم البلاد من وراء الملك اسكندر لم يرق لها هذا التسامح مع الأقلية. ورأى الكروات من جهة أخرى أنهم لم ينالوا بهذا التهاون كل ما يطمحون إليه من المزايا الاستقلالية؛ فعاد سوء التفاهم بين الفرقين مرة أخرى؛ واشتدت الخصومة بينهما منذ سنة 1928؛ ووقعت في كرواتيا قلاقل جديدة؛ واتخذت المعارضة

الكرواتية في المجلس اتفاقات (نتونو) التي عقدت يومئذ بين يوجوسلافيا وإيطاليا بشأن الحدود مادة لحملات قوية على حكومة بلغراد والملك اسكندر؛ واستمرت هذه الحملات في شدتها حتى ضاقت حكومة بلغراد وضاقت الأكثرية الصربية البرلمانية بها ذرعاً؛ ووقعت بين الفريقين في الجمعية مناقشات ومناظر عاصفة انتهت في 20 يونيه سنة 1928 بوقوع تلك المذبحة البرلمانية الرائعة، وسفك دم الزعماء الكروات في نفس المجلس الذي دعوا إلى الاشتراك في أعماله، ومصرع استيفان رادتش زعيم كرواتيا القومي ومعبودها الوطني.

وهناك أدرك الملك اسكندر خطورة الموقف، وحاول مرة أخرى أن يعمل على تهدئة الأحقاد القومية التي أثارتها الجريمة، ولكنه لم يستطع فيما يظهر أن يغالب نفوذ العسكرية المسيطرة على الحكم؛ فلم تتخذ حكومة بلغراد في شأن النائب أو النواب القتلة إجراءات جدية تهدئ الشعور المضطرم؛ وكان موقفها في ذلك كموقفها يوم مقتل الارشيدوق فرديننند من عطف على الجريمة ورفق بالجناة؛ وأخمدت حركات زغرب عاصمة كرواتيا ومظاهراتها بشدة، وساد حكم الإرهاب في كرواتيا، وطورد زعماؤها وأبناؤها أشد مطاردة؛ وأبدت حكومة بلغراد وعمالها الصربيون في معاملة الشعب المغلوب منتهى الخشونة والقسوة؛ فتوجست العناصر الأخرى شراً واشتدت الأحقاد القومية، وتعقدت الأزمة، وكادت يوجوسلافيا تنحدر إلى الحرب الأهلية؛ عندئذ لجأ الملك اسكندر إلى إجراء خطير حاسم؛ ففي 29 يناير سنة 1929 أعلن إلغاء الدستور والجمعية الوطنية، وأعلن نظام جديد يقبض الملك في ظله على كل السلطات، وتؤلف الحكومة من ستة عشر وزيراً، يُسألون أمام الملك شخصياً؛ وألغى تقسيم يوجوسلافيا القديم إلى ولايات عنصرية، وقسمت إلى تسع ولايات جديدة لكل ولاية حاكم مطلق؛ وغير اسمها من مملكة الصرب والسلوفين والكروات إلى مملكة يوجوسلافيا؛ وحل حزب الفلاحين الكرواتي، وقمعت كل حركة ومظاهرة عنصرية بمنتهى الشدة. وساد على يوجوسلافيا كلها حكم مطلق حديدي حتى اليوم. ولكن الملك اسكندر أبدى في اضطلاعه بمهام الحكم المطلق كثيراً من الحزم وبعد النظر؛ فاستقرت السكينة في البلاد، وخبت الأحقاد والنزعات القومية المحلية أمام البطش؛ ولكنها لبثت كالنار تحت الرماد تسري في صمت، وتتربص فرص الاشتعال. وكان من المستحيل إزاء هذه المشاكل العنصرية الخطيرة، وإزاء استئثار العنصر الصربي بالسيادة والحكم أن تحكم يوجوسلافيا بغير الحكم المطلق؛ ولم يكن في تقاليد العسكرية الصربية التي تحكم من وراء العرش، ولا في تقاليد أسرة كاراجورج فتش الجالسة عليه ما يؤيد النظم البرلمانية، أو يفسح لها أي مجال حقيقي.

وقد تولت أسرة كاراجورج فتش التي ينتمي إليها المرحوم الملك اسكندر بوسائل عنيفة أيضاً. وكان العرش قبلها لأسرة أوبرينوفتش يتولاه الملك اسكندر أوبرينوفتش حتى سنة 1903. وفي يونيه من هذا العام دبر الحزب العسكري بتحريض أسرة كاراجورج فتش مؤامرة كانت نتيجتها أن قال الملك اسكندر أوبرينوفتش وزوجته مدام دراجا ماشين التي أثار زواجه بها قبل ذلك بعامين ضجة كبيرة، في غرفة نومهما؛ وعلى أثر ذلك أعلن بطرس كاراجورج فتش، والد الملك اسكندر ملكاً؛ وعهد بمهام الحكم إلى الجناة الذين اشتركوا في مقتل سلفه، فدلل بذلك على إنه لم يكن بعيداً عن الجريمة. واستمر ملكاً حتى سنة 1921، وخاض غمار الحروب البلقانية والحرب الكبرى، وتولى ولده الملك اسكندر الحكم من بعده، وكان مولده سنة 1888، وكان أثناء حياة أبيه يتولى أخطر المهام العسكرية والسياسية، فأبدى حزماً ومقدرة في قيادة يوجوسلافيا الكبرى، ولكنه لم يوفق إلى حل المشاكل العنصرية، ولم يستطع كبح جماح العسكرية كما قدمنا، وشاء القدر أن يذهب ضحية الأحقاد العنصرية على ذلك النحو المؤسي.

هذه هي حقيقة البواعث والظروف التي أدت إلى مقتل الملك الراحل، فالأحقاد القومية هي التي سلحت القاتل كاليمن وزملاءه الكرواتيين، وهي التي دفعتهم إلى ارتكاب جريمتهم الفظيعة انتقاماً لمصرع زعماء كرواتيا الوطنيين، وانتقاماً لما تلاقيه من آلام الاضطهاد المنظم. ومن المحقق أن سيكون للحادث أخطر الآثار في مصاير يوجوسلافيا، وإن كان من المستحيل أن نتنبأ اليوم بما سيكون. وقد تكون ثمت وراء

الجريمة عوامل تحرض أجنبية عرفت أن تستغل الأحقاد العنصرية وأن توجهها، ولكن الجريمة تبقى مع ذلك جريمة عنصرية، باعثها الانتقام القومي.

إن المسألة الكرواتية تعتبر بالنسبة ليوجوسلافيا كالمسألة الأرلندية بالنسبة لإنكلترا، وستبقى خطراً دائماً على الوحدة اليوجوسلافية، مادامت العسكرية الصربية تأخذ بسياسة السيادة العنصرية، ومادام الشعب الكرواتي يشعر بأنه لم يأخذ حقه من العدالة والمساواة والاشتراك في أعباء الحكم.

أما المرحوم مسيو لوي بارتو، فقد كان ضحية بريئة للجريمة، ولم يقصده الجناة بالذات، وسيكون لمقتله أثر عميق في شئون فرنسا الداخلية، وربما في سياستها الخارجية.

محمد عبد الله عنان المحامي

ابن من يا فاجرة؟

للدكتور احمد زكي

وكيل كلية العلوم

كانت فاجرة لأنها ادعت ابنها الوليد لغير أبيه، وهي تعلم أنه لأبيه. وكان الرجل المتهم في عرضه، المقدوح في طهارته، رجلاً من ذوي الثراء، جمع من المال ما جمع في أيام صباه، من أعمال واسعة النطاق، وأشغال استغرقت كل زمانه فألهته عن ملذات الجسم ومتع الشباب. وبلغته الشيخوخة على حين غفلة، فأراد أن يدرك الفائت، وأن يلحق بالهارب، وأن يذكر نفسه، ويسترجع حسه، ويستجمع بقايا شبابه، فطلب الأنثى الشابة، فجاءته إناث كثيرات، فعلم أنهن لم يردنه، وإنما أردن ماله، وكان كلما أنس من بعضهن إلى الجناب الرفيق والصدر الحنون، وكان يهم بالخِطبة، هتف في نفسه الهاتف يقول: جناب عن قريب ينبو، وصدر لا يلبث أن يخون. وظل على هذه الحال زماناً، يحدوه أمله، وترده سنّه، وقام ثراؤه يتهم كل امرأة ولو أخلصته النية، ورضيت صادقة برعايته وحضانته وبتمريضه بكل ما فيها من أنوثة.

وفي أثناء ذلك اتصل بأحد المقربين إليه من مستخدميه، فشكا له الوحدة عرضاً، فذهب هذا المقرب إلى زوجته تلك الليلة يذكر لها الشكوى. وفي الصباح أتت الثري من الزوجة دعوةٌ على طعام، وتلت تلك الدعوة دعوات، في حضرة الزوج، وفي غير حضرة الزوج، وكثيراً ما حضرها الشباب من الصحاب، فامتلأت البطون، واحتر الدم بالرقص والشراب، وكثيراً ما نسى الشيخ وقاره في تلك الأجواء الزائطة، فنال من الزوجة المضيافة القبلة بعد القبلة، فأعطت عن سخاء، على أعين ضيوف اليوم الفرحين، وشهود الغد المحرجين.

فلما ولد المولود، وهم الشيخ بالتبريك، جاءه رسول القضاة يعلن اتهامه. وانعقدت المحكمة، وجاءها الشهود كأنما كانوا على موعد، فأثبتوا روحاته وجيئاته، وأثبتوا اختلاءه، وأثبت الزوج تغيبه ولم يبق على استقلال الطفل بكل تلك الثروة الواسعة من بعد أبيه إلا حكم المحكمة.

وفي اللحظة الأخيرة طلب الدفاع بحدة العلم، والالتجاء إلى المعمل عسى أن تكون عنده الشهادة التي لا تُرد، وفي الغد أو الذي يليه احتكموا عند أحد الأخصائيين المحلفين إلى

قطعة زجاج، وبعض سوائل في أنابيب، ثم إلى المكرسكوب - جمادات كلها لا تكذب إذا كذب الإنسان. وبذلك، وبذلك وحده، نجا الشيخ من الشرَك، ونذر ما عاش أن يبتعد عن الآنسات ميلاً، وعن المتزوجات أميالاً.

ثم غلب التهمة الملحة في نفسه واقترن بأرملة، باعدت عنه الريب وحملت عنه أعباء الحياة.

أما همنا اليوم ففي تلك الأشهاد من الجماد. وقصة ذلك إن الدم الإنساني يتركب من كرات حمراء وأخرى بيضاء، يسْبحن في سائل يسمى المصل، عديم اللون أو هو كلون زلال البيض، يحتوي عدة مواد ذائبة فيه. وقد كشف العلماء في الكرات الحمراء عن مادتين تسمى أولاهما ألفاً والثانية باء. ووجدوا فوق هذا أن الكرات الحمراء للرجل (أو المرأة) قد تحتوي على المادة ألف وحدها، وقد تحتوي على المادة باء وحدها، وقد تحتوي على كليهما معاً، وقد تخلو منهما جميعاً. وبناء على ذلك قسموا الناس إلى مجموعات أربع: مجموعة أِلفية، ومجموعة بائية، ومجموعة ألفبائية، ومجموعة صفرية،

نسبة إلى الصفر في قولك رجل صفر اليدين أي خاليهما. فأنا وأنت وكل أحد لابد واقعون في أحد هذه الأقسام. وتعرف المجموعة التي ينتسب إليها الفرد من تفاعلات تقع بين الدماء عند خلطها. فهب أني أنا من المجموعة الألفية ولا فخر، وهب أنك أنت من المجموعة البائية ولا حط من قدرك، فلو أنك أخذت شيئاً من دمي، وفصلت عنه مصله ومزجته بنقطة من دمك لتجمعت كراتك الحمراء وتزاحمت في هلع وارتياع، كقطيع النعاج داهمها الذئب، فاتخذت تحت المكرسكوب شكل عنقود العنب. وسبب هذا أن بدمي مادة معادية خصيمة لكراتك الحمراء، أو بالأحرى للمادة البائية التي بها. وعلى هذا تسمى مادتي هذه بالخصيمة البائية.

ولو أنك مزجت مصل دمك بدمي لتعنقدت كراتي الألفية كذلك، لأن بمصلك الخصيمة الألفية. فبدمي إذن المادة الألفية والخصيمة البائية، وبدمك أنت المادة البائية والخصيمة الألفية، والزوجان في دمك وفي دمي بالطبع على غاية المحبة والوفاق وإلا لتعنقدت كراتنا جميعاً وودعنا الحياة، لأن تلك الكرات لابد من نفاذها في الشعريات الدموية الرفيعة التي تصل ما بين الأوردة والشرايين وهناك دم ثالث نستعير لشرحه صديقي الأستاذ الزيات، فدم الأستاذ تجمع كراته الحمراء المادتين ألفاً وباء معاً، فلو أنك خلطت نقطة من مصلي

بقطرة عزيزة من دمه لتعنقدت كراته، ولو أنك خلطت نقطة من مصلك بتل القطرة لتعنقدت كذلك، فصديقي الزيات من المجموعة الألفبائية. أما الدم الرابع فخالية كراته من كلتا المادتين فهي لا تتعنقد لا بمصلي ولا بمصلك.

وتابع العلماء دراسة دماء الناس في نواحي المعمورة تقصياً في البحث، وامتحنوا دماء الصغار والكبار، والأبناء والآباء لآلاف من الأسر ليتعرفوا العلاقة التي قد تكون بين الولد والأصلاب والأرحام التي انحدر منها، فوجدوا قوانين مطردة على مقتضاها ينسل الناسل. من ذلك أنهم وجدوا أن الطفل الألفي يتحتم أن يكون من أبوين أحدهما على الأقل ألفي. وأن الطفل البائي يتحتم أن يكون من أبوين أحدهما على الأقل بائي. وأن الأب أو الأم إن كان أحدهما ألفبائياً ورّث كلاً من بنيه ألفاً أو باء. فالرجل الألفبائي لا ينتج طفلاً صفرياً. كذلك إن كان الطفل ألفبائياً تحتم أن يكون قد ورث ألفاً من أحد أبويه وباءً من الآخر؛ ومثل هذا الطفل لا ينتج عن أب صفري.

وفي قضية الشيخ المثري التي فات ذكرها امتُحن دم الزوجة بأخذ قطرة دم من أنملها، وقسمت القطرة قطرتين، مزجت إحداهما بمصل الخصيمة الألفية فعنقدت كراتها، ومزجت الأخرى بمصل الخصيمة البائية فلم تتعنقد الكرات، فقُضي بأن الأم من الفصيلة الألفية. وامتُحن دم الوليد على هذا النحو فكان من الفصيلة البائية، فلزم على هذا أن يكون أباه بائياً أو ألفبائياً. فامتُحن الزوج فكان بائياً. وامتحن الشيخ فكان صفرياً، فنجا.

على إن امتحان الدم قد لا يؤدي إلى نتيجة حاسمة. فلو أن الشيخ كان بائياً أو بائياً ألفياً لجاز أن يكون الوليد من صلبه، ولجاز أيضاً ألا يكون. وقد حسب حاسب عدد الحالات التي يمكن فيها الجزم بوالد الطفل منسوبة إلى الحالات جميعها التي يحدث فيها اشتباه، فوجد أنها تبلغ الثلث.

وأريد أن أنبه أن المعمل قد يبرئ، ولكنه لا يستطيع وحده أن يتهم أحداً. فهب أن الولد كان بائياً، والأم ألفية، وكان زوجها ألفياً، وامتحن الشيخ فكان بائياً، فهل يقطع بأبوة الشيخ من أجل شهادة المكرسكوب وحدها؟ كلا. فكم من الرجال بائيون! ولم لا تكون الزوجة اتصلت بأحدهم؟ وإذن كان يتحتم على الاتهام إثبات ما كان بين الشيخ والمرأة في مسالك الحياة.

احمد زكي

عصران في دار

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

هي أسرة واحدة تعيش تحت سقف واحد، ولكن عصور أفرادها متباعدة، وثقافاتهم متعددة متفاوتة، والحضارات التي يمثلونها لا تنفك تتصادم وتحترب في دارهم. وقد عرفت بعضهم في لبنان وبقيتهم في مصر، وكنت أتمشى يوماً قبل الغروب في طريق (ضهور الشوير)، والشوير (ضيعة) كما يسمونها، أو قرية في واد يشرف عليه الجبل، فهذا هو (الضهور) أو (الظهور)، فملت إلى مكان هناك يسمونه (قهوة الحاج ياس)

وهي قائمة بين بساتين فاكهة وزهر، فلمحت في طريقي من ظننتها واحدة ممن عرفتهن هناك، فحثثت الخطى إليها، فإذا هي فتاة لا عهد لي بها، ولي بنظري قِصر، ولكني كنت مطفلاً، وكانت الشمس قد اصفرت وضعف ضوؤها، وكان الشجر يحجب وجهها عني - أعني الفتاة لا الشمس - فلي العذر إذا أخطأت. وعلى أنه خطأ لم يسؤ وقعه في نفسي. بهذا أعترف. وكانت جالسة ترسم فأغراني هذا بها، فدنوت منها على أطراف أصابعي، ثم وقفت أتأملها - من وراء ظهرها - وهي مقبلة على اللوح. فلما طال ذلك عليّ، وهي لا تلتفت وراءها، تنحنحت، فأدارت وجهها بسرعة وقالت: (أوه!) ولم يكن في وجهها لا ابتسام ولا دهشة، كأنما كان من المألوف عندها أن تسمع الناس يتنحنحون وراءها وهي ترسم!.

فقلت وقد أحسست أن الفتيات عسراً:

(هل أزعجتك؟)

فقالت وهي ماضية في رسمها وغير ناظرة إليّ:

(أزعجتني؟؟ هل سمعتك تقول إنك أزعجتني؟)

وكانت لهجتها واشية باحتقار يحول الأدب دون ظهوره على وجهها، أو لعل الأصح أن أقول في اللهجة تهكماً خفيفاً حملته على محمل الاحتقار، فحقدتها عليها - في سري - غير أني لم أظهر ذلك لها واكتفيت بأن أقول:

(هذا ما كنت أخشى - فالحمد لله!)

فمضت في تخطيطها على اللوح وقالت: (إذا كنت تريد أن تتكلم فاجلس). فكانت هذه صدمة ثانية. فتلجلجت قليلاً وقلت (أ. . . أ. . . أجلس؟) فقالت وهي مكبة على اللوح (آه. معذرة. . ثيابك بيضاء نظيفة، والأرض بليلة. . . مفهوم).

فاجترأت وقلت: (هل تريدين أن تدعيني إلى الجلوس؟.)

فقالت: (وماذا أصنع بك جالساً أو واقفاً؟ معذرة! إن غرورك هو الذي أجرى لساني بهذا الكلام)

فسألتها وأنا مبهوت: (غروري؟)

فقالت بلا اضطراب: (أعني غرور الرجال. . . وكنت تستطيع أن تدرك قصدي ولا تحوجني إلى الإيضاح)

وكنت في أثناء هذا الحوار لم أبرح مكاني وراءها، فتحولت حتى صرت أمامها وقلت وفي صوتي نبرة غضب مكظوم:

(هل تستطيعين أن تدعي أن بيني وبينك ثأراً قديماً؟)

فأدهشني أنها أجابت ببساطة ومن غير أن ترفع وجهها إليّ:

(ثأر؟ أوه لا!. ولكن ألا ترى أن أمثالك لا خير فيهم لمثلي)

فقلت: (معذرة فإني غير فاهم!.)

قالت: (بالطبع! ولست وحدك الذي لا يفهم. . . كلكم هكذا. . . لأنكم تفكرون بعقول معطلة. . . أعني أن أهواءكم تغلبكم وتدفع عقولكم في مجراها، وتمنعكم أن تفكروا في حاجات غيركم مثل تفكيركم في حاجاتكم. قد يبدو هذا القول غريباً من فتاة مصرية، لأن الفتاة في نظركم ليست سوى مطية. . . لا تستغرب هذه الصراحة، فلستم وحدكم كل من تعلموا وذهبوا إلى أوربا ورأوا بعيونهم وفكروا بعقولهم. . . ما علينا من هذا. . . نعم الفتاة ليست عندكم سوى مطية. . . لا تجادل من فضلك. . . لا تحاول أن تكذب. . . كلا. . . لا تقاطعني. . . إنك هنا لتتحكك بي. . . هذا واضح. . . بالطبع! دعني أتمم كلامي، لقد كنت أقول حين هممتَ بمقاطعتي إنكم معشر الرجال تعتقدون أن الفتاة مطية، وإنها لكذلك، ولكنها غير ذلك أيضاً. . . إعترف بصراحة. . . هل خطر لك مرة واحدة أن الفتاة أكثر من مطية؟!)

فخجلت لأني لم أكن أنتظر أن أسمع هذه المحاضرة، وأورثتني المفاجأة اضطراباً فقلت:

(. . .ولكن هل من موجب لهذا الكلام؟؟ إنني)

فقاطعتني قائلة (نعم فإنك ما جئت إلى هنا إلا وفي أملك أن تقضي دقائق لذيذة مع فتاة ترجو أن تؤاتيك وأن تنيلك دقائق أخرى ألذ منها وأعذب)

فهممت أن أقاطعها ولكنها أومأت إليّ فسكت، واضطجعت هي على الكرسي وقالت:

لا تكابر. . . واسمع مني، ولا تعجب إلا إذا كنت غبياً. . . لا مانع عندي البتة أن أمنحك)
الدقائق اللذيذة لو كنت تستحقها في نظري. . فإني أنا أيضاً أطلب لنفسي دقائق
لذيذة وأشتهي أن أتمتع بحياتي وأفوز بنصيبي من لذات الدنيا، ولكن هناك لذائذ أخرى
تعدل هذه وتستبد بالنفس وتغلبها على أهوائها الأخرى. . . هذا التصوير هو مهنة لأكل
العيش إلى حد ما، ولكنه أيضاً فن يزاول لذاته وبغض النظر عن المنافع المادية. . إني
حرة. . فقيرة، نعم، ولكني أجد الكفاية، وقد استطعت أن أتعلم أرقى تعليم تسمح به
مواردي، والباقي أحصله باجتهادي. . درست التصوير في إنجلترا ثلاث سنوات بينما
كنت مبعوثة إليها لأدرس شيئاً آخر، ولكني لا أتكسب به. نعم أبيع بعض صوري، ولكني
استخدم ثمنها في إتقان فني. . في تجويد أداته. . لقد بعدت عن الموضوع جداً. . .
على الأقل في نظرك. . ولكن هذا الشرح كان لازماً لأمثالك حتى يستطيع أن يجتنب
(إساءة الظن حين أسأله. . هل تستطيع أن تكون أنموذجاً لصورة؟
فصحت (إيه؟ أنموـ . .)
قالت مقاطعة (نعم، أنموذج لصورة. . إن جسمك ليس معتدلاً، وقوامك. . . غير حسن.
. وهذا ليس غزلاً مقلوباً من فضلك. . ولكن لو أمكن أن أرسمك وأنت عار. . ولكن
بالطبع لا تستطيع. . . كلا. . . لا تستطيعـ . . لا فائدة. . . خسارة. . . إن في ذهني
صورة تصلح لها، ولكن الحياء الكاذب. . كلا. . لا فائدة)
فكدت أجن من جرأة هذه الفتاة، ثم تصورت نفسي واقفاً أمامها - على رجل واحدة!.
وأنا كما خلقني الله فقهقهت، فصعّدت إليّ طرفها مستغربة مستفهمة، فلم أكتمها ما
دار في نفسي وتمثل لخاطري، ثم تعارفنا.
وفي مصر رأيت أباها، وهو شيخ في السبعين من عمره، تخرج في دار العلوم وزاول
التدريس حتى أقعده الكبر، ولكنه لا يزال على ارتفاع سنه نشيطاً. ومن شذوذه أنه لا
يقنع بأن ينفى العامية من كلامه، بل يفرض الكلام بالفصحى حتى على الخدم.
كنت معه يوماً، وكنا جالسين في حديقة البيت، فبصر بالخادم، فصاح به (ليس هكذا؟)
فانتفض الخادم ودار حول نفسه، وقال بلهجة الممتثل لقضاء الله فيه ولاستبداد هذا
المجنون به:
(أفندم؟)
قال الشيخ: (ليس هكذا)
فعاد الخادم يسأل (أفندم؟)
فقال الشيخ مفسراً: (أقول ليس هكذا. ارفع رأسك وافتح صدرك. ألم أنهك أن تمشي
متخلعاً؟)
فقال الخادم معترفاً: (أيوه يا أفندم؟)
فصاح به الشيخ: (قل نعم يا جاهل! أو بلى)
فاستغرب الخادم وسأل بلهجة المنكر: (بلى؟)
قال الشيخ (بلى)
فعاد الخادم يسأل (بلى؟)
قال: (نعم بلى! ماذا تظنني أقول؟)
قال الخادم: (بلى!)
قال الشيخ: (إذن قلها)
فحاول الخادم أن يعيدها ولكنه نسيها فجعل يقول: (أ. أ. بـ. بـ. . . وحك رأسه.
فأنكر الشيخ ضعف ذاكرته وقال: (نسيت بسرعة؟)
فتذكر الخادم وقال: (أ. . . بلى)
فعاد الشيخ يصيح: (مدهش! قل (لا) في هذا الموضع)
فظن المسكين أن عليه أن يردد كل ما يسمع فقال: (لا في هذا الموضع)
فضجر الشيخ وصاح: (ماذا كنت قبل أن تجئ إلى هنا؟ ببغاء؟)
فكرّ الخادم مسرعاً إلى الأولى استرضاء للشيخ وقال (أ. . . أ. . . بلى)
فيئس الشيخ وقال وهو ينظر إليّ (لا فائدة. . . لا فائدة!)
وحسب الخادم أن الكلام له فقال: (بلى.)
فصاح الشيخ. (اذهب. . . اذهب. . . وارم نفسك في بئر.) فظن المسكين أنه يحسن
به أن يقول شيئاً آخر فقال:

(لا في هذا الموضع)
هذه هي الأسرة - أو على الأصح، هذا هو الأب، وتلك فتاته، وهما يعيشان في بيت واحد تحت سقف واحد، ولا أدري أيشعران أم لا يشعران بما بينهما من مسافة الزمن التي تحسب بالقرون، ولكن الذي أدريه أنهما على تباعد عصريهما سعيدان. وقد ساعد على ذلك وأتاحه سعة أفق الفتاة وما تمتاز به الشيخوخة من الحلم والجنوح إلى التسامح، أو الضعف إذا شئت. . .
إبراهيم عبد القادر المازني
نبتون
للأستاذ راشد رستم
في ناحية من نواحي الحديقة المنسقة الواسعة، أنشأوا بحيرة صغيرة صافية، وحول هذه البحيرة الساكنة قامت الأشجار عظيمة السيقان، كثيرة الأغصان - تباعدت في الأرض جذوعها، والتقت في السماء فروعها - دوحة خضراء، نادرة المثال في هذا النوع من التنسيق والجمال، اتخذت منها الأطيار الوديعة أراجيحها اللينة، وأقامت فيها أعشاشها الآمنة.
وفي وسط هذه البحيرة الصغيرة أقاموا تمثالاً كبيراً لأله البحر الأعظم: نبتون بن زحل. . .
أقاموه في هذا المكان الهادئ، واقفاً يحمل في يمناه صولجانه مثلث الأسنان، ويمد يسراه في اطمئنان مشيراً إلى الماء الخاضع في هدوء عند قدميه، وكأنه يقول: هذا ملكي، هذا عرشي!
أي نبتون! مزعزع ركن الثرى
ما كنا لنجهل ملكك، أو نسلبك عرشك.
رمز لظلمات ذلك الخيال المضطرب لما رآك أجدادنا المتقدمون؛ ولذلك الرعب الآخذ بنفوسهم لما تركوك إلى برهم؛ ولذلك التعدي، وقد جهلوه منك، عندما حاولت أن تصل إليهم بمدك؛ ولذلك الفشل، وقد تمنوه لك، لما عدت عنهم خائباً بجزرك.
على أنك لا تزال تطغى ولا ترحم، وستهشم ما تصل إليه يدك في غدك، كما كنت تفعل في أمسك، وإن كنت تحوي الدر، وتؤدي خيراً، فإنك لا تدري إن هذا خير وذاك در.
إن هذه البحيرة الصغيرة الهادئة لا تستحق من أهل السلام وأهل الجمال، أن تقوم أنت وسطها على جزيرة لا تكاد تفي بموطئ قدميك، تقوم فيها بثقيل هيئتك، وكالح وجهك وخشن شكلك. وهنالك في المحيط الواسع جزائر عظمى، خذها مسكناً وصقيلاً، فعندها تجد لخشونتك مجالاً، ولوحشيتك ميداناً، وهنالك حيث أهلها وسكانها أقرب طباعاً لما يرضيك، فتتخذهم أعواناً أو عبيداً أو خلقاً جديداً، تسخرهم فيما تشاء من إغراق وإغداق، وتراهم يرتاحون لجوارك ويحافظون على سلطانك، وهم يرون في عتوك وجبروتك حماهم الذي
لولاه لكانوا في الأرض أغناماً لسباعها، أو أسلاباً لناسها.
أيْ نبتون!
تضيع بهجة هذا المكان، وتذهب وداعة هذه البحيرة، مادمت قائماً فيها برمزك هذا الخشن.
وكأني بصاحب المكان فظاً غليظ الفؤاد، إذ يجعل جباراً يداعب ضعيف الجناب! أي ضعف في الذوق! وأي خشونة في الطباع أشد من أن يقيم المنسق رمزاً للخشونة الواضحة، والقسوة المتجددة، في المكان الساكن، ذي الروح الوديعة، والجو الهادئ. . .
كأني بهذا المنسق، وقد أقامك بين هدوء المكان وبهجته، بل وقد حبسك في هذا القفص الرطب. كأني به يستهزئ من قوتك، ويستنزل من شأنك، فيقيم الرمز الثقيل في بحيرة صغيرة، تكاد تكون نقطة في بحرك.
أم أن هذا المنسق حكيم بصير! أراد تغليب صفاتك القاسية على ميزات المكان اللينة، فيقول للناس بذلك، وهم وقوف عند البحيرة المسكينة المستسلمة - يقول: أحقاً أيها الناس أرباب العواطف، أحقاً تشعرون بجمال هذا المكان ووداعته، وهاهو ذا تمثال طاغية يذكركم بأمواج كالجبال، وطباع كالبحار، ودخيلة لا أمان لها؟ أتظنون أن طائر

الرحمة والرضا، يأوي إلى القلوب، وهو يرى رمز القسوة والحماقة قائماً ماثلاً؟ . . .أتظنون أيها الفنانون أن في هذا العالم جمالاً صافياً خالياً؟ جمالاً للجمال لا أدري حقيقة ما يقصد صاحب المكان، ولكن خطأ يا سادة أن تقيموا هذا الرمز الخشن في هذه الطبيعة الناعمة. إن من جمال النفس أن تجمع بين الماء والخضرة (والتمثال) الحسن.

وإن الذي يأتي إلى هذا المكان الهادئ، لا يقيم قليلاً حتى يمسه تيار قاتم من روح هذا الجبار العتيق. يشعر وسط هذا النعيم الأخضر بلفحات من جحيم الحياة القاسية. فيا حراس المكان وحفظة السلام، ويا أهل الجمال، أزيلوا هذا الرمز الخشن، وردوه إلى حيث تتناسق صفاته وقسوة الطبيعة فتكونون قد صنعتم جميلاً، وأرضيتم أهل الخيال وأهل الحقيقة.

(حديقة انطونيادس)

إسكندرية

راشد رستم

5 - الشخصية

للأستاذ محمد عطية الأبراشي

المفتش بوزارة المعارف

العناصر الرئيسية التي تتكون منها الشخصية القوية:

الثقة بالنفس والاعتماد عليها:

من العناصر الأساسية في تقوية الشخصية الثقة بالنفس أولاً، والاعتماد عليها ثانياً. ومتى وجدت الثقة بالنفس فمن السهل الاعتماد عليها في كل عمل ممكن من الأعمال، وفي التغلب على صعوبات الحياة. والسبب في كثرة الاعتماد على الغير أن الغريزة الاجتماعية قوية في الجنس البشري متأصلة فيه، وأننا اعتدنا التفكير الجمعي لا التفكير الاستقلالي. فينبغي أن نعود الأطفال الاعتماد على أنفسهم، والاستقلال في تفكيرهم من غير اتكال على أحد، حتى يستطيعوا في المستقبل أن يعيشوا معتمدين على أنفسهم. ولا نريد بذلك أن يعتزل الإنسان العالم وينقطع عن الناس، ويفكر في نفسه فحسب، فليس هذا من الإنسانية في شئ، بل إنهباعتزاله غيره يفقد كثيراً، ولا يربح إلا قليلاً. ولكننا نريد تعويد الأطفال الاستقلال الشخصي والقدرة على القيام بأعباء الحياة من غير اتكال على الغير في كل شئ، حتى يمكنهم أن يقوموا بواجبهم نحو أنفسهم ونحو المجتمع. والاعتماد على النفس يتطلب الثقة بالنفس، والدقة في العمل، والتحقق منه، حتى تكون أحكامنا صائبة، وأمورنا نافذة، وأقدامنا ثابتة. أما إذا انتفت الثقة بالنفس أو الدقة في العمل، أو التثبت منه، فالاعتماد على النفس حينئذ يكون عبثاً ومن قبيل الأحلام. والرجل الواثق بنفسه ثقة بعيدة عن الغرور والاستبداد، الواثق بقوله وفعله - يستطيع أن يقف وحده منادياً برأيه مبرهناً على سداده وصوابه. وليس من يستقل برأيه في أمر من الأمور يكون مخطئاً دائماً، بل قد يكون مصيباً في رأيه، وقد يسبق في آرائه المجتمع الذي يعيش فيه بعشرات السنين، كما هي الحال في المصلحين الذين يكونون غالباً في واد والمجتمع في واد آخر، لا يقدر رأيهم إلا بعد مماتهم. وبالمصلحين الذين يثقون بأنفسهم يحيا المجتمع. وإذا مدحنا الثقة بالنفس فلا نمدح الإفراط فيها؛ لأنه قد تكون علامة على الضعف لا على القوة، كما لا نمدح ضعف الثقة فإنه دليل على ضعف الشخصية.

المزاج:

من العناصر الهامة المؤثرة في الشخصية: المزاج؛ فالناس يختلفون في أمزجتهم كما يختلفون في شخصيتهم، فهذا متفائل، وذاك متشائم، هذا سريع التأثر، وذاك بليد لا يكاد يتأثر، هذا كثير التردد، وذاك كثير الإقدام. كل له مزاج خاص، وسلوك يختلف باختلاف ذلك المزاج. ولكن ما السبب في اختلاف هذه الأمزجة؟ وللإجابة على هذا السؤال يجب أن نذكر رأي العلماء قديماً وحديثاً، حتى تتضح لنا الأسباب التي من أجلها اختلفت الأمزجة فنقول:

إن العلماء قديماً حاولوا تقسيم الأمزجة إلى أربعة أقسام: دموي، وصفراوي، وبلغمي، وسوداوي. وبنوا هذا التقسيم على السوائل والإفرازات الجسمية. فالشخص الاجتماعي المتفائل الواثق بنفسه، الغيور على عمله، الصافي الذهن، الحاد الذاكرة،

كانوا يعتبرونه كثير الدم، وبعبارة أخرى دموي المزاج. والشخص العنيد السريع الانفعال القوي الإرادة، كانوا يقولون إن لديه كمية زائدة من الصفراء، أو المِرة، ويدعونه صفراوي المزاج. والشخص الهادئ، الذي يغلب عليه الكسل، وتلوح عليه البلادة، الذي لا يبالي ولا يكترث كثيراً ولا يتأثر بسهولة، كانوا يحسبون أن عنده مقداراً زائداً من البلغم، ويسمونه بلغمياً.

أما الشخص الذي تنتابه الأحزان، وتلعب به الوساوس، وتتقاسمه الهموم والمخاوف من غير سبب ولأقل سبب، فكانوا يخالون أن لديه زيادة في المِرة السوداء أو الطحال، ويعدونه سوداوياً. وقد زاد بعضهم مزاجاً خامساً وهو المزاج العصبي الناشئ من وفرة السائل العصبي.

أما المحدثون من العلماء فيرون أن هذا التعليل قديم ولا قيمة له من الوجهة العلمية؛ لأنه مبني على الجهل بعلم وظائف الأعضاء، وعلى نقص في المباحث العلمية قديماً.

وهم إن أنكروا هذا التعليل في اختلاف الأمزجة لا ينكرون اختلافها، ويسلمون بتعدد أنواعها، ويعتقدون أن هناك أسباباً أخرى لاختلاف الأمزجة كالوراثة، والبيئة، والغذاء، والمرض، وضعف الأعصاب، كما يعتقدون أن إفرازات الغدد لها أثر كبير في اختلاف الأمزجة؛ فمزاج الشخص يختلف باختلاف قوة إفراز الغدد أو ضعفه. فلهذه الإفرازات تأثير كبير في

الجسم والعقل، وعنها وعن الأمر السابقة ينشأ الاختلاف في الأمزجة. فالمزاج في رأي المحدثين يتأثر بالمواد الكيميائية وإفرازات الغدد المختلفة التي يحملها الدم إلى المخ والعضلات، لا بوفرة الدم أو الصفراء أو البلغم أو السوداء كما يقول القدامى من العلماء. ومن هذه الغدد:

(1) الغدتان الخاصتان بالكليتين، ولمهما صلة بالانفعالات والعواطف؛ فإذا كان إفرازهما قوياً كان الشخص سهل التأثر، سريع الغضب، وإذا كان إفرازهما ضعيفاً كان حليماً بطئ التأثر قليل الغضب.

(2) والغدد النكفية. وهي غدد صغيرة أسفل العنق، ولها صلة بالذكاء؛ فإذا كانت قوية الإفراز كان الشخص ذكياً، وبالعكس. ويرى (مكدوجُل) وهو حجة في علم النفس أن الضعف العقلي قد ينشأ عن قلة إفراز الغدد النكفية أو عن عدم وجودها.

(3) وغدة تفاحة آدم ولها صلة بنشاط الشخص ومثابرته على العمل، وبالتجربة رأى بعض الأطباء وعلماء وظائف الأعضاء أن للغد تأثيراً قوياً في الإنسان، وقالوا - ونرجو أن تثبت التجارب قولهم - إن العمليات الجراحية يمكن أن تنظم إفراز غدتي الكليتين، وتغيير سلوك الشخص وطباعه. وإذا ثبت أن للغد تأثيراً كبيراً في ذكاء الشخص ومزاجه فينبغي التفكير في معالجة الضعف العقلي، وحدة الطبع من الوجهتين الطبية والنفسية معاً.

ومجمل القول أن الشخصية القوية يجب أن تتحقق فيها العناصر الآتية:

(1) الجاذبية، (2) النشاط العقلي أو الذكاء، (3) المشاركة الوجدانية، (4) الشجاعة، (5) الحكمة، (6) التفاؤل، (7) التواضع وعدم التصنع، (8) حسن مظهر الإنسان وقوامه، (9) قوة البيان، (10) الثقة بالنفس والاعتماد عليها، (11) اعتدال المزاج.

وهناك صفات أخرى كثيرة لابد منها في الشخصية. سنتكلم عنها فيما بعد عند التكلم على أنواع الشخصية والصفات الكمالية لها. ولكن العناصر المذكورة هي الأساسية في تقوية الشخصية الضرورية للنجاح في الحياة.

يتبع

محمد عطية الأبراشي

بين فن التاريخ وفن الحرب

خالد بن الوليد في حروب الردة - 4

للفريق طه باشا الهاشمي

رئيس أركان الجيش العراقي

(لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما في بدني شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة، وهأنذا أموت على فراشي كما يموت البعير! فلا نامت أعين الجبناء)

خالد بن الوليد

الحركات الأولية:

والواضح من أخبار الرواة أن مناوشات طفيفة وقعت قبل أن يتسلم خالد بن الوليد قيادة الجيش للقضاء على أهل الردة في بلاد نجد.

والظاهر أن الرواة لم يتفقوا على أخبار هذه المناوشات جرياً على عادتهم، والروايات المنتهية إلى سيف بن عمر وهو الراوي الذي يستند إليه الطبري في ذكر الكثير من أخباره تبحث في قتال عنيف وقع بين المسلمين وأهل الردة قبل أن يزحف خالد بجيشه إلى طليحة بن خويلد الأسدي في بزاخة. أما الأخبار التي يرويها الواقدي والبلاذري فتذكر قتالاً طفيفاً جرى في ذي القصة أو البقعاء بين مقدمة المسلمين وعبس وذبيان انتهى بهزيمة المرتدين بعد أن رأوا أن كوكب (القسم الأكبر) جيش المسلمين وصل لنجدة المقدمة، وإن قسماً من هذا الجيش طاردهم إلى ثنايا العوسجة، ولما لم يلحق بهم عاد إلى المعسكر.

ولم يتفق الرواة على هذا القتال أجرى قبل عودة جيش أسامة بن زيد أم بعد عودته من بلاد الشام.

ومن الأخبار ما تروي أن كبار الصحابة أشاروا على أبي بكر ألا يرسل جيش أسامة بعد أن وردت الأخبار بارتداد العرب، إلا أن أبا بكر لم يقدم على تغيير ما أمره الرسول به في حياته. والذي اتفق عليه الرواة أن جيش أسامة لم يغب عن المدينة أكثر من شهرين، وكان الجيش متجمعاً في الجرف في شمال المدينة لما توفى الرسول. ومع أن أكثر الرواة يزعم أن أخبار الارتداد في الشرق وفي الشمال وفي الجنوب الشرقي وردت قبل حركة جيش

أسامة - وذلك ما جعل كبار الصحابة يشيرون على الخليفة بإبقاء الجيش ليعتز المسلمون به في محاربتهم أهل الردة - إلا أن الواقع لا يؤيد ذلك إذ لا يعقل أن يصل نعي النبي إلى بلاد عمان والبحرين فيرتد أهلهما ويصل ذلك النعي إلى المدينة وجيش أسامة قاعد لا يحرك ساكناً. وإذا كان الخليفة يريد أن ينفذ أوامر الرسول فلماذا يؤخر حركة هذا الجيش طول هذه المدة؟ وتدل الأنباء على أن أول من أنبأ بالارتداد عامل مكة وأعقبه عامل الطائف بالخبر، ثم ورد عمرو بن العاص إلى المدينة بخبر ارتداد أهل عمان والبحرين ونجد، وكان الرسول بعد حجة الوداع قد أوفده إلى عمان، فلما بلغه نعي النبي قفل راجعاً إلى المدينة وأخبر بوضوح أن الغرب ارتدت من دبا إلى المدينة، والمدة التي تصل فيها أخبار الوفاة إلى عمان ليست قصيرة، كما إن السفر من عمان إلى المدينة أيضاً يتطلب عدة أيام، لأن المسافة بين عمان والمدينة 1250 ميلاً (أعني مسيرة أكثر من عشرين يوماً على الذلول)

ومن الواضح أن كبار الصحابة لم يرتأوا إبقاء جيش أسامة بمجرد رؤيتهم قبائل فزارة وغطفان يرتدون، والأمر الذي لاشك فيه أن خبر امتناع بعض القبائل العربية القريبة من المدينة عن تأدية الزكاة وردت إلى المدينة قبل حركة جيش أسامة.

وإذا صح ادعاء الرواة بأن خبر ارتداد العرب في أقصى البلاد ورد إلى أبي بكر فأطلعه على حرج الموقف قبل سفر جيش أسامة، فيكون الخليفة قد جازف مجازفة خطيرة، بإيفاده الجيش شمالاً بينما كان الخطر يهدد المسلمين في عقر دارهم.

ومن الرواة من يزعم أن أبا بكر شرع في قتال أهل الردة بعد عودة جيش أسامة، ومنهم من يدعي أن قتال ذي القصة والربذة جرى قبل عودة الجيش.

أما نحن فنميل إلى الاعتقاد أن القتال وقع قبل عودة الجيش، إذ لا يعقل أن تتواطأ غطفان على الهجوم على المدينة، وتعلم بأن جيش أسامة مرابط في شمالها. بينما الروايات التي يستند إليها الواقدي والبلاذري تدل على أن قوة المسلمين كانت ضعيفة في ذلك القتال.

الشروع في العصيان:

أول من شرع في العصيان خارجة بن حصن الفزاري من رؤساء بني فزارة، إذ أنه أوقف جابي الزكاة في طريقه إلى المدينة وأخذ منه ما في يده على بني فزارة ورجع الجابي إلى

أبي بكر.

أما القبائل التي ثارت وتظاهرت بالعداء فهي: بنو أسد وغطفان والبعض من بطون طئ، فاجتمع بنو أسد في سميراء، وعلى رأسهم طليحة بن خويلد، واجتمعت فزارة في جنوبي طيبة، واجتمعت عبس وذبيان في الربذة والتف حولهم جماعة من كنانة،

ولما كثر عددهم لم تحملهم البلاد لأن المياه شحيحة والمرعى قليل فتفرقوا إلى فرقتين، فأقامت فرقه بالأبرق بالقرب من الربذة والأخرى في ذي القصة، وأمد طليحة فرقة ذي القصة بقوة من بني الأسد. والداعي إلى تفرقهم هو أن الوقت كان صيفاً، لأن الرسول توفى في شهر ربيع الأول للسنة الحادية عشرة من الهجرة. وهذا التاريخ يوافق شهر حزيران سنة 632 ميلادية. والمياه على ما نعلم تشح في الصيف، وكذلك المرعى تقل حينئذ. فبعثت غطفان وفداً إلى المدينة ليعرض على أبي بكر رغبتها في أن تقيم الصلاة وألا تأتي الزكاة، وكان عيينة بن حصن الفزاوي وأقرع بن حابس في الوفد.

فلم يلب أبو بكر طلبهم برغم إشارة بعض الصحابة عليه بالتساهل معهم إلى أن يعود جيش أسامة، إلا إنه في الوقت نفسه قدر خطورة الموقف لما عاد الوفد إلى أهله. وكان للوفد على ما يظهر مهمتان: عفو الزكاة، والإطلاع على قوة المسلمين في المدينة. وقد لاحظ أبو بكر ذلك، إذ لم يعد الوفد حتى جمع الصحابة وأطلعهم على حرج الموقف وكلفهم بحراسة المدينة ليلاً ونهاراً. فأقام رجالاً في الأبراج لمراقبة الطرق الممتدة إلى المدينة من جهة البادية ورتب قوة احتياطية في المسجد لتكون على استعداد للنجدة عند الحاجة، وحذر أهل المدينة بقوله (إنكم لا تدرون أليلاً تؤتون أم نهاراً وأدناهم منكم على بريد) يشير بذلك إلى قرب المسافة بين المدينة والقبائل المتحفزة للهجوم.

وقد يعجب الإنسان بصلابة أبي بكر في رفضه طلب الوفد بعد اطلاعه على أخبار عماله لدى القبائل وسماعه حديث عمرو بن العاص. وكانت جميعها تنبئ بارتداد العرب عامة أو خاصة ولا يوجد في المدينة سوى نفر قليل وجيش أسامة بعيد عنها.

ونظراً إلى ما ذكره الواقدي في كتاب الردة أن أبا بكر لم يكتف بالتدابير التي اتخذها في المدينة، بل طلب من القبائل العربية كأسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينة وكعب أن تمده بالرجال فأسرعت إلى نجدته. فأخذ الناس يتوافدون إلى المدينة بسلاحهم، وأرسلت جهينة
أربعمائة راكب.

وإذا صدقنا رواية سيف بن عمر التي نقلها الطبري، ظهر لنا أن ظن أبي بكر كان في محله، إذ لم تمض ثلاثة أيام على عودة الوفد حتى كان المرتدون قد غزوا المدينة ليلاً.

لابد أن الوفد بعد عودته أخبر القبائل المتحفزة للهجوم عن ضعف قوة المسلمين بالمدينة وشجعها على الهجوم وكانت من غطفان، وهي عبس وذبيان وفزارة على ما نعلم.

المواقع التي جرى القتال فيها:

وردت أسماء السميراء والربذة وطيبة والأبرق وذي القصة عند البحث في تجمع القبائل. ولا يوجد الآن من هذه الأسماء في الخرائط الحالية إلا السميراء. ولنا من الأخبار التي نستقيها من رواة العرب الأقدمين أن القبائل الساكنة في شرقي المدينة وعلى طرفي الطرق الذاهبة إلى العراق وخليج فارس هي بنو سليم وهي أقربها إلى المدينة في الشمال الشرقي، ثم يليها بنو كلاب إلى شمال بني سليم، ثم عبس وذبيان في شرقي حرة خيبر إلى الشمال.

أما قبائل طي فتسكن في جبليها أجأ وسلمى، وفي شرقي بني عبس وذبيان وفزارة من غطفان في وسط وادي الرمة وعلى جانبيه.

وتأتي بعدها قبائل بني أسد. وموقع سميراء على ما يظهر من الخريطة واقع إلى شمالي وادي الرمة، ويبدأ منه وادي السميراء الذي يصب في الوادي في جوار الحاجر.

الربذة:

يذكر ياقوت الحموي أن موقع الربذة على الطريق التي تصل موقع فيد بالمدينة. وفيد في حي طئ وهي قرية من قرى جبل شمر واقعة إلى شرقي جبل سلمى على الطريق التي تصل الكوفة بالمدينة ويمر بها طريق الحج، وهي بعيدة عن المدينة مسافة ست مراحل.

وتلتقي فيها عدة طرق من الجوف والعراق والمدينة وبريدة والرس.

والربذة على هذه الطريق، وهي تبعد عن المدينة أربعة وعشرين فرسخاً، وواقعة إلى شمالي شرقها، ولعل موقع حناكية الحالي هو موقع الربذة القديم أو قريب منه، لأن

بعده عن المدينة زهاء ثمانين ميلاً. والفرسخ العربي طوله أربعة كيلومترات ونصف كيلومتر أو أربعة كيلومترات. والذي يجعلنا نميل إلى ذلك إن القوة لم تجتمع في الربذة بل في
الأبارق، وكلمة أبارق إسم خاص لبعض المحلات تدل على أرض حجرية ورملية مختلطة.
وموقع الحناكية بالقرب من حدود حرة خيبر، والحرة على ما نعلم أرض بركانية خامدة وفيها محلات يتراكم الماء فيها. ومادامت القبائل مجتمعة فيها فلابد حينئذ من وجود الماء فيها. والحناكية واقعة في بطن وادي الحمض.
ذو القصة أو البقعاء:
والظاهر إن كلتيهما تدلان على موقع واحد في شرقي المدينة وقريب منها، وهو بلا شك على الطريق التي تمتد إلى المدينة في غربي الربذة أو في جنوبها، وهو أما الشقرة أو السابية.
والأخبار تدل على أن أبا بكر بعد أن هزم المرتدين في البقعاء طاردهم بخيله إلى ثنايا العوسجة بالقرب من الركبة، وهذا الموقع الأخير واد يصب في الرمة، ولعله وادي الركب الذي ينبع من حرة خيبر ويجري شمالاً في شرق وثنايا العوسجة في المحل الضيق الذي يتسلق فيه الطريق صاعداً إلى رأس الوادي أو ينزل منحدراً منه.
أما موقع طيبة الذي اجتمع فيه غطفان وفزارة فلم نعثر عليه في معجم البلدان ولعله في شرقي الربذة أو في شماليه. أو إنه موقع طابة في سفح جبل سلمى الجنوبي في شمالي السميراء وهو من ديار غوث من طئ.
مباغتة المدينة:
لم يهجم المرتدون بكل قوتهم لأنهم أرادوا أن يكونوا خفافاً فتركوا قسماً منهم في يدي حسى بين ذي القصة والمدينة ليكون ردءاً لهم، واقتربوا ليلاً من المدينة ولم يباغتوها لأن العيون أخبرت المسلمين بدنوهم، فقاتلتهم الربايا الخارجية، وأسرع أبو بكر بمن في المسجد فأنجد الربيئات وهزم الهاجمين، ولم يكتف بذلك بل هاجمهم على الجمال التي تسقى الماء من الآبار لاسقاء مزارع المدينة، إلى أن نفرت الإبل من الجلود المنفوخة التي دهدهها الفارون من أعلى الروابي، فرجعت على أعقابها نافرة حتى دخلت المدينة.
والظاهر أن الهاجمين لم يكونوا في قوة كبيرة، ولا سيما بعد أن تركوا قسماً منهم في الخلف. ويظهر أنهم من بني عبس وذبيان. أما فزارة فبقيت في ذي القصة. وهكذا انقسمت
القوة التي أرادت أن تهاجم المدينة إلى ثلاثة أقسام: قسم في ذي القصة وقسم في ذي حسى، والقسم الثالث أغار على المدينة. أما قوة المسلمين فلا شك في أنها كانت ضعيفة، ولعلها لم تزد على المائتين.
وتشجع المرتدون من فرار جمال المسلمين وظنوا بهم الوهن، وبعثوا إلى من بذي القصة بالخبر فلحقوا بهم.
يتبع
طه الهاشمي
في الأدب الدرامي
الرواية المسرحية في التاريخ والفن - 11
بقلم احمد حسن الزيات
تحليل موجز لأشهر ملاهي موليير
' البخيل)
موضوعها وصف البخيل، وأهم أشخاصها أرباجون البخيل أبو كليانت وإيليز وعاشق مريان، وكليانت بن أرباجون وحبيب مريان، وإيليز بنت أرباجون وحبيبة فالير بن أنْسِلم، ومريان بنت أنسلم وحبيبة كليانت ومحبوبة أرباجون، وأنسلم أحد الأغنياء وأبو فالير ومريان، ومترجاك طباخ البخيل وسائقه، وفرسين امرأة محتالة، ولافيش خادم كليانت، وسيمون سمسار. وقد وقعت حوادثها في بيت أرباجون بباريس.
الفصل الأول: (كنز أرباجون ومشروع زواجه)
يتنكر فالير حبيب إيليز، ويقيمه البخيل وكيلاً على بيته، فيعلن إلى ابنته غرامه، ويشكو

إليها بثه، فتعده بالزواج. ويدخل كليانت فيفضي إلى أخته بحبه لفتاة فقيرة شريفة تدعى مريان. ويشكو إليها عجزه عن مساعدتها لبخل أبيه، فهو يبحث عن مرابٍ يقترض منه ما يصلح به حالها. ثم يدخل أرباجون البخيل وهو يشاجر خادمه (لافيش) في عنف ويتهمه بالسرقة، فيقرره ويعزره ويبحث في جيبه ومطاوي ثوبه ثم يطرده، وهو لا يتحرج أن يعامل ولديه معاملة العدو، ويتهمهما بالتبذير. وحينما يريد الولدان أن ينبئاه بمشروع زواجيهما يفاجئهما هو بأنه عقد العزم على الزواج من مريان، وأنه فكر في مستقبل ولديه فخطب لكليانت أرملة غنية، ولإيليز أنسلم المثرى، لأنه قبل أن يتزوج منها من غير مهر تسوقه إليه. ثم هو لا يقبل جدلاً ولا يريد مشورة. ويدخل فالير فيتخذونه في الموضوع حكماً.

الفصل الثاني: (ربا أرباجون) يريد كليانت أن يقترض خمسة عشر ألف فرنك فيجدها له السمسار سيمون بشروط فادحة وربح خمسة وعشرين في المائة. ويقبض منها كليانت اثني عشر ألف فرنك عيناً، ثم يأخذ بباقيها مجموعة من الأثاث البالي. على أن أغرب ما في المسألة أن السمسار يطلب هذا القرض من أرباجون، فيقف الابن أمام الأب موقفاً غريباً يتبادلان فيه ألفاظ التقريع على بخل أحدهما وتبذير الآخر، فلا يخرجهما من هذا الموقف الحرج إلا دخول (فرسين) المحتالة، تعلن إلى أرباجون أن أم مريان قبلت أن تزوجه من ابنتها، وهي تطلب منه مقداراً من المال يسيراً تستعين به على كسب قضية لها في المحكمة، فيبادر إلى الخروج قائلاً: آه! إن أحد الناس يدعوني. . .

الفصل الثالث: (إعداد المأدبة) دعا أرباجون أنسلم وابنته مريان إلى العشاء. فهو يوزع العمل على خدمه: فيأمر كلود أن تنظف البيت، ويحذرها أن تحك الأثاث بقوة مخافة أن يبلى، ويخصص (براندافوان) (والامرلوش) للشراب، وينهاهما أن يقدماه إلا إلى من به ظمأ شديد، ويوكل إيليز بملاحظة المائدة، ويأمر الطاهي جاك أن يهيئ الطعام بثمن زهيد. ولكن المترجاك يؤدي عمل الطاهي وعمل الحوذي معاً، فهو باعتباره الأول يطلب مالاً كثيراً، فيغضب أرباجون ويرشده إلى صنع المآكل التي تصد النفس وتميت الشهوة، ويرفض باعتباره الثاني أن يشد الخيل إلى العربة، لأن الجوع قد أضناها والتعب قد أنهكها، ويلوم سيده على شحه القبيح فينهال عليه البخيل ضرباً بهرواته.

الفصل الرابع: (سرقة الكنز) يعثر الخادم (لافيش) على كنز سيده البخيل مدفوناً في الحديقة فيأتي به إلى كليانت. ويحاول الابن أن يحول بين الأب وبين زواجه من مريان، فيرميها عنده بالخلاعة والجفاء والغباوة، ويرتاب الأب في نصيحة ابنه، فيتظاهر بأنه يريد أن يزوجه منها حتى يحمله على الإقرار بحبه إياها؛ فتثور ثائرة البخيل، ويلوح له بالعصا، ويحاول أن يصده عن حبها فيأبى كليانت فيخرجه الأب من ميراثه ويلعنه، ثم يفتقد الكنز فلا يجده، فينسى مشروعاته الجميلة، ويصيح بملء صوته: يا لي من اللص!! يا لي من القاتل! يا لي من السفاك!. ثم يفزع إلى القضاء يريد أن يشنق كل الناس، حتى إذا لم يجد كنزه شنق نفسه. وهذا الموقف من أبدع مواقف الرواية.

الفصل الخامس: (وجود الكنز): يحضر رجال الشرطة فيسألون (الأسطا جاك) فيتهم الوكيل فالير. ويدخل الوكيل فيشهر به أرباجون ويقول له: أريد أن تخبرني عن المكان الذي خطفتها منه، فيظن فالير أنه يكلمه عن إيليز فيجيبه: إني

لم أخطفها، ولا تزال عندك في منزلك. ويستمر هذا الخطأ بينهما طويلاً، ثم ينتهي بأن يبوح فالير بحبه إيليز، ويدخل حينئذ أنسلم فيعرف ابنه فالير وابنته مريان، وقد فقدهما منذ ست عشرة سنة. ثم يقترح أن يتزوج فالير من إيليز وكليانت من مريان، فيقبل البخيل على شرط أن يردوا إليه كنزه، وألا يغرم صداقاً إلى ولديه، وأن يفصلوا له ثوباً جديداً يوم الزفاف. وتنتهي الملهاة بقول أرباجون: ولنذهب لنرى كنزي العزيز! هذه الملهاة متقنة محكمة، فحركة العمل فيها سريعة قوية، والأخلاق تبدو ظاهرة جلية، والحوار طبيعي حي يملك الذهن ويسترعي الأسماع. ولكنهم يأخذون عليها أن الموضوع محزن وان الحل ضعيف.

النساء العالمات)

موضوعها تحذلق النساء وتركهن تدبير البيت، واشتغالهن بالفلسفة والحساب والفلك. وأهم أشخاصها: كريزال وزوجته فيلامنت، وابنتاه ارماند وهنرييت، وأخوه أريست وأخته بيليز وخادمته مارتين، ثم كليتاندر حبيب هنرييت وتريسوتين أحد الأذكياء، فاديوس أحد العلماء. وقد وقعت حوادثها في منزل كريزال بباريس.

الفصل الأول:

هنرييت ترغب في الزواج من كليتاندر، ولكن أختها أرماند المتحذلقة تنصح لها أن ترفض هذا الزواج وتعكف على دراسة العلم فإن ذلك أخلق بالمرأة اللبقة الذكية، وتضرب لها المثل بأمها وخمولها في الأندية والمجامع لجهلها، فتتهمها هنرييت بالغيرة وتناقشها في الموضوع بحضرة كليتاندر، فيفصل في هذه المسألة بتصريحه أن الدكاترة من النساء لا يلائمن ذوقه، وأنه يفضل أن تكون المرأة مستنيرة فاهمة، لا متشدقة عالمة. هو إذن يختار هنرييت، ولكنه لا يجرؤ على مكاشفة أمها فيلامنت بحبه، لأنها مولعة بالمدعي تريسوتين، وهو يحتقره لادعائه وحذلقته. وتدخل بيليز فيستميلها إليه ويصارحها بأمره، فتظن أن هذا الحب لها لا لغيرها.

الفصل الثاني:

يأخذ على نفسه أريست أخو كريزال أن يخطب هنرييت لكليتاندر، فهو يقول لأخيه: إن كليتاندر فقير من المال ولكنه غني بالفضيلة. فيجيبه كريزال إلى طلبه، ثم يذهب إلى زوجته يقنعها به، وفي تلك الساعة تطرد فيلامنت خادمتها مارتين، لا لأنها كسرت وعاء أو سرقت إناء، ولكن لأنها أهانت النحو والقواعد. ويضعف كريزال أمام امرأته فيقر هذا الطرد، ولكنه يسخط كل السخط على حمق النساء العالمات، ويختصر شكواه في هذا البيت الجميل:

إنني أعيش بالحساء الجيد ... لا بالإنشاء البليغ!

فإذا ما كلمها في زواج هنرييت من كليتاندر تأبى الأباء كله، وتعلن إليه أنها ستزوجها من الشاعر الأديب تريسوتين. ويحرض أريست أخاه على المقاومة حتى يرفع عن كاهله نير هذا الظلم الفادح.

الفصل الثالث:

يقرأ تريسوتين للعالمات فيلامنت وأرمان وبيليز موشحاً وأهجية من نظم الأميرة (أوراني)

فيملك عليهن حواسهن وأنفاسهن، إلا هنرييت فتظل فارغة البال من كل ذلك. لم يكتب هؤلاء المتحذلقات شيئاً، ولكنهن يردن أن يتعمقن في العلوم، وينشئن أكاديمية لهن كأكاديمية الرجال. ويقبل المتفيهق فاديوس فيصفه ترسوتين للنسوة بأنه أعلم الفرنسيين باللغة اليونانية، وأبرع الأدباء في صناعتي النظم والنثر. ويبادله المتحذلقات صنوف التحية وضروب التعظيم، ثم ينتقد فاديوس موشح الأميرة (أوراني)، دون أن يعلم أنه من نظم تريسوتين، فيتخاصم الرجلان ويتسابان بأفحش السباب. ويخرج فاديوس محنقاً يتحدى خصمه بقوله: (إني أدعوك لمساجلتي في النظم والنثر واللاتينية واليونانية). وتعزي فيلامنت صديقها تريسوتين عن هذه الفضيحة بأن تقدم إليه ابنتها هنرييت لتكون له زوجة، ويصر كريزال على أن يزوج ابنته من كليتاندر.

الفصل الرابع:
تتلهب فيلامنت من الغيظ، فتقسم أن تقطع زوجها عن عزمه، وتنفذ إرادتها على هنرييت، ويلقى إليهما تلك الساعة كتاب من فاديوس يتهم فيه تريسوتين بالنفاق والطمع في ثروة هنرييت، فلا يضعضع ذلك من عزم فيلامنت فتبعث في طلب المأذون (المسجل)؛ ولكن كريزال يصمم على رأيه فلا يتقهقر.
الفصل الخامس:
تسخر هنرييت من تريسوتين، وتريده على أن يرفض زواجها، وأبوها يرغى ويزبد موغر الصدر على أمها، ويقول إني أريد أن أعلمها كيف تعيش، ولقد أرجعت مارتين إلى الخدمة على الرغم منها. وتدخل حينئذ فيلامنت وفي أثرها المأذون وتريسوتين، ويصل الأمر في العقد إلى تسمية الزوج فتقول الأم: تريسوتين. ويقول الأب: كليتاندر. فتغضب فيلامنت وتنتصر الخادم مارتين لسيدها فلا تزداد السيدة إلا عتواً وإصراراً ويوشك كريزال أن يسلم الأمر إلى امرأته لولا أن يدخل أخوه أريست، فيخبرهم بالكذب أن أسرتهم قد أفلست لخسرانها قضية كبيرة. فلم يكد يسمع تريسوتين النبأ حتى يدير لهم ظهره ويخرج فيظهر نفاقه وأثرته، وينتهي الأمر بانتصار كريزال وتحقيق أمل كليتاندر.
يتبع
(الزيات)
إلى الفردوسي
أتينا محتفلين
للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي
ذهب شاعر الفراتين ممثلاً للأدب العراقي في الاحتفال الألفي بالفردوسي، فألقى (على قبر الشاعر الخالد هذه القصيدة الخالدة)
1
أنت في شعرٍ كان فتحاً مبينا ... واحدٌ من أولئك الخالدينا
بعد ألفٍ من السنين أتينا ... بك يا فردوسيّ محتفلينا
وإلى قبرك الذي فيه تغفو ... نحمل الورد الغضّ والياسمينا
ولو أن الإحداث ألفى مساغا ... جعل القوم حجّ قبرك دينا
لك في تأريخ الملوك كتابٌ ... يحمل الوحي والهدى واليقينا
قمت في نظمه ثلاثين عاما ... ثم لم تسأم طول تلك السنينا
حزت حينا تجلّةً واحتراما ... وتألمتَ للمصائب حينا
2
شاعرٌ أنت جامعٌ للمزايا ... خالدٌ لا تدنو إليك المنايا
أنت في دولة البيان بحقٍ ... ملكٌ ذو عرشٍ ونحن الرعايا
جاء ما قد نظمته من كتاب ... تحفةً فارسيةً للبرايا
ولقد أهديت الكتاب إلى مَن ... لم يكن ذا علم بقدر الهدايا
وألمّت بك الرزايا ولكن ... أنت ما كنت عابئاً بالرزايا
يا إمام القريض بعدك فينا ... نفد الشعر الجزل إلا بقايا
قد طلبنا التحرير للشعر حتى ... كثرت في الطلاب منا الضحايا
3
إن ما قد قصصته من حروب ... سوف يبقى تأثيره في القلوب
أنت شمسٌ لها البيان شعاعٌ ... لم تمل في طريقها للغروب
ما لإلياذةَ التي حبّرتها ... يد هومير مثلُ ذا الأسلوب
تلك ليلٌ جهمٌ وهذا صباحٌ ... مسفرٌ ما بوجهه من شحوب
كنت تمشي إلى الأمام حثيثا ... بخطىً لم تخلق لغير الوثوب
يهتف اليوم الوافدون من الأقطار أفواجاً باسمك المحبوب
جلّ ما قد نظمته في مزايا ... الفارسيين عن جميع العيوب
4
أنت في شعرك البليغ إمام ... فسلام عليك ثم سلام
حبذا ما نظمتَه من كتاب ... أكبرته الشعوب والأقوام

أنت للشرق شاعرٌ عبقريٌّ ... تتغذى بقوله الأفهام
أهو السحر أم هو الإلهام ... (لست أدري وليتني كنت أدري)
كنت للناس كوكباً ذا بهاء ... أينما ألقى النورَ زال الظلام
في رياض الآداب غرسك يحكى ... شجراً من أثماره الآلام
حُلُماً كان ما أملتَ ولكن ... بعد ألفٍ قد صحّت الأحلام
5
أنت يا من بهرتَ بالشعر عيني ... شاعرُ المشرقين والمغربين
أنت لو تمسك الثريا بأيدٍ ... شعراءٌ، أمسكتَها باليدين
أنت مما تشعّه من ضياء ... يملأ العين، ثالث القمرين
ما كتاب الملوك إلا بلاغ ... من أبي قاسمٍ إلى المَلَوَين
كلما جئت منه أقرأ فصلا ... أسبلت عيني فوقه دمعتين
تحفةٌ من بلاغة وشعورٍ ... قد جَلَتْ ما بخاطري من رَيْن
جمعت بعد أن مضى ألفُ عامٍ ... بينه لُحمةُ القريض وبيني
6
إن ما ناله الردى من حياتك ... لم ينله للعجز من كلماتك
أنت في شعرك البليغ نبيّ ... وكتاب الملوك من معجزاتك
لك فيه بلاغة أدهشتنا ... أي روحٍ نفختَ في أبياتك
كُلُ ما كنا قد نظمناه قبلاً ... نظرةٌ في الحياة من نظراتك
كل ما عندنا من النظم والنث ... ر قبسناه من سنا آياتك
كل ما قلناه في هذه الذك ... رى ثناءً عليك بعضُ صفاتك
قيل لي أنت في حفيرٍ ولكن ... لم أجد في الحفير غيرَ رفاتك
7
قصّرت في تقديرك الآباء ... فتلافت ما فاتها الأبناء
بعد ألفٍ من السنين أقامت ... لك نيروزاً أمةٌ شمّاء
لك يا حجة البلاغة شعرٌ ... عجزت عن تقليده الشعراء
بمصابيح شعرك ازدانت الأر ... ض كما ازدانت بالنجوم السماء
نمّقته يراعةٌ ذات حَوْلٍ ... وبه لوّحت يدٌ بيضاء
وإذا ضِيم الشاعر الحر يوماً ... في بلاد جلاه عنها الإباء
بعد آمالٍ كنّ فيك خيالاً ... فاجأتك الحقيقة السوداء
8
يا كتاب الملوك أنت كتابٌ ... فيه للناس حكمةٌ وصواب
خلق الفردوسيّ منك خِضمّاً ... فاض يرغو كما يفيض العُباب
بك للشرق ما اهتدى الشرق فخرٌ ... بك للغرب ما ارتقى إعجاب
بك في أمةٍ قد ازدادت الأخ ... لاق طيبا وازدانت الآداب
معجزاتٌ وراءها معجزاتٌ ... آمنت إعجابا بها الألباب
إنما في الشعر الحقيقة أصلٌ ... والخيالات كلها أثواب
وإذا أنكر النبوغ على الشر ... ق فريقٌ فأنت أنت الجواب
9
الذي لم يقم به الغَزْنَويّ ... قام مستوفيا به البهلويّ
ملكٌ من أرقى الملوك عظيم ... لاسمه في سمع الزمان دويّ
ملكٌ بالسياستين خبير ... وله فيهما الطريق السويّ
أخضع الأمة العظيمة بالحسنى فلله عطفه الأبويّ
وإذا قوة الإرادة حلّت ... جلّ فيهم تأثيرها المعنويّ
والذي لا يرى الحقيقة أعمى ... والذي ينكر الرشاد غويّ
إنما اليوم ليس يصلح للمُلْ ... ك على وجه الأرض إلا القويّ
10
إنك السيف في يد الأيام ... قد نضته للحرب أو للسلام
حاقناً للدماء بالمثل منها ... في صدام الأقوام بالأقوام
في يديك القويتين إذا الأمر ... دعا حقّ النقض والإبرام

وإذا ما بدأت يوما بأصلا ... حٍ جديد فالبدء للإتمام
حبذا إيرانٌ وعمرانُ إيرا ... نَ وما في بلادها من نظام
ولقد سرّني كما سرّ غيري ... ما بها من نزاهة الأحكام
زرتُ بالأمس الروضَ أمتِع عيني ... وإذا الورد فيه ذو أكمام
11
أهلُ إيرانَ والحديث شجون ... أمةٌ ما بها يليق السكون
شأنها في التاريخ أكبر شأنٍ ... حبذا في التاريخ تلك الشؤون
وعلى عين الشرق رانَ رقادٌ ... دونه في غير الرجاء المنون
ثم أنحى ينبّه الشرق منه ... مَلِكٌ حدُّ سيفه مسنون
إنه لما قام للمجد يدعو ... شخصت عن بعدٍ إليه العيون
طار بالشعب كله للثريا ... صاعداً لو يكون ما لا يكون
سيعود المجد القديم لإيرا ... نَ فتفضي إلى اليقين الظنون
12
أيها الشعر إنك ابن شعوري ... تغتذي من كآبتي وسروري
حاملاً ضحكة الذي عيشه كا ... ن رغيداً أو دمعةَ الموتور
سالماً من ضعفٍ يريبك منه ... خالياً من زوائد وقشور
ليس شعراً ما ليس في شعورٌ ... لا يهيج الشعورَ غيرُ الشعور
وإذا الشعر لم تهزّك منه ... روعةٌ فهو جامدٌ كالقبور
إنما الشاعر الموفق يمشي ... من خلودٍ على رقاب الدهور
معجَبٌ بالهزار كل بني الأر ... ض وإن لم يكن سوى عصفور
جميل صدقي الزهاوي

شوقي أيضاً

قطعة كتبها الأستاذ البشري صدراً لحديثه في الراديو عن ذكرى شوقي، ثم بدا له أن يرتجل.

سيداتي سادتي:

في مثل هذا اليوم من عامين مضيا أذّن مؤذن أن البلبل قد سكت بعد طول سجعه وتغريده، وأن الزهر قد ذبل بعد إشراقه وتوريده، وأن النجم قد هوى فلم يعد يتألق، وأن الغدير قد غاض وهيهات له بعد الآن أن يترقرق.

مات شوقي ولو كان شوقي كسائر الناس ما كان لموته جليل خطر. ولرب رجل يموت فلا يفرق المجموع بين موته وحياته. ولكن موت شوقي شيء آخر. . أرأيت إلى النهر إذا يبس وإلى المطر حين يحتبس؟ وارحمتا للسارين إذا لحق النجم الغروب، وقد تشعبت الطرق واختلفت رؤوس الدروب!

لقد كان شوقي نعمة من النعم العامة التي تفضل الله بها على هذه البلاد، بل التي تفضل بها على أبناء العربية جمعاء. فموته من المصائب العامة التي يحس خطرها كل امرئ يقدر روعة الفكر، ويحتفل لأبهى صور الجمال.

ولو إن الله تعالى بعث الشعور في مظاهر هذه الطبيعة وأقدرها على النطق، لشارك في إحياء ذكرى شوقي البحر الخضم، والجبل الأشم، والفلك الدائر، والنجم المختلج الحائر، والعود إذا أورق، والزهر إذا نوّر وأشرق، ولاجتمعت لمأتمه كل سجوع من بنات الهديل، يقمن عليه المناحات بأحد النواح وأحر العويل. فلقد طالما أضحك وسرى، ولقد طالما أطرب وأشجى، ولكم جلا من صور الطبيعة فأجاد وأحكم، وأنطق الصخر في مرسخه لو كان الصخر يتكلم، ولكم لاغى الطير غادية ورائحه، ولكم لاعب الغزلان شاردة وسانحة، ولكم داعب الغصن حتى تثنى خصره، وغازل الزهر حتى تنفس بهواه أرجه وعطره!

شوقي لم يمت، ومثل شوقي لا يموت أبداً، بل إنه ليزداد حياة على طوال الأجيال. هذا شوقي حي أقوى الحياة في بيانه القوي، وسيظل هذا البيان المشرع العذب النمير ينهل منه بنو العروبة ما قدّرت للعربية في هذه الدنيا حياة.

سيداتي سادتي:

وافقت ليلة حديثي ذكرى وفاة أمير الشعراء. ولابد من أن أقول فيه كلاماً، ولكن كيف لي

بهذا الكلام، وقد جئت الليلة إلى المحطة وأنا متداع متهدم من أثر المرض، هذا فضلاً عن أنني لا أذكر أنني كتبت في إنسان مثل ما كتبت في شوقي. فلقد جلوت له من ثماني سنوات (مرآة) عريضة في السياسة الأسبوعية، وحللت تاريخه وشخصيته وشاعريته في كتاب المفصل المقرر للسنين الأخيرة في التعليم الثانوي. وكتبت فيه هذه الأيام كلاماً كثيراً سينشر هذا الأسبوع في مجلة (الرسالة) بمناسبة هذه الذكرى أيضاً، فلم يبق لي مع هذه الأحوال طاقة بجديد فيه الآن، فأرجوكم أن تعذروني إذا حدثتكم بعد هذا بنبذ مما سبق به القول، أقتبسها من هنا ومن هنا، ولعلها تجلو شوقي على من لم يدرسه بعض الجلاء.

عبد العزيز البشري

العلوم

بحث في أصل الإنسان - 5

بقلم نعيم علي راغب

دبلوم عال في الجغرافية

إذا قلنا إن الإنسان يمتاز من سائر الحيوان بقواه العقلية وقدرته على التفكير الحر فيجب ألا ننسى حينئذ أن من أهم مميزات الإنسان اعتدال قامته وعدم اعتماده على شئ عند المشي: لكنا مع ذلك لا نستطيع القول بأنه خلق كذلك، لأن صغار القردة تكون ذات جسم معتدل تحمل جسمها وكل عضلاته في صغرها على اتجاه عمودي، إلا أن أقدامها لا تساعدها على البقاء كذلك في سيرها، ولا يمكن لجسمها الاحتفاظ بتوازنه عليها، لأنها لا زالت تعد وتستعمل أداة للقبض، فانفرج ما بين أصابعها لهذا الغرض، بعكس الجنس الإنساني الذي تطورت حاملة قدميه، فصار في طاقته المشي عليهما وحدهما دون الاعتماد على يديه.

هناك أجزاء ثلاثة: وهي القدم وعظام الفخذ والسلسلة الفقرية، وقد كان في تطورها والتغيرات التي حدثت بها أكبر مساعد على اعتدال قامة الإنسان وقدرته على المشي وحده. ولذلك يمكننا أن نحكم على أي مخلوق بالدرجة التي وصل إليها مقترباً من الإنسانية أو مبتعداً عنها بمجرد فحص عظمة فخذ أو عظمة من عظامه المتحجرة.

كيف وقف إنسان جاوة

إذا نحن دققنا البحث في عظمة فخذ إنسان جاوة وهي الأثر الذي تركه، نجدها طويلة دقيقة إنسانية في كل شئ، تدلنا على إن ذلك الإنسان أو المخلوق الذي صارت هي بقيته الباقية، لابد وأنه كان يسير مستقيم الظهر يعرف الجري والقفز. . . حقيقة هنالك بعض اختلافات في تكوين وشكل هذه العظام المتحجرة إلا إن هذه الاختلافات لا تبعدها عن كونها إنسانية ولا تقربها بأي حال من الأحوال من شكل عظم فخذ القردة. وبرغم أوجه الشبه بين الإنسان القرد والقرد فإنه كان إنساناً. ومن شكل وطول عظمة الفخذ هذه يمكننا أن نصور إنسان جاوة بأنه كان نحيفاً تبلغ قامته 5 أقدام و9 بوصات وأنه كان معتدلها يمشي كما نمشي نحن الآن تماماً.

وهنا يمكننا أن نقول بكل ثقة إن الإنسان قد اكتسب هذا الاعتدال في القامة والمشي قبل نهاية عصر البليوسين وإننا إذا أردنا البحث عن حاله قبل ذلك فإنه يجب علينا حينئذ أن نتوغل في عصر جيولوجي أقدم من ذلك بكثير ولكن قبل أن نتقدم بذلك يحسن بنا أن نذكرك بالحقيقة الهامة وهي إن الإنسان قد اكتسب قوامه المعتدل قبل اكتسابه قوامه الفكرية كإنسان، وإنه قد ظل مطبوعاً بطابع القردة في شكل الفك والجمجمة حتى نهاية عصر البليوسين، وبدء عصر البلستوسين.

وبواسطة تلك الآثار والمخلفات التي وجدناها في المقابر والكهوف ومدرجات الأنهار، أمكننا أن نتتبع تاريخ الإنسان إلى عصور سحيقة من عصور التاريخ متناهية في القدم. وعندما أردنا البحث في ذلك بدأنا البحث في بقايا العصور الحديثة، ومنها تعمقنا إلى ما هو أقدم منها، وطريقنا في ذلك سهلة للغاية، فإننا نبدأ بالعلومكي نصل إلى المجهول، وبالظاهر حتى نكشف عن الخفي، ولذلك فإنه بفضل تلك الأدوات والمخلفات الصخرية القديمة قد أمكننا أن نتتبع تاريخ الإنسان في عصر البلستوسين، ومنه تدرجنا إلى البليوسين.

جولة في عصر ذوات الثدي (العصر الثالث)

لذلك سوف نتعمق في أبحاثنا نحو عصر من العصور القديمة جداً، هو العصر الثالث أو الـ ولكن قبل أن نخوض في غمار ذلك البحث نجد لزاماً علينا نحو القارئ الكريم أن نعطيه فكرة عن ذلك العصر الذي ذكرناه.

لازلنا نذكر أننا قد أعطينا في مقال سابق تحت عنوان مقال اليوم مقياساً تقديرياً لعصور الكهف ومدرجات الأنهار وتتابع الطبقات وأعمارها في كل منهما، وسنجد أنفسنا مضطرين لأن نفعل ذلك في ذلك العصر الذي نحن بصدده الآن.

من الشكل (8) يمكنك أن ترى تتابع عصر البلسوسين لعصر البليوسين، وهذان العصران يفصلهما حد زمني له أهمية في هذا المجال لأنه عند تخطي عصر البليوسين للعصر الذي يتبعه نجد اختلافاً كبيراً في شكل الحيوانات الثدية الموجودة به، ولذلك فإن علماء الجيولوجيا يعتبرون عصر البلستوسين أول مجموعة من المجاميع التي تكون حلقات تاريخ

الأرض وتاريخ الإنسان الذي سكنها، وقد وضع لهذه المجموعة اسم وهي تبدأ بعصر البلستوسين وتنتهي حينما تراجع الخط الجليدي إلى الدائرة القطبية.

أما الحلقة الثانية فقد بدأت (على قول العلماء) بعد ذلك بنحو عشرة أو اثني عشر ألف سنة، وفي إبانها أخذت الإنسانية تظهر بمظهرها الحديث، ويبدأ الإنسان بإعداد نفسه بصقل مواهبه وقواه الفكرية، ليغزو العالم ويسيطر على عرشه الذي قد أعده الله له.

أما عصر البليوسين وهو الذي يقع في الجانب الآخر من هذا الفاصل فهو الرابع والأخير لمجموعة تكون إحدى حلقات السلسلة التي تكلمنا عنها، وهذه المجموعة هي التي أطلق عليها العلماء اسم

وأما الحلقة الثالثة وهي عصر الميوسين فإنها تشمل مدة أطول من مدة عصر البليوسين. ولما كانت الطبقات التي تدل عليه وتحمل آثاره يبلغ سمكها 9000 قدم، بينما طبقات البليوسين لم تتجاوز 5000 قدم، وإذا كنا قد قدرنا عمراً لعصر البليوسين مقداره 250 ألف سنة بالنسبة إلى سمك طبقاته، فإننا لا نغالي إذا قدرنا لهذا العصر من العمر 450 ألف سنة.

وأما ثاني حلقات عصر الـ وهو الأوليجوسين فإنها تغمر عصراً أطول من سابقتها، وقد بلغ سمك طبقاتها 12 ألف قدم، ولذلك فإنه لا يسعنا أن نقدر لها عمراً أقل من 600 ألف سنة.

نصل بعد ذلك إلى أولى وأقدم حلقات هذا العصر وهي الأيوسين ونقدر لها عمراً 600 ألف سنة أخرى وذلك بالنسبة إلى سمك طبقاتها التي تساوي أو تقارب سمك الحلقة السابقة.

هذه هي الحلقات التي يتكون منها العصر المسمى وهي في الدرجة الأولى من الأهمية في تطور الإنسان. إذ إنها تشمل فجر نشوء الحيوانات آكلة الخضروات، وهي التي ترضع صغارها، وهي كلها من ذوات الرحم عدا أنواع قلائل يمكن استثناؤها. وفي فجر هذا العصر بدأت ذوات الثدي في تغيير شكلها وتكوينها تغيراً كبيراً، وتغلبت في تنازعها البقاء والصلاحية على باقي الحيوانات الزاحفة القديمة.

ولما كان الإنسان من ذوات الثدي، فإن من العبث أن ننتقل إلى عصر آخر أقدم من هذا لنبحث عن نشأة الإنسان، لأن العصر الذي يلي ذلك لا يشمل إلا كل زاحف. ومن الشكل

(8) نرى أن العصر الثاني وهو الشامل لعصر ذوات الثدي يمتد لفترة طويلة جداً قد يبلغ مقدارها نحو 6 ملايين سنة كما يقول العلماء، وإني لا أريد أن يتبادر إلى ذهنك أنه عند الحد الفاصل بين العصرين قد حلت ذوات الثدي محل الزواحف دفعة واحدة، أو أن الأخيرة صارت من الأولى بتغيير سريع فجائي، لأن هذا التغير يلزمه وقت طويل مع بطء وتدرج، وقد وجد من حفائر العلماء في طبقات العصر الثاني آثار لزواحف كانت قد أخذت تتغير وتطور من شكلها وتكوينها كي تتناسب مع الوسط الذي كانت ستعيش فيه، وهو وسط ذوات الثدي ولتصير إحداها، وأن هذه الزواحف قد أخذت تتغير وتتشكل حتى نهاية هذا العصر واتسمت بسمات خاصة ميزتها في أوائل عصر الأيوسين.

ولست أرى أية ضرورة لأن أتعمق أكثر من هذا العصر الجيولوجي الأول حيث تظهر قوة التطور في الأسماك والحيوانات البحرية حتى أمكنها أن تغير من شكلها في أواخره وتستطيع العيش على البر كما تستطيع العيش في البحر فأطلق عليها اسم برمائية.

والآن وقد تكلمنا عن العصور الجيولوجية، وأعطيناك من المعلومات عنها ما فيه الكفاية، نعود بك إلى بحثنا الأصلي وهو أصل الإنسان.

عندما تتبعنا آثار الإنسان القديم في الطبقات الجيولوجية القديمة في شرقي أنجليا أمكننا الوصول والتعمق بأبحاثنا إلى ما نريد بواسطة ما قد وجدناه من آثاره وأدواته الصخرية المتحجرة إلى وسط عصر البليوسين، وقد توصلنا بعد ذلك إلى الكشف عن بقايا مخلوق آخر أسميناه إنسان جاوه واعتبرناه أنموذجاً للكائن الذي كان يسكن هاته الجزيرة في ذلك العصر. وعرفنا أنه كان شبيهاً بالقردة في شكل الجمجمة فقيراً إلى تلافيف المخ، قليل الإدراك والتفكير، لكننا مع ذلك عرفنا أنه كان إنساناً في مشيته واعتدال قامته.

ولذلك كان واضحاً جلياً أن يعمد العلماء إلى التعمق في بحثهم في عصر أقدم من ذلك العصر بكثير حين تطور الإنسان شكلاً وعقلاً من حال القردة. ومع أنه لم يوجد أي أثر لهذه الحلقة في التطور الإنساني في أي طبقة من طبقات الأرض، وذلك ما جعل العلماء في حيرة من أمرها، فقد وجد في الطبقات الأولى من عصر البليوسين ما ساعدهم على كشف سر هذا التطور والوصول إلى حلقتهم المفقودة.

يتبع

نعيم علي راغب

البريد الأدبي

مؤتمر الكتاب السوفييت

وسير الأدب الروسي الحديث

عقد أخيراً مؤتمر الكتاب السوفيتيين (الروسيين البلاشفة) في موسكو، فشهده زهاء ستمائة كاتب من مختلف الجمهوريات السوفيتية مثل: اليوكرين، والقوقاز، وبلاد الكرج، والتركمان، والغرغيز، ثم روسيا ذاتها؛ وهم يمثلون اثنتين وخمسين أمة مختلفة هي أمم الاتحاد السوفيتي، واثنتين وخمسين لغة وآداباً مختلفة؛ وشهده أيضاً جمهور كبير من كتاب الأمم الأخرى والصحفيين من مختلف البلدان؛ وألقى أعلام الأدب الروسي المعاصر مثل جوركي، وبوخارين، وإيفانوف، وبابل، وايرنبورج، واسكندر تولستوي، خطباً إضافية في وصف الروح الجديدة التي تسيطر على التفكير الروسي، وهي روح الحقيقة الاشتراكية.

وخطب في جمهور الشباب الذين شهدوا المؤتمر الكاتب الفنان أوليخا، فتساءل عن الجيل الروسي الجديد ما هو؟ وماذا يغلب في توجيهه، أهي للعاطفة أم للعقل؟ وهل هو حساس يفيض حناناً ودمعاً؟ وماذا يشعر نحو المجتمع الاشتراكي الذي خلقه ورعاه؟ وكان من المناظر الشائقة أن خطبت صبية سيبيرية في الرابعة عشرة من عمرها؛ فتحدثت عن أماني الشباب نحو الأدب، وطالبت الكتاب الروس بمضاعفة نشاطهم في إخراج الكتب التي يحتاج إليها الشباب، ثم نوهت بما يلاقي الأطفال من رعاية في روسيا، وبأنهم ينعمون بما لا ينعم به الأطفال في أي بلاد أخرى من بلاد العالم.

وقد ساد في المؤتمر على ما يصفه كاتب مشاهد، جو من الحرية والصراحة والإخلاص قلما يبدو في المؤتمرات العامة، وألقيت فيه الآراء المضمرة والظاهرة بحرية لم يحدها شئ، ولم يحجم الكتاب الضيوف عن إبداء آرائهم بمنتهى الصراحة؛ وتولى الرد عليهم أقطاب التفكير البلشفي مثل بوخارين وكارل رادك؛ وكان الجدل برغم احتدامه يطبعه كثير من الصراحة والولاء.

ونقول بهذه المناسبة إن الفن والآداب الروسية لم تتأثر بالموجة البلشفية الهدامة بل ازدهرت في عهد الحكم السوفيتي، وعنى البلاشفة دائماً برعايتها وتشجيعها. ذلك لأن أقطاب البلاشفة كانوا كتاباً وأدباء قبل كل شئ. والاشتراكية تقوم على توجيه الفكر وتغذيته

بالأدب والفن؛ وفي روسيا الآن نهضة أدبية وفنية تضارع أعظم النهضات المماثلة في البلاد الأخرى. وبزغ فجر النهضة الأدبية الروسية المعاصرة منذ سنة 1919 بعد أن خمدت الحركة الأدبية مدى عامين كانت روسيا تضطرم فيهما بنار الثورة والحرب الأهلية. وظهرت الروايات والقصص الأولى المطبوعة بروح الاشتراكية سنة 1920؛ وبدأ الكتاب القدماء باتخاذ أساليب وصور جديدة تناسب الروح والأحوال الجديدة. وفي وسعك أن تتتبع مراحل البلشفية والمجتمع الجديد خلال الكتب. ففي المرحلة الأولى كانت المبادئ الثورية والاقتصادية الجديدة تطبع الأدب بطابع عميق؛ ولما تطورت البلشفية، وأبيحت الملكية الخاصة في حدود معينة، وظهر مجتمع (بورجوازي) جديد، ظهرت الميول (البورجوازية) مرة أخرى في الأدب الروسي ولكن بصورة مخففة. ونشبت هنا معركة بين الأدب الشيوعي المتطرف، والأدب المعتدل، وعاونت الحكومة دعاة التطرف في هذه المعركة؛ وسيطر الجناح الشيوعي على التوجيه الأدبي، وعاق بذلك تقدم الحركة الأدبية. ولكن مهمة الجناح الشيوعي الأدبية انتهت بتغلب السياسة الاقتصادية الجديدة. وفي أبريل سنة 1932 أعلنت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي حل جميع الجمعيات الأدبية، ومنها جماعة الحزب نفسه؛ وأعلنت إنشاء هيئة واحدة تضم كتاب الاتحاد السوفيتي جميعاً؛ واستمرت الهيئة الجديدة في طور الإنشاء مدى عامين؛ وهذا المؤتمر هو أول مؤتمراتها.

المناعة ضد الحمى الصفراء

اكتشاف طبي جليل

قدمت أخيراً إلى أكاديمية العلوم الفرنسية مذكرة باكتشاف طبي خطير هو مصل جديد لمقاومة الحمى الصفراء. والحمى الصفراء من الأمراض الوبائية التي تجتاح المناطق الحارة في أفريقية وأمريكا الجنوبية، وتحدث من لدغ البعوض الذي يحمل ميكروبها، وهو المعروف في اللغة العلمية وقد وفق إلى هذا الاكتشاف الجليل الدكتور ليجريه من أطباء معهد باستور في تونس، والدكتور سيلاردس الأمريكي. ومذ اكتشف البعوض الذي يحمل الميكروب كانت مقاومة الحمى الصفراء تجرى بواسطة إتلافه في المدن الاستوائية الكبرى مثل ريودي جانيرو وهافانا وثغور أفريقية الغربية، ولكنه كان في الداخل يعصف بالسكان

شر عصف. فعكف العالمان المذكوران على إجراء البحث لاكتشاف مصل يفيد في المناعة ضد الميكروب ويقي الإنسان نهائياً شر هذا البعوض الفتاك، وتوصلا إلى اكتشافه عن طريق القرد والجرذ. ذلك أن ميكروب هذا البعوض لا تمكن رؤيته بالميكروسكوب؛ وهو شديد الفتك بالقردة، ولكنه لا يؤذي الجرذان إلا إذا كانت الإصابة في المخ، فعندئذ يتحول فعل الميكروب ويغدو شديد الفتك بها، وقد لقح العالمان المذكوران الجرذ في المخ بدم البعوض، ثم استخرجا (الفيروس) (الميكروب) من الجرذ ولقحا به القردة فلم يؤثر فيها. ومن هنا نشأت فكرة المصل الواقي، وقد لقي الدكتور ليجريه صعاباً كثيرة، ومنع من إجراء تجاربه في البشر في معهد باستور، ولكنه استطاع أن يجريها في ثلاثة من التونسيين تطوعوا لذلك، فجاءت النتائج العملية تؤيد اكتشافه. فانتقل إلى أفريقية الغربية، وفاوض السلطات في دكار حتى سمحت له بتلقيح ثلاثة آلاف أوربي بالمصل الجديد؛ وكانت النتيجة باهرة، لأن ألفين لم يحدث لهم شئ؛ وأصيب الألف الباقي بشيء من رد الفعل والحمى اليسيرة؛ وكانت مناعة الذين لقحوا تامة ضد البعوض المعدي؛ وتأيدت بذلك صحة الاكتشاف وخطورته، وقدم بذلك مذكرة إلى أكاديمية العلوم لتتوجه بصفة رسمية.

ويجري اللقاح المذكور على ثلاث دفعات بين كل منها عشرون يوماً، وتؤخذ مادته من ميكروب الجرذان الحي، ويمكن تجفيفه وتصديره إلى الجهات الحارة دون أن يفقد خواصه.

ولا ريب أن سيكون لهذا الاكتشاف أثر عظيم في مكافحة الحمى الصفراء وانقاذ الملايين من فتكها الذريع.

مؤرخ مسرحي

توفي في أوائل هذا الشهر أديب ومؤلف فرنسي كبير هو فيلكس جاف، أستاذ الآداب بالسوربون، وكان مولده في سنة 1874. وقد بدأ بتدريس النحو وفقه اللغة في السوربون؛ ولكنه شغف بالموسيقى والمسرح والفن؛ وعنى عناية خاصة بدرس تاريخ

الفن والمسرح؛ وأصدر في سنة 1910 أول كتاب جامع عن (الدرامة)، وعنوانه (الدرامة في فرنسا) ثم أصدر كتاباً عن (المتناقضات في عصر لويس الرابع عشر) وشغل كرسي (تاريخ الأدب المسرحي) في كلية باريس أعوام طويلة، وكان حجة في كل ما يتعلق بهذا النوع من الأدب.

ذكرى أناتول فرانسي

كان يوم 12 أكتوبر الجاري هو الذكرى العاشرة لوفاة كاتب فرنسا الأكبر أناتول فرنس. وبهذه المناسبة عنيت جمعية تخليد ذكرى أناتول فرانس التي يرأسها الكاتب الكبير جول رومان بوضع لوحة تذكارية في قرية بشيليري التي قضى فيها فرانس أعوامه العشرة الأخيرة، وتوفي في 12 أكتوبر سنة 1924، واحتفل بوضع هذه اللوحة في جمع حافل من أصدقاء الكاتب الكبير والمعجبين به. وهي خطوة من خطوات تزمع الجمعية اتخاذها لتخليد ذكراه.

قبر سيرانودي برجراك

للفرنسيين ولع شديد باكتشاف قبور عظمائهم التي طمست وغمرها النسيان، وفي فرنسا جمعيات أثرية كثيرة تعنى بالعمل في هذا السبيل. ومنذ أعوام قلائل استطاعت إحدى هذه الجمعيات أن تعثر بقبر الفيلسوف فولتير ورفاته تحت أقبية الكنيسة التي تذكر الرواية أنه دفن بها. ومنذ أشهر اكتشفت جمعية أخرى قبر الشاعر رونسار في بلدته التي دفن بها؛ وقد قرأنا أخيراً أن جماعة أثرية أخرى تعنى باكتشاف قبر (سيرانودي برجراك) وهو السيد الذي خلد روستان اسمه في روايته الشهيرة. والمعروف أن سيرانو حينما اشتد عليه المرض غادر باريس في سنة 1665 إلى بلدته الأصلية (سانوا) ومات هنالك، ولا يزال اسمه مسجلاً في دفتر الوفيات بكنيسة القرية المذكورة. وقد أجريت مباحث في السهل الذي يوصف بأنه دفن فيه في ظاهر القرية. واكتشف بالفعل هيكل عظمي ظن بادئ بدء أنه هيكل سيرانو، ولكن ظهر من فحصه أن عظامه دقيقة كأنما هي عظام امرأة أو فتى لم يكتمل أطوار النمو. ولكن الباحثين لم ييأسوا، ولازال البحث يجري لاكتشاف رفات سيرانو ذي الأنف الضخم.

النقد

أصدقائي الشعراء - 2

هذا لا يؤدى

بقلم معاوية محمد نور

وعندي أن السر في أن شعر علي محمود طه المهندس قد نال شيئاً من التقدير والثناء مرجعه لإجادة الصنعة والصقل، ولو أن مواده هي الأخرى تافهة بدائية المعنى، غير صادقة، يعوزها الشعور الفردي القوي، والنظر الأصيل الواحد.

ثم لأن العرف الدارج والعقل الشعبي قد تعود أن يقرن الشعر بمظاهر الطبيعة المعروفة. . فيقول الناس عن ليلة مقمرة: أنها ليلة شعرية، أو عن روضة فيحاء: إنها تبعث على النشوة والسرور، وإنهما لكذلك. غير أن الشاعر الذي لا يتعدى في نغمه ووعيه الشعري سوى ترديد ما تواضع عليه الناس وأقروا به، إنما يدل على أن المحاكاة والتقليد والعرف الدارج هي أميز خواص فكره، وأخص ميادين لعبه الفكري.

وعلي محمود طه يكتب عن الطبيعة ويستوحي النهر والبحر والغدير والقمر والأشباح والرياض والشفق، ويفهم أن (الطبيعة) التي يجدر بأن تنظم شعراً هي الطبيعة في أضخم مظاهرها وأعظمها، وأوقعها في الحس، وأشدها رائحة، وأهولها منظراً؛ وهو لا يفهم هذا الفهم ويتجه إليه لأن مزاجه هكذا، ولكن لأن هذه الأشياء قد كثرت في الشعر وأصبحت معروفة معترفاً على أنها تصلح موضوعاً للشعر، ولو لم يحس الأديب تجاهها بأي شعور غريب أو نظر حديث.

وبديهي أن الشاعر المعاصر الذي لا يلتفت في عالم الطبيعة إلا إلى المظاهر التي التفت إليها خلافه من عهد آدم، يدل أولاً على أن تقدمه الذهني وقف هناك، وأن وعيه الفني لم يتطور؛ ففي الطبيعة خلاف البحر الذي يقف عنده القروي، وفي الطبيعة خلاف الشواطئ التي تقف عندها سفن البحارة، أشياء أخرى أدق وربما كانت ألصق بحياتنا وأجدر بالتفات الشاعر. فالحجر الصلد الذي يقف في طريقك، و (الشارع) الذي تصقله مصلحة التنظيم حيث يعمل جماعة المهندسين، والفأر الهارب من سفينة خربة، والذباب الذي يطن على

جيفة عفنة، وقطعة الحديد التي أكلها الصدأ، والخشب الذي نأكل عليه، والزرع الذي نلبسه ثياباً، والعصفور الوحيد الذي ينتقل من بيت لآخر، والنمل، والنحل، وصوت الباخرة، وضجيج الترام، وخلافها من المظاهر التي نراها ونسمعها في غدوّنا ورواحنا هي أجزاء حية في الطبيعة، والالتفات إليها في وضع جديد أتى به نظام حياتنا الراهنة وحضارتنا المعاصرة، لأدلّ على فهم الطبيعة من آلاف القصائد عن البحر والشفق والنجوم!.

ويجب ألا يفهم من هذا أننا ننكر على الشاعر أن يعنى بمظاهر الطبيعة الكبرى البدائية الجميلة أو المتوحشة، ولكن هنا يقل الإبداع، ولا يسلم الشاعر من الإسفاف والتفاهة، إلا إذا كان عملاقاً عظيم النظر فريد الشاعرية؛ كما إننا لا ننكر الالتفات إلى (المظاهر الرومانتيكية) التي يولع بها المهندس، ولكن هذا الالتفات وهذه العناية (بالربيعيات) يسهل فيه الغش، وتندر به الإجادة والتفرد؛ وهو أقرب طريق يلجه الأديب القليل الحيلة، المقلد الأسلوب، الذي لا تميزه شارة، ولا يستشف في تكوينه إصالة نظر أو عمق تفكير.

وكثير من شعراء أوربا المعاصرين اقتربوا من الموضوعات الرومانتيكية بأسلوب جديد، فبدلاً من الحديث عن سحرها وخوفها وهولها، تراهم يحاولون تفسيرها والنظر إليها من خلال شعور وعقلية رأت وسمعت وقرأت ما يجعلها تنظر إلى هذا الجمال والهول والخوف من زوايا جديدة ليس فيها ذلك الجهل الناطق. فإن كل شئ لا يعرفه الإنسان يبدو له سراً تحار فيه الأذهان، ولو كان من أبسط البسائط!

فالقروي الذي يزور القاهرة لأول مرة ويشاهد (المصعد الكهربائي) لا يمكنه إلا أن يذكر الله والأسرار، وتتملكه الحيرة والعجب، فإذا حاول مثل هذا الرجل أن ينظم قصيدة عن (المصعد) فقد تروق لأمثاله الذين لا يعرفون الميكانيكيات (وقوانين الطبيعيات). ولكن القارئ المتحضر لا يستطيع قراءة قصيدة تنسب إلى هذا المصعد أهوال الجن وعمل الشياطين!

فالثقافة ووعي العصر الذي نعيش فيه لابد منهما لأي فنان يكتب ليقرأه الجيل الذي يعيش بينه، وذلك لأن الشاعر المصري المعاصر لا يعيش في (شبره) أو (ديوان حكومي)، ولكنه قبل ذلك إنسان حي يعيش في كل العالم، ويحس ببعض ما يدفع بالنفوس الآدمية إلى مناجاة النفس مثلاً في روسيا، أو الحركة والعمل في أسبانيا واليابان. والذي يستطيع أن يرى في

شارع عماد الدين مثلاً وجوهاً وأجساماً وثياباً وآلات كاملة الصنعة مصقولة المظهر، يخبر مظهرها عن السكون والاطمئنان، غير إنها تفتح عوالم داخلية مروعة. وبالاختصار فإن الفنان الذي - لم يحس بقبس أو لمحة أو ناحية من (تيار وعي) كامل يمكنه من رؤية التشابه في أشياء، ومظاهر بادية الاختلاف، أو بالعناصر والقوى والفكر التي تذهب جميعاً لإخراج فكرة أو مظهر عادي مما نراه في حياتنا اليومية؛ ليس لديه تلك الملكة الشاعرة التي تستطيع أن تبني القصور من الرماد والهواء، أو تحلل السيارة الجيدة الصنع، الجميلة المظهر إلى عناصر حلم وغفوة إنسان وعصب حيوان، أو فقرات مادة سنجابية وجرح عامل فقير، ليس له ذلك الإحساس النافذ القدير على التكوين والتحليل، الذي يجبر القارئ على الإنصات له والاستماع لنغمه الشعري.

وإني لأعجب كيف يعجب أي قارئ له حظ من الثقافة ودقة الحس بكلام مثل هذا:

رب ليل مر أمضيناه ضماً وعناقا
وأدرنا من حديث الحب خمراً نتساقى
في طريق ضرب الزهر حواليه نطاقا
وتجلى البدر فيه، وصفا الجو وراقا

فإذا كان هنالك حب وضم وعناق، وزهر وبدر وجو رائق، فالإنسان العادي ليس به حاجة ليحس بنشوة آدمية حسية من غير أن ينظم له هذا الكلام شعراً. وإن أي أفريقي في أدغال أفريقيا، حينما يصفو الجو، وينمو الزهر، ويشرق البدر، ويحب امرأة يستطيع أن يقول هذا الكلام.

وعند علي محمود طه أيضاً شعور غير محمود بأنه شاعر، ذلك لأنه قد ضم كل الشعريات وأحصاها في ديوانه. فقصيدة ميلاد شاعر مثلاً كلها تمجيد لهذا الرجل الذي يحسب نفسه شاعراً، لأن لفظة الشعر والشاعر والزهور والألحان تكثر في كلامه.

والرجل الذي يستطيع أن يكتب - بعد معرفتنا الحاضرة وشعورنا المحدود الذي أتاحه لنا العلم والبحث العصري مثل هذه الأبيات الآتية، إنما أحسده لبساطته التي لا تحسد.

وتجلى الصدى الهتوف الساحر ... في محيط من الأشعة غامر
وسكون يبث في الكون روعاً ... وقفت عنده الليالي الدوائر (كذا)
واستكان الوجود والتف الدهر ... وأصغت إلى صداه المقادر (كذا)

وقد يتورط محمود طه في غرامه (بالشعريات) برسمه صوراً مضحكة إذا لم تكن مستحيلة كقوله:

ماؤه ذوب خمرة وسنا شم ... س وريا ورد وألحان طائر

وعنده إذا لم يجعل هذا الماء ذوب خمر وسنا شمس وريا ورد وألحان طائر في آن واحد فهو ليس بشاعر. وأي منطق يستطيع أن يفهم شيئاً يكون سنا شمس محرقة، وريا ورد، ثم يكون في نفس الوقت صوت طائر؟!. اللهم إن هذا إلا خلط قبيح لا نرضاه لصديقنا الشاعر.

وليس أدل على فهم شاعرنا لطبيعة الشعر من قوله في رثاء شاعر:

وهو شعر صورت ألوانه ... بهجة الفجر وأحزان الشفق
ونشيد مثلت ألحانه ... همسات النجم في إذن الغسق.

وفي قصيدة (الله والشاعر) بساطة مؤلمة في أن يأمر أديب الأرض بأن:

مدى لعينيه الرحاب الفساح ... ورقرق الأضواء في جفنه
وأمسكي يا أرض عصف الرياح ... والراعد المغضب في أذنه

فهذا كلام لا يشرف أي طالب في مدرسة ثانوية، فضلاً عن شاعر عصري. والقصيدة ملآى بهذه الأشياء التي تواضع البسطاء على إنها الطبيعة التي لا طبيعة غيرها.

مر بنهر دافق سلسبيل ... تهفو القمارى حول شاديه
في ضفتيه باسقات النخيل ... ترعى الشياه تحتها غانيه

فإذا كان هذا النهر ملحاً مثلاً، وكانت هنالك ضفادع على حوافيه، وأحجار تدمي الأقدام بدلاً من النخيل، فليس هنالك طبيعة تجدر بالشاعر والشعر!:

حتى إذا شارف ظل الشجر ... في روضة غناء ريا الأديم
قد ضحكت للنور فيها الزهر ... وصفقت أوراقها للنسيم

فهذا الشاعر لا يكفيه أن تكون هنالك روضة غناء ريا الأديم ولكن لابد أن يضحك الزهر ويصفق النسيم لأول مرة!

أما المسائل الفكرية التي أثارها الشاعر في حواره مع الله فهي أول ما يقرأ الطالب في العلوم الدينية في باب القضاء والقدر. إن مسألة الإثم والشر لا يعالجها فنان عارف بمثل هذه البساطة.

وفي قصيدة (قيثارتي) مثل قوي لهذه النزعة نحو (الشعريات) التي حاولنا إيضاحها، وهذه هي أواخر الأبيات من غير تحوير ولا مبالغة، ولو أنها أشبه بالمبالغة والتحوير:

الغور والآكام. الشعر والإلهام. مودتي وذمامي - قديم هيامي. قلبي الدامي. دمعي إلهامي. حبيسة الأنغام.

إن مثل هذا الشعر ليوحي إلى القارئ الدقيق الحس كراهة الآكام والزهور والبحار والأنغام وما إليها لهذه النغمة المبتذلة الكثيرة التكرار، التي لا تحس معها بواقعة حال صحيحة، أو شعور نضر مباشر!

وإنما أتينا بهذه الاستشهادات لندل القارئ على إننا لا نتعسف، وإلا فإن الديوان كله يصح أن يستشهد به، فما يخرج من ألفاظه ومعانيه عن هذه الألفاظ والأمثلة والمعاني.

وقد كنا نظن أن أصدقاءنا من الجيل الجديد الذين يشتغلون بالشعر، يفهمون الشعر على حقيقته، وأنه ليس ألفاظاً ومبالغات عن عالم الطبيعة والزهر والحب وما إليه من الألفاظ والأخيلة التي يسهل على أي يد تحرك القلم أن تأتي بها.

أصدقائي الشعراء، أقولها لكم مخلصاً: إن هذا عبث قبيح بالكبار. وأقبح ما فيه أن يأتي من جيل جديد له دعوى كبيرة نسمع عنها في الصحف، وهو على هذا التخلف المعيب في فهم الفنون والحياة. ولو أننا رأينا الاتجاه صحيحاً، وأن الطريق الذي تسلكونه مهماً كانت النظرة زائغة والنغم غير منسجم لتساهلنا، وكانت معالجتنا للموضوع غير هذه، غير أن الطريق من أوله خاطئ، وأن الفهم من أساسه غير صحيح، وأن هذا الطريق لا

يؤدي أبداً، وأن الشيء الذي نسميه شعراً هو خلاف هذا في جملته وتفصيله، فمن شاء منكم فليرجع إلى نفسه يحاسبها، وينظر من جديد، ويقرأ ما يقول خلافه من الشعراء الفحول، وخاصة المعاصرين في أوربا ليرى في أي طريق تسير الأقدام، وأي عوالم يكتشف الفنان المعاصر، وأي المسائل يبحث النقاد، وأي (وعي فني) يجدر بالفنان الحي الذي يعيش في عالم الأحياء الشاعرين.

معاوية نور

القصص

الأم الثانية

للأستاذ محمد سعيد العريان

كم كان نجيب أفندي وفياً لزوجه براً بأسرته؛ إنه لم يكن يسمح لنفسه أن يقضي خارج البيت قليلاً من الوقت لغير عمل؛ فأيان تلتمسه لا تجده إلا في الديوان أو في البيت، وفي فترات قليلة كان يجلس إلى أصحابه في النادي يستمع إليهم ويستمعون إليه، ولكنه كان حريصاً كل الحرص على الموعد الذي حدده لعودته إلى حيث يجد في الأنس بزوجه وولديه ما لا يجد جزءاً منه في مكان آخر. لقد كان من طراز غير طراز هؤلاء الكثرة من الرجال الذين لا يعرفون البيت إلا كما يعرفون الفندق أو المطعم، ولا يفهمون من واجبات الأسرة إلا كما يفهم المدين ألح عليه دائنه، ولا من حقوق الزوجة إلا ما تلهمه الغريزة، ولا من بر الوالد أكثر مما يفهم مدير ملجأ اليتامى. .!

ولم يكن يعجب لشيء أو يرثي لأحد عجبه ورثاءه لهؤلاء الذين لا ينفكون يصرحون بالشكوى والألم من متاعب الزوجية وقيود الزواج؛ بل لقد كان يسيء الظن بهؤلاء الشاكين ويرميهم بالحمق وسوء التدبير في سياسة بيوتهم أكثر مما يرثى لهم ويعجب.

ولكن هذه السعادة التي كانت تشرق عليه بالبشر والإيناس، وتعمر صدره بالبهجة وحب الحياة - لم تلبث أن زالت؛ وتبدل البيت من أنسه وحشة، وتحولت ضحكات الفرح والمسرة فيه إلى همسات حزينة باكية، وخيم الظلام الموحش الرهيب. . لقد ماتت زوجه. .!

مَن لهذين الصغيرين يرعاهما ببره، ويسبغ عليهما من عطفه وحنانه ما يعوض عليهما بعض ما فقداه من بر الأم وحنانها؛ مَن لهذه الصغيرة (كريمة) يرتب شعرها ويغني لها في الصباح تلك الأغنية الجميلة التي كانت تدللها بها أمها وهي توقظها في رفق لتذهب مبكرة إلى المدرسة الإلزامية القريبة. ومَن للصغير (صلاح) وما تزال الأرض تجاذبه فما يمشي خطوات إلا معتمداً على الحائط، ثم يتم سيره حبواً على الأربع؛ ومن ذا يقطف من ثغره الزهرة الناظرة حين يبتسم، ويطبع على خده القبلة الناعمة حين يبكي؛ بل من ذا يجيبه حين يحرك شفتيه بالكلمة العزيزة التي لا يعرف غيرها: (أمي!) وقد ماتت أمه. ومن ذا يعوض على نجيب زوجه التي فقد بفقدها نضارة عيشه، وبهجة حياته، وأنس أليفه، وأم ولديه. .؟ إنه ما يزال يذكر ذلك الحديث القصير بينه وبين كريمته غداة حملوا أمها إلى حيث لا تراها، فتسأله:

- أبي، أين أمي؟

- أمك عند أبيها يا كريمة.

- لقد كنت أظنها عند الطبيب، وأين أبوها؟ إنني لا أعرف بيته

- أبوها هناك. في مكان بعيد لا تعرفينه ولا أريد أن تعرفيه.

- ولماذا لم تأخذني معها، لقد غابت كثيراً فمتى تعود؟!

وأخفى الرجل دمعة تنحدر على خده، وأطبق فمه أن تفلت منه زفرة محبوسة؛ وقام يستحث الخادم على إعداد الطعام. . لقد ترك هذا الحديث في نفس نجيب أثراً عميقاً كان عسيراً عليه أن ينساه، وكان أليماً أن يذكره؛ وكلما أحس أن ابنته توشك أن تعود إلى مثله أسرع يقص عليها حكاية مسلية، أو يروي نادرة مضحكة ليصرفها عن الحديث. .

وأنس الصغيران إلى أبيهما، ومرت يد الزمن رفيقة على رأسيهما فمحت منهما تلك الذكريات عن صاحبة الوجه الجميل التي كانا يدعوانها أمهما إلى قريب. ولكن هذا الزمن لم يستطع بأيامه ولياليه أن يمحو هذه الذكريات وذكريات أخرى عزيزة كان يحتفظ بها نجيب أثراً من ماضيه السعيد.

وكلما مرت الأيام أحس نجيب بالوحشة والفراغ من حوله، وعاد يستذكر الماضي بما فيه، ويقلب حوله عيناً حزينة لا تقع على أثر من آثار ذلك إلا عادت ملأى بالدموع.
ومضت خمس سنين وهو يعيش في هذا البيت عزباً يرعى ولديه، ويقوم بأمرهما قيام الأم والأب، تعاونه خادم صغيرة على إعداد الطعام وتنظيف البيت وقضاء حاجات الصغيرين. .
وأتمت كريمة دراستها الأولية والتحقت بمدرسة ابتدائية قريبة من الحي، وأخوها يتأهب لأن يفارق معلم (الكتّاب) وعصاه إلى المدرسة، ونجيب ما يزال على عهده يشعر بالضيق من وحدته، ويتمنى لو يستطيع أن يظفر بزوج تعمر هذه الدار الموحشة، وتعيد إليها بهجة فقدتها منذ عهد طويل، بل تشرق بابتسامتها في وجهه العابث، وتمهد بيدها الناعمة فراشه الخشن، ولكنه. . . ولكنه يحب ولديه ويريد أن يؤثرهما بهذا الحب، وهو يرى أنه ليس
في الوجود إلا أم واحدة لكل مخلوق وأب واحد وقد ماتت أمهما! وأنه ليخشى أن يفقدا في سبيل البحث لهما عن أم ثانية - أباهما الواحد؛ يخشى أن تستأثر به زوجه فلا يكون لهما أب ولا أم!
وتعرّف إلى صديق جديد، هو زميله في الديوان، وتوثقت عُرى الودّ بينهما فاطمأن كل منهما إلى صاحبه، وتعاهدا على الوفاء فكانا روحاً في جسدين، واتحدا عاطفة وإحساساً فصارا - كالشخص وخياله - يبتسمان ويقطبان في مرآة.
وعرف (إبراهيم) من حال صاحبه ما نعرف فنصح له أن يتزوج، وعرض عليه أخته زوجاً له وأماً لولديه. . . ومضى شهران زفّت بعدهما (زينب) إلى نجيب، فرأى من أدبها وإشراق طلعتها وحسن معاملتها لولديه - ما أعاد إليه بهجة الشباب. وكأنما تناول القدر مقصاً قطع به ذلك الجزء الباقي من صور الماضي القريب ليصل عهدين كلاهما له من السرور رونق ورواء.
وعاد إليه أنسه، واطمأنت نفسه، واستروح نسيم السعادة وتفيأ ظل الاستقرار، ومضت أشهر.
وقالت له زوجه: (البيت مدرسة الفتاة، فهلا احتجزنا كريمة عن مدرستها تعرف من شئون البيت ما عرفت من فنون العلم، وتجيد في الطهي ورفو الثياب ما تجيد من القراءة ومداعبة القلم؟)
وتريث نجيب قليلاً ثم سمع لكلام زوجه، وبقيت كريمة من اليوم التالي في البيت تستمع إلى دروس جديدة من فن تدبير المنزل، وعرفت كيف تدير الملعقة في القدر، وكيف تقشر البصل وكيف تغسل الأطباق وترتبها على المائدة في نظام جميل. وكانت تفرح حين تكلفها (أمها) إعداد شئ، أو تطلب إليها مرافقة الخادم إلى السوق لقضاء حاجة، ولم يكن يسوءها شئ أكثر مما تسوءها سرعة اتساخ ملابسها الزاهية؛ لأنها كانت تغسلها بنفسها. . وخرجت الخادم مرة فلم تعد؛ لأن زينب طردتها. وقالت لزوجها:
- إن هؤلاء الخادمات لا يحسنّ القيام بشيء غير طلب الأجر، وأكثرهن لا يعرف الأمانة ولا يشكر النعمة؛ فلا تتعجل في اختيار أخرى قد تكون شراً من سابقتها، وسأبحث على مهل عن خادم أمينة لا تضايقنا ما كانت تضايقنا تلك الفتاة الملعونة. . . وأسند عمل الخادم
مؤقتاً إلى كريمة، ولكن هذا التوقيت لم يكن إلى نهاية. . .! فلم تعد تلك الفتاة الناضرة التي كانت، وانطفأ بريق عينيها، وذبل خداها، وعلت وجهها غبرة من الحزن كانت تواريه عن أبيها. . . وأخذت تعود إلى رأسها الصغير ذكريات بعيدة مشرقة، تبدو خلف ضباب البعد في فتنة الخيال - ذكريات عن أم أخرى رفيقة كانت دائماً تبتسم في وجهها، وكثيراً ما كانت تحتضنها إلى صدرها وتقبلها وتعنى بنظافتها وراحتها، فتصنع لها اللعب وتشاركها اللعب بها؛ وكانت إذا جاء المساء تروح تحدثها حديثاً عذباً، وتقص عليها حكايات لا تزال تذكر بعضها، فإذا جاء وقت النوم احتوتها بين ذراعيها، ثم لا تستيقظ في الصباح إلا على نغمات من صوتها النديّ الرقيق. أين ذهبت تلك الأم فلم تعد، ومن هذه الأخرى؟ لقد كانت أمها الأولى أرحب صدراً وأوسع عطفاً وأكثر حناناً.!
وابتدأت الفتاة تتبرم بما تؤديه من عمل، وابتدأت زينب تشكوها إلى أبيها. وأول مرة سمعتها كريمة من بعيد تحدث أباها عنها ذهبت إلى غرفتها وجلست تبكي، فلم يسأل

عنها أحد.

ويوماً عاد صلاح من المدرسة في الصباح، فقد طرده الضابط لقذارته، وانهالت عليه (أمه) توبخهوتشتمه، وتركته منزوياً في جانب من الردهة يبكي حتى عاد أبوه في الظهر. ورفعت إليه الشكوى من (ولده) وتجاهلت أشياء واختلقت أشياء. وغضب الوالد، وهم بالولد يخيفه برفع يده، ووقفت كريمة في الطريق: (أبي، ما هذا؟ إن أخي لم يفعل ذنباً، أمي هي التي تهمله!)

وسقطت يد الرجل بجانبه، لقد رأى كريمة في صورة أخرى، لكأنه لم يسمع صوتها منذ زمن طويل. هذا الصوت الذي تحدثه به لشد ما أثار في نفسه من ألم وأعاد إلى رأسه من ذكريات. ووازن بين صورتي ابنته أمس واليوم؛ صورتها أمس في طفولتها الجميلة وهي جالسة في حجره تعبث بشاربه وتربت بيدها على خده. لقد كانت مثل زهرة تفتحت في الربيع تتألق في حسن وتفوح بعطر - وصورتها اليوم! ماذا تلبس؟ إنها ثياب الخادم المطرودة. . . وحوّل وجهه إلى ناحية أخرى فأبصر ولده متجمعاً من خوف في زاوية المكان: صلاح. ووقف الولد يرتعد، وجذبه أبوه برفق، وطأطأ رأسه في ذلة، وانحدرت من عينيه دمعة: ولدي. وتهدج صوته فأمسك عن الكلام؛ وأحست زينب عاصفة توشك أن تنقضّ فانسحبت في هدوء.

لم يتحدث نجيب مع زوجه في شأن العناية بولديه، فقد عرف معنى انسحابها، وأدرك أنها فهمت ما همّ أن يفعله. . . وعادت الحياة في البيت مطمئنة هادئة، فقد غيرت زينب سياستها في معاملة الولدين، ونسي نجيب ما كان، أو كاد.

وليلةً جلسوا على المائدة للعشاء، ومد صلاح يده يتناول قطعة من الفاكهة، فانجذب إليه غطاء المائدة فتلف نظامها وسقط بعض الأطباق على ملابسه وملابس أخته في جواره، وغضب أبوه ونظر إليه نظرة، وتوقفت زينب عن الأكل لحظة تقلب بصرها في نظرات ذات معنى بين الولد وأبيه، وتألم الولد فقام عن المائدة يدعي الشبع، ثم نهضوا جميعاً. ولم يطل بهم السهر تلك الليلة فصحب الرجل زوجه إلى النوم، وترك الولدين يهيئان فراش نومهما في غرفتهما. ولما سكن الصوت قالت زينب:

- نجيب! أرأيت ما فعل صلاح؟ لقد فقدت شهوتي للطعام حين رأيتك متألماً لما فعل، ألا ترى من الخير أن يأكلا وحدهما؟

- زينب! اسكتي. ونهض الرجل إلى الفراش ولكن لم يغمض له جفن، لقد تعاورته أفكار مظلمة، وأخذ يردد النظر بين حاضره وماضيه، لقد كان للأسرة معنى يحس وحدته في قلبه فأصبح لها في مرأى عينيه معنيان؛ في زوجه وولديه. ورجع أدراج الزمن يلاحق ذكريات عزيزة كاد يطمسها البعد الطويل؛ ثم أخذته إغفاءة الفجر، وخرجت له امرأته الأولى من فكره المضطرب وقلبه المتألم - طيفاً يعاتبه؛ وتخلت عنه حجة المعتذر؛ وأغضى حياءً من عنف تأنيب تينك العينين؛ ورأى ولديه يفران في رعب وفزع إلى حيث يلتمسان الأمان في صدر أمهما. وابتسم الطيف في رثاء وألم. . . واستيقظ، فارتدى ملابسه على عجل وخرج مبكراً إلى الديوان.

ووقف إبراهيم أفندي على سر صاحبه، وآلمه من أخته أن تكون على ما وصف زوجها قسوة وغلظة، ولم يخش على عشها أن ينهدم أكثر مما يخشى على ما بينه وبين صديقه من ود أن تنفصم عروته، وينحل وثاقه، ويعبث في عقدة الإخلاص منه إصبع الشيطان أو إصبع امرأة. . . ودبرا أمراً وافترقا على ميعاد.

في عصر ذلك اليوم دعا نجيب زوجه إلى نزهة، فركبا سيارة إلى بيت أخيها حيث استودعها نجيب إلى أن يعود. وأبدى إبراهيم لمقدمها شعور مرتاح وهو يخفي الغيظ في صدره، وتعلق بها أولاد أخيها يتجاذبون ثوبها في سرور ظاهر، واستقبلتها زوجه بقبلة وداد وعناق مشتاق؛ واستدارت بهم حلقة يتناولون من كل حديث طرفاً، ويتبادلون شتى ذكريات أمس وأنباء اليوم وآمال الغد:

منذ أشهر لم تطأ زينب عتبة هذه الدار؛ منذ فارقتها إلى بيت زوجها تعترك في رأسها أحلام، وتصطرع في نفسها عواطف، وتعبث بطمأنينتها رهبة، وتتحرك في دمها غريزة امرأة، ترى ماذا تحقق من أحلامها وما أخفق وماذا تسعى إليه بعد، وأي حاليها كانت خيراً: حالها الآن وقد أصبحت ربة بيت وصاحبة أمر وسلطان، أم حالها أمس في تلك الغرفة من بيت أخيها ريانة شبعانة كاسية، ثم حسبها مما وراء ذلك من سعادة العيش

أحلام لا تولد إلا في الظلام فلا تعيش تحت الشمس؟
وانتهت تأملاتها وقد زحف الظلام ولم يعد نجيب؛ ترى أي جليل من الأمر تلكأ به وهو الوفي إذا وعد! وهتف نفسها إليه، وهتف باسمه الشوق، وتحدثت إليه المنى: متى يعود.؟ ومد الليل رواقه ولم يعد، وراحت تتناهبها الأفكار، وتنوشها الهواجس، وتعبث بلبها مختلف الخواطر، وذكرت موقفها من ولديه أمس وموقفه، وخشيت أن يكون به ألم من بعض ما فعلت يريد أن يعاقبها عليه. . .
وكأن لم يكن لها عهد بالأكل على مائدة أخيها فجلست تقلب بصرها في أنواع الطعام وفي وجوه الآكلين، لا تكاد تمد يدها أو تحرك فكيها. وقاموا عن المائدة، ثم أوشك الليل أن ينتصف ولما يعد نجيب. . . وغلبها الخوف والألم، وهمت أن تكاشف أخاها بما في نفسها فلم تفعل، وطوت صدرها على هم متكبر! وقام أخوها يتثاءب فدعاها إلى النوم هناك. . . في الغرفة التي ودعتها منذ أشهر يوم صحت من أحلامها تستقبل الحياة التي طالما تمثلتها وتخيلت أيامها ولياليها في كنف الزوج العزيز. . وسلخت ليلتها لم تنم على جنب واحد، وأقبل الصباح أقبح من ليل داج مخيف. ومضى يوم ويوم وأيام وهي تصبح وتمسي على حال واحدة، وأحست أنها ضيف مملول. وشعرت بالوحشة تكتنفها، واجتمعت عليها الأفكار السود، ولم تستبن في ظلام يومها ما يضمره لها الغد، وأيقنت بما هناك. . . أترى زوجها يقدم على ذلك وهو الذي كانت تعرف من حبه إياها أنه يشق عليه أن يفارقها لحظة، فهل يطيق أن يفارقها إلى الأبد؟ ولكنها لم تحرص على هذا الحب، لقد كانت تطمع أن يكون لها وحدها قلبه، وأن تستأثر بحبه من دون ولديه، ففقدت كل شئ ولم تظفر بشئ!!
وقال لها أخوها وقد جلسوا للطعام:
- لماذا لا تأكلين يا زينب؟ لعلك تخجلين أن تجلسي معنا على المائدة، فلا حرج أن تأكلي وحدك إن كان يحلو لك ذلك؛ وتستطيعين أن تطهي طعامك بيدك إذا أحببت ألا تأكلي من طعامنا. ونظر إلى زوجه ونظرت إليه. وسكتت زينب فلم تجب، ولم تأكل أيضاً، فقد ازدحمت في عينيها الدموع. وقامت عن المائدة فلم يلح عليها أن تجلس كما يلح على زوجه وأولاده حين يفرغون قبله من الطعام. أتراها ثقلت عليهم إلى حد أن يكرهوا أن تأكل معهم من طعام واحد؟ لقد هانت عليهم من قبل، حين أذنوا للخادم أن تسافر لزيارة أمها، وتركوها وحدها تؤدي عملها، فلم يساعدها أحد أو يشكر لها يداً، أي هوان!
وخلت إلى نفسها تبكي وتدفن الزفرات في صدرها، ثم تحصي الزمن وتقدر حساب الغد. لقد طال بها الانتظار ونجيب لما يعد. . ومرت بها من الماضي صورة فذكرت. . لكم كانت قاسية جبارة في معاملة كريمة وصلاح، ما أقبح الجريمة وما أعدل الجزاء! وانحدرت على خدها عبرة الندم. لقد كانت عمياء فأبصرت، واشتملها إحساس عميق بالرثاء والعطف؛ كيف لم تدرك من قبل سوء ما كانت تصنع؟ إنه ذنب الصغيرين، ستكفّر عنه حين تعود، ولكن. . . هل تعود؟
وتركت كبرياءها في الغرفة وخرجت تحدث أخاها:
- إبراهيم، ألم يقابلك نجيب؟
- بلى.
- انه لم يحضر!
- أعرف ذلك!
- وهل تعرف السبب؟
- السبب؟!
وتركها مطأطئة الرأس تبكي في حسرة وندم ومذلة، وراح يخفي علائم الظفر تبدو في أساريره؛ لقد أفلحت الخطة ونجح العلاج.
وحين عاد في المساء كانت زينب لا تزال تبكي. لقد غلت القدر وتوشك أن تنفجر؛ واقترب منها فوضع يده على كتفها؛ ورفعت إليه عينين مخضّلتين بالدموع، واندفع في غير رفق يصب عليها جام غضبه، ويوجه إليها قارص اللوم وعنيف العتاب؛ وراحت تعتذر في كبرياء جريح، وراح يحملها تبعة ما يخشاه؛ يخشى أن يفقد صديقه أكثر مما يخشى أن تفقد زوجها. . . ثم ترك القدر في غليان.
والتقى الصديقان، وقص إبراهيم على صديقه ما سمع وما رأى. . . وجلست زينب

تصارع اليأس بالإيمان، وتغالب الحزن بالأمل. ومر يومان ولم يعد إبراهيم إلى التحدث معها في شأن زوجها، ولم يعد نجيب. وغلبها الهم واليأس، واستسلمت للمقادير مؤمنة بأنها إنما تلقى جزاءها العادل. وجاء يوم الجمعة ثالثاً وعاد إبراهيم من الصلاة ومعه ضيف. لقد عاد نجيب بعد طول الغياب!

وجلسوا حول المائدة يتداعون إلى شهي الطعام، ويتبادلون بين اللقيمات كلمات قصيرة عذبة. ثم انفضوا عن المائدة يسمرون، إلا نجيباً وزينب؛ لقد ظلا صامتين، ولكن ضمائرهما كانت تتناجى في حديث خافت، وخواطرهما تفترق وتتلاقى.

وفي اليوم التالي حين عادت زينب إلى عشها المهجور كانت أسعد منها يوم قدمت إلى هذا البيت أول مرة عروساً متوجة بالزهر مودعة بالزغاريد. ورأت كريمة (أمها) فأسرعت تسلم عليها في لهفة وشوق، وعلى فمها ابتسامة، وفي نظراتها بشر وفرح وترحيب. وهرول إليها صلاح يتعلق بذراعها ويجذبها إلى الخلف كأنما يخشى أن تهجره ثانية إلى غير لقاء.

لقد استوحش الطفلان لغيبة زينب، فنسيا كل ما كان من قسوتها، لأن قلوب الصغار طاهرة بريئة، لا تمسك العداوة، ولا تذكر السيئة، ودنياها يومها المتجدد. وكأنما أحس الولدان إن المصيبة إن كانت في فقد الأم، فتمامها أن يفقدا شبه الأم!.

ورأت زينب في ترحيب الصغيرين معنى لم تحسه من قبل، وتحركت فيها الأمومة، وتزاحمت في رأسها إحساسات شتى: من الندم، ومن الحب، ومن التأثر بهذا الوفاء. وطفرت من عينيها قطرتان من الدمع تلهبان خديها بأقسى مما يلذع صدرها الندم. واقتربت منها كريمة وعلى شفتيها تساؤل مشفق:

- أمي، أنت تبكين؟ لا يا أمي، لا تبكي لا تبكي. ودفنت رأسها في صدر زينب مختنقة بالعبرات. ووقف صلاح على مقربة، وقد وضع إصبعه على فيه في حيرة ودهش مما يرى. وتحرك في قلب زينب حنين الحب، فمسحت بيدها في رفق وحنان على رأس (ابنتها) وتدانى فم من وجنتين. وأقسمت، وأشهدت ربها، لتكونن من اليوم لهذه الطفولة الوفية - أمهما الثانية.

محمد سعيد العريان

العدد 69 - بتاريخ: 29 - 10 - 1934

لجنة التأليف والترجمة والنشر

كيف نشأت فكرة هذه اللجنة؟

بمناسبة عيدها الفضي

بقلم الدكتور أحمد زكي وكيل كلية العلوم بالجامعة المصرية وعضو اللجنة

لابد لمن يريد أن يفهم كيف نشأت لجنة التأليف والترجمة والنشر أن يرجع إذا أمكنه العمر، وأسعدته الذاكر، إلى حال مصر منذ عقدين، أي إلى عام 1914 حين تأسست اللجنة، لا، بل لابد له أن يرجع بذاكرته إلى عقد أو بعض عقد قبل ذلك، أيام كانت الكثرة من أعضاء اللجنة المؤسسين تتراوح أعمارهم بين الثالثة عشرة والسادسة عشرة، تلك السن الحساسة التي فيها يتصل اليافع بالحياة العامة لاول مرة، يتصل بها بقلبه اكثر من عقله، ويهتز عنيفا بحوادث قلما يفقه كنه أسبابها ومراميها. ففي تلك السنوات صاح أول صائح أسمع بالاستقلال، فسمعنا صوته خافتا في حجرات الفصول الابتدائية، أو سمعناه أكثر وضوحا وأعلى نبرة في حجرات الفصول الأولى من المدارس الثانوية، ثم شاء الله أن يذهب بصاحب الصوت ويؤثره بجواره، فكانت لانتقاله من الدار إلى الدار رنة جزع دوت في مصر والصعيد، وأنتجت ذلك المشهد الخالد الذي بدأ كالبحر الزاخر عند (لازوغلي)، ثم سال في شوارع القاهرة خاشعاً صامداً إلا صوتاً يوحد الله، فبلغ الصحراء وما زال في المنبع فيض، وأبت المدارس على الطلبة الخروج، فحطمت أبواب وفتحت قسرا نوافذ، ورأينا جبار المعارف يطل على المشهد الرهيب من وراء حجاب وهو لا يكاد يصدق عينيه

ذلك هو الحدث الأول الذي فتح للعيون الصغيرة أول كوة تطل منها على شيء يسمى وطنا، وعلى ناس فيه بائسين يسموني أهلا، وهو أول صدع في القلوب الصغيرة فتح فيها مدخلا لحب الخير ورعاية الغير، وقد كنا ربينا تربية من لون العصر الذي نعيش فيه، لا تعين على الأكثر إلا حب الذات، والاستعداد للرزق عن طريق المرتبات

وجاء من بعد ذلك هذا الحدث أحداث، ونحن نتماشى معها حدثاً حدثاً، وجاءت من بعد هذا
على الشرق، أو على تركيا ممثلة الشرق نوازل، ونحن نتبعها نازلة نازلة، فكانت حرب البلقان وكانت حرب الطليان، وجرت الشائعات بالمزعجات، وتجهم المستقبل، فغلت تلك القلوب الطرية الشابة، فكانت جماعات، وكانت اجتماعات، وكانت مظاهر للإخلاص لا تكون إلا في عهد النبوة، وحوادث للتجرد من منافع النفس لا تكون إلا بوحي السماء، وكانت أراء، وكانت خطط للمستقبل اتسعت لها قلوبنا الكبيرة، واتسعت لها كذلك رؤوسنا الصغيرة، وضاقت بها ممكنات الحياة، وأخذ العود اللين يشتد، والبصر القاصر يمتد، والرأي الفطير يختمر، والخيال العالي يهبط من لازورد السماء سواد الأرض، حتى جاءت الحرب العظمى، فلم يكن بد في مصر من طلب النهضة من أوثق السبل وأقربها من مظاهر المسالمة والسلام، من طريق بث العلم بكل وسائل البث، ونشر الثقافة بكل أساليب النشر، فتألفت لجنة التأليف والترجمة والشر من نفس ذلك النفر الذي كوته الحوادث، وصهرته التجارب، وميزته الآلام و (كم خسرنا في الفول يا يوسف؟) تلك (كم ربحنا من الحلبة هذا العام يا فريد؟) كانت بضاعة اللجنة الأولى، وذلك رأس مالها الذي كان، جمعته من قروش بقدر ما سمحت به أكياسهم الخفيفة منذ عشرين عاما، ولم يكن لها مقر إلا بيوت متواضعة هي منازل أعضائها. وارتأوا تأليف الكتب المدرسية والشعبية، وفاضوا بينها، ونزلوا بحكم الحاجة إلى المال إلى أقرب الصنفين مكسبا، فبدأوا بالمدرسية، رجاء أن ينفق من أرباحها على الكتب الشعبية، فكان أول كتاب أخرجته كتاب (مبادئ الكيمياء للمدارس الثانوية)
هذه هي اللجنة إلى حين إنتاجها أول نتاج لها، وهذه إشارة خفيفة إلى تاريخ نشأتها، وفي تتبع تفصيلات هذه النشأة تتبع لبعض تفاصيل النهضة المصرية في ذلك الأوان، فليس تاريخ اللجنة تاريخ أفراد، ولو كان كذلك لهان، وإنما هو فصل موجز من تاريخ هذا البلد، وقطعة صغيرة من نهضة هذه الأمة، ومرآة يرى الرائي فيها بعض آثار ذلك الزمان.

أحمد زكي

رؤيا في السماء

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال أبو الخالد الأحوال الزاهد: لما ماتت امرأة شيخنا أبي ربيعة الفقيه الصوفي، ذهبت مع جماعة من الناس فشهدنا امرها؛ فلما فرغوا من دفنها وسوى عليها، قام شيخنا على قبرها وقال: يرحمك الله يا فلانة! الآن قد شفيت أنت ومرضت أنا، وعوفيت وابتليت، وتركتني ذاكرا وذهبت ناسيا، وكان للدنيا بك معنى، فستكون بعدك بلا معنى؛ وكانت حياتك لي نصف القوة، فعاد موتك لي نصف الضعف؛ وكنت أرى الهموم بمواساتك هموما في صورها المخففة، فستأتيني بعد اليوم في صورها المضاعفة؟ وكان وجودك معي حجابا بيني وبين مشقات كثيرة، فستخلص كل هذه المشاق إلى نفسي؛ وكانت الأيام تمر اكثر ما تمر في رقتك وحنانك، فستأتيني اكثر ما تأتي متجردة في قسوتها وغلظتها. أما أنا والله لم أرزأ منك في امرأة كالنساء، ولكني رزئت في المخلوقة الكريمة التي أحسست معها أن الخليقة كانت تتطلف بي من أجلها!
قال أبو الخالد: ثم استدمع الشيخ، فأخذت بيده ورجعنا إلى داره، وهو كان اعلم يما يعزى الناس بعضهم بعضا، واحفظ لما ورد في ذلك؛ غير أن الكلام ساعات تبطل فيها معانيه أو تضعف، إذ تكون النفس مستغرقة الهم في معنى واحد قد انحصرت فيه، إما من هول الموت، أو حب وقع فيه من الهول ظل الموت، أو رغبة وقع فيها ظل الحب، أو لحاجة وقع فيها ظل الرغبة. فكنت أحدثه واعزيه، وهو بعيد من حديثي وتعزيتي؛ حتى انتهينا إلى الدار فدخلنا وما فيها أحد؛ فنظر يمنة ويسرة، وقلب عينيه ههنا وههنا، وحوقل واسترجع، ثم قال: الآن ماتت الدار أيضا يا أبا خالد! إن البناء كأنما يحيا بروح المرأة التي تتحرك في داخله؛ وما دام هو الذي يحفظها للرجل، فهو في عين الرجل كالمطرف تلبسه فوق ثيابها من فوق جسمها: وانظر كم بين أن ترى عيناك ثوب امرأة في يد الدلال في السوق، وبين أن تراه عيناك يلبسها وتلبسه! ولكنك يا أبا خالد لا تفقه من هذا شيئا، فأنت رجل آليت لا تقرب النساء ولا يقربنك، ونجوت بنفسك منهن

وانقطعت بها لله؛ وكأن كل نساء الأرض قد شاركن في ولادتك فحرمن عليك! وهذا مالا افهمه أنا إلا ألفاظا، كما لا تفهم أنت ما أجده الساعة إلا ألفاظا؛ وشتان بين قائل يتكلم من الطبع، وبين سامع يفهم بالتكلف.

فقلت له يا أبا ربيعة، وما يمنعك الآن وقد أطرحت أثقالك وانبتب أسبابك من النساء - أن تعيش خفيف الظهر، وتفرغ للنسك والعبادة، وتجعل قلبك كالسماء انقشع غيمها فسطعت فيها الشمس؛ فإنه يقال: إن المرأة ولو كانت صالحة قانتة - فهي في منزل الرجل العابد مدخل الشيطان اليه، ولو أن هذا العابد كان يسكن في حسناته لا في دار من الطوب والحجارة لكانت امرأته كوة يقتحم الشيطان منها. ولقد كان آدم في الجنة، وبينهما وبين الأرض سماوات وأفلاك، فما منع ذلك أن تتعلق روح الأرض بالشيطان، فيتعلق الشيطان بحواء، وتتعلق هي بآدم؛ ومكر الشيطان فصور لهما في صيغة مسئلة علمية، ومكرت حواء فوضعت فيها جاذبية اللحم والدم، فلم تعد مسئلة علم ومعرفة، بل مسئلة طبع ولجاجة. فأكَلا منها فَبدَتْ لهما سَوْءَاتُهُمَا. وهل اجتمع الرجل والمرأة من بعدها على الأرض إلا كانا من نصب الحياة وهمومها، وشهواتها ومطامعها، ومضارها ومعايبها - في معنى (بَدَتْ لهما سَوْآتُهُمَا). . .؟

كلانا يا أبا ربيعة ممن لهم سير بالباطن في هذا الوجود غير السير بالظاهر، وممن لهم حركة بالفكر غير الحركة بالجسم؛ فقبيح بنا أن نتعلق أدنى متعلق بنواميس هذا الكون اللحمي الذي يسمى المرأة؛ فهو تدل وإسفاف منا. ولعلك تقول: (النسل وتكثير الآدمية.) فهذا إنما كتب على إنسان الجوارح والاعضاء، أما إنسان القلب فله معناه وحكم معناه؛ إذ يعيش بباطنه، فيعيش ظاهره في قوانين هذا الباطن، لا في قوانين ظاهر الناس. وإنه لشر كل ما نقلك إلى طبع أهل الجوارح وشهواتهم، فزين لك ما يزين لهم، وشغلك بما يشغلهم؛ فهذا عندنا - يرحمك الله - باب كأنه من أبواب المجون الذي ينقل الرجل إلى طبع الصبي.

فاطمس يا أخي على موضعها من قلبك، وألق النور على ظلها؛ فالنور في قلب العابد نور التحويل إن شاء، ونور الرؤية إن شاء، يرى به المادة كما يريد أن تكون لا كما تكون. وأنت قد كانت فيك امرأة، فحولها صلاة وأعمل بنورك عكس ما يعمل أهل الجوارح بظلامهم، فقد تكون في أحدهم الصلاة فيحولها امرأة. . .

قال أبو ربيعة: تالله أنه لرأي؛ والوحدة بعد الآن أروح لقلبي، وأجمع لهمي؛ وقد خلعني الله مما كنت فيه، وأخذ القبر امرأتي وشهواتي معا، فسأعيش ما بقي لي فيما بقي مني. وزوال شئ في النفس هو وجود شيء آخر. ولقد انتهيت بالمرأة ومعانيها وأيامها إلى القبر، فالبدء الآن من القبر ومعانيه وأيامه.

وتواثقا على أن يسيرا معا في (باطن) الوجود. . .! وأن يعيشا في عمر هو ساعة معدودة اللحظات، وحياة هي فكرة مرسومة مصورة. قال أبو خالد: ورأيت أن أبيت عنده وفاء بحق خدمته، ودفعا للوحشة أن تعاوده فتدخل على نفسه بأفكارها ووساوسها. وكان قد غمرنا تعب يومنا، وأعيا أبو ربيعة وخذلته القوة؛ فلما صلينا العشاء قلت: يا أبا ربيعة، أحب لك أن تنعس فتريح نفسك ليذهب ما بك، فإذا استحممت أيقظتك فقمنا سائر الليل.

فما هو إلا أن اضطجع حتى غلبه النعاس. وجلست أفكر في حاله وما كان عليه وما اجتهدت له من الرأي؛ وقلت في نفسي: لعلني أغريته بما لا قبل له به، وأشرت عليه بغير ما كان يحسن بمثله فأكون قد غششته. وخامرني الشك في حالي أنا أيضا، وجعلت أقابل بين الرجل متزوجا عابدا، وبين الرجل عابدا لم يتزوج؛ وأنظر في ارتياض أجدهما بنفسه وأهله وعياله، وارتياض الآخر بنفسه وحدها؛ وأخذت أذهب وأجئ من فكر إلى فكر، وقد هدأ كل شئ حولي كأن المكان قد نام، فلم ألبث حتى أخذتني عيني فنمت واستثقلت، كأنما شددت شداً بحبال من النوم لم يجئ من يقطعها.

ورأيت في نومي كأنها القيامة وقد بعث الناس وضاق بهم المحشر، وأنا في جملة الخلائق، وكأننا من الضغطة حب مبثوث بين حجري الرحى. هذا والموقف يغلي بنا غليان القدر بما فيها، وقد أشتد الكرب وجهدنا العطش، حتى ما منا ذو كبد إلا وكأن الجحيم تتنفس على كبده، فما هو العطش بل هو السعار واللهب يحتدم بهما الجوف

ويتأجج.
فنحن كذلك إذا ولدان يتخللون الجمع الحاشد، عليهم مناديل من نور، وبأيديهم أباريق من فضة وأكواب من ذهب، يملئون هذه من هذه بسلسال برود عذب، رؤيته عطش مع العطش، حتى ليلتوي من رآه من الأم، ويتلعلع كأنما كوى به على أحشائه.
وجعل الولدان يسقون الواحد بعد الواحد ويتجاوزون من بينهما وهم كثرة من الناس، وكأنما يتخللون الجمع في البحث عن أناس بأعيانهم ينضحون غليل أكبادهم بما في تلك الأباريق من روح الجنة ومائها ونسيمها.
ومر بي أحدهم، فمددت إليه يدي وقلت: (أسقني فقد يبست واحترقت من العطش!)
قال: (ومن أنت؟)
قلت: (أبو خالد الأحول الزاهد.)
قال: (آلك من أطفال المسلمين ولد افترطته صغيراً فاحتسبته عند الله؟)
قلت: (لا. . .)
قال: (ألك ولد كبر في طاعة الله؟)
قلت: (لا. .)
قال: (ألك ولد نالتك منه دعوة صالحة جزاء حقك عليه في إخراجه إلى الدنيا؟)
قلت: (لا. .)
قال: (ألك ولد من غير هؤلاء ولكنك تعبت في توميه، وقمت بحق الله فيه؟)
قلت: (يرحمك الله، إني كلما قلت (لا) أحسست (لا) هذه تمر على لساني كالمكواة الحامية. . .)
قال: (فنحن لا نسقي إلا إباءنا، تعبوا لنا في الدنيا، فاليوم نتعب لهم في الآخرة؛ وقدموا بين يديهم الطفولة، وإنما قدموا السنةً طاهرةً للدفاع عنهم في هذا الموقف الذي قامت فيه محكمة الحسنة والسيئة. وليس هنا بعد ألسنة الأنبياء أشد طلاقة من ألسنة الأطفال، فما للطفل معنى من معاني آثامكم يحتبس فيه لسانه أو يلجلج به)
قال أبو خالد: فجن جنوني، وجعلت أبحث في نفسي عن لفظة (ابن) فكأنما مسحت الكلمة من حفظي كما مسحت من وجودي؛ وذكرت صلاتي وصيامي وعبادتي، فما خطرت في قلبي حتى ضحك الوليد ضحكاً وجدت في معناه بكائي وندمي وخيبتي وقال يا ويلك أما سمعت: (إن من الذنوب ذنوبا لا تكفرها الصلاة ولا الصيام، ويكفرها الغم بالعيال.) أتعرف من أنا يا أبا خالد؟
قلت: من أنت يرحمنا الله بك؟
قال: أنا ابن ذلك الرجل الفقير المعيل، الذي قال لشيخك إبراهيم بن أدهم العابد الزاهد: (طوبى لك فقد تفرغت للعبادة بالعزوبة.) فقال له إبراهيم: (لروعة تنالك بسبب العيال أفضل من جميع ما أنا فيه. . .). وقد جاهد أبي جهاد قلبه وعقله وبدنه، وحمل على نفسه
من مقاساة الأهل والولد حملها الإنساني العظيم، وفكر لغير نفسه، وأغتم لغير نفسه، وعمل لغير نفسه، وآمن وصبر ووثق بولاية الله حين تزوج فقيراً، وبضمان الله حين أعقب فقيراً؛ فهو مجاهد في سبل كثيرة لا في سبيل واحدة كما يجاهد الغزاة؛ هؤلاء يستشهدون مرة واحدة، أما هو فيستشهد كل يوم مرة في همومه بنا، واليوم يرحمه الله بفضل رحمته إيانا في الدنيا. أما بلغك قول ابن المبارك وهو مع إخوانه في الغزو: (أتعلمون عملا أفضل مما نحن فيه؟ قالوا: ما نعلم ذلك. قال: أنا اعلم. قالوا فما هو؟
قال: رجل متعفف على فقره ذو عائلة قد قام من الليل، فنظر إلى صبيانه نياماً متكشفين، فسترهم وغطاهم بثوبه؛ فعمله أفضل مما نحن فيه. . .)
يخلع الأب المسكين ثوبه على صبيته ليدفئهم به ويتلقى بجلده البرد في الليل. إن هذا البرد - يا أبا خالد - تحفظه له الجنة هنا في حر هذا الموقف، كأنها مؤتمنة عليه إلى أن تؤديه. وإن ذلك الدفء الذي شمل أولاًده يا أبا خالد - هو هنا يقاتل جهنم ويدفعها عن هذا الأب المسكين. قال أبو خالد: ويهم الوليد أن يمضي ويدعني، فما أملك نفسي، فأمد يدي إلى الإبريق فأنشطه من يده، فإذا هو يتحول إلى عظم ضخم قد نشب في كفي وما يليها من أسلة الذراع فغابت فيه أصابعي، فلا أصابع لي ولا كف. وأبى الإبريق أن يسقيني وصار مثله بي، وتجسدت هذه الجريمة لتشهد علي، فأخذني الهول والفزع، وجاء إبريق من الهواء، فوقع في يد الوليد، فتركني ومضى

وقلت لنفسي: ويحك يا أبا خالد ما أراك إلا محاسبا على حسناتك كما يحاسب المذنبون على سيئاتهم، فلا حول ولا قوة إلا بالله! وبلغتني الصيحة الرهيبة: أين أبو خالد الأحوال الزاهد العابد؟
قلت: هأنذا.
قيل: طاووس من طواويس الجنة قد حص ذيله فضاع أحسن ما فيه! أين ذيلك من أولادك وأين محاسنك فيهم، أخلقت لك المرأة لتتجنبها، وجعلت نسل أبويك لتتبرأ أنت من النسل؟
جئت من الحياة بأشياء ليس فيها حياة؛ فما صنعت للحياة نفسها إلا أن هربت منها وانهزمت عن ملاقتها، ثم أنت تأمل جائزة النصر على هزيمة .!
عملت الفضيلة في نفسك ونشأتك ولكنها عقمت فلم تعمل بك. لك ألفٌ ألف ركعة وممثلها
سجدات من النوافل، والخير منها كلها أن تكون قد خرجت من صلبك أعضاء تركع وتسجد. قتلت رجولتك، ووأدت فيها النسل، ولبثت طوال عمرك ولداً كبيراً لم تبلغ مرتبة الأب! فلئن أقمت الشريعة، لقد عطلت الحقيقة، ولئن . . . . . .
قال أبو خالد: ووقعت غنة النون الثانية في مسمعي من هول ما خفت مما بعدها كالنفخ في الصور؛ فطار نومي وقمت فزعا مشتت اللب، كمن فتح عينيه بعد غشيته فرأى نفسه في كفن قبر سد عليه . . .!
وما كدت أعي وأنظر حولي وقد برق الصبح في الدار حتى رأيت أبا ربيعة يتقلب كأنما دحرجته يد، ثم نهض مستطار القلب من فزعه وقال: أهلكتني يا أبا خالد، أهلكتني والله.
قلت ما بالك يرحمك الله!
قال. إني نمت على تلك النية التي عرفت: أن أجمع قلبي للعبادة، وأخلص من المرأة والولد، ومن المعاناة لهما في مرمة المعاش والتلفيق بين رغيف ورغيف، وأن أعفي نفسي من لأوائهم وضرائهم وبلائهم لأفرغ إلى الله وأقبل عليه وحده. وسألت الله أن يخير لي في نومي؛ فرأيت كأن السماء قد فتحت، وكأن ر جالا ينزلون ويسيرون في الهواء يتبع بعضهم بعضا، أجنحة وراء أجنحة؛ فكلما نزل واحد نظر إلي وقال لمن وراءه: هذا هو المشئوم!
فيقول الآخر: نعم هو المشئوم!
وينظر هذا الأخر إلي ثم يلتفت لمن وراءه ويقول له: هذا هو المشئوم!
فيقول الآخر: نعم هو المشئوم!
وما زالت (المشئوم، المشئوم) حتى مروا؛ لا يقولون غيرها ولا أسمع غيرها، وأنا في ذلك أخاف أن أسألهم، هيبةً من الشؤم، ورجاء أن يكون المشئوم إنساناً ورائي يبصرونه ولا أبصره. ثم مر بي آخرهم، وكان غلاماً. فقلت له: يا هذا، من هو المشئوم الذي تومئون إليه؟
قال: أنت!
فقلت: ولم ذاك؟
قال: كنا نرفع عملك في أعمال المجاهدين في سبيل الله، ثم ماتت امرأتك، وتحزنت على
ما فاتك من القيام بحقها فرفعنا عملك درجة أخرى؛ ثم أمرنا الليلة أن نضع عملك مع الخالفين الذين فروا وجبنوا . . . . . .!
إن سموا الرجل بنفسه عن الزوجة والولد طيران إلى الأعلى. . . ولكنه طيران على أجنحة الشياطين!
طيران الرجل إلى فوهة البركان الذي في الأعلى . .!
(طنطا)
مصطفى صادق الرافعي
الشيخ علي يوسف
للأستاذ عبد العزيز البشري
في يوم 25 أكتوبر من سنة 1913والقلوب واجفة والأبصار زائغة ومصاير الأمور تتوائب للأوهام في صور مبهمة غامضة، تضطرب بين اليأس كله، وبيت الرجاء كله،

والناس يتساءلون متهامسين من الخوف ومن الورع: ترى ماذا عسى أن يكون قسم مصر من هذه الحرب العامة، وماذا كتبت لها الأقدار في صفحتي الليل والنهار؟

في ذلك اليوم من تلك الأيام السوداء مات رجل ليس مثله في مصر كثير، رجل إذا أحبه ناس أشد الحب، فلأنه قوة كبيرةً في مصر. وإذا كرهه ناس أشد الكره، فلأنه قوة كبيرة في مصر، فالشيخ علي يوسف، على تفرق الأهواء فيه، كان قوة هائلة في هذه البلاد يحسب الناس جميعاً لها كل حساب

ولقد كنت من الذين أبغضوا علياً أبعد البغض، ثم كنت من الذين يحبونه أغلى الحب، ولا والله ما رأيته في حالي بغضي وحبي له إلا رجلاً عظيماً!

مات الشيخ علي يوسف في ذلك اليوم فما قامت الدنيا لموته كما كان ينبغي أن تقوم، ولا قعدت الدنيا لموته كما ينبغي أن تقعد؛ بل لقد شيع ودفن كما يشيع ويدفن أوساط الناس، وكأن الناس لم يشيعوا فيه مفخرة من مفاخر مصر، ولا أودعوا الضريح كنزاً من كنوزها الثمان!

لا أقول أنه الإهمال السئ، ولكن أقول أنه الظرف السيء، ولكن أقول أنه الظرف السيئ ولا أريد المزيد

والآن تسأل الشباب المثقفين المتعلمين عن الشيخ علي يوسف وكيف كان خطبة في البلاد من إحدى وعشرين سنة فقط؛ فترى أقلهم من لا يعرف عنه كثيراً، وترى أكثرهم من لا يعرف عنه كثيراً ولا قليلاً!

أهكذا، وبهذه السرعة السريعة، تختفي سير الرجال عندنا كما تختفي الصور إذا ساد الظلام، أو كما تختفي أشباح الرؤى ساعة الهبوب من المنام؟

وإنني لأضيف الوزر في هذا أيضاً على الظروف. والحمد لله الذي جعل لنا من هذه (الظروف) تكأة نعتمد عليها كلما غشيتنا غاشية من الإهمال، أو طاف بنا طائف من سيئ الأعمال!

ولقد قلد الشيخ علي منصب مشيخة السجادة الوفائية، فاستحق بهذا أن يسمى السيد علياً؛ وقلده الخليفة العثماني الرتبة الأولى من الصنف الثاني، فاستحق بذاك أن يدعى علي بك أو علي باشا يوسف؛ ولكنني لا أعبر عنه إلا بالشيخ علي يوسف. هذا الاسم الذي طالما رن في الآذان، وتجاوبت به الأصداء من كل مكان: الشيخ علي يوسف!

الشيخ علي يوسف! وحسبه بهذا لقباً، بعد ما أعتز بنفسه حسباً، وكرم بالرسول الأعظم نسباً

كان الشيخ علي يوسف رجلاً عصامياً بأوفى معاني الكلمة. نجم في (بلصفورة) من بلاد مديرية جرجا، في أسرة إذا كرم أصلها فقد رقت حالها. ولا تنس أن المال هو كل شئ في هذا الزمان. وتعلم القراءة والكتابة في كتاب القرية، وحفظ القرآن الكريم. ثم انحدر إلى بني عدي من أعمال مديرية أسيوط. فطلب العلم هناك على الشيخ حسن الهواري، ثم قدم الأزهر فطلب العلم فيه بضع سنين

وإلى هنا كانت حياة الشيخ علي حياة عادية بحتاً، فلم يزد خطبه على مجاور مغمور في ذلك الخضرم الزاخر بآلاف المجاورين.

وتستشرف نفس الفتى للأدب. والأدب في ذلك الوقت أن تقول شعراً مقفى موزوناً. فإذا أعوزك العروض، وعميت عليك أوزان الشعر، فحسبك أن يكون المصراع في طول المصراع. فإن زاد الكلم ففي تصغير الكتابة وتدقيق الحروف متسع للجميع وعلى شرط أن تتغزل. فتتغزل كلما طلبت مديحاً، وتتغزل كلما أردت رثاءً، وتتغزل كلما ابتغيت هجاء. وكانت هذه، وخاصة في البيئة الأزهرية أهم فنون الشعر إن لم تكن جميع فنون الشعر.

وعلى هذا قرض الشعر المجاور على يوسف فذهب له به بين المجاورين صيت وذكر ولقد كان الأدب يحمد من المجاور عند أشياخه إلا أن يسرف فيه ويجرد له صدراً كبيراً من وقته، فإنهم كانوا يكرهون ذلك منه، لأنه في الواقع يشغله، بقدر ما، عن توفير الذهن على الدرس والاستذكار ويرون هذا منه آية على (عدم الفتوح) والعياذ بالله!

وحسبة في العام قصيدة يمدح بها شيخة يوم يختم الكتاب، وقصيدة أو اثنتين يرثي بهما من يموت من علية العلماء

وأسرف الشيخ علي في قرض الشعر، فمدح ورثى، وتغزّل (بالطبع) وهجا، حتى اتسق له من هذا النظم ما جمعه بعد في ديوان كامل، وبهذا أصبح مجاوراً ممتازاً وإن حق علية القول، وتراءى شبح الهول!

إذن أصبح مجاوراً ممتازاً بين المجاورين بالأدب، أو إن شئت قلت، لقد أدركته من الناحية الأزهرية حرفة الأدب

ولقد دعاه هذا إلى الاختلاف إلى مجالس الأدباء، ومساهرتهم ومسامرتهم والتروي عنهم، ثم إلى غشيان دور بعض العلية ممن كانوا يجلسون لأهل العلم والفضل والأدب، فيتحاضرون ويتذاكرون. وأقبل الشيخ على هذا الشأن بقدر ما أدبر عن الكد في دروس الأزهر. ثم جعل يرسل المقالات المنثورة في الصحف والمجلات التي كانت قائمة في ذلك الوقت، وكان يكتب أول الأمر على طراز الكاتبين في عصره: مقدمات طويلة تمهد بين يدي كل موضوع ولو لم تدع إليها حاجة الكلام، واحتفال للمحسنات البديعية تستكره استكراهاً، ولو استهلكت الغرض المطلوب

على أن من حسن حظ الشيخ علي أنه ابتدأ في معالجة الكتابة في الوقت الذي انبعثت فيه تلك النهضة البيانية الفاخرة، تلك النهضة التي نفخ ضرامها بالإرشاد والتنبيه السيد جمال الدين الأفغاني، وبالفعل من الإنشاء والتعليم والتأليف الشيخ حسين المرصفي، وللشيخ علي طبيعة، وفيه فطنة قوية، فجعل يدرّب قلمه ويروضه على إرسال البيان سهلاً جزلاً خالياً من الاعتساف، متطلقاً من تكاليف البديع

وفي هذا المقام يجدر بي أن أنبه إلى شيء جديد جدير بالانتباه: ذلك أن حسن البيان وجودة المقال لا ترجع في جميع الأحوال إلى تمكن الكاتب من ناصية اللغة، وتفقهه في أساليبها، وبصره بمواقع اللفظ منها، واستظهاره لصدر صالح من بلاغات بلغائها، إلى حسن ذوق ورهافة حس، بحيث يتهيأ له أن يصوغ فكرته أنور صياغة، ويصورها أبدع تصوير. بل إن ذلك ليرجع في بعض الأحوال، وهي أحوال نادرة جداً، إلى شدة نفس الكاتب وقوة روحه. فقد لا يكون الرجل وافر المحصول من متن اللغة، ولا هو على حظ كبير من استظهار عيون الكلام، ولا هو بالمعنى بتقصي منازع البلاغات، ومع هذا لقد يرتفع بالبيان إلى ما تتقطع دونه علائق الأقلام. ذلك لأن شدة نفسه، وجبروت فكرته. تأبى إلا أن تسطو

بالكلام فتنتزع البيان انتزاعا. ولعل في بيان السيد جمال الدين الأفغاني، وهو غريب عن العربية، وقاسم بك أمين وهو شبه غريب عنها، أبين مثال على هذا الذي نقول. ولقد يعجب القارئ اشد العجب إذا زعمت له أن المرحوم حسين رشدي باشا، وكان رجلاً قل أن تطرد على لسانه ثلاث كلمات عربية متواليات، لقد كان أحياناً يرتفع بالعبارة إلى ما يتخاذل من دونه جهد أعيان البيان!

والآن أستطيع أن أزعم أن الشيخ علي يوسف، على أنه تعلم في الأزهر، وقرأ طرفاً من كتب الأدب، وأستظهر صدراً من مظاهر البلاغة في منظوم العربية ومنثورها - إلا أنه لم يكن مديناً في بيانه لشيء من هذا بقدر ما كان مديناً لشدة روحه وسطوة نفسه. وانك لتقرأ له المقال يخلبك ويروعك، وتشعر أن أحداً لم ينته في البيان منتهاه. ثم تقبل على صيغة تفتشها وتفرها، فلا تكاد تقع على شئ من هذا النظم الذي يتكلفه صدور الكتاب. وبهذا أنشأ الرجل لنفسه أسلوباً، أو على الصحيح لقد خط قلمه القوي نهجا من البلاغة غير ما تعاهد عليه الناس من منازع البلاغات

ولندع الآن بيان الشيخ علي وأثره، فلذلك موضع آخر من هذا الحديث. ونعود إلى تاريخ الرجل فنقول إنه ما كاد يستوي له ذلك القدر من الأدب حتى أنشأ مجلة دعاها (الآداب). وهي وإن لم تكن شيئاً يذكر بالقياس إلى المجلات التي كانت قائمة في ذلك العهد. وخاصة بعد إذ عفّى الزمن على مجلة روضة المدارس التي كان يقوم على تحريرها وإجالة الأقلام بروائع البيان فيها صدور العلماء والشعراء والكتاب

المؤيد

وإذا قلت (المؤيد) قلت شطر من تاريخ مصر محتفل بالأحداث العظام راع أهل الرأي في مصر أن ليس لهذه الأمة، أعني للمسلمين وهم كثرتها الكثيرة. صفيحة تتحدث عنها وتدلى بحاجاتها. وتترجم عن أمانيها، وتذود عن حقوقها وكرامتها. وأن أمة ليس لها في هذا الزمان صحيفة، لهي أمة لا تحس لنفسها وجوداً. ولقد قوى الشعور بشدة الحاجة إلى صحيفة وطنية إسلامية بعد إذ صدر المقطّم صحيفة تظاهر

الاحتلال الإنجليزي. وتروج للسياسة الإنجليزية في هذه البلاد، وتدفع في صدور الأماني القومية ما اعترضت تلك السياسة في يوم من الأيام. وهنا يتقدم الشيخ علي مع صاحب له يدعى
الشيخ أحمد ماضي فينشئان جريدة المؤيد يومية سياسية وطنية إسلامية. ثم لا يلبث الشريكان أن يختلفا، ولا يخرج أحدهما عن الشركة إلا على مال، والمال في يد الشيخ علي أقل من القليل. وهنا تحركت أريحية بعض كبار المصريين فأدوا المال عن الشيخ إلى صاحبه. وهكذا خلص المؤيد للشيخ علي يوسف. وكان للمرحوم سعد باشا زغلول في هذا سعي مشكور
وأذكر أنه لما أتى رحمه الله، بمطبعة جديدة من طراز (الروتاتيف) وعقد لذلك حفلاً جامعاً في إدارة المؤيد خطب في الجمع فأتى في سيرة المؤيد على هذه الحادثة، ونوه بفضل سعد بك زغلول (المستشار بمحكمة الاستئناف) الذي أبى أن يسمع هذه الخطبة إلا واقفاً.
وجرى المؤيد طلقاً، والله يعلم كم عانى الشيخ علي في إخراجه فرداً لا مسعد له من معين أو من مال. الحق أن الرجل لقد جاهد في هذا جهاد الجبابرة، وعانى عناء لو صوره القلم على حقيقته لظنه الناس من إحدى القصص التي تمثلها أخيلة الكتاب. وهكذا لم يمض زمن طويل حتى جنى ثمرة الصبر العجيب (إنَّ الله مع الصَّابرين) صدق الله العظيم
مضى المؤيد يحرره الشيخ علي يوسف، ويرفده بالمقالات البارعة أعيان أهل الرأي والعلم والأدب في البلاد من أمثال المرحومين الشيخ محمد عبده، وسعد بك زغلول، وقاسم بك أمين، وفتحي بك زغلول، وحفني بك ناصف، وكثير غيرهم من أصحاب البيان. وكانوا يسرون أسماءهم في الأحاديث السياسية، بوجه خاص، فذلك مما لا تأذن به المناصب الحكومية بحال. وكذلك أضحى المؤيد مجالاً لأفحل الأقلام وأنضج الآراء. بل لقد أضحى المدرسة التي تخرج عليها من شهدوا الجيل الماضي من أعلام البيان ويسير المؤيد، ويذهب صيته لا في مصر ولا في العالم العربي فحسب، بل في العالم الإسلامي كله، فلقد أصبح لسانه المعبر أفصح تعبير عن حقيقة حاله، والمترجم أنصح ترجمة عن آلامه وآماله، ومتحدث أخبار المسلمين وراويها، ومتلقي أفكارهم في قواصي الأرض وأدانيها
لا يرحل الناسُ إلا نحو حجرته ... كالبيت يفضي إليه ملتقى السبُل
وحسبنا هذا القدر الآن في المؤيد وفي صاحب المؤيد. وسنعاود الحديث فيه إن شاء الله تعالى أن نوفيه بعض حقه إن لم نوفه كل حقه. رحمة الله عليه.
عبد العزيز البشري
لا مؤاخذة
للأستاذ محمد فريد أبو حديد
كنت أعرف رجلاً طيب القلب بلغت منه طيبه القلب مبلغاً عظيماً. فكان يحب الخير ولا يميل إلى الأذى ويعف عما في أيدي الناس، ويعطيهم مما في يديه أكثر مما كان ينبغي له، حتى أنه كان يحب أحياناً أن يولم لبعض أصدقائه وليمة فلا يجد ما يولم لهم به من المال في كفه، فيدفعه حرصه على إرضائهم إلى يؤذي نفسه في سبيل ذلك الرضا، فقد استدان مرة بضعة جنيهات من صديق له وأولم في اليوم التالي لبعض أصدقائه وليمة لذيذة، وأبى عليه كرمه أن يهمل صديقه الذي استدان منه فدعاه إلى الحضور، وكانت فكاهة الأصدقاء بنبأ الوليمة والدين الذي ركب صاحبها من ورائها سبباً في شحذ شهوة الطعام في الجمع حتى لم يبقوا على شئ من ذلك الطعام اللذيذ غير أن هذا الرجل الطيب كان به عيب واحد لا أعرف فيه عيباً سواه، وهو أنه كان يعنى عناية عظيمة برأي الناس فيه، فلا يكاد يسمع من أحد مدحاً في نفسه حتى يثور طربه، ويهتز للمديح اهتزاز الغصن الرطب في الريح، وقد تدفعه الأريحية عند ذلك إلى الخروج عن طاقته في جزاء المادح؛ وأما إذا هو سمع أحداً يذمه ولو ذماً ضئيلاً، فإنه لا يتمالك نفسه من الغضب، وقد تكون غضباته مضرية هائجة، ولولا إنه من الثابتين المطمئنين إلى حكم القانون، لكان لا يرى شيئاً يغسل عنه معرفة معرة الذم، إلا أن يراق في سبيلها الدم. وقد عرفت أنه سمع أن بعض الناس يقعون فيه ويذمونه بأنه يأكل في بيته الثريد بأصابعه الخمس، وأنه ما يكاد يصل إلى بيته حتى ثيابه المحترمة،

ويلبس لباساً ساذجاً مما يلبسه عامة الناس من طبقة الفقراء، فيضع على رأسه لبدة بيضاء من الصوف الخشن، ويلبس في رجله قبقاباً من الخشب الثقيل، ويلبس على جسمه جلباباً من القطن الرخيص، فما كاد يسمع ذلك القول حتى ثارت ثائرته، وجعل يصيح في الحاضرين بأعلى صوته واصفاً ما يلبس وما يأكل، مجتهداً أن يطلع الناس على حاله في بيته، وعلى ما هو عليه من تمتع بأقصى ما يتمتع به المتحضرون المتأنقون؛ ولعله قد لاحظ شيئاً من التردد بين سامعيه في تصديق أقواله، فجعل يزيد في التأكيد حتى بلغ الأمر منه أن جعل يقسم لهم جهد الأيمان، ولما أحس مع كل ذلك أن السامعين فيهم المعاند والمكابر، اتخذ خطه عمليه حازمه لبيان صدق قوله فقد حلف على الجميع وعزم أشد العزيمة أن يزوروه في منزله في صباح الغد ليقيموا عنده النهار أجمعه فيطلعوا على أسلوب حياته معاينة واختباراً. ثم ذهب من فوره إلى أقرب أصدقاء إليه، وأوثقهم مودة عنده وأملئهم جيباً. فاستدان منه ما يستعد به لحفلة الغد، ولم ينس أن يدعوه في المدعوين لشهود ما هو على نية إظهاره وإجلائه

ولكن لا يظنن أحد من القراء أنني أصف هذا الرجل لأنه ممن يستحق العناية الخاصة لميزة في شخصه، أو لمكانة له بين الناس. فإنما أنا أسوقه مثلا لقوم في مصر يريدون أن يقحموا البلاد في مثل ما تورط فيه صاحبنا هذا. فمثلاً قد تكرر ما قال القائلون من الدعوة لمصر في الخارج، وما صاح الصائحون من وجوب إظهار أهل الغرب على ما نحن عليه من رقي وتحضر، وهم لا يظنون على ذلك السعي بالمال مهما عظم مقداره، والحق أنني أعطف أشد العطف على وطنية هؤلاء وسلامة طويتهم. فمثلاً قد ذهب أحد المصريين إلى مؤتمر من المؤتمرات، وكان بطبيعة الحال لابساً بذلة من البذلات الرسمية الوجيهة، فمال عليه جاره وكان من ممثلي بعض دول الغرب فسأله عما هو صانع ببذلته بعد انصرافه من المؤتمر. وأغلب ظني أن ذلك الزميل الأوربي المحترم قد ظن في الممثل المصري أنه لا يكاد ينفلت من المؤتمر حتى يرمي بتلك البذلة فوق أقرب شجرة من شجر الجميز إذا بلغ الطريق المؤدية إلى عاصمة بلاده، وهو راكب جملاً قوياً يحمله في سفره، ثم يقف تحت تلك الشجرة ينتظر مرور أول وعل من وعول الجبل فيرميه بسهم من قوسه الشديدة، ويسلخ عنه جلده، وينشره في الشمس يوماً أو بعض يوم، ثم يلبسه بدل بذلته الرسمية. ثم يتابع سيره نحو العاصمة لمقابلة أولي الأمر فيها، وإبلاغهم نتيجة بحوث المؤتمر الذي كان يمثل بلاده فيه. لعل ذلك الزميل قد حسب هذا، ولا بد أن الممثل المصري قد تصور هذا الظن، ورأى فيه مساساً عظيما بكرامته وكرامة بلاده فغضب له، وجاء يشكوه لبني وطنه ليظهر لهم مقدار جهل الناس بحقيقتهم، وقد سمع هذا القول طائفة من الناس فغضبوا له غضباً شديداً، وجعلوا يطالبون بأن تبذل الحكومة من أموال الشعب بضع مئات من ألوف الجنيهات الذهبية لكي تنظم دعوة لاطلاع أهل الغرب على حقيقة أمر الشعب المصري

وأنني لا أرى مانعاً يمنع من بذل المال، ولا من القيام بدعوة في سبيل مصر، فكل شئ في خدمة مصر هين، وكل قصد الحياة هو خدمة مصر

ولكني مع ذلك أحب أن تتجه الدعوة نحو قصد مخالف كل المخالفة لما يريد هؤلاء السادة أن يدعوا إليه. ولا يسعني إلا أن اعتذر لهم وللقراء عن هذه المخالفة التي قد تغضبهم متى وصفت لهم حقيقتها، ولا أجد شيئاً أقدر أن أعتذر إليهم إلا أن أقول لهم: (لا مؤاخذه)، فإن هذه الكلمة كلمة سحرية، وقد جربت أثرها في مختلف المواقف، فو الله ما خانني سحرها يوماً، ولا خذلني نصرها في ساعة من ساعات الشدة. فكم وطئت على أقدام في الترام وقت الزحام، فلما رأيت ثورة الذي وطئت قدمه أسرعت وتلفظت بذلك الطلسم، فإذا وجهه تشرق عليه ابتسامة عريضة، ويهز رأسه لي، كأنما هو يعتذر عما ظهر على وجهه من التجهم في أول الأمر. وكم أخطأت فلم ينجني من تبعة الخطأ إلا هذا اللفظ المبارك، وكم خرجت عن حدود اللياقة ونفذت إلى العفو الفسيح من مدخل هذا اللفظ البديع. فلا مؤاخذه أيها السادة إذا كنت أعتقد أن خير مصر ونفع الوطن في أن نبذل بضعة آلاف أو بضعة مئات من الآلاف من جنيهات الذهب، على أن يقوم جماعة من المخلصين لمصلحة هذه البلاد بدعوة في شعوب العالم أجمع، يعلون فيها من ذكر مصر، بأن يصفوا أهلها بالتوحش والغلظة، وينعتوهم

بأقبح النعوت وأبشع الصفات - وحبذا يوم يعتقد فيه شعوب أوربا وأمريكا أن المصريين لا يلبسون إلا جلود النمور والأسود، ولا يعرفون من المساكن إلا الكهوف والأدغال، وأن لهم قسياً قوية وسهاماً مسمومة، وأنهم يقفون لأعدائهم تحت الصخور ووراء الجذوع، فيسددون إليهم سهاماً مسمية لا ينجو أحد من جراحها، وأن الذي يدخل بلادهم لا يلقى إلا مشقة، ولا يرتاح في حل ولا ترحال. وأن المصريين يأكلون لحم الحيوان بغير نضج، فإذا لم يجدوا من لحوم الحيوان شيئا اشبعوا الجوع بما يجدونه قريباً منهم من اللحم، ولو كان آدمياً؛ وأنهم حديد الأسنان، حمش السيقان، حرز العيون، قبيحوا الخلقة. أقول هذا (ولا مؤاخذه) فأت تلك الدعوى عندي آثر وأحب، وأثرها في ظني أبلغ في إجلال القوم لنا ومراعاتهم لحرمنا. فأن الناس على حضارتهم لم يزيدوا بعد على أنهم متوحشون، قد طلوا ظاهرهم بطلاء من الفضة أو الذهب، وأما باطنهم فلا يزال فيه الحيوان البري الذي يخشى القوة الوحشية خشية أعظم من تقديره لفضائل الفلسفة وإنها لإهانة لا تعدلها إهانة أن يذهب نفر من أهل مصر ليعلفوا في ملأ الشعوب الأخرى أن شعب مصر يلبس الملابس المعتادة، لا جلود الحيوان، وأنه يأكل الخبز والطعام، لا لحوم البشر ولا المن والجراد. أما أنا فيمين الحق أنه لأحب إلي أن يذهب الناس عني قائلين إني متوحش، أو إني جاهل، أو أني غر، أو إنني من أكلة لحوم الإنسان، من أن أكلف نفسي أن أبين لهم إنني لست كما يزعمون. لا بل إنني أحسب أنه لو ظن الناس في مثل هذه الظنون لكان هذا مبعث فكاهة لنفسي أنعم بها وحدي وأنا أتأمل مقدار جهل هؤلاء الناس بي، وضلالهم في معرفة حقيقة أمري

ولعل أهل الغرب إذا فشت فيهم عقيدة أننا من لابسي الجلود وآكلي اللحوم النيئة، حملهم ذلك على بعض التحرز في معاملاتنا، وبعض الخشية من أنيابنا

. . .!.ولا مؤاخذه

محمد فريد أبو حديد

بوانكاريه وبارتو

للأستاذ محمد عبد الله عنان

فقدت فرنسا في أسبوع واحد رجلين من أعظم رجالها، وسياسيين من أقدر ساستها وكاتبين من أكبر كتابها، هما مسيو لوي بارتو وزير خارجيتها، ومسيو رايمون بوانكاريه رئيس جمهوريتها الأسبق؛ فذهب مسيو بارتو ضحية بريئة في حادث مرسيليا المروع الذي اغتيل فيه الملك اسكندر ملك يوجوسلافيا، وتبعه مسيو بوانكاريه إلى القبر بعد أيام قلائل. وكان السياسي العظيم مريضا منذ حين، يستشفي في الرفييرا، ولكنه عاد إلى باريس منذ أشهر ممتعاً بالصحة والنشاط، ثم توفي فجأة، بينما كان يتابع الكتابة في مذكراته؛ فذهب بموته ركن من أعظم أركان السياسة الفرنسية المعاصرة. ولا يشغل بوانكاريه وبارتو مكانتهما الممتازة في عالم السياسة فقط، ولكنهما يشغلان مكانتهما الممتازة في عالم البيان والأدب أيضاً، ولكل منهما آثار أدبية تتبوأ المقام الأول بين تراث الأدب الفرنسي المعاصر

كان رايمون بوانكاريه فرنسياً عظيماً من غلاة الوطنية الفرنسية التي تذهب إلى حد التعصب؛ وكان يمثل مدرسة سياسية خاصة شعارها القومية المغرقة في كل شئ، ووسيلتها القوة والتفوق المادي قبل كل شئ؛ وكانت سياسته قبل الحرب وفي خلالها، ثم من بعدها، تمثل دائما روح العسكرية المحافظة، وروح الاستعمار الجشع، فكان بوانكاريه من أعظم بناة العسكرية الفرنسية، وكان من أعظم بناة الإمبراطورية الفرنسية الاستعمارية.

وكان مولده في (بارلد يك) من أعمال اللورين في أغسطس سنة 1860، ودرس الحقوق في باريس؛ وبدأ حياته العملية في الصحافة، فتولى حيناً تحرير القسم القضائي لجريدة (لي فولتير) ثم عين موظفاً في وزارة الزراعة، ولكن جو الوظائف الحكومية لم يرقه، فاستقال لنحو عام من تعيينه؛ وكانت أحداث السياسة وتهزه وتستغرق اهتمامه، فخاض المعركة الانتخابية ودخل البرلمان لأول مرة في سنة 1887 نائباً عن مقاطعة الموز. ومن ذلك الحين بدأ نجمه السياسي في التألق؛ وامتهن المحاماة في باريس، فظهر فيها بمقدرته وساحر بيانه؛ وجدد انتخابه لمجلس النواب سنة 89، ثم في سنة 93. وفي هذا العام دخل الوزارة وزيراً للمعارف وهو في الثالثة

والثلاثين من عمره، ثم تولى وزارة المالية في العام التالي، ثم المعارف مرة أخرى سنة 95. وأستمر في مجلس النواب حتى سنة
1903. ثم دخل مجلس الشيوخ. وتبوأ بوانكاريه مركزه في الزعامة السياسية؛ كما تبوأ مركزه في الزعامة الأدبية؛ وكان إلى جانب مقدرته السياسية كاتباً ممتازاً؛ يلفت الأنظار بروعة كتاباته السياسية والأدبية. وفي سنة 1906 تولى وزارة المالية مرة أخرى. وفي سنة 1909 توجت زعامته الأدبية بانتخابه عضواً في الأكاديمية الفرنسية. وفي يناير سنة 1912 ألف بوانكاريه وزارته الأولى خلفاً لوزارة كايو المستقيلة، وتولى إلى جانب الرياسة وزارة الخارجية. وهنا بدرت بوادر الأزمات الدولية التي مهدت إلى الحرب الكبرى، فأبدى بوانكاريه خلال هذه العواصف قوة ومقدرة، وظهرت قوة وسائله بالأخص في مسألة مراكش حيث استطاع أن يرغم السلطان على الاعتراف بالحماية الفرنسية، وظهرت ميول بوانكاريه العسكرية واضحة في عنايته بمسألة التسليحات، ومضاعفة قوى فرنسا البحرية. وفي سنة 1913 أنتخب بوانكاريه رئيسا للجمهورية الفرنسية خلفاً للرئيس فالليير؛ وأستدعى ارستيد بريان لرياسة الوزارة. وكانت أوربا تسير يومئذ إلى الأزمة الكبرى بخطى سريعة؛ وكان بوانكاريه يسهر على ثمار سياسته، وعلى المحالفات التي انتهت إليها. وفي يوليه سنة 1914 كان بوانكاريه إلى جانب نيقولا الثاني قيصر روسيا في بطرسبرج؛ وكانت بواعث هذه الزيارة ظاهرة واضحة، وهي تمكين التحالف الروسي الفرنسي ضد ألمانيا والنمسا والمجر، وتنظيم الخطط للمعركة القادمة

ولما عاد بوانكاريه إلى فرنسا كانت الأزمة قد وصلت ذروتها ولاح شبح الحرب جلياً في الأفق. وكتب بوانكاريه بهذه المناسبة إلى جورج الخامس ملك إنجلترا خطاباً أشتهر بقوة منطقه وبيانه. ثم كانت الحرب؛ فكان بوانكاريه رجل الموقف؛ وأبدى خلال هذه الأعوام العصيبة كثيراً من الحزم والقوة والبراعة في تدبير شؤون الحرب ومعالجة المشكلات الخطيرة التي كانت تثيرها، واستطاع أن يقف البرلمان عند حده وأن يحمي الجيش من نفوذه وأن يرد حملاته عن الحكومة، وأن يقضي على التنافس الحزبي وآثاره في سير الأمور. ولم يحجم في سنة 1917 عن استدعاء خصمه القديم جورج كليمنصو إلى تولي الحكم، فكان موفقاً في اختياره، وكان كليمنصو وزارة النصر النهائي

وهنا نقطة خطيرة يجب أن نشير إليها تلك هي موقف بوانكاريه الحقيقي إزاء الحرب الكبرى ومبلغ مسئوليته في العمل لأثارتها. وقد أثارت مسئولية الحرب منذ عقد الصلح كثيراً من البحث والجدل، وألقى عليها كثير من الضوء سواء من الوثائق الرسمية المختلفة التي نشرت، أو تصريحات أقطاب السياسية الأوربية الذين اتصلوا بمقدماتها. وقد ظهر منها جميعاً أن رايمون بوانكاريه يحمل في إثارة الحرب الكبرى أكبر التبعات وأنه كان مت العاملين لها قبل نشوبها بأعوام؛ وظهر بالأخص من الوثائق التي نشرها مسيو أزفولسكي سفير روسيا في باريس قبيل الحرب، أن بوانكاريه كان دائب العمل بالتفاهم مع القيصر على تنظيم الخطط لإذكاء الأزمة، وأن زيارته للقيصر في يوليه سنة 1914 لم تكن إلا لأحكام خطط العمل والدفاع في الحرب المنشودة. وهذه نقطة خطيرة تثقل كاهل بوانكاريه بلا ريب، ولم يوفق هو قط إلى دحضها رغم كل ما قال وكل ما كتب.

وانتهت رياسة بوانكاريه للجمهورية في سنة 1920، وخلفه مسيو دي شانل الذي لم تطل رياسته سوى أشهر؛ وعاد إلى مجلس الشيوخ، وإلى العمل في المحاماة والصحافة، وفي يناير سنة 1922، ألف بوانكاريه وزارته الثانية، وتولى وزارة الخارجية، وكان الجدل يشتد يومئذ بين فرنسا وألمانيا حول تنفيذ شروط معاهدة الصلح وأداء التعويضات المفروضة على ألمانيا؛ وكان بوانكاريه يرى منذ البداية أن تذل ألمانيا، وتسحق حتى النهاية، وكان من أشد خصوم الهدنة ووقف الحرب، وكان يرى مع فوش أنه يجب مطاردة الجيش الألماني حتى عاصمة بلاده، وجعل الرين حداً لألمانيا؛ فلما بدأت ألمانيا في التذمر من شروط الصلح، ومن أداء التعويضات، رأى بوانكاريه الفرصة سانحة للعمل، فقرر احتلال الروهر في أوائل سنة 1923 تنفيذاً للعقوبات التي نصت عليها المعاهدة في حالة التخلف عن التنفيذ، وكان هذا الأجراء من أشنع الأخطاء التي ارتكبتها السياسة الفرنسية؛ ولم يقف إلى جانب فرنسا فيه سوى بلجيكا؛

وانتهى إلى عكس المقصود منه إذ أثار في ألمانيا روح السخط والمقاومة، وفقدت فرنسا من جرائه كثيراً من العطف، وظهرت فيه بمظهر التحامل والتحرش؛ وفقد بوانكاريه أيضاً كثيراً من ثقة مواطنيه وتقديرهم؛ وظهر ذلك جلياً في انتخابات سنة 1924 حيث فاز فيها خصومه ومعارضوه واضطر إلى الاستقالة؛ وتتابعت من بعده عدة وزارات ضعيفة كانت تسحقها الأزمة المالية وأزمة الفرنك بنوع خاص. ولما تفاقم خطب الفرنك وكادت فرنسا تنكب بكارثة مالية شنيعة دعي الرجل القوي (بونكاريه) إلى الحكم مرة أخرى في يوليه سنة 1926، فلبى الدعوى؛ واستطاعت وزارته بما اتخذت من التدابير السريعة القوية أن تجتنب الكارثة وأن ترد إلى الفرنك ثباته، وأستمر بوانكاريه في الرياسة إلى سنة 1929، ثم استقال لأسباب صحية، وتفرغ إلى كتابة مذكراته التي بدأ بإخراجها قبل ذلك بأعوام تحت عنوان (في خدمة فرنسا) وفيها يبسط مراحل حياته السياسية، وما اضطلع به من الأزمات السياسية قبل الحرب وفي أثنائها، وما بذله من جهود لإحراز النصر. وكان بوانكاريه أثناء اعتزاله الحكم يكتب في الصحف فصولاً سياسية قوية، واشتهرت منها بالأخص سلسلة مقالات يكتبها تحت عنوان (الوعاء المتكسر)، وفيها يندد دائماً بسياسة الضعف نحو ألمانيا؛ وكما أن بوانكاريه كان يعرب في سياسته عن عميق تعصبه القومي، فكذلك تطبع كتاباته مثل هذه النزعة القومية العميقة، وهو ينحو في ذلك نحو مواطنه الكاتب اللوريني الأشهر موريس باريس الذي أشتهر بعنف حملاته على ألمانيا، وتحريضه على سحق العنصر الجرماني؛ ولبوانكاريه آثار أدبية وتاريخية أخرى، وله في المحاماة مواقف مشهورة، وقد وصل أثناء العمل بها إلى أرفع ما يطمح إليه محام، وأنتخب نقيباً للمحامين، ورفع بذلك إلى صف أعلام الفصاحة القضائية، كما رفع من قبل إلى ذروة المجد السياسي.

وقد لبثت السياسة الفرنسية مشربة بروح الأثرة والقومية العميقة، الذي عمل لإذكائه رجال مثل فوش وبوانكاريه وكليمنصو؛ ثم تطورت منذ سنة 1926، أي منذ اشتد ساعد الاشتراكيين والاشتراكيين الراديكاليين، وقويت الدعوة إلى السلام والتضامن الدولي، وتولى ارستيد بريان توجيه السياسة الخارجية الفرنسية، ولاح مدى حين أن التفاهم ممكن بين أعداء الأمس، وأن سلام العالم يمكن تحقيقه بالمواثيق والمعاهدات الصريحة، ولكن بريان توفى بعد أن ازور نجمه؛ ثم قامت الاشتراكية الوطنية في ألمانيا، وعادت موجة التطرف الهتلري توجه النذير إلى فرنسا؛ فعادت فرنسا إلى سياستها القومية المتطرفة، وظهر بوانكاريه لمواطنيه مرة أخرى بأنه في دعوته إلى هذه السياسة، أبعد نظراً من الوجهة العملية، من أولئك الذين ينشدون السلام بالتفاهم والحسنى.

وقد كان لوي بارتو من تلاميذ هذه المدرسة السياسية المغرقة في القومية، وكان مثل صديقه وزميله بوانكاريه يؤمن بسياسة القوة والتحالف العسكري. وكان مولده في بيارن من أعمال فرنسا الجنوبية سنة 1862، ودرس الحقوق أيضاً ثم انتظم في سلك المحاماة، تلك المهنة الخلابة التي يتخرج فيها معظم الساسة الفرنسيين. ودخل بارتو مجلس النواب لأول مرة في سنة 1889، ولم يلبث أن ظهر بقوة منطقه وبيانه. ودخل الوزارة لأول مرة سنة 1894، إلى جانب بوانكاريه وهو يومئذ في الثانية والثلاثين من عمره. وكانت يومئذ بدعة أن يتولى الوزارة فتيان أحداث مثل بارتو وبوانكاريه. ولكن النبوغ المتفتح كان يسود كل اعتبار آخر؛ واستمر بارتو بين النيابة والمحاماة، مدى حين. وتولى الوزارة بعد ذلك مراراً، في وزارة الأشغال والداخلية. ثم وزارة الحقانية منذ سنة 1909 في وزارة بريان، وأستمر في هذا المنصب أربعة أعوام. وفي سنة 1913 استدعي بارتو لرئاسة الوزارة، فاستمر مضطلعاً بأعبائها إلى ما قبيل الحرب الكبرى؛ واستطاع في هذه الفترة أن يحمل البرلمان على إصدار قانون الخدمة العسكرية الجديد الذي يمدها إلى ثلاثة أعوام؛ ثم تولى وزارة الأشغال مرة أخرى في سنة 1917، ثم وزارة الحقانية في وزارة بوانكاريه الثانية (سنة 1924). وعني بارتو بدرس حركة النقابات وأصدر عنها كتاباً جامعاً بعنوان العمل النقابي ' في عالم الأدب ظهوراً قوياً، واشتهر أسلوبه التحليلي؛ وكتب تراجم نقدية بديعة لميرابو خطيب الثورة الفرنسية ولامارتين وغيرهما وهي من أقيم كتب الترجمة لفرنسية، وكتب كتاباً عن

غرام فكتور هوجو ' وهو من أرق ما كتب عن هذا الشاعر؛ وكتب رسالة عن فاجنر؛ وكتب غير ذلك من الكتب والرسائل مما يضيق المقام بذكره؛ وأنتخب عضواً في الأكاديمية الفرنسية منذ سنة 1924؛ وكان محاضراً ومحدثاً ساحراً، أشتهر بغزير ثقافته وقوة عارضته وتدفق بيانه.

ولما نشبت الحرب الكبرى دفع بارتو بابنه الوحيد إلى صفوف المدافع عن الوطن، فقتل في المعارك الأولى، وأصاب فؤاد الوالد الكسير جرح لم يندمل قط.

وغادر بارتو مجلس النواب إلى مجلس الشيوخ في سنة 1922 واستمر يخوض المعركة السياسية؛ ولكنه كان من فريق الساسة الهادئين الذين لا يظهرون كثيراً على مسرح المعارك الصاخبة، ثم تولى وزارة الخارجية منذ فبراير الماضي، وكانت منذ سنة 1927 وقفاً على ارستيد بريان حتى توفي سنة 1932؛ وتولاها من بعده بول بونكور. وكانت وفاة بريان نذيراً بتطور سياسة فرنسا الخارجية، وعودها إلى الخضوع لروح الأثرة والوطنية المغرقة؛ فلما تولاها بارتو كانت نظريات فوش وبوانكاريه قد غلبت في توجيهها

مرة أخرى؛ وبارتو من أبناء هذه المدرسة كما قدمن. وجاء عنف الحركة الهتلرية في ألمانيا نذيراً جديداً لفرنسا بوجوب التحوط ومضاعفة الأهبات والمحالفات العسكرية. وقد أبدى بارتو في تنفيذ هذه السياسة نشاطاً وبراعة فائقين فطاف بالبلاد المحالفة لفرنسا مثل بولونيا وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا ويوجوسلافيا ليحكم أواصر التحالف بينها وبين فرنسا، ولكي تحاط ألمانيا بسياج قوي من الأمم التي تقف وقت نشوب الحرب إلى جانب فرنسا. بيد أن أعظم ظفر استطاع بارتو أن يتوج به سياسته هو تقوية التفاهم الفرنسي الروسي واستئناف سياسة التحالف القديم بين روسيا وفرنسا، وإدخال روسيا في حظيرة عصبة الأمم وحظيرة الدول الغربية بعد أن لبثت بعيدة عنها زهاء ستة عشر عاما. وكانت هذه أول مرحلة في سياسة فرنسا الجديدة لتحقيق عزلة ألمانيا عن باقي الدول الأوربية؛ وكانت المرحلة الثانية هي توثيق أواصر التحالف بين يوجوسلافيا وفرنسا ثم حمل يوجوسلافيا على التقرب من إيطاليا، وأخيراً تحقيق التفاهم بين فرنسا وإيطاليا وتسوية المسائل المعلقة بينهما وحملها بذلك على نبذ سياسة التفاهم مع ألمانيا بصورة نهائية. وكانت زيارة الملك اسكندر ملك يوجوسلافيا تحقيقاً لهذا البرنامج. ولكن وقعت فاجعة مرسيليا التي ذهب ضحيتها الملك اسكندر ومسيو بارتو؛ ولقيت السياسة الفرنسية بذلك صدمة قوية. بيد أنها صدمة مؤقتة، والظاهر أن فرنسا ستمضي في تنفيذ برنامجها السياسي، وأن مسيو لافال وزير الخارجية الجديد، سيستأنف العمل حيث وقف مسيو بارتو؛ وسيقوم مكانه بزيارة رومه، كما كان مقرراً من قبل. ولكن الموقف ما يزال غامضاً، ولا سيما إزاء وقوعه في يوجوسلافيا عقب وفاة الملك اسكندر من الحوادث والتطورات الخطيرة

تلك سيرة الرجلين اللذين فقدتهما فرنسا في أسبوع واحد. وقد فقدت فرنسا في الأعوام الثلاثة الأخيرة جل أقطاب زعمائها القدماء، مثل كليمنصو وفوش ودومير وبريان وبوانكاريه وبارتو؛ وطويت بذهابهم مرحلة أو مراحل من تاريخ فرنسا المعاصر، ولم يبق من أقطاب ساسة الجيل المنصرم سوى القلائل، مثل تاريدو الذي يمثل الكتلة القومية، وهريو الذي يمثل السياسة الاشتراكية. ولا ريب أن فرنسا ستشعر بفداحة هذه الخسارة خصوصاً في هذه الآونة العصيبة التي تقتضي كثيراً من العمل السياسي المستنير. بيد أن للسياسة الفرنسية تقاليد راسخة، وسوف يبرز إلى الميدان السياسي رهط من الساسة

والزعماء الجدد ليملأوا ذلك الفراغ، وليقودوا الجمهورية الثالثة إلى نفس المثل والغايات التي عمل لها ساسة الجيل الراحل

محمد عبد الله العنان

المحامي

في العيد الألفي لمولد الفردوسي

الشاهنامة

للدكتور عبد الوهاب عزام

ترجمة الكلمة التي ألقاها الأستاذ عزام بالفارسية على قبر الشاعر في طوس

لست أريد أن أفصل الكلام في الشاهنامة أو بعض مباحثها الكثيرة. فأدباء إيران الكرام أعرف بذلك وأقدر عليه، ولكني أريد أن أتقدم إليكم بكلمة موجزة تبين عن مكانة الشاهنامة في آداب الأمم ولا سيما الأمم الشرقية:

قال بعض المؤلفين إن الشاهنامة إلياذة الشرق. وذلك التشبيه غير صحيح من بعض الوجوه، فأن الشاهنامة جديرة أن يكون لها بين أمم الشرق مكانة أرفع من مكانة الإلياذة بين أمم الغرب. ذلكم بأن الإلياذة قصة حروب وقعت في معترك ضيق من آسيا الصغرى بين اليونان والطرواديين. وهي زهاء ثمانية آلاف بيت، تستمر حوادثها ستة وخمسين يوماً. والشاهنامة تقص حادثات ميدانها ما بين الهند والصين إلى البحر المتوسط، وتشمل كل وعت الروايات من تاريخ الأمة الإيرانية وأساطيرها من أقدم عصورها إلى العهد الإسلامي، ويشترك في وقائعها التورانيون والعرب والروم والهند، ولا تحرم الصين من نصيب فيها. فكل أمم آسيا العظيمة وبعض أمم أوربا يتناولها موضوع هذا الكتاب العظيم. فقد أوعى الكتاب من التاريخ والأساطير ما هو جدير بعناية المؤرخ الناقد، مؤرخ السياسة أو مؤرخ الأدب والاجتماع

وصفت الشاهنامة نشوء الحضارة الإيرانية وتطورها، وقصت تاريخ الإيرانيين ملوكهم وأبطالهم وكبرائهم في القرون المتطاولة، وأبانت عما كان بينهم وبين الأمم المجاورة من عداء ومودة، وحرب وسلم. وصفت الجلاد الهائل المستمر بين إيران وتوران، ثم مثلت ما كان بين الأمتين من جوار ومودة في القرابة بين ملوك إيران وتوران، إذ جعلتهم جميعاً بني أفريدون، ثم وصلت هذه القرابة بمصاهرات عديدة: كتزوج سياوخسن بن كيكاوس جريرة بنت بيران أعظم قواد التورانين، ثم فرنكيس بنت أفراسياب أعظم ملوك توران،

ومن سياوخسن وفرنكيس ولد كيخسرو حفيد كيكاوس وسبط أفراسياب. وكذلك نجد في العصور التاريخية تزوج أنوشر وأن بنت الخاقان

وأما العرب فقد أجمل الكتاب في أنبائهم ما كان بين الإيرانيين والسامين من حوادث في العصور المتطاولة، فجعل الضحاك عربياً، وقص وقائع كيكاوس وملك هاماوران (حمير) ووقائع أخرى بين الساسانيين والقبائل العربية. ثم ذكر طرفاً مما كان بين الأمتين من مودة وتعاون فيما كان من مصاهرة بينهما إذ تزوج بنو أفريدون الثلاثة سلم وتور وايرج ثلاث بنات لملك اليمن. وتزوج كيكاوس سوذابة بنت مهراب ملك كابل وهي عربية من نسل الضحاك، فولد رستم بطل الأبطال من أب إيراني وأم عربية. وأوضح من هذا ما كان بين الأمتين من مودة في العهد الساساني أعظم مظاهرها علاقة ملوك الحيرة بملوك فارس، وما كان للفرس من سلطان ومحبة بين العرب في البحرين واليمن

والروم ذكروا في أنباء الوقائع المتمادية التي كانت بين الساسانيين ودولة الروم الشرقية وفي قصة الاسكندر. ووصفت مودتهم في قرابة ملوك الروم أبناء سلم بن أفريدون، وفي تزوج كشتاسب بن لداسب من كتايون بنت ملك الروم، وتزوج كسرى برويز مريم بنت القيصر

والهند ذكروا في حوادث منها وقائع كابلستان وحوادث بهرام كور وتزوجه بنت ملك الهند. والصين تذكر في وقائع التورانيين وفي التجارة

فهذه المنظومة العجيبة التي تتناول حوادث قرون وأمم كثيرة، لا ينبغي أن تشبه بالإلياذة الضيقة الحدود؛ وينبغي أن تكون عناية الشرقيين بها أعظم من عناية الغربيين بالإلياذة

ولا ريب أن في الشاهنامة أساطير كثيرة، ولكن الأساطير في الأدب أروع من الحقائق. ثم لا ينكر دلالة الأساطير على تطور الأمم وعلى كثير من عاداتها وأخلاقها. فأن الأساطير وليدة خيال الأمة وأمانيها، لا يحدها الواقع ولا تضيقها الحقيقة

وكم في أساطير الشاهنامة في العهدين الأول والثاني - عهدي البيشداديين والكيانيين - من حقائق دينية واجتماعية وتاريخية ألبست ثوب الخيال وحرفت فيها الوقائع والأسماء

وللشاهنامة ميزة أخرى على الإلياذة، وملاحم أخرى كالمهابهاراته والرامايانا، بأنها كلها لشاعر واحد، إذا استثنينا ألف البيت التي نظمها الدقيقي. والفردوسي ناظمها شاعر تاريخي

معروف لا يشك أحد في وجوده وانه ناظم هذه الملحمة الرائعة، على حين يكثر خلاف المؤرخين في الإلياذة وناظمها، وعلى حين أن المهابهاراتا والرمايانا نظم شعراء عديدين بعضهم مجهول

فالشاهنامه سجل تاريخ أمة وأساطيرها منذ أقدم عصورها، وهذا لا يعرف في منظومة أخرى

لم يكن الفردوسي مخترع هذا الحادثات بل كان مصورها، فقد نظم الرجل ما ادخرته الروايات، ولم يكن حراً في الذهاب مع خياله كيف يشاء. ودليل هذا في الكتب الأخرى ولا سيما كتاب الثعالبي (غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم) وهو أقرب الكتب إلى الشاهنامة، وقد عاصر الثعالبي الفردوسي وقدم كتابه للأمير نصر أخي السلطان محمود الغزنوي الذي قدمت إليه الشاهنامة

وهذا يزيد في قيمة الكتاب ويجعله مرآة تاريخ الأمة وأفكارها، لا صورة من خيال الشاعر وأوهامه. وهذا أيضا يزيد في قدر الفردوسي، فعسير جداً أن يذلل الشاعر هذه الأكداس من الحوادث للنظم السلس المتين، ويكلف نفسه السير في حزنها وسهلها، لا يتخير الأيسر والأسهل من موضوعات النظم

لو كانت الشاهنامة قصصا منثورة من روعة الشعر وموسيقى النظم، لكانت مع هذا جديرة بعناية الإيرانيين والأمم الشرقية، ثم عناية المؤرخين والباحثين في الأمم كلها. فكيف وقد أفرغت هذه القصص في صور شعرية رائعة، ونظم متين منسجم، يزيد المعنى جلالاً وروعة؟ كيف وهي جهد شاعر نابغة في أكثر من ثلاثين عاماً؟ لا تقتصر الشاهنامة على قصص الحادثات، ولكنها تصور الوقائع حتى يكاد القارئ يرى الفرسان في حومة الوغى، ويبصر النقع معقوداً في الآفاق، ويسمع صليل السيوف ووقع الأسنة، وصياح الأبطال وصهيل الخيل

وهذا الفردوسي وصاف الحروب لا يقصر في تصور عواطف الإنسان والإبانة عنها على لسان أبطال قصته، وهو ليس عاجزاً في قصص الحب كما ترى في قصة زال وروذابة، وقصة بيزن ومنيزه، وقصة كشتاسب وكتايون. وناهيك به رجل أخلاق لا يألو في الدعاء إلى الخير والنهي عن الشر. وهو بصير بأحداث الزمان يستخرج المواعظ من وقائع الكتاب، فلا يكاد يفتتح فصلاً أو يختمه إلا واعظاً بليغاً من غير الزمان

وإني أستشهد هنا أستاذاً من كبار المستشرقين درس الشاهنامة درساً بليغاً، هو الأستاذ نلدكه الألماني قال:

إن الفردوسي شاعر مطبوع، يستولي على فكر القارئ، ويحيى القصة التافهة بإنطاق) الممثلين أمامنا، بل كثيراً ما تضيع الحركات في جلال الأقوال. وهو يفصل الحادثات فيبين أحسن إبانة عن حادثة لم يكتب عنها في الأصل الذي نظم عنه أكثر من أنها وقعت، ويبيح لنفسه أن يخلق حادثات صغيرة ليتم الوصف. وهو يعرف كيف يحيي أبطاله، بل يخرج أحياناً البطل في صورة جديدة غير التي عرفته بها الروايات، وما أقدره على تبيان ما وراء أعمال الأبطال من أسباب وأفكار. والوصف النفساني رائع جداً، ونغمة البطولة تسمع في الكتاب كله، وعظمة الزمان القديم وأبهته، وفرحه وترحه وجلاده، مصورة في أسلوب معجب، حتى ليسمع الإنسان صليل السيوف وجلبة المآدب. هو لا يبلغ في التفاصيل مبلغ هومير، ولا يستطيع مثله أن يجعل حادثة في كلمات قليلة، ولكنه مع هذا يمضي قدماً إلى غايته حين يصف الوقائع، وإن يكن في الخطب والرسائل مكثاراً

مشاهد الحرب تستقبل القارئ في كل مكان، ولكن هناك ميادين للحب والعواطف الرقيقة، فهناك قصص للحب عظيمة كقصة زال وروذابه، وبيزن، ومنيزه. وهي أجمل أقسام الكتاب، والشاعر في هذا، بل في كتابه كله، يملك القارئ ببساطة الوصف. وعاطفة الأمومة والأبوة والقرابة واضحة في الكتاب كذلك، ولكن يصحبها التعطش للدماء ثأراً للأقارب، فقصة الانتقام لسيا وحسن مثلاً تملأ صفحات من الكتاب كثيرة جداً، وهذا الولع بالثأر يتمكن حتى نجد الرجل العاقل كودرز يشرب دم أطيب الأعداء بيران. . . .

ويتجلى في الكتاب كذلك ندب حظوظ الإنسان في هذا العالم الحائل والاعتبار بغير الزمان) اهـ.

هذه الميزات الأدبية والتاريخية جعلت للشاهنامة مكانة علية في الأدب الفارسي منذ

نظمت، فحاكها كثير من الشعراء بقصص متصلة بموضوعها، فنظمت ست قصص أبطالها من أسرة رستم وهي: كرشاسب نامه، وبطلها كرشاسب جد أسرة سام ابن نريمان. وسام نامه، وبطلها سام بن نريمان جد رستم. وجهانكير نامه، وبطلها جهانكير بن رستم. وفرامرز
نامه، وبطلها فرامرز بن رستم. وبانو كشاسب نامه، وبطلتها بانو كشاسب بنت رستم وامرأة كيو بن كودرز. وبروز نامه، وبطلها بروز بن سهراب بن رستم. ونظمت بهمن نامه، وبطلها بهمن بن اسفنديار.
ثم نظمت بعد قصص أخرى كتيمور نامه التي نظمها الهاتفي، وشاهنامة القاسمي الكونابادي، وشاهية مجد الدين البابوي النسائي. ولا تزال محاكاة الشاهنامة مستمرة حتى العصر الحاضر
وقد حاكاها الترك أن صح ما يروى إن شاعراً في القرن العاشر الهجري من بروسه أسمه الفردوسي الطويل نظم شاهنامة طويلة جداً في 380 جزءاً، وأهداها للسلطان بايزيد الثاني، فأمر بانتخاب 80 جزءاً منها وإحراق الباقي، فغضب الشاعر وهجا السلطان وهجر بلاد الروم إلى خراسان حيث مات غماً
وأولع الناس بترجمة الشاهنامة إلى لغاتهم، فترجمت إلى عشر لغات. وكانت اللغة العربية أولى اللغات بترجمة الشاهنامة، لما بين الأدبين الفارسي والعربي من التقارب. ولذلك كانت العربية أسبق اللغات إلى إحراز هذه الترجمة. فقد أمر الملك المعظم بن الملك العادل الأيوبي الفتح بن علي البنداري الأصفهاني أن يترجم الشاهنامة إلى اللغة الغربية، فشرع في ترجمتها في جمادى الأولى سنة 620، وأتمها في شوال سنة 621. استطاع أن يترجم هذا الكتاب العظيم في ثمانية عشر شهراً، وهي همة علالية ومقدرة عظيمة من هذا الأديب الكبير. ونحن نعترف لإخواننا الإيرانيين بفضل إنشاء الشاهنامة وفضل ترجمتها إلى اللغة العربية.
ترجم البنداري الكتاب نثراً بلغة سهلة غير متكلفة، ونقل الحوادث مجردة من التفصيل والتصوير الشعري، فجاء الكتاب في نحو 18500 سطر، في كل سطر نحو عشر كلمات. وذلك نصف الشاهنامة.
ومعظم تصرف المترجم يرجع إلى ما يلي:
1 - حذف بعض الفصول الصغيرة كفصل تجريب أفريدون أولاده في قصة أفريدون، وقتل رستم الفيل الأبيض وذهابه إلى الجبل الأبيض في قصة منوجهر، ومقاتلة رستم وجنكس في قصة كامدس الكاشاني، ونصح زال ابنه رستماً في قصة اسفنديار الخ.
2 - وحذف بعض الحوادث كما حذف ما وقع بين رستم والتركمان حينما ذهب لإحضار كيقباد من جبل ألبرز، وحذف ذهاب امرأة كيو إلى أبيها رستم حينما ذهب زوجها إلى توران باحثا عن كيخسرو.
3 - وحذف اكثر مقدمات الفصول التي يتكلم فيها الفردوسي عن نفسه أو يعظ، كما حذف مقدمة قصة سهراب ورستم التي يتكلم فيها الشاعر عن موت الشبان وحكمته؛ ومقدمة قصة سياوخسن التي يتكلم فيها الفردوسي عن الشعر والكلام البليغ.
4 - اختصار الرسائل والخطب والوصايا المطولة، واختصار الوصف في الحروب وآلات الحرب، ووصف الخيل والوحوش، ووصف المآدب الخ.
5 - وحذف مدائح السلطان محمود، وإثبات مدح الملك المعظم في بعض مواضعها.
6 - ويزيد روايات من كتب التاريخ كالطبري والمسعودي، كما روى قصة ملك الحضر في عهد سابور بن أردشير، ونقل ما كان بين هرمز ورعيته.
والمترجم في هذا أمين لا ينقل كلمة من كتاب آخر إلا نبه إليها إلخ. إلخ. وقد أصلحت بعض هذه العيوب على قدر الطاقة حينما نشرت الترجمة العربية.
لم ينقل المترجم إلى العربية جمال شعر الفردوسي، ولكن نقل حوادث الشاهنامة مختصرة فيسر لقارئ الغربية الإحاطة بموضوع الكتاب في وقت قصير. ولابد أن يكمل نقص هذه الترجمة بترجمة منظومة للكتاب كله أو لفصول منه.
ولهذه الترجمة العربية قيمة أخرى، فقد ترجمت في أوائل القرن السابع الهجري قبل أن يكثر الاختلاف بين نسخ الشاهنامة. وليس عندنا نسخة ترجع إلى ذلك القرن. فيمكن أن يستعان بهذه الترجمة في المقترنة بين نسخ الشاهنامة المختلفة وترجيح بعضها على بعض.

اهتمت الأمم الشرقية الإسلامية من بعد بترجمة الشاهنامة، فترجمت إلى التركية العثمانية، وإلى التركية الشرقية، وطبعت الترجمة الأخيرة في طشقند سنة 1326. وترجمت إلى اللغة الكجراتية وطبعت في بمباي (1897 - 1904)، وترجمت إلى اللغة الأردية كذلك.

وفي القرن التاسع عشر الميلادي عرف الأوربيون الشاهنامة واهتموا بها، فترجمها مول إلى الفرنسية وطبعت على نفقة الدولة في نصف قرن بين سنة 1830 إلى سنة 1877 وطبع معها الأصل الفارسي في ثمانية مجلدات ضخمة، وهي أعظم طبعة للشاهنامة عرفت
في العالم كله.

وترجم اتكنسون إلى الإنكليزية رستم وسهراب، ثم الكتاب كله ترجمة مختصرة وطبعت في لندن سنة 1830، وترجم أرنولد سهراب ورستم أيضا. ثم ترجم ورنر وأخوه الكتاب كله نظماً وطبع سنة 1905 فما بعدها، وكذلك ترجم رجرس معظم الكتاب وطبع في لندن سنة 1907.

وترجم الكتاب إلى الألمانية نظما مرتين: ترجمة فون شاك وطبع في برلين سنة 1851 إلى سنة 1865، ثم ترجمه ركرت، وطبع في برلين من سنة 1890 - سنة 1895.

ومن قبلهما ترجم جرس خلاصة الكتاب إلى موت رستم، وطبعه في برلين سنة 1830.

وأوفى ترجمة للشاهنامة الترجمة الإيطالية، ترجمها بزي نظماً، وطبعها في تورينو في ثمانية مجلدات 1886 - 1888.

وطبع الأوربيون الشاهنامة الفارسية نفسها مرارا، طبع الجزء الأول منها في كلكتا سنة 1811، وطبعها كلها تزنر مكن في كلكتا سنة 1829 وهذه الطبعة أصل لطبعات أخرى. وطبعها مول في باريس كما تقدم. وطبع ثلاثة أجزاء منها فون فولر في ليدن بين سنة 1877 وسنة 1884.

فهذا اهتمام الأوربيين بالشاهنامة وهم لا تربطهم بها وبقومها ما يربط الأمم الشرقية.

وإنا لنرجو أن يزيد اهتمام الشرقيين بهذه المنظومة العظيمة حتى لا تخلو لغة من اللغات الشرقية من ترجمة كاملة منثورة ومنظومة.

ولعل هذا الاحتفال العظيم بذكرى شاعرنا النابغة الخالد، يكون فاتحة نهضة في الشرق توفي الشاهنامة حقها من العناية

وإن المندوبين المصريين ليسران ويفتخران بالمشاركة في هذا المهرجان، ويبلغان مشاركة الحكومة المصرية والأمة المصرية الاحتفال بالفردوسي الشاعر العظيم الذي تربطه بهم وأدباء الفرس عامة روابط أدبية وتاريخية لا تمحى على كر الأيام

عبد الوهاب عزام

الخميس

20 جمادى الأول سنة 1353

30 أغسطس سنة 1934

الشخصية - 6

للأستاذ محمد عطية الأبرشي

المفتش بوزارة المعارف

أنواع الشخصية

الشخصية نوعان:

عملية وفكرية، ولنتكلم عن كل منها بالتفاصيل فنقول:

الشخصية العملية (1)

كثيرا ما يسأل الإنسان: أيهما أفضل: الأمور النظرية أم العملية؟ وبعبارة أخرى أيهما أفضل: الأفكار أم الأعمال؟ وجوابنا على ذلك أننا لا نستطيع أن نفضل النظريات من العمليات، فنحن في حاجة إليهما معاً، وكل منهما متوقف على الآخر ومكمل له، لا ضده ونقيضه كما يظن البعض، والأفكار أمهات الأعمال، ومن الممكن اعتبارهما مظهرين لشيء واحد

وكما أن لكل أمر من الأمور ناحيتين: إحداهما نظرية والأخرى عملية، كذلك نقول إن

للشخصية ناحتين: نظرية وعملية؛ فالرجل مثلاً قد يكون موضع الإعجاب لأفكاره وأعماله، ولو أن الأعمال في النهاية نتيجة الأفكار، ومع ذلك قد تغلب على الإنسان إحدى الناحيتين: النظرية أو العملية تبعاً لميوله وعاداته، فهذا قد يميل إلى الجهة العملية، وذلك قد يميل إلى الناحية الإدراكية فتنمي فيه بطريقة التعود هذه الناحية أو تلك.

ولاشك في أن الشخصية العملية التي تظهر بالعمل والتنفيذ أكثر أثراً وظهوراً في الحياة العملية من الشخصية الفلسفية البعيدة عن هذه الحياة، والأولى كممثل يقوم بتمثيل دوره عملياً على المسرح أمام الناس، والثانية كمن يقوم بتمثيل دوره في الخفاء أو وراء الستار بعيداً عن الأنظار، فأثر الأولى أكثر وضوحاً وظهوراً من أثر الثانية. وتتمثل الشخصية العملية في المصلحين وقادة العمل والمستكشفين الذين ترى آثارهم في أعمالهم التي قاموا بتحقيقها وتنفيذها خدمة للإنسانية. وتتمثل الثانية في الشعراء والفلاسفة والخياليين الذين يقومون بتصوير الأشياء ووصفها، فيسبحون تارة في عالم الحقيقة، وتارة في عالم الخيال؛

ولا ينكر فضلهم أحد، ولكن أثرهم في هذا العالم المادي أقل ظهوراً؛ ففي اليوم الذي اجتاز فيه (بليريوت) القنال الإنجليزي بطيارته كانت الأفكار كلها وأحاديث الفخر والإعجاب موجه إليه، لا إلى العالم الذي فكر فيها عدة سنوات حتى أخترعها.

وإننا لا نقصد بذلك أن نقلل من قيمة العلماء أو المفكرين أو قادة الفكر، ولكننا نقصد الاعتراف بأن تأثير رجال الأعمال أظهر من تأثير رجال الفكر، وإننا نتأثر بالأعمال النبيلة أكثر من تأثرنا بالأفكار مهما كانت سديدة، ولا ننكر أن الفكر والوجدان ينتهيان بالعمل

ومنذ زمن ليس بالبعيد كانت التربية تفكر في العالم أكثر من العمل، فكان الإنسان إذا اختبر سئل عن (مقدار ما يعرفه) أما اليوم فقد تبدلت الحال وانعكس الأمر؛ فأصبحت التربية تعنى كل العناية بالعمل والأعمال، وأصبحت الأسئلة: (ماذا فعل الإنسان؟ وماذا يستطيع أن يفعل؟ وما مقدار ما يفعل؟) ولم تكن الجامعات فيما مضى لتعنى بالجانب العملي من الحياة، ولم تكن لتعمل على تربية رجال ليعملوا؛ بل كانت عنايتها موجهة إلى تكوين رجال مثقفين حباً في الثقافة، معلّمين حباً في العلم، ليكونوا كزينة لها أينما وجدوا في الأسرة أو المجمع الديني أو في المجمع الأدبي. وكان الرجل الجامعي المثقف لا ينتظر منه أن يعمل شيئاً بيده، فكان كأداة من أدوات الزينة، وكان المجتمع يزدريه ويحتقره إذا حاول أن يعمل عملاً يدوياً. أما الأعمال اليدوية وأما الصناعات فكانت خاصة بالطبقة الفقيرة التي تدعى الطبقة العاملة. وكان يظن خطأ أن هذه الطبقة خلقت لتعمل، أما الطبقة الأخرى فخلقت لتفكر.

أما اليوم فقد أصبحت الفكرة السائدة أن التفكير غير مقصور على طبقة من الطبقات، وأن العمل لا تختص به طائفة دون أخرى، وصار التعليم عاماً بين الفقراء والأغنياء على السواء في الأمم المتمدينة، لا يمتاز به هؤلاء على أولئك، وجعل وسيلة لإعداد الجميع للقيام بواجبهم العلمي والعملي والأدبي في الحياة. وأصبحت الفرصة، فرصة العمل سانحة أمام الجميع من غير ما تفريق. فالعلم الآن في هذا العالم المادي لا يصلح في نظر الماديين - وما أكثرهم - لأن يكون غاية مستقلة. بل يجب أن يكون وسيلة للعمل. ولسنا في شك مطلقاً من أن العلم قوة، لا، بل أكبر قوة في يد الإنسان. وهو قوة اليوم كما كان قوة بالأمس. وسيكون قوة إلى الأبد، ولكننا في حاجة إلى العلم الذي يؤدي إلى العمل، العلم

الذي يمكن تنفيذه والانتفاع به عملياً بتحويله إلى عمل؛ فالعلم بلا عمل لا خير فيه، مثله كمثل شجرة بغير ثمر. هذا هو المقياس الذي يقاس به العلم، ويحكم به على العلوم اليوم. ولا عجب؛ فبعد أن كان العلم يطلب للعلم، حباً في العلم ذاته، أصبحنا لا نفكر إلا في الماديات، نسأل عن مقدار ما يمكن أن يستفاد به عملياً في الحياة من تعلم هذا العلم أو هذه المادة، وأصبحت العلوم التي لا تؤدي إلى أكل الخبز، أو الخبز والزبدة، ينظر إليها نظرة تشكك في الإقبال عليها. ويكثر الإقبال على العلم أو المهنة بقدر ما يمكن أن تدره من المال في أقصر وقت. هذا هو مقياس الإقبال على العلم الآن، وهذا هو الرأي السائد بين الأكثرية من المربين والمتعلمين في الأمم المتمدينة. فالعالم أصبح تجارياً، والعلم كذلك أصبح ينظر إليه بنسبة ما يستطيع صاحبه أن يكتسبه

بواسطته من وظيفة أو ثروة أو مركز أو نفوذ. ويكاد هذا العصر المادي يقضي أو قضى بالفعل إلى العالم الروحي، وعلى تعلم العلم حباً في العلم، والاشتغال بالفن حباً في الفن. وإننا لا نكره المادة، ولا ننادي بكره المادة أو احتقارها، ولكن يؤلمنا أن تسيطر المادة على كل شئ، حتى على أفكارنا وتعليمنا. ولا ننكر أن النجاح هو الحياة، وهو الفوز. وحبذا الأمر لو أمكننا أن ننجح النجاح المادي مع المحافظة على الروح العلمية الخالصة، فنجمع بين عالم المادة وعالم الروح.

فالحياة اليوم نزاع بين القديم والجديد، بين عالم الروح وبين عالم المادة، وهو نزاع لا نهاية له، ولكنه ليس نزاعً عدائيً، بل هو نزاع ودي تكميلي لا غرض منه سوى النجاح في الحياة

ولكن ما النجاح الذي نبغيه؟ وما الرقي الذي نريد الوصول إليه؟ هو نجاح الشعب ورقيه، روحياً ومادياً، قوةً ونفوذاً، علماً وعملاً، مبدأ وإنسانية. ولكن هل يمكن الجمع بين الروح والمادة في آن واحد؟ ولم لا؟ إن الإنسان يستطيع أن يكون روحياً إلى حد ما، ومادياً إلى حد ما، بحيث لا تتغلب الروح على المادة، ولا تسيطر المادة على الروح؛ فيأخذ من كل منهما نصيبه، ولا يعنى بناحية ويهمل الأخرى. والنجاح هو الفوز بعد الجد والتعب، التعب الجسمي والعقلي، سواء أكان ذلك النجاح في التأليف أو في نسج القطن وغزله، أو في بيعه وشرائه، أو في صنع السيارات أو الطيارات أو في كتابة الروايات. . إلخ

ومن الضروريات الأساسية للشخصية العملية العلم بالشيء الذي يراد القيام به، والرغبة في

النجاح فيه ولا فائدة في العلم والرغبة إذا لم يصحبا بقوة تنفيذية معنوية أو حسية، داخلية أو خارجية تعمل على التنفيذ.

فكما أن السيارة لا تستطيع السير إلا إذا كانت معدة للسير تمام الإعداد. وكان بها المقدار الضروري من زيت الوقود، وكان الطريق معبداً صالحاً لسير السيارات، كذلك الإنسان لا يمكنه أن يقوم بعمل عظيم إلا إذا كان هناك علم به، ورغبة شديدة فيه، قوة دافعة تدفعه إلى القيام به، هي قوة الإرادة والعزيمة الثابتة

وطالما صادف الإنسان أشخاصاً لديهم الوسائل الضرورية للنجاح في العمل من علم وخبرة وذكاء وحسن تقدير، ولكنهم فقدوا صفه واحدة من أهم الصفات الضرورية للنجاح، تلك هي قوة العزيمة والتنفيذ، فلم ينجحوا في أعمالهم، لأنهم يميلون إلى كثرة النقد والتحليل والتشكك في كل شيء حتى في أنفسهم فيمنعهم ذلك الشك من رؤية فائدة الشيء فيترددون في الإقدام، ويرجعون إلى الوراء، فتضيع منهم فرصه النجاح، والفرصه إن أتت مرة قد لا تعود مرة أخرى. فالعزيمة الصادقة تعد سراً عظيماً من أسرار الشخصية العملية والنجاح في العمل.

محمد عطية الأبرشي

من مشاهداتي في أوروبا

معجزات طبيب

للأستاذ عبد الحميد فهمي مطر

يرى الداخل إلى مصحة تسايلابس حديقة جميلة زينت بالورود ونسقت بالزهور المختلفة الألوان، فإذا من انتهى من الحديقة ودخل من الباب العام للمصحة، وجد نفسه في ردهة فسيحة ذات جناحين كبيرين أحدهما للرجال والآخر للنساء قد صفت فيهما الآرائك، ونسقت أشجار الظل وأصص الأزهار المعروفة بالحدائق الشتوية التي لا تنفك عينك تقع عليها أبداً في بلاد النمسا الجميلة. ثم لا يلبث أن يرى أفواج المرضى يتدفقون عندما يقترب موعد العلاج: وهو منظر يذعر له من يراه لأول مرة، ويكاد يذوب قلبه حسرة على أولئك المساكين وخاصة منهم المشلولين والمقعدين الذين يجرون في العربات جر الأطفال الصغار لعدم قدرتهم على المشي والحركة. يأخذ كل مريض مكانه على تلك الأرائك. وفي يد كل تذكرة دخول ثمنها ثلاثة شلنات نمساوية أي نحو أحد عشر قرشاً مصرياً تبيح له الدخول مرة واحدة. وقبل ميعاد العلاج بعشر دقائق يفتح باب يوصل إلى ردهة فسيحة ثانية توجد بها أرائك أخرى ومشاجب تعلق عليها الملابس، وتقف سيدة تتسلم تذاكر الدخول وأخرى تأخذ بيد العميان إلى أماكنهم. وهنا يخلع الجميع ملابسهم العليا ليصير النصف العلوي لجسم كل منهم

عرياناً. فإذا دقت الساعة النصف بعد السابعة أو العاشرة صباحاً، أو الثانية بعد الظهر، فتح باب حجرة العلاج على مصراعيه، ووقف به ساحر جالزباخ يستقبل مرضاه، وهو رجل مسن، ولكنه بدين الجسم طويل القامة قوي الساعد مفتول العضل حاد النظر طويل اللحية أحمر الوجه دائم الابتسام، يفيض البشر من عينيه الواسعتين البراقتين، يحيي مرضاه بابتسامة ساحرة، ويداعبهم بمختلف الدعابات، ويقف بجواره نجله الدكتور فرتز الذي درس الطب في ألمانيا ثم انقطع لمساعدة والده في تلك المصحة العظيمة. أما حجرة العلاج فهي حجرة فسيحة مربعة طولها 12 متراً وارتفاعها 7 أمتار، غطيت جدرانها بطلاء بنفسجي اللون، وأقيمت بجوار تلك الجدران عدة أفران كهربائية ذات أضواء مختلفة الألوان بعضها قوي جداً وبعضها ضعيف. فإذا دخل فوج المرضى تلك الحجرة تراصوا صفوفاً أمام آلة العلاج يتقدمهم الأطفال ويتلوهم المشلولون والعميان

ويتبعهم باقي المرضى. أما الجدد فيجلسون على أرائك خلفية بعد أن يكونوا قد دونوا البيانات الخاصة بهم وبأمراضهم عند السكرتيرة التي تعرضها على الطبيب فيما بعد. تغلق أبواب الحجرة بعد ذلك فتصبح مظلمة إلا بصيصاً من نور ضئيل. ثم يبدأ الساحر بالعلاج: تسمع صوتاً يدوي في أرجاء الحجرة كأنه الرعد القاصف يصم الآذان، ويدخل الرعب في القلوب، فترتاع له أفئدة أولئك الذين كتب عليهم أن يلجو هذه الحجرة لأول مرة، ثم ترى شرراً كهربائياً بنفسجي اللون يتطاير من كرة معدنية كالبطيخة تتصل بأحد طرفي عصا يقبض عليها الساحر من الطرف الآخر، ثم يمسك بعنق كل مريض ويمر تلك الكرة مرات سريعة بالقرب من عموده الفقري من أعلى إلى أسفل، ويضعها أحياناً على الجزء الذي يشكو منه ألماً، ولا يستغرق ذلك كله أكثر من عشرين ثانية، ثم يتركه إلى غيره وهكذا حتى ينتهي منهم جميعاً في زمن لا يزيد على نصف ساعة، فإذا خرج المريض من قبضة يده القوية ومن تحت تلك العصا السحرية مر في أحد الأفران الكهربائية مروراً لا يستغرق بضع ثوان أيضاً بإرشاد إحدى المرشدات هنالك

والحق أقول إننا لأول مرة سمعت أنا وصديقي ذلك الصوت المزعج ورأينا ذلك الشرر الكهربائي البنفسجي الذي علمنا عنه فيما بعد أنه نتيجة تيار كهربائي عالي الضغط جداً إذ يبلغ 595 ألف فولت، أقول إننا عند ذلك ذعرنا وامتلأت قلوبنا رعباً، وكاد صديقي يترك الحجرة ويعود أدراجه من شدة الخوف، ولكني تملكت قواي وشجعته ونبهته إلى أولئك الأطفال والشيوخ الذين يتلقون ذلك الدش الكهربائي بلا خوف ولا وجل، واتضح لنا بعد التجربة أن فعل تلك الآلة في الجسم أخف كثيراً من صوتها المرعب في النفس حتى أن صاحبي بعد بضعة أيام أصبح لا يرهبها بل على العكس من ذلك كان يسعى ليكون في المقدمة، فكنت أذكره بقول الشاعر العربي:

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد ... لنفسي حياة مثل أن أتقدما

أما الكشف على المريض الجديد فلا يستغرق أكثر من دقيقة لأنه يسأله عن الداء وموضع شكواه، ثم يضع فوق ذلك الموضع أنبوبة زجاجية يمر بها تيار كهربائي ذو ألوان مختلفة، وكأني به يتعرف بذلك موضع الداء تماماً. ويدخل المرضى لتكرار ذلك العلاج بالأكتروراديوم ثلاث مرات يومياً. ثم إنه علاوة على ذلك العمل الأساسي يستعمل طرقا

أخرى في العلاج، فإنه يأخذ بالمحقن من كل مريض كمية معينة من دمه في حجرة خاصة ويضعها في أنبوبة كتب عليها اسم المريض، ثم يمر فيها تيارات كهربائية لتقوية الدم، وفي اليوم التالي يعيدها بالمحقن إلى جسم المريض نفسه، وكأني به يتمثل بقول أبي نواس:

وداوني بالتي كانت هي الداء

وفي المصحة فوق ذلك حجرات أخرى لعلاج بعض الأمراض الخاصة كالربو مثلاً حيث يستنشق المريض بعض غازات معينة في أوقات تعين له. وهناك حجرة أخرى يدخلها المرضى بترتيب خاص حيث يحصر الجزء المريض من الجسم بين قرصين من المعدن تمر فيهما أشعة كهربائية قصيرة. وفي المصحة نحو ثلاثين موظفاً من رجال ونساء طبيبات وممرضات، ولهم جميعا في المصحة مسكنهم ومأكلهم ومشربهم

ولقد تقابلنا مع الدكتور فرتز وتحادثنا معه طويلاً باللغة الإنجليزية فكان مثال التواضع

والأدب الجم، وعرفنا منه أنه تجرى عمليات في المصحة بوساطة التيار الكهربائي ذي الضغط العالي، وأنهم يعالجون الأمراض على اختلاف أنواعها كالشلل والعمى والربو والسكر والسل الرئوي وعرق النسا إلخ. ما عدا الحميات بأنواعها والصرع والجنون، وعلمنا منه أيضاً أنه يبحث بحثاً جديداً في استخدام الأشعة القصيرة في العلاج، وهو ينتظر فائدة كبيرة من وراء ذلك البحث. وأما والده زيليس نفسه فهو في الخامسة والستين من عمره وهو أقوى من أي شاب تراه، ويأمل أن يعيش مائة سنة أخرى بفعل الألكتروراديوم، وهو لم يتعلم في المدرسة ليكون طبيباً، وإنما كان أخصائياً في النبات، ولما غادر المدرسة هوى الكهرباء، وأخذ يدرسها ويجرب فعلها في الأمراض حتى انتهى إلى ذلك النجاح العظيم الذي صادفه باستخدام الضغط العالي الكهربائي، وأخذ الشعب النمساوي والألماني يقبل عليه وينتفع بعلمه وتجاربه حتى علا كعبه، فأخذ الأطباء في النمسا وألمانيا ومن ورائهم أطباء العالم يحملون عليه حملات شديدة وازدادت حملتهم عليه لما نبه ذكره وافتتح مصحته في سنتي 1929، 1930 فحاربوه بكل ما أوتوا من قوة واتهموه بأنه دجال وأنه عالة على الطب، وحرضوا عليه الحكومة، فقبضت عليه وقدمته للمحاكمة، فكان برغم ذلك رابط الجأش عظيم الثقة بنفسه وحصر دفاعه في الكلمات القصيرة الآتية قال: (أولئك الأطباء المدبلمون كثيراً ما يخطئون ويكون في خطئهم القتل لمرضاهم، ذلك القتل الذي لا يقام له وزن. أما أنا فيجيئني المريض بعد ييأس يأساً تاماً من شفائه على أيديهم فيبرأ من سقمه ويشفى من علته فيتركني شاكراً مسروراً، ولم يشك مريض واحد إلى أحد بأن طريقتي أوقعت به أي أذى. فهل هذه الحملة إذن إلا حملة حقد وحسد؟) فكان في ذلك الإقناع كل الإقناع للمحكمة فخرج منها منتصراً. ثم سار على نهجه فحاز ثقة الشعوب جميعاً. وفي نظرنا أن كل الخير للإنسانية جمعاء، ولهؤلاء الأطباء أن يتشجعوا وأن يضحوا بشيء من تعصبهم وغرورهم في سبيل الصالح العام، وأن يمدوا أيديهم إلى ساحر جالزباخ فيصافحوه معتذرين عما فرط منهم، وفي يقيننا أنه لن يمتنع عندئذ عن أن يبيح لهم بسره الغامض وأن يطلعهم على أعماله وتجاربه ومخترعاته، فتتكاتف الأيدي جميعاً وتتوافر على دراسة الأشعة القصيرة والألكتروراديوم. فيخطو العالم الخطوة الحاسمة نحو استخدامها بدلاً من المشرط، ونحو إحلالهما في العلاج محل الأدوية والعقاقير وفي هذا ما فيه من خير ونفع

عبد الحميد فهمي مطر

بين فن التاريخ وفن الحرب

خالد بن الوليد في حروب الردة - 5

للفريق طه باشا الهاشمي رئيس أركان الجيش العراقي

(لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما في بدني شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة، وهأنذا أموت على فراشي كما يموت البعير! فلا نامت أعين الجبناء)

خالد بن الوليد

ويختلف الرواة في الحركة التي جرت، فالأخبار التي يستند إليها الواقدي والبلاذري لا تبحث في غارة المرتدين على المدينة، ولا تذكر موقع ذي حسي، وتذكر أن أبا بكر لما علم أن القبائل اجتمعت في ذي القصة بقصد الغارة قرر أن يقاتلها في عقر دارها غير مبال بقلة عدده، وقصد من ذلك إرهاب المرتدين وإلقاء الرعب في قلوب العرب، وجعلهم يعتقدون أن المسلمين أقوياء وأن ذهاب جيش أسامة يقلل من قوتهم، فتقدم أبو بكر على رأس المقدمة الراكبة نحو ذي القصة يعقبه الكوكب (القسم الأكبر). وبالنظر إلى رواية سيف أن الجمال بعد أن نفرت براكبيها، ودخلت المدينة بات أبو بكر ليلته يتهيأ للهجوم، فبعد أن رتب قوته خرج مبكراً من المدينة وباغت عدوه فهزمه شر هزيمة. والذي يلوح لنا أن الروايات الأولى هي الأصح. وكانت قوة المقدمة تبلغ مائة رجل، وسارت يومها وعسكرت مساء بالقرب من أجمة، فباغتها العدو من مكمنه وألجأها إلى الفرار، فاحتمى أبو بكر بالأجمة منتظراً ورود الكوكب (القسم الأكبر). ولما نادى أحد المسلمين بوروده انهزم المرتدون، فطاردهم المسلمون إلى ثنايا العوسجة ثم قفلوا راجعين إلى ذي القصة

ويذكر الواقدي أن أبا بكر لم يخرج إلى ذي القصة إلا بعد عودة جيش أسامة إلى المدينة، غير أننا لا نميل إلى رأيه، لأن مجرى الأخبار يدل على أن قوة المسلمين كانت

ضعيفة لما خرجت من المدينة قاصدة العدو. ويزعم سيف أن بني ذبيان وعبس بعد هزيمتهم هذه وثبوا على من فيهم من المسلمين فقتلوهم، وحلف أبو بكر ليقتلن من المشركين في كل قبيلة، وليقتلن من كل قبيلة بمن قتلوا من المسلمين. وكانت وقعة ذي القصة والبقعاء أول
نصر للمسلمين على المرتدين، ومنها تظهر فراسة أبي بكر وصلابة عوده.
لا بد أن القارئ انتبه إلى فساد خطة القبائل في محاولتهم غزو المدينة، إذ بدلاً من أن يجتمعوا في محل واحد للهجوم على المدينة أو أن يقاوموا جيش المسلمين معاً اجتمعت كل قبيلة في حيها، فاجتمع بنو أسد في السميراء، وفزارة في طيبة، وجديلة وغوث في طيء في جبليهما، وذبيان وعبس اجتمعت فرقة منهما بالقرب من الربذة والأخرى في ذي القصة والبقعاء.
والداعي لتفرقهم على ما يظهر أن المياه في كل محل من تلك المحلات لم تكن كافية لإرواء جماعة كبيرة، وكان الكلأ قليلاً فضلاً عن صعوبة اجتماع كلمة القبائل على غاية واحدة.
وكان قبل ذلك حلف بين بني أسد وغطفان وطيء، بيد أن قتالاً وقع بين غطفان وبني أسد من جهة وطيء من جهة أخرى فأمست القبائل متخاصمة. وكذلك كلمة طيء لم تكن مجتمعة فمال إلى المرتدين فرقتان منها فقط، وهما جديلة وغوث. أما الفرق الأخرى فبقيت على إسلامها. وكانت القبائل في قيامها على المدينة يراقب بعضها بعضاً، ولا تريد أن تكون البادئة بالعداء، ذلك ما جعل كلا منها يبقى في حيه ويراقب عمل الآخر
وقد اختبر الصديق حالة القبائل وتأكد أن كلمتها لم تجتمع، لذلك لم يشأ أن يؤخر جيش أسامة عن سفره، واكتفى برجال المدينة والموالين من القبائل القريبة منها وقد أيدت الوقائع رأيه. وبعد انتصار أبي بكر على القبائل في البقعاء قفل راجعاً إلى المدينة، ولما شاع خبر انتصار المسلمين على أهل الردة في أول قتالهم أخذت الصدقات تأتي من الأطراف بعد أن تردد أهلها في إرسالها، فوردت صدقات عدي بن حاتم من طيء وصدقات أخرى
وبعد مدة قصيرة عاد جيش أسامة من الشمال، فقرت به أعين المسلمين فلم يمهل أبو بكر المرتدين بعد أن بلغه أن بني عبس وذبيان أوقعت بمن فيها من المسلمين ومثلت بهم، وبعد وقعة ذي القصة أراد أن يفني من في الأبرق فأراح جيش أسامة بضعة أيام وخرج بالقوة التي سار بها إلى ذي القصة بعد أن أنجدها بالناس من جيش أسامة وتوجه نحو الأبرق، وفيه الفرقة الثانية من بني عبس وذبيان وبني كلاب وغيرهم وقد ناشده كبار الصابة بألا يعرض نفسه للخطر بقيادة الجيش بنفسه إلا أنه لم يجب طلبهم.
فبعد أن عبأ جيشه باغت المرتدين في الأبرق فهزمهم شر هزيمة وانسحبت فلولهم إلى السميراء والتحقت ببني أسد، ولما رأى طليحة الخطر انسحب بجميع القوات التي التفت حوله إلى بزاخة
وأقام أبو بكر في الأبرق وكان يملكه بنو ذبيان، فأعطى مراعيهم لخيل المسلمين وحرم بطون ذبيان منها.
تولية خالد بن الوليد قيادة الجيش
تدل الأخبار على أن خالداً أشترك في قتال ذي القصة والأبرق مع المهاجرين. ولاما رجع أبو بكر إلى المدينة انسحبت قوة المسلمين إلى ذي القصة، وتولى قيادتها خالد بن الوليد
وتذكر الروايات التي تبدأ بسيف بن عمر أن أبا بكر لما وصل إلى المدينة جمع رجالا من القبائل المجاورة للمدينة وأرسلها إلى ذي القصة لتقوية جيش المسلمين. ثم عاد إلى ذي القصة لتقوية الجيش وقسمه إلى أحد عشر فرقة، وعين قائدا لكل منها فوجهها إلى مناطق المرتدين في جزيرة العرب لقتالهم والقضاء على حركة الردة وهذه الرواية التي يرويها سيف يصعب تصديقها وذلك:
أولاً - لأن قوة المسلمين لم تكن في عدد يكفي لتقسيمها إلى أحد عشرة فرقة
ثانيا - إن إيفاد فرق البحرين وعمان ومهرة وحضرموت واليمن قبل قمع الفتنة في قلب جزيرة العرب مسئلة فيها نظر.

ويمر طريق البحرين وعمان ومهرة ببلاد بني حنيفة، وفيها مسيلمة ثائرا، وهو معتصم في بلاده الوعرة. والحقيقة أن قوة جيش المسلمين لم تجاوز بضعة آلاف على ما ذكرناه في بحث تقدير قوة الفريقين. فجيش أسامة لم يجاوز ستة آلاف، أما القوة التي جهزها لمقاتلة من اجتمع في ذي القصة فلم تتجاوز الألفين. فتقسيم هذه القوات جميعا إلى أحد عشر قسما مما يجعل كلا منها ضعيفا بحيث لا يستطيع القيام بالواجب المنوط به. بينما الأخبار تؤيد أن جيش خالد بن الوليد وحده كان يبلغ أربعة آلاف رجل، ثن إن هناك أخبارا تؤيد حبوط هجوم فرقة عكرمة بن أبي جهل، وكذلك هجوم فرقة شرحبيل بن حسنة على قوات مسيلمة وانسحابهما إلى الوراء والتحاقهما بفرقة خالد بن الوليد مما يجعلنا نميل إلى الاعتقاد أن أبا بكر فكر قبل كل شئ في القضاء على حركة الردة في وسط جزيرة العرب، وجمع لذلك ما في يده من القوات المتيسرة وناط قيادتها بخالد

قوة الجيش:

إن الرواة على عهدنا بهم لم يرووا لنا مقدار قوة المسلمين التي احتشدت بقيادة خالد بن الوليد في ذي القصة. والمصدر الوحيد الذي يذكر لنا قوة خالد هو أبو حبيش، إذ يروي لنا أنها كانت تبلغ أربعة آلاف مقاتل حركته إلى بزاخة

وكان الجيش على ما سبق بيانه مؤلفا من القوة التي جمعها أبو بكر من القبائل المجاورة للمدينة على جناح السرعة الهجوم على المرتدين في ذي القصة بعد تهديدهم للمدينة، ومن القسم الذي التحق به من جيش أسامة بعد عودته إلى المدينة قبل الهجوم على الأبرق. ومن الواضح أن البعض منة تخلف عن الالتحاق ليقضى مدة من الزمن بين أهله بعد أن غاب عنهم مدة شهرين في سفرة إلى الشمال والذي يظهر من رواية سيف أن أبا بكر لما عاد إلى المدينة أرسل هذا القسم المتخلف أيضا إلى ذي القصة. وبعد التحاقه أصبح جيش خالد أربعه آلاف أو أكثر. وكانت قوة الأنصار وحدها تبلغ زهاء خمسمائة مقاتل. أجل، إن هذا العدد ضعيف بالنظر إلى المهمة الخطيرة المنوطة به. إلا أن تجانس القوة في هذا الجيش وصلابة المعتقد فيه، وتفرق كلمة القبائل المرتدة جعلته أهلا للعمل

منطقه الحركات:

يحد المنطقة التي جرت فيها الحركات من الشرق، الدهناء، وهي الساحة الرملية الممتدة من الشمال الغربي إلى الشرق الجنوبي في شرقي القصيم. وكانت الدهناء ولا تزال المفازة التي تفصل أرض السواد (أعني العراق) عن بلاد نجد. ويحدها من الشمال جبل شمر أعني بلاد طيء المرتفعة التي تمد جبالها على ما سبق من الشمال الشرقي. إلى الجنوب الغربي، وأخطرها جبلا سلمى في الجنوب وأجا في الشمال، وفيها وديان كثيرة أجلها شأناً وادي حائل، وهو يبدأ من بزاخة طيء بشعاب متعددة، ويفصل الجبلين أحدهما عن الآخر حيث تنصب فيه عدة شعاب من الشمال والجنوب وتغمرة بالمياه في موسم الأمطار. وقد شيدت على جانبيه القرى التي ترتوي بمياه الآبار المنصرفة إليها من الجبال. ولما كان

جبل سلمى وجبل رمان يشرفان على وادي الرمة من الجهة الشمالية، فالشعاب التي تمر بالأطناف الجنوبية تنحدر جميعا إلى ذلك الوادي. وهذة الأطناف هي الحدود الفاصله بين حي بني أسد وحي فزاره من بني غطفان، وقريتا فيد وطابه لبني طيء وهما على الحدود

ويحد منطقة الحركات من الغرب حرة خيبر، ومن الجنوب الهضبة المشرفة على وادي الرمة من الجنوب، وفيها بنو سليم في الشمال وبنو عامر في الجنوب. وموقعا العمق في الغرب ورابية أبان الأبيض في الشرق في أرض بني سليم

والوادي أرض منخفضة بين هضبتين مرتفعتين تنصرف إليه جميع المياه التي تنزل عليهما في موسم الأمطار. وإذا حفرنا الآبار في بطنه على عمق بضعة أقدام نعثر فيها على ماء كثير. والطريق التي تصل المدينة ببلاد القصيم تمر بهذا الوادي. بالقرب من سابية، ثم بالشقرة فالربذة بالقرب من الحناكية فالمشقق فبئر الطرفة، فإلى جنوب أكمة الخيمة حيث يدخل أرض بني أسد، ويمر بعد ذلك بين الأبانين: أبان الأسود في الشمال، وأبان الأبيض في الجنوب. والأسود في أرض بني أسد إلى أن يمر بشمال الرس وهو بئر ماء لبني أسد، فيصل إلى القريتين في بلاد قصيم، أعني العنيزة في

الجنوب وبريدة في الشمال وكلتاهما في حي بني تميم
ويسكن يسكن بنو أسد في الساحة الواسعة التي شمال الوادي من جنوبي فيد وأطابة غربي السميراء والظهران والسليلة.
وفي غربي النقرتين نقرة السلاسل ونقرة الخطوط وجبل سارة. وفي أرض بني أسد يقع موقع الغمر وهو في رابية مرتفعة تشرف على وادي الغمر الذي ينبع من سفح جبل الموشم الشمالي ويف في الكهفة. وبالقرب منه تقع بزاخة بني أسد. وهي الموقع الذي نشبت فيه المعركة بين جيش خالد وجيش طلحة.
والذي جعلنا نميل إلى العتقاد بأن موقع بزاخة في هذا المحل هو ما ذكره ياقوت الحموي في معجمه نقلا عن ابن الكلبي. أما الأصمعي فيروي أن بزاخة ماء لطيء. وفي جبل طيء موقع آخر يسمى بزاخة. وعلى ما يظهر لنا من مجرى الحركات أن القتال بين المسلمين وبين المرتدين لم يقع في أرض طيء، بل وقع في أرض بني أسد بالقرب من الغمر، ولا سيما أن خالداً بعد انتصاره على طليحة وجه سراياه في جهات مختلفة مطارداً
فلول المنهزمين. وهذه السرايا قاتلت المنهزمين في جبل رمان وفي الأبانين. ولا يعقل أن المعركة نشبت في بزاخة طيء والمطاردون يطاردون المنهزمين إلى رمان والأبانين. بل من المعقول أن تنشب المعركة في جوار الغمر فيشرد المنهزمون إلى أنحاء مختلفة، فينهزم بنو فزارة إلى حيهم في جنوبي الرمان وغربيه، وبنو أسد إلى الأبانين وإلى ظفر في جوار كهفة وإلى النقرة - أعني إلى حدود الحي
وفي منتهى الشرق بلاد بني تميم والقصيم على الحدود بين بني أسد وبني تميم. وهي من أغنى البقاع الواقعة في نجد، وتحدها رمال الدهناء من الشرق، وفي غربها مراعى الحزن، وفي شرقها مراعى الصمان، وكلتا البقعتين من أخصب المراعي وهما لبني تميم. وبنو يربوع في الحزن إلى وادي حائل، والصمان إلى بني حنظلة، وماء الطريفة في شمالي البريدة لهم أيضاً. والبطاح في جنوبي الحزن وفيه قرية بريدة وموقع البعوضة والقعرة، وهو مشهور بجودة الكلأ وفيه دارت الدائرة على مالك بن نويرة رئيس بني يربوع
ولا تزال إحدى ضواحي البريدة تسمى بالبطاح، والقصبة تتألف من أربع ضواح، وهي جردة وجديدة وشمال وبطاح.
وموقع النباج في حي بني تميم وهو المحل الذي وصلت إليه سجاح برجالها فقاتلها بنو تميم وكسروها، وهو واقع في الحزن على طريق الكوفة بعد الفيد
يتبع
طه الهاشمي
قصه لؤلؤة
للأديب حسين شوقي
ولدت في أعماق المحيط الهندي، وكنت أقيم هادئة مطمئنة في مقصورتي الصدفية، إلا أنني سئمت الحياة التي كنت اقضيها على نمط واحد، واشتقت إلى مشاهدة العالم الآخر القائم فوق سطح الماء الذي طالما حدثتنا عنة الأسماك في دهش وإعجاب، ولكن أخواتي من اللؤلؤ أشرن عليّ بالصبر، زاعمات أن الإنسان سوف ينزل إلى الأعماق لينتزعني من خلوتي، لأننا معشر اللؤلؤ - على زعمهن - ذوات قيمه نادرة عنده، وقد صدقن في زعمهن، إذ نزل إليها ذات يوم زنجي ليأخذني من صدفتي، إلا أن الحوت افترس المسكين، ثم حاول زنجي آخر بعد ذلك بقليل أن يفعل فعله سابقه، ولكنه لم يدركني، إذ كنت في عمق سحيق فمات مختنقاً. . بعد هذين الحادثين لم يبق لدى شك في قيمتي بعد هذين الحدثين لم يبق لدى شك في قيمتي عند الإنسان، وأنا خاملة الذكر في البحر، لذلك ازداد شوقي إلى المشاهدة هذا العالم. . . ثم أتى زنجي ثالث مجدود استطاع أن يرفعني إلى سطح الماء، وهذا سلمني إلى رجل أبيض أخذ ينظر إلى في شره بعد أن انزع عني بسكينة الحاد صدفتي المسكينة!
وأراد زنجي رابع أن يسرقني من الرجل الأبيض، ولكن الأبيض داهمه أثناء السرقة فضربه بالسوط ضرباً مبرحاً مزق جلدة وأسال دمه. . يالخيبة أملي لو كان هذا هو كل ما يشاهد في دنيا الإنسان!.
سافرت بعد ذلك إلى لندن على متن باخرة فخمه. . وهناك قامت فتاة حس ناء

بصقلي في دقه وأناة. . وبعد أن أنهت من عملها رفعتني بإصبعها، وأخذت تتأملي طويلا ثم تنهدت من الأعماق. فخشيت عليها أن تفعل فعله الزنجي السارق، لأن جلدها ناعم لا يتحمل السوط. أما أنا فكان بودي أن أتعلق بجيدها البلوري أو أعلق بيدها الناعمة. . .

ثم أخذني جوهري فعرضني في زجاج دكانه. . وكان المارة ينظرون إلى في إعجاب وفضول، وذلك ما أدخل على نفسي الزهو. . والواقع أنني كنت جميلة حقاً بلوني الوردي الذابل، ولا سيما بعد عملية الصقل التي قامت بها تلك الفتاة الحسناء. وقد لاحظت أن أهالي لندن فضوليون إلى حد بعيد، وقد يصح مثل هذا الفضول من جانبي أنا مثلاً إذ قضيت حياتي سجينة في صدفة. . أما من جانب الإنجليز فهو أمر مستغرب، وهم قوم رحل أفاقون. . وكان صاحبي الجوهري في الغالب يهودياً، لان انفه كان مقوساً، ثم إنه كلما وضعني في يده المجعدة، ضغط علي في قسوة وشره حتى كنت أخشى على نفسي الهلاك. وقد باعني ذات يوم إلى سيدة متقدمة في السن بربح وافر على ما أظن، لأنه جعل يفرك يديه طويلاً عقب إتمام الصفقة، وكانت نية هذه السيدة أن تصنع مني خاتماً. إلا أن ولدها وهو طفل (عفريت) في السابعة من عمره ابتلعني ظنا منه أني قطعة من الحلوى. فغشي على السيدة من الحزن، أكان ذلك من أجل ولدها أم من أجلي؟ لا أعلم، ولكني أرجح الثانية على الأخص بعد حادث الزنجيين اللذين ماتا في سبيلي. . .

وقد تناول الطفل مسهلاً قوياً أعادني إلى الحياة والنور. . . ثم انتقلت إلى يد أخرى كلها مرتعشة مجعدة. .

رب! كيف نظم هذا الوجود؟ كيف يكون الجاه والغنى عند العجائز والدميمات فقط؟ ولكن من حسن حظي وقعت في النهاية في يد فتاة أمريكية حسناء مثرية جدا، أعطيت لها في شكل خاتم قدمه شاب خاطب، وكانت الفتاة سعيدة بي. . فكم من رحلات شيقة قمنا بها - نحن الثلاثة - على متن طيارتها الخاصة، إلا أنه اتضح للفتاة يوما أن هذا الشاب يخونها، وأنه لم يخطبها إلا طمعا منه في ثروتها، لذلك ثار ثائرها: فألقت بي في وجهه، وكان ذلك أمام الباب الخارجي للدار الواسعة، فتدحرجت حيث اختبأت في حفرة مظلمة بالحديقة أنتظر من ينقذني، وأرجو أن يكون ذلك على يد فتاة جميلة

حسين شوقي

تعليقات القراء على الرسالة

إلى الأستاذ الرافعي

للأستاذ علي الطنطاوي

سيدي:

أعرني هذا القلم السحري الذي تكتب به. . . لأصف لك الشعور الذي خامرني وإخواني هنا، حين قرأنا فصلك الأخير: قصة زواج. . . فما أدري والله كيف أصفع لك وقد والله قرأناه مثنى وثلاث ورباع، وقد والله قطعتا القراءة مرة وثانية وثالثة، لأننا لم نكن نملك نفوسنا أن تفلت من قيود المادة، وتنفذ من بين السطور إلى عالم أسمى وأوسع، تطير في أرجائه لتحلق بهذه البلاغة العلوية التي تسمو بتاليها وتسمو. . . حتى تدنو من حدود العالم الكامل - عالم القرآن - وتريه تحقيق ما قاله سعد (بطل المشرق): كأنها تنزيل من التنزيل!

وقد والله خرجنا منها وكأننا لم نعرف عبد الملك أمير المؤمنين، وسعيداً سيد التابعين، إلا الساعة. . . فإذا أنت قد نقلت الملك والجلال من ذاك إلى هذا، وإذا مقالة منك واحدة، تغلب عبد الملك على جيوشه وأمواله وملكه، ثم تجرده منها، ثم تعرضه جسداً هزيلاً؛ وتمنح سعيداً على فقره وتواضعه، أسمى العظمة والهيبة والجلال. . . حتى يقول هذا: (أنا. . .) فترددها ملائكة السماء. ويقول ذاك: (أنا. . .) فتستحي أن تعيدها شياطين الجحيم!

وأقسم لقد سمعت هذه القصة وقرأتها، وحفظتها، وحدثت بها. وانحدرت بين أذني ورأسي ولساني عشرين مرة، ثم كأني لم أسمع بها إلا الآن. . . وكأني كنت فيها في ليل مظلم، فطلعت على مقالتك شمساً ساطعة؛ عرفت معها كيف تكون حصيات

الليل لآلئ النهار. . . فما بالك بمن لم يسمع باسم سعيد؟ وما بالك بمن لا يعرف في الدنيا أدباً، إلا الأدب الذي يسقط علينا من باريس أو لندن أو بوسي أيرس؛ ولا يدري من البلاغة إلا أنها التي تلوح بين سطورها رؤس البنادق، وأفواه المدافع، وأجنحة الطيارات؟

ومثل أولئك كثير، فقد عابوك بالغموض، ورموك بالإبهام، وادعوا أن كتبك لا تفهم، ومعانيك لا تساغ، فلما ظهر أن في الغرب شاعراً فحلاً مذهبه الغموض فنًا من فنون الأدب تتمحل له الأسباب وتتلمس له الدواعي! فما الذي سيئة الرافعي حسنة بول فاليري، إلا أن

ذاك من فرنسا وهذا من مصر؟

أما إن هذا الإيمان بالغرب إذا انتقل من الشيوخ إلى الشبان لم يكن إلا كفراً بالشرق وإلحاداً بالعقائد الشرقية، وجهلاً باللغة الشرقية، وخروجاً من الجلدة الشرقية. . . وإن عندنا في دمشق ندوة أرادت أن تعيب مجمعنا الأدبي، فلم تجد أبلغ في العيب من قولها: إن المجمع ثقافته شرقية، بل لقد (ضبطتنا متلبسين بالجريمة)، وأشهدت علينا أننا كنا نحمل كتباً صفراء. وكان الذي نحمله (شرح المواقف للسيد). ومثل هؤلاء لا يقرأون الأدب العربي إلا إذا صيغ هذه الصياغة

وعندنا إن هذه القصة بكل ما قرأنا في العربية من قصص ما يزال أكثر أصحابها ينشدون أدباً فرنسياً أو إنجليزياً بحروف عربية

وعندنا أنك إذا استكثرت من هذا النوع غطيت على خيام أهل الجديد ودورهم المبنية من الطين والقش، بقصر شامخ من الصخر يثبت ما ثبت الدهر

وعندنا أن مائة قصة من مثل هذه القصة، تنشئ الأدب العربي إنشاء جديداً، وتخرج من الشيخ الهم الفاني، الذي ينتظر الموت شاباً قوياً بهياً، جاء يستأنف الحياة بحنكة الشيخوخة. وتجعل من الأدب العربي أدبين: أدب أربعة عشر قرناً، وأدب الرافعي

ولست والله أمدحك لأتملقك وأتزلف إليك، وما بي بحمد الله رذيلة التملق والتزان، وإني لأنقم منك أحياناً. إنك تبالغ في الدقة، وتمعن في السبك الفني لمعانيك وألفاظك، حتى ما أكاد أفهم عنك، وإننا لنحفظ جملك هذه الغامضة، ونتنادر بها، على حين أنك تعرف من نفسك القدرة على أسهل الكلام وأوضحه، , وإن شعرك لين سائغ عذب كالماء

ولكني أمدحك، وما أجدني صنعت شيئاً، لأنك في نفسي أكبر من ذاك، إنك واحد من عشرة هم كتاب العربية في كل عصورها، إنك لسان القرآن الناطق.

فاقبل تحياتي وإكباري وشكري، وأسألك أن تزيدنا من هذا النوع من الأدب، وأن تستكثر من هذه الفصول الاجتماعية، وأن تعلم أن مقالاتك في الزواج كان لها من الأثر ما لا يكون لقانون صارم من ورائه السجن والغرامة. وإننا نحمد الله على أن جعل في العربية مجلة صاحبها الزيات، ويكتب فيها الرافعي

علي الطنطاوي

عضو المجمع الدبي بدمشق

من شعر الشباب

لا تباهوا

للأستاذ فخري أبو السعود

مَنْ لُمْلكٍ بات مهضوم الحمى؟ ... وتراث بات نهب الناهبين؟
ولأرض نام عنها أهلها ... تاركيها بين أيدي الآخرين؟
وتخلى قادة عن أمرها ... فاستوى المائن منهم والأمين
خيرها يخطي شعبا قانعا ... ويصيب الدخلاء الطامعين
كل من هبوا على الأرض سعوا ... يبتغون الرفد فيها والمعين
كلهم من عسكر أو عزل ... جند إذلال عليها يخطرون
أمنوا فيها فكانوا حربها ... ومشوا في ظلها مستهزئين
من لشعب فترت همته ... للذي يجري عليه مستكين؟
يتسامى كل شعب للعلا ... وهو يشقى في حماه يهون
ورأى حرية القوم دنت ... موردا لكنهم لا يردون
قيد الحرص من الشعب الخطى ... فهو بالعيش وإن ذل ضنين

ولو اعتزوا بعزم لعنا ... لاعتزام الشعب كيد الكائدين
ولدانت لهم آمالهم ... إنما الآمال بالعزم تدين
لا يطل منا بفضل أحد ... لا يعز الفرد والجمع مهين
لا تساموا درجات بينكم ... كلكم للغاصب العادي قطين
لا تباهوا بمغان رفعت ... هي للسكن قبور وسجون
أو بألقاب علا زائفة ... تتغالون بها مفتتنين
أو بأثواب عليكم نمقت ... أنتم أسرى بها لو تعلمون
حيثما راح ابن مصر أو غدا ... فهو في الأسر وفي القيد رهين
حرروا أعناقكم ثم أفخروا ... بحطام أو بجاه تملكون
ما ارتقاء ندعيه بيننا ... ونهوض وعلوم وفنون
يالشعب بات عن حرية ... غافلا يلهيه سفساف الشؤون
تندب الحاضر نفسي وترى ... فيه وجه الغد مربد الدجون
عصف العصر اصطخابا حولنا ... وتفانى آله مشتجرين
وعلينا آل مصر حجب ... من بقيات الليل والقرون
- ليت شعري - إذ تعالى بينهم ... صيحة في كل يوم ورنين
أأفاق القوم من نومهم؟ ... أم مشوا في نومهم مختبطين؟
نحن نحيا في خيال ورؤى ... نحن في كهف عن الدنيا كتين
نحن - والدنيا اجتهاد ووغى - ... نهب لذات ولهو ومجون
صاح بعض بهراء وأحتمى ... بعضنا بالصمت عجزا والسكون
كثر القول وما أغنى الحمى ... عن دعاوى اللاغطين القاعدين
إنما يطلب من أبنائه ... عملا ينسخ قول القائلين
فخري أبو السعود
الحياة الغالية
للأديب سيد قطب
بالأمسِ كنتُ أعيشِ نضْو تَرَقُّبِ ... أرْجِي حَيَاتي كالأجيرِ المتعَبِ
أرنو إلى الإصباحِ، ثم تُمجُّهُ ... نفسي، وأنظرُ كارهاً للمغربِ
وأحسُّ بالقفزِ الجديبِ يلُّفني ... فأعيشُ في ظُلَمٍ كقبرِ الغيهبِ
وَلَو إنما اختصِرتَ حياتيَ لم أكنْ ... أدري بما نقصتُ، ولَم أتَعتبِ
وإذا تشابهتِ الحياةُ أقفرتْ ... كُرهت، فلم يُشعَرْ بها أو تُطلَبِ
واليومَ آسفُ للدقائقِ تنطوِي ... من عمريَ الغالِي الثمينِ الطيِّب
واليومَ أرقبُها وأرقبُ خَطْوِها ... فأعيشُها مِثلَينِ بعد تَرقُّبِ
وهي العميقةُ كالخلودِ وإنما ... تمْضي حثيثاً في خُطَا المتوثِّبِ
وأودُّ أن لو أبطأتْ وتلَّبثتْ ... في خَطْوِها لبْثَ الوئيد الُمكتِبِ
تغلو الدقائقُ في حياةٍ خصبةٍ ... وتهون أعوامٌ بعمرٍ مُجدب!
الحبُّ فاضَ على الحياةِ بخصبه ... وأجدَّ عُمراناً بكلِّ مُخَرِّبِ
وأزاح أستارَ الدُّجى فتكشَّفَتْ ... ظلماتُه عن كل زاهٍ مُعجِب
وكذلك تَحْلَوْ لِي الحياةُ وتُجتلى ... وتعزُّ ساعاتُ الغرامِ المخصب
يا ثغر. . .
أتأذن يا ثغر في قبلة؟ ... فديتك يا ثغر بالمهجتينْ
فدتك البحار بمرجانها ... وعوذت درّك من كل عين
أريدك يا ثغر بشاً ضحوكا ... ولو كان فيك خداع ومَيْن
فانك مغرٍ وحق الجمال ... تغر بفتنتك الحسنين
فبالورد قد لَفَّت الشفتان ... فأصبحتا فيك ريّانتين
فباللهِ تأذن في قبلة ... وإن كنتَ سمحاً ففي قبلتين
فكل نعيم بهذه الحياة ... يُنال على تَيْنِك الشفتين
حسين شوقي
العلوم
فكرة النظام الشمسي الحديثة
تغلب النظام الكوبرنيكي على النظام البطليموسي

بقلم فرح رفيدي

من البدهيات التي لا تستلزم حيرة الإنسان كثيراً هي أنا نرى الشمس تدور لأن الأرض تدور، ولولا ذلك لما كان ليل ونهار، ولكانت الأرض أبداً نصفين ثابتين، نصفاً مظلماً قاتماً، ونصفاً مستنيراً أبداً بشمس ثابتة

وهذا الذي قد نعتبره أمراً بدهياً اليوم، كان بالأمس سبب الشقاق وموضوع الحوار، وقبلة أنظار الباحثين من الفلكيين وغير الفلكيين. ومنذ مئة وخمسين سنة فقط كان الحوار قائماً على منبر جامعة هارفرد بأمريكا في إذا ما كانت الأرض تدور أو لا تدور، وكان من برنامج الجامعة نفسها أن تدرس الفكرتين المتناقضتين في وقت واحد.

وقبلها بوقت قصير كانت جامعة باريس تؤيد الفكرة القائلة بأن حركة الأرض حول الشمس فكرة مناسبة إلا أنها خاطئة. فحداثة هذه الفكرة تدل على أن الفكرة اليونانية عن نظامنا الكوني لم تزل من قلوب الناس بإعلان كوبرنيكس لفكرته الجديدة، بل ظلت الفكرتان تتحاربان في عقول الناس إلى أن تغلبت إحداهما على الأخرى. وكان الانتصار الذي أحرزته الفكرة الجديدة انتصاراً نهائياً للحقيقة، وموتاً أبدياً للفكرة الباطلة التي شغلت عقول الناس بتناقضها وكثرة تعقدها

قبل أن يبزغ نور الفكرة الحديثة بألفي سنة كان فيثاغورس اليوناني يعتقد بحركتي الأرض اليومية والسنوية، غير أن هذا الاعتقاد قد قضى عليه أرسطو، ورفضته الكنيسة لمنافاته للدين المسيحي في العصور الوسطى، فمات قبل أن ينشر أو ينتفع به أحد، والكنيسة لم تقف عند حد رفض الفكرة وتحريم الاعتقاد بها، بل تعدته إلى تضحية كل نفس جاهرت بمعتقدها الحر، فأحرقت جيوردانوبرونو سنة 1600 لاعتقاده بعوالم عديدة في الكون غير عالمنا، وقاسى غاليليو ألواناً من العذاب لتأييده ما أقره كوبرنيكس. وكوبرنيكس نفسه كان محجماً طول مدة حياته عن أن يجاهر بعقيدته خوفاً من الكنيسة ومن أن يهزأ بفكرته،

ولم ينشر كتابه عن النظام الشمسي إلا بعد أن مات

أول شئ جعل كوبرنيكس يطرح النظام البطليموسي جانباً ويجاهر بنظامه الحديث هو صعوبة الأول وتعقده، وعدم مطابقة الحجج الكثيرة للظواهر المشاهدة في الكون، وذلك ما يفقده ميزة الجمال والبساطة الطبيعية. وليس بالأمر الغريب الذي جعل الفونس العاشر ملك قشتالة يقول لما رأى النظام اليوناني كما شرح له. (لو استشارني الله يوم خلق هذا العالم لكان الكون أبسط وأجمل مما هو عليه الآن). وقد أصاب شيشرون الروماني بوصفه الكواكب بأنها لم تكن سهلة التعبير، إذ هي تارة متأخرة، وتارة متقدمة بين النجوم. وقد نراها في بعض الأوقات سريعة، وفي غيرها بطيئة. وأحياناً في المساء وأخرى في الصباح، فهي لا تبقى على حال واحدة أبداً. واليونان أنفسهم أقروا بفظاعة أفكارهم وعسر تحليلاتهم، ولم يقدروا أن يتصوروا كوناً طبيعياً من صنع الإله الأكبر وفيه هذه المتناقضات والصعوبات الجمة التي شاهدوها في حركات الكواكب السيارة. فكان عندهم الكون ظاهره وباطنه وما فيه من أجرام مختلفة الحجم متباينة الضوء مثالاً للتكامل والتلاؤم. فشكل الكون كان كروياً كشكل أجرامه التي تحدث بدورانها دوائر مستقيمة متعادلة. ولأن الدائرة كانت أتم الأشكال الهندسية تلاؤماً، والكون متلائم ومتسق مثلها، كانت صفة تابعة لحركات النجوم ومداراتها. على أن محاولاتهم هذه من تفسير الكون كنظام يسير لتطبيق قواعد هندسية سطحية، لا كنظام خاضع لنواميس طبيعية أصلية، أفسدت عليهم الأمر وكانت سبباً في تعقيد الفكرة وإخراجها بصورة يصعب على العقل تصويرها أو إدراكها. فكانت النتيجة أن قام كوبرنيكس بفرض نظرة أسهل على الفهم وأقرب للمنطق من الفكرة القديمة. فجعل فكرته سهلة التعبير، بسيطة خالية من الدوائر أو شبه الدوائر الموجودة في النظام البطليموسي

في سنة 1507 آمن كوبرنيكس بدوران الأرض حول الشمس، وكاد يذيع ذلك لولا خوفه من أن يتهم بالهرطقة والكفر. وذلك لأن الكنيسة حينئذ كانت تدعي أن الإنسان مادام أعظم المخلوقات في الكون، وغاية ما أبدع الله على صورته، وأن كل مخلوق ما عداه وجد له وله وحده، وما دامت الأرض هي موضع ذلك المخلوق العظيم ومكان الجبلة الممتازة المنفوخ فيها من روح الإله، فهي بلا شك مركز الكون، ومحور دورانه، ومركز انعكاس

أضوائه من مختلف الجهات حولها. وإن من أخذته أدنى ريبة في ذلك فقد أهان الإنسان وحط من مقامه الرفيع بين المخلوقات ونال من كرامة الإله وقوته وجبروته، لأنه هو والإنسان صورة واحدة

رأى كوبرنيكس أنه إذا كانت الأرض ثابتة فإن كل شيء ما عداها يتحرك. أي أن الكون من كواكبه السيارة وغير السيارة في حركة دائمة حول نقطة ثابتة في مركزه، ونقيض ذلك هو دورة الأرض وثبات ما حولها، وإذا قابلنا بين الفرضين وجدنا أن الظواهر الناتجة من الثاني هي كالنتائج الظاهرة من الأول، بل إن الفكرة الثانية، أي دورة الأرض، أسهل للعقل وأخف على الفكر من الفكرة الأولى. لذلك افترض كوبرنيكس دورة الأرض كشيء أقرب للحقيقة وأصدق للتعبير عن مظاهر الكون من فرض ثباتها ودورة الكون حولها. وقد رأى مما يبرر اعتقاده بدورة الأرض، أن للكواكب السيارة شذوذاً في حركتها، وأن اختلاف هذه الحركات يبين أن الكواكب تدور حول مركز غير الأرض. فبما أنها تارة قريبة وتارة بعيدة عن الأرض، ليست مركزاً لدوائر حركاتها أكد لبطليموس ثبات الأرض اعتقاده لأن الدوران يهدمها ويفتتها فتتناثر في الفضاء قطعاً. فهاجم كوبرنيكس هذا بقوله: إن دورة الكون السريعة حول الأرض يجب بناء على ذلك أن تفتت الكون كله في الفضاء، ولو سلمنا بدورة الكون بدون تفتيت، أليس من نتيجته أن يتسع الكون ويتمادى في الاتساع حتى تبتعد أجزاؤه عن مركزه؟ وهذا الابتعاد عن المركز يزيد بسرعة الكون وقوة دورانه؟ وذلك لاتساع حلقته ولزوم دورتها في مدة أربع وعشرين ساعة؟ ثم إن قوة الدوران أن تدفع بأجزائه أكثر عن المركز فيتسع وتزيد بذلك سرعته التي تعود فتزيد بتوسيعه وهكذا إلى ما شاء الله. وعلى ذلك تصبح السرعة متناهية ويمتد الكون إلى ما لانهاية له؛ فإذا كان كذلك غير محدود الأطراف فالحركة ليست من صفاته لعدم وجود متسع في الفضاء لإتمامها، ثم لو كان الكون محدودا ومتحركا فماذا يكون وراء الجليد؟ فإذا كان لاشيء فهل يمكن أن يكون شئ محاطاً بلا شئ؟ هكذا احتار كوبرنيكس في أن يعتقد بكون محدود متحرك، أو بكون متحرك غير محدود. والتناقض جلي بين الفكرتين. لم يدر كوبرنيكس ما إذا كان الكون محدداً أم غير محدود، ولكنه كان متأكداً من حد الأرض وإحاطتها بسطح كروي، وقد عرف أن الاعتقاد بحركة شئ محدود أسهل من الاعتقاد بشيء متناه غير معروف الحدود. فالأرض إذن حقيقة تدور، ونتيجة هذه الدورة في هذه الحركة الظاهرية في السماء التي نشاهدها ليل نهار.

قبل أواخر القرن السادس عشر سمع بالفكرة الجديدة (ثيخو ميراهي)، ولاشتياقه لمعرفة صحتها اعتزم عمل زيج جديد دقيق لحركات الكواكب، فبنى مرصداً ذا قبة متحركة، وعمل ربعاً قطره 19 قدماً، وكرةً تمثل الكون قطرها خمسة أقدام، فحصل بذلك على أرصاد دقيقة جداً. على أنه لم يتم ما أراد تحقيقه إذ مات في سنة 1601 أتى بعد ميراهي رجل ألماني اسمه يوهنس كبلر، وكان هذا بعكس ثيخو تنقصه الموهبة الميكانيكية. ولكنه كان ذا مقدرة كبيرة في الاستنتاج والتمييز بين حالة وأخرى، وجمع الحقائق بعضها إلى بعض لتكون نتيجة حقيقية واحدة. فما كان منه إلا أن أخذ نتائج أرصاد ثيخو في الكواكب، وصار يتأملها ويبحث فيها ويقابلها، حتى توصل إلى ثلاث حقائق أساسية في بناء فكرة الكون الحديثة:

الأولى: توصل إليها كنتيجة لسبعة أرصاد للمريخ في موضع واحد، وهي أن الأرض تدور حول الشمس، ليس بشكل دائرة كما أعتقد اليونان، بل بشكل منحرف قليلاً عن الدائرة يسمى قطعاً ناقصاً والشمس تقع في إحدى بؤرتيه

الثانية: المستقيم الذي يصل الأرض بالشمس يقطع في الفضاء مساحات متساوية في أوقات متساوية.

الثالثة: نسبة مربع زمن دورتين لكوكبين هي كنسبة مكعب المسافتين من الشمس. أي إذا كانت مسافة الكوكب الأول من الشمس م1 ومسافة الكوكب الثاني م2، وكان زمن دورة الأول حول الشمس س، وزمن الثاني ص فهذه الحقيقة هي كالمعادلة م1 2: م1 2: س3: ص3. وقد دل نيوتون فيما بعد بمعادلات رياضية وبالمقابلة أن هذه الحقائق الثلاث تنطبق لا على الأرض وحدها، بل على كل كوكب من كواكب المجموعة الشمسية، وقد عرفت بقوانين كبلر نسبة لمكتشفها العظيم

في العصر الذي كان فيه كبلر يجرب أن يوحد أجرام النظام الشمسي بقوانين أساسية

ثابتة، ويحكم ظواهر الكون لمسبباتها الطبيعية، كان بعيداً عنه وفي بلاد بعيدة، رجل إيطالي منهمك في صنع تلسكوب جديد لينظر به سطح القمر، وليرى قوانين كبلر تعمل عملها بين

المشتري وأقماره. في سنة 1609 صنع غاليليو أول تلسكوب، وفي سنة 1610 استطاع أن يرى سطح القمر ويميز الأماكن المرتفعة من المنخفضة فيه، وأن يظهر حقيقة المجرة كمجموعة كبيرة من النجوم الصغيرة المتقاربة من بعضها، والتي ترى لكثرتها كأنها جسم واحد

في مساء ليلة من ليالي يناير سنة 1610 أحرز غاليليو أعظم نصر عرفه النظام الكوبرنيكي على النظام البطليموسي، إذ رأى حينئذ المشتري وحوله أقمار أربعة تحوم حوله. وهذا ما يؤيد أن الأرض ليست هي وحدها صاحبة الكون ومركزه، بل هناك أجرام أخرى لها ذات الميزة التي اختصها بها اليونان الأقدمون. واستطاع غاليليو بذلك أن يسقط أهم دعامات النظام البطليموسي الذي يقول: إن الأرض وهي - أهم الأجرام في السماء وأقدمها وموطن أرقى المخلوقات والمسرح الذي مثلت عليه مأساة المسيح ابن الله - لابد أن تكون مركز الكون ومحور دورانه

ومن جملة الأسباب التي كان يحتج بها أرسطو في تأييد النظام القديم، وهو أنه لو فرض دوران الأرض حول الشمس، فإن عطارد والزهرة يجب أن يظهرا بأوجهٍ كأوجه القمر، وبما أنا لا نرى شيئاً من ذلك فدورة الأرض حول الشمس فكرة فاسدة، ولكن غاليليو لم يجب على ذلك قبل أن رأى في تلسكوبه أوجه الكوكبين واختلافها بحسب موقعها من الأرض، وهكذا سقطت دعامة أخرى من دعامات النظام البطليموسي، ولم يبق لذلك النظام إلا أن ينهار من أسسه التي لم تقدر على احتمال ضغط التجارب الشديد

منذ تلك الاكتشافات كان غاليليو سبب ثورة عاصفة من النقد والبحث والشك في أوربا. وكان الناس يتساءلون فيما قد تكون حقيقة هذا الكون الذي خدعهم ظاهره مدة طويلة من الزمن؟ وماذا عسى أن يحدث من حط عظمة الأرض والإنسان والخالق من مكانها الأول؟ وما الذي تجيبه عليه الكنيسة والتوراة دحضاً لهذه المظاهر الجديدة وتطميناً للنفوس الحيرى المضطربة. ذلك ما زاد قلق الكنيسة والبابا على ضياع النفوس من حظيرتها، فهبت تناصر القديم بالتوراة والدين، وتشددت في تعاليمها ورفضت كل معتقد غريب عنها، وحاكمت من الشعب كل من عصى أمرها أو أهان قدرها. وكان غاليليو أول من صبت جام غضبها عليه، فصادرت كتبه وأرغمته مرات على رفض معتقده والتمسك بما تقول

الكنيسة، وحوكم وعوقب من أجل ذلك. غير أن وقفة الكنيسة هذه لم تخفه ولم يهب سطوتها، وقد جرب إقناع مناوئيه ببراهين منطقية وعملية على فساد فكرتهم، حتى أنه كثيراً ما كان يناقضهم بحجج من التوراة، وكان يقول لرؤساء الدين عن عملهم هو تعليم الناس كيف يذهبون إلى السماء لا كيف تدور السماء. بيد أن الكنيسة لم تعر ذلك سمعاً، وأبت عليه أن يقارعها الحجة بالحجة خوفاً على هيبتها ووقارها أمام الشعب

وأخيرا في سنة 1616 التأم المجمع المقدس في روما، وقرر رفض حركة الأرض رفضاً باتاً من تعاليمها وعد الاعتقاد بها هرطقة وعصيانا. وبعد ذلك بسنة أصدر البابا بولس الخامس أمره لغاليليو بألا يعتقد ولا يعلم ولا يدافع عن فكرته الجديدة. ومن بعض أتباع البابا وأصدقاء غاليليو من نصح له أن يفرض ما يعتقد به عن حركة الأرض فرضاً بدون أن يجزم بحقيقته. غير أن غاليليو ظل يشتغل حتى سنة 1632 عندما أظهر كتابه وفيه الحوار بين رجلين عن النظامين البطليموسي والكوبرنيكي، فسمعت الكنيسة به ومنعت بيعه، وأوعزت إلى محكمة التفتيش جلبه لروما، وهناك حوكم وهدد بالتعذيب إن عاد وجاهر بإنكاره، وحكمت عليه المحكمة أن يتلو كل أسبوع أمامها مزامير التوبة السبعة لمدة ثلاث سنوات، ولولا أصدقاؤه الكثيرون في روما لذهب ضحية أفكاره الجريئة

لكن برغم كل ما فعلته الكنيسة من إرهاب وتشديد، وبرغم كل ما أصدره البابا من أوامر تحريم وتعذيب، فأن الحقيقة ظلت سائرة في طريقها إلى الأمام، وما كانت لتختفي مرة إلا لتظهر للملأ بصورة أوضح وأروع من الأولى. وبدأت فكرة النظام

الحديثة تتحقق تدريجياً في عقول معتنيقها، وتكبر وتتسع حول أساس جديد متين. وما زرع البذرة الأولى كوبرنيكس ونمت حتى أتى كبلر وغاليليو بعده وزادا في نموها وتحكيم أصولها في النفوس. ثم جاء نيوتون وربط أجزاء النظام الجديد بقانون الجاذبية العام. وأثبت صحة الحقائق التي استلمها عن غاليليو وكبلر ببراهين رياضية دقيقة، وظلت الفكرة تنمو وتتسع، والنظام الشمسي يكبر باكتشاف سيارات جديدة فيه كأورانوس ونبتون، حتى اكتشف نهائياً بلوتو في سنة 1930 وهو أبعد الكواكب السيارة عن الشمس. وكان ذلك خاتمة النمو المطرد في فكرة النظام الشمسي الحديثة، الذي ابتدأ من كوبرنيكس وبقي نحواً من ثلاثة قرون.

فرح رفيدي

البريد الأدبي

في دار لجنة التأليف والترجمة والنشر

في مساء الخميس الماضي أقامت لجنة التأليف والترجمة والنشر في دارها مأدبة عشاء شرقية فخمة احتفالاً بمرور عشرين عاماً على إنشائها دعت إليها أعضاءها وأصدقاءها وصفوة من وجوه الأمة ورجال الصحافة، فتوافوا إليها في الساعة الثامنة، ثم تحلقوا حول الموائد الكريمة الشهية يتجاذبون ذكريات المودة ويتساقطون أعذب الأحاديث، ويتمتعون بشعور الرضا عن اطراد النجاح لهذا العمل النافع المخلص. فلما فرغوا من الطعام وقف صديقنا الأستاذ أحمد أمين رئيس اللجنة، فألقى كلمة قيمة شكر فيها الحاضرين وألم بتاريخ اللجنة وأطوارها إلمامه وافية واضحة سننشرها في العدد القادم، ثم عاد القوم إلى السمر بعد أن وقفوا على سر هذا المجهود الموفق، وأدركوا أن بقاءه ونماءه إنما يرجعان إلى تجانس الميول فيه، وإخلاص النية له، ونبالة القصد منه، وقوة الإيمان به. وكانت فرقة هاوية من أعضاء نادي الموسيقى تفصل بين الأحاديث الحين بعد الحين بألحانها الساحرة، فأضافت إلى جلال العلم، وجمال الأخوة، بهجة الفن ونشوة الطرب؛ ثم انقضى السمر بانقضاء الهزيع الأول من الليل، وانصرف القوم مبتهجين بجمال الحفلة، مغتبطين بنجاح اللجنة، مثنين على جهود الأعضاء.

أزمة المسرح

يجوز المسرح اليوم أزمة حقيقية، وينظر المتشائمون إلى مستقبله في كثير من الجزع. وقد عقد أخيراً في رومه مؤتمر دولي برعاية الأكاديمية الإيطالية لينظر في شؤون المسرح والدولة، وشهده جمع كبير من أقطاب الكتاب المسرحين في مختلف البلدان. وخطب السنيور لويجي بيراند للو المندوب الإيطالي، فنوه بأهمية المسرح في تنظيم الحياة الاجتماعية، وقال بأنه الأعراب الأسمى للفن، وإنه يستطيع وحده أن يثبت الظواهر الخالدة لعصر من العصور. وتحدث الكاتب المسرحي الأشهر موريس ميترلنك عن أزمة المسرح فأنكر خطورتها، وقال بأن المسرح يشبه طفلاً مريضاً منذ مولده، وقد لا يصل إلى اكتمال صحته قبل مرور ألفي عام، أي بعد أن يكون قد استنفد كل أمراضه، وكل آلام نموه. وإذن فأن الحمى التي يجتازها المسرح اليوم ليست إلا مظهراً من مظاهر هذا التطور الطويل الأمد. ثم أن هذا العارض يرجع في الغالب إلى عوامل خارجية لا علاقة لها بالمسرح ذاته.

وقد عنى المؤتمر عناية خاصة بشؤون المسرح الدرامي، وبحث عدداً من مسائله الهامة، مثل ظروف المسرح الدرامي الحالية وعلاقتها بظروف المناظر المسرحية الأخرى، وخصوصا السينما، وهندسة المسرح، والمسارح العامة والخاصة، وفن المناظر والزخرف، وأثر المناظر المسرحية في أخلاق الشعوب، وعلاقة المسرح بالدولة، وغيرها. وقد أثارت هذه المسألة الأخيرة في المؤتمر كثيراً من الجدل، لأن جميع الدول الأوربية تحاول اليوم أن تضع لها سياسة خاصة للمسرح، وتحاول أن تجعل منه أداة تعبر عن المثل القومية العليا. ومنها من تحاول بواسطة المسرح إحياء التقاليد القديمة، ومزج الأساليب الحديثة بأساطير الماضي. وقد بذلت بالفعل جهود لتحقيق هذه الغاية بصورة عملية، فأسست معاهد للثقافة المسرحية، ولا سيما في روسيا والنمسا. وفي ألمانيا يغدو المسرح أداة حكومية. وفي هذه الوصاية التي تحاول الحكومات أن تفرضها على المسرح خطر على استقلال الفن يجب اتقاؤه وتثير المسألة المسرحية اليوم كثيراً من الجدل، ويذهب بعض المتشائمين إلى القول

بأن المسرح يحتضر. ولكن كثيراً من أقطاب المسرح يرون مثل موريس ميترلنك في هذا التصوير مبالغة كبيرة. وقد قرأنا أخيراً في جريدة (الفيجارو) مقالاً بديعاً للكاتب المسرحي الكبير هنري برنشتين، يقول فيه إن أزمة المسرح نغمة قديمة ترجع إلى عهد ارستوفان ذاته، وإنها ما زالت تتجدد خلال العصور المختلفة؛ وفي رأيه أن أزمة المسرح اليوم محلية ترجع أولاً إلى أسباب اقتصادية، أساسها شدة التنافس في بناء المسارح منذ الحرب، وضغط الحكومة على المسرح، وإرهاقه بالضرائب الفادحة، وثانياً إلى ندرة الموهبة الدرامية، وصعوبة العمل الدرامي

وهل نحن في حاجة إلى أن نذكر أن صدى هذه الأزمة المسرحية يتردد في مصر منذ حين، وأنها تفاقمت حتى غدت خطراً حقيقياً على المسرح المصري، بل لا نبالغ إذا قلنا أن المسرح المصري لا وجود له الآن

إحياء الأقصوصة الطويلة (الحكاية)

كتب الكاتب الكبير بول موران فصلاً ممتعاً عن الحكاية فلاحظ أنها تمزج بالقصة وحمل على القائلين بأن الأقصوصة الطويلة إنما هي قصة من النوع الطويل، ولكنها أقل منها حجماً. ويرى بول موران أن هناك فرقاً جوهرياً بين النوعين، فالأقصوصة الطويلة صغيرة الحجم حقاً، ولكنها تخالف القصة من حيث الجوهر؛ ذلك أن القصة العادية لا يحدها حجم، وقد تطول أو تقصر فلا يغير ذلك شيئاً من موضوعها، ولكن حجم الأقصوصة الطويلة يفرضه موضوعها ذاته. وفي وسعك أن تترك الكتابة في القصة إلى حين ثم تستأنفها دون حرج، ولكن الأقصوصة إذا تركت على هذا النحو تصدع بناؤها

ويجب ألا تمزج الأقصوصة بالتصوير الموجز وقيمتها قبل كل شئ في نوعها، فهي عمل معتنى به وليست عملاً سهلاً سريعاً؛ أما قيمة القصة فهي ما تخلعه عليها مواهب كاتبها، وتخضع الأقصوصة لقوانينها الخاصة، وهي لم تتغير منذ عهد الأحياء. وموضوعها دائماً هو أن تعزل شخصية أو عملاً، وأن تجرده من ملحقاته، وأن تخرجه من الحياة. أما القصة العادية (الطويلة) فتحملنا إلى أفق خلقي محض، ولهذا كان الإنكليزي قصصياً (روائياً) مجيداً، أما الفرنسي فأنه لبراعته في التحليل يجيد كتابة الأقصوصة. وقد تستطيع أن تكتب قصة طويلة دون التزام الذوق الحسن، أو دون موهبة وعبقرية، ولكن الأقصوصة الحسنة لا يمكن أن تكتب إلا طبقاً لأصول الفن؛ فللكاتب الذي له مواهب فنية لا يستطيع مطلقاً أن يكتب أقصوصة ذات شأن.

بين الدوتشي وجبرائيل دانونزيو

يقيم دانونزيو شاعر إيطاليا الأكبر منذ أعوام في قصره في (فتوريالي) على مقربة من بحيرة لوجانو، وقد ذاعت في العهد الأخير إشاعات كثيرة عن علائقه مع زعيم إيطاليا السنيور موسوليني، حتى قيل بأن الشاعر معتقل في قصره في الواقع وأنه لا يسمح له بالانتقال منه أو استقبال أحد فيه إلا بإذن خاص، ولكن الظاهر أن هذه الإشاعات حديث خرافة، وأن الصداقة التي توثقت بين بطل فيومي (دانونزيو) والدوتشي (موسوليني) لم تزعزها الحوادث. وقد زار السنيور موسوليني أخيراً صديقه الشاعر الكبير في قصره في فتوريالي زيارة خاصة مجردة عن كل صبغة رسمية، واستقبله دانونزيو بغبطة وحماسة،

وتعانق الرجلان عند اللقاء، وصاح دانونزيو بصديقه. (ها قد أتيت أخيراً)، وكانت آخر مرة زار فيها موسوليني صديقه، منذ عامين حينما كان يزور تورنيو وميلانو محتفلاً بذكرى الثورة الفاشستية. وقد وفد موسوليني على الشاعر عند الغروب وتناول معه العشاء، واستمر معه حتى منتصف الليل؛ ثم ودعه مرتحلا إلى مدينة كريمونا التي أعلن منها الزحف على رومه سنة 1922، وكانت مهد الثورة الفاشستية.

مدام جولييت آدم

بلغت مدام جولييت آدم الكاتبة الفرنسية الشهيرة عامها الثامن والتسعين في هذا الشهر، ومدام جولييت من أعظم كاتبات فرنسا المعاصرات، ولدت سنة 1836، وعاصرت أقطاب الأدب الفرنسي في عصر الجمهورية الثانية والإمبراطورية مثل هوجو، ولامارتين، وبلزاك، والفرددي فيني، وموسيه، وجورج ساند، وكوبيه، وموباسان، وذاعت شهرتها منذ سنة 1860؛ وكانت تتمتع من جراء جمالها الباهر، ومواهبها الأدبية الممتازة في المجتمع الفرنسي الرفيع بنفوذ عظيم، وظهرت لأول مرة بروايتها

الشهيرة (قريتي) ثم كتبت من بعدها عدة قصص وكتب نقدية؛ وأنشأت (المجلة الجديدة) سنة 1877 فلقيت نجاحاً عظيماً وظهرت بمواهبها الصحفية. وتعيش مدام جولييت آدم منذ نحو خمسين عاماً في أحد الأديرة التاريخية، في قرية (جييف سير فييت)، وما زالت تستقبل هنالك كل يوم أحد كثيراً من أصدقائها العظماء، وما زالت على رغم تقدم سنها تعني بالشؤون السياسية والأدبية عناية كبيرة.

وقد كان زعيم الوطنية المصرية المغفور له مصطفى كامل باشا على اتصال بمدام جولييت آدم؛ وكانت بينهما رسائل منظمة، يبدو فيها عطف الكاتبة الشهيرة على القضية المصرية، ونشرت ترجمة بعض هذه الرسائل في ترجمة المرحوم مصطفى كامل

القصص

مهداة إلى الأستاذ مصطفى صادق الرافعي

العروس

للأستاذ محمد سعيد العريان

لم يرقها اليوم أن تجلس إلى المرآة جلستها الطويلة، فدلفت إلى النافذة تنوء بهم ثقيل على صدرها، واتكأت بمرفقها على حافة المقعد، ثم أزاحت السجف وجلست ترقب الطريق. وصك أذنيها غناء المغنيات في بيت جارتها كريهاً نابياً كأنما ينعى إليها الشباب. .!

لقد جاوزت (إحسان) العشرين وما تزال قعيدة الدار، تنتظر الخاطب المجهول يدق الباب ليطلب يدها. أتراها لم تكن أجمل من فلانة وفلانة وفلانة؟ بلى، وإنها لخير منهن؛ ولكنهن تزوجن جميعاً وانتهى بهن القدر إلى المستقبل الذي تحلم به كل فتاة، وهي وحدها ما تزال تنتظر. .!

وأخذ الزمن يتراجع، كما تطوى سبيبة الخيالة فإذا هي ما تزال بنت السادسة عشرة؛ تزدهيها فتنة الجمال، وتسيطر على نفسها كبرياء الغنى، وتعبث بها أهواء الأنوثة الباكرة؛ وإذا هي بين أترابها في المدرسة - كما كانت - معقد المنى، وجوى الخواطر، وملتقى نظرات الغبطة، لم يجتمع لواحدة من رفيقاتها يومئذ ما اجتمع لها ما تفخر به الفتاة؛ فلم تكن لتشاركهن الحديث إلا على كبرياء وأنفة؛ وحين يجري حديث الشبان بينهن في همس موسيقي مطرب، كانت تمط شفتيها في سخرية عابثة، ثقةً بأنها الفتاة المرموقة المشتهاة، كأن على من دونها من الفتيات أن ينتظرن ريثما تختار هي فتاها المجدود، ثم تترك لهن من بعد حق الأمل في الزوج الذي يشتهين. . .!

وكان لها من نشأتها وجاه أبيها ما يفسح لها في الأمل، ويمد لها أسباب المنى العريضة. ولكن أباها قد مات! أفينقص من شرفها وجمالها وثرائها أن أباها قد مات. . فأين الخطاب يزدلفون إليها ويزدحمون ببابها في طلب الرضا والقبول؟

إنها لرهينة الدار منذ سنوات خمس؛ فلا تبصر الطريق - على رغم عصريتها - إلا من خصاص النافذة، ولا تفارق محبسها إلا في ظل أمها الأيم العجوز؛ فلم تكن تعرف من الشبان غير أبن عمها (فريد). لقد كان فيما ترى مثال الشاب الذي يداعب خيالها. لم يكن قد أتم دراسته العالية بعد، ولكنه أتم الرجولة؛ وكان على فقر من المال، ولكنه على غنى في النفس، وكمالٍ من الأدب والفضيلة. وكم كانت تعجب برجولته ونبله! ولكنها لم تكن تسمح لنفسها أن تمنحه أكثر من الإعجاب. آه لو كان على سعة من المال. . . لتمنت أن يكون زوجها الذي تقاسمه الحياة. . . من أين له أن يهيئ لها أسباب الرفاهية التي تشتهي. . .؟

لم تكن تدري أنها تحبه إلا يوم جاءها البشير أنه خطب لنفسه فلانة، فأغلقت من دونها الباب وجلست وحدها تبكي ما ساعفتها الدموع. ولم يكن يدري أنه يحبها إلا يوم زارها من بعد، فإذا في عينيها تساؤل وجواب، وعلى شفتيها ابتسامة ذابلة، ثم إذا هي تفر فتضرب الحجاب بينها وبينه، خشية أن يرى على وجنتيها علامة التأثر ترسمها الدموع. . .!

ولكم تمناها لنفسه وبات يرعى خيالها ليالي طويلة، ولكنه كان يزجر نفسه أن تؤمل الزواج من إحسان؛ وأين فقره وإقلاله من غنى إحسان. . .!

ومسحت الدموع عن وجنتيها، وقالت تعزي نفسها: (لقد تزوج فريد، فما أسفي على زواجه؟ إنني لجميلة، وإنني لغنية، وإن الشبان ليسرعون إلى ذوات الجمال والمال)

وطافت برأسها أحلام، وزينت لها دنيا بهيجة من الخيال أفعمتها أنسا وسعادة؛ واستنامت إلى المنى، تصبح وتمسي حالمة بالخاطب المجهول
وتصرمت الأعوام عاماً بعد عام، وإحسان تعيش من أحلامها في رضا وقناعة؛ وحسبها من مسرات الشباب أنها توقظ كل يوم واحداً من شباب أحلامها تساقيه المنى وتبادله الحب، فإذا انتبهت من أحلامها السعيدة فإلى حين، كأنما هي من حبيبها على ميعاد
وأخذت زهرات الربيع تنتثر أوراقها داميةً على الشوك، لأن البستاني يحول أن تمتد إليها اليد التي تشعر أنها جميلة؛ ولكن بقيت على ثغر الزهر ابتسامته الناعمة، لأنه من أحلامه على رضا وقناعة
لشد ما كان يعجب شباب الناحية بإحسان! فما يحلو لهم سمر إلا الحديث عن جمالها وفتنتها، وما يطيب لهم مجلس إلا بذكر كمالها وشمائلها؛ ولكنها على ما حلت من نفوسهم أكرم منزلة - لم تبلغ أن تكون موضع الأمل عند واحد منهم أن تصير زوجته.
لقد تقاصرت دونها المنى؛ من إبائها، وغناها، وحرص أهلها على التقاليد
ومن أين لغير القليل من الشبان أن يرضى مطامع إحسان؛ من أين له (المعجزة المالية) ليؤدي لها المهر الذي ترضاه، وينفق في أكلاف العرس ما يرضي التقاليد؟
وطالت الأيام على العذراء الحالمة، وبدأت تمل وحدتها الفارغة، وأخذت تسئ الظن بجمالها وفتنتها. ولم تجد غير المرآة تبثها خواطرها، فتعودت الجلوس إليها الساعات كل يوم، تبادلها الرأي فيما تظهر به جميلة جذابة؛ لعلها أن تجد بالجمال المصنوع رجلها الذي تحلم به. . .
أفتستطيع المرآة أن تمنحها الزوج إن منحتها الجمال؟. .! واستيقظت من أحلامها حين توالت عليها الأنباء بأن صواحبها اللاتي كانت تسخر منهن وتزهى عليهن بمالها وجمالها - قد تزوجن واحدة بعد أخرى، واستقرت بهن الحياة في بيت الأمومة
وهذه صديقة أخرى تتزوج. لقد طالما هزئت إحسان من (خديجة) جارتها وزميلتها في المدرسة؛ وما أكثر ما كانت تركبها بالدعابة الثقيلة والنكات اللاذعة حتى تطفر من عينها دموع الذلة والانكسار! لم تكن خديجة في مثل جمال إحسان، ولا لها قليل من جاه أبيها أو ماله؛ ولكن، هاهي ذي تتزوج وتعزف لها الموسيقى، وإحسان ما تزال تنتظر. . .!
وانقطعت سبيبة الذكرى، فأفاقت إحسان من غفلتها، وراحت تمسح الدموع عن وجنتيها بأطراف السجف وتنظر الطريق وأخذ عينيها بريق الكرات الملونة مدلاة من حبالها، يتلاعب بها الهواء تلاعب اليأس والهم بنفسها؛ واضطربت في مرأى عينيها الرايات الخضر، اضطراب أوراق الشجر هبت عليها رياح الخريف. . .!
لقد كانت وحدها في البيت، فلم ترافق أمها إلى بيت خديجة لتزف إليها التهنئة. منذ أمس، حين زارتها صديقتها داعية، وهي لا تستقر على حال من لذع الغيرة وألم الحرمان! وقدرت - إن هي أجابت الدعوى - أنها ستكون بين المدعوات موضع السخرية والإشفاق؛ وما تحب أن يسخر منها أو يشفق عليها أحد. . .!
ومر من تحت النافذة فوج من الشباب يقصدون بيت العروس، وراحت إحسان تختبر فراستها، لعلها أن تعرف زوج صديقتها من بين هؤلاء. أفكانت تريد ذلك حقاً؛ أم هي تريد أن تعرف من بينهم رجل أحلامها الذي صحبته في الوهم سنوات. .؟
وزفرت زفرة خافتة، وراحت تحصي سنيها التي عمرتها على الأرض. يا ويلتا! اثنتان وعشرون سنة. . .! لقد تزوجت أمها في الثالثة عشرة، فلعل إحسان لو تزوجت في مثل سن أمها - كانت موشكة أن تصير جدة. . .! وركبها اليأس، واصطلحت عليها الأفكار السود، ولم تجد لنفسها طاقة بالوحدة بعد؛ فأزينت وأسرعت إلى بيت العروس تتفرج. . .
وهاجت أحزانها مظاهر الفرح، وبهرتها الأنوار البراقة، ولدغتها ثعابين الغيرة من عناقيد الزهر متعانقة متشابكة، ورنت في أذنيها ضحكات النساء كأن قلباً من الزجاج ينكسر.
وانتظم النساء حلقات - على عادتهن - يتهامسن عابثات ضاحكات؛ فوقع في نفسها أنهن يتهامسن في شأنها، فانطوت على نفسها في زاوية من البهو تحاول إلا تتحدث إلى أحد، أو يتحدث إليها أحد. وخيل إليها أن التمنيات التي توجهها إليها صواحبها - سخرية وشماتة. . .
ما أحراهن أن يترجمنها إلى اللغة الصريحة فيقلن: (الرحمة والرثاء لك (.العقبى لك)

أيتها العانس المسكينة. . .!) وأديرت - على برد الخريف - أكواب الشراب المثلوج، ووزعت الحلوى في العلب المذهبة الثمينة، وتزاحم النساء يتخاطفونها كأنما يقتضين الأجر على ما شرفن العروس بالحضور للتهنئة. . .! ورأت إحسان أنها لم تتفرج مما بها ولكنها زادت هما على هم، فأسرعت عائدة إلى الدار

ولم تنم المسكينة ليلتها، ولكن أخذتها إغفاءات متقطعة تتخللها الرؤى والأحلام. وعاد تفكيرها في الزواج بعض عملها اليومي، ولكنها لم تعد تفكر في الرجل - إذ تفكر في الزواج - أكثر مما تفكر مظاهر الاحتفال، وزينة العرس؛ وفيمن تدعو ليشاركها الفرح من نساء المدينة وشبان المدينة؛ كانت تفكر في الانتقام لكبريائها التي زعمتها ديست يوم عرس خديجة. سيكون احتفالاً خيراً من احتفالها، وسيزين البيت أروع مما أزين بيتها، وسيجتمع لها من سراة المدينة ووجهائها من لم يجتمع لعروس قبلها. ستحاول يومئذ أن تسعر الغيرة والحسد في قلوب كل صواحبها، أكثر مما كانت تسعرهما بكبريائها وتيهها عليهن وهي ما تزال صغيرة تطلب العلم معهن في المدرسة، أو تشاركهن اللعب في فناء الدار. . .!

كان العام قد استدار، وأخذت زهرات الربيع تتفتح ويضوع أريجها في الجو، ولكن قطرات من الندى كانت تبللها كدمعة الحزن في وجه عذراء مستحيية. . . ولكنها تبتسم؛ أكانت تصطنع الابتسام لتخفي عن الناظر بعض ما في صدرها من هم، أم كانت هذه دموع الفرح على وجنتيها. . .؟

وأطل الفتيات من النوافذ يتعرفن خطيب إحسان خارجاً من دارها في جماعة من أهله؛ ورأين بضعة من الرجال عليهم سيماء السراة من أهل الريف، في جلابيبهم الفضفاضة ومعاطفهم السود، يلوون ألسنتهم بالحديث في لهجة جديدة على أهل الحضر. وبينهم (أفندي) واحد يبدو من مظهره، ونظام لباسه أنه وإن عاش في المدينة طويلاً - ما يزال بعض أهله

وقالت فتاة لأختها: - (أهو هذا؟)

- (بل هو ذاك)

ولم يكن هذا ولا ذاك؛ ولكنه خرج بعد انفضاض الجمع، يتوكأ على نفسه من ثقل وبدانة حشو ثيابه الغالية، يلوك بين شدقيه لساناً يتفقد بقايا الطعام بين أضراسه، ولم يخف ميل طربوشه أثر الوشم في صدغه

وقالت فتاة:

- (إنه لهو؟)

فأجابتها صاحبتها بابتسامة

وبرق الماس في إصبعه، ورف الذهب من سلسلة ساعته، فقالت الفتاة:

(إنه لغني. . .!)

وكان الحفل الحاشد بعد أيام، فاجتمع فيه من مظاهر البذخ والغنى ما لم يتهيأ لسكان الحي أن يشهدوا مثله منذ أعوام؛ فأقيمت المقاصف، ووزعت الهدايا، ودقت الطبول، وعزفت الموسيقى، وتجاوبت ألحان المغنين والمغنيات بين فناء البيت وأعلاه، وتناثرت نجوم الكهرباء تنقل إلى الأرض بعض معاني السماء، وعبق أريج الزهر يحمل إلى أهل الحياة أنفاس أهل الجنة. . . وإحسان في مجلسها راضية ناعمة، تشرف من علٍ على الحفل وزينته فخوراً مزهوةً

لقد كانت فرحة الزواج عندها أن تشهد لنفسها مثل هذا الحفل، وقد شهدته على أكمل ما أبدعته في خيالها؛ وبلغت مأملها في الظهور على صواحبها بما يتقاصرون عنه من بذخ وإسراف. أما الزوج، أما الرجل الذي سترتبط إليه ويرتبط إليها فلا فكاك مدى الحياة، أما رجل أحلامها الذي أحبته زماناً من طول ما صحبها في الخيال - أما ذاك، فما عليها أن تظل نائمة تحلم ما دامت قد انتقمت لكبريائها الجريح

لم تفتش المسكينة عن الرجل الذي سعدت في الوهم بصبحته، وذاقت معه على البعد نعيم الحياة، وتنورت من فكرها فيه عالم الحب ودنيا الجمال. . . وراحت تفتش عما يرضي الناس ويطلق ألسنتهم بالإعجاب. . .

وباعت سعادة العمر؛ واشترت سعادة ليلة . . .!
محمد سعيد العريان
الكتب
هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام
تأليف الشيخ يوسف البديعي قاضي الموصل (1073هـ)
نشره وعلق عليه الأستاذ محمود مصطفى
أهدي إلى زميلي الأستاذ محمود مصطفى كتاب (هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام) من تأليف الشيخ يوسف البديعي قاضي الموصل المتوفى سنة 1073هـ، وهو كتاب عثر عليه الأستاذ محمود مصطفى المدرس بكلية اللغة العربية من كليات الجامع الأزهر في محفوظات دار الكتب المصرية، فأعجبه منه جريه على طريقة القدماء في دراسة الأدب من التنقل بالقارئ من خبر مستطرف، إلى معنى مستظرف، وإلى فكاهة بارعة، إلى حكمة رائعة. فمدار الكلام عنده على أبي تمام، ولكنه إذا ذكر قوة حفظه عرض لكثير ممن عرفوه بهذه المنقبة، فروى من أخبارهم ما يروي صدى المتأدب؛ وإذا ذكر مدحه لأحمد بن أبي دؤاد مثلاً عرج على حياة هذا الممدوح، فجلاها للقارئ بما لا يترك في نفسه من حاجة؛ وإذا مر بمعنى له تناوله الشعراء سرد من أقوالهم فيه ما يشبع نهمة النهم من طلاب الأدب. وهكذا جرى في كتابه من أوله إلى أن فرغ منه، وهذا عمل يثير الإعجاب حقيقة من عالم في هذا القرن الحادي عشر من القرون الهجرية، وهو من القرون التي طغت العامية فيها على العربية، وأصبح العلماء لا يحسنون فيها التأليف بالعربية الفصيحة، فكيف بهذا النوع من التأليف في الأدب والموازنة والنقد؟ ومؤرخو الآداب العربية يكادون ينسون الشيخ يوسف البديعي وأدبه في وسط تلك الظلمة القادمة، التي غطت على الأدب العربي في تلك القرون المظلمة.
فكم أحسن الأستاذ محمود مصطفى بلفت الأذهان إلى أدب الشيخ يوسف البديعي، حتى لا تطغي عليه تلك الظلمة، ولا ينسى مؤرخو الآداب عمله في وقت لم يكن لغيره عمل يذكر فيه.
وكم أحسن في تعليقاته على هذا الكتاب إذ تابع مؤلفه في طريقته، فعرف قارئه بالرجال الذين عرض لذكرهم ولم يعرض للتعريف بهم، وشرح ما وقع فيه من أشعار أبي تمام
وغيره، ولم يكن المؤلف يعني إلا بشرح القليل منها، لأنه لم يؤلف كتابه لذلك وإنما ألفه لتلك الأغراض السابقة.
وللأستاذ محمود مصطفى في شرحه طريقة تليق بوظيفته الجامعية، فهو يعني فيه بشرح المعاني الأصلية للكلمات وما خرجت إليه من مجاز أو كناية، ثم يستخرج من ذلك معنى البيت وينقده إذا رأى أبا تمام قد خرج به عن الجادة، فتكلف في الصنعة، أو ركب الشطط في مجازاته؛ وقد يجعل من نقده إطراءه إذا جمع موجبات الحسن في شعره، وهي كثيرة فيه، ولم يفته مع هذا أن ينقل من آراء الأقدمين الذين نظروا في شعر أبي تمام من الآمدي والجرجاني وغيرهما، ثم يعقب على ذلك برأيه فيوافقهم تارة فيما رأوه في شعره، ويخالفهم تارة أخرى فيه.
وقد جلونا بهذا كتاب هبة الأيام للقراء، وعرفناهم قيمة عمل الأستاذ محمود مصطفى فيه، وأدينا بذلك حقه علينا كأثر من أحسن الآثار الأدبية، وبقي لنا عليه أشياء أردنا للزمالة إلا نعرض لها، وأراد الأستاذ محمود إلا أن نطلق لقلمنا العنان مقرظين أو ناقدين، وإننا نكتفي عما عندنا بهذين النقدين
فالأستاذ محمود في قول أبي تمام:
وإذا مشت تركت بصدرك ضعف ما ... بحليها من كثرة الوسواس
يرى فيه استخداماً طريفاً حسنا، لأن أمثلته قليلة في العربية، والاستخدام عنده في أن الوسواس يطلق على صوت الحلي، وعلى حديث النفس بما لا خير فيه، وقد أراد المعنى الأول في كلمة الوسواس الظاهرة في البيت، وأراد الثاني في الموصوف المحذوف في قوله (ضعف ما)، ولا شك أن هذا ليس من الاستخدام في شيء، وليرجع الأستاذ إلى تعريف الاستخدام وأمثلته في كتب البلاغة، فسيرى أن هذا لا يشمله تعريفه، ولا يشابه أمثلته. وكذلك نخالف الأستاذ محموداً فيما صنعه في قول

أبي تمام:
أزرين بالْمُرْدِ الغطارف بُدَّناً ... غيداً ألفتهمُ زماناً غيدا
إذ يريد أبو تمام أن يفضل الجميلات من النساء على أرباب الجمال من أولئك الغلمان الذين افتتن بهم الشعراء، وتغزلوا بجمالهم في عصره وقبل عصره، فلا يرضي هذا صاحبنا، ويقول إنه لم يؤلف أن يقال إن المرأة الجميلة تزري بالرجل الجميل، مع أن أبا تمام لم
يعن في شعره هذا، وإنما عنى أولئك الغلمان الذين غطى التغزل بهم على التغزل بالنساء في ذلك العصر، ثم يختار الأستاذ أن يقال إن مراداً جمع مرداء، وإن غطاريف جمع غطريفة، وإن لم يرد ذلك في اللغة، فيكون خطأ من أبي تمام فيها، ولا أدري كيف نحمله هذا الخطأ، ومعناه على ما تعطيه ألفاظه في حدودها اللغوية واضح لا شيء فيه، ولله العصمة وحده.
عبد المتعال الصعيدي
خلاصة تاريخ مصر الحديث
من الحملة الفرنسية إلى الوقت الحاضر
تأليف الأستاذ محمد الحسيني رخا
هذا الكتاب الصغير الذي يشمل منهاج السنة الرابعة الابتدائية، من وضع عالم كبير قضى سنوات طويلة في خدمة التعليم في أدق مناصبه من ناظر بالمدارس الأميرية إلى مفتش للآداب بالمعاهد الدينية، فلا عجب مع ذلك أن يكون كتابه هذا على ما هو عليه من الدقة العلمية، وحسن الترتيب. ولقد كان هذا الكتاب أحد الكتب الثلاثة التي فحصتها وزارة المعارف، ووافقت على صلاحيتها في المباراة التي أعلنت عنها في عام 1932. وتقدم للاشتراك فيها عدد كبير من المؤلفين.
وليست تقاس مهارة المؤلف هنا بما يحتوي عليه كتابه من المعلومات والوثائق كما هو الشأن في الكتب المطولة، وإنما تقاس مهارة المؤلف بمقدار نجاحه في تسهيل تلك المعلومات وصوغها في عبارات تناسب تلك السنة الدراسية، وربط أجزاء المنهاج بعضها ببعض بطريقة فنية تضمن تحقيق الغرض المنشود من تدريس التاريخ. ولقد وفق الأستاذ الفاضل مؤلف هذا الكتاب توفيقا يغبط عليه، فصاغه في صورة تحببه إلى الطلاب وتحبب إليهم موضوعه، كما أنه اهتم بحسن الطبع واختيار الورق فجاء كتابه متقناً من جميع نواحيه. وإني لأحمد لهذا المربي الفاضل جميل صنعه، وأقدم كتابه إلى طلاب السنة الرابعة الابتدائية مع مزيد الاغتباط
الخفيف
الفاروق عمر بن الخطاب
بقلم دياب عثمان العرابي
المتخرج في دار العلوم
كان سروري عظيماً حين ألقي إلي هذا الكتاب، الذي خصصه مؤلفه الأستاذ دياب العرابي لدراسة حياة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لاتجاه أدبائنا إلى تاريخ عظمائنا يتخذون منه المثل العالي والقدوة الحسنة، والكتاب يقع في نحو مائتين وستين صفحة من القطع المتوسط
تكلم المؤلف الفاضل عن حياة عمر في الجاهلية، ذاكراً نسبه ووصفه ومنزلته في قومه، ثم تكلم عن دخوله في الإسلام، وعن حياته في عهد الرسول ومواقفه المشهورة إلى جانبه صلى الله عليه وسلم، ثم تكلم عن عمر يوم السقيفة ومبايعته لأبي بكر، إلى أن تم له أمر المسلمين فتكلم عن فتوحه وأعماله وإصلاحاته في الدواوين وموقفه من عماله وموقفه من بيت مال المسلمين، ثم شرح حادث مقتله وبين تحوطه للخلافة ووصايته قبل وفاته
وهو بلا شك بحث ممتع ينظم هذا الكتاب في سلك المؤلفات التي تملأ قراءتها القلوب غبطة والنفوس عظة، والتي تؤثر من الوجهة الخلقية تأثيراً قوياً في نفوس القراء صغارهم وكبارهم
بيد أني، على الرغم من سروري بتلاوة هذا الكتاب واستمتاعي بما جاء فيه من حوادث ومواقف رائعة، لا أقر الأستاذ المؤلف على بعض نقط فيه، كإسهابه في وصف الفتوح وتعرضه لتفاصيل جعلتني عندها أتسأل: هل يدور الكتاب حول تاريخ الدولة العربية أيام

عمر، أم هو يدور حول دراسة عمر نفسه؟ ولو أن الأستاذ وجه اهتمامه الأكبر إلى بسط أخلاق عمر واتخذ من أعماله مع الاكتفاء بالإشارة إليها أمثلة لما يقول لكان كتابه أكثر لذة وأقرب إلى الغرض. على أنه في وضعه هذا وما احتوى عليه من حوادث ومواقف مشهورة من حياة عمر جدير بأن يحرص على قراءته والاستفادة منه كل أديب. والحقيقة أن المؤلف قد أتى فيه على طائفة من العبر القوية، والأخلاق العالية، والحوادث الشيقة مما يجعلك تنسى التأليف وطريقته، وتندمج اندماجاً تاماً في تلك الشخصية العظيمة التي يدور حولها الكلام، بحيث تفرغ من قراءتك وأنت تحس إحساساً شديداً بالغبطة والارتياح.

الخفيف

العدد 70 - بتاريخ: 05 - 11 - 1934

يا هادي الطريق جُرت!!

ذلك هتاف الأمة الحيرى، يتجلجل في صدرها المكظوم كلما بهرتها الشدائد، وأجهدتها المفاوز وفدحتها الضحايا، ووقف بها اللغوب، ودارت ببصرها في معامي الفضاء فلا تتبين نسما لطريق ولا تتعرف وجهاً لغاية

يا هادي الطريق جرت!!

ذلك صراخ القافلة المكروبة، تخبط منذ طويل في مجاهل الأرض وخوادع السبل، وإدلاؤها الغواة يلتهمون زادها مع الوحش، ويتقسمون مالها مع المغير ويغتنمون ضلالها مع الحوادث حتى قطعوها عن ركب الإنسانية وتركوها في مطاوي التيه تنفق جهدها على غير طائل وتنشد قصدها من غير أمل

يا هادي الطريق جرت!!

ومن يستطيع اليوم أن يعَّرف هذا الهادي بالنداء، أو يخصصه بالوصف، أو يأخذه بالتبعة؟ لقد تعدد الهداة في هذه القافلة! واختلفت الشياطين بين هؤلاء الهداة فتنازعوا الزعامة وتجاذبوا الأزمة فأخرجنا هذا من مذهب إلى مذهب، وصرفنا ذاك من مطلب إلى مطلب، حتى إذا انكشفت عن عيوننا أغطية الغفلة وجدنا أنفسنا بعد الجهد الجاهد ندور حول الموقف الذي كنا فيه أو نرجع إلى الموضع الذي فصلنا عنه!

على هذه القيادة المتضاربة الأفينة رجعنا القهقري زهاء ثمانين سنة: رجعنا إلى العهد الذي كنا نهدهد الدستور فيه على هوى السلطان المطلق، وندرب القانون على مصارعة العرف الغالب، ونعلم الشعب الأجير معنى الأمة المالكة! وليتنا عدنا إلى ذلك العهد بأخلاقه ورجولته! فقد كنا على قلتنا أعزة، وعلى فاقتنا أعفه وعلى جهالتنا أعلم بالخير وأفهم لمعنى المجتمع. كنا نتواصى على الصبر، ونتعاون على البر، ونتهادى صنائع المعروف ونحفظ وحدة الأسرة بالحب، وسلطان الدولة بالطاعة، وحقوق الله بالورع، فما كان منا من يخون الأمانة، ويسرق الأمة، ويتكئ على النقيصة ويتحمل على الخبث ويتَّجر بالدين، ويتخذ عدو وطنه ولياً، ويعتقد خطة غاصبه شريعة!

ولكننا وا أسفاه بعد هبَّة مصطفى، ونهضة سعد، وجهاد خمسة عشر عاماً، تمكن فيها السلطان واستبحر العمران، وازدهر العلم، وتولد النبوغ، وتوحد الشعب، وتكون الرأي، نصاب بهذه النكسة الشديدة، فنعود ناقضين ما ابرم خاسرين ما غنم!!

اللهم أن النيل لا يزال يفيض وإن الوادي لا يزال ينبت، وإن الشمس التي أنضجت أذهان الفراعين لا تزال تشع وإن الأيدي التي غرست أولى الحضارات على العدوتين لا تزال تعمل، فما بالنا اليوم يتقدم الناس ونتأخر، وتتحرر الشعوب الضعيفة ونحن لا نتحرر؟

دع عنك ما يقال من كلب الاحتلال، وفقد الاستقلال، وتجني الدول، فأن ذلك كله عرض من أعراض العلة الدخيلة الوبيلة وهي انحلال الخلق. في دهرنا الحديث داء جرثومته أننا عنينا بالتعليم قبل التربية، وبتعليم الابن، قبل تعليم البنت فكان لنا من ذلك الوضع المقلوب رجال يجرون في عنان مع علماء الغرب، بل وربما طالوهم في حذق اللغات وتلون المعرفة؛ ولكن كثيراً منهم يخلون من أخلاق الرجولة خلو البيت من الأم الصالحة والمدرسة من المربي القادر، فتخونهم الكفاية عند التطبيق، وتخذلهم الشجاعة عند العمل، ويفارقهم الضمير عند الواجب، فلا يبقى إلا الغرائز الحيوانية التي تثب على أموال الناس، وتعتدي على حقوق الشعب، وتستخدم السلطان العام في مساعدة الصديق ومكايدة العدو ومناوئة الخصم!. .

وليت غريزة الحياة بقيت فينا على حال الفطرة إذن لعلمنا ما تعلم النمل من قوام العمل، وفهمنا ما تفهم النحل من نظام الجماعة، وسرنا على نور الله لا نعمة في ظلام ولا نسدر في غواية

إن بعض الأمم الإسلامية أقل منا عدداً، وأرق ثروة، وأضيق ثقافة، وأحدث مدنية ما في ذلك شك، ولكن غرائزها الأصيلة لم يزيفها ذل الرق السياسي، وخلائقها النبيلة لم يفسدها زور المدنية الوافدة، فتمردت على الضيم، وتعنّتت على الأحداث وقلّمت الأظفار الناشبة في استقلالها، وقطعت الأيدي الطامعة في استغلالها، ومشى أبناؤها الأباة على هدى ماضيهم المشرق لا يستكينون لمشورة حليفة ولا يستنيمون لمعونة أجنبي ولا يستجيبون لوساوس الأطماع في مرافق الأمة ومناصب الدولة حتى انخزلت عنهم التهم وغفلت عنهم الفتن، واستوثق لهم الأمر أو كاد

ذلك يا قوم ما يهدي له منطق الطبع، وصوت التاريخ، وعبقرية الجنس، أما هذا الذي نحن عليه فلا يمكن أن يؤدي إلا إلى الذي نحن فيه. فتداركوا إفلاس المدرسة، وفشل السياسة، وفوضى الحكم، بأيقاظ الضمائر الغافلة واستخدام الكفاءات العاطلة، واستلهام هذا الشعب

المجيد الذي عودته عناية الله أن يعوق ولا يضل، ويعذب ولا يذل، ويحارب ولا يستكين

احمد حسن الزيات

-

-

لجنة التأليف الترجمة والنشر

نبذة تاريخية

للأستاذ احمد أمين رئيس اللجنة

في سنة 1913 كان في مدرسة المعلمين العليا بدرب الجماميز طائفة من الشباب تمتلئ نفوسهم غيرة على العالم الإسلامي، ويطيلون التفكير في وسائل إصلاحه والنهوض به، ألف بين أفرادها الشعور بالألم من موقف الشرق وخموله، والأيمان بوجوب العمل على تنبيهه والأخذ بيده ورفع مستواه؛ وقد نبتت هذه الفكرة عندهم على أثر حرب البلقان، ومطالعتهم في كتب تثير هذه المعاني في النفوس أمثال كتاب (طبائع الاستبداد) و (أم القرى) للكواكبي

فكانوا يجتمعون اجتماعات متعددة للبحث في وضع خطط لما ينوون القيام به من أعمال يجتمعون أحياناً في مدرسة وأحياناً في منزل وأحياناً في مسجد الجزيرة عقب تروضهم، وأحياناً يسافرون إلى بلد أحدهم في الإجازة وأحياناً يفرون من العمران ويجتمعون في الصحراء

وكانوا يتبادلون الرأي في مختلف الوسائل وينحون في ذلك مناحي مختلفة، فمنهم من كان يميل إلى التركيز كل الجهود في الإصلاح الديني ويرى أنه هو الوسيلة الوحيدة لرقى العالم الإسلامي، ومنهم من كانت تغلب عليه النزعة إلى الإصلاح الاجتماعي بأوسع معانيه - وكانت الآراء في ذلك تتشعب، وتذهب المناقشات بينهم كل مذهب

وهناك في (زاوية البقلي) في أحد اجتماعاتهم اعتزموا تكوين لجان منهم للقيام بأعمال مختلفة، إحداها (للتأليف والترجمة والنشر)، وهذا هو السبب في تسميتها (لجنة) لا جمعية ولا غيرها

وفي هذه الأثناء اتصلوا ببعض إخوانهم في مدرسة الحقوق فساهموهم هذه الأفكار وتطوعوا للعمل لها وبذل الجهد في تنفيذها؛ وكان من أظهر أفراد هذه الجماعة وأول الداعين إلى هذه الأفكار، وأشدهم حماسة ونشاطاً، الطلبة: محمد احمد الغمراوي، واحمد عبد السلام الكرداني، ومحمد عبد الواحد خلاف، واحمد زكي، وحسن مختار رسمي، ويوسف احمد الجندي، ومحمد فريد أبو حديد، ومحمد عبد الباري

فلما تخرج أكثر هؤلاء من مدرستي المعلمين والحقوق سنة 1914 وسنة 1915 عقدوا النية على أن يتموا رجالاً ما بدءوا به طلبة واتصل بهم إذ ذاك بعض إخوانهم ممن يميلون ميلهم ويشعرون شعورهم، ومن هؤلاء: محمد كامل سليم، وأمين مرسي قنديل، وعبد الحميد العبادي، ومحمد بدران، وعبد الحميد فهمي، ومحمد صبري أبو علم، واحمد أمين

ليس المقام الآن مقام ما فكروا فيه من مشروعات أخرى وما عملوا فيها وما آلت إليه

إنما المقام الآن للجنة التأليف؛ فقد أكثر هؤلاء الأعضاء من ذكر التأليف والترجمة والنشر، وأملوا أن تقوم جماعتهم بهذا العمل، وأن يتسع نطاقها فيكون لهم مكتبة ومطبعة، ومدرسة نموذجية، ومجلة وأن تكون لهم كتب في مختلف العلوم والفنون تناسب جمهور المتعلمين في جميع مراحل التعليم

وكان أول ما عملوا أن عهدوا إلى الأستاذين أحمد زكي واحمد عبد السلام الكرداني تأليف كتاب في الكيمياء للمدارس الثانوية، والى الأستاذ محمد احمد الغمراوي تأليف كتاب في الطبيعة والى الأستاذين محمد خلاف وعبد الحميد فهمي تأليف كتاب في الحساب، والى الأستاذين محمد كامل سليم ومحمد بدران تأليف كتاب في الجغرافيا.

وقد نفذت كل المشروعات ما عدا الثانيمنها أملوا هذه الآمال وكونوا هذه اللجان، ووضعوا مشروع هذه الأعمال وليس لديهم مال يستعينون به على أغراضهم، ولكن كان لهم أمل قوي وعزيمة ثابتة وإخلاص نقي وحسبهم من هذا غنى

في هذا الحين بدأت اللجنة في عمل قانون لها وعهدت إلى الأستاذ حسن مختار رسمي بوضعه

واجتمع الأعضاء سنة 1915 بالمدرسة الإعدادية بالعباسية لأن كثيراً من أعضاء اللجنة كانوا مدرسين بها فقرءوا القانون وأدخلوا عليه بعض تعديلات وانتخبوا أعضاء مجلس الإدارة وبدأ الأعضاء يدفع كل منهم عشرة قروش في الشهر، ثم جعلت مالية اللجنة أسهماً كل منهم ثمنه جنيه وهذا بدء التكون المالي للجنة - ولم يكن يزيد عدد الأعضاء إذ ذاك على خمسة عشر عضواً

بدأت اللجنة عملها بأن وضع الأستاذان احمد زكي واحمد الكرداني كتابهما في الكيمياء في جزأين فعهد في قراءته ونقده للأستاذين محمد خلاف ومحمد الغمراوي وكان من اجمل

المناظر اجتماعهم وعملهم؛ فقد استأجروا شقة خاصة في منزل أحدهم أعدها لهم أولهم وظلوا يجتمعون ليل نهار يقرءون وينقدون ويراجعون إلى أن يدركهم الملل فيناموا وقد بلغ منهم الجهد حتى إذا أتموه بعد عناء قدموه للطبع، ولم يكن في اللجنة ما يكفي للأنفاق عليه فاقترضت اللجنة من بعض الأعضاء ما يكفي لذلك

لم يكن في مال اللجنة ما يكفيأيضاًلاستئجار مكان خاص فكان مجلس الإدارة يجتمع في بيت أحد الأعضاء وأكثر ما كان ذلك في بيت عبد الحميد أفندي العبادي بالحلمية أو بيت محمد أفندي خلاف كذلك - وأحياناً يجتمعون في مقهى قلّ زواره - ولما أنشئت نقابة المعلمين أساتذتها اللجنة في أن تجتمع فيها فأذنت، وكانت الجمعية العمومية لها تنعقد في إحدى المدارس الأهلية كالإعدادية ووادي النيل

كذلك لم تكن تستطيع أن تستأجر مكاناً تخزن فيه كتبها فكان كل مؤلف يخزن كتابه في بيته ويبيع منه ما طلب ويعمل حسابه بنفسه ويقدمه للجنة

ثم اتفقت اللجنة مع مكتبة أن تودع فيها كل كتبها في نظير خصم اكبر على ما يباع - وكان أحد الأعضاء يتولى حساب اللجنة على طريقة ساذجة بسيطة. وقد كانت هذه الأعمال كلها مما يعرض اللجنة للضياع والانحلال لولا ما ملئ به أعضاؤها من صدق وإخلاص وثقة

أخذت اللجنة بعد ذلك تنمو تدريجياً فزاد أعضاؤها حتى بلغوا الآن بضعاً وسبعين، وزاد إنتاجها واتسع عملها وكثر مالها فاتخذت لها مركزاً، وكان أول ما فعلت ذلك إنها استأجرت مكاناً في شارع الأمير يوسف بالحلمية القديمة بثلاثة جنيهات شهرياً اتخذته مخزناً ومكاناً للأدارة، ثم انتقلت منه إلى مكان في شارع غيط العدة، ثم إلى مكان في شارع المبدولي، ثم في شارع الساحة، ثم في مكانها الحالي. ونظمت دفاترها واستخدم لها العمال ليقوموا بحسابها على الطراز الحديث

ومما يلاحظ إنها بدأت أول أمرها بالكتب المدرسية لرواجها، ولتكوين دعامة مالية، لها ثم توسعت بعد ذلك فلم تبال ما تطبع متى وثقت به من الناحية العلمية ولو كان الكتاب كتاب الخاصة كما فعلت في ترجمة كتاب الأخلاق لأرسطو، والبصريات كما يلاحظ أن اكثر أعضاؤها واوفرهم إنتاجاً كان من المعلمين، لأن طبيعة عملهم جعلتهم اكثر اتصالاً بالكتب،

وميلاً إلى تأليفها أو ترجمتها

وقد ساعد اللجنة على رواج كتبها الثقة التي منحها الجمهور إياها مقابل ما تبذله من

جد في التدقيق فيما تنشر، فليست تخرج كتاباً إلا بعد أن يمر على لجنة مختصة تنظر فيه بإمعان، وتقدم تقريراً عنه بصلاحيته، أو تقترح إدخال إصلاح عليه غير مبالية كثيراً برواج الكتاب أو عدم رواجه متى وثقت أن الكتاب يخدم العلم ويحقق غرضها، ويفيد ولو الخاصة

ومنذ أربعة أعوام سعت اللجنة لدى وزارة المعارف أن تمنحها مبلغاً من المال للاستعانة به على التأليف الكتب القيمة وترجمتها ونشرها. إذ كان هذا العمل من اهم الأعمال التي يصح أن تقوم بها وزارة المعارف

وكان لبعض أعضاء اللجنة السعي المشكور في أن مجلس النواب طلب من وزارة المعارف أن تمنح اللجنة مقداراً من المال لهذا الغرض. كما كان لبعضهم سعي مشكور آخر في إجابة وزارة المعارف له وألفت وزارة المعارف لجنة من الأستاذ سكرتير عام الوزارة، والأستاذ مصطفى عبد الرزاق، ورئيس اللجنة، للنظر في المال الذي تقرره الوزارة، وكيفية صرفه، والكتب التي ينفق عليها هذا المبلغ

وقد منحت الوزارة اللجنة ألف جنيه في ثلاثة أعوام متوالية أنفقت منها على طبع كتاب فتح العرب لمصر، والنجوم في مسالكها، والجزء الأول من السلوك للمقريزي، ولا تزال مستمرة في إخراج الكتب القيمة كلما تجمع لها شيء من المال فلوزارة المعارف الشكر على هذه الثقة كما للأعضاء الذين سعوا هذا السعي الشكر على ما سعوا

وأخيراً وبعد عشرين سنة من حياتها يحق للجنة أن تقف وقفة قصيرة تنظر في ماضيها وتستعرض تاريخها. وأظنها تغتبط لذلك - أولا - لأنها عاشت عشرين عاما في جو كثيرا ما تموت فيه مشروعات وليدة - وثانيا - لأنها عاشت عيشة طبيعية فتدرجت في أدوار الحياة على مهل ولم نطفر طفرة شيطانية. وتغتبط إذ تراها قد ضمت كثيرا من صفوة رجال العلم، وأخرجت للناس نحو الستين كتابا بين مؤلف ومترجم ومنشور، تسد كلها حاجات الثقافة في أطوار التعليم المختلفة - كما إنها تغتبط بثباتها في مركزها وحصرها نفسها في الدائرة التي رسمتها لنفسها من أول أمرها، فلم تتدخل في مجادلات دينية، ولم تغامر في نواح سياسية، أيمانا منها بان الثقافة ونشرها وسيلة من اكبر الوسائل لرقي

الأمة، ومن اكبر عوامل الإسراع في نهضتها.

وتبتهج إذ تبتدئ مرحلة أخرى من مراحلها، بدايتها تكوين مطبعة مستقلة لها تساعدها على تحقيق غرضها فيزيد نتاجها، ويتضاعف مجهودها. وقد أسست - فعلا - المطبعة وبدأت من ثلاثة شهور تخرج الكتب التي ترى اللجنة نشرها، وهذا بلا شك يتطلب من اللجنة بذل مجهودا اكبر في التأليف والترجمة إذ تشعر - مع وجود المطبعة - بأن وراءها ما تعوله يصيح دائما بطلب الغذاء، وليس غذاؤه إلا ما نؤلف أو تترجم أو تنشر.

وأظن أن في مكنة أعضائها ما يضمن لهذا الطفل الغذاء الكافي حتى التخمة

ولعل الذين فكروا في اللجنة أيام ولادتها سنة 1914 أو قبلها بقليل يغتبطون إذ يرون سنة 1934 أن كثيرا من الآمال أصبحت حقائق، وان الأماني تحولت إلى شجرة طيبة تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها، وانهم وقد جنوا ثمارها قد تجددت لهم أماني أخرى أوسع من الأولى وابعد مدى، لكنهم يشعرون أن الصبر إنما هو عند الصدمة الأولى، وانهم اليوم اكثر خبرة، واقدر بمالهم ورجالهم على تحقيق أغراضهم الجديدة، فهم لا يرتاحون إلا أن يروا كل مرحلة من مراحلهم يتضاعف إنتاجها - حقق الله آمالنا، ووفقنا في مستقبل أعمالنا أضعاف ما وفقنا في ماضينا، فقد عودنا أن يجازى الجد والإخلاص بالخير دائما.

احمد أمين

قصة زواج

ذيل القصة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

ذهب الناس يميناً وشمالاً فيما كتبناه من خبر الإمام سعيد ابن المسيب وتزويجه ابنته من طالب علم فقير بعد إذ ضن بها أن تكون زوجاً لولي عهد أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان؛ وقد جعلت قلوب بعض النساء العصريات المتعلمات تصيح وتولول. . . وحدثنا أديب ظريف أن إحداهن سألت عن عنوان عبد الملك بن مروان. . .

افتراها ستكتب إليه إنها تقبل الزواج من ولي عهده؟
على أن للقصة ذيلاً، فأن الطبيعة الآدمية لا عصر لها، بل هي طبيعة كل عصر.
والفضيلة الإنسانية يبدأ تاريخها من الجنة، فهي هي لا تتجدد ولا تزال تلوح وتختفي؛ أما الرذيلة فأول تاريخها من الطبيعة نفسها، فهي هي لا تتغير ولا تزال تظهر وتستسر
لما زوّج الإمام ابنته من أبى وداعة وأخذها بنفسه إليه في يوم زواجها منه، ومشى بها في طريق حصاه عنده افضل من الدرّ وترابه اكرم من الذهب؛ طارت الحادثة في الناس واستفاض لهم قول كثير. (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون.)
وقد قال جماعة منهم: تا لله لئن انقطع الوحي فأن في معانيه بقية ما تزال تنزل على بعض القلوب التي تشبه في عظمتها قلوب الأنبياء؛ وما هذه الحادثة على الدنيا إلا في معنى سورة من السور قد انشقت لها السماء ونزل بها جبريل يخفق على أفئدة المؤمنين خفقة إيمان.
وقال أُناس منهم: أما (.وأما الذين في قلوبهم مَرَضٌ فزادتهم رِجساً إلى رِجسِهِم)
والله لو تهيأ لأحدنا أن يكون لصاً يسرق أمير المؤمنين أو ابن أمير المؤمنين لركب رأسه في ذلك، ما يرده عن السرقة شئ؛ فكيف بمن تهيأ له الصهر والحسب، وجاءه الغنى يطرق بابه - ما باله يرد كل ذلك ويخزي ابنته برجل فقير تعيش في داره؛ بأسوأ حال وكيف تثقل همته وتبطؤ وتموت إذا كان الدرّ والجوهر والذهب والخلافة؛ ثم ينبعث ويمضي لا يتلكأ عزمه إذا كان العلم والفقر والدين والتقوى
وانتهى كلام الناس إلى الإمام العظيم فلم يجئه إلا من الظن خفياً خفياً، كأنما هي أقوال حسبها تقال عنه بعد خمسين وثلثمائة وألف سنة في زمننا هذا، حين يكون هو في معاني
السماء، ويكون القائلون في معاني التراب النجس الذي نفضته على الشرق نعال الأوربيين. .!
قال الراوي: ولم يستطع أحد من الناس أن يواجه الإمام بشفة أو بنت شفة، لا مضيقاً عليه من قلبه ولا موسعاً، حتى كان يوم من أيام الجمعة، وقد مال الناس بعد الصلاة إلى حلقة الشيخ وتقصفوا بعضهم على بعض فغص بهم المسجد، وكان إمامنا يفسر قوله تعالى: (وما لَنا إلا نَتَوَكَّلَ على اللهِ وقد هدانا سُبُلَنا وَلَنَصْبِرَنَّ على ما آذَيْتمُونا. وعلى الله فَلْيَتَوَكَّلِ المتَوَكِّلون.)
قال الراوي: فكان فيما قاله الشيخ:
إذا هدى المرء سبيله كانت السبل الأخرى في الحياة أما عداء له، وأما معارضة، وإما رداً؛ فهو منها في الأذى، أو في معنى الأذى، أو عرضة للأذى. لقد وجد الطريق ولكنه أصاب العقبات أيضاً، وهذه حالة لا يمضي فيها الموفق إلى غايته إلا إذا أعانه الله بطبيعتين: أولاهما العزم الثابت، وهذا هو التوكل على الله؛ والأخرى اليقين المستبصر، وهذا هو الصبر على الأذى ومتى عزم الإنسان ذلك العزم، وأيقن ذلك اليقين - تحولت العقبات التي تصده عن غايته فآل معناها أن تكون زيادة في عزمه ويقينه، بعد أن وضعَّن ليكن نقصاً منهما فترجع العقبات بعد ذلك وأنها لوسائل تعين على الغاية، وبهذا يبسط المؤمن روحه على الطريق فما بدّ أن يغلب على الطريق وما فيها. وينظر إلى الدنيا بنور الله فلا يجد الدنيا شيئاً على سعتها وتناقضها إلا سبيله وما حول سبيله، فهو ماض قدماً لا يتراد ولا يفتر ولا يكل وهذه حقيقة العزم وحقيقة الصبر جميعاً
ومن ثم لا تكون الحياة لهذا المؤمن مهماً تقبلت واختلفت - إلا نفاذاً من طريق واحدة دون التخبط في الطرق الأخرى، ثم لا يكون العمر مهما طال إلا مدة صبر في رأي المؤمن. وعزيمة النفاذ وعزيمة الصبر هما الضوء الروحاني القوي الذي يكتسح ظلمات النفس مما يسميه الناس خمولاً ودعة وتهاوناً وغفلة وضجراً ونحوها
قال: ولكن كيف يعان المؤمن على هذه المعجزة النفسية؟ هنا يتبين أعجاز الآية الكريمة؛ فقد ذكر فيها التوكل ثلاث مرات وافتتحت به وختمت، والتوكل هو العزم الثابت كما أوضحنا. وذكرت في الآية بين ذلك هداية المرء سبيله؛ وهذه الإضافة (سبلنا) تعين إنها
هداية الإنسان إلى سبيل نفسه؛ أي سبيله الباطني الذي هو مناط سعادته في الشعور بالسعادة ثم ذكر الصبر على أذى الناس والأذى لا يقع إلا في حيوانية الإنسان، ولا يؤثر إلا فيها. فكأن الآية مصرحة أن نجاح المؤمن ونفاذه في الحياة لا يكونان أول الأشياء

وآخرها إلا بثلاث: العزم الثابت، ثم العزم الثابت، ثم العزم الثابت. وان الصبر ليس شيئاً يذكر، أو شيئاً يجدي، أن لم يكن صبراً على أذى الحيوانية في افظع وحشيتها؛ فالروح لا تؤذي الروح، ولكن الحيوان يؤذي الحيوان. وأن ما يقع من هذه الحيوانية فيسمى اعتداء من غيرك، ويسمى أذى لك، هو شيء ينبغي أن يجعله العزم فخراً لقوة الاحتمال فيك، كما جعله البطش فخراً للقدرة عند المعتدي

وبهذا يكون العزم قد فصل بين نفسك الروحية وبين شخصك الحيواني، ووهبك حقيقة الشعور، وصحح بمعاني روحيتك معاني حيوانيتك؛ وحينئذ ترى السعادة حق السعادة ما كان هداية لنفسك أو هداية بها، ولو انقلب في الشخص الحيواني منك أذى وألماً. ذلك صبر أولي العزم من الرسل

قال الراوي: وعند ذلك صاح رجل كان في المجلس دسه عامل الخليفة ليسأل الشيخ سؤالاً على ملأ الناس، يكون كالتشنيع عليه والتشهير به؛ وقد مكر العامل فأختاره شيخاً كبيراً اعقف، ليرحم الناس رقة عظمة وكبر سنه فلا يعرضون له بأذى، ثم ليكون صوته كأنه صوت الدهر من بعيد. قال الصائح: ذلك أيها الشيخ صبر أولي العزم من الرسل، أو صبر ابنتك على مكاره العيش مع أبي وداعة، لا يجد إلا رمقة يمسك بها الرمق عليها وقد كانت النعمة لها ممرضة، فدفعتها إليه زعمت - لتهلك به شخصها الحيواني، وتوكلت على الله وألقيت ابنتك في اليمّ. . .؟

فتربد وجه الشيخ واطرق هنيهات، ثم رفع رأسه وقال: أين المتكلم آنفاً؟ فأرتفع الصوت: هاأنذا. قال: ادن مني. فتقاعس الرجل كأنما تهيب ما فرط منه. فاستدناه الثانية؛ فقام يتخطى الناس حتى وقف بازائه ثم جلس؛ فقرأ الشيخ قوله تعالى: (وبرَزوا لله جميعاً، فقال الضعفاء للذين استكبروا: إنا كنَّا لكم تبعاً فهل أنتم مُغْنونَ عنّا من عذابِ اللهِ من شيء؟ قالوا: لو هدانا اللهُ لَهَديناكم سواء علينا أجَزِعنا أم صَبرْنا مالنَا من مَحيِص)

ثم قال: أيها الرجل، لا تسمعني بأذنك وحدها. أرأيتك لو سمعت خبراً ليس في نفسك اصل من معناه، أو ورد عليك الخبر ونفسك عنه في شغل قد أهمها، أفكنت تنشط له نشاطك للخبر احتفلت له نفسك أو أصاب هوى منك أو رأيته موضع اعتبار؟

قال: لا

قال الشيخ: فإذا سمعت بأذنك وحدها فإنما سمعت كلاماً يمر بأذنك مراً، وإذا أردت الكلام لنفسك سمعت بأذنك ونفسك معاً؟ قال: نعم

قال الشيخ: فكل ما لا تنفرد به حاسة واحدة، بل تشارك فيه الحواس كلها أو أكثرها - لا يكون إلا موضع اهتمام للنفس؟

قال: نعم

قال الشيخ: فمن هنا يكثر الفرح والحزن كلاهما إذا شاركت فيهما الحواس، فيأتي كل منهما كثيراً مهما قلّ، وتزيد كل حاسة في اللذة لذة وفي الألم ألماً، فتعمل النفس في ذلك أعمالاً تسحر بها فيكون الشيء لصاحبه غير ما هو للناس، كالصوت الباكي أو الضاحك في لسان طفلك، تسمعه أنت منه بكل حواسك فإذا أنت سمعت عينه من لسان رجل في الناس رأيته غير ذاك. أكذلك هو؟

قال: نعم

قال الشيخ: فيكون السرور بالغاً عجيباً أكثر ما هو بالغ، حين يجد المال والغنى في الإنسان أم حين يجد القوة النفسية وطبيعة المرح والرضى؟

قال: بل حين يجد في النفس

قال الشيخ: أرأيت الإنسان يكون سعيداً بما يتوهم الناس انه به غني سعيد، أم بشعوره هو وإن كان بعد فيما لا يتوهم الناس فيه الغنى والسعادة؟

قال: بل بشعوره

قال الشيخ: أفلا توجد في الدنيا أشياء من النفس تكون فوق الدنيا وفوق الشهوات والمطامع؛ كالطفل عند امه، كل ما تعلق به من شيء وزن به هو لا بغيره، وكان الاعتبار عليه لا على سواه، أتعرف أماً ترضى أن يذبح ابنها في حجرها لقاء أن يملأ حجرها ذهباً؟

قال: لا

قال الشيخ: فإذا كانت النفس تشعر اكثر مما ترى، أفيذهب ما تراه فيما تشعر به، ويكون
شعورها هو وحده الذي يلبس ما حولها ويصوره ويصرفه؟
قال: نعم
قال الشيخ: أفتعرف أن لكل نفس قوية من هذا العالم الذي نعيش فيه عالماً آخر هو عالم أفكارها وإحساسها، وفيه وحده لذات إحساسها وأفكارها؟
قال: نعم
قال الشيخ: أفرأيت المرأة إذا صح حبها أو فرحها أو عزمها، أرأيتها تكون إلا في عالم أفكارها، أرأيت كل ما يتصل برغبتها حينئذ يكون إلا من أشياء قلبها لا من أشياء الدنيا، أرأيتها لا تعيش في هذه الحالة إلا بالمعاملة مع قلبها الذي لا يأكل ولا يشرب ولا يلبس ولا يجمع المال ولا يريد إلا الشعور فقط؟
قال: نعم هو ذاك
قال الشيخ: أرأيت إذا كان الأيمان قد ولد ونشأ وترعرع في قلب المرأة، إلا يكون هو طفل قلبها؟
قال: نعم
قال الشيخ: أرأيت إذا كانت الخمر عند مد منها شيئاً عظيماً، وكانت ضرورة من ضرورات وجوده الضعيف المختل، فلا يستقيم وجوده ولا سفه وجوده إلا بها، أفيلزم من ذلك أن تكون الخمر من ضرورات صاحب الوجود القويّ المنتظم؟
قال: لا
قال الشيخ: أفموقن أنت أن لابد من آخر لأيام الإنسان ولياليه في هذه الدنيا فينقطع به العيش؟
قال: نعم
قال الشيخ: أفيؤرخ الإنسان يومئذ بتاريخ معدته وما حولها، أم بتاريخ نفسه وما فيها؟
قال: بل بتاريخ نفسه
قال الشيخ: فإذا كنت صاحب حرب، وكنت بطلاً من الأبطال ومسعراً من المساعير، وأيقنت الموت في المعركة؛ أيكون الحقيقي عندك في هذه الساعة هو الموت ام الحياة؟
قال: بل الحياة عندئذ وهمٌ وباطل
قال الشيخ: فتفر في تلك الساعة إلى الحياة ولذاتها في خيالك، أم تفر منها ومن لذاتها؟
قال: بل الفرار منها، فأن خيالها يكون خبالاً
قال الشيخ: ففي تلك الساعة التي هي عمر نفسك وعمل نفسك ورجاء نفسك؛ تستشعر اللذة في موتك بطلاً مذكوراً، أم تحس الكرب والمقت من ذلك؟
قال: بل استشعر اللذة
قال الشيخ: إذن فهي كبرياء الروح العظيمة على مادة التراب والطين في أي أشكالها ولو في الذهب
قال: هي تلك؟
قال الشيخ: إذن فبعض أشياء النفس تمحو في بعض الأحوال كل أشياء الدنيا، أو الأشياء الكثيرة من الدنيا
قال: نعم
قال الإمام: يرحمك الله. كذلك محي عندنا أمير المؤمنين وابن أمير المؤمنين ومحي المال والغنى، ولم يكن ذلك عندنا إلا سعادة. ومن رحمة الله أن كل من هدى سبيله بالدين أو الحكمة استطاع أن يصنع بنفسه لنفسه سعادتها في الدنيا، ولو لم يكن له إلا لقيمات؛ فأن السعة سعة الخلق لا المال، والفقر فقر الخلق لا العيش
قال الراوي: ثم أن الإمام العظيم التفت إلى الناس وقال: أما أنى - علم الله - ما زوجت ابنتي رجلاً اعرفه فقيراً أو غنياً بل اعرفه بطلاً من أبطال الحياة يملك أقوى أسلحته من الدين والفضيلة. وقد أيقنت حين زوجتها منه إنها ستعرف بفضيلة نفسها فضيلة نفسه، فيتجانس الطبع والطبع؛ ولا مهنأ لرجل وامرأة إلا أن يجانس طبعه طبعها، وقد علمت وعلم الناس أن ليس في مال الدنيا ما يشتري هذه المجانسة، وأنها

لا تكون إلا هدية قلب لقلب يأتلفان ويتحابان
ثم قال الإمام: وأنا فقد دخلت على أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلّم، ورأيتهن في دورهن يقاسين الحياة، ويعانين من الرزق ما شح دره فلا يجيء إلا كالقطرة بعد القطرة، وهن على ذلك، ما واحدة منهن إلا هي ملكة من ملكات الآدمية كلها وما فقرهن والله إلا كبرياء الجنة، نظرت إلى الأرض فقالت: لا. . .!
يجاهدن مجاهدة كل شريف عظيم النفس، همه أن يكون الشرف أو لا يكون شيء؛ ويرى الغافل أن مثلهن في تعب الجهاد، ويعلمن من أنفسهن غير ما يرى ذلك المسكين - يعلمن أن ذلك التعب هو لذة النصر بعينها
كانت أنوثتهن أبداً صاعدة متسامية فوق موضعها بهذه القناعة وبهذه التقوى، ولا تزال متسامية صاعدة، على حين تنزل المطامع بأنوثة المرأة دون موضعها، ولا تزال أنوثتها تنحدر ما بقيت المرأة تطمع؛ ورُبَ ملكة جعلتها مطامع الحياة في الدرك الأسفل، وهي باسمها في الوهم الأعلى. . .!
وقد روينا عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال: (اطلعت في الجنة فإذا اقل أهلها النساء، فقلت أين النساء؟ قال: شغلهن الأحمران: الذهب والزعفران.) أي الطمع في الغنى والعمل له، والميل إلى التبرج والحرص عليه
ونفس الأنثى ليست أنثى، ولكن شغلها بذلك التبرج وذلك الحرص وذلك الطمع - هو يخصصها بخصائص الجسد، ويعطيها من حكمه، وينزلها على أرادته؛ وهذه هي المزلة، فتهبط المرأة اكثر مما تعلو، وتضعف اكثر مما تقوى، وتفسد اكثر مما تصلح. أن نفس الأنثى أنثى لرجل واحد، لزوجها وحده
رأيت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فقيرات مقتوراً عليهن الرزق، غير أن كلا منهن تعيش بمعاني قلبها المؤمن القوي، في دار صغيرة فرشتها الأرض. . . ولكنها من معاني ذلك القلب كأنها سماء صغيرة مختبئة بين أربعة جدران. أنهن لم يبتعدن عن الغنى إلا ليبعدن عن حماقة الدنيا التي لا تكون إلا في الغنى
أف أف! أتريدون أن أزوج ابنتي من ابن أمير المؤمنين فيخزيها الله على يدي، وادفعها إلى القصر وهو ذلك المكان الذي جمع كل أقذار النفس ودنس الأيام والليالي؛ أأزوجها رجلاً تعرف من فضيلة نفسها سقوط نفسه، فتكون زوجة جسمه ومطلقة روحه في وقت معاً؟ إلا كم من قصر هو في معناه مقبرة ليس فيها من هؤلاء الأغنياء رجالهم ونسائهم إلا جيف يبلى بعضها بعضاً!
قال الراوي: وضج الناس لحمامة صغيرة قد جنحت من الهواء فوقعت في حجر الشيخ لائذة من مخافة، وجعلت تدف بجناحيها وتضطرب من الفزع، ومر الصقر على أثرها وقد أهوى لها، غير أنه تمطر ورمق في الهواء إذ رأى الناس
وتناولها الإمام في يده وهي في رجفتها من زلزلة الهواء، وكانت العروس مسرولة قد غاب ساقاها في الريش، وعلى جسمها من الألوان نمنمة وتحبير، ولها روح العروس الشابة يهدونها إلى من تكره، ويزفونها على قاتلها الذي يسمى زوجها
وأدناها الشيخ من قلبه، ومسح عليها بيده، ونظر في الهواء نظرة. . . . وهو يقول: نجوتِ نجوتِ يا مسكينة!
طنطا
مصطفى صادق الرافعي
الشيخ علي يوسف - 2
للأستاذ عبد العزيز البشري
تتمة
ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد، على انه كان إلى الطول. يظهر في مرأى العين نحيلاً هزيلاً، ولكنه كان مكتنز اللحم. مستطيل الوجه، واسع مساحة الجبهة، ازرق العينين، طويل الهدبين كثيراً ما ترى له في إطراقه، نظرة غريبة ساجية. ضيق الفم، على أن في شفتيه الحمراوين شيئاً من الغلظ. تعلوه صفرة ما احسبها من اثر مرض. وشعر لحيته الدقيقة المتسقة يميل إلى الشقرة. رفيق الصوت لينه إذا تحدث، فإذا رفع صوته ضمر بعض الضمور، وتسلخ بعض التسلخ، فلم يكن من تلك الأصوات التي تصلح للخطابة

وكان بعد رجلاً شديد العقل قوي النفس حديد العزم، وافر الشجاعة. لا تتعاظمه قوة خصم بالغة ما بلغت قوة ذلك الخصم وبأسه. وإذا تحداه متحد ركب رأسه في نضاله لا يبالي أين يقع المصير، وصح فيه قول الشاعر:

إذا همّ ألقى بين عينيه عزمه ... ونكب عن ذكر العواقب جانباً

واذكر أنني مضيت إليه مرة في صحب لي من خلصانه، وسألناه أن يترفق بالمؤيد فلقد تظاهر عليه خصومه وألّبوا الجمهرة عليه، واذكوا عليه حماسة الشباب في رأى له قد لا يحسن فهمه العامة، ولا يستريح إليه طموح الشباب. فأصغى إلينا واحسن الإصغاء، وترك كل واحد منا يقول ما عنده، حتى إذا انتهينا ونحن على الظن بأنه نازل عند رأينا، عادل إلى ما سألنا، فإذا هو يرتج في مجلسه ارتجاجه عنيفة ويقول في قوة وفي عزم حديد: (والله لا يعنيني أن يكون الناس جميعاً في صف واحد، وأنا والحق الذي اعتقده بازائهم في صف واحد)!. وتركناه ونحن نرى منحدر المؤيد بطغيان الخصومة يوماً بعد يوم!

ولقد كان الشيخ علي رحمة الله عليه، رجلاً متمكناً من نفسه حقاً، ولقد كان مما يشاع عنه، ولعل خصومه هم مبعث هذه الإشاعة، انه كان يقول: أنا لا أبالي أن اخسر هذا البلد، ففي إمكاني أن أعود فأكسبه بثلاث مقالات .!

ولقد عاشرت الرجل ما عاشرته، واستمكن ما بيننا من الود والآلف إلى الحد. الذي يبعثني على الاعتقاد بأنه ما كان يخفي عني شيئاً حتى من نجوى نفسه في الأسباب العامة. وشهد

الله ما سمعت منه قط هذا الكلام، ولا أية عبارة أخرى يمكن أن تؤدي معناه ولكن مع هذا لقد كان هذا هو الواقع اعني الواقع من حاله لا من مقاله: فأنني لا اعرف رجلاً سياسياً عظيماً كان اقل الناس أنصاراً وأكثرهم خصوماً كما كان الشيخ علي يوسف وخصومه. على كثرتهم، لقد كانوا من جميع الطبقات، وكانوا من جميع الهيئات، وانهم ليحيطون به إحاطة الطوق من كل جانب، وكلهم عامل على إسقاطه، جاهد ما امتد به الجهد في هدم المؤيد، مذك عليه الأقلام والألسن من كل ناحية، تدمغه بتهمة الخيانة الوطنية فما دونها في غير هوادة ولا اشفاق، والمؤيد يتقلص بين أيدي القارئين ويتقلص حتى يظن انه قد تشرف على العفاء. ثم إذا الشيخ يتجمع، وإذا هو يشرع القلم شرع الرمح الرديني، وإذا هو يطعن الطعنة البكر ها هنا مرة وها هنا مرة، فلا يصيب إلا الكلى والمفاصل. وإذا هؤلاء الخصوم يتطايرون عنه تطاير الشعراء عن ظهر البعير إذا انتفض، وإذا المؤيد يرن في البلد رنينه، بعد ما تردد تأوهه وطال أنينه!

وقد عرفت أن الشيخ علي يوسف كان مبغضاً إلى الكثرة في البلاد. وان هذا البغض ليرجع في الأكثر إلى أسباب صناعية: منها المنافسات الصحفية، ومنها الغيرة من موضعه يومئذ من ولي الأمر، ومنها كان هنالك رجال أقوياء ببسطة الجاه وسعة الغنى، وفيهم كذلك من ذهب لهم في العلم والأدب صيت وذكر، كان هؤلاء لا يستريحون إلى سياسة القصر، ولربما ظاهروا المعتمد البريطاني أحياناً في عدائه للقصر. فهم بالضرورة، ينقمون من كل رجل توافيه للقصر، وخاصة إذا كان رجلاً كالشيخ علي يوسف جبار العقل جبار القلم

أرأيت كيف كان هذا الرجل محاطاً من جميع أقطاره بنطاق من العداوات المختلفة، بل التي يصطرع التناقض أحياناً بين أسباب بعضها وبين أسباب بعض؟. على أن إذكاء بغض الشباب والعامة للرجل من جهة، وبغض الخاصة له من جهة اخرى، إنما كان يسلكه له خصومه من أحد طريقي الضعف فيه، أن صح هذا التعبير. أولهما انه كان معتدلاً لا يرى العنف سبيلاً إلى استرداد حقوق البلاد؛ بل أن هذا العنف لقد يرديها في أخطار لم تكن لها في الحساب، وكان طوعاً لهذا يرى إلا يتحدث على الشئون العامة إلا الشيوخ الناضجون المجربون، وهذا وهذا، ولا شك مما لا يرضى الشباب المشتعل حماساً لحق الوطن. ولا تنسى أن العامة من وراء هؤلاء أما السبب الثاني فلصوقه بالقصر، وشدة

توافيه له ومظاهرته له على الدوام، أظن أن هذا مقام لا تحمد فيه إطالة الكلام مع هذا كله ففي يوم الجلي، يوم تحدث الأحداث القومية، ينفض الناس قلوبهم حتى يتساقط عنها كل ما علق بها من الحقد على الشيخ علي يوسف، ويتلعون أعناقهم نحو المؤيد، شاخصة أبصارهم، مرهفة آذانهم، معلقة في انتظار ما يقول الشيخ أنفاسهم.

فإذا النمر الجبار يثب على فريسته من عدوان العادين وثبته فلا يزال يوسعها تمزيقاً بمخلبه، وضغماً بأنيبه حتى ما يدعها إلا (اعظماً وجلوداً)

نعم، لقد كان يقول الشيخ علي فيروي كل غلة، ويشفى كل علة،، ويعلو بسطوة قلمه حتى ما ينتهي منتهاه في ذاك أحد. والناس طراً لهذه النصرة بين مهلل وبين مكبر!.

هذه كانت قدرة الشيخ القادرة وهذه كانت قوته العبقرية النادرة. وهذه مقالاته في أعقاب حادثة دنشواي ما برحت ترن في آذان من قرءوها إلى الآن

وأني لأذكر له حادثاً طريفاً في هذا الباب:

فشت الفاشية، لا أعادها الله بين المسلمين وإخوانهم الأقباط عقب مصرع المرحوم بطرس باشا غالي، وكان ذلك في سنة 1910 على ما اذكر، وعقد الأقباط مؤتمراً ملياً لهم في أسيوط، وأجابهم المسلمون بمؤتمر مثله في القاهرة وأفضوا برياسته إلى اكبر رجل في البلاد يومئذ وهو المرحوم مصطفى رياض باشا، واختار القائمون على هذا المؤتمر مثوى لاجتماعه ملعب مصر الجديدة، ومضى الناس أفواجاً في اليوم المشهود، واجتمع رجالات البلد لم يتخلف منهم إلا من انقطع به العذر. وتصدر الحفل رياض باشا. وتعاقب الخطباء كابراً بعد كابر. فأبلوا في المقال أيما بلاء وأبدعوا في الخطاب أيما إبداع

حتى إذا كانت النوبة على الشيخ علي أذكى بعض شبان الحزب الوطني في المحتشدين في بهو الملعب طائفة من الفتيان من طلبة الأزهر وتلاميذ المدارس، يسألون القوم إلا يصفقوا إذا خطب الشيخ ولا يظهروا أية إشارة تدل على الاستحسان. فوعدهم اكثر الناس بهذا وأصروا عليه مخلصين لما تنطوي صدورهم من حقد عليه ومن بغضاء

وينبعث الشيخ يخطب وهو كما قدمت لك غير خطيب. استغفر الله بل لقد انبعث يتلو مقالته في أوراق بين يديه، وأنت حق خبير بالفرق الهائل بين اثر التالي واثر الخطيب.

وما أن مضى في تلاوته بضع دقائق حتى اخذ الناس عن نفوسهم، ونسوا ما عاهدوا أولئك

الفتيان وعاهدوا أنفسهم عليه. فبروا من التصفيق اكفهم وشققوا بالصياح حناجرهم تشقيقاً، فكنت تسمع من هتافهم مثل الرعد القاصف، وترى من اضطرابهم وتموجهم فعل الريح بالأغصان في اليوم العاصف! وكان من أشدهم سعراً من كلام الرجل هم أولئك الفتية الذين كانوا يروضون الناس على إلا يلقوا خطابه إلا بالجمود والأعراض وجهد بالرجل، فتعاور التلاوة عنه كل من أستاذنا إبراهيم بك الهلباوي والمرحوم احمد بك عبد اللطيف المحامي الأشهر، وأنت كذلك خبير بأثر خطبة يتلوها في الساعة غير منشئها، ما أرخى إليها من قبل نظراً. ومع هذا فما برحت تزداد الفورة ويشتد بالقوم الفتون!

ولقد اذكر انه بعد إذ فرغ من خطاب الشيخ وافقت في طريقي صديقاً لي من شبان الحزب الوطني وهو الآن من أعلام آهل الفضل الذين يتولون منصباً جليلاً في السلك القضائي. وكان مسرفاً غالياً في التشيع لمبادئ حزبه. مفرطاً في بغض الشيخ شديد الحمل عليه ورأيته يضرب كفاً بكف فسألته ما به؟ فأومأ إلى مكان الشيخ من منصة الخطابة وقال: (على حس الخطبة دي، يقعد ابن الـ . . يخون في البلد ثلاث سنين)!

ولا زلت كلما لقيت صاحبي اذكره هذه الحكاية، فيضحك في غيظ لا ادري أن كان من تذكيري له بهذه القصة، أم انه ما تزال في صدره بقية من هذا الضغن القديم؟! الله اعلم!

ولقد عرفت أن الشيخ علي يوسف كان رجلاً مكافحاً، بل أن قلمه لم يكن يجود في شيء مثلما كان يجود في الكفاح ولم تكن سياسة الاحتلال في مصر تخشى سطوة قلم قدر ما تخشى قلم هذا الرجل، فأنه كان فوق كفايته البيانية، وما آتاه الله من شدة العارضة، والتمكن من نواصي جلائل المعاني، لا يهرول إذا هرول في الصغائر ولا يطعن إذا طعن إلا في الصميم

ولا احب أن أتجاوز هذا المعنى في الرجل قبل أن أدل على خلة من خلاله في كفاحه: ذلك بأنه كان يعتمد اضعف النقاط في خصمه فيتجمع لها، ثم يثب عليها بكل قوته، ولا يبرح يطعنه منها دراكاً حتى يدوخ رأسه ويذهله عن سائر أسلحته، إذا كانت له أسلحة أخرى تجهز بها لذلك النضال

وكان في كتابته سريعاً جداً، حتى لتحسبنه ويده تجول في القرطاس عازفاً على قانون لا مسطراً بيراع، وتراه كلما فرغ من وجه الرقعة من الاضمامة دفع بها إلى من يفضي بها
إلى المطبعة. وهكذا حتى يأتي على غاية المقال، لا يتتعتع ولا يتحبس ولا يحتاج إلى مراجعة شيء مما اسلف، ومع هذا تجد المقال سوياً غاية في الحبك وتناسق الأطراف!
ومن العجب العاجب في أمره انه كثيراً ما كان يكتب والغرفة محتفلة بالزوار وأصحاب الحاجات، يرفعون أصواتهم بفنون الأحاديث والجدل بل لقد يأخذ معهم في بعض ما هم فيه وهو ماض لشأنه لا يشغله هذا عنه كثيراً ولا قليلاً!
الشيخ علي الصحفي
ولقد كان رحمه الله، صحفياً بأجمع معاني الكلمة، يكتب المقال الرئيسي كل يوم بيده ويراجع كل ما يدلي به إليه الكتاب من المقالات، ويفض البريد بنفسه، فما رآه كفؤا للنشر إذن في نشره وقد يحذف بعض المقال ويبقى على بعض، فإذا تهيأت الجريدة للطبع وراجعها المصححون تناولها فقرأها من أولها إلى آخرها يصحح ما عسى أن يكون قد فات القوم تصحيحه، ويتثبت من إلا يكون قد دس على الجريدة شيء مما يكره أو يكون قد سقط إليها في سر منه إعلان عن خمر أو غيره من المناكر
وكان على جلالة محله وكثرة المخبرين لديه، يطوف بنفسه كل يوم بأكثر الدواوين في تنسم الأخبار يستخرجها بلطف حيلته من النظار (الوزراء) أو من المستشارين الإنجليز فمن دونهم من عيون الموظفين
وهكذا استطاع الشيخ علي بكفايته وحد عزمه أن يجعل من المؤيد اعظم جريدة في مصر، برغم كل ما كان يعتريها من الكيد، بل اعظم جريدة في العالم العربي كله
من أخلاق الشيخ علي
وقبل أن اختم الحديث في الشيخ علي يوسف أرى لزاماً أن أشير إلى فضيلتين من فضائله البارزة بروزاً عظيماً: أولاهما انه كان خيراً مطبوعاً، ما رأيته سئل الخير قط يستطيعه إلا فعله مهما يكن فيه من عنت ومن إرهاق، وإنه ليفعل مغتبطاً رضياً هاشاً حتى ليكاد يلتمس السائلية الخير إلتماساً، وحتى ليكاد يصدق فيه قول الشاعر (كأنك تعطيه الذي أنت سائله). وإني لأعرف إنه كان يجرد صدراً من يومه في السعي لحاجات الناس ابتغاء رضوان الله، هذه واحدة. أما الثانية فشدة وفائه. ولقد عرفت صلة الرجل بالقصر، ومبلغ ضعفه له. ولقد يتغير ولي الأمر يومئذ على الرجل من صدقاته أو مِنْ من أسلفوا له يداً، فتتناهشهم الأقلام من كل جانب، اللهم إلا المؤيد، فأنه الذي لا يطلق مقالة السوء فيه أبداً وحسبك دليلاً في هذا الباب شدة توافيه للمرحومين الشيخ محمد عبده، وسعد باشا زغلول، ورياض باشا، وغيرهم فإن كان قد مس بعضهم كما مس رياض باشا عقب خطبته المشهورة، فلقد كان عذره واضحاً وأي وطني يطيق أن يسمع الإشادة بفظل المعتمد البريطاني على حساب كرامة أمير البلاد! على إنه فيما مسه لقد كان به أرفق الكاتبين
فإن زعمت بعد هذا أنه كانت في الرجل هنة أو كانت فيه هنات، فمن ذا الذي سلم على العيوب كلها، و (كفا المرء نبلاً أن تعد معايبه). وحسب الشيخ علي انه كان بمجموعة مزاياه ومواهبه مفخرة من مفاخر هذه البلاد التي لا يسخو بمثلها الزمان و (إن الزمان بمثله لبخيل)
رحمه الله رحمة واسعة، وعزانا عنه نخن القادرية قدره، أحسن العزاء
عبد العزيز البشري
كيف كنت حلاقاً
للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني
هل وجهي وجه حلاق؟؟
هذا ما ظللت اسأل المرآة عنه أياماً بعد أن وقع لي ما سأقصه اليوم، والمرآة لا تجيب، وان كنت لا أظن عليها بالإلحاح وطول التحديق، أو لعلها أجابت وأبيت أنا أن اسمع أو اصدق. وقد كففت عن مشاورة المرايا وأسلمت أمري إلى الله وأمر وجهي إلى حسن أدب الذين يرونه وصحيح أني كنت - وما زلت أحياناً - احلق ذقني بيدي،

لأني كنت في عنفوان الاضطرام السياسي أخاف أن يوقعني سوء الحظ في يد حلاق سياسي لا يشايعني على رأيي، فيذبحني ويروح يدعي أن قتلي كان خطأ لا عن عمد وسبق إصرار، ولكني بلوت من متاعب الحلاقة ما زهدني فيها فرددت نفسي على مكروهها ولم اعد أبالي ما عسى أن يصنع برقبتي الحلاقون السياسيون. وللذبح أهون من تهمة الجنون. أي نعم فقد شرعت مرة احلق ذقني ولكن حد الموسى كان كليلاً جداً، فجعلت احك به واكحت حتى صار وجهي - أو خدي - الأصفر كالطماطم الناضج ولم اعد احتمل هذا الألم، وفرغ ما في صدري من الهواء من طول النفخ ومن كثرة قولي (اووففف) فطويت الموسى وقلت أن هذا سلخ لا حلاقة ولست بشاة ثم أني ما زلت حياً ولم اصنع قبيحاً استحق عليه أن اسلخ وجهي بيدي

وارتديت ثيابي ووضعت منديلاً على جانب وجهي الذي سلخته وخرجت التمس دكان حلاق - اقرب دكان - وسرت على بركة الله وفي أملي أن يظن من يراني أن أضراسي توجعني. واهتديت إلى دكان على كثب من البيت، ولكن الحلاق كان مشغولاً فقعدت انتظر وكفي على المنديل فوق خدي وفرغ الحلاق فدعاني فأسرعت إلى الكرسي ورفعت المنديل عن وجهي، وجاء بالفوطة ولف طرفها على عنقي ثم ارتد بغتة ووقف يتأملني وقد قطب وذوى ما بين عينيه فقلت:

(!ماذا؟؟ قل ولا تخف)

قال وهو يهز رأسه: (كلا. لاشيء!)

قلت ملحاً: (بل تكلم. . فأني مستعد للإصغاء. .)

فتكلف الابتسام - اعني انه ابتسم بشفتيه دون عينيه - وراح يجمع أدوات الحلاقة ويعدها ويرصها، وكان في أثناء ذلك يخالسني النظر، فلم يبقى عندي ريب في أن الشك خالجه في صحة عقلي، وما احسبه رأى قبلي رجلاً يدخل عليه ونصف وجهه محلوق والنصف الآخر يطلب الموسى وكأنما حار، ماذا يضع بالنصف الحليق؟ أيجري عليه الموسى؟ أم يدعه ويعني بالنصف الثاني؟ فقد وضع عليه حد الموسى ثم رفعه ووقف متردداً فقلت لأستحثه:

(تفضل. تفضل. . أن هذاأيضاًيحتاج إلى الموسى) فألقى إلي نظرة سريعة واكب على العمل بلا كلام والحلاقون كما يعرف القراء ثرثارون ولكن منظر وجهي كان له وقع عميق في نفس هذا الرجل، فنشف ريقه وعصب لسانه وانقطع أيضا ولم يسؤني هذا ولكني فزعت إذ رأيت يده ترعش فجعلت. أدعو الله في سري أن يلطف بي ويرأف بعيالي ويرحم شبابي

واستجاب الله دعائي لأول مرة. . ولآخر مرة فيما اذكر. . وعلى انه من يدري؟ لعل الرحمة كانت أن يذبحني الحلاق - عفواً أو عمداً - فما تكون للمذبوح عناية بهذه الفروق

واتفق يوماً أني نزلت فندقاً وكان فيه غيري كثيرون كما لا حاجة بي أن أقول وبينهم أجنبي هرم له بنت جميلة وكان هذا الشيخ أحمق حاد الطبع، وبنته على خلافه لينة العريكة سلسة الطباع، ولو إنها كانت حمقاء مثله لشفع لها جمالها فكيف وهي تجمع إلى حسن الوجه دماثة الخلق ورقة الحاشية؟ وعرفتها لأني اصطدمت بها فأوسعتها اعتذاراً فلم يضق بي عفوها، وصرنا بعد ذلك كلما التقينا نتبادل التحية - بالرأس - وكنت ألقاها في اليوم الواحد خمسين مرة فلا ادري أيّنا الذي كان يتعقب صاحبه؟ وفي المرة التاسعة والأربعين من اليوم الأول استطعت أن افتح فمي وأحرك شفتي فقالت مستفسرة:

(نعم؟)

قلت: (لاشيء. اعني أني أردت أن أقول نهارك سعيد)

قالت: (آه! صحيح! نهارك سعيد!)

قلت: (أ. . أ. . الجو اليوم جميل. .)

قالت وهي تضحك بلا داع: (أ. . . نعم. . . جـ. . . جميل. . .)

قلت: (لا خوف من المطر) وعضضت لساني

قالت - وكفت عن الضحك -: (مطر؟ في أغسطس؟ في الإسكندرية؟)

فاضطربت وقلت: (أ. . . اعني. . . اعني أن الجو جميل) فابتسمت ابتسامة خبيثة وقالت: (لقد قلت هذا من قبل. . .)

فحقدت عليها - في سري - وقلت: (صحيح! لقد نسيت! فيا للغباوة! لقد كنت أظنها جملة مبتكرة!)
ولو كنا بقينا خمس دقائق بعد ذلك لحلت عقدة لساني، فقد عاودتني الثقة بنفسي وأيقنت أن العقدة ستحل بعد أن نطقت بآخر كلمة، ولكن أباها - لعنة الله عليه -! آبى إلا أن يقبل في هذه اللحظة وكان وجهها إليه وظهري له فرأته قبلي وقالت:
وأشارت إليه (هذا أبي)
فدرت على عقبي بسرعة، ولم أكد ابصر وجهه حتى استولى عليّ الرعب، فهربت بلا كلام ولا استئذان ولم يكن ثم باب آخر في هذه الناحية اخرج منه ولم أجد أمامي غير (صالون حلاقة)، فدخلته وكان - كما شاء الحظ - خالياً. وشعرت أن بي حاجة إلى منعش بعد الذي أصابني من منظر هذا الشيخ الشرس فتناولت قطرات من (الكولونيا) وشممتها ومسحت بها وجهي وإذا بالرجل يصيح بي:
(ماذا تعني بهذا التلكؤ؟ لقد بعثت إليك منذ نصف ساعة لتوافيني في غرفتي وتحلق لي ذقني! عجل يا بليد!)
وكان من الواجب أن اذهل أو ابهت أو احتج ولكن كرهي له أيقظ حواسي جميعاً فقلت هذه فرصة سنحت للانتقام منه وأسرعت فقلت:
(حالاً. . حالاً. . كم رقم الغرفة من فضلك؟)
قال: (15. .)
ومضى عني فجمعت أدوات الحلاقة ووضعتها في حقيبة صغيرة رأيتها هناك في ركن وخرجت فإذا بالفتاة تدنو مني وتقول:
(ماذا تنوي أن تصنع؟)
فقلت: (احلق ذقن أبيك)
قالت: (حاذر. . . هذه مجازفة)
قلت: (اعرف ذلك وأشكرك، ولكن إلا تثقين بي؟)
قالت: (انك لا تعرف أبي)
قلت: (ثقي انك أنت أيضا لن تعودي تعرفينه!)
قالت: (دع المزاح. . . لم اكن أظن انك طائش إلى هذا الحد)
قلت: (تعالي. . . وانظري)
وتركتها وقصدت إلى السلم وهي ورائي
ولم تكن الفتاة مبالغة حين حذرتني وأنذرتني، فان أباها شيء فظيع وقد اسمعني في خمس دقائق من ألفاظ التعنيف والشتم والقذف والطعن والقدح ما لم اكن أظن انه يوجد في لغات العالم مجتمعة بله في لغتنا العامية التي يعرف اقلها ويجهل اكثرها، ولكني أنا أيضا لم اكن مبالغاً حين أكدت للفتاة إنها لن تعرف أباها بعد أن افرغ من حلاقة ذقنه فقد أرقت نصف رطل على الأقل من دمه الثقيل، ولم أكد أضع الموسى على خده حتى صرخ وصاح بي:
(أنت جزار. . . لا حلاق)
فقلت: (عفواً سيدي أن حد الموسى لم يلمس جلدك)
قال: (لم يلمس جلدي! تقول لم يلمس جلدي يا أعمى! لقد قطع لحمي!)
فطمأنته، فنهرني وزجرني عن الكلام فأجريت الموسى وخرجت بقطعة ثانية من لحمه القديم وماذا اصنع إذا كان جلد وجهه عميق الأخاديد؟ أهذا ذنبي أم ذنبه؟ وقلت له:
(يحسن بك يا سيدي أن تجيء في كل صباح بأربع بيضات أو خمس فتكسرها وتصبها في وعاء وتمزجها بمسحوق الثلج - يعني بودرة الثلج - وتعجن هذا بذاك وتدهن به وجهك وتظل نصف ساعة لا تفتح فمك بكلام ما، ثم تغسل وجهك فإذا واظبت على ذلك شهراً كاملاً عادت إلى وجهك نعومته بأذن الله)
فصاح بي (اخرس. أقول لك اخرس)
فقلت (طيب خرست) وواصلت انتقامي. وكنت قد بلغت عنقه فجعلت انظر إلى الفتاة نظرة لا تخفي دلالتها، نظرة طيها الحقد والتصميم على القتل عمداً ومع سبق الإصرار ورفعت يدي بالموسى نحو ذراع وهممت أن أهوى بها على رقبته وإذا بالفتاة تصرخ فارتددت مذهولاً ووثب هو عن الكرسي وذهب يعدو إليها وسألها (مالكِ؟) فلم تجبه وجعلت تشير

إلى وتهيب بي ان (اخرج. اخرج. . .)
فهززت رأسي آسفاً فقد ذهبت الفرصة إلى حيث لا يمكن أن تعود فسألها هو:
وأشار إلى خده الآخر الذي لم يحلق فقالت (يخرج؟ يخرج كيف؟ ويدعني هكذا:
(انه ليس بحلاق)
قال: (آيه؟ ليس بحلاق!)
ودار فالتفت إليّ فرآني اضحك فطار عقله وتحرك يريد أن يهجم عليّ فتذكرت ما يفعل الذين يقاتلون الثيران في أسبانيا فخطفت الفوطة ألقيتها على وجهه وفررت
وقالت لي الفتاة بعد ذلك:
(لم اكن اعلم انك شرير)
قلت (شرير؟؟)
قالت (نعم. . كدت تقتله وتقتل نفسك)
قلت (أينا كنت تبكين عليه؟)
قالت (لا تكن خبيثاً. . . انه أبي)
قلت (لا اصدق. . .)
قالت (من فضلك. . . لا تذكره بسوء أمامي)
قلت (اعترفي إذا انه. . .)
قالت (لو كنت اعتقد انك ستقتصر على جرح أو جرحين. . .)
قلت (وهل كنت تتوهمين أني يمكن أن اذبحه؟)
قالت (لقد خفت والله. . .)
قلت (يا بلهاء. . . لأجل عين تكرم ألف. . .)
وصرنا صديقين ولكن أباها لا يراني - إلى اليوم - إلا ارتد راجعاً، وحسناً يفعل
إبراهيم عبد القادر المازني
نُذُرُ الحرب الجديدة
للأستاذ محمد عبد الله عنان
تشهد معظم العواصم الأوربية منذ اشهر فترة غير عادية من النشاط السياسي؛ وقد تحول هذا النشاط منذ مأساة مرسيليا التي ذهب ضحيتها الملك اسكندر ملك يوجوسلافيا ومسيو بارتو وزير الخارجية الفرنسية، إلى نوع من الحمى الدبلوماسية وتلوح اليوم في أفق السياسة الأوربية سحب كثيفة تثير الجزع في كثير من العواصم والأمم. ما الذي سيعقب مأساة مرسيليا من الحوادث والتطورات سواء في يوجوسلافيا ذاتها أم في أوربا بصفة عامة؟ وهل يكون السلم في خطر حقيقي؟ وهل نشهد اليوم مقدمات أزمة دولية مستعصية قد تفضي إلى نشوب الحرب؟ هذه الأسئلة الخطيرة تتردد اليوم في جميع دوائر السياسة العليا لا على إنها هواجس واحتمالات بعيدة الوقوع ولكن على إنها فوض حقيقية خطيرة يجب التحوط لها
وقد لوحظ بحق أن للجريمة السياسية شأناً كبيراً في إثارة هذه السحب التي تحلق اليوم في أفق السياسة الأوربية فمنذ اشهر قتل مسيو دوكا رئيس الوزارة الرومانية فترتبت على مقتله صعاب وأزمات ما زالت رومانيا تعاني من أثرها. وفي أواخر يوليه الماضي قتل الهير دولفوس رئيس الحكومة النمساوية في ظروف وحشية فأثار مقتله أزمة سياسية خطيرة لا في النمسا وحدها ولكن في أوربا الوسطى كلها وذهبت إيطاليا في إجراءاتها وتحوطاتها لصون استقلال النمسا من اعتداء ألمانيا وعمالها المأجورين إلى حشد الجنود على حدود النمسا الجنوبية، ولاح شبح الحرب واضحاً مدى حين. ثم كان مقتل الملك اسكندر ومسيو بارتو أخيراً في مرسيليا فبدت الأزمة الأوربية في أروع مظاهرها، وتجددت نذر الخطر وأحاديث الحرب ويخشى المتشائمون أن يكون التاريخ إنما يعيد نفسه وان تكون مأساة مرسيليا قرينة مأساة سيراجيفو ونظيرتها في الظروف والنتائج. والحقيقة أن مؤرخ الحرب الكبرى لا يسعه إلا أن يعتبر مأساة سيراجيفو من أهم العوامل - الظاهرة على الأقل - في إثارة الحرب فقد اتخذت إمبراطورية النمسا والمجر مقتل الأرشيدوق فرنزفرديننذ وقرينته في سيراجيفو في 28 يونيه سنة 1914 بيد طالب سربي سبباً لاعتبار حكومة سربيا مسئولة عن الجريمة مباشرة ومطالبتها في بلاغ نهائي بمطالب

عدتها سربيا افتئاتاً على سيادتها وشدت ألمانيا أزر النمسا في موقفها ولكن روسيا تدخلت لتعضيد سربيا ضد النمسا باعتبارها حامية الشعوب السلافية. وكانت الأزمة الخطيرة التي أدت إلى وقوع الحرب بعد ذلك بأسابيع قلائل

وإذا لم يكن لجريمة مرسيليا مثل هذه النتائج السريعة الحاسمة فلا ريب إنها زادت الأزمة الأوربية تعقيداً وخطورة، وكانت عاملاً جديداً عميق الأثر في زعزعة السلام الأوربي. وإذا وقعت حرب جديدة في القريب العاجل، فان جريمة مرسيليا تكون بلا ريب بين عواملها الأولى. ومن المعروف أن السياسة الأوربية كلها تقوم اليوم على تهيئة أسباب الهجوم والدفاع في الحرب القادمة، وأنها تأخذ الطابع القديم الذي يوصف في لغة السياسة بالسلم المسلح أو السعي إلى صون السلام بالاستعداد للحرب دائماً.

ومثل هذه السياسة تخضع دائماً لأزمات الساعة، لأنها تقوم على الأثرة والقومية المغرقة وليست تحدوها أية مُثل إنسانية أو دولية عامة. وقد وقعت جريمة مرسيليا في وقت تجتمع فيه أوربا في معسكراتها القديمة التي حالت آثار الحرب الكبرى مدى حين دون بعثها وتكونها. والدول التي تسيطر على مصاير السياسة الأوربية اليوم هي فرنسا وألمانيا وإيطاليا وروسيا؛ وهي التي تتجاذبها في تكوين المعسكرات الهجومية والدفاعية وفرنسا اشدها سيطرة على الموقف ونفوذاً في تطوراته؛ ومقصد السياسة الفرنسية معروف هو العمل بكل الوسائل لعزل ألمانيا عن باقي الدول الأوربية حتى لا تقوى بالتحالف على مهاجمة فرنسا، وأحاطتها بسياج من الدول الخصيمة المتأثرة بالسياسة الفرنسية حتى تبقى دائماً في موقف الأحجام والضعف؛ وإذا وقعت حرب فان فرنسا تستطيع بمعاونة حلفائها أن تتغلب على ألمانيا. وقد سارت فرنسا في هذه السياسة إلى ما قبل جريمة مرسيليا شوطاً بعيداً، واستطاعت أن تجذب روسيا السوفيتية إلى معسكرها وان توثق سياسة التحالف الروسي الفرنسي القديم بعد أن لبثت روسيا مدى حين بعيدة عن حظيرة الدول الغربية وان تتوج هذا التحالف بالعمل على ضم روسيا إلى عصبة الأمم بعد أن لبثت تخاصمها منذ قيامها. وقد كانت السياسة الألمانية ما قبل الحرب تغالب التحالف الروسي الفرنسي بالتحالف الألماني النمساوي ولكن إمبراطورية النمسا والمجر القديمة قد ذهبت وقامت على أنقاضها دول تخاصم ألمانيا أو تتأثر بالسياسة الفرنسية. والسياسة الفرنسية هي التي خلقت كتلة التحالف الصغير في

أوربا الوسطى من يوجوسلافيا ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا، وهي التي توجهها في سياستها الأوربية. ولما قامت الحركة الهتلرية في ألمانيا وظهرت ألمانيا في صورة المهدد لفرنسا والمهدد للسلام الأوربي ضاعفت فرنسا جهودها في توثيق التحالف بينها وبين روسيا ودول التحالف الصغير خصوصاً بعد أن شعرت أن بولونيا قد أخذت تتحرر من نفوذها وتتجه نحو ألمانيا. وكان من أهم أغراضها أن تجذب يوجوسلافيا بصورة نهائية إلى جانب السياسة الفرنسية لأنها شعرت أن السياسة الألمانية قد أخذت تتجه نحو يوجوسلافيا وتحاول كسبها بوسائل شتى. ولكن فرنسا رأت من جهة أخرى أن هذا التحالف لا يحقق الغاية المنشودة إلا إذا آزرته إيطاليا. وبين إيطاليا ويوجوسلافيا خصومة قديمة فيجب أن تذلل قبل كل شيء

لهذا كانت رحلة مسيو بارتو إلى يوجوسلافيا وكانت رحلة الملك اسكندر إلى فرنسا وكان المقرر أن تكون مفاوضات الملك اسكندر مع الحكومة الفرنسية تمهيداً لمفاوضات فرنسية إيطالية تجرى في روما وتسوى فيها جميع المسائل والخصومات القائمة بين إيطاليا ويوجوسلافيا من جهة وبين فرنسا وإيطاليا من جهة أخرى وكان الأفق مناسباً لتحقيق هذا البرنامج، لأن إيطاليا كانت قد بدأت في الآونة الأخيرة تتباعد عن ألمانيا على آثر حوادث النمسا التي انتهت بمقتل الهير دلفوس وافتضاح نيات ألمانيا ومشاريعها نحو الاعتداء على النمسا؛ وتم الشطر الأول من هذا البرنامج بالمفاوضات التي وقعت في بلغراد بين فرنسا ويوجوسلافيا ولكن الشطر الآخر لم يتحقق لأن الملك اسكندر ما كاد يطأ ارض فرنسا حتى سقط قتيلاً برصاص الوطنيين الكرواتيين وسقط إلى جانبه مسيو بارتو؛ وأخرت هذه المأساة مشاريع السياسة الفرنسية؛ إلى حين؛ وأودت بمشاريع حكومة بلغراد وبعثت إلى أفق السياسة الأوربية ولا سيما أوربا الوسطى، ريباً وهواجس جديدة وأثارت صيحة الحرب مرة أخرى والواقع أن مقتل الملك اسكندر كان ضربة شديدة ليوجوسلافيا؛ وقد بينا في مقال

سابق كيف أن تكوين يوجوسلافيا الجديدة من عناصر متنافرة خصيمة يعرض وحدتها للتمزق دائماً وكيف أن هذه الوحدة تقوم على أسس مصطنعة في ظل طغيان حديدي كان الملك اسكندر عماده وقائده، فالآن يحدق الخطر بهذه الوحدة المغصوبة وتقف حكومة بلغراد حائرة متوجسة من المستقبل القريب؛ وتقف إيطاليا أيضا مترددة تسبر غور

الاحتمالات الجديدة. هل تستمر في الإصغاء إلى عرض السياسة الفرنسية فتهادن يوجوسلافيا وتحالفها وتدخل في حظيرة هذا التحالف الذي يجمع دول الاتفاق الصغير وروسيا إلى جانب فرنسا؟ ومما يزيد في تردد إيطاليا ما تحاوله ألمانيا لديها الآن من تحويلها عن ذلك الطريق، وإعلان استعدادها لضمان استقلال النمسا وتسوية المسائل الأخرى التي تهم إيطاليا بيد أن السنيور موسوليني يقف الآن وقفة المنتظر ليرى أولاً ما يمكن أن تحدثه آثار جريمة مرسيليا في شئون يوجوسلافيا الداخلية وهل يوجد ثمة ما يحمل على الاعتقاد بقرب تفكك هذه الكتلة السلافية الخطرة التي خلفتها معاهدة الصلح، والتي تنازع إيطاليا سيادتها في بحر الأدرياتيك وتهدد نفوذها في البلقان وأواسط أوربا وهل تقوم في يوجوسلافيا حركة انفصالية يقوم بها العنصر الكرواتي خصيم العنصر السربي الذي يستأثر بالسلطة في يوجوسلافيا ويضطهد العناصر الأخرى؟ فإذا آنس موسوليني شيئاً من هذه البوادر فقد يفضل أن يستبقي حريته في العمل؛ مدى حين وعندئذ تعمل إيطاليا من جانبها على تشجيع العناصر الانفصالية في يوجوسلافيا حتى يتم تفكك هذه الكتلة السلافية وتستطيع إيطاليا أن تتجه ببصرها نحو دلماتيا التي تطمح إلى امتلاكها، وعندئذ ينهار التحالف الصغير وأيضاً وينفتح أمامها مجال العمل في أوربا الوسطى على أن فرنسا تعمل من جهة أخرى بكل ما وسعت لتحقيق التفاهم والتحالف مع إيطاليا. وهي على أهبة لأن تضحي في هذا السبيل ببذل بعض المطالب التي تطمح إيطاليا إلى تحقيقها. وما تعرضه فرنسا على إيطاليا ينحصر فيما يأتي: (1) تعديل الحدود الطرابلسية من جهة تونس والتجاوز لإيطاليا عن بعض المناطق المتاخمة لبرقة (2) عدم مقاومة التوسع الإيطالي في طرابلس من جهة الجنوب في اتجاه بحيرة تشاد (3) عدم مقاومة مشاريع إيطاليا وأطماعها في الحبشة (4) تسوية مسألة الرعايا الإيطاليين في تونس ومنحهم بعض الحقوق والمزايا الخاصة؛ فهذه عروض ومزايا لا تستطيع إيطاليا أن تأبى قبولها خصوصاً إذا علمنا أن التوسع الاستعماري قد غدا من اعظم أهداف السياسة الفاشستية. وعلى أي حال فان برنامج السياسة الفرنسية لم يتغير بمقتل مسيو بارتو وقد أعلن مسيو لافال وزير الخارجية الجديد انه سيعمل لإتمام ما بدأ به سلفه؛ وسوف يقوم بزيارة روما كما كان مقرراً من قبل للمفاوضة في تحقيق البرنامج المرسوم

هذه هي خلاصة العوامل التي تسيطر الآن على مجرى السياسة الأوربية. والظاهرة الجوهرية التي تبدو خلال ذلك كله هي اشتداد التنافس في أحياء المعسكرات الأوربية القديمة وإنشاء الكتل الهجومية الدفاعية التقليدية. لماذا؟ استعداداً لحرب تلوح في الأفق. وما زالت فرنسا هي المتفوقة في هذا الميدان ولكن ألمانيا تعمل أيضا، رغم عزلتها السياسية على إنشاء معسكرها وحشد حلفائها. وقد ظفرت أخيراً بكسب بولونيا وسلخها عن كتلة الدول المتأثرة بالسياسة الفرنسية وأحداث أول ثغرة بذلك في المعسكر الفرنسي ولم تعبأ ألمانيا بفداحة الثمن الذي دفعته لتحقيق هذه الغاية وهو التسليم بالممر البولوني الذي يشق أراضيها إلى البحر. ومازالت ألمانيا تتمتع بشئ من العطف في المجر ويوجوسلافيا لأنها تشتري محاصيل البلدين. ولكن ذلك لا يمكن أن يعوض عليها خسارتها الفادحة بفقد معاونة روسيا ومحالفتها؛ وقد كان إغضاب روسيا وفقدها من اعظم أخطاء ألمانيا الهتلرية خصوصاً وان روسيا لم تتحول عن ألمانيا إلا لكي تتفاهم وتتحالف مع فرنسا ألد واخطر خصومها وروسيا السوفيتية قوة لا يستهان بها

وقد يكون من المبالغة أن يقال أننا الآن على أبواب حرب قريبة ولكن ليس من المبالغة أن نقول أننا نشهد الآن نذر الحرب القادمة ومقدماتها. ومتى هذه الحرب؟ قد تقع بعد اشهر وربما بعد أسابيع إذا تطورت الحوادث في يوجوسلافيا فجأة وافلت زمام الموقف من يد حكومة بلغراد؛ وقد لا تقع إلا بعد عامين أو أعوام قلائل إذا بذلت جهود صادقة لاتقائها أو لتأخيرها. وعلى أي حال فليس مبالغة أن نقول أننا نشهد الآن من

تطورات السياسة الأوربية أقربها أشبهها بتلك المرحلة التي تقدمت الحرب الكبرى وبلغت ذروة خطورتها في صيف سنة 1914. والواقع أن أسباب الأزمة الأوربية الكبرى تجتمع وتتفاقم منذ عامين؛ وأهمها بلا ريب لخفاق مشروع نزع السلاح، والفشل الذريع الذي لقيته عصبة الأمم في حل مختلف المشاكل الدولية؛ وانهيار سياسة التفاهم الدولي والتحكيم التي بلغت ذروتها بعقد ميثاق تحريم الحرب، ولم يلبث أن ظهر عقمها من الوجهة العملية ثم قيام الحركة الهتلرية في ألمانيا وما جنحت إليه من سبل العنف والوعيد، وما أثارته في فرنسا من هواجس ومخاوف جديدة. بيد أن هذه الأسباب كلها ترجع إلى اصل واحد، هو معاهدة الصلح (معاهدة فرساي) التي لم يراع في وضعها سوى تحقيق شهوات الظافرين واطماعهم، ولم يقصد بها إلى وضع أي سلام شريف دائم، ولكن أريد بها تحطيم قوى الأمم المغلوبة وتمزيق وحداتها القومية دون مراعاة الحدود الجغرافية ووحدة العناصر وتراث التاريخ، فجاءت كالبركان الصامت يضطرم في خفاء ولكن تسري ناره تحت الهشيم وغدت اعظم عامل في إثارة الأحقاد والأطماع القومية، وخلقت مشاكل الحدود والأقليات الشائكة في طول أوربا وعرضها ومهدت إلى هذه الأزمة الشاملة التي تهب ريحها اليوم على أوربا منذرة بشر العواقب وكما أن الأزمة الدولية الكبرى التي اجتمعت أسبابها قبيل الحرب قد لقيت نذير انفجارها في مأساة سيراجيفو، فكذلك تلقى الأزمة الدولية الحاضرة نذيراً خطراً في مأساة مرسيليا، وإذا كانت الحكومة النمسا الإمبراطورية قد رأت يومئذ أن تحمل الحكومة السربية تبعات هذه الجريمة الرائعة، وان ترتب عليها من المطالب الفادحة ما ثارت له روسيا وعجل بوقوع الكارثة، فكذلك ترى حكومة بلغراد أن تحمل الحكومة المجرية تبعة جريمة مرسيليا، إنها تأوي في أرضها عدداً كبيراً من اللاجئين الكرواتيين، وتتقدم إليها بمطالب ترى فيها افتئاتاً على سيادتها؛ وقد يكون ثمة فارق بين وقع الجريمتين في سير الأزمة الأوربية، ولكن الذي لا ريب فيه هو أن جريمة مرسيليا من اخطر العوامل في تفاقمها. فسلام أوربا وربما سلام العالم في خطر لا ريب فيه، وذا تركت الأمور في مجراها الحاضر ولبثت الأحقاد والأطماع القومية على حالها مطلقة العنان، وإذا لم تتضافر القوى النزيهة المخلصة لقضية السلام وتقف سداً منيعاً في وجه هذا التيار الخطر فسوف نشهد في القريب العاجل انفجار البركان المروع مرة أخرى.

محمد عبد الله عنان المحامي

. . .عودة

بقلم جورج وغريس

امرأة هجرها زوجها منذ امد بعيد فعاشت وحيدة مع طفلها إلى أن قضت نحبها،) فذرفت عيني دمعاً التأمت قطراته في كلمات قرأها الزوج الهارب في العدد الحادي والستين من (الرسالة) ثم جاءني يسعى .. .)

في سكون الليل الرهيب طرق باب منزلي، فلما أن فتحته وجدت أمامي شخصاً لم أتبينه

قلت: من؟

قال: ألا تعرفني؟

قلت: معذرة. . فمن طبيعة الإنسان أن ينسى، ومن صفات الليل أن يسكب لوناً غير لونها

قال: صديق قديم

قلت: (مرحباً). . ثم أخذت بيده إلى غرفة الاستقبال وتحت ضوء المصباح رأيت أمامي رجلاً في الحلقة الرابعة من عمره، ترتسم الكآبة على وجهه الشاحب ويظهر عدم الاكتراث على لباسه غير المنتظم ورباط رقبته الذي يتدلى على قميصه كالخرقة البالية. . . قلبت بصري في زائري الكريم ولكنني لم اذكر تلك الصداقة القديمة التي كانت تربطني به، لذا أحسست في نفسي بشيء من الريبة والخوف. وقبل أن أقول شيئاً أو ابدي حركة اعتدل ضيفي في جلسته ثم قال:

- أماتت حقيقة. . .؟

قلت: من؟

قال: زوجتي

قلت: ماذا تعني؟ أنت اعلم بحالها، أما أنا فلا أدرك ما تقصد ولا ادري من أمرك شيئاً
قال: بل انك تدري كل شيء ولكنك تريد أن تجهلني وتجهل كل شيء وبالأمس أخرجت للناس صورتي مشوهة ممسوخة، أملاها عليك خيالك الحاقد وأعصابك الثائرة، فقد قرأت في (الرسالة) .....
قلت منتفضاً: أأنت فلان. . .؟
قال: نعم
قلت: معذرة. . . لقد غيرت الأيام من سحنتك وبدل الزمان من هيئتك، حتى أضحيت شخصاً غير الذي كنت اعرفه أتدري ما فعل الخريف في الشجرة المورقة الفينانة؟ أتعلم ما ينتابها من تساقط أوراقها وتراجع أغصانها وتقلص ظلالها. . .؟ أن ما يصيبها يا صديقي في تلك الآونة لأهون والله مم أصابك في خريف حياتك، ولئن كان لتلك الشجرة ربيع تستعيد فيه ما فاتها وتسترجع فيه أسباب الحياة، فهيهات أن تجد لنفسك ربيعاً يبدل من حالك بعد هذا الجدب الذي أصابها. وحسب الأيام منك الآن إنها ستقف عند الحد الذي وقفت عنده فلا هي بدافعة بك إلى الأمام لأن النمو من خصائص الطبائع الحية، ولا هي بقاذفة بك إلى الخلف لأنك في قرار الهوة. . . ولطالما مدت إليك حبال النجدة وقد فتلت من خيوط الرحمة والعطف والصفح والمروءة. ولكنك أبيت إلا أن تقطعها بأسنة الجمود والنكران والرياء والختل، فربطت مصيرين بمصيرك وقتلت نفسين وأسأت إلى نفسك
قال: مهلاً، فقد بدأتني قبل أن أبدأك، وأوغلت في القول وما تركت جارحة إلا وأرسلتها تنهش في نفسي واراني قد جئت لأغسل إهانة فأتبعتها بأخرى وأتيت لأرد سهماً فأصابتني منك سهام ولا ادري من سبب يجعلك مني في هذا الموقف العنيد سوى انك كنت تنظر بعين واحدة في قصتي وتسمع بأذن واحدة. وليس ببعيد على المرأة التي تدفع العالم بيدها الرقيقة دفعاً شديداً في غير رفق ولا هوادة أن تكون قد سكبت سمومها في نفسك فجعلت منك نصيراً لقضيتها، وهي إذ تكسبك إلى جانبها تدفعك في الواقع عن طريقها
لقد خلصت زوجتي من براثن أبيها ولكنها منذ اللحظة الأولى وهي تريد أن يصرع رأيها رأيي وان تقف رغبتها دون رغبتي، فإذا قلت قولاً أبدت نقيضه وإذا أديت فعلاً امتعضت منه، كأن الله قد جعل القبح من نصيبي في القول والفعل، أو كأنه وضع كل الجمال بين شفتيها وعلى أطراف أناملها ليكون غلافاً حسناً لكل ما تقوله أو تعمله. . . . . أردت لها الحجاب فأعلنت السفور وأخذت عليها العناد فأنكرت عليّ هذا الحق وأحببت أن تكون كما أريد فشاءت أن تكون كما تحب. وكان لي صديق احبه واعزه ويزورني في منزلي وأتردد عليه في داره فوشت لي به وفي سورة الغضب كدت اقتله ولولا قرائن في براءته وحزم في تفكيري لكان هذا الصديق اليوم وديعة القبور وكنت أنا نزيل السجون. . . كان من اثر كل هذا أن أحسست بآمالي ترتطم بصخرة قاسية وشعرت بالأفق العريض تضيق دائرته
شيئاً فشيئاً، حتى أوشك أن يجعل لي من هذه الحياة قفصاً لا حيلة لي في رد عائلته. . . فماذا كنت تريدني أن افعل يا صديقي وهذه الأسباب قد أجمعت عليّ أمرها فغلبتني على أمري. .؟ لقد وليت هارباً، ولكن ضميري ظل يضايقني باحتباسه حتى أفرجت عنه بكأس الخمر. . تلك الكأس التي أحرقت همومي أحرقتني، وأذابت ضميري وكبدي وسلبتني ولم تعطني. . . أليست تلك النار من الشعلة التي أسلمتها الشياطين ليد المرأة. .؟ انك تقدر المرأة لأنك غريب عنها ولكن اعلم يا صديقي إنها منذ القدم آلة فساد وعنصر تقلب، وأداة رياء، وكل ما في الحياة من شر إنما هو بسمة خادعة انفرجت عنها شفتا امرأة، وهذا المصير المحزن الذي انحدرت إلى أعماقه، إنما يرجع إلى تلك المرأة التي أحببتها فكرهت لي الحياة، وغمرتها بفضلي فرفعت رأسها كالحية الرقطاء. . . مرت الأيام كالأشباح الهزيلة، وأنا أهيم على وجهي إلى أن شاءت الأقدار أن تدفع إلى يدي صحيفة (الرسالة) فقرأت عن المرأة التي هجرها زوجها فماتت كظيمة الحزن دفينة الألم، وبقي طفلها على صدرها يبكي وينتحب ورأيت طرفاً من قصتي يختبئ بين سطور تلك القصة وما أن وصلت في القراءة إلى اسمك في ذيل المقال، حتى ذهب عني الشك وتذكرت جاري القديم وأخذت عليه اندفاعه في الكتابة دون تبصر أو روية. . . وها أنا قد سعيت إليك بعد أسابيع بعث الله لي فيها من تولي

الدفاع عني، فقد قرأت بجوار قصتك ما كتبه الرافعي في (تربية لؤلؤية) وتابعت ما وصف به المرأة فيما تلا ذلك من أعداد فسررت أن رأيت المرأة تدفع دفعاً إلى المكان الخليق بها. . .

قلت: يشاء الجمود أن يجعل في نفسك طبيعة صخرية حتى أمام جلال الموت وتشاء تلك الطبيعة الصلدة أن تنبش قبور الراقدين في غير رحمة ولاشفقة، فزوجتك التي لفحت وجهي بأنفاسها المحترقة وهي تعاني عذاب الموت، والتي ظلت تردد اسمك إلى أن لفظت روحها تلك الزوجة المسكينة المنكودة يأبى عليها القدر القاسي أن تفوز منك وهي تحت أطباق الثرى إلا بوابل السخط واللعنة تصبه على جدث هامد لا يملك رد غائلة، ولا يقوى على دفع نازلة وهذا لعمري عداء ضاعت منه صفة الشرف. . والمرأة مذ خلقت وهي تعاني شر هذا العداء لا لشيء سوى أن الرجل يميل بطبيعته إلى جنسه وتدفعه الأثرة إلى أن يسود نفسه ويعظم من شأنه ويحقر من أمر تلك المخلوقة التي جاءت تنازعه البقاء، فهو

في عصوره الأولى كان يبعث بالمرأة طعاماً للآلهة وهو في الجاهلية كان يئد مولودته ولا يعترف لها بالحياة، وفي اليابان كان الرجل يدفع بابنته إلى أمكنة الفجور خرقة يمسح بها الرجال شهوتهم حتى تسد ديون أبيها وفي الصين كان الرجل إذا ما ولد له غلام ذكر يفرح ويتهلل أما إذا كان المولود أنثى قال مكتئباً: (لقد سقط حجر من سقف منزلي. . .)، حتى في عهود المدنية وفي مواطن الحضارة يدفع ظلم الرجل المرأة إلى ما يسمونه (الرقيق الأبيض) وهو اللطخة الدامية في الجبين الناصع وفي مصر وبلاد الشرق لا تفوز الزوجة غالباً من زوجها إلا بما تفوز به الخادم من سيدها. فهل رأيت حالة كريهة كالتي تعانيها المرأة منذ ولادتها حتى يحويها الرمس. . .؟ وأي الأمراض انفردت بها المرأة عن الرجل حتى استحقت منه هذا الجزاء. . .؟ أليست كل امرأة ابنة لرجل وزوجة لرجل وأما لرجل. . تأخذ الخلق عن أبيها وتهديه إلى زوجها وترضعه لطفلها. . .؟ فإذا فسدت المرأة أليس هذا الفساد أثراً من تهاون أبيها في تربتها. . .؟ وإذا ضلت المرأة أليس من بين الرجال من هم اشد منها ضلالاً واقبح رذيلة. . .؟ ولئن جاز للرجل أن يقول في كل ما ينتابه من مصائب: (فتش عن المرأة) إلا يجوز للمرأة أن تقول في كل ما يلحقها من أذى: (فتش عن الرجل). . .؟

واعجب العجب قولك أن الأستاذ الرافعي يدافع عنك فيما كتبه ويكتبه، وهذا لا يمكن أن يقع لأنه إنما يكتب عن عقيدته الخاصة في المرأة. ومهما فاض (السحاب الأحمر) بما توحيه إليه تلك العقيدة، ومهما جاء في كتاباته في (الرسالة) عن الحجاب والسفور فهو لا يوافقك على تلك اللطمة القاسية التي صفعت بها خد المرأة. والحجاب الذي ينادى الرافعي به في (تربية لؤلؤية) لا يمكنه أن يعيش طويلاً بعد تلك النظرة الساخرة التي ترسلها إليه مدنية القرن الحاضر، ولا ادري ولا أحد يدري ما ضر المرأة الفاضلة أن خرجت سافرة أو ما نفع المرأة الفاسقة أن قمدت متحجبة. .؟ وأي الرذيلتين اشد ضرراً، تلك التي تستتر خلف الجدار كالداء الذي يختبئ في قلب العليل لا يدركه ولا يتداركه، ام تلك التي تتكشف سافرة ويبين قبحها كالمرض الذي يظهر على صفحة الجسم، ما تلمحه العين حتى يلحقه العلاج. .؟

للمرأة عقل كما للرجل، وكذب من الصق بها العاطفة دون العقل، وألا ما حلقت في سماء

العظمة أسماء جان دارك ومدام كوري وايمي جونسون. لما حكم النساء بجوار الرجال في اكبر الدول شأناً وارفعها مكاناً. فحرام أن يأخذ الرجل من كبريائه صدأ يغشى به عقل المرأة ليغرب خيالها عن ميدانه وكفى ما نعانيه لغيابها عنه من ركود في المجتمع، وشذوذ في العلائق، وخشونة في الحديث. وعقم في التفكير حتى أصبحنا أضحوكة الغرب إذ إننا نسخر من لهوه، ولا يأتي جدنا بجديد. . .

قال: يصعب على من تلدغه الحية أن يشعر نحوها بدافع من الرحمة أو العطف، وإذا صح لي أن أوافقك على بعض ما ذكرت عن المرأة فالسفور ابعد ما يكون عن تأييدي، وليكن لك فيه رأيك، ولكن دعني اكن على دين (الرسالة)

قلت: وما دين (الرسالة). . .؟

قال: الحجاب. . .

قلت: وكيف حكمت؟

قال: إلا تعلم أن مبدأ الصحيفة إنما يشتق من مبدأ كتابها، فعقيدتها هي عقيدتهم ورأيها هو رأيهم الذي ينادون به على صفحاتها. . .؟

قلت: هذا في السياسة أما في الأدب والاجتماع فمظهر النشاط فيهما هو تضارب الفكر واختلاف الرأي، والرسالة لا يمكن أن تنادي بالحجاب، ولكنها مع ذلك ميدان حر لأقلام الكتاب على اختلاف نزعاتهم. وإن كنت قد قرأت فيها للرافعي وصفه للحجاب انه (كالصدفة لا تحجب اللؤلؤة ولكن تربيها في الحجاب تربية لؤلؤية)، وقوله عن قاسم أمين انه (قد تكلف ما لا يحسن) فأغلب الظن انك لم تقرأ ما كتبه الزيات صاحب (الرسالة) عن المرأة والحجاب وهو يخالف الرافعي فيهما خلافاً بيناً؛ ففي العدد السابع من (الرسالة) تراه وهو يكتب عن شواهده (في العيد) يستنكر هذا الفتور الذي تقابل به أعيادنا في مصر والشرق، ويعزو ذلك إلى غيبة المرأة عن المجتمع وهو في ذلك يقول: (كرهنا الدور لاحتجاب المرأة، وهجرنا الأندية لغياب المرأة وسئمنا الملاهي لبعد المرأة وأصبحنا كالسمك في الماء أو الهباء في الهواء، نحيا حياة الهوام والتشرد، فلا نطمئن إلى مجلس ولا نستأنس لحديث) ولما أن همس الهامسون لما جاء في هذا المقال عاد الزيات في العدد التاسع إلى بسط رأيه ذاكراً أن (صلة الحجاب بالدين قد فرغ من توهينها العلماء من أمد طويل) وان مجتمعنا لغياب المرأة (اعرج لأنه يمشي على رجل واحدة، أشل لأنه يعمل بيد واحدة، بليد لأن حدة العواطف تنقصه، خشن لأن لطافة الأنوثة تعوزه) فهل بعد هذا تعتبر (الرسالة) نصيرة الحجاب. .؟ انك تريد أن تنتزع العطف على قضيتك من كلمات كتبها الرافعي وهي في الحقيقة لا تنفعك، وهو لو علم أن دعوته تصادف هوى في نفوس أمثالك لتحول عنها، وكان أول من ينادي بالسفور لم يحرك شفتيه بكلمة، وكان جوابه ناطقاً في عينين ساهمتين، ورأس يهتز باستخفاف، فتركته ينصرف وبه ما به من جمود وأويت إلى فراشي وبي عجب من نفس لو حادثتها حتى تشرق الشمس مرة ثم مرة فما هي بنازلة عما هي فيه من غروب وأفول.

إسكندرية

جورج وغريس

خالد بن الوليد في حروب الردة

للفريق طه باشا الهاشمي رئيس أركان الجيش العراقي

لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما في بدني شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة وهأنذا (أموت على فراشي كما يموت البعير! فلا نامت أعين الجبناء)

خال بن الوليد

نسبة القبائل: من المفيد أن نذكر نسبة القبائل وقرابة بعضها لبعض. اكثر القبائل التي ارتدت عدنانية تنتسب إلى مضر ماعدا قبيلة بني حنيفة فهي من ربيعة

والقبائل العدنانية تنسب إلى شعبين كبيرين وهما: مضر وربيعة

وشعب مضر ينقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية فالقسم الأول: قيس، ومنها غطفان وهوازن وسليم، والى غطفان تنسب فزارة وعبس وذبيان، وإلى هوازن تنسب ثقيف والقسم الثاني قبيلة طابخة، واليها ينتسب بنو تميم، والقسم الثالث مدركة، واليها ينتسب بنو أسد، ومنها كنانة، واليها تنتسب قريش

أما شعب ربيعة فاشتهرت منه القبائل الآتية: عنترة وعبد قيس وبكر وتغلب وبنو حنيفة وينتسبون إلى بكر بن وائل

الموقف قبل الحركات:

التقت فلول غطفان بن فزارة وعبس وذبيان بطليحة بعد انهزامها في ذي القصة والربذة، واجتمعت مع بني أسد في بزاخة. وقد مال إليهم فرقتان من طيء وهما جديلة وغوث على ما ذكرناه سابقاً، ولم تترك هاتان الفرقتان حيهما، بل اجتمعتا في أكناف جبل سلمى، اعني بالقرب من موقع طابه في الجنوب الغربي من فيد أما الباقي من بني طيء فظل على الحياد بسعي عدي بن حاتم.

وأما قبائل بني عامر بن صعصعة وهي في الشمال الشرقي من جبل شمر فكانت تراقب مجرى القتال، وتنتظر عاقبة المعركة لترى رأيها بعد ذلك

أما بنو تميم فلم يوحدوا كلمتهم، بل كانوا منقسمين على بعضهم. وبينما كانت القبائل المرتدة على هذا النحو من تفرق الشمل واختلاف المقصد، كان خالد بن الوليد على رأس جيش متجانس صقلته الغزوات والحروب وحنكته التجارب، متأهباً للحركة عند أول أمر يصدره قائده

وكان هذا الجيش قليل العدد، غير إن كفاية قائده ضمنت له الفوز. وكلما أحرز فوزاً ازدادت قوته بانضمام المحايدين إليه، لأن الغلبة كانت تأتى لهم، وقد تم ذلك فعلاً. ويزعم بعض المؤرخين إن قوة جيش خالد كانت تبلغ ثلاثة آلاف مقاتل حين تقدم نحو طليحة. فلما تقدم نحو مسيلمة أصبحت عشرين ألفاً

الحركات:

يقول ابن حبيش نقلاً عن الواقدي إن جيش خالد بدأ بالحركات من ذي القصة في اليوم السابع والعشرين من الشهر، وهذا الشهر، أما جمادي الآخرة وأما رجب. لأن الرسول توفي في شهر ربيع الأول، وان جيش أسامة قضى في حملته شهرين، واجل حركته في الجرف مدة من الزمن، والمعلوم أن معظم قوة أسامة الفت جيش خالد فتكون المدة التي انقضت من وفاة الرسول إلى حين حركة خالد من ذي القصة ثلاثة اشهر على اقل تقدير

فزمن الحركة أما أن يقع في منتصف شهر سبتمبر وأما في منتصف شهر أكتوبر من سنة 632 ب. م

واستعرض أبو بكر جيش المسلمين في ذي القصة وخطب في رجاله وأبان لهم الطريقة المثلى التي يجب أن يسيروا عليها،

ولفت نظر خالد إلى خطورة الاستطلاع، واخذ الحيطة عند الهجوم على أهل اليمامة، وان يجرى الحركات على التعاقب، فلا يبدأ بحركة ما لم يظفر بالتي سبقتها وان يستعمل الرمح في مكافحة الرمح، والسيف في مكافحة السيف، ثم طلب منه مراعاة المهاجرين والأنصار والرفق بمن معه

وكانت قوة الجيش تتفاوت بين أربعة آلاف وخمسة آلاف، وكان عدد الأنصار منه يربى على الخمسمائة. وكانت قوة جيش طليحة في بزاخة تزيد على خمسة آلاف، ومعظمها من بني أسد والباقي من غطفان، وكان عيينة بن حصن على رأس هذا الباقي.

وكانت فرقتنا جديلة وغوث من طيء في أكناف جبل سلمى متأهبتين للالتحاق بطليحة في بزاخة، وتبلغ قوتهما زهاء ألف مقاتل. وكان بنو تميم على ما نعلم مشغولاً بعضهم ببعض، فمنهم من التحق بسجاح ومنهم من خالفها. أما بنو حنيفة فكانوا في ديارهم باليمامة معتصمين بجبالهم ومعتزين بنبيهم مسيلمة يراقبون الحوادث في نجد

خطة خالد بن الوليد

إن الطريق الأقصر الذي ينتهي بجيش المسلمين إلى بزاخة هو الطريق الذي يخترق وادي الرمة. وبزاخة واقعة في المنطقة حيث تكون أحياء طيء وأسد قد قرب بعضها من بعض فكل حركة من ذي القصة على هذا الطريق الأقصر تشجع قبائل طيء على الالتحاق بطليحة في بزاخة. ومن عادة القبائل انه إذا لم يهدد الخطر حيها تواً تتركه وتسرع إلى نجدة الأحياء الأخرى متى أغار عليها الأعداء

كذلك درس خالد الموقف وقرر أن يسلك طريقاً يهدد به بلاد طيء، فأما أن يلجأ أهلها إلى الحياد وأما أن يستميلهم إلى جانبه، وإذا ما تقدم رأساً نحو بزاخة يكون قد ترك بلاد طيء إلى جانبه الأيمن وخاطر بالهجوم على بزاخة أما إذا ضمن حياد طئ أو استمالهم إلى جانبه فيكون قد هيأ أسباب الفوز على طليحة

والأخبار تدل على أن خالداً صارح أبا بكر بخطته هذه في ذي القصة فأقرها أبو بكر وسبق أن قال لخالد: (اعلم انك إذا قاتلت اسداً وغطفان فان رجالاً منهم معك ينتظرون النصر وإذا ما رأوه حليفك كانوا معك على عدوك)

ولكي يجعل العدو يقنع بأن المسلمين قاصدون بلاد طيء قبل بزاخة يقول ابن الكلبي إن أبا بكر أمر خالداً أن يصمد لطليحة وعيينة بن حصن وهما على بزاخة، واظهر أنه ملاق خالداً بمن معه من نحو خيبر مكيدة وقد أرعب مع خالد الناس، ولكنه أراد أن يبلغ ذلك العدو فيرعبه ثم رجع أبو بكر إلى المدينة

ثم هناك خبر آخر مفاده أن أبا بكر أمر خالداً أن يبدأ بطيء على الاكناف، ثم يكون وجهه إلى بزاخة ثم يثلث بالبطاح (بني تميم) واظهر انه خارج إلى خيبر منصب عليه

منها حتى يلاقي خالداً بالأكناف، اكناف سلمى، فخرج خالد فازورعن بزاخة وجنح إلى أجأ واظهر انه خارج إلى خيبر ثم منصب على طيء
فهذه الأخبار تريك الخطة بوضوح إن بلاد طيء جبلية وفيها سلستان وعرتان ممتدتان على موازاة خط الحركات بين المدينة وبلاد بني أسد، وسلسلة سلمى وجبل رمان في الجنوب، وسلسلة أجأ في الشمال. والأكناف الواردة في الجنوب المذكورة هي أكناف هذه الجبال. أما أهل البلاد فمنهم من تأهب لمعونة طليحة ومنهم من بقي في أرضه يتربص وكان اعظم رئيس في القسم الأخير عدى بن حاتم مع قبائل طيء ومن الأخبار ما يؤيد أن أبا بكر بعث عدياً إلى طيء قبل حركة خالد ليدركهم
والواضح أن خالداً بخطته هذه أراد أن يسهل خطة عدي بن حاتم وان إشاعة أبي بكر في الجيش مشيره نحو خيبر يقصد الحركة نحو بلاد طيء، مما يجعل القسم المتحفز لمعونة طليحة من طيء يرجع إلى أرضه للدفاع عنها أو للبقاء على الحياد مع الباقين من طيء
والحقيقة أنها خطة ناجحة تدل على بعد نظر خالد في قيادة الجيش. والخطة تجمع بين الناحية السياسية والناحية العسكرية. وكان عيينة بن حصن الفزاري رئيس بني فزارة كما سبق يسعى لإعادة الحلف الجاهلي بين بني أسد وبني غطفان وطئ محرضاً جماعته على ذلك بقوله (والله لئن نتبع نبياً من الحلفين احب إلينا من أن نتبع نبياً من قريش)
وإذا ما تم هذا الحلف يكون أمام المسلمين قوة كبيرة يصعب التغلب عليها وينحصر التدبير السياسي في إيفاد أحد رؤساء طيء البارزين لإقناع القبائل بأن يتركوا جانب طليحة ويميلوا إلى جانب المسلمين ولتسهيل هذه المهمة والقيام بحركة إغفال بالتظاهر بالهجوم على بلاد طيء
وكان التدبير العسكري يرمى إلى فصل طيء عن بني أسد وغطفان والهجوم بعد ذلك على قواتهم فتناولت الخطة إذن الأمور التالية :-
1 - القيام بحركة إغفال من المدينة في اتجاه خيبر بقصد إقناع طيء أن المسلمين متوجهون نحو بلادهم
2 - تقدم جيش خالد على الطريق الأقصر نحو بزاخة لتظل قوات طليحة في محلها حتى لا تساعد طيئاً
3 - ترك هدف بزاخة في منتصف الطريق والانعطاف نحو بلاد طيء لإرغام قبائل طيء على الالتحاق بالمسلمين قبل أن ينجدها طليحة
4 - بعد الوثوق من التجاء (دخالة) طيء والاستفادة من قواتهم، التقدم بجميع القوات نحو بزاخة لضرب جيش طليحة
الحركة:
وبعد عودة أبي بكر إلى المدينة وإشاعة خبر مسيره من المدينة بالباقي من المسلمين نحو خيبر نظم خالد قواته وجعل على كل قسم منها قائداً، وكان ثابت ابن قيس على الأنصار
وتحرك خالد من ذي القصة في منتصف شهر أيلول (سبتمبر) أو شهر تشرين الأول (أكتوبر) سنة622 ماراً بربذة ووادي الركبة ومنحدراً إلى وادي الرمة، وقبل أن يصل إلى منتصف الطريق مال إلى اليسار يريد بلاد طيء، ولقد نجحت حركة الإغفال التي أشاعها أبو بكر لأن طيئاً التي كانت تستهزئ بالخليفة وتكنيه بابن الفصيل صارت تخشى بأسه لما سمعت خبر تقدم جيشه نحوها، فأقنع عدي بن حاتم قبيلته وحذرها سوء العاقبة قائلاً لبني قومه: (لقد أتاكم قوم ليبيحن حريمكم). فطلبوا منه أن يؤخر تقدم جيش خالد حتى يسترجعوا من لحق بطليحة في بزاخة وهم جديلة وغوث وآخرون
وكانوا يعلمون انهم إذا خالفوا طليحة بينما بنو جديلة وبنو غوث في بزاخة يبقيهم عنده رهائن ويجبر طيئاً على الالتحاق به وكانت حجتهم عند طليحة طلب إخوانهم من بزاخة، لأن خالداً قادم نحوهم فهم يريدون أن يستنجدوا بهم للدفاع عن بلادهم قبل أن يصل جيش المسلمين
وخرج عدي إلى خالد ولاقاه في السح، فطلب منه أن يبقى فيها مدة قصيرة حتى يتخلى من في بزاخة عن طليحة ويعود إلى بلاده فوقف خالد في السح فتفرقت غوث

من بزاخة وعادت إلى بلادها فأراد خالد أن يتقدم إلى الأنسر ليلجئ جديلة إلى ترك طليحة أيضاً بيد أن عدياً طلب منه أن يتريث حتى لا يفسد عليه ما دبره فعادت جديلة أيضاً إلى بلادها وهكذا تم لخالد ما أراده فانفصلت طيء تماماً عن المرتدين وجددت إسلامها وأمدت خالدا بألف مقاتل وهكذا طبق القسم الأول من الخطة

يتبع

طه الهاشمي

من أدب الحزن

وفي. . . وناكر

بقلم يوسف جوهر عطية

وإذا أرسلت روحي في الماضي ذكرتك يا رفيقي، وكانت قد أذهلتني عنك الحياة وقسوتها والأيام واضطهادها وعاد بي الفكر إلى تلك الأشبار من صحراء (الأقصر) حيث استقرت عظامك من خمس سنين. . .

ما اكفرني بحق الصداقة يا صاحبي! ما اغلظ هذا القلب اللحمي وما أقساه! كيف نسيت حباً وثقناه وعهداً قطعناه!

كنا نسير في الحياة كل يده في يد صاحبه وكل صورته في قلب رفيقه مرسومة. فلما فارقت الحياة أنكرت يدي الودّ القديم، وران على قلبي صدأ النسيان، وابتلع ظلام نفسي ذكراك. . بعد أن كان مكانك عرش، القلب، وبعد أن كانت ملكك كل النفس، وبعد أن كنت ملجأ روحي القلقة، وملاذ فكري المكدود. .

سامحني يا رفيقي فإنني إنسان والإنسان قد جبل على الغدر وفطر على النكران. . لتكن إنسانيتي عذرى لديك. ولا تقس الوفاء بمقياس أهل السماء، فإنني بعد سجين في الجسد، مأسور الروح، عبد لنواميس الحياة. كن كما كنت كريماً متجاوزاً، رفيقاً أنت أنت الوفي، وأنا أنا الناكر. .

وهيا يا رفيقي نعود فنصل الحديث، ونمحو الجفاء، فأنني لحديثك مشتاق، ولسمرك ظمآن. .

كنا لا نصبر على الفراق ساعات يا صاحبي. لكن ها هي ذي عجلة الزمن تدور دورتها الطاحنة، وتباعد خمس سنين بيني وبينك ولا أعود أرى وجهك بعد أناستوطنت أنت السماء وظللت أنا مغترباً في الدنيا. لقد استرحت في قبرك، وخلفتني أعيش وحدي في هذا القبر الكبير!

لماذا عجلت ذهابك يا رفيقي!. كنا قد تعاهدنا أن نقتسم معا شقوة الدنيا وأن نستقبل متكاتفين قسوة الحياة، وأن يتقي كل بأخيه غدر القدر!. لماذا مللت وتركت صاحبك يهيم وحده!! أأعياك حمل رداء الهموم وأنت في سن الفتوة وعمر العزيمة، فآثرت الفرار من هذه الدار؟!. .

لكن لا يا صاحبي. . سامحني. إني لعارف انك لست من الذين يجبنون ويفرون، وأن الله هو الذي اختارك واصطفاك. . هو الحزن القديم النائم تحت رماد الأيام تهب عليه ذكراك فتستيقظ جمراته، وتكوى قلبي من جديد، فيضل تفكيري ويطيش منطقي، وأتهمك بما أنت منه برئ!.

كيف حالك يا صاحبي؟!. .

اكبرت أم أنت فتى كما كنت!؟. هل بقيت لك بسمتك وبهاء طلعتك، أم شاخت بسمتك وشحب محياك؟! أم أن صور الأرض غير صور السماء وأنك هناك دائم الفتوة متجدد الشباب مسترسل السرور في كنف الله؟!.

كيف حالك؟!

أين أنت الآن؟ أين تقيم روحك؟ هل أنت معذب أم منعم؟ قلق أم مطمئن؟ هل روحك في سلام؟.

رجائي قوي انك في سلام. . فقد كنت باراً وقضيت أيامك كالزهرة النقية تلثمها في النهار أشعة الشمس وتباركها في الليل أنوار النجوم. . كنت جم الفضائل. عشت وديعاً كطير الأفنان. كنت مصباح البيت في الهدى، ونبراس الخلق الكريم

إني مطمئن عليك يا رفيقي، وعارف بحظوتك عند الله، وبمقامك في جوار الملائكة. . يهنيك نصيبك. يهنيك انك تخلصت من الدنيا قبل أن تدرك نفسك المطامع وتلوثها

الشهوات، وتشوهها أمراض الأغراض، وتدفعها قوى الشر في مزالق الخطيئة. لقد نجوت، وخلفتني وحيداً في الحياة، في سوق النفاق، أكابد الخسائر وأتجر بقواي، وأنفق من فضائلي وأقامر بأيامي وأصارع حظي الشقي. .

يا صاحبي. . لقد كلت قدمي. تعبت، هرمت روحي وأنا في شرخ الشباب. . وها هي ذي آلامي ترهقني فأفر إلى الماضي، وأذكرك وهأنذا ألجأ إلى حنانك كما كنت أفعل وأنت في الحياة. . هيا نجدد العهد، ونسعى إلى اللقيا في عالم الوهم؛ حتى تجمعنا الحقيقة في الخلود، فنعود إلى العزف على قيثارة حبنا القديم، ونسترد ألحاننا الضائعة. . .

يوسف جوهر عطية

في الأدب الدرامي

الرواية المسرحية

في التاريخ والفن

بقلم احمد حسن الزيات

المأساة العصرية أو الدرامية

كانت كلمة الدرام تطلق على جميع الأنواع التمثيلية، حتى خصصها المحدثون بنوع جديد عرفه قاموس المجمع العلمي الفرنسي بأنه (قطعة مسرحية نثرية أو نظمية تخلط المأساة بالملهاة، وتبرز الموضوع الجدي في المعرض الفكه، وتقبل كل نمط من الأشخاص والأخلاق واللهجات). وتكميلاً لهذا التعريف نضيف إليه كلمة قالها (هجل) وهي: (إنها نوع وسط غير مستقر، يعني بدقائق الحياة الداخلية ومشاكلها، وصور الحياة الخارجية ومناظرتها، وتتميز من المأساة الاتباعية البسيطة الساذجة بكثرة أشخاصها، وغرابة حوادثها، وتعدد مفاجآتها، وتعقيد العمل فيها إلى حد الارتباك والغموض). أما أرباب المذهب الابتداعي ومن قبلهم شكسبير فلم يكتفوا بتأليفها وتمثيلها، وإنما وضعوا لها القواعد وشرعوا لها المناهج، وقالوا إن الدرامة صورة صادقة مؤثرة للحقيقة بل هي الحياة نفسها: هي الهوى يعمل ويتكلم ويحكم ويفكر بصوت جهير أمام الجمهور السامع

إن المأساة لم ترد أن تتنزل عن أفق الأبطال والسراة والملوك، والملهاة قصرت نفسها على وصف عيوب الأوساط، أما الدرامة فهي أتم واعم واصح، لم تفضل فريقاً على فريق، ولم تؤثر طبقة على طبقة، فهي تسوى بين الملوك والسوقة، وتمزج البسمات بالعبرات، وتستمد التاريخ والقصص والحكايات والخرافات، لا تستثنى شيئاً ولا تحتقر شخصاً، ولا تحصر نفسها في ضيق القواعد والتقاليد، فموضوعها الإنسانية بأسرها. أما اليوم فقد اختلفت على هذا النوع الأسماء والتعاريف لتشعب مناحيه، وتعدد مذاهبه، واتساع مجاله، واختلاف أطواره. فكان يسمى أولاً: الرواية الجدية الهزلية - ثم المأساة الحضرية ثم المأساة الشعبية ثم الملهاة الجدية وهم يطلقون عليها الآن اسم الدرامة الحديثة، أو الدرامة فقط. ولا نجد ابلغ في الكشف عن حقيقة الدرامة مما كتبه عنها زعيمها وابن بجدتها فكتور هوجو في مقدمة (كرومويل) نستعين بتلخيصه لك على شرح هذا النوع الطريف الذي يعدونه الآن افضل الأنواع واكمل الأشكال للتمثيل فوق المسرح الحديث؛ لأنه باختياره الأشخاص من كل الطبقات، وتفضيله التأثير في الحواس على تحليل الشهوات كان اكثر أنواع المأساة ملاءمة للذوق الديمقراطي الغالب اليوم. قال هوجو ما محصله: النظارة أصناف ثلاثة: النساء والخاصة والعامة؛ فالعامة يطلبون من الرواية العمل أو الحادث، والخاصة يطلبون منها الخلق أو الدرس، والنساء يطلبن منها الشهوة والهوى. لأن العوام يبتغون من المسرح التهيج، والخواص يبتغون منه التفكر، والنساء يبتغين منه التأثر؛ وغرض هؤلاء جميعاً اللذة: فالعامة تريد لذة النظر، والخاصة تريد لذة العقل والمرأة تريد لذة القلب. ولكل منهم الحق فيما يبتغي ويريد ومن ثم كانت روايات هوجو ثلاثة أنواع مختلفة: أحدها عامي سوقي، والآخران شريفان رفيعان، وفي ثلاثتها حاجة المسرح وكفاية الناس. فللعوام المأساة العامية (الميلودرام) التي تصف لهم الفظائع، وللخواص الملهاة التي تصور لهم الأخلاق، وللنساء المأساة التي تحلل لهن الأهواء. وربما تدخل بعض هذه الأنواع في بعض، فقد يوجد في السوقة من يتذوق الجمال ويتطلب الكمال ويغرق في التخيل، وفي السراة

من يطلب غير الأدب لطف الشعور، وفي النساء من تبتغي مع التأثر رياضة الذهن.
فغرض الدرامة إذن هو تصوير الأخلاق بخلق الأشخاص وتمثيلهم على المسرح تبعاً
لشروط الأشخاص لبيان أخلاقهم وتوضيحها، واستخراج الحياة الإنسانية من هذه
الأخلاق والأهواء التي تتصادم وتتلاحم، فتنتج الوقائع الكبيرة والصغيرة، والحوادث
المحزنة والمضحكة، التي تنطوي على لذة القلب يسميها الناس منفعة، وعلى عظة
للعقل يسميها الحكماء حسن خلق. فبان من ذلك أن الدراسة تأخذ من المأساة تحليل
الأهواء والشهوات، ومن الملهاة تصوير الأخلاق والعادات. فهي الشكل الثالث من
أشكال الصناعة الأدبية، وهو أكبرها وأعمها، لأنه يشمل الشكلين الأولين فيمزجهما
ويشرحهما. ولو لم يوجد شكسبير بين كورني وموليير فمد يسراه إلى الأول ويمناه
إلى الثاني، لبقي كل منهما بعيداً عن الآخر فبوجوده التقت الملهاة بالمأساة التقاء
الموجب بالسالب في الكهرباء، فحدث من التقائهما شرارة هي الدرامة
ثم مضى هوجو بعد ذلك في بيان حقيقة الدرامة من جهة الفلسفة التاريخية نحيلك
عليه إذا
شئت، ونكتفي نحن هنا بما أجملناه من كلامه
فالدرامة إذن كل نوع، وترتضى كل شكل، مادامت تضمن التأثير في المشاعر
والخواطر والقلوب، وهي تسلك لهذه الغاية اسهل الطرق واقرب السبل. فلها في
الطفولة المعذبة، والشيخوخة العاجزة، والزمانة المعدمة، والكرم في الأملاق والقحط
واليأس، مواقف قوية التأثير شديدة الروعة؛ وفي المستشفيات والسجون والأحياء
الفقيرة العاملة مسارح للرعب والرحمة، لها من البيان والتأثير ما يغنى المؤلف الذي
يعرضها للأنظار والأفكار عن تكلف الأداء وتجشم البلاغة
إن المصائب المنزلية، والحوادث الاجتماعية، لا تدهشنا حقيقة كما تدهشنا مصائب
الملوك ومخاطر الأبطال وحوادث القصور، ولكنها تؤثر فينا كل التأثير لاتصالها بنا
واقترابها منا؛ وإذا كان افضل الأنواع أمتعها للجمهور، واشدها أثراً في الكثرة، فان
الدرامة تفوق المأساة بهذه المزية، وتفضل الأنواع جميعاً بقوة الجاذبية، وإذن يكون
كورني وراسين وفولتير قد جهلوا فن التأثير، وسهروا الليالي الطوال في البحث عنه
في الطبقات العليا، والحوادث الكبرى، وهو منهم على طرف الثمام لو نظروا في
الطبقة الدنيا وفكروا في الحياة العامة، ولو كان هؤلاء حقيقة قد جهلوا قوة الدرامة
وسهولتها فما بال الإغريق واللاتين لم يتوسلوا بهذه الوسائل القريبة إلى التأثير
والجاذبية؟ وما بال شكسبير وهو أمام الروائيين غير مدافع لم يختر موضوعاته من
حياة الشعب، وفضل جرائم الملوك ونكباتهم على جرائم السوقة ونكبات العامة؟
الحق إن الإغريق كانوا يعلمون علم اليقين إن في الناس من كبابه الجد فألقاه في
مراغة الذل والبؤس فأعسر بعد اليسر، وهان بعد العز، ولكنهم كانوا يجهلون أو
ينسون أن الملوك هم أيضاً غرض لسهام القدر، وأن المرء مهما عظم قدره لا يعظم
على النوائب ولا يكبر على الإحداث، وأن خطوب الدهر لا تخص بفتكها طبقة، دون
طبقة فاستفادوا من المسرح هذا الدرس النافع والعظة البالغة، كذلك كانوا يعلمون أن
في الناس المأفون والشهوان والخبيث والمجرم، ولكنهم كانوا يجهلون أن الملوك
أيضاً فيهم الأفن والشهوة والخبث والأجرام، وان نتائجها فيهم افظع وافجع منها في
السوقة، فاستنتجوا من المسرح أن الشعب مأخوذ بجرائر الملوك، فأخذوهم بالحزم
وحسن السياسة، بله ما كان عليه الناس في الأزمان الخالية من تنزيه الملكية،
وتقديس البطولة، وازدراء الشعب. فلما
ابتذلت أفنية الملوك، وعلت كلمة الشعوب، وغلب نظام الديمقراطية، احتقر الناس
مصائب الخاصة، ورأوا أن الأهواء والأرزاء تنصب فخاخها لكل الناس، وان الواقع فيها
من أي طبقة ومن أي بيئة يصح أن يكون عبرة ونكالاً لغيره. حينئذ اخذ الكتاب يدرسون
العامة، ويعلمون الجمهور بتحليل نفسه وتعليل جرمه، ويثقفون خلقه بتصوير نقصه
ووصف عيبه، فيحاربون العيب بالخوف من السخر والخشية من الخجل، والجريمة
بالفزع من وخز الضمير الذي يصحبها والقصاص الذي يعقبها، والهوى بوصف ما يجره
من الآلام والمخاطر والمصائب، ووجدوا الحال تقتضي نوعا جديدا من الرواية يلائم
حال الاجتماع ونظام الحكومة ورقي الفكر، فكانت الدرامة وليدة هذا الانقلاب وسداد
هذا العوز

على أن التأثير والجاذبية لم يكونا يوماً ما من أغراض المسرح في الأمم المثقفة المستنيرة، وإنما كان التمثيل عندهم كالخطابة، يجذب ليهذب ويعلم، ويؤثر ليقرر ويفهم. وما التأثير إلا وسيلة من وسائله لا غاية من غاياته. فالدرامة التي لا تعلم ولا تهذب تكون من المأساة بمثابة المهزلة من الملهاة. ولا شك إن المهزلة تضحك الجمهور اكثر مما تضحكه ترتوف والمستوحش، والدرامة التي من هذا النوع تبكيه اكثر مما تبكيه (سنا) و (اتالي)، ولكنه إذا ظل مائة سنة يضحك ويبكي لهذه المناظر، فأية فائدة يستفيدها، واية فكرة يكتسبها ويستزيدها؟

فالدرامة القوية هي ما وضعت في قلب الرجل علل حوادثه وبواعث عمله، فتجعله شقياً بزلته، مشفياً على الخطر بغفلته؛ وهي لذلك تطلب مؤلفاً يكون ثاقب الفكر صادق النظر قوي الملاحظة خصب المخيلة عميق الإحساس بليغ الأسلوب جيد الاختيار؛ وموضوعاً يجمع بين التأثير والإفادة وبين الابتذال والصيانة وبين الغرابة والسذاجة، فلا يكون عقيماً ولا سقيماً ولا سوقياً ولا شعرياً ولا متكلفاً؛ وعملاً يكون سيره نشيط الحركة موزون التدرج محكم التعقيد بارع الحل؛ وعادات حضرية أو شعبية تكون مع موافقتها للحق غير ساقطة ولا جافية؛ ولهجة بسيطة تلائم الأشياء والأشخاص، فتكون صحيحة سهلة نقية ذكية شاعرة لا تعلو على الموضوع، ولا تسفل إلى درك التعمل والركاكة. وتلك مطالب أعيت أولى القرائح الكليلة، فانصرفوا إلى الجانب الأسهل منها، واخذوا يلتمسون التأثير في الجمهور بعرض الحوادث المنتزعة من الحياة العامة لتغنيهم بفظاعتها عن إجادة الكتابة وإجالة الفكر، ويبنون هذا الرأي السخيف على قاعدتين خاطئتين: أولاهما أن كل جذاب من القول والفعل صالح للمسرح، وأخراهما أن كل ما أشبه الطبيعة جميل، وكل تقليد صادق لها حسن. لا أنكر إن لا شئ يلوع القلب ويمزق الحشا مثل أن ترى بيتاً متهدماً تسكنه امرأة كريمة عدا عليها الفقر ومسها الضر وجاز بها الدهر حد اليأس والفاقة؛ وأنا زعيم لك بأنك تغرق الناس بالدمع، وتضرم الأنفاس بالحزن، إذا عرضت على العيون منظر هؤلاء الأطفال يتضاغون من الجوع ويطلبون إلى أبيهم المسكين كسرة من الخبز وهو لا يستطيع، ومثلث دموع تلك الأم ترى رضيعها يلفظ أنفاسه في حجرها من السغب وهي لا تملك له حياة ولا نفعاً، ولكن ارني ذلك الشعب الغليظ الكبد الذي يلهيه ويسليه مثل هذه المناظر؟ وأية فائدة تجدها في هذا المصاب الأليم العقيم الذي فجع هذه الأسرة وهي لم ترتكب خطأ ولم تقترف اثماً؟ آلمني، ولكن لتعلمني كيف احتاط لنفسي من الوقوع في مثل هذا الضرر والذي اشهده. مثل لي أسرة بائسة أوقعها بين مخالب البؤس والفاقة عيب أصيل في نفسها، وهوى دخيل في قلبها، فان الألم الذي يتالني من رؤية هذا المنظر يعوضني منه ذلك الدرس الذي أستفيده من شهود ما يجره الهوى التحكم والعيب المتأصل من الأذى والمضرة: استفيد ان الإنسان حر في اتقاء مثل هذا المصاب، وان أسبابه من العيب والهوى والغفلة والضعف لم تكن أدواء لازمة ولا محتومة، أما الحرق والغرق والزلزال والوباء وكل ما يصيب المرء من غير كسبه ولا اختياره فلا استفيد من رؤيته غير الألم العقيم والهم الخالص

ان فضل الكاتب وجمال المسرح هما في عرضهما ما نود ان نكونه لا ما نحب أن نتأثر به. ومهما يكن الشيء العامي المبتذل مؤثراً فلا بد ان يكون على المسرح أسمى وأروع مما أستطيع أن أراه واسمعه من شباك بيتي، فان بين الأشياء المؤثرة كذلك تفاوتاً وتفاضلاً وتخيراً. وليس في الحياة موضوع يصح ان يكون روائياً بنفسه إذا قلدته على علاته ونقلته بجميع صفاته؛ فقد تجد فيه من الطول والفضول والنقص والسخف ما يخجلك إذا حكيته، ويأفنك إذا مثلته ان مهارة الكاتب القصصي في ان يجعل الموضوع طريفاً لذيذاً ومهارة الكاتب الروائي في ان يبسطه ويزخرفه فيحذف منه البارد الغث ويضيف إليه ما يزيد في تأثيره وحدته وجدته وطرافته بحيث يكون شبه الحقيقة وهيئتها لا صورتها ولا نسختها

والحال في الأعمال مثل الحال في الأقوال: فان الكاتب الذي يكتب كما يتكلم ليس بكاتب. إذ كل لغة من لغات الناس فيها الشريف الحر والرقيق الأنيق، كما إن فيها السوقي والحوشي والفج. والذوق وحده هو الذي يصفي العبارة من اللغو، وينقى الأسلوب من الغثاثة، كما يعزل الغربال الزوان والحصا من الحب الصحيح. ذلك ما نعقله ونقبله؛ أما نقل ما ترى وحكاية ما تسمع بما فيه من سماجة وفضول واقتضاب،

على انه صورة الطبيعة ورسم الحقيقة، فتلك حجة يلجأ إليها الأدعياء ليدرأوا عن أنفسهم معرة الضعف في الاختيار والعيّ عن الابتكار والعجز عن التجديد والتوليد
بعد ما تقدم نستطيع ان نجمل القول في المأساة العصرية بذكر الفروق بينها وبين المأساة القديمة فنقول: إن الدرامة تجمع بين الجد والهزل والسرور والحزن والاحتشام والتبسط والضعة والرفعة، وتختار أشخاصها من كل طبقة وبيئة، وتقتبس موضوعها من حياة العامة او العصور الوسيطة أو العصر الحديث. أما المأساة فكلما علمت تزدري الموضوعات القومية والعصرية، وتختار موضوعاتها من الأساطير أو من التاريخ القديم، وتعنى على الخصوص بالعالم الداخلي من الإنسان، فتبحث عن أخلاقه وعواطفه واهوائه، فهي تضع على المسرح نفوساً بدل ان تضع اشخاصاً، ولا تعنى مطلقا بالرياش المسرحي ولا باللون المحلى، وتقصد كل القصد في تعقيد العمل الروائي؛ ولكن الدرامة لا تحفل إلا بالعالم الخارجي من المرء، والجزء المادي من المسرح، وتبالغ في رعاية الرياش والزخرف، وترجع التأثير في الحواس على التأثير في الذهن، وتحرص على أن تظهر الأشخاص في لباس الزمن الذي عاشوا فيه وتسمهم بعادات بنيه، وتؤثر تعقيد العمل وتحرج المواقف على وصف الأهواء وتصوير العواطف. ثم إن المأساة تخضع لقانون الوحدات الثلاث ولا تجيز نجوى النفس. ولذلك خلقت الأنجياء ليسارهم الأشخاص بما يفكرون؛ ولكن الدرامة تحلنت من سلطان الوحدات الثلاث فلم تبق إلا وحدة العمل، وأسرفت في إيراد النجوى على السنة الأشخاص الأصليين فياضة بالأسلوب الوجداني فقضت بذلك على الانجياء

يتبع

الزيات

فقيد الأدب التونسي

أبو القاسم الشابي

ولد سنة 1909 وتوفي سنة 1934

ثكلت تونس، بل الأدب العربي عامة، أديباً عبقرياً فذاً كان منتظراً منه - لو امتدت حياته - ان يكون كوكباً لامعاً في سماء الأدب العربي الجديد، بل دعامة قوية ترتكز عليها المدرسة الحديثة للشعر العصري. ذلك هو الشاعر المبكى على شبابه أبو القاسم الشابي

ولد أبو القاسم الشابي عام 1909 في (مدينة توزر) عاصمة الواحات التونسية الجميلة بالجنوب، من إسرة ذات مجد، وكان أبوه الشيخ محمد بن أبي القاسم الشابي قاضياً شرعياً تنقل بوظيفته في مدن مختلفة. وهو من قبيلة كبيرة ذات تاريخ حافل تدعى الشابية

أما حياة الشاعر الفقيد فليس فيها من الحوادث ما بهم كثيراً لقصرها، فلم يتخط فجر شبابه الغض، ولم يطو الخمسة والعشرين عاماً بعد؛ إلا أن هذه الفترة الصغيرة في تاريخ نموه الفكري ذات خطر عظيم، ذلك أن المذهب الذي ذهب إليه في نظم أشعاره مذهب فذ لم يظهر منه في الشعر العربي إلا النادر

وليس في مراحل تعلمه التي قطعها بغاية الفوز والنجاح شئ غير عادي، فهو كأمثاله الكثيرين قد حفظ القرآن في طفولته، والتحق بجامع الزيتونة بتلقى علوم العربية على الأساليب القديمة من المتن والشرح والحاشية، وعلوم الشريعة الإسلامية كالفقه والأصول والتوحيد، إلى أن كان الامتحان النهائي فتخطاه عام 1926 ونال الشهادة المسماة بالتطويع

والتحق بعد ذلك بمدرسة الحقوق التونسية فاجتاز امتحاناتها وحصل على إجازة الحقوق، ثم لم يتركه مرض الصدر يتمم دراسته، فانقطع عن التعلم من ذلك الحين والتفت إلى معالجة هذا المرض العضال الذي معه يغاديه ويراوحه حتى ذهب في يوم 8 أكتوبر بحياته الغضة

لم يدرس أبو القاسم لغة أجنبية، ولم يكن له من الزمن ما يسع طول الدرس ومطالعة المترجمات، فقد كان أطباؤه ينهونه عن كد ذهنه والاشتغال بالأعمال الفكرية، وتلك لعمري آية عبقريته النادرة، ومعجزة نبوغه الفريد

كان جباراً متمرداً على القديم، وكان في الوقت ذاته رقيق الإحساس مشبوب

العاطفة، لا يستمرئ المنازعات والمشاكسات، فكان من جراء ذلك تفاعل بينه وبين بيئته، تلمح آثاره
واضحة في أشعاره
فقد كانت مطالعاته الأولى في الأدب العربي بالمهجر الأمريكي، فاستأسره أسلوب زعيم تلك المدرسة المرحوم جبران، وكانت أشعاره الأولى ذات نزعة جبرانية في الأسلوب. وكان يقول الشعر منظوما ومنثورا، ولكنه كان اعمق روحاً وابعد قراراً.
وكانت موضوعاته في فلسفة البؤس والشقاء، والتبرم بالحياة ومتاعبها
على أننا إذا قلنا إن أبا القاسم قد تأثر بمدرسة جبران فلا بد لنا أن نتحفظ، فقد تزود - رحمه الله - من الأدب العربي القديم طائلة، مكنته من إخضاع التعابير الفصيحة لمعانيه الجديدة بما يميزه من غيره، ومما لم يكن من ظواهر تلك المدرسة التي تذهب أحياناً وراء حرية التعبير عن حوالج النفس مذاهب يخرجها عن سنن العربية وقواعدها الأولية
ثم إن شاعرنا كان مفتوناً بالآداب الغربية، يتهافت على قراءة كبار عباقرة الغرب الذين ترجمت أشعارهم وآدابهم ويدرسها بروية حتى تأثر بها وخالجت روحه، وربما تعجب قراؤه كثيرا حينما يعلمون انه لا يقرأ إلا اللغة العربية لجهله بغيرها
ويمكنك ان تدرك سعة اطلاعه على الأدب العربي القديم وأحاطته بجميع ما ترجم إلى العربية من نفائس الأدب الغربي، إذا اطلعت على مؤلفه الذي أخرجه منذ سنوات تحت عنوان (الخيال الشعري عند العرب) فمن مطالعة هذا الكتاب الذي هو عبارة عن دراسة مستفيضة على طريقة النقد العصرية للأدب العربي في جميع عصوره، ومقارنة للأدب الغربي في كثير من أعلامه تدرك مبلغ تفوقه ونبوغه
قلنا أن أبا القاسم كان ينزع في أوائل أمره نزعة تشاؤم وتبرم بالحياة، على ان سخطه هذا لا شئ فيه من الضعف والرخاوة، فهو يعاتب الدهر وكأنه ندّ له في كبرياء وجبروت ينمان عن حب الحياة في أعماق نفسه، حتى انه لم تدم شكواه طويلاً، فتجلت روح التمرد والقوة في قصائده الأخيرة التي منها (نشيد الجبار) وقد نشرت في أحد أعداد (يوليو) ومنها قصيدة (البعث) وستظهر في ديوانه، أودعها كل ما في نفسه من حب للحياة وتطلع إلى مثلها العليا في أسلوب رائع فريد
ولا نستطيع أن ننسى أن للصدمات التي اعترضته أثراً عميقاً في صهر نبوغه واستقلال فنه، كما انه قضى مدة أربعة اشهر في وحدة شعرية بديعة بين جبال (عين دراهم) وغاباتها، وهي من اجمل بلاد تونس منظراً وسحراً، فخرج بشعر طبيعي نادر
رحم الله أبا القاسم الشابي، وعوض الأدب العربي عنه خيراً
نموذج من شعر الفقيد
اصطدم أبو القاسم الشابي بشعور بيئته الراكدة، وضايقه المتزمتون الجامدون، فضاق الشاعر ذرعاً ونفس عن قلبه الحساس بهذه القصيدة الرائعة:
النبئ المجهول
أيها الشعب ليتني كنت حطا - يا، فأهوى على الجذوع بفأسى!
. .ليتني كنت كالسيول إذا سا - لت تهد القبور رمساً برمس
ليتني كنت كالرياح. . فأطوي ... كل ما يخنق الزهور بنحسي
ليتني كنت كالشتاء. . أغشى ... كل ما اذبل الخريف بقرسي
. .ليت لي العواصف ياشع - بي فألقى إليك ثورة نفسي
. .ليت لي قوة الأعاصير. . لكن ... أنت حي يقضي الحياة برمس
أنت روح غبية تكره النو - ر وتقضى الدهور في ليل ملس
أنت لا تدرك الحقائق ان ... طافت حواليك، دون مسّ وجس
. .في صباح الحياة ضمخت أكوا - بي وأترعتها بخمرة نفسي
!ثم قدمتها إليك، فأهرق - ت رحيقي ودست يا شعب كأسي
فتألمت. . ثم اسكت آلا - مي وكفكفت من شعوري وحسي
ثم نضدت من أزاهير قلبي ... باقة لم يمسها أي إنس
ثم قدمتها إليك، فمزق - ت ورودى ودستها إي دوس
ثم البستني من الحزن ثوباً ... وبشوك الصخور توجت رأسي
ها أنا ذاهب إلى الغاب يا شع - بي لأقضى الحياة وحدى بيأسي . .

. .ها أنا ذاهب إلى الغاب عليّ ... في صميم الغابات ادفن نفسي
ثم أنساك ما استطعت فما أ - نت بأهل لخمرتي ولكأسي
سوف أتلو على الطيور أنا - شيدي وأفضى لها بأحزان نفسي
فهي تدري معنى الحياة وتدرى ... أن مجد النفوس يقظة حس
ثم أقضي هناك في ظلمة اللي - ل وألقى إلى الوجود بيأسي
ثم تحت الصنوبر الناضر الحلو ... تخط السيول حفرة رمسي
وتظل الطيور تلغو على ق - بري ويشدو النسيم فوقى بهمس
وتظل الفصول تمشى حوالي ... كما كن في غضارة أمسي
أيها الشعب أنت طفل صغير ... لاعب بالتراب والليل مغسي
أنت في الكون قوة لم تسسها ... فكرة عبقرية ذات بأس
أنت في الكون قوة كبلتها ... ظلمات العصور من أمس أمس
والشقي الشقي من كان مثلى ... في حساسيتى ورقة نفسي
هكذا قال شاعر ناول الشع - ب رحيق الحياة في خير كأس
فأشاحوا عنها ومروا غضابا ... واستخفوا به وقالوا بيأس:
(قد اضاع الحياة في ملعب الجن (م -) فيا بؤسه اصيب بمس!)
(طالما خاطب العواصف في اللي - ل وناجى الأموات في كل رمس)
(طالما حدث الشياطين في ال - وادي وغني مع الياح بجرس)
(انه ساحر تعلمه السحر الشيا - طين كل مطلع شمس)
(ابعدوا الكافر الخبيث عن الهي - كل ان الخبيث منبع رجس)
(اطردوه ولا تصيخوا إليه ... فهو روح شريرة ذات نحس)
هكذا قال شاعر فيلسوف ... عاش في شعبه الغبى بتعس
جهل الناس روحه وأغاني - ها فساموا شعوره سوم بخس
فهو في مذهب الحياة نبي ... وهو في شعبه مصاب بمسّ!
هكذا قال ثم سار إلى الغا - ب ليحيى حياة شعر وقدس
وبعيداً هناك في معبد الغا - ب الذي لا يظله اى بؤس
في ظلال الصنوبر الحلو والزي - تون يقضى الحياة حرساً بحرس
في الصباح الجميل يشدو مع الطي - ر ويمشى في نشوة المتحسي
نافخاً نايه، حواليه تهتز (م) ... ورود الربيع من كل قنس
شعره مرسل تداعبه الري - ح على منكبيه مثل الدمقس
والطيور الطراب تشدو حوالي - هـ وتلغو في السرو من كل جنس
وتراه عند الأصيل لدى الجد - ول يرنو للطائر المتحسى
أو يغنى بين الصنوبر أو ير - نو إلى سدفة الظلام الممسي
فإذا اقبل الظلام وأمست ... ظلمات الوجود في الكون تغسى
كان في كوخه الجميل مقيما ... يسأل الكون في خشوع وهمس:
عن مصب الحياة، أين مداه؟؟ ... وصميم الوجود، أيان يرسي؟؟
. . .وعبير الورود في كل واد ... ونشيد الطيور حين تمسى
. .وهزيم الرياح في كل فج. . . ... ورسوم الحياة من أمس أمس
. .وأغاني الرعاة، أين يواري ... ها سكون الدجى، وأيان تمسى؟
هكذا يصرف الحياة ويفنى ... حلقات السنين حرساً بخرس
يالها من معيشة، في صميم ال - غاب تضحى بين الطيور وتمسى!
يالها من معيشة، لم تشبها ... نفوس الورى بخبث ورجس!
. .يالها من معيشة، هي في الكو - ن حياة غربية ذات قدس
تونس
حسن سبالة
على قبر الفردوسى
للدكتور عبد الوهاب عزام
أبا القاسم اسمع ثناء الوفود ... تنظّم فيك عقود الدرر
أبا القاسم اسمع نشيد الخلود ... يرتِّلُهُ فيك كلُّ البشر
أبا القاسم اسمع لسان الزمان ... بخلدك، وهو الضنين، أقرّ

فهذى اللغات وهذى السِّمات ... وهذى الوفود وتلك الزُّمَر
تترجم عن عرض واحد ... ويدركها في مداك الحصَر
تُطيف بقبرك صرح العلاء ... وباب الخلود ومثوى الظَفر
فيالك قبراً قريب المدى ... تظل العقول به في سفر
ويالك قبراً كعين البصي ... ر يحوي العوالم منها الصغَر
ويالك قبراً غدا طلسما ... وراءك كنز الخلود استتر
ويالك سطراً بقرآنه ... تضيق الحياة ويفنى العمر
ويالك بيتاً سما شِعره ... بمعنى الحياة ولفظ الحجر
وأحجاره كحروف الهجا ... ء كل المعاني بها تُسطر
إمامَ البيان وربَّ القريض ... وأصبرَ مَن للقريض صبر
وسبّاقَ حَلبته في الوريْ ... ورب الحجول بها والغُرر
وناظمَ عقد على نظمه ... تخر الدهور وما يندثر
نظمت الكتاب كتاب الملوك ... وما هو إلا سجلّ القَدَر
طويت الزمان وأحداثه ... بأوراق ونشرتَ العِبَر
فما جام جمشيد إلا كتابُ ... ك يجلو الأقاليم فيه البصر
فيالك من شاعر نابغ ... عظيم الحياة جليل الأثر
ويالك من شاعر رابح ... وكم شاعر في الورى قد خسر
ثلاثين عاماً نسجت القريض ... حليف الهموم أليف السهر
ثلاثين عاماً مضت للفناء ... بهن اشتريت خلود الدهَر
لقد صدّق الدهر ما قلتَ في ... كتاب الملوك بغيب النظر:
بنا هاي أباد كردد خراب ... بحرّ ذُكاَء وصوب المطر
بي افكندم أز نظم كاخي يلند ... على الرياح والقطر ما إن يخرّ
مضى ملك محمود في الذاهبين ... وملكك في الدهر ما يندثر
رضاه شاه حسبك من ناصر ... لقدرك بعد للقرون قَدَر
يسيّر ذكرك في الخافقين ... مسير ذُكاء ومسرى القمر
طوينا البحار وشُمَّ الجبال ... وجُردَ القفار وأيْكَ الشجر
يطير بنا الشوق ملء القلوب ... ويُحلي حديثك مُرَّ السفر
وفي مصر كنت نجيّ الكتاب ... بليغ العظات وحلو السمر
وها أنا في طوس يَدَيْ ... ك يبهر نفسي جلال بهر
فهبية ذكراك روع الفؤاد ... ومشهد حفلك يُخسى البصر
يضيق عليَّ مجال الكلام ... ويشرد عنيَ سِرْب الفكَر
ويذهب شعري ذهاب الحباب ... على لجة البحر حين زخر
هر تانكس كه دار دهش وراي ودين ... عليك الثناء الجميل نثر
وما شاعر أنا كفء المديح ... فأهدي إليك الثناء الأغر
ولكن سحابك أحيا المواتَ ... وما بالإدارة ينمو الزهر
خلدت على الدهر في الخالدين ... وخلّدَ شعرك من قد غبر
ودوّى قريضك في الخافقين ... يغنّي البُداة به والحضر
وروحك فردوسه في السماء ... وقبرك فردوس من قد شعر
طوس
عبد الوهاب عزام
البريد الأدبي
العيد الفضي
عزيزي الزيات
في افتتاحية العدد الماضي أسميتم العيد العشرين للجنة التأليف العيد الفضي. وإن جاز أن يكون في هذه التسمية متسع لاختلاف الآراء، فأني أرى الأولى تسمية بالعيد الصيني، وذلك جرياً على العادة القديمة في بعض الأمم، واتباعاً للمراسيم المألوفة عندهم في الأعراس. فقد اصطلحوا على أن يهدوا للعروسين في ذكرى العرس السنوية الأولى شيئاً مصنوعاً من الورق، وفي الذكرى الثانية شيئاً مصنوعاً من (البفتة)، وفي الثالثة شيئاً من الكتان، وفي الرابعة شيئاً من الحرير، ويتلو هذه الخشب

فالحلوى فالزهر فالجلد فالقش فالقصدير فالعقيق، إلى آخر قائمة طويلة يعني باستظهارها من لا يزال يعني بتلك المراسيم ولاسيما التجار. ومن اشهر تلك الأعياد العيد العشرين ويهدى فيه الخزف الصيني، فالخامس والعشرين وتهدى فيه الفضة، فالثلاثون ويهدى فيه اللؤلؤ، فالأربعون وهديته الياقوت، فالخمسون وهو الذهبي، ثم الخامس والسبعون وهو الماسي؛ ومن بلغه فقد عمر دهراً طويلاً. ولاشك أن ربط هذه الأشياء بهذه الأزمان منشؤه في كل حالة خاصة غير واضح، ولكن نستطيع أن نقول على وجه التعميم انه يمت من قريب أو بعيد إلى ما كان يعتقد القدماء في المعادن والجواهر من يمن أو شؤم. حتى لتجدهم إلى اليوم يخصون الفصول والأيام، حتى والساعات بأحجار كريمة خاصة تدر على لابسها، أو الأرجح لا بستها، كل خير وبركة، فالزمرد حجر الربيع لخضرته، والياقوت الأحمر حجر الصيف لان لونه من النار، والياقوت الأزرق للخريف، والماس للشتاء ولونه من لون الثلج، يأخذ النور ويشع بالنور احمد زكي

الأدب اليوجوسلافي في مختلف أطواره

كثر الحديث أخيراً عن يوجوسلافيا وأحولها لمناسبة مأساة مرسيليا التي ذهب ضحيتها الملك إسكندر. وكان للناحية الأدبية نصيب من تلك الأحاديث؛ فنشرت مجلة (الأخبار الأدبية) مقالاً ضافياً بقلم الكاتب السربي ايفو باربتش عن الأدب اليوجوسلافي في مختلف العصور نلخصه فيما يأتي:

ليوجوسلافيا حضارة قديمة وأدب قديم. وترجع آثار الأدب السربي والكرواتي والسلوفيني القديم إلى القرنين العاشر والحادي عشر؛ وظهرت في القرن الحادي عشر أول آثار باللغة السلافية القديمة بقلم كيريل وميتود رسولي الأدب السلافي، وبلغت الحضارة اليوجوسلافية ذروتها في عصر (نيماجنا)؛ وهرع إلى الأديرة القديمة كثير من شباب الأشراف والأمراء، يعيشون في تقشف، ويدرسون الآداب البيزنطية والنصرانية القديمة، ويترجمون آثارها الخالدة إلى السربية القديمة. وبعد الفتح التركي (سنة 1389) دخلت الآداب اليوجوسلافية في طور جديد، وسادة فيها مثل البطولة والعناصر الشعبية والغنائية، وبلغت ذروة هذه المرحلة في القرن التاسع عشر، ولفتت نظر الغرب بشاعريتها القوية المؤثرة التي تقص آلام شعب مهيض وتستوحي ماضيه المجيد، وتدعو إلى تحريره من نير الغاصب

وقامت إلى جانب هذه الحركات الأدبية العامة حركة أدبية محلية في البلقان وعلى ساحل البحر الأدرياتيك في القرنين الخامس عشر والسادس عشر تحت رعاية الحضارة البندقية. فكانت مدينة راجوزا مركزاً لحضارة سربية زاهرة، ونبغ بها عدة شعراء سربيين مثل منتشتش، ودرزتش، وجيورجتش. وبلغ شعر راجوزا غاية ازدهاره بالشاعر جوندلتش صاحب الأثر الشعري الخالد (عثمان)؛ وهي قصيدة قومية كبيرة، تضطرم وطنية، ويطبعها وحي الآداب الرومانية والنصرانية القديمة. وكان للدرامة والكوميدية والشعر الريفي نصيب كبير في هذه الحركة. وتردد صدى هذه النهضة الأدبية الزاهرة في كثير من المدن الساحلية الأخرى مثل زارا، وسبلاتو؛ ونبع بها عدد كبير من الشعراء والكتاب؛ كما ترددت في بلاد الكروات والسلوفين

على أن هذه المظاهر الأدبية كانت تنقصها الوحدة والتناسق حتى القرن التاسع عشر. وكان اعظم العاملين على تحقيق هذه الوحدة الكاتب الكبير فوك كرادجتش الذي لبث زهاء نصف قرن يناضل في سبيل وحدة اللغة الأدبية يؤازره جماعة من أنصاره وتلامذته، فكتب أجرومية اللغة الأدبية، وألف قاموساً، ووضع قواعد جديدة للإملاء. وكتب اوبرادفتش كتباً شعبية كثيرة يدلل بها على وحدة الأصل الذي تنتمي إليه العناصر السربية المختلفة، وكانت

زغرب عاصمة كرواتيا مهداً خصيباً لهذه الحركة الفكرية الجديدة، وفيها ظهر لودفيت جاي وجمهرة من الكتاب الذين يعملون على تحقيق هذه الوحدة الأدبية

وكان ذلك بدء الأدب اليوجوسلافي الحديث، وقد بدأ هذا الأدب متأثراً بالطابع الساذج القديم، ولكن مشرباً بروح الأدب الغربي الحديث، وكان زعماء هذا العصر نيوجوخ أعظم شاعر يوجوسلافي وصاحب الديوان الشهير (غار الجبل) ومازورانتش الكرواتي، وبرشرن السلوفيني، ونستطيع أن نذكر من الشعراء المعاصرين دوتشتش، وشانتشتش، وراكتش، ونازور، وكيت. ونبغ أيضاً عدد من القصصيين متأثرين بالأدب

الروسي والفرنسي، ومنهم ليوبيشا، ولازارفتش، وسرماك، وكوزاراك، ولكوفار، وكانكار

وامتاز عصر ما بعد الحرب باضطراب فكري عظيم؛ وأبدى الجيل الشاب ميلاً جديداً لمتابعة الغرب في نزعاته نحو الأدب والفن؛ وظهرت في حلبة الآداب اليوجوسلافية الفكر القومي والدولي والاشتراكية الجديدة، أو بعبارة أخرى كانت النزعة الثورية تطبع أدب هذه المرحلة، بيد أن هذه النزعة قد اختفت اليوم، وعاد الكتاب والشعراء يعملون في هدوء لإخراج الآثار الأدبية الباقية. ومن زعماء الحركة الأخيرة مشش ودراجان، وهما اللذان جمع حولهما الشباب، لمكافحة النزعة الواقعية التي مازال يدافع عنها أساتذة جامعة بلغراد. وثمة حركة أخرى ربما كانت أكثر رسوخا وهي حركة (التعبير) التي يتزعمها فنافر، ثم مانيولفتش الذي ترك الشعر ليكتب القصة والقطع المسرحية. ومن أقطاب حركة التعبير أيضاً راستكو، وكريانسكي، وهو قصصي شاب يبشر بمستقبل عظيم، وله تلاميذ ومقلدون كثيرون؛ وملادنوفتش الذي أثار بعنف دراماته كثيراً من النقد وبجدا نوفتش الناقد الكبير

على أن هناك عدداً من الكتاب الذين استطاعوا أن يحتفظوا برزانتهم بعيداً عن التأثر بأزمة ما بعد الحرب؛ ولهؤلاء آثار تمتزج فيها النزعة الواقعية بالطابع الإبداعي. وهنالك صفوة من الكتاب والنقدة يجمعهم (نادي القلم) ويكونون ما يمكن أن يسمى (أرستوقراطية أدبية).

وقد تأثرت الحركة الأدبية بالأزمة الاقتصادية الأخيرة، وأحجم كثير من دور النشر عن إخراج المؤلفات الجديدة. بيد إنها أزمة مؤقتة لا يلبث أن يتغلب عليها الجيل الشاب بنشاطه وحيويته الفتاة.

عيد اللغة الألمانية

تحتفل الدوائر العلمية الأدبية في ألمانيا بمرور أربعمائة سنة على نشوء اللغة الألمانية الحديثة وترجمة الإنجيل إلى الألمانية. ولم تكن ألمانيا قبل أربعمائة عام تتمتع بلغة موحدة؛ وكانت اللغة اللاتينية ما تزال سائدة في الكنيسة والإدارات الحكومية، بل كان الشعب نفسه يجد في اللاتينية مثله الأعلى في الأدب والثقافة. ففي أوائل القرن السادس عشر ظهرت حركة الإصلاح الديني (البروتستانتية) على يد زعيمها مارتن لوتر، فكانت إيذاناً بقيام اللغة الألمانية الموحدة. وكان الشعب الألماني يتكلم عندئذ عدة لغات متقاربة ترجع كلها إلى أصل جرماني؛ فدرس لوتر هذه اللغات مع أصدقائه وتلامذته، واستخراج منها لغة عامة يتقارب الجميع في فهمها، واتخذ عمادها لغة ألمانيا الوسطى (سكسونية) التي ينتمي إليها، فأنشأ بذلك في الواقع لغة جديدة هي أصل اللغة الألمانية الحديثة. وكانت اكبر أداة في إذاعة هذه اللغة الموحدة ترجمة الإنجيل؛ ترجمه إليهالوتر، وعانى في هذه الترجمة صعابا لا تحصى. وقضى في إخراجها زهاء اثني عشر عاماً. وكان أثناء ذلك يلقي خطاباته ويخرج رسائله وكتبه باللغة الجديدة التي أختارها.

ولما ظهرت ترجمة الإنجيل الجديدة في سنة 1534 في فتمبرج، كان ظهورها ظفراً عظيماً في الكنيسة وفي الأسرة معاً، وكان فجر اللغة الألمانية الجديدة. وطبع إنجيل لوتر أربع عشرة مرة في كل مرة ثلاثة آلاف نسخة، وذاع في طول البلاد الألمانية وعرضها، وأقبل الشعب على قراءه وحفظه، وبدأت الشعوب الألمانية المختلفة تتبادل التفاهم والتعامل بالغة الموحدة. وإنجيل لوتر هو الأصل الأول الذي تقوم عليه اللغة الألمانية المعاصرة مع شيء من التغيير والتطور، ومازالت لغته مفهومة لجمهرة المثقفين والمتعلمين.

في الأكاديمية الفرنسية

نقص عدد الخالدين أعضاء الأكاديمية الفرنسية في هذا العام خمسة، فأصبحوا اليوم خمسة وثلاثين بدلاً من أربعين؛ فحلت مقاعد بريمون وكاميل جوليان والماريشال ليوتي ثم بارتو وبوانكارية بالوفاة تباعاً. ولم تشهد الأكاديمية الفرنسية منذ أمد بعيد مثل هذه الثغرة في كراسيها. والمعروف أن المرشح لكرسي جوليان هو جورج دوهامل، ولكن ينافسه ليون

بيرار؛ وأما المرشح لكرسي بوانكارية فيقال انه سيكون مسيو دومرج الذي خلف مسيو بوانكارية في رياسة الجمهورية ثم في رياسة الحكومة

وكان انتظام بوانكارية في الأكاديمية في التاسع من ديسمبر سنة 1909 في الكرسي الذي خلا بوفاة أميل جبهار. واستقبله المؤرخ الكبير ارنست لافيس مدير الأكاديمية يومئذ بهذه الكلمات التي تعود فتتردد اليوم: (إن ذكاءك يجعلك على اتصال مع عمال الفكر جميعاً. فأنت ضوء من أضواء المحاماة، وأنت ضوء من أضواء البرلمان؛ وان الأكاديمية الفرنسية لتستقبلك باسطة الذراعين. ثم إن فيك قوة، وقد تغدو هائلة، يوم تعتقد أن السياسة تتطلب رجالها)

القصص

ورقة النصيب

للأستاذ محمد سعيد العريان

جلس إسماعيل على المعقد الخشبي بجانب غرفته على السطح، يغني في حنين الواجد ولهفة المشتقات بعض أغنيات بلاده، ويتابع بعينه الشمس الغاربة منحدرة انحدارها اليومي، كأنها جمرة كبيرة تطفأ في النيل.

كان يعيش وحده في هذه الغرفة من منزل كبير في حي (بولاق) يشرف من بعد على النيل فكانت سلوته وانسه أن يجلس ببابها عصر كل يوم، من لدن عودته من المدرسة حتى يعم الظلام؛ ثم ينهض فيسرج مصباحه ويكب على مصوراته ودفاتره

وقد انحدر منذ عام واحد من بلدة في الصعيد الأدنى عقب حصوله على شهادة (الكفاءة) ليطلب العلم بمدرسة الفنون

كم كان مفتوناً بالقاهرة قبل أن يهبط إليها، ولوعاً بها أشد الولع. ولعله لم يمعن في الجد والدأب للحصول على الشهادة، إلا لأنه كان موعوداً أن يرسل إلى القاهرة إن جاز الامتحان!

فلما هبط إليها إذا هي تتضاءل وتتضاءل على الأيام، حتى لم تعد إلا هذا الحي العتيق الذي يسكنه، وهذه الطريق الملتوية التي يسلكها كل يوم بين مدرسة والبيت، وهذا السطح الذي يشرف منه على أطلال الحلم السعيد - أطلال القاهرة التي عرفها في الخيال، واستمتع فيها بلذة المنى ووهم الحب ودنيا الشباب!

وكم كان يتمنى أن يتيح له الحظ ليلةً سعيدة من تلك الليالي العابثة التي عاشها في القاهرة أول ما هبط إليها! ولكن. . . ولكن من أين له المال؟

انه ما يزال يذكر في لهفة وشوق الليالي السعيدة؛ وما يزال يذكر أيضاً في ألم وحسرة انه احتمل مما انفق في تلك الليلات ما لم تكن به طاقة، من ألم الجوع وذل الحرمان، وأبى أن يكتب لأبيه يومئذ انه فارغ اليد مما أسرف على نفسه وقنع من أحلامه بهذه السكنى الهادئة، وبأن يعيش من الجنة في ظل حائطها الفينان.

وعرف فيه بنات الدار شاباً جم الحياء، عفيف اللسان والنظر؛ فألفن الصعود إلى السطح

في الأصيل يستمعن إلى ترجيع أغانيه في طرب ونشوة، ثم يتفرقن قبل أن يزحف الظلام وألف إسماعيل أن يراهن كل يوم، وان يبادلهن الحديث البريء في شؤون وفنون. . . وزال الحجاب بينهما على الأيام

وأطال إسماعيل الجلوس يومئذ حتى غابت الشمس، ولم تصعد واحدة. ترى ماذا منعهن الليلة، وقد اعتدن واعتاد منذ شهر أو يزيد - منذ سكن هذا الدار - أن يجالسهن جميعا أو أشتاتا، ساعةً أو بعض ساعة كل مساء؟. . . ومد الظلام رواقه على القاهرة، وعلى قلب المبعد اللهفان

ودخل غرفته فأشعل مصباحه وبسط دفتره، فإذا هو لا يكاد يرى، وإذا الكلمات والسطور تتلوى أمام عينيه، كما تشاهد فرقة زنجية راقصة. . .!

وطوى دفاتره وارتدى ثيابه وخرج إلى الطريق؛ كانت الليلة ليلة الجمعة، فلم يجد حرجا أن يقضيها في السينما. . ووقف ببابها متردداً وهو يحصي النقود في جيبه، وعيناه تتبعان المارة أزواجاً وجماعات، وهو وحده من بينهم لا يتأبط إلا همه! ليته كان يستطيع أن يدعو واحدة من صديقاته في الدار إلى نزهة، فيصحبها ذراعا إلى ذراع في الطريق كهؤلاء الذين يرى! ولكن من أين له، من أين له المال؟

كم يكفيه ليقضي ليلة سعيدة في صحبة فتاة؟ لقد عرف القاهرة الآن عرفاناً تاماً، فلا سبيل إلى أن يخدع سيشاهد معها السينما في شرفة ذات أستار، ويتعشيان معاً في مطعم فاخر، ثم يستقلان سيارة إلى الهرم، ويشتري لها كل ما تهفو نفسها إليه في

الطريق، وبعدئذ. . وبعدئذ يعودان إلى الدار
وفرغ من حسبته وهو يبسط أصابعه ويطويها يحصي ما انفق، وعيناه تأخذان كل من يمر به. . جنيه، جنيه واحد سيمنحه سعادة ليلة! وسخر من نفسه حين انتهى إلى ذاك: من أين له الجنيه؟
ومر به غلام يبيع الجنيهات بالقروش؛ يبيع النصيب! ومد إسماعيل يده فأعطى البائع قرشاً، وتناول ورقة فطواها بعناية ووضعها في جيبه؛ كأنما هو يطوي الجنيه الذي سيصل بين يقظته وأحلامه. ثم عاد إلى البيت فلم يشهد السينما
لم يفكر في شيء من أمره تلك الليلة، فنام ملء عينه وملء بطنه! ورأى أباه في الرؤيا
بجلبابه الأسود الفضفاض، وعمامته التي تكبس أذنيه وبعض وجهه؛ جالساً بين غرائر الفول على ظهر المركب المبحرة إلى الشمال، يحصي ربحه ونفقاته، وقد اغبرت لحيته وعلا التراب كتفيه. ونهض في الصباح فنسى كل ما كان من أمره. وصعدت إحدى صواحبه إلى السطح لبعض شأنها، فحياها وحيته وهو يبتسم، كأنه يخفي عنها مفاجئة سارة. وعادت الفتاة وعاد إسماعيل إلى شئونه
وأوقد النار وراح يهيئ الفول بيده على طريقة بلاده؛ سوف لا يتغذى في المدرسة هذا اليوم لأنه يوم عطلة، وفي فطوره الفول ما يغني عن الغداء، فلا تختل ميزانيته اليوم!
ومر يومان وراح يكشف عن بخته بين أوراق النصيب. . . وترقب الفتيات أن يسمعن غناءه فيصعدن إليه، ولكنه لم يعد، واستقل أول قطار إلى الصعيد. . .
مائة جنيه! يا للبخت! لم تكن أحلامه لترتفع إلى ذاك! إنها لثروة. وقسم النقود قسمين، واشترى حافظه ثمينة فوضع فيها بعض ما ربح، وخاط جيبه على الباقي. . .
لقد دبر أمراً ليخدع أباه، حتى لا يحرمه المال كله!
وخرج الشيخ متولي من المسجد يداعب سبحته بيده ويتمم بالتسبيح والدعاء، وهو في هم لمقدم ولده من غير داعية. . . وقبل الفتى يد أبيه، وقال له وهو يبتسم:
- الحمد لله على سلامتك يا ابي، لقد كنت مشتاقا إليك!
- مشتاقاً إلي! وهل جئت من اجل ذلك؟ حسبتك رجلا إسماعيل!
- نعم. . . ولكن. . .
لكن الرجل يجب أن يكون على قوة احتمال وصبر، ولست ولدي إن لم تكن رجلاً
- بلى، وإنما قدمت لأمر. . .
- أي أمر؟
- لقد ربحت خمسين جنيهاً فرأيت أن أجعلها عندك!
- خمسين جنيهاً؟
- نعم!
وانبسطت أسارير الرجل، وداعبت شفتيه ابتسامة، واتسعت حدقتاه، وعاد يقول:
- ومن أين لك رأس المال؟ لم تخبرني من قبل انك في تجارة!
- لقد ربحت ورقة نصيب!
- وي! ورقة نصيب؟ قمار؟ ميسر؟
واستوى عوده، وانكمشت يده واختلجت شفتاه، ثم قال:
- لا لا، ويحك! لا تجمعها في مالي، إنني رجل شريف، إن مالي من عرق جبيني فلا أريد أن يمحقه المال الحرام!
- أبي!
- اسكت! قم فردا إليهم، دعهم يفرقونها على أصحابها المساكين، من يد كم بائس اجتمعت القروش حتى عادت خمسين جنيهاً؟ إنهم يخدعون الجهال البائسين فيسلبونهم القروش القليلة التي يملكونها، ليوهموهم أنهم سيقاسمونهم بعض ما يجمعون؛ بعض ما يسرقون!
- وهل يمكن. . .
- يمكن أو لا يمكن، فلن أجعلها في مالي، إنا ملونة، قذرة، هل تعرف من أين اجتمعت؟
- لا أعرف
- المال الحلال يعرف دائماً مأتاه. . .

كان قلب الولد يضحك ووجهه عابس، ولم تنته المناقشة بينهما إلى حد؛ فقد تحرج الشيخ الورع أن يضم ربح (الميسر) إلى ماله، ولكنه لم يسأل نفسه عما سيفعل ولده بالمال

وعاد إسماعيل إلى القاهره، ولكنه لم يعد إلى داره إلا بعد ليال ثلاث. . وأطل الفتيات من خلف الباب يشهدن إسماعيل عائداً إلى الدار، يصعد الدرج في زهو وكبرياء، وعليه حله جديدة، وفي عينيه فتور ينبئ أنه قضى ليله سهران

وترامى إليهن غناؤه من فوق السطح أكثر حناناًوفتنة، كما بدا هو أكثر مرحاً ونشاطاً مما كان. وتبادل الفتيات النظر، ثم ولجن غرفهن وغلقن الأبواب

لم تحاول واحدة منهن أن تصعد إليه بمرأى صواحبها، فقد بدا لهن مما تغير من هيئته وحركاته كأنه شخص آخر غير إسماعيل الذي يعرفنه ويثقن بعفته وأدبه، وكأنما ألقى اليهن جميعاً معنى واحد، فخجلن أن يبدوا له، وإن أخذت كل واحدة منهن تؤمل أن تجد فرصة من غفلة رفيقاتها لتصعد إليه وحيدة

وسبقتهن (حكمت) إلى ذاك، ولكنها لم تظهر له أو لواحدة منهن أنها تعمدت أن تصعد واستقبلها إسماعيل ضاحكا، وهز يدها بلطف، وجلسا يتبادلان الحدب. ثم افترقا على ميعاد. . . ووجد الفتى تعبير رؤياه، وكان حلماً أشرق عليه الصبح، فأتمته اليقظة التي تصنع الأحلام

ولكنه لم يقنع بسعادة ليلة، وعاد يتعرف القاهرة من جديد، القاهرة التي فتنت قبل أن يراها، والتي ذاق فيها من ألم الحرمان أكثر مما ذاق من لذة الوهم؛ وراح ينتقم لشهوات نفسه التي قمعها على ألم وضيق عاما وبعض عام

ونفذت دراهمة

لم تجر سفينة الشيخ متولي مجراها كما كانت، فركدت ريحه، وأدبرت أيامه، وعادت الحياة تقتضيه مضاعفة الجهد وبذل الموفور

وجلس إسماعيل مع أبيه ذات يوم صائف بباب متجره، ومر بائع النصيب؛ وتحلب لعاب الفتى وطارت أمانيه إلى هناك؛ إلى القاهرة ولياليى القاهرة؛ وإلى حكمت وصواحب حكمت! ولكنه أفاق من حلمه إذ رأى ذراعه إلى ذراع أبيه. . .

والتفت فإذا الغلام واقف، وإذا أبوه يخرج من جيبه أوراقا يكشف بينها عن بخته، ثم يمزقها ويلقيها، وإذا هو يشتري غيرها فيطويها ويجعلها في جيبه، ليضم صدره على أمل جديد. . .! وتباله الفتى فنهض من مجلسه ليخفي ابتسامة ساخرة، وعلى طرف لسانه كلام. . .

لم يعد الشيخ متولي يسأل نفسه: من أين اجتمعت هذه الجنيهات التي يحاول أن يشتريها بالقروش! فلعله كان يعلم أنها اجتمعت من قروشه الكثيرة التي أداها هو إلى بائعة البخت، منذ تعلم أن يحاول شراء البخت بالمال. . . منذ ربح ولده. . .!

وضحك (إبليس) من الشيخ متولي وهو يمزق الأوراق ويشتري غيرها، وقال لشيطان وهو يعلمه:

أنظر هذا الأبله؛ ما أرسلت إليه ابنه إلا برسالتي، فقد علقته الحيالة. حسب الإنسان) (الضعيف أن أربه الحرام مرة؛ فهذا أول عملي في طبيعته

قال الشيطان الصغير (ثم بعد ذلك؟) قال المعلم (بعد ذلك - أيها الأبله - طبيعته. . .!)

محمد سعيد العريان

الشاعر والوردة

في سنة 1257 ميلادية في إحدى قرى ألمانيا على ضفة نهر الرين، كان البارون أوتودي سيد المقاطعة مشهوراً بين قومه بثروته الطائلة وأحكامه القاسية

جمع هذا الرجل كل ما ملك من ذهب وجواهر ووضعها في صناديق مفتوحة في قاعة تحت الأرض، وكانت الشمس تدخل هذه القاعدة من ثغرة في نهايتها فتضيء بأشعتها هذه الجواهر الغالية

وكان البارون يجد تسلية لا تعد لها تسلية في السماح لمن يشاء أن يدخل تلك القاعة ويملأ جيوبه من المال بقدر ما يستطيع على ألا يستغرق في ذلك إلا مقدار ما تدق الساعة عشرة دقات، فإذا انتهت المدة ولم يخرج الرجل اعتبره سارقاً ما يحمله من جواهر وحكم علية بالرق مدة حياته. فكان يطمع في هذا المال كثيرون كل يوم، وكان عدد عبيد البارون يزداد بقدر عدد الذين طمعوافي ماله لأنه لم ينج من هذه الأحبولة

أحد. وهذا ما كان البارون يتوقعه؛ ولم تخيب الأيام ظنه مرة واحدة
ففي ذات يوم مر على القصر هذا البارون شاعر مطبوع، وشاب مشهور بين قصور أمراء ألمانيا في ذلك الحين بجماله ورقة شعور ورخامة صوته ومهارته البالغة في الضرب على القيثاره. وكان يقضي حياته منتقلا بها من قصر إلى قصر
واتفق أن ابنة البارون ووحيدة دخلت في ذلك اليوم في عامها السادس عشر، فطلب إليه البارون أن يحي ليلة موسيقية تكريما لها
وقبل أن ينصف الشاعر طلب إليه البارون أن يدخل قاعة المال ويأخذ منها ما يشاء، على شرط أن يكون خارج القاعة قبل أن تنتهي المدة المقررة، وكأنه بهذا الطلب أن يستأثر بهذا الشاعر ويستعبده كغيره من الشبان
ولكن الشاعر أجاب: (وماذا افعل بمالك؟! لست في حاجة إليه، لأنني اشعر أن في نفسي من اللآلئ مالا تعد جواهرك الثمينة بجانبه شيئاً) ولكن البارون ألح عليه فأجاب طلبه
فلما كان الشاعر داخل القاعة أبصر من هذه الثغرة وردة انبهر من جمالها نظره وخفق لحسنها قلبه، فوثب وفوق المال المكدس واقتطف تلك الوردة وخرج مسرعاً قبل أن تنتهي المدة. فلما رأى البارون أول من خرج من القاعة دهش. وقال له (إن ما حملته من المال ملك لك) ولن البارون لم يجد شيئا مع الشاب سوى الوردة الجميلة. فقال له (أهذا كل ما
أخذته من القاعة؟!) فقال الشاعر (إني لم أرى في مالك ما هو اجمل منها، بل ليس على الأرض ما هو اجمل منها. . . .)
ولم يكد ينتهي من حديثه حتى أقبلت الفتاة على والدها وحمرة الخجل تعلو وجنتيها. فلما رآها الشاعر دهش لجمالها الفاتن وقال متمماً حديثه مع والدها (. . . إلا هذه الفتاة) ثم طلب من البارون أن يسمح له بتقديم تلك الوردة هدية إلى ابنته. فقالت الفتاة لأبيها: (إنه يفضلني على هذه الوردة يا أبي، وقد فضلها على كل جواهرك؛ فليس على الأرض فارس أرق منه شعوراً ولا اشرف منه عاطفة، ولا اصدق شعراً، ولن أكون زوجة إلا له)
وهكذا اصبح هذا الشاعر الحق، وذلك الشاب النبيل، زوجاً لهذه الزهرة الحية الجميلة
(عن الإنجليزية)
كلية غردون
علي محمد احمد
الكتب
في التربية
بحث في عوامل التربية غير المقصودة
تأليف الدكتور علي عبد الواحد وافي
قررت وزارة المعارف هذا الكتاب لطلبة دار العلوم، وهو يقع في نيف ومائتي صفحة من القطع الكبيرة.
وجد المؤلف الفاضل أن كتب التربية التي صدرت في مصر حتى الآن توجه القسط الأكبر من عنايتها إلى عوامل التربية المقصودة، أعني تلك العوامل التي تنحصر فيما يتخذ المربون من وسائل حيال الناشئين بقصد التأثير في جسومهم وعقولهم وأخلاقهم تأثيراً يعدهم للحياة المستقبلية، بينما تنصرف عناية المؤلفين عن تلك العوامل التي يسميها الدكتور الفاضل عوامل التربية غير المقصودة، والتي تؤثر تأثيراً قوياً في حياة الصغار دون تدخل من المربين، ومن تلك العوامل البيئتان الطبيعية والاجتماعية وما إليهما من طرق معيشة الأمة ومقدار حضارتها وأشكال نظمها وصنوف تقاليدها، مضافا إلى هذا تلك الأمور التي يقوم بها الطفل من تلقاء نفسه، ويكون لها إثر قوي في سلوكه ونشوئه، كالألعاب الحرة والأعمال التي يقوم بها الطفل مدفوعاً بغريزة المحاكاة والتقليد
ولقد خصص المؤلف كتابه هذا لدراسة طائفة من تلك العوامل وهي اللعب والتقليد والوراثة والبيئة الجغرافية والبيئة الاجتماعية
تكلم عن وظائف اللعب التربوية وما قيل فيها من نظريات، وناقش هذه النظريات مناقشة العالم المجرب في منطق مستقيم وترتيب حكيم، دون أن يغفل أي ناحية من

نواحي الموضوع، ثم أورد ملخص هذه النظريات مبيناً وظيفة اللعبة الأساسية ووظائفه الثانوية، وبعد ذلك أتى على أقسام اللعب الإنساني وأوضح الفرق بين اللعب والعمل، وتكلم على تطور الألعاب وارتقائها، وختم موضوع اللعب بما عساه أن ينتفع به من المربي من اللعب في التعليم، وهو كما ترى فصل قوي شيق يستغرق أربعا وستين صفحة من الكتاب وانتقل بعد ذلك إلى التقليد، فتكلم عن التقليد في الصوت شارحاً الأصوات الوجدانية واللغة وأساس
كل منهما عند الطفل، وشرح التقليد في الحركة مبيناً أنواعه ومراتبه وأساسه، إلى أن انتهى إلى بيان وظائف التقليد التربوية، كل ذلك في بسط ودقة وحسن ترتيب أما الفصل الثالث وموضوعه الوراثة، ذلك الموضوع الدقيق فقد تناول المؤلف بما يتناسب مع خطره من الشرح والبسط، فحدثنا عن أنواع الوراثة وأسبابها وأهميتها وعلاقتها بالتربية، حديث الخبير الفطن. وفي الفصلين الأخيرين تكلم عن البيئيتين الجغرافية والاجتماعية العامة، ناهجاً في ذلك نهجه في الفصول الثلاثة السالفة فهذا الكتاب كما ترى من موضوعه، أحد الكتب الهامة التي تعد من مظاهر هذا الدور العلمي الذي تجتازه مصر في عهدها الحالي، فإذا أضفت إلى موضوعه، تلك الروح القوية التي عرض بها، وذلك المجهود الذي يتجلى فيما حواه من شروح وتعليلات ومناقشات، وكلها وليدة عقل متزن ونتيجة إطلاع واسع ودراسة دقيقة، أمكنك أن تقدر قيمة هذا الكتاب العلمية فهو بحق أحد المؤلفات التي تقابل بالغبطة، والتي يحتاج إليها كل معلم، بل كل مثقف يهمه أن يقف على نواح من المعرفة تهمه في حياته العلمية وفي دراساته النظرية.

الخفيف

الألحان الضائعة

نظم حسن كامل الصيرفي

قرأت ديوان شاعرنا الشاب، فأحزنني لعمر الله هذا البكاء الذي لا ينقطع، وهذه الشكوى المريرة التي تعج بها قصائده، ورحت أتلمس سر تلك الكآبة الجازعة، فلم أهتد إلى شيء، فطويت الكتاب وأنا برم بهذه النزعة من شباب في مقتبل العمر، أجل، ربما كان الشاعر قد صادف في حياته ما أجرى دموعه، ولكن متى كانت رسالة الشعر النحيب والشكوى في غير سبب معروف وفي غير إيضاح من الشاعر عما ناله؟ على انه لو كشف عن سر بكائه لكان الواجب يقضي عليه يقتصد شكواه أو يعرضها في صورة غير تلك الصورة اليائسة المستسلمة

تفتح ديوان هذا الأديب الفاضل فتجده يصف نفسه بالضحية ويرمز لنفسه بالواحة المنسية، ثم يصور لك حياته في صور باكية يائسة، وذلك في عدة قصائد، (كالحي الدفين) و
و (القلب المحطم) و (الشكوى الصامتة) و (جرح الألم) و (الصدى (واللحن الضائع) الخافت) و (جفاء الطبيعة). . . الخ

أما شعره في ذاته فلي عنه بعض ملاحظات أرى الرغبة في الإنصاف تقضي علي بسردها. أول ما ألاحظ عليه انه كثير الميل إلى المجازات والاستعارات الغريبة فيذكر في شعره كهوف الحياة، وقيثارة الحياة، وقبر الحياة، والفضاء الجمود، ولهيب الأنين، وجنان الخيال وعصير الشجون، وظلال الفتون. . الخ فضلا عن إتيانه بكثير من المعاني والأخيلة الغريبة فيتحدث عن الشمس مثلا عند الغروب بأنها:

تخفي الأسى خلف النخيل ... مثل ابتسامات العليل

ويقول:

نزل المساء برَجله ... وجرى الظلام بخيله

ويصف الفجر فيقول:

فإذا الجو غارق في اهتزاز ... كاهتزاز الأوتار دون (نشاز)
وخفوق لكنه باعتزاز

ويقول:

أعيش أشاطرهم بؤسهم ... وأملأ كأسي عصير الشجون

إلى غير ذلك من الصور والأخيلة الجزئية، فضلا عن الصور الكلية، وهي لا تقل عن هذه غرابة كقصيدة (الشاعر وموت عزرائيل) و (أغاني الربيع) وغيرها، وبهذه المناسبة

أقول إن بعض شعراء الشباب قد استولت على أذهانهم فكرة غامضة هي فكرة الشعر الرمزي، يرددون هذه الكلمات دون أن يفهموا المقصود منها، وينظمون القصائد ويسوقونها مطلقة جامحة، وأي غضاضة في هذا، أليست من الشعر الرمزي؟! وهكذا يطلون الأعنة لأخيلتهم على غير هدى والى غير مقصد، ولا يخفي ما يجره هذا من الضرر على تفكيرهم ومثلهم وإني لا أخشى طغيان هذه الظاهرة واعدها من اكبر العقبات التي تقف في سبيل تقد الشعر العصري، ولا بد لشبابنا أن ينبذوا هذه الفكرة إذا أرادوا أن تنضج مدرستهم، وتبرز شخصياتهم وتحدد وجهاتهم.

والأديب الصيرفي فضلا عما تقد قليل العناية بقوافية وبلغته على وجه العموم، ولعله في

ذلك أيضاً متأثراً بفكرة أخرى يرددها بعض أدبائنا وهي أن الألفاظ يجب تضحي في سبيل المعاني، فما دام المعنى جيداً فلا عبرة باللفظ الذي يؤديه! وليت شعري كيف يكون اللفظ سقيماً والمعنى سليماً؟ إن للشعراء ألفاظاً خاصة ودبياجة خاصة، وروحاً خاصة، لا في اللغة العربية فحسب، بل في غيرها من اللغات، ولو أمن بذلك شبابنا لأخذوا أنفسهم بما يصلح أذواقهم ويصفي عباراتهم فيتم لهم الجمع بين جمال الفكرة وجمال أدائها

هذه هي بعض ملاحظاتي عن ديوان الصيرفي في موضوعه، أما عن شكله فأراني مضطرا إلى أن أصارحه بأننا نود أن نخلص من أمثال تلك المقدمات التي يجتهد أدباؤنا في الحصول عليها من أصدقائهم، تلك المقدمات التي تحشد فيها عبارات الإطراء من غير تحفظ، إذ أن هذا الإطراءيأخذ السبيل على القارئ، ثم هو من جهة أخرى لما يتضمنه من المبالغة يجعل القارئ ينتظر من الديوان ما يتفق مع عبارات المديح حتى إذا جاءه لم يجد فيه ما يحقق رغبته، وفي هذا ما فيه من تقويض دعائم النقد والاستخفاف بعقول القراء.

واحب قبل أن اختم كلمتي أن أشير إلى بعض قصائد في هذا الديوان سما فيها الشاعر سمواً عظيماً، ولو جرى في شعره على مثلها لكان لنا أن ننتظر منه أحد شبابنا المتفوقين، وتلك القصائد هي: البسمات الساخرة، والشجرة العارية، وتحت ضوء القمر، ووحي الشعر، وموت البلبل، وأشباهها.

الخفيف

الإنشاء التعليمي

تأليف الأستاذين محمد شفيق معرف ومحمد عبد الغني الأشقر

يقع هذا الكتاب في مجلدين أنيقين، على ورق مصقول. ولعله الأول من هذه الكتب الكثيرة التي أخرجها مؤلفوها يقصدون بها إلى الصغار التلاميذ لينهضوا بإنشائهم إلى المستوى الذي يريدون، فقد سلك هؤلاء المؤلفون جميعاً طريقاً واحدة، لا احسبها مؤدية بهم إلى الغاية المقصودة على الوجه الاكمل، لانهم قنعوا بأن يقدموا لتلاميذهم طائفة من الموضوعات الجيدة ليتخذها هؤلاء نماذج فيما يسطرون، ونحن نرى في ذلك قلباً للأوضاع وعكسا للمنطق، وكأننا بهؤلاء المؤلفين قد أرادوا أن يقفزوا بالصغار إلى سطح الدار دون

أن يمهدوا لهم درجا هيناً يمكنهم من الصعود

أما هذا الكتاب الذي نقدمه إلى القراء، والمدرسين خاصة، فقد فرض في الطفل طفولته المتعثرة العاجزة، فأخذ بيده أخذاً رفيقا متدرجا به من تكوين الجملة إلى بناء الموضوع، فلا يعترض طريقه نتوء يقعد به عن إتمامها.

ذلك مجهود موفق مشكور أملته خبرة بالتدريس لا تتفق للكثير.

ز. ن. م

دير الربان هرمزد

بقلم كوركيس حنا عواد

تناول هذا الكتاب بالبحث المستفيض أثرا قديما في العراق يقع قريبا من الموصل، وهو ذلك الدير الذي أشار إليه العنوان. وقد بسط المؤلف القول في هذا الدير بسطا صوره للقراء تصويرا شاملا دقيقا، فرسم لك الطريق التي تؤدي بك إلى مكان هذا الأثر، ثم وصف لك الدير نفسه بما فيه من رهبان. وهنا استطرد فقدم كلمة عن الرهبنة في الشرق وما تجري عليه من سنن ثم تناول حياة الربان هرمزد نفسه

بالبحث.
واقل ما يشكر عليه مؤلف هذا الكتاب الفني الدقيق، ما تجشمه من عناء لكي يبرز هذا الأثر في ضوء الشمس ويضعه من قراء العربية تحت أبصارهم.
ز. ن. م
العدد 71 - بتاريخ: 12 - 11 - 1934
داء الوظيفة
قال وهو يقلب كفيه من الهم، ويعض على يديه من الغضب: سقط الوزير سقوط الورقة الجافة قبل أن يمضي القرار بالوظيفة، فهل رأيت مثل هذا الحظ المتخلف والقدر العابث؟ . . .
فقلت له: هون عليك يا بني، ولا تسلط على نفسك أساك، إن معك الشباب القادر، والأمل الطموح، والثروة المساعدة، ودبلوم الزراعة التي تفتح لك كنوز الأرض، وتدر عليك أخلاف السماء، وفي القرية متسع لأمثالك ممن يحيون مواتها، ويجددون حياتها، ويفيضون على أهلها نعمة العلم، وخير المدنية، ونعيم الحضارة؛ فلِمَ لا تستأجر مزرعة في بعض دوائر الأمراء تجرب في استغلالها كفايتك وإرادتك وحظك؟ إنك إذا فعلت عصمت نفسك من رق الوظيفة، وخلقك من فتنة الحكومة، وعلمك من آلية العمل، ورزقك من تحديده بالمرتب، وقدرك من قياسه بالدرجة. فأجاب وفي عينيه سهوم العجب من هذا الرأي: مالي أدفع بنفسي في هذه المغامرة المجهولة، والوظيفة تضمن حاضري بالمرتب، وتؤمن مستقبلي بالمعاش؟ والقليل المتصل خير من الكثير المنقطع، والموضع المتطامن المتماسك، أصلح للقرار من الرفيع المترجح . . .
فقلت له: ذلك كلام لاكته الألسن حتى تفه، وتقبلته الآذان حتى سمج، ولقد كان له مساغه وبلاغه يوم كانت المدارس معامل لتخريج الكتبة والحسبة للحكومة؛ فأما اليوم وقد امتد أفق التعليم، واتسع نطاق المنهج، وانفسح مجال العمل، وتحققت الحرية للفرد، وتيسر الارتجال للشباب، وحان الحين ليسترد المصريون جماعات ووحداناً مرافق بلادهم وموارد أرزاقهم من الأجانب، فإن الإخلاد إلى المقاعد الأميرية إخلاد إلى العجز، واطمئنان إلى الهون، وانخزال عن تحرير الوطن.
قال: ولكن فريقاً من الشباب ارتجلوا بعض الأماني الاقتصادية الجماعية في التجارة والزراعة والملاهي، فوردوا عن خسارة وصدروا عن فشل. فقلت له: إن هؤلاء فاروا عن حرارة وفتية، وثاروا عن ريح عابرة، فاعتسفوا الأمر قبل أن يخبروه، وزاولوه دون أن يفرغوا له، واخطئوا تقدير المنافسة الأجنبية فأخطئهم التوفيق؛ ومالك تقيس أمرك بهذا المقياس المختل وأمامك المقاييس العليا تتواثب في عينيك من كل مكان؟ ألم تر إلى اليوناني أو الطلياني كيف يفد عليك من غير رأس مال، ولا شهادة جامعة، ولا توصية
وزير، ولا تعضيد جمهور، ولا تحميس صحافة، فيحترف وضائع الحرف، ويحتمل مكاره الفوز، ويتفرع معالي الأمور في روية وصبر، حتى بلغ به نشاطه أن يدير عمارة المدينة، ويصرف تجارة القرية، وينتج زراعة العزبة، فيبيع عليك غلة أرضك، ويستعبدك بربا مالك، وأنت جالس جلسة الأجير على مكتبك الحقير، تكنس لنعليه الطرق، وتشق لعينيه الحدائق، وتكفل لمتاجره الأمن، وتدبر لمزارعه الماء، وتتقبل على ذلك كله دغل الصدر وقسوة اللسان وقحة النظر!
رأى صديقي الفتى أن لهجتي لا تلائم همه الغالب، ومنطقي لا يساير منطقه اليائس، فتولى عني غير راض ولا مقتنع، وتركني أحدث نفسي، وأقارن بين يومي وأمسي، فأجدني بين عملي المقيد الذي انصرفت عنه، وعملي الحر الذي انصرفت إليه، أشبه بالسجين المقيد يعمل برأي غيره، ولحساب غيره، فلا يتحرك ولا يسكن إلا بأمر، ولا يسير ولا يقف إلا في نظام، وهو يأكل حين لا يشتهي، وينام حين لا يريد، ويستيقظ حين لا يحب، وتتعطل ملكاته حتى يصبح كالإنسان الصناعي: قوة محركة وآلة، ثم يدركه لطف الله فتتفكك عنه السلاسل وتتفتح له الأبواب، فيجد عقله في النور، وخلقه في الطبيعة، وحريته في الجو، ووجوده في المجتمع! فينبت الريش الناسل، ويخفق الجناح المهيض، وتتكشف الآفاق الجديدة!
إن أولى الناس بالرثاء لأولئك الذين سلبوا جوهرة الحياة وحرية العيش، وعاشوا في ظلام الوجود مكبين على مكاتبهم، مغلولين عن الحركة، مكمومين عن الشكوى،

يستقطرون الرزق من شق القلم، ولا يصيبون من أجورهم سداداً من عوز ولا غنى من فاقة.

يدخل الموظف الديوان وهو ابن عشرين، فيودع عاماً ويستقبل عاماً حتى يأخذ بمُخَنَّق الستين وكأن لم يحدث في العالم شئ! يختلف الليل والنهار، وتتبدل الأحوال والأطوار، وهو على مكتبه الضيق في غرفته المظلمة، يعمل ساعة ويجتر أخرى، دون أن يشعر بدوران الفلك، أو يفطن إلى حركات العالم.

يدخل الديوان وهو طرير الشارب، أثيث الجمة، ريان من الشباب والقوة والأمل؛ ثم يودعه وهو مخدد الوجه، أشيب الشعر، متداعي الجسم، فقير من المنى والذكر والمال، لا يصلح إلا عموداً في مسجد، أو منضدة في قهوة. وربما أقصدته المنون لانقطاعه بغتة عما ألف من عادة شديدة، وحياة رتيبة، وأعمال واحدة، في ساعات لا تختلف ولا تتبدل.

أيها الموظفون! إن لابتغاء الرزق موارد غير هذا المورد الناضب، ولخدمة الأمة مواقف غير هذا الموقف الكاذب، فتجافوا بأنفسكم عن هذه المقاعد، فإنها مواطن الذل والملق، ومساكن الفقر والجهل، ومكامن الخمول والموت، واقرأوا على أبوابها ما كتبه (دانتي) على أحد أبواب الجحيم:

((قوضوا حصون آمالكم، وأضمروا اليأس من مآلكم، أيها الداخلون!))

احمد حسن الزيات

بنت الباشا . . .

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

كانت هذه المرأة وضاحة الوجه زهراء اللون كالقمر الطالع، تحسبها لجمالها قد غذتها الملائكة بنور النهار، وروتها من ضوء الكواكب.

وكانت بضَّة مقَسَّمةً أبدع التقسيم، يلتفُّ جسمها شيئاً على شئ التفافاً هندسياً بديعاً، يرتفع عن أجسام الغيد الحسان، أفرِغَ فيها الجمال بقدر ما يمكن - إلى أجسام الدمى العبقرية التي أفرغ فيها الجمال والفن بقدر ما يستحيل.

وكانت باسمة أبداً كأول ما يتلألأ الفجر، حتى كأن دمها الغزلي الشاعر يصنع لثغر ابتسامتها، كما يصنع لخديها حمرتهما.

مالها جلست الآن تحت الليل مطرقة كاسفة ذابلة، تأخذها العين فما تشك أن هذا الوجه كان فيه منبع نور وغاض! وأن هذا الجسم الظمآن المعروق هو بقعة من الحياة أقيم فيها مأتم!

ما لهذه العين الكحيلة تذري الدمع وتسترسل في البكاء وتلِجُّ فيه، كأن الغادة المسكينة تبصر بين الدموع طريقاً تفضي منه نفسها إلى الحبيب الذي لم يعد في الدنيا؛ إلى وحيدها الذي أصبحت تراه ولا تلمسه، وتكلمه ولا يردُّ عليها؛ إلى طفلها الناعم الظريف الذي انتقل إلى القبر ولن يرجع، وتتملثه أبداً يريد أن يجئ إليها ولا يستطيع، وتتخيله أبداً يصيح في القبر يناديها: (يا أمي، يا أمي. .).

قلبها الحزين يقطع فيها ويمزق في كل لحظة؛ لأنه في كل لحظة يريد منها أن تضم الطفل إلى صدرها، ليستشعره القلب فيفرح ويتهنأ إذ يمس الحياة الصغيرة الخارجة منه. ولكن أين الطفل؟ أين حياة القلب الخارجة من القلب؟

لا طاقة للمسكينة أن تجيب قلبها إلى ما يطلب، ولا طاقة لقلبها أن يهدأ عما يطلب؛ فهو من الغيظ والقهر يحاول أن يفجر صدرها، ويريد أن يدق ضلوعها، ليخرج فيبحث بنفسه عن حبيبه!

مسكينة تترنح وتتلوى تحت ضربات مهلكة من قلبها، وضربات أخرى من خيالها، وقد باتت من هذه وتلك تعيش في مثل هذه اللحظة التي تكون في الذبيحة تحت السكين. ولكنها لحظة امتدت إلى يوم، ويوم امتد إلى شهر. يا ويلها من طول حياة لم تعد في آلامها وأوجاعها إلا طول مدة الذبح للمذبوح.

ولو كان للموت قطار يقف على محطة في الدنيا، ليحمل الأحباب إلى الأحباب، ويسافر من وجود إلى وجود، وكانت هذه الأم جالسة في تلك المحطة منتظرة تتربص، وقد ذهلت عن كل شئ، وتجردت من كل معاني الحياة، وجمدت جمود الانتقال إلى الموت - لما كانت إلا بهذه الهيئة في مجلسها الآن في شرفتها من قصرها؛ تُطل على

الليل المظلم وعلى أحزانها. . .!
هي فلانة بنت فلان باشا وزوجة فلان بك. ترادفت النعم على أبيها فيما يطلب وما لا يطلب، وكأنما فرغ من اقتراحه على الزمان واكتفى من المال والجاه، فلم يعجبه الزمان فأخذ يقترح له ويصنع ما يقترح، ويزيده على رغمه نعماً تتوالى!
وكان قد تقدم إلى خطبة ابنته شاب مهذب، يملك من نفسه الشباب والهمة والعلم، ومن أسلافه العنصر الكريم والشرف الموروث، ومن أخلاقه وشمائله ما يكاثر به الرجال ويفاخر. بيد أنه لا يملك من عيشه إلا الكفاف والقلة، وأملاً بعيداً كالفجر وراء ليل لا بد من مصابرته إلى حين ينبثق النور.
وتقدم صاحبنا إلى الباشا فجاءه كالنجم عارياً؛ أي في أزهى نورانيته وأضوئها. وكان قد علق الفتاة وعلقته، فظن عند نفسه أن الحب هو مال الحب، وأن الرجولة هي مال الأنوثة، وأن القلوب تتعامل بالمسرات لا بالأموال؛ ونسي أنه يتقدم إلى رجل مالي جعلته حقارة الاجتماع رتبة، أو إلى رتبة مالية جعلتها حقارة الاجتماع رجلاً. . وأن كلمة (باشا) وأمثالها، إنما تخلفت عن ذلك المذهب القديم: مذهب الألوهية الكاذبة التي انتحلها فرعون وأمثاله، ليتعبدوا الناس منها بألفاظ قلوبهم المؤمنة؛ فإذا قيل (إله) كان جواب القلب: (عز وجل)، (سبحانه).
ولما ارتقى الناس عن عبادة الناس، تلطفت تلك الألوهية ونزلت إلى درجات إنسانية، لتتعبد الناس بألفاظ عقولهم الساذجة؛ فإن قيل (باشا) كان جواب العقل الصغير: (سعادتلو أفندم!)
نسي الشاب أنه (أفندي) سيتقدم إلى (باشا) وأعماه الحب عن فرق بينهما؛ وكان سامي النفس، فلم يدرك أن صغائر الأمم الصغيرة لا بد لها أن تنتحل السمو انتحالاً، وأن الشعب
الذي لا يجد أعمالاً كبيرة يتمجد بها، هو الذي تخترع له الألفاظ الكبيرة ليتلهى بها؛ وأنه متى ضعف إدراك الأمة، لم يكن التفاوت بين الرجال بفضائل الرجولة ومعانيها، بل بموضع الرجولة من تلك الألفاظ؛ فإن قيل (باشا) فهذه الكلمة هي الاختراع الاجتماعي العظيم في أمم الألفاظ، ومعناها العلمي: قوة ألف فدان أو أكثر أو أقل؛ ويقابلها مثلاً في أمم الأعمال الكبيرة لفظ (الآلة البخارية) ومعناها العلمي قوة كذا وكذا حصاناً أو أقل أو أكثر!
نسي هذا الشاب أن (أمم الأكل والشرب) في هذا الشرق المسكين، لا تتم عظمتها إلا بأن تضع لأصحاب المال الكثير ألقاباً هي في الواقع أوصافٌ اجتماعية للمعدة التي تأكل الأكثر والأطيب والألذ، وتملك أسباب القدرة على الألذ والأطيب والأكثر.
وتقدم (الأفندي) يتودد إلى (الباشا) ما استطاع، ويتواضع وينكمش، ولا يألوه تمجيداً وتعظيماً؛ ولكن أين هو من الحقيقة. إنه لم يكن عند الباشا إلا أحمق؛ إذ لم يعرف أن تقدمه إلى ذلك العظيم كان أول معانيه أن كلمة (أفندي) تطاولت إلى كلمة (باشا) بالسبّ علناً. . .!
وانقبضوا عن (الأفندي) وأعرضوا عنه إعراضاً كان معناه الطرد؛ ثم جاء (البك) يخطب الفتاة.
و (بك) منبهة للاسم الخاطب، وشرف وقدر وثناء اجتماعي، وذكر شهير، وإرغام على التعظيم بقوة الكلمة، ودليل على الحرمات اللازمة للاسم لزوم السواد للعين، ولو لم يكن تحت (بِك) رجل، فإن تحتها على كل حال (بك). . .! وأنعم له الباشا، ووصل يده بيد ابنته فألبسها وألبسته، وأعلمها أبوها أنه قد فحص عن البك فإذا هو (بك) قوة مائتي فدان. . .! أما الأفندي فظهر من الفحص الهندسي الاجتماعي أنه (أفندي) قوة خمسة عشر جنيهاً في الشهر. .!
وخنس الأفندي وتراجع منخزلاً، وقد علم أن (الباشا) إنما زوج لقبه قبل أن يزوج ابنته، وأنه هو لن يملك مهر هذا اللقب إلا إذا ملك أن يبدل أسباب التاريخ الاجتماعي في الأمم الضعيفة، فينقل إلى العقل أو النفس ما جعلته (أمم الأكل والشرب) من حق المعدة، فلا يكون (باشا) إلا مخترع شرقي مفلس، أو أديب عظيم فقير، أو من جرى هذا المجرى في سمو المعنى لا في سمو المال.
وقدمت مائتا الفدان مهرها (الطيني) العظيم بما تعبيره في اللغة الطينية: ثمن عشرين ثوراً، ومثلها جاموساً، ومثلها بغالاً وأحمرة، وفوقها مائة قنطار قطناً، ومائة

أردب قمحاً، ثم ذرة، ثم شعيراً. والمجموع الطيني لذلك ألف جنيه، وعزي الباشا أنه مستطيع أن يقول للناس: إنها خمسة آلاف، اختزلتها الأزمة قبحها الله. . .!
ثم زفت (بنت الباشا) زفافاً طينياً بهذا المعنى أيضاً، كان تعبيره: أنه أنفق عليه ثمن ألف قنطار بصلاً، ومائة غرارة من السماد الكيماوي، كأنما فرش بها الطريق. . .!
وطفق الباشا يفاخر ويتمدح، ويتبذخ على الأفندي وأمثال الأفندي بالطين ومعاني الطين؛ فردت الأقدار كلامه عليه، وجعلت مرجعه في قلبه، وهيأت لبنت الباشا معيشة (طينية) بمعنى غير ذلك المعنى. . .
ومات الطفل؛ فردت هذه النكبة بنت الباشا إلى معاني انفرادها بنفسها قبل الزواج، وزادتها على انفرادها الحزن والألم؛ وألقت الأقدار بذلك في أيامها ولياليها التراب والطين.
ولج الحزن ببنت الباشا فجعلت لا ترى إلا القبر ولا تتمنى إلا القبر، تلحق فيه بولدها؛ فوضعت الأقدار من ذلك في روحها معنى الطين والتراب.
وأسقم الهم بنت الباشا وأذابها؛ فنقلت الأقدار إلى لحمها عمل الطين، في تحليله الأجسام وأذابتها تحت البلى
وكان وراء قصرها حِوَاء يأوي إليه قوم من (طين الناس) بنسائهم وعيالهم، وفيهم رجل (زبَّال) له ثلاثة أولاد، يراهم أعظم مفاخره وأجمل آثاره، ولا يزال يرفع صوته متمدحاً بهم، ويخترع لذلك أسبابً كثيرة لكي يسمعه جيرانه كل ليلة مفاخراً، مرة بأحمد، ومرة بحسن، ومرة بعلي. وأعجب أمره أنه يرى أولاده هؤلاء متممين في الطبيعة لأولاد (الباشوات). . . وهو يحبهم حب الحيوان المفترس لصغاره؛ يرى الأسد أشباله هم صنعة قوته، فلا يزال يحوطهم ويتممهم ويرعاهم، حتى أنه ليقاتل الوجود من أجلهم؛ إذ يشعر بالفطرة الصادقة أنه هو وجودهم، وأن الطبيعة وهبت له منهم مسرات قلبه، ذلك القلب الذي انحصرت مسراته في النسل وحده، فصار الشعور بالنسل عنده هو الحب إلى نهاية الحب. وكذلك الزبال الأسد.
ومن سخرية القدر أن زبالنا هذا لم يسكن الحِواء إلا في تلك الليلة التي جلست فيها بنت
الباشا على ما وصفنا، وفي ضلوعها قلب يفتت من كبدها، ويمزق من أحشائها.
وبينما تناجي بنفسها وتعجب من سخرية الأقدار بالباشا والبك، وتستحمق أباها فيما أقدم عليه من نبذ كفئها لعجزه عن مهر باشا، وإيثار هذا المهر الطيني، وتباهيه به أمام الناس، واندرائه بالطعن على من ليس له لقب من ألقاب الطين - بينا كذلك إذا بالزبال، كانس التراب والطين يهتف في جوف الليل يتغنى:
يا لِيل، يا لِيل، يا لِيل ... ما تِنْجِلِي يا ليل
القلب أهُو راضِي ... لَكْ حَمدي يا ربي
مِن الهمومْ فاضِي ... افرحْ لي يا قلبي
يا دُوبْ كِدا يا دُوبْ ... زَيِّ الحَمامْ عَايِشْ
ما يِمْتِلِكْ غِيرْ ثُوبْ ... طُولْ عمرُه فِيهْ نافِشْ. . .
يا لِيل، يا لِيل، يا لِيل ... ما تِنْجِلِي يا ليل
إن قلت أنا فَرْحَانْ ... دا مِينْ يِكَدِّبْنِي
وأكْتَرْ مِن السلطانْ ... فرحانْ أنا بابْنِي
بِين السيوف يا ناسْ ... لَم أنكَسَرْ سِيفي
وابْنِ الغِنَى مِحْتاسْ ... وأنا على كِيفي. . .
يا لِيل، يا لِيل، يا لِيل ... ما تِنْجِلِي يا ليل
وابنِ الغِنَى فِ هْمُومْ ... والخالي خالي البالْ
والفقْر ما بِيْدُومْ ... وتْدُومْ هموم المالْ
يا طِيْر، يا طِيْر، يا طِيْر ... الحُرّ فُوْقَ اللَّوْمْ
والخِيْر، جميع الخِير ... لقْمَهْ، وعافْيَه، ونُوْمْ
يا لِيل، يا لِيل، يا لِيل ... ما تِنْجِلِي يا ليل
ولم تختر الأقدار إلا زبالاً ترسل في لسانه سخريتها بذلك الباشا وبنت ذلك الباشا. .!
وكسْرُ قلبٍ بكسرِ قلبٍ ... وحَطْمُ نَفْسٍ بحطْم نفسِ

ورُبَّ عِزٍّ تراه أمسى ... كُنَاسةً هُيِّئَتِ لِكَنْسِ .!
(طنطا)
مصطفى صادق الرافعي
فردريش شيلر
بمناسبة احتفال ألمانيا بذكراه
للأستاذ محمد عبد الله عنان

منذ عامين احتفلت ألمانيا بذكرى شاعرها الأكبر (جيته) لمناسبة مرور قرن على وفاته؛ وتحتفل ألمانيا اليوم بذكرى شاعرها الثاني (شيلر) لمناسبة مرور مائة وخمسة وسبعين عاماً على مولده. وإذا كانت حياة الخالدين تمثل دائماً في الأذهان المستنيرة، فإن الاحتفاء بهذه الذكريات يضاعف الاهتمام بسيرتهم وآثارهم. ومن ثم فأنا نلتمس هذه المناسبة لنأتي على ترجمة الشاعر العظيم.

كانت حياة شيلر صفحة مؤثرة من ذلك الكفاح الذي يضطر إلى خوضه أصحاب المثل الأعلى حتى يفوزوا بمثلهم أو يزهقوا دونها؛ وقد أنفق حداثته وشبابه في خوض هذا الغمار، حتى إذا اكتملت له أسباب الفوز والطمأنينة، غادر هذه الحياة شاباً في إبان ظفره، وذروة خصبه، وروعة شاعريته؛ وكان مولده في العاشر من نوفمبر سنة 1759 في مدينة مارباخ الواقعة على نهر نكز في أسرة رقيقة الحال؛ وكان أبوه يوهان كاسبار جراحاً مساعداً في الجيش، استقر في مارباخ بعد عوده من الحرب وتزوج اليزابيث كودفايس، وهي ابنة صاحب فندق؛ فرزق منها أولاً بابنة تدعى اليزابيث؛ ثم كان مولد الشاعر، ثم ابنة أخرى تدعى لويزا. ونشأ الطفل فريدريش أو فرتز (شيلر) ضعيف البنية، كثير الحياء والوجل، وتلقى دروسه الأولى في مدرسة لورش، ثم انتقلت الأسرة إلى مدينة لودفجسبورج حيث نقل الأب، وكانت يومئذ مقام دوق فرتمبورج؛ وهنالك التحق شيلر (بالمدرسة اللاتينية)، وبدأ دارسة الأدب واللاتينية، وقرأ هوراس وأوفيد وفرجيل؛ وكان لأستاذه القس موزر أثر كبير في تكوينه. وفي سنة 1773 دخل شيلر (أكاديمية كارل) التي أسسها الدوق في شتوتجارت، ودرس الحقوق أولاً ثم الطب والتاريخ، وأظهر تفوقاً في اليونانية واللاتينية؛ بيد أنه لم يكن ميالاً إلى هذا النوع من الدراسة، وكان شغوفاً بالأدب، تهجس به في أوقات فراغه شاعرية قوية؛ وكان يكثر من قراءة هومير وفرجيل وكلوبشتوك شاعر ألمانيا في هذا العصر، وبتأثر تفكيره أيما تأثير. وفي ذلك الحين ظهرت قطعتان مسرحيتان قويتان هما: (أوجولينو) لجرستنبرج، و (جتزفون برلنخجن) لجيته؛

فتأثر شيلر بقراءتهما واتجه ذهنه إلى المسرح؛ وكتب بعض القصائد والمناظر المسرحية الأولى، ولكنه مزقها، ثم بدأ بكتابة روايته المسرحية الأولى: (قطاع الطريق). وفي سنة 1779 أتم دراسته وحصل على إجازته، وسنحت له بهذه المناسبة أول فرصة لرؤية الشاعر العظيم الذي ملأ صيته ألمانيا يومئذ، ونعني (جيته)؛ فقد وفد مع دوق فيمار على شتوتجارت في فاتحة سنة 1780 ليشهدا احتفال الأكاديمية بتوزيع الإجازات. وكان شيلر يومئذ فتى في عشرينه، يحمل إجازة الطب والجراحة، ولكن هوى الشعر يحمله ويملأ جوانحه. وكان يتوق إلى التعرف بزعيم الشعر وإمامه؛ ولم يكن يحلم أنه سيغدو في أعوام قلائل قرينه وزميله الأوفى. ولم يهتم جيته في هذا اللقاء الأول بأمر الشاعر الحدث الذي لم يسمع به أحد بعد، ولكن نجم الشاعر الحدث كان على وشك البزوغ. ذلك أنه ما كاد يعين على أثر تخرجه طبيباً في حامية شتوتجارت بمرتب يسير، حتى عكف على إتمام درامته (قطاع الطريق)، ولكنه لم يلق ناشراً يقوم بطبعها، فاقترض نفقات الطبع من بعض أصدقائه وظهرت القصة سنة 1781 غفلاً من اسم مؤلفها؛ وهي قطعة مسرحية عنيفة تحمل طابع البداية، وفيها يصور شيلر كثيراً من عواصف حداثته. ومثلت (قطاع الطريق) عقب صدورها في شتوتجارت، ثم مثلت في العام التالي في مانهايم؛ وأحدث ظهورها وتمثيلها ضجة كبيرة. ولكن شيلر لم يؤخذ بهذا النجاح الجزئي. وكانت وظيفته العسكرية تثقل على نفسه، فاعتزم مغادرة شتوتجارت خفية إلى أفق أوسع، وفي أكتوبر سنة 1782 غادرها مع صديق موسيقي يدعى شترايشر إلى مدينة مانهايم. وكان يحمل معه مخطوط درامة جديدة هي (فيسكو) فعرضها على مدير مسرح يدعى (دالبرج) فأعجب بها ومثلت بنجاح، وكتب في الأشهر التالية (المؤامرة والحب) ومثلت أيضاً. وكلتاهما

قرينة (قطاع الطريق) في طابعها العنيف وحماستها الساذجة. بيد أنه رأى المسرح لم يحقق أمله، ولم تسعفه موارد القطع التمثيلية، فاضطر أن يبحث للعيش عن وسيلة أخرى، ولكن في دائرة الأدب أيضاً، فأصدر مجلة أدبية نقدية اسمها (تاليا) وظهر العدد الأول منها في مارس 1785 وفيه قسم جديد من درامته الجديدة (دون كارلوس) ولكنها لم تستقبل بحماسة. وفي ذلك الحين جاء دوق فيمار إلى (دار مشتات) لزيارة صهره (اللاند جراف) وكان شيلر قد سمع كثيراً عن نبله ورفيع خلاله وتعضيده للآداب والفنون، فسار لرؤيته مزوداً ببعض خطابات التوصية، فاستقبله الدوق بعطف، وأذن له أن يتلو بين يديه الفصل الأول من (دون كارلوس) فاستحسنه وشجع المؤلف بكلمات طيبة، واستأذنه شيلر في أن يهديه قصته فأذن له، وأنعم عليه بلقب (مستشار) في خدمته، وهو لقب لم تكن له سوى قيمة أدبية واجتماعية.

وكان شيلر يومئذ فتى في الخامسة والعشرين يضطرم أملاً نحو العلياء والمجد؛ وكان يقضي حياة عاصفة في الدرس والتفكير والكتابة؛ وكان قلبه الكبير يخفق أحياناً للحب، ولكن في اعتدال ورزانة. ولم تحمل شيلر نحو النساء تلك النوبات الغرامية العاصفة التي كانت تملأ حياة جيته؛ ولكنه عرف الحب في تلك الفترة؛ وتعلق بادئ بدء بفتاة تدعى مرجريت شفان، وهي ابنة كتبي في مانهايم، وكانت فتاة ساحرة لعوباً خطرة الأهواء؛ وفكر شيلر في الاقتران بها ولكن أباها رفض في رقة وأدب لأنه لم يأنس في الشاعر بلا ريب مستقبلاً يحمل على الطمأنينة. ثم تعرف شيلر بعد ذلك على فتاة تدعى شارلوت دوستايم، وشغفت هي به حباً؛ ولكنها لم تلبث أن اقترنت بضابط يدعى (فون كالب)؛ وانتقلت معه إلى فيمار؛ واستحال حب الشاعر ومدام فون كالب بعد ذلك إلى صداقة حميمة استمرت مدى الحياة.

وأنفق شيلر في مانهايم زهاء عامين ونصف عام، وهو يشهد آماله تنهار تباعاً، وموارد العيش تضيق به. وأخيراً اعتزم أن يغادر مانهايم، وأن يهجر تلك المهنة التي لم تؤته قوته - مهنة القريض؛ وأن يلتمس العيش من مهنة أخرى مستبقياً للشعر أوقات فراغه؛ فغادر مانهايم بعد وداع ممزق لصديقه الحميم شترايشر؛ وقصد إلى قرية جوليس بالقرب من لايبزج حيث كان يقيم صديقه العزيز (كرنر) وكان كرنر ذهناً رفيعاً وقلباً كبيراً، ألفى فيه الشاعر مثل الصداقة الأعلى؛ فأقام إلى جانبه مدى حين في جوليس ثم في درسدن، وأتم في تلك الفترة قصته (دون كارلوس) (سنة 1786).

وكان ظهورها طفراً حقيقياً للشاعر، وكانت في الواقع بداية مجده، وحداً فاصلاً بين ماضيه الغامر ومستقبله الباهر. وكانت مدينة فيمار يومئذ كعبة الشعر ومقام إمامة جيته، وفيها يجتمع حول الشاعر الأكبر جمهرة من الشعراء والأدباء مثل هردر، وفيلاند، وماير، ويظللهم دوق فيمار جميعاً برعايته؛ وكان شيلر يفكر منذ حين في السفر إلى فيمار ليجرب حظه في ذلك المحيط الأدبي الزاهر؛

وكانت صديقته الحميمة مدام فون كالب تقيم هنالك منذ حين؛ وكان فيلاند يدعوه فوق ذلك للاشتراك معه في تحرير مجلته (مركور)؛ فقصد إلى فيمار في أغسطس سنة 1787، وقلبه مفعم بالآمال الكبيرة؛ فاستقبله الدوق بفتور، ولكن مدام فون كالوب استقبلته بعطف مؤثر؛ ورحب به فيلاند الشاعر أيما ترحيب، واشترك معه في تحرير مجلته؛ واشترك أيضاً في تحرير مجلة أخرى في (يينا) وترك مجلته الخاصة؛ واستمر يعاون فيلاند مدى عامين، ثم ترك التحرير معه، ولكنه لبث صديقه الحميم.

وفي سنة 1788، أقام شيلر حيناً في قرية (فولكشتات) الهادئة، وهنالك أتم قصته (الهائم)، وتاريخ (ثورة الأراضي السفلى) الذي بدأه من قبل

في ذلك الحين كان جيته في إيطاليا يطوف ربوعها؛ ثم عاد من رحلته في سبتمبر. وكان شيلر يرقب مقدمه ليراه ويتعرف به. وسنحت له هذه الفرصة؛ واجتمع بالشاعر الأكبر وصديقته مدام دي شتاين وهردر في منزل أسرة لنجفلد التي صاهرها شيلر فيما بعد. وهنالك رأى شيلر ذلك الرجل الذي بلغ ذرى المجد، والذي رآه من قبل لأول مرة في حفلة توزيع الإجازات عام تخرجه من المدرسة؛ وكان شيلر يعلق على هذه المقابلة آمالاً كبيرة؛ ولكن جيته استقبله بفتور ظاهر، ولم يكن قد لفت نظره إلى ذلك الحين. وكانت صدمة مؤلمة لشيلر؛ فكتب إلى صديقه كرنر يصف أثر هذا اللقاء في نفسه: (يلوح لي من كل الظروف أن الفكرة السامية لدي عن جيته لم يزعزعها هذا

التعارف الشخصي، بيد أني أشك أننا نستطيع أن نتقارب بأي وجه. إن قسماً عظيماً مما يزال يشغلني، ومما زلت أؤمل قد انتهى وقته لديه، والواقع أن كل شخصه يميل إلى ناحية غير التي أميل إليها، وبين وجهات نظرنا اختلاف جوهري. وعلى أي حال فلسنا نستطيع أن نستخلص من هذه المقابلة شيئاً مؤكداً أو ثابتاً. وسوف يعلمنا الزمن ما تبقى). ولما عاد شيلر إلى فيمار من مقامه المنعزل لم يحاول كثيراً أن يرى جيته. بيد أن فتور جيته نحوه لم يدم طويلاً فقد رأى في قصيدته (آلهة اليونان) جمالاً يلفت النظر؛ ويعترف شيلر من جهة أخرى بأنه كان من ذلك الحين يخشى نقد جيته، وأنه كان متأثراً بتلك العاطفة حينما وضع قصيدته (الفنانون) وتأنق في صياغتها.

على أن الذي لا ريب فيه هو أن لقاء الشاعرين - جيته وشيلر - كان من أعظم حوادث حياتهما إن لم يكن أعظمها جميعاً. وسرعان ما تحول ذلك الفتور الذي أبداه الشاعر الأكبر نحو زميله الفتي إلى حب وإعجاب خالصين، ولم تمض أعوام قلائل حتى توثقت بينهما أواصر صداقة عميقة؛ ولم يمنع تنافسهما النبيل في آفاق الشعر أن تبقي هذه الصداقة إلى الأبد، مقرونة بالوفاء الخالص والإعجاب المتبادل، وأن تغدو صفحة خالدة في تاريخ التعاون الأدبي. كان شيلر رجل المثل العليا، وفيلسوفاً ذا آراء ونظريات خاصة في الحياة. ولكن جيته كان رجل الحقيقة، يعرض ما في الطبيعة ويصوره كما يراه؛ وكان شيلر شاعر (الدرامة) وكان جيته شاعر الخيال والفروسية؛ ولكن كلا منهما كان جندياً عظيماً لبناء الآداب الرفيعة وتحطيم الآداب المبتذلة؛ وكان كلاهما قائد عظيم لحركة (العاصفة والدفع) التي كانت ظاهرة التفكير والآداب الألمانية في أواخر القرن الثامن عشر، والتي كانت ترمي إلى تحطيم القديم وتجديد كل شئ؛ وكان لهذه الصداقة الحميمة، وهذا التعاون الأدبي الوثيق بين الشاعرين الكبيرين أثره في نفس جيته وفي نظمه، يبدو ظاهراً في (أغانيه) وفي قصة (هرمان ودروتيا)، وغيرهما مما أخرج في هذا العهد.

وفي سنة 189 عين شيلر أستاذاً للتاريخ بجامعة يينا بمعاونة صديقه وأستاذه جيته، وفي العام التالي اقترن بالآنسة لنجلفد التي تعرف بها وبأسرتها قبل ذلك بأشهر قلائل؛ وبذلك استقرت حياته، وعاش في نوع من الصفاء والرغد؛ وانكب في هذه الفترة على دراسة التاريخ؛ وألف كتابه عن (حرب الثلاثين) وأصدر مجلة أدبية فلسفية بعنوان (الساعات) كانت نموذجاً بديعاً للتفكير الرفيع، وفيها كان يكتب أئمة العصر: جيته، وهردر، وكانت، وفخته، وماير، وانجل، وجاكوبي، وغيرهم؛ وكان لها أثر عظيم في سير الثقافة الألمانية والتفكير الألماني في ذلك العصر. وكان شيلر من أنصار الثورة الفرنسية التي كانت تضطرم في ذلك الحين، وظهر ذلك العطف في كثير من كتاباته وقصائده حتى أن (المؤتمر الوطني) الفرنسي منحه لقب (مواطن فرنسي).

وفي تلك الفترة أيضاً أخرج شيلر درامته القوية (فالنشتاين) (1799)، واستمر في تدريس التاريخ في يينا حتى سنة 1800، ثم استقال من منصبه، وعاد فاستقر في فيمار إلى جانب جيته؛ وهنالك أخرج عدة قطع جديدة: ماريا ستوارت؛ وعذراء أورليان وعروس مسيني فكان لصدورها جميعاً دوي عظيم؛ وكانت جميعاً من أبدع ما كتب.

واستقر شيلر في فيمار نهائياً، ولم يغادرها إلا ليزور برلين زيارة قصيرة ليشرف هنالك على إخراج بعض قطعه. وكانت فيمار يومئذ كعبة الأدب الرفيع، يجتمع فيها حول إمامي الشعر، جيته وشيلر، صفوة من أقطاب الشعر والأدب؛ وكانت صداقة جيته وشيلر أبدع وأروع مظاهر هذا المجتمع الأدبي الباهر. وفي سنة 1804 كتب شيلر درامته (ولهلم تل) فكانت أعظم قصصه وأروعها. والمعروف أنه استقى موضوعها من صديقه جيته، وكان جيته قد زار سويسرا قبل ذلك بقليل ودرس هنالك تاريخ تل بطل سويسرا القومي، وزار الأمكنة التي تقول الأسطورة إنها كانت ميادين بطولته، لينتفع بذلك الدرس في قصة يعتزم كتابتها عن تل. ولكنه لما عاد إلى فيمار نبذ الفكرة، وأعطى مواد دراسته إلى شيلر لينتفع بها هو؛ فاستقى منها موضوع قصته (ولهلم تل) فجاءت أبدع ما كتب، وأثارت من جيته أيما إعجاب. بيد أنها كانت أيضاً آخر ما أخرج شيلر. ذلك أنه مرض في أوائل سنة 1805، ومرض أيضاً جيته في الوقت نفسه؛ واشتدت عليهما وطأة المرض، حتى صرح جيته بأنه يشعر بدنو أجله، وأن أحدهما لا بد ذاهب. ولكن الذي توفي هو شيلر. توفي في الثامن من شهر مايو، في الخامسة والأربعين فقط، فوقع موته في فيمار وقع الصاعقة، وارتدت ثوب الحداد مدى حين.

وتلقى جيته نبأ الفاجعة وهو في فراش مرضه، فبعثت إلى نفسه أيما حزن، وسمع ليلاً وهي يبكي أحر بكاء. وكتب يومئذ إلى أحد أصدقائه مشيراً إلى فقد شيلر: (لقد فقدت نصف حياتي)، وغلب عليه الحزن حيناً فأضرب عن العمل والكتابة؛ والى ذلك يشير بقوله: (إن مذكراتي في هذه الفترة صحف بيضاء. والصحف البيضاء عنوان الفراغ في حياتي. ولم يك ثمة شئ يستهويني في تلك الأيام).

وهكذا مات شيلر في إبان مجده وذروة شاعريته، ولم ينعم بالحياة الناعمة المستقرة إلا ردحاً قليلاً؛ فكانت حياته كلها صفحة كفاح مستمر، بيد أنه خرج من هذا الكفاح ظافراً متسماً بميسم المجد والخلود. ولم يكن شيلر شاعراً مبدعاً فقط، ولكنه كان فيلسوفاً عظيماً، وفناناً كبيراً، ومؤرخاً بارعاً؛ وكان يؤمن بالثقافة كوسيلة لرفع الإنسانية إلى ذرى القوة والعظمة، ويرى أن الفن ليس ترفاً لذوي الفراغ والجدة. وليس لهواً يستمرئه الخامل، ولكنه قوة عظيمة ذات أغراض جدية وإن كانت وسائله شائقة سارة، وإن قرين الدين يعاون على تنظيم هذا العالم. وكان ذهناً ثائراً جريئاً جلداً يمجد بالحرية، ويمقت كل صنوف الاستعباد؛

وكان قلباً رقيقاً يفيض حساً وإنسانية؛ خبيراً بأسرار الطبائع والنزعات البشرية؛ وكان مؤرخاً بارعاً ينفذ إلى أسرار التاريخ، ويستوعبها بقوة ودقة. وهذه النزعة التاريخية الناقدة تبدو في كثير من قطعه المسرحية. ولو مد في حياة شيلر، كما مد في حياة صديقه جيته، لظفرت منه الآداب الألمانية بأضعاف ما ظفرت؛ وكان على الأرجح ينازع جيته إمارته في الشعر الألماني، بيد أنه مع ذلك يتبوأ إلى جانبه المقام الأول في عالم المجد والخلود.

محمد عبد الله عنان المحامي

7 - الشخصية

للأستاذ محمد عطية الابراشي المفتش بوزارة المعارف

وسائل تقوية الشخصية العملية:

قلنا فيما مضى إن الشخصية نوعان: عملية وفكرية، وذكرنا شيئاً عن الشخصية العملية، واليوم نتكلم عن الوسائل التي تقويها فنقول:

هناك وسائل لتقوية الشخصية العملية نذكر منها ما يأتي:

(1) تحديد الغرض ومعرفة الطريق الموصل:

إن تحديد الغرض في أي عمل من الأعمال مع معرفة السبيل الموصلة إلى ذلك الغرض من أهم الوسائل المشجعة للإنسان على الاجتهاد في العمل والسير فيه إلى النهاية من غير تردد. وبخاصة إذا صحب العمل بإرادة قوية، وثقة به. فمعرفة الغرض لها أثر كبير في نفوسنا، سواء أكان ذلك الغرض عادياً أم عظيماً. وإن نظرة واحدة إلى العالم تبين لنا أن لكل إنسان غرضاً يسعى ليدركه مهما اختلفت هذه الأغراض. ولكن المهم أن يكون الغرض محدوداً سامياً.

كلٌّ له غرض يسعى ليدركه ... والحر يعمل إدراك العلا غَرضا

فالصياد يقف على شاطئ البحر وعصاه في يده ينتظر بصبر عظيم وملاحظة دائمة، أملاً في اصطياد السمك وما فيه من لذة وإرضاء للنفس، وسائق السيارة يسير في طريقه مهما لاقى فيها من مطر أو ثلج أو ضباب أو غبار رغبة في الوصول إلى مكان معين، وقبطان الباخرة العظيمة في البحر الخضم يقود باخرته في طريق معينة نحو ميناء أو موان معينة في جهات خاصة. وهنا يتمثل تحديد الغرض، ومعرفة الطريق الصالحة، والتأكد منها والثقة بها. وإذا تمثلت هذه الأحوال العقلية في الشخصية الإنسانية كانت من أعظم القوى العملية في العالم. فينبغي أن يكون للشخص غرض معين من العمل يسعى ليدركه ويحققه بكل ما أوتي من عزيمة وقوة ومثابرة وثقة بالنفس؛ حتى ينتفع بقواه العقلية. قال (وردِسورث) شاعر الطبيعة من الإنجليز عن الأفراد الذين يسيرون في الحياة نحو أغراض معينة: (إن اجتهادهم ناشئ عن وازع نفسي ينير الطريق أماهم دائماً؛ فيقدرون جمال الطبيعة، ويعملون بما يعلمون، ويثابرون على التعلم).

وبعد الوصول إلى الغرض الأول أو المرحلة الأولى من الحياة يمكن التفكير في مرحلة أخرى وتحديدها والعمل للوصول إليها وهكذا إلى نهاية الحياة. قال عمر بن عبد العزيز: (إن لي نفساً تواقة لم تزل تتوق إلى الإمارة، فلما نلتها تاقت إلى الخلافة، فلما نلتها

تاقت إلى الجنة). وقيل: (ذو الهمة إن حط فنفسه تأبى إلا علواً، كالشعلة من النار يضربها صاحبها، وتأبى إلا ارتفاعاً).

الرغبة في العمل (2):

بعد تحديد الغرض من العمل يجب أن تكون هناك رغبة فيه وميل إليه؛ لأن الرغبة ترفع من شأن العمل الذي تقوم به.

تؤدي إلى الإقدام والنشاط وهما القوة الطبيعية للشخصية، وتكون كوازع نفسي أو باعث داخلي يستنهض همتنا ويستحثنا على العناية بالعمل.

تمدنا بالقوة التنفيذية، والإرادة الحق الضرورية للوصول إلى أغراضنا.

فالرغبة هي الدافع الطبيعي للإنسان نحو العمل مهما لاقى في سبيل ذلك العمل من متاعب ومصاعب. والرغبة الحق هي تلك القوة الروحية التي توحي إلى الشخص للقيام بالشيء بهمة لا تعرف الكلل ولا تقف دونها أي عقبة. فإذا وجدت الرغبة ثم وجدت الإرادة، سهل الطريق مهما كان شاقاً، والحاجة تفتق الحيلة. فإذا رغبت في معرفة صناعة غزل القطن ونسجه كان الذهاب إلى معمل الغزل والنسج أحب الأشياء إليك، وأخذت تشعر بأنه يجب أن تعرف كل شئ يتعلق بالقطن وأنواعه، وأين يزرع، وكيف يزرع، وكيف تتقي آفاته السماوية، وما الأحوال الجوية التي يتطلبها، وكيف يجنى، وكيف يوضع في الغرائر، وكيف يخزن، وكيف يرسل إلى السفن، وكيف يحلج، وكيف يغزل، وكيف ينسج.

وكذلك القول في رغبة (ابراهام لنكولن) في تحرير العبيد يوم ذهب مع بعض العمال إلى السوق، فوجد جارية تباع وتشترى فتألم لبيع الإنسانية وشرائها الألم كله، فتمنى لو أعطي سلطة حتى يضرب على الاسترقاق بيد من حديد، فأعطي الفرصة بعد زهاء ثلاثين عاماً بانتخابه رئيساً لجمهورية الولايات المتحدة بأمريكا فكان من أوائل أعماله العمل على تحرير العبيد. وقد أدى ذلك إلى حرب داخلية، ولكن النصر كان أخيراً في جانبه، وبذلك يعتبر محرراً للعبيد، مدافعاً عن الإنسانية المظلومة.

وإن شدة الرغبة في الإصلاح الاجتماعي هي التي جعلت (شارلز ديكنز) أكبر كاتب ومصلح اجتماعيبإنجلترا في القرن التاسع عشر. وإن الرغبة في شراء أسهم قناة السويس بعد التأكد من فائدتها هي التي خلدت ذكرى (دزرائيلي) بين الإنجليز، وجعلته يعمل بكل ما أوتي من قوة على تنفيذ الشراء مع شدة ما لقي من معارضة في مجلس الأمة، ومن معارضة مدير مصرف إنجلترا، وإن الرغبة في أعمال الآلات هي التي جعلت (أديسون) أكبر مخترع في القرن العشرين، والأمثلة كثيرة لا حصر لها.

فبغير الرغبة لا يستطيع الإنسان أن يقوم بعمل عظيم في الحياة. فإذا أردت القيام بعمل من الأعمال - سواء أكان ذلك العمل دينياً، أم اجتماعياً، أم أدبياً، أم علمياً، أم فنياً، أم حربياً - فأوجد الرغبة الصادقة وهي كفيلة بالتنفيذ والنجاح في ذلك العمل.

والرغبة نوعان: مباشرة وغير مباشرة؛ فالمؤلف الذي يؤلف كتاباً، أو يكتب مقالة لصحيفة يومية، يجب أن يكون تأليفه وكتابته عن رغبة حقيقية إذا أراد أن يكون لعلمه قيمة علمية أو أدبية، فالرغبة في العمل هي الشرط الأساسي للتقدم والنجاح فيه.

ولكن هل الرغبة وحدها تكفي للنجاح؟ الحق أنها لا تكفي، بل ينبغي أن يكون هناك بعض التشجيع الأدبي أو المادي؛ لأن المؤلف أو الكاتب قد لا يكتب حباً في الكتابة فحسب، بل قد يكتب ليعيش، أو ليحصل على ضروريات الحياة أو كمالياتها. فهو ينتظر تشجيعاً، ويجب أن يشجع بتقدير عمله وإعطائه ما يستحق وحينما توجد الرغبة المباشرة الطبيعية في العمل، ثم تصحب برغبة أخرى غير مباشرة كالربح المادي أو المركز الأدبي فإننا لا نتردد أن نقول: إن النشاط يتضاعف والاجتهاد يستمر والعمل يزداد حسناً، ودواعي النجاح تكون أقوى وأشد، لأن الرغبة متوفرة من كلتا الناحيتين المباشرة وغير المباشرة.

ولا ننكر أن المثل الأعلى هو أن نعمل حباً في العمل، ونؤدي الواجب رغبة في أداء الواجب، ونقوم بالشيء من غير أن ننتظر جزاءاً أو شكوراً، ولكن من حيث أن الإنسان إنسان فهو يفكر دائماً في النتيجة، وفيما يعود عليه من المنفعة والمكافأة على العمل، وهذه المكافأة نوع من التقدير يشجعه على العمل، ويدفعه إلى أدائه كما ينبغي وكما

يجب أن يكون، وكلما كانت المكافأة قيمة زادت الرغبة فيها وكثر التلهف عليها والعمل على نيلها.

ومعظم الأعمال التي نقوم بها يومياً من قبيل الأعمال التي نؤجر عليها. ويجب أن نصرح بأنه لولا الأجور والمرتبات التي يتقاضاها العمال والموظفون ما قام أحد منهم بعمل قيم.

ولا تكفي الرغبة غير المباشرة - كالرغبة في الأجر - للنجاح في العمل واكتساب شخصية قوية، بل لا بد أن تصحب برغبة طبعية وميل حقيقي نحو العمل نفسه، وإلا كان مكروهاً لدى النفس، تبغضه، وتنتظر بفارغ الصبر التخلص منه، كما هو حال العامل الذي لا يجد لذة في عمله، فيترقب انتهاء اليوم ومجيء ميعاد الانصراف بكل صبر، ونحن لا نبغي إلا عملاً مصحوباً بلذة ورغبة وسرور، حتى ننجح في ذلك العمل ونجيده ونجد شوقاً إلى العودة إليه، ونظهر فيه تفوقاً ومهارة. ومن الصعب أن تنبغ في عمل غير محبوب إليك.

يتبع

محمد عطية الابراشي

ليلة في مضارب النَّوَر

للأستاذ عبد الحليم عباس

في سهول حوران التي ليس للأفق في فسيحها حد، وقف الليل يصغي لهذه الفتاة النورية تعبر عن شجو شعب لفظته الحياة، فلفظها وفي صدره غصة، وفي قلبه جرح لا يلتئم.

غنت ورقصت كالطير الذبيح.

وكانت أغانيها صدى لهذه الغربة الطويلة.

من بدء الخليقة زمّوا رحيلاً، يفتشون لهم عن وطن، كادوا يبلغون حد الأفق، ولما يجدوا مبتغاهم، كل شبر فيها ممتلك، وراء الأفق. . . وراء الأفق، عل لكم به داراً.

والتمعت الكواكب، فكأنها قلوب تجف، أو عيون تذرف فاطّلعت إليها، وكأنما ادّكرت أوطاناً مجهولة، وأحباباً خلفتهم عند مطلع الشمس، فاندفعت تغني ما أنقل معناه، وكان غناؤها في هذه النوبة بالغاً في أساه، مشجياً في تعابيره، يحمل في ثناياه ريح الكبد المحروق. قالت:

(إيه يا ليل الشجن، ليت جوانبك الفسيحة تطوى، وآفاقك المترامية تتضام على نفسها، فإذا هي في مدى النظر دار وأيكة، نجلس فيها مع الحبيب، لا يفزعنا النوى ولا تطوح بنا المقادير.

إيه يا ليل الشجى: ظننا الغربة يوماً وليلة، وما علمناها العمر كله، فمتى تكون الرجعة، ومتى نلتقي والأحبة.

إيه يا ليالي، خلفناهم شباباً فبعد عشرين عاماً كيف آضت لممهم السود المعطرة، وشفاهم الريانة بخمر الحياة؟ كيف أضحت وجناتهم الناعمة؟ هل جعدها النوى وغضنتها السنون؟ وقاماتهم المنتصبة كالغصن الرطيب، أظنها انحنت تحت ثقل العمر والشجون. . . ليتني صخرة صماء مشدودة إلى هاتيك الربوع التي أحببت فيها حبيباً لم يغدر ولكن غدرت بنا الحياة.

إيه فتاتي! أوصيك ألا تلقي السمع لكلمات الحب تند عن أفواه الشباب الجملية، ما برح مكتوب على شعبك النوري جوب الأرض، وذرع هذه الفلوات. فموت القلب بالخلو من الحب، أخفُّ من احتراقه في جحيم الذكريات.

أغمضي عينيك عن الهوى، عن النعمة الكبرى، فلو كنا أهلاً لها، لبرئنا على غير هذه الشاكلة. . .).

إلى هنا وكأنما طغت موجة الحزن في نفسها، وكأنما فتحت لها الأنشودة عالماً من الذكريات الشجية فجلست مجهودة لاغبة.

وكنا في مضاربهم أربعة، كلنا يفهم الحياة إلى غير الوجه الذي يفهمها عليه الآخر، فمنا من يطلب فيها اللذة، ومنا من لا يبالي بلذتها وألمها، ومنا من لا يرى فيها متسعاً للذة، ومنها من يجدف عليها في الصباح، ويهزأ بها عند المساء، وفي الليل يدب إلى لذائذها يعصرها حتى لا يدع فيها بقية؛ ونحن وإن اختلفنا فيها كثيراً نلتقي على شعور بعينه، وهو الحس بألم الغير، والرثاء لآلام الناس.

فكان من هذا أن هزنا شعور طيب، هو مواساة هؤلاء المناكيد فكففنا عن طلب الغناء.
وساجلهم الحديث منا فتى لبق. قال وهو يوجه كلامه إلى هذه التي غنت وجلست هامدة، كأنما ذابت روحها مع أغانيها:
- ألك أخوة يا عزيزتي؟
- نعم، ثلاثة، واحد دفنته في الصين، وأخر واريته في طيبة، والثالث على قيد الحياة.
- كلنا سنموت، فكيف رأيت هذه الديار؟
- هي دياركم أنتم، أما دارنا، فهذا البيت الممزق، وظهر هذا البهيم.
قال وهو يحبُّ أن يمزج الجد بالدُّعابة ليخفف هذا الألم الطافح ويستل هذا الحزن المستعصي:
- ليست الأرض ملكاً لأحد، أما سمعت قول الأديب الأكبر، أهون عليّ أن أتصور الإنسان ملكاً للجبال، ولا أتصور الجبل ملكه. ملكه كيف؟ أيستطيع أن يحمله؟
- لا أفهم ما تعني.
- ستفهمين، أجمل ما على أديم الأرض هذه الزهور الناجمة تميس بقاماتها، وأجمل ما فيها هذا العطر يفوح، فهل يملك عطر الزهرة؟ هل تُحجب وجنة السماء عن أعين الرائين؟ أبهج ما في الحياة ملك الجميع، وما بقي فأقوات وفضلات يشترك الإنسان فيها مع أدنى المخلوقات.
- صحيحٌ هذا، ولكن هذه أشياء ليس لنا منها أدنى فائدة، أنأكل الكواكب؟ أم نقتات بهذا الذي تنشره الزهرة؟
فبهت صاحبنا
فنبهناه إلى غلطته، والى أن هذه التي يخاطبها أضيق عقلاً وأسف إدراكاً من أن تفهم مجالي الفن الرفيع.
فلم ييأس، وعاد يفهمها، ويأتي باللفظ القريب إلى عقليتها، يقول: إنها لا تقيت، ولكن فيها شيئاً أثمن من القوت، وهل خلق الإنسان لملء بطنه فحسب. . . هل أحببت؟
فكأنها خجلت من هذا السؤال الثائر، فرمت برأسها إلى الأرض، فعاد يلح عليها بالإجابة.
- نعم، أحببت، والنَور شعب لا يخجل من المصارحة بمثل هذه الأحاديث.
- وهل في الحب لذة؟
- نعم يا أفندي.
- أيهما أكبر لذة، الحب أم القوت؟
- الحب يا أفندي. . .
- إذن في الدنيا أشياء كثيرة أثمن من القوت، أفهمتِ؟
- نعم.
- وهذه الأشياء يتساوى فيها الغني والفقير، والأمير والحقير، بل إن حظ الصعاليك ليربو في بعض الأحايين على حظوظ ذوي الجاه العريض والمنازل الرفيعة.
فصمتت، وكأنها تفكر وتزور حديثاً، وبعد حين قالت: والغربة، هل يستقيم معها نعيم؟
أنظر هانحن أولاء نقيم هنا بعضاً من أشهر الصيف، فإذا جاء الشتاء بقره، اضطررنا إلى النزوح كارهين، فنحن نقضي العمر كله رحيلاً، ولو شئت لقلت حنيناً، نحن إلى هذه المرابع، وغدا نحن إلى غيرها إذا أنسنا بها، وهكذا نقضي العمر بالذكريات الموجعة، والحنين الذي يُقطع نياط القلوب.
قال: اسمعي، ليس على ظهر هذا السهل - سهل حوران - الممتد شمالاً حتى أذيال الشام، المنفسح غرباً إلى سفوح هذه الجبال التي شاقها منظر سماء عجلون، فنهضت إليها بغابات الصنوبر، وملتف أشجار السنديان والبلوط، لتقبل وجنتها. . . وليتك ترينها في الصباح، والضباب يلفها في مثل غلائل العروس وهي تجاهد بنسيمها المنعش، ونداها العطر لترى
السماء، فتمزق الردن تارة، وتشقق البنائق أخرى، وهي في كل ذلك آية في السحر والجمال والجلال. . أقول ليس على هذا السهل أخلد حياة، وأكبر فؤاداً وإحساساً من صديقكم شاعر الواد.
- أعرفتِه؟
- نعم، فهو يزورنا في غالب لياليه، ويبقى حتى مطلع الفجر. .

- هذا الشاعر الضائع يا فتاتي، هو في هذا السهل أضيع منكم غربة، يذيب كبده في لحنه، وتسيل روحه على قوافيه. . . ولا من يسمع.
- كيف!؟ إنه لا يحضر إلا ومعه لفيف من صحبه وخلطائه فكيف يكون غريباً في دياره وبين أحبابه؟
- هو غريب وحيد، يأتيكم ليأتنس بكم، هو غريب لأنه لا يجد صدى لروحه، وليست تقاس الغربة ببعد الشقة والنأي عن الوطن، وإنما تقاس بما بين الأرواح والأرواح من تفاوت وتقارب، كم من ضجيعين على مهاد واحد بينهما من البعد ما بين ذاك النجم وهذا الوتد.
فهزت النورية رأسها فعل الحائر الذي لم يفهم.
وكنا ضقنا بصاحبنا ذرعاً، وأسمعناه من قوارص اللوم والاستخفاف بفلسفته التي جاء يلقيها في مضارب النَوَر شيئاً كثيراً، وكأنه تعب. . فلم يعمل في هذه المرة على إفهامها. . . فقلنا له متندرين مالك؟ عد إلى وصول قولتك، وشرح فلسفتك.
قال: أطلتم اللوم، لقد نلنا مبتغانا، أما كان عزمنا أن نذهب بشيء من ألم هذه الفتاة، فها هي الابتسامة تسيل على شفتها، وشفاه عدة من قومها، قلنا: غلطت يا أستاذ، فما هي ابتسامة الصفو، وإنما هي ابتسامة الاستخفاف بك، والهزء من أقوالك.
- ليكن، فما يضيرني أن أكون ساعة موضع سخرية النَّور. .
وطلعت علينا الشرطة، فخفقت قلوبهم، فراحوا يلملمون أنفسهم، ويلقون علينا نظرات الرجاء أن نكفيهم شر هذا البلاء فكنا عند حسن ظنهم.
وقمنا إلى السيارة، ولما تبوأنا مقاعدنا جاءت النورية وهمست في أذن صاحبها:
- أيوجد مثلنا أناس يذوقون حر سياط الجنود الغلاظ الأكبد؟ وهل يساوينا أحد في هذه النعمة؟
- نعم يا فتاتي، ليست هي على ظهوركم بأشد نكاية وألماً وأثقل وطأة منها على ظهور الأحرار.
- ومن هم الأحرار؟؟
لا أدري، أخشى سياطهم إن تفوهت، وتلمس جنبه كأنما أحس بألمها، هم، هم صفـ. . . وة رجال الو. . . طن، في كل أمة، سلي عنهم مصر. . .! وضاع الصوت في لجب هذه الرعناء.
شرق الأردن
عبد الحليم عباس
حول مقال الشخصية
جاء في العدد (68) من مجلة الرسالة الغراء في مقال الأستاذ محمد عطية الأبراشي عن الشخصية بعض الأخطاء من الوجهة العلمية:
فقد قال الأستاذ:
والغدد النكفية وهي غدد صغيرة اسفل العنق ولها صلة بالذكاء، فإذا كانت قوية) (2) الإفراز كان الشخص ذكياً وبالعكس.)
ومن المعلوم أن الغدد النكفية هي الغدد التي بجوار الأذن وليست بأسفل العنق، وتسمى بالإنجليزية وليس لها أي دخل في الذكاء، بل كل إفرازها يصب في الفم بواسطة قناة يقرب طولها من الثلاثة سنتيمترات، ووظيفة إفراز هاتين الغدتين كما دلت كل التجارب هي تحويل النشويات إلى (ملتوز) ولها وظيفة ثانية هي المساعدة على ازدراد الطعام وتليينه وليس لها غير هاتين الوظيفتين.
أما قوله بأنها غدد صغيرة في أسفل العنق فأضنه قد أراد الـ وهذه الغدد أيضاً ليس لها تأثير كما هو ثابت على الذكاء بل تأثيرها على (الكلسيوم) الموجود بالدم ومن ثم على العظام نفسها، ولهذه الغدد وظيفة أخرى خاصة بالأعصاب، إذ لو قطعت هذه الغدد لأصبح تأثر العضلات سريعاً ولاشتدت قوة انقباضها، وليس لها غير ذلك كما ثبت بالتجارب وقد يكون لها، لكن العلم لم يقل كلمته بعد
وقد سمى حضرته الـ بغدة تفاحة آدم، وأضن أن من المستحسن إطلاق الاسم العربي المتداول وهو الغدة الدرقية فهو أسهل وأقصر
محمد رضوان بكلية الطب

بين فن التاريخ وفن الحرب
خالد بن الوليد في حروب الردة - 7
للفريق طه باشا الهاشمي رئيس أركان الجيش العراقي
لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما في بدني شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة، وهاأنذا) أموت على فراشي كما يموت البعير! فلا نامت أعين الجبناء(
خالد بن الوليد.
معركة بزاخة:
يقول ابن الكلبي إن بزاخة ماء لبني أسد، ولم يوضح لنا ياقوت هذا المحل في معجمه، والذي يلوح لنا أنه في جنوبي فيد في وادي الغمير على الطريق الذي يصل فيد بالبريدة. فالأرض فيه سهلة وهي صالحة للقتال.
ولعل المعركة وقعت في نهاية أيلول (سبتمبر) أو في نهاية تشرين الأول (أكتوبر) إذ مضى على حركة خالد من ذي القصة ما يقارب الخمسة عشر يوماً، وبعد أن أمن خالد جانب طيواستنجد بهم تقدم رأساً نحو بزاخة يريد طليحة.
وتقدمت أمامه قوة استطلاع بقيادة عكاشة بن محصن وثابت بن أقرم، وتدل الأخبار على أن المرتدين باغتوا هذه القوة وقتلوا قائديها، وكانا من فرسان المسلمين المشهورين، وكان جيش طليحة متأهباً للقتال يقود بني أسد سلمة أخو طليحة، ويقود فزارة عيينة ابن حصن ومعه سبعمائة فارس من فزارة.
ومن الروايات ما يدل على أن خالداً وقف بالغمير قبل شروعه في القتال، وإن كانت الرواية التي يرويها الطبري نقلاً عن سيف لا تذكر ذلك بوضوح، وخلاصة الرواية أن أحد المسلمين أخذ رجلاً من بني أسد فأتى به خالداً، وكان الرجل عالماً بأمر طليحة فسأله خالد عما يعلمه عن طليحة.
وموقع الغمير رابية تشرف على مياه بزاخة واسمه في الخريطة جبل الغمير ومنه ينصب وادي الغمير.
ولعل خالداً أرسل قوة الاستطلاع من هذا الموقع ليستكشف قوة العدو وموضعه وجيش
المسلمين في موضع مسيطر. ولعل عكاشة وثابتاً قتلا لما كانا يقومان بالاستطلاع فقتلتهما الطليعة التي أوفدها طليحة بقيادة أخيه سلمة فنصب كميناً لقوة الاستطلاع وباغتها، ولما اطلع المسلمون على مقتل عكاشة وثابت هالهم الأمر.
ومن الروايات ما يشير إلى أن خالداً لم يزور عن طريقه كما تقدم من ذي القصة إلى بزاخة إلا بعد ما رأى الجزع المستولي على أصحابه عند مقتل عكاشة وثابت فمال بهم إلى حي طيء وقال لهم: (هل لكم إلى أن أميل بكم إلى حي من أحياء العرب كثير عددهم كثير شوكتهم. . . الخ).
ولعل هذه الروايات ذكرت لتسويغ ازورار جيش خالد عن طريقه نحو بلاد طيء على ما أثبتناه فيما تقدم، إذ لا يعقل أن يصيب المسلمين الجزع بمجرد أن يقتل منهم فارسان، والروايات ذاتها تذكر قتل عكاشة وثابت بيد طليحة وأخيه سلمة بمعنى أن القتال وقع بالقرب من بزاخة فيكون من الصعب أن يدير خالد ظهره ويترك عدوه ويتوجه نحو بلاد طيء بينما كان أهلها مترددين.
والواضح من هذه الروايات أن خالداً قدر سير الموقف قبل مسيره من ذي القصة القتال.
رتب خالد جيشه في خط القتال وجعل الأنصار والمهاجرين في الميسرة ورجال القبائل في الميمنة، ولعل أهل طيء كانوا في القلب مع بعض القبائل.
أما جيش طليحة فكان عيينة بن حصن مع سبعمائة فارس من فزارة في الصف الأول، وكان طليحة بن خويلد في القلب يشرف على القتال، وفي أطرافه أربعون فتى من بني أسد استماتوا في الدفاع عنه. وكانت راية بني أسد حمراء رآها المسلمون من بعيد.
وتدل الأخبار على أن القتال بدئ بهجوم الفريقين أحدهما على الآخر، فكان عيينة بن حصن يقود الفرسان، أما حبال وسلمة أخوا طليحة فكانا يقوم المجنبتين من جيش الأعداء.
ويذكر الواقدي نقلاً عن رجل من هوزان حضر قتال بزاخة أن المسلمين فازوا

بالمعركة بفضل البطولة التي أبداها خالد بن الوليد.
ويقول الراوي أن ميمنة المسلمين ارتدت على أعقابها لما هاجمها الأعداء فأثر ذلك في الميسرة فانسحبت بدورها، فتدارك الأمر خالد بحملته على الأعداء وندائه يا أنصار الله!
الله! فحمس هذا النداء المتراجعين وكروا على الأعداء ملتفين حول خالد فتقاتل الفريقان بالسيوف، فترجل خالد عن ظهر جواده وحارب راجلاً، ولما رأى أصحابه أن الخطر محدق به التمسوا منه أن يترك خط القتال ويقف في الوراء ويقود الجيش إلا أنه امتنع عن ذلك. وفي رواية أخرى للكلبي أن المسلمين لما تراجعوا أتى رجل من طيء خالداً وكلفه بالاعتصام بجبلي سلمى وأجأ، إلا أن خالداً رد طلبه قائلاً إنه يعتصم بالله.
وبقي طليحة في القلب إلى قتل فتيانه جميعاً فانسحب إلى الوراء والتف بكسائه يتحين الفرص. ولما ضاقت الدنيا بعيينة بن حصن سأل طليحة هل جاء الوحي وهذا يقول له لا فيرجع يقاتل، وفي الكرة الثالثة قال طليحة لعيينة إن الوحي يقول له: (إن لك رحى كرحاه وحديثاً لا تنساه) فتأكد عيينة أن الدائرة تدور عليه، فنادى يا بني فزارة انصرفوا فهذا والله كذاب. فانصرفوا وانهزم الناس.
أما طليحة فأعد فرسه وهيأ بعيراً لامرأته فوثب على فرسه وحمل امرأته ثم نجا بها، ولما سأله قومه ماذا يأمر، قال (من استطاع منكم أن يفعل مثل ما فعلت وينجو بأهله فليفعل).
ووقع عيينة أسيراً بيد خالد فكبله بالحديد وأرسله مخفوراً إلى المدينة.
وكان المرتدون تركوا عيالهم خلفهم في محل أمين لكي لا يسبيهم المسلمون، لأن العرف كان يقضي في ذلك الزمان بسبي النساء واتخاذهن إماء، ولم تنته المعركة حتى عاد الكثير من بني أسد وفزارة إلى خالد وجددوا إسلامهم خشية على الذراري. واغتنم المسلمون غنائم كثيرة في معسكر الأعداء من جمال وحمير وسلاح وغير ذلك.
لم يكتف خالد بهذه الغنائم بل أوفد السرايا إلى جهات مختلفة لمطاردة المنهزمين والتقت لهم في جبل رمان في جنوب جبل سلمى وفي الأبانين على جانبي وادي الرمة وهما رابيتا أبان الأسود في شمالي الوادي وأبان الأبيض في جنوبه وأسرت كثيرين منهم وصادرت خيلهم وسلاحهم.
ولما نشب القتال بين المسلمين والمتردين في بزاخة كان بنو عامر بن صعصعة على الحدود يراقبون مجرى القتال وينتظرون العاقبة.
وبعد أن انتهى خالد من أمر بني أسد وفزارة عرج على حي طيء ومكث بين أكناف سلمى وأجأ، ولعله أراد بذلك أن يقرب من حي بني عامر وينهي أمرهم. هذه القبائل كانت في
الأرض الواقعة إلى شمال شرقي بلاد طيء بين الدهناء وجبل شمر.
فأوفد بنو عامر وغطفان وفودهم إليه وجددوا إسلامهم. يبدو أن خالداً لم يكتف بذلك بلفرض عليهم جانباً كبيراً من السلاح جزاء ترددهم كما أنه جمع سلاحاًمن بني أسد أيضاً.
وكان للسلاح شأن كبير في هذه الحروب، وكان المسلمون بحاجة إليه لجهزوا به الجيوش، وسبق أن أغنياء الصحابة في عهد الرسول كانوا يجهزون المقاتلين للغزوات.
واحتفظ خالد بهذا السلاح ووزعه بعد ذلك على رجال القبائل الذين أسرعوا إلى الانضمام إلى جيشه كما وثقوا بالنصر.
القتال في ظفر:
تدل الأخبار على أن خالداً لم يمهل الشاردين بل إنه لما علم أن أم زمل سلمى جمعتهم حولها في ظفر وشجعتهم على المقاومة توجه فوراً نحوها فقاتلها قتالاً شديداً وهي واقفة على جمل أمها أم قرفة تحمسهم على القتال، وقد اجتمع على الجمل جمع من فرسان المسلمين فعقروه وقتلوها وقتل حول جملها كما تذكر الرواية مائة رجل. وكان قيام أم زمل وتشجيعها للناس على قتال المسلمين طلباً للثأر.
المطاردة:
ورب منتقد يعتب على خالد إهماله المطاردة بعد انتصاره في بزاخة إذ كان في وسعه أن يطارد الأعداء ولا يمهلهم للمقاومة مرة أخرى، إلا أن العتاب ليس في محله، لأن

القتال في البادية مع القبائل لا يشبه القتال في الحواضر، فالقبائل بعد أن تغلب تنهزم إلى جهات مختلفة بعد أن تترك حيها وتلجأ إلى الأحياء القريبة وتستنجد بها ولا تقصد هدفاً ترمي إليه. وكان خالد مضطراً إلى البقاء في بزاخة ليقبل إسلام المرتدين ويعاقب من مثل بالمسلمين منهم عملاً بوصايا أبي بكر.

وكان خالد قبل ذلك أوفد السرايا إلى أنحاء مختلفة ليقضي على المتشردين فقاتلهم في جبل رمان على حدود طيء، وقاتلهم في الأبانين على حدود بني سلم، وقاتلهم في النقرة على حدود بني تميم فكل ذلك يدل على أن خالداً استثمر نصر بزاخة ولم يمهل المنهزمين بل طاردهم بكل شدة.

يقع موقع ظفر كما يذكر ياقوت الحموي بالقرب من حوأب، وهذا على الطريق بين البصرة والمدينة. كانت عائشة قد تشاءمت من نباح كلابه لما رحلت من المدينة إلى البصرة للاشتراك في وقعة الجمل. ولعل موقع ظفر يبعد عن بزاخة مسافة مرحلتين وهو إلى شرقي كهفه. فالفلول الشاردة من بزاخة التجأت إليه، وكانت أم زمل تحرضهم على الاجتماع فيه لمقابلة خالد. فالمسافة بين بزاخة وظفر يجب أن تكون بعيدة بدرجة أنها تساعد الفلول على الاجتماع مرة أخرى للقتال.

تقدم مسير خالد نحو البطاح لقتال بني تميم

البطاح: - لا نعلم بالضبط المدة التي قضاها خالد في حي بني أسد بعد أن انتصر على طليحة في بزاخة. والمؤكد أن خالداً استثمر فوز بزاخة فقام بمطاردة فلول الجيش المنهزم، ولما سمع أن بعض الفلول اجتمع في ظفر تحت راية أم زمل تقدم بجيشه إليهم وهزمهم شر هزيمة كما أشرنا إلى ذلك فيما تقدم.

والظاهر من ذلك أن خالداً قضى أكثر من شهر في حي بني أسد على أقل تقدير، ولما استتب له الأمر في نجد وتأكد معونة طيء ودان له بنو عامر وبنو صعصعةانتهز الفرصة ليتقدم نحو بني تميم.

وكان بنو تميم من أقوى القبائل العربية لكثرة عددها وخصب أرضها وشدة بأسها. وتنقسم هذه القبيلة إلى أربعة أقسام:

القسم الأول - الرباب وهم من شعب ضبة وعبد مناف.

القسم الثاني - عوف والأبناء ومقاعس وبطون وهم من شعب سعد بن زيد مناة.

القسم الثالث - يهدي وخضم وهم من شعب بن عمرو.

القسم الرابع - حنظلة ويربوع وهم من شعب بني مالك.

وكان الزبرقان بن بدر يترأس رباب وعوفاً والأبناء، وقيس ابن عاصم يترأس مقاعس والبطون، وصفوان بن صفوان يترأس بطن يهدي، وسيرة بن عمرو يترأس بطن خضم، ووكيع بن مالك يترأس بني حنظلة، أما مالك بن نويرة فيترأس بني يربوع وهم فرقة من بني حنظلة.

وكان بنو يربوع يسكنون أرض الحزن غربي الدهناء، أما بنو حنظلة فيسكنون الدهناء والصمان، وأرض الصمان في شرقي الدهناء، والحزن والصمان كلاهما ذو مراع خصب يضرب بها المثل.

وكان من حسن حظ المسلمين أن هذه الشعب والبطون لم تكن متصافية فيما بينها، ويظهر أن الخصومة كانت متأصلة فيها من قبل الإسلام. فصفوان وسبرة متفقان، أما قيس بن عاصم فخصم للزبرقان.

وكان الزبرقان وصفوان يميلان إلى المسلمين وينتظران المعونة منهم ليتفوقا على خصومهما. أما قيس بن عاصم فكان متردداً. وأما وكيع بن مالك ومالك بن نويرة فتظاهرا بالعداء للمسلمين، وكان العداء متأصلاً في نفوس الرؤساء لدرجة أن البطون والشعب كانت تتقاتل.

ولما ظهرت سجاح اشتد هذا العداء، وادعت سجاح النبوة في بني تغلب في أرض الجزيرة بين دجلة والفرات، وهي ترتبط ببني يربوع برابطة القرابة، فجمعت حولها جموعاً من بني تغلب وبني نمر وبني أياد وبني شيبان، وتقدمت بهم إلى بلاد بني تميم، ويدل مجرى الوقائع على أنها ادعت النبوة قبل وفاة الرسول.

ماذا كانت تقصد سجاح بمسيرها جنوباً نحو بلاد تميم؟ هل أرادت أن تمهد السبل لتأسيس مملكة بين العراق ونجد تضم فيها قبائل بني تغلب والبعض من بطون بكر وبني تميم؟ أو أنها أرادت الهجوم على المدينة كما يروي سيف بن عمر؟ ثم هل

شرعت في المسير قبل وفاة الرسول أو إن وفاته شجعتها على المسير؟ هذه أسئلة تصعب الإجابة عنها بصورة جازمة. والذي يلوح لنا أنها لم تكن تقصد لا هذا ولا ذاك، ولعلها برزت بالكهانة وأحسنت السجع فالتف حولها الناس، وأرادت أن تستغل نفوذها فسارت برجالها، وكلما مشت كثر أتباعها حتى أدى بها المسير إلى الدخول في أرض بني تميم. ومع ذلك فمن المحقق أنها بدخولها ديار بني تميم أرادت أن تستفيد من القرابة التي تربطها بهم. وهذه القرابة غير واضحة، ومن الرواة من يزعم أنها تميمية من بني يربوع وأخوالها من بني تغلب، ومنهم من يدعي أنها تغلبية وبنو يربوع أخوالها. والواضح من أخبار الرواة أنها دخلت بلاد بني تميم بعد وفاة الرسول. وكان دخولها مما زاد الشحناء بين رؤساء بني تميم فأراد كل منهم أن يستغلها لمصلحته، والغريب في أمر بني تميم أنهم لم يخضعوا لرئيس واحد أسوة بالقبائل الأخرى، فكان لبني أسد رئيس ولبني حنيفة رئيس ولغطفان رئيس وهلم جرا.

يتبع

طه الهاشمي

في الأدب الدرامي

الرواية المسرحية في التاريخ والفن - 13

بقلم أحمد حسن الزيات

الدرامة في خلال القرون

كان لهذا النوع أوائل في أدب الإغريق واللاتين ظهرت في أشكال مختلفة وأسماء متعددة، وظلت محافظة على وجودها أثناء العصور الوسيطة وبعد عصر النهضة في ثوب الرواية الجدية الهزلية، ولكن الدرامة بمعناها الحديث لم تعرف إلا في القرن الثامن عشر حين كتب (لاشوسيه) مدرسة الأمهات، و (ديدرو) رواية الابن الطبيعي، و (سيدين) رواية الفيلسوف بغير علمه، و (بومارشيه) رواية الأم المجرمة، و (فولتير) روايتي نانين والطفل المبذر. وقد كان هؤلاء المؤلفون يقتبسون موضوعات رواياتهم من الحياة الحضرية والمعيشة المنزلية، ويملئونها بالحساسة المتصنعة والآراء الفلسفية والحكم الخلقية في لهجة تارة تكون بكائية وتارة تكون خطابية. على أن هذه الدرامة لم تلبث أن نزلت إلى مكان المأساة العامية (الميلودراما)، وهي درامة تسير بالموسيقى وتفيض بالضربات المسرحية العنيفة، والمواقف الشديدة المخيفة، والعمل الروائي المعقد، وتدين بنجاحها إلى إثارة الشعور وإهاجة الوجدان. ثم أدرك الدرامة الخمول وأخلقها الترك فامحت من المسارح حوالي سنة 1830 حتى جاء أرباب المذهب الابتداعي فنفخوا فيه من روحهم وبعثوها إلى الحياة في شكل جديد، واختاروها ميداناً للمعركة الحاسمة بينهم وبين رجال المذهب الاتباعي، فرفع هوجو لواءها وشرع منهاجها في مقدمة كرومويل سنة 1827 وجعل ميزتها الظاهرة امتزاج الجد والترفع بالهزل والمجون على نحو ما تجد في روايات شكسبير. ثم أخذ هذا المذهب الحديث يتحلل من قواعد المذهب القديم، ولا سيما قانون الوحدات الثلاث كما ترى ذلك ظاهراً في روايات الزعيم كرناني وكرمويل وماريون دلوزم وروي بلاس وبيرجراف الخ. على أن سهم الابتداعيين قد طاش، وأملهم في إصلاح المسرح قد كذب. فقد تجد في روايات هوجو درراً من الشعر الرصين، وغرراً من المقطوعات البليغة، وصوراً من المواقف التي تسترق الشعور وتملك القلب، ولكنك تجد بجانب ذلك البناء الواهن والإحالة القبيحة والعمل المرتبك والتاريخ المشوه، فضلاً عن أنه أحل الطباق والمقابلة محل النظر والملاحظة، وملأ المسرح بالأنماط الغريبة من الناس كقاطع الطريق الشهم (هرناني)، والخادم الوزير (روي بلاس)؛ ولم يجد في طبقة السراة إلا أنماطاً ممقوتين أو مجرمين، أما الطبقة السفلى فهي عنده مستودع العواطف الكريمة والأخلاق القويمة. ثم إن الدرامة الابتداعية خلت خلو الميلودراما من دروس العواطف وتحليل الأخلاق، وتعدت حدود المنطق في سير العمل، وسترت كل ذلك بسيل من الحوادث الخارقة، والمسائل المعقدة، والمفاجآت المدهشة، وما يتخلل ذلك من المبارزة والقتل والتسميم والخطف والتعرف. لذلك لم يصطبر الناس على هذه الدرامة طويلاً فملوها وأغفلوها، وحلت محلها في المسارح والقلوب في أوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر الملهاة الاجتماعية، أو الملهاة الحديثة، أو الملهاة المبكية، أو الدرامة الواقعية. وهي في الحقيقة طور من أطوار الدرامة التي

بدأها (ديدرو) ورفع سَمْكها اسكندر دوماس الصغير، وأميل أوجييه وفيكتوريان سادرو. تستمد من الدرامة التاريخية عناصر الجد، ومن ملهاة (اسكريب) فن التعقيد، ومن قصة بلزاك درس العادات وتحليل الأخلاق، وتدور موضوعاتها على بحث المسائل المتعلقة بالمال والأسرة، وما ينجم من صراع الطبقات، وصدام الجماعات؛ وتعني على الأخص بوصف العادات والسعي في تهذيبها وإصلاحها. وكان لاسكندر دوماس الفضل في تطبيق المذهب الواقعي على هذه الملهاة أو الدرامة بتأليفه ذات الكاميليا وهي درامة جريئة الفكرة، طريفة البحث، جديدة الشكل، أحدثت في المسرح انقلاباً خطيراً كان له أثره ونتيجته حتى اليوم. لأن المؤلف كان أول من زين المسرح بالأثاث الجديد وأظهر الأشخاص في اللباس العصري، ومثل البيئة الحاضرة في شكلها الحقيقي، فهو خلق الملهاة الحديثة كما خلق من قبلها الملهاة العلمية وهي مبنية على نظرية سماها المسرح النافع ملخصها أن الكاتب المسرحي يجب أن يبادر إلى حل المشاكل الاجتماعية على المسرح وإلا كان مضحكاً مهرجاً. يجب أن يعرض على الناس ما يشغلهم من مشاكل الأسرة، ويثقلهم من أحوال المجتمع، ثم يناقش هذه المسائل، ويحل هذه المشاكل بتغليب الخير على الشر، وإقرار الحب في النفوس مقر المال.

وظل المسرح اليوم في فرنسا جارياً على سننه المشروع في منتصف القرن التاسع عشر

في شئ من البساطة والسهولة. وأشهر الملاهي الدرامية في العهد الأخير ما كتبه الأستاذ جول لمتر إما تحليلاً للعواطف (كالثائرة) و (الغفران)، وإما زراية على ذميم العادات (كالنائب ليفو). وكذلك الأستاذ هنري لافادان عني بدارسة المجتمع الفرنسي الحديث، وعرض لما ينجم عن المنافسة بين طبقاته من المشاكل المعضلة والمسائل العويصة في رواية (أمير أوريك). ثم المنطقي الجبار بول هرفيو فقد عالج المشاكل الاجتماعية التي تتولد من الزواج والطلاق، ونحا في بحثها منحى اسكندر دوماس الصغير في رواياته العلمية ولكنه كان أكثر منه بساطة وأشد جفاء. كتب ذلك في ملاهيه المشهورة، وهي التيه والكلبتان (الكماشة) وقانون الرجل وأعرف نفسك - وشوط القبس ولا تزال هذه الرواية إلي اليوم أبلغ روائعه وواسطة بدائعه. ثم الأستاذ (بريو) مؤلف القباء الأحمر والأستاذ فرنسوا كوريل مؤلف الدمية الجديدة، ونشوة الحكيم والأستاذ (الفريد كابو) مؤلف الحظ والطير الجريح، والأستاذ (هنري برنستين) مؤلف السارق، والسر، وشمشون. ولا نريد أن نسترسل في ذكر أسماء الكتاب المعاصرين، فأكثرهم لا يزالون يؤلفون ويرزقون. وإنما ذكرنا منهم من سبق لنقول لك أن ما ألفوه قد يطلق عليه أحياناً اسم الدرامة، وأحياناً اسم الملهاة الدرامية أو الجدية، والاسم الثاني أدق لما ذكرناه من الفرق بين النوعين.

هذا مجمل ما أتى على الدرامة من الأطوار في فرنسا. أما في أسبانيا فالمسرح قومي محض، ولد في الكنيسة وظل على صفته الأمية حتى جاء عصر النهضة، فجنح بعض الكتاب إلى بناء المسرح الأسباني على الطراز الإغريقي، ولكن ذوق الجمهور أحالهم عن ذلك القصد وصرفهم عن محاكاة المأساة الاتباعية فسخروا من قانون الوحدات الثلاث، وجمعوا في الرواية الواحدة بين الحوادث المضحكة والمواقف المفزعة، وبين سراة الطبقة العليا وصعاليك الطبقة الدنيا. ثم كانوا يعقدون العمل ويفخمون الأسلوب، حتى سرت من روحهم نفحة إلى كورني وكان الشرف محور مآسيهم، وموضوع حوادثهم، ومكان قوانينه الصارمة منها مكان القدر من مآسي الإغريق. على هذه القواعد والصفات كتب نابغتهم الخالد لوب دي فيجا (1562 - 1635) مآسيه، وهي لا تقل عن ألفي مأساة، يدخل منها في باب الدرامة الروايات التاريخية (ككشف العالم الجديد) وروايات (سان سَكْرِ مَنْت) كوراث السماء. وقد تميز هذا الكاتب بالخيال الخصب، والقريحة المتقدة، والتنوع البديع، والقدرة المعجزة على تصوير الأخلاق، ولا سيما أخلاق النساء. وكان همه أن يعرض الحوادث دون أن يشرح أسبابها، ويمثل الحياة الحقيقية دون أن يطرز أثوابها. ثم يليه في النبوغ والأثر (كالدرون دي لاباركا) (1600 - 1680) وقد بقي من دراماته اثنتان وسبعون درامة أشهرها (الحياة حلم) و (كرامة المولى). وأما في إنجلترا فقد ولد مسرحها في الكنيسة أثناء العصور الوسيطة كما كان الأمر في فرنسا وأسبانيا،

وكذلك لم يقو تقليد الكتاب والشعراء لآداب المهمة على الحيلولة بين الدرامة الحديثة وبين الانتشار والتقدم. ففي القرن السادس عشر جاء (مارلو) فهز النفوس وحرك المشاعر بمآسيه (أدوار الثاني) و (يهودي مالطة) و (موت الدكتور فوست وحياته).
ولكن شكسبير ظهر فأخفت ذكره ووضع قدره. وكان القدماء من أرباب المذهب الاتباعي يذكرون شكسبير بالسوء، ويتناولونه بالنقد حتى لقبه فولتير: (بالمتوحش السكران). أما أرباب المذهب الابتداعي فيرونه مثال الفن الروائي، ورسول الشعر التمثيلي. وقد سردنا لك فيما سبق طائفة من مآسيه في بعضها ما يشبه الدرامة، ولكن دراماته الحقيقية هي: صاع بصاع، تاجر البندقية؛ وقطعه المقتبسة من تاريخ إنجلترا، كالملك حنا، وريشارد الثاني، وهنري الرابع، وهنري الخامس، وريشارد الثالث، ودرامات شكسبيرعلى الجملة ضعيفة البناء، بعيدة الأمكان، متكلفة الأسلوب. وقد أراد أن يمثل فيها مناحي الإنسانية كلها، فجمع بين العظيم الرفيع والعامي الخليع والمضحك الماجن، وجعل العواطف الرقيقة الوادعة بجانب الأهواء العنيفة الفاجعة، ولم يقنع بتمثيل الحوادث مجردة، بل حرص على أن يصور الأهواء والعواطف التي صدرت عنها وتولدت منها.
وأما في ألمانيا فليسنج (1729 - 1781) هو خالق مسرحها القومي: وقف بين مواطنيه وبين المأساة القديمة، فحال بينهم وبين تقليدها، ودعا الناس قبل الابتداعيين إلى الأخذ عن شكسبير، والى وضع الأساس لبناء المأساة العصرية. وأشهر مآسيه (منا دبر نهلم) و (ناتان الحكيم) و (أمليا جالوثي). أما جيته فقد جمع بين الذهن القديم والعبقرية الحديثة، وقد ظهر ذلك جلياً في دراماته، وأشهرها (جوتْر دِيرْ ليشِنْجِنْ) و (تركاتو تاسو) و (إِجْمُنْت) و (فوست). فأما (جوتر) فهي صورة قوية - وإن تكن غير جلية - لألمانيا في أواخر
العصور الوسيطة. وموضوعها أن السيد جوتر لا يعترف لأحد بالسلطان غير الإمبراطور، فهو يشعل الثورة في رؤوس الفلاحين، ويقودهم لمحاربة النبلاء والكهنة، ثم ينتهي أمره بالأسر والسجن في قاع مظلم بقية حياته. وأما درامته فوست فهي مجده وخلوده تجدها غامضة في جملتها ولكنها رائعة في تفصيلها. موضوعها أن الدكتور فوست تبرمه الحياة ويعنته الوجود ويكربه فراغ نفسه فيتعاطى السحر، ولكن اليأس يحتوشه فيدفع به إلى الانتحار. وبينما هو متردد بين الحياة والموت إذ يفجأه قرع الأجراس المؤذنة بدنو عيد الفصح فيذكره بقيامة المسيح ويأفكه عن عزمه المشئوم، إلا أن الشك يعاوده، فيدفعه إلى محالفة الشيطان فيبيعه نفسه على أن يمتعه بزهرة الحياة ونعيم الدنيا. فيؤتيه الشيطان من كل شئ إلا السعادة، فيشرف على الموت، إلا أن ماري تدركه فتنجيه.
وعلى طريقة جوت كتب صديقه شيلر دراماته الرائعة كدرامة اللصوص، ودون كارلوس، ووليام تل. وأنبه الكتاب الروائيين في ألمانيا اليوم هو (جيرار هوبتمان).
ومن فحول الدرامة في العصر الحديث الكاتب النرويجي (جوهان إِبْسِنْ) (1828 - 1906) وكان ينزع في مآسيه الدرامية نزعة فلسفية اجتماعية، فهي من الدرامات العلمية أو الرمزية، وقد سما فيها بقوة الفرد وهمته إلى أبعد غاية وأرفع منزلة حتى لو ناقض ذلك الدين والتقاليد. أشهر دراماته بيت العروس والأرواح والكنار الوحشي.
يتبع
(الزيات)
من مشكلات الحياة
قصة فتاة
تلقينا هذه الكلمات من فتاة سورية فلخصناها وعرضناها على القراء كما شاءت. وسننشر في موضوعها ما نراه أحجى بالنشر وأدنى إلى الغرض.
كثيرات هن اللواتي يغبطنني على حياتي، ويتمنين لو أتاح لهن الحظ حياة مثلها. يرون في كما يرى بقية الناس شابة جميلة، أربح من وراء مهنتي مبلغاً يدني حياتي من الرفاهية، وماذا أبتغي من الحياة بعد؟ . . .
ولكن آه! لشد ما أعاني من الألم في إخفاء حقيقة نفسي، وظهوري أمام الناس بهذا الوجه الباسم، والعينين الممتلئتين نشاطاً واغتباطاً وبهجة. حقاً إن أشقى الناس ذلك الذي ينزل إلى قرارة نفسه، وهناك في أعماقها يدفن ما يعاني من ألم ممض وشقاء

ملازم - وهكذا الأيام تمر، والسنون تكر، وآلامي مدفونة لا أستطيع الجهر بها حتى لأقرب الناس إليّ، لأنهم هم مسببوها ومصعبوها من حيث يشعرون أو لا يشعرون. . .
ولدت في أحضان الترف والنعيم، وربيت في حجر الدلال والرفاهية، محاطة بالحب، مغمورة بالإعزاز، ولكن ما كدت أتجاوز العاشرة من العمر حتى أصيب والدي بنكبة مالية زعزعت كياننا وقلبت كل شئ رأساً على عقب. كنت صغيرة حينذاك، ومن كانت في هذه السن لا تهتم إلا بالمرح واللعب، ولكن الأمر كان معي على النقيض، بدأت أشعر بفداحة المصاب وأتألم بقلبي الصغير ألماً هادئاً ساكناً، ولما كنت بكر والديّ، وكنت محور أمال أبي لما يرى من جدي واجتهادي في المدرسة، كان يؤثرني بعطفه ويخصني بمحبته. كان لا يرى بداً من تعليمي والإنفاق علي. وفي الرابعة عشر من عمري أرسلني إلى مدرسة ليلية أجنبية بعد أن نلت الشهادة الابتدائية بتفوق عظيم، ولقد مضى على هذه الحادثة ما مضى وأنا أتصورها بنت الساعة. وأودعني ذلك الوالد الحنون المدرسة، وأوصى بي الرئيسة والأخوات خيراً. وبعد ثلاثة أيام زارني قبل سفره ليستفهم عما إذا كنت في حاجة إلى شئ؟ وأعلمني بعزمه على السفر، وزودني بنصائحه الغالية، فاغرورقت عيناي بالدموع، وتكلفت الابتسام لأخفي ألمي لهذا الفراق الذي كان أول عهدي به، فضمني إلى صدره وغمر رأسي بقبلاته ثم بكى، وكأنه أبصر بعيني بصيرته ما ينتظرني من ألم وشقاء.
قضيت حياة المدرسة، وبدأت حياة العمل لأرفه عن هذا الوالد الحنون بعض ما يعانيه في إعالة أمي وأخواتي، مغتبطة في قرارة نفسي بأنني أستطيع أن أكافئه بعض المكافأة. ولكن جمالي وثقافتي وسيرتي الحسنة بين أترابي كانت تستثير الناس لطلب يدي؛ وما من شاب من الطبقة الراقية في تعليمها أو في ثروتها إلا تمنى أن أكون له، ولكن كان الجواب دائماً سلباً، ولما كان قلبي لم يتفتح لحب بعد، كنت لا أعير هذه المسائل شيئاً من الاهتمام، وكنت أعتقد أن كل فتاة تقدم على الزواج مجنونة ولا أريد أكونها.
قاوم أبي تلك النكبات التي كانت تهاجمه بصبر وثبات، ولكنها أخيراً خرجت عن طوقه فأصيب بالشلل، وهاهو الآن ليس بالميت فينسى ولا بالحي فيرجى. وخلف لي أعباء ثقالاً لا قبل لمن كانت في سني باحتمالها، وشعرت بخطورة المسئولية الملقاة على عاتقي، فكنت أقضي نهاري في العمل على الآلة الكاتبة وأعود في المساء باشة هاشة ضناً بوالدتي عن أن أحملها هماً فوق هم، وبأخواتي اللواتي ينتظرن من عودتي الملاطفة والحلوى عن أن أخيب أملهن. المستقبل قاتم لا ألمح فيه قبساً من أمل، والغد مجهول لا أعلم ماذا يحمل بين طياته، ولا أدري ماذا يكون المصير.
طالِبو الزواج يريدونني بإلحاح، وأمي ترفض بدعوى أن ليس بينهم من يستحق يدي، فكل شاب لا يخلو من عيب، وهي تريد ملاكاً لملاكها، إذاً فلننتظر ولننتظر، ولكن الانتظار طال. وفهمت، ولكن في وقت متأخر أنها محاولات ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب. فشقيقاتي الصغيرات تزوجن، ووالدتي لم تبد في أمرهن تلك الملاحظات التي عودتنيها، واثنتان منهن أصبحا أمَّين، وأنا أنظر بعيني والألم يصهر نفسي والأباء يعقد لساني عن الإفصاح بما يخالجني. هي تريد إبقائي عذراء أشتغل وأشتغل حتى الموت لأعولها مع بقية أطفالها. ولو أنها أفصحت لي عن غايتها لكتبت لها صكاً على نفسي أنني سأظل أشتغل إلى أن يكبر أطفالها!! هي تحبني، لا أشك في ذلك، ولكن هذا لأنني أبذل في إسعادهم قلبي ومستقبلي وسعادتي!!
لقد ضقت ذرعاً بهذه الحياة ولم يبق في قوس الصبر منزع، خلقت أنثى وحرمت ما ينعم به مثيلاتي ويسعدن، واشتغلت كالذكور وحرمت الحرية التي يتمتع بها الذكور!! لذلك عولت عليّ أن أطرح هذه الصفحة الموجزة أمام قراء (الرسالة) وقارئاتها علني أجد بينهم من يرشدني برأي ينقذني من هذه الحيرة.
(. . .)
من تراثنا العلمي
فضائل مصر لابن زولاق
وصف وتلخيص لنسخة مخطوطة
للأستاذ علي الطنطاوي

قال مؤرخ مصر الأستاذ عنان في كتابه مصر الإسلامية إن لابن زولاق كتاباً يسمى فضائل مصر، وقد يسمى أخبار مصر، وإن بعض المؤرخين نقلوا عنه وقد رأيت نسخة من هذا الكتاب في المكتبة العربية العامرة في دمشق أطلعني عليها صديقي الأديب الأستاذ أحمد عبيد وهاك وصفها:

مخطوط يقع في (63) من القطع المتوسط، في كل صفحة (25) سطراً، وهو مكتوب بخط قريب من النسخ، وليس فيه ما يدل على تاريخ نسخه، وإنما يوجد في آخره هذه العبارة:

طالعت هذا الكتاب المسمى بفضايل مصر وصفاتها للشيخ ابن ذولاق الليثي رحمة) الله عليه وعلى كاتب هذه الحروف ومالك هذا الكتاب الحاج إبراهيم الشكوري الطرابلسي والمسلمين. تحريراً بأواخر شهر ذي الحجة في سنة 1115 ألف ومائة وخمسة عشر)

أما صفحة العنوان ففيها اسم الكتاب:

وفيها أسماء الذين (كتاب فضايل مصر وصفاتها لابن ذولاق الليثي رحمه الله آمين) ملكوا الكتاب، بعضها ظاهر، وبعضها غير ظاهر، وهي مكتوبة متباينة:

السيد هاشم باكييكج.

الحمد الله. ملكه أفقر الورى أحمد الرشيدي الشافعي الأزهري.

فقير عفو ربه الغني عمر العمري.

الفقير محمد العمري سنة 209.

الفقير محمد سعدي العمري.

وجاء في أول الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين على القوم الكافرين. الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى.

1 - قال أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن الحسين بن الحسن ابن علي بن خالد - راشد - بن عبيد الله سليمان بن ذولاق الليثي:

هذا كتاب جمعت فيه من جملة من أخبار مصر وفضايلها وصفتها، اختصرته من كتابي الكبير في (تاريخ مصر وأخبارها) ولم أذكر في هذا الكتاب إسناد الخبر ليقرب على من أراده، وبالله التوفيق.

فأول ما أبتدئ من ذلك، أن الله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه، ذكر مصر في ثمانية وعشرين وصفاً في القرآن (وعدد الآيات التي فيها ذكر مصر، أو فيها إيماء إليها، وذكر ما قاله العلماء فيها)

2 - باب ما روي عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم):

ستفتح عليكم بعدي مصر، فاستوصوا بقبطها خيراً، فإن لهم ذمة ورحماً. (وسرد كثيراً من الأحاديث التي تدل على فضل مصر وأهلها، ولكنه أوردها مجردة من الأسانيد، ولم يذكر درجتها ومخرجيها).

3 - ذكر دعاء الأنبياء عليهم السلام لمصر.

4 - ذكر وصايا العلماء لمصر ودعاؤهم لها:

قال سعيد بن أبي هلال: اسم مصر في الكتب السالفة أم البلاد. وقال عبد الله بن عمرو: أهل مصر أكرم الأعاجم، وأسمحهم يداً، وأفضلهم عنصراً، وأقربهم رحماً بالعرب عامة، وبقريش خاصة (وذكر مثل ذلك عن آخرين).

5 - ذكر من ولد بمصر من الأنبياء، ومن كان بها منهم.

6 - من كان فيها من الصديقين والصديقات:

ذكر مؤمن آل فرعون وآسية امرأة فرعون، وأم إسحاق ومريم ابنة عمران، وماشطة بنت فرعون، وأن إبراهيم تسري بهاجر أم إسماعيل، وتزوج يوسف بنت صاحب عين شمس. وذكر مارية القبطية الخ. . . .)

7 - وأن مصر بلد الحكمة والعلم ومنها خرج الحكماء الذين عمروا الدنيا بكلامهم وحكمتهم وتدبيرهم، فمنهم ذو القرنين وهو الإسكندر (وذكر القرية التي هو منها وذكره في القرآن وأنه به سميت الإسكندرية، وأنه بنى إسكندرية أخرى ببلاد الخزر وثالثة ببلاد الروم الخ. .) ومن مصر جماعة الحكماء، هرمس وهو المثلث بالنعمة، نبي وحكيم وملك (وعد فيمن

خرج منها طائفة كبيرة من الفلاسفة والحكماء ثم قال) فهؤلاء حكماء الأرض وعلماؤها الذين ورثوا الحكم، من مصر خرجوا، وبها ولدوا الخ، وكانت مصر يسير إليها في الزمن الأول طلبة العلم الخ. وبمصر من العلوم التي عمرت بها الدنيا علم الطب اليوناني الخ. .

8 - ذكر من ملك مصر من الطوفان إلى أن فتحت بالإسلام:

ملك مصر ثلاثة وخمسون ملكاً، أولهم مصر بن نيصر بن حام بن نوح. وآخرهم هرقل الرومي وكسرى الفارسي، منهم أربعة وثلاثون فرعوناً، ممن طغى وتكبر وادعى الآلهية، ومنهم من عمر أربعمائة سنة وأقل وأكثر، ولم يكن أعتى ولا أشد من فرعون موسى، ولم يكن من أولاد الملوك، وإنما أخذ مصر بحيلة (وذكر هذه الحيلة، ثم جاء بأخبار طويلة عنه وعن بختنصر، ولم يسم إلا قليلاً من سائر الفراعين).

9 - ذكر من ملك مصر في الإسلام من الولاة منذ فتحها عمرو بن العاص في سنة عشرين من الهجرة إلى سلخ شعبان سنة اثنين وستين وثلاثمائة (واثني عشر).

أولهم عمرو بن العاص وآخرهم جوهر، منهم أربعة عشر من بني هاشم، وعشرة من قريش، واثنان من الأنصار، وسبعة وثلاثون من سائر العرب، واثنان وأربعون من الموالي، إلى أن دخلها المعز لدين الله أبو تميم - بن إسماعيل المنصور بن محمد القائم ابن عبد المهدي، وصارت مصر دار خلافة بعد أن كانت دار إمارة، وقد عملت في ذلك كتاباً.

10 - ذكر من دخل مصر من الخلفاء قبل المعز (عد فيمن دخل منهم ابن الزبير في الجيش الذي فتح المغرب أيام عثمان، ومعاوية بلغ إلى عين شمس ولم يدخلها، ومروان بن الحكم وابنه عبد الملك وعمر بن عبد العزيز الخ. . .).

11 - ذكر علماء الخراج بمصر، وذكر قضاتها:

ولي بمصر من عمال الخراج منذ فتحها المسلمون إلى سنة اثنين وسبعين وثلاثمائة، واحد وعشرون، منهم من جمع لهم الحرب والخراج، ومنهم من انفرد بالخراج (وعدّ طائفة منهم ثم قال:) وقد شرحت ذكرهم في التاريخ.

وأما قضاتها منذ فتحها إلى سنة اثنين وسبعين وثلاثمائة فهم واحد وستون قاضياً، أولهم قيس بن أبي العاص وآخرهم علي بن النعمان، فمنهم من أقام خمساً وعشرين سنة مثل بكار بن قتيبة، ومنهم من بلغ عشرين سنة أو أقل من ذلك، وأقل من وليها يحيى بن أكثم،

ولي ثلاثة أيام والمأمون بمصر، ثم صرفه وسيره معه إلى الثغر.

12 - ذكر من دخل مصر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن توفي بها منهم.

13 - ذكر من كان بمصر من عيون العلماء والرواة وطبقاتهم: يزيد بن أبي حبيب، وعمر بن الحارث، والليث ابن سعد والمفضل بن فضالة، وعبد الله بن وهب، وأشهب بن عبد العزيز الخ. . . وسكن بمصر محمد بن إدريس الشافعي الخ. . وكان بمصر جماعة بعد هؤلاء: أيوب بن سليمان الفارضي، ويوسف بن يحيى البويطي، وأحمد بن صالح، وإسماعيل بن يحيى المُزَني الخ. . . وكل هؤلاء مُفْتٍ، ومنهم من يفتي في علوم، وقد سارت مؤلفاتهم.

وكان بمصر من المحدثين المسندين: حرملة بن يحيى وعيسى بن حماد ويونس بن عبد الأعلى الخ. . والحسن بن علي بن زولاق جد أبي، وجماعة سوى هؤلاء. . وكان بعد هؤلاء جماعة منهم محمد ابن زمان وإسماعيل بن داود الخ. . .

وكان بمصر من الفراض المؤلفين: أيوب بن سليمان والحسن ابن محمد الخ. . وكان بمصر من عيون حفاظ الحديث محمد بن أحمد بن عبد الحميد الخ. .

وكان بمصر من رواة الحديث والأخبار والفقه: سعيد بن عفير وسعيد بن أبي مريم الخ. . وبعد هؤلاء الحسن بن علي بن زولاق جد أبي، ويحيى بن عثمان الخ. . وبعد هؤلاء علي بن حسن بن قديد الخ. .

وكان بمصر من عيون النحويين عبد الملك بن هشام، ومحمود النحوي الخ. . .

وكان بمصر من عيون الشعراء الخ. . ونصيب وجميل وبها توفي. والأخوص وابن قيس الرقيات وأبو نؤاس الخ. . وجعفر ابن حدار ويوسف بن المغيرة والحسن بن عبد السلام وإسماعيل ابن أبي هاشم ومحمد بن الحسن الخ. .

وكان بمصر من المتكلمين حفص المقري وإسماعيل بن يحيى الخ.
وكان بمصر من النساب هانئ بن المنذر ومحمد بن أحمد الحداد الخ.
وكان بها من الزهاد وأصحاب الوعاظ سليمان بن. . . (وعد جماعة).
14 - ذكر عيون أشراف مصر ومن دخلها من آل أبي طالب وأول من دخل منهم:
قال: كانت مصر دار تشيع منذ أيام محمد بن أبي بكر، وهرب من مصر جماعة من شيعته - عند دخول مروان بن الحكم إليها وما صنعه بأصحاب مسجد الأقدام - وكان أهل مصر لا يؤولون في فتاويهم إلا بما يرد جواب جعفر الصادق رضي الله عنه.
وسافر إلى مصر جماعة من العلوية، وكان أول علوي دخل مصر علي بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب، ودخل يدعو إلى بيعة أبيه وعمه، فسعى به إلى حميد بن قحطبة أمير مصر، فراسله سراً إشفاقاً عليه الخ. . وتوفي علي بن محمد بريف مصر الخ. . ثم دخلها إسحاق بن جعفر بن محمد الخ. . ومعه زوجته نفيسة بنت زيد وتوفيت بمصر فأراد حملها إلى المدينة فسأله أهل مصر دفنها بمصر، واتخذوا قبرها مشهداً وهو باق إلى اليوم معروف. ثم دخلها محمد بن جعفر الخ. . وكلثوم صاحبة القبر المشهور ابنته (وذكر سائر من دخلها منهم وأخبارهم ووفاتهم في فصل طويل).
15 - ذكر من حدّث بمصر من ولد أبي طالب (عدّ أسماء جماعة منهم ثم قال) ولو شرعت في شرحهم لخرج الكتاب عن فنه.
16 - ذكر من عدّل بمصر من العلويين وقبل القضاة شهادتهم.
17 - ذكر من كان بمصر من وجوه العباسيين.
18 - ذكر التشيع بمصر والبيوتات المتشيعة:
قال يزيد بن أبي حبيب فقيه مصر: أقلبت أهل مصر عن التشيع إلا جماعة: يعني بيت بني لهيعة وبني نباته، وكان أهل مصر يكتبون بمسائلهم إلى جعفر الصادق رضي الله عنه ولا يعدلون عن فتياه، ولما قدم عليهم إسحاق بن جعفر حفوا به كالكعبة، ولما توفيت زوجته نفيسة الخ. .
وأما البيوتات المعروفة بمصر بالتشيع المكشوف قديماً فمنها: عبيد الله بن لهيعة وعباس بن لهيعة، وكان الليث بن سعد فقيه مصر لما أحرقت دار عبيد الله بن لهيعة أرسل إليه الليث بألف دينار وقال استعن بهذه واعفنا من فضائل علي بن أبي طالب، فأخذها عبيد الله وأنفذ إليه حديثاً من فضائل علي ليغيظ به الليث!.
ومنها بيت الحَسَن بن علي بن زولاق جد أبي. بيت علم ونسك وفقه ورواية، وإنما احتمل له التشيع له لفقهه وإتقانه وتفقهه في الرواية، وكان مقبول الشهادة منذ سنة عشرين
ومائتين إلى أن توفي سنة ثلاث وثمانين ومائتين، وكان عليه قولاً لا يملي حديثاً أو يبتدئ بفضائل علي رضي الله عنه.
وكان بعده ابنه الحسين جدي، وابن ابنه إبراهيم والدي رحمه الله. ومنهم. . (وعد طائفة منهم).
19 - ذكر من كان بمصر من عيون الفرسان.
20 - ومصر فرضة الدنيا. . وكذلك ساحلها بالقلزم ينقل إلى الحرمين والى جدة والى عمان والى الهند والى الصين وصنعاء وعدن والسند وجزائر البحر.
ومن جهة دمياط والغرما، فرضة بلد الروم وأقاصي الإفرنجة وقبرص وسائر سواحل الشام إلى حدود العراق.
ومن جهة الإسكندرية فرضة أقربطش وصقلية وبلد الروم والمغرب وبلد البربر والحبشة والحجاز واليمن.
وأما ما فيها من ثغور الرباط، فمن ذلك رباط البرلس ورباط رشيد ورباط الإسكندرية ورباط ذات الحمام الخ. . وما ينضاف إلى هذه الثغور وجهاتها الخ.
وكانت برقة وطرابلس من ثغور مصر إلى أن خرجت منها في سنة ثلاثمائة فأضيفت إلى رباط المغرب.
21 - وأما المساجد الشريفة (فعد منها كثيراً ثم قال) وبمصر مساجد الصحابة سوى ما ذكرناه. . عدتها مائتين ثلاثة وثمانين مسجداً (؟) كانوا يبنونها بالآجر الأحمر ويبنون منازلهم باللبن وأكثرها باق إلى اليوم. منها. . (وعد طائفة منها، ثم قال) هذه مساجد

الخطط التي بناها أصحاب رسول الله (ص) سوى ما حدث بعدهم وبعد استقرار الخطط الخ. . وبالقرافة ونواحيها مساجد منها: مسجد الإجابة، ومسجد الكرب، وبها دار الأبرار.

22 - وبمصر من البقاع الشريفة:

ولولا أني اشترطت الاختصاروأن أذكر عيون كل من الأخبار (:عد ما شاء ثم قال) لأطلت كتابي هذا.

للبحث بقية

علي الطنطاوي

من الأدب الأندلسي:

3 - التوابع والزوابع

بقلم محمد فهمي عبد اللطيف

رأينا في المقال السابق كيف راح ابن شهيد يتهكم بالأدباء الذين غمطوه فضله حقداً عليه، وحطوا من قدره حسداً له، وقد أبدى ابن شهيد - وهو بسبيل الكلام على أدب هؤلاء الأدباء - كثيراً من الآراء في النقد والبيان هي أهم وأقوى ما اشتملت عليه التوابع والزوابع، بل هي أهم وأقوى ما لابن شهيد من الآثار الأدبية، حتى من شعره على عذوبته، ومن نثره على ملاحته، فنحن بلا خلاف لا نعتقده الناقد الأول بين النقاد الأقدمين في الأدب العربي، ولكنا بلا خلاف لا نعتبره الشاعر الأول، ولا الكاتب الأول.

ولما كانت هذه الآراء قد جاءت متناثرة في الرسالة، رأينا من الخير أن نجمع شتاتها وأن ننظمها في سمط واحد، حتى نتبين منها مذهب الرجل في النقد واضحاً جلياً. وإذا كانت هذه الآراء شابها شئ من حقد ابن شهيد وضغنه على معاصريه، إلا أنها آراء صحيحة ثابتة، تزداد على طول الزمن صحة وثبوتاً. وهذه الآراء في مجموعها تنقسم إلى شقين، شق يرجع إلى شخصية الأديب، وآخر يختص بالآثار الأدبية، وإنما نعنى بشخصية الأديب مواهبه العقلية واستعداده الفطري، وسعة معارفه، وهذه ناحية قد أبدع في بحثها ابن شهيد أيما إبداع، وله فيها آراء قوية لن يسبقه إليها ناقد فيما نعلم؛ فقد حاول أن يستخدم العلم والفلسفة في دراسة الشخصيات وتفهم الملكات الأدبية في الشخص، ومقدار استعداده وطبعه، والطبع - عند ابن شهيد - هو أهم ركن في شخصية الأديب، بل هو المرجع الذي يرجع إليه سر البلاغة. فمن كلامه: (إن البيان هبة إلهية لا علاقة لها بالنحو والصرف، واللغة والغريب، وإن الاختلافإلى الأساتيذ، والتوفر على الدرس والبحث في بطون الكتب، كل هذا لا يجدي ولا ينفع إذا لم تكن ثمة فطرة سمحة، ونفس مجلوة وطبيعة مواتية. وقد روي في ذلك أنه التقى في وادي الجن بشيطان أنف الناقة (وهو على علاته زي علم، وزنبيل فهم، وكنف رواية) فأراد ابن شهيد أن يناوشه في اللغة والنحو، وطلب منه أن يطارحه كتاب الخليل وشرح ابن درستويه، فقال الشيطان: أنا أبو البيان، وقد علمنيه المؤدبون، قال ابن شهيد (ليس هو من شأنهم، وإنما هو من تعليم الله حيث يقول: الرحمن علم القرآن. خلق الإنسان علمه البيان) وإنما أنت كمغن وسط، لا يحسن فيطرب، ولا يسئ فيلحى، وليس من شعر يفسر، ولا أرض تكسر، حتى يكون نفسك من نفسك، وقليبك من قلبك، وحتى نتناول الوضيع فترفعه، والرفيع فتضعه، والقبيح فتحسنه).

وقد بحث ابن شهيد في مقدار الطبع وتركيبه في النفوس، وأثره في صور الكلام وتفويق المعاني، وذهب في البحث مذهباً فلسفياً فقال: (مقدار طبع الإنسان إنما يكون على مقدار تركيب نفسه مع جسمه، فمن كانت نفسه مستولية على جسمه من أصل تركيبه، كان مطبوعاً روحانياً يطلع صور الكلام والمعاني في أجمل هيآتها، وأروق لباساتها، ومن كان جسمه مستولياً على نفسه من أصل تركيبه، كان ما يطلع من الصور ناقصاً عن الدرجة الأولى في التمام والكمال) ومن رأي ابن شهيد أن للأعضاء الظاهرة تأثيراً على الملكات الباطنة، فتجده يقول في جماعة من أدباء قرطبة (إنهم يدركون بالطبيعة، ويقصرون بالآلة، وتقصيرهم بالآلة هو من طريق العلل الداخلة من فساد الآلة القابلة الروحانية والخادمة لآلات الفهم، والباعثة لرقيق الدم في الشريان إلى القلب، وزيادة غلظ أعصاب الدماغ ونقصانها عن المقدار الطبيعي ما يعين على ذلك بالحس وطريق الفراسة من فساد الآلات الظاهرة كفرطحة الرأس وتسفيطه، ونتوء القمحدوة، والتواء الشدق، وخزر العين، وغلظ الأنف، وانزواء الأرنبة).

وهذا المذهب قريب الشبه من مذهب النقاد الفرنسيين في القرن التاسع عشر الذين استخدموا القوانين العلمية في النقد الأدبي ودراسة الشخصيات، وهو أشد قرباً من مذهب الناقد المشهور (سانت بوف). فقد كان هذا الباحث يعمل على تطبيق علم التشريح، وعلمي - الفسيولوجيا والبسكولوجيا - على تراجم الشعراء والكتاب، وكان يتعمق في بحث النفسيات، ويهتم بالعرض كما يهتم بالجوهر، ويبحث عن شكل صاحب الترجمة الظاهرة، من الطول أو القصر، والنحول أو البدانة، والقبح أو الجمال، ليستطيع أن يدرك مقدار استعداده ومواهبه، وما عنده من صفاء الروح وقوة الطبع. ولكن ابن شهيد كما ترى له فضل السبق إلى تقرير هذه الآراء، ولقد أصاب ابن شهيد في كل ما قرره، ووفق في شرحه وتعليله، فلا جرم أن الطبع هو سر البلاغة، ومبعث الصفاء وحسن الرونق في صور الكلام، وأن علوم اللغة والنحو والتصريف لا تجدي مع القلوب الغليظة، ولا تخدم

في الفطن الحمثة، وإنما يسمو الكلام ويرتفع بقدر سمو طبع قائله، وشرف نفسه وصفاء روحه؛ وليس معنى هذا أن ابن شهيد يطلق الكلام في الحط من قيمة علوم اللغة والغريب، أو ينكر فائدتها في تكوين شخصية الأديب، بل إنه يقر بفضلها ويعترف بفائدتها كعامل مساعد على نمو الطبع وتقوية الروح، إلا أنه يرى أن استعمال الغريب واستخدام النحو مما يحتاج إلى الدقة والبراعة، فليس من الفصاحة أن تخرج العبارة في أي وضع نحوي، أو تجري غريب اللغة على أي وجه كان، ولكن الفصاحة أن تختار أملح النحو وأفصح الغريب، بمعنى أن تكون العبارة على الوضع النحوي الذي يتفق والمعنى البياني، وبمعنى أن تكون الكلمات الغريبة في وضعها اللائق، ومكانها المناسب، فإن بين الألفاظ قرابة يجب أن تراعى في الوضع. وقد جلا ابن شهيد هذه النظرية الدقيقة في حكاية رواها عما كان يقع بينه وبين تلاميذه فقال: (جلس إلي يوماً يوسف الإسرائيلي، وكان أفهم تلميذ مر بي وأنا أوصي رجلاً عزيزاً علي من أهل قرطبة، وأقول له إن للحروف أنساباً وقرابات تبدو في الكلام، فإذا جاوز النسيبُ النسيبَ، ومازج القريبُ القريب، طابت الألفة، وحسنت الصحبة، وإذا ركبت صور الكلام من تلك حسنت المناظر، وطابت المخابر. أفهمت. قال: إي والله، قلت وللعربية إذا طلبت، وللفصاحة إذا التمست، قوانين من الكلام من طلب بها أدرك، ومن نكب عنها قصر. أفهمت؟ قال: نعم، قلت وكما تختار مليح النحو وفصيح الغريب وتهرب من قبيحه، قال: أجل، قلت: أتفهم شيئاً من عيون كلام القائل:

لعمرك أني يوم بانوا فلم أمت ... خفاتاً على آثارهم لصبور

غداة التقينا إذ رميت بنظرة ... ونحن على متن الطريق نسير

ففاضت دموع العين حتى كأنها ... لناظرها غصن يراح مطير

فقال: إي والله، وقعت (خفاتاً) موقعاً لذيذاً، ووضعت (رميت) و (متن الطريق) موضعاً مليحاً، وسرى (غصن يراح مطير) مسرى لطيفاً، فقلت له أرجو أنك تنسمت شيئاً من نسيم الفهم، فأغد علي بشيء تصنعه. وكان ذلك اليهودي ساكتاً يعي ما أقول، فغدا ذلك القرطبي فأنشدني:

حلفت برب مكة والجبال ... لقد وزنت لروسي الحبال

في أبيات تشبهه، وجاء اليهودي فأنشدني:

أيمم ركبانهم منعجا ... وقد ضمنوا قلبك الهودجا

واستمر إلى آخر القصيدة فأتى بكل حسن. فقال لي ذلك القرطبي شعر اليهودي أحسن من شعري، قلت: ولا بأس بفهمك إذا عرفت هذا، ولم يزل يتدرب باختلافه إلى حتى ندى تربه، وطلع عشبه، ثم تفتح زهره، وضاع عبقه. .).

والظاهر أن مسألة استعمال الغريب واختيار الألفاظ كانت من المسائل التي شغلت أذهان النقاد في عصر ابن شهيد وقبله، فقد عالج هذه الناحية أبو هلال العسكري في كتابه الصناعتين، وكان من رأيه (أن تخيّر الألفاظ، وإبدال بعضها من بعض من أحسن نعوت الكلام وأزين صفاته، فإن أمكن مع ذلك منظوماً من حروف سهلة المخارج كان أحسن له، وأدعى للقلوب إليه. . . فينبغي أن تجعل كلامك مشتبهاً أوله بآخره، ومطابقاً هاديه لعجزه، ولا تتخالف أطرافه، ولا تتنافر أطراره، فتكون الكلمة منه موضوعة مع أختها، ومقرونة بلفقها، فإن تنافر الألفاظ من أكبر عيوب الكلام) والظاهر أن العسكري قد تابع غيره في هذا الكلام، فقد روي عن أبي أحمد. . أنه قال: (كنت أنا

وجماعة من أحداث بغداد ممن يتعاطى الأدب، نختلف إلى مدرك نتعلم منه الشعر. .
فقال لنا إذا وضعتم الكلمة بلفقها كنتم شعراء) وقد يطول بنا القول، لو أخذنا نتقصى أقوال النقاد في هذه الناحية، وإنما آثرنا كلام العسكري لأنه في مجموعه قريب الشبه بكلام ابن شهيد، فقد قال بتآخي الكلمات، وتخير الألفاظ، ومراعاة الحروف، وهذا هو معنى قول ابن شهيد: (إن للحروف أنساباً وقرابات تبدو في الكلام، فإذا جاور النسيبُ النسيبَ، ومازج القريب القريب، طابت الألفة، وحسنت الصحبة) إلا أن كلام ابن شهيد أدق وأعم، كما إنه يمتاز بالقول في اختبار الوضع النحوي للكلام مما سمها ملاحة النحو، وهذا ما لا يسبقه إليه أحد من النقاد، فحبذا لو درج الأدباء في أساليبهم من هذه الجهة على النهج الذي أوضحه ابن شهيد فإنهم يخدمون أساليبهم، ويخدمون لغتهم بإحياء كلمات اللغة المهجورة التي تصلح للاستعمال والتداول.
بقيت ناحية في كلام ابن شهيد السابق، وهي قوله بتأثير الأعضاء الظاهرة على الملكات الباطنة، فهذا كلام صادق إلى حد، بمعنى أنه لا يطرد في كل الشخصيات، فليس من الإنصاف أن نتخذه مقياساً للنبوغ، أو قاعدة نبني عليها الحكم على الآثار الأدبية، وليس أدل على هذا من إخفاق ابن شهيد نفسه حينما أراد أن يسوق الشواهد لإثبات هذا الرأي،
فقد اضطر أن يفضل سهل بن هرون على الجاحظ، واستباح لنفسه أن يرمي الجاحظ بالغفلة وسقوط الهمة، والنقص في أدوات الكتابة، ثم راح يشرح ويدلل على هذا النقص فقال: (وربما أنكر قولنا في شرط جميع أدوات الكتابة، فقيل: وأي أداة نقصت الجاحظ؟ فنقول: أول أدوات الكتابة العقل، ولا يكون كاتب غير عاقل، وقد نجد عالماً غير عاقل وجدلياً غير حصيف، وفقيهاً غير حليم، وقد وجدنا من ينسب العقل إلى سهل أكثر ممن ينسبه إلى الجاحظ. . . ولو شاهد الجاحظ سهلاً يخادع الرشيد ملكاً ويدبر له حرباً، ويعاني له إطفاء جمرة فتنة، ناهضاً في ذلك كله بعقله وتجربة علمه، لرأى أن تلك السياسة غير تسطير المقال، في صفة غراميل البغال، وغير الكلام في الجرذان، وبنات وردان، ولعلم أن بين المعلم والكاتب فرقاً).
وهذا كلام قد تعثر ابن شهيد في إيراده، فلا تجده ينهض من جهة إلا ليسقط من جهة أخرى، فالجاحظ أكتب كتاب العربية غير مدافع، وابن شهيد يقول إنه لا يوجد كاتب غير عاقل، فكيف إذن يرميه بالغفلة وقلة العقل، وكيف يقدم عليه سهلاً لبراعته في مخادعة الرشيد، وسياسة الأمور، وهذه ناحية لا تقتضي من العقل أكثر مما يقتضيه القول في صفة غراميل البغال، وبنات وردان؛ فإن براعة الكاتب إنما تظهر فيما تفه من الأمور. وهيهات أن تخرج العربية خدناً للجاحظ في هذه الناحية. . .
(للبحث بقية)
محمد فهمي عبد اللطيف
من شعر الشباب
من القلب
(مهداة إلى صاحب الملاح التائه)
قلبيَ الخفّاق أضْنَاهُ الحنينْ ... وَبَرَتْه الذكريات القاتلَهْ
وهو في ذكراه مُلْتَاعٌ حَزِينْ ... يَتَعَزَّى بالأماني الخاتلهْ
ضَجَّ في أنحائه الحبُّ الحَبِيسْ ... وسرى في الكُرَةَ الكبرى صَدَاهْ
إنْ هَفَتْ للحبِّ أطماح النفوسْ ... (فالحياة الحب والحب الحياه)
يا حبيبي هزّني الشوق إليكْ ... هزّةَ الغصنِ بيومٍ عاصفِ
أنا أجْنَى منكَ يا روحي عليك ... شَدَّ ما أشقى بحبي الجارفِ
ذاك روحي ماثلٌ بين يديكْ ... فاشف جُرحاً من جِرَاحات الهوى
أنا روح ذائبٌ بين راحتيكْ ... ذاب شوقاً من تباريح الجَوَى
يا حبيبي أنا في الدنيا خيالْ ... أتراءى كالشعاع الشاحبِ
مُسْتَطار بين خَبْوٍ واشتعالْ ... أتعزّى بالخيال الكاذبِ
أنا من دنيا المُنَى مبتئسٌ ... لا أرى في الكون نُعْمَى أرتجيها
هل جَنَى الأقوام ما قد غرسوا؟ ... إنها دنيا تُسَجِّي عاشقيها!!
يا عزاء النفس، يا لحن الأسى ... يا دموع القلب: يا شعري تَدَفَّقْ
لحنُكَ الباكي بأنَّاتي انْتَسَي ... فأذِبْ قلبي وبالروح ترفَّقْ

يا مَرَاحِ الحب يا مهد الغرامِ ... يا هَتُون الدمع: يا قلبي الجرحْ
هذه الدنيا كأطياف المنام ... لَفَظَتْ (موسى) وضاقت (بالمسيحْ)
في سكون الليل تَبْدُو غرفتي ... كشراعٍ رَفَّ في اللُّجِّ البعيدْ
مَلّ طيف الحُب فيها وحدَتي ... فشدا يُسمعني لحنَ الخلودْ
أنا فيها ساهم مُنْفَرِدُ ... أسْتَشِفُّ الكون من عليائها
أنا في روض غرامي غَرِدُ ... أتلقَّى الوحي من أرجائها
عجباً للناس، سامُوني العذابا ... وأرَادُوني على ما لم أطِقْ
كيف اختار (الثعابين) صحابا ... أوَليس الغدر في الناس خُلُقْ؟!
مَنْ له روحُ كروح الشاعر ... فَنِيَتْ في خدمة الناس جميعاً
إن همُ أَنُّوا لِظُلْمٍ جائرٍ ... صَهَرَ القلبَ وأَذْرَاهُ دُمُوعاً
مَنْ رأى الشاعر يُعْنَى بشئونهْ ... من رآهُ مُطْرِقاً في أمْرِهِ؟؟
إنما الشاعر آسٍ - في سكونهْ ... لجراحاتِ الورى في شعرِهِ
إسكندرية
عبد الرحمن عثمان علي
حب الشكور
إنْ لمْ أَحُبَّكِ لِلسَّنَا وَالنُّورِ ... ولحُسْنِ وجهٍ في الحياةِ نَضِيرِ
وَلِسِحْرِ رُوحِكِ حينَ يختلسُ النُّهى ... مِنِّي فَأتْبَعُهُ إتِّبَاعَ سَحِيرِ
وَلِمَا تَضَمَّنَتِ الْجَمَالَ فَأَفْصَحَتْ ... بِكِ مِنْهُ ساحرةٌ منَ التَّعْبيرِ
وَلِمَا ابتدعْتِ وما مَنَحْتِ منَ الهَوَى ... للكَوْنِ، أو أحْيَيْتِ مِنْ مَقْبُورِ
إنْ لمْ أَحُبَّكِ حُبَّ مفتونٍ، ولاَ ... حُبَّ الأَسِيرِ، إذنْ فحبَّ شكورِ!
حُبَّ الَّذِي أحْيَيْتِ فيهِ حياتَهُ ... مِمَّا لَدَيْكِ مِنَ الحَيَا المَذْخُورِ
ووهبْتِهِ مِلْكَ الحياةِ، وطالما ... قَدْ عاشَهَا كالعاملِ المأجورِ
ومنحتِهِ ماضِيهِ بَعْدَ ضَياعِهِ ... وأعَذْتِ قَابِلَهُ منَ المَحْظُورِ
حُبَّ الَّذِي أَشْرَقْتِ في وِجدانه ... فجلوتِ كلَّ مُحجَّبٍ مستورِ
وَنَفَخْتِ في عَزَمَاتِهِ فتوَهَّجَتْ ... وَسَمَتْ لكلِّ مُمَنَّعٍ وخطيرِ
أوْ فلأحبَّكِ حبَّ من ألهمتِهِ ... شعراً، يضئ سناهُ كلَّ شعورِ
شعراً جمعتُ من الحياةِ زهورَهُ ... ومنَ الجمالِ نفحتُه بعبيرِ
ومِنَ الضياءِ وهبتُهُ آمالَهُ ... ومِنَ النَّدَى عِلماً كوجْهِ غريرِ!
وبعثتُهُ وحْيَ الحياةِ وَفَنَّهَا ... تحلوه ضِمنَ جمالِها المأثورِ
أفَلاَ أحبكِ؟ إنهُ لفريضةٌ ... حبُّ الشَّكُورِ لواهبٍ مَشْكُورِ
سيد قطب
عاصفة في قلب
عَييتُ بالقَلْبِ واسْتَنْكَرْتُ أَحْلامي ... وَنُوءتُ بالعُمْرِ واسْتَثْقَلْتُ أيَّامي
حَطَّمْتُها أمْسِ آمالاً مُذَهَّبَةً ... كانَتْ تُهَدْهِدُ أحْزاني وأسْقامي
حطَّمْتُها وهي في شَرْخِ الصِّبا مَللاً ... ما لِلْمُنَى وفُؤَادي الموجَعِ الدامي
ما لي وَلِلْحُلُمِ الرفَّافِ يُسْعِدُني ... في عالَمٍ مائجٍ بالشَرِّ طَلاَّم
ما قيمةُ العَيْشِ لاَ تَلْقَى بِساحَتِهِ ... من المُنى غيرَ أشباحٍ وَأَوْهامِ؟!
كَفَرْتُ بالحُلْمِ ما هامَ الغُفاةُ به ... فَلَسْتُ في هَذِهِ الدُنيا بِنَوَّامِ
أَأَقْطَعُ العُمْرَ كيْ أَحْظَى بِلَذَّتِهِ ... وهِمانَ تِرْبَ خيالاتٍ وأَحْلاَمِ
لَدَمْعَةٌ وأنا مُسْتَيْقِظٌ أَرِقٌ ... أَحَبُّ مِنْ حُلُمٍ كالزَّهرِ بَسَّامِ
أَصْبَحْتُ بعدَ الرُّؤى في مَهْمَهٍ حَلِكٍ ... من الحقائقِ داجٍ جِدّ مِظْلاَمِ
حيرانَ أَخْبِطُ كالمجنونِ مُرْتَقِباً ... نوراً يَفِيضُ فَيَمْحُو كلّ إظْلاَمِ
أسيرُ والدَّجْيَةُ النَّكْرَاءِ غاشِيَةٌ ... تزدادُ ما زِدْتُ في سَيْرِي وإقْدَامي
حتى رَجعتُ - وقد أَخْفَقْتُ في طَلَبي - ... مِنَ الشُّكوكِ بِبَحْرٍ مُزْبِدٍ طامِ
هي الحقيقةُ ما تَدْنو مَوَدَّتها ... ولو وَقَفْتُ عَلَيْها كلَّ أعْوامي
وأنتَ يا خافِقاً في كَهْفِهِ صَخِباً ... حَتَّامَ تُمْعِنُ في شَجْوِي وإيلامي
أَأَنْتَ مَعْبَدُ شَكٍ لاَ ثَنى قَلِقاً ... أمْ أَنْتَ يا خافِقي نَاقُوسُ آلام
هذي الحَقائقُ تَنأى عَنكَ هارِبَةً ... وَأَنْتَ ما زِلْتَ في شَوْقٍ وتَهْيَام
تَفَرَّقَ الناسُ فِيها كلَّ ناحِيَةٍ ... فكَم ترى مِنْ (مَعَرِّيٍ) و (خَيَّامِ)

مِنْ عَهْدِ (سُقْرَاطَ) لمْ تَبْرَحْ مُحَجَّبَةً ... طخياء، شتّانَ بَيْنَ النُّسْكِ والجامِ
ما رَوْضَةٌ بَرَزَتْ لِلْعيْنِ سَافِرَةً ... إذْ جَادَها سَحَراً دَمْعُ النَّدى الهامي
تَهيجُ في الصبِّ نارَ الُحبِّ خابيةً ... وتملأ النَّفْسَ مِنْ وَحْيٍ وَإلهامِ
ترى الطيورَ على الأفْنانِ حالِمَةً ... سَكْرَى تَلَهَّى بألْحَانٍ وَأنْغامِ
وَالنَّحْلُ يَرْقُصُ حَوْلَ الزَّهرِ مُنْتَشِياً ... صَبّاً وَلُوعاً بِتَقْبِيلٍ وَتَصْمَامِ
هَبَّتْ على بِشْرِهَا هَوْجَاءُ عاصِفَةٌ ... فَخَيَّمَ البُؤس فيها بعدَ إنْعامِ
لا طائرٌ ناغِمٌ في الرَّوضِ مُرْتَنحٌ ... فَوْقَ الغصونِ ولا نحْلٌ بِحَوَّامِ
كالقَلْبِ هَبَّتْ رِيَاحُ الشَّكِّ تَلْفَحُهُ ... فَقَطَّعَ العُمْرَ في عَزْمٍ وإحْجَامِ
أهكذَا الكَوْنُ أحْلامٌ مُلَفَّقَةٌ ... قَرَّتْ حَقائِقُها في صَدْرِ كَتَّامِ
تلقى أخا اللُّبِّ في بَيْدَائِهِ دَهِشاً ... حيرانَ يُدْلجُ في رَيْبٍ وَإبْهامِ
دمشق
أمجد الطرابلسي
كما أراك
يا شُعلةً مِنْ جُنُونٍ ... وَصُورَةً لِلْمُجُونِ
وَهَيْكلاً لِلأمَانِي ... وَمَعْبَداً لِلْفُنُونِ
قَدَّسْتُ فِيكِ شُعَاعاً ... يَرِفُّ فَوْقَ الجَبِينِ
مُنَعَّماً سَرْمَدِيّاً ... سَكَبْتِهِ في حَنِينِ
تَلألأَ الكَوْنُ مِنْهُ ... وَشَامَهُ النَّاسُ دُونِي
وَتِلْكَ كأسُ الأمَانِي ... أتْرَعْتُها مِنْ شُجُونِي
وَأنْتِ نَبْعُ قَرِيضِي ... وَفِتْنَةٌ لِعُيُونِي
وَصُورَةٌ فِي خَيَالِي ... وبَارِقٌ فِي دُجُونِي
وَلَمْحَةٌ مِنْ ضِيَاءٍ ... مَسْكُوبَةٌ بجُفُونِي
وَخَطْرَةٌ بِضَمِيرِي ... وَنَغْمَةٌ فِي سُكُونِي
عَبَدْتُهَا فِي عُلاَهَا ... وَإنْ شَجَانِي حَنِينِي
وَأنْتِ وحْيٌ خفوقٌ ... بَدَا بِأُفُقِ الفُنُونِ
في هَيكلِ الحُبِّ شِعْرِي ... وَقَّعْتُهُ مِنْ أنِينِي
يا شُعلةً مِنْ جُنُونٍ ... وَصُورَةٌ لِلْمُجُونِ
حسن محمد محمود
في الأدب الإنجليزي
شارلس مورجان ومناحي التطور في القصة الحديثة
بقلم محمد أمين حسونه
- 1 -
إن ظهور رواية شارلس مورجان (صورة في مرآة) ونفاد طبعتها في بضعة أيام، من شأنه أن يوجه أنظارنا إلى كاتب قصصي برز فجأة بين المؤلفين العصريين، وامتاز بعبقرية فذة تجلت في سطور هذه الرواية كما تجلت في روايته الأخرى (النافورة) التي هتف لها النقدة ورفعوها إلى الصف الأول بين الروايات التي ظهرت عقب الحرب الكبرى.

فبينما يحدثنا المؤلف عن هذا النوع الجديد من التصوف (حياة التأمل - الذي يحيط بفصول روايته كهالة من القداسة، ويحلق بنا في الأجواء التي تخلد فيها أرواح وآرسطو وأفلاطون وديكارت، إذ نراه في فصل آخر ينزل بنا إلى التحدث عن علاقة الأجساد بالشهوة، أي يعود بنا آدميين تحكمنا غريزة الجنس وتطغى على ميولنا وعواطفنا، فيصف في صراحة مخيفة التبشير باللذة الجنسية وأثرها في العلاقات الجنسية وصفاً هو أشد وقعاً من الفن الذي ابتدعه الروائي الإباحي د. هـ. لورانس.

كان القصصيون إلى العصر الفكتوري يهتمون كثيراً بصنع قوالب لشخصيات شاذة ثم يصبون ماء الحياة فيها ويحملون القارئ على أن تعلق هذه الشخصيات بذاكرته، وكثيراً ما كانوا يملئون صفحات مملة باردة يصفون فيها نشأة أبطالهم وعوائدهم وطباعهم ونظرتهم إلى الحياة والدين والأخلاق، ثم تنتهي الرواية بترجيح كفة الخير على الشر.

وكان اهتمام الروائيين في عصر الملك إدوارد موجهاً إلى تسجيل الحركات والدوافع والفضائل، وكانوا يلقنون البطل أقوالاً يعرب بها عن عقائدهم وأفكارهم ونزعاتهم

ودروساً وعظات أخلاقية، أما الفن الروائي الحديث فيختلف عن هذا كله وينحو منحى جديداً، فقد جعل كتابه من أهم مظاهره تقريب الحياة إلى ذهن القارئ بأن يشعر كأنه يعيش في نفس البيئة والجو، كما يهتمون بتسجيل حركات شخصيات رواياتهم وخواطرهم ومشاعرهم والخفية ورسم أطياف أحلامهم وذرات تفكيرهم وارتباطها بنشاط العقل وإبراز العبقريات المدفونة وتقديسها،
فالرواية الحديثة حوض بلوري تسبح فيه الرغبات والآمال، والأفراح والأتراح، وتشف من جوانبه الهواجس والأحلام. . . .
ونحن نشعر لأول وهلة بعد مطالعتنا لقصص شارلس مورجان بهذه الصفات جميعاً، وبقوة جذابة في الأسلوب وفي اللهجة، قوة هادئة منظمة تسيطر على الأعصاب وتبدو من خلالها صفات المؤلف التي لا تمت مطلقاً لا إلى الواقعية ولا إلى التحليلية، بل إلى تجارب ثمينة وإرادة حديدية وفن إبداعي لم يسبقه إليه أحد.
بدأ شارلس مورجان حياته في البحرية الإنجليزية وعمره سبعة عشر عاماً فطاف ببلاد وموان مختلفة، وقد تولد ميله إلى الأدب بتأثير حادث خفي. ولما زار أكسفورد للمرة الأولى راقته حياة الطلبة ودفعته رغبته في إتمام تعليمه وتعلقه وشغفه بالأدب إلى أن يؤثر الالتحاق بالجامعة على الاندماج إلى الأبد في سلك البحرية. غير أن شبوب الحرب العالمية حال دون أن يحقق رغبته فاضطر أن يعود ثانية إلى العسكرية واشترك في الدفاع عن أنفرس إلى أن سقطت في يد الألمان فوقع في الأسر وأرسل إلى إحدى المعتقلات العسكرية في هولندا ثم أفرج عنه عقب الهدنة وعاد إلى إنجلترا ليلتحق ثانية بجامعة أكسفورد.
كانت أول أعماله الأدبية روايته الأولى (غرفة البنادق) في عام 1919 وقد تحدث فيها طويلاً عن حياة البحرية، غير أنها قوبلت من جانب الصحف والنقدة بقلة الاكتراث لعدم ذيوع اسم مؤلفها، وفي عام 1925 أصدر روايته الثانية (اسمي لا عَدّ له) فكان نصيبها نصيب روايته الأولى.
أحس مورجان بدبيب الفشل يتطرق إلى نفسه، وانصرف إلى الوحدة والمطالعة وخاصة في كتب الفلسفة والتصوف، وفي عام 1932 ظهر في الجو الأدبي للمرة الثانية بروايتين: الأولى (صورة في مرآة)، والثانية (النافورة) يصفهما كلير اليان انجيل الناقد الفرنسي: (بأنهما ثمرة مجهود طويل دقيق، أشرفت عليه إرادة جبارة تدل على نضوج في الرأي وقوة في التفكير) ويقول عنه محرر (النوفيل ليتريرر) في معرض نقده لفن شارلس مورجان: (بأن أهم مميزات عبقريته تحفظه في التعبير، ولا يمكن مطلقاً اتهامه بالبرود والجفاء لأن الانفعالات المكبوتة قد لا تخلو من الإحساس، ولهذا فأشخاص قصصه يشعرون ويتألمون ولكنهم يتهامسون دون رفع أصواتهم).
يمتاز أسلوب مورجان بفصاحة في التعبير، وربما كانت روايته (النافورة) مشوبة بشيء من الإسهاب في الوصف، ويمكن أن يقال أيضاً بأن الوضع في روايته الأخرى (صورة في مرآة) غير متناسق في مجموعه، غير أن بعض نكات المؤلف الطريفة تعطينا شيئاً من الطلاقة إلى جانب عبوس الموضوع. وقد جاءنا المؤلف بأشباح هم أبسط تكويناً من أبطاله، يعيشون فوق سطح الموضوع لا في قاعه؛ مثال هذا: وصفه في القسم الأول من (النافورة) حياة الضباط الإنجليز في المعتقلات الهولندية، والآنسة فولاتون العانس في رواية (صورة في مرآة) وجعلها تلقي الكلام على عواهنه في شئ من المزاح الخطر. ومع ذلك فالمعاني التي يأتي بها المؤلف ترتكز على تلك الصراحة التي يصور بها نفسية أبطاله، وهو لا يكاد يشرح مسألة هامة حتى يترك المجال رحباً لاثنين أو ثلاثة من أبطاله، فيختفي وراء شخصياتهم ليلقنهم آراءه وأفكاره.
في رواية (صورة في مرآة) يصف لنا حياة رسام شاب يدعى نيجل فرويز يقابل مصادفة صديقة له كان يحبها منذ سنوات، فحين يلتقي بها بعد هذه الغيبة الطويلة ينبعث الماضي من قلبه فجأة كعالم كان يجهله. حاول أن يهبها حبة فأخفق، لأن صورتها الأولى التي كان يهيم بعبادتها قد تغيرت بمرور الزمن، وكانت أيضاً على وشك أن تتزوج من غيره، فتترك عريسها وتتعلق بالرسام الشاب وتمنحه قوة حبها السابق، على حين أنه يشفق عليها فقط لأنه يعطف على ذكرى الماضي ويقدسه.
وتعتبر روايته الثانية (النافورة) رداً على هذه النظرية، فموضوعها هو التفاهم الفكري بين رجل وامرأة، والتفاهم الروحي بين رجل ورجل هما في القصة أخصام، ولكن

الخصب الفكري والتوافق في ذلك الأفق العالي من الثقافة يمحو الخصومة ويسمو بهما إلى مراتب الآلهة.

بطلها لويس اليسون شاب لا يزال في مقتبل العمر، ولكن لفرط تعمقه في الفلسفة والتفكير يبدو أكبر سناً من حقيقته. وعندما يتكلم بروية يضطر غيره إلى الإصغاء؛ هو مغرم بالتاريخ لا يدرسه لنفسه ولكن للفلسفة في التاريخ، يدرس تطور العقل الإنساني المشترك في العصور المتعاقبة ويتابع ناحية جلية منه، وهي أن هناك عقلاً واحداً من أقدم عصور التاريخ إلى اليوم، وسواء أكان هذا العقل عقل أفلاطون أو ديكارت أو نيوتن فإنه العقل الإنساني يحاول أن يخترق الحجب وأن يمزق قناع الغيب.

فشارلس مورجان يطبق النظرية الفلسفية الحديثة القائمة على توحيد العقل الإنساني ويطبق أثر تصوفه في أخلاق أفراد قصته، فيقول على لسان أحدهم حين يتلو صلاته في تقوى وخشوع: (عندما كنت طفلاً أخذ الله بيدي، ولما كبرت هربت منه، وعندما احتجت إلى الراحة والسلام بحثت عنه وطفت المدينة بمصباح، ثم غمرتني المذلة وانحنيت إلى الأرض أبحث عنه في الأوكار وتحت صفحات الأزهار، ولكن لم أجد سلاماً ولا راحة، وصرت كطفل أو كعالم كبير ضل طريقه فلم أعد أعلم عمن أبحث، فرميت مصباحي ومفاتيحي وبكيت، ورأيت فجأة نوره يملأ قلبي، وعدت إلى المدينة فإذا النور لا يزال حيث هو، وإذا بي أمرح في سجن نفسي بينما الدنيا تتابع الطرق على بابي، ربي أعطني يدك عندما تدعوني إليك).

- 2 -

نراه يصف الأسرى في المعتقلات الهولندية فيسهب في تسجيل حركاتهم وخواطرهم، عندما يتألم الطيار الذي اعتاد الجو فلا يستطيع الصبر على الأسر، يقول للويس اليسون المفكر الغارق في فلسفته: أتعلم أني حين أطير أصل إلى لحظات ينكشف لي فيها الغيب وأرى ما لا تراه العيون كما ترى أنت بالطبع حين تخلو إلى نفسك والى أفكارك، ثم أعود إلى الأرض. . . أعود آدمياً مع الأسف كما تعود أنت بعد خلوتك لتختلط بنا وتتكلم معنا.

وعندما يتقابل لويس اليسون مع جولي ناروتز - وهي سيدة شابة إنجليزية متزوجة من ألماني لا تحبه - يعرف أنها كانت تلميذته القديمة وهو في لندن فتأخذ الذكريات تتفتح في قلبه شيئاً فشيئاً كما تتفتح الزهرة في أشعة الشمس وتحاوره قائلة:

- أستاذي. . . كيف تراني الآن؟ هل تغيرت؟

فيجيبها وهو شارد في تأملاته:

- معاذ الله. . لقد صرت كشبح جميل قام من هذه البحيرة.

فتلذعه بقولها:

- إذاً وداعاً للحم والدم!

تتحول صداقة لويس وجولي إلى حب، هو في نظرهما وسيلة للبحث عن توازن يتغلب على تقلبات الدهر، أو كما يصفه المؤلف نفسه: (عندما يتم امتزاج الرجل بالمرأة وهما في أشد أدوار النشوة ويحاولان أن يعبرا جسر الجسد إلى وحدة الروح، فإنهما لا بد واصلان إلى سخرية ما بعدها سخرية، ومهما أحاطا الحب من خيال وحرارة وإيمان وابتغاء الخلود بالذرية، فإن الإحساس الجسدي يظل كما هو، جسمان منفصلان كطائرين يحاولان التلاقي خلال (لوح) من زجاج!).

والخلاصةأن بطلي هذين النزاعيين النفسيين متشابهان كل التشابه، ينجل فريوز في السابعة عشرة من عمره، ولويس اليسون في الثلاثين، ولكن كليهما يبدو أكبر سناً من حقيقته، فنضجت في الحياة تجاربهما. وصورة الرسام الفنان تتشابه تماماً وصورة الضابط الشاب، فإنهما يمتازان بعمق الإرادة وانحصار قوة التفكير المحاط بتكتم يخضع المحيط بهما، ولوعة الذكرى التي تعذب ينجل وشعوره بالألم من مجرد مرور طيف كلير بمخيلته، وهو نفسه شعور اليسون عندما يلتقي بتلميذته جولي ويحبها. وقد يمتاز اليسون عن زميله بأنه رجل كثير التفكير، يسبح في آفاق عالية، فعندما يؤخذ إلى الأسر يفرح كالطفل ويقول، بأنه سوف يخلو إلى مطالعاته وتأملاته.

فحياة التأمل ما هي في نظره إلا التاج لآمال الرجال الذين فجعوا وهم في زهرة العمر.

أما كلير وجولي فإنهما تختلفان نوعاً، فبطلة (صورة في مرآة) بطيئة في فهم جموح عاطفة الطفل المعجب بها والذي يحبها حباً نادر المثال. لذا نراها مبتعدة عنه بل تكاد تكون سلبية، على حين أن جولي ضحية تنازع لعوامل مرتبكة، وهي لذلك كثيرة الاضطراب مبلبلة الفكر، وقد تجنب المؤلف أن يثير بشأنها مسألة الجنسيات، فهي إنجليزية ولكنها متزوجة من ألماني يدعى فون ناروتز، وشخصية هذا الضابط غريبة حقاً في الرواية، فالمؤلف يظهره أمامنا وقد عاد من الحرب مشوهاً مريضاً بالربو، يقاسي نوبات حادة من الألم، يقول عنه (إنه ترك مرتبة التفكير وصعد إلى أعلى من هذا واستقر، فها هو يعود إلى داره بآلامه التي لا تطاق، فيحاول أن يصبر كإله جبار).

ولكن البارون - رب القصر - وهو رجل موفور الصحة، لا يكتم رأيه العملي حيال فون ناروتز فيقول: (إن العالم كمزرعة لا يجب أن يتسامح المرء في الضعيف فها وإلا قل الإنتاج وحل الخراب، فالضعيف المريض يجب أن يمحى).

يسمع ناروتز منه هذا ويحاول أن يصبر على الألم ولا يشكو فيقول في إحدى محادثاته: حقاً إن الرجل القوي يتحكم لدرجة ما في الموت والحياة.

وهو قد جاء إلى القصر بآلامه وانتصر على الموت لأنه يحب زوجته جولي حباً عميقاً خالصاً ولأجلها يريد أن يعيش.

ولكنه يعلم بعد هذا أن العلاقة التي تربطه بزوجته أصبحت علاقة المريض بالممرض فهي تخونه مع لويس لأنها محرومة منه، ولو طالبها بالوفاء له وهي شابة ناضجة الأنوثة ملتهبة العاطفة لكان هذا فوق طاقة البشر، فيقذف بنفسه في غمرة من المثل الأعلى اليائس، وأخيراً يصل إلى حالة انفصال تام عن الحياة وحالة هدوء واستسلام وتجلد أمام الآلام ويأخذ الجبار في الموت فلا يلبث قليلاً حتى تختفي شخصيته.

وقد قصد المؤلف بإظهاره أن يطلعنا على صورة من صور النساك الحديثين الذين يعتبرون أن الحرب ما هي إلا تكفير ديني لخطايا البشرية، ولو كانت شخصية فون ناروتز غير هذا من الخلق لأصبح الموضوع تافهاً، ولكن إظهاره بهذه الصورة يدل تماماً على طريقة رسم المؤلف لشخصياته.

جميع أبطال شارلس مورجان مثقفون لا يعيشون إلا بأرواحهم، وبالرغم من تحليله النفسي الدقيق فإن لا يسرف مطلقاً في وصف (تيار الضمير) كما هو الحال في أكثر المؤلفات الإنجليزية الحديثة.

فأشخاص مورجان يحكمون عقولهم ويدرس بعضهم أخلاق بعض، وهم ذوو إرادة قوية، ولا يمكن للغريزة أن تحكمهم حتى في أعمالهم، يسلكون طريقهم الطبيعي، ويقفون أحياناً يائسين بعد تردد، وهم لا يعملون عملاً متفقاً عليه ولا يتحركون كالآلة، بل تبدو من خلال شخصياتهم الإرادة القوية والشعور باحترام أنفسهم، وبرغم الحوادث والكوارث التي تنتابهم تراهم محتفظين بنزاهتهم الأدبية وباستقلالهم في الرأي والحكم.

فشارلس مورجان يعد أيضاً من هذه الناحية من المؤلفين الإرشاديين، وهو يوجه قراءه إلى مثل عال واضح محدود. وفي الوقت الذي يتلمس في التأليف الروائي الإنجليزي سبلاً للوصول إلى نوع جديد، نرى مورجان يسلك طريقاً مبتكراً، وهو يشبه في فنه (برنسيس دي كليف) وغيرها من القصص التي يجمع أبطالها بين الشهوة والاتزان فيفخرون بتحمل

آلامهم باحثين عن الراحة في شعورهم بالإخلاص للمثل الأعلى.

وخير ما أختم به هذه الدراسة المقتضبة أن أردد ما قاله الناقد الروائي لملحق التيمس الأدبي:

(إن الذي تطربهم الشهرة والذين يعترفون بقوة الإلهام ويقدرون أيضاً نعمة إظهار الأخلاق على حقيقتها وتحديد العواطف البشرية ورسمها، والذين يميلون بفطرتهم إلى آداب النثر الفني الإنجليزي وعظمته يستطيعون أن يجدوا كما وجدنا هذه الآثار الرائعة في روايات شارلس مورجان).

محمد أمين حسونه

العلوم

بحث في أصل الإنسان - 6

بقلم نعيم علي راغب دبلوم عال في الجغرافية

من تلك الفكوك المتحجرة التي وجدناها عرفنا أنه قد عاش في الغابات الاستوائية في أوائل عصر البليوسين نوع من القردة الكبيرة، وأنه قد كان لنوع من أنواع الغوريلا أو الشمبانزي أو أورانج يورنيو وسومطره كبير الحجم يمت إلى الإنسان بالشبه من وجوه مختلفة. وأننا نعرف أن أصناف القردة التي تسمى والتي يمثلها قرد الأورانج والسيامي كانت موجودة، وأنه كانت هناك كذلك أنواع أخرى تختلف كثيراً عما نراه في نظيراتها اليوم، إلا أنها كانت من أصل واحد. ولذلك فإن من الممكن القول أن ذلك النوع الذي تفرع وتطور من الإنسان كان موجوداً في أوائل عصر البليوسين.

ونحن إذ تقدمنا في بحثنا إلى عصر الميوسين فإنه لا يمكننا أن نجد فيه أي أثر إنساني. وليس في استطاعة من يعرف أن بحثنا لم يكن إلا قصير المدى ولمدة وجيزة وأن هناك معلومات قيمة جيولوجية لم يكشف عنها بعد، إلا أن يقول إن الإنسان لم يوجد في عصر الميوسين بشكله الذي نعرفه به. وليس هناك أي شك في أن أواخر ووسط عصر الميوسين كانت فترة تطور كبيرة مدهشة في عالم القردة، دليلنا على ذلك ما قد كشف بين ثنايا طبقات ذلك العصر من متحجرات وبقايا مما لا يقل عن عشرة أنواع من أنواع القردة الكبيرة التي فاق حجمها حجم الإنسان. وكانوا عمالقة إذا ما قورنوا بما قد سبقهم من الأنواع الكبيرة. ولما كان الإنسان عملاقاً أولياً بالنسبة لباقي المخلوقات وكانت هذه الحيوانات وأحجامها أمام فكرنا، فإنه لا يسع الإنسان إلا أن يشك في أن الإنسان قد تفرع في ذلك الوقت عن فرع منها.

أما معلوماتنا عن القردة فقد بنيناها على ما قد وجدناه من بقايا فكوكها وحطام أسنانها. يقول عنها بعض العلماء أنها بقايا نوع من القردة الكبيرة كان متجهاً نحو التطور الإنساني، ولكن لا يمكننا الحكم بذلك من مجرد بقايا لفك أو بضع أسنان، لأنه قد سبق لنا أن مظهر الفك وشكله لا يدلان على نوع صاحبه كما عرفنا في إنسان البلتدون. ولكن البرهان الحقيقي الذي يمكننا أن ننتزع منه الحقائق الثابتة هو الجمجمة وعظمة الفخذ والقدم، وهذا ما لم يوفق إليه أحد حتى الآن.

لكننا مع ذلك يمكننا القول حدساً بأن قردة الميوسين برغم اختلافها في الشكل والتكوين عن نظيراتها في العصر الحالي لا تختلف عنها في شئ آخر، وقد وجدت آثار لصغار القردة التي يمثلها نوع الجيبون وتمتاز أسنانها بصغرها، مختلفة في ذلك عن باقي الحيوانات التي كانت منتشرة في غابات الملايو. وإننا لا نشك لحظة في القول بأنه إذا كان هناك عالم حيواني قد نزل الأرض من كوكب آخر منذ 700 ألف سنة لوجد كل الأجناس موجودة بها ما عدا الإنسان، وهذا معناه أن الإنسان كما نعرفه الآن لم يوجد قبل تلك الفترة، ولكن هل كان الإنسان الأول موجوداً في ذلك الوقت؟ أو هل كان أصل الإنسان الذي تفرع عنه موجوداً في ذلك الوقت؟. . لا يسعنا إذا نظرنا إلى كمال جسم الإنسان وتمامه قبل نهاية عصر البليوسين إلا أن نقول أن الإنسان في تطوره أو تفرعه عن شجرة الأجناس (كما سنطلق عليها الآن) قد بعد أن يكون قرداً أو عن نوع القردة من بدء عصر الميوسين على أقل تقدير، وهذا ما احتاج إلى ملايين السنين، وربما كان ذلك قبل ذاك الوقت حيث عصر الأوليجوسين.

ولنجل اليوم جولة أخرى حيث يقودنا الماضي السحيق الذي يبعد عنا بما لا يقل عن نصف مليون سنة إلى عصر مبكر من عصر الأوليجوسين حينما كانت الغابات تغطي شمال أفريقيا ومنطقة الصحراء الكبرى والسودان، وحينما كان يغمرها نهر عظيم فياض كان يفيض في الشمال والجنوب مكوناً دلتا عظيمة كانت مكان دلتا النيل الحالية، وتظهر آثارها في الفيوم على شكل ربوات عالية من الطباشير، غنية بحفرياتها التي تمثل نوع الحيوان الذي كان يسكن شمال أفريقيا في النصف الأول من عصر الأوليجوسين، ولذلك نوجه بحثنا إليها.

في سنة 1910 كشف بها عن اكتشافات هامة هي أسنان وحطام أفكاك ثلاث أنواع غريبة من الأنواع الأولى البائدة. وكان أشد ما أدهشنا في تلك الأسنان أنها صغيرة الحجم، وأن تلك الأنواع صغيرة الحجم لا يتجاوز حجمها حجم القرد الأمريكي المعروف باسم ونسبة حجم جسمها إلى جسم الجيبون توازي نسبة حجم ذلك إلى حجم القردة الكبيرة. إلا أنه قد كشف أن أحدها وهو الذي أطلق عليه يمت بصلات تقربه جداً إلى النوع المعروف باسم

الجيبون. وإنا نشك في أن هذا النوع الذي ذكرناه قد يكون أصل قردة الأوليجوسين والميوسين والأنواع التي يطلق عليها اسم الجيبون.

وقد وجد الباحثون هيكل قردين آخرين: الأول صغير الحجم (وقد وجدا بالقرب من الفيوم) يظن أنه قد تفرع عن أصل قردة الجيبون وقردة الدنيا القديمة. وفي هذا النوع الذي وجدوه نلتمس القرابة والتشابه المحسوس مع قردة الأيوسين. أما الهيكل الثاني فإنه لقرد صغير يظن أنه من حلقات تطور القردة الأولى.

وإن منطقة الفيوم هذه قد أعطتنا فكرة عن قردة الدنيا القديمة وتطورها في عصر الوليجوسين، وهذه الفكرة تكفينا لنعرف أننا نتقرب في بحثنا ونتعمق في عصر من الدرجة الأولى لتطور أنواع القردة إلى عصرنا هذا الذي تختلف فيه أنواع القردة الأولى، ولو أن كليهما من عنصر واحد وتركيب واحد.

وقد أمكننا من بحثنا في صخور الأوليجوسين أن نعرف ونرى بوضوح تام أنه لم يوجد في ذلك العصر أي نوع من الأنواع الإنسانية أو القردة، بل وجد أصل كل تلك الأجناس العظيمة.

ولم نكن نريد أن نتعمق أكثر من هذا في بحثنا ونصل فيه إلى عصر سحيق متناه في القدم يمثله العصر المعروف باسم عصر الأيوسين، إلا أننا علمنا أن العلامة الكبير الأستاذ ف. وود جونز وهو من عباقرة هذا العصر يصرح بأنه يؤيد أصحاب النظرية التي تقول إن الإنسان قد تفرع من شجرة الأجناس وابتعد عن باقيها من عصر الأيوسين حينما أخذت ذوات الثدي تعدل من شكلها ويتخذ كل منها له صفات ومميزات تميزه من غيره.

لذلك نقول إنه قد وجد في طبقات عصر الأيوسين وبخاصة في الولايات المتحدة وفرنسا متحجرات لأنواع كثيرة جداً من ذوات الثدي البائدة وكلها صغيرة الحجم. وقد وجد ضمنها نوع يشابه القردة التي أطلق عليها اسم وهذا النوع قد باد ولم يبق ما يماثله الآن سوى نوع واحد يعيش في غابات الملايو سريع الحركة براق العينين واسعهما لا يظهر إلا بالليل ويطلق عليه اسم

ويعتقد الأستاذ وود جونز أننا في بحثنا هذا سوف نجد حتماً سلسلة متتابعة من الهياكل المتحجرة التي تثبت لنا أن أصل الإنسان يرجع إلى سلف من أسلاف هذا النوع وبذلك يعطي للإنسان وأصله عمراً يقدر بنحو مليونين أو ثلاثة ملايين سنة.

يتبع

نعيم علي راغب.

البريد الأدبي

تاريخ عام للآداب

عني بكتابة التاريخ العام من نواحيه السياسية والحربية كثير من المؤرخين في مختلف العصور؛ وكان المؤرخون المسلمون في طليعة من تناولوا تاريخ الإنسانية على هذا النحو. وصدرت في العصر الحديث موسوعات تاريخية عديدة تعالج التاريخ عصوراً أو أمماً، ولبعضها قيمة علمية ونقدية رفيعة. ولكن تاريخ التفكير الإنساني لم ينل مثل هذه العناية، وقلما عولج على هذا النحو؛ ويندر أن يضطلع باحث واحد بمثل هذه المهمة الفادحة المتعددة النواحي؛ بيد أن هذا هو ما يضطلع به اليوم الكاتب العلامة الإيطالي جاكو مو برامبوليني؛ فهو يشتغل منذ أعوام بوضع تاريخ عام للآداب والمعروف أن إيطاليا تجيش اليوم بنهضة علمية وأدبية كبيرة، وقد عنيت الحكومة الإيطالية بالإشراف على إصدار موسوعة (دائرة معارف) إيطالية هي اليوم من أحدث وأقيم الموسوعات؛ وهي تشجع الحركة الفكرية بمختلف الوسائل، والسينور برامبوليني علامة واسع الثقافة، وكاتب وافر الخصب؛ ولم يرعه أن يضطلع وحده بكتابة تاريخ عام للتفكير الإنساني، وقد استطاع أن يصدر حتى اليوم جزأين من تلك الموسوعة الشاسعة؛ ولكنهما يدلان على ما بذل مؤلفهما من الجهد المستفيض، وما يمتاز به بحثه من الرسوخ والدقة. ويتناول الجزء الأول الذي تربي صفحاته على الألف، تاريخ التفكير في المشرق وفي العصور الغابرة؛ فالأدب الصيني وشعراؤه وفلاسفته، والأدب الياباني، والأدب الهندي وتراثه الفلسفي القديم، والأدب العربي في مختلف نواحيه، سواء في الجزيرة أو مصر أو أفريقية أو أسبانيا وصقلية، ثم الأدب الفارسي منذ سيروس إلى عصرنا، والأدب التركي، والأدب التتاري: هذه كلها يعالجها الأستاذ برامبوليني في الجزء

الأول من موسوعته بأسلوب بديع فائق؛ ثم يعالج إلى جانبها آداب العصور الغابرة التي تغذت منها الآداب الأوربية، مثل الأدب الفرعوني، والأدب الآشوري، والأدب الإسرائيلي، والآداب اليونانية والرومانية بكل ما وسعت من ألوان الشعر والفن والجمال.

ويصل الأستاذ برامبوليني في الجزء الثاني من موسوعته في استعراض تاريخ التفكير الإنساني حتى العصور الوسطى، وذلك بعد أن يستعرض الآداب النصرانية الأولى في المشرق والمغرب، ويعرض مراحل هذه العصور الغامضة في وضوح ودقة؛ ويخصص عدة فصول قيمة للأدب البيزنطي، والأدب العبري في العصور الوسطى، ثم يتبسط في الكلام على الأدب اللاتيني فيخصه بنحو مائة وخمسين صفحة من الألف التي يضمها هذا الجزء؛ ومما يلفت النظر في هذا الجزء بنوع خاص أن المؤلف يفيض في تاريخ الآداب الجرمانية والسكسونية الشمالية القديمة التي قلما يعنى الباحثون بأمرها. وقد عني الأستاذ برامبوليني فوق ذلك بأن يزين موسوعته بطائفة عظيمة من الصور والنقوش الهامة تزيد في رونقها وطلاوتها.

وكان لصدور هذه الموسوعة الأدبية الشاسعة وقع عظيم في الدوائر العلمية الإيطالية والأجنبية، خصوصاً وأن مؤلفها ما يزال شاباً معدوداً من الكتاب الشبان، ومع ذلك فقد أبدى في إخراج مؤلفه سعة في البحث والتحقيق قلما يضطلع بها الشيوخ؛ وتعتبر الدوائر العلمية أن هذه الموسوعة من أقيم ما ظهر حتى الآن في تاريخ الآداب العام، وترجو أن يوفق مؤلفها إلى إتمامها حتى عصرنا، لتغدو مرجعاً بديعاً لمراحل التفكير الإنساني.

كتاب عن حياة العذراء

صدر أخيراً كتاب للكاتبة الإنكليزية ماري بوردن عن حياة السيدة مريم العذراء بعنوان (ماري النصرانية)، فأثار ظهوره ضجة كبيرة في دوائر الأدب. ذلك لأن الكاتبة تعالج حياة العذراء من ناحية إنسانية ومنزلية محضة، وتعرض بأسلوب مؤثر قصة حبها الأموي؛ وتدلل الكاتبة على معرفة دقيقة بفلسطين والحياة اليهودية، ومواطن المسيح، وحياته الأولى؛ وتصور لنا (ماري) (السيدة مريم) هائمة بحب ولدها متعلقة به، جزعة على انفصاله، مرتابة في صحة رسالته إلى ما قبل الخاتمة المفجعة. وتقول لنا إنها استندت في تصوير هذه الحياة المؤثرة إلى الكتب المقدسة، وبخاصة إلى العهدين القديم والجديد، والى أقوال السيد المسيح، والى كتب الصلاة العبرية والتلمود وغيرها، ثم إلى بعض الكتب التاريخية التي تلقي ضياء على هذا العصر؛ ثم تقول لنا إنها اضطرت منذ البداية أن تخوض ذلك الجدل الخالد الذي يتعلق بأسرة المسيح، والذي لبث مدى قرون يثير بين أحبار الكنيسة أشد الخصومات.

وكتاب السيدة ماري بوردن يعتبر في معنى من المعاني قريناً لكتاب المؤرخ الفرنسي (رينان) عن حياة المسيح؛ فقد أثار كتاب رينان يوم ظهوره ضجة عظيمة، ونال من الدوائر العلمية أعظم تقدير، لأنه مؤلفه استطاع أن يتبسط بجرأة وقوة في شرح الجانب الإنساني من حياة المسيح؛ وهذا ما فعلته ماري بوردن في بسط حياة العذراء.

هنري بوردو يدافع عن فيوليت نوزيير

حكم القضاء الفرنسي أخيراً بالإعدام على فيوليت نوزيير، وهي الفتاة التي قتلت أباها وشرعت في قتل أمها بالسم لكي ترث مالهما، فاستقبل الرأي العام هذا الحكم بالرضى، ولكن هنري بوردو الكاتب الكبير وعضو الأكاديمية الفرنسية - وهو محام قديم - حمل على هذا الحكم، وأنشأ في دفاع فيوليت نوزيير فصلاً بديعاً قال إنه يصور دفاعه كمحام عن هذه الفتاة القاتلة لو أنه دعي للدفاع عنها. ومما جاء في هذا الفصل: (لقد كان فيما مضى في هذه القاعة شخص كانت تغلبه الرحمة؛ وقد حمل هذا الشخص وألقي به واختفى في مكان لا نعرفه، في بعض زوايا هذا القصر - قصر العدالة، ولقد كان يحمل الشقاء الإنساني مهما بلغ، وكان يدعو إليه كل بائس وكل مذنب، ويعاونهم على حمل مصائبهم أو جرائمهم. ولكن فيوليت نوزيير لم تعرفه، ولم يرشدها إليه إنسان؛ وقد حرمت من كل شئ حتى من وجود الإله.

أتجرءون الآن إذاً أيها السادة المحلفون أن تنزعوا منها الحياة؟ إن الحياة هي كل ما تبقى لها، أتجرءون على نسيان أولئك الذين خلقوا هذا الوحش ورعوه؟ أتجرءون أن تنتزعوه من أصوله، ومن محيطه، ومن شركائه، فتحكموا بالإعدام على هذه الطفلة التي لم تجاوز التاسعة عشرة، والتي اتهمت بأشنع الجرائم؟ ارجعوا إذاً إلى منازلكم،

وتأملوا أولادكم، واسألوا أنفسكم ماذا عسى يصيروا إليه إذا رفعتم عنهم رقابتكم وحبكم، وإذا حرمتموهم من الشفقة الإنسانية، وإذا حرمتموهم من معرفة الله. . .).

رسائل جديدة لشاتوبريان

عرضت أخيراً للبيع ضمن مجموعة ثمينة من الكتب والمخطوطات النادرة، عدة رسائل خطية لشاتوبريان الكاتب الفرنسي الأشهر، وهي الرسائل التي كتبها إلى مدام كوستين، بين سنتي 1804 و1806، أثناء رحلته في المشرق، ثم سنتي 1821 و 1823؛ وقد بيعت هذه الرسائل، وعددها ثلاثون بمبلغ 5465 فرنكاً (أو ما يساوي نحو ثمانين جنيهاً)؛ ولكنها بيعت متفرقة كل رسالة على حدتها، وبلغ ثمن واحدة منها فقط 1025 فرنكاً (نحو 15 جنيهاً)، وهي عبارة عن ثلاث صفحات، يحمل فيها شاتوبريان على الكنيسة ورجال الدين، ويخاطب صديقته بما يأتي: (أأنت إذن حزينة جداً؟ ولماذا؟ ألأن عصافيرك قد ماتت؟ ومن ذا الذي لا يموت؟ أم لأن بلابلي قد طارت؟ إنك تعلمين أن كل شئ يطير، وفي مقدمة الأشياء الطائرة أيام حياتنا) ومن هذه الرسائل رسالة فيها ثلاث كلمات فقط وهي (إلى الغد أيتها المتذمرة!)، وقد بيعت وحدها بمبلغ 210 فرنكات.

جائزة نوبل

لبثت جوائز نوبل الطبية مدى حين وقفاً على العلماء الألمان والنمسويين؛ لكنها منحت هذا العام (سنة 1934) إلى ثلاثة من العلماء الأمريكيين هم الأساتذة: جورج نيوت، ووليم مورفي من أساتذة جامعة بوسطن، وهوبل من أساتذة جامعة روشستر، وذلك لاكتشافاتهم الخاصة بعلاج أمراض الكبد في أحوال فقر الدم، وهي اكتشافات كان لها أعظم شأن في تقدم الطب والعلاج في هذه الناحية، وقيمة الجائزة التي خصتهم 162. 608 كروناً سويدياً، أو ما يساوي نحو تسعة آلاف جنيه، وزعت بينهم بالتساوي.

من الرسالة إلى الوادي

ترجو الرسالة من زميلتها الوادي أن تعتقد أن ما نشر هنا عن لجنة التأليف والترجمة والنشر إنما كان بموافقة الأستاذين الكاتبين (ليكثر الذين يعلمون من أمر لجنتنا ما نحب أن يعلم) كما تمنت هي.

القصص

منذ أحد عشر عاماً في سان مالو

للكاتب الشهير بانيت استراتي ?

ترجمة علي كامل

في اليوم الخامس عشر من أغسطس الماضي كان قد مضى خمسة عشر عاماً على نشر قصتي الأولى (كيرا كيرالينا) في مجلة (أوروبا).

لقد كنت في ذلك الوقت رجلاً سعيداً. فقد كانت صحتي أولاً خيراً مما هي اليوم، ولم أكن أحمل هذه المشاغل التي تسحقني سحقاً. كذلك كنت أشعر بالسعادة لأنني كنت قد انتهيت من كتابة قصتي (كيرا) وأنا أشتغل مصوراً فوتوغرافياً متنقلاً أنعم بالحرية والمرح. وكنت أعتقد أنني قد (فتحت ثقباً في السماء) كما يقولون في رومانيا. وأخيراً كنت سعيداً لأنه كان لي صديقة صغيرة من الألزاس أرادت عن طيبة خاطر أن تشاركني مصيري كمصور فوتوغرافي متنقل وليس هذا بالأمر اليسير.

كان الشهر شهر يوليو عندما اتخذت أولاً طريق بانيول دولورن، وقد تسلحت بجهاز فوتوغرافي جديد وجميل تجاورني رفيقتي الباسلة. على أنني لم أقم إلا مدة قصيرة في هذه البلدة المتعبة للأعصاب حيث شراب السدر الرائع، والغابة الممتدة الأطراف، ولم يكن شراب السدر هو السبب في قصر مدة إقامتي، بل السبب هو تلك الغابة التي بها، ذلك أن صديقتي كانت تحبها حباً جماً. وا أسفاه! لقد كانت تحبها على الخصوص حين تسبب لها الآلة الفوتوغرافية الضيق والعصبية فتخلق تلك المشاجرات المحبوبة التي هي فتنة الحياة البوهيمية وبهجتها. ولكي تسري عن نفسها كانت تختفي في الغابة حيث كان من العسير علي أن أجدها حتى بعد مسير كيلومترات وساعات من الصياح. ذلك الصياح الذي كان يبح صوتي ثلاثة أيام. وعندما يهبط الليل كانت رفيقتي تؤدي لي من الخدمات وهي نادمة مفعمة بالحب لي أكثر من أي وقت آخر، وذلك مما كان يغمرني بالسعادة والنعيم.

وبعد أسبوع قلت لنفسي: ماذا يهم! يحب أن أذهب لأجرب آلتي في أماكن عارية

مكشوفة يمكن فيها رؤية رفيقتي من بعيد عندما ترغمها الضرورة على الهرب من أجل تهدئة
خاطرها.
وانتقلنا فعلاً إلى بونتورسن ثم إلى جبل سان ميشيل. ولما كنت قد رحت ربحاً عظيماً في بانيول دولورن اعتزمت سكنى الجبل نفسه برغم ارتفاع أجره، وعلى الامتناع عن العمل مدة يومين، زرنا خلالها آثار المكان التاريخية، وأكلنا (عجة الأم بولارد) وتأملنا ملياً في مد البحر وجزره أثناء النهار والليل. وبعد هذين اليومين حملت آلتي وابتدأت أصور الإنجليز الذين يريدون أن يحتفظوا بصور تذكارية لمرورهم بجبل سان ميشيل.
ففي اليوم الأول كان كل شئ على خير ما يرام، فصورت عشر صور في مقابل مائة فرنك. وفي اليوم الثاني انتابت فتاتي أزمة عصبية فتركتني بقسوة وحيداً ابتداء من الظهر، فكنت مضطراً إلى أسرع في عملي دون احتياط كي أستطيع إنجازه، على أنني لم أحاول أن أغضب، بل كنت أتابع بنظراتي من قمة الجبل وجه صديقتي الرقيقة التي كانت تهدئ من حسرتها بالتطلع إلى الأماكن الرملية العارية في ذلك الإقليم الرائع.
كنت أقول لنفسي:
- آه! ليس لك هنا غابة تختفين فيها. إنك مرغمة على أن تحومي حول ناظري كسمكة في إناء زجاجي.
وكنت أفكر أيضاً في شراء منظار مقرب لأرى من بعيد ما الذي تفعله امرأة غضبى وهي وحيدة في صحراء واسعة.
ولكن في اليوم الرابع من وصولنا عندما غضبت صديقتي للمرة الثانية وابتعدت عن الجبل إلى أبعد مما تبصره عيناي لفت نظري راهب كان يهتم بسعادتي المنزلية إلى الرمل المتحرك المشهور به ذلك الإقليم، والذي تتعرض لخطره فتاتي إذا داومت على نزهاتها الخالية من التبصر حول الجبل أثناء المد والجزر.
لقد ملأني هذا التحذير رعباً وفزعاً، ففي اليوم الثاني تركت الجبل وذهبنا إلى سان مالو حيث لا توجد لا غابة ولا رمل متحرك، بل ساحل عظيم أو بالحري ساحلان أو ثلاثة تمتد من بارانيه إلى دينار، وتجمع من الناس أغربهم طباعاً، فهناك ينتقل المرء من مكان إلى آخر لأتفه الأسباب، فليس هناك غرض يدفعه إلى هذا التنقل إلا إفهام الذين يبقون في أماكنهم أن من يغادر بلده بعد ثلاثة أيام فإنما يكون ذلك لأنه غني يسعى وراء التغير
والتجول.
ونزلنا في فندق صغير في باراميه، وحاولنا أن نجرب حظنا على ساحل البحر، ولكننا لم نصادف نجاحاً، فقد كان هناك كثير من المصورين وقليل من الزبائن، ولم أستطع طول هذه الأيام أن أحصل على نفقات الغرفة والطعام التي كانت باهظة. وأكثر من ذلك أنه كان يمر تحت المنزل تماماً ترام كأنه فيل ميكانيكي هائل، فكان يهز المدينة بأجمعها هزاً مرعباً كلما تحركت أطنان الحديد المخيفة المركب منها. وكنت أعود في المساء يقتلني التعب والإعياء من حمل آلتي الثقيلة على كتفي من أول ساحل البحر حتى منتهاه، وكنت أستيقظ مبكراً لكي أقتنص زبوناً من بين المستحمين المبكرين، فكانت حاجتي إلى النوم تسحقني سحقاً عندما ألقي بجسمي في السرير بعد العشاء. على أنه لم يكن هناك سبيل إلى النوم قبل الساعة الواحدة صباحاً حين تقف حركات ذلك الجسم البشع الثائر.
وعندما انتهى الأسبوع الأول من إقامتنا انتقلنا إلى الطرف الآخر من المدينة نبحث عن الهدوء تحت أسوارها العالية. على أننا لم نجد مسكناً معتدل الثمن، فاضطررنا أن نقنع بغرفة ممتلئة بالأثاث المتراكم فوق بعضه بدون نظام، وكنا ندفع أجرها عشرة فرنكات كل ليلة، نعم كل ليلة لا كل يوم، فقد كان لزاماً علينا ألا ندخلها إلا في المساء وأن نخرج منها في الساعة التاسعة صباحاً على الأكثر. وكان محرماً علينا أن نستخدم باب الغرفة لأن في ذلك إزعاج لأصحاب الدار، فكنا ندخل إلى الغرفة ونخرج منها من نافذة تطل على الفناء.
وانتظرت ما سوف تكون عليه صديقتي في حالاتها المختلفة، وكنت أنظر والحسرة تمزق قلبي إلى سور المدينة الشاهق. ذلك السور الذي سوف لا تتأخر رفيقتي عن

اختياره مكانا تختفي فيه انتقاماً مني. والذي كانت تتحطم في أسفله جماجم كثير من الناس الذي كانوا يتنزهون فوق سطوحه العالية. ولقد بلغ مني العجب مبلغاً كبيراً إذ لم يحدث شئ مما كنت أتوقع. فقد كانت رفيقتي دائمة السرور والابتسام، وكانت تجد مجالاً واسعاً للسخرية والهزء في غرابة أطوار صاحب الدار الذي سمح بتأجير آخر غرفة (معدة للإيجار) لديه على أن يدخل المستأجر إليها ويخرج منها من النافذة!

ولكي أثير حب استطلاع فتاتي التي كانت تعجب بقصص المهربين؟ قلت:

- إنه يبدو لي تماماً أن هذه المدينة كانت موطناً لقرصان البحر القدماء.

فارتعدت صديقتي عندما تذكرت أننا نعيش تحت سقف أحد أحفاد القرصان وقالت:

- هل يؤذي الناس أولئك الرجال؟

فأجبتها:

- إنهم لا يؤذون النساء ولا المصورين المتنقلين، وقضيت أسبوعاً في العمل متمتعاً بالهدوء. إنني لم أكن أربح كثيراً ولكن سعادتي في ذلك الوقت كانت في التصعلك مع رفيقتي المحبوبة دون أن يقع بيننا نزاع. لقد كنت مغموراً بالنعيم طوال ذلك الأسبوع، وكنت أعتبر نفسي مديناً بهذا النعيم إلى صاحب الدار حفيد القرصان.

نعم لقد كان يبعث السرور إلى قلب صديقتي عندما كان يرغمنا على تسلق النافذة في الساعة العاشرة مساء، ثم يدخل من باب المطبخ ليطلب الإيجار اليومي لغرفته، ثم يغادر الغرفة بمجرد حصوله على العشر فرنكات. ولكن في هذه اللحظة القصيرة كان جسمه الضخم يحرمنا من المتر المكعب الوحيد الذي سمحت لنا به الأربعة (دواليب) التي كانت تملأ غرفتنا الصغيرة، وكانت رفيقتي تقول وهي غارقة في الضحك كمجنونة بعد أن غيرت رأيها في حفيد القرصان:

- ماذا يكون حالنا لو شرع حفيد القرصان يقص علينا ذات ليلة أعمال أجداده. إننا سوف نموت بالاختناق!

وهكذا كنا نظل حتى منتصف الليل في الضحك والتنادر ولكن لكل شئ نهاية. ففي ذات ليلة بعد أن أدخل حفيد القرصان كتفيه بصعوبة ماداً ذراعه ليتناول نقوده نظر إلى فتاتي بعينين مفترستين وقال:

- إنك تضحكين كثيراً أيها السيدة!

كانت هذه العبارة القصيرة هي كل ما قاله، ثم خرج، ولكنها كانت كافية لأن يسود السكون التام في غرفتي.

قالت صديقتي وهي تنظر إلى باب الغرفة وقد انتابه شحوب شديد:

- إذن ليس مسموحاً للمرء أن يضحك في سان مالو، بينما يرغم على الدخول في داره من النافذة كي ينام في سرير أشبه بتابوت ميت مدفون تحت أربعة دواليب؟

لقد كان لها حق فيما تقول. وكذلك كان لحفيد القرصان. ولم يبق إلا أنا الذي رأيت واجباً على أن أستسلم كالعادة مرة أخرى وأرضى بألا يكون لي كلمة في منزلي.

ولقد بذلت جهدي في أن أحصر الضرر، فوعدت صاحبتي أن ننتقل من الغرفة سريعاً. ولسوء حظي هبت عاصفة على البلدة في اليوم التالي لتلك الحادثة فامتنعت علي الوسيلة الوحيدة لكسب قوتي، إذ أن الرياح التي كانت تبعث السرور إلى نفوس المستحمين كانت تهدد آلتي في كل لحظة بالانقلاب، ولكي أقاوم ساعتين على ساحل البحر من أجل التقاط اثنتي عشرة صورة، كان لا بد لي أن أحمل من الصبر ما لا يمكن أن أتطلبه من فتاتي. فقد كانت فتاة رشيقة برغم أنها خياطة بسيطة. وكانت تحب أن تكون نظيفة وقوراً حسنة الهندام، فلم تكن تستطيع العمل معي، لأن الرياح كانت تعبث بشعرها وتضرب رداءها (الفوال) بقطع الملح فتغطيه ببقع صفراء، ذلك أن عملها كمساعدة لي تغسل الصور وتجففها وتسلمها إلى أصحابها، كان هذا العمل يدفعها إلى البحث على ساحل البحر وفي الفنادق. لذا لم تقم لي بمساعدة ما، وتركتني وحيداً أقوم بكل مراحل الحرفة التي نعيش منها.

قالت لي:

- تصور مركزي عندما أكون أقذر النساء البوهيميات. ليس لي هنا ما أفعله. سأذهب لأبحث عن عمل. . . في الخياطة أو غيرها. فإذا وجدت فاعلم يقيناً أنني لن أعود مطلقاً!

تركتني عند الظهر وكان في جيبها الصغير خمسة فرنكات، ولم تكن قد تناولت بعد طعام الغداء، فجلست على شاطئ البحر محطم القوى وعدتي على ذراعي، أنظر إليها وهي تغيب عن عيني، وقد ملكها الألم وأوشكت أن تنفجر بالبكاء. ولقد كان مظهرها يحمل حقاً كل معاني الطهر والصفاء مما أفعم قلبي بالحزن والحسرة من أجل هذه المرأة الصغيرة الجميلة.

ولم أتناول أنا أيضاً طعام الغداء، فقد تراكمت علي الحسرات وكانت كل ثروتي عشرين فرنكاً، أي عبارة عن أجر ليلتين عند حفيد القرصان.

وبعد أن أعدت أدوات عملي خرجت أجوب المدينة. وكانت الريح تدوي دون انقطاع، فكنت أسائل نفسي: ما الذي يؤول إليه حالي إذا لم أوفق إلى جمع الثلاثين فرنكاً التي هي أقل ما يمكن أن أحتاج إليه يومياً. وكنت أعرف تماماً أن صديقتي لا يمكن أن تنفذ كل

تهديداتها لأنها كانت مثلي تبغض العمل أثناء النهار، ومع كل ذلك فإن منظرها وهي تتركني بقي ماثلاً أمامي، وكان يمزق قلبي تمزيقاً. وكان حبي لواجهات المحلات التجارية يحبسني أحياناً بطريقة آلية، على أنني كنت أتطلع إلى الواجهات دون أن أرى شيئاً، لأن فكري كان يتابع صورة فتاتي التي ظهرت لي وكأنها قد انتزعت منها كل فتنة، فبدا لي الشعر مهملاً، والرداء مرقعاً، والوجه مستسلماً يائساً.

وفكرت ثانية في مصيري. ذلك المصير الذي دفعت ثمنه غالياً لأشعر يوماً بشمس الحرية تدفئني، ومثلت أمامي مرة واحدة فكرة بعثت الشرر في عيني. فقد وجدت نفسي أمام منضدة مكتبة. وفي الوسط أمام عين الناظر، رأيت مجلة (أوروبا) وكان غلافها الأصفر محاطاً بغطاء أخضر، ولم يكن مكتوباً عليه غير الموضوعين الأولين من موضوعات المجلة وهما:

جوركي البلقاني بقلم: رومان رولان

كيرا كيرالينا بقلم: بانيت استراتي

شعرت بأن ساقي قد خارت قواهما، ودخلت في المكتبة وأنا أكاد لا أستطيع السير، ورأسي يطن طنيناً كأن بداخله بحراً هائجاً، واشتريت المجلة وضممتها إلى قلبي المضطرب، وذهبت كالمجنون إلى شرفة مقهى كبير وطلبت نوعاً من الشراب، وسجائر فاخرة، وقرأت ثم قرأت مقال (جوركي البلقاني) وأنا أذرف الدموع الحارة الصادقة على عبارات ذلك الرجل الذي كان مقاله هذا ضربة حديدية صارمة غيرت مجرى حياتي ومصيري. وبعد ذلك أرسلت رسالة تلغرافية إلى الناشر. وفي ظهر اليوم التالي وصلني بالتلغراف الأربعمائة وعشرون فرنكاً وهي حقوق تأليف قصة (كيرا) التي احتوت على اثنتين وأربعين صفحة من مجلة (أوروبا) نشرت في الخامس عشر من شهري أغسطس وسبتمبر عام 1923.

وفي الليلة التي تلت هذا الحادث العظيم في حياتي كنت مريضاً لما انتابني من النعيم والسعادة فلم أنم مطلقاً، وأطبقت ذراعي في صمت، ناسياً رفيقتي التي لم تكن تفهم شيئاً لا حالتي ولا (جوركي البلقاني) وساءلت قلبي وهو خير أصدقائي وأكبر أعدائي قائلاً:

إلى أين نحن ذاهبون؟ إلى أين نحن ذاهبون؟

لم نذهب إلى أي مكان. . ولقد صدق رومان رولان حين قال لي يوماً من الأيام: (إن الإنسان في هذا العالم لا يحدث في عمله أو حياته تغييراً كبيراً).

العدد 72 - بتاريخ: 19 - 11 - 1934

عهد زاهر!

نشرت الصحف أخيراً بعض إحصاءات عن التعليم في مصر؛ ومنها يستفاد أن التقدم مضطرد في عدد المدارس وعدد الطلبة، ولكن ذلك يلفت النظر بنوع خاص ما ورد فيها عن حالة التعليم الأولى؛ وذلك أن المكاتب والمدارس المخصصة لهذا النوع من التعليم لا يتجاوز عددها في مختلف أنحاء القطر ألفين ومائة، فيما نحو 850 ألف تلميذ وتلميذة. ومعنى ذلك أن الذين يتلقون التعليم الأولي في هذه البلاد لا تزيد نسبتهم على خمسة في المائة من مجموع السكان؛ فإذا علمنا أن باقي المتعلمين على اختلاف طبقاتهم لا يتجاوز عددهم أيضاً نحو أربعة أو خمسة في المائة، استطعنا أن نقدر إلى أي مدى ما زالت الأمية تفتك بعقول الشعب المصري.

لقد اعتدنا في العهد الأخير أن نسمع نغمة ما تزال تتردد في كل فرصة، لمناسبة وغير مناسبة، هي أن مصر تجتاز في ميدان التعليم والثقافة والآداب عهداً زاهراً لم تبلغه من قبل في أي مرحلة من مراحل تاريخها، وأنها تظفر لأول مرة في تاريخها بجامعة مدنية كبرى وجامعة دينية، ومجمع علمي، وطائفة كبيرة من المعاهد والمدارس الفنية، والجماعات العلمية المختلفة. ولقد بولغ في ترديد هذه النغمة، وإذاعة هذه الدعوة، حتى كادت تطمس الحقائق، وحتى كدنا نؤمن بهذا التمويه، وننسى ما يعتور سير التربية والتعليم في هذه البلاد من ضروب النقص والضعف والفساد.

نعم، لقد زاد عدد المدارس والطلبة زيادة كبيرة، والتعليم يتقدم من حيث العدد بلا ريب، ولكن هل يتقدم التعليم من حيث النوع؛ وهل ارتفع لدينا مقياس التربية والثقافة عما كان عليه منذ جيل؟ لقد كان التعليم قبل الحرب آلياً يخرج لحكومة تسيطر عليها إرادة المستعمر عمالاً خاضعين لا رأي عندهم ولا شخصية لهم؛ وما يزال التعليم يصطبغ في عصرنا بهذه الصبغة الخطرة، صبغة العقم وفقدان الشخصية؛ وشأن المتعلمين شأنهم بالأمس في التطلع إلى الوظائف حتى بلغ تهافتهم عليه حداً يدعو إلى الرثاء؛ وهم في الحياة حيارى لا عزم لهم، لأنهم لم يتلقوا من صنوف التعليم ما يسلحهم بمثل هذا العزم، أو يمدهم بتلك الشخصية التي تصمد لمصاعب الحياة العملية ومتاعبها، وتستغل معارفها ومواهبها استغلالاً صالحاً منظماً.

وفي مصر جامعة مدنية كبرى، وجامعة دينية كبرى لها ماض مجيد؛ ولكن هل نتمتع حقاً بالتعليم الجامعي؟ وهل استطعنا أن نخلق فيهما تلك البيئة العلمية الرفيعة، وتلك الحرية الفكرية، وذلك الاستقلال في البحث، وهي أسمى المزايا الجامعية؟ إن الجامعة عندنا اسم على غير مسمى؛ وليست في الواقع أكثر من مدرسة عادية، تخضع لكل ما تمليه أهواء الذين يرون في الاستعباد الفكري وسيلة ناجعة لتدعيم الاستعباد السياسي.

ولدينا حقاً مجمع علمي للغة العربية، ولكن هل يثير ذكر هذا المجمع وظروف تكوينه غير الابتسام؟ وهل نذكر قصة إنشائه إلا على أنها لون من ألوان ذلك الطلاء الخلاب الذي يعتمد على الأسماء دون المسميات.

ولدينا جماعات علمية ذات أسماء ضخمة، ولكنها أجنبية في روحها وغايتها، وهي قلما تعني بأعمال علمية خطيرة، ولا تعني إلا بإذاعة ما يوحي إليها به من الدعايات.

وفي كل عام ننفق عشرات الألوف على بعثات الطلبة خارج القطر؛ ولدينا الآن من خريجي هذه البعثات ألوف من خيرة الشباب المثقف المتخصص قي مختلف العلوم والفنون؛ ولكن هل استطعنا أن نستغني بهم عن أولئك الأجانب الذين ينبثون في كل فروع الحكومة، ويستأثرون بأرفع المناصب بحجة أنهم خبراء وفنيون؟

الواقع أن هذه النهضة العلمية تقوم على كثير من العوامل المصطنعة والمظاهر الخلابة، وينقصها كثير من المزايا الحقيقية؛ فهي أشد ما تكون ضعفاً من الناحية الوطنية، وما زالت خاضعة لكثير من المؤثرات الأجنبية التي لا تتفق في كثير من الأحيان مع الغايات القومية؛ وهي مازالت من الناحية العملية قاصرة عن أن تجعل من الشباب المتعلم عمالاً نافعين لأنفسهم وللوطن. ومن الأسف أن المظاهر هي في كثير من الأحيان كل ما يعنى به، وأن الأسماء الرنانة هي كل ما يهم ذكره وتعداده. وقد ذهبنا بعيداً عن التشبث بهذه المظاهر والتهويل من شأنها، وغفلنا عن معالجة أوجه النقص الحقيقية. ويكفي لأدراك هذه الحقيقة أن نذكر أن البلاد بعد هذه الجهود كلها ما زالت تتخبط في ظلام الأمية، وأن مصر بعد عشرة أعوام من تنفيذ مشروع التعليم الإلزامي لم تستطع أن تنقذ من الأمية المطبقة أكثر من أربعة أو خمسة في المائة من بينها.

لقد آن الوقت الذي يجب أن نستعرض فيه مظاهر حياتنا على حقيقتها، وأن نقدر أوجه الخير والنفع فيها قدرها الصحيح؛ فليس من العار أن نعترف بأننا في منتصف الطريق أو مستهله؛ ولكن الخطر أن نزعم أننا حققنا ما لم نحقق، ومن الخطر على بنائنا القومي أن نؤمن بما ليس منطبقاً على حقيقتنا ولا هو حتى من مظاهر نهضتنا.

(ع)

قصيدة مترجمة
احذري!
للأستاذ مصطفى صادق الرافعي
ترجمنا عن الشيطان قصيدة (لحوم البحر). وهذه ترجمة عن أحد الملائكة؛ رآني جالساً تحت الليل وقد أجمعت أن أضع كلمةً الشرقية فيما تحاذره أو تتوجس منه الشر؛ فتخايل الملك بأضوائه من الضوء، وسنح لي بوحه، وبث في من سره الإلهي؛ فجعلت أنظر في قلبي إلى فجرٍ عن هذا الشعر ينبع كلمةً كلمة، ويشرق معنىً معنىً، ويستطير جملةً جملة، حتى اجتمعت القصيدة وكأنما سافرت في حلم من الأحلام فجئت بها.
وأنطلق ذلك الملك وتركها في يدي لغةً من طهارته للمرأة الشرقية في ملائكيتها.
احذري!
احذري أيتها الشرقية وبالغي في الحذر، واجعلي أخص طباعك الحذر وحده.
احذري تمدن أوربا أن يجعل فضيلتك ثوباً يوسع ويضيق؛ فلبس الفضيلة على ذلك هو لبسها وخلعها. . . .
احذري فنهم الاجتماعي الخبيث الذي يفرض على النساء في مجالس الرجال أن تؤدي أجسامهن ضريبة الفن. . . .
احذري تلك الأنوثة الاجتماعية الظريفة. إنها انتهاء المرأة بغاية الظرف والرقة إلى. . . . إلى الفضيحة.
احذري تلك النسائية الغزلية. إنها في جملتها ترخيص اجتماعي للحرة أن. . . . أن تشارك البغي في نصف عملها.
أيتها الشرقية احذري احذري!
احذري التمدن الذي اخترع لقتل لقب الزوجة المقدس، لقب (المرأة الثانية). . . .
واخترع لقتل لقب العذراء المقدس، لقب (نصف عذراء). . . .
واخترع لقتل دينية معاني المرأة، كلمة (الأدب المكشوف). . . .
وانتهى إلى اختراع السرعة في الحب. . . . فاكتفى الرجل بزوجة ساعة. . . .
وإلى اختراع استقلال المرأة، فجاء بالذي اسمه (الأب) من الشارع، لتلقي بالذي اسمه (الابن) إلى الشارع. . . .
أيتها الشرقية! احذري احذري!
احذري وأنت النجم الذي أضاء منذ النبوة، أن تقلدي الشمعة التي أضاءت منذ قليل.
أن المرأة الشرقية هي استمرار متصل لآداب دينها الإنساني العظيم.
هي دائماً شديدة الحفاظ حارسة لحوزتها؛ فان قانون حياتها دائماً هو قانون الأمومة المقدس.
هي الطهر والعفة، هي الوفاء والأنفة، هي الصبر والعزيمة، هي كل فضائل الأم.
فما هو طريقها الجديد في الحياة الفاضلة، إلا طريقها القديم بعينه؟
أيتها الشرقية! احذري احذري!
احذري ويحك تقليد الأوربية التي تعيش في دنيا أعصابها محكومة بقانون أحلامها. . . .
لم تعد أنوثتها حالة طبيعية نفسية فقط بل حالةً عقليةً أيضاً تشك وتجادل. . . .
أنوثة تفلسفت فرأت الزواج نصف الكلمة فقط. . . . والأم نصف المرأة فقط. . . .
ويا ويل المرأة حين تنفجر أنوثتها بالمبالغة العقلية فتنفجر بالدواهي على الفضيلة. . . .
إنها بذلك حرة مساوية للرجل، ولكنها بذلك ليست الأنثى المحدودة بفضيلتها. . . .
أيتها الشرقية! احذري احذري!
احذري خجل الأوربية المترجلة من الإقرار بأنوثتها. أن خجل الأنثى من أنها أنثى يجعل فضيلتها تخجل منها. . . . إنه يسقط حياءها ويكسو معانيها رجولةً غير طبيعية. إن هذه الأنثى المترجلة تنظر إلى الرجل نظرة رجل إلى أنثى. . . . والمرأة تعلو بالزواج درجة إنسانية، ولكن هذه المكذوبة تنحط درجةً إنسانيةً بالزواج.
أيتها الشرقية! احذري احذري!
احذري تهوس الأوربية في طلب المساواة بالرجل. لقد ساوته بالذهاب إلى الحلاق، ولكن الحلاق لم يجد في وجهها اللحية. . . .
إنها خلقت لتحبيب الدنيا إلى الرجل، فكانت بمساواتها مادة تبغيض.

العجيب أن سر الحياة يأبى أبداً أن تتساوى المرأة بالرجل إلا إذا خسرته.
والأعجب أنها حين تخضع، يرفعها هذا السر ذاته عن المساواة بالرجل إلى السيادة عليه.
أيتها الشرقية! احذري احذري!
احذري أن تخسري الطباع التي هي الأليق بأم أنجبت الأنبياء في الشرق.
أم عليها طابع النفس الجميلة، تنشر في كل موضع جو نفسها العالية.
فلو صارت الحياة غيماً ورعداً وبرقاً، لكانت هي فيها الشمس الطالعة.
ولو صارت الحياة قيظاً وحروراً واختناقاً، لكانت هي فيها النسيم يتخطر.
أم لا تبالي إلا أخلاق البطولة وعزائمها، لأن جداتها ولدن الأبطال.
أيتها الشرقية؛ احذري احذري.
احذري هؤلاء الشبان المتمدنين بأكثر من التمدن. . . .
يبالغ الخبيث في زينته، وما يدري أن زينته معلنة أنه إنسان من الظاهر. . . .
ويبالغ في عرض رجولته على الفتيات، يحاول إيقاظ المرأة الراقدة في العذراء المسكينة.
ليس لامرأة فاضلة إلا رجلها الواحد؛ فالرجال جميعاً هم مصائبها إلا واحداً.
وإذا هي خالطت الرجال، فالطبيعي أنها تخالط شهوات، ويجب أن تحذر وتبالغ.
أيتها الشرقية! احذري احذري!
احذري فان في كل امرأة طبائع شريفة متهورة؛ وفي الرجال طبائع خسيسة متهورة.
وحقيقة الحجاب أنه الفصل بين الشرف فيه الميل إلى النزول وبين الخسة فيها الميل إلى الصعود.
فيك طبائع الحب والحنان، والإيثار، والإخلاص كلما كبرت.
طبائع خطرة، إن عملت في غير موضعها. . . . جاءت بعكس ما تعمله في موضعها.
فيها كل الشرف ما لم تنخدع، فإذا انخدعت فليس فيها إلا كل العار. أيتها الشرقية! احذري احذري!
احذري كلمةً شيطانيةً تسمعينها في قيمة الجمال أو قيمة الأنوثة.
وافهميها أنت هكذا: واجبات الأنوثة وواجبات الجمال.
بكلمةٍ الإحساس فاسداً، وبكلمة يكون شريفاً.
ولا يتسقط الرجل امرأةً إلا في كلماتٍ مزينةٍ مثلها. . . . .
يجب أن تتسلح المرأة مع نظراتها، بنظرة غضب ونظرة احتقار.
أيتها الشرقية! احذري احذري!
احذري أن تخدعي عن نفسك. إن المرأة أشد افتقاراً إلى الشرف منها إلى الحياة.
إن الكلمة الخادعة إذ تقال لك، هي أخت الكلمة التي تقال ساعة إنفاذ الحكم للمحكوم عليه بالشنق. . . .
يغترونك بكلمات الحب والزواج والمال، كما يقال للصاعد إلى الشناقة: ماذا تشتهي؟
ماذا تريد؟ الحب؟ الزواج؟ المال؟ هذه صلاة الثعلب حين يتظاهر بالتقوى أمام الدجاجة.
الحب؟ الزواج؟ المال؟ يا لحم الدجاجة! بعض كلمات الثعلب هي أنياب الثعلب. . . . .
أيتها الشرقية! احذري احذري!
احذري السقوط. إن سقوط المرأة لهوله وشدته ثلاث مصائب في مصيبة:
سقوطها هي، وسقوط من أوجدوها، وسقوط من توجدهم.
نوائب الأسرة كلها قد يسترها البيت إلا عار المرأة. فَيَدُ العار تقلب الحيطان كما تقلب اليد الثوب فتجعل ما لا يرى هو ما يرى.
والعار حكم ينفذه المجتمع كله، فهو نفي من الاحترام الإنساني.
أيتها الشرقية! احذري احذري!
لو كان العار في بئر عميقة لقلبها الشيطان مئذنةً ووقف يؤذن عليها.
يفرح اللعين بفضيحة المرأة خاصة كما يفرح أب غني بمولود جديد في بيته. . . .
واللص، والقاتل، والسكير، والفاسق، كل هؤلاء على ظاهر الإنسانية كالحر والبرد.
أما المرأة حين تسقط، فهذه من تحت الإنسانية هي الزلزلة.
ليس أفظع من الزلزلة المرتجة تشق الأرض إلا عار المرأة حين يشق الأسرة.

(طنطا)
مصطفى صادق الرافعي
محمد بك المويلحي
للأستاذ عبد العزيز البشري

قبل أن أتحدث عن هذا الرجل الذي يجب أن يتحدث عنه مدونو تاريخ الأدب العربي في العصر الحديث - قبل هذا أحب أن أقول في هذا الباب شيئاً عاماً. ذلك بأننا اعتدنا أن نغفل الكلام في سيرة من عاصرناهم، ورأيناهم ولابسناهم، إلا يكون القول من جنس هذه المراثي التي تضفي فيها حلل الثناء، ويكال فيها المديح في العادة، بغير حساب. ولقد يكون هذا الثناء حقاً أو قريباً من الحق، بحيث لا يؤذي التاريخ في كثير ولا قليل، ولكنه لا يمكن أن يجلو على الأجيال المستقبلة شيئاً من حقيقة الرجل، لأن الكاتبين في هذه الحالة لا يعنون ببسط حياة الرجل، وظواهر خلاله، والعوامل البارزة في تكوينه، ومطبوع عادته، ولو ما يتصل منها بالأسباب العامة. وذلك من أيسر الأمور لأنهم عرفوه بالمشاهدة، واستيقنوه بالملابسة وطول الاختيار. وهذا ولا شك مما يهيئ للقادمين دراسته وتحليله دراسة إن لم تنته إلى أصدق النتائج، فهي أدنى إلى الصدق من غيرها على كل حال.

وليس يذهب عن القارئ إن إهمال المعاصرين، على هذا النحو، لابد مفض إلى إحدى الحالين: إما إلى إدراج كثيرين من رجال الآداب والفنون في مطاوي النسيان، أو التحيف من أقدارهم بقدر كثير أو قليل؛ وإما إلى تجليتهم، إذا تراخى الزمان في غير صورهم، ونحلهم صفاتٍ وخلالاً لم تكن لهم، بحكم العنعنة في رواية الأخبار، والاتكاء في تحليل نفس الرجل على ما صدر عنه من آثار. وكثيراً ما يضل الباحث المستنتج في هذا أبعد الضلال. هذا إلى ما في معاناة مثل تلك البحوث من إضاعة للوقت، ونفقة من الجهد، وتجشم للعناء.

وأغلب الظن في هذه الإغفال من المعاصرين لمن عاصروهم من رجال الفنون والآداب يرجع إلى أن الرجل العظيم قل أن يراه معاصروه بالعين التي يراه بها الخالفون، فهو في الغالب إذا استحق منهم ترديد ذكره والهتاف باسمه، وتدوين سيرته، فقل أن يعني أحد يتقصى عادته، والتسلل إلى مداخله، وعرض ما يلابس الأسباب العامة من سائر أموره، أو لأنهم لا يعنون بهذا لأنه حاضر لمعاصريه قريب منهم. فهو في حكم المبذول الذي ينال منه من شاء أن ينال. ولا شك أن في هذا ضرباً من الغفلة عن أن الحاضر سيغيب على الزمن، وأن المبذول سينقبض، وأن ما في متناول اليد اليوم ستتقطع من دونه غداً علائق الآمال!

ولقد يسكت النقدة عن تقصي ذلك عمداً، والتلبث بتحليل الرجل، ورد العوامل في تكوينه إلى مناجمها حتى ينطوي الزمن عليه وعلى أهله، وعلى أشياعه وخصومه من معاصريه، حتى يتهيأ الجو للبحث والتحقيق، لا رغبة ولا رهبة فيه، فيكون البحث أنور وأصفى، ونخرج النتائج أدق وأوفى.

وهذا مذهب في الرأي له أثره وله خطره، بالرغم من أنه يفوت على المؤرخ المدقق من عناصر الحكم ما قد يسيء في بعض الأحيان إلى حكمه، فإذا هو طلبها تصحيحاً لبحثه، فلن ينالها إذا نالها صادقة إلا بعد أن يتجشم في سبيلها عرق القربة كما يقولون!

على أنني في هذا لا أذهب إلى القول بنشر المعايب، واستضهار المكاره، حتى لا يثير المدون ثائرة الأهل والصحاب والأنصار، إنما أريد أن يجلو المعاصر، من غير ذلك، كل ماله خطر في تكوين الرجل، فإذا هناك مغامز لا ينبغي إغفالها في تجليته وتحليله، فليسجلها على أن يكتمها حتى يجليها لوقتها، أو يجليها من بعده من الأعقاب.

وعلى أي حال فان إغفال هذه الأمور التي نحسبها في غالب الأحيان من التوافه، كثيراً ما يخلو بحق التاريخ، ويفضي إلى الجهل بالجم من حقائق الأشياء. ولست أجد في هذا الباب مثلاً أيسر ولا أدنى إلى الحس من أننا، لولا مهبط البعثة العلمية التي صحبت الحملة الفرنسية في سنة 1798، ما اهتدينا بسهولة أو ما اهتدينا أبداً إلى أزياء جدودنا وسمتهم من قرن وثلث قرن من الزمان، فكيف بمن هم أعلى من هذا وأبعد في مذهب التاريخ؟

ولو قد عني أهل كل عصر بأن يحفظوا لخلفهم نماذج من ثيابهم، وآلاتهم في سائر حوائجهم، وفعل هؤلاء مثل فعلهم لظلت سلسلة الأزياء واضحةً على وجه الزمان.

ولعل من الخير أن أنبه في هذا المقام إلى أن محاولة كشف الرجل من آثاره المحفوظة لا تجدي كثيراً في الإبانة عن خلاله ومداخل عيشه، حتى مظاهرها. بل إنها لكثيراً ما تكون من وسائل الضلة في إثبات التاريخ. ولست أسوق لهذا أكثر من مثلين اثنين: ذلك بأنك لو اتكأت في طلب خلال الجاحظ على مجرد آثاره لخرج لك منها أنه كان أزهد الناس في المال، وأنه لو سقط ليده لكان أجود به من الريح المرسلة. فإن أحداً لم ينع الشح ولم يذم

الأشحاء كما نعى الجاحظ وكما ذم: وإن أحداً لم يؤلف كتاباً في (البخلاء) أبلغ فيهم إيجاعاً، وأشد لهذه الخلة وأصحابها إقذاعاً، كما صنع الجاحظ. ومع هذا لقد كان هو نفسه من أشد المبخلين الذين أوفوا على الغاية من الجشع، والحمل على المروءة أحياناً في طلب المال. وإنك لو التمست مثل هذا في أبي الفرج لخرج لك من آثاره أنه كان أجمل الناس سمتاً، وأنظفهم بدناً وثوباً، وأشدهم أخذاً للنفس بأدق آداب السلوك في طعامه وشرابه، وغير ذلك من أسبابه. ولكن الواقع أنه كان من أشد الناس شرهاً، وأقبحهم مؤاكلة، وأقذرهم خلقاً وثوباً، حتى ليصح في بعض خلته قول الشاعر:

وسخ الثوب والعمامة والبِرْ ... ذَونِ والوجهِ والقفا والغلام!

ولولا أن معاصري هذا وهذا أثبتوا لكل منهما ما أثبتوا لزلت فيهما الأقلام، وضلت الأوهام!

بعد هذا آخذ في حديث أستاذي ورئيسي وصديقي العالم الفيلسوف، الأديب، والكاتب، الناقد، السيد محمد بك المويلحي رحمة الله عليه.

من أكثر من ثلاثين سنة خلت، ولما أزل بعد في أيام الفتوة، وفي صدر طلب العلم في الأزهر، صدرت في مصر جريدة أسبوعية سياسية أدبية باسم (مصباح الشرق) في أربع صفحات دون صفحات الجرائد التي تصدر الآن مساحة، ولون ورقها يضرب إلى الحمرة. ويقوم بتحريرها إبراهيم بك المويلحي وابنه السيد محمد المويلحي. وكانت عامة الصحف الأسبوعية قد وصلت في ذلك العهد من المهانة والفسولة والإسفاف وتفاهة الموضوعات إلى أبعد الحدود.

مصباح الشرق

لقد كان هذا (مصباح الشرق) شيئاً طريفاً حقاً، لقد كان أبلغ من طريف، فإنه لأعجوبة حقاً، لقد كان هذا (مصباح الشرق) أبلغ من أعجوبة، إنه لشيء يكاد يتصل بحكم الخوارق في تلك الأيام! بلاغة بليغة، ولفظ جزل متخير، وديباجة مشرقة، وصيغ مونقة، ونسج متلاحم، وأسلوب ليس وراءه في هذا الذي يدعونه السهل الممتنع.

أدب بارع، علم وفلسفة، وبحوث رائعة في سياسة الأمم وفي أخلاق وعلوم الاجتماع، منها المبتكر المنشأ، ومنها المترجم من مختلف اللُّغى في عبارة عربية بليغة سلسة ناصحة

واضحة لا تستروح منها أي ريح للاستعجام. وهل رأيت قط ترجمات السابقين في عصر بني العباس؟

مذهب طريف في النقد، نقد الأشخاص، لا عهد للأدب العربي به من قديم الزمان؛ بل لعله لا عهد له به من أول الزمان! لم تكد تطالع الناس هذه الصحيفة الدقيقة الجرم مرتين أو ثلاثاً حتى أصبحت من بعض شغل الخاصة في هذه البلاد!

لا يدخل الأصيل في يوم الخميس من كل أسبوع إلا وقد زاغت أبصار، وتكرشت جباه، وتقلصت شفاه، وتداركت أنفاس، ووجفت قلوب. هل رأيت انفلات الطائر بعد طول الاحتباس؟ كذلك كان يترقب الخاصة مشرق (المصباح) وسرعان ما تخطفه اليد الراجفة فتشقه، وسرعان ما يشيع البصر كله في مساحة النقد كلها، لا يستقر على موضوع خاص، ولا يتحيز في حديث معين. بل أنه لينساح على الصفحة كلها انسياحاً ليدرك قبل رد الطرف أشك المويلحي اسم صاحبه فيمن شك أم أرسله في جملة الطلقاء؟ حتى إذا اطمأن الرجل إلى أنه قد كتبت له السلامة لجمعته، ألقى الصحيفة بين يديه، وجعل يطامن من نفسه، ويبسط في خلفه ما تقبض، ويفرخ من روعه ما تحبس.

وإذا كان هذا شأن من لم تصب منهم أقلام المويلحيين، فاحكم أنت، عصمنا الله وإياك، كيف كانت حال من تنال منهم هذه الأقلام؟

على أنه مما ينبغي أن يذكر هنا، أن (المصباح) لم يكن يعرض قط لأعراض من يتولاهم بالنقد، ولا يتدسس إلى مكارههم، أو يتتبع عوراتهم، بل لا يتناول من أمورهم إلا ما كان يعرضونه هم من ذات أنفسهم، أو ما يدلون هم عليه بآثارهم وظاهر أعمالهم، فلقد كان (المصباح) أجل من ذاك موضعاً وآنف كرامة. .

وأنه ليستحدث لوناً طريفاً من النقد لا عهد لأدب مصر به، بل لا عهد به للأمم العربية جمعاء. وهذا النوع من النقد يقوم، في الجملة، على التماس الجانب الضعيف في أثر الرجل، فيعرضه بالقلم في صورة (كاريكاتورية) يزيد في تشويهها ما يتوافى لذهنه الدقيق من ألوان التشبيه، وما يحضره من فنون الاستشهاد والتمثيل، ولا يبرح يمط الموضوع في هذه الناحية بالتوليد وطلب المناسبات القريبة، والملابسات الدانية، تسندها النكتة البارعة، ويسعفها التندر البديع، حتى ينتهي إلى ما لا ينتهي إليه أحد من الناقدين!

ولقد كان هذا من (مصباح الشرق) الأصل الثابت لهذا اللون من النقد، أعني النقد (الكاريكاتوري) في مصر. كما كانت صحيفة المويليحيين (أبو زيد) أول ما عرف، فيما أعرف أنا، من التصوير (الكاريكاتوري) في هذه البلاد. ولعلي ألمع إلى هذه الصحيفة في بعض هذا الكلام.

لم ينته خطب (مصباح الشرق) إلى هذا الموضع فحسب؛ بل لقد كان، على أنه صحيفة لا تظهر في جميع الأسبوع إلا مرة واحدة، يروي من جلائل الأخبار في الأسباب العامة ما لا تبلغه الصحف اليومية، على شدة ارتصادها لمثل ذلك، وإذكاء عيونها الكثيرة في طلبه وتقصيه، فكانت أمهات الصحف اليومية لا تتحرج في كثير من الأحيان من نشر مهام الأخبار نقلاً عن (مصباح الشرق) الأسبوعية مضافة إليها معزوة لها. وفضل (المصباح) في هذا السبق العجيب إنما كان لجلالة محل إبراهيم بك المويلحي عند أولى الأمر كلهم، وخفة روحه، ولطف مدخله، وسعة حياته، حتى ليستخرج منهم بهذا ما لا يخرجون عنه لغيره من رواة الأخبار.

ولا أحب أن أجوز هذا الموضع من الكلام قبل أن أقول إن (المصباح) أول من جلا للناس براعة الجاحظ وعبقرية ابن الرومي بما كان يختاره لهما من بدائع المنثور وروائع المنظوم قبل أن تقع العيون من آثارهما على كتاب أو ديوان، وأول من عالج النقد الأدبي لما تنتضح به قرائح الشعراء، وأعني به ذلك النقد الرفيع الغالي، الذي جمع بين أساليب النقد في أزكى عصور العربية، وبين طرائقه التي اختطها نقدة الغربيين في هذا الزمان.

وعلى الجملة، فلقد فتح (المصباح) في الأدب العربي فتحاً جديداً، وأمسى (مصباحا) حقاً يهتدي المتأدبون بسناه إذا أرسلوا القول أو اجتمعوا لنظم الكلام. وبهذا وهذا أصبح (مصباح الشرق) أفخر مدرسة لطلب الأدب الرفيع الجزل الطريف في هذه البلاد.

ومما ينبغي أن يذكر في هذا المقام أن جماعة الشعراء لقد تعاظمتهم سطوة (المصباح) في باب النقد فحسبوا له كل حساب، ويا ويل من لا يتحرى من الشعراء البارزين ما لا يبلغه الجهد كله من التدقيق والتجويد والإحسان.

وإني لا أكتفي اليوم من حديث السيد محمد المويلحي بهذا القدر على نية العودة إليه في القريب إن شاء الله.

عبد العزيز البشري

صحف مطوية من التاريخ الإسلامي

العرب في غاليس وسويسره

للأستاذ محمد عبد الله عنان

منذ عامين كشفت المباحث الأثرية في وادي اللوار بفرنسا على مقربة من مدينة تور، عن عظام بشرية، وسيوف ودروع قيل إنها عربية؛ ورأى فريق من الباحثين الأثريين أن هذه الآثار هي على الأرجح من مخلفات الموقعة العظيمة التي نشبت بين العرب والفرنج في سهول نهر اللوار منذ ألف ومائتي عام (732م)، وارتد فيها العرب أمام جيوش كارل مارتل زعيم الفرنج بعد أن قتل قائدهم عبد الرحمن الغافقي، وأن اكتشافها يلقي ضياء جديداً على حقيقة المكان الذي نشبت فيه الموقعة، والذي مازال

مثار خلاف بين المؤرخين.

وتلك الموقعة الشهيرة هي التي تسميها الرواية الإسلامية بموقعة بلاط الشهداء أو موقعة البلاط، لكثرة من استشهد فيها من عظماء المسلمين وقادتهم، وتعرف في الرواية الفرنجية بموقعة تور أوبواتييه لأنها وقعت في السهول التي تمتدد بينهما؛ وتضع الرواية الإسلامية تاريخها في رمضان سنة 114 من الهجرة، متفقة بذلك مع الرواية النصرانية التي تضع تاريخها في أكتوبر سنة 732م. وقد كانت هاتيك السهول التي تمتد بين تور وبواتييه وتشرف على ضفاف اللوار هي أقصى ما بلغه العرب في فتوحاتهم في قلب فرنسا؛ وقد عبر العرب جبال البرنيه لأول مرة عقب افتتاحهم لأسبانيا، وغزوا سبتمانيا (أو لانجدوك) سنة 94هـ (713م) واستولوا على مدينة قرقشونة وثغر أربونة؛ ثم توالى عبورهم بعد ذلك لجبال البرنيه وتوالت غزواتهم في غالة أو غاليس (جنوب فرنسا)، في سبتمانيا وفي أكوتين، ثم في وادي الرون شمالاً حتى بورجونيه؛ وأنشأوا من فتوحاتهم في غاليس ولاية سميت بالثغر أو الرباط وعاصمتها أربونة؛ ولما ارتدوا أمام الفرنج في بلاط الشهداء، احتفظوا مدى حين بفتوحاتهم في غاليس؛ واستمر لظى الحرب يضطرم بينهم وبين الفرنج في تلك الأنحاء مدى ربع قرن، والفرنج يستردون مدنهم وأراضيهم تباعاً من أيدي الغزاة، حتى انتهوا أخيراً بالاستيلاء على أربونة آخر معقل إسلامي في غاليس سنة 759م.

وكان ذلك خاتمة الفتوحات الإسلامية المستقرة في فرنسا، ولكنه لم يكن خاتمة الغزوات الإسلامية أو خاتمة النفوذ الإسلامي في تلك الأنحاء. ذلك أن المسلمين عادوا فنفذوا إلى الجنوب فرنسا، ثم إلى بييمون وسويسره، وغلبوا على كثير من المواقع والأراضي في تلك الأنحاء أحقاباً طويلة، ولكنهم كانوا في تلك المرحلة جماعات مستقلة مغامرة تعمل لحساب نفسها أكثر مما تعمل لحساب الحكومات التي تنتمي إليها، وكانوا مستعمرين أكثر منهم غزاة؛ وتلك صفحة من تاريخ النضال بين الشرق والغرب والإسلام والنصرانية قلما تعنى بذكرها الرواية الإسلامية، وإن كانت الرواية النصرانية تشير إلى الكثير من وقائعها وتفاصيلها. وسنعنى في هذا الفصل بسرد حوادث هذه الصفحة الغريبة المجهولة، وبما كان للاستعمار الإسلامي في تلك الأنحاء من الخواص والآثار. كانت أول غزوة إسلامية لفرنسا بعد قيام الدولة الأموية في الأندلس، في عصر أمير الأندلس هشام بن عبد الرحمن الأموي، ففي سنة 793م دعا هشام إلى الجهاد، وأرسل إلى فرنسا جيشاً بقيادة وزيره عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث، فعبر البرنيه، وزحف على أربونة، فلما لم يستطع افتتاحها، ارتد إلى قرقشونه؛ وكان شارلمان (أو كارل الأكبر) ملك الفرنج يشتغل يومئذ بمحاربة خصومه على ضفاف الدانوب بعيداً عن فرنسا؛ فتأهب أمير أكوتين لرد العرب، وأوفد لمحاربتهم جيشاً بقيادة الكونت دي تولوز، فالتقى الفريقان في مكان يسمى (فيل دني) بين أربونة وقرقشونه، ونشبت بينهما موقعة غير حاسمة ارتد على أثرها العرب إلى الجنوب مثقلين بالغنائم. وتشير الرواية العربية إلى تلك الغزوة وتقول أن المسلمين استولوا خلالها على أربونه، ولكن الروايات الفرنجية المعاصرة لا تذكر شيئاً عن هذا الفتح.

وفي سنة 806م هاجمت شرذمة قوية من البحارة العرب جزيرة كورسيكا؛ فبعث ببين بن شارلمان ملك إيطاليا أسطولاً لقتالهم، ولكنهم هزموه وقتلوا قائده، وحصلوا كثيراً من الغنائم، ولم يمض عامان حتى عاد البحارة العرب إلى غزو شواطئ كورسكيا وسردانية. ثم توالت غزواتهم إليها بعد ذلك؛ وكانت شواطئ فرنسا الجنوبية عرضة أيضاً لمثل هذه الغزوات البحرية الناهبة، وكان قوام هذه الغزوات عصابات قوية مغامرة من مسلمي الأندلس وأفريقية تجوس خلال هذه المياه في سفن خاصة وتثخن في هذه الشواطئ، وتعود مثقلة بالغنائم؛ وكان البحارة المسلمون كالبحارة النورمانيين، رعب هذه الشواطئ، وكانت أخبار غزواتهم تدوي في جنوب فرنسا، وتعنى الروايات الفرنسية المعاصرة، ولاسيما الروايات الكنسية بتدوين أخبار هذه الغزوات، وتبالغ في تصوير عصفها ووقعها، وتقول لنا إن البحارة العرب ذهبوا في جرأتهم إلى حد التجول في مياه الاطلنطيق ومهاجمة شواطئ فرنسا الغربية، وإن سفينة عربية كبيرة اجتازت في ذلك الحين مياه الاطلنطيق حتى مصب نهراللوار.

وفي سنة 838م خرج أسطول عربي من ثغر طراكونه (تراجونا) ومياه البليار، ورسى في مياه بروفانس، وهاجم ثغر مرسيليا وما حوله من المواقع والأراضي، وأثخن فيها، وحمل كثيراً من الغنائم والسبى. وكان على عرش فرنسا يومئذ لويس (لي ديبونير) بن شارلمان، وكان ملكاً عاجزاً ضعيفاً، فلما توفي في سنة 840م، اضطربت أحوال المملكة، وضعفت الثغور، فانتهز البحارة العرب تلك الفرصة، وغزوا بروفانس عند مصب نهر الرون، وهاجموا مدينة آرل، وخربوا معاهدها. ثم توالت غزواتهم بعد ذلك في تلك المياه، وهاجموا مراراً مرسيليا وآرل. وفي سنة 850، في عهد عبد الرحمن بن الحكم أمير الأندلس، عبر المسلمون جبال البرنيه مرة أخرى بقيادة موسى حاكم سرقسطة وغزوا سبتمانيا، وأثخنوا في نواحيها، واضطر شارل (الأصلع) ملك فرنسا أن يعقد الصلح معهم؛ ومن المرجح أن هذه الغزوة كانت ذات صفة رسمية، وأن حكومة قرطبة هي التي نظمتها أو أوحت بتنظيمها. وفي سنة869، هاجمت شراذم من البحارة العرب بروفانس مرة أخرى، واستولت على جزيرة كامارج الواقعة في مصب الرون، وأسرت أسقف آرل الذي كان يقيم فيها، وعادت مثقلة بالغنائم والأسرى.

ولقد أذكى نجاح هذه الغزوات المتوالية في نفوس المغامرين والمجاهدين من مسلمي الأندلس وأفريقية حب التوغل في هاتيك الأنحاء ورغبة استعمارها والاستقرار فيها. وكانت أحوال غاليس (جنوب فرنسا) قد اضطربت يومئذ، وغاب سيد من سادة تلك الأنحاء يدعى بوسون على ولايتي دوفينه وبروفانس وتلقب بملك آرل، وقام يناوئه بعض منافسيه، ونشبت بينه وبينهم حروب أهلية (نحو سنة 890). ففي تلك الآونة رست سفينة عربية صغيرة عليها عشرون بحاراً من المسلمين في خليج جريمو أو خليج سان تروبيه، ونزلوا إلى الشاطئ، ولجأوا إلى غابة كثيفة تظللها الجبال، ثم هاجموا بعض الضياع القريبة وفتكوا بسكانها. ولما رأوا منعة معقلهم سواء من جهة البر أم البحر، عولوا على الاستقرار فيه، ودعوا إخوانهم من الثغور الإسلامية القريبة إلى القدوم؛ وأرسلوا في طلب العون والتأييد من حكومتي الأندلس وأفريقية؛ فوفد عليهم كثير من المغامرين البواسل، ولم تمض أعوام قلائل حتى استقروا في ذلك المكان وأنشأوا له سلسلة من المعاقل والحصون أمنعها وأشهرها حصن تطلق عليه الرواية الفرنجية المعاصرة اسم (فراكسنتم) والمظنون أنه هو المكان الذي تقوم عليه اليوم قرية (جارد فرينيه) - الواقعة في سفح جبال الألب، وما زالت ثمة آثار تدل على قيام معاقل قديمة في ذلك المكان. ولما كثر جمعهم واشتد ساعدهم، أخذوا في الإغارة على الأنحاء المجاورة، وأصبحوا قوة يخشى بأسها؛ وسعى إليهم بعض الأمراء والسادة المتنافسين يستظهرون بهم بعضهم على بعض، فلبوا الدعوة، وانتزعوا من بعض السادة أراضيهم، وأعلنوا أنفسهم سادة في الأنحاء المغلوبة؛ وبثوا الذعر والروع في جنوب بروفانس حتى وصفهم كاتب معاصر (بأن واحداً منهم يهزم ألفاً واثنين يهزمان ألفين).

وكانت هذه أول خطوة في استعمار العرب لجنوب فرنسا. وفي خاتمة القرن التاسع اتخذ المستعمرون خطوة أخرى. فتقدموا نحو جبال الألب غرباً وشمالاً. وكانت مملكة آرل قد ضعفت واضمحلت، وخلف بوسون ولده لويس، ولكنه ذهب إلى إيطاليا ليحارب إلى جانب حلفائه، فهزم هنالك وأسر، وتركت مملكته بلا دفاع؛ وساد الانحلال والفوضى في غاليس كلها. فانتهز المسلمون تلك الفرصة، واخترقوا مفاوز دوفينه، وعبروا (مون سنى) أهم ممرات الألب الفرنسية، واستولوا على دير نوفاليس الشهير الواقع في وادي (سيس) على حدود بيمون، وفر الأحبار في مختلف الأنحاء (سنة 906م) وأغار المسلمون على القرى والضياع المجاورة ونهبوها وفتكوا بأهلها، وأسر بعضهم وأخذوا إلى (تورينو) (بإيطاليا) وسجنوا في ديرها، ولكنهم استطاعوا أن يحطموا أغلالهم، وأضرموا النار في الدير وفي المدينة، وفروا عائدين إلى زملائهم؛ واشتد بأس العرب في تلك الأنحاء، واحتلوا معظم ممرات الألب، فسيطروا بذلك على طرق المواصلة بين فرنسا وإيطاليا؛ ثم انحدروا من آكام الألب إلى سهول بيمون، وأغاروا على بعض مناطقها.

وفي سنة 908 نزلت سرية قوية من البحارة العرب في شاطئ بروفانس على مقربة

من (إيج مورت) ونهبت دير بسالمودي. وكانت الأديار والكنائس يومئذ مطمح أنظار الغزاة لما
كانت تغص به من الذخائر والأموال. وانتشر العرب بعد ذلك في جميع الأنحاء المجاورة، واجتاحوا كل ما في طريقهم من البسائط؛ وهاجموا مرسيليا وهدموا كنيستها، وغزوا ايكس، وسبوا النساء وتزوجوا بهن ليكثر نسلهم ويقووا به، وانضم إليهم كثير من النصارى المغامرين من أهل هذه الأنحاء؛ وهجر السادة والأغنياء حصونهم وقصورهم والتجئوا إلى الداخل خشية القتل أو الأسر، وأغلق العرب طريق الألب إلى إيطاليا. وكان يمر بها كل عام ألوف من الحاج الذين يقصدون إلى رومة، واقتضوا منهم الضرائب الفادحة ليسمحوا لهم بالمرور.

- 3 -

ثم أتخذ العرب خطوة جديدة في سبيل التقدم إلى أواسط أوربا، فدفعوا غزواتهم إلى بيمون ومونفراتوا. وتقول لنا الرواية الكنسية المعاصرة إنهم وصلوا في أوائل القرن العاشر إلى حدود ليجوريا على شواطئ خليج جنوه؛ ويروي ليوتبراند وهو كاتب معاصر أن العرب غزوا سنة 906 مدينة (آكي) من أعمال مونفراتو الشهيرة بحماماتها (وهي على مقربة من تورينو)، ثم غزوها ثانية سنة 935 بقيادة زعيم يدعى (ساجيتوس) ولكنهم هزموا ومزقوا؛ وفي هذا الوقت أيضاً، نزلت شرذمة قوية من البحارة الأفريقيين بساحل جنوه، وقتلت عدداً كبيراً من أهلها، وأسرت جموعاً كثيرة من النساء والأطفال. وفي سنة 939 غزا العرب منطقة (فاليه) في جنوب سويسرا، ونهبوا دير (أجون) الشهير، وغزوا في الوقت نفسه منطقة (تارانتيز) من أعمال سافوا الوسطى، ثم اتخذوا منطقة (فاليه) قاعدة للأغارة على الأراضي المجاورة في سويسرا وإيطاليا ونفذوا منها إلى أواسط سويسرا ثم إلى (جريزون) في شرق سويسرا، ونهبوا دير ديزنتي أشهر وأغنى الأديار السويسرية، ونهبوا طائفة أخرى من الأديار والكنائس الغنية. وفي بعض الروايات أيضاً أن العرب وصلوا في غزواتهم إلى بحيرة جنيف، وجازوا إلى مفاوز جورا الواقعة في شمالها. وكانت سويسره يومئذ من أقاليم مملكة بورجونيه، وملكتها يومئذ (الملكة برت) الوصية على ولدها الطفل كونراد، فارتدت حين اقتراب العرب إلى حصن ناء في جهة نيوشاتل.

وفي سنة 940 غزا العرب فريجوس، وكانت يومئذ من أكبر وأمنع ثغور فرنسا الجنوبية؛ وغزوا أيضاً ثغر الطولون، ففر السكان إلى الجبال، وعاث العرب في تلك الأنحاء،
وخربوا المدن والحصون، وأحرقوا الأديار والكنائس.

ولما اشتدت وطأة العرب في جنوب فرنسا وبلغ السخط من غزواتهم وعيثهم ذروته، اعتزم سادة الجنوب وعلى رأسهم هوج ملك بروفانس أن يبذلوا كل ما في وسعهم لسحق ذلك العدة المزعج؛ ورأى هوج أن يبدأبافتتاح حصن فراكسنيه (فراكسنتم) الذي يمنع به العرب ويتخذونه قاعدة تأمين مواصلاتهم مع أسبانيا وأفريقية، وقاعدة للإغارة على الداخل، وكتب إلى صهره إمبراطور قسطنطينية يطلب منها أسطولاً من قاذفات النار اليونانية حتى يستطيع مهاجمة العرب من البر والبحر معاً. فلبي نداءه، وفي سنة 943 رسا أسطول بيزنطي في مياه نروبيه، وزحف هوج في نفس الوقت بجيشه على فراكسنيه؛ وهوجم العرب من البر والبحر بمنتهى الشدة وأحرقت سفنهم؛ ونفذ هوج إلى الحصن بعد قتال رائع، وفر العرب إلى الآكام والربى، وكاد يسحق سلطانهم في تلك الأنحاء. ولكن حدث عندئذ أن علم هوج أن خصمه ومنافسه بيرانجيه قد عاد إلى إيطاليا لينازعه في انتزاع عرشها، فصرف هوج الأسطول، واضطر أن يعقد الصلح مع العرب بشرط أن يبقوا في رؤوس الألب وممراته وأن يغلقوا الطريق إلى إيطاليا في وجه خصمه؛ وبذلك استعاد العرب قلاعهم وسيادتهم في جنوب بروفانس.

واحتل العرب آكام الألب وممراتها، وفرضوا الضرائب الفادحة على المسافرين، واستطاعوا بسيطرتهم على ممر سان برنار الكبير الموصل بين سويسره وإيطاليا وغيره من الممرات والمعاقل الجبلية، أن يجتاحوا الأنحاء المجاورة، وأن يبثوا فيها الذعر والروع واستقرت منهم جموع كبيرة في السهول والضباع القريبة من معاقلهم، وتزوجوا النساء الأسيرات، وزرعوا الأرض، واكتفى أمراء هذه النواحي بأن يحصلوا منهم بعض الضرائب.

ونفذ العرب أيضاً إلى منطقة نيس أجدى ولايات مملكة آرل الجنوبية، واجتحاوا شاطئ ليجوريا كله (جنوه)؛ بل يظهر أن سرية منهم استقرت في نيس ذاتها، وما زال في نيس إلى اليوم حي يعرف بحي العرب وأخيراً نفذ العرب إلى قلب ولاية دوفينه وغزوا مدينة جرينوبل واحتلوها مدى حين، واحتلوا واديها الخصيب، (جريزيفودان) الذي يجري فيه نهر الازير فرع الرون، وفر أسقف جرينوبل وزملاؤه إلى الشمال حاملين لرفات قديسهم. للبحث بقية

محمد عبد الله عنان المحامي

الشخصية - 8

للأستاذ محمد عطية الابراشي
المفتش في وزارة المعارف

الشعور بالواجب (3):

من الوسائل التي تساعد على التنفيذ، وعلى تقوية الشخصية العملية، تلك الصفة الحية وهي الشعور بالواجب، وإجابة نداء الضمير؛ فالإنسان حينما يشعر بوازع نفسي بأنه يجب عليه أن يفعل كذا، أو بأنه يجب عليه ألا يفعل كذا، فان هذا الشعور وحده يرمي إلى مغزى خلقي، ويستدعي نشاطاً عقلياً لفعل الشيء أو محاربته، فهو بمثابة مؤثر داخلي يؤثر فيه تأثيراً قوياً. وإن إجابة هذا المؤثر أو الباعث النفسي خير كفيل لاستنهاض الهمة، ومضاعفة العزيمة. قال (إمرسون) إن الإنسان إذا استحثه الواجب لأن يقوم بعملٍ ما، قام به) وليس الشعور بالواجب أو تلبية نداء الضمير، أو الصوت الداخلي، مقصوراً على طبقة دون الأخرى، ولا على جيل من الأجيال، ولا سن من الأسنان.

وإذا تذكرنا أن الشعور بالواجب يتضمن حكم النفس وضبطها، أمكننا أن ندرك العلاقة بين شخصية وبين الشعور بالواجب وإجابة الداعي النفسي؛ ففي كل أمر من أمور الحياة نجد أن هدوء البال، وراحة الضمير، والاطمئنان، والجمال - ثمرة من ثمرات الطاعة، ومراعاة القوانين العلمية والفنية.

وإننا إذا بحثنا في تاريخ العظماء والأدباء والفنانين، وجدنا أن ذوي الشخصيات الخالدة (في التاريخ) كانوا من ذوي الضمائر الحية الحساسة، الذين يجيبون نداء الضمير، ويصغون إلى صوت الله فيهتدون بهديه، وكانوا يحسون بالواجب فيقومون به، ويعملون على تنفيذه. وكثيراً ما يكون الضمير الحي والشعور بالواجب سبباً في إنقاذ الإنسان من صروف الحياة، ومن السقوط إلى الهاوية فلا يكون فريسة للنفس الشريرة. فكل إنسان تفتح أمامه السبل المختلفة، ولكن الروح الطاهرة لا تفكر إلا في الطرق الشريفة السامية، أما الروح الدنيئة فلا تنظر إلا إلى الطرق الدنيئة، ومعظم الناس يسلكون طريقاً وسطاً. وإن الشعور بالواجب، وحب الفضيلة، والتمسك بالخير تكسب الشخص قوة وروعة ووقاراً،

وتبعث في نفسه الحياة، وتقوده إلى الطريق السوي، وتعوده الصبر والمثابرة، وتقوي الإرادة، وهي التربة الصالحة التي فيها تنمو وتثمر الشخصية القوية الغنية.

قوة الوازع الديني (4):

إننا في البحث في الشخصية الإنسانية لا يمكننا أن ننسى الدين وأثره، والوازع الديني وقوة تأثيره في حياة الإنسان، فكثيراً ما يواجه الإنسان بأزمات وشدائد لا قبل له بها، ولولا الثقة بالله والإيمان به لجزع، وتملكه اليأس، واستولت عليه الهموم من كل جانب. ولكن الوازع الديني هو الذي ينتشله من وهدة القنوط، ويبعث في نفسه، ويحييه من يأسه، وينير الطريق أمامه بعد أن كان مظلماً، ويهديه بعد الضلال، ويسليه عند الشدة. فالعنصر الوجداني قوي في العقيدة الدينية، وهو يستحث الشخص في أداء الواجب، وإرضاء الضمير، والصبر، والمثابرة، ويوحي إليه بفعل الخير واجتناب الشر، ويدعوه إلى الحركة والعمل في الحياة، ويرشده، فيعمل الإنسان العمل وكله أمل وثقة بالله، يؤدي واجبه ويترك النتيجة لله، لا يفكر في الماضي؛ لأنه قد فات. وينظر في الحاضر، ويترك المستقبل لله يفعل ما يشاء. وبهذه الوسيلة يهدأ باله، ويطمئن خاطره، وتقوى شخصيته، ويكون سعيداً في الحياة. والإنسان عادة يطمئن

إلى رجال الدين والمتدينين الذين يثقون بالله تمام الثقة، ويفعلون ما يفعلون ابتغاء مرضاة الله. أما الرجل الذي لا دين له فلا ضمير له، ولا يمكنك أن تطمئن إليه.
ومعظم المصلحين في العالم كان الوازع لهم في الإصلاح دينياً، أمثال الأنبياء والخلفاء والأئمة من المسلمين، وهليل والرباني (عقيبة) من الإسرائيليين، ومارتن لوثر، وكارليل، ورسكن من المسيحيين. فالوازع الديني هو الذي أمدهم بثروة في العقل، وقوة في الروح، وعظمة في الخلق، فأثروا في جيلهم، وفي الأجيال التي أتت من بعدهم. ولسنا اليوم في حاجة إلى رجال يقومون بالواجب فحسب، ولكننا في حاجة إلى رجال يمكنهم أن يحثوا غيرهم على القيام به.
الخلاصة:
وصفوة القول أننا في الشخصية العملية نحتاج إلى ما يأتي:
1 - أن يكون لنا غرض معين في الحياة، نعمل للوصول إليه بحيث نعتمد على أنفسنا ولا نكون صدى الأصوات غيرنا فنكرر ما يقولون ونفعل ما يفعلون، ولا نتأثر بهؤلاء المترددين الذين لا يعرفون لهم غرضاً في الحياة، ولا يثبتون على حال، ولا نشغل أنفسنا بكثير من المشروعات التي لا يمكن تنفيذها، بل بمشروع واحد في وقت واحد، ثم نعمل على إجادته وتنفيذه، ثم الابتداء بغيره وهكذا.
2 - أن يكون لدينا حب شديد لأعمالنا، ورغبة كبيرة في تكملتها، ونعمل على أن لا نفقد تلك الرغبة في تهذيبها ومضاعفتها.
3 - الشعور بالواجب والقيام به في الحال على أكمل وجه، فلا نؤخر عمل اليوم إلى الغد، ولا نفكر فيما سنحصل عليه من الجزاء عند القيام بالعمل، بل نجعل الجزاء أمراً ثانوياً، ونؤدي العمل لا لشيء إلا لأنه يجب أن يؤدى، ونثق بغيرنا كما نثق بأنفسنا، ولا نهزأ بالمثل العليا التي يتخذها سوانا.
4 - قوة الوازع الديني مع التمسك بالدين، بحيث لا نفكر في الماضي، ونعمل على انتفاع بالحاضر، ونقوم بواجبنا كما ينبغي، ونترك المستقبل لله. وبهذه الوسيلة نستريح وتستريح نفوسنا.
(تم البحث)
محمد عطية الابراشي
كيف ولماذا سافرت إلى أوربا؟
للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني
منذ بضع سنوات - أربع أو مائة، لا أدري! - استقر عزمي على القضاء الصيف في لبنان، فجمعت ما عندي من الثياب القديمة، وحشوت بها حقيبة، وقلت أقضي أياماً في الإسكندرية ثم أبحرت منها إلى بيروت. وهناك - في الإسكندرية، لا بيروت - لم أدع شركة ملاحة إلا دخلت مكتبها واستفسرت من رجالها عن البواخر، حتى الذاهبة إلى الهند، ومواعيد وصولها ورحيلها. وكنت أخرج من كل مكتب بحزمة من الأوراق، فيها صور مغرية وأسعار منفرة. فاتفق يوماً أن لج وكيل (شركة سيتمار) في تزين السفر على الباخرة (اسبيريا) إلى إيطاليا، وكان الوقت ظهراً، وأنا جوعان، فدار رأسي، ووهن عزمي، وكدت أنقذه ثمن التذكرة، ولكني تذكرت أن (الجواز) يحتاج إلى (تأشيرات) فاعتذرت به وانصرفت. وعدت إلى فندق (بوريفاج) في أقصى (الرمل) وكنت مقيماً به، وأسرعت إلى مائدتي فجلست إليها، وكنت مهموماً مكروباً موزع النفس، بين لبنان والباخرة (اسبيريا) - أي والله! كأنما كنت سأقضي الصيف كله على ظهرها! - فناديت الخادم وطلبت من النبيذ عسى أن يذهب عني الفتور،
وملأت الكأس، وتناولتها، ورفعتها إلى فمي، فسمعت من ورائي صوتاً رخيماً يقول: (المازني - هذا - حشرة!).
فارتدت يدي عن فمي، وهي ترعش، وسالت عليها قطرات من النبيذ، ومضى الصوت الحلو يفري أديمي: (حشرة حقيرة - يجب سحقها بالأقدام.)
فتلفت مذعوراً وقد خيل إلي أن العيون كلها صارت علي، وتمنيت لو أن إدارة الفندق تحرم الكلام على الطعام، أو تجيء بموسيقى تغرق في أنغامها العالية القوية هذه الأصوات الحلوة! ولكن الكلام لم يكن محظوراً، ولا موسيقى هناك، فسمعت مكرها: (سكير لا يفيق، ومعربد لا يرعوي).

فقلت في سري (يا خبر اسود؟! أنا سكير لا أفيق؟؟ أنا عربيد؟؟) ودهشت، ولو أن رجلاً كان يزعمني كذلك لما حفلت نفسي ماذا يقول عني، ولكنها فتاة - فتاة على التحقيق. . صوتها وحده دليل على ذلك - تذكرني بلهجة المحنق، كأنما كنت قد قتلت أباها، - قاتله

الله على أي حال! - وكان الخادم قد وضع أمامي شبوطةً مغرية، ولكن نفسي انصرفت عنها وزهدت فيها، فاضطجعت وأنا أعجب للذين يؤاكلون هذه الفتاة لماذا لا يتكلمون؟؟ وما لهم لا يغيرون هذا الموضوع.

فلم (رجل مستهتر، لا يبالي ماذا يقول عن نفسه، ويظن لسخافته أن هذا من الظرف) أعد أطيق هذا الطعن، واشتهيت أن أكتم أنفاسها بالفوطة، ولكني طويتها - أعني الفوطة - ووضعتها على المائدة وهممت بالقيام، فسمعتها تقول:

(على كل حال ماذا ننتظر؟ إن (اسبيريا) تسافر بعد غد، وإذا لماذا لم نشتر التذاكر غدا) وتسللت، كاللص، ولكن بعد أن خالستها النظر ورأيت وجهها، من (. . .تأخرنا وفاتتنا غير أن تراني، وكانت مع الأسف جميلة. فزاد عجبي، فان الحسن ري ولين، وهذه الفتاة تحمل لي في جوفها بركاناً فائراً بالسخط والنقمة وكل ما ينافي معاني الجمال. فقرضت أضراسي وأقسمت لأسفارن على هذه الأسبيريا لأرى آخر هذه الحكاية.

وأقبل الليل، وكنت أتمشى في حديقة الفندق، وحدي، كما لا أحتاج أن أقول، وكنت لا أزال أحدث نفسي بما سمعت من أوصاف، وكان صدري كالخضم المضطرب، وكان الخدم يروحون ويجيئون في أرجاء الحديقة تلبية لنداء المنادين أو تصفيق المصفقين، وكان الأطفال يجرون هنا وههنا، وأنا ذاهل عن هؤلاء وأولئك جميعاً بالحجارة التي صكت سمعي على الطعام، فكنت أخطو خطوات، وأقف وأقول لنفسي:

(حشرة. . .!).

فقال صوت (أفندم؟). قلت - غير عابئ به أو جاعل بالي إليه - (حشرة حقيرة. . تستحق السحق بالأقدام) واستأنفت السير، أو الخطو، وتركت الخادم - فقد كان أحد الخدم - يسخط ويلعن، أو لا يدري هل يضحك أو يغضب.

وإني لفي ذهولي هذا، وإذا بصرخة خافتة، فالتفت مسرعاً إلى مصدرها، فبصرت بفتاة حانية على غصن مريجٍ علق به ثوبها، فوثبت إليها وعنتها على تخليص الثوب، ولكن بعد أن تخرق.

وقلت وأنا أنفض التراب عن كفي وأشير إلى الثقوب الظاهرة في ثوبها:

(ليس هذا ذنبي. . إنه ذنب البستاني المهمل الذي يربي هذه الألفاف ليزين بها الطريق ولا يعني بتقليمها. . . .).

فقالت: (على العكس. . . إني شاكرة لك نجدتك، ولولاك لصار الثوب في يدي هلاهيل. . . فأنا مدينة لك. . .)

فرفعت عيني إليها فإذا بها هي التي سلقتني على المائدة بلسانها وحرمتني لذة الطعام وأنا جائع أتضور، فارتددت عنها مقدار خطوة وندت عن صدري آهه مخنوقة:

فقالت وهي تدنو مني: (ماذا بك؟) ورأتني أتكلف الابتسام فقالت: (بالدور. . . أنت مرة وأنا مرة)

فقلت: (لا شيء. . . لا شيء. . .)

فألحت (ولكن ماذا بك؟)

قلت: (أوه. . . لاشيء، لم أكن أحسب أنك أنت. . .)

فقالت مستغربة (ولكن بالطبع أنا أنا. . .)

قلت: (طبعاً. طبعاً. إني سخيف)

قالت: (هل تعرفني؟)

قلت: (أعرفك؟ الجواب نعم ولا)

قالت: (كيف يمكن هذا؟ ماذا تعرف عني؟)

قلت: (أقل مما تعرفين عني)

قالت: (لا مؤاخذة، ولكني لا أعرف عنك شيئاً)

قلت: (صحيح!؟)

قالت: (بالطبع صحيح! إني لم أرك إلا الساعة)

فتشهدت وأنحط عن صدري حجر، وقلت: (الحمد لله!، يا ما أكرمك يا رب!)

فقالت: (ولكن لماذا تتكلم هكذا؟ لست أفهم شيئاً. . .)
قلت: (أحسن)
قالت: (هل معنى هذا أنك تخشى أن أعرفك؟)
قلت: (جداً جداً جداً!)
فضحكت وقالت: (هل أنت مجرم هارب؟)
قلت: (شر من مجرم، بودي لو أستطيع الهرب ولكن إلى أين؟ كلا. لست مجرماً ولكني
حشرة!)
فصاحت: (إيه؟ حشرة!)
قلت: (أي نعم. حشرة حقيرة. . .)
فوضعت راحتها البضة على كتفي وقالت: (لا تتكلم هكذا! هل أنت مريض؟)
قلت: (نعم. نعم. نعم.)
قالت: (مسكين! ماذا بك؟)
قلت: (أذني. . . أذني. . . آه من أذني) والمصيبة أني كنت أبتسم، فقد راقني هذا الموقف على الرغم مما أجن من الحقد على الفتاة، فأقبلت علي، وجعلت تهون من أمر أذني وتشير علي بأن أضع فيها قطرة أو قطرتين من (الجليسيرين) وأن أبلع قرصاً من (الأسبيرين). فشكرتها افترقنا.
وفي صباح اليوم التالي مررت (بقلم الجوازات) وبدار (القنصلية الإيطالية)، ثم استخرت الله وذهبت إلى مكتب (شركة سيتمار)، وطلبت تذكرة على الباخرة (اسبيريا) وإذا بالفتاة تقول لي:
(وأنت أيضاً مسافر عليها؟)
قلت: (نعم. هل هناك بأس؟)
فضحكت وقالت: (كيف أذنك اليوم؟)
قلت: (أذني؟ آه! صحيح! تطن)
قالت: (يظهر إنها شفيت. . .)
فهممت بأن أقول شيئاً ولكن الرجل سألني عن أسمي، ولم أكن أتوقع هذا، فهبط قلبي إلى حذائي، ونظرت من الفتاة إلى الرجل، ومن الرجل إلى الفتاة وقلت:
(إسمي؟ ولكن هل هذا ضروري؟)
فقال: (لا. . . ولكن يحسن. . . إن أسماء الركاب تكتب وتوزع على الباخرة)
وكنت قد أنقدته قبل ذلك ثمن التذكرة فلولا هذا لعدلت فقلت:
(إسمي؟ إسمي؟ أظنه إبراهيم. . نعم. . . إبراهيم عبده)
وقالت الفتاة ونحن خارجان:
(هل هذا أسمك الحقيقي؟)
قلت: (هل تعرفين إسمي الحقيقي؟)
قالت: (لا. . . إذن هذا اسم مستعار؟ معذرة إذا كنت أتطفل. . .)
قلت: (لا. لا. . . ليس اسماً مستعاراً. . . أنه اسمي من الآن فصاعداً)
فهزت رأسها وقالت وهي تبتسم: (ليس لي حق، هذا فضول لا يغتفر. . . سامحني)
فقلت: بلهجة الجد الصارم (أسامحك؟ كلا! أبداً. . . أبداً. . .)
فتعجبت، ولها العذر وقالت: (هل أسأت إليك بشيء؟ إني آسفة!)
قلت: (أسأت؟ أسأت فقط؟ لقد قتلتني يا فتاتي!)
قالت: وهي تدير وجهها لترى وجهي
(أتمزح أم تتكلم جاداً؟)
فواجهتها وقلت: (هل تعرفين أني أمزح؟؟ كلا! أعني نعم. قتلتني. . . طعنتي هنا)
(وأشرت إلى موضع القلب)
فضحكت وقالت: (بهذه السرعة؟! إنك حساس جداً)
قلت: (نعم. جداً. فاتقي أن تدوسيني بقدميك. . .)
قالت: (ولكن لماذا أدوسك بقدمي؟ لست أفهم كلامك. . .)
قلت: (لأني حشرة. . .)
قالت: (أوه! لا تقل هذا. . لماذا تشتم نفسك هكذا؟)

قلت: (نعم حشرة، وحشرة حقيرة أيضاً. . .)
قالت: (أوه! إنك تضجري بهذا ار. . .)
قلت: (وسكير عربيد. . . .)
فوقفت في الطريق وصاحت
(أهو أنت؟)
فقلت - مقلداً -: (بالطبع أنا. أنا.!)
قالت: (وسمعتني؟)
قلت: (كل كلمة. . . خرقت أذني كالمسار المحمي)
قالت: (إني آسفة. . . جداً. . . وأعتذر)
قلت: (آسفة؟ هممم. وأنا أنفلق! لا يأس. هيا بنا. . .)
قالت: (لقد تعمدت ذلك. . .)
فصحت بها: (إيه؟ كان هذا كله إلى الآن تمثيلاً؟)
قالت: (نعم قلت ما قلت عمداً. . . عرفتك من وجهك ومن. . . لا مؤاخذة. . . من رجلك. . ولكنك تؤثر الوحدة ولا تبالي الناس وتتقي أن تكلمهم، بل تهرب منهم، فماذا أصنع غير ذلك؟)
قلت: (كنت تستطيعين أن تمدحيني مثلاً فأسر. . . أم هذا حرام؟)
قالت: (والآن ألا تعفو عني؟)
!قلت: عفونا يا ستي! بعد أن غرمنا ثمن تذكرة إلى أوربا بلا داع
قالت: (إيه؟)
قلت: (نعم. كنت مسافراً إلى لبنان، فلما سمعت منك بعض الحقائق. . .)
فاحتجت: (لا تقل الحقائق. . .)
(أردت أن أعرف البقية. . . فقد أوصانا سقراط أن نعرف أنفسنا)
فوضعت كفها على فمي.
فلم أقبلها - أعني كفها - ولكني عضضتها عضة مغيظ، ولم أبال صراخها في الطريق.
إبراهيم عبد القادر المازني
من تراثنا العلمي
فضائل مصر لابن زولاق - 2
وصف وتلخيص لنسخة مخطوطة
للأستاذ علي الطنطاوي
تتمة
باب: إن المأمون قارن مصر بالعراق
صفة مصر وخبرها - 1:
قال: كان سعيد بن عفير بحضرة المأمون وهو بمصر فسمعه يقول لعن الله فرعون حين يقول: أليس لي ملك مصر. فلولا رأى العراق! فقال: يا أمير المؤمنين، لا تقل هذا فان الله عز وجل يقول: ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون. فما ظن أمير المؤمنين بشيء دمره الله هذه بقيته (ثم وصف مصر وأنهارها وقناطرها وأرزاقها وخلجانها السبعة وما كان من خبرها، وخبر الخليج الإسلامي الذي حفر في زمان عمر).
ذكر كور مصر، وما في كل كورةمن أصناف البر والأواني والفواكه والسلاح والطعام والشراب وجميع ما ينتفع به الناس. (وذكرها كورة كورة، وذكر ما فيها في فصل طويل، وأحال في مواضع منه على تاريخه. وقال وهو يتكلم عن إسكندرية) وقد شرحت ذلك مستفيضاً في كتابي التاريخ الكبير في أخبار الإسكندرية.
وذكرت الحكماء أن عجائب الدنيا ثلاثون أعجوبة منها عشرون بمصر :(إلى أن قال) والعشرة في سائر الدنيا: مسجد دمشق، وكنيسة الرها، وقنطرة سخا، وقصر غمدان، وكنيسة رومية، وصنم الزيتون بصقلية، وحجر العواري، وإيوان كسرى، وبيت الريح ب. . .؟ وكنيسة بعلبك.
وبمصر من العجائب ما يغني عن هذا ويربو عليه (؟) فمن عجائبها: مدينة منف وقد ذكرناها، ومن ذلك عين شمس وهي هيكل الشمس، وبها قدت زليخا علي يوسف القميص، وبها العمودان اللذان لم ير أعجب مهما ولا من أبنائها وهما محمولان على

وجه الأرض بغير أساس طولهما في السماء خمسون ذراعاً إلى الخ. . ومن عجائب مصر البرايق بأخيم
وسمنود وفيها الصور أمثال الفرسان والرجاله الخ. . (وذكر لها خبراً طويلاً) ومن عجائب مصر أمر الهرمين الكبيرين الخ.
3 - ذكر النيل وأموره.
4 - وصف مصر وتمثيلها:
ذكر وصف عمرو بن العاص ووصف غيره من ولاة مصر. وتكلم عن خراج مصر وكيف) كان يصرف كلاماً طويلاً ذكر فيه مقدار الخرج في زمن الفراعنة الأولين وفي أيام يوسف ومصارفه، وذكر أن عمر بن العاص جباها عام الفتح عشرة آلاف ألف دينار، فكتب بذلك إلى عمر، فكتب إليه عمر بن الخطاب يعجزه ويقول جباها الروم عشرين ألف ألف دينار، فلما كان العام المقبل جباها عمر أثنى عشر ألف ألف دينار، فلما وليها عبد الله بن سعيد بن أبي سريح لعثمان جباها أربعة وعشرين ألف ألف. فقال عثمان لعمرو وكان عنده في المدينة: درت بعدك اللقحة يا أبا عبد الله. فقال: أضررتم بالفصيل.
ثم أنحط الخراج إلى ما دون ثلاثة آلاف ألف. إلا في أيام هشام، ثم قصر إلى سنة 254، فلما وليها أحمد بن طولون استقصى العمارة وبالغ فيها فجباها أربعة وعشرين ألف ألف الخ).
5 - ذكر مقبرة مصر وفضائلها وذكر مقطمها.
6 - ذكر ما تختص به مصر دون غيرها من الملبوس والمركوب والمأكول والمشروب (في فصل طويل).
7 - في أسماء الشهور القبطية (وما كانوا يصنعون في كل واحد منها).
هذه أبواب الكتاب وفصوله، وفي كتاب أشياء رواها المؤلف على علاتها ولم يسلك فيها سبيل التحقيق، كالذي جاء به عند الكلام على المواضع المشرفة في مصر، وعجائب مصر، وخبر الأهرام. وفيه أشياء نافعة وجليلة. ولكي نزيد القارئ بياناً نقدم إليه هذه النبذة مما ورد في الكتاب نموذجاً لأسلوبه:
قال: (ذكر ما في مصر من ثغور الرباط والمساجد الشريفة وما فيها من شركة شرف الحرمين وسائر الدنيا. فأما مشاركتها للحرمين وأعمالها - (؟) ولما أمكن الواردين إليها من كل فج عميق المقام بها يوماً لنفاد أزوادهم وأنهم يمتارون من ميرة مصر. وقال بعض
المتكلمين: لو أن رجلاً عابداً ترك التصوف وأقبل على العبادة وأن آخر قام له بكفايته وسائر مئونته من كسوة وطعام وشراب لكان شريكه فيما يعمله وأن له أوفر أجرة، وكذلك مصر منزلتها من الحرمين. ومن فضايلها أن الذي بنى الكعبة رجل من قبط يكنى أبا قدم. ومصر فرضة الدنيا ويحمل من حيزها إلى سواحلها وكذلك ساحلها بالقلزم ينقل إلى الحرمين وإلى جدة وإلى عمان وإلى الهند وإلى الصين وصنعاء وعدن والشحر والسند وجزاير البحر، ومن جهة تبنيس ودمياط والغرما فرضة بلدة الروم وأقاصى الفرنجة وقبرص وسائر سواحل الشام والثغور إلى حدود العراق، ومن جهة الإسكندرية فرضة اقريطش وصقلية وبلد الروم والمغرب كله إلى طنجة والسوس ومغرب الشمس، ومن جهة الصعيد فرضة بلد المغرب وبلد البربرو - (؟) والحبشة والحجاز واليمن. وأما ما فيها من ثغور الرباط فمن ذلك: رباط البرلس، ورباط رشيد، ورباط الإسكندرية، ورباط ذات الحمام، ورباط البحيرة، ورباط أخنا، ورباط دمياط، ورباط شطا، ورباط ننفس (؟) ورباط الاستوم، ورباط الفرما، ورباط النفار، ورباط الفرادة، ورباط العريش، ورباط الشحربين وما ينضاف إلى هذه الثغور وجهاتها، ورباط الحيرس من جهة الحبشة والحة (؟) وما يقرب منهم (كذا) ورباط أسوان على النوبة، ورباط الواحات على البربر والسودان ورباط قوص. وقد روينا في أول هذا الكتاب قول الرسول عليه السلام: إن مصر خير أجناد الأرض. فقال له أبو بكر: ولم يا رسول الله؟ قال لأنهم وأزواجهم وأبناؤهم في رباط إلى يوم القيامة وكانت برقة وطرابلس من ثغور مصر إلى أن خرجت في سنة ثلاثمائة فأضيفت إلى رباط المغرب. وأما المساجد الشريفة والمشاهد العظيمة فان بمصر مساجد هي مشاهد والعمل فيها منه في غيرها سوى الحرمين، فمن ذلك مسجد سليمان عليه

السلام في الإسكندرية، ومسجد يوسف عليه السلام بمنف، ومسجده بطرا، ومسجده بوادي المقطم. وللخضر مسجدان منها مسجده بالإسكندرية، ومسجده بلبوهة في أسفل الأرض، ومسجد ذي القرنين بالإسكندرية عند النحات. ومنها مسجد الأقدام وهم قوم من أهل المقام قتلوا على موالاة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومسجد عقبة ابن عامر الجهني بسوق وردان، ومسجد مسلمة بن مخلد بسوق وردان، ومسجد الزمام بني على رأس محمد بن أي بكر بناة علامة زمام وجعله مشهداً ورأسه في موضع المنارة، ومسجد - (؟) بني على رأس زيد بن علي بن الحسين بن (- علي) أبي طالب أنفذه هشام بن عبد الملك إلى مصر نصب على هذا المنبر ووقف عنده - (؟) فسرقه أهل مصر. ودفنوه في هذا الموضع، ومسجد درب الكند الذي الزقاق فيه قبر الحسين بن زيد بن حسن بن علي بن أبي طالب أرسله أبو جعفر المنصور بن العباس إلى الأمصار فأخذه أهل مصر فدفنوه في هذا الموضع واتخذوه مسجداً. وبمصر مساجد الصحابة سوى ما ذكرنا الخ).

هذا وليس على الكتاب تعليقات للقراء إلا تعليقة واحدة على أسماء الشهور القبطية قال كاتبها: (قوله أشهر الأعجمية القبطية المراد هذه الشهر على الأبراج الفلكية الاثني عشر برج، لأن كل برج من هذه الأبراج سموه باسمه في لغتهم فأول الأبراج وهو الحمل سموه توت، وثانيه الثور سموه بابه، وثالثه جوزا سموه هتور، ورابعه سرطان سموه كيهك، الخامس أسد سموه طوبا، والسادس السنبلة سموه امشير، 7 ميزان سموه برمهات، 8 الثامن عقرب سموه برمودة، 9 قوس سموه بينس، العاشر الجدي سموه بؤنه، الحادي عشر دلو سموه آبيب 12 حوت سموه مسري).

وكأن هذا الفصل الأخير (مطلب في أسماء الشهور القبطية) ملحق بالكتاب وإن جاء قبله بجملة فيها معنى الختام قال: وقالوا في مصر كلاما محفوظاً: طينها عجب، ونيلها ذهب، ورجالها قصب، ونسائها رطب، وهي لمن غلب. وقالوا في الكوفة: اقرأ الناس للقرآن لا يجاوز تراقيهم. وقالوا في أهل البصرة نعم وردن معاً وصدرن شتاً. وقالوا في أهل الشام أطوع الناس لمخلوق وأعصاهم لخالق وأجرئهم على أمر لا يدرون ما هو. وقالوا في أهل الحجاز: أجرأهم على فتنة وأعجزهم عنها. وقالوا في أهل الموصل كناسة بين قريتين. وقالوا في أهل واسط منزل بين كنيفين. وذكروا الحديث المسند: (إن مصر يساق إليها أوائل الناس أعماراً). والبلدان فيها الطوال الأعمار وفيها القصار. إن طول الأعمار في سر وحمير، وجو اليمامة ووادي فرغانه. وقد جعل لمصر نصيب من ذلك في طوال الأعمار بمربوط وقرا بالحفار. وقد ذكرنا لمصر من الفضائل ما أغنى وكفى، ووصفنا الحكماء الذين كانوا بها وأنها معدن الحكمة التي انتشرت في أيدي الناس، يوجد في الدنيا بلد زينه أهله زينة مصر في أبنيتها ونهرها وإتقان أمرها وبالله التوفيق.

وإن في الكتاب كثيراً من العبارات المضطربة. وفيه كلمات ليست بالواضحة وإن فيه كثيراً من الأخبار التي لم تصح، ترد غالباً عندما يتكلم عن تاريخ مصر القديم. كقوله:

ذكر من كان بمصر من عيون الفرسان والشدة: عوج ابن عنق قتله موسى عليه) السلام وجره الناس على النيل فمروا عليه شهراً، قال: وكان طول سرير عوج بن عنق ثمانمائة ذراع وعرضه أربعمائة ذراع، وكانت عصاة (هكذا) موسى عشرة أذرع، وضربه موسى فأصاب كعبه فخر على نيل مصر فحسره الناس فمشوا على صلبه وأضلاعه سنة وقيل شهراً الخ).

وقوله:

ومن الفراعنة الذين جربوا الدنيا وغلبوا على مصر بختنصر وهو من قرية من قرى) بابل يقال لها نفد، ودخل مصر في ستمائة ألف فارس وراجل، راكباً على أسد ورد، متقلداً سيفاً طوله عشرة أشبار وعرضه شبر، أخضر النصل كالسلق، يتحدر منه شبه ماء السدر، وغمد من ذهب مرصع بالجواهر والياقوت الأحمر مكتوب عليه:

وأنت إن لم ترجُ أو تتقي ... كالميت محمولاً على نعشه
لا تنحس السر فتصلى به ... فقلَّ من يسلم من نحسه
وأَحْمَد السر فان هجمته ... وأحذرلأعدائك من حبسه
للبحر أقراش لها صولة ... فأحذر لأعدائك من قرشه
إذا طغى بالكلى شحم الكلى ... أدخل رأس الكبش في كرشه

وناطح الكبش له ساعة ... يأخذهالناطحمن كبشه
وكم نجيّ من يدي أعدائه (كذا) ... وميت مات على فرشه
من يفتح القفل بمفتاحه ... نجا من التهمة في فشه
ونابش الموتىله ساعة ... يأخذهإبليس من نبشه
لله في قدرته خاتم ... تجري المقادير على نقشه
وهذا ختام المخطوط:
وهذا جملة ما أودعناه هذا الكتاب باختصار بغير إسناد ولم أثبت فيه شيئاً إلا وقد رويته واختصرته ليقرب على من أراد وبالله التوفيق، ولو لم يكن لمصر فضل إلا أن العزيز عليه السلام إمامها. والوزير أيده الله ملكها وعاملها ومدبرها لكان فضلاً عظيماً وبالله أستعين. تم الكتاب بحمد الله وعونه وحسن توفيقه).
دمشق
علي الطنطاوي
بين فن التاريخ وفن الحرب
خالد بن الوليد - 8
في حروب الردة
للفريق طه باشا الهاشمي (رئيس أركان الجيش العراقي)
لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما في بدني شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة، وهأنذا أموت على فراشي كما يموت البعير!
فلا نامت أعين الجبناء) خالد بن الوليد)
والغريب في ذلك أن الفرق كانت تعيش مستقلاً بعضها عن بعض، وكانت تتقاتل بخلاف فرق القبائل الأخرى. ولعل الداعي إلى ذلك أنها كانت حسيمة لا يمكن لرئيس واحد السيطرة عليها، وأنها في بلاد جعلتها بمأمن من غزوات القبائل الأخرى فلم تر الفرق والبطون حاجة إلى الوحدة.
ويظهر أن مالك بن نويرة استطاع أن يستميل سجاحاً إلى جانبه لقرابته منه، وأراد أن يستغلها لمصلحته فيضرب بها الفرق المخالفة له ويرأس بني تميم بالقوة، أما هي فكانت تريد أن تستفيد منه للهجوم على المدينة. ومال وكيع بن مالك رئيس بني حنظلة إلى جانبه. وهكذا مالت شعب بني مالك إلى جانب سجاح.
وكانت الشحناء قبل ذلك شديدة بين رؤساء بني تميم كما نعلم. ولما ورد خبر وفاة الرسول عليهم أرسل بعضهم الصدقات إلى المدينة، وانتظر بعضهم ما يصنع البعض الآخر. ويروى أن قيس بن عاصم رئيس مقاعس والبطون قال (وا ويلنا من ابن العكللية - يريد به الزبرقان - والله لقد مزقني فما أدري ما أصنع، لئن أنا تابعت أبا بكر وأتيته بالصدقة لينحرنها في بني سعد فيسودني فيهم، ولئن نحرتها في بني سعد ليأتين بها أبا بكر فيسودني عنده) فعزم قيس على توزيع الصدقات على مقاعس والبطون ففعل، وعزم الزبرقان على الوفاء بإرسال الصدقات إلى المدينة. وكانت النتيجة أن نشب القتال بين عوف والأبناء من جهة والبطون من جهة أخرى، وبين الرباب من جهةً ومقاعس من جهة أخرى. وبين
خضم وحنظلة وبين بهدي ويربوع.
ولما وصلت سجاح إلى الحزن أرض بني يربوع واتفقت مع مالك بن نويرة والتحق بها وكيع بن مالك شرع مالك ينفذ خطته ليرأس بني تميم، فبدأ بقتال الرباب وعوف والأبناء، فلم يظفر بهم بل دارت الدائرة عليه وعلى سجاح، فوقع وكيع أسيراً بيد الرباب. وأرادت سجاح أن تجرب حظها مع بهدي وخضم من شعب بني عمر فكان نصيبها الخيبة أيضاً. فلما لم تظفر بطائل تركت مالكاً وانسحبت برجالها من بلاد بني تميم وسارت إلى اليمامة.
هذا هو الموقف حين كان خالد يجول ويصول في بلاد بني أسد ولم يكن يجهله، لذلك لم يكد ينتهي من أمر بني أسد حتى تراه قد انتهز الفرصة وأمر جيشه بالمسير إلى أرض بني تميم دون أن ينتظر أمراً من الخليفة، وهكذا نراه يستعمل إبداعه ويسير جيشه نحو البطاح برغم مخالفة الأنصار له مدعين أن عهد الخليفة إليهم أن يقيموا بعد فراعهم من بزاخة إلى أن يكتب إليهم. إلا إن خالداً تقدم نحو البطاح قائلاً لهم إنه هو الأمير وإليه تنتهي الأخبار وإن لم يأته أمر الخليفة، فانه لا يريد أن يضيع الفرصة ما دام

مالك بن نويرة بحياله. وشعب بني تميم نافرة منه. لذلك لم يتردد خالد في الذهاب إليه من دون الأنصار.

والواقع أن مالك بن نويرة بقى وحيداً بين بني تميم، لأن صفوان بن صفوان كان قد أرسل الصدقات إلى المدينة وكذلك الزبرقان، أما قيس بن عاصم فكان عليه، وكذلك وكيع بن مالك لما سمع بانتصارات خالد أرسل صدقات بني حنظلة إليه. فبقى مالك حائراً ماذا يعمل، وكان بالبطاح مع رجاله من بني يربوع، والبطاح أرض دون الحزن، وهي ذات مراتع خصبة وفيها مياه كثيرة، فالقصيبة والبريدة من مواقعها.

وندم الأنصار على تخلفهم لأنهم خشوا أن تصيب المسلمين مصيبة فيلاموا عليها، فأوفدوا رسولاً إلى خالد يطلبون منه الإقامة إلى أن يلحقوا به، فأقام خالد حتى لحقوا به فسار إلى البطاح. والروايات غير متفقة في أمر مالك بن نويرة. ومن الروايات ما تزعم أن مالكاً قاتل المسلمين برجاله من بني يربوع فقتل في القتال. ومنها ما يزعم أنه لما تأكد من الخيبة فرق رجاله وأمرهم بألا يقاتلوا المسلمين ورجع إلى منزله، ولما قدم خالد البطاح بث أربع سرايا إلى جهات مختلفة، فرجعت السرية التي كان يقودها أبو قتادة الأنصاري بمالك والبعض من رجاله.

ومن الروايات ما تزعم أن مالكاً حارب السرايا التي أوفدها خالد فقتل، ومنها ما تزعم أنه وقع أسيراً في القتال فأمر خالد بضرب رقبته مع الأسرى الآخرين، والبعض الآخر من الروايات تذكر أن خالداً أراد قتل الأسرى بما فيهم مالك، إلا أن أبا قتادة شهد أنهم أذنوا وقاموا وصلوا، فلما اختلفوا فيهم أمر خالد أن يحبسوا، وكانت الليلة شديدة البرد، فأمر خالد منادياً فنادى أن أدفئوا أسراكم، وكانت كلمة الدفء في لغة كنانة تعني القتل، فقتلهم الخفراء وقتل ضرار بن الأزور مالكاً.

وكان قتل مالك على هذه الصورة، وتزوج خالد بامرأته ليلى بعد قتله بمدة قصيرة. وهذا مما جعل عمر ينقم على خالد فطلب من أبي بكر أن يعاقبه على فعلته هذه، فاضطر الخليفة إلى استقدام خالد إلى المدينة وطلب الإيضاحات منه، فلما اقتنع أن خالداً لم يقصد قتل مالك أعاده إلى جيش المسلمين وكلفه بالمسير إلى اليمامة ليقاتل مسيلمة الكذاب.

الحركات في اليمامة

من الصعب التثبت من المدة التي قضاها خالد بن الوليد في البطاح حتى نعلم الوقت الذي تقدم بجيشه نحو اليمامة لمقاتلة بني حنيفة. فيكاد أكثر المؤرخين من العرب يتفق على أن القتال في اليمامة وقع في أوائل السنة الثانية عشرة الهجرية. أما أبو بشر الدولابي واليعقوبي فيزعمان أن القتال وقع في شهر ربيع الأول من السنة المذكورة.

فمبدأ السنة الثانية عشرة الهجرية يوافق شهر آذار (أبريل) سنة 633 ميلادية. والذي نعلمه إن خالداً توجهه من ذي القصة نحو بزاخة في منتصف شهر أيلوم (سبتمبر) أو شهر تشرين الأول (أكتوبر)

وقضى خالد في حركته نحو بزاخة أكثر من عشرين يوماً يترقب أخبار طيء. وبعد انتصاره على جيش طليحة بن خويلد مكث في بني أسد مدة غير قصيرة ليقبل إسلام المرتدين ويجمع منهم السلاح. أضف إلى ذلك قتاله في ظفر، وانتظاره مجيء رؤساء بني عامر.

ويدعي مؤرخون أن مالكاً بن نويرة قتل خطأ في ليلة شديدة البرودة. وعلى ما في كتاب الطبري رواية عن سيف ابن عمر أن الأسرى من بني يربوع حبسوا في ليلة باردة لا يقوم لها شيء. والليالي الشديدة البرد في البادية تقع في أشد شهري الشتاء برداً وهما كانون

الأول (ديسمبر) وكانون الثاني (يناير). إذن وقع القتل بين أواخر كانون الأول وأوائل كانون الثاني فتكون حادثة البعوضة وقعت بين شهري شوال وذي القعدة في السنة الحادية عشرة الهجرية.

يقيناً أن خالداً قضى مدة غير قصيرة في البطاح، وقضى وقتاً في ذهابه إلى المدينة ملبياً دعوة الخليفة. ولما عاد منها لم يحرك جيشه نحو اليمامة بمجرد وصوله إلى المعسكر، بل أنتظر مدة لورود النجدة التي أمد بها الخليفة جيش المسلمين. فيظهر من كل ذلك أن الحركة من البطاح نحو اليمامة وقعت في أوائل السنة الثانية عشرة

الهجرية - أي في ربيع سنة 633 ميلادية، في شهر آذار أو شهر نيسان (مايو).
ومن رواية رواها أبو هريرة نستدل على أن سلمة بنت عمير الحنفي كان يشجع بني حنيفة على المقاومة بعد معركة عقرباء فينادي قائلاً: (يا بني حنيفة قاتلوا عن أحسابكم ولا تصالحوا على شيء، فأن الحصن حصين وقد حضر الشتاء). ومعنى ذلك أن الحركات في اليمامة جرت في صيف الثالثة عشرة الهجرية - أي بدأت حوالي شهر مايو لسنة 633ميلادية.

منطقة الحركات

اليمامة مؤلفة من مقاطعتي العارض والخرج الحاليتين، ومقاطعة الخرج من أخصب مقاطعات نجد، فالماء مبذول فيها وهو على عمق بضعة مترات تحت الأرض. ولما كانت أرضاً منخفضة تنصرف إليها مياه الأمطار من الجبال والهضاب التي تحيط بها، ومدينة اليمامة - العاصمة القديمة - واقعة فيها.
ويدعي كثير من الجغرافيين بأن أرض اليمامة القديمة هي مقاطعة الخرج الحالية. وهذه المقاطعة واقعة في جنوب شرقي العارض، ويحدها من الشرق وادي حنيفة، وعلى أحدها شعبه اليمنى بنيت مدينة اليمامة. ولا تزال مقاطعة الخرج من أكثر المقاطعات النجدية نفوساً وفيها مراعي خصبة وبساتين نخل كثيرة،
ويحد المنطقة التي جرت فيها الحركات من الشرق هضبة العرمة، وهي الهضبة المرتفعة المشرفة على الدهناء، ومن الغرب الأنفدة الموازية لسلسلة طويق، ومن الشمال مقاطعة القصين. والمنطقة جبلية تعد من أوعر مناطق نجد من حيث الوديان والمضايق والروابى
والآكام.
وتمدد جبال طويق في وسط المنطقة من الشمال إلى الجنوب وهي حجرية كلسية جرداء متموجة، تتألف من سلسلتين متوازيتين، وسفوحها الغربية منحدرة، أما سفوحها الشرقية فقليلة الانحدار. ويبلغ ارتفاعها زهاء ستمائة قدم على الهضبة الغربية. وتمتد الجبال من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، وتنكسر في الوسط وتغير اتجاهها إلى الجنوب فالجنوب الغربي فتنتهي إلى وادي الدواسر. وفي المحل الذي تنكسر فيه تجري الوديان من الشرق إلى الغرب وتصب في وادي حنيفة. وهذه الوديان ضيقة وعرة في محل الانكسار حيث ترتفع سفوحها الشمالية والجنوبية بانحدار شديد.
وتنصرف مياه الأمطار التي تهطل على الجبال إلى الشرق والغرب في الوديان والشعب؛ فمنها ما يصب في وادي حنيفة، ومنها ما يكون وادي الخفس وشعيب العتشى حيث تنصرف مياهها إلى الدهناء. ومنها ما يصب في مقاطعة الوشم ويسقي منخفضاتها ويكون واحتها الخصبة. والشعيب الذي يكون وادي الخفس ينبع من جنوب ثادق ويجري نحو الجنوب إلى الحريملة ومنها يتوجه شرقاً. وهذا الشعيب ووادي حنيفة يقسمان الجبال إلى سلسلتين: الغربية منهما مرتفعة ووعرة وهي طويق، أما الشرقية فمنخفضة ولطيفة الانحدار وهي روابي العارض في الشمال وجبل صلبوخ في الوسط والجبيل في الجنوب. وأما وادي حنيفة (وهو أعظم وادي في هذه المنطقة) فقد سميت القبائل الساكنة على جانبيه باسمه. وصدره في الأرض الفاصلة بين العارض من جهة، والمحمل السدير من جهة أخرى ويبدأ الوادي في ثنية اليمامة في شرقي خشم الحيسية، ويتكون من عدة شعب تجري من الشمال إلى الجنوب ومن الجنوب إلى الشمال. فيستمد الوادي ماءه منها فيجري من الغرب إلى الشرق. وفي جوار عقرباء، حيث نشبت المعركة الفاصلة بين جيش خالد وبين جيش مسيلمة، يغير الوادي اتجاهه فيجري من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي في وادٍ يضيق في بعض المحلات ويعرض في البعض الأخر، وهو شديد الوعورة في الشمال وسهل المجرى في الجنوب. وعلى حافتي الوادي شيدت القرى والمدائن، حيث استقيت المياه المنصرفة إليه، وزرعت البساتين حولها. والوادي في هذا القسم يتغذى بعدة شعاب ينصب أكثرها فيه من السفوح الغربية.
وفي محل انكسار سلسلة طويق تصب فيه عدة وديان بحيث إنها تغير اتجاهه في جوار السليمية واليمامة فيتوجه نحو الشرق فالجنوب الشرقي إلى أن ينتهي في رمال الربع الخالي.
وكان من وصايا أبي بكر إلى خالد بن الوليد أن يأخذ الحيطة عند الهجوم على أهل

اليمامة. وكان الخليفة محقاً في هذه الوصية، لأن أهل اليمامة سكان القرى المبنية في الوديان الضيقة، وعلى سفوح الجبال الوعرة، بنو دورهم بالحجارة، وسوروا قراهم بالجدران وأنشأوا الحدائق بالقرب من قراهم، وزرعوا فيها النخيل والأشجار وأحاطوها بالحجارة ليمنعوا المارة من دخولها أو ليعتصموا بها عند الحاجة.

فأهل اليمامة إذن لا يشبهون أهل البادية في القتال، فهم معتصمون في جبالهم المنيعة، ومعتزون بقراهم المتينة، وحدائقهم المستحكمة ولا تزال آثار هذه القرى ظاهرة في تلك الأنحاء. وهذه القرى كثيرة ومنتشرة على طوار وادي حنيفة، وفي مقاطعة الخرج، وفي الوديان والمنخفضات والواحات.

يتبع

طه الهاشمي

في الأدب الدرامي

الرواية المسرحية - 14

في التاريخ والفن

بقلم أحمد حسن الزيات

تحليل موجز لرواية هرناني

هرناني

درامة شعرية في خمسة فصول نظمها هوجو سنة 1830 ومثلت أول مرة في (الكوميدي فرنسيز) يوم 25 فبراير سنة 1830 فكان تمثيلها معركة شعواء بين الاتباعيين والابتداعيين تبودلت فيها اللعنات واللكمات بين الفريقين. وكان أنصار المذهب الجديد قد وزعوا قبل يوم التمثيل (تذاكر) مجانية على طلاب المدارس وتلاميذ المصانع، فملأوا مشهد المسرح قبل بدء التمثيل بثماني ساعات. ثم أبتدأ التمثيل على المسرح، والعراك الصاخب في المشهد حتى أستدل الستار الأخير على فوز الابتداعيين وفشل الاتباعيين.

أهم أشخاص هذه الرواية: هرناني، وهو نبيل إسباني أتخذ اللصوصية وقطع الطريق وسيلة لأخذ ثأر أبيه المشنوق في جريمة سياسية؛ ودون كرلوس ملك إسبانيا، وهو الذي قتل أبا هرناني؛ ودون روي جوميز دوق سلفا؛ ودونا سول بنت أخيه التي يريد أن يتزوج منها. وقد وقعت حوادثها في سرقوسة، ثم في قصر سلفا ثم في أكس لاشابل، ثم في سراقوسة ثانية.

ففي الفصل الأول:

يعيش هرناني في الجبال مع ذؤبان الأنس، يقطع الطريق ويغير على البلاد؛ وهو يحب (دونا سول) وتحبه، ويغالبه على هذا الحب (دون كرلوس) ملك إسبانيا والشيخ روى جوميز عم الفتاة، ويقع هرناني في خطر داهم فينجو منه بفضل الملك.

وفي الفصل الثاني:

يقابل هرناني الملك في بيت دونا سول، وقد أقبل في حرسه يخطفها، فيملك حياته وموته.

ولكنه يبقى عليه ويخرج، فيجد البيت محصوراً بالجند الملكي فينجو بنفسه بعد لأي.

وفي الفصل الثالث:

يحكم الملك بالقتل على هناني ويجعل لمن يأتي برأسه جعالة مالية، فتذعن دونا سول لأحكام القدر وتستسلم لإرادة عمها فترضها أن تتزوج منه. وفي الساعة التي يتأهبون فيها للذهاب إلى الهيكل لعقد الزواج يدخل هرناني القصر في زي حاج يطلب الحماية والجوار من ربه. فإذا ما رأى حبيبته في زينة العروس يظن إنها نكثت عهده، ونسيت وعده، فتهون عليه الحياة ويعلن عن نفسه طالباً القبض عليه. ولكن واجب الضيافة لصاحب القصر يقوم دون ذلك. وليس جوميز ممن ينقض الذمام ويخيس بالذمة. على أنه يفجأ الحبيبين وهما يتساقيان الهوى ويتصارحان بالحب، فسيقتله الغضب وترعده الغيرة، ويدخل الحاجب عليه في تلك الحال ويعلن إليه قدوم الملك، فقد جاءه يطلب منه تسليم المجرم المحكوم عليه إذ علم إنه لائذ بقصره. فتتنازع الدوق عوامل الشرف والغضب والانتقام، وتتراءى له صور آبائه المعلقة على حوائط القصر تتحرك أمام عينيه تذكرة له وتبصرة، فيغلب الشرف ويخبئ هرناني في مخبأ سري أمين. ويدخل الملك فيعاتب الدوق على أن يجير عليه، ويطلب منه المجرم. فيجيبه جوميز

في إباء وشمم أنه يؤثر الموت على أن يسلم جاره. فيغتصب الملك دونا سول ويخرج انتقاماً من عمها وثأراً لنفسه. ويخلو الدوق بهرناني فيرد إليه حياته وحريته بشرط أن يساعده على غسل هذه الإهانة عنه بدم الملك، فيجيبه هرناني إلى ذلك ويضع حياته في يده ضماناً بوعده، فيقسم أن يقتل نفسه متى نفخ الدوق في هذا البوق الذي يعطيه إياه.

وفي الفصل الرابع:

يسافر الملك في أثناء ذلك إلى أكس لاشابل يروض لنفسه الأمور ويهيئ الأسباب لفوزه في الترشيح لإمبراطورية ألمانيا، ويأتمر الدوق وهرناني بالملك، ويتوافى المؤتمرون في حندس الليل إلى إبقاء الكاتدرائية على مقربة من ضريح شارلمان. ويقف دون كرلوس على سر المؤامرة فيجيء إلى مكانها يريد أن يفجأ المجرمون وهم جلوس على الجريمة ويظل مختبئاً ينظر وتهب عليه في تلك الساعة نفحة من قبر شارلمان وهو الذي يريد أن يخلفه على مجده وسلطانه، فتوحي إليه بتلك النجوى المشهورة التي تبلغ ستين ومائة بيت من عيون الشعر وغرره، ويدخل الملك ضريح العاهل فيتسنى له أن يسمع ما يقرره المؤتمرون فيعرف أن هرناني قد أنتخب بالقرعة ليقتله. ويدوي في تلك اللحظة صوت المدفع فجأةً فيعلن انتخاب دون كرلوس عاهلاً لألمانيا، فيخرج حين إذن من مكمنه ويدهم المتآمرين فيملأ قلوبهم رعباً ودهشة، ويريدون الفرار فيجدون المكان محصوراً بالجند، ويتقدم هرناني فيكشف للملك عن نفسه ويذكره بجنايته على أبيه. ويكون لهرناني ودونا سول والملك موقفاً رائع تتجلى فيه عواطف الحب والتضحية والشهامة، وينتهي بأن يعفو الملك عن جميع المتآمرين ويتخلى عن دونا سول لهرناني فيستعبد قلبه بهذه الأريحية. ويصبح اللص الشريف صادق الولاء مخلص القلب لشرلكان وهو الاسم الجديد للعاهل الجديد.

وفي الفصل الخامس:

لم تحل هذه النهاية في صدر الدوق جوميز. فلا هو رحض أهانته ولا هو نال حبيبته، فيأبى عليه طبعه أن يسعد غيره بشقوته، فيدع الزواج يتم والعرس يقام والعاشقين ينعمان معاً بنعمة الحب ولذة القرب، ولكنهما يسمعان نفخة بوق على بعد! ثم يدنو الصوت فإذا هو الشيخ جوميز يستنجز هرناني وعده بأن يقتل نفسه عند نفخة البوق، فيتوسل العروسان إليه بالرجاء والدعاء والدموع فلا يزداد إلا إصراراً وعناداً. ويظلم اليأس في عيني الزوجين البائسين فيخرج هرناني من منطقته قارورة من السم، فتأخذها منه دونا سول وتجرع نصفها وتقدم إلى زوجها الباقي فيشربه، فيخر الحبيبان صريعين تحت قدمي الدوق، ويهجم عليه هو أيضاً الندم ووخز الضمير فينتحر على جثتيهما الهامدتين.

ويؤخذ على هذه الدرامة أن العمل الروائي فيها خيالي محض، ينقصه الصدق والطبيعة، وأن تحليل أخلاقها سطحي غير عميق، وأن كثيراً من مواقفها غريب غير ممكن. وتجد هذا العيب أوضح ما يكون في الحل، فإن الدوق جوميز الذي ظل طوال الرواية شهماً كريماً لا يسوغ في العقل أن يكون في أخرها جامد الشعور زمن المروءة كما ظهر.

تتمة

في الملهاة العامية

الملهاة العامية وهي ملهاة عرضها الإضحاك والإلهاء بتصوير العيوب المضحكة تصويراً يتعدى حدود الأدب والحشمة والذوق والإمكانية. فهي تقوم على الإحالة والبذاءة، كما تقوم الملهاة على السخر والأضاحيك.

والرأي بين الناس مختلف في بقاء هذا النوع في أمة راقية وحكومة منظمة ومسرح مهذب. فالذين يدافعون عن الملهاة العامية يقولون أن الناس يرفهون في صدورهم بشهودها، وأن الأذواق ليست واحدة في تقدير اللهو الرفيع، وأن العكوف على الجد الخالص واللهو الجدي يتعب الذهن ويكد القريحة، وأن الجمهور يجب أن تطلق له الحرية في اختيار ما يلهيه ويسليه.

ونحن لا نكر مطلقاً على الملهاة العامية أنها تلهي الجمهور وتسر الناس، بل نعترف بأن الرومان كانوا يهجرون مسرح (تيرانس) ويحتشدون عن المصارعين والمهرجين،

ولا ننكر كذلك أن القليل من الناس هم الذين يدركون معنى الحق والجمال والخير، فيلذهم إدراكهم ويمتعهم فهمه، وأن دهاء الشعب وسواده لا يلهيهم إلا المحال الفاحش والبذيء المقذع، وأن من الأذهان ما يعتريه الكلال من الجد فلا يشحذ إلا بالمزاح الخالي من الذوق والفكر، ولكنك سلطان هذا النوع على الشعب هو مصدر الخطر فيه ومنشأ الضرر منه. فإن من يحبه ويميل إليه يكره غيره ويصد عنه. وانصراف الشعب عما يغذي عقله بالحكمة وذوقه بالجمال ووجدانه بالفضيلة، إلى ما يملأ عينه بالفحش وقلبه بالرجس ولسانه بالبذاء، مؤد إلى الوهن والانحلال والعدم. ذلك إلى أن اللهو الفارغ تستسهله النفس وتفضله. وإذا أسترسل المرء فيه خمدت نفسه بترك الفكر، كما يخمد جسمه بترك العمل. أما قولهم أن الملهاة العامية لا تضر ما دامت تسر، فذلك مثل قولهم: أن نوع الغذاء لا يهمك ما دام يلذك.

أن هذه الملهاة خلقت لرعاع الشعب وغوغائه فلتبق لهم والتحى بينهم، بشرط أن تظل على شكلها العامي الخشن في أدب وحشمة، فتقوم في الأسواق والأعياد والموالد تحت الخيام والمضارب، حتى لا تجذب إليها إلا خشاش الناس ممن تعود أنفه النتن فلا يشمه، ومرن لسانه على الهجر فلا يهمه. أما رفعها يفحشها ورجسها إلى المسارح الراقية وتمويهها

بالرقص والموسيقى، وتزيينها بالزخرف المناظر والأزياء، فذلك تذهيب لحافة الكأس المسمومة يشربها الشعب فتقتل فيه عناصر الخير وعواطف الفضيلة!

المأساة العامية

المأساة العامية درامة تتألف من الحوادث الفاجعة، والمواقف المروعة، والهزل الجريء، وتستعين بالرقص والموسيقى. وقد علق بها اسم (الميلودرام) في منصف القرن الثامن عشر، وأشتهر بتأليفها من الكتاب الفرنسيين (جيلبير دبكسير يكور) و (دوكانج) و (دينيري). ولكن ما كتبوه عافه النقد لتبذله وتسفله. يمتاز هذا النوع بأثره القوي وعمله العنيف. فموضوعه إما أن يكون طاغية غشوماً يرتطم في مراغة العيب والفحش، أو رئيس طغمة من قطاع الطرق يطارد فتاة طاهرة عفيفة فاضلة، أو خائناً يخب في ظلال ويوضع في الغي، أو حبيباً باسلاً يقع حبيبه في قفص الأشرار فيغالب الأخطار ويصارع الفجار حتى يرد مكرهم ويدفع شرهم، أو غبياً يعقد العمل بغباوته ويحرج الموقف بساخفته. ثم تتدخل العناية الإلهية بعد هذه التقلبات الشديدة، والمشاكل العديدة، فتأخذ للبريء من المجرم وتقتص للفضيلة من الرذيلة. وعملها شديد العنف قوي الأثر، يضحي بالإمكانية في سبيل الضربات المسرحية والمفاجآت القوية، وتعتمد على الخناجر والسموم والحرائق في الأخذ بكظم النفوس وإثارة الرعب في القلوب. أما موسيقاها فتعبير عن المواقف والعواطف، وتتقدم دخول الأشخاص، ورقصها قد يكون تعبيراً عن معنى وتمثيلاً لفكرة وقد يكون إمتاعاً وتسلية يتخلل حوادث الرواية. وأما أسلوبها فمزيج من البهرج الخالد والعامية المبتذلة، مما يلائم هذه الأفكار التي تشرحها، والعواطف التي تصفها. وماذا تجدي الأساليب الفخمة، والتراكيب المونقة، في جمهور لا يريد أن يتأثر إلا بالزياط والعياط، ولا يتسلى إلا بالصراع والقراع، ولا يعرف إلا أن يقول في نهاية الفصل الخامس وهو مجذوب بالحادث مكروب للبطل: آه! رباه لقد نجا!! على أن مال هذا النوع إلى الفناء، فأن الشعب كلما رقت عواطفه وتهذب حسه، ودق شعوره، آثر الصدق والإمكان، وقدر الفن والبيان، وعاف الصخب والهذر والعنف، ولذلك تجد الدرامة تحتل في كل مكان محل الميلودرام.

(يتبع)

الزيات

الممهدون للاكتشاف والاختراع

بقلم الأستاذ قدوري حافظ طوقان

نشوء العلم وارتقاؤه

يأخذ الإنسان ما عمله غيره وسلفه ويزيد عليه، يبدأ من حيث انتهى سلفه ويدخل تحسيناً عليه، ثم يسعى للزيادة على ذلك. بينما يأخذ الحيوان ما عمله سلفه ويبدأ حيث أبتدأ (سلفه) وينتهي به دون زيادة. هذا فرق مهم بين الإنسان والحيوان، وهذه ميزة اختصه الله بها، ولولاها لما كان هناك تقدم أو حضارة. وعلى هذا ليست المدنية وما

نراه من مظاهر العمران إلا مجموع مجهودات قام بها الأفراد في سبيل ترقية المجتمع من نواحيه المتعددة. وإذا قيل أن جاوس، وفير، اخترعا التليفون، فليس معنى ذلك أن لهما كل الفضل في إيجاده، وأنهما توصلا إليه بدون الاستعانة بما عمله غيرهما، بل إن لبحوث الذين سبقوهما فضلاً كبيراً عليهما، فلولا ليساج العالم السويسري الذي ظهر في القرن الثامن عشر للميلاد، ولولا سومرنج الألماني الذي قام بعمل التلغراف بواسطة التيارات الكهربائية من بطارية وبواسطة الماء لإعطاء الإشرات، ولولا أمبير الذي نقل في سنة 1820 الأشرات بواسطة التيارات الكهربائية في عدة إبر مغناطيسية، أقول لولا كل هؤلاء وغيرهم لما استطاع جاوس وفير أن يفكرا في التلفون وأن يتوصلا إلى استعمال المغناطيس الكهربائي، حتى أصبح للتلغراف قيمة عملية يمكن الاستفادة منها.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل أن للتحسينات الجمة التي أدخلها العلماء ستهيل وكوك ومورس وستون، الفضل الأكبر في تعميم استعماله وجعله سهل التناول، وها نحن أولاً نرى العلماء يدخلون عليه تحسينات أخرى ويتفننون في صنعه.

وليست نظرية النسبية بأكملها من نتاج طريحة العالم الشهير البرت انشتين، وقليلون جداً الذين يعرفون أن لمجهودات وبحوث لورانتز العالم الهولاندي وغيره من علماء الرياضة والطبيعة فضلاً عليها، فلولاهم ولولا كتاباتهم وبحوثهم وتمهيداتهم لما استطاع انشتين أن يخرج النسبية بشكلها الذي نعرفه الآن.

فليست الاختراعات والاكتشافات إذن إلا نتيجة مجهودات جبارة قام بها أفراد مختلفون اشتغلوا في ميادين العلوم والفنون، وهي لم تظهر بشكلها العملي المفيد إلا بعد تمهيدات

عديدة وإدخال تحسينات جمة قام بها العلماء في عصور مختلفة، ولا يزال القراء يذكرون المقال الشيق الذي نشر في العدد 62 من مجلة الرسالة بقلم الأستاذ محمود مختار في موضوع (التلفزة في عهدها الأول) وقد جاء فيه أن العالم الإنكليزي (جون بيرد) طلع في سنة 1926 بجهازه الأول في عالم التلفزة وقد عرضه على المجمع الملكي في لندن ونقل صوراً بأجسام بسيطة موضوعة في غرفة مجاورة، وكانت الصور كثيرة الاهتزاز عديمة الوضوح. وقد شغل هذا الجهاز الأدمغة الكبيرة، فقام غير واحد وأخذ فكرة العالم المذكور وعمل على تحسينها وإنماءها حتى وصل الاختراع إلى ما وصل إليه من الإتقان. ولا يزال العلماء يدخلون عليه في كل يوم تحسيناً، ولا يزالون يفكرون في الوسائل التي تجعله سهل التناول في استطاعة الكثيرين اقتناءه والاستفادة منه.

قد يظن القارئ أن ميزة الأخذ عن الغير والزيادة عليه تتجلى في الفرد دون الأمم. هذا الظن في غير محله، إذ ظهر وثبت أن الحضارات المختلفة تجري أيضاً على هذه النظرية: نظرية الأخذ عن السلف والغير والزيادة على ذلك. فالحضارة الرومانية استعانت بحضارات الأمم التي سبقتها واستفادت منها فوائد عديدة عادت على الرومان بالتقدم، كذلك استعان العرب والمسلمون بغيرهم من الأمم فأخذوا عن اليونان والرومان والهنود والفرس، وبعد أن ادخلوا على ما أخذوه الإصلاح والتغير، زادوا عليه زيادات جعلت الكثيرين من منصفي الغرب يعترفون بعبقرية العقل العربي وبقوته على الإنتاج، وبخدماته الجليّفي رفع مستوى المدنية والإنسانية. وحينما انتبهت أوربا من غفلتها وبدأ فيها عصر النهضة العلمية استعانت بنتاج العقل العربي وإسلامي في ميادين العلوم المختلفة والفنون المتنوعة. فالحضارة الأوربية في صميمها ترتكز على الحضارة العربية والإسلامية وهي لم تستطع أن تتقدم تقدمها العجيب إلا بفضل العرب. قال سارطون أن العرب كانوا أعظم معلمين في العالم في القرون الوسطى. واعترف غير واحد بأن العرب قدموا خدمات جليلة في كثير من فروع المعرفة. وقال ويدمان: إن علماء العرب أخذوا بعض النظريات عن اليونان وطبقوها، وقد بذلوا الجهد في تحسينها وإنمائها حتى سلموها للعصور الحديثة واعترف سيديو بأن العرب أساتذة أوربا في جميع الأشياء. . .

ولنرجع الآن إلى مقالنا فنقول: لقد ظهر في العرب علماء عديدون ابتكروا واكتشفوا واخترعوا في ميادين العلوم والفنون. وقد وجد فيهم من استطاع أن يمهد ببحوثه وتجاربه لبعض اكتشافات واختراعات هي من خطورة الشأن على جانب عظيم،

ولولاها لم استطاع علماء الفرنجة أن يقطعوا شوطاً بعيداً في التقدم والرقي.

التكامل والتفاضل:

علم التكامل والتفاضل من العلوم الرياضية العالية التي لها اتصال وثيق في الاختراع والاكتشاف، والتي سهلت كثيراً من المسائل العويصة. هذا الفرع من الرياضيات حديث الوجود فقد اكتشفه واكتشف قوانينه الأولية نيوتن وليبنتز في أواخر القرن السابع عشر للميلاد، وهو لم يزدهر ازدهاره الحالي إلا بعد زيادات هامة قام بها العلماء فيما بعد. ويظن كثيرون، بل يعتقد بعض الرياضيين، أن العلماء الذين سبقوا نيوتن لم يمهدوا له ولم يضعوا فيه شيئاً جديراً بالاعتبار هذا خطأ إذ ثبت لدى البحث والتنقيب أن ثابت بن قرة من الذين مهدوا لهذا العلم، ومن الذين حلوا مسائل في إيجاد المساحات والحجوم بطرق تنم نوعاً ما على طريقة التكامل المتبعة الآن. ويعترف سمث بذلك وبأن ثابت بن قرة هو الذي أوجد حجم الجسم المتولد من دوران القطع المكافئ حول محوره، وأن العلماء الذين أتوا بعده اهتدوا بنور طرقه في إيجاد المساحات والحجوم.

دوران الأرض:

مما لا ريب فيه أن كوبرنيكس وغاليلو بلغا شأواً بعيداً في العلم وفتحا فيه أبواباً كانت مغلقة، وأماطا اللثام عن حقائق كانت غامضة، ودقائق كانت غير معروفة، ولهما الفضل الأكبر في تثبيت فكرة دوران الأرض، ولكن كل هذا لا يمنعنا من القول بأنهما سبقا إلى فكرة دوران الأرض، وأن السافلين لذلك بعض من علماء اليونان والعرب؛ فقد كان فيثاغورس يعلم تلاميذه على طريقة حركة الأرض، وكان هذا قبل المسيح بخمسمائة سنة، ثم أتى بعده بطليموس ورمى بهذه الفكرة عرض الحائط وقال بسكون الأرض ودوران الشمس حولها؛ واشتهرت هذه النظرية كثيراً وأخذها الكثيرون من علماء اليونان والعرب، وعجب بعض العلماء الفرنجة من قبول البيروني لهذه النظرية ومن أخذ الفارابي وابن سينا بها. ولقد وجد في العرب من لم يأخذ برأي بطليموس ومن قال بدوران الأرض حول الشمس. جاء في (المواقف) للعلامة عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الذي ظهر في القرن الثامن للهجرة ما يلي (. . . الحركة اليومية (ويعني حركة الشمس) لا توجد، إنما تتخيل بسبب حركة الأرض، إذ يتبدل الوضع من الفلك دون أجزاء الأرض، فيظن أن الأرض ساكنة والمتحرك هو الفلك، بل ليس ثمة فلك أطلس، وذلك كراكب السفينة فانه يرى السفينة ساكنة مع حركتها حيث لا يتبدل وضع أجزائها منه، وكذلك يرى القمر سائراً إلى الغيم حيث يسير الغيم إليه. وهذا كله من غلط الحس. .)

من هنا يتبين أن عضد الدين سبق كوبرنيكس في القول بفكرة دوران الأرض ومهد السبل لكوبرنيكس وغاليلو للتوسع في هذه الفكرة ولاستعمال المعادلات والأرقام في ذلك.

الرقاص:

لقد ثبت لدى بعض علماء الفرنجة أن العرب سبقوا غاليلو في اختراع الرقاص وفي استعماله في الساعات الدقاقة. جاء في تاريخ العرب لسيديو ما يلي (وكذا ابن يونس المقتفي في سيره أبا الوفاء البوزجاني ألف في رصد خانته بجبل المقطم الزيج الحاكمي واختراع الربع ذا الثقب وبندول الساعة الدقاقة. . .)

واعترف سارطون وسدويك بأن العرب استعملوا الرقاص لقياس الزمن، وفوق ذلك عرف العرب شيئاً عن القوانين التي تسيطر عليه. قال سمث العالم الأمريكي الشهير (ومع أن قانون الرقاص هو من وضع غاليلو إلا أن كمال الدين بن يونس لاحظه وسبقه في معرفة شيء عنه. وكان الفلكيون يستعملون البندول لحساب الفترات الزمنية أثناء الرصد. .) فهم بذلك مهدوا السبيل لغاليلو لاستنباط كل القوانين التي تسود الرقاص، إذ استطاع أن يجد أن مدة الذبذبة تتوقف على طول البندول وقيمة عجلة التثاقل وأن يضع في ذلك في قالب رياضي بديع، ومن هذا الوضع توسعت دائرة استعماله وجنى الفوائد الجليلة منه.

اللوغارتمات:

ثابت لدينا أن نابيير هو الذي أخترع أساس اللوغارتمات وأنه أول من عمل الجداول لذلك، ولا يمكن أن تجد اثنين يختلفان فيه. وقد كنت اعتقد أن هذا البحث من

الرياضيات لم يمهد له أحد، وأن الرياضيين الذين سبقوا نابيير لم يصلوا في بحوثهم إلى معرفة شيء عنه،
وأن هذا الفرع بقى مجهولاً إلى أن جاء نابيير وفكر في إيجاد طرق لتسهيل أعمال الضرب والقسمة فوفق إلى اختراع اللوغارتمات. هذا ما كنت أعتقده، وهذا ما لا يزال يعتقده الكثير من علماء الرياضة والتاريخ؛ ولكن لدى قراءتي لبعض الكتب القديمة التي تتعلق بالرياضيات، ولدى تصفحي لكتاب يبحث في تراجم بعض علماء الفلك والرياضيات وجدت أن ابن حمزة المغربي الذي ظهر في القرن الحادي عشر للميلاد استعمل في بعض بحوثه عن المتواليات الهندسية طرقاً تقرب من اللوغارتمات، إذ لو استعمل مع المتوالية الهندسية سلسلة عديدة تبدأ بالصفر واتخذ الحدود في هذه أساساً لنظائرها في جدول المتواليات الهندسية لكان اكتشف اللوغارتمات التي أوجدها نابيير بعده بأربع وعشرين سنة.
والحقيقة التي أود الإدلاء بها أنه ما دار بخلدي أني سأقرأ بحوثاً كهذه لعالم عربي كابن حمزة تمهد السبل لاختراع اللوغارتمات وتكون الخطوة الأولى في وضع أساسه.
الجاذبية:
تقرن كلمة الجاذبية باسم اسحق نيوتن العالم الإنكليزي الشهير، فهو الذي وضع قوانين الحركة والجاذبية في قالب لم يسبق إليه، إذ استعمل فيها الأرقام والمعادلات.
ولكن هذا لا يعني أن نيوتن لم يسبق إلى فكرة الجذب والجاذبية فقد قال في ذلك بعض علماء اليونان والعرب، فاعترف سارطون بأن للعرب بحوثاً في الجاذبية وأن الخازن وثابت بن قرة وموسى بن شاكر وغيرهم قالوا بالجاذبية ووضعوا بعض قوانينها.
قال ثابت بن قرة (إن المدرة تعود إلى السفل لأن بينها وبين كلية الأرض مشابهة في كل الأعراض، أعني البرودة والكثافة، والشيء ينجذب إلى أعظم منه) وقد شرح محمد بن عمر الرازي هذه العبارة في أواخر القرن السادس للهجرة، فقال (إنا إذا رمينا المدرة إلى فوق فإنها ترجع إلى أسفل، فعلمنا أن فيها قوة تقتضي الحصول في السفل، حتى إنا لما رميناها إلى فوق أعادتها تلك القوة إلى أسفل. .)
أليس في هذا تمهيد لفكرة الجاذبية؟ أليست مباحث محمد بن موسى في حركة الأجرام السماوية وخواص الجذب سابقة لبحوث نيوتن، وهي الخطى الممهدة للتوسع في قانون الجاذبية؟ ألا ترى معي أن اكتشاف أبي الوفاء البوزجاني، الذي ظهر في القرن العاشر
للميلاد، في بعض أنواع الخلل في حركة القمر دليل على أنه كان يعرف شيئاً عن الجاذبية وخواص الجذب؟ من هنا يظهر أن علماء العرب (وقد يكون من قبلهم اليونان) سبقوا نيوتن في البحث عن الجاذبية. قد يعترض على هذا القول كثير ولكن لدى إنعام النظر يتبين أن الاعتراض في غير محله فنحن لا ندعي بأن العرب أو (غيرهم) وضعوا الجاذبية وقوانينها وما إليها في الشكل الرياضي الطبيعي الذي أتى به نيوتن، إنما جل ما في الأمر أن العرب أخذوا فكرة الجذب عن اليونان وزادوا عليها ووضعوا بعض القوانين لسقوط الأجسام. ثم أتى بعد ذلك نيوتن وأخذ ما عمله غيره في هذا المضمار وزاد عليه، وبفضل ما وهبه الله من العبقرية وما اتصف به من المثابرة والثبات واستطاع أن يضع الجاذبية بالشكل الذي نعرفه مما لم يسبق إليه، ولا شك أن له في ذلك فضلاً كبيراً جداً، ولكن هذا لا يعني تجريد العرب ومن قبلهم اليونان من الفضل، فلواضع الأساس في علم من الفضل ما للمكتشف أو للمخترع فيه.
مرض الانكلستوما:
إذا قلنا الدكتور محمد خليل عبد الخالق ومعنى ذلك أنه من الأطباء النادرين الذين يعنون بما جاء في الكتب الطبية القديمة ومن القليلين الذين يهمهم تطور الاكتشاف في الأمراض والعوارض التي تصيب الإنسان. وزيادة على ذلك فهو من المجددين في علم الطب، ومن الذين يعرفون كيف يقومون بواجبهم الإنساني على وجه كامل، ولسنا فيما نقوله مبالغين، بل قائلين الحقيقة ومقررين الواقع. لقد علق الدكتور حرسه الله على مقال لي نشرته في مجلة الرسالة عنابن سينا بما يلي: (. . . وأود أن ألفت النظر إلى أنابن سينا أول من اكتشف الطفيلية الموجودة في الإنسان المسماة الآن بالرهقان أو مرض الانكلستوما. وقد كان هذا الاكتشاف (القانون في الطب) في الفصل الخاص بالديدان المعوية، وهذه العدوى تصيب الآن نصف سكان العالم تقريباً.

وقد بلغ ما كتب عن هذا المرض من المقالات والكتب إلى سنة 1922، (50000) مرجع عنيت بجمعها مؤسسة ركفلر بأمريكا. وقد سمابن سينا هذه الطفيلية باسم (الدودة المستديرة) وقد كان لي الشرف في سنة 1922 أن قمت بفحص ما جاء في كتاب القانون في الطب عن الديدان المعوية، وأمكنني أن أقوم بتشخيصها بدقة، وتبين من هذا أن الدودة
المستديرة التي ذكرهاابن سينا هي ما نسميه الآن بالانكلستوما، وقد أعاد اكتشافها ذوبيني في إيطاليا سنة 1838 أي بعد اكتشاف ابن يسنا عنها بتسع مائة سنة تقريباً. وقد أخذ جميع المؤلفين في علم الطفيليات بهذا الرأي في المؤلفات الحديثة، وكذلك مؤسسة ركفلر كما يرى من المراجع المذكورة بعد. وكذلك كتبت هذا ليطلع عليه الأدباء ويضيفون إلى اكتشافاتابن سينا العديدة هذا الاكتشاف العظيم لمرض هو من الأمراض الكثيرة الانتشار في العالم الآن).
فإذا كان الدكتور محمد خليل بك كتب هذه القطعة ليطلع عليها الأدباء فقط فأنا أعيد كتابة ما كتبه ليطلع عليه العلماء والأدباء والباحثون وتلاميذ المدارس العليا وغيرهم. ومن مقال الدكتور يتبين أن العرب لم يمهدوا فقط لمرض منتشر، بل قد سبقوا غيرهم في اكتشافه وفي معرفة الشيء الكثير عنه.
ولا يسعني قبل الختام إلا أن أشكر الدكتور على اهتمامه بالتراث العربي والإسلامي في كشفه ناحية كانت غامضة ومحاطة بسحب من الإبهام، وفي فتحه باباً ظل مغلقاً قروناً عديدة، جزاه الله خيراً وأبقاه ذخراً.
نابلس
قدوري حافظ طوقان
من ذكريات الصبى
أول حب
للأديب حسين شوقي
كان أول حب سنة 1918 أثناء المنفى في إسبانيا. . كنا نقضي صيف ذلك العام بغرناطة في الغابة الجميلة التي تحيط بقصر الحمراء الشاهق، حيث كانت ثريا حظية الملك أبن الأحمر المنعمة المد لله تمرح بين النرجس والياسنت. وكنا نقيم في فندق شيد في الغابة نفسها حيث يستطيع الزائر أن ينعم بالراحة والسكونمع بقاءه بالقرب من ذلك القصر العربي المجيد، وكانت هذه الغابة التي غرست فوق رابية، تطل على مدينة غرناطة بمنظرها الرائع وضواحيها الفاتنة. . وكنا في أوائل فصل الصيف، فلم يحضر إلا قليل من السياح، فلم يكن بالفندق غير أسرة أحد كبار الضباط الأسبان وأسرتنا؛ فما لبثت الأسرتان أن تعارفتا بعد زمن قليل. . كان أهلي يقضون أوقات طويلة مع الضابط وزوجته يتحدثون عن جمال الطبيعة في هذا المكان: سكون الغابة، صفاء المياه التي تترقرق في الجداول الآتية من جبل (الشيرا) الذي يشرف كذلك على الحمراء وقد جلل الثلج رأسه صيف شتاء. .
أما أبي فقد وجد في الضابط سميراً أنيساً، لأن الرجل كان برغم تربينه الحربية واسع الاطلاع على الأدب والتاريخ. . كما كان يشارك والدي في توجعه على تلك المدينة العربية الأندلسية العظيمة التي أضاءت العالم الغربي حقبة من الزمن، حين كانيتخبط في دياجير الجهل والهمجية، ثم ما لبثت أن اختفت فجأة في فوضى الوجود. .
وكان هذا الضابط أسمر البشرة إلى حد يلفت النظر، وقد قال له أبي مرة إنه لابد أن يكون من أصل عربي، فأمن الضابط على قوله ذاكراً في شيء من الزهو أنه عربي من بني أمية الأمجاد كما تثبت ذلك شجرة نسب أسرته، إذ كان من النبلاء. .
أما أنا، وكان عمري إذ ذاك ثلاثة عشر عاماً، فما كنت أحفل ببني أمية ولا بغيرهم، بل كنت أقضي الوقت في الغابة أبحث عن فراشة جميلة أضمها إلى مجموعتي.
كانت تعاوني في مهمتي هذه بنت الضابط الصغرى، إذ كان له بنتان: إحداهما في العاشرة وكانت مع الأسف دميمة، ومع ذلك كنت أصطحبها في جولاتي خلال الغابة لافتقاري إلى
رفيق. . أما أختها الكبرى فكانت في مقتبل العمر، وهي آية في الحسن، ببضاضتها ولونها الخمري، وعينيها السوداوين الصغيرتين الحادتين، ووجهها الذي يبسم دائماً كأنه أيام الربيع. . .

وكانت هذه الفتاة الرشيقة التي تسمى خوانا، وكان أهلها يدعونها خوانيتا (تصغير خوانا) - تدليلاً ومحبة - تتكرم أحياناً بمصاحبتنا في رحلاتنا. . عندئذ كنت أحس بسعادة عظيمة تغمر قلبي وجداني، لابد أني كنت أحب خوانيتا حباً جماً إذ ذاك، فقد فقدت يوماً شالها الحريري الصغير الذي كانت تلف به عنقها في إحدى هذه الرحلات، فأخذنا نبحث عنه - نحن الثلاثة - حتى عثرت عليه أنا معلقاً على جذع شجرة، ولكني بدلاً من أن أرده إليها ألفيت نفسي أقبله، ثم وضعته خلسة في جيبي لأحتفظ به. كم كان طيباً عبيق هذا الشال! وكيف لا يكون وقد أحاط بجيد محبوبتي خوانيتا، وتنسم عبيق غدائرها الساحرة؟ وكنت في الليل حينما أرجع إلى مخدعي وتتراءى لي صورة خوانيتا فتطرد عني النوم أضم إلى صدري هذا الشال فيهدئ وجوده أعصابي ويجلب لي النوم والراحة.

أردت مرة أن أقدم إليها هدية مدفوعاً في ذلك بحب الصبا الجنوني، ولكن ما الذي كنت أستطيع أن أقدمه إليها ونفقة جيبي ضئيلة لا تزيد في الشهر على ثلاثين فرنكاً إسبانياً؟ عندئذ قمت بهذه التضحية: أعطيتها مجموعة الفراش التي عانيت المشاق في جمعها!

أما خوانيتا فلم تكن مع الأسف تشاركني هذا الحب. . . كم كنت أحمق حين ظننت أن فتاة كخوانيتا في العشرين من عمرها تبادل صبياً في مثل سني الحب؟ على أن خوانيتا كانت تجد تسلية كبيرة في التظاهر بحبي، فتلعب معي أدواراً مؤلمة. . فمن ذلك أنها كانت تحتفظ بيدي في يدها - أثناء الرحلات - فكنت إذا ما عدت إلى الفندق لا أغسل تلك اليد طول النهار، حتى أحتفظ براحة خوانيتا فيها، كما كنت أشمها وأقبلها خلسة من وقت إلى آخر. . .

وكانت خوانيتا ترسل إلي أحياناً بعض تلك النظرات التي لا يقوى على مواجهتها قديسو إسبانيا جميعاً! وصار أهلها الذين علموا هذه الخدعية منها ينظرون إليّ بعين ملؤها العطف، بل كانوا يضطرونها أحياناً إلى مرافقتي في الغابة مع أختها. . وا أسفاه! لم أعرف الكوميديا التي كانت تلعبها خوانيتا إلا قبل رحيلنا من غرناطة بأيام قليلة! أيها القدر

القاسي لماذا لم تترك لصبي مثلي لذته الموهومة وسعادته المزعومة؟ لماذا لم نرحل قبل إطلاعي على هذه الحقيقة المرة؟ وإليك كيف عرفت الخدعية:

كان أحد باعت الحلوى المتجولين يمر أمام الفندق من حين إلى حين. . فنزلت ذات يوم أشتري منه شيئاً من الشكولاته لخوانيتا وأختها، كما كنت أفعل مراراً، فلما عدت إلى الفندق وصعدت إلى الحجرة التي كانت تجلس فيها الشقيقتان، وجدت بابها مفتوحاً وسمعت خوانيتا تضحك مع شاب غريب (هو ابن عمها كما علمت ذلك فيما بعد) وإذا بها تخبره بقصتي بصوت جهير ولهجة ساخرة، وتذكر له كيف كانت تلعب بعواطفي. . عندئذ سقطت الشكولاته من يدي المضطربة، وأحسست نفسي تذوب كما يذوب تمثال من الثلج تحت أشعة الشمس الحادة!

كرمة ابن هاني

حسين شوقي

من شعر الشباب

عيد الجهاد

للأستاذ محمود الخفيف

تزيد صباحه الذكرى جلالا ... وقد لبست به الدنيا جمالا
ترى في أفقهشفقاً خضيباً ... ترقرق في جوانبه وسالا
دم الأحرار ألبسه وشاحا ... يتيه به على الزمناختيالا
تخذناه من الأيام عيدا ... هو النيروز والأضحىمثالا
عقدنا حول مفرقه صليبا ... وفرق مسيل غرته هلالا
صباح تسفر الآمال فيه ... فتجتاح التردد والملالا
يزيدالسلمُ ساحته وقارا ... ويبسط في جوانبها الظلالا
ترفرف فيه أرواح الضحايا ... وتقرؤنا التحية والسؤالا
تطل من الغمائم سابحات ... خوافق تسبق الريح انتقالا
تطوف بكعبة الوادي خفافا ... ولا تبغي عن الركن ارتحالا

تقبل حائط الحق ابتهاجا ... وتملأ ساحة البيت ابتهالا
وتمسح منبراً ولدت عليه ... عقيدتنا وكان لها مجالا
ترى نور القضية في ذراه ... وتسمع صوتها سحراً حلالا
وتلمح من جلال الغار ظلا ... ومن طهر الحطيم له خِلالا
تطالع وجه حسَّان لديه ... وتسمع في مشارفه بِلالا
سيطوي الدهرَ حائطه المفدى ... ويُفنى رأسُه العالي الجبالا
رعى المؤلى على الأجيال يوما ... بدأنا فيه للحق النظالا
سيوف الظافرين به نشاوى ... ونار البطشتشتعل اشتعالا
دعا داعي الجهاد به فسرنا ... ولم نخش الأسنة والنصالا
سل الحرية الحمراء عنا ... ألم نوسع أعادينا قتالا؟
ألم نرخص به المهج الغوالي ... ونملأ جانب الدنيا صيالا؟
ألم نبذل غداة الروع أمنا ... وأبناء وأقواتاً ومالا؟
ولم نرهب من المحتل بطشا ... وإعداماً ونفياً واعتقالا
تطوف الشائعات بنا فنمضي ... إلى الميدان لا نألو نزالا
يقاسي شيخنا في الأسر ظلماً ... ولكن لا يحس له كلالا
يريهم في صلابته مثالا ... من الإيمان ظنوه محالا
وقد ألفوا من الشرق انقياداً ... لسيفهمو وذلا وامتثالا
وكان أعز بالأعزال جندا ... وأرهف من أسنتهم مقالا
لقد ترك الأماثل من بنيه ... وحمل راية الحق الشبالا
فما وهنوا بمصر وما استكانوا ... وخاضوا الموت أياماً طوالا
يُتوج هامهم شرف وفخر ... وإن جال الردى فيهم وصالا
وأعظم ما تكون الحرب هولا ... إذا الأحرار شنوها سجالا
سأذكر ما حييت صباح يوم ... كسته شمس آذار جمالا
سلخت من السنين لديه تسعاً ... نعمت حيالها باللهو بالا
ولكني صحوت على هتاف ... وألحان وأسماء توالى
رأت عيني الغريرة مهرجاناً ... قد انتظم الأوانس والرجالا
مشى الشبان إثرهم جموعا ... خفافاً في مواكبهم عجالا
يجيبون النداء ولم يحسوا ... لما هتفوا به إلا خيالا
وأعذب ما يكون الحق صوتا ... إذا هتف الشباب به ارتجالا
ولن أنسى وجوهاً سافرات ... وكانت قبل غضبتها وجالا
وصوتاً رن في الوادي جنونا ... وقبل اليوم لم يعدُ الحجالا
يزيد حنانه الأبطال عزما ... ويمسح وقعه دمع الثكالي
كسا الدم باطن الأيدي خضابا ... وصاغ العزم في الوجنات خالا
فلا يدري العدو إذا التقينا ... أيخشى الليث أم يخشى الغزالا
بني مصر تعالوا حدثوني ... أنرضى اليوم ما نلقي منالا؟
وهل نلنا سوى الدستور مما ... أردناه لنهضتنا مآلا
أخذناه جهاداً واجتهاداً ... ولم نأخذه نوماً واتكالا
ولكنا فقدناه رضيعا ... وكان الفقد غدراً واغتيالا
وما أدري غداة بدا سناه ... أكان حقيقة أم كان آلا
أعيدوه إلى مصر غلاما ... فقد لج الحنين بها وطالا
سيبلغ في حضناتها صباه ... ويضمن في رعايتها الكمالا
تواصوا بالوفاء له وسيروا ... كفانا في قضيته مطالا
رأيتم كيف عاقبة التلاحي ... وكيف قضيتمو العهد اقتتالا
تنابذتم ودب الخلف فيكم ... فنمتم عن عدوكُم اشتغالا
ولولا يقظة الأبطال منكم ... جنينا من ترامينا الوبالا
ولم أر كالخلاف بمصر عيبا ... ولم أر مثله داء عضالا
ترجي مصر فينا اليوم خيراً ... وترتقب الصنيعة والفعالا
شهدتم أظلم الأحكام عهداً ... وذقتم أسوء الأيام حالا
شربتم ماءه بالأمس صابا ... خذوه اليوم معسولاً زلالا

المعجزة
أو السهم الأخير
للأستاذ سيد قطب
مَنَحْتني اليومَ ما الأقدارُ قد عجزتْ ... عن منحِهِ، وَتَنَاهى دونَه أملي!
منحتِني الحبَّ للدنيا التي جَهِدتْ ... في أن تُميلَ لها قلبي فلمْ يَمِلِ!
وكلما قرَّبتني قلت: خادعةٌ! ... وكلما طمأنْتني، قلتُ: وا وجلي!
ويغمُر الشكُّ نفسي كلما كَشَفتْ ... عن فَاتِنٍ مِن حُلاَها، غير مبتذَلِ
حتى خسرتُ من الأيَّامِ ما غَبرت ... به السنونُ، وحتَّى عقَّني أجلي
واستَلْهَمَتْ هذه الدنيا طبيعتَها ... في مُعْجِزٍ من قواها، قاهر، حان
فأبدعتْكِ جمالاً كلُّه ثِقةٌ ... يؤلف الحبَّ من وحيٍ وإيمان
وأودعتْكِ رحيقاً من خلاصتِها ... ومنبعِ السحرِ فيها جدّ فتّان
وأرسلتْكِ يقيناً في طلائِعِها ... منيرةً في دُجى عقلي ووجداني
فكنتِ آخرَ سهمٍ في كِنَاتَتِها ... وكُنتِ مُعجزةً من خَلْقِ فنانِ
والآن أخلصُ للدنيا وأمنحُهَا ... حبِّي، وأدركُ ما فيها من الفتن
والآن أنظرُ للدنيا وأنتِ بها ... كعاشقٍ، بهواها جدَّ مُفْتَتِنِ
والآن أعمل للدنيا على ثقةٍ ... بأنني قلبها الخفَّاق في الزمن!
والآن أنصتُ للدنيا فيطربني ... من صوتِها العذبِ لَحْنٌ ساحِرُ اللَّحنِ
لكِ الحياةُ إذنْ ما دمتِ مانحةً ... لِيَ الحياةَ بلا أجرٍ ولا ثمن!
صرخة الألم
بقلم فريد عين شوكه
تعالَ نجددْ عهود الغرامِ ... ونُحْي لياليَهُ الماضيه
لياليَه الطيباتِ العذابَ ... وساعاته الحلوة الغاليه
وحيدَيْن فوق ضفاف الغدير ... وتحت خمائله الضافيه
يرفُّ علينا مَلاَك الهوى ... كما رفَّت الزهرة الناديه
ويسمِعُنا من سماء الخلود ... أناشيده العذبة الحاليه
تُهدْهِدُ أشواقنا الصارخات ... وتسكن أوجاعنا النازيه
وتسري مع الدم بين العروق ... فتروي جوانحنا الصاديه
تعال فقد عصفت بي النوى ... كما تعصف الريح بالجاريه
وراحت تمزِّغ في مهجتي ... مخالبها الصلبة القاسيه
فخلَّت فؤاديَ جمَّ الجراح ... وألقت به جثة داميه
تعال ودَع كل لاح مهين ... يرى الحب أسطورة باليه
فلو عرف المرء معنى الهوى ... وشاهد فيه النوى ماهيه
وذاق لديه نعيم الجِنَان ... وكُبْكِبَ في ناره الحاميه
وهبت عليه رياح الظنون ... وثارت به الغيرة الطاغيه
لما عاش يعبث بالمغرمين ... ويزري بشكواهم الباكيه
هو الحب لولا يداه اللتان ... تفيضان بالرحمة الهاميه
لما عرف الناس معنى السلام ... ولا قدَّسُوا روحه الساميه
كتاب بعثت به للحبيب ... قلائد من مهجتي الحانيه
فألقاه منتثراً في الطريق ... كما تُنْثَر الزهرة الذاويه
كأني به تحت عِبءِ القُمامة (م) ... يشكو إلى ربِّه راميَه .!!
فريد عين شوكه
العلوم
خلق النظام الشمسي
نظرية جينز في أصل السدم والنجوم وتكون نظامنا الشمسي
بقلم فرح رفيدي
قبل 300 سنة، ولمدة ألفي سنة تقريباً، كانت الأرض تدعى سلطانة هذا الكون العجيب، وسيدة العالم كله، ومحور دوران شموسه الكثيرة. وقد جعلت ملكة الكون من أبنائها، لا لأنها كانت أهلاً لهذا اللقب، أو لأنها حقيقة كانت في ذلك المحل الرفيع من الكون، بل لأن أبناءها اغتروا بأنفسهم كثيراً، وحسبوا لوجودهم حساباً كبيراً،

فاعتبروا مسكنهم مسكناً عظيماً يليق به أن يكون مركز الكون وأهم موضع فيه. والصواب أنهم لم يرعوا عن غيهم، ولم يضعوا أنفسهم في المقام الجدير بهم إلا منذ 30 أو 40 سنة فقط، لما عرفوا أن أرضهم هذه هي أقل من جزء من المليون من الذرة الصغيرة، بالنسبة إلى الكون كله، وأن الشمس هي بمقدار هذه الذرة فقط، وأن الإنسان نفسه هو أيضاً بمقدار يكاد لا يذكر.

لنفرض أولاً ثلاثة أشياء نسلم بصحتها، ودون أن نكلف أنفسنا مشقة الخوض في برهانها وإثبات حقيقتها.

أولاً: المادة مركبة من ذرات مكهربةتكهرباً إيجابياً وسلبياً، بروتونات وإلكترونات , وفي حركة دائمة، وبما أن الكهربائية تيار من الإلكترونات وحالة من أحوال الطاقة كذلك المادة هي مظهر طاقة، يمكن تحويلها لحرارة أو ضوء، كتحويل الشهب لحرارة أثناء احتكاكها السريع بدقائق الهواء.

ثانياً: كل ذرة في الكون تجذب كل ذرة أخرى بقوة تختلف عكسياً بحسب مربع المسافة بينهما، وطردياً بحسب حاصل كتلتيهما فكل ذرة في الشمس تجذب كل ذرة في الأرض، وكل شيء على الأرض له تأثير على كل نجم في السماء، وهكذا لا يمكنني أن أضرب بيدي على المنضدة دون هز النجوم من مواضعها؛ ولكنه هزٌ ضعيف جداً، لا يدرك ولا بأدق الملاحظات، وهو ضعيف بمقدار صغر كتلة يدي بالنسبة إلى كتل الكواكب كلها.

ثالثاً: المواد المتركبة منها الكواكب والشمس كالمواد المتركبة منها الأرض، ولكنها في الأولى تحت ظروف تختلف فيها تبعاً للحرارة والضغط.

في البدء قبل أن تكون شمس أو نجوم أو أي ضوء آخر، وكانت الظلمة تخيم على سكون عميق في كل أنحاء الكون، كانت دقائق المادة الصغيرة مبعثرة ومنتشرة انتشاراً متساوياً على أجزاء الفضاء كله، وكانت البروتونات والإلكترونات تجئ وتذهب هنا وهناك في كون لا نظام فيه ولا قانون يضبطه، وكل شيء كان في ظلام دامس من فوضى الطبيعة وفي حالة غير مستقرة وعلى وشك الانقلاب لأقل حركة تبدو فيه.

كان الكون حينئذٍ عديم التوازن، كقلم أوقف على رأسه، أقل اهتزاز بغير وضعه إلى وضع ثابت أكثر اتزاناً أو كآلة تحتاج إلى من يحركها، أو كدولاب على وشك الانزلاق، يحتاج لدافع يدفعه لينطلق بدورانه انطلاقاً، كان بحاجة إلى يد الله تسري فيه تياراً من ذلك الغاز المنتشر، حتى يندفع بأجمعه لأن يخلق نفسه بنفسه، وتكون حاله إلى ما هي عليه الآن.

لا نعرف كيف أو أين ابتدأ التيار، ولكن أسباب ما جرى تشويش في نظام الطبيعة، حينئذٍ جعل ذلك الغاز يتجمع ويتضام ويكون من نفسه كتلاً , كبيرة وصغيرة وفي أماكن مختلفة من الفضاء، والكتل الكبيرة بعظم ما تجمع لها من المادة صار لها قوة جذب كبيرة قدرت بها أن تجمع أكثر من الغاز الذي حولها، وتتغلب بها على سرعة الذرات من أن تهرب. وحجم الكتلة يتوقف على شيئين: ثخانة الغاز وسرعة ذراته. ففي الغاز الخفيف تكون سرعة التيار ومدى توسعه أكثر من سرعته ومداه في الغاز الثقيل ولذلك تكون كمية المادة المتجمعة أكبر. وإذا كانت سريعة فإنها لا تنقاد لكتلة صغيرة لضعف جاذبيتها، كخروج ذرات الهواء عن طاعة القمر لقلة جاذبيته بالنسبة لسرعة الذرات. ففي غاز معلوم الكثافة وسرعة ذراته يكون فقط كتلاً لا ينقص الوزن فيها عن حد معين. وإن كان بعض الكتل صغيراً إلى حد أن يمنعها من ادخار جاذبية كافية تقاوم بها سرعة الذرات الهاربة، فإنها لا تلبث أن تتلاشى وتنتشر في الفضاء كما كانت. والكبيرة بعكس ذلك، فان كبرها يزيد في قوة جاذبيتها التي تزيد في مادتها وحجمها، فكلما كبرت الكتلة كان طبيعياً فيها أن تتجمع وتكبر وتزداد مادة وقوة، وكلما صغرت ساعدت الأحوال على عكس ذلك.

حسب هبل أحد الفلكيين أنه إذا انتشر كل غاز النجوم في الفضاء انتشاراً متساوياً في جميع جهاته، فإن كثافة ذلك الغاز حينئذ تكون قدر كثافة الماء بـ (10) 300 مرة ووجد أيضاً أن سرعة الذرات في حالتها تلك تكون حول 500 ياردة في الثانية، فوجد من ذلك أن وزن كل كتلة من الكتل المتكونة بواسطة التيار أكبر من وزن الشمس بمقدار يتراوح من 21

مليوناً إلى 400 مليون مرة، وعندا اكتشاف الفلكيين اليوم 62
لوجود آلاف من الأجسام التي لها هذا الثقل تحقق جيداً: أن
هذه السدم التي نراها اليوم هي ذات كتل التي تكونت بتأثير
ذلك التيار الابتدائي الذي حدث بين دقائق الغاز الأول.
وكانت هذه السدم التي تكونت مختلفة الحجم والشكل، وكان شكل الواحدة مترتباً على متجه التيار الذي أحدثها. فان اتجه التيار إلى المركز كان الشكل كروياً وبدون حركة. وإن زاغ الاتجاه عن المركز، وهو الأكثر حدوثاً، بدأت الكتلة بحركة دوران حول محور في وسطها. وللجسم الدائر صفة حفظ قوة الاندفاع الدوري وهي إن تقلص حجم الجسم يقصر طول قطره، فتزيد سرعة دورانه. وهكذا كان في أمر الكتل المتكونة حديثاً: زاد انكماشها بسبب جاذبيتها في سرعة دورانها أكثر فأكثر. وكان أثر ذلك الدوران أن حور شكل الكتلة من الكروي إلى شكل عدسي. وكما أن دورة الأرض سببت انبعاجها عند خط الاستواء وتفرطحها عند القطرين، كذلك ازدياد سرعة دوران تلك الكتل كان يزيد في تنظيمها إلى حدٍ بعيد. وكانت إذا زادت سرعتها أكثر من ذلك لا تزيد في تسطحها فحسب، بل تبدأ بقذف غاز من مادتها ينتشر حولها في المسطح الاستوائي انتشاراً متساوياً.
وهكذا حول كل كتلة تكون غازٍ خفيف. وله كالغاز الذي كون السدم نفسها صفة التجمع والتجزء إلى كتل تختلف قليلاً عن بعضها في الحجم والشكل، ولكنها أصغر من الكتل الأولى. وكما قدر العلماء رياضياً يتقارب وزن الواحدة منها من وزن الشمس ومعظم
النجوم اللوامع. وإذا أدرنا بصرنا بالتلسكوب إلى السماء شاهدنا السدم اللولبية الشكل تبتدي بوسط غازي وتنتهي أطرافها بمجموعة من النجوم، وذلك يدل على أن أصل تكون النجوم والشمس هو من السدم.
هذه النجوم الجديدة المنفصلة عن السدم الدائرة، بقيت دائرة مثلها لتحفظ قوة الاندفاع الدوري. وقد كانت ولا تزال للآن تشع في الفضاء بلا انقطاع كميات كبيرة من الضوء والحرارة تنبعث منها نتيجة لاحتراق مادتها في داخلها. فالشمس التي نستضيء ونستدفئ بها تخسر من مادتها في كل دقيقة تمر حوالي 250 مليون طن وهذه كلها تحترق وتتحول نوراً وحرارة، فجزء قليل جداً نستمده، والباقي يذهب هباء في الفضاء. ذلك يدل على أن حجم الشمس والنجوم يقل تدريجياً، وقلة الحجم هذه تقابلها سرعة في الدوران، وتبقى السرعة في ازدياد مستمر ما دام الإشعاع في النجم مستمراً، وإذا ازدادت السرعة في بعض النجوم الكبيرة فقد نقسمها إلى قسمين متعادلين أو غير متعادلين تماماً. وبهذه الطريقة نشأت النجوم المزدوجة
وقد نظن هنا أن منشأ الكواكب في المجموعة الشمسية حصل من دوران شديد في الشمس جعلها تفصل عنها هذه الأجرام حولها. ولكن الأمر غير ذلك، إذ لو قابلنا أوزان بعض النجوم المزدوجة بأوزان الكواكب السيارة، لوجدنا الفرق بعيداً، فأوزان الأولى تقرب من وزن الشمس، ووزن أحد الكواكب كالأرض أقل من جزء من المليون من وزن الشمس. وعلى ذلك فمن غير المحتمل أن يكون منشأ نظامنا الشمسي على هذه الطريقة.
لتعليل منشأ نظامنا الشمسي يأتي السر جينز بطريقته المعروفة بنظرية المد وهي أن يقترب نجمان مختلفا الوزن من بعض ويكون تأثير جاذبية الكبير على الصغير شديداً بأن يرفع على سطحه مداً من مادته الغازية كرفع القمر مياه الأرض بقوة جاذبيته. ولكن اقتراب النجمين ليس بالأمر الهين أو بالشيء الذي يقع مرة ويتكرر مرات، إذ أن عظم المسافات الشاسعة التي تباعد بين نجم ونجم، تجعل أمر الاقتراب شيئاً صعباً وبعيد المدى، وقد لا يحدث لملايين من السنين تمضي، ولكنه محتمل الحدوث ولو مرة في هذا الزمن الطويل.
دعنا نفرض مرور الملايين من السنين على شمسنا وهي سابحة في الفضاء وحدها بدون
رفيق أو رقيب، ودعنا نفرض أن هذه المصادفة، مصادفة الاقتراب بين نجمين حدثت، وحصل هذا الشيء البعيد الوقوع والنادر الحدوث بين شمسنا ونجم أخر، ومر هذا النجم بالقرب من الشمس دون تصادم أو احتكاك، وكان كبيراً بحيث كان تأثيره قوياً

عليها، فتأثير ذلك النجم، على رأي جينز، كان أن عمل على سطح شمسنا مداً ارتفعت فيه كمية كبيرة من الغاز، وتمددت طويلاً متتبعة جهة أبعاد النجم عن الشمس، فانفصلت عنها وتكونت بشكل سيكار ثخين في الوسط ودقيق عند الطرفين، وصار هذا الغاز المنفصل وسطاً لتجمع كتل صغيرة وكبيرة ومتوسطة بقدر ما يستوعب وتستجمع من المادة التي حولها. ولصغر هذه الكتل ضعفت فيها قوة انبعاث النور والحرارة، وانطفأت شعلتها النارية، فبردت وانخفضت حرارتها تدريجياً، وتحولت الغازات أمطاراً من سوائل المعادن على سطوحها، وتقلص حجمها الغازي إلى حجم سائلي، وعند انخفاض الحرارة أكثر تجمدت السوائل. وتحول بعضها إلى مواد صلبة قاسية وانكمشت السطوح كثيراً، وتجمدت، وتكونت أجساماً معتمة، لا مصدر للحرارة أو النور فيها غير ما تستمده من الشمس أو من بعض المواد المشعة في داخلها. وجعلت حفظاً للاندفاع الدوري تدور حول الشمس دورات مختلفة في البعد والوقت. وهكذا كانت الكواكب السيارة، منها عطارد وبلوتو في طرفي السيكار، والمشتري وزحل في وسطه.

وفي بدء خلق هذه الكواكب، وقبل اعتدال دوائرها وثباتها حول الشمس كما هي الآن كانت تدور بغير انتظام يربطها، أو قانون يوحدها. فكانت تارة تقترب، وتارةً تبتعد عن الشمس؛ فحدث في أثناء ذلك أنه بينما كانت الأجسام غازات ملتهبة، اقترب بعضها من الشمس إلى حد مكن الشمس أن تسحب من غازاتها كتلاً أخرى انفصلت عنها وكونت أقمارها ومن جملتها قمرنا.

وهكذا من فوضى الطبيعة الأولى تكونت السدم، والسدم من جراء دورتها حول نفسها تشتت غازها وانقسمت إلى أنجم، كل نجم منها قائم بذاته، وسائر في الكون بقوة حركته واندفاعه. ومن سرعة سير هذه الكواكب ابتعدت عن بعضها أبعاد شاسعة. تكاد تعدمها حقيقة وجودها، بالنسبة لسعة الفضاء وعظمته، وصار مجرد اقتراب الواحد من الأخر من قبيل المصادفة فقط. ولكن حدث أن اقترب نجم من شمسنا، وسحب منها غازات توحدت

وتجمعت كتلاً صغيرة وكبيرة. وتصلبت أجسامها وتحولت إلى كواكبنا السيارة هذه، ومن جملتها الأرض، وبمجرد اقتراب الأرض من الشمس انفصل جزء منها وكون القمر.

رام الله

فرح رفيدي

البريد الأدبي

الأدب المجري الحديث:

خواصه ومميزاته

نشرت (مجلة المجر الجديدة) مقالاً عن دور الشباب في تطور الأدب المجري المعاصر، فوصفت الخواص التي يتميز بها أدب الشباب سواء في الشعر أوالنثر؛ وقالت إن الأدب المجري الحديث يرجع إلى أواخر القرن الماضي، ويمتاز قبل كل شيء بالخروج عن النزعة (الغربية) التي بلغت ذروتها بالشاعر الكبير (آدي) أعظم شعراء المجر في القرن الماضي؛ كما أنه يمتاز بالإغراق في المظاهر الشعبية، والتعلق بالأصول الشقية للروح المجرية، والتأثر بالحياة الريفية.

ومع ذلك فإن أساس التطور الحديث في الأدب المجري، هو شعر (آدي)؛ ومن محقق الأدب المجري المعاصر، إذا راعينا أكابر الشعراء مثل يوسف أرديلي، ويوليا الياس، وآتيلا يوزيف، ولوران زابو وأكابر القصصيين مثل آرون تمازي ويوسف نيبرو، يجوز مرحلة عود على البدء. وإنها لظاهرة جديدة فقط أن تتجه الأفكار إلى استكمال الأساطير القوية الجديدة، وإلى اعتبارات الجنس والأرض والتاريخ في نوع من المظاهر الشعبية الجديدة؛ والجيل الحاضر ينظر إلى التطور القديم بهذه الروح بينما يعمل على إحياء النزعة التي أشرنا إليها، ومن ثم كانت أعظم مصادر وحيه، السياسة والمجتمع؛ وكثير من شعراء العصر يرددون قول الشاعر يوتوتوس: (إن الشاعر الذي لا تهزه عواطف عصره، يمزق أعصاب غنائه)

وفي مقدمة شعراء هذه الطبقة يوسف أرديلي ويوليا إلياس. ومن يقرأ أرديلي في قصيدته الشهيرة (بلا صلاح) أو قصيدته (النجم الفريد) يشعر بأثر الرسالة التي يقول

الجيل الشاب إنه يقوم بها. وليوليا إلياس قصة شعرية ظهرت أخيراً عنوانها (شباب)، وهي تفيض بالجمال الابتداعي والنزعة الغنائية، ومن نظمه أيضاً (ثلاثة شيوخ). وهو أشد من يمثل نزعة الجيل الجديد من حيث النزعة الغنائية والفردية، والطموح إلى استكمال التقاليد والتعلق بالتراث الشعبي.

ومعظم هؤلاء الشبان لا يعني بالشكل، وينكرون في نوع من التحدي أناقة اللفظ أو ضخامته؛ وكثير منهم يجنح إلى القديم الساذج، وإلى الروى الشعبي، وشعرهم ينضح على العموم عن لون قومي قوي، وهم في الواقع (أبناء الشعب) ينشئون في مهاد (الفقر العذب)، وينزعون إلى بساطة اللفظ، وإلى التقاليد وإلى الأساطير وإلى كنوز الخيال الشعبي.

وأما النثر، فمن أقطابه يوسف نيبرو القصصي الكبير؛ وهو كاتب ذو نزعة دينية إنسانية ترجع إلى تربيته الكنسية، فقد نشأ قساً، ثم حمله تيار الأدب. وهو ريفي النزعة من حيث المادة والوصف يصور لك الوطن المجري، ولا سيما وطنه (ترانسلفانيا) في صور قوية مؤثرة، ومن أشهر قصصه (تحت نير الله) وهي في الواقع قصة حياته الكهنوتية عرضت في قالب قصصي مؤثر؛ وله مجموعة أقاصيص شهيرة من أبدع ما أخرج الأدب المجري المعاصر.

ومن أقطابه آرون تمازي، وهو قصصي بارع ينزع إلى المأساة، ويلزم الطابع القومي العميق، وله مجموعة قصص تفيض سحراً وإنسانية عنوانها (كواكب ترسلفنيا)، ومجموعة أخرى عنوانها (عصفور الصباح) يدعو فيها إلى المثل الأعلى. ومنهم جان كودولاني، وهو مصور بارع لمناظر القرية ومجتمعها. وكذلك زولتان ستنيا، فهو يصف في قصصه نجتمع الأعيان المنحل. وبول زابو، وهو كاتب ريفي محض وافر الطرافة والقوة.

والفرق قوي واضح بين ذلك الجيل وبين الجيل المنصرم الذي كانت تغلبه النزعة (الغربية). وليس الفرق متعلقاً بالشكل فقط، بل هنالك ثمة صورتان مختلفتان، تمثل كل منهما ناحية من الروح المجرية؛ وإلى الأولى ينتمي أبناء الأعيان والموظفين الذين متى اضطروا إلى نبذ ترف هذه الحياة، لجئوا إلى عالم الكتب ليتخذوا منه سداً بينهم وبين حياتهم المسكينة، وينتمي إلى الثانية أبناء الفلاحين وطبقة الأعيان الريفية التي تقرب منهم والساخطون على هذا المجتمع، وهم الذين يزعمون أنهم رسل الإصلاح الاجتماعي، وعلى العموم فان البون شاسع بين الكتاب الجدد وبين الجيل القديم سواء من حيث النظر إلى العالم وإلى الحياة.

بسمات العدالة

عني كثير من المؤرخين والكتاب بالكتابة عن المآسي القضائية، والمحاكمات الجنائية الكبرى. ولكن أحداً منهم لم يعن بالكتابة عن (الكوميديات القضائية) والوقائع والمواقف

المضحكة التي تعرض أمام القضاء. وهذا ما فعله الكاتب الفرنسي (جيو لندن) الكاتب القضائي لجريدة الجورنال. وقد تخصص جيو لندن في كتابة الصور والأخبار القضائية منذ أعوام بعيدة، واشتهر بسحر أسلوبه ودقة ملاحظاته. وهو الذي يلخص أخبارالمحاكمات والقضايا الكبرى في جريدة (الجورنال). وفي كل عام يجمع أشهر المحاكمات والمآسي القضائية في مجلد خاص، ولكنه اختار هذا العام أن يترك المآسي والجنايات المثيرة، وأن يجمع المواقف القضائية الفكاهية في مجلد عنوانه (العدالة وبسماتها) وقد استقبل هذا السفر الظريف في دوائر النقد والأدب أحسن استقبال، ونوهت بما يضمه من الصور الساحرة والمواقف الشائقة، وبما يسود من قوة الملاحظة وخفة روح في العرض؛ فهناك أغرب القضايا المضحكة حقاً، وأغرب الشخصيات الساذجة التي تنسيك بسذاجاتها أحياناً خبث المجرم الخطر، وهنالك حيل النساء الماكرات تبدو واضحة أمام بساطة الرجل المتيم. وقد علق أحد النقدة على ظهور هذا الكتاب بقوله: (إنه يحمل على التفكير بأن التردد على جلسات القضاء يخلق منافسة قوية للمسرح الفكه؛ بل ربما كان ثمة عاملاً من عوامل الأزمة المسرحية؛ إن كانت ثمة أزمة).

جائزة نوبل الأدبية

ذكرنا في العدد الماضي أن جائزة نوبل للطب قد منحت لثلاثة من العلماء الأمريكيين.

هم الأساتذة جورج نيوث، ووليم مورفي، وهوبل. ونذكر الآن أن جائزة نوبل الأدبية لسنة 1934 قد منحت إلى الكاتب والفنان الإيطالي السنيور لويجي بيراندللو وهو كاتب مسرحي تخصص في وضع القطع التمثيلية، وتنظيم المسرح؛ وأشهر رواياته قطعة عنوانها: (ستة أشخاص يبحثون عن مؤلف)، اشتهرت في جميع المسارح الأوربية. والسنيور بيرادنللو في نحو السابعة والستين من عمره؛ وهذه هي المرة الثانية التي تمنح فيها جائزة نوبل للكتاب الإيطاليين.

أستاذ شرقي يعثر على مخطوطات عربية نادرة

نقل إلى الجامعة العربية من أمريكا أن الدكتور فيليب حتى من خريجي الجامعة الأمريكية في بيروت وأستاذ الآداب السامية في جامعة برنستن بأمريكا الآن عثر في أثناء بحثه وتنقيبه في المخطوطات الموجودة في مكتبات أمريكا المشهورة على ترجمة عربية ضافية لبحوث كلوديوس جالينوس في التشريح والطب بين خمسة آلاف مجلد من المخطوطات العربية في مكتبة جامعة برنستن. ومما قاله الدكتور حتى في وصف هذه الترجمة (إنها من أندر وأنفس المخطوطات التي سجلت في الفهارس حتى الآن) والترجمة العربية مؤرخة في سنة 1174م وقد وضعها حنين بن أسحق المسيحي النسطوري وكان يعد إمام المترجمين من اللغة اليونانية في عصره.

وعثر الدكتور حتى كذلك على مخطوطة في علم التنجيم يستدل من الشارة المذهبة المرسومة على الصفحة الأولى منها أنها وضعت في الأصل للسلطان صلاح الدين الأيوبي وكانت في مكتبته، ويقول الدكتور حتى أن صلاح الدين نفسه كان يسترشد بهذه المخطوطة قبل إقدامه على منازلة الصليبيين في المعارك.

وعثر أيضاً على مخطوطة في الموسيقى قد تميط اللثام عن النغمات الموسيقية التي كان يستعملها العرب قديماً. وهذه المخطوطة مزينة برسوم، وقد وضعها الفارابي الموسيقي والفيلسوف المشهور في القرن العاشر.

وهناك مخطوطة عربية رابعة وجدها الدكتور حتى في جامعة برنستن وهي شرح ابن رشد فيلسوف الأندلس وأرجوزةابن سينا الطبية المشهورة لمؤلف طبي وصفه ابن جزله البغدادي في القرن الثاني عشر.

الكتب

الثورة العربية الكبرى

تاريخ مفصل جامع للقضية العربية في ربع قرن

تأليف الأستاذ أمين سعيد

هذا كتاب كبير يقع في ثلاثة مجلدات تبلغ في مجموعها ما يقرب من ألف وأربعمائة صفحة من القطع الكبير، وهو في وضعه الحالي يعتبر مرجعاً عظيماً للثورة العربية القومية منذ قيامها عقب الانقلاب العثماني 1908 إلى الوقت الحاضر. خشي المؤلف الفاضل الأستاذ أمين سعيد كما ذكر في مقدمة كتابه النفيس أن تنسى الثورة العربية وما تخللها من حركات وما أكتنفها من ملابسات (فتضيع معالمها وتطمس آثارها ويتعذر التأليف فيها فلا يجد الكاتبون العرب في المستقبل سوى رسائل مبعثرة أو مقالات منثورة أو كتب ألفت باللغات الأجنبية وقد وضعها واضعوها لخدمة غاية معينة).

لذلك تراه يضطلع بهذا العمل على ما فيه من صعوبات؛ فلابد له أن يدعم آراءه بالحجج والبراهين، وأن يسند براهينه بالوثائق والمستندات، وهذا كله مما لا يسهل جمعه وترتيبه. ولكن القارئ حين يتناول هذا السفر الجليل يحس بالدهشة لكثرة ما احتوى عليه من الوثائق والبيانات، هذا إلى ما حواه من الصور المتنوعة للأشخاص والحوادث.

ولقد قسم الأستاذ المؤلف كتابه تقسيماً جيداً فجعل المجلد الأول للنضال بين العرب والترك، يضم حوادث الفترة الممتدة من إعلان الدستور العثماني عام 1908 حتى قيام الحكومة الفيصلية في دمشق عام 1918، وجعل المجلد الثاني لتاريخ الحكومة الفيصلية من قيامها حتى سقوطها؛ ولقد أفرد به جزءاً كبيراً للثورة العراقية الكبرى وأدوارها مبيناً عوامل الثورة ومقدماتها وحروب الإنكليز في العراق والتصادم بينهم وبين الترك وما ترتب على هذا كله مع جلاء الحوادث والاهتمام بالتفاصيل كمن رآها رأي العين. أما المجلد الثالث فقد جعله لتاريخ القضية في الفترة الممتدة من عام

1921 إلى عام 1934، أورد فيه وصفاً وافياً لتاريخ إمارة شرق الأردن مع شرح القضية الفلسطينية والوطن القومي اليهودي وبيان أخبار الثورة السورية في اتصالها السياسي الداخلي بين السوريين والفرنسيين.

بذلك ترى هذا الكتاب الكبير قد اشتمل على عدة حركات قومية يتوق أبناء الشرق العربي إلى الوقوف عليها. ولعل من أعظم فوائد هذا الكتاب، أنه في طريقته المفصلة التي سار عليها، يعطي القارئ العربي فرصة نادرة ليقارن بين ما يسمعه من أحد أبناء الثورة وبين ما يشيعه عنها خصومها. هذا إلى أنه يكشف عن ناحية من نواحي نهوض الشرق عقب الحرب العظمى مبيناً إلى حد كبير وجهته وآماله.

ولقد راعى المؤلف الفاضل في كتابه التسلسل التاريخي للحوادث، وختم كل حلقة بملخص حلل فيه الحوادث تحليلاً مبيناً ما طرأ على القضية من تقدم أو تأخر.

وإني وإن كنت أرى اهتمامه بالتفاصيل الدقيقة وسرده الحوادث الكثيرة المتنوعة أكثر من اهتمامه بالتعليق عليها وبيان مقدمتها ونتائجها، أقرر أن لطريقته هذه في موضوع كهذا متشعب النواحي محاسنها إلى جانب معايبها، فلقد هيأت للقارئ كما قدمت الفرصة ليكون لنفسه حكماً، وذلك خير مما لو اقتصر المؤلف على طائفة من الحوادث واهتم بإيراد رأيه والدفاع عنه، فان القارئ في هذه الحالة وخصوصاً من يجهل تفاصيل المسألة العربية يكون مقيداً برأيه أو على الأقل في شك منه.

وسيرى القارئ العربي في كتاب الأستاذ أمين سعيد كثيراً من مواقف التضحية والبطولة، وكثيراً من مواطن الهول والصراع العنيف مما يجعل للكتاب إلى جانب ناحيته التاريخية، ناحيته الجذابة القوية، فيقبل الأدباء على مطالعته في شغف واهتمام ولذة. وإني لأنتهز هذه الفرصة فأتقدم إلى الأستاذ أمين سعيد بأجمل الثناء على ما تجلى في مؤلفه الجليل من أريحية ووطنية وهو يمثل ذلك من شباب الأمة العربية الخليق.

الخفيف

الخط الديواني الملكي

للأستاذ مصطفى بك غزلان

رئيس التوقيع بديوان جلالة الملك

ازدهر الخط العربي في صدر القرن الماضي، وظهر في عالم الفن جمهرة من القادرين على إجادته وإتقانه، وكانت الأستانة يومئذ كعبة الآمال، ومرجع أفذاذ الرجال في الفنون

العربية الجميلة. بلغ من ولوعهم بهذه الصناعة أن تخذها الخلفاء والسلاطين مفخرة يفخرون بإجادتها وإحسانها، وزينة يدلون بها على أساتذتها وأساطينها، فكان السلطان (محمود) يجيد خط (الثلث) (وجلي الثلث) ولا تزال (لوحته) القيمة التي خطها بقلمه الجميل تحتل الصدر من (المسجد الحسيني). وصار على أثره السلطان عبد المجيد، فكان خطاطاً وسطاً لم يبلغ شأو أبيه. . . وله قطعة كبيرة تتصدر (القبلة) في ذلك المسجد.

تطاول الخط على سائر الفنون الجميلة منذ أحبه الخلفاء والسلاطين وعلت مكانته يوم أن فتحت قصور العواهل على رحباتها لكبار الخطاطين، يعلمون الخلفاء ذلك الفن الجميل.

ودام للخط العربي هذا الحظ الميمون، والآستانة تصدر إلى العالم العربي من سحره الفاتن وجماله الرائع، ما خلب اللب، واستولى على النفس، حتى وفد على القاهرة المرحوم عبد الله بك زهدي بدعوة من خديو مصر إسماعيل.

جاء ليكتب (الكسوة) بعد أن كتب الحرم النبوي الشريف، فلقي من لدن ولي الأمر التعضيد والتأييد.

وكان يومئذ في مصر نهضة مباركة، نشأت في شخص المرحوم محمد أفندي مؤنس، ولكنها كانت في حاجة إلى إذكائها وتنميتها، فطلع (زهدي) على الناس، بخط الكسوة وسبيل أم عباس، وتداولت الأيدي بعض نماذجه في الثلث والنسخ. فكانت بادرة سعيدة، صعدت بالمرحوم مؤنس إلى الذروة العليا من ذلك الفن البديع.

وكان الرجل خيراً بفطرته، فأخذ يذيع فنه على الناس ويعلمهم إياه، لا ينتظر أجراً ولا شكراً، فكانت داره يومئذ أشبه بمدرسة داخلية، يتعلم فيها الطلاب وينعمون بحديقتها

الرحبة، بل يأكلون ويشرون.
ومن يومئذ بدأ الخط يتحول إلى القاهرة، وكانت العناية شديدة بإتقانه وأجادته، وكان له شأو رفيع وشأن جليل في المدارس الابتدائية والثانوية بله العالية.
تلك خلاصة موجزة بسطتها بين يدي القارئ، لأستطيع التحدث إليه عن فتح جديد في الخط العربي، طلع به علينا الفنان النابغة الأستاذ مصطفى بك غزلان رئيس التوقيع بديوان جلالة الملك.
فقد يعرف المتتبعون لتاريخ هذا الفن أن الخط الديواني نقل فيما نقل من الآستانة إلى
مصر، وكان خطاً خاصاً لا يعرفه عامة الشعب ولا يقرأه دهماء الناس، بل كان قاصراً على (الفرمانات الشاهانية) (والإرادات السنية)، التي تصدر عن السلاطين، إلى الولاة، ثم على براءات الرتب والنشانات.
ولما كانت مصر يومئذ تابعة للدولة العلية، وكانت تلك الدولة هي صاحبة الحق في منح هذه الرتب، وتلك النشانات فالبراءات إذن تأتي من دار الخلافة مكتوبة ممهورة بخاتم الدولة إلى أن رخص للولاة والخديوين بمنح الرتب المحدودة القيمة، يومئذ اختير لكتابتها بعض الأتراك الذين يعرفون هذا النوع، وهم قليل حتى في الآستانة؛ فقديماً كان كتاب آل عثمان يستأثرون بهذا النوع من الخط لأنه كان الخط الرسمي للباب العالي كما قدمنا؛ ومن ثم كانوا يعدونه من الأسرار الفنية التي لا تزاع لجمهور الخطاطين، ليكون مرجعها إليهم ومفتاحها بأيديهم، أما بقية الخطوط فلها نماذج مختلفة بأقلام أساطين الفن على اختلاف مراتبهم.
واليوم بفضل الرعاية الملكية، نستقبل نماذج الخط الديواني التي عكف على كتابتها وتنسيقها وتنميقها خطاط مصر الأكبر الأستاذ مصطفى غزلان بك، وأدخل عليها حسناً جديداً وذوقاً مصرياً خالصاً لا تلحظه فيما كتب بهذا الخط من الفرامانات القديمة.
وقد طبعها ديوان الأوقاف الملكية، على نفقة صاحب الجلالة الملك في مطبعة المساحة طبعاً دقيقاً أنيقاً جعل هذه النماذج في موضوعها وشكلها مظهراً رائعاً من مظاهر الفن الخالد الخالص.
في المصايف
بقلم إبراهيم عبده
للأديب إبراهيم عبده أسلوب رقيق وخواطر لطيفة يطالع بها القراء من حين إلى حين. وهذا الكتاب الذي أحدثك عنه قد انتظم الكثير من ملاحظاته وخواطره الطريفة في المصايف، وطبيعي أن تكون المصايف موضع حديث إبراهيم، فهي متلقى الناس من كل صنف ومن كل طبقة، وهي مجال واسع تقع فيه عين الأديب الناقد وخصوصاً من يهتم بالناحية الاجتماعية كالأديب المؤلف على كثير مما يثير خواطره ويرسل قلمه. افتتح
المؤلف كتابه في رأس البر ثم انتقل بنا إلى السويس فبور سعيد فالإسماعيلية فالإسكندرية، وختم الكتاب بفصل رقيق هو حديث العودة. أجمل ما يحسه القارئ في هذا الكتاب تلك الروح الهادئة التي تتجلى في سطوره أشبه بالنسمة الهادئة تهب عليك في ليالي الصيف وأنت في معزل على الشاطئ. وأنك لتحس من هذا الشاب بميل شديد إلى القصص. ولقد أحسن صنعاً بإيراده خواطره في المصايف على تلك الصورة التي تجدها في كتابه، فلقد كان يأتي بها مرة على طريقة الحوار بينه وبين فتاة كان قد عرفها في الخرطوم ودار على ذكرها كتابه الأول (الحياة الثانية)، ومرة كان يتبع طريقة المراسلة، مما أبعد كتابه عن الملال وأكسبه كثيراً من الجاذبية والظرف.
ولئن كان لي أن آخذ على إبراهيم شيئاً وهو في صدر حياته الأدبية فهو أنه يجتهد في تقليد أحد كبار الكتاب عندنا تقليداً يظهر في أسلوبه وفي طريقة الدخول على موضوعه وتوجيهه ويخشى منه على أصالته وشخصيته، وهو في غنى عن هذا فله كما ذكرت استعداد قوي. نعم لا جناح عليه أن يحذو حذو من تأثر به في تجويد فنه والعناية بآثاره، ولكن على أن يحتفظ مع ذلك بشخصيته وروحه.
الخفيف

تعليق على نقد
الألحان الضائعة
بقلم حسن كامل الصيرفي
تناول الأستاذ الخفيف في العدد الماضي من (الرسالة) ديواني (الألحان الضائعة) فبدأ كلمته بأن أخذ على تلك الكآبة التي لزمتني في عهد من حياتي، وراح يتلمس سرها فلم يهتدإلى شيء مع أن هذا السر واضح كل الوضوح في كثير من قصائد الديوان بل من أول قصيدة إلى آخر مقطوعة فيه. ففي قصيدة (الضحية) تفسير قوي لناحية من تلك الكآبة، يؤكده قولي في القصيدة التي تليها بعنوان (الواحة المنسية):
في ذمة الفن ما ردّدتُه أمداً ... فضاع لحني سدَى في جوّ نكرانِ
طغى عليه ضجيج القوم فانطمست ... أصداؤه، وفؤادي طيّ ألحاني
وفي قولي في قصيدة (اللحن الضائع):
يا أغاني الربيع ما أنا إلاّ ... مقطعٌ من قصيدة ضاع لحنُهْ
لم تلد لي الأيامُ من يتولى ... بعث لحني، وكيف يبزغ شأنه؟
أوَ بين الصخور يكتمل الصو ... ت؟ محال هذا. . وكنت أظنه
وفي قصيدة اللغز تظهر نواح كثيرة من سر هذه الكآبة، وتظهر فيها قوة الشباب الغلاب لا اليأس المستسلم.
وأظن أن تصوير الشاعر لآلامه ليس من العيوب التي تؤخذ عليه وإلا فليس من الواجب أن تطالبه بالصدق في التعبير، وألا نؤاخذه على تزوير شعوره.
ولو أطلع الناقد الفاضل على (الصورة السريعة) التي كتبتها عن حياتي في الديوان لعرف شيئاً عن سر الكآبة التي لازمت شعري في الأربع السنوات الماضية، وزادها سواداً ذلك الجحود الذي لقيته في الأدب وعبرت عنه في معظم قصائدي.
ثم يرى الناقد الفاضل أن (الأديب الصيرفي قليل العناية بقوافيه وبلغته على وجه العموم). . هذا حكم يصدره ناقد فاضل لأنه عثر على بعض هنات يعثر عليها في كثير من أشعار المتقدمين والمعاصرين، ولأنه وجد محاولات عروضية مخالفة للسنة القديمة، وهي لم تضر الأدب في شيء، إن كان قد أصابه ضرر من محاولات شعراء الأندلس. . هذه الهنات التي لم يذكرها والتي يمكن لكل ناقد أن يعدها على أصابعه تجعل من صاحب الديوان رجلاً لا يهتم بلغته وقوافيه (على العموم)!
إني لأهتم إذ أحاول التكلم عن أصول النقد وواجباته، ومن هذه الأصول عدم الحيدة عن الحقيقة والإنصاف، وأدعو الله أن يهدينا جميعاً أقوم السبيل. هذا وأختم تعليقي بالشكر للأستاذ الخفيف على تنويهه ببعض ما وجدني قد أحسنت فيه مما كان يرفعني - أو يرجى منه ذلك - لو أني سرت على نهجه في جميع قصائدي كما يقول. وأنا عند حسن ظنه بي يوم يتقدم بي العمر حتى يتكافأ وأدبي.
حسن كامل الصيرفي
العدد 73 - بتاريخ: 26 - 11 - 1934
عهدٌ وأي عهد!!
كان كرِعْدة الحمَّى، أو كرجفْة الزلزال، أخذ هذا البلد المسكين زهاء أربع سنين، فكدَّر من طبعه، وغيَّر من وضعه، وبدد من نظامه!
هل تخيلت الجنة وقد اتسق في ظلالها الخفض، واطَّرد في مياهها النعيم، وانبلج في أجوائها الأنس، وانبسط على أرجائها السلام، يقتحمها شياطين الجحيم عَنوة، فيجعلون ظلها حروراً، وماءها مُهْلاً، وأنسها وحشة، وسلامها فتنة؟ ذلك مثل النيل وواديه قبل هذا العهد الذميم وبعده!
كانت البلاد تسير مع الزمن إلى الأمام، وتتدرج مع الطبيعة في النمو، وتتوثب مع الحق على العدو، فنجم فيها ناجم من الشر اعترض طريقها اعتراض اللص، ثم أثار في وجوهها الرعب فانكفأت إلى الخلف، وامتحن قلوبها بالبطش ففزعت إلى الصبر، وسلط على مُترفيها المُنى فقروا على الرِّيب؛ وراح الذئب المقَنَّع أو الطاغية الكاذب يعيث في كل ديوان، ويفتك في كل مكان، ويخْتِل في كل جماعة، حتى عطَّل سلطة الأمة، وأبطل سطوة القانون، وقوض ركن الفضيلة.
تناصرت أبالسة الظلم والظلام على مشاعر هذه الأمة فتركوها من الدسائس

والهواجس والأوهام في مثل الدجى الحالك، تقتل نفوسها ويقولون إنها تجاهد، وتركب رءوسها ويعلنون أنها تسير، وتضطرب في شقائها اضطراب الذبيح ويوهمون أنها تحيا؛ ثم رصدوا خزانة الدولة وجنودها وشُرَطَها وموظفيها لإقرار الشعب على الضيم، ورياضته على الاستكانة، فنسي الجندي أنه حشد لمدافعة العداة، والشُّرْطي أنه رُصد لمراقبة الجناة، والموظف أنه أُعِدَّ لتصريف الأمور، ووقفوا جهودهم على قطع هذا الشارع فلا يعبره عابر، وحصر هذا البيت فلا يزوره زائر، وتعهُّدِ هذا المحالف فلا يُخْلفُه بِر، وتَعقّب ذلك المخالف فلا يفُلته أذى!!

ثم انتشر الوعيد والوعد في جنبات النفوس يستنزلانها عن الخُلق، ويفتنانها عن العقيدة، ويغريانها بالعدالة، ويحرضانها على الصداقة، حتى اشتبه الوفاء، واتُّهم القضاء، ومرضت الأهواء، وانقطعت الأسباب بين المرء وصاحبه، وانفرجت الحال بين الرجل وواجبه؛ وكل ذلك لتُثْرى جماعة ويتسلط فرْد!!

لا للهِ ولا للوطن كانت هذه المِحنة! إنما كانت نزوة رَعْناء من بغي الإنسان على الإنسان!

والناس لا يزالون كما كانوا في الدهر الأول يسرقون ليأكلوا، ويقتلون ليعيشوا، ويستعبدون ليسودوا، ويستبدون ليحكموا، لا يحمي الفردَ من الفرد قانون، ولا يعصم الأمةَ من الأمة معاهدة! أما الدين والمدنية والعلم والأدب والفن والأنظمة فغطاء ذهبي على الناب، وطلاء وردي على المخلب!

على أن ضعف الشعوب خَدَّاع، لأنه قُوىً متفرقة في نفوس متفرقة، فإذا ما تجمَّعت ذات مرة حول القوة الزعيمة الملهِمة، كانت هي الرجفة التي تهز الأرض من حين إلى حين، وتنقل التاريخ من فصل إلى فصل!

ولكن ابن آدم سَهْوان: يُذهله نجب السلطان عن صوت العبَر، كما يذهله غرور الحياة عن يقين الموت! فلا يفيق من سكرة الدنيا إلا بوكزة الداء، ولا من سَوْرة الحكم إلا بسقطة الوزارة!

سيتحرَّج التاريخ من تسجيل هذا العهد وإن سجل كثيراً من أمثاله! لأن المظنون أن العالم يتقدم ولا يتأخر، ويترقى ولا ينحط؛ فكيف يجد المعاذير لقطعة من الأرض يعزلها سارقوها عن الوجود الحاضر، ثم يحاولون أن يضربوا الأسداد بينها وبين الحرية والديمقراطية، فلا ترى سيادة هذه ولا تسمع أناشيد تلك! ولكن التاريخ لا ينسى - وإن نسى الناس - أن للنظام العالمي جاذبية تجذب المتخلف، وللعدل الإلهي صيحة تُسمع الأصم، وللشعب الوديع حيوية يَقْظى تعود بالمبطل صاغراً إلى الحق، وتُفيئ بالحق السليب موفوراً إلى أهله!

حنانيك يا رب! لقد تألمنا حتى أشفق الألم، وصبرنا حتى جزع الصبر، وضحينا حتى أصبحنا كلنا ضحايا!! فعسى أن يشاء عدلك وتريد رحمتك ألاَّ نقاسيَ مثل هذا العهد، وألا نعانيَ مثل هذه التجربة، وألا نكابد مثل هذا البلاء!

الآن أصبح الليل، وانجلت الغمة، وتهتكت سدول الظلام عن السماء الواعدة، والضياء الهادي، والأفق الممتد، والطريق القاصد! فهل ترتد الشياطين إلى قماقم سليمان، وترجع الخفافيش إلى حَوالك الغِيران، ويستقيم القوم على عمود رأيهم حتى يلحقوا الناس ويدركوا الغاية!

أحمد حسن الزيات

الأجنبيَّة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

أحبَّها وأحبَّتْه، حتى ذهب بها في الحب مَذْهباً قالت له فيه: (لو جاءني قلبي في صورةٍ بشريَّةٍ لأراه كما أُحِسُّه، لما اختار غير صورتك أنتَ في رقِّك وعطفك وحنانك.) وحتى ذهبتْ به في الحب مذهباً قال لها فيه: (إن الجنة لا تكون أبدعَ فناً، ولا أحسنَ جمالاً، ولا أكثرَ إمتاعاً لو خُلِقَت امرأةً يهواها رجل؛ إلا أن تكون هي أنتِ.) فقالت له: (ويكونَ هو أنتَ. . .)

وتَدَلَّهتْ فيه، حتى كأنما خَلَبها عقلَها ووضع لها عقلاً من هواه؛ فكانت تقول له فيما تَبُثُّه من ذاتِ نفسها: (إن حبَّ المرأة هو ظهورُ إرادتها مُتَبرِّئةً من أنها إرادة، مُقِرَّةً أنها مع الحبيب طاعةٌ مع أمر، مُذْعِنَةً أنها قد سلَّمت كبريائها لهذا الحبيب، لتراه في قوّته ذا كبريائين.)

وافتتن بها حتى أخذتْ منه كلَّ مأخَذ، فملأتْ نفسَه بأشياء، وملأت عينَه من أشياء؛ فكان يقول لها في نجْواه: (إني أرى الزَمن قد انْتَسَخَ مما بيني وبينك، فإنما نحن بالحب في زمن من نَفْسينا العاشقتين لا يُسمَّى الوقتَ ولكن يسمَّى السرور، وإنما نعيشُ في أيام قلبيّةٍ لا تدلُّ على أوقاتها الساعةُ بدقائقها وثوانيها، ولكنِ السعادة بحقائقها ولذَّاتِها.)

وتحابَّا ذلك الحبّ الفنّيَ العجيب الذي يكون ممتلئاً من الروحين يكادُ يفيض وينسكب، وهو مع ذلك لا يبرَحُ يطلب الزيادة، ليتخيّل من لذتها ما يتخيل السكّيرُ في نشوتهِ إذا طفحت الكأس، فيرى بعينيه أنها ستتَّسع لأكثَرَ مما امتلأت به، فيكونُ له بالكأس وزيادتها، سُكْرُ الخمرِ وسكرُ الوهم.

تحابَّا ذلك الحبّ الفَوّار في الدم، كأن فيه من دَوْرته طبيعة الفراق والتلاقي، بغير تلاقٍ ولا فراق؛ فيكونان معاً في مجلِسهما الغَزَليّ، جَنْبُهُ إلى جنبها وفَاهَا إلى فيه وكأنما هرَبَتْ ثم أدرْكَها، وكأنما فَرّتْ ثم أمسَكَها. وبين القُبْلةِ والقُبْلة هِجرانٌ وصلح، وبين اللَّفتَةِ واللَّفتة غَضَبٌ ورضى.

وهذا ضَرْبٌ من الحب يكون في بعض الطبائع الشاذّة المُسْرِفة التي أفرطتْ عليها الحياةُ إفراطها فَيَلِفُّ الحيوانيّةَ بالإنسانية، ويجعلُ الرجلَ والمرأةَ كبعض الأحماض الكيماوية مع

بعضها؛ لا تلتقي إلا لتتمازج، ولا تتمازجُ إلا لتتّحد، ولا تتحدُ إلا ليبتلعَ وجودُ هذا وجودَ ذاك.

وضَرَب الدهرُ من ضَرباتِه، فأبغضتْه وأبغضها، وفَسَدتْ ذاتُ بينِهما، وأدبر منها ما كان مُقْبِلاً؛ فَوَثَبَ كلاهما من وجود الآخر وَثْبة فَزَعٍ هارباً على وجهه. أما هو فَسَخِطَها لعيوب نفسها، وأما هي. . . وأما هي فَتَكرَّهَتْه لمحاسنِ غيره، وانسَرَبَتْ أيام ذلك الحب في مسَارِبها تحت الزمن العميق الذي طَوَى ولا يزالُ يطْوي ولا يبرحُ بعد ذلك يطوي؛ كما يغورُ الماءُ في طِباق الأرض. فأصبح الرجل المسكين وقد نزلتْ تلك الأيام من نفسه منزلةَ أقاربَ وأصدقاء وأحِبّاء ماتوا بعضُهم وراءَ بعض، وتركوه ولكنهم لم يبرحوا فِكْرَه، فكانوا له مادّةَ حسرة ولَهْفة. أما هي. . . أما هي فانشقّ الزمن في فكرها بِرَجّةٍ زلزلة، وابتلع تلك الأيامَ ثم التأم. . . !

فحدّثنا (الدكتور محمد) رئيس جماعة الطلبة المصريين في مدينة. . . بفرنسا، قال: وانتهى إليّ أن صاحبنا هذا جاء إلى المدينة، وأنه قادمٌ من مصر، فَتَخالَجني الشوقُ إليه، ونزعتْ إلى لقائه نفسي، وما بيننا إلا معرفتي أنه مصريٌّ قَدِمَ من مصر؛ وخُيّل إليّفي تلك الساعة مما اهْتَاجني من الحنين إلى بلادي العزيزة، أن ليس بيني وبين مصرَ إلا شارعان أقطعهُما في دقائق؛ فخففتُ إليه من أقرب الطرق إلى مثواه، كما يصنع الطير إذا ترامى إلى عُشّهِ فابْتدَرَهُ من قُطْرِ الجوّ.

قال: وأصبْتُه واجماً يعلوه الحزن، فتعرّفتُ إليه فما أسرَعَ ما مَلأَ من نفسي وما ملأتُ من نفسه، وكما يمَّحِي الزمانُ بين الحبيبين إذا التقيا بعد فُرْقة - يتلاشى المكانُ بين أهل الوطن الواحد إذا تلاقوا في الغرْبة. فذابت المدينةُ الكبيرة التي نحن فيها، كأنْ لم تكن شيئاً، وتجلّى سحرُ مصر في أقوى سَطوتِه وأشدها، فأخذَنا كلينا فما استشعرنْا ساعتئذٍ، إلا أن أوربا العظيمة، كأنما كانت مرسومةً على ورقة، فطويناها وأحللْنا مصرَ في محلها.

وطغى علينا نازِعُ الطرَب طغياناً شديداً، فأرسلْتُ من يجمع الإخوانَ المصريين، واخترتُ لذلك صديقاً شاعرَ الفطرة، فَنَزا به الطربُ، فكان يدعوهم وكأنهُ يُؤذّن فيهم لإقامة الصلاة. وجاءوا يهرولون هَرْولةَ الحجيج، فلو نَطَقتِ الأرض الفرنسية التي مَشَوا عليها تلك المِشْيةَ لقالت: هذه وطْأةُ أُسودٍ تتَخيّل خُيلاءهَا من بَغي النشاط والقوة.

ألا ما أعظمَكِ يا مصر، وما أعظمَ تعنُّتَكِ في هذا السحر الفاتن! أينبغي أن يغتربَ كلُّ أهلك حتى يدركوا معنى ذلك الحديث النبويّ العظيم (مصرُ كِنانةُ الله في أرضه.) فيعرفوا أنك من عزّتك معلّقةٌ في هذا الكون تعليقَ الكنانة في دار البطل الأرْوع؟

قال (الدكتور محمد): واجتمعنا في الدار التي أنزلُ فيها، فراع ذلك صاحبةَ مثْواي، فقلت لها: إنَّ ههنا ليلةً مصرية ستحتلُّ ليلتكم هذه في مدينتكم هذه، فلا تجزعوا. ثم دعوتها إلى مجلسنا لتشهد كيف تَسْتَعْلِنُ الروح المصرية الاجتماعية برقّتها وظرفها وحماستها، وكيف تُفسّر هذه الروحُ المصريةُ كلَّ جميل من الأشياء الجميلة بشوقٍ من

أشواقها الحنَّانة، وكيف تكون هذه الروحُ في جوّ موسيقيتها الطبيعية حين تُناجي أحبابها، فيجئ حديثُها بطبيعته كأنه ديباجة شاعر في صفائها وحلاوتها ورنين ألفاظها؟
وقالت السيدة الظريفة: يالها سعادة! سأتخذُ زينتي، وأصلح من شأني، وأكون بعد خمس دقائق في مصر!
قال الدكتور: وأخذنا في شأننا، وكان معنا طالبٌ حسن الصوت فقام إلى البيانة وغَنى مقطوعة (طقطوقة) مصرية من هذه المقاطيع التي تُطقْطِقُ فيها النفس، فجعل يَمطُلُ صوتَهُ بآهٍ، وآه، ودار اللحنُ دورةً تأوهت فيها الكلماتُ كلُّها. ثم اعْتَوَرَ البيانة طالبٌ آخر فما شذَّ عن هذه السنَّة، وكان بعد الأول كالنائحة تُجاوب النائحة. فمالت عليّ السيدة الفرنسية وأسَرّت إليّ: أهاتان امرأتان أم رجلان. . .؟ فقلت لها: إن هذا لحنٌ تاريخي ذو مقطوعتين كانت تَتَطارحُهكليوباترة وأنطونيو، وأنطونيو وكليوباترة.
فأعجبت المرأة أشد الإعجاب، وأكبرتْ منا هذا الذوقَ المصريّ أن نكرمها لوجودها في مجلسنا بألحان الملكة المصرية الجميلة، وطربتْ لذلك أشدَّ الطرب، ومَلَكها غرور المرأة، فجعلت تستعيد (يا لوعتي، يا شقاي، يا ضَنىَ حالي. . .) وتقول: ما كان أرقّ كليوباترة! ما كان أرقّ أنطونيو! يا لَفِتنةِالحب الملَكي!. .
قال (الدكتور محمد): ثم خجلتُ والله من هذا الكلام المخنَّث، ومن تلفيقي الذي لفقته للمرأة المخدوعة؛ فانتفضْتُ انتفاضةَ من يملؤه الغضب، وقد حَمِيَ دمُه، وفي يده السيفُ الباتر، وأمامه العدو الوقْح؛ وثُرْتُ إلى البيانة فأجريتُ عليها أصابعي، وكأنّ في يدي عشرة شياطين لا عشرة أصابع، ودوّى في المكان لحنُ (اسلمي يا مصر) وجَلْجَلَ كالرعد في قبة
الدنيا، تحت طِباق الغيم، بين شرار البرق. فكأنما تَزَلْزلَ المكان على السيدة الفرنسية وعلينا جميعاً، وصَرَخَ أجدادُنا يزأرونَ من أعماق التاريخ: (اسلمي يا مصر). ولما قَطَعتُ التفتُّ إليها في كبرياء تلك الموسيقى وعظمتها، وقلتُ لها: هذا هو غناؤنا نحن الشبان المصريين.
ثم راجعنْا صاحبَنا الضيف، وأحفَيْناه بالمسألة، فقال بعد أن دافَعَنا طويلاً: إنه يحسن شيئاً من الموسيقى، وإن له لحناً سيُطارحنا به لنأخذه عنه. فطربنا بلَحنه قبل أن نسمعه، وقلنا له: افعلْ متفضلاً مشكوراً، وما زلنا حتى نهض متَثاقلاً فجلس إلى البيانة وأطرق شيئاً، كأنه يُسوِّي أوتاراً في قلبه، ثم دَقَّ يتشاجَى بهذا الصوت:
أضَاعَ غَدي من كان في يَدِهِ غدي ... وحَطّمني من كان يَجْهَدُ في سَبْكِي
فإن كنتُ لا آسى لنفسي فَمَنْ إذن؟ ... وإن كنتُ لا أبكي لنفسي فمن يَبكي
قال (الدكتور محمد): فكان الغناء يَعْتلجُ في قلبه اعتلاجاً، وكانت نفسه تبكي فيه بكاءها وتَغصُّ من غصتها، وكأن في الصوت فكراً حزيناً يَستعلن في همٍّ موسيقى؛ وخيل إلينا بين ذلك أن البيانة انقلبت امرأة مغنية تُطارح هذا الرجل عواطفها وأحزانها، فاجتمع من صوتهما أكملُ صوت إنساني وأجملُه وأشجاه وأرقّه.
فأطَفْنا به وقلنا له: لقد كتمْتَنا نفسك حتى نَمَّ عليها ما سمعنا، وما هذا بغناء، ولكنه هموم مُلَحَّنةٌ تلحيناً، فلن ندعَك أو تُخَبِّرَنا ما كان شأنك وشأنها.
فاعْتلَّ علينا ودافَعَنا جهدَه، فقلنا له: هيهات؛ والله لن نُفْلِتَكَ وقد صِرتَ في أيدينا. وإنك ما تزيدُ على أن تَعظنا بهذه القصة؛ فإن أمسكت عنها فقد أمسكتَ عن موعظتنا، وإن بخلت فما بخلتَ بقصتك بل بعلمٍ من علم الحياة تُفيدُه منك؛ وأنت ترانا نعيش هاهنا في اجتماع فاسد كلُّه قصص قلبيّة، بين نساء لا يَلْبَسنَ إلا ما يُعرّي جمالَهن، وفي رجال أفرطتْ عليهم الحرية، حتى دخل فيها مَخدعُ الزوجة. . .!
قال الدكتور: ونظرت فإذا الرجل كاسِفٌ قد تَغيّر لونُه، وتبين الانكسار في وجهه، فألممت بما في نفسه، وعلمت أنه قد دهي في زوجة من هؤلاء الأوربيات اللواتي يتزوجن على أن يكون مخدع المرأة منهن حراً أن يأخذ ويدع، ويغير ويبدل، ويقسم كلمة (زوج) قسمين وثلاثة وأربعة وما شاء. . .
وكأنما مسست البارود بتلك الشرارة، فانفجرت نفس الرجل عن قصة ما أفظعها!
قال: يا إخواني المصريين، قبل أن أنفض لكم ذلك الخبر، أسديكم هذه النصيحة التي لم يضعها مؤلف تاريخي لسوء الحظ، إلا في الفصل الأخير من رواية شقائي:
إياكم إياكم أن تغتروا بمعاني المرأة، تحسبونها معاني الزوجة. وفرقوا بين الزوجة) بخصائصها، وبين المرأة بمعانيها؛ فإن في كل زوجة امرأة، ولكن ليس في كل امرأة

زوجة).
واعلموا أن المرأة في أنوثتها وفنونها النسائية الفردية، كهذا السحاب الملون في الشفق حين يبدو؛ له وقت محدود ثم يمسخ مسخاً؛ ولكن الزوجة في نسائيتها الاجتماعية كالشمس؛ قد يحجبها ذلك السحاب، بيد أن البقاء لها وحدها، والاعتبار لها وحدها، ولها وحدها الوقت كله.
لا تتزوجوا يا إخواني المصريين بأجنبية؛ إن أجنبيةً يتزوج بها مصري هي مسدس جرائم فيه ست قذائف:
الأولى: بوار امرأة مصرية وضياعها بضياع حقها في هذا الزوج. وتلك جريمة وطنية؛ فهذه واحدة.
والثانية: إقحام الأخلاق الأجنبية عن طباعنا وفضائلنا - في هذا الاجتماع الشرقي، وتوهينه بها وصدعه؛ وهي جريمة أخلاقية.
والثالثة: دس العروق الزائغة في دمائنا ونسلنا، وهي جريمة اجتماعية.
والرابعة: التمكين للأجنبي في بيت من بيوتنا، يملكه ويحكمه ويصرفه على ما شاء؛ وهي جريمة سياسية.
والخامسة: للمسلم منا إيثاره غير أخته المسلمة، ثم تحكيمه الهوى في الدين، ما يعجبه وما لا يعجبه، ثم إلقاؤه السم الديني في نبع ذريته المقبلة، ثم صيرورته خزياً لأجداده الفاتحين الذين كانوا يأخذونهن سبايا، ويجعلونهن في المنزلة الثانية أو الثالثة بعد الزوجة؛ فأخذته هي رقيقاً لها، وصار معها في المنزلة الثانية أو الثالثة بعد. . . وهذه جريمة دينية.
والسادسة: بعد ذلك كله، إن هذا المسكين يؤثر أسفله على أعلاه. . ولا يبالي في ذلك خمس جرائم فظيعة.
وهذه السادسة جريمة إنسانية!
ما كنت أحسب يا إخواني وقد رجعت بزوجتي الأوربية إلى مصر - أني أحضرت معي من أوربا آلة تصنع أحزاني ومصائبي! ولم يكن وعظني أحد بما أعظكم به الآن، ولا تنبهت بذكائي إلى أن الزوجة الأجنبية تثبت لي غربتي في بلادي! وتثبت على أني غير وطني أو غير تام الوطنية، ثم تكون مني حماقة تثبت للناس أني أحمق فيما اخترت؛ ثم تعود مشكلة دولية في بيتي، يزورها أبناء جنسها ويستزيرونها رغم أنفي وفمي ووجهي كله! ويستطيلون بالحماية، ويستترون بالامتيازات، ويرفعون ستاراً عن فصل، ويرخون ستاراً عن فصل. . وأنا وحدي أشهد الرواية!.
إن الشيطان في أوربا شيطان عالم مخترع، فقد زين لي من تلك الزوجة ثلاث نساء معاً: زوجة عقلية، وزوجة قلبية، وزوجة نفسية، ثم نفث اللعين في روعي أن المرأة الشرقية ليست فيها إلا واحدة، وهي مع ذلك ليست من هؤلاء الثلاث ولا واحدة. قال الخبيث: لأنها زوجة الجسم وحده، فلا تسمو إلى العقل، ولا تتصل بالقلب، ولا تمتزج بالنفس؛ وأنها بذلك جاهلة، غليظة الحس، خشنة الطبع، لا تكون مع المصري إلا كما تكون الأرض المصرية مع فلاحها.
لعنة الله على ذلك الشيطان الرجيم العالم المخترع! ما علمت من بعد أن هذه الشرقية الجاهلة الخشنة الجافية هي كالمنجم التي تبره في ترابه، وماسه في فحمه، وجوهره في معدنه؛ وأن صعوبتها من صعوبة العفة الممتنعة، وأن خشونتها من خشونة الحب المعتز بنفسه، وأن جفاءها من جفاء الدين المتسامي على المادة؛ وأنها بجموع ذلك كان لها الصبر الذي لا يدخله العجز، وكان لها الوفاء الذي لا تلحقه الشبهة، وكان لها الإيثار الذي لا يفسده الطمع. هي جاهلة، ولها عقل الحياة في دارها؛ وغليظة الحس؛ ولها أرق ما في الزوجة لزوجها وحده؛ وخشنة الطبع، لأنها تتنزه أن تكون ملمساً ناعماً لهذا وذاك وهؤلاء وأولئك. . لا كامرأة الحب الأوربية، التي تجعل نفسها أنثى الفن، وتريد أن تعيش دائماً مع زوجها الشرقي من التفضيل والإيثار والإجلال والإباحة - في كلمة (أنا) قبل كلمة (أنت). . امرأة أنشأتها الحرب العظمى بأخلاق مخربة مدمرة تنفجر بين الوقت والوقت.
عندنا يا إخواني تعدد الزوجات، يتهموننا به من عمىً وجهل وسخافة. انظروا، هل هو إلا

إعلان لشرعية الرجولة والأنوثة، ودينية الحياة الزوجية في أي أشكالها؛ وهل هو إلا إعلان بطولة الرجل الشرقي الأنوف الغيور أن الزوجة تتعدد عند الرجل ولكن. . . ولكن ليس كما يقع في أوربا من أن الزوج يتعدد عند المرأة. . .!
يتهموننا بتعدد المرأة على أن تكون زوجةً لها حقوقها وواجباتها، بقوة الشرع والقانون، نافذةً مؤداة، ثم لا يتهمون أنفسهم بتعدد المرأة خليلة مخادنةً ليس لها حق على أحد، ولا واجب من أحد، بل هي تتقاذفها الحياة من رجل إلى رجل، كالسكير يتقاذفه الشارع من جدار إلى جدار.
لعنة الله على شيطان المدنية العالم المخترع المخنث، الذي يجعل للمرأة الأوربية بعد أن يتزوجها الرجل الشرقي أصابع (أوتوماتيكية)، ما أسرع ما تمتد في نزوة من حماقاتها إلى رجلها بالمسدس، فإذا الرصاص والقتل؛ وما أسرع ما تمتد في نزوة من عواطفها إلى عاشقها بمفتاح الدار، فإذا الخيانة والعهر!
ماذا تتوقعون يا إخواني من تلك الرقيقة الناعمة، المتأنثة بكل ما فيها أنوثة تكفي رجالاً لا رجلاً واحداً، وقد ضعفت روحية الأسرة في رأيها، وابتذلت الروحية في مجتمعها ابتذالاً، فأصبح عندها الزواج للزواج على إطلاقه، لا لتكون امرأة واحدة لرجل واحد مقصورة عليه؛ وبذلك عاد الزواج حقاً في جسم المرأة دون قلبها وروحها؛ فإن كان الزوج مشئوماً منكوباً لم يستطع أن يكون رجل قلبها - فعليه أن يدع لها الحرية لتختار زوج قلبها. .! ومعنى ذلك أن تكون هذه المرأة مع الزوج الشرعي بمنزلة المرأة مع فاسق؛ ومع الفاسق بمنزلة المرأة مع الزوج الشرعي. .! وإن كان الرجل منحوساً مخيباً، وكان قد بلغ إلى قلبها زمناً ثم مله قلبها - فعليه أن يدع لها الحرية لتتنقل وتلذ بلذات الهوى، ويقول لها: شأنك بمن أحببت، فإن هذا المنحوس المخيب ليس عندها إنساناً، لكنه رواية إنسانية انتهى الفصل الجميل منها بمناظره الجميلة، وبدأ فصل آخر بحوادث غير تلك. فلمن يشهد الرواية أن يتبرم ما شاء، ويستثقل كما يشاء، ومتى شاء انصرف من الباب. .!
امرأة هذه المدنية هي امرأة العاطفة؛ تتعلق باللفظ حين تلبسه العاطفة من زينتها، وإن ضاع فيه المعنى الكبير من معاني العقل، وإن فاتت به النعمة الكبيرة من نعم الحياة.
تقوى العاطفة فتجئ بها إلى رجل، ثم تقوى الثانية فتذهب بها مع رجل آخر. . .! وتقيد نفسها إن شاءت، وتسرح نفسها إن شاءت؛ وما بد من أن تبلو الحياة كما يبلوها الرجل، وأن تخوض في مشاكلها؛ وإذا شاءت جعلت نفسها إحدى مشاكلها. .! ولا مندوحة من أن تتولى شأن نفسها بنفسها، فإذا خاست أو غدرت فكل ذلك عندها من أحكام نفسها، وكل ذلك رأي وحق، إذا كان محورها الذي تدور عليه هو عاطفتها وحرية هذه العاطفة، فمن هذا يقرر لها خطتها، ويملي عليها واجباتها، ويزور لها الأسماء على إرادته دون إرادتها، فيسمي لها نكد قلبها باسم فضيلة المرأة، وحرمان عاطفتها باسم واجب الزوجة الشريفة؟
ومنذا خوَّلَه الحق أن يقرر وأن يملي؟
وهذا الشرقي العتيق المأفون الذي قبلها سافرة لا تعرف روحها ولا جسمها الحجاب؛ ما باله يريد أن يضرب الحجاب على عاطفتها، ويتركها محبوسة في شرفه وحقوقه وواجباته، وإن لم تكن محجوبة في الدار؟
ما علمت يا إخواني إلا من بعد، أن الزوجة الغربية قد تكون مع زوجها الشرقي كالسائحة مع دليلها. هيهات هيهات، إنه لن يمسكها عليه، ولن يكرهها على الوفاء له، إلا أن تكون حثالة يزهد فيها حتى ذباب الناس؛ فيأسها هو يجعل هذا المسكين مطمعها، وهي مع ذلك لو خلطته بنفسها لبقيت منها ناحية لا تختلط، إذ ترى أمته دون أمتها، وجنسه دون جنسها؛ فما تسب أمة زوجها وبلاده بأقبح من هذا!
أما والله إن الرجل الشرقي حين يأتي بالأجنبية لتلوين حياته بألوان الأنثى. . لا يكون اختار أزهى الألوان إلا لتلوين مصائب حياته! وقد يكون هناك ما يشذ، ولكن هذه هي القاعدة.
أما قصتي يا إخواني. . . . . .
قال الدكتور محمد: قد حكيتها (يرحمك الله)

طنطا
مصطفى صادق الرافعي
محمد بك المويلحي - 2
للأستاذ عبد العزيز البشري

لست أغلو إذا زعمت أنني في مطلع نشأتي الأدبية كان (مصباح الشرق) عندي هو المثل الأعلى للبيان العربي. وبهذا كنت شديد الاكباب على قراءته، وتقليب الذهن واللسان في روائع صيغه وطرائف عباراته. حتى لقد كنت أشعر أنني أترشفها ترشفاً لتدور في أعراقي وتخالط دمي، وتطبع ملكتي على هذا اللون من البيان الجزل السهل الناقد الطريف. ولكن (ما كل ما يتمنى المرء يدركه)!

ولقد كنت فتى مولعاً بالصناعة، شأن أكثر نابتة المتأدبين في ذلك العهد. فلما أرسل محمد المويلحي في المصباح (أحاديث عيسى بن هشام) زادني وزاد لداتي به فتوناً.

كيف تمثل لي محمد المويلحي؟:

لم تكن عيني إلى هذا العهد قد وقعت قط على محمد المويلحي ولا خيار المرء في تمثل صورة من لم ير من الأناسي، وما لم يشهد من البقاع. فكانت الصورة التي جلاها علي الخيال لهذا الرجل، صورة شاب معتدل القد، وضئ الطلعة، وسيم الوجه قسيمه. وما كان ذلك البيان الجوهري ليجلو علي من الرجل غير ذلك. على أنني كنت أرى أباه إبراهيم بك الحين بعد الحين في زياراته لوالدنا، عليهما رحمة الله، وفي زيارات والدنا له (بعمارة البابلي) يوم كنت أصحبه. وكان هذا المويلحي تحفة من تحف العصر التي قل أن يجود بمثلها الزمان: قوة لسن، واشتعال ذهن، وحضور بديهة، وسطوة نكتة، وسعة علم بالزمان وأحوال الناس. أما سرعته وتوفيقه في إيراد الشاهد من عبر التاريخ، ومأثور الآداب من منثور الكلام ومنظومه، فهذا ما لم يتعلق بغباره فيه أحد. فكان مجلسه متاعاً من أعظم المتاع

على أنني لم أوفق إلى رؤية المويلحي الابن مرة واحدة!

وتتابعت السنون، وخلص تحرير (المصباح) إلى محمد. ثم امتحنه القدر بحادثة اعتداء يسير عليه من بعض الطيش من أبناء (الذوات) في إحدى القهوات. وانتهى الخبر إلى المرحوم الشيخ علي يوسف، وكان في صدره موجدة شديدة على محمد وعلى أبيه لما كان بينه وبينهما من كيد وصراع، فانتهز الفرصة وروى الحادثة في صورة مهولة، واستدرج

الكتاب والشعراء للقول فيها، وفسح لهذا في المؤيد مكاناً عريضاً. ومن ذا الذي لم يكن موتوراً من المويلحي؟ ومن ذا الذي لم يقدر الوتر منه في مستقبل الأيام؟ وإذا كان الرجل عاجزاً على أن يخرج للمويلحي وحده، فهذه جموع الأدباء والشعراء والعلماء أيضاً قد تداكت لقتاله بكل ما في أيديها من سلاح! ألا فليتقدم لطعن المويلحي من شاء أن يتقدم، فليس على أحد في قتاله اليوم من بأس!

وتثور العاصفة، ويشتد البأس، وتحمر الحدق، وأذّن النفير العام، فوثب القاعد وتحرك الساكن، وانبعث الجاثم وهب النائم. وأهاب القعديون بالمتخلف، واستحمسوا المتخاذل. وشد الجميع على قلب رجل واحد. وهل كان من المستطاع أن يصمد لهذا الجيش اللجب رجل واحد؟. لم يستطع المويلحي أن يثبت في الميدان، فأطفأ (المصباح) وأنسل إلى داره وقد ألقى يد السلام، واحتجب ولكن في انتظار الثأر وري الغلة بالانتقام!.

ولقد تم للمويلحي من هذا بعض ما أراد أو كل ما أراد. فلقد كان ممن أثاروا الثائرة على الشيخ علي يوسف أيام حادث الزوجية المشهور، وفتح له في جريدة (الظاهر) باباً مثل ذلك الباب، واستدرج له أقلام الشعراء والكتاب. وواحدة لواحدةٍ كفاء.

متى رأيت المويلحي، وكيف اتصلت به؟:

بين سنتي 1907، 908، لا أذكر على التحديد، سألت صديقاً حديث العهد بصداقتي، ولكن وده للمويلحي قديم - سألته وتمنيته أن يجمع بيني وبينه، وما كان أبلغ دهشتي واغتباطي حين قال لي: إن المويلحي قد طالعه أنه يحب أن يراني، ولعله عرف بي من أيام كنت أرسل القول في الشيخ في فتنة الزوجية شعراً ونثراً. (وأسأل الله أن يغفر لي هذا). وتواعدنا أن نذهب إليه في الأصيل.

وكان، رحمه الله، قد اتخذ مسكنه داراً من دور سعيد باشا نصر، تقع في أطراف

العباسية يومئذ. وهذه الدار لا يعطي العين ظاهرها أكثر من منظر (حوش) في قرافة الأمام، فإذا جزت مداخلها انفرجت للعين حديقة واسعة قد عبِّدت طرقها تعبيداً، ونضدت أشجارها تنضيداً، وتأنقت يد البستاني في تسويتها وتنميقها، كما تأنقت يد الطبيعة في تشجيرها وتزويقها: فهذا الفل الوضيء الآلق، وهذا الورد المشرق الضاحك، وهذا النرجس تنبعث من عيونه الأسحار، وهذا الياسمين لقد استحال تنفساً في ساع الأسحار.

ولقد أفرد زاوية من زوايا الحديقة للغزلان والطواويس وجماعات الطير من كل غرد صداح.

ويستقبلني، رحمة الله عليه، بالبشر والتأهيل والترحيب، وإذا بي إزاء رجل حنطي اللون، بين الطويل والقصير، والسمين والهزيل؛ مستطيل الوجه، عريض الجبهة، حاد العينين، مستوي الأنف، له فم قريب إلى الفَوَهِ في غير قبح ولا استكراه. إذا تمثل واقفاً لمحت في ساقيه تقوساً خفيفاً لعله دخل عليه من أنه عالج المشي قبل أن تصلب عظامه. وله إذا تحدث صوت لا أقول خشن بل أقول جزل. فإذا أقبل على القراءة زر عينه اليسرى فبان التكرش الشديد ما بين أعلى العارض وأسفل الجبين، وهذا التكرش لا شك كان من أثر السنين، وإن كان يخفيها في المويلحي شدة عنايته بصحته، وتكلفه ألواناً من علاج البدن بمأثور الوصفات، والتزام الحمية في كثير من الأوقات، وأخذ النفس بالراحة التامة ما تستثيره أزمة من الأزمات، ولا يستدرجه مجلس لهو ولا تقنصه داعية لذة من اللذات؛ وبهذا تهيأ له أن يحيا في مثل نظرة الشباب إلى الممات.

وقد تلقّاني في غرفة الاستقبال، وهي غرفة أنيقة حقاً. لقد أثثت بأفخر الأثاث وأغلاه، وأفخر من كل شئ فيها الأناقة في تصفيف الفراش والذوق التام. وقد زُينت أجبُنُها بصور كبيرة له ولأبيه، وللأميرة نازلي فاضل، وللسيد جمال الدين الأفغاني. وبلوحات خطية جميلة جرت بروائع الحكم، وأكثرها من شعر المعري.

وخضنا في أحاديث من أحاديث الأدب، ولونا الكلام تلويناً حتى تجاوزنا نصف الليل، وتفارقنا وكأن حبل المودة بيننا ممدود من عشرين سنة. وتواعدنا اللقاء ما تهيأ لنا. وكذلك استمكن الإلف واستوثقت حبال الود، فما نتفارق على موعد من لقاء قريب. ولقد أعيش معه اليومين والثلاثة نقرأ عامة نهارنا وصدراً من ليلنا كتباً، أو نتذاكر أدباً. وكان ممن يختلفون إلى داره مغرب الشمس عادة بعض أقطاب العلم وأصحاب الرأي والبيان والبدائة المواتية، وأذكر منهم المرحومين عمه السيد عبد السلام باشا المويلحي (سر تجار مصر)، والسيد محمد توفيق البكري، والشيخ علي يوسف، بعد أن تصافت القلوب مما كان علق بها من الأضغان، والسيد محمد البابلي، ومحمد بك رشاد، وحافظ بك إبراهيم، وعبد الرحيم بك أحمد، وحافظ بك عوض، والسيد عبد الحميد البنان. أحياهما الله أطيب الحياة. وخذ ما شئت في أثناء هذه المجالس من أدب رائع، ومن نادرة طريفة، ومن حاضر نكتة قل أن تسخو بمثلها الأذهان.

ولقد كنا نقضي معاً عامة الصيف في مدينة الإسكندرية. ولعل من أسعد هذه الأصياف ذلك الذي قضيناه معاً في فندق في ضاحية المكس خالصين للرياضة ومراجعة الكتب في مختلف الآداب. لا ننحدر إلى صلب المدينة إلا لقضاء سهرة مونقة مع آثر الصحاب. كما عشنا معاً في شتاء سنة 911، 912، بضعة أشهر في دار استأجرناها في حلوان.

وفي سنة 1910 قلد في ديوان (عموم) الأوقاف منصب رئيس قسم الإدارة والسكرتارية، وفي يناير من سنة 1911 عينت في (قلم السكرتارية). وللمويلحي في هذا التعيين سعي غير منكور. وبهذا أصبح لي رئيساً، كما كان لي أستاذاً وصديقاً. ولقد ظل الود بيننا موصولاً حتى قبض إلى رحمة الله.

نشأته ودراسته:

هو السيد محمد المويلحي بن إبراهيم بك بن السيد عبد الخالق المويلحي. أصلهم من مرفأ المويلح ببلاد العرب، هبط جدودهم مصر من زمن غير قصير، وكانوا يتجرون في صناعة الحرير، وهم أهل نعمة وثراء. ولقد أتلف أبوه إبراهيم كل ما كان في يده من الأموال فلم ينزلق عنه لبينه إلا نطافٌ من الاستحقاق في بعض الأوقاف.

وما أحسب محمداً تجاوز في الدراسة المنظمة التعليم الابتدائي. ثم جعل يتعلم على

أبيه، ويكب على قراءة الكتب في العلوم والآداب، ثم اتصل بأئمة العلماء وأقطاب أصحاب الأدب من أمثال السيد جمال الدين الأفغاني، والشيخ محمد عبده، والشيخ حسين المرصفي، ومحمود باشا سامي البارودي، وغيرهم من أعلام عصره فحذق العربية وبرع فيها، وجود البيان أيما تجويد، وهيأ له جِدُّه واضطرابه في أسفاره بين الشرق والغرب تجويد اللغات الفرنسية، والتركية، والإيطالية، كما أصاب حظاً من الإنكليزية واللاتينية. وكان كثير القراءة إلى غاية الممات، فلا تكاد تقتحم عليه إلا رأيته يعالج بالتنسيق حديقته، أو يقرأ في كتاب عربي أو في كتاب يجري في إحدى هذه اللغات.

ولقد سألته ذات يوم عن أحسن الفرص التي هيأت له أعظم حظ من العلم فقال: كنت في الأستانة في ضيافة رجل فاضل يدعى سليمان أفندي، وكان عنده مكتبة تعد من أفخر

المكاتب الأهلية، فلبست ثيابي ذات عشية تأهباً للخروج كعادتي لأسهر في بعض ملاهي المدينة، وتفقدت كيسي فإذا هو صفر من الدرهم والدينار، فنضوت ثيابي ثانية وقلت باسم الله، ولبثت عاكفاً على قراءة الكتب لا أبرح هذه المكتبة إلا للنوم أو لغيره من حاجات الحياة. وظللت على هذه الحال ستة أشهر وبعض الشهر حتى أذن الله بالفرج، وجاءني من المال ما هيأ لي استئناف الحياة مع الناس!

ومن يعرف صبر المويلحي، وشدة حمله على نفسه، لا يستطيع أن ينكر منه هذا المقال، وسألم إن شاء الله بهذه الخلة العجيبة فيه عند الكلام في عاداته وأخلاقه. وحسبي هذا الآن فقد أطلت الحديث، والى الملتقى القريب.

عبد العزيز البشري

صحف مطوية من التاريخ الإسلامي

العرب في غاليس وسويسره - 2

للأستاذ محمد عبد الله عنان

انتشرت المستعمرات والمعاقل العربية خلال القرن العاشر في بروفانس وسافوا وبييمون وسويسره كما بينا، وبسط العرب سيادتهم على ممرات جبال الألب وعلى الحدود بين غاليس وبلاد اللونبارد (شمال إيطاليا) وبينها وبين سويسره، وبلغوا في تقدمهم في غاليس مدينة جرينوبل، واحتلوا في سويسرا ولاية فاليه ومفاوز جورا المتاخمة لبرجونية، واحتلوا في إيطاليا الشمالية ولاية ليجوريا. وكانت معاقلهم في بروفانس ولا سيما حصن (فركسنيه) قواعد غزواتهم وملاذ قوتهم وسيادتهم. والظاهر أنهم اتبعوا نفس هذه الخطة في سهول بيمون فأنشأوا فيهاسلسلة من الحصون والقلاع القوية لتكون مركز غزواتهم في بلاد اللونبارد وفي سويسره؛ فإن الرواية الكنسية التي كتبها حبر معاصر من دير نوفاليس تذكر لنا اسم حصن عربي في تلك الأنحاء وتسميه (فراشنديلوم) والمظنون أنه هو المكان الذي تعرفه الجغرافية الحديثة باسم (فراسنيتو) وهو الواقع في لومبارديا على مقربة من نهر (بو). وتقص علينا نفس هذه الرواية الكنسية أيضاً أن سيداً نصرانياً من سادة تلك الأنحاء يدعى أيمون دفعه شغف المغامرة والكسب إلى محالفة العرب، فانضم إليهم واشترك في غاراتهم الناهبة، وفي ذات يوم وقعت بين السبايا امرأة رائعة الحسن، فاستبقاها أيمون لنفسه، ولكن زعيماً عربياً استحسنها وانتزعها منه قسراً، فغضب إيمون، والتجأ إلى كونت روتبالدوس حاكم بروفانس العليا، وفاوضه سراً في محاربة العرب وإنقاذ البلاد منهم، فرحب الكونت بهذا المشروع، ودعا السادة إلى معاونته، واستطاع أن يحشد قوات كبيرة وهوجم العرب في بييمون من كل صوب ومزقوا، وسقطت قلاعهم في يد النصارى، وذهب سلطانهم في تلك الأنحاء.

وتقص الرواية الكنسية أيضاً قصة مؤامرة دبرها كونراد ملك برجونية لإهلاك العرب النازلين في أملاكه، في جورا وعلى حدود برجونية، والمجر الذين كانوا يشاطرونهم يومئذ الإغارة والعيث في تلك الأنحاء. وذلك أنه كتب إلى العرب يستحثهم لقتال منافسيهم المجر، وانتزاع ما بيدهم من الأراضي والضياع والخصبة؛ وكتب مثل ذلك إلى العرب يستحثهم

لقتال المجر والمعاونة على إجلائهم، وعين مكاناً للقاء الفريقين؛ فالتقت الجموع المتنافسة من العرب والمجر ونشب بينهما قتال هلك فيه كثير من الفريقين، ثم

اشرف كونراد بجموعه ومزق البقية الباقية من الفريقين قتلاً وأسراً، وتضع الرواية تاريخ هذه الواقعة في سنة 952م؛ ولكنها لا تعين مكان حدوثها.

ومنذ منتصف القرن العاشر يأخذ نجم أولئك العرب المستعمرين المغامرين في الأفول، وتضمحل سيادتهم في تلك الأنحاء؛ بيد أنهم لبثوا مدى حين بعد ذلك يحتلون كثيراً من مواقع سافوا؛ ويجوبون أنحاء سويسرا كلها في طلب الغنيمة والسبي. وقد اعتادوا على حرب الجبال وحذقوا أساليبها؛ وبلغوا في توغلهم في سويسره مدينة سان جال على مقربة من بحيرة كونستاس، وانشأوا ثمة كثيراً من القلاع والأبراج التي ما زالت تقوم منها إلى اليوم بعض الأطلال والبقايا، ولبثوا حيناً في سان جال، حتى حشد رئيس ديرها حوله جمعاً من المقاتلين الأشداء، وفاجأوا العرب في جوف الليل ومزقوهم قتلاً وأسراً، وبذلك خفت وطأة الغزوات العربية في شمال سويسرا.

واستمرت المستعمرات والمعاقل العربية في دوفينه وبروفانس وبعض جهات الألب؛ وكان قربها من (فركسنيه) أمنع المعاقل العربية يمدها بأسباب الجرأة والعون، ويمدها قربها من البحر دائماً بإمداد جديد من المتطوعين والمغامرين من ثغور الأندلس وأفريقية.

في ذلك الحين كان أعظم أمراء النصرانية أوتو الكبير (أوتون) ملك ألمانيا، وكان أعظم أمراء الإسلام عبد الرحمن الناصر خليفة الأندلس؛ وكان للناصر مع معظم أمراء النصرانية، من إمبراطور بيزنطة إلى ملوك الشمال والغرب، علائق سياسية منظمة؛ وكانت له مع أوتو الكبير علائق ومراسلات. فلما رأى أمراء غاليس أنهم لا يستطيعون رد العرب عن أملاكهم وأراضيهم، سعوا إلى الإمبراطور أوتو زعيم النصرانية أن يعاونهم بمفاوضته الناصر زعيم الإسلام في إنقاذهم من هذا النير المزعج؛ وكان المفهوم دائماً أن حكومة قرطبة تحمي هذه المستعمرات العربية النائية وتمدها بعونها الأدبي على الأقل. فعول الإمبراطور أوتو على السعي لدى الناصر في تحقيق هذه الغاية؛ وأوفد إليه في سنة 956 سفارة على رأسها حبر يدعى (جان) فقصد إلى أسبانيا عن طريق فرنسا، ووفد على قرطبة يحمل بعض التحف والهدايا طبقاً لرسوم العصر، واستقبل بحفاوة بالغة وأنزل في

منزل خاص ريثما يستقبله الخليفة. وتتفق الروايات العربية والنصرانية في وصف مظاهر العظمة والبهاء التي كانت تبدو بها قرطبة، ويبدو بها البلاط الأموي يومئذ.

وتقص علينا الرواية الكنسية المعاصرة تفاصيل هذه الرواية، فتقول: إن الناصر لم يستقبل سفير أوتو في الحال، وإنه كان يحقد على أوتو لأنه تعرض في بض مراسلاته للإسلام، ولأنه كان قد اعتقل مدى حين سفيراً نصرانياً أرسله إليه الناصر، ولذلك أمر الناصر باعتقال السفير (جان) حتى يرسل سفيراً إلى أوتو يستوثق من عواطفه ونياته نحوه؛ واختير لهذه السفارة كالعادة قس من رعايا الخليفة، وكان أوتو يومئذ يشتغل ببعض الحروب الداخلية، فأبدى تساهلاً في قبول وجهات نظر الخليفة. ولما عاد السفير، ارتاح الناصر لنتائج سفارته، وأذن برؤية سفير الإمبراطور، فاستقبل استقبالاً فخماً ظهرت فيه عظمة البلاط الأموي؛ وتحدث إلى الناصر عن الغرض من سفارته.

ولا نعرف ماذا كانت نتيجة السفارة، لأن الرواية الكنسية لا تحدثنا عن ذلك؛ ولكن المرجح أن وجهة النظر التي أبدتها حكومة قرطبة هي أنها ليست لها علاقة بالمستعمرات العربية في غاليس، وأنها لا تتحمل تبعة أعمالها، ولا تستطيع أن تتدخل لديها. وهو استنتاج يؤيده صمت الرواية العربية عن ذكر أخبار هذه المستعمرات، مما يدل على أن حكومة الأندلس لم تكن تعنى كثيراً بشأنها، وإن كانت بلا ريب تنظر إلى غزواتها وتوغلها في الأراضي النصرانية بعين العطف. على أن لويتبراند، وهو مؤرخ كنسي معاصر يؤكد أن الخليفة كان يحمي هذه المستعمرات ويمدها بالتشجيع والعون.

وبعد ذلك بقليل (في نحو سنة 960) أخرج العرب من معاقلهم في آكام سان برنار؛ ولسنا نعرف تفاصيل ذلك الحادث؛ ولكن المحقق أن العرب أبدوا كعادتهم منتهى البسالة في الدفاع عن مواقعهم؛ والظاهر أيضاً أن القديس برنار (سان برنار) الذي سميت هذه الآكام باسمه كان من أبطال الموقعة التي نشبت وانتهت بجلاء العرب.

واستمر العرب في دوفينه وبروفانس، وكثيراً ما دعوا إلى التدخل بين سادة هذه الأنحاء. ولما غزا الإمبراطور أوتو بلاد اللونبارد، وأخرج منها ملكها بيرانجيه، التجأ ولده أدالبرت إلى عرب (فراكسنيه) ليعاونوه في استعادة ملكه. وكان هذا التحالف بين

السادة والعرب يقوي سيادة الغزاة ويدعمها كلما آذنت بالانهيار. بيد أن هذه السيادة قد أخذت في
الاضمحلال منذ فقد العرب معاقلهم في بلاد الألب. وفي سنة 965هـ أخرج العرب من مدينة جرينوبل ومن واديها الخصب (جريزبفودان) وطوردوا في تلك النواحي وساءت أحوالهم؛ وأعلن الإمبراطور أوتو بعد ذلك بعامين أو ثلاثة، وهو يومئذ في إيطاليا أنه سيتولى طرد العرب من الأراضي النصرانية، ولكنه توفي دون القيام بمشروعه.
ثم دنت بوادر المعركة الحاسمة، وحدث في ذلك الحين أن حبراً كبيراً ذائع الصيت هو سان مايول، وهو أسقف دير كلوني من أعمال برجونيه، حج إلى رومه، ولما عاد من طريق دوفينه أسره العرب المرابطون في الجبال مع جماعة كبيرة من الحاج، واشترطوا عليهم فدى فادحة؛ فدفعت بعد عناء، وأطلق سراح سان مايول وزملاؤه. ولما عاد سان مايول إلى مقامه دعا مواطنيه إلى إنقاذ البلاد من عيث الغزاة، وأذكى حماستهم وسخطهم، وذاعت قصة أسره وما يعانيه الحاج من شر العرب وعدوانهم، فنهض سيد من سادة تلك الأنحاء ويدعى بوبون (أو بيفون) وانتهز فرصة الحماسة العامة، وجمع حوله كثيراً من المقاتلة، وبنى حصناً في سترون على مقربة من حصن كان يملكه العرب، ولبث يتحين الفرص لمفاجأة العرب والاستيلاء على حصنهم، حتى استطاع ذات يوم أن يحمل بعض الحراس على فتح الأبواب، فتمت الخيانة، وباغت النصارى العرب في حصنهم، وقضوا عليهم قتلاً وأسراً (سنة 972م).
وفي الوقت نفسه التف النصارى في دوفينه حول زعيم يدعى جيوم، وهاجموا العرب في جميع مراكزهم وقلاعهم ومزوقهم في كل ناحية، وبذا انهارت سيادتهم في دوفينه ولم تبق إلا في بروفانس. ولما قوى جيوم وكثر جمعه، وبسط نفوذه على بورفانس وتلقب بألقاب الإمارة، واعتزم أن يخرج العرب نهائياً من تلك الأرض؛ فدعا السادة لمعاونته ومنهم كونت نيس، ورأى العرب أن العاصفة تنذر بإجتياحهم من كل ناحية، فاستجمعوا كل أهبتهم وقواهم، ونزلوا من الآكام إلى البسيط في صفوف متراصة ووقعت بينهم وبين النصارى معركة هائلة في (تورتور)؛ فهزم العرب، وارتدوا إلى قلاعهم، ولاسيما (فركسنيه) التي غدت ملاذهم الأخير؛ فطاردهم النصارى أشد مطاردة، وضيقوا الحصار عليهم؛ فحاولوا الفرار تحت جنح الليل إلى الغابات المجاورة، ولكن النصارى لحقوا بهم، وأمعنوا فيهم قتلاً وأسراً وأبقي على من استسلم منهم، وعلى المسالمين الذين كانوا
يحترفون الزرع في الضياع المجاورة، وفر كثيرون من طريق البحر، وتنصر كثير منهم، وبقي نسلهم في تلك الأرض طويلاً.
وهكذا سقط حصن (فراكسنتم) أو فراكسنيه سنة 975م بعد أن لبث زهاء ثمانين سنة مركزاً قوياً للغزوات العربية في غاليس؛ وقسمت أسلاب العرب وأراضيهم بين السادة والجند الذين اشتركوا في هذه الحرب الصليبية، وانهارت سلطة العرب في تلك الأنحاء.
أما المستعمرات العربية التي كانت مبعثرة في آكام الألب، فيقال أنها طوردت ومزقت في نفس الوقت، واعتنق الذين أسروا النصرانية؛ ولكن توجد رواية أخرى خلاصتها أن هذه المستعمرات لبثت في معاقلها نحو جيل آخر، حتى تولى مطاردتها وسحقها زعيم يدعى جيرولدوس. وعلى أي حال فلم تأت أواخر القرن العاشر حتى ذهبت سيادة العرب في غاليس وسويسرا؛ ولم يجب أحد في أفريقية والأندلس صريخ الغوث الذي وجهه أولئك المستعمرون البواسل إلى إخوانهم، لأن الحوادث الداخلية لم تكن تسمح يومئذ ببذل هذا العون.
على أن ذلك لم يكن خاتمة الغزوات الإسلامية في تلك المياه؛ ففي سنة 1003م، سارت حملة بحرية من مسلمي الأندلس، ونزلت بجوار أنتيب في جنوب فرنسا، واجتاحت الأراضي المجاورة. وفي سنة 1019م، نزلت حملة مسلمة أخرى في ظاهر أربونة، وحاولت أن تستولي عليها، ولكنها هزمت ومزقت. وفي سنة 1047، هاجمت حملة أخرى جزيرة ليران الواقعة بالقرب من مرسيليا وأسرت عدداً من الرهبان.
وظهر في ذلك الحين زعيم أندلسي جرئ هو مجاهد العامري أحد أمراء الطوائف، وصاحب دانية وجزائر البليار، واهتم بأمر الغزوات البحرية، فسار في أسطوله إلى مياه كورسيكا وسردانية، وغزا سردانية واحتل بعض أنحائها، (سنة 405هـ - 1014م)، ولكن

النصارى استردوها على الأثر؛ ولبث مجاهد العامري الذي تسميه الرواية النصرانية (موجيه) أو موسكتوس، مدى حين سيد هذه المياه يبث فيها بحملاته الرعب والروع.
هذه هي قصة العرب والغزوات العربية في غاليس وبلاد اللونبارد وسويسرا، وهي قصة تغفل الرواية الإسلامية كثيراً من أدوارها ووقائعها؛ ولكنها تشغل فراغاً كبيراً في الروايات الكنسية والفرنجية المعاصرة، وهذه الروايات هي عمدتنا فيما ننقل من سير هذه الغزوات
الشهيرة. ومن المحقق أنها مشبعة بروح التحامل والخصومة في كثير من المواطن؛ ولكنا نستطيع مع ذلك أن نتبين منها أهمية الدور الذي قام به أولئك المجاهدون والمغامرون المسلمون في تلك الوهاد والآكام النائية، وما كان لهم بين هاتيك الأمم من السيادة والنفوذ مدى عصور.
(للبحث بقية).
محمد عبد الله عنان
المحامي
بين فن التاريخ وفن الحرب
خالد بن الوليد - 9
في حروب الردة
للفريق طه باشا الهاشمي
رئيس أركان الجيش العراقي
لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما في بدني شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة، وهأنذا) أموت على فراشي كما يموت البعير! فلا نامت أعين الجبناء(
خالد بن الوليد
ولا يخلو من الفائدة أن نقتبس هنا وصف المستر فلبي الذي تجول في هذه المنطقة في صيف سنة 1918، فدون مشاهداته في كتابه (البلاد العربية الوهابية) وقد وصف قرية الجبيلة الواقعة بالقرب من قرية (عقرباء) التي دارت رحى المعركة فيها بما يلي:
والقرية الآن آهلة بعدد يسير من السكان البؤساء، ومعظمها أطلال دارسة، ومقابر) الصحابة على ضفة الترعة المقابلة للقرية (أي الضفة اليسرى للوادي) وعلى مسافة نحو ربع الميل منها. وقد يشاهد المسافر بقاعاً متفرقة مغروسة بأشجار الأثل (الطرفاء) تُسَري عن المرء الانقباض الذي يعتريه من إدامة النظر إلى اللون الأغبر الذي لا يتغير، وهو اللون الدائم لتلك السهول الرسوبية المترامية التي سدت الوادي. وبقرب الحي آبار كثيرة بعضها مطوي بالحجارة يستقي منه أهل الحي دائماً. أما بيوت أهل الحي فمعظمها أطلال من اللبن بلا خشب، وقد عبثت بها يد البلى ودرست آثارها الأيام. أما ما بقي منها فلا بأس بحاله، ويستدل منه على أن أهل البيوت عنوا بصيانتها فدعموها بأعمدة حجرية مشيدة بالجص لتحمل على متونها روافد السقوف. وقد شاهدت في دار منها وعاء مزدوجاً كبيراً من الملاط المغطى بطبقة من رقيقة من الجص (الصاروج) الأسمر لخزن التمور، ولا تزال جدرانه ملونة بعصارة التمر إلى أن يقول: (ومعظم الجدران المبنية من الطين مؤزر إلى ما يقارب نصفه بأيادات من الحجر الصلد مبنية على وجه الجدار بناء منحرفاً توخوا فيها بساطة التزويق لا غير). . .
ويقول في وصف جبل طويق والهضاب التي يشرف عليها: (أما ما استدار من الأرض حول تلك المنطقة فلم أجد في حياتي أرضاً مثله، فلم أعثر في أرباضه على شئ تنقبض له النفس، فتجد أمامك طريقاً معرضاً لمهاب الرياح، خالياً من الظاهرات الطبيعية، ضارباً في كافة الجهات على نمط واحد لا نهاية له، ولا يعترضه في ذلك التكوين الغريب سوى الحرف المطمئن المسمى جبل صلبوخ الواقع إلى الشمال الشرقي).
وعندما يبحث في أطراف عينة عاصمة آل ابن معمر القدماء - وهي القرية الواقعة إلى غربي عقرباء، في واد ضيق - يقول: (أما ربوع عينة التي اشتهرت في قديم الزمان بجمالها وخصبها فمنبسطة على جانبي المسيل شرقاً وغرباً نحو ميلين، وقد أمست الآن قاعاً صفصفاً وأثراً بعد عين، ونبتت أدغال الأثل في البقاع التي وطئت أراضيها ومهد ثراها لغرس فسائل النخيل فيها. أما البلد الأصلي أو الحلة التي كانت يوماً موطناً لآل ابن معمر فلا تختلف عما كان حولها من الربوع الضاربة في صدر تلك المحلة

الرحبة، إلا إن أطلالها الشاخصة قد شغلت بقعة وسيعة، ويمر عابر السبيل في تلك البيداء بين آونة وأخرى بأطلال البنيان القديم كالعمد المزوقة رؤوسها. وفي كل ناحية من نواحي تلك المحلة الوسيعة آبار نضب عنها الماء وهي مطوية بالحجارة والآجر وعليها أحواض مبنية بالصاروج، أما ضفاف المسيل فمدعمة بأيادات كالمسنيات على أشد ما تكون من متانة البنيان، عقدها أصحابها في وجه السيل من زمن بعيد لحبس المياه في بطن المسيل. فرحلوا عنها وتركوها وشأنها فعبثت بها يد الدهر فتداعت جدرانها وتقوض بنيانها المحكم ثم غدت تراباً فوق أنقاض بالية. وشاهدت في بعض تلك الجدران حجارة كبيرة من الصخر الصلد طول الحجر الواحد قدمان وعرضه نصف قدم) إلى أن يقول: (جزنا الأطلال وخرجنا من عينة الخربة وسلكنا طريقاً تخترق أشجار الأثل في عنفوان نموها. والمنتشرة في طول الأرض وعرضها إلى تنتهي في طرف المحلة القائمة في الناحية الغربية فولينا وجوهنا شطر المغرب صاعدين الوادي. فسار بنا الظعن يطوي صوحه صعوداً. وعرض الوادي في أسفله (أي في عقيقه) نحو الميل، وكلما ارتقى الإنسان صوح الوادي وارتفع عن عقيقه ازداد انفراج الوادي إلى أن بلغ عرضه ميلين أو ثلاثة أميال. ولما أرسلت رائد الطرف في ميمنة الوادي بدا لي شعيب في منخفض الوادي، وقد قيل لي

إن هذا الوادي يأخذ في الصعود مرة أخرى إلى حوض عظيم كسيت جدرانه بالصاروج، يقع على سفح التل لحبس مياه الأمطار والمتاعب المنحدرة على جوانبه، ولم يزل حتى الآن خزاناً لري حقول القمح المزروعة في وسط الخرائب. وهناك شعيب آخر إلى يمين طريقنا يقال له شعيب عينة ينحدر من الطبقة الضيقة التي تفصل وادي حنيفة عن وادي سدوس).

قوات الفريقين

برغم كثرة الروايات التي تتناول حركات اليمامة والقتال في عقرباء نجد الغموض ظاهراً في معرفة قوة الفريقين.

فالطبري يذكر نقلاً عن سيف بن عمر أن القوة المحاربة لدى قبائل بني حنيفة بلغت أربعين ألفاً. ولما ذكر أخبار السنة الحادية عشرة الهجرية نقل عن ذلك الراوي نفسه، وزعم أن القوة المحاربة بلغت عشرة آلاف. أما ابن حبيش فيذكر في رواية نقلها عن الواقدي مفادها أن قوة المسلمين بلغت أربعة آلاف، وقوة بني حنيفة أيضاً بلغت هذا المقدار ذاته. وفي رواية تسند إلى سيف بن عمر يزعم الراوي أن عدد القتلى من بني حنيفة بلغ عشرين ألفاً.

أما المؤرخ الفارسي ميرخوندي فيزعم أن عدد القتلى في تلك الموقعة بلغ سبعين ألفاً، والذين قتلوا في حديقة الموت بعد المعركة بلغ عددهم سبعين ألفاً. ولعلك أدركت أنه يصعب الوصول إلى عدد يقرب من الحقيقة بين الروايات التي تقدر قوة الحنفيين بين أربعة آلاف وأربعين ألفاً، وعدد القتلى منهم بين عشرين ألفاً إلى مائة وأربعين ألفاً.

ولكن الثابت أن مسيلمة جمع أعظم قوة لمقابلة جيش المسلمين ووضعها على الحد الفاصل بين بلاد حنيفة وبلاد بني تميم، وترك القرى العامرة وراءه. وكان من مصلحة الحنفيين أن يجتمعوا تحت لواء رئيسهم للدفاع عن حيهم الذي تركوه وراء ظهورهم، ويظهر من مجرى المعركة أن عدد القتلى في قوة الحنفيين كان كبيراً.

لقد قدرنا جيش بني حنيفة عند البحث في قوات الفريقين بخمسة عشر ألف مقاتل - بمعنى أن الحد الأقصى للقوة التي يستطيع الحنفيون سوقها لا يجاوز العدد المذكور. والذي يلوح لنا أن القوة التي جمعها مسيلمة في عقرباء تبلغ عشرة آلاف مقاتل.

قوة المسلمين

يروي الواقدي أن جيش خالد بلغ أربعة آلاف مقاتل في معركة عقرباء. وفي رواية أخرى تسند إلى عيسى بن سهل أن الجيش الذي تولى قيادته خالد لما خرج من المدينة كان بقوة أربعة آلاف مقاتل، وهذا الجيش حارب في اليمامة. والذي لا ريب فيه أن قوة جيش المسلمين بلغت أربعة آلاف مقاتل لما تركت الربذة وتقدمت نحو بزاخة وانضمت إليها قوات من بني طيء قبل المعركة. ثم زاد هذا الجيش بعد إسلام قبائل بني أسد وغطفان. ولعل قوته بلغت أكثر من خمسة آلاف لما نزل في البطاح. ومن الثابت أن جماعات من بني تميم انضمت إليه قبل أن يتوجه نحو اليمامة. وتروي

لنا الأخبار أن الخليفة أبا بكر أمد الجيش بقوات من المدينة لما كان محتشداً في البطاح، وأن خالداً سبق هذا الإمداد من المدينة وانتظر وروده من البطاح. فجميع هذه الأخبار تدل على أن جيش المسلمين تضاعفت قوته بانضمام القبائل ووصول النجدة إليه قبل أن يتحرك من البطاح نحو اليمامة.

وكان من البديهي أن تلتحق به القبائل متى اتصل بها خبر خيرات اليمامة ووفرة المغنم فيها.

ويلوح لي أن قوة الجيش بلغت أكثر من ستة آلاف قبل حركته من البطاح.

الموقف قبل الحركة

لبى خالد أمر الخليفة فذهب إلى المدينة ليدافع عن عمله في قضية مالك بن نويرة، وفي رواية لسيف بن عمر أن أبا بكر أرسل عكرمة بن أبي جهل الى اليمامة لما كان خالد يحارب المرتدين في بزاخة وأمده بقوات أخرى بقيادة شرحبيل بن حسنة. والرواية تزعم أن عكرمة بدأ القتال قبل وصول شرحبيل فنكب. فأقام شرحبيل في الطريق حيث أدركه الخبر. وهذه الرواية تؤيد زعم سيف في أن الخليفة قسم جيش المسلمين في ذي القصة إلى إحدى عشرة فرقة، وعين قائداً لكل منها فوجهها إلى مناطق المرتدين. وقد سبق أن بينا فساد هذا الزعم. وفي رواية أخرى أن شرحبيل ابن حسنة الذي تلقى أمراً من الخليفة بأن ينتظر ورود خالد ولا يتحرك بادر إلى قتال مسيلمة قبل قدوم خالد فنكب وانسحب. وإذا صحت هذه الروايات يلوح لنا أن عكرمة بن أبي جهل كان يراقب اليمامة بقوة ساترة من المسلمين لما وقف خالد في البطاح، فوقعت مناوشات بينه وبين الحنفين حبطت مساعيه فيها فانسحب. أما شرحبيل بن حسنة فإنه تولى قيادة جيش المسلمين عند ذهاب خالد إلى المدينة. فبدلاً من أن ينتظر ورود خالد أسرع إلى مقاتلة الحنفيين فانكسر.

ولما قدم خالد البطاح كان جيش المسلمين مرابطاً فيها، وكانت قبائل بني تميم عرضت الولاء إلا البعض منها فالتجأ إلى اليمامة. وكان بنو طيء وبنو أسد وبنو غطفان وبعض بني تميم أمدوا جيش المسلمين بالمقاتلين.

أما مسيلمة فإنه جهز عدداً كبيراً من بني حنيفة وتقدم شمالاً يريد مقابلة جيش خالد. وتدل الأخبار إلى أن بعض الحنفيين كان يخابر المسلمين سراً ويطلع خالد على موقف مسيلمة. ومن الروايات ما يؤيد أن الحنفيين الذين حافظوا على إسلامهم تحفزوا للشغب على مسيلمة.

الطريق الذي سلكه خالد

هناك طريقان للتقدم من البطاح نحو اليمامة: طريق شرقي وطريق غربي. أما الطريق الشرقي فيتجه شرقاً أولاً ثم يمتد إلى سفح جبل طويق الغربي متوجهاً إلى الجنوب الشرقي ماراً بالأرض الجبلية، وهو الطريق الذي يصل بريدة بالزلفى ثم يمتد إلى المجمعة ومنها إلى الحوطة فثادق فسدوس؛ أما الطريق الغربي فيتوجه نحو الجنوب الشرقي فيمر بين نفود السر ونفود الشقيقة إلى أن يصل إلى الشقرة عاصمة الوشم ومنها يمتد موازياً لسفوح جبل طويق الغربية فينعطف نحو الشرق ويتسلق الجبال ويمر بثنية اليمامة حيث ينبع وادي حنيفة في غربي عينة فينتهي في عقرباء ويدخل اليمامة.

والذي يلوح لنا أن خالداً سلك الطريق الغربي لاجتيازه أرضاً سهلة تجعل المدينة في ظهره. أما الطريق الشرقي فيخترق أرضاً جبلية وعرة. وقد تعرقل عليه المسير إذا أراد أهلها المقاومة فضلاً عن أنه طويل.

ومن الأخبار ما ينبئ بأن طليعة جيش المسلمين باغتت بعض رجال مسيلمة في ثنية اليمامة - أي في عقبة الحيسية وهو المضيق الواقع إلى شرقي الحيسيان بين خشم الحيسية وخشم الخرشة وفيه تنقسم مياه الأمطار، فمنها ما يصب إلى الشرف ويجري في وادي حنيفة ومنها ما يصب إلى الغرب ويجري في بطن الحور.

ومن جملة الأسباب التي تجعل خالداً يميل إلى سلوك الطريق الغربي قربه من قاعدة الحركات أي المدينة. فإذا ما نكب الجيش يصل إليه المدد من خلفه، وإذا ما تضايق يستطيع الإنسحاب إلى المدينة أو إلى مكة من بلاد أسد وغطفان، أو من بلاد بني عامر

.وهوازن. لذلك نجزم بأن جيش المسلمين سلك ذلك الطريق في مسيره نحو اليمامة
معركة عقرباء
يقيناً أن معركة عقرباء من المعارك الفاصلة التي ختمت دوراً وفتحت دوراً آخر. فالمسلمون جمعوا أقصى قوتهم بقيادة أمهر قوادهم. والمرتدون حشدوا أعظم قوة في استطاعتهم جمعها في أوعر منطقة. فمجرى المعركة يدل على الغاية التي كان يستهدفها كل من الفريقين.
فلو انكسر المسلمون، لا سمح الله، في هذه المعركة، لبقي العرب منزوين في جزيرتهم، واحتفظ الأكاسرة بملكهم في العراق، ولم يبك هرقل ضياع سورية. فالنبي الكاذب أسود العنسي الذي سيطر على اليمن مدة من الزمن قتل غيلة، فلم يضطر المسلمون إلى حشد قوة كبيرة للتغلب عليه. أما بنو أسد فلم يكن الصعب التغلب عليهم لتفرقة كلمة القبائل. بيد أن في عقرباء احتشدت أعظم قوة من أمنع قبيلة في أرض مستحكمة. وكان الناس يقاتلون عن حيهم، ويتفانون في سبيل نبيهم.
ولما انتهت المعركة بانتصار المسلمين انكسرت مقاومة المرتدين في الأقطار الأخرى، ولم يلاق المسلمون صعوبات في تمكين الإسلام من قلوب أهلها، فخضعت البحرين، ودانت عمان ومهرة بدين الإسلام، وجددت حضرموت إسلامها، وعادت اليمن إلى حضيرة الإسلام. وكان من أثر ذلك أن اجتمعت كلمة العرب فشعروا بقوتهم فبادروا إلى الفتوح بقيادة رؤسائهم، فاندفعوا كالسيل الجارف يثلون العروش ويقضون على إمبراطورية الأكاسرة ودولة القياصرة، فلم تمر بضع سنوات على ذلك حتى كان العرب يصولون بخيولهم في بلاد خراسان شرقاً وبلاد المغرب غرباً.
يتبع
طه الهاشمي
في الأدب الدرامي
الرواية المسرحية - 15
في التاريخ والفن
بقلم: أحمد حسن الزيات
تتمة
' الغنائية (الأوبرا
الغنائية
الغنائية هي درامة شعرية جدية أو هزلية تؤلف من الغناء والإنشاد وتأبى الحوار الكلامي، وتقبل الخوارق كالأشباح والأرواح والهواتف، وتوقع على أنغام الموسيقى، وتختلط أحياناً بالرقص، وتعنى كل العناية بالزينة والرياش. وهي غاية ما وصل إليه الجمال الفني والذوق الإنساني، لأنها مجمع الفنون الجميلة ومظهر الآداب الجليلة ومتعة النفوس ولذة الحواس بما تفيضه على العيون والآذان والأذهان من جميل الصور وحلو النغم ورائع الشعر، بله ما تقتضيه من كمال الفن الآلي لإحداث الخوارق وتغيير المناظر. فهي ولا ريب أفصح الألسنة إبانة عما بلغته القرائح من النبوغ وأدركته الفنون من النضوج في عصرها الذي مثلت فيه.
على أن قوام الغنائية وفروعها هو الموسيقى والمناظر، فهي تنزل الكلام والحادث والتعقيد في المحل الثاني منها. لذلك لا تجد كلامنا عنها إلا إجمالاً يكاد يقفك عند التعريف والتقسيم. وقبل أن نأخذ في تقسيم الغنائية يحسن بي أن أنقل إليك ما قاله في هذا الصدد الفيلسوف ابن رشد في تلخيصه كتاب الشعر لأرسططاليس. وما قاله لا يدخل في موضوعنا إلا من الباب التاريخي. وهذا الملخص قد طبعه الأستاذ المستشرق (لاريجو) بمدينة فلورنسا سنة 1873 قال: (المحاكاة في الأقاويل الشعرية تكون من قبل ثلاثة أشياء: من قبل النغم المتفق، ومن قبل الوزن، ومن قبل التشبيه نفسه. وهذا قد يوجد كل واحد منها منفرداً عن صاحبه مثل وجود النغم في المزامير، والوزن في الرقص، والمحاكاة في اللفظ، أعني
الأقاويل المخيلة الغير موزونة. وقد تجتمع هذه الثلاثة بأسرها مثل ما يوجد عندنا في النوع الذي يسمى الموشحات والأزجال، وهي الأشعار التي استنبطها في هذا اللسان أهل هذه الجزيرة أي الأندلس).
ولا مرية في أن أعاريض الموشحات والأزجال أنسب لنظم الغنائيات من سائر بحور

الشعر لحلاوة نغمتها وسهولة توقيعها وتنوع قوافيها.
فالغنائية تنقسم باعتبار تلحينها إلى أجزاء نسردها لك دون أن نعرض لها، لأنها ليست من شأننا ولا مما يدخل في علمنا. وهي الافتتاح، والمقدمة، والإنشاد، والألحان، والمثاني، والمثالث، والمرابع، والمخامس، والخورس، والختام في نهاية كل فصل. فالافتتاح ما يسبق رفع الستار، والمقدمة ما يهيئ للعمل؛ والإنشاد نوع من الغناء يحل محل الحوار الكلامي دون أن يتقيد بوزن، والمثاني والمثالث والمرابع والمخامس قطع يزدوج فيها الصوت أو يثلث أو يربع أو يخمس، والخورس ما فوق ذلك. على أن اجتماع هذه الأجزاء ليس ضرورياً ولا جوهرياً. فالملحن يستطيع أن يغفل منها ما لا يتفق مع الرواية.
ثم تنقسم الغنائية باعتبار تأليفها إلى غنائية جدية، وهي ما كان موضوعها سامياً وعملها رائعاً وأداؤها غنائياً كله. فلا تجيز الحوار النثري وإنما تستبدل به الإنشاد، وغنائية هزلية وهي ما تجيز الحوار النثري في خلال القطع الغنائية.
' الغنائية الجدية
ليس من اليسير أن تجد لهذه الغنائية تعريفاً جامعاً لتنوعها وتفرعها، واختلاف الرأي فيها بين الفرنسيين والإيطاليين؛ فإن لكلا الشعبين نظرية فيها سار عليها ودعا إليها. ولعلنا إذا ذكرنا النظريتين تستطيع أن تقف منهما على موضوع الغنائية ومداها.
فالنظرية الفرنسية زعيمها (كينو) وهي مبنية على تقليد الملحمة في استعمال الخوارق والأعاجيب وتنوع المناظر وتعدد الصور، ونقل كل ذلك إلى عين الناظر كما تنقله الملحمة إلى ذهن القارئ. فقد يكون التأليف كله مختلقاً غريباً، ولكن في هذا الاختلاق إتفاقاً واتساقاً تنتج منهما الحقيقة، كما أن الموسيقى تظهر جمال الخوارق، والخوارق تبين إمكان الموسيقى. فأنت في جو جديد يجمع بين عالم الغيب وعالم الشهادة، ويضيف إلى جمال الخيال سحر الطبيعة، وذلك كله يسير في انسجام والتئام ودقة. أما العمل الروائي فواضح
يسهل عقده وحله، والحوادث يتوالد بعضها من بعض، والأهواء رقيقة تشتد حيناً ثم ترق، والأخلاق ساذجة، والمناظر متنوعة، والجاذبية قوية مؤثرة، ولكنها تتراخى أحياناً فتخفف عن الأعصاب وترفه عن النفوس.
تلك هي غنائية (كينو) ونظريته: يجمع كل ما يستطيع من الوسائل ليخلب السمع ويبهر البصر؛ وهو لذلك يستمد موضوعاته من الأساطير والسحر، فيملأ المسرح بالأعاجيب والصور، ويهيئ لنفسه الانتقال من الأرض إلى السماء ومن الجنة إلى النار مهيمناً على الطبيعة مستولياً على الوهم فاتحاً للمأساة طريق الملحمة، ليجمع بين فضائل النوعين، ويوفق بين مرمى القصيدتين.
ومزية هذه الطريقة الخرافية أن تكفي الشاعر مؤونة التفصيلات الدقيقة التي تطلبها الحقيقة، فإن الموضوعات التاريخية تقتضي جلاء الغامض وتعليل الحوادث وتقريب البعيد وإمكان المستحيل.
أما النظرية الإيطالية فزعيمها (ميتا ستاز) وهي مبنية على محاكاة الطبيعة وتوخي التأثير والبلوغ بالمحزنات الفواجع إلى حد لم تبلغه المأساة. فهو يكسو الأفق بالسواد، ويصبغ المسرح بالدم، ويسرع بحركة العمل وهو مغرق في الإشارة والإثارة بروعة الأداء وحدة الهوى. وفضل هذه النظرية على الأولى ظاهر في قوة الأثر ودقة المواقف وجمال الحقيقة وسهولة الإمكانية. لذلك عني الشعراء والموسيقيون بالتوفيق بين النظريتين والجمع بين الطريقتين ليدركوا مزايا هذه وتلك. فهم يمزجون الصور العجيبة بالرهيبة، والمواقف الطريفة بالعنيفة، والمناظر التي تسحر العين بالتي تخلب اللب.
على أن الغنائية ليست مقصورة على الخوارق والمحزنات، وإنما تتناول الأناقة الحضرية والحياة الريفية والخلق الفكه والهزل المضحك، على شرط أن يتسق كل ذلك في طبيعة حية وحركة قوية وتنوع جاذب.
' الغنائية الهزلية
أما الغنائية الهزلية فاسم يطلق اليوم على درامة جدية الموضوع فكهة الأسلوب، تخلط الغناء الشعري بالحوار النثري، وتعنى بتعقيد العمل الروائي. ومنشأ هذا النوع كان في مستهل القرن السابع عشر، ظهر أولاً في شكل ملهاة غنائية كانت تمثل في سوقين

شهيرتين: (سان جرمان) و (سان لوزان). ثم أخذ مع الزمن يقترب من الغنائية الجدية بتغليب جانب الموسيقى والغناء حتى لم يبق بينهما اليوم إلا فروق سطحية شكلية أهمها الأسلوب الفكاهي. فإطلاق هذا الاسم على الغنائية التي لا نصيب للهزل فيها إطلاق غير صحيح، لأن الغنائية إنما وضعت في الأصل للدلالة على كل عمل موسيقي، ولا سيما العظيم الجدي منه. فإضافتهم صفة الهزل إليها دليل على أنهم يريدون بها عملاً أقل في العظمة، وأقرب من الهزل، وأقبل للحوار النثري. ويؤيد هذا الرأي أن الغنائية الهزلية أو الابراكوميك سليلة المهزلة (الفودفيل) ولا يفرق بينهما إلا أن ألحان المهزلة كلها معروفة مألوفة من قبل ثم تقتبس لأوزان جديدة تؤلف للرواية. أما ألحان الغنائية الهزلية فهي مصنوعة لأوزانها خاصة، ولذلك كان شعرها محكم الرصف بديع الوصف، يقوم عليه الشطر الأكبر في نجاح الرواية.

وغبرت الغنائية الهزلية حقبة من الدهر وهي خاضعة لسلطان المهزلة فلا تستطيع أن تتجاوز مداها، ولا أن ترتفع عن مستواها، وإنما كانت تستعير أساليبها الحية، وأناشيدها الطلية حتى جرؤ الملحنون على أن يطلبوا إلى المؤلفين أن يوسعوا الدائرة القديمة، وأقدموا هم أيضاً على ابتكار ألحان جديدة، واقتباس بعض المثاني والمثالث والأشكال من الغنائية الجدية ما دامت تتصل بها وتتعلق بسببها، فلما صارت الغنائية الهزلية فناً أدبياً وعملاً روائياً حقيقياً أصبح الكاتب يضع روايته حراً من كل قيد، ثم يدفعها إلى الملحن فيختار لها فكرة موسيقية تقوي التعبير عن الغرض. وهم اليوم يميلون إلى تقليل الحوار وتكثير الغناء، ورد هذا النوع إلى شكل لا يكون معه إلا درامة غنائية وملهاة غنائية لا يدخل فيها ما ليس منها حتى لا يقول فيه القائلون اليوم أنه نوع مزيف، وحتى لا يصفه (تيوفيل جوتييه) (بأنه سفيح قبيح، قد خلط بين وسيلتين متباينتين من وسائل التعبير، فجعل الممثلين يسيئون الغناء بحجة أنهم ممثلون، والمغنين يسيئون التمثيل بحجة أنهم مغنون).

على أنه بالرغم من هذا النقد الوجيه يستحق العناية والتأييد، لأنه سبب واصل بين ذوق العامة وذوق الخاصة، ودرج صاعد بالجمهور إلى الفن الموسيقي فيرفعه من حضيض (الفودفيل) إلى أوج (الأبرا).

وهنا نقف القلم معتقدين أن فيما بسطناه من قواعد الفن الدرامي بلاغاً للكاتب الشأن وسداً لنقص البيان العربي في هذا الباب.

الزيات

1 - محاورات أفلاطون

معذرة سقراط

ترجمة الأستاذ زكي نجيب محمود

تمهيد

كان أفلاطون فيلسوفاً فناناً على بعد ما بين الفن والفلسفة، فقد دون أراءه كلها في أسلوب الحوار الذي بلغ من الدقة والجمال حداً وضعه في أسمى مراتب الفن. ونحن إذ نتقدم إلى القراء بهذه الترجمة لمحاوراته، إنما نلتمس العفو عما قد تصاب به تلك الآيات البينات من تشويه. على أن القارئ إذا فقد جمال الأسلوب فلن تضيع منه بإذن الله دقة المعنى وأمانة النقل.

وهذا الحوار الذي نترجمه لك اليوم، كتبه أفلاطون ليصور به دفاع سقراط عن نفسه يوم محاكمته بتهمة الإلحاد وإفساد الشباب. ولسنا ندري إلى أي حد تطابق هذه الصورة الأفلاطونية الحقيقة الواقعة. هل احتفظ أفلاطون بألفاظ سقراط نفسها أم ما يقرب منها؟ أم أنشأها إنشاء ليعبر بها عما كان يجب أن يكون من سقراط في دفاعه؟ أم هي قصة جمعت بين الطرفين، فأثبتت ما قيل وأضافت إليه ما كان يجب أن يقال؟ وسواء أكانت هذه أم هذه أم تلك، فهي على كل حال تصور روح سقراط في الحديث تصويراً دقيقاً، وتحلل نزعته تحليلاً بارعاً، فلا يسع القارئ وهو يقرأ هذا الحوار الذي دبجته براعة أفلاطون إلا أن يعتقد اعتقاداً جازماً بأنه إنما يتلو عبارة تحركت بها نفس سقراط وجرى بها لسانه؛ فشخصيته بارزة في كل سطر من سطوره بروزاً لا يخطئه النظر، فأنت ترى لمحات من التهكم اللاذع الذي امتاز به سقراط في حديثه، وأنت تلاحظ روح التحدي جلية واضحة، والتحدي طابع معروف في شخصية سقراط. وسنرى

كذلك في هذا الحوار تفككاً فلا تتصل أجزاؤه بصلة من منطق قوي، فكأنما أراد أفلاطون بهذا أن يكون أميناً في الصورة التي يقدمها عن سقراط؛ فسقراط لم يكن في حياته يعنى بمنطق الحديث. فهو إذا بدأ حواراً مع آخر لا يلبث أن يشعبه باستطراده من ناحية، وبالأسئلة العرضية التي يطرحها مناقشوه أثناء الحديث من ناحية أخرى، فيخرج الكلام آخر الأمر، وليس فيه وحدة تربطه أوله بآخره.

وقد تعمد أفلاطون في هذا الحوار أن يسوق إلى القارئ أبرز ما حدث لسقراط في حياته ليكون عنه فكرة متصلة، وقد كان أفلاطون في ذلك قديراً ماهراً، حتى لا يكاد يشعر القارئ أن تلك الحوادث أضيفت إضافة مدبرة، بل جاءت عفواً كما اقتضى منطق الحديث.

يبدأ سقراط في هذا الدفاع، أو إن شئت تعبيراً دقيقاً فقل يبدأ أفلاطون في دفاعه عن سقراط، بأن قسم المتهمين إلى قسمين: الرأي العام من ناحية، وطائفة من الأشخاص النابهين من جهة أخرى؛ ثم لخص للقضاة نقط الاتهام، وأخذ يفندها واحدة فواحدة. وعلى الرغم من هذا فقد حكم عليه بالموت. ولما طلب إليه أن يقترح حكماً - كما جرت بذلك عادة القضاء الأثيني - لتقف المحكمة موقفاً وسطاً بين الحكمين، أجاب في تهكم لاذع وحكمة نادرة. وانتهى الأمر وقضي عليه بالموت.

نص الحوار

لست أدري أيها الأثنيون كيف وقعت من نفوسكم خطب متهمي، أما أنا فقد أحسست لكلماتكم الخلابة أثراً قوياً أنسيت معه نفسي وإنهم لم يقولوا من الحق شيئاً. ولشد ما دهشت إذ ساقوا في غمر باطلهم نذيراً لكم أن تكونوا على حذر فلا تخدعكم قوة فصاحتي. يا خجلتهم مما يزعمون! فإذا نبست ببنت شفة نهضت لكم دليلاً على عي لساني وافتضح أمرهم، وإنهم بذلك عالمون، ولكنهم يمارون ولا يخجلون. أم تراهم يطلقون الفصاحة على قوة الحق؟ إذن لأشهدت أني مصقع بليغ. . ألا ما أبعد الفرق بيني وبينهم! فهم كما أنبأتكم لم ينطقوا كلمة صدق ولم يقولوا إلا كذباً، أما أني فخذوا الحق مني صراحاً، ولن أصوغها عبارة منمقة كما فعلوا، ولكني سأسوق الحديث إليكم عفو ساعته، ولست أشك في أنه الحق. فلن أقف يوماً بينكم أيها الأثنيون موقف الخطيب ما دمت حياً، فلا يرجن الآن أحد مني خطاباً، وعلي أظفر منكم بهذا الفضل: إن جاءت في دفاعي كلمات قلتها من قبل، وسمعها بعضكم في الطريق أو عند موائد الصيارفة أو في أي مكان آخر، فلا تدهشوا ولا تقاطعوا الحديث، لأنني أقف - وقد نيفت على السبعين عاماً - للمرة الأولى في ساحة القانون، فلم آلف هذا المكان، ولم أتعود تقاليده وطرائقه، فانظروا إلي نظركم إلى الغريب تلتمس له المعذرة لو جرى لسانه بلغة قومه ولهجة وطنه. وما احسبني بذلك أطلب شططاً، فدعكم من عباراتي وقبحها، وانظروا في عدالة القضية وحدها، وإذا حكم منكم قاض فليحكم بالعدل، وإذا نطق متكلم فلينطق بالحق.

ولأبدأ أولاً برد اتهام الطائفة الأولى من المدعين، ثم أستطرد إلى دعوى الفريق الثاني؛ فلقد اتهمني من قبل نفر كثير ولبثت دعاواهم الباطلة تتردد أعواماً طوالاً، وإني لأخشاهم أكثر من هذا الرجل (أنيتس) وعصبته، وإن كيدهم لعظيم، ولكن أولئك الذين نهضوا إذ كنتم أطفالاً فملكوا ألبابكم بأباطيلهم لأشد من هؤلاء خطراً، فهم يحدثونكم عن من يسمى سقراط أنه حكيم يسبح بفكره في السماء، ثم يهوي به إلى الغبراء، وأنه يخلع على الباطل رداء الحق. أولئك هم من أخشى من الأعداء، فقد أذاعوا في الناس هذا الحديث، وما أسرع ما يظن الدهماء أن هذا الضرب من المفكرين كافر بالآلهة. كثيرون هم أولئك المدعون، ودعواهم قديمة العهد، نشروها حين كنتم في سن الطفولة أو الشباب ألين انطباعاً. ولم يكادوا ينطقون بالدعوى حتى انطلقت تحمل عني في ذيلها السوء دون أن تجد لها مفنداً. وأهول من ذلك كله أن لبثت أسماؤهم مجهولة لا أعلمها لولا ذلك الشاعر الهازل الذي ساقته الظروف. وإنه لمن العسير أن أتحدث إلى أشخاص هؤلاء الهجائين الذين نفذوا إلى نفوسكم بما يحملون من ضغينة وحقد، صدر فيها بعضهم عن عقيدة، ثم ألقوا بذورها في قلوب الآخرين؛ فلا أستطيع أن أدعوهم إلى هذا المكان لأستجيبهم، فأنا إن دافعت الآن فإنما أدافع أشباحاً، وأستجيب حيث لا مجيب. وإني لأرجو أن تقبلوا ما فرضته لكم من قبل بأن الأعداء

صنفان: فطائفة حديثة العهد وأخرى قديمته، وأحسبكم ترون صواب رأيي في أن أبدأ بالرد على هذه الطائفة الأخيرة، فدعواها أكثر عهداً وأكثر تردداً.
وبعد، فهاكم دفاعي، ولعلي أستطيع في هذه البرهة القصيرة التي تفضلتم بها أن أمحو شائعة السوء التي قرت عني في أذهانكم طوال هذا الزمن، وعسى أن أصيب توفيقاً إن كان في التوفيق خير لي ولكم، ولعل كلماتي تصادف منكم قبولاً حسناً. فأنا عليم أني مقدم على أمر عسير، وإني لأقدر مهمتي حق قدرها، فليقض الله بما يريد. وها أنذا أبدأ دفاعي طوعاً للقانون.
واستهل الحديث بهذا السؤال: أي ذنب جنيت حتى حامت حولي الشبهات فاجترأ مليتس أن يرفع أمري للقضاء؟ ماذا يقول على دعاة السوء؟ هاكم خلاصة ما يدعون: (قد أساء سقراط
صنعاً، وهو طلعة يصعد البصر إلى السماء وما تحوي، ثم ينفذ به تحت أطباق الثرى، وهو يلبس الباطل ثوب الحق، ثم أنه يبث تعاليمه في الناس) تلك هي جريرتي، وقد شهدتم بأنفسكم في ملهاة أرستوفان كيف اصطنع شخصاً سماه سقراط جعله يجول قائلاً إنه يستطيع أن يسير في الهواء، وأخذ يلغو في موضوعات لا ازعم أني أعرف عنها كثيراً ولا قليلاً - لست أقصد بهذا أن أسئ إلى أحد من طلاب الفلسفة الطبيعية - ولكن شد ما يسوؤني أن يتهمني بها ملتيس. أيها الأثنيون! الحق الصراح أني لا أتصل بتلك الدراسة بسبب من الأسباب، ويشهد بصدق قولي كثير من الحضور، فإليهم أحتكم. انطقوا إذن يا من سمعتم حديثي وأنبئوا عني جيرانكم، هل تحدثت في مثل هذه الأبحاث كثيراً أو قليلاً؟ أنصتوا إلى جوابهم لتقطعوا بصدقي مما يقررون.
أما القول بأني معلم أتقاضى عن التعليم أجراً فباطل ليس فيه من الحق أكثر مما في سابقه، على أنني أمجد المعلم المأجور إن كان معلماً قديراً. فهؤلاء جورجياس الليونتي وبروديكوس الكيوسي وهبياس الأليزي يطوفون بالمدن يحملون الشباب على ترك بني وطنهم الذين يعلمونهم ابتغاء وجه الله ليسعوا إليهم، فلا يؤجرونهم وكفى، بل يحمدون لهم ذلك الفضل العظيم. ولقد أتاني نبأ فيلسوف من بارا يقيم في أثينا، حدثني عنه رجل صادفته، قد بذل للسوفسطائيين مالاً طائلاً، هو كالياس بن هبونيكوس. ولما أنبأني أن له ابنين سألته: لو كان ابناك يا كالياس حمارين أو بقرتين لما شق عليك أن تجد لهما مدرباً، فما أهون أن تستخدم مدرب الخيول أو فلاحاً يقومهما ويبلغ بهما حد الكمال في حدود فضيلتهما، ولكنهما إنسانان من البشر، فمن ذافكرت أن يكون لهما مؤدباً؟ أثمت من يدرك فضيلة الإنسان وسياسة البشر؟ حدثني فلا بد أن تكون قد تدبرت الأمر ما دمت والداً. فاجاب: (نعم وجدت. فسألته: من هو ذا وأين موطنه وكم يؤجر؟ فأجاب هو أفينس الباري وأجره خمسة دراهم) فقلت في نفسي: (أنعم بك يا أفينس إن كنت تملك هذه الحكمة حقاً، وتعلمها بمثل هذا الأجر الضئيل، فلو كانت لدي لزهيت وأخذني الغرور، ولكني بحق أيها الأثنيون - لا أعلم من تلك الحكمة شيئاً).
رب سائل منكم يقول: (وكيف شاعت عنك تلك التهمة يا سقراط إن لم تكن قد أتيت أمراً إداً؟ فلو كنت فرداً كسائر الناس لما ذاع لك صوت ولا دار عنك حديث. أنبئنا إذن بعلة هذا
إذ يؤلمنا أن نحكم في غير صالحك) وإني لأحسب هذا تحدياً رقيقاً، وسأحاول أن أوضح لكم لم دعيت بالحكيم، ومن أين جاءتني الأحدوثة السيئة، فأرجوا أن تنصتوا لقولي، ولو أن بعضكم سيظن بي الهزل، ولكني اعترف أنني لن أقول إلا الحق خالصاً. أيها الأثنيون! إن لدي ضرباً معيناً من ضروب الحكمة، كان مصدر ما شاع من أمري، فإن سألتموني عن هذه الحكمة ما هي؟ أجبت أنها في مقدور البشر، والى هذا الحد فأنا حكيم. أما أولئك الذين كنت أتحدث عنهم فحكمتهم معجزة فوق مستوى البشر، لا أستطيع أن أصفها لأنني لا أملكها، ومن ظن أنها لدي فقد ظن باطلاً، وكان أشد ما يكون بعداً عن حقيقتي. أيها الأثنيون! أرجو أن لا تقاطعوني ولو بالغت في القول، فلست قائل هذا الذي أرويه لكم، ولكني سأنيب عني شاهداً جديراً بالثقة، ليحدثكم عن حكمتي - فسينبئكم هل أملك من الحكمة شيئاً؟ وإن كنت أملك، فما نوعها؟ - وأعني بذلك الشاهد إله دلفي. إنكم ولا ريب تعرفون (شريفون)، فهو صديقي منذ عهد الصبا، وهو صديقكم مذ ظاهركم على نفي من نفيتم ثم أعاد أدراجه معكم. كان شريفون كما

تعلمون صادق الشعور في كل ما يعمل، فقد ذهب إلى معبد دلفي وسأل الراعية في جرأة لتنبئه - وأعود فأرجو أن لا تقاطعوني - سأل الراعية لتنبئه إن كان هناك من هو أحكم مني، فأجابت النبية أن ليس بين الرجال من يفضلني بحكمته. لقد مات شريفون، ولكن أخاه وهو في المحكمة بيننا، يؤيد صدق ما أروي.

وفيم أسوق إليكم هذا الخبر؟ ذلك لأنني أريد أن أتقصى لكم علة ما ذاع عني من سوء الذكر. لما أتاني جواب الراعية، قلت في نفسي: ماذا يعني الإله بهذا؟ إنه لغز لم أفهم له معنى! أنا عليم أن ليس لدي من الحكمة كثير ولا قليل، فماذا عساه يقصد بقولي أنني أحكم الناس؟ ومع ذلك فهو إله يستحيل عليه الكذب، لأن الكذب لا يستقيم مع طبيعته. ففكرت وأمعنت في التفكير، حتى انتهيت آخر الأمر إلى طريقة أحقق بها القول. اعتزمت أن أبحث عمن يكون أحكم مني، فإن صادفته أخذت سمتي نحو الإله لأرد عليه ما زعم، فأقول له: (هاك رجلاً أكثر مني حكمة، وقد زعمت أني أحكم الناس). لهذا قصدت إلى رجل من الساسة - ولا حاجة بي إلى ذكر اسمه - فقد عرف بحكمته، وامتحنته فانتهيت إلى النتيجة الآتية: لم أكد أبدأ معه الحديث حتى قرت في نفسي عقيدة لا تمحى بأنه لم يكن حكيماً حقاً،

على الرغم من شهادة الكثيرين له بالحكمة، وعلى الرغم مما ظنه هو نفسه في حكمته، وقد جاوز به الغرور شهادة الشاهدين، فحاولت أن أقنعه بأن وإن يكن قد ظن في نفسه الحكمة، إلا أنه لم يكن بالحكيم الحق، فأدى به ذلك إلى الغضب مني، وشاطره في غضبه كثيرون ممن شهدوا الحوار وسمعوا الحديث، فغادرته قائلاً في نفسي: إني وإن كنت أسلم أن كلينا لا يدري شيئاً عن الخير والجمال. فإنني أفضل منه حالاً، لأنه يدعي العلم وهو لا يعلم شيئاً، وأما أنا فلا أدري ولا أزعم أنني أدري - ولعلي بهذا أفضله قليلاً. ثم قصدت إلى آخر، وكان أعرض من سابقه دعوى في الفلسفة، فانتهيت معه إلى النتيجة نفسها، وعاداني هو الآخر، وأيده في موقفه عدد كبير.

يتبع

زكي نجيب محمود

كتاب الأوراق

وخطره في كتابة التاريخ

بقلم: محمد طه الحاجري

في ذمة الأدباء من أهل هذه اللغة الكريمة للأدب العربي من ناحية، وللروح العلمية السائدة من ناحية أخرى، دين لا معدل لهم عن أدائه، ولا مترخص لهم في الوفاء به، إذ كان مرجع الأمر فيه شخصيتهم المعنوية التي يظهرون بها، والى كيانهم الأدبي الذي لا حياة لهم من دونه، والى شعورهم بالروح العلمية المتغلغلة في كل عناصر الحياة ومظاهر الوجود. ثم هو متصل فوق هذا بالقومية التي نفاخر بها ونحرص على توثيق عراها وتقوية أسبابها. ذلك هو العناية بتاريخ هذا الأدب الذي تمده خمسة عشر قرناً عناية تظهر، فيما أحسب، في كتابة هذا التاريخ، وإقامته على أسس قوية من أساليب البحث العلمي، ومناهج النقد الأدبي، والتبسط في ذلك بما يطوعه الجهد الواسع، والنفس الممتد، والعزيمة القوية، والروح العلمية المتبصرة، والرغبة المتوثبة في إقامة كياننا المصري على أقوى ما تفاخر به الشعوب وتعتمد عليه الأمم، فما أحسب أن أدب أمة من الأمم بلغ من سعة المادة، وامتداد العمر، ومجاراة الحية، ومساوقة الزمن ما بلغه الأدب العربي، ثم لا أحسب أن أدب أمة من الأمم مني بما مني به هذا الأدب من إغفال أهله أن يقيموه على أسس هذا العصر.

فتاريخ الأدب عندنا علم حديث النشأة، غض التكوين، لا يكاد يرجع ميلاده إلى ما وراء الجامعة الأولى، ولا يكاد يثبت في طريقه لما يحتوشه من أسباب الضعف، وما يعوزه من عناصر الحياة، وما يحيط به من شتى العوامل التي تثبطه وتصده وتحمل عليه بما لا يحتمله الجلد القوي بله الضعيف الواهن، وإنما هي القوى الذاتية التي تمسكه، فمن أقدس الواجبات علينا لقاءه أن نمكن له الحياة، وأن نوفر له العناصر التي يقوم بها كيانه الصحيح، وهي تتلخص في أمرين لابد منهما: تقرير الأسلوب العلمي، واستجماع المادة التي يتكون منها تاريخ الأدب العربي.

أما أول الأمرين فقد كفانا مؤونته الأستاذة الأجلاء الذين شقوا لنا ذلك الطريق، ووضعوا أمامنا معالم البحث العلمي، وبصرونا بمناهج النقد والتمحيص والموازنة وما

إلى ذلك.
أما المادة التاريخية فهي العنصر الأول في كتابة التاريخ، وكلما توفرت لدى الباحث، واتسعت نواحيها، وتنوعت أبوابها، وتعددت مذاهبها، وكثرت الأيدي التي تقدمها، وأخذت تضرب في شتى جهات الحياة، وتتناول الأطراف المختلفة، كان المؤرخ أكثر توفراً على بحثه، واستضاء أمامه العصر الذي يؤرخه، فأخذ يصفه وصفاً أشبه باليقين، ويقرر التيارات الأدبية فيه تقريراً أقرب إلى الحقيقة، بعد أن يكون قد نظر في أجزاء هذه المادة نظر الناقد البصير، فجعل يوازن بينها، ويقارن بين مختلف أجزائها، وليكن هناك ما يكون من التناقض في الروايات، والتضارب بين الأقوال فذلك، فيما أحسب، أدعى إلى استبطان الحقيقة المستكنة في ثنايا هذه الاختلافات، وأقرب بالباحث إلى ثلج الصدر وبرد اليقين.
والأدب العربي يملك من هذه الناحية ثروة طائلة بالرغم من عوادي الزمن، والنكبات التي أصابت المكتبة العربية في مناسبات مختلفة، ولكنها ثروة ضائعة لا تجد من يستغلها إلا قليلاً، إذ لم يقدر لها من ينشرها من قبورها، ويبعث فيها الحياة التي تعرفها، حتى يستطاع استغلالها، وإنما هي جهود ضئيلة بالنسبة إلى عظم العمل وجلال التبعة.
ولقد تقدمنا الفرنجة في هذا السبيل حتى أخجلونا وأبهظوا عاتقنا بفظلهم، وضربوا لنا خير الأمثال بما نشروا من كتب، وما قاموا به عليها من عناية بتصحيحها وفهرستها ومقارنتها، في تواضع العالم المخلص، وهدوء الباحث المستبصر. فدلوا بهذا على روح علمية ثابتة الأساس، ومعرفة حكيمة بطرائق البحث الصحيح.
لست الآن بصدد البحث عن جهود المستشرقين العظيمة المتوالية في سبيل الأدب العربي، وإنما سبيلي الآن أن أتحدث عن كتاب من خيرة الكتب التي كادت تتلاشى في غمار القرون وثنايا النسيان وعوادي الإهمال، فنشره مستشرق ناشئ، هو المستر هيورث دن، وخلع عليه هذا المظهر الذي تتجلى عليه الروح العلمية في بهائها ورونقها وجلالها. ذلك هو كتاب الأوراق لأبي بكر محمد بن يحيى الصولي المتوفى سنة 335.
والصولي إمام من خير أئمة الأدب، وكاتب من أفضل الكتاب الذين تزدهر بهم تلك الفترة من الزمن، وعالم ضليع غزير المادة، جيد الرواية، يروي عنه أبو الفرج كثيراً في أغانيه، وأستاذ جليل تخرج عليه كثير من رجالات ذلك العصر مثل أبي عبد الله محمد بن عمران المزرباني، وهمك من رجل وناهيك من عالم. وقد ترك ثروة كبيرة من الكتب الجليلة في قيمتها الأدبية والتاريخية، نقرأ بياناتها في كتب الفهارس، ثم ننطوي على أنفسنا حسرة
وأسفاً على ذلك الكنز الذي طاحت به الطوائح. ولا أحسب أنه قد بقي لنا منه إلا هذا الكتاب الذي عني به المستر دن هذه العناية، وكتاب آخر في أدب الكتاب نشره منذ عشر سنوات العلامة الأثري المرحوم علي بهجت. وكان كتاب الأوراق في حكم تلك الكتب التي لا نعلم شيئاً عن مصيرها، لولا تلك الروح العلمية المتوثبة التي حفزت ذلك الشاب العالم على إخراجه للناس في ثوب علمي جليل، ومعاناة تحقيقه وتمحيصه ومقارنة رواياته، فأضاف بذلك إلى المادة التاريخية لعصر بني العباس ما هو جدير أن يضئ الطريق أمام الباحث المؤرخ في كثير من مجاهل هذا العصر ومسائله الملتوية الغامضة.
وقد نجد في ترجمة الصولي كلاماً مختلف الأطراف بين مدح وقدح، وتقدير وتشهير، ولكننا لا نشك، إذ نقرأ كتابه (الأوراق) أنه كان رجلاً عالماً يمثل الروح العلمية خير تمثيل، ويضعها فوق كل اعتبار، متثبتاً على طريقة عصره في النقد والرواية، لا يميل مع الهوى، ولا يذهب مع الخواطر، ولا يقف دون النقد والمقارنة والتمحيص.
عرض في أثناء حديثه عن أحمد بن يوسف إلى رواية تحدث ابن طيفور عنه بها، وخلط فيها، فلم يدعها الصولي تمر دون أن ينقدها بما طوع له علمه الغزير وروحه العلمية القوية، ثم كتب هذه العبارة التي نثبتها هنا لتدل على تثبته العلمي من ناحية، وعلى مظهر من مظاهر الروح العلمية في ذلك العصر، من ناحية أخرى.
وقد رايته (يعني ابن طيفور) بالبصرة سنة سبع وسبعين ومائتين، وقدمها إلى أحمد) بن علي المادرائي، وكتبت عنه مجلسين أو ثلاثة، فلما رأيته صحفياً لم أر عنده ما أريد تركته، ويعز على أن أذكر أحداً من أهل الأدب بسوء وأن أستخفه، ولكن لا بد من أن

(نعطي العلم حقه، ونضع الحق موضعه.
أفرأيت إلى أي حد من الإجلال والتقدير كان نظر الرجل إلى العلم والحقيقة والأدب؟ يمثل هذا الخبر الصغير الذي ينبغي أن يرجع إليه القارئ في الكتاب صفتين من أبرز صفات الصولي وكثير من علماء ذلك العصر: وهما سعة المادة، والتثبت في الرواية. وعلى هاتين الصفتين قامت عظمة السلف، وعليهما يجب أن تكون الدائم التي نقيم عليها أبحاثنا العلمية في تاريخ الأدب، فلن تغنينا كل أساليب البحث ومناهج النقد، عن سعة المادة وتوفر المصادر والتقصي فيها بكل ما يتسع له الجهد ويطوعه الإمكان.
فإذا كنا نحتفي بكتاب الأوراق، فإنما ذلك لأنه صورة لتلك الشخصية العظيمة في تاريخ الأدب العربي، ومثال من خير الأمثلة عن الطريقة الأدبية لأسلافنا في معاناة الرواية ونقدها وتمحيصها. والتوفر على الجمع والمقارنة، ثم هو فوق هذا كله زيادة في المادة التاريخية، وتوطيد لأسس البحث العلمي، بالنسبة إلى عصر من أشد عصور الأدب العربي اختلاطاً واضطراباً، وأغصها بالتيارات المختلفة، والنزعات المتباينة المتشابكة.
وهذا القسم الذي نشر من كتاب الأوراق خاص بأخبار الشعراء المعاصرين، وقد سلك الصولي في تصنيفهم مسلكاً حسناً جديراً بالتنويه، ذلك أنه راعى في ذلك أسرهم: فذكر أولاً أسرة اللاحقيين، ثم أسرة أحمد بن يوسف وزير المأمون، ثم أسرة السلمي أشجع بن عمرو. وهذا نحو جديد في التصنيف الأدبي جدير بأن يغتبط به الذين يتتبعون الصفات الوراثية المشتركة، والذين يرون في الأدب صوراً لقوانين الوراثة المقررة.
وإذا كانت هذه طريقته في عرض الشعراء، لم يتقيد بذكر المشهورين منهم، ولا حبس نفسه عليهم، وقد صرح هو نفسه بهذا الاتجاه في آخر كتابه فقال: (قد جئت بأكثر أشعار هؤلاء إذ كانوا شعراء ظرافاً كتاباً لا يعرفهم الناس، ومن عرفهم لا يعرف أخبارهم. . وإنما استقصي أشعار من لا يعرفون وأخبارهم) وكذلك كان الصولي، فقد انطلق في ذكر هؤلاء الشعراء المغمورين، وسرد أخبارهم ورواية أقوالهم وأشعارهم، مما هو جدير بالرواية، حقيق أن ننعم فيه النظر، ونستخلص منه كثيراً من الحقائق التاريخية التي قد لا تتضح في مشاهير الشعراء، فقد تقيد الشهرة صاحبها بكثير من القيود التقليدية، وتنشر حوله غشاء مصنوعاً، حتى يصبح من العصر الذي يعيش فيه، صورة كثيرة التزوير والتمويه. على حين ينطلق الشاعر المغمور في سبيله يصور من نفسه وعصره وبيئته ما وسعته الحرية في التعبير، والقدرة على التصوير.
ولعل كبار الشعراء هم صور من عبقرياتهم، أكثر من أن يكونوا صوراً لعصورهم وبيئاتهم، وما تموج به من شتى النزعات ومختلف الصور والتيارات.
فكتاب الأوراق يضعون بين أيدينا إذن مصدراً عظيم الخطر من مصادر التاريخ، ويبصرنا بكثير من الحالات التي سيطرت على الأدب في ذلك العصر، بما يكتبه عن أولئك الذين انطبعوا بحياتهم، وصوروها تصويراً حراً طليقاً من قيود الشهرة.
ومن قبل عني المفضل الضبي بجمع شعر الشعراء المقلين فخدم بذلك الاتجاه التاريخي الذي نتوجهه أجل خدمة، إذ كانت المفضليات أصدق صورة للعصر الجاهلي.
هذه ميزة شديدة الوضوح من ميزات كتاب الأوراق، لها خطرها فيما نقصد إليه من الدراسة الأدبية. ولست أتعرض الآن لشرح هذا الوجه من الخطورة، ولعله يتاح لنا فيما بعد أن ندرسه دراسة مفصلة تتسع لما لا تتسع له هذه الكلمة العاجلة.
ومما يستطرف ويلفت النظر في هذا الكتاب، أنه يظهرنا على أولية ذلك النوع من الشعر الذي يسميه الفرنسيون الشعر التعليمي في الأدب العربي، فنحن نرى أنه قد بدأ بأبان بن عبد الحميد اللاحقي، فقد صنع قصيدة سرد فيها أحكام الصيام على نحو ما نعرفه في منظومات العلوم. والظاهر أن أبان كان مضطلعاً بهذا النوع من الشعر، فقد نظم كذلك كتاب كليلة ودمنة، وكتاب المنطق، وكان ذلك فناً طريقاً. وقد ذكر الصولي أنه عاتب البرامكة على قلة عطائهم مع خدمته لهم وموضعه منهم، فأشار عليه الفضل أن يقول شعره في هجاء الطالبيين، فتذمم أبان، ثم قال قصيدة استطرفها الفضل، وهي لا شك طريفة. فقد سلك فيها مسلكاً عجباً من الشعر، إذ أخذ يجادل الطالبيين في دعواهم جدلاً فقهياً بحتاً مستنداً إلى أحكام الوراثة في الإسلام وما يقرره الشرع في حالات الحجب والهبة وما إلى ذلك. ولما جاء بهذه الأبيات إلى الفضل قال له: ما يرد اليوم على أمير المؤمنين شئ أعجب إليه من أبياتك.
هذا تاريخ نوع من الشعر كثير الشيوع في اللغة العربية، على أن لهذا فيما أحسب،

بعض الدلالات الأخرى على بعض العوامل في ذلك العصر.
وعقد الصولي فصلاً عما روى في صحة دين أبان، وعندي أن هذه النصوص التي تروى في هذه الصدد عظيمة الخطورة في تحقيق المسألة الدينية في عصر العباسيين: ذلك الأمر الذي اضطربت فيه الأقوال واشتبهت فيه الظنون، واختلفت فيه منازع الرأي. ولا يزال في حاجة إلى التحقيق العلمي القائم على النقول الصحيحة والنقد المنزه البصير.
وبعد فما نستقصي في بيان قيمة كتاب الأوراق من ناحية التاريخ الأدبي، وحسبنا أن يكون هذا الكتاب زيادة في المادة التي ترتكز عليها أبحاثنا، وأن يكون واضعه أبو بكر الصولي، وهو من عرفنا، وأن ينشر نشراً علمياً خالصاً لوجه العلم والأدب. حتى نحتفي به، ونرحب
بظهوره.
محمد طه الحاجري
الشباب في أمريكا
حركته وتربيته وحياته السياسية
ومقارنته بالشباب في أوروبا
بقلم: إبراهيم إبراهيم يوسف
لا نستطيع أن نفهم الجديدة التي تملكت أفئدة أبناء الجيل الحديث في الولايات المتحدة الأمريكية، إلا إذا فهمنا قبل كل شئ الفوارق الرئيسية بين الحركة العامة للشباب في أوروبا ومثيلتها في أمريكا. وأول ما يلفت النظر عدم اهتمام الشباب الأمريكي اهتماماً جدياً بالروحانيات والاجتماعيات، بينما نجد زملاؤهم في أوروبا على عكس ذلك. كذلك هم لا يعرفون التكالب على الدرس بنفس النهم الذي نجده عند الشباب الأوربيين. والواقع أن أمريكا برغم مالها من تنوع في الآداب لا تعرف حتى الساعة ما يسمى (بثورة الشباب) كتلك التي عرفناها لشباب الألمان مثلاً لنهاية القرن التاسع عشر وبدء القرن العشرين. وقد تكون التقاليد الاجتماعية التي توارثها الشباب الأمريكي عن سلفه والتي يرعاها كل الرعاية سبباً، إذا ما أضيف إليها مركز الشباب الاقتصادي، يحول بينه وبين تحمل عبء مسئوليات جسام. وركن الشباب إلى تلك التقاليد وراح يحافظ عليها فتجلت في حياته السياسية، ثم سرعان ما انتقلت العدوى بعد ذلك إلى كل ميدان من ميادين حياة الشباب. ورسخت هذه التقاليد في النفوس بدلاً من أن يتم التعاون على مقاومتها لتتلاشى. فمثلاً بينما كان الشباب الألماني منذ ثلاثين سنة يثور على سلطة العائلة وسلطة المدرسة ولا يأبه بسلطان الدولة ولا بسلطان الكنيسة، كان الشباب الأمريكي ينزع في نفس الوقت إلى انتهاج ما ثار عليه زميله الأوربي، وكان مما لا بد منه أن تنبذ أمريكا آراء أوربا وطرقها في تربية النشء وتبحث لها عن أسس جديدة، فاهتدت إلى جعل الدراسة العلمية في المرتبة الثانية من منهج التعليم. وما هي إلا سنوات حتى استوثق رجال التربية والتعليم في أمريكا من أن النظريات والعمليات التي سار عليها زملاؤهم في أوروبا لم تعد صالحة للعالم الجديد، فاستعاضوا عن (القوانين العامة) في علم النفس بفكرة رعاية الشباب وتهذيبه عملياً.
وهم يتبعون في ذلك رأي زعيم التربية الحديثة في أمريكا المستر جون ديوي الذي تعتبر آراؤه إنجيلاً للمربين الأمريكيين. وخلاصة آرائه: أن العلم والمعرفة يجب أن ينتزعا من الحياة، وأن لا علم إلا إذا جاء عن طريق ممارسة العمل ومزاولة الأمور العملية. وهذه الأسس التي يعبر عنها (بطريق الشروع) القائمة في علم النفس على (المحاولة والخطأ). وقد يهزأ الأوربيون بهذه النظريات العملية، وهذا النوع من التربية. ولكنهم ينسون أن تربية النشء وفق هذه الأصول تكون عندهم قوة الإرادة وصحة الحكم على الأشياء. ومن أهم المبادئ المعمول بها في أمريكا لتربية النشء اعتبار الشباب وفرديته في مرتبة لا تقل عن مقام المعلم وعلمه. وكثيراً ما ينعى علماء التربية الأمريكيون على زملائهم في أوروبا التسرع في الحكم بأن الطفل له شخصية أقل خطراً من شخصية الرجل المكتمل الرجولة. ولكن علماء التربية الأوربيون يقولون هم الآخرون بأن الآراء الأمريكية تحوي جرثومة تهدد نظام التربية والتعليم من أساسه، كما أن تلك الآراء تعمل على إضعاف مركز المربي في نظر النشء وإضعاف الثقة به. ولكن الأمريكيين يقولون أن المسألة عكس ذلك تماماً. ثم إذا نظرنا إلى المدارس

الأمريكية على اختلاف أنواعها، ولاحظنا تباين الأعمار في الفصول، حكمنا بأن النظام كما يفهمه الأوروبيون ليس له أثر ملموس في هذه المدارس. وكثيراً ما قال المربون الأوروبيون عند أول مشاهداتهم للشباب الأمريكي: (يا لها من فوضى!) إذ يجدون الطلبة هنالك يتوجهون بكلياتهم إلى شخص الأستاذ، أما اهتمامهم بدرسه فأمر ثانوي لديهم. ولهذا نجد بين الأساتذة والطلبة علاقة ألفة قد تبدو أشبه بالصداقة التي يضيع معها كل نظام، ولعل السر الذي يفسر لنا تلك الألفة هو أن 90 % من مجموع المعلمين في المدارس الأولية والابتدائية والثانوية في كافة البلاد الأمريكية نساء. ولا يعوق المعلمة عملها لو أن لها زوجاً وكانت في مقتبل العمر. ثم هنالك ظاهرة غريبة أخرى قد لا نجد لها مثيلاً في أي بلد أوروبي، تلك هي اعتبار المدرسة والكلية مزرعة يتعهد فيها المدرسون بتربية الألفة والصداقة بين كل أفراد الشباب، ولا زالت الكليات الأمريكية برغم ما وجه إليها من نقد محافظة كل المحافظة على حياة الأخوة بين الطلاب، مانعة كل المنع تسرب دخلاء إلى حظيرة الشباب، وحتى في المدارس الابتدائية يتدرب الأطفال على معيشة أخوية كاملة المظهر، لا يعنى فيها بإتباع طريقة شحن الذهن بالعلوم.

والواقع أن المثل الأعلى وطابع التربية عند الأمريكيين هو جعل التعليم المثالي عملياً ووطنياً.

إبراهيم إبراهيم يوسف

من شعر الشباب

رسالة

وردتْ وُرُودَ النافِحات رسالةٌ ... هاجت كمين صبابتي وغرامي
رقّافة الصفحات يعبق نشرها ... من طِيبِ عهدٍ غابر الأيامِ
مِن سالفِ اللذات لي في معهد ... سلفتْ به اللذات كالأحلامِ
في معهد حفلٍ بأوطار الصِّبا ... فيه حمدتُ على البِعادِ مُقامي
نَشَرَتهُ للعين الصحيفةُ وانجلى ... في الطرس حُسْنُ صعيده المترامي
واسْتَفْتُ من بين السطور نسيمَه ... ورأيتُ باسقَ سَرْحِهِ المتسامي
وَتَمَثَّلَتْ لي ساكناتُ غصونه ... غِبَّ السماء نَوَاديَ الأكمامِ
وذكرتُ فيه كلَّ ماضي بُكرة ... طَلَعَتْ تألَّقُ في الضياء الطامي
طالعتُ فيها الشمس تسكب ضوَءها ... تِبْراً على الأنجادِ والأعلامِ
وعشيةٍ خَشَعَت كأنَّ نسيمها ... مُتَوَجِّسٌ من عودة الإظلامِ
راقبتُ فيها الليلَ مِن مُسْتَشْرَفي ... يطغَى على الأغوار والآطامِ
إني لأهوى فيه كلَّ طريفةٍ ... حاولتُها وهَمَامَةٍ ومرامِ
وأحب أيَّاماً به ولياليا ... موصولةَ الألطاف بالأنعامِ
وأحب أشعاراً نظمتَ عقودها ... في ذلك الوادي النضير النامي
ما زلتُ أذْكُرُ كلما رَجَّعْتُها ... أُفُقاً جَرَى مِن سحر إلهامي
من مائِه الرَّقراق أو أزهاره ... قد صُغْتُها أو فَجْرِهِ البَسَّامِ
قد كان حَفلاً بالقوافي جَوُّه ... في حَالتَيه: الصَّحْوِ والإرْزَامِ
ما ازْدَادَ إلاَّ فِتْنَةً ومَلاحَةً ... لشُرُوق شمسٍ أو هُتُون غمامِ
يهفو لذكراه الفؤَاد إذا جَرَتْ ... وتثور أشواقي له وهيامي
ويجيئهُ مني السَّلامُ وإن أنل ... أقصى الأماني جنَّتُه وسلامي

فخري أبو السعود

تاجرة!!

دعته إلى العش عصفورة ... بتغريدها المطلق الساحر
شكت قبله وحشة الانفراد ... على ذلك الفَنَنِ الزاهر
وطول المقام بلا صاحب ... تفئ إلى جنحه القادر
يشاطرها واجبات الحياة ... ويحمل من عبئها الواقر
ويمنحها عائدات الوداد ... وتمنحه جذوة الشاعر
تفيض حناناً إلى قربه ... ويسعد في حبه القاسر
قضى زمناً شادياً لاهباً ... بأحلامه هادئ الخاطر
يروح إلى الأيك جم النشاط ... فينعم في ظله الناضر

وينهل من مائه المستطاب ... ويستاف من عرفه العاطر
دعاه الصبا ولباناته ... فلبى نداء الصبا الغامر
وفارق أحلامه الساحرات ... إلى صرحها الوارف العامر
إلى حيث يقطف آماله ... ثماراً ويجني جَنَى الصابر
إلى حيث يملأ ما قد خلا ... من القلب في الزمن الغابر
فلما أتاها رأى أنها ... تهيب بذي الثروة الكاثر
وقد جعلت نفسها سلعةً ... كسلعة صاحبنا التاجر
فهذا يسوم وذاك يزيد ... وذا يتقي صفقة الخاسر
فعاد إلى أيكه نادباً ... بذلك من جده العاثر
إذا ما الزواج غدا سلعة ... فأنت على تركه عاذري
جنين - فلسطين ح. أ

عرس في مأتم

واعَجَباً للمرء في جَهْلِهِ ... وهو أخو اللُّبِّ شقيقُ النُّهى
يُمعِنُ في غَفْلَتِهِ حالماً ... وَيَحسِبُ الضِلَّةَ كلَّ الهدى
يَطوي شقاء العمرِ في سَكْرَةٍ ... نشوانَ يُغريه رفيفُ الرُّؤى
وهمانُ كلَّ العمرِ ما إن يعي ... سرَّ الدُّنى. يا بؤسَه لو وعى!
يا سرَّه! أيةُ ألعوبَةٍ ... هَيِّنَةٍ في كفِّ هذي الدُّنى
وسرَّ هذا الكونِ من شاعرٍ ... مُسْتَعْجَمِ اللفظِ غريبِ اللُّغى
شَيَّعتُ بالأمْسِ رُفاتِ الصِّبا ... في لوعَةِ الثُكلِ ومُرِّ الجوى
يقولُ لي صحْبِيَ في فَرحَةٍ ... هَوِّن على نفسِك بعضَ الأسى
لله قَلبُ المرءِ من غامِضٍ ... يُحَيِّرُ اللُبَّ ويُعْيِي الحِجى
يَبكي لِما يُضحِك حيناً وقد ... يُضْحِكُهُ ما يَستَفزُّ البُكا
تراه كالدَّمعِ همى رقَّة ... طَوراً وطَوراً كَحَرونِ الصَّفا
هذا الشبابُ الجَهمُ ما عِندَهُ؟ ... أثَمَّ مِنْ بارِقَةٍ تُرتَجى
صَحراؤهُ مُرمِضةٌ رَحْبَةٌ ... وكُلُّ شَئٍ موحِشٌ في الفلا
لا بُلبُلٌ يُطرِبُ إمّا شدا ... ولا رُبى يَعبَقُ فيها الشَّذى
أقطَعُ وَحدي عَرضَها راكباً ... صَهوَةَ آمالي، أسيرَ القضا
أضْرِبُ في آفاقِها حائِراً ... أجري وما لِلجَرْيِ مِنْ مُنْتَهى
أَخُبُّ لا مُؤْنِسَ في وَحدَتي ... تِلكَ ولا مِن سامرٍ في الدُّجى
ظِمآن! إنْ آلٌ بدا مَرَّةً ... بَذلتُ خلفَ الآلِ كلَّ القُوى
يَحِفُّ بي مِنْ أنسُرٍ مَوْكِبٌ ... يَرْقُبُ أنْ يأتي عليَّ الرَّدى
تُرى أأنجو سالماً؟ أم تُرى ... أهوى صَريعاً جَاهِداً للثرى
وَفِتْيَةٍ همُّهُمُ مَلْعَبٌ ... وكُلُّهم كالزَّهر غَضُّ الصِّبا
ضَمَّتهُمُ للعِلمِ فَيْنَانَةٌ ... كما يضم الدَّوحُ سِربَ القَطا
مِثلِ الظِبا في مَرَحٍ دائِمٍ ... يَحيَون في أحلامِهم والمُنى
يا فَرَحَة الأطفالِ! لَو أنَّها ... تدومُ للإنسانِ طُولَ المَدى
يأتي عليها الدهرُ مُستأسِداً ... يُشهِرُ غَضبَانَ نُيوبَ الأذى
يا رحمة الله لِعهدِ الصبا ... من حُلُمٍ ما رَفَّ حتى اختفى
تَقولُ لي النَّفسُ وقد هالَها ... أن تَجِدَ العهدَ الحبيبَ انطَوى
أهكذا الأيامُ مجنونةٌ ... مسرعةٌ في سيرِها والسرى

دمشق
أمجد الطرابلسي

غيرة. . .

ذهبتُ كي أوقظه ... من غفوة لم تنجل
فكان في ضجعته ... طفلاً من الهمَّ خَلِ
عليه من شرخ الصبا ... أبهى الثياب والحلى
بل كان مثل ملك ... سمح تدانى من عل
وقد وجدتُ وجهه ... في النوم في تهلل
ما باله منشرحاً ... كأنه في غزل؟

بمن تراه يحتفي ... في نومه وينجلي؟
عندئذ ألفيتني ... غَيرَانَ قلبي يصطلي
فلم أدعه ناعماً ... في نومه المسترسل
بل هبَّ مذعوراً علي ... عواصف من قبلي
كرمة ابن هانئ
حسين شوقي
لونجفلو
الشاعر الأميركي الملهم
بقلم: مأمون اياسي

لا شك أن (هنري وودسورثو لونجفلو) الشاعر الأميركي النابه غني عن التعريف إلى قراء الإنجليزية، وأن قصته الشعرية (ايفانجلين) تعد في طليعة الآثار الأدبية الخالدة التي خلفها، وخدمة لمن لم يقرأوا هذا الشاعر العبقري رأينا أن نكتب هذه النبذة عنه فنقدم لهم بذلك أحد الشعراء العالميين الذين يقدمهم الشعب الأميركي.

ولد (لونجفلو) في 27 فبراير في سنة 1807 في مدينة (بورتلاند) في ولاية (مين) وقضى طفولته وصباه في بيت واقع في شارع (الكونجرس) ما زال إلى الآن محفوظاً على حاله الأولى عندما كان يعيش فيه الشاعر العظيم. ويحج إلى ذلك البيت آلاف من الناس الذين يذهبون إلى (بورتلاند) في كل صيف، ويدخلون إليه للتفرج على كل غرفة من غرفه، وعلى مطبخه الذي ما زالت الأواني الثقيلة مبعثرة على مواقده منذ مائة عام ونيف. ثم يصعدون إلى غرفة في الدور الثالث ليروا السرير الخشبي الذي كان ينام عليه (لونجفلو) ويطلوا من النافذة التي كان يرى منها المنارة الموصوفين في إحدى قصائده.

وكانت (بورتلاند) مدينة موافقة لفتى له روح (لونجفلو) الحساسة الرقيقة، إذ كانت شوارعها الطويلة المظللة بالأشجار الوارفة، وأحراجها المكتظة، وشاطئها الشعري الهادئ ميداناً خصباً لخياله الواسع.

كان (لونجفلو) في السادسة من عمره عندما عاد من المدرسة يوماً وناول والده شهادة - لم تزل محفوظة للآن - كتبت فيها معلمته بأنه تلميذ مجتهد وأخلاقه قويمة. وبعد ذلك بسبعة أعوام عندما كان في الثالثة عشر من عمره كتب قصيدة يصف فيها إحدى المواقع المشهورة بين الأميركيين والهنود الحمر. وكان على ثقة تامة بأنها جديرة بالنشر، فاستجمع شجاعته ورماها في صندوق إحدى الجرائد، ولكن رئيس تحرير تلك الجريدة لم يوافقه على رأيه فكان نصيبها سلة المهملات. فما كان من الشاعر الصغير، وقد جرحت كبرياؤه، إلا أن أرسل القصيدة إلى جريدة منافسة فنشرتها. وقد قال بعد سنين عديدة بأن الشعور الذي استولى عليه عندما رأى أول شعر له مطبوعاً لم يعاوده بعد ذلك لدى نشر أي شعر آخر.

وكانت حياته المدرسية بعد ذلك نجاحاً مضطرداً وتفوقاً يثير الإعجاب. وعندما أتم علومه في جامعة (بودوان) راح يلتمس من والده إرساله لقضاء سنة في جامعة (هارفارد) واعترف له بما يجول بخاطره من آمال قائلاً: (الحقيقة يا والدي هي أنني أطمع في مستقبل أدبي حافل. إن نفسي لتتحرق شوقاً إلى ذلك) ولكن والده نصحه بأن يفكر في صنعة تكفل له عيشه غير صنعة الأدب. وأرغم الشاب على النزول على إرادة والده والعمل بنصيحته، فدخل كلية الحقوق. ولكن أحد المفتشين سمعه مرة يلقي ترجمة لمقطوعة من أصعب آثار (هوراس) فأعجب به، وعندما كانت الإدارة تفكر في إدخال فرع جديد للغات الحديثة في برنامج الجامعة وقع اختيار ولاة الأمر على (لونجفلو) ليكون أستاذاً لذلك الفرع، ولما يتخط عامه التاسع عشر، ولكنهم اشترطوا عليه أن يمضي ثلاث سنوات في أوروبا فيدرس لغاتها ثم يعود. ووافق والده على تزويده بالمال الكافي للقيام برحلته، وأبحر الأستاذ الشاب إلى أوروبا بقلب مفعم حياةً وأملاً، فقضى ثلاث سنوات متنقلاً بين فرنسا وألمانيا وإيطاليا وأسبانيا وإنجلترا، فدرس لغاتها وأحوال أهلها وطرق تفكيرهم، ثم عاد ليقوم بأعباء منصبه بنشاط وحماس، ويتقاضى تسعمائة دولار في كل شهر (وهذا المبلغ كان يعد ثروة في ذلك الحين).

لم يكن تدريسه في جامعة (بودوان) وإدارة مكتبتها ليعوق (لونجفلو) عن الكتابة شعراً ونثراً، فواصل جهوده في النظم والتأليف، ولكن كتاباته اقتصرت إلى حد ما على الموضوعات التي كان يدرسها.

وثبت اسم الشاعر في عالم الشهرة حتى أن إدارة جامعة (هارفارد) طلبت إليه أن يتولى رياسة فرعها للغات الحديثة عندما استقال أستاذها. فقرر (لونجفلو) القيام برحلة ثانية إلى أوربا استزادة في درس اللغات والآداب. وعندما كان في هولندة وصله نعي امرأته فواصل أبحاثه بقلب مثقل بالهم والحزن.

وهنالك نادرة تحكى عنه عندما عاد من أوروبا ليتولى عمله في (هارفارد)، وكان في الثلاثين من عمره، ولكن هيئته لم تكن لتدل على ذلك، فذهب إلى (بنسيون) ليستأجر غرفة فيه، فنظرت إليه صاحبة (البنسيون) من رأسه إلى قدمه وقالت له: (أنا لا أقبل تلامذة عندي) ولكنه قال لها (لست تلميذاً). أنا الأستاذ (لونجفلو). فما كان من السيدة إلا أن قالت له وهي تفتح الباب على مصراعيه: (إذا كنت مؤلف (وراء البحار) فتفضل على الرحب والسعة) - (ووراء البحار) هو الكتاب الذي وضعه أثر رحلته الأولى إلى أوربا، ووصف فيه تلك السلسلة من الأسفار في بلدانها - وقادته السيدة إلى غرفة في الزاوية الشرقية في منزلها قائلة: (كانت هذه غرفة الجنرال وشنجطن ويمكنك أن تنزل فيها.) وبقيت تلك الغرفة مسكنه طوال السبع عشرة سنة التي قضاها في (هارفارد).

وفي سنة 1842 قام برحلته الثالثة إلى القارة الأوربية. وبعد ذلك بسنة تزوج مرة ثانية وقضى ثماني عشرة سنة في هدوء بين أطفاله وعائلته وأصحابه والقصائد التي كان ينظمها تترى.

دعي الكاتب المعروف (ناثانيال هوثورن) مرة إلى الغداء على مائدة (لونجفلو) مع صديق للأول. ودار الحديث على الغداء حول قصة جرت وقائعها بين (نوفاسكوتيا) - وهي شبه جزيرة ملحقة بكندا - والولايات الأمريكية الشرقية. فقال صديق (هوثورن) مخاطباً (لونجفلو) (أنا أجرب أن أقنع (هوثورن) بكتابة قصة عن الحادثة، ولكنه لا يرى فيها فكرة لقصة).

فسأله (لونجفلو) أن يسرد على مسامعه تلك الحادثة عله يجد فيها المواد لقصيدة أو أنشودة.

ولخص له الصديق الحادث بقوله: (كانت مقاطعة (نوفاسكوتيا) التي كان يسميها الفرنسيون (أكادي) تنتقل من أيدي الفرنسيين إلى الإنجليز ثم يسترجعها الفرنسيون، وهكذا إلى سنة 1713، إذ انتقلت إلى الإنجليز بموجب معاهدة (أوترخت) وهي باقية تحت سلطتهم إلى يومنا هذا. وكان يغلب على سكانها الدم الفرنسي. فنشأت عداوة بين العنصرين الإنجليزي والفرنسي، أدت إلى منازعات ومناوشات دائمة. وتفاقمت الحال في شبه الجزيرة حتى أصبح من الصعب جداً على الحكومة تهدئتها، فاستنبطت حيلة لم تجد أنفع منها في تلك الأحوال، وهي نقل (الأكاديين) إلى جهات أخرى من أمريكا الشمالية حتى لا يتيسر لهم الاجتماع بالسكان الإنجليز. وكانت الطريقة التي نقل بواسطتها أولئك المساكين غاية في الغلظة والفظاظة. طلب الحاكم إلى جميع الرجال والفتيان الذين تزيد سنهم على العشر سنوات أن يجتمعوا في الكنيسة، لأنه سيذيع عليهم أوامر هامة من السلطة. واجتمع الرجال والفتيان، وهم يتساءلون عما أوجب حشدهم بتلك الطريقة، وما أن دخلوا الكنيسة حتى حاصرتهم الجنود من الخارج، وألقى الكاهن على مسامعهم الأمر الرهيب بصوت ملأه حنواً ورأفة. وفي مدة قصيرة كانت السفن حاضرة على الشواطئ، فحشد فيها السكان بطريقة عسكرية قاسية كان من نتائجها أن تفرقت أسر كثيرة، وأضاع أفرادها بعضهم بعضاً.

وكان بين الذين نقلوا إلى الولايات الشرقية فتى وصبية كان الكاهن قد عقد قرانهما في ذلك الصباح فقط. فأضاع أحدهما الآخر، وبقيت (إيفانجلين) تجوب السهول والقفار وتقطع الأنهار، وتنام الليالي على الطوى كل حياتها باحثة عن (جابريال) إلى أن انخرطت في سلك الممرضات، بعد أن قطعت الأمل في وجوده، فإذا بها يوماً تلتقي به بين المرضى، فعرفته برغم التغير العظيم الذي طرأ عليه. وكانت صدمة عنيفة

أودت بحياته لضعفه، وأودت بحياتها هي لسرورها وحزنها المتعاقبين.
وما انتهى الصديق من سرد قصته حتى التفت (لونجفلو) إلى (هوثورن) قائلاً: (أتعدني بألا تكتب شيئاً عن هذه الحادثة حتى أنتهي من نظم قصيدتي؟) ووعد (هوثورن) وبدأ (لونجفلو) في نظم القصيدة التي خلد فيها بطلي ذلك الحادث، فخلداه بدورهما، وجعلت (ايفانجلين) اسمه يطبع بحروف كبيرة على صفحات الجرائد، وتتوارد عليه رسائل الإعجاب تترى.
ومن الغريب أن (لونجفلو) لم ير قط مشاهد قصيدته، مع أن الوصف فيها كان مطابقاً للحقيقة كما شهد الذين سكنوا تلك الأمكنة
وقد اقتبست من قصة (ايفانجلين) رواية سينمائية أخرجت في عهد السينما الصامتة، وقامت بالدور الأول فيها الممثلة المكسيكية الفاتنة (دولوريس دليرو).

بيروت

مأمون اياسي

العلوم

لمحة في تاريخ الرياضيات

بقلم محمد المبارك

بكالوريوس في العلوم

اجتازت العلوم الرياضية كغيرها من العلوم أدواراً ثلاثة: دوراً إلهياً ودوراً تجريبياً عملياً، ودوراً نظرياً مجرداً.
فكانت فكرة القوة الميكانيكية فكرة إلهية تعزى إلى الآلهة في جميع حالاتها في تلك الأزمان التي كانت تنسب فيها جميع الحوادث إلى الآلهة المتعددة حينئذ بصورة مباشرة، وكذلك كانت الأشكال الهندسية مقدسة، وللأعداد خواص يعتقد بتأثيرها، ومع ذلك فقد أخذت الحقائق الرياضية تتولد تدريجاً بالحدس مستمدة من العمل والتجربة اللذين هما مصدران من مصادر الإلهام، وينبوعان يستقي منهما العقل البشري أفكاره في كل زمان. وعلى هذا النحو اكتشف كثير من النظريات والحقائق الرياضية، كنظرية مساواة مربع الوتر لمربعي الضلعين القائمين في المثلث القائم.
وكثيراً ما أدت أغراض عملية إلى حقائق نظرية كانت لها خطورة في نشوء العلم وتطوره؛ فعملية المساحة عند قدماء المصريين أدت إلى اكتشاف كثير من الحقائق الرياضية. كما أن الفينيقيين اضطروا إلى الحساب استعانة به على أمر تجارتهم، وكذلك لجأ إليه الكلدانيون لمزاولتهم الفلك والتنجيم.
على أن أكثر الأمور العملية كانت تشوبها أمور دينية، فعملية المساحة عند المصريين كانت مهمة دينية يقام لها حفل يحضره الملك. ولا يخفى كذلك أن الفلك عند الكلدانيين لم يكن منفصلاً عن التنجيم. فبسبب هذه العوامل اكتشفت بعض قواعد عملية، لم تصل إلى درجة يؤبه لها من اليقين العلمي، وكثيراً ما كانت تقريبية غير مضبوطة، عرفت بفضل التجربة - ولا أعني بالتجربة في كل ما تقدم القيام بعمل يقصد منه اكتشاف قضية علمية أو إثباتها كما يفهم منها اليوم، بل أريد منها ما يصادفه الإنسان من المشاهدات والملاحظات أثناء القيام بأعماله الحيوية - فكانت الهندسة في تلك العصور الغابرة عبارة عن مجموعة
طرق لا رابطة بينها لحل المسائل العملية التي تستوجبها الحياة آنئذ، كمعرفة كون كل مثلث تتناسب أضلاعه فيما بينها كتناسب الأعداد: 3، 4، 5 قائم الزاوية. فبإنشاء هذا المثلث يمكن الحصول على مستقيمين متعامدين. هذا وإن كثيراً من تلك القواعد تقريبي كما قلنا ليس له قيمة علمية؛ مثال ذلك أن المصريين كانوا إذا أرادوا مسح شكل رباعي ضربوا نصف مجموع ضلعين متقابلين منه في نصف مجموع الآخرين، مع أن هذا العمل لا يصح إلا في المربع والمستطيل، وكذا إذا أرادوا معرفة مساحة المثلث أخذ نصف جُداء أكبر أضلاعه في أصغرها.
وأما البرهان على تلك القواعد العملية فلم يروا في أنفسهم حاجة إليه، واكتفوا بالمشاهدة الحسية، ثم أخذوا بعد ذلك يبرهنون على المسائل ببراهين تجريبية تستند إلى الواقع، لا على المحاكمة المنطقية، أو على تمهيدات يقدمونها دون أن يبرهنوا عليها كأنها بديهية بنفسها، وقد بقيت طريقة البرهان مدة طويلة على هذه الحال.
وأما الحساب فأحرى أن يكون في صبغة عملية بعيداً عن الصبغة العلمية، إذ هو أكثر

تجريداً من الهندسة، ولذا لم يتم منه حينئذ إلا ما مست إليه الحاجة في الحياة من القواعد البسيطة جداً التي تكاد لا تستحق أن يطلق عليها أسم قواعد إلا بالإضافة إلى عصرها، فكان المصريون إذا أرادوا ضرب عدد في ثلاثة أضافوه إلى ضعفه، أو في سبعة، أضافوه إلى ضعفه، ثم ضعفوا الحاصل وأضافوا العدد إليه، كما أن القسمة كانت بالطرح المتوالي، فلم يكن لهذه العمليات قواعد نظرية.

هذا مجمل حال الرياضيات في العصور القديمة، فلنبحث الآن بالتفصيل عما عرض لكل علم منها من الأطوار المتباينة من حين نشوئها إلى بلوغها تلك الدرجة العالية التي وصلت إليها في العصور الحديثة، ملاحظين في هذا البحث تقسيم العلوم الرياضية إلى ثلاثة أقسام.

(1) الرياضيات المشخصة، وتشمل الهندسة والميكانيك.

(2) الرياضيات المجردة، وهي على قسمين:

(أ) ما يبحث في الكم المنفصل ويشمل علم العدد والجبر.

(ب) ما يبحث في الكم المتصل ويشمل الهندسة التحليلية وحساب التوابع وحساب اللانهايات

(3) الرياضيات التطبيقية، وتشمل المثلثات والهندسة الوصفية وحساب الاحتمالات.

وسنقتصر في بحثنا على أهم فروع الرياضيات تاركين البحث فيما هو في الحقيقة ملحق بهذه الفروع المهمة ومشتق منها ومبتدئين بأقسام الرياضيات المشخصة، إذ هي أقدم في الظهور وأسرع في التقدم.

(1) الرياضيات المشخصة:

الهندسة: إن ما تركه اليونان من الآثار في هذا العلم يدلنا على أنهم أول من صاغ الهندسة في قالب علمي، فقد أخذت طريقة البرهان في عهدهم شكلاً عقلياً مجرداً. وربما كان فيثاغورس (550 ق. م) أول من أقام البراهين العقلية وحررها من صبغتها العملية التجريبية القديمة. وإليه والى تلاميذه يرجع الفضل في أكثر مسائل كتاب الأصول لأقليدس، والنظرية المنسوبة إليه في المثلث القائم مشهورة، ولا يعلم على التحقيق كيف كان برهانه عليها. وأما أقليدس (280 ق. م) فقد حرر الهندسة، ونظم نظرياتها، وهذب براهينها. وكان كتابه إلى ما قبل عهد النهضة الأخيرة أجمع كتاب في هذا العلم، وقد رتبه على الطريقة الاستنتاجية. قال أبو نصر الفارابي في (إحصاء العلوم): (والنظر فيها - يعني الهندسة - على طريقين: طريق التحليل وطريق التركيب، والأقدمون من أهل هذا العلم كان يجمعون في كتبهم بين الطريقين، إلا أقليدس فإنه نظم ما في كتابه على طريق التركيب وحده) ويظهر أن أقليدس لم يكن مؤلفاً لكتاب الأصول، وإنما كان محرراً ومهذباً. وعلى هذا القول الفيلسوف يعقوب الكندي والفيلسوف اليوناني ديدوخوس برقلس وقد نقل هذا الكتاب إلى العربية جماعة كثيرون منهم أبو الوفاء محمد بن محمد البوزجاني وثابت بن قرة، وحرره أيضاً جماعة تصرفوا فيه إيجازاً وضبطاً وإيضاحاً وبسطاً، والأشهر مما حرروه تحرير العلامة نصير الدين محمد بن محمد الطوسي المتوفى سنة 672هـ وهو أحسن تحرير له في العربية وهو مطبوع طبعاً لا بأس به، يتألف من خمس عشرة مقالة، ويحتوي على 468 نظرية في الهندسة المسطحة والمجسمة، ونظريات الحساب مطبقة على الأشكال الهندسية، كل ذلك مما لا يختلف كثيراً عما يقرأ في المدارس الثانوية اليوم لا في الكمية ولا في الكيفية. وبلغ عدد من اشتغل في هذا الكتاب من المسلمين من ناقل ومحرر وشارح ومختصر أكثر من خمسة وعشرين عالماً.

وقد ألف المسلمون كثيراً في الهندسة، ونقلوا عن اليونانية كثيراً من كتبها، وزادوا كثيراً من النظريات، وبرهنوا على كثير من القضايا التي لم يبرهن عليها في عهد اليونان. فقد ألف محمد بن الحسن بن الهيثم خمسة وعشرين كتاباً في الرياضيات منها رسالة في برهان الشكل الذي قدمه أرخميدس في قسمة الزاوية ثلاثة أقسام ولم يبرهن عليه. وكتاب في تحليل المسائل الهندسية وشرح لأصول أقليدس وغيرها مما هو مذكور في كتاب طبقات الأطباء لأبن أبي أصيبعة (ج: 2ص: 90).

وقد حفظت العربية بعض كتب اليونان الهندسية التي لم يبق إلا ترجمتها العربية مثل كتاب الكرات لمنالاوس والخلاصة أن الهندسة وصلت في عهد اليونان ثم في عهد العرب إلى درجة من التجريد النظري لا يستهان بها.

الميكانيك: نشأ علم الميكانيك بالتدريج من الأمور العملية، وقد درس أريسطو بعض مسائله، ولكن بصورة عملية مغلوطة أحياناً. وأرخميدس أول من أسس أركان الميكانيك النظري، ولكنه كان يعد النظر في الآلات التي يستعان بها في الحياة المادية صناعة خسيسة يترفع العلم عن البحث فيها. وكان العرب يسمون هذا العلم علم الحيل، قال الفارابي في تعريفه: (إنه يبحث في مطابقة جميع ما يبرهن وجوده في التعاليم - أي العلوم الرياضية - على الأجسام الطبيعية).

ولم يصل هذا العلم عند اليونان والعرب إلى درجة تذكر، فقد كان علماً عملياً، ولم يتم تأسيسه إلا في العصور المتأخرة، ويرجع الفضل في تقدمه الأخير إلى سيمون ستيفن وديكارت من علماء القرن السابع عشر، فهما اللذان فكرا في تمثيل القوة بشعاع هندسي، ودراسة مبحث القوى بصورة هندسية مما أدى إلى تطور عظيم في هذا العلم. ثم توسع بعد ذلك في هذه الأبحاث لاجرانج في كتابه الميكانيك التحليلي سنة 1787.

ولم يكن تطور علم الميكانيك واحداً في جميع أقسامه، فقد درس أرخميدس توازن القوى، وتأخر مبحث الحركة والقوى المسببة لها حتى درسه غليلو سنة 1638، ومبحث الحركة مستقلة عن القوة حتى درسه أمبير سنة 1834، ويلاحظ أن تطور هذا العلم كان متصاعد التعميم. فمبحث توازن القوى أخص من مبحث الحركة والقوى، كما أن هذا أخص من مبحث الحركة.

(3) الرياضيات المجددة:

علم العدد وهو أكثر العلوم الرياضية تجريداً، ولذلك كان أبطأها ترقياً وتطوراً. ففكرة العدد التي هي أساس هذا العلم لم تستقر إلا بعد تطورات طويلة تقلبت فيها البشرية. فالإنسان في حالته الابتدائية لا يدرك منها سوى الوحدة والكثرة، فهو يعلم الواحد والاثنين والكثير، ولا يفرق بين العدد والمعدود، ولربما اختلفت أسماء الأعداد باختلاف معدوداتها، إذ ليس للعدد المجرد مفهوم عنده، ولذلك يستعين بأصابعه وكثير من أعضائه أو بالحصى والأحجار في التعداد، ومن ثمة كان اعتبار العشرة والعشرين أساساً في الترقيم بحسب أصابع اليدين أو أصابع اليدين والرجلين عند الأقوام الحفاة الأقدام.

وكان اليونان يفرقون بين الحساب العملي والحساب النظري، ومع ذلك كان علم الحساب عندهميبحث عما للأعداد من الخواص الغريبة مما نقل منه الكثير إلى العربية، ولا أعني بالخواص الغريبة هنا السحرية ولكن العملية، كمساواة كل عدد لنصف حاشيتيه، أي العدد الذي قبله والعدد الذي بعده، وكالخواص التي يذكرونها لهذه الأعداد (وهي سلسلة هندسية أساسها الاثنان ومبدؤها الواحد): 1، 2، 4، 8، 16، 32 من أنك إذا جمعت الأعداد من الواحد إلى أي عدد منها يكون الحاصل أنقص من العدد الذي انتهيت إليه بواحد، فلو جمعت الواحد والاثنين والأربعة بلغت سبعة، وهي أقل من الثمانية بواحد، ويسمون كل عدد من هذه السلسلة (ما عدا الواحد طبعاً) زوج الزوج، وهو الذي إذا قسمته على اثنين بصورة متوالية تنتهي إلى الواحد.

وقد تأخر هذا العلم لأسباب، منها فقدان أصول حسنة للتعداد عند اليونان، فقد كانت طريقتهم في كتابة الأعداد صعبة المسلك يتعسر بواسطتها إجراء العمليات الحسابية، وهي الطريقة التي يستعملها الغربيون اليوم في بعض المواضع ويسمون أرقامها الأرقام الرومانية وهي هذه , , , , , , , بالعربية: 1، 5، 10، 50، 100، 500، 1000.

ومن أسباب تأخرهم أنهم كانوا يسلكون في إثبات المسائل العددية طرقاً هندسية، وعلى هذا سار أقليدس في أصوله، فلم يفصل العدد عن المقادير الهندسية. ومنها أيضاً فقدان الإشارات والرموز في العمليات الحسابية. والخطوة العظيمة التي خطاها هذا العلم هي

أصول التعداد على أساس العشرة. ولذلك كان من أعظم مآثر المسلمين في الرياضيات نقل الحساب الهندي والأرقام الهندية من الهند إلى سائر نواحي العالم. وهم يسمونها أرقاماً هندية، لأنهم نقلوها عن الهنود، والغربيون يسمونها عربية لأنهم نقلوها عن العرب. وأول من أخذ تلك الأرقام عن الهنود واستعملها في مؤلفاته محمد بن موسى الخوارزمي (في القرن التاسع للميلاد).

قال الزوزني في كتابه تاريخ الحكماء: (ومما وصل إلينا من علومهم - يعني الهند -

حساب العدد الذي بسطه أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمي وهو أوجز حساب وأخصره، وأقربه تناولاً وأسهله مأخذاً، يشهد للهند بذكاء الخواطر وحسن التوليد وبراعة الاختيار والاختراع) ومن اسمه اشتق الغربيون لفظة كانت تدل على الطريقة العشرية في الحساب، وقد مزج الخوارزمي بين ما تمكن من الوصول إليه من أصول الحساب عند الهنود وأصول الحساب عند اليونان، واستخرج من ذلك الحساب والجبر العربي، وهو أول من ألف في الجبر، وقد انتشرت مؤلفاته في أوروبا في القرن الثاني عشر للميلاد حيث ترجمها إلى اللاتينية

الجبر: كثيراً ما يذكر بأن ديوفنطس (في القرن الثالث للميلاد) أول مشتغل بالجبر، مع أن جل ما وصل إليه أنه كان يستعمل حروفاً في العمليات الحسابية يأخذها من الألفاظ الدالة على العملية المراد إجراؤها.

واستعمال الحروف للدلالة على المقادير كان معروفاً منذ أريسطو، وكان ديوفنطس يرمز للمجهول ولقواه حتى القوة السادسة، ولمقلوب هذه المقادير وللوحدة بحروف مختزلة من أسمائها اليونانية، ويتبع كل رمز بأمثاله العددية، ففي ذات الحدود الكثيرة الحدود الموجبة مرتبة بجانب والسالبة بجانب آخر يفصل بينهما بهذه الدالة على الطرح والتي هي مأخوذة من كلمة يونانية تدل على الطرح.

فالمقدار الجبري: س6 - 6س5 + 15س4 - 20س3 + 15س2 - 6س + 1 يكتب هكذا:

فالحرف على التكعيب أعني القوة الثالثة مأخوذ من كلمة والحرف الدال على التربيع أعني القوة الثانية مأخوذ من كلمة والحرف على الوحدة مأخو من كلمة

وكذلك للمساواة والجذر رموز حرفية تدل عليها مأخوذة من ألفاظها اليونانية، كما أن قواعد ضرب المقادير الجبرية ذات الحدود الكثيرة مع اعتبار الجهة، أعني الموجب والسالب كانت معروفة لدى ديوفنطس.

وأما العرب فلم يستعملوا الرموز الحرفية، وإنما استعملوا كلمات بأجمعها دون اختصار، وهم الذين وضعوا رمز الكسر فجعلوا صورته أو بسطه في الأعلى ومخرجه أو مقامه في الأسفل يفصل بينهما خط أفقي، على حين أن ديوفنطس كان يجعلها على عكس هذا الوضع، والبيزنطيون يضعون المخرج فوق الصورة كما نضع نحن الآن القوة أو الأس فوق العدد.

والعرب يرمزون للمجهول بكلمة شئ. قال بهاء الدين العاملي في كتابه خلاصة الحساب: (يسمى المجهول شيئاً ومضروبه في نفسه مالاً، وفيه كعباً، وفيه مال المال، وفيه مال الكعب، وفيه كعب الكعب إلى غير النهاية) ويسمون مقلوب هذه المقادير جزء الشيء وجزء المال وجزء الكعب وهكذا. ولنضع بجانب كل منها مصطلحه الحالي:

شئ: س، جزء الشيء: س1
مال: س2، جزء المال: س21
كعب: س3، جزء الكعب: س31
مال المال: س4، جزء مال المال: س41
مال الكعب: س5، جزء مال الكعب: س51
كعب الكعب: س6، جزء كعب الكعب: س61

فيقال مثلاً للرمز س11 مال كعب كعب الكعب ولمقلوبه جزء مال كعب كعب الكعب، وكذلك كانوا يعملون قاعدة ضرب هذه القوى أو هذه الأجناس كما كانوا يسمونها بعضها ببعض، وقسمتها مع اعتبار الجهة، فيجمعون الأسس أو يطرحونها. وقد ذكر العاملي في كتابه المذكور قواعد ضربها ثم قال: (وإن كان - يعني في إحدى المضروبين - استثناء، يسمى المستثنى منه زائداً والمستثنى ناقصاً وضرب الزائد في مثله والناقص في مثله زائداً والمختلفين ناقص، فمضروب عشرة وشئ في عشرة إلا شئ مائة إلا مالاً).

وفي اصطلاحنا: (10 + س) (10 - س) =100 - س2

وبعد أن أورد أمثلة عديدة على الضرب قال: (تفرض المجهول شيئاً وتعمل ما تضمنه

السؤال إلى أن تنتهي إلى المعادلة، فالطرف ذو الاستثناء يكمل ويزاد مثل ذلك على الطرف الآخر وهو الجبر، والأجناس المتجانسة المتساوية في الطرفين تسقط، وهو المقابلة) ثم قسم المعادلات إلى سنة أنواع وبين كل واحدة وطريقة حلها وأتبع ذلك بمسائل منها هذه: (رمح مركوز في حوض، والخارج عن الماء منه خمسة أذرع مال مع ثبات طرفه حتى لاقى رأسه سطح المكان، فكان البعد بين مطلعه من الماء وموضع ملاقاة رأسه له عشرة أذرع فكم طول الرمح؟ - أقول توضيحاً لكلامه: الرمح هو (م ب) والخارج عن الماء منه هو
ب جـ=5 أذرع، أثبت في مب
وأدير حتى صار رأسه ب في ت ت
والطول جـ ت=10 أذرع - جـ
م
نفرض الغائب في الماء شيئاً، فالرمح خمسة وشئ، ولا ريب أنه بعد الميل وتر قائمة أحد ضلعيها عشرة أذرع، والآخر قدر الغائب منه، أعني الشيء، فمربع الرمح أعني خمسة وعشرين ومالاً وعشرة أشياء، مساو لمربعي العشرة والشيء أعني مائة ومالاً. وبعد إسقاط المشترك يبقى عشرة أشياء معادلة لخمسة وسبعين والخارج من القسمة سبعة ونصف، فالرمح اثنا عشر ذراعاً ونصف ذراع).
وعلى حسب اصطلاحنا تجري المعادلة هكذا:
(5 + س) 2س2 + 2 10=2
25 + 2س + 100=س10 + 2س
س=1075
س=7. 5
والذي توصلوا إليه في الجبر هو حل المعادلات من الدرجة الثانية، وقد ذكر الأمير شكيب أرسلان في حاضر العالم الإسلامي أن عمر بن إبراهيم بسط حل المعادلات من الدرجة الثالثة، ولم نر ذلك فيما بين أيدينا من كتب المتقدمين كالياسمينية وخلاصة الحساب وشروحها، ولا ندري من عمر بن إبراهيم هذا هل هو الخيام الفيلسوف الفارسي المشهور أم غيره؟ وعلى كل فعسى أن يقيض الله لهذا السر من يكشفه.
هذه نبذة يسيرة من الجبر العربي يتضح منها أن هذا العلم وصل في عصور المدنية الإسلامية إلى شئ كثير من التجريد برغم فقدان الإشارات والرموز واستعمال الألفاظ الدالة على المجهولات دون اختزالها.
ولما انتقل الجبر إلى أوروبا بواسطة المسلمين عم استعمال الحروف بطبيعة الأمر وبتأثير بعض العلماء كفرنسوافيت (1540 - 1603) وديكارت.
أما الإشارات التي نستعملها اليوم فهي متأخرة الظهور، فإشارة الناقص (-) ترجع إلى القرن الثالث عشر، ولا يعلم أصلها ومصدرها، وإشارة الزائد (+) ترجع إلى القرن الرابع عشر، إذ شاع استعمالها في ألمانيا، على حين أن علماء إيطاليا ظلوا مدة يستعملون للزائد والناقص حرفي , من كلمتي ,
وأما إشارة المساواة=فهي من اقتراح العالم الإنجليزي سنة 1556، وقد اتخذها نيوتن وواليس، فعم استعمالها في إنكلترا، على حين أن ديكارت في فرنسا كان يستعمل هذه الإشارة ? وكثير غيره كانوا يستعملون لذلك خطين رأسيين متوازيين هكذا:
الأس أو قوة الرفع: أول من أشاع استعمالها على الشكل المعروف الآن ديكارت، ولكن منشأها يرجع إلى عهد أقدم من ذلك، وكان علماء هولندا يكتبون الأس في دائرة صغيرة فوق العدد المرفوع.
وأما إشارة الجذر الدالة على درجة الجذر فهي متأخرة أيضاً، فقد كان ديكارت نفسه يستعمل للجذر التربيعي هذه الإشارة: ? وللتكعيبي هذه: ? فحرف يدل على التكعيب الذي هو درجة الجذر من كلمة ومن المستبعد أن تكون هذه الإشارة كما يزعم البعض جيماً عربية مقلوبة (ح) اختزالاً لكلمة جذر، فليس لهذا القول من مؤيد تاريخي، وهاهي الكتب العربية القديمة في الرياضيات الموجودة الآن خلو منها.
الأقواس: هي كذلك متأخرة الظهور، ففي النصف الأول من القرن السابع عشر كانوا يضعون خطاً أفقياً فوق الحدود التي يراد أجراء عملية واحدة عليها، ولا يزال هذا الاستعمال في المجذورات

وأما الإشارات الثانوية كإشارة الضرب والقسمة فلم يتم وضعها كذلك إلا بعد ظهور الجبر الحديث.

ويرجع الفضل في ظهور الجبر الحديث إلى فرانسوا فييت، فهو أول من أجرى العمليات الجبرية مع استعمال الحروف والإشارات، وقد أراد أن يستبدل كلمة جبر (البربرية) كما يقول بكلمة تحليل ولكن هذه التسمية الجديدة لم تلق نجاحاً، وإنما بقيت كلمة تحليل منصرفة إلى فروع أخرى من الرياضيات.

وجملة القول أن ترقي الطريقة الرمزية في الرياضيات وذيوع الإشارات والرموز أدى إلى ترقٍ عظيم في العلوم الرياضية، بل إلى ظهور فروع جديدة كالهندسة التحليلية.

الهندسة التحليلية وحساب التوابع

إن علم الجبر أدى تدريجياً إلى استعمال الحروف للدلالة على المقادير إلى فكرة التتابع وقد كان اليونان كما تقدم يعبرون عن القيم العددية بأطوال هندسية، وبذلك تمكنوا من حل بعض المسائل الجبرية هندسياً، وهم وإن كانوا لم يتوصلوا إلى المفهوم العام للإحداثيات فدراستهم للقطوع المخروطية الناقص والزائد والمكافئ شبيهة جداً بالهندسة التحليلية، فقد كانوا بعد تعريف هذه القطوع ينسبون نقاطه إلى قطر أو محور، ويحصلون على علاقة بين الفاصلة والترتيب وعلى كل فإنهم درسوا خواص بعض المنحنيات بقصد حل المسائل، ولفقدان مفهوم الموجب والسالب للكميات لم يتمكنوا من التوسع في ذلك.

وهذه الفكرة أعني فكرة التتابع إنما وجدت واضحة للمرة الأولى في كتابات نيقولا اورسم في القرن الرابع، إلا أنه اقتصر على الكميات الموجبة. وقد كان لفرانسوا فييت أثر بيّن

في رقي الهندسة التحليلية التي ظهرت ظهورها الرائع أخيراً على يد ديكارت سنة 1637، ومع هذا فقد احتوت هندسة ديكارت على مسائل تقريبية أو غير مضبوطة.

وأما الرياضيات التطبيقية فهي متفرعة عما تقدم ذكره من أقسام الرياضيات (3) ومتأخرة في النشوء والظهور، إذ أنها كانت مبعثرة مندمجة في العلوم التي كانت منبعها الأصلي، ولم تنسلخ عنها وتظهر بالصورة التي هي عليها الآن إلا في العصرين الأخيرين، هذا إذا استثنينا المثلثات التي اتسعت بقسميها المستوية والكروية منذ عهد قديم لشدة الحاجة إليها في الحسابات الفلكية. وللعلامة نصير الدين الطوسي كتاب في المثلثات الكروية اسمه شكل القطاع وقد اشتغل في هذا العلم غيره من المتقدمين كأبي ريحان البيروني وأبي الوفاء محمد البوزجاني وأبي جعفر الخازن وأبي فضل الله التبريزي، فقد ألفوا فيه كثيراً ووضعوا نظريات جمة هي من أهم نظريات هذا العلم. ومما هو جدير بالذكر في تاريخ المثلثات أن أبا ريحان البيروني هو أول من اعتبر نصف قطر الدائرة واحداً قياسياً في أبحاث المثلثات.

هذه صورة مجملة من تاريخ العلوم الرياضية يتبين لنا منها أن المدنية الإسلامية حلقة هامة من حلقات هذا التاريخ وركن أساسي عظيم في هذا البناء، فالمسلمون هم الذين وضعوا علم الجبر وحفظوا تراث اليونان، وهم الذين نقلوا عن الهنود الأرقام ونظام كتابتها المعروف اليوم، وتعهدوا كل ذلك بالعناية شرحاً وتهذيباً وتنقيحاً وتوسيعاً، وأحدثوا كثيراً من الأوضاع، وتوسعوا في كثير من الأبحاث، ووضعوا كثيراً من النظريات، فكان لقريحتهم الفياضة أثر بين لا يزال العلم يحفظه لهم، ومآثر خالدة لا تني المدنية العلمية عن الإشادة بها، وبالجملة فليس من شك في أن ما خلدوه من الآثار في هذه العلوم كان تمهيداً مباشراً لما حدث فيها من التقدم والرقي في العصور الحديثة.

دمشق

محمد المبارك

بكالوريوس في العلوم

البريد الأدبي

اليابان سنة 1934

تثير نهضة اليابان العسكرية والاقتصادية في الأمم الغربية أيما اهتمام وجزع، ذلك لأنها تسير بخطى الجبابرة، ولا تقف عند حد، وتحمل في طريقها كل شئ. كانت اليابان قبل خمسين عاماً فقط محصورة في جزائرها لا يزيد عدد سكانها على ثلاثين مليوناً؛ أما

اليوم فهي إمبراطورية عظيمة، تسيطر على كوريا ومنشوريا وقسم من منغوليا، ويبلغ سكانها وسكان الأراضي التي تسيطر عليها نحو مائة وعشرين مليوناً.

وقد أصدر الكاتب الفرنسي موريس لاشان عن اليابان ونهضتها تحقيقاً جامعاً في كتاب عنوانه (اليابان سنة 1934) وفيه يلقي الضياء على بعض الحقائق المدهشة؛ فإن اليابان مثلاً ما زالت تجمع بين روحها وتقاليدها القديمة وبين روح الدولة الحديث؛ وما زالت صور الإقطاع والعبودية القديمة تثقل كاهل الشعب؛ والشعب ترغمه التقاليد والتراث الروحي القديم وحب الإمبراطور على الخضوع والطاعة، وهو يضطرم بنوع من الاشتراكية الوطنية. ويلاحظ الكاتب أيضاً أن قوى الشعب الياباني كلها، والإمبراطور، والجيش والبحرية، وأقطاب العهد القديم من جهة وقوى الرأسمالية، وكل الجموع البائسة التي يغص بها المعمل من جهة أخرى، كلها تعمل في نفس الاتجاه وبنفس الروح، ولنفس الغاية، وهي افتتاح أسواق الصين، والسيطرة على المحيط الهادئ، بل هي في الواقع غزو العالم كله؛ وقد غزت اليابان بالفعل جزائر الهند الشرقية، وأخذت تهدد قاعدة سنغافورة، وأستراليا، ووصلت تجارتها إلى شواطئ المحيط الهندي، ونفذت إلى بلاد الحبشة، وجازت مضيق عدن وقناة السويس، وانتشرت على شواطئ البحر الأبيض المتوسط.

ويتوقع المسيو لاشان أن النزاع قد يضطرم عما قريب بين اليابان وأمريكا؛ ولكن يجب لاضطرامه أن يقع حادث ما؛ ومثل هذا الحادث قد يكون أول انتصار اليابان على الصين، أو انتصارها على الروسيا، أو تنازعها مع الصين والروسيا على تحقيق الإمبراطورية الكبرى التي تسعى اليابان إلى تحقيقها باسم الشعوب الصفراء، ذلك أن شعوب الصين المختلفة قد ترغم غداً على أن ترى في اليابان ما رأته الأمم الجرمانية من قبل في بروسيا، أعني زعيماً ومعلماً وقائداً.

ذكرى العلامة الطبيعي بريم

تحتفل الهيئات العلمية الألمانية بالذكرى الخمسينية لوفاة العلامة الطبيعي الألماني الفرد أدموند بريم، وقد ولد بريم في تيرنجن في فبراير سنة 1829، وكان أبوه قساً يعنى بتربية الطيور ودرس خواصها، فنشأ ولده بريم شغوفاً بهذه الناحية من الدرس، وفي سن الثانية عشرة سافر إلى أفريقية مع البارون فون ميلر في رحلة علمية دراسية، ومر بالقاهرة يومئذ (سنة 1847) فصادف بها الزلزال الشهير الذي وقع فيها عندئذ وكاد يهلك؛ ثم سافرت البعثة إلى النوبة والسودان، واصطادت كثيراً من الحيوانات المختلفة؛ وعكف بريم على دراسة خواصها المادية والروحية، وفي أثناء عوده إلى القاهرة كانت بعثة (لبوبة) الشهيرة (بجيته) فكان يطوف بها الشوارع ذلولاً مطيعة، ثم عاد بريم من القاهرة بعد عامين إلى السفر مرة أخرى مع أخيه وزميل آخر، واعتزموا اختراق السودان حتى منابع النيل، ولكن البعثة كانت غير موفقة، إذ غرق أخوه في النيل، ونفدت موارد البعثة، وعندئذ أمده حاكم السودان لهتيل باشا بشيء من المال ليتابع رحلته على ضفاف النيل الأزرق، وهناك اصطاد كثيراً من الحيوانات وأنفق نحو خمسة أعوام في هذه الرحلة، واكتشف فيها كثيراً من الحقائق العلمية؛ ثم عاد إلى ألمانيا، وانكب على دراسة العلوم الطبيعية؛ ونال إجازة الدكتوراه من جامعة بينا في علم الحيوان سنة 1856 وانتخب عضواً في الأكاديمية البروسية الملكية، وأخذ منذ ذلك الحين يكتب عن حياة الحيوان؛ ثم قام برحلة في أسبانيا، وأخرى في لايلاند وجزائر لوفوثن؛ ثم قام برحلة أخرى في شمال الحبشة في سنة 1862، وكتب كتباً عن هذه الرحلات والمباحث كلها. ولما عاد إلى ألمانيا كتب مع زميلين له كتاباً مصوراً عن حياة الحيوان في ستة مجلدات اختص منها هو بأربعة؛ وعين مديراً لحديقة الحيوانات في برلين وهمبورج مدى حين. ولكن شغف البحث حمله مرة أخرى، فسافر إلى سيبيريا الشرقية، وكاد يهلك في هذه المرة، وسافر إلى أمريكا الشمالية سنة 1883، ولما عاد إلى ألمانيا لم يمكث طويلاً حتى توفي في 10 نوفمبر سنة 1884.

وكتاب بريم عن حياة الحيوان من أشهر الآثار وأقيمها في هذا الموضوع، وهو يعتبر أستاذ موضوعه في العلم الألماني؛ ولم يسبقه، بل ولم يأت من بعده أحد استطاع مثله أن ينفذ إلى روح الحيوان وإدراكه، وقد ترجم أثره إلى جميع اللغات.

عيد الأكاديمية الفرنسية

مضى اليوم على تأسيس الأكاديمية الفرنسية ثلاثمائة عام كاملة؛ ذلك لأنها أنشئت في عهد لويس الثالث عشر، في أوائل سنة 1635؛ أسسها جماعة من النبلاء الأدباء برعاية الكردينال ريشيليو الحبر السياسي وزير لويس الثالث عشر، فكانت من خالد آثاره، وسيجري الاحتفال بهذه الذكرى بمنتهى البساطة، ويقام لذلك معرض في المكتبة الوطنية في شهر يونيه القادمة؛ وستعرض فيه طائفة من الوثائق الخطية الشهيرة الخاصة بالأكاديمية، ومنها مسودة الخطبة الأولى التي أعدها السيد بول هاي صاحب الشاتليه لإلقائها في أول جلسة للجماعة العلمية في 5 فبراير سنة 1635.

وقد تساءلت إحدى الصحف الأدبية الكبرى بهذه المناسبة عما إذا كان المسيو رنيه دوميك سكرتير الأكاديمية يقبل أن يضم هذا المعرض التذكاري بعض الصور الرمزية المضحكة التي أوحى بها تقاعد الأكاديمية عند إصدار (قاموسها) الشهير، وما وقعت فيه من الأغلاط النحوية، ومنها اللوحة الشهيرة التي رسمها (فيرتبير) وعنوانها (دفن قاموس الأكاديمية)؟

البترول من ماء البحر

كتب المهندس الفرنسي مسيو ساهير إلى الحكومة الفرنسية ينبئها بأنه وصل إلى طريقة لاستخراج البترول من ماء البحر العادي، وأنه على استعداد لأن يبيعها سر هذه الطريقة نظير 25 مليوناً من الجنيهات.

وقد قالت جريدة (الماتان) في تعليقها على هذا النبأ إن المهندس ساهير واثق كل الثقة من طريقته، وأنه دعا إلى معمله بمدينة (روين) بعض الخبراء في وزارة الحربية والطيران ليشهدوا التجربة.

وقال مسيو ساهير في حديث له مع مندوب (الماتان) أنه لاحظ أن المناطق الغنية بالبترول توجد بها عدة كميات كبيرة من الماء الملح. وأن هذه الملاحظة هي أساس الفكرة التي أوصلته إلى استخراج البترول من ماء البحر، لأنها دلته على أن الماء الملح لا بد أن يكون من العناصر الأساسية.

الأدب وسيلة للتفاهم الدولي

أذاعت إحدى دور النشر الكبرى في برلين أنها تخصص جائزة قدرها عشرون ألف مارك (نحو 1500 جنيه) لمن يضع أحسن كتاب قصصي عن مسألة التفاهم بين فرنسا وألمانيا. والمفهوم أن إنشاء هذه الجائزة كان بإيعاز من وزارة الدعوة؛ وقد وافق وزير الدعوة الهير جيبلز على أن يكون الهر هانز بلونك رئيس الجمعية الاشتراكية الوطنية (الهتلرية) للكتاب الألمان هو الحكم الوحيد في فحص الكتب المقدمة وتخصيص الجائزة. وقد علقت الصحف الفرنسية على هذا النبأ بأنه من بعض أساليب الدعوة الهتلرية التي يراد بها إخفاء نياتها الحقيقية نحو الاستعداد للحرب.

القصص

عمامة الأفندي

للأستاذ محمد سعيد العريان

طال بنا انتظار صاحبنا (المأذون) في هذه الليلة حتى دقت العاشرة ولم يجئ، وكنا نرقب مقدمه علينا كل مساء رقبة المشتاق، فما تخلف منذ عرفناه ليلة، وإنه ليقدم فيحل البشر ويستخفنا السرور، سرور النفس بدعابته، وسرور المعدة بحلواه؛ فقلما كان يوافينا إلا ومعه هدية من عرس نتوزعها بيننا. ولم يكن لمقدمه ميعاد، فإنه لعلى تجوال دائم يتأبط دفتره من دار إلى دار، رسول سلام وحب، أو رسول فرقة وقطيعة!.

وتوزعتنا الظنون من غيبته، وحسبناه قد أصاب الليلة حظاً من عرس، فبخل علينا بحلواه ومرق إلى الدار؛ فما كنا لنتركه حين يقدم علينا إلا فارغ الجيب من الحلوى وغير الحلوى مما يجمع من الأعراس، وما كان ليتركنا إلا فارغةً رءوسنا من كثرة ما نضحك من دعابته وهزله. وإنه لشاب ضُحَكَة جرئ على النكتة، ليس فيه زماتة الشيوخ من أهل هذه الطائفة.

وتهيأنا لاستقباله بفيض من النكات المصنوعة، لعلنا ننال منه لقاء ما كان يشبعنا كل مساء من عبث ودعابة؛ فقد كان له في كل ليلة هدف من الجلساء يتندر عليه ويتخذه ضُحْكَة فما ينصرف منه إلا مغضباً فيترضاه في غد!.

وجاء بعد قليل، فحيا وجلس، ولكنه كان عابساً مبهوراً ما يكاد جفنه يطرف؛ فحسبنا من وراء مظهره العابس نكتة مبتكرة، فما عهدناه يألم في الحياة لشيء، وإن الهموم لتصطرع عن يمينه وعن شماله.

وهممنا به نتناوله بما أعددنا له من عبث، فإذا كلماتنا تتساقط حواليه ولا تصيبه، وظل على حاله من الغضب والعبوس وسرت إلينا نفسه، وتقمصنا مما به روح الكآبة والوحشة؛ فأمسكنا عن الحديث لحظات.

ورفع الشيخ رأسه بعد هنيهة، وتحركت شفتاه بكلام، فتقصفنا عليه نستمع لما يقول وسأل: (ما لديكم من أنباء صاحبنا عاطف؟).

قلنا: (لقد انقطع عن نادينا منذ زمان بعيد، فلعله على شغل ببعض شأنه؛ وإن لذات الحياة لحبيبة إليه، فما نراه قد منع لقاءنا إلا لهو آثره علينا، أو لذة دعته فلباها؛ أو لعله يتفيأ من
دنياه الجديدة ظلال الحب والسعادة).

قال: (بل دنياه الجديدة، ولكن ليس فيها من السعادة والحب إلا ظلهما؛ ولكن مكابدة الأحزان، وألم الوحدة، ومشقة الحرمان، وظلام اليأس!).

ورنت كلماته في أذني رنيناً مفزعاً سمعت صداه في قلبي؛ فقد توثقت صلتي بعاطف صبياً وغلاماً وشاباً؛ فأي أمل كان يجيش في تلك النفس، وأي روح كان يحمل ذلك الجسد، وأي حيوية كانت تصطرع من ذلك الشاب!

فما كربني كرب ونظرته إلا عادت الحياة في عيني باسمة نضرة، وما أهمني هم فلقيته إلا تعلمت منه فلسفة الرضى بما هو كائن، وكان من بهائه وإشراق طلعته، إلى كماله وعفته - كأنه فتنة مستحيية. . .

وأخذ الشيخ يقص علينا من نبئه، ونحن نستمع إليه في صمت.

كان عاطف على ما انبسط له من النعمة، وما اتفق له من حسن الرأي - لا يؤمل في الزواج إلا من فتاة ذات مال. ولقد كان عجيباً عندنا أن يكون على هذا الرأي، وهو من نعرف من شباب الجيل الجديد؛ ولكنا لم نكن لنستطيع على ما نسرف في مهاجمة رأيه - أن نصرفه عن بعض ما كان يعتقد. وراح في سبيل غايته يبحث عن الزوجة الغنية على أبواب المجلس الحسبي. . .!

ووجدها بعد إذ جد فأعيا؛ ولم تكن جميلة، ولكنها كانت بعيدة عن الدمامة؛ وكانت جاهلة، ولكنها من بنات الحاضرة. وقد مات أبواها وخلفا لها قصراً وضيعة، وأخاً يقوم عليها وعلى الضيعة جميعاً.

واستوثق الفتى من غنى صاحبته، فأقبل يخطبها إلى أخيها وقد اجتمعت له الأسباب. وأدى المهر؛ مهر الضيعة والقصر والعروس. . وعقد له على فتاته.

لقد غبطناه يومئذ على النعمة، نعمة الثروة والجاه والزواج، وما عنانا كم دفع وكم أنفق؛ فقد كنا على ثقة بأن حبته مردودة إليه سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة. ورحنا نتهم أنفسنا بفساد النظر وأفن الرأي وسوء التدبير.

ومضى أسبوع، وشهر، وأشهر، وأوشك العام أن ينتصف. وعاطف متهلل الوجه، ضاحك السن، يحلم بالغد القريب يوم تزف زوجته إليه، وتزف ثروتها إلى خزانته. . . وسعى إلى
صهره يستعجله، فإذا هو يبسط له المدى، ويفسح الأجل، ويستشفع بالتقاليد. . .

وعاد الفتى إلى نفسه يطمئنها ويترضاها. وما عليه من ذاك؟ أليست ستزف إليه لا محالة في يوم قريب أو بعيد؟ بلى؛ وإنها لزوجته، ما في ذلك شك ولا إنكار؛ فلا عليه أن ينتظر!

ودار دولاب الزمن فأتم دورة، وراح الفتى يستنجز صهره الوعد، فقابله وهو يبتسم، وبسط له وجهه ومجلسه، وأخذ يتنقل به في الحديث من فن إلى فن حتى زالت وحشته، وأنست روحه، فودعه ولم يظفر بجواب. . .!

وتولت الأيام بعضها في أعقاب بعض، وتصرمت الأشهر شهراً في اذيال شهر؛ وما يزال صاحبنا يراوح بين جنبيه في فراش الوحدة، وعروسها هناك من دونها الأبواب والحارس العتيد!

ومل الفتى مقامه، وضاقت به نفسه؛ فراح يطلب التعجيل في الزفاف فيلحف، وأخو الفتاة في هدوء مطمئن يبعد له الأجل ويتعذر بالظروف!

أي ظروف؟ لقد مر عامان مذ تزوجت، فمن لي على الحياة أحتمل بردها وحرورها) -
وحدي، وما أنا عزب فأنطلق حيث أشاء، ولا زوج فآوي إلى بيتي ألتمس هدوء النفس
(!وبرد الراحة
وعاد الأخ يعتذر ويجدد الميعاد، وهو يربت على كتف الزوج الغاضب.
وخرج عاطف من الدار والقدر تغلي في رأسه؛ لقد ابتدأ يعرف ما هنالك، ولكنه لم
يجرؤ على التصريح. أيكون ذلك من قوانين البر، أهو كذلك ناموس الرحمة والعدل؛
أيعضل الأخ أخته فيحرمها الاستمتاع بالحياة من أجل المال، من أجل مالها الذي يخشى
أن يفلت من يده إلى الزوج يتصرف فيه كيف يشاء! وما يضيره من ذلك وإن له
لضعف ما تملك أخته المسكينة، وإن ماله ليكفيه ويفضل عن حاجته، ولكن. . . أين هو
الفضل منذ سنوات؟
لكأنما هو مستخدم على أن يجمع المال فيبدده هنا وهناك، وما له من ذلك إلا اللقمة،
وما تمتاز كثيراً من لقمة الفقير؛ وإلا الثوب، وإنك لترى الثياب الغالية يزهى بها من هم
دونه من عامة الناس! أما فضل المال فله مصرف من وراء ذلك: على المرأة والكأس
والقمار. . .
وهم عاطف أن يعود فيصرخ في وجهه بما عرف من أمره وسوء تدبيره، ولكنه كظم
الغيظ على ألم وضيق.
وتلاقيا بعد أيام، وكانت القدر ما تزال تغلي؛ فعلا الزبد يترشش مصرحاً عن غضب
مغيظ. . وافترق الرجلان على خصومة وعداء. . .!
ودق عاطف باب المحكمة لعلها أن تحمل زوجته على (الطاعة)
أين هي المسكينة؟ وعلى طاعة هي أم على عصيان؟ إنه لم يرها إلا مرسومة في
ورقة، أتراها في الأحياء، أم هي من وراء جدران سجنها جثة بلا روح، وجسد بلا
عاطفة، وطاعة بلا إرادة، ومعدة بلا وجدان. .!
ويحك أيتها المسكينة! أتشعرين أنك في الأحياء؟ لعل في الموتى من هم أقرب منك
إلى الحياة، لأنهم يعيشون من عواطف أهليهم في عواطف حية وحب مشبوب. .!
وفي المحكمة رأى الفتى عروسه لأول ما يراها، وقد جاءت تسعى عن أمر أخيها
تطالب زوجها بالنفقة والكسوة والمأوى!
ياللسخرية! أضاق بها أخوها طاعمة كاسية من مالها عند! فيدفعها إلى القضاء تلتمس
القوت واللباس. .!
وكان بينهما ما يكون دائماً بين زوجين يعرفان المحكمة الشرعية؛ وفي كل يوم بينهما
جلسة للقضاء، وكل منهما يفتن في الكيد والإغاظة، والغالب منهما من ينال من صاحبه
من غير عائدة عليه، والمال يتسرب من بين أيديهما للمحامي والكاتب ورسوم
الدعاوى وأجر الشهود. .!
وامتدت بينهما الفتنة، ولجت بهما الخصومة، وطالت إجراءات التقاضي، وتصرمت
سنوات. وأخذ الزوج المسكين يبيعما يملك قطعة بعد قطعة، وفاء لنفقة الزوجة ونفقة
القضاء؛ وأوشك الزوج الذي راح يطلب الغنى من تحت أقدام امرأة أن تصفر
يداه. . .!
واصطلحا في النهاية على الطلاق. . .!
قال المأذون:
وقلت للفتاة: أأنت على نية إبرائه رغبة في الطلاق؟)
وزاغت نظرة الضحية العذراء من هنا إلى هناك، حتى استقرت على الرجل الجالس
هناك، ثم نكست رأسها. ولم تجب.
قلت: إنما أنت تفصلين في أمر مستقبلك، فليس هنا لأحد عليك سلطان.
فحدقت فيّ طويلاً كأنما تلتمس المعونة، ثم حولت النظر إلى أخيها فإذا في عينيه
كلام طويل، فأطرقت وهي تقول في همس: (نعم لقد أبرأته. . . .!)
والتفت إليها الرجل يصوب النظر ويصعده، ثم نطق بالكلمة الفاصلة. . .!
وتحولت إلى الرجل فأنكرته، وأقسم لكأنما لم أكن أعرفه من قبل، وما كان في بالي
أنه صديقي عاطف. لقد انطفأ بريق عينيه كأنما ينظر من خلف زجاجة؛ وغاض ماء
الشباب من وجهه، فما تراه إلا كوردة الخريف؛ وقد أطلق لحيته، كأنما تركت لطمات
القدر في عارضيه سواد حظه؛ وكانت في يده سبحة، أحسبه كان يحصي عليها همومه

(!. . .وأحزان نفسه؛ وما رأيت شيئاً أبيض - فيما رأيت - إلا عمامته.
قلنا: (عمامته؟. . عهدنا به لا يلبس إلا الطربوش. . .!)
قال: (نعم عمامته، فاستأنوا. . . قلت له: ما فعلت بك الأيام يا عاطف؟
قال: ذاك ما ترى. ولقد أقسمت أن أفرغ لله، فلم تعد لي في الزواج إربة، ولن تراني إلا بين المسجد والبيت حتى ألقى منيتي! حسبي، حسبي ما لقيت من دنياي. . .!
وانكب على سبحته يتمتم والحبات تتساقط في الخيط واحدة فوق واحدة، ورأسه يهتز كأنه يقول: كذلك تتعاقب الأيام كما تتساقط الحبات حبة وراء حبة، حتى تكون النهاية، حتى يكون الموت. .! وما وجدت عندي جواباً إلا أن أتحول وأدعه حيث يجلس يداعب سبحته. أتراه كان يذكر الله، أم يسب الدنيا. . .!).
لقد راح المسكين يبحث عن الزوجة الغنية ليضاعف بمالها ماله، فآب فقيراً من مالها ومن ماله؛ وذهب يسعى لأن يضاعف بالزواج مسرات الشباب، فرده الزواج شيخاً في الثلاثين!

محمد سعيد العريان

صيد الغزال

بقلم: شفيق نقاش

في صباح يوم من أيام أغسطس العصيبة، كانت الغزالة ترعى في جبل البازين تقضم الأعشاب اللينة برقة وهناءة، وتلفت جيدها محدقة في فطيمها الصغير، ورفيقها الوحيد في هذه الوهاد القفرة، وهو مضطجع قريباً منها على فراش وثير من البجلة.
لقد أخذت البقع العفراء الساحرة تغشى جلده الناعم فتكسبه روعة وبهاء؛ فهي معجبة به، تحنو عليه، وتحيطه بنظرات العطف كلما بدرت منه حركة دلت على خوف أو ألم، وهو يتحفز للوثوب خلفها وجلاً كلما خطرت مبتعدة في طلب العشب.
صورة رائعة للأمومة التي تعطر جو الحياة الكئيبة، والثقة التي تخفف من شقائها.
رفعت الغزالة رأسها بسرعة البرق، هل سمعت صوتاً؟ ربما كان ذلك حفيف الرياح الجنوبية تخترق الغابة؛ فالسكون الرهيب مخيم على الوادي، والسكينة سائدة في كل مكان.
رنت الظبية بطرفها، وألقت نظرة اطمئنان على رشأها ثم تابعت رعيها. وفجأة رفعت جيدها واشرأبت تجيل الطرف في أنحاء الغابة، وهي ترتجف من الخوف. . . هناك صدى صراخ متواصل يخترق الوادي، أصغت قليلاً فتأكد لديها نباح كلب يدنو رويداً من كناسها الأمين.
كان الوقت كافياً لمرحلة طويلة تطويها مبتعدة عن الصيادين. ولكن وحيدها الظبي الألوف، وأنيسها في هذه الوحشة، فمن ينقذه؟ هو لا يستطيع اللحاق بها، فلمن تكل أمره، ولمن تتركه؟. . .
تنابحت الكلاب غير بعيد، وتجلى للغزالة الخطر المحدق بهما، فوثبت بعض خطوات إلى الوادي تبحث عن ملجأ أو مهرب! وهب رشأها مذعوراً وهو يبغم متعجباً.
أغربت الظبية ثم ألقت نظرة وراءها، فرأته يتتبعها بسيره البطيء، وهو يتعثر متألماً من الجذوع الخاوية على الأرض، والأشواك التي تعترض سبيله. تابعت الأم سيرها واستمر وحيدها لاحقاً بها يتعثر ويستغيث، لأن البون أصبح شاسعاً بينهما - كائن صغير من مخلوقات الله لا يقوى على احتمال الألم والخوف والتعب، فوقع على الأرض!
تصايحت الكلاب وتقاربت، واشتد نباحها. وأحدق الموت بهذين البريئين من كل جانب؛ فدنت المسكينة من صغيرها تلحس بلسانها بشرته الرقيقة الناعمة، واضطجع هو آمناً بقربها، مطمئناً بعودتها، ثم ما لبث أن أغمض أجفانه من التعب.
فكرت الغزالة في تخليص صغيرها من مخالب الكلاب ورصاص الصيادين، وكأن صوتاً أهاب بها فرفعت رأسها، وفتحت منخريها، وحدقت طويلاً في مصدر الصوت، ثم نفرت مقتحمة الغابة، قاصدة ناحية أعدائها. ولما اقتربت منهم وتأكد لديها اكتشافهم لها واقتفاؤهم أثرها، غيرت وجهتها وشرقت بهم مبتعدة عن ولدها فأصبح في مأمن من الشر.
تضاءل النباح ورائها، فوثقت من فوزها، وولت وجهها شطر الشمال تود القيام بدورة تعيدها حيث تركت فطيمها، ولكنها ما عتمت أن سمعت صوتاً جديداً يقابلها، فانطلقت إلى الأمام تجتاز الوادي.

هذه صلصلة أجراس القرية تدوي في الفضاء، ويتجاوب صداها، لقد أصبحت على مقربة من أكواخ الفلاحين. هنا أيضاً أعداء جدد لم تحلم بهم. سدت في وجهها الطرق، وأغلقت المفاوز، وأحاط بها الصيادون من كل جانب - رحمتك اللهم! ألم تدع للشفقة مكاناً في ذلك الوادي الزاهر حين خلقته؟ ولا للرحمة موضعاً في تلك القلوب حيث كونتها؟

الكلاب تفاجئها من كل ناحية، وسكان القرية يطاردونها رجالاً ونساءً وأطفالاً، يود كل منهم لو يظفر بها غنيمة باردة.

تذكرت الظبية طلاها فتجدد أملها بلقائه، وسلكت طريق القرية مرغمة بين نبوح الفلاحين ودوي البارود.

اعترضتها بحيرة قريبة، فألقت نفسها في الماء تشق صفحته، وتسبح بقوة عجيبة، لقد خارت قواها، ولم تعد سيقانها الضئيلة تساعدها على المضي في طريق النجاة.

لكن الأمل العذب - سر الحياة - كان يهيب بها دائماً لاقتحام تلك الغمرات، حتى وصلت الشاطئ فأبرت مطمئنة، وتمثلت أنيسها يبحث عنها في وحشته، فهرعت تريد احتضانه، ولكن هل نجت المسكينة من هذا العذاب الطويل؟

. .صياد جديد كان يترصدها فاستقبلها برصاص بندقيته فوقعت جثة هامدة

(عن الإنكليزية بتصرف)

شفيق نفاس

العدد 74 - بتاريخ: 03 - 12 - 1934

. . .!دارٌ تَبلى

دار تَبلى! وكانت إلى الأمس القريب دار الأمة! عليها نزل وحي الوطنية، ومنها انبعث صوت الحرية، وفيها انبثق فجر النهضة، وبها وُلد معنى الاستقلال.

كانت ملجأ الخلافة في الآستانة، ومفزع الخديوية في القاهرة، ومخالفة الاستعمار في لندن، ومثابة الإسلام في العالم كله! تجمعت فيها للأمة رغائب، ونشأت بها للشباب آمال، وخفقت عليها للجهاد (ألوية)، وسمعت مصر في أفنيتها للمرة الأولى أصوات بَنيها الخُلَّص يهتفون باسمها، ويهزجون بمجدها، ويزفرون من الحفيظة لاستعبادها، ويستنجزون الغاصب المحتل وعدوه الممطول وعهده الفاجر! ثم كانت (عكاظ) للبلاغة الخطابية، و (فورم) للمساجلة السياسية، و (كعبة) يتجه أليها أبرياء الصدر من مخامرة الوطن، وأنقياء الصحيفة من ممالأة العدو تلك هي دار اللواء، ونادى مصطفى كامل!

تمر اليوم بمكانها من شارع (الدواوين) فتجد هذا الأثر الضخم والتاريخ الحافل تُعفيه الأحداث والنوازل! كأنها لم تكن في عهدها الداني قلب مصر النابض، وعزم نشئها الناهض، ومنارة أمرها الهادية! أتى البلى عليها أنَّى البلى فنكر أعلامها وأخفقت صداها! كأنها لم تنفض عن الوادي غبار الحمول، ولم تمسح عن الأجفان فتور الوسن! وكأن مصطفى لم يسجل على أركانها أول صيحة بالجلاء، وأول رغبة في الدستور، وأول غضبة للحرية!!.

ولكن الزمن الدوار القهار يحطم كل ما برأ الله وصور الناس من شخص وشيء، فلا يظهر على بأسه إلا الفكرة، ولا يخلد على رغمه إلا العقيدة.

ألا فاسلمى على رغم هذا البلى يا دار! فأن لك في كل قلب آية مسطورة، وفي كل تاريخ صفحة منشورة، وفي كل جيل نشيداً يعطف القلوب إلى الحق، ويلفت العيون إلى النور، ويهدي النفوس الشاردة إلى الغرض الأسمى والسبيل القصد.

ومن الذي ينسى ومضة الروح الإلهي في ذلك الجسد الضارع، فيفور فورة الجبارين، ويصمد صمود الرُسل، ويقوم في وحدة النبي وإيمان الشهيد يجاهد الإشراك بمصر، والكفران بالأمة، ويقارع بالحجج الثائرة الملزمة طغيان إنجلترا وهي يومئذ علة العلل ودولة الدول؟

أم من الذي ينسى خفقة التضحية القدسية في ذلك الشباب العليل، فيحرك ساكن شعبه

بوجيب قلبه، ويضئ ظلام يومه بوميض روحه، ويذكى خمود عزمه بحرارة دمه، ثم يزهد في المال والجاه والحكم زهادة الحكيم، فيحيا للمبدأ والفكرة، ويموت للقدوة والعبرة؟

على إخلاص مصطفى وإيثار فريد وصدق سعد تسير اليوم هذه القافلة! حتى إذا كذب الرائد، ومكر الدليل، وخامر الحادي، انبلج في جوانب الطريق شعاع من هذه الأرواح البرَّة، فيجلو العمى، ويكشف الضلال، ويفضح المكيدة! وقد ماتوا رضوان الله عليهم ميتة الأنبياء، لا (عمائر) تحجب سماء المدن، ولا (دوائر) تشغل أرض القرى! لقد ملكوا وما تركوا! إنما ورثونا حفظ الكرامة وإن أرهقنا الظلم، وطلب الحرية وإن أجهدنا الطغيان، ورعاية الحق وإن خدعنا الباطل! كانت قافلتنا تسير باسم الله يا دار! تسير على ضوء من مبادئ الزعماء لا يخبو ولا ينكسر، فأصبحنا ذات يوم وإذا سيرها يثقل ونظامها يضطرب! فالتفتنا فإذا عصبة منا تسربلوا بالنار وتدرعوا بالحديد، ثم ولوا وجوههم إلى الخلف، وأخذوا بمؤخر القافلة جذباً وجراً، حتى لتكاد عواتقهم تهى، ومفاصلهم تنسرق، وانبث في الركب دعاة الرجعية وسماسرة الطغيان، يلبسون عليه الأمر، ويوهمونه أن هؤلاء هم القادة، وأن هذه الوجهة وعلى تلك الحال الأليمة لبثنا أربع سنين يتجاذبنا الوراء والأمام، ويتنازعنا النور والظلام، حتى ضعضع الصبر الأبى وثاقة الطاغية فخر صريعاً ليديه وفمه.

تقوض صرح الظلام والظلم أول أمس يا دار! فانتشر ما كان يحجبه من نور، وسرى ما كان يصده من نسيم، وعدنا إلى نهج الحياة شامتين بمن هوَوا من أعاليه وثوَوا تحت أنقاضه!

لقد أبلاه عدل الحوادث كما أبلاك ظلمها، وستبقى على الأبد آثارك المعنوية وآثاره! فأما آثارك فتبقى بركة على الناس، وحجة على البغي، وتفسيراً لمعنى البطولة؛ وأما آثاره فستبقى لعنةً في فم الدهر، ودمامة في وجه التاريخ، ووضاعة في كبر الإنسانية!

ألا فاسلمى على رغم هذا البلى يا الدار! فان لك في كل ذهن صورة، وفي كل نفس ذكرى، وفي كل غمرة من غمرات الجهاد روحاً تمسك القوى، وتلهم الصبر، وتعين على مخاوف الطريق!

احمد حسن الزيات

. . .قلت لنفسي. . . وقالت لي

للأستاذ مصطفى الرافعي

قلت لنفسي: ويحك يا نفسُ! ما لي أتحاملُ عليك؛ فإذا وفيتِ بما في وسعك أردتُ منك ما فوقه وكلفتُك أن تسعى؛ فلا أزال أُعْنِتُكِ من بعد كمال فيما هو أكملُ منه، وبعد الحسن فيما هو الأحسن، وما أنفك أُجهدكِ كلما راجعك النشاط، وأضنيك كلما ثابت القوة؛ فان تكن لك همومٌ فأناأكبرُها، وإذا ساورتك الأحزانُ فأكثرُها مما أجلبُ عليك. أنت يا نفس سائرة على النهج وأنا أعتسفُ بك، أريد الطيران لا السير، وأبتغى عمل الأعمار في عُمر، وأستحثُّك من كل هجعة راحةٍ بفجرٍ يمتد منه نهارٌ مضطرب؛ وكأنى لك زمن يُمادُّ بعضه بعضاً، فما يبرح ينبثق عليك من ظلامٍ بنورٍ ومن نورٍ بظلام؛ ليهيأ لك القوة التي تمتد بك في التاريخ من بعد، فتذهبي حين تذهبين، ويعيش قلبك في العالم سارياً بكلمات أفراحه وأحزانه.

وقالت لي النفس: أما أنا فإني معك دأباً كالحبيبة الوفية لمن تحب؛ ترى خضوعها أحياناً هو أحسن المقاومة. وأما أنت فإذا لم تكن تتعب ولا تزال تتعب، فكيف تدلني أنك تتقدم ولا تزال تتقدم؟ ليست دنياك يا صاحبي ما تجده من غيرك، بل ما توجده بنفسك؛ فان لم تزد شيئاً على الدنيا كنت أنت زائداً على الدنيا، وأن لم تدعها أحسن مما وجدتها، فقد وجدتها وما وجدتك، وفي نفسك أول حدود دنياك وآخر حدودها. وقد تكون دنيا بعض الناس حانوتاً صغيراً، ودنيا الآخر كالقرية الململمة، ودنيا بعضهم كالمدينة الكبيرة؛ أما دنيا العظيم فقارة بأكملها، وإذا انفرد امتد في الدنيا فكان هو الدنيا. والقوة يا صاحبي تغتذي بالتعب والمعاناة؛ فما عانيته اليوم حركةً من جسمك، ألفيته غداً في جسمك قوة من قُوى اللحم والدم. وساعة الراحة بعد أيام من التعب، هي في لذتها أيام من الراحة بعد تعب ساعة. وما أشبه الحي في هذه الدنيا ووَشك انقطاعه منها - بمن خُلق ليعيش ثلاثة أيام معدودة عليه ساعاتها ودقائقها وثوانيها؛ أفتُراه يغفل فيقدرها ثلاثة أعوام، ويذهب يسرف فيها ضروباً من لهوه ولعبه ومجونه، إلا إذا كان أحمق أحمق إلى نهاية الحمق؟

أتعب تعبك يا صاحبي، ففي الناس تعب مخلوق من عمله، فهو لين هين مسوًّى تسوية؛ وفيهم تعب خالق عمله، فهو جبار متمرد له القهر والغلبة. وأنت إنما تكد لتسمو

بروحك إلى هموم الحقيقة العالية، وتسمو بجسمك إلى مشقات الروح العظيمة؛ يا صاحبي ليس تعباً
في حفر الأرض ولكنه تعب في حفر الكنز. إتعب يا صاحبي تعبك؛ فان عناء الروح هو عُمرها، فأعمالك عمرك الروحاني، كعمر الجسم للجسم؛ وأحدهما عمر ما يعيش، والآخر عمر ما سيعيش.
قلت لنفسي: فقد مللت أشياء وتبرمت بأشياء. وأن عمل التغيير في الدنيا لهو هدم لها كلما بُنيت، ثم بناؤها كلما هدمت: فما من شيء إلا هو قائم في الساعة الواحدة بصورتين معاً؛ وكم من صديق خلطته بالنفس يذهب فيها ذهاب الماء في الماء، حتى إذا مر يوم، أو عهد كاليوم، رأيت في مكانه إنساناً خيالياً كمسألة من مسائل النجاة فيها قولان. . .! فهو يحتمل تأويل ما أظن به من خير، وما أتوقع به من شر! وكم من اسم جميل إذا هَجَس في خاطري قلت: آه، هذا الذي كان. . .!
أما والله إن ثياب الناس لتجعلهم أكثر تشابهاً في رأى النفس، مما تجعلهم وجوههم التي لا تختلف في رأي العين. وإني لأرى العالم أحيانا كالقطار السريع منطلقاً يركبه وليس فيه من يقوده. ورأى الغفلة المفرطة قد بلغت من هذا الناس مبلغ من يظن أنه حي في الحياة (كالموظف تحت التجربة). فإذا قضى المدة قيل له: ابدأ من ألان؛ كأنه إذا عاش يتعلم الخير والشر، ويدرك ما يصلح وما لا يصلح، وانتهى من عمره إلى النهاية المحدودة - رجع من بعدها يعيش منتظماً على استواءٍ واستقامة، وفي إدراك وتمييز- مع أن الخرافة نفسها لم تقبل قط أن يعد منها في أوهام الحياة أن رجلاً بلغ الثمانين أو التسعين وحان أجله فأصبحوا لم يجدوه ميتاً في فراشه، بل وجوده مولوداً في فراشه. . .! وقالت لي النفس: وأنت ما شأنك بالناس والعالم؟ يا هذا، ليس لمصباح الطريق أن يقول: (إن الطريق مظلم) إنما قوله إذا أراد كلاماً أن يقول: (هأنذا مضيء.) والحكيم لا يضجر ولا يضيق ولا يتململ، كما أنه لا يسخف ولا يطيش ولا يسترسل في كذب الوهم؛ فان هذا كله أثر الحياة البهيمية في هذه البهيمة الإنسانية، لا أثر الروح القوية في إنسانها. والحيوان هو الذي يجوع ويشبع لا النفس. وبين كل شيئين مما يعتورُ الحيوانية كالخلو والامتلاء، واللذة والألم - تعمل قوى الحيوان أشياءها الكثيرة التي تتسلط بها على النفس لتحطها من مرتبةٍ مرتبةٍ إلى أن تجعلها كنفوس الحيوان؛ ولهذا كان أول الحكمة ضبط الأدوات الحيوانية في الجسم، كما توضع اليد على مفاتيح القطار المنطلق يتسعر مرجله ويغلي.
إعمل يا صاحبي عملك؛ فإذا رأيت في العاملين من يضجر فلا تضجر مثله، بل خذ اطمئنانه إلى اطمئنانك، ودعه يخلو وتضاعف أنت.
أنه ليوشك أن يكون في الناس ناسٌ (كالبنوك): هذه مستودعات للمال تحفظه وتخرج منه وتثمِّره، وتلك مستودعات للفضائل تحفظها وتخرج منها وتزيدها. وإفلاس رجل من أهل المال هو إطلاق النكبة مسدسها على رجل تقتله؛ ولكن إفلاس (بنك) هو إطلاق النكبة يدفعها الكبير على مدينة تدمرها.
قلت لنفسي: فما أشد الألم في تحويل هذا الجسد إلى شبه روح مع الروح! تلك هي المعجزة التي لا توجد في غير الأنبياء، ولكن العمل لها يجعلها كأنها موجودة. والأسد المحبوس محبوسة فيه قوته وطباعه؛ فان زال الوجود الحديدي من حوله، أو وهنت ناحية منه انطلق الوحش. والرجل الفاضل فاضل مادام في قفصه الفكري، وهو مادام في هذا القفص فعليه أن يكون دائماً نموذجاً معرضاً للتنقيح الممكن في النفس الإنسانية، تصيبه السيئة من الناس لتختبر فيه الحسنة، وتبلوه الخيانة لتجد الوفاء، ويكسر به البغض ليقابله بالحب، وتأتيه اللغة لتجد المغفرة؛ وله قلب لا يتعب فيبلغ منزلةً إلا ابتدأ التعب ليبلغ منزلةً أعلى منها، وله فكر كلما جهد فأدرك حقيقة كانت الحقيقة أن يجهد فيدرك غيرها. وقات لي النفس: إن من فاق الناس بنفسه الكبيرة كانت عظمته في أن يفوق نفسه الكبيرة؛ إن الشيء النهائي لا يوجد إلا في الصغائر والشر، أما الخير والكمال وعظائم النفس والجمال الأسنى فهذه حقائق أزلية وجدت لنفسها؛ كالهواء يتنفسه كل الأحياء على هذه الأرض ولا ينتهي، ولا يعرف أين ينتهي؛ وكما ينبعث النور من الشمس والكواكب إلى هذه الأرض، يشبه أن تكون تلك الصفات منبعثة إلى النفوس من أنوار الملائكة، وبهذا كان أكبر الناس حظاً منها هم الأنبياء المتصلين بتلك الأنوار.

ومن رحمة الله أن جعل في كل النفوس الإنسانية أصلاً صغيراً، يجمع فكرة الخير والكمال وعظائم النفس والجمال الأسنى، وقد تعظمُ فيه هذه الصفات كلها أو بعضها، وقد تصغر فيه بعضها أو كلها. ألا وهو الحب.

لابد أن تمر كل حياةٍ إنسانية في نوع من أنواع الحب؛ من رقة النفس ورحمتها، إلى هوى النفس وعشقها. وإذا بلغ الحب أن يكون عشقاً، وضع يده على المفاتيح العصبية للنفس،

وفتح للعظائم والمعجزات أبوابها؛ حتى إنه ليجعل الخرافة الفارغة معجزة دقيقة، ويملأ الحياة بمعان لم تكن فيها من قبل، ويصبح سر هذا الحب لا ينتهي؟ إذ هو سر لا يدرك ولا يعرف.

أجهد جهدك يا صاحبي، فما هو قفصك الفكري ذلك الشعاع الذي يحسبك، ولكنه صقل النفس لتتلقى الأنوار. ولا بد للمرآة من ظاهر غير ظاهر الحجر.

قلت لنفسي: فما أشده مضضاً أعانيه! إن أمري ليذهب فرطاً. أكلما ابتغيت من الحياة مرحاً أطرب له وأهتز، جاءتني بفكرة أستكدُ فيها وأدأب. أهذا السرور الذي لا يزال يقع بين الناس هو الذي لا يكاد يقع لي. وهل أنا شجرة في مغرسها؛ تنمو صاعدةً بفروعها، ونازلةً بجذورها غير أنها لا تبرح مكانها. أو أنا تمثال على قاعدته؛ لا يتزحزح عنها إلا ساعة لا يكون تمثالاً، ولا يدعها حتى تدعه معاني العظمة التي نصب لها؟ وقالت لي النفس: ويحك! لا تطلب في كونك الصغير ما لي فيه؛ إن الناس لو ارتفعوا إلى السماء وتقلبوا فيها كما يسيح أهلُ قارةٍ من الأرض في قارةٍ غيرها، وابتغوا أن يحملوا معهم مما هناك تذكاراً صغيراً إلى الأرض - لوجدوا أصغر ما هنالك أكبر من الأرض كلها. فأنت سائح في سموات.

أنت كالنائم؛ له أن يرى وليس له أن يأخذ شيئاً مما يرى، إلا وصفه، وحكمته، والسرور بما التذَّ منه، والألم بما توجع له.

لن تكون في الأرض شجرةٌ برجلين تذهب هنا وههنا، ولكن الشجرة ترسل أثمارها يتناقلها الناس، وهي تُبدع الثمار إبداع المؤلف العبقري ما يؤلفه بأشد الكد وأعظم الجهد، مطلقة ضميرها في الفكرة الصغيرة، تعقدها شيئاً ثم يعود عليها بالزيادة، ولا تزال كل وقت تعود عليها، حتى تستفرغ أقصى القوة، ثم يكون سرورها في أن تهب فائدتها، لأنها لذلك وُجِدت.

إن في الشجرة طبيعة صادقة لا شهوة مكذوبة، فالحياة فيها على حقيقتها؛ وأكثر ما تكون الحياة في الإنسان على مجازِها، وشرط المجاز الخيال والمبالغة والتلوين. ولكن متى اختار الله رجلاً فأقر فيه سراً من أسرار الطبيعة الصادقة، ووهب له العاطفة القادرة التي تصنع ثمارها - فقد غرسه شجرة في منبتها لا مفر ولا مندوحة. وقد يخيل له ضعف طبيعته

البشرية أحياناً أن نضرة المجد التي تعلوه وتتألق حوله كشعاع الكوكب - هي تعبه وضجره، أو أثر إنخذالهِ وألمهِ ومسكنته. وهذا من شقاء العقل، فانه دائما يضيف شيئاً إلى شيء، ويخلط معنى، ولا يترك حقيقة على ما هي؛ كأن فيه ما في الطفل من غريزة التقليد، والعقل لا يرى أمامه إلا الإلهية، فهو يقلدها في مداخلة الأشياء بعضها في بعض، لإيجاد الأسرار بعضها من بعض.

ومن ثم كانت الحقيقةُ الصريحةُ الثابتةُ مدعاة للملل العقلي في الإنسان، لا يكاد يقيم عليها أو يتقيد بها، فما نال شيئاً إلا ليطمع في غيره، وما فاز بلذة إلا ليزهد فيها، وأجل ما أحبه الإنسان مع كل صواب من جزء من الخطأ، فان هو لم يجد خطأ في شيء إئْتفكَ لنفسه الخطأ المضحك في شبه رواية خيالية.

إنه لشعر سخيف بالغ السخافة أن يتخيل الغريق مفكراً في صيد سمكةٍ رآها. . . ولكن هذا من أبلغ البلاغة عند العقل الذي يبحث عن وهم يضيفه إلى هذه الحقيقة ليضحك منها، كما يبحث لنفسه أحياناً في أجمل حقائق اللذة عن ألم يتألم به ليَعبَسَ فيه!

قلت لنفسي: فهل ينبغي لي أن أحرق دمي لأني أفكر، وهل أضل دائماً بهذا التفكير كالذي ينظر في وجه حسناء بمنظار مكبر لا يريه ذلك الوجه المعشوق إلا ثقوباً وتخريماً كأنه خشبةٌ نزعت منها مسامير غليظة. . .! فلا يجد المسكين هذه الحقيقة إلا ليفقد ذلك الجمال. وهل بُدٌ من الشبه بين بعض الناس وبين ما ارْتصد له من عمل؛ فلا يكون الحوذيُّ حوذياً إلا لشبه بين نفسه وبين الخيل والبغال والحمير. . .؟

وقالت لي النفس: إن فأس الحطاب لا تكون من أداة الطبيب، فخذ لكل شيء أداته، وكن جاهلاً أحياناً، ولكن مثل الجهل الذي يصنع لوجه الطفل بشاشته الدائمة فهذا الجهل هو أكبر علم الشعور الدقيق المرهف، ولولاه لهلك الأنبياء والحكماء والشعراء غماً وكمداً، ولكانوا في هذا الوجود، على هذه الأرض، بين هذه الحقائق - كالذي قيد وحبس في رهجٍ تثيره القدم والخف والحافر؛ لا يتنفس إلا الغبار يثار من حوله إلى أن يقضى عليه

اجهل جهلك يا صاحبي في هذه الشهوات الخسيسة؛ فأنها العلم الخبيث الذي يفسد الروح، واعرف كيف تقول لروحك الطفلة في ملائكيتها حين تساورك الشهوات: (هذا ليس لي؛ هذا لا ينبغي لي).

إن الروح الكبيرة هي في حقيقتها الطفل الملائكي.

وعِلمُ خسائس الحياة يجعل للإنسان في كل خسيسةٍ نفساً تتعلق بها، فيكون المسكين بين نفسين وثلاث وأربع، إلى ثلاثين وأربعين، كلهن يتنازعنه فيضيع بهذه الكثرة، ويصبح بعضه بلاءً على بعض، وتشغله الفضول، فيعود لها كالمزبلة لما ألقى فيها، ويمحق في نفسه الطبيعية حس الفرح بجمال الطبيعة، كما يُمحق في المزبلة معنى النظافة ومعنى الحس بها.

هذه الأنفس الخيالية في هذا الإنسان المنكود، هي الأرواح التي ينفخُها في مصائبه، فتجعلها مصائب حية تعيش في وجوده وتعمل فيه أعمالها، ولولاها لماتت في نفسه مطامع كثيرة، فماتت له مصائب كثيرة.

انظر بالروح الشاعرة، تَرَ الكون كله في سمائه وأرضه انسجاماً واحداً ليس فيه إلا الجمال والسحر وفتنة الطرب، وانظر بالعقل العالم، فلن ترى في الكون كله إلا مواد علم الطبيعة والكيمياء.

ومدى الروح جمال الكون كله؛ ومدى العقل قطعة من حجر أو عظمة من حيوان، أو نسيجةٌ من نبات، أو فلذةٌ من معدن، وما أشبهها.

أجهل جهلك يا صاحبي؛ ففي كل حسنٍ غزلٌ، بشرط ألا تكون العاشق الطامع، وإلا أصبت في كل حسنٍ هماً ومشغلة. . .!

قلت لنفسي: إلى الآن لم أقل لك ذلك المعنى الذي كتمته عنك.

وقالت لي النفس: وإلى الآن لم أقل لك إلا جواب ذلك الذي كتمته عنى. . .؟

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

محمد بك المويلحي - 3

الأستاذ عبد العزيز البشري

تتمة في نشأته ودراسته

لقد عرفت مما قصصنا عليك أن هذا الرجل وإن نشأ عظامياً بما لبيته من الغني والحسب، فقد نشأ عصامياً بما حصل من العلم والأدب. اتكأ على نفسه فأكب على الكتب دائرها ومجفوّها. ولعل أكثر نظره إنما كان في كتب التاريخ والسير، ولو قد وقع لك صدر من آثار أبيه وآثاره لرأيت لهما في مواطن الاستشهاد فطنه عجيبة، إلى دقائق دقيقة، مما يعلق بزوايا التاريخ أو بحواشيه، قل أن يفطن لها أكثر القارئين، وقل أن يحفل بها أو يعلقها من يفطن إليها من الدارسين.

على أنها قد يكون لها في دواعي الكلام مقام عظيم، وكثيراً ما ترفعه درجاتٍ على درجات.

كذلك اعتمد محمد في تحصيل العلم والآداب على الاتصال بصدور أهل الفضل يصاحبهم ويلابسهم، ويلازم مجالسهم، ويشهد محاضراتهم ومقاولاتهم. كذلك داخل رجال الحكم وأصحاب السياسة في مصر وفي الآستانة فعرف أساليبهم، وأدرك مذاهبهم. ولم ينكسر على هذا وهذا؛ بل لقد صاحب كذلك أهل الظرف وأصحاب البدائه وشاركهم في أسمارهم، ودخل معهم في مناقلاتهم ومنادراتهم.

وعالج البيان من صدر شبابه، يصقل له أبوه القول، ويقرب له مصطفى اللفظ، ويأخذه بتجويد النسج، ويهديه إلى مضارب العلم. وسرعان ما نضج وأدرك، وجرى قلمه بالبيان

حلواً متيناً نيراً، ووقع من فنون المعاني على أجلها وأكرمها. ونهج لنفسه أسلوباً خاصاً به إن تأثر فيه بأحد، فبالأسبقين من أعلام الكتاب فكان منه بذلك كله الأديب التام.
واحترف صنعة القلم، واشترك في تحرير جريدة المقطم بضع سنين على ما أضن. ولا أحسبه قد شارك أباه في تحرير الصحف التي أخرجها في عهد المرحوم الخديوي إسماعيل، فتاريخها إن لم يكن أبعد من مولده، فهو أبعد في أرجح الظن، من حمله القلم والله أعلم!
وكان أبوه، رحمة الله عليهما، كثير الاختلاف إلى الآستانة مثوى الخلافة يومئذ، فكان يصحبه في بعض هذه الرحلات، وقلد إبراهيم بك في زمن السلطان عبد الحميد منصب المستشار لوزارة المعارف العثمانية، وأقام فيه بضع سنين، لعلها تسع إن صدقتني ذاكرتي؛ فقضى محمد في الآستانة هذه السنين.
ولما اعتزل المرحوم إسماعيل باشا إمارة مصر، وآثر المقام في إيطاليا دعا بإبراهيم بك ليؤنسه ويسامره، ويخدمه في بعض مساعيه عند السلطان. فحمل معه ولده وأقاما في نابولي في قصر إسماعيل بضع سنين. ومن هنا تدرك كيف حذق محمد لغة التليان.
ولقد طاف كثيراً ببلاد أوربا، إما موفداً من أبيه في بعض مساعيه، وإما متفرجاً متنزهاً. وله في وصف مؤتمر باريس سنة 1900 مقال بارع بديع، كان ينشر منجماً في مصباح الشرق وطاف كذلك بالبلاد السورية، وزار المدينة المنورة ووصف القبر الشريف أحسن وصف وأبدعه، ونشره في جريدة المؤيد.
واستقر المويلحيان أخيراً في مصر ما يبرحانها إلا للنزهة والرياضة. وأصدر صحيفة مصباح الشرق، وقد مرت بك صفتها في أول مقال. ثم طواها كما ذكرت لك.
واعتكف في داره لا يلى عملاً عاماً: حتى عين في سنة 1910 رئيساً لقسم الإدارة والسكرتارية في ديوان (عموم) الأوقاف، وأزيل عن هذا المنصب بعد إذ قامت الحرب العظمى، وتبدلت الحال، لأسباب لا يحتمل ذكرها هذا المقال. فعاد إلى اعتكافه لا يتدلى إلى البلد إلا في قضاء حاجة، أو مساهرة من يستطيب مجالستهم من الصحاب، وظل كذلك إلى الشكاة التي مات فيها، عليه رحمة الله. وكانت وفاته في يوم 10 مارس سنة 1930.
أخلاق المويلحي وعاداته:
قبل أن أطرق هذا الباب من مسيرة الرجل يحسن بي أن أقرر أنه لم يكن على حظ من نطاقة اللسان؛ بل لقد كان يعتريه في بعض الحديث ما يشبه الحبسة؛ بل لقد تتعثر الكلمة في حلقه فلا يستطيع أن يلفظها إلا بمط عنقه، كأنما يمرئ لها مجرى الصوت.
ومن أهم ما يلفت النظر في خلاله أنه كان أقل خلق الله تأثراً بما يغمر المرء من متعارف
الناس ومصطلحهم في عاداتهم وتقاليدهم وسائر أسبابهم؛ بل لقد كان له نظره الخاص في الأشياء، وكان له حكمه الخاص عليها، وهو إنما يأخذ نفسه بما يصح عنده من هذه الأحكام، لا يبالي أحداً، ولا يتأثر، كما قلت، بأثر خارجي، ولو كان مما انعقد عليه إجماع الناس، وإذا كنت قد نعته (بالفيلسوف) فإنما أعنى هذه الصفة فيه. فإنني لم أكد أرى رجلاً لاءم كل الملاءمة بين رأيه في أسباب الحياة، وشدة تحريه أخذ النفس بأحكام هذا الرأي، كما بان لي من خلة هذا الرجل بحكم ملابستي له السنين الطوال.
ولقد كانت له آراء في كثير من الأشياء لقد تبدو غريبةً حتى يظن أن في طريقة تفكيره شيئاً من الشذوذ والانحراف. وما أحيلُ هذا إلا على أنه لا يخف لمطاوعة الناس في كل ما يستوي من الإدراك للناس!
ثم لقد كان رجلاً يرجح عقله ذكاءه. وإنه ليحتاج في تفهُّم دقائق المعاني إلى شيء من المطاولة والتدبير. على أنها بعد هذا تتسق لذهنه مدركة ناضجة، لا كما تخطر لحداد الذكاء (خطرة البرق بدا ثم اضمحل)!
كذلك كان مما يلفت النظر في شأن المويلحي أنه شديد الإستيحاش من الناس، فلا تراه يستريح بالحديث إلى من لا يعرف منهم ولم يألف، ولقد يكون في مجلس يجمع الصفوة من خلانه، ومعهم رجل لا يعرفه، فإذا هو يفتر وينقبض حتى يكاد (وحش في

المجلس). وعلى هذا لقد كان يكره، بالطبع، الدخول في زحمة الناس، والترائي للجماهير، وما إلى هذا من مقتضيات الظهور. ومن أجل صفات هذا الرجل حدة العزم، وقوة الصبر، وشدة الحمل على النفس. فما إن رأيته يوماً شاكياً ولا مظهراً للبرم بالحياة مهما كرثه تصرف الحياة. ولقد يكثر المال في يده فيبسطها، إلى ما يقرب من السرف في النفقة في حاجاته، وإصابة ما يحلو له من المتسع واللذائذ. ولقد يرق المال في يده، فيلزم داره الشهرين والثلاثة لا يبرحها أبداً، متجملاً في عامة شأنه بما عنده مهما يبلغ من القلة، لا يسأل أحداً عوناً ولا يطالع الصديق بحاجة.

كذلك كان من أجل صفاته الصدق في القول، ولقد عاشرته ما عاشرته، فما أذكر والذي نفسي بيده، أنني أحصيت عليه كذبة واحدة قط، ولا من ذلك النوع الذي يتورط فيه المرء في مصانعة الناس ومجاملتهم، فان ألحت التقاليد عليه في شيء من هذا سكت أو ورّى.

ولقد أذكر أنه قابل ولي الأمر الأسبق في يوم من أيام رمضان، فسأله أصائم أنت يا محمد بك؟ فأجاب من فوره (والله ما أكذبش عليك يا أفندينا)! فضحك ملء شدقيه من هذا الجواب.

ثم لقد كان، رحمه الله، شديد العناية بالنظافة في جميع ملابساته، متأنقاً عظيم التأنق في كل شيء، يحب الزهر ويكلف به، ويحسن تأليفه وتصنيفه، ولا يمس إلا أزكى العطر وأغلاه وكان شديد الاحتفال للطعام، مبالغاً في التأنق فيه. ولربما طالع طاهيه المرات العديدة في مطبخه، يتقدم إليه بأن يفعل بهذا اللون كذا وكذا، ويصنع بتلك الصفحة كيت وكيت، وهو بهذا حق خبير. فإذا قُرِّب إليه طعامه اجتمع له اجتماع شهوانٍ يلتذ به أيَّما التذاذ. على أنه مع هذا كان حسن الأكل، يلتزم في تناوله ومضغه وإزلاقه أعلى الآداب.

وكان رجلاً طباً، كأن طول تمرينه في النقد الكتابي قد طبعه على النقد في كل شيء، وأنضج ملكته فيه، فلا تراه يتخذ شيئاً في أي سبب من أسبابه إلا إذا فحص ونقد تخيّر، فما يكاد يخدع على أمر أبداً!

وهو، بعد، يحب النكتة البارعة ويحتفل لها. على أنه إذا وصل المجلس بينه وبين أصحابه ممن حذقوا هذا الفن وبرعوا فيه من أمثال المرحومين السيد محمد البابلي، ومحمد بك رشاد، ومحمد بك رأفت، لم يكن في الغالب هو المنشئ للنكتة والمبتكر لها. ولكنها ما تكاد تسقط من فم غيره حتى يتولاَّها بالتخريج والمط والتوليد والتلوين؛ فما ينتهي أحد في ذاك منتهاه.

ومهما يكن من شيء فان هذا الرجل كان من أوسع الناس علماً بطباع المصريين وأخلاقهم وعاداتهم ومداخل أمورهم، على اختلاف طبقاتهم وتفاوت مراتبهم. فإذا تحدث في هذا الباب فحديث المتمكن الخبير. ومما ينبغي أن يذكر له، ويختّم به هذا الحديث، أنه رجل لم يجد الإلحاد ولا الزيغ إلى قلبه السبيل؛ بل لقد كان مؤمناً شديد الإيمان بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر، والحمد لله رب العالمين. فان رأيت منه شيئاً من الانحراف في تخريج مسألة جزئية من مسائل الدين، فأحِل الأمر على مجرد الخطأ في الاجتهاد والتأويل. رحمه الله واسعة، وغفر لنا وله، وأحسن جزائه في دار الجزاء.

عبد العزيز البشري

صفحة من التاريخ

مأساة وقعة انبابة

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

علة الشرق هاهي: حاكم يسطو ويعبث بالقطيع الذي هو حارسه، ويبطش به بطش الذئب إذا عدا في غيبة الحارس الأمين، فتجفل الشياه ذات اليمين وذات الشمال. ويتقدم من هنا أو من هناك كلب جريء يحاول أن يدفع الغائلة عن شياهه. فإذا هو يرى سيده الحارس هو الذي يبطش ويفتك. فيضع ذيله بين رجليه، ويكتم عواءه في حنجرته، ويجري إلى ناحية يكشر عن أنيابه منفرداً وهو متخاذل مهدود العزيمة. لو كان ذلك العادي ذئباً حقيقياً لما وضع الكلب المسكين ذيله بين رجليه، بل لرفع ذيله وعدا عامداً إلى رقبة ذلك الذئب وأنجى منه القطيع. فأما والذي يفتك بالقطيع هو حارسه، وأما والذي يبطش به هو الرجل الذي اعتاد أن يحمل هراوة ويسطو بها على رأسه

يكاد يحطمه، فأمر آخر. وللكلب كل العذر إذا هو التمس العافية في مهرب من مهارب المرعى، أو في مكمن من مكامن الوادي. ولا لوم عليه إذا هو فعل. كان (خوارزم شاه) حاكم خوارزم (أو بلاد ما بين سيحون وجيحون) في أوائل القرن الثالث عشر المسيحي، حاكماً جباراً عاتياً. وكان لا يتردد عن مظلمة، ولا يحجم عن إيقاع. فكم مثلّ بتجار من بلاده، وسجن وعذب ونهب. وكم مثل بتجار من بلاد جيرانه التتار، وسجن وعذب ونهب. ولم يقف أذاه عند هذا الحد، بل تعدى إلى الدولة التي هو حاكمها، ففت في عضدها وخضد شوكتها، وحطم عودها حتى صارت بلاده شعباً مشدوهاً وحكومة منحلة مضيعة.

ثم كانت الكائنة التي لابد منها في بلاد مثل بلاده، فأغارت جيوش جنكيز خان على أطرافها فعجمتها، فإذا هي رخوة جوفاء، فتقدمت فيها وأوغلت، فلم تجد من الطاغية إلا جباناً، ولم تر منه إلا حرصاً على نفسه وماله وأهله. فما هو إلا أن رأى الجد من أعدائه، وأحس بما كان لابد منه من ضعف ومن عجز، حتى ترك البلاد وهرب إلى مأمن ليلتجئ أليه، وبقى الناس حيارى بعد هربه يحاولون الدفاع وما لهم به من قوة، ويرجون النجاة وأنى لهم ذلك وقد اقتلع الطاغية جذور القوة من الشعب لتلين له قناته، فلانت قناة الشعب له حقيقة، ولم يستطع أن يقاوم طغيانه ما بقى للطغيان، حتى إذا ما أتاه العدو وألفى نفسه

عاجزاً، ترك ذلك الشعب المسكين وهو أعزل ذليل عاجز عن حماية نفسه. فكانت الكارثة، وذهب الطاغية وشعبه كلاهما ضحية لعواقب الطغيان.

هذه سُنة الطغاة أبداً، وهذه سنة الكون منذ نشأ. وما كان للقرن الثامن عشر أن يحيد عن سنة الكون التي نكبت خوارزم في القرن الثالث عشر. فقد كانت مصر في القرن الثامن عشر تحت طاغيتين من طغاة البشر: مراد وإبراهيم، وكانا كسائر الطغاة قصيرة النظر مفلولي العزيمة، لا همة لهما إلا في صغائر الأمور والأنانية. ولسنا بسبيل وصف ما كان عليه حكمهما من الميل والاعوجاج، ولا ما كان عليه خلقهما من الشناعة والفظاعة، فقد يكون لهذا حديث آخر، وإنما نقصد من كلمتنا هذه وصف حال البلاد عندما أزمت الأزمة التي كان لا محيد عنها، ووقعت النكبة التي كان لابد منها من وراء حكمها.

جاء الفرنسيون إلى ثغر الإسكندرية، وأصبح الصباح وإذا أهل ذلك الثغر يرون الجنود يخالطونهم، ويترددون فيما بينهم. وكان الفرنسيون يحملون سلاحاً عجيباً غريباً، لا عهد لأهل الثغر به، فما كان عهدهم بالجنود إلا هؤلاء (الانكشارية) الذين يقيمون في القلاع بين ظهرانيهم يدخنون الشبقات الطوال، ويطولون شواربهم، ويعلون أصواتهم بالسباب، ويمدون أيديهم بالأذى، ولا يحملون من السلاح إلا تلك البنادق العتيقة الرثة التي أكلها الصدأ وعفي عليها القدم.

وتقدم الانكشارية نحو الجنود الفرنج ليدفعوهم عن الإسكندرية، فما هي إلا جولة قصيرة حتى رموا بما في أيديهم من الأسلحة العتيقة، وهرب من استطاع منهم الهرب إلى حيث يجد لنفسه مأمناً.

ورأى أهل الإسكندرية إن هؤلاء الجنود ليسوا سوى شوكة في جوانبهم في السلم، فإذا حل الحرب فهم لا يدفعون أذى ولا يرجى منهم غير الأذى. فوقفوا بعضهم يشجع البعض، وأحدهم يساعد الآخر، يحاولون أن يلتمسوا لأنفسهم الحماية بسواعدهم. فتحصنوا في المنازل وجعلوا في كل ركن متراساً، وفي كل حائط مرصداً. غير أنهم واحسرتاه أرادوا الدفاع ولم يستطيعوه، فإذا بالعدو يحصدهم حصداً، ويدك بيوتهم دكاً، ويجتاح متاريسهم اجتياحاً. فسلموا للعدو ونزلوا على حكمه، وصار الفرنسيون في ساعة أصحاب الإسكندرية.

ثم تقدم الجيش الفرنسي المنصور إلى طريق القاهرة، وسمع طاغيتا الدولة بسيره، فأجمعا أمرهما على أن يسير مراد ليلقاه، فيشتت شمله بصدمة من صدمات فرسانه الشجعان. وخرج من القاهرة منتفخ الأوداج كبراً، ممتلئ النفس إدلالاً وغروراً. وجعل الناس يُسائلون أنفسهم ماذا عساه يفعل، ويأبى هو إلا أن يرد بالازدراء على ذلك التساؤل قائلاً: (سنحطم ذلك الجيش المغير تحت سنابك خيولنا) وسار حتى بلغ شبراخيت أو قريباً منها، وهنالك لاحت له طلائع الجيش الفرنسي. ثم كان الاصطدام، ولطم لطمة خفيفة فلم يصبر عليها، بل هرب فزعاً، واضمحلت كبرياؤه، وذاب إدلاله

كما يذوب الثلج في الحر، وأسرع راجعاً إلى العاصمة لعله يأتنس بمن هنالك من جنود زميله إبراهيم، أو ينتصر بمن هنالك من الشعب المصري الذي طالما أوقع به في طغيانه وجبروته. فلما بلغ مصر وقف ببقايا جيشه عند
وأرسل إلى القاهرة يستنجد ويستمد، فنودي على أهل القاهرة بالنفير ،(انبابه) والتجهيز للدفاع. وهكذا لم يجد الطاغيتان أخيراً أن لهما غنى عن الشعب، وعلما بعد أن وقعت الواقعة أن الملجأ الأخير إنما يكون إلى هؤلاء العامة، وقد كانا في أيام السلم لا يقيمان لهم وزناً ولا
يفكران فيهم إلا من أجل أموال يبتزانها، أو من أجل كبريائهما يغذيانها، أو من أجل نفسيهما الطاغيتين يشبعان شهوة طغيانهما.
ولكن كان الشعب واحسرتاه قد قتله الطغيان: فأجاب دعوة النفير وجعل يستعد للدفاع، ولكنها إجابة المضني الذي أجهده الضنى، واستعداد النزيف قد خارت قواه من طول ما أريق من دمائه، فما يكاد يعتمد على رجليه حتى يخر إلى الأرض مهدوداً متهالكاً.
أغلق الناس (دكاكينهم) وهجروا أسواقهم، وخرجوا جميعاً إلى بولاق يجمع بعضهم من بعض ما عندهم من المال الضئيل، فأما من عنده فضلة من ماله فقد تطوع بالإنفاق على غيره، وبذل السلاح والطعام لمن يحتاج إليه. وهم في كل ذلك يتلفتون لعلهم يرون هؤلاء الألي كانوا بالأمس يشمخون بأنوفهم عتوا وكبراً، فلا يجدون إلا باحثاً منهم عن أمر نفسه، أو منهمكا في نقل متاعه وأمواله إلى حيث يكون آمناً عليها من النهب أو المصادرة.
وأبصر الناس ذلك فلم يثنهم عن التقدم نحو واجبهم وهم في غير عدة. لا بل ما هو أكثر
من ذلك، قد تقدموا وهم غير أكفاء ولا مدربين في أمور الحرب، إذ طالما قد وقف الطغاة بينهم وبين أداء حق الدفاع عن الوطن، خوفاً منهم أن يجعلوا لهم في أمر بلادهم رأياً، أو في حكم وطنهم شأناً. وتقدم شعب مصر نحو الجهاد الوطني، وأكثرهم أعزل لا علم له بالحرب، ولا بما تستلزمه من جهد أو من دربة. حتى لقد خرج بعضهم بالنبابيت، لا يحسبون ذلك إلا مغنياً عنهم في معمعان ذلك الجهاد.
ووقف الطغاة ينظرون ما صنعت أيديهم، ومع ذلك لم تنفطر قلوبهم أسى مما يشهدون، ولم يبخعوا نفوسهم على آثار ما اجترمت حكومتهم في البلاد. بل ظلوا وهم (حريصون على حياتهم وتنعمهم ورفاهيتهم، مختالون في ريشهم، مغترون بجمعهم محترقون لشأن عدوهم، مرتبكون في رؤيتهم، مغمورون في غفلتهم).
وقدم جيش فرنسا بعد قليل إلى انبابة، فتقدمت إليه جماعة من العسكر ليصدم الجيش المغير مرة أخرى بهجمتها العنيفة. فدفعوا الخيل في صدر الجيش المقبل، ولكن لشد ما عجبوا إذ رأوا ذلك الجيش، لا يتمزق لصدمتهم، ولا ينصدع من هجمتهم، فعادوا مذعورين، وستة آلاف من الجيش الفرنسي تضرب في اقفائهم، حتى بلغوا متاريس مراد بك، فانضموا إليه وقد دب الرعب في قلوبهم.
سار الجيش الفرنسي المتقدم وراء المنهزمين، وانقسم على أسلوبه وطريقته، ثم دار على نظامه وخطته، فإذا متاريس مراد بك محصورة وسط نيران الجيش الفرنسي، وإذا النار تنصب على المصريين من خلف ومن قدام. وكان فزع، وكانت مذبحة، وما هي إلا ساعة أو أقل من ساعة، حتى انجلى الغبار وارتفع القتام عن حطام الجيش المصري، بعضها ملقى فوق اليابس، وبعضها يتخبط في ماء النهر، وفلول أسارى في أيدي العدو، والنقع الثائر من جهة الجنوب يخفي وراءه الطاغية (مراد)، وهو هارب نحو الجيزة حرصاً على حياته.
وسمع من في الجانب الشرق من النيل بضجة الحرب، ورأوا ما اندلع فيها من لهب، وما تردد فيها من قصف يشبه قصف الرعد، فلم تثبت نفوسهم بما لا عهد لهم به، وإن كانوا حريصين على أن يجاهدوا ويجالدوا، وخانهم الجلد وإن كانت نفوسهم تواقة إلى أن يثبتوا ويصبروا. والذعر متى استولى على النفس، لم يبق فيها محل لثبات ولا لصبر، ولم يترك
في القلب موضعاً لحفاظ ولا لحمية. فركبوا رءوسهم وهاموا على وجوههم، بعضهم ناج بنفسه لا يلوي على شيء، وبعضهم استطاع أن يثبت نفسه ليخرج بأهله وحرمه،

وأقبل عليهم الليل، وهم فوضى مشردون مشدوهون، يحسبون كل ضجة صوت مطارد، ويخشون أن يكون كل متردد في الظلام عدواً مقبلا بسفك الدماء وهتك الأعراض. وهكذا شهدت أهرام مصر كيف تتم للطاغية جريمته بنكبة شاملة، لا يبقى فيها بر ولا فاجر، ولا يسلم منها الظالم ولا الضحية

محمد فريد أبو حديد

صحف مطوية من التاريخ الإسلامي

العرب في غاليس وسويسرا - 3

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تتمة البحث

أتينا فيما تقدم على أخبار الغزوات والمستعمرات المسلمة في غاليس ولومبارديا وسويسرا منذ أواخر القرن الثامن الميلادي حتى جلاء المسلمين نهائياً عن تلك الوهاد والسهول في أواخر القرن العاشر، ونحاول الآن أن نعرض طرفاً من العوامل والظروف التي أحاطت بتلك الغزوات، وطرفاً من الآثار التي خلفتها في البلاد والأمم التي كانت ميداناً لها.

ينكر بعض مؤرخي الغرب على تلك الفتوحات والغزوات العربية والإسلامية بوجه عام خاصة الاستقرار والإنشاء، ويقولون إنها كانت في الغالب حملات ناهبة تقوم على رغبة الكسب وتحصيل الغنائم، ولا ريب أن ظمأ المغنم، وشغفالمغامرة، وما إليها من لذة الاستكشاف والسيادة كانت من أهم العوامل التي قامت عليها هذه الغزوات؛ وتلك هي العوامل الخالدة التي تقوم عليها فتوحات الأمم منذ أقدم العصور؛ ولكن من الحق أيضاً أن نقول إن نزعة الجهاد لم تكن بعيدة عن تلك الغزوات، وإن كثيراً من أولئك المغامرين البواسل كانت تحفزهم الحماسة الدينية وفكرة الجهاد في سبيل الله؛ وقد كانت هذه العصابات الغازية المستعمرة تعمل في الغالب لحساب نفسها، ولكنها كانت تعمل ملحوظة بعطف الحكومات والأمم الإسلامية التي تنتمي إليها، وكانت تؤدي إلى تلك الحكومات خدمات جليلة بما كانت تقوم به من إزعاج الحكومات والأمم النصرانية وإضعاف جيوشها ومواردها، ومن المحقق أيضاً أن نزعة الاستقرار والإنشاء لم تكن بعيدة عن أذهان الغزاة، بل كان يحفزهم مثل ذلك الروح الاستعماري القوي الذي دفع الأمم الغربية في العصر الحديث إلى افتتاح الأمم المتأخرة واستعمارها؛ وقد استقروا بالفعلواستعمرواحيث مهدت لهم الكثرة والقوة سبل البقاء، كما فعلوا في أقريطش، حيث استقروا بها بعد افتتاحها، زهاء قرن وثلث القرن (827 - 961م) ونشروا بها الإسلام والحضارة الإسلامية؛ وكذلك استقروا مدى حين في بارى وفي تارانت من ثغور إيطاليا الجنوبية، وفي راجوازا

من ثغور الأدرياتيك الشرقية، وكان لهم على شواطئ قلورية (جنوب إيطاليا) (رغوس) مستعمرات زاهرة لبثت حلية هذه المياه عصراً. هذا ولسنا نتحدث عن دولة الإسلام في إسبانيا، ولا دولة الإسلام في صقلية، لأننا نخص بهذا الحديث غزوات الجماعات والعصبات المسلمة التي كانت تعمل لحساب نفسها مستقلة عن الحكومات.

ويبالغ المؤرخون الغربيون أيضاً في تصوير الآثار المخربة لتلك الغزوات الإسلامية، وما كانت تقترن به من ضروب العنف والسفك، ولكن العنف والقسوة والسفك والتخريب لم تكن خاصة بالغزوات الإسلامية، وإنما كانت من خواص العصر ذاته؛ ولم تكن الغزوات النصرانية للأراضي الإسلامية أقل عنفاً وسفكاً؛ ويكفي أن نشير هنا إلى الحملات الصليبية التي لبثت مدى عصور تحمل إلى الأمم الإسلامية أروع صنوف الدمار والسفك؛ بل يكفي أن نشير إلى ما كانت ترتكبه البعوث الاستعمارية الحديثة، والإنكليزية والفرنسية، في الدنيا الجديدة من صنوف القسوة والسفك، وما ترتكبه اليوم بعض الأمم الأوربية (المتمدنة) من الجرائم المروعة في أفريقية وآسياباسم المدينة والاستعمار.

والآن لنر ماذا خلفته الغزوات الإسلامية في هذه الأنحاء من الآثار المادية والاجتماعية. ومن المحقق أن هذه الآثار لا تكاد ترى اليوم، ولا يشعر بها إلا الباحث المنقب، ويلاحظ أولا أن الفتوحات العربية الأولى في غاليس وأكوتين لم يطل أمدها أكثر من نصف قرن، ولم تكن الحضارة الإسلامية في أسبانيا قد تكونت وتفتحت بعد. ثم كانت الغزوات اللاحقة التي فصلنا أخبارها، والتي كانت أقرب إلى المغامرات المؤقتة منها

إلى الفتوح المستقرة، فلم تتح للغزاة فرص الاستقرار والعمل السلمي، لأنهم كانوا في مراكزهم النائية متفرقين يشغلون قبل كل شيء بالدفاع عن مراكزهم وأنفسهم.
بيد أن هذه الغزوات المحلية المتقطعة، وهذه المستعمرات العربية النائية خلفت وراءها في الأراضي المفتوحة بعض الآثار الهامة المادية والمعنوية. ومن ذلك ما كشفته المباحث الأثرية منذ القرن الماضي على شواطئ خليج سان تروبيه من أطلال الحصون العربية القديمة التي كانت قائمة في تلك الأرض، والتي لا تزال قائمة في بعض آكام الألب الفرنسية والسويسرية، وهي تدل على ما كان للغزاة من الحذق والبراعة في
فن التحصينات والمنشآت الحربية؛ وهنالك في جنوب فرنسا، وفي بعض أنحاء إيطاليا الشمالية والجنوبية، عدد كبير من الأبراج القائمة فوق الآكام والربى، يدل ظاهرها على أنها كانت تستعمل لأغراض حربية؛ ويرى البعض أن هذه الأبراج إنما هي آثار عربية من مخلفات الغزاة، كانت تبني لعقد حلقات الاتصال وتسهيل حركات الدفاع فيما بينهم؛ ومن المعروف أن العرب منذ فتوحاتهم الأولى في سبتمانيا (لا نجدوك) أعنى منذ أوائل القرن الثامن، كانوا ينشئون في الأراضي المفتوحة حصوناً وأبراجاً تسمى (بالرباط). بيد أن فريقاً آخر من الباحثين يرى بالعكس أن هذه الأبراج إنما كانت من إنشاء أبناء الأرض المفتوحة، أقاموها أيام اشتداد خطر الغزوات العربية ليستعينوا بها على رد الغزاة.
وقد ظفرت المباحث الأثرية أيضاً بالعثور على كثير من القطع الذهبية والفضية (المداليات) في أنحاء كثيرة من لا نجدوك وبروفانس، وثبت أنها من مخلفات العرب، وأنها كانت تستعمل للتعامل مكان النقود، ولكنها لا تحمل اسماً ولا تاريخاً، ولا يمكن تعيين عهد سكها، وإن كانت بذلك تدل على أنها ترجع إلى عصر الغزوات الأولى. ووجدت أيضاً في الأعوام الأخيرة في منطقة تور سيوفٌ ودروع قبل إنها عربية من مخلفات الواقعة الشهيرة التي نشبت في تلك السهول بين العرب والفرنج (بلاط الشهداء)
ومن الحقائق التي لاشك فيها أثر العرب في الزراعة؛ فقد رأينا أن كثيراً من الغزاة تخلفوا عن إخوانهم واستقروا في تلك الأرض وزرعوها. ومن المعروف أن العرب حولوا وديان إسبانيا المجدبة إلى حدائق وغياض زاهرة، ونقلوا إليها مختلف الغراس من الشرق، وأنشئوا بها القناطر العظيمة؛ وقد حمل هؤلاء الغزاة المغامرون إلى جنوب فرنسا كثيراً من خبرتهم الزراعية، ونقلوا لسكان تلك الأنحاء؛ ويقال إن (القمح الأسمر) الذي هو الآن من أهم محاصيل فرنسا إنما هو من مخلفات العرب، وهم الذين حملوا بذوره وكانوا أول من زرعوه بفرنسا؛ والمرجح أيضاً أنهم هم الذين حملوا فسائل النخيل من إسبانيا وأفريقية إلى شواطئ الريفييرا. ومن آثارهم الصناعية، استخراج (القطران) الذي تطلى به قاع السفن ويحميها من العطب، فهم الذين علموه لأهل بروفانس، وما زال عندهم من الصناعات الذائعة، ومازال اسمه الفرنسي ينم عن أصله العربي.
ومن الحقائق الثابتة أيضاً فضل العرب في تحسين نسل الخيل في تلك الأنحاء، ومازال في جنوب فرنسا جهات تشتهر بجمال خيولها ونبل أرومتها، ولا سيما في (كاماراج)، وفي
مقاطعة (لاند) من أعمال غسقونية؛ ومن المحقق أن هذه الخيول الأصيلة الجميلة إنما هي من سلالة الخيول العربية التي أحضرها الفرسان المسلمون معهم إلى تلك الأنحاء. ولا ننسى ما للدم العربي من أثر في بعض أنحاء جنوب فرنسا، فقد رأينا العرب أنشئوا بعض المستعمرات الزراعية وتزوجوا من نساء تلك الأرض وتناسلوا فيها؛ ولما تغلب عليهم النصارى، وأخرجوا نهائياً من تلك الأرض، تنصر كثير منهم ممن أسروا، وأرغموا على افتداء حياتهم وأسرهم بالتنصر؛ وقد لبث أبناء هؤلاء العرب المتنصرين عصوراً في تلك البلاد، يشتغلون بالزراعة والتجارة، حتى جرفهم تيار التطور واندمجوا أخيراً في المجتمع النصراني، واختفت كل آثارهم وخواصهم العربية.، وما زالت ثمة في بروفانس في وادي الرون على مقربة من ليون، كذلك في بيجور على مقربة من جبال البرنيه، جماعات فرنسية تتكلم لهجات غريبة، ولها أخلاق وتقاليد خاصة، ويظن البعض أنها ترجع إلى أصل عربي؛ ولكن البحث يرجح أنها ترجع إلى

بعض قبائل النور الذين استقروا في تلك الأنحاء منذ عصور.
هذا، وأما عن الآثار الاجتماعية، فانه يلاحظ في بعض جهات بروفانس التي استقر فيها العرب مدى حين، أن لسكانها بعض التقاليد الخاصة، ومن ذلك أنواع معينة من الرقص، يظن أنها ترجع إلى أصل عربي. أن أعظم آثار العرب الاجتماعية في جنوب فرنسا، يبدو في تطور الحركة الفكرية في العصور الوسطى، فقد كان للعرب أثر عظيم في تكوين النزعة الشعرية في الجنوب، وظهر أثر هذه النزعة واضحاً في الحركة الأدبية التي تعرف بحركة التروبادور والتي ظهرت في جنوب فرنسا وفي شمال أسبانيا وشمال إيطاليا منذ القرن الحادي عشر، وقوامها القريض الحربي والغنائي، وزعماؤها فرسان شعراء وفنانون. أضف إلى ذلك أن تأثير الحضارة الإسلامية في سير حضارة أوربا الجنوبية لم يقف عند هذا العصر ولا عند هذه الحدود، فقد استمرت العلائق بعد ذلك طويلاً بين مسلمي الأندلس، والأمم النصرانية المجاورة، وكان للحضارة الأندلسية في تطورها الاجتماعي أعظم الآثار.
ولقد لبثت ذكرى العرب وذكرى الغزوات العربية في فرنسا تثير مدى القرن الثامن في نفوس النصارى أعظم ضروب السخط والروع، وتقدمها إلينا الرواية الكنسية المعاصرة في
أشنع الصور؛ فلما ظهرت عصابات النورمان والمجر، وغزت فرنسا من الشرق والغرب، رأى النصارى من عيثهم وسفكهم أهوالاً لا تذكر بجانبها أهوال الغزوات الإسلامية، وارتفعت ذكرى العرب، وأضحت تقترن بكل ما هو عظيم ضخم، يقول رينو: (إن ذكرى الغزوات النورمانية والمجرية لا توجد إلا في الكتب. ولكن ما السر في أن ذكرى العرب مازالت ماثلة في جميع الأذهان؟ لقد ظهر العرب في فرنسا قبل النورمان والمجر، واستطاعت إقامتهم بها بعد الغزوات النورمانية والمجرية. وإن غزوات العرب الأولى ليطبعها طابع من العظمة، حتى أننا لا نستطيع أن نتلو أخبارها دون تأثر. ذلك أن العرب، دونالنورمان والمجر، ساروا مدى آماد في طليعة الحضارة؛ ثم انهم لبثوا بعد أن غادروا أرضنا، موضع الروع في شواطئنا، وأخيراً لأن المعارك التي اضطلعوا بها أيام الصلبين في إسبانيا وأفريقية وآسيا، أسبغت على أسمهم بهاء جديداً. بيد أن هذه العوامل كلها قد لا تكفي لتعليل المكانة العظيمة التيتبوأها الاسم العربي في أوربا وفي أذهان المجتمع الأوربي. إما السبب الحقيقي لهذه الظاهرة المدهشة، فهو الأثر الذي بثه قصص الفروسية في العصور الوسطى، وهو أثر لا يزال ملموساً إلى يومنا.

محمد عبد الله عنان المحامي

في يوم ماطر

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

كانت السماء مطبقة على الأرض، والمطر يسح حثيثاً متداركاً يكاد من شدته يقشر القطران، والماء يسيل على جانبيالطريق ويتدافع ويرتفع له مثل الموج، وكان أمام نافذتي بوابة عريضة وقفت على عتبتها فتاة تتقي المطر في ظُلتها. وكانتترتدي ثوباً مشرقاً بين الحمرة والبياض كأنما استعارت صبغته المزدوجة من الشمس الغاربة والقمر الطالع. وكانت فيه كأنها مِقطَعٌ أو مثال فصل الثوب على قده لعرضه على العيون، فمحاسنها كلها مجلوّة، وخطوط قوامها اللين مرسومة، وقد أجتمع طرفان منه على سرتها وانعقد على صفة وردة كبيرة، وتدلتعلى مدار خصرها الهضيم ذلاذل تكاد تمس قدميها الدقيقتين؛ أما صدرها فأطاف به شيء لا أدري ما صفته كان ثديها الناهدان يبدوان من تحته كأنهما في كأسين، أو كأنهما موجتان متناوحتان حجزتا وحيل بينهما وبين التسرب والانسياب. ولم يكن أفتن من منظرها وهي واقفة ترقب انقطاع المطر، وكان معي في البيت صاحب يحمل مظلة جميلة غالية، لا تفارق يده في صيف شتاء، ولا ليل ولا نهار، فكأنها قطعة منه، أو امتداد لذراعها، فغافلته وحملتها، ومضيت بها إلى هذه الفتاةووضعتها في يمينها، وارتددت عنها بلا كلام. فلما أفاقت من دهشتها كنت قد غبت عن عينها. وآن لصاحبي أن يخرج، فنظر فلم يجد المظلة، فتلفت هنا وهنا ثم سأل فقلت: (أترى هذه البوابة؟ كانت هنا فتاة جميلة تخشى على نفسها وعلى ثيابها من المطر فلم يسعني إلا أنجدها. . .). فسأل: (أعطيتها المـ . . . .قلت: (ألم أقل لك إنك ذكي؟ بل أنت أيضاً ذو مروءة ونجدة وشهامة).

قال: (ولكن مظلتي؟ كيف أخرج الآن. . . وفي هذا المطر أيضاً؟).
قلت: (إنها بلا شك تشكر لك هذا الصنيع الجميل، فأنت سعيد بذلك، فليتني كنت صاحبها - أعني المظلة!).
قال: (ولكن ماذا أصنع؟ كيف أخرج؟ إن هذا شيء. .). قلت: (يا صاحبي. إن الإيثار حميد، ولأثرة ذميمة).
فقال: (تعطي مظلتي لفتاة؟ أما إن هذا لغريب!).
قلت: (يا صاحبي. لو رأيتها لما قلت (فتاة) بهذه اللهجة التي أنكرها ولا أرضى عنها. إنها فتاة رائعة. وإني لرجل متزن الأعصاب في العادة، ولكني أرجو أن تثق أنها فتنتني. وإني لآسف على حرمانك هذه المظلة الثمينة - أو التي كانت ثمينة منذ أربع سنوات - ولتكن عليك أن تتعزى بأن التي تحملها الآن أجمل فتاة على ظهر هذه الأرض، وأنك أنت سبب سعادتها في هذه اللحظة، وأن اسمك سيخلد في التاريخ، وأنى لو كنت شاعراً لقلت أبياتاً أخلد فيها صنيعك الحسن هذا، وإن أبنائي سيحفون بي كل ليلة ويطلبون أن أقص عليهم كيف فقد صاحبي العظيم مظلته الغالية. . .).
ولم أتم خطبتي لأنه خرج مغضباً، فأمسكت وحمدت الله!
وحمل إلى البريد رسالة غريبة هذا نصها بعد الديباجة المألوفة: (إن ما أقرأه لك يحملني على الثقة بأنك لن تخيب رجائي فيك. فهل لك أن تقابلني أمام باب (جروبي) الساعة السابعة من مساء اليوم؟ ولا أجرؤ أن أبدو لك حتى تبدو لي، فإذا صدق ظني فيك فلعلك تتفضل بأن تضع في عروتك زهرة من زهور (الأرواله) البيضاء، لأعرفك بها، وزيادة في الحيطة أرجو أن تقول لي (لا مطر غداً) فأقول لك (لم ولماذا وكيف يكون ذلك) فلا تنس).
ولم يكن على الرسالة توقيع، فلم أشك في أنها فتاة مصرية لم تألف أن تدخل (جروبي) وتجلس في حديقته، ولكنها تسمع باسمه فهي تقف عند بابه، فما يعقل أن يكون كل هذا الحرص والحذر من رجل، واطمأنت نفسي بعد أن خلصت إلى هذه النتيجة، وشكرت الحظ الذي أبعد عني صاحبي قبل أن تردني هذه الرسالة، بدقائق، ولو أنه كان معي لأطلعته عليها بلا أدنى ريب، ولكان المحقق أن يسبقني إلى باب (جروبي) فيطردني بوجوده، عنه. واشتريت الزهرة المطلوبة، ووضعتها في العروة، وأخرجت منديلاً وظلت أرفع يدي به وهو منشور إلى أنفي لأحجب هذه الزهرة عن العيون، فقد كانت كبيرة وأنا أخجل أن أضع على صدري زهراً ولو كان في حجم الحمصة، ووقفت بباب جروبي أتأمل الداخلين والداخلات، والخارجين والخارجات، وأشاور نفسي وأسألها كيف أقدم على خطاب من لا أعرف؟
ولم يكن ثم بد من الإقدام، فما اشتريت الزهرة البيضاء الكبيرة وغرستها فوق حبة قلبي لأعرض نفسي على الأنظار، فتوكلت على الله، على أنى - كما لا أحتاج أن أقول - أهملت العجائز وتركتهن يرحن ويجئن كما يشأن دون أن أكلف نفسي حتى النظر إليهن، وأقبلت فتاة رشيقة تتلفت كالمترددة فتمنيت أن تكون هي ودنوت منها وقلت: (معذرة. واغتفري لي تطفلي، لا مطر غداً!).
فنظرت إلى باسمة وقالت:
(باردون؟).
فقلت لنفسي: (ليست بها. وقد غلطت والله يا ولد، فاخرج من هذا المأزق بسرعة) فتبالهت وسألتها بغير العربية:
(إنما كنت أسأل هل هذا جروبي؟).
فقالت وهي تبتسم: (طبعاً. . . الاسم مكتوب. . .)
فبلعت ريقي وشكرتها وارتددت عنها.
وأقبلت أُخرى أعذب منها - بلا شك - وأظرف على التحقيق، وأولى بأن ترؤف بي إذا غلطت فيها، وكانت تتأمل إعلانات وصوراً لشركة بواخر هناك، فدعوت الله أن يجعلها من نصيبي، وأقبلت بلا تمهيد:
(مطر غداً)
فقالت بعربية محطمة، استحى أن أثبتها بنصها: (شيء غريب! متأكد؟)
قلت: (ثقي بي. أني نشرة جوية متنقلة. . . مرصد إنساني متجول. . .)

قالت: (ظاهر. . أشكرك. . .)
قلت: (هذا واجبي. . . فلا أستحق شكراً)
قالت: (إنك تؤديه بذمة. . لقد رأيتك الآن تخاطب سيدة هناك. . . وهذه أخرى آتية، فاسمح لي ألا أحول بينك وبين عملك)
قلت: (لم يكذب ظني)
قالت: (كيف؟)
قلت: (كنت موقناً أنك أظرف من تلك التي هزئت وأخجلتني)
فسألتني: (هل أنت على موعد مع مجهولة؟)
قلت: (أصبت. . .)
قالت: (مسكين!. . لعلها هذه) وأشارت فالتفت فإذا فتاتي - أعني الفتاة التي تفضلت عليها بمظلة صاحبي، فقلت:
(اخفيني عنها لحظة حتى تمر. . . تظاهري بأنك صديقتي دقيقة واحدة. . أرجو)
فضحكت وقالت: (لماذا تخشاها؟ هل خنت لها عهداً؟ لا بأس. تعال)
ووضعت ذراعها في ذراعي وهممنا بأن نسير، وإذا بفتاتي تصيح ورائي:
(من فضلك. . . من فضلك. . . ألا تذكرني. . إني مدينة لك بالشكر، لقد تركتني فجأة كما ظهرت لي فجأة، فلم أدر أين اختفيت، فهل تسمح لي باسمك وعنوانك لأعيد إليك المظلة؟)
فقلت: (هذا شيء تافه. . . لا تفكري فيه)
قالت (ولكني لا أستطيع أن أبقيها عندي وأحرمك)
قلت: (ثقي أنك لا تحرميني شيئاً فأنها ليست لي، بل لصاحب)
قالت: (ما أرقه!)
قلت: (إنه على نقيض ذلك. . أبعد ما يكون عن الرقة)
قالت: (هذا أدعى لردها إليه)
قلت: (لقد انتهى الأمر. سرقت مظلته وأعطيتك إياها، وعرف ما كان، وغضب وشال نفسه وحطها، ولم يبق هناك شيء آخر يمكنه أن يصنعه، فلا تكترثي له ولا تفكري فيه)
قالت بعطف: (مسكين!)
قلت: (لقد كنت أنا المسكين، وكانت هذه المظلة تفقأ عيني كلما رأيتها، فالآن أمنت، وفي وسعي أن ألقاه وأنا مطمئن، من غير أن يؤذي بصري منظر المظلة)
قالت وهي تضحك: (على كل حال لابد من ردها إليه ولك وله الشكر)
فكتبت لها الاسم والعنوان، ولم يفتني أن أحذرها من مقابلته، ولم يبق بعد ذلك ما يقال، فهممت بتوديعها وإذا برجل همٍ هرم يدنو مني وينظر إلى الزهرة التي على صدري ثم يقول وهو يفرك كفيه:
(هل سمعتك تقول لا مطر غداً!)
فحدقت فيه متردداً، ثم رفعت يدي إلى الزهرة فأخرجتها من العروة ورميتها على الأرض،
فلم ينهزم وقال:
فكاد عقلي يطير، فتناولت ذراعي الفتاتين وأوليت. (لم ولماذا وكيف يكون ذلك؟)
الرجل ظهري ومضيت بهما عنه، وهما ذاهلتان تنظران إلي ولا تفهمان، غير أن هذا لم يمنع الرجل أن يمشي ورائي وهو يصيح:
(لم ولماذا وكيف يكون ذلك؟)
فقلت لفتاتي: (لم يبق إلا أن نجري، فهل تقدران على ذلك؟)
وجرينا مسافة ونحن نضحك، فلما أمنا أن يدركنا وقفنا وقصصت عليهما الخبر، فسألتني فتاة المظلة:
(ولكن ماذا يريد منك؟)
قلت: (لا أعرف، ولا أحب أن أعرف. .)
قالت: (ألا يحسن أن تتبين؟)
قلت: (أتبين؟ أليس حسبي ما منيت به من خيبة الأمل. ومع ذلك قد عوضني الله خيراً. . . هيا بنا لنستريح. . .)
إبراهيم عبد القادر المازني

بين فن التاريخ وفن الحرب
خالد بن الوليد في حروب الردة - 10
للفريق طه باشا الهاشمي
رئيس أركان الجيش العراقي
لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما في بدني شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة، وهاأنا) (أموت على فراشي كما يموت البعير! فلا نامت أعين الجبناء
خالد بن الوليد
خطة خالد
لاشك في أن خالداً كان يقدر حرج الموقف في قتاله أهل اليمامة. وكان يعلم أنه مقدم على أمر يتوقف عليه نجاح الإسلام أو خيبته. فالبلاد وعرة، والقرى فيها منيعة، والناس ملتفتون حول داعيهم، معتصمون بحيهم، وعددهم كثير، وسلاحهم يضرب به المثل
لذلك لم يقدم على الحركة قبل أن تصله النجدة الموفدة من المدينة. وأراد أن يمهد سبيل الظفر بالتدابير السياسية وذلك:
أولاً - باستمالة التميميين في اليمامة إلى جانبه
ثانياً - بتفريق رؤساء سجاح عن مسيلمة
وثالثاً - باستخدام المسلمين من بني حنيفة للمشاغبة على مسيلمة
والأخبار تدل على أنه أرسل الكتب إلى التميميين ليتركوا جانب مسيلمة فوفق إلى ذلك، كما أنه ساق قوة خيالة لمقاتلة رؤساء سجاح الثلاثة وهم عقة وهذيل وزياد، ففرق رجالهم واضطرهم إلى العودة إلى حي بني تغلب في الشمال. وأن المسلمين من بني حنيفة ثاروا على مسيلمة وشاغبوا عليه، ولعل عكرمة بن أبي جهل أراد أن يستفيد من المشاغبين فقاتل رجال مسيلمة فلم ينتصر، وكانت الأخبار تأتي خالداً وتنبئه بما في اليمامة
أما خطته العسكرية فكانت ترمي إلى الزحف إلى اليمامة على أقصر طريق، والهجوم على جيش مسيلمة أينما لقيه
عاد خالد من المدينة إلى البطاح في أوائل السنة الثانية عشرة الهجرية، وكان الجيش مجتمعاً فيها ينتظر أمر الحركة. وقضى خالد مدة قصيرة في البطاح يترقب ورود المدد من المدينة، فكانت القبائل تمد جيشه برجاله، فالتحق به رجال من بني أسد وتميم وبني عامر، وكانت الأخبار ترد إليه من اليمامة منبئة بأحوالها. وآخر من وصل إليه ابن عمير اليشكري فأطلع خالداً على جلية الأمر في اليمامة.
ساحة القتال
اختار مسليمة موقع عقرباء لجيشه، وهذا الموقع على الحدود الفاصلة بين اليمامة وبلاد بني تميم، وهو مفتاح لموضع من أخطر المواضع السوقية بين مقاطعة العارض ومرتفعات المحمل وجبل طويق
وبالقرب من هذا الموقع تقوم قرية جبيلة الحديثة، وقد بحث فيه (فلبي) في كتابه الآنف الذكر قال: (وإذا تأملت الوادي (أي وادي حنيفة) عند جبيلة - وجبيلة هذه أحد منازل بني حنيفة من قديم الزمان، وإليهم نسب الوادي وفي سمائه أرتفع لواء صيتهم فسمي بوادي حنيفة - لألفيته وهدة من الأرض قريبة القرار، واسعة الجوانب، تكتنفها المهابط المطمئنة الجرداء من كل حدب وصوب، وللوادي عقيق يضيق شيئاً فشيئاً حتى تراه قد غاض في بطن مجرى نشزت على ضفافه الطنوف الشواخص على النحو المتقدم وصفه. فالقرية أذن مفتاح لموضع من أخطر المواضع السوقية وأعظمها شأناً، واقعة بين مساكن العارض ومرتفعات المحمل وطويق. وقيل في هذا المكان وقعت معركة فاصلة من معارك التاريخ الإسلامي، دارت فيها رحى القتال بين أصحاب النبي وبعض المؤمنين من رجاله، وبين مسيلمة نبي حريملة الكذاب وقواته، وكان النصر فيها حليف المسلمين بعد أن خسروا آنئذ في سبيل دينهم القويم نحو سبعين من نخبة الصحابة، وهم الرجال الخلص الذين اصطفاهم النبي فأودع في صدورهم تعاليمه الشفوية. .) إلى أن قال: (لا تزال قبور الصحابة الذين استشهدوا في تلك المعركة ظاهرة إلى يومنا هذا، مهجورة في منبطح من غرين نهر عميق صفا ماؤه واقع على مقربة من القرية. وقد رأيت القبور أيام زيارتي لها ومروري بها وقد بليت وتحاتت

بتأثير الزوابع وفعل الأعاصير، وقد نجم عن ذلك أن تفتحت جوانب الكثير منها، فظهرت فيها ثُغر فاغرة أفواهها نحو الوادي. ولم يزد ارتفاع الرسوب الغريني على ثلاث أو أربع أقدام فوق القبور. فلنا إذن من ذلك أحد الأمرين: إما أن الغرين قد رسب من
قبل في المكان الموجود الآن فيه وبات مستواه على ما هو عليه بطبيعة الحال قبل معركة جبيلة. ولا غرو في أن الأمر الثاني هو الافتراض المحتمل وقوعه).
وصف الموضع:
يظهر من مطالعة الخريطة أن المحل الذي اختاره مسيلمة لقبول المعركة واقع في جنوبي العقدة التي تتشعب منها الجبال وتمتد في جهات مختلفة وتشرف على رؤوس الوديان المتدفقة من أرجائها والتي منها ما يجري نحو الشمال ويغذي وادي الخفس، ومنها ما يجري نحو الشرق ويتغذى وادي حنيفة، ومنها ما يجري نحو الغرب ويغذى بطين الحور. وقد اجتمعت قريتا عينة وسدوس وجبيلة حول هذه العقدة. وتعلو في وسطها رابيتا الأبكين: الرابية الغربية الشرقية، والغربية أعلى من الشرقية إذ يبلغ ارتفاعها عن السطح البحر (3200) قدم، وعن وادي حنيفة الذي يجري في جنوبها (200) قدم. وفي شرقي الأبكين جبل رامة يمتد من الغرب
إلى الشرق، وهذا الجبل مع جبل الأبكين يفصلان بين شعيب سدوس ووادي حنيفة. فالشعيب في الشمال ينبع من غربي سدوس ويجري نحو الشرق فيترك على ضفافه سدوس وحزوة، ويلتقي بشعاب كثيرة أخرى تصب جميعاً في وادي الخفس. والوادي الثاني يجري في الجنوب. وإلى الشرق جبيلة يرتفع جبل صلبوخ. فكأن الجبال الثلاثة - الأبكين ورامة وصلبوخا - متصل بعضها ببعض ومحيطة بموضع جبيلة كالقوس
ويصف المستر فلبي المنظر قرب الأبكين فيقول: (وقفنا نتأمل بطحاء طويق الفسيحة الأرجاء، فألفينا مشهدها رائعاً مهيباً، وتتخللها الهضاب المتموجة والأودية السحيقة. وإنا لكذلك إذ لاحت مني التفاتة إلى الشمال فشاهدت على مسافة ميلين من بسطة أرضاً انطوي تحتها واد فسيح تحدرت جوانبه وانقطعت مجامعه عند حوض الخفس الواقعة فيه واحة سدوس - تلك الواحة الغضة الرائعة المشهورة بجمالها الفتان - كنا نراها ونرى فيها كل صغيرة وكبيرة، ونحن واقفون في مكاننا كأنها أمامنا وعلى مقربة منا، ولكنها ويا للأسف لم تكن على استقامتنا، فشق عليَّ زيارتها لبعد طريقنا عنها. وقد شاهدت بساتين النخيل ممتدة على طوار الينبوع الدافق مسافة ميل تقريباً في عرض قدرت معدله بين 200 و300 ياردة) إلى أن نقول: (ورأيت على مدى البصر إلى الجهة الشمالية الشرقية نجد مرتفعات
العرمة، وقد بدت بلون أدكن، ونظرت إلى الشمال الغربي وادي حريملة، وهو فرع آخر من فروع حوض الخفس، وقد انفصل عن فرع سدوس بجرف متسع المتون مرتفعها، ورأيت في الجهة الجنوبية الغربية صدع جرف طويق فبدت من موضعه عقبة الحيسية. وإلى الجنوب وراء خط وادي الحيسية، وجرف الملاقي تمتد ظهور طويق العريضة في الفضاء الأغبس الفسيح)
وعندما يبحث في ثنية اليمامة يقول: (وبعد مسير سبعة أميال (على موازاة الأبكين) وصلنا إلى عقبة الحيسية المعتبرة منبع وادي حنيفة، فوجدنا أشجار السنط منتشرة حولها، وكان ارتفاعنا عن مستوى سطح البحر في هذه البقعة نحو3200 قدم، وكانت المسافة بيننا وبين البطين (بطين الحور) نحو46 ميلاً. وقد استطعت أن أشاهد من هذا المكان وادي حنيفة بأسره آخذاً إلى الجنوب حتى اليمامة، وهذا بون شاسع يربو طوله على 100 ميل، وتأخذ فيه الأرض في الانخفاض تدريجاً إلى أن يبلغ 1900 قدم. ولم أجد عند الصبب من المناظر الطبيعة ما يحملني منها على الإطناب في الوصف، وشاهدنا هناك الأرض أمامنا وقد انحدرت بهيئة مثلث فسيح الأرجاء، ضلعاه لهبان منفرجان من جرف طويق ومنته طرفاهما بأنفين بارزين أحدهما خشم خرشة في الجنوب، والآخر خشم الحيسية في الشمال، وتمتد بين هذين الأنفين قاعدة المثلث بشكل جناح ناشز من الحجارة الرملية الجرداء المغراء يسمونه المرقى في جانبه الأبعد يهبط شديد الانحدار ينتهي إلى وادي البطن. أما صدر شعيب هشة فهو في منبعه يتغلغل صبباً بين جدران منهره متمعجاً في عقيق ضيق، ثم يأخذ بعد حين في الاتساع على متون المنحدرات حتى إذا بلغ الحاشية الغربية من جناح المرقى ينفرج

في بطن المحلة الخصبة ثم ينثني فيجد له مثيلاً في خلال الحواجز الصخرية فيتسرب منها إلى وادي البطين. وعلى نحو أربعة أميال من منبع وادي حنيفة نجد ما بقى من آثار ديار الهشة، وهي لا تتعدى بعض بساتين النخيل المتفرقة وثلاث آبار دائمة المياه، اثنتان منها مطويتان بالحجارة غزيرتا الماء دائمة الورد، يبلغ عمق كل بئر منها نحو قامتين، ويظهر لون الماء عند استقائه من البئر أطحل بتأثير الطبقة المتحجرة المستبطنة قرار البئر، وإذا ترك الماء وشأنه قليلاً ركد فيه الغرين فصفا وراق. وطعمه لذيذ عذب جداً. وينفرد آل قحطان بالاستفادة من هذه البئر) إلى أن يقول: (وليس في عقبة
الحيسية صخور حرشاء تقف عثرة في سبيل الإبل. وربما كانت أسهل عقبات طويق مسلكاً، لذا فضلت على غيرها باتخاذها طريقاً للحج، وهو الطريق الذي سلكناه لما غادرنا الرياض من حيث ينحدر هذا الطريق إلى الضرمة).

الحركة من البطاح إلى اليمامة:

وبعد أن اجتمعت قوات المسلمين في البطاح واطلع خالد على موقف الحنفيين قرر التقدم تحو مسيلمة. وكان قبل ذلك قد رتب جيشه، فكانت نواته على ما نعلم الأنصار والمهاجرين والقبائل الضاربة بين المدينة ومكة. فقسم الجيش إلى فرق: فرقة من الأنصار، وفرقة من المهاجرين، وألفت كل قبيلة فرقة. وناط بأبي حذيفة وزيد ابن الخطاب قيادة المهاجرين، وبثابت بن قيس وبر بن مالك قيادة الأنصار. أما القبائل فكانت بقيادة رؤسائها.

ويروي أبو بشر الدولابي في كتاب التاريخ أن معركة عقرباء وقعت في شهر ربيع الأول للسنة الثانية عشر للهجرية، وأول هذا الشهر يقابل أوائل شهر أيار 633 ميلادية. وتبلغ المسافة بين البطاح وعقرباء زهاء 350 كيلومتراً، أي مسيرة عشرة أيام بجيش كبير على أقل تقدير. فيظهر من ذلك أن خالداً ترك البطاح في نهاية شهر نيسان أو في أوائل شهر أيار. فكانت خطة خالد ترمي إلى الزحف تواً إلى اليمامة، على أن يهجم على جيش مسيلمة أينما لقيه. وكان يعلم أن مسيلمة متأهب للمقابلة على حدود بلاده. لذلك قدّم أمامه مقدمة من بني طئ بقيادة عدي بن حاتم، وعين لها فرات بن حيان دليلاً، وسلك طريق الوشم نحو الشقرة. وأرسل إلى الأمام مكنف بن زيد الخيل وأخاه ليتجسسا الأخبار

ولم يشأ أن يترك خط الانسحاب معرضاً للخطر، لذلك أقام سليطاً مع قوة في البطاح ليكون ردءاً له من القبائل. وتزعم الرواية أن أبا بكر أمد خالداً بسليط ليكون ردءاً له لئلا يأتيه أحد من ظهره. أما مسيلمة فلما علم بمسير خالد نحوه تقدم بجيشه من اليمامة نحو الشمال وعسكر في عقرباء بجميع قواته منتظراً ورود جيش المسلمين متأهباً للمقاومة الشديدة. وكانت أخبار انتصار المسلمين على أهل الردة قد سبقت جيش المسلمين فألقت الرعب في قلوب الحنفيين. وتقدم جيش المسلمين على الطريق المذكور وكانت المقدمة تسبقه وتستطلع الأحوال.

يتبع

طه الهاشمي

محاولات أفلاطون - 2

معذرة سقراط

ترجمة الأستاذ زكي نجيب محمود

أخذت ألتمس الناس رجلاً فرجلاً وأنا عالم بما أثيره في الناس من غضب كنت آسف له وأخشاه، ولكنها ضرورة لم يكن عن المضي فيها محيص. إنها كلمة الله، ويجب أن أحلها من اعتباري المكان الأسمى، فقلت لنفسي: لابد أن أحاور أدعياء العلم جميعاً لعلي أفهم ما قصدت إليه الراعية. وأقسم لكم أيها الأثينيون أغلظ القسم - فواجبي أن أقول الحق - إنني قد انتهيت من البحث إلى ما رويت، وقد صادفت فيمن هم دون هؤلاء مقاماً رجالاً بلغوا من الحكمة ما لم يبلغه هؤلاء. وسأقص عليكم حديث تجوالي وما عانيت خلاله لتحقيق ما قالته الراعية. تركت رجال السياسة وقصدت إلى الشعراء، سواء في ذلك شعراء المأساة أو الأغاني الحماسية أو ما شئتم من صنوف الشعر، وقلت في نفسي: إن الأمر لا ريب مكشوف لدى الشعراء فسأجدني بازائهم أشد جهلاً. ثم جمعت طائفة مختارة من أروع ما سطرت أقلامهم، وحملتها إليهم

أستفسرهم إياها لعلي أفيد عندهم شيئاً. أفأنتم مصدقون ما أقول؟ واخجلتاه! أكاد أستحيمن القول لولا أني مضطر إليه، فليس بينكم من لا يستطيع أن يقول في شعرهم أكثر مما قالوا هم وهم ناظموه. عندئذ أدركت على الفور أن الشعراء لا يصدرون في الشعر عن حكمة، ولكنه ضرب من النبوغ والوحي. إنهم كالقديسين أو الأنبياء الذين ينطقون بالآيات الرائعات وهم لا يفقهون معناها. هكذا رأيت الشعراء، ورأيت فوق ذلك أنهم يعتقدون في أنفسهم الحكمة فيما لا يملكون فيه من الحكمة شيئاً استناداً إلى شاعريتهم القوية. فخلفت الشعراء وقد علمت أني أرفع منهم مقاماً، فقد فضلني عليهم ما فضلني على رجال السياسة. وأخيراً قصدت إلى الصناع، وكنت أظنني جاهلاً بما يتصل بالصناعة من علم، وكنت أحسب أن لدي هؤلاء الصناع مجموعة طريفة من المعارف، وقد ألفيتني مصيباً فيما ظننت، إذ كانوا يعلمون كثيراً مما كنت أجهله، فكانوا في ذلك أحكم مني بلا ريب.

ولكني رأيت حتى مهرة الصناع قد تردوا فيما تردى فيه الشعراء من خطأ، فتوهموا أنهم ما داموا أكفاء في صناعتهم فلابد أن يكونوا ملمين بكل ضروب المعرفة السامية، فذهبت سيئة الغرور بحسنة الحكمة. لهذا ساءلت نفسي بالنيابة عن الراعية: أكنت أحب أن أظل كما أنا، لا أملك ما يملكون من علم، ولا أكبو فيما كبوا فيه من الخطأ، أم كنت أحب أن أكون شبههم في العلم والجهل على السواء؟ فأجبت نفسي، وأجبت الراعية: إنني خير منهم حالاً

وهذا الذي انتهيت إليه قد حرك العداوة في قلوب نفر من أشد الناس سوءاً وخطراً، كما نسج حولي طائفة من الدعاوى الباطلة. ولقد جرى الناس على تسميتي بالحكيم إذ خيل إليهم أنني ما فتئت أحمل الحكمة التي كانت تعوزهم. ولكن الله - أيها الأثينيون - هو الحكيم الأوحد، ولعل الله حين أجرى على لسان راعيته ما نطقت به، أراد أن الحكمة في البشر ضئيلة أو معدومة. إنه لم يتحدث قصداً عن سقراط، إنما ضرب باسمي مثلاً، كأنما أراد أن يقول إن من يدرك كما أدرك سقراط أن حكمته في حقيقة الأمر لا تساوي شيئاً، يكون أحكم الناس. فأنا كما تروني أسير وفقاً لما يرسمه لي الله، أفتش عن الحكمة في كل من يدعيها، لا أبالي أكان من أبناء الوطن أم غريباً، فان لم أجده كما أدعى، صارحته بجهله كما أمرتني الراعية. ولقد انصرفت إلى هذا الواجب انصرافاً لم يبق لي معه من الوقت ما أبذله فيما يشغل باب العامة، أو أنفقته في شئوني الخاصة؛ وهكذا كرست حياتي لله فعشت فقيراً معدماً

أما أن الشبان الأثرياء الذين لا تضنيهم شواغل الحياة كثيراً، قد التفوا حولي، فهم قد جاءوا يسعون من تلقاء أنفسهم، ليشهدوا امتحان الأدعياء؛ وكثيراً ما انطلقوا بدورهم يلتمسون أدعياء الحكمة ليجروا عليهم التجربة نفسها. وما أكثر ما صادفوا رجالاً ظنوا في أنفسهم العلم، فإذا بهم لا يعلمون إلا قليلاً، أو هم لا يعلمون شيئاً؛ فلا يلبث هؤلاء الذين امتحنهم الشبان أن يصبوا عليّ جام غضبهم، وأنفسهم أحق بهذا الغضب، ويستنزلون اللعنة على سقراط لأنه أفسد الشبان. فان سألهم سائل فيم هذه اللعنة، وأي جريرة أتى، وأي رذيلة علم، لما حاروا جواباً، لأنهم لا يعرفون لغضبهم سبباً. ولكي يستروا علائم الحيرة تراهم يعيدون التهم المعروفة التي قذف بها الفلاسفة جميعاً، من أنهم يعلّمون ما يتصل بالسحاب، وما هو دفين تحت الثرى، وأنهم كافرون بالآلهة، وأنهم يُلبسون الباطل صورة الحق؛ والحقيقة أنهم جاهلون ويأبون الاعتراف بجهلهم المكشوف. ولما كانت تلك الفئة كثيرة طامعة نشيطة، وقد تصدوا جميعاً للنزال بما لهم من ألسنة حداد تلعب بالنفوس، فقد ملأوا أسماعكم بهذا الاتهام الباطل. وكان أن ناصبني العداء هؤلاء المدعون الثلاثة: مليتس، وأنيتس، وليقون. فقد ناهضني مليتس ليمثل جماعة الشعراء، وأنتيس ليمثل طبقة الصناع، وليقون ليمثل الخطباء. وأنني كما قدمت لا آمل في أن أمحو في لحظة كل ما علق بي من تهم باطلة. أيها الأثينيون! لقد رويت لكم الحق كل الحق، لم أخف شيئاً، ولم أشوه شيئاً، ومع هذا فأنا أعلم أن صراحتي في الحديث ستصدكم عني، وما هذا الصد إلا برهان على أني أقول الحق. تلك هي دعواهم وذاك منشؤها، ولن تسفر هذه المحاكمة ولا أية محاكمة مقبلة عن غير هذا

حسبي هذا دفاعاً للفريق الأول من المدعين. وهأنذا أتوجه الآن بالحديث نحو الطائفة

الأخرى وعلى رأسيهم مليتس، ذلك الرجل الطيب، الوطني، كما يقول عن نفسه. وسأحاول أن أدفع عن نفسي ما أتهمني به هذا الفريق الجديد. وجدير بنا أن نبدأ بتلخيص دعواهم، فماذا يزعمون؟ إنهم يقولون: أن سقراط فاعل للرذيلة، مفسد للشباب، كافر بآلهة الدولة، وله معبودات اصطنعها لنفسه خاصة. تلك هي دعواهم، وسبيلنا الآن أن نناقشها تفصيلاً.

أما الزعم بأني فاعل للرذيلة مفسد للشباب، فأنا أقرر أيها الأثينيون عن هذا الرجل مليتس، أنه هو صاحب رذيلة. ورذيلته أنه يتفكه حيث يجب الجد، وهو لا يرى غضاضة في أن يسوق الناس إلى ساحة القضاء متستراً وراء الحماسة المصطنعة والاهتمام المتكلف بأمور لا تعنيه بشيء؛ وسأقيم لكم الدليل على صدق هذا

- اقترب مني يا مليتس لألقي عليك سؤالاً. هل تفكر طويلاً في إصلاح الشباب؟

- نعم، إني أفعل

- أذن فقل للقضاة من هو مصلح الشبان، فأنت لابد عالم به ما دمت قد عانيت آلاماً في اكتشاف مفسدهم، فها أنت ذا قد سقتني إلى القضاء متهماً. تكلم إذن وقل للقضاة من هو مصلح الشبان. وما لي أراك يا مليتس لا تحير جواباً؟! أفليس هذا دليلاً قاطعاً، مزرياً بك، يؤيد ما ذكرته من أن أمر الشبان لا يعنيك في شيء؟ تكلم يا صديقي وحدثنا عن مقوم الشباب!

- هي القوانين

- ولكن ليست القوانين هي ما عنيت يا سيدي، إنما أردت أن أعرف ذلك الشخص الذي يحفظ القوانين قبل كل شيء

- هم من ترى في المحكمة من قضاة يا سقراط

- ماذا تريد أن تقول يا مليتس؟ أتعني أن القضاة قادرون على تعليم الشبان وإصلاحهم؟

- لست أشك في أنهم كذلك

- أكلهم كذلك، أم بعضهم دون بعض

- القضاة جميعاً

- قسماً بالآلهة إن هذا الخبر سار. إذن فهناك طائفة من المصلحين، وماذا تقول في النظارة؟ أهم يصلحون الشباب؟

- نعم هم يفعلون

- وأعضاء الشورى كذلك؟

- نعم أنهم كذلك يصلحون

- ولكن قد يكون رجال الدين لهم مفسدين؟ أم هم كذلك يقومون الشباب؟

- إنهم كذلك من المصلحين

- إذن فكل الأثينيين يصلحون الشبان ويرفعون من قدرهم، ما عداي. فأنا وحدي الذي أفسدت الشباب. أهذا ما أردت أن تقول؟

- وذلك ما أؤيده بكل قوتي

- يالبؤسي إذن إن صح ما تقول!. ولكني أُريد أن أسألك سؤالاً: أيصح هذا القول كذلك على الجياد؟ أيمكن أن يقدم لهم الأذى فرد واحد، بينما يقدم الخير العالم أجمع؟ ألست ترى العكس هو الصحيح؟ فرجل واحد يستطيع أن يعمل لها الخير، أو قل هي فئة قليلة، وأعني أن مروض الجياد هو الذي يقدم لها الخير، أما بقية الناس الذين يستخدمونها في أعمالهم فهم لها مسيئون. أليس هذا صحيحاً يا مليتس بالنسبة إلى الجياد وكل أنواع الحيوان؟ نعم ولا ريب، سواء رضيت أنت وأنيتس أم لم ترضيا، فذلك لا يعنينا. اللهم أنعم بحياة الشبان لو كان عليهم مفسد واحد فحسب. وكانت بقية العالم مصلحين. وأنت يا مليتس، لقد أقمت لنا الدليل ناصعاً على إنك لم تكن تفكر في الشبان؛ فإهمالك إياهم واضح حتى فيما ذكرت في صحيفة الدعوى. والآن يا مليتس، لابد أن أسألك سؤالاً آخر: أيهما خير، أن يكون أبناء وطنك الذين تعيش بينهم فاسدين أم صالحين؟ أجب يا صاح فذاك سؤال ميسور الجواب! ألا يقدم الصالحون الخير لجيرانهم بينما يسئ إليهم الفاسدون؟

- نعم ولا ريب

- وهل هناك إنسان يفضل أن يساء إليه على أن يُحسن إليه ممن يعيش بينهم؟ أجب يا

صديقي، فالقانون يتطلب منك الجواب. أيحب أحد أن يصيبه الضر؟
- كلا ولا ريب
- وأنت حين تتهمني بإفساد الشبان والحط من شأنهم، أتزعم أني أتعمد ذلك الإفساد يجئ عني عفواً؟
- أنا أزعم أنه إفساد مقصود
- ولكنك اعترفت الآن أن الرجل الصالح يقدم الخير لجيرانه، وأن الفاسد يقدم لهم الشر، أفتظن أن هذه الحقيقة قد أدركتها حكمتك البالغة وأنت لا تزال من الحياة في هذه السن الباكرة، وأنا، وقد بلغت من الكبر عتياً، مازلت أخبط في ظلام الجهل فلا أعلم أني أفسدت أولئك الذين أعيش بينهم فيغلب أن يصيبني منهم الضرر؟ أفاكون عالماً بهذا ومع ذلك أفسدهم، وأفسدهم متعمداً؟ هذا ما تقوله أنت، فلا أحسبك مقنعني به ولا مقنعاً به كائناً من كان. إحدى إثنتين: إما إنني لا أفسد الشبان، أو أنني أفسدهم من غير عمد؛ وسواء أصحت هذه أم تلك فأنت كاذب في كلتا الحالتين فان كانت جريمتي بغير عمد فلا يحاسب عليها القانون، وكان خليقاً بك أن تسدي لي النصح خالصاً، محذراً ومؤنباً في رفق ولين، فإن انتصحت بك، أقلعت ولا ريب عما كنت آتيه بغير قصد؛ ولكنك أبيت لي نصحاً وتعليماً، وآثرت أن تجئ به متهماً في ساحة القضاء، وهي محل العقاب لا مكان التعليم
لقد تبين لكم أيها الأثينيون أنه لا يعنيه أمر الشبان في كثير ولا قليل، ولكني مازلت أود يا مليتس أن أعرف منك فيم كان إصراري على إفساد الشباب؟ لعلك تعني كما يبدو من اتهامك أني حملتهم على إنكار الآلهة التي اعترفت بها الدولة، ليقدسوا في مكانها معبودات جديدة أو قوى روحانية. أليست هذه هي الدروس التي زعمت أني أفسدت بها الشباب؟
- نعم، هذا ما أقوله وأؤكده
- إذن فقل لي يا مليتس، وقل للمحكمة في عبارة واضحة، أي آلهة أردت في دعواك، لأنني حتى الساعة لا أفهم ما تأخذه عليَ. أكنت أعلم الناس الأيمان بآلهة معينة؟ وإن كان هذا فهم مؤمنون بآلهة ما، ولم أكن إذن كافراً تمام الكفران. إنك لم تشر إلى ذلك في الدعوى واكتفيت بالقول أنها ليست نفس الآلهة التي تعترف بها المدينة. ما تهمتي؟ أهي الدعوة إلى آلهة مخالفة أم تزعم أني ملحد ومعلم للإلحاد؟
- أردت الأخيرة، فأنت ملحد غاية الإلحاد
- هذا قول عجيب لم نعهده يا مليتس، ماذا تعني به؟ ألست أومن بإلهي الشمس والقمر، وهي عقيدة سائدة بين الناس جميعاً!
- إني أؤكد لكم أيها القضاة أنه لا يؤمن بهما، فهو يقول إن الشمس كتلة من الحجر، وأن القمر مصنوع من تراب!
يتبع
زكي نجيب محمود
ذكرى ميلاد
عند الثلاثين
للأستاذ محمد سعيد العريان
لشد ما أعياني السُرى!
منذ تسع وعشرين أصعد في الجبل وما بلغت. أتراني إلى القمة أدب دبيبي، أم قد جاوزتها وما أدري، فأنا منحدر أتدلف من جانبها إلى بطن الوادي. .؟
يكتفني الغيب فما أعرف أين يومي من أمسه ومن غده. أما أمس فقد خلعته عني، وطوته الأيام طي مرقعةٍ بالية فما تراه إلا خُلقاناً مركومة كالميت لفَّته أكفانُه. وهل الماضي إلا الجزءُ الذي مات منا؟
وأما الغد. . . فمن لي بما هناك؟ إن الأحلام لتكذب، فما أحسبها كانت تتراءى لي إلا دنيا غير دنياي ليس من أيامها يومي ولا غدي
هذه الأيام صرعى على مدرجة الزمن، وما تزال المنى تصطرع في رأسي!
يا لي من الأيام! لشد ما كانت تسخر مني إذ تمد لي أسباب المنى، حتى إذا هممتُ لم تكن عثراتي إلا أيامي!
اِنقشعي أيتها الغيوم واكشفي لي عما وراءك؛ إن لي أمنيةً هناك!

إني لأراني كأنما لَبِسَني النوم، فأنا من الرؤيا في دنيا غير التي أعرف، وناسٍ غير هذه الناس، وثَمَّت طفلٌ يعدو خلف فراشة، أتراه مُدرِكُها؟
لقد آب فارغ اليد، ولكن على شفتيه ابتسامة!
وأقبل يتعرفني وما كانت به إلى من حاجة
قال: (من أنت؟)
قلت: (أما تعرفني؟)
قال: (نعم، فمن تكون؟)
قلت: (فأنظر في مرآتك لعلك واجدٌ فيها الجواب.)
ونَظَر ونظرتُ من خلفه، فما كان في المرآة إلا وجه الطفل الضاحك
ولوى رأسه وعاد ينظر إلي ويقول:
- (لستَ هناك، وما أراني أعرفك ولا تعرفك مرآتي)
ورفت الفراشة فانطلق يعدو وراءها والابتسامة على شفتيه!
يا طفولتي التي فرت بأسعد أيام الحياة، ليتكِ كنت تعرفين!
وعاد الطفل فتى يخطر ريان الوجه مشرق الجبين، فأزْوَرَّ إذ رآني على الطريق
قلت: (أتنكرني يا فتى؟ فإنني صاحبك!)
قال: (متى؟ فما أضنني عرفتك!)
قلت: (ذاك يوم التقينا على السفح والشمس ضاحية، وتصاوير الزهر ترف من أجنحة الفراشة)
وابتسم الفتى ومر بيمناه على جبينه وهو يقول:
- (لعلي أذكر من بَعدُ!)
وانطلق يغني جذلان
يا نضارة الصبي وبكرة الشباب، ليتك إذ توليت عابثة ناعمة بالحرية - كنت تدرين من هناك!
وأقبل من بعدُ شاب يبتسم. ما أشبه بصاحبه!
قلت: (هاأنت ذاك، أما تعرفني؟)
قال: (كأني رأيتك من قبل، بربك من تكون؟)
قلت: (فانك ما تزال تنكرني على ما صحبتُك زماناً ولمّا يَنقض عهد طويل!)
ولم أجد جوابي؛ فقد لوى الشاب رأسه يتابع بعينيه فتاةً تخطر، ثم انطلق مُهطعاً وراءها ونفسي تتبعه
يا الله! لكأنها هي. . .!
وتلاشى الوجود من أمامي فلم أعد أرى غير وجه ضاحك، وطلعةٍ مشرقة، وعينين تُشعان النور من وجه الفتاة
ورأيتها تدنو مني وفي وجهها كلام. . .
قلت: (أما تزالين تذكرين يا فتاة؟ يا للنفس العطوف!)
قالت: (أئنهُ لأنت؟ لله صبْرُك!)
وانقضت كلماتها على صدري بالهم والوحشة والعذاب، وكأنما أجتمع منها تاريخ سبع سنين طوال، ما يزال في القلب منهن جراحٌ تنزف!
وانثالت الذكريات على نفسي تتمثل من مشاهدها قصة غرام ثائر، أغْفَلَها مُنشِئها قبل أن يبلغ بها إلى نهاية
ورحت أنكت الأرض بالعصا، كأني أفتش تحت التراب عن الجزء الذي مات من قلبي!
ورأيت ظلها على الأرض، فاستحيت أن أرفع رأسي وفي عيني دموع!
يا للشباب من حب بلا رجاء! أؤضيع أنضر أيام الحياة مصبوباً على نفسي، أبحث عن أهون ما في الحياة؟
وأين الرجولة إن بذلت شبابي ونفسي لأعدو في ظل فتاة؟
أتُراها تَجدُ فَقْدِي؟
إن المرأة للرجل إن هي إلا وحيُ المجد ومطلعُ الأمل، فإذا عادت لهفةً ودموعا فما هي امرأة، ولكنها اليأس والحرمان والخيبة!
وتذكَّرْتُ صاحبي الذي أنفلت مني مُهطعاً إلى فتاته، فإذا هي أمامي والفتاة إلى جانبه ذراعاً إلى ذراع

قال: (ما تقول لنفسك؟)
قلت: (أوَ تسمع هَمْس النفس ونجوى الضمير؟)
قال: (قد علمت بعض هذه النجوى. . . أفكنت تتحدث بما تتحدث إلى نفسك، لو لم تكن هذه الشعراتُ البيض تخفي وتلوح في فوْدَيكَ؟)
قلت: (أوَ تراها؟. . . فاسأل صاحبتَك عن خبرها؛ فهل جاءك أن هذا الشيب الباكر يدلّ إلا على شباب القلب؟ ما أحسبك تَعْلمُ حتى تُنْبِئَكَ الشعرةُ البيضاء!)
واستضحك الفتى والفتاة. . .!
وتلاشى الوجود ثانية من أمامي! وإذا أنا في دنيا غير دنياي، وناسٍ غير هذه الناس؛ وإذا المرآة أمامي تجلو لي ما تجلو (الخيالة)، وكأنما اجتمع بها في زمان ومكان تاريخي كله على الأرض منذ تسع وعشرين بماضيه وحاضره، وران ضبابُ أنفاسي على ثلث المرآة
وإذا فيما ظهر لي من المرآة طفل يعدو خلف فراشة، ما ينفك يقفز ويثب وغلام يخطر مغنياً جذلان، ما يعنيه إلا الكرة يرتق فتوقها، واللّدات من الصبيان يتجاذب وإياهم أسباب المسرة في الحارة وعلى ناصية الطريق
وشاب باسم الثغر منبسط الأسارير دنياه هذه الفتاة، له منها في النهار مشغلة وفي الليل مشغلة. ثم. . . ثم هذا الوجه الذي يعرفه صحابتي، على شفتيه ابتسامة عابسة، وفي عينيه سر يبالغ في الاستخفاء، ومن وراء جبينه أماني تصطرع، ودنيا يموج بعضها في بعض
ليت شعري أهذه هي الحياة، أليس فيها أحسن مما رأيت، أهذا كل ما هناك؟
يا ضيعة المنى إن كان الغد يوماً مكرراً مما فات!
أين المثل الأعلى الذي جهدت في تخيله، وأعياني الكد في البلوغ إليه؟ أترى البشرية الضالة قد حطمت تمثاله، وخربت هيكله، أم لا يزال قائماً هناك مختبئاً خلف الغد؟
محمد سعيد العريان
ذكريات
. . .دمه العربي
للأديب حسين شوقي
حينما كنت في باريس أتلقى دراسة القانون تعرفت بالفندق الذي كنت أقيم فيه بالحي اللاتيني (حي الطلبة) بطالب أسباني، وقد دفعتني إلى حب التعرف به معرفتي اللغة الأسبانية، (فقد قضيت خمس سنوات بأسبانيا)، والميل إلى التمرن عليها. . كذلك جذبتني إليه سيماه العربية كسمرة بشرته، وعيونه السوداء، وهي في حدتها كعيون البدو في الصحراء، وجذبتني إليه اسمه العذب الذي ينتهي بحرف (الثاء) إذ كان يدعى مونيوث، وهذا الحرف لا يوجد على ما أعلم - إلا في اللغة العربية، فورثته الأسبانية عنها. . كنا نقضي الليل أنا وهو في كثير من الأحيان، في مقهى ليلي جميل يديره بعض الصينيين بالحي اللاتيني، ذلك الحي الذي لم يكن تخلى بعد لحى مونبرناس (حي الشعراء والفنانين) عن إمارة الليل. .
. .وكان مجلسنا يضم أيضاً طالبين أسبانيين، وطالباً أخر من جزر الفلبين
وا آسفاه على تلك الليالي الغابرة التي قضيناها في المتاع واللهو! بينما كنا ذات ليلة جالسين كالعادة في المقهى ننعم بالرقص والموسيقى، إذا بأحد الشبان يصفع صديقته وقد رآها تتبادل النظرات غير المشروعة مع شاب آخر. . فغضب مونيوث لهذا المنظر، وهم بالتدخل في الأمر لولا أننا أمسكنا بسترته لأننا كنا نخالفه الرأي اشفاقاً على العاشق المخدوع الذي لم يقدم على عمله في اعتقادنا، إلا تحت سلطان الغيرة. . وقد دفعنا هذا الحادث إلى الخوض في موضوع الغيرة فأطبق رأينا على أنها شعور طبيعي يلازم الحب، وعلى أنه مقياس حرارته الصادق، بخلاف مونيوث الذي كان يرى في الغيرة شعوراً أولياً همجياً يمكن القضاء عليه بالتربية والتهذيب كما قضت المدينة من قبل على بعض عيوب البشر الأولى. .
فقال عندئذ فرناندو - الطالب الفلبيني - موجهاً الكلام لمونيوث:
إذا كنت يا صديقي لا تغار فما بالك تحجب عنا حبيبتك نانيت؟
فبُهت مونيوث لهذا السؤال المفاجئ وتلعثم قائلاً:

. .أنا لا أحجب نانيت بل هي التي تعرض عن الحضور لأنها لا تحب الرقص
فصاح ريكاردوا، أحد الطالبين الآخرين:
يا للعذراء! هل هناك فتاة تبغض الرقص؟ إن رجلي البائستين لم تعودا تحملانني من كثرة ما رقصت مع صديقتي سيمون!
فقلت بدوري لمونيوث:
ولكني لم أشاهد صديقتك نانت هذه!
فتدخل فرناندو قائلاً: إنه يخاف عليها يا عزيزي كما تخاف القطة على صغارها
ثم استمررت موجهاً كلامي لمونيوث:
. .لا يمكن إلا أن تكون غيوراً يا صديقي، ففي عروقك الدم. الشرقي العربي الفائر
ولكن مونيوث أصر على إنكاره الغيرة كما أنكر الدم العربي، واعداً إحضار نانيت معه في أقرب فرصة. . .
. .ولكن مونيوث طبعاً لم يف بوعده
تعرفت بعد ذلك بأيام بنانيت هذه بالفندق، إذ أتت لتزور مونيوث وكان إذ ذاك معتل الصحة، فعذرت عندئذ صديقي لحرصه على نانيت، لأنها كانت جميلة إلى حد بعيد، بشعرها الذهبي المنفوش، وعينيها الخضراوين اللتين كأنهما عينا قطة أنقرية. . ولما كنا في ذلك الوقت في أواخر شهر ديسمبر، وضعنا ذات ليلة برنامج سهرة في ليلة رأس السنة، ووعدنا مونيوث باصطحابه نانيت في تجوالنا تلك الليلة بمقاهي باريس الليلية. . على أننا شككنا في هذا الوعد أيضاً. . ولكن حينما جاءت الليلة الموعودة، أقبلت نانيت متأبطة ذراع صديقها! بدأنا طوافنا بالذهاب إلى ملهى (الطاحونة الحمراء) حيث كانت الممثلة الأسبانية الرشيقة (راكل ملر) تخلب الباريسيين بصوتها الشجي ورقصها السماوي. . ثم انتقلنا بعد ذلك إلى مقهى قريب من (الطاحونة الحمراء) يديرها بعض أشراف الروس الذين هاجروا من بلادهم على أثر قيام النظام الشيوعي في روسيا؛ وكان المحل غاصاً بالأجانب والفرنسيين على سواء الذين أتوا ليستقبلوا السنة القادمة بين المرح والسرور عساها تأتي لهم بالسعادة. . .؟!
جلسنا في البار الذي كان مرتفعاً حتى نستطيع أن نشرف على المرقص بأجمعه. . ثم شهدت بعض أصدقائي من المصريين جالسين بالقرب من حلبة الرقص، فانتقلت إلى مائدتهم لتحيتهم. . . ولكن لم يمضي زمن طويل على وجودي معهم حتى سمعنا جلبة قوية آتية من جهة البار، فذهبت لفوري إلى هناك فإذا بأصدقائي الأسبان يتشاجرون مع بعض الفتية الفرنسيين، وقد تمكن الحاضرون من تفريقهم بعد جهد كبير دون الالتجاء إلى البوليس. . أما سبب المعركة فكان نانيت! والمحرك الأول هو مونيوث! غازل شاب فرنسي جميل نانيت، ولكن مونيوث لم يفعل شيئاً وقتئذ برغم ملاحظته الأمر، وذلك عملاً بمبادئه السلمية وتغلباً على الغيرة المرذولة! ولكن مونيوث المسكين لم يطق صبراً حينما شاهد نانيت تبتسم بدورها لمغازلها، فأفلت منه جواد الغيرة الجامح. . فأمسك مونيوث بكرسي وقذف به الشاب الفرنسي عندئذ هب بعض الفرنسيين الحاضرين للدفاع عن مواطنهم، وكان بغض الفرنسيين للأجانب شديداً في ذلك العهد، فهب الأسبان بطبيعة الحال للدفاع عن مونيوث.
انتقلنا بعد ذلك إلى صيدلية ضمدت فيها الجراح وأهمها جرح بليغ في شفة مونيوث السفلى، إذ كنا عازمين على السهر إلى آخر الليل حتى لا نستقبل السنة الجديدة بمثل هذا الحادث المكدر. . ثم قصفنا طويلاً في أحياء باريس المختلفة.
سألت مونيوث ونحن في طريق العودة إلى الفندق ألا يزال ينكر الغيرة ولا يؤمن بدمه الشرقي العربي؟ فأومأ برأسه اعترافاً بهزيمته أمام الغيرة، وبما يخالط دمه الأسباني من دم عربي حر. . واكتفيت بهذا الإيماء، فان الكلام كان يؤلمه، لأن فمه لا يزال دامياً، ولعل قلب مونيوث المسكين كان أدمى من فمه!. .

كرمة ابن هانئ

حسين شوقي

من شعر الشباب

الطائر السجين

للأستاذ محمود الخفيف

راسف في القيد موصول الأنين ... مطرق الهامة في يأس حزين

تلمح الحيرة في نظرته ... نظرة اللوعة والغيظ الدفين
وترى الثورة في إذعانه ... وهو بالأذعان من قبل ضنين
ناسل الريش نحيلشاحب ... ذابل المقلة محزون الجبين
ساهم طوراً وطوراً راقص ... رقصة المُوثَق بين الموثقين
سائل عن ذنبه في حسرة ... وسكوت هو كالنطق مبين
نائح في يأسه ملتمس ... رحمة الغادين بعد الرائحين
يحسب الراني إليه مشفقاً ... يعرف الرأفة بالمستضعفين
فيرجى الغوث في إقباله ... ولقد يرجى مع اليأس اليقين
فإذا مر به في غلظة ... وجمود عاد مكروب الحنين
يتمنى الموت في محنته ... ضجعةُ الموت خلاص اليائسين
وإذا أبصر سرباً عابراً ... وهو في السجن رهين مستكين
هز للطير جناحيه كما ... جرّر الأغلال في الأسر سجين
نسى القضبان في لهفته ... ومضى يسبح بين السابحين
رده السقف سريعاً فهوى ... طارف العينين مكتوم الأنين
وكسا ريش جناحيه دم ... من جراح الصدر أو نضح الوتين
وإذا غنى لديه طائر ... لم يذق قبلُ عذاب الراسفين
بلغت لوعته غايتها ... وتوالى النوح والدمع السخين
يعرف المحزون أقصى حزنه ... حين يمسي في قبيل ضاحكين
أيها العاني برغمي أن أرى ... ما تلاقي من عذاب وشجون
أيها الطائر ما لي حيلة ... ليت من صادوك يوماً يشفقون
حسبوا أنك فيهم ناعم ... أولا تأكل مما يأكلون
أولا تمسي لديهم آمناً ... وترى الإحسان فيما يصنعون
قفص تصدح فيه سالماً ... أين من زينته سود الوُكون
وصحاف وشراب طاهر ... وهدوء لم ينله المترفون
قسماً لو حاسبوا أنفسهم ... لمضوا عن ذنبهم يستغفرون
أين هذا القيد من حرية ... هي أحلى لك مما يصفون
تجد القسوة فيما أحكموا ... ومعاني الظلم فيما يدعون
وتعاف الضيم في نعمتهم ... ولو اسْطَعت تخيرت المنون
وترى الشهد لديهم علقماً ... وهمو عن غيهم لا يرجعون
رب يوم عضك الجوع به ... كان أشهى لك مما يبذلون
أين ما تلقاه في أغلالهم ... من ظلال كنت فيها وعيون؟
وفضاء كنت فيه مطلقاً ... ومقيل لك في وكر مصون
وطعام لم يكن ذا غصة ... لم يكدره لديك الطاعمون
أترى القضبان في قسوتها ... كوثير العشب أو خضر الغصون؟
يا عدو الأسر في فطرته ... يا طليقاً بات في القيد رهين
أن تأملت لما تلقى به ... لن تراهم بك يوماً حافلين
كنت في جوك حراً آمناً ... فتلقتك شباك الصائدين
قتل الإنسان ما أظلمه! ... دأبه العدوان والغدر المهين
يكره الظلم إذا ما مسه ... وهو أن يأمنه شر الظالمين
يتحدى الطير في أجوائها ... ويصيد الوحش في الغار الكنين
أو لم يكف ضحايا بغيه ... من بنيه الوادعين الآمنين؟
يا أسيراً يذرف الدمع دما ... لست في بلواك معدوم القرين
كم سجين بات يبكي حظه ... مثلما تبكي، ويبكي الناظرين
هذه الدنيا لعمري قفص ... لبنيها العُزل المستضعفين
قد قرأنا الظلم في غابرها ... في فتوح الغاصبين الناهبين
فكرهناه ونددنا به ... وبرئنا من ظلال الغابرين
أولا نمرح في أصفاده ... ونراه اليوم في المستعمرين؟
وإذا الناس على فطرتهم ... ولئن راق خيال الواهمين
وإذا العدل سراب لامع ... طالما بتنا به منخدعين

قف بهذا الشرق وانظر كم ترى ... فيه من بغى ومن حكم لعين
اسأل الوادي عن محتله ... وفلسطين عن المغتصبين
وأذكر الهند ففي محنتها ... حجة تنسخ قول المبطلين
دخل السجن بريئاً شيخها ... ساخراً من باطل المستكبرين
حمل العبء على أسقامه ... وكفاه لو دروا عبء السنين
ويميناً لو نسوا أطماعهم ... لجثوا بين يديه نادمين
وكأيِّن في الورى من آية ... ويمرون عليها معرضين!
يعرف الأغلال من كلبدها ... وعرفناها كراماً صابرين
جرب المحتل فينا وكرهُ ... ورمانا ببنينا الغادرين
وأتى الثورة من مقتلها ... فوقفنا دونها مستبسلين
فرمانا بلظى من ناره ... وسقطنا عشرات ومئين
وافتدينا الحق في هودجه ... واحتشدنا حوله مستشهدين
ورفعنا فوقه رايته ... وتزاحمنا عليها مقسمين
ورأى الغاصب أنا لم نكن ... بالخياليين أو باللاعبين
ضاقت الأنفس حيناً وبدت ... نذر الرجفة للمستهزئين
والتقى الأشبال في غضبتهم ... ومشوا نحو المنايا طائعين
أيقظوا الثورة لولا حكمة ... من بنيها السابقين الأولين
أفسدوا كيد المحيطين بهم ... فأتوا غِيراتَهم منكفئين
قسماً ما أجلّوها خشية ... ولئن طال حديث المرجفين
ليس من يبذل طوعا دمه ... بالذي يرهب بأس المعتدين
كمنت فيهم، فان لم ينتهوا ... بعثوها في غد مستأنفين
محمود الخفيف
حنين إلى الوطن
للشاعر الحجازي أبى يعرب المدني
أحن إلى ذكريات الحجاز ... حنين الفطيم إلى ظِئره
أحن إليه حنين الحما ... م إذا ما تغرب عن وكره
إذا هب من جانبيه النسيم ... تروَّحت دنياي في نشره
يرفرف روحي على ساحليه ... فيغترف الشعر من بحره
وما ذبل الوجد حتى يجف ... لسان القصائد عن ذكره
ألا ما سقى الله أرض الحج ... از بوطفاء تغدق في قُطره
ويا حبذا أن يفيق الحجاز ... فيا طال ما نام في سكره
إذا ثاب ثابت جميع البلاد ... وسارت إلى المجد في إثره
يقال تباشيره أقبلت ... طلائعها الغر في فجره
وأنَّى له أمل أن يفيق ... وقد يأس الناس من أمره؟
وما ارتبتُ حتى رأيت الزمـ ... ان يسوّل لي اليأس من مكره
وغيري إذا ازورَّ عنه المنى ... تشَفَّع بالدمع في عذره
أناتي تبَسَّم تحت القطوب ... إذا ما تذمرتُ من شره
وأطلب حقي بحد الحسام ... إذا نام ذو الثأر عن وتره
إلى أن تلين قناة الزمان ... ويعدل إذ ذاك عن جوره
لويدجي
صاحب جائزة نوبل لعام 1934
منح الكاتب الإيطالي بيراندللو جائزة نوبل للآداب، فجاء ذلك القرار برهاناً جديداً قوياً على خطر الدور التجديدي الذي أداه بيراندللو في تطور المسرح الإيطالي المعاصر. فقد كان المسرح الإيطالي منذ عام 1870 حتى الحرب العالمية يعاني تدهوراً شديداً حتى دفع ذلك الناقد بنجمان كريمو إلى أن يعتبر المسرح الإيطالي أثناء هذه الفترة الطويلة خارجاً عن دائرة الأدب الصحيح. والواقع أن من العسير أن يشعر الإنسان بوجود فن مسرحي في إيطاليا خلال نصف القرن الذي سبق الحرب العظمى إلا بأعمال الكاتب الكبير جبرييل دانونزيو، وبعض أعمال عدد من الكتاب مثل وبراكو وسمبنللي

لم يكن التأليف المسرحي ضعيفاً فحسب، بل إن محاولات الكتاب الخائرة كانت تعيش كَلاً على الآداب الأجنبية، وتمعن في تقليد الكتاب الفرنسيين، وأخصهم دوماس الصغير وأوجييه. ثم الكتاب الروس والكاتب النرويجي ابسن فيما بعد

وكان المسرح الإيطالي في هذه الفترة من العبودية، بحيث كانيتغير بتغير العوامل المؤثرة فيه. فعندما قوى المسرح في فرنسا، لقى ذلك التغير صداه السريع في المسرح الإيطالي فسادت روح المؤلفين، وكانت هذه الروح من القوة بحيث تشبه الثورة على فن دوماس وأوجييه اللذين كانا يطبعان المسرح الإيطالي بطابعهما حتى ذلك الوقت

على أن التحرر من سيادة فن دوماس وأوجييه لم يكن إلا بنقل السيادة من يد إلى أخرى، وكانت هذه اليد هي فن ابسن الذي يغذي المسرح الواقعي الإيطالي بمشاكله التي يعالجها، وبمواقف أبطاله حتى أوائل الحرب الماضية. كان للمسرح الواقعي بعض القوة، إلا أن تكرار معالجة المشاكل التي عالجها ابسن في قصصه خلق نوعاً من الملل الشديد فقامت محاولات جديدة لبناء مسرح كان من زعمائه قبل الحرب سمبنللي، وبعد الحرب أركول (1882 - 1921). على أن هذا المسرح أيضاً لم يؤد إلى الغرض المنشود، لأنه بالغ في رومانتيكيته حتى كانت قصصه أشبه بالأساطير القديمة، وكان أظهر عوامل الضعف فيه

انطفاء الأسلوب وخطأ التحليل. لذا ظل الرجاء معقوداً على طبقة أخرى من الكتاب حتى لاحت شمس النهضة الجديدة على يد (المسرح الساخر)

الذي كانت فكرته نواة أدب بيراندللو، فاليه يرجع الفضل الأول في تحرير القصة المسرحية لإيطالية مما يسمى الفكرة التي خلقتها النظرة الواقعية والرجوع بالقصة إلى معالجة الموضوعات وتحليل العواطف والنزعات الإنسانية بطريقة أكثر حرية وانطلاقاً

طريقة تقوم على أساس من الدعابة والسخرية

وجاء بعد ذلك بيراندللو فاستطاع بعبقريته أن يبني على تراث (المسرح الساخر) فلسفة خاصة هي وليدة تجاربه في الحياة، وآلامه النفسية، وقراءاته الواسعة. وأن يركز هذه الفلسفة في مذهب فني عرف باسم (مذهب الدعابة) باسم (مذهب بيراندللو) الذي رفع به مسرح بلاده بعد انحطاط نيف على نصف قرن كامل

لقد بلغ بيراندللو الآن سن الشيخوخة، ففي شهر يونيو الماضي أتم السابعة والستين. وقد ابتدأ الكتابة وهو في العشرين من عمره. وكان إنتاجه من الغزارة بحيث أنه كتب إلى الآن أربعة مائة أقصوصة، وعشر قصص، وثلاثين رواية مسرحية ومع كل ذلك كان اسمه منذ عشرة أعوام يكاد يكون مجهولاً في عالم الآداب، على أن بيراندللو قد استطاع في الأعوام الأخيرة - بفنه المسرحي على الخصوص - أن يشق طريقه إلى المجد، ويكون له أتباعاً في أوربا بأسرها. وأن ينال أخيراً أعظم الجوائز الأدبية في العالم أجمع.

ولد بيراندللو في بلدة بجزيرة صقلية في اليوم الثامن والعشرين من شهر يونيو عام 1867. وعند ما شب درس الأدب في روما. ثم سافر إلى ألمانيا حيث حصل على شهادة الدكتوراه في الآداب من جامعة بن ولما عاد إلى بلاده عين أستاذاً في (المدرسة العليا للبنات) بروما، وبقى فيها أربعة وعشرين عاماً من عام 1897 إلى 1921. ابتدأ بيراندللو حياته الأدبية قصصياً يكتب القصص الطويلة والقصيرة، ولكنه تحول فيما بعد إلى الكتابة المسرحية فلقي عن طريقها سبيله إلى الشهرة العالمية. وقد كتب بيراندللو من القصص الطويلة (1904) (1911) و (1924) و , , (1926) وغيرها. أما قصصه القصيرة فأنها تظهر تدريجياً مجموعة تحت عنوان رئيسي ثابت هو (حكايات لعام) وأشهر هذه المجموعات

أما الروايات المسرحية فقد ابتدأ بيراندللو الكتابة فيها عام 1912، فكتب رواياته و' (1913) ثم (1914). على أن هذه الروايات كانت في الواقع بمثابة الخطوات الأولى لفنه الذي لم يزدهر إلا ابتداء من عام1917 حين كتب رواية وتوالت بعد هذه الرواية رواياته المسرحية الرائعة التي أشهرها ' (1918) و ' , و (1919) , ' (1920) و ' و (1921) (1922) ' (1923) (1925) (1926) ' (1927) الخ . . . .

كان أظهر ما يميز فن بيراندللو منذ قصصه الأولى ميله إلى الدعابة، إليها بغريزته كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً. على أن فكرة بيراندللو عن الدعابة قد تطورت وتحددت بتحوله إلى المسرح واهتمامه على الأخص بكتابة الروايات المسرحية ونبوغه فيها. فقد كان بيراندللو

في البداية يلجأ إلى الدعابة إجابة لنداء طبيعته الساخرة. لكنه أقتصر فيما بعد - وخصوصاً في مسرحه - إلى اختيار الموضوعات التي تثير حقاً سخرية المرء ودعابته. ثم جعل بعد ذلك من هذه الموضوعات مجالاً واسعاً لإطفاء ظمئه الطبيعي في حب الدعابة. وقد اتفق النقاد على أن عبقرية بيراندللو هي من مهارته الفائقة في حسن اختيار هذه الموضوعات وتوخي الصدق فيها

ويجب أن نلاحظ أن رواية بيراندللو لا تصلها بالرواية الهزلية صلة؛ ذلك أن الناحية النقدية هي الغرض الأسمى من الرواية، فهي لم توضع لتبعث الضحك والمرح إلى نفوس المشاهدين كما هو الحال في الرواية الهزلية، بل لتكشف لهم بطريقة تحليلية لاذعة عن حقيقة الطبيعة البشرية ونواحي الصراع بينها وبين تقاليد المجتمع وموجباته. وقد كتب بيراندللو عام 1920 يشرح ذلك قال:

إنني أعتقد أن الحياة مهزلة محزنة. لأننا نرى في داخلها دافعاً خفياً لا ندري سببه) يدفعنا إلى أن نخدع أنفسنا على الدوام، فنخلق لنا شخصيات وأفكاراً تختلف باختلاف كل فرد. ثم لا نلبث أن يبدو لنا أن ما فعلنا ليس إلا وهما وخديعة. إن فني ممتلئ بالشفقة الحارة على أولئك الذين يخدعون أنفسهم. على أنني لا أستطيع أن أمنع نفسي من أن ألحق بهذه الشفقة سخريةً قاسيةً من الأقدار التي تفرض على الإنسان فرضاً هذا الغش والخديعة)

وفن بيراندللو يعالج مشكلة من أكبر مشاكل الطبيعة البشرية. تلك هي مشكلة (الشخصية)؛ فكم ينتاب شخصياتنا كل يوم من التغير والتقلب! وكم يعاني الإنسان في علاقاته بسائر الناس الذين يختلف بعضهم عن بعض في العادات والطباع، فيرى المرء نفسه مرغماً أن يلبس مع كل فرد ولكل حادث ولكل زمن شخصية جديدة حتى يستطيع الحياة في هذا العالم. فبيراندللو حين معالجته لمشكلة الشخصية تراه يقارن بين طبيعة الإنسان وما تميله عليه مقتضيات البيئة ومظاهر الحياة وبين ما يتبع ذلك من صراع، وما يتخلل ذلك الصراع من رياء الحياة الإنسانية وصغائرها

يريد بيراندللو أن لكل إنسان شخصيتين كامنتين فيه، هما أبداً في تناقض مستمر وحرب دائمة

أولاهما: (حيوانيته) أي شخصيته الطبيعية بغرائزها وشهواتها

وثانيتهما: (إنسانيته) أي شخصيته الاجتماعية التي تحتم عليه أن يخضع للتقاليد والأوضاع والمبادئ الجامدة، وكل ما اصطلح المجتمع على تمجيده وتقديسه

ويرى بيراندللو أيضاً أن الفرد يعتبر في حالته الطبيعية حين يتبع غرائزه وشهواته و (حيوانيته)، فان خالف ذلك وحاول أن يكون (إنساناً) يتقيد بنظم مخصوصة، ويخضع تصرفاته لقواعد مرعية، فهو في نظره قد خرج على طبيعته، وأوقف سير (حياته الحقيقة) ليدخل (حياته الوهمية) التي يتصور أنها الحياة الحقيقية وهنا يجب أن نتساءل: ما الذي يرغم الإنسان أن ينتقل من (حياته الحقيقية) إلى (حياته الوهمية) أو من (حيوانيته) إلى (إنسانيته)؟

إنه الضمير. الضمير في نظر بيراندللو هو الذي يفرق بين الإنسان والحيوان، وبين والإنسان والنبات. الضمير الذي يولد معنا يوم ميلادنا، ويصاحبنا حتى الموت هو الذي يفسر حياتنا. هو الذي يقيدنا بالأوضاع، ويخضعها لناموس الخطأ والصواب. ولكن هل استطاع الضمير أن يكبح غرائز الإنسان وشهواته ويمنعها عن الظهور والانفجار بين حين وآخر؟ لا. لم يستطع الضمير ذلك. فحيوانية الإنسان لا تزال كامنة فيه تتلمس الخروج كلما وجدت الفرصة المناسبة. وكثيراً ما تستبد بصاحبها وتعميه وتسيره في الطريق الذي تشاء. والذي يرى بيراندللو أن كل شقاء الإنسان النفسي إنما هو وليد وجود

الضمير. فقد أراد الضمير أن يكبل الطبيعة الإنسانية بسلاسل التقاليد والأوضاع الاجتماعية، بينما الضمير لا يعرف التقاليد، ولا يخضع للأوضاع. فلا الضمير إذاً استطاع أن يميت (حيوانية) الفرد فتسود (إنسانيته) على الدوام، ولا هو سمح لهذه الحيوانية أن

تتحقق وفق هواها ليحيا الإنسان (حياته الحقيقية). وكانت نتيجة ذلك نشوء هذا الكفاح الدائم بين شخصية الإنسان الطبيعية وشخصيته الاجتماعية، أي بين حيوانيته وإنسانيته هذا الكفاح القاسي بين الشخصيتين الكائنتين في كل منا هو الذي يخلق الهم الممتزج بالابتسام، والتشاؤم الممتزج بالسخرية، وذلك هو أظهر ما يميز فن بيراندللو ويطبعه بطابع خاص، على أن هذا الطابع الخاص لم يمنعه من أن يكون ملتقى عدة تيارات فكرية كان لها تأثير كبير في تفكيره. فغرابة شخصيات القصص تذكرنا بقصص الكاتب الروسي دستويفسكي والكاتب النرويجي إبسن. وطريقة تحليل نفسيات الأبطال والبطلات المضطرين الحائرين بين الحقيقة والخيال تبين لنا بأجلى بيان الأثر العظيم لنظريات العالم النفسي فرويد عن (اللاشعور) أو ما يسمونه (العقل الباطن)، والعالم انشتين عن (النسبية)، والفيلسوف برجون عن (الحركة)؛ كذلك فيها كثير من (ذاتية) الكاتب القصصي مارسل بروست

على أن هذا الكفاح يختلف نوعه في نظر بيراندللو عند الرجل والمرأة. فالرجل تتغلب عليه (شخصيته الاجتماعية) وهو لذلك يحاول جهده أن ينظم حياته ويخضعها قدر الطاقة لأوضاع المجتمع. أما المرأة فتغلب عليها (شخصيتها الطبيعية) وهي لذلك أقل من الرجل قدرة على سيادة نفسها وتقييد غرائزها وميولها. على أن هذا الاستعداد لدى كل من الرجل والمرأة هو عند بيراندللو أمر نسبي ومؤقت. فالرجل لا يستطيع أن يمنع (شخصيته الحقيقية) من أن تحطم أحياناً القالب الاجتماعي الذي وضع نفسه فيه كما في قصتي (شهوة الشرف)

وكذلك المرأة التي تسيرها طبيعتها تود من وقت إلى آخر أن تكبح .(هنري الرابع) ' جماح عواطفها وشهواتها كما في قصة:

فأزمة بيراندللو المسرحية تحدث عن اصطدام شخصيتي كل فرد، وهي تختلف - على ضوء ما ذكرنا - عند أبطال قصصه (أي الرجال) عنها عن بطلاته (أي النساء). فالأزمة تحدث عند الأبطال - وهم كما سبق يخلصون للوضع الاجتماعي - إما حين يظهر لهم فجأة أنهم يحيون (حياة وهمية) على خلاف ما كانوا يتصورون، حياة تخالف كل ما جبلت عليه (شخصيتهم الحقيقية)، إما حين تنفجر هذه الشخصية الحقيقة مرة واحدة وتخرجهم عن الوضع التقليدي الذي كانوا يحيون فيه. . . أما الأزمة عند البطلات فبالعكس تحدث حين يرين أنفسهم مرغمات على الخضوع لوضع مخصوص أو فكرة مخصصة كما في قصة: , ' حيث نرى بطلة القصة مضطرة إلى مجاراة أبنتها - التي تظن أن أمها ماتت - في اعتقادها أنها زوجة أبيها.

وفي الفصول الأولى من روايات بيراندللو المسرحية، نرى حوادث القصة غامضة أشبه ما تكون بالقصص البوليسية. وكل حوادث القصة تحدث في هذه الفصول الأولى. فإذا ما جاء الفصل الثاني - وهو أعظم فصول القصة شأناً - ابتدأ دور (التنبه) وفي الفصل الثالث - وهو عادة أقصر كثيراً من الفصلين الأولين - يكمل دور (التنبه) ويكون ذلك مصحوباً غالباً بحركة مسرحية عنيفة تحل بها العقدة المسرحية فنواحي التجديد في مسرح بيراندللو:

أولاً: أن القصة لا تبلغ حدتها في الفصل الذي يقوى فيه (الحادث) في الفصل الذي تقوى فيه (المعرفة)

ثانياً: أن القصة ترمي إلى إثارة المشاهدين عن طريق (اكتشاف) حقيقة كانت مجهولة عن طريق (الحركة).

ومن الحق أن نذكر ما يوجهه النقاد إلى فن بيراندللو. فقد أتهمه ناقدوه بأن رواياته لا ترتفع عن مستوى الدرام، بل عن مستوى الميلودرام. وأنه أختار لقصصه موضوعات هي من التعقيد بحيث كان من العسير التصديق بإمكانيتها في الحياة الإنسانية الواقعة، وأخيراً أن روايته لا تخلو من بعض الملل لأن بيراندللو كان فيها (مفكراً) أكثر من اللازم

على أنه مهما قيل في فن بيراندللو فانه لا يمكن إنكار أهمية مسرحياته وأثرها التجديدي في المسرح العالمي مما جعل بعض قصصه الشهيرة يترجم إلى خمسة عشرة لغة أجنبية. كما أن بيراندللو هو الكاتب الإيطالي الوحيد الذي استطاع أن يحل المعضلة التي اعترضت كل الكتاب الإيطاليين منذ عام 1870 ألا وهي كتابة عمل أدبي

يعالج موضوعات ويرسم شخصيات قومية بحتة وينال في الوقت نفسه إعجاباً عالمياً. فكأن
بيراندللو بنيله جائزة نوبل قد نال فخراً مضاعفاً. إذ بلغ مجده الأسمى وحقق أملاً عزيزاً من آمال وطنه.
علي كامل
البريد الأدبي
ذكرى الموسيقي بوتشيني
مضت عشرة أعوام كاملة على وفاة الموسيقي الإيطالي الأشهر جاكومو بوتشيني، فقد توفي في 29 نوفمبر سنة 1924، ولكن اسمه وفنه وموسيقاه ما زالت تملأ الأذهان والأسماع. واليوم تذكر دوائر الفن والموسيقي بوتشيني، وتكتب عنه وعن فنه الفصول والبحوث الفياضة.
وكان مولد الموسيقي الكبير في سنة 1858؛ ودرس على أكابر أستاذة عصره مثل بازيني وبانكيلي، ولبث مدى عصر أعظم شخصية في الموسيقى الإيطالية والموسيقى الغربية بصفة عامة، وكان يشغل في إيطاليا نفس المركز الذي كان يشغله معاصره فاجنر في ألمانيا، ويوهان شتراوس في النمسا. ويعتبره النقاد الفنيون ثالث أقطاب التأليف الموسيقي في العالم كله، فأولهم فاجنر، وثانيهم فردي، وهو الثالث. وقد نالت أوبراته الموسيقية شهرة عظيمة، ولا سيما (مانون لسكو) و (البوهيمية) و (لاتوسكا) و (مدام بترفلاي) وهي تجمع إلى نزعة روزيني وفردي الغنائية، نزعة حديثة إلى التعبير؛ وكان بوتشيني موسيقي الحب المعذب، وأروع قطعه ما كان يمثل القلوب الكليمة البائسة؛ ذلك لأنه كان في حياته الغرامية منكوداً معذباً، وكان دائماً طائر القلب والعواطف، لا يكاد ينضج في قلبه غرام، حتى يسارع إلى غرام جديد. وكان صعب الرضى فيما يتعلق بالنصوص، لا يكاد يعجبه نص مهما كان من الروعة، ولهذا كان يجوب القارة باحثاً عن النصوص المختارة لتلحينها، وقد غضب يوماً إذ أفلت منه قطعة لبيير لوئيس انتزعها منه الفرد برينو، وأفلتت منه أيضاً (بلياس ومليزند) لماترلنك، ولكنه ظفر (بتوسكا) وهي من تأليف فكتوريان ساردو، بيد أنه لم يكن راضياً عنها كل الرضى، وقد ألف لها بعض أناشيد من عنده، ويروى أنه اضطر (اليكا) مؤلف (البوهيمية) إلى حذف مناظر برمتها، وتغيير كثير من النصوص. وقد تزوج بوتشيني من مدام (الفيرا بونتوري) بعد فضيحة غرامية طويلة، وكانت الفيرا زوجة للسنيور بونتوري، ولكنه هام بها رغم زواجها، وبادلته الحب، وحملت منه، ثم فرت إليه، ولم يستطع أن يتزوجها إلا بعد وفاة زوجها. وكان بوتشيني مع ذلك يبحث عن مخاطرات غرامية جديدة كلما أصابه السأم، ثم يعود يائساً فيرتمي بين أحضان الفيرا
وقد توفي بوتشيني في بروسل، في 29 نوفمبر سنة 1924، بعد مرض طويل، ودفن حسب وصيته في قصره في توري دللاجو (شمالي إيطاليا)، ولما توفيت زوجته الفيرا في سنة 1930 دفنت معه في نفس قبره.
مكتبة نابوليون وآثاره الخطية
عرضت أخيراً في دار التحف المعروفة (باوتيل دروو) بباريس مجموعة فريدة حافلة لآثار الإمبراطور نابليون بونابرت ومخطوطاته الشخصية؛ وهذه المجموعة التي يملكها المسيو (برويه) والتي لا تضارعها أية مجموعة أخرى من آثار الإمبراطور، تعرض الآن للبيع، وفيها عشرات من الذخائر والتحف البونابارتية في عصر الإمبراطورية، ومعظمها مما احتوته مكتبة الإمبراطور الشهيرة في قصر مالزون من الكتب النادرة الممهورة بتوقيع الإمبراطور،
والوثائق الحربية والسياسية النادرة؛ وهي تعرض تاريخ نابليون كله منذ كان ضابطاً صغيراً في حصن فالانس حتى وفاته في جزيرة سنت هيلانة سنة 1821، ومنها رسائل شخصية تصور ما كان عليه الإمبراطور من وفرة في السلطان والعزم؛ ومنها رسائل غرامية كتبها نابليون إلى (جوزفين بوهارنيه) التي غدت زوجته الإمبراطورة فيما بعد؛ وفيها يبدو القائد العظيم محباً ذلولاً يخضع لسلطان الهوى خضوع الطفل، وكان أهم ما لفت النظر منها رسالة كتبت على ورق أخضر بتاريخ يوليو سنة 1796 وفيها يخاطب نابليون جوزفين بما يأتي: (ألست روح حياتي، وعاطفته قلبي؟ إني أؤمل أن أظفر منك برسالة هذا المساء؛ وأنت تعلمين يا عزيزتي جوزفين أي سعادة أنها لرسائلك،

وإني لعلى يقين أنك تغتبطين بكتابتها. . . سأسافر هذا المساء إلى جبال التيرول، في فيرونا، ومن هناك إلى مانتوا ثم إلى ميلان، لأظفر ثمة بقبلة، فأنت تؤكدين لي أن القبلات ثمة ليست باردة ولكنها محرقة. . . ماذا تصنعين في هذه الساعة؟ إنك تنامين أليس كذلك. وأنا لست بجانبك لكي أستنشق تنفسك، أتأمل ظرف محاسنك، أغمرك بالقبلات. إن الليالي بعيدة عندك طويلة، ذابلة محزنة؛ إلى جانبك يأسف المرء أن ليس الليل بخالد، فوداعاً أيتها الحسناء الرقيقة، التي لا مثيل لها، والتي تسمو إلى السماء؛ وألف قبلة ناعمة، في كل مكان، في كل مكان. . .

وقد أثار عرض هذه المجموعة في الدوائر الفنية والأرستقراطية اهتماماً عظيماً، وهرعت الجموع إلى (أوتيل درووو)، تتنافس في اقتناء هذه الذخائر، ومنها كتب وسمت بشعار الإمبراطور، ومنها كتب كانت لقادته واخوته، وآله

فمتى نعنى في المشرق بآثار عظمائنا، ومتى نعتبرها ذخائر مقدسة يتنافس المتنافسون في اقتنائها؟ ومتى تخرج إلى الضياء قبل كل شيء؟

جائزة نوبل للكيمياء

سبق أن أشرنا إلى أن جائزة نوبل الطبية منحت هذا العام لثلاثة من علماء الطب في أمريكا، وأن جائزة نوبل الأدبية منحت إلى الكاتب المسرحي الإيطالي بيراندللو. ونذكر الآن أن جائزة نوبل للكيمياء عن سنة 1934 قد منحت أيضاً إلى أمريكي هو الأستاذ هارولد كليتون يور أحد أساتذة جامعة كولومبيا الشهيرة بنيويورك، وذلك لأجل مباحثه واكتشافاته الخاصة بالهيدروجين الثقيل؛ وبذلك تكون أمريكا قد ظفرت هذا العام بجائزتين من جوائز نوبل

هذا وأما جائزة نوبل عن العلوم الطبيعية فقد تقرر أن يوقف منحها هذا العام، وأن ترجأ إلى العام القادم، لأنه لم يتقدم لنيلها من العلماء من هو جدير بنيلها.

القصص

من الأدب التركي

الزواج المبارك

ترجمة الآنسة (فتاة الفرات)

كنت سائراً يوماً وأحد رفاقي في شارع (بك اوغلي) أحد شوارع الآستانة الجميلة. وكان رفيقي على عادته يحدثني أحاديث مختلفة، يحدثني عن نفسه وعن غيره أحاديث منها ما يقبل ومنها ما يمج ويرد. وبينا هو يهدر في حديثه وقف فجأة وصاح:

- إلى أين؟

التفت فإذا هو يكلم رجلاً طويل القامة محدودب الظهر، وكأنه قد تعب من الحياة؛ أسمر اللون، قد طال شعر رأسه ولحيته حتى خرجا عن الحد المألوف، عليه بذلة لا يعلم إلا الله ما لونها، قد أثر فيها الغسل الكثير حتى اختلطت ألوانها وتهلهل نسجها.

فقال له رفيقي:

- ألا يزال الحال على ما نعهد؟

فهز الرجل رأسه علامة الإيجاب وارتسمت على ثغره ابتسامة الترح لا ابتسامة الفرح.

فقال له رفيقي:

- بارك الله فيهم. وانصرف عنه

ثم ألتفت إلي وقال هل أقص عليك قصة هذا الرجل؟

فقلت له على مضض:

- هات ما عندك

فأخذ يقص علي قصة الرجل، يقصها بصورة مونقة، لها من إشاراته اللطيفة ومن بيانه البديع خير حلية وأبدعها. قال: هذا الرجل من لداتي في السن، ومن رفاقي في العمل، كنا مأموري حساب في مصنع حديدي ونحن في نهاية العقد الثاني من عمرنا، وكان مرتبه الشهري أربعة دنانير، ولكنه كان بالرغم من قلة المرتب ذا زي حسن وهندام جميل، فإذا ظهر زي كان أسبق الناس إليه. كان زيه أحسن أزيائنا جميعاً، وكان يفوقونا طراً في

العناية بثيابه وجسمه، فكان يحلق ذقنه في كل يومين مرة، وكان مغرماً باللهو كثيراً، فإذا كان يوم الاثنين جاءنا بكل طريف من أحاديث لهوه ومرحه في بياض يوم الأحد وسواد ليله، ولم نكن نجد عند أحد ما نجد عنده من أخبار معارض الصور ومسارح

التمثيل والمتنزهات. جاء في يوم جمعة صباحاً إلى الدائرة وهو تحفة في هندامه وآية في زيه؛ كان في رجله حذاء لماع قد جعل حوله قطعة جوخ من قماش بنطلونه، وحول رقبته عقدة من قماش أزرق اللون قد ربطها ربطة جميلة، وجعل في وسطها دبوساً ماسياً على شكل نحلة جناحاها من ياقوت، لعله قد ورثه عن أمه، ومن جيبه الخارجي تدلى منديل حريري ذو ألوان جميلة، وفي صدره سلسلة ساعة ذهبية رأسها في عروة صدارته وطرفها الآخر في جيبها، وفي إصبعه خاتم زمردي، وفي رأسه طربوش صغير قاتم الحمرة يختال بلذة لارتفاعه فوق ذلك الهندام الجميل. فاجتمعنا حوله ضاحكين نسأله عن سر هندامه الجميل وتأنقه الشديد في هذا اليوم، فقال:

- سأذهب اليوم إلى منتزه (كاغدخانه)، وكل ما أرجوه منكم أن تكونوا عوناً لي على الرئيس ليسمح لي بالذهاب، فان التأخر يضرني كل الضرر. ثم مد يده إلى جيب معطفه وأخرج محفظة أوراقه وسحب من بينها ورقة (حمراء) اللون لوح لنا بها وهو يبتسم ويقارب ما بين جفنيه وينظر إلينا نظرة ذات مغزى، ولكنه ظن علينا بسر تلك الورقة، وأهمنا ما أهمه، وأحببنا أن ينعم ذلك اليوم بنزهة، فذهب أصدقاء أحد الرئيس إليه، وما زال به يكلمه في شأنه حتى سمح له بالذهاب في ذلك اليوم، وكاد صاحبنا يجن حين علم ذلك. فكان يصفق بيديه ويخالف بين رجليه، وقفز إلى الشارع وهو يقول:

- سأقص عليكم غداً ما يكون في هذا اليوم

كنا ننظر إليه نظر حسد ممض، وننظر إليه نظر المحبوس في غرفة مظلمة يؤدي عملاً شاقاً، إلى رجل حر، طليق، يسرح ويمرح كما يحب ويختار

أما هو فطار كما يطير العصفور أفلت من القفص. . . عاد في اليوم الثاني إلى عمله بهندامه المألوف، فاجتمعنا حوله نسأله بإصرار عن سر الورقة (الحمراء) وعن أخبار النزهة في (كاغدخانه)، فلزم السكوت مع أنه هو الذي وعدنا بأن يقص علينا ما يجري معه هناك! كان لا يجيبنا إلا بقوله:

- لا شيء، لا شيء. . .

ويبتسم ابتساماً يدل على أن لديه أشياء كثيرة، لكنه يود إخفاءها عنا. فلما قطعنا الأمل من إفشائه سر الورقة وأخبار النزهة عاد كل منا إلى مكانه وأقبل على عمله. أخذت ألاحظه ملاحظة خفيفة فرأيته بين آونة وأخرى يستتر خلف دفتره الذي أمامه ويفتح محفظته ويلقي على ما فيها نظرة تنم عن غبطة وسرور. ثم رأيت ورقة (زرقاء) بجانب (الحمراء)، فقلت له وهو يلقي خلسة نظرته المعتادة على ما في محفظته:

- أراك تهئ نزهة أخرى في (كاغدخانه)؟

فأجابني ضاحكاً:

- ربما. . .

بعد هذا الأسبوع أصبح رفيقي ينتحل أسباباً يسمح له معها الرئيس بالتغيب أيام الجمع، فكان يذهب إلى منتزه (كاغدخانه) يقضي أيام الأحد والجمع هناك، ولكنه خلافاً لعاداته لا يقص علينا أخبار نزهاته ورياضته. كنت ألاحظه دائماً من حيث لا يشعر بي، فرأيت محفظته قد امتلأت بالأوراق (البنفسجية والخضراء، والصفراء) بجانب (الزرقاء والحمراء). فقلت في نفسي، كأن رفيقي يستعرض الألوان متخيراً، وسنرى أي لون يختاره في النهاية ويستقر عليه رأيه. وبعد مدة علمنا اللون الذي وقع عليه اختياره. . .

جاءنا في صباح يوم بادي القلق ظاهر الاضطراب، فأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً يحاول أن يتكلم ويفضي إلينا بشيء ولكنه لا يقدر، ثم نظر إلى وجه كل واحد على حدة وقال:

- سأقول لكم شيئاً

حولنا جميعاً أنظارنا إليه، وكنت واثقاً أن ما سيقوله يتعلق بالأوراق الملونة التي في محفظته وقال:

- سأتزوج. . .

فصعقنا لهذه الكلمة كأنها قنبلة سقطت علينا من السقف، واستتلى فقال بكل جد:

- سئمت هذه الحياة، حياة الوحدة، وعزمت على أن أستريح، إن ملازمة غرفة البيت

والاشتغال بالعيال والأطفال خير من قضاء الليالي الطوال في أماكن اللهو ومحال الفجور. فقلت له:
- أن مسألة الأطفال مسألة ثانية، والمهم الآن أن نعرف من هم العيال؟
فأجابني بكل جد:
- إنها موافقة لي تمام الموافقة، إنها ليست غنية، وأنا لست من طلاب الغنى في الزواج، ستأتيني بثيابها فقط، إن والدي مازال يشكو من الوحدة بعد وفاة والدتي، ويقول إن كل بيت يحتاج إلى امرأة، فسأسبقه وأتزوج قبله، هذا كل ما هنالك.
فقلت له:
- لابد من صلة متينة بين هذا الزواج وبين الأوراق الملونة؟
فلم يصدق ما قلت ولا أنكر ما ادعيت، أنه سكت، وكيف ينكر ما لا يقبل الإنكار؟ سمعنا هذا منه وسكتنا، ولم يظهر بيننا من يخالفه في رأيه الذي أعتزم عليه، ولا يقول له: إن الإقدام على الزواج مع مرتب ضئيل لا يتجاوز الأربعة دنانير كل شهر، لا يدل على رأي حسن وفكر مستقيم، وأن الزواج لو كان يترتب على كل رؤية يعقبها ميل لكان الزواج عبارة عن سلسلة لها أول وليس لها آخر
كان العقد وكان الزفاف، وكانت الحفلات الشائقة التي نعمنا فيها بنعيم صديقنا. وبعد غياب أسبوع عاد إلى عمله وأول كلمة قالها هي:
- إني سعيد. . .
نعم كان سعيداً. . . كنا نعرف ذلك من الطيش الذي أظهره باستدانته من هنا وهناك نقوداً أنفقها في حفلات العرس. كنا نتحقق سعادته حينما نرى الصيارفة عند باب الدائرة في أكثر الأحيان. . . وحينما نراه يوم أخذ المرتب غارقاً يفكر وقلمه بيده يكتب أعداد ويمحو أخرى. . . لم نره مسروراً إلا أسبوعاً واحداً فقط. ثم جعلت ألاحظ أن خطوط الهم والتفكير أخذت تظهر على جبينه، ولكنه مع ذلك كان بين آونة وأخرى يقول لنا:
- إنني سعيد. . . كأنه يحاول بذلك أن يخدع نفسه، أو كأنه يريد أن يخدعنا
سمعته في أحد الأيام وقد أخذ الموظفون يستعدون للذهاب إلى منازلهم للغداء يقول:
- إني اليوم أشعر بفتور في جسمي لا أقدر معه على الذهاب إلى البيت للطعام، لذلك سأبقى هنا وسأتناول شيئاً من الخبز والجبن. وفي اليوم الثاني أتى بعلبة صغيرة ووضعها في درج مكتبه ثم أخرجها عند الظهر وقال:
- لقد رأيت أهل البيت يقددون لحماً فاشتهيت أن أجعل منه غدائي هذا اليوم. كأنه يريد أن يعتذر عن عدم ذهابه إلى البيت ليتناول فيه طعام الغداء على حسب العادة، عند ذلك قوى عندي الشعور بسعادته وقلت:
- حقاً أنه سعيد. . .
أصبح بعد ذلك اليوم لا يخرج ظهراً إلى البيت لتناول طعام الغداء، ولا حاجة إلى الاعتذار عن ذلك إلى رفقائه، وأصبح في أكثر الأحيان يأكل الخبز والجبن لا يزيد عليهما، وربما أتى معه من البيت بسمك محمر، أو لحم مقدد، قد صر ذلك في جريدة، وربما عدل عن اللحم إلى البيض المسلوق. رأيته يوماً يفتح قماشاً فوق منضدته ويقلبه بين يديه ويتأمله مفكراً، فلما وقع نظره على نظري رفع قطعة القماش بيده وقال لي:
- ألا تعجبك هذه القطعة لمعطف نسائي! إنها حقيرة في نظرها لأن ثمنها ثلاثة دنانير!
لقد أقدم على شراء معطف بثلاثة دنانير مع أن مرتبه الشهري أربعة فقط! ومع هذا فهي ساخطة وتعدها حقيرة. . . يا للغرابة!. . لم أر من اللياقة أن أجيبه بما يجب، فأرسلت زفرة من أعماق قلبي وقلت:
- انه سعيد وسعيد. . .!
في اليوم الثاني أخذنا مرتباتنا، وبينما كنا خارجين من الدائرة كان أحد الصيارفة في انتظاره عند الباب فتعلق به وطالبه بنقوده صائحاً معربداً، فدفعه عنه، ولكن الصيرفي أخذ بتلابيبه، ولم يرض أن يتركه حتى يدفع له كل ما عليه، فتخلص منه بعد جهد، وعاد إلينا قائلاً كأنه بكلامه يريد أن يخفف وقع المنظر في نفوسنا:
- يا له من وقح! كأني قد أنكرت ماله علي من دين، فهو يطالبني بهذه الشدة!
فقلت في نفسي: ستدفع إليه بلا شك، وما الذي يقوله هذا النذل فيك إذا أنت لم تأخذ من المرتب إلا ثمن المعطف الذي قدمته للفتاة التي عبثت بلبك بوريقاتها الزاهية، وإلا

نفقاتك البيتية والخصوصية، ثم قدمت إليه الباقي جملة واحدة؟! كان يفقد نشاطه بالتدريج، لقد حل مكان النشاط سكون وفتور، أما اعتناؤه بزيه وهندامه فكان يقل شيئاً فشيئاً، ولكنا مع ذلك كنا أحياناً نرى دبوسه الماسي فوق عقدة رقبته، وخاتمه الزمردي في إصبعه، وسلسلة الساعة على صدره. أما الثياب فكان يقضي داخل الحلة الواحدة فصلاً كاملاً، وكان لا يبدل
قميصه إلا نادراً، وظهر عليه انقباض، فربما مرت عليه أيام لا يحرك شفته إلا بكلمة. كنا نشعر نحن أن وراء هذا التبدل ما وراءه من حياة بيتية مضطربة. . . إلا أنه جاءنا يوماً على غير عادته فرحاً مستبشراً فقال لنا عند دخوله:
- هنئوني، لقد رزقت اليوم فتاة. ثم نظر إلى تقويم الأوقات وكتب في دفتره: 15 آذار 1300. هنأه كلنا بالمولود الجديد وأنا من جملتهم وقلت:
- ها قد جاء دور الأطفال بعد العيال. جاءني بعد أسبوع وقال والحمرة تعلو وجهه:
- هل عندك دينار تقرضني إياه؟ ثم أردف قائلاً من غير أن يترك مجالاً لرد طلبه:
- يجب علي أن أدفعه إلى القابلة. لقد سمعت الدينار في جيبي يزفر زفرة حرى.
ولكن لم يكن في استطاعتي أن أرد طلبه، فأعطيته الدينار. ومن الغريب أنه منذ ذاك الحين أخذ يعاملني معاملة باردة، ويقابلني بوجه جاف، مع أنه لم يكن ثمة حاجة إلى ذلك، لأني منذ ناولته (الدينار) نفضت يدي منه. لقد تغير حال رفيقنا وازداد اضطراباً بعد أن صار أباً. دخل يوماً إلى الدائرة وهو يقول:
- ألا تسألون ما حل بي؟ فأخذنا ننظر إليه بقلق وننتظر أن يذكر لنا ما حل به، ففتح حينذاك ملفاً صغيراً بيده وأخرج منه علبة صغيرة سوداء فرفع غطائها وأرانا إياها فإذا فيها: ثدي صناعي. وقال:
- إن زوجتي لن ترضع أبنتها بعد الآن، سنرضعها بالثدي الصناعي، فهل تدرون لماذا؟
حينذاك توقف عن إتمام كلامه كأنه كان يتردد بين أن يقول وبين أن يسكت ثم قال وهو خجل:
- لأنها حامل!
كان ينظر ألينا باضطراب، وكان منظره مؤلماً ومضحكاً معاً رأيته يوماً عند طعام الظهر أخرج قطعة (كعك) وقطعة من جبن (القشقاوان) وأخذ يأكلهما وهو يتمتم قائلاً:
- أنت تجوع وابنتك في البيت تأكل مرق اللحم الدسم أخذت علائم الحزن ترتسم على محياه وتظهر بأجلى مظاهرها، وبدت على وجهه معاني مؤلمة حزينة لبعد عهده بالموسى، وكان كثيراً ما يكلم نفسه كالمجانين، وكثيراً ما يشتغل بحسابه الخاص - حساب الدين - عن حساب الدائرة، ويسافر بفكره إلى أقصى حدود الخيال.
عدنا يوماً من الغداء إلى الدائرة فرأيناه يخيط بطانة معطفه، ذلك المعطف الذي صاحبه زمناً طويلاً، فخجل منا وقال:
- أن زوجتي مريضة لذلك أنا أخيط ثيابي بيدي.
إنه لم يقل الحقيقة لأنه ما كان يخيط بطانة معطفه المفتوقة، بل كان يرفو بطانته التي تهلهل نسجها لطول الأيام. حينما ذكر لنا خبر ولادة المولود الثاني لم يكن فرحاً مستبشراً كما كان في أول مرة بل قال:
- لقد رزقت اليوم غلاماً. ثم نظر إلى تقويم الأوقات وأخرج دفتره من جيبه وكتب فيه: 12 نيسان 1301
لم نره بعد ذلك شكاً أو تبرم، ولكنه كظم كل ذلك في قلبه صابراً مستسلماً لقضاء الله وقدره. سعينا مع الرفاق عند رئيس الشركة ليزيد راتبه فلم نفلح، وكان جواب الشركة:
- أن أولاد الموظفين ليسوا من صنع معاملها حتى تتكفل بهم. أربعة الدنانير للزوجين وللولدين. . . صار طعامه عند الظهر الخبز والجبن بصورة منتظمة، ولم نعد نراه في منتزه ولا متفرج، وأنزل نوع تبغه الذي يدخنه درجة ثم درجات، وأصبح كثير النظر في أوراق الحساب، وفي آخر أحد الشهور زاره الصيرفي الملح يطالبه بالدين فصاح به:
- لن أعطيك، لن أعطيك شيئاً، افعل ما تشاء.
لقد كان قبل اليوم يكلمه سراً، أما اليوم فهو يكلمه علناً، لأنه لم يعد يخجل منا. جاءنا في صباح أحد الأيام وبيده علبة فيها ثدي صناعي. فقلت له:
- ما هذا؟

فقال:
- لا شيء
كأنه خجل أن يقول ما قاله أولاً، وفي ذاك النهار لم يزاول عملاً، ولكنه جعل رأسه بين يديه واسترسل في أفكاره حتى المساء، لا ينظر إلى شيء ولا إلى أحد. ولاحت مني التفاته إليه أحد الأيام فإذا هو ينظر إلى تقويم الأوقات ثم يخرج دفتره من جيبه؛ فقلت له:
- هل من قيد جديد لزائر جديد؟
فأرسل نفساً قصيراً وكتب في الدفتر: 10 مايس 1302
ثم قال وهو ينظر إلي مبتسماً ابتسامة مؤلمة:
- لقد رزقت اليوم فتاة أخرى كنت أنا أشعر من أعماق نفسي بألم من كثرة أولاد هذا الرفيق، أما هو فكان يبكي من فرط تألمه، فحول عينيه عني وأقبل على عمله. أخرج يوماً ساعته من جيبه وفصل عنها سلسلتها الذهبية ولفها بورقة، فقلت في نفسي:
- لن نرى السلسلة الذهبية بعد الآن. إن رفيقي لم يدفع ثمن القهوة في هذا الشهر، وأصبح منذ ذاك اليوم يشربها مرة واحدة في النهار بدلاً من ثلاث مرات. ساءت حال الرجل وأشتد به الضيق، وظهرت ملابسه ملوثة ببقع الحبر، واستحال لونها، وتهلهل نسجها ووهى، فكنت إذا رأيته على هذا الحال رثيت له وبكيت عليه. ولقد دخل علي يوماً وعليه حلة جديدة لم أرها عليه قبلاً، ففرحت لذلك، إلا أن فرحي لم يطل، فقد قال لي غير خجل مني:
- إنها قديمة، ولكني صبغتها فصارت جديدة. وبعد هذا الاعتراف أصبحنا صفيين، وزال ما بيننا من الفتور الذي سببه (الدينار) واتخذني كاتماً لأسراره، يبثني آلامه وأحزانه. لقد سرد علي تدريجاً كل آلامه في الحياة. فذكر لي أولاً مبدأ صلته بزوجته وأساس هيامه بها، وأن ذلك كان في منتزه (كاغدخانه)، وبسبب تلك الأوراق الملونة. . . وأنه كان يأمل أن ينعم بالاقتران بها، إلا أنه لم ينعم بذلك إلا أسبوعاً واحداً وأتى بعد ذلك الشقاء. . .، ثم تجلت بعد ذلك حياة البؤس من اجتماع فقره وفقرها، فكان بينهما نزاع . . .سببه عدم تمكنه من تأدية نفقاتها وطلباتها. . . ثم الأولاد
وعاد إلى زوجته فقال:
- أنها لما رأت نفسها محرومة مما تشتهي من ملبس ومأكل ومشرب أخذت تعامله معاملة قاسية لا تطاق، ولكن ماذا يعمل هو إزاء ذلك، وهاهو لم يلبس بذلة جديدة منذ تزوج حتى الآن، وأن ياقته قد تمزقت فقلبها على قفاها لأنه لا يجد غيرها ولا يستطيع الوصول إليه، على أنه قد عزم على أن يتخذها من مشمع كيلا يتمزق سريعاً، وها أن ولديه الاثنين قد كبرا، وهما في حاجة إلى ثياب وإلى أحذية لا يجدها.
وكان بعد ذلك اليوم الذي نفض فيه جعبته أمامي، يسمعني كل يوم فصلاً من فصول حياته المؤلمة. نظر إلي يوماً وهو يريني قماشاً لأبنته الكبرى وقال:
- سأقول لك شيئاً. ثم عاد وقال:
- لن أقول لأنك لا تصدق
إلا إني عرفت ما يقصده حينما رأيت دفتره في يده ونظره في تقويم الأوقات، لقد كتب في دفتره: 8 حزيران 1303
فقلت له: - أطفل أيضاً؟
قال: نعم غلام، وقد أصبحوا أربعة.
. .ثم قال وهو يبتسم: - أنهم لا يخطئون نوبتهم: فتاة ثم غلام، ثم فتاة ثم غلام، وهكذا كان يضحك ولكن كان قلبه يبكي. فقال لي في نفس ذلك اليوم: إن الدخان يؤثر في صدره ويؤذيه، وهو يرغب ي تركه لو يستطيع. أدركت ما يقصده المسكين من ترك الدخان، فتأملت له كثيراً حتى كدت أبكي.
رزق ولداً آخر، فصار الأولاد خمسة، وفي ذلك اليوم خرجت نفسه من يده، فانه ما كان يدخل الدائرة ويجلس إلى منضدته حتى أخرج دفتره وكتب فيه وهو ينشج نشيجاً وهو يفتت الكبد ويصدع القلب: 5 تموز 1304
فقال بعض رفقائنا الجفاة ساخراً منه:
- ضع أرقاماً متسلسلة بجانب أولادك كيلا تنسى عددهم. . .
كانت الخامسة فتاة على الترتيب المعتاد. بعد ذلك بقيت معه ثلاث سنين في الوظيفة

رأيته فيها ثلاث مرات يكتب في دفتره، كتب فيه بجانب اسم فتاة وغلامين: 14 آب 1305، 8 أيلول 1306، 14 تشرين الأول 1307
كأن الدهر كان يريد مداعبة هذا الرجل الفقير المسكين فهو يقذفه مصراً في كل سنتين بفتاة وغلام. . . لقد خلت محفظته من الأوراق (الملونة) بعد أن كانت تغص بها، ولم يبقى فيها غير دفتر صغير فيه صحيفة كاملة لتواريخ أولاده. بعد أن قيد تاريخ ولادة الولد الثامن. . . ألقى نظرة فاحصة إلى آخرها ثم جاء إلينا وقال:
- تعالوا لأريكم اتفاقاً غريباً. فاجتمعنا حوله فقال:
- اقرأوا من أعلى الصحيفة حتى أسفلها
فقرأنا فإذا فيها: آذار، نيسان، مايس، حزيران، تموز، آب، أيلول، تشرين الأول
ثم أخذ يشرح لنا مكان الغرابة في ذلك فقال:
- انظروا إن بين كل ولد من أولادي ورفيقه ثلاثة عشر شهراً لا تزيد، لذلك كانت شهور ولادتهم متعاقبة لا فاصل بينها فقال أحدنا مستهزئاً أيضاً:
- الآن جاء صاحب تشرين الأول! وسيأتيك أربع آخرون حتى شباط. وفيه تنتهي المجموعة ويكمل عددهم (اثني عشر) لقد مضى على خروجي من خدمة الشركة أربع سنوات لم أر خلالها هذا الرفيق القديم، فلما رأيته اليوم سألته عن حاله فإذا (سيل) الأولاد لا يزال كما كان. وعلى ذلك فان (شباط) قد وضع (هديته) وتمت المجموعة التي بشر بها، مع أن المسكين لا يزال يلبس الثياب التي كانت منذ أربع سنين، وربما كان مرتبه لا يزال (أربعة دنانير).
هنا انتهت القصة التي رواها رفيقي فودعته وركبت الترام إلى بيتي، وأنا أفكر في ذلك الرجل المسكين وسوء طالعه، وأستنزل الرحمة والرضوان على جدث دفين معرة النعمان.
حلب
فتاة الفرات
الكتب
تأليف محمد أبو زهر :(الخطابة)
وضع لجنة من أدباء لبنان :(الأدب العربي في آثار أعلامه)
تأليف عبد العزيز رمضان وعبد الفتاح :(نسمات الأصيل)
العشري
تأليف الدكتور حسين فرج زين الدين :(الثعابين)
تعريب محمد عبد الفتاح إبراهيم :(ابنة استريا)
نظم أحمد مخيمر :(ظلال القمر)
تدل هذه المجموعة من الكتب، فضلاً عما تظهر من نشاط التأليف في العالم العربي، على بعض مظاهر الحركة الفكرية عندنا، من حيث تشعبها واتجاهها ومقدار ما دخل عليها من تطور في طريقة عرض الآراء وبسطها وتوجيهها، وما دخل على المشاعر من آثار التجديد. أما أولها فبحث قيم في الخطابة وأصولها وتاريخها في أزهر عصورها عند العرب، اضطلع بوضعه الأستاذ محمد أبو زهرة أستاذ تاريخ الخطابة بكلية أصول الدين بالجامعة الأزهرية، وهو كتاب كبير يقع في نحو أربعمائة صفحة من القطع الكبير جعله مؤلفه قسمين، فتناول في القسم الأول أصول الخطابة، فعرف هذا العلم وبين علاقته بالمنطق وعلم النفس وعلم الاجتماع، ثم تكلم عن فائدة الخطابة وطرق تحصيلها وقواعدها كالإيجاد والأدلة وموضعها الذاتية والعرضية، وآداب الخطيب وصفاته وما يتخللها من إثارة الأهواء والميول واستغلال العواطف، وغير ذلك من أصول هذا العلم كالتنسيق وما يدخل فيه من مقدمة وإثبات، ثم التعبير وحسن الأداء وما يصحبهما من موقف الخطيب وإشاراته وصوته، ولم يفته أن يبين في وضوح أنواع الخطب من سياسة ومن قضائية حتى الوعظ الديني والمحاضرات العلمية والخطب العسكرية. . الخ وفي القسم الثاني تكلم عن تاريخ الخطابة في العصر الجاهلي وصدر الإسلام، وفي العصر الأموي وصدر
العصر العباسي مع إيراد نماذج لكل من هاتيك العصور. فأنت ترى أنه بحث قيم جدير بالثناء، كما ترى أنه موضوع طريف في مسألة لها أهميتها وخصوصاً في عصرنا هذا. عصر الرقي الاجتماعي والاتصال الفكري، عصر المجادلات السياسية والمناقشات

البرلمانية والمحاضرات العلمية والوعظية في المجتمعات والنوادي وفي الراديو وغيره. وأني وأن كنت أشايع المؤلف الفاضل في رأيه أن الخطابة ملكة وهبة وطبيعية، فأني أرى معه أيضاً أن الأصول والقواعد الفنية لابد منها حتى للموهوبين، فما أبدع الجمع بين الاستعداد الفطري والأوضاع الفنية، هذا ولو لم يقتصر الأستاذ الفاضل على الخطابة عند العرب فتناول الخطابة عند أمم الغرب لكان موضوعه أتم، وكانت فائدته أعم، إذ

تتسنى بذلك المقارنة. ولا شك أن ما طرأ على الأمم من تغيير في نظم الاجتماع وطرق التفكير قد أدخل على الخطابة في العصر الحاضر عناصر أخرى جديرة بالبحث، والمؤلف كما يظهر في كتابه جدير بأن يفرد لها رسالة أخرى لا يتقيد فيها ببرنامج الدراسة وحدوده.

وأما الكتاب الثاني فعبارة عن نصوص منتخبة من النظم والنثر وفقاً لمنهاج البكالوريا اللبنانية قام بوضعه الأساتذة واصف بارودي، وفؤاد افرام البستاني، وخليل تقي الدين، وفي يدي الآن الجزء الأول منه، ويشمل الجاهلية وعصر صدر الإسلام، ويقع في نيف ومائتي صفحة من القطع الكبير، وقد طبع طبعاً أنيقاً في بيروت، أختار مؤلفوه الأفاضل من عصر الجاهلية شيئاً من أشعار امرئ القيس وطرفة بن العبد وزهير وعنترة والنابغة الذبياني مع إيراد ترجمة قصيرة لكل منهم، وبيان ظروف معلقته، واختاروا من عصر صدر الإسلام للأخطل وفرزدق وجرير وعمر بن أبي ربيعة والحجاج بن يوسف وعبد الحميد الكاتب، على نحو ما فعلوه في العصر الجاهلي مع الإشارة هنا إلى الدواوين أو المؤلفات. وقد يظن القارئ أن مثل هذا العمل قليل الخطر، ولكن الواقع أنه من أدق الأعمال الأدبية، فالاختيار يحتاج إلى توخي الفائدة وإلى التقيد بالذوق العام، ومراعاة سن القارئ ودرجة استعداده، ثم ملاحظة القطع المختارة ومقدار دلالتها على تفكير صاحبها ونوازعه في الشعر والكتابة وما ينعكس فيها من أخلاقه وصفاته، وهذا بلا شك يزيد في قيمة النصوص، فالنصوص كما لا يخفى أمر لابد منه لدراسة الأدب وتذوقه، وهي الخطوة السابقة للنقد بل الأساسية له. هذا وكثير من النصوص ما تزيد قيمته في نفس الجمهور بحسب من أختارها لا من حيث هي في ذاتها. فإذا كان من يختار سليم الذوق طليعاً في فنه، جاءت مختاراته على قدر منزلته، وهذه النصوص التي أحدثك عنها تدل على ذوق وفن عظيمين.

وتجد ثالث تلك الكتب من نوع سابقه فهو عبارة عن مختارات من النظم والنثر، غير أنه يختلف عنه في طريقته، فلم يراع فيه ترتيب ولا تبويب، كما لم ينظر فيه إلى درس أو غاية فنية اللهم إلا الاستمتاع والغداء العقلي الذي يستمد من الآثار الأدبية عامة أياً كان شكلها أو موضوعها، وإنك لتجد فيه المقالة المعربة إلى جانب القطعة المختارة، إلى جانب الترجمة لشاعر أو كاتب، إلى قطع شعرية قديمة وحديثة متناثرة هنا وهناك دون أن تستطيع أن تعرف السر في اختيارها، اللهم إلا أنها قد أعجبت مختاريها، وبينما تجد بعض القطع منسوبة إلى أصحابها من أعلام الشعراء والكتاب تجد غيرها غفلا من كل إشارة، وتكاد لا تساوي شيئاً في معناها أو في أسلوبها. لذلك يحق لي أن أعتب في رفق على الأديبين المختارين عدم تنظيم

كتابهما، فان فيه الكثير من التحف الأدبية لو أنها عرضت بطريقة منظمة لكان ذلك أجمل وأدعى إلى الاستمتاع والانتفاع.

أما كتاب الثعابين فهو بحث يتناول الثعابين عامة والأنواع المصرية منها خاصة، قام بتأليفه أستاذ متخصص في علم الحيوان هو الدكتور حسين فرج زين الدين، وإن اختيار المؤلف الفاضل لهذا الموضوع الذي لم يسبقه إليه غيره في اللغة العربية، لدليل واضح يضاف إلى كثير غيره من الأدلة على مجاراة المصرين غيرهم من أمم الغرب في التخصص العلمي، وتناول المسائل العلمية على أمثل الطرق، والكتاب مملوء بالصور الدقيقة لأنواع الثعابين، والمصري منها خاصة، ولن أجد في وصفه أحسن مما قاله في مقدمته الفريق الدكتور أمين باشا المعلوف (قرأت الكتاب من أوله إلى أخره فوجدته مكتوباً بلغة علمية فصيحة، وأسلوب علمي سهل المنال، مما يثبت أن اللغة العربية غير قاصرة عن التعبير العلمي لمن أراده. هذا من جهة اللغة، أما العلم فقد بحث المؤلف الثعابين بحثاً وافياً ولا سيما ما كان منها في مصر وما جاورها وذكر أسمائها العربية الفصيحة والعامية، وإذا لم يجد لها اسماً فصيحاً ذكر الاسم العامي.

وبحث في الحيات والإنسان وأنواع الحيات وأشكالها بوجه عام ثم بحث في تشريحها. . الخ ثم بحث في السم وأنواعه وأعراض .
التسمم والمصل في علاج الملدوغين). ونحن نتقدم بجزيل الثناء للدكتور المؤلف على مجهوده المحمود.
وأقدم للقارئ بعد ذلك تلك القصة المعربة وهي (ابنة استريا) وتقع في جزأين، ولقد نشرت تباعاً في جريدة الأهرام ومعربها هو الأستاذ محمد عبد الفتاح إبراهيم، أما مؤلفها فهو الروائي الإنكليزي الذائع الصيت فيلبس اوبنهايم، صاحب الروايات المحبوبة عند جمهور القراء في الإمبراطورية البريطانية، وليس لدى الأصل الإنكليزي حتى أستطيع أن أحكم على ما إذا كان التعريب جيداً، غير أني أجد في جودة العبارة وسلامتها من الركاكة ما يرجح عندي هذا، أما موضوع القصة فموضوع غرامي ساحر ملئ بكثير من المواقف المدهشة والأوصاف الساحرة. (كتبه اوبنهايم بعد أن زار جزيرة (استريا) وسط المحيط الجنوبي وسمع القصة بأذنيه).
يبقى الكتاب الأخير (ظلال القمر) وهو ديوان صغير الحجم يقع في نحو تسعين صفحة للأديب أحمد مخيمر، مطبوع طبعاً أنيقاً على ورق جيد، ومحلى بعدة صور ريفية بديعة. وتدور معظم قصائده على وصف المناظر الريفية، وهي نزعة أحمدها للشاعر الفاضل فقد تناول البيئة المصرية المحبوبة، ولم يجر كغيره وراء أخيلة وصور لا تمت إلينا بصلة، ولذلك تلمس في شعره الروح القروية الرقيقة. وكثير من قصائده في القمر والحقول يقنعك بأن الشاعر لا يعرف التكلف، وحبذا لو اتجه شعراؤنا إلى الريف المصري فوصفوا جماله واستلهموا سحره، واستوحوا صفاءه وبهجته. ولكني إذ أغتبط بنزعة الشاعر من حيث الموضوع أقرر مع الأسف أنه كثيراً ما يسف في شعره إسفافاً قد يقربه به من الابتذال، ولكنه يسمو أحياناً سمواً يبشر بأنه مع الصبر والتجويد قد يأتي في المستقبل بما يجعل منه شاعراً مصري الروح والعاطفة.
الخفيف
1
العدد 75 - بتاريخ: 10 - 12 - 1934
إلى القرية يا بك. . .
أهلاً وسهلاً بعلي بك!. . . كيف حالك؟. . . آنست هنا وأوحشت هناك!. . منذ كم سنة لم أرك؟. . . نعم أكثر من ست سنين!. . .
وكان هذا اللقاء المفاجئ في ميدان إبراهيم أمام (النيوبار)، فمال بنا الشيخ في حماسة الشوق ودهشة المفاجأة إلى مجلس من مجالس هذا المقهى الحاشد، ثم أخذ يسألني عن أمري حتى نقع نفسه ونضح وده. فلما طال بنا نفس الحديث عطفته مترفقاً إلى عمره المفقود، فذاكرته عهود القرية أيام الشمل جامع والحبل واصل والدار نادية! فكانت إرسال هذه الذكر - وا أسفاه - ترتد عن شعوره الأصم ارتداد الأمواج عن صخور الساحل! لقد خفت الماضي في ذاكرته خفوت المحتضر؛ فرجعه البعيد لا يكاد يبين إلا في نظرة قصيرة من عينه المنتفخة، أو نفثة طويلة من نرجيلته المكركرة.
لشد ما صنعت المدينة بهذا الرجل! كان مكتنز اللحم فترهل، ومشبوب اللون فانكفأ، وخفيف الحركة فثقلته الأملاح، وطليق المشية فقيدته العلل؛ ثم كان يعقد مجلسه في القرية فيكون في جلالته ديوان عرش، وفي مهابته جلسة محكمة! يلقي النظرة مثقلة بالدلائل فتأخذها العيون وعداً لا يخلف، أو وعيداً لا يشفق، أو عاطفة لا تكذب، ويرسل الكلمة موقرة بالمعاني فتلقفُها الآذان أمراً لا يرد، وقانوناً لا يخالف، ورأياً لا ينقض، فأصبح في زحمة القاهرة قطعة من الوجود المتطفل، يتسكع في الطريق، أو يتقمع في القهوة، أو يتمطى في البيت، وليس له رأي في أمور الناس، ولا أثر في جهاد العيش، ولا شأن في طبقات المجتمع؛ وكان بليل اللسان حافل الخاطر إذا تحدث إلى الفلاحين في شؤون الفلاحة، فلما حاول مناقلة المدنيين أحاديث السياسة والأدب والاجتماع، قعد به الجهل عن مجاوراتهم، فغلب الوجوم على نفسه، وختم العي على فمه!

تخاذل حديث (البك) واسترخي حتى انقلب إلى أنة موجعة وشكوى أليمة! قال وهو يطلب من الغلام جمرة ترسل النار في النرجيلة الخامدة: منذ حبَّب إليَّ أبنائي - وهم في المدارس كما تعلم - أن أنقل البيت من القرية إلى الحاضرة، انقلب وجودي رأساً على عقب! فأنا أحيا كالغريب، وأعْمَه كالشريد، وأمشي كالتائه. نقصت غلة الأرض لإتكائي في زرعها على الناس، وزادت أكلاف العيش لاعتمادي في الوجاهة على الشرف، وفدحتني أعباء الديون فأنا من شواغلها في غصة لا تساغ وكربة لا تنسلي، وفسدت على سياسة الأسرة، فالبنون لا يريدون العمل في غير الحكومة، والبنات لا يرغبن الزواج في غير المدينة، والزوجة تأبى إلا أن تكون كزوجة فلان باشا: لها في كل يوم ملهى، وفي كل أسبوع وليمة، وفي كل شهر (مودة)، وفي كل عام مصيف. فأنا يا صديقي مذبذب العيش بين هنا وهناك، لم أستفد من مزايا الحضر من أتساق الأمر واطراد الحياة، ولم أستعد محامد الريف من سعادة النفس وبساطة العيش وخلوص الفطرة وصحة الدين وسلامة الثروة؛ فهل تطمئن على هذا الحال نفس. وهل تشرق في هذا الوجود سعادة؟ فقلت له وقد تمثل في خاطري ما دهى القرية وأصاب الأمة من أمثال هذا الرجل:

لو أن سراة الريف استقبلوا من أمرك ما استدبرت لما كانوا على أنفسهم شراً وعلى قراهم جنابة. فانك لو بقيت في قريتك، وقمت كما كنت تقوم على تدبير ثروتك، وعاد بنوك من الكلية فاستثمروا علمهم فيها، ونشروا مدينته وثقافتهم بين ربوعها وأهليها، ورجع بناتك من المدرسة فبثثن في نسائها النظام والتدبير والذوق بالإرشاد والقدوة، ثم فعل غيرك ما فعلت، إذن لوفر فيها الرزق، وورف عليها الأمن، وانتقل إليها العلم، وتذوق أهلها المساكين جمال الحضارة ونعيم الصحة ولذة المعرفة، وشعرت أنت في هذه البيئة شعور الغبطة والرضا، لأنك أعنت فريقاً من ضعاف الناس على أن ينعموا بحياتهم ويقوموا بواجباتهم على الوجه الأكمل.

ولكن أكثر القرويين متى ارتجع كثيراً من المال، أو شدا قليلاً من العلم، أغلق (المضيفة)، وخرب (الدوار)، وخلف القرية للفاقة والجهالة والمرض. فلولا أشعة من نور الأزهر الخالد تنتشر في هذه القرى فتدعو إلى الله، وتهدي إلى الحق، لظل الريف وساكنوه على الحال التي عثر فيها بطلائع الإنسان.

أنت لا تزال عميد أسرة مجيدة، لها في سياسة الأمة صحائف مشرقة، وفي ثروة البلاد جهود موفقة، فافزع إلى ماضيك، واستصرخ عزيمة الجنس فيك، واستعد سلطانك على أهلك وبنيك، ثم عد إلى مسقط رأسك ومهبط نفسك ومنبت عواطفك ومنشأ هواك ومرتع صباك وموطن مجدك ومدفن جدودك!

عد إلى القرية يا بك!!

احمد حسن الزيات

. . . شهرٌ للثورة

فلسفة الصيام

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

لم أقرأ لأحد قولاً شافياً في فلسفة الصوم وحكمته؛ أما منفعته للجسم وأنه نوع من الطب له، وباب من السياسة في تدبيره، فقد فرغ الأطباء من تحقيق القول في ذلك؛ وكأن أيام هذا الشهر المبارك إن هي إلا ثلاثين حبة تؤخذ في كل سنة لتقوية المعدة وتصفية الدم وحياطة أنسجة الجسم؛ ولكنا الآن لسنا بصدد من هذا، وإنما نستوحي تلك الحقيقة الإسلامية الكبرى التي شرعت هذا الشرع لسياسة الحقائق الأرضية الصغيرة، عاملة على استمرار الفكرة الإنسانية فيها، كي لا تتبدل النفس على تغير الحوادث وتبدلها، ولكيلا تجهل الدنيا معاني الترقيع إذا أتت على هذه الدنيا معاني التمزيق.

من معجزات القرآن الكريم أنه يدخر في الألفاظ المعروفة في كل زمن حقائق غير معروفة لكل زمن، فيجليها لوقتها حين يضج الزمان العلمي في متاهته وحيرته، فيشْغَبُ على التاريخ وأهله مستخفاً بالأديان، ويذهب يتتبع الحقائق ويستقصي في فنون المعرفة، ليستخلص من بين كفر وإيمان ديناً طبيعياً سائغاً، يتناول الحياة أول ما يتناول فيضبطها بأسرار العلم، ويوجهها بالعلم إلى غايته الصحيحة، ويضاعف قواها

بأساليبه الطبيعية، ليحقق في إنسانية العالم هذه الشيئية المجهولة التي تتوهمها المذاهب الاجتماعية، ولم يهتد إليها مذهب منها ولا قاربَها؛ فما برحت سعادة الاجتماع كالتجربة العلمية بين أيدي علمائها لم يحققوها ولم ييأسوا منها، وبقيت تلك المذاهب كعقارب الساعة في دورتها، تبدأ من حيث تبدأ ثم لا تنتهي إلا إلى حيثُ تبدأ.

يضطرب الاشتراكيون في أوربا، وقد عجزوا عجز من يحاول تغيير الإنسان بزيادة ونقص في أعصابه؛ ولا يزال مذهبهم في الدنيا مذهب كتب ورسائل. ولو أنهم تدبروا حكمة الصوم في الإسلام، لرأوا هذا الشهر نظاماً عملياً من أقوى وأبدع الأنظمة الاشتراكية الصحيحة؛ فهذا الصوم فقرٌ إجباريٌ تفرضه الشريعة على الناس فرضاً ليتساوى الجميع في بواطنهم، سواءٍ منهم من ملك المليون من الدنانير، ومن ملك القرش الواحد، ومن لم يملك شيئاً؛ كما يتساوى الناس جميعاً في ذهاب كبريائهم الإنسانية بالصلاة التي يفرضها الإسلام على كل مسلم؛ وفي ذهاب تفاوتهم الاجتماعي بالحج الذي يفرضه على من استطاع.

فقرٌ إجباريٌ يراد به أشعار النفس الإنسانية بطريقة عمليةٍ واضحةٍ كل الوضوح أن الحياة الصحيحة وراء الحياة لا فيها، وأنها إنما تكون على أتمها حين يتساوى الناس في الشعور لا حين يختلفون، وحين يتعاطفون بإحساس الألم الواحد لا حين يتنازعون بإحساس الأهواء المتعددة.

ولو حقَّقْتَ رأيت الناس لا يختلفون في الإنسانية بعقولهم، ولا بأنسابهم، ولا بمراتبهم، ولا بما ملكوا؛ وإنما يختلفون ببطونهم وأحكام هذه البطون على العقل والعاطفة؛ فمن البطن نكبة الإنسانية، وهو العقل العملي على الأرض؛ وإذا اختلف البطن والدماغ في ضرورة مد البطن مده من قُوى الهضم فلم يُبقِ ولم يَذَرْ. ومن ههنا يتناوله الصوم بالتهذيب والتأديب والتدريب، ويجعل الناس فيه سواءً ليس بجميعهم إلا شعور واحد وحس واحد وطبيعة واحدة، ويحكم الأمر فيحول بين هذا البطن وبين المادة، ويبالغ في إحكامه فيمسك حَواشيَه العصبيةَ في الجسم كله يمنعها تغذيتها ولذتها حتى نفثةً من دخينة. وبهذا يضع الإنسانية كلها في حالة نفسية واحدة تتلبس بها النفس في مشارق الأرض ومغاربها، ويطلق في هذه الإنسانية كلها صوت الروح يعلم الرحمة ويدعو إليها، فيشبع فيها بهذا الجوع فكرة معينة هي كل ما في مذهب الاشتراكية من الحق، وهي تلك الفكرة التي يكون عنها مساواة الغني للفقير من طبيعته، واطمئنان الفقير إلى الغني بطبيعته؛ ومن هذين: (الاطمئنان والمساواة) يكون هدوء الحياة بهدوء النفسين اللتين هما السلب والإيجاب في هذا الاجتماع الإنساني. وإذا أنت نزعت هذه الفكرة من الاشتراكية بقى هذا المذهب كلُّه عبثاً من العبث في محاولة جعْل التاريخ الإنساني تاريخاً لا طبيعة له.

من قواعد النفس أن الرحمة تنشأ عن الألم، وهذا بعض السر الاجتماعي العظيم في الصوم، إذ يبالغ أشد المبالغة، ويدقق كل التدقيق، في منع الغداء وشبه الغذاء عن البطن وحواشيه مدة آخرها الطاقة. فهذه طريقة عملية لتربية الرحمة في النفس، ولا طريقة غيرها إلا النكبات والكوارث، فهما طريقتان كما ترى: مبصرةٌ وعمياء، وخاصةٌ وعامة، وعلى نظام وعلى فجأة ومتى تحققت رحمة الجائع الغني للجائع الفقير، أصبح للكلمة الإنسانية الداخلية سلطانها النافذ، وحكم الوازع النفسي على المادة؛ فيسمع الغني في ضميره صوت الفقير يقول: (أعطني.) ثم لا يسمع منه طلباً من الرجاء، بل طلباً من الأمر لا مفر من تلبيته والاستجابة لمعانيه كما يواسي المبتلى من كل في مثل بلائه.

أية معجزة إصلاحية أعجب من هذه المعجزة الإسلامية التي تقضي أن يحذف من الإنسانية كلها تاريخ البطن ثلاثين يوماً في كل سنة، ليحل في محله تاريخ النفس؟ وأنا مستيقن أن هناك نسبة رياضية هي الحكمة في جعل هذا الصوم شهراً كاملاً من كل اثني عشر شهراً، وأن هذه النسبة متحققة في أعمال الجسم للنفس؛ كأنه الشهر الصحي الذي يفرضه الطب في كل سنة للراحة والاستجمام وتغيير المعيشة، لأحداث الترميم العصبي في الجسم؛ ولعل ذلك آتٍ من العلاقة بين دورة الدم في الجسم الإنساني وبين القمر منذ يكون هلالاً إلى يدخل في المحاق؛ إذ تنفتح العروق وتربو في النصف الأول من الشهر كأنها في (مدّ) من نور القمر ما دام هذا النور إلى زيادة، ثم يراجعها (الجَزْرُ) في النصف الثاني حتى كأن للدم إضاءةً وظلاما. وإذا ثبت أن القمر

أثراً في الأمراض العصبية، وفي مدّ الدم وجزْره، فهذا من أعجب الحكمة في أن يكون الصيام شهراً قمرياً دون غيره.

وفي تَرَائي الهلال ووجوب الصوم لرؤيته معنى دقيقٌ آخر، وهو - مع إثبات رؤية الهلال وإعلانُها - إثبات الإرادة وإعلانُها، كأنما انبعث أولُ الشعاع السماوي في التنبه الإنساني العام لفروض الرحمة والإنسانية والبِر.

وهنا حكمة كبيرة من حِكَم الصوم، وهي عمله في تربية الإرادة وتقويتها بهذا الأسلوب العملي الذي يدرب الصائم على أن يمتنع باختياره من شهواته ولذة حيوانيته. ويبقيه مصراً على الامتناع متهيئاً له بعزيمته، صابراً عليه بأخلاق الصبر، مزاولاً في كل ذلك أفضل طريقةٍ نفسية لاكتساب الفكرة الثابتة ترسخ لا تتغير ولا تتحول، ولا تعدو عليها عوادي الغريزة. وإدراك هذه القوة من الإرادة العملية منزلة اجتماعية سامية هي في الإنسانية فوق منزلة الذكاء والعلم؛ ففي هذين تعرض الفكرة مارةً مرورها، ولكنها في الإرادة تعرض لتستقر وتتحقق. فانظر في أي قانون من القوانين، وفي أية أمة من الأمم، تجد ثلاثين يوماً من كل سنة قد فُرِضت فرضاً لتربية إدارة الشعب ومزاولته فكرة نفسية واحدة بخصائصها ومُلابساتها حتى تستقر وترسخ وتعود جزءاً من عمل الإنسان، لا خيالاً يمر برأسه مراً؟

أليست هذه هي إتاحة الفرصة العملية التي جعلوها أساساً في تكوين الإرادة؟ وهل تبلغ

الإرادة فيما تبلغ، أعلى من منزلتها حين تجعل شهوات المرء مذعنةً لفكره، منقادة للوازع النفسي فيه، مصرفة بالحس الديني المسيطر على النفس ومشاعرها؟

أما والله لو عم الصوم الإسلامي أهل الأرض جميعاً لآل معناه أن يكون إجماعاً من الإنسانية كلها على إعلان الثورة شهراً كاملاً في السنة، لتطهير العالم من رذائله وفساده، ومحق الأثرة والبخل فيه، وطرح المسألة النفسية ليتدارسها أهل الأرض دراسة عمليةً مدة هذا الشهر بطوله، فيهبط كل رجل وكل امرأة إلى أعماق نفسه ومكامنها ليختبر في مصنع فكره معنى الحاجة ومعنى الفقر، وليفهم في طبيعة جسمه - لا في الكتب - معاني الصبر والثبات والإرادة، وليبلغ من ذلك وذلك درجات الإنسانية والمواساة والإحسان؛ فيحقق بهذه وتلك معاني الإخاء والحرية والمساواة.

شهر هو أيام قلبية في الزمن، متى أشرفت على الدنيا قال الزمن لأهله: (هذه أيام من أنفسكم لا من أيامي، ومن طبيعتكم لا من طبيعتي) فيقبل العالم كله على حالة نفسية بالغة السمو يتعهد فيها النفس برياضتها على معالي الأمور ومكارم الأخلاق، ويفهم الحياة على وجه آخر غير وجهها الكالح، ويراها كأنما أجيعت من طعامها اليومي كما جاع هو، وكأنما أفرغت من خسائسها وشهواتها كما فرغ هو، وكأنما ألزمت معاني التقوى كما ألزمها هو. وما أجمل وأبدع أن تظهر الحياة في العالم كله - ولو يوماً واحداً - حاملة في يدها السبحة. . .! فكيف بها على ذلك شهراً من كل سنة؟ أنها والله طريقة عملية لرسوخ فكرة الخير والحق في النفس؛ وتطهير الاجتماع من خسائس العقل المادي؛ ورد هذه الطبيعة الحيوانية المحكومة في ظاهرها بالقوانين، والمحررة من قوانين في باطنها - إلى قانون من باطنها نفسه يطهر مشاعرها، ويسمو بإحساسها، ويصرفها إلى معاني إنسانيتها، ويهذب من زيادتها، ويحذف كثيراً من فضولها، حتى يرجع بها إلى نحو من براءة الطفولة، فيجعلها صافية مشرقة بما يجتذب إليها من معاني الخير والصفاء والإشراق. إذ كان من عمل الفكرة الثابتة في النفس أن تدعو إليها ما يلائمها ويتصل بطبيعتها من الفكر الأخرى. والنفس في هذا الشهر محتسبة في فكرة الخير وحدها، فهي تبني بنائها من ذلك ما استطاعت.

هذا على الحقيقة ليس شهراً من الأشهر، بل هو فصل نفساني كفصول الطبيعة في دورانها. ولهو والله أشبه بفصل الشتاء في حلوله على الدنيا بالجو الذي من طبيعته السحب والغيث، ومن عمله إمداد الحياة بوسائل لها ما بعدها إلى آخر السنة، ومن رياضته أن يكسبها الصلابة والانكماش والخفة، ومن غايته إعداد الطبيعة للتفتح عن جمال باطنها في الربيع الذي يتلوه.

عجيب جداً أن هذا الشهر الذي يدخر فيه الجسم من قواه المعنوية فيودعها مصرف روحانيته ليجد منها عند الشدائد مدد الصبر والثبات والعزم والجلد والخشونة - عجيب جداً أن هذا

. . .الشهر الاقتصادي هو من السنة كفائدة 8 و31 في المائة
فكأنه يسجل في الأعصاب المؤمن حساب قوته وربحه، فله في
كل سنة زيادة 8 و31 من قوته المعنوية الروحانية.
وسحر العظائم في هذه الدنيا إنما يكون في الأمة التي تعرف كيف تدخر هذه القوة وتوفرها لتستمد عند الحاجة، وذلك هو سر أسلافنا الأولين الذين كانوا يجدون على الفقر في دمائهم وأعصابهم ما تجد الجيوش العظمى اليوم في مخازن العتاد والأسلحة والذخيرة.
كل ما ذكرته في هذا المقال من فلسفة الصوم فإنما استخرجته من هذه الآية الكريمة: (كتِبَ عليكم الصيامُ كما كتِبَ على الذين مِن قَبْلِكم، لعلكم تَتَّقُون.) وقد فهمها العلماء جميعاً على أنها معنى (التقوى) أما أنا فأولتها من (الاتقّاء) فبالصوم يتقي المرء على نفسه أن يكون كالحيوان الذي شريعته معدته، وألا يعامل الدنيا إلا بمواد هذه الشريعة؛ ويتقي المجتمع على إنسانيته وطبيعته مثل ذلك، فلا يكون إنسان مع إنسان كحمار مع إنسان يبيعه القوة كلها بالقليل من العلف. وبالصوم يتقي هذا وهذا ما بين يديه وما خلفه، فان ما بين يديه هو الحاضر من طباعه وأخلاقه، وما خلفه هو الجيل الذي سيرث من هذا الطباع والأخلاق، فيعمل بنفسه في الحاضر، ويعمل بالحاضر في الآتي.
وكل ما شرحناه فهو اتقاء ضرر لجلب منفعة، واتقاء رذيلة لجلب فضيلة، وبهذا التأويل تتوجه الآية الكريمة جهةً فلسفية عالية لا يأتي البيان ولا العلم ولا الفلسفة بأوجز ولا أكمل
من لفظها؛ ويتوجه الصيام على أن شريعة اجتماعية إنسانية عامة، يتقي بها الاجتماع شرور نفسه، ولن يتهذب العالم إلا إذا كان له من القوانين النافذة هذا القانون العام الذي أسمه الصوم ومعناه (قانون البطن) . . . .
ألا ما أعظمك يا شهر رمضان! لو عرفك العالم حق معرفتك لسماك (مدرسة الثلاثين يوماً).
طنطا مصطفى صادق الرافعي
نظرية الاستقلال القومي وتطبيقها على التاريخ المصري
للأستاذ محمد عبد الله عنان
أشارت إحدى الصحف الإنكليزية الكبرى أثناء حديثها أخيراً عن الشؤون المصرية، إلى نظرية تاريخية قديمة ترددها ألسنة الاستعمار في كل مناسبة، وهي أن مصر لم تكن مستقلة في أي عصر من عصور تاريخها. وترمي ألسنة الاستعمار بترويج هذه النظرية إلى غرض واضح، وهو أن مصر التي لم تتمتع خلال هذه الآماد الطويلة من تاريخها بنعمة الاستقلال والحرية، ليست جديرة بأن تتخذ مكانها بين الأمم المستقلة، وأن حكم التاريخ يقضي عليها بأن تكون دائماً مسودة دائماً لغيرها من الأمم القوية؛ فلماذا لا تكون إنكلترا هي الدولة التي تنفذ على مصر حكم التاريخ الخالد؟ ولماذا تحاول مصر أن تغالب قدرها، وطبيعتها كأمة استعبدت مدى الأحقاب تنافي طبائع الحرية والاستقلال؟
وهذه نظرية باطلة بلا ريب، يهدمها حكم التاريخ النزيه الحق؛ ولكنها أيضاً نظرية خطرة؛ وترويجها في العالم المتمدن يضر بالقضية المصرية ضرراً بليغاً، ويسيء إلى تراث مصر التاريخي، وإلى سمعتها كأمة ناهضة تطمح إلى تحقيق استقلالها. ومن الأسف أن هذا القول الباطل في تصوير التاريخ المصري، يروج لها في مصر ذاتها، ويتأثر به الكثير ممن يطغي على أذهانهم وعواطفهم سيل الثقافة الأجنبية، ولا يعرفون شيئاً من تاريخ بلادهم. بل من الأسف أن هذه النظرية الاستعمارية الخطرة، ما زالت تمثل في تعليم التاريخ في بلادنا وفي معاهدنا، لأن برامج التعليم الرسمية ما زالت بعيدة عن التحرر من أغلال المؤثرات الأجنبية، بعيدة عن رعاية النواحي القومية.
ولهذا نرى أن نعرض بهذه المناسبة إلى بحث هذه النظرية لنرى حظها من التطبيق على عصور التاريخ المصري. وأول ما يلفت النظر ذلك التصوير الخاطئ الذي يصور به تعاقب العصور والدول على مصر؛ فمصر حسبما تقول النظرية، قد غادرت منذ أيام الفراعنة عهد الحريات القومية إلى الأبد، وتعاقبت عليها الدول الغالبة تباعاً، فافتتحها

الفرس، ثم اليونان، ثم الرومان، ثم العرب في سلسلة متصلة من السيادة الأجنبية، وتعاقبت عليها بعد ذلك دول إسلامية أجنبية من الشرق والغرب ودول المماليك المختلفة حتى كان
الفتح التركي، فاستمرت تحت السيادة التركية حتى كان الفتح الفرنسي وظهور محمد علي؛ ولم يطل أمد استقلالها عندئذ، حتى عادت فوقعت في قبضة الإنكليز، واتصلت بذلك حلقات استعبادها الطويل.

وتصوير أدوار التاريخ المصري على هذا النحو تصوير خاطئ من الوجهة العلمية، وتصوير مغرض وضعه الكتاب الغربيون منذ أوائل القرن الماضي - وهم أول من كتب عن تاريخ مصر في العصر الحديث - ومعظمهم متأثر بنزعة الغرب إلى استعمار الشرق، وتبرير هذه النزعة بالعوامل التاريخية والاقتصادية ونشر المدينة الحديثة. وقد كان لدعواهم أثر كبير في معظم ما كتب عن مصر؛ بل لقد تأثر بها الكتاب المصريون أنفسهم، وتأثرت بها دراسة التاريخ في مصر وبرامجه الرسمية؛ وأضحى واجباً علينا أن نحارب هذه النظرية الخطرة في كل مناسبة، وأن نبين خطأها من الناحية العلمية.

لقد توالت على مصر حقاً عصور طويلة من الغلبة والاستعباد، ولكنها تمتعت أيضاً بعصور طويلة من الحرية والاستقلال والسؤدد القومي. وقد قطعت مصر أيام الفراعنة آماداً بعيدة في ظل الحريات القومية والاستقلال المطلق، وكانت سيدة إمبراطورية مصرية تمتد من قلب السودان إلى الشام؛ وكان لها في تلك العصور من القوة والعظمة والمدنية الزاهرة، ما لم تتمتع به أية أمة من الأمم الغابرة. وإذا كانت مصر قد سقطت في عصور الانحلال فريسة النير الأجنبي، واستمرت ترزح نحو الف وخمسمائة عام تحت نير الهكسوس والفرس واليونان والرومان، فقد تمتعت بحرياتها واستقلالها قبل ذلك آلاف السنين.

ويبدو خطأ نظرية الكتاب الغربيين بنوع خاص في الحكم على تاريخ مصر منذ الفتح الإسلامي، فهم لا يكتفون باعتبار هذا الفتح بدء عصر جديد من الاستعباد بالنسبة لمصر، بل يرون أن مصر كانت طوال الدول الإسلامية التي تعاقبت عليها، أمة مسودة خاضعة لنير الحكم الأجنبي، ويعتبرون هذه الدول كلها، دولاً غازية سيدة؛ وهو خطأ كبير في فهم الحقائق التاريخية وفي تصويرها. ويجب أن نذكر أولاً أن الأمة المصرية لبثت أيام الفرس واليونان والرومان تحتفظ بطابعها الفرعوني القديم، وأن هذه الدول الغازية لم تستطع أن تجعل من الأمة المصرية المغلوبة وحدة من وحداتها الاجتماعية، وأن كانت مصر قد
تأثرت بلا ريب بنفوذ هذه الدول وحضارتها؛ وعلى هذا فقد كانت مصر في هذه العصور أمة مغلوبة حقاً، ولكن تحتفظ باستقلالها كوحدة اجتماعية. بل لقد استطاعت مصر أن تحتفظ بهذا الاستقلال الاجتماعي، حتى بعد أن أرغمت على اعتناق النصرانية، ولم تندمج قط في الإمبراطورية الرومانية، كما اندمجت أمم وشعوب أخرى. ولكن الأمة المصرية شهدت منذ الفتح الإسلامي تطوراً جوهرياً في تكوينها الاجتماعي؛ فقد استطاع العرب في أقل من قرن أن ينشئوا منها أمة إسلامية، وأن يجعلوا منها وحدة اجتماعية من وحدات الإمبراطورية الإسلامية الكبرى؛
واندمج الغالب والمغلوب في أمة جديدة موحدة تدين بالإسلام وشرائعه، وتتكلم بلغته، وتضطرم بروحه؛ ولم يأت القرن الثالث من الهجرة حتى أضحى التمييز عسيراً بين السلالة العربية النازحة، وبين السلالة المصرية المسلمة. وكانت مصر حتى منتصف القرن الثالث ولاية من ولايات الخلافة؛ ولكنها استطاعت من ذلك الحين أن تنزع إلى الاستقلال في ظل الدولة الإسلامية الكبرى، على يد بعض الحكام والقادة الخارجين على الخلافة؛ وبدأت من ذلك الحين سلسلة الدول الإسلامية المستقلة في مصر.

وهنا تعرض النقطة الجوهرية. هل كانت مصر سيدة أم مسودة في ظل هذه الدول؟ وهل كانت مصر الفاطمية والأيوبية، ومصر في عهد أسر المماليك المختلفة حتى الفتح العثماني، أمة مستقلة أم كانت ترزح تحت النير الأجنبي؟ وجوابنا مصر كانت في تلك العصور أمة مستقلة تتمتع بكامل حرياتها القومية، وكانت أمة سيدة لا مسودة، تسير في ميدان الحرب والسلام من ظفر إلى ظفر. أما هذه الدول الأجنبية المسلمة التي كانت تتبوأ السلطان والحكم، فلم تكن أكثر من أسر نازحة أو مستقرة تبوأت الرياسة لأصولها الملوكية أو لمؤهلاتها الخاصة؛ ولم تكن تتولى هذه الرياسة لحسابها الخاص،

وإنما كانت تتولاها لحساب الأمة المصرية، وتعمل باسمها وبتأييدها، فكانت تغدو بعد استقرارها أسراً مصرية خالصة ليس لها مركز للرياسة غير مصر، وليست لها أمة أخرى تمثلها غير مصر؛ وحتى الدولة الفاطمية التي دخلت مصر غازية، لم تشذ بعد استقرارها عن هذه القاعدة، فكانت مصر هي مركز الدولة الفاطمية ومستقرها، وغدت الخلافة الفاطمية مصرية بعد أن كانت مغربية؛ ومنذ الدولة الأيوبية حتى الفتح العثماني تظهر الأسر السلطانية في مصر ذاتها،
بين القادة والأمراء النابهين؛ ولم تكن تلك العروش والأسر التي قادت الأمة المصرية منذ الدولة الفاطمية إلى الظفر في ميادين الحرب، وإلى مراتب العظمة والهناء في ميادين السلام والحضارة، سوى عروش وأسر مصرية أو متمصرة، تعمل جميعاً لمصر وباسمها، ولم تكن تلك الجيوش الباسلة التي لبثت أكثر من قرنين تتلقى ضربات الحملات الصليبية في مصر والشام، وتبث أعمالها وانتصاراتها الروع في أمم الغرب، سوى جيوش مصرية تقودها تلك الأسر التي ارتضتها لزعامتها؛ على أن تلك الأسر الملوكية ذاتها لم تلبث غير بعيد أن فقدت زعامتها السياسية، وأصبحت خاضعة في التعيين والعزل لرأي الأمة المصرية ممثلة في زعامتها الدينية والفكرية؛ وأنه لمن التعسف أن تخرج من حظيرة الأمة المصرية أسراً نبهت فيها، وتولت زعامتها بحكم تراثها الموروث أماداً، وعملت لمصر ولم تعمل لسواها، ولم يبق لها من صبغتها الأجنبية سوى ذكريات المنشأ والماضي.

كانت مصر الإسلامية إذا، مذ تقلص عنها ظل الخلافة، أمة مستقلة، وكانت مصر الإسلامية أمة مستقلة حين غزاها الترك العثمانيين وحطموا بها صرح حضارة إسلامية زاهرة تكدست على مر العصور؛ ولقد كان الفتح العثماني عملاً همجياً، كما كانت فتوح القبائل البربرية لرومة وأقطار الدولة الرومانية؛ ولم يكن عملاً إنشائياً، كما كان الفتح الإسلامي؛ على أن مصر استطاعت في ظل أولئك الوندال أن تسترد غير بعيد كثيراً من مظاهر استقلالها المحلي؛ ولم يأت القرن الثامن عشر حتى أصبحت السيادة العثمانية على مصر سيادة اسمية، كل ما يهم الحكام الترك منها أن يستدروا بعض الموارد والأموال من الشعب المحكوم.

ولا حاجة بنا للقول بأن مصر استردت كامل استقلالها في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وأن كانت قد عادت فانضوت تحت لواء أسرة جديدة.

مما تقدم يبدو تصوير النظرية الغربية لعصور التاريخ المصري بأنها سيادات أجنبية متعاقبة، واستعباد متصل للأمة المصرية، تعسفاً لا يؤيده منطق الحقائق التاريخية؛ ولو طبقنا هذه النظرية الخاطئة على التاريخ القومي لبعض الأمم الأوربية العريقة في الاستقلال والحرية لا نهينا في شأنها إلى مثل ما ينتهي الكتاب الغربيون في شأن مصر. ولنتخذ فرنسا مثلاً، فقد نزحت إليها عقب انهيار الدولة الرومانية قبائل غازية من الشمال،
وأقام بها (الميروفنجية) على يد زعيمهم كلوفيس، منذ القرن السادس مملكة جديدة هي مملكة الفرنج، ولما انحلت أسرة الميروفنجية، قامت بأمر الفرنج الأسرة (الكارلية) القوية، وانتزعت عرش الفرنج، واستمرت في زعامة فرنسا حتى أواخر القرن التاسع، ونبغ فيها أميران من أعظم أمراء النصرانية هما كارل مارتل الذي رد العرب في بلاط الشهداء (سنة 732م) وكارل الأكبر (شارلمان) أعظم ملوك الغرب في عصره؛ وكان الميروفنجية والكارلية كلاهما من القبائل الألمانية الشمالية، فهل نعتبر أن فرنسا كانت في هذه العصور أمة مستعبدة ترزح تحت حكم النير الأجنبي، لأن أسراً أجنبية نزحت إليها، واستقرت بها، وتولت زعامتها، وعملت لحسابها وباسمها؟ وهل نعتبر نابليون (وهو إيطالي الجنس والأصل) فاتحاً لفرنسا مغتصباً لعرشها وزعامتها، ونعتبر أن فرنسا كانت في عصره خاضعة للحكم الأجنبي؟ ونستطيع أن نلاحظ بهذه المناسبة أيضاً أن أدولف هتلر زعيم ألمانيا وسيد مصيرها اليوم، إنما هو أجنبي نمساوي المولد والنشأة؛ ومن المعروف أن الأسرة التي تتولى عرش إنكلترا اليوم، إنما ترجع إلى أصل ألماني، وأن معظم الأسر الملوكية الأوربية ترجع إلى أصول أجنبية، وإذا كانت هذه الأسر اليوم لا تتمتع بمثل ما كنت تتمتع به أسر السلاطين من السلطة المطلقة، فذلك لأن روح العصر قد تطورت، وغاضت روح العصور الوسطى، وانتهت الأمم بأن جعلت من العروش رمزاً قومياً ليس غير.

وإذا كانت مصر قد رزحت تحت نير الحكم الأجنبي في بعض أدوار تاريخها، فهي لم تشذ في ذلك عن معظم الأمم الغربية التي تتمتع اليوم بكامل حريتها واستقلالها، ولنضرب لذلك مثلاً بأمة عظيمة هي إيطاليا، التي لم تتمتع باستقلالها إلا منذ أواخر القرن الماضي، والتي لبثت طوال العصور الوسطى والحديثة مسرحاً لمطامع الدول والعروش الأجنبية، ولم تستقل فيها سوى البندقية وبعض الجمهوريات الصغيرة. ولنضرب مثلاً آخر باليونان، وقد لبثت زهاء ألفي عام ترزح تحت نير الحكم الأجنبي، منذ الرومان فالبنادقة فالترك، ولم تنل حريتها القومية إلا منذ قرن فقط، ولم تنلها إلا بمؤازرة أوربا النصرانية؛ وهناك غير إيطاليا واليونان؛ وهناك هولندا والبلجيك، وهناك بولونيا التي لبثت ثلاثمائة عام ممزقة بين دول ثلاث من جيرانها، وهنالك رومانيا والمجر، وتشيكوسلوفاكيا، فهذه كلها أمم حديثة في الاستقلال والحريات القومية، ولم يقل إنسان إنها من أجل ذلك تستحق أن يسلب استقلالها وأن تسكن إلى نير المتغلب إلى الأبد. والخلاصة أننا كلما تأملنا هذه النظرية الاستعمارية في تصوير أدوار التاريخ المصري، كلما بدا بطلانها وتعسفها وما يحفزها من الغرض والهوى.

فليستعرض الشباب المصري على تاريخ بلاده، كلما طرقت آذانه هذه النغمة الغادرة. فتاريخ مصر، كتاريخ الأمم العظيمة، حافل بمواطن الفخار والمجد، وعصور الحرية والاستقلال.

محمد عبد الله عنان المحامي

جزيرة العرب

صفحة مجيدة من تاريخها القديم

بقلم الأستاذ رزوق عيسى

كلمة عرب وأصل معناها. المكتشفات الحديثة. الكتابات الأثرية. ملكة سبأ والسبئيون. معين والمعينيون. اكتشاف أسماء 32 ملكاً. التجارة القديمة وطرق المواصلات. اللبان والأطياب. المعارف والعلوم في الجاهلية. التقاليد والروايات القديمة. الإله أونيس. الأنباط. وطن الساميين الأول. الحروف الهجائية العربية أقدم من الحروف الفينيقية. شهادة من التواريخ القديمة العهد.

ذهب اللغويون والمؤرخون في معنى كلمة عرب مذاهب متعددة، فمنهم من قال إنهم تسموا باسم جدهم يعرب بن قحطان، وذهب فريق إلى أن العرب مشتقة من (عربا) وهي مفقودة في العربية إلا أنها موجودة في العبرية والآرامية بمعنى البادية والصحراء، ومنهم من زعم أن كلمة (عرباء) وردت في العربية بمعنى خالص في قولهم العرب العرباء أي العرب الخلص، وهم أهل البادية؛ وقال آخرون إن اسم العرب وبلادهم التي تدعى جزيرة العرب مشتق من لفظة (عربة) وهي أرض بتهامة دعيت بذلك أخذاً من يعرب بن قحطان جد العرب الأولين، وفي فلسطين موضع يسمى عربة أيضاً كما جاء مراصد الاطلاع.

والأقرب إلى الصواب أن لفظة عرب مشتقة من (أوربي) الشمرية بمعنى سكان الخيام، فأن كلمة أور - أو - أورو التي أصبحت في عصر البابليين والآشوريين بمعنى مدينة كان يراد بها في عهد الشمريين الخيمة، ثم أطلقت على الدار من باب التوسع. وهذا الاشتقاق ليس ببعيد، لأن العرب من أعرق الشعوب في القدم، وقد عاصروا جميع الأمم المعروفة في التاريخ كالشمريين والآكديين، والبابليين، والكلدان، والآشوريين، والميتانيين، والحثيين، والمصريين، والفرس، واليونان، والرومان. وكانت بلاد العرب تعرف عند الآشوريين باسم أريبي وأهلها أوربي أو أوروبي، ومعناها ديار ساكني الخيام.

جزيرة العرب قديمة جداً، ولا تفوقها في القدم ديار مصر وبابل، وقد جاء في كتاب مصادر البشر لمؤلفه صموئيل لينغ الإنكليزي ما نصه: (عثرنا مؤخراً في أصقاع عربية على أنباء آثار وكتابات ربما ضارعت في قدمها أنباء بلاد مصر والكلدان، فقد كانت بلاد العرب، ولم تزل، من الأقطار المجهولة الوعرة، ولا سيما في الأزمنة المتأخرة حينما أصبحت مقدسة في نظر أصحابها، ولا يجوز للرواد والرحالين الأجانب أن يطئوا أرضها، قصد الاكتشاف والتنقيب في طلولها الدوارس).

وقد توفق نفر من السياح الأوربيين وعلمائهم إلى التوغل في بلاد العرب، بعد أن خاطروا بحياتهم وقاسوا من المشاق والأهوال ما لا يوصف، بيد أنهم نالوا مبتغاهم أخيراً، واكتشفوا مواقع المدن القديمة، ونسخوا كتابات عديدة وجدوها مطمورة في الأنقاض ومسطورة على الجدران المتداعية. وفي متاحف أوربا ودور كتبها آثار البلاد العربية المنقوشة على الحجر، وعلى ألواح نحاسية، وعددها يبلغ اليوم نحو ثلاثة آلاف عادية. ومن العلماء الذين جاهدوا جهاد الأبطال في الوقوف على مجاهل هذه البلاد الدكتور غلازر فأنه راد الديار العربية الجنوبية ثلاث مرات، ونسخ في خلالها من الصور والكتابات التي عثر عليها في رحلاته 1031 صورة حملها معه إلى مسقط رأسه، وبينها آثار نفسية، ولأكثرها فائدة تاريخية عظيمة، إذ وقفت علماء الآثار على ما كانوا يجهلونه من تاريخ هذه البلاد ومدينتها في جاهليتها.

لقد استفاد الباحثون المدققون فوائد شتى من أنباء تلك الكتابات ومن غيرها أيضاً، حتى تسنى لهم أن يكشفوا النقاب عن أصل السكان القدماء، ويزيلوا الغموض والإبهام عن تاريخهم ويستقصوا أخبار الأمم الغابرة، وما كانت عليه البلاد العربية من الحضارة والتجارة في العصور العريقة في القدم، واليك ما قاله الأستاذ سايس: (إن ماضي تاريخ شبه جزيرة العرب المظلم قد انبثق فجره بغتة فسطعت أشعته وأنارت وجه المسكونة، فقد وجدنا أن البلاد العربية كانت قبل عصر صاحب الشريعة الإسلامية بزمن مديد أرض الثقافة والأدب والحكمة، وكانت موقع ممالك ودول قوية بلغت شأواً بعيداً في تاريخ العالم القديم، وانتشرت في ربوعها تجارة واسعة) إلى آخر ذلك المقال البديع.

إن زيارة ملكة سبأ أورشليم ومثولها بين يدي سليمان ملك إسرائيل تعد من اللمع الأولى الواردة في الأخبار القديمة، وقد جاء ذكرها في سفر الملوك من التوراة، وكانت تلك الملكة العربية، ويظهر أنها قدمت من ديار كانت لها حضارة عريقة في القدم، ولها سطوة عظيمة بين الأمم، والهدايا التي قدمتها إلى سليمانتدل على أنها جلبت من حاصلات قطر اشتهر

بلبانه وأطايبه، وهذا القطر واقع في جنوب بلاد العرب، وقد عرف باسم سبأ أو شبأ في تاريخ العالم القديم.

انتشرت تجارة هذه المملكة القديمة العهد في أقطار العالم، امتدت إلى بلاد الحبشة والصومال حتى ساحل أفريقيا الشرقي، والكتابات الآشورية تؤكد ذلك، فقد ورد فيها أن سبأ كانت مملكة عظيمة في القرن الثامن قبل الميلاد، وكانت تخومها تحاد تخوم مملكة نينوى من جهة الشمال في عصر (ثغلث فلاسر) وسرجون الثالث، فيستفاد من هذا النبأ وغيره أن بلاد العرب كانت مملكة قديمة جداً، وقد تدرج الحكم فيها من الملوك الكهنة وحكومات المدن المستقلة ودويلات وإمارات إلى اتحاد مملكة عظيمة واسعة الأطراف فسيحة الأرجاء كالتطور السياسي الذي نشأ في مصر وفي بلاد الكلدان. وكان الملوك الكهنة يعرفون باسم (مكارب) كما جاء في بعض الآثار، وواحدهم (مكرب) ويراد به رئيس كهنة السبئيين. وتدل هذه الكلمة على أن الحكم الأول كان عبارة عن دولة تحت رياسة الله (طقراسيه)، هذا ولفظة سبأ اسم آله أطلق على بقعة في بلاد عربية، كما أطلقت كلمة أشور على صقع في بين النهرين وتفيد معنى الآله.

ورد في بعض العاديات أن مملكة سبأ القديمة تأسست على أنقاض دولة أقدم منها عهداً نشأت في هذا الاقليم وعرفت باسم معين، فقد عثر الباحثون المنقبون على أسماء 32 ملكاً من السبئيين والمعينيين، وهذا عدد كبير لا يستهان به، بالنسبة إلى قلة المكتشفات الأثرية في تلك الأصقاع. وجاء في بعض الكتابات أن سلطة بعض الملوك المعينيين لم تكن محصورة في المنطقة الجنوبية بل منتشرة في كل بلاد العرب حتى تخوم سورية ومصر؛ ويؤيد ذلك كل التأييد عثور المنقبين على ثلاثة أسماء من أولئك الملوك في أطلال تيماء الوارد ذكرها في العهد القديم من التوراة في الطريق المؤيدة إلى بلاد الشام وسيناء. وفي البلاد العربية الجنوبية وجدت صحيفة نذر جاء فيها أن أصحابها يشكرون الآله (اطار) على نجاتهم من الحرب الناشبة بين حاكم الجنوب وبين حاكم الشمال، وخلاصهم من القتال الواقع بين مظة ومصر، ويحمدون الآله على عودتهم سالمين إلى مسقط رأسهم مدينة قوران؛ وأصحاب هذه الكتابة يصرحون

بأنهم كانوا تابعين لملك معين المدعو (رابي - يدعى - ياثي) وهو أحد حكام بلاد تسار وأشور ووراء ضفة النهر.

لقد ورد اسم تسار مراراً عديدة في الآثار المصرية كحصن قائم في جهة الحدود العربية، وموقعه يمثل اليوم طرفاً من قناة السويس. هذا وكتابة أخرى تشير إلى غزة، ويظهر من مضمونها أن سلطة الحكام المعينيين امتدت إلى أردم فبلغت فلسطين وما جاورها من البقاع، والقبائل القاطنة فيها خضعت لسلطانهم. وقد أسست المعاقل في البراري والقفار للمحافظة على طرق المواصلات، وأنشئت المدن العظيمة في تلك الأصقاع النائية لتوسيع نطاق التجارة والعمران منذ القدم، لأن سيل التجارة بين الشرق والغرب كان متدفقاً بعضه يجري بطريق البحر الأحمر وبطريق خليج فارس، ومن أطراف هذه المياه الشرقية ينتقل إلى البحر المتوسط، وبعضه يسير في طريق القوافل مجتازاً آسيا.

وكان الاستيلاء على أحدها هذه الطرق يعد طريقة ناجحة في ترويج التجارة وباباً للمواصلات مع ممالك عديدة، فان سليمان ملك إسرائيل لما عقد معاهدة مع مدينة صور أخذت تجارة مملكته تنتشر انتشاراً مطرداً حتى بلغت شأناً عظيماً، ونالت شهرة واسعة، فقصدها التجار الأجانب من كل فج وناحية، والحروب التي وقعت بين المصريين والآشوريين والحثيين والعيلاميين والبابليين كان منشؤها السيطرة على طرق المواصلات، ليتسنى للدولة القابضة على أزمة تلك المسالك أن تروج تجارة بلادها أولاً ثم تفرض الضريبة على البضائع والأموال التي تمر في أراضيها، وبهذه الوسيلة يزداد إيرادها وتقوى شوكتها.

كان للبلاد العربية موقع تجاري مهم، وكانت مركز اتصال بين الشرق والغرب تحميه الصحاري الرملية الوعرة من هجوم الأعداء وتوغلهم في قلب الجزيرة، وتكتنفه البحور فتدفع عنه غارات الدول؛ وكان للأصقاع الجنوبية تجارة واسعة وشهرة عظيمة، فان اللبان والأطايب كانت تصدر بمقادير كبيرة تنفق في أسواق العالم المعروف في ذلك الزمن القديم، وكانت توقد في الهياكل والمذابح والمعابد في قصور الملوك والأمراء وفي دور الأغنياء، ولم يمكن الاستغناء عنها بوجه من الوجوه، لأنها كانت مفروضة في الديانات القديمة كالقرابين والذبائح. فإذا تناولنا مثلاً هيكل سليمان نجد أن فيه كانت تقرب الذبائح ويوقد البخور لتستعطف (يهوه) رب الجنود، ومثل ذلك كان يجري في ألوف من الهياكل والمعابد المنبثة في أطراف آسيا، وكان يجلب معظم اللبان والأطياب المستهلكة في الأماكن
المقدسة من بلاد العرب.

وقد ذهب الكاتب المحقق صموئيل لينغ أن سبب رواج تجارة اللبان والأطياب في الشرق كان لتعطير هواء الهياكل والمذابح والمعابد حيث يكثر فيها ذبح الذبائح وإهراق دماء الكبوش والعجول وتنتشر في أطرافها غازات فينتن المكان ويفسد الهواء؛ ومما لا ريب فيه أن أحسن اللبان وأنفسه كان يجلب من بلاد العرب. وقد عثر أحد المنقبين على صفيحة جاء فيها (إن الروائح العطرية والأطياب السبئية يفوح شذا عبيرها في السواحل العربية الميمونة).

أن للمكتشفات الأثرية في بلاد العرب فوائد جمة لأنها وقفت طائفة من العلماء البارزين على كثير من أنباء هذه الأمصار وعادات أهلها وأسباب اتساع التجارة التي كانوا يتعاطونها مع الديار الدانية والقاصية. وقد أرشدتنا كتابات العاديات إلى أن بلاد العرب عريقة في القدم، ومن ربوعها نزح طوائف من الناس ومصروا ديارا أخر. وكان للبلاد العربية حضارة وعلم وأدب، ولكتابها حروف هجاء خاصة بهم، وأسلوب كتاباتهم يرتقي إلى عهد الكتابة المصرية القديمة وإلى الخط المسماري؛ وقد سبقت بأزمنة طويلة أقدم صور الكتابات بالحروف الفينيقية. وفي عام 1810 اكتشف سيتزن أول كتابة عربية فنسخها ونظمها وصفها حسب الحروف الحميرية المنسوبة إلى حمير. وقد قال العلماء إن لغة تلك الكتابة كانت سامية، وحروف هجائها تماثل الحروف الحبشية، ويظهر أنها معدلة على الحروف الفينيقية وهي مكتوبة بصورة عمودية بدلاً من الأفقية.

وقد أدت مكتشفات وأبحاث الدكتور غلازر إلى أن الكتابة الحميرية قائمة على نوعين أو مجموعتين من الكتابة: فالأولى كانت أقدم من الثانية، وتتضمن حركات أصلية وصور وأشكالاً نحوية وقد عهدها المستشرقون كتابة معينية، بينما قالوا عن الكتابة

الثانية إنها سبئية، لأن لهجتها وصورة كتابتها تدل على أنها أحدث عهداً من شقيقتها.
وظهر ظهوراً بيناً أن قواعد الصرف والنحو وأنواع العلوم والآداب العلمية المعينية سبقت آداب وعلوم السبئيين بزمن وافٍ بحيث أصبحت الأخيرة قابلة لتغيرات عديدة طرأت على مفردات لهجتها ومحصت صرفها ونحوها من الشوائب والزوائد، وليس في هذا التبدل العجيب يد أجنبية فعلت فعلها الأدبي في فتوحها هذه البلاد، بل يرى جمهور المحققين أن القبائل
العربية تطورت أحوالها بجهودها وانتقلت من منزلة إلى أخرى بفعل تدرج عناصرها في سلم النشوء والارتقاء حسب سنة الطبيعة.
أن مملكة السبئيين يرجع عهد تاريخ حضارتها إلى عصر سليمان ملك إسرائيل، أي قبل الميلاد بألف سنة؛ وقد كانت موجودة قبل هذا الزمن بقرون عديدة، لأن جدول أسماء أثنين وثلاثين ملكاً من المعينيين والسبئيين يدل دلالة واضحة على رسوخ قدم هذه الديار في الحضارة والعمران. ومن المرجح أن المكتشفات المقبلة ستقف أبناء هذا العصر على كثير من الأمور التي كان يجهلها أسلافهم. نعم أن أقدم الكتابات المكتشفة تشير إلى حضارة وتجارة وعلم وأدب بزغت أنوارها في ديار قيدار وسالع قبل عهد التاريخ، وعليه قال أحد الأثريين: يجب أن تصف بلاد العرب في مصاف ديار مصر والكلدان لأنها إحدى الممالك القديمة التي ظهر فيها جماعات من القبائل أبلغوها إلى ذروة الحضارة والسؤدد منذ العصور المتوغلة في القدم، وقد نطقت بعض العاديات شهادة صادقة، وهي أن جنوب بلاد العرب يرتقي عهد مدنيته إلى عصر سرجون وإلى منيس.
تشير روايات قديمة وتنبئ أسانيد أثرية عند بلاد العرب الجنوبية أو عن البلاد المتصلة بساحل أفريقية من جهة الشمال الشرقي بأنها كانت مصدر الحضارات الأخرى، فقد جاء في أساطير البابليين أن الآله (أونيس) وهو إله الثقافة عندهم كان يخرج من الخليج الأرثري أي خليج فارس ويهذب الكلدان القدماء، وهو أول من علمهم العلوم ولقنهم الفنون وشهد قدماء الفينيقيين، وقالوا أن منشأهم كان من جزر البحرين الواقعة في الخليج المشار إليه. هذا والمصريون كانوا ينظرون إلى البنط بكل احترام، ويجلون قدرهم ويرفعون منزلتهم فوق الأمم الأخرى. ومن المؤكد الثابت أن موقع هذه الديار كان يمثل بلاد العرب السعيدة وأرض السومال. وقد ذهب أهل مصر في ذلك العهد إلى أن مصدر ثقافتهم وينبوع آدابهم ومعارفهم ومدنيتهم لم يكن في مصر العليا والسفلى بل في مصر الوسطى في أبيدوس حيث حكم توت وأوزيريس، وهناك مضيق يفصل النيل عن البحر الأحمر، وهذه الشقة الضيقة من الأرض كانت من أهم وأعظم طرق المواصلات التجارية بين البلاد العربية ومصر.
كانت أواصر الألفة والاتحاد متينة بين المصريين والبنطيين منذ الأزمنة القديمة، وهذه قضية تؤيدها الكتابات المصرية القديمة العهد، فان ما دون في بطون الأسفار عن حسن الجوار بين هاتين المملكتين يخالف ما جاء مسطوراً على الحجر من عبارات النفور والكراهية الموجهة إلى سائر الأمم المجاورة لمصر كالحيثيين والليبيين والزنوج وغيرهم؛ فأن المصريين كانوا يلقبونهم بالبرابرة، والوحوش الضارية، والأوغاد والأنذال، وهذه شهادة ناطقة ثبت ما كان للعرب القدماء من الشهامة وعزت النفس وإغاثة الملهوفين.
وقد جاء منقوراً في بعض الآثار أن طائفة من السفن التجارية أبحرت إلى ديار البنط في عصر الملكة العظيمة (هتسو) وهي إحدى ملكات الدولة التاسعة عشرة، وكانت الغاية من تلك السفرة مبادلة البضائع بين القطرين دلالة على الولاء والصفاء. وعادت تلك السفن إلى مصر مشحونة بالسلع النفيسة، حتى أن ملك تلك الديار وزوجه رافقا ذلك الأسطول التجاري، وحملا معهما هدايا لا نظير لها إلى فرعون مصر. ويظهر أن محالفة تجارية كانت معقودة بين البلادين، وأن سفن هاتين الدولتين تمخر في البحر الأحمر وفي سواحل أفريقية منذ القدم.
أن رسوم رؤساء البنط الطبيعية المنقورة على الأنصاب المصرية تشبه كل الشبه الرسوم الطبقة المالكة في ديار مصر في عصورها الأولى، وجميع الأدلة تحملنا على الاعتقاد أن وطن الساميين الأول كان في الجنوب الغربي من آسيا. وقد ذهب جماعة من المؤرخين إلى أن جزيرة العرب كانت مهد الأقوام السامية قبل عصر التاريخ، فأن

الباحث يرى أثارهم ظاهرة في كل صقع كشعب مهاجر أو فاتح أو غاز سكان بلاد أخرى أقدم منهم عهداً ويختلفون عنهم في اللسان والعادات والعنصر؛ غير أن الأمر لم يكن كذلك في بلاد العرب، فأن أهاليها كانوا أصليين فيها. فإذا أخذنا مثلاً ديار الكلدان والآشوريين نراها تمثل أقواماً وشعوباً وأمماً جاء عنهم في الأسانيد القديمة وفي الروايات المأثورة أنهم كانوا قد وفدوا على بين النهرين من الجنوب عن طريق خليج فارس، وعلى طريق بادية الشام من بلاد العرب، فأخذ هؤلاء النازحون شيئاً فشيئاً يتحدون بالشعب الشمري والأكدي بالمصاهرة؛ وبعد مرور أجيال عديدة تغلب العنصر السامي العربي على سائر العناصر، وأصبح سيد هذه الديار، وأسس حضارة جديدة في عصر
حمورابي ملك بابل العظيم الممدود أول من جمع وسن الشرائع في العالم القديم. بيد أن
العنصر السامي لم يؤثر في حضارة المصريين القدماء، لأن الساميين لم يحتلوا بلادهم احتلالاً طويلاً، بل كانوا يحملون عليهم حملات متواصلة؛ وقبل أن ترسخ أقدامهم في تلك الربوع كانوا يردون على أعقابهم مدحورين. أما في سورية وفلسطين فكان الفينيقيون والكنعانيون والعبريون، وهؤلاء الأقوام لم يكونوا بالسكان الأولين، لأنهم حينما احتلوا هذه البقاع وجدوا فيها عناصر أخرى كل كالأموريين والحيثيين واليبوسيين، وأصل هذه الشعوب يرجع إلى السكان الأصليين المنتمين إلى طائفة من القبائل المنقرضة المعروفة في التاريخ القديم باسم زامومیم، ومن هؤلاء من وفد إلى هذه الديار من خليج فارس ومنهم من تخوم بلاد العرب. يجد المنقب في بلاد العرب العنصر السامي سائداً منذ الأزمنة القديمة، ولا يجد له أثراً في صقع آخر في ذلك العهد العهيد، فقد انتشرت لغته وسارت عاداته وعمت الديار المجاورة لبلاده، ثم تدرجت حضارته السابقة لمملكة المعينيين العريقة في القدم وذلك في أواخر العصر الحجري وأوائل عصر النحاس. وهنا يشاهد الباحث العصريين مشتبكين متلازمين؛ فقد أنتقل القناصون والسماكون من عصر الانحطاط إلى عصر التجدد، فبلغوا مستوى ثقافة حديثة وحياة اجتماعية عالية، إذ أصبحوا فلاحين وزارعين ورعاة غنم وتجاراً وصناعاً.

لنرجع من تلك الحضارة القديمة ولنعد النظر في اكتشاف الكتابة المعينية التي تدلنا على وجود حروف هجائية أقدم عهداً من الحروف الفينيقية التي اشتهرت في العالم القيم بأنها الحروف الأولى التي استنبطت لغاية تدوين الأفكار وصيانتها من الاندثار والطموس. وقد أجمع أهل التحقيق والتدقيق على أن حروف الهجاء اليونانية والرومانية وسائر حروف هجاء الأمم الحديثة مقتبسة كلها أما رأساً أو بوسيلة من الوسائل من مخترعيها الفينيقيين، غير أن كتابة المعينيين كشفت اللثام عن صور كتابة أقدم عهداً من جميع الكتابات التي ظهرت وانتشرت في ذلك الحين، ومن ثم فقد ذهب بعض العلماء الواقفين على أصل اللغة وتركيبها وتاريخها إلى أن الحروف الفينيقية مشتقة من الحروف المعينية.

لا شك في أن اللغة المعينية وحروفها أقدم عهداً بكثير من لغة الساميين وكتاباتهم، ومن المحتمل أن العناصر السامية اختارت تلك الحروف بعد أن عدلتها وهذبتها حسب طبيعتها وميلها. وكان للمقتبسين علاقات تجارية ومواصلات بريدية مستمرة تحمل على ظهور
الجمال فتخترق القوافل صحاري بلاد العرب وتعود حاملة لبانها وطيوبها وأفاويهها وآدابها ومعارفها، ولا يعقل أن تلك الأقوام استمرت جاهلة استعمال حروف الهجاء حتى اقتبستها فينيقية من مصر ونشرتها في أطراف المعمور. وقد أيد الأستاذ سايس هذا الرأي بقوله (أنه إذا ذهبنا إلى أن مصدر الحروف ومنشأها كان في بلاد العرب يكون أحسن حل لهذه المعضلة) لأن أسماء صور الحروف الفينيقية ليس فيها أدنى شبه في كثير من الأحوال للرموز والإشارات التي تدل عليها، فأن تناولنا - مثلاً - الحرف الأول وهو ألف (ثور) فأن رسم الألف يشابه كل المشابهة رأس ذلك الحيوان في الكتابة المعينيية، هذا وإن أمعنا النظر في الحروف الهيروغليفية وهي الحروف المصرية القديمة فلا نجد شبهاً لذلك الحرف.

أن المكتشفات واللقي المقبلة في بلاد العرب ستوقفنا على أنباء الشعوب التي

سكنت تلك الأصقاع ومصرتها قبل عصر التاريخ، فقد كانت بلاد الكنعانيين متحضرة قبل حملة الإسرائيليين عليها وتدويخها، وكان لهم حروف هجاء وآداب خاصة بهم تعد أقدم عهداً من الكتابة الفينيقية وآدابها. وهذا التنقيب في ديار العرب وفلسطين سيكشف النقاب عن وقائع وأنباء لا تزال مطمورة في أنقاض المدن القديمة التي تضارع بل ربما تفوق في قدمها بلاد مصر والكلدان، وهي تنتظر بفروغ صبر معاول المنقبين لتنبشها من مدافنها وتنشرها في عالم الظهور لكي ترى نور الشمس الساطعة، بعد أن احتجبت عنها قروناً عديدة.

بغداد

رزوق عيسى

عقوبة الإعدام

رأي الفريد روكو وزير حقانية إيطاليا

للأستاذ محمود خيرت

في سنة 1851 ساق بعض الحراس الفرنسيين شاباً في العقد الثالث من عمره إلى المقصلة تنفيذاً للحكم الصادر عليه. وما كاد يقترب منها وتقع عليها عيناه حتى اضطرب وجن، فوقف وكأنه تسمر في الأرض، وأخذ الحراس يدفعونه إليها دفعاً، وهو يقاومهم مقاومة الجبار اليائس، وكان وافر الجسم مفتول الساعدين قوي العضلات.

وكان الناس من حولهم ينظرون إلى هذا الصراع بين قوتين غير متعادلتين تريد إحداهما للأخرى الموت، وتريد هذه لنفسها الحياة. حتى إذا مضت على ذلك نحو ساعة والحراس كلما تقدموا به نحو المقصلة خطوة رجع هو بهم إلى الوراء خطوتين، خارت قواهم ولم يجدوا خيراً من أن يعودوا أدراجهم به، والناس يظنون أن الأمر وقف عند هذا الحد، وكأن كابوساً أرتفع عن صدورهم بعد ما رأوه من هول الموقف، وما كان إلا صراعاً عنيفاً بين حياة وموت. ولكن الجنود عادوا به في المساء بعد أن ضاعفوا عددهم، وبعد أن أحكموا وثاقه حيث نفذوا الحكم فيه. وكان من بين من حضروا هذا المشهد المثير شارل هوجو، وكان من أنصار إلغاء عقوبة الإعدام، فوصف ما رآه وأفاض في شناعته في جريدة الحادث ولكن النائب العام وجه إليه هو ومدير الجريدة تهمة تعمد احتقار القانون.

أما شارل فقد كان الذي تولى الدفاع عنه أبوه فكتور هوجو الكاتب الكبير، وإذا ذكرنا فكتور هوجو فقد ذكرنا قوة الجنان، وسحر البيان، وذلاقة اللسان، ولا سيما أنه إنما كان يدافع عن ولده وفلذة كبده، حتى أنه قال في بعض ما تناول دفاعه: (أنا المجرم دون ولدي، لأني أنا الذي وقفته هذا الموقف، وكنت من خمس وعشرين سنة لا آلو جهداً في محاربة عقوبة الإعدام. وقد عز علي أن لا أكون نصيراً للحياة البشرية أطلب احترامها والإبقاء عليها، منادياً ذلك في كل وقت وعند كل مقام بأعلى صوتي وبملء فمي، لأن عقوبة الإعدام بقية من بقايا الدم بالدم شريعة الوحشية الأولى).

وقد كان هناك غير فكتور هوجو كثيرون من أنصار هذه العقيدة، وأكبر حججهم في شناعة هذه العقوبة إن إعدام المجرمين فوق أنه مناف لقواعد الرحمة، وأن العقوبة يجب أن

يراعي فيها الإصلاح لا الانتقام، فان منظره يقسي قلوب الناس، ويبذر فيها بذور الغلظة والتوحش. ولكن كيف نسى هؤلاء المفكرون أن الثورة الفرنسية نفسها التي قررت حقوق الإنسان، والتي يشيد بذكرها فكتور هوجو وغيره لم تقم إلا على الدم، وكيف يريدون أن تشمل السفاكين رحمة القانون وقد وطئوا بأقدامهم هذه الرحمة وهم يقتلون. ألا أن شريعة الدم بالدم، لم تكن أثراً من آثار الوحشية الأولى، وإنما كانت سبباً شريفاً من أسباب العدل، وأثراً محموداً من آثار الرحمة لا بالمجرمين ولكن بالناس أجمعين. إن طبيعة الحياة نفسها تقضي ببتر العضو الفاسد من الجسد حتى لا يتعدى فساده إليه، فكيف نقبل هذا في الجسم الواحد ولا نقبله في جسم المجتمع كله، بل أن قواعد الفهم تربأ بنا أن نسلم إفلات المجرم من حكم القانون لا يشجعه على السير في شروره وقد استمر أطعم العدوان وأمن غوائل العقوبة.

وعلى كل حال فأن عقوبة الإعدام برغم محاولة هؤلاء الأنصار لا تزال قائمة، مع أنها أبطلت في فرنسا مرة، وفي إيطاليا بعدها مرة أخرى. (ومن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم. . . ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب). ومع ذلك

فهذا رأي المسيو الأفريد روكو بصدد هذا البحث، وحسبنا أنه من أئمة التشريع في إيطاليا، وهو وزير حقانيتها قال: (لما أن كانت إيطاليا من أندر الدول التي ألغيت عقوبة الإعدام سألني كثيرون عما إذا كان إلغاؤها عاد بالفائدة على مجتمعنا؟ وقبل أن أخوض في الرد على السائلين أسجل هذا الحادث الغريب، وهو أننا أخذنا هذا التشريع عن الفرنسيين برغم أنهم بعد أن جربوه عدلوا عنه للنتائج الخطيرة التي ترتبت عليه. أخذناه عنهم على سبيل التجربة نحن أيضاً، وكان ذلك في عهد لم يكن يخطر ببالنا قيام نظام الفاشستية فيما بعد، وعلى كل حال فأن هذا الإصلاح الذي فكر الشارع الإيطالي في إدخاله على قوانيننا الجنائية لم يجرنا إلى الفشل الذي أصاب جيراننا من إدخاله على قوانينهم.

ولكن يلاحظ أن هبوط نسبة الجرائم بعد هذا التعديل لا يمكن في الواقع إرجاعه إلى مجرد إلغاء هذه العقوبة ونحن نرى انخفاضها في كثير من البلدان التي جرت قوانينها على إعدام القتلة. على أننا مع ذلك غير آسفين لسن تشريع كهذا هو مما لا شك فيه اتجاه محمود نحو الرفق بالإنسانية. بل أن أنصاره عندنا لم يحذوا حذو روبسبيير الذي أرسل كما نعلم آلاف الأبرياء إلى المقصلة، وهو الذي كان يشيد بذكره ويعتبر بقاء عقوبة الإعدام ضرباً من ضروب الوحشية.

وقد دل إحصاء عدد الجرائم التي كانت تستوجب هذه العقوبة بعد الحرب الكبرى على اطراد في هبوط النسبة التي أشرنا إليها، فأن عدد حوادث القتل من سنة 1919 إلى 1920 ينيف إلى ستة آلاف حادثة، ولكن هذا العدد هبط في السنة الأخيرة إلى أكثر بقليل من ألفين، إلا أن جزءاً كبيراً من هذا العدد الأخير يتعلق بالجرائم التي لا يمكن لأية عقوبة مهما كانت من الشدة أن تحول دون وقوعها كالجرائم التي أساسها الشهوات الثائرة وما يترتب عليها كما يسميها الفرنسيون، لأنها بطبيعتها لا مناص من وقوعها؛ فالرجال والنساء إذا لدغتهم الغيرة أو خدعوا في حب وجدوا كل شيء تقع عيونهم عليه مصبوغاً بالدم، فلا يلبثون أن يندفعوا إلى الأثم مهما وقفت بينه وبينهم كل عقوبات الدنيا، حتى أن محلّفي محاكم البلدان اللاتينية أصبحوا على اعتقاد ثابت بأن هذه الجرائم لا يمكن تجنبها؛ ولذلك فهم يقضون في الغالب لبراءة من يساقون إلى ارتكابها. على أنني كنت أميل إلى هذا الاتجاه - لأن هذه الجرائم لا تخلو دائماً من ظروف مخففة تحيط بها - إلا أنني أرى أن تعليل هذه الأحكام دائماً باضطراب الحواس عند ارتكابها فيه كثير من التطرف. ذلك لأن لكل عقوبة بشرية دائماً وجهين يجب ملاحظتها فإذا ما نظرنا إلى الجريمة من حيث الفرد الذي أقدم عليها في ذاته كان ما ذهب إليه لمبروزو من عدم قيام المسؤولية الجنائية بسبب ما يحيط به مقبولاً، لأنه وإن كان حراً فيما فعل إلا أنه ما كان في مقدوره أن يفلت من تأثير الأسباب الباطنة الراسخة فيه. وفي هذا الموقف يجب اعتبار العقوبة كوسيلة من وسائل إصلاحه لا كعقوبة يراعى أن يتساوى أثرها مع أثر الجرم الذي أقدم عليه. وفي الواقع كيف يسوغ لك أن تعدم شخصاً كان في جرم تحت سلطان قانون الوراثة، أو تأثير البيئة، أو كانت نفسه فقيرة من أسباب التهذيب والتربية، بغير أن تكون قاسياً عليه بعيداً عن إنصافه؟ أما إذا اعتبرناه عضواً في جسم المجتمع الذي يعيش فيه، فمؤاخذته على هذا الاعتبار يجب أن يكون لها صفة العقوبة التي يستحقها وأن كانت صارمة.

وإذا سألتني الآن رأيي في ضرورة عقوبة الإعدام، أجبتك بأنها يمكن أن تكون كذلك في أغلب الأحوال. بل إنني لأعلم أن كثيراً من الجرائم الوحشية التي تستحق الإعدام كان يمكن ألا تقع لو أن هذه العقوبة الشديدة قائمة كالجرائم التي تقع من الفوضويين.

وقد ذكرني هذا البحث بحادثة ضمنها القصصي الفرنسي جول فيرن في أحد كتبه تتلخص في أن بعض المهاجرين كادوا يغرقون على مقربة من إحدى جزر المحيط الهادي، ولم يكن على ظهرها غير فيلسوف فوضوي نفر من العالم وفر منه إليها. فلما أقبلوا عليه أكرمهم ودعاهم إلى اعتناق مذهبه. ولكن أسباب الحياة تغيرت بعد قليل ودب الخلاف فيما بينهم، فلم ير لنشر السلام بينهم إلا أن يفرض عليهم إرادته فرضاً فكان مثله فيهم كمثل الحاكم المستبد (ديكتاتور). وهذه الغاية لا تبعد عن نظريتي في العقوبة كثيراً، فالأحكام التي يقررها قانوننا الجنائي أشبه بهذا الحاكم، بغيرها لا يكون

(. .هناك أمن على الحياة، وإنما تكون الفوضى
محمود خيرت
بقلم قضايا المالية
مقتل شاعر
للأستاذ علي الطنطاوي
أفاق (هُدْبَة بن خَشْرَمَ) وما يدري أصبح أم مساء، وما يعلم من أمر الحياة شيئاً. . ولقد غبر عليه سبعة أعوام ما رأى فيها وضح النهار، ولا اجتلى صفحة السماء. كأنما هو نصف حي، وكأن حياته (مختصر حياة). . فالسنوات السبع بنعيمها وبؤسها، وليلها ونهارها، ليلة واحدة، طالت وامتدت، ثم لا يكون صبحها إلا الموت. . والدنيا على ربحها وسعتها، وجمالها وجلالها، غرفة ضيقة فيها أكثر معاني القبر. . . وما بعدها إلا القبر!
ونظر يميناً، ونظر شمالاً، وجعل ينفض المكان بعينه، فلا يبصر إلا الظلام، وحاول النهوض فجذبته إلى الأرض سلاسل غليظة، شدوه بها إلى حلقةٍ متينة. . .
سمع صَلصَلة الحديد في عنقه ويديه، فعاد إلى نفسه يذكر ما كان من أمره، ويستعيد قصته كلها، ويرى كيف. . . دخلت عليه أخته فاطمة، وبيدها المِجْمَر، فقال لها:
- ويحك ما هذا؟
- هذا لك! قم أستجمر، إنما أنت من النساء
- وما ذاك لا أمّ لك؟
- فقالت: أنت قابع في كسر الخيمة كما تقبع العجوز، وهذا زيادة يتغزل في أختك، ويرسل فيها الشعر يفضحها به في العرب
- ماذا؟ زيادة؟
- زيادة! نعم. زيادة يهتك نسائك، ويفري عرضك. . .
فوثب هُدبة يقول: زيادة يهتك نسائي ويفري عرضي؟. . والله لأجأنَّه بهذا السيف.
فقامت إليه تعنفه وتلومه:
- والله ما علمت أنكمجنون إلا الساعة! أتعمد إلى ابن عمك فتقتله، فتحقق ما قاله فيّ، وتنصرف بسبّة الدهر؟ قلْ في أخته (أم قاسم) مثل ما قال الخبيث في أختك، فإذا بدأك بالشر، جزيته به شراً
- إذاً لأجعلنها والله أحدوثة الأبد
- شأنك بها يومئذ. . .
وكان ما ظنت فاطمة قبيّت زيادة هدبه وأهل بيته، وهم عنه غافلون، فضرب هدبه على ساعده، وشج أباه خرشماً. وانصرف يقول:
شججنا خرشماً في الرأس عشراً ... ووقفنا هديبةً إذ أتانا
فثارت ثائرة هدبة، فتقلد سيفه وأنصرف لا يلوى على شيء، حتى وجد زيادة فجلله به فقتله. ولما سكت عنه الغضب، ورأى انه قتل رجلاً مسلماً ندم وجعل يلوم نفسه ويقرعها:
- ويل لي! ماذا صنعت اعتمدت إلى أبن عمي فقتلته، ومن قتل نفساً مؤمنة فكأنما قتل الناس جميعاً. فعلتها من أجل هفوة لا تقدم ولا تؤخر: يا نفسُ ما أضلك وأشقاك! ألم يردعك دين؟ ألم يحجزك إيمان؟ ألم تُنَهْنِه من عزمك جهنم؟ ماذا تقولين لربك غداً؟ وانطلق يقول لها هذا وشبهه حتى طلع الفجر. . .
وكان الغد، فإذا عبد الرحمن (أخو زيادة) عند أمير المدينة سعيد بن العاص يشكو إليه قتل أخيه. وأحضر سعيد هُدبَة، فلم ينكر ولم يكذب. . . وكره سعيد أن يقتل هدبة، وهو الشاعر المتقدم، لسان بادية الحجاز، وهو أخو ثلاثة كلهم شاعر: حوط وسيحان والواسع. . . وهو الفارس الكريم المحبوب. . ولم يكن يستطيع أن يعفو أو يغير حكم الله. فبعث بهما سعيد إلى (معاوية)
وكان معاوية ظنيناً بهذا الشاعر أن يعرضه على القتل، ولكن حكم الله فوق هوى أمير المؤمنين. . . فلما مثلا بين يديه، قال عبد الرحمن:
- أشكو إليك يا أمير المؤمنين مظلمتي، وقتلي أخي، وترويع نسوتي!
فقال معاوية:
- يا هُدبَة! قُلْ
- فقال هدبة (مرتجلاً):

ألا يا لقومي للنوائب والدهر ... وللمرء يردي نفسه وهو لا يدري
وللأرض كم من صالح قد ... تلمأت عليه فوارته بلماعة قفر
فلا تتقي ذا هيبة لجلاله ... ولا ذا ضياع هن يتركن للفقر
حتى قال:
رُمينا فرامينا فصادف رمينا ... منايا رجال في كتاب وفي قدر
فلما رأينا إنما هي ضربة من ... السيف أو إغضاء عين على وتر
عمدنا إلى أمر لا يعير والدي ... خزايته ولا يُسب به قبري
وأنت أمير المؤمنين فما لنا ... ورائك من معدى ولا عنك من قصر
فان تك من أموالنا لم نضق ... بها ذراعاً، وإن صبر فنصبر للصبر
فقال معاوية:
- أراك أقررت بقتلك صاحبهم
وكره أن يقتله، وما كان له أن يعفو، ففكر ثم قال لعبد الرحمن:
- هل لزيادة ولد؟
- قال: نعم، المسور، وهو غلام صغير لم يبلغ، وأنا عمه وولي دم أبيه
- قال: أنك لا تؤمَنُ على أخذ الدية أو قتل الرجل بغير حق. والمسوّر أحق بدم أبيه،
فليرد هدبة إلى المدينة، فليجلس بها حتى يرشد المسور فيكون له حكمه في القاتل
وتنبه هُدْبة وسمع مرة ثانية صَلصَلة الحديد، وأحس بدنو الساعة التي يقف فيها على
شفير الهاوية فأما إلى الموت، وإما إلى حياة. فجزع واضطرب، ثم أدركه من نعمة
الإيمان ما يدرك كل مؤمن حاق به الخطر، فسكن وأطمئن، وراح يهدئ نفسه
ويسكنها. . . ويقول:
عسى الكرب الذي أمسيت ... فيه يكون وراءه فرج قريب
فيأمن خائف، ويفك عان ... ويأبى أهله النائي الغريب
فلما كان صباح تلك الليلة، لم يسمع في المدينة إلا نبأ واحد، يجري على كل لسان،
ويلج كل أذن:
- اليوم يوم هُدبة - اليوم يسلم إلى المسوّر بن زيادة ليحكم فيه - إنه سيقتله - بل
سيعفو - لن يعفو عنه - لن يقتله. . . .
وخرج الناس أرسالاً إلى الحرّة، فلم ير مثله من يوم، خلت فيه المدينة إلا من شيخ
فان أو امرأة عاجزة، وانتقلت بأهلها إلى الحرّة. . . .
وما هي حتى جيء بالرجل وهو مثقل بالحديد، وقد صدئ عليه وحجزه في جسمه،
وبليت من دونه ثيابه. فماج الناس وإزدحموا بالمناكب، واشرأبت الأعناق، وارتاع
النساء وأجفلن وعرتهن رعدة. . . ثم قاضت منهم العيون شفقة ورحمة
ثم انتهى به إلى الحرة، وقد جلس فيها الأمير سعيد بن العاص ووجهاء المدينة، وأقيم
المسوّر ليقول كلمته. وقام إليه رسول معاوية فعرض عليه عشر ديات من خالص مال
أمير المؤمنين، فأباها، فعرض عليه سعيد ووجهاء المدينة أضعافها فأبى إلا قتل هُدبة. . .
فاصفرت وجوه الناس، وودوا لو حالوا بالقوة بين هُدبة وبين القتل، ولكن حجزهم
احترام الحق، ومنعتهم هيبة الدين فلبثوا صامتين كأن على رؤوسهم الطير، ونظروا
إلى هُدبة. فرفع رأسه وأنشد بصوت شجي رائع:
ألا عللاني قبل نوح النوائح ... وقبل ارتقاء النفس فوق الجوانح
وقبل غد يا لهف قلبي من غد ... إذا راح أصحابي ولست برائح
إذا راح أصحابي تفيض نفسي ... وغودرت في لحدٍ على صفائحي
يقولون هل أصلحتم لأخيكم وما ... القبر في الأرض الفضاء بصالح
فضج النسوة بالبكاء، وماج الناس، فأشار إليهم فأسكتهم، وخاطب امرأته وكانت من
أجمل النساء وكان أجدع:
أقلّي على اللوم يا أم بوزعا ... ولا تجزعي مما أصاب فأوجعا
ولا تنكحي أن فرّق الدهر بيننا ... أغمم القفا والوجه ليس بأنزعا
ضروباً بلحييه على عظم زوره ... إذا الناس هشوا للفعال تقنعا
وحلي بذي أكرومة وحمية ... وصبر إذا ما الدهر عضّ فأسرعا
وعَرَى الناس صمت عميق، وأقبلوا ينظرون بماذا تجيب هذه المرأة. أتفي وهي الشابة

الجميلة الفاتنة لرجل أجدع هو الساعة ميت، وتقيم علي عهده، وتحرم على نفسها من أجله الرجال، أم هي تعده وتمنيه، حتى إذا مات انطلقت فتزوجت؟ وجعلوا يتهامسون، ويتقولون. . .

أما هي، فلم يكن منها إلا أن مالت إلى رجل، فسألته شيئاً، ثم أرسلت ملحفتها على وجهها هُنية، ثم عادت فإذا. . . فإذا هي قد جدعت أنفها، وقطعت شفتيها. . .

وقالت: يا هُدبة! أتراني متزوجة بعد ما ترى؟. . فقال: لا، الآن طاب الموت، ثم أستأذن في ركعتين فصلاهما وخفف، ثم التفت إلى من حضر، وقال: والله لولا أن يظن بي الجزع لأطلتها، فقد كنت محتاجاً إلى إطالتهما

ثم تقدم من المسوّر وقال: أثبت قدميك، وأجد الضربة، فإني قد أيتمتك صغيراً وأرملت أمك شابة. . .

علي الطنطاوي

بين فن التاريخ وفن الحرب

خالد بن الوليد في حروب الردة - 11

للفريق طه باشا الهاشمي

رئيس أركان الجيش العراقي

لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما في بدني شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة، وهأنذا (أموت على فراشي كما يموت البعير! فلا نامت أعين الجبناء).

خالد بن الوليد

فوصلت المقدمة مساء إلى القرب من ثنية اليمامة ولقيت مفرزة من بني حنيفة نياماً في أسفل العقبة فباغتهم وأسرتهم؛ وكانت هذه المفرزة مؤلفة من ستين رجلاً بقيادة مجاعة بن مرارة أحد رؤساء بني حنيفة

والروايات جميعاً متفقة على أن مجاعة خرج من اليمامة على رأس سرية يطلب بثأر له في بني عامر وبني تميم، لأن بني عامر منعوه من أن يتزوج خولة بنت جعفر. وبعد أن باغت بني عامر عاد بخولة ووقف في أسفل العقبة مع رجاله ليبيت ليلته هناك وإذا المسلمون يباغتونه ويقودونه مع رجال أسرى إلى خالد

والذي يلوح لنا أن مجاعة كان يراقب مجيء جيش المسلمين من الثنية - أي عقبة الحيسية -. ويظهر أن قوة المسلمين باغتته دون أن يستطيع التملص منها، فلما وقف أمام خالد زعم أنه خرج للثأر

وتزعم الروايات أن خالداً قتل رجال مجاعة لتأكده كفرهم، واستبقى مجاعة ليستفيد منه في حركاته على مسيلمة. فيما ترى هل تواطأ مجاعة مع خالد على مسيلمة، أو أنه تأكد نصر المسلمين فأراد أن يسوخ موقفه أمامهم فعرض الخدمة على خالد؟ أو أنه خرج برجاله ليلتحق بجيش المسلمين فيدلهم على عورات أعداهم؟ ذلك ما لا نعلمه العلم الأكيد. والمحقق أن مجاعة ظل محجوراً عليه في معسكر خالد وقام بالواسطة بين خالد وبني حنيفة لعقد الصلح بعد انكسار جيشهم في عقرباء، فأفاد الفريقين بتلك الوساطة. ولا بد أن خالداً استجوب مجاعة فاستقى منه جميع الأخبار الموثوق بها عن مسيلمة وجيشه، فعلم منه أن مسيلمة ينتظر وروده في عقرباء.

المعركة

في رواية تقلها ابن حبيش أن خالداً لما تثبت من عسكرة جيش مسيلمة في عقرباء شاور أصحابه في الأمر فأشاروا عليه جميعهم أن يتقدم نحو عقرباء. وكانت الأخبار تنم على أن طليعة الحنفيين يقودها الرحال، وهو من رؤساء بني حنيفة، فتقدم خالد حينئذ بجيشه نحو العدو. فجعل أبا حذيفة على الميمنة وشجاع ابن وهب على الميسرة، وكان زيد بن الخطاب يحمل راية المهاجرين، وثابت بن قيس يحمل راية الأنصار. وعزل خالد براً بن مالك من قيادة الخيالة وأحل من محله أسامة بن زيد

أما جيش بن مسيلمة فكان موالياً وجهه شطر الشمال الغربي ومترتباً في سهل عقرباء بين جبل صلبوخ ووادي حنيفة. فيستدل من ذلك على أن الأرض كانت صالحة لاتخاذ نظام القتال ولحركة الخيالة، وتنم الروايات على أن ريحاً جنوبية مغبرة هبت في وجه المسلمين وزحزحتهم عن مكانهم في القتال - أي أن جبهة المسلمين كانت موجهة نحو الجنوب الشرقي. ويظهر أن قوة الرحال انسحبت لما رأت المسلمين

قادمين نحوها. وكان جيش مسيلمة مرتباً على الأسلوب الشائع ومنقسماً إلى ثلاثة أقسام: الميمنة والميسرة والقلب - ولم يكن الضعن خلفه لأن قرى بن حنيفة كانت في الخلف على ما نعلم

وكان محكم بن طفيل - وهو من أجل رؤساء بني حنيفة شأناً على الميمنة، وعلى الميسرة، وشرحبيل بن مسيلمة يقود القلب. فكان مسيلمة وراء القلب يراقب مجرى القتال. وبعد أن قضى المسلمين ليلتهم في عقبة الحيسية - أي ثنية اليمامة - واستوثق خالد من أمر مجاعة، تحرك الجيش صباحاً وكانت الشقة بينه وبين عقرباء مسير يوم. وفي رواية نقلها الطبري أن الموقع الذي باغت المسلمين فيه مجاعة بن مرارة يبعد عن عسكر مسيلمة مسير ليلة. والحقيقة أن المسافة بين العقبة وعقرباء لا تزيد عن خمسة وعشرين ميلاً - أي مسير يوم من ذلك الزمن والظاهر أن خالداً قضى ليلته التي سبقت يوم المعركة قريباً من جيش مسيلمة، لأن المعركة بدأت صباحاً واستمرت إلى العصر. وكان الموقع الذي أختاره كثيباً مشرفاً على اليمامة كما ينقله الطبري. وسبق أن رأينا من وصف فلبي لرابية الأبكين أنها تشرف على وادي حنيفة وتتسلط على الأرض الممتدة إلى الجنوب. فالأرض في الشمال تتسلط على الأرض في الجنوب، وكان لوضع الأرض على هذه الصورة فائدة لجيش المسلمين

وليس لدينا معلومات عن تعبئة المسلمين في ميدان القتال، وتدل الأخبار على أن أبا حذيفة كان يقود الميمنة وشجاعا الميسرة ويزيد بن الخطاب القلب وأسامة بن زيد الخيالة. فهل كان كل من المهاجرين والأنصار على مجنبة من المجنبتين، وكانت القبائل في القلب؟ أو أن المهاجرين والأنصار كانوا في القلب وكانت القبائل في المجنبتين؟ أو أن المهاجرين كانوا في القلب مع قبائل الحجاز، وكان الأنصار على إحدى المجنبتين وكانت قبائل البادية في المجنبة الأخرى؟

هذه أسئلة يصعب الإجابة عنها. والواضح من مجرى القتال أن إحدى المجنبتين (ولعلها الميسرة) انهزمت فتلاها القلب ووصل إلى الخيام في الضعن. وأن أهل القرى - المهاجرين والأنصار وأهل الحجاز - عزوا هذه الهزيمة التي كادت تقضي على المسلمين إلى أهل البادية. فلنا من ذلك أن أهل البادية كانوا في الميسرة، وكان المهاجرون مع بعض قبائل الحي في الميمنة، والأنصار مع البعض الآخر من قبائل الحجاز في القلب. ويظهر أن الخيالة كانت في الأمام فانسحبت إلى الميسرة لتراقب الوادي، وكان الضعن وراء القلب وفيه الخيام والنساء. ووقف خالد بن الوليد وراء القلب يراقب سير القتال.

صفحات القتال

نشبت المعركة صباحاً واستمرت إلى العصر. فبذل الفريقان قصاراهما لتغلب أحدهما على الآخر واقتتلا اقتتالاً شديداً. وكما يقول الطبري كانت الحرب لم يلق المسلمون مثلها قط. وجرى القتال في ثلاث صفحات: تغلب الحنفيون في الصفحة الأولى على المسلمين وأزاحوهم إلى الضعن وكادوا ينتصرون عليهم. وفي الصفحة الثانية كر المسلمون راجعين فتغلبوا على أعدائهم فأزاحوهم من المحل الذي وصلوا إليه. وبعد أن تضافرت جهودهم استطاعوا أن يهزموا الحنفيين. وفي الصفحة الثالثة اعتصم الحنفيون في الحديقة فحاصرها المسلمون من كل صوب ودخلوها عنوة وقضوا على البقية الباقية من الحنفيين. ونذكر فيما يلي مجرى القتال في كل صفحة من الصفحات الثلاث:

الصفحة الأولى

بدأ القتال صباحاً بتحميس القواد رجالهم بالكلمات المأثورة والخطب الحماسية. فنادى شرحبيل بن مسيلمة في رجاله قائلاً: (يا بني حنيفة اليوم يوم الغيرة، إن هزمتم تستردف النساء سبيات وينكحن غير حظيات. قاتلوا عن أحسابكم وامنعوا نساءكم) وكان أول القتال براز بين الفريقين كما جرت عليه عادة العرب، فقتل في هذا البراز الرحال بم عنفوة الذي كان في طليعة الحنفيين قبل القتال. وكان على الميسرة قتلة زيد بن الخطاب، ويظهر رؤساء آخرين من بني حنيفة قتلوا في البراز مما حمل الطبري على القول: (قتل الرحال وأهل البصائر من بني حنيفة) وبدلاً من أن يوهن هذا القتل عزائم بني حنيفة شدد عزيمتهم فتذامروا وحمل كل قوم في ناحية. ويلوح من

مجرى القتال أن الضربة كانت قوية من الجانب الأيمن على ميسرة المسلمين فزحزحتها من محلها وتراجعت منكسرة لا تلوي عن شيء. فأثر ذلك في موقف القلب فرجع متقهقراً وبنو حنيفة يطاردونه إلى أن وصلوا إلى المعسكر فقطعوا إطناب الخيام

ومن الروايات ما يزعم أن ريحاً جنوبية مغبرة هبت في وجوه المسلمين فضعضعت صفوفهم، فاستفاد بنو حنيفة منها فهزموا المسلمين حتى أزاحوهم من محلهم وطاردوهم إلى المعسكر فدخلوا في الفسطاط فرعبلوه بالسيوف

والروايات متفقة على أن بعض الأعداء دخل خيمة خالد بن الوليد وكان فيها مجاعة مكبلاً بالحديد قيد مراقبة أم تميم التي تزوجها خالد بعد قتله مالك بن نويرة. فأراد الحنفيون إنقاذ مجاعة فهموا بقتل أم تميم إلا أنه منعهم من ذلك. فقال لهم: (لا تتشاغلوا في المعسكر، ودونكم الرجال) ففي مثل هذا الموقف الحرج برز خالد إلى الميدان شاهراً حسامه تشجيعاً للمسلمين ومنادياً بشعار (يا محمداه!). ويكاد المؤرخون جميعاً يتفقون على أن خالداً بفراسته وبطولته أنقذ الموقف. ولولا قيادة خالد وجلادة الصحابة الذين لقوا حتفهم بعد أن أظهروا للمسلمين أمثلة حسنة، لدارت الدائرة على المسلمين ولا ريب.

الصفحة الثانية

تبدأ الصفحة الثانية بدعوة الرؤساء من المسلمين إلى الثبات في محلهم والكر بعد ذلك على الأعداء

فثابت بن قيس الذي كان يقود الأنصار كان ينادي الأنصار قائلاً: (بئسما عودتم أنفسكم يا معشر المسلمين، هكذا عني حتى أريكم الجلاد) وقال زيد بن الخطاب الذي كان يقود القلب حين انكشف الناس عن رحالهم - أي المعسكر -: (لا تحوز بعد الرحال) وقام البراء أخو أنس بن مالك ينادي قائلاً (أنا البراء ابن مالك. هلم إلي) أما أبو حذيفة الذي كان يقود الميمنة فكان ينادي قائلاً: (يا أهل القرآن! زينوا القرآن بالفعال). وفي مثل هذا الوقت العصيب تدبر خالد الموقف ففكر في حيلة يعيد بها نخوة المسلمين، ويزيد حماستهم، ولا سيما لما رأى أهل القرى يحينون أهل البادية وهؤلاء يحينون أهل القرى

وتكاد الروايات جميعاً تتفق على أن القبائل من أهل البادية انهزموا أول مرة فألقوا الوهن في صفوف المسلمين. والظاهر من نتائج المعركة أن أهل القرى ثبتوا (فاستحر بهم القتل) كما يذكر الطبري. وكان التدبير الذي توصل إليهخالد لينقذ الموقف ويتغلب على عدوه منحصراً في أمرين:

أولاً - فصل أهل القرية عن أهل القبائل، ووضع كل فريق منهم في جانب. فكان الأنصار والمهاجرين وأهل القرى الآخرون في جانب، والقبائل في جانب آخر. لأن انهزام المسلمين أوقع الخلل في تركيب المعركة، فاختلطت الميسرة بالقلب، والقلب بالميمنة، وتخلى الناس عن رؤسائهم

ثانياً - طلب من كل جانب أن يمتاز، وذلك لما رأى أهل لقرى يعزون سبب الخيبة إلى القبائل، والقبائل تعزو الخيبة إلى أهل القرى. وفي هذا تناحر لدى الفريقين، وإذا ما اشتد التناحر يؤدي إلى التقاعس

فصرخ في المسلمين طالباً منهم أن يمتازوا ليتبين من أين يأتي الخلل. وكان يريد بذلك أن تبرز الفرق فلا ينسب إليها ذلة الانكسار. ونال بذلك ما أراد. فامتاز أهل القرى والبوادي؛ وامتازت القبائل من أهل البادية، فوقف بنو كل أب على رايتهم كما يذكر الطبري. فتولى خالد بنفسه قيادة صفوف أهل القرى، فقاموا جميعاً قومة واحدة فقاتلوا قتال الأبطال. وكان خالد في أول الصف يشجع المسلمين ببطولته ولا يقابله أحد إلا قتله. وكان يفتش عن مسيلمة ليقتله، لأنه عرف أن الحرب لا تركد إلا موته، وأن بني حنيفة لا تحفل إلا بقتله. وكان من أمر ذلك أن تشجع المسلمون فصدوا العدو

ويذكر الواقدي أن زيد بن الخطاب كان يحمل راية المسلمين فلما رأى أصحابه ينصرفون من أطرافه قال: (والله لا أتكلم اليوم حتى نهزمهم أو ألقى الله فأكلمه بحجتي؛ عضوا على أضراسكم أيها الناس! واضربوا في عدوكم وامضوا قدماً) ولم يزل يشجع أصحابه إلى أن قتل والراية في يده، فأخذها أبو حذيفة، فجادل بسيفه حتى قتل فنادى في قومه (العزة لله ولرسوله ولأحزابه. أروني كما أريكم) ثم جلد في الأعداء

وقاتل حتى قتل. وتسلم راية المسلمين سالم مولى أبي حذيفة، وظل يناضل عنها إلى أن قتل، فتسلمها آخرون وقتلوا
وإزاء هذه الجهود المتضافرة والأمثلة المشجعة تمكن المسلمون من أن يزحزحوا الأعداء من مكانهم حتى أزاحوهم تماماً، فأخذوا يطاردونهم. وفي مثل هذا الحين أخذ محكم بن الطفل المدعو بحكم اليمامة يشجع بني حنيفة منادياً: (يا معشر بني حنيفة الآن والله ستحقب الكرائم غير رضيات، وينكحن غير حصينات، فما عندكم من حسب فأخرجوه). فقاتل قتالاً شديداً
أما أهل اليمامة فلما رأوا المسلمين يركبونهم صرخوا في وجه مسيلمة قائلين له: (أينما كنت تعدنا؟) فأجابهم قائلاً: (قاتلوا عن أحسابكم)، ولما رأى المحكم أن الدائرة دارت على بني حنيفة صاح فيهم: الحديقة! الحديقة! يريد بذلك أن يتحصنوا فيها ويقاوموا المسلمين. فانسحبوا إلى الحديقة واعتصموا بها. ويظهر أن المحكم لم يتمكن من الوصول إليها لأن عبد الرحمن أبن أبي بكر رماه بسهم فقتله.
يتبع
طه الهاشمي
محاولات أفلاطون - 3
معذرة سقراط
ترجمة الأستاذ زكي نجيب محمود
- لعلك يا صديقي مليتس تريد أناكسجوراس بهذا الاتهام. ويظهر أنك تسيء الظن بالقضاة، فتحسبهم بلغوا من الجهالة حداً لا يعرفون معه أن تلك آراء مسطورة في كتب أناكسوجراس الكلازوميني، وهي مليئة بمثلها. وتلك التعاليم هي التي يقال أن سقراط قد أوحى بها إلى الشبان، والواقع أنهم عرفوها من المسرح الذي كثيراً ما يعرضها، وأجر المسرح لا يزيد على دراخمة واحدة، ففي مقدور الناس جميعاً أن يشهدوها بهذا الأجر الزهيد، ثم يهزئون من سقراط كلما نسب إلى نفسه تلك الأعاجيب، ولكن حدثني يا مليتس، أفتظن حقاً أني لا أومن باله ما؟
- أقسم بزفس أنك لا تؤمن بكائن من كان
- أنت كاذب يا مليتس، ولا تستطيع أنت نفسك أن تصدق هذا القول، ولست أشك أيها الأثينيون في أن مليتس هذا مستهتر وقح، كتب هذه الدعوى بروح من الحقد والطيش والغرور، ألم يبتكر هذه الألعوبة ابتكاراً ليقدمني بها إلى المحاكمة؟ كأنما قال لنفسه: سأرى هل يستطيع هذا الحكيم سقراط أن يكشف عن هذا التناقض المحبوك، أم أني خادعه كما سأخدع بقية الناس؟ فهو كما أرى يناقض نفسه بنفسه في الدعوى فكأنه يقول قد أجرم سقراط لأنه كافر بالآلهة، ولأنه مؤمن بهم، وتلك مهزلة ولا ريب أيها الأثينيون! أنه متناقض لا تستقيم روايته، وأحب أن نتعاون جميعاً على تحقيقها، وعليك يا مليتس أن تجيب - وأعيد الرجاء ألا تقاطعوني إذا تكلمت بأسلوبي المعهود - يا ملتيس! هل جاز لإنسان مرة أن يعتقد بوجود ما يتصل بالبشر من أشياء، دون أن يعتقد بوجود البشر أنفسهم؟ أني أحب منهم - أيها الأثينيون - أن يجيب، وألا يعمد دائماً إلى المقاطعة. هل أعتقد إنسان مرة وجود صفات الجياد دون الجياد نفسها؟ أو وجود نغمات القيثارة دون العزف عليها؟ أن كنت تأبى أن تجيب بنفسك يا صديقي، فسأجيب لك وللمحكمة. كلا! لم يفعل ذلك إنسان. والآن، هل لك أن تجيب على هذا السؤال الثاني: أيستطيع إنسان أن يؤمن برسول روحي إلهي، ولا يؤمن بالأرواح نفسها أو بأشباه الآلهة؟
- أنه لا يستطيع
- يسرني أن أحصل منك بعون المحكمة على هذا الجواب، ولكنك قد أقسمت في دعواك أنني أثق وأعتقد في رسل روحية إلهية وسواءً أكانت تلك الرسل قديمة أم محدثة، فأنا على أية حال أومن بها كما قلت وأقسمت في صحيفة الدعوة. ولكن إذا كنت أعتقد بموجودات آلهية، أفلا يلزم أن أعتقد بالأرواح وأشباه الآلهة التي بحثها؟ أليس هذا حقاً؟ ما لي أراك صامتاً؟ أن الصمت معناه الرضى. فما هذه الأرواح وأشباه الآلهة؟ أنها أما أن تكون آلهة، أو أبناء آلهة، أليس كذلك؟
- نعم هو كذلك
- وإذن فهذا موضوع التناقض المحبوك الذي أشرت إليه، فأشباه الآلهة أو الأرواح هي

آلهة، وقد زعمت عني أول الأمر أني كافر بالآلهة، ثم هاأنت ذا تضيف أني مؤمن بها، لأني مؤمن بأشباها. ولا يضيرنا أن تكون هذه الأشباه أبناء للآلهة غير شرعيين، فسواء أعقبتها الآلهة من الشياطين أو من أمهات أخريات كما يظن، فوجودها يتضمن بالضرورة - كما ترون جميعاً - وجود آبائها، وإلا كنت كمن يثبت وجود البغال وينكر وجود الجياد والحمير. لا يمكن أن يكون هذا الهراء يا مليتس إلا تدبيراً منك لتبلوني به، ولقد سقته في دعواك لأنك لم تجد حقاً تتهمني به. ولكن لن يجوز على من يملك ذرة من فهم، قولك هذا بأن رجلاً يعتقد في أشياء إلهية، هي فوق مستوى البشر، ولا يؤمن في الوقت نفسه بأن هناك آلهة وأشباه آلهة وأبطالاً. حسبي ما قلته رداً لدعوى مليتس، فلا حاجة لي إلى دفاع قوي بعد هذا، ولكني كما ذكرت من قبل لابد أن يكون لي أعداء كثيرون وسيكون ذلك دافعي إلى الموت لو قضى علي به، لست أشكو في هذا، فليس الأمر قاصراً على مليتس وأنتيس، ولكنه الحقد الذي يأكل القلوب، ويغري الناس بتشويه السمعة، فكثيراً ما أدى ذلك برجال إلى الموت، وكثيراً ما سيقضي بالموت على رجال، فلست بحمد الله أخر هؤلاء

سيقول أحدكم: إلا تخجل يا سقراط من حياة تؤدي بك إلى موت مباغت، وعلى ذلك أجيب في رفق: أنت مخطئ يا هذا، فإذا كان الرجل خيراً في أي ناحية منه، فلا ينبغي أن يتدبر أمر حياته أو موته، ولا يجوز أن يهتم إلا بأمر واحد، وذلك أن يرى هل هو فيما يعمل مخطأ أم مصيب، وهل يقدم في حياته خيراً أم شراً. أترى أذن أن الأبطال الذين سقطوا في

طروادة لم يحسنوا صنعاً؛ فذلك أبن ثيتس الذي أستصغر الخطر وأزدراه حينما قرنه بما يثلم الشرف. ولما قالت له أمه الآلهة، وهو يتحفز لقتل هكتور بأنه لو قتله أنتقاماً لصاحبه باتروكلس، فسيدركه هو نفسه الموت. ثم قالت: (أن القدر يترصدك بعد هكتور) فلما سمع هذا، أحتقر الخطر احتقارا، ولم يخشاهما كما يخشى أن يحيا الحياة يدنسها العار دون أن ينتقم لصديقه، فأجاب: (ذريني أموت بعد موته، فأنتقم من عدوي، فذلك خير من الحياة فوق هذه السفن، فأظل عاراً على جبين الدهر تنوء بحمله الأرض) هل فكر أخيل في الموت أو الخطر؟ فمهما يكن موقف الرجل، سواء اختار لنفسه ذلك الموضع أم أقامه فيه قائده، فلا بد أن يلزمه ساعة الخطر، ولا يجوز أن يفكر في الموت أو في أي شيء أخر غير دنس العار. إن هذا أيها الأثينيون لقول حق

بني أثينا! كم كان سلوكي عجيباً، لو أني عصيت الله فيما يأمرني به - كما أعتقد - بأن أؤدي رسالة الفلسفة بدراسة نفسي ودراسة الناس، وفررت بما كلفني به خشية الموت أو ما شئت من هول، وأنا الذي حين أمرني القواد الذين اخترتموهم للقيادة في بوتيديا، وأمفيبوليس ودليوم، لزمت موضعي، كأي رجل آخر، أواجه الموت. ما كان أعجب ذلك، وما كان أحقني بأن أساق إلى المحكمة بتهمة الكفر بالآلهة، وكم كنت عندئذ أكون بعيداً عن المحكمة، مدعياً إياها خاطئاً، لو أنني عصيت الراعية خوفاً من الموت؟ فلست خشية الموت من الحكمة الصحيحة في شيء، بل هي في الواقع إدعاء بها، لأنه تظاهر بمعرفة ما تستحيل معرفته، فما يدريك ألا يكون الموت خيراً عظيماً، ذلك الذي يلقاه الناس بالجزع كأنه أعظم الشرور؟ أليس ذلك توهماً بالعلم، وهو ضرب من الجهل الشائن؟ وهنا أراني أسمى مقاماً من مستوى البشر، وربما ظننت أني في هذا الأمر أحكم الناس جميعاً - فما دمت لا أعلم عن هذه الحياة إلا قليلاً، فلا أفرض في نفسي العلم، وإنما أعلم علم اليقين أن من ظلم من هو أرفع منه أو عصاه، سواء أكان ذلك إنساناً أم آلها، فقد أرتكب إثماً وعاراً، ويستحيل علي أن أتحاشى ما يجوز أن يكون فيه الخير وأخشاه، لأقدم على شر مؤكد؛ ولهذا لو أنكم أطلقتم الآن سراحي، ورفضتم نصح أنيتس، الذي قال بوجوب إعدامي بعد إذ وجه إلي الاتهام، لأني لو أفلت فسيصيب الفساد والدمار أبنائكم باستماعهم لما أقول. لو قلتم لي يا سقراط، أننا سنطلق سراحك هذه المرة ولن نأبه لأنتيس، على شرط واحد، وذلك أن

تقف البحث والتفكير فلا تعود إليهما مرة أخرى، ولو شاهدناك تفعل ذلك أنزلنا بك الموت، إن كان هذا الشرط إخلاء سبيلي أجبت بما يأتي: أيها الأثينيون! أنا أحبكم وأمجدكم، ولكني لابد أن أطيع الله أكثر مما أطيعكم، فلن أمسك عن اتخاذ الفلسفة

وتعليمها ما دامت حياً قوياً، أسائل بطريقتي أياً صادفت بأسلوبي، وأهيب به قائلاً: ما لي أراك يا صاح تعني ما وسعتك العناية بجمع المال، وصيانة الشرف، وذيوع الصوت، ولا تنشد من الحكمة والحق وتهذيب النفس إلا أقلها، فهي لا تصادف من عنايتك قليلاً ولا تزن عندك فتيلاً، وأنت ابن أثينا، مدينة العظمة والقوة والحكمة؟ ألا يخجلك ذلك؟ فأن أجاب محدثي قائلاً: بلى، ولكني معني بها، فلن أخلي سبيله ليمضي من فوره، بل أسائله وأناقشه وأعيد معه النقاش، فان رأيته خلواً من الفضيلة، وأنه يقف منها عند الحد القول والادعاء، أخذت في تأنيبه، لأنه يحقر ما هو جليل، ويسمو بما هو دنئ وضيع؛ سأقول لذلك لكل من صادفه، سواء أكان شاباً أم كان شيخاً، غريباً أم كان من الوطن، لكني سأخص بعنايتي بني وطني، لأنهم أخواني، تلك كلمة الله فاعلموها. ولا أحسب الدولة قد ظفرت من الخير بأكثر مما قمت به ابتغاء مرضاة الله، وما فعلت إلا أن أهبت بكم جميعاً، شيباً وشباناً، أن انصرفوا إلى أنفسكم وما تملكون، وبادروا أولاً بتهذيب أنفسكم تهذيباً كاملاً، وهاأنذا أعلنكم أن الفضيلة لا تشترى بالمال، ولكنها هي المعين الذي يتدفق منه المال ويفيض بالخير جميعاً، سواء في ذلك خير الفرد وخير المجموع. ذلك مذهبي، فان كان هذا فاسداً للشبان، فاللهم إني مود بالشباب إلى الدمار! أما أن زعم أحدكم أن ليس مذهبي هو ذاك، فهو إنما يزعم باطلاً. أيها الأثينيون! سواء لدي أصدعتم بما يأمركم به أنيتس أم فعلتم بغير ما يشير، وسواء أأصبت عندكم البراءة أم لم أصبها، فاعلموا أني لن أبدل من أمري شيئاً، ولو قضيتم علي بالموت مراراً

أيها الأثينيون! لا تقاطعوني وأصغوا إلى قولي، فقد عودتموني أن تسمعوا الحديث حتى ختامه، وإن لكم لفيه خيراً. أحب أن أفيض لكم بما عندي، فان بعثكم على البكاء فارجوا ألا تفعلوا. أريد أن أصارحكم أن لو قضيتم على بالموت فسيصيبكم من الضر أكثر مما يصيبني. إن مليتس وأنيتس لن يؤذياني، لأنهما لا يستطيعان، فليس من طبائع الأشياء أن يؤذي فاسد من هو أصلح منه، نعم، ربما استطاع له موتاً أو نفياً أو تجريداً من حقوقه

المدنية، وقد يبدو له كما يبدو للناس جميعاً، أنه يكون بذلك قد أنزل به أفدح البلاء، ولكني لا أرى ذلك الرأي، فأهول به مصاباً هذا الشر الذي يقدم عليه أنيتس - بأن يقضي على حياة إنسان بغير حق. لست أكلمكم الآن - أيها الأثينيون - من أجل نفسي كما قد تظنون، ولكني من أجلكم، حتى لا تسيئوا إلى الله، أو تكفروا بنعمته بحكمكم علي، فليس يسيراً أن تجدوا لي ضريباً إذا قضيتم علي بالموت، وإن جاز أن أسوق إليكم هذا التشبيه المضحك، لقلت أني ضرب من الذباب الخبيث، أنزله الله على الأمة، التي هي بمثابة جواد لنبيل عظيم، ثقيل الحركة لضخامته، ولا بد له في حياته من حافز. أنا تلك الذبابة الخبيثة التي أرسلها الله إلى الأمة، فلا شاغل لي متى كنت وأنى كنت، إلا أن أثير نفوسكم بالإقناع والتأنيب، ولما كان من العسير أن تجدوا لي ضريباً فنصيحتي لكم أن تدخروا حياتي. نعم قد أكون مزعجكم كلما باغتكم فأيقظتكم من نعاسكم العميق، ولكم أن تأملوا، إذا ما صفعتموني صفعة الموت، كما ينصح أنيتس، - وما أهون ذلك عليكم - أن يهدأ لكم الرقاد لكم حياتكم، ما لم يبعث الله لكم ذبابة أخرى، إشفاقاً عليكم. إنما أنني جئتكم من عند الله فهذه آيته: لو كنت نكرة من الناس لما رضيت مطمئناً، بإهمال شؤون عيشي إهمالاً طوال تلك السنين، لأخصص نفسي لكم، فقد جئتكم واحداً فواحداً، شأن الوالد أو الأخ الأكبر، فأحملكم على الفضيلة حملاً، وليس ذلك ما عهدناه في طبيعة البشر. ولو كنت قد أفدت من ذلك أجراً أو جزاء لكان لذلك مدلول آخر، ولكن هل تجرؤ وقاحة المدعين أن تدعي أني قد أخذت أجراً أو سعيت إليه؟ أنهم لم يفعلوا، لأنهم لن يجدوا لذلك دليلاً. أما أنا فعندي ما يؤيد صحة ما أقول. وحسني بالفقر دليلاً.

يتبع

زكي نجيب محمود

مصطفى كمال - 3

سيرة حياته

للكاتب الإنجليزي أرمسترونج

تلخيص وتعليق حنفي غالي

وعاش مصطفى كمال مع أمه في سالونيك بعد وفاة زوجها الذي كان يعضه وينفر منه، وهناك حاول أن ينشئ مع زملائه من صغار الضباط فرعاً لجمعية الوطن، فأخفق لأنهم كانوا في ريبة من أمره، فلم يؤيده ولم يعارضوه، كأنما كانوا يريدون أن يقفوا على حقيقته ويتبينوا أمره قبل أن يتوصلوا به ويتعاونوا معه في أمثال هذه المغامرات.

وأخيراً أرسل إليه أحدهم أن بسالونيك جمعية ثورية كبيرة تدعى جمعية الاتحاد والترقي، يجتمع أعضاؤها في منازل بعض اليهود من رعايا إيطاليا، فيستطيعون أن يدبروا الخطط، ويتشاوروا في أمرهم بمأمن من بطش الحكومة، ومنجاة من عيون الخليفة، وبعد أن اختبرت الجمعية إخلاص بطلنا، وأنست منه نفساً ثائرة وقلباً قلقاً، دعته إلى الانضمام إليها فتم لها ما تريد. وانخرط مصطفى في سلك أعضائها، فألفى نفسه في جو لا يلائمه ولا يتفق وميوله، إذ رأى من حوله أشخاصاً يتحدثون في أمور لا تعنيه ولا تتصل بتركيا التي يحبها ويفني في سبيلها، فما يهمه من متاعب اليهود وما يلاقونه من اضطهاد في روسيا، فهو تركي قبل كل شيء، وهو معتز بتركيته تياه بها، ولا غرض له سوى إنقاذ تركيا من استبداد الخليفة ومطامع الدول الأجنبية. وفضلا عن ذلك فهو ما زال في الجمعية (أخاً) صغيراً، عليه أن يتلقى الأوامر بالطاعة والإذعان، وعليه أن ينفذها بأمانة ونشاط. وهذا ما لا يرضى بطلنا الذي خلق ليأمر ويسود لا ليأتمر ويخضع، فبرم بالجمعية وسخط عليها، وأخذ ينقدها نقداً حاداً قارصاً غير متلطف فيه ولا متهاون قائلاً: إنه يسمع مناقشات بيزنطية لا يعززها عمل حاسم، وهو يريد خطة محكمة دقيقة، ينفذها بكل ما وسعه من جهد، وكل ما في نفسه من حرارة الأيمان والوطنية، ولم يكن يرعى للرؤساء حرمة أو مقاماً، فمن هم أولئك الذين يستأثرون بالنفوذ ويستبدون بالأمر دونه؟ أأنور ذلك المجازف المتهور، أم جمال ذلك المظلم العقل المضطرب الذهن، أم داود ذلك اليهودي الدنيء الذي أنقلب مسلماً، أم نيازي ذلك الألباني فاقد التوازن، أم طلعت ذلك الموظف المصلحي والدب البطيء، فهكذا كان يراهم بطلنا، ويرى نفسه فوقهم أجمعين، وهكذا نرى العظماء شديدي الأنانية عظام الثقة بأنفسهم، وهي صفة لابد منها لمن يتطلعون إلى مسابح الأفلاك. أما من ضعفت ثقته بنفسه، وتنحني عن نفسه لغيره، فليقنع أذن بمدارج الأسماك. وكان يخاطبهم مخاطبة الأستاذ لتلميذه، وحدث ذات مرة أن كانوا يتحدثون عن جمال ويمتدحون وطنيته فقاطعهم مصطفى كمال متهكماً بهم، وأخذ يلقي عليهم درساً عن العظمة الحقيقية. فلما التقى بجمال في اليوم التالي صارحه برأيه فيه قائلاً له أنه طالب شهرة، وألقي عليه ما ألقي على زملائه بالأمس. وقد كان زملائه الضباط يبغضونه لاعتداده بنفسه واستصغاره لشأنهم وسخرهم منهم، كما كان اليهود لا يثقون به، فلم يرتقي إلى مراكز الماسونية العليا وظل بعيداً عن مركز القيادة أو مبعداً عنه

ولم يكن في البيت أيسر نفساً ولا ألين جانباً، ولم يكن يسمح لأحد غير أمه أن ينتقده، وكان مع ذلك يأبى عليها التدخل في عمله أو المساس بكبريائه. وقد اجتمع في يوم من الأيام ببعض زملائه بالمنزل، فأخذ الخدم يتسمعون حديثهم من وراء الأبواب وأخبروا أمه، فعارضت فكرته، فحاول أن يقنعها بصوابها، فركبت رأسها وأصرت على رأيها، وما كان الاثنان ليتفقا، فقد كانت هي امرأة صادقة الإيمان وثيقة الإخلاص لقديمها، بينما أبنها لم يكن يؤمن بشيء أو يجل شيئاً على الإطلاق؛ وأخيراً سايرت الأم الرؤوم ولدها العزيز في طريقه برغم اعتقادها في خطئه، خشية أن يهجر المنزل فيشق عليها فراقه، ولكنها ظلت تحذره سوء المنقلب وظلام المصير، قائلة: أن من الحمق التآمر بالخليفة والدين

وقد سئم بطلنا الحياة المنزلية بما يثقلها من ثرثرة الأقارب، وتجسس النساء، وفضول الخدم، إذ لم يكن أبغض إليه من الحد من حريته، فهم يريد أن يكون سيد نفسه مهما كلفه ذلك من مشقة وثمن، فهجر المنزل، ولكن ظل حبل الود متصلاً بينه وبين أمه، فكان يزورها ويصغي إليها. وكان ينفق بياض النهار مكباً على عمله، كما كان ينفق معظم لياليه في المقاهي حيث يجتمع بزملائه أحياناً أو يذهبون إلى مكان خفي بعيد، حيث يشربون ويدخنون ويدبرون الخطط للثورة المقبلة، على أن بطلنا لم يكن ليرضى أن يكون جندياً خاملاً مغموراً، بل يريد أن يكون قائداً له شرف النصر وفخار الغلبة والقهر، ولم يكن يحب

الرؤساء أن يقربوه منهم، فقل على توالي الأيام اتصاله بالجمعية واشتراكه في أعمالها، وأصبح أكثر ميلاً للعزلة والصمت. وبينما كان بطلنا في بعده وعزلته إذا بالثورة تثب من غير إنذار، فسار نيازي على رأس فئة قليلة من الثائرين إلى جبال مقدونيا الجنوبية متحدياً الحكومة، وحذا حذوه أنور، وأصدر في الحال منشوراً يعلن فيه الثورة

أما بطلنا فظل في سكونه وعزلته، وأبى أن يشاركهم، إذ لم يكن من طبعه المغامرة في مشروع إلا إذا كان متين الأساس مقدراً له بعض النجاح؛ ولكن هذه المغامرة الجنونية نجحت بأعجوبة، وساعد على ذلك سخط رجال الجيش على الحكومة لتأخر مرتباتهم، فأبى بعضهم أن يحارب بني وطنهم، وأنضم آخرون إلى الثوار فسقطت حكومة الظلم كما تسقط أوراق الشجر أمام الريح الضعيفة، وقبل عبد الحميد الحكم الدستوري قائلاً: أنه كان يعمل لهذه الغاية من عهد بعيد!! انحنى باللائمة على مستشاريه، وألقى عليهم تبعت الماضي الفاسد. وألغي الجاسوسية، ورحب بالثوار

وعاد نيازي وأنور، وقد أسكرتهم نشوة الانتصار، وتوجت رؤوسهم أكاليل الغار، فأستقبلهم الشعب بحماسة فائقة تجل عن الوصف، وقد لقيهما مصطفى برفقة بعض زملائه، وقف الجميع في شرفة أحد فنادق سالونيك، وأعلن أنور منها الدستور على الشعب الذي يرمقه بعين الإعجاب والإجلال، ووقف من خلفه مصطفى وأن ما به من الهم والحسد ليكاد يقطع قلبه ويذهب بنفسه. وقد عاد إلى الأستانة جميع من نفاهم عبد الحميد، وأخذوا يتنازعون السلطة والحكم، وأرسل أنور ملحقاً حربياً في سفارة برلين، أما نيازي فعاد إلى ألبانيا حيث اغتيل، أما مصطفى كمال فأرسل على رأس بعثة ليتفقد حال حامية طرابلس، ويكتب عنها تقريراً لحكومة الأستانة

وقد خشيت دول أوربا أن يستعيد الأتراك قوتهم، فانتهزت فرصة هذه الفتنة الداخلية لتصفى مع الأتراك حسابها، فاستولت النمسا على البوسنة والهرسك، احتلت اليونان كريد، وأعلنت بلغاريا استقلالها تظاهرها لروسيا

أما في داخل الإمبراطورية فقد شبت الثورة ببلاد العرب وألبانيا، وأحتدم النزاع بين والمسلمين والمسيحيين اشرأبت الرجعية بعمقها تريد استعادة سلطانها البائد، فلجأت إلى الجيش والشعب لأثارته على أولئك اليهود والملاحدة الذين يريدون هدم الدين، وتقويض

خلافة المسلمين، ونجحت هذه الدعاية الخداعة البراقة، وثار الجنود في الأستانة، وقتلوا ضباطهم أو سجنوهم، وأعلنوا إخلاصهم للدين وولاءهم لأمير المؤمنين، واستولوا على الأستانة وطردوا منها أعضاء الجمعية، فلجئوا إلى محمود شوكت قائد الجيش بمقدونيا فتردد بادئ الأمر لأنه كان من المقربين إلى عبد الحميد، ولكنهم وفقوا أخيراً إلى إغرائه بمساعدتهم والعمل معهم فسير أنور - وكان قد عاد مسرعاً من برلين - على رأس فرقة من الفرسان كما ناط بمصطفى - وكان قد عاد من طرابلس - رئاسة أركان الحرب، وتقدم الجميع نحو الآستانة فقضوا على الثورة الداخلية، وقبضوا على عبد الحميد ووضعوه في (فيلا) صغيرة بسالونيك تحت رقابة الضابط فتحي المقدوني وأعادوا الجمعية إلى الحكم

وكان أنور إبان هذه الحوادث، الشخصية الفذة، والبطل البارز، ترمقه العيون بالإعجاب والحب، لأنه كان جندياً مقداماً جريئاً، كثير الاتجاه إلى الجمهورية، فأتته الشهرة وسعت أليه، بينما ذهب مصطفى كمال في غمار النسيان والإهمال، إذ لم يحظ بإعجاب الشعب لتردده، ولم يكسب رضاء الرؤساء لصلفه، حتى قالوا عنه (أنه ذو كفاية ممتازة، ولكنه جامد النسيم، كثير التمرد على كل أمر، قارص النقد لكل شخص، شديد الغرور، لا يميل إليه أحد، وهو كثير الاعتداد برأيه، لا يشرف معه أحداً في الأمر) وأبعدوه عن الحكم وأبقوه في منصبه، فأكب على واجبه يؤديه بهمة ونشاط، وأخذ يدرس تاريخ نابليون وفون ملتكه. ثم رقي في سنة 1911 إلى رياسة أركان حرب القسم الثالث من الجيش بمقدونيا

وقد أرسل في بعثه حربية إلى باريس تحت أشراف الجنرال علي رضا، وأعجب رئيسه به وأثنى عليه. ولما عاد أنيط به الإشراف على مدرسة الضباط بسالونيك، وبرغم كون بطلنا جندياً بفطرته فقد كان يتطلع بنظره إلى السياسة دائماً، ويحاول أن يجرب طالعه فيها، فلم يرضه هذا المنصب، وأخذ ينقد زعماء جمعية الاتحاد والترقي نقداً

لاذعاً في غير تحفظ ولا خشية قائلاً أنهم ليسوا جديرين بالحكم، وأن الدول أخذ طمعها يشتد ويدها تطول عن ذي قبل، ولا سيما ألمانيا التي قبضت على مرافق البلاد الحيوية وسيطرت على سكة حديد بغداد. أما في الداخل فلا يزال السخط عاماً والفقر والبؤس مخيمين، ويجب القيام بعمل حاسم لإصلاح الحال. وأخذ الضباط يصغون إليه ويستمعون له ويلتفون حوله

فأرضى هذا كبريائه، وأصبح يشعر أنه ذو مكانة وخطر، وأنه يقترب رويداً رويدا من قيادة حركة ذات شأن، ونمى هذا إلى سمع محمود شوكت، وكان يعرف بطلنا ويقدر خطره، لاسيما في البلقان مصدر كل فتنة ومهد كل حركة، فنقله إلى منصب أخر، وكان شوكت في تصرفه هذا كالمستجير من الرمضاء بالنار، فقد سهل المنصب الجديد بطلنا بلوغ دعوته إلى أنصار أكثر من ذي قبل، ولم يخفه تهديد شوكت ووعيده، وظل في مهاجمته للرجال الجمعية وحملته عليهم غير خائف ولا متحفظ، كما أخذ يستحث أنصاره على طرد الأجانب لتصبح (تركيا للأتراك)

ولقد عظم خطر بطلنا حتى كتب أعوان الحكومة إليها ينذرونها ويحذرونها منه ويستحثونها على تدارك الأمر، وطلبت الجمعية معاقبته، فبعث إليه شوكت يتهمه بأنه يحرض الجنود على الثورة، فرد عليه رداً لم يكف في نظر شوكت لدحض التهمة ونفيها عنه، كذلك لم يجد شوكت أدلة قوية تثبت إدانته فنقله إلى المكتب الحربي في الآستانة ليبعده عن البلقان مستودع البارود ومنبع الخطر وليستطيع ومراقبة حركاته ويتبع خطواته، فلم يرده هذا عن خطته، وأخذ يتقرب من بعض سياسي الجمعية الذين كانوا يبغضون الألمان ويمقتون سفيرهم صديق أنور الذي أخذ يعمل بنشاط وكياسة بجعل تركيا آلة في يد ألمانيا، وأخذوهم يشجعونه بعض الشيء، إذا رأوا إمكان استخدامه ضد أنور عند الحاجة، ولكنه مع ذلك لم يستغيث ولم يقربوه كل القرب لذهابه بنفسه، فحز ذلك في نفسه وألمه أشد الألم

وبينما هو يجاهد خصومه ويجاهدونه إذا بإيطاليا تنزل جنودها في طرابلس وتحتل الساحل.

حنفي غالي

الشمس في الطلوع

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

الشمس قد طلعت بوجه أروع ... فوقفت مبهوتاً لحسن المطلع
وجه كما تهوى الطبيعة سافر ... ماإنْ عليه سوى السَّني من برقع
في موكب فخم يزيد جلاله ... لمع الأشعة في الفضاء الأوسع
هي في علاية أوْجها وشعاعها ... في كل ما تبدو له من موقع
بيضاء لولا ما بها من وخزة ... لذَّاعةٍ من حسنها لم أشبع
إني أدين بحسنها لا كالذي ... أملي عليه جهلُه ألاَّ يعي
مرت تعاورها الدهور وحسنها ... أبداً جديد بالشباب الممتع
أنظر إليها فهي تحكي غادةً ... ترنو إليك من المحل الأرفع
ولقد بدت في خليع من ضوئها ... أحسن بها لما بدت في الخليع
تجري بلا تعب إلى الغايات ... في صمم على لقم الطريق المَهْيع
لا تحرم الأرض الضياء فان جلت ... عن موضع منها بدت في موضع
تمتد من شغفٍ لها الأنظار من ... حَسْرى تكل من العياء وضُلَّع
ظهرت على متن السحاب كأنها ... نارٌ تُشب على كثيب أسفع
ولقد عَلَتها وهي تبرح أفقها ... وَطْفاءُ حانيةٌ حُنُوَّ المُرضع
ودنا يطوف بها الغمام كمُصْطلٍ ... با النار يُذكى جمرها أو مُزمع
قد كان في القرصُ أحمر فاتحاً ... حتى أختفى في العارض المتجمّع
أما الغيوم فتلك بعد تراكم ... أخذته بين صدورها والأذرع
صورٌ محببّةٌ وليس بمنكرٍ ... حِوجُ الحياة إلى الجمال الأرْوع
الشمس في طول النهار نجيَّتي ... والشمس حيث ذهبتُ ذاهبةٌ معي
وكأنما بيني وبين شعاعها ... نسبٌ قديمُ ما لأوّله أعي
ما ذرَّ قرنُ الشمس إلاَّ أهتزّ من ... فرح فؤادٌ تحتويه أضلعي

الصبح لما أبيضَّ من أنورها ... أخنى على ضوء النجوم اللُمّع
والصبح بعد الليل يحكي ضوؤه ... أملاً لذيلاً بعد يأس موجع
ولقد تيقضت العيونُ من الكرى ... ولفظن أحلام النفوس الهُجّع
قد كان ليلاً قد تضاعف دَجْوه ... والليلُ يُذكى الحزن في المتفجَّع
ثم انجلى متأخراً عما له ... قد كان في طغيانه من موقع
وبدت عليه ذِلَّةٌ فكأنما ... صفعته كفُّ الصبح فوق الأخدع
لا تحزني مما لقيت من الأذى ... ما أنت مني يا نجوم بأضْيع
أما الحياة فأنها لجميلة بك يا ... (ذُكاء) وأن أقصَّت مضجعي
يا حبذا لو أنني من بعد ما ... أرْدَى يكون إليك يوماً مرجعي
أني لأرجو أن تُطلِّى من علٍ ... حتى تَرَى عند النهاية مصرعي
لا َصْيَر أن أبكَى الدجى عيني فقد ... مسح ابتسامُكِ في النهاية أدمعي
أقلعتُ عن حبِّ الحسان جميعها ... إلاّ هواكِ فلستُ عنه بِمُقْلِع
بالشمس في الأفق البعيد تغزّلي ... لا بالعقيق ورامتين ولَعْلَع
جميل صدقي الزهاوي
عمرو بن العاص والزعيم المصري
للشاعر الاسكندري عبد اللطيف النشار
حدثونا أن عمراً ... حينما أخضع مصرا
عاهدوا الأقباط عهداً ... حفظوه فاستمرا
وكذا المصريُّ إن قا ... ل وإن عاهد برا
غير من شذ، ومن شذ ... فلا ينقض أمرا
شذ عن أقباط مصرٍ ... رجلاً ناوأ عَمرا
ألب الروم عليه ... وأثار الحرب غدرا
وقضى الله لعمرو ... فأباد الجيش ذعرا
فمولون وقتلى ... وفلول الجيش أسرى
وأتى الخائن في الأس ... ري وقد أحرج صدرا
أي عذر ينفع الي ... وم إذا ما رام عذرا؟
ورأى عمرو حليفاً ... خانه بغياً وكفرا
وأستشار الصحب فيه ... فقضوا بالقتل صبرا
قال أدهى الناس عمرو ... قولة ترفع عمرا:
بل ستحيا فأبغ ما شئ ... ت بنا سراً وجهرا
بأمثال الألي جئ ... ت بهم فائت بأسرى
وما مضى الخائن في ذل ... وقد شاهد كبرا
ليس كل البطش بطشاً ... ليس كل الصبر صبرا
حسب قلبي
بقلم فريد عين شوكة
هات ما شئت من جفاكَ وهجرِك ... أن في القلب ما يقوم بعذرك
وشح يا حبيبُ - وجهك - عني ... حين تهفو عيناي فيه لسحرك
وأغمر السكون بالحبور مع الغير ... وعبس إذا استرحتُ لبشرك
وأستهِنْ بالهوى وضق بيَ ذرعا ... حين أشكو إليك، يا ضيقَ صدرك!
ضاع قلبي لديك، يا لفؤادي ... منك لما نبذته خلف ظهرك!
هان شأني عليك رغم سُموِّي ... واعتزازي مدى الحياة بقدرك
وأن البلبل الذي بك غنَّى ... والنسيم الذي يَضُوع بعطرك
يا نجيَّ الضمير حتى لدى الرَّو ... ع أما آن أن أمرَّ بفكرك؟
يا كثير العقوق للعاشق المُضْ ... ني أرحني فقد عييتُ بهجرك
قد ترشفتُ حلو عطفك عاماً ... وتجرعت بعدهكأس مُرِّك
وتربعت في رضاك مريعاً ... ثم شردت في مهامه قفرك
صارخاً في الدجى البهيم وغيري ... يستشف الآمال في ضوء فجرك
وإذا أنت مستريح لغيري ... وفؤادي ما يستريح لغيرك!
أيهذا الحبيب عذرك أني ... لم أزل رغم ثورتي طوع أمرك

أنا كالطائر السجين فمهما ... هاجني الوحيد لم أزل رهن سرك
حسب قلبي في ذلك الغضب القات ... ل ما مرَّ من رضاك وبرِّك
نجوم السينما
للأستاذ فخري أبو السعود
عوِّذ فؤادك من بوادر فتنةٍ ... مجلُوةٍ في مَعرِضَ الأشباحِ
ما القلبُ إلا بضعةٌ لو قُسِّمت ... لم تكفِ أسرابَ آلامَها يا صاحِ
أو تُوفِ ما بالمشهد الخلاَّب من ... فتنٍ ومن غُررٍ ومن أوضاحِ
ماذا تُبين الشّاشةُ البيضاء من ... سحرٍ وراء سرابِها اللمَّاح؟
تجلو خيالات الجمال كأنها ... أطياف أحلام يراها الصَّاحي
تُبدي لعينكَ كلَّ أغيَد شادنٍ ... سابٍ وكلَّ مُغرِّدٍ صدَّاح
جمعت ملاحات الشعوب جميعها ... كالطير من مُتفرِّقِ الأدواح
من بضةٍ تزري بكل خميصة ... وخميصةٍ تُزري بكلِّ رداح
وغضيضةٍ تُصبي بساجي طرفها ... ولبيقةٍ تُغري بثغرٍ أقاح
وقسيمةٍ تسبي بوجفٍ فاحمٍ ... داجٍ وفجرٍ دونه مُنصاح
ووضيئةٍ شقراء تقنعُ كلَّ ذي ... بصر بأنَّ الحُسن شعرٌ ضاح
إن الطبيعة ما تزال سخية ... بالحسن تُوليه عطاء سماح
أبداً مُوكلةٌ بهاتيك الدَّمى ... تشتقُّها من حُسنِها الوضّاح
هذى حَوَارِيَّاتُ كل مدينة ... للناظرين تجمعَّت في ساح
خَلَعت عليهنَّ الطبيعةُ حُسنها ... بأناملٍ في البَذل غير شِحاح
وسَخت عليهن الحضارةُ بالحُلي ... فَرَفلْنَ في الوضّاء والفيّاح
دوماً تبدَّلُ حالةً من حالةٍ ... ما بين جدّ تارةً ومزاح
بينا تُرى في ثوب زوج ناشزٍ ... يخشى أذاها الناظرون وَقاح
حتى تكون غداً بتولاً أقبلت ... في طُهر أرادنٍ وَسمْتِ صلاح
وتجود أحياناً - وغيرُ فؤادها ... عرَف الأسى - بالمدمع السَّحَّاح
من مثلُ هاتيك النجوم تزوَّداً ... من بهجة الدنيا بكل صُراح؟
حاكَينَ أقمارَ السماء تعدُّداً ... وبَذَذْنَها في الحسْنِ والإصْباح
وتَخِذْنَ هذا العمر يوم رياضةٍ ... ومتاع ألبابٍ وصرف مِراح
وتركن في جهلاتها وضلالها ... دُنيا تلاحٍ دائمٍ وكفاح
من لاعنٍ للشَّرِ وهو مُثيرُه ... ومُدجَّجٍ يدعو لنزعِ سلاح
بين الحياة وبين تمثيلٍ لها ... لا تثقُلُ الدنيا على الأرْواح
طفت بالحمراء
للأديب حسين شوقي
طفت بالحمراء والقلب كليم ... أسأل الحمراء عن سادتها
قلت: يا حمراء لم زهر النجوم ... لا تضيء اليوم في هالاتها
قالت الحمراء: دع هذه الذكر ... لا تذكرني بما مرَّ وفات
أفل الأقمارُ عني واندثرْ ... زمَنَ العز ودهرُ المكرمات
إلى مؤتمر الفردوسي
بين القاهرة وطوس - 1
للدكتور عبد الوهاب عزام
أطوى حديث السفر بين القاهرة وبغداد، فقد وصفت هذه المراحل من قبل في الكلام عن سفرتي إلى مدينة العباسين، وليس في هذه المراحل من جديد إلا السيارات الضخام التي تعبر بادية الشام بين المدينتين الخالدتين: دمشق وبغداد. أعدت شركات عربية، وأخرى أوربية، سياراتٍ كباراً تسع واحدتها أكثر من عشرين راكباً في مقاعد وثيرة، تريح المسافر صاحياً وتمكنه من الإغفاء حتى يغلبه النوم. ركبنا إحدى هذه السيارات، ففصلنا من دمشق صبيحة الثلاثاء سادس عشر جمادى الآخرة سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة وألف من الهجرة (الخامس والعشرين من سبتمبر سنة 1934) وبلغنا بغداد والساعة تسع من صباح الأربعاء بعد سفر ستة وعشرين ساعة فهذه بغداد العظيمة في جمالها وكبريائها، تزدحم فيها حادثات التاريخ أكثر من ازدحام أهلها، وتزخر فيها ذكرى الماضي أعظم من زخور دجلتها. والله بغداد، ما يستقر بها

فكر زائرها حتى يحلق في أرجاء العصور، وثنايا التاريخ أمداً بعيداً. فما يفتأ البصر يترامى بين الرصافة والكرخ، يبتغي أن يقع على موكب من مواكب الخلفاء، أو مجلس من مجالس العلماء، أو حفل للأدباء والشعراء. ففي كل نظرة ذكرى خليفة، وفي كل فكرة حديث فيلسوف أو عالم أو شاعر

ثم يقع الفكر وقوع الطائر بعد طول التدويم، فيستريح من بغداد الحاضرة إلى أمة قد أخذت للمجد أهبتها، وأعدت للعظائم عدتها، وعرفت بين الأمم غايتها، وشقت بين الخطوب سبيلها. فسارت في مواقع من الهمة القعساء، والعزة الشماء. تحدوها عزة إسلامية، وأنفة عربية. قد آلت لتسيرن سيرتها حتى تبلغ غايتها. وسير الله يمينها، ويعنو الزمان لأمرها.

وما جهد هذا الدهر إلا هزيمة ... إذا نازلت عزم الكرام كتائبه

ذلكم ماض مجيد يمد حاضراً مجيداً، ذلكم تاريخ يتدفق من قمم المجد الشاهقة في مجرى العزمات الماضية، إلى المستقبل الوضاء. ومن ذا يصد السيل إذا هدر، أو من ذا يرد على الله القدر؟ بل من يسلسل البحر بأمواجه، ويرد الحر الأبي عن منهاجه؟

سلام يا دار السلام! رعاك الله في كل خطوة، وخار لك في كل عزمة.

دار السلام لا عداك المجد ... وارفة ظلاله تمتد

ولا حدا نجمك إلا السعد ... موصولة الآجال بالآجال

لابسةمجددالقرون

أن حديث بغداد لا ينفد، وحبها في القلوب لا يحد. وإنك أيها القلم لأعجز من أن تخط الزمان الماجد، والتاريخ الخالد، والخطوب والعبر، والقضاء والقدر، في هذه الأسطر.

فحدث عن الرحلة إلى طوس؛ وحسبك أن تحمل (الرسالة) هذه الرسالة

لبثنا ببغداد من صبح الأربعاء إلى عشية السبت، في حفارة إخوان كرام، وسرور بدار السلام. ويوم السبت ركبنا نحن والوفود التي قدمت إلى بغداد في طريقها إلى طهران، قطار الليل نؤمّ خانقين. والمسافة بين خانقين وبغداد زهاء مائة ميل، ولكن قطار خانقين المتمهل يقطعها في عشر ساعات، فيمكن المسافر أن ينام ملء جفونه حتى يصبح. برحنا بغداد والساعة ست مساء، وودعنا على المحطة القائم بأعمال المفوضية المصرية حافظ بك عامر، ووزير إيران في بغداد. وسافر معنا الأديب الفاضل أحمد حامد الصراف مندوب العراق إلى مؤتمر الفردوسي. وكان المندوب الثاني الشاعر الكبير الزهاوي، قد سبقنا إلى خانقين في سيارة. وصحبنا في القطار إلى منتصف الطريق الأخ الهمام إبراهيم الواعظ المحامي، وكان ذاهبا إلى كركوك، فما زلنا في إكرامه واحتفائه حتى افترقنا؛ أهدي إلى وإلى الأستاذ العبادي ديوان السيد محمد سعيد الحبوبي النجفي، فكان خير زاد للمسافر. ولما وقف بنا القطار على محطة باب الشيخ ببغداد اشترى لنا قلة بغدادية روينا بها في سفرنا. وقلل بغداد نقية الطينة، سريعة التبريد، تمنيت أن أحمل بعضها إلى مصر فلم يتيسر لي، وهي أمنية أعجزت الأستاذ الزيات من قبل

بلغنا خانقين والساعة أربع من الصباح، فبقينا في القطار حتى أسفر النهار، فنزلنا وحملنا أمتعتنا إلى حجرة من حجرات المحطة، استبد بها الأستاذ الصراف فشاركناه فيها. ولبثنا ننتظر قدوم مندوبي الحكومة الإيرانية حتى جاء القنصل الإيراني، وآقاي روشن المهماندار، الذي كان طليعة ركبنا في رحلتنا كلها. وعلمنا حينئذ أن موعد السفر غد، أول أكتوبر فتفرقنا. ذهب جماعة إلى دار القنصل، وآخرون إلى المنازل أخرى. ودعنا صديقنا

الصراف إلى دار صديقه عبد القادر صالح، معاون جمرك خانقين، وكلمه بالتلفون، فأرسل سيارته، فذهبنا إلى الدار فإذا فتى نبيل من فتيان العراق، وكم في العراق من فتى نبيل! فلبثنا في ضيافته إلى صبيحة يوم الثاني، وسعدنا بصحبة موظفي خانقين الكرام، واحمدنا هذا التأخر الذي أتاح لنا هذه السعادة

وخانقين مدينة صغيرة على حدود العراق، وعلى طريق خراسان، يمر بها نهر حلوان (حلوان جاي) ويسمى نهر ألوند، وهو فرع من نهر ديالى أحد روافد دجلة. وعند المدينة قنطرة كبيرة من أثار الساسانيين. وقد وصفها ياقوت في المعجم. وكانت المدينة في العصور الإسلامية الأولى معروفة بالتمر والغلة، ولا تزال كثيرة التمر. وقد مدح أبن

المعتز نبيذها. وقال عتبة بن الوعل التغلبي:
ويوم بيا جسري كيوم مقيلة إذا ... ما اشتهى الغازي الشراب وهجرا
ويوم بأعلى خانقين شربته ... وحلوان حلوان الجبال وتسترا
وفي خانقين حبس كسرى برويز النعمان بن المنذر حتى مات. ويوم الاثنين أجتمع المندوبين عند محطة خانقين، وجاء آخرون من بغداد منهم أستاذي سيردنسن روس، والشاعر الإنكليزي درنكووتر، وعبد الكريم أفندي الحسيني، والدكتور نظام الدين مندوبا حيدر أياد. وتقسمنا السيارات فركبت أنا والأستاذ العبادي والأديب الصراف معاً، وكانت صحبة الصراف فألا سعيداً في هذه السفرة، فقد نعمنا بحديثه وإنشاده من الشعر العربي والفارسي وتغنيه بالأغاني المصرية. كنا كما تمادى بنا السير وماطلنا المدى، قلنا هات يا صراف، فانطلق ينشد من محفوظه الذي لا ينفد، فيدوي صوته على الجبال الشاهقة، وفي السهول الفسيحة، فننشط له نشاط الإبل للحداء. وسنذكر بعد طرفا من حديث الصراف. سرنا إلى الحدود في طريق معبدة مقيرة، فوقفنا قليلاً؛ وجاء إلينا رسول إيراني فرحب بنا وأعطانا دليلاً مكتوباً بالفارسية والفرنسية، فيه طرف من أخبار البلاد التي نمر بها بين خانقين وطوس. وهناك تركت الرفيقين الكريمين، وركبت مع صديقي عبد الكريم الحسيني مندوب حيدر أياد، إذ كان في سيارة وحده فأردنا أن نؤنسه في السفر
بلغنا قصر شيرين بعد نصف ساعة، فتوقفنا لشرب الشاي على الطريق. وقصر شيرين مدينة صغيرة على طريق خراسان، وعلى نهر حلوان، سميت باسم القصر الذي بناه
كسرى برويز (590 - 628م) لامرأته شيرين
ولا تزال أطلال قصور كسرى قائمة إلى الشمال والشرق من المدينة. وقد وصفها ياقوت فقال: (وفيه أبنية عظيمة شاهقة يكل الطرف عن تحديدها، ويضيق الفكر عن الإحاطة بها؛ وهي أيونات كثيرة متصلة، وخلوات وخزائن، وقصور وعقود، ومنتزهات ومستشرفات، وأروقة وميادين، ومصايد وحجرات، تدل على طول وقوة). ولا تزال ذكرى كسرى وشيرين وعاشقها فرهاد الزائر، والمغني بلهبذ تطيف بها الخرابات، وأساطيرهم تسمع في هذه الأرجاء
وحلوان المدينة القديمة المذكورة في الأخبار والأشعار قريبة من قصر شيرين. وكانت مدينة كبيرة عامرة ثم خربت منذ القرن الثامن، فلم يبقى منها إلا أطلال دراسة، ونخلتا حلوان وقصصهما وما قيل فيهما من الأشعار من الأحاديث الذائعة.
يتبع
عبد الوهاب عزام
فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية
تطور الحركة الفلسفة في ألمانيا - 1
للأستاذ خليل هنداوي
فصول لم نرد بها التحدث عن الفلسفة للفلسفة، ولكنا أردنا بها أن تبدي تأثير الفلسفة في تطوير الأدب الألماني، وما كان لأصحاب الفلسفة من فضل عميم على هذا التطور الذي أصاب جميع حقوله الأدبية.
الكاتب
تمهيد
الفلسفة الألمانية قبل (كانت)
كانت تستمد ألمانيا مادة فلسفتها وأدبها من فرنسا طيلة القرن السابع عشر، والفلسفة الديكارتية هي الفلسفة التي كانت تتطارحها الجامعات الألمانية، (وليبنيز) (1646 - 1716) هو أول فيلسوف استطاع أن يبث الحياة في عروق الفلسفة الألمانية ويذهب بها في مضمار التقدم شوطاً بعيداً، كتب الفلسفة باللغة اللاتينية طوراً، وطوراً بالفرنسية، وهما اللغتان السائدتان يومئذ، ولعل شيوعهما واستئثارهما بالكتابات الفلسفية كان يقرب كثيراً بين المفكرين والأدباء حتى يغدو هذا التقريب أحد الأسباب العاملة على تشييد صرح اللغة وتزينه وتجميله بما يستطيع فكر ناهض أن يضعه؛ ولكن علة (ليبنيز) أنه كان يتناول المسائل الفلسفية كمادة فنية تلهو بها نفسه، وهو خلال ذلك قد يعالج المسائل الكبرى، كمسألة الحياة والوجود، وقد يوفق في الإجابة عنها

توفيقاً كبيراً، ولكنه كان واحداً من كثيرين ممن يعالجون الفلسفة، ولا يعملون على لم أفكارهم حتى تكون مذهباً خاصاً يضم منها الآراء الناضجة وفكرتهم الخاصة في الحياة؛ وجل ما وصل إليه في فلسفته أن عالج الجبر والاختبار، ومعرفة الله وعلمه بالمستقبل، والعناية الإلهية ووجود الشر، وألف مذهبه في الذي يرضى عن الوجود ويحبب الوجود إلى الإنسان، هذا المذهب الذي سخر منه (فولتير) في مقطوعته زلزال (ليزبونة) وفي روايته (كانديد)، وخير كتب ليبنيز الخالدة كتابه وفي هذا الكتاب يعلن انفصاله عن المذاهب المتقدمة ومروقه من مذهب ديكارت الذي جعل من الكون جزأين: أحدهما عالم الأرواح والآخر عالم الأجساد، فجاء ليبنيز ونقض هذا المذهب، وأحل محله مذهب (الجزء الفرد الذي لا يتجزأ ولا يفنى، وشأنه في مذهبه هذا كشأنه في غيره يفتقر إلى ترتيب وتوفيق وتوحيد وهذا العمل الذي كانت تفتقر إليه آثار (ليبنيز) إنما أتمَّه وشذَّبه من بعده الفيلسوف الصارم (وولف) الذي نزع عن فلسفة ليبنيز الخيال والشعر وشد وثاقها بالحقيقة، ونفي عنها شيئاً وزاد عليها شيئاً حتى غدت أجزاؤها متآلفة متداخلة كأنها أعضاء في جسد واحد. وقد كان له تأثيره العظيم في الأدب الألماني والفلسفة الألمانية بشهادة الفيلسوف (كانت)، لأنه هو الذي خلق في الألمانية لغةً للفلسفة خاصة، وهو الذي فتح آفاقاً واسعة في التعبير والأداء لمن بعده، فهان على هؤلاء أن يجلوا وأن يحلقوا ما استطاعوا؛ ومن هؤلاء (كانت) نفسه، الذي كانت له صفحات خاصة تشدو بالمزايا التي أسداها (وولف) إلى الأدب وإلى الفلسفة على أن الأندية الفلسفية قد تغض بصرها عن كل ما شاد هؤلاء في صرح الفلسفة، وتعتقد أن الفلسفة الألمانية إنما كانت قبل (كانت) غيهباً ممدوداً، وأن الذي محا هذا الغيهب وبعث النور في خلاله هو الفيلسوف العظيم (كانت) الذي تزعزعت له الأندية الفلسفية والأدبية، وكانت له فيهما جولات يعزى إليها كل ما غمر الحقل الأدبي والفلسفي - في ألمانيا - من خصب ومن إنتاج.

كانت 1724 - 1804 حياته: فلسفته: تأثيره

حياته

كان (كانت) في التاسعة من عمره حين فقد والده، فكفلته أمه ونشأته تنشئة عالية، فدرس في بدء عهد اللاهوت، كما هو العهد في دراسات تلك العصور، ثم درس الرياضيات، ثم الفلسفة، حتى إذا أتم عهد الدراسة عرض له هم المعيشة، الهم الذي كان يوقر ظهره في جميع أدوار حياته، فرضى بأن يدرس في مواطن خاصة، وهو خلال ذلك يتفرغ إلى الدرس، ويلم بجميع العلوم التي توائم الفلسفة. وفي عام (1770) أسند إليه كرسي خاص لتدريس الفلسفة، وقد عاد أمره إلى الضيق، وحريته إلى الإرهاق في عهد فردريك غليوم، إذ تدافعت عليه الوشايات يخلقها حسد القوم؛ ولكنه ظل مثابراً على العمل حتى عام (1797). وقد كان لعهده هذا التأثير بليغ في نفوس طلابه الذين جالت براعاتهم من بعده في صحف الأدب والفلسفة، وهو الذي يوصي زملاءه في إحدى محاضراته: (بأن يحذروا كل الحذر من أن يلقوا في نفوس طلابهم أن العلم بالغ أوج الكمال، أو أن يعلموهم ما هي ماهية الفلسفة، وإنما ينبغي لهم أن يلقونهم كيف يتفلسفون، وأن يساعدوهم - لا أن يحملونهم على ظهورهم - إذا أرادوا أن يعلموهم الدروج على الأقدام). والحق يقال أن (كانت) لم يخلق إلا ليعيش فيلسوفاً، ولم يلاق منه مذهبه إلا قريناً يحيا به ومعه، ناهيك ببعض مآثر رواها عنه القوم، تدل على ما أتصف به كانت من حب العمل والنظام والتوقيت ومواصلة الجهود الجبارة في سبيل دراساته المتتالية، فقد كان الرجل موفقاً كل التوفيق بين مذهبه وسلوكه؛ قد سن لكل شيء نظاماً، وأتبع هذا النظام كأنه الرسول يأمر وهو أول من يأتمر وكان آخر كلمة له هذه الكلمة حين لقي حتفه عام 1804: (أنه حسن!) كأنما يريد أن يقول (لقد عشت كما كنت أود أن أعيش)

فلسفته

بدأت فلسفة (كانت) تنمو شيئاً فشيئاً شأن كل فلسفة، وإنما تميزت من غيرها بطابع الاستقلال الذي انتحى بها ناحية جديدة، فقد تأثر كانت بمن تقدمه من الفلاسفة وأتخذ غذاءه العقلي منه، وما كاد ينشأ ويترعرع ويشتد ساعده حتى أعلن انفصاله عنه ونهج

منهجاً جديداً أختطه لنفسه. وفي كتابه (آراء في التقويم الحقيقي للقوات الحية) حيث أراد أن يوفق في الفلسفة الطبيعية بين لبينيز وديكارت يقول: (قد أتمثل أن هنالك لحظات لا يقنع الإنسان فيها أن يعتمد على قوته، أن هذا الاعتماد ليولد فينا جهوداً متواصلة ويمنحها سبيلاً يفيدها في سعيها نحو الحقيقة، وجميل بنا أن ننخدع ألف مرة، لأن الضال المنخدع ليعمل على خدعة العلم أكثر ممن لا يسلك ألا السبيل المطروقة. . . أنني هنالك سأطأ. . . ولقد سلكت السبيل التي أردت أن أتبعها. . . سأسلكها ولم يقف سيري أحد)

أن هذه الثقة المطلقة بالنفس بدأ يظهر فضل إنتاجها في فلسفة (كانت) لأنها فرضت عليه أن يخط سبيلاً جديدة، ويطلع على الناس بمدرسة للفلسفة جديدة، وهل كان العصاميون ألا أبناء اعتمادهم على نفسهم؟ وقد ظهر أول إنتاجه في كتابه (تاريخ الطبيعة العالمي، ومنهج

السماء العام وتجربة على الأصل الميكانيكي للعالم حسب قوانين نيوتن)، فكتابه هذا هو تجربة ميكانيكية سماوية مؤسسة على علم الطبيعة. فالعالم نيوتن لم يسن إلا قانون الحركات السماوية. وعندما أتى على درس أصل هذه الحركات ناط الأصل بالإرادة الإلهية التي يعن لها كل شيء، ولكن (كانت) أدرك أن القانون الذي أفاد في تعين مذهب الوجود، ينبغي له أن يحلل مركباته، وأن القوات التي تحفظ الوجود ينبغي ألا تختلف عن القوات التي أبدعت الوجود. وأخيراً يفترض في بيان أصل الوجود أن مادة متشابهة مؤلفة من أجزاء متشابهة تقودها حركة دائرة، وهي تتشكل وتتنوع بحسب ما يحتوي باطنها من قوة وفاعلية، ثم يصف الخلاء (أو الفراغ)، وقد استحال جواً غائماً، وشموساً وسيارات وأقماراً، ولكنه في الحقيقة لم يزد شيئاً، إلا أنه سار بالمسألة التي وقف نيوتن عليها، وهذه المسألة المبهمة هي عديمة الحل في ذاتها، إذا ليست الحياة إلا العمل الدائم نقبله على وضعه؛ وفصول أخرى جاءت في الكتاب تغمرها أنفاس شعرية تبدي لنا (كانت) في عهد كان لا يفر من عاطفته، وقد تراه في بعض صفحاته يسوق إليك نظريات قد أستغلها (لابلاس) نفسه بعد خمسين عاماً. كانت العلوم الطبيعية هي شغل (كانت) في جميع أدوار حياته، وهذه العلوم هي التي فتحت لنفسه أفقاً جديداً تركها لا يقنعها مدى الأفق الضيق الذي تخلقه المدرسة، حتى إذا مرت عليه أعوام عاد إليه حنينه إلى الفلسفة المقصودة بذاتها، فحارب المذاهب الهندسية التي تعنى بالبراهين المنطقية ولا تعنى بالبراهين العملية، وقد وضع كتاباً خاصاً ناضل به أصحاب العلم النظري

يستشهد (كانت) بكلمة لأرسطو (ترانا حين نكون شيوخاً نعيش سواء في هذا العالم نفسه، ولكننا عندما نسترسل في الأحلام والأوهام كل منا له عالمه. . . ثم يقول: (وحين يبني الناس دعائم الوجود كل بحسب رغبته، فليأذنوا لنا بأن نقول: أن هؤلاء الناس يحلمون! ولكن هل يدفعنا هذا إلى القول: أن كل علم نظري فاسد؟ لا. لأن العلم النظري قد يسد حاجة من حاجات عقلنا، ولكنه لم يكن ناجحاً مفيداً إلا إذا كان موثقاً بحبال معرفتنا. ويقول كانت: أن العلم النظري له عملان: يجيبنا في الأول على أسئلة كثيرة يخلقها العقل الطامح إلى كشف أسرار الوجود، وهاهنا يكثر انخداعنا بنتائج تأتينا على غير ما نتوقع؛ وفي العمل الثاني يبين لنا ماهية المسألة التي نعالجها وموضوعها من حدود إدراكاتنا، وإمكان

اتصالها أو استحالته بتجاربنا ومعارفنا. وعلى هذا نرى العلم النظري إنما هو معرفة لحدود العقل البشري، وهو كل البيت الصغير ترى حدوده دائماً كثيرة، وإنما ينبغي لهذا العلم أن يكون أكثر شغفاً بالمعرفة، وأشد صيانة لما يملكه، لأن ذلك أجدى عليه من إنتصارات جديدة يركض ورائها ركضاً أعمى لا يغنيه شيئاً

هذا هو رأي كانت في العلم النظري، وهذا الرأي نفسه هو الذي خلق كتابه (نقد العقل الخالص) هذا الكتاب الذي أظهر مزية (كانت) وعلو كعبه في الفلسفة، وكان له التأثير العميق في فلسفة أوربا الحديثة.

خليل هنداوي

العلوم

في تاريخ الرياضيات

للأستاذ محمد محمد السيد

للأستاذ قدري طوقان آثار مشكورة في الإبانة عن فضل العرب في الرياضيات والعلوم، ومقاله الأخير في الرسالة يكشف عن بعض آثر العرب في تلك الناحية. إلا أنه يلوح لي أن حرصه على إنصاف العرب يكاد يدفع به إلى إسناد الفضل لغير أهله، خذ مثلاً حساب التفاضل والتكامل. فالمعروف في تاريخ الرياضيات أن يودكسوس (حوالي 400ق م) وأرشميدس (حوالي 250ق م) وغيرهما كانوا سباقين في استعمال طرق تقرب من طرق التكامل في إيجاد المساحات والحجوم. فأرشميدس مثلاً أعطى مساحة أي قطعة من قطع مكافئ وأوجد مركز الثقل لصفائح ذات أشكال مختلفة. . الخ وفي كتابه نسب إلى ديمقراطيس (حوالي 450ق م) بأنه أول رياضي قرر المعادلة الصحيحة لحجم الهرم أو المخروط بتقسيم كل إلى شرائح صغيرة فإذا كان بعض مؤلفي العرب قد نسجوا على منوال رياضي اليونان في حل مسائل عن المساحات والحجوم، فهم لا يستحقون لذلك فضل المبتكر. لو أن فضلهم في الدرس والمثابرة مشكور غير منكور على كل حال

ومثل ذلك يقال عن دوران الأرض. فقد أبان الأستاذ بحق أن الفكرة قديمة. فقد تنازعها كثيرون من أعلام اليونان تأييداً وتفنيداً. فإذا ظهر من العرب من يأخذ بها أو من ينكرها، ففضله في ذلك لا يعدو فضل الحكم يختار من بين الآراء المختلفة أحدهما بدون أن يأتي بجديد من الحيثيات مؤيداً أو مفنداً

جاء في تاريخ الرياضيات لبول أن أحد كتاب العرب في الأندلس ويدعى (؟) (عاش في طليطلة حوالي 1080م) قال بحركة الكواكب في قطع ناقص. ولكن معاصريه أنكروا قوله لمخالفته لبطليموس. ومن المعلوم أن يوحنا كبلر هو الذي توطد على يديه هذا الرأي حوالي 1600م، ولكنه لم يشهر رأيه ولم يقتنع به ولم يدافع عنه إلا بعد مشاهدات وأبحاث استغرقت أعواماً عديدة. ولا شك أن فضل كشف هذه الحقيقة يجب أن يستأثر به كبلر وحده دون غيره. في الرأي نفسه عار عما يعززه، لا يقدم ولا يؤخر في العلم. ولكن

المشاهدات والأدلة هي التي يقوم عليها الاقتناع والإقناع

ومن المشهور في كتب الرياضيات والعلوم أن جهد اليونان ثم العرب في العلوم الرياضية كان مقصوراً على الجانب النظري. ولم يكن للتجربة والمشاهدة أثر فعال في كسب المعلومات إلا بعد عصر الأحياء في أواسط أوربا. صحيح أن آثر العرب لا ينكر في الكيمياء والطب. ولكن تجاربهم في الفيزياء والرياضة التطبيقية نادرة. وحتى هذا النادر مختف في طيات الكتب القديمة ينتظر كولمبس جديداً لكشفه

ولذلك قرأت بشغف ما كتبه الأستاذ خاصاً بالجاذبية، ومن أن العرب أخذوا فكرة الجذب عن اليونان (وزادوا عليها ووضعوا بعض القوانين بسقوط الأجسام)، فإذا كان العرب قد وضعوا حقاً بعض القوانين لسقوط الأجسام، فمعنى هذا أنهم سبقوا في ذلك غاليلو وتجربته الشهيرة التي أجراها من برج بيزا. والتي يقول علماء التاريخ بأهميتها في القضاء نهائياً على ما قال به اليونان من اختلاف سرعة سقوط الأجسام الثقيلة عن الخفيفة. فإذا كانت هناك تجارب في هذا الشأن أجراها علماء العرب فتفصيلها يضيف زيادة ذات بال إلى المعروف المشهور عن فضلهم على العلوم والمعارف. ولعل الأستاذ يدلي بما وصل إليه علمه في هذا الشأن ومثل ذلك يقال عما جاء في مقال الأستاذ عن (أبن حمزة المغربي) واستعماله في بحوثه عن المتواليات الهندسية طرقاً تقرب من اللوغارتمات فمن المفيد نشر فضل هذا الباحث وآثاره في هذه الناحية بالتفصيل خدمة التاريخ.

في المقال النفيس الذي ظهر في العدد التالي من الرسالة فصل الأستاذ المبارك آثر العرب في الرياضيات، ولكن فضل العرب في الجبر يحتاج بعض الإبانة

فقد ذكر الأستاذ أن العرب لم يستعملوا رموزاً حرفية في معادلاتهم الجبرية، وإنما استعملوا كلمات بأجمعها دون اختصار، ولعل الأستاذ قصد الخوارزمي دون غيره في هذه الفقرة. وإلا فمن المؤلفين العرب من استعمل الرموز كما تستعمل في الجبر اليوم. ففي مؤلف للقاصدي (توفي سنة 1486م أو 1477م). عنوانه (كشف الستار عن علم الغبار) كان يستعمل في المعادلات الجبرية الرمز (س) للمجهول (أول كلمة شيء) والرمز (م) (لربما كان أول كلمة مال) لمربعه، والرمز (ربما كان الكاف أي مثل) لعلامة التساوي. فمثلاً المعادلة

يقصد بها 3س2=12س + 63 63
كذلك جاء في هذا المؤلف أيضاً استعمال الرمز (جـ) (أول كلمة جذر) علامة الجذر التربيعي فكان يكتب ويقصد بها الجذر التربيعي للعدد 48
ولا شك أن هذا الاستعمال، إن صح، يعزز الأصل العربي للاصطلاح المذكور وهو ما ينكره الأستاذ المبارك
أما حل العرب لمعادلات الدرجة الثانية جبرياً فلا فضل لهم فيه، فقد سبقهم فقد سبقهم ديوفانتس والهنود في ذلك. ولكن يرجح أنهم اقتبسوا حلهم من الهنود. إذ لم تكن أعمال ديوفانتس قد وصلت إلى علمهم بعد
ولكن العرب أضافوا حلولاً هندسية لمعادلات الدرجة الثانية من ابتكارهم. كذلك فعلوا في معادلات الدرجة الثالثة إذ أعطى كل من المهني (؟) وأبي جعفر الخازن وأبي الجود وعمر الخيام حلولاً هندسية لمعادلات الدرجة الثالثة وقد حل عمر الخيام معادلات من الدرجة الثالثة من الصور الآتية
س3 + ب2 س=ب2 جـ
س3 + أس2=جـ3 ،
س3 + أس2 + ب2 س=ب2 جـ حيث أ، ب، جـ أعداد صحيحة موجبة ،.
وحل أيضاً المعادلة من الدرجة الرابعة الآتية
(س2 - 100) (10 - س) 8100=2
وكذلك أعطى ثابت بن قرة حلاً هندسياً لبعض صور معادلات الدرجة الثالثة (وهو في هذا يسبق عمر الخيام)
وقد يكون من المفيد أن ألفت نظر الأستاذ فيما يختص بإشارة الناقص التي تستعمل للطرح إلى أصل محتمل لها وهو (النقطة التي كان يستعملها الهنود ويضعونها فوق الكميات المطروحة. وقد تكون علامة ناقص من الشرطة التي كانت توضع فوق الكتابات القديمة دليل ضياع أحرف منها. . .).
طنطا
محمد محمد السيد مدرس
البريد الأدبي
الأدب البلغاري
الأدب البلغاري من الآداب الأوربية الفتية التي نشأت وازدهرت بسرعة مدهشة؛ فالأدب البلغاري الحديث يرجع إلى نحو ثلث القرن فقط، أي إلى عهد الاستقلال القومي، ومع ذلك فقد سارت هذه النهضة الأدبية واستكملت عناصر النضج بسرعة. وقد نشر الكاتب البلغاري نيكولاي دونتشيف أخيراً كتاباً بالفرنسية عنوانه (المؤثرات الأجنبية في الأدب البلغاري) استعرض فيه مراحل الحركة الفكرية في بلغاريا وخواصها؛ وملخص بحثه أن هذه الحركة على فتوتها قد استطاعت أن تستكمل عناصر ثقافة تامة؛ ومن الطبيعي أن تتجه قبل كل شيء نحو المثل والأماني السلافية، على أنها لم تهمل الاقتباس من مختلف الآداب الأوربية التي تستطيع الانتفاع بها؛ وقد ألفت الحركة لسانها وروحها في الوطن البلغاري، ولم تتدخلالمؤثرات الأجنبية إلا لتصوغ أو توجه هذه المادة القوية الأصيلة، ولكنها لك تحولها قط عن طرافتها وتقدمها الطبيعي وقد استطاعت الحركة الفكرية البلغارية في مبادلاتها مع آداب الأمم الأخرى أن تنفذ إلى جميع نواحي الشعر والنثر والخواص النفسية، وجميع مظاهر التفكير البشري؛ ويشرح دونتشيف في كتابه مختلف التيارات التي اندمجت في المجرى القوي الذي أوحى به الاستقلال القومي، ويبين كيف أن هذا الأدب الفتي الذي أستعاد كل ثروته اللغوية، قد تحول إلى مادة غنية تضم كل ما وهبته الأمم المجاورة أو كل ما بثته فيها والأدب البلغاري لا يزال بلغارياً في روحه وجوهره، وذلك رغم تأثره بالآداب الروسية والفرنسية والألمانية، مما يدل على قوته وحيويته؛ فهو لم يخضع قط لهذه المؤثرات خضوع العبد المساق، وهو ليس مقلداً ولا ناقلاً فقط؛ وكل ما هنالك أنه كالتلميذ الذي يستقي من أستاذه، ليصوغ ما يأخذه في معدن عبقريته المستقيلة، وهو لا يقتبس إلا ما يفيد في تغذية قلبه وروحه، ويرفض كل ما هو سطحي أو مصطنع؛ وكل ما يخرجه يتميز بطابعه الخاص، بحيث لا يطغي عليه أي طابع آخر، وهذا الازدهار نتيجة طبيعية

لحركة لا تدور حول نفسها عبثاً، ولكنها تفتح صدورها لكل الرياح التي تهب عليها من كل مكان يتفتح فيه الذهن البشري، فتزداد في ذلك نماء وخصباً

ولم يبق الأدب البلغاري مجهولاً بعد في أوربا الوسطى والغربية. فقد ترجم الكثير من الآثار البلغارية، إلى الألمانية والإنكليزية؛ وظهرت قطع مسرحية بلغارية في أثوابها المترجمة على الكثير من المسارح الأوربية.

في الأكاديمية الفرنسية

خلت منذ حين أربعة كراسي في الأكاديمية الفرنسية على أثر وفاة المسيو بوانكاريه ومسيو بارتو، ومن قبلها مسيو كاميل جوليان المؤرخ، والماريشال ليوتي، وقد أنتخب أخيراً مكان كاميل جوليان المسيو ليون بيرار السياسي والخطيب الأشهر، وانتخب مكان الماريشال ليوتيزميله الماريشال فرانش دسبريه. وأما كرسي المسيو بارتو، فأنهم يرشحون له مسيو دومرج رئيس الجمهورية الأسبق ورئيس الوزارة السابق؛ وهنالك إجماع على انتخابه فيما لو قدم ترشيحه، غير أنه لم يعرف رأيه في ذلك الاقتراح بعد

وستعقد الأكاديمية جلستها التالية في يوم 20 ديسمبر الحالي؛ ويلقي مسيو بول فاليري خطاب الافتتاح وتوزع بعض الجوائز الأدبية.

مؤلف جديد عن نابليون

صدرت كتب عديدة جامعة بمختلف اللغات عن نابليون بونابرت وعن عصره؛ وصدر أخيراً مؤلف جديد بقلم المؤرخ الفرنسي الكبير (لوي مادلان) عنوانه (نابليون) ويدرس مسيو لوي مادلان نابليون من ناحية جديدة، هي ناحية (المنشئ على الطريقة الرومانية). وكان من أشهر الدراسات التي صدرت عن نابليون في العهد الأخير دراسة لأميل لودفيج الكاتب الألماني يدرس فيها نابليون من نواحيه الشخصية والإنسانية، ولكن دراسة لودفيج يغلب عليها الطابع المسرحي، وهو الذي يغلب على معظم كتابات لودفيج. أما بحث لوي مادلان، فيغلب عليه الطابع النفسي والعلمي. وهو يرى في نابليون (لاتينياً) وارثاً للإمبراطور شارلمان؛ ويراه إمبراطوراً من طراز روماني، نام منذ عصر ماركوس أورلويس، ثم نهض فرأى العالم حوله أنقاضاً وأطلالاً؛ ولكنه بدلاً من أن يتخذ رومة مركزاً لبنائه أتخذ باريس وجزيرة فرنسا في نظره نواة مركزية لاتحاد أوربي جامع، ولكنه لم يكن يرمي إلى طبع أوربا بالطابع الفرنسي، بل كان يرى في حريات الشعوب التي تتألف منها

الإمبراطورية الشاسعة ما كان يراها الرومان

ثم هل كان نابليون فرنسياً؟ لقد كان يشعر أنه فرنسي؛ ولم يكن في قوله: (إني أريد أن أثوي على ضفاف السين إلى جانب أولئك الفرنسيين الذين شد ما أحببتهم) ما يدل على شعوره بأنه أجنبي؛ وإنما كان شعوره أنه (روماني). وقد جاء هذا الروماني في أواخر القرن الثامن عشر، والعالم من حوله أطلال ممزقة، فأراد أن يوحي نوعاً من (العالم الروماني) الذي يعتقد أنه ما زال حياً يمكن إنقاذه.

أكاديمية الأدب الفكاهي

لعل من الشائق أن يعرف القراء أنه توجد في باريس جمعية أدبية تسمى (أكاديمية الأدب الفكاهي) وأن هذه الجمعية تتزعم حركة الكتابة الفكاهية، وتمنح الكتاب الفكهين جوائز أدبية، وتشجع بذلك على إنشاء الأدب الفكاهي ونهضته، وقد وضعت هذه الجمعية أخيراً مكافأة قدرها خمسمائة فرنك (سبعة جنيهات) لمن يضع أحسن قصة فكاهية لا تزيد على ثلاثمائة سطر، ولا تقل على ثلاثمائة سطر، ولا تقل عن مائتين وخمسين، (وستعنى الجمعية بنشرها في صفيحة باريسية كبرى)، وتشمل هذه الجمعية أيضاً برعايتها أصحاب الفن الفكاهي مصوري الصور الهزلية (الكاريكاتير)، ومن إليهم الفنانين.

الشفالييه ديون

ظهر أخيراً كتاب الكاتب الفرنسي جان جاك بروسون عنوانه (الشفالييه ديون) , ويتناول هذا الكتاب موضوعاً مدهشاً لا زال لغزاً من ألغاز التاريخ والمجتمع، هو شخصية لم يتفق المؤرخون على جنسها؛ هل كان الشفالييه ديون رجلاً أم امرأة؟ ويجب أن تعرف أن هذا الشخص المشكل قد عاش في عصر لويس الخامس عشر، وكان يتبوأ مركزاً هاماً في البلاط وفي سياسة الدولة

وقد عرف الشفالييه ديون أولا بأنه رجل، وتولى بهذه الصفة بعض المناصب، ولكنه كان فتى ناعماً خلاباً يضارع في الحسن ورقة المحيا والتقاطيع أجمل فتاة، وكان إذا مثل في الحفلات الراقصة يرتدي دائماً ثياباً نسوية فيبدو كأنه امرأة فاتنة؛ وكان في أحيان كثيرة يرتدي هذه الثياب ويؤثر الظهور بها؛ وكان يتسلل بهذا الزي إلى أعمق المجتمعات
الرفيعة، وإلى غرف الأميرات والملكات؛ ولما وقف لويس الخامس عشر على مسلكه قضى بأن يعتبر امرأة، وأن يرتدي الثياب النسوية دائماً؛ ثم خشي لويس الخامس عشر من دسائسه فأمر بسجنه في قلعة؛ ولما أطلق سراحه فر إلى إنكلترا، وأحترف تدريس المبارزة، وظهر في المجتمع اللندني بأنه أستاذ بارع في الفن؛ ولما توفي فحصه بعض الأطباء، فيقال أنهم وجدوه رجلاً كامل الأعضاء والرجولة ولكن شخصية الشفالييه ما زالت غامضة. هذه هي القصة التي يعالجها المسيو بروسون في مؤلفه الشائق، ويفضل مسيو بروسون أن يعتبر الشفالييه امرأة ذات خواص غير عادية، وأن صفة الأنوثة هي الأصيلة فيه. ويورد في كتابه كثيراً من السير العجيبة عن هذه الحياة المدهشة التي لبثت تثير دهشة المجتمع الفرنسي مدى حين.

الإذاعة اللاسلكية العربية

إن محطات الإذاعة التي تذيع باللغة العربية اليوم هي:

المحطة المصرية وموجتها وقوتها ومواعيدها معروفة

ومحطة الجزائر وموجتها 318 , 8 متر وقوتها 12 , 5 ك ووتذيع باللغة العربية يومي الاثنين والأربعاء من الساعة 20 إلى الساعة 20 , 45 ويوم الثلاثاء من الساعة 24 إلى الساعة 4 , 45، ويوم الخميس من الساعة 23. 5 بحساب الزمن في مصر

ومحطة الرباط بالمغرب وموجتها 499. 1 وقوتها 6. 5 ك ووتذيع بالعربية ساعة في كل يوم من الأيام الأحد والثلاثاء والخميس والجمعة من الساعة 21

ومحطة باري بإيطاليا وموجتها 283. 3 م وقوتها 20 ك ووتذيع بالعربية ربع ساعة في كل يوم من أيام السبت والثلاثاء والخميس من الساعة 20. 30 ولا تذيع إلا الأخبار فقط وتلاحظ مجلة العالم الأدبي التونسية التي ننقل عنها هذا البيان أن محطة الإذاعة المصرية إنما قصرت عن مجاراة المحطات العالمية الأخرى لعاملين اثنين أولهما ضعف قوتها، فقد جعلوها 20 ك ووالعالم العربي منتشر من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، والأمة ذات اللسان المنتشر لن تكتفي بأقل من (60 ك و)؛ وثانيهما أن موجتها ذات مقياس مشترك لعاصمة البلجيك، وذلك ولا شك يؤثر في قوتها ويزيد من اضطرابها وهما ملاحظتان جديرتان بالنظر.

القصص

من الفن القصصي الحديث

حقيبة القدر

للقصصي الألماني: لدفج باور

كان جورج شاباً هادئ الطبع فاضل الخلق، لم يكد يخرج من أزمة بسيطة انتابته حتى استقل القطار قاصداً بلدة صغيرة يشغل فيها وظيفة متواضعة وكان كل شئ يبدو لجورج عادياً لا خطر له، وقد مرت سنو عمره دون أن تتخللها مغامرة، أو يمتريها حادث خطير يهز حياته التي كانت أشبه بحياة أبناء الطبقة الوسطى، وعندما بلغ القطار عند منتصف الليل المكان الذي يقصده جورج أخذ حقيبته من الغرفة المكتظة التي كان يجلس فيها مولياً وجهه شطر حياته الجديدة.

وصل جورج إلى الفندق الصغير الذي عزم على الإقامة فيه، وعندما ذهب إلى سريره لينام نظر إلى الحقيبة، ولكنها لم تكن هي بذاتها على أن جورج خشي أن يكون مخطئاً في تقديره، فحاول أن يفتحها بالمفتاح الذي لديه ولكن عبثاً حاول. على أنه عندما ضاعف جهده انفتحت فجأة. وكانت أول نظرة ألقاها كافية أن تثبت أنه لم يكن مخطئاً. نعم كانت الحقيبة لشخص آخر

أما حقيبته الأصلية وما فيها من سقط المتاع وهو كل ما يملكه فقط كانت في ذلك الوقت تجوب الآفاق المجهولة حيث لا صاحب لها. ووجد جورج نفسه - وهو الذي لم يصادف في حياته يحتاج لحلها - عاجزاً منذ اللحظة الأولى على أن يجمع في ذهنه فكرتين أثناء ذهوله ودهشه. ما العمل الآن؟ كيف يستطيع الحصول على البذلة التي

يرتديها أيام الآحاد وعلى زوج حذائه الثاني وسائر ملابسه؟ كان جورج يأمل أن يجد في محتويات الحقيبة بعض المعلومات عن مالكها الحقيقي الذي قد يكون هو الآخر مستاءً من استبدال حقيبته بأخرى، لذا شرع جورج يبحث أثناء تفتيشه في الملابس المتسخة عما يدله على الشخص الذي أخذ حقيبته وشعر تحت يديه برزمة من الأوراق، فلما جذبها وجدها سلسلة من الخطابات والرسائل البرقية، وأفلتت هذه الرزمة من يد جورج فانتشرت على أرض الغرفة

رزمة من الأوراق المالية من كل نوع

لم يعرف جورج من هذه الأوراق الغريبة المتعددة الألوان إلا عددا ضئيلاً. وجمع جورج الأوراق المالية واستمر في البحث، فاكتشف في قاع الحقيبة المفروشة بالورق ما يشبه وسادة منتفخة من الأوراق المالية المختلفة. ونظر جورج حواليه وقد انتابه العجب منتظراً شخصاً يأتي إليه من ذلك الحلم اللذيذ المخيف في وقت واحد. على أنه لم يأت أحد وبقيت الأوراق في موضعها دون أن تختفي، كما لو كان الأمر حلماً من الأحلام. لم يكن جورج قد رأى من قبل مثل هذا القدر من المال. أخذ يعده وكان حبه للنظام يجعله يضع كل نوع من الأوراق على حده، دون أن يعرف بالضبط قيمة كل منها، على أنه بعد بعض دقائق أن ما أمامه مقدراً بالعملة الذهبية، يتراوح بين مليون ونصف ومليونين. وكان يستطيع حينئذ أن يقول لنفسه إن محتويات حقيبته قد دفع لها ثمن أكثر من الثمن الذي تساويه. على أن هذه الفكرة لم تخطر بباله. وكل ما كان يضايقه فكرة الاتصال بصاحب هذه الكنوز، واستبدال كل من الحقيبتين بالأخرى. فقال لنفسه:

- لعل من الخطابات ما يدل على اسم صاحب الحقيبة وعنوانه.

كان جورج شاباً ذا خلق قويم، لذا كانت فكرة البحث في الخطابات التي تكتب إليه تضايقه وتؤلمه. على أنه في هذا الظرف كانت الضرورة ومصلحة كل من الطرفين تحتمان عليه أن يفعل ذلك. لذا شرع يقرأ.

قرأ جورج الخطابات فعرف من القراءة أشياء كثيرة لم يعرفها طوال الثلاثة والعشرين عاماً التي قضاها في هذا العالم: أشياء لم تكن تخطر له ببال. لم يستطع جورج أن يفهم جيداً هذه الخطابات فقد شرع منذ ابتدأ في خطاباته بالتلميحات والكلمات السرية والمصطلحات. على أنه استطاع أن يدرك أن هذه الأوراق المالية هي ملك أحد لصوص الفنادق ذو النفوذ الواسع، وكان تصل إليه من شركائه ومن صديقة عزيزة كل أنواع المعلومات والإرشادات. ولمعت أمام عيني جورج أسماء كثير من الأماكن والبلدان الأجنبية التي تمتاز بغناها ورفاهيتها، وفي بلدة (كان) على الخصوص استطاع ذلك اللص الخطير أن يلعب دوراً رائعاً مع السائحين الأمريكيين. وفهم جورج من آخر خطاب أرسلته صديقة ذلك اللص إليه أنه يريد أن يضع حداً لمقامراته ويلجأ إلى الراحة والعزلة. فقد كان الاثنان

يملكان ثروة كافية وكانا يستطيعان أن يعيشا من الآن حتى آخر العمر عيشة مدنية مريحة، فقد كانت الحلي قد بيعت بثمن ضخم، ولم يبق إلا قفل من الزمرد كان يمكن أن يباع بخمسين ألف فرنك لولا أنه كان من المحتم أن تنتهي عملية البيع خفية وبأسرع ما يمكن. ولذلك بيع بثمن غير مناسب. وعرف جورج أثناء قراءته أن كل شئ قد أعد وأن السعادة الأكيدة كانت تنتظر الصديقين بعد محن عديدة وأخطار لا عدد لها أمكن التغلب عليها بمهارة وشجاعة.

ووضع جورج رأسه في الماء البارد. كان من اللازم أن يتخذ قراراً. فقد كان واثقاً على الأقل أن صاحب الحقيبة سوف لا يأتي إليه ليستبدل حقيبته بالأخرى لأنه لا يحب أن يقبض عليه، كان أكثر الأمور احتمالاً إذن أن يلوذ اللص هارباً ببذلة جورج وحذائه وملابسه التي منها عدد من القمصان الجديدة كان يحبها جورج ويفتخر بها. وأن يقع العبء كله على كتفي جورج وحده. فهذه الحقيبة التي لديه تجعله هو الذي اخترق الجدران والأسطح، وهو الذي تسلح بالليل البهيم والمسدس في قبضته ليدخل الفنادق الفاخرة فيحطم صناديق الجواهر الموضوعة إلى جانب أصدقاءها السابحين في نومهم. على أن هذا اللص كان أيضاً بالنسبة لجورج المحسن المجهول، فقد ترك له ثمرة حياته الإجرامية المفعمة بالمغامرات، فبعد أن أراد ختام هذه الحياة والفراغ من هذه المهمة وبعد أن وثق من الغد ورقد في القطار يستريح مجهوداً مكدوداً، أخذ

جورج حقيبته دون أن يدري ولا بد أن ذلك اللص الخطير قد ثار في تلك اللحظة غاضباً يسخط حيناً ويقسم حيناً آخر لا يعرف إلى من يشكو لاعناً ذلك السائح الخطير الذي خدعه وانتزع منه قائمة أعماله كلها. تلك القائمة التي ضحى من أجلها كثيراً ولاقى في سبيلها الأهوال. على أن هذا السارق القدير ليس في الواقع إلا شاباً من أسرة متوسطة فاضل الخلق طاهر الذيل، لم يكد يقع في هذه المشكلة الخطيرة حتى أحس في عقله البسيط رعباً فضيعاً وعذاباً مضنياً.

واتخذ جورج قراراً سريعاً وقام لفوره وأغلق الحقيبة وتقدم نحو باب الغرفة متجهاً إلى مركز البوليس ليعرض مسألته: وقد أحس وهو يفعل ذلك بالهم والحسرة، ولكنه كان يعزي نفسه في المكافأة التي يمكن أن يحصل عليها بسبب تبليغه ومساعدته في القبض على ذلك اللص الخطير. وأخذ يحسب ما سوف يناله من المال لو كانت هذه المكافأة خمسة أو ستة في المائة.

وجد جورج نفسه أمام دائرة البوليس، ونظر إلى الجرس متأملاً مفكراً، ولم يكد يضع إصبعه على الزر حتى تبدد حلمه في الغنى والجاه. على أنه بالرغم من ذلك سوف يدخن - عندما يقبض المكافأة - نوعاً من السجائر أغلى ثمناً من النوع الذي يدخنه، وتذكر - وهو يدق الجرس - والديه الكريمين المتوفيين، وتذكر معهما تلك الدروس القيمة التي كان يتلقاها منهما؛ وتذكر أيضاً تلك العبارة (أن المال المكتسب عن طريق غير شريف لا يأتي بفائدة). وكان يقول لنفسه أيضاً: أن البوليس سوف يعثر عليه يوماً من الأيام. لقد دفعه كل ذلك إلى أن يدق الجرس بغير قوة ولا عزم، ولكنه دق الجرس والسلام. وأنتظر. . . ولكن لم يجبه أحد. ودق للمرة الثانية وأستمر واضعاً إصبعه على الزر انبعث صوت شخص نائم يسأله ماذا يريد، طالباً منه أن يعود في اليوم التالي، لأن دائرة البوليس لا تفتح أثناء الليل. وسمع في ذلك الوقت صوتاً صارخاً هو صوت نافذة تقفل بعنف.

عندما رجع جورج إلى الفندق بدا له فجأةً أن مشيئة علوية هي التي أرادت ألا تسلم الحقيقة إلى دائرة البوليس. فقد فعل كل ما يستطيع حتى أنه عرض نفسه للخطر ولكن الله لم يشأ، لذا ترك جورج كل فكرة في الذهاب إلى دائرة البوليس وأعتقد أنه يجب أن يكون أكثر شجاعة وجرأة. ومرة واحدة وجد نفسه عازماً على الاحتفاظ بالمال. ولم لا؟ ليس هو الذي سرقه، كما أنه ليس من الأجرام أن يأخذ الإنسان من لص خطير مالاً حصل عليه بطريقة غير شرعية. وأحس جورج دفعة واحدة بإحساس جديد وأكتشف في قلبه راحة خفية كانت ولا شك نتيجة شعوره بأنه غني. وفكر جورج في كل تفاصيل حياته المستقبلة. سوف لا يرجع مطلقاً إلى منزله. كذلك من البديهي أن لا يبقى في تلك البلدة الصغيرة، فسينتاب أهلها العجب والرعب حين يرون التغيرات الكبيرة في عاداته ومعيشته على أن جورج لم يكن يعرف في الواقع ما سوف يفعله بكل تلك الثروة الهائلة، فهذا شيء جديد لم يتعلمه من قبل ولم يهيئ نفسه له. وهو الآن يريد أن يستعد لتلك الحياة الجديدة ويتخذ لها أهبتها بعد أن أختاره الحظ الزاهر يتمتع ذلك اللص الخطير الذي ولد ليكون طول حياته سيئ الحظ منكود الطالع.

وعندما بلغ جورج المحطة ليستقل القطار فكر في ذلك المحسن المجهول تبدو عليه عاطفة الاعتراف بالجميل. بل كان يغمره سرور من يلتذ بإيلام الغير.

وبعد أشهر كان جورج يسكن قصراً على ساحل الريفييرا، وكان يرتدي أفخر الملابس وأنقها، وقد أصبح الجاه عنده أمراً طبيعياً جداً على أنه في داخل نفسه كان يشعر بالضيق. وكان كلما فكر في أمره وجد نفسه ليس أكثر سعادة من ذي قبل وفي ذلك اليوم عندما أوشكت عينه أن تغمض سمع وقع أقدام وضجة في ردهة القصر. ما الذي يحدث؟ لبس جورج بيجامته الحريرية وخرج من الغرفة. لم يحدث شيء غير عادي، فقد قبض على أحد لصوص الفنادق في اللحظة التي كان يفتح فيها باب غرفة نوم جورج. ورأى جورج وجه الرجل الذي كان رجال البوليس السري والخدم يمسكونه بقسوة ويسوقونه أمامهم. وبدا لجورج أنه رأى ذلك الوجه. ولكن أين؟ وسرعان ما تذكر وقد ملأه الوجل: أنه الشخص الذي كان يحتل المعقد المقابل له في القطار يوم

وقع حادث الحقيبة الشهير
وأبتسم جورج ابتسامة صفراء وألقى بنفسه ثانية على سريره، على نومه طول تلك الليلة كان قلقاً مضطرباً.
علي كامل
بعض الكتب الجديدة
للأستاذ محمد (الأدب العربي وتأريخه في العصر الجاهلي)
هاشم عطية
للأستاذ حسن حسني عبد الوهاب (شهيرات التونسيات)
للأستاذ أمين سعيد (أيام بغداد)
ألف الكتاب الأول الأستاذ محمد فاضل عطية المدرس بدار العلوم، لينتفع به طلاب هذه المدرسة وطلاب كلية اللغة العربية بالجامعة الأزهرية وقد جعله قسمين يقعان معاً في نحو أربعمائة صفحة كبيرة. ففي القسم الأول تكلم الأستاذ أولاً عن معنى كلمة الأدب ومنشأها، ثم حدد العصر الجاهلي وأنتقل إلى أقوال العلماء في الأدب الجاهلي، فأورد طرفاً منها في معرض التدليل على صلاحية هذا الأدب ليكون مرآة للحياة الجاهلية، ثم تكلم عن تاريخ الأدب والمراد منه وفائدته وعلاقته بالتاريخ العام، ودرس جزيرة العرب وأصل العرب وطبقاتهم، ونشأت اللغة عامة والعربية خاصة وخصائص اللغة العربية، ومعارف العرب في الجاهلية، والنثر الجاهلي والشعر الجاهلي وخواصهما؛ ثم درس المعلقات درساً مفصلاً. وأما القسم الثاني من الكتاب فقد جعله للتراجم بعد أن مهد له بفصل ممتع في النقد الأدبي وتاريخه وأصوله، وترجمة فيه لامرئ القيس والنابغة وزهير والأعشى ولبيد وطرفة وعبيد أبن الأبرص وأوس بن حجر وأمية أبن أبي الصلت
فالكتاب كما ترى من وصفه حسن الترتيب حافل بالمعلومات التي لابد منها لطالب الأدب، وهو في شكله المدرسي هذا كفيل بأن يفيد جمهور المثقفين من غير الطلاب؛ بيد أن هذا الشكل أو هذا الوضع المراعي فيه مناهج الدراسة قد حال بين الأستاذ على رغم ما يبدو من متانته وضلاعته وسعة إطلاعه، وبينما كان يتطلبه الكثير من الموضوعات من البسط والاستيعاب، ومن أمثلة تلك الموضوعات مسألة الانتحال والرواية والحياة الاجتماعية للعرب، فهما موضوعان أساسيان في مثل هذا الكتاب وكثيراً ما يحول التقيد بالبرنامج بين المؤلف وبين ما يريد، فيجعل بحثه خاصاً أكثر منه عاماً إلى إيراد المعلومات المتنوعة أقرب منه إلى التحليل والاستقصاء والاستدلال، ولا سيما في المسائل العامة التي يبني عليها فهم الأدب فهماً صحيحاً، وهذا واضح في القسم الأول من الكتاب، أما في القسم الثاني حيث سمح المنهاج للأستاذ بالتحليل والدرس الدقيق، فقد تجلت براعته وأصالته وحسن ذوقه. فإذا نحن نقدنا الكتاب في شكله الحالي ككتاب مدرسي لا يسعنا إلا أن نضعه في عداد الكتب المدرسية الممتازة، كما لا يفوتنا أن نرجو الأستاذ الفاضل أن يستغل عامه ومقدرته في بسط ما أجمل في رسالة أخرى تنفع المتأدبين عامة.
أنتقل بالقارئ بعد ذلك إلى البحث الطريف، الذي أضطلع به الأستاذ العالم التونسي الفاضل حسن حسني عبد الوهاب، وهو بحث تاريخي أدبي في حياة النساء النوابغ بالقطر التونسي من الفتح الإسلامي إلى الزمان الحاضر. ذكر الأستاذ في مقدمة كتابه أن ما دعاه إلى وضعه ما جرى من حديث بينه وبين صديق له حول الكتاب المسمى (الدر المنثور في طبقات ربات الخدور) وقد أشار عليه صديقه أن يضع كتاباً في شهيرات التونسيات، فهزته إلى هذا العمل عاطفة قوية كان ثمرتها هذا الكتاب الذي أحدثك عنه. فقد تكلم فيه الأستاذ عن نابغات النساء في تونس في الدور العربي، والدور الأغلبي، والدور العبيدي والدور الصنهاجي، والدور الحفصي، والدور التركي، والدور الحسيني، وترجم في هذه الأدوار جميعاً لعدد من كرائم السيدات، مبيناً مآثرهن وأدبهم في حديث طلي وعبارة قوية. ولن تقف أهمية هذا الكتاب عند الترجمة لهؤلاء الأوانس، بل أنك لتجد المؤلف الفاضل يربط الموضوع بالتاريخ في مهارة وكياسة، فتجد في كل دور من هذه الأدوار التي مر ذكرها ظلاً للعصر الذي يقع فيه، وتطالع ألواناً مختلفة من الألوان الحياة الاجتماعية، ومألوف العادات والتقاليد، هذا فضلاً عما

كان يبثه المؤلف في ثنايا الكتاب من الحكمة والأدب والموعظة الحسنة، والطرف الأدبية، مما هو جدير بمن كان له مثل أريحيته وأدبيته، وإني إذ أقدم هذا المؤلف الطريف للجمهور القراء في العالم العربي أمل أن يحذو حذوه المؤلفون في الشرق، فما أحوجنا في نهضتنا الحديثة إلى المثل العليا في عالم المرأة، وما أجدرنا أن ندفع عنها تلك الاتهامات القاسية التي توجه إلى المرأة الشرقية في غير تحرج ولا استحياء، وفي كثير من الجهل والإدعاء.

أما أيام بغداد فهو كما يعرفه الأستاذ المؤلف أمين سعيد، وصف شامل لنهضة العراق الحديثة ولمعالمه التاريخية، والقارئ يذكر أن الرسالة قد قدمت إلى قارئها منذ وقت قريب

كتاباً كبيراً للأستاذ المؤلف هو (الثورة العربية الكبرى). ومن هذين الكتابين تدرك مقدار اهتمام الأستاذ أمين بالشرق العربي ومدى حماسته له. أما هذا الكتاب فيقع في نحو مائتين وخمسين صفحة، جيد الطبع متين الورق، وكسائر كتب الرحلات يجمع بين اللذة والفائدة ولا سيما أن موضوعه العراق، ذلك القطر الفذ في تاريخه. أفتتحه المؤلف الفاضل بفصل في النقد في بلاد العرب، ثم بأخر في سكة حديد فلسطين والاستعمار الصهيوني، وبعد ذلك تبتدأ رحلته في فصل عنوانه إلى بغداد، فينتزعك من وسطك ويسير بك إلى تلك البلاد، فإذا أنت معه على ضريح المغفور له الملك فيصل، ثم إذا بك كأنك ترى حفلة التأبين الكبرى، فوصف الأستاذ دقيق، والموضوع ذاته يستهويك ويحيطك بجو خيالي ملئ بالصور. وقد حافظ الأستاذ على هذه الدقة في وصف جميع الأماكن التي زارها والحفلات التي حضرها، ثم أنه لم يقتصر على الوصف وعلى إيراد ما رأى، بل تراه يحدثك عن بعض المسائل الهامة في العراق كالعمران في بغداد والمدرسة العسكرية في الكرادة ونهضة التعليم في تلك الديار؛ وما هو أهم من ذلك كمدى نفوذ الإنكليز هناك ومعسكراتهم ومطارداتهم، وأخيراً تراه يحدثك عن الآشوريين وأحوالهم حديث من رآهم وخبرهم بنفسه

وأنا وأن لم أرى العراق أحس أنني قد استفدت من هذا الوصف، ووقفت به على كثير من المسائل التي كنت أجهلها والتي كانت تشغل ذهني كما أني استمتعت به كما لو كنت أرى هاتيك الصور على الشاشة البيضاء، إما من حيث مطابقة ما ذكر الأستاذ للواقع ومقدار إحاطته بضروب الإصلاح والتعمير في العراق، فأمر في ذلك متروك للقارئ العراقي ولمن زار العراق من أبناء وأهل الأقطار العربية.

الخفيف

1

العدد 76 - بتاريخ: 17 - 12 - 1934

أثر السياسة الحزبية في الأخلاق

للأستاذ عبد العزيز البشري

لقد عاهدت نفسي من عهد غير قريب ألا أعالج عملاً سياسيا من أي نوع كان، وأن أكتم قلمي فلا يتنفس بحديث السياسة أبدا، فأنني لم أصب من هذه السياسة إلا شراً كبيراً، ولعلي لم أجد بها على وطني خيراً كثيراً، بل لقد يراني بعض الناس صنعت في هذا الباب شراً كثيراً. فان كنت كذلك حقاً فأسأل الله أن يغفر لي ما أسأت من حيث ابتغيت الإحسان. والله ذو الفضل العظيم.

ومهما يكن من شيء فإنني عاهدت نفسي على ألا أعالج حديث السياسة، وقد صدقتها ما عاهدت. على أنني أرى صدري يجيش اليوم بكلام يقتضيني واجب الذمة الوطنية أن أنفثه نفثاً وإلاً مزق صدري تمزيقاً. وهذا كلام قد يظهر لبعض الناس في صور أحاديث السياسة، ولو قد تفطن هؤلاء إلى ما أريد لأدركوا أنه ليس كذلك، أو أنه، على الأقل، ليس من ذلك النوع الذي أخذت نفسي بألا أخوض فيه أو أتناوله بأي علاج إنما أخذت نفسي، في الواقع، بهجران السياسة الحزبية، فلا أخب في فتنة ولا أضع. وليس معنى هذا أنني لا أدلي برأي أراه في مصالحة بلدي، أو أنصح به لقومي، أو أنصح به عن معشري إذا كانت الجلى وتربدت وجوه الحادثات. فأنني إن فعلت فقد عطلت مصريتي، وأتمت في حق بلادي، وكنت مختلسا لشرف الانتساب إلى هذا الوطن. وأستغفر الله العظيم من هذا الذنب العظيم!

على أنني من يوم ذلك العهد لا أدع فرصة للحديث في شأن الوطن إلا تحدثت، وهذا

الراديو أحاضر منه كل أسبوع، وهذه صحف شتى، ومجلات مختلفة الألوان أرسل القول فيها كلها، فأتناول الموضوعات الاجتماعية، والأخلاقية، والأقتصادية، بل إنني لألح على بعض موظفي الحكومة بالنقد القاسي على تصرفهم فيما بين أيديهم من الشؤون العامة. فإذا عد هذا كله من السياسة، فهي ليست السياسة التي جمعت العزم على هجرها من ذلك العهد البعيد

والموضوع الذي أتناوله بالكلام اليوم هو أثر السياسة في الأخلاق العامة، لا ألحظ في حديثي حزباً معيناً ولا أظاهر شيعة من الشيع السياسية القائمة في البلاد. وسيرى القارئ

أنه أشبه بالبحوث الاجتماعية منه بالبحوث السياسية:

مما لا شك فيه أنه كان لتلون الحكومات التي تعاقبت على مصر في السنين الخيرة، واختلافها في النزعات السياسية وتفرقها في الأهواء الحزبية أثر بعيد جداً في الأخلاق العامة. وأشد ما كان هذا الأثر في الموظفين عامة وفي بعض أعيان البلاد

تعاقبت الشيع السياسية الحزبية في الحكم، وتداولته مرات متعددة. وكان من سوء الحظ أن المسألة السياسية الكبرى لم تستقر على حال، فكان هذا مدعاة إلى التناحر والتطاحن بين النزعات المختلفة، فكلما وليت طائفة أمر الحكم، والحكم عندنا أصبح في هذه الظروف يدخل فيه معنى الحرب، رأت نفسها في أشد الحاجة إلى الاستعانة بمن تثق بهم، وتعتمد على صدق ولائهم لها من الموظفين. وسرعان ما تعمد إلى إقصاء قوم وتقريب قوم، ورفع جماعة وخفض آخرين، لا تأخذها في هذا أية هوادة، وهل تأخذ القائد الهوادة فيمن قبله من الجند إذا حمى الوطيس واستحر القتال؟

فإذا زالت عن الحكم هذه الطائفة أو أزيلت، أسرع من يليها فيه فأقصى من قربت، وقرب من أقصت، ووضع من رفعت، ورفع من وضعت، وهكذا دواليك. وربما تطاولت القسوة في هذا التناحر الحزبي إلى تخريب الدور وتجويع العيال، حتى أصبح الموظفون وكأنهم ليسوا مستوين في الدواوين على مكاتبهم، بل على منضدة قمار، تدور الحظوظ فيها في اللحظة بالفقر واليسار، وبالغنى والإعسار!.

اللهم إن الموظف المصري قبل كل شيء إنسان يحرص كل الحرص على أن يعيش. وإنما وسيلته إلى العيش ما يجري عليه من الوظيفة الشهرية يقيم بها شأنه ويعود بها على شمله

ثم إنه لا يرى سبيلاً إلى عصمة المنصب إلا إذا استراح رؤساؤه بالثقة اليه، وهو لا يظفر بهذه الثقة منهم إلا إذا أرضاهم وطاوعهم، وعمل بكل جهده على استخراج عطفهم وإيثارهم. وقد عرفت أن الحكم الحزبي، وخاصة في هذه المرحلة التي تجوزها البلاد، قد يقتضي الموظف الإداري، على وجه خاص، شيئاً من الانحراف عن النهج والعنت على القوانين. فان هو فعل فقد فسق عن واجب الذمة وخان الأمانة، وإن هو آثر الصدق في الخدمة العامة، وتهد في جميع أسبابه بهدى القانون فلأمه الهبل!.

ثم إنه ليعلم ليس بالظن أن دوام الحال من المحال، وأن هذه الحكومة التي يعمل في ولايتها

لا بد زائلة إن في قريب وإن في بعيد. وأنه ستخلفها حكومة أخرى تعاقب أولياء هذه الحكومة على ما شيعوا وما صانعوا. ولقد تكون هذه الحكومة عادلة نزيهة، فهي إن تجاوزت عن هوى الموظف إلى الحكومة السابقة، فأنها لا تتجاوز عما قارف في سبيل مصانعتها من إيذاء الناس والكيد لهم والخروج على أحكام القوانين

أما أن نطلب إلى الموظفين جميعا أن يصبروا على المكروه أشد المكروه في سبيل الحق وإيثار طاعة القانون، وأن يعصوا أمر رؤسائهم في طاعة الواجب، فيستهدفوا بهذا لطردهم، وحبس أرزاقهم عنهم، وإجاعة من يعولون من الأهل والولد، أما أن تقتضي هذا جميع الموظفين فضرب من العبث، وأقول إنه ضرب من العبث لأنه قد شهد بكذبه الواقع المحسوس، فأكثر الموظفين الكثير جداً، مع الآسف العظيم، قد نزلوا عند ما تطلب منهم الحكومات المختلفة، وفي بعض هذا الذي يطلب منهم ما لا يرتضيه العدل، ولا يستريح إليه القانون، وأقلهم القليل جداً الذين صبروا على الأذى وصابروا، وآثروا على متاع الدنيا إراحة الذمة وإرضاء الضمير

إذن فالموظف، واعني من تتصل الوسائل السياسية الحزبية بعمله، مضطر في سبيل

عصمة عيشه إلى مصانعه الحكومة القائمة، ولو أدت هذه المصانعة إلى مخالفة حكم الذمة والقانون. ثم إنه في الوقت نفسه ليحسب للمستقبل كل حساب، فتراه لا يني عن العمل له أيضا. أي أنه لكي يعيش ويسلم من المكروه يجب عليه أن يجمع بين الضدين، وأن يسعى في وقت واحد في طريقين متخالفتين، وإنه لن يبلغ هذا المدى إلا إذا بذل في سبيله ما شاءت ضعة النفس، وفسولة الطبع، وإهدار الكرامة، وتميع الأخلاق، وإهراق ماء الوجوه، وفساد الذمة، أن تبلغ!

هذا الموقف لقد يقتضي هذا الموظف المسكين أن يكون له وجهان، ولسانان، وذمتان، وهويان؛ يلقى هؤلاء بواحد من أولئك، ويلقى أولئك بواحد من هؤلاء. فهو يظاهر الحكومة القائمة في إعلانه وجهره، وهو يمد أسباب الهوى للشيعة المقبلة في خفائه وسره، ولا يزال هذا شأنه ما تعاقبت الحكومات الحزبية، حتى كادت تفرى الأخلاق فريا، وتبرى الكرامات بريا، وحتى لقد نجم في بلادنا هذا الفن المحقور المرذول: فن الحرص، بكل ما اتسع له الذرع، واتسع له الخلق والكرامة، على المناصب الحكومية، فشاع به فينا أبلغ ما عرف من

خلة النفاق والرياء، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

لست، شهد الله، ألوم في هذا أحداً، ولا أحمل الوزر فيه قوماً، ولكنني إنما أحيل الأمر كله على الظروف، ولعنة الله على هذه الظروف!

حسبي اليوم هذا القدر، وإني لعائد إلى الكلام في هذا الباب كرة أخرى إن شاء الله.

عبد العزيز البشري

كلمة وكليمة - 2

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

رب قانون تحكم به أمة؛ ولو أنهم حاكموه لاعتبروه كالشروع في قتل هذه الأمة

إذا كان القاضي صاحب دين وذكاء وفهم وضمير؛ فكثيراً ما يرى نفسه محكوماً عليه أن يحكم على الناس. . . .

أصبحت الأخلاق الشرقية في هذه المدينة الفاسدة كمرقعة الفقير المعدم، حيث لا تجد رقعة لا بد أن تجد فتقا. . . .

أضيع الأمم يختلف أبناؤها. فكيف بمن يختلفون حتى في كيف يختلفون. . . .؟

من مضحكات السياسة إنشاؤها أحزابا يقوم بعضها كما تغرس الخشبة لتكون شجرة مثمرة. . . .

يأتي الغرور من ضعف النظر إلى الحقيقة؛ لو أن للنملة عيناً وسئلت عن الذبابة كيف تراها؟ لقالت هذا فيل عظيم. . . .

في الضرورات السياسية لا يحفل أهل السياسة أن يصدقوا أو يكذبوا فيما يعلنون إلى الناس؛ ولكن أكبر همهم أن يقدموا دائماً الكلمة الملائمة للوقت

إذا كانت المصلحة في السياسة هي المبدأ؛ فمعنى ذلك أن عدم المبدأ هو في ذاته مصلحة السياسة

ليس الفقر اختلالاً في الناس؛ إن الفقر على التحقيق هو اختلال في القوانين

معنى فرض الزكاة في الشريعة الإسلامية أن أفقر الصعاليك في الدنيا له أن يقول لأعظم ملوك المال: قدم لي دفاترك. . .

مثل مذهب الاشتراكية في وهم توزيع المال، ومذهب الإسلام في الزكاة، مثل رجلين مر أحدهما بغريق يختبط في اللج، فاستغاثة الغريق، فنظر فإذا حبل ملقى على الشاطئ، ولكنه صاح بالهالك: أنت والله في نفسي أكبر منزلة من أن أخرجك بالحبل فأنا ذاهب أبحث لك عن زورق. . . . ومر الثاني فألقى له الحبل فنجا

التمدن والفقر كصاحبين معا ذي رجلين وأعرج يمشيان في طريق؛ كلما انفسحت خطوات الأول زادت عثرات الآخر

التلسكوب العظيم في استكشاف معاني الحب قد يكون دمعة

ينظر الحب دائماً بعين واحدة، فيرى جانباً ويعمى عن جانب؛ ولا ينظر بعينيه معاً إلا حين يريد أن يتبين طريقه لينصرف. . . .

تتكبر المرأة على كل ما يشعرها بضعفها؛ فمن هنا تبلغ المرأة آخر كبريائها في أوائل حبها

إذا صاحبت عاشقاً فليس لك أن تبدأه كلما لقيته إلا بأحد سؤالين: ما هي خرافتك

اليوم؟ أو ما هي حماقتك اليوم. . . .؟
متى نظرت المرأة إلى رجل تعجب به كانت نظراتها الأولى متحيرة قلقة غير مطمئنة؛ معناها: هل هو أنت؟
فإذا داخلها الحب واطمأنت جاءت نظراتها مسترسلة متدللة، متأنثة، معناها: هو أنت
لا يضحك الحيوان إذ كان لا يفهم إلا فهماً واحداً؛ ويضحك الإنسان لأنه حرم هذا الفهم الواحد. أهو البلاء وعلاجه؛ أم النعمة وبلاؤها؛ أم هذا مرة وهذه مرة؟
لا يكثر الضحك إلا الأبله الذي يفهم الشيء فهما يمسخه شيئا آخر؛ وإلا العامي الفارغ الذي لا يفهم الأشياء إلا ممسوخة؛ وإلا الفيلسوف الساخر المركب في طباعه من الفيلسوف والأبله والعامي. . .
يمنع الهم ونحوه من الضحك إذ كانت هذه حقائق صريحة في النفس لا تفهم أبداً على وجهين
لا تكون امرأة معشوقة رجل إلا وهو يراها وحدها النساء جميعاً؛ ولا يكون رجل معشوق امرأة إلا وهي تراه وحده كل الرجال. فالحب وحدانية لا تقبل الشرك، ومن ههنا يتأله
يولد المولود من رجل وامرأة ولن يكون من ثلاثة؛ ولهذا لن يكون في الحب الصحيح ثلاثة أبداً
قد تحب المرأة رجلين، أو يحب الرجل امرأتين، ولكن هذا ليس حباً، إن هو إلا كبر في العربة جعلها تحتاج إلى جوادين. . .
لعل من حكم الحجاب في الإسلام أن العشق إذا انتهى إلى الزواج فقلما يكون إلا تمهيداً لولادة إفراط عصبي في قوة أو ضعف أو بلادة أو. . أو رذيلة
ابن المرأة العجوز عجوز حتى في الطفولة، وابن الشابة شاب حتى في الكهولة؛ فيا ضيعة
الإنسانية من تأخير الزواج!
اكثر النساء على نصف الذكاء الساحر في الرجل ينبغي أن يكون في عقله، ويكون النصف الآخر في البنك. . .
عندما ما تكون الساعة هي ساعة انتظر الشيء المحبوب، يكون قلب المنتظر من زحمة الدقائق كالذي يشق طريقاً زاحمه الناس فيه
الذليل في رأي الحب من إذا هجرته المرأة كان هجرها إياه عقوبته، والعزيز في رأي الجب من إذا هجرته المرأة كان هجرها إياه عقوبتها
اليوم الذي يكون قلبياً محضاً يبقى له دائماً باق لا ينتهي؛ ولهذا لا يزال الحب الطاهر كأنه في بقية من أوله مهما تقادم
لا يعرف الطفل تاريخه من الزمن وما فيه، ولكن من بيت أهله ومن فيه؛ فأمس واليوم وغدا هي كلها عنده أمس الذي يكبر شيئا فشيئا. . . ابن الطفولة إنما هو ابن حالة من حالات الحياة لا ابن زمن، وهذا سر السعادة
يالها عجيبة! إن الصوفي إذا فاز في حبه الإلهي رأى نفسه باقياً في الزمن بلا بقاء يعلمه، وفانياً عن الزمن بلا فناء يشعر به؛ وذلك بعينه ما يراه العاشق إذا خاب في حبه الإنساني. . .
الفرق بين كاتب متعفف وبين كاتب متعهر أن الأول مثقل بواجب، والآخر مثقل به ذلك الواجب. . .
كانت الشفقة هي الأصل في كل موضع استهزاء فما تستهزئ إلا بخطأ أو ضعف أو عجز؛ ولكن شعور الحيوان بقدرته على حيوان آخر، أو بانتصاره، أو بامتيازه؛ هو في الإنسان أصل ذلك الاستهزاء
كما يضر أهل الشر غيرهم إذا عملوا الشر، يضر أهل الخير غيرهم إذا لم يعملوا الخير طنطا
مصطفى صادق الرافعي
الدعوة إلى القصص
علام تقوم وماذا أنتجت؟
للأستاذ محمد عبد الله عنان
يجوز الأدب العربي اليوم حركة تطور وتجديد لا ريب في قوتها وأهميتها، والحركات

الفكرية، كالحركات السياسية، عرضة للإغراق والتطرف، ولا سيما قبل أن تبلغ مرحلة النضج والاستقرار؛ وقد كانت حركتنا الأدبية عرضة لبعض هذه المظاهر المتطرفة؛ فقد أفرط البعض مثلا في التحدث عن الجديد والقديم دون أن يسفر هذا الجدل الخالد عن معان واضحة أو نتائج عملية؛ وقد زعم البعض أن التجديد هو إغفال الماضي كله، والسير وراء التفكير الغربي في حركة تقليد عمياء؛ وظهرت في الأعوام الأخيرة في حركتنا الأدبية خاصة تطرف أخرى، هي الإغراق في التحدث عن القصة وكتابة القصة، وفي تقدير المكانة التي يجب أن يتبوأها القصص في أدبنا؛ ويذهب بعض أصحاب هذا الحديث إلى أن القصص هو اعظم وأجمل وأقيم ما في الأدب الغربي، فيجب أن يكون له مثل هذه المكانة في أدبنا، ويجب أن ينصرف الكتاب إلى تأليف القصة حتى يصبح لنا تراث قصصي عريض مثلما في الأدب الغربي

وهذا قول يحتاج إلى بيان ومناقشة. نعم إن القصص يتبوأ في الآداب الغربية الحديثة أسمى مكانة؛ ولكنه ليس كل شيء في هذه الآداب، وليس هو أعظم شيء فيها؛ وإنما يتخذ القصص هذه المكانة في آداب عظيمة تفتحت فيها جميع نواحي التفكير والفن ونضجت، واتصلت مراحل نموها وتطورها مدى عصور. وللقصص الرفيع في هذه الحضارات والآداب العظيمة مهمة سامية أخرى غير متاع القراءة والرياضة العقلية، هي المعاونة في تربية النشء وتكوينه، وتكوين الأخلاق والخلال الفاضلة، والدعوة إلى المثل العليا. والقصص يتخذ أداة للتعبير عن خفايا النفس البشرية، وصياغة العواطف النبيلة والعبر المؤثرة، كما يتخذ أداة لعرض ما في اللغة القومية من كنوز البيان الساحر. وإنا لنتساءل أولاً: هل يفهم القصص في أدبنا على هذا النحو؟ وهل استطعنا بعد كل هذا الضجيج أن نخرج في ميدان القصص ما يمكن أن يرتفع، في فنه وفي قيمته الأدبية، إلى هذا المستوى؟ وهل نضجت حركتنا الأدبية واستكملت كل ما ينقصها من النواحي والعناصر التي يجب

أن تمثل في كل الآداب العظيمة فلم يبق أمامنا إلا أن نعالج القصص وان نحسنه؟

إن القصص لم يتبوأ مكانته الرفيعة في الآداب الغربية ألا في العصر الحديث حينما ازدهرت هذه الآداب، واستكملت عناصرها الجوهرية. نعم إن القصص وجد في الآداب القديمة منذ اقدم العصور؛ ولكنه لم يشغل في الآداب القديمة ذلك الفراغ الشاسع الذي يشغله في الآداب الحديثة، وقد كان فوق ذلك من نوع خاص، قصصاً دينياً أو قصص بطولة أو فروسة قومية، ولم يخرج قصص العصور الوسطى في الآداب الغربية عن هذه الدائرة. ولنا مثل هذا القصص في أدبنا العربي القديم؛ ولكن الحركة الفكرية اضمحلت في الشرق في الوقت الذي نهضت فيه في الغرب وأخذت تتفتح في سائر النواحي وتنمو بخطى عظيمة؛ وبينما كانت الآداب الغربية تغزو ميادين جديدة، منها ميدان القصص، إذا بالحضارة الإسلامية والآداب العربية تخبو وتتراجع أمام الغزوات البربرية التي قام بها التتار والترك في سائر أنحاء العالم الإسلامي؛ ولما افتتح الترك مصر، وهي يومئذ ملاذ التفكير الإسلامي، لقيت الآداب العربية ضربتها القاضية، وركدت ريحها زهاء ثلاثة قرون، وتخلفت عن الآداب الغربية في كل نواحي التقدم؛ ولم تستطع أن تنهض من سباتها الطويل إلا بعد أن تقلص عنها ظل هذا النير البربري

وما نراه اليوم من نقص في نواحي حركتنا الفكرية، إنما هو من أثر هذا الاضطهاد الذي أصابها مدى هذه الأحقاب الطويلة؛ والقصص إحدى هذه النواحي، بيد انه ليس أهمها وأحقها بالعناية؛ فهنالك نواح أخرى في أدبنا لم تنضج ولم تستقر، وهنالك في ميادين العلوم والفنون نقص واضح، والقصص الرفيع عنوان حركات فكرية نضجت واستقرت وازدهرت فيها مختلف نواحي الثقافة والفنون. وقد يظهر القصص في آداب أمم وحضارات متأخرة، ولكنه يكون قصصاً ساذجاً تنقصه عناصر الفن والتفكير. وإذا كان من المسلم به أن حركتنا الفكرية لا زالت بحاجة إلى استكمال كثير من العناصر الجوهرية، فليس مما يقويها ويدعمها، أن ننصرف إلى نواح دون أخرى، وأن نؤثر بعض هذه النواحي بالأهمية والخطورة، وأن نصورها خلاصة الفن والأدب، وكل شيء فيهما، على نحو ما يصور البعض كتابة القصص، فمثل هذا الإغراق لا يخدم قضية الأدب والثقافة؛ ولكنه بالعكس يجنى عليها إذا أثمر ثمره في الأذهان والأقلام الناشئة. وهذا ما يلوح لنا أنه

يحدث اليوم في حركتنا الأدبية؛ فقد ذهب أصحاب الدعوة إلى القصص في تصوير أهميته وقيمته الأدبية إلى حدود بعيدة، وتأثر بهذه الدعوة المغرقة كثير من الشباب الذين لم يستكملوا كل عناصر الثقافة القوية، فانصرفوا إلى قراءة القصص والى كتابته، حتى أصبحنا أمام سيل من القصص الساذج الغث يشغل وقت الشباب والناشئين

والآن لنر ماذا كانت نتائج هذه الدعوة، وهل أسفرت حقاً من الوجهة الأدبية عن نتائج تذكر. وأول ما يلفت النظر هو كثرة القصص التي تغمر الصحف والمجلات. ولكن الكمية ليست هي كل ما في الإنتاج الأدبي، وإنما يهم النوع قبل كل شيء؛ ومن الزعم الباطل أن يقال إننا استطعنا أن نخرج حتى اليوم آثاراً قصصية ترتفع في قيمتها الأدبية والفنية إلى مستوى القصص الغربي؛ وقد نظفر بآثار قليلة تمتاز بشيء من القوة والطرافة، ولكنها مع ذلك تحمل طابع المجهود الأول، وينقصها كثير من العناصر الفنية؛ أما الكثرة الساحقة من هذا القصص الذي يغمر اليوم ميدان أدبنا، فليست لها أية قيمة أدبية تذكر؛ ويلاحظ أولاً أن كثيراً من القصص الذي يبدو في ثوب التأليف إنما هو قصص منقول عن الأدب الغربي، يصاغ في أثواب مصرية لكي تضيع معالمه، ولكنه ينم دائما على حقيقته؛ ولا نلمس في هذا القصص الناشئ أية لمحة من الفن الحقيقي أو الخيال الشائق؛ ثم هو لا يكاد يحظى بأي قسط من البيان القوي، بل يعرض دائماً في أساليب ضعيفة ينقصها روح التعبير القوي، ويبدو فيها أثر التقليد والنقل واضحاً؛ ولسنا ندري ماذا تكون القيمة الأدبية لقصص عاطل عن مزايا الفن والخيال والبيان معاً، وكل ما فيه أنه قصص فقط؛ أضف إلى ذلك أن هذا السيل المتصل من القصص ينقصه عنصر التوجيه والثقافة، فهو لا يتجه إلى غاية ثقافية معينة، ولا تحدوه أية مثل اجتماعية، أو أخلاقية محترمة

ولقد قام القصص الغربي في معظم الأحيان على تراث التاريخ والحضارة، وما زال في كل أمة معرضاً قوياً للتاريخ القومي والحياة الاجتماعية القومية، ولكن ما هي المواد التي يستقي منها كتاب (القصص) عندنا؟ وأي نواح من حياتنا الاجتماعية أو تاريخنا القومي استطاعوا أن يعرضوه؟ إنهم في الواقع يعرضون صوراً باهتة من الحياة الاجتماعية الغربية، ويحاولون أن ينسبوها للحياة الاجتماعية المصرية. ذلك لأنهم مقلدون ناقلون في الغالب، يندفعون وراء نزعة لم تقم على الدرس الصحيح؛ وهل قصص الحب المبتذل،

ومناظر المسارح والملاهي والمراقص، ومقابلات السينما والشاطئ (البلاج)، والمراسلات الغرامية السخيفة، هي كل ما في الحياة الاجتماعية المصرية؟ ولقد كان لنا ثمة مادة بديعة للقصص في تاريخنا القومي، فهو حافل بصنوف المآسي الملوكية والشعبية، والحوادث والمواقف الشائقة، فهل فطن أحد من كتاب القصص إلى هذا الكنز الزاخر والمورد الخصب؟

ولقد قلنا انهم يزعمون أن الرجوع إلى الماضي ينافي دعوة (التجديد) التي يضجون بها، ولا يستطيعون فهمها أو تحديد معانيها، فهم لذلك لا يعنون بالتنقيب في تراثنا الغابر؛ ولكن الواقع انهم لا يفعلون ذلك تعففاً أو قصداً وإنما هو القصور وانقطاع الصلة الروحية لديهم بين مراحل الأدب الذين يزعمون أنهم طلائعه. والبحث يجشمهم جهوداً لا يستطيعون الاضطلاع بها. على أن القصص الرفيع في الآداب الغربية يفسح أكبر مجال لمآسي التاريخ وحوادثه. ويكفي أن نذكر بعض الأسماء لتأييد هذه الحقيقة، فقد كان التاريخ وحده تقريباً مادة شيللر في جميع قصصه المسرحية؛ وكان أروع ما أخرجه سنكيفتش قصته التاريخية الرومانية (كوفاديس) التي تعتبر من أعظم ما أخرج القصص الغربي؛ وكتب لورد ليتون (أيام بامبياي الأخيرة)، وكتبت جورج اليوت (رومولا) وعرض إسكندر ديما مراحل التاريخ الفرنسي في سلسلة من القصص التاريخية البديعة. بل لقد ألفى بعض أكابر كتاب الغرب في تاريخنا، وفي التاريخ الإسلامي مادة نفيسة؛ فكتب تشارلس كنجسلي (هيباسيا) عن العصر اليوناني الروماني في مصر، وكتب اسكوت (ايفانهو) عن بعض حوادث الحروب الصليبية، وصاغ فون هامار ولاهارب مصرع البرامكة في قالب قصصي بديع، وكتب شاتوبريان (آخر بني سراج) إلى غير ذلك مما يضيق المقام بذكره

والخلاصة أننا كلما تأملنا هذه الدعوة الصاخبة إلى كتابه القصص واعتباره كل ما في

الأدب من قيم ونفيس، وتأملنا ما انتهت إليه من النتائج العملية، ألفينا فراغاً في كل ناحية، وألفينا فشلاً مطبقاً. والفشل دائماً حليف كل نزعة أو حركة لا تقوم على قواعد صحيحة، ولا تتوسل إلى غاياتها بالوسائل الطبيعية؛ وقد فشلت هذه الحركة المغرقة، لأنها قصدت أن تبتدئ حيث يجب الانتهاء، ولم تسر في مراحل التدرج؛ جنباً إلى جنب مع باقي نواحي الحركة الأدبية؛ ولم تقم بالأخص على الدرس والبحث، وإنما قامت على عوامل وبواعث
مصطنعة. أراد فريق من كتابنا أن يصبحوا بين الأمس واليوم من أساتذة القصص، وأن يناهضوا كتاب القصص الغربيين الذين كونتهم حضارة وآداب وثقافات مؤثلة متصلة المراحل، وتصورا أنهم يستطيعون تحقيق هذه الغاية بإخراج هذه القطع الركيكة الذابلة التي تنقصها كل عناصر الفن والخيال والبيان
ونحن نقدر قيمة القصص ورفيع مكانته في الأدب الغربي، ولكنا نود فقط أن نعرض الأمور على حقيقتها، وأن نلفت النظر إلى ما يترتب على هذا الإغراق في شأن القصص من الآثار السيئة في حركتنا الأدبية، وهي لم تستكمل بعد كل عناصر النضج والاستقرار. ولقد كان الاندفاع في هذا التيار على هذا النحو من وجوه الضعف في حركتنا الأدبية؛ لأنه يستغرق جهوداً كان خليقاً أن تصرف في نواحي أخرى؛ ولقد كان الجهد كبيراً مستفيضاً، ولكن دون تبصر وتمكن، فجاء الغم ضئيلاً يدعوا إلى الرثاء. ومن المبالغة أن نقول إننا قد استطعنا أن نغزو بعد ميدان القصص الرفيع، أو إننا أخرجنا تراثاً قصصياً يجدر بالتقدير والاحترام.
محمد عبد الله عنان المحامي
أين انتم يا أحبائي؟
للأستاذ محمد سعيد العريان
الغد. . . . إن الغد ليتراءى لي خلف ضباب المنى كأني من توهمه أستعيد تاريخا غبر لا يفصلني منه إلا ما فات من أيامي: وإني لأرى من خلفه ثلاثة أحباب كأنما كنا معاً ثم افترقنا إلى ميعاد!
هأنذا في الفلك مرتفق إلى حافته، والموج من حولي يعج ويصخب، والنسيم يصافح خدي فأسمع في دمدمته أصداء ذكرى بعيدة، طوفت ما طوفت ثم عادت تترامى إلى أذني خافتة من طول ما أعيت في مجاهل الزمان. . .!
وهاهي ذي إلى جانبي في الفلك مرتفقة إلى ذراعي، قد عطفها علي خوف البحر لتلتمس الأمان من قربي، فما ركبت البحر من قبل ولا كان لها بهدهدة الفلك عهد
قلت لها: (أتخشين البحر؟)
قالت: (بل أخشى الفراق!)
قلت: (فإنني إلى جانبك فما يفزعك؟)
قالت: (حبذا أن يكون هذا حقيقة! أهذا هو البحر، وتلك هي السماء، وهذا أنت؟ فما بي خوف البحر وإنك إلى جانبي، ولكني أريد لك أن تعيش!)
وهدأ البحر واملست صفحته، وراح الفلك يشق الماء في لين وخفة، وإن له لموسيقى هادئة فيها عذوبة الأمل الواثق ونشوة السعادة الراضية
وثابت إلى نفسها، فراحت تنقل الطرف من هنا إلى هناك وفي ابتسامتها معان من الغبطة وفي عينيها نظرات. . .
قالت: (أتسمع إلى هذه الموسيقى؟ فإنها لمن نفسي وفي نفسي!)
قلت: (ما أحب إلي أن أبقى إلى جانبك الدهر نستمع إلى أغاني الحب في خرير الماء وهمس النسيم، ونمتد في أحلام السعادة ما امتدت بنا الحياة!)
قالت: (أئنك لتقرأ ما في نفسي، فما أعدل بما نحن فيه أن يكون لي الملك! أرأيت في الحياة ملكاً يعدل قلبين يؤلف بينهما الحب؟)
ورأيت على الشاطئ القريب قصراً قائماً، تلوح النعمة من شرفاته ويستعلن الغنى
قلت: (أفلا تودين أن يكون لنا هذا القصر، نعيش للحب في افيائه ونستظل منه بوارف السعادة؟)
قالت: (ما أتمنى لهذا الحب أن يتعلق من أوهام الأرض بمثل ذاك! ليتني وإياك على رمث في البحر ليس لنا إلا البحر، أو في كوخ من قش على حدود الدنيا ليس لنا إلا حدود الدنيا، أو كهف من جبل في طريق الصحراء ليس لنا إلا الصحراء، فهناك سمو

الحب لا حيث ترى الآن. ! ما لنا وللناس يا حبيبي نطاولهم بالطين والتراب؟ وإنما الحب قلب لقلب، ودنيا من وراء الدنيا. أنا وأنت هما كل الناس، ويومنا هو الزمان، ومجلسنا العين في العين، والجنب إلى الجنب، هو الدنيا كلها ما تتسع لغيره، ولا تمتد لسواه؟

ورسا بنا الفلك على خضراء مزهرة، فانسابت هي في الطريق على حذر ورقبة، وخلفتني هناك أنتظر. . .

باويح الشباب من أحلامه! متى تعود إلى جانبي، فنعيش الروح للروح، والنفس للنفس؟ لقد طالت بها النوى وما آبت

ومضيت أتوكأ على نفسي في ظلال الروض، أتمثلها في كل منعطف وكل ثنية، وإن عيني لتأخذان الطريق، وإن الزهرة لتهمس في أذن أختها: (لقد كانت هنا ثم لم تكن!)، وإن الغصن الناضر ليشير بإصبعه إلى هناك؛ وكل شيء من حوله قد مسته الحياة، ونفخ فيه الحب روحا من روحه، إلا. . . إلا قلبي؟

وتهاويت على مقعد بين ملتف الحدائق، فأغمضت عيني وإنني ليقظان، وسمعت من خلل الغصون حمامة تقول لأختها (انظري! هل يعرف السلام من عرف الحب؟)

ودقت بجناحيها فطرفت عيني، ثم علت فأمعنت في الجو تصعيدا، وإن عبارتها لترن في آذني؛ وفتحت عيني فإذا هي إلى جانبي .!

قلت: (أهذا أنت يا حبيبي! ما أصبرك على البعاد!)

قالت: (فانك ما تزال هنا، لقد كنت على يقين بأنك تنتظر!)

قلت: (وأين لي أن ألتمس السعادة في غير دنياك، وكيف لي أن أمل الثواء هنا، ومعي خيالك، وأنا منك على ميعاد؟)

وذهبنا نخطر جنبا إلى جنب، وإن قلبي ليتحدث، وإن قلبها ليجيب، وإن المنى لتبتسم!

وطوينا الطريق في خطوات، وإذا نحن في بيت يجمع من أمرنا ما تفرق، نطل من شرفاته على ذلك النهر الذي شهد بكرة هذا الحب ووعى ذكريات هذا الغرام، وإن له لحديقة تزهر فيها الأماني وتتفتح الأحلام

ورحنا نمرح في جنبات الدار كأسعد عاشقين أتم عليهما الحب نعمته وأسبغ أمنه. فإذا دنا المساء فذراعها إلى ذراعي في الحدائق الفينانة والملاعب الساهرة؛ فما في الناس إلا من يعرفنا فيتمنى ويرانا فيغبطنا!

وكنا في البيت فجاءت تسعى إلي ضاحكة مزهوة

قالت: (كيف ترى هذا الثوب يا حبيبي؟)

قلت: (إنك به لأكثر فتنة!)

قالت: (إنما صنعته بيدي، ولقد أدمت الإبرة إصبعي، ولكني بما أصابها لسعيدة! أرأيت يا حبيبي إنني لا أشتري جمالي من السوق، ولا ألتمسه عند الخياطة؟)

قلت: (إنني بك فخور!)

قالت: (بل قل بربك إنك تحبني، وأترك لي وحدي نعمة الفخر بحبك!)

ثم لوت لتهيئ لنا الطعام. ما أشهى ما أكل من صنع يديها الجميلتين!

ومضيت في سبيلي إلى المجد اقتحم الصعب وهي من ورائي تدفعني إلى الجهاد وتضاعف في الأمل. فإذا أعياني الجهد ونالني التعب وتكاءدتني عقبات الطريق - مالت علي تهمس في أذني عاتبة:

(كيف تضيق بنفسك يا حبيبي وأنا إلى جانبك!)

يا الله! أكان هذا كله خيالاً من تلفيق الأحلام، تجمع من صورة إلى صورة دنيا تموج، ومن جزء إلى جزء عالماً مصوراً من المنى التي نلتمسها في اليقظة فلا نراها. . .؟

لا أكاد أصدق من طول ما تتراءى لي هذه الصور أنها غير حقيقية! فهأنذا ما أزال أفتش عنها. . . عنها هي، واثقاً أنني سأجد عندها تعبير أحلامي. . .!

ويحي؟ أين هي الآن مني؟ أتراني ألقاها في الخيال على غفلة منها، أم أنا من فكرها في مثل موضعها من فكري فنحن نلتقي على ميعاد؟

ألا كم يفعل الحب من معجزات! أنه ليضاعف وجود العاشقين إذ يلتقيان على البعاد في دنيا الوهم، فهي معي هنا، وأنا معها هناك. . .!

ومضيت على وجهي أتنفس في الحقول المبسوطة مد البصر وهرول إلي صبي ضاحك

مبسوط اليدين
قال: (أبي! أنت هنا؟ لقد نشدتك طويلاً فما بلغت إليك نفسي!)
قلت: (أهذا أنت يا ولدي؛ ما بيدك؟)
قال: (هي زهرة جميلة، سأغرسها في حديقة الدار تنفح العطر وتبعث البهجة والجمال؛ سيسر أمي أن تراها. . . أين أمي، لماذا لا أراها هنا؟)
قلت: (أمك؟ حسبتها معك، أتعرف أين ألقاها؟ فقد نشدتكما طويلاً؛ إن الدار من دونكما خلاء!)
قال: (آه، سأذهب لأدعوها فأنها في انتظارك من زمان. . .!)
ويلي! هي هناك تنتظر وأنا هنا؛ فما لنا لم نلتق من زمان؟
ومضى الصبي يبحث عن أمه، وإن عينيه لتنظران إلى الخلف يستوقفني إلى أن يعود!
إن الولد لأبويه هو الجب والحنان والرحمة؛ هذا هو يسعى ليجمع الحبيبين وما التقيا قبلها مرة، فإذا تم له أن يخرج إلى الحياة يمرح بين أبويه فانه لعقدة الحب ووثائق الأبد
أرأيت إلى الزوجين إذ ينفث الشيطان نفثته فتفترق أجسادهما؛ أتراهما يفترقان حقيقة وبينهما غلام؟ ألا إن خواطرهما لتلتقي عنده على طواعية ورضى في كل لحظة مرات، وإن لم يتراءيا وجها لوجه. . .!
مضى الصبي يبحث. . . وأنا لا أزال أبحث
أنا إلى الآن رجل عزب يحلم. . . وابني إلى الآن لا يزال في الغيب، يستجديني الحياة منى ومن أمه التي لم أعرفها بعد، ولا أزال أبحث عنها، وهي لا تزال تبحث عني. . .!
أين أنت يا ولدي؟
أتراك تعود إليّ حياً كأولاد الدنيا، أم كنت ومضة أمل برقت لعيني خاطفة في الحلم، ثم توارت كلمحة البرق في ظلال السماء!
أي زوجتي التي لم أعرفها لأني لم أرها بعد!
أي زوجتي التي تنتظر وراء الستر حالمةً ترقب الميعاد!
أي ولدي الذي يتوارى خلف الغيب ينادي أباه وأمه!
يا أحبائي الذين يبحثون عني كما أبحث عنهم منذ سنين وسنين وسنين؛ أما آن لنا أن نلتقي حتى ألقى النعم الثلاث في زوجتي وولدي وفتاتي؟
أين أنتم يا أحبائي. . .؟
طنطا
محمد سعيد العريان
عظمة الكون بسعة وأنظمة
ربنا ما خلقت هذا باطلاً!
للأستاذ قدري حافظ طوقان
قد يستغرب القارئ إذا قيل له إن شمسنا ما هي إلا واحدة من شموس لا عد لها، وقد يزيد استغرابه إذا قيل له أيضا إنه بتلسكوب جبل ولسون الذي قطر عدسته العاكس متران ونصف متر، وبالوسائل المتعددة للتصوير بالفوتغراف استطاع العلماء أن يكتشفوا أن مجرتنا تتكون من ألوف من الملايين من النجوم، وأن وراء ذلك مجرات وجزرا كونيه أخرى يربو عددها على ملايين عديدة
قد يظن البعض أن الكون على هذه الحال مزدحم وليس فيه فراغ، وأنه ملآن بالعوالم والأجرام، ولكن الثابت أن كل هذه العوالم والأكوان لا تشغل إلا حيزاً صغيراً جداً بالنسبة للكون الأعظم، وأننا في خضم من الفراغ، وأن الفضاء أفرغ من أي شيء نستطيع تصوره. ليتصور القارئ وجود ثلاث نحلات في قارة أوروبا وعندئذ يكون هواؤها لا يزال أكثر ازدحاماً بالنحل من ازدحام الفضاء بالنجوم في أجزائه التي نعرفها. إن الأمواج اللاسلكية التي تسير بأعظم سرعة نعرفها (سرعة الضوء وقدرها 186000 ميل في الثانية)، هذه السرعة تصل المريخ في دقيقتين، ولكن قد يذهل البعض إذا علم أن هذه الإشارات تحتاج إلى سنين، بل إلى مئات وألوف منها لتصل إلى سيارات بعض النجوم الموجودة خارج مجرتنا؛ وقد لا يصدق البعض الآخر إذا قيل له إن أقصى السدائم التي نراها في الفضاء يبلغ بعدها (140) مليون سنة ضوئية، أي أن ضوءها يستغرق 140 مليون سنة في الوصول إلينا. وسيكشف لنا العلم بوسائله المتعددة عن

سدم أبعد من هذه بكثير
يظهر مما مر أن المسافات التي تفصل بين الأجرام السماوية شاسعة جداً قد لا يستطيع العقل البشري تصورها، وأن الكون أعظم مما نتصور، وكلما تقدم الإنسان في ميدان المدنية على اختلاف مناحيها تتجلى له عظمة هذا العالم وروعة هذا الكون، وتتجلى له غرائبه بما يخلب اللب ويدهش العقل ويحير الفكر
ومن يبحث في هذا الكون العظيم ويسع في الوقوف على أنظمته والقوانين التي تسيطر
عليه يجد أن لا شيء فيه ألا ويسير ضمن دائرة من القوانين لا يتعداها، وأن لكل شيء سبباً، وأن ما يسيطر على أصغر أجزاء المادة يسيطر على أكبرها. . . فالمادة تتألف من الجواهر الفردة، وهذه تتألف من كهربائية سالبة تسمى كهرباً، وكهربائية موجبة تسمى نواة؛ والكهارب تدور حول النوايا في أفلاك، وهذا التركيب وما فيه من نظام وما يسوده من قوانين يشبه النظام الشمسي، فهو مجموعة شمسية مصغرة، فالنواة تقابلها الشمس، والكهارب تقابلها السيارات دائرة في أفلاكها حول الشمس، وتصدق هذه المقارنة على حجوم الكهارب والنوايا وعلى المسافات؛ فلقد ثبت أن نسبة حجم الكهرب إلى النواة تقارب النسبة بين حجم أحد السيارات المتوسطة والشمس. مما تقدم ومن نتائج بحوث علماء الفلك يظهر أن الكون متسق في نظامه، متناسق في أجزائه، متشابه في تركيبه، والنظام الموجود في السيارات والشموس هو بعينه في الجوهر الفرد: في الكهارب وفي النوايا؛ والقوانين التي تسيطر على الأولى تسيطر على الأخيرة، أي أن الكون في أصغر موجوداته وأكبرها سار ويسير حسب نظام مخصوص وحسب قوانين ثابتة اكتشف الإنسان بعضها، وأن موجودات هذا العالم أيضا متصل بعضها ببعض لا يستغني أحدهما عن الآخر، وأنه ما من شيء خلق لنفسه أو يقدر أن يعمل شيئا بدون غيره، والجوهر الفرد بألكتروناته ونواياه هو أصل كل شيء في الوجود، في الأرض، في السيارات، في الشمس، في النجوم. . . . والعلاقة بين كل هذه متينة والرابطة أمتن، علاقة التشابه ورابطة التركيب؛ فمن الذرات الكهربائية تكونت الجواهر الفردة، ومن الجواهر الفردة تكونت الدقائق التي منها تتكون المادة، ومن ذلك أصل النظام الشمسي والأنظمة الشمسية الأخرى وما فيها من نجوم وسدم وسيارات ومذنبات وشهب الخ. . . .
والآن. . . نأتي إلى الإنسان. . . . ما علاقته بهذا الكون؟ ما مقامه؟ بينما نرى الإنسان كبيراً جداً جدا بالنسبة إلى الجواهر الفردة، إذ وزنه يعدل ألف مليون مليون مليون مليون جوهر فرد، نراه في الوقت ذاته صغيراً جداً جداً بالنسبة إلى أحد الكواكب المتوسطة القدر التي وزنها يعدل عشرة آلاف مليون مليون مليون مليون رجل. . . . . .
من هنا نرى أن الإنسان يكاد يكون متوسطاً بين الجواهر الفردة والكواكب، ومن هذه النقطة المتوسطة يستطيع (الإنسان) أن يكشف عن طبيعة الأشياء الصغيرة من جهة، والأشياء الكبيرة من جهة أخرى بفضل ما وهبه الله من الصفات العقلية والروحية قد يقول البعض إن الإنسان استطاع أن يصل إلى نقطة قد تساعده على فهم أسرار هذا الوجود، وعلى الكشف عن غوامضه والوقوف على حقيقته
ولكن مهلاً. . . كلما تقدم الإنسان في الكشف عن قوانين الطبيعة وفي تفهم أسرارها، رأى نفسه أمام أسئلة عديدة لا يستطيع الإجابة عنها، وقد زاد اعتقاداً بضالته وجهله وبأنه لم يكتشف شيئاً بعد، وأنه لا يزال في فجر يقظته العقلية، وفي أول مراحل التفكير الجدي في الوقوف على أسرار الوجود. وكلما قلب بصره في هذا الفضاء وزاد معرفة به، شعر بأن الوداعة تقترب منه، وأن من الواجب عليه أن يكون في الذروة العليا من التواضع وسمو الخلق؛ ولا عجب في ذلك، فحسبه أن يعرف أن الأرض إزاء الأجرام السماوية التي لا عد لها أشكالاً وأنواعا كذرة من الغبار سائرة إلى الفناء لا تأبه للحياة
وفوق ذلك فأجزاء هذا العالم مرتبط بعضها ببعض ارتباطا وثيقا لا يستغني أحدهما عن الآخر، ولا يستطيع أي جزء أن يسير بدون غيره، والإنسان مرتبط بأخيه الإنسان، وهذه كرته التي يعيش عليها وما فيها من حيوان وجماد ونبات، لها علاقات مباشرة وغير مباشرة مع غيرها من الكواكب والنجوم؛ فلولا الشمس لما عاش النبات والحيوان

والإنسان، ولولا القمر لأختل نظام التجارة، ولولا الكواكب والنجوم وجذب بعضها لبعض لما استطاع أن يحفظ كل نجم أو كوكب مركزه في هذا الوجود، ولسادت الفوضى وعم البلاء. وعلى هذه الحال، فالعالم مترابطة أجزاؤه، تسيطر عليها أنظمة وتتولاها قوانين لا تتعداها ولا تشذ عنها. والذي لا ريب فيه أن هذا الكون لم يوجد من تلقاء نفسه، إذ لو كان كذلك لما رأينا فيه (أي في الكون) هذا النظام وهذا التنسيق، بل إن هناك قوة خارقة منسقة منظمة، لا يحيط بها عقلنا، بل هي تحيط بنا وبهذا الوجود من كل نواحيه. أوجدت هذا الكون الأعظم وجعلته يسير ضمن نواميس ثابتة. ومهمتنا نحن البشر أن نزيد معارفنا عن هذه النواميس ونبحث في أصولها، وكلما زدنا معرفة بها زدنا اعتقاداً بقدرة الله الخارقة المنظمة، وأيماناً بعظمته وقوة إبداعه، وظهر لنا بجلاء مقام الإنسان في هذا الكون الذي لم يخلق باطلا

هذا الاعتقاد، وذاك الإيمان إذ رسخا عن طريق الدرس والبحث فانهما يسموان بصاحبهما

. . .إلى عالم أسمى من عالمنا، وفي هذا لذة روحية هي أسمى أنواع الملذات

إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب. الذين) يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك. . .)

قدري حافظ طوقان

من أدب الزراعة - 2

للأستاذ محمد محمود جلال

تمر اليوم بالحقل فتقر عيناك ببساط سندسي وقد نبت البريسم فحلى عاطل الأرض بعد أن كان حباً ميتاً يوم جيء به من المحزن فبذر في ظل الذرة نامية السوق ناضرة اللون فتتمثل بقول الصانع الحكيم (يخرج الحي من الميت). . . ولكل نبت من شعرات البساط مهما دق روح وخصائص للنمو والتزاوج والأزهار والأثمار

يروقك المنظر بعد أن انجلى عنه ما كان يشوبه منذ أيام من سوق يبست فثقلت على النفس، وهانت على الزمن، فناداها أجلها فانتهت أشبه ما تكون بعهد الظلم أو بالظلام عفي ضياء العدل أو ضوء الشمس آثاره

!حبذا الحدود تضع لكل مخلوق دوراً، وحبذا التزامها، وما أنكر الطغيان

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من أخذ من الدنيا فوق حاجته أخذ حتفه وهو لا يشعر)

ولكن الخير المحض لا وجود له في الدنيا، وكذلك لم يخل الله مخلوقا من نفع، فذاك اليبس في السوق، وتلك الضآلة في منظر الذرة حين تجف، إنما تحمل مادة الحياة وغذاء الغالبية العظمى

تلك الأمطار المثقلة أشبه بثمار التجارب وعميق الفكر، لا تنضج إلا في استواء العمر وأواخر الحياة، فيكثر الإطراق والإغضاء اتساعاً للناس على علم من الحياة، ورحمة بالعاني والخاطئ، وتحبب إلى النفس العزلة والانزواء، فيسعى إلى أهل الرأي والتجربة رائدو الحكمة وطالبو العلم كما يسعى الناس إلى التمون من تلك الثمار الجافة حيثما وجدت

وفي مظاهر الهدوء والإطراق سمة الاتعاظ والبعد عن الزهو والصلف، وهي مظاهر لا تلقاها إلا حيث تلقى الفضل والنبل، بل هي سياجهما وشارتهما كما يقول المرحوم شوقي بك:

ومن لمّ يجمل فضله بتواضع ... يَبِنْ فضله عنه ويعطل من الفخر

على أن هذا البساط الذي يأخذ بالأبصار، ويضفي اليوم على الوادي ثوباً قشيباً حبيباً، إنما نبت في كنف غيره، وإنما كفله واخذ بيده سواه

ففي دفء (الذرة) يوم كانت حلية الأرض تغذى، وفي حمى سوقها التي تزدري اليوم ازدهر. فكانت له الأب البار، أو الوصي الأمين، حتى تم الدور فتخلت ناعمة لسعيها راضية. قدمت الخير واطمأنت، وما خلفته إلا حين رأت فيه القدرة على بدء دوره معان للتعاون وربط أدوار الحياة ببعضها. (وفي الأرض آيات للموقنين). ومنذ آلاف السنين تمر قوافل الأجيال منا في كنف الوادي الأمين بتلك العظات، وتتصفح أخراها تاريخ أولاها، وتتبين العز يكلل جبين القوم متحداً، وسيف الذل مسلطاً على رقابه

متفرقاً:
عظة قومي بها أولى وإن ... بعد العهد فهل يعتبرون
!!. .أجل، لا يعتبرون ولو تكررت العظة في كل موسم
فإذا أشحنا عن منظر لا يروق، ردنا إليه الذكر حين ندرك يده فيما يروق، وفاءً للغابر، وعرفاناً للجميل:
ومن شكر المناجم محسنات ... إذا التبر انجلى شكر الترابا
والحياة مزيج، فهنا تلقى بقعة من منضور النبت حالية، وهناك تلقى قطعة من بهجة الأرض عاطلة، بل قد ينفر سمعك من الاسم الذي يطلقه عليها (أدب الزراعة) فهي تسمى في العرف بوراً
هذا (البوار) مقدمة الخطبة، وهذه (البائرة) كثيرة الخاطبين فعطلها اليوم مؤقت، وخلوها قصير الأمد (وبورها) فأل الخير الدافق في المستقبل القريب
هذه القطع الخالية هي المعدة لزراعة القطن في الموسم القادم، فهي اليوم رهن التهيؤ والأعداد
كيوم الجمعة عندنا، تستجم فيه العافية، وكيوم الأحد عند غيرنا، جعلوه للراحة (وبورها) والتسلية، فإذا أقبل يوم السبت أو الاثنين فنشاط يفوق نشاط الأيام الأخرى
عاطلها اليوم كذوي النفع والخير المستخفين، أو الذين تقصيهم الأوضاع السقيمة وطغيان المتحكمين في البيئة كما قسمت الأرض لمحض فكرة الزارع في الكسب -
حتى يأتي عدل الله، فيقيم المعوج، ويقصي الضار، ويظهر الحق، ولكل أجل كتاب
هذه القطع (البور) غمرها ماء النيل رجاء إخصابها، ولتجدن من بينها اليوم ما يأنس بالمحراث، أنس الطروس بالأقلام، تسيل علماً وحكمةً وأدباً مروحاً، حتى إذا نظرت إليها
نظرت إلى سطور خير في أسرع الصحف تلبية وإنتاجا
ولقد شاد بتلك الروعة الضابط العيوف (محمد توفيق علي) حين اضطر إلى ترك الصفوف وخدمة الجيش، وعكف في مزرعته يغذي ميداني الأدب والزراعة فقال:
ويا سطوراً بمحراثي أدبجها ... لا يستقل بها القرطاس والقلم
أما (المحراث) الذي يشق لنا الأرض اليوم ليفتح سيل الخير غداً فقد جاءنا بأكثر من احتلال واحد
فإذا ذكرت (قصر النيل) ومآله، (وقشلاق العباسية) وعاره، فإنك واجد في أعماق الريف وأينما سرت فوق التربة المصرية (فوردسن) و (لانس) و (هوفر) من معادن غريبة عنا، وبائعين لا يذكرون لنا من حسنة الاسداد (القسط)، فإذا أردنا للمحراث حركة، فلا بد من (البنزين) من أمريكا، (والقار) من رومانيا، والزيوت من أصقاع نائية وأما تلك الأوراق التي يوقعها الزارع. فغذاء للمحاكم المختلطة، وجن يحمل المال من مصر إلى أوربا، وآفة من آفات الإهمال قضت على إحدى صناعات الزراعة، وهي تربية الماشية، ودهورت أسعار الحبوب والزروع من فول وشعير وعلف، كانت تحمل من أرضنا إلى موانينا، ونؤدي الثمن في المنيا والخرطوم، فلا تعدو خيراته الإسكندرية، ثم يعود في أبواب أخرى إلى المدينتين وسواهما من مدن القطر المصري السوداني وبلاده وقراه!
محمد محمود جلال المحامي
الشاعر والطبيعة
بقلم نظمي خليل
كل شيء في هذا العالم محاكاة، والفن هو أكثر الأشياء محاكاة للطبيعة. والشعر . . . هو أسمى أنواع الفنون، لأنه لا يعطينا الصوت فقط كما تفعل الموسيقى، أو الشكل فقط كما يفعل النحت، أو اللون فقط كما يفعل التصوير، ولكنه يمزج هذه كلها ويقدم لنا صورة حية تؤثر في الحواس كأنها الحقيقة بعينها، بل ربما كانت أكثر حقيقة من الحقيقة ذاتها، لأن الشيء الذي لا نراه إلا بالعين يكون خارجا عنا ولا يقع تحت إدراكنا، ولكن عندما يصفه شاعر موهوب تراه وتشعر به ايضا، وتقف على ما دق وصغر من كنهه الدفين. بل قد يتفتح هذا الشيء من تلقاء نفسه عند ما تسلط عليه عين شاعر نافذة فتكشف عن دخائله في غير تستر ولا استخفاء
ولكن الشاعر لا يحاكي ما يراه من مظاهر الطبيعة ومناظرها كما يحاكيها الرجل . .

العادي، بل هو لا ينظر إليها نظرة سطحية ساذجة كتلك التي يلقيها الرجل العادي، ولكن نظرة الشاعر أوسع وأشمل، لأنه يعيش في عالم أوسع وأشمل وأعمق من عالمنا، وينفذ ببصيرته إلى جوهر الأشياء ولها. بل إن أذن الشاعر أكثر موسيقية وحساسية من أذن الرجل العادي لأنه يشعر ويسمع كل ما يحيط به من عالم الحس والموسيقى، ويتبين أنغامه ويستمع أصواته المتوافقة الجميلة. فهو وحده الذي يستطيع أن ينفذ إلى قلب هذا العالم الذي يهتز دائماً بأنغام موسيقية متزنة، وهو وحده الذي يمكنه أن يفصح عن هذا الجمال الموسيقي في صوت قوي جذاب، لأن صوت الشاعر أقدر الأصوات وأصلحها لأداء هذه المهمة السامية الجليلة

فقد يقف إنسان على صخرة عالية وينظر إلى البحر الذي أمامه فيراه يتحرك ثم يصطفق ثم يعلو ثم يفيض ثم يهتز ثم يلمع فلا تهيج فيه هذه الصور الجميلة المتتابعة شعوراً ولا تهز منه قلباً، ولعله لا يفطن إلى هذه التغيرات السريعة المتعاقبة، ولا يفقه لهذه الحركات والتموجات المائية جمالاً، ولكن هذه الصور المتحركة الجميلة لا تمضي دون أن تثير في الشاعر نوعاً من الإحساس العميق القوي فتدفعه إلى تحريك اللسان، كما حركت لسان تنيسون من قبل فقال: (إن البحر المتجعد يدلف تحته) أو كما حركت لسان بيرون في

المحيط فقال: (مرحى! مرحى! أيتها الأمواج الزرقاء. مرحى مرحى أيتها المغاور والفجاج! إلى الأمام أيها السفين إلى الأمام! إن أرض الوطن قد توارت. أيها الوطن سلام عليك! أصطخب أيها المحيط الأزرق العميق، أصطخب أيها المحيط لقد أحببتك. وعلى صدرك كانت ملاعب صباي، ومواطن سروري؛ كنت أعبث بأمواجك صبياً وكان ذلك أعظم سروري. فأن جعلها البحر رعباً فما أحبه رعباً! كنت ألجأ إليك كأنك أبي، وأخلد إلى أمواجك القريبة والبعيدة، وأمر بيدي على لبدك المتكاثفة كما أفعل هنا الآن.)

وقد يقف إنسان بجانب ماء آخر ليس لامعاً ولا متحركاً، ولكنه مظلم عميق، فلا يفكر في جمال هذه الصورة ولا يشعر بها، لأنه لم يوهب حساسية غزيرة أو شعوراً قوياً عميقاً يدفعه إلى أن يديم النظر في مثل هذه الصورة الطبيعية الأخاذة، ولكن الشاعر الذي يشعر بهذا الكون ويفكر في هذا الكون، لا يفوته هذا الجمال الطبيعي الساذج فيصيح من تلقاء نفسه كما صاح تنيسون من قبل إذ يقول: (إنها عين ماء نائمة)

فالشعراء يشعرون بما حولهم من عالم الحس والطبيعة وهم لا يقنعون بهذا . . . العالم الأرضي، بل يشركونه بالعالم السامي، عالم الخيال، دون أن ينفصلوا عن عالمهم الأول. أما أولئك الذين لا يحسون بهذا العالم السامي، عالم الفكر الدقيق، والخيال البعيد، فانهم لن يكونوا شعراء وإن كانوا يستطيعون النظم ونحت القوافي

وقد يتمادى بعض الشعراء في شعورهم بهذا العالم الآخر فينسون أنفسهم وهم يحلقون إليه فيضلون الطريق ولا يستطيعون الرجوع إلى أوكارهم الأولى فيمضون يضربون بأجنحتهم في الفضاء على غير هدى حتى ينالهم التعب ويلحقهم اليأس فيهوون من سماء عليائهم محطمين. . . .

فالشعراء حقاً هم الذين يصلون العالمين، ويجمعون بين الحياتين: حياة الواقع . . . وحياة الخيال. الشعراء حقاً هم الذين يتأثرون بما حولهم ويأخذون جانباً كبيراً من عواطفهم من العالم الظاهري، من نسائه وأزهاره وأجوائه ودقائقه، ثم هم يلقون على هذه العواطف ألواناً من العالم الخفي حتى تظهر كأنها غريبة عنا. . .

فالشاعر لا يرى الأسد كما يراه عالم الحيوان، ولكنه يخلع عليه صوراً تجمع بين ضروب المشابهة والضد، فيتأمله في حالات عدة كالذعر والخوف والإعجاب، وقد يأتي وصفه بعيداً عن الحقيقة، ولكنه وصف شعري جميل على كل حال.

فليس المهم في الأمر هو صدق الوصف ومطابقته للواقع أو عدم مطابقته، بل الشيء المهم هو صدق عاطفة الشاعر. فإن لم يكن الشاعر صادق الشعور والعاطفة جاء شعره رديئاً. . . ووصفه غثاً

ونظرة الشاعر لزهرة السوسن الأبيض ليست كنظرة البستاني لها، وليست نظرة . . . هذين الاثنين كنظرة عالم النبات الأخصائي. فإذا سألت البستاني عن هذه السوسنة لم يزد على أن يذكر اسمها؛ هذه حقيقة، ولكن الشاعر لا يقف عندها بل قد يجيبك كما

أجاب (سبنسر) (إنها سيدة الحديقة) وهنا نبتدئ نحس ببعضها ما في هذه الزهرة من جمال شعري وحسن، وقد يأتي شاعر آخر (كبن جونسون) وينظر إلى هذه السوسنة متأملاً فيقول (إنها نبتة الضوء وزهرته) وهكذا يظهر لنا الشعر الجميل هذه الزهرة في حلل بهائها وسرها الدفين

الآن وقد عرفنا أن مادة الشعر هي الحياة، كما هي مادة كل فن آخر من الفنون السامية، وأن غذاءه من الطبيعة، وهي غذاء سائر الفنون، نريد أن نعرف مدى تأثير طبيعة إقليمنا المصري في شعرائنا المصريين

لقد قدمت أن الشاعر الحق هو الذي يشعر بما حوله، أي هو الذي يحس بطبيعة بلاده أو البلاد التي يعيش فيها، فيتأثر بجوها، ويستلهم سماءها ومناظرها، فتوحي إليه بروائع الأشعار

هذا ما كان عليه ذلك الشاعر الجاهلي الذي عاش في الصحراء، والذي افصح عن حياته البسيطة الساذجة في أسلوب شعري دافق

عاش الشاعر العربي القديم تحت سماء صافية سافرة، وفوق رمال مترامية متصلة، وجبال تتفاوت علواً وانخفاضا. يجيل بصره فيما حوله فلا يرى إلا كثباناً من الرمال، وأودية ممرعة نبتت حول بعض الآبار، وقطعاناً من الإبل تروح وتغدو على هذه المراعي الخضراء هذا ما كان يراه، وهذا ما ألف رؤيته كل يوم، فلم يحاول له تغييراً . .

.

لم يعرف حياة الاستقرار والطمأنينة، ولم يتعود حياة الرفاهية والكسل، بل كانت حياته حرباً مع الطبيعة، لا ينفك عن الصراع معها. لذلك جاء شعره صدى لتلك الحياة القوية العنيفة التي كان يحياها قوياً عنيفاً، يعبر عما كان يعصف بقلبه من أشواق ولهب، وما يتنازعه من ثورات ونزوات. ومن أجل هذا نرى الشعر الجاهلي أصدق أنواع الشعر لسلامة نفوس قائليه. فهو شعر الفطرة والسذاجة لا شعر الصنعة والتكلف. هو خال من كل فن ورياء، يكشف عن نفسية عربية سليمة، وروح أبية كريمة. ومن أجل هذا نجد كل ما في هذا الشعر من صور قد أخذها الشاعر مما حوله، فهو يستهل قصيدته بوصف الأطلال، ودار الحبيبة التي أقفرت وخلت بعد أهلها. ثم يصف النؤى والأحجار التي حول هذه البيوت، وكيف أن هذه النؤى قد أعانته على معرفة هذه الديار بعد غياب دام سنين طوالاً. ثم يذكر حبيبته وما كان بينهما من حب، وينتقل من هذا إلى وصف ناقته وصفاً دقيقاً، ويصف جسمها وسرعتها، وصبرها على وعورة الطريق وبعد السفر. ثم ينتقل بعد هذا إلى موضوع القصيدة من مدح أو فخر

هذا شأن الشاعر الجاهلي الذي عاش في قلب الطبيعة، والذي تأثر بالطبيعة، ففاضت نفسه بحبها والإشادة بجمالها.

فأين شعراء مصر اليوم من أولئك البدو الذين صوروا لنا تلك المناظر الجافة من رمال وجبال وأطلال قد لا تثير إعجابا، ولا تهز قلب من يراها اليوم في صور شعرية كلها صدق وجمال

ما بال شعرائنا المصريين قد جهلوا الطبيعة وتغافلوا عن أثرها القوي في حياة الشعر وخلوده؟

إن أدبنا المصري الحديث على ما يزخر به من دواوين شعرية لا تعد، وكتب نثرية . . . لا تحصى، أعجز من أن يقف بجانب غيره من الآداب الغربية كالفرنسي أو الإنجليزي في وصف الطبيعة. فإذا عرضنا إلى الأدب المصري الحديث فأننا نجده خلواً من الأوصاف الطبيعية والصور الريفية

أليس من النقص المعيب في أدبنا العصري ألا نرى فيه أغاني شعبية تمتزج بالطبيعة المصرية وتصطبغ بالصبغة القومية؟ أليس من العيب أيضا أن نجد شاعراً إنجليزيا (كلي هنت) يصف النيل ويستمع إلى ضحكات كليوباطرة وسط خرير مائه العذب ويستوحي طبيعة مصر الشاعرة فتأتيه الصور متزاحمة فيندفع شعوره مع تيار النهر ويمتزج بطبيعته

ثم يفيض على جانبيه شعراً قوياً جميلاً؟ بل أليس منظر الفيضان وجريان مائه في قلب الوادي مما يثير في كل مصري شعور العزة والمجد والفخار، ويهز قلب كل شاعر مصري فيترنم بأناشيد الحب والجمال. . ليس من شك في أن طبيعتنا المصرية طبيعة جميلة، شاعرة، وليس من شك في أن طبيعتنا المصرية طبيعة هادئة تبعث على

التأمل والتفكير. . ولكن لم لم تلهم شعراءنا المصريين هذا الشعور القوي والإحساس الغزير الذي نحسه في شعراء الطبيعة الغربيين ولا سيما الإنجليز؟ إن الذي يقرأ ورد زورث وبيرون وشلي وكيتس، وغيرهم من الشعراء الابتداعيين الذين ظهروا في أوائل القرن التسع عشر يشعر بقوة هذا الشعر وأثر الطبيعة فيه، بل يشعر بأن روح الشاعر قد امتزجت بما حولها من الجبال والوديان والبحيرات والبحار فصارت جزءاً منها ومن يقرأ (شلي) يقف على سر إحساسه بالجمال. فهو لم يرض بهذا العالم ليكون . . مأوى صالحاً لروحه، ولكنه لم يجعله عدواً لمثله الأعلى. فهو يتساءل لم لا يكون جميلاً كالبحار والنجوم والبحيرات والغابات والجبال. فطبيعة شلي كانت ميالة دائماً إلى ازدراء الحقيقة

وإن من يقرأ مناجاة شلي للقبرة يقف على تلك العاطفة القوية، عاطفة الحب التي تسلطت على جميع مشاعره، فهو يقول: (سلام عليك أيها الطائر السامي الذي لم تلامس الأرض، ولكنك تحلق في أطباق السماء العامرة بينابيع الفن الأصلية حيث تنسكب في قلبك. ترتفع عن الأرض وتسمو عالياً وعالياً كسحابة من نار، وترفرف بجناحيك في أعماق الجو الصافي. ثم تشدو وأنت تغني، وتغني وأنت تشدو. . . في الأنوار الذهبية للشمس الغارقة في بحار السحب تطير وتسبح. أيها الطائر إنك وإن كنت بعيداً عن أنظارنا، ولكني أسمع أنشودة سرورك، تملأ الأرض والجو بصوتك إذا ما خلع الليل رداء السحب وسقطت أشعة القمر الباردة فغمرت الكون. . . أيها الطائر إنك شاعر مختبئ في ضوء الفكر يترنم بأناشيد الخلود، حتى يتنبه له العالم فيحنو على الآمال ولا يبالي بالمخاوف. . . خبرني من أي الينابيع تستقي سعادتك؟ أمن الحقول، أم من الأمواج؟ أم من الجبال، أم من الأجواء، أم من السهول؟ إن سرورك الصافي العميق لن يفتر ولن يقل، وإن شبح الكدر لن يحوم حولك، إنك تحب، ولكنك لم تشرب قط ثمالة الحب المحزنة. . . . . .)

وقد تحس وأنت تقرأ شعر بيرون بذلك التجاوب القوي بين روح الشاعر وروح الطبيعة. تلحظ ذلك واضحاً في سياحته الثانية في أوربا عندما يترك الآثار والتاريخ والمجد والشهرة والشعوب وماضيها وينحاز إلى جانب الطبيعة، فيتحدث إليها في شعر عذب رقيق، فيقول: (إن الطبيعة المحبوبة لا تزال أبر أم بنا، ومع أنها دائمة التغير فهي باسمة دائماً، فدعني أرتمي على صدرها العاري الحنون، فإنها لم تفطم ابناً وإن لم يكن عزيزاً لديها. . . إنها أجمل ما تكون في مظاهرها الوحشية حيث لا شيء إلا السذاجة والفطرة والبعد عن كل زينة وصنعة. أنها تبتسم لي دائماً، ليل نهار، مع أني أرقبها حيث يخلو الطريق من الناس، وأبحث عنها في دأب وصبر، وأحبها في شغف وكلف عند الغضب. . . أيتها البحيرة الساكنة السطح الراقدة الماء. لقد لجأت إليك في هذا العالم الصامت. إن فيك لدفئاً لفؤادي، وإن في مياهك الهادئة لراحة لنفسي وسلواناً. . طالما أحببت اصطخاب البحر وزئيره ولكن وسوسة مياهك الناعمة والهدير المردد بين ضفافك يرن في أذني حلو الأنغام كأنه صوت أختي أتاني خلال مياهك. . . . إن أقوى اللذات لا تبعث بروحي هكذا. . .

هاهو الليل. . أيها الليل الجليل. إنك لم ترسل للنوم. دعني أقاسمك أنسك . . . ووحشتك، وأتلاش في العاصفة وأفن فيك. . كيف تضيء البحيرة، وكيف يلمع البحر ويأتي المطر راقصاً مهتزاً إلى الأرض. .)

قد يقول قائل إن الطبيعة المصرية خلو من مناظر سويسرا، مفتقرة إلى الجبال . . . الشامخة والوديان العميقة والبحيرات الجميلة. فهي طبيعة هادئة لينة أقرب إلى الضعف منها إلى القوة. وقد يشتط في القول فيعلل ضعف أثر الطبيعة في نفوس شعرائنا المصريين بعدم وجود الهيارات الثلجية والجو القارس الذي يبعث النشاط والحركة. قد يكون لهذا الاعتراض بعض وجاهته. وقد تكون الطبيعة المصرية مفتقرة إلى هذا العنصر من عناصر القوة، وقد تكون الطبيعة المصرية متشابهة المناظر موحدة الصور. فقد لا يشعر المسافر من الإسكندرية إلى أسوان باختلاف كبير في طبيعة وادي النيل، فقد يجد سهولاً مترامية تكسوها النباتات الخضراء في أراضي الدلتا. وقد يجد وادياً ضعيفاً تكتنفه على الجانبين جبال تتفاوت في البعد والقرب في إقليم الصعيد

قد تكون وحدة الصور هي التي عملت على أضعاف اثر الطبيعة في نفوس شعرائنا

فجعلتهم ينصرفون عنها، ويستوحون طبيعة أوربا ذات الصور المتعددة والأشكال المتباينة.
قد يكون لوحدة الطبيعة المصرية، وقرب تشابهها بعض الأثر. ولكن هذا الأثر لا يجعل شعراءنا وكتابنا ينسون أو يتجاهلون أثر الإقليم المصري كله، أثر ذلك الجو الصافي والسماء الزرقاء والحقول المنبسطة
إني لا أنكر أن بيننا كتابا وشعراء طبيعيين قد أحسوا بما جهله غيرهم، وانهم قد شعروا بهذا النقص المعيب في أدبنا فأرادوا أن يسدوه
ولكني أتساءل في صراحة غير جارحة، هل كان شعورهم بطبيعة بلادهم آتياً من . . . طبيعة نفوسهم. هل أووا إلى طبيعة بلادهم يستلهمونها هذا الفن الخالد، فن الأدب السامي الرفيع بدافع نفسي خالص، أم أن أثر الثقافة الغربية والتأثر بالشعراء الابتداعيين في فرنسا وإنجلترا كان هو الموجه لهم إلى ذلك. . .
إني أخاف أن يكون هذا صحيحاً. وأخاف أن تكون طبيعتنا المصرية الجميلة . . . الساحرة، طبيعتنا المصرية المتأملة المفكرة قد عجزت عن أن تلهم شعراء مصر الشعور بالجمال والغبطة والهدوء. أخاف أن تكون طبيعتنا المصرية الشاعرة عاجزة عن أن تستأثر بأبنائها الكتاب والشعراء فتجذبهم نحوها وتفني فيهم ويفنون فيها كما تفعل الطبيعة الإنجليزية مثلاً. . .
أرجو أن تكون طبيعتنا المصرية قوية كما هي جميلة، ساحرة كما هي هادئة. وأرجو أن يكون هذا النقص راجعاً إلى شعرائنا الذين لا يكادون يشبون حتى يتركوا أمهم الرءوم وينسون موطنهم الأول ويدلجون في ظلم الحياة فتلهيهم عن ذلك المستودع الغني بفنون الحسن والجمال
نظمي خليل كلوريوس في الأدب الإنجليزي
آخر طلق من بندقيتي
للامارتين
خرجت ذات يوم للصيد، فلمحت على بعد ظبياً تلوح عليه دلائل الطهارة والغبطة وهو يقفز مرحاً فوق الخضرة التي بللها الندى
ويظهر أن الغريزة التي تخلقها العادة تتغلب دائماً على الطبيعة النفور من القتل، ولذلك لم أشعر إلا وقد فتنت رصاصتي إحدى كتفيه. وعندئذ أخذت أقترب منه وقد هرب دمي واضطربت نفسي، لآن ذلك الحيوان الوديع كان ورأسه ملقى فوق العشب ينظر إلى بعينين تسبح في مآقيهما الدموع
نعم إنني لن أنسى تلك النظرة التي جمعت بين دهشته وألمه، لأنها كشفت لي عن مبلغ شعوره الناطق وإن كان أبكم. شعرت كأنها توجه إلي مرير العتب على قسوتي التي لم تقم على سبب، وكأنها تقول لي:
من أنت؟ إنني ما أسأت إليك. بل ربما كنت من الصابرين على حبك. فلم طعنتني) تلك الطعنة القاتلة؟ ولم تطمع في حصتي من السماء والهواء والنور وتحول بيني وبين الحياة والشباب؟ ماذا يكون حال أمي وأخوتي وصغاري وصحبي وهم يرقبون عودتي إذا لم يروا بعد ذلك إلا بعض نتف مبعثرة من صوفي على أثر اعتدائك، وهذه النقط من دمي الذي لطخت به وجه هذا العشب النضير؟ أفاتك أن في السماء منتقماً لي وقاضياً لك؟ ومع ذلك فقد صفحت عنك، وهاهماتان عيناي لم يعد فيهما أثر للحقد، لأنني فطرت على التسامح، حتى مع قاتلي!)
محمود خيرت
أسطورة حديثة
قلب الشاعر
للأديب حسين شوقي
لما فرغ الآلهة من خلق العالم السفلي، دعوا إلى حضرتهم الشاعر الذي كان قد سئم الإقامة بجوارهم وقالوا له: (إن الحياة هنا كما نرى عابسة لا تسرك أيها الشاعر، إنك في حاجة إلى التسلية. . إذهب إلى العالم السفلي الذي فرغنا من خلقه عساك تسر بما تشاهد هنالك من مناظر وملاه، ولسوف تدهشك أخلاق الذين أسكناهم إياه. . إنما يجب أن نحذرك تعاطي مخدر يتناوله بنو البشر يدعى الحب، لأن هذا المخدر قتال وإن كان لذيذاً، وبخاصة لقلب شاعر رقيق. .)

انصرف الشاعر من حضرة الآلهة بعد أن سجد لهم شكراً على هذا العطف، ثم تناول مظلة ففتحها ثم هوى بها في الفضاء آخذاً طريقة إلى الأرض. . ما كاد شاعرنا يهبط حتى عرف أن البشر مقسمون إلى ثلاث طبقات: العظماء، والأوساط، والفقراء. . قصد الشاعر طبقة العظماء على ظن أن هذه الطبقة تجمع ولا شك خلاصة الناس وأرقاهم. . وهنالك وجد الشاعر قصوراً فخمة حليت جدرانها بالذهب وكسيت بالحرير، ولكن اشتدت دهشته حينما وجد حجرات هذه القصور قد انقلبت إلى معامل للدسائس يديرها الحقد، والطمع والغرور. . كما أنه شاهد في هذه القصور أناساً تبهر ثيابهم الأنظار بوشيها الفاخر العجيب، ولكن قلوبهم ويا للأسف! صيغت من النحاس. . أنصرف الشاعر عن هؤلاء العظماء وهو خانق لما شاهد فيهم من أخلاق لا تتفق ومثله العليا. . ثم قصد الطبقة الوسطى. . فوجد قوماً يجدون ويكدون في جمع المال، فإذا حصلوا عليه أخذوا يحاكون طبقة العظماء محاكاة القرد للإنسان. . عاف الشاعر هذا المنظر أيضا فانصرف إلى عالم الفقراء عساه يجد في النهاية مثله العليا لدى هذه الطبقة القانعة المتواضعة. . فوجد الشاعر قلوبا تحاكي الماس صفاء، ولكن وجد بجانبها ويا للأسف! بؤساً وانحطاطاً وأموراً لا تتفق وروح الشاعر الأرستقراطية. . ضاق الشاعر بالبشر ذرعاً فقصد الخلاء، فرأى فيه أودية ناضرة، وأنهاراً زاخرة، وزهوراً بهيجة الألوان، وبلابل تكاد تنفجر حناجرها الصغيرة من كثرة الألحان. . حقاً كلها مناظر جميلة، ولكن أين هذه الطبيعة المتواضعة من حدائق الآلهة الغناء حيث كان مباحاً للشاعر النزهة والتروض في أي وقت شاء؟. . يئس الشاعر من العالم السفلي وكاد يعود إلى السماء، إلا أنه فكر في اللحظة الأخيرة في تناول مخدر الحب الذي حذرته منه الآلهة، لأن النفس تواقة بطبيعتها إلى استيعاب المحظور وكشف المستور كان الشاعر كلما قصد صيدلية يسألها هذا المخدر شبعه أصحابها إما بالسخرية، وذلك إذا ظنوه مجنوناً، وإما بالغضب، وذلك إذا ظنوه عابثاً. . . ولما يئس من الحصول عليه، رجع إلى الخلاء فجلس هناك فوق ربوة في مكان تظلله شجرة صفصاف متهدلة الأغصان، وهو مطرق الرأس، فأطل عليه حينئذ ررزور فضولي من فوق غصن وقال: فيم تفكر أيها الشاعر الصديق؟ فقص عليه الشاعر قصته لعل هذا العصفور يهديه إلى ما يريد، فهو دائم الحركة والتنقل في حدائق البشر وحقولهم، فلا شك أنه يعرف عنهم أشياء كثيرة. . .

أغرب العصفور في الضحك من قول الشاعر حتى كاد يسقط من فوق غصنه وقال: تبحث عن الحب؟ هاكه! ثم أشار إلى مكان آخر من الربوة ظلله كذلك الشجر الكثيف، فنظر الشاعر حيث أشار فوجد فتاة آية في الحسن، تجلس وحدها تغزل الصوف. . أخذ الشاعر لجمالها الرائع وأدرك معنى الحب من نفسه حينما حل هذا الإكسير العجيب في قلبه. .

ثم أخذشاعرنا يتدفق في إنشاد الشعر فعجب من السهولة التي صار ينشده بها، ومن أن هذا الشعر أصبح أرق وأعذب من قبل. . ودهش من أمر هؤلاء الآلهة الذين يحرمون مثل هذا المخدر العجيب. .

ولما كانت الفتاة تختلف كل يوم إلى هذا المكان تقضي فيه ساعة أو ساعتين في غزل الصوف كان الشاعر يأتي لينظر إليها متأملا ملامح وجهها الفتانة في خشوع وإجلال، فإذا انصرفت أخذ ينشد هذه المحاسن في صوت جميل أيضاً، لأن أوتار صوته صارت ذات رنين كرنين الذهب من جراء الحب، حتى أن بلابل الوادي كانت تسكت إذا مر بها الشاعر لتصغي إلى قلب الشاعر وهو يبوح بأول حب له. .

ونقل الآلهة صوت الشاعر بواسطة الراديو وأخذوا يستمعون إليه وأخذوا يستمعون إليه في سرور عظيم. .

ثم انقطعت الفتاة عن المجيء إلى الربوة، فانقطع الشاعر عن الإنشاد. .

قلق الآلهة حينما انقطع إنشاد الشاعر، فأرسلوا رسولاً إلى الأرض يأتيهم بالخبر، وقد خيل إليهم لأول وهلة أن الانقطاع نشأ عن عطب في محطة الإذاعة. . فعاد الرسول بعد قليل من الزمن يقول: إن المحطة لم يصبها عطب، وإنما العطب وا أسفاه أصاب قلب الشاعر فتمزق قطعاً تحت شجرة الصفصاف!

كرمة ابن هاني
حسين شوقي
بين فن التاريخ وفن الحرب
خالد بن الوليد - 12
في حروب الردة
للفريق طه باشا الهاشمي رئيس أركان الجيش العراقي
لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما في بدني شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة، وهأنذا) أموت على فراشي كما يموت البعير! فلا نامت أعين الجبناء(
خالد بن الوليد
الصفحة الثالثة
جرى القتال في هذه الصفحة حول الحديقة، والحديقة تشمل بساتين القرية المسورة بالجدران. وهذه البساتين كثيرة في قرى اليمامة. والكثير من قرى العارض والوشم والقصيم والسدير له بساتين. فبساتين القرية على ما يتراءى لنا واقعة في بطن الوادي، ولا يعقل أن تكون على صدفة لصعوبة استقاء الماء لأرواءها، لأن الآبار على ما نعلم في بطن الوادي تتصرف إليها مياه الأمطار
ويذكر المستر فلبي عندما يبحث في الجبيلة إنها واقعة على الضفة اليمنى من الوادي، وأن قبور الصحابة الذين قتلوا في عقرباء موجودة في الضفة المقابلة لقرية الجبيلة وعلى مسافة ربع ميل منها. وهذا مما يدل على أن الحديقة واقعة في الوادي تحيط بها الجدران المبنية بالحجر والطين وعلوها، أكثر من قامة كما هو شأن الجدران التي تحيط بالبساتين عندنا
ولبي الحنفيون نداء المحكم فهجروا ميدان القتال تاركين قتلاهم فيه لدخول الحديقة واعتصموا بها مؤملين المقاومة فيها
وطارد المسلمون بني حنيفة إلى الحديقة فأحاطوا بها وتوقفوا مدة من الزمن مترددين. وكان التجاء الحنفيين إلى الحديقة وبالاً عليهم
ويظهر من أخبار الرواة أن مسيلمة قتل في أثناء الهزيمة إلى الحديقة برمية حربة. وقد ادعى عدة أناس قتله. وكل فرقة من فرق المسلمين أرادت الاشتراك في قتله. وكان للحديقة باب أغلقه المنهزمون بعد أن دخلوها وقرروا المقاومة فيها إلى اللحظة الأخيرة
وبعد أن تريث المسلمون ردحاً من الزمن، مترددين فيما يفعلون، صرخ فيهم البراء بن مالك قائلاً: (احملوني إلى الجدار حتى تطرحوني عليه). فساعدوه على التسلق ومع أن رواية ابن إسحاق تزعم أن البراء وحده تسلق الجدار فاقتحم الحديقة وقاتل الحنفيين على الباب حتى فتحه للمسلمين، إلا أننا نجزم أن رجالاً آخرين تسلقوا معه الجدار وكان بعضهم على الباب
وبعد أن دخل المسلمون الحديقة أوقعوا بالحنفيين إيقاعاً ذريعاً، وكانت مذبحة لم يشهد المسلمون مثلها وقد سموها حديقة الموت، ومع أن روايات الطبري جميعاً تروي أن المسلمين قتلوا جميع الحنفيين في الحديقة، إلا أن رواية ينقلها ابن حبيش تزعم أن بعض الحنفيين فر من الحديقة بعد أن دخلها المسلمون
وفي رواية يذكرها ابن حبيش والبلاذري أن نساء المسلمين أيضا اشتركن في المعركة. ولقد كسب المسلمون المعركة بعد أن حاربوا من الصباح إلى العصر، ولم يعلموا بهول المصيبة إلا بعد أن توقفت رحى القتال وراحوا يكشفون عن القتلى في الميدان وفي رواية عن أبي سعيد الخدري الذي اشترك في القتال أن خالداً أمر السقاة بعد صلاة العصر أن يسقوا الجرحى، وكان أبو عقيل بين الجرحى فيه خمسة عشر جرحاً. أما بشر بن عبد الله فكانت أمعاؤه خارجه من بطنه. وكل هذا يدل على شدة القتال الخسائر
يبالغ المؤخرون في تقدير خسائر الحنفيين. فسيف بن عمر مثلاً يزعم أن قتلى بني حنيفة بلغوا عشرة آلاف في المعركة وفي القتال في حديقة الموت. وفي رواية أخرى يزعم أن عدد قتلى بني حنيفة بلغ واحداً وعشرين الفاً، سبعة آلاف منهم في المعركة وسبعة آلاف في حديقة الموت وسبعة آلاف في المطاردة
ولكننا نستبعد هذا العدد، إذ سبق أن ذكرنا أن قوة الحنفيين في معركة عقرباء بلغت

عشرة آلاف مقاتل. والثابت أن بني حنيفة كابدوا خسائر فادحة سواء في ميدان المعركة لثباتهم في محلهم، أم في الحديقة لأنهم بالتجائهم إليها مكنوا المسلمين من أن يقطعوا عليهم خط الانسحاب فقضوا عليهم القضاء المبرم. ولعل عدد قتلاهم بلغ اكثر من ثلاثة آلاف. ومما يدل على كثرة القتلى في بني حنيفة اندثار اسمهم بعد هذه المعركة وعدم اشتراكهم في
الفتوح. ويقول البرنس كاتياني في كتابه الآنف الذكر (إن محدثي المسلمين يبالغون في ذكر خسائر بني حنيفة. فانهم يذكرون أن كل ذكر بلغ سن الرشد قتل في المعركة. ومع ذلك فان أحد الأدلة التي تدل على أن الحنفيين كابدوا خسائر لا تتناسب مع عددهم هو أن هذه القبيلة التي كانت قبل الإسلام كثيرة النفوس مرفهة العيش إن لم يكن لديها شيء فان كثرة عددها وحده يجب أن يجعلها ذات حصة كبيرة في المعارك التي نشبت بعد ذلك. ولكننا نرى أن ذكر هذه القبيلة يكاد يدرس تماماً من تاريخ الإسلام، وأن اسم الحنفيين لا يذكر على الإطلاق حتى على انفراد)
أما خسائر المسلمين فكانت كثيرة بالنسبة إلى عددهم أو مقدار الخسائر التي كابدوها في المعارك السابقة. فالروايات في عدد قتلى المسلمين مختلفة، فهي متفاوتة بين 500 و1700. ويروي عيسى بن سهل عن جده رافع أن قتلى المسلمين بلغ عددها نصف قتلى الحنفيين، وأن الأنصار وحدهم (وكان عددهم خمسمائة مقاتل) خسروا سبعين قتيلاً ومائتي جريح. أما أبو سعيد الخدري فيزعم أن عدد قتلى الأنصار بلغ سبعين، ويقول زيد بن طلحة أن قتلى المهاجرين بلغوا السبعين وقتلى الأنصار بلغوا السبعين أيضا وأن مجموع قتلى باقي المسلمين بلغ الخمسمائة.
أما سالم بن عبد الله بن عمر فيذكر أن مجموع قتلى المسلمين بلغ الستمائة. وأما البلاذري فيقول: (وقد اختلفوا في عدة من استشهد في اليمامة فأقل ما ذكروه من مبلغها سبعمائة وأكثر ذلك ألف وسبعمائة. وقال بعضهم إن عدتهم ألف ومائتان، والذي يلوح لنا أن هذا العدد الأخير هو الأصح. وهو يؤيد الرواية التي يرويها الطبري نقلاً عن سهل إذ يقول: (قتل من المهاجرين والأنصار من أهل قصبة المدينة يومئذ ثلاثمئة وستون، ومن المهاجرين من أهل المدينة والتابعين بإحسان ثلثمائة من هؤلاء وثلثمائة من هؤلاء ستمائة أو يزيدون.)
وذكر المؤرخون أسماء الشهداء من المهاجرين والأنصار ونظموا قائمات بذلك. ويتضح من مطالعتها أن بين القتلى زيد بن الخطاب قائد القلب، وأبا حذيفة بن عتبة قائد الميمنة وشجاع بن وهب قائد الميسرة وقيس بن ثابت قائد الأنصار، ويدل كل ذلك على شدة القتال في المعركة
يقول ضرار بن الأزور في يوم اليمامة:
ولو سئلت عنا جنوب لأخبرت ... عشية سالت عقرباء وملهم
وسال بفرع الواد حتى ترقرقت ... حجارته فيها من القوم بالدم
بعد المعركة:
بدأت المعركة صباحاً على ما ذكرناه فيما تقدم وانتهت عصراً ولم يبق وقت للمطاردة. وقد نهك التعب قوى المسلمين وأضاعوا خيرة رجالهم، واستشهد اكثر حفظة القرآن. لذلك نجزم أن المسلمين قضوا ليلتهم في جوار الحديقة للترويح عن أنفسهم من عناء الحرب، تأهباً للمطاردة في اليوم التالي. ومع أن نتيجة المعركة كانت فاصلة لم تزل أرياف اليمامة في الخلف (وفيها المؤن والذخائر والقسم الذي لم يشترك في القتال من بني حنيفة)، والقرى في الأرياف جميعاً منيعة وفيها الحصون والأبراج
ويذكر الطبري نقلاً عن سيف بن عمر أن عبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن إبي بكر طلبا من خالد أن ينزل بالناس على الحصون. وكانا يقصدان بذلك ألا يترك مجالا للبقية الباقية من بني حنيفة لتستعد للمقاومة. أما خالد فلم يشأ محاصرة الحصون، بل رجح أن يوفد سريا الخيالة إلى الأطراف لتلتقط من ليس في الحصون، وكان يعلم أن منازلة الحصون تكبد المسلمين ولا سيما انهم اطلعوا على كبر المصيبة بعد أن تفقدوا القتلى. وكان من رأيه أن يلقي الرعب في قلوب بني حنيفة ويدهشهم بسرايا الخيالة التي تتجول في حيهم وتقبض على كل من تلقته. وشأنه في ذلك شأن القواد الذين لا يريدون أن يضيعوا الوقت في الحصار، ويتركوا فلول أعدائهم يفلتون من يدهم.
ولقد أصاب خالد في رأيه، لأن سريا الخيالة أصابت فحوت ما وجدت من مال ورجال

ونساء وصبيان، فضمها إلى الغنائم في المعسكر
الصلح
اثبت خالد في عقده الصلح مع أهل اليمامة أنه سياسي حازم بقدر ما كان قائداً محنكاً انتهت المعركة وقد خسر المسلمون خيرة رجالهم من الصحابة
أما القبائل فقد قتل منها رجال كثير. فالعراك من الصباح إلى العصر بتلك الشدة والمقاومة
التي أبدأها الحنفيون، مما زاد في حنق المسلمين عليهم. وكانت القبائل تريد غنماً يوازي التضحية التي تحملتها. أما الصحابة فأقل ما أرادوه العمل بوصية الخليفة وهي (ومن لم يجب داعية الله قتل وقوتل حيث كان) والداعية الأذان - فإذا آذن المسلمون
فأذنوا، كفوا عنهم، وإن لم يؤذنوا عاجلوهم، وإن آذنوا سألوهم ما عليهم، فان أبوا (عاجلوهم، وإن أقروا قبل منهم، وحملهم على ما ينبغي لهم
فبنوا حنيفة لم يجيبوا الداعية، بل قاتلوا المسلمين وقتلوا نخبة الصحابة وقضوا على حفظة القرآن. فكان عقابهم القتل عملاً بوصية الخليفة، فالروايات جميعاً تدل على أن الأنصار والمهاجرين كانوا يلحون على خالد بمعاملة بني حنيفة بصرامة
أما خالد بن الوليد فنظر في الصعوبات التي لقيها في التغلب على الحنفيين وتأمل عاقبة الشدة التي يظهرها نحوهم إن هم أبوا وقاوموا في حصونهم فامتنعوا بها. وقد دلت المعركة على انهم متفانون في التضحية. ولا بد من أنه علم أن حزباً من الحنفيين وعلى رأسه سليمة بن عمير يريد المقاومة حتى الموت. لذلك لم يتردد قط لما عرض مجاعة بن مرارة توسطه لعقد الصلح. وكان هذا أسيراً عند المسلمين وقد احتفظ به خالد ليستفيد منه. وكانت الشروط التي فرضها على مجاعة ثقيلة وهي تتلخص في أن
يعطي الحنفيون كل ذهبهم وفضتهم وسلاحهم وخيلهم، وان يسبي جميع الأسرى حمل مجاعة هذه الشروط وهو يضمر الخير لبني قومه ويريد أن يخفف حملهم بعد أن أصابهم ما أصابهم، لذلك أقام النساء والشيوخ على الحصون ليحمل المسلمين على الاعتقاد انهم يريدون الدفاع عن حصونهم. فرجع مجاعة وأخبر أن القوم لا يقبلون بهذه الشروط الثقيلة، وانهم عازمون على الدفاع حتى الموت. وبعد ذهاب وجيئة استطاع مجاعة أن يستميل الحزب المخالف إلى جانبه من جهة ويخفف من شدة الشروط من جهة أخرى
يتبع
طه الهاشمي
إلى مؤتمر الفردوسي
بين القاهرة وطوس - 2
من قصر شيرين إلى همذان
للدكتور عبد الوهاب عزام
سرنا من قصر شيرين تلقاء كرمانشاهان، فمررنا بعد خمسين دقيقة بقرية ذهاب، ثم أصعدنا في جبل شامخ فسيح، فلبثنا بين قممه ووهاده نصف ساعة. وذلكم (كوة باطاق) أي الجبل ذو الطاق. سمي بطاق قديم قائم في منتصف هذه الطريق الجبلية (ثم انبسط بنا السهل نصف ساعة إلى قرية كرند، وهي قرية خضراء مشجرة، وبعد أربعين دقيقة وقفنا في شاه آباد، وهي قرية ذات بساتين فيها ضياع لجلالة الشاه، وباسمه سميت) وله بها دار صغيرة نزلنا بها، فاسترحنا قليلاً وشربنا الشاي، وأكلنا فاكهة طيبة، فيها عنب صغير جيد، وكان ذلك أول ما طعمنا من فاكهة إيران ثم استمر بنا المسير فاجتزنا جبالاً أخرى إلى كرمانشاهان بعد ساعة وثلث من شاه آباد
وكرمانشاهان (قريسين) مدينة عامرة فيها شوارع جديدة واسعة، وأسواق كبيرة. وموقعها على درجة 34 من العرض، و47 من الطول، في بقعة طيبة الهواء يسقيها نهر قره صو. وهي على الجادة الكبرى من بغداد إلى همذان، تبعد عن كل منهما خمسا وستين ومائة كيلو. أنشأها الملوك الساسانيون، وكانوا يقيمون بها أحيانا. ونزلها في العصر الإسلامي الخليفة هارون الرشيد، وعضد الدولة البويهي، ولم تبلغ مكانة عظيمة إلا في القرن العاشر حين اتخذها الملوك الصفويون قاعدة لمحاربة الدولة العثمانية

والمدينة في وسط والية كرمانشاه. وهي الأرض التي قامت عليها الدولة الميدية القديمة، وفيها من المدن والقرى قصر شيرين وكرند وأسد آبار وكنكاور أو كنكور (وكانت تسمى في العصور الإسلامية الأولى قصر اللصوص) وبيستون ونهاوند وخرائب الدينور. وبها آثار عن الأكمينيين والساسانيين. وهي من أغنى ولايات إيران

نزلنا من المدينة في دار أحد كبرائها - معتمد الدولة. وهي دار جميلة ذات حديقة كبيرة. وفيها بناء على يسار الداخل استرحنا به وغسلنا عن وجوهنا غبار الطريق. ثم سرنا في

الحديقة في مستوى به حوض كبير فصعدنا درجات كثيرة إلى مستوى آخر فيه حوض يسيل الماء منه إلى المستوى الأسفل مترقرقاً على درجات السلم فيملأ العين رواء.

وعلى المستوى العالي بناء آخر صعدنا إليه درجات، فاجتمعنا للغداء وخطب معتمد الدولة مرحباً بنا، وأجابه أستاذنا سير دنسن رس. ثم أخذت صورتنا على الدرجات التي بين المستويين (وقد نشرت هذه الصورة في جريدة البلاغ). وانتقلنا من بعد إلى دار أخرى في أقصى المدينة لأحد الأعيان - أمير الكل، وهي دار واسعة بها حديقة جميلة، فيها أحواض ونافورات كثيرة، فتقسمنا حجراتها للمبيت. وهاتان الداران تشهدان بما لأهل إيران من كلف بالحدائق والمياه، وبراعة في تنسيقها

وخرجنا في المساء لنرى الآثار (طاق بستان) على أربعة كيلات من المدينة في لحف جبل شاهق مشرف على الجادة. وهو طاق من آثار الساسانيين يقابل داخله تمثال فارسي منحوت في الصخر، وهو فيما يظن تمثال كسرى برويز على فرسه شبديز، وبجانبه تمثال شيرين زوجه، وعلى جانبي الطاق نقش كثير يمثل الصيد في اليبس والماء وغير ذلك. وفي أعلى الجانب الأيسر صورة فتحعلي شاه وجماعة من رجاله منحوتة في الحجر. أراد ذلك الملك أن يزاحم كسرى برويز في داره والجبل فسيح، وأرض الله واسعة. وشبديز ومعناه (هادي الليل) فرس لكسرى برويز مشهور في قصص الفرس وشعرهم، وفي الشعر العربي أيضاً. ومما يقص عنه ما رواه ياقوت في المعجم: (وكان سبب صورته في هذه القرية انه كان أذكى الدواب، وأعظمها خلقة، وأظهرها خلقا، وأصبرها على طول الركض. وكان ملك الهند أهداه إلى الملك ابرويز. فكان لا يبول ولا يروث ما دام عليه سرجه ولجامه؛ ولا ينحز ولا يزبد، وكانت استدارة حافره ستة أشبار. فاتفق أن شبديز اشتكى وزادت شكواه، وعرف ابرويز ذلك، وقال لئن اخبرني أحد بموته لأقتلنه. فلما مات شبديز خاف صاحب خيله أن يسأله عنه فلا يجد بدا من أخباره بموته فيقتله، فجاء إلى البلهبذ مغنيه، ولم يكن فيما تقدم من الزمان ولا ما تأخر أحذق منه بالضرب بالعود، والغناء - قالوا كان لأبرويز ثلاث خصائص لم تكن لأحد من قبله: فرسه شبديز، وسريته شيرين، ومغنيته بلهبذ - وقال: اعلم أن شبديز قد نفق ومات، وقد عرفت ما أوعد به الملك من أخبر بموته. فاحتل لي حيلة ولك كذا وكذا؛ فوعدها الحيلة. فلما حضر بين يدي الملك غناه

غناء وورى عن القصة، إلى أن فطن الملك وقال له: ويحك مات شبديز، فقال: الملك يقوله، فقال له: (زه) ما أحسن ما تخلصت وخلصت غيرك! وجزع عليه جزعا عظيما، فأمر تنطوس بن سنمآر بتصويره، فصوره على احسن وأتم تمثال، حتى لا يكاد يفرق بينهما إلا بإدارة الروح في جسدهما. وجاء الملك فرآه فاستعبر باكياً عند تأمله إياه الخ) - ومما رواه ياقوت عن الهمذاني، أن بعض فقهاء المعتزلة قال: لو أن رجلاً خرج من فرعانة القصوى، وأخر من سوس الأبعد قاصدين النظر إلى صورة شبديز ما عنفا على ذلك -

وأما أنا فلم أر التمثال من الإتقان والأحكام على النحو الذي وصفوا. ولا ريب أن الزمان قد ذهب بروائه، وقد كسر رأس الفرس وبقي سائره

وقد نظم خالد الفياض قصة شبديز التي تقدمت. ومما قيل في شبديز من الشعر قول أبي عمران الكردي:

وهم نقروا شبديز في الصخر عبرة ... وراكبه يرويز كالبدر طالع
عليه بهاء الملك والوفد عكّف ... يخال به فجر من الأفق ساطع
تلاحظه شيرين واللحظ فاتن ... وتعطو بكف حسَّنتها الأشاجع
يدوم على كرّ الجديدين شخصه ... ويُلفى قويم الجسم واللون ناصع

وعلى الجبل إلى اليسار الطاق صور أخرى ساسانية، منها صورة تمثل أردشير بن بابك

مقيم الدولة الساسانية، وقد داس عدوه أردوان، وصورة أخرى تمثل الملك سابور، وأمامه أسيرة الإمبراطور فلريان جاثياً
برحنا كرمانشاهان صباح الثلاثاء، فنزلنا عند طاق بستان مرة أخرى لنعيد النظر إلى بروين وشبديز وما هنالك من الصور، ثم استأنفنا المسير والساعة ثمان ونصف، فوقفنا بعد نصف ساعة على آثار الملك دارا في جبل بيستون. وهو جبل شاهق يكاد يعيا الطرف دون قمته. وقد سويت فيه على ارتفاع عظيم صفحة صور فيها الملك دارا وأمامه وفود الأمم المغلوبة. وتحت الصورة نقوش كثيرة بالفارسية القديمة، والآشورية. وكانت هذه النقوش مفتاح اللغة الفارسية القديمة كما كان حجر رشيد مفتاح اللغة المصرية. وعلى مقربة من هذه الآثار موضع في الجبل منحوت يظن انه أريد تسويته للنقش عليه ثم عدل
عنه. ولكن الروايات الفارسية تقص في ذلك قصة عجيبة عن فرهاد عاشق شيرين الذي ذكرته آنفاً. وسأعود إلى هذه القصة حين الكلام عن مرورنا بجبل بيتسون ليلاً ونحن قافلون من طهران
يتبع
عبد الوهاب عزام
محاورات أفلاطون - 4
معذرة سقراط
ترجمة الأستاذ زكي نجيب محمود
قد يعجب بعظكم لماذا أطوف بالناس آحادا، فأسدى إليهم النصح واشتغل بأمورهم، ولا أجرؤ أن أتقدم بالنصح إلى الدولة بصفة عامة؟ واليكم سبب هذا: كثيراً ما سمعتموني أتحدث عن راعية أو وحي يأتيني، وهي معبودتي التي يهزأ بها مليتس في دعواه، ولقد لازمني ذلك الوحي منذ طفولتي، وهو عبارة عن صوت يطوف بي فينهاني عن أداء ما أكون قد اعتزمت أداءه، ولكنه لا يأمرني بعمل ايجابي، فذلك ما حال دون اشتغالي بالسياسة، وأخال ذلك آمن الطرق، فلست أشك أيها الأثينيون - في أني لو كنت ساهمت في السياسة للاقيت منيتي منذ أمد بعيد. ولما قدمت خيراً لكم أو لنفسي، وأرجو ألا يؤلمكم الحق إن أنبأتكم به، فالحق أنه يستحيل على من يرافقكم إلى الحرب أو أي اجتماع آخر ويقاوم فساد الأخلاق وأخطاء الدولة أن ينجو بحياته. فان من يحارب مخلصاً في سبيل الحق لن يمتد به الأجل إلى حين، إلا أن كان مشتغلاً بالأعمال الخاصة دون العامة، وأن أردتم لذلك برهاناً لما سقت إليكم كلاماً فحسب، بل لذكرت لكم حوادث بعينها، وهي أقوى حجة من الألفاظ، فاسمحوا لي أن أقص عليكم طرفاً من حياتي الخاصة، ينهض دليلاً على أنني لم أخضع قط لظلم خشية الموت، حتى لو وثقت بأن العصيان سيعقب من فوره موتاً محققاً. سأقص عليكم قصة قد تشوقكم أو لا تشوقكم، ولكنها مع ذلك حق. إنني لم أشغل منصباً إلا مرة عضواً في مجالس الدولة، وكانت رياسة المجلس عند محاكمة القواد الذين لم ينقذوا جثث القتلى بعد موقعة أرجنيس، لقبيلة أنتيوخس - وهي قبيلتي - فرأيتم أن تحاكموهم جميعاً، وكان ذلك منافياً للقانون كما أدركتم ذلك جميعاً فيما بعد، ولكني كنت إذ ذاك وحدي بين أهل بريتان أعارض الافتئات على القانون، وأعلنت رأيي مخالفاً لكم. ولما تهددني الخطباء بالحبس والطرد، وصحتم جميعاً في وجهي، آثرت أن أتعرض للخطر مدافعاً عن القانون والعدل على أن أساهم في الظلم خشية السجن أو الموت؛ حدث ذلك في عهد الديمقراطية، فلما تولى زمام الأمر الطغاة الثلاثون، أرسلوا إلي وإلى أربعة معي، وكنا تحت السقيفة، فأمرونا أن نسوق إليهم ليون السلامي من بلده سلامس لينزلوا به الموت -
وذلك مثل لأوامرهم التي اعتادوا أن يلقوها لكي يشركوا معهم في جرائمهم اكبر عدد ممكن من الناس، فبرهنت لهم قولاً وعملاً، أني لا أعبأ بالموت، وأنه لا يزن عندي قشة، إن صح هذا التعبير، وأن كل ما أخشاه هو أن أسلك سلوكاً معوجاً شائناً، فلم أرهب طغيان تلك العصبة الظالمة، ولم تضطرني إلى ركوب الخطأ. فلما أخرجنا من السقيفة حيث كنا، ذهب الأربعة الآخرون إلى سلامس في طلب ليون، أما أنا فقد أخذت سمتي نحو الدار في هدوء صامت، وكنت أتوقع أن أفقد حياتي لقاء ذلك العصيان، لولا أن دالت دولة الثلاثين بعد ذلك بقليل، وما أكثر من يشهدون بصدق ما

أقول
وهل تظنون أن قد كان يمتد بي الأجل إلى هذه السن، لو قد ضربت في الحياة العامة بنصيب، على فرض أني - كما ينبغي للرجل الصالح - لزمت جانب الحق، وأحللت العدالة من نفسي ما هي جديرة به من مكان رفيع؟ كلا ثم كلا! فلو قد عولت، أو عول كائن من كان، على ذلك، لما أتيح لي - بني أثينا! - البقاء، ولكني لم أجد فيما فعلت - عاما كان أم خاصاً - عما رسمت لنفسي من جادة، فلم أنغمس فيما انغمس فيه هؤلاء الذين أشيع بين الناس أنهم تلاميذي، أو من عداهم، فلم يكن لي في حقيقة الأمر تلاميذ دائمون، إذ أبحت الحضور لكل من أراد حضوراً وأسماعاً؛ إني كنت مؤدياً رسالتي، لا فرق عندي بين شيخ وشاب، لم أتخذ شرطاً، ولم ألتمس أجراً، فكان الحوار مشاعاً لمن أنقد ومن لم ينقد، فلمن شاء أن يوجه إليّ سؤالاً، أو يجيب لي عن سؤال، أو يصغي إلى ما أقول من حديث، أما أن ينقلب أحد أولئك بعد ذلك خيراً أو شريراً، فليس عدلاً أن أحمل تهمته، لأنني لم أعلمه شيئاً. وإن زعم امرؤ أني ربما علمته أو أسمعته شيئاً في خلوة خاصة خفيت على الناس جميعاً، فاعلموا أنه إنما يزعم لكم باطلاً
فإذا سئلت: لماذا يصادف الناس من حوارك المتصل لذة ومتاعاً؟ أجبت أيها الأثينيون بالحقيقة التي أنبأتكم بها، وهي انهم يستمتعون بشهادة أدعياء الحكمة في امتحانهم، فلهم في ذلك لذة، وذاك واجب أمرني به الله، كما علمت يقيناً من الرسل والرؤى، وكل طريقة أخرى يمكن لإرادة القوة الإلهية أن تفصح بها عن نفسها لكائن من كان.
أيها الأثينيون! ذلك حق، فان كان افتراء فما أهون أن تكذبوه، ولو كنت أفسد الشبان حقاً، وكنت قد أفسدت بعضهم فعلاً، لوجب أن يتصدى منهم للانتقام أولئك الذين تقدمت بهم السن، فأدركوا ما
نفثت لهم في نصحي من سوء أيام الشباب، فان لم يفعلوا ذلك بأنفسهم، وجب أن ينهض ذوو قرباهم أو آباؤهم أو إخواتهم، أو من إلى هؤلاء، فيقتضيني ما أنزلت بأبنائهم من سوء، ها قد حان حينهم، وإني لأرى منهم في المحكمة كثيراً، هاهو ذا كريتون وهو يعدلني سناً، وهأنذا أرى ابنه كريتوبوليس، وذاك ليسانياس السفيطي أبو أشنينس ألمحه بين الحضور، وذاك أنتفون السيفيس أبو أبجينوس، وهؤلاء أخوة كثير ممن التفوا حولي، فهناك نيكوستراتوس ابن تيوسدوتيد وأخو تيودوتس (وقد اختار الله تيودوتس إلى جواره، فهو على أية حال لن يستطيع لي معارضة) وذلك بارالوس بن ديمودوكس، وقد كان له أخ يدعى تياجس، وأديمانتوس بن أرستون الذي أرى أخاه افلاطون بين الحاضرين، وكذلك أرى بينكم آنتودروس وهو أخو أبولودورس. ويمكنني أن أذكر غير هؤلاء كثيرين ممن كان لزاماً على مليتس أن يقدم منهم للشهادة من يشاء في سياق دعواه، ومع ذلك فادعوه الآن يستشهدهم إن كان قد فاته ذلك أولاً، وسأفسح له الطريق. سلوه هل بين هؤلاء من يشهد له فيقدمه؟ كلا أيها الأثينيون، فنقيض ذلك هو الصحيح، إذ هؤلاء لا يأبون أن يؤيدوا بالقول ذلك المتلاف الذي أفسد ذويهم - كما يسميني مليتس، وأنيتس، إني لا أستشهد الشبان الذين أفسدتهم فحسب، فقد يكون عند هؤلاء ما يحيد بهم عن الحقن ولكني أستشهد ذويهم، وهم بعيدون عن إفسادي، ويكبرون أولئك سناً، فلماذا يظاهرونني بشاهدتهم، إلا أن يكون ذلك تأييداً للحق والعدل؟ فهم يعلمون أني أقول الصدق، أما مليتس فمفتر كذاب
أيها الأثينيون! هذا وما إليه هو كل دفاعي الذي وددت أن القيه، ولكني أرجو أن أضيف إليهكلمة أخرى: قد يكون بينكم من يصب علي نقمته إذا ما ذكرت كيف استجدي الشفاعة والرحمة بعينين باكيتين في مثل هذا الموقف أو ما هو دونه خطراً، وكيف ساق أبناءه إلى المحكمة في جمع من أصدقائه وأقربائه لعله يحرك بذلك الرحمة في النفوس، ثم ينظر فلا يراني أهم بمثل ذلك، على ما يتهدد حياتي من الخطر؛ قد يطوف بذهنه هذا فيقف مني موقف العداوة، ثم يصوت وهو في سورة من الغضب لأن موقفي لا يرضيه، فان كان ذلك الرجل بينكم، ولا أحسبه كذلك، فإليه أسوق الحديث رفيقاً: أي صديقي! إنني رجل ككل الناس خلقت من لحم ودم لا من خشب وحجارة، كما يقول هومر، ولي أسرة ولي أبناء، عدادهم - أيها الأثينيون - ثلاثة، بلغ أحدهم الصبا وما يزال الآخران طفلين، ومع ذلك

فلن أسوق إليكم منهم أحداً يستجديكم براءتي. ولم لا؟ لست أصدر في ذلك عن اعتداد بنفسي أو ازدراء لكم، وسواء خشيت الموت أم لم أخشه فذلك شأن آخر لن أتحدث عنه الآن، وإنما دفعني إلى ذلك عقيدة أن ذلك تصرف يضع من قدري ويحط من شأنكم ويصم الدولة بأسرها وصمة العار، فلا يجوز لرجل قضي من العمر ما قضيت، وذاع صوته في الحكمة بحق أو بغير حق، أن يحقر من نفسه. فمهما يكن من أمر، فقد استقر رأي الناس أجمعين على أن سقراط يفضل من عداه في إحدى نواحيه، فان كان أولئك الذين يقال عنهم انهم يفضلونني حكمة وشجاعة وما شئت من فضيلة، يمتهنون أنفسهم بمثل ذاك السلوك، فوا خجلتاه مما يفعلون! فقد شهدت ناساً من ذوي الصوت الذائع يفعلون ساعة الحكم عليهم عجباً عجاباً فبدوا كأنما خيل إليهم انهم ذاهبون، إذا قضيتم عليهم بالموت، إلى حيث الرعب والجزع، كأنهم حسبوا أن لو خليتم بينهم وبين الحياةالسبيل فيسكنون من الخالدين، إنما هؤلاء في حسابي وصمة عار في جبين الدولة، ولو أبصرهم وافد غريب لا نقلب إلى أهله يروي عن أثينا أن أعلام رجالها الذين يرفعهم الأثينيون فوق الهام ويسلمونهم زمام الأمر، لا يفضلون الناس في شيء، ولا يجوز في إعتباري أن يكون ذلك من هؤلاء الذين بلغوا بيننا شأوا عظيماً، فان وقع فلا تدعوه حادثاً يمضي، ولا تأخذنكم بهم هوادة وخذوا بالشدة كل من يقف منكم هذا الموقف المتوجع، لأنه بذلك يعرض المدينة للسخرية، ولا كذلك الصابر الوديع

ودعوكم من العار، فيلوح لي أن في استرحام القاضي واستجدائه العفو في مكان إقناعه وأنبائه بالنبأ الصحيح خطلاً، فليس واجب القاضي أن يمنح العدالة منحاً، بل عليه أن يحكم حكما عادلاً، وقد أقسم أن يحكم وفق القانون، دون أن يميل مع الهوى، ولا يجوز له ولا لنا أن نتعود الحلف باطلاً، فلا أحسب في ذلك شيئاً من الورع والتقوى. فلا تريدوني إذن على أن أفعل ما أدعوه فجوراً وشيناً وخطلاً، ولا سيما وأنتم تحاكمون فيما ادعاه مليتس عني من فجور، فلو استطعت أيها الأثينيون أن أحيد بكم بالأغراء والرجاء عن قسمكم لكنت بذلك معلمكم الكفر بالآلهة، ولا نقلب دفاعي علي التهاماً بالزيغ عن الأيمان، ولكن الواقع غير هذا، فعيقدتي في الآلهة قائمة على شعور أسمى جداً مما تقوم عليه عقيدة أي من المدعين. وأنا أضع قضيتي أمامكم وأمام الله لتحكموا فيها بما هو خير لي ولكم

وهنا حكم على سقراط بالموت

أيها الأثينيون! لقد قضيتم بادانتي، فلم يثر شجني هذا القضاء، وعندي لذلك أسباب كثيرة، فقد كنت أتوقع ذاك؛ ولشد ما أدهشني أن كادت تتعادل الأصوات، فقد ظننت أن فريق الأعداء لا بد أن يكون أوفر من ذلك عدداً، وإذا بكفة البراءة لو زاد مؤيدوها ثلاثين صوتاً لرجحت، أفلم أظفر بهذا على مليتس؟ بل أني لأذهب إلى ابعد من الظفر فأزعم أنه لولا أن ظاهره أنيتس وليقون لما ظفر بخمس الأصوات الذي يحتمه القانون، ولاضطر تبعاً لذلك إلى دفع غرامة قدرها ألف دراخمة، كما ترون

ولذلك يقترح أن يكون الموت جزائي، فماذا أقترح بدوري أيها الأثينيون؟ بالطبع ما أراني جديراً به. فماذا ينبغي أن أبذل من غرم أو نال من غنم؟ ماذا أنتم صانعون برجل لم يوفقه الله أبداً ليصطنع البلادة طوال أيام حياته، وأهمل ما عنيت به كثرة الناس - أعني الثروة ومصالح الأسرة والمناصب الحربية، ولم يقل في جمعية الشعب قولاً ولم يشترك في مجالس الحكام، ولم يساهم في الدسائس والأحزاب بنصيب؟ كلما فكرت أني كنت رجلاً بلغ من الشرف حداً بعيداً فسلكت من سبل الحياة ما سلكت، لم أقصد إلى حيث لا أستطيع أن اعمل خيراً لكم ولنفسي، بل التمس طريقاً أمكنتني أن اقدم لكل منكم على حدته خيراً عظيماً، وحاولت أن أحمل كل رجل بينكم على وجوب النظر إلى نفسه لينشد الفضيلة والحكمة قبل أن ينظر إلى مصالحه الخاصة، وأن يضع الدولة في اعتباره فوق مصالحها، فيكون ذلك دستوراً لأعماله جميعاً. ماذا أنتم صانعون بمثل هذا الرجل أيها الأثينيون؟ لا إخالكم إلا مجازيه خيراً أن كان لا بد من الجزاء، ويجدر بإحسانكم أن يجيء ملائما لحالته، فماذا يحسن برجل فقير احسن إليكم الصنيع، ويرغب في الفراغ ليتمكن من تعليمكم، سوى أن يضل أبداً في مجلس الدولة؛ وانه أيها الأثينيون لأجدر بهذا الجزاء ممن كوفئ في أوليمبيا في سباق الخيل أو سباق العجلات، سواء أكان يشد عجلته جوادان أو أكثر، لأنني فقير محتاج، وذاك غني عنده

ما يسد منه العوز، على أنه لا يعطيكم إلا سعادة ظاهرية، إما أنا فأدلكم على الحقيقة.
فإذا كان لي أن أقدر لنفسي عقوبة عادلة ما قلت بغير البقاء في مجلس الدولة جزاء أوفى

يتبع

زكي نجيب محمود

من شعر الشباب

مصر

بقلم فريد عين شوكه

مصر يا آيةَ الخلو - د ويا غُرَّةَ الزمن
حبذا أنت في الوجو - دِ إذا اعتزَّ من وطن
أشرق المجد والسنا=منه والكون في الظلَمْ
نيلك العذب كوثرُ ... جنة الخلد ساحلُهْ
كلما جاء يخطِرُ ... وتهادت جداوله
هَلَّل القطر بالمُنَى=وشدا الطير بالنغم
وصحا التُّرْبُ باسماً ... في تَهاويله الوضاءْ
وسرى الريح ناظماً ... فيكِ أنشودة الرخاء
وهَفَا الزرع وانثَنى ... لكِ يا كعبة الأمم
مصُر، كم عقَّك البنو - نَ وهم معقد الرجاءْ
وعصوا قلبك الحنو - نَ إذا ضجَّ بالنداء
ولكم صِحْتِ من ضَنَا - كِ وهم عنك في صممِ
بل لقد كان منهمُ ... من بَغَى غير محتشم
وقضى الحكم يهدمُ ... فيك ما شِيدَ من نُظُمْ
ورآى الجُرْم هيناً ... فيك يا مصر فاجترم
أيها النيل لا جرى ... عذبك السائغ النميرْ
إنما نحن في الورى ... ميّتو العزم والضَّمير
فارْوِ يا نيل غيرنا ... من أولِي البأس والهمم
ضاق واديكَ بالعذابْ ... من بنيكَ الأصاغِرِ
الالَى أغرَوا الذئاب ... بالشياهِ الضوامِرِ
فنزا الذئب بيننا=نزوة الفاتك النَّهِم
وإذا الشعبُ كلُّهُ ... يَغْتَدِي طوعَ فاجرِ
إن رآى يستذِلُّهُ ... لم يخَفْ زجر زاجرِ
بل رآنا كأننا ... فيك لحمٌ على وَضَمْ
لعنةُ الله والوطن ... لك يا عهداً انقشعْ
كم دهى مصر بالمحن ... ورمى النيل بالفزعْ
وسَرَى في ربوعنا ... يَنفُثُ السمَّ في الدَّسَمْ
كان حُمَّى تعاوَرَت ... مصر في الأربع السنين
وأهاويل ساوَرَتْ ... قلبها الموجَع الحزين
وَتَفَشَّتْ نفوسَنَا ... كاللُّظَى تبعث الحَمَمْ
كان في مصر راجفَهْ ... زلزلت ركنها المشيد
وأعاصير عاصِفهْ ... مزَّقت شملها النضيد
وكتاباً تضمنا ... سُبَّه النيل والهرم
سطِّري مصر سطَّري ... كيف يعثو بك البَنون
أنتِ لو لم تقصِّري ... في أذى الآثِمِ الخئون
ما رأى النيل خائناً ... فيك يطغى ويجترم

الحق

للمرحوم أبي القاسم الشابي التونسي

ألا أيّها الظلم المصعّر خده: ... رويدك إنَّ الدَّهر يبني ويهدمُ
أغرّك أنَّ الشعب مغضٍ على قذًى؟ ... لك الويل مِن يوم به الشرّ قشعَمُ
ألا إنَّ أحلام البلاد دفينةٌ ... تجمجم في اعماقها ما تجمجم

ولكن سيأتي بعد لأيٍ نشورها ... وينبثق اليوم الذي يترنَّمُ
هو الحق يبقى ساكناً فإذا طغى ... بأعماقه السخْط العصوف يدمدم
وينحطُّ كالصخر الأصمَّ إذا هوى ... على هام أصنام العتوِّ فيحطم
إذا صعق الجبار تحت قيوده ... سيعلم أوجاع الحياة ويفهم
في الروض المحزون
بقلم امجد الطرابلسي
يا روضُ ما لشبَابكَ النَّضِرِ ... جارتْ عليهِ فواجِعُ القَدَرِ؟
أَفأَنتَ مِثلي تَشتكي - حَدَثاً - ... عِبْء السَّنين وعادِيَ الكِبَرِ؟
ماذا جَنَيْتَ وكنتَ مُزْدَهِراً ... حتى رُمِيتَ بأفدحِ الغِيَرِ؟
أَيْنَ القيانُ الصّادحاتُ على ... عُرُشٍ مُكَرَّمَةٍ منَ الزَّهَرِ؟
يَبكينَ إن نَزَلَ الدجى - فرِقاً ... مِنهُ - وأَسْبَلَ حالِكَ السُّتُرِ
ويكدْنَ يملأْنَ الفضا فَرَحاً ... إن أَزْمعَ التَّرْحَالَ في السَّحَرِ
بل أينَ، كالأَمْسِ الهنِيِّ، مَهاً ... يَمْرحْنَ في الآصالِ والبُكَرِ؟
أو لمْ تكن بالأمْسِ تمْطِرُني ... إمّا أتيتكَ أطيبَ الثَّمَرِ؟
واليومَ كلُّ نَداكَ من وَرَقٍ ... ذاوٍ مَعَ الأرياحِ مُنْتَثِرِ!!
يا روضُ لاَ يَأْخُذْكَ بي عَجَبٌ ... إن جِئْتُ تَحْتَ الرِّيح والمَطَرِ
أشكو إليكَ هواجِساً حُلُكاً ... كالليلِ قَد غَشَّت على بصري
الآنَ طابَ لِيَ المُقامُ هُنا ... يا روضُ تحت ثوا كِلِ الشَّجَرِ
يُلْقينَ بالأوراقِ ذابِلةً ... مِثلَ المُنى في هَبَّةِ القَدَرِ
ما حاجَتي بالرَّوْضِ مُزْدَهِراً ... إنْ كانَ قَلْبيَ غَيْرَ مُزْدَهِرِ!؟
في خافِقي يا رَوضُ عاصِفَةٌ ... غَضْبى تَهيجُ كوامن الفِكَرِ
نارٌ تَوَقَّدُ فيَّ لاهِبَةً ... تَرْمى حَنايا الصَّدْرِ بالشَّرَرِ
وخَواطِرٌ سُودٌ تَدَفَّقُ في ... عَقْلي الشَّتيتِ تَدَفُّقَ النهرِ
حتى كأني جَذْوَةٌ شَرَدَت ... مِنْ قبلِ يومِ الحَشْرِ عن سَقَرِ
فَلَعلَّ إحدى السُّحْبِ تُطفِئُها ... يوماً بغيث جِدِّ مُنْهَمِرِ
أمّا تجِدْني هازِلاً أَبَداً ... أُجْزى حُقُودَ الدَّهْرِ بالسَّخَرِ
وأسيرُ في دُنيايَ مُتَّئِداً ... بينا المنونُ تجِدُّ في أثري
لا الدَّهْرُ تُنْسيني غوائِلُهُ ... يَوْماً مَغاني الأُنْسِ وَالسَّحَرِ
فَلَرُبَّماَ ابْتَسَمَ الفتى وَبهِ ... أَلَمٌ يُفَتِّتُ أَصْلَدَ الصَّخَرِ
ولَرُبَّ عَهْدٍ كانَ أَعْذَبُهُ ... لَوْ كانَ يَعْذُبُ غايةَ المَقَرْ
وَلرُبّ ليلاتٍ لَبِثْتُ بها ... سَهْرَانَ أَرْقُبُ طَلْعةَ الْقَمَرِ
أشكو لهُ همًّا يُساوِرُني ... وَأَبُثُّ بَعْضَ مظالِمِ البشَرِ
تِلكَ الطُّفولةُ مَا عَرَفْتُ بِها ... إِلا الدُّموعَ وَأَكْؤُسَ الصَّبِرِ
يا لِيتَ شِعْريَ والحياةُ أَسىً ... ما جاء بي للعالَمِ الثُّكُرِ
أَأَتَيْتُ أَقطعُ رِحْلَتي عَبثاً ... أم جئتُ للأحزانِ والضّجَرِ
أنا في زمانٍ قد تَنَكّرَ لي ... مُنُذ الوِلادِ بأَبْشع الصُّوُرِ
فعلامَ أَجْزَعُ من نوائِبِهِ ... وأخافُ مِنْ أَحْداثِهِ الكُثُرِ
يا موتُ جِئ أو لا تَجئ أبداً ... سيّانِ طالَ أو انطَوى عُمُري
أنا حائرٌ ما عِشْتُ في زَمَني ... ومتى رَسولُكَ يَدْعُني أطِرِ
أتُرى ورآءكَ يا ردى قَبَسٌ ... أمْ لَيْسَ إلاّ ظُلْمَةَ الحُفَرِ؟
(دمشق)
امجد الطرابلسي
أصداء البيئة
شيطاني
بقلم عبد اللطيف النشار
شيطاني لا تبحث عني=لن تظفر بي يا شيطاني
الوحدة من أدب الجن=والوحشة داب الإنسان
الجمع الحاشد لي مأوى=والعزلة مأوًى للجان
ضحك الشيطان وأضحكني=من فلسفتي للشيطان

شيطاني لا تهرب مني=وتعال أبثك أشجاني
لن أملأ شعري بالشكوى=فلديك دخائل وجداني
قال الشيطان أأنسيٌ=ينجو من شر الإنسان؟
فأبت نفسي شكوى جنسي=ومشيت أردد ألحاني
شيطاني لا تبحث عني=لن تظفر بي يا شيطاني
الإسكندرية
عبد اللطيف النشار
فضول ملخصة في الفلسفة الألمانية
تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا - 2
للأستاذ خليل هنداوي
نقد العقل
ليست غاية هذا النقد إحباط نتائج العلم النظري، ولكن غايته أن يسيره في مناهجه الواضحة، فالعلم النظري الذي كان في عهد ما ملك العلوم قد فقد تأثيره، لأنه قد آلى على نفسه أن يتوجه لمباحث تكاد لا تغنى شيئاً، يريد من ورائها التحقيق، وهي - كل يوم - ينقضها من عالم الواقع ألف برهان وبرهان، ثم انتهى (كانت) إلى الشكوكية، ثم الحيادية التي يقول عنها: (هذه التي تظهر عند تفتح العلوم، وتعمل على إظهار العلم الذي حانت ولادته؛ أليست هذه الحيادية من الأشياء التي تسترعي انتباهنا؟ أنها والحق ليست بوليدة الخلفة، ولكنها وليدة محاكمة عصر طويل، شاء ألا ينخدع بظواهر المعرفة كثيراً، أنها دعوة عنيفة تدعو عقلنا إلى عمل عنيف، إلى معرفة نفسه،، وإنما هي تهذب مجلس يذود عنها ويصون تعاليمها الصحيحة، ويحكم عليها إذا ظلمت حسب شرائعها ونظمها الثابتة، وما هذا المجلس إلا مجلس العقل الخالص
والعقل الخالص عند (كانت) هو العقل نفسه، قبل أن يدخل الامتحان في تلافيفه شيئاً، هو العقل المجرد قبل أن ينطبع فيه شيء، وفيه ثلاث قوى نفسانية: الأولى قوة المعرفة التي تنطوي على الإدراك والحكم العقلي، وترتيب الأحكام، وهي تبحث عن أكناه الأشياء وحقائقها، والبحث فيها يتعلق بنقد العقل الخالص. والثانية خاصة الإرادة، وهي تبحث عن الخير، ومرجعها إلى نقد العقل العملي. والثالثة هي الشعور بالسرور والشقاء، وموضوعها الجميل، ومرجعها إلى نقد الحكم
وماذا أستطيع أن أعرف؟ هذا هو السؤال الذي يضعه الفيلسوف أمام نفسه، وهو ينبغي حله. أن كل معرفة تبدأ عن طريق الاحساس؛ ففي كل إحساس يجب أن نفرق بين مادتين: بين المادة التي تهدينا إليها حواسنا، وبين الهيئة التي لا يختلقها العقل من الخارج، ولكنه يجدها في نفسها متعلقة بهذه المادة؛ إن في عقلنا إدراكات خالصة ملهمة، كالصور الأصلية
المنطبعة في اذهاننا، ومن بين هذه الصور الداخلة في كل امتحان دخولاً اضطرارياً صورتان، وصفهما (كانت) بدقة ومهارة وحكمة. وهما: (معرفة المكان والزمن) فان هذا المقياس ليس له قياس، أو كما يقول هو عنه ليس له حقيقة مدركة، وعلمنا المبني على مثله لن يكون نصيبه من الحقيقة اكبر منها، إذ ليس للزمن والمكان حقيقة ذاتية ممكن إدراكها، وما الزمن والمكان إلا مقاييس نسبية ابتدعناها تساعدنا على إدراك الاشياء، فهي كالمرآة التي تعكس لنا صورة العالم كما نراه نحن محدوداً بمقاييس الزمان والمكان لا كما بني على حقيقته.
وفي جهة أخرى نرى علمنا كله ليس إلا مظاهر، يضعف ويقوى بحسب الملاحظة، ولا يكون قوياً إلا بنا، لأنه لا يملك شيئاً من الجزم والقوة بنفسه، وليس ببعيد أن يكون وراء عالمنا هذا عوالم يدرك أصحابها معنى هذا الوجود، بخلاف ما أدركته عقولنا، ويحدونه بمقاييس تتباين عن مقاييسنا، والحقيقة إننا فهمنا العالم كما نود أن نفهمه، وأدركناه كما تستطيع مداركنا إن تدركه، وهذه الحقيقة التي نسجنا نحن خيوطها ستظل محاطة بالروعة والجلال، ولن تغبر الطبيعة نظرتنا إليها حتى تغير أوضاع تفكيرنا وتبدلنا بها أوضاعا أخرى
وهذه النظرة العميقة هي النقطة التي ترتكز عليها فلسفة كانت، ومثله الأعلى الذي يفترضه مثلاً أسمى من المثل الشائعة، فهو يجحد حقيقة العالم الخارجي، ويرتفع بذاته عن المادية، ويعتقد أن أدوات معرفتنا أداة للإدراك، لا تقع تحت سلطان الحواس، لأنها

منعزلة عنها وأسمى منها. وبهذه الأداة نراه ينتقل إلى عالم الله والروح والوجود، ويؤسس على كل عالم منها فكرة، ولكن حقيقة هذه العوالم برغم إنها شغلت العقل وتشغله وسوف تشغله لا تزال محجوبة عنا، بل يجد كانت أن تشبثنا بإدراكها عن طريق التجربة لا يغنينا نفعاً، بل يتركنا فريسة الخيالات والاعتراضات المتتالية الله، والروح، والوجود: ثلاثة أكون متعاقبة لا تبدو للعين حقيقتها

نقد العقل العملي

للشاعر هنري هاين دعابة لطيفة ذكرها في كتابة (ألمانيا) قال في جملة بحثه عن كانت: (ولما وصل - أي. كانت - إلى هذه النقطة التفت وراءه فوجد خادمه الكهل (لامب) يبكي،

فقال كانت: إن لامب ليس له إله. . . ولكن لابد له من إله يضمن سعادته في العالم)

فكتب كانت إذ ذاك نقد العقل العملي، وما العقل العملي إلا نفس العقل النظري منتحياً للعمل، وهو يستمد أصوله من نفسه كالعقل النظري مجرداً من كل تجربة؛ ترى الشريعة التي يرتبها على نفسه تصير شريعة عامة، وليست هذه الشريعة محدودة بفكرة الخير والشر، وإنما هي فكرة محدودة بنفسها، تنبثق من ذاتها وتعود إلى ذاتها، فما تراه الأخلاق خيراً يكون خيراً وما تراه شراً يكون شراً، وهذه الشريعة تولد رأساً من الشعور لا تفتقر إلى شيء من المنطق، ولا تحتاج إلى نظرة من نظرات العقل، وإنما هي تفرض نفسها بنفسها إذا فرضت، كأنها صيغة أمر شامل مطلق، والشريعة الأخلاقية هي لغة الطبيعة السامية في الإنسان، وقد يسمو الإنسان بقدر ما تتجلى فيه هذه الشريعة على قدر ما توائم أعماله قواعدها

وهكذا جرب كانت أن يجمع كل ما تحتوي عليه الشريعة الأخلاقية في دستور واحد يضم إليه جميع ما يركب الإنسان من واجبات في المجتمع، وهذا هو الدستور أو الكلمة الجامعة التي يريدها الفيلسوف (أعمل دائماً عملك وأنت تتمنى أن الطريق الذي سلكته يصبح شريعة عامة) أليست هذه الكلمة هي صدى الكلمة القديمة القائلة (عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به) إن هذه الكلمة لا تحدد إلا علاقة الفرد مع الفرد، وكلمة (كانت) تضع الإنسان الفرد إزاء المجتمع كله، فإذا قدر للخير أن يمتد سلطانه ويظهر أمره في الأرض فإنما تظهره جهود الناس المتضافرة وسمو طبيعتهم العالية، وهكذا بني (كانت) على هذه القواعد نظرية جديدة في عالم ما وراء الطبيعة ووجد مجالاً جديداً ليبحث عن الحرية والخلود ووجود الله بعد ما ترك العلم النظري هذه العوالم كلها فراغاً يباباً. فإذا كانت الشريعة الأخلاقية فرضاً على الإنسان ودينا لا مفر منه، وإذا كانت هذه الشريعة واجباً مطلقاً عنده، فهي ذلك لأنه قادر على إتمامها، إذا فالإنسان حر، والحرية هي ابنة الشعور الطبيعي، والحرية هي ضالة العقل العملي. وقد لا نستطيع أن نثبت وجود الحرية نظرياً، ولكنها تستمد وجودها من وجود الشريعة الأخلاقية التي يتوقف فهمها على وجودها. وكذلك الأمر في بقاء الروح ووجود الله العقل العملي يبعث فينا نشاطاً غريباً يدفعنا إلى مثل الكمال. هذا المثل الذي يملك علينا

سلطانه كل شيء هو سلطان الخير المطلق. وإذا كان الخير المطلق شرطه الأول هو الفضيلة فهو إذا داع من دواعي السعادة، بل يوجب العقل أن تكون الفضيلة والسعادة من عنصر واحد

لنترك الخير المطلق، ولنعتبر الشريعة الأخلاقية وهماً أو خرافة، أفلا نؤمن بأن هنالك نظاما شاملا للأشياء مؤسسا على معنى السعادة والفضيلة، وأن هنالك في قلب الكون علة عاقلة تحكم وتسيطر وتربط بين الأجزاء وتؤلف وتفكك، وهذه العلة تحتم وجود الله؟

وهكذا نرى العقل العملي يقدر له الإثبات بغير برهان، والعقل النظري يعجزه أن يبرهن، ويتساءل (كانت) عن سر التنازع بين العقلين:

ولكن أليست الطبيعة التي ابتلت أحدهما بالعجز والوهن هي القاسية؟ ولكن لنفرض أن الطبيعة قد وافقتنا على أمانينا، ومنحتنا ما تمنيناه منها، ووهبتنا أنوار الهداية التي نهيم فيها، ولنفرض أن البعض مناقد ملك عليها، فماذا تكون النتيجة؟ أتدرونها؟ سيكون الإله بعظمته وروعته متمثلاً في أعيننا وفي أنفسنا، نطيع شريعته المرسومة طاعة عمياء لا نحيد عنها ولا نعتسف طريقها، ولكن أعمالنا هذه لا يقودنا إليها إلا عصا الرهبة

تأتيها خالية من الفضيلة المبتغاة لذاتها، وهل يكون كل إنسان في كل ما يأتيه إلا كالآلة الميكانيكية تأتي ما يطلب منها وتؤمر به غير واعية ولا شاعرة؟ إن كل شيء يمشي في السبيل القويم؛ ولكنك تتلمس باطلاً نسمة الحياة تلفح هذه الوجوه الشاحبة التي أكلها السأم. . .

والآن، ونحن على هذه الحالة قد دلتنا الكائنات على عظمة المبدع ونزل فينا شرائعه الأخلاقية من غير أن تمنينا بالوعود أو تروعنا بالوعيد، وانفسح لكل واحد منا سبيله يبلغ به المثل الأعلى في الوجود

وفي النهاية يقول كانت إن النظام الإلهي مؤسس على شريعة الأخلاق، فإذا وجد الله، وإذا خلدت الروح فذلك لأنني أشعر بأني أحيا حراً، وأن حريتي بدون وجود الله وخلود الروح تغدو وهماً باطلاً. الإله الحقيقي - عند كانت - هو الحرية، ومما إله الديانة إلا وزيره الأول، وهو يحترم الدين بقدر ما يرعى للأخلاق والفضيلة عهودهما وذممهما، ويرى أن ممارسة الخير هي أسمى عمل يحبه الله

يتبع

خليل هنداوي

تاريخ الأدب الألماني

بقلم إبراهيم إبراهيم يوسف

تمهيد:

عنى أبناء العروبة في عشرات السنين الأخيرة بدراسة الآداب الغربية دراسة توحي الاطمئنان نوعا إلى ما سوف يكون عليه الجيل المقبل من تنوع الثقافة. وكانت آداب لغرب في نظر المتأدبين منا في بادئ الأمر هي الآداب الفرنسية وحدها، ثم انتهى بهم الأمر، وذلك منذ ربع قرن أو نحوه، إلى الأخذ بدراسة الآداب الإنكليزية أيضاً، وبذلك اتسع نطاق معرفة الآداب الغربية بعض الشيء. ولكن برغم هذا فإننا ما زلنا في مستهل الطريق. ولعل الخطوة الطبيعية التي تتلو ذلك ويتبعها المتأدبون في الشرق الأدنى والأوسط، ولا تكون إلا دراسة الآداب الألمانية دراسة جامعة، بعد أن أخذوا بقسط غير قليل من الآداب الفرنسية والإنكليزية. . . نعم لقد ظهرت بوادر هذه الدراسة في مصر منذ عشر سنين أو تزيد، إلا أنها كانت دراسات موجزة لا تتفق وعظمة الآداب الألمانية ووفرة كنوزها وارتباطها بالآداب الغربية والشرقية على السواء، ومن أجل ذلك كله حق لبعض من عكف على دراسة الحياة الأدبية في مصر وبقية بلاد الشرق العربي أن يقول عنا بأننا اقل الشعوب المتمدنة إلماماً بالآداب الألمانية. . . والواقع أن هذه الظاهرة لا تلائم بغية المتأدبين، إذ أول واجباتهم نحو الأدب بالذات أن يحيطوا علماً بالآداب العالمية، وليس من ينكر بأن للألمان صرحاً فيها مازال، وسيبقى، موضع فخر الأدباء في كل صقع. . .

لهذا كله ونزولاً على إرادة بعض من أجلهم، رأيت أن أكتب في هذا الباب، عسى أن أوافق إلى إثارة الرغبة عند كرام القراء في الإطلاع على الآداب الألمانية، بقدر توفيقي إلى استمالة الأدباء للإكثار من نقل غرر الآداب الألمانية

مقدمة:

لا تخلو الآداب الألمانية في أطوارها التاريخية من صفات عامة مشتركة بينها وبين الآداب الأوربية الأخرى. نعم إن عصور ازدهار الآداب الألمانية وعصور سقوطها لا تسير مع العصور التي تماثلها في آداب فرنسا أو إنكلترا أو إيطاليا، ولكن ليس معنى ذلك إن الآداب

الألمانية في تطورها لم تكن مرتبطة بالحركات الدينية والثقافية والاجتماعية التي غمرت القارة الأوربية. فقد كانت ألمانيا قبل دخول المسيحية إليها في حالة أقل ما توصف به إنها حالة غامضة مهمة، وكان الناس إذ ذاك يكادون ألا يعرفوا شيئاً غير الجمود والنسك، شأنهم في ذلك شأن بقية الناس في البلاد الأوربية الأخرى. ثم تلا ذلك عصر آخر اضطر فيه فرسان الحروب الصليبية إلى التقهقر أمام المدن الثائرة. وجاء عصر الإصلاح ممهداً لعصر النهضة. وكانت ألمانيا أسرع من جيرانها استجابة للحوادث الجسام التي كانت تنتاب أوربا من وقت إلى آخر. وإذا كان من المسلم به أنه لا يوجد أدب أوربي كان في كل تطوراته مستقلاً تمام الاستقلال عن آداب جيرانه، فانه مما لا شك فيه أن الآداب الألمانية مدينة بالشيء الكثير إلى آداب الغير. لهذا

كانت دراسة الآداب الألمانية هي، إلى حد بعيد، دراسة ما يطلقون عليه اليوم اسم (الأدب المقارن)، وإذاً فمن المهم معرفة مركز الآداب الألمانية بالنسبة للآداب الأوربية، وعلاقة هذه بتلك. وستؤدي بنا طبيعة هذا البحث إلى التمييز بين الوطني من آداب الألمان والأممي منها. وكذلك سنقف على مدى تشعب كل من النزعتين في تطور الآداب الألمانية وما ينتسب منها إلى الوطنية، وما له صلة بالتاريخ السياسي أو الاجتماعي

ولكل من مؤرخي الآداب الألمانية طريقه الخاص في استعراضه لتاريخ هذه الآداب. وكذلك كانت نظرة كل منهم في تقسيم تاريخه إلى مراحل. وموقفنا هنا يضطرنا إلى الأخذ بالسهل منها؛ ولذلك يمكننا القول بأن تاريخ الآداب الألمانية ينقسم إلى ثلاثة أقسام بينة، لثلاثة عصور مختلفة، لكل عصر منها لغته وطابعه. فالقسم الأول يشمل العصر القديم للألمانية الرفيعة الذي يبدأ حوالي سنة 750 ميلادية، وينتهي حوالي سنة 1050. والقسم الثاني يشمل العصر الوسط لآداب الألمانية الرفيعة، يبدأ من سنة 1050 وينتهي سنة 1350 ميلادية، ثم العصر الأول لجديد آداب الألمانية الرفيعة الذي يبدأ من سنة 1350 وينتهي سنة 1700 ميلادية، ثم تلي تطورات الآداب الألمانية في هذه المراحل الثلاث تطوراته الأخيرة في كل من القرون الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين

وسنعالج كل طور من هذه الأطوار التي مر بها الأدب الألماني في باب خاص، جاعلين بغيتنا في ذلك إيضاح النزعات الفنية في الآداب الألمانية وأثر كل منها في تاريخه

العصر القديم للألمانية الرفيعة

الثقافة الألمانية الأولى

نجد في تطور كل أدب عهداً مرتبطاً بما اتفق على تسميته في التاريخ السياسي (بعصر ما قبل التاريخ). وفي ذلك العصر لم تكن للشعوب ثقافة عامة، كما لم يكن لها أدب مخطوط، ولم يكن للألمان في ثمانية القرون الأولى المبتدئة من يوم مولد المسيح شيء ينم عنه تاريخهم السياسي من ثقافة عامة. كذلك لم يكن لهم أدب مخطوط يمت إلى الحوادث الواقعية حتى عهد كارل العظيم. والواقع أن التاريخ القديم للعشائر الجرمانية لا زال موضع جدل بين المحققين، ولا يمكن الإجابة القطعية على سؤالك من أين جاءوا، ومتى أتوا إلى الجهات التي استوطنوها. ولكن من الثابت انهم ينحدرون من الأسر الجرمانية الهندية وموطنها الأصلي أواسط آسيا. وكانوا في نفس الوقت الذي أخذت فيه روما توطد مركزها في جنوب أوربا يقطنون البلاد الواقعة على شواطئ بحر الشرق الممتد فيما بين بحر البلطيق وبحر الشمال. وكان أول من جاء بأخبارهم إلى العالم المتحضر في القرن الرابع قبل المسيح، رجل رحالة مغامر اسمه بييتس فأثبت انهم يتكلمون بلهجات ألمانية دون شك، إذ هي تختلف عن بقية اللغات الأوربية الهندية , -

وربما كان أول حدث سياسي هام بدل من كيان تلك الجماعات التي كانت تسكن المناطق الواقعة على بحر الشرق، هو ذلك الذي أثار التفرقة بينهم وجعلهم فريقين: فريق الجرمانيين - , وهم الغوط , والعشائر التي استوطنت اسكندنافيا وفريق الجرمانيين الغربيين - , وهؤلاء كانوا يؤلفون الجنسيات الوطنية التي عرفت فيما بعد , الإنجليز - والجرمانيين البحريين - وهم الذين يتكلمون اليوم اللغة الهولاندية واللغة العامية الألمانية ثم الجرمانيين العلويين , ومضت بضعة قرون قبل أن تستقر هذه العشائر في موطنها الجديدة. وكانت غزوة الجرمانيين لأسكندنافيا قد تمت قبل مولد المسيح ببضعة قرون. ثم حفزتهم غريزة الترحال فيهم إلى الرجوع ثانية إلى الجنوب فأسسوا دولة الدانوب البحرية

أما الجرمانييون الغربيون فكانوا أقل من زملائهم سرعة في التطور، إذ لم يدعهم يوليوس قيصر القرن الأول قبل المسيح يستقرون في مكان، وظلوا أشبه بالقبائل الرحل حتى كانت غزوة , أواخر القرن الرابع، التي ربكت عامة الجرمانيين

وكان النزاع بين الجرمان والدولة الرومانية قد استمر نحو نصف قرن، مما دفع مؤرخي الرومان إلى حب الوقوف على أحوالهم. فكان منهم تاكيتوس وهو في كتابة كثير التدقيق والتحقيق، وقد قال فيه أن الأبجدية لم يستعملها الجرمان في مراسلاتهم

بشكل عام إلا في القرن الثالث. وهم ككل شعب مبتدئ ليس لهم شعر مخطوط. وفي أغانيهم القديمة، وهي المستند الوحيد، يحيون إلاههم تيستو الذي أنبتته الأرض كما يحيون ابنه ما انهما أي الجنس الجرماني. وللبطل أرمينوس في أغانيهم. وكان له نشيد وطني معروف بأسم ينشدونه والدروع إلى أفواههم ليكون له دوي عظيم. وكانت أناشيدهم الدينية وأغاني تمجيد أبطالهم تقرن بالرقص ويسيرون في مواكب تشبهاً بالجرمانيين الأقدمين كما جاء في ذلك الشعر؛ وكان قدماء الجرمان يطلقون على هذه الحفلات أسم لايكاس وكانت هذه هي الخطوة الكبرى نحو وأضاف تاكيتوس إلى ذلك القول بأنه لا بد أن يكون للجرمانيين أدب له سحره وجماله الذي نجده عند الأوربيين الهنود كافة. وللجرمان غير ما ذكرنا أغان للموتى، وأخرى لانتصار الشمس على الظلام والزوبعة، وغيرها عن الحدث الأكبر: موت النهار، أو عن ذبول الصيف. وهذه الأغاني بقايا خرافاتهم القديمة عن الطبيعة

وكان الغوط أول من نهض من الجرمان بحياة ثقافية. وفي دولتهم التي أنشئوها في المنطقة القريبة من الدنواب خطوا خطوات سريعة نحو الثقافة ونحو المدنية. ولعل مركزهم الجغرافي هو الذي ساعدهم على الاتصال بالفكر الإغريقي وبالمسيحية، بينما كان إخوانهم في الشمال ما يزالون همجاً وثنيين

ويعتبر فولفيلا - الذئب الصغير أول من وضع أساس الأدب في لغة الغوط

(للبحث صلة)

إبراهيم إبراهيم يوسف

البريد الأدبي

أعمال الاستكشاف في قلب أفريقية

قررت أكاديمية العلوم الفرنسية أن تنمح جائزة (البردى موناكو) الشهيرة وقدرها مائة ألف فرنك (نحو ألف وثلاثمائة جنبة) إلى العلامة الجغرافي المكتشف الأفريقي الجنرال تيلهو، أحد أعضاء بعثها الجغرافية. وذلك لما قام به من الاكتشافات الخطيرة في منطقة بحيرة تشاد والأنهر المتصلة بها، ومعاونته بذلك على وضع هذه المنطقة تحت الحماية الفرنسية

وقد كانت فرنسا تعنى منذ بعيد بشأن هذه البحيرة الشاسعة التي تقع في وسط أملاكها الصحراوية الأفريقية، وتؤثر أعظم أثر في مستقبلها الاقتصادي؛ فجهزت إليها عدة بعوث علمية منذ أوائل هذا القرن، ولما زادت أملاكها في تلك المنطقة باستيلائها على أملاك ألمانيا، وتوغلها في السودان الغربي، زاد اهتمامها باكتشاف هذه المنطقة وتحديدها وتأمين حمايتها؛ ويمكن تقدير أهمية بحيرة تشاد متى علمنا أنها تغطى مسطحاً قدره 18 , 000 كيلو متر، ويصب فيها نهران كبيران هما (شاري) و (لجوني) وعلى مائها تقف حياة الملايين من سكان المناطق المجاورة، وكان الجنرال تيلهو، منذ كان ضابطاً فتي في أواخر القرن الماضي، يهتم باكتشاف هذه المنطقة، وينوه بأهمية مستقبلها الاقتصادي والسياسي، وقد كان أول من استطاع أن يضع لها خريطة دقيقة؛ وقد بدأ بارتيادها منذ سنة 1898 ليحقق أبعادها بالنسبة لنهر النيل ونهر النيجر، ولكنه لم يستطع أن يتوغل يومئذ في تلك الأنحاء لخطر قبائلها الهمجية. ولكنه عاد بعد بضعة أعوام فالتحق ببعثة الجنرال مول التي أوفدت لضبط حدود الينجر بين فرنسا وبريطانيا، وفي سنة 1906 عين رئيساً لبعثة جديدة أوفدت لاكتشاف المنطقة الواقعة بين الينجر وبوركو، فاستمرت في تجوالها في تلك الأنحاء مدى ثلاثة أعوام. وفي سنة 1912 عاد على رأس بعثة أخرى، وقضى في تجواله خمسة أعوام اكتشف أثناءها كثيراً من أسرار المنطقة الواقعة شرق بحيرة تشاد، ومنطقة بركو، وبيستي ودارفور، وضبط وسائل المواصلة بين مستعمرات فرنسا الأفريقية الغربية والسودان الفرنسي (السودان الغربي)؛ وعلى أثر هذا الاكتشاف العظيم عين الجنرال تيلهو عضواً في أكاديمية العلوم ومنح مدالية الاستحقاق الذهبية؛ ثم أنعم عليه بعد ذلك بلقب عضو في المجمع العلمي؛ والجنرال تيلهو جندي باسل، وعلامة جغرافي ومحقق أخصائي في جغرافية أفريقيا الوسطى، وقد قرر أن يخصص الجائزة التي منحت له لمتابعة أعماله واكتشافاته العلمية في تلك الأنحاء

ولم ينفذ العالم الأوربي إلى تلك الأنحاء إلا منذ أوائل القرن الماضي، منذ اكتشافات منجو بارك الاسكتلندي، ورنية كاييه الفرنسي؛ ولكن يبدو من دراسة رحلة أبن بطوطة

الرحالة المغربي الشهير أنه ارتاد كثيراً من تلك الأنحاء، على أثر عودته من رحلته في الشرق الأقصى (في أواسط القرن الرابع عشر)؛ وهو يذكر أسماء مدن ومواقع لم يعرفها الغرب إلا منذ قرن مثل سكوتو، وغيرها

دائرة المعارف الفرنسية

كان الأدب الفرنسي أول ما ظفر بإخراج الموسوعات الأدبية والعلمية والحديثة؛ ويرجع تاريخ هذه الموسوعات الحديثة إلى أواسط القرن الثامن عشر، حيث ظهرت جماعة العلماء المعروفة (بالأنسيكلوبيدين) وعلى رأسهم ديدرو، ودالمبر، وهولباك وغيرهم وقد ظهرت دائرة المعارف الفرنسية الكبرى منذ أواسط القرن الماضي، وتمت في أواخره؛ ولكنها لم تطبع من ذلك الحين مرة أخرى، وأضحت في عصرنا أثراً قديماً تنقصه عناصر هامة من العلوم والفنون والاختراعات الحديثة، وتاريخ العالم منذ أواخر القرن الماضي، وقد تقدمت الموسوعات الأجنبية على الموسوعة الفرنسية من هذه الناحية تقدماً عظيماً، فصدرت الطبعة الخامسة عشرة من دائرة المعارف البريطانية سنة 1930، وأضحت أثر عظيما شاملاً لآخر ما أخرج العصر من آداب وفنون وعلوم؛ وصدرت دائرة المعارف الإيطالية الجديدة منذ عامين أو ثلاثة؛ وصدرت دائرة معارف روسية حديثة. وقد اهتمت وزارة المعارف الفرنسية والهيئات العلمية الفرنسية منذ بضعة أعوام بأمر الموسوعة، وألفت لجنة من أكابر العلماء والكتاب للأشراف على إخراجها في طبعة جديدة وعلى رأس هذه اللجنة، المسيو دي مونزى وزير المعارف السابق، ومسيو لوسيان فابر الأستاذ بالكوليج دي فرانس، وهو المدير العلمي للموسوعة، ومسيو هنري دي جوفنل الكاتب والسياسي، والأستاذ بايان نقيب المحامين السابق، ويوسف بدييه مدير الكوليج دي فرانس، وفرانسوا ميلان عضو الشيوخ، وغيرهم من أكابر العلماء والمفكرين. وقد أتمت اللجنة تنظيم الأعمال التحضيرية؛ وبدأت أعمال التحرير فعلاً، والمرجو أن يصدر الجزء الأول في سنة 1935، ثم تصدر الأجزاء تباعاً بعد ذلك، حتى تغدو الموسوعة الفرنسية لائقة بما للأدب الفرنسي من مكانة ممتازة في عالم الآداب الحديثة

مدام آدم وعصرها

مدام جولييت آدم من أعظم كاتبات فرنسا، وهي اليوم في الثامنة والتسعين، وقد لبثت مدى النصف الأخير من القرن التاسع عشر تتزعم الحركة الأدبية في فرنسا، وكانت بينها منذ أواخر القرن الماضي وبين زعيم الوطنية المصرية مصطفى كامل رسائل سياسية وعلائق صداقة وثيقة استمرت حتى وفاته

وقد أصدرت أخيراً كاتبة فرنسية أخرى هي مدام مانون كورمييه عن مدام جولييت آدم وعصرها كتاباً كبيراً استعرضت فيه حياة الكاتبة الكبيرة منذ تحريرها (للمجلة الجديدة) في شبابها، وما كان بينها وبين أكابر عصرها من علائق الصداقة أمثال جورج ساند الكاتبة الشهيرة، وليون جامبتا السياسي الكبير، وبيير لوتي الكاتب الأشهر، وكان يسميها (بأمه العزيزة)، وما كان لها من زعامة روحية وفكرية على كثير من المفكرين والكتاب داخل فرنسا وخارجها

الاحتفال بتوزيع جوائز نوبل

أقيم في استوكلهم عاصمة السويد في العاشر من ديسمبر الجاري الاحتفال السنوي الكبير الذي تمنح فيه جوائز (نوبل) وقد رأس ملك السويد بنفسه الحفلة كالمعتاد، وتولى بنفسه تقديم الجوائز الممنوحة لممثلي الدول التي ينتمي إليها الكتاب والعلماء الفائزون؛ فناب عن الكاتب الإيطالي بيراندللو الفائز بجائزة نوبل للأدب سفير إيطاليا، وناب السفير الأمريكي عن الأساتذة جورج مورفي وهوبيل ونويث الفائزين بجائزة نوبل للطب، وكذلك عن الأستاذ هارولدادري الفائز بجائزة نوبل للكيمياء؛ ومقدار كل جائزة منها 162 , 607 كوروناً سويدياً (أي نحو أربعة آلاف جنيه) ويعتبر هذا الاحتفال أعظم الاحتفالات العلمية

المصور (سم)

توفي أخيراً في باريس أستاذ من أساتذة التصوير الرمزي (الكاريكاتور) هو الرسام (جورسا) المعروف في عالم التصوير باسم (سم) وهو الاسم الذي يوقع به صوره. وقد بلغ هذا النوع من التصوير في العصر الأخير ذروة قوته وخطره، وأصبح فناً قائماً بذاته، يشترك مع القلم في التعبير عن الحوادث والمشاعر، ولا سيما أحداث السياسة، وقد

كان (سم) من أقطاب هذا الفن، وكانت صوره الرمزية التي تنشرها جريدة (الجورنال) من أسمى ما أخرج الفن؛ وكانت تمتاز بقوة التعبير والفكاهة اللاذعة المحتشمة معاً. ولبث (سم) يعمل في قلم تحرير (الجورنال) أعواماً طويلة، وقد توفي كهلاً لم يجاوز الخمسين في عنفوان قوته وفنه

القصص

من الأدب التركي

العذراء الدميمة

ترجمة عبد اللطيف أحمد

لم يتجاوز التفاوت بينهما في السن غير عامين، ولكنه في الجمال وحسن الخلق كان جد عظيم. لازم النحس (عصمت) منذ رأت النور، فقد ولدت وأمها تكاد تفقد الحياة من معاناة مرض خطير، بله آلام الوضع، ولم يكن للأسرة هم إلا إنقاذ الأم من براثن الموت، ومحاولة إصلاح ما أفسده مرض ذات الجنب من جسمها الرطيب، فلم يرحب أحد بالقادمة الجديدة، أو يفكر في أمرها حتى الأم - وا أسفاه - كأنها في هذه اللحظة قد فقدت غريزة الأمومة، فلم تنظر إليها حينما تلقفتها يد القابلة إلا كما تنظر إلى خرقة بالية!

ولم يكن حظها من عناية أبيها بأوفر منه عند أمها، فكثيراً ما كان يراها وهي ملقاة على الأرض تشارك الكلب في مزجره، وفي يدها هنة تشبه قطعة الخبز دون أن تتحرك في قلبه عاطفة الأبوة نحو التي أتى بها إلى الحياة على كره منها؛ وهكذا سرت العدوى إلى سائر أفراد الأسرة وكأنها وترتهم جميعاً قبل أن تأتي إلى هذا العالم، فلما واتتهم الفرصة ثأروا لأنفسهم بإهمالها والحط من شأنها، ولولا وشيجة الإنسانية لقضت هذه التعسة جوعاً فأراحت واستراحت

اسندوا أمر العناية بها إلى ظئر حامل كسول، فلم تعطها من الرعاية إلا المقدار الذي يسمح لها بالحياة، فشبت إلى أسفل، وكأنها كانت تسير في نموها نحو مركز الأرض!

شاء القدر أن يصور للناس صورة ناطقة للقبح الجسماني، وينصب تمثالاً حياً للتنافر الجسدي، فكانت (عصمت) كما أراد: عينان غائرتان لا يكاد يبدو منهما نور الحياة، وخدان شاحبان بل عظمان عاريان إلا من ذلك الجلد الحائل، بينهما نتوء يشبه الأنف، تحته شفتان ضل سبيله إليهما الدم!! يضم كل هذا وجه أشبه بوجوه الموتى، إن فقد معالم الحسن فلم يفقد معاني الرحمة والرثاء، ينوء بذلك جذع ناحل وأطراف هزيلة

وهنا يجدر أن نسأل أنفسنا: أيكون القبح عقبة في سبيل حب الوالدين لفلذة كبديهما؟؟ . . .!

هذا ما لا نستطيع الجواب عنه، ولكن الذي نعلمه أن عاطفتهما نحو (عصمت) كانت أشبه بالرحمة منها بالحب، وحسبنا مصداقاً لهذا محاولتهما البعد عنها تحت تأثير غريب كان يستولي عليهما كلما لمحاها

استردت الأم صحتها بعد جهاد عنيف، ودبت العافية في جسمها دبيب الراح في جسم شاربها، فشبا خداها، وبرقت عيناها، وغمرت الهناءة وجهها، وجرى ماء الحياة في جميع أطرافها، وبينما هي على وشك الظفر بالنصر الحاسم على عقابيل المرض المنهزم؛ إذا هي تحس حركة في أحشائها تؤذنها بزائر جديد، فاستخفها السرور، وحملت البشرى إلى زوجها باسمة، ثم ذاع المخبرين أفراد الأسرة، فعمهم البشر كأنه يولد في هذا المنزل لأول مرة، وكأن (عصمت) المنكودة الحظ لم تكن في الحسبان!

أخذوا في أعداد العدة لاستقبال هذا الوليد، وطفقت الوالدة تهيئ الأقمطة الناعمة، والأقمشة الفاخرة، وذهب الوالد يبحث في الأسواق عن أحسن مهد وأثمن هدية، وكان شغله الشاغل في شهور الحمل البحث عن كل ما يسعد الوالدة والمولود

وبينما (عصمت) تعبث في غرفة الخدم، تحبو كأنها الحشرة لا يعبأ بها أحد، ولا يعيرها التفاته إنسان، والجميع في شغل شاغل - فقد جاء الأم المخاض - إذا القابلة تقول: كأنها قطعة من نور. .! يا أم ابنتي هلا نظرت إليها.؟ وكان هذا إيذانا منها بانتهاء الأمر. . لم تصدق الأم بادئ بدء، وسألتها جازعة: تشبه من يا ترى؟ وكأنها تخاف أن ينكبها القدر مرتين، ولما يزل شبح (عصمت) يتراءى لها. إجابتها بلهجة الظافر. تشبه من.!؟ لمن يحتمل أن تشبه سوى أمها وأبيها. .!؟ وشاع البشر في وجه الأم حينما وجدت مصداق قولها في وجه ابنتها الجميل التكوين

علم أهل الحي فجاءوا مهنئين، وحفلت الدار بهم، فصارت الأم بما ملكها من الزهو بوليدتها الجميلة تكشف لهم عن وجهها، وهم يرتلون آيات الإعجاب بها ويكررون كلمات التهنئة، وأخذوا يتخيرون اسماً لطفلتهم، وأي اسم يؤدي كل هذه المعاني التي تنم عنها ملامحها من الحسن الرائع؟ إن كل ما نذكر من الأسماء غير واف بتلك المعاني. فليبحث أبوها إذن في المعاجم، وليسأل الغادي والرائح عله يظفر بضالته التي ينشدها. . . بعد جهد، خطر له اسم لبطلة قرأ عنها في إحدى القصص، فأطلق عليها (لمعان)

تعاقبت الأيام، وشبت (عصمت) فبدأت ترقب طفولة أختها المرحة المترعرعة، وترى من إعزازها وإعجاب الأسرة بها ما لم تظفر في يوم من الأيام ببعضه فتعجب، ولكن سرعان ما تهديها غريزتها إلى أن بها نقصاً، فيعتريها شعور مهم غامض؛ أهذا هو السر في إنها ليست محبوبة، وأنها أدنى منزلة من تلك التي تتبوأ ذراعي أمها مفترة الثغر باسمة الملامح؟ كانت (عصمت) مرهفة الحس إلى حد بعيد، وكأنما عوضها الله سبحانه ما نقص من خلقها بكمال حسها ودقته - ويا ويل من دق حسه وقصرت يده عما يريد .!.

كانت ترى الفارق كبيراً في معاملة أبويها لهما فيعتريها من الألم والحسرة ما دونه وخز الإبر ووقع السهام، ينظر الوالد إلى أختها التي لا تفارق ذراعي أمها فيشع من عينيه السرور، حتى إذا وقع بصره على (عصمت) أطلت الشفقة من وجهه، وكأنها تسخر من هذا من هذا المخلوق العجيب، وربما تصدق عليها بقبلة تدرك معناها فتشعر برعدة المحموم من فتورها وبرودتها، وقد يخيل إليها إن الثلج طفق يذوب من موضعها، فتذوب حسرة وألماً، وتجر جسمها الهزيل جراً وتنزوي في ركن قصي، ويعوزها البكاء فلا تجرؤ عليه؛ وقد تحاول التمرد على أخذها بجناية لا يد لها فيها فيقعدها العجز عن السير في هذه السبيل

بقيت (عصمت) تعاني من أمرها ما تعاني، و (لمعان) تتفتح كزهرة الربيع، ترعاها عناية الأب ويكفلها حنان الأم وعطف الأسرة. . . أكسبها كل هذا نضارة فوق نضارتها، ونشاطاً فوق ما طبعت عليه من الخفة والمرح ودوام الابتسام، ولا عجب، فهذا شأن كل من اطمأن على أنه استوى على عرش القلوب وتملك ناصية الأفئدة

أقبل العيد، وأشترى الوالد لكل من ابنتيه ثوباً من المخمل القرمزي الجميل، فكان لهذا - في أول وهلة - من الأثر الطيب في نفس الأختين ما سرهما، ولكن شد ما اختلف شعورهما بعد ذلك! رأت (عصمت) أختها وهي تختال في ثوبها الجديد، وقد افاضت عليه من حسنها ما ضاعف بهاءه ورونقه، ثم تأملت نفسها فكادت تصعق. . . . أنهما من نوع واحد! ولون واحد! ومن صنع يد واحدة! فما بال أحدهما يصعد إلى قمة الحسن، وينزل الآخر إلى أحط دركات القبح!؟ هل شارك الجماد أبويها في إذلالها والزراية بها؟ هل يميز الثوب بين الوسامة والدمامة حتى يصدمها هذه الصدمة الأليمة. . .!!؟

إذن أف له ما أقبحه، وما أشد بغضي له!. ناجت نفسها بكل هذا، والألم يحز في أحشائها حزاً تحس أثره اللاذع في السويداء من قلبها، وكأنها نسيت نتوء عظام كتفيها، وهزال جسمها، وشحوب لونها الأسمر الذي ضاعفه لون ثوبها الجميل؛ على حين تخلع (لمعان) من روعتها ونضارتها على ثوبها ما يزيده جمالاً وروعة

هتفت بالأختين مربيتهما: هيا قبلا أبويكما وهنئاهما بالعيد. . . لبتا الأمر، ومشت (عصمت) على استحياء والهم يملأ فؤادها المكلوم، وقد سبقتها (لمعان) - وكأنها ظبي أهيج - في خفة ورشاقة، ولكنها انتظرت مقدم أختها لتتقدمها في أداء هذا الواجب مشت البائسة مطأطئة الرأس، مكتئبة النفس، في وجوم يكاد يكون بلادة، ثم تناولت أيدي أبويها وقبلتها، فبادلها كل منهما بقبلة، وكأنما يقبلان جثة هامدة لما غشيهما من الحزن والكآبة، ولكنهما ما لبثا أن تهللا حينما جاء دور (لمعان) . .

يا لله للمحدود التعس.!! حتى في اليوم الذي يفرح فيه الناس جميعا، ويتناسى كل حزين حزنه، وكل بائس بؤسه، تطعن هذه الشقية تلك الطعنة النجلاء!

ظلت (عصمت) شاخصة، وسرى من روحها الحزين تيار قوي شل حركات الجميع فجمدوا كأنهم التماثيل، ولم يخرجهم من هذه الحال إلا (لمعان) حينما تحركت، وكأنها أدركت فجأة مقدار ما أصاب أختها من غبن وما نالها من شقوة، فجاش قلبها بالرحمة

والحب، فاحتضنتها وتعلقت بها، وبذلت جهدها حتى طبعت قبلتها على جبينها، ولكن (عصمت) لم تبادلها إياها، وكان هذا عن غير عمد منها، فقد كانت شاردة اللب، كليلة الذهن، يضطرب صدرها بشتى الآلام وضروب الأوجاع، وقد أيقنت في هذه الساعة بماكانت لا تشعر به إلا محاطا بالغموض والإبهام، وحاولت أن تجزي أختها بما فعلت، فاحتضنتها وأرادت أن تقبلها، ولكنها انفجرت باكية في نشيج محزن، وأخذ صدرها يعلو ويهبط، وعيونها تفيض بغزير الدمع وهي تحاول منعه، ولكن هيهات فقد أفلت من يدها الزمام

منذ تلك الساعة (وعصمت) في هم دائم، حتى الابتسامة التي كانت تزور شفتيها لماما، وكأنها ضلت طريقها إلى الثغور الفرحة، فأوقعها سوء الحظ في هذا الثغر الحزين. . . حتى هذه الابتسامة غادرتها إلى غير رجعة، فقد أزالت تلك الدمع الحارة التي ذرفتها عيناها يوم العيد الغشاوة التي طالما حجبت عنها الحقيقة في أيامها الأولى وأيقنت أن جرحها عميق بعيد الغور لا يرجى له برء، ولا يعرف له دواء، وكلما تقدمت سنها قوي عندها الشعور، وضوعف الألم. . . . . .

أما (لمعان) ففي شغل عنها بزينتها ولهوها ومرحها

كبرت الأختان، وأشرفتا على سن الزواج، وأصبحت (لمعان) فاتنة المدينة، وغادتها الفريدة، وشرع الأبوان في إعداد ما يلزم لزفاف فتاتيهما، كسبا للوقت واستعدادا للطوارئ، فكانت (لمعان) تجلس الساعات الطوال، تصور لنفسها ذلك المستقبل السعيد الذي ينتظرها، بينا (عصمت) تتخيل في كل أداة تهيأ لها حية تنهش فؤادها، أو سهما يسدد إلى قلبها، فكل شيء يذكرها بذل الخيبة، ومرارة الفشل. . . .

الزواج! نهاية الأمل، ولقد فقدت الرغبة، وهل عاش لها أمل أو بقيت لها رغبة؟ لقد فقدت الأمل، ولقد فقدت الرغبة، ولم يبق لها إلا إحساسها، وكم كانت تجاهد المسكينة نفسها حينما تعرضها أمها إلى جانب (لمعان) على الخواطب. . . .

وهل تنتظر منهن كلمة الإعجاب التي لم تظفر بها في يوم ما من أبويها؟ وهل هن أشفق على إحساسها وأرحم بفؤادها منهما؟. . . . إذن فليذب كبدها، ولتتقطع أوصالها، وهي تساق إلى ذلك الموقف سوقا، ولتتحمل على الرغم منها تلك المخالب التي تنشب في أحشائها وتمزقها تمزيقا، ولتتقبل كارهة ذلك الأعراض الساخر وقتما يأتلق للخواطب نور (لمعان) بجانب دمامتها

هاهي ذي أمامهن تدور بعينيها في الغرفة تلتمس الخلاص كما يلتمسه الطائر السجين فلا تجده، وقد خيل إليها أن الفلك قد وقف عن دورانه في هذه اللحظة الطويلة، حتى إذا أذن لها بالخروج بادرت متهالكة وقذفت بنفسها إلى غرفتها وكأنها فرت من الجحيم فتغلق عليها بابها، وتنزوي في ركن من أركانها جامدة الحركة، كسيرة الجناح، واهنة القوة، لا تستطيع نزع ثيابها ولا النظر في مرآتها، وتظل شاخصة ببصرها إلى نقطة وهمية، وعواطفها تلتهب بين جوانحها حتى يكاد يحترق جسمها النحيل

أما (لمعان) فتذهب متهللة إلى غرفة الخدم، وتسر إلى فتاة لعوب منهن كانت تصطفيها - ما كان من أمر الزائرات معها، وكيف كن يحدقن فيها ويداعبنها، خصوصا تلك السيدة الشابة ذات المخمل الأزرق المكسو بالفراء؛ كانت تقص هذا على صاحبتها وهي مفترة الثغر، مشرقة الجبين، تنطق أساريرها بما استولى عليها من الزهو

ظل الخواطب يترددن على منزل الأسرة عامين كاملين، و (عصمت) تكتوي بنار العرض عليهن، إلى أن صهرتها الآلام وحولتها إلى مخلوقة أخرى، إلى قديسة تنشد الصبر، وتطلب من الله العزاء، وكانت تسمع عقب كل زيارة همسا ينبعث من غرفة والديها لم تتبينه بادئ الأمر، إلى أن سمعت أباها ذات مرة يقول للمعان وهي تدخل عليهما الغرفة بغتة: لاشك يا ابنتي في أنك تقبلين الانتظار حتى تتزوج أختك بصدر رحب، أليس كذلك؟

فصمتت (لمعان) خجلا، ولكن هذه الكلمة فعلت في نفس (عصمت) ما فعلت فاعتزمت أمرا. وما زالت ترقب الفرصة لما اعتزمت حتى لاحت لها عقب زيارة بعض الخواطب، وقد طلب الوالد من ابنتيه أن يذهبا إلى مخدعهما، وحينئذ لم يخف على (عصمت) أن أباها يريد أن يخلو إلى أمها ليحادثها فيما جاء من أجله الخاطبات، فاختفت بحيث تنصت لحديث والديها دون أن يرياها

سمعت أباها يقول: لا لا. لا يمكن أن نزوج الصغرى ونترك (عصمت) فريسة للهواجس، فتقول أمها وهي تحاوره:
لقد انتظرنا طويلا، وليس من الحكمة أن نغامر بمستقبل (لمعان) في سبيل أمل دلت الشواهد على أنه لا يتحقق، وإذا لم تتزوج (لمعان) فلا سبيل إلى زواج (عصمت) وتكون العاقبة تضحية الاثنتين؛ وهذه جريمة لن أوافق على اقترافها أبدا. . .
لم يجر أي حديث في شأن (عصمت) في زيارة من تلك الزيارات العديدة، ولم تذكر على لسان أحد بزواج، بينما تلح الخواطب إلحاحا شديدا في طلب (لمعان) فلم هذا العناد جريا وراء سراب خادع ووهم باطل؟
ولو أن سهما أصاب فؤاد (عصمت) لما تألمت كل هذا الألم الذي اعتراها عندما صك سمعها هذا الكلام. أي بلية جديدة وأي نكبة.!؟؟ أتكون عقبة في سبيل إسعاد أختها؟ لقد شربت كأسها وحدها صابرة محتسبة، فهل تكون سببا في شقاء غيرها. .؟؟. لا. إن هذا لن يكون أبدا
هذا ما تحدث به ضمير (عصمت). أما أبوها فأخذ يقول لأمها:
تحاولين عبثا إقناعي بزواج (لمعان) أولا، وإني لأفضل تضحية الاثنتين على أن أرى كبرى بناتي تموت غما، وأكون مع القدر عليها
واستمر في حديثه و (عصمت) ترتجف خلف الباب تأثرا، ولم تستطع كبح جماح عواطفها طويلا، فاقتحمت الباب عليهما صائحة:
كلا يا أبتاه. إن (عصمت) لن تتزوج، فهي لم تخلق للزواج؛ أنها دميمة، ولن يبحث الأزواج عن الدميمات، ارحمها يا أبتاه، ولا توقفها ذلك الموقف المؤلم، ودعها تحيا في ظلك ما قدر لها، إنني بائسة فلا تجعلني حائلا بين أختي وبين سعادتها ومستقبلها، وأجهشت باكية، فبكى أبواها رحمة بها وإشفاقا عليها
مرت الأيام ولم يجد الأبوان أمام إلحاح (عصمت) وإصرارها بدا من زواج (لمعان)، وقد اغتبطت عصمت لذلك اغتباطا شديدا، وكانت ترى في خدمة أختها وزوجها بعض السلوة
انقطعت زيارة الخواطب منذ تزوجت (لمعان). وناءت (عصمت) بعبء ما مر بها من خطوب، فأصبحت وهي في عقدها الثاني كأرملة في الثمانين، وقد زهدت الحياة وملتها حتى وضعت (لمعان) طفلا جميلا فاتخذته ولدا لها، ولم تكن لتتركه لحظة واحدة، جعلت له من صدرها مهدا، ومن عنايتها حارسا فشب على حبها، ووجدت لذلك برد الراحة، فحببت إليها الحياة، وكانت تعتقد أنها جوزيت على جميل صبرها خير الجزاء حينما تداعب الطفل فيطوقها بذراعيه الصغيرتين، ويغمر وجنتيها الجافتين اللتين لم يسعدهما الحظ لثما وتقبيلا وهو يقول: خالتاه. . . ما أحيلاك يا خالتاه. . .!
اسكندرية
عبد اللطيف أحمد
من الأدب الفرنسي
هنرييت البائسة
للكاتب الفرنسي أندريه موروا
لشد ما كانت دهشتي عندما دعاني صديقي روبير بالتليفون إلى زيارته بمنزله، لقد جالت في نفسي خواطر كثيرة أثارت على حربا من الشكوك والريب. لقد كنت أشعر بحنان شديد وعطف خالص لزوجته هنرييت، وكان روبير حسن الذوق لطيف المعشر، يميل إلى المداعبة في شيء من المجون، وهو يعد عاشق من عشاق الخمر الذين يتهافتون على الكأس ولا يتركونها إلا إلى الكأس
ما عهدت في حياتي ولاء مثل ذلك الولاء الذي كانت هنرييت تتعهده به طوال خمسة عشر عاما لم تذق خلالها يوما واحدا من السعادة
لقد لقيته في اليوم نفيه وتصافحنا ثم جلست قبالته، وظل صامتا ثم حرك يده في هدوء، وأخرج علبة سجائره وتناول إحداها ثم أشعلها وأومأ إلي برأسه ثم قال:
- إن لي عندك حاجة فهل لك أن تقضيها. .؟ وعليك في الحالين أن تصدقني الوعد. . .
إنني لن أسيئك في مادة، ولن أجهدك في عمل، وإنك تعلم أن هنرييت تحترمك وتأخذ بآرائك من غير تفكير، وحسبك هذا منها دليلا على ثقتها بك. إنك رجل قد خبرت الحياة ولا بستها وعرفت عنها كثيرا. . . وهنرييت عاقلة تفهم عنك ذلك بقدر ما أفهم أنا عنك.

لقد عرفت بتجاربي الخاصة أنك رجل سديد الرأي، ولا يفوتن صواب قريحتك أن نصائح الزوج لا تلقي من الزوجة أذنا صاغية، ثم نفث من فمه نفثة غليظة من الدخان، ونظر إلي بعينين يفيض منهم الحنان والألم، وعقب قائلا
- فكر معي يا عزيزي - لقد قيضت لي الظروف عند عودتي من المؤتمر لقيا امرأة، أو لتقل فتاة، ولعت بها لساعتها، هي من أهل الشمال، وقد تبين لي ذلك من لهجتها وصوتها، وقد تعجب يا صديقي إن قلت لك إن هذه اللهجة وذلك الصوت الأبح، هما اللذان أسر لبي وملكا علي قلبي. . لقد بعثت في هذه الفتاة حياة جديدة. . أوه يا صديقي ما أشد قسوة الظروف وما أمرها! لا يكاد الإنسان منا يتناول الكأس إلى شفتيه الظامئتين حتى يعيدها مجبرا قبل أن ينال منها رشفة
هكذا كانت رحلتنا في الطائرة. . لم يتسع الوقت لأن نجرع من الكأس ولو جرعة. .
إنك تعرفني يا صديقي. . أنا لا أطيق صبرا على شيء تداعبه نسمة من الشك. . وتعرف أن لذة الانتصار يدفعها جنون الغرام تحملني على أن أركب متن الشطط حتى أنتهي. . .
ولقد دعاني المؤتمر إليه في الشتاء القادم - وستبقى هنرييت - هنرييت المسكينة. . ستبقى هنا يا صدقي، وستبقى بجانبها أنت لتقوم بدورك فقلت:
- بينك وبين زوجتك!. . ومن أين لي ذلك!.
فقاطعني قائلا:
- رويدا يا عزيزي. . هون عليك فالأمر سهل يسير ولن أذهب بك إلى شيء غير ما يصلح من شأن هنرييت، لقد أخذ يتسرب إليها الشك في تلك الرحلة حتى صممت على مصاحبتي. . . وإن ذلك لأمر قريب المحال. . كل ما أريد أن أستمده منك من معونة لا يكلفك إلا أن تفوه ببضع كلمات، وستحدثك هنرييت في هذا الموضوع وتصارحك بكل شيء. . .
فسر لها يا صديقي حاجة الكاتب إلى الظهور في مثل هذا البلد الغريب الذي سأرحل إليه حتى تسوغ سفري. ثم قل لها إن الوقت سيكون قسمة بين ولائم تورث النفس السأم، ومقابلات رسمية تبعث فيها الضجر والملل، ولا يفوتنك ذكر تكاليف الرحلة، فكيف بها إذا صاحبتني وأنا أحرص على راحتها، وأخيرا حل بينها وبين مرافقتي، وخفف من غلوائها فهي لابد لنصحك مستمعة، ولرأيك خاضعة، ولسؤالك مجيبة، ولا تنس - لا تنس أن تقرب إلى ذهنها أني لا أزال باقيا على حبها، وأني سأسهر على سعادتها ما حييت، وفي الغد ستسنح الفرص لأشهر طوال أعيد إليها خلالها ذكرى أيامنا الماضية الجميلة
لقد دام حديثه قرابة ساعة، بينما كان صوت أصابعي وهي تنقر على المائدة التي جلسنا حولها في غير انتظام يتجاوب صداه في أنحاء الغرفة، وأخيرا تركني من غير أن يطمئن إلى وعدي، وبعد الظهيرة بقليل لم أشعر إلا ويدي تحمل آلة المسرة ولقد كانت مصادفة غريبة عندما سمعت صوت هنرييت تناديني
- برتراند!. . . كيف حالك يا عزيزي الصغير؟. . . أظن أن في وقتك بقية اليوم متسعا للقائي، فهل تسمح بزيارتي!. . سأعد لك فنجانا من الشاي، وربما يكون هناك مشورة بيني وبينك. . . أسرع يا عزيزي
لقد كانت ممسكة بكتاب (باخ) تحركه في يدها في طفولة بريئة، لم تكن هنرييت تقل عن الأربعين، ولم تكن تزيد عليها، ولكنها ظهرت لي في هذه الليلة في ثوب فضفاض، وقد شاعت على قسماتها أشعة من نور الشفق الأحمر الحائل كامرأة في الثلاثين قالت لي في غير تكلف:
- يا صغيري برتراند! - سأكلفك أمرا تؤديه إلي - واعلم أني سأكون لك مطيعة. . . ولأمرك سميعة. . .
- إنك تعلمين علم اليقين يا هنرييت. . .
فقاطعتني قائلة:
- هيه يا عزيزي برتراند! ليس في الوجود رجل أوليه ثقتي غيرك، ولكن الأمر خطير. . عزيزي برتراند. . . إني. . . أحب. . . شابا يصغرني بكثير. . . إني أعم أنك ستمقت هذا الشاب وستحقد عليه وسيتملكك السخط علي إذا قلت لك أن بينك وبينه

تباينا كبيرا. . . هو شاب سلافي جميل طالب بكلية باريس، وهو فوق ذلك راقص ماهر ومثقف إلى حد كبير، وبرغم ذلك لا أرتاح إليه كثيرا، إذ هو مجنون، دنيء الأصل كما يتبين لي. . ولكني على الحالين أحبه. . وأنا سعيدة به
فقلت:
- روبير. . . أوه. .!!
- روبير لا يعرف شيئا عن هذا الحادث. . . روبير يرعاني كمن يرعى امرأة مسكينة، أو كمن يشفق على خادمة بائسة عضها الدهر. . . لقد صرت بغيضة إليه وهو بعد في شغل عني بفتاة دانيمركية
- كيف؟ أتعلمين هذا الخبر؟
- هوه!. . . منذ أمد بعيد، وكيف عرفت أنت ذلك؟!
- لقد كان روبير عندي اليوم صباحا
- أحدثك عن هذا الموضوع. . . يا له من نذل جبان!. . . إن صراحتي تجيز لي التماس ضراعتك. . استمع لي يا برتراند. . سيسافر روبير، وسيقضي في رحلته خمسة عشر يوما من شهر أكتوبر القادم، وسأطوف أنا و (فيدين) الجزر الإغريقية
فقلت:
- هنرييت: لا حاجة إلى أن أعيد على مسمعك ليس هناك أمنية لروبير غير السفر، ولكنه لا يعتقد. . .
فقاطعتني قائلة:
- استمع يابرتراند، إني على يقين من سفره. ولقد أخبرني أنه صمم على ذلك، ولكني عارضته، وبكيت وتوسلت إليه، وأخاف أن يوهن ذلك من عزمه
- لقد عسر علي الفهم. . لم هذه الكوميدية. . .؟
- إن ابتسامة واحدة مني يا برتراند لكافية أن تكشف الستار عن نصف رغائبه على الأقل، وأن تخلق في نفسه الشك في علمي بأمره. . . وكل ما أرجوه منك يا عزيزي الصغير أن تحبذ له فكرة السفر وأن تحمله على الاعتقاد بأن في هذه الرحلة ضمانا لمستقبله وعظمته، وإذا ما غير من رأيه وفضل البقاء على الرحيل فلا بد أن يغير من هذه الطريقة في معاملته لي، وأن يزيل من نفسه هذه النوع من الشفقة الخسيسة علي، وقل له إن هو هجر البيت مرة فانه سيعود فيجده خرابا. . ألق في ذهنه هذه المعاني وقل له إن سبيل التعزية الوحيد في غيبته - هو الرحلة الصغيرة التي أفهمتك عنها
فقلت: مسكين أنت يا روبير!
فقالت في هدوء: حقا. . انه مسكين!
1
العدد 77 - بتاريخ: 24 - 12 - 1934
أثر السياسة الحزبية في الأخلاق
للأستاذ عبد العزيز البشري
لقد عرفت من حديث الأسبوع الماضي بعض الآثار التي أشاعتها الحكومات الحزبية المتعاقبة في أخلاق جمهرة الموظفين، الإداريين منهم بوجه خاص، حتى نجم في بلادنا ذلك الفن المحقور المرذول: فن إرضاء القائم ومشايعته في هواه، ومد حبل الولاء للمقبل ومقاسمته أنه صادق الولاء له، ولقاء هذا بوجه، وذاك بوجه أخر، والتحدث إلى هذا بلسان، وإلى ذلك بلسان أخر. ولاشك أن من شأن النجاح بمثل هذه الوسائل، وعصمة المنصب باتخاذها، أن يبعث كثيرا من الموظفين الآخرين على التباري فيها، والافتنان في طلب السبق بها. وهكذا تتميع الأخلاق تميعا، وتتحطم طباع الرجولة تحطيماً!
على أن أثر الحال لا يقتصر على الأخلاق فحسب، بل إنه ليدخل الاضطراب والاختلال على الأعمال العامة التي يعالجها هؤلاء الموظفون. فالموظف، في هذه الحال، يحب أن يرضي أشياع الحكومة القائمة، ولا يحب أن يسيء إلى خصومها من أشياع الحكومة المقبلة، ليتخذ اليد عندهم ليوم تتبدل الحال غير الحال. فهو يبين أن يسوق ما بين يديه من الأعمال تعويقا ليتحلل من المسئولية البتة، وأما أن يعمد إلى توزيع المنافع بين هؤلاء وهؤلاء على حساب المصلحة العامة. وفي الأول شل لحركة الأعمال الحكومية

وتعود الاسترخاء عن الاضطلاع بالمسؤوليات، وفي الثانية عبث بحقوق العباد، وإخلال بمصالح البلاد، وفي كلتيهما شر عظيم وفساد كبير!

ولقد أمتد أثر هذه الحال إلى الأعمال الفنية العظيمة، فإن الحكومات الحزبية في بلادنا إنما تعمد، في العادة، إلى المشروعات الفنية التي هيأتها سابقتها، فتتناولها بالتغيير والتبديل، أن لم تتولها بالإلغاء والتعطيل. ولقد تكون قد جردت عليها وهي في المعارضة حملة حزبية شعواء، فأنظر، رعاك الله، موقف الموظفين الفنيين الذين هيأوا تلك المشروعات وأعانوا عليها من هؤلاء ومن هؤلاء!

وليس لهذا من أثر إلا أن ينقبضوا عن معالجة الأعمال الجسام، وأن يحتالوا على الخلاص منها طلبا للخلاص بأنفسهم من ألوان المسئوليات. وفي ذلك إثم في حق الفن وحق الوطن على بنيه من صفوة المتعلمين.

لقد سبق لي أن زعمت أن طبيعة قيام الحكومات الحزبية لا تدعو إلى شيء من كل هذا الاضطراب والتجلجل في أخلاق الموظفين ولا فيتصرف الموظفين، بدليل تعاور الحكومات الحزبية للحكم في جميع البلاد الدستورية، ومع هذا لم يسمع عن حال الموظفين بعض ما نسمع ونرى في هذه البلاد. وعللنا هذا بأننا نجتاز مرحلة سياسية خاصة لا أظن أنه يجتاز مثلها الآن بلدا آخر من بلاد الله.

وبمناسبة الحديث في اعتماد الحكومات القائمة مشروعات سلفها بالتغيير أو التعطيل، أذكر أن المستر سنودن، وهو من تعرف جبروتا وعظم كفاية، لما تولى وزارة المالية الإنجليزية في وزارة العمال، أراد أن يغير في شكل الميزانية، فيقدم هذا الباب على ذلك الباب، ويضيف من هذا الفصل لهذا الفصل، صمد له الموظفون الفنيون ومنعوه هذا منعاً، وقالوا له: إن لك أن تصنع بسياسة الدولة المالية ما تشاء، فتفرض من الضرائب ما تشاء، وتحط منها ما تريد، وأن تزيد ما ترى زيادته من وجوه النفقات، وتنقص ما ترى نقصه لك كل هذا، أما أن تدخل في الوضع الفني للميزانية فذلك ما لا سبيل لك إليه بحال! ويقتنع الرجل ويعدل عن هذا بنيته. فمتى نرى موظفينا على بعض هذه المتانة والثبات والإيمان؟

الذي أعتقده أن مثل هذا من السهل الميسور إذا أمن الموظفون سطوة الحكومات الحزبية بهم يوما يعصونها في طاعة الواجب والحق والقانون. فإذا زلت قدم الموظف، بعد هذا، أو مانع على ذمته وما ائتمن عليه من الحقوق العامة، كان جزاؤه النكال والوبال. فهل نطمع من حكومتنا في أن تعالج هذا فيما أخذت نفسها به من وجوه الإصلاح بعد إذ تفرغ من مهمة التطهير، واستخلاص الأداة الحكومية من هذا الفساد؟

هذا ما كان من شأن الموظفين، أما شأن الأعيان في بلادنا فأعجب وأغرب، إذا منعنا الحياء من أن نقول إنه أخزى وأفحش. فإننا إذا تمحلنا بعض المعاذير لأولئك من الحرص على مناصبهم، وإمساك أسباب العيش على أزواجهم وبنيهم، فإننا لا يمكن أن نصيب عذرا لهؤلاء. اللهم إلا إذا كان من بين الأعذار السائغة حاجة المرء إلى الجاه والسطوة، واغتصاب المنافع العامة، وقضاء حاجات الأهل والأقربين، ولا ينال هذا إلا إذا وضع على رأسه ذمته، وعقيدته، وكرامته، وراح ينادي عليها فعل الباعة المضطربين بسلعهم في الأسواق.

اللهم إنه لا يعيب المرء مطلقا أن يتغير رأيه في شيء من الأشياء، ولو من صواب في الواقع إلى خطأ في الواقع ما دام الأمر موصولا بصحة الاعتقاد، ولا يعيب المرء مطلقا أن يهجر حزبا ويتصل بحزب أخر طوعا لتغير عقيدته في الحزبين جميعا. بل العيب كل العيب في ألا يفعل، وإلا كان أثما أبلغ الإثم في حق وطنه، مأخوذا في تعصبه بحمية الجاهلية التي هجنها الله تعالى في كتابه العزيز. ماذا يعيب المرء إذا تكشف له خطأ رأيه فعدل عنه إلى الصواب؟ وماذا إذا رأى شيعته قد انحرفت عن القصد، وعبثت بما رسمت من المبادئ في توجيه سياسة البلاد؟ بل الذي يعيبه كل العيب ألا يفارقها إلى من هو أصدق منها في تحقيق كريم الأغراض!

لو أن أولئك الأعيان إنما يتحولون ويضطربون بين الأحزاب المختلفةطوعاً لرأي يعتريهم، أو عقيدة تدخلها الظروف عليهم، لما استحقوا إلا الحمد والثناء. أما وهم صامدون بآرائهم وعقائدهم لكل حزب يتولى الحكم، فيهرولون لساعتهم إليه، ويعلنون انضوائهم تحت لوائه، ولا يتوانون في كل مناسبة عن الآذان بأنه الحزب الصادق السعي في تحقيق آمال البلاد، حتى إذا ما أدال الله منه بالحكم لحزب غيره، سرعان

ما ولوا وجوههم شطره فأعلنوا أنهم بمبادئه مؤمنون، وأنهم تحت لوائه منضوون، لأنه قد بان لهم أنه الحزب لا حزب غيره، الصادق السعاة في إصلاح الحال، القادر الكفء لتحقيق أعز الآمال!

وهكذا دواليك لا يعقد عن هذا الرقص والحجلان وقار ولا تحشم ولا حياء، حتى أصبحوا على البلاد من أشنع المعرات، وحتى هونوا على غيرهم شأن الكرامة، وأرخصوا في الناس فضيلة الحياء، وأعلنوا أن المبادئ والعقائد مما يباع ويشترى، وأن الأهواء الحزبية مما يؤجر ويكترى، وليس في إطلاق هذا الصنع على ازلاله إلا إفساد الأخلاق، وتوطئ النفوس لقبول الضمة والهوان.

بعد، فقد تقتضيني الرأي في علاج هذا الداء، ولعله يتعاظمك هذا العلاج! اللهم إن علاج هذا لداء في بعض هؤلاء الأعيان، فإنه ما دام الحكم جارية أسبابه على مقتضى النزاهة والعدالة، والحرص على إقامة حدود القوانين، بحيث يصل المرء إلى حقه في يسر، وبحيث يحال بين المرء أيا كان وبين أن يبلغ ما لا حق له فيه بحال - لم يبق بأحد حاجة إلى اللف والدوران، والرقص والحجلان، والتشكلفي مختلف الصور، والتلون بشتى الألوان، فهل نحن فاعلون!

عبد العزيزالبشري

سمو الحب

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

صاح المنادي في موسم الحج: (لا يفتى الناس إلا عطاء ابن أبي رباح) وكذلك كان يفعل خلفاء بني أمية، يأمرون صائحهم في الموسم، أن يدل الناس على مفتي مكة وإمامها وعالمها، ليثقلوه بمسائلهم في الدين، ثم ليمسك غيره على الفتوى، إذ هو الحجة القاطعة لا ينبغي أن يكون معها غيرها مما يختلف عليها أو يعارضها، وليس للحجج إلا أن تظاهرها وتترادف على معناها.

وجلس عطاء يتحين الصلاة في المسجد الحرام، فوقف عليه رجل وقال يا أبا محمد، أنت أفتيت كما قال الشاعر:

سَلِ الُمفْتِيَ الَمكِّيَّ: هل في تَرَاوُرٍ ... وَضَمَّةِ مُشتاقِ الفؤادِ جُناحُ؟

فقال: مَعَاذَ اللهِ أن يُذْهِبَ التُّقَى ... تَلاصُقُ أكبادٍ بهنَّ جِراحُ!

فرفع الشيخ رأسه وقال: والله ما قلت شيئاً من هذا، ولكن الشاعر هو نحلني هذا الرأي الذي نفثه الشيطان على لسانه، وإني لأخاف أن تشيع القالة في الناس، فإذا كان غد وجلست في حلقتي فأغد علي، فأني قائل شيئا.

وذهب الخبر يؤج كما تؤج النار، وتعالم الناس أن عطاء سيتكلم في الحب، وعجبوا كيف يدري الحب أو يحسن أن يقول فيه من غير عشرين سنة فراشه المسجد، وسمع من عائشة أم المؤمنين، وأبو هريرة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإبن عباس بحر العلم! وقال جماعة منهم: هذا رجل صامت أكثر وقته، وما تكلم إلا خيل إلى الناس أنه يؤيد بمثل الوحي، فكأنما هو نجى ملائكة يسمع ويقول، فلعل السماء موحية إلى الأرض بلسانه وحيا في هذه الضلالة التي عمت الناس وفتنتهم بالنساء والغناء.

ولما كان غد جاء الناس إرسالاً إلى المسجد، حتى أجتمع منهم الجمع الكثير: قال عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي عمار: وكنت رجلا شابا من فتيان المدينة، وفي نفسي من الدنيا ومن هوى الشباب، فغدوت مع الناس، وجئت وقد تكلم أبو محمد وأفاض، ولم أكن رأيته من قبل، فنظرت إليه فإذا في مجلسه كأنه هو غراب أسود، إذ كان أبن أمة سوداء تسمى (بركة) ورأيته أسود أعور أفطس أشل أعرج مفلفل الشعر، لا يتأمل المرء منه طائلا،

ولكنك تسمعه يتكلم فتظن والله أن هذه قطعة ليل تسطع فيها النجوم، وتصعد من حولها الملائكة وتنزل

قال: وكان مجلسه في قصة يوسف عليه السلام، ووافقته وهو يتكلم في تأويل قوله تعالى: (وراوَدَتْه التي هو في بيتها عن نَفسهِ. وغَلَّقَتِ الأبواب وقالت: هَيْتَ لك. قال: مَعَاذَ الله. إنه ربيّ أَحْسَنَ مَثْواي. إنه لا يُفلِحَ الظالمون. ولقد هَمَّت به وَهَمَّ بها لولا أنْ رأى بُرْهَانَ ربَّه: كذلك لِنَصْرِفَ عنه السوء والفحشاءَ)

قال عبد الرحمن: فسمعت كلاما قدسيا تضع له الملائكة أجنحتها من رضى وإعجاب

بفقيه الحجاز. حفظت منه قوله: عجبا للحب! هذه ملكة تعشق فتاها الذي ابتاعه زوجها بثمن بخس، ولكن أين ملكها وسطوة ملكها في تصوير الآية الكريمة؟ لم تزد الآية على أن قالت: (وراودته التي) و (التي) هذه كلمة تدل على كل امرأة كائنة من كانت، فلم يبق على الحب ملك ولا منزلة، وزلت الملكة من الأنثى!

وأعجب من هذا كله (راودته) وهي بصيغتها للمفردة حكاية طويلة تشير إلى أن هذه المرأة جعلت تعترض يوسف بألوان من أنوثتها لون بعد لون، ذاهبة إلى فن راجعة من فن، لأنها من رودان الإبل في مشيتها، تذهب وتجيء في رفق. وهذا يصور حيرة المرأة العاشقة، واضطرابها في حبها، ومحاولتها أن تنفذ إلى غايتها، وكما يصور كبرياء الأنثى، إذ تختال وتترفق في عرض ضعفها الطبيعي، كأنما هي شيْ أخر غير طبيعتها، فمهما تتهالك على من تحب وجب أن يكون لهذا (الشيء الآخر) مظهر امتناع أو مظهر تحير أو مظهر اضطراب، وإن كانت الطبيعة من وراء ذلك مندفعة ماضية مصممة.

ثم قال: (عن نفسه) ليدل على أنها لا تطمع فيه، ولكن في طبيعته البشرية، فهي تعرض ما تعرض لهذه الطبيعة وحدها، وكأن الآية مصرحة في أدب سام كل السمو، منزه غاية التنزيه بما معناه: إن المرأة بذلت كل ما تستطيع في إغوائه وتصبيه، مقبلة عليه ومتدللة ومتبذلة ومنصبة من كل جهة، بما في جسمها وجمالها على طبيعته البشرية، وعارضة كل ذلك عرض امرأة خلعت أول ما خلعت أمام عينيه ثوب الملك.)

ثم قال (وغلقت الأبواب) ولم يقل (أغلقت) وهذا يشعر أنها لما يأست، ورأت منه محاولة الانصراف، أسرعت في ثورة نفسها مهتاجة تتخيل القفل الواحد أقفالا عدة، وتجري من باب إلى باب، وتضطرب يدها في الإغلاق، كأنما تحاول سد الأبواب لا إغلاقها فقط.

ومعناها في هذا الموقف أن اليأس قد دفع بهذه المرأة إلى أخر (وقالت هَيْت لك) حدوده، فانتهت إلى حالة من الجنون بفكرتها الشهوانية، ولم تعد لا ملكة ولا امرأة، بل أنوثة حيوانية صرفة، متكشفة مصرحة، كما تكون أنثى الحيوان في أشد إهتياجها وغليانها!

هذه ثلاثة أطوار يترقى بعضها من بعض، وفيها طبيعة الأنوثة نازلة من أعلاها إلى أسفلها. فإذا انتهت المرأة إلى نهايتها ولم يبق وراء ذلك شيء تستطيعه أو تعرضه بدأت من ثم عظمة الرجولة السامية المتمكنة في معانيها، فقال يوسف: (معاذ الله) ثم قال: (إنه ربي أحْسَنَ مَثواي) ثم قال: (إنه لا يفلح الظالمون) وهذه أسمى طريقة إلى تنبيه ضمير المرأة في المرأة، إذ كان أساس ضميرها في كل عصر هو اليقين بالله، ومعرفة الجميل، وكراهة الظلم. ولكن هذا التنبيه المترادف ثلاث مرات لم يكسر من نزوتها، ولم يفتأ تلك الحدة، فإن حبها كان قد أنحصر في فكرة واحدة اجتمعت بكل أسبابها في زمن في مكان في رجل، فهي فكرة محتسبة كأن الأبواب مغلقة عليها أيضا، ولذا بقيت المرأة ثائرة ثورة نفسها، وهنا يسود الأدب الإلهي السامي إلى تعبيره العجز فيقول (ولقد همت به) كأنما يومي بهذه العبارة إلى إنها ترامت عليه، وتعلقت به، والتجأت إلى وسيلتها الأخيرة، وهي لمس الطبيعة بالطبيعة لإلقاء الجمرة في الهشيم. . .!

جاءت العاشقة في قضيتها ببرهان الشيطانالذي يقذف به في أخر محاولته. وهنا يقع ليوسف عليه السلام برهان ربه كما وقع لها هي برهان شيطانها. فلولا برهان ربه لكان هم بها، ولكن رجلا من البشر في ضعفه الطبيعي.

قال أبو محمد: وههنا ههنا المعجزة الكبرى، لأن الآية الكريمة تريد ألا تنفى عن يوسف عليه السلام فحولة الرجولة، حتى لا يظن به، ثم هي تريد من ذلك أن يتعلم الرجل، وخاصة الشبان منهم، كيف يتسامون بهذه الرجولة فوق الشهوات، حتى في الحالة التيهي نهاية قدرة الطبيعة، حالة ملكة مطاعة فاتنة عاشقة مختلية متعرضة متكشفة متهالكة. هنا لا ينبغي أن ييأس الرجل، فإن الوسيلة التي تجعله لا يرى شيئا من هذا - هي أن يرى برهان ربه.

وهذا البرهان يؤوله كل إنسان بما شاء، فهو كالمفتاح الذي يوضع في الأقفال كلها فيفضها كلها، فإذا مثل الرجل نفسه في تلك الساعة أنه هو وهذه المرأة أمام الله يراهما، وأن أماني القلب التي تهجس فيه ويظنها خافية، إنما هي صوت عال يسمعه الله، وإذا تذكر

أنه سيموت ويقبر، وفكر فيما يصنع الثرى في جسمه هذا، أو فكر في موقفه يوم تشهد عليه أعضاؤه بما كان يعمل، أو فكر في أن هذا الإثم الذي يقترفه الآن سيكون مرجعه عليه في أخته أو بنته - إذا فكر في هذا ونحوه رأى برهان ربه يطالعه فجأة، كما يكون السائر في الطريق غافلا مندفعا إلى هاوية، ثم ينظر فجأة فيرى برهان عينه، أترونه يتردى في الهاوية حينئذ، أم يقف دونها وينجو، احفظوا هذه الكلمة الواحدة التي فيها أكثر الكلام، وأكثر الموعظة، وأكثر التربية، والتي هي كالدرع في المعركة بين الرجل والمرأة والشيطان، كلمة (رأى برهان ربه). قال عبد الرحمن بن عبد الله وهو يتحدث إلى صاحبه سهيل بن عبد الرحمن: ولزمت الإمام بعد ذلك، وأجمعت أن أتشبه به، وأسلك في طريقه من الزهد والمعرفة، ثم رجعت إلى المدينة وقد حفظت الرجل في نفسي كما أحفظ الكلام، وجعلت شعاري في كل نزعة من نزعات النفس هذه الكلمة العظيمة: (رأى برهان ربه)، فما ألمت بإثم قط، ولا دانيت معصية، ولا يرهقني مطلب من مطالب النفس إلى يوم الناس هذا، وأرجو أن يعصمني الله فيما بقي، فإن هذه الكلمة ليست كلمة، وإنما هي كأمر من السماء تحمله تمر به أمنا على كل معاصي الأرض فما يعترضك شيء منها كان معك خاتم الملك تجوز به.

قال سهيل: فلهذا لقبك أهل المدينة (بالقس) لعبادتك ولزهدك وعزوفك عن النساء، وقليل لك والله يا أبا عبد الله، فلو قالوا: ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك، لصدقوا.

قالت سلامة جارية سهيل بن عبد الرحمن المغنية الحاذقة الطريفة، الجميلة الفاتنة، الشاعرة القارئة، المؤرخة المتحدثة، التي لم يجتمع في امرأة مثلها حسن وجهها، وحسن غنائها، وحسن شعرها - قالت: واشتراني أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك بعشرين ألف دينار (عشرة آلاف جنيه) وكان يقول: ما يقر عيني ما أوتيت من الخلافة حتى أشتري سلامة، ثم قال حين ملكني: ما جاء بعد من أمر الدنيا فليفتني، قالت: فلما عرضت عليه أمرني أن أغنيه، وكنت كالمخبولة من حب عبد الرحمن القس، حباً أراه فالقا كبدي، آتيا على حشاشتي، فذهب عني والله كل ما أحفظه من أصوات الغناء، كما يسمح اللوح بما كتب فيه، وأنسيت الخليفة وأنا بين يديه، ولم أر إلا عبد الرحمن ومجلسه مني سألني أن أغنيه

بشعره في، وقولي له يومئذ: حبا وكرامة وعزازة لوجهك الجميل. وتناولت العود وجسته بقلبي قبل يدي، وضربت عليه كأني أضرب لعبد الرحمن، بيد أرى فيها عقلا يحتال حيلة امرأة عاشقة. ثم اندفعت أغني بشعر حبيبي:

إن التي طَرَقَتْكَ بين ركائب ... تمشي بِمِزْهَرِها وأنتَ حَرام

لِتَصِيدَ قلبَكَ أو جزاء مودَّةٍ ... إن الرفيقَ له عليكَ ذِمامُ

باتتْ تُعَلِّلُنا وتَحْسِب أنَنا ... في ذاك أيقاظٌ، ونحن نيامُ

وغنيته والله غناء والهة ذاهبة العقل كاسفة البال، ورددته كما رددته لعبد الرحمن، وأنا إذ ذاك بين يديه كالوردة أول ما تتفتح. وأنا أنظر إليه وأتبين لصوتي في مسمعيه صوتا أخر. . . وقطعته ذلك التقطيع، ومددته ذلك التمديد، وصحت فيه صيحة قلبي ونفسي وجوارحي كلها كما غنيت عبد الرحمن، لكيما أؤدي إلى قلبه المعنى الذي في اللفظ، والمعنى في النفس جميعا، ولكيما أسكره - وهو الزاهد العابد - سكر الخمر بشيء غير الخمر، وما أفقت من هذه الغشية إلا حين قطعت الصوت، فإذا الخليفة كأنما يسمع من قلبي لا من فمي وقد زلزله الطرب، وما خفي على إنه رجل قد ألم بشأن امرأة، وخشيت أن أكون قدافتضحت عنده، ولكن غلبته شهوته، وكان جسدا بما فيه، يريد جسدا لما فيه، فمن ثم لم ينكر ولم يتغير. واشتراني وصرت إليه، فلما خلونا سألني أن أغني، فلم أشعر إلا وأنا أغنيه بشعر عبد الرحمن:

ألا قُلْ لهذا القلبِ: هل أنت مُبْصرُ ... وهل أنتَ عن سلاّمةَ اليومَ مُقْصرُ

إذا أخَذَتْ في الصوتِ كاد جليسُها ... يطيرُ إليها قلبُه حين تنظرُ

وأديته على ما كان يستحسنه عبد الرحمن ويطرب له، إذ يسمع فيه همسا من بكائي، ولهفة مما أجد به، وحسرة على أنه ينسكب في قلبي وهو يصد عني ويتحاماني، وما غنيت: (وهل أنت عن سلامة اليوم مقصر) إلا في صوت تنوح به سلامة على نفسها وتندب وتتفجع!

فقال لي يزيد وقد فضحت نفسي عنده فضيحة مكشوفة: يا حبيبتي، من قائل هذا الشعر؟

قلت: أحدثك بالقصة يا أمير المؤمنين؟
قال: حدثيني
قلت: هو عبد الرحمن بن أبي عمار الذي يلقبونه بالقس لعبادته ونسكه، وهو في المدينة يشبه عطاء بن أبي رباح، وكان صديقا لمولاي سهيل، فمر بدارنا يوما وأنا أغني فوقف يسمع، ودخل علينا (الأحوص) فقال، ويحكم، لكأن الملائكة والله تتلو مزاميرها بحلق سلامة، فهذا عبد الرحمن القس قد شغل بما يسمع منها، وهو واقف خارج الدار. فتسارع مولاي فخرج إليه ودعاه إلى أن يدخل فيسمع مني فأبى، فقال له: أما علمت أن عبد الله بن جعفر، وهو من هو في محله وبيته وعلمه قد مشى إلى جميلة أستاذة سلامة حين علم أنها آلت إليه ألا تغني أحدا إلا فيمنزلها، فجاءها فسمع منها، وقد هيأت له مجلسها، وجعلت على رؤوس جواريها شعورا مسدلة كالعناقيد، وألبستهن أنواع الثياب المصبغة، ووضعت فوق الشعور التيجان، وزينتهن بأنواع الحلي، وقامت هي على رأسه، وقام الجواري صفين بين يديه، حتى أقسم عليها فجلست غير بعيد، وأمرت الجواري فجلسن، ومع كل جارية عودها، ثم ضربن جميعا وغنت عليهن، وغنى الجواري على غنائها، فقال عبد الله، ما ظننت أن مثل هذا يكون! وأنا أقصدك في مكان تسمع من سلامة ولا تراها، إن كنت بالمنزلة التي لم يبلغها عبد الله بن جعفر!
قالت سلامة: وكانت هذهيا أمير المؤمنين - رقية من رقى إبليس، فقال عبد الرحمن: أما هذه فنعم. ودخل الدار وجلس حيث يسمع، ثم أمرني مولاي فخرجت إليه خروج القمر مشبوبا من سحابة كانت تغطيه، فما رآني حتى علقت بقلبه، وسبح طويلا طويلا، وما رأيته حتى رأيت الجنة والملائكة، ومت عن الدنيا وانتقلت إليه وحده. . .
قالت سلامة وافتضحت مرة أخرى، فتنحنح يزيد. . . فضحكت وقلت يا أمير المؤمنين، أحدثك أم حسبك؟ قال: حدثيني ويحك! فوالله لو كنت في الجنة كما أنت لعدت قصة أدم مع واحد واحد من أهلها حتى يطردوا جميعا من حسنها إلى حسنك، فما فعل القس ويحك؟ قلت يا أمير المؤمنين، إنه كان يدعى القس قبل أن يهواني. فقال يزيد وهل عجب وقد فتنته أن يطرده (البطريق) قلت: بل العجب وقد فتنته أن يصير هو البطريق. . .!
فضحك يزيد وقال: إيه، ما أحسب الرجل إلا قد دهي منك بداهية! فحدثيني فقد رفعت الغيرة، إني والله ما أرى هذا الرجل في أمره وأمرك إلا كالفحل من الإبل، قد ترك من الركوب والعمل، ونعم وسمن للفحلة، فند فذهب على وجهه، فأقحم في مفازة، وأصاب مرتعا فتوحش واستأسد، وتبين عليه أثر وحشيته، وأقبل إقبال الجن من قوة ونشاط وبأس شديد، فلما طال انفراده وتأبده عرضت له في البر ناقة كانت قد بدت من عطنها، وكانت فارهة جسيمة قد انتهت سمنا وغطاها الشحم واللحم، فراها البازل الصئول فهاج وصال وهدر، يخبط بيده ورجله، ويسمع لجوفه دوي من الغليان، وإذا هي قد ألقت نفسها بين يديه! أما والله لو جعل الشيطان في يمينه رجلا فحلا جميلا، وفي شماله امرأة جميلة تهواه، ثم تمطى متدافعا ومد ذراعيه فابتعدا، ثم تراجع متداخلا وضم ذراعيه فالتقيا، لكان هذا شأن ما بينك وبين القس!
قلت: لا والله يا أمير المؤمنين، ما كان صاحبي في الرجال خلا ولا خمرا، وما كان الفحل إلا الناقة. . .! وما أحسب الشيطان يعرف هذا الرجل، وهل كان للشيطان عمل مع رجل يقول. إني أعرف دائما فكرتي، وهي دائما فكرتي لا تتغير. ذاك رجل أساسه كما يقول (برهان ربه) ولقد تصنعت له يا أمير المؤمنين، وتشكلت وتحليت وتبرجت، وحدثت نفسي منه بكثير، وقلت أنه رجل قد غير شبابه في وجود فارغ من المرأة، ثم وجد المرأة في. وغنيته يا أمير المؤمنين غناء جوارحي كلها، وكنت له كأني حرير ناعم يترجرج وينشر أمامه ويطوى، وجلست كالنائمة في فراشها وقد خلا المجلس، وكنت من ذلك بين يديه كالفاكهة الناضجة الحلوة تقول لمن يراها: كلني. . .!)
قال يزيد: ويحك ويحك! وبعد هذا؟
قلت: بعد هذا يا أمير المؤمنين، وهو يهواني الهوى البرح، ويعشقني العشق المضني - لم ير في جمالي وفتنتي واستسلامي إلا أن الشيطان قد جاء يرشوه بالذهب. . . بالذهب الذي يتعامل به!
فضحك يزيد وقال: لا والله، لقد عرض الشيطان منك ذهبه ولؤلؤه وجواهره كلها،

فكيف لعمري لم يفلح، وهو لو رشاني من هذا كله بدرهم لوجد أمير المؤمنين شاهد زور. . .!
قلت: ولكني لم أيأس يا أمير المؤمنين، وقد أردت أن أظهر امرأة فلم أفلح، وعملت أن أظهر شيطانة فإنخذلت، وجهدت أن يرى طبيعتي فلم يرني إلا بغير طبيعة، وكلما حاولت أن أنزل به عن سكينته ووقاره رأيت في عينيه ما لا يتغير كنور النجم، وكانت بعض نظراته لي والله كأنها عصا المؤدب، وكأنه يرى في جمالي حقيقة من العبادة، ويرى في
جسمي خرافة الصنم، فهو مقبل على جميلة، ولكنه منصرف عني امرأة. لم أيأس على كل ذلك يا أمير المؤمنين، فإن أول الحب يطلب أخره أبدا إلى أن يموت. وكان يكثر من زيارتي، بل كانت إلى الغدوة والروحة، من حبه إياي وتعلقه بي، فواعدته يوما أن يجيء مني وأرى الليل أهله لأغنيه (ألا قل لهذا القلب. .) وكنت لحنته ولم يسمعه بعد. ولبثت نهاري كله أستروح في الهواء رائحة هذا الرجل مما أتلهف عليه، وأتمثل ظلام الليل كالطريق الممتد إلى شيء مخبوء أعلل النفس به. وبلغت ما أقدر عليه في زينة نفسي وإصلاح شأني، وتشكلت في صنوف من الزهر، وقلت لأجملهن وهي الوردة التي وضعتها بين نهدي: يا أختي، اجذبي عينه إليك، حتى إذا وقف نظره عليك فأنزلي به قليلا أو أصعدي به قليلا. قال يزيد وهو كالمحموم: ثم ثم ثم؟
قلت يا أمير المؤمنين: ثم جاء مع الليل، وإن المجلس لخال ما فيه غيري وغيره، بما أكابد منه وما يعاني مني. فغنيته أحر غناه وأشجاه، وكان العاشق فيه ليطرب لصوتي، ثم يطرب الزاهد فيه من أنه استطاع أن يطرب، كما يطيش الطفل ساعة ينطلق من حبس المؤدب. وما كان يسوؤني إلا أن تمارس في الزهد ممارسة، كأنما أنا صعوبة إنسانية فهو يريد أن يغلبها، وهو يجرب قوى نفسه وطبيعته عليها، أو كأنه يراني خيال امرأة في مرآة، لا امرأة مائلة له بهواها وشبابها وحسنها وفتنتها، أو أنا عنده كالحورية من حور الجنة في خيال من هي ثوابه، تكون معه، وإن بينها وبينه من البعد ما بين الدنيا والآخرة، فأجمعت أن أحطم المرآة ليراني أنا نفسي لا خيال، واستنجدت كل فتنتي أن تجعله يفر إلي كلما حاول أن يفر مني.
فلما ظننتني ملأت عينيه وأذنيه ونفسه، وانصبت إليه من كل جوارحه، وهجت التيار الذي في دمه ورفعته رفعا - قلت له: أنت يا خليلي شيء لا يعرف، أنت شيء متلفف بإنسان، ومن التي تعشق ثوبا ليس فيه لابسه؟
ورأيته والله يطوف عند ذلك بفكره، كما أطوف أنا بفكري حول المعنى الذي أردته.
(فملت إليه وقلت: أنا والله أحبك!)
(فقال): وأنا والله الذي لا اله إلا هو
قلت: (وأشتهي أن أعانقك وأقبلك!)
قال: (وأنا والله!)
قلت: (فما يمنعك؟ فوالله إن الموضع لخال!)
قال: يمنعني قول الله عز وجل: (الإخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين). فأكره (أن تحول مودتي لك عداوة يوم القيامة)
إني أرى (برهان ربي) يا حبيبتي، وهو يمنعني أن أكون من سيئاتك وأن تكوني من سيئاتي، ولو أحببت الأنثى لوجدتك في كل أنثى، ولكني أحب ما فيك أنت بخاصتك، وهو الذي لا أعرفه ولا أنت تعرفينه، هو معناك يا سلامة لا شخصك. ثم قام وهو يبكي، فما عاد بعد يا أمير المؤمنين، ما عاد بعد ذلك، وترك لي ندامتي وكلام دموعه! وليتني لم أفعل، فقد رأى أن المرأة تكشف وجهها للرجل أحيانا، وكأنها لم تلق حجابها بل ألقت ثيابها. . . .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

الصراع بين الحبشة والاستعمار الغربي وهل يريد الاستعمار غزوها؟

للأستاذ محمد عبد الله عنان

وقعت أخيراً عدة حوادث ومصادمات خطيرة على حدود الحبشة بين الإيطاليين والأحباش؛ وكان المظنون أن الكدر الذي أصاب العلائق الحبشة الإيطالية من جراء

حادث الإعتداء على القنصلية الإيطالية في جوندار قد زال بعد إعذار الحكومة الحبشية وقيامها بالترضية المطلوبة. ولكن حادثاً أشد خطورة وقع منذ أيام قلائل على الحدود الحبشية مما يلي السومال الإيطالي؛ فقد نشبت معركة دموية شديدة بين قوة من الأحباش وقوة من الإيطاليين عند مركز اولوال الذي يدعيه كل منهما، قتل وجرح فيها من الفريقين عدد كبير يقدر بالمئات؛ وقد وقف القتال على أثر ذلك، وانسحب الأحباش إلى داخل الحدود، ورفعت الحكومة الحبشية الأمر إلى عصبة الأمم؛ ولكن الجو مازال كدراً مثقلاً بمختلف الاحتمالات

ومما يلفت النظر بنوع خاص أن يقع هذا التوتر وهذه الحوادث الخطيرة بين الدولتين عقب الزيارة الملكية التي قام بها ملك إيطاليا في الارتيريا والسومال، والمظاهرات العسكرية التي نظمتها السلطات الإيطالية بهذه المناسبة. ولا ريب أن طواف ملك إيطاليا بالأملاك الإيطالية في أفريقيا الشرقية لم يكن بقصد النزهة والتريض، ولكنها زيارة سياسية ظاهرة المغزى، وطليعة خطة جديدة تزمع إيطاليا الفاشستية انتهاجها في سياستها الاستعمارية. ومن المعروف أن إيطاليا الفاشستية تعني عناية شديدة بالتوسع الاستعماري، وأنها خطت في ذلك السبيل خطوات واسعة في طرابلس، حيث استطاعت أن توغل في داخلها بعد أن لبثت منذ غزوها تقتصر على احتلال البلاد الساحلية إلى مسافة قصيرة، واستطاعت بواسطة إنكلترا أن تنتزع واحة جغبوب المصرية وما يليها بمقتضى المعاهدة المعروفة، وأن تصحح بذلك حدودها على حساب الأراضي المصرية؛ بل لقد استطاعت أخيراً أن تنتزع بواسطة إنكلترا أيضاً جزءاً من واحة العوينات السودانية وأن تضمها إلى برقة الجنوبية، ونزلت لها إنكلترا عن تلك المنطقة بإسمها وبإسم مصر، ومصر لا تعلم بشيء من ذلك ولم يطلب رأيها فيه. وتبدي إيطاليا الفاشستية نشاطاً واضحاً في تنظيم مستعمراتها الأفريقية وتقوية نفوذها الإستعماري، وتجعل التوسع الاستعماري أساساً لسياستها الأوربية، فتشترط لتفاهمها مع فرنسا ن تحصل على حقوق ويا استعمارية في جنوب تونس، وفي منطقة تشاد، وتدعو إلى تعديل معاهدة الصلح (معاهدة فرساي)، وتحاول أن تثير مسألة الانتدابات الاستعمارية التي استأثرت بها فرنسا وإنجلترا وحرمت هي منها فلم تظفر بشيء من أسلاب ألمانيا أو الدولة العثمانية؛ هذا إلى اهتمامها بتقوية نفوذها في كثير من الأمم الشرقية، ومضاعفة جهودها في نشر تجارتها ونفوذها الاقتصادي

ومن الطبيعي أن تخص إيطاليا المنطقة الحبشية بمعظم جهودها واهتمامها، فهي تملك في تلك المنطقة مستعمرتين كبيرتين هما بلاد الأريترية التي تحد الحبشة من الشمال الشرقي وتحجب عنها ساحل البحر الأحمر، وبلاد السومال الإيطالي، وهي تحد الحبشة من الجنوب الشرقي، وتحجب عنها ساحل المحيط الهندي. بيد أن هذا الاهتمام ليس حادثاً وطارئاً؛ فقد بدأت إيطاليا عصرها الاستعماري في تلك المنطقة، وامتلكت بها أول مستعمرة إيطالية. وكان ذلك سنة 1885، وقت أن كانت الدول الكبرى تنظم اقتسام أفريقية إلى أملاك ومستعمرات، فاستطاعت إيطاليا أن تضع يدها على ثغر مصوع وأن تحتل بلاد الإريترية؛ وكانت السياسة الإيطالية تتطلع يومئذ إلى التوسع في تلك المنطقة، وإلى إنشاء إمبراطورية استعمارية إيطالية في شرق أفريقية؛ ولم يكن يحقق ذلك الحلم سوى الاستيلاء على بلاد الحبش؛ فاتخذت من الإريترية قاعدة لتحقيق هذه السياسة، وكانت الحبشة تجوز يومئذ ظروفاً سيئة من تعاقب الثورات والخلافات الداخلية، وكان الغزو الأوربي قد استطاع أن يفذ إليها قبل ذلك بأعوام قلائل؛ ففي سنة 1868، نفذت حملة إنكليزية بقيادة نابيير إلى بلاد الحبشة لتعمل على إنقاذ بعض المبعوثين والرعايا الإنجليز الذين اعتقلتهم حكومة الحبشة وأبت إطلاق سراحهم، وكان المتغلب على الحبشة يومئذ زعيم يدعي كاساي، الذي تلقب باسم الملك (النجاشي) تيودور، فهزم واضطر إلى التسليم، وانتحر على أثر ذلك، وانسحب الإنكليز بعد أن أملوا شروطهم وحققوا غايتهم. وقام على عرش الحبشة النجاشي يوحنا الثاني، وفي عهده تقربت إيطاليا من الحبشة وعقدت معها صلات ودية وثيقة سرعان ما تحولت إلى نوع من الوصاية. واستمرت إيطاليا تعمل على تقوية نفوذها وسلطانها في الحبشة حتى توفي يوحنا الثاني سنة 1889 وخلفه منليك أمير شووا؛

وكان النير الإيطالي قد اشتدت وطأته يومئذ، وضعفت الحبشة واضطربت شئونها إلى حد
استطاعت معه أن تفرض إيطاليا عليها معاهدة تقضي بوضعها تحت الحماية الإيطالية، وهي المعروفة بمعاهدة (أوشالي) (سنة 1889) وعندئذ تغلغل النفوذ الإيطالي في الحبشة، وسيطرت إيطاليا على شئونها ومصايرها، وأخذت تطمح إلى امتلاكها وضمها. ولكن شاء القدر أن يكون منليك، ذلك الأمير الذي ضاعت في عهده الحريات الحبشية هو نفس الأمير الذي يقوم بتحريرها من النير الأجنبي. ففي سنة 1895، اضطرمت الحبشة بثورة عظيمة ضد النفوذ الأجنبي بزعامة منليك، ونشبت الحرب بين الإيطاليين والأحباش، وهزم الإيطاليون هزيمة ساحقة في (عدوه) من أعمال ولاية تجري في قاصية شمال الحبشة، وذلك في أول مارس سنة 1896، وأرغمت إيطاليا على أن تعقد مع الحبشة معاهدة جديدة تعترف فيها باستقلالها (معاهدة تأديس أبابا)، وبذلك استردت الحبشة حرياتها التي لم يطل أمد ضياعها، وانهارت آمال الاستعمار الإيطالي؛ واستمر منليك الثاني، أو منليك الأكبر محرر الحبشة يسهر على ما يرها بقوة وعزم، ويسير بها في سبيل المدينة والإصلاح والتقدم حتى توفي سنة 1913. وفي عهده نظمت الحبشة علائقها مع الدول الأوربية، وعقدت معاهدة صداقة مع بريطانيا العظمى، واستطاعت أن ترغم الدول الاستعمارية على احترامها وعلى الحد من أطماعها
وفي سنة 1906 عقد بين إيطاليا وبريطانيا وفرنسا تحالف ثلاثي يقضي بالعمل المشترك لحماية أراضيها ومصالحها في تلك المنطقة، وهو تحالف تجدد في سنة 1925، ولما توفي منليك الثاني في سنة 1913، خلفه حفيده ابن ابنته (ليجي ياسو)، وقد كان أبوه الراس مخائيل مسلماً فتنصر تحقيقاً لأطماعه وتزوج من ابنة منليك. ثم نشبت الحرب الكبرى، واضطرمت الدسائس حول ليجي ياسو؛ واتهم بممالأة المسلمين الذين ينتمي إليهم بأصله ودمه، ثم اتهم بالارتداد عن النصرانية؛ ولكن الواقع أن ليجي ياسو كان يرى أن مصلحة الحبشة أثناء الحرب تقضي باتجاهها نحو التحالف الجرماني التركي وابتعادها عن دول الحلفاء؛ فخشي الحلفاء ولاسيما إنكلترا عاقبة هذا الاتجاه، وأخذت تعمل لإثارة الشعب الحبشي ضد أميره، وألفت في بطريرك الحبشة القبطي خير أداة لحياكة هذه الدسائس، فاستعمل الدين وسيلة لإضرام الثورة وألفى الزعماء المستقلون فرصتهم، وهزم ليجي ياسو بعد وقائع وخطوب جمة؛ وأعلنت (زوديتو) ابنة منليك لاكبرى إمبراطورة للحبشة، (سنة 1916)
وعين الراس تافري ماكنن وصياً للعرش ووليا؛ وكان هو الملك وهو الحاكم، ولم يكن للإمبراطورة من السلطة الحقيقية شيء؛ وبعد بضعة أعوام أعلن الراس تافري نفسه إمبراطوراً إلى جانب الإمبراطورة زوديتو؛ ولما توفيت الإمبراطورة سنة 1930، استقل الراس تفري بعرش الحبشة باسم الإمبراطور (هيلي سلاسي)؛ وكان أعظم حادث سياسي في عهده انضمام الحبشة إلى عصبة الأمم. وفي عهده قطعت الحبشة مراحل عظيمة في سبيل التقدم والتجديد، وبذلت جهوداً كبيرة لتنظيم قواتها الدفاعية وتزويدها بوسائل التسليح الحديثة؛ ونظمت الحبشة علائقها السياسية والتجارية مع معظم الدول الأوربية، واستطاعت أن ترد عادية النفوذ الأجنبي عن استقلالها وحرياتها
ولكن السياسة الاستعمارية تعود اليوم فتتربص بالحبشة؛ وتعود إيطاليا فتتجه ببصرها وأطماعها إلى تلك المنطقة؛ وظاهر أن نشاط إيطاليا في الإرترية والسومال، وما تبدي هنالك من الاستعدادات الحربية، وأن زيارة ملك إيطاليا لهاتين المستعمرتين، وأن تحرش إيطاليا بالحبشة ومحاولتها أن تدفع حدود السومال إلى داخل الأراضي الحبشية مما أدى إلى حادث أولوال الدموي؛ ظاهر من ذلك كله أن إيطاليا مقبلة على تنفيذ خطة استعمارية جديدة في تلك المنطقة. ومما تجدر ملاحظته أولاً أن لفرنسا وإنجلترا مصالح هامة في تلك المنطقة، فإنكلترا تحتل السومال الإنكليزي، وتحتل فرنسا السومال الفرنسي وثغره جيبوتي الذي هو مخرج التجارة الحبشية من جهة البحر الأحمر، والذي يتصل بعاصمتها أديس أبابا بالسكة الحديدية. ولكن فرنسا وإنجلترا تلتزمان الصمت والجمود إزاء النشاط الإيطالي نحو الحبشة، ويبدو تحفظ إنكلترا وحيادها بنوع خاص في أمرها لمندوبها في السومال وهو الذي شهد معركة الحدود بين

الأحباش والإيطاليين في أولوال ألا يتدخل في النزاع مطلقاً، وأن ينسحب إلى الداخل.
ومن المعروف أن التحالف الذي عقد بين إيطاليا وفرنسا وإنكلترا في سنة 1906 ,
وجدد في سنة 1925 , ينص على اعتراف الدولتين بتفوق المصالح الإيطالية في
الحبشة. ولكن ذلك لم يكن ليكفي لحيدة إنكلترا في معركة بين الاستعمار الإيطالي
والحبشة، لو لم يتدخل في الموقف عامل خطير آخر، هو ظهور اليابان على المسرح.
فاليابان تبذل منذ أعوام جهوداً جبارة لغزو الأسواق العالمية في الشرق والغرب، وقد
استطاعت أن تنافس التجارة البريطانية في معظم الأسواق منافسة خطيرة، وأن تخلق
لبريطانيا مشكلة اقتصادية عظيمة تهددها اليوم في تجارتها الإمبراطورية بأخطر
العواقب؛ وظهرت اليابان في شرق أفريقية كما ظهرت في غيره، واستطاعت أن
تغزو سوق الحبشة بسرعة، وأن تكسب عطفها وثقتها، حتى قيل بأن الإمبراطور ينوي
أن يعهد في تدريب جيشه إلى خبراء عسكريين يابانيين. ولما كانت بريطانيا العظمى
تعمل لإحباط هذا الغزو الياباني الخطر بكل ما وسعت، فقد رأت أن تطلق يد إيطاليا
في المنطقة الحبشية لكي تعمل على مقاومة النفوذ الياباني، ورأت إيطاليا من جانبها
أن تعمل لتحقيق مشاريعها الاستعمارية. وأما سكون فرنسا فيحمل على أنها ترى
إرضاء التوسع الإيطالي في تلك المنطقة، مما يصرف نظر السياسة الإيطالية عن
محاولة التوسع في منطقة بحيرة تشاد في السودان الغربي، ومما يهدئ ثورتها
وأطماعها نوعاً؛ هذا ومن جهة أخرى، فإن إيطاليا تتطلع بنوع خاص إلى منطقة بحيرة
تسانا الحبشية وإلى الانتفاع بمواردها، وبحيرة تسانا التي تغذي النيل الأزرق، وتعتبر
من أهم منابع نهر النيل، تقع في شمال الحبشة على مقربة من الأريترية المستعمرة
الإيطالية؛ وقد حاول بعض رجال المال الأمريكيين أن يباعوا من الحبشة امتيازاً
باستغلال هذه المنطقة وكادوا يظفرون ببغيتهم رغم مقامة الساسة البريطانية؛ ولكن
الإمبراطور هيلي سلاسي راى أخيراً أن يحتفظ بهذا المورد للحبشة؛ وإنكلترا تؤثر أن
تقع هذه المنطقة تحت النفوذ الإيطالي إذا لم تستطع هي أن تبسط نفوذها عليها؛
وإيطاليا ترتب على التوسع في هذه المنطقة مشاريع زراعية واقتصادية كبرى
هذه هي ظروف المعركة التي يلوح لنا أن الاستعمار الإيطالي يعتزم أن يشهرها على
الحبشة؛ وكحومة أديس أبابا ليست غافلة عن الخطر الذي يهددها، فهي تشعر بما وراء
السياسة الإيطالية من المشاريع والمطامع. والحبشة كما ذكرنا من أعضاء عصبة
الأمم؛ وقد رأت على أثر الحوادث الأخيرة أن تطلب إلى الحكومة الإيطالية قبول
التحكيم معها إلى هيئة دولية؛ ولكن رومة رفضت هذا الاقتراح، ورفعت الحبشة الأمر
إلى عصبة الأمم بالتطبيق للمادة الحادية عشرة من ميثاق العصبة وهي التي تنص
على حالة خط الحرب الذي يهدد أحد أعضاء العصبة،
وعلى وجوب اتخاذ جميع الإجراءات الممكنة لصون السلام. والظاهر أن حكومة رومة
لا تحفل أيضاً بتدخل عصبة الأمم، وأنها ماضية في خطتها العدائية نحو الحبشة، لأنها
تقدمت
إلى حكومة أديس أبابا بطلب تعويضات وترضيات جديدة عن حادث أولوال. وليس من
ريب أيضاً في أن الحبشة لم تلتجئ إلى عصبة الأمم إلا قياماً بواجبها الدولي، وأنها لا
تعتمد على العصبة في رد شيء مما يهددها من عدوان الاستعمار الغربي، لأنها تعلم
أن العصبة لا تملك شيئاً من الأمر؛ والحبشة تشعر بهذا الخطر وتقدره بلا ريب منذ
بعيد، وتعمل دائماً على رده بكل ما وسعت. ومهما يكن من مظاهر القوة التي تبديها
السياسة الفاشستية، فإنا لا نعتقد أنها قادرة على أن تغزو بالقوة المادية بلاداً وعزة
كالحبشة، وعلى أن تخضع بالسيف شعباً شديد المراس كالشعب الحبشي، وفي وسع
حكومة رومة أن تنظم من المظاهرات ما شاءت، ولكنها مازالت بلا ريب تذكر الدرس
القاسي الذي ألقته الحبشة على الجيش الإيطالي في (عدوه)، من جيل فقط

محمد عبد الله عنان المحامي

ما نرى في الغردقة

في محطة الأحياء البحرية التابعة للجامعة المصرية

للدكتور كبروسلاند مدير محطة الأحياء البحرية بالغردقة

أعدت محطة الأحياء البحرية بالغردقة للأبحاث العلمية البحتة، فليس بنا من حاجة إلى

معرض نربي فيه بعض الحيوانات الجميلة التي تعيش بالبحر الأحمر. ولكن كثيرا ما يعني زائرو المحطة بجمع هذه الحيوانات للتمتع بمشاهدتها في المرابي كل في معمله المعد له. وقد نجحت المعدات التي زودنا بها هذه المرابي نجاحا باهرا، فقد عاش أغلب هذه الحيوانات عيشة صحية بضعة أسابيع أو أشهر حتى يغادر صاحبها المحطة فيطلق سبيلها في اليم أو تقتل لتحفظ في المتحف. والمعدات التي هيأناها للمرابي هي: -

أولا - أن تزود بسيال مستمر من ماء البحر الطازج الذي يؤخذ تواً من نهاية الرصيف حيث يكون صافيا لا يحتاج إلى ترشيح، فيوضع في صهريج صغير يملأ ثلاث مرات يوميا، ومنه يوزع على المرابي.

ثانيا - تجري المياه في أنابيب مصنوعة من السليوليد (الطبخ) وصنابير من السليوليد أو الولكنت أما المضخة فمبطنة بالخزف. وبذلك لا تتصل المياه في طريقها من البحر إلى المربي بأي معدن.

كثير من الأسماك الاستوائية جميل في لونه، وبعضها كفرس البحر والأمفسيل غريب في شكله كما جاء في مقالي السابق (بالرسالة)، وكثيرا ما نحصل هنا على فرس البحر والأمفسيل، فيعيش الأول في المربي ويموت الثاني بمجرد إخراجه من البحر. وغير هذين النوعين يوجد أبو صندوق , والدرمة , وقد اقتفينا من هذه سمكة صغيرة كانت تسبح بزعانفها فقط، بينما تجر ذنبها ملتويا إلى جسمها، فإذا اهيجت سبحت به بسرعة ونشاط.

ويشاهد أحيانا الرعاد ويعرف هنا (بالرجدة) , على الشاطئ الرملي بجوار المعامل، وهو سمك كهربائي يحدث رعشة خفيفة ولكنها كافية لأن تحمل (سيباء) على أن تلقي بنفسها خارج المربى الذي كانا يعيشان فيه سويا. وتوجد أنواع من الأسماك الصغيرة مثل الكشكوشة في أسراب كبيرة بجوار المرسى تعيش على الأحياء الدقيقة المعلقة بالماء وأعجب خواصها مقدرتها على الحياة مدة طويلة في المربى، ولعلها تجد مقدارا كافيا من

هذه الأحياء المعلقة، وخاصة عندما يملأ الصهريج الخازن في المساء، إذ تكثر الأحياء المعلقة في المياه السطحية، كما تكفي تلك لغذاء المرجان وقرب البحر وغيرها.

وتحفظ الكشكوشة فريسة لحيوانين من أعجب حيوان المربى هما السيساء وزهرة البحر الكبيرة. تجثو السيساء أكثر الوقت على القاع وقد ضمت ثمانيا من أذرعها جنبا إلى جنب فتكون قلنسوة حول الفم. وتماتن السيساء القاع الذي تعيش عليه تماما، غير أن لها خطا أزرق براقا يحف زعنفتها. وهكذا تطل جاثمة في مكانها مختفية عن الأنظار حتى إذا دنت منها سمكة كالكشكوشة أطلقت عليها ذراعيها الطويلتين المختبئتين في جيب مخصوص وأمسكتاها يمصصانها، وفي برهة تتوارى السمكة في قلنسوة أذرعها القصيرة، وفي الوقت نفسه تظهر على جسم السيساء خطوط عريضة بنية داكنة تجعلها واضحة جلية. ذلك التغيير في اللون وغيره مما يحدث أثر أي حافز بدون حافز ظاهر يجعلها فتنة للناظرين، وإنه لمن الأهمية بمكان أن نبحث عن العلاقة الحقيقية بين ذلك التغيير في اللون والحوافز المختلفة.

وعندنا من الرخويات صدف اللؤلؤ، ذلك الذي يعيش حتى يقتله الإنسان طمعا في صدفة البراق، أو في اللؤلؤة يصادفها في كل نحو من عشرة آلاف صدفة.

والبرق من أعجب الرخويات وهي عديمة المحار. كثير منها جميل خلاب مادام حيا، فإن حفظ بعد الموت تحول إلى كتل لا شكل لها تكون أقرب إلى الطين لونا. وهناك عائلة من البزق من أهم مميزاتها أن أفرادها ذوات ألوان أخاذة، وفيما عدا ذلك لا تختلف أنواعها إلا في خواص طفيفة. ومن بين ردف العائلة كرومود وريدي نوع واحد ذو حجم لا بأس به يبلغ خمسة سنتيمترات طولا، وأثنين ونصفا عرضا، وهو من أقلها جمالا ومع ذلك فهو خلاب حقا. ظهره مسطح يمتد منه من الأمام قرنا الاستشعار، ويرجح انهما للشم، ومن الخلف عدة خياشيم ريشية منتظمةفي دائرة. لونه أسود مقلم طوليا بخطوط زرقاء - قد يكون جزء منها أو كلها أبيض - أما القرون والخياشيم فذات لون أصفر برتقالي زاه. ويحف الظهر خط من نفس اللون داخله خط أبيض. ولما كانت هذه البزق لا تلجأ عادة إلى الاختباء تحت الأحجار كما تفعل البزق المعتمة اللون كانت

أداة طيبة للعرض. ولون هذه الحيوانات في جلائه ووضوحه إرهابي أعدائها التي تخشى طعمها الرديء.

ومنذ قريب عثرنا على نوع أخر من وجدت منه كثيرا في زنجبار منذ نيف وثلاثين عاما عند ما كنت أقوم بعمل مجموعة الأحياء للسير (شارلزإليت)، ولكني لم أره هنا من قبل برغم ألوانه الغريبة، جسمه أبيض يميل إلى الصفرة، تزينه نقط صفراء فاقعة، ويحفه خط بنفسجي وحلقة بيضاوية بنفسجية تحيط بقرني الاستشعار وأخرى تحيط بالخياشيم. ولهذه الحلقات يسمى

وأضخم هذه البزق وأجملها لونا هو ويسميه الصيادون هنا لسان البحر، يبلغ طوله نحو عشرين سنتيمترا، وله برنس عريض كثير الحواشي قرمزي اللون يحفه شريط أبيض قد تتخلله خطوط دقيقة مستعرضة، وتختلف نسبة هذا الشريط الأبيض، فقد لا توجد في بعض سلالات، وفي أخرى من المحيط الهندي (لم نرها بالبحر الأحمر) يداخله كثير من الصفرة.

ويذكر إليت أن هذا الحيوان كثير الانتشار، ولكني أعتقد أن حجمه الكبير ولونه الزاهي هما اللذان يساعدان على رؤيته. ولم أره إلا مرة واحدة في موطنه الطبيعي بين المرجان، وكل نماذجنا الأخرى حصلنا عليها بعد أن لفظها البحر على الشاطئ في فصل الربيع. وعند ما نلتقطه يظهر قدمه كنقر ضيق، فتبدو قبضته على السطح الذي يزحف عليه واهنة جدا، فإذا طغت الأمواج أزاحته عن موطنه وطفا على سطح البحر. ولكنه إذا وضع في المربى تفرطحت قدمه وأمسك بالقاع جيدا، فإن أهيج ترك القاع وأرتفع في الماء سابحا بتموجات غريبة. لعلكم لم تروا فيلا يطير، ولكننا هنا نرى بزاقة تسبح بنشاط. وليس لي عهد ببزاقة أخرى تقدر على السباحة ما عدا توردیسا في زنجبار، ولم أرها منذ ذلك الوقت. ومن خصائص هذا النوع أنه يخدر بسهولة بإضافة كبريتات المانيزيا إلى الماء الذي يعيش فيه، وبذلك يمكن قتله وحفظه على شكله وهو حي، غير أنه يفقد لونه بسرعة.

وكثير من الشوكيات يعيش طويلا في المربى، ويرى أنواع من قنفذ البحر لبعضها أشواك غليظة كمبسم الغليون (مثل أبي مباسم & ولغيرها أشواك دقيقة طويلة كالأسلاك، مثل الهلمان وأخرى قصيرة كالإبر، وقد يتجرد أبو مباسم من أشواكه كلها، ولا نعلم بالتحقيق هل ينبت عليه غيرها كما يكون الحال في الزقة الأوربية فإننا لم نحتفظ بالمرابي مدة كافية للفصل في ذلك. وبين نجوم البحر نجمة قرمزية اللون تزينها نقط زرقاء، كذلك كف مريم وهو يشبه النوع الإنجليزي كثيرا، ويزحف فوق القاع على أرجله الأنبوبية المدببة

بدلا من التسلق بالممصات كبعض الأنواع الأخرى.

أما المرجان فيسهل حفظه حيا في المرابي، وهو يتكون عادة من مستعمرات من عدد كبير من البوليبات متفاوتة الحجم، وأفضلها ما كانت بولياته كبيرة كما في الشكل، ففي نوع من الفافيا مثل يبلغ قطر البوليب خمسة عشر ملليمترا، وفي يبلغ ثلاثين ملليمترا، ولكليهما عدة زوائد طويلة تقوم بالحس والغذاء.

وأضخم بوليبات المرجان هو مرجان عيش الغراب , وهو ما يسميه الأهالي هنا بالطبق، وكلا الاسمين يدل تماما على شكله، ويتكون من قرص كبير له زوائد قصيرة. أما النوع المعروف باسم الذي يشبه زهرة البحر في طول زوائده فلا يوجد هنا تلك الأنواع تظهر طرائق تغذية المرجان بجلاء. والمعروف أن المرجان حيوان لحم ولكن ذلك العلم ليس كالعيان. وقليل من العلماء من مكنتهم الظروف من ملاحظة تغذية المرجان. أنها تقتنص الفريسة بالخلايا اللاسعة، وتحملها القرون والتيارات الهدبية إلى الفم. وفي مرجان عيش الغراب تحمل الأهداب وحدها الفريسة المشلولة (من أثر الخلايا اللاسعة) وفيه أيضا نشاهد ظاهرة هامة، وهي ارتكاس الحركات الهدبية وقد كانت تغذية المرجان مجالا لكثير من الشك حتى درسها ينج في الحاجز المرجاني العظيم باستراليا.

ويطل حيوان المرجان من هيكله الجيري في ظلمة الليل، ويختبئ فيه نهارا، حتى نور الصباح الكهربائي يبدو كأنه الجماد. ومن بين المرجان جنس يدعى تربناريا تطل بولياته نهارا فتبدو صفراء فاقعة خارج الهيكل الأصفر الداكن. أما أجمل أجناس المرجان، فهو الدندورفيليا ففيه يبلغ قطر البوليب سنتيمترا، ويرتفع كالزهرة ذات

الألوان المختلفة كالأصفر أو البرتقالي أو الأحمر , أو القرمزي الأسود في , ويظهر أن هذه الألوان تتفق مع انعدام الطحالب أن تعيش تحت هذا الحجاب من اللون الذي يحول دون أشعة الشمس إليها، فإن لون , يشبه لون الورق البرتقالي الذي كان يستعمل قديما في لف ألواح التصوير (الفوتوغرافيا) ليقيها الضوء، وبينما يوجد هذا النوع في أماكن ظليلة ينمو , كبقية المرجان في الأماكن المعرضة لضوء الشمس.

وعندنا من زهور البحر الشيء الكثير، وليس منها ما يعدل في بهائه زهرة البحر الريشية التي نراها كثيرا في مرابي أوربا. ولكن الزهرة التي يسميها روبل من أكبر أنواع الزهور في العالم - التي تعيش لعدة أشهر في المربى، وتعايشها دائما (كبقية الزهور الكبيرة في المنطقة الحارة) سمكة أنيقة فأينما وجدنا الزهرة على مقربة منها والعكس بالعكس. فإذا أوجست خيفة من شيء هرعت إلى الزهرة وتحصنت بين قرونها من أعدائها. ولا نعرف لماذا لا تلسع الزهرة هذه السمكة فتقتلها كما تفعل مع غيرها ومع أكبر منها. ويمكننا أن نشاهد تبادل المنفعة بين الحيوانين إذا وضعنا معهما سردينة صغيرة. فإننا نشهد مأساة من ماسي الطبيعة التي يتألم لها الإنسان، إذ تهيج السمكة المعايشة وتطارد السردينة هنا وهناك حتى تلامس قرون زهرة البحر وتلتصق بها، ثم لا تلبث أن تنفر منها، ولكن سرعان ما يصيبها الشلل ويعتريها اللهاث فتنقض عليها السمكة وتجرها من ذنبها إلى الزهرة، فتجاهد جهادا عنيفا قد تفلت بعده، وهكذا تتكرر المأساة حتى تخر صريعة فتنطوي عليها قرون الزهرة وتزج بها إلى فيها فتخفيها، ثم تلفظ عظامها بعد بضع ساعات. وهنا أيضا تساعدها السمكة على التقاط الفضلات وإزالتها.

هنا على الأقل مثلان آخران للمعايشة بين زهور البحر والأسماك، ولكننا لم نراقبهما في المرابي. وفي هاتين الحالتين تكون زهرة البحر كبيرة والسمكة صغيرة جدا. يحمل بعض البشابش على المحارة التي يسكنها عددا من الزهور البحرية تبلغ الخمس أو الست، وتكون عادة من نوع عادي لم يتحور تبعا لهذه العادة كما تحورت الزهرة الأوربية وغير هذه الزهور زهرة غريبة تتميز بقرونها الثلاثية الريشية فتبدو الزهرة كأنها مستعمرة من الزنيا (جنس من الألسيوناريا)، وقد حيرت نماذج محفوظة من هذه الزهرة بيلجيين لتقلصها إلى كتلة لا شكل لها.

أما الألسيوناريا أو المرجان اللين أو ما يسميه البحارة الربلة , فذات بوليبات ثمانية التماثل، ويختلف نموها هنا عنه في المناطق المعتدلة كما يختلف المرجان نفسه، فبينما لا نرى في أوربا إلا (أصابع الموتى) , ' ومروحة البحر الحمراء , ولا يمكن الحصول على الأخيرة إلا بالمجراف من قاع البحر - أما هنا فتوجد الألسيوناريا في كل مكان بكثرة عظيمة وبأشكال متنوعة، منها الكتل اللحمية، ومنها الشجيرات، ومنها النورات والمراوح. وقد حاولنا حفظ القليل منها في المربى فلم يعش إلا واحدة وهذه جنس مشعب لين من عائلة الألسيوناسيا وتختلف عن قرائنها من نفس العائلة في عدة نقط مهمة، فتعيش

الأخيرة معرضة على سطح الشعب وتبدو لمن لا عهد له بها كأنها شجيرات من الطحالب السمراء، وترجع سمرة لونها إلى وجود طحالب وحيدة الخلية في أنسجتها لا تعيش إلا معرضة لأشعة الشمس. أما الدندرونفشيا فتعيش بعيدة عن الأنظار في شقوق بين المرجان، ولذلك لا تأوي إليها الطحالب معايشة كبقية أفراد العائلة. ويغلب أن تكون ذات لون قرمزي طريف، ومنها أيضا البرتقالي والأصفر والأبيض والأسمر والأزرق. ولا يعرف عدد أنواع هذا الجنس، إلا أني نجحت في فصل نوعين فقط، بينما لا تزال الأنواع الأخرى تنتظر البحث. ولا يتم ذلك إلا بدراسة الحيوانات الحية، إذ لم ير أحد هذه الحيوانات وهي ناشرة بولياباتها غير من زاروا محطتنا، أو على الأقل ليس بين الصور والأشكال المنشورة ما يوضح هذه الظاهرة. فالشكل يمثلها كما تبدو نهارا، فإذا وضعت في المرابي تمددت إلى ثلاث مرات أو أربع طولا، وتنقص بنفس النسبة عرضا، وتغطى الأفرع الحمراء أو الوردية مئات من البوليبات كما فيوتعيش المستعمرات الصغيرة جيدا (ليس عندنا مكان يتسع لحفظ المستعمرات الكبيرة التي تصل إلى قدم في الارتفاع) وسرعان ما تموت الحيوانات الأخرى التي تنتمي إلى نفس العائلة وتتحول إلى مخاط، ولكنها تعيش معرضة إلى ضوء الشمس يبين جنسا أخر كثير التشعب يدعى يعيش قليلا في المربى ثم تختفي أنسجته الحية ويبني هيكله، وهو

جميل في ذاته يستحق العرض ومثل ذلك مروحة البحر التي تعرض في المرابي في أوربا فإنها خداع نظري وليست حية، إنما هي هياكل خاوية. ولعل أفضل ما يروق الزائر من غير الأخصائيين أن يرى مرجان الزينة في المربى، إلا أنه معدوم في البحر الأحمر ولكن المليتودس كوكسينيا تشبهه كثيرا غير أن عودها الصلب المكون من التحام شويكاتها لا يزيد غلظه على نصف المليمتر. ويبين جزءا منها مكبرا من تحضير شفاف، وقد ظهرت بوليباتها بارزة من غشاء رقيق يتكون من قنوات لحمية دقيقة يحجبها عدد كبير من الشويكات غير الملتحمة. وتحيط هذه القشرة من الشويكات والقنوات اللحمية بعود صلب هو نظيم مرجان الزينة. وتمثل الشويكات في الشكل بأجسام بيضاوية، وترى هيئتها الحقيقية في مكبرة كثيرا. اما البوليبات فمنكمشة قليلا وبقرونها شويكات كالعصى الملتوية. ولا تمكن رؤية هذه التفاصيل إلا إذا قتلت الحيوانات بعد تخديرها بحذق ومهارة وإلا اختفت البوليبات. لهذا السبب لا يمكن وصفها في مئات

النماذج من الألسيوناريا التي جلبتها الرحلات العلمية إلى أوربا، ويتوقف على هذه الشويكات وترتيبها أساس تقسيم جنس الدندرو نفشيا إلى أنواعه المختلفة. لذلك كان من ضروريات البحث في الألسيوناريا والمرجان دراسة الحيوانات حية. ولمثل هذا النوع من البحث العلمي أنشئت محطة الأحياء البحرية بالغردقة.

ويوجد لون المليتودس القرمزي في الشويكات كما هو الحال في كثير من الألسيوناريا. وهو ثابت جدا ولا يعرف كنهه إلى الآن، والمرجح أنه يرجع إلى عوامل فيزيائية وكيميائية معا، فيجب أن يتكاتف في دراسته البيلجي والكيميائي والفيزيائي. ومما يزيد في صعوبة البحث أو يقلل منها أننا نجد تحت حجر واحد وتحت ظروف واحدة مستعمرات متشابهة في كل شيء ما عدا اللون، فقد يكون بعضها وردي اللون وبعضها قرمزيا أو أصفر، ولا نجد أي ألوان متوسطة بين تلك كما نجد في مرجان الزينة بين الأبيض والأحمر والوردي.

هذه أغلب أدلتنا التي نجحنا في توفير أسباب الحياة لها في المرابي. إلا أن هنا قليلا من الدخلاء، فلو فرضنا أن مربى وضع في البحر لمدة ستة أشهر لتغطى بطبقة يبلغ غلظها البوصة من قرب البحر والرخويات والأطوم والأشنة البحرية مع عدد من الديدان والبزق. ولعل أمتع شيء النظر إلى أعمدة رصيف ميناء الغردقة إذ تكسوها الدندرونفشيا، ونوعان من مراوح البحر وقرب البحر، والديدان الأنبوبية والأشنة البحرية، وغيرها، فهي إذ ذاك متحف طبعي. وفي المحطات الأخرى حيث ترشح المياه وتخزن لا سبيل لليرقات إلى المرابي. أما عندنا فالباب مفتوح لها على مصراعيه. وفي الأسابيع القليلة التي استعملت فيها المرابي باستمرار نمت لطخ صغيرة من الطحلب الجيري ونوعان من الديدان الأنبوبية وآخران من قرب البحر وواحد من الرخويات ذات المصراعين فلو أن المرابي استعملت عاما مثلا لحصلنا على الشيء الكثير، ولكن قلة النمو في الفترة السابقة تدل على أن الفترة الحرجة في اليرقة وتنتقل إلى حياة اليافع. ذلك الانتقال الذي يتعذر في الطبيعة إلا على واحدة في الألف أو بعض الآلاف، وذلك لقلة الغذاء أو المكان المناسب لنموها.

الغردقة

الدكتور كرلس كرسلند

-

من ذكريات لبنان

كيف كنت غيري؟

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

كنا نقصف - ذات ليلة - في فندق كبير في (ظهور الشوير). والقصف أن نشرب ونضحك ونأكل - بعيوننا - الفتيات الممشوقات اللواتي يخطرن في الرقص مع السعداء من الشبان، وكانت الأنوار في المرقص ألوانا شتى متعاقبة، وكان الضوء الأرجواني - حين ينساب الفتيات فيما يترقرق عليهن منه - أقوى فتنة وأشد إغراء، فكنا ننهض عن المائدة ونتزاحم على أبواب المرقص، وعيوننا تكاد تخرج من فرط التحديق، وكانت هناك فتاتان تتراقصان وتأبيان أن يخاصرهما الرجال، وكانتا ساحرتين - في جمالهما، ودلهما، ولعبهما، وحركاتهما. فأغريت بهما أحد رفاقي - وكان يجيد الرقص - وأنا أقول

لنفسي: (إذا راقص إحداهما عرفناهما جميعا وفزنا بصحبتهما) ولكنهما ردتاه ببسمة وكلمة رقيقة لا تغني ولا تسمن. فقلت لنفسي: (لم يبق لها إلا رجالها) ودنوت منهما وقلت وأنا أتناول كرسيا وأجلس بغير استئذان:
(أمن قلة في الرجال تتراقصان؟)
فقالت إحداهما - بعد أن ألقت إلى صاحبتها نظرة: (بل من كثرتهم!)
فقوى قلبي أنها ردت، فقلت: (اسمعا مني. إن هذه النظرات الخبيثة التي تتبادلانها لن تجديكما. (ضحك) وأنا باسم هؤلاء الشبان الكثيرين الذين لا أعرف أسماءهم ولا أحب أن أعرفها. . . .)
فسالت إحداهما: (لماذا؟)
فقلت: (لا تقاطعي من فضلك! ثم إن هذا شأني وحدي، وعلى ذكر ذلك أسألك. . . هل أنت مصرية مثلي؟)
فقالت الخبيثة - أعني التي تتكلم -: (هل أنت مصري؟)
فصحت بها: (يخرب عقلك! وهل ترين أني أتكلم إلا كما يتكلم المصري؟)
فضحكتا وقالت الأخرى: (هذا أحسن. لقد كنت أسأل نفسي أين يا ترى رأيتك؟)
فقاطعتها: (نعم إني أراك دائما. . . .)
فسألتني جادة: (أين؟)
فقلت: (بخيالي. . في أحلامي!)
(فقالت الأولى وهي تبتسم - لا أدري لماذا - ألست عبد. . . عبد الله؟)
فتشهدت وقلت: (طبعا، طبعا، عبد الله حقا وصدقا)
قالت: (لقد كنت واثقة إني أعرف وجهك. . . ألم تعرفيه يا توحة؟)
فأجبتها أنا: (لماذا تحرجينها؟ دعي لها سرها حتى تهمس به في أذني، ونحن نتمشى في غابة بولونيا، والقمر الطالع. . .)
فضحكتا وقالت توحة: (بهذه السرعة؟)
فقلت: (معذرة إن خيالي وثاب. . . طيار إذا شئت، ولكنه صادق. . . لا يطير إلا بجناحين من الحقيقة)
فقالت الأولى: (وكيف زوجتك؟)
فصحت: (إيه؟)
ولم أكن أتوقع أن ترميني بسؤال عن زوجتي، وخفت أن يكون وراء السؤال شرك منصوب، فلذت بالحذر. وقالت: (إنما سألت كيف زوجتك؟)
فقلت: (زوجتي؟؟ أوه! آه، مفهوم!)
قالت: (لماذا تركتها؟)
فلم أدر ماذا تعني بالترك؟ وآثرت أن أزوغ فقلت:
(هل تعرفينها؟)
فقالت الخبيثة: (إنه يسأل هل أعرفها؟ قولي له يا توحة)
فدار رأسي، وارتبكت، فما رأيتهما قط في بيتنا ولا في بيوت أحد من أهلنا أو معارفنا، وزاد شعوري بالشراك المنصوبة تحت كل كلمة، ولعنت الساعة التي أقدمت فيها على كلامهما، ولكني كنت قد تورطت، وانتهى الأمر، ولم تبق لي حيلة، وخجلت أن أنهزم أمامهما فتشددت وقلت:
(ما أجمل هذه المصادفة! يا الله حدثاني عن نفسيكما. . .
إن أذني معكما. . . . لكل واحدة منكما أذن. . . تكلما. بارك الله فيكما، وفي ليلتي هذه
معكما!)
فقال الخبيثة: (ماذا جرى بينكما. . . إلا أن يكون هذا سرا لا تحب الإفضاء به)
فقلت: (لا لا لا. . . وعلى أنه لم يجر بيننا إلا ما يجري بين الزوجين. . اعني عادة!)
فقالت توحة وهي تضحك: (إن الذي تعنيه أختي. . .)
فسألتها (أختك؟)
فقالت (نعم أختي. . . من كنت تظنها؟)
فقلت (كنت أظنها. . . إ. . . أ. . . أختك)
فأضحكهما هذا التخليط، وضحكت معهما، ولما قرت الضجة قلت:

والآن يا أختها بأي اسم تخاطبين نفسك حين تنظرين في المرآة؟
فقالت: (أتريد أن تعرف اسمي؟)
فأردت أن أستفزها فقلت: (لا (بفتور) يكفي أن أعلم إنك أخت توحة)
ولكنها كانت أخبث مما توهمت، فقالت:
نعم كفاية. والآن ألا تحدثنا عن سبب انفصالك عن زوجتك؟ إنها صديقتنا من أيام)
(الدراسة، وقد آلمنا ما وقع، ولكن لعل لك عذرا
فحمدت الله في سري على جهلها بي وبزوجتي، وأيقنت أني آمن معهما، ولكني مع
ذلك حاولت أن أزحزح الحديث عن هذا الموضوع فقلت:
(هذا شيء مضى، ومن العبث الكلام فيه)
فقالت أخت توحة: (مسكينة!)
وقالت توحة: (ما أفظع الرجال! يأكلون المرأة لحما، ويرمونها عظما)
وألقيت نفسي غرضا لسخطهما ونقمتهما، فضاق صدري وقلت:
إني لم أكن أعجب أن أقول شيئا، ولكن الرجل لا يستطيع أن يظل يحتمل طول عمره
أن يرمي بصحاف الطعام الملآى.
فصاحت توحة: (إيه؟ ماذا تقول؟)
وأعجبني صوتي، وسرني أني تبينت آية الدهشة في وجهيهما فمضيت أقول:
لقد كانت تتناول قطتي البيضاء وتلعب بها الكرة، أو تمسكها من ذيلها وتطوح بها
ذراعها،
(وتزعم أن هذا خير من اتخاذ الحديد للعب)
فقالت أخت توحة: (مستحيل! لا أصدق)
وقالت توحة: (زينب تفعل ذلك؟!)
فقلت: (المسألة بسيطة والبرهان حاضر، تعاليا معي إلى مصر وأنا أريكما القطة!)
وآلمني أن أمزق (زينب) هذه بالغيب، وأدركني عليها عطف شديد، ولكن ماذا أصنع
وقد أبت الفتاتان إلا أن تحشراها في الحديث حشرا، ولا أن تركباها كتفي، وتزعماها
زوجة لي، وتدعيا أني أسأت إليها وجنيت عليها وتخليت عنها؟
وقالت توحة: (ولكن كيف يمكن؟ لقد كانت في المدرسة ارق التلميذات قلبا؟)
فهززت رأسي وقلت: (وأشهد أنها ظلت كذلك زمنا حتى اعتادت الشراب)
فصاحتا بصوت واحد: (الشراب؟ زينب؟)
قلت: نعم، مع الأسف! وبعد ذلك انقلبت زوبعة لا تسكن قط. . . بالله اتركا هذا
الحديث. . . إنه يؤلمني. . . وما أفضيت إليكما بهذه الحقائق إلا لأنكما كنتما معها في
(المدرسة، فأعذراني وانتقلا إلى كلام آخر
وصرنا أصدقاء، نلتقي كل بضعة أيام، اعني أني كنت أزورهما من حين إلى حين في
مصيفهما (بضهور الشوير)، ونخرج إلى البساتين والضياع المجاورة، ثم مضت فترة لم
أرهما فيها، واتفق يوما أني كنت مدعوا إلى حفلة في فندق بيروت، فبصرت بأخت
توحة واقفة تطل على البحر، فوقفت إلى جانبها وحييت فردت التحية بفتور فقلت:
(الجو حار)
قالت: (نعم)
قلت: (ولكن البحر يلطف الحرارة)
قالت: (نعم)
ولم يخطر لي كلام جديد فقلت:
(كبر ما بنا أم جفوة؟)
فواجهتني وسألتني بحدة:
(ألا يزال اسمك عبد الله؟)
قلت: (يا فتاتي لا تجهلي! ما زلت عبد الله حقا وصدقا، وإن كنت مع هذا لا أنكر أنه
غير الاسم الذي أختاره لي أبواي)
قالت: (ألا تخجل؟)
قلت: (إني أستحق عطفك. . لقد احتملت هذا الاسم الذي لا يبعث على الزهو، لأنك
أنت اخترته لي)
قالت: (لقد رأيت زينب. . . وأخبرك أيضا أنها مع زوجها، وأنهما يقضيان الصيف في

لبنان. لماذا قلت عنها ما قلت؟)
قلت: (أي زينب؟)
قالت: (لا تكابر! إنها لا تعرفك ولم ترك قط في حياتها)
قلت: (ما أضعف ذاكرة النساء!)
قالت: (إن عذرك الوحيد - في نظري - أنك مجنون. وكلما تذكرت ما قلته عن زينب وما أضعته سدى من العطف عليك. . .)
فقاطعتها: (كلا. لم يضع. . . لقد زادني حبا لك وتعلقا بك. . .)
قالت: (ألا تزال تجرؤ على مثل هذا الكلام؟)
قلت: (أو يحتاج ذكر الحقيقة والإقرار بها إلى جرأة؟)
قالت: (وتتصور أني أصدقك أو أصدق انك تتكلم جادا؟)
قلت: (كلا. إن هذا لا يجري في بال. إنما أنا منظر. . ويمكنك أن تعدى كلامي صورة طبق الأصل من حديث أحلامك ونجوى أمانيك. . . وسيأتي يوم تظلم فيه الدنيا أمام عينيك، وتحسين أنه ما من أحد يحبك في هذه الحياة - كلنا يمر به يوم كهذا - فإذا جاء - أعني ذلك اليوم - فقولي لنفسك. . . كلا. إني مخطئة. فإن في الدنيا قلبا يخفق بحبي، بحبي مخلصا،. . .)
فقالت: (إنك مجنون ولا شك)
قلت: (وفي أثناء ذلك ترين شخصيتي الجميلة الجذابة تتفتح تحت عينك كما تتفتح غلائل الزهرة تحت أشعة الشمس. . .)
قالت: (لن أصغي لك)
قلت: (أذن أحضري معي هذه الحفلة، وكوني فيها ملاكي الحارس)
فصاحت بي: (لن أغفر لك هذا)
فقلت: (إني لست عبد الله! ولكني عبده والله!)
فابتسمت، فقلت: (هذا أحسن وأين توحة؟)
قالت: (لو كانت هنا لما نجوت بهذه السهولة)
قلت: (الحمد لله - أعني على النجاة لا على غيابها. أذهبي بي إليها)
قالت: (والحفلة؟)
قلت: (لا تستطيع أن تنتظر - أعني الحفلة - فإن مرضاتها - أعني توحة لا الحفلة - أولى وأندى على كبدي.)
وكان هذا هو السر الذي لم يعرفه المحتفلون، في أن حفلتهم تأخرت نصف ساعة.
فليت حظي من كل حفلة نصق ساعة كهذه!
إبراهيم عبد القادر المازني
بين فن التاريخ وفن الحرب
13 - خالد بن الوليد في حروب الردة
للفريق طه باشا الهاشمي رئيس أركان الجيش العراقي
لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما في بدني شبر إلا فيه ضربة أو طعنة، وأنذا (أموت على فراشي كما يموت البعير! فلا نامت أعين الجبناء)
خالد بن الوليد
والواقع أن خالداً أيضاً كان راغباً في لصلح دون أن يلجأ إلى القتال. وهذا ما دعاه إلى أن يخفف الشروط. فتعاهده من حنيفة ينص على أن يسلموا الذهب والفضة نصف السبي والسلاح والخيل، وأن يأخذ هو كل قرية ومزرعة وحائط (حديقة مسورة) باسم بيت لمال، وأن يسلموا أنسهم حتى يسلموا. أما البلاذري فيروي أن المعاهدة فرضت على بني حنيفة ربع السبي ونصف الذهب والفضة والسلاح.
ولعل هذه الرواية هي الصحيحة، لأنها تدل على تساهل خالد في قد الصلح. ويذر الطبري أن أبا بكر أرسل كتباً إلى خالد مع سلامة بن وقش يأمره إن أظفره الله بأن يقتل من قام من جرت عليه المواشي من بني حنيفة - يريد بذلك أن يقتل من قاوم من الحنفيين - فوصل الرسول بالكتاب بعد عقد المعاهدة. فأراد الأنصار أن يستغلوا أمر الخليفة، فطلبوا إلى خالد أن ينفذ ما جاء في الكتاب، كان أسد بن حضير رئيس الأوس على رأسهم. إلا أن خالداً لم يلتفت إليم، بل في لبنى حنيفة وثبت على ما كان منه فجمع بني حنيفة إلى البيعة والبراءة.

ويذكر ابن حبيش الأسباب التي ألجأت خالداً إلى عقد الصلح مخالفته كتاب الخليفة، وهي تلخص في كثرة الخسائر التي انتابت المسلمين في المعركة، إذ قل عدد المسلمين وكان أكثرهم جريحاً. وبعد عقد المعاهدة لا يجوز النكول عنها، ولا سيما أن بني حنيفة أسلموا. وتنقل الرواية أن سلامة بن وقش أيضا أصر على خالد بتنفيذ أوامر الخليفة. غير أن خالداً لم يغير رأيه واعتبر القضية منتهية.

ومع ذلك استعمل خالد الشدة في معاملته أهل العارض وبعض قرى بني حنيفة. فقرية سيوح وعرفة والغبراء وقيشان ومرعة والمصانع اعتبرت في خارج أحكام المعاهد، فسبى أهلها وصادر أملاكها. والروايات لا تبحث في أسباب هذه الشدة، غير أن الذي يلوح لنا أن أهلالقرى إما أنهم قتلوا المسلمين غدراً، وإما أنهم قتلوا المسلمين غدراً، وإما أنهم مثلوا بالمسلمين في بلاد اليمامة قبل الحركات.

المناقب

يستنتج الباحث من حرات اليمامة بعض المناقب التي ينبغي الوقوف عليها، وهي تدل على سجايا العرب الأولين مسلميهم ومرتديهم، وتوضح لنا بعض المزايا الكامنة التي مكنت العرب من الانتصار على عدائهم في الشرق والغرب.

المنقبة الأولى - التضحية

كان ابن عمر عبد الله أخوه زيد بن الخطاب في الجيش الذي قاتل في عقرباء. وكان زيد على ما نعلم يقود القلب، وقد استشهد في المعركة مشجعاً المسلمين ومدافعاً عن رايتهم.

ويذكر الطبري أن عبد الله بن عمر لما رجع إلى المدينة قال له أبوه: (ألا هلكت قبل زيد؟ هلك زيد وأنت حي).

وفي رواية أخرى قال عمر لابنه: (ما جاء بك وقد هلك زيد؟ ألا واريت وجهك عني؟). فأجاب عبد الله: (سأل الله الشهادة فأعطيتها وجهدت أن تساق إلي فلم أعطها).

والتضحية كلمة مرادفة للبطولة، وهي من أخطر العوامل في حضارة الأمم إن لم تكن أخطرها. ولا أغالي إذا قلت إن تاريخ الحضارة مكتوب بمداد هو دماء الأبطال لمراقة وساعيهم المبذولة من أجل بنيان صرح التمدين الباذخ بجميع أركانه الأدبية والعلمية والسياسية. لولا التضحية لما خرج الإنسان الأول من الغاب والكهف إلى المدينة والقصر. والعرب لولا بطولتهم في تضحيتهم لما تربعوا في قصور بغداد والشام والقاهرة والحمراء، ولظلوا تائهين في مجاهل باديتهم القاحلة الجرداء، ولخنق الإسلام في مهد. فالتضحية رفعت عمد الأديان، ونشرت ألوية العلوم، وضعت أسس الدولة قديمها وحديثها، وسمت بأبنائها إلى أج العز والسؤدد، وقمة المجد والصولة. أجل إن العرب من الأمم الفاتحة المفطورة على البطولة والتضحية، إلا أن نبيهم العظيم جاءهم برسالة وضع بها نصب أعينهم مثلاً أعلى هو إيمانهم الوطيد، فبرزت نفوسهم إلى ذلك المثل الأعلى على حد تعبير علماء النفس، وحصروا وجدانهم في إيمانهم القوي، فضلاً عن دافع غيرتهم عل أحسابهم. وقوة ذلك الإيمان زادتهم إقداماً على التضحية التي تجلت بأروع مجاليها في حروبهم، ولاسيما في حروب خالد بن الوليد، ومنها حروب الردة التي نحن بصددها. فهذا عبد الله بن عمر أنبه أبوه لأنه رجع حياً دون أن يستشهد في الذود عن إيمانه أو مثله الأعلى. ولا تزال روح التضحية متغلغلة في نفوس العرب والأعراب حتى اليوم. وما أكثر الروايات المنقولة عن رجال العرب ونسائهم من ميادين القتال في التضحية العربية المجيدة في ثوراتهم الأخيرة في الأقطار العربية؛ دونها ما يروى عن رجال اسبرطة ونسائها بهذا الصد. يروى عن امرأة عربية عراقية أنها كانت تشجع أبناءها السبعة في إبان الثورة العراقية في سنة 1920، وكانت كلما سقط أحد أبناءها في حومة الشرف تنشد قائلة: (يا موت اطحن وأنا اهلك) - أي يا رحى الموت اطحني وأنا أقدم إليك أبنائي!

المنقبة الثانية - السياسة

كان مجاعة بن مرارة من رؤساء بني حنيفة، وقد وفد على الرسول وأسلم فاقطعه أرضاً، فلما ثار مسيلمة ببني حنيفة وأدع النبوة كان مجاعة معه. ويلوح لنا أنه كان يداري مسيلمة من جهة ويراقب حركات جيش خالد من جهة أخرى. فلما وثق بتقدم

جيش خالد نحو اليمامة استفاد من الشغب المثار على مسيلمة، فخرج مع بعض رجاله من اليمامة طالباً الثأر من بني عامر وبني تميم. ولعل طلب الثأر كان بحجة لخروجه من اليمامة قبل وصول جيش المسلمين إليها. ولما باغتته طليعة المسلمين في ثنية اليمامة استحياه خالد لعلمه أنه ينفعه في قتاله في اليمامة وحبسه عنده كالرهينة وتركه في فسطاطة قيد مراقبة زوجه أم تميم. فلما تغلب الحنفيون على المسلمين وأزاحوهم عن المعسكر دخلوا الفسطاط وهموا بقتل أم تميم فمنعهم مجاعة من ذلك صارخاً في وجههم (مه! أنا جار لها فنعمت الحرة! عليكم بالرجال).

وفي رواية أن مجاعة عاهد م تميم على أن يساعدها إذا انتصر الحنفيون على المسلمين، وعلى أن تساعده هي بدورها إذا انتصر المسلمون على أهله. ولما انتهت المعركة عرض مجاعة الخدمة على خالد وطلب إليه أن يتوسط في عقد الصلح، فقبل خالد ذلك، أوفده إلى بني حنيفة حاملاً شروط الصلح. وكان مجاعة قد علم بأن المسلمين كابدوا خسائرها فادحة،

وأن الحرب أنهكت قواهم، لأنه تفقد مع خالد ميدان المعركة وأطلعته على قتل الحنفيين، وهو الذي دلهم على جثة المحكم بن الطفيل وجثة مسليمة. ولا شك أنه تأكد شدة مصاب المسلمين. فلما ذهب بمهمته تقين شدة الشروط التي فرضها خالد على بني قومه فأراد أن يخدمهم خدمة يخلص بها قومه من هذه الشروط القاسية ويمهد السبيل لاستلانة جانب خالد. وفي مثل هذا الموقف دبر حيلة أثبت بها ذكاءه.

وكانت الحيلة التي دبرها - كما يرويها الرواة - تتلخص في ما يلي: (دخل مجاعة الحصون وليس فيها إلا النساء والصبيان ومشيخة ثانية ورجالهم ضعفاء، فظاهر الحديد على النساء أي ألبسهن الدروع وسلحهن - وأمرهن بأن ينشرن شعورهن ويشرفن على رؤوس الحصون إلى أن يرجع إليهن)، وبذلك أراد أن يظهر لخالد أن القوم لا يزلون في حصونهم متأهبين للدفاع لكي يحمله على تخفيف الشروط فلما عاد قال لخالد: (أن القوم قد أبوا أن يخبروا ما صالحتك عليه ولكن إن شئت صنعت شيئاً فعرضت على القوم) يريد بذلك أن يخفف خالد من شروط الصلح وحدق المسلمون من بعيد إلى الحصن، فرأوا عليها الناس ضانين أن بني حنيفة محتلوها وأنهم عازمون على الدفاع.

ولقي مجاعة صعوبة في حمل المخالفين من بني حنيفة على قبول شروط الصلح. كان سلمة بن عمير يقول لبني حنيفة: (قاتلوا عن أحسابكم ولا تصالحوا على شيء). أما مجاعة فيقول لهم: (يابني حنيفة أطيعوني واعصوا سلمة فإنه رجل مشئوم، قبل أن يصيبم ما قال شرحبيل بن مسيلمة، قبل أن تستردف النساء غير راضيات، وينكحن غير راضيات).

والرواية تقول أن بني حنيفة أطاعوا مجاعة وعصوا سلمة وكان من أمر حيلته ان أقنع خالداً بأن يخفف شروط الصلح ففرض الربع من السبي والنصف من الذهب والفضة والسلاح والخيل بعدما كان قد طلب أن يعطوه كل ذلك فلما فرغ من الصلح، وفتحت الحصون أبوابها إلا النساء والصبيان. فقال خالد لمجاعة: (ويحك خدعتني) فقال مجاعة: (قومي، ولم أستطع إلا ما صنعت).

لم يسق مجاعة وجعه لقومه ولا استهواه حب الانتقام قطاش حتى يدع بني جلدته يلقون أنفسهم في مهاوي الهلاك بل كان خلصاً في قضيت، وعمد مجاعة إلى الحيلة الواسعة

فصان بقية قومه من أشارك الهلاك، وخفف عنهم وطأة الانكسار الهائل، فكان ي تلك السياسة مصلحة بني حنيفة.

المنقبة الثالثة - العصبية القومية

كان سلمة بن عمير يشجع الناس على المقاومة وقد رأى من الذل ن يحتكم المسلمون في بني قومه بعد ن قاتلوا قتال الأبطال منعاً لحوزتهم ودفاعاً عن نسائهم وكان يرى الموت ويرى النساء تستردف غير راضيات وينكحن غير حظيات. وقد قتل مسيلمة وأبنه شرحبيل وصرع اليمامة ابن طفيل. أبعد كل هذا يرضى بالهوان؟ بل الموت أولى دون التسليم بالشروط التي يشترطها خالد. فيصرخ في أصحابه: (قاتلوا عن أحسابكم ولا تصالحوا على شيء) ثم يعود فيشجعهم على المقاومة قائلاً: (فإن الحصن حصين والطعام كثير وقد حضر الشتاء)

لقد قارن بنو حنيفة بين ما قاله سلمة وما قاله مجاعة، ورأوا أن لا قبل لهم بالمسلمين، فلم يروا بداً من التسليم بشروط الصلح لاسيما أن مجاعة دبر الحيلة ليموه على المسلمين بقوة الحنفيين للدفاع ويخفف من وطأة الصلح. فلم يحفل سلمة بكل ذلك، بل أضمر سوءاً لخالد ولم يحتمل إهانة الغلبة لقومه فاجمع على أن يفتك به. ولما حشر بنو حنيفة إلى البيعة والبراءة طلب سلمة من مجاعة أن يستأذن له في الدخول على خالد ليكلمه في حاج له. فأقبل سلمة مع بني قومه مخبئاً سيفه تحت العباءة، فلما رآه خالد لم يقبله، ولعله كان يعلم كرهه له، فأخرجوه عنه وفتشوه فوجدوا معه السيف، فثار ثائر الحنفيين فأخذوا في سبه ولعنه صارخين في وجهه أتريد أن تهلك قومك وتستأصل بني حنيفة وتسبي الذرية والنساء؟ فأوثقوه ووضعوه في الحصن. غير أن سلمة أقسم ن يثأر لبني قومه. لذلك يعاهدهم على ألا يحدث حدثاً فيعفون عنه. فلم يصدقوه ولم يقبلوا منه عهداً. أعيته الحيلة ولم ير بداً من الإفلات ليفتك بخالد مهما كلفه الأمر فيهرب من الحصن ليلاً فيعمد إلى معسكر خالد، ويصيح في وجه الحرس فيفزع بنوا حنيفة فيتبعونه حتى يدركوه في إحدى الحدائق المسورة فيقاومهم بالسيف فيكتنفوه بالحجارة فيرى أن جميع الأبواب موصدة في وجهه وانه غير قاتل خالداً فالأولى ينتحر ولا يرى يسبون الذراري، فيضرب نفسه بالسيف، ويسقط في البئر فيموت.

مبادئ خالد الحربية

تنم الحركات التي قام بها خالد في قتاله أهل الردة على المبادئ الحربية التي نهجها وفي هذه المبادئ أسس لا تختلف كثيراً عن الأسس التي اتخذها القواد العظام وأصبحت من المبادئ الحربية الخالدة. نذكر في ما يلي بعض تلك الأسس:

أولاً - التوفيق بين القيادة والسياسية: يبدو لنا من الخطط التي وضعها خالد لحركات على طليحة بن خويلد ومسيلمة الكذاب والتدابير التي اتخذها بعد الانتصار أن خالداً من القواد الذين وفقوا دائماً بين القيادة والسياسة وأصبح هذا الأس في عصرنا من أخطر عوامل الظفر ويقيناً أن من أكبر العوامل التي حالت دون استثمار الانتصارات الباهرة التي أحرزها نابليون في حروبه على الحلفاء عدم توفيقه بين السياسة والقيادة. وكذلك من العوامل التي أدت إلى خيبة الألمان في الحرب العامة نظر قادتهم إلى الأمور من الوجهة الحربية فقط، وعدم توفيقهم بين السياسة والقيادة.

فنرى خالد بن الوليد في الخطة التي وضعها للحركات على طليحة بن خويلد أنه وفق بين السياسة والقيادة، فلم يقدم جيشه إلبزاخة إلا بعد أن مهد له سبيل الانتصار بجلب قبائل طي إلى جانبه وفصل الفرقتين: جديلة وغوث عن بني أسد والاستفادة فعلاً من القوة التي أمدت قبائل طي بها جيش المسلمين.

وبعد انتصاره في بزاخة نراه يفرض على القبائل تقديم عدد معين من السلاح. وفي ذلك تعزيز لجيشه وإضعاف لشأن خصمه.

وقبل أن يتقدم بجيشه نحو اليمامة يسعى قبل كل شيء لاستمالة التميميين الذين التجئوا إلى مسيلمة وإخراج جماعة سجاح من ميدان العمل ولما ظفر ببني حنيفة لم يتردد بعقد الصلح معهم على أساس التساهل برغم مخالفة رؤساء الأنصار والمهاجرين له ودون أن يعما بأمر الخليفة الصريح. وقد ذكرنا مجمل الإسبال التي التجأت خالداً إلى ذلك ولخالد مواقف تدل على استعماله الشدة واللين تبعاً لمقتضى الحال

ثانياً - الاستطلاع: لقد عني خالد بالاستطلاع في جميع حركاته. وقبل تقدمه نحو بزاخة يوفد قوة استطلاع بقيادة عكاشة بن محصن وثابت بن أقرم. وفي حركاته على بني تميم يوفد أمامه السرايا للتجسس والاستطلاع. أما في حركات اليمامة فيرسل مكنف بن زيد

الخيل وأخاه ليتسقطا الأخبار. وكان في جميع حركاته على اتصال مستمر بالخصم الذي يريد أن يضربه للإطلاع على شؤونه والقيام بالحركة في الوقت الملائم

ثالثاً - المطاردة: من الأسس التي اعتمدها خالد في حركاته القيام بالمطاردة بعد المعركة. وقد يختلف في إسلوب مطاردته عن الأسلوب الشائع الآن، وهو يتطلب سوق أقصى قوة في اليد لقطع خط الاتصال على العدو المنسحب. أما خالد فكان يوفد السرايا في اتجاهات مختلفة للتفتيش عن العدو المنهزم والقضاء عليه أينما وجدته. فالعدو بعد انكساره لم ينسحب إلى محل معين كما هو شأنه اليوم، وذلك لأن

الحياة في البادية تساعد المنهزمين على الالتجاء إلى أحياء مختلفة. هكذا كان شأنه في مطاردة بني أسد وفزارة بعد انتصاره في بزاخة. وهكذا كان عمله بعد معركة عقرباء. فلم يشأ أن ينازل الحصون، بل أوفدالسرايا لتلتقط من كان خارج الحصون.

رابعاً - الإبداع: لم يتأخر خالد لحظة في استعمال إبداعه الذاتي حين تطلب الموقف ذلك. وهو يشد عن الأوامر الصادرة إليه متى رأى الفرصة سانحة للعمل بمخالفة الأوامر. فتراه بعد أن أنهى أمر بني أسد في بزاخة واطلع على أحوال بني تميم وتأكد إن الفرصة سانحة للتقدم أمر جيشه بالحركة برغم الأوامر الصادرة إليه والقاضية بألا يتقدم محل إلى محل آخر قبل أن يتلقى أمر الخليفة. فالأنصار يذكرونه بأمر الخليفة الصريح. ألا أن خالداً يقول لهم أنه هو الأمير واليه تنتهي الأخبار وان لم يأتيه أمر من الخليف لا يريد أن يضيع الفرصة مادام مالك بن نويرة حياله وبطون بني تميم نافرة منه.

خامساً - التنظيم: اتضح لنا منم حركات خلد أنه ينظم جيشه ويقسمه إلى أقسام، ويعين لكل قسم قائداً ويعرض الجيش بنفسه قبل أن يتحرك. ففي ذي القصة ينظم جيشه قبل الحركة، وفي البطاح ينظمه ويعين لكل قسم منه قائداً. وقبل القتال يجعل على كل قسم من نظام القتال قائداً خاصاً. وبعد انكسار المسلمين في عقرباء ودخول الأعداء الفسطاط يغير خالد تعبئة الجيش فيضع أهل القرى في جانب وأهل البادية في جانب آخر للأسباب التي سبق ذكرها

سادساً - حشد القوات: رأينا خالداً في جميع حركاته يحشد جميع قواته قبل المعركة ولا يشتتها. فيسير على طريق واحد ويسير به نحو الهدف دون أن يضعفه بفرز بعض القوات

منه لمقاصد أخرى وكان يفرز قوة من جيشه ويوفدها إلى الأمام مقدمة بقصد الأمن والاستطلاع وأحياناً يقيم له ردءاً في الخلف ليحمي خط الانسحاب. وكانت المقدمة دائماً تشترك في المعركة مع الكواكب (القسم الأكبر)

سابعاً - التعرض: لقد اتخذ خالد في جميع حركاته خطة الهجوم، ففي بزاخة، يهجم بجميع قواته على قوات طليحة بن خويلد، وفي عقرباء يتقدم نحو العدو ويهاجمه في بلاده، وكان يتوخى الهدف ولا يحيد عنه. والهدف عنده هو محو العدو من سفر الوجود

انتهى البحث

طه الهاشمي

بين القاهرة وطوس - 3

من همدان إلى طهران

للدكتور عبد الوهاب عزام

ثم مررنا بكنكاور بعد ساعتين من كرمانشاهان. وهي قرية صغيرة بها آثار معبد قديم. وبعد ساعة مررنا بقرية أسد آباد، وهي قرية السيد جمال الدين الأفغاني، وبها بعض قرابته. كذلك اخبرني بعض الثقاة. ويقول الأفغانيون إنه من أسد آباد القريبة من مدينة كابل. وكذلك اخبر السيد عن نفسه. ومهما يكن فقبيح أن تتنازع رجال الإسلام العظام عصبية الأقوام والبلدان. فقد كان المسلمون أمة واحدة لها موطن واحد هو دار الإسلام، والسيد جمال الدين عربي هاشمي حسيني، ولكنه كما قال الشاعر:

أبي الإسلامُ لا أب لي سواه ... إذا افتخروا بقيس أو تميم

فنحن بني الإسلام والله واحد ... وأولى عباد الله بالله من شكر

فإن أراد المسلمون أن يفترقوا أقواما وبلدانا وشيعا، فلا يظلموا أسلافهم العظماء بزجهم في هذا المعترك، فقد كانوا اعظم نفوسا وأسمى أفكارا من أن تحيط بهم عصبيات اللحوم والدماء، والأرض والبناء.

وأسد آباد قرية أسسها أسد بن ذي السرو الحميريفي زعم الرواة، وهي على مرحلة من همذان إلى الجنوب والغرب منها، في حضيض جبل ألوند (جبل أسد آباد)، وكانت منزلا كبيرا على الجادة العظمى بين بغداد وهمذان، وكانت في العهد الإسلامي إلى عصر المغول غنية رائجة التجارة، كثيرة السكان، نشأت كثيرا من العلماء. وهي اليوم قرية صغيرة. وعندها كانت الموقعة الكبيرة بين السلطانيين السلجوقيين محمود بن محمد بن ملك شاه وأخيه مسعود سنة أربع عشرة وخمسمائة. وعلى ثلاثة فراسخ من أسد آباد أبنية ساسانية تعرف في الكتب العربية باسم مطابخ كسرى.

ثم ارتقينا جبل أسد آباد، وهو جبل شامخ فسيح، تتراءى بين قممه وأوديته مناظر جميلة جليلة، محبوبة هائلة، رأيناه وقد ذبلت أعشابه ورياحينه وأشجاره. وقيل لنا في الربيع يبدوفي حلل رائعة من الأزهار مختلفة الألوان، لا يعرى منها مكان في القمم والأودية، وترى الطرق جدائد على سفح الجبل، تتمعج فيها السيارات صاعدة وهابطة، وقد عد سائقو
السيارات في بعض الطريق اثنتين وسبعين ثنية، فما ينعطف السائق إلى اليمين إلا لينعطف إلى اليسار، وهكذا اثنتين وسبعين مرة أو أكثر. ولكن الطريق في جملتهما ممهدة واسعة مامونة، لم نشعر فيها بالخوف الذي أنذرنا به من قبل.

هذه همذان الجميلة، في حجر جبلها الأشم، جبل ألوند. تبدو في زينة من أشجارها الباسقة، وبساتينها الواسعة. هذه بلدة بديع الزمان، وأحمد بن فارس، وابن الفقيه. هذا مرقد الشيخ الرئيس أبي علي بن سيناء، ليت الوقت يتسع فنقضي بهمذان أياما نتعرف حاضرها، ونتلمس أعلام التاريخ من ماضيها.

همذان مدينة عظيمة قديمة، ذكرت في الآثار الفارسية القديمة باسم هكمتانة، وهي في التوراة أخمتنا، وفي كتب اليونان أكبتانا. وقد لجأ إليها دارا بعد أن هزمه اسكندر في موقعة (أربل) حتى قال أبن حوقل إنها كانت هي وأرباضها فرسخا مربعا. وصارت حاضرة لبعض دول السلاجقة. وقد روى أبن الفقيه الهمذاني وياقوت كثيرا من أخبارها وما قاله الشعراء فيها، وبردها شديد جدا. وقد روى في ذلك أن عبد الله بن المبارك قدمها، فأوقدت بين يديه نار، فكان إذا سخن باطن كفه أصاب ظاهرها البرد، وإذا سخن ظاهرها أصاب باطنها البرد فقال:

أقول لها ونحن على صلاء ... أما للنار عندك حرّ نار
لئن خيرت في البلدان يوما ... فما همذان عندي بالخيار

وقال آخر:

همذان متلفة النفوس ببردها ... والزمهرير، وحرها مأمون
غلب الشتاء مصيفها وربيعها ... فكأنما تموزها كانون

وقيل لأعرابي كيف رأيت همذان؟ فقال أما نهارهم فرقاص، وأما ليلهم فحمال، يعنى أنهم بالنهار يرقصون لتدفأ أرجلهم، والليل يحملون ثيابا كثيرة.

دخلناها والساعة واحدة بعد الظهر، فنزلنا في دار بظاهرها، اسمها باغ رئيس الإسلام، وهي دار جميلة ذات حديقة كبيرة، وفيها مجلس واسع حول حوض عظيم. نزلنا بها فاسترحنا وتغذينا، وجلسنا برهة وأخذت صورتنا.

وقد رأيت صاحبنا السندباد الذي ذكرته أنفا يرتب الحاضرين لأخذ الصورة. فقلت يا سندباد أنت في كل مكان ولكل عمل. أنك أبو الفتح الإسكندري أو أبو زيد السروجي، فقال الأستاذ منورسكي: هذا أبن بطوطة. ومما اذكر من لطائف هذا المجلس أن أحد مندوبي الهند محمد أسحق، نظر إلى أشجار عنب قصار، فسألني ما هذا؟ قلت كرم ولكنه صغير، فقال إذا ما كذب الثعلب في الحكاية المعروفة، حين قال هذا حصرم. فعنب هذا الكرم في متناول الثعالب. ثم خرجنا لزيارة قبر الشيخ الرئيس، دخلنا الباب إلى رحبة تنتهي إلى بابين أيسرهما باب مكتبة صغيرة عامة، والأيمن مكتوب فوقه (آرامكاه أبو علي بن سينا) أي مرقد أبي علي بن سينا. دخلنا حجرة صغيرة بها قبران متشابهان يغطي كلا منهما صفيحة من الحجر عليها نقوش كثيرة. ويحيط بها سياج من حديد. فالقبر الذي يلي الباب قبر الشيخ الرئيس، والذي إلى جانبه قبر رجل أسمه أبو سعيد. قال بعض أصحابنا إنه أبو سعيد بن أبي الخير الصوفي المعروف. وليس هذا صدقا فابن أبي الخير مات في خراسان.

ثم ذهبنا لزيارة مزار هناك يعظمه اليهود ويحجون إليه، ومن أجله كثر عددهم في همذان حتى صاروا زهاء ألفين - وهو في زعمهم قبرا ايستر ومردخاي. وهما امرأة ورجل من اليهود، لهما قصة في التوراة في سفر (ايستر). وخلاصة القصة إن ايستر كانت في حضانة أبن عمها مردخاي في مدينة سوس، وأن ملك الفرس أخشويرش غضب على امرأته وشتى، وأراد أن يختار غيرها، فعرضت عليه فتيات مملكته، فأختار ايستر اليهودية وحظيت عنده. وكان هامان وزير الملك قد نقم على مردخاي انه لا يسجد له كما يسجد الناس، فأغرى الملك باليهود وأخرج أمره بقتلهم حيثما ثقفوا في المملكة. وكاد مردخاي وايستر لهامان حتى أمر الملك بصلبه على الخشبة التي أعدها

هو لصلب مردخاي، وكتب الملك إلى الولاة ألا ينفذوا أمره في اليهود وأن يسلطوا اليهود على أعدائهم فيقتلوهم.
والقبران كبيران عليهما سياجان، وهما في حجرة ذات قبة لها مدخل صغير واطئ لا يدخله الداخل إلا راكعا
قضينا في همذان ثلاث ساعات ونصفا، ثم برحناها والساعة أربع ونصف، متوجهين تلقاء قزوين.
برحنا همذان، وما قضت النفس منها لبانة
وتلفتت عيني فمذ خفيت ... عني الطلول تلفت القلب
وبعد ساعة نزلنا منزلا على الطريق اسمه رزان، وقد اعد لنا الشاي والفاكهة، والفستق والحمص واللوز الخ، فرأينا ضربا من الحمص والفستق كبيرا لم نر مثله من قبل. وكان سير دنسن رس، والشاعر الإنكليزي درنك ووتر قد سبقا إلى هذا النزل، إذ فارقا همذان قبل الركب دون أن يزورا قبري ايستر ومردخاي، فطال بهما الانتظار في هذا النزل، فلما بلغته أنا ورفيقي عبد الكريم الحسيني قابلني أستاذي رس دهشا يقول: لماذا تاخرتم! هل زرتم ايستر ومردخاي، قلت نعم. قال هل ألقى فلان هناك محاضرة طويلة؟ قلت محاضرة قصيرة. قال ذلك ما ظننت. قد تخرنا جدا واظلم الليل. ثم سرنا قبل ان يدركنا الرفاق في طريق موحشة تتخللها قرى وضياع قليلة، منها مكان اسمه اب كرم أي الماء الحار فيه حمة، أي ينبوع ماء حار. وقفنا للاستراحة ورؤية الينبوع، فتركنا السيارة ومشينا وراء رجل يحمل مصباحا حتى أتينا النبع، فإذا حجرة فيها حوض يفور منه الماء، فقلت لصاحبي: ما أحسنه حماما لو هيء له بناء. وكم في الشرق من معادن ومياه أغفلتها الأفكار والأيدي! واستأنفنا السير، وطال بنا السفر، حتى لاحت قزوين تحت ظلام الليل، فوردناها متعبين والساعة تسع ونصف من المساء، وقدم بقية الركب بعد ساعة. بتنا في دار جميلة بجانب كنيسة روسية. وقد وهبت الدولة الروسية هذه الدار والكنيسة وما يتصل بهما للدولة الإيرانية.
وقزوين بلد قديم ذكره بطليموس باسم قسايين. وهي على الجادة العظمى من بغداد إلى خراسان، وتلتقي عندها طرق القوافل الآتية من الشرق والغرب والشمال والجنوب، فمن اجل ذلك اتسع عمرانها في القديم وراجت تجارتها، وهي على مقربة من جبال البرز، ويجري عندها نهر صغير يفضي إلى نهر ابهر، وتبعد عن طهران مائة وخمسين كيلا.
وكانت قبل الإسلام وبعده ثغرا لمحاربة الديلم. وقد مصرها سعيد بن العاص بن امية، وجعلها مغزى أهل الكوفة. وأغزى الحجاج ابنه محمدا الديلم، فنزل قزوين وبنى بها مسجدا سمى بعد مسجد الثور. وبنى موسى الهادي مدينة بجوارها عرفت بمدينة موسى. وبنى المبارك التركي مولى المأمون أو المعتصم حصنا بها سماه المباركية. وروى ياقوت (اجتاز الرشيد بهمذان، وهو يريد خراسان، فاعترضه أهل قزوين، واخبروه بمكانهم من العدو، وعنائهم في مجاهدته، وسألوه النظر لهم، وتخفيف ما يلزمهم من عشر غلاتهم في
القصبة. فسار إلى قزوين ودخلها، وبنى جامعها، وكتب اسمه على بابه في لوح حجر. وابتاع حوانيت ومستغلات، ووقفها على مصالح المدينة، وعمارة قبتها وسورها). وقد ذكرها بديع الزمان باسم الثغر، في المقامة القزوينية التي أولها، غزوت الثغر بقزوين، سنة خمس وسبعين. وروى بعض المحدثين أخبارا في فضائل قزوين، والحث على الاقامة بها لكونها من الثغور. وقد ذكرت في الشعر العربي. ومن ذلك قول الطرماح ابن حكيم
خليلي مدّ طرفك هل تراني ... ظعائن باللوى من عوكلان
ألم تر أن عرفان الثريا ... يهيج لي بقزوين احتزاني
وقد نشأت قزوين جماعة من العلماء والأدباء منهم زكريا ابن محمد صاحب عجائب المخلوقات المتوفى سنة 682، وحمد الله المستوفى المؤرخ صاحب تاريخ كزيدة، ونزهة القلوب في الجغرافيا، المتوفى سنة 750، وأبو حاتم محمود بن الحسن الفقيه الشافعي اخذ عن الاسفرائيني والباقلاني، وأخذ عنه الشيرازي وله كتب كثيرة، منها كتاب الحيل في الفقه وتوفى سنة 440، ومنهم الحكيم شاه محمد، الذي اخذ عن جلال الدين الدواني، وذهب الى مكة للمجاورة فدعاه السلطان بايزيد الثاني إلى

استانبول فعاش في رعايته ورعاية سليم وسليمان من بعده، وكتب التفسير والعقائد والفلسفة، وترجم حياة الحيوان للدميري إلى الفارسية.

وتركنا قزوين والساعة تسع ونصف من صباح الأربعاء 24 جمادى الثانية سنة 1353 (13 أكتوبر سنة 1934)، فبلغنا طهران بعد الظهر، ونزل جماعة منا في الفندق الكبير (جراند اوتيل) وآخرون في الفندق النادري.

عبد الوهاب عزام

محاورات إفلاطون - 5

معذرة سقراط

ترجمة الأستاذ زكي نجيب محمود

قد يذهب بكم الظن إني إنما أتحداكم بهذا كما فعلت حينما حدثتكم عن الضراعة والبكاء، كلا فليس الأمر كذلك، إنما أقول هذا لأنني اعتقد إني لم أسيء إلى أحد عامدا، ولا أظنني قادرا على إقناعكم بذلك في هذا الحوار القصير، فلو كان في أثينا قانون، كما هي الحال في سائر المدن، لا يبيح حكم الإعدام في يوم واحد، لاستطعت فيما اعتقد أن أقنعكم، أما الآن فالفترة وجيزة، ولا يمكنني أن ادحض في لحظة هؤلاء المدعين الفحول، وان كنت كما ظننت لم أسيء إلى أحد فلن أتقدم بالإساءة إلى نفسي قطعا. وإذن فلن اعترف بنفسي باني حقيق بالسوء، ولن اقترح عقوبة ما. ولماذا افعل؟ اخوفاً من الموت الذي يقترحه مليتس؟ على حين إني لا اعلم ان كان الموت خيرا أم شرا! لماذا اقترح عقابا فيكون شرا مؤكدا لا مفر منه؟ أأقترح السجن؟ ولماذا أزج في غياهبه فاكون عبدا لحكام هذا العام - اعني الأحد عشر؟ أم اقترح أن أعاقب بالتغريم، وان اسجن حتى تدفع الغرامة؟ فالاعتراض بنفسه قائم، لأنني لابد أن البث في السجن لأنني لا املك مالا ولا أستطيع دفعا. وان قلت النفي (وربما قر رأيكم على هذه العقوبة) وجب أن يكون حب الحياة قد أعمى بصيرتي، لأنكم وانتم بنو وطني لا تطيقون رؤيتي ولا تسيغون كلامي، لأنه في رأيكم خطر ذميم، فوددتم لو نجوتم من شري عسى أن يطيقه سواكم، فما حياتي في هذه السن، ضاربا من مدينة إلى مدينة، مشردا أبدا، طريدا دائما، يلفظني البلد في اثر البلد، فما ارتاب في التفاف الشبان حولي أينما حللت كما فعلوا هنا، فلو نفضتهم رغبوا عني إلى أوليائهم في طردي فاستجابوا لرجائهم، ولو تركتهم يسعون إلى طردني آباؤهم وأصدقاؤهم صونا لأنفسهم.

رب قائل يقول: نعم يا سقراط، ولكن ألا تستطيع أن تمسك لسانك حتى إذا ارتحلت إلى مدينة أخرى ما اشتبك إنسان معك؟ وعسير جدا أن أفهمكم جوابي عن هذا السؤال، فلو أنبأتكم أني لو فعلت لكان عصيانا مني لأمر الله، ولذلك لا املك حبسا للساني، لما صدقتم أن يكون جدا ما أقول. ولو قلت بعد ذلك إن اعظم ما يأتيه الإنسان من خير هو أن يحاور كل يوم في الفضيلة وما يتصل بما سمعتموني أسائل فيه نفسي وأسائل الناس، وإن الحياة التي تخلو من امتحان النفس ليست جديرة بالبقاء، كنتم لهذا اشد تكذيبا، ولكني لا أقول إلا حقا وان عز علي إقناعكم بصدقه. إني لم اعهد نفسي جارمة تستأهل العقاب، ومع ذلك فلو كان لدي مال لاقترحت أن أعطيكم ما املك، ولم يكن ذلك ليضيرني في شيء، ولكنكم ترون إني لا املك مالا، لا بل أظنني قادرا دفع مينة واحدة (المينة تساوي مائة دراخمة) ولذا اقترح هذه العقوبة. إن أصدقائي: افلاطون، وكريتون، وكريتوبوليس، وابولودورس، وهم بين الحاضرين، يرجون مني أن أقول ثلاثين مينة، يضمنون هم دفعها، حسنا، إذن فاحكموا بثلاثين مينة، ولتكن هي عقوبتي، واحسب هؤلاء كفلاء بدفعها.

أيها الأثينيون! لن تفيدوا بقتلي إلا أمدا قصيرا، وستدفعون له ثمنا ما تنطلق به السنة السوء تذيع عن المدينة العار. ستقول عنكم أنكم قتلتم سقراط الحكيم، فسيدعوني وقتئذ بالحكيم وان لم اكن حكيما تقريعا لكم. ولو صبرتم قليلا لظفرتم بما تبتغون بطريق طبيعية، فلقد طعنت في السن كما ترون، ودنوت من اجلي. إنما أسوق هذا الحديث إلى هؤلاء الذين حكموا علي بالموت، واحب أن أضيف إليهم كلمة أخرى: قد تحسبون ان اتهامي جاء نتيجة لعي لساني، فلو قد أثرت أن افعل كل شيء وان أقول كل شيء، لجاز لي أن اظفر بعفوكم، ولكني لم افعل ذلك، فليس عيا في لساني ما

أدى إلى ادانتي، ولكنه ترفعي عن القحة والصفاقة، وصدوفي عن مخاطبتكم بما كنتم تحبونني أن أخاطبكم به: بالعويل والبكاء والرثاء، وان أقول وافعل كثيرا مما تعودتم استماعه من الناس، وهو لا يجمل بي كما ذكرت، فقد رأيت واجبي ألا أتبذل في العمل، أو آسف في ساعة الخطر، ولست آسف على ما سلكت من طريق للدفاع، فإني لأؤثره خطتي التي رسمتها ولو أدت بي إلى الموت، على أن اصطنع خطتكم احتفاظا بالحياة. فلا يجوز لإنسان في ساحة الوغى أو أمام القانون أن يتلمس أي سبيل فرارا من الموت، فلو القي المحارب بسلاحه في المعمعة، وجثا على ركبتيه أمام مطارديه لظفر غالبا بالنجاة من الموت. ولكل ضرب من ضروب الخطر طرق للنجاة من الهلاك، إذا لم يتعفف المرء عن كل قول وكل فعل مهما يكن شائنا. فليس عسيرا أيها الأصدقاء إن تفر من وجه الموت، ولكن العسر كل العسر في تجنب الأخلاق الفاسدة. فالفساد والموت يعدوان في أعقابنا، ولكن الفساد أسرع من الموت عدوا. فأنا الذي اكتهلت، إنما أسير سيرا وئيدا، فيكاد يدركني أبطأ العادين، أما المدعون فسراع متحمسون. وسيلحق

بهم أسرعهما - اعني الفساد. وبعد، فسأترك موقفي هذا، وقد جرى على قضاؤكم بالموت، وكذلك هم سينطلقون كل إلى سبيله، وقد قال فيهم الحق كلمته، بان يعانوا ما هم فيه من ضعة، ولا بد لي أن اخضع لما حكم علي به، وعليهم كذلك أن يرضوا بما كتب لهم. احسب أن قد جرى القدر بهذا جميعا، فعسى أن يكون خيرا، ولا احسبه إلا كذلك.

وبعد، فيا هؤلاء الذين اجروا علي قضاءهم، هاكم نبوءتي التي احب أن أبلغكم إياها، لأني مشف على الموت، وتلك ساعة يوهب فيها المرء مقدرة على التنبؤ. أتنبأ لكم يا قاتلي بأنه لن يكاد ينفذ حكم الموت حتى ينزل بكم ما هو اشد من ذلك الذي هولا. لقد حكمتم بموتي، لأنكم أردتم أن تفلتوا من ذلك الذي يتهمكم، ولكيلا تحاسبوا على ما قدمت أيديكم، ولكن لن يكون لكم ما ترجون، بل نقيضه. فسيكون متهموكم أوفر عددا منهم اليوم، إذ سيهب في وجوهكم من كنت مسكنهم حتى الآن، وسيكون أولئك اشد قسوة عليكم لأنهم دونكم سنا، وسيذيقونكم من العذاب اكثر مما تذوقون اليوم، فان حسبتم إنكم خالصون من متهمكم بقتله، كي لا ينغص عليكم عيشكم، فانتم مخطئون، إذ ليست تلك سبيلا مؤدية إلى الفرار، ولا هي مما يشرفكم، وايسر من ذلك واشرف ألا تهاجموا الناس، بل تبادروا بإصلاح أنفسكم. تلك هي نبوءتي التي ابلغها إلى القضاة الذين حكموا علي، قبل رحيلي.

وانتم أيها الأصدقاء الذين سعوا إلى برائتي، احب كذلك أن أتحدث إليكم عما وقع، عندما يشغل الرؤساء، وقبل أن اذهب إلى مكان مدني، فالبثوا قليلا، لأننا نستطيع أن يتحدث بعضنا إلى بعض ما دامت هناك فسحة من وقت. انتم أصدقائي، واحب أن أدلكم على معنى هذا الذي وقع. يا قضاتي - فأنا أدعوكم قضاة بحق - احب أن أحدثكم بأمر عجيب، لقد كانت مشيرتي حتى الآن، تلك المشيرة التي عهدتها في دخيلتي، لا تفتا تردني في توافه الأمور، أنكنت مقدما على زلل أو خطا في أي شيء، والآن - كما ترون - قد داهمني ما يحسبه إجماع الناس أقصى الشرور واقساها، ولم تلوح لي مشيرتي بعلامة العارضة حينما تركت داري في الصباح. ولا حين كنت اصعد إلى هذه المحكمة، ولا حين ألقيت كل ما اعتزمت أن أقوله، ومع أني عورضت كثيرا أثناء الحديث، إلا إن المشيرة لم تعارضني في كل ما قلت أو فعلت مما يتصل بهذا الأمر، فبم أعلل هذا، وكيف افهمه؟ سأخبركم: أني اعد هذا دليلا على ان ما حدث لي هو الخير، ويخطئ من يظن منا إن الموت شر. هذا

دليل ناهض على ما أقول، لان الإشارة التي عهدتها لم تكن لتتردد في معارضتي لو كنت مقبلا على الشر دون الخير.

لنقلب النظر في الأمر، وسنرى إن ثمة بارقة قوية من الأمل تبشر بان الموت خير. فإحدى اثنتين: أما أن يكون الموت عدما وغيبوبة تامة، وأما أن يكون كما يروى عنه الناس تغيرا وانتقالا للنفس من هذا العالم إلى عالم آخر. فلو فرضتم فيه انعدام الشعور، وانه كرقدة النائم الذي لا تزعجه حتى أشباح الرؤوس، ففي الموت نفع لا نزاع فيه، لأنه لو أتيح لإنسان أن يقضى ليلة لا يزعج نعاسه فيها شيء، حتى ولا أحلامه، ثم قارنها بما سلف في حياته من ليال وايام، وسئل بعد ذلك: كم يوما وليلة

قضاها بين أعوامه وكانت أبهج من تلك الليلة واسعد؟ فلا احسب أحدا - ولا اختص بالقول أحدا - بل لن يجد حتى اعظم الملوك بين أيامه ولياليه كثيرا من أشباهها. فإذا كان الموت كهذا فانعم به، وليس الخلود إذن إلا ليلة واحدة! إما أن كان الموت ارتحالا إلى مكان آخر، حيث يستقر الموتى جميعا كما يقال، فأي خير يمكن أن يكون اعظم من هذا أيها الأصدقاء والقضاة! وإذا كان حقا انه إذا بلغ الراحل ذلك العالم السفلي، خلص من أساطين العدل في هذا العالم، وألفى قضاة بمعنى الكلمة الصحيح، إذ يقال إن القضاء هناك في ايدي مينوس، ورادامنتوس، وايكوس، وتربتوليموس وسائر أبناء الله الذين عمروا حياتهم بأقوم الأخلاق، فما احب إلى النفس ذاك الارتحال! وهل يضن الرجل بشيء إذا أتيح له أن يتكلم مع اورفيوس، وموسيوس، وهزبود، وهوميروس؟ كلا، لو كان هذا حقا فذروني أمت مرة ومرة، فسأصادف متاعا رائعا في مكان أستطيع فيه أن أتحدث إلى بالاميدس، واجاكس بن تلامون، وغيرهم من الأبطال القدامى الذين تجرعوا المنون بسبب قضاء ظالم، ولا أظنني حين أقارن الآن آلامي بآلامهم إلا مغتبطا مسرورا. وفوق كل هذا فسأتمكن من استئناف بحثي في المعرفة الحق، والمعرفة الزائفة، وكما فعلت هنا سأفعل في العالم الثاني، وسأكشف عن الحكيم الصحيح، وعمن يدعي الحكمة باطلا. بماذا يضن الرجل أيها القضاة إذا أتيح له أن يمتحن قائد الحملة الطروادية الكبرى أو اوذيس، او سسفوس وغير هؤلاء ممن لا يقعون تحت الحصر رجالا ونساء؟ إلا ما أعظمها غبطة لا تحد، تلك التي أجدها في نقاشهم ومحاورتهم، لأنهم في ذلك العالم لن يقضوا على أحد بالموت من اجل هذا. كلا ولا ريب، هذا فضلا
عما يصادفه الناس في ذلك العالم من سعادة عزت على هذه الدنيا، فان صح ما يقال فهم ثمة خالدون.
فابتسموا إذن للموت أيها القضاة، واعلموا علم اليقين انه يستحيل على الرجل الصالح أن يصاب بسوء لا في حياته ولا بعد موته، فلن تهمله الآلهة، ولن تهمل ما يتصل به، كلا، وليست ساعتي الآزفة قد جاءت بها المصادفة العمياء، فلست ارتاب في أن الموت مع الحرية خير لي، ولذلك لم تشر مشيرتي بشيء.
ولست لهذا غاضبا من المدعين، أو ممن حكموا علي، فما نالتني منهم إساءة، ولو أن أحدا منهم لم يقصد إلى أن يعمل معي خيرا، وقد أعاتبهم لهذا عتابا رقيقا.
وان لي عندهم لرجاء. فأنا التمس أيها الأصدقاء، إذا ما شب ابنائي، ان تنزلوا بهم العقاب، واحب أن تؤذوهم كما آذيتكم، وذلك أن بدا منهم اهتمام بالثروة، أو بأي شيء، وكانوا في حقيقة الأمر لا شيء. إذن فانحوا عليهم بالأئمة كما فعلت معكم، لإهمالهم ما ينبغي أن يبذلوا فيه عنايتهم، ولظنهم انهم شيء على حين انهم في الواقع لا شيء. فإذا فعلتم هذا، أكون قد نالني ونال أبنائي العدل على أيديكم.
لقد أزفت ساعة الرحيل، وسينصرف كل منا إلى سبيله - فإنا إلى الموت، وانتم إلى الحياة، والله وحده عليم بأيهما خير.
(يتبع)
زكي نجيب محمود
الأنتكيرة هم الإنجليز لا الأسبان
للأستاذ عبد المتعال الصعيدي
هذا هو رأيي في ذلك النص الذي سأنقله بعدعن وزيرنا الخطير لسان الدين بن الخطيب في كتابه (الإحاطة في أخبار غرناطة ج2 ص24) وقد كتبت ذلك في جريدة البلاغ الغراء (8 - 3 - 1351هـ 12 - 7 - 1932م) تحت عنوان (الإنجليز في القرن الثامن الهجري كما يصفهم سياسي مسلم) أما الأستاذ محمد لبيب البتنوني فيرى في كتابه (رحلة الأندلس) إن الأنتكيرة الذين وردوا في ذلك النص من كتاب الإحاطة هم الأسبان. وقد ذكر ذلك في كتابه (رحلة الأندلس ص 160) بدون أن يعنى بتحقيقه أو يخطر بباله انهم أمة أخرى غير الأمة الإسبانية، فيحمله ذلك على العناية بإثبات رأيه، بل ذكره كأنه قضية مسلمة، وأمر مفروغ من صحته.
وقد قرأت كتاب الأستاذ البتنوني من شهور، ومن يوم أن قرأته وأنا أحاول أن أبين له صحة ما ذهبت إليه في (الرسالة) الغراء، فيحول بيني وبين ذلك اشتغالي بغيره من أمور عنيت بها قبله، وهاأنذا اليوم امضي فيما عزمت عليه من ذلك، ولا أحاول به أن

انتقص شيئا من فضله، فان فضله اكبر من أن تؤثر فيه زلة من زلات القلم، ولكل جواد كبوة.

ذكر لسان الدين في كتاب الإحاطة من حوادث سنة 767 للهجرة إن بطرة بن الهنشة ملك أسبانيا حينما غلبه أخوه القمط على الملك التجأ إلى ابن صاحب (الانتكيرة) المعروف ببرقسين، وبين أول أرضه وبين قشتالة ثمانية أيام، فأعانه بجيش ذهب معه إلى إسبانيا، فحارب به آخذاه حتى غلبه واسترد ملكه، وقد رأى لسان الدين بن الخطيب حرب هذه الأمة الجديدة (الانتكيرة) أو سمع به فلفت نظره إليها وجعله يلقي فيها نظرة سياسي صادق الفراسة قد شاهد أفول نجم أمته في تلك القارة، فوقف ينظر من بعيد إلى من يخلفها فيها فأعجبه حال هذه الأمة الناشئة في حروبها واخلاقها، واخذ يوازن في ذلك بينها وبين أمة العرب في نشاتها، وكاني به كان يقدر لها مستقبلا مثل مستقبلها، وحكما متسعا في الأرض مثل حكمها، وقد صدقت فراسته في هذه الأمة، وأدت بها أوصافها التي أعجبته منها ولفتت نظره إليها إلى ما يقدر لكل أمة تتحلى بهذه الاوصاف، وتتجمل بتلك الشيم، وهذا هو الذي قاله فيها: (وحال هذه الأمة غريب في الحماية الممزوجة بالوفاء، والرقة والاستهانة بالنفوس في سبيل الحمية عادة العرب الاول، واخبارهم في القتال غريبة من الإسترجال والزحف على الإقدام أميرهم ومأمورهم، والجثو في الأرض أو الدفن في التراب، والاستظهار في حال المحاربة ببعض الألحان المهيجة، ورماتهم قسيهم عربية جافية، وكلهم في دروع، ولا لجام عندهم، والتقهقر مقدار الشبر ذنب عظيم وعار شنيع، ورماتهم يسبقون الخيل في الطراد، وحالهم في باب التحلي بالجواهر وكثرة آلات الفضة غريب).

فهذه أوصاف تنطق بنفسها إنها لامة غريبة عن ارض الأندلس ومن فيها من نصارى ومسلمين، هذا إلى ان التاريخ الإنجليزي قد ورد فيه ما يؤيد رواية ابن الخطيب من ذهاب ذلك الجيش منهم إلى ارض الأندلس في الزمن الذي عينه ابن الخطيب له، فقد بلغت هذه الأمة في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي (القرن الثامن الهجري) درجة عظيمة من التقدم السياسي والحربي على عهد ملكها (إدورد الثالث) وكانت له حروب كثيرة مع الفرنسيين انتصر فيها عليهم، وبينما كانت جيوشه تفعل ذلك مع فرنسا بقيادته، كانت زوجه تقود جيشا آخر حاربت به اسكتلندا وأسرت ملكها، ثم جهزت جيشا آخر سارت به إلى إسبانيا. فحاربت الأسبانيين وهزمتهم، وهذه هي الغزوة التي ذكرها لسان الدين ابن الخطيب في سنة 767هـ لان مدة ولاية أدورد الثالث على إنكلترا كانت بين سنتي (1327 - 1376م)، وهذه السنة الهجرية تقع في هذه المدة.

فهذا ما يؤيد رأينا من الناحية التاريخية، وأما الناحية اللغوية فهذا الاسم (الانتكيرة) من الأسماء التي أطلقها مؤرخو العرب على أمة الانجليز، ولم تخل من بعض تحريف لبعد ديار هذه الأمة عنهم، وما كانت فيه من عزلة بجزرها عن غيرها من الأمم، ولم يبتدئ تاريخ الأمة الإنجليزية إلا في نحو سنة ستين قبل الميلاد، وكانت جزائرها تسمى عند الرومانيين (بريطانيا) وكانوا يسمون سكانها بريطون، وقد فتحوها سنة 83 بعد الميلاد، ثم استقلت هذه الأمة بجزرها في أوائل القرن الخامس الميلادي، فقامت فيها حروب وفتن كثيرة مزقت شملها وأضعفتها، ولم تزل مضطربة بالحروب الداخلية وغزوات المجاورين لها، إلى أن استولى عليها بعض الجرمانيون، فطردوا سكانها الأصليين إلى الأقاليم المجاورة لها، ثم فتحها (اغبرت) سنة 823 ميلادية، وجعل نفسه ملكا عليها، وهو أول ملك قام بها، وكان يلقب نفسه ملك انكلتيرة.

وقد عرف المسلمون هذه الأمة بعد الرومانيين، إلا انهم لم يتصلوا بها ولم يعرفوا أمرها تمام المعرفة، وكان هذا سببا فيما وقع من اضطرابهم في اسمها، فسماها قدماء مؤرخيهم (الانكتار) وبعضهم كان يسميها (الإنكليز) ولعل كلمة (الانتكيرة) في ذلك النص الذي نقلناه عن لسان الدين بن الخطيب عن هذه الأمة محرفة عن هذه التسمية (الانكتير) بتقديم التاء على الكاف وزيادة التاء المربوطة التي زادها بعضهم بعد ذلك على هذا الاسم كما سيأتي.

ثم ذكر صاحب كتاب (الروضتين في أخبار الدولتين) هذه الأمة باسم (انكلتيرة) وكان المسلمون قد اختلطوا بهذه الأمة في الحروب الصليبية فعرفوا حقيقة اسمها وأضافوا إليه اللام التي كان يسقطها قدماؤهم منه، وصاحب كتاب الروضتين هو ابو محمد عبد

الرحمن بن إسماعيل المقدسي المتوفى سنة 665هـ وكتابه في أخبار الدولة الاتابكية والدولة الأيوبية.

وقد ذكرهم بعد هذا في أواخر القرن الحادي عشر الهجري باسم (الإنكليز) صاحب كتاب (المؤنس في أخبار أفريقية وتونس) وهو أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم وقد ذكر فيه أخبار هذا الإقليم إلى سنة 1092هـ والإنكليز سمك كالحية يكثر في البحر الذي توجد فيه الجزائر البريطانية فسموا هذه الأمة باسمه، ويسمى أيضاً الانكليس والجنكليس، ولم يسم هذه الأمة من مؤرخي العرب فيما اعلم بالاسم الذي كان يسميها به الرومانيون إلا صاحب كتاب (صبح الأعشى) فقد ذكرها باسم (بريطانيا) ولم نجد من سماها بهذا الاسم غيره.

فهذا هو رأينا فيما ورد في ذلك النص من أخبار أمة الانتكيرة. ولعل الأستاذ البتنوني يعلم في ذلك ما لا نعلم فينشر ما عنده فيه على صفحات الرسالة الغراء لنصل في ذلك إلى الصواب الذي هو غايتنا جميعا.

عبد المتعال الصعيدي

نجوى النيل

للأستاذ محمود الخفيف

مضيت إلى النهر وقت الطفل ... وقد لبس الأفق أبهى الحُلَلْ
وألقت عليه ظلال الغروب ... صفاء تتوق إليه المقلْ
ورَفَّت على الشْط خضر الرياض ... وراق الخريف بها واعتدلْ
ولاح ليَ النيل في منظر ... تناهى الجمالُ به واكتملْ
تَرَوّحت النفسُ فيه الهدوَء ... ولاحَت لعيني سِمَات الجذلْ
تذكرت قوليَ في عَذْله ... فأشْرَبَ وجهيَ صَبْغُ الخجلْ
ورحت أجدد عهد الولاء ... كمن تاب عن ذنبه فاسْتَهَلْ
أتيتك يا نيل مستغفراً ... وعندك يُنْسى رقيق العَذَلْ
فمنك الوفاء ومنك الصفاء ... ومنك المودة منذ الأزلْ
وما كان عتبيَ إلا الوداد ... وما كان ودِّيَ بالمفتَعَلْ
لئن عُدْتُ أحْكِمُ فيك القريض ... فلي في صفاتك وِرْدٌ عَلَلْ
يروق حديثك إما استعيد ... وما هو إن طال بالمبتَذَلْ
ويَمْلك قَلبيَ حين أراك ... لذيذُ الخيال وحلوُ الثَمَلْ
طيوفٌ من الحسن رفَّافةٌ ... تريك من السحر ما يُستَحلْ
ألذُّ من الحلْم جَمَّ الرُؤى ... لياليَ عهد الصبا المُقْتَبَلْ
وأعذب من خلجات المنى ... وأجملُ من بارقات الأمَلْ
وأطيب من ذكريات الغرام ... والطفُ من لمحات الغزَلْ
وأشهى من الماء حلوَ الصفاء ... تَسلسلَ حولك بَعد الغَلَلْ
وأنْضَرُ من باكرات الربيع ... تحلَّى بها الكون بعد العَطَلْ
وأبهى من الصبح في مهده ... تَبَسّم في داكِنَات الكِلَلْ
وأندى من الكون عند الشروق ... رفيفَ الحواشي نقيّ الطِّلَلْ
وأروع من بسمات الضحى ... وومض الأصيل وصفو الطَّفَلْ
جمالك يا نيل أعيا البيان ... ودق فقصَّرَ عنه المثلْ
تدَفُّق مائك يوحي إليَّ ... مناظِرَ فيضك أنى هَطَلْ
فأصبو لمرآك بين الدِّغال ... وحول الشِّعاب وفوق القُلَلْ
حيال تِسانا وما حولها ... وعند نيانزا وبحر الجبلْ
وحيث خطرت بسودان مصر ... لطيف الأناة حليم الثَّقَلْ
وحيث انْهَلَلْتَ بأعلى الصعيد ... وقد عجَّ موجُك لما اتَّصَلْ
يروع فؤاديَ هذا العباب ... وكيف تلاقى وكيف انتَقَلْ
وأعجب ماذا يروم الدخيل ... حيال تدفُّقِه المتَّصِلْ؟!
وكيف يُقَطِّع هذا الوريد ... وتأمن مصرُ دنوَّ الأجَلْ؟
يشعُّ الخلود على جانبيك ... ويصحو الفؤادُ لكرِّ الدُّوَل
وأقرأ فيك سجلَّ الزمان ... واسمع همسَ العصور الأوَل
شهدتَ الحضارةَ في مهدها ... وحسنَ تفَنُّنها المرتَجَلْ

وشب الزمان على ضفتيك ... بطيَء العصور طويلَ المَهَلْ
فآنست في مصر عهد النبوغ ... وعهدَ العظائم لما حفَلْ
إلى أن بلوت بمصر الهوان ... وكيف ثناها الوَنَى والخزَلْ
هتفت بفرعون في عزه ... وانكرت فرعون لما خَمَلْ
وساءك قمييز يغزو البلاد ... ويبذر فيها بذورَ الخَلَلْ
وراعك إسكَنْدَرٌ مقبلا ... سريعَ الفتوح وثيقَ العَجَلْ
وقيصرُ حين غزَته الجفون ... وجازت عليه ضروبُ الحِيَلُ
فألقى السلاح على بأسه ... وهام بسحر العيون النُّجُلْ
وكم بطل فتنته العيون ... وكم مَلَكَ الحبُّ حتى قَتَلْ
تلقيت عمرا لقاء الحنيف ... تراءى الهلالُ له فابتهلْ
وهللت حين أقام الحدود ... وحين تقصَّى وحين عَدَلْ
وحين توسم فيك الجلال ... فنمق فيك رصين الجُملْ
وجاء بوصفٍ تلته القرون ... وما عرفت فيه بعض المَلَلْ
دهاك الفرنسيُّ في جنده ... وجندك يا نيل بعضَ الهمَلْ
تلفتُّ حولك مستنجداً ... فلم تلق حولك غير الفَشَلْ
إلى أن تلقى زمام الأمور ... بمصر من الشرق فرد بَطلْ
فأحيا بواديُك مَيْتَ الرجاء ... وقد دهش الدهر مما فَعَلْ
تفيَّأت حيناً ظلالَ النعيم ... إلى أن دهاك المصاب الجَلَلْ
فجاس العدو خلال الديار ... وغالتك يا نيل شر الغِيَلْ
حباك الوعودَ ولكنه ... أقام لديك السنين الطِّوَلْ
فيوماً يمد حبال الرجاء ... ويوماً يثير عقيم الجَدَلْ
ويوماً يجيئك مستأسدا ... يجرب فيك صنوفَ الوَهَلْ
ألم تر بالأمس كيف افترى ... وكيف تعامى وكيف خَتَلْ؟
وكيف رماك بأدهى الخصوم ... وكان بواديك أصل العِلَلْ؟
لقد بات يتلو حديث الوفاق ... وهل يخطبُ الذئب وُدَّ الحَمَلْ؟
مللنا لعمريَ هذا النفاق ... وملنا إلى الجد بعد الهزَلْ
وَقمنَا نحطمُ عنا القيود ... وَنخلع عنا رداء الكسلْ
تحركْتَ بالأمس مستعدياً ... وأنكرت يا نيل عهد الخَطَلْ
وقد كنت قِبلُ مِثالَ الهدوء ... ولكن أثارك طولُ الزَّللْ
وشعبك مثلُك في صمته ... وإن حسبوه سكوتَ الوَجَل
وما قرَّ موجُك إلا استجم ... وما إن تناقص حتى كَملْ
وما نسِيَ الشعبُ تاريخَه ... وما نام عن مجده أو غَفَلْ
أبيٌّ وإن دهمته الخطوب ... فتىً وان زعموه اكتَهَلْ
سرى فيه يا نيل منك الخلود ... وألهمَ مثلك حبَّ العمل
وما كان سِرُّكَ مُسْتَحْدَثا ... وما كان مجدُك بالمُنتحل
سيمضي الزمان على جانبيك ... وتبقى كما كنت منذ الأزل

الخفيف

بين الشاعر وبين نفسه

بقلم عبد الحق فاضل

هو - مالي أرى الوجه الجم_ل عليه آثار الضنى؟
إنا بأفراح الشبا ... ب عن الكابة في غنى
تبكين . . .؟ لهفي! أي خط ... ب احل يا (نفسي) بنا؟
هي - من أين جئتُ؟ ولِمْ أعي_ش؟ وما الحياة؟ وما أنا؟؟
هو - فيم التأمل والتألم=والتبرم يا حبيبة؟
وأشدّ من وقع المصي ... بة أن نفكر في المصيبة
هيا بنا، يا منيتي ... نلهو بأحلام الشبيبة
هي - من أين جئت؟ ولم اعي_ش؟ وما الحياة؟ وما أنا؟؟
هو - لا يا رفيقة! لا تطي_لي الفكر في كنه الأمور
هذا الشباب يسير مو ... كبه على عجل، فسيري

أخشى عليك إذا أضعنا الوقت، من وخز الضمير؟
هي - من أين جئت؟ ولم اعي_ش؟ وما الحياة؟ وما أنا؟؟
هو - كفى بربك! واتركي_نا نمش في سبل الكمال
فيما لدى من القوى، ... وبما لديك من الجمال
نبني لنا مجدا رفي ... عا، لا يصير إلى زوال
هي - من أين جئت؟ ولم اعي_ش؟ وما الحياة؟ وما أنا؟؟
هو - ان الفراش يحوم حو_ل الزهر يجهل ما غوى
والطير يسجع في الغصو ... ن، مشببا لا عن هوى
قومي نحم، هيا نغني، ... قبل ان تقع النوى
هي - من اين جئت؟ ولم اعي_ش؟ وما الحياة؟ وما أنا؟؟
هو - كل الأحبة، يا حبي_بة، في وئام واتفاق
إلا أنا! مع قربنا، ... أشكو تباريح الفراق
!!لم يقصني الهجران من ... ك، ولم يقربني اشتياقي
هي - من أين جئت؟ ولم اعي_ش؟ وما الحياة؟ وما أنا؟؟
من أين جئت؟ ولم اعي ... ش؟ وما الحياة؟ وما أنا؟؟
(بغداد)
عبد الحق فاضل
أنصاف رجال
بقلم محمود غنيم
يعني بعض الشبان بمظهره اكثر مما يعني بجوهره، ويسرف في توخي الأناقة إلى الحد الذي ينقلب إلى الضد. فإلى هؤلاء اوجه القول:
شباب النيل يا زين الشباب ... ويا أشبال آساد غضاب
معي عتب أوجهه إليكم ... وقد تصفو المودة بالعتاب
أرى فيكم فريقا حين يمشي ... يحك بأنفه ظهر السحاب
كليث الغاب في صلف وتيه ... وليس لدى القراع بليث غاب
لزهر النرد قد خلقت يداه ... وليست لليراع ولا الكتاب
تفنن في محاكاة العذارى ... وخالفهن في وضع النقاب
وأرسل شعره المضغوط يحكى ... وميض البرق أو لمع السراب
تداعبه الصبا فيموج موجا ... كما هب النسيم على العباب
له حلل تحاكى الطيف لونا ... بأزرار من الذهب اللباب
وفيها جسمه انصب انصبابا ... فما تدري الثياب من الأهاب
وليس بمحكم عملا شريفا ... ويحكم وضع أربطة الرقاب
ولا يخشى على شيء ويخشى ... إذا ثار الغبار على الثياب
إذا خاطبته في غير لين ... تأوه أو تنهد في الخطاب
وان أربى على العشرين منهم ... فتى أمسى يغالط في الحساب
وكم من لمة في مصر شابت ... ولم تنفك عن دعوى التصابي
وان يحلل فتاهم قلب أنثى ... يحل هناك بالركن الحراب
فلن ترضاه كالطاووس شكلا ... ولكن كاسرا مثل العقاب
وكم ضاق الجمال بطالبيه ... وأوذي بالتجمل والخضاب
إذا الذئب استحال بمصر ظبيا ... فمن يحمي البلاد من الذئاب؟
برئت من الفتى يبدو فتبدو ... عليه نعومة البيض الكعاب
فقل للغاضبين الحسن مهلا ... متى نيل الجمال بالاغتصاب؟
محمود غنيم
البريد الأدبي
رسائل لم تنشر
من نابليون إلى ماري لويز
عرض أخيراً للبيع في أحد أبهاء التحف بلندن، مجموعة كبيرة من رسائل الإمبراطور نابليون بونابرت إلى زوجه الإمبراطورة ماري لويز النمسوية؛ وتبلغ هذه الرسائل التي كتبت جميعها بخط الإمبراطور، ووقعت بإمضائه ثلاثمائة رسالة، تشمل تاريخ أربعة

أعوام كاملة من حياة الإمبراطور، أعني من سنة 1810 إلى سنة 1814، وقد كتب معظمها في أوراق مذكرات صغيرة، وأرسلت من مختلف أنحاء القارة التي يجوبها الإمبراطور أو يعسكر فيها بجيشه إلى الإمبراطورة الصغيرة التي شغفته حباً، والتي جاءت له بأول ولد يعلق عليه آمال الإمبراطورية. وتبدأ برسالة كتبها الإمبراطور في فبراير سنة 1810 يطلب فيها يد ماري لويز، وفيها يخاطبها بلهجة رسمية وبذات الجلالة؛ ثم تتدرج الرسائل بعد ذلك في البساطة وعدم الكلفة، فيخاطبها الإمبراطور بلهجة الحب الوثيق، وتغدو ماري بعد أن غدت إمبراطورة فرنسا، (حبيبتي، عزيزتي. . .) ويكتب إليها الإمبراطور في مختلف الشئون الشخصية والمنزلية؛ ويغدق عليها نصحه، سواء فيما يتعلق بصحتها أو نزهتها، أو علائقها بسيدات البلاط وسادته. وأشد هذه الرسائل سحراً وتأثيراً، ما تعلق منها (بالملك الصغير) ولد الإمبراطور وماري لويزا، والسؤال عن صحته ورجاء تقبيله وعناقه.

وتوضح هذه الرسائل تاريخ الإمبراطورية في مراحل متعاقبة، فالأولى مرحلة الزواج والتحالف بين النمسا وفرنسا، ورحلة الإمبراطور والإمبراطورة إلى انفرس وفلسنج، ثم قضاء شهر العسل في تريانون (صيف سنة 1810). وكان الإمبراطور يومئذ في أوج قوته وظفره، يحكم على معظم ممالك القارة، ويحكم في رومه ومدريد، ويشدد الحصار على إنكلترا ويهددها؛ والمرحلة الثانية هي مرحلة الغزوات الثانية في بولونيا وروسيا ثم موسكو في صيف سنة 1812؛ وهنا نجد رسائل كتبت عن معركة بورودينو، والزحف على روسيا، ثم حريق موسكو ثم، الارتداد المروع عن هاتيك السهول الثلجية؛ والمرحلة الثالثة حينما تتحد الدول على نابليون؛ وهنا يكتب نابليون إلى ماري لويز أن تنضح إلى والدها (الأب فرانسوا) إمبراطور النمسا بألا يتحد مع هذه الدول، وألا يصغي إلى تحريض

ماترنيخ، ويحاول بذلك لأن يزج بالإمبراطورة في غمار السياسة، ولكن إمبراطور النمسا حماه وأبا زوجه ينضم إلى خصومه،، فيحاربه نابليون مع من يحارب، ويكتب إلى ماري لويز بأنه انتصر على جنوده، وبأن جنوده لم تكن أسوأ منها في أي وقت مضى. ثم تأتي المرحلة الرابعة وهي مرحلة التقهقر والهزيمة، وهنا تتعاقب الرسائل كل يوم بأنباء الظفر والحركةوالعمل المتواصل، ثم تجئ الهزيمة، ولكن الرسائل ما زالت تنم عن سمو هذه الروح التي تستقبل المصائب والمحن باسمة ساخرة.

تلك هي خلاصة المأساة التاريخية العظيمة التي تصورها رسائل نابليون الثلاثمائة إلى زوجه ماري لويز. وقد عرضت للبيع في لندن في يوم 19 الجاري مقسمة إلى عدة مجموعات، ولم ينشر منها من قبل شيء، وقدر الخبراء ثمنها بنحو مليون ومائة ألف فرنك (نحو ستة عشر ألف جنيه)، وقدرت مذكرات ماري لويز المعروضة معها بمبلغ خمسمائة ألف فرنك (نحو سبعة آلاف جنيه).

وقد علقت الصحف الفرنسية على عرض هذه التحف الأثرية التي تهم فرنسا قبل كل شيء، وأبدت توجسها من استعداد بعض كبار الهواة الأمريكيين لاقتنائها وبذل أكبر الأثمان في سبيلها، وطالبت الحكومة الفرنسية وهيئاتها العلمية أن تبادر إلى اقتناء هذه الوثائق التي خلفها إمبراطور فرنسا، لتضم إلى تحفه وآثاره. وقد استجابت الحكومة الفرنسية إلى هذه الدعوة، واستطاعت أن تحصل على الرسائل الثلاثمائة بطريق المزايدة بمبلغ خمسة عشر ألف جنيه حسبما ورد في الأنباء البرقية الأخيرة.

وفاة المكتشف دي جيرلاشي

توفي البارون دي جيرلاش دي جوميري الرحالة والمكتشف البلجيكي الشهير بعد مرض طال أمده، في سن السادسة والستين؛ وهو ينتمي إلى أسرة عسكرية نبغ فيها كثير من الضباط العظام؛ ولكنه آثر البحر منذ فتوته، وقضى شبابه بحاراً على ظهر السفن، وفي سنة 1890، نال رتبة نائب سفينة، وخطر له من ذلك الحين أن يخصص جهوده لاكتشاف المناطق القطبية التي لم يصل إليها سلفه المكتشف دومون دورفيل؛ فسعى إلى الجمعية الملكية الجغرافية البلجيكية حتى قبلت أن تؤازر جهوده، وأعد لتلك الرحلة السفينة (بلجيكا) وسلحها، وسافر على ظهرها في أواخر سنة 1897، ثم عاد بعد رحلة استغرقت نحو

عامين. بعد أن اكتشف كثيراً من الأنحاء القطبية، وحمل كثيراً من الوثائق العلمية المعلومات الهامة، وكانت هذه فاتحة الرحلات القطبية التي انتهت باكتشاف القطب

الجنوبي بعد ذلك على يد الأميرال بيرد الأمريكي وزملائه، وقام دي جيرلاش برحلات أخرى منها رحلة الخليج الفارسي حيث حقق كثيراً من النتائج العلمية. وفي سنة 1903 سافر مع الدكتور شاركو المكتشف الفرنسي على ظهر السفينة (بوركوابا) إلى القطب الجنوبي، ثم عاد سنة 1905. ولم يمض سوى قليل حتى سافر كرة أخرى على ظهر بلجيكا مع الدوق أورليان، وقاما برحلة اكتشافيه علمية في بعض أنحاء الجزيرة الخضراء (جرينلان)، وحصلا على مجموعة نادرة من الحيوانات القطبية؛ وبعدئذ قاما برحلة أخرى فيما وراء الجزيرة الخضراء ووصلا إلى الحاجز الثلجي الأكبر، واكتشفا أنحاء لم تكتشف من قبل. وقد نشر دي جيرلاش رسائل شائقة عن رحلاته، ثم عهدت إليه الحكومة البلجيكية بإدارة القسم البحري، ومن آثاره في هذا القسم إنشاء السفينة البحرية المدرسية (مركاتور) التي اشتهرت بطوافها في أنحاء العالم.

وكان دي جيرلاش عضواً في عدة جمعيات علمية أو مراسلاً لها، ومن أشهر آثاره، كتاب نشره في فاتحة الحرب، وكان له دوي عظيم، بعنوان (الأمة التي لا تريد أن تموت)

جائزة نوبل للسلام

نعرف أن من بين جوائز نوبل الشهيرة، جائزة نوبل الشهيرة، جائزة للسلام، تمنح كل عام لمن يتفوق في خدمة قضية السلام سواءً كان من رجال السياسة أم التفكير؛ وقد نال جائزة نوبل للسلام في الأعوام الماضية عدة من كبار الساسة الأوربيين، مثل السير أوستن تشمبرلن وزير خارجية إنكلترا الأسبق، والمرحوم المسيو ارستيدبريان رئيس وزارة فرنسا ووزير خارجيتها الأسبق، والمرحوم الدكتور شتريزمان وزير خارجية ألمانيا الأسبق؛ وقد فاز أخيراً بجائزة نوبل للسلام عن سنة 1933، المستر ارثر هندرسون زعيم حزب العمال البريطاني، ووزير خارجية إنكلترا في وزارة العمال، ورئيس مؤتمر نزع السلاح الملحق بعصبة الأمم، وذلك لما قام به في مؤتمر نزع السلاح من جهود لتأييد قضية السلام؛ وفاز بجائزة نوبل للسلام عن سنة 1934، إنكليزي آخر هو المستر نورمان آنجل الكاتب والصحفي الشهير، وذلك لما ألفه من الكتب والرسائل، ونشره من المقالات في سبيل الدعوة إلى السلام العالمي. وفي فوز الإنكليز بجائزة السلام عامين متواليين مغزى تغتبط له السياسة البريطانية.

في معرض الفن النمسوي

أقيم في فينا أخيراً معرض للتصوير والنحت لنيل الجائزة الرسمية؛ فنال المثال هربرت بكل من كارنتيا جائزة الحكومة عن معروضاته البرونزية؛ ونال المثال والترريئر من جراتز جائزة الحكومة عن معروضاته الحجرية.

القصص

من أساطير الأولين: رمز الشعر والفضيلة

إكسوس ومكريا أو عليقة السنديانة للشاعر الفرنسي

هيجيسيب مورو 1810 - 1838

بقلم احمد حسن الزيات

في ذات يوم لا أذكر من تاريخه إلا أنه كان لعامين من موت هرقايس، كانت مدينة (دلفي) تموج بالناس وتعج بالضوضاء وتزخر بالفتوة. كان ذلك اليوم آخر أيام الألعاب الفيتونية، ومن أعجب الأشياء أن الصراع والسباق كانا يجريان على غير مشهد من أحد، والرياضيين والسواقين كانوا ينتصرون على غير علم من إنسان، حتى قيل إن الشاعر سيمندس كان ينشد رائع الشعر في الفرس المجلي ولا يستمع إليه يومئذ إلا بطله! ذلك لأن كلمة واحدة طار بها السماع فطارت بالقوم من ميدان اللعب إلى معبد أبولون!

(ها هم أولاء أبناء هرقليس! سيد أبطال الإغريق؟ وكانت أثينا منذ شهر قد استيقظت ذات صباح فوجدت هؤلاء الأبناء مخلوعين مضطهدين مشردين يتهافتون في الساحة العامة على مذبح الرحمة فثارت بها الحفيظة لشكواهم، ونزت فيها القلوب والسيوف لبلواهم، ثم بعثت بهم في هذا اليوم على رأس السفارة المقدسة إلى دلفي يستنبئون آلهتها عن مصدر هذه الحرب.

ودلفي كما تعلمين مدينة مقدسة تفيض جوانبها بالعجائب، والناس يمرون عليها وهم

عنها معرضون، وأنا كأولئك الناس في هذا اليوم، لا أريد أن أتنقل بك من البرناس إلى الهيبدروم، ولا من الهيبدروم إلى منصة أبولون، فإنك ولا شك حججت إلى هذه الأماكن منذ طويل في (سياحة أنا كرسيس)، وأنا - ولا أخفي عنك - مشوق كذلك إلى رؤية أشبال هرقليس.

كان الشعور الذي استولى على الإغريق لدى رؤيتهم أولئك الأبطال يترجم عنهم هذا الهتاف الإجماعي الصاخب: (يا للآلهة الخالدين! ما أوفى القوام وما أصلب العضل!

وكان في الجمع شيخ سبط العظام. تحسبه وفي يده عصاه المذهبة، وعلى جبينه عصابته البيضاء، ملكاً من ملوك الإغريق العشرين، مال على كاهن من كهنة أبولون، وهو يجتاز المعبد حاملاً مبخرة من مباخر العطور، وقال له في صوت خافض:

- لقد عرفت هرقليس وزوجته ديجانير حق المعرفة، فما عرفت لهما غير ثلاثة بنين، فمن إذن هذه العذراء المنتقبة التي تجلس مع أبناء هرقليس على مقعد واحد؟

- كلامك يا أبي الحق لا مرية فيه، فليس لهرقليس من ديجانير غير ثلاث بنين ولكن له زوجته الأخيرة (يول).

- فقاطعه الشيخ قائلاً: صحيح؟ ثم ضرب على جبينه بإصبعه علامة التذكر وقال: لقد روى لي (فيلوكتيت) هذا الحديث عشرين مرة؟ ولكن قرنين من الزمان يدوران على الرأس لابد لأن يضعضعا فيها الذاكرة! نعم أذكر الآن أن هذا الزواج أعقب بنتاً. . .

فارتفع من وراء الشيخ صوت ندي عذب بهذه الجملة:

- بنتاً وابناً يا أبي

فالتفت الشيخ فرأى يافعاً شاحب اللون هش العظام، في زي أهل الأرجوليد يردد في احتشام وخجل:

- بنتاً وابناً هما إكسوس ومكريا

فبتسم الشيخ ضاحكاً من الغلام، وقال للكاهن: أنظر! في (بيلوس) يهتف الناس بعلمي، وفي (ارجوس) يرسلون إلى تلاميذهم ليعلموني. . .

ثم قال للغلام: من الذي أنبأك هذا يا بني وماذا تسمي؟ ولكن الفتى لم يتحمل ملاطفة نسطور (وهو الشيخ) فأفلت منه وغاب في زحمة الناس دون أن يجيب.

وكان ذلك الهتاف لا يزال يدوي في الفضاء لا يعتريه فتور ولا يناله تغيير:

ولعلك تعجبين من هذا (!يا للآلهة الخالدين! ما أوفى القوام، وما أصلب العضل) الإطراء؛ وتحملينه على محمل الاستهزاء، ولكنك تذكرين أننا في بلاد قسمتها طبيعة الأرض ومطامع الناس إلى عشرين دولة صغيرة، يتضارب أقيالها الصيد من شدة الزحام بالمرافق والمناكب، وكان العرف الدارج في الأمم القديمة أن يقتتل الناس رجلاً لرجل، وجسماً لجسم، وجعلوا قوة البدن جماع القوى وملاك الفضيلة، وكانوا يتوسمون مخايل الكفاية والفضل في قبضة اليد وقوة الكتف، كما نتوسمها نحن اليوم في أسرار الجبهة ولمحات العين، وحسبك أن هرقليس رمز القوة ومثالها كان إلهاً.

تأثر ظهور الكاهنة الوسيطة التي يتكلم بلسانها الإله، ولكن أحد لم يسمع هنين السأم، ولم يلمح عبوس الانتظار لأن الجمهور كان يجد في ما يرى غذاء لفضوله ورياً لشوقه، كان يرى هيلوس بكر هرقليس أو أكبر الأخوة، وهو محارب عملاق عاري الذراعين مجدول العضلات مطهم الوجه، فيجده وعلى منكبيه جلد الأسد، وفي يديه الهراوة العقداء، أشبه بأبيه من الليلة بالليلة، ثم يرى أنتينور، هو سوغ هيلوس وأدق منه ملامح وأرشق قامة. كان يتشح بقداسته الجديدة، ويبتسم لشباب الإغريق، منفوخان يتنسمان عبير الإعجاب في نشوة ولذة. وعلى الجملة كان الإله أنتينور شديد الخيلاء والصلف.

أما أخوهما (إيجسط) فكان لا يشبههما في شيء غير القوة والشهامة. كان وجوده في هذا العصر وفي هذا المصر خطأ صارخاً في تقويم الزمن، وأعجب شيء فيه أنه كان أشقر الشعر ساهم الوجه منقبض المزاج، وانقباض المزاج عاطفة عصرية مسيحية.

ثم كان يرجع من المعارك الدامية الشعواء إلى الدار عذب الروح حيي الطبع، كأنه أحد أولئك المحاربين الشقر من أهل الشمال: يصرعون المردة والأغوال، ثم يطأطئون الهام ويحرمون الكلام أمام عصا ساحرة صغيرة. كان وهو يتحسر على عرش (أرجوس) كأنما يأسى على شيء أعز عليه من عرش! فإلى أين إذنكانت تصعد زفراته

وتتبخر دموعه؟ أإلى بيت صديق، أم إلى قبر أم؟ علم ذلك عند الله، فان سره لم يسافر عن ضميره إلى أحد، حتى أخته الفتاة مكريا، وهي أمينة سر الأرة لم يفض إليها بذات صدره. وكانت مكريا جالسة إلى جانبه تصلي. . عفواً يا أختاه! لقد شغلت بالأبطال عن العذراء، ولكنها هي الملومة! أنظري! إنها مستترة في ظل أخوتها، كأنها تحرص على أن تغفلها العيون. إنها لم تكشف عن وجهها النقاب بعد، فقسماتها لا تزال مجهولة، ولكنك أسلفت لها الحب ولا شك، لأنك سمعت منذ قليل أنها وديعة تقية وأخيراً أعلنوا ظهور الكاهنة الوسيطة. وكان الوهن لا يزال بادياً عليها من أثر ما أصابها من اختلاج الأعصاب في وساطتها الأخيرة بين الآلهة والناس. فهي تجر نفسها جراً من الإعياء والجهد، حتى بلغت المنصة متكئة على كاهنين من كهنة أبولون. حينئذ انفتح في جوف المحراب باب على مصراعيه فاقتحمته هبة عريضة من الهواء العازف، فقشعت دخان القرابين وهزت الجمع الحاشد فضج الناس قائلين: (الإله! هذا هو الإله!) وعندئذ اضطربت النيبة المعذبة في المنصة اضطراب الذبيح. فجشعت الأصوات وأصغى القوم بدأت الكاهنة أمرها بالشهيق، ثم اتبعته بمقاطع من الأنين والضراعة، ثم انتهت إلى كلمات ذاهلة لا تسفر عن معنى، ثم تكلم الإله بلسانها فقال:

إن (منيرفا) ستقاتل. . .! وعلى خوذتها الإلهية)

ستصيح البومة: (إني عطشى) ويذهب جهدها باطلاً تدعونو منيرفا آلهة النصر وآلهة النصر أختها فلا تخذلها. . .

. . .إني أسمعها وهي قادمة تئز أجنحتها في الهواء

ولكن البومة تصيح: إني عطشى! وأريد أن أرتوي بالدماء. . إن أرجوك تنتظر ملوكها لتؤلههم:

اضطربي وميدي يا ارجوس! إن البومة في طيرانها السفاح تحوم في الجو باحثة عن جبهة نقية تضحيها

(إنها تحوم تحوم ثم تقع على. . . ولد من أولاد هرقليس

وفي هذه الساعة الرهيبة العصيبة على أبناء هرقليس، لم يكن في المعبد من ملك نفسه وضبط حسه غير أبناء هرقليس! على أن الكاهنة لم تكد تمسك عن الكلام حتى صاح بها هيلوس:

- عيني الضحية بالاسم

ولكنها كانت تتساقط من الضعف على درج المنصة ولم يبق منها إلا رمق. فقال كبير الكهنة: إن الإله كان جبار القلب غليظ الكبد، فإذا استأنفت التجربة قتلها ولا شك. فليقدم أحد أبناء هرقليس نفسه.

فارتفع من بين الجمع ذلك الصوت الرخيم الذي تكلم منذ هنيهة من وراء نسطور وقال: أنا أقدم نفسي فقال له الكاهن في لهجة قاسية: (من أنت؟ وماذا تسمى؟) فأجابه الغلام: (أنا ابن هرقليس وأسمي إكسوس)

فانفجر الناس بأصوات الدهش لهذا الجواب المفاجئ ثم قال قائل منهم يتهكم: (إذا صدق قولك فقد صدق اسمه وستعلمين يا أختاه أن إكسوس كلمة يونانية معناها العليقي، فكان

أبويه عندما ولد وسماه بهذا الاسم احتقاراً لشكله واستصغاراً لشأنه. والحق أن هذا المخلوق الهش يشبه في انتسابه إلى هذا العرق القوي ذلك النبت الطفيلي الرخو الذي تعبث به الريح وهو قائم على جذوع السنديان.

دلف (تينور) إلى الغلام وقال له بلهجة الحانق المتوعد: (لقد منعناك أن تتبعنا إلى دلفي. . .) ولكن ابنة هرقليس التي ظلت إلى تلك الساعة ساكنة ساكتة محتجبة، ألقت نفسها بين الأخوين فقطعت من بينهما الشر، ثم أخذت الصغير من يده وخرجت به من المعبد وهي في صمم عن نداء هيلوس يدعوها إليه، وفي ذهول عن هتاف الإعجاب الذي انبعث عن يمينها وعن شمالها، لأن نقابها انحسر من ذات نفسه لسرعة المشي وشدة الحركة فبدت مكريا للعيون بارعة الجمال رائعة الحسن لطيفة الروح، وقد زاد في جمالها تلك الشفقة التي تجلت في صوتها وفي عينها؛ والشفقة عاطفة تجمل القبح، فكيف يكون أثرها في الحسن؟

عادت أسرة هرقليس كلها إلى أثينا في مركبة واحدة، وقد عقد الأبطال الثلاثة فلوبهم على أن يقترعوا بينهم غداً في معبد منيرفا ليعلموا أيهم يجب عليه أن يموت. وكان

إكسوس المسكين قد جاء في اختيال ومرح يضع اسمه مع أسماء أخوته في الصندوق ولكنهم منعوه ودفعوه معتقدين أن من الإهانة للآلهة أن يهيئوا للقدر - وهو في أغلب أمره ساخر عابث - الفرصة ليقدم إليه هذا القربان الأعجف. أما أخته مكريا فلم يشاءوا أن يعرضوها معهم على رغبة الموت لسبب آخر غير سبب إكسوس؛ لقد كانت خطيبة (ليكوس) وهو زعيم من زعماء أثينا ذوي الرأي المسموع والأمر النافذ، (وأثينا هي التي غضبت لهم تلك الغضبة وشهرت دونهم السيف) فهم يحرصون لسبب سياسي أو أدبي على ألا يقطع الاستعداد للتضحية الاستعداد للزفاف لذلك وجدت مكريا غرفتها بعد عودتها تضوع بعبير الألطاف والتحفالتي قدمها (ليكوس) ولكن نفسها وهي تتسلف الحداد علة أخ من أخوتها لم يهزها كرم الهدايا ولم يسرها جمال التحف. على أنها رأت إكليل الزفاف مصوغاً من الزنبق الجميل النضر، فحملته ووضعته على جبينها من غير إرادة ولا وعي. وفي هذه اللحظة سمعت من خلفها زفيراً يتصعد في ضعف فالتفتت فإذا هي ترى إكسوس، إكسوس أخاها الذي جمعت له في قلبها الأم والأخت في وقت معاً، إكسوس الذي عنيت به وأقبلت
عليه لأنه عليل الجسم مبذوء الهيئة، إكسوس الذي لا يخطو بالبيت خطوة إلا بابتسامة من مكريا تبدل بؤسه وتجدد أنسه، فإذا غابت عن الدار غاب عنه الأنس واستولت عليه الوحشة.

كان ينظر إلى الزهور الرمزية والدمع يجول في عينه، والهم يعتلج في صدره والألم الممض يرتسم على أسرار وجهه، فاستطير فؤاد أخته من الخوف عليه، لأنها تعودت أن تراه يشكو ويتألم منذ أثني عشر عاماً فلم تجده يوماً على مثل هذه الحالة من الكمد المقلق واللوعى الأليمة؛ فأقبلت عليه تعتذر إليه وتسري عنه، وتقول:

- أوه! أعفو عني وأغفر لي يا طفلي المسكين!

- أنا أعفو عنك وأغفر لك يا مكريا؟ علام إذن والسعادة التي غمرت بها قلبي وعمرت بها وجودي؟

- . . . . . لا تشكري لي عنايتي بك؛ ذلك دين أقضيه. . . . . ذلك تكفير أؤديه

فانبعث من عين الفتى المشدوه نظرات ضارعة تسأل أخته حل هذا اللغز، فقالت له: (سمعك إلي! منذ أربع سنين (كان عمرك يومئذ ثمان سنوات وعمري أربع عشرة جرت في أسرتنا حوادث عجيبة وأمور خارقة لم يصل علمها بأبي ولا بأخوتي لعلك تذكر ذلك الكوخ الذي بنوه على شاطئ البحر ليختفوا فيه عن أعين المضطهدين الكثيرين الأقوياء. كنت فيه ذات مساء وكان أبي وأخوتي في الصيد، وكنت أنت منهوك القوى ومن كثرة ما جريت في الغاب طول النهار فاستسلمت على هدهدة المطر والريح لنوم ثقيل وكان الليل قد أقبل منذ حين، وأبي وأخوتي لم يقبلوا بعد، فسمعت قارعاً يقرع الباب فذهبت أفتحه وفي حسباني أني أجد الصيادين والصيد ولكني وجدت عابر سبيل يطلب الدفء والمأوى برهة من الزمن فأدخلته، ثم جلست إلى جانب سريرك واشتغل هو بتجفيف ثيابه على نار الموقد؛ وما كان اشد دهشتي حين رأيت نوراً لطيفاً يتلألأ على شعره الأشقر! عزوت ذلك النور بدياً إلى انعكاس النار التي في الموقد، لكن الموقد خبى وغرة المسافر ما تزال مشرقة! حينئذٍ أدركت أنه أبولون، الذي طرد من الأولمب فهام متنكراً في العالم على وجهه، ثم بقيت على رغم تنكره بقايا النور من هالته.

فجررت جاثية أمامه، وقلت ماذا تبتغي مني أيها الإله العظيم؟ فقال: (لا شيء غير المأوى!

على أن المطر قد كف والجو قد صفى، فأنا ذاهب، وسأقبلك قبلة الوداع) فتقدمت واجفة القلب مضطربة الحواس إلى عمي وقدته من يده إلى مرقده وقلت له: (الأولى أن تلاطف هذا الصبي المسكين فإنه لم يظفر بعد بملاطفة إله؛ ألمس وجنته الذابلة فتنظر وانفخ في شفته الباردةفتغنى).

فتبسم أبولون لرجائي، ودنا منك فنفث في فمك من روحه؛ ولكن نفثته كانت قوية مضطرمة، فسرت إلى قلبك فأفعمته وأشعلته، من أجل ذلك كان قلبك يحترق ولا يفتر عن الوجيب! ومن أجل ذلك كان جسمك يذوي وروحك لا تستجيب. . . هأنذا وقفتك على جلية الأمر فهل تصفح عني؟

فما كان جواب إكسوس إلا ان قبل أخته، فقالت له: إن برهان عفوك عني أن تنقاد لي

وتسمع مني؛ قل يا قليل الحكمة: بأي معجزة نجوت من الموت جوعاً وظمأت في طريقك الطويل من أثينا إلى دلفي؟
فقال إكسوس: أوه! كنت من الصباح إلى المساء أسترجع النشاط بالغناء، وأستفتح الأبواب بالنشيد، فكلما دلني الدخان على وليمة في أحد البيوت طرقت الباب وأنشدت الأغنية فيفتح لي أهله وينزلونني خير منزلة.
فتبسمت مكريا وقالت: أغنية عجيبة! هل لك أن تعلمنيها يا إكسوس حتى أغنيها أنا أيضاً في ذهابي إلى دلفي أو إلى الأولمب؟
فتمنع إكسوس وتدلل عادة المغنين في كل عصر، ثم نزل على مشيئة أخته بعد رجاء قليل:
أغنية إكسوس
افتحوا! أنا إكسوس المسكين، أنا عليقة السنديانة التي تمر عليها هبة الريح تمت! منذ أثني عشر عاماً سقط قزم من جلد الأسد الذي يتنكبه هرقليس، فكنت أنا ذاك القزم. كان أبي لا يحبني لأنني كنت صغير الجثة رقيق البدن، وحينما كنت أصطدم بركبتيه وأنا طفل كنت أسمع فوق رأسي زمجرة كزمجرة العاصفة. وكان أخوتي يضربونني كلما دعوتهم أخوتي؟ ومع ذلك أريد أن أعيش، لأن لي أختاً تحبني وتحنو عليّ، هي الجميلة الكريمة مكريا.
افتحوا! أنا إكسوس المسكين! أنا عليقة السنديان التي إن تمر عليها هبة الريح تمت.
2
قال لي أخوتي ذات يوم: (اجتهد أن تكون صالحاً لشيء. . تعلم إقامة التماثيل وشيادة الهياكل، فلعللنا نصير يوماً آلهة) فحاولت أن ألبي مبتغى أخوتي، ولكن الأزميل والمنحت كانا ثقيلين على يدي! ثم كانت هناك رؤى غريبة تطوف بيني وبين جنادل (باروس) وكانت إصبعي الناحلة الذاهلى تخط في التراب اسماً لا تخط غيره اسم أختي الحبيبة مكريا. .
افتحوا! أنا إكسوس المسكين! أنا عليقة السنديانة التي إن تمر عليها هبة الريح تمت.
3
حينئذ قال لي أخوتي: (إن في مضيفنا شيخاً من شيوخ الكلدان يقرأ في صفحة السماء أسرار الغيب وأنباء المستقبل، فاستمع إليه، وتثقف عليه، ثم قل لنا في مطاوي السحب كنوزاً أو نصراً) فسمعت من الشيخ، ثم قضيت ليالي طويلة أرصد النجوم والغيوم فلا أرى كنوزاً ولا نصراً. إنما كنت أرى عيون السماء تنظر إلي نظر المحب كأنها عيون مكريا. . .
افتحوا! أنا إكسوس المسكين! أنا عليقة السنديانة التي إن تمر عليها هبة الريح تمت.
4
حينئذ قال لي أخوتي: (خذ قوساً ونشاباً وأخرج إلى الصيد في الغاب فجبت الغاب بقوسي ونشابي، ثم لم ألبث أن نسيت أخوتي وذهلت عن صيدي. وبينما كنت أسمع غناء الرياح وتغريد البلابل أقبلت ظبية فأكلت طعامي من جيبي، ثم جاء طائر صغير أعياه طول الطيران فنام في كنانتي، فحملته إلى مكريا.
افتحوا! أنا إكسوس المسكين! أنا عليقة السنديانة التي إن تمر عليها هبة الريح تمت.
5
حينئذ قال لي أخوتي: (أنك لا تصلح لشيء) ثم ضربوني، ولكنني لم أبك، لأن فكري كان مشغولاً بأختي! وغداً سيأخذون مني مكريا! وغداً ستسأل وهي جالسة في حفلة الزفاف: ما هذا الدخان الذي يسطع هناك وراء الغار؟ فيجيبها المدعوون: (لا شيء إنها محرقة! إكسوس المسكين، عليقة السنديانة التي عصفت بها الريح فجعلتها كالرميم).
فصاحت الفتاة وقد ملكها الحنان وأدركها الجزع: كلا إنك ستعيش! وسأجعلك في قلبي، حتى إذا ثارت العواصف الهوج لا يمسك منها أذى. إن (ليكوس) سعيد محبوب، وعذارى أثينا كثيرات يفتحن له دورهن وصدورهن. أما أنت أيها الفريد الشريد الموجع، فإليك وحدك كل أيامي وأحلامي وحبي.
ثم نزعت من فوق جبينها الأبلج إكليل (خذ يا أخي، خذ يا شاعري! هذا ثمن أغنيتي) الزفاف وألقته مبللاً بالدمع تحت قدمي إكسوس! فأراد إكسوس أن يجيب، ولكن التأثر

المفاجئ صعق الصبي المسكين فلم يستطع إلا أن يقول بصوت خافت: (أوه! ثم وضع يده على قلبه وخر مغشياً عليه! ثم بات طول الليل يتضور من شدة الحمى، وأخته بجانبه لا يغمض لها جفن، ولا يرقأ لعينها دمع.

وكان الغد موعد أبناء هرقليس إلى المعبد ليقترعوا هناك على الضحية. فتقدموا إلى الهيكل كما يتقدمون إلى المعركة: قلوبهم فارغة من الهم، ورءووسهم مرفوعة من العزة؛ ثم جرت المراسم المألوفة وهي لا تختلف عما رأيناه في دلفي. واقبل كاهن من كهنة (منيرفا) فأجال الأسماء في الصندوق، ثم تقدم طفل معصوب العينين إلى الإناء المقدس يستخرج منه حكم الموت. فلم تكد يده تلمس حافته حتى دوى على عتبة المعبد صوت امرأة يقول: (قف! هاكم الضحية. .)

وكان ذلك الصوت صوت مكريا وهي تتقدم إلى المذبح كاسفة اللون، كاملة الأهبة، تنوس على جبينها الأزهر الجميل عصبة الذبيحة. فدلف إليها إيجسط وقال: أهنا أنت يا أختاه لقد وعدتني أن تتخلفي لتقومي على سرير إكسوس. فقالت وهي تغالب الدمع وتحبس الزفرة: إن إكسوس مات! وليس الآن ما يمنعني أن أفديكم بنفسي. ثم تابعت سيرها البطيء إلى الهيكل بين تصفيق الجمع وإذعان الإخوة. ثم جثت مكريا أمام المذبح وعوقت بالإشارة مدية الذابح العجلان حتى تلقي على أخوتها ابتسامها الأخير، ثم أغمضت عينيها، وأزاحت الغطاء عن ثدييها، وكانت بعد دقيقتين جسداً يضطرب على مذبح الهيكل!

ثم أضرموا النار وجعلوا منها لإكسوس ومكريا محرقة واحدة! وعندئذ رأى الناس شيئاً يصعد من اللهيب إلى السماء، رفاف الأجنحة ناصع الريش رائع الرواء!

وهكذا كانت الفضيلة (مكريا) في العصور الخوالي تكفل الشعر (إكسوس) وتلهمه. والفضيلة والشعر أجمل ما في الحياة وأنبل ما في الإنسان!

العدد 78 - بتاريخ: 31 - 12 - 1934

. . .الراديو و (الشاعر)

ألفت منذ سنين أن أزور رمضان في ربوعه الأصيلة، ومغانيه الباقية. ومن لم يشهد رمضان في حي الحسين، أو في حي الحسينية، أو في أمثالهما من الأحياء القديمة لم يشهد قداسته المهيبة وجلالته الباهرة!

كنت في إحدى الليالي الزّهر أخرج متى استيقظت المشاعر من فترة الصيام، وسكرة الطعام، فأعبر القرون العشرة التي تفصل بين قاهرة الملك فؤاد وقاهرة الخليفة المعز، فأجد رمضان العظيم قد نشر بنوده، وأعلن وجوده، في كل شارع وفي كل منزل! فهو خير يتدفق في البيوت، وبشر يتهلل في الوجوه، وأنس يتطلق في المجالس، وذكر يتضوع في المساجد، ونور يتألق في المآذن، وسمر ينتقل في الأندية، ونفحات من الفردوس ترطب القلوب، وتلين الأكباد، وترف على ما ذوى من العواطف فالحوانيت سامرة وإن لم تبع، والمصانع ساهرة وإن لم تنتج، والأبهاء عاطرة بحديث الأحبة حتى نصف الليل، والأفنية عامرة بذكر الله حتى أول السحر. أما كثرة الناس فقد أخذوا مجالسهم من قهوات الحي وباتوا ينضحون (مزاجهم) الظامئ بالفناجيل الرويّة، ويشققون أحاديثهم الطلية بالنكات المصرية، ثم يستمعون في خشوع العابد وسكون العاشق ولهفة الطفل إلى القصاص أو الشاعر، وقد طوفت به أشباح القرون، وغمغمت في صوته أصداء الزمن. يتربع في صدر المكان على منصة عالية من الخشب العتيق، وهو في سمته وهندامه ولهجة كلامه وطريقة سلامه نموذج العامي الأديب، ومثال الحضري المثقف: حفظ كثيراً من الأشعار فاكتسب ظرف الأدب، وروى صدراً من الأمثال فاكتسى وقار الحكمة، ووعى طائفة من الأخبار فاتسم برقة المنادمة. وهو إلى ذلك بارع النادرة، دقيق الفطنة، عذب المفاكهة، حاضر الجواب، يؤدي هذا إلى الجمهور الغرير الساذج دعوة الواعظ، وأمانة المعلم، ورسالة الأديب هاهو ذا قد فرغ من احتساء القهوة، وجباية النقوط ومبادلة السامع المعتاد جميل التحية، ومسارقة الزائر الممتاز رغيب المنظر؛ ثم أخذ يحتفل للقصص أو الإنشاد، فاحتسبت قهقهة (النكتة)، وانقطعت قرقرة (الجوزة)، وانتشرت سكينة الجد في القهوة، واتجهت عيون الجميع إلى المنصة، ثم رن في سكون القوم ذلك الصوت العريض المتزن يرسل الكلام والأنغام في ترجيع مؤثر، وتقطيع معبر، وتنويع مطرب؛ فهو يفخم ويرقق، ويقسو ويلين،

ويأنف ويستكين، ويثور ويهدأ، ويسخط ويرضى، ويتدلل ويتذلل، ويتحمس ويتغزل، كأنه في تعاقب ذلك كله عليه الأوتار الطيعة تحت الأنامل اللينة البارعة، فيملأ الآذان بالنغم، والأذهان بالفكر، والقلوب بالشوق، والمشاعر باللذة

ذهبت ليلة الأمس على عادتي أرود المعاهد، وأجوس الديار، وأستنشي ما بقي على أطراف الزمن من عبير الفاطميين، فوجدت القاهرة الشرقية لا تزال تتحدى القاهرة الغربية بمساجدها ومدارسها ومستشفياتها وخاناتها وحماماتها وأسواقها، وتعلن بشهادة هذه الآثار أن حضارتها العربية الخالصة إنما كانت تقوم على الدين والعلم والمدنية والإنسانية والعمل، وتزعم بأدلة الاختبار أن هذا المظهر الحسي القوي الرائع الذي يميز حضارة الغرب من حضارة الشرق إنما يرجع إلى أن هذه تقوم على الروح، وتلك تقوم على الآلة، وهذه تصدر عن العاطفة والإيثار، وتلك تصدر عن المنفعة والأثرة؛ والميزة التي ينبغي أن تكون لحضارة على حضارة إنما هي ضمانة السعادة للناس، وتحقيق السلام للعالم

ولكن أين صديقي الشاعر، وأين أخوه القصاص! هذا هو الحي، وهذه هي القهوة، وهؤلاء هم الناس، ولكني وجدت في مكان الأريكة المنجدة، والحلة المفوفة، والعمامة الفردة، صندوقاً من الخشب، دقيق الصنع، أنيق الشكل، قد علق بالحائط، فأغنى غناء القصاص، وأبلى بلاء الشاعر!!

تركت هذه القهوة ومضيت أتحسس في زوايا الحي وحنايا السوامر ذلك الصوت الذي كان ينبعث من جوف الماضي السحيق شادياً بالمجد والنبل والبطولة، فلم أجد له - وا أسفاه - جرساً ولا صدى!!

لقد هزم الراديو الشاعر في كل قهوة، كما هزمت الآلة الإنسان في كل عمل! ففي كل مقهى من هذه المقاهي (البلدية) آلة من هذا الاختراع العجيب تغري الأذواق العامية بالفن، وتروض الآذان العصية على الموسيقى، وتنبه العقول الغافلة إلى العلم، وتحبب النفوس المستهترة في الأدب؛ فهي تقرأ القرآن، وترسل الألحان، وتذيع العلم، وتشيع اللهو، وتنشر البهجة! ولكني مع ذلك عظيم الأسف على موت القصاص، شديد الأسى على فقد الشاعر!

فإن مخاطر الشهامة (لأبي زيد)، ومواقع البطولة (لعنترة)، ومواقف النبل (لسيف بن ذي يزن)، أصلح لتهذيب العامة فيما أظن مما يبثه المذياع كل يوم من النوادر الوضيعة، والأناشيد الخليعة، والألحان الرخوة!

أحمد حسن الزيات

السطر الأخير من القصة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

رجعت إلى أوراق لي قديمة، يبلغ عمرها ثلاثين سنة أو لواذها، تزيد قليلاً أو تنقص قليلاً؛ وجعلت أفلي هذه الأوراق واحدة واحدة، فإذا أنا على أطلال الأيام في مدينة قائمة من تاريخي القديم، نائمة تحت ظلمائها التي كانت أنوار عهد مضى؛ وإذا أنا منها كالذي اغترب ثلاثين سنة عن وطنه ثم آب إليه، فما يرى من شيء وكان له به عهد في أيام حدثانه ونشاطه إلا اتصل بينهما سر. ومن طبيعة القلب العاشق في حنينه أن يجعل كل شيء يتصل به كأنه ذو قلب مثله له حنين ونجوى!

وذلك التلاشي المحفوظ في هذه الأوراق، يحفظ لي فيها وفيما تحتويه نفساً وطبيعة كانتا نفس شاعر وطبيعة روضة، في عهد من الصبى كنت فيه أتقدم في الشباب وفي الكون معاً، كأن الأشياء تخلق فيّ خلقاً آخر؛ فإذا قرضت شعراً واستوى لي على ما أحب؛ أحسست إحساس الملك الذي يضم إلى مملكته مدينة جديدة؛ وإذا تناولت طاقة من الزهر وتأملتها على ما أحب، شعرت بها كأجمل غانية من النساء توحي إلي وحي الجمال كله؛ وإذا وقفت على شاطئ البحر ترجرج البحر بأمواجه في نفسي، فكنت معه أكبر من الأرض وأوسع من السماء. أما الحب. . .؟ أما الحب فكانت له معانيه الصغيرة التي كضرورات الطفل للطفل، ليس فيها كبير شيء، ولكن فيها أكبر السعادة، وفيها نظرة القلب

عهد من الصبى كانت فيه طريقة العقل من طريقة الحلم؛ وكانت العاطفة هي عاطفةً في النفس، وهي في وقت معاً خدعة من الطبيعة؛ وكان ما يأتي ينسي دائماً ما مضى

ولا يذكر به؛ وكانت الأيام كالأطفال السعداء، لا ينام أحدهم إلا على فكرة لعب ولهو، ولا يستيقظ إلا على فكرة لهو ولعب؛ كانت اللغة نفسها كأن فيها ألفاظاً من الحلوى؛ وكانت الآلام - على قلتها - كالمريض الذي معه دواؤه المجرب؛ وكانت فلسفة الجمال تضحك من فيلسوفها الصغير، الواضح كل الوضوح، المقتصر بكل لفظ على ما يعرف من معناه، المتفلسف في تحقيق الرغبة أكثر مما يتفلسف في تخيل الفكرة!

هو العهد الذي من أخص خصائصه أن تعمل، فيكون العمل في نفسه عملاً، ويكون في نفسك لذة

في أوراقي تلك بحثت عن قصة عنوانها (الدرس الأول في علبة كبريت) كتبتها في سنة 1905، وأنا لا أدري يومئذ أنها قصة يسبح في جوها قدر روائي عجيب، سيأتي بعد ثلاثين سنة فيكتب فيها السطر الأخير الذي تتم فلسفة معناها

وهأنذا أنشرها كما كتبتها؛ وكان هذا القلم إذ ذاك غضاً لم يصلب، وكان كالغصن تميل به النسمة، على أن أساس بلاغته قد كان ولم يزل، بلاغة فرحه أو بلاغة حزنه؛ وهذه هي القصة:

غلام فلاح، قد شهد من هذه الدنيا تسعة أعوام، مرت به (عبد الرحمن عبد الرحيم) كما يمر الزمن على ميت لا تزيده حياة الأحياء إلا إهمالاً؛ فنشأ منشأ أمثاله ممن فقدوا الوالدين، وانتزعوا من شملهم فتركوا للطبيعة تفصلهم وتصلهم بالحياة، وتضيق لهم فيها وتوسع

وهيأت الطبيعة منه إنساناً حيوانياً، لا يبلغ أشده حتى يغالب على الرزق بالحيلة أو الجريمة، ويستخلص قوته كما يرتزق الوحش بالمخلب والناب؛ ولن يكون بعد إلا مجموعة من الأخلاق الحيوانية الفاتكة الجريئة؛ فإن الطبيعة متى ابتدأت عملها في تحويل الإنسان عن إنسانيته، نزلت به إلى العالم الحيواني ووصلته بما فيه من الشر والدناءة، ثم لا تترك عملها حتى يتحول هو إليها

وألف (عبد الرحمن) في بلده حانوت رجل فقير، يستغني بالبيع عن التكفف وعن المسألة؛ فكان الغلام يكثر الوقوف عنده، وكان يطعم من صاحبه أحياناً كرزق الطير، فتاتاً وبقايا، إذ كان الغلام شحاذاً، وكان صاحب الحانوت لا يرتفع عن الشحاذة إلا بمنزلة تجعل الناس يتصدقون عليه بالشراء من هناته التي يسميها بضاعة: كالخيط والإبرة، والكبريت والملح، وغزال للولد، وكحل للصبايا، ونشوق للعجائز نسخة الشيخ الشعراني، وما لف لفها مما يصعد ثمنه من كسور المليم، إلى المليم وكسوره!

وتغفله الغلام مرة، وأهوى بيده إلى ذخائر الحانوت، فالتقطت (علبة كبريت)، كان الفرق كل الفرق بين أن يسرقها وأن يشتريها بنصف مليم. ولكن من له (بالعشرين الخردة)؟ وهي عند مثله دينار من الذهب يرن رنيناً ويرقص على الظفر رقصة إنجليزية وماذا يصنع بالعلبة؟ همت نفسه أن تجادله ولما تسكن رعشة يده من هول الإثم. ولكن الغلام كان طبيعياً ولم يكن فيلسوفاً، ولذلك رأى أن يحرز الحقيقة بعد أن وقعت يده عليها.

وقد اصطلح الناس على أن مادة السرقة هي (مد اليد) أخطأت أم أصابت، وجاءت بالغالي أو جاءت بالرخيص؛ فضم أصابعه على العلبة وانتزعها، وترك في مكانها فضيلة الأمانة التي لم يعرف له الناس قيمتها، فهانت كذلك على نفسه، وانطلق وهي تناديه: أيها الغلام، أتدفع ثمن علبة الكبريت سنتين من عمرك، وهل خلا الناس ممن يعرفون لعمرك قيمة؟

وارتد رجع الصوت الخفي إلى قلبه من حيث لا يشعر، فضرب قلبه ضربات من الخوف، ونزا نزوة مضطربة؛ فالتفت الغلام مرة أخرى، ثم أمعن في الفرار وترك الأمانة تناديه:

أيها الغلام، إن لك في الآخرة ناراً لا توقد بهذا الكبريت، ولك في الدنيا سجن كهذه العلبة، فالعب العب ما دام الناس قد أهملوك، العب بالثقاب الذي في يدك فسيمتد فيك معنى اللهب حتى يجعل حياتك في أعمار الناس دخاناً وناراً، وستكون أيامك أعواداً كهذا الكبريت تشتعل في الدنيا وتحرق

وكأن أذناب السياط كانت تلهب ظهر الغلام المسكين، ولكنه ما كاد يلتفت هذه المرة حتى كان في قبضة صاحب الحانوت، وإذا هو بكلمة من لغة كفه الغليظة، خيلت له في شعرها أن جداراً انقض عليه، وتلتها جملة من قوافي الصفع جلجلت في أذنيه كالرعد،

وأعقب ذلك مثل الموج من جماعات الأطفال أحاط به، فترك هذا الزورق الإنساني الصغير يتكفأ على صدمات الأيدي. فما أحس الغلام التعس إلا أن الكبريت الذي في يده قد انقدح في رأسه، وكانت أنامل صاحب الحانوت كأنما تحك أعواده في جلد وجهه الخشن!

وذهبوا به إلى (دوار) العمدة يقضي فيه الليل، ثم يصبح على رحلة إلى المركز والنيابة. وانطرح المسكين منتظراً حكم الصباح، مؤملاً في عقله الصغير ألا يفصح النهار حتى يكون (سيدنا عزرائيل) قد طمس الجريمة وشهودها؛ ثم أغفى مطمئناً إلى أن ملك الموت وأنه قد أخذ في عمله بجد، وأيقن عند نفسه أن سيشحذ في الخميس مما يوزع على المقبرة صدقة على أرواح العمدة، وصاحب الحانوت، والخفير الذي عهدوا إليه جره إلى المركز. . . .! وكيف يشك في أن هذا واقع بهم وهو قد توسل بالولي فلان ونذر له شمعة يسرقها من حانوت آخر. .!

هكذا عرف الشر قلب هذا الصبي، وانتهى به عدل الناس إلى أفظع من ظلم نفسه، وكأنهم بذلك القانون الذي يصلحونه به على زعمهم، قد ناولوه سبحة ليظهر بها مظهر الصالحين، ولم يفهموه شيئاً ففهم أنهم يقولون له: هذه الجريمة واحدة، فعد جرائمك على هذه السبحة لتعرف كم تبلغ!

كانت في الحقيقة لعبة لا سرقة؛ وكانت يد الغلام فيما فعلت مستجيبة لقانون المرح والنشاط والحركة، كما تكون أعضاء الطفل لا كما تكون يد اللص؛ وكان أشبه بالرضيع يمد يده لكل ما يراه، لا يميز ضارة ولا نافعة، وإنما يريد أن يشعر ويحقق طبيعته؛ وكان كل ما في الأمر وقصارى ما بلغ - أن خيال هذا الغلام ألف قصة من قصص اللهو، وأن الكبار أخطئوا في فهمها وتوجيهها. .! ليست سرقة الطفل سرقة، ولكنها حق من حقوق ذكائه يريد أن يظهر

وانتهى (عبد الرحمن) إلى المحكمة، فقضت بسجنه في (إصلاحية الأحداث) مدة سنتين، واستأنف له بعض أهل الخير في بلده؛ صدقة واحتساباً. . . إذ لم يكلف الاستئناف إلا كتابة ورقة. فلما مثل الصغير أمام رئيس المحكمة لم يكن معه لفقره محام يدفع عنه، ولكن انطلق من داخله محام شيطاني يتكلم بكلام عجيب، وهو سخرية الجريمة من المحكمة، وسخري عمل الشيطان من عمل القاضي. . .!

سأله الرئيس: (ما اسمك؟)

-: (اسمي عبده، ولكن العمدة يسميني: يا بن الكلب!)

-: (ما سنك؟)

-: (أبويا هو اللي كان سنان)

-: (عمرك إيه؟)

-: (عمري؟ عمري ما عملت شقاوة!)

النيابة للمحكمة: (ذكاء مخيف يا حضرات القضاة! عمره تسع سنوات)

الرئيس -: (صنعتك إيه؟)

-: (صنعتي ألعب مع محمود ومريم، وأضرب اللي يضربني!)

-: (تعيش فين؟)

-: (في البلد!)

-: (تاكل منين؟)

-: (آكل من الأكل!)

النيابة للمحكمة: (يا حضرات القضاة؛ مثل هذا لا يسرق علبة كبريت إلا ليحرق بها البلد. . .!

الرئيس: (ألك أم؟)

-: (أمي غضبت على أبويا، وراحت قعدت في التربة، مارضيتش ترجع!)

-: (وأبوك؟)

-: (أبويا لاخر غضب وراح لها)

الرئيس ضاحكاً: (وأنت؟)

-: (والله يا افندي عاوز اغضب، مش عرف اغضب ازاي!)

-: (إنت سرقت علبة الكبريت؟)

(. . . .دي هي طارت من الدكان، حسبتها عصفورة ومسكتها) :-
النيابة: (وليه ما طارتش العلب اللي معاها في الدكان؟)
(!أنا عارف؟ يمكن خافت مني) :-
النيابة للمحكمة: (جراءة مخيفة يا حضرات القضاة، المتهم وهو في هذه السن، يشعر في ذات نفسه أن الأشياء تخافه)
فصاح الغلام مسروراً من هذا الثناء. . (والله يا افندي إنت راجل طيب! أديك عرفتني، ربنا يكفيك شر العمدة والغفير)
وأمضى الحكم في الاستئناف، وخرج الصغير مع رجال من المجرمين يسوقهم الجند، ثم احتبسوا الجميع فترة من الوقت عند كاتب المحكمة، ليستوفي أعماله الكتابية؛ ثم يساقون من بعد إلى السجن
وجلس (عبد الرحمن) على الأرض، وقد اكتنفه عن جانبيه طائفة المجرمين يتحادثون ويتغامزون، وكلهم رجال ولكنه وحده الصغير بينهم؛ فاطمأن شيئاً قليلاً، إذ قدر في نفسه أنه لو كان هؤلاء قد أريد بهم شرٌ لما سكنوا هذا السكون، وأن الذي يراد بهم لا يناله هو إلا أصغر منهم، كصفعة أو صفعتين مثلاً. . وهو يسمع أن الرجال يقتلون ويحرقون
ويسمون ويعتدون وينهبون؛ وما تكون (علبة الكبريت) في جنب ذلك وخاصة بعد أن استردها صاحبها، وقد نال هو ما كفاه قبل الحكم؟
وما لبث بعد هذا الخاطر الجميل أن رد الاطمئنان في عينيه دموعاً كاد يريقها الجزع. غير أن القلق اعتاده فالتفت إلى كتّاب المحكمة مرة والى الجند مرة، ثم لوى وجهه ولم يستبح لنفسه أن يتجرأ على الفكر فيهم، لأنه قابل مهابتهم بآلهة بلده: العمدة والمشايخ والخفراء؛ فأدرك أن الجنود هم الحكومة القادرة، واستدل على ذلك بأزرارهم اللامعة، وخناجرهم الصقيلة، وتمشت في قلبه رهبة هذه الخناجر، فاضطرب خشية أن يكونوا قد أسلموه إلى من يذبحه، فنظر إلى الذي يليه من المجرمين وسأله (راح ياخذوني فين؟) فأجابته لكمة خفية انطلق لها دمعه، حتى أسكته الذي يليه من الجانب الآخر، وكان في رأيه من الصالحين!
ثم اتصل الجزع بين قلبه وعينيه، فهما تضطربان إلى الجهات الأربع، وكأنما يحاول أن يستشف من أيها سيأتيه الموت ذبحاً. ولم يكن فهم معنى (الإصلاحية)، وحكم القضاة عليه كأنه رجل يفهم كل شئ، ولم يرحموا هذه الطفولة بكلمة مفسرة. وعدل التربية غير عدل القانون، فكان الواجب على القاضي الذي يحكم على الطفل، أن يجعل حكمه أشبه بصيغة القصة منه بصيغة الحكم؛ وأن يدع الجريمة تنطلق وتذهب فلا يقول لها امكثي. . .
وبقي للخناجر رهبتها في نفس هذا المسكين، فلو أنهم قادوه إلى حبل الشناقة لأفهمه (الحبل) معنى العقوبة، أما وهو بين هذه الخناجر المغمدة - وفي الخناجر معنى الذبح - فإنما هو الذبح لا غيره
وطرقت أذنيه قهقهة المجرم عن يمينه فاستنقذته من هذا الخاطر، فثبت عينيه في الرجل، فإذا هو يرى وجهاً متلألئاً، وجسماً رابط الجأش، وهزؤاً وسخرية بهؤلاء الجنود وخناجرهم
واستراح الغلام إلى صاحبه هذا، وألح بنظره عليه، وابتدأ يتعلم في وجهه الفلسفة؛ وليست الفلسفة مقصورة على الكتب، بل إن لكل إنسان حالة تشغله، فنظره في اعتبار دقائقها وكشف مستورها هو الفلسفة بعينها
وقال الغلام لنفسه: (هذا الرجل أقوى من كل قوة؛ فهو محكوم عليه ولا يبالي، بل يقهقه ضحكاً؛ فهذا الحكم إذن لا يخيف. لا، بل هو تعود الأحكام، إذن فمن تعود الأحكام لم يخف
الأحكام؛ إذن يا عبد الرحمن ستتعود، فإن الخوف هذه المرة قد غطك من (علبة الكبريت) في حريق متسعر؛ وما قدر (علبة الكبريت)؟، فلو كانت السرقة جاموسة ما لقيت أكثر من ذلك؛ يا ليتني إذن. . . ولكني لا أزال صغيراً، فمتى كبرت. . . آه متى كبرت. .)
وبدأ القانون عمله في الغلام؛ فطرد منه الطفل وأقر فيه المجرم
وأطرق (عبد الرحمن) هادئاً ساكناً، وقامت في نفسه محكمة من الأبالسة، بقضاتها

ونيابتها، يجادل بعضهم بعضاً، ويداولون بينهم أمر هذا الغلام على وجه آخر
وقال شيطان منهم: (ولكنا نخشى أمرين: أحدهما أن (الإصلاحية) ستخرجه بعد سنتين
شريفاً يحترف؛ والثاني أن الناس ربما تولوه بالتربية والتعليم في المدارس رحمة
وشفقة، فيخرج شريفاً يحترف)
وما أسرع ما نفى الخوف عنهم قول الغلام نفسه بلهجة فيها الحقد والغيظ، وقد صفه
الجندي الذي يقوده إلى السجن -: (ودا كله على شان علبة كبريت. . .؟)
وفي سنة 1934 قضت محكمة الجنايات بالموت شنقاً على قاتل مجرم خبيث، عيار
متشطر، اسمه (عبد الرحمن عبد الرحيم) . . .
مصطفى صادق الرافعي
هنا وهناك
حماية التفكير وتكريم النبوغ
للأستاذ محمد عبد الله عنان
نقرأ تباعاً أنباء الجوائز العلمية أو الأدبية أو الفنية التي تمنحها المؤسسات والهيئات
العلمية المختلفة لأقطاب رجال التفكير والآداب والفنون؛ وهناك غير الجوائز المحلية
القومية التي تنظم في كل أمة لتشجيع الحركة الفكرية، جوائز عالمية ترمي إلى
تشجيع أبدع ما يخرج الذهن البشري في أي البلاد أو الأمم؛ ولعل جوائز (نوبل) هي
أشهر جوائز من هذا النوع، فهي تمنح إلى أقطاب العلم والأدب والسياسة في أنحاء
العالم دون فارق بين الجنسية أو الدين أو اللغة، ثم هي تمنح للنساء كما تمنح للرجال؛
وهذا هو أبدع ما في هذه الجوائز، فهي تقصد إلى تكريم النبوغ البشري حيث يوجد،
وهي ترتفع فوق جميع الاعتبارات القومية، ولا تنظر إلا إلى أفق الإنسانية الشاسع،
ولقد خلد ألفرد نوبل السويدي، صاحب هذه الوصية العلمية والإنسانية الجليلة، اسمه
بتأسيسها وتنظيمها بما لم يخلده فاتح؛ والواقع أن لم يكن ينقص هذا المخترع العبقري
شيء من بعد الصيت والذكرى، فقد كان عالماً ومخترعاً عظيماً، له ثبت حافل من
الاختراعات العظيمة؛ وقد كان لتجاربه واكتشافاته في أواخر القرن الماضي أثر عظيم
في تقدم الفنون العسكرية ولا سيما فيما يتعلق (بالديناميت) الذي وصل إلى اكتشافه
وتركيبه. ومن الغريب أن يتجه هذا الذهن الذي أنفق نبوغه في اختراع المفرقعات
المهلكة، إلى تشجيع النبوغ البشري في مختلف نواحي التفكير والأدب، وأغرب منه أن
يتجه إلى تشجيع السلام العالمي، فيخصص ضمن جوائزه الشهير جائزة لأي جماعة أو
شخصية تمتاز بخدماتها الجليلة لقضية السلام
وليست جوائز نوبل سوى مثل من أمثلة لا تحصى لهذا النظام المحمود - نظام الجوائز
العلمية - الذي ترتبه جميع الأمم المتمدنة لتشجيع الحركة الفكرية، وتكريم أبنائها
الممتازين بسمو التفكير والابتكار، ومعاونة الأذهان والعبقريات المغمورة على الظهور
والعمل لاستثمار كفاياتها ومواهبها في مختلف النواحي. ولنلاحظ أن هذه الجوائز
الشهيرة إنما هي من وضع فرد فقط، وإن كثيراً من الأغنياء في بلاد الغرب يحذون
مثل ألفرد نوبل فيهبون الألوف والملايين إلى الجامعات والجماعات العلمية والأدبية؛
ويرتبون الجوائز لتشجيع
الباحثين والمفكرين، وإظهار جهودهم، وثمرات نبوغهم؛ وفي كل يوم نقرأ نبأ هذه
الهبات والجوائز السنية، ونهتز إعجاباً وإكباراً لهذه النفوس والهمم الرفيعة التي تجد
مثلها الأعلى في العمل على تشجيع المثل العليا، ولا تنظر إلى المال إلا كوسيلة لإذكاء
النبوغ واستثماره لخير العلم والإنسانية. وفي هذه الأمم التي يتقدم أغنياؤها للاضطلاع
بهذه الأعمال الجليلة نجد الحكومات والهيئات العلمية الرسمية تعنى أشد العناية ببذل
هذا التشجيع المنظم للدرس والبحث والنبوغ؛ ففي الجامعات ترتب جوائز دائمة لنوابغ
الطلاب، فضلاً عن إعفائهم من أجور الدراسة، وترتب جوائز دورية مختلفة لتشجيع
البحوث والجهود العلمية الممتازة؛ ولا تكاد توجد هيئة علمية أو أدبية، إلا ولها جوائز
دورية ثابتة تمنح لكل عامل لتحقيق الأغراض العلمية أو الأدبية التي رتبت لتشجيعها.
وأمامنا مثل الجمعيات الطبية والجغرافية والتاريخية في مختلف العواصم الغربية، فإنها
جميعاً تبذل من المعاونات المادية في سبيل البحث والدرس والاستكشاف ما هو
معروف ومشهور؛ ويكفي أن نذكر أن معظم الاستكشافات العلمية والطبية
والجغرافية، تتم تحت رعاية هذه الهيئات المحترمة. بل يكفي أن نذكر أن معظم

العلماء والمستكشفين لا يستطيعون القيام بمشروعاتهم إلا بمؤازرتها المادية، وأنها هي التي أوفدت في العصر الحديث معظم المكتشفين إلى مختلف مجاهل أفريقية وأسيا والقطبين

والخلاصة أن الهيئات الرسمية والخاصة في هذه الأمم العظيمة، تتحد جميعاً في مؤازرة الحركة العلمية، وتشجيع التفكير والنبوغ بجميع الوسائل. على أن أبدع ما في هذه النزعة هو الجهود الخاصة والفردية؛ وليس مثل ألفرد نوبل وحيداً، وإن كان من أعظم الأمثلة وأبدعها؛ فهنالك في فرنسا مثلاً مشروع جائزة (جونكور) الذي وضعه الكاتب الفرنسي أدمون جونكور لتتويج الآثار الأدبية البارزة؛ وقد وهب المشروع مالاً كثيراً، وما زالت (أكاديمية جونكور) منذ أواخر القرن الماضي تمنح جوائزها الأدبية للكتاب والقصصيين النابهين، عاماً بعد عام؛ وما زالت تعتبر شرفاً أدبياً يطبع الفائزين بطابع النبوغ، ولا سيما كتاب الشباب، ويفتح أمامهم أبواب المستقبل الذهبي؛ وهنالك أيضاً أمثلة عديدة لهذه الجهود والمنشآت الفردية، كما أن هنالك صحفاً كثيرة تنشئ مثل هذه الجوائز الأدبية؛ ولهذه الجهود المتحدة بلا ريب أثرها القوي في تقدم الحركة الأدبية وازدهارها في هذه الأمم

أما نحن فلم نعرف بعد أهمية هذه المؤازرة العلمية، ولم تأخذ بها إلى اليوم جماعاتنا العلمية الرسمية؛ ولم يسغها بعد أغنياؤنا. فوزارة المعارف لم تفسح في ميزانيتها أي مجال لمثل هذه المؤازرة، لأنها لا تريد على ما يظهر أن تضطلع برعاية الحركة الفكرية العامة، وتريد أن تقتصر دائماً على شئونها الإدارية؛ ولدينا جامعة دينية عظيمة ولها ميزانية ضخمة، ولكنا لم نسمع أنها تقدمت ذات يوم لمؤازرة أي مجهود علمي حتى في دائرةمهمتها الدينية، فلم تساهم قط في تشجيع المباحث الإسلامية التي تنفق في سبيلها الجامعات الأوربية مئات الألوف تحقيقاً لمهمتها العلمية، ولم تساهم قط في إخراج أي أثر ديني أو عربي جامع؛ ولم نسمع أنها رتبت جائزة علمية محترمة؛ ولدينا الجامعة المصرية ما زالت تحتفظ بأفقها المدرسي، وما زالت بعيدة عن أن تخلق ذلك الجو العلمي الذي يمكن أن تنضوي تحت لوائه الجهود العلمية الفردية؛ ولم نعرف أن الجامعة ساهمت في تشجيع مجهود علمي فردي، ولا نعلم أنها على استعداد لذلك؛ كذلك لم تعرف الجامعة المصرية بعد نظام الجوائز العلمية والأدبية المحترمة، وإن كانت تعرف كيف تغدق على الأساتذة الأجانب؛ ولدينا عدة جمعيات علمية تتمتع بالرعاية الرسمية وبأموال الدولة، ولكنها جميعاً أجنبية في روحها وعواطفها، ولا يمكن أن تعتبر بحال ما مصرية، ولا يمكن أن تضطلع بمثل هذه المهام العلمية المحلية، التي يجب أن تتوفر لمؤازرتها عاطفة قومية لا توجد في هذه الجماعات

على أن هناك لدى جهاتنا الرسمية نزعة أخرى إلى تشجيع الجهود (العلمية) لا يمكن تجاهلها، ولكنها مع الأسف وقف على الأجانب؛ ونستطيع أن نحصي عشرات العلماء الأجانب الذين يفوزون بتعضيد الهيئات الرسمية المصرية للقيام بمختلف المهام العلمية أو لإخراج جهودهم، وهم لا يجدون مشقة في الحصول على هذه الهبات والجوائز السنية؛ ولكنك لا تجد مفكراً مصرياً استطاع أن يحظى بهذه الرعاية. ولا ريب أن تشجيع الجهود العلمية مبدأ محمود في ذاته، والعلم لا وطن له؛ ولكنه لا يقتضي الإيثار وحرمان المفكرين المصريين من كل تعضيد ومعاونة، بينما يرتع العلماء الأجانب في أموال الأمة المصرية؛ وما زلنا نذكر الضجة التي قامت منذ أشهر حول المنح المالية الباهظة التي أغدقت على أستاذ إنكليزي هو الكبتن كرزويل، لكي يخرج كتاباً له ولم يخرج منه سوى مجلد واحد،

وكان مجموع الهبات التي استولى عليها من مختلف الجهات الرسمية يبلغ بضعة آلاف جنيه؛ وهنالك علماء أجانب يتقاضون الألوف المؤلفة من الأموال المصرية لكي يضعوا كتباً معينة؛ وتطلع علينا هذه الكتب من آن لآخر باللغات الأجنبية، فلا نراها ترتفع إلى مستوى المؤلفات العلمية القيمة، ولا نرى فيها سوى كتب دعاية ينقصها الطابع العلمي المحترم؛ وما زلنا نذكر تلك البدعة التي ظهرت في الأعوام الأخيرة، وهي انتداب بعض الجهات الرسمية لبعض العلماء الأجانب الذي يؤمون مصر في الشتاء زائرين متنزهين، لإلقاء بعض المحاضرات، ومنحهم عن المحاضرة الواحدة مكافآت باهظة تبلغ أحياناً خمسين جنيهاً!

لقد كانت الرعاية العامة وما زالت أكبر عامل في تشجيع الحركات الفكرية وازدهارها.

ومع أن قسطاً كبيراً من هذه الرعاية تضطلع به الهيئات الخاصة والأفراد النابهون في الأمم الحية، فإن الحكومات والجامعات وما إليها من الهيئات العلمية الرسمية تقوم بتنظيم هذه الرعاية والسهر على توزيعها حيثما تبزغ بوادر النبوغ. ذلك أن النبوغ يعتبر في الأمم الحية ثروة قومية تجب المحافظة عليها واستثمارها وحمايتها من عوامل الخمول واليأس. ولقد مرت عصور كثيرة في تاريخنا كانت الحركة الفكرية فيها تأخذ حظها من الرعاية والمؤازرة؛ وكان العلماء والمفكرون يتبوءون أرفع مكانة وتغدق عليهم المنح والهبات الوفيرة لكي يتفتح نبوغهم ويستطيعون العمل في دعة وسكينة؛ وكان الخلفاء والسلاطين يأخذون بأعظم قسط في تشجيع الحركات الأدبية، وكان من بواعث الفخر أن يكون القصر أو العاصمة ملاذاً لأكبر عدد من الكتاب والشعراء؛ وكان من زينة العصر والدولة دائماً أن تزدهر الحركات الفكرية في ظل الرعاية الرسمية؛ وهاهو ذا الأزهر لم يعاونه على الحياة حتى عصرنا سوى التفات السلاطين إليه وتعهد علمائه وطلبته بالبذل والعون. ولم يكن الملق، دائماً، كما هو الشأن في أيامنا ثمن هذه الرعاية. ذلك أن رعاية العلم والعلماء في تلك العصور كانت تعتبر من واجبات الدولة القوية المستنيرة، وكان العلماء يعملون في ظل هذه الرعاية مستقلين في الغالب، ولم يكن يطلب إليهم دائماً أن يكونوا أذناباً أو دعاة للأسر أو الحكومات التي تشملهم برعاية يعتبرونها حقاً عاماً لهم يجب تأديته إليهم

ومن العبث أن ندعي أن الحكومات والهيئات الرسمية المصرية المختلفة قد استطاعت أن

تؤدي هذا الواجب العام أو بعضه نحو رعاية الحركات الفكرية في عصرنا. والحركة الفكرية لم تفد شيئاً من تلك الدعايات الواسعة التي تذاع حولها، وتلك المنشآت العقيمة التي تقام باسمها، والتي يراد أن تكون هياكل فقط تمجد العصر وتنسب إليه؛ وما نخشاه هو أن الجهات الرسمية ما زالت بعيدة عن تقدير هذا الواجب، بعيدة عن تأديته. إن النبوغ في مصر ما زال يعني الفقر والبؤس، إذا لم يوفق من تلقاء نفسه إلى الخروج من غمرة الظلمات والصعاب التي ينشأ فيها؛ بل نستطيع أن نقول أكثر من ذلك، هو أن النبوغ يعتبر في مصر أحياناً خطراً يخشى منه ويجب اتقاؤه؛ وعندئذ يشترى لا ليعضد ويزدهر، بل لكي يسكت ويقبر. أما أغنياؤنا فلن نطمع أن نجد بينهم واحداً يقدر واجباً لا تقدره الحكومة؛ ومن المحال أن يروا مثلهم الأعلى في رجال كألفرد نوبل يرون ذخر الإنسانية في صون التفكير الإنساني، والارتفاع به إلى ذرى التقدير والإجلال

محمد عبد الله عنان المحامي

الشيخ الخالدي

للدكتور عبد الوهاب عزام

لقيت في الآستانة منذ خمسين عاماً شيخاً جليلاً ينقب عن الكتب، ويتحدث عن نوادرها، وعرفت أنه الشيخ خليل الخالدي رئيس محكمة الاستئناف الشرعية في القدس

ثم شرفت بلقائه في مصر مرات. كان كلما قدم القاهرة تفضل فزارني في الجامعة. تقابلنا مرة فتكلم عن الكتب والمؤلفين كلام خبير بحاثة. فحرصت على لقائه والإفادة منه فراعني علم لا ينفد، وحفظ لا يخطئ

يبدأ حديثه عن الكتب، فيذكر أنه رأى كتاب كذا في مكتبة كذا، ويصف النسخة وما عليها من سماع العلماء، ثم يتكلم عن قيمة الكتاب ومكانته بين أشباهه، ويذكر المؤلف فيبين عن تاريخه ومكانته من العلم، ودرجته بين العلماء، وهلم جراً، يفضي من حديث إلى حديث، والسامع فرح بما يسمع، معجب متعجب. وقد زار مكاتب الآستانة والأناضول وفينا والشام ومصر وبلاد المغرب والأندلس، ونقب فيها عن نفائس الكتب، فأحاط بما لم يحط به سواه. والشيخ حفظه الله منقطع النظير في هذا الموضوع ما رأيت ولا سمعت بمثله

وهو من أسرة الخالدي إحدى أسر الشام العظيمة، تنسب إلى سيدنا خالد بن الوليد. وهي معروفة في التاريخ بأسرة الديري، وفيها العلماء والقضاة في الشام ومصر منذ خمسمائة وخمسين سنة

والشيخ نزيل القاهرة الآن. وقد أسعدني الجد بلقائه مرات في شعبان ورمضان هذا.

وأرجو أن أسعد أنا وأصدقائي بحديثه مرات أخرى قبل رجوعه إلى فلسطين
وقد حرصت أن أكتب عن الشيخ بعض أحاديثه دون أن أشعره بذلك، فلما اجتمعنا في
حلوان ليلة السبت ثامن رمضان، سأله بعض الحاضرين سؤالاً فشرع في حديثه،
فدونت بعض ما قاله إجمالاً، ثم عدت إليه بعد انفضاض المجلس ففصلته على قدر ما
وعيته. وإني أقدم للقارئ هنا ما حفظته عن الشيخ العلامة في ذلك المجلس:
سأل أحد الحاضرين عن المدارس ذات المكانة في التاريخ الإسلامي فقال: المدارس
النظامية كانت في بغداد والموصل، وأصفهان ونيسابور، ومرو وهراة، وكان في
نيسابور مئات المدارس: منها المدرسة البيهقية. ومدرسة ضياء الدين في سمرقند،
وكان يقيم بها
صاحب الهداية وشمس الدين الكردلي صاحب مناقب أبي حنيفة، ومدرسة الأمير
مسعود في بخارى، ومدرسة قطلغ تيمور في خوارزم، وهذه البلاد التي ذكرت كانت
من مراكز العلم، ومثلها بخارى وبلخ وفرغانه وجرجان، وكان ببخارى من معاهد العلم
مسجد كوكلتاش ومسجد كلام، ومن رجال مرو: القفال الكبير والقفال الصغير،
ومشايخ إمام الحرمين والبغوي، والسمعاني، وابن حنبل. وكان بدمشق مدارس كثيرة،
منها العمرية التي أنشأها أبو عمر بن قدامة. وهو أخو الموفق أخو قدامة صاحب كتاب
المغني في مذهب الحنابلة، وهو اثنا عشر مجلداً. ومنها المدرسة الضيائية، وكان بها
خطوط المحدثين كلهم. وهي منسوبة إلى ضياء الدين المقدسي ابن أخت أبي عمر بن
قدامة. وقد تخرج فيها ابن تيمية والذهبي، ومن مدارس دمشق دار الحديث الأشرفية،
وهي دار المتحف العربي الآن. وقد درّس بها النووي وابن الصلاح وأبو شامة،
والمدرسة العادلية، وقد درس بها ابن مالك وابن خلكان، والمدرسة الرواحية التي
تخرج فيها النووي، وصارت الآن من دور آل الغزى، والمدرسة التي درس بها ابن
القيم، وهي بقرب بيت العظم. وكانت بيوت العلم في الشام بني قدامة، وبني تيمية،
وبني عساكر، وبني عبد الهادي، وهؤلاء من مشايخ الذهبي
ثم انتقل الحديث إلى الفخر الرازي، فقال في أثناء كلامه: إن الرازي من بني أبي بكر
الصديق، فتعجب الحاضرون، فقال: ومن ذرية الصديق أيضاً جلال الدين الداوني،
وعضد الدين صاحب العقائد، وأبو اسحق الشيرازي، والفيروز آبادي، قلت وجلال الدين
الرومي. قال: نعم، وجلال الدين، وأين جلال الدين من هؤلاء، قلت: لكل وجهة، ثم
سئل الشيخ عن بني عمر بن الخطاب في العلماء فقال: منهم السهروردیون من
المتصوفة، ومنهم الفنري. وكان في بخارى جماعة منهم. وكان تيمور لنك يجلهم كل
الإجلال، قال: وصدر الشريعة من بني عبادة ابن الصامت، وليس كل من نشأ في بلاد
الفرس فارسياً، فأبو داود السجستاني، والترمذي صاحب الشمائل، والترمذي صاحب
المسند، وابن عبد البر، كل هؤلاء من العرب، والحاكم أبو عبد الله النيسابوري من بني
ضبة، ومسلم بن الحجاج صاحب الصحيح، وأبو القاسم صاحب الرسالة القشيرية من
بني قشير، والمازري، وابن يونس الصقلي، وعبد الحق الصقلي الذي غلب إمام
الحرمين في المناظرة، من بني تميم، والقاضي عياض من يحصب
ثم ساقه الحديث إلى القطب الشيرازي العلامة المطلق، وفخر الإسلام البزدوي وصدر
الشريعة فأفاض في الحديث. وقال: لفخر الإسلام البزدوي كتاب في الأصول منقطع
النظير، حدث شمس الدين الأصفهاني شارح الطوالع أنه دخل على أستاذه القطب
الشيرازي فرأى عنده كراسات على وسادة، فقال ما هذه؟ قال: إني منذ سنة كذا أقرأ
كتاب البزدوي، وأنقل عنه وما أنهيته. ولصدر الشريعة كتاب تعديل العلوم في المنطق
والحكمة والكلام والتصوف والأخلاق. رأيت منه نسخاً كثيرة. وله كتاب التنقيح وشرحه
التوضيح
سأل سائل لماذا قل أمثال هؤلاء العلماء بين المسلمين اليوم؟ قال لذلك أسباب: منها
أن أسلافنا كانوا يطلبون العلم للعلم لا يبغون من ورائه شهادة ولا منصباً؛ كان كل
منهم يتخذ عملاً يعيش منه ثم يحصل العلم عن جهابذته. ولم تكن أساليب التعليم
صناعية آلية كنظام المدارس في الوقت الحاضر؛ ومن الأسباب انقطاع الرحلة، كان
سلفنا يشدون الرحال في طلب العلم لا يفترون، فيلقى بعضهم بعضاً، ويأخذ بعضهم
عن بعض. الخ. أنظر إلى قضاة السلف كيف يفرون من القضاء إشفاقاً على دينهم؟.
هذا أبو علي الصدفي أحد قضاة الأندلس ذبح الذبائح وحج شكراً لله على خلاصه من

القضاء. ومن القضاة الأباة عظماء النفس، أهل التقوى أبو بكر بن السليم القاضي الأندلسي، وله رأي في الفقه معروف: (أن الإنسان إذا اشترى بيتاً فوجد به بقاً فله خيار العيب) ومنهم ابن زر القاضي، وكان في عهد المنصور بن أبي عامر. وحسبك بقاض يتعاظم على مثل المنصور. وله كتاب الخصال الكبير والخصال الصغير في مذهب مالك، رأيتهما في مجريط. وقد قيل أن من قرأ الخصال استغنى به عن الكتب الأخرى، وكان الأندلسيون ذوي همة عظيمة في تحصيل العلم؛ وكان طلابهم يبدءون بحفظ التسهيل لابن مالك، ومختصري ابن الحاجب في الفقه والأصول، هذا عند المتأخرين. وأما من قبلهم فكانوا يحفظون الموطأ، ومن قبل هؤلاء كانوا يحفظون تهذيب المدونة، وسلفهم كانوا يحفظون المدونة، وكان ابن بشكوال يحفظها كلها، وكان الرازي يحفظ كتاب الشامل لإمام الحرمين، وهو مجلدان في علم الكلام. وأرى أن تفوق الأندلسيين كان من عنايتهم بأمهات الكتب. كانوا يقرءون في النحو كتاب سيبويه، وأين من كتاب سيبويه كتاب الأشموني وحاشية الصبان؟ وقد رأيت في مكتبة الأسكوريات خط أبي علي الشلوبين على كتاب سيبويه بعدد الكتب التي قرأها في النحو وكلها من

الأمهات. ورأيت في مكتبة كوبريلي بالآستانة إجازة قاضيخان كتبها بخطه على السير الكبير للسرخسي وعدد الكتب التي درسها في الفقه. وهي كتب تضمن لقارئها التفقه. أنظر! أهل الأزهر يقرءون في الأصول جمع الجوامع، وليس هو من كتب الأصول القيمة. - قال بعض الحاضرين: قرءوا كتاب الآمدي في عهد الشيخ المراغي ثم أبطلوه، فقال كتاب الآمدي جيد، وللآمدي كتابان: أحكام الأحكام، وأبكار الأفكار. وكتاب ابن الحاجب في الأصول مأخوذ من منتهى السول والأمل للأرموي، وهذا مأخوذ من كتاب الآمدي، والآمدي أخذ من الأدلة القواطع للسمعاني، وهذا مأخوذ من كتاب الباقلاني، فهذا الأصل الذي لم يؤخذ من غيره، ثم تكلم عن أصول الحنفية وعلمائهم وكتبهم وطريقتهم، ورجع إلى الباقلاني فقال: وكان الباقلاني آية من آيات الله. وقد روى أبو الوليد الباجي أنه كان يسير مع الدارقطني - والدارقطني من كبار المحدثين، في درجة الترمذي وابن ماجة - فلقيا رجلاً، فأعظمه الدارقطني غاية الإعظام وقبله، فقال أبو الوليد: من هذا؟ قال: سيف أهل السنة أبو بكر بن الطيب، يعني الباقلاني، وقد رثاه بعض الناس فقال:

أنظر إلى جبل تمشي الرجال به ... وأنظر إلى القبر ما يحوي من الصلف
وأنظر إلى صارم الإسلام منغمداً ... وانظر إلى درة الإسلام في الصدف

وكان الباقلاني يناظر ابن المعلم فيفحمه. وكان ابن المعلم يوماً في أصحابه فأقبل الباقلاني، فقال ابن المعلم: جاءكم الشيطان، فسمعها الباقلاني فتلا قوله تعالى: ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزّاً. وتناظرا مرة، فلما أفحم ابن المعلم أخرج قبضة من الباقلي ورماها في وجه الباقلاني، يعني بذلك أنه ابن بائع باقلى. فأخرج الباقلاني درة من ثيابه ورمى بها ابن المعلم يعني أنه ابن معلم صبيان، فتعجب وقال: ما أخبرت أحداً أني سأرميه بالباقلي، فكيف أعد لي هذه الدرة؟ - وعقائد الدواني مأخوذة من عيون المسائل، وهذه مأخوذة من رؤوس المسائل، وكلاهما للجرجاني، ورءوس المسائل مأخوذة من جواهر الكلام لعضد الدين صاحب المواقف، والجواهر من المواقف، والمواقف مأخوذة من أبكار الأفكار للآمدي، وهذه عن الباقلاني، وهذه كما نرى في فقه المالكية: كتاب أقرب المسالك للشيخ الدردير مأخوذ من كتاب خليل، وهذا عن كتاب ابن الحاجب إن تهذيب البرادعي عن المدونة. وقد رأيت نسخة من المدونة في مكتبة القرويين في فاس بخط عبد الملك بن مسرة شيخ ابن رشد، وهي في ثمانين مجلداً صغيراً، وكتب في نهايتها:

بالله يا قارئ استغفر لمن كتبا ... فقد كفتك يداه النسخ والتعبا
كتبه عبد الملك بن مسرة اليحصبي

وقد ذكر ابن مسرة بن فرحون في كتاب الديباج وهو من أنفس الكتب. وابن رشد الجد له كتاب البيان والتحصيل في الفقه ستة عشر مجلداً. وقد ضمن لقارئه الاجتهاد. وابن رشد الحفيد الفيلسوف كان في المغرب بمنزلة الرازي في المشرق ثم تكلم عن محنة ابن رشد في دولة الموحدين وقال: والسلطان يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن كان من العلماء، كان يحفظ كتاب المحلى لابن حزم - سأل بعض

الحاضرين عن رسالة صلاح الدين إلى يعقوب بن يوسف فقال هي في كتاب أبي شامة. وكان أبو شامة حافظاً وقارئاً ونحوياً وعالماً في الأصول والفروع. ويشبهه في هذا أبو عمرو الداني. قال بعض الحاضرين هل كانا متعاصرين؟ قال لا، أبو شامة توفي سنة 622 والداني توفي سنة 444. الخ الخ. ولعلنا نعود فندون عنه مجلساً آخر

عبد الوهاب عزام

تطور الحركة العقلية في شمال أفريقية

للكاتب المستشرق جاستون بوتول

نشرت مجلة (الأخبار الأدبية) (النوفيل لترير) في عددها الأخير مقالاً للكاتب المستشرق جاستون بوتول عن الحركة العقلية في شمال أفريقية هذه ترجمته:

كلما أوغلنا في التاريخ أدركنا أن تونس أو بعبارة أخرى أن تونس - قرطاجنة المعقدة كانت دائماً عقل أفريقيا الشمالية. وإنه لقدر غريب: قدر هذه المدينة، التي كأنها سارية القارة، والتي هي الحد الفاصل بين شرق البحر الأبيض المتوسط وبين غربه؛ ولقد كانت دائماً طريق الفتوح العظيمة، كما كانت مجمع الطرق التجارية الكبرى؛ وهي أقصى بلد في شمال أفريقية وأقربها إلى أوربا، ولكنها أقربها إلى المشرق أيضاً؛ ثم هي أعرقها في الطابع الأفريقي، لأن السهول الصحراوية التي تفصلها عن البحر في الجهات الأخرى حواجز عالية، تمتد بلا انقطاع إلى تونس؛ وأخيراً هي المدينة التي كانت تلتقي فيها النزعات العقلية وتمتزج من جميع الأنحاء

كانت قرطاجنة في الوقت الذي كانت رومة تصارع فيه ما حولها من الظلمات، قد قامت برسالة عظيمة في المدنية، واكتشف غرب البحر الأبيض والبرتغال وساحل أفريقية الغربي. ثم غدت قرطاجنة بعد الحروب البونيقية المدينة الثانية في العالم الروماني؛ ولما أتمت مراحلها الثلاث أعني البونيقية، والرومانية، ثم النصرانية، دخلت تونس في مرحلتها الإسلامية، وسرعان ما تفوقت على القيروان وغدت مرة أخرى أهم مراكز الحركة العقلية في المغرب. ولم يكسفها قط بهاء فاس المحدث، ولبثت تونس هي المركز الذي تزدهر فيه العلوم والفلسفة العربية لآخر مرة، وكان ابن خلدون، في فجر الأحياء، آخر ثمارها العظيمة

أما اليوم فإن الموقف أكثر تعقداً؛ وعلى رغم ازدهار جامعة الجزائر، ونجاح معهد الدراسات العالية المراكشي في رباط وتقدمه نحو التحول إلى شبه جامعة، فإن تونس تبقى مركز التفكير الإسلامي في شمال أفريقية. ويكفي لتوضيح خطر هذا الدور أن نقول أن المسلمين يبلغون اليوم في المغرب أكثر من اثني عشر مليوناً، ولكن لا توجد بقعة أخرى غير تونس يزداد عددهم فيها نحو خمسين ألفاً كل عام ويرجع هذا النفوذ إلى عاملين: الأول أنه يوجد في تونس أهم واقدم جامعة عربية، والثاني أنه يوجد بها أكبر عدد من صفوة المسلمين الذين تلقوا الثقافة الفرنسية. وصحف تونس العربية، والصحفيون التونسيون هم الذين يوجهون الحركات السياسية والعقلية في الجزائر ومراكش. ومن تونس تخرج الأزياء، ويخرج القصص والغناء، وفيها تتألف الفرق التمثيلية أو الموسيقية التي تجوس خلال المغرب

ويضاف إلى نفوذ جامعة الزيتونة القديمة، التي تأخذ اليوم بأسباب التجديد، نفوذ (الخلدونية) وهي مركز للدراسات التاريخية والعلمية؛ وقد أسست منذ ثلاثين عاماً على يد بعض التونسيين، وكلية الصادقي، وهي معهد غريب تدرس فيه العلوم الحديثة واللغتان الفرنسية والعربية. وقد عقد في أكتوبر الماضي مؤتمر من الطلبة المسلمين في شمال أفريقية

وفي ذلك ما يوضح الدور الهام الذي تؤديه تونس في المسائل الاجتماعية التي تعرض في شمال أفريقية. ومن العسير أن نحدد نزعات الأجيال الفتية في هذه البلاد؛ ويختلف عدد الشباب المثقف وتوزيعه كثيراً في هذه المناطق؛ وأظهر هذه النزعات وأشدها تعرضاً للخلافات الظاهرة هي النزعة السياسية، ولكن هذه الخلافات ترجع دائماً إلى ظروف السياسة المحلية، فهي مؤقتة في الواقع، فمثلاً كان التونسيون يشكون من إقصائهم عن بعض الإدارات، فلما تقرر منذ شهر أن يسمح لهم بدخولها انتهت هذه الشكوى

أما النتائج الثابتة، فهي نتائج التطور العقلي؛ وهي أهمها أيضاً، لأنها تتعلق بالمستقبل، ولا تتقدم إلا ببطء، ولا يمكن تعديلها أو توجيهها بقوانين المشرع. وقد يستطيع المشرع

أن ينتهز بعض الفرص السانحة في حرص وحذر، ولكن الاختيار النهائي يبقى لأصحاب الشأن أنفسهم

ويوجد في فاس كما يوجد في الجزائر وقسطنطينة شباب يتلمس ويتساءل. وقد عفت التقاليد التي كانت تسمح للشباب بأن يندمجوا في الحياة بسهولة، وأضحت لا تلائم الحياة الحديثة، وعرضت حاجات جديدة ومطالب جديدة؛ ولكن الشعار الجديد هو أن تبحث وتجد. ويتجه معظم الشباب على الأخص بأنظارهم إلى تونس، لأنهم يعرفون أنهم هنالك يتكونون شيئاً فشيئاً بين الأمل والتثبيط

ولهذا، وعلى الرغم من أن تونس ليست إلا قطعة صغيرة من شمال أفريقية، فإنه يجب أن نتتبع بمنتهى الاهتمام ما يدور في المجتمع التونسي العقلي؛ وهو اهتمام يجب أن يقرن بالعطف، لأن هذا المجتمع هو الذي يحمل أعباء التعقيد وأزمات الضمير، وما يترتب حتماً على مثل هذا التطور النفسي الهام من أسباب الجزع والاضطراب؛ ومن هذا المجتمع وحده يمكن أن يأتي حل المسائل الاجتماعية الشائكة التي تعرض للبحث، وليس من ريب في أن الموقف الذي يتخذه هذا المجتمع يكون ذا أثر قوي في باقي أنحاء البلاد

ونستطيع أن نتكهن بشيء من المستقبل؛ فقد أثبتت الطبقة المتوسطة التونسية إمكان التطور المتناسق في ظل أفق فرنسي؛ وقد ظهر فيها مجموعة من الكتاب والمؤرخين والعلماء والصحفيين الذي يكتبون بالفرنسية؛ ونجد حتى في ظروف الأسرة، وفي الظروف الاجتماعية، ما يدل على تسرب الحياة الحديثة بقوة، وهي حركة اختيارية لأنها تسير حرة دون ضغط ما، وبعد تأمل عميق

ونستطيع أيضاً أن نقرأ في أمثلة يقدمها لنا الماضي مبلغ التعاون بين المسلمين والنصارى، فعلى مقربة من تونس وقعت الحالة الأولى والوحيدة في العصر الحديث للتعاون بين هؤلاء وأولئك؛ ومن الغريب أن ممثلي هذه التجربة العظيمة كانوا فرنسيين وتونسيين؛ ففي مملكة النورمان الصقلية التي يعمرها سلالة الفاتحين الأغالبة، ازدهرت أعظم حضارة في العصر، واشترك في إنشائها النورمان والمسلمون، وكانت بالرم يومئذ هي أعظم مجمع بين الشرق والغرب؛ وكان نجاح هذا التعاون الحر الذي تطاول زهاء قرن، أشنع فضيحة في العصر، في نظر المتعصبين من الجانبين

وقد استطاعت العبقرية الفرنسية أن تنسي في العصور الوسطى مجتمعاً شديد التناقض من حضارتين خصيمتين في كل مكان؛ واليوم إذ نستعرض ذلك المركز الذي حفظته لنا تونس القديمة، نجد أمامنا جامعة الزيتونة الموقرة - وهي قديمة قدم السوربون - ذات الحنايا المرمرية الجليلة، تحيط بها حوانيت الكتب والعطور؛ ثم نجد مكتبة عظيمة فرنسية على الأخص، أقيمت في قصر قديم؛ ثم نجد بعد ذلك فوق مرتفع يشرف على المدينة كلية الصادقي الواسعة التي أخرجت نخبة مختارة من المثقفين العرب، الذين استقوا أيضاً من الثقافة الفرنسية. وعندئذ نتذكر تلك المقدمة التي يهدي فيها الشريف الأدريسي أثره الجغرافي الخالد إلى الملك رجار (روجر) الذي عاش الأدريسي في بلاطه، والتي تبدو فيها ألوان هذا التعاون الذي قام بينهما

هذه كلها أدلة مادية على قيام تعاون عقلي واضح تقوم به الصفوة، وإنه ليقع على عاتق المفكرين والجامعة أن يخلقوا تلك البيئة التي تتطور فيها عادة الحياة المشتركة، إلى رغبة في الحياة المشتركة

جاستون بوتول

ترجمنا هذا المقال ليطلع قراؤنا على رأي العلماء الفرنسيين في الحركة (الرسالة) العقلية في شمال أفريقية؛ ولسنا نوافق الأستاذ بوتول على بعض آرائه، وعلى الأخص في أثر الثقافة للفرنسية في تونس. والمقصود بشمال أفريقية في هذا المقال هو البلاد الغربية التي تسيطر عليها فرنسا: أعني تونس والجزائر والمغرب الأقصى. فإن المعلوم أن مصر لا تدخل تحت هذه التسمية ولم ينصرف إليها هذا التعبير في أي عصر من العصور

ليلة حافلة

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

منذ نحو ربع قرن - فقد صرنا نحسب مسافات الزمن بأرباع القرون! - مات لنا قريب شاب، أبوه من سراة الريف، فرافقنا رفاته على قطار خاص إلى البلدة. وكانت العادة في تلك الأيام أن يظل المأتم قائماً أسبوعاً أو أربعين يوماً، وكنت يومئذ مدرساً، وكان الوقت صيفاً، والمدارس موصدة، ففي وسعي أن أشاطر القوم حزنهم إلى آخر المدى، فجاءني يوماً شاب من أقربائي، وانتحى بي ناحية وأسر إلي أن أخته تكاد تموت جوعاً، فعجبت، فإن الخير كثير والطعام وفير، وما يذبح كل يوم من الخراف والعجول يكفي جيشاً. فأخبرني أن الموائد توضع ثم ترفع كما هي، لا تمتد إلى ما عليها يد، وأن أخته تستحي أن تتناول شيئاً، ولكن نساء البيت بعد ذلك يتسللن إلى حجرة قصية فيقبلن على الطعام ويلتهمن منه ما لا يحسب الحاسب، فهن يمسكن عن المطعم علانية ويمترن منه سراً، وأخته تنظر وتتحسر، وقد التوت أمعاؤها من الجوع. ثم سألني:

(والآن ما الرأي؟ أشر كيف تأمر!)

فقلت له: (دع هذا لي)

وللشباب جمحاته وحماقاته - ركبت إلى مدينة قريبة، فاشتريت شيئاً من الرقاق الملفوف باللحم، ومربى، وألواناً من الحلواء، وأرغفة، وعدت وأنا أقول لنفسي: (هذا شيء ينفعها إذا نام الليل)، ولم يكن من السهل أن أدخل البيت ومعي هذا الحمل، تحت عيون هذا الخلق كله، وماذا عساي أن أقول إذاسألني سائل عما لف عليه الورق؟ لهذا اضطررت أن ألف وأدور، وأختبئ هنا وههنا، حتى تيسر لي أن أبلغ غرفتي من غير أن يراني أحد، وبقي أن أنتظر حتى يقبل الليل، وتنقطع الرجل، فأحمل هذه الربطة إلى حريم الدار، والله المسئول أن يوفقني إلى الوصول إلى قريبتنا الطاوية، وأن يقيني عواقب هذه المجازفة! وهل أعدم خادمة تدعوها إلي أو تحمل إليها هذه الرسالة

وجاء الليل، وقمنا إلى المخادع، وكان لي في غرفتي شريك، فذهبت أدخن سيجارة بعد سيجارة، حتى علا شخيره، ففتحت الباب وأرهفت أذني، فلم أسمع شيئاً، فتوكلت على الله، وأقدمت - أعني مشيت مترفقاً حتى خرجت من هذا البناء المهيأ للضيوف، إلى صحن

واسع يفصل حريم الدار عن ثويّ الرجال، وكان الليل طاخياً، فلم أزل أتخبط حتى لمست باباً توهمته باب المنزل فدخلت، ولكني لم أجد سلماً أرقى فيه، فاستغربت ورحت أدور بالمكان، ويدي على الجدار، فكنت أجد أبواباً، بعضها مفتوح، والبعض مواربٌ أو مغلق، ولكن لامرقات، فقلت أخرج من هذا التيه، وتركت الجدار واندفعت، ويداي أمامي لتتلقيا عني الصدمة إذا بلغت حائطاً أو شبهه، وإذا باللفافة التي معي تلمس جسماً فيسقط منه شيء على الأرض فأفزع، وأدع اللفافة تهوي، ثم إذا بواحد يهجم علي فأقع ونتدحرج معاً على البلاط وهو ممسك برجلي يريد أن ينزعها، وأنا أدفع في بطنه، حتى تخلى عن رجلي فدرت على ركبتي، وقد أيقنت من صمته أنه غريب واغل يتلصص، وألفيت يدي على عنقه، فأخذت بمخنقه، فلكمني بجمع يده فانقلبت على ظهري وقد تخليت عن رقبته، فانقض علي، فضربت برجلي فأصبت جنبه، فمال عني فنهضت على ركبتي وجعلت أضرب بيدي، ولكن في الهواء، حتى لمست رأسه فقبضت على شعره وجذبت بكل ما فيّ من قوة، فنطحني في بطني، فانثنى بعضي على بعض، فركلني برجله، فتدحرجت كالكرة. فعدا يريد أن يجهز عليّ فأخطأني وخبط الباب برأسه فكأن قنبلة انفجرت في سكون الليل، وإذا بصوت رجل يصيح:

(مين. .؟)

ثم انقطع الصوت، لأن صاحبه على ما يظهر داس بعض الطعام الذي تبعثر في المكان، فتزحلق فوقع على الأرض كالحجر، وكنت أنا قد نهضت، ولمست يدي باباً ففتحته ودخلت، وأنا أسوي شعري وأمسح وجهي وأنفض التراب عن ثوبي، وكانت هذه لحسن الحظ غرفتي، فقد سمعت شريكي فيها يقول وهو يثب عن السرير

(ما هذه الأصوات! ماذا جرى؟)

فقلت - وقد ارتدت إليّ نفسي - (لا أدري. . يظهر أن هنا لصاً، قم فلننظر)

فصاح: (لص؟) وأسرع إلى الشباك فنادى

(يا ولد! يا مخيمر! يا مخيمر!)

وفتحت الأبواب، وأطلت منها رؤوس النوام - أو الذين كانوا نوّاماً - وكثر اللغط، وعلت الضجة، واختلطت الأصوات، وصار هذا يسأل عن الخبر، وذاك يدعو مخيمر وغيره ممن نسيت أسمائهم من الخدم، وثالث يصيح أن هاتوا نوراً، ورابع يقول أين المصباح؟ وخامس يسأل محتجاً (أليس مع أحدكم عود ثقاب؟)

وفي أثناء ذلك كان الذي وقع قد لامس خده المربى التي انكسر وعاؤها فسالت، فلم يخالجه شك في أن قتلاً حصل وأن هذا دم القتيل، فكاد يموت من الرعب، ولزم مكانه ولم يحاول حتى أن يرفع خده عن المربى، وجاء مخيمر يحمل بندقيته، ووراءه كثيرون غيره، وفي يد أحدهم مصباح، تقدم به - في حماية البندقية - وإذا بنا نرى (وكيل) صاحب البيت، مطروحاً على وجهه، ويداه ممدودتان، وخده لاصق بالمربى، وهو يرفع رأسه وينظر محاذراً، ثم كأنما اطمأن قليلاً فجعل يطرف، ويدير عينه، فيبصر بالوعاء وما سال منه، فيمسح بعضه عن خده وهو ينهض، فتجمعنا حوله وحففنا به، وجعل بعضنا ينظر إلى بعض مستغرباً متأففاً، منكراً على هذا (الوكيل) الشره، ألا يكون له هم سوى بطنه، وأن يزعجنا في فحمة الليل بهرسه ومحاولته إخفاء ما يأكل ونظر إليه صاحب البيت نظرة سخط واشمئزاز، وقال له: (ما هذا؟ مربى، ورقق، لم أكن أعرف أنك مبطان نهم إلى هذا الحد؟؟ وقليل الذوق أيضاً؟ حلواء في مأتم! فهلا انتظرت حتى ينفض المأتم؟؟ أم شامت أنت بي؟ لعنة الله عليك وعلى والديك! قم. . . قبحك الله! ولا ترني وجهك!)

فهم الرجل بأن يقول شيئاً، فقد كان مظلوماً ولا ذنب له، ولكن سيده أبى أن يسمع والتفت إلينا وقال:

(إن هذه فضيحة والله! الخير كثير والحمد لله، وفي وسعه أن يأكل ما شاء، ويشبع، إذا كان يمكن أن يشبع، فانظروا ماذا صنع؟ وبأي شيء يجزيني وقد ربيته وكفلته ولم أزل به حتى جعلته وكيلاً لي. وأميناً على أملاكي!! يشتري حلواء ومربى ورقاقاً ليأكلها خفية في مأتم ابني!! اخرس يا كلب! ولك وجه تقابلني به يا كافر النعمة! والله لولا أنك حقير لأفرغت في قلبك الآن الرصاص. امش. . اخرج من عندي. .)

فقلت: (شيء فظيع!)

وارتددت إلى غرفتي ساخطاً.

ولبثنا ساعة نمزق أديم هذا الوكيل الشره الجحود الذي يأبى إلا أن يأكل حلواه في مأتم ابن سيده! وأصبح الصباح فاستأنفت ألسنتنا هجوه وذمه. وكنت أشعر بعطف عليه ومرثية له، ولكني لم أكن أستطيع أن أذكر الحقيقة فأحول إلى نفسي كل هذا اللعن الذي ينصب على رأسه. ودنا مني الشاب قريبي الذي كان سبباً في كل هذا، وسألني همساً:

(أتعرف حقيقة ما حصل أمس؟)

قلت: (لا. ولا أزال مستغرباً ما كان من هذا الوكيل)

قال: (إنه مظلوم!)

قلت: (يا شيخ! كيف يمكن أن يكون مظلوماً وقد رأيناه بأعيننا؟)

قال: (والله إنه لمظلوم!)

قلت: (ربما يا أخي! العلم عند الله!)

قال: (فينا من يكتم السر؟)

قلت: (لا تخف. إن صدري بئر لا قرار لها)

قال: لقد احتلت حتى جئت بشيء من اللحم والخبز، ولففته في ورقة، وكنت أريد أن أسعد به إلى أختي بالليل، ولكني اصطدمت بالظلام بواحد كان يريد أن يقتلني. . .)

فقلت مستغرباً: (يقتلك؟ لماذا!)

قال: لا شك إن هذا كان قصده، فقد كان همه أن يقبض على عنقي ويضغط، وكان يحرص على الصمت حرصاً شديداً، وعندي دليل آخر: ذلك أنه لم يكد يسمع صوت الوكيل يصيح (مين) حتى اختفى فجأة!)

فسألته: (وما منعك أن تستنجد؟)

قال: (وأفضح نفسي؟ ماذا يقولون عني إذا رأوا معي هذه الأطعمة؟ لقد كان كل همي أن أتخلص وأرتد إلى غرفتي)

قلت: (وكيف خطرت لك هذه الفكرةالسخيفة؟)

قال: (ليست سخيفة. أنها طبيعية، أول ما يخطر للمرء)
قلت: (وهل كان من الضروري أن تجئ بمربى وحلواء؟)
(.قال: لم أجئ بها. وهذا اللغز الذي يحيرني
(!قلت: فمن أين جاءت إذن؟ الوكيل طبعاً
قال: (لا أصدق. لقد كان خارجاً من غرفتي لينظر ما الخبر)
قلت: (صحيح. الحق معك)
(قال: إذن من أين جاءت؟
فصحت به: (وهل أنا أعرف؟ ألا يكفي فزعنا بالليل حتى تحطم لي رأسي بالنهار؟)
فاعتذر ومضى عني
وسعى الوكيل بعد أيام يسترضي سيده
والغريب أن قريبي نسي أني وعدته أن أنقذ أخته، ولو تذكر لعرف من أين جاءت المربى والرقاق، ولأدرك أن الذي اشتجر معه في الظلام لم يكن قاتلاً متربصاً، وإنما كان قريبه

إبراهيم عبد القادر المازني

الحكم الأدبي

بقلم: السيد محمد نوفل

لا تختلف الآراء وتتشعب المذاهب اختلافها وتشعبها في الآثار الأدبية، فهذا يرضى عن قطعة أدبية يضيق بها الآخر، وذاك يعجب بمعاني قصيدة يراها غيره مرذولة. . . ومن العسير أن ترجع مخالفك في مسألة فنية عن رأيه مادام يستطيع إلى الدفاع عنه سبيلاً. ولا عاب في هذا، إنما العاب في ألا يخلص الناقد للحقيقة في بحثه، ويندفع مع الهوى في رأيه

وليس من شك في أن للوهم أثراً بيناً في الأحكام الأدبية، فالكاتب الذي يرفعه الجد إلى مرتبة الشهرة يستجيد جل الناس ما يصدر عنه، إن جيداً وإن رديئاً، ولا يكادون يستمعون لاعتراض معترض عليه أو لنقد ناقد له، بينما المغمور يلاقي من عنت الناس وإرهاقهم الشيء الكثير. بل ندر أن يخرج الأديب من غمرة المجتمع ويحتل مرقباً بارزاً فيه بغير يد مشهور يقدمه إلى الجمهور بصوته المسموع، بعد أن ينثر عليه درر المدح ويكسوه حلل التقريظ. . ومن أوضح الأمثلة لهذا ما لقيه الكاتب الكبير جولد سمث، فقد ذاق البؤس أعواماً مكث فيها يعرض آثاره الأدبية القيمة والناس يعرضون عنها حتى ألف قصته التمثيلية البارعة (تمسكنت فتمكنت) وصار يقدمها إلى مديري المسارح وهم يرفضونها إلى أن أيده الله بزعيم الأدب في عصره الدكتور جونسون، فعرضها عرضاً جميلاً وأثنى عليها بالذي هي أهله، فكان تمثيلها وإعجاب الجمهور بها واستمرار عرضها أياماً عدة، وبدأ ظهور نجم جولد سمث، وكان هذا رداً قوياً على بعض مشاهير الكتاب السكسونيين الذاهبين إلى أن الإنسان سيد نفسه وليس للمقادير تحكم فيه. . .

ولعل إمام البيان الجاحظ كان يرى هذا الرأي حينما نصح لمن يريد مزاولة الأدب أن يعرض ثمرة عقله على العلماء (في عرض رسائل أو أشعار أو خطب) لمشاهير أهل البيان، فإن رأى الأسماع تصغي له والعيون تحدج إليه، علم أنه ذو موهبة أدبية واستمر في سبيل الأدب وإلا انصرف عنه إلى غيره مما ترتاح له طبيعته، ولا تشق عليه مزاولته. نعم كان الجاحظ يرى أن للوهم تأثيراً في الحكم الأدبي، وإن لم يوفق إلى طريقة سديدة يختبر بها الناشئ في الأدب نفسه، فإن الوهم الذي يصرف العلماء عن الحكم له لخموله هو بعينه الذي سيصرفهم عن الحكم على غيره لشهرته، وكان الأولى أن يرشده الجاحظ إلى

هذا الناقد الذي يتجرد من المحاباة وينظر إلى ما يقال لا إلى ما من يقول، ولا يحكم سوى عقله الصائب وخبرته الأدبية

ولكن الجاحظ الذي أخفق في هذا الوضع - وما أقل أن يخفق! - كاد يدلنا على هذا الناقد الذي يصح أن يعتمد عليه، ويركن في الأحكام الأدبية إليه، حينما تعرض لشرح موقف الجمهور في المفاضلة بين بليغين فذكر أن الناس في هذا ثلاثة رجال: رجل يعطى كلامهما من التعظيم والتبجيل على قدر ما لهما في نفسه وموقعهما من قلبه، ورجل يتهم نفسه فيسرف في اتهام من يعظمه خشية أن تكون منزلته عنده قد

خدعته في أمره، فالأول يزيد في حقه لما له في نفسه، والآخر ينقصه من حقه لتهمته نفسه. أما الذي في استطاعته أن يقدر المعاني حق قدرها ويعطي للأشياء قيمتها الحقيقية فهو العالم الحكيم المعتدل المزاج القوي المنة الوثيق العقدة الذي لا يميل مع يستميل الجمهور الأعظم والسواد الأكثر

ولكن هل العلم وقوة المنة، والتجرد من الوهم كل شيء في الحكم الأدبي؟ أو بعبارة أخرى، هل من تتحقق لهم هذه الصفات تتشابه أحكامهم الأدبية، ولا تتباين آراؤهم الفنية؟

الحق أن هناك عوامل أخرى تعمل في تكوين الحكم الأدبي، وبقدر وجودها كاملة أو منقوصة تكون قوة الأحكام الأدبية وضعفها وهي: -

أولاً: الاستعداد الذاتي - فهناك فضائل في الإنسان يصح اعتبارها مواهب فطرية، كخصب القريحة وصفاء الذهن ودقة النظر ومرونة الطبع. فمن المؤكد أن بعض العقول تستفيد أو يظهر أنها تستفيد في أيامها الأولى أكثر من غيرها، كما يظهر أنها أكثر انتباهاً ويقظة، وأحفظ لما تستفيد من الجزئيات، وأقدر على تكوين كل منها، وعلى حفظها متفرقة كما هي، ثم أقدر على تهيئ نفسها للإجابة على مطالب الوجود الجديدة والحكم على المسائل المستحدثة، وآية أن هذه الصفات فطرية لا اكتسابية هو أنها قد تتهيأ للمتعلم كما قد تتهيأ للأمي، وقد يحظى بها المهمل كما قد يحظى بها المثقف، ولكن لا ننس أن هذا الاستعداد ليس صفة ثابتة كصلابة المعدن مثلاً، بل يعظم بالمران حتى أنه في استطاعة صاحب الاستعداد تقوية استعداده إلى درجة كبيرة تضؤل بجانبها حاله الأولى

ثانيا: النقل بأوسع معانيه - فقل من يستفيد من شعوره وتفكيره الذاتيين، ولكن معظم الناس يستفيد خبرته ممن حوله، وهذا النقل يبتدئ مع الإنسان من يوم ميلاده، حتى أن علماء

التربية ذهبوا إلى أن الطفل يتعلم عن طريق حاسة اللمس في أيامه الأولى. ويروي صمول سميلز (أن أماً سألت قساً عن الوقت المناسب لتربية طفلها الذي كان عمره حينئذ أربع سنين فأجابها: (لقد فقدت هذه السنين إن كنت لما تبتدئي في تربيته) ولكن الواقع أن تربيته قد بدأت بالفعل، وإن توهمت أمه غير ذلك، فالطفل يتعلم بالمحاكاة البسيطة، وهذا التكوين الأولي لخلق الطفل يلازمه طيلة حياته. ومن هنا صح قول ملتون (الطفولة عنوان الرجولة كما أن الصبح عنوان النهار) ويقوى هذا النقل ويعظم بالتربية المدرسية والإطلاع على أحوال الأجيال الغابرة، وتعرف بالآداب الماضية والحاضرة

وهذا العامل مع ما سبقه في تنازع مستمر وتجاذب دائم وهذا التنازع هو الذي يفرق بين الناس، فمنهم ضعيف الاستعداد الذاتي، مستسلم لما ينقل لا يرى رأياً جديداً، ومنهم ناقد لما يختار وقلما يرى رأي غيره، ولا يراه إلا بعد تدقيق وتمحيص. وعامل النقل ظاهر الأثر في الحكم الأدبي، فرأي القارئ في قصيدة مثلاً مرتبط بكيفية معرفته المعاني العرفية المتعددة لكلماتها وتصورها، وبكيفية ائتلاف هذه المعاني في ذهنه، وبالحد التي تضبط إليه خبرته الذاتية العامة المعنى المركب الذي ألفته هذه المعاني الجزئية. وهكذا فما يأتي في ذهن القارئ نتيجة مجموعة مبهمة من التأثيرات الخارجية

ثالثاً: سلامة الفكر أو النزاهة - وهذه الصفة هي التي تجعل الحكم محكماً وتربط بين العقول، أو بعبارة جامعة تجعلنا إنسانيين. وأصدق التعاريف لها هو (تقدير كل الاحتمالات الممكنة، وعدم ترجيح إحداها إلا بمرجح) فأي قصيدة مثلاً تقدم نفسها إلينا على أنها محتملة مقاصد كثيرة، وهذه الاحتمالات ميادين صالحة للمران العقلي، وقد يؤثر بعضها في بعض، وما دامت هذه الاحتمالات تنال نصيباً من عنايتنا فإن أحكامنا تكون نسبية في مأمن من الزلل، ونحن حين نفرض كل الاحتمالات الممكنة نكون أكمل في معنى الإنسانية البعيدة عن التحيز منا حين نستبد بفرض واحد بعينه ثم نلتمس له بالبراهين. ثم الرأي القائم على النزاهة لا يكاد يتسرب إليه الوهن، لأننا قبل الأخذ به نفند ما عداه من الآراء

رابعاً: فهم صاحب الأثر المنقود - وهذا يكون بتعرف خلقه وما فيه من لين وقسوة وقوة وضعف. فأدب القوة ينتجه أديب قوي، وأدب الضعف ينتجه أديب ضعيف، ولا

عيب على كل منهما من الناحية الأدبية، فما عيب من يصدر عنه ما يمثل نفسه؟ أما أن يطابق الأدب
المثل العليا أو لا يطابقها فهذه مرتبة ثانية
والأمة التي تريد أدباً قوياً، عليها أن تعمل على تكوين أدباء أقوياء، وإلا كانت كمن يتطلب في الماء جذوة نار. . . ثم لا بد مع هذا من قراءة أعظم قدر من بيان الأديب المنقود، حتى يألف الناقد أسلوبه في التفكير وطريقته في الأداء
ولكن لسوء الحظ ينسى الكثيرون هذه العوامل فيتوهمون أنه ليس في الموضوع شيء خارج عن ذات القصيدة الواحدة التي يقرأها القراء فيصورونها صوراً مختلفة، ولكن الحق هو أن اختلافهم بالقياس إلى هذه العوامل هو سبب اختلافهم في كل شيء، حتى تفسير القصيدة وتعيين مدلولات مفرداتها فيه مجال واسع للاختلاف بين القراء تبعاً لاختلاف مؤهلاتهم الخاصة، فمن قرأ كثيراً من شعر شاعر فهم ألفاظه فهماً مخالفاً لفهم من لم يقرأ له أو قرأ قليلا. وهكذا فكيفية فهم القارئ للقصيدة مثلاً يتوقف على استعداده الذاتي وكيفية تلقيه، وكيفية حيازته للمعاني الاجتماعية الموروثة والفرص التي تهيأت له للاستخدام هذه المعاني منسقة، والبيئة التي نشأ فيها وحاكاها، وتنازع استعداده الذاتي والنقل السيطرة على فكره وغلبة أحدهما للآخر، وما يعرف من خلق صاحبها وشعره، ولأن الحكم الأدبي يتوقف على هذا كله كان أكثر الأحكام تعرضاً للزلل وأقربها من الخطأ ووجب على من يتعرض له أن يحذر حذراً تاماً
السيد محمد نوفل بكلية الآداب
توماس كارليل
نظره إلى التاريخ
للأستاذ محمود محمود محمد
ليس التاريخ العام في روحه ومغزاه - تاريخ ما أحدث الإنسان في هذا العالم - إلا) تاريخ عظماء الرجال الذين ظهروا في هذه الدنيا، فقد كانوا أئمة، وكانوا مثلاً وكانوا قدوة لغيرهم، بل كانوا مبدعين لكل ما مارس الإنسان من أعمال، وكل ما حقق من أماني. إن كل ما نراه قائماً في هذا الوجود كاملاً متقناً إنما هو نتيجة مادية محسوسة، وتحقيق عملي مجسم لكل ما جال في رؤوس أولئك الرجال من أفكار، أولئك الرجال (الذين هبطوا إلى هذا الوجود فكان تاريخهم بحق هو لحمة التاريخ وسداه
بهذه العبارة يفتتح كاريل كتابه (الأبطال وعبادة البطولة) فيلخص لنا نظريته في التاريخ. يرى كارليل أن الفرد هو كل شيء، وأن قادة الشعوب هم خالقوها ومكيفوها، يؤثر الفرد في الجماعة ولا يتأثر بها. والبطولة في نظره تتقمص في فحول الرجال على صور شتى، فالرسول والشاعر والكاتب والمصلح والفيلسوف كل هؤلاء من طينة واحدة، ليس بينهم من خلاف، اللهم إلا في الهيئة التي يكتسون والأسلوب الذي ينتحون (ويصح لنا أن نعتبر هؤلاء الرجال من فصيلة فوق البشر، فصيلة غير آدمية، فكلهم رسول مبعوث إلينا برسالة خاصة من الأبدية المجهولة، من الحقائق الباطنة للأشياء، لا تحجبها عنه أباطيل الناس، وكيف ذلك والحقيقة تسطع على عينيه حتى يكاد ليعشى لنورها. . . الرجل العظيم مخلوق من فؤاد الدنيا وأحشاء الكون، وهو جزء من الحقائق الأولية للأشياء) لا تعميه عن واجبه جهالة عصره أو نقص في نفسه؛ هو يرمي إلى الحقيقة الثابتة، إلى الحقيقة الحية. ومن هذا الحق يستمد قوته، والى هذا الحق تصغي الجماهير، رسالته أبدية مثمرة (وأعمال الرجال! خبئها تحت رواسي الجبال، أو في أعشاش البوم، فهي لا تموت ولن تموت)
ويرى كارليل أن الناس مسوقون بطبيعتهم إلى عبادة البطولة (وإن الإعجاب بمن هم أعلى منا إدراكاً لأسمى شعور يتردد في الصدور، وليس روح الوجود وحياة الشعوب وكيان الجماعة الإنسانية إلا خضوعاً للعظماء وعبادة لأفكار العظماء)
وهذا الشعور كامن في الإنسان في كل زمان ومكان حتى في هذا العصر الحديث الذي
تحاول فيه الإنسانية أن تتخلص من سلطة الزعماء وتقيم الديمقراطية مكان الديكتاتورية كلما اتسع المجال وأتيحت الفرص
لم يكن كارليل مبتدعاً في الرأي حين رفع البطولة إلى هذا المقام وقدسها هذا التقديس، فقد سبقه إلى ذلك هيجل الفيلسوف الألماني إذ كان يقول: إن وراء كل أمة

أو عصر أو مدنية (فكرة) تسيرها. هذه الفكرة هي السمة الكبرى لذلك العصر أو تلك المدنية، منها تتفرع وإليها تنتهي جميع مناحي التفكير من فلسفة أو دين أو فن أو أخلاق. هذه (الفكرة) عند هيجل هي (روح البطولة) عند كارليل. ومن ثم نرى أن كارليل كان أشد وضوحاً وأدق تعبيراً من صاحبه الألماني، وقد أراد أن يزيد وضوحاً ويتخلص من غموض (الفكرة) تماماً، فجسد (روح البطولة) في شخص (البطل) فانتقل بذلك من المعقول إلى المحسوس، ومن الفكرة المجردة إلى الحقيقة الملموسة ومع ذلك فإن كارليل لم يتخلص من تجريد الفكرة تماماً فإن هذا (البطل)، هذا (الكائن الحي) الذي تتجسد فيه الفكرة هو في ذاته معنى مجرد تتجمع فيه فروع الحياة الشتيتة. البطل في نظر كارليل يمثل المدنية التي يعيش فيها، ورأي البطل نبراس يهتدي به بنو عصره. فلو أردنا معرفة تاريخ عصر من العصور بحثنا عن زعيمه وقائده. ولا يريدنا كارليل في دراسة هذا الزعيم أن ندرس تاريخ حياته ومجراها وإنما واجبنا أن نحلل آراءه ومعتقداته حتى نستطيع أن نفهم مدنية العصر الذي نشأ فيه بمظاهرها المختلفة، لأن المدنية - كما كان يرى - كل لا يتجزأ لها مرمى واحد ومعنى واحد.

وروح البطولة هي رائد التاريخ ومنشأ المدنيات، ومجددة الحياة الإنسانية، وما دامت كذلك منبع كل حركة فلا ينبغي أن نفهم التاريخ إلا عن طريقها وبواسطتها. ليضع علماء الاجتماع ما شاءوا من القواعد والقوانين، وليضع رجال السياسة ما شاءوا من نظم ودساتير، وليفرض علينا المؤرخون ما شاءوا من أسباب تسير هذا العالم، فليس الإنسان بكائن جامد تكيفه قاعدة، ويعبر عنه بقانون، وإنما هو روح حي يفكر ويشعر ويتأثر، يخضع لأفذاذ الرجال كلما ظهروا برغم كل قانون

وأحسن مثال يتمثل فيه بكل جلاء، نظر كارليل للتاريخ كتابه عن (كرومويل). أراد كارليل أن يؤرخ البيورتيانية، فكتب عن كرومويل زعيمها الأكبر، وحامل لوائها تاريخاً مفصلاً

حين تقرأه تسمع كلمات الرجل ونبرات صوته وتتخيل صورته ورسمه. يعرض عليك المؤلف صورة واضحة يضعها أمام ناظريك لتبلغ من قرارة نفسك بقدر ما فيها من قوة وتأثير، ولا يفرض عليك رأياً بعينه ولا فكرة بذاتها، يعرض عليك الحقيقة مجردة من غير تعليق، فلا ترى المؤلف ولا أثراً من نفسه، كان البيورتان يتطلعون إلى إنشاء حكومة على دينهم ومبادئهم فوجدوا في كرومويل الرجل الذي تتجسد فيه ميولهم وأهواءهم، فوضعوه على رأس حكومتهم ورضوا به حاكماً مستبداً، ذلك لأن كرومويل بطل تتمثل فيه آراء جيل كامل وأمة بأسرها

كان كارليل يرى في كرومويل مثلاً للبطولة الحق، وينظر إلى الثورة الإنجليزية التي قام بها نظرة الإعجاب، لأنها كانت تقوم على أساس ديني متين، ولكنا نجده في كتابه عن (الثورة الفرنسية) لا ينظر بعين الرضا إلى هذه الثورة لأنها لم تخضع لزعيم واحد يمثلها ويسير بها إلى الأمام، كما أن فلسفتها كانت في صميمها غير دينية، اندفع فيها الفرنسيون وراء غرائزهم الوحشية وعملوا على إشباع شهواتهم البهيمية وإحلال الفوضى محل النظام

وظاهر أن كارليل لم يكن عادلاً في حكمه هذا. نعم كان في الثورة الفرنسية الكثير من الوحشية والهمجية، ولكنا لا نستطيع أن ننكر أن فيها خيراً كثيراً، وإنها وإن تكن ثورة غير دينية إلا أن الفلسفة التي كيفتها تنطوي على كثير من المبادئ القديمة، وإذا كانت الثورة الإنجليزية قد خدمت إنجلترا فإن الثورة الفرنسية قد خدمت العالم أجمع، وما تزال تخدمه إلى يومنا هذا

وكما انقلب كارليل على الثورة الفرنسية لخروجها عن الدين، فهو كذلك ثائر على إنجلترا الحديثة لإهمالها هذا الجانب الهام في حياتها العامة، ثائر على هذه الديمقراطية الواسعة التي تفسح المجال لكل من هب ودب ليكون ذا رأي محترم وقول مسموع، وليس من سبيل إلى خلاص البلاد إلا بعد أن تسلم زمام أمورها لزعمائها غير منازعين وهنا نقف عند هذا الحد من بسط آراء كارليل في البطولة وأثرها في التاريخ ونسائل أنفسنا: هل كان كارليل مصيباً حينما رفع أفذاذ الرجال إلى هذا الحد من القوة وهذه المكانة من التقديس؟

إن من يتصفح تاريخ الحياة وتقدمها يرى أن الإنسانية في كل عصورها تنقسم إلى

شطرين: رعية كبيرة وطائفة قليلة من الرعاة، تدق هذه الرعية أمامها، هؤلاء الرعاة هم أدوات التقدم الإنساني وهم عظماء الرجال الذين يمثلون الآداب والآراء التي هي على اختلافها وتباين فنونها ومنازعها بمثابة ظواهر اجتماعية أكثر منها ظواهر فردية، أي أنها أثر من آثار الجماعة والبيئة أكثر من أن تكون أثراً من آثار الفرد الذي رآها ونشرها بين الناس. وإذا كان الأمر كذلك فليس من الحق في شيء أن ننسى الجماعة التي هي المؤثر الأول في ظهور الآداب والآراء والفلسفة، ونقصر عنايتنا على الفرد الذي كان مظهراً لهذه الآداب وتلك الآراء فنمحو الجماعة محواً ونهملها إهمالاً، إذ الفرد لم ينشئ نفسه وإنما الجماعة كلها متعاونة متظافرة على تنشيئه وتربية عقله وجسمه وشعوره، فهو صورة منها وظاهرة من ظواهرها. الفرد مدين بلغته ودينه وخلقه إلى الجماعة، إذن فليس من البحث العلمي القيم في شيء أن نقدس الأفراد كل هذا التقديس ونحتقر الجماعة كل هذا الاحتقار. وأنا لو صورنا لأنفسنا طائفة من أواسط الناس متوسطي الذكاء ليس لهم مواهب خاصة ولا عقلية ممتازة فد رحلوا إلى جزيرة جرداء ليس فيها من أثر من آثار المدنية ولا عمل من أعمال الإنسان أدركنا بسهولة كيف يظهر بينهم المخترع والفيلسوف والسياسي والقائد، ولا يلبثون أن يعيدوا في خلال جيل أو جيلين تاريخ التقدم الإنساني كله، ويصبح هؤلاء الأوساط صورة مصغرة من نيوتن ووطسن وكروموبل ونابليون وغيرهم، لأنهم في حياتهم الأولى كانت تعوزهم الفرصة التي أتاحتها لهم الجزيرة الجرداء، فظهرت عبقرياتهم بعد كان مقضياً عليها بالموت والفناء

ويتبين لنا من هذا أن الإنسانية لا تتقدم بظهور الرجال، وإنما يظهر الرجال لأنها تريد أن تتقدم، وفي علم الحياة نظرية ثابتة تقول أن الوظيفة تخلق العضو ولا يخلق العضو الوظيفة، فالإنسان لا يمشي لأن له قدمين، وإنما له قدمان لأنه أراد أن يمشي، ولا ينظر لأن له عينين، ولكنه ذو عينين لأنه أراد أن ينظر

ومن يتدبر التاريخ ير أن الإنسانية تعتريها فترات من الجمود تعقبها النهضات التي تظهر فيها الشخصيات البارزة، ولا تعلل هذه الظاهرة إلا بأن الظروف الاجتماعية والزمنية في فترات الجمود تخالف مثيلاتها في فترات النهضات، فالأولى لا تدعو إلى ظهور الرجال بينما الثانية تتطلب الرجال العاملين وتخلقهم خلقاً فإذا صح لنا أن نقول أن النهضة أوجدت

أبطالاً لا يصح أن نقول أن الأبطال أوجدوا النهضة

ولكن كارليل أراد أن ينزههم عن البشرية ويرفعهم إلى مصاف الآلهة.

محمود محمود محمد

محاورات أفلاطون - 6

الحوار الثاني

كريتون أو واجب المواطن

ترجمة الأستاذ زكي نجيب محمود

أشخاص الحوار: سقراط. كريتون

مكان الحوار: سجن سقراط

سقراط - ما الذي أتى بك الساعة يا كريتون؟ إنها الآن جد باكرة

كريتون - بلى إنها لكذلك

سقراط - كم هي على التحديد؟

كريتون - الفجر في البزوغ

سقراط - عجيب أن يأذن لك الحارس بالدخول

كريتون - إنه يعرفني يا سقراط لأنني جئت مراراً، ولأنني فوق ذلك ذو فضل عليه

سقراط - أجئت الآن تواً؟

كريتون - كلا بل جئت منذ حين

سقراط - إذن فما الذي أجلسك صامتاً، وكان أخلق بك أن توقظني على الفور؟

كريتون - حقاً يا سقراط إني لم أكن لأرضى لنفسي كل هذا الغم والأرق، ولكني أخذت بالعجب أن رأيتك في نعاس هادئ، فلم أرد لهذا أن أوقظك، وآثرت لك أن تظل بعيداً عن الأسى، لقد عرفتك دائماً سعيداً بما لك من مزاج هادئ، ولكني لم أر الدهر ضريباً لك في احتمالك لهذا المصاب مستخفاً باسماً

سقراط - إن الإنسان يا كريتون إذا عمر ما عمرت فلا ينبغي له أن يجزع من شبح الموت
كريتون - ولكن سواك من الكهول، إذا ما نزلت بهم أشباه هذه الكوارث لا يمنعهم الهرم من الجزع
سقراط - قد يكون ذاك، ولكن هلا حدثتني عما أتى بك في هذه الساعة الباكرة؟
كريتون - أتيت أحمل نبأ مؤلماً يبعث على الشجن، لا بالنسبة إليك فيما أظن، بل بالنسبة
لنا جميعاً - نحن أصدقاءك - وهو عندي أبلغ ما يكون إيلاماً
سقراط - ماذا؟ أحسب أن قد عادت السفينة من ديلوس ووصولها ينذير بموتي؟
كريتون - كلا لم تبلغنا السفينة بعد، ولكنها ربما وصلت اليوم، فقد انبأني أناس جاءوا من صونيوم، أنهم خلفوها هناك، إذن فآخر يوم من حياتك يا سقراط هو الغد
سقراط - مرحى يا كريتون، إن كانت هذه إرادة الله فمرحباً بها، ولكني أعتقد أن سيؤجل الأمر يوماً آخر
كريتون - ومن أنبأك هذا؟
سقراط - هاك الخبر. إني بالغ أجلي في اليوم التالي لوصول السفينة
كريتون - نعم، وهذا ما يرويه أولو الأمر
سقراط - ولكني لا أظن أن السفينة بالغتنا إلا غداً. عرفت ذلك من رؤيا رأيتها ليلة أمس. بل كنت أراها الآن تواً، حين تركتني - لحسن حظي - نائماً
كريتون - وكيف كانت رؤياك تلك؟
سقراط - جاءتني شبيهة امرأة جميلة وسيمة، تدثرت بثوب أبيض، وصاحب بي قائلة: يا سقراط، إنك ذاهب إلى أخراك في اليوم الثالث عداً من الآن
كريتون - ما أعجبه من حلم يا سقراط!
سقراط - معناه ظاهر يا كريتون، وليس فيه مجال للريب
كريتون - نعم إنه جلي غاية الجلاء، ولكن، أواه! يا عزيزي سقراط، دعني أتوسل إليك مرة أخرى، أن تأخذ بنصحي فتعمد إلى الهروب، لأنك إذا مت فلن أفقد فيك صديقاً فريداً وكفى، ولكن ثمة فوق ذلك شراً: سيزعم من لا يعرفك ولا يعرفني من الناس أني كنت أستطيع لك النجاة لو أنني رغبت في بذل المال، ولكنني لم أعبأ بك، أفيمكن أن يكون بعد هذا العار عاراً - أن يقال أني آثرت المال على حياة صديق؟ وهيهات أن يقتنع الدهماء بأني أردتك على الفرار فرفضت
سقراط - وفيم العناية بحديث الدهماء، يا عزيزي كريتون؟ سترى الفئة الصالحة في ذلك رأياً صواباً يطابق ما وقع، وهي وحدها جديرة بالاعتبار
كريتون - ولكنك ترى يا سقراط أن رأي الدهماء لا بد من اعتباره وذلك ظاهر في قضيتك
أنت، ففي مقدورهم أن ينزلوا أفدح المحن بمن لم يظفر عندهم بالرضا كائناً من كان
سقراط - ليتهم يستطيعون ذلك يا كريتون فذلك كل ما أرجوه، إذ لو استطاعوا لكان كذلك في وسعهم أن يفعلوا أعظم الخير. فيكون ذلك منهم جميلاً. ولكنهم في حقيقة الأمر عاجزون عن فعل الخير والشر على السواء، وليس في مقدورهم أن يصيروا الرجل حكيماً أو فدماً، وكل أفعالهم وليدة المصادفة
كريتون - نعم ولست منازعك في ذاك، ولكن هلا تفضلت فأنبأتني يا سقراط - إن كنت لا تغض النظر عني وعن سائر أصدقائك فيما تصرف من الأمر -: ألست تخشى أنك إن فررت من هذا المكان فقد يصيبنا النمامون بالضر بسبب اختطافك، وإنا قد نفقد أملاكنا كلها أو جلها، أو قد ينزل بنا من الشر ما هو أشد من ذلك هولاً؟ فليطمئن قلبك إن كان ذلك ما تخشاه، فواجب حتم علينا أن نخاطر بهذا، وبما هو أعظم من هذا في سبيل نجاتك، فاقتنع إذن بما أقول، وافعل بما أشير
سقراط - نعم يا كريتون، وليس هذا الذي ذكرته كل ما أخشى، وإن يكن جانباً منه
كريتون - لا تخف. إن هناك نفراً يود لو ينجيك فينتزعك من غيابة السجن، ولن يكلفهم ذلك شططاً، أما النمامون فهم كما ترى لا يشتطون في الطلب، ويقنعهم من المال قليله. إن مالي بأسره رهن إشارتك، وهو كاف فيما أعتقد، فإن أشفقت أن ينفد كله، فهاهم أولاء نفر من الغرباء يمدونك بما يملكون، وهذا أحدهم سيماس الطيبي قد

أحضر معه لهذا الغرض نفسه مبلغاً من المال. وذلك سيبس وغيره كثيرون، يتمنون أن يبذلوا في سبيلك أموالهم، إذن فلا تحسب لذلك حساباً، ولا تتردد في سبيل تنفيذ القرار. ولا تقل كما قلت في المحكمة أنك لا تدري ماذا عساك أن تفعل بنفسك إن فررت، فأنى حللت نزلت من الناس منزلاً كريماً، وليس ذلك قاصراً على أثينا، فثمة في تساليا ستجد من أصدقائي حماية وتقديراً إن أحببت الذهاب إليهم، ولن تصادف بين بني تساليا جميعاً فرداً يصيبك بالأذى، ولست أرى بعد هذا كله ما يبرر لك يا سقراط أن تفرط في حياتك، والنجاة ميسورة مستطاعة. إنك لتلعب بنفسك في أيدي أعدائك وقاتليك، بل إني لأزعم فوق هذا أنك إنما تسيء إلى أبنائك، لأنك آثرت أن ترتحل تاركهم لما قسمت لهم حظوظهم وكان في وسعك أن تقوم بنفسك على تنشيئهم وتربيتهم، فإن لم يصبهم ما يصب اليتامى عادة من قضاء، لما استحققت عندهم من الشكر إلا قليلاً، فليس للإنسان أن يقذف في العالم بأطفال لا يحب أن يستميت حتى النهاية في إطعامهم وتربيتهم، ولكنك تختار أيسر الأمرين، فيما أظن، لا أحسن الأمرين وألصقهما بالرجولة، وكان ذلك أجدر برجل مثلك يبشر بالفضيلة في أفعاله جميعاً. حقاً إني لأستحي منك بل من أنفسنا نحن أصدقائك، كلما دار بخلدي أن قصتك هذه جميعاً، ستنسب إلى نقص في بسالتنا، فما كان ينبغي أن تكون المحاكمة، أو يكن يجب أن تختم بغير ما ختمت به، وهذه النهاية التي أراها أسوأ العبث، ستبدو للناس كأنما صادفت منا ارتياحاً، لما أبديناه من ضعة وخور، نحن الذين كان بوسعنا أن ننجو بك، كما كان بوسعك أن تنجو بنفسك، لو كنا نملك لأي شيء نفعاً (إذ لم يكن الفرار أمراً عسيراً) وسيُظن يا سقراط أنا لم نقدر أن ذلك كله سينقلب علينا وعليك بؤساً وعاراً، ففكر إذن في الأمر إن لم تكن قد اعتزمت بعد شيئاً، فقد انقضت فرصة التفكير ولم يعد لديك إلا أمر واحد يجب إنجازه هذا المساء، لو كنت تريد له إنجازاً، فإن أرجأت أمرك تعذر واستحال، وعلى ذلك فأنا أتوسل إليك يا سقراط أن تسلس لي القياد وأن تفعل بما أشير

سقراط - أي عزيزي كريتون! ما أعز حماسك وما أنفسه، لو كان في جانب الحق، أما إن كان للباطل فكلما ازداد الحماس اشتعالاً ازداد الأمر سوءاً، فلننظر إذن إن كانت هذه الأعمال واجبة الأداء أم ليست كذلك، فقد كنت دائماً، وما أزال، من تلك الطبائع التي تلتزم دليل العقل، كائناً ما كان رأيه، ما دام يبدو عند التفكير أنه الرأي الأمثل. أما وقد أصابتني هذه المحنة فلا يسعني أن أهمل الآن ما ارتأيته قبلاً، فما زالت مبادئي التي طالما أجللتها وقدستها؛ تنزل عندي منازل الإجلال والتقديس. فثق أني لن أظاهرك في الرأي، اللهم إلا إذا اهتدينا الآن إلى مبدأ يكون خيراً منها. نعم، لن أصغي إليك حتى ولو زادني الدهماء حبساً ومصادرة وموتاً، ملقين في نفوسنا من أراجيف الشياطين المفزعة ما نرهص به الأطفال، فأي سبل التفكير أهدى إلى بحث هذا الموضوع؟ أعوْداً إلى رأيك الذي سقته من قبل عما يقول الناس عنا، وبعضه يستحق الاعتبار دون بعض كما سبق لنا القول؟ أكنا نصيب لو أننا أخذنا برأيك (وهو أن يقام وزن لما يقول الناس) قبل الحكم بالإدانة؟ أم هل ينقلب الرأي الذي كان صائباً حيناً ما، كلاماً لمجرد الكلام، ويتبين أنه لم يكن في الواقع إلا عبثاً اتخذ سبيلاً للتسلية واللهو؟ أبحث معي هذا يا كريتون: أترى أنه لم يعد منطقي الذي اتخذته أولاً يلائم على أية حالة ما يكتنفني الآن من ظروف، أم لست ترى الأمر كذلك؟ ثم هل هو حقيق عندي بالرفض أم بالقبول؟ إن كثيراً ممن يزعمون لأنفسهم رجاحة الرأي يذهبون فيما أعتقد إلى هذا الذي أشرت إليه من قبل، وهو أن من الناس بعضاً يجدر بآرائهم الاعتبار، وأما بعضهم الآخر فلا يصح أن يؤبه له. وإنك يا كريتون لست مقبلاً غداً على موت، أو ليس هناك احتمال بشري بهذا على الأقل، فأنت إذن حكم صالح، لا يؤثر فيك الهوى ولا تميل بك ظروفك وموقفك عن جادة الحق. حدثني إذن: ألست مصيباً فيما أزعم، بألا نقدر من آراء الناس إلا بعضها فقط؟ لقد أخذت بهذا الرأي، وأنا أسألك هلا تراني قد أصبت فيما ارتأيت؟

كريتون - ليس في ذلك ريب

سقراط - ألا يجب أن نحفل بما يقوله أبرار الناس دون شرارهم؟

كريتون - بلى

سقراط - وما يرى الحكماء فهو خير، وما يرى غير الحكماء فهو شر

كريتون - لا شك في ذلك
سقراط - لننظر ما قيل في غير هذا الموضوع، هل يطلب إلى طالب التمرينات البدنية أن يصغي إلى القدح والثناء، والى رأي كل إنسان فيه، أم يجب أن يستمع إلى رأي رجل واحد فقط - هو طبيبه أو مدربه كائناً من كان؟
كريتون - إنه يستمع إلى رأي رجل واحد فحسب
سقراط - أينبغي أن يخاف اللوم وأن يرحب بالثناء يوجهه ذلك الرجل وحده، وألا يأبه للوم الناس ومدحهم؟
كريتون - بدهي ما تقول
سقراط - ويجب أن يعيش ويدرب، وأن يأكل ويشرب، على نحو ما يبدو صالحاً لذلك المعلم الأوحد، وهو عليم بأمره، فذلك أجدى من السير تبعاً لما يراه سوى معلمه من الناس ولو كانوا أجمعين؟
كريتون - هذا حق
(يتبع)
زكي نجيب محمود
زواج الشاعر
للأديب حسين شوقي
شاعر شاب تزوج منذ عام بزوجة من الريف لأنه كان يريد فتاة ساذجة طاهرة (س) الجسم والعقل - وذلك ما يندر في المدن الكبرى - يستطيع أن يصوغها على ما يلائم ذوقه الفني، وما يتفق ومثله العليا. . .
عاد (س) بالفعل من الريف بالزوجة المنشودة، إلا أنه وجد من الصعوبة في تكوينها ما وجده آباؤنا في نحت الجرانيت؛ لأن الفتاة كانت ساذجة جداً. . . ثم وجد مع الأسف أنها أقل عاطفة من فتيات المدن وهي بنت الريف التي نشأت وترعرعت بين الحدائق والزهور. . فإن حب الفتاة لشاعرنا كان حباً ضئيلاً جداً إذا قيس بحبه لها، لأن الشاعر احتفظ بطهارة قلبه طوال شبابه من أجل هذا اليوم المشهود (مع استثناء بعض جولات في الغزل البريء) فكان ما به من احتياطي الحب قد يعادل ما في خزائن بنك فرنسا من احتياطي الذهب. . . أما قلب الفتاة فكان أشبه بجليد (الأسكيمو). . .
ولما كان (س) شديد الإحساس كمقياس الحرارة، فإن كان يتألم من الحركات والإشارات غير الموفقة التي كانت تأتيها زوجته كي تغطي حبها الضئيل له. . . ولشد ما كان الشاعر شديد الإشفاق عليها من أجل هذا!. .
انقضى عام على زواج الشاعر، فخرج بهذه المناسبة إلى الخلاء يشكو همه إلى الأطيار والأزهار، أصدقاء الشاعر الحقيقيين. . .
جلس الشاعر هناك على بساط من الخضرة، ثم أخذ يستعيد في ذاكرته حياته الزوجية خلال العام المنصرم، فأحس من جراء ذلك بهم شديد وحزن بالغ. . . فكم من حوادث محزنة وقعت خلال تلك السنة!
إنه ما زال يذكر مع الأسف والحسرة تلك الليلة التي أتفق فيها الزوجان على الذهاب إلى المسرح ليشهدا رواية مشهورة. . إلا أن الزوج مرض في اللحظة الأخيرة، فقال عندئذ من باب المجاملة لزوجه، وقد ظن أنها ستبقى بجانبه لتمريضه وتسليته: إذا شئت فاذهبي أنت يا عزيزتي إلى المسرح. . سأطلب م. . (صديق للشاعر) في التليفون ليأتي فيصطحبك. . ولشد ما كانت خيبة أمله كبيرة حينما أجابته: حسن. . سأذهب مع م. . بعد أن أقيس حرارتك لأطمئن عليك! أرادت الزوجة بقولها هذا أن تظهر اهتمامها بجسمه. . . ولكن هل فكرت في قلب الشاعر المسكين؟
وفي ليلة أخرى ذهب الزوجان إلى حفلة رقص. . . فلما عزفت الموسيقى بلحن (الدانوب الأزرق الجميل) الذي كان الشاعر يحبه حباً جماً، ذهب من فوره إلى حيث كانت تجلس زوجه ليطلب منها أن ترقص معه هذا الدور، فاعتذرت إليه لارتباطها بوعد سابق! مع علمها بحب زوجها الشديد لهذا اللحن. . . وكان قد أهدى إليها قبل الذهاب إلى الحفلة وردة بيضاء حلت بها صدرها. . . فافتقدها أثناء الحفلة فلم يجدها على صدرها، فسأل عنها وقد ظن أنها سقطت منها أثناء الرقص، إلا أنها أجابته بكل سذاجة: الوردة؟ إن صديقتي البارونة ل. . أظهرت إعجابها بها فأعطيتها إياها! كاد

. . .الشاعر يموت في تلك الليلة من الغم
وفي مرة أخرى سافرت زوجته إلى الريف تعود أمها وكانت مريضة مرضاً خطيراً. . ومكثت هناك أسبوعين لم ترسل خلالهما إلا كتابين قد احتويا على عواطف تشبه تلك العواطف الأنموذجية الموجودة في كتب (برليتز) للتمرين والترجمة!. . وفي يوم عودتها من الريف، بدلاً من أن تقضي السهرة على انفراد مع زوجها بعد تلك الغيبة، دعت بعض الأصدقاء إلى السينما لمشاهدة الممثلة جريتا جاربو في فلمها الأخير بينما كان الشاعر يعيد هذه الحوادث في مخيلته إذ به يسمع تغريد عصافير على الشجرة، فرفع إلى الشجرة نظره، فإذا به يبصر عصفورين على غصن، متعانقين في شوق وحنان، عندئذ سقطت دمعة كبيرة على خد الشاعر، ثم نظر في ساعته فوجد أنه قد تأخر في نزهته، فبادر بالعودة إلى المنزل، لأن زوجه كانت قد دعت بعض الأصدقاء للاحتفاء بمرور عام على زواجهما السعيد!

كرمة ابن هابي

حسين شوقي

من الأدب الأندلسي

التوابع والزوابع - 4

بقلم: محمد فهمي عبد اللطيف

أتينا في المقال السابق على آراء ابن شهيد في شخصية الأديب، وقلنا أنها آراء صائبة لم يسبقه إليها أحد في العربية، ونريد في هذا المقال أن نستجلي آراءه في الآثار الأدبية، فنتعرف المظاهر التي اعتبرها مسباراً لبراعة الأديب الفنية، واتخذها مقياساً لقوته في الصناعة، وقد اعتبر ابن شهيد لذلك عدة مظاهر دل عليها في مواضع متفرقة من (التوابع والزوابع)؛ وأول ما دل عليه من هذه المظاهر: المعنى السامي البديع، يختال في اللفظ المشرق السمح. فالأديب عند ابن شهيد لا يبلغ الشأو ولا يستحق اسم الصناعة إلا (بتعمد كرام المعاني، وتقحم بحور البيان. . . فيمتطي الفصل، ويركب الحد، ويطلب النادرة السائرة، وينظم من الحكمة ما يبقى بعد موته)

ولعل من المعلوم أن قضية (اللفظ والمعنى) كانت من القضايا التي طال فيها جدال النقاد المشارقة، واختلفوا في الأخذ بها بعضاً وكلاً، فاعتبر بعضهم اللفظ وحده مظهراً لبراعة الأديب وقوته، ذلك لأن المعاني مطروحة أمام الناس، فالبليغ من أجاد صياغتها، وأحسن سبكها. واعتبر الآخرون المعنى فحسب، فالأديب لا يفضل الأديب ولا يفوقه إلا بجدة أفكاره وغزارة معانيه، ثم استقر الرأي على الجمع بين شقي القضية، فأصبحت براعة الأديب تستجلي في ألفاظه ومعانيه، وأصبح الأديب لا يبلغ منتهى البراعة والقوة (إلا بتعمد كرائم المعاني وتقحم بحور البيان) كما يقول ابن شهيد

وابن شهيد يحب الازدواج في الكلام، ويرغب في المماثلة والمقابلة، ولكنه يكره التزام السجع، ويراه أفناً لا يليق بفارس البيان، ومن العجيب أنه مع ذلك كان يلتزم السجع كثيراً في أسلوبه، وكأن الرجل قد توقع الاعتراض عليه من هذه الناحية، فأراد أن يعتذر عن نفسه، فزعم أنه التقى بعتبة بن أرقم شيطان الجاحظ فشهد له بأنه خطيب وحائك للكلام مجيد، ولكن لامه على غرامه بالسجع، فقال ابن شهيد يرد عليه: (ليس هذا - أعزك الله - جهلاً مني بأفن السجع، وما في المماثلة والمقابلة من فضل، ولكني عدمت ببلدي فرسان الكلام. . .) ثم ينطلق في الانتقاص من معاصريه فيزعم أنهم لغباوتهم لا يفقهون الازدواج ويكبرون من قيمة السجع، فاضطر أن يسجع حتى يحرك من نفوسهم، ويلج بكلامه إلى قلوبهم، فيقول عتبة: إنا لله، ذهبت العرب وكلامها، ارمهم بسجع الكهان فعسى أن ينفعك عندهم، ويطير لك ذكر فيهم. وهذه معذرة إن صحت لا نقبلها من ابن شهيد، فليس من حسن الرأي أن ينحرف الكاتب عن طريقة يراها سديدة إلى أخرى مستهجنة ليظفر بالرضى من بعض الناس، وإنما الكاتب العبقري هو الذي ينتهج طريقه ويدع الأذهان تتبصر مسلكه؛ وتتبين خطواته فتترسم سيره، وتأخذ أخذه. . .

ولكن ابن شهيد يعود فيستدرك على قضية (اللفظ والمعنى) مظهراً آخر من مظاهر البلاغة، فيرى أن هناك (صوراً من الكلام تملأ القلوب وتشغف النفوس، فإذا فتشت لحسنها أصلاً لم تجده، وللجمال تركيبها وجهاً لم تعرفه، وهذا هو الغريب أن يتركب الحسن من غير حسن. . . وكذلك كقول امرئ القيس:

تنورتها من أذرعات وأهلها ... بيثرب أدنى دارها نظر عالي
فهذه الديباجة إذاتطلبت لها أصلاً من غريب معنى لم تجده!! ولكن لها من التعلق بالنفس والاستيلاء على القلب ما ترى .)
وهذا كلام حمله ابن شهيد على ما اشترطه في شخصية الكاتب من قوة الطبع وصفاء الروح كما سبق بيانه، ومعنى هذا الكلام أنك إذا تأملت بعض الصور الكلامية الرائعة لا تجد لروعتها أصلاً من جزالة اللفظ أو طرافة المعنى، بل قد تكون سهلة التناول قريبة الغور، ولكن روعتها ترجع إلى ما يكمن فيها من القوة الروحية للكاتب، وأكثر ما تتجلى هذه القوة في كلام الله (حين يتحدث ذو الجلال عن ذاته وصفاته. وقدرته وقوته، وجلاله وعزته، ولطفه ورحمته، وناره وجنته، ووعده ووعيده، وإنذاره وإعذاره، وقد كان لهذه القوة الرائعة الأثر الأقوى في رياضة العرب واجتذاب نفوسها نحو الإسلام، وهي التي كانوا يشعرون بوقعها من غير أن يعلموا كنهها). ومن العجيب أنك تقرأ الأبيات من الشعر العالي أو النثر البديع فتشعر بهذه القوة رائعة ظاهرة تكسو الكلام جلالاً وجمالاً، فتحاول أن تعبر عنها كما يجب فتجد نفسك عاجزاً مقصراً، ذلك لأن قوة الكلام لا ترجع في هذه الحال إلى الألفاظ والمعاني، وإنما هي ترجع إلى ما فيه من القوة الروحية، وقد أخذ بعض الكتاب المعاصرين هذه الفكرة عن ابن شهيد، وتبناها لنفسه، وادعى أنها انحدرت من عقله إلى قلمه، وهاجم بها الباقلاني في أقواله في إعجاز القرآن، وجادل بها الكتاب والنقاد الذي تصدوا للرد عليه!!
وثمت مظهر آخر من مظاهر القوة والبراعة عند الأديب في رأي ابن شهيد، وهذا المظهر هو التفنن في توجيه الخطاب بحيث يكون على وفق أقدار المخاطبين، والتصرف في إيراد القول بحيث يكون من السهولة أو القوة على حسب ما يقتضيه المقام، وقد ذكر ابن شهيد هذه المسألة وهو يشرح ما كان يقع له مع الشاحذين في قرطبة، وكيف كان يعينهم بشعره على نيل مآربهم، فقال: (وربما لاذ بنا المستطعم باسم الشعر، ممن يخبط العامة والخاصة بسؤاله، فيصادف منا حالاً لا تتسع له في كبيرة مبرة، فنشاركه ونعتذر له، وربما أفدناه بأبيات يتعمد بها البقالين ومشايخ القصابين، فإذا قارفت أسماعهم، ومازجت أفهامهم، در حلبهم، وانحلت عقدهم، وجل شخص ذلك البائس في عيونهم، فما شئت إذ ذاك من خبزة وثيرة يحشى بها كمه، ورقبة سمينة تدس في مخلاته، وتينة رطبة يسد بها حلقومه. . فلا يكاد البائس يستتم ذلك حتى يأتينا فيكب على أيدينا يقبلها، وأطرافنا يمسحها، راغباً في أن نكشف له السر الذي حرك العامة فبذلت ما عندها له، وبادرت برفدها إليه. وتعليمه ذلك النحو من الشحذ لا نستطيعه، لأن هذا الذي يريد من هو تعليمه البيان، وبين فكره وبينه حجاب!! ولكل ضرب من الناس ضرب من الكلام ووجه من البيان. .)
وقد سبق أبو هلال العسكري ابن شهيد إلى تقرير هذه الحقيقة بعبارة أصرح وأوضح فقال في كتابه الصناعتين: (وينبغي أن تعرف أقدار المعاني فتوازن بينها وبين أقدار الحالات فتجعل لكل طبقة كلاماً، ولكل حال مقاماً، حتى تقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار الحالات، واعلم أن المنفعة مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال. . . فإن كنت متكلماً أو احتجت إلى عمل خطبة لبعض من تصلح له الخطب، أو قصيدة لبعض ما يراد له القصيد، فتخط ألفاظ المتكلمين، مثل الجسم والعرض واللون والتأليف، والجوهر، فإن ذلك هجنة. وكذلك كن أيضاً إذاكنت كاتباً)
ولعل بشار بن برد كان أول من دل على هذه الظاهر واستعملها في شعر من حيث كان الناس يعيبونها بها، فقد جاء في الأغاني بسنده أن بعضهم قال: قلت لبشار إنك لتجيء بالشيء الهجين المتفاوت! قال وما ذاك؟ قلت بينا تقول شعراً يثير النقع وتخلع به القلوب مثل قولك
إذا ما غضبنا غصبة مضرية ... هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دماً
إذا ما أعرنا سيداً من قبيلة ... ذرى منبر صلى علينا وسلما
تقول:
ربابة ربة البيت ... تصب الخل في الزيت
لها عشر دجاجات ... وديك حسن الصوت

فقال بشار: لكل وجه، وموضع الأول جد، وهذا قلته في ربابة جاريتي، وأنا لا آكل البيض من السوق، وربابة لها عشر دجاجات وديك فهي تجمع لي البيض، فهذا عندها أحسن من (قفا نبك. . .) عندك

وصدق بشار فيما قال، فإن البليغ هو من يحوك الكلام على حسب الأماني، ويخيط الألفاظ على قدود المعاني، وقد تكون هناك مواقف للقول يطلب فيها الأسفاف، ويحلو فيها التبذل، فيكون بأقل في عيه وفهاهته، أفصح من سحبان في تشدقه ورغائه، ويقيني لو أن بشاراً توجه في الخطاب إلى جاريته بلغته في الفخر والحماسة، لدل على الحماقة في طبعه، والسقم في ذوقه، وربما ظنت هذه الجارية أنه يشتمها، فكانت تمنعه بيض دجاجها، وتحتم عليه أن يشتري البيض من السوق، فلا يفيده تقعره، ولا ينفعه شعره، فمن القصور أن يلتزم الشاعر أو الكاتب نمطاً واحداً في التعبير لا يتعداه، فيكون في جده كهزله، ومن الهذيان أن يتعنت في توجيه الخطاب، فيكون في كلامه إلى أهل الثقافة والمعرفة كما هو في كلامه إلى ذوي الفهاهة والعي، وإنما الطبع القوي هو الذي يواتي صاحبه في كل طريق يسلكه، والذوق السليم هو الذي يقضي عليه بتوجيه الخطاب إلى مقتضى الحال، حتى يستطيع من وراء ذلك أن ينال غرضه عند المخاطب، وأن يصل إلى قرارة نفسه في يسر وسهولة، فلو انتهج الأدباء هذه الخطة التي أوضحها ابن شهيد، ولو علموا أن لكل ضرب من الناس ضرباً من الكلام، ووجهاً من البيان، لأمكنهم أن يغزوا نفوس الناس على اختلاف طبقاتهم بأفكارهم وأساليبهم، وأن يخلقوا الإحساس الفني في نفوس الجمهور على مر الزمن

محمد فهمي عبد اللطيف

بين القاهرة وطوس - 4

طهران

للدكتور عبد الوهاب عزام

استرحنا بقية اليوم وزرنا بالليل دار المفوضية المصرية، ومر وزير المعارف فترك بطاقاته للمندوبين، ووزع عليهم منهاج المؤتمر وأوراق أخرى فيها دعوات إلى حفلات كثيرة، وعرفنا من المنهاج أن أيام المؤتمر والحفلات خمسة عشر يوماً من الأربعاء الرابع والعشرين من جمادى الثانية سنة 1353 (3 أكتوبر سنة 1934 - 12 مهرماه سنة 1313) إلى يوم الجمعة عاشر رجب. ومن ذلك ستة أيام في طهران، وثلاثة في مشهد، وستة في الطريق بين مشهد وطهران ذهاباً وأوبة. وقد سجل في بيان أعضاء المؤتمر اثنان وأربعون من ممثلي الأمم المختلفة، ومثلهم من الإيرانيين. ومندوبو الأمم يمثلون ثماني عشر أمة بينها من أمم الشرق: مصر والعراق وتركيا وأفغانستان والهند واليابان

وفي اليوم التالي بدئت أعمال المؤتمر بمدرسة دار المعلمين في بهو فسيح صفت فيه مقاعد كثيرة، صفوفها الأولى لأعضاء المؤتمر والأخرى للحضار من غيرهم. ووضع في صدر المكان تمثال للفردوسي، ومنصة الرياسة، ومنصة الخطابة، واستمر اجتماع المؤتمر خمسة أيام. وكان الموعد من الساعة التاسعة صباحاً إلى الواحدة بعد الظهر. وزيدت جلستان في مساء اليومين الثالث والرابع لكثرة مريدي الكلام من الأعضاء. وقد تكلم زهاء أربعين قليل منهم من الإيرانيين، وترك بعض الإيرانيين الكلام ليفسحوا مجال القول لضيوفهم

افتتح المؤتمر فروغي خان رئيس الوزراء، ولجنة الآثار القومية، فشكر الوفود باسم الأمة الإيرانية، والحكومة، ولجنة الآثار على ما أجابوا الدعوة وتحملوا مشاق السفر، وأبلغهم سرور جلالة الشاه بقدومهم، وأنه سيقابلهم في طوس، وقال:

يقول الشيخ سعدي (إن السفر لا يطول على قاصد الحبيب) وإنما أجاب السادة) الفضلاء دعوة الفردوسي. وإذا كان الداعي هو الفردوسي أمكن أن نقول: (ليس في السفر الروحي بعد عن المنازل) ونحن مواطني الفردوسي الذين عهد إلينا شرف الترحيب بكم نيابة عنه، نعرف أنكم كنتم على يقين مما تلقون من المشقات الجسمانية، ولكن أرواحكم الكبيرة الكريمة قلبت المحنة راحة بهمتها العظيمة. وأولت إيران يداً لا تنسى. أجل قد حملتمونا المنن العظيمة، ولكن كان لكم الحق فيما حملتم أنفسكم من مشقة، فإن الفردوسي إن تعلق بإيران جسماً فهو ابن الإنسانية روحاً، بل أقول إذا أذنتم لي: إنه من آباء

الإنسانية. وبعد، فقبيح أن يتصدى جاهل مثلي لتعريف علماء أمثالكم بالفردوسي، فمن الخير ألا أشغل أوقاتكم النفيسة، وأن أفسح المجال لأعمالكم المفيدة)

ثم أعلن افتتاح المؤتمر، وأخبر أن علي أصغر حكمت كفيل وزارة المعارف سيتكلم بالفرنسية، لأن بعض الحاضرين لا يعرف الفارسية. فتكلم كفيل المعارف مبدياً سرور الإيرانيين وشكرهم للعلماء الذين وفدوا للمشاركة في حفلات الفردوسي ثم قال:

(إن اجتماع هذا العدد من العلماء على اختلاف الأوطان دليل قاطع على ما قيل من أن العلم والأدب لا وطن لهما. فحيثما لمع نور هذه الموهبة الإلهية اتجهت إليه النفوس المستعدة، والأرواح المشتاقة كالفراش، فيرون أنفسهم في هذه المرآة المشتركة بينهم ويقولون: كنا متحدين، كنا جوهراً واحداً، كنا بغير أجسام ورءوس، كنا جوهراً وضاءاً كالشمس، وكنا صافين كالماء. فلما تصور هذا النور الجميل ظهرت أعدادنا ظهور الظلال على الشرفات

إن اهتمام الأمم العظيم بعيد الفردوسي الألفي، واحتفاءها به في بلادها، وإرسال فضلاءها إلى قبر شاعر إيران برهان على أن الأمم لا تختلف في الحقائق على رغم ظواهر الأمور. إن بين الأمم اختلافاً في السياسة، والاقتصاد، والتجارة، والمعيشة، والآداب والعادات - اختلافاً جعل العالم الحاضر مادياً ملؤه الشرور والآفات، ولكن كلما لاحت للناس الأمور المعنوية والفوائد العلمية والأدبية امحت هذه الاختلافات، وتجلى الوفاق والوئام - ثم بين كفيل المعارف أن الاشتراك في مثل هذه الأمور أحسن وسيلة إلى التقريب بين الأمم، وقال: لذلك أفتخر بأن أقول إن اهتمام الأمة الإيرانية بعيد الفردوسي، ودعوة الأمم إلى المشاركة فيه يعد في الحقيقة خطوة إلى التفاهم الحقيقي بين الأمم وإن يكن في ظاهره ذا مقصد أدبي وتاريخي)

وبعد فراغ وزير المعارف من كلمته دعي الحاضرون إلى انتخاب مكتب المؤتمر فكانت نتيجة الانتخاب:

الحاج محتشم السلطنة اسفند ياري رئيس
الأستاذ كريستنسون الدانمركي نائب الرئيس
الأستاذ زارة الألماني نائب الرئيس
الأستاذ هنري ماتسي الفرنسي منشي (سكرتير)
الدكتور عبد الوهاب عزام المصري منشي (سكرتير)

ثم تلا الرئيس رسائل كثيرة من الحكومات والجامعات تبين عن مشاركة الإيرانيين في الحفاوة بشاعرهم. ثم تكلم بعض المندوبين كلمات قصيرة أبانوا فيها عن سرورهم بالمشاركة في هذا الاحتفال. وكان من المتكلمين الأستاذ عبد الحميد العبادي فتكلم بالعربية عن فضل الفرس على الأدب العربي، وألقى الشاعر الكبير الزهاوي قصيدة فارسية

ثم بدئت المحاضرات على ترتيب حروف الهجاء، فكان أول المتكلمين الأستاذ العبادي فتكلم عن الأخلاق في الشاهنامه، واستمرت كلمته خمساً وعشرين دقيقة وتلقاها الحاضرون بالاستحسان. واقتبس منها بديع الزمان أحد أدباء إيران حينما تكلم عن الشاهنامه من بعده

وفي اليوم التالي تكلم سفير الروس، وترجمت كلمته إلى الفارسية، وأهدى عن دولته كتباً وصوراً فارسية قيمة، ثم خطب سفير الألمان، وقدم هدايا من الكتب منها فهرست للشاهنامه، وأعلن منح بعض الجامعات الألمانية رئيس وزراء إيران دكتوراه في الآداب، وانتخاب وزير المعارف عضواً في جمعية المستشرقين الألمانية. ثم تكلم آخرون، وانتهت الجلسة بإنشاد الشاعر الكبير الزهاوي قصيدة عربية (نشرت في الرسالة)

وفي اليوم الثالث كانت جلستان: في الصباح والعشي، وتكلم ثمانية. وكنت ثاني المتكلمين في الصباح فألقيت بالفارسية كلمتي (مكانة الشاهنامه في آداب الأمم) في عشرين دقيقة. وقد تفضل الحاضرون فأحسنوا استقبالي حينما قمت للكلام، وأحسنوا الاستماع لي، ثم أبدوا استحساناً عظيماً حينما فرغت، وإني أدع للجرائد الإيرانية الكلام، فإن القارئ المصري يهمه أن يعرف ما قالت جرائد إيران في ذلك

قالت جريدة إطلاعات:

(ثم ألقى الدكتور عبد الوهاب عزام معلم الأدب الفارسي والعربي بالجامعة المصرية، خطبة بالفارسية، وموضوعها مكانة الشاهنامه في آداب الأمم، وقد بدأ كلامه بقوله. أنا

لا أحسن التكلم بالفارسية، ولكني لا أريد في حضرة هذا الشاعر الكبير (وأشار إلى تمثال الفردوسي) أن أتكلم إلا بلغة الشاهنامة - ولخصت الجريدة المحاضرة، ثم قالت -: وفي
نهاية الخطبة أبدى سروره بمشاركته هو وزميله في عيد الفردوسي باسم الأمة المصرية والحكومة. وقدم إلى رياسة المؤتمر نسخة نفيسة من الشاهنامة العربية التي أخرجها الدكتور عزام أخيراً، بعد أن صححها وعلق عليها، وقدم لها مقدمة نفيسة جامعة، وطلب أن ترفع هذه النسخة إلى الحضرة الهمايونية الشاهنشاهية. وكذلك قدم نسخة إلى حضرة رئيس الوزراء، وأخرى إلى كفيل وزارة المعارف، وكانا حاضرين. وقد قوبلت خطبته وعمله بتصفيق مديد. وحينئذ تقدم إلى منصة الخطابة السيد حكمت كفيل وزارة المعارف، وشكر الدكتور عزام على ما أظهر من عواطف المودة وقال: (أشكر الدكتور عبد الوهاب عزام من جهتين: الأولى أنه تحمل مشقة في ترجمة الشاهنامة وتصحيحها والتعليق عليها. والثانية أنه تكلم بلغة الشاهنامة. يقول حافظ الشيرازي أن الترك المتكلمين بالفارسية يهبون لي الحياة. وأنا أقول أن العرب المتكلمين بالفارسية يهبون لي الحياة. والحق إن لساني قاصر عن الشكر. والأستاذ عزام من أدباء الشرق الذين درسوا الفارسية برغبة وعشق وكلف خاص، وإني أختم شكري بهذين البيتين للشيخ سعدي:
قلت لقلبي إن الناس يجلبون السكر من مصر فيهدونه إلى الأحباء. فإن تكن يدي) (خالية من هذا السكر فعندي كلام أحلى من السكر
ولما جلس الدكتور عزام في مكانه من منصة مكتب المؤتمر قال له الرئيس (لقد أردت أن تثبت أنك أستاذ الأدب الفارسي بحق) اهـ
ثم توالى المتكلمون في اليومين الرابع والخامس، وأنشد الشاعر الإنكليزي درينكووتر قصيدة وترجمها نظماً وأنشدها في المؤتمر من بعد الشاعر الفارسي بهار الملقب بملك الشعراء. وتكلم في اليوم الأخير الأديب أحمد حامد الصراف أحد مندوبي العراق، فألقى بالعربية كلمة قصيرة جميلة تكلم فيها عن المودة بين العراق وإيران وكانت هذه الأيام الخمسة مزدحمة بحفلات الغداء والعشاء، ومشاهد التمثيل والألعاب الرياضية ومشاهدة الأماكن العظيمة في طهران. ونرجئ الكلام في ذلك إلى المقال الآتي خشة الإطالة

د. عبد الوهاب عزام

الشمس في الغروب

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

ماذا تحسّ الشمسُ عند غروبها ... فيكون ذلك باعثاً لشحوبها؟
ما إنْ رأت عيني وقد راقبتُها ... كالفرق بين طلوعها وغروبها
بَعد ابتسامتها لنا قد قطّبت ... والحزنُ كل الحزن في تقطيبها
إني ليحزنني الغروب فإنه ... لمذكِّرٌ نفسي بكل كروبها
الشمسُ في الدنيا إليَّ حبيبة ... والنفسُ تأسى من فراق حبيبها
ويزيدها شجناً إلى أشجانها ... مَرُّ السحاب محاولاً لركوبها
كانت إذا طلعت تفوز الأرض من ... أنوارها مبثوثةً بنصيبها
كانت بجذوتها السماء منيرةً ... والأرض كانت تصطلي بلهيبها
أَجمِلْ بألوان الغمائم حولَها ... لو دامت الألوان بعد مغيبها
مدَّت مودّعةً بنانَ شعاعها ... لبعيدها وتلثّمت بقريبها
انظرْ إلى الأفْقِ البعيد تَخَلْ به ... ناراً تخوض العينَ بعد شبوبها
بالشمس تحيا الأرضُ ضاحيةً لها ... وبها تتمّ لها حياةُ شعوبها
صفراءُ خائفةٌ كأن ورآءها ... سوداء تخطف شِلْوَها بنيوبها
وقد اكتست بعد اصفرار حمرْةً ... بدَمٍ لها أهريق فوق تَريبها
وكأنما قِطَعُ السحاب أمامها ... سدّتْ لتمنعها طريقَ وثُوبها
غربت وأبقت في السماء وراءها ... شفقاً يثير الشجوَ بعد غروبها
قد أوّبت شمسُ النهار فهل إلى ... هذا مصيرُ الشمس في تأويبها
أمَّا الغمائم فهي قد هبّت بها ... ريحُ الأسى فتمزَّقت لِهُبُوبها
والثاكلات أذابها عصف الأسى ... فقلوبها تنشقُّ قبل جيوبها

تُهوى وتُقلى في زمانٍ واحدٍ ... دنيا محاسنُها بواءُ عيوبها
وكأنها من نورها وظلامها ... ممزوجةٌ أفراحُها بخطوبها
جميل صدقي الزهاوي
شعري
للمرحوم أبي القاسم الشابي
شعري نفاثة قلبي ... إنْ جاش فيه شعوري
لولاه ما انجاب عنّي ... غيم الحياة الخطيرِ
ولا وجدْت اكتئابي ... ولا وجدْتُ سروري
به تراني حزيناً ... أبكي بدمعٍ غزيرٍ
به تراني طروباً ... أجرُّ ذيلَ حبوري
لا أنظم الشعر أرجو ... رضاء أمير
بمدحةٍ أو رثاءٍ ... تهدى لربّ السرير
حسبي إذاقلت شعراً ... أن يرتضيه ضميري
لا أقرض الشعر أبغي ... به اقتناص نوالِ
الشعر إن لم يكن في ... جماله ذا جلالِ
فإنما هو طيفٌ ... يسعى بوادي الظلالِ
يقضي الحياة طريداً ... في ذلة واعتزالِ
ما الشعر إلاّ فضاءٌ ... فيه يرف خيالي
أبو القاسم الشابي
جنون الغيرة
لفريد عين شوكة
يغار إذا ما لاحه في جماعةٍ ... يبادلها بعض الرضى وتبادِلُهْ
ويكره أن يلقى له أيَّ صاحبٍ ... يفوز بعطف عنده أو يحاوله
ويعبس إن ردَّ التحية لامْرِئٍ ... يُحَيِّيه أو مُدَّتْ إليه أنامله
ويغضب منه إنْ أطلَ ببسمةٍ ... على الغير أو أصغى إلى مَن يسائله
فكيف إذا ألفاه يسعى لغيره ... ويُعرِض عمن ناء بالهجر كاهله
تساوره من حُرْقة الوجد لفحة ... تضجُّ لها أحشاؤه ومفاصله
ويخشاه إعصار من الهم مُتْلِفٌ ... يزعزع ركن القلب حين يصاوله
يريد له ألاَّ يصاحب دونه ... وألاّ يُنيل الغير ما هو نائله
يريد به ألاَّ يخِفّ لغيره ... ولو كان ممن تستبيه شمائله
أمانٍ كحال البدر يدنو ضياءه ... وتُمْعِنُ في بُعد المزار منازله
وعبءٌ تنوء الشامخات بثقله ... ويفقد رَضْوَى عزمه وهو حامله
فكيف بمحبوب أرقَّ من الصَّبا ... وأحنى من الغصن النضير كواهله
فيا غيرة الصب التي طوَّحته في ... خِضَ & من البلوى تناءت سواحله
ويا ويحه يخشى لقاء حبيبه ... مع الغير حتىَ لا تهيجَ بلابله
فيهجره رغم الجوار وإنه ... لأحوج أن تَرْوِي صداه مناهله
ويحمل في النأي العَذابَ وكلما ... تراءى له المحبوب ضجَّتْ مراجله
وأغْرِقَ في بحر الأسى وحبيبه ... تفيض بآيات الحبور محافله
ويا حيرة المحبوب فيما يشاؤه ... مُحبٌّ بعيدُ الغَوْر ما هو آمله
عزيز عليه أن يرى بشره أمَحى ... ونضرته كالروض جفَّت خمائله
ولكنه لا يستريح لناصحٍ ... له في الهوى أو يرتضي من يجادِلُهْ
فريد عين شوكة
فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية
3 - تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا
للأستاذ خليل هنداوي
نقد الحكم
ترى كانت - في فصله هذا - يعزو كل تأثير إلى أحاسيس باطنية، فهو لا يتحرى إذ يتحرى عن أسباب الجمال الخارجية، لأن الحس لا يكمن في الأشياء ولكنه يكمن في الإنسان

وقد شطر نقد الحكم شطرين: الأول ويحتوي على الألفة بين الجميل والسامي لما بين الجمال والسمو من تقارب، والآخر وهو يعنى بمظاهر الأشياء المؤتلفة المتطابقة في الوجود

إن (كانت) بحث في موضوع الجميل كما بحث فيه الأولون، ولكنه وسع دائرة البحث وتعمق في تحليله؛ فاعتبر اللذيذ كل ما فيه لذة للحواس مصحوباً بالرغبة، واعتبر اللذة التي يولدها مشهد الحسن والجمال لذة خالية من الأهواء والأغراض، وإن حكماً ما يمازجه قليل من الهوى لهو حكم فاسد غير مبني على الذوق، ولكن لما كان حكم الذوق مبنياً على العاطفة فهو بحكم الضرورة قابل للتغيير، وفي الإمكان أن نرى في كل بيوت الفن - وفي الطبيعة تماثيل ودمى تحظى برضا الناس؛ ولكننا لن نرى مقياساً واحداً صحيحاً للجمال، لأن الذوق نفسه هو كالبراعة شيء مبتكر

فإذا كان الجمال يؤثر في شعورنا تأثيراً خفياً ويرسل فينا الراحة واللذة من حيث لا نشعر، فإن السمو ليبلونا باهتزاز عنيف قد يكون مضنياً ومرهقاً للنفس ولأن يكون ما يبعثه السمو في أنفسنا أدنى إلى عاطفة الإعجاب والاجلال منه إلى الراحة واللذة أحرى وأجدر، واسمه الحقيقي هو (اللذة السلبية)

ويفرق كانت بين السمو الرياضي والسمو الآلي (أو ذو الحركة) هذا مؤسس على فكرة القوة وذلك على فكرة العظمة والروعة، فالطبيعة هي سامية عالية - رياضياً - في حوادثها التي يصعب على مخيلاتنا إدراكها، وهي سامية أيضاً بحركات أجرامها الهائمة في

الفضاء، حتى كأنها تريد أن تسحق وجودنا المادي. وفي كلا الحالين تهيب مخيلتنا بعقلنا، فيتركنا العقل ذاهلين أمام السماء ذات الكواكب واللانهاية التي لا تحد ولا تبلغ إلى عظمتها المخيلة مهما سمت، وهو العقل الذي يثير فينا عاطفة السمو، ويجعلنا نردد معه (ما أنا إلا قصبة، لكنها قصبة مفكرة)

فالسمو إذن لا يكمن في الأشياء، لكن في أنفسنا، فلا يجب علينا أن نقول (إن هذا الشيء هو سام) ولكنه شيء يبعث فينا فكرة السمو، فلا شيء في الطبيعة مهما جل - إذا نظرنا إليه نظرة قياسية - إلا وهو يهوى إلى أحقر الأشياء، ولا شيء حقير - إذا قسناه بمقياس آخر - إلا وهو يرقى إلى أعلى الأشياء، وهناك المراصد والمجاهر تثبت صحة دعوانا

يعرض أمامنا شيء رائع، يعجزنا التعبير عنه فنقول: إنه لسام رائع: ويخلق معركة حامية بين العقل والمخيلة، فلا تستطيع المخيلة إدراك كنهه، والعقل لا يفتأ يتحرى عن وسيلة يفهمه بها، فينشأ من ذلك تلك الروعة التي نحسها أمام الأشياء العظيمة السامية، ولكنها روعة ترفع أنفسنا إلى المثل العليا، لأنها تنبه فينا ناحية العظمة الصادقة التي تنجلي بها طبيعتنا الإنسانية وحريتنا الأخلاقية.

أسلوب كانت

يعد كانت أصدق الفلاسفة اعتقاداً وأصفاهم أسلوباً، يقول ما يعتقد به حقاً، ويكتب لقرائه كما يكتب لنفسه، تكاد تنطق جملته بفكرته، ويعتقد أن الحقيقة غنية بنفسها، وأن الزخرفة في التعبير عنها مما يرخص من قيمتها، وبرغم هذا الأسلوب الواضح رماه بظلمة التعبير، وقد أراد هؤلاء أن يظهروا أن كانت ليس ممن تنبسط آراؤهم للقارئ بسهولة. على أن أفكار كانت لا تمشي إلى قارئها، وإنما على القارئ أن يسعى إليها ليدركها، ولكنه لا بد مدركها كلها، ولكن إدراكها لا يخلو من الجهود التي لا يستغني عنها رجل يسعى

إن أسلوب كانت واضح جد الوضوح، ولكن عيبه الواحد الذي أخذه عليه النقاد أنه يخلق في الموضوع شعباً كثيراً لا يترك منها مسرباً إلا نفذ فيه، وهذا قد يدل على سعة اطلاع ونظر بعيد وإن كان لا يخلو من السأم، ولكن كانت لم يكتب إلا لذوي الإلمام بهذا الموضوع فقد يأخذ الموضوع الحقير الذي لا يكاد يخوض فيه عقل فيخلق منه موضوعاً كبيراً، وقد ذكر أحدهم نكتة جرت على لسان صديقه (فيمار) أن هذا أعلن للفيلسوف أنه لا

يستطيع أن يقرأ تصانيفه، لأن الله لم يخلق له أكثر من هذه الأنامل، يريد أن يضع أنملة على هذه الكلمة وأخرى على الثانية وهكذا حتى تنتهي أنامله ولما يكمل العبارة ويقف على دقائقها، لأن كانت يستعمل كثيراً الأقواس والأهلة في عباراته المتصل

بعضها ببعض. وقد كان لكانت فضل كبير في خلق كلمات وتعابير جديدة فلسفية خلقها بنفسه، وفرضها على اللغة الفلسفية بنفسه

وأخيراً نستطيع أن نقول إن كانت كان مطلع الثورة الفلسفية في ألمانيا التي خلقت (فيخت وشيلنغ وهيجل) وقد تناول تأثيره جميع المدارس العلمية والأدبية، وما ثمة فيلسوف ولا أديب ولا شاعر نشأ بعد كانت إلا وكان مديناً له ولمذهبه بكثير من آرائه، وشيلر نفسه قد استمد من كانت آراءه في الجمال والسمو، وما أصدق كلمة (غليوم همبولد) حين قال (إن قسماً من الذي هدمه كانت لن يقوم أبداً، وإن قسماً من الذي شاده لن يخسف أبداً)

فيخت

1762 - 1814

ولد (فيخت) سنة (1762) في قرية (رامينو) ولم يكن أبوه ليقدر على القيام بأعباء تعليمه، فكفله أحد سادة القرية وأنفق في سبيل تعليمه ما أنفق؛ وبعد جهاد عنيف ودرس طويل دخل في العالم الفلسفي، فكان أول كتاب له (تجربة نقدية لكل وحي) وكتابه الثاني (تقويم أحكام الشعب على الثورة الفرنسية) وكتابه الثالث (نداء عام لأمراء أوروبا لكي يفكوا العقل من عقاله) وهذه الكتب الثلاثة وضعت (فيخت) في مصاف أرباب فلسفة النقد والثورة، وبعد هذا الإنتاج الطيب أعلن في محاضرة له قيمة مذهبه الذي وسمه بالمذهب العلمي، وهو الذي يرد به كل العلوم إلى مصدر واحد. وهذا المذهب أو هذه الثورة الفلسفية أطارت اسمه في الآفاق، حتى غدا حديث المجامع النوادي. وقد أسند إليه منبر في (لينا) ليحاضر في الفلسفة، فسهل له هذا المقام أن يعاود شرح مذهبه وتفصيله من جميع نواحيه في كتبه العلمية، وكان خلال ذلك يواصل نشر مقالاته في (واجب العلماء) فهو يريد من العالم أن يسيطر على شؤون بلده، لأن العالم عنده ليس بالرجل الذي يملأ رأسه علماً وعرفاناً، ولا من يتخصص في مادة واحدة يذهب بها كل مذهب، ولكنما العالم هو الرجل الحر الذي اجتمعت له ثقافة عصره، وسما فوق مشاغل حياته اليومية، هو يريد أن ينقاد المجتمع للرجال الألمع ذكاء والأروع عقلاً

وربما دفعه هذا المذهب - أضف إليه بعض مشاغل خاصة - إلى أن يقطع الكثير من دراساته المتواصلة، كان يحاول من ورائها أن يطبق مذهبه النظري على الأخلاق والحقوق والسياسة والدين، يقطع هذه الدراسات ملتفتاً إلى شؤون أمته المجروبة، وقد خطب الشعب كثيراً في (برلين) بأسلوب تبدو فيها حماسة الفيلسوف وشدة تعلقه بوطنه، ومن خطبه خطبة ذكر فيها أسباب انحطاط أمته ووصف العلاج الشافي لهذا الانحطاط

قال: (إن أسباب الانحطاط داخلية؛ لا يمكن أن تعزى إلى بأس الخصم وسيطرته، إنها تنجلي في خنوعنا ولين أخلاقنا، وفي أنانية مرشدينا وقوادنا، وفي إعجابنا وتقليدنا الأعمى للأجنبي الغريب. أما علاج هذه الأدواء فهو التربية المؤسسة على الفضيلة التي تشجع

النفوس وتعلم الأرواح معنى التضحية. . والوطن ما الوطن - عند فيخت - إلا خلود الإنسان على الأرض، أتلك صفة محمودة فيمن يرغب عن مؤازرة أخيه بعقله أو بعمله؟ من هو ذلك الإنسان الذي يبغي ألا يخلق في فراغ الأزمان شيئاً جديداً لم يمر بخاطر، ولم يقع عليه ناظر؟ هذا الشيء الذي يغدو مورداً لا ينضب لاكتشافات جديدة؟ ومن الذي لا يرضى بأن يفادي بمقامه في هذا الوجود ويتجاوز من أجله القصير المقدر له لقاء بعض شيء سيخلد أبداً في هذه الأرض؟ أي خلق نبيل لا يرضى بهذا؟ ألا إن هذا الرضا لا يتمثل إلا لعيون الذين يعتقدون بأن الوجود كامل الصورة، ملائم كل الملائمة لحاجهم، وجامع لأمانيهم، ما خلق إلا لهم. وأصحاب هذه الفكرة هم عندي أصحاب هذا الوجود، وهم أصله ونواته. أما أولئك الذين ينظرون إلى الحياة غير هذه النظرة فليسوا إلا حشرات سحيقة تزحف في مسارب وجود سحيق)

وبينا كان فيخت يكسو فلسفته الآراء السامية، كان يعمل على أن يكسو نفسه أثواب السمو. ولكن الردى غاله ولما يؤد رسالته، فقضى نحبه سنة 1814 مستريحاً من جميع أوصابه

فلسفته:

فلسفة (فيخت) هي فلسفة رجل لا يعرف للعقل والقوة الإنسانية حدوداً يقفان عندها. وقد كان - كانت - يرى أن معرفتنا تقوم على أن نوفق بين العقل الخارجي وبين نظام إدراكنا الداخلي، وهو يرى أن وراء ما ندركه شيئاً قائماً بنفسه منسلخاً عنا لا يتطاول إليه إدراكنا. وما معرفتنا - عند كانت - إلا مظهر يتوارى وراءه السر الأبدي واللغز السرمدي. أما (فيخت) فهو يوقن بأن هذا المظهر نفسه هو الحقيقة ذاتها، وهو وليد قوة (النفس) التي لا تنفد، وذلك الشيء القائم بنفسه إن هو إلا حد يكبح قوة النفس ويحاول أن يقضي على سطوتها، ولكنه حد يزداد أمره ضعفاً كلما استطاعت النفس أن تبرز من قوتها وتفرض شيئاً من سيطرتها على الوجود؛ وبهذا كانت غاية العلم أن يتغلب العالم الداخلي وهو عالم العقل والروح على العالم الخارجي وهو عالم المادة والنقطة الأساسية لفلسفة (فيخت) هي هذه الذات التي يجعل منها (الفاعل المطلق) في هذا الوجود، لكن هذه الذات لا تكمل لها معرفة ذاتها إلا إذاقورن بينها وبين غيرها، وبضدها تتميز الأشياء. فإن تخصيصي مثلاً لوجودي بقولي (أنا) يثبت منطقياً لغير ذاتي وجوداً.

لأن الأخص يستثنى من الأعم. وهذا الغير هو الذوات السارحة في هذا الوجود قد تيقظت الذات في إحدى خطراتها يوم أحست بنفسها فألفت أمامها سداً يقف سيرها. فوقفت وشعرت بأنها مقيدة، من ورائها ومن أمامها سدود، فأخذت تنظر إلى علة هذه الحدود وهذه السدود، فخالت أن هذه العلة كامنة في جواهر الأشياء، فأما الشعور العادي فهو يرى العلة في جوهر الأشياء، أما الفيلسوف فهو يعتقد بأنها كامنة في التحريض الذي تثيره الذات لبسط سلطانها على الأشياء، وتحقيق غايتها التي تطويها في صدرها. وهكذا تجري حياة الكائن المفكر، فهو طوراً يصيب مركز الدائرة وطوراً يحيد عنه

(يتبع)

دير الزور

خليل هنداوي

أدب الحرب

كبتن كونان

للقصصي الفرنسي روجيه فرسل

(صاحب جائزة جنكور لعام 1934)

كان لهذا الشهر في عالم الأدب الفرنسي أهمية كبرى تميزه من سائر شهور العام. فقد سطعت في النصف الأول منه أسماء أربعة من الكتاب بعد أن فاز كل منهم بإحدى الجوائز الأدبية الكبرى التي تمنح في فرنسا في مثل هذا الشهر من كل عام إلى خير قصة يقع عليها اختيار لجنة تحكيم كل جائزة من هذه الجوائز. ولقد ذكرنا أكثر من مرة أن اهتمام الغرب بالإكثار من الجوائز الأدبية، يرتفع عن المكافأة المادية التي تصيب الكاتب الفائز، وأن الغرض الأساسي هو شحذ همم الكتاب والاحتفاظ بعاطفة المنافسة حارة في قلوبهم. وكل من تصفح الجرائد الأدبية الفرنسية الكبرى خلال الشهر الفائت استطاع أن يعرف مقدار اهتمام الفرنسيين - وهم كغيرهم من أمم الغرب - بأمر هذه الجوائز الأدبية. واستطاع أن يحس بما تخلقه هذه المباريات في نفوس الأدباء حين يقرأ أحاديثهم قبل ظهور قرار المحكمين. تلك الأحاديث الممتلئة بالعبارات المتحمسة، القلقة على مصاير أعمالهم وعصارة عقولهم. وعندئذ يشعر بحاجة كل أمة متمدنة تبغي النهوض لفنونها وآدابها إلى مثل هذه الجوائز

وروجيه فرسل الفائز بجائزة جنكور أستاذ للآداب بكلية دينان وهو الآن في الأربعين من عمره ولد في بلدة نانر، ولما شب تعلم في (فليش) ثم انتقل إلى (كان) ليدرس الأدب، ولكن لم يكد ينقضي عام حتى شبت الحرب الكبرى فانتزعته من أحضان كتبه وأساتذته الذين كان يجلهم أعظم إجلال مثل بييرفي الأستاذ الضرير الذي لا يزال يذكره روجيه فرسل بالخير، ويرجع إليه أكبر الفضل في نجاحه في الحياة العامة، ومثل موريس سوربو الذي أصلح له فيما بعد رسالته عن كورني، فنال بها ليسانس الآداب

حارب فرسل في كثير من الميادين الحربية في فرنسا مثل: ايبر وشمباني وسم

وأرجون، ثم أوفدته السلطات العليا إلى عدد من بلدان أوروبا الشرقية للقيام ببعض المهام، فرأى
اليونان وصربيا وبلغاريا ورومانيا، واستفاد من ذلك أجل الفائدة، إذ عرف أمما تختلف عن وطنه في كثير من النواحي، وفهم نفسيات شعوبها، وأخلاق أهلها، وكان ذلك أكبر عون له على رسم كثير من شخصيات قصصه. وفكرة قصته التي نال عليها الجائزة
إنما انبعثت في نفسه حين كان يعمل مقرراً لمجلس الحرب في صوفيا
ابتدأ فرسيل يخوض غمار الأدب برسالته القيمة ' ' التي نال بها ليسانس الآداب. وبعد ذلك نشر كتابه وبعد هذا الكتاب ظهرت قصته الأولى وتليتها قصة ثم ' ثم ثم ظهرت له هذا العام وقد ابتدأت مجلة (جرانجوار) الأدبية تنشر له منذ بضعة أسابيع آخر قصصه ولفرسل ترجمة شيقة عن (دوجسكلان) وهو يراسل عدداً كبيراً من المجلات الفرنسية الكبرى، وعلى الأخص (ريفودوفرانس) و (ماريان) و (جرنجوار)
وروجيه فرسل يهيم بالقوة، والإرادة الجبارة، والشجاعة الخارقة التي يراها واضحة جلية في كثير من رجال الجيش وبحارة السفن والصيادين المخاطرين. وهو يرى أن غرائزنا الوراثية الأولى التي تدفعنا إلى احتقار الحياة والاستهانة بالموت، والغرام بالنزال والقتال، تلك الغرائز التي يظن الكثير أنها ماتت بتطور الإنسان لا تزال كامنة فينا، وسرعان ما تطغى على شخصيات الكثير منا عندما تمهد الفرصة المناسبة لظهورها كالحرب مثلاً التي هي أكبر عامل في إظهار هذه الغرائز الأولى. وفي قصة (كبتن كونان) يرسم لنا فرسل صوراً من أولئك الأبطال الذين يحملون أرواحهم على أكفهم مستهدفين للمهالك غير عابئين بالموت، وإليهم يرجع كل فضل في الفوز والانتصار
و (كونان) بطل القصة رجل صغير الجسم، هادئ الطبع، لين الجانب كان يشتغل بائعاً صغيراً في سان مالو. ولم تكد تشب الحرب عام 1914 ويتطوع فيها في جيش الشرق حتى تستيقظ في بطولة كانت خامدة تسوقه إلى مراتب الرقي السريع، فنراه على رأس فصيلة صغيرة في الجيش نفخ فيها من روحه وبسالته، حتى استيقظت في أفرادها نفس الغرائز التي استيقظت فيه، غرائز الإنسان الأول الذي لا يعرف للحياة قيمة ولا للموت رهبة، فينساقون وراء رئيسهم (كونان) إلى شتى ضروب المهالك دون خوف ولا وجل
لقد تجردوا من كل صفات الجنود النظاميين، وأصبحوا أشبه ما يكون برؤساء العصابات،
لا يعرفون لهم قانوناً إلا الشجاعة الخارقة التي يجب أن تذوب أمامها كل عقبة تحول بينهم وبين تحقيق ما يرغبون. فبينما نرى في كثير من الأحيان أن سائر فصائل الجيش ينقصها الزاد والماء، نرى ذلك عند فصيلة الكبتن كونان دائماً كاملاً موفوراً بل زائداً عن حاجتهم. وبينما نرى سائر الجنود يرهبون النزال مع العدو وجهاً لوجه حيث يمزق بعضهم أجسام بعض بالسيوف أو بأسنة الحراب، ويعتبرون ذلك أشد ضروب القتال هولاً. نرى الكبتن كونان وأتباعه لا يترددون لحظة في الهجوم على خنادق العدو، وقد تسلحوا بالقنابل اليدوية والخناجر معلقة إلى جوانبهم يغرسونها في أحشاء أعدائهم دون شفقة ولا رحمة حتى أطلق عليهم أسم (منظفي الخنادق). ذلك أن كلاً منهم كما يقول رئيسهم (كونان) لا يعرف إلا أنه (محارب) فحسب، وليس جندياً يخلص للنظم العسكرية وتقاليدها كما يفعل سائر الجنود الآخرين. بل هم ينظرون إلى هذه النظم والتقاليد العسكرية نظر الاستهتار بها والاحتقار لأثرها في الانتصار. وإنك لتستطيع أن تفسر جيداً نفسية أولئك (المحاربين) حين تقرأ كلام (كونان) إلى أحد رفاقه الذي يلومه على تصرفاته هو وزملاؤه ويقول: (حاول قليلاً أيها العجوز المسكين أن تفهم) فيجيبه كونان:
أفهم؟ أتظن أنني لا أفهم لأنني أتكلم بصوت عال؟ إنني أعرف جيداً منذ بعيد أنهم) كانوا يخجلون من أعمالنا، وكانوا لا يعرفون جيداً كيف يتخلصون منا! إنني أنا وشباني الذين خضنا حقيقة غمار الحرب، ونحن الذين يرجع إلينا كل فضل في الانتصار! أنا ومن يماثلني من الأعوان الذين أرعبنا الجيوش. أسامع أنت؟ الجيوش التي كانت ترانا في كل مكان، وكانت لا تحسب لغيرنا حساباً، ولا ترهب سوانا منذ اندلعت أول شرارة! إن قتل جندي أمر في استطاعة كل فرد أن يقوم به، أما مهمتنا نحن فكانت

قتل ذلك الجندي بطريقة تلقي الفزع في أدمغة عشرة آلاف آخرين! لذا كان من اللازم الذهاب للقاء العدو بالخناجر. أفاهم أنت؟ إن الخنجر هو الذي كسب الحرب، وليس المدفع! إن ذلك النوع من الرجال الذي أحدثك عنه لا يزيد على ثلاثة آلاف في كل جبهات القتال. على أن هؤلاء هم المنتصرون وحدهم. هم المنتصرون الحقيقيون!)

والقارئ لا يستطيع أن يتمالك نفسه من الأسى والتأثر أمام الخاتمة المحزنة التي تنتهي بها مأساة تلك الشخصيات الغريبة. فقد مضت سنو الحرب الأربع، وإذا (كونان) بطل مقدام

فائز بوسام الشرف، تحلي صدره نياشين المجد والفخار. على أنه لا تكاد تعقد الهدنة العامة وينطفئ جحيم المجزرة البشرية الكبرى، وتوزن الأعمال بميزان أقرب إلى العدل والمنطق حتى نرى الذين كانوا يعتبرون بالأمس أبطالاً صناديد، والذين ببسالتهم النادرة وإراقة دمائهم دون حساب ضمنوا لجيشهم الفوز مراراً في ساحة الوغى، نراهم اليوم وقد أضحى الجميع يعتبرون عملهم جريمة لا تغتفر. وينظر إليهم مجلس الحرب نفسه نظرة الخارجين على القانون، المنتهكين لحرمة الشرف العسكري!

وبانتهاء الحرب ينصرف الجنود جميعاً إلى بلادهم وذويهم متنفسين الصعداء بعد أعوام مريرة من العذاب والشقاء. إلا أن هذه الظاهرة العادية لا نجدها عند الكبتن كونان ورفاقه. إذ يصور لنا روجيه فرسل كيف عاد كونان إلى مسقط رأسه يعمل كما كان تاجراً بسيطاً كسير القلب محطم النفس، غير راض عن حالة السلم والهدوء، غير مرتاح إلى العيش في مجتمع لا يناسب ميوله وغرائزه التي بعثتها الحرب من مرقدها، وأصبح لا يجد إلى التخلص منها سبيلاً

ويتزوج كونان. ثم تمضي الأيام فإذا الحياة الهادئة الوادعة لا تناسبه فيترهل جسده وتنتفخ أوداجه، ويضنيه مرض الكبد وكلما تقدمت به السن شعر بأنه فقد كل شئ. وضاق بالحياة كلها ذرعاً

إن روجيه فرسل يجمع في قصته فكرتين: أولاهما الإعجاب بأولئك الأبطال والرثاء لهم، وثانيتهما الدعوة ضد الحرب، فهو لا يبرر الحرب التي توقظ في هذا النوع من الناس بطولتهم الراقدة تحت وعيهم. بل هو العكس يريد أن يبين لنا أن (الحرب هي الشر الأعظم) كما يقول. أليست هذه الشخصيات التي يصورها لنا خير تصوير كأبطال الحرب الحقيقيين هي كذلك أولى ضحاياها؟ أليست شجاعتهم الخارقة تجعلهم أول وقود لسعيرها الجهنمي؟ ثم أيضاً ذلك النقر مبهم الذي ينقده الحط الحسن من الموت في ميدان القتال، ألم تتحطم سعادته، وتشقى حياته كما رأينا في كونان، ذلك التاجر البسيط الوديع الهادئ العيش الذي أصبح بعد أربعة أعوام من المذابح البشرية رجلاً أجدر به أن يوضع في عداد المرضى حين لا يستطيع الحياة في مجتمع خلو من القتل وسفك الدماء؟!

تلك هي ميزة قصة (كبتن كونان) الكبرى، فلقد كتب عن الحرب منذ بدئها إلى الآن عدد

كبير من الكتب الرائعة ربما كان أعظمها كتابا جورج دوهامل وكتاب رولان دور جيليه وكتاب هنري باربوس الذي نال جائزة جنكور عام 1917، وقد تفوق هذه القصص قصة (كبتن كونان) في كثير من النواحي، إلا أن روجيه فرسل يمتاز في قصته بأنه عالج موضوعاً ورسم نوعاً من الشخصيات الإنسانية بطريقة لم يسبقه إليها أحد من الكتاب

علي كامل

البريد الأدبي

الجوائز الأدبية الفرنسية

ظهرت في فرنسا في أوائل هذا الشهر أسماء الفائزين بالجوائز الأدبية الفرنسية الأربع، ففاز بجائزة الكاتب روجيه فرسل بقصته وقد تحدثنا عن القصة ومؤلفها في غير هذا المكان. وفازت قصة - لروبرت فرانس بجائزة - وقصة لمارك برنار بجائزة وقصة للكاتب لوي فرانسس بجائزة

وروبرت فرانس شاب في الخامسة والعشرين من عمره، ولد عام 1909 وكان منذ صغره كلفاً بقراءة الأدب ودراسته، إلا أن أسرته أرغمته على الالتحاق بمدرسة الهندسة، فكان هذا التصرف دافعاً على ازدياد شغفه بالأدب والكتابة: فأصدر وهو لا يزال في الثامنة عشرة من عمره هو وشقيقه مجلة التي عاشت ثلاثة أعوام

وابتدأ يكتب فيها عدداً من المقالات السياسية. وكذلك القسم الخاص بنقد الكتب وفي ذلك الوقت أيضاً نشر في المجلة أول أعماله الأدبية ' ' وهي ترجمة حياته مصوغة في قالب روائي. وفي عام 1930 أدى روبرت فرانسس خدمته العسكرية في قسم الطيران، وقد أظهر كفاءة أثناء اشتغاله في الحصون الشرقية دفعت وزير الحربية إلى انتدابه عام 1931 للعمل في الحصون الشمالية، فقضى ستة شهور متنقلاً بين (مان) و (ريمز) تاركاً العنان لإحساسه الشعري يتأمل تلك الغابات الواسعة الممتدة الأطراف. على أن المرض حال بين فرانسس وبين الاستمرار في البقاع الشمالية فرجع إلى (فانس) حيث قضى ستة أشهر طريح الفراش. ولم يكد يبل من مرضه حتى شرع يكتب أولى قصصه التي ظهرت في العام الماضي، وفي هذا العام ظهرت قصتاه اللتان نال عليهما الجائزة وهما و - تحملان عنواناً رئيسياً واحداً والقصتان تكملة للقصة الأولى. والقصص الثلاث تفيض بالأخيلة الشعرية التي تدنيها من الأساطير

وفن روبرت فرانسس يمت إلى تلك المدرسة التي يسميها الناقد أدمون جالو وهي مدرسة تحاول أن تصلح ما يوجه من النقد إلى المدرسة الشعبية التي تكاد تقتصر على وصف شقاء المجتمع الفقير وما يخلقه هذا الشقاء من الرذائل. فالمدرسة الجديدة بتجديدها تحاول

أن تتكلم عن فضائل هذا المجتمع الفقير. ولذا نرى روبرت فرانسس يرسم لنا في قصصه مقدار إحساس أبناء الطبقة الدنيا بالكرامة ومقدار سموهم الروحي وصفاء نفوسهم. مما يجعلهم أهلاً لأن يرتفعوا عن مستوى حياة الحيوانات التي يحيونها وروبرت فرانسس إلى جانب إنتاجه القصصي كاتب سياسي، وهو في مقالاته التي ينشرها من حين لآخر يدعو إلى إصلاح اجتماعي يهيئ للطبقات البائسة حياة حرة كريمة

أما مارك برنار الفائز بجائزة فقد نشأ في بلدة نيمز فقيراً معدماً. وكان طبيعياً أن يحول بؤسه وشقاؤه بينه وبين الدراسة المدرسية، وأن ترغمه ضرورات المجتمع الحاضر على الاشتغال في سن مبكرة ليجني القدر الضئيل من المال كي يطفئ ألم الجوع، فهجر نيمز متنقلاً من بلد إلى آخر. ولم يترك عملاً من الأعمال إلا طرق بابه وعالج سبيله. فاشتغل في السادسة عشرة ممثلاً في مرسيليا، ولما لم يصادفه النجاح اشتغل حمالاً للبواخر، ثم اشتغل عاملاً في السكك الحديدية، وعاملاً في مصانع المعادن، وصابغاً للأحذية وغير ذلك من الأعمال الوضيعة المختلفة

وكان مارك برنار لا يميل ميلاً شديداً للكتابة ولا يرى في نفسه استعداداً لها. على أن الضرورة أرغمته على معالجتها عله يستطيع عن طريقها أن يضمن عيشه، فنشر عام 1928 أول قصصه - فصادف نجاحاً دفع الكاتب هنري باربوس رئيس تحرير مجلة (موند) إلى أن يعهد إليه تحرير قسم النقد الأدبي في مجلته، فعرف برنار عن طريقها عدداً من أعاظم الكتاب، وابتدأ يشارك أيضاً في تحرير (المجلة الفرنسية الجديدة) ومجلة (أوروبا)

وقد نشر برنار بعد قصته الأولى قصة ثم تلتها قصته الأخيرة نال عليها الجائزة وبرنار كاتب اشتراكي، وهو في قصصه ومقالاته يفيض بالثورة على المجتمع الرأسمالي، ويعلي من شأن الطبقات المهضومة الضعيفة بفقرها التي خصص لوصفها - كما يقول - قصته التي يوشك أن ينتهي منها واسمها (المنفيون)

أما لوي فرانسيس الفائز بجائزة فقد بدأ حياته مدرساً بالليسيه فرانسيه بالقسطنطينية، فعرف الشرق عن ذلك الطريق، ووصف ما وصلت إليه خبرته ودراسته في كتاب ثم كتب بعد ذلك قصته التي فازت بجائزة رينو دوه

الفردوسي في السوربون

احتفل في الأسبوع الماضي بمهرجان الفردوسي في السوربون واشترك في هذه الحفلة رئيس الجمهورية المسيو ليبران، وعدد كبير من السراة والأعيان، بينهم الجنرال غورو حاكم باريس العسكري، وكان بين الذين حضروا المسيو شارلني مدير جامعة باريس، وسفراء العجم في فرنسا وإنكلترا، والجنرال ثوله مستشار وسام اللجيون دونور الأعلى، ومن رجال المجمع العلمي ابيل بونار، ومدير كلية (الكليج ديفرانس)

وقد أقيمت في القاعة قاعدة أقيم عليها تمثال يمثل الفردوسي أحيطت بالأعلام الإيرانية والفرنسية

وألقى مدير الكليج دفرانس خطاباً باسم المجامع الفرنسية

ثم عقبه الأستاذ ماسيه مدير اللغات الشرقية فعرض لشعر الفردوسي وأثره، وألقى المسيو ايبل بونار خطاباً أطرى فيه الفردوسي وختمت الحفلة بخطاب وزير التربية والتعليم تناول فيه حياة الفردوسي

إيطاليا تحتفل بالفردوسي

احتفل في الأكاديمية الملكية في روما بذكرى الفردوسي، وألقى السنيور مالينو محاضرة قيمة عن الفردوسي وعن شعره الخالد وأثره الكبير في الأدب العالمي

وفاة جوستاف لانسون

توفي أخيراً بباريس الدكتور جوستاف لانسون أستاذ الأدب الفرنسي في جامعة السوربون عن سبعة وسبعين عاماً باحتقان الرئة، ولقد كان المصاب به عظيماً أحدث هزة شديدة في الأوساط الأدبية في فرنسا

ولد جوستاف بمدينة أورليان، في الخامس من شهر أغسطس عام 1857، وفي عام 1886 دعاه القيصر ليثقف بالأدب الفرنسي ولي العهد الذي صار فيما بعد نقولا الثاني، ثم عاد إلى التدريس بمدارس الليسيه بفرنسا، وانتقل بين ثلاث مدارس من مدارسها وكان مثلاً للنشاط والجد، وقد أدى اختياره مدرساً بها إلى انتخابه مديراً لمدرسة المعلمين العليا بباريس وكان ذلك عام 1919 وبقي بها حتى عام 1927 ومنذ يومئذ بدأ يتم مؤلفاته في

النقد، ونذكر من كتبه ومؤلفاته، نصائح في فن الكتابة، بوسويه، وبوالو، والناس والكتب، ودراسات أدبية وأخلاقية، وكورني، وفولتير، وثلاثة أشهر في التعليم بالولايات المتحدة، وطرق تاريخ الأدب، والمثل الفرنسي الأعلى في الأدب، ونهضة الثورة، وابتكارات لامرتين

وفي عام 1924عين عضواً في رابطة الشرف، ولكنه أبى أن يدخل الأكاديمية الفرنسية برغم إلحاح المعجبين به، وإن كتابه تاريخ الأدب الفرنسي الذي ظهر في عام 1894 ثم أضاف إليه كثيراً من التعليقات فيما بعد لكفيل بأن يجعل للانسون مكانة عالمية محترمة

تحسين جديد في (التليفون)

بتسابق رجال العلم والاختراع في إدخال التحسينات على (التليفون) وأخر ما طالعناه في إحدى الصحف العلمية أن أحد المخترعين الفرنسيين تمكن من اختراع جهاز جديد ادخله على التلفون الأوتوماتيكي الاعتيادي. والقصد من هذا الجهاز أنه عندما يرغب المتكلم في محادثة أحد، فما عليه إلا أن ينطق بالرقم المطلوب فتدور الاسطوانة من تلقاء نفسها بفعل تموجات الهواء. وهذا الجهاز يصلح استعماله في الظلام أي عندما يكون الإنسان مضطجعاً في فراشه ولا يريد أن يجهد نفسه. ويعتقد المخترع أن هذا الجهاز سيعم استعماله جميع أنحاء العالم

بعض الكتب الجديدة في علم النفس

تأليف محمد عطية الابراشي، حامد عبد القادر

صدر هذا الكتاب النفيس الذي يقع في أكثر من أربعمائة صفحة من القطع المتوسط، منذ شهور قلائل، فملأ من المكتبة العربية فراغاً شاغراً، كان يأسف له كل من يتمنى لهذا الشرق أن يساير الغرب فلا يتخلف من دونه في بعض الطريق. وما ظنك بهذا العلم الذي تبوأ في أوروبا وأمريكا منذ منتصف القرن الماضي مكانة رفيعة بين العلوم، وأصبح منذ ذلك التاريخ حلبة العقول وحومة الأقلام، تتناصر كلها وتتضافر على دراسة النفس الإنسانية، حتى سارت في ذلك شوطاً، إلا تكن قد انتهت به إلى نتيجة حاسمة، فهي على كل حال سائرة في الدرب السوي سيراً مطرداً حثيثاً. نعم، كان علم النفس طوال القرن

الماضي شغل الساعة في عالم الغرب، أما نحن فقد لبثت أقلامنا بإزائه صامتة، لا تكاد تمس الموضوع إلا مسا رفيقا، إذا استثنينا كتابا أو كتابين؛ وكأنما أحس الأستاذان المؤلفان بهذا النقص المعيب، بل هو أجدر أن يسمى فقراً وإجداباً، فشاءت لهما همة عالية، أن يتداركا الأمر بعزم حديد وكفاية ممتازة، فأخذا منذ عام أو نحوه يخرجان

للناس بحوثاً مستفيضة في كتب تترى، هذا ثالث أجزائها، وفي فصول متلاحقة أخذت تغمر الصحف، حتى كان لنا في علم النفس بفضلهما محصول ذو غناء بوفرته ومتاعه، وأي شيء أحب إلى النفس وأمتع من أن تطالع نفسها مشروحة مفصلة، في تحليل عميق سهل مستساغ، لا تشوبه خشونة العلم وغلظته؟ فقد وفق الأستاذان الفاضلان فيما يكتبان إلى (السهولة في الأسلوب، والوضوح في العبارة، مع الدقة في التعبير، والبحث وراء الحقيقة، حباً في الوصول إلى الحقيقة لذاتها، حتى يسهل الصعب، ويتضح الغامض، ويقرب إلى الأذهان ما بعد عنها، من تلك الموضوعات التي لم تخدم بالعربية الخدمة اللائقة بها). وأما فصول هذا الكتاب القيم فهي: الفكر، الحكم، الاستنباط، التعليل، التفكير الراقي، الوجدان، الانفعالات، العواطف، الأمزجة، الأذواق، الشخصية. . . . وقد وضعا بجانب الاصطلاحات العلمية ما يقابلها باللغة الأجنبية تجنباً للخلط، ومنعاً للخطأ في التفكير

وما دمنا بصدد ترجمة الألفاظ، فقد نحب أن نعترض اعتراضاً نعترف أنه تافه بالقياس إلى هذا المؤلف الجليل: فقد ترجم الكاتب كلمة بلفظة (التعقل) في الصفحة الخامسة من الكتاب، ثم عاد في الصفحة الثالثة عشر فأطلق لفظة التعقل هذه، تعريباً لكلمة ومهما يكن بين اللفظتين من قرب وشبه، فقد كنا نؤثر أن ننقل الكلمتان الإنجليزيتان المختلفتان إلى كلمتين عربيتين مختلفتين، وليس ذلك بعزيز على الأستاذين المؤلفين. وهناك ملاحظة أخرى أخذتها العين أخذاً أثناء التصفح السريع، فقد أراد الكاتب أن يورد تعليل الوجدان (ص146) فقال: (التعليل الجثماني - ومعناه أن الوجدان راجع إلى تغيرات مادية خاصة تحدث في الجسم، فينشأ عنها الشعور بالسرور أو الألم. وقد أجريت تجارب لإثبات ذلك فوجد مثلاً أن القلب يبطئ في دقاته، وأن التنفس يسرع عند السرور، أما عند الألم فقد شوهد العكس، أي أن القلب يسرع في ضرباته، وأن حركات التنفس تكون بطيئة. . .) وعندنا أن هذا متناقض أوله مع آخره، أو على الأقل كتب بعبارة يفهم منها القارئ هذا التناقض، لأنه يريد أن يثبت أن علة الوجدان جثمانية، أي أن الحركة الجثمانية تكون أولاً، ويكون السرور أو الألم ثانياً، ولكن قوله إنه قد أجريت تجارب فوجد أن الجسم يحدث به كذا وكذا عند السرور، قد يفهم منه أن السرور ينشأ فتنشأ تبعاً له حالة معينة بالجسم، وهو عكس ما أريد إثباته

ولا يسعني في ختام هذه الكلمة القصيرة، وقد كان المقام يستدعي الأسهاب، إلا أن أسجل رغبة أحسستها عند تصفحي الكتاب، وتلك أنني وددت لو خرج هذا السفر الجليل الممتع المفيد، أجمل انسجاماً من حيث الطبع، وبخاصة في مواضع العنوانات وحجومها.

وإني لأنتهز هذه الفرصة لأهنئ المؤلفين الفاضلين على هذا التوفيق، وأهنئ قراء العربية أن كان لهم هذان المؤلفان الفاضلان

زكي نجيب محمود

وجهة الإسلام

تأليف جماعة من المستشرقين

ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده

كتاب في نحو مائتين وخمسين صفحة من القطع الكبير، ألفه بالإنجليزية الأساتذة هـ. أ. ر. جب أستاذ اللغة العربية بجامعة لندن، ل. ماسينون الأستاذ بجامعة باريس وكلاهما عضو بالمجمع اللغوي الملكي المصري، ج. كامبفماير بجامعة برلين، ك. برج بجامعة ليدن واللفتنانت كولونل فرار بالجيش الهندي سابقاً. ولقد قام بتعريب هذا الكتاب الأديب محمد عبد الهادي أبو ريدة خريج قسم الفلسفة بالجامعة المصرية

وإنك لتفهم موضوع الكتاب من تلك العبارة التي جاءت في مقدمة الترجمة العربية بقلم الأستاذ جب: (فأما الذي يرمي إليه مؤلفو هذا الكتاب فهو أن يحللوا تيارات الفكر التي تعبر عن حالة المسلمين ثم النزعات التي تتردد بينهم ليراها القارئ الأوربي اللبيب الذي له بعض الخبرة بحياة البلاد الشرقية). ولقد قسم المؤلفون موضوعاته بينهم فاختص الأستاذ ماسينيون بمن اتصل من العمال المسلمين اتصالاً وثيقاً بالحياة الأوربية، وتكلم الأستاذ كامبفماير عن النظم الجديدة في الحياة الاجتماعية والعقلية في آسيا الغربية، وانفرد

الكولونل فرار بدراسة الإسلام في الهند وعلى الخصوص علاقته بالناحية السياسية، أما الأستاذ برج فقد اتخذ إندونيسيا موضعاً لبحثه، وقدم الأستاذ جب هذه الدراسات في فصل طويل ممتع عن الإسلام والحالة في العالم الإسلامي

فهذا كتاب جدير بالدراسة، حري بأن يقرأه الأديب المسلم ليرى رأي علماء المشرقيات، أو بعبارة أخرى ليرى مقدار فهمهم للعالم الإسلامي، ونزعتهم الفكرية أثناء الكتابة عن أحوال الإسلام، وسيرى فيه كثيراً من الأفكار الدقيقة والنقط الهامة الجديرة بالبحث والتحليل كما أنه سيرى بعض أغلاط المستشرقين في نظرتهم إلى العالم الإسلامي، فكثير منهم يقف من هذا الموضوع موقف من يزور مدينة كبيرة لأول مرة فيكون أسرع من أهلها أو أكثر تأثراً منهم بمواضع الدهشة والقوة فيها، على حين أنه يغفل عن كثير من نواحي ذاتيتها ومعاني روحها وألوان شخصيتها مما لا يستطيع معرفته حق المعرفة إلا أبناؤها الخلص

أما عن التعريب فآثار العناية بادية في الموضوعات كلها على العموم، وإن كان المعرب أحياناً يتأثر بالتركيب الإنجليزي والأخيلة الإنجليزية في طريقة سياق الأفكار وتسلسلها في الجملة الواحدة فتلتوى العبارة العربية التواء يلبسها الروح الإنجليزي، مما يسبب صعوبة فهمها أحياناً، أو يخرج بها عن المراد منها أحياناً أخرى. خذ لذلك مثلا قوله: (ولعل من سداد الرأي توقعنا أن يكون انتشار الإسلام على هذه الأصقاع الشاسعة واشتماله على أجناس كثيرة وتقاليد قديمة أمرين سيحولان دون بلوغ وحدة حقيقية في المدنية الإسلامية، وإنه رغم اتحاد المظاهر الدينية فإن بقاء العادات التي رسخت قديماً وأساليب التفكير المختلفة في طبيعتها اختلافاً لا يدع لاتفاقها سبيلاً سيؤثر تأثيراً قوياً في ثقافة كل إقليم على حدة حتى لا يترك مجالاً لتقاليد شاملة ولا لأي وحدة تامة في الشعور وحتى يوجد عدداً من الثقافات الإقليمية الإسلامية)

على أن المعرب الفاضل قد أحسن صنعاً على أي حال بتقديم هذا الكتاب القيم إلى لغة الضاد الخفيف

العدد 79 - بتاريخ: 07 - 01 - 1935

الرسالة في عالمها الثالث

بين عيد الفطر الاسلامي، وعيد النيروز المسيحي، يقع ميلاد الرسالة! فكأن الرسالة لاتنفك تجري على قدر من الله في السفارة بين عهد وعهد، والوساطة بين فكرة وفكرة! وفي هذه الفترة التي يعاود الناس فيها سلام الروح، وسكينة القلب، فيتعاطفون على القرابو، ويخالصون على المودة، وينفضون ايديهم من اوزار العيش حيناً لتتأنس النفوس بالتحية، وتتلامس القلوب بالمصافحة، لاتجد الرسالة غضاضة الاثرة اذا تبسطت في الحديث عن نفسها، الى اصدقائها وقرائها، فان العيد يقوى شعور الانس، والسرور يهلهل رداء الحشمة

تحبو الرسالة للسنة الثالثة من عمرها، أو تخطوا الخطوة الثالثة من غايتها، وهي بحمد الله اشد ما تكون استمساكاً بالمبدأ، واستشرافاً للغرض، واستعدتداً للامر، واستبصاراً بالماضي، واطمئناناً للمستقبل

ولقد كان من دلائل رضي الله عن جهادها أن ألان لها أعطاف الشدائد، وسهل عليها مصاعب النجاح، ومكن لها من قلوب الناس، فآثروها بالعطف، وآزروها بالعون، ووجدوا فيها متنفساً لخوارهم المكظومة، ومفيضاً لعواطفهم الجائشة، فتعارفت فيها الاسماء الغريبة، وتآلفت بها الأنساب القريبة، واشرقت بين سطورها في هذه العهود السود ومضات المجد التليد، كما تومض المنارة الهادية في حواشي الافق المكفر ونواحي المحيط المضطرب

لا نريد ان نعوج لما كان، ولا أن نعد بما يكون، فان العمل الحي ينمو بطبعه، ويقصد الى ماده بفطرته؛ وحية الرسالة إنما تنبثق من إيمانها، ومن إخلاص إخوانها، فلا يكدى لها شباب ولايبطئ بها وهن

ولقد جربنا في استمالة الفوز كل حيلة فما أفاد غير الايمان: جربنا التسامح فبطر الصديق، والهوادة فضرى العدو، والثقة فنغل الناصح، والمحبة فثارت المنفعة، والكد فهاج المرض، فلولا الايمان بصحة الفكرة، وشرف الوسيلة، ونبل الغاية، وضرورة العمل، لانقطعت الاسباب وابدعت ركائب الامل

إن فيما يحمله البريد إلينا كل يوم من رضى القراء في مختلف الانحاء لأجماعاً على الخطة التي نهجناها للرسالة. حتى أولئك الذين كانوا يحبون أن تخف أو تُسف عادوا فصالحوا بين أذواقهم وذوقهم، ولاءموا بين الخلاقهم وخلقها، ففضلوا ان تظل كما هي للخاصة فلا تتعلق بغير الجميل من الأدب والفن والخلق

على أن في الادب السنى مناحى للذة لا تجد بعضها في الأدب الدنى على ثرثرته وإغرائه. فان فيه غذاء لذوقك وذهنك ووجدانك وشعورك؛ أما غذاء الآخر على غثاثته فيغنيك عنه إن شئت نظرة أثيمة أو حكاية مخزية. وسنكشف رويداً عن هذه المناحي الممرعة الممعتة، فتساعد المربين على تنمية الذوق، وتعين المعلمين على إحياء المطالعة

وانصراف الشباب عن المطالعة الجدية داء أعيا على العلاج وأشفى على الخطر. وهو وحده علة ما نشكوه من بطء الثقافة وضعف الصحافة وقلة الانتاج وشيوع الجهالة. وما قتل الصبرَ على قراءة الكتاب المفيد والصحيفة الرشيدة إلا هذا الهُراء الذي نفقَت سوقه في المجتمع لِبَرَم الرجال من الأزمة، وسأم الشباب من العطلة، وسوء ظن الناس بالجد في علاج هذى الحال

إن من مباديء الرسالة أن تكون صورة لمنازع الأدباء وسجلاً لألوان الأدب في هذا العصر، فهي لذلك تعرض على قرائها الحين بعد الحين آراء مختلفة وأقلاماً جديدة؛ واختلاف الآراء لا يدل على غير مجرد العرض، وتعاقب الأقلام ل يعني أن بعضها خير من بعض. وقد ظهرت في العالم المنصرم بعض هذه الأقلم البارعة، فكانت براءة من الله للرسالة أنها تقوم بما تعد وتُوفي بما تُدم. وستظهر في هذا العالم أمثال هذه الأقلام من ألف بينها الفن السَّرِيُّ، وجمع بين اهلها الدرب القاصد. كذلك فتحنا بابين جديين ابتداء من هذا العدد، وهما: (من روائع الشرق والغرب) وسننشر فيه أروع ما نقرأه من الآداب الاجنبية منقولاً الى العربية العالية، وأبدع ما نختاره من الآداب العربية مأخوذاً من العصور المختلفة. وفي هذا الباب لقاح مثمر لأدبنا، وإحياء لمآثر أدبائنا، وصقل لملكات النشء بالماذج الجميلة. ثم (من هنا ومن هناك) وسنلخص فيه ما نقع عليه من طريف المسائل وجديد الآراء في الصحف أو في الكتب. ذلك إلى ما اعتزمناه من توسيع باب القصص، وتوجيه النظر في بحث المؤلفات الحديثة القيمة إلى التحليل والنقد العادل

بقي أن نؤدي فريضة الشكر لأولئك القراء المخلصين الذين عطفوا على هذا الجهد وساهموا فيه بالتشجيع والتنويه والنصية، وللأصدقاء من الأدباء الذين ما برحوا يلبون دعوة الوطن الأكبر فشاركوا في تبليغ الرسالة، وأعانوا على تأدية الأمانة، وأضافوا خيرهم الغمر إلى تراث آبائنا الخالد

وإنا لنتقدم إلى هؤلاء وهؤلاء بالتهنئة الخاصة بالعام الجديد، والعيد السعيد، والأمل الناشيء في كل نفس، والنشاط لباديء في كل أمر، وندعو الله مخلصين أن يقرن العام باليمن، ويجدد العيد بالخير، ويعقد الأمل بالنجح، ويصل النشاط بالرأي والعزيمة ثم نجدد لأمى الرسالة العهد والعزم متعمدين على فضل الله، مطمئنين الى عطف الأمة، متكئين على عون الشباب، معتدين باخلاص النية، معولين على إجاة العمل؛ وفي بعض ذلك الضمانً الاوفى، والسندُ الأقوى، والمرفأ الأمين

احمد حَسن الزيات

الله أكبر!

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

جلسْتُ وقد مضى هَزيعٌ من الليل، أهيء في نفسي بناءَ قصةٍ أُدِيرها على فتى كما أَحَبَّ. . . خبيثٍ داعر، وفتاةٍ كما أَحبَّتْ. . . غذراءَ ومتمجنة؛ كلاهما قد دَرَسَ وتخرج في ثلاثة معاهد: المدرسةِ، والروايات الغرامية، والسيما. وهو مصريٌ مسلم، وهي مصرية مسيحية. وللفتى هَناتٌ وسيئاتٌ لايتنزه ولايتورع؛ وهو مِن شبابه كالماء يغلي، ومِن أناقتِه بحيث لم يبقَ إلا أن تلحقه ناءُ التأنيث. . . وفد تشعبت به فنون هذه المدينة، فرفع اللهُ يده عن قلبه لا يبالي في اي أوْدِ يتها هلك. وهو طلبُ نساء، دابه التجوال في طرقهن، يتبعهن ويتعرض لهن، وقد الفته الطرق حتى لو تكلمت لقالت: هذا ضرب عجيبٌ من عربات الكَنْس. . .!

وللفتلة تبرُّجٌ وتهتك، يَعْبَثُ بها العبث نفسه، وقد اخرجتها فنون هذا التأنثِ الاوربي

القائم على فلسفة الغريوة، وما يسمونه (الادب المكشوف) كما يثوره اولئ الكتابُ الذين نقلوا إلى الانسانية فلسفة الشهوات الحرة، عن البهائم الحرة. . .! فهي تبرزُ حين تخرج من بيتها، لا إلى الطريق، ولكن إلى نظرات الرجال؛ وتظهر حين تظهر، مُسوَّرةً لا بتلون نفسها مما يجوز وما لايجوز، ولكن بتلون مِراتها مما يُعجب وما لا يُعجب

وَكِلا ثْنيهما ل يُقيم وزناً للدين، والمسلم والمسيحيُّ منهما هو الاسم وحده؛ إذ كان من وَضع الوالدين رحمهما اللهّ والدين حرية القيد لا حرية الحرية؛ لإنتَ بعد ان تُقيد رذائلك وضراوتك وشر وحيوانيتك - أنت من بعد هذا حرٌّ ماوسعتك الارضُ والسماءِ والفكر؛ لأنك من بعد هذا مُكملٌ للانسانية مستقيمٌ على طريقتها. ولكن هَبْ حِماراً تفلسفَ واراد أن يكون حراً بعقله الحماري؛ أي تقرير المذهب الفلنسفي الحماري في الادب. . فهذا إنما ينبغي إطلاق حريته، اي تسليط حماريته الكاملة على ما يتصل به من الوجود

وتضى قصتي في أساليب مختلفة تمتحن بها فنونُ هذه الفتلة شهوات هذا الفتى، فلا يزال يمشي من حيث لا يصل، ولاتزال تمنعه من حيث لاترده؛ وما ذلك من فضيلةٍ ولا امتناع، ولكنها غزيرةُ الانوثة في الاستمتاع بسلطانها، واثباتها للرجل ان المرأة هي قوة الانتظار وقوة الصبر، وأن هذه التي تحمل جنينها تسعة أشهر في جوفها، تُمسك رغبتها في نفسها

مدة حَملٍ فكريٍ إذا هي أرادت الحياة لرغبتها، ليون لوقوعها وتحققها مثلُ الميلاد ولكن الميلاد في قصتي لايكون لرذيلة هذه الفتاة، بل لفضيلتها. فان المرأة في رأيي - ولوكانت حياتها محدودةً من جهاتها الاربع بكبائر الاثم والفاحشة - لايزال فيها من وراء هذه الحدود كلها قلبٌ طبيعته الامومة، أي الاتصالُ بمصدر الخلق، أيْ فضائل العقيدة والدين؛ وما هو الا أن يتنبه هذا القلبُ بحادثٍ يتصل به فيبلغُ منه، حتى تتحول المرأة تحول الارض من فصلها المقشعر المجدب، الى فصلها النضر الاخضر

ففي قصتي تُذْعنُ الفتاةُ لصاحبها في يومٍ قد اعترتها فيه مخافةٌ ونزل بها همٌ وكادتها الحياةُ من كيدها؛ فكانت ضعيفة النفس بما طرأ عليها من هذه الحالة. وتخلو بالفتى وفكرها منصرفٌ إلى مصدر الغيب، مؤملٌ في رحمة القدر. ويخلبها الشابُ خَلاَبَةَ رُعُونته وحبه ولسانهِ، فيعطيعا الألفاظ كلها فارغة من المعاني، ويقر بالزواج وهو منطوٍ على الطلاق بعد ساعة. فاذا اوشكت الفتاة ان تصرع تلك الصرعة دوي في الجو صوتُ المؤذك: (الله أكبر!)

وتُلْسَعُ الفتاة في قلبها، وتتصل بهذا القلب روحانيةُ الكلمة، فتقع الحياة السماوية في الحياة الارضية، وتنبه العذراءُ إلى ان الله يَشهدُ عارَها، ويَفْجَؤُها انها مُقدمةٌ على ان تُفيد من نفسها ما لا يصلحه المستحيل فضلاً عن الممكن، وترنو بعين الفتلة الطاهرة من نفسها إلى جسم بفيٍ ليستْ هي تلك التي هي؛ وتنظر بعين الزوجة من صاحبها إلى فاسقٍ ليس هو ذا الذيٍ هو؛ ويَحْكي لها المكان في قلبها المفطور على الامومة - حكايةً تثور منها وتشمئو؛ ويصؤخ الطفلُ المِسكينُ صَرْخته في أذنها قبل ان يُولد ويُلقى في الشارع. . .!

الله أكبر! صوتٌ رهيبٌ ليس من لغة صاحبها ولا من صوته ولا من خِسته، كأنما تفرغ السماءُ فيه مِلء سحابةٍ على رِجْسِ قلبها فتنفيه حتى ليس به ذرةٌ من دَنَسِهِ الذي رَكِبَهُ الساعة. كان لصاحبها في حِس أعصابها ذل الصوتُ الأسودُ المنطفيء المبهم، المتلجلج مما فيه قوة شهواته؛ وكان للمؤذن صوتٌ آخر في روحها؛ صوتٌ أحمر مستعلُ كمْعَعَةِ الحريق، مجلجلٌ كالرعد، واضحٌ كالحقيقة، فيه قوة اللهّ!

سمعتْ صوتَ السلسلة وقَعْقَعَتها تُلوَى وتُشد عليها، ثم سمعتْ صوتَ السلسلة بعينها يُكسر حديدُها ويتحطم

كانت طهارتُها تختنق فنفذتْ إليها النسمات؛ وطارت الحمامةُ حين دعاها صوتُ الجو، بعد أن كانت أَسَفتْ حين دعاها صوتُ الأرض. طارت الحمامة، لأن الطبيعة التفتتْ فيها لفتةً أخرى.

ويكرر المؤذن في ختام أذانه: (الله أكبرُ الله أكبر!) فاذا . . .

* * *

وتَبلدَ خاطري فوقفتُ في بناء القصة عند هذا الحد، ولم أدرِ كيف يكون جوابُ

. . . .(إذا. . . .) فتركتُ فكري يعمل عمله كما تُلْهِمه الواعيةُ الباطنة، ونِمْت ورأيتُ في نومي أني أدخل المسجد لصلاة العيد وهو يعجُّ بتكبير المصلين: (الله أكبرُ الله أبر!) ولهم هديرٌ هدير البحر في تلاطمه. وأرى المسجد قد عص بالناس فاتصلوا وتلاحموا؛ تجد الصف منهم على استوائه كما تجد السطوَ في الكتاب، ممدوداً محتبكاً ينتظمهُ وضْعٌ واحد، وأراهم تابعوا صفاً وراء صف، ونسقاً على نسق، فالمسجد بهم السنبُلة مُلئتْ حباً ما بين أولها وآخرها؛ كلُّ حبة هي في لفٍ من اهلها وشملها، فليس فيهن على الكثرة حَبةٌ واحدة تُميزُها السنبلة فَضل يميزه لا في الأعلى ولا في الأسفل وأقف متحيراً مُتلدداً ألتفتُ ههنا وههنا، لا أدري كيف أخلُصُ إلى موضع أجلس فيه؛ ثم أمضي أتخطى الرقاب أطمع في فُرْجةٍ اقتحمها وما تنفرج، حتى انتهىَ إلى الصف؛ وانظرُ إلى جانب المحراب شيخاً بادناً يملأ موضع رَجلين وقد نفح منه ريحُ المسك، وهو في ثيابٍ من سُندُسٍ خُضر. فلما حاذْيته جَمع نفسه وانكمش. فكأنما هو يُطوي طياً، ورأيت مكاناً وسعني غَحططتُ فيه إلى جانبه وأنا اعجبً للرجل كيف ضاق ولم اضيق عليه، وأين ذهب نصفه الضخم وقد كان بعضه على بعضه زيماً على زيمٍ وامتلاءً على امتلاء.

وجعلتُ أْحدُسُ عليه طني، فوقع في نفسي انه ملك من ملائة الله قد تمثل في الصورة الآدمية فاكتتم لأمرٍ من الأمر

وضج الناسُ: (الله أكبرُ الله أكبر!) في صوت تقشعر منه جلودُ الذين يخشون ربهم، غير أن الناس مما ألفوا الكلمة ومما جهلوا من معناها - لا يسمعونها إلا كما يسمعون الكلام، اما الذي إلى جانبي فكان ينتفض لها انتفاضةً رحبتني منع رجا، إذ كنت ملتصقاً به مناكباً له؛ وكأن المسجد في نفضه إيانا كان قطاراً يجري بنا في سرعة السحاب، فكل ما فيه يرتج

ويهتز. ورأيت صاحبي يّذْهل عن نفسه، ويتلألأ على وجهه نورٌ لكل تكبيرة، كأن هناك مصباحاً لايزال ينطفيء ويشتعل؛ فقطعتُ الرأي انه من الملائكة

ثم اقيمت الصلاةُ وكبر الامام وكبر اهلُ المسجد، وكنت قرأتُ أن بعضهم صلى خلف رجلٍ من عظماء النفوس الذين يعرفون الله حق معرفته؛ قال: فلما كبر قال: (الله) ثم بُهت وبقي كأنه جسدٌ ليس به رُوح من إجلاله لله تعالى؛ ثم قال: (أكْبَرْ) يَعْزِم بها عزماً، فظننتُ أن قلبي قد انقطع من هيبة تكبيره. قلتُ أنا: أما الذي الى جانبي فلما كبر مد صوته مداً ينبثق من روحه ويستطير، فلو كان الصوتُ نورً لملأ ما بين الفجر والضُّحى

* * *

وعرفتُ واله من معنى المسجد ما لم أعرف، حتى كأني لم ادخله من قبل، فكان هذا الجالسُ الى جانبي كضوء المصباح في المصباح، فانكشفَ لي المسجدُ في نوره الروحي عن معانٍ ادختني من الدنيا في دُنيا على حِدَة. فما المسجدُ بناءً ولا مكاناً كغيره من البناء والمكان، بل هو تصحيحٌ للعالم الذي يموج من حَوْله ويضطرب؛ فان في الحياة أسبابَ الزيغ والباطل والمنافسة والعداوة والكيد ونحوها، وهذه كلها يمحوها المسجد إذ يجمع الناس مراراً في كل يوم على سلامة الصدر، وبراءة القلب، وروحانية النفس؛ ولا تدخله إنسانية الانسان إلا طاهرة منزهةُ مسبغةً على حدود جسمها من أعلاه وأسفله شعارَ الهرِ الذي يُسمى الوضوء، كأنما يغسل الانسان آثار الدنيا عن أعضائه قبل دخوله المسجد.

ثم يستوي الجميعُ في هذا المسجد استوا واحداً، ويقفون موقفاً واحداً، ويخشعون خشوعاً واحداً، ويكونون جميعاً في نفسية واحدة؛ وليس هذا وحده، بل يَخرون الى الأرض جميعاً ساجدين لله، فليس لرأسٍ على رأس ارتفاع، ولا لوجه على وجه تمييز؛ ومن ثم فليس لذات على ذات سلطان. وهل تحقق الانسانية وحدتها في الناس بأبدعَ من هذا؟ ولعمري أين يجد العالمُ صوابه إلا ههنا؟

فالمسجد هو في حقيقته موضعُ الفكرة الواحدة الطاهرة المصححة لكل ما يَزيغُ به الاجتماع. هو فِكْرٌ واحدٌ لكل الرؤس؛ ومن ثم فهو حلٌ واحد لكل المشاكل، وكما يُشق النهر فتقف الارضُ عند شاطئيه لاتتقدم، يُقام المسجد فتقف الارض بمعانيها التُرابية خلف جدرانه لا تَدْخله

* * *
وما حَرَكةٌ في الصلاة إلا أولها (الله أكبر) وآخرها (الله أكبر)؛ ففي ركعتين من كل صلاة - إحدى عشرة تكبيرة يجهر المصلون بها بلسان واحد؛ وكأني لم أفطن لهذا من قبل، فأيُّ زِمامٍ سياسي للجماهير وروحانيتها أشدُّ وأوثقُ من زمام هذه الكلمة؟
* * *
ولما قُضيت الصلاةُ على المَل وسلم علي، ورأيته مقبلاً محتفياً، ورأيتني أثيراً في نفسه، وجالت في رأسي الخواطر فتذكرتُ القصة التي أريد أن اكتبها؛ وأن المذن يكرر في خاتمة أذانه: (الله أكبرُ الله أكبر) فاذا . . .
وقلت لَلأْسألنه، وما أعظم أن يكون في مقالتي أسطرٌ يُلهمها ملك من الملائكة! ولم أكدْ أرفع وجهي اليه حتى قال: (فاذ لطمتان على وجه الشيطان؛ فَولَى مُدبراً ولم يُعقب؛ ووضعت الكلمةُ الآليةُ معناها في موضعه من قلب الفتاة، فلأياً بلأيٍ ما نجت إن الدين في نفس المرأة شعورٌ رقيق، ولنه هو الفولاذُ السيكُ الصلبُ الذي تُصفح به أخلاقها المدافعة
الله أكبر! أتدري ماذا تقول الملائكة إذا سمعت التكبير؟
إنها تنشد هذا النشيد:
* * *
بَينَ الوقتِ والوقتِ من اليوم تَدقُ ساعةُ الاسلام بهذا الرنين: الله أكبرُ الله أكبر، كما تدق الساعةُ في موضعٍ ليتكلمَ الوقتُ برنينها
* * *
الله أكبر. بَيْن ساعاتٍ وساعاتٍ من اليوم ترْسِل الحياةُ في هذه الكلمة نداءها تهتفُ: أيها المؤمن، إن كنتَ أصبْتَ في الساعات التي مضتْ، فاحتهدْ للساعات التي تتلو؛ وإن كنتَ أخطأتَ، فكفر، وامحُ ساعةً بساعة؛ الزمنُ يمحو الزمن، والعملُ يغير العمل، ودقيقةٌ باقيةٌ في العمر هي أملٌ كبير في رحمة الله
* * *
بين ساعات وساعات، يتناول المؤمنُ ميوانَ نفسه حين يسمع: الله أكبر. . ليعرف الصحة
والمرضَ من نيته؛ كما يضَعُ الطبيب لمريضه بينَ ساعاتٍ وساعاتٍ ميزان الحرارة
* * *
اليومُ الواحد في طبيعة هذه الارضُ عمْرٌ طويل للشر، تكاد كلُّ دقيقةٍ بشرها تكون يوماً مختوماً بلَيْلٍ أسود؛ فيجب أن تقسمَ الأنسانيةُ يومها بعدد قارات الدنيا الخمسْ، لأن يومَ الأرض صورةٌ من الأرض. وعند كل قسم: من الفجر، والظهر، والعصر، والمغرب، والعِشاء، - تصيح الأنسانيةُ المؤمنةُ مُنَبهةً نفسها: الله أكبر، الله أكبر
* * *
بين ساعات وساعات من اليوم يَعْرِص كل مؤمن حسابَه، فيقوم بين يَدَي الله ويرفعه إليه. وكيف يكون من لا يزال ينتظر طولَ عُمره بين ساعاتٍ وساعات - الله أكبر.
* * *
بين الوقت والوقت من النهار والليل تدوي كلمةُ الروح: الله أكبر. ويُحييها الناسُك الله أكبر. لعتادَ الجماهير كيف يُقلدون الى الخير بسهول، وكيف يحققون في الأنسانية معنى اجتماع أهل البيت الواحد؛ فتكون الأستجابةُ إلى كل نداء اجتماعي مغروسةً في طبيعتهم بغير أستِكْراه
* * *
النفس أسمى من المادةِ الدنيئة، وأقوى من الزمن المخرِب، ولا دِينَ لمن لا تشمئزُّ نفسُه من الدناءة بأتَفَة طبيعية، وتحمل همومَ الحياة بقوةٍ ثابتة
لا تضطربوا؛ هذا هو النظام، لاتنحرفوا؛ هذا هو النهجْ. لاتتراجعوا؛ هذا هو النداء. لن يَكْبرَ عليكم شيءٌ ما دامت كلمتُكم: الله أكبر.
طنطنا
مصطفى صادق الرافعي
مصر وماء النيل وحوادث الحبشة
للأستاذ محمد عبد الله عنان

تجري الآن على حدود لحبشة حودث خطيرة، ويكشف الاستعمار الايطالي عن نياته ومطامعه نحو الحبشة شيئاً فشيئاً؛ وقد احتلت الجنود الايطالية بالفعل بعض مواقع ومراكز حبشية على مقربة من حدود السومال الايطالي، وما زالت إيطاليا تحشد قواتها في تلك الانحاء، وترخق الحبشة بمطالبها ودعاويها؛ والحبشة من جانبها تلتمس تدخل عصبة الامم، وتشهدها على هذا الاعتداء، ولكن ماذا عسى أن تفعل عصبة جنيف إزاء خطة مبيتة مدبرة تترقب إيطاليا الفاشستية الفرصة لتنفيذها منذ أعوام؟ ولقد بينا في مقال سابق أدوار هذا النضال الذي يضطرم منذ أواخر القرن الماضي بين الحبشة والاستعمالا الغربي، وكيف أن ايطاليا استاعت في وقت من الاوقات أن تفرض حمايتها على الحبشة بعد أن احتلت مصوع والارتيرية، وكيف استطاعت الحبشة لأعوام قلائل أن تحطم هذا النير الذي حاولت إيطاليا أن تضعه في عنقها، وأن تسحق الجيوش الايطالية في موقعه (عدوه) الشهيرة (سنة 1896)، وأن ترغم إيطاليا وأوربا على احترم استقلالها. وسوف تنظر عصبة الأمم في هذا النزاع بعد أيام قلائل، ولكنا نستطيع أن نتنبأ منذ الآن أن العصبة لن تستطيع شيئاً، وأنها كما فشلت في المسألة المنشورية ورد عدوان اليابان عن الصين، ستلقي مثل هذا الفشل في حل النزاع الايطالي الحبشس، وسيكون القول الفصل للقوة المادية، فاذا استطاعت إيطاليا أن تتوغل في الحبشة فسوف تمضي في تنفيذ خطتها المرسومة لغزو الحبشة واحتلالها كلها أو بعضها، ولن ينقذ الحبشة من هذا الخطر على حرياتها واستقلالها سوى الاعتماد على نفسها وما تستطيع أن تتذرع به من وسائل المقاومة والدفاع

وقد كان حرياً ان تلقى هذه الحوادث صداها في مصر وأن تثير فيها أعظم اهتمام: فبين مصر والحبشة علائق تاريخية قديمة، والشعب الحبشس تابع من الوجهة الدينية للكنيسة القبطية المصرية، وبطريرك الحبشة او زعيمها الديني مصري بعينه البطريرك المصري؛ ومن جهة اخرى فان لمصر مصالح خطيرة في الحبشة تتعلق بمياه النيل ومنابعه؛ فالنيل لأزرق الذي يمد النيل بكميات عظيمة من الماء والطمى المخصب ينبع من بحيرة تبسانا

الحبشية التي تقع مستعمرة ارتيرية الايطالية؛ ولايطاليا في هذه المنطقة مطامع اقتصادية كبيرة. والحبشة لا تجهل أهمية تسانا ولا خطورة المصالح الخارجية المتعلقة بمائها؛ وقد بذلت انكلترا في العهد الاخير جهوداً عظيمة لتحصل من الحبشة على امتياز بماء هذه البحيرة حفظاً لمصالحها الاقتصادية في السودان، وخشية أن تنافسها في ذلك دولة أوربية أخرى فتهدد هذه المصالح؛ وكانت الحكومة الحبشية تميل إلى منح هذا الامتياز لشركة أمريكية كبيرة، وقدذهبت بالفعل شوطاً بعيداً في هذا السبيل، وقامت هذه الشركة ببعض الأعمال والاجراءات التمهيدية في منطقة البحيرة، ولكن الحبشة آثرت في النهاية أن تستبقي إشرافها وسيطرتها على البحيرة، ولم تكن جهود السياسة البريطانية بعيدة عن هذا القرار. وتعمل الساسة البريطانية اليوم على أن تضطلع مصر بأعباء النفقات التي تقتضيها المشاريع الخاصة بمنطقة تسانا، وقد بذلت مصر فعلاً مبالغ طائلة في هذا السبيل.

كان يجدربمصر إذن أن تتبع حوادث الحبشة بمنتهى الاهتمام، وأن تقدر جميع الاحتمالات التي تترتب على نجاح إيطاليا في غزو هذه المنطقة، إذا قدر لخطتها النجاح؛ ولكن مصر ترغم بكل أسف على أن تقف من هذه الحوادث موقف المتفرج الذي لايعنيه من الأمر شيء؛ والسياسة الانكليزية تأخذ بيدها كل الامر سواء باسمها أو بأسم مصر؛ والسياسة الانكليزية تحرص على مصالحها في السودان قبل كل شيء.

وقد كان التوازن الانكليزي الايطالي في تلك المنطقة يحول دون وقوع تطورات جديدة؛ ولكن الظاهر أن إيطاليا الفاشستة استطاعت أن تتفاهم مع السياسة البريطانية، وأن تقنعها بوجوب التسليم بمطامع إيطاليا وتفوق مصالحها في المنطقة الحبشية، وهي مطامع نوهت باحترامها المعاهدة الثلاثية التي عقدت في سنة 1906 بين إيطاليا وانكلترا وفرنسا؛ وإيطاليا تقوم الآن بتنفيذ خطة مقررة لا ترى فيها انكلترا أو فرنسا ما يدعو الى الاعتراض، بل لقد تقدمت السياسة البريطانية لمعاونة الاستعمار الايطالي على التوسع، فحملت على عقد معاهدة جغبوب، والنزول لايطاليا عن بعض اراضيها، وعادت هذا العام فنزلت لايطاليا باسم مصر عن جزء من واحة العوينات الواقعة في السودان الغربي مما يلي برقة، وها هي الآن تترك ايطاليا حرة

في تدبير اعتدائها غبى الاراضي الحبشية. وقد أشرنا في مقال سابق الى أن اهم عامل في وقوف السياسية البريطانية هذا الموقف هو ظهور النفوذ الاقتصادي الياباني في تلك المنطقة، وهو نفوذ تجارية بكل ما وسعت واينما ان

* * *

كان ماء النيل وما زال اعظم قنية تحرص عليها مصر؛ ومنذ فجر التاريخ تشعر مصر بح أن حياتها تتوقف على مياه هذا النهر الخالد، وبأن كل ما حبتها به الطبيعة من النعاء والخصب إنما هو من جريانه وفيضه، وكم نكبت مصر، وعانت أهوال القحط والوباء، وفقدت من أبنائها الملايين، لان النيل لم يسعفها بوافر فيضه. ومصر تعمل منذ اقدم العصور للفوز بأكبر قسط من هذا الغيث المبارك، وتسعى بكل ما وسعت لضبطه واستثماره، وكثيراً ما سير الفراعنة الحملات الى أعالي النيل للوقوف على أسرار هذا النهر العظيم واستقصاء منابعه والسهر على سلامة مجراه. وكان طبيعياً أن ترث دول مصر الاسلامية هذا الاهتمام بأمر النيل؛ واي دولة لم تقدر أن النيل هو حياة مصر؟ وكانت حكومات السلاطين تعني باستقصاء كل ما يتعلق بمجرى النيل واحوال جنوبي مصر والنوبة؛ وكانت تعرف ان الحبشة تسيطر على قسم هام من منابع النيل، وكانت الحبشة تقدر من جانبها اهمية هذا الاشراف الذي يتعلق بمصالح لمصر تعرف أنها حيوية جوهرية، وتتخذ هذا الأشراف في أحيان كثيرة وسيلة لنوع من الضغط السياسي تتذرع به لتحقيق بعض مصالحها ومطالبها المعلقة على إرادة مصر؛ ذلك أن مصر كانت تسيطر على بيت المقدس وبها الاماكن النصرانية المقدسة، وتسيطر على ارواح ملايين من النصارى، وبها مركز البطريركية المرقسية التي تتبعها الحبشة من الوجهة الدينية. ففي عصور الاضطراب او الاضطهاد حيثما يصيب المصالح النصرانية او الرعايا النصارى شيء من الظلم او الغبن، كان ملوك الحبشة يسعون لدى سلاطين مصر لرفع هذا الاضطهاد، او لتحقيق بعض المنح كأن تعاد بعض الكنائس التي هدمت، او يطلق سراح المعتقلين، او غير ذل من المطالب؛ وكان ملوك الحبشة يجدون دائماً في التلميح إلى ماء النيل وإلى منابعه الواقعة تحت إشرافهم اداة قوية لتحيقي مطالبهم، وكذلك كانت سيطرتهم على أرواح كثير من الرعايا المسلمين في بعض الولايات الحبشية عاملاً آخر من عوامل الضغط، مثلما كانت سيطرة السلاطين على أرواح الرعايا النصارى

وقد انتهت إلينا بعض وثائق قديمة هامة تلقي ضوءاً على اهمية هذا التجاذب السياسي بين

مصر والحبشة، ومداره ماء النيل والتنويه بخطورته واحتمال حجزه عن مصر؛ ومن ذلك وثيقة طريفة وجهت من ملك الحبشة إلى سلطان مصر سنة 847هـ (1443م)، وكان نجاشي الحبشة يومئذ (زرع يعقوب) الملقب بقسطنطين، وسلطان مصر هو الظاهر جقمق الذي تولى الملك سنة 842هـ؛ ووصلت هذه السفارة الحبشية إلى بلاط مصر في 18 رجب سنة 847هـ، على يد وقد حبشي يحمل هدية فخمة الى السلطان منها عدة كبيرة من الجواري والى والاسلحة الذهبية؛ ورسالة طويلة من النجاشي الى السلطان، ينوه فيها بما بلغه من حزمه وعدله وحسن سيرته، وبما كان من تسامح أسلافه السلاطين نحو النصارى، ويعتب عليه فيما بلغه من اضطهاد النصارى في ظل حكمه، في حين أن المسلمين في الحبشة، وهم كتلة كبيرة، يلقون كثيراً من ضروب التسامح والرعاية؛ ويشير إلى سيطرة الحبشة على ماء النيل في هذه العبارة: (وليس يخفى عليكم ولا على سلطانكم أن بحر النيل ينجر إليكم من بلادنا، ولنا الاستطاعة على أن تمنع الزيادة التي تروي بلادم من المشي إليم لأن لنا بلاداً نفتح لها أماكن فوقانية ينصرف فيها إلى أمكامن أخر قبل أن يجيء إليكم، ولا يمنعنا عن ذلك إلا تقوى الله تعالى والمشقة على عباد الله) وقد لبثت علائق مصر الاسلامية والحبشة عصوراً تدور حول هاتين النقطتين الخطيرتين: المسألة الدينية أعني معاملة مصر لرعاياها النصارى، ومعاملة الحبشة لرعاياها المسلمين، ومسألة مياه النيل؛ وانت مصر تستعمل المسألة الاولى وسيلة للضمان والتوازن في المسألة الثانية؛ وكذلك مسألة إشرافها على اكنيسة القبطية ومن ثم على تعيين المطران الحبشي؛ ومنذ القرن السابع الهجري نجد سلسلة من السفارات والمراسلات المنظمة تتبادلها مصر والحبشة، ففي عصر الظاهر بيبرس وردت مكاتبات ودية من الحبشة إلى سلطان

مصر تنويهاً بحسن العلائق بينهما؛ ووردت على مصر سفراة حبشية في عصر الظاهر برقوق من الملك داود نجاشي الحبشة وهو والد قسطنطين السابق ذكره؛ وأرسل الملك الظاهر جقمق سفارة إلى الحبشة رداً على السفارة المتقدمة ولكن النجاشي استقبل رسل السلطان أسوأ استقبال، لان السلطان رد عليه رداً لم يرقه، ولم يعد بتحقيق مطالبه

* * *

ولم تغفل مصر في العصر الحديث هذه الحقيقة الخلدة، وهي أن حياتها من النيل واليه، ومستقبلها الاقتصادي متوقف على حسن استثنارها لمائه؛ وكانت تلك الخرافات القديمة التي تحيط بمنابع النيل العليا قد اخذت تغيض شيئاً فشيئاً، وتبدو اهمية الاحاطة بهذه المناطق وإشراف مصر عليها؛ وكانت عندئذ فتوحات مصر في السودان منذ أوائل القرن الماضي، ثم فتوحاتها في بعض المناطق الحبشية، واستيلاؤها على كثير من هذه الانحاء، ووصول الحملات المصرية إلى اعالي النيل الأبيض ومناطق المطيرة وبحر الغزل، ووقوفها على كثير من أسرار النهر العظيم وطريقة جريانه ووصولها إلى منطقة تسانا في الحبشة، وسيطرتها على مجرى النيل الازرق كله. ثم كانت البعوث الاكتشافية التي اخذت مصر بقسط وافر في إعدادها وتنظيمها لاتشاف منابع النيل، والاحاطة التامة بظروفها الجغرافية، فكانت بعوث أمين باشا (ادوارد شنتزر)، والسير سمويل بيكر، والكبتن سبيك وغيرهم في اواخر القرن الماضي؛ واكتشفت منابع النيل الاصلية في قلب افريقية، ورفع القناع الاخير عن الاساطير التي احاطت بها، وعرفت مصر من أين ياتيها كيف يسير اليها الغيث المبارك ومنذ اوائل هذا القرن تعنى الحكومة المصرية أكبر العناية بأنشاء المشاريع الهندسية الكبرى سواء في مصر او السودن، لضمان انتفاع مصر بأكبر قسط من مياه النسل، وقد انفقت مصر الى اليو في هذا السبيل عشرات الملايين؛ وان آخر هذه المشاريع مشروعا تعلية خزان أسوان، وإنشاء خزان جبل الأولياء على النيل الأبيض. وما زالت ثمت مشاريع اخرى في اعالي النيل الابيض، وفي منطقة بحيرة تسانا يراد أن تحمل مصر على القيام بها

* * *

ولا ريب أن السياسة البريطانية تعمل من جانبها على أن ينتفع السوادن بأكبر قسط من مياه النيل، وأن تجني بريطانيا من وراء ذلك أعظم الثمار الاقتصادية، والسياسة البريطانية ما زالت تحمل مصر على غنفاق الملايين في مشاريع النيل السودانية باسم المصالح المصرية؛ وقد استطاعت بريطانيا العظمى ان تستأثر في العهد الاخير بالسيطرة على السودان، وأن تقضي فيه على كل نفوذ فعلي لمصر، والسياسة البريطانية تعترف بحقوق مصر في مياه النيل، ولكنها لا تتأخر عن الضغط على مصر ن هذه الناحية إذا اقتضت مصالحها ذلك، وقد لجأت فعلاً إلى هذا الضغط في أواخر سنة 1924 لمناسبة مقتل السردار، فانذرت مصر في بلاغها النهائي بأن حكومة السودان سترفع كل قيد وتحديد عن ري اراضي الجزيرة، او بعبارة اخرى ستطلق فيها من المياه ما شاءت دون النظر إلى حقوق مصر وحاجاتها

على انه يحسن فيما يتعلق بمسألة تسانا والحبشة ان تفاهم الحكومتان المصرية والبريطانية على الوسائل التي تؤدي الى صون مصالحهما المشتركة في مياه هذه المنطقة، إذا أسفر الصراع الحالي بين إيطاليا والحبشة عن تسرب النفوذ الايطالي الى تلك المنطقة.

ومن واجب الحكومة المصرية أن تتبع ادوار هذا الصراع بمنتهى الاهتمام؛ واما الشعب المصري فلا ريب انه يتتبعه بمنتهى العطق على امة صديقة تربطها بمصر علائق قديمة، وامة باسلة تعمل للذود عن حرياتها إزاء عدوان الاستعمار الغربي

محمد عبد الله عنان المحامي

آفة الغة هذا النحو. . . .

للأستاذ علي الطنطاوي

أستأذن أستاذَنا الجليل (الزيات) فاستعير منه هذا العنون. فأكتب كلمة في هذا

الموضوع الكبير، الذي نبه إليه الأستاذ بمقالته القيمة المنشورة في (الرسالة) الثالثة عشرة:

قال الاستاذ: (ليس من شك في أن دراسة النحو على هذا الشكل تفيد في بحث اللهجات في اللغة، ودرس القراءات في القرآن، ولكن نحن اليوم، وقبل اليوم، إنما نستعمل لغة واحدة، ونلهج في الفصيح لهجة واحدة، فلماذا لا نجرد من النحو القواعد الثابتة التي تحفظ هذه اللغة، وتقوم تلك اللهجة، وندع ذلك الطم والرم لمؤرخي الأدب وفقهاء اللغة وطلاب القديم، على ألا يطبقوه على الحاضر، ولا يستعملوه في النقد، وإنما يلحقونه بتلك اللغات البائدة التي خلق لها، وتأثر بها، فيكون هو وهي في ذمة التاريخ، وفي خدمة التاريخ؟).

ولقد صدق أستاذنا وبر، واصبح النحو علماً عقيماً، يدرسه الرجل ويشتغل به سنين طويلة ثم لا يخرج منه إلى شيء من إقامة اللسان والفهم عن العرب. وإنني لاعرف جماعة من الشيوخ، قرأوا النحو بضعة عشر عاماً، ووقفوا على مذاهبه واقواله، وعرفوا غوامضه وخفاياه، واولوا فيه وعللوا، وأثبتوا فيه ودللوا، وناقشوا فيه وجادلوا، وذهبوا في التأويل والتعليل كل مذهب، ثم لايفهم أحدهم كلمة من كلام العرب، ولايقيم لسانه في صفحة يقرؤها، او خطبة يلقيها، أو قصة يرويها. . .

ولم يقتصر هذا العجز على طائفة من الشيوخ المعاصرين ومن قبلهم من العلماء المتأخرين، بل لقد وقع جلة النحويين وأئمتهم منذ العهد الاول:

وقد روي السيوطي في (بغية الوعاة) أن الكسائي قد مات وهو لا يعرف حد نعم وبئس، وأن المفتوحة، والحكاية!. . . وأن الخليل لم يكن يحسن النداء. . . وأن سيبويه لم يكن يدري حد التعجب!

وأن رجلاً قال لابن خالويه: أريد أن تعلمني من النحو والعربية ما أقيم به لساني. فقال له ابن خالويه: أنا منذ خمسين سنة أتعلم النحو، ما تعلمت ما أقيم به لساني:

لإي فائدة من النحو، إذا كانت قراءته خمسين سنة لا تعلم صاحبها كيف يقيم لسانه؟ وما الذي يبقي للنحو إذا لم يؤد إلى هذه الغاية، واذا أصبح أصعب فنون العربية وهو لم يوضع

إلا لتسهيلها وتقريبها؟

ومن - ليت شعري - يسلك الجادة ليخلص من الوعر ويدنوا من الغاية، إذا رأى من هو أقوى منه وأجلد قد سلكها فانتهت حياته ولم ينته منها، واتته منيته وهو في بعضها. . . يقلب حصباءه، وينبش تربها، وينظر في جوانبها؟. . .

وإذا كان ملك النحاة بعد أن أنفق عمره كله في تعلم الحو وتعليمه، يستشكل عشر مسائل، وتستعصى عليه فيسميها (المسائل العشر، المتعبات إلى يوم الحشر) ويأمر أن توضع معه في قبره، ليحلها. . . عند ربه! فما بالك بأمثالنا من السوقة؟. .

وكيف نفهم هذا النحو وندركه ادراكاً بله الاستفادة منه؟ وأن نجتنب به الخأ في النطق وفي الفهم؟. . .

ومن يقبل على النحو، وهو يرى هذه الشروح وهذه الحواشي التس تحوي كل مختلف من القول. وكل بعيد من التعليل، وفيه كل تعقيد، حتما ينجو العالم من مشاكلها مهما درس وبحث ونقب، ولايشتقر في المسألة على قول حتى يبدو له غيره أو يجد ما يرده ويعارضه، القائم على ظهر الحوت، لايميل الى جانب الا ميل به إلى جانب، ولا يدري متى يغوص الحوت، فيدعه غريقاً في اليم. . .

وسبب هذا التعقيد - فيما أحسب - أن النحاة اتخذوا النحو وسيلة إلى الغنى، وطريقاً إلى المال، وابتغوه تجارة وعرضاً من أعراض الدنيا، فعقدوه هذا التعقيد وهو لو أمره، حتى يعجز الناس عن فهمه إلا بهم، فيأتوهم، فيسألوهم، فيعطوهم، فيغتنوا. . .

روي الجاحظ في كتاب الحيوان، أنه قال الأخفش: مالك تكتب الكتاب فتبدؤه عذباً سائغاً، ثم تجعله صعباً غامضاً، ثم تعود به كما بدأت؟

قال: ذلك لأن الناس إذا فهموا الواضح فسرهم، أتوني ففسرت لهم الغامض فاخذت منهم!

وروي السيوطي: أن سيف الدولة سأل جماعة من العلماء بحضرة اين خالويه ذات ليلة: هل تعرفون اسماً ممدوداً وجمعه مقصور؟

فقالوا: لا. فقال لابن خالويه: ما تقول أنت؟

فقال: أنا أعرف اسمين. قال: ما هما؟
. .!قال: لا أقول لك إلا بالف درهم
وكان نفطويه لا يُقريء كتاب سيبويه إلا إذا أخذ الرسم، من أل ذلك اتخذ النحاة هذا التعقيد سنة جروا عليها، وغاية تواطأوا على بلوغها، لتتم الحاجة إليهم وتثبت لهم مكانتهم، وتستمر الحاجة إليهم، حتى ان أبا علي الفارسي، لما سأله عضد الدولة بن بويه أن يصنف له تاباً في النحو - وصنف الايضاح، واوضح فيه النحو وقرية حتى أتى عليه عضد الدولة ليلة، واستقصره وقال له: ما زدت على ما أعرف شيئاً، أخس أبو علي بالخطأ، وشعر [انه خرج على هذه الخطة التي اختطوها لانفسهم: خطة التعقيد. . . فعمد إلى تدارك الخطأ، فمضى فصنف التكملة وحملها إليه، فاما وقف عليها عضد الدولة قال: غضب الشيخ فجاء بما لا نفهمه نحن ولا هو. . .
وزاد النحو تعقيداً وإبهماً وبعداً عن الغاية الي وضع من أجلها، ما صنعه الرماني من مزج النحو بالمنطق وحشوه به، حتى ما يقدر من بعده على تجريده منه، وحتى قال أبو علي الفارسي وهو مهاصر له:
إن كان النحو ما يقوله الرماني فليس معنا منه شيء، وإن كان ما نقوله نحن، فليس معه منه شيء. . .).
فخرج النحو بذلك عن الجادة، ولم يعد واسطة لفهم كلام العرب واتباع سبيلهم في القول، بل غدا عاماً مستقلاً معقداً مضطرباً لا تكاد تثبت فيه مسألة. ورضي النحاة عن هذا التعقيد ووجدوا فيه تجارة وكسباً، حتى أن السيرافي لما ألف كتابه الاقناع (الذي اتمه ولده يوسف) وعرض فيه النحو على أوضح شكل وأجمل ترتيب، فاصبح مفهوماً سهلاً، لايحتاج الى مفسر ولا يقصر عن إداراه أحد، حتلا قالوا فيه: وضع أبو سعيد النحو على المزابل بكتابه الاقناع. . . لما ألفه قاومه النحاة، وما زالوا به حتى قضوا عليه، فلم يعرف له ذكر، ولم نعرف انه بقي منه بقية!
وزاد النحو فساداً على هذا الفاد هذا الخلاف بين المذهبين (او المدرستين على التعبير الجديد): المذهب الكوفي، والمذهب البصر، وما جره هذا الخلاف من الهجوم على الحق، والتدليل على الباطل، والبناء على الشاذ، قصد الغلبة وابتغاء الظفر، كما وقع في المناظر المشهورة بين الكسائ وسيبويه، حين ورد هذا بغداد علي يحيى البرمكي، فجمع بينه وبين الكسائي للمناظرة فقال له السائي:
- كيف نقول: قد نت أظن أن الزنبور أشد لسعة من العقرب، فاذ هو ي، أو هو إياها
- فقال سيبويه: فاذا هو هي، ولا يجوز النصب
- فقال السائ: أخطأت، العرب ترفع ذلك وتنصبه، وجعل يورد عليه أمثلة، منها: خرجت فاذا زيد قائم أو قائماً وسيبويه يمنع النصب
فقال يحيى: قد اختلفتما وأنتما رئيسا بلديكما، فمن يحكم بينكما قال الكسائي: هذه العرب ببابك قد وفدوا عليك، وهم فصحاء الناس فسألهم
- فقال يحيى: أنصفت
وأحضروا فسئلوا، فاتبعو الكسائي فاستكان سيبويه وقال:
- أيها الوزير. سألتك إلا ما امرتهم أن ينطقوا بذلك، فان ألسنتهم لا تجري عليه، وكانوا إنما قالوا: الصواب ما قاله هذا الشيخ!
- فقال الكسائي ليحيى: أصلح الله الوزير، إنه قد وفد اليك من بلده مؤملاً، فان رأيت الا تردِه خائباً
فإمر له بعشرة آلاف درهم، فخرج الى فارس فمات بها بعد قليل غماً وأسى!
في حين أن الحق كان في الذي يقوله سيبويه، , ان الكسائي كان - كما يقول السيوطي - ممن أفسدوا النحو، لأنه ان يسمع الشاذ الذي لايجوز إلا في الضرورة فيجعله أصلاً. . . .
وزاد النحو فساداً على هذا الفساد، ابتغاؤهم العلة والسبب، لكل ما نطقت به العرب، وسعيهم لتعليل كل منصوب ومخفوض، وسلوكهم في ذل أبعد السبل من الواقع، وأدناها إلى التنطع والوهم. ومن ذلك ما رواه أبن خلكان من أن أبا علي الفارسي كان يوماً في ميدان شيراز يساير عضد الدولة، فقال له:
- بم انتصب المستثنى في قولنا: قام القوم إلا زيداً؟ قال السيخ: بفعل مقدر. قال: كيف تقديره؟ قال: أستثنى زيداً، فقال له: هلا رفعته وقدرت الفعل امتنع زيد!

فانقطع الشيخ وقال:
- هذا جواب ميداني فاذا رجعت قلت الجواب الصحيح.
ثم انه لما رجع إلى منزله وضع في ذلك كلاماً حسناً وحمله إليه فاستحسنه
قال السيوطي، والذي اختاره أبو علي في الأيضاح أنه ينتصب بالفعل المتقدم بتقوية إلا
قال: والمسألة فيها سبعة أقوال. . . حكيتها في كتابي جمع الجوامع من غير ترجيح، وأنا أميل الى القول الذي ذكره أبو علي اولاً. . .
* * *
هذه بعض الأسباب التي جعلت النحو معقداً هذا التعقيد، مضطرباً هذا الأضطراب، بعيداً عن الغاية هذا البعد. (فلماذا لانرجد من النحو القواعد الثابتة التي تحفظ هذه اللغة التي نستعملها، وتقوم تلك اللهجة - التي نلهجها - وندع ذلك الطم والرم لمؤرخي الأدب وفقهاء اللغة؟)
ولماذا لا يدلي علماء العربية وأدباؤها برأيهم في سبيل الأصلاح، ولماذا لا ينشر شاعرنا الفحل الأستاذ المحقق محمد البرم، وهو أول رجل اعرفه انتبه إلى فساد هذا النحو، ولبث خمسة عشر عاماً يعالج أدواءه، ويصف دواءه، ويقرأ من أجل ذل كل ما في أيدي الناس من كتب النحو وأسفار العربية؛ لماذا لاينشر ثمرة بحثه، وخلاصة دراسته في (الرسالة) مجلة الآداب الرفيعة والثقافة العالية، ليطلع عليها علماء العربية وأدباؤها، ويبدوا آراءهم فيها، فيكون من ذلك الخير للعربية إن شاء الله؛ ويكون الفضل للأستاذ الزيات على أن فتح هذا الباب، وللأستاذ البزم على أن كان أول من ولجه؟
علي الطنطاوي

مسابقة أدبية

إلى شعراء العربية

من الآسة (مي)

قصيدة من النسق العالي في الشعر الوجداني الفرنسي صغتها قريحة الآنسة النابغة (مي) ثم ترجمتها هي إلى العربية وقدمتها إلى شعرائنا مقترحة أن ينقلوها نماً إلى لغتنا في موعد لايتجاوز آخر شهر فبراير سنة 1935.
وقد تفضلت فتبرعت للمجيد الاول بجائزة مالية قدرها جنيهان مصريان. وسيكون الفصل بين الشعراء للجنة ن الأدباء سنعلن تأليفها عما قريب (المحرر)

الترجمة

ارتباب

صديقتي يا ذات العينين الكبيرتين الوديعتين، روحي تناديك!
الريحُ في هذا المساء تهبُّ هوجاء شديدة الوطأة،
الريحُ تجأر، وصوتها العصي الناحب
يُرجعُ في دوي الصدى عصياً مكبوتاً.
صديقتي يا ذات العينين الكبيرتين الوديعتين، روحي تناديك!
* * *
في اكتئاب أحلمُ، جالسةً بين الأزهار؛
جناحُ الأعصار يلطمُ نافذتي،
السماءُ تبكي: واهاً لهذه الدموع! هذه الدموع المنتحبة
ماذا تحركُ بسيرها في أعماق الكيان؟
في اكتئاب أحلمُ جالسةً بين الازهار.
* * *
أتذكرين يوماً هو الأول من العام؟
إذ السرُّ المغري أنار عينيكِ،
وإذْ روحي عبدتْ فيكِ روحها الأكبر سناً،
وإذْ منكِ إلى جاءت الكلمةُ الصامتة؟
أتذكرين يوماً هو الأول من العام؟
* * *
شهرٌ تولى، وها قد أتينا على نهايته،

رأيتك خلالهُ مرتين في مسائين اثنين.
والآن وقد أصبح ابتهاجي في عدهِ،
أحنُّ إلى لقاءِ ذياك الفجر الفتان. . .
شهرٌ تولي، وها قد أتينا على نهايتهِ.
* * *
وهذا المساءُ الحالك الممطر مساءُ وداع؛
قاتمةٌ هي افكاري والغمُّ يُبقُ علي؛
ارتيابٌ خبيثٌ يخالطُ قلبي المستسلم للحنان:
ماذا لو كان قلبك مغروراً محتلاً؟. . .
وهذا المساءُ الحالك الممطر مساءُ وداع. . .
(مي)
عابر سبيل
للأستاذ محمد سعيد العريان
قالت له نفسه الكريمة:
(سِرْ يا رفيقي على هادك حتى تبلغ؛ لستَ من هذا الناس،
ما أنت في الحياة إلا عابر سبيل. . . .!)
* * *
قَبْلَ أن يسفر الصبحُ من ليلة العيد، أستهل الصبيُّ صارخاً لأولِ ما يرى الدنيا؛ وقالت القابلة: (ي بُشرى هذا غلام!) فانبسطت وجوه؛ وابتسمت شفاه، ودب المرح في جنبات
الدار
وضمته أمه إلى صدرها النابض فقبلته وقالت: (ستكون سعيداً يا بني؛ إن الحياة لَتبسم في وجهك؛ هذا يوم أشرق صبحه!)
وعاد (الشيخ) من المسجد يدب على عصاه، في لسانه تكبيرُ وتسبيح، وفي قلبه صلاةٌ قائمةٌ ودعاءٌ خاشغ. واستقبلته ابنته بالبشرى: (إنه صبي يا أبتِ! هل ترى أخي؟)
وأدنى الشيخ من جبين الصبي فما يختلج بالشكر! فقبله والدمع يترقرق بين أهدابه، والكلمات تحتبس في لسانه؛ وأطال النظر في وجه الوليد فقال: (لقد أبطأت طويلاً يا بني حتى أدركني الهَرَم، ولكني بك اليوم سعيد! لئن كنت موشكاً أن أمضي إلى الدار الأخرى - إنني لحيٌّ بك في دنياي جيلاً جديداً؛
فَعشْ واسعدْ يا ولدي وابتسم للحياة!) ورفع الشيخ راسه إلى السماء وقال: (اللهم هذا دعائي وأنت أرحم الراحمين!)
* * *
مضى الطفل يعدو وراء الأيام تجاذبه أثوابَ الطفولة؛ فاذا هو غلام يلهو في فناء الدار مع لِداتٍ من الصبيان
وقال له صبيٌّ: (ما هذا معك يا رفيقي؟) فانبسط وجه الغلام، وقاسم الصبيان حلواه ومِليماتِه! وعرف الأطفال أن صاحبهم جواد، فأقبلوا عليه واجتمعوا على وده: وهمس أحدهم فيمن يليه: (إن معه اكثيراً من ذاك!) فتعود الأطفال أم يسرقوه!
ومضى الصبي إلى أبيه يبكي
- (ولدي، ما يبيك؟)
- (أبكي المليمات يا أبي!)
- (غداً أُعطيك غيرها يا بني؛ إن عند الله كثيراً من المليمت للاولاد الصالحين!)
ونظر الغلام إلى فطير في أيدي صحابته فاشتهته نفسه؛ أفيطلب أن يقاسمهم وما تعود؟ ولكن أباه أخذه بألا ينظر إلى ما في أيدي الناس؛ وكم علمه بالحكاية، وكم ضرب له من الأمثال:
أن الحيوان الضعيف هو الذي يعيش على ما في الأيدي؟
ورأى الاطفال شهوته في هينه، فاستخفوا منه يلتهمون من في أيديهم!
* * *
وشب الغلام، فدفعه أبوه إلى المدرسة، وعلمه في أول لياليه وقد رجع من مدرسته؛ (أنْ هؤلاء بازاء أهلك هناك؛ فأحسنْ فيهم رعابة الود، وكن بينهم أخاً في إخوانه.

وقال له زمياه في المدرسة ذات يوم: (هل تعينني على كتابة دَرْسي؟) فلما اعانه مضى الزميل وخلفه يعالج درسه وحده!

وسمع المعلم ذات مرةٍ همساً بين تلميذين؛ وكان جاره يطلب منه قلماً؛ وغضب المعلم وصاح: (مَن يتحدث؟) ولصقت التهمة بالمظلوم، فتلقى الصفعةَ صامتاً وجاره يبتسم؛ ولم تكن ابتسامته من شناته، بل فرحاً بالنجاة من كف غليظة!

وفي الطريق شاغَب التلاميذُ في أحد الايام أعمى يدب على عكازه، فلما توعدهم وهز لهم العصا، فروا وبقي الغلام لأنه بريء، فلم تنل عصا الرجل أحداً غيره! لقد بلمته الضربةُ ولكنه تقدم بيهتدي الرجل الطريق!

* * *

وأيفع الغلام، واستدناه أبوه اليه وهو مطوي في الفراش على نفسه من وهن الشيخوخة؛ ولبث الشيخ طويلاً يصوب النظر في الغلام ويصعده، ثم تكلم: (ليتك يا بني ملء عيني ما أراك ملء قلبي! ولكني أرى في وجهك اليوم ما كانت تُريني المرآة منذ عشراتٍ وعشرات، فلا جرم أن تبصر يا بني في مرآتك بعد عشراتٍ وعشراتٍ صورة أبيك؛ ستكون أميراً يا ولدي؛ سيستجيب الله دعائي لك، وما انقطع دعائي لك منذ ولدت؛ فأحب الناس، وَهبْ نفسك للجماعة! كن رجلاً قوياً يا بني؛ كن للناس فيض الحب والرحمة، ولا تستجد الحياة ما لا تعطيك؛ السعيد يا بني من يعطي لا من يطلب العطاء!)

وتكرر هذا من أبيه اياماً، كان يريد الا يموت إلا وقد وضع نفسه في ابنه!

ثم مضى أبوه في رحلة طويلة لا رجعة منها إلى هذه الدار.

يا حسرتا! هذا هو في الفراش مسبحي والنائحات تنوح! وأخفى الفتى عينيه يستر دمعه، لقد علمه أبوه أن يكون جَلداً فليحفظ وصاة أبيه

ونظر في وجوه المشيعين في الجنازة فما رأي بينهم رجلاً كالذي فقده، فعلم أنه فَقدَه الى الأبد. وتصور الدار الخلاءَ إلا من أمه وإخواته. يا للفاجعة! يحب أن يون رَجُل الدار؛ لقد لقنه أبوه لمثل هذا اليوم دروس الرجولة منذ كان في المهد صبياً. وهتف بالكلمة الغالية لآخر مرة: (يا أبي، فانني أنت هنا!)

وعاد الى الدار مطرق الرأس، ليضع يد الرجل الصغير في أكف الرجال الكبار يشكرهم على ما جاءوا لتعزيته!

أجاءوا يُعزون (الرجل الصغير) أم جاءوا يُحصوُن ما خلف الميتُ وأنفيهم تسيل طمعاً؟

وقال له أمه: (ما بي خوف الوحدة وأنتَ لي، فقم على الدار والدرس؛ إن الرجولة تقتضيك أن تكون من أهل العلم والكرامة، فقد كان أبوك عالماً كريماً. كن للناس ما كان أبوك: وجهاً طلقاً، ونفساً سمحة، ويداً معطية، وقلباً يفيض بالحب!

* * *

وخُيل الى الغلام أنه الرجل، وطَمْأنَهُ الى الناس أن أباه اوصاه بالناس، فلم يرد لأحدٍ طَلِبه، وإنه ليحمل من هموم الناس أكثر مما يحمل من هموم نفيه؛ مؤمناً بأنه يفعل واجبه للجماعة، ويؤدي دْينه للأنسانية؛ مستيقناً أن الناس ستحمل عنه إذا نابه هم!

وقال له جاره يوماً: (إن دائني يركب كتفي، فهل عندك فضلٌ من المال النحين؟) وأعانه ما قَدَر على إعانته، فاذا جارهُ لا يقلقاه من بعدها إلا حادَ عن الطريق؛ وإن غب (الرجل الصغير) لقيلاً من سوء الظن، وإن فيه لكثيراً من الحياء!

وهل يحيد الرجل عن طريقه إلا من عسرٍ يستحي أن يستعلن، وهل في الناس - فيما يرى - من يجحد الفضل وينكر العارفة. . .؟

وسأله صديق مرة: (هل تعينني على تأديب ولدي؟ فما بي طاقةٌ على أن ادفعه الى معلم بالمال؛ وما بي طاقة أن اهمله من التعليم!)

واهتزت نفس الفتى، لأنه - فيما بدا له من صاحبة - قادرٌ على أن ينفع النس مثل أبيه. وشد الولد من العلم ما شدا، فأنكر معلمه وتنكر له أبوه!

وقال رجلنا لنفسه: (يا للأب المكدود! لقد حَزبته مشغلة العيال عن ذكري؛ ليته يستعينني على بعض أمره!)

ومن أين للفتى أن يعلم بأن كل مبذول مَهين. . . .؟

* * *
وقال له واحدٌ من قرابته ينصحه: (هلا ادرخت فضل اليوم للغد؟ إن المالَ عَصب الحياة، وجاه الرجولة، ومطيةُ الامل البعيد)
وابتسم (الفيلسوف الصغير) وهو يقول: (المال؟ ما أحب أن أجعل المال خاتمة المسعى وغاية الجهاد، إن البطن لشبرٌ في شبر، وإن الثوب لذراع في ذراع؛ أفيتسع البطن حتى يبتلع غلات ضيعة، أو تطول القامة حتى ما يكسوها إلا ثوبٌ بألف، أو يتضاعف الجسم حتى ما يرويه إلا بيت في مساحة مدينة؟ أنا هو أنا يا صديقي، غنياً أو فقيراً؛ بطتي هو بطني، وثوبي هو ثوبي، وبيتي هو ما متد من قدمي الى رأسي حين أنام!
أي سخرية! إن الفقير الذي يعوزه القرش ليستطيع أن يقول قالة الغني الذي يملك المليون. وماذا يملك العني مما يملك إلا أن يسرح الطرف فيقول: هذه ضيعتي وهذا قصري. أفلا يستطيع الفقير أن يسرح عينيه معاً فيقول مثله: هذه ضياعي وتلك قصوري؟ يلي يا صاحبي. إن الفني لوهم من أوهام الناس، وإن الفقير المعدم ليرى أنه يملك ما شاء أن يملك من الدنيا ما دام راضي النفس!))
وفتراقا وكلاهما يرثى لصاحبه!
* * *
وقالوا له: (هلا التمستَ لك زوجةً تأوى إليها فتجمع ما تفرق من أمرك؛ لعلك أن تجد عندها راحةَ النفس وهدوء القلب؟)
قال: (حتى ألقاها فأعر فها فيدلني عليها قلبي. ما أريدها غنية، فمالي وغناها وأنا عائلها وكاسبها؟ وما أريدها جميلة، فمالي وللجميلة تتوزعها قلوبُ الناس وعيونهم، وبتوز عني منها الشك والقلق؟ وما أغلو في طلب الفيلسوفة العالمة، فأجمع على نفسي هما بالليل وهما بالنهار! وما أريد أن تقول: (كان أبي ورَحم الله جدي)، فتملأ بيتي بأشباح الموتى وأطياف الهالكين! بحسبي أن أجد الفتاة التي يخفق لها قلبي ويهدأ عندها حنيني.)
وخُيل إليه أنه وجدها بعد إذ أعياه المطاف؛ فوهب لها قلبه، وأخلص لها وده، وكشف لها عن نفسه؛ ونظرت الفتاة في مرآتها، ثم لَوَتْ عنه معجبةً مزهوة!
أتراه وقد نالت منه بقسوة الصد، وصَعرِ الخد، وجفوة الدلال - قد أيقن أن المرأة لاتستوثق
من حب صاحبها إلا غلبتْ، ولا تستمكن من زمامه إلا رَكبتْ. . .؟
* * *
باللمسكين! لقد كان بريئاً طاهراً كالطفل، وادعاً مستكيناً كالحمل؛ يحسب الناس كل الناس في مثل براءته وطهره، فما ينشد فيهم إلا المثل الأعلى الذي يراه في نفسه! وأين المثلث الاعلى من هذا الناس؟ أين هؤلاء الذين يرى، من أناسي خياله؟ وأين هذا الوجود من عالم قلبه؟
لقد منحهم حبه فهل لفقي عندهم إلا الغدر؛ واصفاهم وده فهل رأى إلا الاثرة؛ ومحضهم إخلاصه فهل عرف إلا الخديعة والمكر؛ وألان لهم جانبه فهل وجد إلا الكبرياء وصعر الخد. . .؟
وأيقن (الرجلُ الصغير) انه لم يكن في هذا العالم غير طَفلٍ كبير!
وعرف أخيراً أين أحلامه من اليقظة، وأين أمانيه من الحقيقة، وأين المثلُ العلياً التي جد ينشدها منذ كان صبياً فلم يجدها إلا في نفسه. . .!
وراودته نفسه أن يكون بعض هذا الناس لعله يلقي بعض أسباب السعداة، فَرن الصدى في مسمعيه يرجع قول أبيه: (ستكون أميراً يا بني، فأحب الناس، وهَبْ نفسك للجماعة؛ إن السعيد من يعطي لا من يطلب العطاء!)
وثابت إليه نفسه، ونفذت الطمأنينةُ إلى قلبه فقال: (نعم غنني لأمير، لأنني فوق الناس، لأنني أعطي ولا أستجدي؛ وإنني لسعيد، لأنني أملك الرضى، ولأنني أمل أن أجعل الحياة جميلة!)
وتلفت يمنةً ويسرة، ونظر إلى الناس تتجاذبهم ضرواتُ الحياة، مستعيناً بالرضى، مستيقناً أنه سيجد المثل الأعلى هناك؛ عند الغاية من هذا الطريق!
وقالت له نفسه: (سِرْ يا رفيقي على هداك حتى تبلغ؛ لستَ من هذا الناس؛ ما أنت

في الحياة إلا عابر سبيل. . . .!
طنطامحمد سعيد العريان
محاورات أفلاطون - 7
الحوار الثاني
كريتون أو واجب المواطن
ترجمة الأستاذ زكي نجيب محمود
أشخاص الحوار: سقراط. كريتون
مكان الحوار: سجن سقراط
سقراط وانه لو عصى رأى الواحد ورضاه وغض عنهما النظر، واضعاً في اعتباره رأي الكثرة التي لا تفقه من الأمر شيئاً، أفلا يعاني شروراً؟
كريتون - انه بغير شك يعانيها
سقراط - وماذا عساها تكون تلك الشرور؟ الام تنحو؟ وأي شيء تصيب من الشخص المتمرد؟
كريتون - لاريب في أنها ستصيب منه الجسد، فذلك ما تقوى على هدمه الشرور
سقراط - ذلك جد جميل، أليس ذلك حقاً يا كريتون بالنسبة إلى الأشياء الأخر، ولا حاجة بنا إلى ذكرها تفصيلاً؟
أينبغي أن نتبع رأي الجمهرة ونخشاها في موضوعات العدل والظلم، والجميل والقبيح، والخير والشر، وهي ما نحن الآن بصدد بحثه، أم نتبع في ذلك رأي الرجل الواحد الذي يفهمها، والذي يجب أن يكون له منا هيبة وإجلال أكثر مما يكون لسائر الناس أجمعين، والذي إن نبذنا قوله فانما نهدم في أنفسنا جانباً كان يرجى له أن يقوم بالعدل وأن يسوء بالظلم، أليس فينا ذلك الجانب؟
كريتون - إنه موجود يا سقراط، ولا شك في وجوده
سقراط - خذ مثلاً شبيهاً بهذا: هب أننا انتصحنا بما ينصح به هؤلاء الذين لا يفقهون فأفسدنا من أنفسنا جانباً، تصلحه الصحة ويتلفه المرض - أفتكون الحياة جديرة بالبقاء اذا افسد ذاك؟ وإنما أعني به - الجسد
كريتون - نعم
سقراط - أفي وسعنا أن نعيش وأجسامنا مصابة بالشر والفساد؟
كريتون - كلا ولا ريب
سقراط - وهل تساوي الحياة شيئاً إذا ما فسد من الانسان جزؤه الأسمى، ذلك الذي تقومه العدالة ويفسده الجور؟ أفيمكن أن يكون ذلك العنصر الذي يرتبط أمره بالعدل والجور - مهم يكن شأنه في الأنسان - أدنى منزاة من الجسد؟
كريتون - كلا ولاشك
سقراط - هو إذن أرفع مقاماً
كريتون - هو ارفع مقاماً إلى حد بعيد
سقراط - إذن فلا ينبغي يا صاح أن، ابه لما تقوله الجمهرة عنا، إنما يجب أن نصغى لحكم الحقيقة، كما نستع إلى رأي ذلك الواحد الذي يفهم كنه العدل والظلم، فأنت إذن قد رقعت في الخطأ حين ارتأريت وجوب العناية بما يقوله الدهماء في الظلم والعدل، والخير والشر، والزائن والشائن، سيقول أحد: (ولكن الدهماء في مقدروها إهدامنا)
كريتون - نعم ياسقراط، سيكون ذلك بغير شك رد ما تقول
سقراط - هذا حق، ولكن مع ذلك يدهشني أن أرى الحًجة القديمة لا تزال فيما أحسب قائمة قوية كما كانت، وأحب أن أعرف إن كنت أستطيع أن أقول هذا القول في قضية أخرى - وهي أن ليست الحياة حقيقة بالتدقير ما لم تكن قبل كل شيء حياة خيرة؟
كريتون - نعم بقي لنا أن نبحث هذه أيضاً
سقراط - والحياة الخيرة تعادل الحيادة العادلة الشريفة - أليس هذا كذلك صحيحاً؟
كريتون - نعم إنه صحيح
سقراط - سانتقل من هذه المقدمات إلى البحث عما إذا كان واجباً عليّ أن أحاول الفرار بغير موافقة الاثينيين، م إن ذلك لايجوز؛ لإن كنت على حق صريح في الفران حاولته، إن لم أكن، امنعت. اما سائر الاعتبارات التي ذكرتها عن المال وضيعة الأخلاق وواجب تربية الأطفال، فهي كما بلغني، ليست إلا تعاليم الدهماء الذين لو استطاعوا

لما ابوا أن يضيفوا الى الحياة أناساً، كما انهم لا يتعففون عن أن يوردوا الحتف أناساً، وتكقيهم في كلتا الحالتين أوهن الأسباب. أما وقد وصلنا بالجدل إلى هذا الحد، فقد بقيت لدينا مشكلة واحدة
جديرة بالبحث، وهي: هل نكون على حق في الهروب بأنفسنا، أو في تحميل سوانا عناء عوننا في الفرار، لقاء نقدهم جزاء وشكوراً أم لا نكون، فان كانت الأخيرة فلا ينبغي أن يحسب حساباً للموت، أو لما شئت من الكوارث التي قد تنجم عن بقائي هنا
كريتون - احسبك مصيباً يا سقراط، فكيف سبيلنا إذن إلى البحث؟
سقرا - لننظر معاً في الأمر، فان استطعت لما أقول تفنيداً فافعل، وسأقتنع بك، وإلا فأمسك يا صديقي العزيز، ولا تقل ثانية بأنه يجب عليّ أن الوذ بالفرار برغم إرادة الاثينيين، وليتني أجد منك غقناعاً، ولشد ما أرغب في هذا على ألا يكون ذلك مخالفاً لما أراه حكماً سديداً. وتفضل الآن فانر في موقفي الأول، وحاول ما استطعت أن تجيب عما أقول
كريتون - سأبذل في ذلك وسعي
سقراط - افيجوز لنا القول بأنه لاينبغي لنا قطعاً أن نتعمد الخطأ، أم أن فعل الخطأ مقبول حيناً مرذول حيناً آخر، أم أن فعله أبداً شر ووصمة عار كما سبق لي القول الآن وسلمنا بصحته معاً؟ أفننبذ الآن كل ما سمحنا لأنفسنا به منذ أيام قلائل؟ أم أننا قضينا هذا العمر الطويل، يحاور بعضنا بعضاً في حماسة وإخلاص، لكي نوقن ونحن في هذه السن بأنا لا نفضل الاطفال في شيء؟ أم نثق ثقة قاطعة بصحة ما قيل من قبل، من أن الجور دائماً شر وعار على الجائر، برغم ما يرى الدهماء، وبرغم ما ينجم عن ذلك من نتائج، حسنة كانت أم سيئة؟ هل نؤيد هذا؟
كريتون - نعم
سقراط - إذن يجب ألا نفعل الخطأ
كريتون - بقينا يجب ألا نفعله
سقراط - واذا أصابنا الضرر فلا نرده بضرر مثله، كما تتخيل كثرة الناس، لأنه يجب ألا نصيب أحداً بضر
ريتون - واضح أن ذلك لا يجوز
سقراط - ثم هل يجوز لنا أن نفعل الشر يا كريتون؟
كريتون - لا يجوز قطعاً يا سقراط
سقراط - وما رأيك في رد الشر بالشر، وهي أخلاق الدهماء - أذلك عدل أم ليس بالعدل
كريتون - ليس بالعدل
سقراط - فلأن تصيب أحداً بشر كأن تصيبه بضر
كريتون - صحيح جداً
سقراط - إذن لاينبغي لنا أن نأخذ بالثأر، ولا أن نرد الشر بالشر لاحد ما، كأننا ما كان الشر الذي ابتلانا به، وأحب أن تنظر في الامر يا كريتون، لترى هل كنت حقاً تعني ما تقول، ذلك لأنه لم يأخذ بهذا الرأي يوماً، ولن يأخذ به إلى آخر الدهر فريق من الناس كبير. ولا سبيل الى اتفاق بين من يقرون هذا الرأي ومن لا يقرونه، فما بد من أن يزدري بعضهم بعضاً، عندما يرون كم بينهم من شقة الخلاف. حدثني إذن: أأنت متفق معي ومؤيدي في مبدئي ذاك، وهو أن ليس من الحق أيقاع الضر، ولا الأخذ بالثأر، ولا رد الشر بالشر؟ أمسلم أنت بهذا مقدمة لحديثنا، أم أنت منكر له راغب عنه؟ لقد كان ذلك مذهبي منذ عهد بعيد، وما يزال كذلك؛ فان كنت ترى غير ذلك رأياً، فهات ما عندك؛ أما إن كنت بعد هذا كله لا تزال عند رأيك الأول، انتقلت معك في الحديث خطوة أخرى
كريتون - إنني ثابت عند رأيي، فتستطيع أن تسير في الحديث
سقراط - سانتقل إذن إلى الخطوة الثانية التي يمكن أن توضع في صيغة هذا السؤال: أينبغي للأنسان أن يفعل ما يراه حقاً، أم ينبغي له أن ينقص الحق
كريتون - إنه يجب على الأنسان أن يفقعل ما يظنه حقاً
سقراط - ولكن ما تطبيق هذا إن صح؟ ألست أسيء إلى أحد إن تركت السجن برغم غرادة الأثينيين؟ أو على الأصح، ألست أخطىء في حق أولئك الذين ينبغي أن يكونوا

من أبعد الناس عن الأساءة؟ ألا يكون ذلك تطليقاً لمبادئي التي سلمنا معاً بعدها؟ ماذا تقول في هذا؟
كريتون - لست أدري يا سقراط، فلا أستطيع أن أقول شيئاً
سقراط - إذن فانظر الى الأمر على هذا الوجه: هب أنني هممت بالابوق (أو إن شئت فسم هذا العمل بما أردت من أسماء) فجاءت الى القوانيين والحكومة تسائلني: (حدثنا يا سقراط، ماذا أنت فاعل؟ أتريد بفعلة منك أن تهز كياننا - أعني القوانين والدولة بأسرها بمقدار ما هي في شخصك مائلة؟ هل تتصور دولة ليس لأحكام قانونها قوة، ولاتجد من الافراد إلا نبذاً واطراحاً، أن تقوم قائمتها، فلا تندك من أساسها؟) فبماذا نجيب يا كريتون عن هذه العبارة واشباهها؟ وسيكون مجال القول واسعاً لكل انسان، وللخطيب البليغ بنوع خاص، يهاجمون هذا الشر الذي ينجم عن اطراح القانون الذي لابد لحكمه من النفاذ. وربما أجبنا نحن: (نعم، ولكن الدولة قد آذتنا، وجارت علينا في قضائها) هب إنني قلت هذا
كريتون - جميل جداً يا سقراط
سقراط - سيجيب القانون: (أفكان ذلك ما قطعته معنا من عهد، أم كان لزاماً عليك أن تصدع لما حكمت به الدولة؟) فان بدت علي من قولهم هذا غعلائم الدهشة، فربما أضاف القانون قوله: (أجب يا سقراط بدل أن تفتح لنا عينيك: وقد عهدناك مسائلاً ومجيباً. حدثنا، ما شكاتك منا، تلك التي تسوغ لك محاولة هدمنا وهدم الدولة معاً؟ فوق كل شيء، ألم نأت بك الى الوجود؟ ألم يتزوج أبوك من أمك بعوننا فأعقباك؟ قل إن كان لديك ما تعترض به على أولئك الذين ينظمون الزواج منا؟ وهنا لابد من إجابتي أن لا (أو على أولئك الذين منا ينظمون طرائق التغذية والتربية للأطفال، وفي ظلها نشأت أت؟ ألم تكن القوانين التي نهضت بهذا على حق في أن طلبت الى أبيك أن يدربك في الموسيقى ورياضة البدن؟) وهنا يلزم أن أجيب أن قد كانت على حق: (حسناً، فان كنا قد أتينا بك الى العالم، ثم أطعمناك فانشأناك، أفأنت جاحد أنك قبل كل شيء ابننا وعبدنا كما كان آباؤك من قبل؟ فان صح هذا فلسنا وإياك سواسية، فلا تظن أن من حقك أن تفعل بنا ما نحن بك فاعلون، وهل يكون لك أدنى حق في أن تنال أباك أو سيدك، إن كان لك أب أو سيد، بالضرب أو بالشتم أو بغير ذلك من السوء، إذا رقع عليك منه ضرب أو شتم، أو اصابك منه غير ذلك من الشر. - لا نخالك قائلاً بهذا: وإذا كنا قد رأينا أن من الصواب إعدامك، أفتطن أن من حقك أن تجازينا إعداماً باعدام؟ وأن تجازى وطنك بمقدار ما هو مائل فيك؟ وهل تظن يا أستاذ الفضيلة الحق أن يكون لك في ذلك ما يبررك؟ أيعجز فيلسوف مثلك أن يرى بأن وطننا أخلق بالتقدير، وأنه اسمى جداً واقدس من ام أو أب أو من شئت من سلف، وهو أجدر بالاعتبار في نظر الآلهة واهل الفطنة من الناس؟ وانه ان غضب وجب أن نهدىء من سورته، وأن نلاقيه لقاء وديعاً خاشعاً أكثر مما نفعل حتى مع الوالد، فان تعذر اقناعه وحببت طاعته؟ فاذا نالنا منه العقاب بالسجن أو بالجلد، وجب ان نحتمل جزاءه في صمت، إن ساقنا الى حومة الوغى حيث الجراح والموت، كان لزاماً أن ننصاع له باعتباره مصيباً، دون أن يُسلم أحد منا أو يقهقر أو يترك منصبه، وواجب حتم على الانسان أن يصدع بما يأمره به الوطن، سواء أكان في ساحة الحرب أم في ساحة القانون، إلا إذا غير من وجهة نظره في ماهية العدل، وإن كان لايجوز له أن يقسو على أبيه أو أمه، فما أوجب أن يكون رحيماًعلى وطنه) بماذا تجيب على هذا يا كريتون؟ آلقوانين فيما تقول صادقة أم ليست بصادقة؟
كريتون_أحسبها صادقة فيما تقول
زكي نجيب محمود
غياث الدين الكاشي
للأستاذ قدري حافظ طوقان
يهمنا دائماً أن نكشف عن نواحٍ من التراث العربي والأسلامي أحاطها إهمالنا غيرنا بسحب من الغموض والأبهام حتى ادت تصبح غب عالم النيسان. وقد يظن بعضهم أن الكشف عن هذه النواحي سهل لايحتاج إلى تنقيب، ولكن الواقع غير ذلك، فاننا نجد صعوبة كبرى ومشقة عظنى في وضع ترجمة عالم مغمور، إذ يحتاج ذلك الى مراجعة

الكتب قديمها وحديثها من عربية وإفرنجية، ويحتاج أيضاً لمطالعة متنوع المخطوطات علنا نتمكن من الكتابة عن ذلك العالم كتابة تعطي فكرة صادقة عن حياته ومآثره في العلوم. ولقد ثبت لنا أن هناك عدداً كبيراً من علماء العرب والمسلمين اشتغلوا بالرياضيات والفلك والطبيعة وغيرها من العلوم والفنون، لم يأخذوا حقهم من البحث والاستقصاء، وأن مآثرهم لاتزال مجمهولة لدينا إذ هي ملعثرة في شتى الكتب، وأنه لم يقم أحد منا يعني بها أو يهتم بكشفها، ولست ادري على من يقع علينا جميعاً كلا من ناحيته، فعلى الذين يعنون بالتاريخ والجغرافيا يقع اللوم على عدم تبيانهم للملأ أثر علمائهم فيها، كذلك يقع اللوم على الذين يعنون بالكيمياء، إذ من الواجب العلمي والوطني أن يهتموا بمآثر العرب فيها وبما قدمه العقل العربي من خدمات جليلة لها. وما يقال عن التاريخ والجغرافيا والكيمياء يُقال عن غيرها من فروع المعرفة.

ولا يخفى أنه يجب أن يكون وراء الكشف عن مآثر وتراث أسلافنا فكر وطنية تعود على الأمة بالخير والنفع، فتحفز همتها وتُثار عزيمتها، ولسنا في هذا مبتدعين أو آتين بجديد. ونظرة إلى تاريخ العلوم والفنون عند الفرنجة نجدهم عند بحثم عن مآثر علمائهم ونوابغهم فيها يدخلون وراءها فكرات وطنية مستورة تتجلى لنا في كل مناسبة، وتتجلى لنا ايضاً في كتبهم وفي تدريسهم في الجامعات والكليات. وبذلك يكونون قد جعلوا النشء يؤمنون بقابليتهم ويعتقدون بعبقريتهم ويشعرون بقوميتهم، وفي هذا كله قوى تدفع الأمة إلى حيث المجد والسؤدد.

بعد هذا نعود إلى موضوع مقالنا فنقول: إن غياث الدين جمشيد الكاشي من الذين لم يكتب عنهم إلا الشيء القليل، وهذا الشيء القليل موزع في عدة كتب منها الصفراء (ومنها الخير الكثير) ومنها الفرنجية، ومنها التركية، ةوقد حاولت أن أستعين بما عثرت عليه في مختلف المؤلفات التاريخية، فوقفت والحمد لله إلى ترجمة متواضعة، أرجو أن أكون قد قمت بها ببعض الواجب نحو عالم من علماء المسلمين اشتغل في العلوم الرياضية، ومهر الرصد وبرع في الفلك

* * *

ولُد غياث الدين في القرن الخامس عشر للميلاد في مدينة كاشان مما وراء النهر، وكان يقيم فيها مدة ثم ينتقل إلى محل آخر، ولقد توجه إلى سمرقند بدعوة من أولوغ بك، الذي ان يحكم بأسم (معين الدين سلطان شاه) وفيها ألف أكثر مؤلفاته التي كانت سبباً في تعريف الناس به. ويقال إن الفضل في إنشاء مرصد سمرقند يرجع إلى غياث الدين وإلى قاضي زاده رومي، ولكن الأول توفي قبل البدء باجراء الرصد فيه، كما أن الاخير توفي قبل تمامه، وعلى هذا سُلمت أمور المرصد إلى على قوشجي، ولهذا المرصد أهمية كبيرة، إذ بواسطته أمكن عمل زيج (كوركاني) الذي بقي معمولاً به قروناً عديدة في الشرق والغرب، واشتهر هذا الزيج بدقته وبكثرة الشروح التي عملت لأجله. والكاشي من الذين لهم فضل كبير في مساعدة أولوغ بك في إثارة همته إلى العناية بالريضيات والفلك.

واختلف المؤلفون في تاريخ وفاة الكاشي، فبعضهم يقول إنه توفي حوالي سنة 1424م، ويقول أخرون إنه توفي حوالي سنة 1436ن، ولم نستطع البت في هذه المسألةن ولكنا نستطيع القول أن الوفاة وقعت في القرن الخامس عشر للميلاد في سمرقند بعد سنة 1421م، وهي السنة التي أنشيء فيها المرصد

أشتهر الكاشي في علم الهيئة، وقد رصد الخسوفات التي حصلت سنة 809هـ، 810هـ، 811هـ، وله في ذلك مؤلفات بعضها باللغة الفارسية، منها كتاب زيج الخاقاني في تكميل الأباخاني، وكان القصد من وضعه تصحيح ويج اليلخافي للطوسي، وفي هذا الزيج الخاقاني دقق ي جداول النجوم التي وضعها الراصدون في مراغة تحت إشراف الطوسي، ولم يقف غياث الدين عند حد التدقيق بل زاد على ذلك من البراهين الرياضية والأدلة الفلكية مما لا نجده في الأزياج التي عُملت قبله، وقد أهداه الى اولوغ بك. وله في الفاريبة أيضاً التي وضعها باللغة العربية ما يبحث في علم الهيئة والحساب والهندسة، نذكر منها كتاب نزهة الحدائق، وهذا الكتاب يبحث في استعمال الآلة المسماة طبق المناطق، وقد اوجدها لمرصد سمرقند، ويقال إنه بواسطة هذه الآلة يمكن الحصول على تقاويم الكواكب عرضها وبعدها مع الخسوف والكسوف وما يتعلق

بهما. وله رسالة سلم السماء، وهذه تبحث في بعض المسائل المختلف عليها فيما يتعلق بأبعاد الأجرام. وله أيضاً رسالته المحيطية، وهي تبحث في كيفية تعيين نسبة محيط الدائرة إلى قطرها، وقد أوجد تلك النسبة إلى درجة من التقريب لم يسبقه إليها أحد كما قال البروفسور (سمث). وقيمة هذه النسبة كما حسبها الكاشي كما يلي:

3. 1415926535898732، ولم نستطع أن نتأكد من استعمتله علامة الفاصلة، ولكن لدى البحث ثبت أنه وضع هذه القيمة للنسة في الشكل الآتي:

صحيح

وهذا الوضع يشير الى أن 3 1415926535898732

المسلمين في زمن الكاشي كانوا يعرفون شيئاً عن الكسْر العشري، وأنهم سبقوا الأوربيين في استعمال النظام العشري، يعترف بذلك البروفسور سمث في كتابه تاريخ الرياضيات في ص290 من الجزء الاول. وللكاشي رسالة الجيب والوتر، وقد قال عنها المؤلف في كتابه المفتاح ما بيل (وذلك ما صعب على المتقدمين كما قال صاحب المجسطي فيه أن ليس إلى تحصله من سبيل). وقد يكون كتاب مفتاح الحساب من أهم مؤلفات صاحب الترجمة، إذ وضع فيه بعض اكتشافات في النظريات الحسابية. ويقول عن هذا الكتاب الاستاذ صالح زكي: (ويعتبر هذا الكتاب الخاتمة لكتب الحسلاب المبسوطة التي ألفها الرياضيون الشرقيون. . .) وكذلك يقول عنه كتاب كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون: (. . . بلغ إلى غاية حقائق الأعمال الهندسية من القوانين الحسابية، وهو على مقدمة وخمس مقالات: المقالة الاولى في حساب الصحيحن الثانية في حساب الكسور، الثالقة في حساب المنجمين، الرابعة في المساحة، الخامسة في استخراج المجهولات، وهو كتاب مفيد أوله. . . الحمد لله الذي توحد بابداع الآحاد الخ. . . ألفه لأولوغ بك ثم اختصره وسماه تلخيص المفتاح، وقد شرح بعضهم هذا التلخيص. . .) وفي هذا الكتاب نجد قانوناً لايجاد مجموع الاعداد الطبيعية المرفوعة إلى القوة الرابعة.

ويعترف كتاب تراث الاسلام بأن الكاشي استطاع أن يجد قانوناً لايجاد مجموع الأعداد الطبيعية المرفوعة إلى القوة الرابعة كما اعترف بذلك أيضاً البروفسور سمث في كتابه

تاريخ الرياضيات في ص505 من الجزء الثاني

هذه لمحة موجزة عن حياة الكاشي ومآثره في الرياضيات والفلك، والذي نرجوه أن نوفق في المستقبل للكتابة عنه بصورة أوسع وأوفى للمرام، وأن تكون هذه اللمحة حافزاً لغيرنا للأهتمام باحياء العلماء المغمورين أمثال الكاشي، نسأله تعلى التوفيق والعون

نابلس قدري حافظ طوقان

مطالع الأعوام

للأستاذ عبد العزيز البشري

جرت عادة الناس من الزمان البعيد أن يفرحوا أو يتكلفوا الفرح كلما طالعتهم دورة الأيام بعام جديد. وكثير منهم من يتخذ من مطلع العام عيداً، بليس فيه جديد الثياب، ويحتفل لتهنئة الصحاب واستقبال الهناء من الصحاب، ويتفرغ من كل عمل ليتوفؤ ومن يحمل من الأهل والولد على إصابة ما يتهيأ لهم من اللذائذ والمتع، وتقليب العطف فيما يتيسر من ألوان النعيم. ذلك جرت عادة الناس، أو عادة أثر الناس

ولو قد راجع المرء نفسه في هذا، ورح يتحسس الأسباب والعلل في ذلك الذي يكون منه في مطالع الأعوام، فليت شعري بِمَ هو في غاية الأمر راجع؟. أتراه فرحاً بأنه طوى من عمره عاماً؟. أم تره فرحاً بأنه سينشر من عمر عاماً؟

وإن عجباً دونه كل عجب أن هذا الانسن الأثِر، المتشبث بأسباب لحياة، مهما تذلل

وتوجع، يفرح بطي صفحة من حياته، وقطع مرحلة من عمره، فيدنو من الغاية المحتومة التب ما ذكرها إلا مليء منذكرها فرقاً ورعباً!

وإن عجباً لاينتهي منتهاه عجبٌ أن هذا الانسان الجبان المنخلع القلب، الذي لا يرى إن يقيناً وإن وهماً، فيل قنيه من ثنايا الغيب، وفي كل منعطف من منعطفات الدهر، إلا ما يرتصد له، ويتربص به الدوائر، ويرميه ما أصحرت به الأيام بالوان المكلره والمخاطر - اللهم إن عجباً لاينتهي عجب أن يفرح هذا الانسان باستقبال ل هذا الذي يتوقع من أذى طارقات الليال!

إذن ففيم فرح الانسان بدورة الأيام، وأغتباطه ذاك بالتخلص من عام لاستقبال عام؟ ليت شعري أتراه يضيق بالحياة ويبرم بها، ويسر كلما طوى من كتابها صفحة، واقترب من غايتها خطوة. اللهم إن الأنسان لأ كلف بالحياة، وأود لو تطر به إلى غاية الزمان، وإلى ما بعد غاية الزمان! أليس أبر عزائه في هذه الحياة إذا عرض ذكر الموت، ولا مفر منه، أنه مبعوث من بعده لحياة لا يدركها عدم ولا يلحقها فناء؟

إذن ففيم فرح الأنسان بدورة الأيام، واغتباطه بالتخلص من عام لأستقبال عام؟ ألاَ إن أعجب من هذا كله أن يراجع الأنسان نفسه، ويسائلها فيم اغتبطاها وفرحها من حيث يجب أن يتداخلها الاسى وتلح عليها الحسرة من كل مكان؟!

اللهم إنه ليكلف بطول العمر، ويكلف بقصر العمر، وإنه ليشغف ببسطة الأيام، ويشغف بنفاد ما بقي بين يديه من الأيام!.

اللهم إنه لا يستريح إلى هذا المحال، إلا من كان به مس من جنون أو مس من خبال!

* * *

ليس الانسان مجنوناً ولا مخبلاً؛ بل إنه ليفر فيحسن التفكير، ويقدر فيصيب التقدير، ويدبر فيُحكم التدبير. وإن عقله الجبار ليأبى إلا يستذل عنف الطبيعة كل يوم. وها هوذا لا يفتأ يسخر لحاجاته جوها وماءها، وأرضها وسماءها، بما لا يحتاج معه إلى قيام دليل على صحة العقل وسلامة التفكير!

ما لنا بعد هذ بد من التدسس إلى قررة النفس، والتسلسل إلى ثناياتها، علنا نصي الوجه ونستخرج العلة في ذلك الذي نحسبه في المحال!

ها نحن اولاء نتحرى خطرات النفس، ونتقرى خلجات الحس، فنسير وراءها حيثما سارت، وندور معها كيفما دارت. حتى إذا بلغت سائلها القرار، تهيأ لنا أن نروى عنها أصح الانباء واصدق الاخبار.

هذ الانسان العاقل المفكر الدبر، يجزع حقاً أشد الجزع لما ينطوي من أيام عمره، ولقد يهش حقاً لما يستقبل من بقايا أيام الحياة. غبر انه لا يعقد أية صلة بين هاتين النزعتين القويتين فينفسه، فهذه تكون منه في حال، وهذه تكون في خال، فليس ثمت في الأمر للمحال. فاذا طلبت بياناً فاليك البيان:

إن علة العلل في كل هذ الذي ترى من تناقض الانسان، وخلاف نزعات نفسه بعضها لبعض، إنما هي فيما طبع عليه من الأثرة وشدة الكلف بالنفس. فهذه الاثرة هي التي تدخل عليه الفزع لما فنى من سني العمر، وهذه الأثرة هي التي تدخل عليه السرور بما يستقبل من بقية أيام الحياة، وإن شئت قلت بما يقبل على استهلاكه من بقايا الحياة!

أما أن الأثرة هي التي تدخل عليه الجزع لما يتصرم من أيام العمر، فيدنو به خطى إلى مهواه من القبر، فذلك ما لا يحتاج إلى توجيه ولا إلى تعليل، وأما أن هذه الاثرة نفسها هي التي تدخل عليه السرور بما يُقبل على استهلاكه من بقايا أيام العمر.

فذك بأنه ما يثفنى من حياته يوماً إلا أطمعته أياماً، ولا يَطوي من عمره عاماً إلا بسطت بين يديه أعواماً: فالانسان، على إيمانه بالموت، وجزمه بألا مهرب منه، لا يفتأ يدافع الأجل كلما تقدم خطوة إلى الأجل، وهكذان حتى لو قُدر في الزمان أن يبسط في عمر إنسان الى ألف عام، لوسوس له تأمسل الاثرة بعدُ بالمزيد!

وعلى هذا فمهما يَطْوِ الانسان من سنه، ومهما يفن من عمره، فان ما خلا يكاد يسقطه من مساحة العمر بما يجد له التأميل كل يوم من بسطة الزمان بين يديه! فيعيش كذلك ما يعيش، وأنما يمتح من بحر لجي ما لمائه من نفاد!

وكذلك القول في تطامن الانسان لمستقبل الايام وإستبشاره، في غالب الأحيانن بمقدمها، وقلة احتفاله لما عسى أن يكون قد جُن له من المكاره في ضمائر الغيوب،

فان هذه الأثرة نفسها لتأبى إلا أن تطالعه بألوان التأميل، فلا ينتظر له من واردات الليالي إلا كل مشتهى وكل جميل! بل انها لتدخل عليه أحسن العزاء بما سيلقي من الخير والعافية عما كان قد أصابه من الخيبة فيما سلف من الزمان!

فقد بان لك أن الأثرة في الأنسان هي علة العلل، وهي مصدر ما يُحسب عليه من خطأ في الحساب ومن خطل

* * *

وبعد، فلو قدر أن الله أمكن للمء من طبعه، وهيأ له أن يسوي منه ما شاء على ما يشاء. افتراه يعتمد هذه الخلة فيه، أعني الاثرة، فينتزعها من فطرته انتزاعاً، فلا تعود تخدعه وتختله، ولا تزيغه عن الواقع ولا تضلله؟

لاشك في انه إن فعل سلم تقديره، واستقام له القياس، وأدرك الحقائق على ما هي عليه لا

على ما يشهى أن تكون؛ لأن هذه الأثرة كثيراً ما تلبس المنى بالحقائق الواقعة. وقد تستدرج الانسان إلى المطامع البعيدة بما تهيء له من إجراء القياس، في شأن نفسه، على ما يقع من الأمور النادرة في شئون بعض الناس. وبهذا وبهذا تسيء تقديره، وتفسد حكمه على الاشياء أيما إفساد. وأنت بعدُ خبيرٌ بأن السعادة في هذه الدنيا لا تُرجى بخير من الأصابة، والتهدي إلى جوهلا الحقائق، وسلامة التقدير وصحة التدبير. وتلك الطرق الواضحة، لاشك، لأسعاد الحال، وإدراك المبغى من ميسور الآمال.

ولكن. . . ولكن إذا قدر هذا في الطبيعة، وتهيأ للانسان ففعل، فعلى أية صورة ترى يتمثل له العيش في الدنيا، و [اي شعور يتلقى آثار هذه الحياة؟

إنك مهما تبحث من أصول هذه الأثرة النغروسة في طبيعة الانسان، فانه، ولابد، يألم إذا دخل عليه ما يعدو إلى الالم. وهو، لابد، يلتذ بما يصيب من المتع، إنه ليستريح إلى العافية، وإنه ليفرح بما يصيب من النعم، وإنه ليحزن إذاطرقته داعياتُ الحزن؛ وتلك أدنى مطالب الحس في الحيوان، بَلْهَ الانسان

فلو قدرنا أن الانسان قد استوى في عيشه إلى الحقائق الواقعة، وأجرى حسابه في جميع أسبابه عليها، فهل تراه يعدل ما يصيب في الدنيا من لذة ومتاع، بما يعاني من شدائد وبُرح وأهوال وأوجاع؟. اللهم لا! على انهما لو تكافآ فاضحى خارج الحساب صفراً، لأمسى التشبث بهذه الحياة من غحدى المعابث!

على أنه الأملث، أملُ المعني المبتلي في العافية، وأمل المعافي إن كان في الدنيا معافي، في صعود الجد، وفي إقبال الزمان بما تتطلع النفوس إليه وتهفوله - هو الذي يرجح كفة الربح ويشهى الينا الحياة، ويغرينا بالحرص عليها أيما إغراء!

وما كانت هه المُنى فينا لتقوى وتستمكن، وتستحفل وتستحصد، لولا هذه الأثرة التي تذلل لأوهامنا عصى النمال، وتسوي لنا في صورة الممكن ما تظمته الطبيعةُ في سلك المجال!

هذه الاثرةُ التي تغبينا عن كثير من الأشياء، حتى إنها لتغيبنا عن أدنى ما يحيط بنا من الأسباب، با إنها لتغيبنا عن أحق الحق الذي لانستطيع مدافعته ولو بالأوهام، أعني الموتَ الذي لا مهرب منه لهارب ولو تعلق من السحاب، بعلائق وأسباب!. نعم إنها لتغبينا عنه لأننا ما ذكرناه أبداً إلا رأينا منا بعيداً، وقد نون منه على رمية حجر!

* * *

إذن لقد خرج لنا من كل هذا أن قيام الانسان في الدنيا إنما هو مدين لهذه الأثرة في طبعه، فيها يحرص على الحياة ويتشبث، وبها يرضي عن الحياة ويكلف، وفي سبيلها يحتمل الأوجاع والاسقام، ويسيغ كل من تعتريه به الليالي من أحداث جسام.

فمن فاتته فيها المتع ففي الآمال متع ومناعم، ومن ألح عليه الضيق ففي المني سعة ومغانم. بل إنه ليفرح كلما مضى من عمره عام وأقبل عام، بما توسوس له من المنى وعدله من كواذب الأحلام.

ألا عاشت هذه الاثرة ليعيش في ظلها هذا الانسان. . .

عبد العزيز البشري

بين القاهرة وطوي - 5

طهران الى نيسابور

للدكتور عبد الوهاب عزام

تلقينا يوم قدومنا طهران دعوات كثيرة إلى حفلات رتبتها الحكومة - دعوات باسم رئيس الوزراء ووزراء الداخلية والخارجية والمعارغ، ولجنة الآثار القومية، ونادي (إيران جوان). وكانت دعوة رئيس الوزراء إلى العشاء في قصر كلستان، والعدوات الاخرى إلى الغداء في دار البلدية ونادي إيران. وقد دعت لجنة الآثار إلى شهود التمصيل مرتين في مشرح (مساكن نيكوئي) وإلى شهود لعب الجوكان وألعاب أخرى في ميدان سلطنت آباد

تعشينا الليلة الأولى في القصر الملكي. قصر كلستان، وهو بناء جميل يرى الداخل إليه حديقة فيها أحواض ماء كبيرة، وقد رأينا على حافة الاحواض شموعاً كثيرة. توقدت فيرى للألألها على صفحة الماء رواء جميل

وصعدنا إلى بهو فسيح غشيت جدُره وسقفه بالمرايا وقطع البلور - وهذه زينة شائعة في إيران رأيناها في أمكنة ثيرة - وصفت في جوانب المكان دواليب فيها ذخائر الملوك السالفبن: قطع كبيرة من الاحجار النفسية، وسيوف وخنجر وتروس، وأدوات للزينة، , اباريق وطسوت، كل ذك محلى بالماس والياقوت، والعقيق والفيروز، وفي صدر المكان

عرش محلى بالاحجار الثمينة له مسند على صورة ذنب الطاووس ويسمى عرش الطاروس، وكذلك رأينا كتباً قديمة قمة فيها من عجائب الخط والنقش والتجليد آيات من الصناعات الاسلامية

أمتعنا النفس برؤية هذه الأعلاق، ثم تعشينا، وشهدنا بعد العشاء ألعاباً نارية كثيرة ومن الأبنية الفخمة التي رأيناها في طهران مسجد سباهسلار وهو مسجد كبير فيه مدرسة تسمى الآن مدرسة المعقول والمنقول، ولها مكتبة بها مخطوطات قيمة، ومساجد إيران كلها متشابهة في قيامها على عقود كبيرة وقباب، وفيما يجللها من الكاشاني، والخط الجميل

وزرنا مجلس الشورى الملي (البرلمان) وهو بناء جديد رائع تناولنا الشاي في الطبقة الثانية منه في حجرة غشيت جدرها وسقفها بقطع البلور، يتخللها ضوء النهار أو ضوء الكهرباء ليلاً فاذا حجرة من النور يحار فيها الطرف

وكذلك رأينا مدرسة الصنائع المستظرفة (الفنون الجميلة) وهي مدرسة ناشئة يرجى لها في الاحتفاظ بصنائع إيران مستقبل عظيم

وزرنا مصيف جلالة الشاه قصر سعد آباد. وهو بناء جميل في سفح جبل شمران شمالي طهران، يحلف على منظر رائع من الأشجار الممتدة على السح، وتنحدر إليه المياه متدفقة ن الجبل.

والقصر بناء صغير به بضع حجرات، وقد بنى كله بأحجار ذات ألوان طبيعبة مختلفة جلبت اليه من أرجاء البلاد. ومن حجراته واحدة فيها مكتب جلالة الشاه. وقد لفت الأنظار اليه جمال صنعه، وصورة مدفع صغير فوقه، ومقامه لها سياج من رصاص البنادق. تناولنا الشاي في حديقة نسقت بها الازهار تنسيقاً رائعاً. ثم انصرفنا حين أشفقنا من برد العشى

وشهدنا التمثيل مرتين، مثلت في الليلة الاولى قطع من الشاهنامة. وفي الليلة الثانية قصة سهراب

وشهدنا يوم السبت 14 مهرماه (6 أكتوبر) في ميدان سلطنت آباد على مقربة من المدينة لعب الجوكان (جوكان بازي) وألعاباً رياضية أخرى (نمايشات زورخانه) والجو كان لعب الكرة والصولجان على متون الخيل. وكان لعباً شائعاً في العالم الاسلامي

ولاسيما إيران. ويذكر كثيراً في الشعر الفارسي. واخذت منه في اللغة كنايات كقولهم (كوي برد) أي اخذ الكرة، بمعنى حاز قضب السبق في اللغة العربية

يقول الشيخ سعدي:

وترجمته: افسح ميدان الارادة (فسحت يدان أردت بيار تابزند مرد سخنكوي كوي) ليضرب الرجل المنطيق الرة أي أحسن الاستماع ليستطيع النصيح أن يتكلم. وان بجانبي وقت اللعب ملك الشعراء بهار فقلت: كم قرأت هن (اخذ الكرة) في الشعر الفارسي وما فهمته حقاً إلا الآن

والألعاب الاخرى، وتسمى (نمايشات زورخانه) ضروب مختلفة من اظهر القوة: ضرب

الطبل فجاء جماعة يلبسون سراويلات من الجلد وسائر أجسامهم عار؛ ونزلوا الى حفرة مستديرة قريبة الغور. وجلس على مقربة منهم رجل على منصة يدق الطبل وينشد شعراً من الشاهنامة وغيرها، بدأوا يرقصون على هذه الأنغام، ثم لعبوا ألعاباً مختلفة: يدور واحدهم على نفسه مسرعاً باسطاً يديه أو يحمل حلقة من سلسة ثقيلة يرفع بها يديه واحدة بعد الاخرى أو يستلقي على ظهره ثانياً رجليه ويأخذ بكل يد قطعة من احديد مبسوطة لها مقبض في وسطها فيرفع بها يداً بعد أخرى مائلاً على جنبيه، أو يوم ممسكاً بيديه حديديتين ثقيلتين يحركهما حركات مختلفة، وهكذا. وهي ألعاب قديمة تدل على القوة والمران

أمضينا في طهران خمسة أيام. وطهران مدينة حديثة، كانت قرية صغيرة بجانب مدينة الري الكبيرة. ثم بني لها الشاه طهما سب الصفوي سوراً غظيماً. ثم اتخذها آغا محمد خان القاجاري دار ملك، فشرعت تعظم وتتسع

ويو الثلاثاء 40 جمادي الثانية (9 أكتوبر - 17 مهرماه) برحنا طهران مبكرين متوجهين تلقاء مشهد. وبين المدينتين 897 كيلا قطعناها في ثلاثة أيام؛ وان جلالة الشاه قد سار الى مشهد قبلنا ببيومين

اجتزنا جبال فيروز (فيروزكوه) وهي جبال وعرة مديدة تجهد فيها السيارة صاعدة وهابطة ثلاث ساعات، وبلغنا مدينة سمنان بعد الظهر فنزلنا داراً بظاهر البلد في فناء واسع، جلسنا على حافته فرفعنا عن الوجوه وعث السفر واسترحنا وتغذينا، ثم استفنا المسير فقطعنا الى دامغان 13 كيلاً، واخترقنا البلد ولم نقف به

وسأتكلم عن سمنان ودامغان حين أصف عودتنا من مشهد الى طهران. وقطعنا من دامغان الى شاهر ود 67 كيلا، وبلغنا المدينة بعد الغروب، وقد زين شارعها بساجيد كثيرة، فنزلنا بدار كبيرة خارجها، نزل بعضنا في حجراتها وآخرون في خيام ضربت في الحديقة وفرشت فرشاً حسناً، وقد شعرنا بالبرد الشديد في هذا البلد، وأصابني به برد لازمني حتى عدت الى طهران، فنغص على السفر قليلاُ وأفاتني بعض المشاهد. فلها في سفرنا ذكرى لا تنسى

إذا أنت لم تنفع فضر فانمايرجى الفتى كيما ويضر وينفعا

وشاهرود قرية غربي خراسان على مقربة من حدود ولاية استرآباد، طولها 52 درجة وعرضها 36 وارتفاعها 1110 أمتار.

وهي مكان تجاري على الجادة من طهران الى مسهد، ويذهب منها طريقان الى استر آباد. وفيها مجرى ماء عذب، وبساتينها كثيرة

والى الشمال منها بسطام بلد الصوفي الكبير أبي يزيد البسطامي المتوفي سنة 36، وبها قبره؛ وقد تحولت التجارة عنها الى شاهرود في القرن الماضي فتضاءلت حتى صارت قرية صغيرة. وقد بنى ألجايتو خان من السلاطين الايلخانية مسجد أبي يزيد والمسجد الجامع

حرصت على زيادة أبي يزيد - فقيل لي سنزوره في عودتنا من مشهد، ثم لم يتيسر - لنا هذا حينما رجعنا الى شاهرود قافلين الى طهران لضيق الوقت وتعلل سائق السيارة بوعورة الطريق. وأنا أنقل هنا ما كتبه ياقوت وقد زارها قبل سبعة قرون فتني أن أرى الديار بعينيفلعلى أرى الديار بسمعي

قال ياقوت (وقد رأيت بسطان هذه، هي مدينة كبيرة ذات أسواق، إلا بنيتها مقتصدة ليست من أبنية الاغياء.

وهي في فضاء من الارض، وبالقرب منها جبال عظام مشرفة عليها، ولها نهر كبير جار. ورأيت قبر أبي يزيد البسطامي رحمه الله في وسط البلد في طرف السوق. وهو (أبو يزيد طيفور بن عيسى بن شروسان الزاهد البسطامي

وبسطام ودامغان كانتا من مدن قومس المعروفة في التاريخ الأسلامي

تركنا شاهرود صباحاً ونحن ننشد ما قاله أبو تام حين اجتاز بقومس وهو يؤم عبد الله بن طاهر في نيسابور

يقول في قومس صبحي وقد أخذت
منا السري وخطى المهرية القود
أمطلع الشمي تبغي أن نؤم بنا؟
فقلت كلا ولكن مطلع الجود

ونذكر ما قاله يحيى بن طالب الحنفي:
أقول لأصحابي ونحن بقومس
ونحن على أثباج ساهمة جرد
بعدنا وبيت الله من أرض قرقري
وعن قاع موحوش وزرنا على البعد فصلنا من شاهرود والساعة ثمان إلا ربعاً من صباح الاربعاء ومررنا بعد نصف ساعة بقرية قفر اسمها خير بباد. قال سائق السيارة هذه قرية هاجت بساكنيها العقارب، حتى تعذر عليهم الاقامة بها فهجروها، ونزلنا بعد ساعة وعشر دقائق في منزل على الطريق اسمه (باغ زيدر)، فشربنا الشاي على جدول عليه أشجار جميلة.
وسلكنا طريقاً موحشة ذات تلال ومحان كثيرة.
قال محدثنا كانت طريقاً مخوفة لا يفارقها خطرالتركمان. ورأينا هناك قلاعاً قديمة مشرفة على الطريق. ونزلنا وقت الظهر في قرية اسمها داوكرزن في خان ضربت فيه خيام بيرة فاسترحنا وتغدينا، ثم ركبنا بعد ساعة ونصف نؤم سبزاوار. وهي كاسمها في إقليم مخضر، كثير البساتين فيه مجرى ماء، وكانت مدينة عامرة، قامت فيها في القرن الثامن الهجري (735 - 772) أمارة عرف أمرؤها باسم السربداريين (سربداران) واوهم خوجه عبد الرزاق أحد رجال السلطان أبي سعيد آخر ملوك الدولة الابلخانية، ودامت الامارة خمسا وثلاثين سنة تداول فيها الامر المضطرب اثنا عشر أميراً حتى قضي عليهم تيمورلنك وسبزوار الآن بلدة صغيرة لا يبدو عليها غني ولا جمال. ودخلنا وثد زين شارعها سموط من مصابيح الكهرباء. نزلنا بها وأوينا إلى خان واسع ذي طبقتين، فرشت حجراته فرشاً
حسناً من أجل وفود الفردوسي. وبتنا للتنا مسرورين على ما صحب بعضنا من بردشاهرود
نحن الآن على مائة يل من نيسابور العظيمة. فتنظر في المقال الآتي حديث نيسابور
عبد الوهاب عزام
الذكرى الألفية لابي الطيب احمد المتنبي
للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي
ما أنت يا احمدُ في دولة الأدب ... إلا الزعيم وإلا شاعر العرب
وما تنبأت في دين كما زعموا ... بل في الفصاحة سباقاً وفي الأدب
فكان يوحى اليك الشعر عن شَحَطٍ ... وكان يوحي اليك الشعر عن كثب
ما كنتَ للشعر تستوحي قوافيه ... حتلا تجيء من الاعجاز بالعجب
وكنت في قادة الآداب أولهم ... وكنت أولهم في الجحفل اللجب
وكنت في الشعر مثل الماء منطلقاً ... وكنت في الحرب مثل النار في الحطب
كم حكمة لك سارت في الورى مثلاً ... قد قلتها بسان الشاعر الذرب
كم دولة القريض الناهض انقلبت ... لكن عرشك فيها غير منقلب
وقالة الشعر إن نذكر منازلهم ... فانت في الرأس والباقون في الذنب
صاحت بُغاثٌ ببازي الشعر تنقده ... فلم يبال بها البازي ولم يُجب
* * *
لأنت عند الأسى في الناس أشعرهم ... وانت أشعرهم في سورة الغضب
تصور الشيء في وصف لحادثة ... جتى كأني أرى الموصوف من صقب
بك احتفت بعد ألفٍ قد مضى أممٌ ... في مصر، في الشام، في بغداد، في حلب
إن الذي مات عن شعر هدى أمماً ... لخالدٌ في قلوب الناس والكتب
باللبغي قد قتلوا للشعر منك أبا ... لإصبح الشعر من يتم بغير أب
لهفي كثير لو ان اللهف ينفعني ... على حياتك إذا أفضت إلى العطب
هي الررية لاتُنسى فجيعتها ... على توالٍ من الأعصار والحقب
بالشعر والأدب الأيام طيبةٌ ... فان خلتَ منهما الأيام لم تطب
الدهر جار على الآداب يزهقها ... وما على الدهر إما جار من عتب
القتل رزء وهذا القتل افجعه ... كأنما بك منه الشر حل وبي
وربما عرف الأسلاف مصرعه ... مما على الارض فيه من دم سَرِب
القبر قبر فلا يجدي الدفين به ... وإن بنته أكف القوم من ذهب

مضى يريد حياة كلها دعةٌ ... وما درى أن غول الموت في الطلب
ولستُ أسأل عنه عند غيلته ... أكان مضطرباً أم غير مضطرب
ما في الرزية للمرزوء مُنتعشٌ ... لايرقص الطير مذبوحاً من الطرب
ليست بدار أمان يُطمأن لها ... دنيا مصائبها ينسلن من حدب
قصيدتي هذه ريحانة عبقت ... جنيتها من لباناتي ومن اربي
نظمتها من شعور لي لأهديها ... إلى أبي الطيب النهاض بالأدب
وما الذي قد نظمنا القولَ فيه سوى ... صدى الذ قاله في سالف الحقب
تحية الرسلة في منهل عامها الثالث
للأستاذ محمود الخفيف
أردت بشعري إجلالها ... فما طرب القلب إلا لها
تبدت لنا في عطاف الجلال ... عروساً تُجرزُ أذيالها
تناهت اليها معاني الجمال ... فما أطلع الشرقُ أمثالها
تسير إلى الناس موموقةً ... وقد أكبر الناسُ إقبالها
عليها من الشرق ديباجةٌ ... توشح بالسحر سربالها
وقد عقدت تاجها من سناه ... وصاغت من الحق أحجالها
وفي مقلتيها يشعُ اليقين ... ويشغل ذكر العلي بالها
وما حفلت بصغار الأمور ... وما صحب المينُ أقوالها
ومن ذا رأى قبلها غادةً ... تقابل بالصفح عذالها؟
* * *
تجدد للناس عهد الوفاء ... وقد رافق السعدث آمالها
وتستقبل الفطرَ في عيدها ... فيصبح نور الهدى فالها
أشيع أيامها الحافلات ... وأستعرض اليوم أعمالها
وما عرفتْ قبلُ غير الرشاد ... وقد سجل الدهرُ أفعاله
ألم نر كيف مشت حرةً ... تفك عن الضاد اغلالها؟
وتجري البلاغة رقراقةً ... فترتشف النفس سلسالها
فمن أدب تشتهيه النفوس ... ومن قصص هو أشهى لها
وتزجي القوافي معسولة ... وتسكب في القلب جريالها
تسوق العلوم لأهل النهى ... وتفتح للذهن اقفالها
وترفع ثم صروح الفنون ... وقد كره الناسُ أطلالها
وتحيو إلى مُسْتَكِينَّ الخدور ... تفتق في الشرق أسدالها
وتخرج ميتدعات العصور ... وتعرض للناس أشكالها
وما الشرق إلا معين الفنون ... وإن أخرج الغرب مثالها
وما هو فن ولكنه ... وميض من الروح أوحى لها
تجدد ماضيه العبقري ... وقد هاج ماضيه بلبالها
وتدعو إلى العزفي أمة ... اطال بنو الغرب إذلالها
تذكرُ بغدادَ عهدَ الرشيد ... وتحصى بجلق أقيامها
وتتلو بمصر حديثَ الخلود ... فتوقظ للجد أشباله
تريك الملاحم في هولها ... وقد توج النصرُ أبطالها
كأنك تلمح بين السطور ... دخان الحروب وقسطالها
وتسمع فيها صليل السيوف ... وكرَّ الجياد ونصالها
وقد ضاق بالجمع رحب الفضاء ... وزلزت الارض زلزالها
ترى خالداً في غمار الحتوف ... يخوض إلى النصر أهوالها
وتلقي صلاحاً يذل العداة ... وقد كان في الحرب رئبالها
فيملأ نفس ماضي البلاد ... ويذكر قلبك ما نالها
وكم جدد الذكرث بأس الشعوب ... إذا أقعد الخوف أعزالها
حمدنا لصاحبها جهده - فقد ألهم الشرق إجلالها
فيه رمز الأخاء ... إذا رسم الفكر تمثالها (رسالته)
لقد وحدت فيه شمل الشعوب ... وإن فرق الدهر أنسالها
وتهدي إلى الرشد في أمة ... أراد أولو العلم إضلالها!

فلابرحت تصطفيها لقلوب ... وتستقل العين إجمالها
محمود الخفيف
الراديو
للأستاذ محمود غنيم
شادٍ ترنم لاطير ولابشر ... ياصاحب اللحن أين العود الوتر؟
إني سمعت لساناً قُد من خشب ... فهل تُرَى بعد هذا ينطق الحجر؟
لو قلتُ بالجن قلتُ الجن أنطقه ... أو قلت بالسحر قلت القوم قد سحروا
صوت (بروما) صداه رن في أذني ... كأنما هو من فكي منحدر
كأنما كل أذنٍ أذن (ساريةٍ) ... وكل ناءٍ ينادي نائياً (عُمَر)
هنا الخطيب الذي خانته جرأته ... يقول ما شاء لا جبن ولا خور
فليس يخشى ضجيج القوم إن طربوا ... وليس يخشى عجيج القوم إن سخروا
لهفي على صولة الحاكي ودولته ... لقد غدا في ربيع العمر يحتضر
وآلة جعلت من حجرتي أفقاً ... يرتد منحشراً عن حده البصر
كأنما الكرةُ الأرضية انحصرت ... في جوفها، والوري في جوفها انحصروا
قد حكمتني في الأصوات لوحتها ... فصرت أختار ما تتي وما أذر
وكل رقم عليها شوه طرب ... وفيه كنز من الالحان مستتر
قد كنت أغشى بيوت اللهو منتقلاً ... فصار يسعى إلى اللهو والسمر
لها فم ليس يستعصى على لغة ... على الرطانة ولإفصاح مقتدر
عوراء لاتخرج الاصوات من فمها ... إلا إذا ما بدا من عينها الشرر
صماء لكن تعي ما لاتعي أذن ... بكماء من فمها الاخبار تنتشر
ثرثارة إن أردت القول ثرثرة ... فأن أردت اختصاراً فهو نختصر
في كل يوم نرى لغرب خارقةً ... يكفيه هذا ويكفي المشرق النظر
القوم يبتكرون المعجزات لنا ... ونحن نفتن في إطراءابتكروا
فهل تُرى الشرق قد أدى رسالته ... وهل تُرى أنبياء الغرب قد ظهروا
محمود غنيم
زهرة أقحوان
للأستاذ إغيليا أبي ماضي
كان في صدري سر ... كامن كالأفعوان
أتوقاه وأخشى ... أن يراه من يراني
وإذا لاح أمامي ... عقل الذعر لساني
لم أخفه غير أني ... خفت أبناء الرمان
ولكم فان نطيري ... خاف قبلي بطش فاني
لم يَسَع سري فؤادي ... لم تسع نفسي المعاني
فقصدت الغاب وحدي ... والدجى ملق الجران
ودفنت السر فيه ... ثلما يدفن جان
ورأى الليل قتيلي ... فبكاه وكاني
إن لليل دموعاً ... لاتراها مقلتان
كنت حتى مع ضميري ... أمس في حرب عوان
فانقضى عهد التجافي ... , اتى عهد التداني
خدرت روحي فأمسى - شأن جل الخلق شأني
لا أرى في الخمر معنى ... ولَكَم فيها معاني
فكأني آلة العا ... صر أو إحدى الأواني
لم يعد قلبي كالبر ... ق شديد الخفقان
لم تعد نفسي كالنج ... مة ذات اللمعان
بت لا أبكي لمظلو ... م ولا حُر مهان
لا ولا أحفل بالبا ... كي ولو ذا صولجان
صرت كالصخر سواه ... هادم عندي وبان
يا للآمالي الغوالي ... يا لأحلامي الحسان!
طوت الغابة شري ... فانطوت معه الأماني

ضاع لما ضاع شيء ... من كياني بل كياني
في صباح مستطير ... كمصباح المهرجان
لبست فيه الروابي ... حلة من ارْجوان
وتبدى الغاب من أو ... راقة في طيلسان
ساقني روح خفي ... نحو ذياك المكان
فاذا بالسر أضحى ... زهرة من أقحوان

فصول ملخصة في الفلسفة الالمانية
تطور احركة الفلسفية في ألماني - 4
للأستاذ خليل هنداوي

الذات تخرج من نفسها وتعود الى نفسها، ولكنها تعود أكثر قوة وغنى، وكل معارضة تلقاها في الخارج لا تزيدها إلا قوة ومضاء. وفي كل جزء من أجزائها تحس أن قوة حيوية جديدة تولدت فيها، ونهاية أربها أن تعلن فوز سلان العقل على المادة والطبيعة، أو كما يقول (فيخت) (اتحاد الذات مع غير الذات) وهذا الاتحاد أو هذا الامتزاج المطلق يجعله فيخت مثله لأعلى، ويراه الفيلسوف (هيجل) حقيقة من حقائق الوجود الذات السامية متمثلة في الله، والذات الآلهية هي الكمال الاعلى. والذات الانسانية تمثل - مجازياً - ما يمثله الله - خقيقياً - ولكنها يحدها الزمن وينتظرها الزوال. أما فاعليتها فباقية خالدة لتحقق مثلها الاعلى ولتدنو في الشبه طوراً بعد طور - من الآلة. والآلة لا حق لنا في تمثيله ولا إثبات وجوده بما هو خارج عن كنهه، لأن تمثيله معناه تحديده وإبرازه على صورتنا الزائلة، وجعله وثناً له شأن الاوثان. وإثبات وجوده معناه أن نستعين بيقين مستمد من غيره في سبيل اثباته، مع أنه هو مصدر كل يقين وهو الفاعل المطلق

موقفه من الدين

لم يؤثر شيء من النقد في نفس فيخت كما أثرت فيه تلك الوشاية التي أراد خصومه من ورائها أن يتهموه بالألحاد، وما زال الالحاد سيفاً يشهره العاجزون يهولون به على الأقوياء. قابل (فيخت) هذه التهمة بابتسامة كئيبة، لأنه يعتقد أنه مضمر للدين عاطفة طيبة تشف عنها كتاباته ومقالاته، وإزاء هذه الوشابة أرسل إلى قومه نداء يدفع به عن نفشه هذه التهمو الشنيعة، وهو نداء يطفح حرارة والتهاباً وإيماناً. قال فيه: (إن الرجل المتدين هو الذي يشترك في تمثيل سلطة الله على الأرض، ُائمة نفسه حق القيام بما يجب عليها من قواعد الأخلاق. يستيل علي أن اتخذ لي هدفاُ وغابة هذه الحياة التب يتبرم الناس بهمومها وأفراحها. . . وإنما يجب على أن يكون لي غرض مباين لهذه الأغراض - . . إن الاشياء تقاسمنا بحسب أهوائنا - أمانينا وميولنا، فهي تئن إذا أرغمها على الزهو مرغم وهي ترجو الانعتاق إذا أمسك الحرية عليها مسك، وهذا الأمل المتوقد في ما هو أسمى وأرفع وفي ما هو أبقى وأخلد، وهذه السآمة من الأشياء الزائلة الفانية، كل هذه هي عواطف لاصقة بقلب الانسان! ووراء ذلك صوت لا يمكن لبشر أن يخنقه إذا علا وارتفع في صدر الانسان، يوحي عليه أن هنالك واجباً فرض عليه أن يقوم به لأنه هو الواجب، والانسان الذي لا مفر له إلا إلى نفسه يسمع ذلك الوصت ويردد معه (ليمنعني ما يمنع! فانني لقائم بواجبي حتى لايكون هنالك لائم) وهذا الحل الذي وجده هو الذي يجعله محتملاً لهبة الحياة إذا استلمها، ولا نتزاعها منه إذا فقدها، يقول بنفسه . . أريد أن أنجز أيامي لأن الواجب يدعوني إلى ذلك. . . أريد أن اتمم ما تطلب الحياة مني وما تفرضه علي. . . إن الحياة مقدسة عندي! وما قدسها إلا حب الواجب.)

ويرى فيخت وجوب توحيد الاخلاق والدين لأن غايتهما واحدة ووجهتهما واحدة. فالدين

بغير أخلاق ما هو إلا مظهر خارجي يغذي العقل بالأوهام والأساطير دون أن يرقي به إلى ناحية من نواحي الكمال. والأخلاق بغير الدين تتركنا نجتنب الشقاء خشية عاقبته، دون أن نغرس في نفوسنا حب الخير لنفيه. ألا ليكن دستورك الشريف في حياتك أن تريد ما يجب، وأن تظهر إرادتك من أدران هذا العالم، وتنقذ وجودك منها ليتسنى لك العروج الى عالم هو أسمى من عالمنا الحاضر، , ان تصرف نفسك عن هذه الحياة الى الحياة الهادئة السعيدة

ويقول أيضاً: (إن مزية الرجل المتدين الحقيقي في مذهبي هي أن تكون له رغبة واحدة تحدوه، وفكرة واحدة تسوقه، صلاته هذه الآية: (ليأت ملكوتك) وفي غير ذلك لايتسع صدر لشيء، ولا تسمى قدماه إلا في سبيل واحد يدينه من غايته ولايطيع في كل ما يأتيه من عمل إلا صوت ضميره

على أن روح فيخت الدينية بدأت تبدو كثيراً في كتاباته الاخيرة التي أراد بها توضيح مذهبه. ففي كتابه (الموجز) نرى نزعته الفكرية التي تؤمن بأن الله قد أناب منباه (الذات المطلقة) على الأرض، وأن نهاية هذه (الفاعلية) الانسانية تفنى في وحدة تمزجها مع الالوهية. وفب كتابه (غاية الانسان) يعلن فيخت بأن حقيقة العالم الخارجي بعيدة عن الوضوح والبيان، ولكن في الامكان تعليلها بطريقة من طرق الايمان، أليس هو شعورنا الذي يحفزنا الى معرفة (حقائق الأشياء الخارجة عنا) وهي كائنات لها وظيفتها في الوجود كما لنا وظيفتنا، وأرانا مضطرين الى اسعافها في اكمال وظيفتها وفي كتابه (معرفة الحياة السعيدة) يبحث مسألة الاتحاد مع واجب الوجود، وقد يكون في استطاعتنا القول أن هذا الاتحاد قد يكون اتحاداً صوفياً (يمثل فناء المحب في المحبوب) لو لم ينبهنا فيخت الى أن هذا الاتحاد ليس باتحاد فارغ - كما نتمثله - وإنما هو اتحاد ملائم لجبلة الله. وإنما الرجل المتدين عنده هو الذي يؤمن ويضع رجاءه - لا في الله - لانه يحمل الله في قلبه، ولكن في الانسانية التي يجاهد في سبيل إسعادها وكمالها

قيمته الفلسفية

أجمع النقاد على أن فلسفة فيخت ليس لها ذلك الألتئام والاتحاد اللذان تمتاز بهما فلسفة (انت)، وإنما هي قوة منبعثة يجهل بواعثها فيخت نفسه. قد لا تتفق وجوهها إلا بجملة امتيازات خاصة لو تأملها متأمل عن كثب لرأى ركاكتها ولمس ضعفها، فالذات في نظره هي الفاعل المطلق، ولكن يف يسند إليها هذا الأطلاق وهي ليست بالمطلقة، وكيف تكون مطلقة وحولها ذوات ثيرة مثلها، كل ذات منها مطلقة في نفسها؟

إن قيمة فلسفة فيخت لا تتمثل حقيقة فيما اتسفت وابتدعت - في عوالم النفس - فهي لم تكتشف شيئاً، ولم تكشف عن شيء في المسائل العلمية، ولكن هذه الفلسفة ستبقى مطبوعة بصفة لاتبلي، هي سر كل بقائها وعظمتها

قد يأتي يوم يفقد فيه (كانت) كل مناصر، ولكنه لن يفقد بعض آراء مثمرة جديدة لها خطرها فيما أبدعت، (وفيخت) لن يفقد بعص صفحاته النقية وبعض آرائه السامية. وهب أنه فقدها، فهو لن يفقد ذلك المثل الأعلى الذي هام في طلبه طيلة حياته، وكان أبلغ واسمى ما تجلى به مذهبه أن الأنسان الأخلاقي - في فيخت - يغلب على الأنسان الفيلسوف! والأنسان الأخلاقي - في فيخت - يغلب عليه وسمو عليه النسان وحده . . .

خليل هنداوي (يتلي)

القصص

من الادب الألماني

التأمين (ضد) امرأة جميلة

للقصصي الالماني

قبيل الساعة السادسة جلس في الغرفة الخلفية لحانة (الطاحونة الملكية) ستة رجال على مائدة مستطيلة. وكا منهم يخشى البدء بالكلام برغم تعارفهم - ذلك التعارف الذي لامفر نه لسكان بلدة صغيرة. وكانوا في حياتهم ومعاشهم متشابهين، فكلهم موظفون، لهم مكاتبهم التي يجلسون إليها في مصارف أو مصانع أو محال تجارية. جاءوا جميعاً لأن كلا منهم قد بلغته دعوة للحضور إلى (الطاحونة الملكية) في نفس اليوم من الساعة السادسة لكي يتم تأسيس جميعة عظيمة الخطر والنفع له. وقد

طلب إليهم صاحب الدعوة أن يسروا الخبر، فأخفوه حتى عن نسائهم، إذ ظنوا أنها مسألة قد تكون خاصة بالرجال. . . ون يدري؟ وكان الداعي فطناً إذ خلق لكل منهم آملاً معسولة. غير أن واحداً منهم لم يعرف شيئاً على وجه التحديد. فانتظروا (الهر فريد) صاحب الدعوة. وكان هذا شاباً رشيقاً، جواباً للبلاد يطويها من المشرق إلى المغرب، وله مهم غير معروفة بالذات. وكثيراً ما كان شخصه موضع حديث الناس لغريب شأنه

وما ان دقت الساعة حتى دخل الهر فريد إلى الغرفة، وقال كمن يرأس جماعة:

فابتسموا جميعاً، ولكنهم (. . .سادتي! إنه ليسرني أن أراكم مجتمعين كاملي العدد) أزداودا اليه تطلعاً. وابتسم الهر فريد وتابع قوله:

(!. . .كاملي العدد - يا حضرات المختلسين)

فذعُر الرجال الستة وهرب الدم ن وجه ثلاثة منهم، وصعد الدم إلى رؤوس الثلاثة الآخرين. وحاول كل منهم أن يكظم غيظه، أو يرسله كلمة صاخبة يحملها إلى الهر فريد في شيء من الرفق والتودد. أما هو فأخرج من جيبه ورقة قرأ فيها أسماء الحاضرين، وكان يردف كل اسم بأرقام تتراوح بين الألف والعشرة آلاف.

وما كاد ينتهي من ذلك حتى شملهم سكون أشبه بسكون الموت. وبعد هنيهة تشجع من

اقترت اسمه بأكبر رقم - وكان صيرفياً في (بنك التجارة) وأراد محاسبة الهر فريد على كلامه فقال له:

(من أين عرفت ذلك؟)

فقال: (هذا ما لا أريد ذكره الآن.)

فسأله: (أمن رجال الأمن أنت؟)

فأجاب: (لا.)

فتنفس الرجال الستة الصعداء. ولما سئل ثانية:

(ألاستغلال الموقف؟)

قال (كلا!) قالها فرحاً وزاد عليها: (وهل لديكم أشياء يستغلها الغير؟ لقد اختلستم أكثر من نصف ما في خزائنم، وأريد الآن أم اوجه إليكم سؤالاً بسيطاً: ماذا تفعلون لو جاء مفتش؟)

وانقلب الرجال الستة مرة أخرى الى كتلة من الذعر والمرج، وتعالت الصيحات وكثرت الأسئلة، ومضت دقائق يغمغمون دون أن تتميز كلماتهم

وقال الهر فريد: (إني أعرف جيداً أن ساعتين كفيلتان بدرء الخطر، إذ النجدات تطلب، والتلغرافات إلى الأقارب ترسل، والمحادثات التليفونية مع الأصدقاء تقعز فيتم جمع المبلغ المطلوب، ويوضع في الخزينة لكي يرد الى أصحابه بعد عملية المراجعة والتفتيش التي قد تستغرق بضع ساعات. ولكن ماذا أنتم فاعلون أذا فسل المسعى رة؟

وبدت على الجميع الحيرة. غير أن الهر فريد بسط ذراعيه وقال (إني لا أريد بكم سوءاً، بل لقد جئت لرشادكم. إني أعرض عليكم خطة للنجاة. . . ماذ ترون في تنظيم مساعدة سريعة حينما يداهمكم تفتيش على غير انتظار؟)

انها أسئلة مفجعة. ولكن ما هي الخطة: يا سادتي! يجلس هنا صيافة ستة لمحال) مختلفة. وإذا لم أخطيء التقدير فاثنان منكم في مصرفين، وأربعة لأاربعة مصانع. فهل يمكن أن يجري التفتيش عند الجميع في وقت واحد؟ كلا يا ساتدي، فهذا من الوجهة العملية لايمكن، ولن يمكن وقوعه في الحياة. وإذاً فهذه المفاجأة غير المرغوب فيها لا تهدد إلا خزينة واحدة. ولا يجيء الدور على الخزينة الثانية حتى ينتهي التفتيش من الخزينة الاولى. ويصح أن أكرر القول بأنه حينما تكون إحدى الخزائن واقعة تحت خطر داهم، فلن يصيب

الخزائن الخمس الاخر شيء قط مهام كان العجز الذي فيها. ولهذا يمكن أخذ الأموال من تلك الخزائن لأنقاذ الخزينة المهددة. ثم بعد مرور الخطر، أي بعد بضع ساعات ترد الأموال ثانية. هذا كل شيء. وهو بالنسبة اليكم ولموقفكم كبيضة كولومبوس) من أجل هذا وجب عليكم يا سادتي أن تتعاونوا للتأمين ضد الحالات السيئة الطارئة وتجعلوني رئيساً عليكم، ولابد أن تجعلوا لي على ذلك أجراً شهرياًز ولس هذا بالأمر

(العسير، إذ أن الخزائن التي أنقذتكم في ميسورها أن تتحمل ذلك دون أي مشقة
وفي الليلة نفسها تألفت في حانة الطاحونة الملكية شركة للتأمين من نوع جديد، ثم
أملي الرئيس، الهر فريد، مواد قانون الشركة ومنها: الدفع في اللحظة المطلوبة، رد
المبلغ في طرف أربع وعشرين ساعة، عدم تغطية الخسائر السابقة، يتقي خطر كل
اختلاس جديد. ومن ثم تلاشى الرعب وسرى في النفوس البشر. وكانت أقداح البيرة
تملأ باستمرار من جديد. وان الهر فريد، المقذ، موضع التكريم من الجميع
وتناسوا جميعاً الورقة التي بها الاعداد الصحيحة من النقص في كل خزانة، وكانت على
المائدة. فلما أبصرها أحدهم على حين غرة وجه السؤال مرة أخرى الى الهر فريد
الذي تصادق مع الجميع فقال: (من أين عرفت ذلك؟)
فأجابك (الآن سأقص عليكم المسألة: طبعاً تعرفون السيدة ماري لو؟)
فاندفعوا جميع في صوت واحد ليقولوا كلمة (لا!)
فاستأنف قوله: إذاً سأذكر لكم شيئاً عنها. ان السيدة (ماري لو) جذابة، قصيرة القامة،
شقراء اللون، تسكن وحدها منزلاً خلوياً في ظاهر بلدتنا. أما كيف صار لها هذا المنزل،
وكيف حصلت عليه، ولا زالت تحصل على مطالبها - وحياتها هي الترف بمعناه الكامل -
فهذا ما لا يعرفه أحد في بلدتنا، أليس كذلك؟ غير أني أعرف السر، إذ هو متعلق بعمل
أمارسه في بعض الأحليين. إن للسيدة (ماري لو) دفتر حساب يحصر فيه جميع داخلها
ومصروفها، وكانت قد دعتني مرة لتنظيم هذه الدفاتر. ومن ذلك اليوم وأنا أعالج
تنظيمها بطريقتي الخاصة. وإذاً فأنا لست رئيس هيئتكم فقط، ولكني أيضاً مراجع
حسابات السيدة (ماري لو) وها أنتم اولاً ترون إنني أمارس مهناً غريبة، ولكنها في
الواقع متصل بعضها ببعض، ففي أحد دفاتر الدخل وجدت أسماءكم جميعاً يا سادتي،
ووجدت بجانب كل أسم
رقماً من الارقام. إنني أعرف انكم متزوجون. ومعنى ذلك أن مرتباتكم الكاملة تقدم
اولاً بأول إلى زوجاتكم. . . والأرقام التي وجدتها في دفتر دخل السيدة (ماري لو)
نقلتها هنا بكل أمانة. . ولابد أن تكون هذه الارقام هي اختلاساتكم الجليلة اشأن،
المحسوبة حتى أخر فلس
ولم يغضب هؤلاء السادة لسماع ذلك، إذ أن هذا الشاب الظريف كان قد دفعهم الى
التمتع برؤية مستقبل باهر. ثم لم يغب عنه أنه يختم الليلة بالتحدث عن مكارم الأخلاق
إذ قال:
إنه لا يليق بمقامكم أيها السادة أن تجر عليكم الخسارة امرأة مثل السيدة ماري لو. .)
إنني أكتفي بهز رأسي. انظروا الي، إنني لم أجد اسمي في دفتر دخل السيدة ماري
(لو، برغم أني أعمل معها ليل نهار في مراجعة حساباتها وشؤن أخرى
وراج التأمين ضد الحالات غير المرغوب فيها بسرعة فائقة، وأصبح عدد الاعضاء ثلاثين
عضواً، إذ وجد الهر فريد أسماء الاربعة والعشرين الجدد مدرجة واحداً بعد واحد في
دفتر ماري لو. . . وسرعان ما كانت له سيارة جديدة يجوب بها البلاد والمدن
المجاورة، لينشئ فيها فرعاً لشركته التعاونية هذه، أو ليقوم بما يشبه ذلك من
الأعمال. وكان كل مطمعه الا يظهر أي اختلاس في الوطن الذي يحميه
ومن الأموال المقيدة بارقام ميتة في دفتر لخزينة ان الصيارفة يرتعون في بحبوحة من
العيش. وكان المفتشون والمراقبون يجدون كل شيء على أمله. وكانت الاحصاءات
تدل على ان درجات الشرف ترتفع باستمرار في البلاد
ولا أن اجتمعت الجمعية العمومية في (حانة الطاحونة الملكية)، وفقاً لتقاليدها
القديمة، كان التقرير السنوي حسناً، فوافق عليه الثمانمائة عضو بالاجماع. وأذاع الهر
فريد في خطابه السنوي قرب تحيقي ما يأمله من تبليغ أعمال الشركة الى عاصمة
الدولة حتى يقضي على الاضطرابات المالية وفق طريقته المبتكرة، ثم جلس بين
عاصفة من التصفيق والابتسام، وفي هذه اللحظة اندفع باب غرفة الاجتماع، وتقدم
اثنان من مديري البنوك، وثلاثة من مديري المصانع، يعلو وجوههم الحزن. وكان يحمل
كل منهم خطابات ورسائل مطبوعة تشيد بمكانة شركة التأمين وقدرتها. وظن
المجتمعون أن عهد الاختلاسات قد مضى فاختل التوازن بينهم. ولكن الهر فريد بقي
جالساً لاتفارقه ابتسامته

وسأله المتكلم من بين المديرين الخمسة:
(هل هذه المطبوعات خاصة بكم؟)
فرد عليه الهر فريد بالايجاب
ثم استمر في السؤال: (هل كل هذه البيانات المذكورة صحيحة؟)
فرد عليهم الهر فريد بالايجاب مرة ثانية
وأخيراً لب خمستهم قبولهم أعضاء في هذه الشركة العملية، ولما انتهى الاجتماع السنوي سأل احدهم الهر فريد:
(لماذا ل م تحرك ساكناً في أول الأمر، ودق داهمنا هؤلاء المديرون؟)
فأجاب: (رأيت من قبل أسماؤهم الخمسة في دفتر حسابات دخل السيدة ماري لو.)
ثم أعقي ذل بقوله (إنني لا أتمالك غير هز الرأس، أي، لقد تدنس عظماء الرجال)
وما لبث أن طلب المديرون الجدد التوسع في أعمال الشركة وإصلاح نظمها. فالتأمين ضن الحالات غير المرغوب فيها - بعد أن اتسعت أعمال الشركة وتشعبت - تطلب تنظيماً جديداً وفرض اشتراك (يرد ثانية إلى الاعضاء) لكيكون بمثابة احتياطي مضمون.
ودفع كل عضو مبلغاً من ماله الخاص. ولما أن تجمعت هذه المبالغ العظيمة اودعت عند الرئيس المبجل الهر فريد، كرصيد سريع لدرء الخطر
* * *
وفي صباح يوم اتصل الهر فريد تليفونياً بالاعضاء السبعين (وهكذا أمسى عددهم)
وكلفهم بسرعة جمع مبلغ جسيم. وبالطبع سأله الجميع عن أسم المختلس الذي وقعت له حالة غير مرغوب فيها
فكان يجيب: (هس شركة التأمين ضد الحلات غير المرغوب فيها.)
وكان كل واحد منهم يعتقد أنه سمع خطأ أو فهم خطأ.
ولكن الرئيس سؤكد له:
إنك تسمع ما أقول صحيحاً. إن المديرين ضربوا اليوم موعداً للمراجعة والتفتيش،)
(وللأسف اختلست انا الرصيد الذي كان عندي منذ أيام.
فكان جواب كل منهم: (ماذا تقول؟ إنه يجب عليك أن تتحمل الخسارة وحدك وتسد النقص
(حالاً
وكانت إجابة الهر فريد الثابتة: (إنني لا أفكر مطلقاً في ذل. إنني عضو في الشركة
(سائر السادة المختلسين)
ثم يسأل كل منهم: (وكم يكون العجز؟)
فيجيب: (هو الاحتياطي بأجمعه وإني آسف إذ ليس في وسعي
(.إعطاء الارقام الصحيحة
وكانت صرخة الغضب تدوي من كل منهم حين يقول:
(لماذا؟ أليس امبلغ مقيداً في دفتر حسابات دخل السيدة لو؟)
فيقول الهر فريد متحسراً: (لا. إن صديقتي الجديدة ترهب مسك الدفاتر وتمقته. نعم
(إن السُّمْر من النساء لا يرين للمال حرمة.)
عربها عن الألمانية ا. ا. ي.
من روائع الشرق والغرب
المشهد العام للكون
لشانو بريان من كتابه (عبقرية المسيحية)
إن في الكون إآلهاً تقدسه أعشاب الوادي، وتمجده أدواح الجبل، وتسبح بحمده الحشرة، ويحييه في الصباح الفيل، ويغرد به على الغصون الير، وتُبرق بقوته الصاعقة، ويدل على سعته البحر، والانسان وحده يزعم أن ليس في الكون إآله! كأنه لم يرفع بصره إلى السماء فيْ بلائه، أو لم يخفض نظره إلى الأرض في رخئه! وكأن الطبيعة بعيدة عن تناوله، خارجه عن تأمله!
لعله يعتقد أنها أثر من فعل النصادفة! ولكن أية مصادفة استطاعت أن ترغن نافرة عصية على هذا النظام الكامل المحكم!؟
إن في إمكانك أن تقول إن الإنسان فكرة الله المُعْلَنة، وأن العالم مخيلته المُحَسة. وأن الذين قبلوا أن يكون جمال الكون دليلاً على قوة الادراك وسمو البصيرة كان يجب

عليهم أن يلاحظوا شيئاً تعظم له كرة العجائب وتزيد به دبائع الخلق: ذلك أن ما ينوع زخرف الدنيا وجمال الوجود من الحركة والسكون، والظلام والنور، وتوالي الفصول، وسبوح الكواكب، ليس تعاقبه إلا في الظاهر؛ أما في الواقع فكل شيء ثابت؛ فالمشهد الذي يمحي من عيوننا، يشرق في نظر قوم غير قومنا. إنما يتغير الناظر؛ أما المنظر فهو باق على حاله. وهكذا يجمع الله في صنعه بين الدوام المطلق والدوام المتجدد، فَوَضع الأول في الزمان والثاني في المكان، وجعل بالدوام المكاني جمال الكون واحداً ثابتاً غير محدود، وجعله بالدوام الزماني متكاثراً متجدداً غير متناهي، وبدون هذا لايكون تنوع الطبيعة، وبغير ذلك لا تتم عظمة الخليقة

هنا يتراءى لنا الزمن في علاقة جديدة، لإدنى جزء من أجرازئه يصير كُلاً تاماً يشمل الكل. وإنْ من شيء إلا يتغير حاله فيه ويختلف نظامه به، سواء في ذلك موت الحشرة، ومولد العالم: فكل دقيقة خي في ذاتها خلود مصغر

دع فكرك يجمع في لحظة واحدة أروع حوادث الطبيعة، فقدر أنك ترى في وقت واحد جميع الساعات، وجميع الفصول، وصبحاً من أصباح الربيع، وبكرة من بُكر الخريف، وليلاً مرصعاً بالنجوم، وليلاً آخر ملبداً بالغيوم، ومروجاً مطرزة بالزهر، وغابات محملة بالصقيع، وحقولاً مذهبة بالحصيد، تجتمع في ذهنك فكرة صادقة عن الكون

إن في الساعة التي تعجب فيها بالشمس وهي تغيب في جنية المغرب، إنساناً آخر يعجب بها وهي تلوح من حاشية المشرق فبأي سحر خفي تكون هذه الشمس العجوز التي ترقد مكدودة محترقة في غبار المساء، وهي في هذه اللحظة نفسها تلك الشمس الشابة التي تستيقظ من خدر الصباح مبللة بالأندار؟!

في كل لحظة من لحظات النهار تشرق الشمس، وتسطع في السمت؛ وتغرب عن هذا العالم، أو قل توهمنا مشاعرنا بذلك؛ والواقع أن ليس هناك شرق ولا ظهر ولا غرب! انما يرتد كل ذلك إلى نقطة محدودة ترسل فيها شعلة النهار في جوهر واح، ثلاثة أضواء في وقت معاً

من بدائع طاغور

من كتابه (القربان الغنائي) (جيتَنْجالي)

يا حياة حياتي: أنا اجتهد دائماً أن أحفظ جسمي من الدنس، لأني أعلم إن لَمْستَك الحي وَسْمٌ على كل عضو من أعضائي

أنا أجتهد دائماً أن أحفظ فكري من الخطأ، لأني أعلم أنك أنت الحقيقة التي تبعث نور العقل في ذهني

أنا أجتهد دائماً أن أذود عن قلبي الخبث، وأدفع عن حبي الذبول، لأني أعلم أن مسكنك هو الهيكل السري من قلبي

وسيكون قصاراى أن أجتليك في كل عمل، لأني أعلم أن قدرتك هي التي تندني بالقوة لأعمل

- 26 -

أقبل فجلس الى جانبي ولم أستيقظ! فعلى نومي الشقى اللعنة!

جاء في سجُو الليل وفي يده قيثارته، ثم غني فاهتزت أحلامي لانغامه!

وا أسفاه! لماذا تذهب ليالي ضياعاً؟! والهفتاه! لماذا يفر من مشهدي، ذلك الذي تمس أنفاسه مرقدي؟

- 35 -

هناك حيث الفكر أمن والرأس مرفوع؛

هناك حيث المعرفة حرة؛

هناك حيث العالم لم يُجَزأ أجزاء ضيقة مشتركة؛

هناك حيث الكلمات تصدر من أعماق الاخلاص والصدق،

هناك حيث الجهد اللاغب يبسط الاذرع نحو الكمال؛

هناك حيث البرق الساري للعقل لا يضل ضلال الموت في بيداء التقاليد والعرف،

هناك حيث الذهن يتقدم على نور قيادتك في تحرير الفر والعمل:

هناك في هذا الفردوس، فردوس الحرية، تَطَول علي يا أبي أن يكون موطني هناك!

طاغور

إني شكرت لظالمي ظلمي ... وغفرت ذاك له على علمي
ورأيته أسدي إلى يداً ... لما أبان بجهله حلمي
رجعت إساءته إلى ... وإحساني فعاد مضاعف الجُرم
وكأنما الأحسان كان له ... وأنا المسيء إليه في الحكم
ما زال يظلمني وأرحمه ... حتى بكيت له من الظلم
ابو العتاهية
لقد جاءنا هذا الشتاء وتحته ... فقير مُعري أو أمير مُدوج
وقد يُرزق المجدود أقوات أمة ... ويحرم قوتاً واحداً وهو أحوج

_____
أحسن جواراً للفتاةوعُدها ... أخت السماك على دنو الدار
كتجاور العينين لن تتلاقيا ... وحجار بينهما قصير جدار

____
ياقوت! ما أنت ياقوتٌ ولا ذهب ... فكيف تُعجز اقواماً مساكينا؟
وأحسب الناس لو أعطوا زكاتهم ... لما رأيت بني الأعدام شاكينا
أبو العلاء

__
كأن بلاد الله وهي عريضة ... على الخئف المطلوب كِفة حابل
يؤدي اليه أن كل ثنيةٍ ... تيممها تُوحي اليه بقاتل
القتال الكلابي

_____
لقد خفت حتى خلت أن ليس ناظر ... الى أحد غيري فكدت أطير
وليس فم إلا بسري محدي ... وليس يد إلا إلي تُشير
عبيد بن أيوب

_____
مثل الحقد في القلب إذا لم يجد محركاً مثل الجمر المكنون إذا لم يجد حطباً، فليس ينفك الحقد متطلعاً إلى العلل كما تبتغي النار الحطب، فاذا وجد علة استعر فلا يطفئه حسن كلام ولا لين ولا رفق ولاخضوع ولا تضرع ولا مصانعة ولا شيء دون تلف الأنفس وذهاب الأرواح
* * *
لين ما تصرف به الأذى والعذاب عن نفسك ألا تكون حسوداً، فان الحسد خلق لئيم، ون لؤمه أن يوكل بالادننى فالادني من الأقارب والاكفاء الخطاء. فليكن ما تقابل به الحسد أن تعلم أن خير ما تكون حين تكون مع من هو خير من، وان عُنما لك أن يكون عشيلاك وخليطك أفضل منك في العلم فتقتبس من عمه، وافضل منك في القوة فيدفع عنك بقوته، وأفضل منك في المال فتفيد من ماله، وأفضل منك في الجاه فتصيب حاجت بجاهه، وأفضل منك في الدين فتزادا صلاحاً بصلاحه
* * *
أبل لصديقك دمك ومالك، ولمعرفتك رفدك ومحضرك، واعامة بشرك وتحننك، ولعدوك
عدلك، واضنن بعرضك ودينك على كل أحد
ابن المقفع
من هنا وهناك
هل لامرتين عربي؟
جاء في كتاب (لامرتين) تأليف الأستاذ ج. كلويه، وش. فيدال ما نصه
كان لامرتين يقول من ذات نفس إنه نحدر من أصل عربي وإن استقرار آل مرتين) في مقاطعة (ماكونيه) يرجع تاريخه إلى الغزوة. وهذا التأكيد لانجد له أساساً مادمنا لانستطيع الرجوع بأصل آبائه إلى ما قبل القرن السادس عشر
ففي سنة 1572 ذُكر واحد من أسرة لامرتين في مذكرات كورديه بين النبلاء والوجهاء الذين أرغموا على أداء مبلغ جسيم من المال الى (كولدجيز) أسقف (ليمي) . .
ويقول م. بيير دلاكرتول إن جد لامرتين، وهو لويس فرنسيس دلامرتي زور في سجل

(الأحوال الشخصية فحول أسم آلمرتين الى دلامرتين
ويقول بيير دلا كروتل في كتابه (أصل لامرتين وشبابه)
وأصل الاسم هو أَلامرتين أو أللامرتين كما كان يكتبه، ولا يزال يُسمع الى هذا . . .)
اليوم في برغونيا وفي منطقة اللوار الاعلى. أما موطن الأسرة الأول فهو أقليم
كارولیه حيث يجد الباحث في أخريات القرن الخامس عشر أسماء ألابرت وآلابرناد
وآلابلانش وقد تحولت فيما بعد، الى دي، لا، برت وديلابرت ودي بلانش
أما الأصل العربي الذي ان يعترف به لامرتين في زهو وفخر فربما كان عذراً جميلاً عن
استسلامه للكسل الرفيع، وحبه الشديد لأنواع الحيوان، وتأثير جاذبية الشرق فيه
وسلطانها عليه.
(ولاتزال هذه النسبة من المسائل التي يغيم على حقيقتها الشك
فأنت ترى أن لامرتين يعترف في صراحة وثقة بجنسيته العربية، ولكن الكتاب
الفرنسيين بالطبع لا يصدقون هذا الاعتراف، ولا يؤيدون هذه النسبة، وإنما ينتحلون لها
شتى الأسباب ومختلف العلل. فهل فينا من يصمد لهذا البحث في مظانهفيضيف الى
عبقريات العرب هذه لعبقرية الخالدة، ويُرجع إلى أرواح الشرق هذه الروح الشاردة؟
أحد تعاريف الشعر
ذكر بعض المؤرخين أن جيوزني كارديوسي سئل مرة عن خير تعريف للشعر، فقال إن
خير التعاريف تعريف الأب اكسافييه بيتينللي خصم دانتي الألد وهو قوله:
وكتب أدريانو تلغر في مؤلفه دراسة الشعر شرحاً ،(الشعر حلم يتهيأ في يقظة العقل)
دقيقاً لهذا التعريف قال: (لو تأملت قليلاً، وجدت أن التعريف الذي يتصل بعلم الجمال
الحديث اتصالاً مباشراً إنما يتمثل فيما قاله ذلك اليسوعي عدو دانتي (يقصد به الأب
اكسافييه)، وهو أن الفن حل. فهو نشاط روحي يتميز بطبيعة العقل وبالتفكير
والمنطق، ولكنه حلم في يقظة العقل؛ فالفنان يحلم، ولكنه يدرك ما يتراءى له، أي
يحلم وعيناه مفتوحتان، وهو يحلم ولكن نتيجة ذلك الخلم تخالف ما نحلم به ونحن
رقود. فحلم الفنان إغفاءة في يقظة الضمير ورقابة العقل، فلا هو حلم كما نفهم من
كلمة حلم، ولا هو نتيجة خالصة للعقل، ولكنه شيء لا هو بالحلم ولا هو بالأدراك. وإذا
كان الفن حلماً يتهيأ في حالة اليقظة فمعنى ذلك أن الفن نتيجة روحية سابقة لانتباه
العقل، منطقية سابقة للمنطق؛ وهو إدراك خالص للتصور وللضمير في وقت واحد. أي
إن هؤلاء الذين هم في حضرة عقولهم وصحو ضمائرهم وكمال يقظتهم الفنية لم
يخرجوا عن الصواب
من بشر بن عوانة؟
هل عثر أديب من الأدباء على اسم هذا الشاعر في غير المقامة البشرية لبديع الزمان
الهمذاني، وكتاب تاريخ أدب اللغة العربية للمرحوم جورجي زيدان، وكتب المحفوظات
لوزارة المعارف المصرية؟ أما نا فلم يقع لي هذا الاسم في سفر من أسفار التاريخ
ولا في كتاب من كتب الأدب على كثرة ما قرأت، فرجع عندي أن بشر بن عوانه
الأسدي شخصية خرافية من شخصيات المقامات، خلقها البديع، وأجرى على لسانها
تلك القصيدة المشهورة وفي وصف قتال الاسد
وقد راعى البديع في نظمها الصيغة المحلية للعصر الجاهلي الذي فرض وقوع حادثها
فيه، فجاءت في لغتها وأسلوبها وصورها أشبه بما قيل من نوعها في ذلك العصر،
فدخلت في مختار لشعر، وسارت على ألسنة الشعراء، حتى خدعت رجال الأدب في
وزارة المعارف، فحفظوها للطلاب على انها قصيدة جاهلية لشاعر جاهلي اسم بشر
بن عوانه كان من امره وخبره ما أخبر عنه البديع في مقامته. وجاء المرحوم جوؤجن
زيدان، فوجد القصيدة تدرس في المدارس، وصاحبها يذكر في الشعراء، فاقبته في
الجاهليين، وترجم له قصيدة لم يرجع
فيها الى غير تلك المقامة. وهذا مثل قريب تعرف منه كيف كانت الأساطير تدخل في
التاريخ، والشخصيات الخرافية تدخل في الأدب، والقصائد المحولة تدخل في الشعر
طبقات الجو العليا:
نشرت جريدة (نوقيل ليترير) مقالاً علمياً قيماً لروجيه سيمونيت نقتطف منه
الجزءالاتي:
من المعروف أنه كلما صعدنا في طبقات الجو العليا ازدادت الطبقة الهوائية انبحاجاً)

وازداد انتشار الهواء وقلت كثافته، ونقص تركيبه، وازداد صفاؤه حتى يصير رائقاً لا تشوبه ذرات الغبار التي تكون اعمدة طويلة من التراب قرب سطح الأرض، والهواء في تلك الطبقات غير صالح للحياة لانعدام الاكسيجين. وقد حاول علماء الطبيعة اليوم الوصول إلى تلك الطبقات واكتشافها لما لها من الفوائد العلمية العظيمة، فقاموا بكثير من المحاولات والتجارب نجح بعضها وأخفق الآخر، إذ أرسلوا منايدهم الكشافة، وبهذه الطريقة توصلوا الى معرفة بعض حقائق علمية ذات قيمة كبيرة. من ذلك أن الحرارة تنخفض درجة مئويو كلما ارتفعنا مائة وخمسين متراً فوق المستوى الأول لهذه الطبقات المجهولة التي أسموها وهذا الارتفاع يتغير إلى مائة متر في الهواء الجاف وإلى مائتي متر في الهواء الرطب. ولاحظوا أيضاً أن أقل درجة حرارة جوية تبلغ 85 فوق المنطقة الاستوائية على ارتفاع عشرة آلاف إلى خمسة عشر ألف متر، وأن ضغط الهواء ينقص بسرعة هائلة فيصير نصف الهواء على سطح البحر على ارتفاع ستة آلاف متر، وينقص إلى الربع على ارتفاع أحد عشر ألف متر، وإلى عشر هذا القياس على ارتفاع ستة عشر ألف متر

واكتشاف هذه الطبقات ذو فائدة كبيرة، إذ يصبح في مقدورنا أن نعرف موضع الازون وهو الذي يمتص أشعة الشمس فوق البنفسجية التي تهيء لنا الحياة على سطح الارض.

ومن بين المعضلات التي يحاولون حلها ايضاً اكتشاف الاشعة الكوكبية ومن ثم مسألة أخرى تهم جماعة اللاسلكيين وهي دراسة الاحوال الكهربائية والحرارية لتلك المناطق الصامتة كما يسمونها، إذ أن اكتشافها سيفتح أمام العالم عصراً جديداً بل عالماً جديداً بأكمله، وقد نوه تسير تييك د بورن مؤسس مرصد (تراب) بذلك فقال: (إن مشكلات الارض تجد حلها في السماء)

ويلاحظ أن الطائرة التي تحاول أن تحلق فوق هذه الطقات تلقى حتفها لساعتها، إذ يقف محركها لعدم وجود الاكسيجين كما أن الطبقات لا يمكن تحاملها لتمدد الهواء تمدداً عضيماً، وقلة كثافته نتيجة لذلك

ويحاول كثير من العلماء اليوم تذليل تلك الصعوبات باختراع الطائرات التي يمكنها أن تصعد فوق هذه الطبقات، ولقد بدأ كثير ممنهم بالقيام بهذه المحاولات، ونذكر منهم ألبرت كاكوت ومسعده فرنان وأوجست راتو وليسيون موميه ولئن افضت أكثر هذه المحاولات الى الفشل فان النتائج تدعو الى التفاءل بالمستقبل. واذا جاء الوقت الذي يمكن فيه اختراع أمثال هذه الطائرات التي تحلق فوق هذه الاجواء امكننا الطواف حول العالم أقل من اربعين ساعة، واصبح في المستطاع أن نصل من باريس الى نيويورك في اقل من يومين، لان سرعة هذه الطائرات ستبلغ ألف كيلو متر في الساعة لقلة العوائق في الاجواء العيا، هذا الى المنافع الاخرى التي تختفي تحت ستار هذه الطبقات المجهولة

البريد الادبي

هل تتدخل الدولة لحماية الآداب القومية؟

هل تمتد سياسة الحماية الى الآداب والفنون؟ أو بعبارة اخرى هل أضحى من الضروري أن تعامل الثمرات العقلية والفنية كما تعامل الصناعات والمحاصيل القومية، فتفرض لها قوانين خاصى لحمايتها من المنافسات الاجنبية؟ هذا موضوع يتناوله الجدل اليوم في فرنسا. والمعروف أن الادل الفرنسي في مقدمة الآداب العالمية قوة وازدهاؤاً؛ ولكن الدوائر الادبية والفنية في فرنسا أخذت تنظر بعين الجزع الى اشتداد المنافسة الاجنبية للأدب الفرنسي، والى طغيان سيل الثقافة والآداب الاجنبية في فرنسا، وقد نشرت جريدة (الجورنال) الباريزية مقالاً في هذا الموضوع بقلم الكاتب الفرنسي جاستون رجو رئيس جمعية الكتاب الفرنسيين، يتساءل فيه عما إذا كان من الواجب أن تتقدم الحكومة لحماية الثمرات العقلية كما دعيت الى حماية القمح والنبيذ، ذلك أنك لاتكاد تفتح صحيفة يومة أو مجلة اسبوعية أو تشاهد واجهة مكتبة، أو إعلان مسرح، حتى ترى هنا قطعة ألمانية، وهناك قطعة انكليزية، أو اوبرا نمسوية، وهكذا في سائر نواحي الأدب والفن يتبوأ العنصر الأجنبي مكانته، وإذا كان التعاون العقلي هو شعار جميع الامم المتمدنة، فان ظروف العصر، ومصاعب الحياة الاقتصادية تجعل من

المحتوم أن تأخذ الثمرات العقلية مكانتها اولاً , ان يعيش الكتاب المحليون
ويضرب مسيو راجو لذلك مثلاُ عملياً فيقول: إن القصة الفرنسية القصيرة التي يؤلفها كاتب فرنسي متوسط يدفع فيها إذا نشرت في مجلة أسبوعية كبيرة بين ألفين وثلاثة آلاف فرنك؛ ولكن القصة الأجنبية القصيرة المماثلة لها في النوع والقيمة يدفع فيها ألف فرنك فقط. ويبدو هذا الفرق بالاخص في الروايات والقطع الكبيرة؛ فان القطع المترجمة لاتساوي من حيث الاجر اكثر من ربع القطع الفرنسية، وقد اشتدت هذه المنافسة حتى أن قيم القطع المؤلفة قد انحط انحطاطاً كبيراً
وقد أثارت جمعية الكتاب هذا الموضوع الخطير وانتدبت لجنة لبحثه
ثم يقول مسيو راجو: اذا كانت الامور قد وصلت الى ها الحد، أفلا تدعو مصلحة الكتاب الحيوية الى التماس الحماية؟
وهل يكون تحقيق هذه الحماية بأصعب من حماية المزارعين؟ إن الادب الفرنسي من أكثر آداب العالم انتشاراً، وأشدها عرضة للترجمةوالاقتباس، وفرنسا في ذلك تتفوق في نسبة الصادر الى الوارد تفوقاً كبيراً. وفكرة الحماية تقتضي المساواة والتبادل، فاذا طبقت هذه الحماية فان انتشار الكتب والصحف والقطع الفرنسية يحد تحديداً شديداً. هذا من الناحية المادية ومن الناحية المعنوية يخشى من فكرة الحماية على نفوذ فرنسا الثقافي والأدبي؛ ذلك أن انكلترا وايطاليا تشجع كل منهما فكرة الترجمى والاقتباس من آدابهما الى اعظم حد توسلاً الى نشر النفوذ المعنوي حيثنا تنتشر الثقافة الانكليزية او الايطالية؛ والحد من هذاالانتشار يصيب مصالح فرنسا المعنوية بضرر عظيم
وعلى هذا فان فوائد هذه الحماية ومضارها تتعادلان إذا صدرت من الحكومة. ولكن الحل الامثل هو أن تكون هذه الحماية اختيارية، وأن تصدر من الفرنسي إلى الفرنسي سواء في الانتاج والاستهلاك؛ فاذا كان شعار الفرنسيين (اقرأوا المؤلفات الفرنسيةّ! واطبعوا المؤلفات الفرنسية!) تحققن هذه الحماية على الوجه الاكمل دون أ، يتعرض التفكير الفرنسي للخصومة او الانكماش
نقول: فما قول كتابنا المصريين في ذلك؟
مذكرات الامبراكورة ماري لويز
ذكرنا في عدد سابق أن مجموعة ثمينة من خطابات نابليون إلى زوجة الامبراطورة ماري لويز عرضت للبيع في لندن، واشترتها الحكومة الفرنسية بمبلغ خمسة عشر ألف جنيه؛ وقد بيعت في نفس الوقت مذكرات الامبرطورة ماري لويز مكتوبة بخطها، فاشترها أحد الهواة بمبلغ 490 جنيهاً، وهذه المذرات عبارة عن جريدة تبدأ مذ غادرت فينا في رحلة الغرس حتى استفرارها في باريس. فيها أخبار وحقائق غريبة عن علائق الامبراطور بزوجة الفتية؛ وتقول ماري لويز في اكثر من موضع إنها كانت تؤنب زوجها، وتدفعه أحياناً كما تدغع جندياً بسيطاً. وفي مكان آخر تصف رحلتها إلى البارجة الحربية (شارلمان) في ثغر شربور، وتقول إنها اضطرت أثناء طوفها بالسفينة غير مرة أن تشمر عن ساقيها وأنها سوف ترتدي في المستقبل (سروالاً) إذا ما أرادت أن تزور السفن الحربية
وبيع في نفس هذه الجلسة قرطان انت تتحلة بهما الامبراطورة جوزفين زوجة نابليون الاولى، أثناء حفلة تتويجها بمبلغ ألف وخمسمائة جنيه، وبيعت مجموعة من خابات نابليون إى الماريشال مكدونالد بمبلغ 190 جنيهاً
علم رياضي جديد
خطب الأستاذ أميل بوريل رئيس أاديمية العلوم الفرنسية والأستاذ بلية العلوم في الأكاديمية منوهاً بأهمية علم أو فرع رياضي جديد أدخل في برنامج الجامعات من شأنه أن يسهل البحث والدراية في بعض العلوم، وبالأخص في الاحصاء والاقتصاد السياسي والمسائل النقدية، والعلوم البيولوجية والطبيعية والفلكية، وهذا الفرع هو علم (تقدير الاحتمالات) وهو فرع له خطورته في الفكرة العلمية كلها. وسوف يجدد مسائل العلم والفلسفة الخالدة التي وضعها الفلاسفة اليونان، وبحثها علماء العصور والأجيال كلهاز وقد كان له شأن في تغيير فكرة (الجبر) الطبيعي
في تشيوسلوفايا
توفيت أخيراً في براج فنانة تشيكوسلافية عظيمة هي الآنسة زدنكا براوبرفا، وقد كانت

من زعيمات التفكير والفن، ومن أرفع سيدات براج ثقافة وذكاء وسحراً، وهي ابنة سياي كبير كان نائباً في البرلمان النمسوي أيام الامبراطورية، ونشأت فنانة بالطبيعة وظهرت في التصوير بسرعة؛ وهي أول من أنشأ فن تصوير الكتب في تشيكوسلوفاكيا، ولم يكن بين فناني براج أقدر منها في إبراز الصور والمناظر القومية في روعة قوتها وتواحيها الشعرية؛ ولها فصول ورسائل قوية في تاريخ براج، وصور بديعة لمتاظرها، وكان لها أيضاً صلات وثيقة بدوائر باريس الفنية حيث تلقت تقافتها وتربيتها، وكانت فضلاً عن فنها وأدبها من زعيمات النهضة الوطنية في تشيكوسلوفاكيا، ومن زعيمات الحركة النسائية فيها

اورسمة العلم النمسوي

قرر رئيس الجمهورية النمسوية أن يمنح وسام الشرف للفنون والعلوم الى الدكتور اوزالد ريدلخ رئيس أكاديمية العلوم، والدكتور ايزلسبرج الجرح الأشهر، والدكتور فلاساك، والاستاذ فراتز سميث أستاذ الموسيقى والتمثيل بالاكاديمية الحكوةمية، والى الكاتبة الشهيرة

انزيكا هاندل مازيثي، والى الدكتور هولسميستر المثال الكبير، والى الدكتور كارل شينهير الكاتب الاشهر

هذا وقد عقد احتفال رسمي فخم بهو أكاديمية العلوم، وقدمت فيه جائزة الفن النمسوي التي سبق أن أشرنا اليها الى الفائزين بها وهما الاستاذان هربرت بل وفالتر ربتر، وألقى الدكتور شوشنج رئيس الوزارة النمسوية بهذه المناسبة خطاباً نوه فيه بأهمية الفنون والفنانين في حياة الأمم

الكلمات العربية في اللغة الانكليزية

لما فرغت نسخ الطبعة الاخيرة من معجم وبستر الانكليزي المشهور دعت لجنة تنقيحه الدكتور فليب حتى الاستاذ المساعد للغات السامية في جامعة برنستن للاشتراك معها في تنقيح الالفاظ الانكليزية المأخوذة من لغت سامية في الطبعة الجديدة

وقد صدرت هذه الطبعة في أمريكا الآن بعد ما قضت لجنة التنقيح أكثر من ثماني سنوات في اعدادها

وفي الطبعة الجديدة من معجم وبستر ستمائة ألف لمة مأخوذة من اللغة العربية، منها 500 كلمة من الالفاظ المستعملة في التابة والأحاديث العادية، والنصف الاخر في

الشؤون الفنية

الكتب

جبران خليل جبران

تأليف الاستاذ ميخائيل نعيمة

يقع في 307 صفحات من القطع الكبير، ثمنه عشرون فرنكاً ذهباً يطلب من المؤاف في بكننا لبنان، ومن المكاتب الشهيرة في الأقطار العربية وفي مصر من مكتبة الهلال

هذا كتاب من كتب التراجم، أخرجه للناس كاتب له في الشرق العربي مكانة، يحلل فيه حياة صديق عزيز عليه، وهذا كما نرى موقف من ادق المواقف التي يصادفها أديب، إذا أراد أن يتوخى الانصاف فلا يظلم صاحبه ولا يظام التاريخ. ولفد أحس المؤلف دقة موقفه كما يتضح في مقدمة كتابه، وعلى هذا الأساي سأبني رأيي في نقد ذلك الكتاب

ويحسن اولاً أن أعطي القاريء فكرة عامة عن تقسيم الكتاب وطريقة السير في موضوعه، ولست أسير في التقسيم حسب أبوابه، بل لقد أحسست بعد قراءته أنه أقسام عامة أولها: حياة جبران قبل أن يعرفه المؤلف، ثم حياتهما معاً، واخيراً نجد ملحقاً في ذيل الكتاب غن وصية جبران ورسائله الى المؤلف وتخليده، وغير ذلك مما حدث بعد موته

فالكتاب كما ترى وصف حياة رجل من أولها حتلا خاتمتها. وفي كتب التراجم إما أن يكون المؤلف غريباً عما يكتب عنه، أو صديقاً له. بيد أن هذا النوع من التأليف أو هذه الناحية من نواحي الكتابة تسير أو ينبغي أن تسير في أساسها وجوهرها وفق ما اصطلح عليه الأدباء في هذا الباب الذي يعتبر في ذاته فناً من فنون التابة كسواء من الفنون، مثل القصص والروايات المسرحية، وكتب النقد وغيرها

يبدأ المؤلف في كتب التراجم عادة بوصف الأسرة التي ولد منها صاحب الترجمة،

كصورة لبيئته المنزلية وما قد يختلط بدمه من وراثة، ثم يأخذ في وصف بيئته الطبيعية والاجتماعية مصوراً طفولته وأخلاقه في تلك الفترة وما يلقي من تربية، وما كان من أثرها في حياته المستقبلة، ثم يتدرج به في مراحل الحياة في تسلسل متصل ووحدة مترابطة الى ما صدافه من حوادث، مبيناً علاقتها بفنه وأثرها في توجيهه، وفي ضوء ذلك كله يحلل آثاره موضحاً ما فيها من تأثر بما سلف، على أن يكون أساس ذلك كله الحقيقة لا الخيال. فالاسناد الصحيح القوي في كتب التراجم عنصرها الجوهري، ولاسيما إذا المؤلف أن يقول

رأيه في آثار صاحبه وفيما تخلل حياته من قوة أو ضعف، فليبتعد عن التحيز إن أراد الكمال

وبعد، فماذا رأيت في كتاب الأستاذ ميخائيل عن صاحبه المرحوم جبران خليل جبران؟. مضيت في قراءته فاذا بالمؤلف يسير فيه على نهج غريب، حتى لقد كنت أحسبني في القيم الاول حيال قصة لا حيال شخص معروف، فلقد أحاطني المؤلف بجو من الخيال تحت عنوان خيالات بشرى، وراح يصف لحظة مولد جبران، وما كان من أعمال أبيه وأقوال أمه وأقوال الجيران في تفاصيل تغيب حتى على من يرى رأى العين، ثم يطير بي إلى مدينة كولومبيا بأمريكا، فيصف لي فتاة تحلم في نومها، ويصف حلمها كأنه هو الحالم! ثم يعود الى بشري فيعرض لي بعض صور من طفولة جبران ومن حياة أسرته، ولكن عليها جميعاً ابع الخيال، فتفاصيلها لايمكن أن يلم بها إلا شخص يتحدث عن تفسه، على أن يكون قوي الذاكرة الى أقصى حد؛ ومن أمثلة ذلك وصف والدة جبران (ص20) وحكاية بائع الزيت (ص23). وما لي أورد الامثلة، وهذا القسم الاول من حياة جبران قبل أن يعرفه المؤلف عبارة عن قصة خيالية؟ ولقد كان المؤلف وهو يصف حياة جبران وهو بوسطن، يتقل اليك نتاجيه وخلجات حسه، ونزعات قلبه، وانفعالات نفسه، كمن يكتب مذكرات لساعتها عن نفسه. خذ لك مثلاً حواره مع أبيه (ص32)، وزيارته للفنان (ص33)، وخلوته مع المرأة التي دعته إلى منزلها (ص40)، ومناجاة نفسه (ص47)، وهو يكتب مقالاً ويصححه (62)، وأثناء عرضه صوره وعلاقته بماري الفتاة الحالمة في أول الكتاب وهي الآن مديرة مدرسة، وعلاقته بميشيلين، وغير ذلك من عزلاته وهواهسه. . . الخ

وما أظن أن عرض هذا الجزء من حياة جبران على مثل تلك الصورة الخالية، وما فيها من براعة ومن وراء، متفق مع ما يتبع في كتابه التراجم أو باعث في القلب ما تبعه الحوداث التي يدعمها الأسناد والرواية، وتطلبها الحقيقة من الأهتمام والعناية. هذا إلى أن المؤلف في تلك الفترة من حياة جبران لم يعلق على ما فيها من مواقف، وما كان لحوادثها من أثر في مستقبله، ولكن ما حاجته إلى التعليق؟ بل كيف يتسنى له ذلك وقد صور لنا جبران كما لو كان جبيران يحدثنا عن نسفه؟

وبذلك تخلص من عرض رأيه في صاحبه

ومما يلاحظ على هذا القسم من الكتاب أن الرابطة فيه ضعيفة، وقد ذكرت فيه بعض الحوادث دون أن يفهم القصد من ذكرها، فلم تكن للتبسيط أو للتحليل أو لبيان العلاقة بين المترجم له وبين الحياة

أما في القسم الثاني من الكتاب عند ما صحب المؤلف جبران، فانك تحس بجو من الحقيقة ويبتعد عنك الخيال القصصي، ويحدثك المؤلف عن جبران كما رآه في عدة مناسبات، وتبدأ تهتم بحياة جبران وآثاره، وتتضح لك شخصيته فتزداد معرفة به، وان جهلت الظروف التي كونته هذا التكوين، اللهم إلا ما كان من تأثير (نيتشه) فيه، وهو ما شرحه المؤلف في آخر القسم الأول.

على أنك في هذا القسم الثاني من حياة جبران لن ترى المؤلف يحدثك عن رأيه في صاحبه من الناحية الأدبية أو الخلقية، ولا تجد منه مناقشة جدية لآثاره ومقدار قيمتها، بل تراه يقتصر على ذكرها دون تعلي، إذا استثنيت وصفه لكتاب (النبي) وإظهار أثر نيتشه فيه، وقراءة قصيدته التي جاء ذكرها في (ص160) معه، وحتى في هذين ترى الأعجاب يغلب على النقد النزيه

لكنني كما قدمت أحس بدقة موقف الأستاذ ميخائيل بالنسبة إلى حياة صديقه جبران؛

على أني أتساءل هل أنصف صاحبه وعرضه على الناس كما هو على حقيقته، أم أحاط شخصيته بشيء من الغموض؟ ولست أعرف إلا أن طريقته التي سلكها من الصعب أن توفي بغرضه، وهل يتفق ذلك مع ما جاء في مقدمته (ألفت هذا الكتاب على أمل أن يطالع القاريء من خلال فصوله صورة جبران كما عرفته لا (تاريخ) حياته الذي لا يعرفه أحد)؟

ولئن اختلفت مع الأستاذ نعيمة في طريقته، فاني معجب بمقدرته في الوصف، وقوته في

تحليل العواطف النفسية، ورسم الخواطر الذهنية، وقوة روحه التي خلصت الكتاب على طوله من الفتور، وجعلني أقلب صفحاته في شغف ولذة، ولن أنسى دقة أسلوبه ومتانة نسجه، لولا هناتت ما كنت لأشير إليها لولا أنها علقت بهذا الأثر النفيس، ومنها بعض المجازات الغريبة كتعبيره عن الموت بالغور في رحم الزمان (ص17) ووصفه الخالق بأنه (الحائك الأبر قد التقط بمكوكه العظيم خيطي حياتهمت من جديد) (ص 68)، وكوصفه القاريء بأنه يمضغ الكتاب بعينه وروحه (ص101)، وما استعمله عن الفلس من المجازات (ص123)، وكقوله في (ص215) يحفزها تنين النسيان ويطويها غربال الزمان. . . وسواها من الأخيلة غير المألوفة، والقياسات الشاذة كجمعه سؤال على سؤالات وكأستعماله لفظ اندلق للقهوة بدل أن يقول انسبت مثلاً

على أنني كما ذكرت ما كنت لأغرض لهذه الهنات لولا صدورها من أديب له مكانة كالأستاذ ميخائيل نعيمة

العدد 80 - بتاريخ: 14 - 01 - 1935

أسبوع حافل. . . .

أسبوع حافل! ابتدأ بعيد الدين وانتهى بعيد الدنيا! فأوله (عيد الفطر)، وآخره (عيد الوطن)، وفيما بينهما كان عيد الميلاد ومؤتمر اليلاد ومهرجان القرش!

أسبوع حافل! كان فيه للدين سبب ممدود وشل جامع، وللحرية يوم مشهود ومظهر رائع، وللوطنية لواء معقود ومُجتلى فخم، وللسياسة شعب محشود وأمر ضخم، وللقومية أمل منشود وعمل صالح!

جرى كل أولئك على أروع ما يقع في الذهن ويتمثل في الخاطر، لشعور الناس بشمول الأمن، ويقظة العدل، وقيام القانون، وفوز الديمقراطية، واتساق الأمر بين الفرد والجماعة، واتفاق الرأي بين الحكومة والأمة؛ وكانت النفوس في عهد المحنة قد تغشاها من الدخائل السود قَتام وسُحُب، فلا تكاد ترى على حواشي الأفق الضيق المحدود إلا جنود الرهبة، وقيود الذلة، وسجون القهر، ثم تنفس بها الزمن البطيء على هذه الحال الأليمة حتى قنعت بالدون، ورضيت بالهُون، وذهلت عما وراء الأفق؛ فلما تهتكت الحجب عن وجه الحق، وتفكت الأغلال عن حرية الشعب، فسعى غير مقيد، وعمل غير مراقب، وقال غير متهم، عاد الناس فوجدوا شعور الكرامة وسورة الاستقلال، وأنفة الحي المريد، وهزة المتصرف المطلق، فزهاهم النصر، واستطارهم الفرح، وتقبلوا سبعو أسام في الدعة، يتبسطون على الأنس، ويتعلون على الدهر، ويتدلون على الجكومة، ويوازنون بين حالهم بالأمس وحالهم اليوم، فيعجبون كيف زاغت القلوب، وفسدت الطباع، وسفهت الأحلام، وغارت هذه المباهج والمرافق والمظاهر كلها في قرارة قلب فارغ!

* * *

إن القلوب لأضيق في هذا الأسبوع من أن تسع هذا الفبض الذي يتدفق فيها ن كل جانب: ففي (مدينة رمسيس) وجوه البلاد ونواب لشعب وزعماء الأمة يعرضون مناهج السياسة على المشورة، ويُقلبون أنظمة الاصلاح على الرأي، ويعلنون الخادع والمخدوع أن مصر الخلدة لاتزال متماسكة على مضض المحن، سليمة عى عنت الجور، مرتلفة على عبث الاغراؤ، تُعوق ولا تضل، وتُعذب ولاتذل، وتجارب ولا تستكين كانت الآلاف الاربعون في سرادق المؤتمر الوطني أشبه بالأسراء فك أغلالهم النصر، أو بالسجناء كسر اقفالهم الثورة! فهم يتعانقون على السلامة بعد البلاد، ويتصافقون على

الجماعة بعد الفرقة، ويتنادرون بجلادي العهد الباغي وسُجانه وقد أصبحوا اليوم رواد المنى وحراس العدالة! أليس هذا شرطي الأمس الذي كان ينظر بالنار، ويتكلم

بالحديد، ويتجنى على الناس الذوب، ويتمنى على الأحداث الجرائم؟ ما باله اليوم وديعاً كالعدل، نزيهاً كالقانون، رفيعاً كادلولة، رفيقاً كالمواطن؟ تباركت يا ألله! أهكذا تتبدل الأوضاع وتتغير الطباع في بحر يوم وليلة؟!

* * *

وفي معرض الجزيرة جماعة (عيد الوطن الاقتصادي) يُفيضون من نشاط الصبي وطموح الشباب على الناحية الضعيفة المخوفة من نواحي الوطن: تلك هي الناحية الاقتصادية التي اقتحمها المستعمرون تحت لواء السلم والمال فاحتلوا المدن، واستغلوا القرى، وامتهنوا القومية، وامتحنوا الأخلاق، وحولوا مجاري الثروة المصرية الى السفن الأجنبية والمصارف الأوربية، وخلفوا أهلها يابدون الدين، ويعانون الفقر، ويشكون العطلة، ويقاسون المذلة. فطن هؤلاء الشباب الأطهار إلى هذا الخطر الوبيل والداء الدخيل فصمدوا له في ميدانه المشتبه الواسع، واستنفروا القاعدين من أصحاب الأموال، والجامدين من أرباب التجارة، ونشروا الدعاية بمختلف الوسائل للانتاج الوطني، وضحوا بجهودهم الكثيرة، ونقودهم القليلة، وأوقاتهم الباقية من الدرس، على رصد الأهبة، وتنظيم العمل، وتدبير المال، وضمان الفوز، حتى توجوا ذا الجهد الجاهد بهذا المهرجان الذي أقاموه، وذلك المعرض الذي نظموه، فكان المهرجان عيداً للعيد، والمعرض حجة للمل، والعمل كله فخراً لأهليه

* * *

وفي حديقة الأزبكية عيد (جمعية القرش) تجاهد في الانشاد جهاد عيد الوطن في الدعاية. وقد نفضت - كتلك - على بلي النفوس جدة الربيع، ونقاء الفطرة، وجمال الحداثة، فانتشر متطوعوها الأبرار في المدينة يجمعون القروش بالتوسل والتذلل والالحاف ليفتدوا بها حرية الوطن الاسير

فجماعة الوطن وجمعية القرش ومؤتمر الشعب ائتلاف منسجم من عناصر البلاد ومناهج الجهاد ومناحي الغرض: فالشباب بجانب الكهول، والاقتصاد بجانب السياسة، واللذة بجانب

المنفعة، والحكومة بجانب الأمة؛ وكل هذه الصور الرائعة إنما تتألق وتتراءى في إطار روحي شعري تألف من عيد الفطر للمسلمين، وعيد الميلاد للأقباط!

أسبوع حافل! ان فيه للدين سبب ممدود وشمل جامع، وللحرية يوم مشهود ومظهر رائع، وللوطنية لواء معقود ومُجْتلى فخم، وللسياسة شعب محشود وأمر ضخم، وللقومية أمل منشود وعمل صالح!!

وإن عاماً يكون عنوانه هذا الانقلاب، وطالعه هذ اليمن، واستهلاله هذا النسيد، لآية من الله على انجلاء الغمة، واهتداء الغرائر، وارعواء الغي، وانكشاف الطريق

احمد حسن الزيات

ذكريات وتجارب

* . . . . . أول درس ألقيته

أبداً لا أنسى السعاة الرهيبة العصيبة التي ألقيت فيها أول درس من أول فصل! كان ذلك منذ سبعة عشر عاماً والسن حديثة والنفس غريرة والنظر قصير، وكانت المدرسة ثانوية أجنبية، تجمع أخلاطاً من الأجناس والأديان، وأنماطاً من الأخلاق والتربية، وكنت قد أدركت قسطاً من العلم النظري على الطريقة الأزهرية، وشدوت طرفاً من التعليم الفني على الطريقة اللاتينية، إلا أن ما حصلت منهما كن لايزال طافياً في ذهني، متحيراً في فكري، لايطمئن إلى ثقة، ولايستقر على تجربة! أضف ذلك إلى طبع حَي، ولسان من الخجل عيني، ووجه للقاء الناس هيوب!

قضيت موهناً من الليل في إعداد الدرس: أراجع مادته وأرسم خطته وأسسد خطاه، ثم احتفلت لكلام أقابل به التلاميذ قبل التمهيد للدرس، وغدوت إلى المدرسة أقرع باب الأمل المرجو وأستطلع ضمير الغيب المحجب. دق الجرس فجاوبه قلبي بدقات عنيفة كادت تقطع نياطه وتشف لفائفه، وقمت أجر رجلي وبجانبي مفتش الكلية جاء يقدمني إلى الطلبة. دخلنا الفصل فحيانا التلاميذ بالوقوف، وقال المفتش فأطال القول وأجزل الثناء، ثم خرج وبقيت!!

أقسم أني أقول الحق وإن كنت أجد بشاعة طعمه ومرارة ماقه على لساني! لقد نظرت إلى

التلاميذ نظرة حائرة، ثم رجعت إلى نفسي أحاول إخراج ما فيها من الكلام المهيأ المحفوظ، فكأن ذاكرتي صيفة بيضاء، وكأن لساني مضغة جامدة لا تحس!
السكون شامل رهيب، والأبصار شاخصة ما تكاد تطرف، ووجه الشباب ترتسم ألوان مختلفة متعاقبة من خطرات النفوس ونزوات الرؤوس، وأنا واقف منهم موقف المحكوم عليه، أعلج في نفسي الخور والحَصر، وأجهد في لم ما تشعث من ذهني وتبدد من قواي، حتى هداني الله إلى طريق الدرس، فاعتسفته اعتسافاً دون مقدمة ولا تمهيد ولا عرض!!
أتريد أن تعفيني يا صديقي من وصف هذا الدرس صوناً لسر المهنة؟ ولكن لماذا نتدافن الأسرار ونتكاتم العيوب؟ إن في الدلالة على أوعار الطريق ومضايقها ومزالقها تحذيراً للسالك البادىء، وتبصره للنشيء الغرير
* * *
بدأت الدرس بصوت خافض وطرف خاشع ولسان مبلبل، وسرت فيه وأنا واقف، لا أدنو من السبورة مخافه أن أحرك سكون الفصل، ولا أملس الطباشير خشاة أن أسى الكتابة!!
ان من المعقل أن يعاودني الهدوؤ ويراجعني الثبات بعد زوال دهشة الدخول وربكة البدء لو كنت واثقاً من نفسي متمكناً من درسي، ولكن نظام الموضوع كان قد انقطع فتبعثرت حباته وتعثرت خطواته، ورحت أسرد ما تذرته منه وأنا أشعر بكاماتي تحتضر على شفتي، وبريقي يجمد في فمي، وبعرقس يتصيب على جبيني، حتى فرغت، ثم جلسن أبلع ما بقي من ريقي، ونظرت فاذا الساعة لم يمض نصفها، وإذا التلاميذ يتلاحظون ويتهامسون وعلى شفة بسمة خبيثة لولا تعود النظام وقوة التهذيب لعادت قهقهة صاخبة!!
ماذا أقول بعد أن نفذ القول؟ وبماذا أملأ الفراغ الباقي من الوقت؟ وكيف اؤخر انفجار هذه الضحكات المكظومة؟ أسئلة كانت تضطرب في خاطري القلق فلا أجدها جواباً غير الحيرة!! حتى تطوع تلميذ جريء (لانقاذ الموقف) فقال:
(احك لنا حكاية يا أفندي بأي!)
ولم تكد شفتاي تنفرجان عن مشروع الرد حتى ابتدرني آخر:
(لا يا افندي، اتكلم لنا شويهْ إنشا شفهي)
وآخر: (حضرتك حتدينا على طول؟)
وآخر: (أسم حضرتك إيه يا أفندي، والله انت راجل طيب!)
وآخر: (فلان صوته جميل يا أفندي، خليه يغني شويه)
فقطعت سيل هذه الأسئلة المتجنية الساخرة بهذه الجملة الحيية المتواضعو:
- على كل حال كاد الوقت ينتهي فلا يتسع لشيء من هذا ولكن صوتاً أشبه بصوت القدر قد انبعث أقصى الحجرة يقول:
(أوه! دا لسه ساعة وربع! حصة العربي ساعتين كل يوم!)
- ساعة وربع؟؟ نعم ساعة وربع! أقضيها على هذه الحالة الأليمة كمل شاء نظام الفرير)، أو كما قضى الجد العاثر والطالع المشئوم!! وإذن لا مناص من انفجار البركان ووقوع الكارثة!
* * *
كأنك تريدني على أن أسوق إلي بقية القصة!!
حنانيك! لا تكلفني هذه الخطة، واعتمد على نفسك وحدسك في التخير والاستنتاج!!
لقد انحل النظام فتشعث الأمر وانتشر، وأذكر أني حاولت الكلام مراراً فلم أسمع صوتي من اللغط! فجعلت قيادي في يد (اولادي) ثم سكت حتى نطق الجرس!!
خرجت من الفصل أميد من الهم وأجر ذيل الفشل السابغ الضافي، وفي نفسي أن أترك التعليم وهو حديث صباي ومنتجع هواي الى عمل آخر يصلح لي وأصلح له!!
ولكني عدت الى الفصل، ومضيت في التعليم، وكنت بعد شهرين اثنين مدرس الفصل الأخير وأستاذ الكلية الأول!
فما الذي جعل من اليأس أملاً، ومن الفشل فوزاً، ومن الضعف قوة؟
إسمح لي أن أكون صريحاً فيما كان لي، كما كنت صريحاً فيما كان علي
لقد التمس الوصلة الى النجاح في أسباب خمسة كله معلوم بالضرورة مؤيد بالطبع،

ولكن العلم غير العمل، والرأي خلاف العزيمة، والتجربة وجود الفكرة وواقع الحقيقة
(1) مواصلة الدرس وادمان النظر - فلم أترك كتاباً في المواد التي أدرسها حتى تقصيته أو ألممت به، واستفدت منه. وكان جدى ذلك علي وثوق الطلبة بما أقول، وظهور التجديد فيما أعمل، وتصريف الدرس وتنويعه على ما اجب. ولن تجد أشفع للمدرس من سعة
أطلاعه وغزارة مادته
(2) اعدد الدرس واداؤه - وكان يعنيني على الأخص ربطه بالدروس السابقة، والسير فيه مع الطلاب خطوة خطوة على الطريقة الاستنتاجية ثم تلخيصه بطريق الاسئلة. فكان من حسن اعداده أن ملأت لوقت كله به، فلم يعد فيه فراغ لعبث عابث ولا تجني سفيه، وجررت اليه أذهان الطلاب بالتشويق والتطبيق والسؤال فلم يصبهم سأم ولا ضيقن وشغلتهم به عن أنفسهم وعني فلم يفرغوا الاصطياد نكتة ولا لالتماس غميزة. وليس أعون على حفظ نظام الفصل من ملء الوقت بالمفيد الممتع، ولا أضمن لجودة شرح المعلم وحسن استماع التلميذ من غهم الموضوع.
(3) مسايرة الترقي - فلم اتشبث بالقديم، ولم أتعصب للكتاب، ولم أعن إلا بما له قيمة عملية. فالموضوعات منتزعة من حياة التلميذ وحال المجتمع، والأمثلة مستنبطة من أساليب العصر ومواضعات أهلهن والبحث حر في حدود المنطق، يقوم على أساس التحليل والنقد والموازنة. وفي تشابه الفكرة والنزعة والغاية توثيق الصة بين المعلم والمتعلم.
(4) حسن الخلق - ولعمري ما يؤتي المعلم إلا من إغفاله هذه الجهة. فالادعاء والتظاهر، والكبرياء، التفاخر، والبذاء والتنادر، والكذ1ب والتحيز، والسل والتدليس، آفات العلم وبلايا المعلم. وما استعبد النفس الشابة الحرة كالخلق الكريم، ولا يَسر تعليمها وتقويمها كالقدوة الحسنة. ناهيك بما يتبع ذلك من جمال الأحدوثة واستفاضة الذكر، وهما يزيدان في قدر المعلم واعتبتره، ويغنيان التلاميذ الجُدُد عن اختباره
(5) قوة الحزم 0 فكنت ألين في غير ضعف، وأشتد في غير عسف، وأسير بالطالب إلى الواجب عن ريق ضميره وحسه، لا عن طريق تأنيبه وحبسه، وأجعل رضاي عنه غاية ثوابه، وسخطي عليه غاية عقابه، وأعده الوعد فلا أذهل عن تنجيزه، وأحكم عليه الحكم فلا أنكل عن تنفيذه، وأستعين على فهم عقليته ودرس نفسيته بانشائه فأعامله بما يوائمه، وأعالجه بالدواء الذي لائمه
* * *
كل ذلك يسعده طبغ غالب، ورغبة حافزة، ومرن طويل، وقدَر من الله جعلني أجد سعادتي وراحتي في الفصل وبين الطلاب، أكثر مما أجدهما في البيت وبين الأصحاب ولكن المعلمين وا أسفاه كما بدأهم الله يعودون! فليت شعري هل يكون الدرس الأخير في مبد إمماتي، كما كان الدرس الأول في مبدا حياتي.

الزيات

الثورة على الاسلام

حرب منظمة يشهرها الكماليون على الاسلام

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تشهر تركيا الكمالية على الأسلام حرباً لا روية فيها ولا هوادة؛ وقد رفع الزعماء الكماليون اليوم القناع كاملاً بعد أن رفعوا من قبل طرفاً منه، وظهرت سياستهم نحو الاسلام في ثوبها الحقيقي؛ ودخلت هذه الحرب المنظمة التي يشهرونها على الاسلام في طورها الايجابي بعد أن كانت تقف عند ورها السلبي؛ وقد اتخذت هذه الحرب منذ البداية وما زالت تتخذ ثوب (المدينة والتمدين) أعني تحرير تركيا من كل طابع ولون ديني، وصبغها في كل مظاهرها الرسمية والعامة بالصبغة المدنية. ولو وقفت سياسة انقرة حقاً عند هذه الغاية لما كان ثمة مجال لريب في صدق نياتها؛ فان الاسلام، كالنصرانية، لايحول دون اصطباغ الدولة بالصبغة المدنية المحضة؛ وأمم أوربا النصرانية التي تقلدها وتتشبه بها تريا الجمهورية - إذا استثنيا روسيا البلشفية - لا تجد أية غضاضة في ولائها للنصرانية، وإن كات أشد وأعرق (مدينة) من تركيا الجمهورية، ولم تذهب أية دولة أوربية - سوى روسيا البلشفية - في مطاردة الدين الى الحد الذي تذهب اليه حدكومة أنقرة؛ وحكومة أنقرة لاتطارد العقيدة الدينية لذاتها، ولكنها تطارد

الاسلام، وكل ما يمت اليه بنوع خاص؛ وإذا كانت تطارد اللغة العربية وكل مظاهرها في الكلام والكتابة، فليس ذلك لتحرير اللغة التركية من العناصر الاجنبية فقط، ولن لأن اللغة العربية هي قبل كل شيء لغة القرآن، ولغة الاسلام الاولى

وقد بدأت الثورة المالية على الاسلام منذ قيام الجمهورية التركية ذاتها، أعني منذ نحو عشرة أعوام، وكانت غب مرحاتها الاولى تتخذ صورة الاصلاح الديني أو المدني، وكانت سلبية لا تسفر عن نزعتها الهدامة؛ ولم يكن في خطواتها الأولى مثل إلغاء الخلافة، وجل الجماعات الدينية والصوفية، وفرض الثياب المدنية والقبعة، ما يثير الأذهان المسلمة

المستنيرة؛ فقد كانت جميعاً تتبع جهود تركيا الجديدة في سبيل التجديد القومي والاجتماعي بمنتهى الاعجاب والعطف؛ ولم يك ثمة ما يحمل على الاعتقاد بأن هذه النزعة الاصلاحية في ظاهرها ستتحول غير بعيد الى نزعة إلحادية بعيدة المدى، والى فورة تعصب على الاسلام تقصد الى الهدم المطلق. ولكن حكومة أنقرة لم تقف في مخاصمة الاسلام عند حد؛ وانت خطوات جدبدة ظاهرة المغزى في سبيل محو معالمة: إلغاء النص الذي أدرج في دستور المجهورية الاول بأن تركيا دولة مسلمة، وإباحة القانون المدني التركي الجيد زواج النصراني من المسلمة، ثم تحريم الأذان وتلاوة القرآن في المساجد بالعربية؛ ولم يك ثمة حتى في هذه الرحلة ما يثير كبير شك في نيات حكومة أنقرة وخصومتها المضطرمة للأسلام وعقائده وذكرياته ومظاهره؛ وكانت كلمات الاندافع والتطرف والأغراق تتردد من جانب أولئك الذين مازالوا يحسنون الظن بأنقرة ويعطفون على جهودها وأمانيها. ولكن الكماليين لم يلبثوا أن رفعوا القناع بعد ذلك؛ وانتدبت حكومة أنقرة لجنة لاصلاح العبادات ومظاهرها (سنة 1928) وأذيع يومئذ أن الجنة ترى أن تكون الصلاة في المساجد، كالصلاة في الكنئس، وأنه لا بأس أن يؤدي المؤمنون صلاتهم وقوفاً أو جلوساً على المقاعد، وأن تطربهم الموسيقى، وأن تعوف لهم الادعية والنصوص كما تعزف (آفي ماريا) أو (باترنوستر)، وأن تكون صلاة المسلمين على العموم في مظاهرها كقداس النصارى، وكان لأذاعة هذه الاقتراحات وقع عميق في الأي العام التركي ذته؛ ولما رأت أنقرة أنها تذهب بعيداً بهذه الاقتراحات أنكرتها وكذبتها، وحملت تبعاتها للجنة التي وضعتها؛ أما الرأي العام الاسلامي فما ان ليدهشه شيء بعد من تصرفات الكماليين، ومع ذلك فقد وقف مدى لحظة ذاهلاً أمام هذا الاجتراء الآثم، يلمس النزعة الهدامة التي تماي على عصبة أنقرة سياستها نحو الاسلام وكل تراثه

ثم كانت حركة أنقرة ضد اللغة العربية والكتابة العربية؛ واتخذت هذه الحركة كسابقاتها ثوب الاصلاح والتجديد القومي؛ وقيل إن كتابة التركية باللاتينية بدلاً من العربية وسيلة إلى ذيوعها وتحريرها من ثوبها العتيق، وإت اللغة التركية غنية بأصولها واودها القومية فهي ليست بحاجة إلى العربية تشتق منها وتستعين بها؛ وإذا فيجب أن تحرر من جميع الالفاظ العربية الدخيلة؛ ووضعت الفكرة موضع التنفيذ بسرعة، فالغيت الكتابة العربية،

واستعملت الكتابة اللاتينية بقوة التشريع؛ وسارت الحركة لنفي الألفاظ والأصول العربية بسرعة، واتخذت احياناً بعض المظاهر المغرقة؛ فقد حدث مثلاً أن أسناداً بالجامعة التركية خطب في المؤتمر الذي عقد منذ أشهر لهذا الغرض فنوه باهمية استمرار التعاون والعلائق بين التركية والعربية، فغضب الغازي مصطفى كمال - وكان من شهود المؤتمر - وغادر المؤتمر في الحال، وفي اليوم التالي عوقب الأسناد بالعزل والحرمان؛ وفي الجلسة التالية صفق الغازي لأستاذ آخر ذكر في خطابه أن اللغة العربية لغة دخيلة، وأن التركية أعرق أصولاً من العربية ولها عليها فضل الاعارة والاشتقاق؛ ومع ذلك فان اللغة التركية، رغم هذه الجهود والمناظر الحماسية، التي تعرب عن الحقد والتعصب والجهل، بأكثر مما تعرب عن رغبة الاصلاح الحقيق، لم تستطع أن تستغني بنفسها، وما زالت تستعير - طبقاً لقرارات الرسمبة - ن بعض اللغات الاوربية لتسد ما بها من نقص وثغرات. ولم تكن الحركة إصلاح خالص، بل إن لها كما قدمنا مظهراً آخر غير مظهرها الاصلاحي؛ فاللغة العربية هي لغة القرآن، ولغة الاسلام الاولى؛ ولما كانت حكومة أنقرة تعمل على مطاردة الاسلام وكل مظاهره بكل ما وسعت، فيحب أيضاً أن يختفي هذا المظهر؛ ثم يجب أن تختفي الأسماء العربية -

وهو مظهر آخر لهذه الحركة - حتى يكون الانقلاب تاماً، وحتى لايبدو في أفق تركيا الكمالية، بمض الزمن ما يثير ذكرى العربية والاسلام
وفد حملت اليا البرقيات الاخيرة نبأ جديداً، هو أن حكومة أنقرة قررت أن تعمل لأزالة منارات المسجد، وا، ها ستبدأ بازالة المنارات العتيقة وتقيم في مساجدها مصانه، فاذا صح هذا النبأ فانه يكون دليلاً جديداً على أن هذه الجهود المتوالية التي تبذلها حكومة أنقرة لمحو معالم الاسلام في سائر مظاهره الشخصية والعامة إنما هي سياسة مقررة متصلة الحلقات
* * *
والآن لنحاول أن نتعرف أسباب هذه الحرب المضطرمة التي يشهرها الكماليون على الاسلام؛ ولنلاحظ اولاً أن تركيا المجهورية تحذو في تلك الحرب اللادئنينة المنظمة حذو روسيا البلشفية، وهي الدولة الغربية اوحيدة التي تش ر الحرب على النصرانية وتطارد كل مظاهرها. ولم يقع هذا الشبه عرضاً بين الدولتين اللدينيتين؛ ولكنه يقوم على نفس المباديء ونفس الروح الثورية والادينية المشتركة؛ وقد كانت رةسيا البلشفية أكبر عضد
للكماليين في حرب التحرير التركية وفي العمل على بعث تركيا المحتضرة. ولا نبالغ إذا قلنا إن تركيا الجمهورية مدينة بحياتها للبلاشفة. ولم يبذل البلاشفة هذا العون للكماليين حباً بتركيا، ولكنه كان قطة من برنامجهم في محاربة الاستعمار البريطاني، وقد كان غزو اليونان لتركيا مشروعاً بريطانياً تعاونه بريطانيا وتحميه، وكان عون البلاشفة للكماليين بكل الوسائل المادية والمعنوية منذ قيام الحرب التركية اليونانية حتى عقد معاهدة لوزان فصلاً من فصول الصراع بين البلشفة والاستعمار البريطاني؛ وكان طبيعياأ أن يكون لوحي موسكو ونفوذها أكبر الأثر في توجيه حكومة أنقرة، وأن توثق المصالح المشتركة بين روسيا البلشفية وتركيا الكمالية؛ وأشد ما يبدو وحي موسكو في ناحيتين: سياسة تركيا الخارجية، فهي قطعة لا تتجزأ من برنامج السياسة البلشفية، تردد فيها تركيا خطوات موسكو في كل شيء: في السياسة الشرقية والسياسة الاوربية، وفي مخاصمة عصبة الامم ثم الألتحاق بها (على أثر التحاق روسيا)؛ وروسيا تشد بأزر تركيا في كل مظاهر دولية؛ وتركيا تؤيد روسيا في مواقفها نحو الدول الغربية، وتركيا تعرف أنها مدينة بحياتها لروسيا، وان هذه الحياة تتوقف على ارادة روسيا، فهي لاتستطيع أن تحيد عن برنامج السياسة الروسية؛ وثانياً - في الناحية الثورية، فحكومة أنقرة ما زالت حكومة ثورية على مثل حكومة موسكو، هي تحذو حذوها في تطبيق مباديء الهدم والاباحة الى أبعد الحدود؛ واذا استثنينا الناحية الاقتصادية، أعني تطبيق الفكرة الشيوعية التي يرى الكماليون بحق أن تركيا ليست ميداناً صالحاً لتجربتها، كانت الثورة الكمالية الاجتماعية والدينية صورة من الثورة اليلشفية في هذه الميادين؛ وكما أن النزعة الالحادية تسود الثورة البلشفية، فكذلك الثورة الكمالية تسودها هذه النزعة؛ واذاً فان هذا الألحاد الذي يطبع كل تصرفات الكماليين، وهذه الاباحة التي يغرقون فيها، وهذه الحرب اللادينية المستعمرة التي يشهرونها ترجع في كثير من وجوهها الى غرس أساتذتهم ومدربيهم سدة موسكو؛ على أن الفكرة الثورية والالحادية ليست كل شيء في سياسة الكماليين، فهنالك بواعث أخرى تحفزهم الى هذه البغضاء المتأججة نحو الاسلام.
ذلك أن الكماليين يرون أن الاسلام كان سبباً في كل ما أصاب تركيا القديمة من المحن التي أودت بسلطانها وقوتها، وأن صفتها الاسلامية هي التي أثارت الدول الغربية ضدها خلال
العصور المختلفة وجمعت كلمتها على محاربتها ومقاومتها، وأنها لولا هذه الخصومة التي أثارها الاسلام في نفوس الأمم الغربية لبقيت دولة قوية ولم تبدد قواها في حروب ومعارك خالدة؛ ولهذا يمعن الكماليون في ثورتهم ضد الاسلام ويزعمون أن تركيا تستطيع بذلك أن تنزع تاريخها وماضيها وصفتها الأسيوية، وان تدخل بذلك في عداد الدول الغربية
وقد كان الاسلام حقاً من العوامل التي أثارت أوربا النصرانية وجمعت كلمتها ضد الدولة العثمانية في أحيان كثيرة، ولكنه لم يكن بهذا الاعتبار مسؤلاً عما أصاب الدولة العثمانية من المحن وضروب الانحلال والتفكك بقدر ما تسئل عنه السياسة الغاشمة

والأساليب الهمجية المخربة التي سارت عليها هذه الدولة طوال عصور تارخها، وعجز الترك المطبق عن أن يكونوا عاملاً من عوامل الأنشاء في صرح الحضارة الحديثة. هذا، ومن جهة أخرى، فقد لقي الاسلام على يد الدولة العثمانية الذاهبة أعظم نكبة نزلت به في العصر الحديث، ولقيت الحضارة الاسلامية الزاهرة في مصر والأمم العربية مصرعها على يد هذا الغزو الوندلي الذي لبثت الفتوحات التركية سواء في الشرق أو الغرب سوى فورات مخربة تحمل وراءها الويل والدمار أينما حلت؛ وعلى ضوء هذه الحقائق وحدها يجب أن يرجع الكماليون عوامل انحلال تركيا الذاهبة

* * *

ومهما يكن من أمر البواعث التي تحفز الكماليين الى هذه الخصومة المضطرمة نحو الاسلام، فان الاسلام أقوى وأرسخ من أن يتأثر بمثل هذه الفورات العصيبة الطارئة؛ وقد صمد الاسلام وما زال يصمد لخصومة الغرب كله مه ما يحشده الغرب لغزوه من العوامل والوسائل الخطرة. ذلك أن الاسلام قوي بعقائده ومبادئه وخلاله المستنيرة، قوي بتسامح الخالد، قوي بتراثه المجيد. ولن يضير الاسلام أن تسقط من عداده تركيا الكمالية؛ واذا كان الاسلام لم يعتز قط بتركيا يوم كانت دولة قوية شامخة، فكيف يحاول اليوم أن يعتز بهذه البقية الضئيلة من تركيا القديمة؟ على أن هناك حقيقة يجب أن يذكرها الكماليون، وهو أن تركيا عاشت في العصر الاخير على تراث الاسلام؛ وقد كان نفوذ الاسلام المعنوي عاملاً قوياً في بعثها الجديد، وفي تطور السياسة الأوربية نحوها، وإقالتها من الفناء الذي كان مضياً به عليها. أما اليوم فان العالم الاسلامي الذي كان بالأمس يحبو تركيا بعطفه وتأييده

المعنوي - والمادي في أحيان كثيرة - لايهمه اليوم شيء من أمر تركيا الكمالية ومصايرها، ومن المحقق أنه سيقف وقفة المتفرج يوم تدلهم الخطوب، وتعود المعارك القديمة الى الاضطرام

محمد عبد الله عنان

المحامي

المطلوب مديرة بيت. . .!

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

(أفلسنا والله يا صاحبي!)

(وأي افلس يا أخي؟ لكن الدنيا أقفرت. . .)

(والعمل؟)

(العمل؟ تسألني ما العمل؟)

(لقد منتُ أقول دائماً وأؤكد للمرتابين من إخواننا، إنك آيةٌ من آيات الله في الذكاء وصحة الادراك! نعم أسألك ما العمل؟)

(وهل أنا أعرف؟)

(لا رأي تشير به؟. . . لا حيلة تتحيلها؟)

(حيلة؟ هل تعني. . .)

(لا بأس! لا بأس! أرح نفسك. كم ساعتك الآن؟)

(ساعتي؟)

(هذا أقل ما يمكن أن أنتفع بك فيه)

(ساعتي يا سيدي. . . انتظر أقل لك، ساعتي. . . . س. . . سُرقت!)

فنهض الأول عن كرسيه بلا كلام، ومضى الى المكتب، فجلس اليه وتناول ورقة وأكب عليها وراح يكتب

* * *

جرى هذا الحديث في حجرة واسعة اتخذها للنوم هذان الصاحبان، ووضعا فيها سريريهما

وحقائبهما وكتبهما وأدواتهما وأشياءهما الاخرى، فلو رأيها - أي الغرفة - لحسبتهما آيبين من سفر. وكان ثم حجرتان أخريان في مسكنهمت، لكنهما كانا لا يستعملانهما او ينتفعان بهما إلا في الندرة القليلة، إذا زارهما من لم ترتفع بينه وبينهما الكلفة، فكانت هذه الحجرة الفسيحة للنوم والمطالعة والطعام والشراب والسمر، واللهو أيضاً. ولو شاء لاتخذا بيتاً أكبر وأوسع، ولاثثاه بما هو أو ثروالين، ولكنهما كانا يؤثران المخشونة،

وينفران من التطري والرخاوة، ويستقبحان أن يكونا مترفين وإن كثر المال في أيديهما. وكانا ظريفين لا يعدلهما أحد في ظرفهما، وقد تآخيا على أصفى ود وأتم مداخلة، فهما خليط وأمرهما في كل شيء واحد، لايختلف ولا يتعدد.

ونهض الاول عن المكتب وفي يده ورقة يتأملها، ومشى متمهلاً إلى صاحبه حتلا إذا بلغ مكانه دفع بالورقة إليه فقرأ فيها

(:مطلوب)

مديرة لبيت، ويشترط أن تكون متعلمة وخبيرة، والاجر يُتفق عليه، والرد يكون باسم) السيدة نينا شقراوب بجريدة الكوثر بالقاهرة)

ثم سأل: (ما هذا؟)

قال: (هذا؟ هذا إعلان! ماذا يمكن أن يكون غير ذلك؟)

فسأله: (ولكن ما حاجتنا إلى من تدير لنا بيتنا؟ ألسنا ندبر أموره القليلة على أحسن وجه؟)

قال: (يا صاحبي، ليس هذا من شأنك. ولا تخش أن أثقل كاهلك بهذه المديرة المطلوبة. أنما أريد أن أداوري نفسي وأعالج إفلاسها، وأملأ هذا الفراغ الذي أحسه في قلبي)

قال الآخر: (ولكن. . . .)

فقاطعه ذاك (لا تعترض يا صاحبي، فليس عليك بأس من ذلك.)

وخرج، فمضى إلى صاحب (الكوثر) وكان صديقه، فناوله الاعلان

فسأله هذا: (أهي السيدة التي. . . . .؟)

قال: (لا، بل غيرها، وقد كلفتني أن أقوم عنها بالأمر، فكم تطلب أجراً للنشر؟)

فأبى الرجل أن يتقاضى أجراً

* * *

وجاءت ردود، بعضها تليفوني، والعبض رسائل، فأما التليفونية فأهملها وأبي أن يُعنى بها أو يتقبلها، وأما الرسائل فكانت ثلاثة حملها معه إلى البيت، وهناك فضها وجلس يتدبرها هو وصاحبه، ويحاول أن يستنبيء الخط والأسلوب عسى أن يعرف منهما - على التقريب - سن الكاتبة وحظها من الجمال.

فتعلقا بواحدة تقول كاتبتها إنها تعلمت في انجلترا، وأنها حذقت هذا الفن - فن ادرة البيوت - على مهرة الأساتذة والمعلمات

وقال الذي سمي نفسه في الاعلان (نينا شقراوي)

أسلوب (شرلوك هولمز). إنها تقول إنها تعلمت في انجلترا، فلا شك أنها (فلنتبع) صغيرة السن، لأن ارسال البنات إلى انجلتزا ليتعلمن لايزال إلى اليوم غير مألوف، ولم يبلغ أن يون سنة، كأرسال الفتيان؛ ثم ان التي تذهب إلى انجلترا لتتعلم لابد أن يكون أهلخا ذوي مال، وقد تتاج يا صاحبي أم تسأل - لأنك ذكيٌ جداً - لماذا إذن تريد أن تكسب رزقها بعرق جبيتها؟ والجواب أنهما فرضان لا أرى لهما ثالثاً: الاول أن يكون المال قد ذهب، وافتقرت الأسرة بعد اليسر، والثاني أن تكون الفتاة قد تمرددت على أهلها لسبب من الأسباب وتركت البيت، فهي تنشد العمل لتعيش، كراهة منها للارتداد إلى أهلها صاغرة ذليلة. واضح؟ حسن! فلنكتب إذن الرد)

وقام إلى المكتب فكتب ما يأتي:

(الآنسة المحترمة. . . .

جاءني ردك، وأكون شاكرة ل إذا تفضلت بانتظاري في تمام الساعة الخامسة من يوم. . . . أمام باب_جروبي)

بشارع المناخ

وتحياتي إليك وإلى الملتقى

(نينا شقراوي)

وتوخى في كتابة الرسالة أن يطيل حروفاً ويقصر أخرى، ويجعل زوايا الجيمات والدالات الخ، حادة، ويعوج السطور ليجيء الخط أشبه ما يكون بخط النساء

* * *

ودنا الموعد، فقال لصاحبه: (قم بنا)

فنظر إليه صاحبه متعجباً وسأل: (ولكن ما دخلي أنا؟)

قال: (من يدر؟ إنه لا يعلم الغيب إلا الله! قم فقد أحتاج إليك.)
ووقفا على الافريز المواجهلباب (جروبي) وصارت الساعة الخامسة، وإذا بفتاة ممشوقة تقف على الافريز الآخر وترفع عينها إلى باب جروبي ثم تصوبها إلى الساعة على يدها، ثم تتلفت فقال الذي لا دخل له: (هي والله! قرأت أسم جروبي، ونظرت في الساعة. هيا بنا إليها)
فقال صاحبه (بنا؟ ما شاء الله! أظن أني سمعتك تسألني ما دخل في هذه الحكاية؟ أم ترى كان غير السائل المنر؟)
قال: (إنما أعني أنه يجب أن تلمها حتى لايطول انتظارها فتقلق فتذهب)
قال: (وما يعني من قلقها وذهابها؟ فلتقلق ولتذهب!)
قال: (ولكن لماذا إذن واعدتها أن. . . .)
قال: (يا أحمق! إني أريد - أتفهم؟ - أريد أن تقلق وتمضي وأزيدك علماً، فأقول إني لا أجرؤ أن أكلمها أمام باب جروبي الذي يدخل منه ويخرج كثيرون ممن يعرفونني.)
وعادت الفتاة فألقت على ساعتها نظرة ثم دارت فمشت.
فذهب صاحبنا يعدو خلفها، حتى إذا دنا منها ناداها بأسمها فوقفت وقال:
(معذرة. إن السيدة شقراوي متوعكة، وقد كلفتني أن أقابلك)
فقالت الفتاة بابتسامة: (أشكرك، وأشكرها. لقد خالجني شك، فتوهمت لحظة أني أخطأت. وهل أنت أخوها؟)
قال: (أخوها؟ أوه! لا! ابنها فقط. . .)
قال: (معذرة)
قال: (ألا توافقين على أني ما زلت شاباً تتدفق الدماء الحارة في عروقي؟)
فضحكت وقالت: (بالطبع. . . . وأين البيت؟)
فساءه أنها غيرت الموضوع وقال: (البيت؟ البيت يا سيدتي. . . . في. . . . في القاهرة)
فسألته: (أي شارع؟)
فقال: (أي شارع؟ هل ينتظر أن تعرفيه إذا قلت لك إنه شارع البسطويسي؟) فقطبت وسألت المحتجة المستهجنة (البسطويسي؟)
قال: (لم يخطيء ظني. فتاة مثلك غضة السن جداً - وجميلة أيضاً بالطبع - متعلمة في انجلتزا لا يعقل أن تعرف هذه الشوارع التاريخية)
فسألت بأهتمام: (أهو شارع تاريخي؟)
قال: (لاشك! أقدم من التاريخ)
فأحست أنه يتهكم وسألته: (والبين؟ ما مساحت؟ 9
فقال: (إيه؟ مساحته؟ الحق أقول؟ الحق أقول، لا أعرف)
قالت: (م غرفة فيه؟)
ولم يكن مما قدر، أن يجري الحديث هذا المجرى فقال بعد تردد (كم غرفة؟ أه. . . أقول لك يا ستي. . . . ثلاث)
فدهشت وصاحت: (ثلاث فقط؟)
فقال: (أراك دهشت! ول الحق. فانها غرف فسحة جداً. . . تصلح للرقص، او لسباق الخيل)
قالت: (لا تمزح. لقد كنت أظنه بيتاً كبيراً)
فسألها: (أليس بيراً؟ إني أراه كبيراً جداً)
قالت: (ثلاث غرف!؟ والخدم؟ ما عددهم؟)
قال: (الخدم؟ أي خدم؟)
قالت: (خدم البيت!)
قال: (ليس في البيت خدم!)
قالت: (ماذا تقول؟ لا خدم؟)
قال: (نعم. . . أعني لا. . . وأي حاجة بنا إلى الخدم؟)
قالت: (أي حاجة؟ كيف يكون بيت بلا خدم محتاجاً إلى مديرة؟)
قال: (يا سيدتي، لهذا احتجنا إلى مديرة. فالأمر موكول اليك. . . .)

قالت: (لقد كان ظني غير ذلك. . . . كنت أحسبه بيتاً عظيماً غاصاً بالخدم، أتولى أموره
(وأدبر شئونه. . . أما هذا. . . . لا. لا أظن أني أستطيع أن اقبل هذا العمل
قال: (ألا يحسن أن نميل إلى هذا المحل لنتحدث ونتفاهم.)
قالت بلهجة جازمة: (في أي شيء نتحدث؟ لقد قلنا كل شيء)
قال: (لا لا لا. . بالعكس، لم نقل شيئاً. . .)
فسألت مستغربة: (أي شيء بقي هناك؟)
قال: (باقي أن تراجعي نفسك. . . . فكري طويلاً قبل أن ترفضي. الانسانية تدعوك أن تقبلي. . المروءة تناديك وتناشدك. . . إني شاب، والبيت الصحراء، بل قلبي أيضاً صحراء. . . ومن الشهامة أن تتولي أمري. . . أعني أمورنا. . . وأن تحيلي ذه القفار فراديس ورافة الظلال)
فسألته ضاحكة: (أتريد مديرة أم ساحرة؟)
ال: (إيه؟ أه! بالطبع. . . ساحرة؟ أي نعم ساحرة. هذا أحسن. . . ولكنك ساحرة - ماٌ قي هذا شك! ألست موافقة؟)
قالت: (على أي شيء؟)
قال: (على أنك ساحرة)
قالت: (أوه! كلا. والآن، أستأذن. .)
قال: (تستأذ1نين؟ كيف؟ وبعد أن عصت عليك في لجة الحياة؟)
وعض لسانه من الغيظ، فقد زل، وأدركت خي أن في الأمر غير البيت وإدارته، فحدقت في وجهه ثم سألته
(أجبني - بصراحة. . . ماذا تعني؟)
قال: (اعني أنك درة وأنه يشق علي أن أنفض يدي منك بد أن فزت بك - هذا ما أعني، وبصراحة)
قالت: (هل كنت تعرفني؟)
قال مغالطا: (لقد كنت أحلم بك)
فقالت: (والأعلان؟)
قال: (الاعلان؟ لقد انتهينا منه. وقلت إن الأمر لا يوافقك. . . وأنا مصدقك. . لايسعني إلا
أم أصدقك. . . إنه بيت لا يليق بك. . . إنه. . . إنه قبر. . . خراب. . . . دعينا منه فما .نت أتصور أن ترضي عنه. . . . .)
قالت: (وبعد؟)
قال: (نتكلم في شيء آخر. . . إنه لا أكثر من المواضيع الصالحة للكلام. . . مثلاً شعرك، إنه ذهبي جميل، وأنا أحب الشعر الذهبي، يفتنني، يدير راسي، ولو استطعت لجمعته كما تجمع طوابع البريد، وقطع الخزف الثمين، والسجاجيد الفاخرة. . . وهناك أيضاً موضوع آخر. . . عيناك. . . إنهما نجمان متألقان. . .)
فصاحت به: (حسبك. وادخر بلاغتك لمن عو أحق بها، أعني لمن له أذنان تصغيان فاني ماضية)
فقال: (وتتركيني؟)
قالن: (آسفة)
قال: (ألا تفرين؟ في أنا على الأقل!)
قالت: (سأفكر فيك طويلاً)
فقال بلهجة الظافر: (كنت أعلم ذلك)
قالت: (إيه؟ 9
قال: (كنت واثقاً أنك رقية القلب)
قالك: لا لا. . . إنما أعني أني سأفكر في جرأتك. . . واسمح لي أن أقول: وفي وقاحتك)
فلم ينهزم وقال: (هذا ذنبك)
قالت مستغربة: (ذنبي)
قال: (على التحقيق: إنك جميلة، فلماذا أنت جميبة؟ هذا عذري!)

قالت: (آه!) وهمت أن تمضي عنه
فقال: (وشيء آخر. . . يجب أن تعلمي أنه لاقيمة لجمالك)
قالت: (ألم أقل إنك وقح؟)
قال: (لاقيمة لمالك إذا لم يعجب به أمثالي. . . بغيري تكونيين وردة في صحراء. . .
من يشمها؟ من يتأملها؟ من يقول ما أحسنها؟)
قالت: (ألا تخبرني من أنت؟)
قال: (أو بعيك أن تعرفي؟)
قالت: (بالطبع. . . لانك أوقح من رأيت في حياتي)
قال: (كلا، هناك من هو اوقح. . أوه بمراحل! صاحبي هذا الوقف هناك. . . أترينه؟
سأعود اليه وأبلغه أن له - إذا شاء - أن يشمت بي، لأني فشلت)
قالت: (أكانت مؤامرة؟)
قال: (لقد نهاني فلم أطع، وجررته معي بكرهه، وفي مأمولي أن أفوز، فأباهية
وأفاخره، أما الآن. . .)
قالت: (هذه هي الحقيقة؟)
قال: (بلا تحريف. وتعالي اليه لتسمعيها منه إذا شئت)
فوقفت تفكر برهة كالمترددة ثم القفتت اليه فجأة وقالت: (هل نت تعرفني؟ 9
قال: (سؤال معاد، وجابه واحد لايتعدد ولا يتغير)
قالت: (لا تعد الى المزاح)
قال: (أؤكد لك أني جاد جداً)
قالت: (ولكن كيف وثقت أني سأرد على اعلانك!)
قال: (هي مقامرة لا أقل. .)
قالت: (على كل حال، لابد أن أمضي الآن)
قال: (ونلتقي مرة أخرى؟)
قالت: (ربما. . . لا أردي. . .)
قال: (اذكري أني أعرف عنوانك، فاذا طال الأمر فلا يبعد أن اغزو دارك فاني كما
تعلمين مجنون)
قالت: (لاتفعل. . . . احذر)
قال: (لاتخافي. . . . مع السلامة. .)
ورجع إلى صاحبه فقال: (ألا تزال واقفاً؟ لماذا لم تعد إلى البيت؟ ما فائدتك هنا؟)
فسأله: (ماذا صنع الله بك؟)
قال: (وكيف يعنيك هذا؟ أي دخل لك فيه؟)
قال: (قل لي بالله!)
قال: (ولاتشمت؟ لا في السر ولا في الجهر؟)
قال: (أو أخفقت؟؟؟ مبارك! مبارك! الحمد لله!)

ابراهيم عبد القادر المازني

كيف استجبت للرسالة؟

للأستاذ محمد محمود جلال

كان لمجلة (البيان) في نفسي مكانة، وكان لها في أفق الثقافة المصرية مكان. وكنت ما اشتركت فيها أحس من نفسي اغتباط من يؤدي واجباً، ولا أنكر ما شملني من سرور يوم نشر الشيخ البرقوقي مقالي الاول بها

ولما احتجبت أحسست لها وحشة، وأحسست في جوي بشيء ينقصني، ثم طلبته في مجلداتها الاولبى، وإذا أتيت عليها وأخذت نفسي بترتيبها ووضعها في مكان خاص من المكتبة خلجني سرور الوفاة بالعهد. ولم يزل لها مكانها وما زلت أذكر بالخير عهدها لم أكتب في مجلة منذ احتجابها، وفي فترات متباعدة كتبت في المحروسة، واللواء، والمقطم. وكنت طوال الوقت اتمنى على الله للبلاد مجلة تسد الفراغ وتأخذ بيد الثقافة

وما كنت لاغمط المجلات الاخرى فضلها على العلم والأدب والتاريخ، ولكني كنت دائم الأحساس بحاجة البلاد لمجلة تقوم على أساس من الروح المصرية، وإحياء الصالح من التقاليد الأسلامية، فتصل العهدين وتنبه الجيل إلى تراث الأولين

ملكت الأمنية على شعوري حتلا فكرت عام 1926 مع صديقي اسماعيل مظهر وصديق ثالث في تنفيذ الفكرة برغم مشاغلي وما قد يكون بين عملي وبين ما أعتزم من فوارق ظاهرة. ووصل بنا الحرص على التوفيق بين الأمرين إلى أن نعتزم إصدارها كل ثلاثة أشهر، ولكن حتى هذه لم تتم!! فقد تعجل صديقنا الأمر وأظهر مجلة (العصور) فجاءت أبعد ما تكون عن الأسس التي قدرنا

لكن الله سبحانه وتعالى قدر للأمنية أن تتحق - وتحققت بالفعل قبل أن أتصل بالرسالة

بعام ونيف، ولكني حرمت هذا الخبز السار حتى كان رأس العام الهجري الحالي فأراد الله أن يجعل سروري مضاعفاً، فأتلقى الخبر في خير عيد للمسلمين، بل للأنسانية جميعاً

فبينما أجتاز ميدان الأزهار إذ سمعت بائع الصحف ينادي بالرسالة، وإذا بي مقبل على شرائها، فيطالعني العنوان، وإذا بين يدي عدد ممتاز خص به العام الهجري، وشرف العدد بأكثر ذكريات التاريخ

طربت حقاً - لأني أعلم أن هذا التقليد الصالح أهمل منذ الحرب الأخيرة بعد أن كان سنة تحييها أكثر الهيئات - وطربت لأني أخذت أولادي وبيئتي بالاحتفال بالعام الهجري، فأدخر لهم ليومه خير المكافآت و (اللعب) ايقاظاً لهم، وتقريباً للمعنى الى عقول الصغار

وإني أقرر اليوم أني إلى ذلك التاريخ لم أكن أعرف عن صاحب الرسالة شيئاً، ولم أكن رأيته، ولم يصلني به وبأكثر النخبة الصالحة من معاونيه غير الآثار القلمية الرائعة أمتع بها ذهني بين فرصة وأخرى

فلما قرأت العدد التاريخي شعرت بما خفق له قلبي طرباً، وأحسست بالفراغ يملأ وبالثغرة تسد

إنما تنشد للبلاد مجلة تنشر مفاخر السلف الكرام فلا ينقطع ما بيننا وبينهم فتصل المنطق. إنما تمنينا مجلة تنشر الصالح قديماً كان أو حديثاً، تخرج لنا في لغة سهلة راقية ما يأخذ بيد الأخلاق من عثرتها، ويكبح جماح الشهوة والغرور، ويزيل الغشاوة عن الأبصار، فيبدو لشبابنا الأسلام كما هو، والأدب العربي كما هو، وهما أساس الثقافة لمصر الحاضرة ولا أساس غيرهما

وما دت أظفر بهذا الكنز حتى سارعت به الى أولادي أقرهم ما يتفق وما يحيون من ذكرى، وأشرح لهم بعض ما يصعب على أذهانهم - ثم سارعت أكتب الى صصاحب الرسالة مشجعاً دون سابق تعارف، معتقداً أن السكوت بعد ذلك هرب من صفوف الجهاد، ووعدت في كتابي أن أنتهز فرصة فراغ لأعود للترسل اذا أتيح لي أن تشرُف رسائلي بمثل هذا المكان الكريم

جاءني الرد بعد قليل فاذا به آية على اختصاره، وإذا بي ألمس في كاتبه صدق الأيمان في كل مسعى ومقصد

أتيح لي في شهر سبتمبر ان أزور دار الرسالة فأسعد بلقاء صاحبها، وإذا بي ألمس في كل قول وفي كل حركة إيماناً صادقاً وأدباً رائعاً جذاباً

استجبت (للرسالة) الغراء وكلها هدى ونور وفي يقيني أنها في البلاد ثالثة أعلام النهضة، فبجانب (مصنع المحلة) في ميدان الاقتصاد، و (مستشفى المؤاسة) في عالم البر والتعاون، تقوم (الرسالة) حمى الأدب العربي وتراث الاسلام

واذا ان الله تعالى أكرم البلاد بهذه المجلة، فقد أكرم المجلة بثوب الأخلاق الكريمة الذي أضفاه على صاحب الرسالة، ولن تنجح رسالة بغير خلق

فالى الأمام أيها الصديق، وإلى الأمام يا خير الصحف. إنما عيد الرسالة عيد للثقافة العالية، والدين القويم، والخلق الكريم

محمد محمود جلال المحامي

بين عامي نشيد الوداع. . . . . للأستاذ علي الطنطاوي

مالت الشمي الى المغيب، ولم يبق من أشعتها الذهبية إلا خيوط قليلة، تنفذ من (1) بين قطع الغمام المتناثر حيال الأفق. . . . تقلى على العالم نظرة الوداع، وتقبل جبينه الخاشع قبلتها الأخيرة. . . ثم تجود بذمائها الباقي، وتلفظ نفسها الأخير - كما يلفظ نفسه هذا العام الراحل!

(2) وكنت أطل من شرفة منزلي - ومنزلي في شارع بغداد: على شاطيء الغوطة، معني الغساسنة، وجنة الدنيا، وملهمة الشعر شعراء العرب الأقدمين - أطل على بساتينها الفيحاء، وجناتها الواسعة، التي تحف به من جهاته الأربع، فأرى الكون في حزن وكآبة، وأرى على جهه صفرة تبدو على أوراق الخريف الزاوية الهشيمة، وفي عينيه دمعة تترقرق، تلوح في طيات هذا المزن الراقراق، وأسمع لقلبه وجيباً، يسمع من هذه الأغصان التي يتلاعب بها النسيم. . . ثم أنظر إلى نفسي، لإرى فيها عالماً آخر. . . ولكنه مفعم بالكآبة والغم، كذلك العالم!

(3) أطلت التحديق في هذه المشاهد - فلم تنفرج لي شفتاها عن الابتسامة التي أحن إليها وأرقبها. . . . وكنت قد عزمت على المضي في هذا التحديق، حتى أرى هذه الابتسامة،

فأحتفظ بها بين أحناء ضلوعي، وفي مثوى الذكريات من نفسي ذكرى سارةً، تخفف من لوعة الذكر الكثيرة المؤلمة لهذا العام الراحل. . . . لكن عزيمتي قد ونت، وأيقنت أن قلبي المحطم اليائس لا تشرق عليه أشعة الابتسامات

(4) دنت قافلة الحياة السائر في بيداء الزمن من محطها،

فتباطأت في سيرها، وقاربت خطوها، فامسيتُ أشعر بطول

هذه الساعات الباقية في عمر العام ورحت أرقب عقرب

الساعة المائلة أمامي، فلا أراه يتحرك. . فضجرت وتألمت،

. . .وأحسست كأن هذا الفلك يدور وهو عاتقي

(5). . . بعد ساعة واحدة يُتم الفلك دورة جديدة من دوراته التي لا تحصى. فلا يترك بعدها إلا أنقاضاً مهدمة، وأجساداً محطمة، وقلوباً مهشمة، كأنما هو رحي تطحن الأمم والشعوب. . . ثم يخرج منها النداء أن: لِدُوا وابنوا وأملوا. . . ولكن للموت والخراب واليأس!

بعد ساعة واحدة، ينقضي هذا العام، فتبتلعه هوة العدم، ويفتح الماضي ذراعيه، ليضمه إلى الأعوام الكثيرة التي مرت من قبله، ويؤلفها (رزمة) واحدة، ثم يلقيها في بحر الأبدية. . . ثم تفنى عند جلال الله الباقي

بعد ساعة واحدة، يدع هذا العام مكانه من الوجود للعام الجديد، ثم يهذب فيتبوأ مكانه من عالم العدم!

(6) بعد ساعة واحدة تختم من هذا العام صفحة كتبت أكثر سطورها بدموع المظلومين، لتفتح صفحة أخرى، لا ندري عنها شيئاً، ولكن فيها ألم وفيها سرور، وفيها أمل وفيها خيبة، وفيها ضحك وفيها باء. . . . والقدر يضحك ابداً من هذا الانسان، لأنه يراه الظالم ويراه هو المظلوم!

. .ما الانسان إلا عدو الانسان

يكتب القوى سيرة حياته، ويملأها بآيات التجليل والثناء، ولكن مدادها دموع الاشقياء، ودماء الابرياء. . .؛ وينشيء القوى صرح مجده، ويرفع ذرى عظمته، ولكن أساسه جماجم المظلومين، وعظام الشهداء؛ ويملأ القوى بالذهب خزانته، ولكن دراهمها قد جمعت من أيدي اليتامى، وأفواه الفقراء

(7) بعد ساعة واحدة، تحط القافلة رحالها، فتلتفت إلى الوراء فلا نرى إلا ظلاماً، يلمع في وسطه نجم من الذكرى، نتبين فيه (العلم المربع الألوان) وهو يخفق على دمشق، فتخفق قلوبنا لجلال الذكرى، ومرارة الفقد! فنحول أبصارنا إلى الأمام فلا نرى إلا الظلام. ولكن. . . ما هذا النور الذي ينبعث من الأرض فيذهب صعداً في السماء، فيهدينا الطريق، ويترع نفوسنا قوة وأملاً؟ لقد علمت: هذا بريق الدماء التي سقينا بها صحراء ميسلون، وجنان الغوطة، لقد علمت: لايزيح ظلمة المستقبل، إلا هذا النور. . . الأحمر!

(8) تزين الناس ولبسوا أحسن ثيابهم، وراحو يهنيء بعضهم بعضاً، لقد امتلأت بهم الأسواق والشوارع، والبيوت والمجامع، لقد ناءت برسائلهم قطر البريد، حتى ما ترى حيثما كنت إلا ثغوراً تبسم، وما تسمع إلا مقالة تقال: كل عام وأنتم بخير.

. .كل عام وأنتم بخير

غير أني لا أفقه من هذا كله شيئاً!

(9) فيم الهناء؟ وعلام السرور؟. . أيهنأون بتلك الأرواح التي دفعناها ثمن الحرية، فكان

للبائع الثمن والبيع؟ أم بالنفوس الكبيرة التي أزهقها الأقوياء، أم بالمنازل التي خرجوا؛ أم بالدور التي أحرقوا، أم بالحق الذي غصبوا، أم بالحرمات التي انتهكوا؟. . . أم بالأزمة العامة، والتجارة الاسدة، والصناعة العاطلة، والزراعة البائرة، والأخلاق الضائعة، والرجولة المفقودة، والحدود المستباحة، والجهالة المنتشرة؟. . . .
أما إن أشد البلاء، ألا نشعر بالبلاء! وأكبر المصيبة أن نجهل أنها المصيبة! فما لهؤلاء الناس وماذا اعتراهم؟ أيفرحون بهذا كله؟. . . .
إني لا أفقه من هذا كله شيئاً!
عزفت عما فيه الناس، ورحت إلى شرفتي كئيباً، وكان الظلام قد ملأ الكون، كما (10) ملأ جوانب نفسي، فغشيني ذهول عميق، وانطلق لساني يقول:
* * *
أيها الراحل المودع!
لقد كانت لنا آمال، صببناه على قدميك يوم خرجنا لاستقبالك، وكنا كلما انقضى من عمرك يوم ولم تتحقق ارتقبنا بها يوماً آخر، وهذا يوم لا آخر له، فأخبرنا عن آمالنا، ماذا صنعت بها، أدست عليها فحطمتها وقطعت طريقك على رفاتها؟
أيها الراحل المودع!
لقد أودع أسلافنا عند أسلافك أمانة، هي المجد العربي، والعزة الاسلامية، فضاعت في بيداء الزمن، وانطلقت الأعوام وانلقنا وراءها نفتش عنها وننشدها، ولن ني ما بقي في الزمان عام، وبقي منا إنسان، فأخبرنا هل مررت عليها، وهل عرفت أي عام يحملها الينا؟. . . .
إنك ستجتمع في عالم الأبدية بالأعوام التي سبقتك، ومرت بنا قبلك، فهل لك إذا اجتمعت بعام الدماء والدموع، عام الثورة. . . أن تبلغه يلامنا وتحياتنا، هل تحمل الى تلك الأرواح الظاهرة شوق أبنائها وإخوانها؟. . . ألا قل لها تهدأ وتطمئن، فانا لن ننسى، لن ننسى. . إن ذكرى الدم المفسوح لا تنسى ابداً!
وبعد يا أيها الراحل المودع!
أنبئنا مذا يحمل هذا القادم المسلم، هل يحمل الينا تحقيق الآمال وبلوغ الأماني؟ أم يحمل الشقاء والخراب والفقر والآلام والدموع والدماء كاخوانهالخمسة عشر عاماً، التي مرت على سورية؟
أنظر ماذا خلفت فينا، أنظر الى مدينتنا، لقد جعلتها - في ظل المتمدنين - أطلالاً وخرائب، لقد جعلت أهلها فقراء بائسين. . . انظر هذه هي خرائب الدرويشة والميدان؛ وهذه قلاع المزة وقاسيون. .
ولكن لا بأس أيها العام لابأس؛ إن أرضاً تسقة؛ (الماء الأحمر!) لابد أن تنبت (الحرية الحمراء). . . وإننا لن نيأس أبداً
* * *
وأفقت من ذهولي، وكان وهن من الليل، وكانت اللحظة الاخيرة من العام الراحل، فأرسلت في فضاء الله الواسع زفرة طويلة، ثم رفت رأسي شطر السماء وقلت:
- سبحانك لا اله إلا أنت. . . هذا قضاؤك يا الله!
وتبددت اللحظة الاخيرة من العالم، تبدد الحروف الاخيرة من مقالتي، ولم يبق في الوجود، إلا. . . . اسم الله
باسم الله نستأنف العمل، والله المستعان!
علي الطنطاوي
ظواهر متماثلة
في تاريخي الادبين العربي والانكليزي
للأستاذ فخري أبو السعود
لا يكاد يكون بين الأدبين العربي والانجليزي من وجوه التشابه إلا الأمور العامة التي يتفق فيها كا أدبين يعبران عن نوازع النفس الانسانية، وهما فيما عاد ذلك مختلفان جد الاختلاف، وهذا راجع الى أمرين: أولهما اختلاف الأمتين في الجبلة والبيئة: فهذه أمة شرقية سامية هرجت من جزيرة صحراوية وولاثت الدول الشرقية القديمة، وتلك أمة غربية آرية خرجت من جزيرة شمالية وشاركت في تراث الدولة الرومانية، وثاني الأمرين اختلاف قسطي الأدبين من التأثر بالثقافة اليونانية: فبينما كان تأثر الأدب

العربي بها قليلاً غير مباشر تأثيرها في الأدب الانجليزي شاملاً غامراً للأصول والفروع، فكتسب ذلك الأدب الانجليزي شاملاً ظل الأدب العربي بعيداً عنها
ولكن هنا ظواهر في تاريخ الأمتين والأدبين متمائلة أدى إليها تمائل وقتي في الظروف وأدت الى نتائج متمائلة: فعصر الجاهلية في تاريخ الادب العربي شبيه بعصر ما قبل اليزابث في التارريخ والأدب الانجليزي. ففي ذينك العصرين كان كل من الشعبين يعيش داخل جزيرته في عزلة كبيرة عن العالم على حال شبيهة بعصر الأبطال في بلاد اليونان الذي أنتج ملاحم هوميروس. وكان الأدبان تبعاً لذل جافيين، وعْرى الأسلوب واللفظ، ساذجي المعني، بعيدين عن الصناعة الفنية، وكانا أقل رقياً من الأدب الذ جاء في العصر التالي. والواقع أن الشبه هنا وبين الجاهلية المصرية وعصر الأبطال اليواني كبير: ففي الجاهلية كان العرب منقسمين قبائل وعشائر متناحرة كما كانت البلدان والعشائر اليونانية،
وإن كانت تحس بقوميتها العرية العامة متمثلة في لغتها وفي مجامعها السنوية في الأسواق وفي الحج الى مكة، كما كان اليونان يجتمعون في المواسم الأولمبية ويحجون الى دافي، وفي تميزها على الأمم الاخرى التي كان العرب يسمونهم عجماً كما كان اليونان يعتبرون مَن عَداهم برابرة، وإن يكن العصر الجاهلي لم ينتج ملاحم باراً كالألياذة والأوديسا في اليونان أو كملحمة (بيولف) في انجلترا، فان قصائده على قصرها هي من هذا الضرب. ولعل العصر الجاهلي لو طال قليلاص لا ئتلفت تلك القصائد الصغيرة التي تمجد كل منها قبيلة واحدة، فكونت ملحمة كبرى تتغنى بفروسية الأمة العربية قاطبة
ونهضة العرب بظهور الاسلام تماثل نهضة الانجليز في عصر اليزابث بوصول النهضة الأوربية الى انجلترا واتجاه نظر الانجليز الى ما وراء البحر؛ ففي كلا العصرين بدأت كل من الأمتين تخرج من محيط جزيرتها وتشب عن طوق عزلتها وتتصل بالعالم وتصطنع حضارته وتبنى لنفسها امبراطورية مترامية الاطراف، وارتقى أدبها من جراء ذلك ارتقاء عظيماً ورقت ديباجته، وإن يكن الرقي الادبي في صدر الاسلام قد تمثل في النثر بينما تمثل في العصر الاليزابثي في الشعر ولاسيما الشعر التمثيلي
وبانبعاث هذه النهضة وقيام هذه الدولة انتسرت كلتا اللغتين فيبقاع الأرض وافتتحت آدابها كثيراً من الأمم؛ فاللسان العربي الذي لم يكن يتجاوز حدود الجزيرة في الجاهلية سار يتكلم من حدود الصين الى المحيط الأطلسي، وأثر في لغات وأزال غيرها وحل محلها، وأصبح اليوم لسان شعوب كثيرة في آسيا وأفريقة. واللغة الانجليزية التي لم يكن يتكلمها إلا ملايين تعد على الأصابع في عهد شكسبير أصبحت تُتكام وتدرس في مشارق الأرض ومغاربها، وأصبح أدبها عالمياً كما كان أدب العرب عالمياً على عهد عظمتهم
ولم تكد كل من الأمتين تود أركان امبراطوريتها حتى انسلخ عنها جانب من أملاكها ونما مستقلاً حتى طاولها في النفوذ والسلطان، وداناها في ازدهار اآداب والعلوم، فكما انفصلت الأندلس عن الخلافة العربية استقلت الولايات المتحدة الأمريكيو عن الامبراطورية البريطانية؛ بيد أن البلاد الأصلية احتفظت بالزعامة الأدبية على طول الذي فلم تنجب الاندلس من الأدباء من بذلوا فحول العباسيين، ولا ظهر في أمريكا ولا غيرها من أنحاء الامبراطورية البريطانية من داني شكسبير وملتون
وباتصال كل من الأمتين بالأمم المتحضرة سَرَت إليها موجة عدوى من دواعي الترف وبدأ أثر ذلك في أدبها: فاختلاط العرب بالفرس أدخل الترف والعبث في البلاط العباسي وأثر في جيل أبي نواس من الشعراء، واتصال الانجليز بفرنسا في ظل ملكها المترف لويس الرابع عشر أفسد بلاطهم على عهد شارل الثاني وبان أثر ذلك في الأدب ولاسيما في الرواية التمثيلية
وكلا الأدبين تأثر إلى حد بعيد بالكتاب السماوي الذي تدين به أمته؛ فأثر القرآن في المجتمع العربي وتاريخ اللغة العربية وأصولها وآدابها وثقافة أدبائها وأساليبهم جسيم بين الجسامة، فقد كان منذ جاء مثلاً أعلى وثقافة قائمة بذاتها؛ والانجيل منذ ترجم إلى الانجليزية في عهد الاصلاح الديني له اليد الطولي في تثبيت الأسلوب النتثري الانجليزي، وتثبيت مفردات اللغى، وإدخال مفردات جديدة واشتقاق غيرها، واختراع طرق للاشتقاق أ

لم يأخذ العرب عن اليونان ولا عن غيرهم أخذاً بالجملة ما صنع الانجليز، بل ظلوا غب زمانهم شامخين بأدبهم ينظرون من عليائه إلى من حولهم من أمم وما لها من آداب؛
أما عهد الاخذ بالجملة في تاريخ الأدب العربي فهو عصرنا الحاضر الذي يُسع فيه أدباؤنا اللغات الغربية دراسة ونقلاً ومحاكاة، فيُغنون أدبنا أي إغناء، ويخصبونه بالعنصر الأجنبي
الذي كان يعوزه
هذه ظواهر يتقارب فيها تاريخا الأدبين لتقارب في ظروف
الأمتين في شتى العهود، أما ظواهر التباين فلا تكاد تعد؛
ويجب حين نقابل بين التاريخين أن نذكر أن دولة العرب أقدم
عهداً وأدبهم أعرق محتداً، وأن دولتهم وأدبهم قد غبر الفصل
الاول من قصتهما، وهما اليوم في طور بعث جديد أما الدولة
والأدب الانجليزيان فما يزالان في الفصل الأول
فخري أبو السعود
محاورات أفلاطون - 8
الحوار الثاني
كريتون أوجب المواطن
ترجمة الأستاذ زكي نجيب محمود
أشخاص الحوار: سقراط. كريتون
مكان الحوار: سجن سقراط
سقراط - وستقول القوانين بعدئذ: (اعلم يا سقراط، إن صح هذا، أنك بهذه المحاولة إنما تسيء الينا، لأننا بعد إذ أتينا بك الى الدنيا، وأطمعناك وأنشأناك وأعطيناك كما أعطينا سائر أبنا الوطن قسطا من الخير، ما استطعنا للخير عطاء، فقد أعلنا فوق ذلك على رءؤس الأشهاد أن من حق كل اثنيني أن يرحل الى حيث شاء حاملا متاعه معه، إذا هو نفر منا بعد أن تقدمت به السن فعرفنا حق المعرفة وعرف على أي الأسس تسير المدينة، وليس فينا نحن القوانين ما يحول دونه أو يتدخل معه في أمره، فلكل منكم إذا ما كرهنا وكره المدينة، وأراد الرحيل الى إحدى المستعمرات أو الى أية مدينة أخرى، أن يذهب حيث شاء، وان ينقل متعاه معه؛ أما ذك الذي عركنا فعرف يف نقيم العدل وكيف ندير الدولة، ثم رضي بعد ذلكالمقام بيننا، فهو بذلك قد تعاقد ضمناً علي أنه لابد فاعل ما نحن به آمرون. فمن عصانا، ونحن ما نحن، فقد أخطأ مرات ثلاثاً: الأولى أنه عصى والديه بعصيانه إيانا، والثانية أننا نحن الذين رسمنا له طريق نشأته، والثالثة أنه قطع معنا على نفسه عهداً أنه سيطيع أوامرنا، فلا هو أطاعها، ولا هو أقنعنا بأنها خاطئة، ونحن لا نفرضها عليه فرضاً غشوماً، ولكنا نحيره، فلما طاعتنا وإما إقناعنا. هذا ما قدمناه إليه، وهذا ما رفضته جميعاً.
تلك هي صفوف المآخذ التي ستقيم من نفسك هدفاً لها يا سقراط إذا أنت أنجزت عزيمت، كما سبق لنا بذلك القول. ولاسيما أنت دون الآثينيين جميعاً) وهب أني سألت ولم هذا؟ فستجيب حقاً بأنني قد سلمت بهذا الاتفاق دون سائر الناس. ستقول القوانين (إن ثمت لبهاناً ساطعاً يا سقراط، بأننا والمدينة معنا لم نكن لنعكر عليك صفو العيش، فقد كنت أدوم الآثينيين جميعاً مقاماً في المدينة: لم تغادرها قط، حتى ليجوز لنا الفرض بأنك كنت تحبها؛ إنك لم تغادرها مطلقاً لتشهد الألعاب، اللهم إلا مرة واحدة حين ذهبت لترى البرزخ. ولم تفصل عنها لتقصد إلى أي مكان آخر، إلا إذا كنت في خدمة الجيش، ولم تسافر كما يسافر
الناس، ولم يدفعك حب الاستطلاع إلى رؤية الدول الأخرى لتلم بقولنينها، فقد اختصصتنا بحبك لم تجاوز به حدود دولتنا، فكنا نحن أصفياءك المخلين، وقد رضيت بحكمنا إياك. إن هذه هي الدولة التي أعقبت فيها أناءك، وإن ذلك لينهض دليلاً على رضاك. هذا وقد كنت تستطيع لو أردت أن تقرر عقوبة النفي أثناء المحاكمة - وإن كان الآن ثمت دولة تغلق دونك أبوابها فقد كانت حينئذ تسمح بذهابك إليها، ولكنك ادعيت أنك تؤثر الموت على النفي، وأنك لم تبتئس من لموت. ولكن هأنت ذا الآن قد أنسيت تلك العواطف الجميلة، وترفض أن تحترمنا - نحن القوانين، التي أنت هادمها، وإنك الآن لتفعل ما لا يفعله إلا العبد الخسيس، فتولي أدبارك هارباً من العقود والعهود التي

قطعتها على نفسك باعتبارك واحداً من أبناء الوطن؛ فأجب لنا أولاً عن هذا السؤال: أنحن صادقون في القول بأنك اتفقت على أن تُحكم وفقاً لنا، بالفعل لا بالقول فقط؟ أهذا حق أم كذب؟ بماذا نجيب عن ذلك يا كريتون، ألسنا مضطرين إلى التسليم؟
كريتون - ليس عن ذلك منصرف يا سقراط
سقراط - أفلن تقول القوانين إذن: (إنك يا سقرط ناقض للمواثيق والعهود التي أخذتها معنا على نفس اختياراً، فما كنت في أخذها عجلان ولا مجبراً ولا مخدوعاً، ولكنك لبثت سبعين عاماً تفكر فيها، وكنت خللها تستطيع أن تغادر المدينة إن كنا لم نصادف من نفسك قبولاً، أو كنت قد رأيت فيما اتفقنا عليه احجافاً بك. كنت في ذك مخيراً، وكان في مقدورك أن ترحل إما إلى لا قيديمون أو إلى كريت اللتين كثيراً ما امتدحتهما لحسن حكومتيها، أو ترحل إلى أية دولة أجنية يونانية أخرى. ولكنك كنت تبدو أكثر من سائر الأثينيين جميعاً، شغوفاً بالدولة، أو بعبارة أخرى، بنا - أي بقوانينها (إذ من ذا الذي يحب دولة لا قوانين لها) فلم تتزحزح عنها قط، ولم يكن العُمى، والعُرج، والمقعدون، بأكثر منك قبوعاً بها؛ وهأنت ذا الآن تفر ناقضاً ما قطعته من عهود. ما هكذا يا سقراط إن أردت بنا انتصاحاً، لا تضع نفسك بهروبك من المدينة موضع الشخرية وحسبك أن ترى أي خير تقدمه لنفسك أو لأصدقائك، ان أنت اعتديت أو أخطأت على) هذا الوجه؟ أما أصدقاؤك فالأرجح أن يشردوا نفياً، وأن يسبو حق انتسابهم للوطن أو أن يفقدوا أملاكهم. أما عن نفسك أنت، فلو تسللت إلى إحدى المدن المجاورة، إلى طيبة أو ميفاراً
مثلاً، وهما مدينتان تسيطر عليهما حكومة حازمة، فستدخلهما عدواً يا سقراط وستناصبك حكومتاهما العداء، وسينظر اليك أبناؤهما الوطنيون بعين ملؤها الشر لأنك هادم للقوانين، وسيقر في عقول القضاة أنهم كانوا في إذانتهم إياك عدولاً. فأغلب الظن أن يكون مفسد القوانين مفسداً للشبان، وأن يكون بلاء ينزل بالغفلة على بني الانسان.
فلم يبق لديك إلا أن تفر من هذه المدن المنظمة ومن ذوي الفضل من الرجال، ولكن أيكون الوجود حقيقياً بالبقاء على هذه الحال؟
أم أنك ستغشى هؤلاء الناس في صفاقة يا سقراط لتتحدث اليهم؟
وماذا أنت قائل لهم؟ أفتقول ما تقوله هنا من أن الفضيلة والعدالة والتقاليد والقوانين أنفس ما أنعم به على الناس؟ أيكون ذلك منك جميلاً؟ كلا ولا ريب. أما إن فررت من الدول ذوات الحكم الحازم، الى تساليا حيث أصدقاء كريتون، وحيت الاباحية والفوضى، فسيجدون متعاً في قصة عروبك من السجن، مضافاً اليها ما يبعث على الشخرية من التفصيل عن كيفية تنكرك في جلد عنزة أو ما عداه من أسباب التنكير، وعما بذلته من ملامحك كما جرت بذل عادة الآيقين - ليس ذلك كله ببعيد، ولن ألن تجد هناك من يذكرك بأنك وأنت هذا الشيخ الكهل، قد نقضت أشد القوانين تقديساً، من أجل رغبة حقيرة في إستزادة الحياة زيادى ضئيلة؟ قد لا تجد إذا استرضيتهم، ولكن لا تلبث أن تثور منهم سورة الغضب، حتى يصكوا مسمعيك با يجللك عاراً. إنك ستعيش، ولكن كيف؟ - متملقاً للناس جميعاً وخادماً للناس جميعاً. وماذا أنت صانع؟ - ستأكل في تساليا وتشرب، لأنك قد غادرت البلاد لكي تصيب في الغربة طعاماً لغذاءك، وأين ترى ستكون تلك العواطف الجميلة التي تبدلها حول العدل والفضيلة؟ قل إنك راغب في الحياة من أجل أبنائك لتتعهدهم تربية وإنشاء - ولكن أأنت مصطحبهم الى تساليا، فتقضي عليهم بذلك ألا يكونوا أبناء الوطن الأثيني؟ أذاك ما سمنحهم إياه من نفع؟ أم أنت تاركهم واثقاً بأنهم سيكونون أحسن رعاية وتربية مادمت أنت حياً، حتى ولو كنت غائباً عنهم، إذ يعني بهم أصدقاؤك؟ هل تخيل لنفسك أنهم سيعنون بهم ما أقمت في تساليا، أما إن صرت من أهل العالم الآخر، فلن يعنوابهم؟ كلا، فان كان من يسمون أنفسهم أصدقاء، أصدقاءك حقاً، فانهم لاشك معينون بأبنائك
اصغ إلينا إذن يا سقرا، نحن الذين أنشأناك. لا تفكر في الحياة والأبناء اولاً، وفي) العدل آخراً، بل فكر في العدل أولاً، وارج أن تصيب البراءة عند ولاة العالم الأسفل. فان فعلت ما يأمرك به كريتون، فلن تكون أنت ولا من يتعلق بك كائناً من كان، أسعد أو أقدس أو أعدل في هذا الحياة ولا في أية حياة أخرى , فأرحل الآن بريئاً، مجاهداً لا فاعلاً للرذيلة، ضحية الناس لا ضحية القوانين. أما إن صممت أن ترد الشر بالشر

والضر بالضر، ناقضاً ما قطعته أمامنا على نفسك من عهود ومواثيق، مسيئاً إلى أولئك الذين ينبغي ألا يمسهم من إساءتك إلا أقلها، أعني نفسك، وأصدقائك، ووطنط، ونحن، فسننقم عليك ما دمت حياً، وستستقبك قوانين العالم الأسفل، وهي إخوتنا، عدواً، لأنها (ستعلم أنك لم تدخر وسعاً في هدمنا. اصغ إذن إلينا، لا إلى كريتون

هذا هو الصوت الذي كا، ي به يهمس في مسنعي، كما تفعل نغمات القيثارة في آذان المتصوف. أقول إن هذا هو الصوت الذي يدوي في أذني، فيمنعني من أن أستمع الى أي صوت سواه وإني لأعلم أن كل ما قد تقوله بعد هذا سيذهب أدراج الرياح، ومع هذا، تكلم إن كان لديك ما تقواه

كريتون - ليس لدي ما أقوله يا سقراط

سقراط - ذرني إذن أتبع ما تةحي به إلى إرادة الله

زكي نجيب محمود

انتهى الحوار الثاني، وسننشر الحوار الثالث ابتداء من العدد الآتي.

التصوف الأسلامي بقلم سليمان النابلس

توطئة

يدبأ الدين في أول أمره عقائد راسخة ومناسك ثابتة لاتسامح في أوامره ولا هوادة في نواهيه. ثم لا تلبث - بعد أن يتطاول الزمن وتمر السنون - أن تلين العريكة وتأخذ المياسرة مكان المعاصرة فيدب الشك الى العقائد الموروثة والسنن المرعية؛ إذ ذاك يبحث الانسان عن عقيدة تسوي ما بين نفسه وبين الكون تسوية مقبولة يرتضيها العقل ويقرها المنطق، وعندئذ تنشأ الصوفية

والصوفية منحى في الفكر، لا بل في الشعور ويصعب تحديده، يظهر في محاولة العقل الانساني تفهم الطبيعة الروحية لحقيقة الأشياء، ويبرز في بِشر المرء وسروره بنعمة الارتباط الروحي مع الخالق العظيم

معنى لفة صوفي

لقد تباينت الآراء وتضاربت الأهواء في المصدر الذي اشُتقت منه لفظة صوفي، فمن قائل إنها من الأصل اليواني (سوف بمعنى حكمة كما ذكر أبو الريحان البيروني في كتاب الهند، ومن قائل - وهم الصوفيون أنفسهم - من صفا صفاءً. قال أبو الفتح البُستي

تنازع الناس في الصوفي

قدماً وظنوه مشتاً من الصوفِ

ولست أنحل هذا الإسم غير فتىً

صافي فصوفي حتى لُقب الصوفي

وذهب آخرون الى أنها متحدرة من معنى ديني، فينسبونها الى أصحاب (الصفة) وهم قوم من الصحابة كانوا يجلسون على باب المسجد يوزعون الصدقات على الفقراء. على أن الرأي الأكثر شيوعاً والأقرب للعقل والمنطق هو نسبتها الى (صوف) أي الى ظاهر اللباس. فأبو نصر السراج مؤلف كتاب اللمع - وهو أول كتاب ظهر عن الصوفية - يقول: (إن لبسة الصوف دأب الانبياء وشعار الأولياء، فلما اضفتهم الى ظاهر اللبسة كان ذل اسماً مجملاً عاماً. . . .)

وقد أيد العلامة (نوالدكه) هذه النظرية وشاركه في الرأي العالم الانجليزي الشهير (برون وان مما استدل به على ذلك الكلمة الفارسية (باشمينابوش) التي يسمون بها عادة، ومعناها اللفظي (لا بسو الصوف) وجبب الصوف كانت منذ القدم علامة الحياة البسيطة الساذجة

منشأ التصوف الاسلامي

يرجع بنا البحث عن منشأ التصوف الاسلامي الى الحركة الزهدية التي قامت في القرن الأول للهجرة تحت التأثير النفسي العميق المتكشف عن خوف من الله تعالى يوجب التسليم لأرادته سبحانه والانقياد لمشيئته. وعلى هذا يجمل بنا أن نبحث التصوف في طورين مختلفين

1 - طور الزهد: لم يكن لتصوف في هذا الطور نظاماً فلسفياً ولا مسلكاً دينياً وإنما هو طريقة في الحياة والمعيشة خاصة، تمتاز بالزهد في الملذات والابتعاد عن الدنيا حباً في الآخرة، فهو إذن إسلامي خالص لا أثر للعوامل الخارجية والعناصر الأجنبية فيه من

نصرانية ويهودية وهندية وفارسية. ول ما هنالك أنه ظهر في صدرالعصر الأموي جماعة من المسلمين رغبوا عن هذه الحياة الاجتماعية الملأى بألوان اللهو والتهتك والخلاعة، وتطلعوا إلى حياة هادئة وفورة مرضية لضمائرهم التي تتشوق إلى الابتعاد عن صغائر الحياة وسخافاتها مطابقة لعقائدهم التي ما زالت شديدة التمسك بالحياة الاسلامية الخالصة من بساطة وسذاجة. زد على ذلك أن الحياة السياسية كانت قلقة مضطربة، فالفتنة قائمة بين الفرق والشيع، والمعارك مستعمرة بين مختلف القادة والأمراء، كل ينشد جاه الحكم ومجد السلطان غير ملتفت إلى ما يجره ذلك من هدر دماء المسلمين وتشتيت كلمتهم ورجوعهم إلى جاهليتهم الأولى. كل هذه العوامل غدت الحركة الزهدية وبعثت في قلوب بعض المؤمنين الميل عن المادة والانصراف إلى العمل الصالح في نفسه وتذكير الناس بأمور دينهم وعقائدهم. ويأتي (نكلسون) العالم الانجليزي الضليع في هذه الأبحاث فيضيف إلى هذه العوامل عاملاً آخر لا يقل عنها قوة وأثراً، ذلك أن الصورة التي يبرزها القرآن الكريم (للخق) عز وجل هي في نفسها تدعو إلى الخوف والرهبة، فهي صورة إآله جبار شديد البطش سريع العذاب. فالشعور بالخوف من جهنم الذي يكتنف قاريء القرآن يدعو حتماً إلى التصوف والزهد واحتقار لمادة والابتعاد عن سبل الضلال

ومن أهم الشخصيات الممتازة في هذا الدور الحسن البصري الذي عُرف بالزهد والورع والرجوع إلى السنة في بساة العيش وسمو الغاية. ومنهم أبو هاشم الكوفي الذي يقال إنه أول من أطلق عليه لقب (الصوفي) وأسس ديراً للمتصوفين في رملة فلسطين. ثم ظهر ثلاثة نفر فيما وراء النهر في فارس في أواخر القرن الثاني الهجري وهم: ابراهيم بن أدهم وشفيق البلخي وفضيل بن عياض، فنرى عندهم بدء نظام فلسفي، فهم يمثلون دور الانتقال من حياة الزهد إلى نظام التصوف الفلسفي، ولعلهم كانوا عاملين على الامتزاج بالتعاليم الهندية الفارسية لقرب موطنهم من هذه البلاد التي كانت تتفاعل فيها هذه المباديء المختلفة. ويظهر ذلك بجلاء عند الزعيمة المتصوفة رابعة العدوية التي كانت كما يقول

نكلسون أول من أدخل نظام الحب الفلسفي والوجد والاتحاد بالله بدل الخوف والرهبة

2 - اطور الثاني: التصوف الفلسفي

لقد أخذ التصوف في هذا الطور شكلاً فلسفياً ونظاماً مستقراً في الدين يميل العلماء إلى نسبته إلى عوامل خارجية من نظريات فلسفية وأديان أخرى. فمن ذلك:

أ - المصدر الهندي: يعتقد بعضهم أن لهذا التشابه بين كثير من العقائد الصوفية في صورها الراقية الناضجة وبين بعض النظم الهندية وعلى الأخص الـ أساساً واحداً ونبعاً مشتركاً يجب أن يبحث عنه في الهند، فان معظم المتصوفة الاول نشأوا في خراسان وظهرت فلسفتهم الصوفية فيها؛ ولعل مبدأ الفناء الذي يندمج فيه المتصوف بالله ويفقد شخصيته الفردية، مستمد بطريقة مباشرة أو غير مباشرة من عقيدة (النارفانا الموجودة في الديانة الهندية

ب - المصدر النصراني: يعتقد المتصوفة أن غاية كل الأديان واحدة، وأنها كلها تصل بالأنسان الى الهدف المقصود والغاية المرجوة، فليس إذن أن يحتك المتصوفون بالرهبان السيحيين، ويمزجوا بهم فيظهر أثر ذلك في تعاليمهم وأنظمتهم، خصوصاً وقد ظهرت هذه النزعة التنسكية الزهدية في الكنيسة المسيحية في القرنين الأول والثاني للهجرة

ج - الافلاطونية الجديدة: ظهر هذا النظام الفلسفي في أوائل القرن الثالث المسيحي على يد (أمونياي ساكاس) وبلغ أوجه في زمن تلميذيه بلاتينيوس وفرفوريوس النحوي شارح تعاليمه. وإذا ما دققنا في تعاليم هذا المذهب الأدبية رأيناها تؤدي حتماً الى التصوف، إذ يعلم أن طريق الخلاص هو بالتجرد التام عن المادة، وأنفصال النفس عنها؛ بذلك يتصل الانسان (بالعقل الأول) اللفظ الفلسفي للحق سبحانه، وينال الغبطة التي يعبر عنها المتصوفون بالفناء. لقد انتشرت هذه التعاليم الفلسفية في العالم الاسلامي، وكان أثرها في الفلاسفة المسلمين واضحاً جلياً

د - فلسفة المعرفة جماعة هذا النظام الفلسفي الذي نشأ بين القرنين الأول والسادس للمسيح يعتقدون أن الايمان وحده لا يكفي للخلاص، بل إن المعرفة هي

متممة. ويعنون بهذا أن يعرف المرء أنه من عنصر إآلهي، وأنه لابد أن يرجع في نهايته إلى هذا العنصر الذي نشأ منه، حينذاك وعندما ينغمس في هذا الاعتقاد تخلص نفسه من شوائب المادة
ويقرب من الله. وقد انتشر هذا المذهب في العراق وفارس وتأثر بالمانوية وأثر فيها فأخذت منه عقيدة الظلمة والنور. أما إنه أثر في العقائد الصوفية فانا نلمس هذا في القول بأن الانسان يُخلق إلهياً، وكلا تقدم في العمر خلع حجاباً إلهياً واستبدا به آخر إنسانياً إلى أن يمر بسبعين ألف حجاب في أرذل العمر. ولا نجاة له إلا باتباع التعاليم الصوفية والانصراف عن المادة إلى الروح، بذلك يسلك طريق النجاة
هذه أهم المؤثرات الخارجية التي عملت على تغذية العقيدة التصوفية الاسلامية وخلقت منها طريقاً فلسفيً خاصاً. وليس من المستطاع رد كل من العقائد التصوفية الفردية الى أصلها الذي استُمدت منه، فعقيدة في مثل هذا الانتشار العظيم ذات مباديء كثيرة ونظم واسعة لايمكن أن تقع تحت تأثير عامل واحد مهما حل شأنه واتفقت الظروف على تقدمته والميل اليه.
كانت الصوفية دائماً مخيرة تنتقى من كل العقائد ما تستهي وتشاء. نظام شامل يمتص ويهضم - بعد بعض تغيير وتحوير - من كافة الآراء والمعتقدات المختلفة حوله، يكتسب أناساً من كافة الملل والنحل من موحدين ومشركين، معتزلة وسنيين، فلاسفة ورجال دين. هذه الاعتبارات كلها تضعنا في موقف دقيق يضطرنا الى القول بأن منشأ الصوفية الاسلامية الفلسفية لايمكن أن يجاب عنه بجواب شاف مريح
سليمان فارس النابلسي (يتبع)
في تاريخ الأدب المصري
ابن النبيه
للأستاذ أحمد أحمد بدوي
أفديه إن حفظ الهوى، أوضيعا ... ملك الفؤاد؛ فما عسى أن أصنعا
من لم يذق ظُلم الحبيب كظلمه ... حلواً فقد جهل المحبة وداعى
يأيها الوجه الجميل تدارك الصبر ... الجميل، فقدعفا، وتضعضعا
هل في فؤادك وحمة لميتم ... ضمت جوانحه فؤاداً مَّوجعاً
هل من سبيل أن أبث صبابتي ... أوأشتكي بلواي، أو أتوجعا
إني لا ستحيي كما عودتني ... بسوى رضاك إليك أن أتشفعا
أغنية شائعة، نستمع إليها، ونطرب لها، ونحفظها، وقليل من هو الذي يعرف أن قائلها أبن النبيه الشاعر المصري الذي أحببنا أن نحدثك عنه اليوم
- 1 -
يذر التاريخ ولاينسى لصلاح الدين وخلفاء صلاح الدين أنهم هم الذين حموا ذمار الشرف من غارة الأوربيين الذين كانوا يمنون النفس بالآمال الكاذبة في الشرق وامتلاك أرضه، فكان العصر عصر حرب وقتال ونضال ونزال بين الشرق والغرب، خرج منه الشرق ظافراً منتصراً على أيدي ملوك مصر وخلفائهم. ولقد ولد شاعرنا على ما يظهر قبل أن يلي صلاح الدين حكم مصر بقليل، ولنه نشأ لم يعش بمصر طوال حياته، بل تركها إلى أقطار أخرى كانت كذلك تحت حكم الأيوبيين؛ غير أنه على ما يظهر لي - لم يغادر الديار المصرية مرة واحدة، بل كان يزورها في الحين بعد الحين، واستطاع أن يتصل فيها بطائفة من وزراء الدولة وكبار رجالها القاضي الفاضل، وأسعد بن مماتس، وصفي بن شكر.
والراجح عندي أنه لم يغادر مصر إلا بعد أن مات صلاح الدين، فانه حينما خرج من مصر مدح العادل، والعادل لم بل حكم الجزيرة إلا بعد أن مات صلاح الدين، ولذلك فابن النبيه مدين لمصر بتنشئته وثقافته، ومدين لها بالرقة والعذوبة التي تتجلى في شعره، وتأسرك إلى قراءته قسراً، غير أن نفسه الطموح الراغبة في العظمة والمجد بدأت تتطلع إلى نيل

مركز سام ومنصب رفيع، ورأى أن في مصر من العظماء من لا يستطيع قهرهم ولا منافستهم، فحث الخطا إلى الجزيرة حيث يستطيع أن يجد له ميداناً للعمل والتقدم، فاتصل بالملك العادل، ومن بعده اتصل بابنه الملك الأشرف الذي كان يلقب بشاه أرمن لاستيلائه على بلاد الأرمن، وقد اختص بهذا الاخير، حتى إنك إذا قلبت ديوانه وجدت معظمه في مدحه والثناء عليه، وحتى لتوهمك مقدمته أنه إنما جمع قصداً لكي يجمع ما قاله في الملك الأشرف من مدائح. ولقد أصبح أثيراً لديه يستصحبه في رحلاته وتنقلاته، وأصبح ابن النبيه اللسان , المسجل لما يلقاه المليك من خير أو نصر أو حداث هام؛ صار كاتب الانشاء له، يدبج عنه الرسائل، وأحياناً كان يكتبها بالشعر كما سنتحدث بعد. ويقول من أرخ لأبن النبيه: إن له ،شعراً أعذب من الماء الزلال، وأغرب من السحر الحلال ،ونثراً ألطف من كاسات الشمول، وأدق من نسمات الشمال فالنظم والنثر عنده جنتان عن يمين وشمال. . . غير أننا سنقصر كلامنا اليوم على شعره، وإن كنت أرجح أن المقدمة التي في صدر ديوانه، وهي مقدمة نثرية من صنع ابن النبيه فان منها قوله: وأحق الناس بعد الله تعالى بالشكر ملك أشار اليه بنان البيان، وأينع بذكره جنان الجنان، وقلد بذكره القريض فزان الأوزان، عف وعفا، وكف وكفى، وأحيا رفات الوفا، فزمان دولته غض الغضارة، نض النضارة، حلو البشارة، بديع الاشارةن المولى السلطان الملك الأشرف شاه أرمن، سلطان العراق والشام، مظفر الدين ناصر أمير المؤمنين، أبو الفتح موسى اين السلطان الملك العادل سيف الدنيا والدين، أبي بكر بن أيوب خليل أمير المؤمنين، خلد الله ملكه كما خلد في ديوان المحامد ذكره، وخذل بسلطانه أعداء الدين، وأعز نصره، ولما لم يجد مملوك دولته، وغرس فواضله، وربيب نعمته، الفقير إلى الله تعالى أبو الحسن كمال الدين علي بن محمد بن النبيه ما يكافيء به أياديه، ويجاري به إحسانه الذي يخجل الغيث روائحه وغواديه، توفر على استخراج جواهر صفاته من بحر كرمه، ونظم فوائد فوائده فكافأ نعمه بنعمه، وجمعها في هذا الكتاب معترفاً أن الشرف للجوهر لا للناظم، وأن الفضل للبحر الذي أرسل البث على أجنحة الغمائم، وجعله عرضة لنقد الخواطر، وميداناً لجولان قريحة كل متأمل وناظر، وسبيل كل منصف ينظر فيه الايمان بآيات سحره المبين، إقالة العشار فيما لعله يعرض من الخطل الورد على المؤلفين والمصنفين، وليعفوا وليصفحوا، ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم. فاذا أنت قرأت تلك المقدمة من قلم ابن النبيه، واستنبطت منها أموراً أربعة: أولها ،أن القصد من جمع الديوان تسجيل ما قاله في الملك الأشرف ولذلك رتب الشعر، فبدأ أولاً بما قاله في الملك العادل والد الأشرف، ثم ثلث بما قاله في الملك الأشرف، وهو معظم ما قاله من الشعر، ث ذكر ما قاله في غيره من أمراء الأيوبيين والوزراء. ثانيها أن الشعر الذي في ديوان ابن النبيه شعر يقره ويرضاه ويعده سحراً ويفخر بنسبته إليه، ومن أجل ذلك ترى من أرخ له يقول: إن هذا الشعر الذي بين أيدينا ليس بكل شعره وإنما هو اختيار منه، مستدلين على ذلك بأنه شعر بارع جيد يدل على أن صاحبه قد مرن على قول الشعر طويلاً

حتى انقاد له، وأصبح ذلولاً، فحذف منه ما لا يرضي وأبقى
منه هذا الديوان الصغير، الذي اشتمل على جيد شعره (وإلا
فما هذا شعر من لا نظم إلا هذا الديوان الصغير) كما قال
صاحب فوات الوفيات، على أنه على ما يظهر لم يجمع ديوانه
كله، إذ أنك ترى في آخر ديوانه بعض شعر وقصائد ألحقها
به جامع الديوان بعد ابن النبيه. ثالثها أن شعر المدح يجب أن
،ينبعث عن عاطفة حية هي عاظفة الشكران وحفظ الجميل
،وهو يرى أن المدح لذلك واجب لأنه شكر للنعم على ما أنعم
وشكر المنعم أول الواجبات قال. . . إن شكر كل منعم
،واجب، وقام على ذلك دليل انعقد عليه إجماع أئمة المذاهب
وذل يدلنا على أنه حقاً من ممدوحه حس الصنيع وأيادي جمة
استحق من أجلها أن يشكر وأن يثنى عليه. رابعهما أن تلك
المقدمة تعتبر نموذجاً لنثره، وهي لذلك تستطيع أن تعطينا
صورة عن هذا النثر الذي دبجته براعة ابن النبيه، فهو نثر
صناعي يلتزم فيه السجع، ويكون لصناعة المحل الأول في
إنشائه، شأنه في ذلك شأن كتاب النثر في ذلك العصر الذي
حمل لواء الزعامة فيه القاضي الفاضل ون نهج منهجه، فلا
جرم كان نثره صناعياً خاضعاً لأحكام البديع وقوانيينه، هذا
وإن شعره ونثره وتوليه أعمال الانشاء للملك الأشرف تدلنا
على نوع الثقافة التي تلقاه حتى هيأته لتولى ديوان الانشاء
فهو علوم الدين واللغة العربية تل العلوم التي كان لزاماً أن
يأخذ منها بحظ وافر يساعده على تولي هذا المنصب، ولقد
تلقى هذه الثقافة بمصر، إذ أننا قد رجحنا أنه لم يغادر وادي
النيل إلا بعد موت صلاح الدين، فيكون قد شب وترعرع في
أرض مصر، والثقافة المصرية كانت زعيمة الثقافات، كما
كان ملوكها زعماء الملوك

لأبن النبيه مذهب في الحباة يشبه مذهب غيره من شعراء مصر أو على الأقل شعراء
مصرر الذين درسنا أقوالهم، ذلك المذهب الذي ينظر إلى الحياة نظرة من يريد التمتع
بما فيها من خير وجمال، لا يصدف عنه، ولا ينأى بجانبه عن حسنه وما كمن فيه من
أسباب السرور والمتعة، فهو يوقن أن الدنيا متقلبة، فهي جيناً ضاحكة، وأحياناً عابسة،
فما له يعكر على نفسه صفوها حينما تكون صافية، وما لا ينتهز الفرص وينال اللذة؟
خذ من زمانك ما أعطاك مغتنماً ... وأنت ناه لهذا الدهر آمره
فالعمر كالكأس تستحلي أوائله ... لكنه ربما مجت أواخره
واجسر على فرض اللذات محتقراً ... عظيم ذنبك، إن الله غافره
وكان لهذا المذهب آثاره الكبرى في حياته العملية، فهو يحب الخمر ويطرب لشربها،
ويترع الكأس ويروي بها ظمأ نفسه، وهو يهفو الى السقاة يتغزل فيهم، ويصف
محاسنهم، وقد كان السقاة يُختارون من أجمل الفتيان وأصحبهم؛ بل إنه يهفو الى كل
وجه جميل، ولو
كان وجه جندي من الكماة، وهو يحن الى مجالس الأنس يسعى إليها ويدعو صحبه
ليشاركوه لذته، وهو يأنس الى الطبيعة يحب جمالها، ويغرم بمفتنها فيصفها، وهو يجد
لذة في الخروج الى الصيد يخرج الى اللاة مع رفقة حسان الوجوه، ثم يعود بما وقع
في يده من صيد، وذك كله نتيجة لهذا المذهب الذي اختطه لنفسه، وكان شعره صورة
حية له، فأنت تسمعه يصف الخمر ويقول:
تأمل كؤس عتيق الرح ... ق ترى الماء يجمد والخمر ذائب
لما في الزجاجة رقصالشب ... اب ومفرقها أشمط اللون شائب
وترعد غيظاً إذا أبرزت ... من لدن كالمحصنات الكواعب
كأن الحباب على رأسها ... جواهر قد كللت في عصائب
لحمرتها صح عند المجو ... س أن السجود الى النار واجب

وسصف موطن نال فيه السرور من الخمر والساقي ويقول:
رق الزجاج وراق كأس مدامنا ... ورضاب ساقينا الأغن الأهيف
فمزجت ذاك بهذه وشربتها ... ولثمته، وضممته يتلطف
وجنيت من وجناته لما استحى ... وردا بغير رضا بنا لم يقطف
ورنا الى بطرفه فكأنما ... أهدي السقام لمدنف من مدنف
بتنا وقد لف العنق جسومنا ... في بردتين: تكرم وتعفف
ويقول مرة أخرى متغزلاً بالساقي وكأن من الأتراك:
ساق أن جبينه في شعره ... قمر تبلج في الليالي السود
غصن تزنج خصره في ردفه ... فعجبت لمعدوم في الموجود
إياك والأتراك إن لبعضهم ... أشخاص غزلان وفعل أسود
أجسامهم كالماء أنها ... حملت قلوباً من صفا الجلمود
وتسمع منه غير ذلك كثيراً في وصف الخمر وسقاتها والتغزل فيهم؛ ولعل بعضهم لامه على شرب الخمر أو على الاثار من شربها فقال له:
الراح روحي، فكيف أهجرها ... منظرها طيب ومخبرها
راح إذا ما الفقير صافحها ... إغناه ياقوتها وجوهرها
فاذا ذهبت تستمع الى حبه للطبيعة وغرامه بها سمعته يقول:
قس بالسماء الأرض تعلم أنها ... بكواكب الأزهار أحسن زخرف
أحداق نرجسها لحد شقيقها ... مبهونة بجماله لم تطرف
والطل في زهر الاقاح كأنه ... ظَلْك ترقرق في ثنايا مرشف
وهو إحساس طيب وشعور حميد يوجه نظرك إلى أن في الأرض جمالاً قد تزيد قيمته عما في السماء من نجوم وكواكب، فليقبل على الزهوز يتمتع بمرآها، ويستلذ بشميم رياها وينعم بجمالها - كا كان له - كما حدثتك - لذة خاصة في الصيد حينما يخرج مع جماعة (حسان الوجو) فيصطادون ويتمتعون وهو يصف لك ذلك في قوله:
برزنا الى الهو في حلبة ... حسان الوجوه خفاف المراب
بنادقهم في عيون القسي ... كأحداقهم في قسي الحواجب
فتلك لها طائر في السما ... وهذي لها طائر القلب واجب
وحلت سوابق شهب خو ... طفُ حجْن المناسرُ المخالب
بزاة لها حدق الأفعوا ... ن وأظفارها كحماة العقارب
فللأفق نسران: ذا واقع ... وذا طائر حذر الموت هارب
وألق كلابنا ضارياً ... يباري هبوب الصبا والجنائب
تطير به أربع كالريا ... ح ويفترض عن مرهفات قواضب
ويضرب في ليل جلبايه ... شعاع شهاب من العين ثاقب
وعدنا نجر ذيول السرو ... ر والطير والوحش ملء الحقائب
ألا تراه يصف لك رحلة شقية؟ إذ انه قد خرج مع جماعة حسان الوجوه يقصدون اللهو والتمتع فاختاروا الصيد ملهى لهم فخرجوا يبغونه، ولكنه قبل أن يصف لك ما فعلوه في رحلتهم مضى يحدثك عن جمال رفقته وأن عيونهم كالسهام تصيب القلوب وتدميها، فأحداقهم البنادق هذه هدفها طائر في السماء، وتلك يجب لها طائر القلب ويخفق
ذهبوا الى مكان الصيد فأطلقوا بزاتهم وكلابهم فانطلقت لاتلوى على شيء تصطاد ما عن لها، وبعد أن وصف لك بزاتهم وكلابهم التي كانت عدتهم طمأنك على نتيجة الرحلة وأنها أنتجت نتيجتها فعادوا يجرون ذيول السرور والطير والوحش ملء الحقائب هذا وكان أكبر شيء يسره مجلس أنس يجمع بين روضة فيها مختلف الأزهار والورد حف بها نهر، وهناك بين أصحابه يجلس مغن يطرب السامع ويملك عليه نفسه، ثم تدور المدام في يد ساق جميل فيسكر سكرين من الخمر والجمال الساقي. وقد وصف ذلك المجلس حينما أرسل الى أحد أصحابه يستدعيه إذ قال:
نحن في روضة وزهر ونهر ... ومدام كالشمس من كف بدر
ومغن قد راسلته الشحار ... ير، فأغنت عن جس عود وزمر
أنت روح، ونحن جسم فان غب ... ت فان القلوب تكوى بجمر
إن كفا إليك قد كتبتها ... تتهادى ما بين سكر وشكر

فأنت ترى من كل ما ذكرناه أنه كان يذهب في الحياة مذهب الذين يريدون أن ينالوا منها كل متعة ولذة، يلتمسونها في كل مكان، وترى أن مثله الأعلى في الحياة كان أن يتمتع بها، ولا يضن على نفسه بشيء من مباهجها، وكله ثقة في أن الله سوف يغفر الذنوب جميعاً

البقية في العدد القادم (احمد أحمد بدوي)

بين القاهرة وطوس - 6

نيسابور

للدكتور عبد الوهاب عزام

برحنا سبزوار والساعة ثمان من صباح الخميس ثاني رجب سنة 1353 (11 أكتوبر سنة 1934) فضربنا في السهل صوب الشرق نصف ساعة. ثم ارتقينا جبلاً هبطنا منه الى سهل فسيح، وهذا رأينا إيران ما بين قصر شيرين وطوس، سهولاً تحيط بها جبال، فما يزال المسافر على جبل او في سهل يفضي البصر فيه الى جبل حيثما توجه.

هبطنا سهلاً كثير الشجر والزرع، قد انتشرت القرى في أرجاعه، تحيط بها الأشجار الباسقو، ورأينا زروعاً شتى منها البطيخ والقطن. ورأينا لوز القطن قد تفتح، ولما تعدُ الأعوار ذراعاً

وبعد مسيرة وربع من سبزوار، نزلنا بقرية على الطريق اسمها شوراب، فأكلنا من عنبها واستراحنا قليلاً. ثم استأنفنا السير تلقاء نيسابور والقلوب يملؤها الشوق، والفكر يستجمع ما وعى من أحاديث التاريخ عن المدينة العظيمة ذات المياه والقرى والأشجار - المدينة ذائعة الصيت فب العلم والأدب التي نشأت علماء يفتخر بهم المسامون على الأدهار، بلد

مسلم بن الحجاج صاحب الصيحي، والحاكم المحدث الكبير، وأبي القاسم القشيري صاحب الرسالة، ومحيي الدين النيسابوري الفقيه، وفريد الدين العطار وعمر الخيام - المدينة التي يقول فيها الخيام

شراب نشابور وآب دبير ... جواني كند كرخورَد مردبير

وترجمته (شراب نيسابور وماؤ ذبير يردان الشيخ الى شبابه)

ويقول الانوري:

حبذا شهر نشابوره درُبشت زمين ... كربهست است همين است وكرنه خودنيست

وترجمته (حبذا مدينة نيسابور! إن يكن على ظهر الأرض جنة فهذه، وإلا فلا جنة)

نيسابور مدنية أزلية، يرى الفرس أن بانيها طهمورث ثالث الملوك البيشداديين، وأن اسكندر الكبير خربها ثم عمرها شابور الملك الساساني فسميت باسمه. وقد عرفها اليونان القدماء وسموها نيسوس. ويقال إنهم باكوس إله الخمر ديونيسوس أي إلة نيسابور

وقد تعاقب عليها البُناة من الساسانيين والعرب والغزنويين والسلاجقة كما توالت عليها النوائب من الزلال والغارات في عصور شتى. أصابها زلزال عظيم سنة نيف وخمسائة من الهجرة وسنة 666 وسنة 801. ودمرها الغُز سنة 548 حين غلبوا السلطان سنجر السلجوقس وأسروه. وهي المصيبة التي نظم فيها الأنوري الشاعر الفارسي قصيدته المعروفة (دموع خراسان) ولكت المدينة على رغم هذه المصائب كانت في معظم العهد الاسلامي قبل التتار عامرة مزدهرة حتى سميث أم البلاد وقبة الاسلام

وقد رووا في عمرانها ونضرتها ما يستبعده العقل. فمن عجائبها الاثنى عشرية أنه كان بها اثنا عشر نهراً تنحدر من الجبال، واثنا عشر مائة مدرسة (أي ألف ومائتان) واثنا عشر مائة قرية، واثنا عشر ألف قناة تجري من اثني عشر ألف ينبوع

قال ياقوت وهو ممن أدركوا غارات التتار:

وأصابها الغز في سنة 548 بمصيبة عظيمة حيث أسروا الملك سنجر وملكوا أكثر) خراسان، وقدموا نيسابور، وقتلوا كل من وجدوا، واستصفوا أموالهم حتى لم يبق فيها من يعرف، وخربوها وأحرقوها، ثم اختلفوا فهلكوا. . . واستولى عليها المؤيد أحد مماليك سنجر فتقل الناس الى محلة منها يقال لها شاذباخ وعمرها وسودها، وتقلبت بها أحوال

حتى عادت أعمر بلاد الله وأحسنها وأكثرها خيراً وأهلاً وأموالاً لأنها دهليز المشرق، ولابد للقوافل من ورودها.) وقال بصفتها قبيل غارة التتار: (وعهدي بها كثيرة الفواكه

والخيرات) وقال: (لم أر فيما طوفت من البلاد مدينة كانت مثلها)
ثم كانت القارعة التي دمرت حضارة الاسلام - كارثة التتار - فأحرقوا وهدموا، وقتلوا وسبوا وسلبوا، وتركوها خاوية على عروشها، ولم تنسها المصائب من بعدُ، فقد أغار عليها الأزبك وغيرهم في عصور مختلفة
ذكرنا هذه الخطوب ونحن قادمون على نيسابور، ولكن خيال المدينة الكبيرة المزدهرة المزدحمة بمساجدها ومدارسها كان يغلب علينا فنمنى النفس برؤية نيسابور في زينتها وجلالها
وردناها والساعة عشر وثلث فأبصرنا إلى يسار الجادة قرية هي بقية الأحداث من نيسابور، كما يبقى من الجنة الناضرة عود يابس، أو من الرجل العظيم قبر دارس ماتت المدينة فلم يبق إلا أن نزور قبرها فيما بقي من قبور أبنائها، فها نحن أولاء نسرع المسير إلى قبر عمر الخيام. وقفت بنا السيارات بعد قليل على حديقة بعيدة من البلد فدخلنا بستاناً كبيراً تتوسطه طريق واسعة، فهبطنا درجات إلى مستوى سرنا به خطوات، وهبطنا إلى مستوى آخر، وبجانبنا قناة تنحدر إلى المستوى الأسفل فتفضي إلى حوض في وسط الطريق. وتنتهي الطريق إلى مسجد صغير جميل نقشت على بابه آيات من القرآن، واسم الشاه طهماسب الصفوي الذي بناه. وفي المسجد ضريح لأحد أبناء الأئمة من آل البيت النبوي رضي الله عنهم، واسمه محمد المحروق وينتهي نسبه إلى زين العابدين علي بن الحسين
وإلى يمين المسجد مصطبة لها درجات قليلة ولها سياج من الرخام وفي وسطها عمود كتب على أوجهه أبيات من الشعر. فهذا قبر عمر الخيام. وقد سمعت ممن زاروا القبر قبلاً أنه كان في طاق في جدار المسجد (وفي جدار المسجد على جانبي الباب طاقان) ثم نقل إلى هذا الموضع
لم يعجبنا قبر الخيام، فقلت لوزير المعارف، كان ينبغي أن تكون بجانب القبر أشجار تتهدل أغصانها عليه، وتنثر الأزهار فوقه كما وصف الخيام قبره قبل موته، وكما رآه نظامي
العروض بعد موت الخيام فوجوده مصدقاً لما قال. قال نعم. لابد أن يكون كما وصفت كتب على صفحة من العمود: (الحكيم عمر الخيام - وفاة الحكيم سنة 517 هجرية -) وفوق ذلك رباعية من نظم ملك الشعراء بهار ترجمتها: اجلس إلى قبر الخيام واقض الوطر، واتبغ فراغ ساعة من غم الأيام. إن تسأل عن تاريخ بناؤ مرقده فهو (أطلب سر القلب والدين من قبر الخيام) (رازدل ودين وقبر خيام طلب)
وعلى الصفحة الثانية رباعيتان ترجمتها:
عاد السحب يبكي على العشب الأخضر، فلا ينبغي العيش
بغير الخمر الحمراء. هذا المرج مسراح أبصارنا اليوم فليت
شعري من يسرح بصره غداً في أعشاب قبورنا؟
نحن لُعَب، والفلك بنا لاعب، حقيقة هذه لا مجاز فيها، كنا لاعبين على نطع هذا الوجود، فعدنا إلى صندوق العدم واحداً بعد آهر
وعلى الصفحة الثالثة رباعيتان:
ظهر بحر الوجود من الخفار، وما استطاع أحد أن يثقب جوهرة الحقيقة هذه، كل تكلم بما يهوي، وما قدر احد أن يبين عن الحقيقة
ليس عندنا يقين ولا حقيقة، ولا يستطاع تزجية العمر كله في رجاء هذا الشك، هلم نأخذ اقداح الصهباء بأيدينا لا نضعها، ما فرق الصاحي والسكران في عذه الجهالة؟
وعلى الصفحة الرابعة رباعيتان:
أولئك الذين كانوا بحار الفضل والآداب، وصاروا في كمالهم مصابيح الأصحاب، لم يجدوا للخروج من هذا الليل المظلم طريقاً، فحدثوا بالأساطير ثم أخذهم النوم
إن هذا الدوران الذي يتجلى فيه مجيئنا وذهابنا، لا تستبين له بداية ولا نهاية، ولايستطيع (أحد أن يخبر صادقاً من أين جئنا وإلى أين نذهب
ووراء قبر الخيام مزهرة جميلة كتب على أرضها بألوان النبات: (حكيم عمر خيام)، ورأينا بجانب القبر خابية، كأن واضعيها رأوا مناسبة بينها وبين قبر الشاعر الذي كان مستهتراً بالخمر. وقرأت على هذه الخابية أنها موقوفة على مسجد إمام زاده محمد المحروق. فقلت

قد وضعت في غير موضعها، وقُرنت بما هي منه براء
وقد مُدَّ وراء قبر الخيام رواق كبير وضعت فيه كراسي للجلوس ومدت فيه موائد الطعام
استراح الوافدون قليلاً واجتسوا ما شاءوا من أصناف الشراب ثم وقفوا يشربون على ذكر الخيام، قلت بئس ما ذكرتم صاحبكم! وانتبذت أنا وزميلي الأستاذ العبادي جانباً وتركنا القوم وخيامهم. وقلت لبعض رفقائنا الايرانيين أين قبر العطار؟ فلابد لقادم نيسابور أن يزوره، فيسر لنا المسير اليه فذهبت أنا وبعض الحاضرين إلى قبر العطار.
سارت بنا السيارات في طريق غير معبدة فانتهينا إلى حديقة ذابلة الشجر والزهر، وفي وسطها بنية ثمانية عليها قبة، ولجنا الباب خاشعين إلى قبر عال عليه كسوة خضراء، وإلى رأسه عمود أسود أطول من القامة قليلاً عليه آية الكرسي وأبيات في مدح الشيخ فريد الدين العطار.
لبثنا برهة في حضرة شيخ الصوفية الجليل، والشاعر المفلق المكثر الذي نظم زهاء ثلاثين منظومة فيها أكثر من ألف ألف بيت - ناظم منطق الطير، وإلهي نامه، وأسرار نامه، وجوهر الذات الخ ومؤلف خاشع، والذكرى الجليلة آخذة على النفس آفاقها وهنا لطيفة لا يسعنب إهمالها
بينما أرخج من باب حديقة العطار أحسست بوخزة في كفي فظننت زنباراً لسعني، فأخبرت رفيقي الشاعر الشاب النابغة رسيد الياسمي فضحك وقال: قبلت الزيارة. قلت: لاغرو أن تكون وخزة من العطار ينبهني بها من الغفلة. ألم يقل معاصرو العطار: (إن شعره سوط السالكين)؟ قال بلى. ثم ارتجل بيتاً فارسياً
نيس عطار است اين، زنبور نيست
ر تحمل ميكني زو دور نيست
(خذه حمة العطار لا حمة الزنبار، فان تحملت فهو أهل لذلك)
فاجبته على الفور:
لسع الزنبار كفي عادياً ... ودواءً كان شعر الياسمي
ولما قدمنا مشهداً جاء الى شاعرنا النابغة وقد نظم أبياتاً كثير في هذه الواقعة أترجمها نثراً فيما يلي معتذراً اليه من هذه الترجمة المرتجلة التي لا تفي بشعره السلس، ومعتذراً الى القراء عم فيها من مدح:
جاء عزام من أرض مصر لمختارة الى نيسابور من أرض
إيران، فأراد أن يقبل تربة العطار إذ ملأت محبته روحه،
وذهب بدءاً الى مرقد الخيام فرأى مكاناً ناضراً زاهراً، وسمع
صيحات الطرب، ورنات الكؤوس من كل جانب، ورأى
القلوب تفور بناز الصهبا. قال عزتم: أيها القلب دع بساط
الشراب والسرور، واعجل الى العطار ذلك الشيخ الوقور،
فسلك الصحراء رجل الطريق هذا حتى رأى قبراً عليه حجر
أسود، فلثم سدة العطار وطاف في هذه البقعة المباركة. ثم
صاح بغته وقال مضطرباً قد أصاب كفي زنبار. قال له
الياسمب: يا عالم مصر! بل يا أيها الدر المتلألئ في بحر مصر!
(هذه حمة العطار لالسعة الزنبار، فان تتحمل فهو لذلك أهل)
حمة العطار توقظك حتى لا تخلو لذة من ألم إن تبتغ الحبيب فلابد من السعي الجاهد، وإن ترد اللذة (نوش) فلابد من الحمة (نيش). إن تكن ذقت حلاوة الخيام، فوخزة العطار خير يا عزام
من يجزك يوقظك من الغفلة، ومن ينعمك يدعك في غمرة. وخزة اليقظة تبعدك من الضلال، واللهو ينأي بك عم السداد، وانبعثت حينئذ من هذا الجدث صيحة بينة مفصحة وعتها أرواحنا:
(يا من اختلط وجوده بالعدمن وامتزجت لذته بالألم!
إذا لم يتداولك الهبوط والصعود، فكيف تعرف نفسك في هذا الوجود)
وجعنا من العطار الى الخيام فذكرت في الطريق قول حافظ الشيرازي. . . .
عبد الوهاب عزام (يتبع)

البعث
بقلم فريد عين شوكه
إلى مهد الرسالة في عامها الثالث
تحية عيد الوكن وعيد الميلاد
سَلاَماً فِئْةَ الوطنِ المفَدى ... وأشْبال الفراعِنَةِ القُدامي
دَعَتْ مصرُ العزيزةُ فالتففتمْ ... جُنوداً حَوْلَ رايتها قِياما
وأشعَلتُم بها رُوحاً فَتياً ... يُكشفُ عن جَوَانبها الظلاما
وكان بقلبها جرح تَنزى ... وأرهق جسمها المُصْي سقاما
فَمسته أناُلكم فأغْفى ... وكاد اليومَ يلتئمُ الْتِئاما
ألستمْ خَيرَ مَنْ يحنُو عليها ... إذا ما الروع لج بها احتداما؟
شَبابَ النيل مصرُ إليك تشكو ... بَنِينَ تفننوُا فيها اجْنِرَاما
فكانوا الجُند للباغي عليها ... وفي أيدي الدخيل بها حُساما
يُمزق شَملها بدَداً ويُوهي ... حَنايَا جسمها الواهي كُلاَما
وكم في مِصْرَ من أبناءٍ سُوءٍ ... أضاعُوها وما حَفَروا الذماما
فكالُوها عَذَاباً واضطهادا ... وسامُوها سِباباً واتهاما
وعاثُوا في نواحيها فساداً ... احبثْ دونه الموتَ الزواما
وعَبوا كل موردها اخْتِلاساً ... وما عَرَفَتْ نفوسُهمُ احتشاما
أولئك شرُّ من وَلَدَتْه مصرُ ... فجازاها عُقُوقاً وانتقاما
أولئك داؤهِا يَفْرِى حَشَاها ... وَيُرْهق صدْرَها نُوَباً جِساَما
مُصاَبُ النيلِ أبناءٌ رَعاهم ... ليغْدُوا في كِنَنَتِه سِهاما
فكانو مِعْوَلَ العاَدِي عليه ... وباتوا فيه حرباً لا سلاما
سليل النيل وَيْحَكَ كيف تَغْفوُ ... وَقَدْ نَخَر الفساَدُ بك العظاما
أترضي أن تَذَل بأرض مصرٍ ... ويصبحَ عُودُك النادي حطاما
ونيلُ ما أحَن تَرَاه مهداً ... وأشهىَ عذْبَ مورده مُداما
وأرضُك جَنةٌ شفتْ سماءً ... وطابَتْ مَمبتاً وزَكتْ مُقاما
تُدرُّ على الأجانب ما أرادوا ... وتلقى أنتَ صبيها جَهاما
وكم من أجْنَي جاء يسعى ... إليها ليس يمتلك الرغاما
فينهل ورْدّها العذب المُصفى ... وَيلتهم الغني فيها الثْهاَما
ويعتقد الضياع بها وَيُثرى ... ثراء تحت أعْينه تَرالا
ويحسدُه البنون وقد تناسوْا ... متى أثْرَى وَكيف بها تَساَمَى
لقد أفنى الحياةَ بها جهاداً ... وَهم عَبَروا حياتهُم نياما
وَكم ضاقت مواردها ولما ... يَصيقُوا بالكفاف لهم طعاما
وَلو حرِمَتء نفوستهُمُ جَناَها ... لعاشوا رغم وَفرته صياما
فيالَضَرَاعةِ الابناءِ حتى ... رَضُوا بالعيش ذُلاً واهتضاما
وَيالهَوَانهمْ حتى استرحوا ... إلى أن يصبحوا فيها طَغَاما
صَحَوْنا أيها الوَكنُ المُفدى ... وققمنا نَسَّترد لكَ السناما
وجَمعنا هَوَاك على صَفاءٍ ... فقد ضقنا بواديك انْقِساما
سَنَدْفعث عن حماكَ فلا يُغشى ... ونَرْعَى عذْبَ وِرِدْكَ أنْ يُساما
فلا يلقي الغريب له كِفاَفاً ... وَلاَ يَرْوِي بودينا أوَاماَ
في مصر شباب!
على أثر ما قام به السباب طيلة أيام العيد من جهاد في سبيل الاقتصاد
بقلم محمود غنيم
آمنت أن في الحمى شباباً ... أغرّض جبارَ القُوَيْ وثابا
ينتزع الثناء والا عجابا ... ويُسمعُ الصم إذا أهابا
شاهدتهُ وقد مشى أسرابا ... يفتل لصناعة الأسباب
مرتدياً من طُهره جلبابا ... متضياً من عزمه قرضابا
تخاله إذا مشى شهابا ... كأن تل الأيدي الرطابا
تقدم الصهباء والأكوابا ... إذ بُسطت تسألُ الا كتتابا

مَنْ ناطحت أهرامهُ السحابا ... لم يعْيه أن يصتع لثقابا
أو يسبح الصوف له ثيابا ... ولا تبتنوا القصور والقبابا
بل ابتنوا المصنعَ والدولابا ... ينفثُ من دخانه ضبابا
يُمطر مصرَ ذهباً لبابا ... ترى الأكف فحمه خضابا
إنْ تفتحوه تفتحوا أبوابا ... ينصب منها الرغد انصبابا
مَنْ بَيْن مصنعاً بني محرابا ... ومن يسدْ بغير مال خابا
أرَ شعباً بلغ الآرابا ... وماله ل يبلغ النصابا
أوطاننا عشنا بها أغرابا ... ضيوفها باتوا لها أربابا
جاسوا خلال أرضها ذئابا ... واحتكروا الطعام والشرابا
فامتلوا بذلك الرقابا ... هم في الهواء زاحموا العُقابا
وفي العُياب ملؤا العبابا ... يذود عن حياضه احتسابا
لا ينبغي أجراً ولا ثوابا ... وغيره يقتسم الأسلابا
ويُحز الأموال والألقابا
شبابَ مصرَ حسبُكِ انتسابا ... إن سَ الجدودَ واذكر الأعقابا
لا نَسْمُ ميراثاً بل اكتسابا ... واغتصب المعالي اغتصابا
والحرُّ يدرك المنى غِلابا ... لايُمنح الحر ولا يُحابى
كن كالذئاب شرة ونابا ... فانما الحياة أن تُهابا
لا أن تجيد الخط والحسابا ... وتحذقَ العلومَ والأدابا
أضفْ إلى تاريخ مصرَ باب ... يُحدث في صفحته انقلابا
أكلما سألته أجابا ... كانوا رءُوساً فَغدَوْوا أذنابا
ثورةُ العقل
للشاعر التونسي محمد الحليوي جابا=كانوكااك
قلتُ للقلب حَلِّ عنك الأماني ... وأرحني فقد هدمت كياني
ما ضلالُ الخلود. . . ما باطلُ المجد ... وما الصيتُ ماليء الآذان؟
أترى هذه الأكاذيبَحقاً ... اتراها جديرةً بالثواني
أيها القلب ثثبْ إلى الرشد وانظر ... نظرة العَقْلِ في لباب المعاني
إنما الخلدُ والخلود خَيَالٌ ... وخَبَالٌ في فطرة الانسان
ذاك يا قلبي المريض عزاءٌ ... يَهَبُ النفس راحة السلوان
قَدْ تَرَاَءت لك الحياة سَرَاباً ... أو كطيف يمرُّ بالوَسْنان
فتطلبْتَ من غُرورك مجداً ... وأردتَ الحلود في الأزمان
ورأيت الشبرَ الذي أنت فيه ... غير كُفْءٍ لبرك الإنساني
فملأتَ الدُّنيا دوياً بغيضاً ... مُجْلباً، كيْ يحسك الثقلان
ضلةً ضلةً، أيا قَلْبُ أقْصر ... وارحنى فقد بريتَ كياني
أنتَ نحسي وشقْوتي وعذابي ... وغترابي في مُنْتَدي الأخدان
أنتَ بؤسي في غدوتي ورواحي ... لا تني الدهرَ باعثاً أشجاني
أرْهقني كآبتي وانفرادي ... وحنيني لغامضات المعاني
وحياتي قضيتها زغرات ... مُحرقاتٍ. أأنتَ كالبُرْكان؟
يَا فوؤداي تجاهل المجد وأنعمْ ... وَأرِحْني. . . فقد محقتَ كياني
سُمتَني العَسَف في طلاب الأماني ... وَتكاءدْتَ في الغْلا جثماني
بعثَ للمجد لذتي وكؤوسي ... ومُدامي ومجلس الريحان
شبابي أذْبَلْتَه وهو غَضٌّ ... في كتال ودفترَ وَسِنَانِ
اللداتُ الاترابُ في فضل عيش ... ناعم الظل، مُعجب، ريان
يَنهْلون الشباب والحب كأساً ... من رُضاب الكواعب الحُسان
في ضيلء وفي صفاء ولهوٍ - وعبير منشر وأغاني
وبقينا أنا وأنتَ فُرَادي ... في جحيم الآلام والأحْوان
قُلْتَ: إني مغردٌ لا أبالي ... في سمائي بعلة الدوران
أنظر الشعر في الحياة , ابكي ... في نظيمي شقاوة الانسان
ذاك حَظي. . . وما أبهتُ لَمجْدٍ ... أو رجوت الخلود في الأزمان

قُلْتَ: يا بؤسَ طائر يتغنى ... في ضجيج الأحياءِ والأكوانِ
أتراني أقولُ ما قال قَبلي ... شَكْسَبِيرٌ أو شاعرُ اليونانِ
كان هو ميرُ - أيها القلبُ - شيخاً ... سَاغِبَ البطن، ذاحَشاً ظمأن
يطلب النزْرَ من طعامٍ وروى ... بأغاني الآباد والأزمان
يا لا عمى يجوبُ بَراً وبحراً ... داميَ القلب دامي الجثمان
يا لَكُرْنيل يَرْفع النعل فقراً ... وعلي يضيقُ بالطيلسان
هان أمر النبوغ في الأرض حتى ... صار محضُ النبوغ محضَ الهوان
قسم الله مله في البرَايا ... ثم حض الأديب بالحرمان
خصهُ بالإسار والقَتْلِ والتغ ... ريب والنفي عن حِمى الأوطان
خصه بالعذاب، بالألم الدائب ... بالاضطهاد بالنكران

فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية

تطور الحركة الفلسفية في ألماني - 5

شيلنج

1775 - 1854

للأستاذ خليل هنداوي

وهذا هو (شيلنج) الذي ورث (فيخت) وتوأ مقعد الفلسفة بعده؛ درس اللهوت وألم بالعلوم الطبيعية ووقف على شيء من الطب، ولكن المزاج الفلسفي غلب فيه على كل مزاج آخر، فهجر هذه العلوم وآب الى الفلسفة، فجاءت خطراته الأولى يغلب عليها روح أستاذيه (فيخت) و (كانت)، ولم يكن لعقله ذلك النضوج وذلك التفكير المستقل اللذان يستطيع بهما أن يطهر فكرته من الصور التقليدية، ويجعلها ابنة تفكيره الذاتي. ترى آراء (فيخت) شائعة في هذه المقدمات حتى نقول: (إن فيخت) يمثل دروه كرة ثانية. لولا أن شيلنج يفز بفلسفته من (فيخت) الى مذهب القائلين (إن الآله الواحد إنما هو كل الكائنات. .) وقد يستبد شيلنج بهذه الآراء التي يرددها، ويحسب أنها آراؤه الذاتية، فلا يذكر (فيخت) ولا يرجع إليه برأي ولا حديث، ولكنه شديد الاحترام للفيلسوف (سبينوزا) الذي أمده بروجه، وقاد عقله في كثيرمن مراحله؛ وهو الذي أراد أن يستخلص مذهباً يجمع بين فكرة سبينوزا ونقد كانت وكمال فيخت، وبعد أن را المدرسة الفلسفية كتب آراءه ونظراته في فلسفة الطبيعة حيث شاء أن يعيد العالم الخارجي الى نظامه بعد أن قتلته المدرسة (الكمالية) وشوهت حقيقة مظاهره؛ ثم أخرج كتابه (مذهب الكمال العالي) وفيه زبدة مذهبه الفلسفي والصورة الكاملة الحاوية لمذهبه

لم تكن فلسفة شيلنج كفلسفة (كانت) ابنة تأملات عميقة ونظرات متعاقبة، ولا كفلسفة (فيخت) نتيجة نظرات بعيدة في الأخلاق والكمال، وإنما كانت حصاد المخيلة ونتاج الخيال. فكان (كانت) يفكر ويستقصي ويتعمق ويكثر من التأمل، وفيخت كان يثبت من صدق الفكرة ثم يأمر، ولكن شيلنج راح يثبت ما توحي اليه مخيلته وينزل عليه خياله، وهكذا تطورت الفلسفة واخذت تلين بعد شدتها وترق بعد صرامتها، ويزول عنها هذا اللون العميق القاتم، وتدنوا برفق من الشعر والفن؛ والشعر والفن دائبان عاملان على تلطيفها

وترقيقها حتى لا تكون عالة على المخيلة، ولا تكون المخيلة عالة عليها، فأمسى الفيلسوف - كما تمثله الأقدمون - شاهداً ينظؤ الى تآلف الأشياء وانطباق أجزائها، وعلاقة النهاية باللانهاية، الحقيقة بالكمال. وشيلنج يرة أن الفيلسوف لاغني له عن المخيلة، وعن الوحي الذي يستمده من نفسه، وعن الخطرة التي تفيض بها قريحته، وهو في هذه الملاحظات يجمع بين الفيلسوف والفنان برغم اختلاف رسالتهما، ولكنه لا يهمل أداة الملاحظة والتامل اللذين خلقا العالم الفلسفي، ولكنه لا يميل اليهما إلا قليلاً. ولهذا الاعتقاد الذي رسم مذهبه الفلسفي بميسم الفن رأينا أن فلسفة شيلنج جاءت فلسفو هادئة مسألة لا حركة فيها ولا ثورة

إن (فيخت) برغم ما بذل من جهد استنفد وسعه للعمل على ربط فعالية عقل الانسان وأخلاقه بوثاق واحد ومذهب واحد؛ نراه غادر في مذهبه هذه (الثُنائية) التي لم يجدها شيلنج صحيحة، فعالم الروحَ الداخلي لا يمكننا أن نشاهده ونطلع على غيبه إلا بوساطة العالم الخرجي عنا؛ كما أن العالم الخارجي لا يُلمس إلا بمعونة عالم روحنا. وهكذا يجد

الفيلسوف نفسه أمام مادتين جوهريتين مفترقتين متعاكستين، فأراد شيلنج أن يمحو هذا التنازع بينهما، وهو تنازع لم ينكره فيخت، فتحرى شيلنج في كلا العالمين عن قانون أعلى يصم بينهما، فوجد هذا القانون في الواحد المطلق ' مبدأ ومنهى كل وجود، وملتقى عالم الحقيقة بعالم الكمال، والموفق بين الأضداد. وقد أحل مذهبه هذا محل المذهب العلمي، واعتقد أنه ثد وُفق في إيجاد الأتحاد المنشود، وجع الأجزاء المتفرقة، وتوحيد المعرفة الأنسانية

وفي الحقيقة إذا تعمقنا في حقيقة هذا المذهب الذي جاء به شيلنج رأينا أنه هو ذات المذهب الذي يجعل الله هو كل الكائنات، والواحد المطلق الذي أنشأه وافترضه شيانج هو هذه المادة الأزلية التي لاحظناها وبشر بها (سبينوزا)، هذه المادة التي تحل متفقة في عنصرين متضادين وعالمين مختلفين: عالم الوح وعالم المادة.

والصفة البارزة التي يتسم بها مذهب (شيلنج) هي أنه أنشأ رباطاً محكماً وأوجد وحدة شاملة بين مظاهر الكون المختلفة؛ فالوجود الحقيقي والوجود الروحاني السامي كلها عوالم مشتقة من نبعة الفرة الآلهية، وهناك شيء من الميل الغريب بين أفكارنا والمرئيات، فنحن نحمل في أنفسنا صورة لكل شيء تقع عليه أعيننا، وهذه الصورة قد لا تلوح في الذاكرة سريعاً،

ولا تكون وليدة ملاحظاتنا الحنينة، ولكنها ابنة تصور راسخ فينا منذ القدم، مندس في شعورنا. فما هو إلا أن نهيب بهذه التصورات حتى نحس أن هذه الصور أخذت تمر بنفوسنا، فاذا أردنا أن نعرف الكون فما علينا إلا أن نتلقى في صحف أنفسنا وأن نتبع بنظرنا الباطني مجرى الأشياء، وأن نقف على الحكمة المنطقية الآلهية التي أبدعت الكون؛ وهكذا يغدو علمنا مطلقاً وليس له الا صبغة الوحدة المسيطرة على العالم، وتصبح الفلسفة لا تتوقف على التأمل الذي يلاحظ الأشياء، ولا يدخل فيها ولا يحبونا إلا بمعرفة جزئية محدودة؛ وإنما التامل الحقيقي والادراك العقلي يجب أن يكونا قسماً من الخيال النظري الذي يوحد بين الأفكار ويرتبها، وإنما غرض الفلسفة أن تعمر الكون وأن تشيده وأن تعمل في الخلفية على إبداء وجهتها الشعرية والفنية

لم يقف (شيلنج) جهوده على الفلسفة وحدها، وإنما كان يخوض طوراً في الفلسفة الكونية والنفسية، وتارة في التاريخ والفن، وهو يفوز في ساحة، ويخفق في أخرى؛ أما فلسفته النظرية فقد جابهتها الحقيقة مجابهة قاسية، وعلة ذلك أنه كان يجنح كثيراً إلى الافتراض، وقد يكون الافتراض أحد العوامل الأساسية في تقدم العلم، ولكنه لا يغني شيئاً في تحليل المهمات التي لا يتناولها التحليل. وأما نظراته في التاريخ فسرعان ما وهنت. أركانها واضطربت أصولها، وهو يمشي على أثر (فيخت) الذي قسم العصور الانسانية إلى خمسة أدوار؛ يبدأ أولها بعصر الانسان الأول الذي لم يدنس عقله ونفسه شيء. وينتهي آخرها بالعصر الذي سيتسامى فيه الانسان وتحمله تأملاته النقية إلى فردوسه المفقود؛ ولكن (شيلنج) حدد تاريخ الانسانية بثلاثة أدوار

إن عبقرية (شيلنج) لم تبرز واضحة إلا فيما استمده من قلبه وانتزعه من نفسه؛ وفي + مذهبه الذي لم يُوثق فيه خياله بوثاق العقل المحدود، ولم يجد في ادنائه من الحقيقة نُكراً. هذا المذهب الذي احتوى نظراته السامية في الفن الذي وجد فيه شيئاً أسمى من الفلسفة. فالفيلسوف قد يُدرك المثل الأعلى ويفهمه ويقف عند ما وصل إليه عقله. أما الفنان فهو يأخذه ليسكبه في قوالب مادية، وهو في خلقه وابداعه لا يقلد الطبيعة، ولكنه يقلد ذلك الفكر الجبار الذي أبدع الطبيعة

عنت (لشيلنج) يوم كانت تربطه الصداقة بالشاعر (شيلجل) فكرة شعرية سامية في مناجاة

الطبيعة، وبدأ يكتب مطلعها ثم بدا له شيء صرفه عن فكرته، وكأن هذه الفكرة الشعرية ظلت راسخة في تلافيق فكرة تتصرف بشعوره وتفكيره حتى إذا نضج عقله وتكشفت فلسفته جاءت وهي أدنى إلى الشعر والفن منها إلى الفلسفة المجردة

يتبعخليل هنداوي

من روائع الشرق والغرب

ذكرى

لشاعر الحب والجمال لامرتين

كان لامرتين (قد حبس نفسه شهوراً طويلة في شبه ناووس مع صورة من عبدها ثم

فقدها) ثم (ألف الحزن واللم) وخرج من الفناء الذي ألفاه فيه موت جوليا حبيبته، وراح (يتحدث بالمناجيات والصلوات والأدعية والشعر الى شبحها الذي لايبرح ماثلاً في خاطره). وهذه القصيدة قد نظمها في ربيع 1819 (على مقعد من الصخر حول ينبوع متجمد في الغابات التي تكتنف قصر عمه في (أورسي)

عبثاً يتعاقب الجديدان،
فلن يتركا أثراً في حسي،
ولن يمحوا صورتك من نفسي،
يا آخر حُلم رآه الوجدان

إني أ {ى أعوامي السريعة
تتراكم من ورائي هاوية،
كما ترى السنديانة الرفيعة
أوراقها من حولها ذاوية.

جُمتي شيبتها السنون الجاهدة،
ودمي أبردته فلا يكاد يجري،
كأن هذه الموجة الهامدة
لفحتها ريح الجنوب فلا تسري

ولكن صورتك الوضيئة الحبيبة،
تلك التي يزيدها أسفي جمالاً
لا تدركها في قلبي لشيخوخة الكئيبة،
لأنها كالنفس لا تعرف عمراً ولا زوالاً

كلا، انك لم تزايلي بصري،
فاذا حيل بين عيني وبين رؤيتك
انقطع من هذه الارض خبري
واتصل نظري في السماء بصورتك

وهناك تبدين لي في السماء
كما كنت في يومك الاخير،
حين طرت إلى مقامك الوضاء
مع الصباح المشرق النضير

جمالك النقي المؤثر يا حبيبتاه،
يتبعك حتى في ذلك الوجود؛
وعيناك اللتان تنطفيء فيهما الحياة،
يشعان ثانية بنور الخلود

وأنفاس النسيم الهائمة،
تحرك أيضاً شعرك الطويل؛
وخُصله المتوجة الفاحمة،
تعود فتسقط على صدرك الجميل

وظل هذا النقاب الحائر،
يحلي وجهك الوضاح،
كأنما سدول الظلام الآخر،
تنحسر عن محيا الصباح

إن اللهب السماوي لهذه الشمس،
يجيء ويذهب مع الأيام؛
وأنت تشرفين دائماً في النفس،
فحبي لا يعرف البرد ولا الظلام

_____

أنت التي أبصرها في السحاب والماء؛
فالموج يعكس صورتك في عينين
والنسيم يحمل أصواتك إلى،

_____

وإذا خشعت الأصوات ونام الليل،
وسمعت حينئذ همس الهواء،
حسبتني أسمعك تغمغمين في أذني
بكلماتك المقدسة العِذَاب

_____

وإذا ما أُعجت بهذه المصابيح المنتثرة
التي ترصع رداء الليل الساكن،
حسيتني أراك في ل نجمة مزدهرة،
تسترعي بصري بلألائها الفاتن

_____

وإذا ما هب النسيم على الزهور،
فأسكر النفس بنفحات العطور،
كانت نفحتك هي الطيب الذي أنشقُه
فيما يَنُشه هذا النسيم ويطلقه

_____

إن يد هي التي تجف دموعي
حين أذهب في حزن وبكاء
لأؤدي في السر صلاتي وخشوعي
في محاريب الدعاء والعزاء

_____

وإذا نمت سهرت على سهر الخائف،
وبسطت جناحيك على آلامي،
وأوْحيت إلي بجميع أحلامي
وديعةً كنظرات الخيال الطائف

_____

وإذا قطعتْ يداك أثناء منامي
مجرى حياتي واسباب أيمي
- فسأصحو - يا نصف روحي العلوي
بين حِضنك الحنون القدسي

_____

ثم تصبح نَفْسانا نَفْساً واحدة،
كشعاعين متحدين من أشعة الفجرن
أو نفسين ممتزجين من الأنفاس الصاعدة؛
ولكني لا أرال أردد أنفاسي العمر!!
الزيات
مقطوعات شعرية
لشاعر الهند العظيم الدكتور محمد اقبال
(من ديوان رسالة المشرق)
الملك لله
أضرم طارق النار في سفائنه على ساحل الأندلس، فقيل له هذا أفَنٌ ينكره العقل!

كيف نرجع الى الديار، وقد شط المزار؟ إن الشريعة لا تجيز ترك الوسائل! فضحك وأصلت حُسامه وقال: كل مُلك ملكنا، لانه مُلك ربنا
الحياة
سألت حكيماً: ما الحياة؟ قال: حمر امرها أطيبها. قلت: إنها دودة تنشأ من الطين. قال: بل وليدة النار السمندل. قلت: إن الشر مضمر في فطرتها. قال: هي شر كلها إذا لم تعرف خيرها.
قلت: إن غرامها بالمسير لم يبلغها منزلاً. قال إن منزلها في هذا الغرام نفسه. قلت: إنها ترابية ومرجعها التراب. قال: إن الحبة إذا شقت التراب فهي وردة ناضرة
الشقيقة
أنا الشعلة التي اضرمت في أحضان العسب من فجر الأزل، قبل أن يُخلق البلبل والفراس، أنا أعظم من الشي، ولكني منبثة في كل ذرة، وقد خلقت السماء شرارها من حرقتي: سقطت على صدر المرج لحظة فنبع من ترابي عصن ناضر فاستلب ناري وقال: تلبثي في أحضاني قليلاً، ولكن قلبي السليب لم يقر قراره، فاضطربت في ضيف الغصن حتى تجلى جوهري باللون والرائحة، فنثر الندى في طريقي جواهر متلألئة، وضحك لي الصبح، وأطافت بي ريح الصبا، وسمع البل من الورد أن ناري قد سُلبت، فتأوه وقال: لقد استرت ثوب الحياة غالباً
هأنذا أفتح صدري لضوء الشمس وأحتمل منتها، فمن لي بأن تعود ناري مشتعلة في صدري؟
الحياة الخالدة
لا تحسبين الحانة قد بلغت نهايتها. فلا يزال في عروق الكَرْم ألف خمر لم تُشرب ذل المرج جميل، ولكن لا يجمل ا، نعيش كالربعم! قضاء حياته ممزف بأنفاس الصبا. إن تكن بالحياة خبيراً فلا تطلب ولا ترض قلباً خلياً من وخزات الأمل. عش كالجبل محكماً مجتمع
النفس، ولا تعش كالهشم، فان الريح عاصفة والنار لا تهاب
عبد الوهاب عزام
البريد الأدبي
حماية الدولة للآداب
وهل نحن بحاجة اليها؟
نقلنا إلى القراء في العدد الماضي خلاصة تلك الفكرة الطريفة التي تتحدث بها بعض دوائر الأدب الفرنسي، وهي وجوب تدخل الدولة لحماية الآداب القومية من منافسة الآداب الأجنبية كما تتدخل لحماية المحاصيل والصناعات القومية، أو بعبارة أخرى وجوب معاملة الثمرات الأدبية معاملة النبيذ والقمح مثلاً من حيث الحماية القومية، وذلك لأن سيل الأدب الأجنبي يتدفق الآن على فرنسا ويهدد مصالح كتابها ومفركيها تهديداً قوياً يظهر أثره في هبوط الدخل الأدبي وقيم حقوق التأليف. وتسالنا ماذا يكون من أمره هذه الفكرة في بلد كمصر؟ وهل نحن في مصر بحاجة إلى بحثها؟ والجواب الذي يتبادر إلى ذهن لأول وهلة هو أن مصر لم تتقدم في ميدان التفكير إلى الحد الذي تستطيع معه أن تكون بدلاً مصدراً يبعث بثمار تفكيره إلى البلدان الأخرى، فهي ما زالت بلداً مستورداً، يستورد أكبر قسط من غذائه الأدبي وينقله عن التفكير الغربي، وان الثمرات الأدبية المحلية ليست في حاجة إلى الحماية لأنها ليست من الكثرة أو القيمة بحيث تتأثر بهذه المنافسة الأجنبية القوية. وهذا صحيح من الوجهة العامة، وكلنا نستطيع أن نستدرك عليه ببعض الملاحظات. وفي رأينا أن الأدب المصري بحاجة الى نوع من الرعاية والحماية المحلية من بعض النواحي، ولسنا نقصد أن تفرض الضؤائب الجمركية أو تتخذ اجراءات لأية حماية ضد الآداب الاجنبية الرفيعة، فنحن في أشد الحاجة لاستيراد هذه الآداب؛ ولكنا نعتقد اننا في حاجة الى إلى الحماية من سيل الأدب الغربي الوضيع الذي ينساب إلى مصر من كل ناحية، تحمله إلينا كتب ومجلات وصحف كتبت لطبقات وبيئات منحطة، وتجد بيننا رواجاً عظيماً؛ وقراء المجلات والصحف الأجنبية هنا يعرفون هذه الحقيقة، ويكفي أن يعرف الناشئون قليلاً من الانكليزية أو الفرنسية ليتهافتوا على اقتناء هذه النشرات الوضيعة الخطرة في معظم الأحيان من الوجهة النفسية والأخلاقية. وهنالك أنواع من الأدب الأجنبي المتوسط أو

الخفيف تروج بيننا رواجاً عظيماً، وهذه أيضاً يجب أن يوضع حد لذيوعها على حساب الأدب المحلي والصحافة المحلية لأنها ليست أقوم منها ولا أرفع؛ ثم هنالك سيل الترجمة؛

ومع أننا في عصر ترجمة ونقل في كثير من النواحي الفكرية، فان هذا السيل يجرفنا بلا تحفظ، ويطغي على الأنتاج القومي بشدة. ومن الصعب أن نتحدث في أمر الحماية الرسمية الفعلية في هذه النواحي، ولكنا نشعر في أحيان كثيرة بالحاجة إليها. ولو أمكننا ببعض الوسائل المعقولة أن نحد من تدفق سيل الآداب الأجنبية المتوسطة أو الوضيعة، وأن نحصر الترجمة في حدود القيم المنتج، لكان في ذلك ما يشجع الآداب المحلية، ويعضد الانتاج المحلي؛ ولاشك أن انصراف القراء عن التهافت على هذه الأنواع من الآداب الأجنبية يقابله من الناحية الأخرى شيء من الاقبال على الأدب المحلي؛ وإذا نما هذا الاقبال، ترتب عليه حتماً انتعاش الأدب المحلي وتقدمه؛ والتعضيد أكبر عناصر التشجيع وشحذ العقول والهمم. وكلما زاد هذا الاقبال والتعضيد تقدمت الحركة الأدبية وارتفع معيار الانتاج الأدبي

على أن المسألة معقدة من الوجهة العملية. ومن الصعب أن نتصور الوسائل أو الاجراءات المعقولة التي يمكن أن تحقق بها مثل هذه الحماية دون مساس بسير الحركة العقلية، وحركة الاقتباس الفكري التي نحن في أشد الحاجة إليها. وأصحاب هذه الفكرة في فرنسا يجدون مثل هذه الصعوبة في التماس الوسائل العملية لتحقيقها. وكل ما يمكن قوله، تمشياً مع أصحاب الفكرة هو أن الحماية الاختيارية هي خير وسيلة لحل المشكل، أو بعبارة اخرى إن هذه الحماية يمكن تحقيقها بالتطوع والرغبة في تشجيع الآداب القومية من جانب القراء والمثقفين، وإغفال الآداب الأجنبية التي لا تحمل قيمتها أو نوعها على وجب الانتفاع بها

وقد يعترض عشاق الثقافة الأجنبية بأن الانتاج الأدبي المحلي لم يرتفع إلى الحد الذي يحقق بغية المثقفين وطلاب المتاع الفكري الرفيع، ولكن المحقق هو أن هذا التقدم المنشود لايمكن تحقيقه دون تشجيع قوي فعال؛ والطبيعي هو أن يتقدم التشجيع اولاً، فاذا ظفر الانتاج المحلي بهذا التشجيع، أستطاع أن يظفر بفرض التقدم والصقل والنضوج

ميشيل آنجلو وعصره

منذ حين أصدر الكاتب المؤرخ الألماني هيرمان جريم كتاباً عن الفنان الايكالي الاكبر ميشيل آنجلو وعصره، فكان لصدوره وقع عظيم في الدوئر الأدبية والنقدية. ومنذ أسابيع

قلائل صرت ترجمة فرنسية لهذا الأثر القوي، فعاد الحديث عن قيمته الأدبية والفنية، ولا ريب أن الكتابة عن ميشيل آنجلو وعن عصره ليست يسيرة؛ فقد كان آنجلو من أعظم العبقريات البشرية، وكان عصره - القرن السادس عشر - من أعظم عصور التاريخ: كان عصر (الأحياء) الفكري، وكان عصر البابوية الذهبي؛ وكان ميشيل آنجلو يمثل كل ما في عصره من عظمة وآمال، وكان عمله رمزاً قوياً لخواص هذا العصر وأمانيه، كان مثالاً، ومصوراً، وشاعراً، ومنهدساً عظيماً

هذا هو ملخص الصورة التي يقدم بها جريم بطل ترجمته؛ وقد عاش ميشيل آنجلو وتوفي بين أعظم رجالات عصره. كان في فتوته صديق لورنزو الأفخم أمير فلورنس، وكان في كهولته مصور البابوية ومهندسها. وكان صديق جلوليوس الثاني، وليون العاشر، وهو الذي وضع التصميم الجديد لكنسية القديس بطري أعظم كنائس النصرانية، وهو الذي رسم ابدع نقوشها؛ وهو الذي أودع من ريشته أعظم بدائع الفن على جدران (كنسية سكستوس) إحدى حلى الفاتيكان، وصور عليها بالأخص أشهر وأبدع صوره (يوم الحساب)؛ وما زال السائح المتفرج يقف ذاهلاً مأخوذاً أمام روعة هذه القاعة التي يشعر فيها بروح ميشيل آنجلو ترفرف عليه من سقفها وحول جدرانها

ويمثل لنا جريم ميشيل آنجلو في شبابه ونضجه رمزاً لمثل إيطاليا وأمانيها، وفي كهولته وشيخوخته رمزاً لآلام إيطاليا، ويمثل لنا حياته كلها بأنها صورة صادقة لعصر الأحياء كله. وأما عصر الأحياء الأيطالي فيصوره جريم أبدع تصوير، ويبين لنا كيف ان هذا العصر فجر المعارك والتطورات الفكرية والاجتماعية والسياسة، وكيف أن هذه المعارك كانت تتمخض عن مثل ما يتمخض به عصرنا من المشكلات الاجتماعية

والسيايية، سواء في حقوق الفرد واجماعة، وتنظيم الحكم والدولة أو غيرها من المسائل الكبرى
وقائق جديدة عن نابليون
ظهرت أخيراً حركة ترمي الى كشف كل ما يتعلق ينابليون بورنابارت وعصره من الآثار والوثائق؛ ويبعث في باريس مجموعات ثمينة من كتب الامبراطورية وتحفه التي كانت في مكتبة مالمزون؛ ثم طهرت على أثر ذلك مجموعة كبيرة من رسائل الامبراطور الى زوجه الثانية ماري لويز النمسوية وعددها نحو ثلثمائة، وعرضت للبيع في لندن واشترتها
الحكومة الفرنسية، وقد أشرنا الى هذه الرسائل وإلى محتوياتها في عدد سابق. والآن تظهر في انكلترا وثائق جديدة خاصة بأيام الامبراطور الأخيرة في منفاه بجزيرة سنت هيلانه. فقد نشرت جريدة (الصنداي تيمس) عدة رسائل لم تنشر من قبل، كتبها ضابط انكليزي يدعى دنكان داروس كان من شهود أيام الامبراطور وساعاته الأخيرة الى أمه، منها رسالة كتبت غداة وفاة الامبراطور، بتاريخ 6 مليو سنة 1821، وأخرى في مايو عقب الاحتفال بدفنه
وكانت هذه الرسائل في حوزة حفيد هذه السيدة. ولم تنشر من قبل قط، وهي وثائق ثمينة مؤثرة، عن المناظر والأقوال التي تتعلق بمرض الامبراطور الأخير وساعات نزعه، ولحظة وفاته، وكان الضابط دنكان داروس قد أرسل الى حامية سنت هيلانه في المرحلة الأخيرة من اعتقال الامبراطور؛ والرسالة الأولى عن وفاة الامبراطور مكتوبة من (ديدوود)، والرسالة الثانية من (لونجوود)
ولما ظهرت الحكة الأخيرة بجمع الوثائق النابوليونية سعت جريدة (الصنداي تيمس) الى الحصول على هذه الرسائل، ونجحت في احتار حق نشرها، وبدات بذلك منذ 23 ديسمبر؛ وكان لنشرها وقع عظيم عند كل الذين يهتمون بهذا العصر ومأساة الامبراطور المنفي
من هنا ومن هناك
الموجات القصيرة - بقلم ماركوني
إن استعمال الموجات القصيرة في الاتصال بواسطاة الراديو ليست جديدة علي، فقد خصصت لها جزءاً بيراً من تجاربي، وصرفت فيها تفكيراً طويلاً منذ ثمانية وثلاثين عاماً. ففي سنة 1896 أفهمت مهندسي محطات الأذاعة أن الأمواج التي طولها ثلاثون سنتيمتراً يمكن إرسالها بغير انقطاع في حيز مليون من الكيلوسكلات
وفي هذا العهد، بعد البحث والتجارب الطويلة التي قمت بها وقام بها غيري ممن عاصروني، نجحنا في استعمال تلك الموجات القصيرة حتى وصلنا إلى إرسالها إلى مسافة تقرب من عشرة آلاف متر
وأما من جهة النتائج التي وصلت إليها بين سنتي 1919 - 1924 في استعمال موجات ذات أطوال تتراوح بين مائة وستة أمتار فقد حملتني على التخلي عن الطريقة الامبراطولاية الموضوعة على أساس الموجات والأستعاضة عنها بمحطات ماركوني الأصدارية التي تستعمل الموجات القصيلاة المتتابعة، وذلك في الجقيقة هو الذي أدى إلى الانقلاب الحالي في الأعمال التليفونية والتلغرافية باستعمال تلك للموجات القصيرة التي تندفع الى مدى بعيد، ولقد كان لهذه النتائج أثر كبير في نفسي دفعني الى الاهتمام بهذه الموجات
واما الموجات الكهربائية الممغطسة الت يقارب طولها المتر، فلنا أن نعبر عنها بالموجات المرئية، لأن الأتصال بوساطتها ضرب من المحال، إلا إذ تلاقت نهايات دائرة الاتصال كلها في نقطة واحدة، وعنئذ تكون الفائدة المنتظرة قد نمت بتمام هذا الشرط الأخير
وقد نهتني تجاربي الكثيرة ألا أحدد شيئاً أساسه الفرض أو الحساب النظري، لأن ذلك كما نعلم مبني على جهل بمعرفة العوامل المسببة؛ وعلى العكس من ذلك وعلى رغم تكهني بما ينافي ذلك الشرط، فانني دائب البحث في نواح أخرى ولو ظهرت لي صعوبات كثيرة في أول الأمر
ولقد كان ذلك منذ ثمانية عشر شهراً على ةجه التقريب عندما صح عزمي على أن أستفيد من أبحاثي القياسية في صفات هذه الموجات القصيرة، وقد حصلت في النهاية

على نتائج ملموسة يوفر إدراكها معرفة ما يأتي:
(1) الأبعاد القصيرة للمرسل ' والمستقبل ' والعاكس الضرورية لنشر كمية كبيرة من القوى الكهربائية والحصول عليها
(2) معاكسة الأضواء الضعيفة المسببة عن اهتزازات الكهربائية الطبيعية عند الاضطرابات الجوية
ولي أن أجزم بأن الأشياء الممكنة في ذها الموضوع قد وسعت نطاق البحث في الموجات الكهربائية التي لم توضع بعد غلى بساط التجربة، والتي فسحت المجال لتطبيق هذه الموجات في الاتصال عن طريق الراديو
والاستعمال الدائم العملي للموجات القصيرة التي تكون حلقة متصلة بين الفاتيكان وقشتالة وجوندلفو لأكبر شاهد، كما أعتقد، يجعلنا نتفاءل بما ستحرزه هذه الطريقة الجديدة من النفع، وما ستوفره لنا في المستقبل، غذا ما أبعدنا الاضطرابات الكهربائية الاخرى
وخير مكان يقع فيه تطبيق هذه النظرية هو ربط الجزر ببعضها ببعض، أو بعضها بالقارات، أو ربط الجهات المختلفة بعضها بالأخرى، على شريطة ألا تكون هذه الجهات بعيدة عن بعضها كل البعد
وتمتاز هذه الطريقة الأخيرة بعدم تأثرها بالضباب، إذ هي أكثر ضماناً وأوفر أماناً، وخاصة من ناحية الاحكام الكامل الذي يمكن الاعتماد عليه كلية في تحديد الجهات تحديداً دقيقاً، ومع ذلك فمن العبث الآن أن نقول الكلمة الأخيرة عن تحديد مدى الاذاعة بوساطة هذه الموجات القصيرة

القصص

مدام بوفاري

لجوسناف فلوبير

تعليق وتلخيص محمد سليمان علي

قسم الكاتب الخالد قصته الخالدة إلى ثلاثة أقسام:
فالقسم الأول يصف نشأة مسيو بوفاري إلى أن احترف منهة الطب، وبين كيف اهتمت به أمه، وكيف زوجته من أرلملة سنها همس وأربعون سنة ودخلها مئتان وألف فرنك. وقد ظن المسكين أنه سيبدأ بزواجه عهداً مستقلاً سعيداً، ولكن امرأته اثبتت أنها (الفرس الأقوى)، ففي المجتمعات يجب عليه أن يقول هذا ويمسك عن ذاك؛ وكان لزاماً عليه أن يصوم ل يوم جمعة، وأن يلبس ما تشير به، وأن ينفذ أوارمها فيما يتعلق بالعملاء الذين توانوا عن الدفع، وكانت تفتح رسائله وتنصت من وراء الحاجز حين يختلي في غرفته الخصة بالعملاء إذا كن نساء
ذهب يوماً يعود مريضاً فأعجبته ابنته (إما) ذات العيون العسلية التي تبدو لطول أهدابها سوداء؛ وعاد بوفاري مريضه وكرر العيادة، ثم ماتت زوجه فترزوج (إما) وكان سعيداً، (كان العالم ينحصر في نظرة في محيط أثوابها. وكان يؤنب نفسه لعدم حبه إياها حباً أثر؛ وأحياناً كان يعود بعد خروجه ليراها ثانية وهي ما تزال في غرفتها تلبس، وبيتما كان يقبلها في أسقل عنقها، كانت تصيح هي في وجهه)
وكانت قبل زواجها تظن أنها تحب. ولكن السعادة التي كانت تتوقعها من الحب لم تظفر بها فظنت أنها خدعت، ووطنت العزم على أن تكتشف تماماً معنى هذه المدلولات: السعادة، الأهواء، النشوات: التي كانت إلى ذلك الوقت تبدو ها جميلة على صفحات الكتب
وانهارت أحلامها في الحي وشهر العسل والزواج، وأخذت تنسج لنفسها أحلاماً أخر.
وبقدر ما كانت علاقتها الزوجية تتوثق كان في نفسها تنافر داخلي ينمو ويزداد كان حديث شارل عمومياً كأفريز شارع تمشي عليه أفكار كل انسان , اي إنسان في) أثوابها العادية دون أن تثير عاطفة أو ضحكاً أو تفكيراً. كان يقول إنه أثناء غقانته في (روان) لم يجد لديه ما يدفعه إلى الذهاب إلى المسرح ليرى الممثلين من باريس. ولم يكن
يعرف السباحة ولا لعب السيف ولا إطلاق الغدارة؛ وفي ذات يوم لميستطع أن يشرح عبارة خاصة بركوب الخيل قرأتها في قصة: أما يجب على الرجل أن يعرف كل شيء وأن يعلم المرأة انبساط الأهواء ولذائذ الحياة وأسرار العيش؟ ولكن شارل ما علم

شيئاً وما عرف شيئاً، وما رغب في شيء. كان يعتقد أن زوجه سعيدة وهي تتعذب (تحت هدوئه الذي لا يضطرب وسكينته التي لا تخف
وبرغم ذلك كانت تمحنه حبها. ففي الحديثة، في الليالي المقمرة، كانت تعيد على سمعه كل الأغاني الوجدانية التي حفظتها عن ظهر قلب. ولكنها في النهاية لا تجد زوجها ازادا غراماً ولا حماسة. (ولما ضربت زماناً على الصخرة الجائمة على قلبها دون أن تبعث منها شرارة ما، كانت تجد صعوبة يسيرة في إقناع نفسها بأن غرام شارل لا يعد مفرطاً بعد)
وعكفت على قراءة مجلات السيدات والأزياء والأثاث ابتغاء التسلية، وعلى قراءة بلزاك وجورج ساند لتنقب فيهما عن الأرضاء الخيالي لأهوائها الشخصية. وكانت ذات أطماع: لِمَ لم تكن زوجة لعالم يدوي اسمه في كل مكان؟ وبدأت تكره زوجها لقلة طموحه وأصبحت تجد حياتها مملة جوفاء
والحق أنها كانت تنتظر حادثاً في حياتها. كانت تصحو إذا تنفس لصبح فتظن اليوم قد حل. وتنصب إلى كل حركة، حى إذا جاء الغروب أمست احزن من قبل، وحنت إلى الغد.
ولما كانت تضجر من دمينة (توست) ظن زوجها أن سبب الداء حادث محلي. وقرر أن ينتقل إلى بلدة (بونفي - لاباي)
وفي لقسم الثاني يصف الانتقال الى البلدة الجديدة، وتعارفهما لصيدلي هوميه وليون كاتب المحامي. ويبدأ الحديث بين هذا وبين مدام بوفري فيكتشفان بينهما نماذجاً في الأفكار وتشاركا في العواطف، فكلاهما يحب الطبيعة والموسيقى، فمدام بوفاري تقول:
- آمل أن أجد طرقاً جميلة في هذه الانحاء
- يؤسفني أن أقول إنها قليلة. هناك مكان يدعونه (المرعي) فوق مرتقى التلال، عند حافة الغاب، ولقد طالما قصدته في الآحاد ومعي كتاب كي أرى الغروب
- لست أظن أن هناك ما هو أجمل من الغروب، ولاسيما عند شاطيء البحر
- أوه، إنني أقدس البحر!
- ألا تظن أن العقل يبدو أكثر حرية حين نواجه ذلك الخضم غير المحدود، وأن أرواحنا لتتسامى حين نسبح في تأملاته، وأنه يوحي إلينا بالأفكار عن المثل العليا وعن اللانهاية؟
- كذلك الحال في مناطق الجبل
واندفعا يتحدثان عن الموسيقى الألمانية، والأوبرا الايطالية، إلى أن قال زوجها رداً على كلمة لهوميه عن تنسيق الحدائق:
- زوجتي لا تُعني بذلك، إننا ننصحها بالرياضة، ولكنها تفضل أن تظل في غرفتها تقرأ
وقال ليون - هذا ما أفعل. وإني لعلي يقين بأنه ما من شيء يفوق الجلوس في المساء بجوار الموقد مع كتاب نفيس، بينما الريح تسفع زجاج النوافذ، والمصباح يضيء ويلمع في الغرفة
وقالت وهي تحدجه بعينها السوداوين النجلاوين - هذا ما يختلج بنفسي
وينسي المء كل شيء بينما الساعات تتعاقب. ويجول في البلاد التي يظن أنه يراها، وأما أفكاره التي تحملها الحوادث المختلفة فانها تجد اللذة كل اللذة في كل تفصيل، أو تتبع سير المخاطرات والحوادث، وتصبح جزءاً من الشخصيات المختلفة، ويتخيل (المرء أن نفسه هي التي تتنفس في ملابسهم
وضعت مدام بوفاري طفلة سمتها برتا وتركتها عند امرأة ترضعا وكان ليون يفكر فيها وهي تفكر فيه، وتراقبه وهو يمر تحت نافذتها إلى محل عمل مرتين كل يوم. وكانوت أحياناً يجتمعون في المساء، بوفاري وهو مييه يلعبان الورق، أما ليون فينصرف إلى الحديث مع دمام بوفاري
وأخيراً قرر أن يصرح لها بحبه. إلا كلما عزم لا يجد الشجاعة. وكان يكتب الرسائل ثم يمزقها. وكانت شجاعته تفارقه في حضرتها، أما هي فلم تسأل نفسها إن كانت تحبه، ففي اعتبارها أن الحب يأتي فجأة ع دوي قاصف وبرق خاطف، عاصفة من السماء تهب على الحياة فتقلبها رأساً على عقب، وتعبث بالارادة كما يحمل الهواء ورقة جافة وتلقي بالقلب في هوة ما لها من قرار

ولكنها كانت تراه يتقرب اليها، وتحصى حركاته وكلماته عندما تستلقي على فراشها، وتستعيد نظراته ثم تقول لنفسها وهي تضم شفتيها كأنما تتأهب لقبلة (ما أبهج ذلك! أهو
لف؟ وبمن إن لم يكن بي؟) ولكنها لم تشجعه. وتظاهرت بأنها تحب زوجها. وكانت كلما أحست بأنها تهواه، قاومت لتقلل من شعورها. وكانت تأمل من ليون أن يفهم ذلك. وكلما همت بتأنيب نفسها عادت تفتخر وتقول لنفسها (إنيي شريفة)
وأخيراً ظن الشاب أنها لا تريده فترك البلدة إلى باريس
يلي ذلك لقاؤها بمسيو رودولف بولانجيه الساب الغني الجميل لخبير بالنساء والغرام. يقرأ في عينها مللها من حياتها وزوجها فيرغب فيها ويضع لذلك خطة محكمة وتساعده الظروف فيظفر بها. وتبدأ حلقة من الحب القوي المشبوب الجارف. وتندفع المرأة حتى تصل إلى درجة التهور. ولما ازدادت لعاشقها حباً ازدادت لزوجها مقتاً. ولأجل عشيقها الذي يملك ثروة من التجربة أخذت تعتني بنفسها وتبالغ في الزينة والتأنق. وأعطته مفتاح الحديقة الخلفي، فكانا يتقابلان طرفاً من النهار وزلفاً من الليل، وفي يوم حضوره كانت تملأ الغرفة بالأزاهرن وتتزين بكا ما تملك من حلي. ولم يعاتبها شارل على تبذيرها قط
وكان ليريه البائع المتجول يجلب اليها كل ما تطلب ويغريها بطلب المزيد، وما عليها إلا أن توقع على صكوك يقدمها لها فيصبح العزيز ملكاً لها. ولما ألح في طلب نقوده بعد زمن؛ دفعت له مالاً أتى لزوجها من عميل، ولم تخبره بذلك
- (حينما تدق الساعة اثنتي عشرة مرة في الليل يجب أن تفكر في). فاذا اعترق لها بأنه لم يفعل كانت تؤنبه، ثم تختم بكلمتها الأبدية
- (أمغرم بي أنت؟)
- (أجل. طبعاً)
- (كثيراً؟)
- (ما في ذلك شك)
- (ولم تحب غيري، عل فعلت؟)
- (اتظن أني كنت عذراء حين تلاقينا.)
ثم تبي فيترضاها فتقول:
- (ذلك لأني أحبك كثيراً. أحبك حتى لا أطيق الحياة بدونك. وأحياناً أقول لنفسي. أين هو؟ ربما ينعم بالحديث مع نساء أخريات. هن يبسمن له وهو يدنو منهن. ولكنك لا تهتم بهن،
أليس كذلك؟ كثيرات من يفقنني حسناً، ولكني اتن الحب أكثر منهن. إنني خدمتك وخليلتك، وأنت مليكي ومعبودي. كم أنت رحيم وجميل وماهر وقوي!)
وبدأ المعبود كعادته يسأم العاطفة العارية والكلمات المعادة.
ولما عيل صبرها من زوجها وأمه، قررت الفرار مع عشيقها وأخبرته بعزمها. فأخذ يسوف ويؤجل، وهي تؤمل وتستعد. وأخيراً حل الموعد المضؤوب، وبدلاً من ان يحضر أرسل اليها كتاباً يخبرها فيه بأنه لأجلها لن يطاوعها على فكرتها، ويريها أن فرارها معه عاقبته في النهاية وخيمة عليها، ويختمه بقوله: (. . . إنني أعاقب نفسي بالنفي للضرر الذي سببته لك. سأذهب بعيداً. لا أدري أين. لا تنسي الرجل البائس الذي تسبب في شقائك، وعلمي ابنتك اسمي حتى تذكره في صلواتها. وحين تقرئين هذه الأسطر البائسة أكون بعيداً، إذ يجب أن أتجنب الأغراء حتى لا أراك ثانية. كوني شجاعة. سأعود، وربما نستطيع بعد أن نتحدث بهدوء عن حبنا الأول، وداعاً. . .)
ولما قرأت الخطاب أغمى عليها، ومرضت ثلاثة وأربعين يوماً. وفي اثناء ذلك استدان زوجها ثمن الأدوية، وتدخل (ليريه) وتمكن أن يجعل بوفاري يوقع على كمبيالة لمدة ستة أشهر بالأشياء التي أخذتها مدام بوفاري. وبعدها طلب بوفاري من الرجل ألف فرنك يدفعها بله بعد سنة سبعين وألفاً
وأخيراً تحسنت صحتها قليلاً ولكنها أحست الزهد، وألح زوجها أن تحضر حفلة تمثيل في روان وهناك قابلا ليون
وفي القسم الثالث تبدأ مع ليون على أنقاض الغرام الأول حلقة غرام آخر مستهتر عنيف. والق أنها قاومت في مبدإ الأمر. فهي ما زالت متشائمة خائرة تحت تأثير

الصدمة الأولى. إلا أن ليون الذي غيرته الحياة الباريسية حملها في تيار جارف. وفي فند في المدينة أخذا يلتقيان يوماً كل أسبوع. وكانت تتذرع أمام زوجها بأنها تتلقى دروساً في البيانو على معلمة في روان

واندفعت مرة أخرى في شراء هداياها فزادت ديونها وتعددت الصكوك وذاق ليون معها للمرة الأولى رقة الاناقة النسوية التي لا يعبر عنها وصف، وأصبحت لا غنى لها عن لقياه، وكانت تذهب لتدهوه من محل عمله، وترتعش إذا فكرت أن حبه قد يتلاشى يوماً ما

وبدأ ليريه يحاصرها مطالباً بنقوده، عارضاً كمبيالات أخرى، وخضعت لسحر النقود فأخذت توقع عليها وتندفع في متعتها

وأخيراً حول ليريه بضعاً من هذه الكمبيلات غلى مالي آخر. ولما ذهبت تسأله جلية الخبر جعلها توقع على أربع كمبيالات أخر. وأخذت ترسل إلى عملاء بوفاري المدينين وتطلب النقود منهم وترجوهم ألا يخبروه (لأن ذلك يؤثر في كبريائه.)

وفي ذات يوم استلمت ورقة حجز رسمية. وأرسلت لليريه وهي دهشة. وصارحها الرجل بأن ذلك هو السبيل الوحيد لاسترداد نقوده. ولم يقبل منها أي توسل أو رجاء وذهبت على عجل إلى ليون وطلبت منه أن يبحث لها بأي وسيلة عن ثمانية آآف فرنك فلم يفلح، فعادت أدارجها ذاهلة مدحورة. وفي الصباح التالي نشر الاعلان الرسمي للحجز في الميدان

ونصحتها خادمتها أن تذهب إلى مسيو (جيللومين) المحامي الغني. فذهبت تشكو إليه ليريه وقصت عليه المسألة فقال:

- ولكن لِمَ لم تخبريني السبب؟ لماذا. . . أخائفة أنت مني؟ أرجح ان لدي عذراً للشكور. فما نكاد نتعارف، لكني أعترف لك بأني أشد العبيد تفانياً، وأملي ألا يخامرك في ذلك شك

وأسك بيدها وانكب يقبلها بشراهة، وأبقاها على ركبته، بينما كان يعبث بأناملها، وأحست بأنفاسه على خدها، وقالت:

- (سيدي أني أنتظر.) (النقود.) قالت: - وشجب وجه الرجل فجأة وقال (ماذا؟)

فقال: (لكن. . .) ثم أجاب الرغبة الحادة قائلاً:

وركع وهو يقول (بحق الرحمة، امكثي!) (!حسن. أجل)

ووق خصرها بذراه. فاندفع الدم إلى وجهها وتراجعت قائلة:

لا! سيدي أنت تنتهز خطورة مركزي بحماقة. إنني أستحق الرحمة، ولني لست للبيع.)

وخرجت في ثورة من الهياج والغضب وخطره لها فجأة أن تذهب الى رودولف. فدهش لرؤيتها. ولم تخبره بمطلبها باديء الأمر. ورحب بها وأظهر أسفه لانفصالهما واندفع يقول إنها المرأة الوحيدة التي أحبها ورجاها أن تخبره بما يزعجها. ولما طلبت منه أن يقرضها ثلاثة الأف فرنك تراجع وأخبرها بأن هذا المبلغ غير موجود لديه

فقالت: (ليس لديك! كان الأحرى أن أوفر على نفسي هذا الذل. لم تحبني بتاتاً، ولست خيراً من آآخرين.)

وخرجت وهي تكاد لا تعي. ومر امامها الماضي سريعاً. وشعرت بأنها ستجن، وبأن روحها تتسرب منها كما ينزف الدم من الجريح. وأخيراً دخلت من الباب الخلفي لصيدلية (هوميه) وهو يتعشى. واستطاعت أن تحصل على مقدار من السم. وعادت إلى منزلها. وجدها زوجها المسكين تكتب خطاباً، ولما سألها عما حدث اجابته مشيرة إلى الخطاب (يجب أن تقرأ هذا غداً.) ورجته أن يتركها وحدها، استلقت على الفراش، وبدأت تظهر عليها أعراض السم، وأحست بالظمأ وبطعم الحبر. وسألها زوجها عما تشكو فلم تجب. وبعد قليل بدأ القيء. وأصبح وجهها أزرق اللون، وأخذت أسنانها تصطك، وبصرها يضطرب، ولما عاد يسألها في قلق أشارت إلى الخطاب. ولما قرأه صرخ طالباً المعونة. وحضر الصيديلي هوميه، وأرسلا إلى طبيبين، واضطربا في غمرات من الدهشة الذاهلة. ثم اتمى شارل على الفراش ينتخ. فقالت له:

- لا تبك، فلن أحتمل زيداة على ذلك

- لماذا؟ ما الذي دفعك إلى ذلك؟

- كنت مرغمة يا صديقي

- أما كنت سعيدة؟ أهي غلطتي؟ لقد فعلت كل ما أستطيع

- بلى ذلك حق. . . أنت طيب جداً
وعز على الرجل فراقها وقد أقرت أنها أجبته أكثر من أي لحظة خلت. لم تعد تره أحداً الآن. والصوت الدنيوي الوحيد الذي كانت تسمعه هو عويل قلبها المسكين، الذي كان هادئاً خافتاً، كالصدى الأخير لموسيقى بعيدة. وقال وهي ترفع نفسها على مرفقها (أحضروا طفلتي.)
وحضرت وخاطبتها ثم أبعدتها. وأتي الطبيب، ولكنها بدأت تبصق دماً. وبدأت أعضاؤها تتشنج، وتغطي جسمها بقع سمراء - وحضر الطبيب الآخر فرآها ثم قال لزوجها:
- كن شجاعاً يا صديقي المسكين فما نستطيع شيئاً
ماتت المسكينة فأخذ كل شخص يشتغل الموقف. معلمة الموسيقى تطلب أجر ستة شهور
مع أن مدام بوفاري لم تأخذ درساً واحداً، وصاحب المكتبة يريد اشترا ستة شهور الخ
وأرسلت مدام ديبوي تنبئه بزواج ليون ديبوي بالآنسة ليو كادي ليبوف. وكتب شارل يهنئها ويقول:
(لشد ما كان يسعد زوجتي أن تعلم ذلك!)
وفي ذات يوم وهو يهيم بالمنزل عثر في الغرفة العيا على كرة من الوق لرفيع، فتحها فاذا بها خطاب رودلف الأخير؛ وكانت صدمة عنيفة. رأى حرف (ر) وعرف من هو؛ ولكنه عاد يقول: ربما كان ذلك تجاذباً روحياً فحسب. لقد كانت محبوبة من كل إنيان ولكي يسعدها وهي ميتة كان يعيش كما كانت تهوى وتفكر. كان يلبس أحذية لامعة. وربطات رقبة بيضاء، ويضع على شاربه الأصباغ، ويستدين المال بالكمبيالات - وبالجملة كانت تئثر فيه من وراء اللحد
واضطر أن يبيع الأثاث. إلا أنه لم يمس غرفتها بل ظلت كما كانت. وكان يذهب اليها دائماً بعد العشاء، ويضع المنضدة المستديرة بجوار المدفأة وكرسيها بجانبها وكرسيه بالجانب اآخر؛ واحتراماً لها لم يفتح درجها السري الخاص. ولكنه جلس أمامه يوماً وفتحه. وكانت خطابات ليون فيه. فقرأها وأخذ يبكي ويصرخ، ثم وجد رسائل رودولف وصورته أيضاً
ودهش الجميع للانحطاط الذي عراه، وانقطع عن الخروج ورفض أن يعود مرضاه. ولكن بعض المطفلين كان يتسلق سور الحديقة المرتفع ويدهش إذ يرى الرجل في ثياب رثة، وجال سيئة. وفي الأماسي الصيفية كان يصطحب ابته إلى المقبرة، فلا يعودان إلا بعد أن يسدف الليل
وذهب يبيع جواده فقابل رودلف، فدعاه هذا في جرأة ليشرب زجاجة من الجعة بالحانة. وامام الرجل تاه شار في أفكاره. وأمام الوجه الذي أحبته كاد يظن أنه يرى شيئاً منها.
كان ذلك عجباً. وأوشك أن يتمنى أن يكون ذلك الرجل. ولم يصغ لحديثه، ولكنه قال أخيراً:
ووضع رأسه بين يديه، وقال في صوت ضعيف: (لا أحمل لك (إنني لا أحمل لك حقداً) - حقداً). ثم أضاف هذه اللمات الرفيعة وهي المرة الوحيدة التي قال فيها شيئاً غير عادي:
- (وكانت غلطة القدر)
وفي الساعة السابعة من اليوم التالي وكان جالساً على مقد في مشى الحديقة جاءت برتا الصغيرة التي ل ـره منذ الأصيل لتدعوه الى العشاء. وكان رأسه مسنداً الى الحائط، وعيناه مغمضتين، وفمه مفتوحاً، وخصلة من الشعر الفاحم في قبضة يده، وقالت (تعال يا أبت.) وظننته يريد أن يداعبها، فدفعته بلطف فسقط على الأرض ميتاً!
محمد سليمان علي
العدد 81 - بتاريخ: 21 - 01 - 1935
. . .الحج
!!لبيك اللهم لبيك
الحج والزكاة هما الركنان الاجتماعيان من أركان الدين، يقوم عليهما الأمر بين الفرد والفرد، وبين الفرد والجماعة، كما يقوم على الثلاثة الأخَر الأمر بين المرء وربه، وبين المرء ونفسه؛ فالزكاة تقيم نظام المجتمع على التعاطف والرحمة، الحج يقيمها على

التعارف والألفة، فيحقق الأول بنفي العقوق معنى الأخاء، ويحقق الثاني بمحو الفروق معنى المساواة؛ والإخاء والمساواة شعار الإسلام، وقاعدة السلام، ومِلاك الحرية، ومعنى المدينة الحق، وروح الديمقراطية الصحيحة

كان الحج وما زال مَطْهرَ الدنيا: ترحض فيه النفوس عن جوهرها أوزار الشهوات وأوضار المادة؛ وكان الحج وما زال ينبوع السلامة: تَبْرد عليه الأكباد الصادية، وترفُه لديه الأعصاب الوانية؛ وكان الحج وما زال مثابة الأمن: تأنس فيه الروح إلى موضع الإمام، ويسكن الوجدان إلى منشأ العقيدة، وينبسط الشعور بذلك الإشراق الإلهي في هذه الأرض السماوية؛ وكان الحج ومازال موعد المسلمين في أقطار الأرض على (عرفات): يتصافقون على الوداد، ويتآلفون على البعاد، ويقفون سواسية أمام الله حاسري الرءوس، خاشعي النفوس، يرفعون إليه دعوات واحدة، في كلمات واحدة، تَصعدُ بها الأنفاس المضطرمة المؤمنة تصعد البخور من مجامر الطيب، أو العطور من نوافح الروض! هنالك يقف المسلمون في هذا الحشر الدينوي حيث وقف صاحب الرسالة، وحواريو النبوة، وخلفاء الدعوة، وأمراء العرب، وملوك الإسلام، وملايين الحجيج من مختلف الألوان والألسن، فيمزجون الذكرى بالذكر، ويصلون النظر بالفكر، ويذكرون في هذه البقعة المحدودة، وفي هذه الساعة الموعودة، كيف اتصلت هنا السماء بالأرض، ونزل الدين على الدنيا، وتجلى الله للإنسان، ونبت من هذه الصحراء الجديبة جنات الشرق والغرب، وثمرات العقل والقلب، وبينات الهدى والسكينة

الحج مؤتمر الإسلام العام، يجدد فيه حبله، ويتعهد به بأهله، ويؤلف بين القلوب في ذات الله، ويؤاخى بين الشعوب في أصل الحق، ويستعرض علائق الناس كل عام فيوشجها بالأحسان، ويوثقها بالتضامن، وينضح من منابعه الأولى على الآمال الذاوية فتنضُر، وعلى

العزائم الخابية فتذكو، ثم يجمع الشكاوي المختلفة من شفاه المنكوبين بالسياسة المادية، والمدنية الآلية، والمطامع الغربية، فيؤلف منها دعاء واحداً تجأر به النفوس المظلومة جؤاراً تردده الصحراء والسماء!

وما أحوج المسلمين اليوم إلى شهود هذا المؤتمر! لقد حصرهم المستعمرون في أوطانهم المغصوبة، ثم قطعوا بينهم الأسباب، وحرموا عليهم التواصل، وفصلوهم عن الماضي الملهم والمستقبل الواعد، بطمس التاريخ، وقتل اللغة، وإطفاء الدين، فلم يبق لهم جُمعة إلا في هذا الموسم

إن في كل بقعة من بقاع الحجاز أثراً للتضحية ورمزاً للبطولة، فالحج إليها إيحاء بالعزة، وحفز إلى السمو، وحث على التحرر: هنا غار (حراء) مهبط الوحي، وهنا (دار الأرقم) رمز التضحية، وهنا (جبل ثور) منشأ المجد، وهذا هو البيت الذي احتبى بفنائه أبو بكر وعمر وعلي وعمرو وسعد وخالد، وهذا الشعب وذاك مَجرُّ أذيال الغطاريف من بني هاشم وبني امية، وتلك هي البطحاء التي درج على رمالها قواد العالم وهداة الخليقة!!

أما شرط الاستطاعة فقد بطل .(ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً) اليوم، وأصبح الحج فريضة عين لا تحول عن أدائها عقبة، ولا يَسوغُ في تركها معذرة؛ فأنت تستطيع بالمال اليسير وفي الزمن القصير أن تحج على الباخرة والسيارة والطيارة، دون أن تعرض حياتك للموت، وثروتك للنهب، وصحتك للمرض!

وهذه (شركة مصر للملاحة البحرية) تتعهد لك (بزمزم) و (الكوثر) أن تكفلك وتحملك وتعلمك وتغذيك وتؤويك وتحميك في البحر والبر تحت عَلم دولتك، ورعاية مواطنيك، فلا تكابد وعث الصحراء وعبث الأشقياء، ولا تقاسي بُعدَ الشقة وطول الغربة لقد كان الحج لرهَقه الشديد وجهده الجاهد يكاد يكون مقصوراً على الطبقات الخشنة من الزراع والصناع والعملة؛ أما الناعمون المترفون من أولي الأمر، وذوي الرأي، وأصحاب الزعامة، فما كانوا يقدمون عليه ولا يفكرون فيه، فظل جَداه على المسلمين ضئيلاً لا يتعدى الحدود الخاصة من قضاء المناسك وأداء الزيارة فماذا يمنع الكبراء والزعماء اليوم أن يتوافوا على ميعاد الله، ما دامت هذه الشركة المصرية الخالصة قد تحملت عنهم أكلاف السفر، وضمنت لهم وسائل العيش، ووفرت عليهم أسباب الرفاهية، حتى ليكتفي المسافر

بحقيبة ثيابه؟
إن في حج سراة العرب والمسلمين إعلاء لشأن الملة، وإغراء بأداء الفريضة، وسعياً لجمع الكلمة، وسبيلاً إلى الوحدة المرجوة. وإن مقام إبراهيم الذي انبثق منه النور، ونزل فيه الفرقان، وانتظم عليه الشمل، لا زال مناراً للأمة، ومثاراً للهمة، ومشرق الأمل الباسم بالعصر الجديد

أحمد حسن الزيات

وحُي القبور

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

ذهبتُ في صُبح يوم عيد الفطر أحملُ نفسي بنفسي إلى المَقْبرة، وقد مات لي من الخواطر مَوْتَى لا مَيتٌ واحد؛ فكنتُ أمشى وفي جِنَازَةٌ بمُشَيِّعيها من فكرٍ يحملُ فكراً، وخاطرٍ يتبعُ خاطراً، ومعنى يبكي ومعنى يُبكى عليه؛ وكذلك دأبي كلما انحدرت في هذه الطريق إلى ذلك المكان الذي تأتيه العيونُ بدموعها، وتمشي إليه النفوسُ بأحزانها، وتجيء فيه القلوبُ إلى بقاياها. تلك المقابرُ التي لا ينَادي أهلُها مِن أهليهم بالأسماء ولا بالألقاب ولكن بهذا النداء: يا أحبابنا؛ يا أحزانَنَا

ذهبتُ أزور أمواتي الأعزاءَ وأتصلُ منهم بأطراف نفسي لأحيا معهم في الموت ساعةً أعرضُ فيها أمرَ الدنيا على أمر الآخرة، فأنسى وأذكر، ثم أنظرُ وأعتبر، ثم أتعرف وأتوسم، ثم أستبطنُ مما في بطن الأرض، وأستظهرُ مما على ظهرها؛ وجلستُ هناك أشرفُ من دهرٍ على دهر ومن دنيا على دنيا، وأخرجتِ الذاكرةُ أفراحها القديمة لتجعلها مادةً جديدةً لأحزانها؛ وانفتح لي الزمنُ الماضي فرأيت رَجْعَةَ الأمس، وكأن دهراً كاملاً خُلق بحوادثه وأيامه ورفع لعيني كما تُرفعَ الصورةُ المعلقةُ في إطارها أعرف أنهم ماتوا، ولكني لم أشعر قط إلا أنهم غابوا؛ والحبيبُ الغائبُ لا يتغير عليه الزمانُ ولا المكانُ في القلب الذي يحبه مهما تَراخَتْ به الأيام؛ وهذه هي بقية الروح إذا امتزجت بالحب في روح أخرى، تترك فيها ما لا يمحى لأنها هي خالدة لا تُمحى ذهب الأمواتُ ذَهَابَهم ولم يقيموا في الدنيا؛ ومعنى ذلك أنهم مروا بالدنيا ليس غير، فهذه هي الحياة حين تعبر عنها النفسُ بلسانها لا بلسان حاجتها وحِرصها الحياة مدةٌ عمل، وكأن هذه الدنيا بكل ما فيها من المتناقضات إن هي إلا مَصْنَعٌ يُسَوغُ كلَّ إنسانٍ جانباً منه، ثم يقال له: هذه هي الأداةُ فاصنع ما شئتَ، فضيلتك أو رذيلتك

جلستُ في المقبرة، وأطرقت أفكر في هذا الموت. يا عجباً للناس كيف لا يستشعرونه وهو يهدمُ من كل حي أجزاءً تحيط به قبل أن يهدمَه هو بجملته، وما زال كلُ بُنْيانٍ من الناس به كالحائط المُسَلطِ عليه خرابُه يَتَأكل من هنا ويتناثر من هنا يا عجباً للناس عجباً لا ينتهي، كيف يجعلون الحياةَ مدة نزاع وهي مدةُ عمل؛ وكيف لا تبرحُ تَنْزُو النوازي بهم في الخلاف والباطل، وهم كلما تَدَافَعوا بينهم قضيةً من النزاع فضربوا خَصْماً بخصم وردوا كَيْداً بكيد، جاء حكمُ الموت تكذيباً قاطعاً لكل من يقول لشيء هذا لي

أما والله إنه ليس أعجبُ في السخرية بهذه الدنيا من أن يُعطَى الناسُ ما يملكونه فيها لإثبات أن أحداً منهم لا يملك منها شيئاً، إذ يأتي الآتي إليها لحماً وعظماً ولا يرجع عنها الراجعُ إلا لحماً وعظماً، وبينهما سفاهةُ العظم واللحم حتى على السكين القاطعة. . .

تأتي الأيامُ وهي في الحقيقة تَفِرّ فِرارَها؛ فمن جاء من عمره عشرون سنةَ فإنما مضت هذه العشرون من عمره. ولقد كان ينبغي أن تُصَحح أعمال الحياة في الناس على هذا الأصل البين، لولا الطباعُ المدخولةُ والنفوسُ الغافلة والعقولُ الضعيفةُ والشهواتُ العارمة؛ فأنه ما دام العمرُ مُقْبِلاً مَدْبِراً في اعتبار واحد، فليس للإنسان أن يتناولَ من الدنيا إلا ما يُرضيه محسوباً له ومحسوباً عليه في وقتٍ معاً. وتكونُ الحياةُ في حقيقتها ليست شيئاً إلا أن يكون الضميرُ الإنساني هو الحي في الحي

ما هي هذه القبور؟ لقد رجعتُ عند اكثر الناس مع المَوْتَى أبنيةً ميتة؛ فما قطُّ رأوها موجودةً إلا لينسوا أنها موجودة. ولولا ذلك من أمرهم لكان للقبر معناه الحيُّ المتغلغلُ في الحياة إلى بعيد؛ فما القبرُ إلا بناءٌ قائمٌ لفكرة النهاية والانقطاع؛ وهو في الطرف الآخر رَدٌّ على البيت الذي هو بناءٌ قائم لفكرة البدء والاستمرار؛ وبين الطرفين المَعبدُ وهو بناءٌ لفكرة الضمير الذي يحيا في البيت وفي القبر، فهو على الحياة والموت كالقاضي بين خصمين يصلح بينهما صُلحاً أو يقضي

القبرُ كلمةُ الصدق مبنيةً متجسمةً، فكل ما حولها يَتَكَذبُ ويتأول، وليس فيها هي إلا معناها لا يدخله كذبٌ ولا يعتريه تأويل. وإذا ماتت في الأحياء كلمةُ الموت من غرور أو باطلٍ أو غفلةٍ أو أثرة، بقي القبرُ مذكراً بالكلمة شارحاً لها بأظهر معانيها داعياً إلى الاعتبار بمدلولها، مبنياً بما ينطوي عليه أن الأمر كله للنهاية

القبر كلمةُ الأرض لمن ينخدعُ فيرى العمر الماضي كأنه غيرُ ماضٍ، فيعملُ في إفراغ حياته من الحياة بما يملؤها من رذائله وخسائسه، فلا يزال دائباً في معاني الأرض واستجماعها والاستمتاع بها، يتلو في ذلك تِلْوَ الحيوانِ ويقتاسُ به فشريعته جَوْفُه وأعضاؤه. وترجعُ بذلك حيوانيته مع نفسه الروحانية، كالحمار الذي يملكُه ويعلفُه، لو سئل الحمارُ عن صاحبه من هو؟ لقال: هو حِماري. . . . . .

القبرُ على الأرض كلمةٌ مكتوبةٌ في الأرض إلى آخر الدنيا معناها أن الإنسان في قانون نهايته فلينظر كيف ينتهي

إذا كان الأمر كله للنهاية، وكان الاعتبارُ بها والجزاءُ عليها، فالحياةُ هي الحياةُ على طريقة السلامة لا غيرها. طريقة إكراه الحيوانِ الإنساني على ممارسة الأخلاقية الاجتماعية، وجعلها أصلاً في طباعه، ووزن أعماله بنتائجها التي تنتهي بها، إذ كانت روحانيته في النهايات لا في بداياتها

في الحياة الدنيا يكون الإنسان ذاتاً تعملُ أعمالها؛ فإذا انتهت الحياةُ انقلبت أعمالُ الإنسان ذاتاً يخلدُ هو فيها؛ فهو من الخير خالدٌ في الخير ومن الشر هو خالد في الشر؛ فكأن الموت إنْ هو إلا ميلادٌ للروح من أعمالها؛ تولد مرتين آتيةً وراجعة

وإذا كان الأمر للنهاية فقد وجب أن تبطلَ من الحياة نهاياتٌ كثيرة فلا يترك الشَّر يمضي إلى نهايته بل يُحسم في بدئه ويقتل في أول أنفاسه؛ وكذلك الشأن في كل ما لا يحسن أن يبدأ، فانه لا يجوز أن يمتد كالعدواة والبغضاء، والبخل والأثرة، والكبرياء والغرور، والخداع والكذب؛ وما شابَكَ هذه أو شابهها، فإنها كلها انبعاثٌ من الوجود الحيواني وانفجارٌ من طبيعته؛ ويجب أن يكون لكل منها في الإرادة قبرٌ كي تسلم للنفس الطيبة إنسانيتها إلى النهاية

يا من لهم في القبور أموات!

إن رؤية القبر زيادة في الشعور بقيمة الحياة، فيجب أن يكون معنى القبر من معاني السلام العقلي في هذه الدنيا

القبر فمٌ ينادي: أسرعوا أسرعوا فهي مدة لو صُرفت كلها في الخير ما وَفَتْ به؛ فكيف يضيع منها ضَياعٌ في الشر أو الإثم؟ ولو وُلد الإنسان ومشى وأيفَعَ وشبَّ واكتهل وهرم في يوم واحد، فما عساه كان يُضيع من هذا اليوم الواحد؟ إن أطول الأعمار لا يراه صاحبه في ساعة موته إلا أقصر من يوم

ينادي القبر: أصلحوا عيوبَكم، وعليكم وقتٌ لإصلاحها. فإنها إن جاءت إلى هنا كما هي بقيت كما هي إلى الأبد، وتركها الوقت وهرب.

هنا قبر، وهناك قبر، وهنالك القبر أيضاً. فليس ينظر في هذا عاقلٌ إلا كان نظره كأنه حكُم محكمةٍ على هذه الحياة كيف تنبغي وكيف تكون.

في القبر معنى إلغاء الزمان، فمن يفهم هذا استطاع أن ينتصر على أيامه وأن يُسقط منها أوقات الشر والإثم، وأن يُميتَ في نفسه خواطر السوء؛ فمن معاني القبر ينشأ لإرادة عقلُها القويُّ الثابت؛ وكل الأيام المكروهة لا تجد لها مكاناً في زمن هذا العقل كما لا يجد الليل محلاً في ساعات الشمس

ثلاثةُ أرواح لا تصلح روحُ الإنسان في الأرض إلا بها:

روحُ الطبيعة في جمالها، وروحُ المعبد في طهارته، وروحُ القبر في موعظته.

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

في الجحيم البلقاني

ألبانيا الفتاة

لمناسبة حوادثها الأخيرة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

في أوربا دولة إسلامية صغيرة يحدق الخطر اليوم بمصايرها؛ ويتطلع الاستعمار الأوربي إلى افتراسها: تل هي مملكة ألبانيا التي أثارت حوادثها الأخيرة كثيراً من التساؤل

والاهتمام، وهي الدولة المسلمة الوحيدة في أوربا، لأن تركيا لم تبق بعد من الوجهة الجغرافية دولة أوربية؛ ومن الأسف أن هذه الملكة الصغيرة تجد نفسها، مذ حصلت على استقلالها قبيل الحرب الكبرى، بسبب ظروفها الجغرافية، هدفاً لأطماع ومنافسات دولية قوية لا تستطيع خلاصاً منها، وترى نفسها مرغمة بحكم ضعفها وعزلتها إلى التماس العون والحماية من أولئك الذين يتطلعون إلى افتراسها

كانت ألبانيا قبل الحرب ولاية تركية. ولكن هذه الأمة الصغيرة الباسلة تناضل في سبيل استقلالها منذ بداية القرن التاسع عشر؛ وقد استطاعت فعلاً أن تحصل على نوع من الاستقلال في عهد زعيمها علي باشا اليانيني في أوائل هذا القرن، فلما انهار سلطان هذا الزعيم الذي تملأ حياته وسيره المروعة كثيراً من صحف القصص الغربي، انهارت جهود ألبانيا في الاستقلال، وعادت تركيا فمكنت منها نيرها وسيادتها. ولما نشبت الحرب بين تركيا والدول البلقانية في سنة 1912، كان من نتائجها استقلال ألبانيا، قضت به معاهدة لندن التي عقدت بين الدول في مايو سنة 1913، واتفقت الدول على اختيار حاكم للدولة الجديدة المستقلة، ووقع اختيارها على البرنس دي فيد الألماني. وفي أوائل سنة 1914 قدم البرنس دي فيد إلى ألبانيا بعد أن زار حكومات الدول الأوربية المختلفة، فاستقبله وفد من الزعماء الألبانيين وعلى رأسهم عميدهم أسعد باشا بطل اشقودرة الذي أعلن استقلال ألبانيا قبل أن تقرره معاهدة لندن، طلب إليه باسم الشعب الألباني أن يقبل عرش ألبانيا، فلبي البرنس الدعوة ولقب (بأمبرت) ألبانيا وهو تصغير للقب الامبراطور، وتولى أسعد باشا في الحكومة الجديدة وزارتي الداخلية والحربية، ولكن الخلاف لم يلبث أن دب بينه وبين البرنس، واضطربت شؤون ألبانيا، وتفاقمت الصعاب حول الملك الجديد، وأضرم أسعد باشا نار الثورة فأرغم البرنس على مغادرة ألبانيا، لأشهر قلائل من مقدمه، وقبض أسعد باشا على رياسة الحكومة الجديدة (أكتوبر سنة 1914)، واختارت ألبانيا ملكاً جديداً هو البرنس برهان الدين ابن السلطان عبد الحميد، ولكن البلاد لبثت تتخبط في غمار الاضطراب والفوضى؛ وكانت الحرب الكبرى قد اضطرمت قبل ذلك بقليل، وأخذت دول الخلفاء تتطلع إلى ألبانيا كمركز حربي هام، وتخشى أن تغدو قاعدة لحركات ألمانيا والنمسا في المشرق؛ وفي ديسمبر سنة 1914 بعثت إيطاليا - بإيعاز الحلفاء - جملة عسكرية إلى ثغر فالونا الألباني فاحتلته؛ وعلى أثر ذلك وقعت بين الدول مفاوضات سرية بشأن ألبانيا، ووعد الحلفاء بأن يتركوا ألبانيا غنماً لإيطاليا مقابل دخولها في الحرب معهم؛ ووعدت النمسا من جانبها إيطاليا بأن تؤيد احتلالها لثغر فالونا وتطلق يدها في ألبانيا إذا هي لزمت الحياد. ولكنها لما رأت تردد إيطاليا دفعت جيوشها إلى الجنوب؛ وفي أواخر سنة 1915 غزت الجنود النمسوية الألمانية ألبانيا واستولت على اشقودرة، ووصلت إلى ظاهر تيرانا عاصمة ألبانيا، وغزت الجيوش البلغارية شرق ألبانيا؛ فاضطربت حكومة أسعد باشا الموالية للحلفاء وسقطت واضطرت إيطاليا إلى إخلاء ثغر دورازو ولكنها احتفظت بثغر فالونا. ولبث الألمان والنمسويون يحتلون شمال ألبانيا وشرقها لتأمين مواصلاتهم مع تركيا والميادين الشرقية حتى نهاية الحرب الكبرى. ولما انتصر الحلفاء كان من المقرر أولاً أن يعطى القسم الجنوبي من ألبانيا لليونان، ووافقت إيطاليا على ذلك بشرط أن تعترف اليونان بحمايتها على باقي ألبانيا مع التنازل عن سلخة شمالية لصربيا، ولكن هذا التقسيم لم يتم؛ وعادت إيطاليا إلى المطالبة بتنفيذ الوعد الذي قطع لها بالاستيلاء على ألبانيا. وفي مؤتمر سان ريمو (1920) الذي عقد للنظر في مسألة الانتدابات، منح الانتداب على ألبانيا لإيطاليا، وأخذت إيطاليا تعمل لاحتلال ألبانيا وبسط سيادتها؛ ومع أن ألبانيا غدت عضواً في عصبة الأمم، فان إيطاليا استطاعت في أواخر سنة 1921 أن تحمل بريطانيا العظمى وفرنسا واليابان على إصدار تصريح تعترف فيه (بأن انتهاك الحدود الألبانية أو استقلال ألبانيا يمكن أن يعتبر خطراً على سلامة إيطاليا من الوجهة العسكرية)

على أن ألبانيا لم تستكن لهذه المحاولات الاستعمارية. والشعب الألباني شعب باسل رغم كونه يقل عن المليونين عداً (نحو مليون وستمائة ألف ثلثاهم من المسلمين)، يقدس حرياته واستقلاله، ولهذا عادت ألبانيا فاضطرمت بحركة وطنية اخرى؛ وتدخلت

السياسة اليوجوسلافية خصيمة السياسة الإيطالية لتأييد هذه الحركة التي قادها زعيم فتي هو أحمد زوغو؛ ولم يمض عامان أو ثلاثة حتى استطاع أحمد زوغو بمعاونة يوجوسلافيا أن ينشئ في ألبانيا جمهورية مستقلة، وان ينتخب رئيساً لهذه الجمهورية (فبراير سنة 1925). ورأى زوغو أنه لا يستطيع المحافظة على سلامة الدولة الجديدة في بلد وعر قوى المراس قليل الموارد دون معاونة أجنبية؛ ولما رأت السياسة الإيطالية أن يوجوسلافيا تنافسها في ألبانيا، تقربت من أحمد زوغو؛ وآثر زوغو بعد أن حقق الخطوة الأولى من برنامجه أن يتفاهم مع حكومة رومه، وانتهى هذا التفاهم بعقد ميثاق تيرانا (نوفمبر سنة 1926)، وهو ميثاق تأييد متبادل وتعاون ودي، تستطيع الحكومة الإيطالية أن تتدخل بمقتضاه في شئون ألبانيا، وتتعهد أن تحافظ على الحالة القائمة فيها في حدود المعاهدات المعقودة وميثاق عصبة الأمم. وفي العام التالي عقدت ألبانيا مع إيطاليا معاهدة دفاعية لمدة عشرين سنة، تتعهد فيها كل منهما بأن تضع تحت تصرف حليفتها كل مواردها العسكرية والمالية وغيرها متى طلبت إليها هذا العون لدرء الخطر عنها

واستطاع أحمد زوغو أن يهدئ الحالة في ألبانيا وأن يقبض على ناصية الأمور رغم هذه الاتفاقات التي تقضي على استقلال ألبانيا وتجعلها شبه مستعمرة إيطالية. واستغلت إيطاليا هذه الفرص لتوطيد نفوذها؛ وعقدت لألبانيا بواسطة عصبة الأمم قرضاً قدره خمسون مليون فرنك ذهباً، وقامت بإنشاء البنك الألباني الوطني، ووظفت أموال إيطالية كثيرة في المرافق الألبانية، ومكنت السياسة الفاشستية نفوذها من ألبانيا. واعتمد أحد زوغو على هذا النفوذ في تأييد مركزه وسلطانه؛ وفي سبتمبر سنة 1928 أعلن نفسه ملكاً على ألبانيا باسم الملك زوغو الأول، واستطاع أن يوطد مركزه وأن يقضي على كل معارضة؛ ولكنه شعر في نفس الوقت أن توغل النفوذ الإيطالي في ألبانيا، يثير الشعور الوطني، وقد ينقلب هذا الشعور ضده، ورأى من جهة أخرى انه ليس في كبير حاجة إلى معاونة إيطاليا بعد؛ فلم يقبل أن يجدد ميثاق تيرانا الذي انتهى أجله سنة 1931، وبقيت معاهدة سنة 1927 هي أساس العلائق بين إيطاليا وألبانيا؛ ولكنه اضطر أن يعقد اتفاقاً مالياً في صيف 1931، تتعهد إيطاليا بمقتضاه أن تقدم لألبانيا بشروط معينة قرضاً قدره مائة مليون فرنك ذهباً بلا فائدة، وتؤدي منها إليها كل عام عشرة ملايين.

واهتمام السياسة الإيطالية بألبانيا وتمكين نفوذها منها يرجع إلى عوامل جغرافية وعسكرية خطيرة، فألبانيا تقع في مواجهة إيطاليا الجنوبية على الضفة اليمنى من بحر الأدرياتيك، وليس بين ثغر باري الإيطالي وبين ثغر دورازو الألباني أكثر من بضع ساعات، ولا يفصل برنديزي وفالونا أكثر من مائة كيلو متر؛ ثم إن شواطئ ألبانيا تصلح بطبيعتها قواعد ومرافئ حصينة للأسطول الايطالي، على حين أن الشواطئ الإيطالية المواجهة ليست لها هذه الخاصة. ولألبانيا وقت السلم جيش نظامي يبلغ تسعة الآف، ويمكن وقت الحرب أن يغدو مائة ألف، وهو مدرب على الأساليب الإيطالية بحيث يغدو وقت الحرب بالنسبة لإيطاليا عوناً لا يستهان به. ومن جهة أخرى فان وقوع ألبانيا في جنوب يوجوسلافيا خصيمة إيطاليا ومنافستها القوية يجعلها إذا نشبت حرب بين الدولتين قنطرة سهلة للوصول إلى إيطاليا وتهديد شواطئها وثغورها الجنوبية بسرعة؛ وإيطاليا تحسب لهذا الخطر حسابه، خصوصاً بعد تحسن العلائق بين ألبانيا ويوجوسلافيا في الآونة الأخيرة

ولنحاول الآن أن نستعرض موقف ألبانيا الحاضر بعد الذي أذاعته الأنباء الأخيرة عن وقوع اضطرابات خطيرة فيها يوشك أن تتمخض عن انقلاب سياسي جديد. والظاهر أن هنالك مبالغة في هذه الأنباء قصدت إليها بعض المصادر التي تعمل على تشويه سمعة ألبانيا ولاسيما المصادر اليونانية نظراً لعدم رضى اليونان عن معاملة الأقلية اليونانية في ألبانيا؛ وهذه الأقلية يسكن معظمها في القسم الذي ضم إلى ألبانيا من مقاطعة أبيروس وهي مثار الخلاف بين البلدين. وتنفي المصادر الألبانية الرسمية هذه الأنباء، وتقول إن ما حدث كله يتلخص في أن زعيماً ناقماً يدعى محرم بجرا كطاري قاوم السلطات في أولميشت حينما أرادت أن تقبض لديه على بعض المجرمين الفارين الذين آواهم، وإن السلطات استطاعت أخيراً أن تقمع حركاته وأنه اضطر إلى الفرار مع بعض أنصاره إلى ما وراء الحدود اليوجوسلافية؛ بيد أنه إذا لم تك ثمة ثورة

عامة في ألبانيا، أو كانت ثمة محاولة إلى الثورة سحقت قبل استفحالها، فانه لا ريب أن شئون ألبانيا ليست على ما يرام، وأنها تجوز فترة من الاضطراب والقلق. فمنذ نحو عامين تضطرم الكتلة المعارضة لأحمد زوغو بنزعة قوية إلى الثورة وإلى إلغاء الملوكية، وإعادة النظام الجمهوري بعيداً عن الوصاية الأجنبية، وقد أسفرت هذه الحركة منذ نحو عام عن محاولة اتهم فيها عدة كبيرة من الشباب المتعلم بالتآمر على سلامة الدولة.

ومن جهة أخرى فقد رأت إيطاليا أنها لم تحقق كل ما أرادت من تدخلها في الشئون الألبانية وقررت أن تقطع الإعانة المالية السنوية عن الملك زوغو حتى تجاب إلى مطالبها في السيطرة على التجارة الألبانية، وافتتاح المدارس الإيطالية المغلقة، وتعيين مستشارين إيطاليين في الإدارات الألبانية، وتعيين ضباط إيطاليين لتدريب الجيس الألباني وغيرها؛ وهذه مطالب لم يقبلها أحمد زوغو وحكومته. وقد أحدث قطع الإعانة المالية ارتباكاً خطيراً في الحكومة الألبانية، واضطربت المرافق والمشاريع العامة، ونضبت موارد القصر والإدارات الحكومية، وساد روح من القلق والتذمر حول الملك زوغو وحكومته، وتحركت المعارضة لتحاول فرصتها؛ والظاهر أن الحركة الأخيرة كانت أثراً من آثار هذا الارتباك العام، وأنها ليست إلا بداية قد تعقبها محاولات أخرى إذا لم تتح للملك زوغو وعصبته فرصة لتوطيد مركزهم بالتفاهم مع إيطاليا وتلقي معونتها أو آية معونة خارجية أخرى

والحقيقة أن تلك الدولة الصغيرة المسلمة تجد نفسها في مركز محزن؛ فهي لا تستطيع أن تعيش مستقلة بنفسها، ولا تستطيع رغم بسالتها أن تذود عن هذا الاستقلال الذي تجاهد في سبيله، وهي مطمح أنظار دولتين قويتين خصيمتين، وليس في مقدورها أن تفلت من نتائج هذا التجاذب السياسي الذي تتعرض له بموقعها الجغرافي وظروفها العسكرية، وإذا فلا بد لها أن تختار الخضوع لأحد النفوذين: النفوذ الإيطالي، أو النفوذ اليوجوسلافي، وقد استظل أحمد زوغو بنفوذ يوجوسلافيا حتى تمكن من إنشاء ألبانيا الجديدة ومن التربع على عرشها؛ ثم استظل بعد ذلك بالنفوذ الإيطالي ليوطد دولته الجديدة، وهاهو اليوم يتبرم بذل النفوذ ويحاول خلاصاً منه. فهل يكون ذلك نذير العود إلى سياسة التفاهم مع يوجوسلافيا؟ إن إيطاليا ترى في ألبانيا غنماً تحرص عليه كل الحرص وتعما بكل الوسائل لكي تستأثر به، وترى فيها مجازاً للتوسع في المشرق، والسياسة الفاشستية تنشط اليوم إلى التوسع والاستعمار حيثما استطاعت؛ ومن المحقق أنها ستنازع يوجوسلافيا أية محاولة تقوم بها في ألبانيا، لأنها ترى في مثل تلك المحاولة اعتداء على سلامتها

وعلى أي حال فان مصير ألبانيا غامض كل الغموض. وخير ما يمكن أن تفوز به هذه الأمة الصغيرة الباسلة هو أن تعيش كدولة (فاصلة) في ظل نوع من الاستقلال، وأن تعمل للانتفاع بهذا التجاذب السياسي الذي تترواح بين شقيه بذكاء واعتدال. وشر ما يمكن أن يصيب ألبانيا هو أن تتفق الدولتان المتنافستان على اقتسامها بين سمع أوربا المتمدنة وبصرها، وتحقق كل بذلك أطماعها، وتذهب الأمة الباسلة، كما ذهبت كثيرات غيرها، ضحية الاستعمار الغربي

محمد عبد الله عنان المحامي

السيارة الملعونة!

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

كان لي - في وقت من الأوقات - سيارة من طراز لا أعينه (تَسع السبعة الأقاليم طراً) ولم تكن بي حاجة إلى كل هذه السعة، فإني كما يقول ابن الرومي:

أنا من خف واستدق، فما يُثقل ... أرضاً، ولا يسدّ فضاء

وكنتُ إذا اتخذتُ مجلسي فيها لا أملأ إلا إصبعين منها، وكانت زنتها نحو طنين، أو بضعة قناطير، وأدع للقارئ حساب ذلك، فمالي قبلٌ بالحساب أو صبرٌ عليه؛ وما حاجة مثلي إلى الحساب والبراعة فيه وكل أشيائي تعد بالآحاد، فان كثرت جداً فبالعشرات؟؟ فأنا أكسب المال قرشاً قرشاً، وأنفق ما أكسب حتى قبل أن يصير في كفي، فما يستقر منه في جيبي شيء، فكأني ساعي بريد، لغيره لا له ما يتعب في حمله ويحفي قدميه وهو يدور به على البيوت! وما رأيت في حياتي ورقة بمائة جنيه! وللبنك الأهلي غرف منحدرة في الأرض، ولها نوافذ عليها شُباكة من السلك المنسوج، وحديد متعارض،

فهي تؤدي الضوء ولا تنفذ منها اليدُ مع الأسف! وفي هذه الغرف تجلس فتيات إلى مكاتب صغيرة عليها حزم مكدسة من أوراق النقد المختلفة يختمنها بختم المدير أو لا أدري ماذا يطبعن عليها، وكثيراً ما أقف بهذه النوافذ وأنظر إلى الفتيات، أو على الأصح إلى الأوراق - اعني إلى الثروات - التي في أيديهن، فأتنهد أتحسر! وماذا تخسر الدنيا - أو البنك فانه هو الدنيا في تلك الساعات - إذا انتقلت إلى يدي بقدرة ربك - أو بعطف إحدى الفتيات - حزمة واحدة من هذه الأوراق الكبيرة؟

أيفلس البنك؟ كلا! أيقل الورق المتداول؟ كلا أيضاً! فإني بارع في إتلاف المال، فإذا صار في يدي كثر التداول ولم ينقص، ولقد فتنني منظر الورق مرة فطال وقوفي ونفد صبري، وخرج الرشد من أصابع كفي، فصحت بالفتاة الجميلة (هش. . . هش. . . .!) فرفعت رأسها إلى النافذة ونظرت ثم ابتسمت وعادت إلى ما بين يديها فعدت أصيح بها: (هش. . . . . هش. . . .!)

فصعدت عينها مرة أخرى فأسرعت أقول: (يا بنت الحلال! إن مُنى النفس جميعاً في حزمة من هذه الحزم الكثيرة - وفيك أيضاً لو تجودين! - فهلا أعطيتني مما أعطاك الله؟)

ولا ادري ماذا كان جوابها، فقد شعرت بيد غليظة على كتفي، فالتفت، فإذا شرطي ضخم، فقلت لأطمئنه: (منظر جميل جداً، إن البنات يعملن بسرعة عجيبة. وأقول لك الحق، إنهن جميلات! من أين يا ترى يجمعنهم؟ ألا تعرف؟ لشد ما أتمنى أن يكون عندي ولو عشرين حزمة - أعني بنتاً - من أمثالهن!)

فضحك، وسرني ضحكه جداً، فحييته بأدب جم ولطف كثير، وتواضع جميل، وقلت وأنا أودعه:

(اجعل بالك إلي. . . إليهن، لا تدعهم يغبن عن عينك! فإن لي فيهن والله لمآرب! إيه ما أحلى أيديهن الرخصة البضة! ليتني أستطيع أن أضع كفي على كف واحدة منهن! ألا تتمنى ذلك يا صاحبي؟ متع عينك بالنظر يا أخي! متعها، منعها! وهل أقل من النظر؟ ولكن سيارتي، تلك على جمالها وضخامتها وسعتها، أرتني النجوم في الظهر الأحمر، ذلك أنها كانت تستنفذ من البنزين والزيت كل ما هو معروض في دكاكينهما على طريقها، ثم لا تشبع، حتى لقد فكرت في أن أصل خزانها بآبار الموصل! وكثيراً ما هممت بأن أغالطها وأدور من وراء خديعتها، وأملأ لها خزانها ماء بدلاً من البنزين، وأنا أقول لنفسي: (ومن أدراها ان هذا ماء لا بنزين؟) ثم إن خزان الماء كان يغلي كالمرجل بعد دقائق قليلة من السير، فتبدو لي علامة الخطر الحمراء، فأقف وأغير لها الماء، ثم أستأنف السير، وهكذا في الشتاء فكيف بها في الصيف؟ ولهذا صرت أشتري الثلج وافتته، وأحشو به خزانها بدلاً من الماء، ولا أركبها إلا ومعي ذخيرة كافية من ألواح الثلج على المقاعد الخلفية

ولو اقتصر الأمر على هذا لهان الخطب، ولأمكن احتمال المصاب، ولكن محاور العجلتين الخلفيتين كانت مبرية المساليط والأسنان التي تنشب في العجلة وتعلق بها فلا تدعها تفلت، ولم أكن أعلم هذا؟ وأنى لي أن أعرفه وهو شيء محجوب لا يبدو لعين الناظر؟ وكان فساد هذه الأسنان لا يُحدث أثره إلا وأنا في أرض خلاء، ولا أنيس فيها ولا ديار بها، فأكون سائراً مغتبطاً راضي النفس، منشرح الصدر، وفي يميني سيجارة أنعم بتدخينها، وفي عيني ابتسامة عذبة، وعلى لساني - أو شفتي، لا أدري - ألحان أغنية جميلة، وأكون قد خرجتُ من العمران، وأطلقت لها العنان لتهب فضاء الصحراء - حيث كنت أسكن - وإذا بصوت يقول (كركركركركر. . .) وإذا بإحدى العجلتين الخلفيتين قد خرجت من محورها

وذهبت تجري وحدها في الطريق وإذا أنا مائل على جنبي! فلولا حضور ذهني، وسرعة خاطري، وثبات جناني، لانقلبت بي السيارة، ولانتقل المازني - بعد أن يجدوه - إلى رحمة الله، أو على الأقل إلى المستشفى!

وأفتح ألباب، وأترجل، وأدور بها لأنظر ماذا حدث، ثم أقول:

(شيء جميل! ولكن هل كان من الضروري جداً أن تصنعي هذا هنا على الخصوص؟ ألم يكن من الممكن أن يحدث هذا في شارع محمد علي، أو القلعة، أو غيرهما، حيث الناس يروحون ويجيئون بلا انقطاع؟ أو أمام البيت على الأقل؟ سبحان الله العظيم! ما هذه الطباع الصبيانية؟!)

وأذهب أبحث عن العجلة الطائرة، ثم أدحرجها عائداً بها، وأخلع المعطف والسترة، وأرفع الأكمام، والبس ثوب (العمل) الأزرق، فقد احتجت إليه فحرصت عليه، وأخرج الآلة الرافعة، وعلبة الرزات، وأحمد الله على أن المحور سليم لم ينكسر، وأرد العجلة إلى مكانها، ثم أتوكل على الله وأستأنف السير.

ولكن ما كل مرة تسلم الجرة، فكنت كلما ازددتُ احتياطاً لهذه المفاجآت، زادتني هي افتتاناً في الحيل والمكر السيئ، وقد اضطررت أن أتخذ لي خادماً يصحبني في السيارة ليعينني على بلائها، فحدث مرة وأنا عائد إلى البيت، وكان الوقت منتصف الليل، أن كركرت العجلة - على عادتها - وطارت في ميدان الأوبرا. فوقفت في وسط الميدان، وأمرت الخادم أن يصلح ما فسد، ورحت أنا أتمشى على الإفريز وأدخن سيجارة حتى يفرغ من هذا الأمر، فجاءني يقول ان المحور قد انكسر!

قلت: (هممم! شيء جميل! خبر سار جداً. الثلج حملناه، والبنزين هذه ذخيرته وراءنا كأنا على سفر إلى القطب الشمالي. فلم يبق إلا أن نحمل معنا دكاناً كاملاً من أدوات السيارات والقطع اللازمة لها! لا بأس! غداً إن شاء الله نفعل ذلك. أما الليلة فعليك يا صاحبي أن تدخل في السيارة وتغلقها عليك - أبوابها ونوافذها فان البرد شديد - وتحضن العجلة المتمردة وتنام إلى الصباح، وإنه ليؤسفني أن لا أنيس لك في هذا الميدان الموحش سوى تمثال إبراهيم باشا، ولكنه كان بطلاً، فاحلم بوقائعه إلى الصباح. . . عم مساء والى الملتقى!)

وأقسمت لأبيعنها، فما بقي لي على ألا عيبها صبر، ومضيتُ بها - بعد إصلاح محورها - إلى الدكان الذي اشتريتها من صاحبه، وقلت له (بعها بأي ثمن! فما يعنيني إلا أن أتخلص منها)

وكان بيني وبيته ود، فسألني (هل تبيعها بنصف ثمنها؟)

قلت: (وبثلثه - بل بربعه!)

قال: لا لا. حرام. إنها سيارة فخمة! ولو عرضتها بهذا الثمن الزهيد لظن الناس الظنون، ولتوهموا أن فيها عيباً لا يداوى! وأخلق بهم حينئذ أن ينصرفوا عنها ويزهدوا فيها) فسألته

(بكم تنوي إذن أن تعرضها؟)

قال: (بمائة جنيه -)

فصحت (يا خبر اسود! بمائة؟ إن هذه سرقة!)

قال: (لا تكن أبله. . . مالك أنت؟)

وبقيت عنده أسابيع، لا يشتريها أحد، فمررتُ به يوماً فألفيته خارجاً، فرجا مني أن أنتظره حتى يعود. . . دقائق لا أكثر. . . وأخبرني أن سيدة ستحضر فإذا جاءت قبله، فعلي أن أستقبلها وأحييها حتى يرجع

وذهب. وجاءت السيدة، فلم يسعني إلا أن أنهض لاستقبالها، لا لأن صاحب الدكان كلفني ذلك، بل لأنها كانت أجمل من أن يستطع امرؤ أن يجرؤ على إهمالها، فقالت:

(هل أنت المسيو. . . . .؟)

قلت: (ليتني كنته! إذن لربحت في العام ثلاثة آلاف من الجنيهات! كلا! لقد خرج وسيعود بعد قليل جداً. . . . تفضلي!)

فأجالت عينها حتى وقعت على سيارتي فقالت

(هل هذه معروضة للبيع؟)

قلت (أظن ذلك! أعني نعم!)

قالت (إنها جميلة. . . ضخمة. . . فخمة. . . (وفتحت بابها) وثيرة المقاعد. . . بديعة. . . كم ثمنها؟)

فتنحنحت وقلت (إ. . . أ. . . ثمنها!!. . . . مائة جنيه!)

قالت (ثمن معقول. . . ليست بغالية)

قلت (ولكنها لا تصلح لك. . أعني أن عيوبها فظيعة!)

قالت (عيوبها؟ إنه لا عيب فيها!)

قلت (الماء يغلي بعد دقائق)

قالت (طبيعي)

قلت (تحرق وقوداً كثيراً. . . تحتاج إلى جالون من البنزين كل أربعة أمتار)

قالت (لا تبالغ. . . إنها كبيرة ضخمة، فمن المعقول أن تحتاج إلى وقود كثير)
قلت (والعجل يطير أثناء السير)
قالت (أوه! ما هذا الإسراف في الطعن؟ هل أستطيع أن أجربها؟)
فخرجت بها، ودرنا بها دورات، ولم أرحمها - أعني السيارة - لأبرز لها - أعني للسيدة - عيوبها - أعني السيارة هذه المرة - فما كان في السيدة هنة، ولكنها كانت كأنها مسحورة، فلا البنزين القليل الذي وضعته فيها نفذ، ولا الماء غلا، ولا العجلة طارت وقالت السيدة (أترى كيف كنت تبالغ؟ إن ماءها بارد كالثلج! ولا يزال أكثر البنزين باقياً، والعجلة في مكانها ثابتة. لو كان تاجر يصد الزبائن كما تفعل، لخرب!)
فلم تبق لي حيلة، وجاء صاحب المحل فتمت الصفقة، وحسب لي نصيبي من الثمن، مقدمة لثمن سيارة أخرى. . . . .
ولا أدري ماذا كان من أمر السيارة مع هذه السيدة المسكينة ولكنه لا ذنب لي، فقد حذرتها وأنذرتها، وأبرأت ذمتي

إبراهيم عبد القادر المازني

حجر بهشتون مفتاح الكتابة المسمارية

بقلم الأستاذ كوركيس حنا عواد

1 - تمهيد

لئن كان حجر رشيد وثيقة تاريخية خطيرة الشأن أدت إلى فك رموز الكتابة الهيرغليفية، وفتحت ما استغلق من المدنية المصرية القديمة وأوضحت ما أشكل فيها، فان حجر بهشتون يعتبر ولا مراء وثيقة هامة جداً موازية لرفيقتها في المكانة، لكونها أدت إلى فك رموز الكتابة المسمارية، وأنارت السبيل أمام العلماء والباحثين للتطلع إلى الماضي البعيد والتعرف بالمدنيات الآشورية والبابلية. . . . .

على الطريق الرئيسية الموصلة بين بغداد وطهران، يقع هذا الأثر المدهش الذي هو من أعظم الآثار التاريخية في آسيا. ويبعد عن همدان بمسافة 65 ميلاً، وعن كرمنشاه باثنين وعشرين ميلاً

وعُرف هذا الصخر قديماً باسم جبل باغستان البالغ ارتفاعه 3800 قدم. وقد اطلقت هذه التسمية على هذا الأثر نظراً لوجود تلك القرية الصغيرة المسماة بهشتون عند أسفل الصخر، وأصبحت هذه التسمية هي المتعارفة بين علماء الآثار والتاريخ من الأجانب.

وكان السر هنري رولنصن قد استعار هذه التسمية من ياقوت الحموي الذي أتى في معجمه الجغرافي على ذكر هذه القرية وينبوعها فقال: (. . . . قرية بين همذان وحُلوان. . . وجبل بهستون عال مرتفع ممتنع لا يرتقى إلى ذُروته. . . ووجهه من أعلاه إلى أسفله أملس كأنه منحوت، ومقدار قامات كثيرة من الأرض قد نحت وجهه ومُلس، فزعم بعض الناس أن بعض الأكاسرة أراد أن يتخذ حول هذا الجبل موضع سوقٍ ليدل به على عزته وسلطانه، وعلى ظهر الجبل بقرب الطريق مكان يشبه الغار وفيه عين ماء جارٍ. . .)

ولم يكن ياقوت أول من استعمل هذه التسمية في معجمه، بل سبقه إلى ذلك ديودورس الصقلي المؤرخ كما سيجيء ذكره

2 - وصف الصخر والينبوع المقدس:

إن لواجهة هذا الصخر وضعاً عجيباً من حيث البروز والانتصاب، فكان ليد الإنسان نصيب وافر في تهذيبها وصقلها وجعلها واقفة الانحدار كالجدار القائم، فيات النحت والكتابة عليها أمراً ميسوراً. وفي أسفل هذه الواجهة ينبوع ذو ماءٍ نقي جداً. فهنا كانت القوافل منذ الأزمان الغابرة تلقي عصا الترحال لتستريح من وعثاء السفر، وتروي غلتها من هذا المنهل العذب؛ كما أن معظم الجيوش التي سارت من أرض الفرس إلى شمالي بابل قد شربت من هذا الينبوع الشهير. ولقد أكتسب هذا الموقع مسحة تقديسية، كما يقول ديودوروس، لوجوده عند هذا النبع المتفجر

إن لهذا الصخر مزايا، منها اعتباره موقعاً مقدساً، فضلاً غن شموخه وانتصابه، ووقوعه على طريق رئيسية من طرق العالم القديم، ووجود المياه عند سفحه. فكل هذه أسباب وجيهة دواعٍ مهمة أهابت بداريوش الكبير (521 - 485 ق. م) إلى أن يختار هذه الواجهة الجبلية القائمة ليجعل منها سجلاً خالداً على كر العصور، فنحت عليها

الصور والكتابات الكثيرة التي كان يرمي من وراء صُنعها إذاعة فتوحاته وانتصاراته على جميع الشعوب المعروفة وقتئذٍ

3 - المنحوتات:

تمثلُ هذه المنحوتات الملكَ داريوش، وبمعيته اثنان من قواده يحمل أحدهما قوساً والآخر رمحاً. والملك هنا واقف يتقبل شعائر الخضوع والإذعان من قادة العصاة ورؤسائهم المتمردين الذين ثاروا في وجهه خلال السنين الأولى من حكمه، وعصوا أوامره في أنحاء شتى من إمبراطوريته المترامية الأطراف. وقد داس الملك برجله اليسرى جسم رجل مطروح على ظهره، رافع كلتا يديه مستعطفاً ومستغفراً. وأمسك داريوش بيده اليسرى قوساً، أما يده اليمنى فقد رفعها متجهاً بها نحو الإله (أورامزدا) الذي يظهر في وسط أشعة من الأنوار والبروق؛ وانتصب أمام الملك تسعة من هؤلاء القواد والرؤساء الذين شقوا عليه عصا الطاعة، وقد شُدوا من أعناقهم بعضهم إلى بعض بحبل واحد، وشد وثاق أيديهم وراء ظهورهم

ويبلغ طول واجهة المنحوتات نحو 10 أقدام وعرضها 18 قدماً؛ أما ارتفاع شكل داريوش فخمس أقدام وثماني عقد، وارتفاع كل سجين ثلاث أقدام وعشر عقد، أما ارتفاع أورامزدا من أعلى رأسه إلى منتهى أشعته فثلاث أقدام وتسع عقد، وارتفاع كل من تابعيه أربع أقدام

وعشر عقد، ومنتهى عرضه أربع أقدام وعقدتان

4 - النصوص:

وتحت لوحة المنحوتات كتابة عظيمة تتشكل من خمسة أعمدة (حقول) متجاورة، يبلغ ارتفاع كل منها نحو 12 قدماً بعرض 6 أقدام، أما عدد أسطرها فتشتمل على الترتيب 96 + 98 + 92 + 92 + 36 والمجموع 414 سطراً. وهي باللغة الفارسية القديمة، لكنها مكتوبة بالأحرف المسمارية الجديدة المتألفة من 39 حرفاً، والتي ابتكرها الفرس. وقد دُون على هذه الأعمدة نسب داريوش وغزواته وانتصاراته على جميع أعدائه وإخماده الثورات المتعددة التي أعقبت تتويجه، واقتحامه شعوباً متعددة، وغيرها من الأعمال التي قام بها خلال حكمه

وعن يسار الكتابة الفارسية ثلاثة أعمدة أخرى وضعت باللغة السوسيانية وكُتبت بالأحرف المسمارية السوسيانية (العيلامية)، وهي تشتمل على ترجمة الأعمدة الأربعة الأولى من النص الفارسي. وعدد أسطرها هو على الترتيب 81 + 85 + 94 + 3 (ملحق) والمجموع 263 سطراً. وتتراوح أبعادها ما بين 10 - 11 قدماً طولاً و 7 أقدام عرضاً

وهناك عن يسار المنحوتات واجهتان أخريان من الصخر عليهما كتابة باللغة البابلية، وكُتبت بالأحرف المسمارية البابلية المتألفة من بضع مئات. . . . . وتبلغ أسطرهما معاً نحو 112، ويتراوح ارتفاعهما بين 10 - 14 قدماً؛ أما عرضهما معاً فبين 11 - 15 قدماً

ويوجد عن يمين المنحوتات أربعة أعمدة تكميلية بالخط المسماري، وربما تتعلق هذه الأعمدة التكميلية بالحوادث المسرودة على العمود الخامس من النص الفارسي. إلا أن العوامل الجوية قد أثرت في هذه التكملة تأثيراً سيئاً، فأصابها الوان من الخدش والمحو، حتى أن أمر قراءتها أصبح متعذراً في الوقت الحاضر، إلا بعض كلمات من العمود الأول المكتوب باللغة السوسيانية.

أما عدد أسطر هذا القسم فقد ضاعت معالمه ولم يعد في وسعنا معرفتها بالضبط. فجموع الكتابات المقروءة إذا تبلغ 800 سطر تقريباً

وقد كُتب على لوحة المنحوتات فقرات صغيرة تبين أسماء أولئك المتمردين التسعة، ويبلغ

مجموع هذه الفقرات 32 فقرة، منها 11 بالفارسية و12 بالسوسيانية و9 بالبابلية

5 - بهشتون في نظر الأقدمين:

إن أقدم مصدر تاريخي نقع فيه على ذكر حجر بهشتون هو تاريخ ديودورس الصقلي، الذي نشأ في القرن الأول الميلادي فذهب إلى أن هذه المنحوتات قد أحدثتها (الملكة سميراميس) لتكون على طريقها ما بين بابل وأكبتانا. وحسبما يرتأي هذا المؤرخ، أن هذه الملكة العظيمة قد ضربت معسكرها عند الينبوع الواقع في أسفل الصخر، وقد

غرست بستاناً هناك. . . أما وصفه للمنحوتات فليس بمضبوط، إذ زعم أن الشكل الذي لداريوش إنما هو لسميراميس، وذهب إلى أن الاثني عشر رجلاً المحيطين بالملك إنما هم مائة من حَمَلة الرماح، شخصوا حول ملكتهم!!. . . .

أما الكتابة فيقول إنها (بالأحرف السريانية). ثم قال بأن سميراميس قد تمكنت ان تصعد إلى أعلى الصخر بتكديس احمال وسروج حيواناتها شيئاً فوق شيء. إلا أن هذه الآراء بعيدة كل البعد عن الحقيقة وعارية عن الصحة ككل ما يُنسب إلى هذه الملكة الوهمية. وذكر ديودورس في موضع آخر من كتابه أن الاسكندر الكبير زار هذا الصخر لي سيره من سوسا إلى أكبتانا

ولقد عرف كثير من جغرافيي العرب كابن حوقل والأصطخري (في القرن العاشر الميلادي) وياقوت (في القرن الثالث عشر) هذه المنحوتات والكتابات في بهشتون، ولكن أحداً منهم لم يهتم بأمر الكتابات اهتمامه بالمنحوتات، كما يظهر لنا مما أوردوه عنها، هذا فضلاً عن أنهم لم يذكروا نوع الحروف التي كتبت بها

6 - بهشتون في نظر السياح الأوربيين القدماء:

من أقدم السياح الأوربيين الذين زاروا بهشتون في العصور المتأخرة أمبرجيو بمبو (1652 - 1705) وهو تاجر إيطالي من أهالي البندقية رحل إلى بلاد الفرس خلال الربع الأخير من القرن السابع عشر، وأعطانا - بالنسبة إلى حالة زمنه - وصفاً دقيقاً لهذه المنحوتات

وبعد ستين سنة تابعه في هذا المضمار المستشرق السويدي أوتر (1707 - 1748) الذي ساح في بلاد الفرس وفحص المنحوتات، ولكن ملاحظاته عنها قليلة الخطر، وقد اعتبر شكل الإله أورامزدا (نذيراً للخير)

وبعد انقضاء ستين سنة أخرى زار أولفيير (1756 - 1814) العالم الطبيعي الفرنسي بلاد الفرس، وفحص المنحوتات في بهشتون، ورسم لها صورة طبعها بعد ذلك في كتاب رحلته. أما هذه الصورة فخاطئة جداً، لأنها تمثل داريوش جالساً على عرش، ورجلاه مستندتان على كرسي صغير؛ كما ان استنساخه لبقية أشكال المنحوتات ليس بمضبوط ألبتة

ومن الغريب أننا نجد هوك في كتابه: 1818) يطرح جانباً أحاديث (بمبو) وآراءه التي يُركن إليها ويوثق بصحتها إلى درجة غير قليلة، ويعول بالدرجة الرئيسية على ما أتي به أو لفيير من المعلومات التي لا تتفق مع الحقيقة دائماً

7 - إيضاحات وتعليلات وهمية للمنحوتات:

وكان الصخر قد وصف ثانية جاردان (1765 - 1822) الذي افترض أن اورامزدا وأشعته النورية إنما هو صليب، وزعم أن الأشكال التي تحته تمثل الاثني عشر رسولاً!. . . . .

وبعد مضي سنين قلائل، قام كينير (1782 - 1830) بعدة رحلات في بلاد الفرس، وكان أول من ذهب إلى أن المحنحوتات في بهشتون تعود إلى نفس العصر الذي نشأت فيه آثار برسبوليس

وقد شاركه في هذا الرأي كبل (1799 - 1891) الذي أسهب في وصف هذه المنحوتات في كتاب رحلته

وفي عام 1822 طبع بورتر أبحاثاً قيمة عن رحلاته التي قام بها في جورجيا وفارس وأرمينيا وبابل خلال 1817 - 1820، واليه نحن مدينون بوصف مسهب لمنحوتات بهشتون. وفي هذا الكتاب رسم للمنحوتات يصح أن يُعتبر أحسن ما رُسم لهذا الأثر حتى صدور الكتاب. وقد لاحظ عموماً قدم هذه المنحوتات الغابرة، ولكنه لم يفهم مآلها، فقد ذهب إلى أن هذه المنحوتات البارزة الشهيرة إنما عملها شلمناصر (ملك أشور وميديا) ليخلد بها اكتساحه لبني إسرائيل. وزعم أن الأسرى الواقفين أمام دواريوش إنما هم من الأسباط العشرة، واعتبر أن شكل داريوش لشلمناصر، إلى غير ذلك من التعليلات التي نستغربها الآن. . . . ومع هذا فإنها تطلعنا على وضع علم الآثار في ذلك العصر وتدلنا صريحاً على فهم الناس لبقايا السلف

8 - صعوبة الوصول إلى الكتابة لدراستها

ومع أن منحوتات بهشتون كانت قد لوحظت ودرست من قِبَل عدد غير قليل من

السياح خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، فان أمر نقل الكتابات التي هنالك ظل نسياً منسياً. . . ولهذا لم تقع تلك النصوص في حوزة من يريد فحصها أو تدقيقها ودرسها من طبقة المتعلمين. ولاشك أن لهذا التقصير سبباً: فالقيام باستنساخ النصوص أمر في منتهى الصعوبة، لأن الكتابة - كما قلنا سابقاً - نحتت على واجهة صخرية قائمة الانحدار، يبلغ ارتفاعها 500 قدم فوق مستوى السهل. على أن من الممكن الوصول إلى ما علوه مائتا قدم فقط بتسلق كتل الصخر وجلاميده المتفككة والقلاع التي في سفح الجبل؛ أما بعد هذه الصخور المبعثرة، فالأمر يصبح عسيراً جداً، إذ ينتصب الصخر فجأة، فيكون التسلق عليه محفوفاً بالمخاطر الجسيمة من كل جانب

9 - السر هنري رولنصن يعمل في بهشتون:

وكان أول من تغلب على هذه الصعاب هو السر هنري رولنصن (1810 - 1895) الذي أصبح حل الكتابة المسمارية مديناً لمجهوداته ومساعيه ومغامراته

ففي عام 1833، عندما كان ضابطاً في الجيش الهندي اختير مع بضعة ضباط ليتوجهوا إلى إيران ليساعدوا الشاه على تدريب جيشه. وفي عام 1835 كان قد أرسل إلى كرمنشاه باعتباره مستشاراً للحربية ومساعداً لحاكم تلك المقاطعة. وفي طريقه إلى هناك مر بهمدان (اكبتانا) وانتهز الفرصة فاستنسخ الكتابات المسمارية المنحوتة على واجهة الصخر في وادٍ بجبل الوند قريباً من تلك المدينة. وقد نجح في دراسته لهذه الكتابات ووفق الحصول على (مفتاح) لمعرفة العلامات المستعملة في الكتابات المسمارية الفارسية القديمة. ولابد أن نذكر هنا أنه لولا دراسته اللغة الزندية القديمة والفهلوية لما تمكن من قراءة الكتابة البابلية، لأن هاتين اللغتين كانت مشابهتين لكتابة اللغة المسمارية الفارسية، وتمكن أخيراً أن يكون (هيكلاً) للقواعد الصرفية والنحوية وأن يتحقق من معاني كلمات متعددة

وكان خلال الفترة التي أقامها بكرمنشاه (أي من سنة 1835 إلى 1837) قد خصص أوقات فراغه لفحص الكتابات التي على حجر بهشتون. وفي ختام سنة 1837 كان قد حصل على نسخ لما يقارب نصف الأعمدة للنص الفارسي. وفي نقله لهذه النصوص أثبت أنه قطع شوطاً بعيداً في التقدم على كل باحث في هذا الموضوع. ولاشك أن نجاحه في هذا العمل المضني شهادة صادقة على سعة ذكائه وعلو همته

إلا أن مهمته العسكرية اعترضت سبيل عمله وأقعدته عن إتمامه، فرأى المصلحة تقضي بأن يدع أعماله في بهشتون جانباً، ريثما يُعيد الكرة عليها عام 1844

وفي صيف تلك السنة عاد إلى هنا مع المستر هستر والكابتن جونس فأمكنه بمساعدتهما أن ينتهي من استنساخه للنص الفارسي، وأن يعمل نسخة كاملة للترجمة السوسيانية. وعندما عمل في مبدأ الأمر نسخة للنص الفارسي، قارَنَ الفقرتين الأوليين مع الكتابات التي استنسخها سابقاً في (الوند) فزودته هذه المقارنة بمعرفة الإماء المحلية لكثير من الأعلام، فضلاً عن التوصل إلى معرفة عدد لا يستهان به من الكلمات الأخرى

وفي عام 1847 طبع رولنصن ترجمة كاملة للنص الفارسي من كتابات بهشتون، مع ذيل صرفي نحوي واسع وأبجدية

أما الترجمة البابلية فقد نجح رولنصن هذا الوقت في عمل نسخ للكتابات التسع الصغيرة التي على لوحة المنحوتات، غير أن القسم الأساسي من النص البابلي قد ظل الوصول إليه أمنع من عقاب الجو؛ وما برحت الوضعية على هذه الصورة حتى كان خريف 1847، حينما عاد رولنصن مرة أخرى إلى بهشتون، فباشر عمل التدابير السديدة للحصول على نسخة من الترجمة البابلية. واستعداداً لإنجاز هذه المهمة الشاقة زودَ نفسه بحبال وألواح خشبية وسلالم إلى غير ذلك من وسائل الصعود والتسلق، واصطحب معه بعض الأكراد الجبليين ليكونوا عوناً له في مهمته هذه.

وكانت خاتمة هذه الرواية أن توصل رولنصن إلى الغاية المبتغاة، بعد أن كان إدراك تلك الغاية ممتنعاً والتماسها وعراً.

فاستنسخ الكتابة البابلية بأجمعها، وبهذا أزاح ستاراً آخر طالما كان مسدولاً أمام العلماء والباحثين. . .

ولا تزال بعض أوراق رولنصن ومنسوخاته معروضة إلى اليوم في القاعة البابلية في المتحف البريطاني، برغم ما أصابها من التلف أثناء عرضها قبلاً في قاعة المحاضرات

لمختلف الجمعيات العلمية بلندن
ولابد من الإشارة هنا، إلى أن حل رموز الكتابة المسمارية كان قد اشتغل به نفر من العلماء البارزين، نخص بالذكر منهم: جروتفند وأوبرت ونوريس وهنكس وغيرهم، إلا أن رولنصن فاقهم جميعاً، وحاز قصب السبق عليهم، فلا غرو إذا دُعِيَ بحق (أبا علم الآشوريات)
10 - مساعي العلماء بعد رولنص:
وكان بين السياح الذين رحلوا إلى بلاد الفرس منذ زمن رولنصن، وقاموا بمساع لإعادة فحص هذه الكتابة هو جاكسن الذي وفق عام 1903 إلى الوصول إلى الحافة التي تحت النص الفارسي، والى عمل مقارنة ومقابلة بين العبارات المشكوك في صحة استنساخها سابقاً
ثم لما كان عام 1904 أوفد المتحف البريطاني المستركنج (الذي كان وقتئذ قائماً بأعمال الحفر والتنقيب في بقايا نينوى) إلى بهشتون، ليقابل بين النصوص وليقيس الأبعاد وليأخذ الصور الفوتوغرافية. وقد رافقه المستر طومبسن ليساعده على أداء هذا العمل. وقد قام كنج وطومبسن بهذه المهمة خير قيام، وتمكنا من معرفة مقاسات الأشكال والكتابات التي أتينا على ذكرها في محلها من هذا البحث. وقد وجدا بوجه الاجمال أن عرض الساحة المغطاة بالمنحوتات والكتابات معاً يبلغ 60 قدماً، وارتفاعها 23 قدماً
وفي سنة 1907 تمكن هذان الباحثان أن ينشرا النصوص الكاملة للكتابات الفارسية والسوسيانية والبابلية في بهشتون، المبنية على مقارنات حديثة مع الأصول التي على الصخر. مع ترجمتها بأجمعها إلى الانكليزية، ومقدمة وتصدير وصور فوتوغرافية الخ بعنوان:
+ 223
ولا يزال هذا المؤلف أحسن كتاب للآن يمكن الرجوع إليه في التوسع في هذا البحث
11 - صيانة مدوناته داريوش:
ويمكننا أن نعزو بقاء كتابات داريوش هنا، إلى أنها حفرت على واجهة صخرية قائمة الانحدار، بحيث أن التسلق إليها يُعد من الأمور المتعذرة. ولكيما يجعل مدونات بعيدة بقدر الإمكان عن أن تسطو عليها أيدي الأعداء وتنال منها مأرباً، فقد انتزع الزوائد الصخرية الكائنة تحت الكتابة، فتكون من جراء ذلك جدار صخري أملس، تعلوه الكتابات والصور. وهناك دلائل على أن الملك قد كون بعضاً من الطرق للصعود إلى هذا الصخر بحيث يُتاح للمارة أن يصعدوا ويتفرجوا على كتاباته ونقوشه. ولكن جميع تلك الطرق التي كانت مؤدية إلى الصخر قد انطمست معالمها الآن
وقد كان لتحفظ الملك وبُعد نظره التأثير الحسن في الابقاء على المنحوتات والمدونات، فنجت من التشويه والتلف الناجمين عن عبث يد الإنسان. ويمكننا القول بأن معظم التلف الذي أصابها إنما كان من تأثير العوامل الجوية، ومن رشح الماء خلال طبقات الصخور المكونة للجبل
ولم يقف عمل داريوش في إذاعة جبروته وعظمته في العالم عند هذه المنحوتات والمدونات، بل أراد أن يعمل غيرها من النسخ، لتصدر وتُذاع بين الشعوب البعيدة عن هذا الموقع، والداخلة في إمبراطوريته
فقد كشف الدكتور كولدواي في بابل عن قطعة من الترجمة البابلية. وإنا لنأمل في أن ما تم وما سيتم من الحفريات الأثرية في العراق وفارس يؤديان إلى اكتشاف نسخ أخرى تميط اللثام عن بعض المعميات التي تعتور النصوص الحالية
والخلاصة، أن هذا الملك العظيم، قد دون انتصاراته في اللغات الثلاث، التي كان لها أعظم الأهمية في العالم الشرقي وقتئذ، ولم يكتفِ بهذا بل جعله مطلاً على طريق رئيسية، وعلى قطعة ترتفع خمسمائة قدم فوق مستوى سطح تلك الطريق وبالقرب من الماء أيضاً، فلابد للمسافر من أن يستريح قليلاً هنا، فيتاح له عندئذٍ مشاهدة هذا الأثر ملياً والتساؤل عن ماهيته
(الموصل)
كوركيس حنا عواد

الصورة
قصة تمثيلية في فصل واحد بمنظرين
بقلم حسين شوقي
الأشخاص
الزوج. الزوجة. الحماة (أم الزوجة)
المكان: حجرة نوم الزوجة
المنظر الأول
الزوجة منهمكة في وضع حوائجها في الحقيبة، بينما أمها تجلس أمامها على كرسي (فوتوي) تروح على نفسها بمروحة
الأم - أصغي إلى يا ابنتي، بالله لا تهجري زوجك. إنك لن تجدي أفضل منه. صحيح أن فيه عيوباً مثل مغالاته في الشرب، أو تأخره في السهر، ولكن أين الزوج الكامل؟
الزوجة - هذه ليست عيوباً في نظري يا أماه، بالعكس إني أبغض الزوج الذي يقضي كل وقته في المنزل متعلقاً بأهداب زوجه. لا يعرف ما يحدث في الحياة خارج محيط البيت
الأم - إني لا أفهمك يا ابنتي. إذا هجرك زوجك غضبت، وإن بقي بجانبك غضبت أيضاً، فماذا تريدين في النهاية؟ لماذا تهجرينه إذن؟
الزوجة - لأنه يكذب، والكذب أبغض الأمور لدي، فهو مرآة النفس الجبانة
الأم - ابنتي، تريثي. فكري ملياً في الأمر
الزوجة - أسف يا أماه. لا أستطيع البقاء. . . آه من النذل! يخدعني أنا؟ ومع مَنْ؟ مع أعز صديقة لي!
الأم - ليس الذنب ذنبي يا ابنتي. . . المسئولة هي صديقتك العزيزة. أليست هي التي غازلته؟
الزوجة - أه منها الماكرة! كم تظاهرت لي بالوفاء! إنها كانت تشاركني دموعي في أوقات أحزاني! (بعد لحظة) ولكن ما الذي حببها إليه يا ترى، وهي خلو من كل جمال؟ أعلق بأنفها المقوس مثل أنف الحاخام؟ أم اشتهى شفتيها الغليظتين كشفتي الزنجية؟
الأم - الآن فقط تجدينها دميمة!. . . وكنت إذا ذكرت لك هذه العيوب نفسها عارضتني قائلة: إن هذه العيوب تكسب صديقتك ما تسمونه أنتم يا شباب اليوم: الجاذبية الجنسية. . . . حقاً! ما أبعدكم عن إدراكُ مثل الجمال الحقيقية!. . .
الزوجة (في ضحك) - يا أماه. . أمثالكن نساء قبل الحرب، يرون الجمال عبارة عن غرائر من الشمم رُسمت لها حواجب وعيون وأفواه. . . . .
الأم (في غضب) - وما أوقحكن أيضاً يا بنات اليوم! (بعد لحظة) والآن لنعد إلى موضوعنا. . بالله سامحي زوجك يا ابنتي. . . . أنت تعرفين أنني لا أميل إليه كثيراً. . . . . ولن أنسى له هديته التافهة حينما عاد في الخريف الماضي من روما. . . ولكن هذا لا يمنعني بصفتي أمك التي تحب لك الخير أن أشير عليك بالبقاء معه. . . سامحيه، إن التسامح أفضل معاني الكرم. . .
الزوجة (في تهكم) - آسف يا أماه. . . لستُ قديسة لأتسامح. ولستُ أعيش في زمن المسيح، حتى إذا لطمني شخص على خذي الأيمن أدرت له الخد الأيسر. .
الأم - سامحيه يا ابنتي. . . إنها هفوة واحدة منه. . . (في حسرة) رب! كم سامحتُ أنا والدك عن هفوات لا هفوة!
الزوجة - لأنك كنت بلهاء يا أماه. . .
الأم - (في غضب) - حقاً! إنك وقحة! (بعد لحظة) كلا! يا ابنتي لم أكن بلهاء حينما سامحت والدك، غفر الله له! بل كنت على ثقة أنه سوف يمل حياة المغامرات التي كان يحياها، وانه سوف يدرك في النهاية أن السعادة الحقيقية للزوج هي داخل منزله. . . طبعاً تألمت كثيراً من أجل هذا، ولكنب ظفرت في النهاية. . . (بعد لحظة) ولو كنتُ هجرتُ والدك إذ ذاك، أكانت ترى الوجود هذه الفتاة الرشيقة الحسناء الماثلة أمامي اليوم؟. . .
الزوجة - (تترك جمع حوائجها فجأة وترتمي في أحضان أمها باكية) آه يا أماه، إنني أتألم. . .
الأم - إنك ما زلت تحبينه يا ابنتي. . . هذا هو الحب، هذا هو قلبك يحتج بدوره على هذا

. .الخصام
الزوجة - أجل إني أحبه. . . ولكن كرامتي يا أماه، ماذا أصنع لها؟
الأم - ماذا تقولين؟ الكرامة؟ الحب يا ابنتي قبل كل شيء. . . الحب هو الحياة. .
. .صدقي أمك العجوز المجربة
الزوجة (وكأنها عادت إلى نفسها) - كلا! لن أصفح عنه! لقد صممتُ على هجره. . . إن الضعف الذي أظهره الآن ليس خليقاً بفتاة مثلي شاهدت الحرب الكبرى
الأم (في غضب) - ها قد عدت إلى جنونك! (تنهض) افعلي ما شئت. . ولكن اعلمي جيداً أنك ستندمين على عملك هذا. . . أما أنا فقد سئمتُ من إسداء النصح إليك. . .
(تخرج، فيدخل الزوج من باب آخر وبيده بعض الأوراق)
المنظر الثاني
الزوج - آسف لو كنتُ أزعجتك، ولكني أتيتُ لأرد لك بعض مستندات لك كانت محفوظة في الخزانة الحديدية. . .
الزوجة - (دون أن تلتفت إليه) حسن. . أشكرك. . . ضعها هناك. . . (تشير إلى مائدة بجوار السرير)
الزوج (في تردد) - هل صممتِ على الرحيل؟
. . .الزوجة - أجلْ
الزوج - هل نسيت كل شيء!: عهد خطوبتنا السعيد. . . نزهاتنا الطويلة في الخلاء. . . الورد الأحمر العجيب الذي كنتُ أقطفه لك خلسةً من حديقة الجار البخيل. . . ثم شهر العسل في ربوع إيطاليا الجميلة. . ثم مقامنا في نابولي تحت أقدام بركان (الفيزوف) المخيف. . . ثم نبيذ إكيا الذهبي. ثم موسيقاها الشجية. . ثم ليالي البندقية الشعرية فوق مياهها الساكنة. . . . . هل نسيت كل ذلك الماضي البعيد القريب؟. . . . .
الزوجة (متململة) - ثم خيانتك. . . ثم كذبك. . . ثم. . . أرجوك دعني الآن أجمع حوائجي
الزوج - أنت تعلمين أني أسفتُ كثيراً على فعلتي الشنيعة. . . . عزيزتي. . . هلا صفحت عني؟
الزوجة - آسف لا أستطيع. . (في هذه الأثناء تضع خلسة صورة زوجها في الحقيبة فيراها)
الزوج - عزيزتي. . . هل تأذنين لي بأن أدخن سيجارة في هذه الحجرة الظريفة ونحن مجتمعان لآخر مرة؟ (ويجلس على معقد)
. . .الزوجة (في تردد) - فليكن
الزوج - عزيزتي. . . هل تأذنين لي في سؤال واحد؟
الزوجة - لست مستعدة الآن للإجابة على أسئلة، فإني أجمع حوائجي على عجل حتى لا يفوتني قطار المساء. . .
الزوج (ملحاً) - سؤال واحد فقط
الزوجة (متململة) - إذن قل ولكن اقتصد!
الزوج - هل أنت واثقة أنك لم تعودي تحبينني؟
. .الزوجة - أجل أنا واثقة من ذلك كل الثقة
الزوج - ألم يبق في قلبك شيء من العطف؟
. . .الزوجة (مقاطعة) - لا لزوم لهذا الكلام
الزوج - هو سؤال واحد أريد الإجابة عليه. . . ألم يبق لك شيء من العطف. . . . لا علي. . . . بل على ذكرى الماضي؟. . .
الزوجة - لا
الزوج - لنستبدل إذن كلمة العطف ونعود لى الحب
. .الزوجة - أبداً
الزوج - بل أنا أقرر أنك تشعرين نحوي بالحب!
الزوجة - لا، بل أمقتك!
الزوج - إن المقت والحب قريبان جداً، بل هما متصلان، فهما طرفان، والطرفان لابد أن يتماسا. . .
الزوجة - دع هذا الكلام. . . ألم تنته من سيجارتك؟

الزوج (مستمراً) - إن لدي شاهداً على صحة هذا القول. . . على صحة الحب. . وعبثاً تحاولين إنكاره. .
الزوجة - دعك من هذا الهراء!. . .
الزوج - (ضاحكاً) إن شاهدي هو في تلك الحقيبة. . هي الصورة التي خبئتها الآن خلسة. . لماذا تحملين صورتي معك إذا كنت لا تحبين صاحب الصورة؟
الزوجة (تخرج الصورة من الحقيبة فتلقى بها على المائدة) - إليكما خذها. . احتفظ بها. .
الزوج (يخف إلى زوجه فيطوقها بذراعيه) - عزيزتي، هذا إقرار منك بأنك ما زلت تحبينني. . . .
الزوجة (في ضعف) - ابتعد عني!. . .
الزوج - هل صفحت الآن!
الزوجة - (مستسلمة) - لا، أبداً، ربما أصفح أنا، ولكن هذا (تشير إلى ناحية القلب) هل يصفح؟
الزوج (ضاحكاً) - هذا؟ لقد سامحني منذ هنيهة حينما حرضك على اغتصاب الصورة!
(ستار)
كرمة ابن هاني
حسين شوقي
التصوف الإسلامي
بقلم سليمان فارس النابلسي
تتمة
ماهية الصوفية وبعض عقائدها
إذا ما رجعنا إلى المصادر الصوفية لنتفهم حقيقة هذه الطريقة استخلصنا من بين ثنايا السطور بعد إجهاد وكد أنها إنما تتم بعلم وعمل، وذلك بقطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها ورغباتها ومطامعها المادية حتى يتوصل بذلك إلى تخلية القلب من غير الله وتحليقه بذكره سبحانه
وأخص خواص هذه الطريقة لا يتوصل إليه بالتعليم والاستقراء والدرس بل يلتمس بالذوق العالي وتبدل الصفات، إذ أنهم يرون أن الفرق شاسع بين معرفة حد الشيء وبين معرفة الشيء نفسه، كأن يعرف المرء حد السكر مثلاً بأنه حانة يجلس فيها فيأخذ من الشراب إلى أن يصبح ثملاً فنشوان فسكران، وبين أن يكون سكراناً. وكذلك القياس في معرفة حقيقة التصوف من أنه عزوف النفس الكامل عن المادة، وبين أن يكون متصوفاً زاهداً
يعتقد الصوفيون أن معرفة الله لا تأتي بالمجادلات العقلية ولا بالمناظرات الفلسفية، ذلك لأن العقل الإنساني عاجز عن إدراك كُنْه الحق وتفهم صفاته وخواصه بمثل هذه الأشياء، وإنما تتكون المعرفة في الشعور بطريقة خاصة وعمل مستمر يمكن من رؤية الله تعالى بالقلب لا بالعقل
يسلك الناسك (طريقاً) خاصاً للوصول إلى هذه الغاية يكون فيها تهذيبه وتنقية روحه من عوارض الدنيا وزخارفها المادية، ثم يتدرج في هذه السبيل ويقطع (مقامات) معينة يصل في نهايتها إلى الفناء في الحق، وهذه المقامات سبعة وهي: التوبة والورع والزهد والفقر والصبر والتوكل والرضا، يكسبها لنفسه بنفسه بعد طول الجهد والتهذيب المنظم
وقد اختلف العارفون في فهم كنه هذه المقامات وتباينت آراؤهم في تفسيرها على معانيها الظاهرة أو الباطنة، فالفقر مثلاً حسب ظاهر المعنى هو ألا يملك المتصوف الزاهد شيئاً مادياً، على حين أن البعض الآخر ذهب إلى أبعد من ذلك فاعتقد بأن على المتصوف الذي
بلغ (مقام) الفقر أن يجرد نفسه من الشعور بالحاجة إلى المادة ويقتلع من جوانحه التفكير في ضرورتها، وعندئذ فقط يصبح في مقام الفقير المتصوف
وهناك اختلاف آخر، فالقير الذي يتمسك بالفقر ويعتقد اعتقاداً جازماً بتفوق الفقر وماله من فضل على ضروب الغنى طمعاً في مكافأة ربانية ليس متصوفاً حقاً، ذلك لأنه يحمل مشقة الفاقة ويصدف عن المشاعر بالمسرات الدنيوية خشية خسران

المبرة الربانية وأجر الصبر، وهذا لا يغني فتيلاً، بينا أن التصوف الحقيقي لا يترك ما في هذه الحياة من ملاذ ومُتَع لقاء ثوابفي الحياة الأخرى، بل هو يبتعد عنها لما يجده في سلوكه هذا وفي حالته من الجزاء الأوفى. وهكذا نرى أن الاختلاف بين واضح، الواحد يتخذ الفقر وسيلة للثواب والأجر، بينا أن الثاني يبتغي الفقر غاية وأملاً

1 - عقيدتهم في التوحيد: إن شيوخ هذه الطريقة بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة في التوحيد. فمن تصفح كلامهم وتأمل في ألفاظهم ألغى في مجموعه ما يؤكد له أن هؤلاء القوم عرفوا صفة الخالق فوجدوه، وشهدوا بقدمه فنزهوه عن الحدث

والتوحيد هو الحكم بأن الله واحد، وفي ذلك نفي التقسيم لذاته ونفي التشبيه عن حقه وصفاته ونفي الشريك معه في أفعاله ومخلوقاته. وينقسم إلى ثلاثة أقسام: توحيد الحق للحق، وهو علمه بأنه واحد وخبره عنه بأنه واحد، والثاني توحيد الله سبحانه للخلق وهو حكمه بأن العبد موحد، وخلقه هو توحيد العبد في قرارة نفسه، والثالث توحيد الخلق لله وهو علم العبد أن الله تعالى واحد وإخباره عنه بأنه واحد

2 - في المحبة: المحبة عُرفاً هي ميلك إلى الشيء بكليتك، ثم إيثارك إياه على نفسك ومالك وموافقتك له سراً وجهراً. وجاء في كتبهم على لسان المولى عز وجل أنه قال: ما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى من أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، ومن أحببتُه كنت له سمعاً وبصراً ومؤيداً ويداً

والمحبة على لسان العلماء هي (الإرادة) ولكن ليس مراد القوم بالمحبة الإرادة، فان هذه لا تتعلق بالقديم. فالمحبة الإلهية للعبد هي تخصيصه بإنعام خاص كما أن رحمته له هي إرادة الإنعام

3 - التوكل: نجد الصوفيين أكثر ما كانوا تضارباً في الآراء، واختلافاً في الفكر في هذه العقيدة وأشباهها مما يتعلق بالمادة فبينا نقرأ للروذبادي قوله لرجل صوفي مد يده إلى قشرة بطيخ ليأكل: (الزم السوق فهو أولى لك وأخيراً)، وقول آخر منهم إذا قال الفقير بعد خمسة أيام أنا جائع، فألزموه السوق ومروه) بالكسب والعمل) نقرأ لغيره قوله (أقمت في الحرم مرة عشرة أيام، فأحسست بضعف، فخرجت إلى الوادي لعلي أجد شيئاً يسكن ضعفي، فلم أجد شيئاً، فرجعت وقعدت. وبينما أنا جالس وإذا برجل أعجمي جلس بين يدي ووضع مائدة وقال هي لك.)

هذا التغالي في التوكل انتظاراً للرزق يأتي عن طريق الرفد والإحسان هو ما يضع من شأن هذه العقيدة في نفوس الناس، إذ أن مثل هذا يورد موارد الفاقات، فلا تسمو النفس، ولا يعظم الشأن

4 - ومن معتقداتهم الفناء والبقاء. فالفناء سقوط الأوصاف المذمومة، والبقاء قيام الصفات المحمودة. يقال فني عن شهواته إذا بقي بنيته وأخلص في عبوديته، ومن فني عن رغبته بقي بزهادته

وهم يعتقدون كذلك في الغيبة والحضور، فالغيبة هي للقلب عن علم ما يجري من أحوال الخلق الاشتغال لحس بما ورد عليه من النفحات القدسية. أما الحضور فقد يكون حاضراً بالحق، لأنه إذا غاب عن الخلق حضر بالحق، بمعنى أنه يكون كأنه حاضر، وذلك لاستيلاء ذكر الحق على قلبه

ولو أردت أن أعدد هذه المعتقدات لطال بي المطال وكلت مني الأيدي

تطور الصوفية وطرقها الحديثة

كانت الصوفية في أول عهدها ومبتدأ حياتها صبغة من الدين بسيطة، خاصة بجماعة من الرجال المتدينيين نشروها في حلقات صغيرة من الأصدقاء ثم أخذت تدرج وتتعاظم، فكونت طبقة خاصة ذات مدرسة خاصة، بقواعد وأنظمة مقررة يتلقاها

المبتدئون ممن سبقوهم في الأيمان بها. ثم ما لبثت أن قويت شوكة الرؤساء وكبار الشيوخ، فأخذوا يسيرون تلامذتهم وأتباعهم حسب مشيئتهم وأهوائهم دون أن يكون لهؤلاء رأي، وما عليهم إلا الطاعة والانقياد. حتى إذا تطاول الزمن ومرت السنون، لم يعد الصوفي الكبير في معزل عن العالم الاجتماعي حوله يعيش عيشة التقشف والزهد، يطلب الوحدة نفوراً من مرأى الناس وظلمهم وتكالبهم على الملذات والصغائر، بل أضحى شيخاً وجيهاً ذا عمة منتظمة وجبة فضفاضة، يظهر في المجتمعات العامة محاطاً بطائفة من مختلف الطبقات من بطانته وأتباعه والمعجبين به

ففي أوائل القرن الثالث عشر ظهرت فرق الدراويش العدوية والقادرية الجيلانية، اللتين أسسهما عدي الحكري وعبد القادر الجيلي، ثم تبع هاتين ظهور الشاذلية والرفاعية والمولوية، فالرفاعية تنسب إلى مؤسسها أبي العباس أحمد الرفاعي المولود في أم عبيدة

إحدى قرى الفرات، وهي تحيا اليوم بفرقتين كبيرتين هما العلوانية والجيباوية، المشهورتين بحفلة (الدوسة) هاتان أشد فرق الدراويش تعصباً وأكثرهم جهلاً وخبالاً والقادرية الجيلانية يدعون أن عبد القادر الجيلاني هو مؤسس طريقهم، وهم في أورادهم وأذكارهم لا يفعلون كما يفعل الجيباويون من تقطع الأجساد وغرزها بالإبر والأمواس، بل يذكرون الله بتؤدة وهدوء ووضوح

وأما المولوية أو (الدراويش الراقصون) فقد أسسها في العجم الشاعر الفارسي المتصوف الشهير جلال الدين الرومي مؤلف (المثنوي)

على أن المركز اللائق الذي اكتسبته الصوفية في الدين والعطف الذي تفيأت ظلاله، إنما ظهر بتأثير الغزالي الذي مال ميلاً كلياً إلى هذه العقيدة بعد أن درس الآراء والمعتقدات الأخرى. فقد أدخل الغزالي على الشريعة عنصراً جديداً بعث فيها النشاط بعد أن ظلت زمناً طويلاً في ركود من جراء الحروب الكلامية المستعرة بين الفلاسفة والدهريين والمتكلمين. ولم يقف أبو حامد عند هذا بل أدخل في الصوفية الفكرة الأساسية لما (وراء الطبيعة)، وأخذ المسميات والمصطلحات التي عمد إليها ابن سينا والفارابي من تعاليم الأفلاطونية الجديدة وأحلها مكاناً مقيداً في الدين الإسلامي. على أنه وان لم يسلك هذا الطريق إلى النهاية ولم يتقيد بسبل هذا المذهب إلا أنه اتبع التصوف العملي. فهو وإن يكن بحث في الموضوعات والآراء الخيالية النظرية إلا أن علمه وإدراكه قد اضطراه إلى أن ينحو منحى آخر، ذلك أنه جعل العبادة قسماً من الحياة اليومية يمارسها العامة والخاصة على السواء

الصوفية وتقاة المسلمين

إن محور التصوف هو التجرد عن النفس وما ترتبط به من مادة، والانصراف الكلي للحب الإلهي. وغاية ذلك أن يمتزج العنصر الإلهي الروحي في الإنسان مع (العقل الأول) الذي منه نشأ وإليه يرتقي. هذه الفكرة وإن كانت بعيدة عن تقاة المسلمين الأولين الذين أنطبع في نفوسهم خوف الله والرهبة منه لكنها ليست غريبةً بتمامها عن العقل الإسلامي

ولقد لاقت الصوفية كما لاقى غيرها من المذاهب والآراء الجديدة مقاومة كبيرة فيها عنف وفيها شدة من بعض تقاة المسلمين. وغالى بعضهم في نقمته فنعت الصوفيين بأنهم قوم

جهلة يتخبطون في مهاوي الغي والفساد، لا يركنون إلى الكتاب والسنة في كل ما يفعلون، ثم أوغلوا في تهجمهم عليهم فقالوا ما التصوف إلا إسقاط الجاه وسواد الوجه في الدنيا والآخرة، وما المتصوفون إلا قوم مراؤون بئسوا من العمل ومالوا إلى الخمول والكسل فكأن شأنهم شأن من ينتظر أن تمطره السماء ذهباً وفضة

كانت هذه الحركة العدائية ترتكز على ثلاثة أسس:

أولاً: أن الصوفيين بشروا بصلاة ساكنة، وبهذا مالوا إلى إنقاص شأن الصلوات الخمس الجبرية المفروضة التي هي من أركان الإسلام الخمسة زاعمين أنها من خصائص العامة الذين لم يتعمقوا في المعرفة الروحية. أما هؤلاء الذين ارتقوا إلى أعلى درجات العلم والفلسفة فهم في غنىً عنها

ثانياً: أنهم أدخلوا (الذكر) في الدين، وهو إعادة دائمة لأسم الله تعالى بأوضاع وأشكال

منوعة على نمط لم يعرفه المسلمون المتقدمون، فهو إذن بدعة (وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار)
ثالثاً: أن كثيراً منهم اعتنقوا مبدأ التوكل مهملين جميع أنواع العمل وألوان التجارة وفي هذا ما فيه من إضعاف شأن الأمة اقتصادياً واجتماعياً. ثم أنهم كانوا يرفضون المساعدات الطبية عند الحاجة ويعيشون على الصدقات يتطلبونها من المؤمنين. أنهم ليحدثون في عقول الناس معنىً خاصاً لله وللدين
لم يقف الصوفيون أمام تهجمات خصومهم مكتوفي الأيدي ولم يفقدوا رشدهم أمام هذه الحملات الشعواء المبعوثة من كافة النواحي والجماعات، بل دافعوا عن كيانهم بحجج قوية وأدلة مبعثها الكتاب والسنة وأثبتوا فضلهم وعلمهم، وقالوا إنهم قوم آثروا الله على كل شيء فاصطفاهم من دون الناس كافة لأيقاظ الناس وإطفاء شعلة التشكك والألحاد، قال الشبلي: (الصوفي منقطع عن الخلق، متصل بالحق، بدليل قوله تعالى واصطفيتك لنفسي. قطعه عن كل (غير) ثم قال لن تراني.) ومما استشهدوا به على أنهم وصُفوا في الذكر الحكيم بالصدق والخشوع والصبر والتوكل والقنوت والزهد: وهم على اعتقاد أنهم المعنيون بهذه الأوصاف.
ومن كلام النبي (ص) فيهم قوله. (رب أشعث أغبر ذي طمرين لو أقسم على الله لأبره)
كلمة ختامية
إن تعاليم الصوفية قد لاءمت العقلية الفارسية أكثر مما لاءمت العقلية العربية. ولم يكن تأثيرها في الحياة العربية والأدب العربي خاصة مضارعاً ما كان لها من أثر بين في الأدب الفارسي منذ أوائل القرن الحادي عشر حتى يومنا هذا
والواقع أن الكثرة المطلقة من شعراء الفرس المجيدين قد انصهروا في بودقة هذه التعاليم فامتزجت بتفكيرهم وخيالهم، وظهر هذا جلياً واضحاً في الاستعارات والمسميات الصوفية التي كانوا يطرزون بها أشعارهم. على حين لم يكن بين شعراء العرب المجلين من وقف وقفة ولو بسيطة عند هذه التعاليم إذا استثنينا الشاعر المبدع شرف الدين عمر بن الفارض العربي المولد والشعر مادة وروحاً. وللعرب في تاريخ الصوفية الأدبي فارس آخر هو محي الدين بن العربي الأندلسي المولد في القرن الثاني عشر الذي ألقى عصا الترحال في دمشق الفيحاء، بعد أن زار في رحلته مصر والحجاز وبغداد والموصل وآسيا الصغرى، وله مؤلفات تربو على المئتين والخمسين عدا، وأشهرها الفتوحات المكية وفصوص الحكم وبهما يعتبره البعض أعظم صوفي الإسلام
هذه صفحة موجزة في تاريخ الصوفية ونشأتها أود أن اختمها بالثناء العاطر على الأستاذ العلامة نكلسون لما بذل من مجهود في تنقيبه على أسس هذه الطريقة ومعالمها، فأضاء لنا صفحة مشرقة في تاريخ هذا المبحث الخطير الشأن. وعسى أن يقوم من بين علماء العربية من يتطوع للكتابة في هذا الأمر الجليل، فالمجال ما زال واسعاً والفائدة جزيلة عامة إن شاء الله
السلط - شرق الأردن
سليمان فارس النابلسي
محاورات أفلاطون
الحوار الثالث
فيدون أو خلود الروح
ترجمة الأستاذ زكي نجيب محمود
أشخاص الحوار
فيدون (وهو راوي الحوار إلى اشكراتس من أهالي فليوس)
سقراط. أبولودورس. سمياس. سيبيس. كريتون. حارس السجن
مكان الحوار: سجن سقراط
مكان الرواية: مدينة فليوس
اشكراتس - أي فيدون! هل كنت بنفسك في السجن مع سقراط يوم تجرع السم؟
فيدون - نعم كنت يا اشكراتس
اشكراتس - أود لو حدثتني عن موته، ماذا قال في ساعاته الأخيرة؟ لقد أنبئنا أنه مات

باجتراعه السم، ثم لم يعلم أحد منا فوق ذلك شيئاً، فليس ثمة اليوم بين بني فليوس من يذهب إلى أثينا، كما أن أحداً من الأثينيين لم يجد سبيله إلى فليوس منذ عهد بعيد، ولذا لم يأتنا عنه نبأ صريح

فيدون - هل أتاك حديث المحاكمة وكيف سارت؟

اشكراتس - بلى، لقد حدثنا بعض الناس عن المحاكمة، فلم ندر لماذا نفذ فيه الإعدام بعد الإدانة بزمن طويل، كما رأينا، ولم ينفذ في حينه؟ فما علة ذلك؟

فيدون - علته حادث وقع في اليوم السابق لمحاكمته يا اشكراتس، وهو تكليل مؤخرة السفينة التي يبعثها الأثينيون إلى دلفي.

اشكراتس - وما تلك السفينة؟

فيدون - يروي الاثينيون أنها السفينة التي كان قد أبحر عليها تسيوس وصحبه الشبان الأربعة عشر إلى اقريطش، حيث نجا وإياهم، وكان قد قيل وقتئذ إنهم نذروا لأبولو أن لو سلموا ليحجن إلى دلفي مرة كل عام، وما تزال العادة متصلة إلى اليوم. فهذه الفترة كلها،

التي تنفقها السفينة في رحلتها إلى دلفي، ذهاباً وإياباً، منذ الساعة التي يكلل فيها كاهن أبولو مؤخرة السفينة، فترة حرام، لا يجوز للمدينة خلالها أن تدنس أرضها بقتل أحد من الناس؛ وكثيراً ما اعترضت السفينة ريحٌ أخرتها، فأرجئ الإعدام أياماً طوالاً. فهذه السفينة كما سبق لي القول قد كللت في اليوم السابق لمحاكمة سقرط. فدعاه ذلك إلى أن يلبث في السجن ولم يعدم إلا بعد الإدانة بزمن طويل

اشكراتس - كيف كان موته يا فيدون؟ ماذا عُمل وماذا قيل؟ ومن ذا جاوره من أصدقائه؟ أم لم يأذن لهم ذوو السلطان بالحضور فمات وحيداً؟

فيدون - لا، بل رافقته من أصدقائه طائفة كبيرة

اشكراتس - إن لم يكن لديك ما يشغلك، فأرجو أن تقص على ما حدث، دقيقاً ما استطعت إلى الدقة سبيلاً

فيدون - لا شاغل عندي، وسأحاول أن أجيبك إلى ما رجوت، فليس كذلك أحب إلي من أن أكون ذاكراً لسقراط، سواء أكنت أنا محدثاً، أم كنت مستمعاً إلى من يتحدث عنه

اشكراتس - لن تجد من سامعيك إلا نفوساً ترغب فيما رغبتَ فيه وإني لآمل أن تكون دقيقاً ما وسعتك الدقة.

فيدون: - وإني لأذكر ما اعتراني من إحساس عجيب، إذ كنت إلى جانبه، لقد كنت بازائه غليظ القلب، يا اشكراتس، لأني لم أكد أصدق أني إنما أشهد صديقاً يلفظ الروح. إن كلماته وقسماته ساعة الموت، كانت من النبل والجلد، بحيث بدا في ناظري كأنه رافل في نعيم، فأيقنت أنه لابد أن يكون بارتحاله إلى العالم الآخر ملبياً لدعوة من ربه، وأنه سيصيب السعادة إذا ما بلغ ذلك العالم، إن كان لأحد أن يعيش ثمت سعيداً، فكان طبيعياً، وتلك حاله، إلا تأخذني عليه الرحمة، ولكني مع ذلك لم أجد في الحوار الفلسفي (إذ كانت الفلسفة موضوع حديثنا) ما تعودت أن أجده فيه من متاع؛ لقد كنت مغتبطاً، ولكني أحسست إلى جانب الغبطة ألماً، أنْ علمت أنه لن يلبث طويلاً حتى يموت. لقد ساهمنا جميعاً في هذا المزيج العجيب من المشاعر، فكان يتناوبنا الضحك والبكاء، ولاسيما أبولودروس لأنه سريع التأثر - هل تعرف هذا الضرب من الرجال؟

اشكراتس - نعم

فيدون - لقد غُلب على أمره وتخاذلت قواه. وأنا نفسي، بل وكلنا جميعاً، قد بلغ منا التأثر مبلغاً عظيماً

اشكراتس - من كان الحضور؟

فيدون - حضر سوى أبولودورس من بني أثينا، كريتوبويس، وأبوه كريتون، وهرموجينس وأبيجينس، وايشينس، وانتسين. كذلك أكتيسبس من أهل بيانيا، ومينكسينوس وغيرهم كثيرون. أما أفلاطون فقد كان مريضاً فيما أظن

اشكراتس - أكان ثمت أحد من الغرباء؟

فيدون - نعم، كان هناك سمياس الطيبي، وسيبيس، وفيدونديس، واقليدس، وتربيزون الذين جاءوا من ميفارا

اشكراتس - وهل كان أرسطبس وكليومبروتس حاضرين؟

فيدون - لا. فقد قيل إنهما كانا في أيجينا

اشكراتس - ومن غير هؤلاء؟
فيدون - هم فيما أحسب كل الحاضرين على وجه التقريب
اشكراتس - وأي حديث تناولتم بالحوار؟
فيدون - سأسوق الحديث من أوله، محاولاً أن تكون الرواية شاملة
ولعلك تعلم أنا قد كنا من قبل نجتمع مع الصباح الباكر في المحكمة التي جرت فيها المحاكمة، وهي على مقربة من السجن، فنظل نتجاذب أطراف الحديث حتى تفتح أبواب السجن (وقد كانوا لا يبادرون بفتحها) فندخله لننفق معظم النهار مع سقراط، فلما كان الصبح الأخير، بكرنا باللقاء عن الموعد المعهود إذ علمنا في الليلة السالفة أن السفينة المقدسة قد عادت من دلفي فتواعدنا على اللقاء في المكان المضروب جد مبكرين، فما كدنا نبلغ السجن حتى طلع السجان المسئول عن حراسة السجن، ولم يأذن لنا بالدخول، بل أمرنا أن ننتظر حتى يدعونا، (لأن الأحد عشر مع سقراط الآن، يرفعون عنه الأغلال، ويأمرون بأن يكون اليوم قضاؤه المحتوم) كما قال. ولم يلبث أن عاد يجيز لنا الدخول، وإذ فعلنا ألفينا سقراط قد خلص لتوه من الأصفاد، واكزانثيب، التي تعرفها جالسة إلى جانبه تحمل وليده بين ذراعيها، فلم تكد تبصرنا حتى صاحت قائلة ما ينتظر أن تقوله النساء:
أواه يا سقراط! لتلك آخر مرة يتاح لك فيها أن تتحدث إلى أصدقائك أو يتحدثون)
فنظر سقراط إلىكريتون، وقال: (مُرْ أحداً يا كريتون أن يذهب بها إلى الدار) (إليك فساقها بعض حاشيته صارخة لادمة، وما كادت تغيب عن النظر حتى انثنى سقراط، وكان جالساً على سريره، وأخذ يربت على ساقه قائلاً: (ما أعجب هذا الشيء الذي يسمونه اللذة، وما أغرب صلته بالألم، الذي قد يظن أنه واللذة نقيضان، لأنهما لا يجتمعان معاً في إنسان، مع أنه لابد لمن يلتمس أحدهم أن يحمل معه الآخر؛ إنهما اثنان، ولكنهما ينبتان معاً من أصل واحد، أو يتفرعان من أرومة واحدة، ولست أجد سبيلاً إلى الشك في أنه لو رآهما أيزوب لأنشأ عنهما قصة، يُصور فيها الله وهو يحاول أن يوفق بينهما في الخصومة القائمة، فان لم يوفق، سد رأسيهما إلى بعض في وثاق واحد، وذلك عله أن يجيء الواحد في أعقاب أخيه، كما شاهدت في نفسي، إذ أحسست لذة في ساقي جاءت في أثر الألم الذي أحدثه القيد فيها
وهنا قال سيبيس: كم يسرني حقاً يا سقراط أن تذكر ايزوب، فقد ذكرني ذلك بمسألة طرحها بعض الناس واستجابني عنها افينوس الشاعر أمس الأول، ولا ريب في انه سيعود ثانية إلى السؤال، فحدثني بماذا أجيبه، إن كنت تحب أن يظفر بالجواب. أنه أراد أن يعرف لماذا، وأنت رهين السجن، ولم تكتب من قبل بيتاً واحداً من الشعر، تنظم قصص أيزوب وتنشئ تلك الأنشودة إجلالاً لابولو
فأجاب أن حدثه يا سيبيس بأنني لم أفكر في منافسته ومنافسة أشعاره، وحق ما أقول، لأنني كنت أعلم أن لا قبل لي بذلك، إنما أردت أن أرى هل أستطيع أن أمحو وهماً أحسسته عن بعض الرؤى، فلكم أشارت إلي هواتف الأحلام في أيام الحياة (بأنني سأنشئ الموسيقى) وقد كان يطوف بي هذا الحلم في صور متباينة، ولكنه لازم عبارة يعنيها ينطق بها أو بما يقرب منها دائماً: أنشئ الموسيقى وتعهدها بالنماء - هكذا كانت تهتف الرؤيا، وقد خيل إلى منذ ذلك الحين أنها لم تُرد بذلك إلا أن تحفزني وتبعثني على دراسة الفلسفة التي كانت دوما قصد الرمي من حياتي، والتي هي أسمى جوانب الموسيقى وأرفعها شأناً، فكما ترى النظارة في حلبة السباق يهيبون بالمتسابق المتحمس أن يجري مع أنه يجري فعلاً، كذلك كانت رؤياي تأمرني أن أؤدي ما كنت بالفعل قائماً بأداءه، ولكني لم أكن على يقين من هذا، فربما قصدت الرؤيا بالموسيقى معنى الكلمة المعروف، فرأيت أني أكون آمن، لو أرضيت هذا الشك، وأطعت الرؤيا فيما تأمر به، فأنشأت قبل رحيلي قليلاً من الشعر، فهذا قضاء الموت يرقبني، وقد أمهلني العيد قيلاً. فكتبت بادئ ذي بدء نشيداً في تمجيد آله هذا العيد، ثم لما رأيت أن الشاعر الذي يراد له أن يكون شاعراً مبدعاً حقاً، لا ينبغي أن يحشد ألفاظاً وكفى، بل لابد له أن ينشي قصصاً، ولما لم تكن لدي قوة الإنشاء؛ أخذت طائفة من قصص ايزوب، ونظمتها شعراً، فقد كانت ميسرة سهلة التناول، وإني بها لعليم. أنبئ أفينوس بهذا ولا تجعله يبتئس، قل له إني أود أن يتبعني، وإلا يتلكأ إن كان رجلاً حكيماً، فأغلب الظن أنب مرتحل عنكم اليوم، إذ قال الأثينيون

أن ليس لي من ذلك بد
قال سمياس - يا له من نبأ يحمل لذلك الرجل! أني أقرر لكم وقد كنت رفيقاً له ملازماً، أنه - كما عهدته - لن يأخذ بنصحك إلا مجبراً.
قال سقراط - ولماذ؟ أليس أفينوس فيلسوفاً؟
قال سمياس - أحسبه كذلك
إذن فسيكون راغباً في الموت، شأن كل رجل عنده روح الفلسفة، ولو أنه لن ينتزع روحه بيده، فقد أجمع الرأي على أن ليس ذلك صواباً
وهنا بدل في وضعه، فأنزل ساقيه من السرير إلى الأرض ولبث جالساً حتى ختم الحوار
يتبع
زكي نجيب محمود
في تاريخ الأدب المصري
ابن النبيه - 2
للأستاذ أحمد أحمد بدوي
- 3 -
اتصل شاعرنا كما ذكرت بطائفة كبيرة من عظماء عصره، فمدح الخليفة الناصر، أحمد أمير المؤمنين، واتصل بالملك العادل أخي صلاح الدين، واتصل كذلك بالقاضي الفاضل والوزير صفي الدين بن شكر وغيرهم، ولكنه لم يتصل بصلاح الدين، ولعل ذلك كان ناشئاً عن حداثته في ذلك الحين، واستصغار نفسه أن يتصل به، مع أن صلاح الدين كان ممدوحاً للقاضي الفاضل وغيره من كبار رجال العصر. غير أن أوثق الاتصال كان بينه وبين الملك الأشرف الذي أصبح به مختصاً معروفاً، كما عرف المتنبي بسيف الدولة، يسجل له مفاخره، ويحصى ما يناله من الخير والنصر، ويهنئه بالعيد إذا حل العيد، ويصف له القصور إذا بنى قصراً جديداً، وإذا أعان الحجاج سجل له يده، ويظهر أنه قد نال الخير والسعادة على يد الملك الأشرف، وإن كنا نراه في بعض الأحيان يشكو إليه، ويذكر ما قد يصيب علاقتهما أحياناً من الفتور، وذلك ما لابد منه، ولا سبيل إلى التخلي عنه، فهو يقول له:
كم اصطنعت وكم أوليتني حسنا ... فليس يبلغ أقصى الشكر أدناه
دامت علينا به النعمى وأمتنا ... مما نخاف أدام الله نعماه
أرجو لقاك لآمال ومنزلة ... فأنت لي سبب، والرازق الله
فأغنني يا ابن ذي المجد العلي وكن ... لي مسعداً في الذي أرجو وأخشاه
وأحياناً كان ابن النبيه يرسل إليه يطلب حاجة يجعل شفيعها غلاماً جميلاً يستقضي تلك الحاجة، ويحفظ له التاريخ من ذلك أنه أرسل هذا الغلام وكتب معه هذا الدوبيت:
أيقنت بأن حاجتي ليس تضيع ... مذ قدمها مهفهف القد بديع
في خضرة حده ليعينيك ربيع ... ما أقبح رده وذا الحسن شفيع
وكثيراً ما كان وهو لدي ولي نعمته الملك الأشرف يشتاق مصر ويرسل إلى أهلها السلام،
ثم ينتقل إلى المدح، وكأنه يذكر الممدوح بغربته وفراقه وأنه إنما تحمل ذلك من أجله هو، وفي ذل ما فيه من تكثير لمورد رزقه وإغداق النعمى والهدايا عليه، واستمع إليه يخاطب أهل مصر:
إن عينا منكمو قد ظميت ... قد سقاها الدمع حتى رويت
آه من وجد جديد لم يزل ... وعظام يا حلات بليت؛
ساكني الفسطاط لو أبصرتكم ... جليت مرآة عين صديت
إن أعاد الله شملي بكمو ... سعدت آمال نفس شقيت
إن أرضا أنتمو سكانها ... غنيت عن أن تقولوا: سعيت
فوجوه كرياض أزهرت ... ورياض كوجوه جليت
بأبي منكم غزال، مهجتي ... بظبا ألحاظه قد غزيت
بلغيه يا نسيم الريح عن ... مهجة المشتاق ماذا لقيت
ثم يقول:
إنما مدحة عيسى جنة ... عندها أوطاننا قد نسيت

فكأنه يقول له اذكر أني مفارق لوطني فكيف أنساه إلا إذا لقيت منك ما يغنيني عن ذكره، ونحن لا نشك في أنه لاقى من الأشرف كل إعزاز وإكبار. وكان الأشرف يعتقد في شاعريته ويثق بها، فكثيراً ما كلفه نظم الشعر على البديهة في أي موضوع يراه، وكثيراً ما قام مقامه في تدبيج الرسائل بالشعر على لسانه، ولقد كانت تلك المنزلة الرفيعة التي نالها مدعاة إلى أن يقول:

أنت قربتني فأغليت قدري ... أنت خولتني فأغنيت فقري
فيجد من يشا ويبخل من شا ... فحرام عليه ذمي وشكري

بل كان جمع ديوانه قياماً منه بواجب الشكران وتسجيلاً لليد التي أسداها إليه - كما حدثك هو في صدر الديوان

نستطيع أن نقول إن شعر ابن النبيه يعطينا صورة واضحة لعصره، يحدثك عن طابعه وعن أهم ما ضمه من الأحداث، وإذا أنت ذهبت تنقب عن ذلك رأيت أن أهم ما يميز العصر الروح الحربية التي سرت فيه، وروح القتال الذي كان على قدم وساق كان العصر عصر حرب مشبوبة بين الصليبين من الأوربيين وبين المسلمين وملوك المسلمين، كما كان عصر نزاع بين بني أيوب على الانفراد بالسيادة والسلطان بعد أن مات كبيرهم صلاح الدين، ومن أجل هذا كان أظهر صفة بارزة يمدح بها شاعرنا ممدوحيه شجاعتهم في الحرب واستبسالهم في المواقع، فهو يقول لمن يمدحه:

مليك إذا سار بين السيو ... ف ترى البدر بين اشتباك الكواكب
وتزأر من تحت ذاك الركا ... ب أسودها من ظباها مخالب
فتلك اللهاذم زهر النجو ... م ومعتكر النقع جنح الغياهب

ويصف جيش ممدوحه بقوله:

وأسد على جرد لها مثل فعلهم ... إذا ما تجلى الموت في الحلل الحمر
دماء أعاديهم شراب رماحهم ... وأجسامهم هذي إلى الذئب والنسر

فإذا شئت أن ترى صورة من صور النزاع بين الإفرنج الذين كانوا يبغون الاستيلاء على مصر قلب الدولة الإسلامية وبدأوا غارتهم بالاستيلاء على دمياط فاستمع إليه يقول:

وتحت غيل القنا آساد معركة ... لها ثبات وفي الهيجاء وثبات
مستشرفات بآذان موكله ... لها إلى الثغر من دمياط حاجات
الويل للروم والإفرنج من ملك ... له من النصر والتأييد عادات
أين المفر لسرب الروم من أسد ... ضار له من رماح الخط غابات
دمياط طور ونار الحرب موقدة ... وأنت موسى وهذا اليوم ميقات
ألق العصا تتلقف كلما صنعوا ... ولا تخف من حبال القوم حيات
طأهم بجيشك لا تحفل بكثرتهم ... فانهم لبغاث الطير أقوات
أصبتهم بسهام الرأي من حلب ... وللمكائد من بعد إصابات
فطهر الله ذاك الثغر من قلح ... أصابه، وانجلت تلك الثنيات
لله من ثغر دمياط وبرزخها ... فتح له تفتح السبع السموات
شرحت صدر رسول الله وانحسرت ... بنصرة الدين والدنيا غمامات
فللرماح كلاهم أو صدورهم ... وللصوارم أعناق وهامات
تخلق البحر ذاك اليوم من دمهم ... والموج ترقصه تلك المسرات
عكا وصور إلى رؤياك عاطشة ... فانهض فقد أمكنت منهن خلوات
الله اكبر أن تمسي مزامرهم ... تتلى، وتنسى من القرآن آيات

وكثيراً ما كان يؤكد لسيده أنه سوف يهزم عدوه وينتصر عليه ويملك بلاده، بل وسوف يؤاتيه النصر حتى يملك القسطنطينية عاصمة بلادهم، ولقد كرر ذلك مراراً، حتى أنك لتستطيع أن تفهم من هذا التكرار والتأكيدات الكثيرة بأنه سوف يفتح تلك البلاد أن هذا كان في صدر ممدوحه أملاً قوياً يتمنى أن يناله وأن يتم على يديه، حتى قال له ابن النبيه:

ستفتح قسطينة عنوة ... وما كان للروم منها بغارب
كأني بأبراجها قد هوت ... وصخر المجانيق فيها ضوارب
وقد زحف البرج زحف العرو ... س إليها يجر ذيول الكتائب
وليس الكهانة من شيمتي ... ولكن حزبك بالله غالب

وكثيراً ما مناه بهذا الأمل وأكد له أنه سيناله، كذلك في شعره صورية للنزاع كان بين بني أيوب، ولقد كان ابن النبيه يؤمن ويوقن بأن الخير كل الخير إنما هو في اجتماعهم ووحدتهم، لأن الأوربيين في ذلك الحين كانوا يهاجمون الشرق، فمن الخير أن يتحد ملوكه لدرء هذا الخطر عنه، ولقد كان المغيرون ينتهزون كل فرصة خلاف بينهم ليشبوا نار الحرب عليهم، ولذلك كان ابن النبيه صادقاً يوم قال متحدثاً عن بني أيوب أولاد شاوي:

آل شاوي شهر الصيام جلالاً ... وأبو الفتح منه ليلة قدر
معشر في وفاقهم كل خير ... مثلما في خلافهم كل شر

وكان يوقن بأن صلحهم واجتماعه يبعث القوة في نفوس الشرقيين، ويبعث الضعف والخوف في نفوس الأوربيين كما قال بعد صلحهم:

اليوم تصلى صفحات العدا ... نيران حرب حرها لافح
اليوم دار الشرك مبذولة ... يأوي لها الصائح والنائح
موسى جزاك اله عن دينه ... خيراً فما أنصفك المادح
سعيت في جمع شتات العلا ... لله هذا العمل الصالح

وشعره بعد ذلك يحدثك عما أصابه الملك الأشرف من فتوح ونصر في بلاد الشرق، هذا

وإذا ذهبت تلتمس العلاقة التي كانت بين الاشرف والخليفة رأيت أن الخليفة العباسي كان يتمتع بسلطة روحية كبيرة، وإن لم يكن له من الأمر شيء في السلطة السياسية، فان الأشرف يحرص على أن تظل العلاقات بينهما قوية متينة، ويعد مراسلة الخليفة له منة وفضلا كبيرين

ولقد ورد له خطاب مرة من الخليفة، فطلب من ابن النبيه أن يجيبه فكتب إليه الرد شعراً لأن الخليفة كان أديباً شاعراً:

سيدي سيدي كتابك أحلى ... من زلال على فؤادي الصادي
خلت فيه قميص يوسف لما ... الصقته أناملي بفؤادي
كرر اللثم يا فمي، وترشف ... منه آثار فضل تلك الأيادي
نعمة سميت كتاباً مجازاً ... أنا نبت وهي السحاب الغوادي
كثرت حاسدي حتى تخيل ... ت جفوني من جملة الحساد
قالت العين وهي تخرج درا ... فاخراً من بحار ذاك المداد
أنا افدي بياضه ببياضي ... أنا أفدي سواده بسوادي
أنا عبد الأمام أحمد خير ... لي من نسبتي إلى أجدادي
فعليه السلام ما غرد الطي ... ر وغنى شاد، ورجع حاد

وفي الحق أن الأمراء من الأتراك مهما استبدوا كانوا يقرون للخليفة بالسلطة الروحية ولا ينازعونه فيها

(يتبع)

أحمد أحمد بدوي

جيرة محمودة

للأستاذ فخري أبو السود

حتَّام أنت مجرجرٌ متلاطم ... يطوى عبابُك أعصراً وقرونا؟
ماذا يعي يا بحرُ صدرُك لو حَكَى؟ ... لكن أراه بما وعاه ضنينا
متدافع التيار ليلَ نهارَ لا ... بالصمت لُذْتَ ولا أراك مُبينا
أبداً تجيء الشطَّ منك كتائبٌ ... دَآبَةُ التَّرْدَادِ لَسنَ يَنِينَا
تغزو غواربُها الرمالَ وتنثنى ... تغزو من الصخر الأَصمِّ مُتُونا
مُبْيَضَّة الأثباج في تهدارها ... يَبْرُزْنَ حيناً في البياض فحينا
لاعَنْ مَشيب أو سنينَ تصرمت ... فَلَكَمْ أذابتْ في الأُجَاج سنينا
ولقد يكاد أُجاجُها من حُسنه ... يبدو فراتاً للظِّماء مَعينا
البحر فتَّان وإن هو لم يُنِلْ ... رِياً ولم يُطْلِعْ جَوَارِيَ عِينا
إِن لم يكن رِيَّ الظِّماءِ فإنه ... بالحسن يروي أنفساً وعيونا
بروائع الألوان فيه تآلَفَتْ ... ونوافح النسمات إذ يسرينا
وَيُرَى مَسَارِحَ للعيون ومَبْعَثاً ... للذكريات كموجه يأتينا

كم طَالَعتْهُ الشمس ثمَّ أَجَنَّها ... سرّاً وراء عبابه مكنونا
إِني شهدتُ الشمسَ عند شروقها ... من خلف لُجَّتِهِ تشعّ جبينا
ورأيتُ مَغرِبها به وضياؤُها ... ملءُ الجوانح لهفة وحنينا
يهوي خضيبُ شعاعها من أفقها ... ويذوب في لُجَجٍ به يَزْهُونا
والشمسُ أكرم رُاحل ودَّعْتُهُ ... أطوى عليه حسرةً وشجونا
وَأَحَبُّ مُرْتَقَبٍ لِعَوْدٍ لم يذُدْ ... عن وجهه الوضَّاءِ مُرْتَقِبينَا
تَأْتِي وتَذْهَبُ في لطاف غلائل ... متجدداتٍ بهجةً ورُقُونا
هاتيك آياتُ الجَمَال تَخِذْتُها ... صَحْبي ونعم مدى الزمان خدينا
وتخذتُ هذا البحر جاراً لي إذا ... ما عفتُ جاراً أو مللتُ قرينا
وحمدتُ جيرته وثرثرةً له ... دَوْماً تَدَاوَلُ مَسْمَعَيَّ رَنينا
يَحْبو شواطئه صفاء طباعه ... ويفيض بشراً دونها وَيَمِينا
أَضْفَى على الثغر الجميل رُواَء ... وكسا حياةً القاطنيهِ فُتُونا
وجَرَتْ به خلجانهُ رقراقةً ... وصَفَا جداولَ حوله وعيونا
فتشابهتْ أوقاته فشتاؤُهِ ... كَرَبِيعِهِ لطفاً يَرُوق ولَيناَ
متجدِّدٌ لم يَطْوِ يوماً بادياً ... من حُسنه إلا أبانَ كمينا
حَسْنُ الطبيعة فيه زاه كيفما ... أجْرَى الزمانُ لساكِنِيه شؤونا
إنْ سَرِّهم بصروفه أو ساَءهم ... فالحُسْنُ ثَمَّ مَتَاهلاً وفُنُونا
والحُسْنُ ثَمَّ لِمَنْ بَغَى مُتَعَزَّلاً ... عَن طالبي الدنيا وما يَبْغُونا
الإسكندرية
فخري أبو السعود
وهم الحياة
للأستاذ خليل هنداوي
إنني أَعبدُها - فيك - أيها الوهم!
(الناظم)
موِّه علينا بالرُؤَى ... إن الحقيقةَ تُؤلمُ
ما ذقتُ طيبَ العيشِ إلا عند ما أتوهمُ
ضُري حياةُ أو انفعي ... أنا منك لا أتبرمْ!
فَهمَ الحياة فتىً يجو ... رُكأنهُ لا يفهم
عبثاً تحاولُ فهمَ لغزٍ فيه لغزٌ مُبَهمُ
. . .ما أَنتَ أَولُ صخرةٍ ... يَطغَى عليها العَيْلَمُ
أنتَ الغنيُّإذا قنع ... تَ وأنتَ أنتَ المعدمُ
ما أظلمت ديناك، لكنَّ اعتقادَكَ مَظلِمُ
خليل هنداوي
زهرتي
بقلم محمود حسن إسماعيل
ولي زهرةٌ طيبْتُ من عطرها دَمِي ... وضمخْتُ روحي من شذاها وأنفاسِي
على شاطئ من فَيْضِ روحي تفتَّحَتْ ... وراحَتْ تَعُبُّ الرِّيَّ من نَبْع إِحْساسي
مكللةً بالنُّورِ تَحْسِبُ وَشْيَها ... وَميضاً من الصَّهبْاء يُشرقُ في كاسِ
تميسُ على قلبي إذا هزَّها الهوى ... فتَفْضَحُ بالإدلال ريَّانَةَ الآسِ
غذَاها السَّنا من زاخِرِ اللمْحِ فاغتدَتْ ... تَبلّجُ في هالاتِها. . فتنَةَ النّاس
كأني بها نَفْحٌ من الخُلد رَوَّحَتْ ... أفاويحهُ عني ضنَى عُمْرِيَ الآسِي
بروحيَ من أنفاسها عطرُ جَنَّةٍ ... تراءتْ بحُلْمٍ رائعِ الطيْف ميَّاسِ
وأنداءُ فجْرٍ أسْكر الروح نَسْمُهُ ... وطهرَ بالأعطَارِ إثمى وأرْجاسي!
بروحي حَنانٌ شَعَ من جنَباتها ... كما فاض في جُنْح الدُّجَى ضوءُ نبراسِ
رشْفتُ نعيمي نَشقةً من عبيره ... وشرَّدتُ آلامي على نَفْحِه الآسي!!
بين القاهرة وطوس - 7
نيسابور إلى طوس
للدكتور عبد الوهاب عزام
رجعت من مزار العطار إلى قبر الخيام وأنا أنشد قول حافظ الشيرازي:

(. .جاء مرشدنا البارحة من المسجد إلى الحانة)
ولما رجعنا إلى قبر الخيام قال بعض الحاضرين من الشرقيين كيف تركتم الخيام إلى العطار؟ قلت لكل رجل وجهته، وإن لم يكن من القياس بد فصاحبنا أعظم من صاحبكم، وأكرم حياة، وأجل أثراً. فانصرف ثم عاد إلى وهو يقول: ليس أحد من المتأدبين في الشرق والغرب يجهل الخيام، وهذا أحد الوافدين من الأوربيين يسأل من العطار؟ فهذه حجة لي، قلت دعني فأني لا أقيس عظماءنا بمعرفة الأوربيين وجهلهم، ومدحهم وذمهم الخ

دُعينا إلى الموائد فطعمنا، وتكلم الشاعر الإنجليزي درنكووتر عن الشعراء ومذاهبهم في الحياة وقال: إنه لا ينبغي أن يفضل شاعر على غيره بصواب رأيه، وسداد طريقته، بل بمقدار إبانته عما أحسه في هذه الحياة، وأدركه في هذا المعترك؛ نحن لا نستطيع أن نقتدي بالخيام فنمضي أوقاتنا بين امرأة جميلة وكأس، وعود، فان علينا في هذه الحياة واجبات تأبى ذلك، ولكنا لا نغض من قدر الخيام لأنه أبان عن رأيه بهذا الأسلوب الشعري الجميل الخ

ثم أنشد قطعاً من رباعيات الخيام كما ترجمها فيتز جرالد؛ وأنشد أحمد الصراف مندوب العراق بالفارسية بعض الرباعيات، وتكلمتُ فقلت بالفارسية؛ إننا مغتبطون بقدومنا مدينة نيسابور العظيمة، ذات الأثر العظيم في الحضارة الإسلامية، وها نحن أولاء بجانب الخيام الفلكي الشاعر الكبير، فالى روحه الطاهرة منا تحية ودعاء. ولا ننسى أن نرسل تحيتنا إلى الشاعر العظيم، والصوفي الجليل فريد الدين العطار، ذي المآثر الخالدة في الشعر والتصوف

وإنا لنرجو أن تعود هذه البلاد سيرتها الأولى في العلم والأدب، وأن ييسر الله لها السير في سبيل الرشاد في ظل صاحب الجلالة الشاه المعظم. .

فقام الأديب سيف آزاد صاحب مجلة إيران القديمة (إيران باستان) فتكلم وحيا صاحب الجلالة ملك مصر، وقال إنه قد ساءه أن علم اليوم أن جلالته مريض، وطلب من الحاضرين أن يدعو له بالشفاء والعافية. وألقي الأديب رشيد الياسمي قصيدة من الضرب الذي يسمى في عرف أدباء الفرس غزلاً. وهي مردوفة القافية. والرديف في الشعر الفارسي أن تكرر كلمة بعينها آخر كل بيت، ويبني الروي على الكلمة التي قبله. والرديف في قصيدة الياسمي كلمة (رو) بمعنى الوجه. وهذه ترجمة القصيدة عفو الساعة:

قد استسر وجهك في كمال الظهور، وصار من التجلي في حجاب من ذلك النور
لا يرى أحد في العالم وجهك، إن كان العالم مرآتك
إني أدعوك حبيب الروح، إذ لا يتجلى وجهك إلا في عالم الأرواح
ولّ وجهك شطرنا، نحول عن الكون والمكان وجوهنا
أيها الربيع لا تستر من العندليب خدك فقد جعل وجهه كورق الخريف هجرك
فلا حرارة في هذا القلب المتوقد، ولا بسمة في ذلك الوجه المورد
لقد أمضيت العمر في انتظار وحسرة، , آمل أن يلوح وجهك لي مرة
أيتها الشمس إني من الشوق إلى شعاعك الوضاء، أقلب كالهلال وجهي في السماء
أبتغي أثراً من هذا الوجه، ولا أثر، كما ابتغى إسكندر ماء الحياة فلم يظفر
إن تبشرني بوجهك يوماً واحداً، وضعت وجهي على عتبتك أبداً
ان تطلب يا رشيد الكنز فانصب، فان السعادة لا تبدي وجهها لمن لم ينصب

قدمنا الساعة خمساً وعشرين دقيقة، وهي فرق ما بين وقت طهران ونيسابور، وركبنا والساعة ثلاث وربع بعد الظهر متوجهين تلقاء مشهد وبينها وبين نيسابور 116 كيلاً، فسرنا صوب الشرق والجنوب في سهل كثير القرى والشجر، فبلغنا قرية اسمها قدمكاه أي موضع القدم، وسأذكرها في الأوبة من مشهد. ثم اجتزنا بشريف آباد وعندها انعطفت الجادة صوب الشمال فارتقينا جبالاً ضربنا فيها أربعين دقيقة ثم هبطنا إلى المشهد المقدس، فدخلناه بعد مغرب الشمس

افترق الركب فنزل جماعة بفندق هناك، ونزل آخرون في دار أحد الكبراء، جليل بك نصير زاده، وكنت وزميلي الأستاذ العبادي ممن شرفوا بالنزول في هذه الدار المعمورة، فلقينا من الحفاوة والرعاية ما لا يُنسى

المشهد المقدس
في عام اثنين وتسعين ومائة سار هارون الرشيد إلى خراسان لحرب رافع بن الليث بن نصر بن سيار، وكان قد ثار بخرسان واعيا الولاة
وفي صفر من سنة ثلاث وتسعين اشتد به المرض وهو بجرجان فسار عنها إلى طوس، ونزل بضيعة اسمها سناباذ في دار الجنيد بن عبد الرحمن. فلما أحس أجله أمر فحفروا له قبراً في بستان الدار، وأمر جماعة فنزلوا فيه وقرأوا القرآن. وتوفي نصف الليل، ليلة السبت لثلاث خلون من جمادي الآخرة، ودفن في القبر الذي أعده
وفي سنة ثلاث ومائتين كان الخليفة المأمون بن هارون قافلا من خراسان يريد العراق، وقد ثار عليه عمه إبراهيم بن المهدي، فلما بلغ سناباذ نزل عند قبر أبيه أياماً، وكان معه علي الرضا بن موسى الكاظم ولي عهده، فمات الرضا في ذلك المكان في شهر صفر فدفن إلى جانب الرشيد. وفي هذا يقول دعبل بن علي الخزاعي فيما يزعم الرواة:
قبران في طوس: خير الناس كلهم ... وقبر شرهم، هذا من العجب
اشتهرت قرية سناباذ وسميت سناباذ المشهد، ثم أطلق (المشهد) على القرية، وبهذا الاسم ذكرها المقدسي وسماها ابن بطوطة مدينة مشهد الرضا، ونسيت على مر الزمن مدينة (نوقان) وصار اسمها اسم محلة في المدينة الجديدة، ونافست مدينة المشهد مدينة طوس في إقليم خراسان حتى أخملتها. ثم اختفت طوس حين حاصرها ميرانشاه بن تيمور وفتحها فأخربها عام 791
وقد لقيت المدينة من غير الزمان سعادة وشقاوة، وتقلبت بها أحوال مختلفة، ولكن شأنها كان يزداد نباهة على مر العصور.
عنى عظماء المسلمين منذ القرن الرابع الهجري بمشهد الرضا والمدينة التي نشأت حوله. قال ابن الأثير في أخبار السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي: (وجود عمارة المشهد بطوس، وكان أبوه سبكتكين أخربه. وكان أهل طوس يؤذون من يزوره، فمنعهم من ذلك. وكان سبب فعله أنه رأى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في المنام وهو
يقول له: إلى متى هذا؟ فعلم أنه أمر المشهد فأمر بعمارته) ثم بنى ابنه السلطان مسعود سوراً حول المشهد ليقيه غارات القبائل المجاورة. وفي القرن السادس الهجري استولى الغز على المدينة ونهبوها ولكنهم أبقوا على مشهد الرضا. وكذلك نهبت في القرن الثامن في عهد السلطان محمود غازان من الملوك الايلخانيين وأعظم الملوك عناية بالمشهد قبل عهد الصفويين السلطان شاهرُخ بن تيمورلنك (809 - 850) وزرجه جوهر شاد؛ وسنذكرها حين الكلام على مسجدها العظيم
وكان عهد الصفويين عهد نماء وازدهار للمدينة، فقد تنافس الملوك الصفويين في تعمير المشهد وتجميله، وتعمير المدينة كلها، ولاسيما الشاه طهماسب الأول (930 - 948) والشاه عباس الكبير (995 - 1307)، ولكن عناية الصفوين لم تكفها الغارات والنهب، فقد غصبها أمراء الأزبك والشيبانية ثلاث مرات على رغم الصفويين وسيطروا عليها أزمنة مختلفة
وكذلك استولى عليها الأفغان حينما استولوا على إيران. ثم جاء البطل الكبير نادر شاه، فأكثر الإقامة فيها واختط قبره بها، وبنى في المشهد الرضوي أبنية رائعة. ثم عادت إلى الأفغان حينما زلزلت دولة نادر شاه بتنازع خلفائه على العرش. وتداولتها حوادث أخرى حتى استولى عليها آقا محمد خان القاجاري، وقتل سلطانها شاهرخ الأفشاري سنة 1210. وفي العصر الأخير ثار بها على القاجاريين بعض الثائرين فتذرع الروس بهذا إلى الاستيلاء عليها، فأطلقوا مدافعهم على المدينة في 29 مارس سنة 1912، وهي الآن تنال نصيبها من العمران والطمأنينة السائدين في إيران اليوم
والمدينة على ارتفاع 930 متراً وطولها 59 وعرضها 36، في وادي كشف رود (نهر كشف) الذي ينبع على عشرين كيلاً إلى الشمال الغربي من طوس ويسمى أحياناً آب مشهد (نهر مشهد) ويصب في نهر هراة (هري رود) على 150 كيلاً إلى الجنوب الشرقي من مشهد، وتبعد المدينة عن شاطئه سبعة كيلات إلى الجنوب. ويبلغ ارتفاع الجبال عندها ثلاثة آلاف متر. فهي باردة الشتاء، جيدة الهواء.
ونهر كشف لا يسقي المدينة، بل يأتيها الماء من عين اسمها جشمه كلاس عند منبع

نهر كشف في قنوات طولها 74 كيلاً جرها إليها الوزير الكبير والأديب العظيم والشاعر المفلق
شير علي نوائي وزير السلطان حسين بن منصور بن بايقرا من أحفاد تيمورلنك - (المتوفى سنة 912هـ)
وهي أكبر مدن خراسان اليوم، وتسمى أحياناً خراسان وسكانها زهاء سبعين ألفاً وتجارتها رائجة، ولكنها ليست كعهدها الأول، فقد كانت ملتقى طرق القوافل قبل أن يستولي الروس على التركستان وينشئوا سكة الحديد القزوينية. وبالمدينة شارعان عظيمان مشجران يخترقانها. وكان بها في عهد نادر شاه 60 ألف دار. وسكانها الآن زهاء 80 ألفاً
وهي كثيرة المساجد، والمدارس بها زهاء عشرين مدرسة للعلوم الدينية، أقدمها المدرسة التي أسسها شاهرخ في سنة 823، ويقصدها الطلاب من أرجاء إيران ومن أفغانستان والهند، فيحصلون العلوم الدينية بها تسع سنين، ومن شاء أن يزداد علماً توجه إلى النجف الأشرف
ويحج إلى المشهد كل عام آلاف كثيرة يختلف التقدير فيها من 30 ألفاً إلى مائة ألف. وبها مقابر كثيرة يحرص الشيعة على أن يدفنوا بها، فتنقل جثثهم إليها من الأقطار البعيدة، وتختلف قيمة القبور بها على قدر قربها من الحرم وبعدها
وهي عند علماء الشيعة في المنزلة السابعة بين الأماكن
المقدسة مكة فالمدينة فالنجف فكربلاء فسامراء فالكاظمية
فالمشهد. وفي رواية أخرى أن الترتيب بعد كربلاء هكذا:
الكاظيمة فالمشهد فسامراء فهي السادسة، ولكنها من حيث
كثرة الزائرين واتساع المسجد وضخامته تكون بعد مكة
والمدينة، وقبل المزارات الأخرى فيما أظن
والكلام عن الحرم الرضوي في المقال الأتي إن شاء الله
(عبد الوهاب عزام)
القصص
من الأدب السويدي
الدوار المسحور
للقصصية السويدية سِلما لاجرليف
ولدت السيدة سلما لاجرليف في 30 نوفمبر سنة 1858 بمدينة مارياك من أعمال فرملاند، واشتهرت بأقاصيصها القيمة، ونالت جائزة نوبل في الآداب لسنة 1909 ولا تزال حية
كلما تحدثت عن (بلاد الفير) والناس الذين يعيشون فيها، مر بخاطري حكاية قديمة لقروية خرجت صباح يوم إلى المرعى لتحلب أبقارها. ولما لم تجد الأنعام في المكان الذي اعتادت الوقوف فيه منتظرة إياها، اضطرت إلى أن تتوغل في الغابة باحثة عنها. غير أنها ضلت الطريق
وكانت القروية قبيل أن تخرج من دارها قد ضاق صدرها فلما لم تجد الأبقار ساءت حالها. وبينا هي تشق طريقها بين الأعشاب والحشائش والنمام باحثة عن بقرها، كانت تفكر في حياة السأم التي تحياها، وأنه لا أمل مطلقاً في تبديلها. نعم، أنها تميل كل الميل إلى زوجها، ولكنه أبصرت أن زوجها لم يبق له صبر على العمل إذ تقدم سنه، كما تقدمت هي أيضاً في السن. وهي بطبيعة الحال تميل إلى مزرعتها، فقد ولدت في كنفها وشبت
ولكن ليس لها ان تغض عينيها على صغرها وقيمتها التي لا تشرف. ولا يمكن مقارنتها بالمزارع الواسعة الفخمة الواقعة هنالك حول الكنيسة. ويزيد على ذلك ان مزرعتها تقع في قلب الغابة حتى أن الإنسان لا يرى طوال الأسبوع ادمياً غير من بالدار. أما هؤلاء الخدم فهي لا تريد أن تنسب إليهم ما لا يشرفهم، ولكن الله يعلم أنهم كانوا كسالى مهملين إلى حد فيه الكفاية
وعندما استيقظت في ذلك النهار قالت لزوجها إنه لابد لهما من بيع هذه المزرعة التي تقع وسط الأحراج، وأن يستبدلا بها أخرى توفر لهما معاشهما دون كبير مشقة ولكنه

لم يرغب في الاستماع إلى شيء من هذا. وذلك ما أغضبها إذ الحق كلن دون شك في جانبها
وفجأة تبينت أن ذلك ما كانت تخشاه دائماً منذ أيام صباها. وكذلك كانت تخشى وقوع
هذا الأمر. ولما كانت هذه الأفكار المحزنة هي رفيقتها الوحيدة في تسيارها، فقد نسيت بتاتاً اتباع علائم الطريق أو تتبع الأثر، حتى أصبحت لا تعرف المكان الذي وجدت
به، ورأت أمامها شجرة من البلوط خيل إليها أن لها بها سابق معرفة، ولكن شجرة البلوط تلك كانت في أعماق الغابة، ولا يمكن أن تكون قد قطعت في تجوالها كل هذه المسافة. وأنصتت إلى أصوات البقر أو صوت نداء راعيها. ولكنها لم تسمع إلا سقسقة العصافير
وجلست على صخرة ووضعت يدها فوق عينيها. ولكن ذلك لم يفدها شيئاً، إذ أن قلبها كان ينبض بشدة، وانتابتها أفكار شاردة أفزعتها. فقد سمعت من قبل عن أناس ذاقوا
الأمرين في هذه الغابة، وضلوا الطريق فيها أياماً وأسابيع، وقد وجد أحدهم ميتاً
ولم تطق القروية صبراً على الجلوس هادئة حتى تتبين معالم الطريق، فقامت لساعتها تضرب في الغابة من جديد دون أن تفكر بعد هذا في البحث عن الأبقار بل أتجه تفكيرها إلى البحث عن الطريق المؤدية إلى دارها
وبعد أن سارت طويلاً دون أن تدرك أين هي، انبثق النور فجأة وتفتقت أمامها الأشياء
وتجلت، إذ أخذت الغابة نهايتها، وبينت قبالتها (دواراً) فخماً لأحد الريفيين
وما كادت تلمحه حتى وقفت مبهوتة. إذ هي تعرف عن يقين أنه لا يوجد في هذه المنطقة دوار آخر غير الذي تملكه. وما رأته ألان لن يكون إلا سراباً وصورة كاذبة.
هذا أسوأ شيء رأته، فقد سحر عفريت الجبل أعينها. ولم تبحث عن دوار الجن ولم تجسر على النظر إليه، ولكن أعينها امتدت دون أرادتها إلى ذلك البناء الذي لم تر قط أبدع منه. لقد كانت الدار حقاً قديمة ولكنها مدعمة متينة. وكانت المخازن والأهراء عديدة فسيحة إلى حد أنها تكفي قرية بأملها
قالت لنفسها: (أنه مع ذلك لا شيء هنالك يخالف ما عندي، اللهم إلا أن هذا أجمل وأعظم أضعافاً مضاعفة. نعم، إن عفريت الجبل لا يهمه الثمن. وقد يخيل إلي أن هذه الدار مشيدة من أشجار البلوط. إذا لم أكن قد سحرت وكانت عيناي تتبينان الأشياء على حقيقتها، فلن يبقى من كل هذه العظمة غير كومة من النمل)
ثم رجعت ثانية إلى الغابة، وكانت تتسلق هضاباً صعبة المرتقى وتنزل غيرها وعرة المنحدر، ومع ذلك لم تجد طريقاً، أو علامة الأميال، أو كوخاً ينشر فيه الخشب، حتى ولا منحدر ماء يصح أن يكون نجماً تهتدي به في طريقها. وكانت تسير وكأنها في قاع بحر خضم اخضر لونه. قالت في نفسها: (هنا وجب علي المسير حتى تعمني موجة خضراء وتطويني ضمنها)
وفيما هي سائرة إذا بها قد وصلت إلى طرف الغابة مرة أخرى. ورأت ثانية نفس الدار الفخمة
وهنالك تلك الدار. وعلى نوافذها ستائر بيضاء، ويتقدمها بضع أشجار من التفاح منبثقة. وكانت مدهونة بدهان أحمر جعلها تتألق في الزينة، حتى لكأنها مشتعلة وسط البقعة الخضراء كحشرة السعادة في ليلة صيف على طريق أخضر يفصل حقلين
وكانت في هذه المرة قريبة منها لدرجة مكنتها من رؤية كل شيء فيها. وكانت آلات الحرث والزرع والعربات موضوعة في مخازنها، كما كانت الأخشاب مصفوفة صفاً. وكانت العربات تسير دون التواء بين الحقول. وكانت الخيول القصيرة الجميلة القوية البناء الممتلئة كالتي تتمناها، ترعى في المراعي التي تأثرت بالصقيع
وكلما أنعمت النظر في كل شيء فيها أثار ذلك إعجابها، وقالت في نفسها: (أي، لو أن هذا الدوار الريفي لي، للذ لي المقام فيه؛ نعم إني أراه منعزلاً بعض العزلة غير أنه جميل للغاية، ومن أمامه البحيرة ومن خلفه الجبل)
وقالت في نفسها (ذلك الرجل الذي يسير الآن بين مباني ذلك الدوار الريفي ليخرج الخيل، لاشك أنه صاحب المزرعة، ولم أر في يوم من من أيام حياتي رجلاً سمهرياً قوياً مثله)
ولكن فرحها الأعظم كان بقطيع البقر الذي خرج تواً من الغابة ووقف عند طرفها
وقالت في نفسها: (هذه الأبقار مسحورة، لا يشك في ذلك كل من يراها. ضرع طويل

وحوالب متوازية. وجميعها ذات لون أحمر كالجمر، أن حلب مثل هذه الأبقار لهو الفرح بعينه. . . . كم لتراً من الألبان تدر هذه الأبقار يا ترى؟)
وشعرت بأن ذلك الأغراء يتزايد عندها ويدفعها إلى التقدم نحو البقر المسحور لتحلبه، ولترى ذلك الدوار الريف الفخم، الذي نسق كل شيء فيه أحسن تنسيق. وتشككت في ضعف طبيعتها. وأخيراً تقدمت نحو الدوار المسحور
ولما وصلت إلى حيث وجدت البقر مستلقياً على الأرض استقبلها بخوار من الفرح. ووقفت لتراه، فتقدمت قائدة البقر ووضعت خيشومها في يدها كأنها اعتادت أن تجد شيئاً من لذيذ الطعام في هذه اليد
فأدركت أن هذه الأبقار لا يمكن أن تكون إلا أبقارها. لقد ميزتها من جديد وهي تعرف اسم كل منها
ولكن كيف يتفق هذا وذاك؟ كيف يصح لأبقارها أن تنام عند طرف الدوار الريفي المسحور؟
وفي نفس اللحظة انفتح باب الدار. وخرجت منه بنت صغيرة ذات شعر ذهبي مسترسل، وكانت مرتدية جلباباً أزرق مفوفاً حافية القدمين. هذه كانت ابنتها. ففتحت باب الحاجز. وأخذت الطفلة بين ذراعيها وضمتها إلى صدرها، وقالت لها: (إنك طبعاً ابنتي، ولكن لم أنت هنا؟)
وقالت الطفلة: (إنني طبعاً هنا حيث يجب أن أكون.)
ووقفت القروية حيرى لا تعي شيئاً. وفي تلك الأثناء بدأت الطفلة التي لا زالت بين ذراعيها تمسح بيدها شعر أمها وتصففه. وبدأت ترفع قناع الرأس الذي أنحدر إلى العنق. ورأت أن أمها ليست كما كانت عليه من تألق وانشراح. ولكن العقدة انحلت وأصبح قناع الرأس في يديها
وقالت الأم (انتظري قليلاً، أديري هذا الرباط على وجهه الآخر قبل أن تعقديه ثانية.)
وظنت أنها بهذه الوسيلة قضت على كل الخيالات التي انتابتها، كما كانت هذه وسيلتها من قبل. وفجأت رأت الضالة أين هي
فهي في دوارها الذي تملكه. هنا حيث ولدت وشبت، ولكن الشيطان قد مسها قبلاً ' لى حد لم تعرف معه دوراها
ووقفت والطفلة على ذراعيها ترمي بنظرها إلى ما حولها، لا، إن هذا الدوار الريفي جميل وعظيم جداً إذا ما نظر إليه المرء باعتباره أجنبياً عنه. الآن عرفت أن لا مثيل له في تلك المنطقة، وكانت تريد تركه. إن كل ما عداه أصبح بغيضاً لها!
وارتأت أن لابد من الذهاب إلى زوجها، وأن تحدثه بكل ما جرى، ولم تقبل ابنتها مفارقتها،
وكانت كأن الزوج والطفلة قد التقيا بها بعد فراق طويل
وقال الزوج: (على الأقل ليس هذا السحر الذي مسك بالسحر البغيض. وقد يستفيد الغير فائدة محققة لو أنه وقع لهم مثل هذه الحوادث. أنظري الآن، إنك لم تدركي من قبل ما في دارك هذه. عليك أولاً أن تجوبي العالم وتضلي الطريق مرات عدة حتى تنظري بمثل هذه العين وتدركي قيم الأشياء على حقيقتها
فقالت القروية: (نعم، الحق معك، ومن الحسن أيضاً ألا يضل المرء كثيراً لدرجة يتعسر عليه معها الاهتداء إلى داره.)
عربها عن الألمانية:
ا. ا. ي.
من روائع الشرق والغرب
الوحدة
'
لشاعر الحب والجمال لامرتين
استسلم لامرتين بعد فجيعته في حبيبته (جواليا) إلى الهم، وأستأنس بالوحدة، واستكان للعبرة، وخلا إلى الحزن في خلوات (ميلي) ومن هناك بعث إلى صديقه (فريو) بهذه القصيدة في 24 أغسطس سنة 1818 وهي:
جلست محزون القلب، مستطار اللب،
على قلة الجبل، وتحت ظُلة السنديانة

العتيقة، أشيع شمسي النهار وهي تغرب،
وأسرح بصري في وجوه السهل وهي تتغير
فهنا النهر صخاب الموج، جياش
الزبد، ينساب في جوف الوادي، ثم يضل
في ظلام البعد! وهنا البحيرة راكدة
السطح، راقدة الماء، تتراءى في جوانبها
نجوم الليل!
والطفل لا يزال يلقي على رءوس
الجبال الشجراء ومضا من شعاعه، وملك
الليل قد أخذ يصعد إلى عرش السماء في
محفته الندية، فأشرقت جوانب الأرض،
وازدهرت حواشي الأفق
وناقوس الكنيسة الغوطى قد أخذ
يقرع الهواء برنينه الديني، فكف الفلاح
عن العمل، ووقف السائر عن المسير،
واختلطت هذه الأرانين المقدسة بما بقي
من ضوضاء النهار وصخبه!
ولكن نفسي كانت من كل هذا
خلية، فما تبعث فيها هذه المناظر الجليلة،
ولا تلك الصور الجميلة، نشوة ولا بهجة!
لقد كنت أتأمل الأرض وكأنها ظل
منتقل أو خيال طائف!
إن شمس الأحياء لا تدفئ الموتى!
فكنت أنقل عيني من الربى إلى
الجبال، ومن الجنوب إلى الشمال، ومن
ظلمة الغسق إلى حمرة الشفق، وأنفض
السهل والوعر، والمأهول والقفر، عسى
أن أجد لنفسي سعادة في مكان، أو أتوسم
لقلبي راحة في إنسان، فلا أعود بطائل!
وما تصنع لي هذه الوديان والأكواخ
والقصور، ما دمت لا أجد لجمالها في عيني
روعة، ولا لسحرها في قلبي فتنة؟؟
أيها الأنهار والأحجار والغابات
والخلوات العزيزة علي!! إن غيبة مخلوق
واحد من ربوعكن جعل عامركن خرابا،
ورد أنسكن وحشة!!
سواء علي أتطلع الشمس أم تغرب،
وتصحو السماء أم تغيم، ويظلم الليل أم
ينير الصبح، فليس لي بغية في اليوم ولا
رجية في الغد
وحينما أرسل عيني تتبعان الشمس في
مدارها الرحب القصي، لا أبصر في كل
مكان غير الفراغ والخلو! لا حاجة لي إلى من
تظله السماء، ولا رغبة فيما تنيره الشمس!
ولكن من وراء هذا الفلك الدائر
وهذه الشمس الساطعة أمكنة أخرى
تسطع فيها الشمس الحقيقية! فلو أتيح
لنفسي أن تخلص من قفصها لرأت في تلك
السموات حبيبها الذي طالما بكت عليه،

وحنت إليه!
هنالك انتشى من رحيق الغبطة،
وأظفر بالأمل والمحبة، وأنعم بما تاقت إليه
نفسي من مُتَع لا تمر على سمع ولا تدور بخلد
ما أعجزني أن أطير إليك وأنا مثقل
بقيود المادة، خاضع لجاذبية الأرض!!
وليت شعري لماذا قضى الله أن أبقي إلى
الآن في أرض المنفى وما تربطني بها رابطة،
ولا تصلني بأهلها صلة!!
إذا ما ذوت الأوراق في المرج،
وأسقطها قر الخريف في الوادي، هبت
عليها الشمال فذهبت بها أباديد! وأنا بهذه
الأوراق الذابلة أشبه! فاحمليني أيتها الريح
كما حملتها، وانثريني في وجوه الفضاء كما
نثرتها، فما بعد الصباح إلا المساء، وما بعد
اليأس والوحدة إلا الفناء!

الزيات

من الأدب الهندي

للشاعر الهندي خسرو الدهلوي

ارتفع العُقاب من الصخر إلى اللوح، ينفض للصيد جناحه ويصيح، واعجب ببسطه جناحه وقال: وجه الأرض اليوم تحت جناحي الطوال، أين في العالم ندي في هذا الفضاء؟ ما النسر وما السيُمرْغُ والعنقاء؟ هاأنذا أطير في الأوج وينفذ بصري الحديد، إلى الشعرة في قاع البحر البعيد، ولا تتحرك ذبابة على اليبس إلا بصرت باضطراب جناحها. وتمادى به العُجب ولم يخش القضاء، فانظر ماذا فعل به فلك السماء: صوب إليه قوساً من الكمين، فأنفذت فيه سهم القضاء المتين، أصاب السهم القاتل جناح العُقاب، فهو من الأوج إلى التراب، وقع على الأرض يضطرب، اضطراب السمكة وينتحب، ثم أدار عينه ذات اليمين وذات الشمال، فبلغ منه التعجب وقال: أني لقطعة من الخشب والحديد، هذه الحدةُ والسرعة والطيران البعيد؟ فلما أنعم النظر في سهم العذاب، رأى عليه ريش عقاب، فقال: من نبكي ولمن نشكو آلامنا، ومن أنفسنا هذا الذي أصابنا؟

وله أيضاً

طلبت أذني اسمك في كل مكان، ونحرت عيني وجهك في كل ناحية، ضربت برأسيكريح الصبا في كل باب وجدار، إذ ذهب وردي الضاحك وبقيت رائحته

الشاعر الهندي بيدل

إنما يأسرنا إحسان المنزهين عن الأغراض، فان شئت أن تصطادنا فانثر حبك بعيداً من الشباك

من الأدب الفارسي

للشيخ سعدي الشيرازي

الملك حارس الرعبة وإن تكن له الدولة والصولة، فليس القطيع من أجل الراعي، ولكن الراعي لخدمة القطيع

وله أيضاً

يا طائر السحر تعلم العشق من الفراشة. قد احترقت وماتت ولم يُحس لها صوت. هؤلاء المدعون لا خبر عندهم في طلبه، أما الذين عرفوا الخبر، فلم يعرف لهم أثر

لمولانا جلال الدين الرومي

كان رجل يُسر إلى داره كل حين أن لا تسقطي قبل أن تنذريني. فانقضت الدار ليلة عليه بغته. فقال: كَثُر ما أوصيتك، وشد ما حذرتك! ألم أقل لك أنذريني قبل أن تنقضي لأفر عنك بعيالي! ما أخبرتني أيتها الدار الغادرة! فأين حق الصحبة الطويلة؟ لقد سقطت وأصبتنا بشر المصائب!

أجابت الدار مفصحة: كم كم أنذرتك ليلاً ونهاراً! كنت كلما فسحت من الصدوع فما، أن قد نفدت طاقتي وجاء الوقت فخذ حِذرك، دعاك الحرص إلى أن تسد فمي بالطين،

فلم تدع لي صدعاً يبين، كلما فتحت فما في جدار، أخرسته علي بدار، فلم تدعني أنيس، فماذا أقول أيها المهندس؟
للفخر الرازي
ما حرَم قلبي العلم ساعة، ولم يبق سر إلا كسفت قناعه، فكرت اثنتين وسبعين سنة نهاراً وليلاً، ثم علمت أني ما علمت شيئاً
لابن سينا
تداولت مشكلات العالم بالحل، من تحت التراب إلى أوج زَحل، ولم تأسرني القيود والحيل، فحللت كل عقدة إلا الأجل!
عبد الوهاب عزام
من هنا ومن هناك
الشعر الغنائي عند العرب وعند الايسلنديين
نشر الدكتور ج. أيستروب المستشرق الكبير بحثاً ممتعاً في الموازنة بين الأدب العربي قبل الإسلام وبين الأدب الأيسلندي في جاهليته، أي قبل الغزوات الشمالية. ولخص الدكتور نتيجة هذا البحث في مقال نشره في مجلة (جاتس دانسك مجزين الدانمركية) وهاك خلاصة رأيه:
يرى الدكتور أن هناك مشابهة قوية بين الأدبين: في الإلهام والعواطف وطرق الأداء. ومن الواضح أنه لم يقع اختلاط بين الشعبين في تلك العهود، إلا أن الدكتور يعزو ذلك التشابه إلى الأحوال الجغرافية التي فرضتها الطبيعة على الشعبين، وإلى الحياة الاجتماعية المماثلة التي نشأت عن تلك الأحوال: فايسلندا كانت عزلة عن العالم بالمحيط الأطلسي، وبلاد العرب كانت كذلك معزولة بالبحار والصحاري، ومن ثم كان الشعبان يحييان حياة محصورة، ويعيشان عيشة قبلية مستقلة، كل فرد فيها مستقل في حياته الاقتصادية عن الآخر
والطبيعة في كلا البلدين وعرة قاحلة تجعل جهاد العيش شاقاً مرهقاً؛ وأشد المشابهات وأعجبها بين الأدبين يرجعها الدكتور إلى الفخر والزهو اللذين يتميز بهما أفراد الشعبين، ويرى أن هذا الاعتداد بالنفس أثر من آثار الانعزال والاستقلال؛ وانعدام الحوادث الاجتماعية الكبيرةمن بيئتهم جعل الأعمال الفردية الضئيلة في نظر أصحابها أساسية جليلة
والهجاء عند قدماء الأيسلنديين والعرب فاحش مقذع، ولكنه شكل ثانوي لأدب شخصي بطبعه أخص صفاته أنه شخصي لأنه صدر عن قوم شخصيين انطووا على أنفسهم واستمدوا من عواطفهم. والشعر الغنائي على عكس الشعر القصصي يعبر عن آلام النفس وسرورها، وهذا الألم وذلك السرور لهما أثر كبير في تلك الحياة الأولية الساذجة. وبين هذا النوع من الأشعار التي نجد أكثرها مؤثراً واقلها عظيماً فروق جوهرية
وإذا كان العرب والأيسلنديون قد انصرفوا جميعاً عن الحياة اليومية الواقعية، وكانت لغتاهما تنمان على الصناعة اللفظية والأناقة الأرستقراطية، فان من خصائص العرب أنهم وجههوا همهم إلى الصور البيانية، ومن خصائص الأيسلنديين أنهم لا يعنون إلا بالنعمة
الموسيقية
بين المسرح والسينما
كتب الأستاذ لويس جوفيه في مجلة (لموا) عن الصراع القائم بين المسرح والسينما قال:
تنبأ بعضهم منذ طويل بموت المسرح، ولكن لينور ماند في روايته الأخيرة (شفق المسرح) قد أرسل في الناس نداء مؤثراً دعا فيه إلى إحياء الفن التمثيلي. ونحن كذلك جماعة صحت عزيمتهم على ألا يدعو أنفسهم فريسة لذلك الجبار كنج كنج - وهو السينما
وهذا الموسم التمثيلي قد جاء حجة لنا على ذلك. فأنا لم نشهد موسماً مثله قد فتح بمثل هذه القطع الرائعة، ولا قطعاً كهذه القطع استمر تمثيلها مدة طويلة. لا أريد أن أقدم أرقاماً مخافة أن أخطيء، ولكن أحداً من الناس لا يستطيع أن يمادي في نجاح (كما تحب) و (مس با) و (العهد الجديد) و (أمل) وروايات أخرى لا تقل عنها

إن هناك غير هذا الجمهور الضخم الذي يذهب إلى السينما، ولا يذهب إلى غيرها، جمهوراً يحب المسرح. وهو جمهور محصور من غير شك، ولكنه ارهف ذوقاً، وأصفى قلباً إلى المظاهرات الفنية مهما تكن. ولماذا نعارض المسرح بالسينما وكل منهما فن قائم بذاته؟ فللسينما طرق للتعبير والبيان غير محدودة، وهو في اعتباري طريقة ناجعة لتبسيط الأمور إلى أذهان الجمهور.

أما طرق التعبير في المسرح فضيقة قليلة، ولكنك ترى رجالاً أحياء، وذلك ما لا تستطيع السينما أن تعوضك عنه. فالإخراج وحده هو الشيء المتماثل في السينما والمسرح، وفن إدارة الممثلين فيهما واحد، ولكن النظام الآلي أضيف إلى ذلك في الاستديو، وأصبح شديد الخطورة والأهمية حتى صار الميكيانيكي هو المخرج.

قدم إلى المسرح روايات جيدة يأتك الفوز من تلقاء نفسه. لقد سئم الجمهور هذه الحكايات الصغيرة الداعرة التي ظلت أثناء زمن طويل موضوعاً لروايات المسرح. لإن هذه القصص المبتذلة الكالحة أصبحت لا تهم أحداً، ولا تزيد في الميزانية فرنكاً واحداً إن شباب اليوم الجديد العملي يريد شيئاً آخر، فما هو ذلك الشيء. هو شيء يسبغ لهم الحياة اليومية، ويهون عليهم متاعبها، ويخفف عنهم مصاعبها. والمسرح لمن يحبونه هو النسيان والسلوان والترفيه من عناء الأعمال العادية. نحن ظماء إلى العجائب والروائع. نتمنى أن يوحي المسرح إلينا الأحلام، ويفجر لنا ينابيع جديدة للشعر. نريد من المسرح أن

يكون مثابة للعجائب والسحر لا صورة سمجة للحياة اليومية

احملوا إلى مديري المسارح الروايات الجميلة، فقد مضى الزمن الذي كانوا يعتذرون فيه بضيق الوقت عن قراءة المخطوطات. . . لم يعد منها شيء. والشبان قد انصرفوا إلى القصة وأحجموا عن الرواية، كأن هؤلاء الشبان الذين نتكئ عليهم ونركن إليهم ونعتقد أن مساعدتهم ضرورية للمسرح، يخشون أن يتقدموا إليه

فليتقدم المخلصون للمسرح في هذه الساعة التي نشبت المعركة بينه وبين السينما فيضمنون فوزه ويؤمنون نجاحه بالإقبال عليه والكتابة له

الشعر والعصور الأولى

نشرت (المصور) التي تصدر في فينا دراية ممتعة في مؤرخ الأدب وناقده الألماني والترمشج جاء فيها عن الشعر باعتباره إرثاً للتقاليد ما يأتي:

الفن هو تقاليد ورثناها منذ عهد لا يدخل في حدود الذاكرة، إذ لا شيء في الوجود) يعرض أمامنا إلا وهو يعود بأصله إلى تلك الصور والنقوش التي رسمها ونقشها إنسان أفريقيا الوحشي صوراً لأجداده وصيده، ومن ثم اتخذها آلهة يؤدي إليها فريضة العبادة وبرغم ما بين الماضي والحاضر من التباين البعيد، فان من المستحسن البحث في حقيقة ارتقاء الفنان بقدر ما نعنى تتبع الخطوات الأولى التي مرت على الإنسان في حداثته. والأمر كذلك في الشاعر، إذ هو صورة للعالم تعبر عنه في عصر ما، وتلك صفة هامة تسبق أهميتها الاصطلاحات التي يستعملها ليخرج في إطارها تلك الصورة وعلى قاعدة هذه الحقيقة الهامة، سهلت اليوم دراسة تاريخ الأدب والفن. فالخالق الذي يرتبط بعملية الخلق ويفيد العالم على أساس هذه العملية يختلف عن حضري مثقف بأعماله العقلية التي يقدمها إلينا. إذ لا نستطيع أن نتفهمها حتى نعود به إلى ماضيه الذي لا يزال مستقراً في قرارته

هذا وقد رسم لنا فرويد ذلك الجسر الذي يصلنا بذلك العالم المشبع بتلك التقاليد والفكر، وهذا الجسر هو الأحلام الخيال موحى الشاعر

وما من شعر رصين إلا ان له صلة بذلك العالم الأول، صلة بذلك الخيال البعيد المغمور بالأحلام

والشعر لا يثير إعجابنا ودهشتنا إلا لأنه مبعث الفكر عميقة، لم يأت بعد إدراك حقيقة طبيعتها. وعودة الشعر إلى ذلك العالم المغمور هي السبب في أن الشاعر يُرى بين أهل وطنه غريباً، كما أن موقفه يختلف عن موقف رجل يمتهن حرفة التجارة، كذلك ليس في وسعه أن يختلط بأهل عصره ويسايرهم في أفكارهم، لأن ذلك يعد حياداً عن طريقه الذي يجب أن يسلكه بين أناس يحيطون به ولا يعرفون قدره حتى يبلغ رسالته

البريد الأدبي

كتاب عن لوتر

صدر أخيراً في فرنسا كتاب عن مارتن لوتر زعيم ألمانيا الروحي، وقد صدرت عن لوتر كتب عديدة بمختلف اللغات، ولكن هذا الكتاب الأخير يمتاز بطرافة تصويره للرجل الذي صدع من وحدة الكنيسة الرومانية واستطاع بثورته عليها أن ينشئ إلى جانبها مذهباً نصرانياً جديداً هو (البروتستانتية) الذي تتبعه عدة من الأمم العظيمة مثل ألمانيا وإنكلترا ومعظم الشعب الأمريكي. وهو من وضع العلامة المؤرخ فرنز فونك برنتانو عضو المجمع العلمي الفرنسي. وفونك برنتانو مؤرخ وافر البراعة والقوة، وافر الطرافة قبل كل شيء، وهو اليوم في نحو الثمانين من عمره ولكنه ما زال دائب البحث والإنتاج، وكتبه وبحوثه تثير دائماً في الدوائر العلمية كثيراً من الاهتمام والتقدير. وله في بعض الشخصيات والمسائل التاريخية نظريات جديدة؛ مثال ذلك أنه في كتابه عن (لوكريزيا بورجيا) ابنة البابا اسكندر السادس يذهب في شأنها إلى رأي جديد، ويصور هذه المرأة التي صورتها التواريخ والقصص، عاهراً من أشنع وأخطر نوع، سيدة عفيفة وزوجا أمينة مخلصة، وقديسة محسنة، ويدعم رأيه بالوثائق والوقائع التاريخية؛ ومن رأيه أيضاً أن لويس الخامس عشر ملك فرنسا الفاجر المتهتك، قد ظلمه التاريخ، وأنه لم يكن كما صور من إغراق في التبذل والغواية، وأن سجن الباستيل لم يكن دائماً كما تصوره التواريخ معتقلاً مروعاً تخمد فيه الرغبات والأنفاس، ولكنه في أحيان كثيرة كان يغدو من الداخل قصراً أنيقاً تقام فيه المآدب والحفلات الشائقة، بل وتهب فيه ريح الغرام والحب؛ وهكذا

أما لوتر فمن هو وما هو؟ هو نوع من البركان أو اللهب تنفست عنه ألمانيا في القرن السادس عشر، وهو ليس بقس فقط يحاول ثورة على الكنيسة، ولكنه رجل عظيم يضطرم بالمثل الإنسانية العامة؛ ومتصوف لا تضيره العزلة، ولكنه لا يرى الكمال في إخضاع النفس والشهوات؛ وهو من الوجهة الاجتماعية (محافظ)، وقد بذه من الوجهة الأخلاقية أحبار مثل البابا اسكندر بورجيا، فلم يخرج على الأخلاق والحشمة خروجهم، وما هو الزواج وشرب النبيذ؟ وقد أثارت نزعة (الأحياء) كل مسألة في كل مكان، ولكن لوتر لم يثر سوى مسألة واحدة هي (تنظيم الجمهورية النصرانية) ثم هو يمثل في ثورته روح الوطنية الألمانية الصميمة، فهو يبث الرعب والروع من حوله، ولكن من ورائه، بعيداً عن الفكرة الدينية، شعوب ألمانيا كلها؛ أحباراً وأمراء وشعباً

ومن هو لوتر من الوجهة الشخصية؟ هو رجل قوي البنية جاف الملماح، شاعر متواضع، وخطيب مفوه، ومجادل قوي الحجة، ومتصوف مكتئب، وموسيقي، وشجاع حين تجب الشجاعة، وديع ذلول إذا خلا بنفسه، مضطرم الذهن، يفيض رأسه دائماً بالتصورات المروعة؛ عدو الطبقات الرفيعة، دون أن يعرف كيف أو أني يسير أما الثورة على رومة فليس من المحقق انه كان يرمي إلى الانشقاق عليها، ولعله كان يؤمل منها الإذعان والتسليم؛ ولعله كان يعتبر نفسه مصلحاً فقط للكنيسة، وهو ما يخلق بقس ذكي، وهناك ريب في أنه كان يعمل لانهيار هذا الصرح الشامخ الذي شادته الكنيسة خلال القرون، وأقامته فوق التوازن بين قوتين: زعامة الكنيسة الروحية، وسلطة أوربا الدنيوية. وأن أوربا في القرن العشرين، أوربا المضطربة، لا تستطيع إدراكاً لتلك الوسائل التي لجأ إليها هذا القس البارع - زعيم ألمانيا وزعيم الفردية - في تحقيق هذا الانقلاب العظيم

هذا هو ملخص الصور المختلفة التي يقدمها العلامة فونك برنتانو عن بطل ألمانيا القومي وبطل البروتستانتية في كتابه الجديد

البحث عن أصل الإنسان

ما زال البحث عن أصَل الأجناس البشرية من أهم المسائل التي يعني بها العلم الحديث؛ وفي كل عام توفد البعوث العلمية المختلفة إلى الأقطار المجهولة لتجري فيها ما تستطيع من التحقيقات والمباحث التي تلقي الضياء على أصل الإنسان والأجناس البشرية، وقد أعدت أخيراً في فرنسا بعثة جديدة لمعالجة هذه المباحث في مجاهل أفريقية؛ وذلك تحت رعاية وزارة المعارف الفرنسية، ومعهد علم الأجناس، ومؤسسة روكفلر العلمية، وانتخب لرآسة البعثة علامة ومكتشف شاب هو المسيو مارسل جريول الذي برهن على مقدرة خاصة في القيام بمثل هذه المباحث. وقد قاد المسبو جريول قبل ذلك بعثة في قلب أفريقية قطعت ما بين دكار عاصمة السنغال

في الغرب وجيبوتي على البحر الأحمر في أقصى الشرق، ما بين سنتي 1931، 1933؛ وقام قبلها أيضاً برحلة علمية في الحبشة، ونشر عنها كتاباً كان له وقع عظيم عنوانه (حملة المشاعل للإنسان). والبعثة الجديدة مكونة من تسعة أعضاء، منهم مصور سينمائي وثلاث سيدات، وتنوي البعثة أن تبدأ بالسيارات من غرب أفريقية متجهة نحو الشرق بطريق بلاد الدوجون والهابيس ومرتفعات بانديا جرا ومنحنى نهر النيجر؛ وهي أنحاء اخترقها جريول من قبل ووضع عن خواصها وأحوال سكانها بحوثاً قيمة. وكان أهم ما لفت الأنظار ما كتب عن هؤلاء السكان السود من الحقائق الغريبة؛ وهي أنهم يعيشون في كهوف من الصخر رتبت مخادع صغيرة وكل مجموعة من الربى تكون قرية خاصة؛ وهم يعيشون في جو من التقديس يفيض بذكر الآلهة والخرافات الغريبة، ويعنون بصنع الأقنعة المقدسة والوشم المقدس؛ ولهم رسوم دينية مدهشة؛ والسحر ذائع بينم، وتكثر بينهم الرموز الخفية؛ وعلى الجملة فهم أكثر الشعوب تمثيلاً للإنسان الأول وعصر ما قبل التاريخ.

وستعني البعثة باستيفاء هذه البحوث والحقائق ويعنى السيدات المرافقات للبعثة بدرس أحوال النساء ونظام الأسرة في هذه الأنحاء

أزمة الفنون

كان للأزمة الاقتصادية أثرها في المسرح الفرنسي؛ فأغلق كثير من المسارح ودور اللهو المعروفة، وخفضت مرتبات مشاهير الممثلين والفنانين، وظهر هذا الأثر قوياً في مسرح الحكومة الرسمي (الكوميدي فرانسيز) أشهر مسارح فرنسا، وعجز دخله عن أن يفي بنفقاته، وأحدثت هذه الحالة في نظام المسرح العظيم اضطراباً لم يسبق أن عاناه؛ واهتمت وزارة المعارف الفرنسية بالأمر وأخذته بين يديها؛ وتباحث وفد من أقطاب الكوميدي فرانسيز مع وزير المعارف في الحلول الممكنة، وطلب أن ينظر بالأخص في معاشات أعضاء المسرح المحالين على المعاش لأن كثيراً منهم غدا في حالة يرثى لها. وكان من الحلول المقترحة لمعالجة الأزمة أن تقوم فرقة الكوميدي فرانسيز برحلات في الخارج، في إيطاليا وأمريكا الجنوبية وغيرها، وفي القاهرة الآن فريق من مثلي هذا المسرح الشهير يعملون في دار الأوبرا الملكية

شتيفان جروسمان

من الأبناء فينا أن الكاتب النقادة شتيفان جروسمان قد توفي في سن الحادية والستين، وكان جروسمان كاتباً وصحفياً كبيراً، ولد بمدينة فينا، ونشأ بها؛ وظهر في الصحافة بكتاباته النقدية القوية، وعني جروسمان بالمسرح وشئونه عناية خاصة، وكان له رأي في المسرح ينادي به ويعمل له، وهو أن يكون المسرح شعبياً محضاً، ينشأ للشعب ولثقافة الشعب؛ وقد ذاعت فكرته مدى حين في مدينة الفنون والمسارح (فينا) وغدت حركة حقيقية، ولكنها لم تفض إلى نتائج عملية. وكان جروسمان يرسل صيحاته النقدية والإصلاحية على صفحات في الصحف النمسوية الكبرى مثل (النوية فرايه يريسيه) و (التاجبلاط) وغيرهما، ومنذ أعوام غادر جروسمان فينا إلى برلين، واشتغل هنالك بالصحافة والشئون المسرحية أيضاً. ثم عاد إلى فينا بعد ردح من الزمن، وفيها توفي منذ أسبوعين

في جامعة السوربون

توفي العلامة المؤرخ رايمون جيو أستاذ التاريخ بجامعة السوربون في السابعة والخمسين من عمره. وكان مولده بباريس سنة 1877، وتخرج من مدرسة المعلمين العليا (النورمال) ونال الأستاذية في التاريخ. وتولى التدريس زمناً قبل أن يجلس على (الكرسي). ولما توفي المسيو أميل بورجوا الذي كان يشغل كرسي التاريخ في كلية الآداب ومدرسة العلوم السياسية، عين مكانه فيه الأستاذ جيو. وللعلامة المتوفى كتب ورسائل كثيرة في موضوعات تاريخية مختلفة ولاسيما مسائل أوربا الحديثة

الكتب

كتاب تتمة اليتيمة للثعالبي

نشره وقدم له الأديب عباس إقبال

مررت بباريس قبل سبع سنين، فزرت الأديب العلامة محمد بن عبد الوهاب القزويني لأفيد من علمه الغزير، لقيت عنده الشاب الأديب عباس اقبال، وكنت قرأت في كتاب

للعلامة القزويني أن الثعالبي أكمل اليتيمة في كتاب سماه تتمة اليتيمة، وأن نسخة منه في مكتبة باريس؛ فتكلمنا يومئذ عن الكتاب، وعزمت أن أشير على لجنة التأليف والترجمة بطبعه. ثم ضرب الزمان ضرباته حتى ذهبت إلى طهران هذا العام فإذا صديقنا الأديب عباس إقبال قد طبع التتمة في جزءين صغيرين طبعاً متقناً وجاء يهديها الي، فسررت كل السرور بطبع هذا الكتاب القيم، وأثنيتعلى جهد الأديب إقبال وهمته وإني لراج أن يذيع الكتاب بين الأدباء ليكمل به نقص اليتيمة

وفيما يلي ترجمة المقدمة الفارسية التي كتبها الأديب النابغة عباس إقبال لهذا الكتاب:

الأمام أبو منصور عبد الملك الثعالبي النيسابوري (350 - 429هـ9) أديب من أدباء إيران النابغين، أمضى معظم عمره، أواخر القرن الرابع الهجري وأوائل الخامس، في تأليف كتب كثيرة في فنون شتى من الأدب واللغة والتاريخ وكتب مؤلفاته كلها باللغة العربية اتباعاً لسنة ذلك العصر، إذ راجت سوق هذه اللغة واستأثرت بالعلوم واتسعت وعمت. ونحمد الله على أن أكثر مؤلفات الثعالبي، وبعضها رسائل صغيرة ذات أوراق قليلة، لم تذهب بها الحادثات

من كتب الثعالبي كتاب يعد من أجل كتبه، واليه يرجع أكثر صيته، وهو كتاب يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر. كتب الثعالبي نسخته الأولى سنة 384، ونسخته الآخرة بين سنتي 402 و407. وأودعه من آثار الشعراء المعاصرين والذين تقدموا زمانه بوقت قصير، وضمنه بعض أخبارهم

قسم الثعالبي كتاب اليتيمة أربعة أقسام: القسم الأول في محاسن أهل الشام والجزيرة، القسم الثاني في محاسن أشعار أهل العراق، القسم الثالث في محاسن أهل الري وهمذان واصفهان والجبل وما يتصل بها، القسم الرابع في محاسن أهل خراسان

والكتاب لا يعني كثيراً بأخبار الشعراء الذين ترجم لهم الثعالبي في الأقسام الأربعة كما يعني بذكر أشعارهم، ونبذ من منثورهم أحياناً، ولكنه مع هذا يشتمل على كثير من الفوائد التاريخية المهمة، ولاسيما في القسمين الثالث والرابع اللذين يتضمنان تراجم الشعراء الذين عاشوا في إيران وما يتصل بها. وهو من هذه الجهة يحوي فوائد قيمة، وبعض الشعراء الذين ترجم لهم الثعالبي في هذين القسمين ممن عرفوا في عُرف ذلك العصر بالشعراء ذوي اللسانين: أي الذين نظموا بالعربية والفارسية. وقد أثبت في مواضع ترجمة بعض شعرهم الفارسي، وفي موضع أو اثنين نماذج من شعرهم الفارسي أيضاً. وهذه النبذ على قلتها ذات خطر يجعل اليتيمة من المنابع المهمة، لتحقيق تاريخ إيران وتاريخ الأدب الفارسي في القرنين الرابع والخامس

وقد ذيل اليتيمة كتاب آخرون، ساق كل منهم الكلام من حيث انتهى الثعالبي إلى زمانه هو. وأكثر هذه الذيول انتشاراً كتاب دمية القصر لعلي بن الحسن الباخرزي تلميذ الثعالبي. ويُعتبر ثاني اليتيمة في القيمة والفوائد التي ذكرنا.

ويؤسفنا أن الدمية على مكانتها الأدبية لم تطبع حتى اليوم: والطبعة الناقصة المشوهة التي طبعت في حلب قبل بضع سنين لا تعدل فلساً. وأول من ذيل اليتيمة فأكمل نقصها بذكر الشعراء الذين نسبهم المؤلف أو لم يظفر بشيء من أشعارهم وأخبارهم حين التأليف، أو نبَهُوا بعد انتشار الكتاب، هو الثعالبي مؤلف اليتيمة نفسه. ويؤخذ من مقدمة النسخة النهائية للمجلد الأول من اليتيمة أنه جد منذ نشر النسخة الأولى سنة 384 في تكميل اليتيمة والزيادة عليها. حتى تسنى له أن ينشر النسخة الأخيرة بين سنتي 402 و 407، وأهداها إلى الأمير أبي العباس مأمون أبن مأمون خوارزمشاه المتوفى سنة 407 في سن 32

وبعد ما يقرب من عشرين سنة من انتشار النسخة الأخيرة من اليتيمة ألف الثعالبي كما يقول هو في مقدمة النسخة التي بأيدينا كتاباً لطيفاً على نسق اليتيمة وترتيبها سماه تتمة اليتيمة، أراد أن يرفع نقص اليتيمة ويجبر كسرها وان يكون ضميمة للكتاب الأصلي تبلغ به اليتيمة الحد الذي بلغه جهد الثعالبي.

ومعنى هذا أن كتاب اليتيمة ناقص بدون هذه التتمة؛ وقد عرف ذلك الثعالبي نفسه. ذلكم بأن الذيل الحاضر، يحتوي على أسماء كثير من الشعراء الذين أغفلتهم اليتيمة أو نبه شأنهم

بعد انتشارها. فضلاً عن أنه يعين على إكمال تراجم عدة من الشعراء الفضلاء الذين ذكروا في اليتيمة. فالتتمة ذات خطر كبير ولاسيما قسمها الرابع الذي يتضمن أخبار أركان الدولة وأعيان الحضرة أي المنشئين والمستوفين والأدباء والشعراء الذين التفوا حول الملوك الغزنويين. هذا القسم يعد أعظم أقسام هذا الكتاب من حيث إنارَتُه مواضع مظلمة من تاريخ إيران وآدابها، واشتماله على أنباء كثير من الوزراء والمنشئين والشعراء والأدباء النابهين

ألف الثعالبي كتاب التتمة في أيام السلطان مسعود الغزنوي ما بين سنتي 424 و 428 وثَبَتُ هذا أن سنة 424 وردت مرتين في هذا الكتاب (ص114 و 145)، وأن شمس الكفاة خواجه أبا القاسم أحمد بن حسن الميمندي وزير السلطان مسعود كان قد توفي حين تأليف الكتاب، ووفاته كانت سنة 424. (ارجع إلى صفحة 146 و155) فلا يمكن أن يكون تاريخ التتمة مقدماً على هذه السنة، والمؤلف مات سنة 429؛ فتأليف الكتاب محصور بين سنتي 424 و429. وتتمة اليتيمة، كاليتيمة، اشتهرت منذ عهد المؤلف وصارت مرجع الأدباء. وقد اطلع عليها ياقوت الحموي ونقل عنها فقرات في كتابه معجم الأدباء. وحاجي خليفة يقول تحت عنوان اليتيمة إن للكتاب ذيلاً ألفه الثعالبي، ويذر اسمه صريحاً، ولكن هذا الاسم (تتمة اليتيمة) حرف إلى (يتيمة اليتيمة) في كشف الظنون المطبوع. وابن خلكان كذلك اطلع على هذا الكتاب وذكره في ترجمة أبي محمد عبد المحسن بن محمد الصوري (ج1 ص428 - 429 من طبعة باريس)، وقد نقل قطعة من الشعر نسبها الثعالبي في التتمة إلى أبي الفرج بن أبي حصين القاضي الحلبي (راجع ص68 من هذا المتن) ثم اعترض على مؤلف التتمة وقال هذه الأبيات لعبد المحسن الصوري، رأيتها في ديوانه، وأخطأ الثعالبي في نسبة أشياء إلى غير أهلها فيحتمل أن تكون هذه الفقرة منها

قلنا إن كتاب التتمة كان في يد ياقوت الحموي. وقد نقل منه ياقوت فقرات بعينها، ومن ذلك نبذة في ترجمة أبي العلاء المعري (ج1 ص172)، وأبي علي بن مسكويه (ج 2 ص9) والسيد المرتضى (ج5 ص175)، وأبي جعفر محمد بن إسحاق البجاثي (ج6 ص412) وغير ذلك. وليس خروجاً عن الموضوع أن أنبه هنا إلى مسالة: ينقل ياقوت في معجم الأدباء (ج1 ص172) أبياتاً رواها الثعالبي لأبي العلاء المعري، ثم يقول: قال وأنشدني لنفسه: (لست أدري ولا المنجم يدري) إلى أخر القطعة

وهذه القطعة، كما يتبين من هذا الكتاب (ص10) لأبي القاسم المحسن بن عمرو بن المعلى الذي يذكره الثعالبي في التتمة بعد أبي العلاء المعري بلا فاصل لا لأبي العلاء المعري. وراوي القطعة المذكورة أبو يعلى البصري لا أبو المحسن الدلفي المصيصي الذي يروي عنه الثعالبي ويتبعه ياقوت، أخبار المعري وأشعاره. فيفهم من هذا أن نسخة التتمة التي كانت في يد ياقوت فيها نقص، أسقط كاتبها بعد أخبار أبي العلاء المعري اسم أبي القاسم المحسن بن عمرو بن المعلى. وقد رأيت هذه الإشارة جديرة بالذكر هنا لتصحيح هذا الموضع من معجم الأدباء المطبوع

النسخة بأيدينا صورة من نسخة مخطوطة وحيدة في مكتبة باريس مكتوبة بخط نسخ جميل. وهي ملحقة بأجزاء التتمة كلها في جلد واحد يحوي 591 ورقة أي 1182 صفحة ورقمه (3308 وتشمل أقسام التتمة الأربعة من صفحة 498 إلى 591. وقد طبعناها في جزءين لأسباب نذكرها بعد

نسخة باريس مؤرخة 17 صفر سنة 989؛ وإذا استثنينا أغلاطا كتابية وسقطاً قليلاً، فالنسخة في نهاية الجودة والصحة

ثم ختم كلامة بقوله: والمرجو أن تقع هذه الخدمة الصغيرة موقع القبول عند الأدباء وينظروا إليها بعين الرضا والأنصاف

عبد الوهاب عزام.

العدد 82 - بتاريخ: 28 - 01 - 1935

الثقافة المذبذبة

كتب إلي صديقي الأستاذ م. ف. ا. يقول:

أنا معلم كما تعلم؛ ولكني معلم لا أعتقد فيما يعتقده فيه الكثرة من المعلمين سواي!) وذلك أنني لا أومن كثيراً بأوربا، ولا بما جاء من أوربا، إلا أن يكون ذلك شيئاً نجنيه من نفع مادي أو كشف علمي. أما فيما يتعلق بالآراء والنفس، وفيما يتصل بالعقل والقلب،

فأنا شرقي ولا أحب إلا الشرق، ومصري ولا أحب إلا مصر. ولقد كان مما يؤلمني دائماً أن أرى الابن الناشئ قد عاد من إنجلترا أو من فرنسا، فلا يكاد يظهر للأعين إلا في هيئة نابية يزعم أنها دليل المدنية التي اكتسبها من الغرب، فيمتدح فرنسا أو إنجلترا وما فيها من مناهج ومناظر ومعاهد، وهو في الحق إنما يريد أن يقول إنه أثر من آثار تلك المدنية السامية التي يمتدحها، فهو يصل إلى الزهو من طريق غير مباشر، ولا يقصد إلا إلى الفخر والإعجاب بالنفس. دع ذلك، فلو كان هذا وحده هو الأثر لهان الأمر، أما أن يتعدى الأمر ما وراء ذلك فهو البلية والنكبة، ذلك بأن هؤلاء الأبناء قد وصلوا بتلك النعرة الجوفاء إلى أن يخدعوا بعض الشيوخ، أو بعض الجُوف من الشيوخ، بأنهم دعاة العلم والمدنية، فألقيت إليهم مقاليد الأمور في بعض النواحي، وكان من سوء حظ مصر أن بلغ هذا الخداع حده في مسائل التعليم. وإليك مثلاً من ذلك: إن برامج التعليم الأدبية - وهي أداة الثقافة والقومية - لا نرى فيها أثراً للشخصية المصرية: فواضع برامج التاريخ هو بعض الجُوف ممن تعلموا تاريخ أوربا، فنقلوا من هذا ما ظنوه خيراً وجعلوه منهاجاً لتلاميذ المدارس الثانوية المصرية، فكانت النتيجة أنك إذا في برامج القسم الأدبي في التاريخ خيل إليك أنك تنظر في بعض برامج فرنسا أو إنجلترا. أو خليطاً من هذا وذاك، وأما مصر فلا شأن لها في ذلك وا حسرتاه! وكذلك الحال في سائر المواد الأدبية، حتى لقد حسبت وأنا معلم أننا إنما نسعى لأعداد أبنائنا ليكونوا أجانب في عواطفهم وعقليتهم وثقافتهم

أليس هذا من العبث يا سيدي الأستاذ؟ أرجو أن تتناول هذا المعنى بقلمك القوي، ولك (من أبناء البلاد الثناء الجميل

وصديقي الأستاذ بخبرته الطويلة وعقيدته النبيلة أولى بمعالجة هذا الموضوع، ولكنه اختار له هذا الأسلوب الصحافي لتتناوله الأقلام المختلفة بالبحث والجدل، فيكون الرأي أجمع، والحكم أقطع، والبلاغ أعم

شكاة الأستاذ شكاة الشرق الإسلامي كله، فانه منذ غفا غفوته الثقيلة الطويلة فانقطع عن صدر الزمن لم يرد أن يبصر بعينه، ويسير على قدميه، ويعلم أن له تاريخاً ممتازاً، ووجوداً مستقلاً، وطابعاً خاصاً، ووحدة كاملة، ومدنية أصيلة؛ وإنما ذهب يتحسس من طريقه على نداء الصائد، ويتوكأ في سيره على عمود الشَّرَك، ويطمس على شخصه بالفناء في الغرب، كأن أهله لم يكفهم أن يكونوا عبيداً لأوربا بالجسم عن قوةٍ وقهر، فرضوا أن يكونوا عبيداً لها بالروح عن رضا وطواعية، فهم يتكلمون بلغتها، ويتأدبون بأدبها، ويتسمون بسمتها، ويتخلقون بخلقها، ويطبعون أذواقهم بالكره على غرار ذوقها، ويغالطون طباعهم في أصل الفطرة فيزعمون لعقولهم أن النفس المتمدنة لا يلائمها إلا ما يلائم الأوربي من أدبه ورقصه وغنائه وموسيقاه، كأن المسافة بين الشرق والغرب لا تحدث فرقاً، ولا تغير خَلْقاً، ولا تبدل طبيعة!

إن الاستعباد المادي دهمنا أمس على يد الآباء، والاستعباد الأدبي يدهمنا اليوم على يد الأبناء، وشتان بين استعباد كان عن إجبر وجهل، واستعباد يكون عن اختيار وعلم؛ والعبودية العقلية أشد خطراً وأسوأ أثراً من العبودية الجسمية، لأن هذه لا تعدى الأجسام والحطام والعَرض، ومثلها مثل الجسم يرجى شفاؤه متى عرف داؤه؛ أما تلك فحكمها حكم العقل إذا ذهب، والروح إذا زهق، وهل يرجى لمخبول شفاء، أو ينتظر لمقتول رجعة؟

إن أكثر نَشْئِناَ الذين وردوا مناهل الثقافة العالية في أوربا إنما ذهبوا إليها وشخصياتهم هلاهل من تمزق الأسرة وتفكك البيئة وفساد التعليم وضعف التربية، فكونوا عقولهم على منطق الاعجاب، وميولهم على هوى التبعية، ثم عادوا وفي حوافظهم تاريخ غير تاريخ مصر، وعلى ألسنتهم أدب غير أدب العرب، وفوق غرائزهم خلق غير خلق الشرق، فتصرفوا تصرف المقلد، وتعسفوا تعسف الحائر، فلم يستطيعوا أن يكونوا غربيين لعصيان الطبيعة، وإباء الفطرة، ولم يريدوا أن يعودوا شرقيين لقوة الفتنة وضعف الإرادة

إن العلم لا وطن له، لأنه يتعلق باستخدام القوى واستثمار المادة في العالم كله لخير الناس كله؛ أما الآداب والفنون والأذواق والأخلاق والتقاليد فهي قِوَام الأمم، ولا تنزل أمة عنها ألا إذا نزلت عن ذاتها وزلت عن مستواها؛ فخضوع الثقافة القومية للإنجليزية

في مصر وفلسطين، وللفرنسية في سورية والمغرب، وللأمريكية في العراق والمهجر، بلاء على هذه
الأمم لا تسلم عليه وحدة، ولا يستقل معه وطن
أما عبث هذه الثقافة المذبذبة بالبرامج فَعِلته أن التعليم عندنا ليست له سياسة مرسومة ولا غاية معينة. قل لواضع البرنامج مهما يكن: أريد أن أصل بالتعليم إلى هذه الغاية، تجد الغاية نفسها هي التي تعيِّن السبيل وتحدد الوجهة؛ أما إذا كانت سياستنا في التعليم أن ننشئ المدارس ونهيئ المدرسين ونقيم الامتحانات، فان جماع الأمر في المعارف إذن أن تكون حقولاً للتجارب فيها لكل سياسة أثر، وكل ثقافة ثمر، ولكل أمة غير أمتها نصيب
أحمد حسن الزيات
بنتُه الصغيرة
للأستاذ مصطفى صادق الرافعي
فرغ أبو يحيى مالكُ بنُ دينار، زاهدُ البَصْرة وعالمها، من كتابة المُصْحَف؛ وكان يكتبُ المصاحف للناس ويعيشُ مما يأخذ من أجرة كتابته، تعففاً أن يَطْعَم إلا كَسْب يده، ثم خرج داره وَجْهُهُ المسجدُ، فأتاه فصلى بالناس صلاة العصر، وجلسوا ينتظرونه، واستوى هو قائماً، فركع وسجد ما شاء الله حتى قضى نافِلَتَه، ثم انْفَتَلَ من صلاته فقام إلى اسطوانته التي يستند إليها، وتحلق الناسُ حوله جموعاً خلْف جموعٍ، يذهب فيهم البصر مرة هنا ومرة هنا من كثرتهم وامتدادهم، حتى تغطى بهم المسجدُ على رحبة. ومد الإمام عينه فيهم ثم أطرق إطراقةً طويلة، والناسُ كأن عليهم الطير مَما سكنوا لهيبته، ومما عَجبوا لخشوعه؛ ثم رفع الشيخ رأسه وقد تندت عيناه، فما نظر إليهم حتى كأنما اطلع على أرواحهم فجرٌ رطْبٌ من سِحْر ذلك الندى
وبَدَرَ شابٌ حدَثٌ فسأله: ما بكاءُ الشيخ؟ وكان قريباً يجلس من الإمام في سَمْتِ بصره، فتأمله الشيخ طويلاً يقلب فيه الطرْفَ كالمتعجب، ولبث لا يجيبه كأنما عَقِدَ لسانهُ أو أخذته عن نفسه حالٌ، فما يثبتُ شيئاً مما يرى
وازداد الناس عجباً؛ فما جَرّبوا على الشيخ من قبلها حصراً ولا عِيا، ولا قطعه سؤالٌ قَط، ولا تخلف قطُّ عن جواب؛ وقالوا إن له لشأنا وما بُدٌ أن تكون من وراء حُبْسَته شعابٌ في نفسه تهدر بسيلها وتعتلج، فما أسرع ما يلتقي السيلُ، فيجتمعُ، فيصوبُ إلى مجراه، فيتقاذف
وتبسم الإمام وقال: أما إني قد ذكرتُ ذكرى فبكيتُ لها، ورأيتُ رؤيا فتبسمتُ لها؛ أما الذكرى، فهل تعلمون أن هذا المسجد الذي يفهق بهذا الحشْد العظيم، وتقع فيه الدينية المدينة لكل أذَانٍ وتطير - هل تعلمون أنه خلا قط من الناس وقد وَجَبَت الفريضة؟
قالوا: ما نَعْلمه. قال: فقد كان ذلك لعشرين سنةً خَلَتْ، في مَوْت الحسن، فقد مات عَشيةَ الخميس، وأصبحنا يوم الجمعة ففرغنا من أمره، وحملناه بعد صلاة الجمعة، فتبع أهلُ البصرة كلهم جنازته واشتغلوا به، فلم تُقم صلاةُ العصر بهذا المسجد، وما تُركتْ منذ كان الإسلام إلا يومئذ؛ ومثل الحسن لا تموت ساعةُ موته من عُمرْ من شَهدَها، فذلك يومٌ عجيب قد لف
نهاره البصرة كلها في كفن أبيض، فما بقيتْ في نفس رجلٍ ولا امرأة شهوةٌ إلى الدنيا، وفرغ كل إنسان من باطلة كما يفرغ من أيقن أنْ ليس بينه وبين قبره إلا ساعة؛ وظهر لهم الموتُ في حقيقة جديدة بالغة الروع لا يراها الأبناءُ في موت آبائهم وامهاتهم، ولا الآباء والأمهاتُ في موت من ولدوا، ولا المحب في موت حبيبه، ولا الحميم في موت حميمه؛ فإن الجميع فقدوا الواحد الذي ليس غيره في الجميع؛ وكما يموت العزيزُ على أهل بيت فيكون الموتُ واحداً وتتعدد فيهم معانيه، كذلك كان موتُ الحسن موتاً بعَدَدِ أهل البصرة!
ذاك يومٌ اشتد فيه الموتُ وكبر، وانكمشت فيه الحياةُ وصغرتْ، وتحاقرت الدنيا عند أهلها، حتى رجعت بمقدار هذه الحفرة التي يُلقى فيها الملوكُ والصعاليكُ، والأخلاطُ بين هؤلاء وأولئك، لا يَصغر عنها الصغير، ولا يكبرُ عنها الكبير؛ لا بل دون ذلك حتى رجعت الدنيا على قدر جيفة حيوانٍ بالعراء، تنكشف للأبصار عن شوهاء نجسةٍ قد ارمت لا تُطاقُ على النظر ولا الشم ولا على اللمس؛ وما تتفجر إلا عن آفة، وما تتفجر إلا لهوام الأرض

تلك هي الذكرى، وأما الرؤيا فقد طالعتني نفسي من وجه هذا الفتى فأبصرتني حين كنتُ مثله يافعاً مترعرعاً داخلاً في عصر شبابي، فكأنما انتبهتْ عيني من هذه النفس على فاتكٍ خبيثٍ كان في جناياته في أغلاله في سجنه، ومات طويلاً ثم بُعث!

إني مخبركم عني بما لم تحيطوا به، فارْعُوه أسماعكم، واحضروه إفهامكم، واستجمعوا له، فانه كان غيب شيخكم، وأنا محدثكم به كيلا ييأسَ الضعيف ولا يقنط يائس، فإن رحمة الله قريبٌ من المحسنين

لقد كنتُ في صدر أيامي شرطياً، وكنت في آنفة الحداثة من قبلها أتفتى وأنشطر، وكنت قوياً معصوباً في مثل جبلة الجبل من غلظ وشدة، وكنت قاسياً كأن في أضلاعي جندلةً لا قلباً، فلا أتذمم ولا أتأثم؛ وكنتُ مُدمِناً على الخمر، لأنها روحانية من عجز أن تكون فيه روحانية، وكأنها إلهيةٌ يزورها الشيطانُ - لعنهُ الله - فيخلق بها للنفس ما تحب مما تكره، ويُثيبها ثواب ساعةٍ ليست في الزمن بل في خيال شاربها. وكأن جَهْلَ العقلِ نَفْسَه في بعض ساعات الحياة هو - في علم الشيطان وتعليمه - معرفةُ العقل نفسه في الحياة!

فبينا أنا ذاتَ يوم أجول في السوق، والناسُ يفورون في بيعهم وشرائهم، وأنا أرقب السارق وأُعد للجاني، وأتهيأ للنزاع - إذ رأيت اثنين يتلاحيان وقد لبّب أحدهما الآخر؛ فأخذت إليهما، فسمعت المظلوم يقول للظالم: لقد سلبتني فرح بنياتي، فسيدعون الله عليك فلا تصيب من بعدها خيراً، فأني ما خرجت إلا اتباعاً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من خرج إلى سوق من أسواق المسلمين، فاشترى شيئاً، فحمله إلى بيته، فخص به الإناث دون الذكور - نظر الله إليه.)

قال الشيخ: وكنت عزباً لا زوجة لي، ولكن الآدمية انتبهت في، وطمعت في دعوة صالحة من البنيات المسكينات، إذا أنا فرحتهن، ودخلتني لهن رقة شديدة، فأخذت للرجل من غريمة حتى رضي، وأضعفت له من ذات يدي لأزيد في فرح بناته، وقلت له وهو ينصرف: عهدٌ يحاسبك الله عليه ويستوفيه لي منك، أن تجعل بناتك يدعون لي إذا رأيت فرحهن بما تحمل إليهم، وقل لهن: مالك بن دينار

وبت ليلتي أتقلب مفكراً في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعانيه الكثيرة، وحثه على إكرام البنات، وأن من أكرم بناته كَرُمَ على الله، وحرصه أن ينشأن كريمات فرحات؛ وحدثني هذا الحديثُ ليلتي تلك إلى الصبح؛ وفكرت حينئذ في الزواج، وعلمت أن الناس لا يزوجونني من طيباتهم ما دمت من الخبيثين؛ فلما أصبحت غدوت إلى سوق الجواري، فاشتريتُ جارية نفيسة، ووقعت مني أحسن موقع، وولدت لي بنتاً فشغفتُ بها، وظهرتْ لي فيها الإنسانيةُ الكبيرة التي ليست في، فرأيت بعدما ما بيني وبين صورتي الأولى؛ ورأيتها سماوية لا تملك شيئاً وتملك أباها وأمها، وليس لها من الدنيا إلا شبع بطنها وما أيسره، ثم لها بعد ذلك سرور نفسها كاملاً تشب عليه أكثر مما تشب على الرضاع؛ فعلمت من ذلك أن الذي تكتنفه رحمة الله، يملك بها دنيا نفسه، فما عليه بعد ذلك أن تفوته دنيا غيره، وأن الذي يجد طهارة قلبه يجد سرور قلبه، وتكون نفسه دائماً جديدة على الدنيا؛ وأن الذي يحيا بالثقة تحييه الثقة؛ والذي لا يبالي الهم لا يبالي الهم به؛ وأن زينة الدنيا ومتاعها وغرورها وما تجلب من الهم - كل ذلك من صغر العقل في الأيمان حين يكبر العقل في العلم!

كانت البنيةُ بدء حياةٍ في بيتي وبدء حياة في نفسي، فلما دبت على الأرض ازددت لها حباً، وألفتني وألفتها، فرزقت روحي منها أطهر صداقة في صديق، تتجدد للقلب كل يوم، بل كل ساعة، ولا تكون إلا لمحض سرور القلب دون مطامعه، فتمده بالحياة نفسها لا بأشياء الحياة، فلا تزيد الأشياء في المحبة ولا تقص منها، على خلاف ما يكون في الأصدقاء

بعضهم من بعض واختلافهم على المضرة والمنفعة

قال الشيخ: وجهدتُ أن أترك الخمر، فلم يأت لي ولم أستطعه؛ إذ كنت منهمكاً على شربها، ولكن حب ابنتي وضع في الخمر إثمها الذي وضعته فيها الشريعة، فكرهتها كرهاً شديداً، وأصبحت كالمكره عليها، ولم تعد فيها نشوتها ولا ريها؛ وكانت الصغيرةُ في تمزيق أخيلتها أبرعَ من الشيطان في حَوْك هذه الأخيلة، وكأنما جرتني يدها جراً حتى أبعدتني عن المنزلة الخمرية التي كان الشيطان وضعني فيها، فانتقت من

الاستهتار والمكابرة وعدم المبالاة، إلى الندم والتحوب والتأثم، وكنت من بعدها كلما وضعت المسكرِ وهمت به، دبت ابنتي إلى مجلسي؛ فأنظر إليها وتنتشر عليها نفسي من رقة ورحمة، فأرقب ما تصنع، فتجيء فتجاذبني الكأس حتى تُهْرِقها على ثوبي، وأراني لا أغضب، إذ كان هذا يسرها ويضحكها، فأسر لها وأضحك

ودام هذا مني ومنها، فأصبحت في المنزلة بين المنزلتين؛ أشرب مرةً واترك مراراً، وجعلتُ أستقيم على ذلك، إذ كانت النشوة بابنتي أكبر من النشوة بالزجاجة، وإذ كنتُ كلما رجعتُ إلى نفسي وتدبرت أمري، أستعيذ بالله أن تَعقِل ابنتي معنى الخمر يوماً فأكون قد نجستُ أيامها، ثم أتقدم إلى الله وعليَّ ذنوبها فوق ذنوبي، ويترحم الناسُ على آبائهم وتلعنني إذ لم أكن لها كالآباء، فأكون قد وُجدتُ في الدنيا مرةً واحدة وهلكتُ مرتين

ومضيتُ على ذلك وأنا أصْلُح بها شيئاً فشيئاً وكلما كبرت كبرت فضيلتي، فلما تمَّ لها سنتان ماتت!

قال الراوي: وسكت الشيخ فعَلِقَتْ به الأبصار، ووقفت أنفاسُ الناس على شفاههم، وكأنما ماتت لحظاتٌ من الزمن لذكر موت الطفلة، وخامر المجلسَ مثلُ السكْر بهذه الكأس المُذهلة، ولكن الطفلة دبت من عالم الغيب كما كانت تصنع، وجذبت الكأس واهرقتها، فانتبه الناس وصاحوا: ماتت فكان ماذا. قال الشيخ: فأكمدني الحزن عليها، ووهن جأشي، ولم يكن لي من قوة الروح والإيمان ما أتأسى به، فضاعفَ الجهلُ أحزاني، وجعلَ مصيبتي مصائب. والإيمانُ وحده هو أكبر علوم الحياة، يُبصرُك إن عميتَ في الحادثة، ويهديك إن ضَلِلت عن السكينة، ويجعلك صديق نفسك تكونُ وإياها على المصيبة، لا عدوها تكون المصيبة وإياها عليك؛ وإذا أخرجتِ الليالي من الأحزان والهموم عسكرَ ظلامِها لقتال نفسٍ

أو محاصرتها فما يدفع المالُ ولا تردُّ القوةُ ولا يمنع السلطان، ولا يكون شيء حينئذٍ أضعف من قوة القوي، ولا أضيعَ من حيلةِ المحتال، ولا أفقرَ من غِنى الغنيَّ، ولا أجهلَ من علم العالم، ويبقى الجهدُ والحيلةُ والقوة والعلمُ والغِنى والسلطانُ - للإيمان وحده، فهو يكسر الحادث ويقلل من شأنه، ويؤيد النفس ويضاعفُ من قوتها، ويَرُدُّ قَدرَ الله إلى حكمةِ الله، فلا يلبثُ ما جاء أن يرجع، وتعود النفس من الرضى بالقَدرَ والإيمان به؛ كأنما تشهد ما يقع أمامها لا ما يقع فيها

قال الشيخ: ورجعتُ بجهلي إلى شرٍ مما كنتُ فيه، وكانت أحزاني أفراحَ الشيطان؛ وأراد - أخزاه الله - أن يَفْتَن في أساليب فرحه، فلما كانت ليلةُ النصف من شعبان، وكانت ليلة جمعة، وكانت كأول نور الفجر من أنوار رمضان - سوّل لي الشيطان أن أسكر سكْرةً ما مثلُها؛ فبتُّ كالميت مما ثملت، وقذفتني أحلامٌ إلى أحلام، ثم رأيت القيامة والحشر، وقد وَلدت القبورُ من فيها، وسيق الناسُ وأنا معهم وليس وراء ما بي من الكرب غاية؛ وسمعت خلفي زفيراً كفحيح الأفعى، فالتفت فإذا بتنينٍ عظيم ما يكون أعظم منه؛ طويلٌ كالنخلة السحوق، أسود أزرق، يُرسل الموتَ من عينيه الحمراوين كالدم، وفي فمه مثلُ الرماح من أنيابه، ولَجوْفهِ حرٌّ شديدٌ لو زِفَر به على الأرض ما نبتتْ في الأرض خضراء، وقد فتح فاه ونفخ جوفه وجاء مسرعاً يريد أن يلتقمني، فمررتُ بين يديه هارباً فزعاً، فإذا أنا بشيخ هرم يكاد يموت ضعفاً، فَعُذْتُ به وقلت أجرني أغثني. فقال: أن ضعيفٌ كما ترى، وما أقدر على هذا الجبار، ولكن مر واسرع، فلعل الله أن يسبب لك أسباباً للنجاة. فوليتُ هارباً وأشرفتُ على النار وهي الهول الأكبر، فرجعتُ اشتد هرباً والتنين على أثري، ولقيتُ ذلك الشيخ مرة أخرى، فاستجرتُ به فبكى من الرحمة لي وقال: أنا ضعيف كما ترى، وما أقدر على هذا الجبار، ولكن اهرب إلى هذا الجبل، فلعل الله يحدث أمراً. فنظرتُ فإذا جبل كالدار العظيمة، له كوى عليها ستور، وهو يَبْرُقُ كشعاع الجوهر؛ فأسرعت إليه والتنين من ورائي، فلما شارفت الجبل فتحت الكوى ورفعت الستور، وأشرفتْ على وجوهُ أطفال كالأقمار، وقرب التنينُ مني، وصرتُ في هواء جوْفه وهو يتضرّم علي، ولم يبق إلا أن يأخذني، فتصايح الأطفال جميعاً: يا فاطمة! يا فاطمة!

قال الشيخ: فإذا ابنتي التي ماتت قد أشرفت عليّ، فلما رأت ما أنا فيه صاحت وبكتْ، ثم

وثبتْ كَرَمْية السهم، فجاءت بين يديّ، ومدت إلي شِمالها فتعلقت بها، ومدت يمينها إلى التنين فولى هارباً. وأجلستْني وأنا كالميت من الخوف والفزع، وقعدَتْ في حجري كما كانت تصنع في الحياة، وضربت بيدها إلى لحيتي وقالت: يا أبت (أَلَمْ يَأْنِ للذينَ آمنوا أن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ؟)

فبكيتُ وقلتُ: يابُنيّة، أخبريني عن هذا التنين الذي أراد هلاكي. قالت ذاك عملُك السوء الخبيث، أنت موتيه حتى بلغ هذاالهول الهائل والأعمال ترجعُ هنا أجساماً كما رأيت.

قلت: فذاك الشيخُ الضعيف الذي استجرْتً به ولم يُجرْني؟

قالت: يا أبتِ، ذاك عملك الصالح، أنت أضعفْتَه فضَعُفَ حتى لم يكن له طاقة أن يغيثَك من عملك السيئ، ولو لم أكن لك هنا، ولو لم تكن أتبعت قولَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن فَرّحَ بناته المسكينات الضعيفات - لما كانت لك هنا شمال تتعلق بها، ويمينٌ تَطْرد عنك

قال الشيخ: وانتبهتُ من نومي فزِعاً ألعن ما أنا فيه، ولا أراني أستقر، كأني طريدةُ عملي السيئ كلما هَرَبتُ منه هَرَبت به؛ وأين المَهْرَبُ من الندم الذي كان نائماً في القلب واستيقظ للقلب؟

وأملتُ في رحمة الله أن أربح من رأس مالٍ خاسر، وقلت في نفسي: إن يوماً باقياً من العمر هو للمؤمن عُمْرٌ ما ينبغي أن يستهان به؛ وصححت النية على التوبة، لأرجع الشباب إلى ذلك الشيخ الضعيف، وأسمنَ عظامه، حتى إذا استجرْتُ به أجارني ولم يقل (أنا ضعيف كما ترى!)

وسألتُ فدُللْتُ على أبي سعيد الحسن بن أبي الحسن البصري، سيدِ البقية من التابعين؛ وقيل لي: أنه جمع كل عِلم وفن إلى الزهد والورع والعبادة، وإن لسانه السحر، وإن شخصه المغناطيس، وإنه ينطق بالحكمة كان في صدره إنجيلاً لم ينَزل، وأن أمه كانت مولاة لأم سَلمَة زوجِ النبي صلى الله عليه وسلم، فكانت ربما غابت أمه في حاجة فيبكي، فترضعه أم سلمةُ تعلله بثديها فيدِرّ عليه، فكانت بينه وبين بَركة النبوة صلة

وعدوتُ إلى المسجد والحسَن في حلْقته يقص ويتكلم، فجلست حيث انتهى بي المجلس، وما كان غيرَ بعيد حتى عَرتني نَفْضةٌ كنفضة الحمى، إذ قرأ الشيخ هذه الآية: (أَلَمْ يَأْنِ للذين

(آمنوا أن تَخْشَعَ قُلُوبُهم لِذكْر الله وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ

فلو لفظتني الأرضُ من بطنها، وانشقّ عني القبرُ بعد الموْت - ما رأيت الدنيا أعجب مما طالعتني في تلك الساعة؛ وأخذ الشيخ يفسرُ الآية، فصنع بي كلامه ما لو بُعث نبيٌّ من أجلي خاصةً لما صَنَع أكثر منه

وكلامُ الحسن غيرُ كلام الناس وغيرُ كلام العلماء؛ فانه يتكلم من قلبه ومن روحه، ومن وجهه ولسانه؛ وناهيكم من رجل خاشعُ متصدعٍ من خشية الله لم يكن يُرَى مْقبلاً إلا وكأنه أقبل من دفن حميم قد أنزله في قبره بيده، ولا يُرى جالساً إلا وكأنه أسيرٌ أمروا بضرب عنقه، وإذا ذُكِرَتْ النار فكأنها لم تخلق إلا له وحده؛ رجلٌ كان في الحياة لتتكلم الحياةُ بلسانه أصدق كلماتها

فصاح صائح: يا أبا يحيى، التفسيرَ التفسير! وصاح المؤذنُ: الله أكبر. فقطع الشيخ وقال: التفسير إن شاء الله في المجلس الآتي

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

الغزو الياباني الاقتصادي لأسواق العالم - 1

للأستاذ محمد عبد الله عنان

يشعر العالم المتمدن اليوم بأن قوة جديدة خطيرة قد نزلت إلى الميدان الصناعي والتجاري، وهذه القوة تندفع إلى الإمام بسرعة مدهشة، وتجرف أمامها كل حاجز وكل مقاومة، وتضطرب لها جميع أسواق العالم شرقية وغربية: تلك هي قوة الغزو التجاري الياباني الذي تهتز أمامه اليوم معظم الأمم الصناعية والتجارية، وترقب تفاقمه في خوف وهلع. ولقد كان هذا الغزو منذ عامين أو ثلاثة شديد الوطأة على بعض الأسواق الكبرى، ولا سيما أسواق الإمبراطورية البريطانية، ولكنه اليوم يغدو مشكلة عالمية. فمن آسيا إلى أفريقية وأوربا وأمريكا الجنوبية يجتاح هذا الغزو المدهش جميع الأسواق

القديمة، ويلقي الذعر في دوائر الصناعة والتجارة العليا، ويثير أينما حل كثيراً من المشكلات الاقتصادية والاجتماعية. ولقد حاولت الدول الصناعية والتجارية الكبرى أن تحد من أخطار هذا الغزو بجميع الوسائل الممكنة، وفي مقدمتها الحماية الجمركية، ولكنها لم توفق حتى اليوم إلى صده بطريقة ناجعة، لأنه يعتمد في قوته واندفاعه على أسس اقتصادية محكمة، ويتفوق بمزاياه المدهشة على كل منافسة ومقاومة، ويتحدى كل إجراء لرده لا يستمد من نفس الأسس الاقتصادية التي يقوم عليها

وقد ظهرت طوالع هذا الغزو الياباني في المشرق بقوة: في الصين والهند وأفغانستان وفارس والبلاد العربية ومصر؛ واجتاح الأسواق القديمة في الحبشة، وفي شمال أفريقية وفي جنوبها؛ ثم اجتاح أسواق أمريكا الجنوبية؛ كل ذلك بسرعة مدهشة لم تترك مجالاً للقيام بأية مقاومة منظمة؛ ولم يكتف بمنافسة الصناعة الأوربية المؤثلة في أسواقها القديمة فيما وراء البحار، ولمنه نفذ إليها في نفس مواطنها ومر معظم الأمم الأوربية ذاتها، وأصبحت البضائع والمنتجات اليابانية تتدفق عليها كالسيل، وتنافس البضائع والمنتجات المحلية منافسة الحياة والموت. ولما كانت قوة الأمم الغربية ورفاهتها وسلطانها السياسي والاقتصادي في أفريقية وآسيا تقوم على صناعتها وتجارتها قبل كل شيء فأنا نستطيع أن نتصور ما يثيره هذا الغزو الياباني الخطر في معظم الأمم والحكومات الأوربية من عوامل الخوف والجزع

ونحن في مصر نشعر منذ حين بآثار هذا الغزو تنمو وتتسع بسرعة، وتبدو واضحة فيما ينهمر على سوقنا المصرية من صنوف البضائع والسلع اليابانية الرخيصة المغرية مع ذلك. وتشمل هذه المنتجات اليابانية معظم الحاجات الشخصية والمنزلية؛ من ثياب وأقمشة وحرائر وأحذية وخردوات وساعات وأدوات وآلات كهربائية وآلات حديدية وقاطعة، وأنواع الآنية، والأدوات الكتابية واللعب وغيرها مما لا يقع تحت حصر؛ وقد ظهر أثر هذه المنافسة في بعض صناعاتنا الفتية مثل صناعة الغزل إذ أخذت الأقمشة اليابانية القطنية والحريرية الرخيصة في منافسة منتجاتنا منافسة قوية، وكذلك صناعة الأحذية فقد أخذت الأحذية اليابانية تتدفق على السوق المصرية بأثمان غير معقولة.

على أن أثر الغزو الياباني لا يقف في مصر عند هذا الحد؛ وإذا كانت مصر لا تتمتع بصناعة واسعة يخشى عليها مباشرة من هذا الغزو، فأنها يجب أن تخشى منه بحق على مستقبل محصولها الرئيسي وهو القطن الذي تستهلكه الصناعة الأجنبية وتحتاج إليه أشد الحاجة؛ ومن الواضح أن مستقبل القطن المصري يتوقف على رخاء الصناعات التي تقوم عليه وتستمد حاجتها منه؛ ولما كان الغزو الصناعي الياباني قد أخذ يهدد صناعة القطن في لانكشير، وهي أعظم عميل للقطن المصري، ويهدد الأسواق التي تعتمد عليها لانكشير في تصريف منتجاتها، فانه يحق لنا في مصر أن نرقب سير هذا الغزو الياباني بمنتهى الاهتمام، وأن نفكر فيما عسى أن يترتب على هذا الصراع الاقتصادي الخطير بين الصناعات الأوربية القديمة وبين اليابان في حياتنا الاقتصادية من الآثار

وسنحاول في هذا المقال عرض الموضوع من الناحية العامة، ودرس العوامل والأسباب التي مكنت اليابان من تنظيم غزوتها الاقتصادية المدهشة، ومن النجاح في مغالبة الصناعات الأوربية الراسخة، على حداثة عهدها بالنهضة الصناعية الحديثة

إن وثبة اليابان الحديثة ترجع إلى فاتحة هذا القرن فقط، أعني إلى انتصارها الباهر في الحرب التي خاضت غمارها مع روسيا سنة 1905؛ فقد كان أول نصر حاسم أحرزته في العصر الحديث دولة أسيوية على دولة أوربية عظمى؛ وكانت أوربا القديمة تعتقد قبل ذلك في مناعتها، وتوقن أن العصر الذي تستطيع فيه دولة شرقية أن تهزم دولة غربية قد انتهى إلى الأبد، فجاء انتصار اليابان على روسيا مبدداً لهذا الحلم؛ وشعرت اليابان بقوتها

ومنعتها، وازدادت ثقة بمستقبلها وحقها في تبوأ مكانتها الحقة بين الدول العظمى؛ ومن ذلك الحين تسير اليابان في ميدان التقدم الحديث بخطى مدهشة، وقد كان هذا التقدم في المبدأ محصوراً في أسيا، أو بعبارة أخرى في الشرق الأقصى؛ ولكن اليابان أخذت منذ نهاية الحرب الكبرى تتجه نحو الغرب بخطى سريعة؛ وكان الصراع بين اليابان والغرب يدور أولاً حول الغزو السياسي والاقتصادي للصين؛ فلما شعرت الأمم الغربية بأن نفوذها الاستعماري القديم في الصين أخذ يهتز ويضطرب أمام التقدم

الياباني أرسلت صيحتها ونذيرها بالخطر الأصفر، وحاولت أن تصبغ المعركة الاستعمارية الاقتصادية بصبغة جنسية؛ ولكن هذه المعركة التي تضطرم حول اقتسام الصين واستعمارها انتهت أخيراً بانتصار اليابان على الدول الغربية؛ واستطاعت اليابان إلى جانب كوريا التي تملكها منذ بعيد، ن تغزو منشوريا وأن تستولي عليها، وبذا أصبحت تملك في الصين إمبراطورية استعمارية شاسعة غنية بمواردها. ولم تقف اليابان عند هذا الحد، بل أعلنت رداً على صيحة الخطر الأصفر، ما يشبه مبدأ مونرو الأمريكي، وهو أنها تعتبر نفسها صاحبة الحق الأول في استعمار الصين، وأنها ستقاوم منذ الآن فصاعداً أية محاولة من جانب الدول الغربية لتوسيع نفوذها السياسي والاستعماري في الصين

ولما حققت اليابان برنامجها الأول في الشرق الأقصى، ضاعفت جهودها في الاتجاه نحو الغرب ومنافسته في ميادينه الصناعية والتجارية، واستطاعت أن تنظم هذا الغزو الاقتصادي الجارف. ونستطيع أن نجمل أهم العوامل التي تعتمد عليها اليابان في تنظيمه في أمرين: الأول وفرة اليد العاملة، والثاني رخص العمل والأجور بنسب مدهشة. وقد نما الشعب الياباني في العصر الأخير نمواً سريعاً، وأضحى يبلغ اليوم خمسة وستين مليوناً في جزائر اليابان وحدها، هذا عدا كوريا وسكانها عشرة ملايين. ويزيد الشعب الياباني في العام مليوناً، وهي نسبة مدهشة، ويرجع احتشاد الشعب الياباني في جزائره على هذا النحو إلى كثرة النسل التي لم تتأثر بنظريات المدنية الحديثة ووسائلها في ضبط النسل، وعدم إقبال اليابانيين على الهجرة، ووضع الأمم الغربية الحواجز في سبيل هجرتهم. وتدل الإحصاءات الأخيرة على أن عدد اليابانيين المهاجرين لا يزيد عددهم على أكثر من سبعمائة ألف في جميع أنحاء العالم. والياباني ميال بالطبيعة إلى البقاء في

وطنه؛ ومما يذكي هذه الرغبة في نفسه نظام الملكية الصغيرة التي تسمّره في أرضه. وقد كان هذا الاحتشاد الهائل في تلك الجزر الصغيرة وتعذر سبل الهجرة من أكبر العوامل في دفع اليابان إلى اعتناق الفكرة الصناعية، والعمل على تحويل اليابان إلى بسيط شاسع من الصناعات الكبيرة التي تستطيع أن تستغرق هذه الملايين العديدة وان تمدها بالقوت. وقد نجحت هذه السياسة نجاحاً عظيما، حتى كان عدد المصانع يزداد في العصر الأخير بمعدل مائة إلى ثلاثمائة في العام الواحد. وكان عدد هذه المصانع سنة 1917 يزيد قليلاً عن ألفين، فوصل في سنة 1929 إلى 59887 مصنعاً! ثم زاد في الأعوام الأخيرة زيادة كبيرة

ومن الغريب أن اليابان استطاعت أن تقوم بهذه المعجزة الصناعية رغم كونها ليست غنية في الموارد والمواد الأولية؛ فهي في الواقع تستورد كثيراً من المواد الأولية من الخارج. ولكن اليابان غنية في بعض المواد الحيوية كالفحم، فهي تملك منه مقادير وافرة، وتصدر منه أحياناً؛ وتملك أيضاً مقادير وافرة من البترول والحديد، ولكنها لا تفي بحاجتها. أما في المواد الأولية الزراعية فاليابان فقيرة جداً، وهي تستورد معظم ما تحتاج إليه من القطن والصوف والجلد وغيرها، على أن هذا النقص لا يمنع صناعتها من التقدم بخطى جبارة؛ فقد استطاعت كما سنفصل بعد أن تأخذ المحل الثالث في الصناعات القطنية بعد إنكلترا والولايات المتحدة رغم كونها تستورد القطن من الخارج

ومن الطبيعي أن يؤدي احتشاد السكان ووفرة الأيدي العاملة إلى رخص الأجور. ومسألة الأجور هذه إحدى معجزات الصناعة اليابانية ونعمها السابغة، وهي معقدة متنوعة النواحي؛ وتنخفض الأجور في اليابان إلى حدود غير معقولة؛ وللعامل الياباني (معيار للمعيشة) في منتهى التواضع، وليست له طلبات خاصة، فهو قنوع جد القناعة لا يطمح إلى أكثر مما يحقق ضرورات العيش، ولا يفكر في شيء من ألوان المتعة والترف التي يطمح إليها العامل الأوربي. وهو صبور لا يحسب في العمل حساباً للقوت، وليس له تشريع عملي يحميه، ولم يعرف بعد شيئاً من تلك النزعة العدائية التي تجعل العمل ورأس المال في الغرب خصمين دائمين، والتي تحفز الكتلة العاملة إلى الجهاد المستمر في سبيل حقوقها المادية والمعنوية. ومن الصعب أن نقدم بياناً رقمياً عن الأجور في اليابان يمثل حقيقة ما يكسبه العامل، لأن الأجور النقدية تدعم أحياناً بأنواع من المعاونات الخاصة، كالتعويض

عن العمل الزائد، والمكافآت، ثم الأجور النوعية كتقديم الطعام أو المسكن أو الثياب. ولكن يستدل من المباحث التي أجراها مكتب العمل الدولي أن متوسط أجرة العامل الياباني تبلغ في اليوم: (1) في الصناعات الفنية 2. 20 ين (11 فرنا - أو نحو 15 قرشاً) (2) وفي المناجم 1. 80 ين (9 فرنكات أو نحو 11 قرشاً) ويبلغ متوسط ما تأخذ المرأة 1. 03 ين (نحو خمسة فرنكات أو سبعة قروش). وهذه النسبة تعتبر مرتفعة بالنسبة لبعض الصناعات الخفيفة مثل صناعة الغزل حيث يبلغ معدل الأجور أقل من ين أو نحو أربعة أو خمسة قروش. وفي كثير من الصناعات لا يزيد مستوى الأجور على مستوى الأجور الزراعية العادية

وفي الصناعات الصغيرة يوجد نظام مشترك في العمل والحياة يشبه نظام الأسرة، ومما تجدر ملاحظته إن كثيراً من أصحاب المصانع في اليابان لم يتأثروا بعد بنظريات الرأسمالية الغربية في استغلال الفرد، وما زالت تسود لديهم الفكرة العائلية القديمة في اعتبار صاحب العمل والعمال الذين معه، أسرة واحدة ترتبط برباط الأخوة والمصلحة المشتركة، وفي كثير من المعامل الصغيرة يتناول العمال طعامهم في المصنع ويقيمون في مساكن يعدها لهم صاحب العمل؛ ويقوم صاحب العمل بقسطه من العمل كباقي العمال، ويتناول طعامه معهم، ويعيش مثلهم في نفس المسكن، ولا يشعر العمال في هذا الجو إلا أنهم مع سيدهم زملاء وأخوة؛ وهذا النظام العائلي يعاون على الإنتاج في ظروف وتكاليف يسيرة لا تمكن منافستها على الإطلاق

ويرتبط بالعمل والأجور مسألة ساعات العمل، وهي من العناصر الهامة في تكاليف الإنتاج. ومن المعروف أن الكتلة العاملة في الأمم الغربية استطاعت أن تصل في تخفيض ساعات العمل وفي تقرير أيام العطلة والإجازات الدورية إلى نتائج مرضية جداً؛ فالأسبوع الصناعي في معظم الدول الغربية لا يتجاوز اليوم 42 ساعة، ولا يتجاوز اليوم الصناعي ست ساعات أو سبعاً، وللعامل يوم عطلة أسبوعي مقرر هو يوم الأحد، وله فوق ذلك حق في إجازة سنوية أو دورية معينة تختلف باختلاف الظروف؛ وهذه الحقوق كلها مقررة بالتشريع؛ أما في اليابان فلا توجد فكرة التحديد في الزمن، وتدل المباحث الأخيرة على أن معدل اليوم الصناعي في معظم الصناعات اليابانية لا يقل عن عشر ساعات، على أنه لا

توجد لذلك حدود أو قيود قانونية إلا فيما يتعلق بالنساء والأحداث، فاليوم العملي لهؤلاء يجب ألا يزيد على إحدى عشرة ساعة، والقانون يقضي بأن يمنحوا راحة مقدارها ساعة إذا زاد يوم العمل على عشر ساعات، ولا توجد في اليابان راحة أسبوعية للعمال كما في أوربا، لأن يوم الأحد هو عطلة نصرانية لا تقرها التقاليد اليابانية؛ ولا تعرف هذه التقاليد من جهة أخرى يوماً معيناً تخصصه للعطلة الأسبوعية، وقد كان في مشروع اتفاق واشنطون، في المادة الخاصة باليابان أن يمنح جميع العمال على اختلاف طوائفهم عطلة أسبوعية قدرها أربع وعشرون ساعة، ولكن اليابان لم تقر هذا الاتفاق. على أن المعامل الكبيرة اعتادت أن تمنح عمالها عطلة مقدارها يومان في الشهر، يوم في منتصف الشهر ويوم في نهايته؛ على أنه لا توجد لذلك كما قدمنا قواعد ثابتة، والعمال اليابانيون أنفسهم ينفرون من فكرة الراحة الدورية خوفاً من أن تنقص أجورهم تبعاً لتقريرها

ومما تقدم نرى أن الصناعة اليابانية تعمل في ظروف مدهشة تستطيع معها غزو كل سوق وسحق كل منافسة، وقد لخص كاتب اقتصادي وثبة اليابان الصناعية في هذه الكلمات: (إن الأجور الصناعية في اليابان سويت بالأجور الزراعية، وغدت ثلث ما كانت عليه سنة 1929؛ وأسبوع العمل ستون ساعة؛ وقد يبلغ طبقاً لبعض الإحصاءات في صناعة القطن مائة وعشرين ساعة، وفي اليابان شعب يزيد في العام مليوناً، والعنصر البشري يعني به أكثر مما يعني بالآلات. . . وتلك في الواقع مدنية صناعية جديدة بين النظم الفنية الأمريكية ورخص العمل الشرقي، فمدير المصنع الياباني يتناول مرتباً قدره (1700 ليرة) (نحو 30 جنيهاً) وهو خمس ما يتناوله زميله الأمريكي. وأثمان المنتجات اليابانية أقل بنحو خمسة وثلاثين في المائة من أثمان منتجات أي سوق أوربية أو أمريكية). وأشار السنيور موسوليني في إحدى خطبه أمام مجلس النقابات الصناعي إلى نهضة اليابان الصناعية بقوله: (هنالك فيما وراء الاطلانطيق تفتحت مشاريع صناعية ورأسمالية هائلة؛ ولكن ثمة في الشرق الأقصى توجد اليابان وهي منذ

أن اتصلت بأوربا في حرب سنة 1905، تتقدم نحو الغرب بخطى شاسعة)
ويجب أن نذكر ما لنشاط اليابان البحري من أثر في تنظيم هذا الغزو، فلليابان
أسطول تجاري ضخم يربطها بأوربا وأمريكا وجميع أنحاء العالم؛ ويعمل هذا الأسطول لحمل
التجارة اليابانية إلى ما وراء البحار في ظروف مشجعة جداً، ويصطبغ عمله بلون
التعاون القومي لأنه يعتبر أداة قوية لنشر التجارة اليابانية تسخر كل قواها ونشاطها لتحقيق هذه الغاية
وسنحاول أن نبحث في فصل آخر ما لهذا الغزو الاقتصادي الياباني من أثر في السوق المصرية وفي الاقتصادي المصري

محمد عبد الله عنان المحامي

التاريخ الإسلامي

للأستاذ علي الطنطاوي

هذه حياة فخمة. . . ليست حياة واحد، ولكنها حياة أمة، أمة حملت مصباح النور،
حين عمّ الكون الظلام، وأرشدت العالم التائه في عُباب الجهل، إلى شاطئ العلم،
وكانت حضارتها المدرسة الثانوية التي خرجت العقل البشري وثقفته، كما خرجته
المدرسة الابتدائية اليونانية من قبلُ وثقفته. . . فكان لها الفضل على كل إنسان!
حياة أبي بكر هي الصفحة الأولى من التاريخ الإسلامي، الذي بهر كل تاريخ وبذّه،
والذي لم تحو تواريخ الأمم مجتمعة بعض ما حوى من الشرف، والمجد والإخلاص.
ذلك لأنه تاريخ الكمال الإنساني على وجه الأرض. . . . تاريخ المعجزة التي ظهرت في
بطن مكة على يد رجل واحد؛ فلم تلبث حتى عمَّت مكة، ثم امتدت حتى شملت
الجزيرة، ثم امتدت حتى بلغت أقصى الأرض. . . فكانت أكبر من الأرض، فامتدت في
الزمان. . . . وستبلى الأرض، ويفني الزمان، والمعجزة باقية:
إِنَّا نَحْنُ نَزَّلنَا الذكْرَ وإِنَّا لَهُ) - (كلُّ مِنْ عَلَيْهاَ فَانٍ، وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاِلِ وَالإِكْرَامِ)
(لَحَافِظُونَ
ذلك لأنه تاريخ الإسلام، الذي بدا سره في هذه الأمة البادية الجاهلة المتفرقة، فجعل
منها أمة لم يكن ولن يكون لها نظير. . . . امتزجت روح الإسلام بأرواح المسلمين
وغلبت عليها، ثم استأصلت منها حب الدنيا، وانتزعت منها الطمع والحسد، والغش
والكذب، وأنشأت من أصحابها قوماً هم خلاصة البشر، وغاية ما يبلغه السمو الإنساني. . .
أنشأت من أصحابها قوماً يغضبون لله، ويرضون لله، ويصمتون لله، وينطقون لله، قد
ماتت في نفوسهم الأهواء، وبادت منها الشهوات، ولم يبق إلا دين يهدي، وعقل
يستهدي قوم كان دليلهم الدين، وقانونهم هدى سيد المرسلين، وشعارهم شعار
المساكين، وعيشهم عيش الزاهدين، ثم كانت فتوحهم فتوح الملوك الجبارين، وكانوا
سادة العالمين؛ لم يمنعهم زهدهم من أن يكونوا أبطال الحروب وسادة الدنيا، ولم
يفتنهم ما نالوا من مجد، وما بلغوا من جاه، عن دينهم وتقواهم
قوم ينصب لهم أميرهم قاضياً، فيلبث سنة لا يختصم إليه اثنان! ولم يكونوا ليختصموا
وبين أيديهم القرآن، وكل واحد منهم يعرف ما يحق له، فلا يطلب أكثر منه، ويعرف ما
يجب عليه فلا يقصر في القيام به، ويحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، ويسعى ليسلم
الناس من لسانه ويده: إذا مرض المسلم عاده المسلمون، وإذا افتقر أعانوه، وإذا
أحسن شكروه، وإذا ظُلِم نصروه، وإذا ظَلَم ردعوه، دينهم نصيحة وأمر بالمعروف
ونهي عن المنكر، ففيم يختصمون؟
أما إنهم لا يختصمون إلا على مكرمة وإحسان، ولقد كان عمر يتعاهد عجوزاً عمياء، في
بعض حواشي المدينة، فكان يجيئها سحراً، فيجد امرأً قد سبقه إليها فبرها وأحسن
اليها، واستسقى لها وأصلح من أمرها، فيعجب منه ويزيد في البكور، فلا يسبقهُ
فرصده مرة من أول الليل، حتى جاء فإذا هو. . . . . أبو بكر الصديق، وهو يومئذ خليفة
أو بكر وعمر يستبقان إلى بر عجوز عمياء، في بعض حواشي المدينة. . . الله أكبرّ
عقمت أم التاريخ أن تلد مثل هذا التاريخ الذي يأتي بسيد الأمة، في ثوب خادم الأمة،
حتى يفتش في الليل عن عجوز عمياء، أو رجل مقعد، أو أسرة محتاجة، أو مظلوم
ضعيف، أو ظالم عاتٍ - ليخدم العجوز، ويحمل المقعد، ويساعد المحتاج، وينصر

المظلوم، ويأخذ على يد الظالم، لا يبتغي على ذلك جزاء ولا شكوراً، لأنه يعمل لله، ولا يرجو الثوب من غير الله. . .

الله أكبرّ ضل قوم زعموا أن الإسلام إنما أنتشر بالسيف، لا والله! إنما انتشر بمثل هذه الأخلاق السماوية، إنما فتح المسلمون ثلاثة أرباع العالم المتمدن، بهذا الإيمان الذي ملأ قلوبهم، وهذا النور الذي اشرق على نفوسهم، وهذه القوة التي عادت بها عليهم عقيدة التوحيد.

علموا أن الله هو الفعال لما يريد، وانه المتصرف في جميع الأكوان، وأن كل شيء بقضاء منه وقدر، وأنهم إن غُيِّب عنهم القدر، وخفي عليهم علمه، فقد أنزل عليهم القرآن، ووضح لهم سبيله فاتبعوه القرآن، ووقفوا عن أمره ونهيه، فكتبوا في سجل القدر من السعداء

والمؤمن الذي يعلم أن الله هو الفرد الصمد، الواحد الأحد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وأنه لا يجير عليه من نبي ولا رسول، ولا يشفع عنده ألا بأذنه، وليس بينه وبين العبد واسطة ولا نسب، ويعلم أن الله ينصر من ينصره، وأنه لا يضع أجر من أحسن

عملاً، لا يسأل إلا الله، ولا يستعين إلا بالله، ولا يبالي بشيء إذا كان مع الله، ولا يطمع في جوار أحد إذا كان جاراً الله، ولا يحفل بالدنيا وما فيها إذا باع نفيه من الله راضياً مختاراً، بأن له الجنة. . . .

كانت هذه العقيدة أصل كل خير ناله المسلمون الأولون، وكان وهنها في النفوس اصل كل شر نال المسلمين المتأخرين الذين أفسدوا عقيدة التوحيد بما شرعوا لأنفسهم من البدع والعقائد، فتفرقوا أيدي سبا، وذلوا في أرضهم، وهوجموا في عقر دارهم، وحفظ المسلمون الأولون على هذه العقيدة صفاءها وجمالها. ففتحوا ما فتحوا، وكان فتحهم أعجوبة التاريخ، يقف أمامها العقل خاشعاً للعظمة والجلال، حائراً للغموض والخفاء.

أمة بدوية على غاية ما تكون عليه الأمم البادية من الخلاف والجهل، لا دين يوحد قبائلها ويهذب من نفوسها، ولا جامعة تجمعها، ولا حكومة تدير أمورها، اللهم إلا حكومة في العراق تخضع لملوك العجم، وحكومة في الشام تطيع ملوك الروم وتلبث على ذلك عصوراً. . . . ثم تنهض نهضة الأسد، تحمل في يمناها نور القرآن، تضيء به للشعوب طريق المجد في الدنيا، والسعادة في الآخرة. وفي يسراها السيف تردُّ به الضالين المعاندين، المصرّين على الضلال، إلى سبيل الحق والهدى

ويبدو فيها سر الإسلام بيّناً جلياً، فإذا هذا التفرق وهذه الجاهلية، أخوة في الإسلام، وتمسك بالفضائل، وإذا هذا الضعف قوة لا تعدلها قوة، وإذا هذه الحمية الجاهلية تواضع لله، ورضا بأحكامه، ونزول عند أوامره ونواهيه، وإذا بدوي من بني وهيب يكون بسر الإسلام - قائداً من أعظم قواد الدنيا - يهدُّ أقوى صرح للظلم، ويدك أكبر بنيان للجور على وجه الأرض، ويغرس في (القادسية) مكان الجبروت الفارسي بذور الحضارة الإسلامية التي نمت وازدهرت حتى أظلت الدنيا

وإذا بدوي قاسٍ غليظ من بني عدي يكون بسر الإسلام عظيماً من عظماء التاريخ، يبرز في العلم والسياسية والبلاغة، ويكون له القدح المعلى، في فنون الفكر، وفنون الحرب، وفنون القول، ويسوس وحده الجزيرة وسورية والعراق ومصر وإفريقية فلا يعرف التاريخ أعدلَ ولا أقوم ولا أفضل منه - حاشا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه في الغار

وإذا تاجر من تجار مكة يكون بسر الإسلام، أعظم العظماء، بعد الأنبياء

هذه أعجوبة التاريخ، وهذا هو الفتح الأعظم!

أجل! إن الفتح الإسلامي لهو الفتح الأعظم، الذي لم يعرف التاريخ فتحاً مثله. وكثيرٌ هم الفاتحون، الذين فتحوا بلاداً واسعة بسيوفهم، وأخضعوها بجندهم، وحكموها بقوتهم وسطوتهم، ولكن ليس فيهم مثل المسلمين، الذي فتحوا البلاد بإيمانهم، وفتحوا القلوب بعد لهم، وفتحوا العقول بعلمهم، فكانوا أصحاب السلطان، وكانوا دعاة الإيمان، وكانوا بُناة المجد والحضارة والعمران

طبقوا في القرن السابع قواعد الحرب الإنسانية - التي علمت بها أوربة في القرن التاسع عشر وسعت إلى تطبيقها في القرن العشرين، فلما لم تفلح وغلبت طباعها

الذئبية على إنسانيتها المصطنعة، اكتفت منها بتسطيرها في كتب الحقوق الدولية واخذ المجددون من الشرقيين. . . . . ببريقها ولمعانها!

لقد فتحنا ثلاثة أرباع العالم المتمدن، ولكنا كنا نحمل العلم والهدى، والعدل والغنى، إلى البلاد التي نفتحها، وكنا لا نعمد إلى الحرب إلا إذا اختار أعداؤنا الحرب، وأبوا أن يلبوا داعي الله - ثم لا نخون ولا نغدر، ولا نغل ولا نمثل، ولا نقتل رسولاً ولا نهدم منزلاً، ولا ننازل عُزلاً، ولا نهيج معتزلاً، ولا نمس عابداً متبتلاً.

ثم إذا صالحنا أعداؤنا، ودخلوا في ذمتنا، حميناهم مما نحمي منه أولادنا وأهلينا، وإذا أسلموا كانوا إخواننا لهم ما لنا وعليهم ما علينا، لا يفرق بين المسلمين عرق ولا لغة، ولا جاه ولا نسب، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى

فأين هذه الفتوح من فتوح الاستعمار التي أثارتها أوربا؟ فتحنا البلاد فتركنا أهلها أحراراً في دينهم ومعابدهم، أحراراً في قضائهم ونظمهم، أحراراً في أموالهم وأولادهم، فملكنا بالعدل قلوب الناس وأسعدناهم بالعلم، وبسطنا عليهم ظلال الأمن، ونشرنا فوقهم لواء الحضارة، حتى لقد صار أهل البلاد يستصرخون المسلمين على حكوماتهم، ويبذلون لهم عونهم على ملوكهم لا بغضاً لملوكهم ولا عداء لأوطانهم، ولكن حباً في العدل، ورغبة في السلام، وشوقاً إلى العلم والحضارة والعمران

فتحنا الحيرة فأهدى أهلها طائعين مختارين هدية إلى أبي بكر فقلبها وعدها من الجزية عدلاً منه وتعففاً، وخشية أن يظلم أهل ذمته، أو أن يكلفهم شططاً، وتفتحون البلاد فَتَبْتزون

أموالها ابتزازاً، وتمتصون دماءها امتصاصاً، وتمدون أيديكم إلى كل خير فيها

هكذا كانت فتوحنا وهذه فتوحكم:

مَلكْناَ فكانَ العْدَلُ مِنَّا سَجِيَّةً ... فلمَّا مَلَكْتُمْ سَالَ بالدَّمِ أَبْطَحُ
وَحَلَّلْتُمُ قَتْلَ الأسُارى وَطالَما ... غَدَوْنَا عَلَى الأَسْرى نَمُنُّ وَنَصفَح
فَحَسْبُكُم هذَا التَّفَاوُتُ بَيْنَنَا ... فَكُلٌّ إِنَاءٍ بالَّذِي فِيهِ يَنْضَحُ

ولم يظهر سر الإسلام في الفتوح، وفي الخلفاء والأمراء فقط، بل لقد ظهر في المسلمين جميعاً، فجعل من نفوس النساء والعجائز والأطفال مناراً يهتدي به الناس، ومثلاً أعلى للنفوس الكبيرة، حتى أن أبا بكر ليقسم مالاً بين النساء، ويبعث إلى عجوز من بني النجار بقسمها من هذا المال، مع زيد بن ثابت فتقول:

- ما هذا؟ - فيقول: مال قسمه أبو بكر بين النساء
- فتقول: أترشونني عن ديني - فيقول: لا
- فتقول: أتخافون أن أدع ما أنا عليه؟ - فيقول: لا
- فتقول: والله لا آخذ منه شيئاً

لا تأخذ منه شيئاً، لأنها لم تسلم رغبة ولا رهبة، ولكنها أسلمت لله، فهي تبتغي ما عند الله

لا تأخذ منه شيئاً، لأنها لا تحب أن يدخل بينها وبين ربها فيشغلها عن الإخلاص لدينها، ويطمعها المال في المال، فتزيد في العبادة، وتبالغ في التدين، فتكون كأنما تعبدت للمال، وعقيدة التوحيد، التي استقرت في نفس هذه العجوز، كما استقرت في كبار الصحابة وعلمائهم، تدفعها إلى أن تعمل لله وحده، وتسأل الله وحده، وتؤمن بالله وحده

وتجتمع فئة من المسلين معارضة تريد أن تستأثر بالحكم، لأنها ترى لها فيه حقاً، ولا تقبل في ذلك هوادة، ثم يأتيها ثلاثة رجال من الفئة التي تعارضها، وتجتمع لتناوئها، فترجع عما اعتزمته بكلمة واحدة تبصر فيها ضياء الحق

قال عمر للأنصار يوم السقيفة:

- ألستم تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم أبا بكر للصلاة؟
- قالوا بلى
- قال: فآيكم تطيب نفسه أن يتقدم من قدمه رسول الله صلى الله عليه وسلم؟
- قالوا: لا أحد!
- ثم قاموا يبتدرون البيعة

فأين هذا من منازعات الأحزاب على الحكم في الدولة الراقية في القرن العشرين؟ وأين ديمقراطية أوربة ودعواها الخلاص من الحكم الفردي من ديمقراطية المسلمين

الأولين؟
أما إن استبداد لويس الرابع عشر، هو استبداد روبسبير، وهو هو استبداد هلتر، لم تنج أوربة من الاستبداد في الحكم يوماً واحداً، ولم يحقق النظام البرلماني شيئاً من أمانيها الديمقراطية ومبادئها البراقة التي تخدع بها الأطفال الكبار من الشرقيين
أما نظام الحكم في الإسلام، فهو النظام الديمقراطي الصحيح، الذي لا يجعل من أمير المؤمنين أكثر من منفذ للقانون الإلهي الثابت الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وهو أبعد شيء عن النظام الملكي الوراثي. وكان المسلمون الأولون يفهمون هذا النظام أصح فهم وأجودّه، وكأن العامل من عمالهم يعلم أنه إنما يسأل عن عمله بين يدي الله، وإنما يقوم به لمصلحة المسلمين لا لرضاء أمير المؤمنين، وقد يبالغون في ذلك حتى أن مُعاذ بن أيمن يقدم المدينة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقول له أبو بكر: ارفع حسابك. فيقول: أحسابان: حساب من الله وحساب منكم؟ والله لا ألي لكم عملاً أبداً
ويطلب أمير المؤمنين عثمان من خازنه مالاً، فيأباه عليه.
فيقول: (إنما أنت خازن لنا، إذا أعطيناك فخذ، وإذا سكتنا عنك فاسكت)
فيقول الخازن لأمير المؤمنين: (ما أنا لك بخازن، ولا لأهل بيتك، إنما أنا خازن المسلمين: ثم يجيء يوم الجمعة وأمير المؤمنين يخطب فيقول (أيها الناس: زعم عثمان أني خازن له ولأهل بيته، وإنما كنت خازناً للمسلمين، وهذه مفاتيح بيت مالكم) ويرمي بها. . .
هذا هو تاريخ المعجزة التي جاء بها سيد العالمين محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا هو تاريخ الإنسانية الكاملة، تاريخ المسلمين الأولين، خلاصة البشرية. فطالعوه يا شبان المسلمين، وتدارسوه، واسعوا لتكتبوا هذا التاريخ مرة ثانية على صفحة الحياة. . . وتقولوا للعالم بأفعالكم لا بأقوالكم: نحن أبناء أولئك الآباء. . . .
على طنطاوي
كيف صرف الله عني السوء؟
بقلم الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني
اشتهيتُ أن أقول الشعر في الأسبوع الماضي، بعد أن فطمتُ قلبي سنوات وسنوات، فدخلت مكتبتي - أعني غرفتها لا رفوف الكتب فيها - وأغلقت الباب، وقلت لنفسي (الآن، أمنت أن يزعجني هؤلاء الأطفال الملاعين ويُطيروا عقلي - أو ما بقي لي منه، وهو قليل - بضجاتهم وكراتهم وزماراتهم وأسئلتهم التي لاتنتهي، ومشاكلهم العويصة التي لا تحل، واستبدادهم الذي لا يطاق. إنهم أطفال جديدون وأنا رجل قد شيخت، وهم حركة دائمة، وأنا فتور يزداد على الأيام، وسينتهي - عاجلاً أو آجلاً، بل آجلا إن شاء الله - إلى الركود. وهم استعداد مطلق، وأنا نطاق محدود. وكيف بالله أطيق أن أظل ألاعبهم الكرة، أو أجاريهم في الزمر والوثب والصياح؟؟
وما صبري على هذه الأسئلة التي ليس لها عندي جواب؟؟
سألني أحدهم - أصغرهم - (بابا)
قلت: (نعم)
قال: (هل أنت بابا؟)
قلت: (نعم، وأمري إلى الله يا بني)
قال: (صحيح؟)
قلت: (أو يخامرك شك يا ملعون؟؟ أم لا يعجبك أبوك؟؟)
فجعل يردد كلمة (بابا) مستغرباً ثم سأل (يعني آيه؟)
فلم أجد عندي جواباً حاضراً لسؤاله، وعالجته، وحاورته داورته حتى انصرف عن هذا الموضوع، ولكنه لم ينسه، فهو يكر علي به كل بضعة أيام. فمن كان يعرف لسؤاله هذا جواباً مقبولاً فليسعفني به، وله الثواب من الله
وسألني مرة، ونحن على السفينة الذاهبة بنا إلى بيروت:
(هذا هو البحر؟)
قلت: (هو بعينه - أعني بموجه)
قال: (هل للبحر حنفية؟)

قلت: (لا)
قال: (لماذا؟)
فهربت من الجواب لأنه طويل، وكان بي كسل في تلك الساعة، فعاد يسأل:
(ماذا يحدث إذا وقعتُ فيه؟)
قلت: (تغرق فتموت)
قال: (يعني أكون كالسمك الذي فيه؟)
قلن: (كلا. إن السم الذي فيه حي، أما أنت وأنا فأنا نموت إذا وقعنا فيه، لأنا لا نعرف السباحة، ولم نخلق لنعيش في الماء كالسمك)
قال: (نموت كيف؟)
قلت: (نموت ي أخي! سبحان الله العظيم!)
قال: (ولكني أريد أن أعرف)
قلت: (أنا لم أمت، فكيف أعرف؟)
قال: (بابا)
قلت: (يا ساتر استر. نعم يا سيدي!)
قال: (أريد منك شيئاً)
قلت: (على العين والرأس يا حبيبي، قل يا سيدي. تفضل يا روحي!)
قال: (لماذا تتكلم هكذا؟)
قلت: (لأني أعرف أنك ملعون خبيث)
قال: (لا. . . .) وضحك (إنما أريد أن أراك)
قلت: (وهل عميتَ؟ ألستً تراني أمامك؟)
قال بسرعة: (لا لا لا. . . . إنما أريد أن أراك، في. . . . . في الماء!)
قلت: (تعال إلى الحمام، فان فيه حوضاً عظيماً)
قال: (لا) ممطوطة، بازدراء، (في البحر. . .)
قلت: (يعني تريد أن أغرق، وأموت؟)
قال: (آه! لأجل خاطري. ألست تحبني؟)
فلولا أدركتني أمه، لوجب علي أن أغرق تحت عينه.
وهكذا إلى أخر ذلك إن كان لما يتقاضاني آخر يعرف
فقالت لي نفسي: (اسمع يا مازني. انك قليل العقل، ما في هذا شك)
قلت: (أشكرك. فهل تسمحين أن تبيني السبب؟)
قالت: (نعم. هذا أنت تخلو بي، لتنظم شعراً، فبدلاً من أن تتناول القلم وتكتب، تذهب تتمثل ما يدور بينك وبين أولادك، فتضيع الوقت في غير طائل ولا تصنع شيئاً. فإذا لم تكن هذه قلة عقل فانه يسرني أن أعرف ماذا هي؟)
قلت وأنا مغيظ: (استدراك! إني لا أخلو بك لأقول الشعر، أعني أنك - ولا مؤاخذة - ليت الباعث على قول الشعر)
قالت: (لا تكن قليل الذوق أيضاً!)
قلت: (إنها الصراحة والحق، لا قلة الذوق. ثم إنك مخطئة. فأني لم أدخل هذه الغرفة لأنظم شعراً، بل إني اشتهيت هذا، فأنا أريد أن اهتدي إلى الوسيلة التي تعينني عليه)
قالت: (الوسيلة؟ أية وسيلة؟ تناول القلم واكتب!)
قلت: (يا سلام؟ ما اذكاك! لو كان هذا كل ما يتطلبه قول الشعر لما عجز أحد عنه)
قلت: (أذن ماذا تبتغي؟)
قلت: (اسمعي أقل لك. . . إني اصفيتُ، أو على الأصح انقطعت عن النظم لأنك خلية، فأنا أريد الآن أن أشجوك، أعني أن أملأك)
قالت: (كيف؟ فإني غير فاهمة؟)
قلت: (لك العذر، فقد صرت كالصحراء، التي نسيت الماء من طول ما انحبس عنها)
قالت: (ألا تقول وتوجز؟)
قلت: (إذن أقول إني أريد أن يعمر قلبي الخرب، وبعبارة أخرى أقرب إلى فهمك الكليل، أريد أن أحب)
قالت: (تريد؟ هه؟)

قلت: (أه أريد! وأي غرابة في ذلك؟)
قالت: (لا فائدة من الخلاف فانك مكابر، وماذا تنوي أن تصنع؟)
قلت: (أنوي؟ ليس أسهل من ذلكّ أدور بعيني حتى تقع على واحدة تستحق أن أحبها - هذا ما أنوي أن أصنع) فمطّت شفتها - مجازاً - وأشاحت عني بوجهها، فقلت في سري، والله لأغيظها! وخرجت ألتمس الحب، وأدور بقلبي على النساء، وأفتحه لمن شاءت أن تقع منهن فيه، وكنتُ مستعداً - لأكيد لنفسي - أن أحب عشرين امرأة دفعة واحدة، ولم لا؟ إن كل ما يعينني، وما أبغيه، هو الحب، لا المرأة، وأثره لا وسيلته وأداته، فكلما كانت النار أقوى، واللهب أعلى كان ذلك خيراً لي، ثم إني أريد أن أجرب كل حب، أعني الحب من كل صنف، ولون، حتى الذي يعقب الخبل ويورث الجنون، والذي يحرق الثياب، ويترك القلب عارياً
وصرت كلما رأيت سرباً من الفتيات، أقول لهن
(!ادخلن يا فتيات)
فيقلن: (أين؟)
فأقول: هنا في قلبي. . إنه عظيم! شيء مهول جداً. يسعكن جميعاً ويسع مائة من أمثالكن. البدار البدار، فانها فرصة لا تعوض فيتضاحكن ويمضين عني - لا أدري لماذا. كأنما لهن طلبة في الحياة غير الحب، أو سبيل إلى طلبتهن غيره؟
ألاقي غيرهن. فأدق الناقوس، وأستوقفهن وأسألهن: (ما قولكن؟)
فيقلن: (في أي شيء؟)
فأقول: (في أن أحبكن جملة؟)
فيقلن: (مجنون؟)
فأقول: (أطعنني، فأني أعرف ما لا تعرفن! هذا قلبي قد فتحته لكُنَّ، على آخره، فادخلن فيه، أنتن ومن تخترن غيركن من صواحباتكن، فلن يضيق بكن، فانه أعمق وأرحب من البحر الأعظم. . أزخرنه لي، وغصن في أعماقه، وأمددن لي أيديكن بالدر المكنون الذي لا تبلغه يداي)
فيمضين عني ولا يعبأن بي، فيهبط قلبي، وتفتر دقاته، وتهي نبضاته، وألمح النفس تبتسم ابتسامة الشماتة، فيستفزني ذلك، فأكر إلى البحث
ولا أطيل. . . . . لقيتُ آخر الأمر فتاة قالت لي:
(هل تريد أن أحبك؟)
قلت: (لا. . . إنما أريد أن أحبك أنا)
قالت: (وماذا يمنعك؟)
قلت: (صحيح! أما والله إني لمغفلّ وماذا منعني أن أحب نساء الدنيا كلهن؟؟ أم تراني كنت أحسب أن الأمر يحتاج إلى استئذانهن؟)
فقالت وهي تضحك: (أنت تحبني - هذا حسن. . .)
فقاطعتها قائلاً: (لا تغلطي يا فتاتي، إني (أريد أن أحبك)
قالت: (لا بأس. أنت تريد أن تحبني، هذا حسن، وأنا ماذا أصنع بنفسي؟)
قلت: (لا شيء. أو إذا شئت، فان في وسعك أنت أيضاً أن تحبينني)
فضحكت وقالت: (أهو شيء بالإرادة؟)
قلت: (إنك سخيفة كنفسي، ولا مؤاخذة!)
فقالت: (ولماذا تريد أن تحب؟)
قلت: (لأني أريد أن أقول شعراً، وعلى أن هذا شيء لا يعنيك، فدعيني وما أريد، والباقي عليّ، فلن يكلفك شيئاً)
فتركتني لرأيي، وجعلت وكدي بعد ذلك أن أحبها، وذهبت أقنع قلبي بأنه قد اصبح عامراً ولكن نفسي - قبحها الله، أو زادها قبحاً - كانت تخرج لي لسانها هازئة، فيهيجني هذا منها، يسخطني عليها، فأغافلها أحياناً وأتحسس قلبي بيدي لأستوثق، وأضع راحتي على بطني لعلي أشعر بالنار التي يجب أن تكون مضطرمة فيها، فلا أحس أن النبض أسرع أو أقوى، ولا ترتد راحتي إلا باردة كما كانت. فأقول لفتاتي:
(أسمعي. هاتي أذنك، فأني أخشى أن تسمعني نفسي فتشمت بي)
وأسر إليها أني لا أحس شيئاً من مظاهر الحب، وعلاماته، فأنا آكل كالمنهوم، وأنام كأني حقنت بالمورفين، ولا أراني أفكر في شيء غير ما يتفق أن أكون فيه،. . . لا

خفقان في القلب، ولا اضطراب في الصدر، ولا شوق، ولا شيء ما يصفه المحبون غيري، بل أنا أنسى اسمك، واسميك كل يوم، كما تعرفين، اسماً جديداً، فأي حب هذا؟ !خبريني

فقالت: (لا أدري - هو حبك، على طريقتك إذا كان صحيحاً أنك تحب)

فأسألها: (ولكن هل تظنين أني أحب؟)

فتقول: (وكيف أعرف أنا؟)

فأسألها مستغرباً: (ألم يقولوا إن بين القلب والقلب رسولاً، فكيف ضل الرسول يا ترى؟)

فتول: (لم يأن أن تحب يا صاحبي. ولست بفتاتك على ما أرى؟)

فأقول: (ولكنك الفتاة الوحيدة التي وافقتني على ما اقترحت؟)

فقالت: - وأدهشتني - (نعم. وافقت ورضيت، بأن تحبني إذا شئتَ، فبقيت أنت لا تحب، ووقعتُ أنا)

فصحت بها: (ايه؟ ماذا تقولين؟)

قالت - بهدوء -: (لقد سمعت. . . .)

قلت: (أعيديه على مسمعي. . .)

قالت: (كلا. . . هكذا أحلى!)

فكاد الفرح يذهب بلبي، فما عرفت أن أحداً أحبني في هذه الدنيا مذ جئت إليها، ولا ذق في حياتي هذه اللذة، ولم يكن ذنبي أني حرمتها، ولا ذنب النساء أيضاً، وأحسب أن عيونهن تتخطاني - لقصري - فلا يرينني، ولو رأينني لأحبني بلا شك - كما فعلت هذه الفتاة الكريمة، بعد أن جلست!

وعدت إلى بيتي، وخلوت بنفسي في المكتبة، وقلت لها وأنا أكاد أرقص (والآن يا نفسي، يمكنك أن تطقي من الغيظ وتنفلقي من الكمد) وأحسست بالشعر يجيش في صدري، وشعرت كأنه ليس علي إلا أن أدهور لساني في شدقي، أو أن أرفع سن القلم على الورقة، فإذا به يجري وحده بالكلام المونق المعجب

وجئت بورقة، وبريت القلم، ووضعت تلك على رجلي، وهذا ما بين أصابعي، وتوكلت على الله، وأقمت القلم على الورقة، وإذا بنقر على الباب، فكدت أجن، ونهضت ففتحته بكرهي فدخل صاحب لي فلما رأي تجهم وجهي قال:

(هل أنت مشغول؟)

قلت: (تسأل البحر هل فيه ماء؟)

قال: (معذرة. على كل حال لن آخذ من وقتك إلا دقائق، إنك تعرف. . .)

وذكر اسم الفتاة - فتاتي التي تحبني، بارك الله فيها - فصحت به (آيه؟)

فقال: (إني أتكلم بلغة عربية فيما أظن؟)

قلت: (ألا توجز؟ ما لها؟)

قال: (حسن. سأوجز. إني سعيد)

قلت: (وأنا مالي!)

قال: (هنئني!)

قلت: (بماذا؟)

قال: (لقد قابلتها - للمرة الثالثة - ولم أخبرك لأنه لم يكن هناك ما يستحق أن يقال. ولكنها اليوم قابلتني - أعني استقبلتني بعد أن خرجت أنت من عندها، فكان مما قالته لي (إنك شاب، وأنا شابة، وأنا أصبو إليك كما تصبو إليّ، صحيح أني أقول لبعض معارفي من الكهول إني أحبهم، ولكني مضطرة إلى هذا لأحتفظ بودهم، أما أنت فشيء آخر - أنت شاب مثلي!)

فما قولك في هذا؟

قلت: (قولي؟ أنا؟)

قال: (نعم؟ ما رأيك؟)

قلت: (صدقها!)

فسألني: (هل كذبت عليك يا ترى كما كذبت على غيرك؟)

قلت: (علي أنا؟ لا! وهل يستطيع أن يخدعني أحد؟ والآن أذهب. . . . .)

قال: (بسرعة؟ هكذا!)

قلت: (نعم فأني أريد أن أمزق دواوين الشعراء التي عندي)
(قال: ألا يكفيك أن تكف أنت عن الشعر؟
قلت: (كلا. . . . وسأحرقها أيضاً بعد تمزيقها؟ الشعر! يا للسخافة!. . . . .)
قال: (أعطنيها ولا تمزقها)
قلت: (كلا. . . إنك شاب. وحرام علي أن أسيء إليك وأن أضلك. . . . اخرج. . . اخرج. . . مع السلامة. . .)

إبراهيم عبد القادر المازني

بيت الإبرة

للأستاذ قدري حافظ طوقان

هي آلة عجيبة ذات مبدأ ثابت لا تحيد عنه، ولا تعرف غير الاتجاه نحوه، فهي دائماً وأبداً تتجه نحو الشمال والجنوب. هذه الآلة العجيبة المغناطيسية تستعمل في السفن البحرية لإدارة سيرها ولها تاريخ عجيب أوقع العلماء في حيرة وارتباك، إذ لم يستطع أحد منهم البت في نسبة اختراعها، بل لم يستطع الوصول إلى جواب شافٍ مرضٍ عن السؤالين الآتين: ممنْ اخترع هذه الآلة؟ لمن الفضل في إيجادها واستعمالها والاستفادة منها؟ يدعى الصينيون أنهم أول من اخترعها، ويدعى ذلك أيضاً العرب واليونان والاترسكيين والفنلنديين والطليان. تدعى كل هذه الشعوب السبق في اختراعها وفي استعمالها، وكل منها يقول إنه هو السابق في الانتفاع من هذا الاختراع، وكل منها يقول إن الآخرين كانوا عالة عليه في استعمال بيت الإبرة وفي الاستفادة منها، وكل منها يقول أيضاً إن الفضل في تقدم صناعة البوصلات البحرية رجع إلى علمائه ومشاهير بحارته

بحث الباحثون في أصل الإبرة واختراعها، وأخذ البحث معهم وقتاً طويلاً وسبب لهم عناء عظيماً، وبرغم كل ذلك لم يقفوا على الحقية، ولم يتمكن عالم من معرفة تاريخ تطور صناعة البوصلات البحرية معرفة تؤدي إلى نتائج جلية واضحة، معرفة تزيل سحب الشك والغموض المحاط بها أصل اختراع الآلة المذكورة، فهي حقاً آلة عجيبة ولها تاريخ أعجب، واختلاف الأمم على ذلك مما يثير الدهشة والاستغراب

لقد اطلعنا على أكثر ما قيل في هذا الصدد وعلى بعض ما كتبه العلماء في المجلات ودوائر المعارف في هذا الموضوع، واستطعنا من كل ذلك تكوين فكرة عن أصل الإبرة وتاريخ اختراعها واستعمالها وكيفية الانتفاع منها في الأسفار البحرية، وسنعطي رأياً في ذلك على ضوء معلومات وبحوث الذين سبقونا في ولوج هذا الباب

وقبل الخوض في البحث يجدر بنا أن نذكر شيئاً عن المغناطيس وعن رأي الأقدمين فيه فهذا مما يسهل علينا الدخول في موضوع المقال

عرف اليونان شيئاً عن المغناطيس، وكلمة مغناطيس مأخوذة من لغتهم، وقالوا بان فيه خاصية الجذب قبل غيرهم، قال أرسوط (حجر المغناطيس. . أنه حجريجتذب الحديد،

وأجود أصنافه ما كان أسود مشوباً بالحمرة ومعدنه ساحل بحر الهند، وهو قريب من بلادها. . .) هذه الخاصية أثارت استغراب كثير من الأمم، فكانت مثار دهشتهم. وقد كثرت الأقوال الغريبة فيه (في المغناطيس)، ومن هذه الأقوال. أنه إذا أصاب المغناطيس رائحة الثوم أو البصل بطل تأثيره وذهبت خاصية الجذب، وإذا غسل بالخل عاد التأثير ورجعت إليه الخاصية المذكورة. وقال بعض الأقدمين بأن له خواص علاجية وصحية منها: أنه إذا علق إنسان المغناطيس على إنسان آخر نفع الأخير من وجع المفاصل، وإن لمسته المرأة التي تعسرت ولادتها وضعت في الحال، وأن الذي يعلقه في عنقه فقد استفاد كثيراً، إذ يكبر عقله وتقوى فيه ملكة الحافظة، وأن له سلطاناً على أمراض الطحال، واستعمله ابقراط علاجاً للعقم، وقال بليناس بأنه نافع ومفيد في أمراض العين، وقال ابن سينا إن درهماً منه يضاد التسمم بالحديد الذي كان يظن أنه سام. وجاء في بعض الكتب بأن المغناطيس كثيراً ما استعمله الأقدمون للجروح، وقال علماء العرب إنه ينفع في النقرس والحصا. ولقد علق الفرنجة على هذه الأقوال وفندوها، ولا يتسع المجال لذكر شيء من ذلك لا سيما والبحث فيها يخرجنا من موضوع مقالنا

وللمغناطيس عدا خاصية الجذب، خاصية أخرى هي من الأهمية بمكان عظيم، وهذه

هي خاصية الاتجاه، وقد عرفها الصينيون وكانوا أول من قال بذلك. قال الكلمة التي يستعملها الصينيون لتدل على بيت الإبرة هي - ومعناه الإبرة التي تتجه نحو الجنوب، ويقول أيضاً: ويظهر أنهم استعملوا هذه الخاصية في الأسفار البحرية، وقد عملوا الآت لذلك ليس فيها شيء من الصنعة أو الإتقان. وقال ديفس إن الطرق التي كان يستعملها البحارة الصينيون في عمل الإبرة تدل على أنهم لم يستعينوا بغيرهم من بحارة الأمم، إذ لو استعانوا واطلعوا على الآت غيرهم لاستطاعوا أن يحسنوا صنعها ولما عملوها بالشكل الذي وجدت فيه عندهم، ويقول أيضاً: إن العرب بطريقة غير معروفة اقتبسوا آلة بيت الإبرة عن البحارة الصينيين وأنه عن طريق المسلمين دخل هذا الاختراع أوربا. وجاء في بعض الكتب أن البحارة الصينيين عرفوا خاصية الاتجاه في المغناطيس قبل الميلاد بمئات من السنين، وأنهم ذكروا ذلك في قاموسهم الذي وضع بعد الميلاد بمائة سنة، وقد استعملوه للإرشاد إلى الجهات الأربع في سفر البحر سنة 300م

وأما عن تسمية هذه الآلة فيقول روبرتُسنْ إنه لم يكن في لغات العرب والعجم والترك كلمة تعني وأنهم كانوا يستعملون ذلك كلمة بوصلة، وهي كلمة مأخوذة عن اللغة الإيطالية، ولكن بادجر لا يوافقه على هذا تماماً حيث يقول: (رغم كون البحارة لعرب الموجودين حول البحر الأبيض المتوسط استعملوا كلمة بوصلة لتدل على كلمة إلا أننا نجد أن كلمة (بيت الإبرة) هي الأثر شيوعاً واستعمالاً في الأقطار الموجودة حول البحار الشرقية، والاصطلاح (بيت الإبرة) مستعمل في أكثر الكتب، وهذا ما جعلنا نفضل استعماله على غيره في هذا المقال. قلنا إن اليونان أول من عرف في المغناطيس خاصية الجذب، وأن الصينيين أول من عرف فيه خاصية الاتجاه، ولقد أخذ العرب والمسلمون هاتين الخاصيتين واستعملوهما في أسفارهم البحرية). جاء في كنز التجار: - (ومن خواص المغناطيس أن رؤساء البحر الشامي إذا أظلم عليهم الجو ليلاً ولم يروا من النجوم ما يهتدون به إلى تحديد الجهات الأربع يأخذون إناءً مملوءاً ويحترزون عليه من الريح بأن ينزلوه إلى بطن السفينة. ثم يأخذون إبرة وينفذونها في سمرة أو قشة حتى لتبقى معارضة فيها كالصليب ويلقونها في الماء الذي في الإناء فتطفو على وجهه ثم يأخذون حجراً من المغناطيس كبيراً ملء الكف ويدنونه من وجه الماء ويحركون أيديهم دورة اليمين فعندها تدور الإبرة على صفحة الماء ثم يرفعون أيديهم على غفلة وسرعة فان الإبرة تستقبل بجهتيها جهة الجنوب والشمال. رأيت هذا الفعل منهم عياناً في ركوبنا البحر من طرابلس الشام إلى إسكندرية في سنة أربعين وستمائة. وقيل إن رؤساء مسافري بحر الهند يتعوضون عن الإبرة والسمرة شكل سمكة من حديد رقيق مجوف مستعد عندهم يمكن أنه إذا ألقي في ماء الإناء عام وسامت برأسه وذنبه الجهتين من الجنوب والشمال. .)

وإذا اطلعت على كتاب سارطون القيم في (مقدمته لتاريخ العلوم) تجد أنه يرجح كون اختراع بيت الإبرة هو من نتاج قرائح المسلمين إذ يقول: (إن البحارة المسلمين على الأرجح هم أول من استعمل خاصية الاتجاه في المغناطيس في عمل الإبر في الأسفار البحرية، وكان ذلك في أوار القرن الحادي عشر للميلاد. . .) وينفي سارطون القول بأن البحارة الصينيين استعملوا خواص المغناطيس وطبقوها في آلات للأسفار البحرية وغيرها. ولدى قراءة تاريخ العرب للعلامة سيديو نجد أنه ينفي كون البحارة الصينيين استعملوا الإبرة المغناطيسية في الأسفار البحرية ويدعم قوله هذا بما يلي: (. . . . وكيف يظن أنهم (أي أهل الصين) استعملوا بيت الإبرة مع أنهم لم يزالوا إلى سنة 1850م يعتقدون أن القطب الجنوبي من الكرة الأرضية سعير تتلظى. . .) وهو القائل أيضاً بأن العرب استعملوا بيت الإبرة في القرن الحادي عشر للميلاد في الأسفار البحرية والبرية وفي ضبط المحاريب

يظهر مما مر أنه ما من أحد بحث في هذه الآلة وتاريخ استعمالها واستطاع أن يصل إلى نتائج حازمة شافية تزيل شكاً اكتنف هذا الموضوع، وغموضاً استولى عليه. وعلى كل حال يمكننا القول بأن العرب عرفوا شيئاً عن المغناطيس، وأنهم عرفوا فيه خاصتي الجذب والاتجاه، وأنهم على الأرجح أول من استعملها في عمل الإبرة في الأسفار البحرية وأن آلة (بيت الإبرة) واستعمالها في الملاحة دخلاً أوروبا عن طريق البحارة المسلمين

وبينما أنا أهيئ هذا المقال قرأت مصادفة في أحد أعداد مجلة الهلال (مجلد 30 ج7) مقالاً عنوانه (العرب والبحار) بقلم الأستاذ المحقق عبد الله مخلص، وقد وجدت فيه شيئاً عن اختراع بيت الإبرة المغناطيسية فلم أشأ أن أمر على ذلك دون تعليق. جاء في مقال (العرب والبحار) بأن أبن ماجد هو الذي اخترع (الإبرة المغناطيسية) أو أنه هو (مخترع الإبرة المغناطيسية) وهذا النص هو الذي حفزني إلى التعليق. ما لا ريب فيه أن نسبة اختراع بيت الإبرة إلى ابن ماجد (أحد نوابغ المسلمين في الملاحة) خطأ وليس فيها شيء من الصحة. فقد ثبت لدى العلماء والباحثين أن استعمال الإبرة المغناطيسية كان معروفاً في أواخر القرن الحادي عشر للميلاد بينما ابن ماجد وجُد في القرن التاسع للهجرة أو القرن الخامس عشر للميلاد، فالقول بأنه هو مخترع الإبرة المغناطيسية غلط، ولا يرتكز على منطق عدا كونه خلاف الواقع. وقد تكون هذه النسبة آتية عن مهارته في تسيير السفن وعن براعته في فن الملاحة، وعن وقوفه على أصول الإبرة المغناطيسية، وكيفية استعمالها وفهمه المبادئ المنطوي عليها عملها. وعلى ذكر ابن ماجد أقول: قليلون جداً الذين يعرفون أن ابن ماجد من نوابغ المسلمين في الملاحة وأنه كان يلقب بأسد البحر الهائج، وأنه (هو الربان العربي الذي سير الأسطول البرتغالي بقيادة فاسكودي غاما في طوافه حول الأرض من مالندي وهي جزر في المحيط الهندي على ساحل أفريقيا الشمالية
إلى كلكتا في الهند. . .) ويقال إن أباه ومن قبله جده كانا من رجال الملاحة المشهود لهم بالمهارة والبراعة وقد وضعا نظريات جديدة ومفيدة في علم البحر، ثم جاء من بعدها ولدهما ابن ماجد فألف كتباً قيمة في علم الملاحة وقد بناها على المشاهدة والتجربة منها: كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد، وكتاب علم الملاحة ويشتمل على تاريخ الملاحة وعلاقتها بالنجوم في خليج العجم والبحر والهندي وشواطئ جزيرة العرب وسومطرة وسيلان وزنجبار وغيرها، وكتاب حاوية الاختصار في أصول البحار، وله أيضاً أرجوزة في علم الملاحة، وله قصائد أخرى في وصف شواطئ جزيرة العرب. وكان ابن ماجد يلقب نفس بشاعر القبلتين ويعرف بسليل الأسود. ولقد بقيت القواعد التي وضعها ابن ماجد معتمد البحارة المسلمين في مالندي إلى أواسط القرن التاسع عشر للميلاد. وقال برتن الإنكليزي إن بحارة عدن في سنة 1271هـ (1854م) كانوا قبل السفر يقرءون الفاتحة لروح الشيخ ماجد. ولا ريب إن المقصود بالشيخ ماجد هو ابن ماجد

نابلس

قدري حافظ طوقان

محاورات أفلاطون - 10

الحوار الثالث

فيدون أو خلود الروح

ترجمة الأستاذ زكي نجيب محمود

تساءل سيبيس: فيم قولك إن الإنسان لا ينبغي أن يستل حياته، وأنه يجب على الفيلسوف أن يُعدَّ نفسه ليلحق بالموتى؟

فأجاب سقراط: إنكما يا سيبيس وسمياس، تعرفان فيلولاوس فهلا سمعتماه قط يتحدث عن هذا؟

إني يا سقراط لم أفهم قوله أبداً

ليست كلماتي كذلك إلا صدى، ولكني شديد الرغبة في أن اروي ما سمعته، فالحق أني مادمت مرتحلاً إلى غير هذا المكان فيجب ألا يُشْغَلَ الفكرُ ويدور الحديث إلا حول هذا الرجل الذي أوشك أن أقوم به، وماذا عساي أن أفعل خيراً من هذا منذ الآن إلى أن تغرب الشمس؟

إذن فحدثني يا سقراط، لماذا استقر الرأي على ألا يكون الانتحار حقاً مشروعاً؟ لقد سمعت فيلولاوس يقيناً يؤكد ذلك عندما كان يمكث بيننا في طيبة؛ وثم أناس آخرون يقولون مثل هذا القول، ولو أن أحداً منهم لم يستطع قط أن يفهمني ما يقول

فأجاب سقراط. ولكنك يجب أن تحاول الفهم ما استطعت، ولابد أن يأتي اليوم الذي تفهم فيه، أحسبك تعجب لماذا تشذ هذه الحالة وحدها، ومعظم الشرور قد تجيء بالخير عرضاً (لأنه أليس من الجائز أن يكون الموت كذلك أفضل من الحياة في بعض

الظروف؟) وإذا كان خيراً للإنسان أن يموت، فما الذي يمنع أن يقدم لنفسه الخير بنفسه؛ ألزامٌ عليه أن ينتظر من غيره يد الإحسان؟

فقال سيبيس ضاحكاً في لغته الدُّورية القومية: أي وحق جوبتر!

فأجاب سقراط - إني أُسلّم بأن في هذا تناقضاً ظاهراً، ولكن قد لا يكون هذا التناقض حقيقياً، هناك مذهب جرت به الألسنة في الخفاء بأن الإنسان سجين، وليس له الحق في أن يفتح باب سجنه ليفر هارباً، إن ذلك إشكال عظيم لست أفهمه فهماً دقيقاً، ولكني أعتقد مع ذلك أن الآلهة هم أولياؤنا وأننا مِلْكٌ لهم، أفلست ترى ذلك؟

قال سيبيس - نعم، إني أوافق على ذلك

فلو أن ثوراً مثلاً مما تملك أنت أو حماراً، شاءت له إرادته أن يحيد بنفسه عن الطريق، على حين أنك لم تُشِرْ له برغبتك في وجوب موته، أفلا تسخط عليه، ثم ألا تعاقبه إن استطعت؟

فأجاب سيبيس - يقينا

وإذن فقد يكون في القول بأن الإنسان يجب أن ينتظر، وألا يُهلك حياته بنفسه، حتى يقضي الله فيه أمراً، كما فعل بي الآن، سندٌ من العقل

قال سيبيس - نعم يا سقراط، إن في ذلك ولا ريب سنداً من العقل، ولكن كيف بعد هذا تستطيع أن توائم بين هذه العقيدة الصحيحة في ظاهرها وهي أن الله مولانا ونحن له عبيد، وبين ما كنا نضيفه إلى الفيلسوف من رغبة في الموت؟ أما أن يرغب من هم أبلغ الناس حكمة، في ترك هذا العمل الذي تحكمهم فيه الآلهة، وهو خير الحاكمين، فلا يسلم به العقل، لأنه يستحيل على صاحب الحكمة أن يظن بنفسه المقدرة، لو أطلقت له حرية العمل على أن يعني بنفسه أكثر مما تُعنى به الآلهة، ربما توهم ذلك المأفون، وقد يحتج بأن خيراً له أن يفر من سيده دون أن يضع في اعتباره بأن واجبه هو أن يثبت حتى النهاية، لا أن يفر من الخير فراراً لا حكمة فيه. أما الرجل الحكيم فلا أخاله إلا راغباً في أن يكون أبداً مع من هو خير منه. أنظر يا سقراط. فهذا يناقض ما قد قيل الساعة تواً، إذ يترتب على هذا الأساس أن يأسف ذو الحكمة لفراق الحياة، وأن يغتبط له الجهول

فصادفت حماسة سيبيس فيما يظهر غبطة من سقراط، فالتفت إلينا وقال: هاكم رجلاً لا يبرح متسائلاً، ولا تكفي لإقناعه الفترة القصيرة، وليست كل حجة ترضيه

فأضاف سمياس - ولكن اعتراضه الآن يبدو لي على شيء من القوة، فأي غناء عسى أن يكون في ذي الحكمة الحق، إذا هو ابتغى أن يلوذ بالفرار، وأن يستخف بترك سيده الذي هو أفضل منه؟ وليت أخال سيبيس إلا مشيراً إليك، فهو يظن أن أنك لا تتردد في تركنا، بل لا تتردد في ترك الآلهة الذين هم كما اعترفت أولى أمرنا الصالحون

فأجاب سقراط - نعم ذاك قول يستقيم مع العقل، ولكن أهو في ظنك دعوى ينبغي أن أجيب عنها كما لو كنت أمام القضاء؟

قال سمياس - ذلك ما كنا نبتغي

إذن فلأحاول أن ألقي في نفوسكم أثراً خيراً ما تركت حين كنت أدافع عن نفسي أمام القضاة، فلست أتردد يا سيبيس وسمياس في الاعتراف بوجوب الأسى من الموت، إذا لم أكن راسخ العقيدة بأني ذاهب إلى طائفة أخرى من الآلهة ذوي الخير والحكمة (وإني لأوقن بهذا يقيني بأي شيء آخر من هذا القبيل) وإلى الراحلين من الرجال (وإن كنت لا أقطع بهذا قطعي بالأولى) وهم يَفْضُلون هؤلاء الذين أخلفُهم ورائي، فلست لهذا أبتئس، كما كان يُنتظر أن أفعل، لأني آمل خيراً، بأن ثمت شيئاً لا يزال مدخراً للموت، وهو كما قد قيل منذ القدم أدنى جداً إلى الخير منه إلى الشر

قال سمياس - ولكن هل تريد أن تستصحب أراءك معك يا سقراط فلا تنقلها إلينا! إنا قد نرجو أيضاً أن نساهم في ذلك النفع، وأنت إذا وفقت بعد ذلك لإقناعنا، كل ذلك منك رداً على ما اتُّهمتَ به

فأجاب سقراط - سأبذل وسعي، ولكن دعوني أستمع أولاً لما يريده كريتون. إنه كان قد هم أن يقول لي شيئاً

فأجاب كريتون - أردت أن أقول يا سقراط أن الخادم الذي أمر بإعطائك السم قد أنبأني، لأبلغك، بأنه يحسن بك ألا تكثر الكلام لأنه يزيد من الحرارة، وهذه تؤثر في فعل

السم؛ لقد اضطر أحياناً أولئك الذي أثاروا نفوسهم أن يجرعوا السم مرتين أو ثلاثاً
قال سقراط - إذن فليؤد واجبه، وليتأهب لإعطاء السم مرتين أو ثلاثاً، إذا لزم الأمر، وحسبنا هذا
فأجاب كريتون - لقد كدت أوقن بأنك ستقول ذلك، ولكني لم أجد محيصاً عن إرضائه
قال سقراط - لا تأبه له
وهانذا الآن أجيبكم - أنتم يا قضاتي - فأبين لكم أن من عاش فيلسوفاً حقاً، معه الحجة في أن ينعم بالاً إذا ما اقترب من الموت، وأنه قد يرجو أن يصيب في العالم الآخر بعد الموت أعظم الخير. سأشرح لكما أي سيبيس وسيماس كيف يمكن أن يكون هذا، فيغلب فيما أرى
أن يسيء الناس الظن بطالب الفلسفة الصحيح، لأنهم لا يدركون أنه أبداً دائب السعي وراء الموت والموتى. وإن صح أنه ما برح راغباً في الموت طوال حياته، ففيم الجزع إذا ما تهيأت له غايته التي كان لا يفتأ ساعياً إليها راغباً فيها
فضحك سمياس وقال - إني وإن كنت لا أسوق القول متندراً هازلاً، لأقسم بأنه لا يسعني إلا أن اضحك إذا ما فكرت فيما سيقوله هذا العالم اللعين، حين يخبَّر بهذا - سيقولون بأن هذا بالغ الحق - ومَنْ في دُورِنا من أهل، سيؤيدونهم، في قولهم بأن الحياة التي يتمناها الفلاسفة هي لا شيء غير الموت، وإنهم قد تبينوهم فإذا هم حقيقيون بالموت الذي يتمنون
وهم على حق يا سمياس في قولهم هذا، إذا استثنيت منه هذه العبارة: (إنهم تبينوهم) لأنهم لم يتبينوا طبيعة هذا الموت الذي يتمناه الفيلسوف الحق، ولا كيف هو حقيق بالموت أو راغب فيه، فلندعهم وليتحدث بعضنا إلى بعض قليلاً: أنحن معتقدون في وجود ما يسمى بالموت؟
فأجاب سمياس - كن من ذلك على يقين
وهل يكون الموت إلا انفصال الروح عن الجسد؟ والإنسان إنما يبلغ هذا الانفصال إذا ما قامت الروح بذاتها مفصولة عن الجسد، وقام الجسد مفصولاً عن الروح - أليس ذلك هو الموت؟
فأجاب - هو كذلك. وليس شيئاً غير هذا
وما قولك يا صديقي في مسألة أخرى، أحب أن تدلي إلي برأيك فيها، وقد تلقى إجابتك عنها ضوءاً على موضوع بحثنا، هل ترى جديراً بالفيلسوف أن يعني بلذائذ الأكل والشرب - إن صح أن تدعى هذه لذائذ؟
فأجاب سيماس - لا، ولا شك
وماذا تقول في لذة الحب، أينبغي له أن يُعنى بها؟
لا ينبغي بحال من الأحوال
وهل يجوز له أن يطيل الفكر في غير ذلك من ألوان لذة الجسد - كحيازة اللباس الفاخر، والنعال، مثلاً، أو غيرهما من زينات البدن؟ ألا يجدر به بدلاً من أن يعني بهذا أن يزدري كل شيء مما يزيد على حاجة الطبيعة؟ فماذا تقول؟
يجب أن أقرر بأن الفيلسوف الحق ينبغي أن يزدريها
ألست ترى أن ينصرف بكليته إلى الروح لا إلى البدن؟
إنه يود أن يتخلص من البدن وأن يعود إلى الروح ما استطاع إلى ذلك سبيلاً
ذلك حق
وترى الفلاسفة يلتمسون في مثل هذا الأمر كل سبيل لفصل الروح عن الجسد أكثر مما يفعل سائر الناس جميعاً
ذلك صحيح
بينا يعتقد سائر الناس يا سمياس ان حياة تخلو من لذائذ البدن ولا تأخذ منها بقسط، ليست حقيقة بالبقاء، بل يرون أن إنساناً لا يفكر في مسرات الجسد، يكاد يكون كالأموات
ذلك جد صحيح
وبعد فماذا عسانا أن نقول عن السبل الحقيقية التي تقتضيها المعرفة؟ إن كان ثمت ما يدعو الجسم للمساهمة في تحصيلها، فهل يكون عائقاً لها أم معيناً عليها؟ أعني هل يأتينا البصر والسمع بحقيقة ما؟ أليس هما دليلين خاطئين كما لا يفتأ ينبئنا الشعراء؟

فان كان خاطئين ومبهمين، فماذا عسى أن يقال عن سائر الحواس؟
ولا أحسبكم معارضين في أنهما أضبط الحواس
فأجاب سمياس - يقيناً
وإذن فمتى تدرك الروح الحقيقة؟ - لأنها إن أشركت معها الجسم فيما تحاول أن تبحثه، فهي مخدوعة لا محالة
- نعم، هذا صحيح
- أفلا يجب إذن أن ينكشف لها الوجود بوساطة الفكر، إن كان له أن ينكشف
- نعم
- وأحسن ما يكون الفكر حينما ينحصر في حدود نفسه، حتى لا يشغله شيء من هذه - فلا أصوات ولا مناظر ولا ألم ولا لذة مطلقاً - وذلك إنما يكون عندما يصبح الفكر أقل اتصالاً بالجسد، فلا يصله منه حس ولا شعور، بل يتصرف بتطلعه إلى الكون
- هذا صحيح
(يتبع)
زكي نجيب محمود
بين القاهرة وطوس - 8
المشهد وطوس
للدكتور عبد الوهاب عزام
يرى الوافد على مدينة المشهد قبة عالية مغشاة بالذهب ومنارتين مذهبتين رفيعتين. فهذا أول ما يسر البصر من مسجد الإمام علي الرضا. فإذا ذهب إلى المسجد الذي يسمى الحرم الرضوي أو العتبة المقدسة (آستانة مقدس) رأى أبنية جميلة شامخة واسعة رائعة لا يستطيع المشاهد أن يعرف خططها ويدرك أقسامها إلا بعد تأمل طويل وزيارات كثيرة
إذا دخل القادم المدينة من غربيها فسار في الشارع الكبير تلقاء الشرق انتهى إلى أبواب ضخام رائعات وراءها طريق مبلط ينتهي إلى مدخل الحرم الرضوي فيلجه إلى الصحن القديم (صحن كهنه) وهو فناء واسع تجري في وسطه قناة ماء ويحيط به مساكن لطلاب العلم وغيرهم. وإني أشفق على القارئ من تفصيل الكلام في وصف هذا الحرم العظيم الذي توالت عليه الأيدي بالتشييد والتزيين قروناً كثيرة. فحسبي أن أقول إن في وسط الحرم قبة الإمام الرضا وأروقة متصلة بها ويمتد الصحن القديم شمالي هذه الأبنية، والصحن الجديد شرقيها، ومسجد جوهر شاد جنوبيها. ويحار الطرف في جمال القبة الشريفة وزينتها وفيما في المسجد كله من الكاشاني والبلور والذهب الخالص، والقبة تقوم على قبر الإمام الرضا. وهو في جانب منها، ويُظن أن قبر هرون الرشيد في وسط القبة ولكن لا يرى الزائر منه أثراً
أقدم ما في هذه البناية يرجع إلى سنة 512 وهو بناء السلطان سنجر السلجوقي. وقد توالى الملوك والكبراء من بعده على البناء والتنافس فيه، ومن هؤلاء السلطان ألجايتو، من الملوك الأيلخانية، وشاه رخ بن تيمورلنك وزوُجه جوهر شاد، ومشير علي نوائي وزير السلطان حسين بايقرا، ثم الملوك الصفويون ولا سيما طهماسب وعباس الكبير؛ ومن القاجاريين فتح علي شاه وناصر الدين شاه. كل هؤلاء بذلوا جهدهم في أن يؤثروا في المشهد الرضوي أثراً خالداً يكسف آثار من سبقهم فتركوا هذا البناء الجليل الذي يعجز القلم عن تصويره للقارئ
وقد وعدت في المقال السابق أن أصف مسجد جوهر شاد هذه الأميرة التقية الخيرة، فهو مسجد يمتد جنوبي لمشهد الرضوي من الشمال إلى الجنوب (95 84 متراً) وأعظم أواوينه الإيوان الجنوبي، وهو عقد هائل ارتفاعه 25 متراً غشى كله بالكاشاني الجميل، وعلى دائرته آيات من القرآن بأحرف كبيرة جميلة كتبها بخطه الأمير بايسنقر بن شاه رخ بن تيمورلنك، وذلك إلى آثار أخرى دليل على عناية أمراء المسلمين بالفنون الجميلة ولاسيما الخط. وفي هذا الإيوان كرسي من الخشب يقال إن المهدي سيجلس عليه أول ما يظهر للناس؛ وفي وسط المسجد مصلى يسمى مسجد ييرزن (مسجد المرأة العجوز) وفيما يلي المشهد الرضوي بنية اسمها دار الحفاظ. وتصل المسجد بالمشهد الرضوي أبواب صغيرة

زرنا المسجد الرضوي صبيحة الجمعة ثالث رجب سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة وألف فرأينا أفواجاً من الزائرين والزائرات متزاحمين بين مصل ومسبح وداع وباك ومقبل للأعتاب ومطيف بالضريح المقدس، ولهذا الحشر دوي يملأ القلب خشوعاً ورهبة، وسار بنا الدليل إلى بناء في ناحية من الحرم أسمه حجرة التشريفات، فصعدنا إلى حجرة كبيرة بها جماعة من القوام على الحرم فأحسنوا لقاءنا وقدموا إلينا الشاي، وتحدثوا معنا بالعربية والفارسية معلنين سرورهم واغتباطهم، ومتحدثين بالاخوة الإسلامية التي تجمعنا وإياهم؛ ثم انصرفنا شاكرين أملين أن نعود إلى شرف الزيارة مرات حتى تقضي النفس لبانتها من مشاهدة هذا الجمال والجلال

ويوم الأحد التالي زرت المكتبة الرضوية وهي في الصحن الجديد في الطبقة الثانية، وقد اطلعت فيها على مصاحف يحار الإنسان في مرآها ويعجز عن وصفها، وحدثني قيم المكتبة أن بها آلافاً عدة من المصاحف المخطوطة: رأيت قطعة من مصحف بخط كوفي في آخرها: (كتبه علي بن أبي طالب)، ومصحفاً كاملاً بخط كوفي في أخرها: (كتبه الحسن بن علي بن أبي طالب) ورأيت مصحفاً وقفه إبراهيم قطب شاه سنة 970 فيه 339 ورقة، وفي كل صفحة 12 سطراً محلاة بالذهب والمينا، وطول الصفحة 56 قيراطاً وعرضها 37، وفيه من بدائع الصناعة ما يجل عن الوصف، فما يزال الناظر فيه حائر القلب والطرف؛ ومصحف آخر وقفه السيد محمد جعفر خان سنة 1148 فيه 606 ورقات كل ورقة لها نقش خاص يخالف نقش الورقات الأخرى. وفي هذه المصاحف من عجائب النقش والوراقة والتجليد ما لا يدركه إلا ابرائي. وقد قيل لي إن بعض الأوربيين بذل في

جلد مصحف منها مئات الجنيهات فلم يظفر به. ورأيت ورقة واحدة من مصحف في طول قامة الرجل الطوال. وبها سبعة أسطر بخط الأمير بايسُنقر

وقد شهدنا في مدينة المشهد افتتاح مستشفى الشاه رضا وهو مستشفى كبير بأجهزة حديثة، ومعرض صناعات خراسان، ورأينا ألعاباً رياضية كالتي رأيناها في ميدان سلطنت آباد بطهران وقد وصفها آنفاً. وكانت حفلات للغداء والعشاء دعا إليها رئيس الوزراء ومتولي الحرم الرضوي، ألقيت فيها خطب كثيرة. وزرنا مدفن نادر شاه، وهو البطل الكبير الذي رفعته همته من رعي الغنم إلى رعاية الأمم، والذي أخرج الأفغانيين من إيران، ودبر الأمور باسم الصفويين حيناً، ثم استبد بالأمر وتسمى نادر شاه، ثم فتح أفغانستان والبنجاب وغنم كنوزاً لا تحصى من دهلي، واضطر الدولة العثمانية إلى مصالحته على ما أراد لدولته، وتوفي سنة 1160 بعد أن سيطر على إيران عشرين سنة - دخلنا حديقة واسعة في وسطها بناء مرتفع قليلاً يشتمل على حجرات عدة، دخلنا واحدة منه فقيل هنا دفن نادر شاه وسيشاد له قبر هنا

طوس:

على خمسة وعشرين كيلاً إلى الشمال من مشهد، آثار المدينة الكبيرة التي كانت من أعظم مدن خراسان، والتي نشأت جماعة من كبار العلماء والأدباء: مدينة طوس: وطوس اسم إقليم في خراسان كان فيه مدينتان كبيرتان: طابران ونوقان. فأما طابران فقد اتسعت ونبهت حتى سميت طوساً باسم الإقليم كله، وبقي اسم طابران على إحدى محلاتها. وأما نوقان فكان على مقربة منها قرية سناباذ التي دفن فيها الرشيد العباسي والرضا العلوي فنمت حتى صارت مدينة المشهد الحاضرة واتصلت أبنيتها بنوقان ونسخت اسمها

وقد اشتبه أمر طوس ونوقان على بعض الجغرافيين فقالوا إن مدينة طوس مدينتان: طابران ونوقان. قال ياقوت، عن طوس: (وهي مدينة بخراسان بينهما وبين نيسابور عشرة فراسخ تشتمل على بلدتين يقال لإحداهما (طابران)، وللأخرى (نوقان)) والحق أن لإقليم طوس مدينتين كبيرتين هما طابران التي سميت طوس ونوقان التي اندمجت في مشهد كما قدمت. وكان لطوس شأن في التاريخ الإسلامي، وتقلبت بها الغير حتى خربها ميرانشاه ابن تيمورلنك سنة 791هـ

وينسب إلى مدينة طوس الإمام الغزالي، ونصير الدين الطوسي وغيرهما من العلماء. وقد مات الغزالي بها ودفن بالطابران إحدى محلاتها، رابع عشر جمادي الآخرة سنة 505: ورثاه الابيوردي فقال:

بكى على حجة الإسلام حين ثوى ... من كل حي عظيم القدر أشرفُه

وما لمن يمتري في الله عبرته ... على أبي حامد لاح يعنفُه
تلك الرزيّة تستهوى قُوى جَلَدِي ... والطرف تسهره والدمع تنزفه
فماله خلّة في الزهد منكرة ... ولا له شبه في الخلق نعرفه
مضى، وأعظم مفقود فجعت به ... من لا نظير له في الخلق يخلفه
وينسب إلى طوس كذلك الشاعر الفارسي أبو القاسم الفردوسي صاحب الشاهنامة المتوفى سنة 411. وبها مات ودفن على مقربة من باب رزان أحد أبواب المدينة في سورها الشمالي الشرقي
وقد زار نظامي العروض قبر الفردوسي سنة 510 وقال: (وكان داخل الباب بستان للفردوسي فدفُن فيه وهو اليوم هناك) وقال هو لتشاه السمرقندي سنة 893 (وقبره في طوس بجانب مزار العباسية، ومرقده الشريف معروف اليوم، يزوره الناس)
ويقول القاضي نور الله في أواخر القرن العاشر الهجري إنه زار قبر الفردوسي
وقد رآه بعض سياحي أوربا، أوائل القرن التاسع عشر الميلادي. وقال خانيكوف سنة 1858 إن البناء الصغير الذي كان يميز قبر الفردوسي قد اندثر
وقد اجتهد أدباء إيران حتى عرفوا بالقرائن مكان القبر فشادت الدولة عليه بناء فخماً يرى القارئ صورته تحت هذا:
سرنا إلى طوس عشية يوم الجمعة ثالث شهر رجب (12 أكتوبر سنة 1935 - 20 مهرماه سنة 1313) فبلغناها بعد نصف ساعة فملنا إلى الشرق، واجتزنا نهر كشف في جادة واسعة تفضي إلى حديقة الفردوسي، فرأينا بستاناً كبيراً يتوسطه حوض واسع، وراءه بنية جميلة رائعة وهي مصطبة واسعة مربعة يتوسطها بناء مربع القاعدة يرتفع زهاء أربعة أمتار، كتب على أربعة أوجهه أبيات من الشاهنامة. وزيد على الوجه الأول كتابة تبين عن عناية جلالة الشاه رضا بهلوي بالفردوسي، وأمره بتشييد البناء في التاريخ المبين
به
وللبناء باب صغير على جانبيه نقوش تمثل حوادث في الشاهنامة. ويفضي الباب إلى حجرة وسطها قبر عليه صفيحة مربعة من المرمر نحت فيها كلمات معناها أن أدلة كثيرة تثبت أن هنا قبر الفردوسي وتاريخ مولد الشاعر ووفاته، وفي الجدار المقابل للباب كوّة. والبناء في جملته جميل رائع
جلسنا في سرادق ضرب هنالك، فلما اقترب مقدم جلالة الشاه، سرنا إلى النصب فوقفنا على سجاجيد فرشت بين الحوض والبناء، وقف الوفود وحدهم، وأعيان الإيرانيين وحدهم. ثم أقبل جلالة الشاه، فسلم على الوافدين واحداً واحداً، يعرفه بهم رئيس الوزراء ووزير المعارف. ثم ارتقى جلالة الشاه النصب، ووقف يقرأ كلمة افتتاح تذكار الفردوسي. ثم قطع بمقراض الشريط المحيط بالنصب ودخل فرأى قبر الشاعر، ثم دُعي الوفود فدخلوا. ثم وقف جلالة الشاه في ناحية من الحديقة يتحدث مع وزراءه، ثم ركب سيارته. وبقينا زمناً نمتع العين بما نرى، ونأخذ بأطراف الحديث ورأيت على يسار الجادة المفضية إلى حديقة الفردوسي بناء له قبة وقد تهدمت أعاليه، فقال من كان معنا من أهل مشهد إنه قصر بناه الرشيد، وقال بعض المستشرقين إنه قبر الغزالي. وإنه بني على نسق مرقد السلطان سنجر في مرو، وعلى نسقه بني مرقد السلطان الجاينو في السلطانية وإنما العلم عند الله
رجعنا إلى مشهد فبقينا إلى صبيحة الاثنين ثم أخذنا طريقنا عوداً إلى طهران
عبد الوهاب عزام
أحمد المتنبي
للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي
1
أحمدٌ كان مثل بحرٍ رحيب ... موجه فوق لُجِّه كالكثيبِ
شغلَ الناسَ منذ كانَ بشعرٍ ... قاله معجزاً لكل أديبِ
إنْ يكن أحمدٌ تنبّأ في القو ... م فما إن عليه من تثريبِ
فلقد كان الشعرُ يُوحى إليه ... سُوَرَاً للاصلاحِ والتهذيبِ
إنما معجزاته في معاني ... هـ وفي لفظه وفي الأسلوبِ
كم له من معنىً تراه قريباً ... وهو في نفسِ الأمرِ غير قريبِ

ومن اللفظ ما يكاد من الرق ... ة يجري إلى صميمِ القلوبِ
2
أحمدٌ كان شاعراً وحكيما ... وبأسرار النفس كانٍ عليما
أحمدٌ لا يفنى وإن كان في قب ... رٍ عَفَتْه الأيام عَظْماً رميما
أحمدٌ كان في الزعامة للشع ... ر وفي العلمِ بالحياةِ عظيما
قد أراد الحُسَّادُ للحُرِّ هضما ... فأبى الحُرُّ أن يكون هضيما
جعل الشعر كالنهار مضيئاً ... بعد ان كان الشعرُ ليلاً بهيما
وكأن الديوان في جمعه ما ... قاله كان للنجوم سديماً
قتلوا الشاعرَ العظيم اغتيالا ... وفشا قتله فكان أليماً
3
أيها الشاعر الحفيّ القدير ... باسمك اليوم يهتف الجمهور
أكبر الفضل ما تقّدره الأجيا ... ل من بعد أهله والدهور
إنما قد أصاب شاكلةَ الأمـ ... ة لما أصابك المقدور
ذُمَّ دنيا غرّارة ليس تخلو ... من رزايا يسوء فيها المصير
أفجعُ الحادثات في الغرب والشر ... ق على النابه الأديب تدور
قاءل الشعر قد يبور مصاباً ... بُلِمٍّ وشعره لا يبور
حبذا الشعر آتياً من شعور ... إنما يلمس الشعورَ الشعور
4
يا قتيل الآداب إنك باق ... وستحيا في أنفسِ العشّاق
كل بيتٍ قد قلته فيك ارثى ... آهةٌ لي جاءت من الأعماقِ
حَرَم القاتلوك أمتهم من ... كلمٍ ملء الدهرِ والآفاق
ولقد صارعتَ الخطوبَ إلى أن ... أطفأتْ منك كوكباً ذا ائتلاق
شاعر العقل، شاعر المجد والفخ ... ر الأثيلين، شاعر الأخلاق
والذي آمنتْ ببعثته النا ... س على خِلفةٍ من الأذواق
جاءت الخيل وهي تنحط إعيا ... ء وراء المحجَّل السبّاق
5
إنما أنت للقريب الجديد ... مثلما أنت للقديم البعيد
لستُ ممن يَقْلُون كل قديم ... غير أني أحبَ كل جديد
أنت في الدولتين كنتَ رسولا ... ذا كتاب تدعو إلى التوحيد
ولقد صاغوا الشعرَ قبلك من لف ... ظٍ ووزنٍ وصُغته من حديد
واحدٌ أنت من عباقرةٍ ما ... توا على الأرض غيلةً للخلود
أنت من جني القريض عليهم ... قَتِلَ الشعرُ كم له شهيد!
كنتَ حيناً كالليث يزأر للبط ... ش وحيناً كالبلبل الغِرِّيد
6
أنت بالشعر إذ هززتَ الشعوبا ... كنت تُرضي النُهى وتُرضي القلوبا
حِكَمٌ للذي أراد صوابا ... ونسيبٌ لمن أراد النسيبا
تلك نارٌ إذا خَبَت فهي تُبقي ... من جديد للمصطلين لهيبا
يتعب الدهرُ في التخيُّرِ حتى ... يهبُ الناسَ شاعراً أو أديبا
قد دعاك العُلا فسرتَ إليه ... ودعوتَ العُلا فكان مجيبا
إنه وحده الحبيب الذي قد ... كنتَ منه وكان منك قريبا
ولئن كنتَ للغبيّ بغيضا ... فلقد كنتَ للذكيّ حبيبا
7
أنت فردٌ يا أحمدُ المتنبي ... في قريضٍ نظمته، إي وربّي!
ما دعوتَ القوافي الغُرّ إلا ... وهي عند الدعاء جاءت تلبّي
كثر الناقدو قريضك بالبا ... طل ستراً لصدقه بالِكْذبِ
رُبَّ بنت للشعر قد وأدوها ... في ربيع الصبا على غيرِ ذنبِ
غير أن الأيام قد ضربتهم ... بعد حرب تأججت أيّ ضربِ
شاعرُ أنت للعروبة جمعا_ء ... برغم الحُسّاد في كل حقبِ
ولقد قالوا ما لأحمدّ قبرٌ ... كذبوا، إن قبر أحمد قلبي

8
لك في الشعر عزّةٌ قعساء ... عَجَزَتْ عن بلوغها الشعراء
إنهم ضلوا في ظلام الليالي ... وهدتك المجرّة البيضاء
إنما قالة القريض كثير ... وقليلٌ من بينها النبغاء
بين من راضوا الشعر أو قرضوه ... ليس إلا لاسم الزعيم البقاء
القريض الشريف ممن أهانو ... هـ بما أسندوا إليه بَراء
ليس من حظ العبقريّ إذا بَرْ ... رَزَ إلا العِداء والبغضاء
ليس بالشعر ما خلا من شعورٍ ... وإن احلولى لفظه والبناء
9
فاق شعرٌ به نطقتَ مبينا ... غُررَ الأولين والآخرينا
كان يحكي اليراعُ منك حساماً ... كلما احتل من يديك اليمينا
كنت تسطو فيه فَيُبدي زئيراً ... ثم تشكو به فيُبدي أنينا
ضحكوا غِرَّةً فأسبلت دمعا ... كنتَ تبكي به على الضاحكينا
ضمّ ديوانك الذي هو فِرَدو ... سٌ من الشعر البِكر حوراً عينا
إنني كلما له جئت أتلو ... أقرأ الحُسْنَ والهدى واليقينا
ولقد أبصرُ الكماةَ أمامي ... وأرى قسطلاً فأُغضي العيونا
10
كان ليلٌ يدجو كان صباحُ ... تتغذّى بضوئه الأرواح
أنت في بحر كنتَ تسبح والبا ... قون في حوض ماؤه ضحضاح
بك ليلُ القريض بعد ظلام ... لاح للعين صبحه الوضّاح
ثم زاد المقصرون صناعا ... تٍ إليها الأديب لا يرتاح
ثم كان الغواة فيه فريقي ... ن لكلٍّ عتادُه والسلاح
ففريقٌ مُقلدٌ لسواه ... وفريقٌ أباح ما لا يُباح
ثم شّبتْ بين الفريقين حربُ ... كثرت في الغِمار منها الجِراح
11
واحدٌ أنت من ملوك المعاني ... ما له في سلطانه من ثان
شاعر العقل والعواطف في النف ... س وما في قرارها من أماني
لا يدانيك ناقدُ قد تحدّى ... إنه هادمٌ وأنت الباني
ما لهم في البلاغة اليوم أرضٌ ... ولك المشرقان والمغربان
أنت ما كنت ترسل الشعرَ إلا ... بعد نضج في العقل أو في الجنان
بعد ألفٍ من السنين تقصّى ... أكبرتْكَ الأقوامُ في مهرجان
تعتري السامعي قريضك منهم ... هزةٌ في الأرواح والأبدان
12
إنما جاءت الوفودُ ترامى ... لتحييك ركُعاً وقياما
إنهم يُكبِرونَ منك زعيما ... اقعد الناسَ شعرُه وأقاما
أنهم لبّوا دعوةَ الشَعبِ لما ... قدموا أفواجاً فكانوا كراما
لك يا أحمدُ الإمامة في المو ... ت كما كنتَ في الحياة إماما
حبذا أبياتٌ بها كنت تشدو ... فَجَرَت أمثالاً تزين الكلاما
سكت البلبلُ الذي كان يشدو ... كلَ صبحٍ فيوقظ النواما
محسنٌ للتجديد أحمدُ في البد ... ء فَمَنْ ذا سيحسن الأتماما؟
(بغداد)
جميل صدقي الزهاوي
فانك مصري
للأستاذ فخري أبو السعود
لمناسبة ما أبداه بعض الإفرنج من إمارات الاستهجان أثناء عرض مناظر المؤتمر الوطني بدور السينما
أَقِمْ صَاغِراً وَأرْغَمْ حياتَكَ وَأشْقَهَا ... فإنَّكَ مِصْرِيٌّ وإنكَ مُسْلِمُ!
وإنك شرقيٌ وَنَسْلُ أعَارِبٍ ... يَدِرينُكَ غَرْبِيٌّ وَيَعْلوُكَ أعْجَمُ
وإنك بين البِيضِ أسمرُ كالِحٌ ... وحَظكَ في الدنيا كجِلْدِك أسْحَمُ

وإنك ذيلُ العصرِ والغَيْرُ رأسُهُ ... تَقَاعَسْتَ عنه محجما حيثُ يُقْدِمُ
ولسْتَ بِفَعَّالٍ ولست بصانعٍ ... وغيرُك مشهودُ الصناعة مُحْكَم
يجيءُ بآياتِ الحضارة مُبْدَعاً ... وتَعْجَبُ مما بات يأتِي وَتَسْهَمُ
وأنتَ إذا قالَ المُفَاخِرُ عاجزٌ ... وأنْ نَطَقَتْ بيضُ الصَّوَارِمِ مُفْحَم
ورأيُكَ منْبُوذٌ وقولُك ضائعٌ ... وسيَّانِ منه صارِحٌ وَمُكَتَّمُ
وأرضُكَ مَلهى للدخيل وملعبٌ ... وجِدُّكَ مَلهاةٌ لمن يَتَهَكَّمُ
وحقُّك مبذولٌ وسعيك طائِشٌ ... وإرْثُكَ بين الطامعين مُقَسَّمُ
وأنتَ أجيرٌ في بلادك خادم ... وغيرُك يُسْتَجْدي رضاه ويُخْدَم
تَوَلَّى بأصْفَى دَرِّها ونتاجها ... ويُرضيك ما يَبْقَي ويكفيك درهم
ولاَ تَعْتَبِنْ يوماً عليه إذا انبرى ... يسبُّك مُفتاتاً علي ويشتم
فمِثْلُكَ مَنْ دَرَاى إذا احْتَدَّ غاضبٌ ... ومثلُكَ مَنْ يُغضي ويعفو ويَحْلُمُ
وغيرُك مَنْ إنْ مَسَّهُ الحيفُ عافَهُ ... وثاَرَ على مُستكبرٍ يَتَهضَّمُ
ولا تَمْدُدَنْ كَفَّاً إليه مصافحاً ... فَتُرْفَضَ وَاصْمُتْ إنَّ صَمْتَكَ مَغْنَمُ
بذا قضت الأقدار: شَعبٌ مكاثِرٌ ... عزيزٌ، وشعبٌ يُسْتَذَلُّ ويُظْلَمُ
ولا تَذْكُرَنْ مجداً لمصرَ وأعْصُراً ... تَسَامى بها المُلكُ الرفيعُ المعظَّم
ولا تَذْكُرَنْ عهداً به السُّمْرُ وَطَّدُوا ... بناءً لهم في العالمين ودعَّموا
وعهداً إذا رَجَّى به الناسُ مُنْتَمىً ... إلى العِزِّ قال العزُّ للعَرَبِ انْتَمُوا!
وعهداً به أمْسَى الزمانُ مسِّبحاً ... بحمد الالى لله صَلَّوْا وسَلَّموا
ولا تَرْثِيَنْ تلك العهودَ ولا تَئُجْ ... عليها فما يَثْنِي المشَيَّع مأتَمُ
وتلك عهودٌ قد تَوَلَّتْ وقد تَلَتْ ... شُعُوبٌ ومَنْ لم يْحكُموا الناسَ يُحكَموا
فَعِشْ رَاغماً أو فاسْمُ للعز ضارباً ... بِعَزْمٍ إذا ما أَحْجَم الجنُّ يَقْحَمُ
وحزمٍ يُصمُّ السَّمْعَ عن هَجْوِ كَاشحٍ ... وجِدٍّ يُجِبُّ الصَّمْتَ لا يَتكلمُ
فخري أبو السعود

من الأدب الفرنسي المعاصر

أندريه جيد

بقلم علي كامل

كثيراً ما تقع أعيينا على صورة نقشها يراع رّسام بارع ليعبر بها عن فكرة من الأفكار فإذا هذه الصورة توافق هوى في نفوسنا لأول نظرة بحث نرى فيها خير ما يمكن التعبير به عن هذه الفكرة. كذلك قد نقرأ جملة قصيرة خطها قصصي أو ناقد يصف بها شخصاً من الأشخاص فإذا هذا الوصف بالنسبة لنا كأنه كان ضالة منشودة وصلنا أليها بعد طول عناء. . كأن كلا منا كانت تتردد أمام عينه هذه الشخصية يريد وصفها وتحديدها ولكن عبثاً، حتى جاءت الجملة التي قرأها فنزلت على قلبه وأعصابه المتلهفة القلقة برداً وسلاماً!

كان يجب أن يمر بنفسي هذا الخاطر وأنا أقرأ الدراسة القيمة التي كتبها في الشهر الماضي الناقد الفرنسي بنجامان كْرمُيو عن أندريه جيد. ذلك الكاتب الفذ الذي جاوز الخامسة والستين وهو مع ذلك لا يزال شاب القلب والنفس يتزعم مدرسة (التحرر الأخلاقي) في الأدب الفرنسي الحديث، ويعالج مشاكل الشباب النفسية وخصوصاً الجنسية والنزعات الطائشة المتغلبة التي تلازم الكثير منهم بصراحة جريئة وحرية لا حد لها حتى نفر الشيوخ من ذلك الكاتب الشيخ. واحتفظ الشباب بالولاء له وتمجيده والتهام أدبه

لم أكد أقرأ قول بنجامان كرميو: (لأن أول نظرة إلى أندريه جيد تبين لنا أنه مخلوق مضطرب قلق، معقد، يتركب من عدة شخصيات. ولكنه يمت إلى نوع نادر من البشر) ثم قوله. (وعندئذ لا نلبث أن نعرف أن فنه صورة منه). ولم أكد أقرأ ذلك حتى مرت أمام عيني كشريط سينمائي كل الصور التي رأيتها لأندريه جيد. وتذكرت عدداً من مجلة كان قد نشر - لمناسبة لا أذكرها الآن - بضع صور له في فترات حياته المختلفة: في الشباب والرجولة والكهولة. وتذكرت معه هاتين العينين الحائرتين، والوقفة المضطربة، والشارب المحلوق النادر بين الفرنسيين. الذي ينزل به من سن الستين إلى الثلاثين. فعرفت عندئذ مقدار ما في بنجامان كرميو من الصدق ودقة الملاحظة نعم إن فن أندريه جيد وفلسفته هما قبل كل شيء صدى لمشكلة نفسه ومأساة

حياته. فقد نشأ جيد في أسرة دينية متقشفة من أب بروتستنتي وأم كاثوليكية. وكان أثر بروتستانتية والده
أعمق من أثر كاثوليكية والدته. وربى جيد تربية دينية خالصة، فكانت هذه التربية وتناقضها مع طبيعة جيد أولا ومع الظروف التي صادفت شبابه ثانياً سبباً قاسياً في أن تجعل من حياته مأساة إنسانية كبرى، وأن تجعل شخصيته فريسة لحرب شعراء بين جيد المتدين بولادته وأسرته وتربيته، وجيد المتحرر تحرراً كلياً من سيطرة الدين بعقله وإرادته
عندما بلغ جيد سن الشباب استيقظت نفسه على أشعار الجيل الأول من المدرسة الرمزية في الشعر الفرنسي تحت زعامة فرلين ورامبو وملارمي. وكان عهد ازدهار هذا الجيل قد آذن بالمغيب وخلفه الجيل الثاني الذي من أعضائه فرنسيس جيمز وبول كالوريل، وبول فور. فانضم إليهم أندريه جيد إذ وجد في الشعر الرمزي الحالم السابح في أجواء الخيال، المتحرر حتى من القيود الشعرية نفسها، سبيلاً إلى الانطلاق من عالمه الديني الضيق المخنوق. ولم يكن تأثر جيد بالشعراء الرمزيين قاصراً على فنهم فحسب، بل وجد في حياة الكثير منهم مثل فرلين ورامبو مثلاً أعلى لحياة الفنان الحر الطليق الذي يريد أن يصل إلى فهم الحياة الحق مهما كلفه ذلك من الثورة على كل تقليد، والخروج على كل عرف أخلاقي؛ على أن رمزيه أندريه جيد لم تبلغ في تحكم العاطفة بها ما بلغته رمزية الجيل الأول. فهو أقل حدة في العاطفة وجموحاً في الخيال. وهو أمر سخرية وأعمق تفكيراً واشد رغبة في إدراك حقيقة نفسه، وأعظم انطلاقا وتعلقاً بالحياة المرحة. وفي أول كتبه ' (دفاتر أندريه ولتر) (1891) تراه يعبر عن ذلك بقوله (يجب النظر إلى الحياة بعين شاملة وطبيعة طلقة مع الاحتفاظ بالنفس المتيقظة)
وفي ذلك الوقت أيضاً - وقت شباب جيد - غزت فرنسا أفكارُ الفيلسوف الألماني (نيتشه)، والكاتب الأيرلندي (أوسكار وايلد) فتأثر بهما اندريه جيد تأثراً عظيماً. أخذ عن الأول فكرته عن (السبرمان)، وعن الثاني فكرته عن سيادة الفن وحق الفنان في أن يحيا على هامش العادات الأخلاقية المرعية، والاثنان - جيد ووايلد - يتفقان في إيمانهما بفكرة الجمال عند الأثينيين القدماء
ذلك تأثر جيد بفكرة الكاتب الفرنسي موريس باريس عن (عبادة النفس) وأخذ عنه سخريته العالية
وأخيراً يجيء دور الكاتب الروسي دستوفسكي فكما أن نيتشه وأوسكار وايلد كانا أعظم من
أثر في جيد الشباب، كان دستوفسكي أعظم من أثر في جيد الرجل
من ذلك نرى أن جيد قد تأثر بكل الآراء المتطرفة المعاصرة له، أليس هو القائل: (إن كل ما هو متطرف يؤثر في؟) لقد تأثر بالشعراء الرمزيين الفرنسيين، وبأوسكار وايلد الايرلندي، ونيتشه الألماني، ودستوفسكي الروسي. لذا كان أدبه كلاسيكي النزعة على أن جيد على رغم كلاسيكيته بعيد كل البعد عن العبودية لمن تأثر بهم. فشخصيته القوية المستقلة تنبض بها أعماله كلها بشكل قوي مؤثر، وإن طبيعته الثائرة القلقة وجهده الصارخ في التحرير تجعلانه يجري وراء الثقافة الواسعة التي لا تعرف التمييز بين كاتب وآخر (فأنا - كما يقول - أنتظر دائماً شيئاً أجهله: أنتظر ضروباً جديدة من الفن وأفكاراً جديدة) ولقد بلغت به رغبته الحادة في المعرفة الشاملة إلى دراسة اللغات الأجنبية كي يقرأ أعمال من يعجب بهم بلغاتهم الأصلية
كانت أعمال جيد الأولى (دفاتر أندريه ولتر) (1891) و (1892) و ' (1893) عبارة عن اعترافات تتضمن نزعات جيد الفكرية التي أراد بها التحرر مرة واحدة من حياته الطاهرة المتقشفة. ففي أول أعماله يقول (الحياة الطلقة، تلك هي أسمى حياة، سوف لا أستبدل بها غيرها مطلقاً. لقد ذقت من هذه الحياة الطلقة ضروباً كثيرة. على أن الحياة الحقيقة كانت أقصرها)
وفي هذه الأعمال الثلاثة الأولى يلمح القارئ بين سطورها ميولاً جامحة خفية يحاول جيد أن يحجم عن التصريح بها
على أن هذه الحرية التي يبيحها جيد لنفسه دون قيد لا تلبث أن يطغى عليها أحياناً إحساسه الديني فيقول في نفس الكتاب: (إنني أتمنى وأنا الآن في الحادية والعشرين

من عمري، وهي السن التي تنطلق فيها من عقالها الشهوات، أن اقمعها بالعمل المضني اللذيذ. إنني أود في الوقت الذي يجري فيه الآخرون وراء ملذاتهم أن أذوق اللذات الخشنة التي تلازم حياة الصومعة)

وفي (1897) نرى جيد يبلغ انطلاقه الكلي من حيث الدعوة إلى أن المعرفة لا تأتي عن طريق الفكر بل عن طريق الحس. من ذلك قوله: (إنك لا تستطيع أن تقدر المجهود الذي كان لزاماً علينا بذله لكي نحس إحساساً صادقاً بالحياة، والآن وقد تحقق ذلك فهو كالحال مع كل شيء آخر عن طريق الحس والشهوة) وكقوله أيضاً (لقد تسكعت هنا وهناك كي أستطيع أن ألمس كل من يتسكع - إن قلبي يفيض بالحنان والحنين إلى كل من لا يعرف أين مكان دفته. وأحب حباً مفرطاً كل من يهيم بالتجوال والتصعلك) ثم انظر كيف لا يستطيع الفرار في هذا الكتاب أيضاً من إحساسه الديني حين يقول: كنت أقرأ (عقيدة العلم) لفيخت فشعرت بأنني سأعود متديناً من جديد

وفي قصة ' (1902) نرى عبقرية جيد، وتأثره العميق بالفيلسوف نيتشه، قد تعاونا على إظهار فكرة (التحرر الأخلاقي) حيث نرى بطل القصة (ميشيل) - وهو رجل مريض - يتقدم نحو الشفاء كلما حرر نفسه من الأوضاع الأخلاقية

وفي (1909) و (1911) و (1919) نرى جيد - وخصوصاً في القصة الأولى - يعالج شخصيات تخالف تماماً في تفكيرها ونزعتها ما نراه من الأفكار والنزعات في الأعمال الأولى، لأن الأولى استسلام مطلق لنداء الحياة، والثانية استسلام مطلق لنداء العاطفة الدينية.

فبينما نرى (ميشيل) في قصة ' ذلك الثائر على نظام الأسرة، الهاجر لماله وزوجته، المتمرد على الراحة والأستقرار، الراغب في الرحيل إلى أبعد مكان، الواجد في الحرية الجسدية والانطلاق الحسي شفاءه العاجل. نرى أيضاً (أليسا) في قصة تلك الفتاة الوادعة المتقشفة التي تغمرها العاطفة الدينية حتى تدفعها إلى رفض الزواج من أبن عمها (جيروم) الذي تحبه لكي تقصر نفسها على الاستسلام لاحساساتها الدينية، وتقترب من الله الذي تسميه (الأحسن)

ولاشك أن القصي العبقري هو الذي يرسم لنا بين حين وآخر صوراً إنسانية متباينة تختلف كل الاختلاف عن شخصية راسمها الذي تسمو عبقريته كلما استطاع التجرد من كل مؤثر ذاتي. وهذا هو ما نراه في قصتي , للقصصي العظيم بلزاك، والقصتان تقتربان من حيث تناقض نفسية الشخصيات من قصتي جيد وعلى أن الفرق بين بلزاك وجيد - من هذه الناحية - أن بلزاك في قصتيه يرسم لنا شخصيات خارجة عن نفسه. أما جيد فكل شخصية من شخصيات قصصه عبارة عن فكرة متحركة من أفكاره. ففي قصتيه السابقتين تراه يختفي وراء شخصيتي (ميشيل) و (أليسا)، فشخصة (أليسا) هي صدى حياة جيد

الطفل الذي نشا بين أعطاف الدين فطبع حياته كلها بطابع لم يجد جيد وهو رجل سبيلاً إلى التخلص منه؛ وشخصية (ميشيل) هي شخصية جيد الشاب المفكر الذي نظر حوله فوجد أن حياة الزهد الماضية قد حرمته كل متع الحياة فلم يجد وسيلة إلى التحرر من تراث ماضيه وتعويض ما فقده من العمر في أحضان الزهد والحرمان إلا بإنكار كل قاعدة أخلاقية واستغلال كل دقيقة للتمتع بكل لذة مستطاعة

وقد يلام أندريه جيد ويتهم فنه القصصي بالنقص لأنه اختفى وراء كل شخصياته ولم يرسم لنا صوراً إنسانية خارجة عن نفسه شأن القصصيين العباقرة. والواقع أن جيد ليس له من النبوغ القصصي نصيب عظيم، وإنما عبقريته الحق هي في تلك الدعوة الحارة إلى (سيادة الحياة) وفي ذلك البحث المتواصل قي سبيل فهم نفسه والنفس الإنسانية. وقي ذلك الاحتمال الباسل لهذا الكفاح العنيف داخل نفسه بين تربيته وبين تفكيره بين العاطفة الدينية وبين الإباحية الأخلاقية. ثم أخيراً في محاولته الجريئة للتوفيق بينهما كما سنرى. ذلك كله هو الذي يعطي فن أندريه جيد لوناً تجديدياً وضاء، ويعطي كتبه ذيوعاً قل أن نصادفه في كتب أعاظم الكتاب المعاصرين. أليس هذا الفن - كما يقول الناقد أندريه بير - هو خير تعبير عن اضطراب العصر الذي نعيش فيه؟ إن في كل صفحة من صفحاته تجد النفوس القلقة الجامحة مجالاً لا مثيل له لراحتها لنفسية، فهو يكتب ما يقول (حتى يجد كل مراهق يصبح فيما بعد مماثلاً لي وأنا في

السادسة عشرة من عمري - ولكنه يكون اكثر مني حرية وشجاعة وأعظم كمالا -
جواباً لسؤاله المرتجف) فما هو هذا الجواب؟ ذلك ما سوف نراه
(البقية في العدد القادم)
علي كامل
القصص
ضحية الوهم
بقلم القصصي الإيطالي المعروف ماسيمو بونتمبلي
عهد إلي (رينيه كلامار) أن أقتل الوقت مع (ميني)، لأنه يريد أن يقضي أمراً يقصيه عنها نحو نصف الساعة. فأخذنا نسير في طريق اللوفر. وعلى حين غرة تركتني ميني مسرعة إلى الناحية الأخرى من الشارع لترى صندوقاً زجاجياً مستطيل الشكل وضع أمام حانوت لبيع أدوات صيد السمك.
وكانت الأسماك الذهبية تسبح في الماء الصافي الذي امتلأ به الإناء. وكأنها من شدة فرحها لا تعرف بحراً خضماً أعظم من هذا الصندوق الزجاجي
وقالت ميني بعد أن صفقت بيديها:
(يا إلهي، ما أجملها!)
ودنوت أنا منها. ووافقتها على ذلك، وفي صوتي نبرات الجد، قائلاً:
(نعم، إنها جديرة بأن تحوز إعجاب الناس.)
فنظرت إلي ميني نظرة ناقد وقالت:
(ما هذا التعبير: جديرة بأن تحوز إعجاب الناس؟ أنه لا يقال إلا لما يصنعه الإنسان بيده سواء أكان هذا صوراً أم شعراً كالذي يتكلم عنه أصدقاؤك. وكذلك يمكن أن يقال هذا عن الثياب. . . .)
ولكني قاطعتها بقوة من يريد الفصل في الموضوع: (لابد لي أن ألفت نظرت إلى أن رينيه كلامار وأنا وغيرنا - وهنا أخذت تنظر إلي كمن يتفرس في معرفة الأشياء - ذكروا أكثر من مرة أنك جديرة بأن تحوزي إعجاب الناس، ومع ذلك فأنت لست من صنع إنسان)
وابتسمت ميني شاكرة، ولكنها أجابت في منطق معكوس: (ولكني على أي حال لست سمكة)
فتشبثت برأيي وقلت:
(على أني قلت إن هذه السمكات جديرة بأن تحوز إعجاب الناس، لأنها سمكات غير حقيقية، هي سمكات تقليدية.)
فحدقت ميني فيّ أولاً، ثم في السمك ثانياً، ثم عادت تحدق في، ثم صفقت بيديها وقالت:
(أصحيح هذا؟)
وكانت ميني من أولئك الذين يعيشون وينمون ولا يتعدون دور الطفولة. ومثل هؤلاء يسهل إغراؤهم وقيادتهم، وليس عندهم من الأشياء ما لا يمكن تصديقه والإيمان به إذا ما قيل لهم ذلك. قالت ميني:
- ولكن كف تتحرك هذه الأسماك؟
فقلت لها: (إن الكهرباء مسلط عليها.)
فالتفتت بسرعة إلى الأسماك وانحنت على الصندوق تدقق النظر إليه. وكانت يداها المرتجفتان مثبتتين على موضع قلبها. وقالت
ولكن كيف تيسر لها كل ذلك؟ إنها تفتح فاها. والصغيرة هذه تتحاشى الكبيرة في سيرها نحو سطح الماء. وهناك في الركن الآخر اثنان يتقارضان القبل، كأنهما شقيقان. أي. أي. . . وفي القاع السمكة الكبيرة وقد اهتزت المياه من فوقها كفرس البحر (الذي رأيناه في حديقة الحيوان، وكان رينيه معنا
- نعم إنه لشيء عجاب. . . ولكن أناشدك الله ألا تمسي هذه المياه فان الكهرباء سارية فيها.)
فاسترجعت ميني إصبعها من فوق سطح الماء وقالت: (وهذه السمكة وجارتها ألم ينظرا إلي الآن بنظرات حادة؟)
وأبصرت صديقي وقلت:

(.ها هو ذا رينيه)
فقالت هي:
(!أي رينيه، يجب أن تنظر إلى هذه الأسماك)
وقلت مخاطباً رينيه:
(.إن ميني تعتقد أن هذه الأسماك حقيقية
وكان رينيه يعرف طبعي جيداً، ومعرفته بميني تكاد تكون نوعاً من اختصاصه. فاندفه يشاطرني هذري
ولم تجد ميني طيلة ذلك اليوم شيئاً آخر تفكر فيه. ثم قالت فجأة:
- (وكيف تكون هذه؟ أصلبه هي أم لينة؟)
- (ماذا تعنين؟)
- (الأسماك الصناعية)
- (هي لينة كالحقيقية)
- (وماذا تصير لو أنها أخرجت من الماء؟)
- تصير كالأسماك الحقيقية بالضبط، إذ تبغي استنشاق الهواء وترتجف بضع مرات ثم تجمد ولا تتحرك كأنها ميتة.)
- (ثم بعد ذلك؟)
- (ثم بعد ذلك. . . تنتن وتفسد)
- (وإذا ما دفعها إنسان إلى هر؟)
- (يلتهمها كأنها سمكة حقيقية)
وفي المساء التالي جلست وإياي في البهو تنتظر رينيه، فقد ذهب لشراء بعض لفافات من التبغ
- (ميني، ما دامت هذه الأشياء تشغل بلك فسأفصح لك عن سر عظيم. بعد أن اخترعت الأسماك الصغيرة، حاول العلماء خلق أحياء أخرى فاخترعوا العصافير مثلاً. (عصافير صغيرة تحفظ الغناء
- حقاً، إنني شاهدتها وهي من صنع (نورمبرج) من أعمال ألمانيا، ويجب أن تملأ الزنبرك إذا ما أردنا سماع غنائها. وبرغم أنها تحرك المنقار والرأس فأنها لا تطير، وهي صلبة كالمعادن.)
- كل ذلك صحيح يا ميني. ولكن العصافير الأولى كانت كالعصافير الحقيقية تماماً. كانت كالأسماك التي شاهدناه في طريق اللوفر. والآن أفضي إليك السر العظيم، ولقد أردت أن أدلي به إليك من قبل ولكن الفرصة لم تسنح لي. قلت لك خلق العلماء أحياء أخرى ثم. . . ولكن يجب أن تقسمي ألا تذكري ذلك لأحد)
- (حسن، أقسم على ذلك)
- (ثم. . . ثم خلقوا آدميين)
- (!. . . .يا إله السماء)
- (خلقوا اثني عشر شخصاً: ست رجال وست نساء)
- (يا إلهي. . . وكيف كان هؤلاء؟)
- (هم كتلك الأسماك. هم مثلي ومثلك)
- (ولكن أين هم الآن؟)
- هذا ما لا يعرفه أحد. وبهذا حفظ السر. فبعد أن خلقوا خرجوا من المعامل. وأخذ الناس يبحثون عنهم دون جدوى. ولا يعرف غير الله موضعهم)
- (ولكنهم تدثروا بالملابس؟)
- (!طبعاً)
- (ومتى كان ذلك؟)
- (منذ أكثر من سنة)
- (وأين ساروا؟)
- هنا، هنا في باريس. وكانوا كاملين في كل شيء، ولا يمكن تمييزهم من الآدميين الحقيقيين. تصوري يا ميني أننا قد نكون تقابلنا مع أحدهم دون أن نعلم)
- لا، لا. إنني أشعر بالشيب يدب في رأسي، لقد اعتزمت إلا أخرج من المنزل، ويجب على الناس أن يبحثوا عنهم. ولماذا لا يعثرون عليهم؟ وواجب هؤلاء أن يقولوا بأنهم

ليسوا آدميين حقيقيين
ولكنهم لا يعرفون شيئاً عن ذلك كله. إنهم يعتقدون أنهم من لحم ودم كبقية خلق) -
(الله
واختل تفكير ميني، ولم أفلح أنا ورينيه في تشتيت تلك الأفكار الخبيثة عنها. وقد
أقسمنا لها بكل عظيم (أننا لم نبغ إلا الهذر من كل تلك الأمور)
هذا تذكرانه لي الآن حتى أهدأ بعض الهدوء، ولكني أعرف وأعتقد اعتقاداً جازماً بأن) -
كل ما ذكر لي قد وقع، ومن يدري؟ ربما كان ذلك الرجل القادم. . . . . لا، لا. . . لنرجع
ثانية إلى المنزل
.وكانت كلما مرت برجل في طريقنا ظنته صناعياً. وفجأة تأوهت، وأحجمت عن السير
ورأت في بيتها ملجأها الوحيد، ولتبق هي في غرفة منه نابية، أو في ركن منه مظلم.
ولم تتزحزح هذه الأفكار عن مخيلتها، وقد تراكمت فكانت أثقل من جبل، وفي الليل
كانت تنزعج وتصرخ في منامها. فكنت أنا ورينيه نوقظها. وكنا نقسم لها أغلظ الأيمان
من جديد. غير أنها كانت تعتبر كلامنا غير أهل للإجابة عليه، وبدأ الشك والسوداء
:يستوليان عليها. وأخيراً قال لها رينيه
(ماذا يحزنك يا ميني؟) -
ماذا يحزنني. . .؟ لا يعرف أحد إذا كان الذي ينظر إلي أو الذي يكلمني هذا من لحم -
:ودم. لا، لا، أولى لي أن أموت! ثم أدارت رأسها في حركة ميكانيكية وقال
(. . .وأنتما لا تعرفان) -
ولم يكن في مقدرة أحد أن يغريها بترك باريس. ولماذا؟ قد يكونون متفرقين في بقية
العالم
وكانت لا تود رؤية أحد حتى خادمتها الصغيرة لم تطق رؤيتها في المنزل. ثم لزمت
الفراش لا تفارقه
وكنا أنا ورينيه نتناوب السهر عليها، ونقدم لها الطعام فلا تأكل منه إلا يسيراً. وكانت
حياة ملؤها وخز الضمير. وعند ما كانت تغفو كنا نستدعي الأطباء سراً، ليشيروا بعلاج
يرجع لها رشدها. ولكن تلك الفكرة التي لازمتها كانت توغل في الصميم، فتركزت
.أفكارها حول نقطة واحدة . . .
(. . .ربما كان أحدهم من رأيته أو حادثته)
وكانت حياة كلها نكد، يزيد في ظلماتها الذنب المشترك. وكنت أنا ورينيه نمضي
الساعات دون أن ننبس بكلمة أو ينظر أحدنا إلى صاحبهُ
وفي ذات يوم تولانا الرعب من فكرة طارئة. ماذا يكون الحال يا ترى لو خيل إلى
ميني أن أحدنا أو كلينا من أولئك الرجال المصنوعين، الذين يفزع منهم الشياطين
.لمجرد ذكرهم أو تخيلهم. ألم نكن نحن أول من قال لها عن هذا الاختراع السخيف؟
ولكن هذه الفكرة لم تستول عليها، بل اكتسحت مخيلتها فكرة أشد خطراً وأبعد غوراً
كانت ليلة من ليالي الربيع. وقد غرقت ميني في النوم الهادئ ففرحنا. وفتحنا النافذة،
وأطللت أنا ورينيه على الطريق نتسلى برؤية النجوم مرة وبإمعان النظر في الظلام
المخيم
على جوانب الشارع مرة، وتارة كانت تستلفت أنظارنا الأنوار الحمراء التي تضيء
. . .أسماء الحوانيت، وتارة أخرى تسترعي أبصارنا الإعلانات الوضاءة
وعلى حين سمعنا صوتاً جهورياً مرتجفاً. ولما نظرنا خلفنا وجدنا ميني واقفة فوق
سريرها باسطة ذراعيها، وتكاد تنخلع من الرعدة. فأسرعنا إليها ولكنها فزعت منا.
وقذفت بنفسها من السرير فارتطمت بالمرآة. وحدقت أولاً في قميص نومها ثم في
قبضة يدها. ثم دفعت وجهها ليلتصق بالمرآة. ونظرت إلى صورتها وحدقت فيها كأنما
تريد اكتشاف كنه ما بها
أي نعم، إن الأمر لهو كذلك. إنني أراه جلياً واضحاً. نعم، إنني أنا هو. إنني لست من) -
(لحم ودم. كلا، كلا. إنني أنا ذلك الإنسان الصناعي وما كنت أدري ذلك من قبل
:فصاح كل منا
(!ميني) -
لا إنني أفهم الآن كل شيء. إنني متأكدة إنكما لن تعرفا ذلك. . . ولكن ماذا، أنا) -
(فاعلة الآن؟ وماذا في وسعي أن أعمله؟ سامحني يا رينيه! الذنب ليس ذنبي

حاولنا أن نمسك بذراعيها، وهي تحدق في الفضاء. . ولكنها رفعت يدها وأشارت نحو الباب وقالت:
- (ماذا هنالك؟)
- لاشيء، لا أحد يا ميني، هدئي روعك!
- ولكن هنالك. . . . ،، هنالك، من هنالك. . .؟ انظروا انظروا من هو؟
وشع ضوء مخيف من عينها كسا وجهها ضياء جافاً، وانطلت علينا الحيلة، وذهبنا إلى الباب لنهدئ من حدتها. وما كدنا نصله حتى التفتنا إلى الخلف دون سبب، ولكن بعد أن فات الأوان، إذ وقفت ميني كعفريت من الجن على حافة النافذة. فلم نتمالك من الصراخ وهرعنا إليها. ولكنها كانت قد قذفت بنفسها إلى الشارع. ولم يبق منها إلا قطعة من قميص نومها معلقة في يد رينيه. وساد السكون ثواني حسبناها ساعات وإذا بجسدها يرتطم بالإسفلت فيقضي على أنفاسها وعلى هواجسها

عربها عن الألمانية: ا. ا. ي

من أقاصيص الجاهلية

حرب البسوس

بقلم اليوزباشي أحمد الطاهر

- (ما عهدتك تمضي ليلتك في السامر ياجساس، أكان حديث القوم عذباً فألقيت إليه السمع، أم كان لسانك ذرباً فدفعت عن بكر؟).
- (نعم يا خالتاه. لقد دفعت عن بكر بلسان صدق في السامرين، ودفعت هذه القرية التي يسددها كليب لنا في كل مجمع وناد، ولم أنس يا خالتي أن أدفع عنك مقالة السوء التي نالك بها كليب، فقلت للقوم: إنكم تعلمون موضع البسوس من أهلها وتعلمون موضع أهلها من العرب. ومن كانت في هذا الشرف من القوم فما أبعدها عن السعاية والوقيعة. وما نقموا من البسوس يا قوم إلا ما اشتهرت به حماية الجار، وحفظ الذمار؛ وهي بعد ليست ثرة ولا نمة. واندفعت يا خالتاه أقرع حجج كليب حجة بعد حجة: وأورد فرياته فرية بعد فرية، فإذا القوم على كليب ساخطون، وعلى بكر وبني شيبان عاطفون.)

هشت البسوس بنت المنقذ لمقالة جساس ابن أختها، وضمته إلى صدرها وقبلته في مفرقه. واستوت تقص عليه ما سمعت من نساء الحي. ولم يكن للحي من حديث في سامرهم وناديهم ومجمعهم إلا ما بين بكر وتغلب من إحن وحفائظ أخذت البسوس على نفسها عهداً بإذاعتها في القوم وإفشائها في غير قصد ولا أناة. قالت: (هذا كليب بن ربيعة التغلبي قد أخذته العزة بالإثم وبغى على قومه لما دانوا به من الطاعة له والانقياد لسلطانه، حتى بلغ من بغية أن يحمي مواقع السحاب فلا يرعى حماه، ويجير على الدهر فلا تحفز ذمته، ويحمي الوحش في مسارحه فلا يهاج، ولا تورد إبل مع إبله، ولا توقد نار مع ناره. ولقد أخذت الناس رعدة من قوته وسلطانه. وضربوا الأمثال بعزته وطغيانه، وما مبعث هذا البغي وهذا الطغيان إلا النصر الذي أحرزه يوم خَزَازَى حين قاد معداً ففض جموع اليمن. وما النصر يحرزه القائد إلا الفضل الذي أفاضه عليه الجنود، بالتفافهم حول لوائه واندفاعهم على العدو. فما كان القائد ليحرز نصراً لو تخلى عنه الجنود. ولكن قد يحرز الجند نصراً وقد ولى عنهم القائد. على أنه يا ابن أخت، لو كان فيه ذمامة من حياء، أو بقية من وفاء، لما تعاظم على قوم رفعه، ولا تكاثر على شعب رفده. ولو كان ممن يرعون العهد ويحفظون الذمار لرعى عهد النسب وحرمة القربى، ولرعي الصلة الوشيجة، والخاصة الوليجة. أليست زوجه جليلة وهي أختك؟ إن أعجب يا جساس فما أعجب إلا لصبر هذه اللكاع عليه، وسكوتها على بغيه، وهي زوجه أولى الناس بتقويمه إذا اعوج، وتليينه إذا صلب، وسياسته إذا شط؛ وهي أولى الناس بالمدافعة عن أخيها وعن خالتها، وما ادخر كليب وسعاً في النيل من أخيها ومن خالتها. لا أبغي يا جساس من قولي أن أنغل بينك وبين أختك ولا بينك وبين كليب. كلا. ولا أن أبذر شقاقاً بين جليلة وزوجها، ولكني أرى من كليب بغياً واستهانة، وأرى منك ضعفاً واستكانة، وأرى من جليلة صمتاً للمذلة وصبراً على الهوان. وكأني بك تقرها على صمتها وترضي عن صبرها. وأنت لا تقل عن كليب في طول النجاد، ورفعة العماد، على يفاعك وحدث سنك.)

قام جساس وقد استحصد، وغلى الدم في رأسه وركبه الشيطان، وأقسم ليقصمن

ظهر كليب، ولينصرن عشيرته، ولينضحن عن بني شيبان. ثم احتواه الليل فبات يرعى النجوم، ويستعرض الهموم، حتى انبلج الصبح فإذا هو يسعى إلى البسوس يقص عليها ما جاش به صدره، وما استقر عليه عزمه. قال: (يا خالتاه. لقد قدحت الذهن حتى استعر، وعببت الرأي حتى اختمر، وشاورت النفس فطاب لها الحمام، وغمزت العزم فألفيته شديد العُرام، وأنا اليوم علي أن ألتمس كليباً في غرة فأنتقم لبكر وبني شيبان، وأرفع عنهم المذلة والهوان.)

قالت: (وهل شاورت الحي فيما اعتزمت؟)

قال: (الرأي الخطير كالجمرة المستعرة كلما تادولتها الأيدي فترت حرتها وانطفأت جذوتها. وما يركن ذوو الرأي إلى المشورة إلا حين تعجز هممهم عن النفاذ، وتقعد عن النجاز، فيلتمسون لدى الناس رأياً يتخذونه لقعودهم سبباً، ولعجزهم تعلّة، وأنا إن أصحرت بالتدبير فما آمن أن ينتهي إلى كليب فيعتصم ويتقي.)

. . .وكانت البسوس قد استودعت سراً

وكان ما أفضى به جساس إلى البسوس حديث القوم في سامرهم وناديهم تتناقله يشكر وشيبان، وذهل وقيس، ووائل وبكر، وغير أولئك من القبائل والبطون والأفخاذ وفي ضحوة من النهار اجتمع عند البسوس: همام بن مرة أخو جسّاس، والفِنْد الزماني سيد

بكر وفارسها وشاعرها، وبسطام بن قيس فارس بني شيبان، وأبو فَيْد عمرو بن الحرث السدوسي، والحرث بن عباد فارس النعامة وفارس ربيعة وشاعرها. وجلس جساس مطرقاً ينكت الأرض يعود في يده والقوم ينظرون إليه وينظر إليهم في حيرة ووجوم

قال بسطام: (ما بالك يا جساس تحبس النفس على الأذى، وأنت فينا تنظر يمنة فلا تجد إلا فارساً مغواراً، أو أسداً كراراً، وتنظر يسرة فلا تجد إلا بصيراً في الرأي، أو نصيراً في الشدة؟)

قال جساس: (أعلم ذلك. وأعلم أنه لا يدفع الهون ولا يرد البلاء إلا سفك الدماء) قال همام بن مرة. (إنه كذلك. .)

قال أبو فيد: (أما الهون فقد لحق بكراً حتى أذلها، وأما البلاء فقد وقع ماله من دافع. وأما الصبر عليه فأمر يرجع إليكم ويعود عليكم، ولست أدري إن كنتم لكليب وتغلب أكفاء في القتال، ولكني أعلم أنكم لا تقلون عنهم في الشرف، ولستم دونهم في المنزلة، فان كنتم على هذا تصبرون، فقد رضيتم من العيش بالدون، وإن أحمسكم الذل وقام رجالكم للحرب يؤرجون فإني بريء مما تفعلون)

فنهض الحرث بن عباد، والفند الزماني مغضبين وقد هم أحدهما بأبي فيد يعصر عنقه وقالا أو قال أحدهما: (ثكلتك أمك يا رسول الوقيعة، تحمس الرجل وتستثيره، وتنغل بينه وبين القوم ثم تقول إني بريء مما تفعلون؟ لشد ما أمعنت في الوقيعة والسعاية، ولعمري ما مؤرج الحرب إن قامت إلا أنت. قم لادر ضرعك)

وفر ابو فيد لا يلوي على شيء

وأنت يا جساس أصلح من شأنك، وهون عليك بأسك، واستشعر الحكمة، واستلهم) الصواب، ولا تبرم الرأي إلا بعد التدبير، ولا تعقد العزم إلا بعد التفكير؛ ولك من رعاية الله خير معين ونصير)

وانفض مجلس القوم، ودخل جساس إلى فناء البسوس واجماً مطرقاً

قالت البسوس: (هون عليك فالخطب أيسر مما ترى، ولعل الخير في الأناة، قم فلقد رثأت لك لبناً يفثأ غضبك)

قال: (ما بي حاجة إلى الشراب) قالت: (هو لبن احتلبته من سراب ناقة سعد وقد استودعنيها وأحل لي حلبتها.) قال: (لا)، ومضت البسوس إلى شانها، ولبث جساس مطرقاً

وما هي إلا فينة حتى عادت سراب تشخب دماً. واستبانت البسوس ما بها فإذا كليب قد اشتد عليها بسهم فخرم ضرعها؛ فنفرت وهي ترغو وعادت إلى حظيرتها. وما نقم كليب منها إلا أنها تبعت آيلاً له ودخلت وترعى في حماه

صاحب البسوس: وأذلاه! واجاراه!

وقام جساس يتبين الخبر، فلما وقف على ما كان قال: (اسكتي يا خالة فلأقتلن غدا

جمل هو أعظم عقرا من ناقة جارك)
واعتقل رمحه وخرج إلى الفلاة يتوقع غرة كليب. وتبعه عمرو ابن الحرث بن ذهل على فرسه ومعه رمحه حتى لقيا كليباً في حماه فقال له جساس (يا ابن الماجدة عمدت إلى ناقة جارتي فعقرتها)
قال كليب (أتراك ما نعي أن أذب عن حماي؟) ولم يجبه جساس إلا بطنعة قصم بها صلبه، وثنى عمرو بطعنة من خلفه قطعت بطنه. ووقع كليب وهو يفحص برجله وقال لجساس (أغثني بشربة ماء) قال (تجاوزت شبيثاً والاحصْ)
قال الراوي: وكانت الحرب بين بكر وتغلب، وسميت حرب البسوس، وقيل في ناقتها (أشأم من سراب) ولبثت الحرب أربعين عاماً. وسأقص عليك من أنبائها عجبا
أخرجها: اليوزباشي أحمد الطاهر
البريد الأدبي
عيد (التيمس) المائة والخمسون
احتفلت جريدة (التيمس) أخيراً بمرور مائة وخمسين عاماً على إنشائها وأصدرت بهذه المناسبة عدداً خاصاً هو آية من آيات الصحافة الحديثة في تحريره وفي طبعه؛ وفيه تقص تاريخها منذ إنشائها، وتستعرض المراحل والعصور المختلفة التي مرت بها، والحوادث والأعمال العظيمة التي ساهمت فيها واستطاعت أن تؤثر في مجراها، وعلاقاتها ومواقفها المختلفة إزاء الإمبراطورية البريطانية. وقد تلقت (التيمس) بهذه المناسبة سيلاً من التهاني، من معظم حكومات العالم وملوكه، ومن سفراء الدول المختلفة في لندن ومن أقطاب العلم والأدب في سائر أنحاء العالم
والتيمس فخر الصحافة الإنكليزية، وتاريخها ليس تاريخ صحيفة عظيمة فقط، ولكنه تاريخ لصفحات باهرة من الجهاد السياسي والعلمي والأدبي، ومعرض بديع لتقدم الصحافة الكبرى خلال القرن الماضي. وقد أنشئت (التيمس) في سنة 1785، أنشأها جون والتر (الأول) باسم (السجل اليومي العام) ثم غير الاسم في يناير سنة 1788 إلى اسمها الحالي وهو (التيمس). وكان جون والتر صحفياً بالفطرة، وافر المقدرة والبراعة؛ وكان شعاره أن يخرج صحيفة معتدلة الثمن سباقه إلى الأخبار متنوعة المواد قوية بمواردها وإعلاناتها، وفي سنة 1803 خلفه ولده جون والتر (الثاني) في تحرير الصحيفة وإدارتها؛ وفي عهده دخلت التيمس في عهد جديد من القوة والتقدم، وقامت بدور هام في إذاعة حوادث الحروب النابوليونية وفي الدعاية ضد نابليون، وكثيراً ما كانت تسبق إلى نشر الأخبار قبل أن تعلم بها الحكومة. وفي سنة 1817 تولى تحريرها السياسي كاتب قوي هو توماس بارنس، فسار بها سريعاً في طريق الزعامة السياسية؛ وكان يستخدم لمعاونة أقطاب الأحزاب والحكومة مثل دزرائيلي ولورد بروجهام وسترلنج في الدعوة إلى سياسة مستقلة تميل إلى (المحافظة) وبلغ من نفوذ بارنس أن وصف بأنه (أقوى رجل في إنكلترا) وفي ذلك العهد بلغت (التيمس) في تنظيم الأخبار الداخلية والخارجية والأبواب الصحفية ذروة القوة والطرافة، واشتراك في تحرير أقسامها الأدبية والفنية أعلام العصر وفي مقدمتهم ماكولي وفاكري وتوماس مور؛ وتقدم استعدادها الفني والطباعي تقدماً مدهشاً
ولما توفي بارنس سنة 1841 خلفه في تحرير القسم السياسي تاديوس دلاين. وفي أيام حرب القرم (سنة 1853) بعثت التيمس إلى ميدان القتال بمراسل حربي شهير هو وليم رسل، وذاعت شهرة التيمس يومئذ بما كانت تنشره من الملاحظات الفنية والأخبار الطريفة. واستمر دلاين في إدارة التيمس السياسية أعواماً طويلة، وجعل منها أداة سياسية مستقلة، وكان من معاونيه في تحرير القسم السياسي أعظم ساسة العصر وكتابه. ولما توفي جون والتر الثاني سنة 1847، خلفه ولده جون والتر الثالث في ملكية الجريدة؛ وفي عهده تقدمت من الوجهة الفنية تقدماً عظيماً، وزودت بأحدث الآت العصر، وخلف دلاين توماس شنري فاستمر في توجيه سياسة التيمس حتى وفاته سنة 1884، ثم خلفه (بكل)؛ واشتهرت التيمس في هذا العهد بحملاتها على جلادستون ومعارضته في سياسة (الهوم رول) في أيرلندة، وحملاتها على الزعماء الايرلنديين وما وجهته إليهم من تهم اقتضت تأليف لجنة حكومية للتحقيق، وغرمت التيمس في هذا السبيل مبالغ طائلة، ووقعت على رغم انتشارها وازدهارها في مصاعب مالية. ولما توفي صاحبها جون والتر الثالث في سنة 1894، وضع نظام للفصل بين ملكية الجريدة

وآلات الطباعة، وبذلت محاولات عديدة لإنقاذ الصحيفة من متاعبها المالية ولكنها برغم ذلك أشرفت على الإفلاس ووصل أمر الشركة إلى القضاء، فقرر بيعها. وفي سنة 1907 عرضت التيمس بعد مائة واثنين وعشرين عاماً من تأسيسها للبيع، فاشتراها اللورد نور ثكليف وتولى إدارتها موبرلي بل؛ وجددت آلاتها وعُددها الفنية؛ وفي عهده أنشأت التيمس ملحقها الأدبي، وملحقاً للتربية، وملاحق أخرى. ولما توفي سنة 1911 خلفه جوفري داوزون مديرها الحالي. واستمرت التيمس تخفض من ثمنها حتى بيعت ببنس واحد (سنة 1914) وترتب على ذلك مضاعفة انتشارها حتى بلغ ما تبيعه 150 ألفاً. ودخلت الحرب الكبرى بهذا الرقم، وأدت أثناء الحرب خدمات جليلة للجيش والصليب الأحمر، واستطاعت أن تجمع للصليب الأحمر وحده ستة عشر مليوناً. وأصدرت أثناء الحرب تاريخها الشهير عن الحرب ودائرة المعارف للحرب وغيرهما وفي سنة 1922 توفي لورد نور ثكليف فاشترى ملكية الصحيفة جون والتر (الرابع) وعادت التيمس بذلك إلى ملكية الأسرة التي أنشأتها، واشترك معه الماجور آستور هذا هو ملخص تاريخ (التيمس) ولا تزال الصحيفة الكبرى إلى اليوم محتفظة بنزعتها المستقلة مع ميل إلى المحافظة. ومع أنها تقل في الانتشار عن كثير من الصحف الإنكليزية الأخرى، فأنها لا تزال في طليعتها من حيث النفوذ السياسي والمقام الأدبي

مباحث علامة اجتماعي

يقوم العلامة الاجتماعي الروماني الأستاذ جوستي بأبحاث وتجارب طريفة لإثبات نظرياته الاجتماعية وتطبيقها. والأستاذ جوستي من أقطاب علم الاجتماع المعاصرين، وقد ذاع صيته ونظرياته في جميع الأوساط العلمية الغربية؛ وكان الأستاذ مدى حين وزيراً للمعارف الرومانية، وهو الآن أستاذ الاجتماع في جامعة بوخارست ورئيس المعهد الاجتماعي. وقد دعته جامعة باريس أخيراً ليقوم بعرض بحوثه ونظرياته؛ وتلقت جريدة (الجورنال) منه شرحاً لطريقته خلاصته، أنه يقوم بأبحاث جغرافية وجنسية واقتصادية، وفولكورية (ما يتعلق بالأمثال والعادات الشعبية) في القرية ويدرسها كوحدة اجتماعية، وأنه هو وتلاميذه قد اختاروا بعض قرى ترانسلفانيا، وقسموا السكان أصنافاً بحسب السن والحالة والأسرة؛ واختاروا بعض الأسر ووضعوا لها شجرة أنسابها، ووضعوا تاريخاً لملكياتها وتقلب أحوالها، وكذلك وضعوا قوائم خاصة بأحوالها المعيشية وتربيتها وميزانياتها إلى غير ذلك. ويعتمد الأستاذ جوستي على هذا المباحث الدقيقة في وضع نظريات بخصوص الوحدة الاجتماعية الحديثة، وهي القرية، وهو في طريقته هذه يشبه ابن خلدون في اعتبار القبيلة وحدة اجتماعية للبادية وبناء نظرياته على أساس أحوالها وتطوراتها

الثقافة النسوية النازية

تقوم اليوم في ألمانيا ثقافة نسوية خاصة هي إحدى ذيول الحركة الفكرية النازية؛ وقد تناولت إحدى الزعيمات النازيات شرح هذه الثقافة في جريدة (بيرزن تسيتونج) وتحدثت عن مسألة الأزياء وأثرها في تطور نفسية المرأة؛ فقالت إن الثقافة النسوية الجنوبية لا تناسب الشعوب الشمالية؛ ذلك أن الجنوب يجد مثله الأعلى في المرأة في الشباب والجمال الغض، ولكن الشمال يراه في الأمومة، وتتطور الأزياء تبعاً لهذه المثل. وقد كان لاقتباس الأزياء وأسباب التجميل الجنوبية أثر سيئ في المرأة الشمالية، في جسمها وفي أذواقها وفي روحها. ولهذا يدعو النازي إلى الرجوع إلى المثل الشمالية القديمة في رد المرأة إلى حظيرة الأسرة والأمومة

الذكرى الألفية للمتنبي

استفاض الحديث في جميع الأقطار العربية عن عزم الحكومة العراقية على إقامة مهرجان فخم للشاعر العبقري أبي الطيب أحمد المتنبي بمناسبة مرور ألف عام على وفاته. وقد تريثنا في نشر هذا الخبر لأنه لم يَعْدُ أن يكون حديثاً من أحاديث المنى لم تَعِد به حكومة ولم تتعهد به جماعة. على أننا ما شككنا قط في أن العراق سيهتبل هذه الفرصة ليجعل من هذا العيد الأدبي مظاهرة عربية تحتشد لها قلوب العرب وأصدقاء العرب ليهتفوا على ضفاف الرافدين لهذا الشاعر الخالد. وكان اليقين أن العراق منبت هذا النبوغ لا يدع السبق إلى هذا العيد لقاهرة كافور أو لحلب سيف الدولة، ولكنا تلقينا من صديقنا الشاعر الجليل الأستاذ الزهاوي كتاباً يذكر فيه أنه كان قد أعد لمهرجان

المتنبي قصيدتين صغيرة وكبيرة، فلما رأى قومه انصرفوا عن هذه الفكرة فلم يعودوا يحفلون بها ولا يعملون لها، بعث بهما إلى الرسالة، فنشرنا الصغرى في عدد سابق، ونشرنا الكبرى في هذا العدد. وبقينا نقلب الخبر بين ثقتنا في المخبر، وعلمنا بعصبية العراق، فلا نجد له مساغاً في وجه من الوجوه

وفاة فيلسوف وزعيم صيني

من أنباء الهند الصينية أن الزعيم الفيلسوف (بام بوي شان) قد توفي في مقامه المنعزل على مقربة من (هوي) (الهند الصينية) في نحو السبعين من عمره؛ وكان (بام بوي شان) من تلاميذ المدرسة الصينية القديمة، ومن أقطاب مفكريها؛ بدا حياته بتعليم اللغة الصينية والفلسفة في معاهد سيحون وهتوى، ولكنه جنح إلى السياسة، وأنضم إلى زعماء الحركة التحريرية، واستطاع بنفوذه الفكري والثقافي أن يثير على الحماية الفرنسية دعاية قوية، وانتهت هذه الدعاية بثورة عنيفة انتهت بمقتل الملك (تاي بين دي توان فو). وفي سنة 1913 ألقيت القنابل على حاكم الهند الصينية مسيو البيير سارو في شرفة أحد الفنادق، ولكنه نجا وقتل بعض حاشيته. واتهم (بام بوي شان) في هذه الجناية، وقضي عليه غيابياً بالإعدام؛ ولكنه فر إلى الصين. وغدا (بام بوي شان) عندئذ بطلاً وطنياً وزعيماً روحياً وفكرياً للحركة الوطنية على مثل صن يات صن في الصين وغاندي في الهند.

ولكن قبض عليه في شنغهاي سنة 1925، وقدم للمحاكمة مرة أخرى فحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة. وعلى أثر الحكم عليه أضربت الهند الصينية بقلاقل عنيفة فاضطرت السلطات أن تصدر العفو عنه بعد شهرين. وعلى أثر ذلك أذاع الفيلسوف بياناً على مواطنيه قال فيه إنه يعتزل القيادة العنيفة ويدعو منذ الآن إلى سياسة الوفاق. وكان هذا التحول أكبر عامل في ضياع نفوذه السياسي، فعاش منذ ذلك الحين في عزلة، ينقطع إلى تأملاته ونظرياته الفلسفية والروحية التي كانت قبساً جديداً من فلسفة الصين القديمة

من روائع الشرق والغرب

المساء

لشاعر الحب والجمال لامرتين

قال لامرتين: (كنت منذ شهور قد فقدت موضوع الحماسة والحب، فذهبت أقبر نفسي في ظلام العزلة عند أحد أعمامي في قصر (دورسي) لدى تلكالجبال الموحشة الشجراء من أعالي بورجونيا، وهناك نظمت هذه الأبيات في تلكالغاباتالتي تحيط بذلك القصر)

أقبل المساء وهمدت الأصوات، وأنا أجالس على الصخور الجرد أتابع بنظري مركبة الليل وهي تتقدم في معامي الفضاء

ثم لاحت الزهرة في حاشية الأفق، وأرسل الكوكب العاشق على الأرض ضوءه المخفي،

فشعشع تحت قدمي خضرة الروض

ومن دوحة الزان ذات الورق الفينان واللون الأحوى، أسمع اختلاج الأغصان، كما تسمع خفقان الأشباح بين أجداث الموتى

وعلى حين فجأة انفصل من كوكب الليل شعاع تسلل إلى جبهتي الساهمة، ومس في لين

عيني الحالمة

أيهذا الانعكاس اللطيف للكرة الملتهبة! أيها الشعاع الباهر ماذا تبتغي مني؟ أجئتتحمل إلى

أحشائي المضطربة قبس النور إلى نفسي وعيني؟

أهبطت من السماء لتفضي إليَّ بسر العالم، وتلقي عليَّ دفائن هذا الكوكب الذي يعيدك

النهار إليه؟

هل أرسلتك عناية خفية إلى البؤساء، لتضيء قلوبهم بنور الرجاء؟

هل هبطت لتبدد الظلام عن وجه الغد لتلك القلوب الكسيرة التي تضرع إليه؟

أيها الشعاع الإلهي أأنت فجر ذلك اليوم الذي لا انقضاء له؟

إن قلبي يشتعل في ضوئك، وشعوري يتملكه مرح مجهول، وفكري منصرف إلى أولئك الذين ضحا ظلهم في الحياة؛ فهل أنت أيها الضوء اللألاء، أرواح أولئك الأحباء؟ أنا أشعر بأني أقرب ما أكون إليهم! فلعل أرواحهم السعيدة قد لبست صورهم البعيدة، ثم
عادتتطوف بهذه الربوع، وتجوس خلال هذه الغيضة
فإذا كنت أيتها الأشعة أشباح الأحبة، فعودي إليَّ في كل مساء بعيدة عن الغوغاء والضوضاء، لتمتزجي بأفكاري وأحلامي، وتنيري ظلام لياليَّ وأيامي
أعيدي السلام إلى صدري المضطرب، والحب إلى قلبي الملتهب، واسقطي على كبدي
كما تسقط أنداء الليل على قيظ النهار ولفح الهاجرة
تعالي إليَّ وأقبلي عليَّ. . . ولكن أبخرة محزنة تصاعدت من جنبات الأفق فحجبت ذلك الشعاع اللطيف، ثم غابت هي وهو في ظلام كثيف!
الزيات
دجلة
للأديب التركي شهاب الدين
ترجمة الدكتور عبد الوهاب عزام
قطعة منثورة كتبها أديب كبير من أدباء الترك المعاصرين - جناب شهاب الدين الذي أحزن الأدباء نعيه العام الفائت
ولست أرى القطعة تمثل حياة البادية عامة، ولن حياة جماعة على شاطئ دجلة، ومهما يكن فقد أحسن الكاتب تصوير ما رأى حقيقة أو خيالاً، وهي نموذج من الأدب التركي الجديد جديرة بإطلاع قراء الرسالة
تجري دجلة واسعة كذكاء العرب، قوية كروح العرب، تلوح مرة لجة ترابية مائجة، ومرة شريطاً من الحرير سماوي اللون، وحيناً تتمعج كأزقة بغداد، وآخر تسير أقوم من شوارع باريس، وهنا تتحوى مضطربة، وهناك تمتد مطمئنة. . .
هذا النهر المبارك الذي يحمل في أحضانه ربيعاً من البركات يتقصى من الأبنية البشرية عند القُرنة، فينفذ في غابات النخيل فكأنه بلغ بيئته المحبوبة، فموجه أكثر حرية وأشد زخوراً وأعظم وقاراً وجرأة
يعيش النبات في البلاد المعتدلة والشمالية بمساعي الإنسان، وهنا في المناطق الحارة على العكس، يعيش الإنسان في حمي الأشجار والأعشاب، ولا سيما غابات النخيل يزيدني النظر والتأمل إيماناً بأن سكان هذا الإقليم هي هذه الأشجار المهيبة، وما أبناء نوعنا إلا ضيوف ظلالها. ترى عيناي الآن نخلة فخوراً متفردة، فلله كيف سمقت مزهوة، وكيف نمت وانتشرت عُسُبها وخوصها في أبهة وجلال. هذه النخلة تنادي في كبرياء وعظمة أن هذه التربة لها، وأن غيرها لا يستطيع أن يكون مالكاً طبيعياً لهذه الأرض
إذا ما انتهت غابات النخل بعماراتها الخضراء انطفأت الحياة على شاطئ النهر. فلا شيء يبدل قسوة الصحراء هناك إلا كثبان الرمال الشاحبة التي تبدو في الأفق صغيرة كأنها القبور؛ وإلى الجانبين بحر من الرمل ليس له ساحل. وها نحن أولاء نشق سكوت الصحراء وسكونها. لا حجر ولا شجر، ولا حيوان ولاظل، ولكن ضياء - ضياء مطرد يزيغ البصر من كل جانب. لا حركة ولا شية من حركة إلا ملاعب الضياء. وعلى الكائنات التي حولنا ركود وصمت، وضياء محيط مسيطر، دائم لا يحول. يحسب الإنسان أن هذين الشاطئين لم يهتزا بالحياة قط، ولا دَّوى عليهما صوت قط، ولا وقع عليهما ظل قط، ولدا من الأزل بغير حياة، وذلك يذهبان إلى الأبد
انبسطت هذه الصحراء الذهبية الخالية من الأنس، والغُفل من الصناعة. ثم انبسطت حتى صارت جمالاً نائماً غير محدود
سأكتفي بتسجيل المشاهد صادقاً كالسينما محرراً من قيود البلاغة. هنا قرية فقيرة تؤلفها عدة من أكداس اللبن جاثمة على الرمل المقفر، مغبرة كالتراب، ميتة كالصحراء، أشد إقفاراً من الخرابة المهجورة، كأنما الرمال اختمرت ثم رّبت فكنت القرية. ولو لم أر نفراً من البُداة جالسين القرفصاء لظننت أن كلاب البحر أنشأت هذه القرية الحزينة. كذلك كانت في فقرها وحقارتها. . . ما أهل البادية إلا نبات بشري

غريب، سيئ الجد، لا سعي دائب في الدماغ، ولا عمل عظيم في العضلات، كل قُوى حياتهم مصروفة إلى القعود والنوم والهضم والتناسل، ينمو وأحدهم كجذع نخلة فيكبر فيثمر فيجف. كذلك ترجمة كل أطفال البادية

إنما يشكو البدو أربعة أشياء: الذباب والحر والجوع والجُباة. فأما الذباب فيذبه، وأما الحر فيروحه بسعف النخيل، وأما الجوع فيدفعه بما يلتهم من الأرز الكثير، وأما الجباة فكلما ذكرهم حرق الأرم من تحت شاربيه

تتجلى روح الطفولة في بني الصحراء جميعاً، صغيرهم وكبيرهم؛ فمن كل شيء سرور وضحك، ومن أتفه الحادثات وسيلة إلى القيل والقال، والظل بل العدم ينطقهم ويضحكهم ساعات. وهم ما داموا أيقاظاً يتحدثون ويضحكون، ويضحكون ويتحدثون، والعالم عندهم لعبة كبيرة، وحادثات العالم لعب ولهو. البدوي يعمل قليلاً , يعمل في غير جد، يعمل لتكرار ما أورثه آباؤه.

لا يحب التغيير، وهو غريب عن دخائل الاشياء، قد نسى الماضي، وتوهم الغد جنيناً لما تحمله أمه. وحساب ربحه وخسارته محدود بأربعة وعشرين ساعة. يسكره السرور ويتيمه اللون والرُّواء؛ مولع بالعطر والسكر، الصباح الذي يأكل فيه العسل سعيد، والمساء الذي يقاسي فيه البصل شقي، فبالعسل والبصل يتحرك ميزان سعادته. وإذا نالت يده رائحة

زكية، ولقمة حلوة، وامرأة مؤنسة، حسب نفسه أسعد ملوك العالم. فراشه الرمل، ولحافه السماء؛ وأجمل أحلامه غصن من الياسمين، وقدح من الجُلاب، وليلى لها عين غزال. قلتُ إنه طفل، طفل طيب. .

كل قرية لها توابع حيوانية جديرة بالتأمل فهذه إبلٌ راغية، هادرة، رازمة، تهزأ رقابها الطويلة بما حولها من الجُدُر والحظائر. وهذا قطيع من المعز ينتف جلد الأرض الهزيل، هذه الأشواك المغبرة. وهنا كلب ينبح السفينة من الساحل، وهناك دجاجات تطير من قمامة إلى أخرى. وفي الهواء عدد من الحمائم. وهذه جاموسة مدت رأسها إلى النهر ترى قرينها المزينين في جبهتها العاطلة من الفكر، وبين الحين والحين تطأطيئ إلى الماء لتشرب جرعة كبيرة من صورة السماء

وفي الفينة بعد الفينة يبرز رأس امرأة من كوة كوخ. ينشق فمها الحائر الأبكم عن ابتسامة ميتة، وجهها كله برقع من جلد متكنع. وكل زينتها وحليتها ولباسها ثوب في لون الطين. تحسب كل واحدة منهم جسداً بغير روح قد التف في كفن أسود. كذلك حُرمنَ الحياة. وينظرن إلينا نظرات مترددات - نظر الظبي إلى صياده. وكل رجل عندهن حاكم ظالم

أطفال البداة يثيرون في القلب أبلغ رحمة: أيديهم عصى ضامرة، وعيونهم يملؤها ابتسام مضطرب. وأبدانهم الراجفة في القُمُص الزرقاء نحيلةٌ شاحبة ضعيفة هامدة؛ يطيرون وراء السفينة ساعات من أجل ثمرة واحدة. أو لقمة من الخبز. صائحين ضاحكين. ينقطون الساحل بأشباحهم السوداء

وا رحمتاه لأطفال البادية البائسين!

مهما يكن العلمَ الخافق فوق الصحراء فان لها حاكماً طبيعياً هو الشمس

الشمس توقد هنا كل موجود، وتُلهب كل شيء: كل الأشياء التي حولنا تسبح من الشروق إلى الغروب في ملاعب نورية مختلفة الألوان. وستتقلب السماء والتلال والأرض والأفق حتى ماء النهر كل يوم من الفجر إلى الشفق، في دقائق من ألوان الورد والبنفسج، والذهب والزمرد، والياقوت والفيروزج. وهنا يولد الضياء كل يوم ويتلون ويتلألأ، ويتحلل ويتجمع، ويذوب ويغيب.

ثم يستأنف الليل حياته في مطر من النجوم يتجلى في قاع النهر

نشهد الآن اجمل الساعات - ساعة أفول الشمس، والنهر والآفاق مغشاة بأشعة العقيق والكهرمان. وينبعث على ظهر السفينة صوت مؤذن ينادي للصلاة - هذا النداء المرتعد في سكون العشى، هذا النداء البلوري، الذي يملؤه الوجد، وتتقسمه السكتات القصيرة، يطير فيعلو، فيصعد إلى العيون، كأنما يبلغ سدة الخالق العظيم. الله أكبر. الله أكبر. . . .

العدد 83 - بتاريخ: 04 - 02 - 1935

. . . .مجلس نادر
نعم مجلس نادر! وندرته في طبيعة الغرض منه، وشخصية الداعي إليه، وقيمة الجالسين فيه؛ كان الغرض منه إصلاح ما بين أخي طه وبيني، وإصلاح ما فسد من ذات البين بين صديقين شيء في طبع هذا الأدب المعاصر نادر؛ وكانت الشخصية الداعية إليه هي الآنسة الجليلة (مي)، وشخصية (مي) في عصور الشرق الأخيرة نادرة؛ وكان الجالسون فيه الدكتور طه، والأستاذ مصطفى عبد الرزاق، والدكتور أحمد زكي، والأستاذ محمد عبد الله عنان، وتهافُتُ هذه العبقريات المختلفة على شعاع لطيف من ذكاء المرأة الشرقية المثقفة نادر؛ وكان البهو المترف الذي سَمرنا فيه قد انسجم بأثاثه ونظامه وألوانه وألوان وضوئه مع ذوق الآنسة الشاعرة، فكان نمطاً من الحديث الصامت أذى المشاعر وألهم الأذهان في الحديث الناطق!
قالت الكاتبة النابهة وقد انتظمنا حولها عقداً كانت هي واسطته: (ارجو أن تكونوا شخصاً واحداً. . . . .) فقال لها الدكتور طه: (نعم وتكونين أنت روحه) وعلى طَرف هذا الخطاب، وبراعة هذا الجواب جرى سقاط الحديث. وكانت الآنسة تُصَرف الكلام وتساجل هؤلاء الأعلام ببديهة حاضرة ولقانة عجيبة، فمثلتْ لي صورة من صور أولئك الأدبيات اللاتي أنشأن باستعدادهن للأدب مجالس في عهوده الزاهرة، كسكينة ابنة الحسين، والولاة ابنة المكتفي بالله، ومدامُ دِرَمْبُوييه، ومدام جوفرين، وأضرابهن ممن وقفن بين اللغة والبلاغة، وبين الأدب والذوق، وبين الفن والسمو، ثم وشين ثقافة عصورهن بألوان شتى من أناقة المعرض، وجمال الأداء، وحسن المبادهة، فقدرت في نفسي مبلغ ما تفيده المرأة المثقفة في مناهج الأدب ومظاهر الفكر وقواعد السلوك وأوضاع العُرف، وقلت: مساكين نحن! إذا ظفر أدبنا بهذه المجالس، فأنَّى تظفر مجالسنا بهذه المرأة؟
لست بطبيعتي وتربيتي رجل صالون ولا حديث مجلس، لأن المجامع المختلطة التي تدفع الحياء عن الذهن، وتُذهب الخوف عن اللسان، وتجعل أطراف الحديث في متناول كل جالس، أبَتْها علينا التقاليد، فأنا أردك حتى في هذه الجهة أثر هذه المجالس في علاج هذا النقص الاجتماعي الموروث
تشقق الحديث عن صور شتى من لَفتات الذهن النشيط، ثم مسحت (مي) بيدها الساحرة على ما كان بين الصديقين فاذا الماضي يعود كله، وإذا الحاضر يذهب كله. وعلاقة هذين الصديقين علاقة نشأت مع الصبي واستحارت مع الشباب وتوثقت على الزمن، فلما نال منها العهد المجرم الذي نال من كل شيء جزعت الآنسة الريمة فيمن جزع، وظلت تتحين المناسبة لسفارة الوفاق والمودة حتى تم لها ذلك ليلة الأمس!!
وللانسان ماضٍ من الأمكنة والأزمنة والأشخاص لا يستطيع مهما جدا أن يسقطه من حياته: فمسقط الرأس، وملاعب الطفولة، ومسارح الهوى، ومغاني الأحبة، وغفلات العيش، ورفقة الحداثة، لا ينسخها في ذاكرتك ما يمر على عينك من ضخامة العمران وبسطة السلطان، وسورة المنصب، وزحمة المنافسة، وصور الوجوه، وتنوع العلائق ألْهُ عنها بالحاضر إذا شئت، وأثبت نظرك في وجه الغد إن استطعت، فانك صائر ولابد إلى الذكرى بعد الأمل، ولائذ بأمن الماضي من خوف المستقبل؛ وحينئذ تجد هذه المراحل السعيدة واضحة في خيالك، مشرقة في نفسك، تجدد عمرك المفقودة، وتحدد زمانك المبهم، وتفيض على جفاف قلبك شعوراً هادئاً لذيذاً باستحضار ما غيبت من لذة، واستذكار ما نسيت من سعادة
كان حسب صديقي حسبي لحظة من الذكرى تعيد عازب الحلم وتكسر عادية الجدل، ولكننا كنا وكانت مصر يومئذ تكابد محنة من الطغيان العاسف أوهنت الأعصاب، وحللت الروابط، ومدت بين الناس أسباب العلل
أخي طه!
لقد تعانقنا عند اللقاء كان لم تكن جفوة، وتناقلنا الحديث في المجلس كأن لم تكن خصومة، وتمنت ربة الدار أن يكون بيننا عتاب فلم نجد مائلاً في النفس إلا أن كلينا صورة من شباب الآخر وقطعة من وجوده!
تلك كانت جناية العهد البغيض كما قلت: أفرطفيه الجور حتى نسينا العدالة، وتنكرت

المعرفة حتى اتهمنا الصداقة، وران الشك على القلوب حتى حال بيننا وبين الحقيقة. فالحمد لله الذي أظهرك على الكيد، وأظفرك بالكائد، اعادك، وأعادك موفور الكرامة إلى موضعك عزيزتي الآنسة مي!

جزعت أول الناس لهذا الخلاف الواغل عن باعث من طبعك، وتبت في كف هذا الجدل القاسي بوحي من شعورك، وسعيت للصالح هذا السعي النبيل بدافع من نفسك، وكل ذلك وليس بيننا غير العلاقة التي يبرمها الأدب بين أهله على بُعد! فأنا أسجل لك في الرسالة هذا الحب الغرزي للخير، والاخلاص الطبيعي للعلم، والايمان الصادق بالأدب، والجهاد المتصل في تأليف القلوب بالمودة، وتثقيف العقول بالمعرفة، وتغذية النهضة الفكرية بالانتاج الخصيب، واسمحي لي أن أبشر أصدقاء الرسالة وقراءها بأن قبلت أن تدخلي في اسرتها، وأن تحملي نصيبك من دعوتها، وذل فضل آخر من يضاعف الشكر لك، وفوز جديد للرسالة يجدد الشكر لله

أحمد حسن الزيات

بنته الصغيرة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

تتمة

وجاء من الغد أبو يحيى مالُ بنُ دينار الى المسجد، فصلى بالناس، ثم تحول الى . . . مجلس درسه وتعكفوا حوله؛ وكانوا الى بقية خَبَره في لهفةٍ كأن لها عُمراً طويلاً في قلوبهم، لا ظَمَأ ليلةٍ واحدة

وقال منهم قائل: أيها الشيخ، جُعِلْتُ فِداك، ما كان تأويلُ الحَسَن لتل الآية من كلام الله تعالى، وكيف رجَعَ الكلام في نفس مَرْجِعَ الفكر تتبعُه، وأصبح الفكر عندك عملاً تحذو عليه، واتصل هذا العملُ فكان ما أنت في وَرَعك ,. . . .؟

فقطع الامام عليه وقال: هَوِّنْ علي يا هذا؛ إن شيخك لأهوَنُ من أن تذهب في وصفه يميناً أو شِمالاً، وقد روي لنا الحَسَن يوماً ذلك الخبرَ الوارد فيمن يُعذَّب في النار ألف عم من أعوام القيامة، ثم يدركه عفوُ الله فيخرج منها، فبكى الحسن وقال: (يا ليتني كنت ذلك الرجل!) وهو الحسنُ يا بني، هو الحس

فضج الناس وصاح منهم صائحون: يا أبا يحيى، قتلتنا يأساً. وقال الأول: إذا كان هذا فأوشك أن يعمنا اليأس وقنوط، فلا ينفعنا عملٌ ول تأتي عملاً ينفع

قال الشيخ: هونوا عليكم، فان للمؤمن ظنَّين: ظناً بنفسه، وظناً بربه؛ فأما ظنه بالنفس فينبغي أن ينزلَ بها دون جَمحَاتها ولا يفتأ ينزل؛ فاذا رأى لنفسه أنها لم تعمل شيئاً وجب عليها أن تعمل، فلا يزال دائماً يدفعها، وكلما أكثرتْ من الخير قال لها: أكْثِري. كلما أقلتْ من الشر قال لها: أقلي. ولا يزال هذا دأبُهُ ما بقي؛ وأما الظن بالله فينبغي أن يعلوَ به فوق الفَتَرات والعِلل والآثام ولا يزال يعلو؛ فان الله عند ظن عبده به، إنْ خيراً فله وإنْ شرا فله. ولقد روينا هذا الخبر: (كان فيمن كان قبلكم رجلٌ تسعاً وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على راهب فاتاه، فقال: إنه تسعاً وتسعين نفساً، فهل من توبة؟ قال: لا! فقَتَله فكمل بن مائة! ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على رجل عالم، فقال له: إنه قتل مائة نفس، فهل له توبة؟ قال: نعم؛ ومَن يحول بينك وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا فان بها أناساً يعبدون الله عز وجل، فاعبد الله معهم ولا ترجعْ الى أرضك، فانها أرضُ سَوْء

فانطلق، حتى إذا نصفَ الطريق أتاه ملكُ الموت، فاختصمت فيه ملائكةُ الرحمةِ وملائكةُ العذاب؛ فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مُقبلاً بقلبه الى الله. وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قَ. فاتاهم ملكٌ في صورة آدمي فجعلوه حكماً بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرْضَين، فالى أيهما كان أدنى فهو له. فقاسوا فوجدوه أدنى الى الارض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة!

قال الشيخ: فهذا رُجل لما مشى بقلبه الى الله حُسبت له الخطوة الواحدة، بل الشبر الواحد؛ ولو أنه طوف الدنيا بقدميه ولم يكن له ذلك القلب، لكان كالعظم المحمولة في نعش؛ قبرها في المشرق هو قبرها في المغرب، وليس لها من الأرض ولا للأرض منها إلا معنى واحدٌ لا يتغير؛ هو أنه بجملته ميت، وأنها بجملتها حُفْرة

والانسان عند الناس بهيئة وجهه وحِلْيتِه التي تبدو عليهن ولكنه عند الله بهيئة قلبه

وظنه الذي يظن به؛ وما هذا الجسم من القلب إلا كقشرة البيضة مما تحتها. فيا لها سخريةً أن تزعم القشرة لنفسها أن بها هي الاعتبار عند الناس لا بما فيها، إذ كان ما تحويه لا يكون إلا فيها هي؛ ومن تُبعدُ في حماقتها فتسأل: لماذا يرميني الناس ولا يأكلونني. . . . . .؟

إن هذه الأخلاق الفاضلةَ في هذا الانسان لا تجد تمام معناها إلا في حالة بعينها من أحوال القلب، وهي حالة خشوعه على وصفها الذي شرحته الآية الكريمة: (أَلَمْ يَأْنِ للذين آمَنُوا أن تَخشَعَ قُلوبُهمْ لِذِكْرِ الله وما نَزَلَ مِنَ الحق.)

فالأخلاقُ الفاضلةُ محدودةٌ بالله والحق معاً، وهي كلها في خشوع القلب لهذين؛ فان من القلب مخارجَ الحياة النفسية كلها

قال الشيخ: وأنا منذ حفظتُ عن الحسن تأويلَ هذه لآية، واستَنَنْتُ بها، مضيتُ أعيشُ من الدنيا في تاريخ قلبي لا في تاريخ الدنيا، وأدركتُ من يومئذٍ أنْ ليس حفظُ القرآن حِفْظَه في العقل، بل حفظُه في العمل به؛ فان أنت أثبت الآية منه وكنت تعمل بغير معناها، وتعيش في غير فضيلتها فهذا - ويحك - نسيانُها لا حفظُها. وقد كان قومُنا الأولون بمعانيه كالشجرة الخضراء النامية؛ فيها وَرَقُها الأخضر وزهرهُا وثمرها، وعلى ظاهرها حياةُ باطنها، فلما ثبتَ الناس على الشكل وحده، ولم يبالوا القلبَ وأحوالَه أصبحوا كالشجرة

اليابسة؛ عليها ورقُها الجاف ليس في بقائه ولا سقوطه طائل

ما أصبحتُ ولا أمسيت منذ حفظتُ تفسير الآية إلا في حياةٍ منها، وهذه الآية هي دلّتْني بمعانيها أن ليس الحياةُ الأرضيةُ شيئاً إلا ثورةَ الحي على ظُلْمِ نفسه، يَستكفُّ عنها أكثر مما يَسْتَجرُّ لها؛ والناسُ من شقائهم على العكس يستجرونَ أكثر ما يستكفون، وإنما السعيدُ مَن وجد كلمات روحانية إلهية يعيشُ قلبه فيهن، فذاك لا يعمل أعماله كما يأتي ويتفق، بل يحذو على أصل ثابت في نفسه، ويختار فيما يعمل أحسنَ ما يعمل؛ ومِن ثم لا يكون جهادُه مُرَاغمةً أو خضوعاً في سبيل الوجود كالحيوان، بل في سبيل صحة وجوده؛ ولا يكون غرضه أن يلابس الحياةَ كما تأخذه هي وتدعه، بل أن يحيا في شرف الحياة على ما يأخذها هو ويَدَعُها

إن الشقاء في هذه الدنيا إنما يجره على الانسان أن يعمل في دفع الأحزان عن نفسه بمقارَفَتِه الشهوات وباحساسه غرورَ القلب؛ وبهذا يُبعد الأحزان ليجلبها على نفسه في صورٍ أخرى!

قال الشيخ: وكان مما حفته من تفسير الحسن قوله: إن كل كلمة في الآية تكادُ تكون آية، وليست الكلمةُ في القرآن كما تكون في غيره، بل السمو فيها على الكلام، أنها تحمل معنىً وتومئ إلى معنىً وتستنبعُ معنى؛ وهذا ما ليس في الطاقة البشرية، وهو الدليل على أنه (كِتَابٌ أُحِكَمتُ آياتهُ ثم فُصِّلَتْ)

يقول الله تعالى: (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبُهم لذكر الله وما نزل من الحق) هذه الكلمة حثٌ، وإطماعٌ، وجدالٌ، وحُجة؛ وهي في الآية تُصرخ أن خشوع (ألم يأن) القلب الذي تلك صفته هو كمال الدين للايمان، وأن وقت هذا الخشوع هو كمالُ العمر وكيف يعرف المؤمنُ أنه (سيأتى) له أن يعيش ساعة او ما دونها؟

إذَنْ فالكلمةُ صارخةٌ تقول: الآنَ الآنَ قبل ألا يكون آن.

أيْ: البدَارَ البدَارَ ما دمتَ في نَفَسٍ من العمر؛ فان لحظة بعد (الآن) لا يضمنها الحي.

وإذا فني وقتُ الانسان انتهى زمنُ عمله فبقى الأبد كله على ما هو؛ ومعنى هذا أن الأبد للمؤمن الذي يدرك الحقيقة، إنْ هو إلا اللحظةُ الراهنة من عمره التي هي (الآن).

لأنظر - ريحك - وقد جُعِلَ الأبد في يدك؛ انظر كيف تصنع به؟

تلك هي حكمة اختيار اللفظة من معنى (الآن) دون غيره على كثرة المعاني

ثم قال: (للذين آمنوا) وهذا كالنص على أن غير هؤلاء لا تخشع قلوبهم لذكر الله ولا للحق، فلا تقومُ بهم الفضيلة، ولا تستقيم بهم الشريعة، وعلِمُهم وجاهلُهم سوء؛ لا يخشعان إلا للمادة؛ وكأن إنسانهم إنسانٌ ترابي، لا يزال يضطربُ على مُر الليل والنهار بين طرفين من الحيوان: عَيشِه وموته؛ وما تقسو الحياةُ قسوتها على الناس الا بهم، وما ترقُّ رقتها إلا بالمؤمنين

وجَعل الخشوعَ لقلوب خاصةً، إذ كان خشوعُ القلب غير خشوع الجسم؛ فهذا الأخير لا يكون خشوعاً، بل ذلاً، أو ضَعَةً، أو رياءً، أو نفاقاً، أو ما كان. أما خشوع القلب فلن

يكون إلا خالصاً مُخلصاً مَحْضَ الإرادة
واشترطَ (القلبَ) كأنه يقول: إنما القلب أساسُ المؤمن، وإن المؤمن ينبع من قلبه لا من غيره، متى كان هذا القلب خاشعاً لله وللحق. فان لم يكن قلبه على تلك الحال، نَبَعَ منه الفاسقُ والظالم والطاغية وكل ذي شر. ما أشبه القلبَ تنفرعُ منه معاني الخُلُق، بالحبة تَنسَرِحُ منها الشجرة؛ فخُذْ نفسَك من قلبك كما شئت؛ حُلواً من لوٍ ومُراً من مُر
وخشوعُ القلب لله وللحق، معناه السمو فوق حب الذات وفوق الأثرة والمطامع الفاسدة؛ وهذا يضع للمؤمن قاعدةَ الحياة الصحيحة، ويجعلُها في قانونين لا قانونٍ واحد؛ ومتى خشع القلب لله وللحق عَظُمت فيه الصغائر من قوة إحساسه بها، فيراها كبيرةً كبيرةً وإن عَمِيَ الناسُ عنها، ويراها وهي بعيدةٌ منه بمثل عين العُقاب، يكون في لُوحِ الجو ولا يغيب عن عينه ما في الثرَى
وقد تخشع القلوبُ لبعض الأهواء خشوعاً هو شرٌ من الطغيان والقسوة؛ فتقييدُ خشوعِ القلب (بذكر الله) هو في نفسه نَفْيٌ لعبادة الهوى وعبادة الذاتِ الإنسانية في شهواتها.
وما الشهوةُ عند المخلوق الضعيف إلا إلهُ ساعتها. فيا ما أحكمَ وأعجبَ قولَ النبي صلى الله عليه وسلم: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرقُ السارقُ حين يسرق وهو مؤمن، ولا يَشربُ الخمرَ حين يشربها وهو مؤمن). جَعَلَ نزعَ الايمان موقوتاً (بالحين) الذي تُقْتَفُ فيه المعصية؛ إذ لم يكن الله عند هذا الشقي هو إله ذلك (الحين) والخشوعُ لِمَا (نزَلَ من الحق) هو في مناه نَفْيٌ آخرٌ للكبرياء الإنسانية الي تُفسِد على المرء
كل حقيقة، وتَخرج به من كل قانون؛ إذ تجعل الحقائق العامة محدودةً بالانسان وشهواته، لا بحدودها هي من الحقوق والفضائل
ويخرج من هذا وذلك تقريرُ الإرادة الإنسانية، وإلزامُها الخيرَ والحق دون غيرهما، وقهرُها للذات وشهواتِها، وجعلُها الكبرياءَ الإنسانية كبرياءَ على الدنايا والخسائس، لا على الحقوق والفضائل. إذا تقرر كل ذلك انتهى بطبيعته إلى إقرارا السكينة في النفس، ومحوِ الفوضى منها، وجَعْلِ نظامها في إحساس القلب وحده؛ فيحيا القلبُ في المؤمن حياةَ المعنى السامي، ويكون نبْضُه علامةَ الحياة في ذاتها، وخشوعُه لله وللحق علامة الحياة في كمالها
وقال: (ما نزَلَ من الحق) كأنه يقول: إن هذا الحق لا يكون بطبيعته ولا بطبيعة الإنسان أرضيا، فاذا هو ارتفع من الأرض، وقرره الناسَ بعضُهم على بعض، لم يجاوز في ارتفاعه رأسَ الإنسان، وأفسدتْه العقول؛ إذ كان الإنسان ظالماً متمرداً بالطبيعة، لا تحكمه من أول تاريخه إلا اسماءُ ومعانيها وما كان شبيهاً بذلك ما يجيئه من أعلى؛ أيْ بالسلطان والقوة؛ فيكون حقاً (نازلاً) مُتدَفِّعاً كما يَتصَوبَّ الثُّقْلُ من عالٍ، ليس بينه وبين أن ينفذ شيء
والخشوعُ لما نزل من الحق ينفي خشوعاً آخر هو الذي أفسد ذاتَ البين من الناس، وهو الخشوع لما قام من المنفعة وانصرافُ القلب اليها بايمان الطمع لا الحق
وبجملة الآية على ذلك الوجه يتحقق العدلُ والنصفَةُ بين الناس؛ فيكون العدل في ل مؤمنٍ شعوراً قلبياً، جارياً في الطبيعة لا مُتكلفاً من العقل؛ وبهذا وحده يكون للانسان إرادةٌ ثابتة على الحق في كل طريق، لا إرادةٌ لكل طريق، وتستمر هذه الإرادة مُتسقةً في نظامها مع إرادة الله، لا نافرةً منها ولا متمردة علها؛ وهذا وذاك وذلك يُثبت القلبَ مهما اختلفت عليه أحوال الدنيا، فلا يكون من إيمانه إلا سُموه وقوتهُ وثباتهَ، وينزل العمرُ عنده منزلةَ اللحظة الواحدة، وما أيسرَ الصبرَ على لحظة! ما أهونَ شر (الآن) إن كان الخيرُ فيما بعده
. . . .ألم يأنِ؛ ألمْ يأن؛ ألم يأن
قال الشيخ: وكان الحَسنُ في معانيه الفاضلةِ هو هذه الآية بعينها؛ فما كانت حياته إلا اسلامية كهذا الكلام الأبيض المشرق الذي سمعته منه؛ شعاره ابداً: (الآن قبل ألا يكون آن.) وغمامه: (خُذْ نفْسك من قلبك.)
وطريقتهُ (شَرفُ الحياة لا الحياةُ نفسها)

وكان يرى هذه الحياة كوقعة الطائر؛ هي عملُ جناحين مُسْتوفِزين أبداً لعملٍ آخر هو الأقوى والأشد، فلا ينزلان بطائرهما على شيءٍ إلا مطويين على قدرة الارتفاع به، ولا يكونان أبداً إلا هَفَافين خفيفين على الطيران؛ إذ كانا في حكم الجو لا في حكم الأرض، وآلةُ الوقوع والطيران بالانسان شهواته ورغباته؛ فان حطته شهوةٌ لا ترفعه فقد او بقته وأهلكته وقذفت به ليؤخذ.

لقد روينا عن النبي صلى الله عليه وسلم: (لا يبلغ العبد ام يكون من المتقين حتى يدع مالا بأس به حذراً مما به بأس) وهذا ضربٌ من خشوع القلب المؤمن فيما يحل له، يدع أشياء كثيرة لا بأس عليه فها او أتاها، لقوى على أن يدع ما فيه بأس، فان الذي يترك ماله يكون أقوى على ترك ما ليس له.

والنفسُ لابدّ راجعةٌ يوماً إلى الآخرة، وتاركة اداتها؛ فقوام نظامها في الحياة الصحيحة ان تكون كل يمٍ كأنها ذهبت إلى الآخرة وجاءت. وتلك هي الحكمة فيما فرضته الشريعةُ الاسلامية من عبادةٍ راتبة تكون جزءاً من عمل الحياة في يومها وليلتها. فاذا لم تكن النفس في حياتها كأنها دائماً يذهب إلى مصيرها وترجع منه، طمسها الجسم وحبسها في إحدى الجهتين، فلم يبق لها فيه إلا أثر ضئيل لا يتجاوز النصح، كاعتراض المقتول على قاتله، يحاول أن يرد السيف بكلمة. . .! وبذلك يتضاعف الجسم في قوته ويشتد في صولته، ويتصرف المرء دينه، وتقذف به يميناً وشمالاً، على قصدٍ وعلى غير قصد، وتمضي به كما شاءت في مدرجةٍ مدرجةٍ من الشر؛ ومثلُ هذا المسرفِ على نفيه لا يكون تمييزه في الدين ولا إحساسه بالخير إلا كذلك السكير الذي زعموا أنه أراد التوبة، وكانت له جرتان من الخمر، فلما اتعظ وبلغ في النظر إلى نفسه وحظ إيمانه وأراد ان يطيع الله ويتوب - نظر الى الجرتين ثم قال: أتوب عن الشرب من هذه حتى تفرغ هذه. . .!

قال الشيخ: ثم إني تُبتُ على يد الحسن، وأخلصت في التوبة وصححتها، وعلمت من فعله وقوله أن حقيقة الدين هي برياء النفس على شرها وظلمها وشهواته، وأن هذه الكبرياء القاتلة للإثم هي في النفس أختُ الشجاعة القاتلة للعدو الباغي، يفخر البطل الشجاع بمبلغه من هذه، ويفخر الرجل المؤمن بمبلغه من تلك، وأن خشوع القلب هو معناه حقيقة هذه الكبرياء بعينها.

وحدثتُ الحسنَ يوماً رؤياي وما شبه لي من عملي السيئ وعملي الصالح، فاستدْمَعَتْ عيناه:

وقال: إن البنتَ الطاهرةَ هي جهادُ أبيها وأمها في هذه الدنيا، كالجهاد في سبيل الله؛ وإنها فوزٌ لهما في معركةٍ من الحياة، يكونان هما والصبر والايمان في ناحية منها قبيلاً، ويكون الشيطانُ والهمُّ والحزن في الجهة المُناوِحَةِ قبيلاً آخر

إن البنتَ هي أم ودار، وأبواها فيما يكابدان من إحسان تربيتها وتأديبها وحياطتها والصبر عليها واليقظة لها - كأنما يحملان الأحجارْ على ظهرَيهما حجراً حجراً، ليَبْنَيا تلك الدار في يوم الى عشرين سنة أو أثر، ما صحبته وما بقيتْ في بيته.

فليس ينبغي أن ينظر الأبُ الى بنته إلا على أنها بنته، ثم أمُ اولادها، ثم أمُ احفاده؛ فهي أكبرُ من نفسها، وحقها عليه أكبر من الحق، فيه حُمتها وحرمة الانسانية معاً؛ والأب في ذلك يُقرِض الله إحساناً وحناناً ورحمة، فحقٌ على الله أن يُوفيه من مثلها، وأن يُضعف له

والبت ترى نفسها في بيت أهلها - ضعيفةً كالمنقطعة وكالعالة، وليس لها إلا الله ورحمةُ أبويها؛ فان رحماها، واكرماها فوق الرحمة، وسراها فوق الكرامة، وقاما بحق تأديبها وتعليمها وتفقيهها في الدين، وحَفِظا نفسها طاهرة كريمةً مسرورةً مؤدَّبة - فقد وضعا بين يدي الله عملاً كاملاً من أعمالها الصالحة، كما وضعاه بين يدي الانسانية. فاذا صارا الى الله كان حقاً لهما أن يجدا في الآخرة يميناً وشمالاً يذهبان بينهما إلى عفو الله وكرمه، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من كان له ابنةُ فأدبها فأحسن تأديبها، وغَذَاها فأحسن غَذاءَها، وأسبغَ عليها من النعمة التي أسبغ الله عليه - كانت له مَيْمَنَةً ومَيَسرةً من النار إلى اجنة.)

فهذه ثلاثُ لابد منها معاً، ولا تُجْزِيءُ واحدةٌ عن واحدة في ثواب البنت: تربيةُ عقلها تربية احسان، وتربيةُ جسمها تربية إحسان وإلطاف، وتربيةُ روحها تربية إكرام وإلطاف وإحسان

قال الشيخ: والله أرحمُ ان تضيعَ عنده الرحمة؛ والله أكرم أن يضيع الإحسان عنده، والله أكبر. . .
وهنا صاح المؤذن: الله أكبر
فتبسم الشيخ وقام إلى الصلاة.
طنطا
مصطفى صاداق الرافعي
صور من التاريخ الاسلامي
1 - الفردوسي
للأستاذ عبد الحميد العبادي
احتفلت الأمة الإيرانية في أكتوبر الماضي بذرى مرور ألف سنة على ميلاد شاعرها الأكبر ابي القاسم الفردوسي، وقد دام احتفالها نحو شهر من الزمان كانت إيران كلها فيه متصلة الأعياد بادية البشر والسرور. ولم تكن الحفاوة بتل الذكرى مقصورة على الايرانيين وحدهم، فقد شاركهم فيها العالم المتحضر شرقه وغربه، فأوفدت ثماني عشرة دولةكبيرة إلى إيران من يمثلها في الاحتفال بذكرى الفردوسي، وزاد بعضها من قبيل المجاملة للإيرانيين والمبالغة في تقدير شاعرهم فاحتفى بتلك الذكرى احتفاء خاصاً في عواصمه. فعل ذلك الألمان في برلين، والانجليز في لندن، والفرنسيون في باريس، والايطاليون في رومية. وعما قريب تحذو مصر حذوهم فتهب ذكرى الفردوسي أسبوعاً من الزمن يتحدث فيه بالقاهرة نفر من فضلائها عن حياة الفردوسي وشعره، وعن أثر قومه في عالم الفن والأدب
وأريد بهذه المناسبة أن أعرض في هذا المقال وفي مقال آخر آت ببيان وجيز لسبب حفاوة الفرس وغير الفرس بذكرى الفردوسي. وسنرى أن البحث سيكشف لنا عن شخصية فذة عجيبة حقاً. شخصية استطاعت من جهة أن تستنفذ قومية ولغة كان يتنازعهما البقاء والعدم، ومن جهة أخرى ساهمت بنصيب موفود في ميراث العالم الأدبي الباقي على وجه الزمان
هو أبو القاسم الحسن بن علي الفردوسي، وكلمة (الفرودسي) لقبه الشعري، فقد جرت عادة الفرس من قديم أن يخلعوا على شعرائهم ألقاباً خاصة كالدقيقي، وملك الشعراء، ومحكم الشعراء وهكذا. ولد على رأى بعض الثقات حوالي عام 325هـ بقرية من قرى مدينة طوس بخراسان يقال لها (باز)، وورث عن أبيه ضياعاً كانت تغل عليه في صدر حياته كفايته من المال. وتعلم في حداثته ما كان يتعلمه أمثاله من ابناء الدهاقين في ذلك الزمان، فحذق الفهلوية والعربية، وشغف في صباه بقرض الشعر الفارسي والتوفر على مطالعة القصص الفارسي القديم. فأنشأ كل ذلك فيه اعتداداً بقومه واعتناقاً لمذهبهم الشيعي. وشدا شيئاً من آراء المتكلمين من المعتزلة، فنشأ فارسي الهوى، شيعي المذهب، معتزلي الرأي
كان أمر خراسان في ذلك الوقت إلى الدولة السامانية، وهي دولة فارسية من الدول التي تقسمت سلطان الدولة العباسية بضعف السلطة المركزية في بغداد ابتداء من القرن الثالث الهجري. وقد جهد السامانيون في بعث الروح القومي الفارسي مستعينين على ذلك بما للتاريخ والأدب من القوة في إذكاء الروح القومي عامة. فنقل وزيرهم البلعمي برسم الأمير منصور الساماني تاريخ الطبري إلى الفارسية، وتقدم عاملهم على طوس أو منصور ابن عبد الرزاق إلى رجل يقال له أبو منصور المعمري في جمع أخبار الفرس القدماء في شكل تاريخ شعبي لفارس من أقدم عصورها إلى الفتح الأسلامي، فعهد بالأمر إلى أربعة من الفرس الزرداشتيين فجمعوا ذلك التاريخ من الكتب المحفوظة في قلاع فارس، وفي خزائن الموابذة والدهاقين. ثم كتبوا ذلك التاريخ بالفارسية الحديثة وسموه (الشاهنامة) أي (كتاب الملوك)، وكان ذلك حوالي عام 347هـ؛ وأراد السامانيون أن يسهل على الفرس تناول هذا التاريخ وتداوله فعهد الأمير نوح ابن منصور الساماني ينظمه شعراً إلى فتى فارسي شاعر يعرف بالدقيقي. فأخذ الدقيقي في ذلك فنظم منه ألف بيت ثم هلك غيلة حوالة عام 366هـ.
اطلع الفردوسي على الشاهنامة المنثورة وعلى ما نظم الدقيقي منها من نسخة أعاره إياها صديق له يقال له (محمد لشكري). وأشار عليه ذلك الصديق أن يتم ما شرع فيه

الدقيقي، وصادف ذلك هوى في نفسه، فامتثل الاشارة وعكف على نظم الشاهنامة من حيث انتهى صاحبه، فقضى في ذلك ثلاثاً وعشرين سنة أتم فيها نسخة الشاهنامة الأولى (389هـ) ثم أهدى تلك النسخة إلى كبير من كبراء الفرس الظاهرين بأرض أسبهان يقال له أحمد الخالنجاني، فأجازه عليها بجائزة يسيرة

في تلك السنين الطوال كانت خراسان قد تبدلت بها الحال، لاضطراب أمر الدولة السامانية القومية المستنيرة، وعراها ما يعرو البلاد عادة عند التأذن بذهاب دولة وقيام أخرى. فأهملت المرافق العامة وخاصة مرافق الري، والبلاد يعدُ بلاد زراعية، فشح الماء، وجف الزرع، وأجدبت الحقول، ونالت ملاك الأراضي شدة تعذر عليهم معها أداء الخراج الموضوع على أراضيهم. وكان الفردوسي بطبيعة الحال من ضحايا تلك الشدة الاقتصادية،

وزاده ضنكا وسوء حال انصرافه إلى حية الأدب المحصن، واضطراره إلى أن يستكفي غيره النظر في شئون ارضه. ويظهر أثر تلك الحال واضحاً قي ترديده في شعره الشكوى من الفاقة وتنكر الزمان.

وقد اضطر آخر الأمر إلى مسألة أصدقائه، فأعانه منهم نفر كرام النفوس أوفياء القلوب، كافأهم عن صنيعهم بأن نوه بذكرهم في الشاهنامة. والحق أن الفردوسي، وقد فقد الانتفاع بأرضه أصبح يرى أن من حقه على الناس أن يكافئوه على جهوده الأدبية بمال يزوج منه ابنته الوحيدة، ويفق منه على نفسه في شيخوخته.

وطفق لذلك يبحث عن أمير نبيل او ملك جليل يهدي إليه الشاهنامة فيجيزه عنها بجائزة تحقق أمنيته. وسرعان ما وجد ذلك الملك الجليل في شخص السلطان محمود الغزنوي.

والسلطان محمود الغزنوي أوحد ملوك الاسلام لذلك العهد، واحد أبطال التاريخ الاسلامي على الإطلاق. قد شاد بعزمه وهمته ملكاً عريضاً وسع الهندستان، وخراسان وتركستان، وطبرستان، وفارس. وأصبحت قاعدته (غزته) بمساجدها ومدارسها وخزائن كتبها وعلمائها الأعلام من أمهات المدن الاسلامية. ويقال إنه يجتمع قط في مدينة أسيوية في وقت واحد من أعيان الأدب وأقطاب العلم والفلسفة مثل من اجتمع بغزته على عهد السلطان محمود. ذلك بأن السلطان كان شغوفاً بالعلم والأدب، حريصاً على اجتذاب العلماء من مختلف البلدان الاسلامية ليقيمهم بحضرته، فيزدان بهم بلاطه، وتكون له من قربهم شهرة أدبية تضاف إلى شهرته الحربية التي طبقت الآفاق. ومن العلماء الذين حفلت بهم غزته على عهد، البيروني والعتبي المؤرخان، والفارابي الفيلسوف، وأبو الفتح البستي الشاعر العربي، والمسجدي والعنصري والفرخي، وكلهم من سباق شعراء الفرس في الاسلام. وكان الرئيس أبو علي بن سينا قد قصد حضرة السلطان ثم بداله فعدل عنها إلى جهة أخرى.

وكان السلطان كلما فرغ من حرب وأقام بعاصمته متودعاً، جلس إلى أولئك العلماء يحدثهم أو يستمع إلى حديثهم، وهو في تصيده العلماء ومباهاته بهم يذكرنا بسيف الدولة الحمداني، والحكم المستنصر الأندلسي، وبفردريك الأكبر ملك بروسيا، ولويس الرابع عشر ملك فرنسا

ذلك هو الملك الجليل الذي رآه الفردوسي مهوى فؤاده ومحط آماله. فأخذ يعد العدة لانتجاع حضرته والاعتراف من فيض جوده. فجعل يراجع الشاهنامة، مطامنا بين أجزائها، مكملاً ما نقص منها، مستدركاً ما فاته في نسختها الأولى ومحلياً فصولها بَمدَح سنية بطوق بها جيد ذلك الملك العظيم. وقد قضى في ذلك إحدى عشرة سنة، فقد فرغ من إعداد النسخة الثانية للشاهنامة عام 400 هـ وبلغت عدة أبياتها ستين ألفاً

توجه الفردوسي إلى غزنة ومعه راوية ونسخة الشاهنامة، فلقى وزير السلطان الرئيس الكبير أبا العباس الفضل بن أحمد، وكان معيناً بشر الفارسية، ولا ريب أنه أدرك أنها ثمرة مجهود عقل جبار، ولكنه مع ذلك لم يتقبلها بقبول حسن. والروايات القديمة مجمعة على أن الوشاية والكيد قد عملا عملهما في إفساد قلب السلطان على الوزير والشاعر معاً. ولكن الأمر أجل من ذلك وأعظم. فليس من شك في أن ذلك السلطان التركي المسلم، الذي أنفق من الجهد في إعلاء كلمة الأسلام في الهند ما أنفق، والذي كان نصيراً للسنة، وخصماً ألد للباطنية والمعتزلة، هذا السلطان لم

يعجبه أن يشيد الفردوسي بمجد حازه الفرس أيام مجوسيتهم، كما لم يعجبه أن ينفخ في بوق العصبية الفارسية، وأن يدير كتابه على الحروب التي وقعت في القديم بين إيران وطوران، كما لم يعجبه تشيعه وجهره بآرائه الدالة على اعتزاله. كل ذلك قعد بالسلطان أن يجيز الشاعر بالجائزة التي كان يتوقعها، والتي كان يعلق عليها آمالاً كباراً. فيقال إنه بعث إليه بعشرين ألف درهم فقط مكافأة على مجهود خمس وثلاثين سنة

لكن الفردوسي لم يكن الرجل الذي يحتمل هذا التقصير في حقه. فقد جزى السلطان شر جزاء. فيقال إنه دخل حماماً فلما خرج منه شرب فقاعاً، ثم قسم عطية السلطان بين الحمامي والفقاعي. وبلغ ذلك السلطان فهاج غضبه، وهم بأن يبطش بالشاعر، فلاذ الفردوسي بالفرار من غزنة، وظل مختبأ بمدينة هراة ستة أشهر نظم فيها مائة بيت من الشعر هجا فيها السلطان هجاء لاذعاً موجعاً. فلما سكن عنه الطلب خرج إلى طرستان ونزل على صاحبها الأصبهبد بأن الأمر لم يعرض عليه كما ينبغي، واشترى منه هجو السلطان بأن الأمر لم يعرض عليه كما ينبغي، واشترى منه هجو السلطان بمائة ألف درهم، ثم محا ذلك الهجو من الشاهنامة محواً. بيد أن الفردوسي رأى أنه غير آمن على نفسه في طبرستان لأنها داخلة في حكم السلطان محمود، فخرج عنها إلى العراق العربي،

ونزل على أميره سلطان الدولة البويهي. ونظم له قصة (يوسف وزليخا) وهي من قصص القرآن الكريم.

والفردوسي يصرح في صدر هذه القصة بأنه نظمها تكفيراً عن إضاعته عمره في نظم الشاهنامة، التي حشوها أساطير الفرس الأولين، ولكن يظهر أن الفردوسي أراد بنظم تلك القصة أن يلائم بين نفسه وبين البيئة العربية التي أدى به تطوافه إليها

ومهما يكن من شيء، فلا شك أن الفردوسي رأى نفسه غريباً بالعراق، وأن سراج حياته يوشك أن ينطفئ، وأحب ان يوافيه أجله في مسقط رأسه، قريباً من ابنته ووسط أهله ومعشره، وهون الخطب عليه أن السلطان كان قد ذهب عنه غضبه عليه، وأن أمره كان قد نسى أو تنوسي ببلاط غزنه. فخرج من العراق شاخصاً نحو طوس، فبلغها شيخاً فانياً مهدود القوى قد جاوز الثمانين

وتذكره السلطان محمود في ذلك الوقت، وذلك أنه كان راجعاً من الهند الى عاصمة ملكه، فعرض له ثائر في قلعة حصينة، فأرسل السلطان الى الثائر رسولاً أن (إيت غدا، وقدم الطاعة واخدم حضرتنا، والبس التشريف، وارجع) فلما كان الغد ركب السلطان والى جانبه وزيره أحمد بن الحسن الميمندي. فلما بصر السلطان بالرسول مقبلاً قال للوزير (ترى ماذا يجعل من الجواب؟) فتمثل الوزير ببيت من الشاهنامة معناه (إذا لم يكن الجواب كما أريد، فأنا والجرز والميدان وافراسياب) فقال السلطان (لمن هذا البيت الذي تنبعث الشجاعة منه؟) قال (للمسكين أبي القاسم الفردوسي الذي أحتمل العناء خمساً وعشرين سنة وما جني أية ثمرة) قال السلطان (أحسنت بما ذكرتني، إني ليحزنني أن يحرم عطائي هذا الرجل الحر، ذكرني في غزنة لأرسل اليه شيئاً) فلما قدم الوزير غزنة ذكر السلطان، فقال السلطان (مر لأبي القاسم بستين ألف دينار بعطايا نيلجا، ويحمل على الإبل السلطانية، ويعتذر اليه)

غير أن القدر الساخر شاء ألا تنفذ مشيئة السلطان، فيقال إنه عندما وصلت الابل التي تحمل الهدية إلى طوس، كان الفردوسي قد أسلم الروح (411هـ)، وإنه بينما الابل داخلة من بعض أبواب المدينة، كانت جنازة الشاعر خارجة من باب آخر

وأراد رسل السلطان أن يدفعوا الهدايا الى ابنة الفردوسي، ولكنها اعتذرت من عدم قبولها.

عند ذلك أمر السلطان أن ينفق المال في بعض وجوه البر، فعموا به رباطاً للمجاهدين على حدود أقليم طوس. وكذلك نفي السلطان عن نفسه آخرة الأمر تهمة لتقصير في حق الشاعر الكبير. فان ادعى مدح أنه ظلمه في الأولى فقد أنصفه في الثانية، ودل بذلك على نفس كبيرة وحلم عظيم

تلك بالاختصار سيرة الحكيم أبي القاسم الفردوسي. وهي سيرة تفصح عما أوتيه ذلك الشاعر من قوة تتمثل في صدق عزيمته، وبهد همته، وعظم غايته، وثبات مقصده، كما أنها تفصح عن ضعفه الذي يبدو في حدة مزاجه، وكثرة شكواه من الفاقة وتبرمه

بالناس والزمن، ثم في ندمه في ملع قصته الثانية على ما أنفق من جهده واضاع من عمره في نظم ملحمته الأولى. على أن ذلك كله ليس مناط تعظيم قومه لذكراه، إنما مناط ذلك هو الصنيع الجليل الذي أسداه الى القومية الفارسية واللغة الفارسية الحديثة.

ولبيان ذلك ينبغي أن نرجع مع الزمن الى أوائل القرن الأول الهجري، فقد حمل العرب إذ ذاك على الدولة الفارسية، وما هي إلا سنوات معدودات، حتى كانوا قد قضوا على ملك آل ساسان، وصيروا فارس أقليماً من أقاليم الخلافة العربية، وانتشر الاسلام بعقب ذلك في فارس حتى كاد يقضي على الدين الزرادشتي، كما انتشرت العربية بين الفرس حتى أخملت الفهلوية وكادت تمحوها

قبل الفرس الاسلام عن طواعية نفس وطيب خاطر. أما القومية فقد جاهدوا من أجل الاحتفاظ بها جهاداً عظيماً. وقد تطور هذا الجهاد من مجرد مطالبة بالحقوق العامة قام بها الموالي زمن الدولة الأموية، الى مؤازرة للثائرين عليها من الخوارج والشيعة، الى ثورة عامة انجلت عن سقوط الدولة الأموية العربية، وقيام الدولة العباسية التي كانت فارسية في أكثر أوضاعها العامة، الى استقلال سياسي يسره ضعف السلطة المركزية ببغداد، الى سعي حثيث في أن يكون للفرس وجود قومي صحيح

الى هذا المجهود الضخم الموجه الى الاحتفاظ بالقومي، قام الفرس بمجهود آخر رائع من أجل إنهاض لغتهم وتعميم استعمالها في بلادهم

لقد طغت العربية على الفهلوية في العصر العربي الأول طغياناً كان من أثره أن انحصر استعمال هذه اللغة في حدود إقليمية ضيقة: في فارس وخراسان وطبرستان، ولم تسلم

الفهلوية في معاقلها هذه من التأثر بالعربية، فقد أصبحت تكتب بالحرف العربي ودخلتها ألفاظ وتعابير عربية أحالتها الى طور جديد من تاريخا عرفت فيه بالفارسية الحديثة. وبتنبه الشعور القومي عم استعمال اللغة المذكورة في تلك الأقاليم الثلاثة، حتى كادت العربية تنمحي من بعضها، كما يؤخذ من قول المتنبي:

مغاني الشعب طيبا في المغني ... بمنزلة الربيع من الزمان

ولكن الفتى العربي فيها ... غريب الوجه واليد واللسان

ملاعب جنة لو سار فيها ... سليمان بترجمان

وقد عول ساسة الدول الثلاث: الطاهرية والقارية والسامانية، على ان يجعلوا الفارسية الحديثة لغة أدب وتدوين، فشجعوا الشعراء على النظم بالفارسية، وأمر السامانيون بتدوين تاريخ قومي للفرس، ونظمه بهذه اللغة كما تقدم القول

وعلى الرغم من التقدم الذي أحرزه الفرس في أمر قوميتهم ولغتهم فانهم في أواخر القرن الرابع بحاجة الى مدد أدبي ممتاز يبعث في القومية الفارسية روحاً قوياً، ويثب دعائم الفارسية الحديثة وينهضها على أساس ثابت، وقد أمد الفردوسي قومه بهذا المدد. فالشهنامة تعي بأبسط عبارة وأبلغ تصوير تاريخ الفرس القدماء ومفاخرهم وآدابهم وأساطيرهم. لذلك اضحت في حياة ناظمها - وهذا أمر منقطع النظير - ملحمة قومية، ولم يمض طويل زمن حتى غدت (قرآن القوم) على حد تعبير صاخب المثل السائر

لقد أدى الفردوسي (رسالته الخاصة) أحسن الأداء، وأصبح فضله على قومه ولغته باقياً من بقي قومه ولغته وقد عرف له قومه هذا الفضل فذكروه في هذه الأيام فأحسنوا ذكراه، وشادوا فوق رفاقه بناء عالياً، وهذا جهد مثوبة الحي للميت. وان الانسان ليذكر في هذا المقام دانتي الإيطالي، وكورياس اليوناني، فكلاهما أذكى الروح القومي في بلهد، وجدد بمجهوده الخاص دارس لغته، هذا بنثره، وذاك بشعره.

البقية في العدد القادم

عبد الحميد العبادي

في الأدب المصري

مجالس الأدب في القرن الثامن عشر

بدار رضوان بك

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

مما اعتاد الناس سماعه أن يقول قائل: لا حيا الله أيام القرن الثامن عشر في مصر!

وقد لا يتورع القائل أن يرمي ذلك العهد بأقبح التهم وأشنع الآراء: فيصفه تارة بالظلم، وتارة بالظلمة؛ وما اكثر ما تسمع الآذان ذكراه مصحوبة بتسمية لاذعة، فلا يقال إلا أنه كان عهد المماليك، أو عهد ظلم العثمانيين. وليس في ذلك عجب، فالناس كانوا قديماً لا يرون الماضي على حقيقته، فهم إما أن يروه عصراً أعظم من عصرهم لا يستطيع حاضرهم أن يجاريه في شئ، وإما أن يروه عهداً دون عهدهم لا يرضون أن تقاس حال أيامهم به. والأيام كالناس تختلف في الخطوط وتتباين، فكما أن بعض الناس يكتسب من الحمد فوق ما يستحق، وينسب اليه من كريم الخلال ما ليس من طبعه، فذلك الأيام، قد ينعت الناس بعض عصورها بما ليس من طبعه، وينسبون اليه من الفضائل أكثر مما يجدر به، وكما أن بعض الناس قد يسلب جزاه، وتجحد حسنته، وينكر فضله، فكذلك قد يظلم التاريخ عهداً من العهود، فلا يقر له بفضل، ولا يحجم في وصفه عن تهمة، ولا يتعرض له بالأذى: ولقد كان عصر أمراء المصرين من هذه العصور المظلومة التي جحد التاريخ فضلها، وأذاع مثالبها، واخفى مناقبها، وصورها صورة مشوهة بغيضة. ولسنا بسبيل بيان الأسباب التي حملت التاريخ على ذلك الظلم، ولكنا نكتفي بأن نقول إن الأحياء قد يكون لهم نفع من اتهام الاموات، وقد يعود بعض الخير من الافتراء على الجدود. ولا حاجة بنا إلى التطويل في دفع هذا الاتهام ولا في دفع هذا الافتراء، فما في هذه الإطالة تحقيق للقصد. وحسبنا أن نصف مجلساً أدبياً في بعض هذه الأيام الماضية، وللقارئ أن يحكم من هذا الوصف إذا كانت تلك الأيام الغابرة جديرة بما يصفها به المتهمون المفترون:

كانت أمور مصر في منتصف القرن الثامن عشر قد خلصت إلى اثنين من الزعماء: أحدهما الأمير ابراهيم، والآخر الأمير رضوان. وقد أصبحا صاحبي الأمر في البلاد لا ينازعهما إلا المنافسون في دخائل صدورهم؛ وأما ظاهر الأمر فلم يكن لهما فيه شريك. حتى أن الباشا العثماني الذي كان يمثل السلطان لم يكن له إلى جانبهما أمر ولا نهي.

ولقد كان لكل من هذين الأميرين متجه يتجه اليه في رياسته، فكان ابراهيم صاحب السلطان، قائد الجيوش، ومدبر السياسة؛ على حين كان رضوان مؤلف القلوب، وقبلة القصاد؛ وان الأميران على اختلاف اتجاهيهما متفقين متآلفين، فقضيا في رياستهما سبع سنين ونيفاً

وكان بيت رضوان يتألق بالأنوار الساطعة، ويخلع عليه الفن المصري رواءه وبهاءه، وتجتمع في أبهائه هامات العنصر من الأدباء والعلماء، وقد كان بمصر حينئذ في الحق أداء وعلماء، على رغم من يتهم هذا العصر بالظلمة والانحطاط.

هناك على ضفة الخليج المصري اشترى رضوان داراً من أحد أكابر التجار، كانت واقعة على بركة الأزبكية، وموضعها اليوم ما يلي حديقة الأزبكية وميدان الأوبرا. وكانت تلك البركة إذ ذاك متنزهاً من منتزهات القاهرة المحبوبة، تحيط بها بيوت أعيان التجارة والأمراء. وكان للمير رضوان فوق ذلك في الناحية الشمالية الغربية من هذه البركة منظرة بديعة تطل من الغرب على الخليج الناصري، ومن الجنوب على بركة الأزبكية، ومن الشمال على بركة أخرى استحدثها الأمير بتوسيع مجرى الماء في الخليج القاهري مما يلي قنطرة الدكة. وقد نسق الأمير قصريه أبدع تنسيق، وجعل لهما حدائق فسيحة نقل البها بديع الزهر والشجر، وأقام في أركانها الجواسق الجميلة. وجعل في جوانب الحدائق مما يلي البركة قناطر لتجري المياه من تحتها، واتخذ فوق تلك القناطر مجالس للنزهة والاسترواح. وأما داخل القصور فكانت القباب العالية المحلاة بذوب المسجد، واللازورد، والزجاج الملون، وقد نقشت اعاليها وأسافلها بأروع النقوش وأدقها. وكانت الأنوار تسطع في هذه القباب في أثناء الليل فتكاد تخطف الأبصار من بهائها ودوائها

وفي هذه الأبهاء التي تأخذ بمجامع القلوب كان يجتمع أدباء العصر وأعيان العلماء يتسامرون في حضرة الأمير المحبوب، ويتجاذبون أطراف الملح والنوادر في حشمة ووقار لا يخرج عنهما أحد. وكان من هؤلاء اديب العصر الاعظم قاسم بن عطاء الله المصري، وصديقه مصطفى أسعد الدمياطي، وإلى جانبهما مجمع باهر من شيوخ وشبان، بعضهم

للجد والوقار كالشيخين الشبراوي والحفني، وبعضهم للفكاهة كالشيخ عامر الانبوطي الهجاء

واجتمع مجلس الأدباء يوماً في القصر، وإذا بالأمير يسأل عن أحدهم فلا يجده. قال: (اين ابن الصلاحي؟) ولم يكد ينتهي من سؤاله حتى رد في جانب البهو صوت جهوري ينشد:

شاق طرف السرور وظرف الربيع ... فتملى بحسن تلك الربوع
ما ترى الزهر ضاحكاً لبكاءِ ال ... طل من در قطره بالدموع
وغصون الرياض تخلع أثوا ... ب التداني على الندى الخليع
فأنسنا بجمع إخوان صدق ... زان طبع الوفاء قدر الجميع
يا صلاحي أرح فؤادك والبس ... من بشير اللقا قميص الرجوع

فالتفت الجلوس كلهم نحو القادم فاذا هو الذي كان يسأل الأمير عنه؛ وصاح الشيخ عامر قائلاً: (لقد ذكرنا القط. . . .) فضحك الجمع ولم يمتنع عن الضحك الأمير، وجاس الأدباء بعضهم إلى بعض في أنحاء البهو الأعظم من قصر رضوان، وجلس الأمير على سرير عال من آيات الفن المصري، جوانبه من الخشب المخروط، تكتنفه وتتخلله رسوم من العاج والآبنوس والصدف، وقد كُسيت جوانب السرير بالحر الملون البديع، تتغير ألوانه في ضوء المصابيح المتألقة كما تتغير الألوان إذا وقع الضوء على رقاب الحمام القرمزي الداكن.

وأتجه الأمير إلى الأديب الأكبر ابن عطاء وأقبل عليه باسماً وقال له: (ماذا جئت به اليوم يا ابا عطاء؟ لقد رأيتك بالأمس تسير بين أشجار البستان، فقلت في نفسي لابد أن متحفنا اليوم بشيء جديد).

فأبتسم الأديب وقال: (الحق ما تقول أيها الأمير، دامت نعمتك، وأقر الله أعيننا ببقائك وعلو دولتك)

فقال له الأمير: (إذن فهات، وقد أحضرت لك الشيخ عامر الأنبوطي عمداً)

فصاح الأديب ابن عطاء وهو باسم وقال: (أعوذ بجاهك منه أيها الأمير!)

فصاح عند ذلك الشيخ متدخلا في الحديث (وماذا تخشى يا ابن عطاء؟ أليس لكل منه فنه؟)

فنظر إليه بن عطاء وهو باسط يديه بسطة الرجاء وقال: (لقد عذت بكنف الأمير من لسانك، فدون سوى إذا شئت)

فقال الأمير ضاحكاً: (إذن أنا مجبرة منك يا شيخ عامر) وضحك الشيخ عامر وقال: (إذا شئت أيها الأمير، فلقد والله قضيت الليلة الماضية أشحذ لساني وذهني لنزاله. وقد والله فوت على فريستي)

فضج الندى وأنصت بعد لأي لمدحة الأديب ابن عطاء: فأنشأ يقول:

بكت بدمع الطل عين النرجس ... فأضحكت ثغر الأقاح الألعس
واستمر في مزدوجته يصف البستان حيناً والماء حيناً.

فيقول منها:

حديقة بها السرولا محدق ... جدولها مسلسل منطلق
في جوه نجم الزهور مشرق ... والبان ظله غدا يسترق
من وجنة الماء احمرار الورد

ثم تخلص إلى ذكر الحب على سنة الأقدمين من الشعراء، وتخلص من ذلك إلى مدح رضوان فقال:

دع علة التعليل بالأماني ... واقصد حمى الموصوف بالأمان
وانف لباس البؤس والأحزان ... واسأل عن النعيم من رضوان
سَلْ ما تريد، لا تخف من رد
ملينا جلت لنا أوصافه ... لم بيد في غير العطا إسرافه
ضياؤه قرت به أضيافه ... تفعل في جيش العدى أسيافه
ما يفعل الصرصر يوم الحصد

إلى أن أكمل مدحته بين اهتزاز الأمير واعجاب السامعين، لولا ابتسامة عابثة من الشيخ عامر وهو ينظر إلى الأمير.

فقال له الأمير: (وما تستطيع أن تقول في هذا يا شيخ الهجائين؟)

فقال الشيخ: (لا أقوال في هذا شيئاً مادام فيه ذكرك ومديحك أيها الأمير: ولكنه لو لم يستعذ بك وجدني قائلاً)
فتحرك الأديب ابن عطاء حركة غضب وأنفة وقال:
أيسمح لي الأمير أن أرد عليه جواره إلى حين، لا حرمني الله جوارك، فان هذا الشيخ) قد
ظن أنني اتوارى منه ضعفاً)؛ فتبسم الأمير وقال: (نازله بقصيدة اخرى جديدة إذا شئت)
فصاح الشيخ عامر وظنها فرصة في ابن عطاء فقال: (أصبت القصد لازلت موفقاً أيها الأمير)
فاهتز ابن عطاء وقال: (نعم إذا شئت أيها الأمير، إن عفوي خير من إعدادي، وإذا شئت قلت)
فأذن له الأمير وتطلع الحاضرون إلى الأديب يظنون أنه سيسف ويتعرض لطعنات منازلة الهجاء. فقال ابن عطاء:
ترك الهجر ووافى كرم ... بعد ما كان لعهدي قد نسى
أهيف القد كغصن عَلِيما ... من نسيم الروض فن الميس
فاهتز الأمير وقال: (هيه يا ابن عطاء!)
فسرت في الشاعر هزة جديدة واستمر يقول:
مفرد في الحسن ثني معجباً ... ألف القد بشكل حَسَن
غصن بان هزه ريح الصبا ... خده يزهو على الورد الجني
ساحر الجفن أرانا عجباً ... أسره للأسد حال الوسن
وما زال بالسمط وراء السمط، والعقد من بعد العقد، حتى تخلص إلى مدح الأمير على عادته إلى أن ختم موشحه قائلاً:
كفه الغيث على الناس همي ... فأعاد الخصب بعد اليَبَس
أصبح الدهر به مبتسماً ... وهو فيه محل اللعَس
فنزل اليه الأمير من سريره وعانقه وقال له: (بمثلك تزدان مجالس الملوك يا ابن عطاء، والله لو لم أجد من المال إلا قوت يومي لما وجدت له محلاً أحب من إهدائه اليك)
ثم التفت الى الشيخ عامر وقال:
لقد أنطقه الولاء أيها الشيخ فماذا تستطيع أن تقول؟)
فقام اليه الشيخ وقبل رأسه وقال:
(يا أمير الشعر قددِنا اليك)
فصاح الشيخ مصطفى اللقيمي الدمياطي من جانب المجلس وقال:
أما الأمارة فلا نراها في الشعر. إن هي إلا في تلك السياسة، وهذه الدولة والرياسة.) (فدع عنك التعرض لهذا، فما أظنك مصيباً من الجائزة شيئاً
فضحك الحاضرون شماتة في الهجاء الذي لم يترك من أهل الشعر ولا من اهل العلم أحداً إلا وتره وحرك حقده
وكان الشيخ الهجاء قد انكسر عند ذلك، غير انه لم يرض أن يترك من الوخز فقال ناظراً الى الشاعر الآخر:
وما لك أنت؟ لأني بك قد تحركت غيرتك. غير أن لست بمستطيع اليوم أن تقول) (شيئاً. فقد ملك اليوم ابن عطاء
فقال الأمير مدفعاً عن الدمياطي:
ومالك أنت به يا شيخ عامر؟ أنسيت مدحته العظمى؟ أنسيت مدامته الارجوانية في) (المقامة الرضوانية؟ لقد ينقطع عمر الكثيرين دون مثلها
فقال الشيخ عامر ولم يثنه دفاع الأمير:
وأشار الى الشاعر، ثم صاح وجه الشاعر الدمياطي، وقال (إن هي إلا بيضة الديك) غاضباً:
لو شئت الهجاء لهجوتك، ولكنك أقل من أن أهجوك، فاسمع إذن مدحتي في زين) (الملوك وأقر بعجزك وصغارك
ثم اندفع يقول:
بشرى الربيع لقد وافت بشائره ... وفاح دونك في الآفاق عاطره

ومالت القضب بالأطيار مطربة ... وقد تبسم من عجب أزاهره
فسر مقدمه الحالي أخا شجن ... يهجه من معاني الدوح ناضره
ثم أوغل في وصف الربيع وزهره ونسيمه وعطره، فأبدع وأطرب إلى أن تخلص من وصفه الممتع إلى مدح الأمير فقال:
والزهر من فرح أهدى النثاريها ... لما سما الورد واستعملت مظاهره
حكى بمنظره الحالي ومخبره ... صفات رضواننا السامي زواهره
أمير مجد لنا تتلى مدائحه ... مدة الزمان كما تروى مآثره
تخاله الليث والمريخ في يده ... إذا بدا جائلاً والسيف شاهره
روض نضير ولكن مثمر أبداً ... غيث ولكن ندى عمت مواطره
وما زال ينتقل في ذلك المدح من معنى إلى معنى إلى أن قال:
خذ من زمانك ما أغناك مغتنما ... وأنت ناه لهذا الدهر آمره
ودم بروض العلا والعز منبسطاً ... بمطربات الهنا يشدوك طائره
فصفق الأمير طرباً عندما بلغ الشعر ذلك، وصاح بالشيخ عامر يقول:
(عزمت علي يا شيخ إلا ما قمت إليه وقبلت رأسه كمل فعلت بالأديب ابن عطاء، فما هو بدونه مرتبة في الشعر ولا في الولاء. ولكم جميعاً مني أسنى جائزة)
فقام الشيخ إلى الشاعر وقبل رأسه وهو يقول:
(وما لكم لا تشكرون لي وخزاتي. أيها الأمير أكنا نظفر منهما بهاتين الدرتين بغير وخزات لساني؟)
فضحك الأمير والحاضرون منه وقال رضوان:
(أتذر البيت القديم يا شيخ عامر؟ لقد قلته لي منذ أيام فلولا أن النار تحرق ما حولها ما شم أحد رائحة ال. .)
فقال الشيخ منشداً البيت:
لولا اشتعال النار فيما جاورت ... ما كان يُعرف طَيبَ عرف العود
فقال الأمير (هو هذا. هو هذا. لقد حفظت معناه ولكني لا أقوى على حفظ لفظه.)، ثم نظر إلى مملوك واقف إلى يمينه، وقد وضع يديه على صدره تأدباً وقال له:
(يا محمود، اذهب إلى خازنداري، وبلغه أمري باحضار ما اعتدت بذله في مثل هذا اليوم)
ولم يخرج أحد من الحاضرين في ذلك المجلس بغير ما يرضيه، غير ان الشيخ الحفني أبى أن يأخذ شيئاً من الأمير، بل قبل الأمير يده وسأله الدعاء، وخرج الشيخ الوقور وهو يدعو للأمير بالتوفيق والهداية)
وكان الشاعر ابن الصلاحي في كل ذلك متواضعاً ساكناً لم يثر لغيره، ولم يتقدم لمنافسة، بل كان يرب كما يطرب الحضور ويعجب كما يعجبون، ولما أوشك عقد الجمع أن ينفرط رفع عقيرته فأنشد مرتجلاً:
يا مساء السرور كيف اختلسنا ... فيك أنسا كأنما هو شك
قد أنسنا في فتحه بالتداني ... ودهانا ختامه وهو مسك
ثم سار وهو يقول مرتجلاً:
إلى القبة الفيحاء سرنا فسرنا ... ربيع المنى في ثغر طلعتها الغرا
أنسنا بها من كل بدر ولا نرى ... عجيباً طلوع البدر في القبة الخضرا
فنظر إليه الأمير رضوان مبتسماً وقال: (هيه يا ابن الصلاحي لقد فوت علينا الليلة إنشاد منك) فقال الشاعر باسماً وهو ناظر إلى الأرض (دمت للملك يا مليك الزمان فالعود أحمد)، ثم حيا الأمير وسار في أثر صحبه خارجاً

محمد فريد أبو حديد

الغزو الاقتصادي الياباني لاسواق العالم واثره في الاقتصاد المصري

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تتمه

استطاع الغزو الاقتصادي الياباني أن يحدث أثره في معظم الأسواق القديمة بسرعة مدهشة. وقد قال مسيو هيرونا وزير الخارجية اليابانية في إحدى تصريحاته الأخيرة إن هذه النهضة الصناعية والتجارية التي تضطلع بها اليابان إنما هي ثمرة العمل والمثابرة،

ولا تعتمد على وسائل غير شريفة، وليس وراءها أية نزعة عدائية. وقد بينا في مقالنا السابق ظرفاً من الظروف والأحوال الاقتصادية المشجعة التي تعمل فيها الصناعة اليابانية، ولكن اليابان لا تستطيع بمثل هذه التأكيدات أن تهدئ ما يبثه غزوها الاقتصادي في معظم الدول الصناعية والتجارية من عوامل الخوف على مستقبلها الاقتصادي. ويجب أن نذكر أن النفوذ الاقتصادي إحدى الوسائل القوية التي يعتمد عليها الاستعمار الغربي في توطيد نفوذه وسلطانه في أفريقية وآسيا، وأنه يكون غالباً طليعة الفتح السياسي وذريعته، فاذا اضطربت دعائم هذا النفوذ الاقتصادي، اضطربت دعائم السيادة الاستعمارية التي تقوم عليه؛ والتحرير الاقتصادي دعامة قويه للعمل في سبيل التحرير السياسي. فالدول الاستعمارية التي يزعجها الغزو الياباني لا تقف في مقاومته عند تقدير الاحتمالات الاقتصادية وحدها، ولكنها تنظر الى آثار من وجهة أشد خطراً وأبعد مدى وهي وجهة مستقبلها الاستعماري

ولا ريب أن بريطانيا العظمى في مقدمة هذه الدول، بل هي أولها واسبقها الى التأثر بهذه المنافسة الخطرة التي تهدد نفوذها الاقتصادي والاستعماري في معظم أرجاء امبراطوريتها الشاسعة، وتخلق لها مشكلة امبراطورية في منتهى الخطورة. ذلك أن بريطانية العظمى تسمد كثيراً من أسباب غناها وقوته وعظمتها من نفوذها الاقتصادي وتفوقها الصناعي والتجاري؛ وهذا النفوذ الاقتصادي اقوى دعامة في صرح سلطانها الاستعماري؛ فاذا تقوضت دعائم هذا النفوذ اضطرب بناء الامبراطورية كله. وبريطانيا تشعر اليوم بأن تقدم

الغزو الاقتصادي الياباني بهذه القوة المدهشة يعرضها لمثل هذا المأزق الدقيق؛ وتشعر باقي الدول الاستعمارية مثل فرنسا وهولنده وإيطاليا، بأنها تواجه نفس الخطر؛ وترى الولايات المتحدة أسواقها القديمة في أمريكا الجنوبية تفلت من يدها لتذهب الى قبضة منافستها الأسيوية؛ وتعمل الدول الغربية جميعاً لرد هذا الغزو كل بواسائها الخاصة، وقد نراها غير بعيد تحاول رده بوسائل مشتركة إذا عجزت من مقاومته منفردة كما حاولت أيام غزو اليابان لمنشوريا وتقدم الاستعمار الياباني في الصين وقد يكون الغزو الاقتصادي الياباني من هذه الناحية أعنى من ناحية العمل على تقويض نفوذ الدول الغربية الاقتصادي في أفريقيا وآسي وإضعاف سلطانها الاستعماري بذلك، خليقاً بعطف الأمم الشرقية وتأييدها، خصوصاً وأنه لا يبيت وراءه مطامع استعمارية، - واليابان تقف بأطماعها الاستعمارية عند الصين وسيادة الباسفيك -، وهو خليق بعطف الأمم المغلوبة بقدر ما يحدث للأمم الغربية الغالبة من صعاب ومتعب تفت في بنائها الاقتصادي وسيادتها الاستعمارية؛ ولكن العطف على جهود اليابان من هذه الناحية العامة، يجب ألا يحول بيننا وبين تقدير العوامل والآثار الاقتصادية الضارة التي تترتب عليها من الوجهة المحلية؛ وما يعنينا قبل كل شيء هو بحث هذه الآثار في اقتصادنا المصري، فقد أخذت طلائع الغزو الياباني تحدث أثرها في السوق المصرية بسرعة، وتثير من العوامل والاحتمالات ما قد يعرض مستقبلنا الاقتصادي الى أخطر النتائج إذا لم تتخذ الوسائل اللازمة لتوطيده وحمايته

ذلك ان محصول مصر الرئيسي ونعنى القطن يرتبط أشد الارتباط في انتاجه وفي تصريفه بصناعة القطن البريطانية؛ هذا ومن جهة أخرى فان في مصر الآن صناعات قطنية هامة يجب حمايتها وتشجيعها على التوسع والنمو؛ والصناعة القطنية اليابانية تتقدم بسرعة ويحدث هذا التقدم أثر السيئ في الصناعات القطنية البريطانية التي تستهلك أعظم كمية من القطن المصري؛ ومن الغريب أن اليابان مع كونها لا تنتج سوى قليل من القطن الرديء، استطاعت أن تتقدم في الصناعة القطنية حتى أصبحت في انتاجها ثالثة دول العالم بعد الولايات المتحدة وانكلترا؛ ويبلغ ما تصدره اليابان من البضائع القطنية نحو 20 % من مجموع صادراتها، واليابان تستورد كميات عظيمة من القطن الرديء من الهند والولايات

المتحدة ولا تستورد سوى كمية ضئيلة من القطن المصري. وقد بلغت قيمة ما استوردته في سنة 1930 من القطن فقط 362 مليون ين (نحو 24 مليون جنيه) ولكي يستطيع القارئ أن يقدر مدى تقدم التجارة اليابانية في مصر نضع أمامه الأرقام الآتية عن قيمها في الأعوام الأربعة الأخيرة:

سنة 1933 1932 1931 1930

ج. م 1. 732 , 077 1 , 535 , 282 2. 152 , 140 2. 873. 131
ففي أقل من عامين زادت الصادرات اليابانية إلى مصر نحو 40 %، وأصبحت التجارة اليابانية في مصر سنة 1933 تعدل نحو 12 % من مجموع تجارة مصر الخارجية (وقد بلغ في هذا العام 26 , 766 , 991)

وتمثل البضائع القطنية والحريرية أكبر نسبة في الصادرات اليابانية إلى مصر؛ وقد نمت نسبة الصادرات القطنية بسرعة مدهشة في الأعوام الثلاثة الأخيرة كما يتضح من البيان الآتي:

مقدار ما ورد إلى مصر من البضائع القطنية والحريرية اليابانية مقدراً بالجنيه

سنة
1931
1932
1933
بضائع قطنية مختلفة
ج. م 234 , 761
1. 104. 673
1. 834. 877
بضائع حريرية مختلفة
. . . . . .
626. 874
501. 920

ومن ذلك يتضح أن الصادرات القطنية اليابانية إلى مصر بلغت نحو ثلاثة أمثالها في ظرف عامين؛ ومن المحقق أن هذه النسبة قد ارتفعت في العام الحالي (الذي لم ينته بعد) وسوف ترتفع باطراد إذا استمرت الامور على حالها.

وقد كانت منتوجات لانكشير (انكلترا) القطنية حتى أعوام قلائل تحتل المكان الاول في مصر، كما ان لانكشير اكبر عميل لمصر في شراء قطنها؛ ولكن المنافسة اليابانية كانت شديدة الوطأة على الصناعة القطنية البريطانية في مصر والهند وفي معظم الاسواق الامبراطورية؛ وقد اصابت هذه المنافسة تجارة لانكشير في الهند بخسائر فادحة؛ ورفعت حكومة الهند الرسوم الجمركية على البضائع القطنية اليابانية مراراً حتى بلغت 75 %، ومع ذلك فان ذلك لم يحقق للتجارة البريطانية ما كانت تتمتع به في الهند من التفوق؛ واضطرت بريطانيا أن تجري في ذلك السبيل مع اليابان مفاوضات خاصة وان تعقد معها اتفاقاً تجارياً خاصاً تحصل به على بعض المزايا خاصاً تحصل به على بعض المزايا نظير تحديد المنسوجات القطنية اليابانية الصادرة الى الهند باربعمائة مليون ياردة تحصل عنها رسوم جمركية قدرها 50 % من قيمتها. أما في مصر فما زالت تجارة لانكشير في انحطاط مستمر، وقد هبطت تباعاً في الأعوام الثلاثة الاخيرة بسرعة يوضحها البيان الآتي:

مقدار ما تستورده مصر من المنسوجات والبضائع القطنية من انكلترا

سنة
1931
1932
1933
ج. م
1. 742. 000
1. 56. 466
1. 232. 811

ويتضح من ذلك ان ما استوردته مصر سنة 1933 من البضائع اليابانية يزيد عما استوردته منها من انكلترا بنحو ستمائة ألف جنيه؛ وأن اليابان أصبحت تحتل المكان الأول في الصادرات القطنية إلى مصر بعد أن كانت انكلترا تحتله باستمرار

ومن ذلك نفهم مدى جزع لانكشير من تدهور مركزها في السوق المصري؛ وهو جزع يبدو فيم تعلق به الصحف الانكليزية على هذا الموقف، وفيما ينذر به أقطاب الصناعة

البريطانية من وقوع رد الفعل على مص ذاتها حيث تضطر المصانع البريطانية أن تقلل من شراء القطن المصري إذا استمرت الحال على ذلك. وهذه هي أخطر نقطة في الموضوع بالنسبة لمصر. ذلك أن ما تستورده مصر من مصنوعات انكلترا القطنية لا يتناسب مع ما تشتريه انكلترا من القطن المصري؛ وإليك مقدار ما اشترته انكلترا من قطننا في الأعوام الاخيرة:

193119321933

ما قيمته6. 469. 204 5. 527. 393 8. 767. 280ج. م

ويقابل ذلك ما تشتريه اليابان وهو:

ما قيمته1. 213. 162 1. 078. 681 1. 168. 528 ج. م

فانكلترا تشتري من قطننا في العام نحو 40 % منه بينما لا تشتري اليابان اكثر من 6 او 7 %، ومع ذل فان اليابان تصدر إلى مصر من البضائع القطنية أكثر مما تصدره انكلترا

والنتيجة المحتومة لذلك، إذا استمر هذا الوضع الشاذ، هي ان لانكشير ستضطر غلى أن تقلل شيئاً فشيئاً من استهلاكها للقطن المصري مادامت لا تجد اسواقاً لتصريف منتوجاته؛ وعندئذ يقع الضرر المحقق على المنتج المصري

هذا من جهة، ومن جهة اخرى فان في مصر صناعة قطنية ناشئة تضطلع بها شركة مصر، وتوظف فيها ملايين عديدة من الاموال المصرية؛ وقد قطعت شركة مصر لغزل القطن ونسجه خطوات كبيرة في أعوامها القلائل واصبحت اعظم منشأة صناعية في مصر؛ وهي تستهلك كل عام مقداراً كبيراً من القطن المصري وتمد السوق المحلية بكميات عظيمة من المنتوجات القطنية المتقنة الصنع المعتدلة الثمن مع ذلك. وكان ما يستهلكه سنة 1931 من القطن المصري 22. 308 قناطير فزاد في العام الثاني إلى 50. 775 قنطاراً وفي الذي يليه الى 97. 143 قنطاراً، ثم زاد في العام الماضي (1934) الى 152 ألف

قنطار. وزادت منتوجاتها من الغزل والنسيج تبعاً لذلك زيادة كبيرة حتى وصلت (سنة 1934) الى 13 مليون رطل من الغزل، والى 35 مليون ياردة من النسيج.

وهي تسير بسرعة في سبيل التقدم وتتخذ الأهبة لمضاعفة أعمالها ومشاريعها، بحيث يتضاعف ما تستهلكه من القطن المصري عاماً بعد عام ويتضاعف ما تنتجه من الغزل والنسيج

ولكن هذا الصرح الاقتصادي العظيم يجد نفسه اليوم أمام غزو البضائع القطنية اليابانية الرخيصة للسوق المصري، وهو غزو يشتد أثره يوماً بعد يوم، وتجد هذه البضائع الرخيصة في السوق إقبالاً سريعاً تشجعه وتذكيه الازمة الاقتصادية؛ وقد بينا كيف تعمل الصناعة اليابانية في ظروف مدهشة تمكنها من هذا الغزو، والصناعة القطنية اليابانية تستعمل القطن الرديء الرخيص، الهندي او الامريكي، في حين أن شركة الغزل المصرية لا تستعمل سوى القطن المصري، لكي تعاون بذلك على استهلاكه، وتحقق الاغراض الاقتصادية القومية التي قامت من اجلها، فاذا استمر هذا الغزو الياباني دون اتخاذ ما يجب لرده، واستمر إقبال المصريين على البضائع القطنية الرخيص، عرضت الصناعة القطنية المصرية لمصاعب تحد من نموها وتقدمها، وعرضت الملايين المصرية التي توظف فيها، والايدي المصرية العاملة التي تقوم بها، الى عواقب لا تحمد ولا يرضاها اي مصري

وما نريد ان ننوه به بنوع خاص، هو أن الأمر هنا لا يتعلق بالناحية القومية والواجب القومي في تشجيع الصناعات القومية، ولكنه يتعلق باعتبارات اقتصادية خطيرة. ذلك أن هذه المنسوجات الرخيصة تستهلك لرداءتها بسرعة، في حين أن المنسوجات الجيدة التي تنتجها الصناعة المصرية من القطن المصري تمتاز بالمتانة وبطول استعمالها، فهي بذلك أجدى وأفر على المستهلك الذي يقدر مصلحته الحقيقية. هذا ومن جهة أخرى فان الصناعة المحلية تستهلك قطناً مصرياً، وتعاون المنتج المصري بذلك على تصريف اقطانه، فاذا لم يعاونها المصريون من جهة أخرى باستهلاك منتوجاتها، فانها تعجز عن المضي في تحقيق هذه المعاونة الاقتصادية الجليلة.

ولهذا كله يجب على مصر أن تقطن لما يهدد مستقبلها الاقتصادي من جراء هذا الغزو

المفاجيء، وان تبحث في وسائل الحماية السريعة لصناعاتها الفتية. وعبء هذه الحماية
يقع على عاتق الحكومة والامة معاً. فاما الحكومة فمن واجبها وفي مقدورها ان تلجأ الى مضاعفة الحماية الجمركية لتحمي المنتوجات المحلية من هذا السيل الداهم؛ على أن هذه الحماية وحدها لا تكفي كما أثبتت التجارب الاخيرة في مصر وغير مصر؛ وإنما يجب ان تقرن في الوقت نفسه بمعاونة الأمة وتفضيلها للمنتوجات القومية على سواها؛ وهي بهذه المعاونة لا تحقق واجباً ونياً فقط، وإنما تخدم في الوقت نفسه مصالحها الاقتصادية

محمد عبد الله عنان المحامي

حول 19 يناير

للأستاذ محمد محمود جلال

اليوم تبحر من السويس إحدى الجواري المنشئات في البحر علماً على تقدم وتسخير القوى، تقل الرهط الكريم من رجال الزراعة والاقتصاد غلى بور سودان. وكنت اعد لتلك الرحلة عدتي، حتى حالت فجأة ظروف قاهرة دون ما تعلقت به الأمنية. فاليوم ندعو الله ان يقرن التوفيق بخطاهم، ونسجل لهم هذه اليد سابقين الى الاعتراف سبقهم الى خير العمل

ولعل هذه الرحلة الموفقة باذن الله اولى الخطى، ولعلها بداية حزم ترقبه البلاد من قديم، فتلها خطوات في مختلف ميادين السعي المجدي؛ ولعلها بادرة التنبه، ولعل الله جل شانه حين قدرها شهر يناير موعداً قد اراد ان يسدل على التقصير من ستره، وان يكون في المستقبل ما ينفض عن الماضي الغبار

فلقد مر (19 يناير) وكأن لم يلحظه احد، فلم نر لذكراه الا سطوراً نشرت بالأهرام من هيئة واحدة، هي هيئة الحزب الوطني؛ حتى لكأنه يوم يمر كسواه، وكأنه ليس ذلك اليوم الذي امسى على غصب صارخ، وتفريق مروع، وعبث من القوة بالحق عبثاً لم يرو التاريخ له مثيلاً

وبين (بور سودان) على البحر الأحمر و (بور سعيد) على البحر الأبيض صحيفة من المجد كاد يطويها الزمان لولا كفالة التاريخ، وكوامن من الذكريات والعبر من حق الجيل الجديد علينا أن نبسها وننشرها، ومن واجب الأدب المصري أن يبذل لها أثمن بضاعته وأغلى جهوده. فلم يزل الأديب منذ القدم قواماً على الواجب والفضيلة، يتحسس مواضيعها، ويخرجها في خير الثياب واصدقها غذاء للأمم في حياتها، وإيقاظاً لهمم فيما تحاول من تصحيح وتهذيب

واذا كان الشطر الأول من الاسمين أعجمياً دخيلاً، ففي الشق الثاني من كليهما شفاء ورحمة للمؤمنين

فالمرحوم (سعيد باشا) عزيز مصر أصبح في التاريخ - وبعد أن خلقت سياسة الانجليز (حادثة وادي حلفا وتفتيش الجنود) فاضطرت الخديو عباس الثاني إلى العودة الى القاهرة - آخر من زار (الوجه السوداني) من ملوك مصر

وقد زخر التاريخ الحديث بفيض من خير الأنباء غن زيارته، فأينما حل ان الاستقبال حافلاً، صادراً من القلوب لا اثر فيه لرياء ولا مصانعة، وحسبك من قرة عين لمليك أن يرى أبنية شاهقة وطرقاً ممهدة وادارة مستقرة حازمة، تعاونت على تأسيسها وتمهيدها وإقرارها أباد من اقاليم الوجه البحري، وأخرى من الوجه السوداني، وثالثة من الوجه القبلي

ولعله رحمه الله أراد أن يختبر ذلك البناء المعنوي المدعم، ويشهد العالمين - وفي مقدمتهم قناصل الدول - حين أشاع عزمه على إخلاء السودان من بني الوجهين البحري والقبلي، فهب أبناء الوجه السوداني في ألم وحيرة يرجون ويلحون في أن يعدل عن فكرة تنافي طبيعة الوجود. فآمن بأساس ملكه وحصل على ما أراد من التجربة

وإني لأذكر في ألم ومرارة كيف أصبح مجلس النواب بالقاهرة خلواً من أبناء السودان وقد كانوا زينة المجالس الأولى؛ فقد كان الوجه السوداني ممثلاً بعدد يوازي نواب الوجه القبلي

وفي عام 1911 أبان المرحوم (أبانا باشا) رئيس الجمعية الجغرافية في بحث له

بالمؤتمر المصر أن مقارنة العظام التي عثر عليها في المقابر تثبت أن الذين يقطنون وادي النيل من عنصر واحد
ثم انظر بعد ذل تلق الوحدة في اللغة وتلقها في الدين وتجدها في العرف كما تجدها في العادات
ولكنك حين نبحث في القاهرة وهي قلب البلاد تأخذ قلبك حسرة لاذعة. فلست تجد فيها بين مظاهرها المختلفة مظهراً واحداً يدل على تل الوحدة الطبيعية ويشير إلى هذه الروابط الوثيقة
بين ظهرانينا نخبة من الشعراء، سجلوا كثيراً من الحوادث ذات البال، حتى امتد فضلهم إلى شؤون تبعد عن مصر، وقد خلت دواوينهم من ذكر السودان وشؤونه، بل لم تنوه قصيدة بتلك التجربة التي قام بها المرحوم سعيد باشا، وفي عرفي انها وحيدة في التاريخ الحديث
أعرف أن المنظر والمعاشرة أكثر العوامل إيحاء. ولكن التاريخ ما يزال للكثير من الكتاب والشعراء مصدر وحي من أغزر المصادر بتناول الفريقان من كأسه دهاقاً من روعة
وفيضاً من غذاء
بل إن الروعة المعنوية لحادث كبير او تصرف حصيف، او خلق كريم، لتكون في كثير من الاحيان اوفر مادة واكرم اثارة من مظهر مادي
وإذا كانت الجزيرة ببساتينها وقصورها، والروضة بحافل تاريخها، والأزهر الشريف بماضيه، تأخذ باللب وتلهم القائل، ففي جزيرة السودان، وفي غاباته، وفي منابع النيل السعيد الكريم، وفي مجاري مياهه الأولى وروافده سمة للفكر والقول، وأي سعة؟
لقيت في إحدى سفراتي ضابطاً شهماً اقام بالسودان، اخذ يحدثني عن رحلات قام بها في ربوعه، والضابط اقرب الناس إلى اختصار القول وأبعدهم عن زخرفه؛ ومع ما بيني وبين ما يصف من شقة بعيدة، فقد ظلت طوال الرفقة أخيذ القلب بالصور الرائعة يعرضها واحدة تلو اخر حتى دونت منها كثيراً، وحتى تمنيت لو كنت شاعراً فأصوغها نظمياً أقوم به ببعض الواجب نحو بلادي
وكم يكون من خالص التوفيق أن تدعو (الرسالة) إلى رحلة فريق من الأدباء في العام القادم، يصلون ما انقطع في عالم الأدب
ثم انظر بعد لك الى المسارح!! فلن تجد رواية حدثت وقائعها بالسودان. بل إنك واجدها حافلة بالمناظر الأوربية، وبكثير من مناظر القاهرة وبعض القرى، دون أن يحظى بصرك بمنظر واحد يمثل لك الخرطوم قائمة شاهقة على الأيدي الثلاث، ولا منابع النيل إليك حقيقة الأواصر في الوحدة المباركة، ولا بمثال الشجاعة وكرم الخلق الذي تسير على نوره الركبان
إنا حين نقول في أدبنا القومي عن اهل الوجه البحري، إنهم أولو ذوق سليم، وعن الوجه القبلي إنه موطن الكرامة والكرم وجب أن نقول عن أهل السودان إنهم أهل الوفاء والشجاعة
كان الأمير (علي بن دينار) ممتعاً بكثير من مظاهر الحكم، وليس أغنى من الانجليز ولا أسخى منهم يداً وقت الحرب، وهم المسيطرون حواليه، ولكن ذلك لم يكن مغرياً له، فهو لم يفتأ يذكر أنهم نكبة وادي النيل وهو منه، فما ثار إلا عليهم وفاءً لحق النيل وواديه، وظناً منه بسنوح الفرصة
وفي السودان علماء، وذكاء أهله غير منكور، ولا نعرف في العاصمة عنهم إلا قليلاً، حين تذكر الصحف قدوم بعضهم للاستشفاء أو لتبديل الهواء، ومن واجبنا أن نبحث عن مؤلفاتهم وأن نتناولها بتعليق يجعل من الأمتين في العالم الأدبي كتاباً واحداً؛ ولاشك أن في السودان شعراء، فما زلنا نحس باقوال (سر الختم) و (علي عبد اللطيف) في محاكمتهم سنة 24، روح الشاعرية ممزوجة بالوفاء والشهامة. ومن واجب صحفنا وجماعاتنا الأدبية أن تبحث بما أوتيت من وسائل الصحافة عن تلك الكنوز
ليقم الأدب وجماعاته وصحفه بهذا الواجب، وليس العيب أن يكشف الزمان عن نقص ولا أن نعترف بالنقص، ولكن العيب أن نقعد عن تلافيه
ولنقل من اليوم: الوجه البحري، والوجه القبلي، والوجه السوداني. وليس عند اله جهد

ضائع، ولكن في الدنيا كسل مضيع
محمد محمود جلال
النزعة العملية في الأدبين العربي والانجليزي
للأستاذ فخري ابو السعود
من الطريف والمفيد معاً ألا نزال نوازن بين الأدب لاختلاف ظروفهما يختلفان كثيراً وقلما يتفقان؛ والموازنة بين وجوه اختلافهما العديدة - ووجوه اتفاقهما إن كانت - تلقي ضوءاً على مختلف الظواهر في كليهما، وتبرز شتى الأسباب والمسببات في تاريخهما، وقد قيل: وبضدها تتميز الأشياء
وأعني بالنزعة العملية في الأدبين اتصالهما بالحياة اليومية والاجتماعية والسياسية والوطنية ومساهمة أقطابهما في تلك الشؤون، والأدبان هنا أيضاً على طرفي نقيض: فالنزعة العملية تسود الأدب الانجليزي من أقدم أيامه، وهي باطراد عصراً بعد عصر، بينما هي تكاد تنعدم في الأدب العربي؛ وما كان منها في صدر تاريخه قد تضاءل بكر العصور
فالانجليز بطبيعتهم العملية لم يترددوا في زج الأدب في غمار الحياة الملية والاستعانة به في شؤونها، وأدباؤهم لم يحجموا عن الاخذ بحظهم من أشغال الدنيا ومخاطراتها، أما العرب فعلى عظيم منزلة الأدب لديهم وشدة احتفائهم به، كان أدبهم دائماً بواد والحياة العملية بواد؛ وكان فناً نظرياً محصناً من توفر عليه انقطع عن غيره وعاش في عالم من الحفظ والرواية والتاريخ والتصنيف
فكان من أدباء الانجليز من ضربوا بسهم الفن والعلم والدين والحرب والشف الجغرافي وكبار وظائف الدولة، وهم مع ذلك مؤلفاتهم الشعرية والنثرية المعبرة عن خوالجهم النفسية ونظراتهم في شؤون الحياة مستقلة تمام الاستقلال عن وظائفهم في الحياة العملية او متأثرة بها، ومن أولئك سبنسر وبيكون ورالي وبنيان وسدني سميث ودزرائيلي
ومنهم من شاركوا في التقلبات السياسية فكانوا دائماً في صف الحرية وفي جانب الشعب، ولم يستظل منهم إلا القليل بلواء الملكية ابتغاء السلامة والغنيمة. وممن ضربوا بسهم في هذا الباب توماس مو مؤلف (اليوتوبيا) الذي قطعت اليزابث يده لدفاعه عن حرية الشعب الدينية؛ ويقال إنه بعد قطع يده رفعها هاتفاً بحياة الملكة لأنه كان يحب ملكته الباسلة، ولكنه كان أكثر حباً للحرية والشعب. ومنهم ملتون الذي أيد الجمهورية في ظل كرومويل وعمى
بصره في الدفاع عنها أمام أنصار الملكية
ومنهم من اضطلعوا بعبء الاصلاح الاجتماعي الاخلاقي عقب الفساد الذي تركته الملكية العائدة من فرنسا بعد موت كرومويل، وإديسون، وستيل بطلا هذا الإصلاح الناجع الفريد في بابه.
ومنهم من كرس أعماله لإصلاح حال العمال عقب التطور الصناعي وزعيمهم دكنز، او لإصلاح القانون الجنائي ومعاملة المسجونين تمشياً مع عصر النور والحرية، ومن اولئك جالزورذي. ومن الأدباء الفكتوريين من صرف همه الى ترفيه الجمهور والذوق العام بالمحاضرة عن الفن والأدب، وكبير هؤلاء رسكن. وزادت هذه النزعة الاجتماعية الاصلاحية بتشعب نواحي الحياة حتى طمت في عصرنا الحاضر
بل كان من أولئك الفكتوريين جماعة خاضوا ميدان الصناعة والتجارة، فانشأوا شركة لصنع الأثاث، وكانوا يرسمون تطريز الأثاث بأنفسهم، إذ ساءتهم الطرازات الشائعة في عهدهم؛ وأنشأ أحدهم وهو الشاعر المصور وليم موريس مطبعة ومعملاً للحبر لكي يطبع كتبه على النمط الذي يختاره وبالحبر الذي يفضله
بل كان من أدباء الانجليز من عاف الاجتماع الانساني قاطبة ونقم على أنظمة الملكية والكنيسة، وحاول إنشاء مجتمع جديد تسود فيه البساطة والمساواة والأخاء، ومن هؤلاء الشعراء شعراء عهد الثورة الفرنسية؛ فالكتاب الفرنسيون الذين مهدوا لتلك الثورة أمثال روسو وفولتير اكتفوا بالعمل النظري وتركوا لتنفيذ لغيرهم، أما معاصروهم ومن جاء بعدهم من الأدباء الانجليز فحاول كثيرون منهم تنفيذ العمل بأنفسهم. وقد انتقل شيلي إلى إيرلندة ثم إلى أوربا لإنشاء مدينته الفاضلة، وإن يكن قد منى بالفشل في الحالتين؛ وعاضد وردزورث الثورة الفرنسية بقوة لمناداتها

بمبادئها المعروفة حتى نقم على دولته إعلانها الحرب على فرنسا الثائرة، وكاد ينتظم في أحد أحزاب الثورة، ويركب تيارها الخطر
أولئك بعض رجال العمل من أعلام الأدب الانجليزي المساهمين في الحياة الاجتماعية بفكرهم ومجهودهم، وما نخالنا واجدين مماثليهم بين أعلام أدبنا: فقد كان من يتوفر على الأدب من أبناء العربية ينصرف كما تقدم عما عدا الأدب، ويقصر أدبه على التعبير عن خوالجه الفردية وذكر مآربه وحبه وشرابه وغضبه ورضاه ونعيمه وشقائه، ويكاد لتوفره
على الأدب لا يجد قوت يومه إن لم يكن له مورد سهل، ويضطر إلى التقرب إلى مَوْليَ يمتدحه ويفوز بأعطيته؛ وقد كان هذا من دواعي استطالة هذه الظاهرة في الأدب العربي: ظاهرة المدح التي سرعان ما تلاشت من الأدب الإنجليزي
والقليلون من أعلام الأدب العربي الذين شاركوا في الحياة العملية إنما صنعوا ذلك جرياً وراء مطامعهم الشخصية لا دفاعاً عن مصالح أقوامهم؛ ولذا كان أقصى همهم أن يستوزروا للحكام، ولم يدر بخلدهم مناقشة سياسة أولئك الحكام، وإنما ظلوا أبواقاً لهم وكتبه مجيدين؛ ومن ثم كان ما يتصل بالسياسة من ذخائر الأدب العربي هو الرسالة الديوانية التي دبجها أولئك المنشئون على لسان أمرائهم
والمجيدون من أعلام الأدب العربي الذين ساهموا في حياة العمل بمناهضة السلطة القائمة كقطري بن الفجاءة مثلاً قلائل، وكان جلهم في صدر الاسلام، ومن لم يفعل ذلك منهم طلباً لغاية شخصية فعلة لعقيدته الدينية حين كانت العقائد الدينية مضطرمة في الصدور
لقد كان الشعر والخطابة في الجاهلية أداتين من أدوات الحياة العملية والسياسية في ذلك المجتمع البدوي، فلما جاء الاسلام كان في أصوله شورياً يخول الرعية مشاورة راعيها، ولكن دولته قامت على بقايا الملكيات المستبدة القديمة، فقامت الخلافة العربية على غرار تلك الملكيات التي تجمع الأمر كله بيدها، ولم يعد الخليفة يشاور إذا هو شاور رعياً لحق عليه بل التماساً للرأي إن أعوزه، ولا هو كان ملزماً باتباع مشورة غيره؛ وصار من المسلم به أن الحكم لأمير لا دخل للرعية فيه. ويدهى أن الأدب الذي ينمو في مثل هذه الظروف يظل مكفوفاً عن شؤون السياسة كما كانت بقية الرعية مكفوفة، فهذا سبب انعزال الأدب العربي عن السياسة
فالأدباء ممثلو أممهم: ففي انجلترا حيث كان الدستور والحياة النيابية هما العقيدة التي يدين بهال الشعب شارك الأدباء كما شارك غيرهم من أفراد الشعب في الحياة السياسية وتوطيد أركان الحرية، وفي الأقطار العربية حيث كانت الملكية المطلقة هي القاعدة أحجم الأدباء عن غمار السياسة كما كان بقية الشعب محجماً
ولقد خفق من وطأة الحكومة المطلقة على الأدب أن أكثر الخلفاء والأمراء كانوا أدباء او عشاقاً للأدب، وانوا جميعاً يقربون رجال الأدب ويغدقون عليهم؛ على أن هذه الحالة كانت
لها مساوئها بجانب مزاياها: إذ زخر أدبنا دون غيره من الآداب العالية بأشعار المديح والتهنئة والاستجداء، وشتان بين أدب ينمو في ظلال الحرية والاستقلال، وآخر بين قيود الرعاية والحماية والمنحة
كان الدستور محور السياسة في انجلترا، وكان الدين محورها في الأقطار العربية، فعليه انقسمت الأمة أحزاباً في أول الأمر، ومنه انبعثت الفتن والثورات وقامت الأسر الحاكمة وتقسمت الإمبراطورية العربية دولاً ودويلات، وبحافز منه جاهد المسلمون الروم ثم الفرنجة. كان الدين في كل هذه الأطوار مبعث النشاط السياسي وزناد الروح الوطنية والقومية، ولا ترى الشعر العربي يحفل بالحماسة وروح القومية إلا في عصور الجهاد تلك
فالحياة الديمقراطية في انجلترا كانت العامل الأول في اتسام الأدب الانجليزي بالنزعة العملية ومساهمته في الحركات السياسية والاجتماعية، واختراع الطباعة كان عاملاً آخر ساعد اتصال الأدباء بلحياة الاجتماعية واعتمادهم على جمهور القراء بدل الاعتماد على منح الأمراء، ونتج من توثق هذا الاتصال نشوء الصحف الدورية فكانت عاملاً جديداً في هذا الميدان أعقبه تعميم التعليم
فعاملا امتلاء الأدب الانجليزي بالنزعة العملية هما الحياة الديمقراطية أولاً وانتشار

المطبوعات ثانياً، وقد كان كلا العاملين يعوزان الأدب العربي، ومن ثم يزخر الأدب الانجليزي بالشؤون الاجتماعية والسياسية والوطنية بينما يقتصر الأدب العربي على وصف المشاعر الانسانية العامة وتصوير حالات النفس وأطوار الفرد
فخري أبو السعود
محاولات أفلاطون - 11
الحوار الثالث
فيدون أو خلود الروح
ترجمة الأستاذ زكي نجيب محمود
- وفي هذا يزدري الفيلسوف البدن، فتفر منه روحه وتود أن تنعزل بنفسها
- هذا صحيح
- حسناً، ولكن بقي شيء آخر يا سمياس، أثمت عدل مطلق أم ليس له وجود؟
- لا ريب في أنه موجود
- وجمال مطلق وخير مطلق؟
- بالطبع
- ولكن هل حدث لك أن رأيت واحداً منها بعينيك؟
- يقيناً لم أره
- ألم تدركها قط بأية حاسة جثمانية أخرى؟ (ولست أتحدث عن هذه وحدها، بل كذلك عن العظمة المطلقة وعن الصحة وعن القوة وعن كُنْه كل شيء، أي حقيقة طبيعته) ألم يأتك علمها قط خلال أعضاء الجسد؟ أليس الذي يريد عقله على أن يتصور كنه الشيء الذي هو بصدد بحثه أضبط تصورٌ، إنما يسلك أخصرَ السبل التي تؤدي الى معرفة طبائعها الكثيرة؟
- يقيناً
- أما من يظفر بمعرفتها أسمى ما تكون نقاء، فهو ذلك الذي يسعى اليها واحدة واحدة، فيتناولها بالعقل وحده، دون أن يأذن للبصر او لغيره من الحواس الأخرى بالتطفل او التدخل في مشاركة العقل وهو منصرف الى التفكير، بل ينفذ بأشعة العقل ذاته، بكل صفاتها، الى ضوء ما فيها من حقائق، بعد أن يكون قد تخلص من عينيه وأذنيه، بل ومن كل جسده، الذي لا يرى فيه إلا عنصر تهويش، يعوق الروح عن إدراك المعرفة ما دام متصلاً بها - ليس أرجح الظن أن يظفر مثل هذا الرجل بمعرفة الوجود، إن كانت معرفته في مقدور البشر على الإطلاق؟
فأجاب سمياس - إن في ذلك يا سقراط لحقاً رائعاً
- أو ليس لزاماً على الفلاسفة الحق إذا هم اعتبروا ذلك كله أن يغوصوا في أفكارهم، فاذا ما التقوا تحدث بعضهم الى بعض عن تفكيرهم بمثل هذه العبارة: إنا اهتدينا الى سبيل من التأمل قمينة ان تنتهي بنا وبالجدل الى هذه النتيجة: وهي أنه مادمنا في أجسادنا وما دامت الروح ممتزجة بهذه الكتلة من الشر، فلن تبلغ شهوتنا حد الرضى، إنها لشهوة الحقيقة، ذلك لأن الجسد مصدرٌ لعناء متصل، علته هذه الحاجة الى الطعام، وهو كذلك عرضة للمرض الذي ينتابنا فيحول بيننا وبين البحث عن الحقيقة، وهو كما يقول الناس، أبداً لا يدع لنا السبيل الى تحصيل فكرة واحدة، لما يملأنا به من صنوف الحب والشهوات والمخاوف والأوهام والأهواء، وكل ضرب من ضروب الجهالة، وإلا فمن أين تأتي الحروب والمعارك والأحزاب إن لم تكن آتية من الجسد وشهوات الجسد؟ فالحروب يثيرها حب المال، والمال إنما يُجمع من أجل الجسد وخدمته، ومن جراء هذا كله يضيع الوقت الذي كان ينبغي أ، ينفق في الفلسفة، هذا ولو تهيأ للفلسفة الميل والفراغ لنفث الجسد في مجرى التأمل الشغب والاضطراب والخوف ليحول بيننا وبين رؤية الحقيقة، وقد دلت التجارب جميعاً على أنه لو كان لنا أن نظفر عن شيء ما بمعرفة خالصة لوجب أن نتخلص من الجسد، ولزم على الروح أن تشهد بجوهرها جواهر الاشياء جميعاً؛ ولست أحسبنا إلا ظافرين بما نبتغي، وهو ما نزعم أننا محبوه، وأعني به الحكمة، لا اثناء حياتنا بل بعد الموت كما تبين من الحديث. فان كانت الروح عاجزة عن تحصيل المعرفة وهي في رفقة الجسد، فالنتيجة كما يظهر أحد أمرين: إما أن تكون المعرفة ليست على الاطلاق حقيقة بالتحصيل، وإما أن تحصيلها يكون بعد الموت إن كانت جديرة به؛ فعندئذ، وعندئذ فقط، تنعزل الروح في نفسها

مستقلة عن الجسد، وأحسب أننا في هذه الحياة الحاضرة نسلك أخصر السبل إلى المعرفة، لو كنا نبذل نحو الجسد أقل ما يمكن بذله من عناية وشغف، فلا نصطبغ بصيغة الجسد، بل نظل أصفياء إلى الساعة التي يشاء فيها الله نفسه ان يحل وثاقنا، فاذا ما ظهرنا من ادروان الجسد، وكنا اتقياء، وتجاذبنا مع سائر الأرواح النقية أطراف الحدث، تعرفنا أنفسنا في الأشعة الصافية التي تضيء في كل مكان، فلا ريب أن ذلك هو ضوء الحقيقة، فلن يُؤذن لشيء دنس أن يدنو مما هو طاهر، إنه لن يسع محبي الفلسفة الحقيقية، يا سمياس، إلا أن يفكروا في هذه الالفاظ وأشباهها، وأن يقولها بعض لبعض، أفأنت موافقي على ذلك؟

- يقناً يا سقراط

- ولكن أن صح هذا يا صديقي، فما أعظم الأمل إذن في أنني إذا ما بلغت غاية رحلتي، فلن يقلقني هذا الهم الشاغل الذي صادفني وإياكم في حياتنا الأولى؛ أما وقد تحددت ساعة رحيلي، فذلك ما أرْحلُ به من رجاء، ولست في ذلك فريداً، بل هكذا كل رجل يعتقد أن عقله قد تطهر

فأجاب سمياس - يقينا

- وماذا يكون التطهير غير انفصال الروح عن الجسد كما سبق لي القول، واعتياد الروح أن تجمع نفسها وتحصرها في نفسها بعدياً عن مطارح الجسد جميعاً، وانعزالها في مكانها الخاص، في هذه الحياة كما في الحياة الأخرى، ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، وفكاكها من أغلال البدن؟

فقال - هذا جد صحيح

- وماذا يكون ذلك الذي يُدعى الموت سوى هذا الانفصال نفسه، وتحل الروح من الجسد؟

فقال - لا شك في ذلك

والفلاسفة الحق وحدهم دون غيرهم يبحثون في انطلاق الروح ويتمنون ان يكون. اليس انفصال الروح وفكاكها من الجسد هو موضوع بحثهم الخاص؟

- هذا صحيح

- إنه لتناقض مضحك كما قلت في بادئ الأمر، أن ترى أناساً يحاولون بالدراسة أن تكون حياتهم قريبة من حالة الموت ما استطاعوا، فاذا ما ادركهم الموت أشفقوا منه

- يقيناً

- إذن يا سمياس. فما دام الفلاسفة الحق لا ينفكون يبحثون في الموت، فالموت عندهم، دون الناس جميعاً، أهون الخطوب. أنظر الى الأمر على هذا النحو: كم يبلغ منهم التناقض أن يناصبوا الجسد عداوة متصلة، وأن يتمنوا لو خلصت لهم الروح وحدها، فاذا ما أجيبوا الى ذلك، كن منهم السخط والجزع، في مكان اغتباطهم بالرحيل الى ذلك المكان، حيث يؤملون إذا ما بلغوه أن يظفروا بما قد أحبوا في الحياة (ألا وهي الحكمة)، وأن يتخلصوا في الوقت نفسه من مرافقة عدوهم. وكأين من رجل تمنى أن يذهب الى العالم الأسفل، آملاً أن يصادف هناك معشوقة دنيوية، او زوجاً، أو ولداً، ليتحدث إليهم. أبعد ذلك يشفق من الموت مضنْ هو للحكمة محب صحيح، ويعتقد كذلك أن لن تتاح له بحق إلا في العالم الاسفل؟ أليس يقابل لرحيل بالبشر؟

إنه يا صديقي لابد فاعل إن كان فيلسوفاً حقاً، لأنه سيوقن يقيناً ثابتاً أنه لا يستطيع أن يلتمس الحكمة في نقائها إلا هناك فقط، دون أي مكان آخر. وإن صح هذا، فأبلغ به من أحمق - كما سبق لي القول - إن كان يَفْرَقُ من الموت

فأجاب سمياس - لا ريب في أنه فاعل

وأنت إذا رأيت رجلاً يجزع من اقتراب الموت، كان جزعه دليلاً قاطعاً على أنه ليس محباً للحكمة، ولكنه محب للجسد، وربما كان في الوقت نفسه محباً للمال، أو القوة، أو كليهما

فأجاب - هذا جد صحيح

- إن ثمت يا سمياس لفضيلة تدعى الشجاعة. أليست هذه صفة خاصة بالفلسفة؟

- بقينا

- وكذلك الاعتدال. أليس الهدوء، وضبط النفس، وازدراء العواطف، التي يسميها

الدهماء أنفيهم بالاعتدال، صفة مقصورة على أولئك الذين يحتقرون الجسد ويعيشون في الفلسفة؟
- ليس في ذلك خلاف
- وأنت إذا نظرت إلى الاعتدال والشجاعة عند سائر الناس، ألفيت بينهما، في حقيقة الأمر، تناقضاً
- وكيف ذلك يا سقراط؟
فقال - إنك عليم بأن الناس بصفة عامة ينظرون عامة إلى الموت شراً وبيلاً
فقال - هذا صحيح
(يتبع)
زكي نجيب محمود
بين القاهرة وطوس من طوس إلى طهران - 9
للدكتور عبد الوهاب عزام
برحنا المشهد عائدين إلى طهران والساعة عشر إلا ربعا من صباح يوم الاثنين سادس رجب (15 أكتوبر) فمررنا بقرية اسمها قدمكاه (موضع القدم) وقد ذكرتها في سيرنا من نيسابور إلى مشهد وأرجأت الكلام عنها إلى الاياب إذ لم نعرج عليها في الذهاب. وقفت السيارة فنزلنا وملنا ذات اليسار فدخلنا ساحة بين جدارين فيها طاقات لا ابواب لها بناها بعض السلاطين ليأوى إليها المسافرون. ثم صعدنا إلى مستوى ينحدر منه مجرى ماء. فانتهينا إلى شجرات عادية بجانبها حجرة كبيرة. ولقينا قيم المكان فقال أنا كشيش قدمكاه. قلنا يا صاح أن الكشيش رجل الكنيسة وانت رجل مسلم، فقال أنا خادم القدم المبارك.
ولجنا الباب فرأينا على يسارنا بنية فيها حجر بركاني اسود فيه اثر قدم. قال دليلنا هذا قدم الامام على الرضا، ثم خرج بنا إلى حجرة أخرى في وسطها بركة صغيرة مستديرة بها ماء صاف يشف عن سمكات صغيرات يجلن بين سطحه والقاع. قال هذه عين الامام الرضا فاشربوا. فغسلنا أيدينا داعين منشدين:
(وعين الرضا عن كل عيب كليلة)
نزلنا سائرين غلى الجادة فشربن الشاري وقوفاً واستأنفنا المسير إلى نيسابور. ونزلنا في الخيام التي ضربت لنا من قبل عند قبر الخيام فاسترحنا وطعمنا.
خرجنا من نيسابور والساعة ثلاث بعد الظهر، فوردنا سبزاور ستا إلا ثلثا، فأوينا إلى النزل الذي وصفته من قبل، وبعد العشاء اجتمع بعضنا في حجرة الأستاذ العلامة كوبر علي زاده محمد فؤاد مندوب الحكومة التركية، وجاء مغنون من أهل القرية فغنوا من رباعيات الخيام وغيرها ضاربين على التار (آلة تشبه العود) فطربنا لهذا الغناء وهذا المجلس الذي جلس فيه علماء من أمر شتى دون ترتيب ولا تكلف، بعضهم على السررُ والآخرون على الأرض، فأخذنا نوقع بأيدينا على نغمات التار.
ولا أنسى الأستاذ كريستنسون الدانمركي وقد مد رجليه وأمسك عود الدخان (البيبة) بفمه ونشط للصفق على أنغام الموسيقى.
برحنا سبزاور والساعة تسع ونصف، فبلغنا داوَر زَن بعد ساعة ونصف ونزلنا بها منزلنا الأول فاسترحنا وتغدينا. ثم فارقناها والساعة واحدة ونصف نؤم شاهرود، وكان بردها لا يزال عالقا بي، فقلت لأصحابي: سأترك في شاهرود الغلة التي أخذتها منها. قال الأديب رشيد الياسمي: إن الله يأمركم أن تؤدون الأمانات الى أهلها. وبعد ساعة وقفنا على قرية اسمها عباس أباد فجاء شبان يعرضون علينا من صنعة القرية مسابح وأزراراً وأشياء أخرى مصنوعة من حجر ازرق ضارب إلى السواد فاشترينا منها للذكرى.
ثم سرنا فمررنا بزيدر فنزلنا به ربع ساعة فشربنا الشاي عند شجيرات وقناة هناك، وأسرعنا المسير ليتسنى لنا أن نعرج إلى بسطام فنزور أبا يزيد قبل الغروب، فعطبت سيارتنا على مقربة شاهرود، وذهبت فضلة الوقت في إصلاحها فاضطررنا أن نعدل عن بسطام إلى شاهرود فوردناها بعد المغرب ونزلنا في دارين داخل البلد استُبدلتا بالدار التي بظاهر البلد بعد الذي أصابنا من بردها في الطريق إلى المشهد. وبكرت أنا والأستاذ عبد الحميد العبادي والأديب أحمد الصراف آملين أن نزور بسطام ونرجع قبل أن يتأهب أصحابنا للسفر، فما زلنا ننتظر سيارتنا حتى فقدنا الرجاء في زيادة أبي يزيد فسرنا مع الركب آسفين مرسلين للشيخ الصوفي تحيتنا على البعد

سرنا عن شاهرود والساعة سبع ونصف من صباح الأربعاء مزمعين أن نبلغ طهران عشية اليوم. وبين شاهرود وطهران أربعمائة كيل وثلاثة. وردنا دامغان بعد ساعة، فرأينا أن نتلبث بها لنرى بعض مشاهدها ولم تكن وقفنا بها في ذهابنا إلى المشهد، كانت دامغان مدينة فومس، وهي اليوم من ولاية طبرستان وتبعد 64 كيلاً من استراباد، جنوبي جبال ألبرز. على حدود العراق العجمي وخراسان. ويقال إنها في موضع مدينة هِكتمبيليس إحدى المدن العظيمة في مملكة الأشكانيين القديمة، وأن إسكندر المقدوني أدرك دار الثالث قتيلاً على مقربة منها.

قال ياقوت راوياً عن مسعر بن مهلهل: (الدامغان مدينة كثيرة الفواكه. وفاكهتها نهاية. والرياح لا تنقطع بها ليلاً ونهاراً. وبها مقسم للماء كسروى عجيب يخرج ماؤه من مغارة في الجبل ثم ينقسم إذا انحدر عنه على مائة وعشرين قسماً لمائة وعشرين رستاقاً لا يزيد قسم على صاحبه، ولا يمكن تأليفه على غير هذه القسمة.

(وهو مستطرف جداً ما رأيت في سائر البلدان مثله ولا شاهدت أحسن منه

قال ياقوت: (قلت أنا جئت إلى هذه المدينة في سنة 613 مجتازاً بها إلى خراسان، ولم ار فيها شيئاً مما ذكره لأني لم أقم بها)

وأنا اقول قول ياقوت، وأزيد أن مقسم هذه المياه تهدم إبان الغارة الافغانية فيما يقال وإلى الشمال الشرقي من المدينة، ينبوع عظيم يسمى جشمئه على (ينبوع علي) يزوره الناس، ويزعمون أنه يفيض على حجر به أثر من حافر فرس الرسول صلوات الله عليه. وقد بني حوله فتح علي شاه 1217

وقال ياقوت: (وبينها وبين كرد كوه قلعة الملاحدة يوم واحد، والواقف بالدامغان يراها في وسط الجبال)

سألنا عن الآثار الساسانية التي بدامغان فقيل لنا إنها بعيدة عن البلد، وطرقها غير معبدة، وهي ليست ذات خطر. ثم هُدينا إلى بناء اسلامي قديم، فدخلنا إلى فناء فيه قبور لاطئة بالارض، ينتهي غلى حجرة كبيرة وسطها قبر كبير سياج من الخشب، وعليه كتابة قديمة كثيرة، وإلى يسار الداخل قبر صغير لا سياج له، فأما الضريح فقيل إنه لأحد أبناء الأئمة العلويين، وأما الذي إلى يسار الداخل، فقيل إنه لشاهرخ، ورأينا حجرة أخرى مغلقة كتب عليها: أمر بعمارة هذا البناء شاهرخ. وقد ظننت أنه شاهرخ بن تيورلنك، وعجبت كيف دفن هنا وقد مات في الري. ثم تذكرت شاهرخ حفيد الملك نادرشاه، الذي أسره آقا محمد القاجاري في دامغان، وما زال يعذبه ليسلم إليه حزائن جده نادرشاه حتى مات سنة 1211، فقلت هذا قبر الأمير الضرير المنكود الطالع

بلغنا سمنان والساعة إحدى عشرة وربع فنزلنا منزلنا الأول في المصنع الذي بظاهر البلد. وقلت للأستاذ العبادي لا يفوتنا اليوم أن نرى مسجد الجمعة في سمنان. فقلنا للأديب سيف آزاد صاحب مجلة (إيران باستان) فرفقنا وصحنا في الطريق أحد ضباط الشرطة، ودخلنا من باب كبير تزينه نقوش وتمثيل وكتابة فيها اسم ناصر الدين شاه الى طريق على جانبيها أبنية للجند وخرجنا من باب آخر فسرنا في شارع مشجر وأزقة ضيقة، ثم ترجلنا وتركنا السيارة وتخللن الطرق حتى انتهينا الى مسجد صغير جميل، قرأنا فيما عليه من كتابة اسم الشاه طهماسب الصفوي

ثم ذهبنا الى مسجد الجمعة وهو قديم عظيم، وأقدم ما فيه منارته، وهي فيما يظهر بقية

مسجد كبير بناه السلاجقة ثم هدمه التتار فأقيم المسجد الحاضر على جانب من عرصته. ثم زاد فيه إيواناً كبيراً أحد وزراء السلطان شاهرخ بن تيمور سنة 828

وخرجنا من مسجد الجمعة فمشينا في سوق طويلة مسقوفة تنبئ بعظم المدينة في الماضي، وقد أنشدني الأديب سيف آزاد في مسجد سمنان بيتاً معناه

(وا أسفا على المسجد الذي في سنمنان، إنه يوسف في السجن)

اجتمعنا على الغداء في سمنان، ونحن نعلم أن الركب سيتفرق في طهران فلا يجتمع، فتكلم بعض الوافدين شاكراً حكومة إيران، والموظفين الذين رافقونا في مسيرنا إلى طوس وإيابنا، وأجاب السيد ابتهاج والأديب رشيد الياسمي معربين عن سرورهم وافتخارهم بمصاحبة الضيوف الخ، وأرسلنا برقية إلى وزير المعارف نبلغه والحكومة الايرانية شكرنا. وكان الوزير قد تخلف في المشهد هو والوزراء الآخرون، ليصحبوا جلالة الشاه في سفره إلى جرجان. . .

ركبنا السيارات والساعة اثنان وربع بعد الظهر، فجد بنا المسير حتى نزلنا في فيروز كوه فاسترحنا وشربنا الشاي في مطعم هناك. ثم ركبنا فما زلنا في فيروز كوه (جبل فيروز) قممه وشعابه ووديانه حتى عيل الصبر، وأظلم الليل ورهقنا الاعياء. ثم دخلنا طهران والساعة ثمانية من المساء فأوينا إلى الفندق بشق الأنفس

(يتبع)

عبد الوهاب عزام

الراعي

للأستاذ محمود الخفيف

راعني في الحقل إنشادٌ بديع ... والندى يغسل أجفان الصباحْ
فتطلعت الى راعي القطيع ... قد شجاه حسنُ اقبال الربيع
وتبدت روعة الكون له
فتغنى في هيام ومراح
باسم كالصبح في طلعته ... حالم العينين لماح الجبين
حمرة الاصباح في وجنته ... وصفاء الكون في مقلته
مرهفٌ كالغصن نشوان الصبا
غردٌ كالطير فياض الحنين
ثمل اللفتة في إقباله ... تتراءى فوق عطفيه عصاه
مرح يختال في سرباله ... معجل يعثر في أذياله
أو حليم قربُ المرعي له
فتهادى وتأني في خطاه
ذاكرٌ ليلاه في تحنانه ... رائع الانشاد في الارض الفضاء
تحمل الريحُ صدى ألحانه ... فتهزُ الحقلَ من أركانه
تذهل النوامَ عن أحلامهم
قبل أن تغرق في سيل الضياء
يصفُ الحب كما يعرفه ... قلبه الخالص من سوء الطباع
هاتفٌ، يسألُ (من ينصفه ... من غزال صد، لا يعطفه
دمعه المفسوح أو يرفه
عن دلال لج فيه وخداع)
أخت نفسي منه روعةٌ ... واستخفى معانيه العذاب
ملكتني إذ تعني نشوةٌ ... وتنزت في فؤداي صبوة
تركتني غارقاً في حلم
ضاحك الاطياف رفاف الجناب
تضحك الارض مع الشمس له ... ويشيع السحرُ في أركانها
يتبدى ل شيء حوله ... طافحَ البشر طروباً مثله
وترى الورق شجاها لحنه
فتغنت في ذرى افنانها
يصبحُ الراعي طروباً شادياً ... مطمئناً ليس يدري ما الشجن
وتراه حين يمس راضيا ... في ظلام الكوخ يغفو ثاويا
ناعمَ البال قريراً آمنا
هادي الضجعة ريان البدن
لم يكد صفوة حرصٌ ولا ... سَهَّدَتْ جفنيه أطماع الحياة
لن تراه نائحاً يوماً على ... أمل فات ولا يصبو إلى
ما طواه الغيب في أحشاءه
حسبه الله فلا يرجو سواه
ملهمٌ رُكبَ في فطرته ... حب ما في الكون من آي الجمال
تسمع التسبيح في لهجته ... وترى لاعجابَ في نظرته
ساذجُ الأحلام إلا أنه
صادق الوجدان مشبوب الخيال
كم رأى الفجر وما في أفقه ... من جمال واجتلى نور السحر

وتماى الصبح في إشراقه ... يفتن النظار من عشاقه
بصفاء تعلق الروحُ به
عبقري الحسن مومق الصور
ولكم أنس من حالي الضحى ... ومن الآصال مزدان الحُللْ
يجدُ الكونَ جميعاً مسرحاً - يجتليه غادياً او رائحاً
هائم يضرب في آفاقه
دائم الترحال موصول الجذل
ولكم شاهد إقبال الدجى ... حين ذابت فيه ألوان الشفق
ورأى الليلَ إذا الليلُ سجا ... وانجلى البدرُ وضيئاً أبلجا
تقبس الألحاظ من رونقه
قبل أن يدركه موج الغسق
كم رأى الحقول النضره ... حفلت بالحسن في عيد الربيع
ورأى الصيف يعفى أثره ... بيد عاتيةٍ مقتدرة
تركت جنته خلويةً
جف فيها الزهر والروض المريع
ولكم أبهجه صفو الخريف ... ورأى سحر مجاليه الوضاء
واغتدى يرتع في ظل وريف ... قد سرى في جوه نفح لطيف
يملأ الصدر به مستروحا
قبل أن تعصف انواء الشتاء
يا قنوعا مثلت عيشته ... عيشة الانسان في فجر الوجود
يا خليا انسه وحدته ... إيه يا من برئت فطرته
من غرور العيش في زخرفة
يا طليقاً ما دري معنى القيود
يا قريرِ العين في خلوته ... لم يجرب مزة غدرَ الصديق
يا نقي القلب في غزلته لم ير العالم في زحمته
هات من لحنك ما يطربني
يا غريراً انت بالبشر خليق
يا رضي النفس في إيمانه ... نعمت نفسك في ظل رضاها
إيه يا من قر في وجدانه ... من هدى الله ومن رضوانه
ما ترنمت به في غبطة
فطن القلب إليها فوعاها
هات من لحنك يا راعي القطيع ... قد نفي لحنك عن قلبي الحزن
هيه إني ما تغنيت سميع ... وسأمضي شاكراً هذا الصنيع
ذاكراً لحنك مفتوناً به
إن في ذكراه روحاً وسكن
محمود الخفيف
من الأدب الفرنسي المعاصر
أندريه
بقلم علي كامل
تتمه
يرى أندريه جيد - ويتفق معه في ذلك مارسل بروست والكاتب الايطالي بيراندللو - أن الشخصية ما هي إلا وهم زائف، وان الانسان صنيعة الظروف والاحتمالات
ومهما كن مقدار ما في هذه الآراء من الحق أو الباطل فقد كان لها الفضل الأول في تجديد القصة الأوربية لما تضمنته من تحطيم فكرة (الأخلاق الثابتة) و (النماذج الانسانية) التي كانت أساس القصة التحليلية في الأدب الغرب لتقيم على انقاضها أسس فكرة (اللاشعور) قبل العالم (فرويد) نفسه. كما أن هذه الآراء قد أبانت الأثر العظيم للغرائز الجنسية وعدم توازن العواطف في حياة الاشخاص متأثرة في ذلك بقصص الكاتب الروسي دستويفسكي
على ان ما يمتاز به اندريه جيد من كل من مارسل بروست وبيراندللو انه لا يكتفي

بالنظر الى الامور نظرة العالم النفسي، بل إنه يخرج من دراسته (بقاعدة) يرى من الواجب السير عليها في الحياة: تلك القاعدة هي وجوب ان يسعى الانسان الى فهم طبيعته وإدراك حقيقة نفسه بنفسه، وما ذلك إلا بالخضوع لكل الدوافع المتنوعة مهما كانت، والتذرع بالشجاعة لتحقيق كل ما يجيش فيه من الرغبات دون اختيار، اي دون ان يقول الانسان لنفسه: هذا متفق ومع الآداب العامة، وهذا مغاير لها؛ هذا يمس الدين وهذا لا يمسه. . . الخ يجب ان يكون كل منا (كطفل ضال، وُجد دون أن تُعرف حالته المدنية، دون اوراق. . . قذفه المجهول، لا يَعرِف له ماضياً ولا قاعدة يسير عليها ولا سند يعينه، ولا ون له ولا أجداد)

أن هذه هي الوسيلة الوحيدة عند جيد لانكشاف حقيقة نفوسنا أمام أعيينا، وعندئذ نسير على هدى طبيعتنا

وفي قصته مزيفو النقود - (1925) نرى الفتى (برنار) يخاطب القصصي (ادوار) ويسأله النصح كيف يضع قاعدة لحياته، فيجيبه ادوار قائلاً: (إن هذه القاعدة تجدها في نفسك على أن يكون قصدك السير الى التقدم. ليس عندي ما اقوله لك. إنك لا تستطيع أن

(تستمد هذه النصيحة إلا من نفسك. فلا تحاول أن تتعلم كيف تعيش إلا بأن تعيش

ولكي نعيش (في نظر جيد - عيشة لا يقيدها قيد يجب ألت نتردد عند الحاجة في الثورة على نظام الاسرة والجري وراء إحساساتنا تقودنا الى حيث الحقيقة العظمى. فالاستقرار هو ألد أعداء جيد، لأن رائده هو أن نكون متأهبين دائماً لتغيير جديد في حالتنا

وفي كتابه الأغذية الأرضية نسمع جيد يخاطب (ناتانابيل: إياك أن تستقر في مكان، فبمجرد أن تغيرت ظروف هذا المكان واصبحت موافقة لطبيعتك، او جعلت انت نفسك موافقاً لظروف المكان، عندئذ لا تبقى لك فائدة تُرجى من وجودك، فيجب ان تهجره، ليس هناك أخطر عليك من أسرتك، من غرفتك، من ماضيك)

وفي قصة ' نسمع (مينالك) يقول: (إنني لا اريد ان اتذكر. فاعتقادي ان هذا منع لوصول المستقبل. واعتداء على الماضي الذي لم يعد لي فيه حق، إنني بنسياني الكامل للأمس أجدد كل ساعة من حياتي. إن كوني كنت سعيدا لا يكفيني، لأنني لا أومن بالأشياء الميتة. وما كنت عليه وزال عني الآن هو عندي كأنه لم يكن)

على أن فكرة جيد عن التحرر المطلق كما رأينا لم تقض على عاطفته الدينية. بل لقد أحدث عنده هذا الايمان القوى بالتحرر وبالاستسلام لكل إحساس يغمرنا، نتيجة عكسية، إذ جعل جيد يترك العنان لإحساسه الديني يطغي عليه بين وقت وآخر دون أن يحاول كتبه، فنراه يتكلم عن الله والحياة الخالدة بأسلوب متصوفٍ زاهد، ففي كتابه الاغذية الارضية وهو كتاب الذي ينفجر فيه بالدعوة إلى التمتع بالحياة الحسية يقولك (إنك حيثما تذهب لا تستطيع أن تقابل إلا الله) وأيضاً (ناتانابيل: لا تأمل أن تجد الله إلا في كل مكان) وفي كتابه الأغذية الأرضية الجديدة يقول: (يجب أن نفكر في الله بأقصى ما يمكن من الانتباه واليقظة. . . إنني عندما أهجر التفكير في الخالق إلى التفكير في المخلوق تنقطع صلة نفسي بالحياة الخالدة وتفقد حيازتها لمملكة الله)

والآن، أليس من التناقض مع فكرة (التحرر الأخلاقي) والدعوة إلى التمتع بالحياة أن يغمر جيد إحساس أشد المتدينين إيماناً فيفكر في اله كل يوم - كما يقول - ولا يستطيع له فراقاً؟

إن جيد يبرر موقفه بفلسفة هي أهم نواحي التجديد في تفكيره. إنه يفصل بين اللذة والحب أو بعبارة أخرى بين الجسد والنفس لذا نراه يبيح من جهة تحقيق كل مقتضيات الجسد،

ومن جهة أخرى تحقيق كل مقتضيات النفس في الالتجاء إلى قوة عُليا.

ولا شك أن رأي جيد هذا لا يتفق مع عقيدة دينية، ولكنه في صميمه وَحْي طابعه الديني الذي لم يستطع التخلص منه فأراد التوفيق بين إحساسه الديني ومذهبه الفكري في التحرر الأخلاقي

وفي العبارة الآتية يعترف لنا جيد ان هذه الناحية من تفيره كانت خلاصاً وتبريراً لما اوقعته فيه مشكلته النفسية. يقول: (أما فيما يتعلق بي فقد قلت مراراً كيف أن الظروف وما تتجه إليه طبيتي كانت تدعوني إلى التفرقة بين الحب واللذة لدرجة أنه

كانت تؤلمني فكرة المزج بينهما) ثم يقول لقد فصلت أنا أيضاً بين اللذة والحب، بل إن هذا الفصل بين الأثنين قد ظهر لي أنه كان لازماً. فاللذة أكثر نقاء والحب أعظم كمالاً

يرى جيد أن انطلاقنا وخضوعنا لمطالب أجسادنا إنما هو نوع من السذاجة والبراءة وأن اجابة الانسان لنداء طبيعته وغرائزه التي ولدت معه إنما هو خضوع لارادة الله. وما الفرق عنده بين من يجري ميوله وشهواته لها وبين من يكبح بعضها إلا كالفرق بين (من يأكل كل شيء ومن لا يأكل غير الخضراوات)

ويقول جيد أيضاً: (ليس الانسان شيء غير طاهر) ' لذا كان ما تفيض به بيعة الانسان من ميول وشهوات لا يجب في نظره أن يحمل غير معنى الطهر والنقاء والاخلاص لأنفسنا فيجب أن نطيعها دون اختيار (لأن كل اختيار إنما هو تحديد لحريتنا)

على أن جيد يشترط لكل عاطفة تحركنا أن تكون مخلة لكي نطيعها ونجيب نداءها. ففي نسمعه يقول: (إن لذاتي لا تحجب وراءها فكرة خفية. لذا لا ينبغي أن يتبع هذه اللذات أي شعور بالندم) فهو يقصد بل أن يقول إن فكرة الحرية والانطلاق إذا استترت وراءها نية او غرض معين خرجت عن دائرة البراءة والاخلاص

وفي ضوء ما ذكرنا نرى أن فكرة أندريه جيد فكرة مزدوجة مضمونها:

أولاً: الناحية الجسدية الحيوانية في الانسان وهي الناحية البريئة الساذجة

ثانياً - الناحية المعنوية، وهي إما الناحية الخاصة بالاحساس الديني، وإما الناحية الشيطانية في الانسان

ففكرة جيد هي الفصل بين هاتين الناحيتين اللتين هما في الواقع حقيقتان من حقائق الطبيعة الانسانية - الناحية الجسدية والناحية المعنوية - ثم السمو بهما الى أقصى ما يمكن من الطهر والنقاء. وما السبيل الى ذلك إلا بنبذ كل ما لا أساس له من الحق والصدق، وفي مقدمة ذل بالطبع كل ما يرغمنا عليه المجتمع.

ولقد استخدم جيد في البداية عبقريته كناقد فذ في تبرير حقه في الانطلق والتمتع بالحياة وفي (الحب الذي لا يجرؤ أن يقول اسمه) على أنه فيما بعد صرف همه الى العناية الشاملة بكل تقاليد المجتمع وحقائقه الفارغة وأوهامه لكي يعمد بعد ذلك الى تنقيحها في نظم التربية ويفصح مظاهر الرياء بين الطبقات والوسطى الى غير ذلك مما يراه من المفاسد الاجتماعية التي تقف حائلاً بين الانسان وبين حريته التامة.

ولقد كانت (فردية) اندريه جيد سبباً في ان يبقى حتى الثامنة والخمسين من عمره بعيداً كل البعد عن الاهتمام بالمصلحة العامة او الايمان بعقيدة سياسية او اجتماعية على اعتبار ان الاصغاء لافكار الغير يحد او يغير من افكار الانسان الخاصة التي يجب ان تكون بعيدة عن كل تأثير خارجي. واندريه جيد في عزلته السياسية والاجتماعية كان يخالف تماماً كثيراً من أعاظم الكتاب الفرنسيين المعاصرين مثل اناتول فرانس وشارل موراس وموريس باريس وشارل بيجوي ورومان رولان وغيرهم.

على ان جيد بعد رحلته الى الكونغو واواسط افريقيا خرج مرة واحدة من دائرته الخاصة الى دائرة المجتمع الانساني بأجمعه. يفكر في ظروف الحياة فيه بعين نقيض بالرحمة الواسعة والحنان العظيم حتى ان المرء ليحس بأنه قد نسى نفسه ولم يعد يفكر الا في الآخرين!

وفي كتابيه ونرى جيد يدافع عن الأمم المستعمرة لا بمهاجمة فكة الاستعمار نفسها ولكن بالمطالبة بحق إيثار هذه الأمم في التقدم المطرد في جميع شؤون حياتهم وبتسفيه كل استعمار ينتهك حرمة هذه الحقوق المقدسة

ولكن هل بقي جيد عند هذا الحد من الاعتدال في تفكيره السياسي وهو الذي من دأبه السير إلى أقصى حدود التطرف؟ لا. إذ لم يكد ينقضي وقت يسير حتى رأينا جيد يرتمي في أحضان الشيوعية التي اعترف بأنه عند اعتناقها كان يجهل صميم نظرياتها، ولاش أن اعتناق جيد للشيوعية مخالفة تامة لأسس تفكيره السابق، لان جيد (الفردي) قد أصبح يؤمن

بنظام يقيد مصلحة الفرد في سبيل مصلحة المجموع. وجيد الثائر على أي نظام من نظم التربية على اعتبار أن التربية تقييد وتحديد قد أصبح يؤمن بالمثل العليا الشيوعية.

وجيد الذي كان ألد عدو للعقيدة الثابتة قد أصبح إيمانه بالشيوعية تسليم منه بالنظريات الماركسية كنظرية (التفسير الاقتصادي للتاريخ) مثلاً. . . . وغيرها. على أن

في الشيوعية أيضاً تتحقق معظم أفكار جيد وبماله، ففيها شرود نهائي من ماضيه الديني الذي أثقله زماناً طويلاً، وفيها التخلص من عبودية نظام الأسرة الذي طالما حاربه وناضل في سبيل القضاء عليه، وفيها أمل جديد في الوصول الى ما يسميه جيد (مملكة الله) أي قتل الجوانب الخبيثة في الانسان بالتخلص من كل أنانية والتحرر من كل تفكير ذاتي، وهو يرى فيها أيضاً الشفقة الزائدة والتفكير الجدي في محو الشقاء الانساني

ولعل من العجيب أن أندريه جيد منذ أعلن إيمانه بالشيوعية لم يعمل أي عمل أدبي جديد، مقتصراً على نشر المقالات المختلفة التي تدور كلها تقريباً حول تبرير انقلابه الجديد، ولا نقول الاخير، فهل منا من يضمن أن جيد يستقر على حال؟!

لعل مظاهر التقلب والقلق الدائم وعدم الاستقرار الي صاحبت جيد عشرات السنين هي أعظم ما يرفعه (كانسان) لانها نتيجة تغلغل عاطفة الحرية في دمه الى حد قل أن يكون له نظير، فظل طول حياته (حديقة من التردد) - كما يسميه أكبر أتباعه الكاتب الفرنسي جاك ريفيير - لا يهدأ له بال. يدرس الحياة بنواحيها الفكرية والحسية، يسافر الى أقصى البلاد. كل ذلك لكي يصل الى الحقيقة المنشودة التي يسعى وراءها. وبرغم عبء ماضيه الديني الثقيل فقد استطاع ان يحطم أغلاله لينطلق باحثاً منقباً

إننا حين نحكم على اندريه جيد يجب أن ننظر الى مجموع شخصيته، متغاضين عن تلك السبل الشاردة التي اختطفها في حياته الخاصة ودعوته العامة، وتعتبر في نظر ناقديه - مبالغة قصوى في تفسير معنى الحرية - لقد علمنا جيد كيف ننتصر على الخجل المقيت والرهبة البغيضة التي لا معنى لها، علمنا كيف نكشف دخائل نفوسنا ولا نتركها في الظلام الدامس لا نعرف كنهها كأن ليس لنا بها صلة، علمنا كيف نسلط عليها ضوءاً وهاجا نستمده من صميم إرادتنا وشجاعتنا، علمنا يف نصرح بكل ما يجيش في خفايا قلوبنا من النزعات الصارخة - علمنا كيف ومتى تماماً حقيقة نفوسنا. . . ليس بالاستسلام لغرائزنا

الحيوانية كما يتهمه اعداؤه ظلماً، بل بأن تساير طبيعتنا مهما كانت بسذاجة عظيمة، سواء ما كان منها خاصاً بالناحية الحيوية او بالناحية الروحية، وان نكون دائماً على أتم أهبة لمواجهة الحياة المتغير وجاراتها على الدوام في قالب جديد

علي كامل

بيان للناس

بقلم صاحب السعادة محمد طلعت باشا حرب

لمناسبة حلول موسم الحج الشريف لبيت الله الحرام - يسرني أن أذيع على مواطنينا الأعزاء بعض ما قلمت به (شركة مصر للملاحة البحرية) لراحة الراغبين في تأدية هذه الفريضة المقدسة:

اولاً - قامت الشركة بتجهيز باخرة ثانية (الكوثر) لمشاطرة شقيقتها (زمزم) شرف نقل الحجاج، وهي باخرة غاية في الفخامة ولا تقل عن زمزم أناقة ونظاماً ونظافة وستوجه الدعوة لزيارتها قبل مبارحتها الاسكندرية كما فعلنا في العام الماضي بالنسبة لزمزم وسيدعي ايضاً لفيف من رجال الصحافة والأصدقاء للسفر عليها من الاسكندرية لبور سعيد في طريقها إلى السويس. وبفضل اشتراك الباخرتين في النقل أصبحت محلات الدرجة الممتازة (اللوكس) والدرجتين الاولى والثانية متوفرة تماماً، وأصبحت الشركة مستعدة باذن الله تعالى لنقل أي عدد من ركاب هذه الدرجات في الذهاب والاياب

ثانياً - لزيادة راحة الحجاج في نزولهم من الباخرتين وطلوعهم اليهما بجدة قد أعدت الشركة مراكب كبيرة (قليلة الغاطس) وجعلتها شبه صنادل تقف على جانبي الباخرة عند رسوها وجهزتها بالسلالم والكبارى اللازمة لنزول الحجاج منها وصعودها إليها بكل راحة وبدون أدنى خطر مهما كانت الرياح شديدة ومهما كان البحر هائجاً

وهذه الصنادل التي يسع الواحد منها نحو الخمسمائة حاج مجهزة (بالدكك والكراسي والخيام) (تندات) للوقاية من الشمس والمطر ويجرها رفاص لداخل الميناء

وفضلاً عن ذلك فالسنابك الأصلية موجودة أيضاً للنقل منها للميناء إذا تعذر لسب ما وصول الصنادل إليها: وهذه تضحية جديدة من الشركة تكلفها مبالغ لا يستهان بها، ولكنها تبذلها عن طيب خاطر حسبه لله تعالى دون أن يحرم أصحاب السنابك

والمشتغلون عليها من اهل الحجاز أجورهم المقررة بالتعريفة الرسمية التي تدفعها الشركة اليهم كاملة من مالها
والشركة تنتظر منهم أن يقابلوا ذلك بالشكر الجزيل وزيادة العناية في خدمة الحجاج
ثالثاً - لتشويق من يرغب من أهل اليسار من الطبقتين العليا والمتوسطة في أداء الحج
فكرت الشركة - فيما فكرت فيه - في ايجاد محلات لائقة لهم بجدة ومكة المكرمة - فاستأجرت منزلين بهما زودتهما بكل وسائل الراحة، وبالادوات الصحية العصرية، والأثاث الوثير الفاخر، والأطعمة النظيفة، وجهزتها بالثلاجات والمراوح الكهربائية وبالنور الكهربائي، فأصبح لا عذر من هذه الوجهة - حتى لمن تعودوا الترف والرفاهية - في عدم القيام بفريضة الحج. وكل ذلك بأجور غاية في الاعتدال لا تتجاوز جنيهاً مصرياً عن كل يوم بما في ذلك الأكل والنوم عن الشخص الواحد للسرير الواحد
نعم إن عدد الأسرة محدود في الوقت الحالي، ولكن مع زيادة الاقبال ستفكر الشركة في زيادة الأماكن
ويمكن حجز الأسرة من مكتب الشركة او بالباخرة او بذات المنازل بجدة ومكة
وزيادة في راحة الحجاج قبلت الشركة اقتراح (قومسيون نقل الحجاج) الخاص بالقيام بتقديم الغداء لهم بالبواخر في جميع الدرجات - فقامت بذلك في العام الماضي وستقوم في هذا العام بتقديم الغداء النظيف الصحي لهم جميعاً مغتبطة بعملها الذي تقصد به وجه الله قبل أن تنظر إلى الربح
فهي تقدم الى ركاب الدرجة الثالثة الخبر الكافي والأطعمة الصحية من الخضار واللحم والأرز والحلوى والجبن والزيتون للفطور والغداء والعشاء بمكيات وفيرة - وهي التي تشرف على شراء القمح وطحنه وعجنه وخبزه لتستوثق من أنها تقدم خبزاً جيداً نظيفاً غير مخلوط - كما تشرف على شراء الزيدة وتسييحها، وعلى شراء العجول والخراف الجيدة السليمة، وعلى ذبحها وطبخها لتقدم غداء شهياً صحياً كما قدمنا
وكان هذا بثمن زهيد قدره 40 قرشاً عن كل حاج الدرجة الثالثة طول مدة السفر بحراً ذهاباً وإياباً
ورابعاً - الاتفاق تام بين الشركة والحكومة الحجازية على بذل قصارى الجهد من جانبها لتمهيد الطرق وتوفير الوسائل الصحية والاجتماعية لراحة الحجاج
وقد تبرعت الشركة والبنك وبعض أهل الخير بمبالغ لاتمام المستشفيات في مكة المكرمة، وتجهيزها بأحدث الآلات الجراحية واشعة رنجتن ليمكنها القيام بأجل الخدمات لحجاج بيت الله الحرام على اختلاف اوطانهم ولأهل البلاد انفسهم
وهذا فوق أنه عمل إنساني جليل يزيد في اطمئنان الحاج، وتشجيع الاقبال على استكمال هذا الركن من الدين
وبما ان الحرب العالمية أثرت أكبر تأثير في رخاء المدينة المنورة ويسر أهلها حتى هاجر معظمهم وأصبح الباقون - من حضر وبادية - في ضنك عظيم يفتت الأكباد، كانت العناية بشؤونهم واجبة، وفي مقدمة ما يعني به دراسة حالة تلك الربوع، وأهل باديتها لعل الله يوفق لمشروع يشغل بعض الأيدي العاطلة ويشحذها لعمل فيه خير ورزق لهم، ويرد للمدينة بعض روائها القديم
خامساً - اتفقت الشركة مع الحكومة الحجازية على دراسة مشروع تعبيد محل السمعي بين الصفا والمروة ليكون أكثر انطباقاً لما يقتضيه من الاجلال والاحترام. وعلى منع أنهيال الاتربة عليه، وتدفق السيول التي تغشاه في أكثر الأوقات بل وتتعداه الى المسجد الحرام
وقد ارسلنا بعض الخبراء لدرس المشروع ووضع التصميمات والتقارير اللازمة لعرضها على الحكومة الحجازية والتفاهم على تنفيذها
سادساً - البحث جار فيما إذا كان من المتيسر إيجاد خط جوي بين جدة والمدينة لتيسير الزيارة لكثيرين ممن يستصعبونها الآن، وإذا نجح المسعى نتمكن من تنظيم خط جوي بين جدة والمدينة مرتين او ثلاث مرات في اليوم
فيتمكن الحاج من تأدية الزيارة والعودة في يوم واحد أو يومين لمن أراد البيت. وفي هذا كسب الزيادة لمن لا يجد في وقته متسعاً لها، او لمن تمنعه المتاعب من القيام بها، ولا ربح لأهل المدينة بسبب زيادة عدد الزائرين

سابعاً - أوجدت الشركة (كوثر) كما أوجدت في العام الماضي على (زمزم) مسجداً للصلاة ومكتبة بها كثير من كتب الدين والأدب وغيرها، كما أن بهما علماء يحاضرون الحجاج في أمور دينهم

ثامناً - أوجدت الشركة بالسويس لراحة الحجاج او عائلاتهم الذين يحضرون قبل ميعاد السفر او يرغبون في الاستراحة قبل مغادرتهم السويس في العودة (فندقاً) مستوفياً شروط النظافة والراحة، نسأل الله عز وجل أن يجعله نواة شركة للفنادق المصرية تقوم بأيدي المصريين وأموالهم، وقد سميناه من باب التيمن (لوكاندة مصر)

تاسعاً - سيجد حجاج بيت الله الحرام على الباخرتين مكتبين لبنك مصر لتبديل العملة المصرية بالذهب او بالريالات السعودية ولتبديل هذه بالعملة المصرية - حين العودة - ولقد رأى من حج منهم في العام الماضي أي تسهيل عملنا. ولعلهم يذكرون أننا صرفنا لهم العملات الذهب والسعودية بأسعار أرجح مما كانت تصرف به في جدة أو مكة واذا صح ما أذاعته الجرائد من أن الحكومة المصرية السينية تريد أن تكلفنا بصرف جنيهات ذهبية لحسابها الى الحجاج فنحن مستعدون للقيام بهذه العملية بالسعر الذي تحدده الوزارة، فيمتنع ما أذاعه في العام الماضي بعض المغرضين الذين لم يقفوا على حقائق الأمور - إذ ظنوا أننا أخذنا الذهب من الحكومة بالسعر الذي تشتريه هي به من السوق المصرية وبعناه بالأسعار العالية؛ على أن الحكومة قد باعت لنا الذهب في العام الماضي بسعره في (لوندرة) يوم البيع حتى دون استبعاد نفقات نقل الذهب براً وبحراً والتأمين والمحافظة عليه والقيام بمهمة المصارفة

ومع كل ذلك فقد بعنا الذهب للحجاج بأقل من الأسعار التي وجدوها في جدة ومكة ببضعة قروش في الجنيه. وقد بعنا للحجاج الريالات السعودية بثمن يرجح السعر الذي وجدوه بجدة بنحو نصف ريال سعودي في الجنيه، ومن صرفنا لهم بمصر بسعر أقل قبل معرفة حقيقة السوق رددنا لهم الفرق إما بالباخرة أو بالقيد لحسابهم الجاري لدينا بمصر، أو بصرفه لهم نقداً بعد عودتهم، ولم نسمع في تاريخ البنوك بمثل هذا

وقد عملنا الترتيب اللازم بحيث يرد لنا يوم قيام الباخرة من السويس تلغرافات بالسعر الحالي لكل العملات بجدة لنصرف للحجاج ما يلزمهم بأسعار أوفق لمصلحتهم وفي حال تكيفنا من الحكومة بصرف الذهب لحسابها يكون ل بالسعر المتفق عليه ويعلن للحجاج

ولتسهيل قبض تحاويل بنك مصر على الحجاز ولراحة الحجاج قد جعلنا الصرف بجدة من محل وكلائنا بها (الحاج عبد الله رضا وشركاه) وقد عينا مندوباً للبنك بمكة بمنزل شركة مصر للملاحة البحرية لخدمة الحجاج وتأدية طلباتهم المالية وصرف التحاويل بها وانفقنا في المدينة المنورة مع (حضرات الشيخ عبد العزيز الخريجي وشركاه) على أن يكونوا وكلاء في ذلك وهم من أشهر تجارها

وأمامنا مشروع بخصوص العملة سنعرضه على حكومتنا السنية عسى أن تقره للمواسم المقبلة، ففيه تحقيق مصلحة الحجاج وعدم غبنهم على قدر الاماكن. وإذا نجح هذا المشروع - ولا ندري لماذا لا ينجح - اتيح للحاج أن يحج ويعود دون أن يكون مضطراً لحمل نقود معه

فبنك مصر يتولى حينئذ شئونه المالية من البيت للبيت - على حد تعبير مصلحة السكة الحديد - فيدفع عنه بالحجاز كل الرسوم والضرائب وأجور للمطوفين والأتومبيلات والجمال مما هو مقرر في التعريفة بحساب الذهب - ويقدم له هناك ما يحتاجه من عملة سعودية لنفقاته المحلية المقررة بهذه العملة

وقد وافقت حكومة الحجاز على هذا المشروع الذي يضع حداً لفوضى تبديل العملة والتلاعب فيه، ولا يبقى إلا أن يعرض على حكومتنا السنية حتى إذا ما بدت لها مزايا فيه من عدم غبن الحجاج اقرته، وعملت على تنفيذه محاطاً بكل ما يضمن مصلحتهم

عاشراً - افردنا محلا في كل من الباخرتين لبيع الاحرامات (من بفتة وبشاكير) لمن يرغب فيها من الحجاج، وهي من صناعة شركة مصر للغزل والنسيج وأثمانها معتدلة وحتى لا يطيل الحجاج في عودتهم المكث في جدة - رأت الشركة ان يكون نقلهم من جدة للطور على (زمزم) ومن الطور الى السويس على (كوثر) وهذا تسهيل كبير لهم ووفر في الوقت

مما تقدم ترون الجهد الجهيد الذي تبذله شركة مصر للملاحة البحرية، ويبذله بنك مصر

لتوفير اسباب الراحة والطمأنينة لحجاج بيت الله الحرام كتب الله لهم السلامة في الذهاب والاياب ووقفنا لخدمتهم وتوفير اسباب الراحة والامان لهم أينما كانوا وحيثما حلوا
وكل ما نطلبه من حجاج بين الله الحرام هو أن يعاونونا على حفظ النظام والمواعيد وألا يكونوا سبباً في إثارة الخواطر بين تلك الربوع المقدسة، وليعلموا أننا لا نريد إلا راحتهم، فان رقع تقصير فعن غير قصد، ولنا من حسن نيتنا خير شفيع.
(وما هجرتنا إلا الى الله ورسوله)
ولما كانت العصمة لله، وما نحن إلا بشر نخطئ ونصيب، فانا على أتم استعداد لسماع أية ملاحظة بريئة، أو أية شوى نزيهة، أو أية نصيحة خالصة، أو إرشاد نافع، الى ما يكون
من ورائه تحقيق أمانينا جميعاً التي تنحصر في وجوب العناية بحجاج بيت الله الحرام والسهر على راحتهم ابتغاء مرضاة الله تعالى لا يضيع أجر من أحسن عملا
فبراير 1935
محمد طلعت حرب
القصص
كانديلورا
بقلم لويجي بيراندللو
صاحب جائزة نوبل لعام 1934
لم يعرف للقصصي الايطالي لويجي بيراندللو، الذي فاز بجائزة نوبل الأدبية عام 1934، قصة كلاسيكية تجلت فيها مقدرته الفنية الرائعة، وتبينت فيها نظرته الفلسفية: (هذا او ذاك. . .) مثل ما تجلت في هذه القصة.
انزل المصور الفنان (نين بابا) حافة قبعته بيديه الغليظتين ساعة ان قال لزوجته (كانديلورا): (لا فائدة ترجى. صدقيني يا عزيزتي أن لا فائدة ترجي.)
وصرخت كانديلورا مهتاجة: (وأي فائدة ترجى إذاً؟ افي معاشرتك ليقضي علي من الغضب والمعاندة؟)
ورد عليها نين بابا في هدوء: (نعم يا حبيتي. ولن دون أن يُقضي عليك. بقليل من الصبر. أنظري، سأذكر لك شيئاً. (شيكو). . . . . .)
- (إنني أمنعك من تسميته بهذا الاسم.)
- (ألا تسمينه كذلك؟)
- (نعم، ولأني أنا أسميه هكذا)
- (هه. . . . حسن. لقد ظننت أني أرضيك بهذا. أيجب أن أسميه البارون؟ البارون. أريد أن أقول إن البارون يحبك يا حبيبتي كانديلورا، ويبذل المال في سبيلك. . . .)
- (في سبيلي أنا يبذل المال؟ يا سافل! ألم يبذل من أجلك مالاً أكثر؟)
- (لو أنك تركت لي الكلام. . . . . هو يبذل المال من أجلي ومن أجلك. ولكن انظري، ما معنى أنه يبذل من أجلي مالاً أكثر؟ كوني منطقية مع نفسك. إن معنى ذلك أنه لا يقدرك إلا لأنك في ظلي الذي أخلعه عليه. هذا ما لا يمكن إنكاره.)
وتميزت كانديلورا من الغضب وقالت: (ظل؟ من شعاع لمثل هذا. . .) ورفعت قدمها مشيرة إلى حذائها، ثم استطردت قائلة: (لم يلحقني منك إلا العار ولا شيء إلا العار!)
وتبسم نين بابا , اجب بهدوء أكثر من ذي قبل: (كلا، أستميحك المعذرة: إن العار يلحقني أنا، فيما إذا ما تكلمنا عن العار. إنني الزوج. وهذا أهم شيء، صدقيني يا لوريتا. ولو لم أكن زوجك، ولم تعيشي في ضيافتي تحت هذا السقف، لفقدت كل جاذبية، أتفهمين؟ هنا يمكن للجميع أن يدللوك دون ان يخشوا عقاباً. والجميع يتمتعون متاعاً عظيماً بقدر ما تلحقين بي من عار وشنار. وبدوني يا لوريتا تصبحين شيئاً تافهاً شديد الخطورة، وما كان شيكو. . . البارون ليبذل. . . ماذا أنت فاعله؟ أتبكين؟ لا، انظري. . . إنني لا أقوال إلا هذراً.)
واقترب نين من كانديلورا. وأراد أن يسمك بذقنها، ولكن لوريتا قبضت على ذراعه، وفتحت فاها كحيوان مفترس وعضته، وطالت عضتها دون أن تتهاون. وكانت أسنانها تغور باستمرار في الذراع، بينما كان هياجها يزداد. وانحنى نين حتى يمكنها من ذراه، وأطبق على أسنانه وابتسم هادئاً للألم المروع الذي سببته له. وازدادت عيناه ضياء

واتساعاً. ولما أن انفكت أسنان كانديلورا عن ذراعه - وكأن حملاً قد أزيح عنه - أحس بأن موضع ما أكلت جرح من النار، ولم ينبس بكلمة. وأخرج في هدوء ذراعه من ردائه، ولكن القميص لم يطاوعه، إذ كان قد غرز في اللحم الحي. وانطبعت على كم القميص بقعة من الدم، دائرة دموية، هي دائرة أسنان كانديلورا القوية. وكان أثر الواحدة بجانب الأخرى ظاهراً، وأخيراً تمكن نين من إخراج كم قميصه، والابتسامة لم تفارق وجهه الشاحب. وكانت رؤية الذراع وحدها تشيب. فموضع أثر كل سن في الدائرة جرح. وكان اللحم المحيط بالدائرة قد ايود لونه. قال نين مظهراً لما ذراعه: (ألا ترين؟) وصرخت كانديلورا، وهي ملقاة على المقعد تتمشدق: (هكذا أريد أن أعض قلبك!) وأجاب نين: (هذا ما اعرفه. وهذه الرغبة تقنعك بأنه أولى لك ألا تتركيني. أذهبي بالقبعة، وأتني بصبغة اليود والشاش المعقم والرباط. جميعها في الخانة العليا من مكتبي يا لوريتا. هي الثانية من اليمين. إنني اعرف أنك حيوان صغير مفترس يحب العض، ولهذا أحرص دائماً على الضمادات اللازمة)

وأمسكت كانديلورا بذراعه ونظرت في عينيه وشفعتها بنظرة قصيرة إلى ذراعه، واعجب نين بها ساعة هذه النظرة

لكانديلورا سحر في اللون والحركة، وهي تشحذه للعمل. فعينا الفنان تكتشفان في هذه المرأة اشياء ابداً جديدة ومتعددة. ففي هذه الظهيرة تبدو وهي في حديقة المنزل، وتحت شمس شهر اغسطس المحرقة، التي تنشر ظلالاً حادة في كل مكان، ولها أثر مخيف. وكانت في نفس الصباح، حينما آبت من حمام البحر حيث قضت بضعة أسابيع محترقة الجلد سمراء اللون من فعل الشمس وملح البحر، لون شعرها منطفئ، وضاءة العينين أشبه ما تكون بعنز تشتهي النوم. وكانت بذراعيها العاريتين المفتولتين وبكفلها النامي تظهر في كل حركة بسيطة أن رداءها الأزرق الحريري الذي يناقض لون جسدها ويلتصق به يكاد يتقطع. وكان هذا الرداء مدعاة للسخرية. لقد كانت كانديلورا تقضي نصف يومها عارية تمرح على شاطئ البحر المنعزل، وترقد بجسمها الصامد على الرمال المتقدمة من حرارة الشمس الملتهبة، بينما كانت تشعر بنسيم البحر البارد يهب على قدميها. فكيف لهذا الرداء الازرق ان يخفي عراها؟ لقد ارتدته مجاملة للعرف، ولكنه في الواقع اظهرها في حالة غير محتشمة اكثر مما لو كانت عارية

ومع كل ما كانت عليه من غضب لحظت في عينيه إعجابه بها. وسرت إلى شفتيها بفعل الغريزة ابتسامة الرضا. واستاءت لساعتها من فعلتها هذه. وانقلبت ابتسامتها ضحكة استهزاء. وصارت ضحكة الاستهزاء فجأة نحيباً وشهيقاً وهربت إلى المنزل وأخرج نين بابا لسانه لها دون وعي وهو يرقب مسيرها. ثم نظر إلى ذراعه المجروحة التي تشع ألماً محرقاً من فعل حرارة الشمس. ثم شعر فجأة أن عينيه أغرورقتا بالدموع. ومن يعرف السبب؟ وتحت تلك الشمس المحرقة في وسط الحديقة حيث الظلال الحادة مترامية شعر بين بابا بأنه كاد ينزعج من وجود اشياء عدة لا حراك بها من حوله: الأشجار، وجذوع أشجار البلوط، والاحواض المركزة على جوانبها صخور صناعية، وسطح الماء الاخضر، والمقاعد ماذا تنتظر كل هذه الاشياء؟

إنه يمكنه أن يتحرك وأن يسير. ولكن يا للغاربة! كأن كل هذه الاشياء التي من حوله ولا حراك بها تنظر إليه؟ ثم هي لا تنظر إليه مجرد النظر بل ترسل إليه سخريتها في سحر يشع من جمودها العجيب، وصورت له أن قدرته على المسير ليس من ورائها طائل، إلا أن تظهره بمظهر الغباوة الداعية للسخرية

وهذه الحقيقة تمثل ثراء البارون شيكو. وهنا سكن نين بابا منذ ستة شهور، إلا أنه لم يشعر بالاشمئزاز من نفيه ومن كانديلورا إلا في صبيحة أمس، وحين آبت الساعة من البحر تجسم وزره ووزر عراها أمام عينيه. غير أنه اضطر إلى الضحك ساعة أن قالت له تهرب الآن من هذا العار. وقد أفصحت له أنها تبغي ذلك

حقاً إن صور نين بابا ستلقي رواجاً بعد الآن. وان قيمة فنه الجديد الخاص به قد بلغت اخيراً أعلى مرتبة. وليس ذلك لأن الناس حقاً فهموه، ولكن أمزجة الأغنياء من زوار معرضه وعقلياتهم تنقاد لحكم النقد الفني فيقفون إزاء لوحاته معجبين

النقد؟ وأيضاً كلمة النقد لا وجود لها في غير سراويل النقدة.
والناقد الذي قصدته كانديلورا وجلة يوماً ما، لكي ترجمة في وجهه بأنه غير عادل حين يؤدي بفنان مثل نين بابا الى التهلكة جوعاً - ذلك الناقد الكلمة دون غيره، كتب مقالاً عظيماً يلفت به انظار المترددين الى فن نين بابا الجديد والطابع الشخصي فيه.
ولكنه طلب أجراً مقابل اعترافه بالفنان. على ألا يُدفع هذا الاجر نقداً، بل شكراً حيوياً تقدمه كانديلورا له. ولم يكن من كانديلورا إلا أن قدمت دون تريث هذا الشر جزيلاً. غير قاصرة على ذل الناقد، بل عممت هذا الشكر للذين أعجبوا بفن زوجها، ذلك الفن الجديد. فقد ملكتها نشوة فرح لانتصار زوجها. وشكرت الجميع وبخاصة البارون شيكو، الذي جرى في ذلك إلى حد أن ترك للزوجين منزله، حتى يكون له شرف إيواء فنان معذب. . . .
مسكينة كانديلورا! لقد خافت الفقر وقالت ان الفقر ليس هو الحاجة ولا الذل. وانه ليس لما حق فيما يكسبه زوجها. ودفعتها عدم اهليتها هذه للانتقام. وعلى اي صورة؟ منزل. سيارة. قارب بخاري، حلى. جواهر ثمينة، تنزهات خلوية. أدوات زينة. مآدب. . .
ولم تشعر هي بغضب منه، إذ بقي دون أن يتغير في شيء. . . فلا هو حزين ولا هو فرح، ولا زال مهملاً في هندامه كما كان. . . . . وليست له بهجة في غير الوانه. لا يعرف مطلباً سوى التفرغ لفنه، حتى يصل إلى القرار، القرار المكين، كي لا يرى شيئاً من صور الحياة الوضيعة التي تحيط به
من المحتمل، كلا، بل بكل تأكيد ان تلك الحياة الوضيعة - حلى لوريتا والترف والدعوات والمآدب - تدل على شهرته. شهرته وعاره - ولم لا؟ وماذا يهمه من أمر ذلك؟
إنه يقدم روحه وكل ما فيه للمتعة بورقة يدخل عليها الحياة برسمه، بينما يصير هو لحماً ودماً وشرايين لتلك الورقة. أو للمتعة بحجر صلب لا حس فيه ليجعله فوق لوحته حجراً حياً حساساً، هذا ما يعنيه
عاره؟ حياته؟ حياة الآخرين؟ سباب الأجانب الذي لا فائدة من الانصات اليه؟ إنه لا يحيا إلا لفنه، وهو العمل الذي يتمخض عنه النور والألم ويتمثل في روحه
وقال هذا الصباح للوريتا وكأنه في عام آخر إنها تعجبه - دون أن يعير الأمر اهتماماً خاصاً - حقاً إنها أعجبته، لأنها ارتضت أن تكون شريكة مطيعة في الحياة، غير عابئة بالفقر، شركة قنوعاً راضية، له أن يطمئن الى صدرها، وطبيعي أن تهاجمه لوريتا كنمرة. ولكن ماذا نفعل بعد ذلك؟ ألا تعود بصبغة اليود والشاش المعقم والضماد؟ لقد صعدت المسكينة باكية
الآن يجب أن يحب لوريتا. ولربما كان ذلك رد فعل لعدم مبالاته. أليس ذلك جنوناً؟ ولو أنه كان يحبها حقاً لحق عليه قتلها. عدم المبالاة هذا ضروري، هو المقدمة التي لا مفر منها، وليتحمل العار الذي تمثله الى جانبه. أيهرب من هذا العار؟ كيف يمكن ذلك. وكل منهما قد رأى هذا العار ليس بعيداً عنه ولا محيطاً به بل رآه في نفسه أيضاً. والسبيل الوحيد هو ألا يهتم كلاهما بذلك. فهو يتابع تصويره وهي توالي تمتعها بشيكو مؤقتاً ثم بغيره أو به مع غيره في وقت واحد، فرحة غير حاملة هماً. إن الحياة. . . . لا شيء. . . وهي تسير على هذه الوتيرة أو تلك، دون أن تترك أثراً. ويجب على الانسان أن يضحك من الأشياء التي ولدت خبيثة، والتي ليس لها من الكيان ما يغري، أو لها كيان، ولكنه قبيح يجعلها تتألم الى أن تصبح رماداً مع الزمن. وكل شيء يحمل طيه آلام تكوينه، آلام مصيره الذي لا قدرة له على تغييره. وهذا هو الجديد في فنه، إذ يجعل أشخاصه يشعرون بذلك الألم. . . وهو يعرف جيداً أن كل أحدب عليه أن يعرف كيف يحمل حدبته معه. وينطبق ذلك على الوقائع كما ينطبق على الأشخاص. فاذا ما كانت الواقعة واقعة فستبقى كذلك دائماً أبداً، ولن تغير. فكانديلورا مثلاً لو أنها بذلت أقصى جهدها لتصير خلواً من
العار ما كانت أصلاً عندما كانت فقيرة لما استطاعت. ولعل كانديلورا لم تك قط خلواً من العار حتى في أيام طفولتها. وإلا لما أمكنها فعل ما فعلت، ثم هي تفرح لعملها هذا وتحت حرارة الشمس انقبض الدم في موضع العضة من ذراعه، وتجعد سطحه وازداد نبضه وانفتحت يده وتوترت شرايينه
واستفاق نين بابا من تأملاته وخطا نحو المنزل ونادى مرتين عند مدخل السلم وفي

الممشى:
(!كانديلورا! كانديلورا)
ورن صدى صوته في الغرف الخالية ولم يجبه أحد. دخل في الغرفة المجاورة لمحل عمله ومكتبه، ولكنه تراجع من هول ما رأى. كانت كانديلورا منبطحة على أرض الغرفة البيضاء المفعمة بالنور. ورداؤها في غير انتظام. وكأنها دارت حول نفسها فانكشف فخذها. أسرع أليها ورفع رأسها، يا ألهى ماذا فعلت. الفم والذقن والرقبة والصدر يضرب لونها بين السواد والصفرة: لقد شربت صبغة اليود
ثم ناداها قائلاً: (إنه لا شيء! لا شيء ما هذه الفعلة الحمقاء يا حبيبتي كانديلورا. يا طفلتي. . . إنه حقاً لا شيء. . . إنه يؤذي المعدة طبعاً قفي)
وحاول أن يوقفها على قميها؛ ولكنه فشل، إذ أن المسكينة قد تصلب جسمها من شدة الألم. ومع ذلك لم يقل لها مسكينة، بل قال: (طفلتي. . .! طفلتي. . . .!) ذلك لأنه ظن ان تجرعها اليود أمر تافه مزر. (طفلتي!) رددها ثانية، وقال لها (يا صغيرتي الحمقاء). وحاول أن يستر فخذها بالرداء الأزرق فقد أصاب منه نظراً، وأدار عينه الى الناحية الأخرى حتى لا يرى فمها الأسود
هو وحده في ذلك المنزل. لقد وصلت لوريتا اليوم من حمام البحر. وكانت قبل ذهابها قد طردت الخادمة، فلا أحد يساعده على رفعها من الأرض، ولا أحد يأتي بعربة تحملها الى أقرب مستشفى حتى يؤدوا لها الاسعافات السريعة. ولحسن الحظ سمع بوق سيارة البارون شيكو وهي قادمة في الطريق، وسرعان ما ظهر البارون بهندامه الأنيق ووجهه الأصفر الذي ينم عن شيخ ضعيف العقلية مديد القامة متصاب
وثبت البارون شيكو (المونوكل) على إحدى عينيه وقال: (ماذا جرى؟)
(وصرخ نين في وجهه قائلاً: يا إلهي، ساعدني على إنهاضها
ولم يكادا يحملانها حتى رأيا أن يدها التي كانت منطوية تحت فخذها قابضة على المسدس، كما رأيا تغرة من الدم
وتنهد نين: (آه. . . آه. . .) وهو ينقلها هو وشيكو إلى غرفة النوم
إن لوريتا لم يتصلب جثمانها من شدة الأم، ولكن من الموت. ولما وضعت الجثة على السرير صرخ نين بابا وجه شيكو قائلاً:
(من كان معكما في حمام البحر؟ قل لي من كان هذا الصيف معكما في الحمام؟)
وفقد شيكو صوابه وتمتم ببعض الأسماء
وزأر (نين) كالوحش وهجم عليه وأمسكه من قميصه وهزه هزات عنيفة وقال له:
([إلهي! كيف يكون كل غني متمول أبله قصير النظر؟)
وتساءل شيكو وقد خاف على نفسه، وكان من شدة الخوف يتراجع باستمرار: (انحن حقاً بلهاء؟)
واشتد تأنيب نين بابا إياه، وقال له: (أنتم، نعم أنتم بلهاء لدرجة أنكم تذكون الأمل في المساكين بأنهم سيكونون محبوبين مني! أتفهم ذلك؟ منى! منى! منى - محبوبين!)
ثم وقع على جثمان لوريتا وانفجر يبكي بكاءاً مراً
عربها عن الألمانية:
ا. ا. ي
من روائع الشرق والغرب
الوادي
لشاعر الطبيعة والجمال لامرتين
تعب قلبي كل شيء حتى من الأمل،
فلن يثقل بعد اليوم بأمانيه على القدر،
فأعرني يا وادي صباي وأحلامي،
ملجأ يومٍ انتظر فيه موافاة حمامي
ذلك هو الشعب يضرب في حشايا الوادي،
والغابات الكثيفة تقوم على سفوح الربي،
وأدواحها الحانية تقلى الظلال على جبيني
فتملأ شعاب نفسي بالسكون والغبطة
وهناك جدولان اختفيا تحت أعراش الخضرة،

يرسمان في انسيابهما منعطفات الوادي،
ثم يمتزج منهما الموج والخرير بالخرير،
ويفنيان وهما من المنبع على مدى قصير
كذلك جرى نبع أيامي جريان هذين الجدولين،
ثم ذهب من غير هدير ولا سمة ولا رجعة!
ولكن ماءها كان صافياً شديد الصفاء؛
اما نفسي فلم يتراءَ في كدرها صفو ولا هناء!
إن طراءة الجدولين وبرودة الظلال،
تعقلانني طيلة النهار على ضفافهما الخطيبة،
أهدهد نفسي على خرير مائها السلسال،
كما يُهدهَدُ الفل على المناغاة الرتيبة
آه، حبذا المقام هنا بعيداً عن الناس وحيداً مع الطبيعة!
يحيط بي سور أخضر من رياض الأرض،
ويقوم حوالي أفق محدود فيه مجال للبصر،
فلا أسمع غير همس الموج ولا أبصر غير وجه السماء
لقد رأيت كثيراً واحسست كثيراً واحببت كثيراً
ثم جئت هنا حياً لأبحث عن هدوء (ليتيه)!
فيا أيها الوادي الجميل! كن لي ذلك
النهر الذي يُذهب بالنسيان هموم القلب؛
ففي النسيان وحده منذ اليوم سعادتي ونعيمي
إن قلبي في رخاء ونفسي في سكون،
وإن ضوضاء العالم لتفنى قبل أن تصل إلي
كالنغم البعيد يخفت على طول المدى
ثم لا يقع منه في الآذان إلا صدى
من هذا المقام ومن خلال ذاك الغمام
أرى الحياة حولي تغوص في غيابة الماضي،
فلم يبق مائلاً غير الحب بقوى ويتجدد،
كالصورة الكبيرة تبقى على اليقظة من حلم تبدد
استروحي يا نفس في هذا الملجأ الأخير،
كالمسافر اللاغب يجلس على باب المدينة،
وقلبه ذاخر بالأمل والطمأنينة،
فيستثني قبل أن يدخل نسيم المساء العبث
فلننفض عن اقدامنا الغبار كما نفض هذا الرجل المجهود،
فانا لن نسلك هذه الطريق مرة اخرى؛
ولنْنْشق مثله في آخر المدى المحدود،
نفحات الهدوء المبشر بالسلام الدائم
إن أيامك الكئيبة القصيرة كأيام الخريف،
تنقبض انقباض الظلال عن حوادر الهضاب؛
فالصداقة تغدر بك، والرحمة تتخلى عنك،
وتقطع وحدك الدرب الى عالم القبور
ولكن الطبيعة هناك تهيب بك وتحنو عليك!
فألق نفس في أحضانها التي لا تتجافى عنك،
فان كل شيء يتنكر لك وينزوي عنك إلا الطبيعة،
فجوها هو الذي ينضح على آلامك،
وشمسها هي التي تشرق على أيامك
بالأشعة والظلال لا تزال تحيطنا الطبيعة.
فطهر قلبك من الغرور الباطل والمتاع الزائل،
واعبد هنا الصدى الذي يعبده فيثاغورس،
وأرهف أذنك مثله لموسيقى السماء.

ثم اتبع الشمس في السماء والظل في الأرض،
وطِرْ في السهول مع ريح الشمال،
وحُس مع شعاع هذا الكوكب الهادي
خلال الغابات في ظلال هذا الوادي.
إن الله خلق العقول لتدركه،
فاكتشف في الطبيعة خالق الطبيعية؛
فان صوتاً لا يني يُحدث المرء عن ربه،
ومن ذا الذي لم يُصخْ إلى هذا الصوت في قلبه؟
الزيات
صائب التبريزي
أبيات شتى
1 - نحن كالقسي: نصيبنا من صدينا انحناء طهورنا، وكل ما نحوز لغيرنا
2 - ليدي جرأة غير ما عهد الناس؛ لا تحبني غصناً غفل عنه الحراس
3 - ليس الظالم بنجوة من سهام آهات المظلوم، إن أنين القوس قبل أنين الهدف المكلوم
4 - يا رب من دعا علينا أن نكون كقافلة الأمواج: ليس في سفرنا للاستراحة منزل
5 - ليس اطمئناناً سكون القلب في مصابه، ولكن ضاقت الدنيا عن اضطرابه. إن خفقان النجم يصيح في لوعة: ليس هذا البناء المعوج مكاناً للدعة
6 - خُتم المجلس ليلاً بحديث طرتك المسلسلة، فتنهض كل من نهض وفي رجليه سلسلة. إن الأعصار الذي هب في هذه الصحراء، روحه المجنونة الحائرة يلفها الغبار في الفضاء
7 - إن الجذبة التي سلبت كف الجنون العنان، بدأت فقطعت من محمل ليلي الزمام
8 - ليست أوجه الاثنتين والسبعين ملة إلا إلى هذه السدة؛ ترى عاملاً حيران، ولم يضل أحد طريقه
9 - إن قطرة من الدموع تكفي لخراب العالم، كما تبدد قطرات الماء نوم النائم
10 - ولّ وجهك شطر الحانة ثم انظر طمأنينة القلب - انظر عالماً فارغاً من فكر الغد، إنك تطبق كالحباب عينك فترى نفسك، ولو فتحت عينك للضياء، لأبصرت فناءك في هذه الدأماء
11 - إن عيني لتطير كالشرار الى نوم الفناء، كما بعدت عن وجهك الناري الوضاء
12 - أضاء في كل ظفر هلال للعيد، ليلة تناولت كأساً من ذكر السعيد
عبد الوهاب عزام
الكتب
ضحايانا الأطفال
تأليف أجنس دي ليما
ترجمة الأستاذ محمد عبد الواحد خلاف
طبعته لجنة التأليف والترجمة والنشر وثمنه 10 قروش

تعتبر تربية النشىء وإعدادهم للحياة من أهم المسائل وأجدرها بعناية أولى الأمر وسواهم من المربين والكتاب؛ وتشعر مصر في نهضتها الحالية بشديد الحاجة إلى تقرير سياسة عامة تأخذ بها في تربية أبنائها، ذلك أنها قضت زمناً طويلاً تحت تأثير عوامل مختلفة امتد خطرها فشمل جميع نواحي الحياة، وفي مقدمتها أمور التربية والتعليم، فقد احكمت الأغلال وأقيمت العراقيل في تلك الناحية الجوهرية من نواحي التقدم، وكانت نتيجة ذلك أن أصبحت سياسة التعليم عندا مهلهلة، وصارت ثقافتنا مذبذبة، وظلت مصر في لبس من الأمر تسير إلى غير قصد، ولا تستند في سيرها إلى مبدأ

لذلك يحق لنا أن نغبط بكل بحث في التربية يضطلع به من تأخذه الغيرة من أبناء مصر، ولقد اعتزمت لجنة التأليف والترجمة والنشر، أن تضم إلى مجهوداتها المتنوعة في نشر الثقافة إصدار سلسلة من كتب التربية بين معرب ومؤلف، تحت إشراف الأستاذ اسماعيل القباني تحاول فيها كما جاء في مقدمة الأستاذ في هذا الجزء الأول من السلسة، (أن تبسط على التتابع النظريات والاتجاهات السائدة في عالم التربية

في الوقت الحاضر، والأسس الاجتماعية والسيكولوجية التي تقوم عليها، وأساليب تطبيقها في نختلف الظروف والبيئات، ونتائج التجارب التي أجريت عليها) وغاية القائمين بهذا العمل الجليل أن يمهدوا السبيل لأن (تكون لنا فلسفة للتربية توفق بين أحدث الآراء في العالم من جهة، وأغراض النهضة القومية التي لاح فجرها في مصر من الجهة الأخرى)

وهذا الكتاب، الذي أحدثك عنه هو الحلقة الأولى من تلك السلسلة المباركة اضطلع بترجمته الأستاذ الجليل محمد عبد الواحد خلاف مدير إدارة الجمعية الخيرية الاسلامية، فأخرجه على الرغم من شواغله الجمة على خير ما يرجى من جمال سبك وحسن نظام

ولهذا الكتاب في موضوعه، وفيما انتهج من طريقة أهمية فريدة، ذلك أنه ليس من تلك الكتب التي تتناول موضوع التربية من ناحيته الجافة، ناحية النظريات العلمية المجردة التي تهتم بالقضايا دون الوقائع، أو بعبارة اخرى تهتم بمبادئ العلم دون من تنطبق عليهم تلك المبادئ من الاطفال، فان تلك الكتب النظرية في منحاها محصورة الفائدة ثقيلة في الغالب تتطلب من القارئ صبراً طويلاً، وجهداً كثيراً، لي يستخلص منها ما يرجو من فائدة، وإن كان ما يصيبه منها في النهاية معاقاً بقواعد العلم أكثر منه بغايته

وإنك لتستبين روح الكتاب من عنوانه، فمؤلفته تنكر النظم المدرسية التقليدية، وتعتقد أننا نضحي بأولادنا ونعاملهم كما لو كانوا أعداءنا بالقائهم في تل الأبنية التي هي أشبه بثكنات الجند، حيث يكتنفهم جو خانق بغيض من قوانين ونظم، يؤخذون بها أخذاً في كل صغيرة او كبيرة من حركاتهم، وحيث يجرعون من مواد الدراسة مالاً غنية فيه من معلومات يسأمونها وفنون من القول والعمل يساقون اليها في طرق عسكرية، توبق أرواحهم، وتطمس على قلوبهم وتغل نشاطهم، وتحول بينهم وبين الاستقلال الشخصي والنبوغ الذاتي

ولن تقف المؤلفة في كتابها موقف الهادم، بل إنها تسلك طريقة إيجابية، فتعرض على القارئ كثيراً من التجارب العملية في بعض المدارس الحديثة بأمريكا ومبلغ نجاحها، وما أنتجه من أثر في تغيير وجهة التربية تغييراً يمهد السبيل لناء هذا العلم من جديد على أسس عملية، تحل مشاكله وتضمن للطفل ما يرجى له من سعادة، وما يرجى منه للمجتمع

وتلك الروح العملية هي الميزة الفذة لهذا الكتاب التي سبق أن أسرت اليها، فهو خلاصة تجارب مربية متحمسة لمبدئها عاملة على إسعاد الطفل وإعداده لحياته خير إعداد. وهذه الميزة فضلاً عن عظيم فوائدها قد خلصت الكتاب من روح السأم وأنجته من الثقل، فأنت تطالعه في تشوق واستمتاع، وتقف منه على أمور كثيرة شيقة، كاستخدام مقاييس الذكاء واستكشاف الفرد، والسير وراء الطفل، وحالة بعض المدارس التجريبية، ومدارس العمل مع الدراسة واللعب، وتجارب بعض أساطين التربية في مختلف مراحل التعليم وسواها من المسائل العملية

والأستاذ المترجم بطويل خبرته، ونافذ بصيرته، وضلاعته في الانجليزية، كفيل بان يحفظ للكتاب روحه في لباسه العربي، وأنا وإن أقرأ الأصل، أحس من دقة الأداء ومن سهولة

الفهم واستواء التراكيب العربية، على بعد ما بين اللغتين من الاختلاف في البناء والأسلوب، أن التعريب قد تم على خير ما يرجى اتباعه في تناول مثل هاتي الكتب الدقيقة، فاذا أضفت الى هذا أن الاستاذ خلافا متحمس لهذه النظرية، كثير الترديد لها في أحاديثه كلما تطرق الحديث الى نقد التربية في مصر، أيقنت معى أنه خير من يضطلع بنقل هذا الكتاب الى لغتنا

وإني لعظيم الغبطة، إذ أقدم هذه الحلقة الأولى، أو هذه الباكورة الطيبة من سلسلة التربية، الى جمهور المربين والمدرسين وعامة القراء، شاكراً للأستاذ خلاف حسن اختياره وحميد مجهود

الخفيف

الاسلام والحضارة العربية

تأليف لجنة التأليف والترجمة والنشر وثمنه 15 قرشاً

أصدرت لجنة التأليف والترجمة والنشر الجزء الأول من كتاب الاسلام والحضارة العربية، وقد طبع في دار الكتب ويقع في نحو ثلثمائة وستين صفحة
أوحت فكرة هذا الكتاب إلى مؤلفه الجليل الأستاذ كرد علي، أريحية عربية نبيلة، تتبينها في مثل قوله (وسبيل هذا الموجز الآن تصحيح هفوات من أساءوا وما برحوا يسيئون للعرب ودينهم ورسولهم ومدنيتهم وذكر ما أثرته الحضارة العربية في أمم الغرب والشرق، وما مني به الاسلام، لما غير أهله ما بأنفسهم، من خصماء غير رحماء، نالوا من روحه وجسمه فالتاثت أحواله وتنكرت معالمه والألماع إلى ما قام به المسلمون بعد طول الهجعة، يلبون على استعارة مجد أضاعوه، وعلقوا اليوم يقطعون إليه أشواطاً، حتى لم يبق أمامهم غير مراحل لبلوغ الغاية)
وما أحسب تسمية هذا الكتاب بالموجز إلا تواضعاً من صاحبه، فهو من الكتب الحافلة بشتى المسائل والبحوث. ثلثه الأول يدور حول الرد على مخالفي الاسلام وتفنيد مزاعمهم وبيان منازعهم في الخلاف، فتقرأ فيه كثيراً من التهم التي ألصقها المتعبون بالاسلام والرد عليها في قوة حجة وسلامة منطق، يصحبهما الهدوء والرزانة، كما يدعمهما سعة الاطلاع
ونفاذ البصيرة، ومن أمثلة المسائل التي يتوق كل مسلم بل كل منصف إلى الوقوف على حقيقتها، والتي شرحها الأستاذ أحس شرح وفندها خير تفنيد، ما نسب إلى الاسلام من مذابح دينية وما اتهم به المسلمون من إحراق مكتبة الاسندرية، ومن بغضهم حرية الفكر وتعصبهم ضد العلم، وما يردده الشعوبيون من أباطيل وتهم كمسألة صدق الرسول في دعوته، والقضاء والقدر وتعدد الزوجات والطلاق والحجاب والاسترقاق والربا والتصوير والنقش. . . الخ.
ولم يقتصر الأستاذ المؤلف على ما ساق من براهين، بل لقد مكنته سعة اطلاعه من عرض أقوال المبطلين، مشيراً إلى ما ينهض منها حجة على أصحابها وما ينسخ منها بعضه بعضاً، كما أنه كان موفقاً غاية التوفيق في بيان العوامل التي أدت الى جفاء الغربيين في موقفهم من الاسلام، وفي بيان ما يقعون فيه من أخطاء وأسباب تلك الأخطاء، التاريخي منها والديني والثقافي، مما يعد بحق من أجل الخدمات التي يؤديها رجل نحو دينه ويضطلع بها عالم ابتغاء الحقيقة
وفي ثلثي الكتاب الباقيين، يستعرض الأستاذ كرد علي أحوال العرب منذ جاهليتهم، فيتكلم عن العرب قبل الاسلام وديانتهم وأثر المدنيتين اليهودية والنصرانية فيهم، ثم عن العرب في الاسلام، مبتدئاً بشرح عاداتهم وأخلاقهم وأثر الاسلام فيهم مورداً رأى لبون ودوزى في الفتوح العربية، ولقد عني ببيان ما عرفه العرب من علوم ومبلغ عناية خلفائهم بالعلم وتشجيع العلماء، وبين مواطن اللغة العربية وأثرها في اللغات الشرقية والغربية
وكان طبيعياً بعد ذل أن يتعرض لوصف حال الغرب في شباب الاسلام، فيقابل بين ما كان يتمتع به العرب من نور ونظام، وما كان يتخبط فيه الأفرنج من فوضى وظلام، وأشهد لقد كان معتدلاً منصفاً في هذا الباب، فلم يجر على سنن غيره من متعصبي الغرب، ولن تحس له حقداً او تتبين في نقده سخيمة او ضغناً بل كان رائده الدليل والحجج التاريخية
ولقد قدم هذا الباب توطئة لبيان أثر العرب ومدينتهم في الغرب، فن له من هذا الوضع الطبيعي وهذا الترتيب المنطقي خير مساعد، وراح يعرض لنا ما كشفه العرب وما ابتكروه وما نقلته عنهم أوربا عن طريق اسبانيا وصقلية وجنوبي إيطاليا، ثم عقد في خاتمة هذا الجزء أربعة فصول هامة، قارن في أحدها بين موقف المسلمين وأعدائهم في الحروب
الصليبية، وبين في فصلين منها غارات المغول والأتراك والمستعمرين من الغربيين على بلاد المسلمين وغيرهم، وشرح في الفصل الأخير اثر المدينة الغربية في البلاد العربية وما تخللها من خير وشر
وإني لأتقدم بجزيل الثناء إى الأستاذ كرد علي، موقناً أن من يطالعون هذا الكتاب من أبناء العربية سيشكرون له شدة إخلاصه وحسن بلائه
الخفيف
العدد 84 - بتاريخ: 11 - 02 - 1935

كلمات في الصداقة
للآنسة النابهة (مي)
مهداة إلى الأستاذ أحمد حسن الزيات، وإلى الدكتور طه حسين، وإلى أصحابهما جميعاً
قد تبدو هذه الكلمات غريرةً للذين لا يرون في الصداقة إلا وسيلة نفعية تعود على كلٍ من المرتبطين بها بفائدةٍ محسوسة: كالظهور بمظهر العظمة، أو التمكن من دحر منافس، أو التعاون على الإساءة إلى شخص أو أشخاص، أو جني ثمرةٍ ملموسة وتحقيق غرض مالي أو اجتماعي

ونخطئ إن نحن نسبنا إلى أهل هذا العصر وحدهم الصداقة المغرضة، لأن تلك كانت شيمة الكثيرين في جميع العصور وعند جميع الأقوام. قد تكون في هذا العصر أكثر لنور وإلى الهواء - إذا أنت طلبت هذا من الصداقة وعند الصديق، فما أنت في نظر تلك الفصيلة من الناس إلا من أهل الشذوذ والغباوة. . . على الأقل!

وعلى رغم كل ذلك فموضوع الصداقة من الموضوعات التي نُقبلُ عليها في اهتمام ولهفة ولو جاز لي أن أشير إلى خلق خاص في، قلتُ إني أشعر بشيء غير قليل من الأسف كلما انتهى إلى أن صديقين كريمين تجافيا بعد التصافي. وقد يكون ذلك أن انفصام عرى الصداقة بين الآخرين كأنما ينال من إيماني بالصداقة ويزعزع من رجائي فيها

أولى ذكرياتي في هذا الموضوع ترجع الى قصة فرنسية، هي (أبرص بلدة آووستا) بقلم كزافييه دي ميستر، واظنني قرأتها لأول مرة وأنا في سن العاشرة تقريباً. فيها وصف ذلك الجندي الكاتب اجتماعه برجلٍ ابتلى بداء البرص المروع، فنبذه الناس من مجالسهم، وحايدوا الدنو من الدار التي عاش فيها وحده حبيساً طوال الأعوام

تُطوح السبيل بالكاتب الغريب إلى تلك البلدة وتسوقه الى الدار المخيفة، ويلجُ باب الحديقة فيبصر الرجل الموبوء وهو لا يدري بحالته. وعندما يحذره الأبرص ويفضي إليه بمحنته لا يلوذ الكاتب بالفرار، وإنما يقترب منه ويجلس إليه مستفسراً عن معيشته وأحواله، وعما يحسه في الابتعاد عن أولئك البشر الذين هم منهم، فيعترف الأبرص بأن آلامه الأدبية تفوق أوجاعه الجسدية، يعترف بعذابه في حزن هادئ يشبه الامتثال والرضى، يعترفُ بحاجته الى الشعور بأن قلباً يعطف عليه ويحن إليه، بأن يداً تصافح يده، بأن صدراً يتلقاه

ويحتضنه، حتى أنه لشدة حاجته تلك يحتضن أحياناً جذوع الشجر ويضمنها إليه ما استطاع، كأنها كائنات انسانية. يعترف بشوقه الى سماع صوت بشري، الى تبادل السلام والحديث مع من يفكر تفكيره ويحس إحساسه، الى جميع تلك الأمور التي عرف قيمتها لأنه حُرِمَ منها، والتي يتمتع بها الجميع جاهلين أنها منحة ومتعةٌ لأنها عاديةٌ بينهم. ويقولُ فيما يقول وكأنه يلخص جميع صنوف عذابه في هذه الكلمة:

- لم يكن لي يوماً صديق

والكاتب الذي عرف كيف يُصغي الى شكايته في هدوء ورباطة جأش، تهتاج تلك الكلمة شجونه وتحز الشفقة في قلبه فلا يتمالك من الهتاف:

- يا لك من تَعس!

تلك الكلمة من الأبرص، ورد الجندي الكاتب عليها، استقرت في موضع عميق من روحي عند قراءة القصة، بل القصة كلها تجمعت عندي في تلك الكلمة وفي التعقيب عليها؛ وقد يكون لها الأثر الكبير في تكوين إيماني العنيد بأن لابد من وجود الصداقة - مع اعتقادي بأن نفاسة الصداقة نفسها تحتم فيها الندرة

لسنا في حاجة إلى دهور نعيشها لندرك كم في هذه الحياة البشرية من خبث ومراوغة ونفاق. اختباراتٌ قليلة تكفي لتدلنا على أن بعض المُثُل العليا تخذلنا وتصرعنا بلا رحمة، ثم تنقلب مسوخاً ساخرة مزرية، لا تلبثُ أن تكثر عن أنيابها، مهددة متوعدة - وهي التي تجلببت في نفوسنا من قبل جلباب القدسية والعبادة!

اختباراتٌ قليلة في أحوال معينة، وأحوال مفاجئة، تكفي لتظهر لنا أن من الناس من يتاجر بكل عاطفة صالحة لتنفيذ أغراض غير صالحة، ومن يستغل كل استعداد كريم لنتيجةٍ غير كريمة، ومن لا يكتفي بالظلم والاجحاف، بل لا يتورع عن إيذاء الذين أخلصوا النية في معاملته، ولم ينله منهم إلا الخير.

وكم مِن مذيعٍ أنباء الصداقة لا لسبب آخر سوى التوغل في الإيذاء باسم الصداقة، في

أساليب سلبية أو إيجابية لا يعلم إلا هو كم هي خبيثة وكم هي فعالة
وكيف تعامل أولئك الناس عندما تكشف عما يضمرون؟ أتحاسنهم. إنهم يحسبون
المحاسنة ضعفاً ومداراة، فيمعنون في الأذى؟ أتخاشنهم؟ إنهم يزعمون المخاشنة
جحوداً ومكابرةً،
فيمعنون في الأذى. ولعل الشاعر العربي كان في حالةٍ كتلك عند ما أرسل هذه
الزفرة المنغومة التي هي من أبلغ ما أعرف في معناها:
عذيري من الإنسان، ما إن جفوتهُ ... صفالي، ولا إن صرتُ طوعَ يديه
وإني لمشتاقٌ إلى ظل صاحب ... يروقُ ويصفو إن كدرتُ عليه
يأس هذا الشاعر يدل على حاجته الضميمة إلى صداقة نقية غير مغرضة. فنحن مهما
تنر لنا معنى الصداقة الصافي، ومهما غدر بنا الغادرون فعلمونا الحذر - فإننا لا نستطيع
إنكار احتياجنا العميق إلى الصديق. لأن لدينا مرغمين كمية في المودة والوفاء
والتسامح والغفران والتضحية لابد من تصريفها وإنفاقها لنزيد بالعطاء غنى. وعند من
نصرفها وعلى من ننفقها إلا على الأشخاص الذين نراهم قمينين بأنبل ما عندنا من
فكر، وأصدق ما لدينا من عاطفة؟
أيها الذين ربطت الحياةُ بينهم بروابط المودة والأخاء والتآلف الفكري والنبل الخلقي،
حافظوا على صداقتكم تلك واقدروها قدرها فالصداقة معينٌ على الآلام ومثارٌ
للمسرات، وهي نور الحياة وخمرتها، وكم تكن من خير ثقافي وعلمي للنابهين!
لا تخافوا أن تكونوا من أهل الشذوذ والسذاجة في نظر المغرضين! ألا يئست نفسا
فقدت كل سذاجة، وسارت على وتيرة واحدة، لا تعيش إلا للغرض وبالغرض! ما
أفقرها وإن كانت ثرية! وما ألصقها بالثرى وإن كانت علية! وحسبكم أنتم أنكم
بإيمانكم بالصداقة توجدون الصداقة، وبممارستكم أساليب الصداقة إنما تكونون
خميرة الصفاء والصلاح والوفاء!
(مي)

3 - كلمة وكُليمة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

. . .إذا أَسندت الأمةُ مناصبها الكبيرة إلى صِغَار النفوس، كبرت بها رذائلهم لا نفوسُهم
. . . .شَرّ المَصْلحين رجلُ مُسلطٌ على أمةٍ يحكمُها بعقل كبيرٍ فيه موضعُ فكرةٍ مجنونة
إذا فَسَقَ الحاكم، فقد حَكمَ الفسق
تُبْتلى الأممُ أحياناً ببعض المجددين، فلا يكون أولُ جديدهم إلا عيوبَ أنفسهم
. .يقول لك الكذابُ إنه سكره الكَذِب، ولكنه في هذا أيضاً كذاب
قيمةُ كل شيء هي قيمةُ الحاجة إليه؛ فترابُ شبرٍ من الساحل هو في نظر الغريق
أثمن من كل ذهب الأرض
حقيقة الذل ألا يعرفَ الذليل حقيقةَ نفسهِ
المعلمُ ثالثُ الأبوينْ؛ فلينظرُ كيفَ يأبو حين ينظر كيف يُعلم
إنما كَثُرت الآراء في المرأة، لأن المرأة هي ما يفهمهه كل رجلٍ منها بنفسه
لا تبلغُ الفلسفةُ ولا العلمُ ولا النهضة النسائية. في تعريف المرأة، أكثر من أنها ليست
. . .رَجلا
لو عَقَّلَ نساءُ هذا الزمن؛ لطالَبْنَ بحقوقهن في الرجال، لا بحقوقهم على الرجال
يبالغُ بعضُ الكتاب في مُظاهَرة النساء على تمردهن، إذ كانت هذه هي اللغة الفصيحةَ
. . . .التي يُنادى بها جمالُ المرأة
أبلغُ الرد على هؤلاء المغالياتِ في المطالبة بحقوق المرأة، أنهن أو أكثرهم، بين واحدةٍ
.فَقَدَت الرجُل، وأخرى سُلِبت الرجُل، وثالثةٍ لم تَنَل الرجُل؛ فهي أحلامُ إفلاسٍ كما ترى
. .
إسْتِرجَال المرأة، وسوءُ خُلُقِ المرأة، وقَذَارةُ المرأة، أحَدُ الثلاثة هو في قُبحِهِ - كالثلاثةِ
جميعاً
العشقُ الدنئ دنيءٌ مرتين؛ حتى إن المرأةَ الساقطةَ لو أخْلَصت الحب لرجل من
عشاقها، لسقطت مرة ثانية في رأي الباقين
في الأممِ المنحطة، تجد نفاق الكبار للكبار، هو الذي أضاع الكبارَ والصغار
في مثل هذا العصر، يكادُ يكون التعريفُ الصحيح للأفضلِ من الناس أنه الأقل سفالة

كثيراً ما جَنَّتِ المروءة على أهلها؛ ولكن احتمال هذه الجناية هو أيضا من المروءة
إذا عاملت لئيماً فأنت بين اثنين: أما أن تبيعه ذمتك بلا شيء، أو تشتري ذمته بشيء. . .
أقنع اللئيم بالكرم الذي في نفسك؛ فبهذه الطريقةِ وحدها يفهم اللؤم الذي في نفسه
الخطرُ الذي تكونُ فيه العنايةُ الإلهية، هو نجاحٌ اسمه الخطر.
علمُ الجاهل في شيئين: في سكوته، وفي السكوت عنه
أشد ما في الكسل أنه يجعلُ العملَ الواحدَ كأنه أعمالٌ كثيرة
الرجلُ العظيم في فنه، قالبٌ إنسانيُ لا إنسان؛ فلا يُقاسَ إلا ليُقاسَ عليه غيرهُ
من هوان الدنيا على الله أن رذيلة المَلحد في رأي المؤمن هي أخت غفلة المؤمن في رأي الملحد
ليس في بغضاء اللئيم أبغضُ من طريقة إظهارها، إنه لا يعلن بُغضه بل لؤمه المبغضُ
الرأسُ الفارغُ من الحكمة لا يُوازنه في صاحبه إلا فمٌ ممتلئ من الثرثرة
ما أضيع النصح في الحب وفي الخمر؛ لأن العاشق والمُدمنَ كلاهما أشدُ افتقاراً لسروره منه إلى عقله
أفلا ترى المرأة أن طبيعته تجعلُ نظرها إلى الرجل في بعض الأوقات مهيأ لبعض العمى. . .
قال لي عاشقٌ حزين: ما أقدس الحزن الذي فيه روحانيةُ الفرح؛ إنه حزنٌ وسرورٌ وشهوةُ نفس
إذا لم يكن في الدنيا إلا قاضٍ واحدٌ ينفذُ قضاؤه، ثم احتجتَ أن ترفع قضية غصبٍ أو (نصبٍ) على هذا القاضي. . . فهذه صورةُ كل عاشقٍ ومعشوقة في الدنيا
رأيتُ في نومي ذات مرة أني دعوتُ طبيباً لمريض عندي؛ ثم قلتُ له وقد وصف الداء: هل تُسخنُ الماء؟ فقال: لا تسخن الماء؛ ولكن ضَعْه على النار حتى يَسْخُن. . . هذا بعينه أسلوبُ كبرياء المرأة العاشقة حيت تقول: لا على وزن (لا تسخن الماء ولكن. .)
إذا طال هجرُك لمن تحبها، كان أثرُ مرور الزمن عليها كأثره في الحرير المصبوغ؛ إن لم يبدُ في العين ذليلَ النسيج، بدا فيها ذليلَ اللون. . .
الرجلان العاشقان لامرأة واحدة لا يتحابان، والملكان الطامعان في مملكة واحدة لا يتسالمان،
والطفلان الشريكان في لعبة واحدة لا يتصافيان. فاللعبة إمرأة الطفلين، والملك إمرأة الملكين؛ أما المرأة فهي إمرأة ومُلكٌ ولعبة، وأتم النساء من تجمعهن
يقول لك الزاهد العابد: أخرج من الدنيا وأدخل في نفسك، ويقول لك الماجن الخليع: أخرج من نفسك وادخل إلى الدنيا، ويقول لك الحكيم العاقل: كن في الإنسانية تكنْ في نفسك وفي الدنيا
تُرى ماذا يحتاجُ الحيوانُ في أوربا من قوام عيشه ولذاته، غير ما يحتاج إليه حيوانٌ مثله في قرية من قرى الزنج؟ فليس فقرُ المدينة فقر الطبيعة، ولكنه فن العقل والخيال والوهم. وهذه الطبيعةُ تكفي كل أهل الأرض شمساً وهواءً وطعاماً وشراباً وجمالاً. ولكنها لا تنبتُ خيالات للعيش ولا قواعدَ للعيش.
فأصبحت لا تكفي ما دام غنيُ واحد ينفق في لذة يوم قوت مدينة. لا يأكل الحمار الأرض كلها ليجيع الحمير. ولكن الغني يفعل ذلك
. .رأيتُ القوانين كملاجئ اللقطاء. هذه تربى صغار الأطفال وتلك تربى صغار الجرائم طنطا
مصطفى صادق الرافعي
في الأدب المصري
مجالس الأدب في القرن الثامن عشر
للأستاذ محمد فريد أبو حديد
لقد هممت اليوم أن أكتب إلى الرسالة الغراء مقالاً ثانياً أستأنف فيه وصف مجالس الأدب في مصر في القرن الثامن عشر في أيام رضوان بك أمير مصر وأحد مليكيها في ذلك العصر، ولكني رأيت الأمر قد استعصى علي إذ جعلت انقل من قول أحد شعراء العصر بعض ما راقني، وذلك الشاعر هو ابن الصلاحي، فرأيت ذلك البعض الذي اخترته قد زاد على المقدار الذي يجمل بي أن أجعله لمقال واحد. فعدلت عن رأيي

الأول وقلت حسبي أن أخص بهذا المقال ذلك الشاعر وحده. ولعل الاختصار على حديث شاعر واحد أبلغ في قصدي وأقوى لحجتي التي أرمي من ورائها إلى بيان حقيقة في تاريخ مصر. فان غزارة قول شاعر واحد من شعراء هذا العصر لدليل على أن ثقافة ذلك العصر لم تكن ثقافة ضحلة، بل كانت ثقافة أعمق وأقوى مما يتوهمه الكثيرون

كان ابن الصلاحي ناظماً وناثراً وعالماً من علماء العصر. نال من العلم الموروث أقصى ما يناله المتطلع إلى الحياة العقلية. وقد كان تلميذاً للشيخ محمد الحفني المشهور وأجازه ذلك الشيخ إجازة علمية قد يكون من الطريف أن ننقلها هنا. قال الشيخ:

(نحمدك يا عليم يا فتاح، يا ذا المن بالعلم والصلاح، ونصلي ونسلم على أقوى مسند، وعلى آله وصحبه معادن الفضل والمدد. أما بعد فان المولى العلامة الفهامة الحاذق الأديب، واللوذعي الأريب، مولانا الشيخ محمد الصلاحي السيوطي قد حاز من التحلي بفرائد المسائل العلية أوفي نصيب، بفهم ثاقب وإدراك مصيب، فكان أهلاً للانتظام في سلك الأعلام، بإجازته كما هو سنن أئمة الاسلام، فأجزته بما تضمنته هذه الوريقات، من العلوم العقلية والنقلية المتلقاة عن الاثبات، وبسائر ما تجوز لي روايته أو ثبتت لدي درايته، موصياً له بتقوى الله التي هي أقوى سبيل للنجاة، وألا ينساني من صالح دعواته في أوقات توجهاته، نفعه الله ونفع به، ونظمه في عقد أهل قربه، وأفضل الصلاة والسلام على أكمل رسل السلام وعلى أئمة الهدى، وصحبة نجوم الاقتدا. كتبه محمد بن سالم الحفناوي الشافعي ثامن جمادي الثانية سنة ثمان وسبعين ومائة وألف)

وقد كان ابن الصلاحي فوق ذلك كاتباً حسن الخط كتب نسخة من القاموس بخط يده، وقد كان للخط الحسن نهضة في ذلك العصر مثل سائر أحوال البلاد، فقد نبغ من معلميه جماعة من أفاضل الكتاب مثل الضيائي والشاكري والحزانري والحمامي ولكن أكبر ما امتاز به ابن الصلاحي ميله الى فن الأدب، فقد أخذ منه بالحظ الأوفر، وقد اتصل بحلقة الأدب في بلاط الأمير رضوان ونال من خيره الشيء الكير. على أنه كان غير منقطع إليه، بل كانت له مجالس خاصة مع جماعة من أدباء عصره ومشيخة العلم فيه. ولعل خير ما قاله من قصائد ما جاش في نفسه في تلك المجالس الخاصة قال يصف خطرات نفسه

بُثا عن النائي الغريب ... جملاً من الخبر العجيبِ
واستوقفا الركبان ما ... بين الاراكة والكثيب
واستنشدا القلب الذي ... قد ضاع من بين القلوب
سلبته يوم الدوحتي ... ن طليعة الرشأ الربيب
وسرت به نحو الخيا ... م يد الصبا ويد الجنوب
ترنو الهوادج عن صفا ... شمس تميل إلى الغروب
والبدر يذهب من خلا ... ل السحب في مرأى عجيب
والرق يخفق والمزا ... هر مثل قلبي في وجيب
يا حادي العيس التي ... سارت على قلبي الجنيب
علل عليل هوى فعه ... دك ما تقادم بالطبيب
إني وإن شط النوى ... وقف على حب الحبيب
كابدت ما كابدت من ... شق المرائر والجيوب
وعلمت كيف تقوم أس ... واق المعارك والحروب
ولقيت دون البيض وقع ... السمر بالصدر الرحيب
من كل ريم جائل ... في برد جردته النشيب
يحكى الغزالة في الترف ... ع والغزالة في الوثوب
ألحاظه ترويك ديوا ... ن الحماسة عن حبيب
وقعات أسمهه ترك ... ن جميع حسمي في ندوب
كم ليلة عانقت في ... ها قامة الغصن الرطيب
في معهد ما فض عن ... هـ الأنس إلا ختم طيب
والزهر يضحك من بكا ... ء الطل بالثغر الشنيب
والريح تكتب في الغدي ... ر حديث أسرار الغيوب

والطير تقرأ والغصو ... ن تهز أعطاف الطروب
والورق تصدح في الغصو ... ن بصوت محزون كئيب
في رنة الشادي وهي ... نمة القطا والعندليب
عجماء تعرب في السؤا ... ل وتستجيب بلا مجيب
والليل أرسل ذيله ... رصداً على أعلى القضيب
يحكي الشعور كأنه ... يروي الفروع عن الخطيب
أرنو وأحشائي من ال ... حدثان في شك مريب
لولا الرقيب ظفرت من ... لقياه بالفرج القريب
وكشفت من وصلي به ... ما قد ألم من الكروب

ولئن حل بنفس القارئ من هذه النفثة مثل ما حل بقلبي، لأيقن أن ابن الصلاحي إنما كان يترجم عن قلب نابض بحياة حقيقية لا تكلف فيها، وأنه كان يصدح بأنغام تبين عن حرارة ووجدان طبيعي. وها هي ذي نفثة أخرى أختار منها البعض لا أنه أحسن ما بها، ولكنه مثل مما تحويه من آيات. وهي في مدح شيخه الحفني:

مِلْ بي فقد وقد الهجير ... إني بظلك مستجير
وأرح مطيك يا سمي ... ر فقد أضر بها المسير
هذا الحمى فارصد إذا ... ما استأنس الظبي النفور
واطرق كناس الغيد حي ... ث ينام راعيه الغيور
وأمط ستائره فذ ... لك حين تنفتح الخدور
واسأل من الظبيات عن ... عهد تضن به الصدور
واحفظ فؤادك أن تصي ... ب عيونهن فهن حور
من كل غانية يل ... ح بوجهها القمر المنير
تختال في مرح الشبا ... ب فيخجل الغصن النضير
تسعي فتعقدها روا ... دفها وينهضها الحضور
سكرى رأت كسر القلو ... ب فصار ناظرها الكسير
فعلت بسحر جفونها ... ما ليس تفعله الخمور
حنثت معاطف خدها ... لكن لواحظها ذكور
لم أنس إذ وافى البشي ... ر يلوح في فمه السرور
إذ أقبلت ريح القبو ... ل بها وأدبرت الدبور
فضممتها وبمهجتي ... من حر أشواقي سعير
فتعوذت بالروض من ... شر بأنفاسي يطير
روض تعلق بالمجر (م) ... ة من جوانبه نهور
تبدو به زهر الزهو ... ر لأنه فلك يدور
ضحكت ثغور زهوره ... فبكى لها النوء المطير
وحنت نواعره وحن ... ت وهي من غيظ تفور
ذكرت قديم عهودها ... فأنهل مدمعها النمير
يا طيب أنفاس الربي ... ع ففي تنفسها عبير
والجو مجمرة علي ... ها من ضبابتها بخور
والورق ساجعة لها ... في كل ناحية سمير
عجماء تعرب عن ضما ... ئرنا وليس لها ضمير
والريح تعتنق الغصو ... ن بها فتعتبق الزهور
وبدت شموس الراح تح ... ملها الكواكب والبدور
وبكت عيون السحب حي ... ن تساقط الدمع الغزير
نحنا معاً فتحلت ألم ... أغصان منا والنحور
رعيا لذياك الحمى ... والطرف متهيج قرير
ومرور أيام الصبا ... من دونها العيش المرير

ثم انتقل إلى مدح شيخه ومضى فيه مثل قوله:

ملأ النواظر منه إج ... لالا وليس له نظير
وحماه ينفك الأسي ... ر به ويستغنى الفقير
منن تذل لها الرقا ... ب ولا يقوم بها الشكور

وجرت لنحو حماك آ ... مالي وأنت بها جدير
خذها على شرط الصيا ... رف إن ناقدها بصير
أليس هذا قولاً يترجم عن ... قلب جياش وخيال وثاب؟
وقال في بعض مجالسه:
هات لي قهوة الشفا من شفاهك ... وإسقنيها على فخامة جاهك
عاطينها يا أوحد العصر لطفا ... وبديع المثال في أشباهك
يا غزالاً لو صور البدر شخصا ... ليضاهيك في البها لم يضاهك
عاطنيها جهراً شفاها ولا تخ ... ش ملاما فلذتي في شفاهك
وأرسل إلى صديق له:
ذكرتك لا أني نطقت وإنما ... ذكرتك في نفسي فكنت سميرها
ذكرتك في روض تبسم عن شذا ... وقد فتحت كف النسيم زهورها
ذكرتك والأطيار تنطق عن هوى ... كأنك قد آويت منها ضميرها
فلا خير في أرض إذا لم تكن بها ... سميراً ولا في روضة لن تزورها

ذلك مثل من أدب حي حياة تنبض قوية، يتفتح عن زهر نظير غض، وهو في الوقت عينه أدب عميق قوي، تسمع منه نغمة حلوة بليغة تدل على روح شعب محس بنفسه آخذ في سبيل الحياة والشباب

فالحق أن شعب مصر في القرن الثامن عشر، كان آخذاً في سبيل نهضة حقيقية في كل جوانبه، نهضة وطنية صرف لا تشوبها رطانة أجنبية ولا لوثة أعجمية ولا سيطرة غربية. نهضة لو سارت في سبيلها وبلغت قصاراها لكانت مصر بها اليوم في مستوى اليابان أو إيطاليا أو فيما هو فوق ذلك. غير أن القرن الثامن عشر، وا حسرتاه، انتهى بنكبة شاملة وداهية فادحة بإغارة الفرنسيين على مصر، واكتساحهم كل آثار تلك النهضة الشابة فقضى

عليها ولما يتم نموها، وحفرت بين ماضي مصر وحاضرها هوة عميقة تقطع تيار الرقي الوطني، وتقف في سبيل وصل الطارف بالتالد

فمجد مصر السياسي في القرن الثامن عشر أصبح نسياً، ومجد مصر الاجتماعي في ذلك القرن ذلك قد أصبح أثراً دارساً، وجهاد مصر الدستوري قد صار دفيناً تحت أنقاض تلك الكارثة، فلم تبق منه معالم ولا آثار. غير أنا إن فاتنا أن نبني على أثر هذا التراث المنهوب، أو ضاع علينا أن نصل حاضرنا بذلك الماضي المضيع، فليس أقل من أن نعرف أن لنا في ذلك الماضي أنفاساً يليق بنا أن نحرض عليها، وأنغاماً يجمل بنا أن نسجلها

محمد فريد أبو حديد

كيف حفرت بئراً. . . . . لنفسي؟

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

شقراء، ذهبية الشعر، لا أدري كيف أنبتتها هذه الصحراء؟ ومن بنات الفقراء، ولكن لها دلاً وأناقة تخطئهما عند اللواتي نشأت في كنف النعمة والترف والثراء، وفي كلامها خفة وهَزَجٌ، وفي مشيتها تبختر لا يقل، وميسْ ليس من الاختيال. وكانت ترسل شعرها الوحف ولا تفرقه أو تضفره أو تعقصه، بل ترده عن جبينها الوضاء وتحسر جمته عن أذنٍ، وتستر أذناً. ولا تثبته بالأمشاط أو الدبابيس، ولا تعصب رأسها بالمناديل، فإذا عبث به الهواء وأسال قصتها على وجهها رفعت الشعرات بإصبعها أو نحتها عن أذنها، وكنتُ لا أراها تبتسم إلا خيل إلى أنها ترى حلماً يسرها فيثب قلبي إلى حلقي، واجد حر النار في كفى

وكان بيتي في ذلك الوقت على (تخوم العالمين) وكانت له حديقة صغيرة جعلتها شغلاني. وكان الماء كثيراً وثمنه زهيداً، لا يتجاوز خمسة عشر قرشاً في الشهر بالغاً ما بلغ ما أجريت منه، فكنتُ آخذ كفايتي منه وأسنه على وجهه للجيران، وكانت هذه الشقراء تجيء كل مساء بجرة فتملؤها مرةً أو اثنتين أو عشراً - كما تشاء. فأقف لها وأحادثها وأساعدها على رفع الجرة إلى رأسها. ولم تكن هي الوحيدة التي تستسقي، ولكنها كانت أبرعهن شكلاً وأخفهن على الفؤاد، وكانت تأنس مني الميل إليها والإعجاب بها، فتطيل الوقوف معي أحياناً، أو تتولى عني عزق الأرض أو بذر الحب أو سقي الزرع، وإجتزاز الكلأ والعشب والحشيش أو نزع ذلك بأصوله، وكانت أعرف مني

بذلك كله واخبر، وكانت تضحك مني لجهلي فتقول لي مثلاً:
(ألا تحش هذه الملوخية؟ لقد كادت تكتهل)
فأقول: (ملوخية؟ لقد طرحتُ هنا حب فجل فكيف تخرج الأرض ملوخية؟)
فتقول: (كلا، هذه ملوخية وقد بلغ نبتها المدى، فاختصرها وإلا فسدت)
فأقطع ورقة وأمضغها فأجد طعم الملوخية ولا أجد طعم الفجل، وكنت أهمل أن أكتب أسماء البذور على الورق الذي أحفظه فيها، واعتمد على ذاكرتي والذكاء فيختلط علي الأمر، وأروح أظنني زرعت جزراً فإذا هو خيار، وكنت لجهلي ألقي البزر ولا أعني بإعداد
الأرض وإخلائها من الحجارة، وكانت أرض هذه الحديقة جَلْدَةً في مواضع كثيرة وفي بطنها حجارة غليظة مختلطة بطينها، فلا يخرج شيء مما يقع على هذه الجلاميد.
فكانت الشقراء تنبهني إلى ذلك وتعرفنيه. وكنت ربما تركت في الشتاء ما لا يبقى عليه أصله، وقلعت ما يُبيد الشتاء فرعه ويُبقي أرومته، فتصلح لي من خطئي ما يتيسر إصلاحه، ولم أكن أعرف الفرق بين ما يسمو من النبات صُعداً ويستغنى بنفسه، وما يحتاج، وهو يسمو، إلى ما يتعلق به ويرقي فيه، وما يتسطح على وجه الأرض، فأغرس الأعواد لما ينبت مفترشاً، وأدع ما يحتاج إلى التعلق بلا عصب، فكانت هي تعلمني وتقوم المعوج وتعالج ما أفسدت
ثم حدث ان شركة الماء وضعت لنا في البيت (عداداً) يحاسبنا على القطرات بعد أن كنا نأخذ بلا حساب، ولا ننقدها في الشهر إلا خمسة عشر قرشاً، فأرهقني هذا (العداد) وكلفني فوق ما أطيق، وصرت بين أمرين: إذا أبقيت على الحديقة جعت وتضورت، فان أرضها كثيرة الرمل يذهب فيها الماء ولا يبقي منه للنبات ما يكفيه، فحاجتها إلى السقي لا تنقضي. وإذا أنا ضننتُ بالماء ذهبت الحديقة. فشق على ذلك واشتد همي، وطال وجومي من جرائه. ورأت هي اغتمامي وسهومي فسألتني فأمضيت بشجني فقالت:
(احفر بئراً)
قلت: (ايه؟ أحفر بئراً؟)
قالت: (نعم. ماذا يمنع أن تفعل؟)
قلت: (يمنع أن هذه أرض مضرسة، حشوها حجارة ولا يمكن أن يكون في جوفها ماء)
قالت: (من أدراك؟ إني أعتقد أن في أرضك ماء غزيراً)
قلت: (أما الحرث والزرع فشيء عرفنا أن تعرفينه، وإن كنت لا أدري من أين جاءك هذا العلم، وأما الآبار وحفرها. .)
فقاطعتني وقالت: (أظنني أستطيع أن أدلك على موضع العين في هذه الأرض - غداً في النهار اختبر الأرض وأجسها)
وفي عصر اليوم التالي جاءت وفي يدها عود على هيئة اللام ألف، ولكن في ساقه، وقالت قبل موضع التشعب، طولاً:
ورفعته لعيني (أنظر. سأجس الأرض بهذا)
فقلت: (وكيف تصنعين؟ إنه غصن لا أكثر)
قالت: (هو حسبي. وما أعرفه خذلني أو كذبني قط، ولكن عهدي بهذا الجس بعيد وأخشى أن أكون فقد فقدت القدرة على استنبائه)
قلت: (استنباؤه؟ أو يقول لك هذا الغصن أين منبع الماء في جوف الأرض؟)
قالت: (نعم، وسترى بعينك إذا وفقني الله)
وأقبلت على الأرض تجسها شبراً شبراً، وكانت تضع العود على الأرض كأنها تغرسه فيها بأصابعها وتنظر إلى شعبيته برهة، ثم ترفعه وتقدمه خطوة أو خطوتين، وهكذا يميناً وشمالاً، حتى رأيت إحدى الشعبتين تميل قليلاً فعجبت
فقالت: (هنا ماء ولكنه قليل)
ومضت تنقل العود من مكان إلى مكان حتى بلغت الجدار الآخر فقالت:
(يخيل إلي أني سأخفق)
فلم أقل شيئاً، وماذا عسى أن أقول؟ لقد تركتها تختبر الأرض وأنا كافر بها - أعني بالفتاة وقدرتها على الاهتداء إلى منابع الماء في بطن الأرض، ولكني قلت إنه لا بأس علي من ذلك، وحسبي أني أقضي معها ساعة أنعم فيها بحديثها وبالنظر إليها، ولكن

انثناء العود إلى الأرض، من تلقاء نفسه، ومن غير أن يمسه شيء حيرني، وصرفني عن الفتاة وجمالها، إلى هذه الظاهرة الغريبة
وجعلت أقول لنفسي: (إذا كان كل ما يتطلبه الأمر أن يجيء الإنسان بمثل هذا العود ذي الشعبتين، وأن يركزه أو يغرسه في الأرض، فإذا كان هناك ماء انثنى وحده، فما أسهل ذلك!! وكيف غاب هذا عن الناس وفاتهم هذا العلم اليسير؟)
ولم أكتم هذا الذي دار بنفسي، فقالت بابتسام: (لا. إن المعول على اليد لا على العود)
ولم افهم شيئاً، ولكني سكت، فقد تجهمتْ، وطال سكوتها وتقطيبها، وثبت حملاقها، وبدت لي كأنها تعصر نفسها عصراً، ثم قالت:
(افتح هذا الباب)
وكان باب حجرة مهجورة في فناء البيت، نحبس فيها الدجاج، ففتحته فدخلت وقالت: (انزع
هذا البلاط)
فأطعت، وتجشمت عناء شديداً، ولكني أمضيت لها مشيئتها، فحنت على الأرض، وأقامت العود في ترابها، وإذا بالشعبتين جميعاً - بعد هنيهة - تنثنيان على الأرض - عمودياً - حتى لخيل إلي أنهما ستقصفان
ونهضت، ومسحت العرق المتصبب، وقالت:
(هنا يجب أن تحفر. الماء غزير، ولكنه بعيد. وماذا يهم؟ ستجد فوق الكفاية من الماء)
ولم يخالجني شك في صدقها، فجئنا بعد أيام بالرجال، فحفروا ووسعوا، واحتجنا أن نهدم الجدار الذي فيه الباب فأتينا عليه، وانحدر الرجال الى أكثر من ستة أمتار، وقضوا في ذلك أياماً طويلة، حتى بلغ أحدهم حجراً فزحزحه بالمعول فأنبط الماء من تحته واستغنيت عن شركة الماء
وقلت للفتاة: (لماذا جشمت نفسك هذا العناء)
قالت: (هو جزاء المعروف)
قلت: (ليس إلا؟)
قالت: (وعز علي أن تضطر الى تضييع الحديقة)
قلت: (وماذا أيضاً؟)
قالت: (لا أدري ماذا أيضاً؟ غلبني شعوري)
قلت: (ليس في وسعي أن أجزيك. . .)
قالت تقاطعني: (لا تحاول!. . . حسبي أني أعدت الى وجهك الابتسام)
قلت: (اسمعي. إن الحديقة مدينة لك بحياتها، وأنا مدين لك بمعنى هذه الحياة، ولست أظنها تقوي على فراقك، ولا أنا يا فتاتي. . . . . .)
قالت: (لم أصنع شيئاً)
قلت: (أزخرت حياة كادت تجف وتذوي، فماذا يستطيع إنسان أكثر من هذا؟)
قالت: (كلا. كل ما صنعت أني وجدت ماء، وقد وجدته مائة مرة قبل اليوم، فلم أسمع مثل كلامك. . . . إنك تمزح ولاشك!)
قلت: (بل أنا جاد. لا غنى بي ولا بالحديقة عنك. . . فما قولك؟)
قالت: (كلا. للحديقة صاحبها. ولك الدنيا، أما أنا فذاهبة)
قلت: (ذاهبة؟ أين؟)
(قالت: غدا - أو بعد غد - يرحل أبي، وأنا معه، فما بقي ما يستوجب مقامنا)
فدنوت منها ووضعت يدي على كتفها وسألتها:
(أنت أو عزت إليه؟)
قالت، وهي مطرقة: (نعم. والآن أستودعك الله!)
فتعلقت بها فلم يجدني ذلك وقالت:
(أنا بنت الصحراء، وأنت ابن المدينة. . . لست لي، ولست لك. . . . وقد تركت لك الحديقة. . . لتذكرني بها)
. . .وكان هذا آخر عهدي بها
ولكني لم أطق هذه الذكرى، ولم أعد أحتمل أن أرى الحديقة أو البئر التي حفرتها، فتركت ذلك كله وانتقلت الى بيت آخر. . . بعيد. . . . بعيد جداً، ولا حديقة له
إبراهيم عبد القادر المازني

الغرض من التربية في المدرسة الإنجليزية
للأستاذ محمد عطية الأبراشي
المفتش بوزارة المعارف

الغرض من التربية الإنجليزية تهذيب الخلق وتربية الروح والعقل والجسم، مع المحافظة على الاستقلال الشخصي لكل فرد من الأفراد. ولا يُقاس النجاح في التعليم بإنجلترا بمقدار ما يعرف التلميذ من المواد الدراسية فحسب، ولكنه يقاس كذلك بما يستطيع أن يفعله وبمقدار استعداده للعمل. فعلى هذه الأسس الثلاثة وهي: العلم، والقدرة على العمل، والاستعداد للعمل - يقاس النجاح في التعليم بإنجلترا. ومع أن عدد المتعطلين هناك قد بلغ نحو ثلاثة آلاف ألف عامل، وعدد المتخرجين في المدارس كل سنة يبلغ نحو 250 ألف شاب لا تجد فرداً واحداً يقول: أغلقوا المدارس، ولكنك تجد من يقولك أطيلوا مدة الدراسة، وافتحوا موارد العلم لطلابه، فبغير نور العلم لا تزدهر نهضة، وبغير المدارس لا تعتز أمة. والحياة العملية مفتوحة أمام الجميع. وإذا ترك الطالب المدرسة وكان عالماً قادراً على العمل، مستعداً لأن يعمل، فلا خوف عليه في هذه الحياة. وما المدرسة إلا عالم مصغر، فالحياة المدرسية الإنجليزية صورة من الحياة العالمية الخارجية، تُعد التلميذ للحياة الاجتماعية التي تنتظره، فيخرج من المدرسة عالماً بشؤن الحياة، يحاول أن يعرف نفسه، ويعرف العالم الذي يعيش فيه، عاملاً بما علم، مستعداً لأن يعمل أي عمل تصل إلى ذروة العلا. يعيش الشاب في عالم الحقيقة لا عالم الخيال، ولا يضيره أن يظهر صغيراً في عمله في بدء الأمر، بل يعمل ويثابر، ويخطئ ويصيب، ويجتهد حتى يصل إلى الكمال أو ما يقرب منه وإذا تمثلت الروح العسكرية في التربية الألمانية، وظهرت الروح التعاونية في التربية الأمريكية، فتربية الشخصية المستقلة تتمثل في التربية الإنجليزية وإن روح التعليم في إنجلترا مؤسسة على دراسة الطفل والتفكير فيه، وفي شخصيته ومستواه، وتقديمه على سواه؛ أي مؤسسة على التضحية بكل شيء في سبيل النهوض به فالطفل هو مركز التعليم، وهو النقطة الرئيسية التي يعني الجميع بها، وهو الذي يضحي من أجله بكل شيء. ولئن عني الأسبرطيون قديماً بالقوة الجسمية والتربية العسكرية، واهتم الاثينيون من اليونان القدماء بالفلسفة وتربية الذوق وحب الجمال، وأولع الرومان في غابر الأزمان بالخطابة والقوة الكلامية فلقد عني الإنجليز اليوم بأعداد الطفل للحياة، للقيام بواجبات الحياة

وقد رأى أحد الإنجليز، ورأى فلاسفة اليونان من قبل، أن العقل السليم في الجسم السليم، ولكن المربين من الإنجليز يرون الآن أن يضيفوا إلى العقل السليم والجسم السليم: الخلق القويم، والشعور بالواجب. فالمدرسة الإنجليزية لا تفكر في تعليم المواد فحسب، بل تعمل على تربية العقل، والجسم، والخلق، وتهذيب الادارة، وتقوية الملاحظة لدى كل فرد، وتعطيه الفرصة في أن يستفيد من قوانين الطبيعة، ويقدر ما فيها من فن أو جمال، وتفهمه الحياة كما هي، وتشعره بواجبه نحو غيره وواجبه نحو الله ونفسه وأمتهن وتعده للحياة الكاملة. فللمدرسة أثر كبير في تكوين الطفل لا ينقص عن اثر المنزل والأصدقاء وتجارب الحياة

وإن المدرسة الإنجليزية تشعر بالواجب الملقي على عاتقها نحو التعليم، ونحو تحسين الأحوال الاجتماعية والصحية والخلقية، وتقوم به خير قيام. والمدرس الإنجليزي في إنجلترا يستطع بما له من نفوذ، وباجتهاد في أن يكون المثل الأعلى الذي يصح الاقتداء به - أن يثبت في نفوس التلاميذ أحسن العادات من الجد والمثابرة على العمل وأداء الواجب، وكتمان الشعور، وإجلال كل نبيل، والاستعداد لتضحية النفس، والعمل على الوصول إلى الحقيقة والشعور بالواجب والاستقامة. فالمدرس يعمل على تكوين أعضاء عاملين ينفعون المجتمع الذي يعيشون فيه بحيث تفخر بهم الأمة التي ينسبون إليها

محمد عطية الأبراشي

إلى الأستاذ توفيق الحكيم
سياحة في نهر (الجنون)
هل هناك اقتباس. . . ؟!

بقلم جورج وغريس
ليعذرني الأستاذ توفيق الحكيم إن أردت أن أقوم بسياحة قصيرة في (نهر الجنون) ذلك النهر الرهيب الذي شاء الأستاذ أن يتدفق ماؤه من قطرات قلمه على صحائف إحدى عشرة من (مجلتي) الغراء في العدد الرابع منها الصادر في منتصف شهر يناير الماضي. والحق إنني لا أخشى أن أصاب بالجنون إن قمت بسياحة قصيرة في ذلك النهر أو انتهل جرعة من مائه، فليس أحب الى نفسي من أن ترشف من فيض ذلك القلم العذب الذي يذكرنا بصاحب (أهل الكهف) و (شهرزاد) و (عودة الروح) . . .
ونهر الجنون الذي خطر لي أن أكتب عنه هو عنوان لقصة تمثيلية طريفة من فصل واحد تناولها الأستاذ الحكيم في حوار لطيف، وتتلخص وقائع تلك القصة في أنه في قديم الزمان كان يجري في بلاد نائية نهر يشرب منه سكان تلك الجهة، ففي إحدى الليالي نقمت الآلهة على ذلك النهر، فأرسلت أفاعيها تهبط من السماء ثم تسكب سمومها في مائه فإذا به في لون الليل، ويرى الملك كل ذلك في رؤيا هائلة، ويسمع من يهتف به: (حذار أن تشرب بعد الآن من نهر الجنون. . . .) فيمتنع الملك هو ووزيره عن الشرب من ماء النهر، ويكتفيان بنبيذ الكروم فإذا بهما في تمام قواهما العقلية.
أما الملكة وسائر أفراد الشعب فانهم يتهافتون على الماء ويستقون منه فيصيب عقولهم مس من الجنون.
فإذا كان أول هذا الفصل يظهر الملك منفرداً مع وزيره في القصر، ويتحادث معه في تل الرؤيا الهائلة التي رآها، ويبدي جزعه الشديد أن تشرب الملكة مع الشاربين من النهر برغم تحذيره إياها فيصيبها الجنون كما أصاب جمع الناس الذي شربوا معها، ثم يُظهر حزنه لعظيم على عقلها الراجح وذهنها اللامع في سماء تلك المملكة، ويتمنى لو أن وزيره أمكنه أن يجد لها الدواء الناجع، أو لو أنه استطاع أن يحضر لها رأس الأطباء، فيخبره وزيره أن رأس الأطباء أيضاً قد أصابه الجنون، فيسأله أن يأتي لها بكبير الكهان فيعلمه
أنه أيضاً مجنون لأنه شرب مع الشاربين، ولا يوجد في المملكة من لم يشرب من ماء النهر سواهما، فيحزن الملك لذلك أشد الحزن، ويذهب، ويذهب مع وزيره الى معبد القصر يسألان السماء الغوث والرحمة. . . .
يخرج الملك والوزير من باب فتدخل من باب آخر الملكة ورأس الأطباء وكبير الكهان، ويبدو الجزع على وجوههم، ويتحدثون عن الملك ووزيره اللذين أصيبا بالجنون لامتناعهم عن الشرب من النهر دون جميع الناس، وتسأل الملكة رأس الأطباء وكبير الكهان أن يستخدما الطب ويستنزلا المعجزات لإنقاذ الملك من هذا الجنون المفرط فلما يُظهر كل منهما عجزه عن رده الى صوابه تحزن الملكة لذلك أشد الحزن وتشير عليهما ألا يذيعا الخبر لأن المصيبة سوف تكون فادحة لو علم الناس أن الملك والوزير قد جنا. وتبكي المكلة زوجها الذي أصبح معتوهاً لا يذكر النهر إلا في فزع، ويزعم ن ماءه مسموم ولا يشرب إلا نبيذ الكروم، وبينما هي تدير الرأي معهما تلمح الملك آتيا عن بعدن فتطلب منهما أن يتركاها منفردة معه، لعلها تستطيع أن تقنعه بأن يشرب من ماء النهر، ثم يقبل عليها الملك، فيتفرس كل منهما في صاحبه وفي قلب كل منهما إشفاق على الآخر لما أصابه من الجنون، فتسأله الملكة عن السر في هذه النظرات العميقة، فيجيبها أنه يسأل السماء أن تستجيب دعاءه، فتفرح الملكة لهذه الرغبة في الشفاء وتخبره أنها عثرت على الدواء المطلوب، وأن هذا الدواء هو أن يشرب من ماء النهر، فيغتم الملك ويعود الى حزنه ويأسه، لأنه كان قد ظن أن الملكة قد اهتدت الى دواء لشفاء جنونها، ويخرج صارخاً بوزيره ينجده.
أما الوزير الذي كان في خارج القصر فيدخل على الملك في تلك اللحظة وهو يرتجف من الخوف ويخبره أن جميع الناس أصبحوا يعتقدون أن الملك ووزيره قد أصيبا بجنون، أما هم فعقلاء؛ فيدهش املك لذلك أشد الدهش ويدور بينه وبين وزيره الحوار الآتي:
الملك: صه! من قال هذا الهراء. . . . . ؟
الوزير: تلك عقيدتهم الآن
الملك: (في تهكم حزين) نحن المصابان وهم العقلاء. . . .!
أيتها السماء رحماك! إنهم لا يشعرون أنهم قد جنوا

الوزير: صدقت
الملك: يخيل إلي أن المجنون لا يشعر أنه مجنون
الوزير: هذا ما أرى
الملك: إن الملكة وا حسرتاه كانت تحادثني الآن وكأنها تعقل ما تقول، بل لقد كانت تبدي لي الحزن وتسدي إلي النصح
الوزير: نعم نعم. . كذلك صنع بي كل من قابلت من رجال القصر وأهل المدينة
الملك: أيتها السماء رفقاً بهم!
الوزير: (في ترد) وبنا. . . .؟!
الملك: (متسائلاً في دهش) وبنا. . . . .؟!
الوزير: مولاي. . . إني. . . . أريد أن أقول شيئاً
الملك: (في خوف) تقول ماذا؟
الوزير: إني كدت أرى
الملك: (في خوف) ترى ماذا.
الوزير: انهم. . . كل شيء
الملك: من هم؟
الوزير: الناس المجانين. إنهم يرموننا بالجنون ويتهامسون علينا ويتآمرون بنا، ومهما يكن من أمرهم وأمر عقلهم فان الغلبة لهم، بل انهم هم وحدهم الذين يملكون الفصل بين العقل والجنون. لأنهم هم البحر وما نحن الاثنان إلا حبتان من رمل. . أتسمع مني نصحاً يا مولاي. . .؟
الملك: أعرف ما تريد أن تقول
الوزير: نعم هلم نضع مثلهم ونشرب من ماء النهر!
الملك: (ينظر إلى وجه الوزير ملياً) أيها المسكين! إنك قد شربت. أرى شعاعاً من الجنون يلمع في عينك
الوزير: كلا لم أفعل بعد
الملك: أصدقني القول
الوزير: (في قوة) أصدقك القول أني سأشرب. وقد أزمعت أن أصير مجنوناً مثل بقية الناس: إني أضيق ذرعاً بهذا العقل بينهم
الملك: تطفئ من رأسك نور العقل بيدك!
الوزير: نور العقل! ما قيمة نور العقل في وسط مملكة من المجانين؟ ثق أنا لو أصررنا على ما نحن فيه لا نأمن أن يثب علينا هؤلاء القوم. إني لأرى في عيونهم فتنة تضطرم، وأرى أنهم لن يلبثوا حتى يصيحوا في الطرقات (الملك والزير) قد جنا. (فلنخلع المجنونين
الملك: ولكن لسنا بمجنونين
الوزير: كيف نعلم؟
الملك: ويحك. . . أتقول حقاً؟
الوزير: إنك قد قلتها الساعة يا مولاي: إن المجنون لا يشعر أنه مجنون
الملك: (صائحاً) ولكني عاقل وهؤلاء الناس مجانين!
الوزير: هم أيضاً يزعمون هذا الزعم
الملك: وأنت ألا تعتقد في صحة عقلي؟
الوزير: عقيدتي فيك وحدها ما نفعها؟ إن شهادة مجنون لمجنون لا تغنى شيئاً
الملك: ولكنك تعرف أني لم أشرب قط من ماء النهر
الوزير: أعرف
الملك: وأن الناس كلهم قد شربوا منه
الوزير: أعرف
الملك: وإني قد سلمت من الجنون لأني لم أشرب وأصيب الناس لأنهم شربوا
الوزير: هم يقولون إنهم إنما سلموا من الجنون لأنهم شربوا وأن الملك إنما جن لأنه لم يشرب
الملك: عجباً! إنها لصفاقة وجه
الوزير: هذا قولهم وهم المصدقون. أما أنت فلن تجد واحداً يصدقك

الملك: أهكذا يستطيعون أيضاً أن يجترئوا على الحق؟
الوزير: الحق؟ (يخفي ضحكه)
الملك: أتضحك؟
الوزير: إن هذه الكلمة منا في هذا الموقف غريبة
الملك: (في رجفة) لماذا؟
الوزير: الحق والعقل والفضيلة كلمات أصبحت ملكاً لهؤلاء الناس أيضاً. هم وحدهم أصحابها الآن
الملك: وأنا. . .؟
الوزير: أنت بمفردك لا تملك منها شيئاً (الملك يطرق في تفكيره وصمت)
الملك: (يرفع رأسه أخيراً) صدقت إني أرى حياتي لا يمكن أن تدوم على هذا النحو
الوزير: أجل يا مولاي. وإنه لمن الخير لم أن تعيش مع الملكة والناس في تفاهم وصفاء ولو منحت عقلك من أجل هذا ثمناً
الملك: (في تفكير) نعم إن في هذا كل الخير لي. إن الجنون يعطيني رغد العيش مع الملكة كما تقول. وأما العقل فماذا يعطيني. . .؟
الوزير: لا شيء. . . أنه يجعلك منبوذاً من الجميع مجنوناً في نظر الجميع
الملك: إذن فمن الجنون إلا أختار الجنون
الوزير: هذا عين ما أقول
الملك: بل إنه لمن العقل أن أوثر الجنون
الوزير: هذا لا ريب بين العقل والجنون
الملك: ما الفرق إذن بين العقل والجنون
الوزير: (وقد بوغت) انتظر. . . (يفكر لحظة) لسن أتبين فرقاً
الملك: (في عجلة) على بكأس من ماء النهر

هذا مجمل القصة والجزء المهم من الحوار الذي دار بين الملك ووزيره، وانتهيا منه بأن العقل لا يغنيهما شيئاً في ملكة من المجانين، لذلك آثر أن يكونا منهم. وموضوع القصة - كما ترى - لطيف طريف، وليس في هذا مجال لشك أو موضع لغرابة، ولكن مما استرعى نظري إنني كنت أقرأ بدايتها قراءة الشاعر بما سيحدث في نهايتها، فما أتيت على آخرها حتى ظللت أفكر فيمن سمعت أو قرأت عنه تل القصة حتى هداني التفكير الى كتاب

للمرحوم جبران خليل جبران فعثرت فيه على قصة قصيرة تحت عنوان (المجنون) (الملك الحكيم) وقبل أن أقول عنها شيئاً أورد نصها فيما يلي:

كان في إحدى المدن النائية ملك جبار حكيم، وكان مخوفا لجبروته محبوباً لحكمته -) وكان في وسط تلك المدينة بئر ماء نقي عذب يشرب منه جميع سكان المدينة من الملك وأعوانه فما دون، لأنه لم يكن في المدينة سواه. وفيما الناس نيام في إحدى الليالي جاءت ساحرة إلى المدينة خلسة، وألقت في البئر سبع نقط من سائل غريب، وقالت: (كل من يشرب من هذا الماء فيما بعد يصير مجنوناً)

وفي الصباح التالي شرب كل سكان المدينة ماء البئر وجنوا على نحو ما قالت الساحرة، ولكن الملك والوزير لم يشربا من ذلك الماء

وعندما بلغ الخبر آذان المدينة طاف سكانها من حي الى حي، ومن زقاق الى زقاق، وهم يتسارّون قائلين (قد جن ملكنا ووزيره. . إن ملكنا ووزيره أضاعا رشدهما. إننا نأبى أن يملك علينا مليك مجنون. هيا بنا نخلعه من عرشه!)

وفي ذلك المساء سمع الملك بما جرى، فأمر على الفور بأن يملأ حق ذهبي (كان قد ورثه عن أجداده) من مياه البئر. فملأوه في الحال وأحضروه إليه. فأخذ الملك بيده وأداره إلى فمه.

وبعد أن ارتوى من مائه دفعه إلى وزيره فأتي الوزير على ثمالته

فعرف سكان المدينة بذلك وفرحوا فرحاً عظيماً جداً، لأن ملكهم ووزيره ثابا إلى رشدهما)

فما رأي القارئ اللبيب في هذا. . . . . .؟ وما رأي الأستاذ الفاضل فيما كتب. . .؟ أليس هناك تشابه تام بين القصتين في الفكرة والمعنى والأشخاص بل وفي بعض الألفاظ. . . . . .؟

إني مع احترامي الشديد وتقديري العظيم للكاتب الفنان، أرى في ذلك أحد أمرين: إما أن تكون الفكرة مأخوذة مما كتبه المرحوم جبران خليل جبران، وليس في هذا حرج، ولكن كان الأجدر بالكاتب في هذه الحالة أن يذكر اسم المؤلف الذي اخذ عنه تلك الفكرة، وله بعد ذلك الفضل في تقربها إلى الأذهان بصوغها في قالبه الخاص الرائع، وفي تحويرها من حكاية قصصية إلى قصة تمثيلية

وإما أن يكون ذلك من قبيل توارد الخواطر وتشابه الأفكار بين كاتبين مختلفين في زمنين متقاربين، وليس في هذا أيضاً من حرج. . . ولكن دعني ألا أعتقد به هنا قبل أن تأتيني بجرعة من ماء ذلك النهر في حق من ذهب أو إناء من خزف

إسكندرية

جورج وغديس

هناك فرض ثالث وهو ان يكون مصدر الكاتبين (الرسالة)

واحداً

الشيخ الخالدي

مجلس أخر من مجالسه

للدكتور عبد الوهاب عزام

كتبت في عدد من الرسالة ما سمعته من الشيخ الخالدي في أحد مجالسه بحلوان. واليوم أنشر حديثاً آخر حدث به في مجلس بالروضة:

جمعني والشيخ الجليل مجلس في دار الأستاذ عبد الحميد العبادي ليلة الاثنين الثالث والعشرين من رمضان سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة وألف، فلما اطمأن بنا المجلس قلت: قد سمعنا حديث شيخنا العلامة عن المدراس في المشرق إبان مجد المسلمين، فهل له أن يتم الحديث بذكر مدارس مصر والمغرب

قال: بقي من دارس المشرق مدارس الأناضول، ومنها مدرسة آلتون باي التي بناها السلاجقة في قونية، وبقيت معمورة الى زمن الحرب الكبرى. وقد طلب العلم بها السيد الشريف الجرجاني والفناري (وها من ذرية سيدنا عمر. وسيف الدين الآمدي عربي من بني ثعلية إخوة بني يربوع). وفيها مدرسة قره طاي كبير في قونية، ولا تزال آثاره قائمة وهي من بناء السلاجقة أيضاً، وقد درس فيها جلال الدين الرومي، وفي بروسة مدرسة السلطان مراد الأول ومدرسة السلطان محمد حلبي. ومن علمائها الخيالي وخواجه زاده الذي كتب (تهافت الفلاسفة) يتوسط فيه بين الغزالي وابن رشد؛ ومن علمائها كذلك ملاخسرو وحسن جلبي. وله حاشية على كتاب المطول في البلاغة ومن مدارس حلب المدرسة الحلوية وكان يقرأ فيها الكاشاني صاحب كتاب البدائع في الفقه، وكان يفتي هو وامرأته، لا يخرج الفتوى حتى تعرض عليها. ثم المدرسة المستنصرية في بغداد في غنى عن التعريف

ومن مدارس مصر المدرسة الكاملية التي بناها الملك الكامل الأيوبي ومدرسة صلاح الدين، بناها للأمام نجم الدين الخبوشاني قرب مسجد الإمام الشافعي. والخبوشاني منسوب إلى خبوشان إحدى قرى نيسابور. وقد دفن بجانب الإمام الشافعي واندثر قبره، والمدرسة الصالحية التي أسسها الملك الصالح نجم الدين أيوب، وكانت لمذاهب الفقه الأربعة، والمدرسة الشيخونية , وكل هذه المدارس كانت صغيرة القدر بالقياس إلى جامع عمرو

الذي كان مباءة العلوم الإسلامية منذ الفتح الإسلامي إلى القرن التاسع. وقد رأيت بالآستانة كتباً قديمة قرئت بجامع عمرو وعليها سماعات العلماء إلى سنة 700 وسنة 800 والشاطبي إمام القراء درس بهذا الجامع. ومن دور العلم في القاهرة خانقاه سعيد السعداء بالجمالية، وكان ينزل بها كبار العلماء، وممن نزل بها القطب الشيرازي والشريف الجرجاني، ومبارك شاه المنطقي، وقطب الدين الرازي. ويؤسفني ان وزارة الأوقاف لا تعني بها عناية تكافئ مكانتها في التاريخ الإسلامي: ومن مدارس القاهرة مدرسة المؤيد

وأما الأزهر فقد صار من دور العلم الكبير بعد سنة تسعمائة، وعلماؤه الذين ذكرهم الجبرتي متأخرون وأقدمهم الشيخ خالد الأزهري. وأما ابن هشام وابن عقيل فلم يتعلما فيه

وكان في الإسكندرية دار الحديث، ومدرسة الحافظ السلفي، وكان ينزل بها العلماء

الوافدون من المغرب، ومدرسة الأمام الطرطوشي مؤلف سراج الملوك
ودور العلم في المغرب كانت جامع القيروان؛ قرأ فيه أصحاب الإمام مالك وأئمة
مذهبه ومنهم سحنون، وابن عكر، وابن الحداد، وسحنون الصغير، وابن اللباد، والإمام
اللخمي أحد محرري مذهب مالك، وعبد الحميد الملقب بمالك الصغير، وهو شيخ
المازري، وغير هؤلاء ممن ذكروا في كتاب معالم الإيمان في تاريخ القيروان لابن
ناجية، وهو شارح الرسالة التي ألفها عبد الله ابن أبي زيد صاحب كتاب النوادر، وهذا
الكتاب واحد وعشرون مجلداً في مكتبة أياصوفيا، وبعض مجلداته في مكتبة القرويين
بفاس
وجامع الزيتونة بتونس، وهو قديم عمره بند الأغلب سنة 145. ومن علمائه المازري
شارح صحيح مسلم، وشارح التلقين للقاضي عبد الوهاب وهو عشر مجلدات كبار. ولا
تزال اسطوانته معروفة في الجامع، وابن عبد السلام، وابن عرفة، وابن خلدون، وابن
راشد القفصي وهو أعلمهم، والوانشريسي صاحب كتاب المعيار، والأبي شارح صحيح
مسلم (وشرح المازري الذي ذكرته آنفاً اسمه المعلم في شرح صحيح مسلم، وكتاب
الأبي اسمه متمم المعلم، وللقاضي عياض شرح اسمه إكمال المعلم)، ويحيى بن
خلدون أخو عبد الرحمن بن خلدون المعروف، وأبو الحسن الشاذلي، وله أسطوانة في
الجامع معروفة. ومن دور العلم بجاية وتلمسان، وكان بها مدرسة السلطان أبي
الحسن المريتي، ومدينة سبتة، وقد ألف فيها القاضي عياض كتاب العيون الستة في
أخبار سبتة. وهو كتاب يشهد بكثرة
العلماء الذين نبغوا فيها.
ومن دور العلم العظيمة جامع القرويين بفاس أسسه مولاي إدريس الأصغر. وهو
يضاهي جامع القيروان بفاس أسسه مولاي إدريس الأصغر. وهو يضاهي جامع القيروان
في سعته، وواجهته مركبة على 200 اسطوانة بين كل اثنتين خمس خطوات
وقد ألف في تاريخ علماء فاس كتابان: الأول جذوة الاقتباس فيمن حل من العلماء
بفاس، وهو لابن القاضي الفشتالي (نسبة إلى فشتالة على نهر ورغة)، والثاني جذوة
الأنفاس فيمن اقبر من العلماء بفاس، وهو للشريف الكتاني من المعاصرين ومن
مدارس المغرب مدرسة يوسف بن تاشفين في مراكش
وكانت مدن العلم في الأندلس، قرطبة، واشبيلية، وطليطلة، ومرسية، وبلنسية،
وشاطبة، وسرقسطة، وغرناطة، في الزمن الأخير
وكان أهل الأندلس يحفظون دواوين شعراء الجاهلية بالرواية والاسناد كالحديث
النبوي، وقد جاء في تاريخ قرطبة (كانت قرطبة في الدولة الإسلامية قبة الإسلام،
ومجتمع علماء الأنام والأعلام. بها استقر سرير الخلافة المروانية، وفيها تمحضت
خلاصة القبائل المعدية واليمانية. وإليها كانت الرحلة في رواية الشعر والشعراء)
وقد بلغ من تشددهم في الرواية أن أبا علي القالي جاء الى الأندلس ومعه كتاب
سماع في اللغة، فاستعاره الخليفة (لا أدري أكان الخليفة الناصر أم ابنه المستنصر؟)
وأبقاه عنده زماناً فلما أرجعه أبطل القالي العمل به في الرواية. لأن الكتاب خرج من
يده زمناً طويلاً قرأت هذه الحكاية في كتاب (الألماع في أصول السماع) للقاضي
عياض. رأيت نسخة من هذا الكتاب في الأستانة (أيا صوفيا) وأخرى في الشام،
وللقاضي عياض (الشارحة) في الحديث. أعجب به ابن الصلاح فقال:
مشارق أنوار تجلت بسبته ... وذا عجب كون المشارق بالغرب
مشارق أنوار طلعن بمغرب ... أنرن جميع الشرق بالطالع الغربي
فلله ما ابدي عياض فأشرقت ... مشارقه في كل قطر بلا غرب
ومن اجل عناية آهل الأندلس برواية الشعر نبغوا في اللغة.
وحسبك ابن سيده صاحب المخصص والمحكم، وقد رأيت الجلد الأول من المحكم
بخط
الجواليقي
هذا ما اقتبسته من حديث شيخنا الخالدي في هذا المجلس، أفاض فيه دون أن يرجع
الى كتاب أو ورقة. وكم من مجالس للشيخ العلامة لم تدون. ولو كتبت أحاديثه
ونشرت معها كتبه ونتفه في تاريخ العلم والعلماء لاستفاد المسلمون علماً واسعاً،
وظفروا بما فقدوه من تاريخ أسلافهم. ولعلنا نسعد بكتابة بعض مجالسه. والله ولي

التيسر
عبد الوهاب عزام
من تراثنا العلمي
تعبير الرؤيا لأبن قُتيبة
وصف وتلخيص لنسخة مم كتاب مفقود
للأستاذ علي الطنطاوي
يزاول ابن قتيبة في هذا الكتاب بأسلوبه المتين، وطريقته السوية، بحثاً هو اليوم جيد في اللغات الأوربية، لم يكد يعرفه أصحابها قبل فرويد النمساوي وأصحابه: يونج السويسري، وادلر الألماني، وبودوان الفرنسي، ورفرز الانجليزي، وهو ينفق وهؤلاء الباحثين في كثير من مسائل هذا البحث، وإنما يختلف عنهم في أنه استمد من معين النبوة، فأصاب كبد الحقيقة، وتمكن من سواء الثغرة. اتكلوا على ظنونهم، فحاموا حول الورد، وصدروا من غير ري!
والكتاب كما سترى في وصفه من الكتب الجليلة التي نرجو أن يتيح الله لها ناشراً، وهذه النسخة التي تصفها من مخطوطات (المكتبة العربية) العامرة (بدمشق)
أما تعبير الرؤيا فقد ثبت في الدين، ونطقت به السنة، وتواترت به الأخبار: أخرج البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي عن أبى هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب، ورؤيا المؤمن جزء من ستة واربعين جزءاً من النبوة)
وأخرج البخاري ومسلم والترمذي عن سَمُرةَ بن جُندب، انه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (نحن الآخرون السابقون، وبينا أنا نائم إذ أوتيت خزائن الأرض، فوضع في يدي سواران من ذهب، فكبرا علي وأهماني، فأوحي إلي أن انفخهما، فنفختهما فطارا. فأولتهما الكذابين بين اللذين أنا بينهما: صاحب صنعاء (أي الأسود) وصاحب اليمامة (أي مسيلمة)
والأخبار في ذلك مستفيضة
وأما ابن قتيبة، فهو الإمام العَلَم. صاحب التصانيف الجليلة: أدب الكاتب، وعيون الأخبار، وطبقات الشعراء، والميسر والقداح والمعرف وغيرها. . .
قال فيه شيخ الإسلام ابن تيمية في تفسير سورة الإخلاص (هو لأهل السنة مثل الجاحظ للمعتزلة) وقال الحافظ السيوطي في البغية: (كان أبن قتيبة رأساً في العربية واللغة والأخبار وأيام الناس، ثقة ديناً فاضلاً) وقال القاضي ابن خلكان: (وان فاضلاً ثقة وتصانيفه كلها مفيدة) وقال الخطيب البغدادي: (كان ثقة ديناً فاضلاً) وقال الحافظ الذهبي: (ما علمت أحداً اتهمه في نقله) وقال ابن النديم: (كان صادقاً فيما يرويه، عالماً باللغة والنحو وغريب القرآن ومعانيه، والشعر والفقه، كثير التصنيف والتأليف، توفي ابن قتيبة سنة (276) وله (63) سنة
أما كتابه تعبير الرؤيا فقد ذكره ابن النديم في الفهرست في باب الكتب المؤلفة في تعبير الرؤيا، وسماه تعبير الرؤيا. وذكره أبو الطيب اللغوي في كتابه (مراتب النحويين) كما نقل الأستاذ محب الدين الخطيب في مقدمة (الميسر والقداح)
وذكره في كتاب (فهرست ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف الشيخ أبو بكر بن خير ابن عمر بن خليفة الأموي الأشبيلي (طبع سرقسطة سنة 1893) باسم (عبارة الرؤيا) قال:
كتاب عبارة الرؤيا لابن قتيبة؛ حدثني به أبو بكر محمد بن أحمد بن طاهر رحمه الله، عن أبي علي الغساني، قال: حدثني به أبو العاصي حكم بن محمد الجذامي، عن أبي بكر أحمد بن محمد ابن إسماعيل المهندس عن أحمد بن مروان المالكي عن ابن قتيبة
ثم ذكر لروايته طريقاً أخرى، والنسخة التي نصفها مروية من طريق أقصر وتلتقي برواية أبي بكر هذا عند أحمد بن مروان المالكي، وهذا مما يثبت صحة نسبة هذه النسخة لأبن قتيبة رحمه الله
وقال الزمخشري في (الفائق) في مادة (جنه) وهو يفسر بيت الفرزدق
في كفه جنهى ريحه عبق ... من كف أروع في عرنينه شمم
قال القتبي (يعني ابن قتيبة) الجنهى، الخيزران. ومعرفتي بهذه الكلمة عجيبة، ذلك أن

رجلاً من أصحاب الغريب سألني عنه (الجنهى) فلم أعرفه. فلما أخذت من الليل مضجعي أتاني آت في المنام، فقال لي: ألا اخبرته عن الجنهي؟ قلت: لم أعرفه قال: هو الخيزران! فسألته شاهداً، فقال: (هدية طرفنه، في طبق مجنه) فهببت وأنا أكثر التعجب، فلم ألبث إلا
يسيراً، حتى سمعت من ينشد: في كفه جنهي. . . . . وكنت أعرفه: في كفه خيزران.
قال في (تاج العروس) في تفسير الجنهي:
هو الخيزران رواه الجوهري، عن القتيي قال (يعني ابن قتيبة) وسمعت من ينشد: في كفه جنهي. .
والقصة التي رواها الزمخشري مروية في الورقة الخامسة عشرة من المخطوط الذي نصفه، وهذا مما يثبت صحة نسبته إلى ابن قتيبة، ومما يثبت هذه النسبة أسلوب الكتاب، فأنه لا يكاد يختلف عن الأسلوب الذي نعرفه لابن قتيبة، في تحقيقه اللغوي وتفسيره الغريب، وإكثاره من الشواهد
أما هذه النسخة فتقع في (134) صفحة من القطع الصغير في كل صفحة (15) سطراً، وهي مكتوبة بخط نسخي جميل، على ورق صقيل، ويزيد عمرها على (500) سنة
في الصفحة الأولى منها، اسم الكتاب:
كتاب عبارة الرؤيا تصنيف أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري رضي الله عنه
وفيها كتابات أخرى، أكثرها ممحو:
من مواهب ذي الكرم على عبده رجب الأعلم اشتريته من سي يحيى الذهبي وقيل في المعاني:
ونكس الرأس أهل الكيميا خجلاً ... وقطروا أدمعاً من بعد ما سهروا
إن طالعوا كتبه بالدرس بينهم ... صاروا ملوكاً وان هم جربوا افتقروا
تعلقوا بجبال الشمس من طمع ... فتى منهم قد غره القمر
ونو - الشمسي خادم - الفقير - لسنة 1209=من شهر ذي الحجة من تركة الشيخ عمر بن عبد الهادي رحمه الله
وفي الصفحة الأخيرة، هذه العبارة مكتوبة بخط الناسخ:
آخر كتاب تعبير الرؤيا لأبن قتيبة رضي الله عنه، قابلناها على نسخة الأصل بقدر (الإمكان:
الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، أما بعد فقد وقع الفراغ من كتابة هذه النسخة الشريفة الموسومة بكتاب عبارة الرؤيا على يد العبد الضعيف
النحيف الراجي إلى رحمة الله الباري يحيى بن محمد البخاري في عشرين من ذي القعدة سنة خمس وأربعين وثمانمائة بدمشق المحروسة صانها الله تعالى عن الآفات والنكبات، اللهم اغفر لكاتبه ولمن نظر فيه آمين يا رب العالمين)
وفيها أسماء بعض المالكين:
دخل هذا الكتاب في نوبة العبد الفقير رجب الأعلم المجاور بمدرسة العمرية عفى عنه آمين
الحمد لله مالكه من فضل ربه الهادي، الشيخ عبد الرزاق الهادي غفر الله له آمين، كتبه الفقير ابنه محمد
ساقها الرب الهادي، إلى محمد الهادي
والنسخة مشكولة ولكنه شكل لا يعتد به، وليس في هوامشها تعليقات تذكر
رواية الكتاب:
بسم الله الرحمن الرحيم، وبه نستعين
كتاب تعبير الرؤيا تصنيف أبي محمد عبد الله بن محمد بن مسلم ابن قتيبة
قرأت على الشيخ الصالح أبي الحسن عبد الباقي بن فارس بن أحمد المقري
المعروف بابن أبي الفتح المصري، أخبركم أبو حفص عمر بن محمد بن عراك الحضرمي قراءة عليه، قال: أخبرنا أبو بكر أحمد بن مروان قال أخبرنا أبو محمد عبد

الله بن محمد بن مسلم بن قتيبة الدينوري، قال:
مقدمة الكتاب:
الحمد لله الذي رفع منار الحق، وأوضح سبيل الهدى، وقطع عذر الجاحدين، بما أشهدنا من صنعته الظاهرة، وآياته الباهرة وأعلامه الدالة عليه، وآثاره المؤدية إليه. في كل ماثل للعيون. من فلك دائر، وكوكب سائر، وجبال راسيات، وبحار طاميات ورياح جاريات، وفُلك في البحر مسخرات بأمره الخ. . .
حدثني محمد بن عبيد، عن. . . . عن. . عن أم كرز الكعبية قالت: سمعت النبي (قال) صلى الله عليه وسلم يقول: ذهبت النبوة وبقيت المبشرات وحدثني محمد بن زياد عن. . . .
عن. . . . عن عروة أنه قال في قوله الله عز وجل: (لَهُم البُشرى في الحياة والدنيا وفي الآخرة) قال: هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له
وليس فيما يتعاطى الناس من فنون العلم، ويتمارسون من صنوف (قال أبو محمد) الحكم، شيء هو اغمض والطف، واجل واشرف، وأصعب مراداً وأشكالاً، من الرؤيا، لأنها جنس من الوحي، وضرب من النبوة الخ. . . ولأن كل علم يطلب فأصوله لا تختلف، ومقاييسه لا تتغير، والطريق إليه قاصد، والسبب الدال عليه واحد، خلا التأويل: فان الرؤيا تتغير عن أصولها باختلاف أحوال الناس في هيئاتهم، وصناعاتهم وأقدارهم، وأديانهم، وهممهم، وإراداتهم. وباختلاف الأوقات والأزمان فهي مرة مثل مضروب يُعبر بالمثل والنظير، ومرة تنصرف عن الرائي لها إلى الشقيق أو النظير أو الرئيس، ومرة تكون أضغاثاً
ولأن كل عالم بفن من العلوم، يستغني بآلة ذلك العلم لعلمه، خلا عابر الرؤيا: فانه يحتاج إلى أن يكون عالماً بكتاب الله عز وجل وبحديث الرسول صلى الله عليه وسلم. ليتعبرهما في التأويل.
وبأمثال العرب، والأبيات النادرة، واشتقاق اللغة، والألفاظ المبتذلة عند العوام، وأن يكون مع ذلك أديباً لطيفاً ذكياً، عارفاً بهيئات الناس وشمائلهم وأقدارهم وأحوالهم، عالماً بالقياس حافظاً، ولن تغنى عنه معرفة الأصول، إلا أن يمده الله بتوفيق، يسدد حكمه للحق، ولسانه للثواب، وأن يحضره الله تعالى تسديده، حتى يكون طيب الطعمة، نقياً من الفواحش، طاهراً من الذنوب، فإذا كان كذلك، أفرغ الله عليه من التوفيق ذَنوباً، فجعل له من مواريث الأنبياء نصيباً
وسأخبرك عن كيفية الرؤيا، بالاستدلال على ذلك من كتاب الله والحديث، إذ كنت لم أجد فيه مقالاً كافياً لإمام متبع، وأقدم قبل ذلك ذكر النفس والروح، إذ كنت لا تصل إلى علم كيفيتها إلا بمعرفتهما، وفرق ما بينهما. وعلى الله أتوكل فيما أحاول واستعين
وفد اختلف الناس في النفس والروح، فقال بعضهم، هما شيء واحد (الى أن قال) يسمى باسمين، كما يقال، إنسان ورجل، وهما الدم أو متصلان بالدم، يبطلان بذهابه، والدليل على ذلك، أن الميت لا يُفقد من جسمه إلا دمه، واحتجوا لذلك أيضاً من اللغة: بقول العربي: نُفِست المرأة (إذا حاضت) ونَفِست (من النفاس) وبقولهم للمرأة، عند ولادتها: نُفَساء،
لسيلان النفس وهو الدم. ويقول ابراهيم النخعي: كل شيء ليست له نفس سائلة لا ينجس الماء - الخ. . .
البقية في العدد القادم
علي الطنطاوي
محاورات أفلاطون - 12
الحوار الثالث
فيدون أو خلود الروح
ترجمة الأستاذ زكي نجيب محمود
- أو ليس البواسل من الرجال يحملون الموت، لأنهم يخشون ما هو أعظم من الموت شراً؟
- هذا صحيح
- إذن فكل الناس ما خلا الفلاسفة شجعان، إلا إنها شجاعة من الخوف والوجل. وإنه لعجيب ولا شك أن يكون الرجل شجاعاً لأنه مذعور جبان!

- صحيح جداً
- أو ليس هذا بعينه شأن المعتدلين؟ إنهم معتدلون لأنهم مفرطون - قد يبدو ذلك متناقضاً، ولكنه مع ذلك هو ما يحدث في هذا الاعتدال الأحمق - فهناك من اللذائذ ما يحرصون على تحصيلها ويخشون ضياعها، فهم لذلك يتعففون عن نوع من الملذات لأن نوعاً آخر قد استولى عليهم، وإذا عرِّف التفريط بأنه: (الخضوع لسلطان اللذة) فانهم لا يقهرون لذة، ألا لأن لذة تقهرهم، وذلك ما أعنيه بقولي إنهم معتدلون لأنهم مفرطون يظهر أن ذلك حق -
- ومع ذلك، فليس من الفضيلة استبدال خوف أو لذة أو ألم بخوف آخر أو لذة أو ألم، وهي متساوية كلها، أكبرها بأصغرها، تساوي النقد بالنقد. أي عزيزي سمياس، أليس في النقد قطعة واحدة صحيحة هي التي ينبغي أن تستبدل بالأشياء جميعاً؟ - وتلك هي الحكمة، ولن يشرى شيء بحق أو يباع، شجاعة كان أم عفة أم عدلُ، غلا إن كان للحكمة ملازماً، وإلا إن كانت هذه الحكمة له بديلاً. ثم أليست الفضيلة الحق بأسرها رفيقة الحكمة، بغض النظر عما قد يكتنفها من المخاوف واللذائذ أو ما إليهما من لخيرات أو الشرور؟ إلا أن الفضيلة التي يكون قوامها هذه الخيرات التي تأخذ في استبدال بعضها ببعض بعد أن تكون قد انفصلت عن الحكمة، ليست من الفضيلة إلا ظلها، ولا يكون فيها من الحرية أو العافية أو الحقيقة شيء، أما التبادل الحق فيقضي أن تمحي هذه الأشياء محواً، وما ظهورها إلا العدل والشجاعة والحكمة نفسها. وإني لأتصور أن أولئك الذين أنشأوا الاسرار، لم يكونوا مجرد عابثين، بل قصدوا إلى الجد حينما عمدوا إلى شكل فرمزوا به إلى أن من يمضي إلى العالم الأسفل دنساً جاهلاً سيعيش في حمأة من الوحل، أما ذلك الذي يصل إلى العالم الآخر بعد التعليم والتطهير فسيقيم مع الآلهة. وكما يقولون في الأسرار: (كثيرون هم من يحملون عصا السحر، أما العالمون بالسحر فقليل) وهم يريدون بهذه العبارة فيما أرى، الفلاسفة الحق، الذين أنفقتُ حياتي كلها أبحث بينهم لعلي أجد مكاناً، ولست أشك في أني عندما أبلغ العالم الآخر، بعد حين قصير، سيأتيني إن شاء الله علم يقين، عما إذا كنت قد التمست في البحث سبيلاً قويمة أم لا، وإن كنت قد أصبت التوفيق أم لم أصبه. أي سمياس وسيبس، لقد أجبت بهذا على أولئك الذين يؤاخذونني بعدم الحزن أو الجوع لفراقكم وفراق سادتي في هذا العالم، فقد أصبت بعدم الخوف لأنني اعتقد أنني سأجد في العالم الأسفل أصدقاء وسادة آخرين، يعدلونكم خيراً، ولكن الناس جميعاً لا يسيغون هذا، وإنه ليسرني أن تصادف كلماتي عندكم قبولاً أكثر مما صادفت عند قضاة الأثينيين
- أجاب سيبيس - إني موافقك يا سقراط على معظم ما تقول، ولكن الناس أميل الى عدم التصديق فيما يتصل بالروح. إنهم، يخشون ألا يكون لها مستقرٌ إذا ما فصلت عن الجسد، وإنها قد تذوى وتزول في يوم الموت ذاته - فلا تكاد تتحلل من الجسد حتى تنطلق كالدخان أو الهواء، ثم تتلاشى في العدم. فلو قد تستطيع أن تتماسك أجزاؤها، وأن تظل كما هي بعد أن تكون قد خلصت من شرور الجسد، لرجونا يا سقراط، محقين فيما نرجو، أن ما تقوله حق، ولكنا بحاجة الى كثير من الإقناع ووفير من الحجج، لإثبات انه إذا مات الإنسان فروحه تظل مع ذلك موجودة، وتكون على شيء من قوة الذكاء
- فقال سقراط - هذا حق يا سيبيس، فهل لي أن أقترح حديثاً قصيراً عما يحتمل لهذه الأشياء من وجوه؟
- قال سيبيس - لست أشك في أني شديد الرغبة في معرفة رأيك عنها
- فقال سقراط - لا أحسب أن لأحد ممن سمعني الآن، حتى ولو كان أحد أعدائي القدماء من الشعراء الهازلين، أن يتهمني بالخبط في الحديث عن موضوعات لا شأن لي فيها.
فأذنوا إن شئتم بأن نمضي في البحث
إن مشكلة أرواح الناس بعد الموت: أهي موجودة في العالم الأسفل أم غير موجودة، يمكن مناقشتها على هذا النحو: يُؤكد المذهب القديم الذي كنت أتحدث عنه، إنها تذهب من هذا العالم الى العالم الآخر، ثم تعود إلى هنا حيث تولد من الميت، فان صح هذا وكان الحي يخرج من الميت، للزم أن تكون أرواحنا في العالم الآخر، لأنها إن لم

تكن، فكيف يمكن لها أن تولد ثانياً. إن هذا القول حاسم، لو كان ثمت شاهد حقيقي على أن الحي لا يولد إلا من الميت، أما إذا لم ينهض على هذا دليل، فلا بد من سوق أدلة أخرى

فأجاب سيبيس - هذا جد صحيح

- إذن فدعنا نبحث هذه المسألة، لا بالنسبة إلى الإنسان وحده، بل بالنسبة إلى الحيوان عامة، وإلى النبات، وكل شيء يكون فيه التوالد، وبذلك تسهل إقامة الدليل. أليست كل الأشياء التي لها أضداد تتولد من أضدادها؟ أعني الأشياء التي كالخيِّر والشرير، والعادل والجائر - وهناك من الأضداد الأخرى التي تتولد من أضدادها، عدد ليس إلى حصره من سبيل، وإنما أريد أن أبرهن على أن صحة هذا القول شاملة لما في الكون من أضداد، أعني مثلاً أن أي شيء يكبر، لابد أنه قد كان أصغر قبل أن أصبح أكبر

- صحيح

- وأن أي شيء يصغر، لابد أنه قد كان يوماً أكبر ثم صار أصغر

- نعم

- وأن الضعف يتولد من الأقوى والأسرع من الأبطأ

- جد صحيح

- والأسوأ من الأحسن، والأعدل من الأظلم؟

- بالطبع

- وهل هذا صحيح عن الأضداد كلها؟ وهل نحن مقتنعون بأن جميع الأضداد ناشئة من أضداد؟

- نعم

- ثم أليس ثمت كذلك في هذا التضاد الشامل بين الأشياء جميعاً، فعلان أوسطان، لا ينفكان يسيران من ضد الى الضد الآخر جيئة وذهاباً؛ فحيث يوجد أكبر وأصغر، يوجد كذلك فعل متوسط بينهما، يعمل للزيادة والنقصان، ويقال للشيء الذي ينمو إنه يزيد، وللشيء الذي يتناقص إنه يذوي

فقال - نعم

- وهناك غير ذلك عمليات كثيرة أخرى، كالتجزئة والتكوين والتبريد والتسخين، التي تضمن تساوياً بين ما يخرج من شيء وما يضاف الى شيء آخر. أليس ذلك صحيحاً بالنسبة الى الأضداد كلها، حتى ولو لم يعبر عنها باللفظ دائماً - فهي تتولد الواحد من الآخر، وثمت انتقال، أو فعل، بين بعضها وبعض

- فأجاب - هذا جد صحيح

- جميل، أفليس هناك ضد للحياة، كما أن النوم ضد اليقظة؟

- فقال - بل هذا حق

- وما هو ذاك؟

- فأجاب - هو الموت

- فان كان هذان ضدين، فهما متولدان إذن. أحدهما من الآخر، وبينهما كذلك فعلان أوسطان.

- بالطبع

(يتبع)

زكي نجيب محمود

من صور التاريخ السلامي

الفردوسي

للأستاذ عبد الحميد العبادي

تتمة

بينت في مقالي السابق السبب الذي من أجله يكبر الفرس الفردوسي ويعدونه شاعرهم القومي فقلت إن الفردوسي بنظمه (كتاب الملوك) الذي يضم بين دفتيه تاريخ الفرس الأقدمين وأساطيرهم وآدابهم، قد أمد القومية الفارسية واللغة الفارسية الحديثة، بمد قوى، رسم للأولى حدوداً واضحة، وشرع للثانية منهجاً ظلت تسير فيه

حتى يومنا هذا؟ والفردوسي بهذا الصنيع الجليل قد هيأ السبيل لظهور فارس الحديثة ذات الشخصية البارزة في تاريخ الشرق الحديث

ولكن ما السبب في أن شعوباً أخرى غير الفرس تحفل بالفردوسي وتجله، ولم تتحاش أن تعلن ذلك الاحتفال بذكراه الألفية؟ وجواب هذا السؤال موضوع هذا المقال

يعد الفردوسي عند علماء الأدب ونقاده شاعراً قصصياً من شعراء الطبقة الأولى، فهو في مرتبة هوميروس ودانتي وملتن. والشاعر القصصي العظيم هو الذي ينشئ ملحمة أي منظومة قصصية طويلة بليغة يعتبرها قومه غرة أدبهم. وحفظ هذه المنظومة من الذيوع والانتشار يتوقف على نوع موضوعها. فإذا كان الشاعر قد اخترع الموضوع اختراعاً وتخيله تخيلاً ثم أفرغ عليه بعد ذلك ثوب بلاغته وقوة تصويره فهي ملحمة محدودة الذيوع، يقبل على قراءتها خاصة الأدباء والمثقفين وأساتذة الأدب في الجامعات. ومن هذا الصنف (المهزلة) لدانتي و (الجنة المفقودة) لملتن. أما إذا ألف الشاعر موضوعه من الحكايات الشائعة في قومه، وأساطيرهم التي يعتقدونها، وأغانيهم التي يتغنون فيها بذكر ما اختلف عليهم من الأحداث، ثم عرض ذلك كله عرضاً شعرياً قوياً بليغاً، وكان في ذلك فيلسوف النظرة يتناول العالم من ثنايا الخاص فيصور العالم وهو يصور قطعة منه محدودة، ويصف الطبيعة البشرية وهو يصف قبيله ومعشره، ويتناول الزمن وهو يتناول برهة منه، إذا فعل الشاعر ذلك فقد كتب لملحمته الذيوع والخلود. وسرعان ما يحل الحديث الموفق

المحكم محل القديم المبعثر المتفرق، فتنسخ الملحمة الجديدة الحكايات القديمة، وتأخذ مكانها من قلوب الأمة التي تصور فعالها، وعلى مر الزمن تنفذ الملحمة من حدود المحلية والإقليمية وتشيع في أنحاء العالم المتمدين وتستحيل أثراً أدبياً عالمياً.

وأشهر ملاحم هذا النوع، الألياذة والشاهنامة التي نحن بصدد الكلام عليها والشاهنامة تسترعي اهتمام غير واحد من خاصة المتأدبين فاللغوي يطالع فيها صفحة واضحة من تاريخ اللغة الفارسية الحديثة، والاجتماعي يجد فيها عوناً على تصور المجتمع الفارسي القديم، ومعرفة أخلاق القوم وعادتهم ومواضعاتهم، والمعنى بالأساطير القديمة ينتفع بها انتفاعاً جماً في دراسة الميثولوجيا الإيرانية والمقارنة، ومؤرخ الأديان يستخلص منها صورة مجملة لعقائد الإيرانيين القدماء، والمؤرخ السياسي يرجع إليها في دراسة النظم الفارسية القديمة ويجد فيها صدى قوياً لعلاقة الفرس بمن جاورهم من الأمم وخاصة الهند والترك والعرب. والفنان الذي تستهويه بلاغة العبارة ودقة المعاني وقوة التصوير يرى في الشاهنامة مُثلاً عُليا لكل ذلك.

فالفردوسي يعرج في سماء البلاغة حتى يسامي النجم، وهو في الوقت نفسه يخاطب الناس بمألوف حديثهم ومتعارف معانيهم، ثم هو وصاف مبدع، إذا تصدى لوصف واقعة حربية أراك ميدان القتال، وجلا على عينك ما يجري فيه من كر وفر، وهجوم وتحيز، وأراك السيوف تلمع، والحراب تشرع، وأسمعك تصايح الكماة، وصهيل الخيل، وأنين الجرحى، وصور لك ظفر الغالب وهزيمة المغلوب. فإذا انتقل إلى وصف مجلس من مجالس الدعة والأنس مثل لعينك أسباب السرور ودواعيه وأدواته، ونقل إليك ما يشيع في المجلس من صفاء النفوس، واختلاط القلوب، فإذا أراد تصوير العاطفة البشرية أراك حنو الأم، وعطف الأب، وله العاشق، ووفاء الزوجة وإخلاص الصديق. لقد أدرك الفردوسي قوام الفن وملاكه، أدرك معنى الجميل ومعنى الجليل، وعرف كيف يعبر عنهما

على أن الناحية الأخلاقية من الشاهنامة هي عندي أهم نواحيها وأبعثها على التقدير العام بها. فالفردوسي لم يقصد إلى أن يكون مؤرخاً، ولا إلى إظهار بلاغته بمقدار ما قصد إلى أن يكون كتابه كتاب أدب وحكمة وتهذيب، نلحظ ذلك في الجانب التعليمي من كتابه، فالفردوسي لا يبرح واعظاً ومرشداً وهادياً، سالكاً حينا طريق الحقيقة وحينا طريق المجاز،

ونلحظ ذلك القصد أيضاً في خلو الشاهنامة خلواً مطلقاً من الألفاظ والمعاني التي ينبو عنها الأدب والذوق السليم. . . بهذه المزية يصح القول بأن (كتاب الملوك) كتاب يتأدب بمطالعته الناس في كل زمان وكل مكان، وإذا كانت (الألياذة) تنمي فينا عاطفة الحياء والغضب للحق، وفضيلة الإيثار والانتصار للضعيف، وإذا كانت (مهزلة) دانتي تعرفنا بطريقتها الرمزية أي أساليب الحياة يؤدي في الآخرة إلى الثواب وأيها يؤدي

الى العقاب، وإذا كانت (الجنة المفقودة) تقوي الروح الديني في نفس القارئ، فإن الشاهنامة ترمي إلى تهذيب النفس وتكميلها
وفلسفة الشاهنامة الأخلاقية تقوم على أربعة أمور عظام: الأيمان، والواجب، وطهارة القلب، والزهد
والأيمان عند الفردوسي ليس ذلك الشعور الذي يخالط ضعفاء النفوس وخورة الطباع، ولكنه إيمان الأبطال والملوك.
فالفردوسي يتعمد أن يظهر أبطاله وملوكه عند استكمالهم أسباب العزة والجبروت في مظهر النقص والافتقار إلى عون الله ومدده مبالغة منه في توكيد ضرورة الإيمان في الحياة، ورغبة منه في كبح جماح النفوس الطاغية، وكسر شرة القلوب العاتية.
ولنمثل لذلك من الشاهنامة نفسها: فعندما خرج الملك (كيخسرو) إلى قتال (أفراسياب) انتقاماً لمقتل ابنه (سيا وخسر) جعل يدعو الله أن ينصره على عدوه.
تقول الشاهنامة (وبعد ذلك اغتسل الملك كيخسرو ودخل متعبداً لهم، وجعل طول ليلته يتضرع إلى الله تعالى ويبتهل ويعفر خده بالتراب ويستنصره على أفراسياب، ويستعين به عليه، فقطع ليلته تلك بالسجود لله تعالى والدعاء، فلما انتصر على خصمه وفر خصمه من وجهة وأعياه طلابه رجع إلى الله يستعينه ويستهديه). تقول الشاهنامة (فاغتسل ذات ليلة وأخذ كتاب الزند وخلا بنفسه في مكان خال ولم يزل طول ليلته ساجداً لله تعالى يبكي ويتضرع إليه سبحانه ويقول (إن هذا العبد الضعيف الموجع الجسم والروح طاف الدنيا، فسلك رمالها وقفارها، وقطع جبالها وبحارها، طالباً لأفراسياب الذي أنت تعلم أنه سالك غير طرق السداد، وسافك بغير الحق دماء العباد، وأنت تعلم أني لا أقدر عليه إلا بحولك وقوتك، فمكني منه. وإن كنت عنه راضياً، وأنت تعلم ولا أعلم، فاصرفني عنه، وأطفئ من قلبي ثائرة عداوته وقف بي على سواء الطريق والنهج القويم) وعندما غمر الثلج أسفنديار وأصحابه في طريق (هفنجوار) الوعر الشاق ووجد ذلك البطل المغوار نفسه أمام قوة لا قبل له بها لم يسعه إلا أن يسلم أمره إلى الله تعالى فتقول الشاهنامة (فبينا هم كذلك إذ أظلم الجو واشتدت الريح، ونشأت سحابة أبرقت وأرعدت وأطبقت عليهم ثلاثة أيام بلياليها، تهيل عليهم الثلج هيلاً، حتى امتلأت الأودية، فصاح اسفنديار. . وقال: قد اشتد علينا الأمر وليس ينفعنا الآن رجولة ولا قوة. والرأي أن نلجأ إلى من لا ملجأ منه إلا إليه، فانه الكاشف للضر والقادر عليه. فاجتمعوا ورفعوا أيديهم وتضرعوا إلى الله تعالى مبتهلين، ودعوه دعوة الصادقين، فسكت الهواء وانجلت السماء)
والأصل الثاني من أصول الفلسفة الأدبية (لكتاب الملوك) القيام بالواجب: الشاهنامة تعني بهذا الأصل الذي هو قوام الحياة اليومية أتم عناية. فأعظم ملوك الشاهنامة أقومهم بواجبه، وواجب الملك في رعيته العدل، والحلم، والسخاء، وترك الاستبداد فإذا ما حاد الملك عن هذا السنن (جفت الألبان في الضروع، ولم يأرج المسك في النوافج، وشاع الزنا والربا في الخلق، وصارت القلوب قاسية كالحجر الصلد، وعاثت الذئاب وضريت بالأنس، وتخوف ذوو العقول من ذوي الغواية والجهل،) وعهد كسرى أنوشروان لابنه هرمز حافل بتلك الآداب السلطانية التي تنص صراحة على ما يجب على الملك نحو نفسه ونحو رعيته
وبطولة أبطال الشاهنامة تستند إلى شعورهم القوي بالواجب. أنظر كيف لبي رستم طلب (جَيْو) إنقاذ ابنه (بيژن) وكان مقيداً مغلولاً في مطمورة مظلمة بأرض طوران. وقوله له (لا تهتم فإني لا أحط السرج عن الرخس حتى آخذ بيج بيژن وأضعها في يدك) وانظر خطاب جيو للملك كيخسرو (أيها الملك! إن أمي ما ولدتني إلا لطاعتك، وتحمل المكاره فيما هو سبب راحتك. وهأنذا أشد وسطي في امتثال أمرك، ولا أسألك إلا سبيل خدمتك ولو أمطر الهواء علي ناراً، وتحولت الأشفار في عيني شفاراً) وقول (اكشهم) لبيژن وهو يجود بروحه (أيها الحبيب النافج لا تحمل على نفسك كل هذا، فانه أشد علي مما أنا فيه. واستر جراح رأسي بالترك، واجتهد في حملي الى حضرة الملك، فان قصارى بغيتي، وغاية أمنيتي، أن أتزود منه بنظرة، وأقر عيني بطلعته ولو لحظة، وإذا مت بعد ذلك مت وليس في قلبي حسرة، فإني لم ألد إلا للموت، ومن أدرك أمله فكأنه لم يمت، وأيضاً تجتهد

فلعلك تستطيع أن تحمل هذين العدوين للذين أهلكهما الله على يدي إلى المعسكر، وأن لم تقدر فاحمل رءوسهما وعدتهما حتى تعرضها على الملك، ليعلم أني ما هلكت في غير شيء)

وروعة شخصية المرأة في الشاهنامة تقوم على وفور حضها من الأنوثة والوفاء لزوجها، يدل على ذلك نواح (ثهمينة) على ابنها (سهراب) ووفاء (منيزة) لزوجها (بيتزن) في محنته مع إن أباها كان المسلط على عذابه

وكما تفرض الشاهنامة القيام بالواجب من حيث هو فضيلة أساسية للحياة الفاضلة فإنها تدل بالأمثلة المحسوسة والوقائع المادية كيف يؤدي الواجب. فينبغي أن نؤدي الواجب محلى بأحسن آداب السلوك من جد ورفق، وسهولة خلق، وضبط نفس، ورقة شمائل، ولا أدل على ذلك من الحوار الذي دار بين بطلي الشاهنامة (رستم) و (اسفنديار) عندما لج بهما اللجاج وحمى الخصام، فهو حوار ينم عن نبل خلق وسراوة نفس. وقد بلغ من دقة حس الفردوسي ورقة قلبه أن أوجب علينا الوفاء لمن أحسن إلينا ولو كان حيواناً أعجم. أنظر بأي قلب وأية شمائل يخاطب رستم الغزالة التي كان طرده لها سبباً في وقوعه على عين ماء روي منها بعد أن كاد يهلك عطشاً، فهو يخاطبها بقوله: (لا زلت يا غزالة الريف، تفيئين الى الظل الوريف، وتكرعين في الزلال المعين، وتتقلبين بين الورد والياسمين، وأيما قوس راعك أنباضه: فلا زالت متقطعة أوتاره، فانك سددت رمقي وشفيت غلتي)

والأصل الثالث من أصول فلسفة الشاهنامة الأدبية طهارة القلب؛ والفردوسي يحثنا في غير موضع من كتابه على أن ننفي عن قلوبنا أدواء الحقد والحسد والضغينة. يقول رستم لاسفنديار: (. . . . . وطهر قلبك بفضيلة الرجولة من دنس الداء الدفين) والفردوسي لا يكتفي بأن يندب قارئه الى تطهير قلبه، بل لقد يتولى هو بنفسه ذلك مستخدماً في ذلك طريقه العرض الدرامي التي نلحظها في أكبر الملاحم والقصص. نلحظها في آثار هوميروس، وسفوكليس، واسخيلوس، وشكسبير، وملتن، ودستويفسكي. وذلك أن يعمد الشاعر الى حادث رائع مفظع، فيعرضه عرضاً فنياً قوياً، فيهز قلب القارئ ويمخضه، فيكون ذلك منه بمنزلة الدواء المر يتجرعه المريض على مضض، ولكنه تكون فيه سلامته من علته؛ وقد بلغ الفردوسي بسلوك هذه الطريقة أسمى غايات الفن، وأتى من رائع القصص ما يشغف القلب حسنه، ويسحر اللب بيانه. انظر كيف يعرض قصة قتل رستم ابنه سهراب على غير علم منه بأنه ابنه! تقول الشاهنامة: (. . . . ثم تناوشا الحرب، وتطاعنا حتى انتثرت كعوب رماحهما، فاستل كل واحد منهما سيفه، وتضاربا، وكأن النار تمطر من سيوفهما، ولم يزالا حتى تكسرت سيوفهما، فمدا أيديهما الى عموديهما، ورفعاهما، وجعلا يتضاربان ويتقارعان حتى تمزقت الأدراع الموضونة على أكتافهما، وتقطعت التجافيف على خيلهما، فضعفا، ووقف دوابهما، وبقيا من العرق غريقين، ومن العطش محترقين، فوقف الأب من جانب، والابن من جانب آخر، ينظر أحدهما الى الآخر. فيا عجبا! كيف انسدت دونهما أبواب التعارف، ولم تتحرك بينهما عروق التناسب؟ والأبل من غلظ أكبادها، تعطف على أولادها، والطيور في جو السماء، والحيتان في قعر الماء، لا تنكر أولادها وأفراخها! والإنسان من فرط حرصه تخفى عليه فلذة كبده ويستنكر قرة عينه ولا ينزع الى ولده!)

ثم يقول رستم: (لم أر قط قتالاً بهذه الصفة، ولقد انقطع رجائي من رجولتي) فإذا ما استأنفا القتال، قال سهراب لرستم وهو يجهل أنه أبوه: (إني أرى أن نخلع الجوشن، ونطرح السيف، ونكف عن القتال، فإن قلبي يميل كل الميل إليك، وإن وجهي ليغمره الحياء منك) ولكن يخيب رجاه، ويعود الأب وابنه الى المبارزة، فيتغلب الأب ويصرع ابنه، ويجثم على صدره، ثم يذبحه ذبحاً، ثم يتبين له، وقد سبق السيف العزل، أنه إنما ذبح ابنه، فيشق جيبه، ويضرب صدره، وينتف شعره، ويندب ولده، ويحاول استنقاذه من براثن الموت فيعجزه ذلك؛ ويموت سهراب، فتتقد لوعة الحزن في صدر رستم، ويصيح من فرط العذاب: (من الذي أصيب بمثل ما به أصبت؟ ومن الذي فجع بمثل ما به فجعت؟ قتلت ولدي حين شاب رأسي وانقضى عمري!)

إن القارئ ليتابع مشاهد هذه القصة وقلبه يتوثب في صدره فرقاً وذعراً. فإذا بلغ الى الكارثة الأخيرة فقد لا يملك دمعه أسى وحزناً، وهذا الذي قصد إليه الشاعر رغبة منه

في أن يمكن فيه لعاطفتي الحنو والرحمة
ولا يقف الفردوسي عند هذا الحد من تطهير قلب قارئه، بل يجتهد في أن يروض من نفسه ويكبح من جماحها بأن يجلو لها تقلب هذه الدنيا، وتصرف أحوالها بالناس تصرفاً قد يسوء
ضعاف النفوس، ولكنه لا ينال من ذوي النفوس القوية منالاً وهو على عادته يعمد الى أقوى شخصياته فيجعلها مناط فلسفته رامياً بذلك الى أن نأخذ الدنيا كما هي فنفرح بها إذا أقبلت في غير اغترار بها؛ ولا نأسى عليها إذا هي أدبرت. وإن فلسفته من هذه الناحية لترجع فلسفة الرواقيين الذين يريدوننا على أن نتجرد من العاطفة جملة، فلا نفرح ولا نحزن، ولا نغضب ولا نعتب. انظر كيف يصف الشاعر مصير الملك أفراسياب عندما قلب الزمان له ظهر المجن، وتجهم له وجه القدر، فآل أمره الى أن وقع أسيراً في يد رجل عابد فشد وثاقه واضطره الى أن يخاطبه بقوله (أيها العابد! ما تريد من رجل اختفى في مغارة ضيقة) فلما عنفه العابد على ما احتقب من أوزار قال (بهذا جرت على أقلام قضاة الله في الأزل، ومن المعصوم في هذه الدنيا الغدارة من الزلل؟) وإن مصير الملك دارا واغتيال عبديه له تقرباً بدمه الى الاسكندر ليجري مجرى حديث أفراسياب من حيث الدلالة على تقلب الدنيا، وهي تربنا الفردوسي جبرياً يرى أن الإنسان لا يملك لنفسه مع القدر نفعاً ولا ضراً
وإذا كان ذلك دأب الدنيا، فحليق بالعاقل أن يرفضها ويزهد فيها. والزهد في الدنيا هو الأصل الرابع من أصول فلسفة الشاهنامة الأخلاقي، والفردوسي لا يألو جهداً في صرف قلوبنا عن أن تفتن بالدنيا ولكن في غير اخلال بالواجب الذي يفرضه علينا وجودنا فيها. انظر إلى تصويره الحال المعنوية على الملك كيخسرو عندما انقبضت نفسه، وأزمع التخلي عن الملك، والذهاب في الأرض، فقد عهد إلى ابنه، وودع أكابر الدولة (ثم سار. . . وصحبه رءوس الإيرانيين. . . إلى أن صعد إلى جبل، فأقاموا عليه أسبوعاً، وخرج في أثره نساء الإيرانيين ورجالها زهاء مائة ألف نفس، يبكون ويضجون حتى طن بصياحهم وعويلهم السهل والجبل. ثم بعد أسبوع أشار الملك على الأكابر والسادات بالانصراف من ذلك المكان وقال: إن أمامنا طريقاً صعباً لا ماء فيه ولا عشب، فانصرف دستان، ورستم وجوذرد، ولم ينصرف عنه الباقون، فسار الملك، وساروا معه حتى وصلوا إلى ماء، فنزلوا هناك، وقال لهم الملك: إذا طلعت الشمس غداً حان وقت المفارقة، فباتوا ليلتهم عند العين. ولما كان الثلث الأخير من الليل، قام الملك ودخل العين، واغتسل ثم ودعهم إلى إيران. ولما طلعت الشمس ركب الملك، وغاب عن أعينهم)
وحديث الاسكندر الملك الشاب الفاتح الطموح مع أهل مدينة البراهمة المنقطعين عن الدنيا، والراضين منها بأيسر أمرها يرى إلى أي حد يذهب الفردوسي في تقرير فلسفته القائمة على العزوف عن الدنيا وعدم الركون إليها
وبعد، فأرجو أن أكون قد بينت للقارئ السبب في تقدير غير الفرس للفردوسي وللشاهنامة، وأختم هذا البحث بأن أنبه على أن مظهر هذا التقدير قديم، فقد ترجم الفتح بن علي البنداري الشاهنامة إلى العربية الفصحى في أوائل القرن السابع الهجري، وأن الشاهنامة قد نقلت إلى أشهر اللغات الأوربية الحديثة، وأن بعض هذه التراجم في غاية الدقة والعناية والإتقان
عبد الحميد العبادي
بين القاهرة وطوس - 10
طهران الى قم واصبهان
للدكتور عبد الوهاب عزام
أوى الركب الى الفندق متعباً، وجمعتُ التعب والمرض، وكان وزير المعارف والعلامة بديع الزمان قد كلماني والأستاذ العبادي في إلقاء محاضرة في مدرسة سبهسلار بعد الإياب من مشهد، فعدنا الى طهران وإذا رقاع الدعوة قد أرسلت، وإذا الجرائد تخبر بأني سألقي محاضرة في مدرسة سبسهلار والساعة ست من يوم الخميس. فأصبحت في شغل من هذا الأمر أجهد للوفاء بالوعد، فإذا جسم علل وصوت مبحوح، فكلمت الأستاذ بديع الزمان معتذراً، فجاء الى الفندق هو ورئيس المدرسة وطلبا من الأستاذ العبادي أن يقول كلمة، فوعدهما، ووعدتهما أن أكون طوع أمرهما إن رزقت العافية،

وإلا أرسلت كلمة تقرأ على الحاضرين فلما دنا الموعد أجاب الأستاذ العبادي الدعوة، وأرسلت كلمتي مع السيد صالح الشهرستاني مكاتب البلاغ في طهران، فقرأها على الجمع، وكان موضوعها موقف المسلمين من مدينة أوربا، وما يلزمهم من الاستمساك بسنتهم، وأخذ الحذر أن يفتتنوا فيقلدوا فيضلوا. وتكلم الأستاذ العبادي في العلائق التاريخية بين مصر وإيران، وقد قرأت في الجرائد الإيرانية بعد العودة الى مصر وصف الاحتفال وترجمة الكلمتين، وخطبة الأستاذ بديع الزمان في مكانة اللغة العربية بين الفرس. وقد نشرت جريدة البلاغ الخطب الثلاث، كما نشرت بياناً وافياً عن حفلات الفردوسي كلها

وكان في خطة وفود الفردوسي الذهاب الى أطلال مدينة الري وهي على مقربة من طهران، فتخلفت مكرها أسفاً، ويوم الجمعةُ جلنا في المدينة، فاشترينا من الكتب والاسطوانات (والإيرانيون يسمونها الصفحات. وهي تسمية أقرب الى الحقيقة واللغة) وزرنا المفوضية المصرية مودعين ثم خرجنا الى دار على أصغر خان المعروف في طهران باسم المصري، وهو أخو حسن بك اليزدي التاجر الكبير بالقاهرة، وكان يحتفل بختان أنجاله، فجلسنا في جماعة من الفضلاء، واستمعنا للمرة الثانية الى غناء المطربة ملوك خانم، واقترحت أن تسمعنا الأغنية المطربة: (مرغ سحر ناله سركن) لنودع طهران على هذه النغمات الحزينة، ثم تحدثت المغنية، فإذا هي تعرف أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب

وتدلي برأيها بينهما، فقلنا هذا كلام ملوك. قالت نعم. وكلام الملوك ملوك الكلام. فانظر كيف يعني الإيرانيون نساء ورجالاً باللغة العربية عناية آبائهم من قبل. ثم استأذنا في القيام لنأخذ أهبتنا للسفر الباكر صباح الغد

برحنا طهران والساعة عشر من صباح السبت حادي عشر رجب (20 أكتوبر) أنا والأستاذ العبادي في سيارة مفردة، وهو أول سفر لنا في إيران منفصلين عن وفود الفردوسي؛ سافر جماعة من طريق الشمال، وآخرون طريق بغداد أدراجهم، وجماعة آثروا المقام في طهران يوماً أو يومين، وكانت نيتنا اصبهان، وبينها وبين طهران تسع ساعات بالسيارة، وقد تقدمنا بمدة يسيرة الشاعر الإنكليزي درينك ووتر وقفنا بعد أربعين دقيقة على قرية، فرُئيت جوازات السفر، وكذلك طُلبت الجوازات في كل مدينة مررنا بها، حين ندخلها وحين نخرج منها حتى رجعنا إلى همذان على طريقنا الأولى من بغداد إلى طهران. وذلك أن هذه الطريق كانت طريق الوفود في ذهابهم وإيابهم فيُسر لهم السير وأعفوا من مراسم السفر في إيران

وبعد الظهر بقليل نزلنا في محطة على الطريق اسمها منظرية فدخلنا بستاناً فيه أشجار رمان فأكلنا واسترحنا ساعة، ثم سرنا حتى بلغنا مدينة قم والساعة اثنتان وثلث. فدخلنا ونحن نذكر قصة الصاحب بن عباد وقاضي قم. كتب إليه الصاحب أيها القاضي بقم ... قد عزلناك فقم

فكان القاضي يقول إذا سئل عن سبب عزله: أنا معزول السجع من غير جُرم ولا سبب قم مدينة في العراق العجمي على الجادة بين طهرن واصبهان وعلى 120 كيلاً إلى الجنوب الغربي من طهران. يشقها نهر يأتي من جُرباذقان قرب همذان. وفاكهتها كثيرة منها الرمان والتين والبطيخ والفستق

قال يا قوت: (وهي مدينة مستحدثة إسلامية لا أثر للأعاجم بها، وأول من مصرها طلحة بن الأحوص الأشعري) وذلك في عهد الحجاج بن يوسف. والظاهر أنها قديمة كانت قبل الإسلام، ثم عمرت في الإسلام ومصرت

وقد قال دعبل بن علي فيها

تلاشى أهل قم واضمحلوا ... تحل المخزيات بحيث حلوا

وكانوا شيدوا في الفقر مجداً ... فلما جاءت الأموال ملوا

ظلت بقم مطيتي يعتادها ... همان: غربتها وبعد المدلجَ

ما بين علج قد تعرب فانتمى ... أو بين آخر معرب مستعلج

وأهلها عرفوا بالتشدد في التشيع قبل أن يعم التشيع إيران؛ وقد روى ياقوت في ذلك حكاية ظريفة قال:

ومن ظريف ما يحكى أنه ولّيَ عليهم وال، وكان سنياً متشدداً، فبلغه عنهم أنهم (لبغضهم الصحابة الكرام لا يوجد فيهم من اسمه أبو بكر قط ولا عمر. فجمعهم يوماً

وقال لرؤسائهم: بلغني أنكم تبغضون صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنكم لبغضكم إياهم لا تسمون أولادكم بأسمائهم. وأنا أقسم بالله العظيم لئن لم تجيئوني برجل منكم اسمه أبو بكر أو عمر، ويثبت عندي أنه اسمه لافعلن بكم ولأصنعن. فاستمهلوه ثلاثة أيام، وفتشوا مدينتهم واجتهدوا فلم يروا إلا رجلاً صعلوكاً حافياً عارياً أحول، أقبح خلق الله منظراً، اسمه أبو بكر لأن أباه كان غريباً استوطنها فسماه بذلك، فجاءوا به فشتمهم وقال: جئتموني بأقبح خلق الله تتنادرون علي وأمر بصفعهم: فقال له بعض ظرفائهم: أيها الأمير اصنع ما شئت فان هواء قم لا يجيء منه من اسمه أبو بكر أحسن صورة من هذا. فغلبه الضحك وعفا عنهم.)

وقم تلي المشهد الرضوي بين مزارات الشيعة في إيران، بها حرم السيدة فاطمة بنت موسى الكاظم وأخت علي الرضا، ولذلك دفن فيها كثير من العلماء والصالحين والملوك. وقد روي الشيعة فيها عن جعفر الصادق: ألا إن الله حرماً وهو مكة. ألا إن لرسول الله حرماً وهو المدينة. ألا إن لأمير المؤمنين حرماً وهو الكوفة، ألا إن حرمي وحرم ولدي من بعدي قم. ألا إن قم الكوفة الصغيرة. ألا إن للجنة ثمانية أبواب ثلاثة منها إلى قم (تقضي فيها امرأة هي من ولدي واسمها فاطمة بنت موسى. ويدخل بشفاعتها شيعتي الجنة بأجمعهم) اهـ

لما اقتربنا من المدينة رأينا قبة المعصومة أخت الرضا تبص في الهواء في حلتها الذهبية. ولما دخلنا المدينة على مخفر الشرطة فرأوا جوازات السفر. وقال سائق السيارة لشرطي، هذان من المستشرقين يريدان زيارة الحرم فاصحبهما. فسار الشرطي أمامنا في رحبة

تملؤها أنقاض دور مهدمة، وبصرنا بنهر صغير سريع الجرية. قال الشرطي: طغا الماء على المدينة منذ أشهر فخرب مئات من دورها. ثم عبرنا الماء على خشبات ممدودة عليه فرأينا ماء ضحضاحاً يخوض فيه الناس والدواب. وسرنا في شارع به دكاكين وفنادق صغيرة، فانتهينا إلى باب المسجد.

رأينا صحناً رحباً ينتهي إلى بناء عال مقبب. ولقينا شيخ فتقدمنا فدخلنا إلى مرقد السيدة فاطمة، وهو ضريح كبير عليه سياج من الفضة كثير الحلي. فوقف الشيخ يدعو بالعربية دعاء طويلاً ذكر فيه الأئمة العلويين. ثم ملنا ذات اليسار إلى حجرة بها قبر كبير مربع لا سياج له ولا زينة، قال هذا قبر الشاه عباس، ثم ولجنا باباً إلى حجرة أخرى بها قبران أحدهما للشاه حسن آخر الصفويين، والآخر للشاه طهماسب، فيما أذكر، فهؤلاء ثلاثة من الملوك الصفويين دفنوا في جوار المعصومة. ثم خرجنا إلى الصحن فرأينا حجرات فيها قبور لملوك القاجاريين وبنيهم. رأينا فيها قبر محمد قارجار وفتحعلي شاه وعليهما صفيحتان من المرمر الشفاف عليهما صور ملائكة ذات أجنحة، وعلى قبر فتحعلي صورته منحوتة في المرمر. وقد رأينا من قبل في النجف الأشرف في مسجد الإمام على قبرا آخر للقاجاريين على هذه الشاكلة.

ولست أعرف في القبور الإسلامية قبوراً عليها صور غير هذه القبور. وسرنا الى يسار الداخل إلى الصحن فإذا باب يفضي الى صحن آخر فسيح. وهذا المسجد معهد للدراسة الدينية يقيم به الطلاب.

قال الشرطي وهو يحدثنا: في قم أربعة وأربعون وأربعمائة وأربعة آلاف من بني الأئمة الطاهرين قتلهم الظالمون

ركبنا السيارة والساعة ثلاث وعشر نسير صوب الجنوب نؤم أصبهان

وفي المقال الآتي حديث اصفهان الرائعة الجميلة

عبد الوهاب عزام (يتبع)

استدراك

1 - نسيت أن أذكر في حديثي عن مدينة المشهد أني زرت فيها الشيخ الكبير بهاء الدين العاملي الهمداني أحد أعلام المسلمين في القرن الحادي عشر وصاحب المؤلفات الكثيرة في التفسير وألف بها كتاب الكشكول وقال فيها:

يا مصر سقيالك من جنة ... قطوفها يانعة دانية

ترابها كالتبر في لطفه ... وماؤها كالفضة الصافية الخ

توفي بأصفهان سنة إحدى وثلاثين وألف، ونقل إلى المشهد فدفن بها في داره. وقبره

اليوم في حجرة في السوق قريبة من أحد أبواب مسجد الإمام الرضا
كان طبيب قافلتنا في الذهاب من طهران إلى المشهد والأياب، الطبيب الحاذق - 2
نجم آبادي، وقد عني بي وبغيري ممن توعكوا في السفر. فكان حقاً على أن أذكره
بالثناء، وقد جاء إلي ونحن بنيسابور عند قبر الخيام فقال أكتب لي في دفتري تذكاراً.
فكتبت:
قد عراني على الطريق سقام ... ولنعم الطبيب نجم آبادي
قد نعمنا بخلقه ودواء ... وشكرنا له جميل الأيادي
عزام
صورة شتوية
إلى بائعة شوك. . .
للأستاذ أنور شاؤل
أَلْبرْدُ يَلْذَعُ وَجْنَتَيْكِ وَسَاعِدَيْكِ الْعَارَيَيْنْ
وَالْحَقْلُ أَقْفَرُ لاَ رَفِيقَ يُزيلُ عَنْكِ الْغُمتيْنْ
إلا الطُّيُورُ مُرَفْرِفَاتٍ حُوماً في الْجانَبَيْنْ
لَوْ تَسْتَطِيعُ بمنِقْرٍ دَفَعتْ أذَاكِ وَمخْلبينْ
وَحَمَتْ حِمَاكِ بُمْقلَتَيْنْ
الرَّمْهَرِيرُ هُوَ الْأليفُ يَهُبُّ لاَ رِيحُ الصَّبَا
وَخَزَائُهُ فَوْق السُّهُول وَفَوْقَ هَامَاتِ الرُّبى
تَنْسَابُ في بُرْدِ الضُّحى أَفْعَى وَتَلْسَعُ عَقْرَبَا
رِفْقاً بِحُسْنِكِ يَا صَبيَّةُ وَاحْذَري أنْ يَنْضَبَا
رِفَقاً مُخَضَّبَة الْيَدَيْنْ
إنْ كَانَ ظَهْرُكِ خَاضِعاً لِعَنَاءِ مَا حَمَّلْتِهِ
أوْ كَانَ عُنْقُكِ طَائِعاً رَهْناً بِمَا كَبلْتِهِ
فَالْقلْبُ أنِّي يَسْتَريحُ لِما بهِ عَللتِهِ
وَالْفِكرُ عَنْ آماله وَرُؤاهُ أني يلتهي
يَا مَنْ تَطيلُ النظرتينْ؟
أَلُّشوكُ يَدْمى رَاحَتَيْكِ فَلاَ يرِقُّ وَلاَ يَلِينْ
وَغَداً يَزُفُّ النَّارَ تَحْمى في اللَيَالي الآخرينْ
هُمْ يَذْقَؤُونَ وَأَنْتِ مِنْ قُرِّ الشِّتاَ تَتَضوَّرينْ
تَشْقَيْنَ أَنْتِ لكَيْ تَزيدِي في رَفاَهِ الْمُسْعَدينْ
فَتَقرُّ مِنْ بَلْوَاكِ عَيْنْ
قَطْرُ النَّدَى هَذَا عَلى الأَشْوَاكِ أَمْ دَمْعُ المُقَلْ
نَارُ الأَسى هَذِى التي تَخْفِينَ أَمْ نَورُ الأمَلْ
إني أَرَاكِ إلى المْدَينَةِ تَقْصدِينَ عَلَى عَجَلْ
فَحَذَارِ تَخْدَعُكِ البَهَارِجُ في مَقَالِ أَوْ عَمَلْ
أوْ تُؤْمنينَ بِما تَرَيْنْ
بغداد
أنور شاؤل المحامي
إلى الريف. . . . .
للأستاذ محمد يوسف المحجوب
إلى الريف سِرْ بي يا قطارُ فان لي ... فؤاداً للقيا الريف لهفان صاديا
إلى الريف طِرْبي، فالليالي بغيضة ... بمصر إلى مَنْ بات حيرانَ شاكيا
إلى موطني الغالي، ومَهْد طفولتي ... ومَبْعث آمالي، ومأوى رجائيا
إلى مَشْرعٍ، أرْوَى فوادي نميرُه ... وأسقيت من رقراقه الماء صافيا
إلى مَرْتعٍ، فيه صحابي ومِعْشري ... وأهلي وجيراني، ومجلى شبابيا
إلى (قريتي) حيث المروج شذية ... تفيض جمالاً باهرَ النور باهيَا
بريك عَجِّل، كي أعيدَ نضارتي ... لديها، وأقضي العيدَ جذلانَ لاهِيا
هنالك نُعمى الله فَيضٌ، فلا ترى ... فقيراً تشكي البؤسَ أو بات طاويا
ولا الشمسَ فيها بالضياء ضَنينةً ... ولا الماَء مَقْطوعاً، ولا النُّورَ خابيا

ولا الدفَء ممنوعاً، ولا البردَ قَاتِلاً، ... ولا الأفقَ مَحدوداً، ولا الطرفَ نابيَا
هناك الثرى المحبوبُ يَذكو عبيرهُ ... كأن الثرى المحبوبَ مَسَّ الغواليا
حقول زهاها الحُسْنُ طُرًّا فأسْفَرتْ ... تتيهُ به وَهْداً، وتزهَي روابيا
تَضم بساطاً سندسًّيا، وجَنَّةً، ... ومطبوعَ حُسْنٍ فاتِن اللُّب سابِيَا
أيا (قريتي) هذا وفائي أصوغه ... لديك ثناءً خالد القول باقيا
إذا امتدح الناس المدائن وارتضَوْا ... حضارتَها، واستعذبوها مغانيا
فهأنذا أُعْلى مكانك في القُرى ... وأدْرَأُ بالأشعار عنك العواديَا
وأفْصح عن حُسْنٍ بِوَادْيك كامنٍ ... ليُبْصر قَوْمي منه ما كان خافيَا
حياتُكِ أقصى ما تمنَّاه مُتَرفٌ ... بمصر إذا ما راح عن مصر ضاحيا
هدوء، وإشراق، وزرع، وجَدْول ... وأنسٌ إذا أمسى بك الذئب عاويا!
أَلَيْسَتْ ذئابُ الوَحْش خَيْرَ امَغبَّةً ... من الذئبِ إنْساناً لئيماً مُرائيا؟
أيا (قريتي) كم أشتهي أن أعيش في ... ظلالِك دَهْري هادئ البال راضيا!
ويا رُفقتي فيها، إذا شَطتِ النوى ... وأصبحتمُ تَسْتَبعْدُون التلاقيا
فهأنذا أدنو بقلبي وخاطري ... وهاهي ذي روحي تؤدِّي الجوازيا
إن أرتحلْ عنكم إلى دار غُربتي ... فما زالَ قلبي حافظ العهد راعِيَا

محمد يوسف المحجوب
مدرس بالأوقاف الملكية

فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية
تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا - 6
للأستاذ خليل هنداوي

لهنري هاين صفحة قيمة يقارن فيها بين مذاهب هؤلاء الثلاثة، ويذكر ما لهم من تأثير في الحركة الفكرية، وكأنه يجد أن الرسالات التي بشروا بها لم تكن تنطق إلا عن رسالة واحدة هي رسالة الكمال والمثل الأعلى. يقول:

(لا نجد - عند كانت - إلا كتاباً مسطوراً. أما عند - فيخت - فنحن نتجرد من الكتاب ونرى أنفسنا إزاء رجل جبار قد اتحدت إرادته وفكرته حتى صارتا قطعة واحدة، كنت أقارن بين نابوليون وفيخت، وهما متفقان مزاجاً، وظهورهما في قومهما متشابه من جميع الوجوه، كلاهما يمثل سلطته (الذاتية) حيث لا نرى الفكرة إلا مقرونة بالعمل. ولكن هذه المبالغة في الإرادة والاعتماد على الذات جعلت عملها سريع الانهيار، فمذهب - فيخت - العملي يشبه إمبراطورية ذلك العظيم، تلك الإمبراطورية التي لم تكد تظهر حتى تصدى لها الزوال فأصبحت كأن لم تغنَ بالأمس. ولكن ثورة (نابليون) لا تزال تسري في عروق أوربا، وهكذا كان شأن فلسفة (فيخت) فإن مذهبه قد انهار. ولكن النفوس والأفكار لا تزال - من بعده - مضطربة حائرة

جاء (مذهبه في المثل الأعلى) خطيئة كبيرة في مجموع فلسفته. ترى في كل جزء من أجزائها استقلالاً سائداً وإرادة واسعة وحرية بعيدة، وتحس بشيء يسيطر على عقول الفتيان.

ومذهب (فيخت) في (الذاتية) كان يلائم خلقه الحديدي، ومثل هذا المذهب القوي لا يلائم غير صاحب هذا الخلق الجبار. ولا ننسى نصيب (شيلنج) فقد كان علماً من أعلام الفلسفة الألمانية. نظر إلى الطبيعة نظرة سلم وأحب أن يعلن الهدنة بينها وبين النفس، وأراد أن يجمع بينهما، فأحيا الفلسفة القديمة التي جاء بها اليونان الأقدمون قبل سقراط. ولكنه استسلم كثيراً لسلطان الخيال، ولم يخاطب العقل كثيراً فتضعضعت فلسفته تحت مطرقة العقل، فجاء (هيجل) وتبوأ مقعد الفلسفة، فاعتزل (شيلنج) ونزل في (مونيخ) وهناك رأيته يعيش هائماً كالشبح، بعينين غشيتهما صفرة، ووجه ذليل كأنه صورة شقية لمدينة خربة مهجورة)

1770 - 1831

حياته

ولد (هيجل) في (استتجار) وأكب في بدء نشأته على اللاهوت كزميله من قبل، فقضى خمسة أعوام في جامعة (توبنج) حيث تعرف فيها الى (شيلنج) ونشأت بينهما صداقة متينة. . . وبينا أعوام يركب مركب الحيرة من دنياه مات أخوه؛ فأحيا ما ورثه منه في نفسه شيئاً من الأمل الذي كاد ينطفئ بعد إيماض. فعاد الى (ابنا) حيث التقى للمرة

الثانية (بشيلنج) وأخرج معه المجلة الفلسفية. ولم يكن هيجل حتى ذلك الحين ليطمع في أكثر مما بلغ أو يمد عنقه الى أكثر مما نال، ولكن عبقرية هيجل أخذت تميط اللثام عن وجهها وتدرج بدون استحياء، وظهرت براعته وحرية تفكيره في المقالات التي حبرها للذود عن أراء زميليه، وكأن الحظ أراد أن يواتيه مرة أخرى، فترك (شيلنج) منبر الجامعة، فاتسع المجال لهيجل لإبداء قوته وإظهار مقدرته؛ فعجل ذلك في تعيينه أستاذاً. وفي عام 1806 حين كان المدفع يلعلع في (ابنا) أنجز الفيلسوف كتابه الذي يحتوي على جميع نظراته الفلسفية. وازاء هذه الضربات التي نزلت ببلاده، ' وقف وقفة المتأمل ونظر إليها والى عللها نظر الفيلسوف. وقد كتب الى أحد أصدقائه هذه الرسالة. . (قد سر نفسي ما علمته عنك بأنك عازم على قضاء الشتاء مستسلماً الى العزلة والفلسفة، وقد تحب الفلسفة العزلة الهادئة؛ ولكنها مع ذلك لا تحتاج الى أن تكره المجتمع أو أن تفر من أعمال الناس. . وأنت، أنت معير انتباهك لتاريخ اليوم، وفي الحق لن تجد أبلغ منه ولا أوعى، هو يريك أن الحضارة لا بد غالبة على البربرية، وأن العقل الذي يفر سوف يقهر الفطنة المسكينة التي لا تفكر، العلم هو حصننا المنيع. . . يعلمنا ألا نبقى فاتحين أفواهنا كالمتثائبين أمام الحوادث، لا نجعلها وليدة مصادقة غريبة أو ابنة براعة رجل واحد، ولا أن نقيد حظ نصر مملكة بربوة كان يجب عليها امتلاكها، أو بأخرى أهملت نسياناً، ولا أن نرسل الأنين حزناً وراء انتصارات قضى عليها جور الحظ. إن ثورة فرنسا الدامية قد أنقذت الشعب الفرنسي من أوضاع شوهت النفس الإنسانية وخنقت أراوح الشعوب كما خنقت روح هذا الشعب، كل فرنسي ألف أن يتمثل مصرعه أمامه،

وهذه الأوضاع والتقاليد التي يحمل عليها الناس حملاً قد لقيت مصرعها في فرنسا، وهذا ما يكتب روح العظمة لهذا الشعب. . . . .)

وليس التحليل النفسي موضوع هذا الكتاب، وإنما هو يصف مراحل النفس في أصل نشأتها وحياتها حتى اليوم الذي يتيقظ فيها كل شعورها ووعيها، إذ تشعر بذاتها أنها قادرة على تحقيق (العلم المطلق) وبهذا يمكننا أن ندعوه درس أطوار النفس البشرية، وهذا الدرس يعمل بواسطة نظرياته المنطقية على إنماء الحركة البشرية وعلى إعداد حركة العلم المطلق الذي تبدو بوادره

وأخيراً يعد محاولات وتجارب أخفقت في ميدان الحياة أهاب به الحظ فدعي الى (برلين) الى المنبر الذي كان يشغله (فيخت) فلبث فيه حتى نزل به الوباء الذي اجتاحه فيمن اجتاح عام 1831. وهو خلال تدريسه قد قام بأسفار ورحلات صغيرة تدل عليها رسائله الخاصة إلى امرأته اللطيفة ذات الروح الرقيقة التي كانت تعبد زوجها وتعجب به وتحترق، ولكنها لا تفهمه. زار المناطق المنخفضة، ونزل في (فينا) وهبط (باريس) ضيفاً على الفيلسوف الفرنسي (فيكتور كوزان) وقد كان منزله في برلين محط النازلين من فلاسفة ولاهوتيين وأدباء على اختلاف نحلهم ومللهم، ورجال لدولة الذين يهرعون إلى سماع حكمه ودرره، وكتب في هذه الفترة كتابه (المنطق) و (معلمة فلسفية) وبعض المحاضرات التي كان يؤثر بها طلابه في الجامعة

أسلوبه

على أن أسلوب هيجل قد جاء مثلاً قاسياً في التعقيد والإبهام اللذين اتصف بهما، فهو صعب صعب لا يقدر على إدراك أحاجيه ومراميه إلا النبيه المفكر، وهو - برغم هذا كان أعظم مفكر ألماني يجهر بآرائه، وينزل بها صريحة إلى قرائه؛ تتلمسه فتجده مظلماً، وتستوضحه فتراه مبهما، أما هيجل الأديب فانك ملاقيه واضحاً في تضاعيف رسالاته، أما هيجل الفيلسوف فهو ذو أسلوب وحشي، تسنح له فكرة فيزجيها إلى الناس كما يريد بأسلوبه. ولقد تلمح في ثنايا سطوره كلمة أو عبارة لامعة فتعجب من هذا وتود لو يدوم! وهو أشد استرسالاً - من كانت - إلى المبهمات، لأن - كانت - تكاد تكون عباراته محدودة في مواطن معدودة، أما أسلوب هيجل فهو يحالفه - أني أشرفت عليه - , اشرف

. . .عليك، هذا الإبهام وهذا التعقيد

فلسفته

إن المتعمق في فلسفة (هيجل) يجد أن جوهرها لا يخلو من أجزاء مقتبسة من (شيلنج) و (سبينوزا)، وهيجل هو القائل عن (سبينواز) (لا ينقص هذا الرجل إلا أن يعتبر

الجوهر الإلهي روحاً طاهراً , أن يوحد هذا الروح مع الروح الإنساني بدلاً من أن يرى أن الروح الإنساني هو عنصر جاء على شكل الجوهر الإلهي ولكنه مجرد من الحرية والشخصية) ونظر (هيجل) إلى الواحد المطلق الذي افترضه (شيلنج) فراعه هذا الواحد الذي امتزج فيه ضدان لا يجتمعان بوساطة قانون بارد!. فمر (هيجل) بمادة سبينوزا والواحد المطلق؛ وأناب مناب هاتين المادتين (الفكر) , الماضي في حركته التفكيرية. وقد تبدو هذه الحركة في ظاهرها حرة اسمية، ولكنها - في الحقيقة - حركة جديدة تعمل على بناء الكون بناء جديداً. ولم يكن السكون المطلق عاملاً من عوامل هذه الحياة، ولكن هي الفعالية، قانون الحياة الأسمى. وهكذا يحل التبدل المستمر محل الثبات المستقر

وحركة الفكر تتمشى على نمط واحد، وكل خطوة يخطوها الفكر إلى الأمام تتألف من ثلاث حالات متتالية. كل ما هو موجود يكتنفه حد من ذاته، والوجود يحتوي على العدم. وجواز الوجود إلى العدم والعدم إلى الوجود إنما هو التحول. فالوجود والعدم والتحول إنما هي قانون الأشياء بدون استثناء، فلا يحدث شيء ولا يترقى إلا تبعاً لهذه الأطوار. وقد شبهوا مذهب (هيجل) بكنيسة مشيدة على الطراز القوطي، يرى الناظر في كل جزء منها رسم البناء مصغراً؛ يريدون أن الفروع المشتقة من فلسفته صور مصغرة عن الأصول

ها هو ذا الفكر الماضي في حركته التفكيرية يظهر خطره ويبدو أثره في الكون من مهد الحياة الناقصة الى عهد الحياة الكاملة، الى عصر الإنسان، وهو خلال ذلك يمر بأدوار الكمال، وفي كل دور يتبدل شأنه ويقوى سلطانه وينفسح مداه. كل طور يصعد إليه هو أسمى من الطور الذي تخطاه، ولكن السمو كل السمو لا يتجلى إلا في المفكر المبدع. وكل خلق - جماداً كان أو ذا روح - مخلوق لذاته، لا يتزحزح عما هو عليه، ولا يجوز من طوره الى طور غيره. وفي بعض مواطن ترى (هيجل) يرذل مذهب القائلين بالاستحالة. وكل كائن - عنده - يمثل صورة متفاوتة الكمال ملائمة لفكرة الكائن. أو قل (هدفاً) يرقى

إليه في سيره نحو الهيئة الإنسانية، حيث يتم له لأول مرة أن يكمل ويتم. والطبيعة عنده ليست بصورة كاملة، أن هي إلا (مسودة) في كتاب الخليقة، لأن هيجل لا يرى فيها إلا مجموعة متناقضات لا تتوافق ولا تلتئم، تدل على عجز ظاهر وعلى اضطراب في المنطق. وقد أعطانا صورة جديدة عن الكون كما يود أن يكون. فهو في نظراته الفلكية مثلاً لا يبحث كثيراً في هذا الفضاء اللامتناهي. وإنما هو يرى الأرض - نظرياً - قلب الوجود، ويرى النجوم العالقة بالسماء كالبثور الطافحة على جلد الإنسان (يتبع)

خليل هنداوي

القصص

إبليس يعشق

للأديب حسين شوقي

كان إبليس يقيم في مصيف (دوفيل)، ولم تمض أيام معدودة على قدومه إليها حتى كان من أثر وجوده بها عدة حوادث انتحار، وقعت بين رواد قاعتي (الروليت) و (البكارا). .

ولكن هبطت عليه ذات يوم برقية من مجلس الشياطين الأعلى المنعقد في (بروكن) تعدوه الى الذهاب من فروه إلى قرية س. . . في جبال الألب ليقضي هناك على أسرة صغيرة تعيش في سرور وهناء لا حد لهما، لأن الشياطين كما تعلم لا يطيقون رؤية بني البشر سعداء. . بلغ إبليس القرية، ولم يكد يصل إليها حتى قصد الدار التي تسكنها هذه الأسرة السعيدة لينتهي من أمرها في سرعة، ثم يعود على عجل إلى مصيفه في (دوفيل) حيث كان يتلذذ من إلحاق الأذى بلاعبي الورق. .

كانت هذه الأسرة السعيدة مؤلفة من ثلاثة: الزوج، وهو شاب جميل في الخامسة والعشرين والزوجة، وهي فتاة جميلة أيضاً في سن العشرين، والولد، وهو طفل لطيف في الأشهر الأولى من عمره. .

وكانت هذه الأسرة تسكن منزلاً صغيراً جميلاً شيد على رابية تشرف عليها جبال الألب الشاهقة وكأنها أسوار رفعتها يد العناية لحماية القرى المجاورة وسكانها الهادئين، من

. .حوادث الطبيعة العظيمة
ذهب إبليس يزو الأسرة السعيدة في زي بائع أم متجول، كي يتعرف موضع عمله، فلم يجد الزوج إذ كان في عمله بالحقل، ولكنه وجد الزوجة في الحديقة تدلل طفلها، وقد ضمته إلى صدرها. حقاً! إن السعادة كانت بادية بأجلى مظاهرها على وجه الزوجة، ولكنها اعتذرت في لطف عن عدم الشراء، قم قدمت إليه قدحاً من النبيذ ليرفه به عن نفسه من عناء المسير، فشربه إبليس ثم شكر الزوجة وانصرف وهو حانق على مجلس الشياطين الأعلى الذي أزعجه في مصيفه (بدوفيل) لأمر تافه مثل هذا، لأن القضاء على سعادة هذه الأسرة بسيط جداً، فقد يكفي إعطاء الطفل جرعة من جراثيم الدفتريا، ليقضي عليه فوراً، فتصبح الأسرة في يأس ونكد
كم واجه إبليس حوادث أدق في (دوفيل)! إنه ما يزال يذكر مع الغبطة حادث البارونة س. . التي وسوس إليها أن تبيع حليها لتعطي ثمنها إلى عشيقها كي يخسر هذه النقود على المائدة الخضراء أولاً فأولاً، ولما نفذت الحلي وهدد العشيق البارونة بالهجر، لجأت إلى تزوير إمضاء وجها على شيك، ولكن اكتشف التزوير فاضطرت البارونة أن تنتحر اتقاء للفضيحة والعار
في مساء يوم زيارته لمنزل تلك الأسرة، اقتنص إبليس بضعة جراثيم دفتريا فوضعها في قنينة ثم حفظها في جيبه. . ثم ذهب إبليس في اليوم التالي يزور الزوجة، وقد تزيا في هذه المرة بزي بائع حرائر، ولن لم يكد يقترب من المنزل حتى سمع صوتاً جميلاً ينبعث من الحديقة لم يسمع أعذب منه منذ خروجه من الفردوس، فوقف يصغي إليه. . ثم تقدم خطوات. . . فشاهد الزوجة الجميلة مكبة على طفلها وهو راقد في مهده تناغيه. تأثر إبليس بجمال هذا النظر تأثراً شديداً، فألقى القنينة بعيداً وانسحب كي لا يعكر صفاء هذه الأم الجميلة. .
أحس إبليس في طريق عودته الى الفندق بسعادة عميقة تغمر نفسه، فخبأ وجهه بين يديه حتى لا يراه شيطان آخر على هذه الحالة، فيحاول أن يقضي على سعادته!
يا للعجب! إن إبليس عاشق! إنها حقاً نهاية النهايات!
أخذ إبليس طوال الليل يفكر في حاله، لا يدري ما يفعل. . فكرأولاً في قتل الزوج ليتقدم بعد ذلك الى المحبوبة في صورة شاب جميل سري، ولكن تراءى له عندئذ المحبوبة سابحاً في الدموع على فقدها زوجها، فأقصى عنه تلك الصورة القاسية المنطوية على الحقد والأنانية، لأن إبليس لم يعد شريراً وقد طهر الحب قلبه. .
وللمرة الأولى، أحس إبليس انه بائس، أشد بؤساً من متسولي الهند. . .
وللمرة الأولى أيضاً، بكى إبليس، وكانت دموعه هذه المرة دموعاً بشرية بيضاء على غير العادة، إذ كانت عيونه قبل ذلك تفرز سائلاً أسود مثل نفسه السوداء. . .
ولما لم يجد إبليس وسيلة للاستيلاء على المحبوبة دون تكدير صفوها، قرر أن ينتحر. .
غادر إبليس الفندق وسط الظلام، ثم ذهب فتسلق أعلى قمة في الجبل وقفز منها الى السماء، فاحترق جسمه من السرعة التي انطلق بها في الجو. . .
وهكذا قضى إبليس نحبه حاملاً معه أول وآخر حب له!
ولكن هذا لم يمنع المراصد الفلكية أن تذكر في تقريرها، في اليوم التالي، أن شهاباً هوى بجهة قرية س. . . في جبال الألب، وهو شهاب يجهله عالم الفلك للآن فاحدث سقوطه نوراً ساطعاً
كرمة ابن هانىء
حسين شوقي
من أقاصيص الجاهلية
حرب البسوس - 2
بقلم اليوزباشي أحمد الطاهر
(عود علي بدء)
قتل كليب فعمت الملأ فتنة عمياء، وهبت عليهم عاصفة هوجاء، ونزع الشيطان بين العشيرتين
هنا قلوب تقطر حزناً، وحزناً يدفع إلى اليأس وإلى الموت، وهنا نفوس تتواثب إلى الانتقام، وتستعذب في سبيله الحمام. وهناك قلوب تجب من هول ما أقدمت عليه، وتستشعر الندم لمقتل كليب، تهمس به في غسق الليل، وتخفيه نهاراً، ضنا بالكرامة

وأنفة واستكباراً، وهناك فتية يحترقون للقتال، ولكن لا يثقون بنصرة الرجال، ويخشون أن يتخاذل النصراء عند نزول الخطب ويستخذي الرجال عند اشتداد الكرب، وبين هؤلاء وهؤلاء كهول وشيوخ يسيرون في الليلة الظلماء على قبس الحكمة ونور الأناة، ويتابعون السير في مدلهم الحوادث، يبتغون مخرجاً من الكوارث. فعقدوا عن الحرب في صمت ووجوم، ولم يعينوا ظالماً على مظلوم، ومن هاماتهم الفند الزماني، والحرث بن عباد فارس النعامة

ولكن طغت على القوم ثورة الغضب. وانساقوا إلى الحرب ورداً يؤزهم الشيطان أزّا ولم يطلب لبني شيبان المقام بأرض فيها مذلة، ولهم فيها ذلة، فارتحلوا ونزلوا (بماء النهى) ولحقت جليلة بأبيها مرة ابن ذهل. وعلى رأس بني شيبان الحرث بن مرة أخو جساس وعلى رأس بني ثعلب المهلهل بن ربيعة أخو كليب واستحر القتال بينهم بماء النهى ودارت الدائرة على بني شيبان، وكانت الغلبة لتغلب؛

ولما أصبح القوم على مدرجة من سيل الحوادث، قال قائل منهم:

وقال (هلموا إلى الكهنة نستلهمهم الصواب، علهم يكشفون الكرب أو يحجبون البلاء) آخر: (ما للكهنة وهذه الكروب؟ إنما يلوون ألسنتهم بالقول كأنما نزل عليهم من السماء، فان تدبرت في قولهم لم تفهم منه شيئاً محدوداً، ولا رأياً مقصوداً، وإن فهمت فقد تفهم من القول معنيين لا تدري أيهما تأخذ وأيهما تدع.)

واستقروا على أن يستشيروا الكهنة والكهنة فان عجزوا عن هديهم اعتصموا بعجزهم عن لوموبعثوا إلى الكهنة رسولاً منهم

وعاد الرسول يتلو عليهم قول الكهنة (يا للمحنة ويا للشقاء! ريح نكباء، وكرب وبلاء، وحرب ضروس، وسيوف تطيح بالرءوس، والقوم أحرص على الموت من حرص الموت على النفوس. قتل كليب ولابد مما كان، والرأي عند الفوارس لا عند الكهان)

- (أفهمتم من قولهم شيئاً يا قوم؟)
- (!أنهم يأمرون بالقتال)
- (!أنهم لا يأمرون بالقتال)

ومضى القوم في صخب ولجب، وقاموا إلى المهلهل بن ربيعة أخي كليب يعجمون عوده، ويغمزون قناته. فإذا هو في فريق من أهله منهم عتاب بن سعيد بن زهير، وكعب بن زهير. والقوم بين ثائر يدعو إلى القتال وينفخ في ناره، وعاقل يجنح إلى السلام ويدعو الى داره، وفيهم من دسه بنو بكر، ليتنسم الأخبار، ويكشف عن النوايا الستار

وقام المهلهل على شرف واتكأ على رمحه وقال:

كليب لا خير في الدنيا ومن فيها ... إن أنت خليتها فيمن يخليها
كليب أي فتى عز ومكرمة ... تحت السفاسف إذ يعلوك ساقيها
نعى النعاة كليباً لي فقلت لهم ... مالت بنا الأرض أو زالت رواسيها
الحزم والعزم كانا من صنيعته ... ما كل آلائه يا قوم أحصيها
القائد الخيل تردى في أعنتها ... زهواً إذا الخيل لجت في تعاديها
من خيل تغلب ما تلقى أسنتها ... إلا وقد خضبوها من أعاديها
نروي الرماح بأيدينا فنوردها ... بيضاً ونصدرها حمراً أعاليها
ليت السماء على من تحتها وقعت ... وانشقت الأرض فانجابت بمن فيها

وكأن المهلهل لم يغب عنه أن في الجمع الذي انتظم عنده أفراداً من بكر يتجسسون، فقذفهم بقوله:

لا أصلح الله منا من يصالحكم ... ما لاحت الشمس في أعلى مجاريها

فألقموا حجراً وقاموا إلى أهلهم يتميزون. وبقي التغلبيون، فقال لهم المهلهل: (يا قوم! أما الحرب فانه لا يقف في سبيلي إليها خوف أو جزع، ولا يتكاءدني في طريقي إليها خور أو فزع، والقوم قد لجوا في عتو ونفور، وسأخسف بهم الأرض فإذا هي تمور. فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً، قال كبيرهم (إن المهلهل لا ينثني. والرأي عندي أن نبعث نفراً منا إلى بكر يعرضون عليهم. الفداء مشتطين فيه حتى لا يكون لبكر قبل بأدائه، ولا يجدوا سبيلاً إلى وفاءه، فان عجزوا - وسيعجزون - كان لنا في حربهم سبب ومعذرة) وابتلوا من بينهم ثلاثة بالسفارة إلى مرة بن ذهل ابن شيبان وهو أبو الحرث

وأبو هام وأبو جساس وأبو جليلة.
قالوا له (إنكم أتيتم عظيماً بقتلكم كليباً بناب من الأبل، فقطعتم الرحم، وانتهكتم الحرمة، وإنا كرهنا العجلة عليكم دون الاعذار اليكم، ونحن نعرض خلالاً أربعاً لكم فيها مخرج ولنا مقنع)
فقال مرة (وما هي؟) قالوا: (تحيى لنا كليباً! أو تدفع إلينا جساساً قاتله فنقتله. أو هماماً أخاه فانه كفء له، أو تمكنا من نفسك فان فيك وفاء من دمه) قال: (أما إحيائي كليباً فهذا ما لا يكون، وأما جاس فانه غلام طعن على عجل ثم ركب فرسه فلا أدري أي البلاد احتوى عليه، وأما همام فانه لن يسلمه الى أبناؤه العشرة، ولا أخوته العشرة، ولا أبناء أخوته العشرة أولئك جميعاً لا يدفعون به إليّ ولا إليكم، وهم فرسان قومهم لتقتلوه بجريرة غيره، وأما أنا فهل هو إلا أن تجول الخيل جولة غداً فأكون أول قتيل بينها، فما أتعجل من الموت ولكن لكم عدني خصلتان: أما إحداهما فهؤلاء بني الباقون فعلقوا في عنق أيهم شئتم نِسْعَةً فانطلقوا به الى رجالكم فاذبحوه ذبح الجزور، وإلا فألف ناقة سوداء المقل أقيم لكم بها كفيلاً من بني وائل)
قالوا: (لاّ) بملء أفواههم , وأصروا واستكبروا استكباراً
وارحمتاه لهذا الشيخ المنكود مرة بن ذهل، هذه ابنته جليلة قد قتل زوجها فعادت إليه مكلومة الفؤاد مهيضة الجناح، وهذا ابنه جساس قد قتل زوج أخته وفر لا يعلم له مستقر، وهذا ابنه الحرث بن مرة فر من الموت في وقعة النهي فأدركه الموت في وقعة الذنائب إثر طعنة من كعب بن زهير، وهذا ابنه همام طلب للموت يوم عرض الفدية فضن به أبوه، وطلبه الموت يوم (واردات) فما استطاع أبوه للموت رداً وعزيز علي القوم أن يموت همام أبو العشرة وأخو العشرة وعم العشرة. ولقد أصاب موته الوتر الأرن من قلب المهلهل، والمهلهل قد علمت غليظ القلب مصدور، شديد البأس موتور، وقف عند همام وهو طريح تسيل دماؤه على الأرض وتصعد روحه الى السماء تشكو الى بارئها ظلم الإنسان للإنسان وقال: (والله ما قتل بعد كليب قتيل أعز على فقداً منك)
وتحدث القوم عن موت همام، وعن نكبة أبي همام وقد ابيضت عيناه من الحزن، وقال الملأ: (أما لهذه الويلات من آخر؟ هذا المهلهل يقطر قلبه حزناً لقتل همام ولكنه يمضي في بغية واستئساده كأنما رءوس بكر زرع قد وكل بحصاده)
ولم تكن الحرب سجالاً بين الفريقين حتى اليوم، بل كانت الغلبة لتغلب، أما غداً فسيكون لها شأن آخر
أخرجها: احمد الطاهر
البريد الأدبي
ضوء جديد على حياة موباسان
منذ بضعة أعوام احتفل في فرنسا بتخليد ذكرى الكاتب القصصي الأشهر جي دي موباسان، وأقيم له نصب تذكاري في بلدة مسقط رأسه ميرومزنل؛ ونوه وزير المعارف في خطابه الذي ألقاه يومئذ بما لقيه موباسان أثناء حياته وبعد وفاته من النكران، وبما يجب لفنه وتراثه الرائع على الجيل الفتي من تقدير وعرفان، واليوم تصدر طبعة جديدة مصورة لتراث موباسان له يشترك في تصويرها بول فولكي وشاس لابورد وبونفليس من أعظم مصوري فرنسا. وقد صدرت منها الأجزاء الثلاثة الأولى بعناية الكاتب رينه ودمزنل مترجم موباسان مصورة بدراسة جديدة ضافية للنواحي البارزة في حياة القصصي الأكبر وفنه، وفيه يهدم دومزنل نظرية قديمة عن الأثر الذي تركه مرض موباسان العقلي في أعوامه الأخيرة في بعض قصصه، ولا سيما قصة (لاهورل) التي قيل عنها إنها دائماً تمثل مرحلة الاضطراب العقلي لموباسان؛ فيقول لنا دومزنل إن المرض شيء والقصة شيء آخر وإن موضوعها قد أعطى لموباسان من صديقه ليون هنك، وإن ما قيل بعد ذلك من أنها كتبت بقلم مجنون أو مخبول العقل إنما هو افتراء محض، ويستدل دومزنل بذلك على ما رواه الكاتب الإنكليزي فرنك هاريس في كتابه (حياتي وحوداث غرامي) وقد كان صديقاً حميماً لموباسان منذ سنة 1880، ويتفق هاريس مع بعض أولئك الذين لقوا موباسان في أن مظهره لم يكن يدل على عبقرية أو مواهب ممتازة، وأنه كان في مجالسه الأدبية متحفظاً، ولما كتب (لاهورل) أرسل إلى فرنك هاريس يقول: (سيقول معظم النقدة

إنني قد جننت، ولكن إياك أن تخدع بأقوالهم، فأنني متمتع بكامل صحتي وعقلي) فرد عليه هاريس في محادثة جرت بينهما بأن الروع الذي أثارته هذه القصة في نفسه (اي موباسان) لابد أن يكون قد أثر في أعصابه، فأكد له موباسان أنه مخطئ. ولكن هاريس يقص إلى جانب ذلك أن موباسان كان مفرطاً في مطارداته الغرامية، وأنه كان دائماً أبداً صريع الغانيات لا يكاد يفارقهن. والواقع أن موباسان كان عملاقاً جباراً يفر في كل شيء في العمل وفي اللهو؛ وما يكتبه عنه هاريس في كتابه يكشف عن حقائق وسوآت كثيرة في حياته وخلاله الشخصية لم يتناولها مترجموه وأصدقاؤه الذين كتبوا عنه

وقد أثار ظهور هذه الطبعة الجديدة لتراث القصصي الأشهر اهتماماً عظيماً في دوائر الأدب والفن

ملك النور

سبق أن ذكرنا أن بعثة علمية سافرت الى الهند لتبحث عن أصل النور (الفجر)، لما هو ذائع من أن أصل النور يرجع الى بعض القبائل والأجناس الهندية التي تعيش على ضفاف نهر الكنج، ولما هو مقرر من أن معظم اللهجات التي يتكلمها النور تحتوي على كثير من الألفاظ الهندية. ونضيف هنا أن ملك النور - لأن للنور ملكا غير متوج - قرر أخيراً أن يسير الى ضفاف الكنج في موكبه الملوكي ليقف على المباحث التي ستجرى عن أصول النور وأحوالهم. وهذا الملك أو الزعيم هو نوري رومان يدعى ميشيل كفيك، ومقره على مقربة من مدينة شرنوفتر. وقد نظم ميشيل كفيك موكبه الملوكي في ظاهر شرنوفتر، ونصب خيمته المحلاة بالذهب، وأخرج جميع عرباته وخيوله، وحوله أقطاب النور يرفلون في ثيابهم المزركشة، ويعتبر ميشيل كفيك ملكاً على جميع النور في العالم، وعددهم يبلغ زهاء أربعة عشر مليوناً، وقد انتخب للعرش هذا العام في مؤتمر عقد في بعض غابات بولونيا؛ وهو ينوي أن يسير بركبه الى ضفاف الكنج، وينشيء هناك (دولة نورية)، ومن الطريف أن نعرف أنه توجد بالفعل مجلة نورية في روسيا لها صفة رسمية وتسمى (بيروبدجان)، وأن لها علائق رسمية بحكومة السوفيت. وقد حادث مكاتب جريدة الجورنال في بوخارست ملك النور، وسأله في شيء من التهم عما إذا كان يزمع بعد تأسيس دولته الجديدة أن تلتحق المملكة النورية بعصبة الأمم، فأجابه أنه سيعني منذ البداية بتحقيق هذه الغاية

كتب عن كليوباطرة

أصدرت الكاتبة الفرنسية المعروفة (مريام هاري) كتاباً عن (كليوباطرة) ملكة مصر التي عاصرت عصر هيرود الأكبر وعصر المسيح. ومن المعروف أن مريام هاري كتبت من قبل عدة فصول تقول فيها إن جثة ملكة مصر الحسناء توجد في الواقع في فرنسا، وإنها دفنت في باريس، في ناحية من متحف اللوفر؛ ذلك أنها اخذت ضمن ما أخذ الفرنسيون من المومياوات والآثار المصرية، ووضعت هنالك في ناووس، واستمرت كذلك نحو ستين أو سبعين عاماً؛ ثم تغيرت رائحة المومياء ودب إليها العطب، فقررت إدارة المتحف أن تدفنها في ناحية من المتحف ونفذ هذا القرار بالفعل، ولكن مكان دفنها الحقيقي لم يعين ولم يعرف بعد. على أن رواية مريام هاري تفتقر إلى كثير من عناصر الإثبات، ولو أنها أثارت وقت اذاعتها كثيراً من الاهتمام. وتحاول مريام هاري في كتابها الجديد أن تعرض حياة كليوباترة الملكة المستبدة، والمرأة الحسناء الرائعة، التي ما زالت قصص غرامها، ولياليها الغرامية الخيالية ونزهاتها الشهيرة في النيل، مستقى لكثير من الفنانين والكتاب المحدثين

احتجاج غريب للناشرين الفرنسيين

ذكرنا في فرصة سابقة أن لجنة خاصة ألفت تحت إشراف وزارة المعارف الفرنسية للعمل على إصدار الطبعة الثانية من دائرة المعارف الفرنسة التي صدرت منذ نحو نصف قرن واضحت قديمة ناقصة. والمعروف أن هذه الطبعة الجديدة التي سيبدأ صدورها منذ هذا العام (سنة 1935) ستعرض للبيع بثمن معتدل يفي بتكاليف إخراجها فقط. وقد كان في ذلك ما يدعو للمديح والرضى ولكنه كان بالعكس مثار الاحتجاج والنقد. ذلك أن مسيو ارستيد كييه رئيس نقابة الناشرين ومديري الصحف والمجلات قد رفع إلى رئيس الوزارة الفرنسية مذكرة يحتج فيها باسم نقابته على ما قررته

الحكومة من بيع دائرة المعارف للجمهور بثمن استثنائي باعتبار أنها مشروع علمي لم يثقل بنفقات أو ضرائب إضافية؛ ويقول مسيو كييه في مذكراته إن مثل هذا المشروع يعرض الناشرين الفرنسيين إلى منافسة غير عادية؛ ويطلب إلى رئيس الوزراء أن تصدر دائرة المعارف طبقاً للعرف العام وأن تباع طبقاً للظروف التجارية العامة، حتى لا يسيء ظهورها بهذه الصفة إلى مصالح الناشرين الفرنسيين

وفاة فنان شهير

توفي أخيراً لوسيان فوجير الفنان والمغني الشهير في عامه الثامن والثمانين. وقد لبث فوجير مدى نصف قرن في طليعة أساتذة الغناء في فرنسا، وبدأ حياته في مسرح (باتافلان) منذ سنة 1870، ثم تنقل في عدة مسارح حتى انتهى الى (الأوبرا كوميك) وذاعت شهرته

عنئذ، وبرز بفنه وابتكاره؛ ووضع أناشيد وأغاني كثيرة كانت تلقي نجاحاً عظيماً. ومن غريب أمره أنه ظل حافظاً لقواه الفتية، ومواهبه الغنائية حتى آخر سني حياته؛ وكان في العام الماضي ما يزال يجذب الجماهير حيثما يغني

ذكرى علامة طبيعي

يتأهب أصدقاء الكاتب الطبيعي لوي ديبري للاحتفال هذا (العام سنة 1935) بمرور خمسين سنة على وفاته، وستقام بهذه المناسبة لوحة تذكارية في قريته (روفر). وقد توفي ديبري في عنفوان شبابه، في الثانية والعشرين، وفي ظروف مؤثرة، إذ توفي في سجنه حيث كان يقضي شهراً حكم به عليه من أجل كتابه الذي ألفه مع هنري فيفر وعنوانه (حول بزج الأجراس).

وقد كان لهذه القضية يومئذ ضجة كبيرة واحتج عليها أقطاب العصر مثل راول وجونكور ودوديه وكليمنصو وغيرهم

عنكبوت عجيب

بينما كان بعض العمال ينقبون في أحد البيوت القديمة في بلدة شومنيان هفان بالقرب من شنغاي في الصين، رأوا عنكبوتاً غريباً في شكله، عجيباً في تركيب جسمه، له وجه يشبه وجه الإنسان، رأسه عريض كبير، ووجهه يميل الى البياض، وله فوق عينيه حاجبات أسودان وأنف أسود وشفة بيضاء

وقد أرسل هذا العنكبوت الغريب الى معهد تعليم الشعب في شنغاي لعرضه على العلماء ليقولوا رأيهم فيه

من روائع الشرق والغرب

مغرب الشمس في البحر

لأمير النثر الفرنسي (شاتو بريان)

من كتابه (عبقرية المسيحية)

بقلم أحمد حسن الزيات

كانت السفينة التي كنا نعبر بها المحيط إلى أمريكا فوق سوية الأرض اليبس؛ فلم يعد أمامنا مد الفضاء، غير طبقين من زرقة البحر وزرقة المساء! فكأنما كان نسيجاً أعده مصور فنان ليتلقى عليه آية إلهامه وإبداع فنه. وكان لون الماء قد ارتد إلى لون الزجاج المذوب؛ وقد سرت في الموج رعدة قوية جاءته من ناحية المغرب، مع أن الريح كانت تهب حينئذ من جهة المشرق، ثم ثارت من الشمال إلى الجنوب أمواج عالية، كانت تفتح في ثنايا أوديتها فُرجاً طويلة يقع النظر منها على صحاري المحيط.

كانت هذه المناظر المنتقلة تختلف وجوها في كل لحظة: فتارة تكون سلاسل من الربى المخضرة، كأنها أخاديد الأحداث في مقبرة واسعة، وتارة تكون إرسالا من الموج تتراغى أعإليه فتحكى قطعاناً من الغنم البيض قد انتشرت في حقول الخَلْج؛ وغالباً ما ينطبق الفضاء فلا ينطبق عليه تشبيه، فإذا ارتفعت موجة على متن المحيط، وانخفضت لجة فصارت كالساحل البعيد، ومر رَعيل من كلاب البحر في خط الأفق، انفتح الفضاء أمامنا فجأة. إنما كنا نتصور اتساع المدى وانفساح الطرف إذا ما تسحب على وجه البحر ضباب خفيف، فكأنما كان يزيد في سعة الافق، ويدفع في امتداد الجو!

آه! لشد ما كانت صور الأقيانوس في تلك الساعة مظهر عظمة ومثار حزن! ولله تلك الأحلام التي يلقيك فيها ويغمرك بها! سواء بايغال الخيال في بحار الشمال بين الصقيع والزوابع، أو بإرسائه في بحار الجنوب على جزر الرخاء والغبطة؟

كان غالباً ما يحدث أن نهب من النوم بعد وهن من الليل فنجلس على ظهره السفينة حيث لا نجد إلا ضابط النوبة وبعض البحارة يدخنون غلايينهم في سكون وصمت، وكان كل ما يقع في الأذن إذ ذاك إنما هو صوت السفينة تشق بحيزومها عباب المحيط، على حين كان

شرار من النار يجري مع الزبد الأبيض على جانبي المركب. سبحانك اللهم!! لقد نقشت في كل شيء آي قدرتك، ولا سيما في أطباق اللجج وأعماق السموات: ملايين من النجوم تشع في القبة الزرقاء، وبدر ثم يتألق في كبد السماء، وبحر لجي من غير ساحل ولا حد، ولا نهايةٌ في السماء وعلى الماء! أبداً ما هزت قلبي عظمتك بمثل ما هزته في هذه الليالي، وأنا معلق بين الكواكب والأقيانوس، فوق رأسي سعة لا تحد، وتحت قدمي سعة لا تقاس

أنا لست شيئاً، إنما أنا ناسك ساذج. ولطالما سمعت العلماء يجادلون في (الكائن الأول) فلم أفهم عنهم. ولكني لاحظت أن هذا الكائن المجهول يستعلن وجوده في قلب الإنسان كلما نظر في المشاهد العظمى للطبيعة

ففي ذات ليلة ساجية الجو هفافة الريح، وجدنا أنفسنا في تلك البحار الجميلة التي تنضح شواطئ (فرجينيا)، وكانت الشرُع كلها مطوية؛ وكنت أنا مشغولاً داخل السفينة حين سمعت الناقوس يدعو البحارة الى الصلاة، فأسرعت مع رفقاء السفر أمزج دعواتي بدعواتهم، وأضم صلاتي إلى صلواتهم. وكان الضباط والركاب قد أخذوا مواقفهم على كوثل السفينة، والقسيس في يده كتابه قد وقف من دونهم قليلاً، والملاحون قد انتشروا على ظهر المركب. وكنا جميعاً واقفين ووجوهنا شطر قيدوم السفينة وهي ناظرة إلى المغرب. وكان قرص الشمس وهو على أهبة المغيب في الماء، يتراءى من خلال الجبال في وسط الفضاء، فكان يخيل إلي من نوسان كوثل السفينة أن الكوكب المضيء يغير أفقه في كل لحظة! وكانت قطع من السحاب قد انتثرت على غير نظام في المشرق، والبدر البازغ قد أخذ يرتفع بطيئاً في الأفق، وكانت بقية السماء صافية الأديم سافرة الوجه؛ وفي جهة الشمال انبعث من البحر إعصار يتألق بألوان المنشور الزجاجي كأنه عمود من البلور قامت عليه قبة السماء، فتألف منه ومن كوكب النهار وكوكب الليل مثلث باهر الجلالة!

إن الرجل الذي لا يدرك جمال الله في هذا المشهد ليستحق الرثاء والرحمة! أسبلت أوراق عيني على الرغم مني حين حسر الرفاق قبعاتهم المقطرنة عن رءوسهم وأنشدوا بصوت أصحل أبح نشيدهم البسيط: (سيدتنا صاحبة المعونة وحامية البحارة) لشد ما أثر في نفسي صلاة هؤلاء الرجال وقد وقفوا وسط المحيط على لوح هَشٍ من الخشب يتأملون الشمس وهي تغرب في اللجة: فالشعور بحقارتنا أمام عظمة اللانهاية،

وأناشيدنا المرسلة على الأمواج، ودنو الليل بويلاته ومكائده، وسفينتنا العجيبة في بحر مسجور بالعجائب، وفريق من البحارة استولى على قلوبهم الإعجاب والخوف، وقسيس جليل عاكف على الصلاة، والله الذي تجلى للبحر فأمسك بإحدى يديه الشمس على حجاب المغرب، ورفع بالأخرى القمر من مهاد المشرق، وهو يسمع من خلال الفضاء المطلق أصوات خلقه، كل أولئك لا يستطيع قلم أن يصوره، ولا قلب مهما دق شعوره أن يتصوره!

الزيات

دعاء

لشاعر الحب والجمال لامرتين

أشار لامرتين في كتابه (رفائيل) الى الأشعار الأولى التي (انجست من قلبه) والتي قرأها (دون أن يجرؤ على رفع بصره الى رفعها إليها)

ومن المحتمل أن تكون هذه الابيات:

أنت يا من ظهرت لي في صحراء هذه الدنيا! يا ساكنة السماء وعابرة هذه الأرض! يا من أضأت لي بشعاع من الحب هذا الليل الغاشي! اظهري بشخصك كله لعيني المشدوهة، وقولي لي ما اسمك، وما وطنك، وما حظك؟ أأنت من سلالة أرضية، أم أنت من نفحة قدسية؟

أتذهبين غداً إلى شهود الضياء الخالد؟ أم لا يزال أمامك في دار البعاد ودنيا الحداد

وموطن البؤس خُطى تقطعينها في طريقك الشاق المتعب؟ مهما يكن اسمك وحظك ووطنك يا ابنة الأرض أو يا ابنة السماء، فدعيني ما دام ينبض بالحياة قلبي، أقدم إليك عبادتي أو حبي
إذا وجب عليك مثلنا، أن تستوفي أجلك وتبلغي مداك، فكوني سندي ودليلي، واسمحي لي أن أقبل في كل مكان غبار خطواتك المحبوبة. أما إذا طرت يا أخت الملائكة عن دنيا الشقاء والجحود، لتعيشي بجوارهم في دار النعيم والخلود، فاذكريني في ملكوت السماء، بعد أن أحببتني أياماً على هذه الغبراء!
الزيات
الكتب
على عتبة الأمومة
تأليف الدكتور مصطفى الخالدي
ليس هذا الكتاب كما يتبادر الى الذهن كتاب طب وضع للأطباء، بل هو كتاب من كتب الثقافة العامة، وضع لكل شابة وشاب، ألفه الدكتور الخالدي، الأستاذ في فن التوليد والأمراض النسائية في جماعة بيروت الأمريكية، ويقع في مائتي صفحة كبيرة، متقن الطبع، جميل السبك، متين الورق
وقبل أن أحدث القارئ عن مباحث هذا الكتاب النافع، أشير الى ناحية فيه قد عظم إعجابي بها: ذلك أن الدكتور المؤلف قد بلغ حداً فائقاً من المهارة في تقديم المسائل العلمية والفنية الى عامة القراء، مما جعل كتابه في متناول كل قاريء، يفهمه في غير عسر، بل يقبل عليه في شغف ولذة، هذا الى ما احتوى عليه من صور دقيقة واضحة، تبين أجزاء البحث، ومنها عدد يتعلق بناحية الجمال والعاطفة دون أن يبعد عن المقصد الذي يسعى إليه المؤلف، إذ كان محوره بيان الأمومة السعيدة والطفولة السعيدة وينبغي أيضاً أن أشير الى الأسلوب الذي نهجه الدكتور، فهو أسلوب من حدد موضوعه ورسم جزيئاته في نفسه، وتبين غايته منه، فاستطاع أن يكون سهل الأداء قريب المأخذ، بعيد المرمى، مما يتفق مع طبيعة هذا الكتاب وموضوعه الدقيق
والكتاب بعد ذلك مزيج من العلم والعاطفة، فموضوعه الإرشاد في ضوء القواعد والأصول، وغايته إسعاد الأم والأبناء، مع الشعور دائماً (بأن المحيط الذي سيخدمه هذا الكتاب هو محيطنا الشرقي الذي يقدس الشرق والحياء الجنسي، فلا تخجل من قراءته العذراء، ولا يجد القارئ طي صفحاته إلا كل ما يخص على اتخاذ المثل العليا في الحياة غاية لسعادة الأمومة والحياة)
افتتح المؤلف كتابه، بتلك الأسطورة الهندية الشهيرة في خلق المرأة، ثم قدم لبحثه في كلمة
أشار فيها الى تسلط الأوهام والخرافات على كثير من العقول فيما يتعلق بأمر الحمل والولادة بسبب الجهل، مؤدياً قوله ببعض الحوادث التي صادفته وبعض الإحصاءات التي اطلع عليها
بعد ذلك أورد كلمة في الانقسام الخلوي وتكوين الجنين، ثم شرح في دقة وسهولة الأعضاء التناسلية في المرأة، وما يطرأ عليها في سن البلوغ، وتكلم عن الاشتراكات إبان الحمل، وعن الولادة والنفاس والطفل الوليد، وما يجب اتخاذه من وسائل العناية أثناء الحمل والولادة وعقب ذلك، وأختتم موضوعه الخطير بفصل ممتع في الغريزة الجنسية، وبيان بعض الأمراض، وبعض المسائل التي تشغل بال الإنسان في شبابه، ثم بكلمة رقيقة حصيفة الى المتزوجين ومن هم على أهبة الزواج
وإني لأشكر الدكتور المؤلف، معترفاً له بجميله هذا، فلقد استمتعت بقراءة هذا الكتاب واحببته حباً عظيماً، يدعوني الى أن أتقدم الى القراء بخالص النصح عسى ألا تفوتهم قراءة هذا الأثر النافع الجميل
مرآة النساء
تأليف الأستاذ محمد كمال الدين الأدهمي
يطلب من مكتبة صبيح بميدان الأزهر ثمنه ثمانية قروش عدا أجرة البريد
يقع هذا الكتاب في مائتين وأربعين صفحة من القطع المتوسط، ألفه الأستاذ الشيخ محمد كمال الدين الأدهمي بقلم المحفوظات التاريخية بديوان جلالة الملك، وقد جمع

فيه كثيراً مما ذكر قديماً وحديثاً عن المرأة في جميع نواحي حياتها، فأورد بعض ما قيل في مدح النساء والدعوة إلى الرفق بهن، وبعض ما ذكر فيهن على لسان الشعراء والأدباء واوصاف المرأة الصالحة ومسلكها كربة بيتها، ومقاييس الجمال النسوي ومباريات الجمال وأدب المرأة ومبلغ علمها، وعناية الإسلام بشؤونها، وما جاء في الشريعة عنها من الأوصاف، مع ذكر تراجم الكثيرات من شهيرات النساء كالسيدة عائشة رضي الله عنها وكأم هارون الرشيد وقطر الندى وشجرة الدر، وعائشة التيمورية

كذلكتعرض الأستاذ لمسألة الحجاب والسفور وما قيل في هذا الباب في الشرع وما ثار فيه

من جدال بين المفكرين والكتاب

فأنت ترى أن الكتاب أشبه بالجمع منه بالتأليف على أن لكل عمل ثوابه إذا كانت وجهته لخير الصالح العام، وإنك لن تعدم في مطالعة هذا الكتاب الاستمتاع بما ورد في شتى الكتب عن النساء من طرف أدبية ومن بحوث مفيدة، وقد انتظم الكثير منها بين دفتيه، ولعل القارئ حين يطالعه ينفتح له كثير من الموضوعات الجديرة بالبحث فيما يتعلق بالمرأة الشرقية في نهضتها الحالية، وبعين له من أوجه البحث ما نحن في أشد الحاجة إليه.

وإني لأشكر للأستاذ الأدهمي ما بذل من مجهود وما توخى من خير الخفيف

القصص المدرسية

قال الأساتذة: سعيد العريان، وأميندويدار، ومحمود زهران مؤلفو هذه القصص المدرسية:

ليس من شك في أن الطفل بطبعه ولوع بالقصة؛ وأن الأدب العربي على سعته) وغناه يكاد يخلو من القصة السهلة التي يستطيع الطفل أن يقرأها في رغبة وشوق. فبينما نرى الآداب الأجنبية حافلة بكل ما يجذب الطفل ويحبب إليه القراءة والمطالعة، نجد الأدب العربي يكاد يخلو جملة من (أدب الطفل)؛ وبينما الطفل الأجنبي يتلقى أكثر معلوماته عن الحياة في أسلوب (القصة) الجذاب - نرى الطفل العربي يتلقى أكثر مسائل العلم في أسلوب جاف، وطريقة لا تلائم طبيعته المرحة

ولاشك أن المدرسين أكثر إحساساً بهذه الحقيقة، واشد شعوراً بحاجة الطفل العربي إلى أدب سهل يشوقه ويجذبه، ويوافق نزعته وميله. هذا الشعور الذي دفعنا إلى أن نحاول سد هذا الفراغ، بوضع قصص سهلة تلائم طبع الطفل وتتمشى مع روحه، فبدأنا بوضع سلسلة من القصص، سميناها: (القصص المدرسية)

ورمينا فيها إلى الأغراض الآتية:

(1) - أن تكون وسيلة إلى تعليم الانشاء؛ فجعلنا أسلوبها سائغاًمفهوماً، لا يبعد من الفصحى، ولا يتدنى إلى لغو العامية؛ وحاولنا بسبيل ذلك أن نقرب بين اللغة التي يتكلمها التلميذ، والعربية التي يتعلمها؛ فأبقينا على كلمة عامية لها في العربية أصل يؤيدها، غير

وانين في التنقيب والبحث في كتب اللغة عن كل كلمة في مظانها ووضعنا تحت عين التلميذ نماذج من جيد الانشاء، مبثوثة في تضاعيف القصة، مفرقة في حواشي الكلام ليسهل على التلميذ تناولها من غير أن يشعر بسأم المتعلم؛ فلا يكاد يأتي على القصة حتى يكون قد اجتمع له من فصيح الكلام قدر يعنيه على تجويد المحادثة والإنشاء

(2) - وأن تكون وسيلة الى تهذيب الطفل؛ لذلك عنينا بأن يكون موضوع قصصنا غير بعيد من جو التلميذ، بحيث يسهل عليه تصوره ومتابعته بخياله، وبحيث يتهيأ له أن يعرف الطريق الى الرجولة الفاضلة من غير أن يلتوي عليه السبيل

(3) - وأن تكون وسيلة الى تسليته؛ ولهذا حاولنا ما استطعنا أن نجعلها جذابة في كل شيء؛ صغيرة الحجم، يستطيع الطفل أن يضعها في جيبه ليقرأ فيها متى وأنى شاء، مشكولة، ليمكن التلاميذ قراءتها بغير معاناة؛ جميلة مصورة، زاهية اللون، لتدعو الطفل إليها بمنظرها الجميل، كما جعلناها رخيصة الثمن، ليكون في طاقة كل تلميذ أن يحصل عليها، طيبين نفساً بما نبذل من وقت ومال وراحة في سبيل الغرض الذي ننشده؛ فان أفلحنا في الوصول إليه فذاك حسبنا، وإلا فإننا ماضون في طريقنا دائبون

(على تكميل كل نقص نراه أو يلفتنا إليه الناصحون
وقد نشر الأساتذة الفضلاء قصتهم الطفلية الأولى وهي (مُدمس أكسفورد) تقع في 54 صحيفة، مشكولة كلها بالشكل الكامل. وموضوعها جذاب طلي. يصل بنفسه الى أعماق نفس التلميذ، ويجمع له بين القراءة والتفصح والتهذيب ويرمي بهمته الى بعيد، ويسمو بعواطفه الى أعلى
وقد ختمت هذه القصة باستخراج سبعة موضوعات إنشائية منها، مبينة في آخرها، ليكتب فيها التلميذ الصغير؛ فكانت القصة بذلك جامعة بين القراءة والكتابة، محققة لأغراض الأساتذة المعلمين
وثمن كل قصة خمسة مليمات، وتطلب من إدارتها بطنطا
العدد 85 - بتاريخ: 18 - 02 - 1935
الملك علي. . . .
تلقيت نعي الملك النبيل علي بن الحسين كما أتلقى نعي قريب؛ فقد كان رضوان اله عليه مثال الفطرة العربية النقية: يقبل على زائره بأنسه، ويمكن لجليسه من نفسه، ويزيل الفوارق بين محدثه وبين شهصه، حتى يصدر عنه الوارد عليه وفي ذهنه صورة من جلاله لا تحول، وفي قلبه عاطفة من حبه لا تزول، وفي نفسه أثر عن ذاته لا يعفو.
لا يُلقى في روعك حين تلقاه طوح الزعيم، ولا جفاء القائد، ولا دهاء السياسي، ولا سورة المَلِك، وإنما تجد في خلائقه فوحة المجد، وتقرأ في ملامحه عنوان الطيبة، وتعرف في حديثه لهجة السيادة، وتذكر في نبرات صوته ولحظات عينه ولفتات ذهنه ذلك الروح القوي الذي انبث في موات الوجود من بني هاشم!
نعي الناعي فيصلاً فقال الناس بطلٌ من أبطال العالم قضى، ونعى الناعي علياً فقال العرب سيد من سادات العروبة خلا؛ لأن فيصلاً حكم في شروق مُلك عائد، فكان عزمه لا تسعها قدرة، وفكرة لا يحصرها أفق، وطموحاً لا يحده غاية؛ ولأن علياً حكم في غروب مُلك بائد، فكان أمراً لا يمضيه سلاح، وأملا لا ينهضه جناح، وصلاحاً لا تؤاتيه فرصة؛ ثم كان مصير الرجلين مصير خلقين مختلفين: خلق اتسع لخُدَع السياسة، وشُبه الحكم، وأهواء النفوس، وخلق انحصر بين حدود الشرف الموروث، وسنن الدين المتبع، وتقاليد العرب المحتومة
كان الملك علي وهو أمير المدينة أو ولي العهد أو خليفة الحسين، مثل السيد الكريم والأمير السمح والملك المؤمل، ولكن موجة (الاخوان) كانت قد دفعت بحطام الحين إلى شواطئ جدة، فلم يستطع الملك الجديد أن يستمسك به في مهب الرياح الهوج ومضطرب الموج الثائر، فانتزع من تاجه المقدس مفاتيح الحرمين ثم وضعهما في يد الفاتح ونجا علي (الرقمتين) في ضباب من اليأس لا يشع في جنباته أمل
نزل الملك الغريب سواد العراق نزول الكريم على الكريم فتلقاه بوده، وصفق له من ورده، وبوأه من زعامته المكان الأول بعد فيصل. فكان في السياسة العراقية برهان الله في يقظة الشهوة، وصوت العدل في طغيان الهوى، وهدى المشورة في ضلال الرأي، ورسول الخير في أزمة الحاجة. وكان قصره القائم بالكرادة على الشاطئ الأيمن من دجلة بلاطاً للجلالة الحائرة بين الحجاز والعراق وسورية، تُقضى بين أبهائه الأمور الجسام، وترف على بفنائه
الآمال الباسمة. ولكن حياة بغداد الدافقة بالنعيم الغارقة في اللذة، لم تستطع أن تُنسى الملك الحزين عرشه الصخري في الوادي الجديب؛ فكان لا يفتأ يحن إلى مُلكه المغضوب حنيناً شعرياً صامتاً يذيب الكلي ويستوقد الجوان، إلا أن أثره لا يبين تحت سمة الملك إلا لمن دخل في أمره ووقف على سره
كنت كثيراً ما أقضي أصيل اليوم في حضرته، وكان (مفتي بغداد) لا ينقطع عن مجلسه في هذه الساعة؛ وكان للملك رحمه الله عطف على منشؤه فيما أظن للأدب، وميله إلى مصر، وأنسه بالغريب. فهو يجب أن يناقلني الحديث، ولكن (المفتي) سامحه الله رجل يرى من حق العالم أن يقول في كل شيء وأن يجيب عن كل شيء، وهو لا ينطق إلا ببيت من الشعر أو أثر من الحديث أو آية من القرآن؛ أما ارتباط ما يقول بما يسمع فذلك ما كنا نعجز دائماً عن فهمه. كان الملك يبدأ الكلام فلا يكاد يمضي فيه حتى يقطعه عليه بحكاية عرضية أو مسألة فقهية! فأرفع طرفي اليه لعل عزة الملك تشع في عينه أو تثور في وجهه، فلا أجده إلا باسماً للمتكلم، مصغياً كالمتعلم، هادئاً

كالشعاع الشاحب في شفق الخريف! على أنه كان يصحح للشيخ ما يَقْمشُ من الشعر وينتف من الأمثال، ويتخذ ذلك مادة للحديث وموضوعاً للمشاركة، فيسفر قوله عن ذوق صاف وبصيرة نافذة.

ولا أنسى ما حييت استشهاده في بعض الكلام على قلب الميم باء في قول بعض العرب بكة في مكة، بالمثل المعروف: (تمخض الجبل فولد فأراً) مرجحاً أن الجبل هو الجمل في لحن هذه القبيلة

لذلك كان إذا شاء الحديث صفواً من المقاطعة واللغو أمرني فمثلت بين يديه في ساعة بعينها، فيقضي إلي بطرَف من ماضي حياته، أو يملي على بعضاً من مذكراته. وقد لا يكون من المناسب اليوم - وأنا في موقف الرثاء والعزاء والأسى - أن أثبت في هذا المقام شيئاً من ذلك

ولكنه كان يلهج دائماً بمصر، ويرصد كوكب آماله في مصر. . . وحاول أن يقنع المصريين الذين خاصموه في سبيل الترك أن ثورتهم على الخلافة كانت بالحق وللحق، وأن أباه لم يال الترك نصحاً ألا يطأطئوا إشراف العرب، وألا يغمزوا نحوه العرب، وان يعدلوا عن سياسة الجهل، ويكفوا عن جرائم القتل، فاستغشوا الناصح وذهبوا بأنفسهم

مُمعنين في الضلالة وللفقيد العظيم آراء حصيفة في رجال الثورة وساسة العراق ووحدة العرب، أرجو أن تتاح لتسجيلها المناسبة إنصافاً لهذا الرجل الذي أخرج من دياره عنوة، وكابد أكلاف المُلك من غير ثروة، حتى عاد كالطائر المهيض أو الملك الهابط، يختنق في مجثمه وبصره في الفضاء، ويلتصق بالأرض وروحه في السماء!

أحمد حسن الزيات

زوجة إمام

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

جلس جماعةُ أصحاب الحديث في مسجد الكوفة، ينتظرون قُدومَ شيخهم الأمام (أبي محمد سليمان الأعمش) ليسمعوا منه الحديث، فأبطأ عليهم؛ فقال منهم قائل: هلموا نتحدثْ عن الشيخ فنكون معه وليس معنا. فقال أبو معاوية الضرير: إلى أن يكونَ معنا ولسنا معه! فخطرت ابتسامةٌ ضعيفةٌ تهتزُ على افواه الجماعة لم تبلغ الضحك، ومرت لم تُسمع وكأنها لم تُرَ، وانطلقتْ من المباح المعْفُو عنه. ولكن أكْبرَها أبو عَتاب منصور بن المُعْتَمِر فقال: ويلك يا أبا معاوية! أتتندرُ بالشيخ وهو منذ الستين سنة لم تَفُتْه التكبيرةُ الاولى في هذا المسجد، وعلى أنه مُحدث الكوفة وعالِمُها، وأقرأ الناس لكتاب الله، وأعلمهم بالفرائض، وما عَرَفت الكوفة أعبدَ منه ولا أفقه في العبادة؟

فقال محمد بن جُحَادة: أنت يا أبا عتاب، رجلٌ وحدك، تُواصِلُ الصومَ منذ أربعين سنة، فقد يَبسْتَ على الدهر وأصبح الدهر جائعاً منك، وما بَرحتَ تبكي من خشية الله، كأنما اطلعت على سواء الجحيم، ورأيت الناسَ يتواقعون فيها وهي لهبٌ أحمرُ يلتفُ على لَهب أحمر، تحت دخان أسود يتضربُ في دخان أسود، يَتَغامسُ الإنسان فيها وهي مِلءُ السموات، فما يكون إلا كالذبابة أو قدوا لها جبلاً ممتداً من النار، ينطاد بين الأرض والسماء، وقد ملأ ما بينهما جمراً وشُعلاً وحمماً ودخاناً، حتى لتهاربُ السحب في أعلى السماء من حره، وهو على هوْلِه وجسامته لِحرْق ذبابةٍ لا غيرها، بَيْدَ أنها ذبابةٌ تُحْرَقُ أبداً ولا تموت أبداً، فلا تزالُ ولا يزالِ الجبل!

فصاح أبو معاوية الضرير: ويحك يا محمد! دَعِ الرجل وشأنه؛ إن لله عباداً متاعهم مما لا نعرف، كأنهم يأكلون ويشربون في النوم، فحياتُهم من وراء حياتنا، وأبو عتاب في دنيانا هذه ليس هو الرجلَ الذي اسمهُ (منصور) ولكنه العملُ الذي يهمله (منصور). هل أتاكم خبر قارئ المدينة (أبي جعفر الزاهد)؟ قال الجماعة: ما خبره يا أبا معاوية؟ قال: لقد تُوفي من قريب، فرئي بعد موته على ظهر الكعبة؛ وسترون أبا عتاب - إذا مات - على منارة هذا المسجد! فصاح أبو عتاب: تخلل يا أبا معاوية؛ أنا حفظت خبر ابن مسعود: (كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم: (تخللْ) قال: مم اتخللُ؟ ما أكلتُ لحماً؟ قال: (إنك أكلتَ لحم أخيك!)

فتقلقل الضرير في مجلسه، وتنحنح، وهَمهم أصواتاً بينه وبين نفسه، وأحس الجماعةُ شأنه وقد عرفوا أن له شراً مبصرا كالذي فيه من المزْح والدعابة، وشراً عمى هذه

بوادرُه، فاستلب ابنُ جحادةَ الحديثَ مما بينهما وقال: يا أبا معاوية، أنت شيخنا وبركتنا وحافظنا، وأقرُبنا إلى الإمام وأمسنا به؛ فحدثنا حديثَ الشيخ كيف صنع في رده على هشام بن عبد الملك، وما كان بينك وبين الشيخ في ذلك؛ فان هذا مما انفردتَ أنت به دون الناس جميعاً، إذ لم يسمعه غير أذنيك، فلم يحفظه غيرك وغير الملائكة

فأسفر وجهُ أبي معاوية وسُري عنه واهتز عطفاه وأقبل عليهم بعفو القادر. . . وأنشأ يحدثهم قال:

إن هِشاماً - قاتله الله - بعث إلى الشيخ: أن أكتبْ لي مناقبَ عثمانَ ومساوئ علي. فلما قرأ كتابه كانت داجِنةٌ إلى جانبه، فأخذ القرطاس وألقمه الشاة فلا كته حتى ذهب في جوفها، ثم قال لرسول الخليفة: قل له: هذا جوابك! فخشي الرسول أن يرجع خائباً فيقتله هشام، فما زال يتحملُ بنا، فقلنا: يا أبا محمد، نجه من القتل. فلما ألححنا عليه كتب: (بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد يا أمير المؤمنين، فلو كانت لعثمان رضي الله عنه مناقبُ أهل الأرض ما نفعتك، ولو كانت لعلي رضي الله عنه مساوئ أهل الأرض ما ضرتك؛ فعليك بخويصة نفسك، والسلام.)

فلما فصل الرسول قال لي الشيخ: إنه في خُرَاسانَ مُحدث أسمه (الضحاكُ بن مُزاحم الهلالي) وكان فقيه مكتب عظيم فيه ثلاثة آلاف صبي يتعلمون؛ فكان هذا الرجلُ إذا تعب ركب حماراً ودار به المكتب عليهم، فيكون إقبالُ الحمار على الصبي هماً وإدبارهُ عنه سروراً. وما أرى الشيطان إلا قد تعب في مكتبه وأعيا، فركب أميرَ المؤمنين. . . . ليدور علينا نحن يسألنا: ماذا حفظنا من مساوئ علي؟ . .

قلت: فلماذا ألقمتَ كتابه الشاة؟ ولو غسلته أو أحرقته كان أفهم له وكان هذا أشبه بك. فقال: ويحك يا أبله! لقد شابت البلاهةُ في عارضَيك. أن هشاماً سيتقطع منها غيظاً، فما يُخفى عنه رسوله أني أطعمتُ كتابه الشاة، وما يُخفى عنه دهاؤه ان الشاة ستعتبره من بَعْد. . . . .!

قلت: افلا تخشى أمير المؤمنين؟

قال: ويحك! هذا الأحولُ عندك أمير المؤمنين؟ أَبما ولدته أمه من عبد الملك؟ فَهَبها ولدته من حائكٍ أو حجام! إن إمارةَ المؤمنين يا أبا معاوية، هي ارتفاعُ نفس من النفوس العظيمة إلى أثَرِ النبوة، كأن القرآن عَرَضَ المؤمنين جميعاً ثم رضي منهم رجلاً للزمن من الذي هو فيه، ومتى أصيب هذا الرجلُ القرآني فذاك وارثُ النبي في أمته وخليفتُه عليها، وهو يومئذ أمير المؤمنين، لا من إمارة الملك والترف، بل من إمارة الشرع والتدبير والعمل والسياسة

هذا الأحول الذي التف كدودة الحرير في الحرير، وأقبل على الخيل لا للجهاد والحرب، ولكن للهو والحلبة، حتى اجتمع له من جياد الخيل أربعة آلاف فرس لم يجتمع مُلها لأحد في جاهليةٍ ولا إسلام، وعَمِلَ الخز وقُطُفَ الخز، واستجاد الفرش والكسوة، وبالغَ في ذلك وأنفقَ فيه النفقات الواسعة، وأفسد الرجولة بالنعيم والترف حتى سلك الناسُ في ذلك سُنته فأقبلوا بأنفسهم على لهو أنفسهم، وصنعوا الخير صنعةً جديدة يصرفه إلى حظوظهم، وتركوا الشر على ما هو في الناس، فزادوا الشر وأفسدوا الخير، ولم يَعُد الفقراءُ والمساكينُ عندهم هم الفقراءَ والمساكين من الناس، بل بطونهم وشهواتهم. . . . .!

ولقد كان الرجلُ من أغنياء المسلمين يقتصدُ في حظ نفسه ليسعَ ببره مائةً أو مائتين أو أكثر من اخوانه وذوي حاجته، فعاد هذا الغني يتسعُ لنفيه ثم يتسع، حتى لا يكفيه أن يأكلَ رزقه مائة أو مائتين أو أكثر!

إن هذا الإسلام يجعل أحسن المسرات أحسنها في بذلها للمحتاجين، لا في أخذها والاستئثار بها، فهي لا تضيع على صاحبها إلا لتكون له عند الله، وكان الفقر والحاجة والمسكنةَ والانفاقَ في سبيل الله - كأن الفقر والحاجة والمسكنة والانفاقَ في سبيل الله - كأن هذه أرضونٌ يُغرس فيها الذهبُ والفضة غرساً لا يُؤتي ثمره إلا في اليوم الذي ينقلب فيه أغنى الأغنياء على الأرض وإنه لأفقر الناس إلى درهمٍ من رحمة الله وإلى ما دون الدرهم؛ فيقال له حينئذ: خُذْ من ثمار عملك، وخُذْ ملءَ يديك!

والسلطانُ في الإسلام هو الشرع مَرْئياً يتابعهُ الناس، متكلماً يفهمه الناس، آمراً ناهياً يطيعه الناس. ولقد رأى المسلمون هذا الأحوال، وتابعوه وسمعوا له واطاعوا؛ فمنعوا ما في

أيديهم، فانقطع الرفد، وقل الخير، وشحت الأنفس، وأصبح خيرهم خيرهم لبطنه وشهواته، وصار الزمانُ أشبه بناسه، والناسُ أشبه بملكهم، وملكُهم في شهواته (فقيرُ المؤمنين) لا أميرُ المؤمنين!

إن هذه الامارةَ يا أبا معاوية، إنما تكون في قرب الشبه بين النبي ومن يختاره المؤمنون للبَيْعة. وللنبي جهتان: إحداهما إلى ربه، وهذه لا يطمع أحدٌ أن يبلغ مبلغه فيها؛ والأخرى إلى الناس، وهذه هي التي يُقاس عليها. وهي كلها رْفقُ ورحمةٌ وعملُ وتدبير وحياطة وقوة، إلى غيرها مما يقوم به أمرُ الناس؛ وهي حقوقٌ وتبعاتٌ ثقيلة تتصرف بصاحبها عن حظ نفسه، وبهذا الانصراف تجذب الناس إلى صاحبها.

فأمارة المؤمنين هي بقاء مادة النور النبوي في المصباح الذي يضيء للاسلام بامداده بالقدر بعد القدر من هذه النفوس المضيئة.

فان صَلُحَ الترابُ أو الماء مكان الزيت في الاستضاءة صَلُح هشامٌ وأمثاله لأمارة المؤمنين!

ويلٌ للمسلمين حين ينظرون فيجدون السلطانَ عليهم بينه وبين النبي مثلُ ما بين دِينين مختلفين. ويلٌ يومئذ للمسلمين! ويلٌ يومئذ للمسلمين!

فلما أتم الضريرُ حديثه قال ابن جُحادة: إن شيخنا علي هذا الجِد ليمزح، وسأحدثكم غير حديث أبي معاوية فقد رأيتُ الدنيا كأنما عرفت الشيخ ووقفت على حقيقته السماوية فقالت له: اضحك مني ومن أهلي. ولكن وقاره ودينه ارتفعا به أن يضحك بفمه ضَحِكَ الجهلاء والفارغين، فضحك بالكلمة بعد الكلمة من نوادره

لقد كنت عنده في مَرْضَتَه، فعاده (أبو حنيفة) صاحبُ الرأي، وهو جبلُ عِلْم شامخ، فطولَ العقودَ مما يُحبه ويأنس به، إذ كانت الارواحُ لا تعرف مع أحبابها زمناً بطول أو بقصر. فلما أراد القيام قال له: ما كأني إلا ثَقُلْتُ عليك. فقال الشيخ: إنك لثقيلٌ علي وانتَ في بيتك. . . .! وضحك أبو حنيفة كأنه طفلُ يلاغِيه أبوه بكلمة ليس فيها معناها، أو أبٌ دَاعَبَه طفُله بكلمة فيها غيرُ معناها

وجاءه في الغَداة قومٌ يعودونه، فلما أطالوا الجلوسَ عنده أخذ الشيخ وسادته وقام متصرفاً، وفل لهم: قد شَفَى الله مريَضكم. . . .!

فقال الضرير: تلك رَوْحَةٌ من هواء دُنْبا وَنْد قان أبا الشيخ كان من تلك الجبال، وقدم إلى الكوفة وأمه حاملٌ، فوُلِدَ هنا؛ فكأن في دمه النسيم تهبُ منه النفحة بعد النفحة في مثل هذه الكلمات المُتَنسمة؛ ثم هي روحه الظريفة الطيبة تُلْمَسُ بعضَ كلامه أحياناً، كما تلمسُ روحُ الشاعر بعض كلام الشاعر؛ وما رأيت أدق النوادر الساخرة وأبلغها وأعجبها يجيء إلا من ذوي الأرواح الشاعرة الكبيرة البعيدة الغور، كأنما تأتي النادرة من رؤية النفس حقيقتين في الشيء الواحد. والامامُ في ذلك لا يسخر من أحد، إلا إذا كانت الأرض حين تُخرج الثمرةَ الحلوة تسخر بها من الثمرة المرة

والعجيب أن النادرة البارعة التي لا تتفق إلا لأقوى الأرواح، ينفق مثلها لأضعف الأرواح؛ كأنها تسخر من الناس كما يسخرون بها. فهذا (أبو حَسَن) مُعلم الكُتاب، جاءه غلامان من صبيته قد تعلق أحدهما بالآخر؛ فقال: يا مُعلم، هذا عَض أذني. فقال الآخر: ما عضضتها، وإنما هو عض أذن نفيه. . .! فقال المعلم: وتمكُرُ بي أيضاً يا ابن الخبيثة، أهو جملٌ طويلُ العنق حتى ينالَ أذنَ نفسه فيعضها. . .!

وطلع الشيخ عليهم وكأنما قرأ نفس أبي معاوية في وجهه المتفتح. ومن عجائب الحكمة أن الذي يُلمحُ في عيني المبصر من خوالج نفسه يُلمحُ على وجه الضرير مُكبراً مجسماً. وكان الشيخ لا يأنس بأحد أنسه بأبي معاوية، لذكائه وحفظه وضبطه، ولمشاكلة الظرف الروحي بينهما؛ فقال له:

(فِيمَ كان أبو معاوية؟)

- (كان أبو معاوية في الذي كان فيه!)
- (وما الذي كان فيه؟)
- (هو ما تسأل عنه!)
- (فأجبني عما أسأل عنه)
- (قد أجبتُك!)
- (بماذا أجبتَ)

- (!بما سمعت)
فتقبض وجهُ الشيخ وقال: (أههنا وهناك معاً؟ لو أن هذا من امرأةٍ غضبي على زوجها لكان له معنى، بل لا معنى له ولا من امرأةٍ غضبي على زوجها. أحسبُ لولا أن في منزلي من
هو أبغضُ إلى منكم ما خرجت؟) فقال الضرير: (يا أبا محمد، أننا زوجاتُ العلم؛ فأتينا التي حظيت وبظيتْ. . .)
فغطى الجماعة أفواههم يضحكون، وتبسم الشيخ، ثم شرع يحدث فأفضى من خبر إلى خبر، وتسرح في الرواية حتى مر به هذا الحديث:
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن هلاكَ الرجال طاعتُهم لنسائهم.)
قال الشيخ: كان الحديث بهذا اللفظ، ولم يقل النبس صلى الله عليه وسلم: (هلاكُ الرجل طاعته لامرأته)؛ فان هذا لا يستقيم؛ إذ يكون بعضُ النساء أحياناً أكمل من بعض الرجال، وأوفر عقلاً وأسد رأياً، وقد تكون المرأةُ هي الرجلَ في الحقيقة عزماً وتدبيراً وقوى نفس، ويتلينُ الرجل معها كأنه امرأة. وكثير من النساء يكُن نساءً بالحلية والشكل دون ما وراءهما، كأنما هيئنَ رجالاً في الأصل ثم خُلقن نساءً بعد، لأحداث ما يريد الله أن يحدث بهن، مما يكون في مثل هذه العجيبة عملاً ذا حقيقتين في الخير والشر
وإنما عم الحديث لِّيدل على أن الاصل في هذه الدنيا أن تستقيم أمور التدبير بالرجال؛ فان البأس والعقل يكونان فيهم خلقةً وطبيعةً أكثر مما يكونان في النساء؛ كما أن الرقة والرحمة في خلقة النساء وطبيعتهن أكثرُ مما هما في الرجال، فاذا غلبتْ طاعةُ النساء في أمة من الأمم، فتلك حياة معناها هلاك الرجال، وليس المراد هلاكَ أنفيهم بل هلاك ما هم رجالٌ به. والحديدُ حديدٌ بقوته وصلابته، والحجرُ حجر بشدته واجتماعه؛ فان ذاب الأولُ أو تفلل، وتناثر الآخر أو تفتت - فذا هلاكهما في الحقيقة، وهما بعدُ لا يزالان من الحجر والحديد
والمرأة ضعيفة بفطرتها وتركيبها، وهي على ذلك تأبى أن تكون ضعيفة أو تُقر بالضعف، إلا إذا وجدت رجلها الكامل ورُجلها الذي يكون معها بقوته وعلقه وفتنته لها وحبها إياه، كما يكون مثالٌ مع مثال. ضَعْ مائة دينار بجانب عشرة دنانير، ثم اتر للعشرة أن تتكلم وتدعي وتستطيل؛ قد تقول: إنها أكثر إشراقاً، أو أظرفُ شكلاً، أو احسن وضعاً وتصفيفاً؛ ولكن الكلمة المحرمة هنا أن تزعم أنها أكبر قيمةً في السوق. . .!
قال الشيخ: ومن من النساء تصيبُ رجلَها الكاملَ أو القريب من كماله عندها، أي كمالَ طبيعته بالقياس إلى طبيعتها، كمالَ جسم مُفصلٍ لجسم تفصيلَ الثوب الذي يلبسه ويختال فيه؟ أما إن هذا من عمل الله وحده؛ كما يبسط الرزقُ الرزقَ لمن يشاء من عباده ويقدر،
يبسط مثل ذلك للنساء في رجالهن ويقدر
فاذا لم تُصيب المرأة رجالها القوي - وهو الأهم الأغلب - لم تستطيع أن تكون معه في حقيقة ضعفها الجميل، وعملت على أن يكون الرجل هو الضعيف، لتكون معه في تزوير القوة عليه وعلى حياته. وبهذا تخرج من حيزها، وما أول خروج النساء إلى الطرقات إلا هذا المعنى؛ فان كُثُر خروجهن في الطريق وتسكعن ههنا وههنا فانما تلك صورة من فساد الطبيعة فيهن ومن إملاقها ايضاً. . .
قال الشيخ: وكأن في الحديث الشريف إيماء إلى أن من بعض الحق على النساء ينزلن عن بعض الحق الذي لهن إبقاءً على نظام الأمة، وتيسيراً للحياة في مجراها؛ كما ينزل الرجل عن حقه في حياته كلها إذا حارب في سبيل أمته، إبقاءً عليها وتيسيراً لحياتها في مجراها. فصبرُ المرأة على مثل هذه الحالة هو نفسه جهادها وحربها في سبيل الأمة، ولها عليه من ثواب الله مثلُ ما للرجل يُقتلُ أو يُخرج في جهاده
ألا وإن حياة بعض النساء مع بعض الرجال تكون أحياناً مثل القتل، او مثل الجرح، وقد تكون مثل الموت صبراً على العذاب! ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لِمُروجةٍ يسألها عن حالها وطاعتها وصبرها مع رجلها: (فأين أنت منه؟)
قال ما آلوه ما عَجَزْتُ عنه! قال: (فكيف أنتِ له؟ فانه جنَّتُكِ ونارُك)
آه! آه! حتى زواجُ المرأة بالرجل هو في معناهُ مرورَ المرأة المسكينة في دنيا أخرى

إلى موتٍ آخر، ستُحاسب عنده بالجنة والنار، فحسابها عند الله نوعان: ماذا صنعت بدنياكِ ونعيمها وبؤسها عليكِ؛ ثم ماذا صنعتِ بزوج ونعيمه وبؤسه فيك؟
وقد روينا أن امرأة جاءت النبي صلى الله عليه وسلم، فقالت: يا رسول الله، إني وافدةُ اليك؛ ثم ذكرتْ. ما للرجل في الجهاد من الأجر والغنيمة؛ ثم قالت: فما لنا من ذلك؟
فقال صلى الله عليه وسلم: (أبلِغي من لقيتِ من النساء أن طاعة للزوج، واعترافاً بحقه - يعدلُ ذلك؛ وقليلٌ منكن من يفعله!)
قال الشيخ: تأملوا واعجبوا من حكمة النبوة ودقتها وبلاغتها؛ أيقالُ في المرأة المحبة لزوجها المفتنة به المعجبة بكماله: إنها أطاعته أو اعترفت بحقه، أو ليس ذلك طبيعةَ الحب إذا كان حباً؟ فلم يبق إذن إلا المعنى الآخر، حين لا تصيب المرأةُ رجُلها المفصل لها، بل
رجلاً يُسمى زوجاً، وهنا يظهر رمُ المرأة الكريمة، وها هنا جهادُ المرأة وصبرها، وها هنا بَذْلُها لا أخذُها؛ ومن كل ذلك ها هنا عملها لجنتها أو نارها
فاذا لم يكن الرجل كاملاً بما فيه للمرأة، فلتُبْقِه هي رجلاً بنزولها عن يعض حقها له، وتركها الحياة تجري في مجراها، وإيثارها الآخرةَ على الدنيا، وقيامها بفريضة كمالها ورحمتها، فيبقى الرجل رجلاً في عمله للدنيا، ولا يُمسخُ طبعه ولا ينتكس بها ولا يَذل،
فان هي بذأت وتسلطت وغلبت وصرفت الرجل في يدها، فأثر ما يظهر حينئذٍ في أعمال الرجال من طاعتهم لنسائهم - إنما هو طيشُ ذلك العقل الصغير وجُرْأته، وأحياناً وقاحته؛ وفي كل ذلك هلاك الرجولة، وفي هلاك معاني الرجولة هلاكُ الأمة!
قال الشيح: والقلوبُ في الرجال ليست حقيقةً أبدا، بطبيعة أعمالهم في الحياة وأمكنتهم منها، ولكن القلب الحقيقي هو في المرأة، ولذا ينبغي أن يكون فيه السُمو فوق كل شيء إلا واجب الرحمة، ذلك الواجب الذي يتجه إلى القوى فيكون حباً ويتجه إلى الضعيف فيكون حناناً ورقة، ذلك الواجبُ هو اللطف، ذلك اللطفُ هو الذي يُثبت أنها امرأة
قال أبو معاوية: وانفض المجلس، ومنعني الشيخ أن أقوم مع الناس، وصرف قائدي، فلما خلا وجهه قال: يا أبا معاوية، قُم معي إلى الدار، قلتُ ما شأنٌ في الدار يا أبا محمد؟ قال: إن (تلك) غاضبة علي، وقد ضاقت الحال بيني وبينها، وأخشى أن تتباعد، فأريدُ أن تصلح بيننا صلحا
قلت: فمم غضبها؟ قال: لا تسأل المرأة م تغضب، فكثيراً ما يكون هذا الغضب حركة في طباعها، كما تكون جالسة وتريد أن تقوم فتقوم، وتريد أن تمشي فتمشي!
قلت: يا أبا محمد، هذا آخر أربع مرات تغضب عليك غضب الطلاق، فما يحبِسُك عليها والنساء غيرها كثير
قال: ويحك يا رجل! أبائعُ نساءٍ أنا، أما علمتَ أن الذي يطلق امرأة لغبر ضرورة ملْجئةٍ، هو الذب يبيعها لمن لا يدري كيف يكون معها وكيف تكون معه، إن عمْرَ الزوجة لو كان رقبةً وضربت بسيف قاطع لكان هذا السيف هو الطلاق!
وهل تعيشُ المطلقةُ إلا في أيام مينة، وهل قاتل ايامها إلا مطلقُها؟
. . . . . .قال أبو معاوية. وقمنا إلى الدار، واستأذنت ودخلت على (تلك)
(لها بقية)
طنطا
مصطفى صادق الرافعي
حكايتي مع بوبي
للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني
وقعت عيني عليها، فلم أعد أرى سواها. وكنتُ أركب (الامنيبوس) ففتحت الباب وإذا بها أمامي! وفي حجرها كلب أبيض صغير غزير الشعر، وإلى جانبها صاحب لي - جالس كالدمية! فغضضتُ الطرف - أعني أني حولتُ عيني عنها إلى التمثال، وكانت نظرتي واشية بالاعجاب والسرور، فانقلبت نظرة حسد وغيظ - ومقت أيضاً! ولكني كتمتُ ذلك، وأمسكت على ما بنفسي منه، ولم أسمح له أن يطل من عيني، لظني كان تمثالاً مبنياً أو منحوتاً من الحجر، لا إنساناً حياً من لحم ودم، فمضت عنه إلى آخر معقد، وقد زاد حقدي عليه وحسدي له. وجعلت أقول لنفسي - وأنا قاعد، وبيتي وبينهما صفان -

إنها لا يمكن أن تكون زوجاً أو قرية، فما خلق مثلها ليشقى بزواج مثله أو يُبتلى بقرابته، وأنه لاحق له في زحامها على مقعدها، وأن من سوء الأدب ألا يفسح لها ورثيتُ لها، وأشفقتُ عليها من برد هذا التمثال الجامد الذي لا ينبض فيه عرقٌ ولا يطرف له جفن، وهممتُ مرات أن أدعوه إلي، ولكني رددت نفسي عن ذلك، مخافة أن تكون معه، فان النساء - كل شيء - حظوظ وأرزاق، وقد سمعتُ وحفظتُ من أمثال عامتنا أن الله يشاء أحياناً أن يعطي الحلق لمن ليس له اذنٌ!

وبلغتُ (محطتي) فنزلت، ومنحتُ السيارة ظهري، فقد شق علي أن أراها تمضي بهذه الفتاة. فلما آذنني صوتها - أعني صوت السيارة - أنها بعدت عني، درت، فاذا بالفتاة إلى جانبي وأطراف أصابعها على فمها، وفي وجهها كل آيات الحيرة والاضطراب، ولم أر الكلب، فتلفتُ فبصرت به يعدو ويسابق ظله الصغير، ولم أبصر صاحبي في مكان قريب أو بعيد، فلم يبق محل للتردد، فخلعتُ معطفي ورميته بلا تفكير، وذهبت أعدو وراء الكلب، فأدركته بلا عناء، فقد كان صغيراً وخطوه متقارباً، ورفعته عن الأرض ووقفت أمسح له شعره الناعم - لأستريح!

وسمعت صوتاً رخيما يقول لي: (أشكرك! إن هذا منك غاية المروءة)

فدرت وقلت بسرعة: (العفو - استغفر الله!)

قالت الفتاة: (منتهى اللطف ولاشك!)

فلم أدر ماذا أقول، وكنت أنا أحمل الكلب، وهي تحمل معطفي - كما تبينتُ فيما بعد - ولكني لم أكن أرى أو أدرك شيئاً، سوى أن لساني قد انعقد، وأني فقدت القدرة على الكلام وعادت الفتاة تقول: (صحيح، أنا متشكرة جداً)

فكان كل ما فتح الله به علي: (إني أحب الكلاب)

ولم أكن صادقاً في ذلك، فما أحب الكلاب ولا أطيقها، وما رأيت قط كلباً - ولو كان ميتاً - إلا ذهبت أفكر بسرعة في أقرب مستشفى للكلب!

وسمعتها تقول: (لا شك أنك تحبها! وإلا لما جريت وراءه هكذا!)

فقلت: (نعم، إني أحب. . . . أحبها. . . هل تحبينها؟)

قالت: (نعم، حباً جماً)

قالت: (بعض الناس لا يحبونها)

قلت: (صحيح - أنا. . . مثلاً. . . أحبها. . . أحبها كثيراً)

ثم كأنما انحلت عقدة لساني، ونزلت عليه الفصاحة والبيان فقلت من غير أن أتلعثم أو أتأتيء أو أفأفيء:

أحب الكلاب بأنواعها - القَلَطي والسلوقي والمالطي والأرمنتي والبول دوج والثعلبي،) وأحب هريرها ونباحها وهوهوتها، وأحب لعبها وعبثها وعضها)

وخانني بياني فأمسكت. فقالت:

(يظهر أنك تحب الكلاب!)

فقلت: (نعم، أحب الكلاب. . . جداً)

قالت: (إن لها مزاياها)

قلت: (صحيح - إن للكلاب مزاياها -) وفتح الله علي فأضفت (وكذلك للقطط مزاياها)

فقالت: (صحيح - القطط أيضاً لها مزاياها)

قلت: (لاشك - ولكن القطط تختلف عن الكلاب)

قالت: (نعم تختلف - لقد لاحظتُ ذلك)

وكان ينبغي أن أجيب بشيء، فقد اتسع الموضوع ولم يعد مقصوراً على الكلاب، ولكنه لم يخطر لي كلام أقوله، فعضضت لساني من الغيظ، وسكت، وسكتت هي أيضاً، ووقفتُ أمسح لكلب شعره، وبودي لو أخنقه، فقد كبر في ظني أنه هو الذي جر على هذه الحبسة التي أصابت لساني، ثم رفعت عيني إلى الفتاة فرأيتها تنقل معطفي من ذراع إلى ذراع، فأسرعت أقول:

(معذرة - لقد كنت ذاهلاً)

وتناولت المعطف، فحملت عني كلبها وهي تقول:

(هو الذي أذهلك - إنك تحبه، أليس كذلك؟)

فقلت: وأنا أتشهد - في سري - (أحبه؟ آه! نعم، أحبها - أعني الكلاب!)

قالت: (إنك. . . .؟؟)
قلت: (إني؟)
قالت: (نعم! إنك. . . اعني. . . إني لست أعرف لمن أنا مدينة بهذا الجميل؟)
قلت: (آه! صحيح! أعني. . . . كلا. . . لا فضل ولا جميل. . . لا لا لا. . . لاشيء!. . .
وسخطتُ على نفسي جداً، فقد كان واضحاً أنها تسألني عن اسمي وما إلى ذلك. فجاء
جوابي كأني لا أرتاح إلى تعريفها شيئاً منه، وأحر بهذا أن يصدمها ويفتر ما بيننا)
ثم قالت: (ألا تتفضل معي قليلاً؟)
وأشارت إلى بيت، فقلت:
(هذا مسكنك؟)
قالت: (نعم. تفضل، فان أمي يسره أن تشكر لك صنيعك، وأظنها تحب بوبي أكثر مما
تحبني)
وضحكت، فقلت: (في وقت آخر. . . لا موجب للشكر. . . ما فعلت إلا ما يفعله أي
إنسان)
وصافحتها وانصرفت مسرعاً، وبودي أن أجرد من نفسي شخصاً أظل ألعنه وألكمه
حتى أشفى غيظي، فما أذكر أني كنت قط أسخف مني في ذلك اليوم، وإني لثرثار،
وإني لثرثار في العادة، ولست أتهيب المرأة أو أجهل طبيعتها، فمن أين جاءني هذا
البكم؟ وماذا عسى أن تقول عني هذه الفتاة؟ وكيف لم يخطر لي كلام إلا (إني أحب
الكلاب؟؟)
وآليت - من فرط سخطي على نفسي وخجلي من عي وفهاهتي - أن أجنب السير في
هذا
الطريق، وحرصت على ذلك أشد الحرص، ومضت أيام لا أذكر عددها، ونسيت الحكاية،
وصرفتني عن الحياة مطالب الدنيا ومشاغل الحياة، ثم اتفق لي أن ركبت (الامنيبوس)
مرة أخرى في هذا الطريق عينه، مع صديق لي، وكان قد دعاني إلى العشاء، فلما
بلغت المكان هجمت علي الذكرى، فانتفضت قائماً، وقلت لصديقي:
(سألحق بك، فامض أنت)
قال: (الى أين؟)
قال: (زيارة وجيزة)
قال: (من؟)
قلت: (زيارة. . .! ما سؤالك هذا؟)
قال: (أفي الأمر سر؟)
قلت: (لا يا سيدي. لا سر ولا شبهه، سأزور كلباً)
قال: (كلب؟)
قلت: (نعم، كلب! وأي غرابة في ذلك؟)
قال: (ولكنك تكره الكلاب!؟)
قلت: (أكرهها؟ من قال إني أكرهها؟ إنما أكره ما يستحق الكراهة من كل شيء)
فصاح بي وأنا أنزل: (ولكنك لا تعرف البيت)
فقلت: (بل أعرفه. . . لا تخف علي!)
فصاح بي - من النافذة: (بل لا تعرفه. . . أنا واثق، فأصعد)
فقلت بحماقة: (يا أخي أعرفه. . . هي دلتني عليه!)
فقال: (هي؟)
فعضضت لساني من الغيظ، ومضيت عنه!
ودققت الجرس، فخرجت لي خادمة وقالت: (نعم!)
فحرت ماذا أقول؟ وذكرت أني لا أعرف اسم الفتاة، ولا أسم أمها، ووقفت متردداً ثم
قلت:
(اسمعي يا شاطرة! إن عندكم كلباً صغيراً جميلاً، أبيض الشعر، أليس كذلك؟)
فقالت بدهشة: (كلب؟ تسأل عن كلب؟)
قلت: (نعم. . . أسمه. . . اسمه. . . آه! تذكرت. . . اسمه بوبي. . . نعم بوبي)
قالت: (آه. . . بوبي. . . . ماله؟)
قلت: (أ. . . إ. . . كيف صحته؟ إن شاء الله يكون بخير؟)

فدارت اللعينة، وقات تخاطب من لا أرى:
(!إنه رجل غريب يسأل عن صحة بوبي)
فبرزت لي سيدة ضخمة - ضخمة جداً - أضخم شيء رأيته في حياتي، حتى لقد احتجت أن أدور بعيني في أنحاء جسمها المتباعدة، لأحيط بها علماً، وأقبلت على تسد الفضاء في وجهي وقالت:
(من هذا؟)
قالت الخادمة: (لا أعلم. . لم أره من قبل)
فسألت خادمتها، كأنها لا تراني - وهل أنا إلا ذرة أو هباءة؟ -: (ماذا يريد)
قالت الخادمة: (يريد أن يعرف كسف صحة بوبي؟)
فقالت: (ما شأنه به! هل يعرفه؟)
فتدخلت في الحوار وقلت: (نعم يا سيدتي، لقد تشرفت بمعرفته يوم فر من سيدته وكاد يضيع أو يختفي)
فقالت: (آه!) ولم تزد
قلت: (نعم، وقد خطر لي أن أسأل عنه كيف حاله؟)
قالت: (بخير. . أشكرك بالنيابة عنه)
قلت: (ألا يمكن أن أراه؟ وأطمئن عليه)
قالت: (لا. . . لا يمكن)
(قلت: 0أهو لا قدر الله. . . . .؟
قالت: (خرج. . .)
قلت: (خرج؟ يا سيدتي كيف تتركينه يخرج وحده؟)
قالت: (لا. . خرج مع إيلين. . . لا خوف عليه. . متشكرة. .)
فلم أدر (إيلين) هذه من تكون؟ الفتاة أم خادمة أخرى، ولكني قلت أجازف وأمري إلى الله،
وسألتها:
(!وكيف حالها؟ بخير إن شاء الله)
قالت: (حالها؟ من؟)
قلت: (المدموازيل إيلين؟)
قالت: (المدموازيل. . .؟)
قلت: (آه. . . بنتك. . . أليست بنتك؟)
فقالت: (بنتي؟ عن أي شيء تتكلم؟)
فتشجعت وسألت: (أليس هذا بيت المدموازيل إيلين؟ معذرة إذا كنت مخطئاً!)
قالت: (بيت المدموزيل ايلين؟ ماذا جرى لعقلك؟ من أنت؟ أنها خادمة هنا!)
فأحسست أنه لم تبق لي قدرة على المضي في هذا الحوار، فاعتذرت لها مرة اخرى، وفررت
وصرت في الطريق، فأخرجت المنديل، وأقبلت على وجهي أمسح العرق المتصبب عنه في الشتاء، وإذا بالفتاة تقول بأرخم من صوتها الأول:
(سعيدة. . . هذا بوبي)
ومدت لي يديها به، فلم أتناوله، وتركته على كفيها وسألتها:
(!هل أنت إيلين؟ قولي بسرعة)
فقالت وهي متعجبة: (إيلين؟ كلا. . . إني. . . .)
فقاطعتها: (لا تقولي شيئاً. . . . هذا حسبي. . يكفي. . . . انك لست إيلين.)
قالت: (ولكني لا أفهم. . . .)
قلت: (ستفهمين كل شيء. . . بعد أن أتنفس وأشكر الله)
ثم قصصت عليها الحكاية، فضحكت، ولما سكنت الضجة، واستطاعت أن تتكلم أخبرني أني غلطت، وأن هذا مسكن جيران، وأن كلبهم كان قد ضاع، فرده عليهم بعضهم، وأن هذه السيدة الضخمة لابد أن تكون قد استرابت بي، وشكت في أمري، لأنها تعرف الذي أعاد الكلب، ففهمتُ السبب فيما بدا مها من الجفوة، ولماذا تركتني واقفاً على عتبة الباب وأبت أن تدعوني إلى الدخول

فقلت: (إذن ناوليني بوبي. . . . .)
. . .وحملته عنها وصدعت معها إلى أمها
. . .وضحكنا كثيراً في ذلك المساء، ولا أحتاج أن أقول إني نسيت صديقي وعشاءه
ابراهيم عبد القادر المازني
النزاع بين إيران والعراق
للأستاذ محمد عبد الله عنان
كان مما عرض على عصبة الأمم في دورتها الأخيرة الخلاف بين إيران والعراق على مسألة الحدود؛ ولكن مجلس العصبة لم يشأ كعادته أن يبادر إلى درس خلاف يخشى أن يحول تعقيده وخطورة العوامل والاتجاهات المتصلة به إلى فشل العصبة في بحثه باستقلال ونزاهة؛ ولهذا آثر بعد بحث المسائل الشكلية أن يرجئه إلى دورة أخرى عسى أن يوفق الفريقان المتنازعان إلى تسويته بمفاوضات مباشرة، فينجو المجلس بذلك من الحرج والتعرض إلى فشل يزيد في ضعف العصبة وانحلال هيبتها
ومما يبعث إلى أشد السف أن ينشب مثل هذا الخلاف بين دولتين شرقيتين كإيران والعراق تربطهما صلات تاريخية قديمة ترجع إلى عصور وآماد بعيدة، وتجمع بينهم مصالح مشتركة اقتصادية وسياسية وعسكرية، ويضاعف هذا الأسف ألا تستطيع الدولتان الشقيقتان حسم هذا الخلاف بالتفاهم المباشر، وأن تضطرا إلى عرضه على هيئة دولية دلت سوابقها وأعمالها في بحث المسائل الشرقية على أنها لا تملك بحثها دائماً بحرية ونزاهة، وأنها تتأثر غالباً بالنفوذ الأقوى. وفي هذا الخلاف، على رغم قيامه بين دولتين شرقيتين، ما يهم بعض الدول الغربية ذات لمصالح والنفوذ
والخلاف الايراني العراقي قديم يتناول علائق الدولتين منذ ظهور العراق في الوجود كوحدة سياسية خاصة، أعني منذ خاتمة الحرب الكبرى؛ وقد كان من نتائجه أن لبثت إيران مدة أعوام طويلة تصر على عدم الاعتراف بالعراق الجديدة، ولم تعترف بها إلا في سنة 1929 نزولاً على سعي لسياسة البريطانية. وإذا قلنا باضطراب العلائق بين إيران والعراق في تلك الفترة، فمعناه اضطراب العلائق بين إيران وبريطانيا العظمى التي كانت يومئذ تسيطر على أقدار العراق وتتولى توجيه علائقه الخارجية، وقد كان يرجع أحياناً إلى أسباب خارجة عن العراق ذاته، كالخلاف بين إيران وانكلترا على مسألة البحرين، وأحياناً إلى أسباب تتعلق بالعراق مباشرة كالخلاف على الحدود، واقتحامها بين حين وآخر من بعض رعايا هذا الفريق أو ذاك، أو على بعض المسائل التجارية وغيرها. ولما حصل العراق على استقلاله بعقد المعاهدة العراقية الانكليزية في صيف سنة 1930 سعي إلى
التفاهم مع جارته، وانتهت جهود الفريقين في ذلك السبيل إلى شيء من النجاح، وقام المغفور له الملك فيصل بزيادة رسمية إلى طهران، وكان من نتائجها أن زاد التقرب بين الدولتين وسويت بينهما مسائل كثيرة، ولكن الخلاف على الحدود بقي على حاله، والظاهر أن إيران كانت تنظر لاثارته فرصة ملائمة
ويقع الخلاف الحاضر بين الدولتين على الحدود الايرانية العراقية مما يلي شط العرب في الجهة الجنوبية الغربية بالنسبة لأيران، والجنوبية الشرقية بالنسبة للعراق. ومعروف أن شط العرب هو الاسم الذي يطلق على المجرى المشترك الذي يندمج فيه دجلة والفرات قبل صبهما في الخليج الفارسي بنحو مائة ميل، وعليه تقع مدينة البصرة. وتبدأ الحدود الايرانية العراقية من الخليج الفارسي شرق شط العرب (بالنسبة لإيران) متجهة نحو الشمال بحذاء شط العرب وعلى قيد بضعة أميال منه، ولا تتسع هذه الشقة الضيقة بين شط العرب والحدود الايرانية إلا عندما تحاذي البصرة تقريباً، وتستمر الحدود شمالاً محاذية لنهر دجلة وتتسع تدريجياً حتى يصير بينها وبين بغداد نحو سبعين ميلاً. وموضع الخلاف الحالي من الحدود هو الجزء الذي يحاذي شط العرب شرقاً ويفصل بين إيران وشط العرب، فان حكومة إيران تطالب به وتقول إن الحدود الطبيعية لايران يجب أن تكون هي شط العرب، ويجب أن تضع إيران يدها على الضفة الأخرى من النهر لتستطيع أن تعمل على تأمين حقوقها في حرية الملاحة فيه، ولكن العراق تعارض هذه الدعوى لأن الحدود الحالية بينها وبين إيران والتي تضع بمقتضاها يدها على شط العرب والشقة الواقعة بينه وبين الحدود الإيرانية، إنما قررت باتفاق جزءاً من تركيا، وقد تلقت العراق حدودها الحالية بمقتضى هذا الاتفاق، فهي لا

تستطيع أن تتخلى عن شيء من أرضها والواقع أن هذه الشقة اتي تطالب بها إيران ذات اهمية عسكرية واقتصادية خطيرة، واستيلاء إيران عليها يجعلها إلى جان العراق سيدة الملاحة في شط العرب، ويهدد مركز البصرة ثغر العراق ومعقله الجنوبي؛ وللبصرة أهمية عسكرية خاصة بالنسبة للدفاع عن العراق

أما حجة إيران في المطالبة بهذه البقعة فهي أن الانفاق الذي عقدنه في شأن الحدود مع الدولة العثمانية سنة 1913 باطل لأنه لم يعقد في جو من الحرية، ولأنه لم يبرم لا في تركيا ولا في ايران، وأن دلالة بطلانه هو أن القيم الشمالي من الحدود الإيرانية التركية

القديمة، وهو الذي يفصل اليوم بين إيران والجمهورية التركية قد رسم وعدل باتفاق جديد بين الدولتين باعتبار أن التخطيط القديم باطل لا يعول عليه؛ هذا من جهة، ومن جهة أخرى فان مقتضيات عملية ودولية توجب أن يكون شط العرب هو الحد الفاصل بين الدولتين؛ وتلقي إيران تبعه الخلاف على العراق، وتقول إنها لم يسعها حين التجأ العراق إلى عصبة الأمم إلا أن تقابلها أمام مجلس العصبة راجية أن تتمكن العصبة من بحث المسألة بما يحسم الخلاف ويضع الأمور في نصابها؛ وهو ما يدل على أن إيران لم تكن راغبة في طرح الموضوع على عصبة الأمم

ويلوح لنا أن الأسباب التي تستند إليها وجهة النظر الايرانية مما يصعب قبوله، لأن القول ببطلان معاهدة قائمة عقدت على أساس اتفاقات سابقة وقد نفذت نصوصها بالفعل، لا يسوغ من الوجهة القانونية؛ ولو جاز أن تفسخ المعاهدات برأي فريق واحد من المتعاقدين على نحو ما تقدم إيران، لما بقي للمعاهدات الدولية أية قيمة؛ وأما كون الحدود الشمالية عدلت مع تركيا الجمهورية، فذلك يرجع إلى اتفاق الفريقين؛ وليس هنالك ما يمنع أن يعقد مثل هذا الاتفاق بين إيران والعراق إذا ارتضت كل منهما عقده. ومشاكل الحدود تقوم في الأغلب على اعتبارات قومية، كأن يكون سكان البقعة المطالب بضمها من نفس جنسية الأمة المطالبة، وأن يعربوا عن رغبتهم في الانضمام إليها بصورة عملية، فهل تستطيع إيران مثلاً. أن تقول إن سكان الشقة التي تطالب بها وأن أغلبهم ينتمون إلى الجنسية الإيرانية؟ وهل يطالب هؤلاء السكان بالانفصال عن العراق والانضمام إلى إيران؟ هذا ما لم تستطع أن تعرضه إيران، ولو استطاعت لكان لها سنداً قوياً معقولاً

وأما عن طرح النزاع على عصبة الأمم، فان العراق هي التي لجأت هذه الخطوة، وهو ما لم تكن ترغبه إيران؛ والفريقان المتنازعان من أعضاء الخطوة، وهو ما لم تكن ترغبه إيران؛ والفريقان المتنازعان من أعضاء العصبة، وإيران بنوع خاص من أقدم أعضائها؛ وليس في الواقع ما يؤخذ على العراق في مسلكها، لأنها تصرفت طبقاً لما ينص عليه ميثاق العصبة صراحة في مادتيه الثانية عشرة والثالثة عشرة؛ إذ تنص الأولى على (أنه إذا ثار بين أعضاء العصبة خلاف قد يجر إلى قطع العلائق، فانهم يطرحونه إلى إجراءات التحكيم أو أمام مجلس العصبة) وتنص الثانية على انه (إذا ثار بين أعضاء العصبة خلاف

يمكن تسويقه بالتحكيم؛ فانه إذا لم يمكن تسويقه بطريق المفاوضات السياسية، فانه يطرح برمته إلى التحكيم الاختلاف على تفسير معاهدة، أو على أي نقطة تتعلق بالقانون الدولي. . . . الخ)؛ ولكن الذي نعرفه من موقف إيران أمام العصبة هو أنها تأبى قبول التحكيم أو بعبارة أخرى الاختصام إلى محكمة العدل الدولية، بحجة أن دستورها الأساسي لا يسمح بذلك، وأنها تصر على بطلان المعاهدة المعقودة، فالمسألة بالنسبة إليها ليست خلافاً على تفسيرها، ولكنها لا تأبى المثول لدى مجلس العصبة، لي يبحث المجلس هذا الخلاف ويحاول أن يضع حداً له؛ ومتى أتمت العصبة بحث الخلاف، فان إيران تقوم عندئذ بمفاوضات مباشرة مع العراق لتسوية النزاع وحسمه بصورة عملية

ومع أنا نرجو أن توفق الدولتان إلى حسم هذا الخلاف الخطير سواء على يد مجلس العصبة، أو بطريق المفاوضات المباشرة، فانا لسنا نعلق كبير أمل على مجهود العصبة في هذا الشأن؛ بل يلوح لنا أن تدخل العصبة لم يكن مرغوباً فيه، لأن سوابق العصبة في نظرها وبحثها للمسائل لشرقية لا تشجع على حسن الظن بها خصوصاً إذا كان الامر ما يتصل بنفوذ إحدى الدول الكبرى، وقد أبدت عصبة الأمم أنها في بحث

المسائل الشرقية تتأثر دائماً بما يحيط بها من مطامع ومصالح غريبة، وأقرب شاهد على ذلك، مسألة اعتداء إيطاليا على الحبشة وإغارتها على أراضيها بنية ظاهرة في الغزو والاستعمار؛ ومع ذلك فقد أبدت عصبة الأمم حين أرادت أن تلتجئ الحبشة إليها فتوراً ورغبة ظاهرة في التنحي عن بحث هذا النزاع، لأن إيطاليا لم ترغب في بحثه على يد عصبة الأمم. ولن يتغير اعتقادنا في العصبة بالنسبة لموقفها من النزاع الايراني العراقي، بغض النظر عن ظروفه الخاصة، فاعتقادنا دائماً أنها لا تستطيع معالجة هذه المسائل بروح من النزاهة والاستقلال

نرجو إذن أن يحسم الخلاف بين الدولتين الشقيقتين بالحسنى والاتفاق المباشر، خصوصاً وأن انكلترا من جهة أخرى تعلق أهمية خاصة على سلامة هذه البقعة من الأراضي العراقية. ذلك أن البصرة استثنيت من نصوص المعاهدة العراقية الانكليزية فيما يتعلق بالجلاء وبها قاعدة جوية عسكرية بريطانية هي إحدى قواعد الطريق الامبراطوري، وإيران من جانبها تتوجس من السياسة البريطانية في شبه جزيرة العرب، وتخشى أن يكون لها بما تنشئه من المطارات الحربية فيما وراء الفرات (تنفيذاً للمعاهدة العراقية

الانكليزية) غايات أخرى غير تأمين المواصلات الامبراطورية. والعلائق بين إيران وانكلترا ليست على ما يرام، وهنالك عدة مسائل معلقة بين البلدان. ومنذ سنة 1922 ترتبط إيران بلا ريب، فاذا استطاعت إيران بالضغط على العراق أن تدفع حدودها إلى شط العرب، فإنها تكسب بهذا التعديل مزايا عسكرية خطيرة. وعلى هذا فمن صالح إيران والعراق أن تعمل كل منهما لحسم الخلاف تواً حتى لا تدع سبيلاً إلى التدخل الأجنبي، وعسى أن يكون في استئناف المفاوضات أخيراً في رومة بين مندوبي العراق وإيران مما يؤذن بقرب التفاهم والوئام بين الجارتين الشقيقتين

محمد عبد الله عنان المحامي

قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكي

وكيل كلية العلوم

هذه مقالات متفرقات شاعت في كثير من الأمم وقرأها الألوف الكثيرة من الناس، يربطها موضوع واحد، ويجري بها تسلس تاريخي واحد، كتبها العالم (بول دي كرويف) وقصد بها أن يكشف للجمهور بطريقة سهلة وفي لغة مؤاتية عن ذلك الصراع الذي بدأ منذ ثلاثة قرون بين الإنسان وبين المكروب، ويصف تلك الحرب الضروس التي قامت منذ حين قريب بيننا وبين هذه الاعداء الصغيرة التي عاشت من الأزل في رحابنا عيشة الاحلاف، وأقمت بين أظهرنا منذ كانت الحياة إقامة الأضياف، وفتكت بنا فتكا دونه فتك النار والحديد، تلك الجنود المجندة المروعة التي وجدنا أعظم خطرها في صغرها، وأشيد مراسها في دقتها، وأنكى دهائها في خفائها، سننشر قصتها تباعاً في الرسالة، وسيجدها القارئ المتتبع قصة على خطرها وعلى قرب مساسها بحياتنا، فيها ما في اقاصيص الادب من فرح ومن ألم، ومن فكاهة ومن مأساة، ومن غذاء للعاطفة الطبية لا يقصر عن غذاء يجسده في أقاصيص الحب وحكايات الغرام. فحكاية الصبر على المكاره ابتغاء تقع الإنسانية ومرضاة لوجه الله، حكايات لمن تخفق في تحريك القلوب الكريمة في الرجال الأكارم

المترجم

لوفن هو

أول غزاة المكروب

منذ قرنين ونصف نظر رجل خامل الذكر نكرة الاسم أول نظرة في عالم جديد غريب يسكنه ألوف الأجناس من أحياء صغيرة بالغة الصغر، يصفها وحشي ذو غداءٍ قتالٌ، وبعضها رفيق صديق نفاع، فكان هذا إيذاناً يفتح مبين أكبر خطر واجدى على الإنسان من قارة يكتشفها وجر يستعمرها

وكان أسم هذا الرجل (لوفن هوك اسم عفى عليه النسيان أو كاد، ورجل لم يشد بذكره أحد، يجهله الناس اليوم كما كانوا يجهلون حيواناته ونباتاته الضئيلة يوم أن رفع الغطاء عنها. هذه قصته، قصة أول كاشف للمكروب، تتلوها قصص من تبعوه من

كشاف المكروب ومقاتلة الموت، وهي قصص ساذجة بسيطة لقوم جريئتين لحاجين متشوفين مثابرين، أطلوا على هذه الدنيا الجديدة العجيبة، دنيا المكروبات، وأطالوا النظر فيها وتابعوه في غير ملل أو كلل، وأرادوا فوق ذلك أن يشبروها ويمسحوها ويجعلوا لمجاهلها ومعاميها خرائط واضحة مبينة، فأخذوا يتحسسون في الظلام، ويمدون أكفهم متلمسين غير لامسين، فيستقيمون حيناً ويخطبون أحياناً، ويصيبون مرة ويخطئون مراراً، لحلوكة المكان ووعورة المسير.

ومهم جماعة غلوا في الجرأة فقتلتهم تلك الخلائق الصغيرة التي كانوا يدرسونها فلم يصيبوا جزاء ما عملوا إلا مجداً صغيراً مستوراً

في أيامنا هذه لا يؤخذ على المرء أن يكون رجل علم، ورجال العلم اليوم عنصر خطير من العناصر التي تتألف منها سكان البلاد المتحضرة؛ معاملهم في كل مدينة، وأعمالهم على الصفحات الأولى من الجرائد، تذاع في الكثير الغالب ولما يتم نضاجها، وكل متخرج شاب في جامعة يستطيع أن يبحث في العلوم جهاراً، وفي منته رويداً رويداً أن يصير أستاذاً يدرس بمرتي فيه غناء، وأن يستمتع بالسكن الهادئ في بيت صغير مريح.

ولكن احمل نفسك إلى عصر (لوفن هوك)، إلى خمسين ومائتي سنة إلى الوراء، وتصور نفسك قد رجعت إلى داراك من آخر درس في آخر سنة من مدرستك الثانوية، وبدأت تفكر فيما تتعلم من بعد ذلك لتخلق لنفسك مستقبلاً، وتهيأت تطلب المزيد من العرفان العالي، من العلم الجر، من البحث الطليق. . . هيهات

او تصور ان التكلف، ما كنهه، ما سببه: تسال والدك ليقول لك: لعنة من روح خبيثة دخلتك. هذا جواب قد لا يقنعك، ولكن مع هذا تصدقه، أو على الأقل تتظاهر بتصديقه، ثم لا تعود تفكر في الكاف ولا في كنهه ولا في سببه، ثم تنساه نسياً ابدياً، لأنك لا تستطيع ان تجهر بمناقضة ابيك ولو قال نكراً، ولأنك إن فعلت اذاقك مس العصا او طرد البيت. فابوك ذو سيادة مطلقة لا تُنازع ولو جائرة

هكذا كانت الدنيا منذ ثلاثة قرون، يوم ولُد (لوفن هوك). كانت دينا مليئة بالخرافات، مغلولة بالأباطيل. دنيا أحرقت سؤفيتوس لانه تجرأ على تشريح جثة ميت ليختبرها ليعلم ما فيها. دنيا قضت على جاليليو بالسجن المؤبد لأنه تجاسر فحاول أن يثبت أن الأرض تدور حول الشمس. دنيا كانت على وشك أن تستيقظ لليقين ولكنها لم تكد، وأن تفك عن عنقها غل الجهل ولكنها لم تكن فعلت، وأن تحمر خجلاً من عار ما هي فيه فلم يبد في وجهها إلا مسحة تُخال من حُمرة. دنيا كان العلم فيها يدرج دَرَجان الطفل على ساقين ضعيفين مرتعدتين في بطء وخشية، وما كان العلم إلا استطاع الحق بالنظر الدقيق والتفكير الواضح البريء

ولد (لوفن هوك) عام 1632 بين طاحونات الهواء الزرقاء والطرقات الواطئة والقنوات العالية بمدينة (دلفت بهولاندة. وكانت أسرته ذات حُرمة كبيرة. أقول كبيرة لأنهم كانوا سلالين وكانوا خمارين، والخمارون قوم محترمون مشرفون في هولاندة.

ومات أبوه فأرسلته أمه إلى المدرسة ليصير موظفاً في الحكومة، ولكنه ترك المدرسة في سن السادسة عشرة، وتتلمذ لقماش بمدينة أمستردام فكان حانوت هذا القماش جامعته. تصور رجلاً علمياً من عصرنا هذا يجري اختباراته وتجاربيه بين أثواب الشيت وقرع أجراس الصيارفة، وبين الحديث إلى ربات المنازل تتوالى عليه في دورة لا تنقطع وكلهن حريصات يساومن للقرش والمليم! تلك كانت جامعة (لوفن هوك) ستة أعوام

وفي سن الحادية والعشرين ترك لحانوت ورجع إلى (دلفت) وهناك تزوج وفتح حانوتاً لبيع المنسوجات واختص به. ولا ندري عنه في السنوات العشرين التي تلت ذلك إلا أنه تزوج مرة اخرى وكان له بضعة أطفال مات أكثرهم. ولكن ما لا شك فيه أنه تعين حاجباً في دار بلدية المدينة في هذه الاثناء، وأنه شُغف بنحت من الزجاج الرائق عدسات صغيرة فيتقن النحت ثم ينظر إلى الأشياء من خلالها يجدها أكبر كثيراً مما تراها العين

إن المعروف عنه بين سن العشرين وسن الأربعين قليل، ولكن لا ريب في أنه عاش بين الناس كبعض الجهال فلم يُعرف عنه علم ولم تظهر له بينهم قيمة، واللغة الوحيدة التي عرفها هي اللغة الهولاندية، وهي لغة خافية خاملة كان ينعتها أهل العصر بأنها لغة

السماكين وأصحاب الدكاكاين والصعاليك من الفعلة. أما المثقفون في تلك الأيام فكانوا
يتكلمون اللاتينية. ولم يكن (لوفن هوك) يقرأها بَلْهَ الكلام بها. وكان كل ما يعرف من كتب الأدب الانجيل الهولاندي. ولكن مع هذا، وبالرغم من كل هذا، ستجد أم جهله أعانه كثيراً؛ فجهالته قطعت ما بينه وبين العلم الفارغ الزائف الذي كان شائعاً يومئذ، فاضطر إلى الرجوع إلى عينه، والاعتماد عل فكره، والاعتداد بحكم نفسه، وكان في خلقه حرونة البغال فساعده ركوب رأسه على اقتحام الطريق الذي سلك
لا مراء في أن رؤية الشيء من خلال عدسة، ووجدانه أكبر مما ترى العين، أمر فيه متعة وفيه سرور وفيه غبطة. ولكن من أين للوفن هذه العدسات! يشتريها؟ هيهات ولو قطعوا رأسه. وكان كثير الشك كثير الاتهام، فلم يجد بداً من صنعها بنفسه. وفي العشرين سنة التي لم نسمع فيها عنه ذهب إلى صناع النظارات وتعلم مباديء نحت الزجاج، وخالط الكيميائيين والصيادلة وتدخل في أعمالهم ونفذ إلى أسرارهم، فعلم كيف يستخرجون المعادن من خاماتها، وأخذ عنهم بُجهد النفس صياغة الذهب والفضة.
وكان لا يعجبه العَجَب، فلم تُرضه العدسات ينحتها كأحسن ما ينحت نحاتو هولانده، فكان يعيد عليها الكرة بعد الكرة ساعات طويلة، ثم يركبها بعد ذلك في مستطيلات صغيرة من النحاس أو الفضة أو الذهب مما استخرجه هو بنفسه من الخام على جمرات الفحم المتقدة بين الروائح الغريبة والابخرة الخانقة. إن الباحث اليوم يدفع الخمسة عشر جنيهاً أو نحوها فيقبض بديلاً منها مكرسكوباً جميلاً بارقاً يدير لواليه وينظر فيه فيكشف ما يكشف وهو لا يعرف كيف صُنع مكرسكوبه ولا كيف تركب. أما (لوفن هوك) فلم يكن يأخذ بشيء أخذ تسليم
بالطبع كان جيرانه يظنون به بعض الخيل، ولكن (لوفن) لم يأبه لهم، ومضى في عمله تتنفط يده وتحترق اصابعه ويشتغل ساعات الليالي الطويلة الهادئة وحيداً منكباً على أعمال صعبة دقيقة، ناسياً أهله أصدقاءه. وكان جيرانه الاخيار الطيبون يتسارقون الضحك منه بينما كان يشق لنفسه طريقاً عسيراً إلى صناعة عدسات صغيرة جداً قطرها دون ثُمن البوصة، غايةٍ في التماثل، غايةٍ في الكمال، بلغ منها أن أرته دقائق الأشياء كبيرةً ضخمة في صفاء وروعة. نعم إنه لم يكن كبير الثقافة، ولكنه كان من بين رجال هولانده الرجلَ الفذ الذي استطاع أن يخلق هذه العدسات. وكان إذا ذكر جيرانه يقول: لقد حق علينا أن نغفر لهم فهم قوم لا يعلمون
ثم بدأ هذا القماش يصوب عدسته إلى كل شيء وجد، فنظر بها ألياف عضلات الحيتان، ونظر بها ما كشط من جلد نفيه. وذهب إلى القصاب يستجديه أو يشترمى منه عين ثور، وأخذها وامتحنها ونظر إلى عدستها البلورية الجميلة فراعه منها تركيبها البارع. وجاء بشعرات من صوف خروف فأخذ يحدق فيها ثم يحدق، وبأخرى من فرو كلاب الماء، وبثالثة من بعض الأوعال، وأخذ يحدق فيها ثم يحدق، فتراءت له هذه الخيوط الدقيقة الملساء تحت قطع زجاجه الصغيرة كفروع الشجر كبراً وخشونة. وشرح رأس ذبابة، فحاذر وحاسب حتى أخرج منه مخها، وجمله على إبرة رفيعة، ونظر إليه بمكرسكوبه فأعجب بتفصيلات هذا المخ الكبير. واختبر قطاعات خشبية ليضع من أشجار مختلفة، وامتحن بذور النباتات، ونظر النظرة الأولى إلى فم البرغوث وإلى أرجل القملة فوجدها جميعاً كبيرة غاية في الكبر، مفصلة غاية في التفصيل، كاملة غاية في الكمال، فاتهم عينه أو كاد. كان (لوفن هوك) كالجرو يتشمم كل ما حوله فلا يميز الطيب من الخبيث، ولا يعوقه عائق من عرف أو أدب

وكان (لوفن هوك) رجلاً شكاكاً ملحا في شكه، ينظر إلى زباني النحلة أو إلى رجل القملة، ثم ينظر، ثم يكرر النظر حيناً بعد حين. ثم يترك كل هذا عالقاً إلى طرف منظاره ليصنع منظارات اخرى ليرى أشياء أخرى. ثم يعود إلى أشيائه الأولى ليتحقق مما كان رأى أولاً. فتجمع بذلك لديه مئات المكرسكوبات. ولم يكن يكتب عما يرى حرفاً، أو يرسم له رسماً، حتى يؤكد بعد مئات النظرات أنه في الظروف الواحدة والملابسات الواحدة يبصر دائماً أموراً واحدة. وبعد كل هذا كانت لا تفوت الريبةُ قلبه: قال فيما قال عن هذا: (ينظر الناظر في المكروسكوب أول مرة فيقول رأى كذا، خداعٌ لا ينجو منه حتى النظار الحاذق. لقد انفقت على مشاهداتي زمناً طويلاً لا يتسع

له تصديق الكثيرين، ولكني انفقه في سرور ولذة، ووضعت إصبعي في أذني كلما سمعت الناس يقولون: ولم كل هذا التعب؟ وما العائدة من هذا النصب؟ فان هؤلاء قوم لا يفقهون، وأنا إنما أكتب لطلاب الفلسفة ورواد الحكمة. .)

وظل هكذا بعمل من غير راءٍ ولا سامع، من غير مادح مصفق أو مهلل مكبر، مدة بلغت العشرين عاماً

ولكن في هذا الوقت، في منتصف القرن السابع عشر، اخذت الاعوام تتمخض في العالم عن احداث عظيمة، ففي انجلترا وفرنسا وإيطاليا، وفي كل ركن وبين كل ملأ، أخذ رجال ينظرون من جديد في كل شيء يقال له علم، وفي كل أمر تُنتحل له لفظة الحقيقة، قالوا: لن يغنينا بعد الآن ما تحدث به أرسطو ولا ما أرتاه البابا. لن يغنينا بعد الآن إلا ما تراه أعيننا باطالة النظر وإدامة الملاحظة، وإلا ما تجده موازيننا وتكشف عنه تجاريبنا)

وكان في انجلترا من بين هؤلاء الثائرين نفر قليلون ألفوا فيما بينهم جماعة أسموها (المدرسة المتسترة). وكان لابد لهم من التستر خشية على رقابهم من حبال المشانق (فكرومويل) كان رب هذا العصر والحاكم بأمره فيه، فلو أنه علم بهم، وعلم بالأقضية الغريبة التي يبحثون، لقضي على أهل البدعة المؤتمرين بالموت. . . . وكان من بين هذا النفر المتستر (ربوبرت بويل) واسحق نيوتن وارتقى شارل الثاني عريش ملكه فخرجت تلك الجماعة من الظلام إلى النور، ومن غيهب الجب الستار الذي كانت تعمل فيه إلى نهار وضاح مذياع ينشر اسمها الجديد إلى الرياح الأربع. وتسمت بالجمعية الملكية الانجليزية وكانت هذه الجمعية الوقور الجليلة أول مستمع إلى (لوفن هوك)، وذلك أنه كان في مدينة (دلفت) رجل يسمى (رجنيير دي جراف) كان قد كشف في مبيض الأنثى من البشر عن أمور ذات قيمة وخطر، فكتب بها إلى الجمعية الملكية فكافأته فاختارته عضواً مراسلاً. وكان (دي جراف) الرجل الوحيد من بين رجال (دلفت) الذي لم يضحك من (لوفن هوك)، وكان (لوفن) قد تجهم للناس وتنكر لهم مما هزءوا منه وأساءوا اليه، ومع ذلك أذن لـ (دي جراف) أن ينظر بعيون بابل التي صنعها: أن ينظر بتلك العدسات الصغيرة التي لم يكن يوجد مثلها في أوربا ولا في انجلترا بل ولا في العالم كله. نظر (دي جراف) في تلك العدسات فأكبر ارآى، وتصاغر في عينه مجد كسبه، وأسرع فكتب إلى رجال الجمعية الملكية يقول اكتبوا إلى لوفن هوك واسألوه أن يكتب اليكم بالذي اكتشف

وأجاب (لوفن) رجاء الجمعية فكتب إليها بلغة الواثق الجاهل قدر الفلاسفة العظام الذين يكتب اليهم. وكان كتاباً طويلاً ثرثاراً مضحكاً لا أثر للصناعة فيه، تناول من الموضوعات كل ما دارت عليه الشمس. وان مكتوباً بلغة التخاطب الهولاندية وهي اللغة الوحيدة التي

عرفها. وعنون كتابه: عينة من ملاحظات مكرسكوبية ابتدعها المستر لوفن هوك تتعلق بالفطر على الجلد وفي اللحم وهلم جرا، وكذلك تعلق بُحمَة النحلة ونحوها.

وجاء الكتاب الجمعية فأدهشها ما فيه، وقرأه السفسطائيون فيهم والعلماء فتبسموا منه وتفاكهوا عليه، ولكن على الجملة راعهم ما قال (لوفن) إنه رآه بعدساته الجديدة، وكتب اليه كاتب الجمعية يشكره ويرجوه أن يُتبع كتابه كتباً أخرى، وقد كان، فقد اتبعه (لوفن) بمئات من الكتب طيلة خمسين عاماً. وكانت كتباً ثرثارة مليئة بقوارص الكلم عن جيرانه الجهال، فضح فيها أدعياء، وكشف فيها عن خرافات وأضاليل كشف خبير قدير، وتحدث فيها عن نفسه وعن صحته، وأتي فيها بأشتات من كل ما هب ودبَ، ولكنها أحاديث برغم تبسطها، وبرغم شتاتها، كانت تتحشى هنا وهناك، وفي كل كتاب تقريباً، بأوصاف دقيقة مجيدة خالدة لما كشفته عين هذا التاجر. وطالعها لوردات الجمعية وسادتها فكانت لهم متعة وفخراُ

(يتبع)

أحمد زكي

أصول التحقيق الجنائي في التشريعين الأوربي والاسلامي

للأستاذ بشير الشريقي

إن موضوع (أصول التحقيق الجنائي) أعني الأساليب المتبعة لأثبات الأفعال الجُرمية هو من أهم موضوعات (العلم الجنائي)، هذا العلم الذي ينظم إيقاع العقاب على من يخالف أمر القانون أو نهيه

إن أهمية هذا العلم وخطره يظهران واضحين في نتيجته الضرورية، وهي الحكم بالعقوبة على من ثبتت جريمته، عقوبة تحرم المتهم المقرر تجريمه أقدس حقوقه، من ماله وحريته بل من حياته أيضاً

لقد تعاقب على أصول التحقيق الجنائي في أوربا أسلوبان أصليان يعرف أولهما بالأسلوب (الادعائي) وثانيهما بالأسلوب (التحقيقي). ظل الأسلوب الادعائي سائداً في أوربا حتى القرن الخامس عشر، ومن مقتضاه أن يرجع القاضي عند عدم اقناعه بالشهادات المسرودة أمامه واصرار المتهم على إنكار الجرم إلى ما يسمونه (حكم الله) ليفصل بين المتداعيين. أما حكم الله فقد كان يتجلى للقاضي بالمصارعة، والماء الغلي، والكي بالنار!

ثم أحلوا الأسلوب (التحقيقي) محل الأسلوب الادعائي حوالي القرن الخامس عشر للميلاد، فكان التحقيق يجري فيه بين جدران خرساء وفي خلوات متتابعة، بين حاكم مجرب يميل بحكم العادة المسلكية إلى أن يرى في الظنين مجرماً، وظنين عاجز عن الدفاع مضطهد في السجن ومستعد للإدلاء بإفادات ضارة فاضحة، وكان قضاة هذا الأسلوب، حينما لا يظفرون - بعد صفحات التحقيق المختلفة - بأدلة كافية لأخذ المتهم، وبكلمة أصح، حينما لا يظفرون بشيء ضده؛ يأمرون بسوق المسكين إلى حجرة التعذيب للحصول على اعترافه، وعلى ما في هذا الاسلوب الاستنطاقي من قسوة ووحشية، فقد كان يظهر للاوربيين طبعياً جداً وضرورياً، حتى انهم كانوا يطلقون عليه اسم (المسألة القضائية)!. ويذكر الاستاذ (جارو) هذه الأصول في موجزه (الأصول الجنائية) جزء 1 فقرة 23) فيقول: (. . . مع أن استعمال التعذيب كان عاماً، فان طرق استعماله كانت مختلفة، باختلاف البلاد والبرلانات، وبينمت كان التعذيب بالماء والآلات المخصصة لتعذيب المتهم في أعضائه

السفلى، جارياً ومقبولاً في اجتهاد منطقة برلمان (باريز) فقد كانوا في منطقة (بريطانيا) يستعملون التعذيب بالنار!. .)

ويصور الكاتب الفرنسي الكبير (ميشيل زيفاكو) كيف كان يجري التحقيق الجنائي في عهد فرانسوا الأول (1494 - 1547) فيقول (. . . فاذا عرض إبهام وغموض في إحدى القضايا، أمر القاضيان بأن يساق المتهم إلى حجرة التعذيب، وإذ ذاك لا تنقضي عشر دقائق حتى يقول احد القاضيين: لقد برح الخفاء وظهر المستور، فيقول رفيقه: آمين!! وذلك أن المتهم المسكين إذا ألقي إلى معاناة التعذيب والتنكيل يقر بكل ما يريدون الاقرار به، وقد يعترف بعضهم بذنوب لا يصورها إلا الخيال أو هي فوق الامكان كاقرار المتهمين بأنهم يراسلون الشياطين أو يحمون مردة الجن، أو يطيرون في الهواء!)

ظل هذا التشريع في أصول التحقيق يظلم الأوربيين ويعذبهم أعواماً وقروناً طويلة لم يفكروا خلالها في تغييره أو مقاومته، وكيف يفكرون في ذلك وهم يعتبرون ان قسوته واجحافه من الشدة الضرورية؟!. إلى أن جاءت الثورة الفرنسية 1789 واعلنت حقوق الإنسان، عندها فقط عمد رجال العقل والفكر في الجمعية التأسيسية إلى إصلاح مفاسد الحقوق المرعية بوجه عام، والحقوق الجنائية بوجه خاص، فنجحوا في ذلك نجاحاً عظيماً

تلك هي أصول التحقيق الجنائي في أوربا بقيت حتى الثورة الفرنسية وفيها ما فيها من بشاعة وظلم يوقع في انواع من الفوضى والفساد، واساليب فظة غليظة لا تلائم سياسة الامم بالعدل ولا توافق حال العمران، وانما تكشف عن مبلغ ما كان يسود اوربا حتى سنة 1789 من جهل وغباوة وظلم وفساد

وبعد فلنر كيف كان قضاة العرب المسلمين منذ ثلاثة عشر قرناً يحكمون بين الناس، واي الاساليب كانوا يتبعون لا ثبات الافعال الجرمية!: جاء في كتاب (الخراج) للأمام ابي يوسف المتوفي سنة 182هـ ص107 ما يأتي:

(. . . ومن ظن أو توهم عليه سرقة أو غير ذلك فلا ينبغي أن يعزر بالضرب والتوعد والتخويف فان من أقر بسرعة أو بحد أو بقتل، قد فعل ذلك به، فليس إقراره بشيء ولا يحل قطعه ولا أخذه بما أقر به)

انه لقضاء عادل ونظر قويم ورأي سديد، يتفق واحدث قواعد العلم الجنائي، ويبرهن أعظم
برهان على أن العرب المسلمين كانوا من أعرف الناس بحق المجتمع وحق العدل، ومن أكثرهم فطنة وعراقة في أصول القضاء العادل
يقول الأستاذ (جارو) في موجزه (الأصول الجنائية جزء 2 فقرة 408): (إن التجديد الأعظم في أصول التحقيق كان في قانون 1897 الذي يوجب على المستنطق أن ينذر الظنين ويخبره بأنه يقدر ألا يدلي بشيء من البيانات والإفادات)
ونقول أيضاً إن هذا (التجديد الأعظم) هو عين ما كان يفعله قضاة العرب عند مثول المتهم أمامهم، فقد جاء في كتاب الخراج الذي نبحث عنه ص107 ما يأتي: (وقد كان يبلغ من توفي أصحاب رسول الله (ص) الحدود في غير مواضعها، وما كانوا يرون من الفضل في درئها بالشبهات أن يقولوا لمن أتى به سارقاً: (أسرقت؟ قل لا)
إن هذا لعمر الحق منتهى الدقة والعلم، منتهى الاحتياط في حفظ الحقوق
وإليك ما جاء في كتاب (الطرق الحكيمة) ص4 لمحمد ابن قيم الجوزية المتوفي سنة 751 هجرية في موضوع (الأقرار) وهو مما يتصل ببحث التحقيق (. . . إن الاقرار إذا كان لعلة اطلع عليها الحاكم لم يلتفت اليه أبداً) (لبينة والاقرار خبران يتطرق اليهما الصدق والكذب) و (الحكام إذا لم يكن فقيه النفس في الأمارات ودلائل الحال ومعرفة شواهده، وفي القرائن الحالية والمقالية كجزيئات وكليات الأحكام أضاع حقوقاً كثيرة على أصحابها، وحكم بما يعلم بطلانه، ولا يشكونه فيه اعتماداً منه على نوع ظاهر لم يلتفت إلى باطنه وسائر أحواله)
هذا ما يقوله ابن القيم في موضوع (الإقرار) ومنه يستدل على ان قضاة العرب لم يكونوا في قضائهم يقفون عند مجرد ظواهر البينات، وإنما يحكمون بقناعتهم ووجدانهم وفراستهم أيضاً، وإن في ذلك لفطنة وذكاء وصدقاً، خصوصاً ومسألة (القناعة الوجدانية) مسألة كبيرة تعتبر من أمهات المسائل في العلم الجنائي الحديث، يلاحظ في إهمالها إضاعة حق كبير وإقامة باطل كثير؛ وقد ذكر الاستاذ (جارو) ذلك في موجزه (الأصول الجنائية) جزء 2 فقرة 377 فقال: (لا ينبغي الحكم بمجرد وجود الاقرار إذ أن موضوع المحاكمة ليس الفصل في منافع خاصة، وإنما هو إظهار الحقيقة وكشفها، ولذاك يجب التدقيق عما إذا كانت ظروف القضية الاقرار صحيحاً)
واستمع أيضاً إلى ابن القيم يشرح في طرقه الحكيمة ص174 - 180 اوفى واوضح شرح؛ موضوع علم القاضي الشخصي: (ما علمه القاضي في زمن ولا يته ومكانها وما علمه في غيرها) هذا الموضوع الدقيق جداً في علم الحقوق. قال رحمه الله:
ومن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (. . . فأقضي له على نحو ما أسمع) واما الآثار عن الصحابة رضي الله عنهم فصح عن ابي بكر الصديق انه قال: (لو رأيت رجلاً على حد من حدود الله تعالى لم آخذه حتى يكون معي غيري). وعن عمر بن الخطاب انه قال لعبد الرحمن بن عوف: (أرأيت لو رأيت رجلاً قتل أو شرب أو زنى، قال شهادتك شهادة رجل واحد. فقال له عمر صدقت) وعن طريق الضحاك ان عمر اختصم اليه فيمن يعرفه فقال للطالب: (إن شئت شهدت ولم أقض وان شئت قضيت ولم أشهد) وعن علي نحوه، وأما الآثار عن التابعين فصح عن الشعبي أنه قال: (لا أكون قاضياً وشاهداً)
وهم يدللون على صواب هذه المسألة بقولهم: (إن القاضي في غير مصره وغير ولايته شاهد لا حكام، وشهادة الفرد لا تقبل، قالوا وأما الحدود فلا يقضي بعلمه فيها لانه خصم فيها، لأنه حق الله تعالى وهو نائبه). . . وهل يسوغ للحاكم ان ياتي إلى رجل من الناس غير مشهور بفاحشة وليس عليه شاهد واحد فيرجمه ويقول رأيته يزنى، أو يقتله ويقول سمعته يسب، او يفرق بين الزوجين ويقول سمعته يطلق، وهل هذا غلا محض التهمة، ولو فتح هذا الباب ولاسيما لقضاة هذا الزمان لوجد كل قاض له عدو، السبيل إلى قتل عدوه ورجمه وتفسيقه والتفريق بينه وبين امرأته، لاسيما إذا كانت العداوة خفية لا يمكن لعدوه اثباتها)
وقد يحسن بنا بعد هذه المقارنة بين اصول التحقيق الجنائي في التشريعين الاسلامي والاوربي، ان نختم موضوعنا بكلمة جامعة للعلامة جلال الدين السيوطي تدل على سمو الغاية، وكمال المسمى الاسلامي في التشريع القائم على تحقيق العدل وضمان

المصالح الإنسانية، وفي هذه الجملة تتجلى حيطة لقاضي النزيه، وخشيته ان يأخذ البريء بعقوبة المذنب. قال رحمه الله: (اعلم انك ان تخطيء في العفو في الف قضية، خير من ان تخطيء في العقوبة في قضية واحدة)

شرق الاردن

بشير الشريقي المحامي

جمال النكتة في الشعر

بقلم الأستاذ الحوماني

صاحب مجلة العروبة بيروت

النكتة في أصل اللغة هي النقطة البيضاء في الشيء الأسود، أو السوداء في الشيء الأبيض، اخذها البيانيون لكل معنى يترك في النفس لدى كشفه أثراً تظهر معه بمظهر الروعة والاعجاب. ولا يخفى الشبه بين الحقيقتين اللغوية والاصطلاحية، فكما أن النفس ترتاع لمنظر السواد في البياض كالحور في العين. ولمنظر البياض في السواد كالقمر في الليل، فكذاك تأخذها الروعة لسماع قطعة من النثر قد ضمنها الشاعر معنى أخرجه بين دقة نظر وإمعان فكر، فهي في عرض الحديث أو القصيدة بارزة الجمال بروزها في سواد الليل قمرا، وفي بياض العين حَوَرا

والنكتة البيانية كما تكون في العلم نتيجة إعمال الفكر، تكون في الفن وليدة إبداع الخيال، وتكون وليدة الطبع أو التطبع، وإذا جاءت هزليةً دعيت فكاهة، وما أثقل على السمع أن يهزل بها متكلف، وإذا كانت جدية كانت وليدة الحذق وحدة القلب، أما الهزلية فتكاد تكون قاصرة على الطبع

قد يرى البعض أن النكتة في الشعر محض فن لأرواح معه، والذي يوهمهم ذلك هو ظنهم أن الشاعر إنما ينظم النكتة وهو غير متأثر، فهم يحصرون التأثر النفسي في جانب العواطف الثائرة لحزن أو سرور، والنكتة عندهم مجرد التفات الفكر إلى غريب معنى يكتشفه وهو يتحقق أو يتخيل، بينما تكون العاطفة هادئة مطمئنة؛ ولو لفتهم العقل إلى ما تتأثر به نفوسهم لدى سماعهم هذه النكتة من روعة وجمال ثم التفتوا ثانياً إلى أن تأثر السامع إنما هو نتيجة تأثر القائل لاستراحوا من هذا التأويل، ولعلموا أن النظم إذا صدق عليه أنه شعر، كانت روح الشاعر متغلغلة فيه، ولكن هذه الروح تبدو جلية في حين وتخفي على الفهم البسيط في حين آخر، وليس تأثر النفس الشاعرة قاصراً على ما يبعث الحزن أو السرور فيها، وإنما يتعدى ذلك إلى كثير من أفعال الوجدان، كالدهشة، والغضب، والذعر ونحوها

يلتفتون إلى أن النكتة في الشعر إنما تنشأ عن تنبه الفكر إلى غريب معنى يكتشفه وهو

يتخيل أو يتبين الحقائق، ويغفلون عن روعة النفس وتأثرها بما تشعر من وراء هذا الاكتشاف، فاشمع نفح الطيب يروي لك جمال النكتة في الشعر عن شعراء الأندلس:

أعوذ بالله من أناس ... تشيخوا قبل أن يشيخوا

احدودبوا وانحنوا رياء ... فاحذرهم إنهم فخرخ

مناط تأثر الشاعر في هذين البيتين ما يشعر به من تدليس المرائين، ولعلهم المنافقون الذين يسرون الكفر ويظهرون الايمان، وجمال النكتة منهما في البيت الاخير، وهي فيهما قاصرة على الفن، وليست من الفن مجرد حمل الفخاخ على ظهورهم بجامع التقويس كما تشبه الناقة الهزيلة بالقوس، والهلال بالعرجون القديم، إذ ليس غرض الشاعر بيان أن ظهورهم محنية كالأقواس أو الفخاخ، ولكن غرضه أن يلفت العامة إلى أن وراء تقويس ظهورهم المكذوب ما وراء تقويس الفخوخ من رياء وتضليل وغشٍ وخداع، فلم يتقوسوا لكبرٍ أو عجز، بل ليخدعوا الرأي فيطمئن إليهم في إصلاح نفسه، ويجعلهم محل الثقة من دينه ودنياه فيمدوا إذ ذاك أيديهم إلى ذات يده ويمعنون فيها بزاً واختلاساً

ولكن ما يجب أن ينتبه له هنا هو أن القنص علة للغش والخدعة، وهما علة للتقويس، وأما في الفخاخ فالقنص له معلولان لا يترتب أحدهما على الآخر: هما التقويس والخدعة. فالتقويس يلحق الآلة التي تقبض على الطريدة، والخداع يكون بواسطة طعم يناط بالآلة الموارد خلفه

فالخداع في المشبه على التقويس، والقنص يترتب على الخداع، فالرجل المرائي

يتقوس ليخدع، ويخدع ليقنص، وأما الفخ فيتقوس ليقبض ويناط به الطعم ليخدع، هكذا يتبين الفرق جلياً بين المشبه والمشبه به
وجميل في النكتة قول الآخر من شعراء نفح الطيب أيضاً:
يا بدر يا شمس يا نهار ... أنت لها جنة ونار
تجنبُ الثم فيك اثمُ ... وخشية العار فيك عار
النكتة تتحقق هنا في ادعاء الشاعر لمحبوبه جمالاً يبلغ بالهائم فيه حداً يرى معه الحسن في المجتمع قبيحاً والقبيح حسناً، وادعائه أن من رأى حبيبه حمله جماله على أن لم يعذره في اقتراف الاثم معه فحسب، بل جعل تجنبه للاثم فيه من الاثم، وخشية العار فيه من العار؛
ولا يخفى ما يعضد جمال المعنى من تلاعب في اللفظ، وكثيراً ما يكون التلاعب من الجمال
ومن جمال النكتة قول سبط بن التعاويذي:
قل لمن أصلي هواها ... كبدي ناراً تلظى
يا قضيب البان قدا ... وغزال الرمل لحظا
أنت أحلى من لذيذ ... النوم في عيني وأحظى
قد بذلت الوصل في الطيف فلم أعرضت يقظي؟
لا أرى لي، والمودات ... حظوظ، منك حظاً
آه من رقة خدٍ ... صيرت قلب فظاً
جمال الشعر من هذه الأبيات يتجلى في الأربعة الأخيرة، أما النكتة ففي الأخير، ولعل الفتنة فيما قبله، ولعل مبعثها اعتراض الجملة الوسطى، والاعتراض في الشعر جمال يأخذ اللب بسحره، ولعلنا نأتي على طرف منه في آخر هذه الكلمة
كني برقة الخد عن جمال الوجه، وإنما حض الرقة باطلاق الخاص على العام، وهي أحد جزيئات الجمال، ليقابل بها الفظاظة في الروي، فهو من جمال الفن
لما أثبت له الجمال كان من لوازمه الاعجاب والزهو في الجميل وهما مبعث الدلال والتجني، وهذان يحملان على القسوة وعدم الرأفة بالهائم في ذيهما لكثرة العشاق حوله، فكان اذن من لوازم الجمال قسوة القلب، وليست النكتة فيما تسمع، ولكنها في ايهام جعل الرقة علة للفظاظة وهما نقيضان، بتصرف تظهر النفس معه بمظهر الروعة والدهشة
فالشاعر في الحقيقة لم يجعل الرقة علة للقسوة، وانما جعل الفظاظة مسببة عن تجني الحبيب مزهواً بجماله، ثم كنى عن الجمال بالرقة التي هي إحدى جزئياته، فصح له إذ ذاك تعليل الشيء بجزئي سببه
يقول شمس الدين العاملي يمدح كامل بك الأسعد نجل خليل بك الأسعد وهما من زعماء بلاد (عاملة):
وإكسير علم ركبته قريحتي ... غنيت به عن قصد كل بخيل
إذا شئت أن أثرى صنعت سبيكة ... وأهديتها للكامل بن خليل
ويوق أيضاً في معرض اللوم على ابن عمه الشاعر على شمس الدين وقد تعرض لخلاف وقع زعيمين اقطاعيين:
إذا ما التقى الليثان في حومة الوغى ... وكل على كلٍ جريء مشيع
فمن سفهٍ ان ينبح الكلب ضيغما ... وينطح ذا روق لدى الروع أقرع
فانك تستطيع أن تهتدي إلى النكتة في آخر الشعر حتى تعلم الخبر الذي تقدم البيتين ثم لا ترتاع نفسك للشعر تماماً حتى نعلم أن عم الشاعر أقرع. وهكذا كثيراً ما تكون النكتة، لتسمى نكتة، متوقفة على بيان ما هي في سياقه
وقد تبنى النكتة على مثل خاص أو حديث خاص واصطلاح قوم خاص، فتكون نكتة خاصة لا يرتاع لها إلا من شرك قوماً نظمت لهم في الجهة التي بنيت عليها،، فالشاعر حيث يقول:
عزلوك لما قلت: ما ... اعطي، وولوا من بذل
أو ما علمت بأن (ما) ... حرف يكف عن العمل؟؟
فانما بني النكتة في شعره على القاعدة اللغوية القائلة: إن (ما) في قولك: (إنما زيد قائم ونحوه) كافة عن العمل، فلم تكن لتهتدي إلى النكتة وأنت غير نحوي، ثم لم تكن

لتتفهم التمهيد لها في البيت الأول حتى تعلم أن الشاعر قال ذلك في زمن لا يولي امرؤ عملاً حتى يرشي أولى الامرِ كالزمن الذي نحن فيه ومثله قوله الهلالي:

وغزالٍ قلت ما الاسـ ... مُ حبيبي؟؟ قال مالك
قلت: صف لي وجهك الز ... اهي وصف حسم اعتدالك
قال: كالبدر وكالغص ... ن وما أشبه ذلك

فالنكتة في العجز الاخير، وإنما بنيت على كثرة استعمال النحويين لهذه الجملة حتى أصبح ذكرها في غير المسائل النحوية يعد اقتباساً

ومن جمال النكتة في الشعر الهزلي قول أحد المعاصرين يداعب صديقاً له:

يا صابغ اللحية ما تستحي ... تشارك الرحمن في صنعه
أقبح شيء شاع بين الورى ... أن امرأ يكذب في لحيته

وليس لجمال النكتة في الشعر حد يوقف عنده، فتلمسه في شعر الظرفاء تجد منه الكثير

الحوماني

من تراثنا العلمي

تَعْبير الرُّؤيا لأبنِ قُتَيْبَة

وصف وتلخيص لنسخة ثمينة من كتاب مفقود

للأستاذ علي الطنطاوي

تتمة

والعرب تضع النفس موضع الروح، والروح موضع النفس، فيقولون: خرجت نفسه وفاضت، وخرجت روحه منه، إما لأنهما شيء واحد، أو لأنهما شيئان متصلان لا يقوم أحدهما إلا بالآخر، وكذلك يسمون الجسد نفساً، لأنه محل النفس، قال ذو الرمة حين احتُضر:

يا قابض الروح من نفسي إذا احتُضِرت ... وغافر الذنب زحزحني عن النار

ويسمون الدم جسداً لأن الجسد محله. قال النابغة الذبياني:

فلا لَعَمْرُ الذي قد زُرته حَججاً ... وما أريق على الأنْصاب من جسدِ

والمهجة عندهم الدم. قال الأصمعي: سمعت أعرابية الخ . . .

وقد أعلمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أرواح الشهداء في خواصل طير خضر الخ. . . وأرواح أهل النار الخ. . .

ولما كانت الرؤيا على ما أعلمتك من اختلاف مذاهبها، وانصرافها عن (قال أبو محمد): أصولها، بالزيادة الداخلة، والكلمة المعترضة، وانتقالها عن سبيل الخير إلى سبيل الشر باختلاف الهيئات واختلاف الأزمان والأوقات، وأن تأويلها قد يكون مرة من لفظ الاسم ومرة من معناه، ومرة من ضده، ومرة من كتاب الله، ومرة من الحديث، ومرة من البيت السائر والمثل المشهور، احتجت إلى أن أذكر قبل ذكر الأصول أمثلة في التأويل، لأرشدك بها إلى السبيل

فأما التأويل بالأسماء فتحمله على ظاهر اللفظ الخ. قال: وأخبرنا محمد بن عبد العزيز عن. . . عن. . . . . عن. . . . عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: رأيت الليلة فيما يرى النائم كأني في دار عقبة بن رافع وأتيت برطب من رطب ابن طاب (نوع من تمر المدينة)، فأولته أن الرفعة لنا في الدنيا، العاقبة في الآخرة، وأن ديننا قد طاب أخبرنا أبو حاتم الخ. . . (قال أبو محمد): وربما اعتبر من الاسم إذا كثرت حروفه البعض الخ. قال الشاعر:

أهدت اليه سفر جلاً فتطيرا ... منه وظل نهاره متفكراً
خاف الفراق لأن أول ذكره ... سفر وحق له بأن يتطيرا

وكذلك السوسن الخ. قال الشاعر:

سوسنة أعطيتنيها فما ... كنتِ باعطائها محسنة
أولها سوء فان جئت بالآ ... خر منها فهو سوء سنه

وأما التأويل بالقرآن فكالبيض يعبر بالنساء لقول الله عز وجل (كأنهن بيض مكنون) الخ. . . وكالحبل يعبر بالعقد لقوله تعالى: (واعتصموا بحبل الله جميعاً) ولقوله تعالى: (ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس) أي بأمان وعهد.

والعرب تسمى العهد حبلاً، قال الشاعر:
وإذا تجوزها حبال قبيلة ... أخذت من الأخرى اليك خيالها
وكاللباس يعبر بالنساء لقوله جل وعز: (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن). قال النابغة الجعدي، وذكر امرأة الخ. . .
وأما التأويل بالحديث فالغراب هو الفاسق لأن النبي صلى الله عليه وسلم سماه فاسقاً، والفأرة الخ. . .
وأما التأويل بالمثل السائر واللفظ المبذول كقولهم في الصائغ: إنه رجل كذوب لما جرى على ألسنة الناس من قولهم: فلان يصوغ الأحاديث أكان يضعها الخ. . . وكقولهم في الماسح: إنه ذو أسفار، لقولهم لمن كثرت أسفاره هو يمسح الأرض. قال الشاعر في هذا المعنى:
قبح الله آل برمك إني ... صرت من أجلهم أخا أسفار
إن يكن ذو القرين قد مسح الأر ... ض فاني مول بالغبار
ويرى أهل النظر من أصحاب اللغة أن الدجال إنما سمي مسيحاً لأنه يمسح الأرض إذا خرج أي يسير فيها، ولا يستقر بمكان، وأن عيسى عليه السلام إنما سمي بذلك لأنه كان
سائحاً في البلاد لا يقيم بشيء منها ولا يوطنه، ومن ذهب إلى هذا جعله فعيلاً في معنى فاعل مثل قدير ورحيم؛ ويرى قوم أن الدجال سمي مسيحاً لأنه ممسوح إحدى العينن. وهذا وإن كان وجهاً فالاشتقاق الأول أعجب، لأن تسميتهم إياه الدجال تشهد له، والدجالة هي الرفقة في السفر والقافلة، قال خداش بن زهير:
فان يك ركب الحضرمي غرامة ... فن كِلا ركبيكُم أنا غارم
سأغرم من قد نالت الحجر منهم ... ودجالة الشام التي نال حاتم
يعني قافلة أصابها حاتم الخ. .
وكقولهم فيمن غسل يديه بأشنان، إنه اليأس من الشيء يطلبه، لقول الناس لمن يئسوا منه: قد غسلت يدي منك بأشنان، قال الشاعر:
فاغسل يديك باشنان وأنقهما=غسل الجنابة من معروف عثمان
وكقولهم في الكبش الخ. . .
وأما التأويل بالضد والمقلوب فكقولهم في البكاء إنه فرح ما لم يكن معه رنة ولا صوت، وفي الفرح والضحك إنه حزن الخ. . .
وأما تعبير الرؤيا بالزيادة والنقص فكقولهم الخ. . .
وقد تتغير الرؤيا عن أصلها باختلاف هيئات الناس وصناعاتهم واقدارهم وأديانهم، فتكون لواحد رحمة، وعلى الآخر عذاباً الخ. . حدثنا محمد الخ. . . قال: آخي رسول الله صلى الله عليه وسلم بين سلمان وأبي بكر، فرأى سلمان لأبي بكر رؤيا فجانبه وأعرض عنه، فقال له أبو بكر: أي أخي! مالك قد أعرضت عني وجانبتني؟ قال: رأيت كأن يدي جمعتا إلى عنقك، فقال أبو بكر: الله أكبر! جمعت يداي عن الشر إلى يوم القيامة
حدثني محمد عن. . . عن. . . . عن عطاء، قال: كان محمد ابن سيرين يقول في الرجل يرى له أنه يخطب على منبر: إن كان ممن ينبغي له السلطان اصاب سلطاناً. وإلا فانه يصلب. شبه الجذع بالمنبر. وقال الرشيد ليزيد: ما أثر الخلفاء في ربيعة! قال: نعم، ولكن منابرهم الجذوع الخ. . .
ومن عجب الرؤيا أن الرجل يكون مفحماً لا يقدر على أن يقول بيت شعر، أو بكيا يتعذر عليه القليل منه إلا في المدة الطويلة، مع إعمال الفكر، وإنعام الروية، فينشد في المنام
الشعر الجيد لم يسمع به قط فيحفظه أو يحفظ منه البيت أو البيتين، ويكون عيياً أو أعجمياً، فيتكلم بالكلمة من الحكمة البليغة ويوعظ الحسنة، ويخاطب بالكلام البليغ الوجيز الذي لا يستطيع أن يتكلف مثله في اليقظة بعرق الجبين، وهذا من أدل الدلائل على اللطيف الخبير
روي الرازي الخ. . وروي واصل الخ. . وأما الشعر فان أبا اليقظان قال: تزوج رجل امرأة، فعاهد كل واحد منهما صاحبه ألا يتزوج الأخر بعده، ومات الرجل، فلما انقضت عدة المرأة اتاها النساء فلم يزلن بها حتى تزوجت، فلما كانت ليلة هدائها أغفت بعد ما

هُيئت فاذا هي بالرجل آخذا بعضادتي الباب يقول: ما أسرع ما نسيت العهد يا رباب! ثم قال:

حييت ساكن هذا البيت كلهم ... إلا الرباب فاني لا أحييها

أمست عروساً وأمسى منزلي جدثا ... إن القبور تواري من ثوى فيها

فانتبهت فزعة، فقالت: والله لا يجمع رأسي ورأسه بيت ابدا، ثم تخالعا. وروي ابن الكلبي عن جبلة بن مالك الغساني قال: سمع رجل من الحي قائلاً يقول في المنام على سور دمشق

ألا يا لقومي للسفاهة والوهن ... وللعاجز الموهون والرأي ذي الافن

ولابن سعيد بينما هو قائم ... على قدميه خر للوجه والبطن

رأى الحصن منجاة من الموت فالتجأ ... اليه فزارته المنية في الحصن

فأتي عبد الملك بن مروان فأخبره، فقال: ويحك، هل سمعها منك أحد؟ قال: لا. قال: فضعها تحت قدميك

. . .ثم قال، عبد الملك عمرو بن سعيد، عن عقيل. . . عن. . أن رجلاً الخ

ورأيت أيضاً في المنام وأنا حديث السن كتباً فيها حكم كثيرة بألفاظ غريبة - كنت أحفظ منها شيئاً ثم أنسيت ذلك إلا حرفا وهو: ولفت اليه صلة الهواء، وما كنت أعرف في ذلك الوقت ما الصلة، ثم عرفتها بعد، والصلة اليبس

ومن عجائب الرؤيا أن الرجل يرى الشيء لنفسه أو يُرى له فيكون ذلك لشقيقه أو ابنه أو شبيهه أو سمية الخ. . . .

وحكي أبو اليقظان الخ. . . (قال أبو محمد) وما أشبه هذا الحديث (قال أبو محمد) بحديث

رجل رأى في المنام - أيام الطاعون أن جنائز تخرج من داره على عدد من فيها، فطعن أهل الدار جميعاً غيره، فبقي ينتظر الموت ولا يشك في أنه لا حق بهم، فدخل الدار لص، فطعن فيها فمات في الدار، فأخرجت جنازته منها وسلم الرجل

. . .قال حدثني بعض الكتاب الخ (حدثنا أبو محمد)

وإن رأيت الرؤيا كلها مختلطة لا تلتئم على الأصول علمت أنها من الأضغاث فارجيتها، وإن اشتبه عليك الأمر، سألت الرجل عن ضميره في سفره إن كان رأى السفر، وفي صلاته إن كان رأى الصلاة، وفي صيده إن كان رأى الصيد، ثم قضيت بالضمير، وإن لم يكن هناك ضمير أخذت بالأسماء على ما بينت لك. وقد تختلف طبائع الناس في الرؤيا، ويجرون على عادة فيها، يعرفونها من أنفيهم، فيكون ذلك أقوى من الأصل، فتسأل عن طبع الرجل، وما جرت عليه عادته الخ. . . وإن كان الأصل طائراً الخ، وإن كان غراباً الخ. . وقيل لمن أبطأ عليك أو ذهب فلم يعد اليك: غراب نوح، وإن كان عقعقاً كان رجلاُ لا عهد له ولا حفاظ ولا دين قال الشاعر:

إلا إنما حلمتم الأمر عقعقا

. . .وإن كان عقاباً الخ

هذه فقر من المقدمة القيمة التي قدم بها الكتاب وهي تقع في أكثر من أربعين صفحة، وتأتي من بعدها أبواب الكتاب وهي ستة وأربعون باباً، فيها من نوادر الشعر وطرائف اللغة ودرر الأدب مثل ما في المقدمة، ولولا أن هذا الفصل قد طال، لاخترنا منها فقراً رويناها في (الرسالة)، والكتاب على الجملة من نقاش تراثنا العلمي، ومكانه من الخزانة العربية لا يزال خالياً لم يشغله كتاب. وإنا لنأمل له من رجال الأدب ومن الناشرين الاهتمام اللائق به

(دمشق)

علي الطنطاوي

محاورات افلاطون - 13

الحوار الثالث

فيدون أو خلود الروح

ترجمة الأستاذ زكي نجيب محمود

فقال سقراط - سأعمد الآن إلى أحد زوجي الأضداد اللذين ذكرتهما لك فأحلله، وأحلل كذلك فعليه الأوسطين، وعليك أن تحلل لي الآخر. فحالة النوم تضاد حالة اليقظة، ومن النوم تتولد اليقظة، ومن اليقظة يتولد النوم، وعملية التولد هي في إحدى

الحالتين ادراك النعاس، وهي الاستيقاظ في الأخرى. أفأنت متفق معي على هذا؟
- إني جد متفق
إذن فهب أنك أخذن بهذه الطريقة نفسها تحلل لي الحياة والموت. أليس الموت يضاد الحياة؟
- نعم
- وهما متولدان: أحدهما من الآخر؟
- نعم
- ما الذي تولد من الحياة؟
- إنه الموت
- وما الذي تولد من الموت؟
- لا يسعني أن أقول في الجواب إلا أنها الحياة
- إذن يا سيبيس فالحي من الأشياء والأشخاص متولد من الميت؟
- ونتيجة ذلك إذن هي أن أرواحنا كائنة في العالم الأسفل؟
- هذا حق
- وأحد الفعلين أو التولدين ملحوظين بالعين - فلا شك أن عملية الموت ظاهرة؟
فقال - لا ريب
- أفلا يجوز أن يستنتج التولد الآخر، على أنه متمم للطبيعة التي لا يفترض بأنها تسير على ساق واحدة فحسب؟ فان كان الأمر كذلك، فلابد أيضاً ان يضاف إلى الطبيعة عملية تولد من الموت مقابل التولد من الحياة
فأجاب - يقيناً
- وماذا تكون تلك العملية؟
- هي عودة الحياة
- وعودة الحياة، أن صح وجودها، هي ولادة الميت في عالم الأحياء؟
- هذا جد صحيح
- إذن فهاك سبيلاً جديدة تؤدي بنا إلى النتيجة بأن الحي يخرج من الميت كما يخرج الميت من الحي سواء بسواء، فان صح هذا فلابد أن تكون أرواح الموتى مستقرة في مكان ما، ستعود منه مرة أخرى، وقد أقمنا على ذلك فيما أظن دليلاً مقنعاً
قال - نعم يا سقراط، فيظهر أن هذا كله يتبع بالضرورة ما سلمنا به من قبل
فقال - ولم يكن ذلك الذي سلمنا به يا سيبيس معوجاً، وتستطيع أن تتبين ذلك، فيما أظن على هذا النحو: لو كان التولد يسير في خط مستقيم فقط، فلم تكن في الطبيعة دورة أو تعويض، فلا تبادل بين الأشياء أخذاً ورداً، لاتخذت الأشياء - كما تعلم - في نهاية الأمر صورة بعينها، ولتحولت إلى حالة بعينها، ولما تولد منها بعد ذلك شيء
فقال - ماذا تعني بهذا؟
فأجاب - اعني شيئاً بسيطاً جداً سأوضحه بحالة النوم. فأنت تعلم أنه لو لم يكن ثمت توازن بين النوم واليقظة لأضحت قصة أنديميون النائم بلا معنى؛ فقد كان النعاس سيدرك كذلك كل شيء آخر، فلا يعود أنديميون موضعاً لتفكير أحد؛ أو لو كانت المادة ينتابها تكوين بغير انقسام، إذن لعاد هيولي انكسجوراس مرة ثانية. وهكذا، أي عزيزي سيبيس، لو كان كل شيء تناوله الحياة صائراً إلى الموت، ثم لا يعود إلى الحياة ثانياً لانتهى تناوله الحياة صائراً إلى الموت، فلا يبقى ثمت شيء حي - وإلا فكيف يمكن ذلك أن يكون؟ إذا لو كانت الأحياءصادرة من شيء غير الأموات، وكان الأحياء يدركهم الموت، أليس حتما أن يبتلع الموت آخر الأمر كل شيء؟
فقال سيبيس - ليس عن ذلك منصرف يا سقراط، وإني لأحسب أن ما تقوله أنت حق خالص
فقال - نعم يا سيبيس، إني كذلك أحسبه حقاً خالصاً، ولسنا بذلك سابحين في خيال فارغ، ولكني ثابت الايمان بحقيقة العودة إلى الحياة، وبأن الأحياء يخرجون من الموتى، وبأن أرواح الموتى ما برحت في الوجود، وبأن الأرواح الخيرة أوفى من الأرواح الشريرة جزاء.
فأضاف سيبيس - كذلك لو صح مذهبك العزيز يا سقراط، بأن المعرفة ليست إلا تذكراً، لاقتضى ذلك بالضرورة زمناً سالفاً تعلمنا فيه ما نحن الآن ذاكره. وقد كان هذا

التذكر يستحيل لو لم تكن أرواحنا قبل حلولها في الصورة البشرية، كائنة في مكان ما، وإذن فهذه حجة أخرى تؤيد خلود الروح
فاعترضه سمياس قائلاً: ولكن حدثني يا سيبيس، ما البراهين التي تساق لمذهب التذكر هذا؟ فلست جازم اليقين بأنها الآن تحضرني
قال سيبيس - منها برهان ساطع تقيمه الإسئلة، فإذا أنت ألقيت على شخص سؤالاً بطريقة صحيحة، أجابك من تلقاء نفسه جواباً صحيحاً. فكيف استطاع أن يفعل ذلك، ما لم تكن لديه من قبل معرفة ومنطق مصيب؟ وأكثر ما يكون ذلك وضوحاً، حينما يعرض عليه شكل هندسي، أو أي شيء من هذا القبيل
قال سقراط - إن كنت لا تزال شاكاً يا سيمياس ساءلتك، افلا يجوز أن توافقني إذا ما نظرت إلى الموضوع على نحو آخر؟ أعني اذا كنت لا تزال متردداً في التسليم بأن المعرفة عبارة عن تذكر؟
فقال سمياس - لست شاكاً، ولكني أردت أن تعاد إلى ذاكرتي نظرية التذكر هذه، ولقد بدأت أذكرها وأقتنع بها مما قاله سيبيس، غير أنني مازلت أتمنى لو أدليتم بما لديكم فوق ما أعلم
فأجاب - هذا ما سوف ألي به، ولعلنا، إن لم أكن مخطئاً، متفقون على أن ما يتذكره الإنسان لابد أن يكون قد علمه في زمن سالف
- جد صحيح
- فما طبيعة هذا التذكر؟ إنما أريد بهذا السؤال أن أتساءل: ألا يحق لنا القول بأنه إذا لم يقتصر علم إنسان على ما قد رآه أو سمعه أو سلك إلى إدراكه أية سبيل أخرى، بل عرف
شيئاً آخر معرفة تباين تلك، أفليس هو بذلك إنما يتذكر شيئاً يختلج في عقله؟ ألسنا على ذك متفقين؟
- ماذا تعني؟
- أعني ما قد اوضحه بهذا المثال الآتي: لست معرفتك القيثارة كمعرفتك الإنسان سواء بسواء؟
- هذا صحيح
- ولكن ما شعور المحبين إذا ما رأوا قيثارة أو لباساً أو أي شيء آخر مما كان المحبوب يستخدمه عادة؟ أليسوا من رؤية القيثارة يكونون في عين العقل صورة للفتي صاحب القيثارة؟ وهذا تذكر، وكل من يرى سمياس قد يتذكر بنفس الطريقة سيبيس، وهناك من هذا الضرب أشياء لا يحدها الحصر
فاجاب سمياس - نعم إنها موجودة حقاً ولا حصر لعددها
فال - وهذا الشيء وما اليه هو التذكر، وهو في الأعم الأغلب عملية لكشف ما قد طواه النسيان بفعل الزمن والأهمال
فقال - هذا صحيح
- ثم ألا يجوز كذلك أن تتذكر أنساناً من رؤية قيثارة أو صورة لجواد؟ أو قد تبعثك صورة سمياس على تذكر سيبيس؟
- هذا حق
(يتبع)
زكي نجيب محمود
لحظات على متن الباخرة كوثر
للأستاذ عبد الحميد العبادي
تفضلت (شركة مصر للملاحة البحرية) فدعتني إلى شهود احتفالها بسفر الباخرة (كوثر) من مرفأ الإسكندرية إلى السواحل الحجازية مقلة حجاج بيت الله الحرام. فقبلت الدعوة مبتهجاً مسروراً، وأجمعت أن ألبيها شاكراً ممتناً، وقلت في نفسي إن فاتني أن أحج بيت الله على متن هذه الباخرة ففاتني بذلك ثواب تلك الفريضة الكبرى، فلا أقل من أن أحج السفينة نفسها فأفوز برؤية الحلقة الثالثة من سلسلة ستكتمل حلقاتها بأذن الله، ويون لهذا البلد منها أسطول مبارك الغدوات ميمون الروحات
وحانت الساعة الرابعة من عصر يوم الخميس الماضي، فأخذت طريقي إلى المرفأ فيمن أخذ، وصعدت تلك الباخرة الجاثمة فوق متن الماء كالطود العظيم فيمن صعد،

وقد صعدها خلق كثير من علية القوم وأوساطهم يعدون بالمئين. وجعلت أطوف أنحاء السفينة مع المطوفين، صاعداً وهابطاً، متنقلاً من طابق إلى طابق، ومن مقصورة إلى مقصورة، ومن مرفق إلى مرفق، وأشهد لقد تملكتني الحيرة من روعة ما شهدت، وفخامة ما رأيت. وأشكل على الأمر هنيهة من الزمن، فكأنني في حلم من تلك الاحلام اللذيذة التي يخشى معها الحالم أن تنفتح عيناه على الحقيقة المرة المؤلمة! أهذه سفينة مصرية حقاً؟ وهذا العلم الخفاق فوق حيزومها، أهو العلم المصري؟ وهذا الاسم العربي المرقوم عند جؤجؤها، أمكتوب هو بالحرف العربي؟ وهؤلاء الشبان الرائحون الغادون في طرابيشهم القانية وملابسهم البحرية الجميلة، يطلعون الزوار على ما دق من مرافق السفينة وما جل، أهم مصريون حقاً؟ وزاد بي اللبس فجعلت أتقرى الأشياء بيدي أتثبتها على نحو ما صنع البحتري عندما قلم في إيوان كسرى، وعراه ما عراني من الدهش والالتباس!

يغتلى فيهم ارتيابي حتى ... تتقراهم يداي بلمس

ولكن لم يطل أمد تلك الحال، فكل شيء حولي قد احتشد لنصرة اليقين على الشك في المعرة التي قامت بينهما في نفسي، وسرعان ما محا نور اليقين ظلمة الشك، وأطمأنت النفس إلى أني قائم في قطعة من مصر طافية على وجه الماء الله أكبر! لقد أخذ الزمان يستدير، وشرعت مصر تسترد مكانة كانت لها في القديم ثم نحيت عنها قوة واقتداراً، أليست مصر صاحبة أول بعثة تجارية بحرية في التاريخ هي بعثة الملك (اسنفرو) إلى الشام؟ أليست مصر صاحبة أول بعثة استكشافية يعرفها التاريخ هي بعثة الملك (نخاو) حول أفريقية؟ ألم تكن مصر سيدة البحار على عهد البطالسة، ومنارتها بالاسكندرية من عجائب العالم القديم؟ أليس أسطول مصر الاسلامي هو الذي دحر الأسطول البيزنطي في واقعة (ذات الصواري) المشهورة وانتهت اليه زعامة شرقي بحر الروم زمناً طويلاً؟ ثم ماذا كانت واقعة (نوارين) التي تحامل فيها الغرب على الشرق فدمر فيها الأسطول المصري تدميراً، وكان ذلك آخر عهد مصر بالملاحة الصحيحة

إن تعجب فعجب أن تكون لمصر سواحل مترامية مطلة على بحرين من أهم بحار الأرض، وأن يكون لها هذا الماضي الجليل، ثم تظل طوال القرن التاسع عشر وصدر اقرن العشرين عالة على سفن غيرها في نقل عروضها ومتاجرها ومسافريها، ولكن هذا الذي قدر فكان. فليذكر ذلك الذاكرون في هذه الأيام السعيدة التي تأذن الله فيها بانبعاث البحرية المصرية على أيدي رجال (شركة مصر للملاحة البحرية)

لقد كنت أمضي في تأملاتي هذه، لولا أن يسرت أقدار لأقدار، فلمحت عن كثب زعيم مصر الاقتصادي، وحامل لواء نهضتها المالية الحرة، ومن عساه أن يكون سوى (محمد طلعت حرب باشا)؟ فأسرعت إليه أبثه إعجابي بما أرى، وأهنئه وأهنئ في شخصه رجال هذه الشركة المباركة على ما أوتوا من عناية الله وتوفيقه. وجلست اليه سويعة تحدثت إليه فيها فيما خص من الأمر وما عم، ثم قمت من حضرته وأنا أهدي ما كنت، وأفهم مما كنت، وخيراً مما كنت. وكذاك الشباب إذا ظفر بلقاء الرجل العظيم والتحدث اليه

وكانت الشمس قد أوت إلى الأفق الغربي مؤذنة بالمغيب، وجعلت ترسل أشعتها على أعالي البواخر والسفن فتصبغها بمثل الورس الأحرم، وتسكبها على ماء البحر فتحيله تبراً مذاباً. وشمل المنظر خشوع وجمال وجلال، زاد القلب طرباً ونشوة ووجداً. فانصرفت وأنا أدعو (لكوثر) وأخواتها ببحر ذلول، وريح رخاء، وأهتف من اعماق قلبي لأولئك الذين بعثوا العزة القومية بعد وأدها، وأحيوا في نفوس هذه الأمة دارس الأمل وميت الرجاء

عبد الحميد العبادي

بين القاهرة وطوس - 11

اصفهان

(نصف جهان)

للدكتور عبد الوهاب عزام

خرجنا من قم والساعة ثلاث بعد الظهر، سائرين إلى الجنوب تلقاء أصفهان، وبين قم

وأصفهان 282 كيلا، فما زلنا نضرب في سهوب مترامية تعمرها قرى قليلة، حتى قطعنا 92 كيلا في ساعتين، فبلغنا قرية دليجان، وهي قرية كبيرة على الجادة يبدو عليها الفقر، وبيوتها كغيرها من قرى إيران، مسنمة السقوف، مطينة الجدر، فاذا رأيتها على بعد حسبتها قبوراً عالية. وقفنا في القرية على بناء كتب عليه بالانكليزية، أنه مطعم ومشرب شاي، وهو طبقتان في كل واحدة حجرتان، وللطبقة العالية سلم من اللِبن يهبط إلى الطريق

دخلنا فقدم لنا الشاي والبطيخ، واسترحنا قليلاً، ثم ركبنا سيارتنا وقد كادت الشمس تغرب. قلنا: كم بيننا وبين أصفهان؟ قيل أربع ساعات، وبين دليجان وأصفهان 190 كيلاً. وقال سائق لصاحب المطعم سنمر بك بعد غد، فهيء لنا دجاجة وحساء، قال نعم، ذلك وكل ما تشتهون

ضربنا في أرض بلقع يتخللها عمران قليل، حتى بلغنا بلدا اسمه شاه عباس، بينه وبين أصفهان خمس وعشر دقيقة، فتغير مرأى الأرض، وبدت لنا الأشجار والزروع والمياه، وما زلنا في أرض مخصبة مخضرة حتى دخلنا المدينة والساعة تسع وخمس دقائق من مساء السبت حادي عشر رجب (20 أكتوبر)

أصبهان: مدينة العراق العجمي، عي 431 كيلاً إلى الجنوب من طهران، وعرضها 32 درجة وطولها 49، وارتفاعها 1344. وهي في سهل واسع خصب، حسن الهواء كثير الماء والشجر؛ قال ياقوت: (وكانت مساحة أصبهان (أي الأقليم) ثمانين فرسخاً في مثلها، وهي ستة عشر رستاقاً كل رستاق ستون وثلاثمائة قرية قديمة سوى المحدثة). ولا ريب أن في رواية ياقوت غلواً تابع فيه القوال الشائعة. وقد قال هو عن اصبهان: (مدينة عظيمة مشهورة، من أعلام المدن وأعيانها. ويسرفون في وصفها حتى يتجاوزوا حد الاقتصاد)

وقد أدى إلى إغراق الناس في وصف أصفهان وأقليمها استجار العمران هناك، وكثرة القرى، والمياه والزروع. وقد حدثني مهندس ألماني في مدينة أصفهان أن من بقاع اصفهان بقعة يسير فيها السائر خمسة عشر كيلاً بين الأشجار. وبُنيت الأقاليم القطن والتبغ والبطيخ وكثيراً من الفاكهة

والمدينة على نهر زنده رود (النهر الحي)، ويسمى اليوم زايَنده رود (النهر الوَلود). حدثني رجل أنه سمي بهذا لانبجاس مياهه من الأرض في مواضع كثيرة. قال ياقوت: (زند روذ نهر مشهور عند أصبهان، علمه قرى ومزارع؛ وهو نهر عظيم أطيب مياه الأرض وأعذبها). وقال في موضع آخر: (وقد وصفه الشعراء فقال بعضهم:

لست آسي من اصبهان على شي ... ء سوى مائها الرحيق الزلال
ونسيم الصبا ومنخرق الري ... ح وجو صاف على كل حال
ولها الزعفران والعسل الما ... ذي والصافنات تحت الجلال)

وكذلك قال الحجاج لبعض من ولاه اصبهان: قد وليتك بلدة حجرها الكحل، وذبابها النحل، وحشيشها الزعفران.

وقال آخر:

لست آسي من اصبهان على شي_ء أنا أبكي عليه عند رحيلي
غير ماء يكون بالمسجد الجا ... مع صاف مزوق مبذول

ولعل قول كل من هذين الشاعرين (لست آسي) لما تحدث به القدماء من وصف أهل اصبهان بالبخل. وقد حكي عن الصاحب ابن عباد أنه كان إذا أراد الدخول إلى اصبهان قال: من له حاجة فليسألنيها قبل دخولي إلى اصبهان، فانني إذا دخلتها وجدت بها في نفسي شحاً لا اجده في غيرها. وقد روي ياقوت بيتين كتبا في بعض الخانات التي في طريق اصبهان:

قبح السالكون في طلب الرز_ق على أيذج إلى اصبهان
ليت من زارها فعاد اليها ... قد رماه الآلة بالخذلان

وعلى نهر اصبهان اليوم ثلاث قناطر من عجائب الآثار، أكبرها قنطرة (الله ويردي خان) أحد قواد الشاه عباس، وتسمى اليوم (بلِ سي وسه جشمه)، أي القنطرة ذات الثلاث والثلاثين عيناً. وهي مبنية بالحجارة الضخمة، تسير فوقها طريق واسعة لها جدران عاليان. والنصف الأسفل من عيونها يسد بالخشب إذا أريد حبس الماء، وعلى جانبي

العون في قاع النهر سنادان من الحجر يسير عليهما الناس حين انخفاض الماء
ومدينة اصبهان قديمة ذكرها بطليموس. وكانت ذات مكانة عظيمة قبل الأسلام؛ ولم
تزل في الإسلام معدودة من أمهات المدن الفارسية
وقد تقبلت بها غيرٌ كثيرة واهتمت بالسيطرة عليها ل الدول الإسلامية الشرقية، فتولى
أمرها السامانيون والبويهيون والغزنويون والسلاجقة، وكان السلطان ملكشاه
السلجوقي يحب المُقام بها. ولما سالت على المسلمين كوارث التتار، ساروا اليها سنة
625 فدفعهم عنها البطل العظيم جلال الدين خوارزمشاه، ولما كانت الدولة التيمورية
ثار أهل أصفهان على الجبار تيمورلنك سنة 790 فقتلهم حتى قيل إنه جمع سبعين
ألف رأس فبنى بها أهراماً
وامجد عهود أصبهان عهد الدولة الصفوية، ولا تزال آثارها ناطقة بما كان لما من جلال
وجمال في ظل هذه الدولة
وقد بلغ سكانها في ذلك العهد ستمائة ألف، وكان بها ثمانية وثلاثون ألف دار، واثنان
وستون ومائة جامع، وثمان وأربعون مدرسة، وثلاث وسبعون ومائتا حمام، وثمانمائة
وألف خان، (كاروانسراي) وكان محيطها فيما يقال أربعة وعشرين ميلا
ولما أغار الأفغانيون على إيران وقضوا على الدولة الصفوية، ثم صارت طهران دار
الملك تناقص عمران المدينة، ودالت دولتها، وسكانها اليوم ثمانون ألفاً، ومحيطها
ميلان، ولكن لها شأناً عظيماً في التجارة والصناعة
دخلنا المدينة ليلاً، فأوينا إلى فندق اسمه (فندق الفردوس). وكان يسمى الفندق
الأمريكي، وهو في شارع واسع مشجر قديم يقال إن أشجار من عهد الشاه عباس
الكبير، وهو أعظم شوارع المدينة. وجاءنا بعد قليل رئيس البلدية فحيانا وقال إنه يود
أن ننزل داراً خاصة في ضيافة الحكومة، فشكرنا له وللحكومة هذه الحفاوة، وآثرنا أن
نبقى في الفندق، فأبلغنا دعوة الحاكم إيانا إلى العشاء في داره غداً
لم يمكنا الأعياء من التجول في المدينة تلك الليلة، ولكن نعمنا بمرأى أشجار الحور
الباسقة
تنثر على الأرض ضوء القمر، كما تتناثر في خيالنا ذكرى الماضي المجيد من هذه البلدة
الخالدة، التي نشأت من علماء الإسلام الأعلام أمثال أبي الفرج الأصفهاني وداود بن
علي صاحب المذهب الظاهري، وأبي نعيم صاحب الحلية، وحمزة المؤرخ
وكنا نسمع في الحين بعد الحين جلجلة الأجراس في أعناق الابل أو الثيران السائرة
في المدينة. وهذا صوت مطرب في جوف الليل، ولكنه يذهب بالنوم. وغدونا إلى دار
الحكومة فقابلنا حاكم أصفهان وهو أحد الوزراء السابقين، ورجال الصحافة القدماء،
وكان له جريدة تسمى صور أسرا فيل فغلب اسمها عليه فهو اليوم يسمى قاسم صور
اسرافيل، ويتسمى هو بهذا الاسم ويكتبه على بطاقته، وكذلك جاء إلى دار الحكومة
نفر من الألمان، منهم الدكتور شميت الصحافي الذي ينشر جريدة في أنقرة الآن،
وكان مندوباً إلى مؤتمر الفردوسي ولكنه تأخر
خرجنا لرؤية آثار اصفهان الرائعة. وإني أشفق على القارئ أن أصف المساجد
والقصور التي رأيناها وصفاً مفصلاً، فمن شاء أن يرى صور هذه الآثار فليذهب إلى
الجمعية الجغرافية ليرى قاعة المحاضرات مزدانة بصور كثيرة من الآثار الفارسية،
أعظمها وأجملها آثار اصفهان
في المدينة ميدان كبير قال لنا مهندس ألماني إنه أكبر من ميدان الكنوكورد في
باريس ومن كل ميدان في مدينة
وان هذا الميدان للعب الكرة والصولجان على ظهور الخيل (الجوكان)، ولا تزال فيه
العمد الخشبية التي تُعلم غاية الملعب. وفي وسطه حوض كبير تنبجس منه نافورات
قوية. وهي من ثار الصفويين، وقد أصلحت أخيراً
ويحيط بالميدان آثار الصفويين: مسجد الشاه ومسجد الشاه لطف الله والباب العالي
والسوق
مسجد الشاه من أجمل مساجد المسلمين، بل من أعظم آثار العالم قاطبة، بناء ضخم
وهندسة محكمة، وصنعة الكاشاني والكتابة والنقش لم تدع مزيداً لصانع أو ناظر. ولا
يرى مقدار شبر في جدر المسجد أو إيواناته أو قبابه خالياً من هذه الصنعة، فقد أفرغ

الجمال على هذا المسجد كتابة ونقشاً وتلويناً
وفوق إيوان القبلة قبة شاهقة تعلوها قبة أخرى، وبينهما ستة عشر متراً، فاذا توقف الإنسان في مركز القبة وصفق بيديه صفقه خفيفة، أو تكلم بصوت خافت، أو حك الارض برجله انبعث الصدى عالياً مدوياً مردداً في القبة أكثر من عشر مرات ومسجد الشاه لطف الله أصغر من هذا، ولكن فيه من الفنون دقائق عجيبة، وفيه طبقة تحت الأرض للصلاة في الشتاء
(يتبع)
عبد الوهاب عزام
الله قد عَبَدُوا
للأستاذ فخري أبو السعود
وَيلي على أمم الإسلام خاضعة ... للمستبدين لا يرني لها أحدُ
من قال لي: من يقر الضيم؟ قلت له: ... ألمسلمون وعير الحي والوتدُ!
في مشرق الأرض قد دانوا ومغربها ... ما كاد ينجو لهم من غاصب بلدُ
في ربقة الظلم هم جاءوا وهم ذهبوا ... وفي المذلة قد ماتوا وقد ولدوا
صلوا وصاموا لباريهم تظللهم ... أعلام من ظلموا أو سيف من عندوا
يا ليت شعري للديان ما قنتوا؟ ... أم للمغالب ما قالوا وما سجدوا؟
يا قوم من شرعة الإسلام دينكم ... أن ليس يعبد إلا الواحد الصمد!
أترضون سوى الرحمن محتكما؟ ... ما إن لقومٍ إذا ما استعبد وارشد
الله ليس يحب الدين من أمم ... لغيره طأطأوا أو غيره عبدوا
لعل أدنى إليه في مراتبه ... عدوكم وهو ماضي العزم مجتهد
أختي عليكم بجند من عزائمه ... ومن جهالتكم جند له حشد
لولا تفاقم هذا الجهل بينكم ... لم يغنه عدد فيكم ولا عدد
لا يبالغ العز قومٌ عن جهالتهم ... لا ينزعون وعن مسعاتهم قعدوا
إنا نؤومو الضحى ليست تزايلنا ... أحلامنا وهو في جنح الدجى سهد
ما دام ذا الجهل يمشي بين أظهركم ... ففي قضيتكم - لا ينقضي - فند
قد ذمكم بالذي فيكم فلا كذب ... فإن غلا فله من جهلكم سندُ
كم تقنعون بدون العيش مرتبة ... في العالمين؟ وكم ذا الذل مطرد؟
من لي بعهد به آباؤنا ملكوا ... بكفهم كل ما حلوا وما عقدوا؟
لا يقبلون وصاة الأوصياء ولا ... أحكام من اسرفوا في الحكم أو قصدوا
الله قد عبدوا دون الورى وله ... بذاك في الصلوات الخمس قد شهدوا
فخري أبو سعود
إلى ممثلة نابغة
من أي وحي تنهلين رشاقة ... لمحت ظلال الخلد منها الأنفس؟
وبأي سحر تمسحين موافقاً ... يزهو بروعتها الجمال الأقدس؟
روح الطبيعة في اختلاف فنونها ... وروائها لم محو ما في نغمتك
وشت مواهبك الكياسة فانثنت ... آياتها مختالة في بسمتك
أدركت سر الفن وهو ممنع ... فعنا لك الإبداع، إذا أدركته
ما الواقع الملموس يعجب باحث ... فيه، سوى تمثيل ما مثلته
عاصمة الأرجنتين
الياس قنصل
ثورة الذكرى
بقلم فريد عين شوكه
ذكرياتٌ مشبوبة الثوران ... وحبيب يلج في الهجران
وفؤادٌ طغى الحنين عليه ... فوهى عزمه من الخفقان
حائر في الضلوع تفضحه العي ... نُ بمرآة دمعها الحيران
شد ما روع الفؤاد من الذك ... رى وما ذاق في الهوى من هوان!
ذكريات الغرام تغمر فكري ... فتثير الغفى من أشجاني
كلما صورت لي الماضي الضا ... حي وريف الظلال عذب المجاني
أردفته بحاضري مقفر الدو ... حة مر الجنى حزين المغاني!

فتثور الهمومُ، يا رحمة الله ... إذا لج في الهموم جناني
ثورة تلهب الفؤاد فيغدو ... في ضلوعي كحمة البركان
يتنزى حتى تضيق به النف ... سُ فتلقاه بالعتاب الحاني
فيم هذا الحنين يأيها القلْ ... بُ إلى من غفا على نسياني
وإلام الوفاء والطاعة المث ... لى لمن لا يثوب عن عصياني
فيم تلك الأشعار تضفي عليه ... كل ما رق في الهوى من معان
يسكب الغير فوقها دمعة العط ... ف ويرثى لما بها من تفان
وهو إن لاحها يمر عليها ... دون ما رحمةٍ بها أو حنان
قد سئمت الهوى عذاباً أليما ... وحياة كئيبة الألوان
وإذا القلبُ بينها واهن الخف ... ق غريق في لجة الأحزان
يسأل النفس للحبيب المعاذي ... ر ويأبى الجنوح للسلوان
يا لهذا الفؤاد ألوى به الحب م وما زال دائب التحنان
أيها القلبُ قد سباك حبيب ... ليس يحنو على الأسير العاني
يتجنى على رغم فنائي ... فيه، يا للجحود والنكران!
كم تمنيت عطفه فتأبى ... وتشهيت وصله فجفاني
وكأني إذا مرضت وكانت ... صحوتي في مزاره ما أتاني
وكاني لو مت في ميعة العم ... ر وغيبت في الثرى ما بكاني
فاتئد في هواك يأيها القل ... ب وخفف من سوؤه الهيمان
أو كما شئت يا عصي ولكن ... سوف تصلي لواعج الكتمان
لن تراني أشكو إليه خفايا ... ك ولو ذبت شكوة في لساني
لهف نفسي عليك يأيها الما ... ضي ويا شوق خاطري الولهان
كم عهود كانت لديك غوال ... وليال غز الجبين حسان
جمعتنا كما اشتهينا وحيدي ... ن فكانت بليغة الإحسان
وحبتنا شراعها فامتطينا ... هـ إل دوحة الهوى الفينان
فنعمنا بما به من بواكي ... ر وما فيه من قطوف دوان
ورشفنا بورده الطاهر العذ ... ب كئوساً من الرضى والحنان
وسمرنا في ربوة عطر الجو ... م بأنفاس زهرها الوسنان
نتناجى والعين أمتع في النج ... وى واوفى من عبقري البيان
ونغني فيستفيق لنا الرو ... ض كأنا في دوحة غردان
مصغياً للغناء حتى نؤدي ... هـ فيهفو كالطائر النشوان
كم تغنيت للحبيب بما شا ... ء ورتلت ما اشتهى من أغان
فاذا هاجه الحنين فغنى ... في حياء ورقة وافتنان
وسرى الصوت بين أحشائي الظم ... أى وأحناء صدري اللهفان
رف قلبي له رفيف الأقاحي ... ناعمات بالمنهل الريان
ذاك ماضي الهوى فكيف تناسي ... هـ وقد صار بضعة من كياني
جف روض الهوى من الثمر الحل ... ووأضحى مهلهل لأفنان
وضحا ظله الظليل وفرت ... عن أفانينه طيور الأماني
فقضيت الحياة ارويه دمعي ... واعاني في ريه ما اعاني
وإذا الروض هامد ما أفادت ... هـ شآبيب دمعي الهتان
أيها الروض إن ما بك أوهى ... عزماتي وهد من بنياني
دواؤك الهجر والحبيب عصى ... والليالي تغريه بالحرمان
فاذا ما جهدت في بعث ماضي ... ك رماني الزمان بالخذلان
والزمان العنيد إن سدد الرم ... ية ألوى بحيلة الإنسان
يا إله السماء إني تحطم ... تُ وما زلتُ في ربيع زماني
وذوت مهجتي من النغم البا ... كي فمن لي بأعذب الألحان؟
فريد عين شوكه

فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية

تطور الحركة الفلسفية في ألماني - 7

للأستاذ خليل هنداوي

أما الإنسان فهو عند هيجل الكائن الفرد الذي يتوسط بين الكائنات كيف يشاء، ويدرك نفسه بنفسه. الإنسان هو روح: روح ذاتية لا تحس إلا بحريتها الخاصة، ولا تعمل إلا على ما يضمن لها النصر على ما حولها. وروح اجتماعية تحترم حريات الناس وتراعى حقوقهم. وروح مطلقة تسمو على التقاليد المادية، يفني إزاءها كل شيء من كل شيء تواضع عليه الناس. روح تعود إلى نفسها لتجد في نفسها (المثال الإلهي) فلا تجده غرضاً تسمى اليه ولكن تجده حقيقة شاملة أدركتها فيما أدركت. . .

وقد وجد هيجل ثلاث شعب في العلوم: العلوم النفسية، والعلوم الأدبية، والعلوم الدينية. . . وقد شطر العلوم الدينية ثلاثة فروع: الفن، والدين، والفلسفة؛ أما الفن فهو أول تجربة قامر بها الروح ليتشبه بالوجود، فالفنان يذهل عن نفسه حين يتأمل في عمله. والفن - في الحقيقة - هو يقظة من يقظات الوحي ولمعة من لمعات العبقرية. والدين يفسر معاني الألوهية برموز وألغاز. وفي النهاية وجد الإنسان ربه في نفسه، وها هنا تسامى الدين إلى الفلسفة، وولد الآلةفي روح النسان، وتألف العلم المطلق، وبسط به الإنسان سلطته على الكون، وأدرك به غرضه. هذا هو الفيلسوف الذي يستطيع أن يغلق كتاب الوجود دام انتصار مدرسة (هيجل) خمسة عشر عاماً، لا تسمع فيها إلا صوت هذه المدرسة التي ملكت على القوم، وفرت من وجهها كل مدرسة؛ ثم أخذت تهوى عن عرشها لأن العقل المخدر آن أن يصحو، فبدا له ما هو في هذه الآراء - برغم اشتهار صاحبها بقوة عارضته وقوة منطقة - من تناقص واضطراب. ففي عالمه السياسي والإلهي قد ظهر الاختلاف على أشده، وجد (هيجل) في صاحب الديانة المسيحية شخصية سامية يمازجها روح الإله. ولكنه في فصل آخر يقر بأنه لا يجد في الدين إلا تعاليم آخذه طريقها إلى الفلسفة، حيث تفني في الفلسفة كل عناصر الايمان. وأما آراء (هيجل) في التاريخ فهي آراء عقلية، يتحدث بها عن عقل الفرد وعقلية الأمم، ويرى تاريخ الحرية هو تاريخ العالم. أما العصر الشرقي فهو عصر الحكم المطلق، والعصر اليوناني الروماني هو عصر الحرية الجزئية وعصر الأحزاب والاسر والعبودية، والعصر الجرماني هو عصر النهضة والبعث والثورة، ويقبل هيجل على العصر الحديث ويذكر أن الدولة هي هيئة من هيئات الفكر، ولا بد لهذه الهيئة أن تتمثل في صاحب السلطة والسلطان. وهو لا ينصر مذهب توزيع السلطة خشية أن يثير ذلك الضغائن ويخلق الفتن ويوقع العراك في الأهواء. وهو يقدملنا - بعدها الحوار الطويل - حكومته البروسية بعد معاهدة (1815) مثلاً سامياً للدولة. وهكذا لا يمكن للفيلسوف أن يتجرد من نعرته القومية حتى المباحث التي ينبغي لصاحبها أن يكون مجرداً بعيداً عن الهوى

مذهب المثال الكمالي

وأخيراً ماذا ظل راسياً من مدرسة (هيجل) في الصرح الفلسفي؟ أم ماذا بقي من ذلك الاتجاه العنيف نحو فلسفة (الواحد المطلق) الذي جرى وراءه فيخت وشيلنج وهيجل؟

إن (كانت) في كتابه نقد العقل المجرد أجاب بأن معارفنا لا تضع لنا جواباً شافياً عن حقائق الأشياء، ولكنها تقرب لنا صورها بطريق الحواس، وهذا الوجود لا نراه على حقيقته التي هو عليها، وإنما نراه على الحقيقة التي تبدو لنا منه. وجاء فيخت بعده فجعل من (الذات) ملجأ للحقيقة كلها. والأشياء الخارجة عن كياننا لا يُكتب لها الظهور إلا في اللحظة التي تعالجها الذات وتمعن فيها تفكيراً. , والإنسان بما أوتي من عزم وقوة لم يكن يوماً بكائن بسيط يدفع القوى المحدقة به، ولكنه يريد أن يُسيطر على العالم حتى يتمكن من شعوره بنفسه. ولكن ماذا آلت اليه الطبيعة - في مذهب فيخت - ومعانيها المتدفقة الحساسة؟ أنها قد صُرعت وتجردت من كل المعاني، فجاء شيلنج فعمل على مزج الفلسفة بالفن، وجرب أن يوحد بين العالم والكائن المفكر. الإنسان والطبيعة يجب أن يتحدا ويكون واسطة اتحادهما العقل المفكر والإحساس بالجمال. . . . وهكذا عاد مذهب سبينوزا القائل بأن الله إنما هو كل الكائنات، عاد هذا المذهب بصورة أوسع أفقاً من صورته الأولى، يتوسع في الحرية الإنسانية، وينطوي على فكرة فنية

بلى، إن مذهب المثال الكمالي الذي دان به الفكر الألماني مصدره المذهب القائل (بأن الآلة الواحد إنما هو كل الكائنات) وهذا (هيجل) هو الذي ثبت هذا المذهب

بدستوره الذي جاء وليد جهود رفيعة تريد أن تشيد العلم الإنساني، ثم تبلغ بهذا العلم نفسه منزل الحقيقة
السامية. فتطور الحياة العُضوية في الطبيعة، وتعاقب الأصول البشرية، وتتابع المدنيات في التاريخ إن هي إلا وجوه متقلبة لأصل واحد. وهذه هي الدائرة التي يجوزها الفكر المطلق عاملاً على تحقيق قوته المبدعة، وراجياً في النهاية أن يتم تعارفه مع الروح الإنسانية. . . الآلة لم يكن. . ولكنه عاد. . . ووُلد في الإنسان. إن معنى الوجود هو أضعف معنى؛ وهل معناه إلا أن تبدو لحظة من الزمن على مسرح هذا العالم المتبدل ثم تعود إلى أصلك؟ كل شيء يزول يدل على أن فكرة بزواله تمت، أما حركة الحياة فانها تمهد في معنى مجرد لا تدركها الأنظار
إن فلسفة هيجل حين جعلت من الروح الإنسانية ملجأ كل معرفة ووعاء كل حقيقة، أصبح المتدين بها يعرف الروح الإنسانية، ولا يعرف مما حولها شيئاً؛ هو يزعم أنه يحلل الكون ويعلل حوادثه ويشيد دعائمه بفكره، ولكنه في الحقيقة لا يتخطى - في ذلك - حدود العالم الصغير الذي يضم الإنسان عليه جوانح صدره
لابد لمن أراد أن يلم بتطور الأدب الالماني في منتصف القرن التاسع عشر أن يقع على أسباب تلك السآمة التي تمشت في عروق ذلك الأدب، ففي غرة هذا القرن اقتحم (نابليون) ألمانيا، وعليها على أمرها؛ فأذعنت أو همدت قليلاً والنار تسطع خلل الرماد، وهي في الحقيقة لم تنفض عنها أملاً ولم تدفع مأملاً، والحركة الفكرية التي ولدها اولئك الفلاسفة تدل على ان مرناها لم تزغ عنه الابصار، وان آثارها لم يطمس عليها طامس؛ وبعد حبوط تلك الآمال النازعة إلى حرية الشعب الألماني ولم شعثه بعد التفريق، خيم على الجهة الألمانية شبه سكون لا يتمخض بحياة! ولكن الأدب لا يموت، ولكنه يثور ويتحرك في الأقطار المذللة حيث ترى أصحابها مدفوعين دفعاً إلى الحياة، والتاريخ وحده ظل دائباً ساعياً وراء الغاية دون أن يقف سيره شيء، أما صوت الشعر فقد خفت، والمخيلة نامت إلى حين
في هذا العصر وجدت فلسفة (هيجل) مزاحماً جديداً عنيفاً، هو تشاؤم (شوبنهاور) ومما ساعد على انتشاره قوة بيان صاحبه، وهيجل كان أسلوبه غير بياني، فتهافت الناس بعقولهم وقلوبهم على المذهب الجديد
ما قامت فلسفة أذيع وأسير من فلسفة (هيجل)، فقد كانت تياراً قوياً تقذف بالنفوس إلى مسكن (المثل الأعلى) ولكن تأثيرها سرعان ما وهي، وكان لهجيل. أنصار كثيرون أخذوا
عنه وحملوا مبادئه إلى أقطار أخرى؛ حتى إذا وافاه أجله ذهب البعض إلى مقارنته بالاسكندر الذي غزا أقاليم مجهولة، وبعضهم ذهب إلى تمثيله بصاحب الرسالة المسيحية، وفكرة (هيجل) هي مذهب التحول المستمر، والعالم - عنده - هو كالنبتة تنجم دائماً من أصلها، وتحمل في بعض الأحيان براعيم وأزاهير وثمرات. . . . .
وبعد موت (هيجل) انشقت مدرسته وقام منها ثلاث فرق: فريق عكف على تحليل مذهبه وتطبيق فروعه على بعض فروع علمية وأدبية، وقد هذب هذا الفريق من أسلوب معلمهم حتى أخرجوا من حلقة الخاصة إلى متناول العامة؛ وفريق سابق، وأن يرد كل أصولها إلى الدين؛ والفريق الثالث نظر إلى (هيجل) نظرة مستقلة، ووجد أن الدين المسيحي قد انتهى به، كما انتهى العصر الوثني اليوناني بأرسطو، والكلمة التي رددها أحد تلاميذه: (لتكمل إرادة الرجل) تعتبر أول قاعدة في بناء شريعة المستقبل يتبع

خليل هنداوي

القصص

من الادب التركي

باقة زهر

بقلم الآنسة (فتاة الفرات)

إن لبعض المناظر تأثيراً عميقاً خاصاً في نفس الإنسان لا يشاركه فيه غيره من المناظر، لو أنني شهدتها في زمان غير هذا الزمان، أو في مكان غير هذا المكان لقد سحقتني المدينة بجلبتها وضوضائها، ففررت بفكري المجهود وعقلي المكدود إلى قرية قائمة في وسط صحراء هادئة نائمة لأداوي بسكوتها فكري الثائر. وكنت في كل

يوم ألقي بنفسي في أطهر ضواحي القرية من أنفاس الناس، فأستنشق فيها رائحة الطبيعة الجميلة تحت أشعة شمس الربيع التي كانت تسيل بغزلرة من بين قطع السحاب، فتحرك النفوس الجامدة وتثير القلوب الخامدة

كان يمر بتلك القرية نهير براق ينصب فيه الماء من بين أحضان تلك الجبال الشماء، فاذا انحدر منها إلى السهول بصوت جذاب يشبه الصوت الذي ينبعث من مجلس مجالس السرور جرى متغلغلاً بين الأحراج والغابات، متوارياً عن أشعة الشمس التي ملأت الأرجاء وطغت على الأنحاء، فاتراً هادئاً حابساً أنفاسه في صدره، كأنه فتاة عاشقة تسير نحو غايتها في لطف حتى لا يسمح خشخشة ثوبها سامع، ثم يجتمع شيئاً فشيئاً ويزج بنفسه في مقبرة تظللها أشجار السرو العاتية، وتنبعث منها روائح الموت القاسية، فتبعث في النفس ذكرى الدار الآخرة، وتوقظ في القلب عظمة الموت ورهبته، فاذا تجاوز هذه المقبرة سار في جريان بطيء فاتر مدفوعاً بقوة لا يمكن مقاومتها ولا يستطاع دفعها، مبتعداً عن الجبال والأحراج والصحارى حتى يغرق بحرقة الخسران وألم الفقدان في بحر لجي لا يسبر غوره ولا يدرك قراره

وكثيراً ما كنت أتبع في سياحتي مجرى ذلك النهير، فأسير على ضفته مأخوذ اللب، موزع الفكر في أمواجه الضحاكة التي تنيرها أشعة الشمس اللماعة، وضفاته الحزينة التي تظللها الأشجار الملتفة، فتنشر عليها بساطاً من الكدر والحزن، وكم حبست سمعي على زمزمة

مياهه اللطيفة تداعب الأحجار القائمة في طريقها بلطف، وتلامسها في غير عنف، وعلى نقيق ضفادعه تستقبل بواكير الربيع الضاحك، وكم غرقت في هذا وذاك غرقاً لا أخرج منه إلا بعد سفر طويل. هناك في ذلك المكان رأيتها، وكان ذلك في يوم ملول فاتر، والضباب المعطر النفحات الرطب الذرات يتطاير رويداً رويداً فوق ذري الجبال. ثم ينتشر في السهول والقيعان والآكام والوديان فرحاً بالربيع الغض النضير، باعث الحياة في الأموات

أما المناظر البديعة التي كانت تمتد بامتداد البصر، وتسترسل على قدر ما يبلغه النظر، فقد كانت تؤلف بصورها المتنوعة سلسلة من البدائع، تتجلى في طيف الخيال كأنها عالم من العوالم الشعرية المبهمة، وتظهر في صورة خيالية لو مرت بها نسمة من النسمات الفاترة لذهبت بها أباديد

إن في سكون الصحراء العميق نفساً عميقاً لا يكون إلا في سكون الصحراء، إنه سكون حي قوي الحياة، لو نظرت اليه بدقة وإمعان لخيل اليك بقوته أن الطبيعة تتنفس كما يتنفس كل ذي روح

لقد طفت كثيراً في النواحي أمتع النفس بالنظر إلى الضباب القائم يطير بين تلك الجبال كأنه الدخان، والى الزهرات الناضرة سقطت عليها حبات الندى فارتجفت تحتها ومالت أعناقها لثقلها، وأصغى إلى الأطيار على الأشجار تتغنى في هدوء بأصوات مملوءة بنشوة الطرب وسكرة النشاط، وبلغت من لك كله ما أريد

لقد أحيت في نفسي تلك الحال الجذابة، وتلك المناظر الخلابة، وتلك النزهة الواسعة الأطراف، المترامية الأكناف، روحاً جديداً، وأثارت رغبة كامنة، فكنت أقف أثناءها وقفات تسكن فيها الحواس، ويذهب الفكر إلى أبعد مداه، لقد كنت مأخوذاً أمام تلك الطبيعة التي تغرق الفكر، وتشتت اللب، حتى يكون التفكير ذهولاً، لقد كنت مأخوذاً بسبب ذلك الشعور الأخاذ الذي يفوق كل شعور حتى يجعل من الإنسان الحساس جماداً لا يتحرك ولا يحس

لست أدري لماذا أبحث عن هذه الأشياء ولماذا أتكلم عنها؟ وليس لها من صلة بالحادثة التي أثارت أحزاني وحركن كوامن أشجاني وحرمتني حتى من نفسي أياماً طوالاً، أجل لا أدري، ولكني أريد أن أقول إني رأيت فصول تلك الرواية المحزنة وأنا أشد ما أكون تأثراً

بهذه المناظرة وخضوعاً لها، فزادت رؤيتها تأثري حتى وصلت آثارها إلأى أعمق نقطة في نفسي

سمعت ذات يوم من تل الأيام التي قضيتها في تلك القرية وقع أقدام يكاد يخفي على الأذن لضعفه، فالتفت فعلقت عيني بفتى وفتاة قلما علقت عين بمثلهما جمال خَلْقٍ ولطف خُلقٍ، لا يتجاوز أكبرهما وهو الفتى الثانية عشرة من عمره، ولا تقل الفتاة عنه

إلا عاماً أو عامين، كانت الفتاة وهي تبكي بلا عبرات وتئن بلا حسرات، أما الفتى فكان على عكس حالها يطفح نشاطاً ويفيض سروراً، مع أن على وجهه سحابة. . . لا أردي ماذا أسميها؟

ولا أدري كيف أعبر عنها؟ هي كالتي ترى على بعض الوجوه التي رشقها الموت بسهم من سهامه في بعض من يعز عليها، فطبعها بطابع أغبر قاتم يدل على ما في الجنان من هموم وأحزان، فلما رأيتها على ما وصفت، شعرت بألم في أعماق نفسي ذهب بكل ما فيها من نشوة وطرب

كانا يمشيان رويداً رويداً؛ فالفتاة مستغرقة في أفكارها، مسترسلة إلى أحزانها، وأما الفتى فقد كان يبتسم ابتسامة عذبة كأنه ثمل من حمرة الربيع الجديدة

علقت عيني بهما حتى ما كنت استطع أن أحولها عنهما، كأن دافعاً خفياً يدفعني إلى ذلك ويفرضه على فرضاً. حاذباني، وتجاوزازني، ولعلهما لم يشعر بمكاني، أحدهما مشغول عني بافراحه، والآخر مأخوذ باتراحه

وبينا أنا في ذهولي العميق إذا بقاتل يقول:

- فيماذا تفكر؟

كان المتكلم طبيباً من أصدقائي يتبع الطفلين، لا أذكر ماذا أجبته على سؤاله، ولكني أدركت بعد أن مر الطفلان من أمامي أن ضحية ثمينة قد مرت بي

صادفت الطبيب في اليوم الثاني منفرداً فقلت له:

- من هذان الطفلان اللذان كنت تتبعهما أمس؟

فأجابني وهو يلوي شفته:

- هما شقيقان

قلت:

- ومريضان؟

فقال:

- (أحدهما فق والثاني لا حق بع عما قريب ولابد، لأن مرض الثاني لا يظهر إلا بعد أن يتلاشى المريض الأول، إن الفتى لن يحتمل هذا المرض أكثر من شهر آخر، وإذ ذاك فلا بد من معاينة الفتاة)

ثم استمر قائلاً:

- (لعلك قد لاحظت أن الفتاة تعلو وجهها سحابة حزن كثيفة وان طورها طور مكتئب شديد الكآبة، فهل عرفت منشأ ذلك؟ منشؤه الخوف، إن الفتة لا تفقه ذلك من أمر هذا المرض الذي نزل بأخيها شيئاً، وأني لها أن تفقه ذلك وهي لا تزال طفلة؟ ولكنها مع هذا تعلم يقيناً أن أخاها معرض لخطر شديد محدق له، أنها تسمع كل يوم من أفواه الناس هذه الكلمات فترسخ في قلبها الصغير وتترك فيه أثراً من الخوف:

كيف حاله اليوم؟ هل عاودته النوبة؟ كم درجة حرارته اليوم؟

وهي في كل يوم أيضاً تسمع من أمها هذه النصيحة مئات من المرات:

اجلسي يا فتاتي بجانب أخيك، لا طفيه، لا عيبه، لا تؤلميه، إن أخاك لا يحتمل ذلك

إن هذه الجمل والعبارات تطرق مسمعها كل يوم مرات عديدة فتترك في قلبها الحساس أثراً عميقاً كله خوف ووجل، ومع ذلك فكثيراً ما رأت والديها وهما يمسحان دموعهما خفية، وكثيراً ما رأتهما بعد أن يخرجا من غرفة أخيها المريض يحتضنانها ويقبلانها قبلات حارة، ثم تضمها امها اليها بحرارة كأنها تود المحافظة عليها من عدو يريد اختطافها بعد أن نفضت يدها من أخيها، فهي لذلك تشعر من سويداء قلبها الصغير بخوف ووجل لا تفقه منشؤهما ولا تعرف مأناهما، وهي لذلك حزينة كئيبة. وأما المريض الحقيقي فانه طروب فرح مملوء نشاطاً ومرحاً، لقد كان حتى الآن محبوساً في البيت، محروماً من التمتع بالطبيعة، فلما أطلق سراحه عاد دمه إلى الغليان بأشعة شمس الربيع المزدهر، وهذه دورة من دورات السل مخيفة، لأن المريض فيها يظن نفسه قد شفي من المرض، مع أن ذلك النشاط هو القوة الباهرة التي تعتري الذين يقفون على أبواب الموت، وهو آخر مظهر تظهره الحياة وتنفق فيه أقصى ما عندها من جهد، وإذ ذاك نقول لأهل المريض خذوه إلى النزه. . . دعوه يلعب في الشمس ويرتع في الهواء الطلق. . . فهذه الكلمات تعلن للأهل بلطف أنه لم يبق من حاجة إلى الدواء بعد أن وقع اليأس من الشفاء، فهاهم

الآن يرسلونه ليلعب في الهواء الطلق كل يوم، وليأخذ قسطه من مرح الطبيعة، ولينال حظه من حرارة الشمس الساطعة ليمتع نفسه بما قضي عليه أن يحرم منه (قريباً

جلست الوم كعادتي عند النهر أفكر، فكانت أفكاري كلها متجهة نحو هذين الطفلين! لقد كانا محور تخيلاتي وتأملاتي في هذا اليوم، فلا أرى سواهما، ولا يمر ببالي شيء غيرهما

أصبحت أرى الطفلين كل يوم، وكنت إذا وقع نظري عليهما علق بهما حتى لا يكاد يتحول عنهما، وكأني كنت أشعر أن صوتاً بهما حتى لا يكاد يتحول عنهما، وكأني كنت أشعر أن صوتاً داخلياً يهتف بس قائلاً:

- تأمل هذين الوجهين المحاطين بالشعر الأشقر إحاطة الهالة بالقمر، إنك سترى تلك الطفولة الغضة قد جمدت ويبست فيهما كما جفت الزهرة قبل أن تتفتح عنها أكمامها، وسترى على شفاههما الذابلة ذبول الزهرة لفحتها السائم، رعشة تشبه رعشة المحتضر

أما تلك العيون الحزينة فقد كانت في ذلك الربيع الضاحك مدفناً لجميع الآلام، أسفاً على ربيع حياة عصفت به يد الخريف وتودع كل آمالها في الحياة مع شدة حرصها عليها، تودعها بشعر حزين باكٍ تنظمه نظراتهما الحائرة، وترجمة أنفاسها الفاترة. المرض بعد، والفتى الذي برح به الداء، يمشيان جنباً إلى جنب، وقد أخذ كل منهما بيد الآخر، مشية الحزين الذاهل

رأيت الفتاة في أحد الأيام وهي مكبة باهتمام على أخيها تزرر معطفه خوفاً عليه من البرد، فقلت في نفسي ما أشقاكما أيها الطفلان. . .

كان الفتى في آخر مرة رأيته فيها مصبوغ الوجنتين بحمرة هي حمرة السقم لا حمرة العافية، وفي تل المرة سمعت أخته تقول له بصوت حزين:

- لقد أسرفت في الركض يا أخي فأخذك العرق وها هو السعال يعاودك ويأخذ بخناقك

ويجيبها الفتى وهو يبتسم لها ابتسامة عذبة ويحاول أن يحبس سعاله:

- نعم لقد أسرفت في الركض كثيراً، ولن أعود

خرجت إلى النزهة بعد أيام وأخذت أجمع ما راق عيني وأحبته نفسي من الأزهار الجميلة

التي أتحفتنا بها الطبيعة لتجلبنا اليها، فجمعت باقة جميلة فيها من كل لون حسن، ومن كل رائحة لطيفة، ثم رأيت زهرة زرقاء اللون، قد نبتت على حائط المقبرة بين الأحجار، فمددت يدي لأقطفها، فاذا بيد قد وضعت على كتفي، فالتفت فاذا صديقي الطبيب، فقلت له:

- أهذا أنت؟

- نعم فالى أين تريد؟

- لست أريد مكاناً معيناً، إنما أنا في نزهة أداوي بها نفسي ولا أدري متى يكون الشفاه؟

ثم ذكرت الطفل المريض، فقلت له:

- ما شأن مريضك اليوم؟

فأخذ الطبيب بيدي وسار أمامي حتى وقف على باب المقبرة وأشار بيده قائلاً:

- ها هو ذا. . .

نظرت بحيرة، فاذا الطبيب يريني قبراً جديداً ث أضاف قائلا:

- ما كنت مخطئاً في ظني. إن الفتى قد قضى بحبه منذ يومين، وقد دعت الآن لمعالجة الفتاة، وها أنا ذاهب اليها

ابتعد الطبيب عني، ووقفت في مكاني كالصم لا أتحركن إن هذا القبر الجديد تحت سماء الربيع الصافية المملوءة بالحياة والنشاط يدل على معنى مؤلم، فنظرت طويلاً واستعبرت كثيراً، فكأن صوتاً من داخل القبر يقول:

- انظروا متأملين إلى هذه الأنوار التي تفيض من السماء فيضاً! والى الحياة تسح من أجواف الربيع المزدهر سحاً، ولكني محروم من هذا وذاك. . . آه افتحوا قبري! افتحوه. لأشاهد أنوار السماء واضواءها، ولأبصر فوران الحياة وغليانها . .

بحركة لم أتعمدها، ولم أقصد اليها، ألقيت من يدي تلك الباقة من الزهر، على ذلك

القبر، الذي كانت تشرق عليه شمس مايو الحارة، وفررت من ذلك المكان لا ألوي على شيء، وبقيت بعد ذلك الموقف سنين عدة مشتت الفكر، مشرد اللب، أنشد نفسي فلا أعثر عليها، ولا يرشدني مرشد اليها

حلب

فتاة الفرات

من روائع الشرق والغرب

محمد إقبال

من كتاب (رموز بيخودي)

ترجمة الدكتور عبد الوهاب عزام

ختم شاعر الإسلام الأكبر محمد إقبال كتابه (رموز بيخودي) بتفسير سورة الإخلاص، وجعل كل آية من السور عنوان فصل من الشعر، فنظم ثمانية عشر ومائة بيت تبين عما تمكن في نفسه من المعاني الإسلامية الجليلة

وفيا يلي ترجمة منثورة للأبيات التي كتبها تحت عنوان:

ولم يكن لـ كفواً أحد

ما المسلم الذي تحقر الدنيا عيناه؟ ما هذا القلب الذي وضع في الحقُ مناه؟ زهرة من الشقائق، في ذروة جبل شاهق، ضحكت للشمس والقمر، ولم ترجاني الزهر. ونفحت في حمرتها النار، أنفاسُ الأسحار. تظل أشعة الشمس الأولى، ويغسل غبار النوم من عينها الندى

اشدد (بلم يكن) عقداً، لتكون بين الأقوام فرداً. إن الواحد الذي تنزه على الشريك، يأبى عبده أن يكون ذا شريك. وإن المؤمن وهو في الذروة العُليا، تأبى غيرتُه أن يسامى، (لا تحزنوا) وشاح على صدره، (وأنتم الأعلون) تارج على رأسه يحمل عبء العالمين لا يضجر، ويطوي صدرهُ البحر والبر، قد ألقى أذنه إلى قصف الرعود، فان يخر البرق تلقاه بمنكب مشدود، سيف على الباطل، وللحق مجن لا يكسر، وأمره ونهيه معيار الخير والشر، مائةُ شعلة مقمرة في عقدة من شرره، وتنال الحياة كمالها من جوهره. ليس في هذا العالم ذي الضوضاء نغمة إلا تكبيره في الأرجاء. عظيم العدل والعفو والجود والاحسان، كريم السجايا على نوب الزمان، هو في المجامع برد وسلام، وفي الهيجاء نار تذيب الحسام. وهو في البستان نجي العنادل، وفي الصحراء باز صاءل. لم يرض قلبه تحت السماء قراراً، فاتخذ على الأفلاك داراً. طائر ينقر نجوم السماء، ويحلق وراء القبة الزرقاء

إنك لم تمد جناحا للطيران، فلبثت دودة في الرغام، قد أذلك هجرك القرآن، فأغرقت في

شكوى الزمان، أيها الساقط كالندى على التراب، وفي يده من الحياة كتاب، حتام تتخذ في الثرى مجالك، هلم فألق على الثريا رحالك

عبد الوهاب عزام

وداع

للورد بيرون

ترجمة الأستاذ محمود الخفيف

شد ما يبهجني أنك سعيدة، ولذا أحس أنه ينبغي أن أكون سعيداً مثلك، فان قلبي ما يزال يرجو لك الهناءة في حماسة كما تعود من قبل

وهذا زوجك! متعه الله بما يحب، وحفظك قرة عين له، لشد ما يعتريني الحزن ويباغتني الهم حينما أفكر فيما وفق اليه من حظ عظيم. . . ولكن لأفرغ من هذا ولأنسه. آه كم كنت أمقته لو لم يكن يهبك مثل هذا الحب!

عندما لقيت أخيراً طفلك الحبيب. أحسست كان قلبي وقد ملأته الغيرة يريد أن يتحطم، ولكنني حينما ابتسم هذا الطفل الغرير، طبعت قبلة على جبينه، وفعلت ذلك من أجل أمه

قبلت طفلك وأنا أكتم تنهداتي وأحبس زفراتي، إذ رأيت في وجهه وجه أبيه، ولكنني لم ألبث أن لمحت في مقلتيه عيني أمه. . . وكانتا من قبل مأوى للحب وملكاً لي

وداعاً يا حبيبتي العزيزة! لابد لي من الرحيل، وما دمت أنت سعيدة فليس هناك ما يكربني، أما أن أبقي إلى جوارك فذلك ما لا أستطيعه، إذ سرعان ما يعود قلبي طوع

يديك
لقد طالما ظننت أن الزمن في دورانه، وأن ما فطرت عليه نفسي من فخار وكبرياء، كفيل أن يخمد في قلبي تلك الشعلة الثائرة، شعلة الحب أو شعلة الطفولة، ولكنني لم أتبين حتى جلست إلى جانبك. . . أن قلبي لم يزل في كل شيء هو هو. . . إلا من جهة واحدة. . . . . هي الأمل!
غير أنني على الرغم من ذلك جليت هادئاً بين يديك، نعم إني لم أنس تلك اللحظات التي كان يثبت فيها قلبي بين ضلوعي عند لمحة من عينك! أما الآن فالرعدة جريمة، ولذلك التقينا فلم ينبض فينا عرق
لقد رأيتك تحدقين في وجهي، ولكنك لم تجدي فيه رأي اضطراب، نعم لم تتبيني في ملامحي سوى معنى واحد، هو ذلك السكون العنيد، سكون اليأس. . . إليك عني. . . إليك عني يا أحلام الطفولة. آه! من لي بجرعة من ذلك النهر الذي جاءت به الأساطير، من لي بجرعة من (الليثية)! وأنت أيها القلب الأحمق، إما أن تقر وتهدأ، وإلا فلتتصدع جزاء بما
جنيت
الخفيف
القمر في الخريف
للشاعر كولردج
أناجيك في علياء سمائك أيها القمر الوضيء، يا من يشع منك هذا الزهو الوديع فيملأ جوانب الليلة المدثرة بشتيت الرقيع. إيه يا من تلد الأطياف الساحرة التي تملأ القلب، ولا تفتأ توحي اليه في نشاط وقوة
إني لأرقب في غبطة سيرك الهادئ، خلال ذلك النور المترقرق كأنه الماء في لونه وأراك حينما تختلج عينك الفاترة وراء ذلك القناع الذي يشبه الفراء العظيم، وحينما يتوارى وجهك الشاب خلف ما تجمع من سواد في هذا الفضاء العلوي، وحينما تطل من السحب مزقتها الرياح، فينبعث ضوؤك الزاهر في السماء الصاحية
آه. مثلك أيها القمر يكون الأمل! نعم صنوك في جماله وفي اضطرابه. فتارة يلوح غامضاً مبهماً في تيار الفكر، وطوراً يختفي وراء ذلك الطيف المزعج ذي الأجنحة الشبيهة بأجنحة التنين، طيف اليأس البغيض، ثم لا يلبث أن يظهر في وهجه وقوته، فيبدد بنوره الساطع تلك السحب المركومة التي عقدها الهم، ويسبح كما يسبح الشهاب الثاقب، تزيده السرعة وهجاً واشتعالاً
محمود الخفيف
نزهات بين الصخور
لفيكتور هوجو
النزهة الأولى
فوارةٌ من الزبد وسط الخليج تميد
تكونها أقماعٌ خفيةٌ وعمقها بعيد
تتأرجحُ بوادعةٍ بين الأمواج الباسمة
. . .كمركزٍ ثلجيٍ لذائرةٍ قائمة
إلهي ماذا تفعل بقارورة الثلج هذه؟
،تدخلٍ فيها الفجر فيخرج الليل بظلامه
،وعبثاً يخمدها البحر بموجه المحيط به
،والزوابع بزئيرها، والسحابُ بضبابه
يمر الإعصارُ وهزيمة والأمواجُ وأكدارها
ولكن هل تُضعف الفوارة ثقة الصياد بها؟
كلا. فما تلبثُ أن تظهر وسط ذاك الجحيم
حيث يتغير كل شيءٍ بمكانها وثلجها القديم
،يقولُ الصيادُ: هنا توجدُ موجةٌ مقدسة
يأتي لها كل طفلٍ يموتُ ليلةَ العيد
ينظفُ بثلجها جناحهُ من أهواء الحياة المدنسة
قبلَ الذهاب إلى السماء ملاكٌ في مكانه البعيد

وأقولُ: أدامَ اللهُ للسيف بياضه الناصع
برغمَ ما حوله من بحرٍ وصخرٍ قاتم
ليصور بصدر الطبيعة ثباتَ الحق القائم
وسط الدنس والخيانة بنقائه الرائعْ
محمد وصفي
البريد الأدبي
الأكاديمية الفرنسية لمناسبة عيدها الثلثمائة
في شهر يناير الماضي بلغت الأكاديمية الفرنسية ثلثمائة عام من عمرها، وهي تتأهب للاحتفاء بهذه الذكرى؛ وهي ذكرى نادرة في تاريخ الجمعيات العلمية، إذ قلما تبلغ الجمعيات العلمية مثل هذا العمر المديد، قوية مزدهرة، تغالب دائماً أعاصير السياسة والأهواء المختلفة، وقد بدأت الأكاديمية الفرنسية حياتها متواضعة جداً؛ ويمكن أن نرجع فكرة قيامها إلى سنة 1629 في عهد لويس الثالث عشر، ففي ذلك العام اتفق السيد فالنتان كونراد سكرتير الملك مع بضعة من أصدقائه الشعراء والأدباء على الاجتماع معاً في جلسات دورية منتظمة يتجاذبون فيها الأحاديث الأدبية، ويتحدثون عن الشئون والأخبار والكتب، وكانت هذه الاجتماعات سرية خاصة في المبدأ، واستمرت كذلك زهاء خمسة أعوام؛ وفي أوائل سنة 1634 وقف الكردينال ريشيليو وزير لويس الثالث عشر على خبر هذه الجماعة الأدبية من أحد أعضائها فجالت في الحال في ذهنه فكرة (الأكاديمية) الرسمية. ولم يكن أحد من الجماعة المتواضعة يفكر يومئذ في مثل هذا المشروع؛ وكانت فكرة ريشيليو أن ينظم الجماعة وأن يخضعها لأشراف السلطات الرسمية؛ فدعاها إلى أن تؤلف هيئة منظمة وأن تجتمع بانتظام تحت رعاية سلطة رسمية، وذلك مقابل تعهدها بالحماية وإعطائها سلطة محترمة. فترددت الجماعة في القبول باديء بدء خشية على استقلالها، واستمر هذا التردد طوال سنة 1634، ثم انتهت بالقبول؛ وفي 29 يناير سنة 1635 صدرت الأوامر الرسمية بتشكيل الأكاديمية الفرنسية، وبذلك تكون في 29 يناير الماضي قد قطعت ثلاثة قرون كالمة من حياتها الرسمية
وعلى أثر ذلك وضعت الأكاديمية لنفسها لائحة خاصة تتألف من خمسين مادة؛ وقبل الكردينال أن بعضها تحت رعايته، وصادق على هذه اللائحة في 22 فبراير؛ من نفس العام؛ ثم اتخذت بعد ذلك الاجراءات لمصادقة البرلمان على وجودها، وصدرت هذه المصادقة في يوليه سنة 1637، وتمت بذلك جميع الاجراءات الرسمية والدستورية التي تجعلها هيئة رسمية عامة؛ وعني البرلمان عناية خاصة بأن يحدد مهمة هذه الهيئة الوليدة خشية أن تنافسه في شيء من مهامه أو سلطانه في المستقبل، فعرف مهمتها بأنها تعمل
على: (تنميق اللغة وتحسينها وتوسيعها)، وأنها لا تشغل بأمور أخرى.
ومنذ ثلاثة قرون تضطلع الأكاديمية بأعظم دور في الحياة الأدبية الفرنسية، وينمو نفوذها وأهميتها، حتى غدا الظفر بعضويتها أسمى ما يتشرف به كاتب أو شاعر؛ وقد استمرت الأكاديمية تقاوم ل ما يضطرم حولها من أعاصير الثورات السياسية والاجتماعية؛ ولم تنلها الثورة الفرنسية الكبرى التي اجتاحت كل النظم والهيئات القديمة بأذى؛ وأعضاء الأكاديمية الفرنسية أربعون لا يزيدون، ويطلق عليهم اسم (الخالدين)؛ وإذا توفي أحدهم، رشح لكرسيه من أعلام الكتاب والمفكرين من يجدر ترشيحه؛ ويقع اختيار العضوية بالانتخاب. ونستطيع أن نذكر من بين أعضاء الأكاديمية الحاليين بول بورجيه، وهو أقدمهم جميعاً إذ دخل الأكاديمية منذ سنة 1896، والشاعر بول فاليري، ولوي مادلان، وإبيل ديرمان، وهنري رنييه، ومارسل بريفو، وجورج جوايو، ولوي برتران، وبيير بنوا وهو أصغر الأعضاء سناً، وموريس دوناي، والمؤرخ دي نولهاك، والمؤرخ لي نوتر، والدوق دي بروجلي وهو أحدث الأعضاء إذ دخل الأكاديمية في الشهر الماضي فقط
وتشتغل الأكاديمية منذ أعوام بوضع قاموس رسمي للغة الفرنسية، وذلك تحقيقاً لمهمتها التاريخية وهي العمل على تحسين اللغة الفرنسية وتجميلها، وسيكون هذا القاموس متى تم وضعه مرجعاً رسمياً لألفاظ اللغة ومعانيها؛ وسيكون له في تطور اللغة الفرنسية أعظم الآثار

حول رواية نهر الجنون
صديقي العزيز الأستاذ الزيات:
قرأت في العدد الأخير من جلة (الرسالة) الغراء كلمة لأديب فاضل عن فكرة (نهر الجنون) وتماثلها مع فكرة قطعة نثرية لجبران خليل جبران. وقد حار الأديب في علة هذا التشابه، وافترض بعض الفروض، وعقبت (الرسالة) كذلك بفرض قريب من الحقيقة. ورداً على كل ذلك أقول إني سمعت هذه القصة لأول مرة منذ نيف وعشرين سنة، وقد وجدتها شائعة على الألسنة كغيرها من الأساطير. ولا ريب عندي أن جبران خليل جبران لم يخترع هذه القصة اختراعاً، وإنما دونها كما سمعها من الناس. ومثل هذه الأساطير ما ابتدعها كاتب، وإنما نبتت من قديم الزمان بين الشعوب والأجناس كأكثر النوادر والحكم والأمثال. وإني لم أكن أعلم قط قبل اطلاعي على عدد الرسالة الأخير أن أحداً من الكتاب أو الشعراء قد تناول من قبل هذه الأسطورة، ولم يصل إلى خبرها عن طريق شيء مكتوب، وإنما عن طريق أفواه الناس
وتقبل أطيب تحيات
المخلص
توفيق الحكيم
الترشيح لجائزة نوبل للسلام
تحدثت بعض الصحف الألمانية أخيراً عن الترشيح لجائزة نوبل عن السلام، ومعروف أن هذه الجائزة يمنحها معهد نويل في كل عام للرجل الذي قام بأعظم الخدمات في سبيل السلام العالمي سواء كان من رجال السياسة أو القلم؛ وقد أعطيت هذه الجائزة في العام الماضي لاثنين من الانكليز هما السير نورمان أنجل الكاتب والصحفي الذي اشتهر بكتبه ومقالاته ضد الحرب وفي سبيل السلام، ومستر ارثر هندرسون رئيس مؤتمر نزع السلاح. والآن تتساءل بعض الصحف الألمانية لماذا لا يرشح معهد نوبل الهير هتلر رئيس الدولة الألمانية لنيل جائزة السلام؟ وتقول إن أحداً من رجال الحرب أو السياسة أو القلم لم يخدم قضية السلام في العامين الأخيرين قدر ما خدمها هتلر، فهو يتجه بجميع جهوده الداخلية والخارجية إلى توطيد دعائم السلم، وحديث الصحف الألمانية في ذلك طريف في غرابته وتناقضه؛ فلم ينس إنسان بعد كيف قام النظام الهتلري في ألمانيا، ولا كيف يستند في بقائه إلى أشنع وسائل الضغط والنعنف، ولم ينس إنسان بعد تلك الدماء التي سالت في ألمانيا غزيرة في 30 يونية الماضي دون أي وازع أو محاكمة بحجة التآمر على هتلر، ولا يستطيع أخذ أن ينسى أن النظام الهتلري يقوم من أساسه على صيحة الحرب وعلى المبادئ العسكرية والأحفاد الجنسية المغرقة، ولكن الصحافة الألمانية التي أصبحت أداة مستعبدة في يد وزارة الدعوة لا تتحرج عن اتحدث عن السلام ودعائه على هذا النحو الغريب
كتاب طريف عن نابليون
صدر بالفرنسية كتاب جديد عن نابليون بورنابارت، ولكنه كتاب من نوع خاص وعنوانه: (بؤس نابليون) ومؤلفه لورنزي دي برادي؛ وهو كاتب ورسيكي الأصل، يهدي كتابه إلى جميع الكورسيكيين حتى لا ينسوا أن نابليون يمت اليهم بصلة الجنس، وطرافة هذا المؤلف ترجع إلى أنه يصور لنا أي بؤس كان يعانيه ذلك الإمبراطور العظيم منذ نشأته حتى وفاته؛ فهو قد بدأ الحياة ضابطاً بائساً يعاني أمر ضورب الفقر بعد أن طرد من وطنه الأصلي، ولما وصل إلى قمة المجد وبسط سيادته على أوربا، كان يبدو في ثوب من السعادة والهناء، ولكنه كان أبعد الناس عن التمتع بوفاة أصاحبه، وكان صحبه أشد الناس خيانة له وتوثباً إلى الغدر به. ويقول لنا دي برادي إنه أراد أن يصور كل ضروب الشقاء التي عاناه نابليون، وأن يوضحها بأقوال ذلك الذي عاناها؛ وأنه متى شرحت هذه الآلام استطاع القارئ أن يفهم الروح النابوليونية حق الفهم، وأن يتتبعها خلال تلك الحياة الشقية التي ارتضاها الإمبراطور في فلسفة واستكانة وتسليم
وفاة علامة نمسوي
من أنباء فينا أن العلامة الرياضي الشهير الأستاذ الدكتور جوستاف ايشريخ قد توفي في السادسة والثمانين من عمره، وقد بدأ الأستاذ ايشريخ حياته العامة مدرساً

للرياضة في جامعة جراتز منذ سنة 1874؛ ولم يلبث أن ظهر ببراعته ومباحثه المبتكرة؛ وفي سنة 1884 عين أستاذاً للرياضيات بجامعة فينا، وهو الكرسي الذي شغله مدى خمسين عاماً حتى وفاته، وقد نشر عدة مؤلفات رياضية هامة أشهرها مباحثه عن (التبلور) وتوجت مباحثه غير مرة من أكاديمية العلوم؛ وبوفاته يخسر العلم النمسوي أحد أقطابه وأركانه من العهد القديم

العدد 86 - بتاريخ: 25 - 02 - 1935

الأزهر بين الماضي والحاضر

ويل للأزهر من أهله! كان منيعاً بالدين فابتذلوه بالدنيا، وعزيزاً بالعلم فأذلوه بالمال، ومستقلاً في حمى الله فأخضعوه لهوى الحكم! وكان سُنة واضحة لِهَدْى الشريعة استقام الناس بها منذ ألف عام على عمود واحد، فشبهوا وجوهها بالأنظمة الفجة، ولبسوا صورها بالأعلام المستعارة، ثم وقفوا لدى المفترق المبهم الذي أحدثوه يديرون أعينهم في الفضاء، ويردونها من الأمام إلى الوراء، فلا يرون أقدامهم على أثر، ولا يجدون وجوههم على سبيل!

كان للأزهر، على عهدنا القريب، جلالة تغشى العيون، وقداسة تملأ الصدور، لأنه المعقل الوحيد الذي ثبت لحملات الغيرَ فانتهت إليه أمانة الرسول، واستقرت به وديعة السلف، واستعصمت في لغة القرآن، واستأمنت إليه آداب العرب، فأرضه حَرم لا يُنتهك، وأهله حمى لا يستباح، وأمره قَدرٌ لا يُرد؛ وكان لعلمائه مكانة في القلوب، ومهابة في النفوس، لأنهم دعاة الله، ووراث النبي، وهداة المحجة؛ ينطق على ألسنتهم، وتتمثل في أفعالهم السنة؛ فمحبتهم السنة؛ فمحبتهم عقيدة، وطاعتهم فريضة، وإشارتهم نافذة

وكان لطلابه كلف به لا يُهتم، وثقة برجاله لا تحد، وانقطاع إلى جواره لا يبغون من ورائه غير فقه الدين وتحصيل المعرفة وتجديد حبل الدعة، فهم عاكفون على معاناة الدرس، قانعون بميسور العيش، لا ينصرفون عن حلقات التعلم بالقاهرة، إلا إلى حلقات التعليم في الريف

كانت صلة العلماء بالحكومة صلة دينية، تقوم على حسم المشاكل بالقضاء، وحل المسائل بالفتوى؛ وكانت صلتهم بالأمة صلة روحية، يجلون صدأ القلوب بالذر، ويكفكفون سفه الجوارح بالموعظة، ويشفون على الجوانح بالمؤاخاة، فكانوا لذلك موضع الاجلال أني حلوا. كنا نرى العالم اذا نزل مدينة أو قرية كان يوم نزوله تاريخاً لا يُنسى: يأخذ الناس فيها حال من الشعور الصوفي يدفعهم إلى رؤيته، فيهرعون إليه كما يهرعون اليوم إلى زعيم الأمة أو إلى رئيس الحكومة، فيتوسمون في أساريره نور الرسالة، ويتنسمون من أعطافه ريح النبوة، ويتخففون على يديه من أوزار العيش وتبعات الجهالة. وطلاب الأزهر القديم لا يزالون يذكرون ما كان في نفوسهم لشيوخهم من الحب والتجلة. كانوا يتحلقون حول كرسي الشيخ من غير نظام ولا ضابط، فيكون لهم على السبق إلى الأمام عراك دام

وصخب مُضم، حتى اذا ما أقبل خشعت الأصوات وسكنت الحركات كأن شيئاً علق الأنفاس فلا تنسم، وعقد الشفاه فلا تنبس! وربما نزا اللجاج على لسان أحدهم أثناء المناقشة فيغضب الشيخ فلا يكون أنكى في عقابه من الاشارة إليه بالخروج من الدرس، أو الدعاء عليه بالقطيعة من الأزهر! والقطيعة عن الأزهر كانت أقصى ما يتصوره الأزهري من شقاء الحياة! فإذا انقضى الدرس وقال الشيخ: (والله أعلم) تضامت أطراف الحلقة عليه، وأنحى الطلاب بالقبل على يديه وردنيه، فما يشق بينهم إلا بعد لأي

تدبر ذلك في نفسك على إجماله وعمومه، ثم اقرنه إلى ما تسمع اليوم أو تقرأ من خبر الأزهر وحال علمائه وأبنائه، فهل تجد المعهد هو المعهد والناس هم الناس؟ إن الأزهر البائد على فوضاه المنظمة كل أجدى على الدين وأعْوَد على الثقافة من هذا الخَلْق المسيخ الذي وقف بين الماضي والحاضر، وبين الدين والسياسة، موقفاً يُندى الجبين الصُّلب، ويوجع الفؤاد المُصْمت!

تقلب بعض زعمائه على فرش الديباج، وخبوا في أفواف الشاهي، وتأنقوا في ألوان الطعام، وتنبلوا بالمظاهر الفخمة، وسردوا أعداد الدنانير على المسابح العِطرة. وكان أسلافهم طيب الله ثراهم كما طيب ذِكراهم يتسترون بمرقعات القطن، ويتبلغون

بقشور البطيخ، ويستروحون النسيم على شرفات المآذن
ثم شايعوا أهواء الناس، وصانعوا أهل النفوذ، وجَرَوا في تمكين أمورهم وترفيه نفوسهم على الضراعة والملق؛ من أجل ذلك فقدوا خطرهم في الخاصة، وأثرهم في العامة، وجروا معهم كرامة الدين إلى هذا المنحدر
ان في بقية السلف من أعلام الأزهر مَفْزعاً من هذه الحال الأليمة. فليعملوا لرد هذا المعهد الكريم إلى نظامه، فان شديداً على النفس أن يضطرب فيه الأمر ويشرى به الفساد حتى تطرد طلابه، وتغلق أبوابه
لقد قرأت بالأمس فصلا عن الإسلام في مجلة شهرية فرنسية يقول كاتبه فيه: (لقد انحسر الإسلام عن بلاده أو كاد، فلم يبق داوياً متوثباً إلا في الزهر) فماذا عسى أن يقول هذا المأفون إذا قيل له غداً إن هذا الدوي قد سكن، وهذا التوثب قد قر؟
لا جرم أن المخلصين من علماء الأزهر وأبنائه أقدر على درء هذه الكارثة متى أنضجوا الرأي وأجمعا الكلمة؛ والحكومة القائمة أربأ بعهدها عن هذا الحدث، وأضنُّ بتاريخها على هذه الصفحة؛ وليس في مصر ولا في غير مصر ضمير نزه يرضيه أن تعبث الشهوات الرعن بهذا المعقل الديني الذي عصم القرآن ولغته وعلومه من طغيان الأحداث والفتن عشرة قرون
أحمد حسن الزيات
زوجة إمام
بقية الخبر
للأستاذ مصفى صادقي الرافعي
قال أبو مُعاوية الضرير: وكنتُ في الطريق إلى دار الشيخ أرَوِّىء في الأمر وأمتحنُ مذاهبَ الرأي وأقلبها على وجوهها، وأنظرُ كيف أحتالُ في تأليف ما تنافرَ من الشيخ وزوجته؛ فان الذي يَسفرُ بين رجلٍ وامرأته إنما يمشي بفكره بين قلبين، فهو مُطْفيء نائرةٍ أو مُسْعرُها، إذ لا يضع بين القلبين إلا حُمقَه أو كياسته وهو لن يرد المرأة إلى الرأي إلا إذا طاف على وجهها بالضحك، وعلى قلبها بالخجل، وعلى نفسها بالرقة، وكان حكيماً في كل ذلك؛ فان عقلَ المرأة مع الرجل عقلٌ بعيدٌ، يجيء من وراء نفسها، من وراء قلبها، وجعلتُ أنظرُ ما الذي يُفسدُ محل الشيخ من زوجته، ومثلتُ بينه وبينها، فما أخرج لي التفكيرُ إلا أن حسن خُلُقه معها دائما هو الذي يستدعي منها سوء الخُلق أحياناً؛ فان الشيخ كما ورد في وصف المؤمن: (هينٌ لينٌ كالجمل الأنف، إن قِيدَ انقادَ، وإن أنيخ على صخرة استناخ) والمرأةُ لا تكون امرأةً حتى تطلبَ في الرجل أشياءَ: منها أن تحبه بأسباب كثيرة من أسباب الحب؛ ومنها أن تخافه بأسباب يسيرة من أسباب الخوف. فإذا هي أحبته الحب كله ولم تخف منه شيئاً وطال سكونه وسكونها، نفرت طبيعتها نفرةً كأنها تُنخيه وتذمره ليكون معها رجلاً فيخفيها الخوف الذي تستكملُ به لذةَ حبها، إذ كان ضعفها يحب فيما يحبه من الرجل أن يَقسو عليه الرجلُ في الوقت بعد الوقت، لا ليؤذيه ولكن ليُخضِعَه، والآمرُ الذي لا يُخف إذا عُصى أمره هو الذي لا يعبأ به إذا أطيع أمره
وكأن المرأةَ تحتاج طبيعتها أحياناً إلى مصائبَ خفيفةٍ تؤذي برقة أو تمر بالأذى من غير أن تلمسها به لتتحركَ في طبيعتها معاني دموعها من غير دموعها؛ فان طال ركودُ هذه الطبيعة أوجدت هي لنفسها مصائبها الخفيفةَ فكان الزوج أحدها. . . .
وهذا كله غير الجُرْأة والبَذَاءِ فيمن يُبغضن أزواجَهن، فان المرأة إذا فركت زوجها لمنافرة الطبيعة بينها وبينه، مات ضعفها الأنثَويُّ الذي يتم به جمالها واستمتاعها والاستمتاع بها، وتعقد بذلك لينُها أو تصلب أو استخجر، فتكون مع الرجل بخلاف طبيعتها فيتقلب سكرها النسائي بأنوثتها الجميلة عربدة وخلافاً وشراً وصخباً، ويخرج كلامها للرجل وهو من البغض كأنه في صوتين لا في في صوت واحد. ولعل هذا هو الذي أحسه الشاعر العربي بفطرته - من تلك المرأة الصاخبة الشديدة الصوت البادية الغيظ، فضاعف لها في تركيب اللفظ حين وصفها بقوله:
صُلَّبّة الصيحة صَهصَلِيقها
قال أبو معاوية: واستأذنت على (تلك) ودخلت بعد أن استوثقت أن عندها بعض مَحارمِها؛ فقلت: أنعم الله مساءَكِ يا أم محمد. قالت: وأنت فأنعم الله مساءك.

فأصغيتُ للصوت فإذا هو كالنائم قد انتبه يَتَمَطى ولا هو خالص للرضى
فقلت: يا أم محمد إني جائع لم أَلِم اليومَ بمنزلي. فقامت فقربت ما حضر؛ وقالت
معذرة يا أبا معاوية، فانما هو جُهدُ المُقل وليس يعدو إمساك الرمق. فقلت إن
الجوْعان غيرُ الشهوان؛ والمؤمن يأكل في معي واحد ولم يخلق الله قمحاً للملوك
وقمحاً غيره للفقراء
ثم سميتُ ومددتُ يدي أتحسسُ ما على الطبق، فإذا كِسَرٌ من الخبز معها شيء من
الجزر المسلوق فيه قليلٌ من الخل والزيت؛ فقلت في نفسي هذا بعض أسباب الشر.
وما كان بي الجوعُ ولا سدُّه. غير أني أردتُ أن أعرف حاضِرَ الزرق في دار الشيخ فان
مثل هذه القبلة في طعام الرجل هي عند المرأة قلةٌ من الرجل نفسه؛ وكل ما تفقده
من حاجاتها وشهوات نفسها فهو عندها فقرٌ بمعنيين: احدُهما من الأشياء والآخرون من
الرجل. كلما أكثر الرجل من إتحافها كُثر عندها وإن أقل قَل. وإنما خلقت المرأة بطناً
يلدُ، فبطنها هو أكبر حقيقتها، وهذه غايُتها وغايةُ الحكمة فيها. لا جَرَم كان لها في عقلها
مَعِدةٌ معنوية؛ وليس حبها للحلي والثياب والزينة والمال، وطِماحُها إليها واستهلاكُها في
الحرص عليها والاستشراف لها - إلا مظهراً من حكم البطن وسُلطانه؛ فذلك كله إذا
حققته في الرجل لم تجده عنده إلا مِن أسباب القوة والسلطة، وكان فقدُه من ذرائع
الضعف والقلة.
فاذا حققته في المرأة ألفيتَه عندها من معاني الشبع والبطر، وكان فقدُه عندها كأنه
فنٌ من الجوع، وكانت شهوتُها له كالقَرمِ إلى اللحم عند من حُرِم اللحم. وهذا بعضُ
الفرق بين الرجال والنساء؛ فلن يكون عَقلُ المرأة كعقل الرجل لمكان الزيادة في
معانيها (البطنية) فحسبتْ لها الزيادةُ ههنا بالنقصُ العقل فهذه علته؛ وأما الدينُ فلغلبة
تلك المعاني على طبيعتها ما تغلب على عقلها. فليس نقصُ الدين في المرأى نقصاً
في اليقين أو الأيمان فانها
في هذين أقوى من الرجل؛ وإنما ذاك هو النقصُ في المعاني الشديدة التي لا يكمل
الدينُ إلا بها؛ معاني الجوع من نعيم الدنيا وزينتها، وامتداد العين إليها واستشراف
النفس لها؛ فان المرأة في هذا اقل من الرجل. وهي لهذه العلة ما برحت تُؤْثِرُ دائماً
جمالَ الظاهر وزينته في الرجال والأشياء دون النظر إلى ما وراء ذلك من حقيقة
المنفعة
قال أبو معاوية: وأريتها أني جائع فهشمتُ نهشَ الأعرابي كيلا تفطنَ إلى ما أردتُ من
زَعْم الجوع، ثم أحببتُ أن أستدعيَ كلامَها وأستميلها لأن تضحك وتسر، فأغير بذلك ما
في نفسها فيجد كلامي إلى نفسي مذهباً. فقلت يا أم محمد: قد تحرمتُ بطعامك
ووجب حقي عليك، فأشيري علي برأيك فيما أستصلحُ به زوجتي فانها غاضبة علي
وهي تقول لي: والله ما يقيم الفأر في بيتك ' لا لحب الوطن. . . وإلا فهو يسترزقُ من
بيوت الجيران
قالت: وقد أعْدَمتْ حتى من كِسَر الخبز والجزر المسلوق؟ الله منك! لقد أستأصلها
. . . .من جذورها؛ إن في أمراض النساء الحمُى التي أسمُها الحمى التي اسمها الزوج
فقلت: الله الله يا أم محمد؛ لقد أيسَرتِ بعدنا حتى كأن الخبز والجزر المسلوق شيءٌ
قليل عندك من فَرْط ما يتيسر؛ أو ما علمت أن رزق الصالحين كالصالحين أنفسهم،
يصومُ عن أصحابه اليومَ واليومين. . . . . وكأنك ما سمعتِ شيئاً من أخبار أمهات
المؤمنين أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ونساءِ أصحابه رضوان الله عليهم،
فما امرأة مسلمةٍ لا تكون بأدبها وخُلقها الإسلامي كأنها بنتُ إحدى أمهات المؤمنين؟
أفرأيتِ لو كنتِ فاطمةَ بنت محمد صلى الله عليه وسلم؛ أفكان ينقلك هذا إلى أحسن
مما أنتِ فيه من العيش؛ وهل كانت فاطمةُ بنتَ ملكٍ تعيشُ في أحلام نفسها أو بنت
بني تعيش في حقائق نفسها العظيمة؟
تقولين إنني استأصلتُ أم معاوية من جذورها؛ غما أم معاوية وما جذورُها؟ أهي خيرٌ
من أسماء بنت أبي بكر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد قالت عن
زوجها البطل العظيم: فُرَسِه وناضجة فكنت أعْلفُ فرسَه وأكفيه مؤنتَه وأسُوسُه، وأدقُّ
النوى لناضحه وأعلفُه، وأستقي الماء وأخرزُ غَرَبه وأعجن؛ وكنت أنقلُ النوى على
رأسي من ثُلُثي فرسخ حتى أرسل إلى أبو بكر بجارية فكفتني سياسة الفرس فكأنما
أعتقني

هكذا ينبغي لنساء المسلمين في الصبر والأباء والقوة والكبرياء بالنفس على الحياة كائنةً ما
كانت، والرضى والقناعة ومؤازرة الزوج وطاعته واعتبار مالَهن هند الله لا مالَهن عند الرجل، وبذلك يرتفعْنَ على نساء الملوك في أنفسهن، وتكون المرأة منهن وما في دارها شيء، وعندها أن في دارها الجنة. وهل الإسلام إلا هذه الروحُ السماويةُ التي لا تهزمها الأرض أبداً ولا تُذلها أبداً ما دام يأسها وطعمها معلقين بأعمال النفس في الدنيا لا بشهوات الجحيم من الدنيا؟
هل الرجلُ المسلم الصحيحُ الإسلام إلا مثلُ الرب يثورُ حولها غبارها ويكون معها الشظفُ والبأسُ والقوةُ والاحتمالُ والصبر، إذ كان مفروضاً على المسلم أن يكون القوة الانسانية لا الضعف، وأن يكون اليقينَ الانساني لا الشك، وأن يكون الحق في هذه الحياة لا الباطل؟
وهل امرأةُ المسلم إلا تلك المفروض عليها أن تمد هذه الحرب بأبطالها وعَتَادِ أبطالها وأخلاق أبطالها ثم ألا تكون دائماً إلا من وراء أبطالها؟ وكيف تلد البطل إذا كان في أخلاقها الضعةُ والمطامعُ الذليلةُ والضجرُ والكسلُ والبلادة؟ ألا إن المرأة كالدار المبنية لا يَسهُلُ تغييرُ حدودها إلا إذا كانت خَرابا
فاعترضته امرأة الشيخ وقالت: وهل بأسٌ بالدار إذا وسعتْ حدودها من ضيق، أتكون الدار في هذا إلى نقصها او تمامها؟
قال أبو معاوية: فكدُت أنقطعُ في يدها، وأحببتُ أن أمضي في استمالتها فتركتُها هنيهةً ظافرةً بي وأريتها أنها شدتني وثاقاً، وأطرقت كالمفكر. ثم قلت لها: إنما أحدثك عن أم معاوية لأبي معاوية؛ وتلك دارٌ لا تمل غير أحجارها وارضها فبأي شيء تتسع؟ زعموا أنه كان رجل عامل يملك دُوَيرةً قد التصقت بها مساكنُ جيرانه وكانت له زوجةٌ حمقاء ما تزال ضيقةَ النفس بالدار وصغرها كأن في البناء بناء حول قلبها؛ وكانا فقيرين كأم معاوية وأبي معاوية؛ فقالت له يوماً: أيها الرجل ألا توسع دارك هذه ليعلم الناس أنك أيسرت وذهب عنك الضر والفقر؟ قال: فبماذا أوسعها وما أملك شيئاً، أأمسك بيميني حائطاً وبشمالي حائطاً فأمدهما أباعِدُ بينهما. . . . . وهبيني ملكتُ التوسعةَ ونفقتها فكيف لي بدور الجيران وهي ملاصقةٌ لنا بَيْتَ بَيت؟
قالت الحمقاء: فاننا لا نريد إلا أن يَتَعالم الناسُ أننا أيسرنا؛ فاهدم أنت الدار فانهم سيقولون لولا أنهم وجدوا واتسعوا وأصبح المال في يدهم لما هدموا. . . . . .
قال أبو معاوية: وغاظتني زوجةُ الشيخ فلم أسمع لها هَمسةً من الضحك لمثل الحمقاء وما اخترعُته إلا من أجلها، كأنها تريد أن تذهب عملي بالاً. فقلت: وهل تتسع أم معاوية من فقرها إلا كما اتسع ذل الأعرابي في صلاحه؟
قالت: وما خبر الأعرابي؟
قلت: دخل علينا المسجد يوماً أعرابي جاء من البادية وقام يصلي فأطال القيام والناس يرمقونه، ثم جعلوا يتعجبون منه، ثم رفعوا أصواتهم يمدحونه ويصفونه بالصلاح. فقطع الأعرابي صلاته وقال لهم: مع إني صائم. . .
قال أبو معاوية: فما تمالكت أن ضحكت وسمعتُ صوت نفسها وميزت فيه الرضى مقبلاً على الصلح الذي أتسبب له. ثم قلت:
وإذا ضاقت الدار فِلمَ لا تتسع النفسُ التي فيها؟ المرأة وحدها الجو الانساني لدار زوجها، فواحدةٌ تدخلُ الدار فتجعل فيها الروضة ناضرةُ متروحة باسمةً، وإن كانت الدارُ قَحِطةً مسحوتةً ليس فيها كبيرُ شيء، وامرأة تدخلُ الدارَ فتجعل فيها مثلَ الصحراء برمالها وقيظها وعواطفها، وإن كانت الدار في رياشها ومتاعها كالجنة السندُسية، وواحدة تجعل الدار هي القبر. والمرأة حق المرأة هي التي تترك قلبها في جميع أحواله على طبيعته الأنسانية، فلا تجعل هذا القلبَ لزوجها من جنس ما هي فيه من عيشة: مرة ذهباً، ومرة فضة، ومرة نحاساً أو خشباً أو تراباً، فانما تكون المرأة مع رجلها من أجله ومن أجل الامة معاً، فعليها حقان لا حق واحدٌ أصغرُهما كبير. ومن ثم فقد وجب عليها إذا تزوجت أن تستشعر الذات البيرة مع ذاتها، فان أغضبها الرجلُ بهفوة منه تجافتْ له عنها وصفحتْ من أجل نظام الجماعة الكبرى، وعليها أن تحكم حينئذ بطبيعة الأمة لا بطبيعة نفسها، وهي بيعة تأبى التفرق والأنفراد، وتقوم على الواجب، وتضاعف هذا الواجب على المرأة بخاصة

والإسلام يضعُ الأمةَ ممثلةً في النسل بين كل رجل وامرأته، وبوجب هذا المعنى إيجاباً ليكون في الرجل وامرأته شيء غير الذكورة والأنوثة يجمعهما ويقيد أحدهما بالآخر، ويضعُ في بهيميتهما التي من طبيعتها أن تتفق وتختلف، إنسانية من طبيعتها أن تتفق ولا تختلف

ومتى كان الدينُ بين ل زوج وزوجته مهما اختلفا وتَدَابرا وتعقدت نفساهما، فان كل عقدة لا تجيء إلا ومعها طريقةُ حلها، ولن يُشاد الدينَ أحدٌ إلا غَلَبه، وهو اليُسر والمُساهَلةُ والرحمةُ والمغفرةُ ولينُ القلب وخشية الله، وهو العهدُ والوفاء والكرمُ والمؤاخاةُ والإنسانية، وهو اتساعُ الذات وارتفاعها فوق كل ما تكون به منحطةً أو ضيقة

قال أبو معاوية: فحق الرجل المسلم على امرأته المسلمة هو حق من الله ثم من الأمة ثم من الرجل نفسه ثم من لطف المرأة وكرمها ثم مما بينهما معاً. وليس عجيباً بعد هذا ما روينا عن النبي صلى الله عليه وسلم: (لو كنت آمراً أحد أن يسجد لأحد لأمرتُ النساء أن يسجدْن لأزوجهن لما جعل الله لهم عليهن من الحق)

وهذه عائشة أم المؤمنين قالت: يا معشر النساء لو تَعلمْن بحق أزواجكن عليكن، لجعلت المرأةٌ منكن تمسح الغبار عن قدمي زوجها بِخُمر وجهها

قال أبو معاوية: وكأن الشيخ قد استبطأني وقد تركته في فناء الدار، وكنت زورتُ في نفسي كلاماً طويلاً عن فروته الحقيرة التي يلبسها، فيكون فيها من بذاذة الهيأة كالأجير الذي لم يجد من يستأجره فظهر الجوع حتى على ثيابه. . . . وقد مر بالشيخ رجل من المُسودة وكان الشيخ في فروته هذه جالساً في موضع فيه خليج من المطر، فجاءه المسود فقال قم فاعُبر بي هذه الخليج، وجذبه بيده فأقامه وركبه والشيخ يضحك

وكنت أريد أن أقول لأم محمد: إن الصحو في السماء لا يكون فقراً في السماء، وإن فروة الشيخ تعرف الشيخ أكثر من زوجته، وإن المؤمن في لذات الدنيا كالرجل الذي يضع قدميه في الطين ليمشي، أكبر همه ألا يجاوز الطينُ قدميه

ولكن صوت الشيخ ارتفع: هل عليكم إذْن؟

قال معاوية: فَبدرْتُ وقلت: بسم الله ادخل؛ كأني أنا الزوجة. . . وسمعت همساً من الضحك؛ ودخل أبو محمد إن شيخك في ورعة وزهدة ليشبعه ما يشبع الهدهد، ويرويه ما يروي العصفور، ولئن كان متهدماً فانه جبل علم، (ولا تنظري إلى عمش عينيه، وحموشة ساقيه، فانه إمام وله قدْرٌ)

فصاح الشيخ: قم أخزاك الله، ما أردت إلا أن تعرفها عيوبي! قال أبو معاوية: ولكني لم أقم، بل قامت زوجة الشيخ فقبلت يده.

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

الدعوة الفاطمية السرية

ضوء على موضوعها وغايتها

للأستاذ محمد عبد الله عنان

لما قامت الدعوة الفاطمية بمصر، وامتد سلطان الشيعة السياسي بين الغرب وأقاصي الشام، عني الفاطميون أشد العناية بالمسائل المذهبية، وعملوا على بث العقائد والمبادئ الشيعية بكل الوسائل، واتخذت هذه الدعاية صفة رسمية في مجالس الحكمة الشهيرة التي كانت تنظم بادئ بدء القصر الفاطمي وفي الجامع الأزهر تحت رعاية الخليفة نفسه، ويقوم بتنظيمها قاضي القضاة أو داعي الدعاة؛ ثم أنشئت لها بعد ذل جامعة رسمية خاصة هي دار الحكمة الشهيرة التي أنشأها الحاكم بأمر الله سنة 395هـ (1005م)، ولبثت عصراً تقوم ببث الدعوة الفاطمية السرية في صور وأساليب ما زال يحيط بها الخفاء والغموض. ولقد تقلبت دعوة الشيعة قبل ظفرها السياسي الحاسم على يد الخلفاء الفاطميين في أدوار ومراحل مختلفة، وتشعبت مذاهبها وإمامتها، فظهرت الدعوة الإسماعيلية أولاً في ثوب دعوة دينية سرية؛ ثم كانت فورة القرامطة التي قامت عليها وانتسبت إليها؛ ثم كان ظفر الفاطميين، وقيام الخلافة الفاطمية، فاتخذت الدعوة الشيعية بذلك لونها السياسي الواضح إلى جانب لونها الديني، وأدرك الفاطميون ما للدعاية الدينية من أثر في توطيد الملك السياسي،

فعملوا على بث مبادئهم وتعاليمهم بقوة وذكاء، ووضعوا لذلك نظماً ومراتب سرية، كانت دار الحكمة القاهرية مجمعها ومبعث وحيها

وقد اتخذت هذه الدعوة في عصر الحاكم بأمر الله لوناً من الخفاء والعنف، لم تتخذه في أي عصر آخر، يسبغه عليها خفاء الحاكم وعنفه، وغريب تصرفاته وأهوائه. وكان الحاكم بأمر الله شخصية جريئة مدهشة برغم اضطرابها وتناقضها، ترتفع أحياناً في سماء التفكير حتى لتزعم السمو فوق البشر وتهيم في دعوى الألوهية؛ وتنحط في تصرفاتها إلى درك الجنون. وكان ذلك الذهن الهائم يشغف بنظريات الخفاء والعالم الآخر، ويهيم في غمر المباحث الروحية والفلسفية، ويفيض من خفائه وشذوذه على جماعة من الدعاة الأذكياء الذين يحشدهم الحاكم حوله لينظموا معه وسائل الدعوة المذهبية السرية، وليحملوا دونه تبعة ما تعرض من الأقوال والنظريات الجريئة الممعنة في الإلحاد والهدم. ومن الحقائق

المعروفة أن معظم الكتب والوثائق المذهبية التي وضعت في هذا العصر قد دثرت ومحت معالمها يد الدول الخصيمة، ولم تتلق عن هذه الدعوات السرية سوى قليل من الرسائل والشذور التي نقلها إلينا بعض المؤرخين المتأخرين. على أن هذه الوثائق لقليلة التي انتهت إلينا تلقي مع ذلك شيئاً من الضياء على طبيعة هذه المبادئ والأقوال الخفية التي عمل الدعاة الفاطميون كثيراً لبثها، والتي بعثت في عصرها إلى أصول الإسلام الحقيقية كثيراً من سحب الزيغ والريب

ومن هذه الوثائق غريبة من الرسائل الفلسفية الكلامية تحتفظ بها دار الكتب المصرية، وهي متنوعة في موضوعها، ولكنها متحدة في أسلوبها وتدليلها وغايتها؛ ويبدو من تلاوتها لأول وهلة أن موضوعها إنما هو جزء من الدعوى السرية الفاطمية، وأنها كتبت في أواخر عصر الحاكم بأمر الله، وأنها حسبما يدعي كاتبها قد وضعت بوحيه وإرشاده، وأحياناً بالتلقي عنه. أما كاتبها فمن هو؟ في معظم هذه الرسائل يقدم لنا هذا الداعية الغريب نفسه، ويذكر لنا اسمه وهو (حمزة بن علي ابن احمد) وهو اسم قلما تذكره سير العصر، ولا تقدم لنا أي تعريف شاف عن صاحبه، وكل ما نعرفه أنه فارسي من مقاطعة زوزان، وكان عاملاً يشتغل بصنع اللباد، وفد على القاهرة حوالي سنة 405هـ وانتظم بي الدعاة، وخاض غمار الجدل الديني الذي كانت تضطرم به مصر يومئذ. ومما تجدر ملاحظته أن معظم الدعاة والملاحدة الذين خرجوا على الإسلام وحاربوه باسمه ينتمون إلى أصل فارسي؛ بيد أنا نستطيع أن نعرف من هذه الرسائل كثيراً عن شخصيته وعن مهمته؛ فهو بلا ريب من أكابر الدعاة السريين الذين اتصلوا بالحاكم بأوثق الصلات، وتلقوا وحيه، وبثوا دعوته، وكان لهم أكبر النفوذ في التوجيه الخفي لكثير من مسائل العصر؛ وسنرى حين نعرض إلى مهمته الحقيقية والى رسائله الغريبة أنه يقدم لنا نفسه أيضاً في صفة النبوة، ويصف لنا بعض أعماله بالمعجزات

ولدينا من هذه الرسائل مجموعتان: إحداهما فتوغرافية نقلت عن مخطوط محفوظ بالعراق، والثانية خطية، وقد اقتنتها دار الكتب أخيراً، والمجموعة الأولى أكبر وأعم من الثانية، وبها كثير من الرسائل التي وردت فيها؛ غير أن الثانية (الخطية) تحتوي أيضاً على بعض رسائل لم ترد في الأولى. وتسمى المجموعة الأولى في صفحة العنوان (بالرسالة الدامغة)

وتنعت بأنها رد على النصيري (الفاسق) وهو ما يقوله لنا كاتبها أيضاً في الديباجة؛ وفي معظم هذه الرسائل يذكر لنا الكاتب اسمه وهو حمزة بن علي. ولكن هناك مجموعة ثالثة تختلف في موضوعها عن المجموعتين السابقتين، وليس لها عنوان، ولم يذكر فيها اسم الكاتب، ولكنا لا نشك في أنها من تأليف حمزة بن علي على نفسه لما بينها وبين الرسائل الأخرى من التشابه الواضح في الروح واللهجة والأسلوب. . . وسنرجئ الكلام عليها الآن؛ ونبدأ ببحث رسائل هذا الداعية الغريب، حمزة بن علي، ونحاول أن نستخرج منها بعض الحقائق التاريخية التي ما زالت تقدم إلينا في أثواب من الريب والغموض والتناقض، والتي كانت أعظم ظاهرة في عصر الحاكم بأمر الله، وكانت مستقى لكثير من النزعات والأهواء المدهشة التي أحاطت تلك الشخصية الغريبة بسياج كثيف من الخفاء والروع

من الحقائق التاريخية المعروفة أن بعض الدعاة الملاحدة قد دعا إلى ألوهية الحاكم بأمر الله، وأن الحكام كان يغذي هذه الدعوة ويمدها بتأييده. وقد ذكر لنا ذلك أكثر من

مؤرخ، في مقدمتهم ابن الصابي، وهو كاتب معاصر، وشمس الدين سبط ابن الجوزي، والهبي؛ وكان في مقدمة هؤلاء الدعاة شخص يدعى بالأخرم، زعم ألوهية الحاكم ودعا إليها جهراً في جامع عمرو مع نفر من أصحابه، فثار الناس بهم ومزقوهم وفر الأخرم؛

ثم قام بهذه الدعوة داعية آخر هو محمد بن إسماعيل الدرزي، وكان أوفر ذكاء وبراعة، فصاغ دعوته في مذهب منظم ذي قواعد وأصول خاصة، وألف كتاباً في ذلك؛

فقربه الحاكم وتمكن نفوذه لديه حتى غدا أقوى رجل في الدولة؛ ولكنه لما حاول إذاعة مذهبه والدعوة إليه بجامع القاهرة (الأزهر) ثار الناس عليه، فالتجأ إلى القصر، فحاصرته الجموع، وأنكره الحاكم خوفاً من الثورة، وعاونه على الفرار؛ فسار إلى الشام، ونزل ببعض قرى بانياس، ونشر دعوته، فكانت أصل مذهب الدروز الشهير؛ وقوامه القول بالتناسخ وحلول الروح؛ وأن روح آدم انتقلت إلى علي بن أبي طالب، ثم انتقلت روح علي إلى الحاكم بأمر الله

ثم ظهرت الدعوة كرة أخرى على يد حمزة بن علي، والظاهر أن حمزة عمل مدى حين مع الدرزي ثم اختلف معه وخاصمه؛ كما يبدو ذلك في إحدى رسائله. وفي هذه الرسائل العجيبة يشرح لنا حمزة مذهبه في (ألوهية) الحاكم بأمر الله، ويقدم إلينا شروحه وأسانيده،

ويحاول أن يعلل لنا كل ما ارتكبه الحاكم من الأعمال والاجراءات الشاذة ويتخذ منها سنداً لنظريته. وقد نسقت هذه الرسائل، وهي ثمانية، على حدة في المجموعة المخطوطة الصغرى التي اقتنتها دار الكتب أخيراً، وأشرنا إليها فيما تقدم؛ ويلوح لنا أن هذه المجمعة تكون وحدة متصلة منتظمة، وأن ما أدرج منها في المجموعة الأخرى قد أدرج على سبيل الاختيار العام من مؤلفات الكاتب؛ ولهذا نؤثر الاعتماد عليها في عرض قواعد هذه العدوة الغربية التي كادت تحدث في هذا العصر ثغرة خطيرة في صرح الإسلام ومبادئه الحقيقية كتلك التي احدثتها فورة القرامطة قبل ذلك بنحو قرن يفتتح الداعي كتابه بما يسميه (ميثاق الزمان)، وفيه صورة الشهادة بالتبرؤ من جميع الأديان الأولى والدعوة إلى الدين الجديد، أي عبادة الحاكم؛ يحدثنا عن اصل العالمين وبدء الخليقة في عبارة غامضة ويقول إن أصل العالم هو البرودة والحرارة؛ ويقدم إلينا بعد ذلك خلاصة موجزة عن معركة علي ومعاوية وبدء الحركة الشيعية؛ ثم يصف الحاكم بأنه (مولانا القائم بذاته، المنفرد عن مبتدعاته، جل ذكره، أورا العالم قدرة لاهوتية ما لم يقدر عليه ناطق في عصره ولا أساس في دهره. . .) ويطلق عليه لقب (قائم الزمان)، في جميع مراحل الدعوة رمزاً إلى القول بالحلول والتناسخ، وأنه هو الرمز الحي القائم. ويعرض الداعي بعد ذك في جرأة إلى قواعد الإسلام، وإلى ما يلقي في شأنها في مجالس الحكمة الباطنية؛ وهنا نستطيع أن نظفر بلمحة من الضياء على موضوعات تلك المجالس السرية الشهيرة التي لبثت عصراً تعقد بالقصر ثم انتظمت بعد ذلك في جامعة خاصة هي دار الحكمة؛ وأول ما نعرف هو أن السرية كانت قاعدة أساسية لهذه المجالس، وأن من يجرؤ على إفشاء مناقشاتها يعتبر منافقاً وخارجاً يستحق اللعنة والعقاب. وقد نقل إلينا المقريزي بياناً ضافياً عن المبادئ الكلامية العامة التي كانت تدور عليها الدعوة الفاطمية السرية في مراتبها التسع؛

ولكن الداعي يتناول هنا بعض الشروح الخاصة؛ فيحدثنا عن الزكاة مثلاً بأنها في الحقيقة ليست كما تلقي إلى الناس؛ بل هي الاعتراف بولاية علي بن طالب والأئمة من ذريته والتبري من أعدائه أبي بكر وعثمان، وأن معناها الباطن هو في الحقيقة (توحيد مولانا جل ذكره، وتزكية قلوبكم وتطهيرها من الحالتين جميعاً، وترك ما كنتم عليه قديماً). وعن الصوم بأنه من الناحية الباطنة صيانة القلوب بتوحيد مولانا جل ذكره. أما الحج ورسومه فيحمل عليها الداعي بشدة، ويصفها بأنها (من ضروب الجنون) وليس أدل على ذلك من أن قائم الزمان (الحاكم) قد قطع الحج والكسوة لنبوية، أعواماً طويلة؛ ومعنى الحج في الحقيقة والباطن (هو توحيد مولانا). وأما ترك الحاكم للصلاة والنحر (في عيد الأضحى) فهو تحليل ذلك للعباد، وقد أبطل الحاكم صلاة العيد وصلاة الجمعة بالجامع الأزهر، واسقط الزكاة، ومعنى ذلك أنه يحل للعباد (عباده) أن يقتدوا به في ذلك (إذ كان إليه المنتهى، ومنه الابتداء في جميع الأمور)

ويؤرخ الداعي هذا القسم الأول، وهو القسم التمهيدي من كتابه بشهر صفر ثمان وأربعمائة من الهجرة (408هـ)؛ ويقول لنا إن هذه السنة (هي أول سنين ظهور عبد

مولانا ومملوكه، هادي المستجيبين، المنتقم بسيف مولانا جل ذكره. . . . الخ)، ومعنى ذلك أن حمزة بن علي كان ينتحلها بعد ذلك صراحة. وهو يرجع بدء رسالته إلى هذا التاريخ؛ ثم يقول لنا في خاتمة رسالته الأولى المسماة (بدء التوحيد لدعوة الحق)، إن سنة 408هـ أيضاً (أول سنين قائم الزمان) أعني بدء الزعم (بألوهية) الحاكم بأمر الله، على يد هذا الداعي. وقد كان من قبل ثمة دعاة آخرون روجوا لهذا الزعم كما قدمنا؛ والظاهر أن حمزة هو آخر من ظهر من حشد أولئك الملاحدة في عصر الحاكم، لأن الحاكم لم يطل أمد حكمه بعد ذلك سوى ثلاثة أعوام وبضعة أشهر، وكان مصرعه في شوال سنة 411هـ في ظروف غامضة، اتخذها الدعاة مستقي جديداً للزعم والإرجاف ثم تأتي بعد ذلك الرسائل الثمان؛ والأولى هي (بدء التوحيد لدعوة الحق) وفيها يدعو حمزة إلى (ألوهية) الحاكم، ويحاول أن يبرر إبطاله لأحكام الشريعة بأن محمداً (ص) قد نسخ كل الشرائع السابقة، فكذلك ينسخ الحاكم شريعة محمد وينشئ له شريعة خاصة. وفي الرسالة الثانية وهي (ميثاق النساء) يتحدث الداعي عن واجبات النساء في الطاعة والتوحيد والبعد عن الفساد والدنس، وألا يشغلن قلوبهن بغير توحيد (مولانا) وأن يكن صادقات وفيات في طاعته، وأن يتركن ما كن عليه من قبل، وفي الرسالة الثالثة وهي (رسالة البلاغ والنهاية في التوحيد) يوصي الداعي بعبادة الحاكم، والإقرار بوحدته، ويقول إنه رفعها بنفسه إلى (الحضرة اللاهوتية)، في شهر المحرم الثاني من سنيه المباركة (المحرم سنة 409)، وأنها نسخت عن خط قائم الزمان بغير تخريف ولا تبديل؛ وفي هذه العبارة ما يستوقف النظر؛

ذلك أنها تعني أن الحاكم بأمر الله قد اشترك في تأليف بعض هذه الرسائل سواء بالكتابة أو الأشراف على كتابتها، وأنه كان يرعى هذه الدعوة ويشجعها بنفسه؛ وهنا أيضاً يعرض الداعي جوهر دعوته ولباب مذهبه، أعني فكرة الحلول، فيزعم أنه من الخطأ أن يعتبر الحاكم ابناً للعزيز أو ينعت بأنه أبو علي؛ ذلك لأنه من زعمه (المولى سبحانه هو هو في كل عصر وزمان) يظهر في صورة بشرية (كيف يشاء وحيث يشاء). وفي الرسالة الرابعة وعنوانها (الغاية النصيحة) يحاول الداعي أن يقيم المفاضلة بين الإسلام أو دين محمد والدين الجديد. وفي الخامسة وهي (كتاب فيه حقائق ما يظهر) يحاول أن يبرر بعض تصرفات الحاكم. وفي السادسة وهي (السيرة المستقيمة) يحدثنا عن آدم وأصل الخليقة ويزعم أن القرامطة هم الموحدون؛ ثم يحدثنا عن تعاقب الشرائع ويزعم أن الإسلام قام بالعنف والسيف، وان الشريعة الإسلامية اختتمت بمحمد بن إسماعيل، وأن آخر خلفاء إسماعيل هو عبد الله المهدي (مؤسس الدولة الفاطمية)، وأن القائم هو الحاكم وفي السابعة الموسومة (بكشف الحقائق) يلجأ الداعي إلى العبارات الرمزية ويقول: (والآن فقد دارت الأدوار، وظهر ما كان مخفياً من مذهب الأبرار، وبان للعالمين ما جعلوه تحت الجدار، وعادت الدائرة إلى نفطة البيكار، فألفت هذا الكتاب، بتأييد مولانا البار، الحاكم القهار، العلي الجبار، سبحانه وتعالى عن مقالات الكفار، وسميته كشف الحقائق. . . . . .)

ولعله يريد بهذا الاسم - كشف الحقائق - عنوان الكتاب كله، لا الرسالة الموسومة بهذا الاسم فقط، فإذا صح ذلك فنكون أيضاً قد عرفنا اسم كتاب حمزة. وفي هذه الرسالة يزعم الداعي أن الإله بشر يأكل ويشرب، وليس كما زعموا من التجرد عن الصفات البشرية، ويقدم لنا شرحاً فلسفياً للعقل والنفس. وفي الرسالة الثامنة والأخيرة، وعنوانها (سبب الأسباب) يتخذ الداعي صفة الهادي والمعلم الأكبر يتفويض مولاه

(للبحث بقية)

محمد عبد الله عنان المحامي

نظام التربية والتعليم بإنجلترا والعناية بالنظر في أخلاق الشعب وتقاليده

للأستاذ محمد عطيه الأبراشي المفتش بوزارة المعارف

يجب أن يعني نظام التربية بالنظر في أخلاق الشعب وتقاليده، وفي الصفات السائدة بين الأمة، وألا يكون ضد العادات القومية. كل هذه الأمور قد لوحظت في التعليم بإنجلترا؛ فان الصفات والأخلاق التي تعرف بها بين الأجناس البشرية معروفة منذ أجيال، متأصلة فيها كل التأصل. يقول (بيتر ساند يفرد): (الرجل الإنكليزي مولع بالمنافسة، يحب من صميم فؤاده الرحلات والسياحات. ولا يستطيع أحد الاستقرار في

إنجلترا إلا من كان يميل إلى المنافسة، وإن هذا الميل إلى حب التنافس لا يظهر للناظر العادي، لأنه مغطى بطبقة كثيفة من المندوء العقلي.) والرجل الإنجليزي يمقت النظريات والتفكير في النظريات، ويجب أن يقبض على الأمور العملية في الحياة، ويحلها وهو سائر في عمله. ويقول (بيتر ساند يفرد) أيضاً: (إن الرجل الإنكليزي يُرى هادئاً، وهو في حاجة إلى قوة الخيال، ومن الصعب أن تؤثر فيه، فهو كالفحم الحجري الصلب يتقد ببطء، ولكن حينما يتقد يحترق إلى النهاية.) ولدى الرجل الإنجليزي قوة كبيرة على كتمان شعور، ويمكنه أن يمتلك نفسه، وهو شديد المحافظة على القديم، يحب الحرية الشخصية فوق كل شيء، ولقد قاتل في سبيل تلك الحرية أكثر من ألف سنة؛ ويقول (ساند يفرد) في موضع آخر: (الرجل الإنجليزي هادئ من الجهة العقلية، ولديه حب عميق للحرية، ولقد كانت هاتان الصفتان سبباً في اتخاذه سياسة البطء، لا في السياسة فحسب، بل في التعليم كذلك.) وهو منعزل بطبيعته، يحب العزلة والوحدة، لا يحادثك إلا إذا تعارف بك. وقد يكون هذا الانعزال ناشئاً عن الحياء والخجل، وإذا حادثك فلا تخرج محادثته في الغالب عن الجو، والجو لحسن الحظ كثير التغير والانقلاب بإنجلترا، فمن اعتدل في الطقس إلى ضباب أو مطر، أو برودة، أو عاصفة أو رعد وبرق. وإذا زالت الكلفة وذهب الخجل تحادث معك في أي موضوع كالخيالة والتمثيل، والألعاب الرياضية، والموضوعات الأدبية والاجتماعية. . . يتجنب الأمور الشخصية؛ فلا يسألك عن مقدار ما يمنحك أوبوك في الشهر، ولا عن مقدار ما تنفقع أو تدفعه للسني أسبوعياً - كما يسأل الفضوليون حينما يرونك أو يعرفوك أول مرة.

ويميل الإنجليزي دائماً إلى التحفظ في الجواب، فلا يجيب إجابة الجازم المتحقق، ولكنه يجعل للشك دخلاً في كل ما يقوله، ويجيب دائماً بكلمة: (أظن، أو ربما)، بعكس الرجل الفرنسي فانه يميل كثيراً إلى الجزم واليقين

والإنجليز معروفون بحبهم للمحافظة على القديم. وفي إنجلترا تندر المجلة في تنفيذ نظرية من النظريات، أو مشروع عن المشروعات في التربية والتعليم؛ فبينما تحاول الولايات المتحدة بأمريكا تجربة طائفة كبيرة من طرق التعليم والنظريات الحديثة - وقد لا توافق على شيء منها بعد التجربة وعدم الاستحسان - تجد إنجلترا في هذه الحال مثلاً في دور المناقشة والمناظرة في طريقة واحدة من هذه الطرق؛ لأن إنجلترا تخاف الخسارة وضياع الوقت، أما الولايات المتحدة فلا تبالي بما تفقده في سبيل البحث والتجربة، ولذا تجدها اليوم تقود اليوم العالم في العلم والاختراع والصناعة، ولقد ساعدها غناها على هذا التقدم والأقدام، فالمحافظة على القديم في إنجلترا لها فوائد، ولكن يجب ألا ننسى أن لها أيضاً كثيراً من المضار، فإنجلترا تميل إلى الوقوف عند حدما، وهي بطيئة في الإصلاح؛ لأنها لا تستفيد في الحال ما يقدمه لها المفكرون، وما يظهره المصلحون من أبنائها، ولا تشجع الباحثين والمخترعين تشجيع الولايات المتحدة لهم. وإن ولع إنجلترا بالمحافظة على ما لديها يظهر جلياً في القوانين المختلفة للتربية التي وافق عليها مجلس النواب الإنجليزي؛ فلا تجد مطلقاً حذف قانون من القوانين برمته واستبداله بقانون آخر، بل تجد أن كل قانون هو تعديل للقانون السابق، للتوفيق بينه وبين الرأي الجديد الذي يراد إدخاله، ولا يشك أحد في أن التعليم بإنجلترا يستفيد من أن قوانينها في التربية ثابتة

ومع ذلك قد حدق تغيير في التعليم بإنجلترا، فمنذ سنة 1900 نرى المحافظة على القديم أقل منها في الزمن السابق، وفي الحق إن التغيرات الحديثة بإنجلترا كثيرة وظاهرة لمن عرفها من قبل ورآها اليوم. ولا يشعر من الإنجليز بالفائدة الكبيرة من هذا التغيير إلا القليل منهم، وكل ما تعرفه الأكثرية هو أن هناك شيئاً يجري في عالم التربية، وأن الأمور تتغير بسرعة. وهم يشعرون بالحيرة في الابتداء وهم سكوت لا يتكلمون. ولا ننكر أن النزاع بين المحافظين والمجددين دائم لا ينقطع، ولو أنه نزاع صامت

ويظهر الميل الفطري لحرية الفكر، واستقلال الرأي في أحوال كثيرة في التعليم بإنجلترا.

وإن قوانين التربية مفتوحة للتغير البطيء، فحينما تظهر التجارب صواب الفكرة الجديدة، ويرى معظم الناس فائدتها، يتغلب الإنجليز على كراهتهم لها؛ فالحرية الشخصية تخضع دائما للمجتمع، حباً في المصلحة العامة، فمثلاً كان الذهاب إلى

المدرسة اختيارياً يذهب إليها من يشاء من التلاميذ، لكن لما تبين أن من المحال تعميم التعليم إذا ظل اختيارياً، غير هذا النظام وجعل إجبارياً. وكان التفتيش الطبي على المدارس والتلاميذ اختيارياً، ثم غير وجعل إلزامياً، وكان إعداد المدرسين اختيارياً أيضاً، ثم ظهر أن المدرس لا يستطيع أن يقوم بمهنته كما ينبغي إلا إذا نال قسطاً من التربية وعرف طرق تدريس المواد، فجعل عشرات الأمثلة لأمور كانت اختيارية بإنجلترا، ثم أصبحت إجبارية يطالب بها القانون

وإن إنجلترا - وإن كانت أمة عملية لا تدين بالنظريات - لا تمتنع من أن تعمل بما يمكن تنفيذه منها. ولا ينكر أحد أن النظرية التي لا يمكن تنفيذها لا فائدة منها، ولا خير في العلم إذا لم يصحبه العمل. لذ كانت طريقة التعليم في إنجلترا طريقة عملية، تتفق هي والأمور العملية التي تحتاج اليها، تنفق مع حاجات الشعب وحياته. ولا يمكن أن تفهم هذه الطريقة منفردة عن التاريخ القومي لهذه الأمة، لأنها نتيجة الخلق القومي والحالة الشعبية.

والمهم لدى الإنجليز الوصول إلى العمل بأي طريقة كانت من غير عناء كبير أو بحث طويل في النظريات، وتاريخ التعليم الإنجليزي مملوء بالأمثلة الدالة على حب العمل، وعدم الاكتراث للنظريات. فمدارس إنجلترا إذن مدارس عملية ذات قوة كبيرة، وتأثير عظيم في تهذيب الأخلاق وتقويمها، وإعداد رجال مخلصين عمليين يثقون بأنفسهم، ويشعرون بما يجب عليهم لغيرهم، ولا يفرقون من تحمل مسؤولية أي عمل يقومون به. هي مدارس تربى في كل طفل الثقة بالنفس، فيقول لك دائماً: (سأحاول) إذا سألته: هل يستطيع أن يقوم بعمل من الأعمال؟

محمد عطية الابراشي

. . . . . أين كانوا يوم كنا؟

للأستاذ كرم ملحم كرم

صاحب مجلة (العاصفة) البيرونية

لا نجد حولنا غير المعجبين بالأدب الإفرنجي. ومن حق هؤلاء أن يعجبوا بهذا الأدب الكثير الألوان، الجديد، الطري، السائر والحضارة في طريق واحد لا تبتعد عنه ولا يبتعد عنها. من حقهم أن يعجبوا بأدب يوفر لهم ما يحتاجون إليه من غذاء روحي أعده لهم طهاة عرفوا ميولهم فسايروها، ونفحوها بما تستطيب من علم، وبما ترتاح له من ابتكار مستساغ تهضمه المعد والعقول. فالأدب الإفرنجي في القرن العشرين ينضح بعصير يجد فيه كل طالب ما تشتهيه نفسه. فليس له إلا أن يختار. فان أمامه من مختلف الأطعمة، بل أمامه الأطعمة على إطلاقها. فإذا حن إلى التاريخ وجد التاريخ، وإذا حن إلى الشعر لمس من هذه البضاعة ما يروم، وإذا شغف بالرواية وقع منها على ألوان وألوان كبيض العيد، من أحمر وأخضر وأصفر وبنفسجي وبرتقالي

فما عليه ليدرك مبتغاه إلا أن يحرك شفتيه. وهذا الخصب في الأدب الإفرنجي يعود إلى أمرين: الأول أن الغرب اليوم في عز ومنعة، فهو المسيطر الحاكم المستبد. والآخر أن فيه شعباً يقرأ ويقدر مؤلفيه. فإذا أجهد الكاتب ذهنه وكد قريحته فلن يضيع وقته في العبث، فلابد له أن يستفيد، وأن يضمن لنفسه الغذاء والقوت

وسر نجاح الأدب في نجاح الدولة التي تحميه، فمن المحال أن ينشط أدب ويُفك عن عقاله ويزدهر وينمو إن لم تكن هناك دولة يعتمد عليها ويستند إليها. فالأدب العاطل من سلطة تعضده وتؤيده أشبه بالرجل التائه الشريد، بل أشبه باليتيم، يقضي العمر وحيداً ينبذه الكون، وينفر منه الناس، فيعيش في اكمداد واضطراب حتى تدق ساعته الأخيرة فيلفظ الروح

ثم إن هذا الأدب بحاجة إلى من يغذيه بالمال ليعيش، فالأديب ككل ذي صناعة إن لم تمده بما يوفر له طعامه، يعجز من أن يمدك ببنات صدره وعقله. فهو يحتاج إلى الغذاء: إما بأن يرفده الملوك وأصحاب الغنى والجاه والمراتب السنية، وإما أن يقبل الشعب على مؤلفاته يؤدى عنها ما تساوى. وهو إن لم يوفر غذاءه المادي، فكيف يتوفر على صوغ جواهره في

عقد نضيد نظيم تقرّ به العيون وتبتهج القلوب؟

فالأدب الإفرنجي إذاً مدين في خصبه إلى الحظ، فالحظ يخدمه في دول تحميه وتدفعه في طريق الحياة، ويخدمه في شعب يقبل عليه ويشتريه. وأي أدب لا يثمر ما دام

الاهتمام به متوالياً بلا انقطاع؟ فالصخر إذا عكف عليه من يفتته أنبت أروع الأزهار، وأينعت فيه أطيب الثمار!

وهذا هو الأدب الفرنسي كم انقضت عليه أزمان فما جاد بالسمين؟. . . لقد ظل عصوراً طويلة ضائعاً، غامض اللون والوجه، لا يستقر على حال ولا يقوم له كيان، مع أن فرنسا عرفت أياماً نضرة في عهد (كلوفيس) و (شالمان).

وانتقلت إليها روائع اللغة اللاتيتية، وعكف الرهبان في أديارها على تدريس الأدب اللاتيني لنشر تعاليم الدين المسيحي. إلا أن هذه الهمة الشماء لم تنهض بالأدب الفرنسي المضطرب اللهجة واللسان. فظل ضائعاً نغلاً لا أب له ولا أم، لا جامعة تربطه ولا قوة يعول عليها فتوحده وتجمع شتيته. حتى جاءه (ماليرب) فاجتهد في تكوينه وفي بناء قواعده. ولاح في الظلماء بصيص نور فخطر للكردينال (ريشيلو) أن يحي هذا الوليد. فأنشأ المجمع العلمي الفرنسي، وقامت بإنشاء هذا المجمع الدعامة الكبرى في بنيان أدب فرنسا

. . . .ومن هو (ريشيليو)؟

هذا كاهن عالي الرتبة ساد فرنسا ثمانية عشر عاماً

فهو أدهى من قام في البلد الفرنسي من رجال السياسة على إطلاقهم، ولا نستثنى حتى (تاليران) وزير نابليون الأول. فان فرنسا مدينة بعظمتها لهذا الكاهن الذي لم يكن في سياسته كاهناً. فتلاعب بتلك الدولة الكبرى كما يتلاعب بسبحته. فهدم وبنى، وأمات وأحيا وظلم. وشعر بنفور الشعب منه. وأدرك أنه بحاجة إلى ما يرفع من شأنه، فالتفت إلى الأدباء يصلح من شأنهم ويعطف عليهم. فما جهل أن للأدباء ألسنة طوالاً يقتلون بها من يشاؤون، ويقوضون أي ركن راموا تقويضه. ما جهل أن الأدب خالد في بطن التاريخ خلود الممالك، وأن الأدباء أخدان الملوك في البقاء على ممر الأعوام والدهور. وقد يموت الملك ويطوي، ويمحي اسمه حتى من صدور الكتب ولا يموت الأديب

ما جهل كل هذا ريشليو صاحب اليد الحديدية، وقاتل الملكة (ماري دي ميدسيس) هماً ونكداً، والمسيطر على الملك لويس الثالث عشر. فدعا إلى إنشاء ذلك المجمع الأدبي، ولا يزال المجمع حتى اليوم ينتسب إليه أربعون أديباً ومؤلفاً وعظيماً، وإنه لساهر على اللغة الفرنسية والأدب الفرنسي سهر الأم على بنيها، فلا يغفل عنهما لحظة لئلا يسلطا طريقاً غير قويم

وبعد (ريشليو) أطل (الملك الشمس) لويس الرابع عشر، فزاد في توطيد دعائم الأدب الفرنسي. وكان حيال أدباء بني قومه أشبه بملوك العرب حيال أدباء العرب، فجاء بكبار الأدباء يفسح لهم صدر بلاطه، ويخصص لهم المرتبات، ويجزل لهم العطاء، ويدعوهم إلى التأليف. وهو نفسه كان يحاول نظم الشعر، فلمعت في عهده أدمغة أدبية لا تزال حتى اليوم تفيض إشراقاً.

وستظل في هذا الفيضان حتى الأبد. فان ما جاء به أدباء فرنسا في القرن السابع عشر يكاد يكون خير ما أنتجته قرائحهم من سام رفيع وطيد نفيس، فجاروا الأدب اليوناني والأدب اللاتيني في أروع ما عندهما من آثار. واقتبسوا منهما الفن التمثيلي والأمثال الحكيمة في روايات وجيزة على ألسنة الحيوانات. واقتبسوا منهما الفلسفة. ولم يكن للأدب الفرنسي أي ميزة يبهر بها العيون، فأمسى في القرن السابع عشر منارة تهتدي بها أوربا جمعاء، بل يهتدي بها المعالم

فالروح الأدبية استيقظت من ذلك الحين في فرنسا، ومشت في طريق آمنة مرفوعة الرأس متوجة بأكاليل الغار، ولما تزل مسرعة في سيرها الوثاب. أجل، لقد كان لها ومضات في القرن السادس عشر، إلا أنها أشبه بانتفاض الجنين في بطن أمه، يختلج اختلاجاً يدل على أن الحياة أخذت تدب فيه

وليس من حق الفرنسيين أن يزعموا أن أدبهم يرتقي إلى أبعد من القرن السادس عشر. فان يكن لهم بعض فلتات أدبية ترجع إلى ما قبل ذلك العهد فانها لا تستحق العناية. ثم هي موضوعة في لغات متباينة خاضعة للهجات العامية المتداولة يومذاك في شمال فرنسا وفي صميمها، وليس هذا الأدب بالأدب المكتوبة له الحياة. فهو من النفايات التي تطرح جانباً ويضطر التاريخ الأدبي إلى إثباتها لإشارة إلى روح الأدب في عصرها ليس غير

وما هي روح الأدب في فرنسا قبل القرن السادس عشر؟. . . . روح فروسية وبطولة تفيض بالحماسة وتنسج الملاحم على طراز ملحمة عنترة في اللغة العربية. إلا أنها ملاحم من شعر لا روعة فيه ولا وحدة ولا قافية، فيكفي أن يكون موزوناً والعصور التي سبقت العصر السادس عشر في فرنسا لم تكن بالعصور اللامعة في حضاراتها. فما هناك غير حروب وغزوات. فالقوم كانوا يعيشون على صهوات الخيل، يبايعون يوماً هذا الأمير وينتصرون يوماً لذاك، والحروب كانت أبداً عندهم على لظى واضطرام. فما التفتوا إلى الأدب مثلهم إلى السيف.

وهم إذا صاغوا بعض آثار أدبية فقد صاغوها لخدمة السيف ورجال السيف على أنهم ما تذوقوا طعم الأدب الصحيح حتى باتوا يجدون فيه ضرورة من الضرورات لا غنى لهم عنها في حياتهم العامة والخاصة. فأصبح الأدب لديهم أشبه بالقوت. وتكاثر رجال الأدب فيهم. وبرز القرن الثامن عشر حافلاً برجال الفكر من أمثال (فولتير) و (جان جاك روسو) وطغى الأدب على السيف واستولى على الأفكار والعقول. ولفت الأنظار إلى مظالم الملوك. فخرج الشعب من غفلته واعد الطريق إلى ثورة 1789، وهي الثورة الفرنسية الكبرى. وهذه الثورة مع اخمادها روح الأدب زمناً، أحيت في الصدور أدبا جديداً شق طريقه (شاتوبريان) ولحقه فيه (لامرتين) و (ألفرد ده موسه) و (فيكتور هوجو)

فالشعر في فرنسا لم يعرف مجده الأسمى في عهد غير ذلك العهد، وتوالت الأيام فما ظهر بين الفرنسيين شاعر يستوي ومن سطع في القرن التاسع عشر من شعراء. نعم، إن القرن العشرين لا يزال في مرحلته الأولى. وليس من العجيب أن يتلألأ فيه نجم يكسف ما أشرق في سماء الأدب الفرنسي من كواكب ونجوم. على أن هذا النجم لا يزال في برجه تسد دونه النوافذ والأبواب

ووقوف الأرحام عن إتحاف فرنسا بهذا الشاعر المتفوق لا يدل على أن الأدب الفرنسي في جمود. فالأدب الفرنسي اليوم كثير الرواج، فائق الإنتاج، يهدي إلى العالم الغث والسمين، المتين والركيك، العالي والسخيف، كل أدب في غليان، ككل بضاعة تجد أسواقاً تقبل عليها وتلتهما. ولا ريب في أن هذه البضاعة تنفد وتذوب. ولا يبقى منها على توالي الأيام غير الجيد الجيد. والجيد دون القليل. فليس كل ما يأتينا به أي أدب من الآداب بالخالد الباقي

الرفيع

والفضل في رواج الأدب الفرنسي أن له دولة تحميه. فهو لم ينهض إلا يوم قامت في فرنسا دولة موحدة. وسيظل حياً ما بقيت هذه الدولة تنشر حضارتها في العالمين، فالأدب لا تقوم له قائمة إذا لم يكن إلى جانبه سلطان يذود عنه ويدفعه في طريق النهوض، شأن الأدب الهندي، والأدب الصيني، والأدب الفارسي، والأدب العبراني، والأدب اليوناني، والأدب اللاتيني، والأدب العربي

وأين كان الأدب الفرنسي يوم كان الأدب العربي في الوجود؟

وكان نكرة من النكرات

كان لا شيء

فالأيام لم تكد تلقي بذوره في الأرض

وكم استفاد الأدب الفرنسي من الأدب العربي!

فان مؤرخيه أنفسهم يعترفون بفضل الأدب العربي عليه فلولا الأدب العربي لطال جهل الفرنسيين فلسفة أرسطو. فقد نقلوا فلسفة الحكيم اليوناني إلى لغتهم باعتمادهم اللغة العربية، وكانوا يهتمون بهذه اللغة ويطلعون على دقائقها ويدرسونها يوم كان العرب يحتلون الأندلس. وكم استغلوا من روائعها وكم اقتبسوا منها! فان شعرهم لم يعرف الألوان قبل وقوفهم على الشعر العربي. وبعض المؤرخين يقول إن ذلك الشعر اعتمد القوافي يوم درس الفرنسيون الآداب العربية واطلعوا على منظوم شعراء العرب

فالأدب الفرنسي لم يكن له وجود يوم كان الأدب العربي ريانَ وضاءً، ينشر لواءه من قلب فرنسا وإيطاليا إلى خليج العجم وإلى ما هو أبعد من خليج العجم. أما احتل العرب بلاد الهند؟ أما نشروا فيها حضارتهم؟. . . أما حملوا إليها القرآن ولغة القرآن؟. . . أما جاء زمن سادت فيه لغة القرآن العالم فاحتلت ثلاث قارات: هي أسيا

. . . .وأفريقيا وأوربا؟
وأين كان شعراء فرنسا يوم عرفت الجاهلية أصحاب المعلقات؟.
وأين كان فيكتور هوجو يوم نشأ المتنبي؟
. . .وأين كان (فولتير) يوم عرفت الآداب العربية أبا العلاء المعري؟
لقد سبقناهم بألف ومئة سنة. هذا إذا خضعنا لقول القائلين أن الأدب العربي عرف الحياة
في القرن الخامس للميلاد. مع أن الأدب العربي انبثق قبل هذا الزمن بمئات السنين.
فمن المحال أن يبلغ أي أدب من الآداب الكمال الفني في وثبة واحدة. فلا بد له من
عصور ريثما ينضج. أن هو إلا أشبه بالطبخة. وهذه الطبخة لا تكفيها سنة ولا عشر
سنوات. فهي بحاجة إلى مئة سنة على الأقل لتصلح للمضغ والازدراد. ونحن عرفنا أول
شعر عربي أتصل بنا مستوفي الشروط كامل العدة. إذاً فلابد أن تكون الأجيال التي
بدأت قرض هذا الشعر قد تولت عجنه قبل اختماره بمئات السنين
ومن المؤسف ألا يكون للأدب العربي تاريخ صحيح نرجع إليه. فالكتابة كانت مجهولة
لدى عرب الجاهلية وهم أبناء البادية والقفار. وهم البعيدون عن كل حضارة. فما
وصلت إلينا أشعارهم التي قرضوها في بدء عهدهم بالشعر. فالحفاظ والرواة جاؤونا
عنهم بكل غريب. فحدثونا عن العرب البائدة أحاديث لا يقرها عقل ولا صواب. ونحلوا
الشعر العربي حتى جدنا آدم، وقالوا إن سفر أيوب كتب باللغة الغربية. وإن موسى
تقله منه إلى العبرانية. وتفننوا فيما اختلفوا من روايات عن عاد وثمود وطسم
وجديس. فإذا آمنا وصدقنا هذه الروايات كان لنا أن نقول إن اللغة العربية حفلت
بالأدب الراقي قبل العصر المسيحي، وإنها من اللغات الأولى التي تخاطب بها الناس.
على أننا نكتفي منها بأن تكون آدابها ارتقت إلى المستوى العالي في القرن الخامس
للميلاد، يوم قامت فيها الممالك تحالف الفرس من جانب والروم من جانب آخر.
فالآداب العربية أثمرت في ذلك الحين ثماراً طيبة لا يزال العطر منها يفوح، ولا تزال
مثالاً يحتذى
وإننا لنرى في امرئ القيس على ما في شعره من الكلام الخشن - مما تكن تنبو عنه
الآذان في ذلك العصر - سيداً من سادات الأدب لم يعرف أمثاله الأدب الفرنسي في
غير القرن السابع عشر. وامرؤ ألقيس عرفه الأدب العربي في القرن السادس. وهذا
أصدق دليل على أننا سبقنا القوم بألف ومائة عام
وكانت الآداب العربية وافرة الجني في عهدها الأول. وظهر الإسلام فزادها ثروة على
ثروة. وخصوصاً في كتابه القرآن. فالقرآن أفضل ما تحفل به اللغة العربية، وإذا اكتفينا
بأن ننظر إليه ككتاب يحفظ للغة العربية متانتها وبلاغتها، ويعدو الخاضعين لتعاليمه إلى
قراءته وترديد آياته. فهم وحده يقي اللغة الموت، ويرد عنها البلاء، ويصونها من
الضياع.
ولولاه لاضمحلت اللغة العربية في عصر الانحطاط وتلاشي كل أثر منها
ومال الخلفاء في صدر الإسلام إلى الشعراء فزادوا في إحياء لغة العرب، وهم كانوا
في حاجة إلى الشعراء. لقد كانوا في حاجة إلى شعرهم ينالون به من خصومهم
ويهدمون من أمجادهم، تشبهاً بالرسول في موقفه من شاعره حسان. ولم يكن
للصحف وجود في ذلك الحين. فبحث الخلفاء - وفي طليعتهم معاوية - عمن يقوم
بالطعن على خصومه في كلام يردده الحداة ويتناقله الركبان، فلم يجد أمامه غير
الشعراء وسادة القريض. ومما زاد في حاجته إليهم اضطراره إلى الكفاح والنضال بعد
انتزاعه الخلافة من علي بن أبي طالب. فأصبح للشعر ولقائليه شأن. خصوصاً وقد
تعددت في ذلك الحين الأحزاب السياسية والدينية، وأمسى كل سيد قوم بحاجة إلى
من يطنب في الثناء عليه ويغالي. ولم يكن ثمة غير الشعراء يصوغون من المديح
عقوداً ويتقاضون عنها نقوداً.
فكثر الإقبال عليهم وأكثروا هم من التقلب في مدح هذا يوماً وذاك يوماً آخر استداراً
لرفده وعطائه. وراجت بضاعة الشعر فتكاثر الشعراء، وأورقت رياض الأدب، ومعظم
الذين حفلت بهم من المكتسبين. غير أن هؤلاء المتكسبين جادوا بأحسن ما عندهم
رغبة منهم في غنم أوفر مبلغ مستطاع
وأكثر عصور الأدب ازدهاراً في اللغة العربية هو العصر العباسي، بل الأعصر العباسية

على إطلاقها. فقد بلغ الأدب العربي في ذلك الحين القمة، وما اكتفى رجالة بالشعر يصوغونه على الفطرة والسليقة، بل تعمقوا في الأدب يدرسونه وينتقدونه ويؤلفون فيه الكتب والأسفار، فولجوا الأبواب كلها: من نظم ونثر، من نقد ورواية، من علم وتاريخ، وامتزجوا بمن حولهم من الأمم، فوقفوا على الأدب الفارسي والأدب اليوناني، وأضافوا إلى كنوز الأدب العربي كنزاً آخر، وهو كنز لا يقل في شيء عما تفاخر به اللغة الفرنسية من نفائس وروائع، فما نفحها به أدباؤها في عصر (الملك الشمس) والقرن الثامن عشر والتاسع عشر لا يزيد قدره الفني ما طفحت به اللغة العربية في الأعصر العباسية، وكل ما للأدب الفرنسي من ميزة أنه أكثر تنظيماً وتبويباً، وأحكم وحدة وارتباطاً، فالأدب العربي يكاد يكون خالياً من الوحدة والارتباط، فلا صلة بين أجزائه وموضوعاته، ولا لحمة في مؤلفاته. فهي متناثرة كحجارة البناء المطروحة على الطريق تحتاج إلى البنائين ليرصفوا
بعضها فوق بعض ويقيموا منها داراً عامرة
أما الإنتاج فلا نبالغ إذا قلنا إنه يوشك أن يكون والإنتاج الفرنسي في مستوى واحد، وما على من يرتاب فيما نقول إلا أن يطلع على ما أبقاه العهد العباسي من جليل نفيس. فالخزائن تكاد تضيق بروائع تلك الأعصر الزاهرة
والفضل فضل الدولة القائمة، بل الدول التي قامت في تلك الأعصر. ولو ظلت في مناعتها لكان الأدب العربي اليوم في رقي الأدب الغربي إن لم يكن أرقى منه. ولكن سقوط بغداد في أيدي أعداء العرب طعن الأدب العربي في صميمه. وكان عهد الانحطاط. واستمر هذا الانحطاط طويلاً. استمر ستمائة عام. وفي هذه الأعوام الستمائة جمدت اللغة العربية جموداً قاتلاً. وكادت أركانها تنهار لولا القرآن وبعض الهائمين بها. وفيما هي ترقد رقادها الفاجع تحركت الآداب الأخرى وبنت لها قصوراً منيعة ننظر إليها اليوم معجبين، ونكاد نتناسى في ظلالها أن لنا أدباً حياً لا يقل شأناً عن سائر الآداب الحية، ولكننا وقفنا بينما مشى سوانا، وبينما نرى أننا عاجزون عن اللحاق به. وهذا اليأس زاد في ضعفنا وخمولنا
وقد نظل ضعفاء خاملين لا تقوم لنا قائمة إلا يوم تقوم دولة عربية حرة يتقيأ أديبنا ظلال قبابها العالية. فإذا كتب أو أنشأ علم أن الأيدي تمتد من كل جانب للوقوف على ما كتب أو أنشأ، وما دامت هذه الدولة غير موجودة أو واهية القوى، فلأدب العربي يعيش على سواعد عشاقه. وسواعد عشاقه لا تكفي للنهوض به. فكل ما تفعل أنها ترد عنه عوادي الزمن، وتنقذه من الفناء ريثما يأتيه يوم يرفع فيه رأسه، ويغزو من يغزوه، ويبطش بمن يكتسحه
فالأدب يلمع عندما تلمع الدولة التي يحمل لواءها
وليس الأدب العربي بالشاذ عن القاعدة مع كل ما في القواعد من شواذ!. . . .
(بيروت)

كرم ملحم كرم

ورطة

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

خرجت من بيتي في صباح يوم، ومعي - في جيبي - ثلاثون قريشاً ليس إلا. . . وقالت لي نفسي، وأنا أضع الطربوش على رأسي بيد، وأفتح الباب بيد:
(إنك يا هذا ذاهب إلى عملك فعائد منه إلى البيت لتتغذى، فما حاجتك إلى أكثر من هذا القدر؟ اقنع به، فان امتلاء اليد يغري بالأنفاق، وكفك كالغربال - كثيرة الخروق، وواسعتها جدا - ولو رزقت مال قارون لأتيت عليه كله في بعض يوم، فأنت والله أحق الناس بالحجر!)
فوقفت مغيظاً، فما يليق أن تصبحني نفسي بمثل هذا الكلام القبيح. وكيف بالله أؤدي عملي إذا كنت أسمع مثل هذا التأنيب على الريق؟ وقلت لأزجرها عن هذا السلوك المعيب:
(بدأنا؟ يا فتاح يا عليم! ألم أنهك عن هذا ألف مرة!)
فراحت تكابر وتقول: (وهل قلت إلا إنك مسرف؟)
فصحت بها من الضجر: (مسرف كيف، يل ستي؟ وهل ما أكسب يكفيني حتى أعد مسرفاً؟)

قالت: (إنه لا يكفيك لأنك مسرف. . . . مخروق الكف، وفي دون ما تكسب فوق الكفاية)
قلت: (كلام فارغ. . . ولعب بالألفاظ. . . . هذه يدي ليس فيها خرق واحد، وإني لأحب المال حباً جماً، وأحاول أن أخزنه وأكنزه، ولكن ماذا أصنع؟ كلما دخلت البيت قالوا هات. . . هات. . ولست أسمع وانا في البيت إلا قولهم (هات. . هات!) لا أحد يقول (خذ!) كلا. . هات صابوناً. . . هات بناً. . . هات أحذية وطرابيش. . . كأني مصلحة تموين. . . حتى وأنا نائم أسمع هاتفاً يقول لي: (هات) فاستيقظ مذعوراً. . . وإذا لم أذهب إلى البيت - أعني إذا فرت منه - فلا مفر من الانفاق في حيثما أكون. . . . لا أحد يقبل أن يعطيني شيئاً بالصلاة على النبي. . . كلا. . . لم تبق في الدنيا مروءة ولا كرم ولا تقوى ولا. . . . .)
وأمسكت، فقد رأيت أحد الجيران يرقي في السلم، فخفت إذا سمعني أتكلم أن يحسبني مجنوناً، ولم أر أحداً غيري يحادث نفسه، فيظهر أنهم لا نفوس لهم. . . أعني أن نفوسهم
لا تتعبهم ولا يسرها التنغيص عليهم
وجاء الظهر، وزارني صديق عزيز طال غيابه عني، فقلت له وأنا أنهض معه:
(تعالى نتغذى)
قال: (أين؟)
قلت: (أين؟ في البيت عندنا!)
قال: (بيت؟ لا لا لا. . . تعال إلى المطعم)
قلت: (مطعم؟ يا خبر أسود! لا يا سيدي! لا آكل في مطعم ولو شنقوني)
قال: (كيف تقول؟ لماذا تتكلم بهذه اللهجة؟)
قلت: (يا أخي بالله عليك دع المطاعم فان آكالها لا هنيئة ولا مريئة، وتعالى معي إلى البيت)
وكنت وأنا أدعوه إلى ذلك أرجو أن يرضى، وأخاف أن يأبي، ويف لا أخشى وكل ما معي ثلاثون قرشاً لا تكفيني وحدى، فكيف به معي وهو ضيفي؟ وخطر لي أن أصارحه؛ ولكني استحيت، وقلت خير من ذلك أن أحتال حتى اقنعه وأجره معي، والتفت إلى نفسي وقلت لها همساً:
(أرأيت؟ هل يعجبك هذا؟ هذه الفضيحة تسرك؟ مسرف أنا؟ هيه؟ أنا أبعثر المال باليمين والشمال؟ أنفقه بلا داع. . . . أرميه في التراب! بالله ماذا كان يضيرني أو يضيرك لو أني خرجت بجنيه مثلاً بدلاً من هذه القروش القليلة التي لا تنفع؟)
وبدا لي أن خير ما أصنع في هذا الموقف هو أن أكون رجل عمل لا رجل كلام، فشددت ذراعه وقلت: (تعال!)
قال: (لماذا تجرني هكذا؟ إلى أين؟)
قلت: (إلى البيت. . . . لا فائدة من الكلام تعال)
وشاء سوء الحظ أن تمر في هذه اللحظة مركبة قديمة يجرها جوادان هزيلان معروقان، وأبى السائق اللعين إلا أن يتلكأ ويومئ إلينا بالسوط الذي في يمينه أن نرب، ويقول:
(أجي يا بك؟)
فصحت: (لا لا لا لا. . .) وأشرت إليه أن يذهب عنا، وأن يبعد جداً، وأن يسرع في ذلك فقال صاحبي: (لا، يعني ماذا؟ انتظر يا رجل. . . تعال نركب فإني متعب)
قلت: (نركب؟)
قال: (نعم. . . إلى مطعم الـ. . . . تعال. . .)
وشدني، وكان أقوى مني وأضخم، فتعثرت وراءه وأنا أقول: (يا أخي، الترام أسرع من هذه الخيل المحنطة. .)
قال: (لا، هذا أحسن)
وركبنا، وضرب الرجل جواديه بالسوط، فصحت به: (يا رجل، حرام عليك، انزل وجرهما!)
فابتسم الرجل، وأقبل على اللجم يشدها ويرخيها، ويخرج وهو يفعل ذلك أصواتاً ليس في الحروف المعروفة ما يترجمها، فلست أدري أهي جء جء، أم تء تء؟ أم ماذا غير

ذلك؟ وأدرت وجهي إلى صاحبي وقلت له:
(وكيف تكتب هذا؟)
وقلدت صوت السائق، فقال: (لا تكتب)
قلت: (ما أشد قصور اللغة إذن، وأقل وفاءها بمطالب التعبير!)
قال: (أي تعبير يا أخي؟ مالك اليوم؟)
قلت: (ألست ترى الخيل تفهم عنه؟ فهي لغة تفهمها، ويجب أن نعرف كيف نكتبها ونرسم الرموز لنطقها، وإلا كان هذا منا قصوراً)
قال: (طيب. . . . . طيب. . . .)
فقلت محتداً: (كيف تقول طيب؟ أيجوز أن تسع اللغة كل هذا الذي تسعه وتعجز عن أداء هذه الأصوات القليلة؟)
قال: (نعم يجوز. .)
قلت: (كيف تقول؟)
قال (نعم، لأنها لغة مجعولة لأبناء آدم، لا للخيل والحمير)
قلت (ولكن الخيل ليست هي التي تنطق بها، بل هذا السائق الآدمي)
قال: (أسلكه مع الخيل والحمير، وأرح نفسك وأرحني) فسكت، فما بقي لي بعد هذا كلام،
وبلغنا المطعم الذي اختاره فترجلنا، وأنقدت السائق خمسة قروش - قطعة واحدة، خرجت من عيني، لا يخلا، فما بي بخل، وإني وحقكم لكريم مضياف، وقد سمعتم نفسي تنكر على إسرافي وتبذيري، وتزعمني لذلك من إخوان الشياطين، ومن كان لا يصدق فليجئني بمال، وليرَ كيف أنفقه له، ولا أبقي لنفسي منه دانقاً!
وجلسنا إلى مائدة نظيفة، وجاء الخادم بورقة كبيرة مطوية فيها ألوان الطعام - أغني أسماءها - فنحيتها عني بإصبعي، وقلت له: (اقرأ واختر لنفسك)
قال: (وأنت؟)
قلت: (ابدأ بنفسك يا سيدي، واتركني لاختياري بعد ذلك) فرفع الورقة أمام عينيه، واضطجعتُ أنا، وجعلت أنظر إليه، وأجيل عيني في جسمه الضخم الهائل الأنحاء، وأسأل ماذا ترى يكفي هذه المعدة الكبيرة ويملأ هذه الكرش العظيمة؟ وماذا يكون العمل إذا جاوز الأمر ما معي؟
ورمي إلى الورقة وقال:
(الاختيار صعب، فاطلب لي أنت ما تشاء!)
فتناولت الورقة، وأنا فرح مسرور، وقلت في سري: (يا مفرج الكروب يا رب) وصرت أنظر في الأثمان، فأهمل ما ثمنه غالياً، وأقصر الاختيار على كل معتدل الثمن أو ضئيله وقلت له:
(في المطاعم يحسن اتقاء الدجاج والسمك، مخافة أن تكون تلك مخنوقة وهذه قديمة، ولست أرى هنا ما يصلح للأكل إلا المرق والأرز والخضر والفاكهة، والجو اليوم حار جداً، فيحسن الاجتزاء بالخفيف من الطعام، والذي لا خوف من الغش فيه)
فخطف مني الورقة وهو يقول: (يا أخي مالك أنت؟ أهي بطني أم بطنك؟ وصحتي أنا أم صحتك؟ ومن قال لك إني مترف يؤذيه الحر ويثقل فيه على معدته اللحم والطير والسمك؟)
قلت: (إنما أخاف عليك الموت، فما زلت شاباً، وقد مات منذ أيام شباب من إخواننا من أكلة. .)
فقاطعني قائلاً: (لا فائدة. . . لا فائدة. . سآكل ما أريد على رغم أنفك)
فهززت رأسي وقلت: (شأنك، إن همي كله ألا يصيبك ما أصاب ذلك الموظف الذي أكل
سمكة متعفنة. .)
فصاح بي: (يا أخي اسكت، أي حديث هذا على الطعام؟)
قلت: (سكت يا سيدي، ولكن لا أقل من أن تشاورني لأنصح لك)
قال: (كلا. . . ولا هذه. . . وهل أنا مسئول منك؟)
قلت: (إنك ضيفي وأنا مسئول عنك)
قال: (متنازل. . . اسكت بقى)

فلولا أن كرمي طبع لا تطبع، لسرني هذا القول، ولكني أبيت أن أقبل (تنازله) ودعوت الخادم وقلت لصاحبي:
(مره بما تشاء. . واطلب مه كل الألوان التي يقع عليها اختيارك دفعة واحدة، ليعدها لك، من الآن، ولا يعود يعتذر بأن هذا فرغ، وهذا لم يبق منه شيء)
فوافق، وكانت غايتي من هذا الاقتراح أن أعرف على وجه الدقة كم يكلفني إطعام ضيفي، وهل يبقى في جيبي بعد ذلك شيء آكل به، أم ينبغي أن أصوم إكراما له وإيثاراً، فوجدت أن جملة الثمن بلغت تسعة عشر قرشاً، فقلت في سري (أما والله إنه لشره نهم! أما كان يستطيع أن يكتفي بلونين؟ إنه لا يبقي لي بعد ذلك إلا ستة قروش تذهب منها اثنان تجزية للخادم، وقرش لابد منه لركوب الترام إلى البيت، فالباقي ثلاثة قروش، وما يدريني أنه لا يستمرئ نعمتي فيطلب قهوة أيضاً، إذن هما قرشان اثنان لا أملك لنفسي غيرهما. . . حسن. . فليكن كل طعامي تفاحة)
واستغرب صاحبي زهدي في صنوف الأطعمة، واكتفائي بتفاحة، فقلت له (يا أخي ألم أقل لك أني أكره أن آكل في معطم؟ ولقد نصحت لك فهل كنت تظنني عابثاً، أم حسبتني من جماعة (يا أيها الرجل المعلم غيره)؟ لا يا صاحبي. وقد تركتك لرأيك، فاتركني لرأيي!)
(وكان يأكل وانا أدخن وأتكلم، ثم صفق فذعرت وسألته ماذا تريد؟
قال (أليس عند هؤلاء القوم نبيذ جيد؟)
فقلت بسرعة (لا لا لا. . . إنه خل - إحذر)
قال (خل. . . عسل. . . لابد لي من النبيذ)
فضربت كفاً بكف، ولولا المكان غاص بالناس للطمت وجهي، فنظر إلي مستغرباً وسألني: (مالك، لم أرك قط على مثل هذا الحال؟)
قلت: (يا أخي أتريد أن تفضحني)
قال: (أفضحك؟ لماذا؟)
قلن: (تشرب النبيذ وأنت معي؟ ماذا يقول الناس عني إذا رأوك ورأوني)
قال: (إيه؟ أنت تخجل أن يراك الناس مع صاحب يشرب خمراً؟ متى تغيرت عن عهدي يا صاحبي؟)
قلت: (اليوم. .)
قال: (على كل حال، هذا لا يعنيك. . اطلب ما شئت إلا الخمر. . . فلن أدفع ثمن قطرة)
فأطال التحديق في وجهي، ثم قال:
(ليس هذا مربط الفرس. . . ما هي الحكاية؟ قل بصراحة!)
فلم أعد أطيق الكتمان، فقد كنت أمعائي تنقطع من الجوع، وعيني تكاد تخرج من الغيظ، وشق علي أن أراه يلتهم الطعام وأنا جالس أنظر وأتضور واتحسر، فانفجرت قائلاً:
(الحكاية يا أحمق يا غبي أن كل ما معي في هذه الساعة المنحوسة التي تجلس فيها أمامي خمسة وعشرون قرشاً. . . وأنت تأكل كأنك ما ذقت طعاماً منذ قرن كامل، وتريد فوق ذلك أن تشرب نبيذاً! شيء لطيف جداً؟ ومن أين أجيء بثمن النبيذ الذي تفرغه في جوفك؟ أرهن ثيابي؟؟ أم أطعمك وأسقيك، نسيئة؟ او كان في رأسك هذا ذرة من العقل والفهم، أو في عينك تنظر لفطنت إلى الحقيقة ولم تحرجني إلى الكلام. . .، ولكن كل جارحة فيك مَعِدة .)
فقال بعد طول الإصغاء: (أهو ذاك؟)
قلت بغيظ: (نعم هو ذاك يا أيها الكرش؟)
فلم يجب بشيء وصفق فجاء الخادم فقال له:
(اطعم هذا الجوعان المسكين)
فقلت له: (قبحك الله! ألا بد أن تفضحني؟)
قال: (ألا تستحق ذاك؟)
قلت: (ليس هذا وقت الجدل. . هات دجاجة سمينة)
قال: (فان الدجاج مخنوق. . . .!)
قلت: (لا تكن كزاً لئيماً. . اذهب يا هذا وهات الدجاجة السمينة. . . والله لا بدأتُ إلا

بها)
قال: (بدأت؟)
قلت: (نعم، ثم بسمك)
قال: (إنه قديم، متعفن)
قلت: (فليكن من عهد الفراعنة، فأن الجوع لا يرحم)
قال: (قاتلك الله. لقد كنتُ أشتهي الدجاج والسمك فصرفتني عنهما بتهويلك وخوفتني منهما)
قلت: (ما في بطني في بطنك!)
ولما عدت إلى البيت قلت وأنا أبدل ثيابي لأستريح
أظن أنه لا يسعك أن تتهميني بالإسراف في يومي هذا، فقد عدت بأربعة وعشرين (قرشاً من ثلاثين خرجت بها)
فابتسمت، وهزت رأسها راضية، فقلت:
(ولكنه موقف لا يحتمل إذا تكرر، ولن أطاوعك بعد اليوم)
إبراهيم عبد القادر المازني
قصة المكروب - 2
كيف كشفه رجاله
ترجمة الدكتور أحمد زكي
وكيل كلية العلوم
لوفن هوك
أول غزاة المكروب
بائع القماش الهولاندي الساذج الذي ضحك منه أهل بلده فكاتب الجمعية الملكية (البريطانية وبها روبرت بويل. وإسحاق نيوتن فاستمعت له وصفقت خمسين عاماً)
إن كثيراً من مكتشفات العلم الأساسية قد تظهر لرائيها اليوم بسيطة بالغة البساطة حتى ليعجب المتأمل في العصر الحاضر من رجال العصور الغابرة كيف أنهم تحسسوا وتلمسوا آلاف السنين عن أشياء كانت منهم قاب قوسين أو أدنى من ذلك قرباً. خذ المكروبات مثلاً. فعامة الشعوب تراها اليوم تتبختر على الشاشة البيضاء، والكثير من ذوي العلم القليل رأوها تسبح وتمرح تحت عدسة المكرسكوب، وطالب الطب البادئ يستطيع أن يري جراثيم كثير من الأمراض - وإذن فما هذه العقبة الكأداء التي قامت دون رؤية المكروب لأول مرة!
أذكر أن (لوفن هوك) عندما ولد لم يكن في الدنيا مكرسكوبات، ولكن عدسات يد صغيرة خشناء لا تكاد تكبر الشيء ضعفين، لو نظر بها هذا الهولاندي ثم نظر لعلاء الشيب ولما يكتشف من الأحياء إلا دود الجبن فما حجماً. وإنما الذي غير وجه الأمر نحت هذا الرجل عدسات جديدة، ومثابرته على ذلك وإلحاحه فيه إلحاح معتوه، ثم شغفه بعد ذلك بنظر كل شيء، والتجهير إلى كل شيء، خص أو عم، علا أو حقُر، شرف أو سفل، دخل في حدود الأدب أو خرج عنها، فنال من ذلك خبرة وكسب مراناً هيأه لاستقبال ذلك اليوم الباغت الفاجيء الخالد، يوم نظر من خلال عدسته، تلك اللعبة الزجاجية فإطارها الذهبي، إلى. . . قطرة ماء!
تلك النظرة. . . إلى تلك القطرة. . . . بدأت تاريخاً مجيداً. كان (لوفن هوك) بحاثاً مخبولاً غريب الأطوار، وإلا فما الذي حدا به إلى أن ينظر من بين ألوف الأشياء إلى قطرة ماء نزلت من السماء؟! وما الذي عساه أن يرى فيها! كانت مريم ابنته في التاسعة عشرة من عمرها. وكانت كثيرة الحَدَب على أبيها المأفون ترعاه وتدفع عنه. والويل للجار السافل الغبي الذي يغريه سوء طالعه بالهزء من والدها على مسمع منها وكانت مريم ترقب خُطى أبيها؛ ففي هذا اليوم المعهود رأته يتناول أنبوبة من الزجاج أحماها في لهب حتى صارت حمراء، ثم مطها حتى كانت كالشعرة، ثم كسرها قطعاً صغيرة. ونظرت إليه وهو واسع العينين ذاهل اللب فإذا به يخرج إلى الجنينة فُيكب على إناء كان وضعه هناك ليقيس به مقدار المطر العاطل، ثم يغمس تلك الشعرات الزجاجية فيه، ثم يعود بها إلى مكتبه فيضعها تحت عدسته. ليت شعري ما وراء هذا الأب المأفون العزيز الآن. إنه ينظر في العدسة ويُجهد النظر حتى حَوِلتْ عينه. إنه يتمتم بكلمات تتردد في حلقه ولا تخرج إلى شفتيه. ها هو ذا قد زاد اضطرابه وعلا بغتة

صوته، وأخذ يصيح لابنته في اهتياج ظاهر: (تعالي. تعالي أسرعي! أسرعي! أرى أحياء في الماء، أحياء صغيرة. إنها تسبح. إنها تدور وتلعب. إنها أصغر ألف مرة من الحيوانات التي تراها أعيننا المجردة. أنظريها وانظري ماذا اكتشفت)

هذا يوم (لوفن) جاء أخيراً، وهو يوم في الأيام مُعلَم مشهور. ساح الاسكندر ما ساح حتى جاء إلى الهند فاكتشف فيها ما لم تره عين إغريقي من قبله: فيلةً عظاماً ضخاماً تملأ العينَ والقلب، هذه الفيلة كانت عند الهندوس كالخيل عند الإغريق، أشياء مألوفة لا تبعث فيهم دَهَشاً ولا تثير عجباً. وضرب قيصر في الأرض ما ضرب حتى طلع به المطاف على الجزر البريطانية فراعه ما وجد فيها من أقوام بادين مستوحشين، ولكن هؤلاء البريطانيين كانوا فيما بينهم معروفين مألوفين كألفة قيصر جنوده. أما (لوفن هوك) التاجر الصغير فقد سبق العالم فأطل على عالم عجيب لا يبلغه البصر، عالم من مخلوقاتٍ صغيرة عاشت وعاودت العيش، ونمت وعاودت النماء، وتقاتلت وعاودت التقاتل، وماتت وعاودت الموت، وكل ذلك تحت عين الإنسان وسمعه، ومنذ بدأ الزمان، والإنسان لا يسمعها، والإنسان لا يبصرها. مخلوقاتٍ على صغرها أهلكت شعوباً وأذلت أمماً من رجال يكبرونها

عشرات الملايين من الأضعاف. مخلوقاتٍ شرٍ على البشر مما خالوا من أفاعٍ تنفث النار وتنشر الفزع والدمار. مخلوقاتٍ قتالة، تقتل في صمت، تقتل الطفل وهو في دفء مهده، وتقتل الملك بين أعوانه وجنده. تلك المخلوقات الخفية الحقيرة العدوة اللدود - والتي قد تسالم أحياناً وتصادق - هي التي نظر إليها (لوفن هوك) أول رجل على ظهر البسيطة

سبق أن حدثتكم عن (لوفن هوك) بأنه رجل كثير الشك كثير الريبة، لذلك لما وقعت عيناه على تلك الحيوانات رآها بالغة الصغر بالغة العجب حتى لا يكاد يؤمن الرائي بها. ومن أجل هذا أعاد النظر ثم أعاده حتى انجمدت يده من مسك المكرسكوب ودَمَعت عيناه من إطالة التحديق، فوجد أن نظرته الأولى لم تكن خُدعةً، فها هي الحيوانات نفسها تعود فتتراءى له، وليست هي من جنس واحد هذه المرة، فها هو جنس ثان أكبر من الأول سريع الحركة رشيق الدوران لأن له بضعة أرجل بالغة في الدقة، وها هو جنس ثالث، ورابع ولكنه صغير جداً فلا يبين شكله، ولكنه حي يدور بسرعة خاطفة فيقطع الأميال في دنياه الصغيرة - في تلك القطرة من الماء

وكان (لوفن) قياساً ماهراً، ولن أنى له بمقياس تُقاس به هذه الحيوانات الصغيرة. جمع لوفن ما بين حاجبيه، وجمع بتجميعه أشتات فكره، واخذ يبحث في زوايا رأسه وفي الأركان المهجورة من ذاكرته بين آلاف الأشياء التي تعلمها وأتقن تعلمها عله يهتدي بها إلى قياس تلك الأحياء، وعدّد ما عدّد، وحسب ما حسب، وخرج من حسابه على أن (الحيوان الأخير الذي رآه أصغر ألف ألف مرة من عين قملة كبيرة). وكان هذا تقديراً صائباً من رجل مدقق محاذر، فنحن نعلم اليوم أن عين القملة التامة النماء لا تزيد حجماً عن عشرة آلاف من تلك الحيوانات

ولكن من أين أتت وكيف سكنت قطرة الماء؟ أجاءت من السماء؟ أم زحفت من الأرض على جدار الإناء حتى بلغت الماء؟ أم قال لها الله كوني فكانت من لا شيء؟ إن (لوفن) يؤمن بالله بمقدار ما آمن به أي هولاندي من أهل القرن السابع عشر، وكان يصفه بأنه خالق هذا الكل العظيم، وكان فوق إيمانه يُعجب به أي أعجاب، وكيف لا يعجب من خالق حاذق عرف كيف يصنع أجنحة النحلة بهذا الجمال المطرب. ولكن (لوفن) كان

إلى جانب هذا يعتقد في المادة وفي وساطتها، وهداه وحي نفسه الصادق إلى أن الحياة لا تنتج إلا من حياة، وأن الله لم يخلق هذه الحيوانات في وعاء الماء من لا شيء. . ولكن صبراً. . ولم لا يخلق ما شاء كيف شاء؟ لا سبيل إلى معرفة مأتي هذه الحيوانات إلا التجربة. فقال لوفن لنفسه (فلأجرب)

فغسل كاس خمر غسلاً طيباً وجففه، ورفعه إلى حيث يقطر ماء المطر من سقيفة داره، فلما تجمع فيها بعضه أخذ منه قطرة وسلط عليها عدسته. . . نعم! لا يزال بها قليل من تلك الحيوانات غادياتٍ رائحات. إذن فهي توجد في ماء المطر غب نزوله. ولكن مهلاً، فهذا استنتاج فطير، من أدرانا؟ لعلها كانت على السقف فنزل المطر

فاكتسحها في الكأس
فدخل لوفت بيته وخرج بصحن من الصيني داخله أزرق صقيل فغسله ورفعه إلى السماء والمطر يهطل، ورمي بما تجمع فيه من الماء ليتأكد من نظافته، ثم رفعه مرة أخرى، ثم غمس في مائه شعرة من شعراته الزجاجية وبكثير من الحذر حملها بقطرتها إلى مكتبه لينظر فيها. (لقد واتاني الدليل! هذا الماء ليس فيه مخلوق واحد من تلك المخلوقات الصغيرة، فهن لن يأتين من السماء)
ولكنه احتفظ بهذا الماء الساعةَ بعد الساعة، وهو يحدق فيه، واليومَ بعد اليوم وهو يحدق فيه، وفي اليوم الرابع أخذت تلك المخلوقات تتراءى فيه مع ذرات من التراب وخيوط القطن ونسائل التيل
اكتشف (لوفن) هذه الدنيا الجديدة التي لم تخطر على بال أحد، فهل كتب إلى الجمعية الملكية ينبئها خبر هذا الاكتشاف الضخم؟ لا، لم يكن بعدُ أخبرهم، فقد كان رجلاً بطيئاً، وإنما سلط عدساته على كل أصناف الماء، على الماء الذي في مكتبه وهواؤه محبوس، على الماء بالقدر الذي وضعه في الهواء الطلق على سطح بيته، على الماء الذي بقنوات بلدته وهو غير شديد النقاء، وعلى ماء البئر البارد الذي بجنينة داره، وفي كل هذه الأمواه وجد هذه الحيوانات. وراعه صغرها الهائل، فكثير منها لم يبلغ الألفُ منه حجمَ الحبة من الرمل، وقارن بعضها بدودة الجبن، تلك الحشرة القذرة الصغيرة، فوقعت منها وقوع النحلة من الفرس
كان لوفن بحاثاً يبحث عن كل شيء وفي كل شيء، ومن غير علم سابق عن تلك الأشياء.
وكان من شأن هذا الضارب في أشتات الأمور أن يعثر في طريقه على كثير مما لم يقصد إليه. وكان هذا حاله مع الفُلفُل. الفلفل حريف لاذع فلماذا؟ سؤال خطر له يوماً فقال لنفسه: (قد يكون هذا بسبب نتوءات في الفلفل حادة تشك اللسان عند الأكل فتلذعه) ولم يكد يستقر هذا الخاطر في رأسه حتى قام يبحث عن هذه النتوءات بدأ بالفلفل الجاف فطحنه ثم طحنه، وعَطس وعَرق، ولكن لم يبلغ به الطحن الصغرَ الكافي لرؤيته بالعدسة. فخال أن يلينه بالتبليل فنقعه في الماء بضعة أسابيع ثم جاء بإبرة حادة فمزق بها ذرات الفلفل فزادها صغراً، ثم مصها مع قطرة ماء في إحدى شعرياته الزجاجية، وأخذ ينظر فيها، ولم يكد بفعل حتى نسي النتوءات التي كان يبحث عنها، وامتلأت نفسه واغتمر حسه بما وجد من جديد. ففي المواه الأخرى التي رآها كان يرى الحيوانات الصغيرة التي اكتشفها بقدر معتدل يقل حيناً ويزيد حيناً. أما في ماء الفلفل هذا فقد وجد هذه المخلوقات على تنوعها كثيرة العدد كثرة لا تصدق، وهي لا تزال في ازدحامها تهيم وتسبح في رشاقة وجمال
خرج (لوفن هوك) يبحث في الفلفل عن نتوءات، فوقع على طريقة يربى بها حيواناته وينميها ويكثرها
وعندئذ، وعندئذ فقط، شاء أن يكتب إلى لندن يخبرها بالذي كان. وملأ الصفحة بعد الصفحة بخط جميل ولغة بسيطة يشرح ما صنع، ويقول لهم إن حبة القمح تسع مليوناً من هذه الحيوانات، وأن ماء الفلفل يربيها ويكثرها حتى تحوي القطرة منه 2700000 منها. وتُرجم الكتاب إلى الإنجليزية وتلى على الجمعية فترك عاليها سافلاً. هؤلاء العلماء كانوا قد اطرحوا الخرافات، وكفروا بالذي كان في زمانهم من أباطيل وترهات، ثم يأتي هذا الهولاندي يحدثهم عن حيوان تسع قطرة الماء منه بقدر ما تسع هولندا من السكان! تلك خرافة من خرافات الأولين، ولا والله ما خلق اله حياً أصغر من دودة الجبن
على أن نفراً من هؤلاء العلماء لم يضفق بما سمع. فهذا الرجل كان محققاً مدققاً مفرطاً في تحقيقه وتدقيقه. وقد وجدوا صدقه في كل ما كتب لهم عنه. وعلى ذلك جاءه كتاب من لندن يرجونه فيه أن يشرح لهم بالتفصيل الطريقة التي صنع بها مكرسكوبه وأن يصف لهم كيف يستخدمها لرؤية ما يرى
وجاءه الكتاب يحمل الشك في ثناياه فغضب. ما كان يُهمه أن يضحك منه حمقى بلدته، ولكن لم يكن يخطر في باله أن ترتاب الجمعية الملكية في قوله. لقد كان يحسب أنهم فلاسفة. أيكتب اليهم بالشرح الذي طلبوا، أم يوليهم من الآن ظهره ويحتفظ بما يعمل لنفسه. وذكر المجهود الذي أنفقه فعز عليه ما احتمل منه، وكأني بك تسمعه

يتمتم في نفسه: رحماك اللهم فأنت تعلم كم عملت وعَرِفت، وكم سهرت لكشف تلك الخبايا، وكم احتملت من ضحك الناس وسخرية حماقهم في صناعة مكرسكوباتي وتجويدها واستنباط طرق الرؤية بها. . .

ولكن كما أنه لابد لكل ممثل ممن يسمع وينظر، فكذلك لابد لكل مبتكر من نظارة سماعة. لقد علم (لوفن) أن هؤلاء الشكاكين من أعضاء الجمعية لابد باذلون جهداً لا يقل عن جهده لإنكار دعواه. لقد جرجوه في كرامته، ولكن لابد للمكتشف من نظارة! فكان أن كتب لهم كتاباً طويلاً يؤكد لهم أنه لم يَغلُ فيما وصف، وشرح لهم الحساب الذي عمل، وكتب لهم الحسبة بعد الحسبة من قسمة فضرب فجمع حتى صار كتابه ككراسة صبي في مدرسة وخرج بنتائج قريبة جداً من النتائج التي يخرج بها علماء المكروب اليوم بواسطة ما استجد لهم من عُدة وجهاز. وختم (لوفن) كتابه بقوله إن كثيراً من أهل (دلفت) رأوا تلك الحيوانات الصغيرة العجيبة بعدساته فأكبروها! وأنه يستطيع أن يأتيهم باقرارات شرعية مبصومة مختومة، اثنين منها من رجلين من رجال الله، وواحد من مسجلي العقود، وثمانية أخرى من شهودُ عدول. أما أن يصف لهم كيف صنع مكرسكوباته فهذا ما لا سبيل إليه

كان (لوفن هوك) كثير الريبة في الناس. كان يسمح للناس بنظر الأشياء من عدساته، ويرفعها إلى أعينهم ليحسنوا الرؤية بها دون أن يمسوها، فان هم رفعوا يداً إليها ليتولوا بأنفسهم إحكامها أو لزيادة المتعة بها لم يكبر على (لوفن) أن يطردهم من بيته طرداً. . كان كالطفل بيده تفاحة كبيرة حمراء يعجب بها ويسر برؤية أصحابه لها، ولكنه يصرخ في وجوههم إذا نالوها بأصابعهم خشية أن ينالوها بعد ذلك بأسنانهم

وبناء على هذا وجهت الجمعية وجهها ناحية أخرى، فانتدبت (روبرت هوك) ونهيمياه جرو ليقوما بصناعة أحسن المكرسكوبات المستطاعة، وبتجهيز نقيع مائي من أجود أصناف الفلفل الأسود. وفي الخامس عشر من نوفمبر عام 1677 اجتمعت الجمعية وجاءها

(روبرت هوك) يحمل إلى المجتمع مكرسكوبه والنقيع، وفي خطاه سرعة، وفي قلبه لهفة، لأنه وجد أن (أنطوان لوفن هوك) لم يَكْذب، فها هي تسبح وتلعب، تلك الحيوانات التي حدث عنها (لوفن). قام الأعضاء عن مقاعدهم وتزاحموا حول المكرسكوب، وحملقوا فيها، ثم صاحوا: لا يكشف عن مثل هذا إلا رجل من عبقر. وكان هذا يوم فخار كبير (للوفن هوك). ولم يمض غير قليل حتى انتخبت الجمعية هذا القمّاش عضوا بها. وبعثت إليه براءة العضوية في إطار من الفضة وعلى غلافها شارة الجمعية

فأجابهم (لوفن) يشكرهم ويقول: (. . . . . وسأخدمكم بإخلاص إلى الرمق الأخير من حياتي). وهكذا فعل. فانه أخذ يكتب إليهم تلك الكتب التي خلط فيها بين العلم ولغو الحديث حتى مات وسنه تسعون عاماً. وعلى كثرة ما بعث لهم من الكتب لم يبعث إليهم بعدسة واحدة. كل شيء إلا هذه ما دق قلبه بالحياة. وفعلت الجمعية كل ما استطاعت في سبيل ذلك دون جدوى، وأنفذت الدكتور مولينو إليه ليكتب تقريراً عنه فعرض عليه مولينو ثمناً طيباً مغرياً لأحد مكرسكوباته فأبى. (يا رجل! لديك مئات المكرسكوبات قد ترصصت في القمطرات بحوائط مكتبك، أفلا تستغني ولو عن واحدة فقط؟). ولكن هيهات. (هل أستطيع أن أرى السيد رسول الجمعية الملكية شيئاً آخر؟ هذا محار في زجاجة لم يولد بعد. وهذا حيوان غطاس سريع رشيق). ويرفع الهولاندي عدساته إلى عين الإنجليزي ليرى بها، وهو يلحظه بركن عينه خشية أن يمس جهازاً أو ينشل شيئاً، وهو الرسول الأمين الذي لا يشك أحد في ذمته أو يرتاب في أمنته. (مولاي رسول الجمعية!ـ كم أتمنى لو كان في استطاعتي أن أريك عدسة بعينها هي أحسن عدساتي، وأن أريك كيف تنظر فها، ولكني اختصصت بها نفسي فلا أطلع عليها أحداً حتى ولا أهل بيتي)

(يتبع)

أحمد زكي

محاورات أفلاطون - 14

الحوار الثالث

فيدون أو خلود الروح

ترجمة الأستاذ زكي نجيب محمود
- أو قد تنساق كذلك إلى تذكر سمياس نفسه؟
فقال - هذا حق
- وقد يكون التذكر في هذه الحالات جميعاً منبعثاً من أشباه الشيء أو مما يباينه؟
- وهناك سؤال لابد ان ينشأ، حينما يكون التذكر قد انبعث من شبيه الشيء، وهو: هل يكون شبيه الشيء المتذكر ناقصاً في أي ناحية من نواحيه، أم لا يكون؟
فقال: هذا جد صحيح
- وهل نتقدم خطوة أخرى، فنؤكد بأن التساوي موجود فعلاً، لا تساوي الخشب بالخشب أو الحجر بالحجر، بل هو ما أسمى من ذلك وأرفع. أنؤكد بأن التساوي موجود في عالم التجريد؟
فأجاب سمياس: بلى: أؤكد ذلك وأقسم على صحته بكل ما وسعت الحياة من يقين
- وهل نحن نعلم هذا الكنه المجرد؟
فقال: لا شك في ذلك
- ومن أين جاءنا هذا العلم؟ ألم نَرَ متساويات من الأشياء المادية، كقطع الحجر والخشب، فاستنتجنا منها مثالاً لمساواة تخلفها؟ أفأنت موافق على هذا؟ أو فانظر مرة أخرى إلى الموضوع على هذا النحو: أليست قطع الحجر والخشب بعينها تبدو متساوية حيناً متفاوتة حيناً آخر؟
- لا ريب في هذا
- ولكن هل تتفاوت المتساويات الحقيقية أبداً؟ أم هل يكون مثال التساوي يوماً عدم مساواة؟
- لاشك في أن ذلك شيء لم يُعرف بعد
- إذن فهذه المتساويات (كما يسمونها) ليست تطابق مثال التساوي ووصلت إليه، على الرغم من أنها مخالفة لذلك المثال؟
- فقال: هذا جد صحيح
- وقد يكون مثال التساوي شبيها بها. وقد يكون مبايناً لها؟
- نعم
- ولكن هذا لا يغير في الأمر شيئاً، فما دمت قد تصورت شيئاً من رؤية شيء آخر، سواء أكانا شبيهين أم متباينين، فقد حدثت بذلك من غير شك عملية تذكر؟
- جد صحيح
- ولكن ماذا عساك أن تقول في قطع متساوية من الخشب والحجر، أو في غيرها من المتساويات المادية؟ وأي أثر هي تاركة في نفسك؟ أهي متساويات بكل ما في التساوي المطلق من معنى؟ أم أنها تقع في القياس دونه بشيء يسير؟
فقال: نعم، بل دونه بمسافة بعيدة جداً
- ثم ألا يلزم أن نسلم بأنني، أو أي أحد آخر، حين ينظر إلى شيء فيدرك أنه إنما ينشد أن يكون شيئاً آخر، ولكنه مقصر من دونه، عاجز عن بلوغه - فلابد أن قد كانت لدى من يلاحظ هذا معرفةٌ سابقةٌ بذلك الشيء الذي كان هذا الأخير أحط منه، كما يقول، وإن كانا متشابهين؟
- يقيناً
- ثم أليست هذه حالنا في موضوع المتساويات والتساوي المطلق؟
- تماماً
- إذن فلا ريب في أننا كنا نعرف التساوي المطلق قبل أن نرى المتساويات المادية لأول مرة، وفكرنا بأن كل هذه المتساويات الظاهرة، إنما تنشد ذلك التساوي المطلق، ولكنها تقصر من دونه؟
- هذا صحيح
- ونحن نعلم كذلك أن التساوي المطلق لم يُعرف إلا بواسطة اللمس، او البصر، أو غيرهما من الحواس التي لا تمكن معرفته بغيرها وإني لأؤكد هذا عن كل إدراك كلي من
هذا القبيل
- نعم يا سقراط، فكل واحد من هذه المدركات لا يختلف عن الآخر في شيء مما يدور

حوله الحديث
- وإذن فمن الحواس تنبعث المعرفة، بأن كل الأشياء المُحسة تنشد مثال التساوي، ولكنها تقصر من دونه - أليس ذلك صحيحاً؟
- نعم
- إذن فقبل أن بدأنا في النظر، أو السمع، أو الإدراك بأية صورة أخرى لابد أن قد كانت لدينا معرفة بالتساوي المطلق، وإلا لما استطعنا أن ننسب إليه المتساويات التي نشقها من الحواس؟ - فهذه كلها تسعى نحو ذلك التساوي المطلق فتقصر من دونه؟
- تلك يا سقراط نتيجة مؤكدة للعبارات التي سلف ذكرها
- ثم ألم نأخذ في النظر والسمع واكتساب حواسنا الأخرى بمجرد أن ولدنا؟
- يقيناً
- إذن فلابد أنا قد حصلنا معرفة المتساوي المثالي في زمن سابق لهذا؟
- نعم
- أي قبل أن نولد فيما أظن؟
- صحيح
- وإذا كنا قد حصلنا هذه المعرفة قبل أن نولد، وكانت لدينا عند الميلاد، إذن فقد كنا قبل الميلاد، وفي ساعة الميلاد نفسها نعرف كذلك، فضلاً عن المتساوي، والأكبر والأصغر، سائر المُثل جميعاً، فنحن لا نُقصر الحديث على المتساوي المطلق، ولكنه يتناول الجمال، والخير، والعدل، والقداسة، وكل ما نطبعه بطابع الجوهر في مجرى الحوار، حينما نلقي أسئلة ونجيب عن أسئلة، أفنستطيع أن نؤكد، أننا قد كسبنا معرفة هذه كلها قبل الميلاد؟
- هذا صحيح
- ولكن، إذا نحن بعد كسب المعرفة، لم ننس ما كنا قد كسبنا، فلابد أنا قد ولدنا ومعنا المعرفة دائماً، وسنظل أبداً على علم بها، ما دامت الحياة - لأن العلم هو كسب المعرفة وحفظها، لا نسيانها. أليس النسيان يا سمياس هو فقدان المعرفة لا أكثر ولا أقل؟
- جد صحيح يا سقراط
- أما إذا افتقدنا عند الميلاد تلك المعرفة التي حصلناها قبل أن نولد، ثم كشفنا فيما بعد، بواسطة الحواس، ما قد كنا نعلم من قبل، أفلا يكون ذلك، وهو ما نسميه تعلما، عملية لكشف معرفتنا، ثم ألا يجوز لنا بحق أن نسمي هذا تذكراً؟
- جد صحيح
لأنه من الواضح، أننا إذ ندرك شيئاً بواسطة البصر، أو السمع، أو أية حاسة أخرى، لا نصادف صعوبة في أن ينشأ لدينا من هذا الشيء، تصور لشيء آخر، يشبه أو يباينه، كنا قد أنسيناه، وكان قد ارتبط الشيء، وعلى ذلك، فكما سبق لي القول، يقع أحد الأمرين: إما أن هذه المعرفة كانت لدينا عند الميلاد، وظللنا نعلمها طول الحياة، وإما أن يكون أولئك الذين يقال عنهم إنهم يحصلون العلم، بعد ميلادهم، لا يفعلون أكثر من أن يتذكروا، فما العلم إلا تذكر وكفى
- نعم يا سقراط، هذا جد صحيح
- فأي الأمرين تُؤثر يا سمياس؟ أكانت المعرفة لدينا عند الميلاد، أم أنا قد تذكرنا فيما بعد الأشياء التي كنا نعلمها قبل ميلادنا؟
- لا أستطيع الحكم الآن
(يتبع)
زكي نجيب محمود
دار الحديث الأشرفية والمتحف العربي بدمشق
بعنوان (الخالدي) نشر الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام في العدد الثامن والسبعين من (الرسالة) الغراء مجلساً من مجالس الأستاذ الكبير الشيخ خليل الخالدي، وحسناً فعل، فان أمثال الشيخ الخالدي بيننا قليل، ويجب أن ينتفع بمعارفهم وثمرات بحوثهم. وحبذا لو عمد كل من يلقاهم أو يسمع منهم شيئاً إلى تسجيله ونشره ما داموا هم لم يدونوا مذكرات منظمة على أبحاثهم، فليس من السهل أن نجد شخصية مثل الشيخ الخالدي غزارة علم وسعة اطلاع، وإن الإنسان ليعجب عندما يستمع إليه وهو يتحدث

عن كتاب نادر، فيصفه وصف الدارس المطلع، بل يتجاوز ذلك في كثير من الأحيان فيذكر عبارات الكتاب سرداً عن بديهة. ثم ينتقل من وصف الكتاب إلى ترجمة مؤلفه، فيذكر الكثير من شأنه، مما لا نجده في كثير من البحث والدرس، ثم ينتقل من ذلك إلى عصر المؤلف، وحال الحركة العلمية فيه وما إلى ذلك، فمجالس الشيخ الخالدي شائقة ممتعة نرجو الذين يجالسونه ويستمعون له تدوين مجالسه ونشرها على الناس كما فعل الدكتور عزام

عرفت الشيخ الخالدي في دمشق أواخر سنة 1929، أيام ترددي على دار الكتب العربية، لذلك لفت نظري مقال الدكتور عزام وقرأته بشغف شديد حتى أتيت على ذكر المدارس في دمشق فاستوقفني قوله: (ومن مدارس دمشق دار الحديث الأشرفية وهي دار المتحف العربي الآن) استوقفني هذا كثيراً لأني أعرف دار الحديث الأشرفية كما أعرف دار المتحف العربي وأن كلا من الدارين غير الأخرى، فدار الحديث الأشرفية التي بناها الملك الأشرف موسى بن العادل، ونجز بناؤها سنة 630هـ والتي درس بها جلة من العلماء مثل ابن الصلاح وابن الحرستاني وأبي شامة والنواوي والشريشي والفارق وابن الوكيل وابن الزملكاني والحافظ المزني والسبكي وابن كثير وغيرهم - هذه الدار لا تزال تؤدي رسالتها في نشر العلم - وعلم الحديث بنوع خاص - إلى يوم الناس هذا، وقد اعتراها شيء من الفتور في أواخر القرن الماضي حتى أرسل الله لها الفقيه الشيخ يوسف البياني المغربي، فأعاد إليها حياتها ونشاطها، ثم تولى شأنها من بعده المحدث الكبير الشيخ بدر الدين الحسني، ولا يزال يلقي دروسه في دار الحديث الأشرفية ويحضرها الكثير من كبار العلماء. وأما المتحف العربي في دمشق فهو دار المدرسة العادلية الكبرى التي تقع في مواجهة المدرسة الظاهرية

والمدرسة العادلية التي بناها نور الدين محمود بن زنكي ولم يتمها، ثم الملك العادل سيف الدين ولم يتمها أيضاً، حتى أتمها من بعده ولده الملك المعظم ونسبها إلى والده الذي دفن فيها فسميت العادلية

كانت هذه المدرسة من أمهات المدارس الخاصة بالشافعية في دمشق كما كانت مقر القضاة فيها

سكنها الكثير من كبار العلماء أمثال ابن خلكان والعلاء القونوي. وأبناء السبكي وابن مالك النحوي وابن جماعة

وفيها ألف ابن خلكان تاريخه المشهور وعلى بابها كان يقف ابن مالك يدعو الناس لحضور دروسه، ينادى هل من متعلم هل من مستفيد؟ وحول بركة العادلية كان قاضي شمس الدين ابن خلكان يدور الليل كله حتى الصباح ويقول في دورانه:

أنا والله هالك ... آيس من سلامتي

أو أرى القامة التي ... قد أقامت قيامتي

ولما أسس المجمع العلمي العربي في دمشق سنة 1919م جعلت مقر المجمع، وهي الآن تضم المجمع العلمي والمتحف العربي وقاعة المحاضرات التابعة للمجمع. وعلى ذكر العادلية وشغل المجمع العلمي لها أقول: إن المجمع وضع يده أيضاً على المدرسة الظاهرية التي أنشأها الملك الظاهر بيبرس ودفن بها هو وابنه الملك السعيد والظاهرية كانت مدرسة ودار حديث معاً، درس بها الأذرعي والأخنائي والسويدي والأسدي والرعيني والواسطي

فتسلمها المجمع العلمي العربي وجعلها مقر دار الكتب العربية في دمشق، وخص القبة الظاهرية المزينة بالفسيفساء البديعة بالمخطوطات المحفوظة في الدار

برهان الدين محمد الداغستاني

بين القاهرة وطوس - 12

اصفهان إلى سلطان آباد

للدكتور عبد الوهاب عزام

والباب العالي بناء ضخم قسمه الأمامي إيوان عال يمسك سقفه الرفيع ثمانية عموداً، مشرف على الميدان، ووراء الإيوان بناء ذُو طبقات ست وسلاليم ضيقة، وفي كل طبقة حجرات قليلة صغيرة، وهذا البناء كله كان لجلوس السلاطين مشرفين على اللعب في الميدان، ولاستقبال الوفود أحياناً، وكان بابه العظيم مفتوحاً ليل نهار يأوي

إليه أصحاب المظالم فترفع إلى الشاه ظلاماتهم
ومن الآثار التي رأيناها، المسجد الجامع، وهو من أكبر المساجد سعة رقعة وضخامة بناء، وقد كمل بناؤه الحاضر في عهود مختلفة، وهو أقدم مساجد أصفهان. إيوان القبلة له قبة عالية ضخمة مبنية بالآجر، والى الغرب إيوان صغير جميل أظنه من آثار الصفويين، ووراءه مصلي كبير يؤخذ مما كتب على قبلته أنه بني سنة عشر وسبعمائة، ووراء هذا مصلي كبير لا نوافذ له، وفي سقفه كُوى ينفذ ضوؤها من أحجار من المرمر شفافة
وفي المسجد إيوانات أخرى ومصلي له قبة صغيرة زعم بعض الإدلاء أنه كان بيت نار، وأن القبة الكبرى كانت كذلك؛ وذلك زعم لا يصدقه التاريخ وفن البناء. وقصارى القول أن المسجد الجامع بأصفهان من عجائب الأبنية، وأن فيه للتاريخ وفن العمارة درساً طويلاً. وفي الجمعية الجغرافية الآن عشرات الصور تبين عن أقسام هذا الجامع العظيم ودقائقه
وأكبر الظن أن هذا هو الجامع الذي وصفه مفضل بن سعد ابن الحسين المافر وخي في كتابه (محاسن أصفهان) حيث يقول: (والجامعان: الكبير العتيق البديع الأنيق. بني أصله القديم عرب قرية طبران وهم التيم. . . ثم أعيد في أيام المعتصم سنة ست وعشرين ومائتين، ثم زاد فيه علي بن رستم في خلافة المقتدر، فصار أربع أدور يماس كل حد من جماعتها رواقا، يلاصق كل رواق منه أسواقا. . . . . وهو منذ اتخذ يطن بالتهليل والتحميد، ويحن بالتسبيح والتمجيد. لا ينظم لإحدى الصلوات الخمس أقل من خمسة آلاف رجل. وتحت كل اسطوانة منه شيخ مستند ينتابه جماعة من أهلها بوظيفة درس أو رياضة نفس. تزين بمناظره الفقهاء، ومطارحة العلماء، ومجادلة المتكلمين ،ومناصحة الواعظين
ومحاورات المتصوفين، وإشارات العارفين، وملازمة المعتكفين. إلى ما يتصل به من خانكاهات قوراء مرتفعة وخانان عامرة متسعة، وقد وقفت لأبناء السبيل من الغرباء والمساكين والفقراء. وبحذائه دار الكتب وحجرها وخزائنها الخ الخ
والباب العالي الذي ذكرته آنفاً كان يؤدي إلى حدائق واسعة فيها قصور كبيرة رائعة، رأينا منها قصر (جهل ستون) أي قصر الأربعين عموداً الذي بناه الشاه عباس واحترق فعمره الشاه ومقدم البناء رواق رفيع واسع يقوم بسقفه عشرون عموداً رفيعاً كل عمود قطعة واحدة من خشب الدلب، وكان مكسواً بالمرمر تعلوه قطع المرايا على الأسلوب المألوف في البلاد الفارسية، وللبناء على الجانبين رواقان آخران صغيران، ووراء الرواق الأكبر مدخل يفضي إلى قاعة كبيرة، ووراءها حجرات
وفي رواق الجانب الأيمن نقوش كثيرة، بعضها يصور نفراً من الموسيقيين والمغنين، وبعضها يمثل جماعة من سفراء دول أوربا الذين وفدوا على الملوك الصفويين، وفي القاعة الكبرى صور زيتية كثيرة تمثل الملوك الصفويين مستقبلين ضيوفهم أو محاربين أعداءهم، وهي صور تذكر بصور قصر فرسايل في فرنسا
وأمام البناء كله حوض كبير على حافته نافورات، ينعكس فيه مرآى الرواق الأمامي. قال محدثنا: للرواق عشرون عموداً وهذه مثلها في الماء، فمن أجل هذا سمي قصر الأربعين عموداً
والحق أن آثار الصفويين في أصبهان على ما نالها من عوادي الزمان تشهد بما كان لهم من الغنى والأبهة، وبما كان في الدولة من العمران والصناعات، والنبوغ في العمارة والنقش
ورأينا آثاراً أخر يضيق المقام بوصفها، ثم أوينا إلى الفندق وفي حيالنا جلال الماضي وجماله، وأمام أعيننا ما كان من تبدل وتحول
عصف الدهر بهم فانقرضوا وكذلك الدهر جال بعد حال
خرجنا العشية، فجلنا في أطراف المدينة، ورأينا القناطر المشيدة على نهر زنده رود، ورأينا مصنعاً كبيراً لآل اليزدي ينسج فيه الصوف، ثم ذهبنا إلى السوق، وسوق أصفهان من أعظم الأسواق في الشرق، فرأينا بدائع صناعة اصفهان، واشترينا منها ثم رجعنا إلى
الفندق
ولما حان موعد العشاء خرجنا إلى دار الحكومة إجابة لدعوة الحاكم. فنعمنا هناك زمناً

بحديث السيد الهمام قاسم صور أسرا فيل ورئيس البلدية، والشاعر الإنكليزي درنيكووتر والدكتور شميت الألماني. ثم عدنا إلى الفندق نمشي في القمراء وقد هود الليل، فقلنا حبذا لو امتد بنا المقام
بكرنا إلى الرحيل ونحن نذكر قول أبي عبد الله الحسين النظري:
حوت أصفهان خصالاً عجاباً ... بها كل ما تشتهيه استجاباً
هواء منيراً وماء نميراً ... وخيراً كثيراً ودُوراً رحاباً
وتربا ذكياً ونبتاً رويا ... وروضاً رضياً يناغي السحابا
وفاكهة لا ترى مثلها ... نسيماً وطعماً ولوناً عجاباً
تفيد الأعلاَء برءاً كما ... يفيد الربيع الرياض الشبابا
وزاد محاسنها زنروذ ... مياهاً كطعم الحياةِ عذاباً ألخ
فارقنا أصبهان والساعة ثمان وربع من صباح الاثنين ثالث عشر رجب (22 أكتوبر) عائدين أدراجنا تلقاء قم - ومن أصفهان إلى كرمانشاهان طريق تسير شطر الغرب لا تمر بقم، وهناك طريق أخرى إلى سلطان أباد في العراق العجمي، ولكن سائق سيارتنا، وهو خبير بالطرق، أبى إلا أن يسلك طريق قم إلى سلطان أباد فهمذان فكرمانشاهان لأنها طريق معبدة مطروقة معروفة، ومررنا والساعة تسع ونصف بقرية صغيرة اسمها مورجه خورد (النملة أكلت) قال السائق هذه قرية دعا رسول الله صلوات الله عليه أهلها إلى إطعام بعض الفقراء فأخفوا ما عندهم من طعام فدعا الرسول عليهم فأكلت النملة ما ادخروه من قوت: ووردنا دليجان والساعة اثنتا عشرة فوقفنا موقفنا الأول على المطعم الذي وصفه آنفاً، فجاء صاحبه وقال قد هيأت لكم الطعام، قلنا أعددت دجاجة؟ قال نعم وغيرها، فصعدنا إلى الطبقة العليا فاسترحنا ثم جاءنا الطعام فأكلنا مسرورين فكهين
واستأنفنا المسير والساعة واحدة وأربعون دقيقة، فلقينا على الطريق زميلنا في المؤتمر الدكتور نظام الدين الهندي، فوقفنا نجدد العهد به. ثم سرنا قليلاً فإذا ثلاثة من أعضاء المؤتمر: ألماني وأمريكي وتركي مقيم في أمريكا، فتحدثنا قليلاً ثم افترقنا وكان هؤلاء
يؤمون أصفهان فشيراز
بلغنا قم والساعة أربع فلم ندخلها، بل ملنا عنها شطر الغرب نريد سلطان آباد. ونزلنا بعد نصف ساعة ببناء عند أشجار على مقربة من نهر قم. قلت للسائق أي موضع هذا؟ قال تخت شير (تخت الأسد) شربنا الشاي، وطلبنا شمامة (خربوزه) فجاء رجل بشمامة وبطيخة قلنا هذه البطيخة قديمة، فما رأيك في الشمامة؟ قال حلوة جداً. قلنا شققها. فإذا شمامة غير ناضجة فقمنا نندب أملا ضاع بين قِدم البطيخ وحداثة الشمام. ولم أنس من بعدُ تخت شير وشمامته. وان مسيرنا في أرض عامرة تبدو فيها القرى والزروع والأشجار، والبيادر ليست كالطريق بين طهران وأصفهان. ومررنا بقرية صغيرة وقف عليها السائق قائلاً لا يفوتنا أن نأكل من عسل هذه البلدة فهو حديث الركبان. ثم دخل بناء إلى جانب الطريق، وعاد بقليل من العسل والزبد والخبز. وقد صدق الخُبر خبر صاحبنا فقد وجدنا عسلاً صافياً بارداً فقلنا قد أبدلنا الله بشمامى تخت شير عسل راهجرد. وتمادى بنا السير حتى اجتزنا بقرية اسمها إبراهيم آباد فعلمنا أننا على مقربة من غايتنا، وبعد نصف ساعة وقفنا في مدخل سلطان آباد والساعة ست وخمس وأربعون مساء بعد أن فصلنا أصبهان بعشر ساعات ونصف. فرآى الشرطة جواز السفر ودخلنا المدينة:

أهم أغراض شعر ابن النبيه المدح والغزل والرثاء والوصف، ولقد كان مدح شاعرنا رقيقاً بارع الأسلوب، يستهوي السامع ويأسره، ويستطيع أن يملك قلب الممدوح فيهبه جزيل الهبات، وهو يبدؤه بالغزل غالباً وأحياناً كثيرة يبدؤه بذكر الخمر ومجالسها والساقي وجماله وحينما مدح الخليفة الناصر أحمد بدأ مدحه بذكر الناقة التي حملته

إلى الممدوح، وقربته من مقر حكمه، كما كان في بعض الأحيان يبدأ مدحه بدون تقدمة، غير أنه كان حينما يأتي بمقدمة قبل مدحه يجيد غالباً التخلص منها إلى المدح بلباقة وبراعة فهو حين يبدأ بالغزل يتخلص إلى المدح بمهارة كقوله:

عسى قلبه يعديه قلبي برقة ... كما طرفه الفتان بالسقم أعداني
لئن كان ينسى عقد عهد مودتي ... فلي ملك من فصله ليس ينساني

وحين يبدأ بالخمر يحسن التخلص منه كذلك مثل قوله بعد أن وصف الخمر:

حمراء تفعل بالألباب ما فعلت ... سيوف شاه أرمن من في عسِكر لجب

ولقد كان في النادر يطيل المقدمة إطالة كبيرة حتى تغير على المدح المقصود من القصيدة، ولقد كانت المقدمة مرة سبعة عشر بيتاً في حين أن المدح لم يستغرق أكثر من أحد عشر بيتاً، غير أن هنا ملحوظة أحب أن أوجه النظر إليها، تلك هي صيحة التجديد التي رفع الصوت بها، منددا بأولئك الذين جعلوا كل همهم تقليد الأقدمين في بدء الشعر بالحديث إلى الأطلال وسؤال الديار، وهو في تلك النزعة يشبه - إلى حد كبير - أبا نواس الذي صاح قبله تلك الصيحة، واستمع إلى ابن النبيه يقول:

شكر المدام وشكر موسى مذهبي ... فلقد محون بطاعتي عصياني
شغلي مدائحه وغيري لم يزل ... كالبوم يندب دارس الجدران
للبيد والقفر الدوارس معشر ... عدل الزمان بشانهم عن شاني

فأنت تراه يشبه أولئك الذين يتحدثون إلى الديار بالبوم تندب دارس الجدران، ثم يؤكد لك أن مذهبه لا يشبه مذهبهم، وطريقته لا تتفق مع طريقتهم ويقول:

حسبك لا يغني سؤال الديار ... قم، فاصرف الهم بكأس العقار
واستنطق العيدان إن كنت ذا ... لب فما ينطق صم الحجار
البم والزير وكأس الطلا ... أولى بمثلي من سؤال الديار

وهو يشبه في ذلك أبا نواس الذي سفه أولئك الباكين على الأطلال والآثار، وصرح بأن الأولى والأفضل أن يبدأ الشعر بذكر الخمر وما إلى الخمر

ولقد سار ابن النبيه على تلك الطريقة فلم يبدأ شعره يوماً بسؤال حجر ولا استنطاق أثر، وهناك نقطة ثانية تراها في بعض مدحه تلك هي نقطة الاستطراد والدخول في موضوع جديد بمناسبة ذكره، ولنمثل لذلك بمدحه للخليفة الناصر فهو مدحه وأثنى عليه، وما هو إلا أن ذكر انتسابه للنبي حتى مضي يمدح النبي، ويذكر خصاله ومعجزاته. ولعل ذلك نشأ من أن الخليفة في ذلك الوقت لم يكن له من السلطان والقوة شيء، وإنما كان يعتز بالسلطة الروحية التي تستمد من النبي، فلا جرم كان مدح النبي مصدر تلك السلطة مدحاً للخليفة، وترقية من شأنه، هذا وقصائد مدحه متوسطة بين الطول والقصر غير أنه كان يقصرها أحياناً، ولكن لا يفوته أن يعتذر عن هذا القصر، ولنختم الحديث عن مدحه بذكر قطعة صغيرة تعطيك صورة عن هذا المدح: قال يمدح الملك الأشرف، ويذكر دخوله مدينة خلاط:

أبيٌ، سخيٌّ تحت سطوته الغني ... فحف وتيقن أن في عسره يسرا
هو البحر بل أستغفر الله إن في ... بنان يديه للندى أبحرا عشرا
لحي الله حربا لم يكن قلب جيشها ... ومجلس عدل لا يكون به صدرا
أطل على أخلاط يوم قدومه ... بلجة جيش يملأ السهل والوعرا
تلقاه من بُعد المسافة أهلها ... فذا رافع كفا وذا ساجد شكرا
فشككت أن الناس قد حشروا ضحا ... أم الناس يستسقون ربهم القطرا

أما غزل شاعرنا فنوعان: غزل هو مقدمة لمدح، وغزل قصد إليه قصداً وعناه من أول الأمر، وهو في كلا الغزلين عذب جميل تحس فيه رقة الهوى وشكواه، وقد تحدثنا عن تعزله بالغلمان: السقاة منهم والجنود؛ ومن الرقيق هنا أنه كان يستخدم ألفاظاً للتورية كقوله في غلام يهودي:

من آل إسرائيل علقته ... عذبني بالصد والتيه
أنزلت السلوى على قلبه ... وأنزل المن على فيه

على أن غزله لم يقتصر على الذكر، بل كان يتغزل كذلك بالمؤنث وإن كان قليلاً. ومن أرقه قوله:

إلي كم أكتم البلوى ودمعي ... يبوح بمضمر السر الخفي
وكم أشكو للاهية غارمي ... فويل للشجي من الخلي

ممنعة لها طرف سقيم ... شديد الأخذ للقلب البري
وشاحاها على خصر عديم ... ومئزرها على ردف ملي
وقد صدرنا مقالنا بشيء من هذا الغزل الرقيق الذي شهر به شاعرنا حتى أصبح يقال في حقه: هو صاحب الغزل البديع، فهو جميل حين يصف لك الحب وإن كان وصفاً حسياً، وجميل حين يذكر أيام الوصل أو حين يعيد إلى نفسه ذكرى الأيام العذبة ويقول:
أترى لأيامي بوصلك عودة ... ولو أنها في بعض أحلام الكرى
زمن شربت زلال وصلك صافيا ... وجنيت ورد رضاك أخضر مثمرا
ملكتك فيه يدي فحين فتحتها ... لم ألق إلا حسرة وتفكرا
لننصت إليه حين يقول ارتجالا:
أماناً أيها القمر المطل ... فمن جفنيك أسياف تسل
يزيد جمال وجهك كل يوم ... ولي جسد يذوب ويضمحل
وما عرف السقام طريق جسمي ... ولكن دلُّ من أهوى يدل
إذا نشرت ذوائبه عليه ... ترى ماء يرف عليه ظل
أيا ملك القلوب فتكت فيها ... وفتكك في الرعية لا يحل
قليل الوصل ينفعها فان لم ... يصبها وابل منه فطل
أدر كأس المدام على الندامى ... فمن خديك لي راح ونقل
فنيراني بغيرك ليس تطفي ... وأحزاني بغيرك لا تبل
فهو مع استخدامه الصناعة اللفظية لم يزل جمال الشعر رائعاً خلاباً كما ترى
(يتبع)
أحمد أحمد بدوي
القُبلة الممنوعة
تحفة من الشعر الرائع
للعالم الشاعر الأستاذ أحمد الزين
ياغُة الصدر من حر الجوى زيدي ... أبتْ شفاءكِ حتى بالمواعيد
سحريةُ الفم لو مَست بقُبلتها ... فَم العَي لحلت كل معقود
تكاد من رقةٍ تُغري مقبّلها ... أن يحتسيها رحيقاً غير مورود
قد صاغها الله لما أشركتْ أممٌ ... به وقال اشهدوا برهان توحيدي
قل للبخيلة جودي لالقيت جوي ... إن كان يشفع لي قولي لها جُودي
وساعةٍ تحت أفياء الهوى سلفت ... يا ساعة تحت أفياء الهوى عودي
ما ضر لو أنها في قُبلةٍ سنحتْ ... منْت بوعدٍ وإن ضنت بموعود
هل حاذرتْ حر شوقي حين ألثِمُها ... أن تُذبِل الوَردَ أنفاسي بتصعيد
رُحماك لليائِس الممطول يُقنعِه ... من الوجود خيالٌ غيرُ موجود
ظمآن لا رَشفاتُ الماء صافيةً ... تروي صَداه ولا بنتُ العناقيد
شفاؤه قبلةٌ لو أن محتضراً ... داوَى بها الموتَ رَدت غير مَردود
فكم أقبل ثغرَ الزهر من شبه ... بثغرك العَذْب في حُسن وتوريد
عينٌ مِن الخُلد من يَنهل بكوثرها ... وِردَ الحياة يَفُزْ منه بتخليد
صوتٌ من القلب أمليه على فِمها ... وعهدُ حُبٍ على الأيام ممدود
وللقلوب لغاتٌ ليس يدركها ... سوى فؤادٍ بنار الوجد معمود
حديثُ شوقٍ بلا حرفٍ ولا كلمٍ ... تُفضى به شفتي للخد والجيد
معنىً من الحب يسمو أن أؤديهُ ... بكل لفظٍ من الألفاظ محدود
اللفظ يَثقُل بالترديد مَوقعه ... وتلك تحلو معانيها بترديد
دع الرسائل فيما لا تحيط به ... تلك اللغاتُ ودَع صَوْغَ الأناشيد
فللشفاهِ على أمثالها لغةٌ ... أحلى على السّمع من مزمار داود
أدتْ عن القلب ما يعيا اللسانُ به ... كمنطق الطير غِريدٌ لِغريد
كم قُبلةٍ لا أرَى الدنيا لها ثمناً ... فلا تبعْ معدودٍ بمعدود
أحمد الزين
على مذهب روسو
ثورة على الحضارة
للأستاذ محمود غنيم

ذَرَعْتم الجو أشبارا وأميالاَ ... وجُبتم البحر أعماقا وأطوالاَ
فهل نَقَصْتم همومَ العيش خردلةً ... أو زدتمو في نعيم العيش مثقالا؟
صرعى الهواء وغرقى الماء قد كثروا ... وراكب الحيل جر الذيل مختالا
العيسُ ألْين ظهرا من مراكبَ إن ... جنَّبن هولا فقد قرّبن أهوالا
تسنّم القوم غربَ الجو وانطلقوا ... كأن للقوم في الأفلاك آمالا
أقسمت لو دنت الأفلاك طائعة ... فنالها المرء لم يقنع بما نالا
إني أرى الناس ما زادوا رفاهيةً ... في العيش زاده تعقيدا وإشكالا
كم هان أمر فقلدناه طائفةً ... من الحواشي وحملناه أثقالا
تجاوز العرفُ والعاداتُ حدها ... فأصبحا في رقاب الناس أغلالا
يا طالما حدثتني النفس قائلةً ... أنحن أنعم أم أسلافنا بالا؟
كانت حياتهمو تَصفي بساطتُها ... عليهمو من هدوء البال سر بالا
كم للمحاكم أحكام يقوم بها ... في البدو فيْصَلهُ - والقولُ ما قالا
لا الحق ضاع إذا ما عيَّ مدرهُهُ ... ولا ترقُّبُ يوم الفصل قد طالا
قد رتم الوقت تقدير الشحيح به ... فكدتمو تملؤون الليل أعمالا
أتختمُ الوقت بالأعمال ويحكمو ... هلا أضفتم إلى الآجال آجالا!
تحضر الناسُ حتى ما لمكرمة ... قُدْسٌ لديهم ولكن قدسوا المالا
في كل مملكة حربٌ منظمةٌ ... تضم جيشين: مُلاكا وعمالا
يد السياسة بالأخلاق قد عبثت ... وقرض العلم صرح الدين فانهالا
البدو أكرمُ أخلاقا وأحسبهم ... لله أكثرَ تقديسا وإجلالا
قالوا: تألق نور العلم، قلت لهم: ... بل ناره أصبحت تزداد إشعالا
عهد الحسام بفضل العلم قد درست ... آثاره وزمان الرمح قد دالا
يا رُب حربٍ بغير العلم ما اتقدت ... ورب جيش بغير العلم ما صالا
مدمرات وغازات مسممة ... تصور الموتَ ألوانا وأشكالا
لنا جرائمُ لم يسبق بها زمنٌ ... باتت تزلزل ركن الأمن زلزالا
كم وضّح العلم منهاجاً لمختلس ... وبات يحمي من القانون مغتالا
ابْنُ الحضارة جسم دون عاطفة ... يكاد يحسبه رائيه تمثالا
وبرقها خلب يغريك بارقةٌ ... حتى إذا شِمتَه ألفيتَه آلا
رسالة الغرب لا كانت رسالته ... كم سامنا باسمها خسفا وإذلالا
وصوّرتْه لعين الشرق أمثلة ... عُليا وصوّرنا الرحمن أمثالا
تغزو الحضارة أقواما لتسعدهم ... والزنج أسعد من أربابها حالا
هي الطبيعة ما بر الأنامُ ... أما وبرت بهم من قبلُ أنجالا
هل تشهرون عليها الحرب ويحكمو ... وكم طوت قبل هذا الجيل أجيالا
عودوا إلى حجرها إن شئتمو غدا ... كما نشأتم بهذا الحجر أطفالا
صوت الهزار وصوت العود أيُّهما ... أفواهما أثراً في النفس فعالا؟
أقسمت ما نظرت عيني بحاضره ... كالرمل أصفَر أو كالماء سلسالا
إذا نظرتُ إليكم من ذُرا جبلٍ ... لاحت قصورُكم الشماء أطلالا
يا رُب قصر له شمسُ الضحى طنفٌ ... بين العيون وبين الشمس قد حالا
يود ساكنهُ لو كان منطلقا ... كالذئب يسكن أحراجا وأدغالا
قودُ والبخارَ وسوقوا الكَهرباء فما ... زلتم بأسرار هذا الكون جهالا
لكم حياةٌ وموتٌ كان سرُّهما ... من عهد آدم مستوراً وما زالا
كوم حمادة
محمود غنيم
. . . . .وداع
بقلم وصفي البني
يا عهوداً من حياتي شطرت ... كيف أصبحت وراء العدم؟
أنت من قلبي شظايا ألمٍ ... كيف أرصى عن بقايا الألم؟
يا عهوداً قد تولى ذكرها ... أنت من ليلي منار الأنجم
سوف أمشي فوق آلامي وما ... في فؤادي من بقايا الأسهم
مسرعاً في الليل أعدو كي أرى ... نور أيامٍ تغذت من دمي

هل يطول الليل دهراً كاملاً؟ ... بل سيمضي رغم أنف النوم
يا عيوني ما بكائي والأسى ... غير أصوات بواد مظلم
قد سكبت الدمع في أمسي ولم ... أستمع غير التشكي من فمي!
خلني أحيا ضحوكاً فالبكاء ... سوف يكويني بنار الندم
قد شربت الكأس مراً علقماً ... واحتسيت الصبر فوق العلقم
فلنقف يا دهر، ذا وادي الشقا ... من يرى الوادي وفيه يرتمي؟. . .
هذه دنيايَ ما عيشي بها ... باكياً إلا كليلٍ أقتم!
قد تراءى الفجر يزجي نوره ... في حنايا الليل يجري كالدم
فلنودع يا رفاقي أمسنا ... إن نجم الصبح أغرى مبسمى!
دمشق
وصفي البني
فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية
تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا - 8
للأستاذ خليل هنداوي
شوبنهاور
1788 - 1860
هذا هو شوبنهاور الذي طبع الفلسفة الألمانية بطابع التشاؤم، فتركها مظلمة قاتمة، يخال الجانح إليها أنه نازل في أنفاق بعضها أقتم من بعض. نشأ نشأته الأولى بهدوء وسكينة، لا يكاد الناظر إلى وجهه النحاسي يتبين أن وراء هذا الوجه خيوطاً سوداء متصلة بقلبه الأسود؛ وقد خانه الجد في أول عهده كما يخون العظماء، فكبا فاستثقل أن ينهض من كبوته، فما زاده ذلك إلا حقداً على الناس ومبالغة في الانتقام منهم. اتخذ رسله إلى الناس الكتب؛ فكان أول كتبه (الجذور الأربعة لمبدأ السبب الأتم)، فخاض كتابه في صفوف الناس فلم يلق إلا فشلاً، لأنه لا يزال خامل الاسم، ولما تزل سحابة الحزن مخيمة على ألمانيا المغزوة المجرحة، فالناس في شغل عن الفلسفة والفلسفة في شغل عنهم، ولكن شوبنهاور المتشائم لم يثنه ما أصاب كتابه عن مواصلة السعي، فأعد عدته لحدث عظيم يترك وراءه دوياً، فقذف بكتابه (العالم إرادة وتمثيل) وهو خير كتبه، وأكثرها تمثيلاً لشخصيته فيه من فلسفته الشيء الكثير، ومن الشعر الشيء الكثير. . . ولكن ذلك لم يقعد ببعض حاسديه عن أن يحملوا على الكاتب وينالوا منه. فاستهل مطلع الجزء الثاني من كتابه بهذه الأبيات (وهي لغوتي)
لماذا تنفر منا؟)
. . . .وترمي بآرائنا
. . . .وترمي بآرائنا
أنا لا أكتب لأسرك وأبهجك
(ولكني أكتب لأعلمك شيئاً
وقد أسلم كتابه إلى المطابع وولي وجهه شطر إيطاليا موطن الفن، دون أن يرتقب ما يتركه كتابه من تأثير، فقضي فيها زهاء عامين يحيا حياة بسيطة، هادئة. ويرود مواطن الآثار متأملا في تلك العظمة الغائرة في تلافيف التراب. وقد كانت له ميول غزيرة للفن؛ وكم متع النفس - في حداثته - بمباهج الحياة! حتى إذا آب إلى برلين افتتح شعبة خاصة في الجامعة، ولبث شوينهاور يرتقب عبثاً من يسمع له، أو يأخذ عنه، حتى يئس من نجاحه، وتبرم بمذهب (هيجل) الذي يحتل ذهن الجامعة، وهو - عنده - مذهب الجنون والمحال، فما أشد مقته لأتباع هذا المذهب، ولليهود ذوي الأثرة، والنساء اللواتي يخرجن الكون من قلق إلى قلق. عاد إلى إيطاليا ليتم دراسته الفنية، ثم أقام في (فرانكفورت) وبعد جهاد خمسة عشر عاماً مشت إليه الشهرة ذليلة بعد صدود، منقادة بعد جموح، ولقي حتفه عام 160، وهكذا قدر لشوبنهاور أن يصرع مذهبه الجديد مذهب (هيجل) الذي تقطعت أسبابه، وتفككت روابطه، وشغرت الأفكار من بعده وأصبحت تتقبل أي مذهب كان يبعثه مجدد!
يعتقد شوينهاور بأنه هو الوارث الحقيقي لتراث (كانت) وأن (فيخت وشيلنغ وهيجل ما هم إلا أطفال فاسدون)، يرى أن كانت نحا بالفلسفة منحى جديداً، وسار بها في منهاج واضح، أما أتباع كانت فقد ذهبوا بالفلسفة مذهباً وعراً لا مأمن فيه لسالكه، وأقحموها

في بقاع هي فوق (المحسوس) تتعانق أجزاءها، وتتلاقى أشلاؤها في نقط مظلمة مبهمة. والآن قد آن للفلسفة أن تدرس حقائق الأشياء الموجودة. (وان الطريقة المثلى في تأمل الوجود، والوقوف على أطواره ما يصل بنا إلى بواطن الأشياء، وحقيقة أكناهها الخفية، ويطلعنا على سر ما يكمن وراء كل حادث، لا تسأل الكون من أين أتي؟ وإلى أين يمضي، ولماذا وجد؟ ولكنها في كل لحظة وفي كل خطرة تود أن تعرف ما هو؟) وهكذا تحول مجرى العلم النظري الذي كان يجري وراء الخيال، وعاد ينقل من التجارب ما سلم بها الاختبار، ويشرح لنا ناموس الوجود حسب وضعه يقول شوبنهاور: العالم هو أين تمثيلي وتصويري، وأين الحقيقة التي تصورها احساساتي التي يحولها الفكر إلى معارف.

وشوبنهاور لا يتخطى بهذه الفكرة ما افترضه معلمه (كانت) من قبل. ولكن العالم عنده هو إرادة، هو ميول عمياء أو غريرة قاهرة عند الكائنات، وفاعلية حساسية عند الانسان،

ولكنها إرادة متمثلة في كل شيء، هي جهاد عنيف في سبيل الحياة، تسعى لبسط سلطتها وقوتها على ما هو خارج عنها، الإرادة هي الشيء القائم بنفسه الذي لا ينفذ إليه فناء. الحياة هي العمل

وقد يُخيل للبالغ هذه النقطة من فلسفة شوينهور أن صاحبها يريد أن يبشر بالفعالية المستمرة والجهاد المتواصل الذي لابد منه لحي، ولكن شوينهاور لا يبلغ بك هذه النقطة إلا ليحمل إلى نفسك فكرته المسمومة التي تجعل من الدنيا كهفاً مظلماً، ومعتركاً تتطاحن فيه الإرادات. يصرع بعضها بعضاً: ألم يصرع أملاً، وأمل مغسول بالدمع يصارع أملاً مخضباً بالدم

الحياة جهاد عنيف. والجهاد العنيف سبب باعث للألم والشقاء. والكائن كلما زاد سمواً ورقياً زاد تألمه وشقاؤه. وذو النظام المتسق أكثر شعوراً بالألم من ذي النظام الناقص المضطرب. أما الشجرة فلا تتألم، فهي غير حساسة. أما رجل العقل ورجل العبقرية فهما أكثر شقاء وألماً ممن خُلقوا محدودي المدارك، ضيقي الآفاق. والحياة - مهما تجردت - لنا منها حاجات نريد إدراكها، ونريد أن ندركها كاملة، والكمال ظل طارئ لا يثبت، وقد تجر الحاجات حاجات مثلها مما يجعل الحياة - حسب هذا المقياس - لا تنطوي إلا على شقاء، فلا ندرك كل ما نتمنى، ولا نعقد عن التمني:

وشوينهاور إزاء هذه الحالات الغامضة، وجد كماله وراحته في المذهب البوذي الذي يجرد عن النفس الألم لأنه يقصيه عن الاشتغال في الحياة، ويدعوه إلى الفناء المطلق في الوجود، والتأمل في آياته تأملاً ساكناً، خالياً من الرغبة والشعور

هذا هو شاطئ النجاة القائم التي أوت إليه سفينة شوبنهاور بعد أن طافت في أكناف المحيط أعواماً، وهو مذهب كأن، صاحبه قد استمده من تلك الساحبة السوداء التي غشيت ألمانيا في عقلها وشعرها وفلسفتها. ومن خيبة طويلة رافقته أكثر أيامه وقد وجد الناقدون القائلون بتأثير الوارثة أن شوبنهاور قد اقتبس من أمه الأيم نظراتها السوداء، وعن أبيه أخذ الإرادة. ومهما كان تأثير هذه الوارثة المتنقلة بعيداً في نفس شوينهاور، فهو تأثير ضعيف إزاء تلك الموجة التي اكتسحت القطر الألماني جميعاً بما فيه من أدب ومذاهب وشعر وفلسفة

وبرغم ما بذله شوينهاور في إعلاء شأن مذهبه، وإظهار خطره، فقد قسما عليه النقد ووجد في مذهبه خطراً يهدد أماني الأنسانية، ويقتل كل ما حملته معها منذ فجر الخليقة حتى الآن، وأرادوا من شوينهاور أن تهديه النتيجة التي بلغها في أول مراحله (الحياة هي جهاد عنيف) لا إلى مناصرة الألم القوي، وتثبيت جذروه السامة في قلوب البشرية، بل إلى تخفيف أثقاله الرازحة على الكواهل والغوارب. فيعمل بذلك على إنماء الحياة وتكثيرها، وجعل رسالته رسالة رضاً وابتسام، لا رسالة سخط وامتعاض ولكن هب أن شوينهاور كان فاقداً لروح التفاؤل، فما هو سر انتشار مذهبه الأسود بين الناس، وقد علموا أن الحياة لا تغدو بمذهبه إلا متجهمة قاطبة. فهل كان شوينهاور معبراً عما يجول في صدور قومه ويخفق في قلوبهم، كما كان معبراً عما يختلج في صدره وفي قلبه؟ قد يكون احتمال الاثنتين معاً من أكبر العوامل التي جعلت من شوبنهاور نبياً للتشاؤم محترماً في قومه، وإن كان صاحب التشاؤم قريناً لا يقبل صحبته غراب

لقد كان شوبنهاور وكمن تظلمه غمامة سوداء، كثيراً هزؤه، نسيج وحده في خلقه. جاءت فلسفته ابنة طبعه، يحاول أن يقنع بها نفسه، لا الناس، لأنه يشعر أن الناس واجد أكثرهم في الحياة نوراً وسعادة، ولكن نفسه لا تبصر من هذا النور شيئاً على أن أسلوبه الفلسفي هو الذي أحياه، برغم أن اعتقاده - بالبوذية - لم يقم أمره كمذهب. لأن العقول لا تتقبله وإذا تقبلته فلن تفهمه. أما أسلوبه فهو حي يغري ويملأ النفس جلالاً.

فتفكيره فيه جد وصرامة، يغلب المنطق على أقواله حتى في الأشياء البعيدة، يدل استشهاده الكثير على سعة اطلاع، وقد بلغت منه قوة الملاحظة مبلغاً عظيماً، حتى لتأتي الفكرة منه مبنية على خطأ، وتأتي أجزاؤها صحيحة سليمة، كأنها البشاعة مبطنة بالجمال؛ وهو فياض الخيال الذي يندمج مع الفكر دون ما نفور. ولعل أعظم ما جاء منه (فكرة الإرادة) التي بان تأثيرها في الأجيال التي عقبت جيل شوبنهاور؛ فما زالت هذه الإرادة تتطور وتنمو حتى أوجدت لنفسها كياناً في العالم الفلسفي والعالم المادي، ولعل (نيتشه) هو أكبر مولود وضعته الإرادة الجبارة بين يدي الحياة.

(يتبع)

خليل هنداوي

القصص

من أقاصيص الجاهلية

حرب البسوس - 3

بقلم اليوزباشي أحمد الطاهر

تتمة

كان للناس عجباً أن اعتزل الحرب الحرثُ بن عباد والفند الزماني، وامتزج العجب بالحسرة حين انحازت إليهما عشائرهما. ولكنهما والعشائر قوم جنحوا للسام، وأرادوا أن يأخذوا الأمور بالرفق والحلم، وعز عليهم أن تطير بالقوم عنقاء، وأن تراق هذه الدماء، في مقتل ناقة عجفاء

جلس الحرث بن عباد يوماً على شرف من الأرض واجتمع الناس حوله يقصون عليه من أنباء القتال ما أمضه وزاد في حسرته. واندفع الحرث في اللوم والتثريب: يعيب على بكر ما فهل فتاها من قتل كليب يناب من الإبل وما جرت فعلته النكراء من كرب وبلاء. قال له الفند الزماني: (إنك يا حرث قد أسرفت في اللوم والتثريب، أما ترثى لهذا الشيخ مرة بن ذهل وقد توالت عليه المصائب وتزاحمت عليه النوائب، وكانت أخراها قتلى ابنه همام الذي ضن به يوم عرض الفدية. وأنت تعلم مكان همام من قومه وعشيرته! لشد ما يحزنني قتل هذا الفتى. لشد ما يحزنني قعودنا على نصرة بكر وقد أسرف المهلهل في النكال. وهالني ما يتندر به القوم علينا في مجالسهم ومجامعهم: قال قوم: إننا جبناء، وقال آخرون: إننا ضعفاء الرأي قليلو الحيلة، وقال آخرون إننا أذلاء نتملق تغلب ونصطنع عندهم يداً بعقودنا عن مناجزتهم. وحسبنا بها فرية تحط من كرامتنا وتضع من عزتنا. فهل أنت على رأيك مقيم؟)

قال الحرث: (أما مرة بن ذهل فلقد والله عز على مصابه في ولده ما يحز قلبي إلا مرآه مضرجاً بدمه وموقف المهلهل منه بظهر الأسى ويخفي الشماتة. ولكنك تعلم أن من دخل الحرب لم يأمن عواديها، وأن من نصب نفسه للقتال فقد استهدف للموت. وإن في ضن الرجل بفتاه يوم الفداء وبذله يقتل بسيف الأعداء شرفاً لا يطاوله شرف وفخاراً لا يتسامى

إليه فخار، ولا أحب إلي من أن يقتل بُجير ولدي إن كان في قتله صلاح بين أبني وائل وفي دمه وفاء لدم كليب. وأما مقالة السوء التي تتناولها بها ألسنة بذيئة فما أحفل بها ولا أقيم لها وزناً. . . . .)

وفيما هو يتحدث إذ قدم رجل قد أطلق ساقيه للريح يلهث من فرط التعب ولا يكاد يبين: قال الملأ (ما بال هذا الرسول يعدو كأنما يسابق الريح؟) (والله ما نحسبه إلا أتى ينعي لنا المهلهل!) وانكب النذير على الحرث بن عباد واحتضنه بين ذراعيه وقال:

- (عزاء يا أبا بجير! عزاء!)

(قالوا: 0يا لهول المصاب! وما وراءك يا غراب البين!)

- (عزاء يا حرث! لقد والله كان أشجع من شهدته الحرب:

(أفتقعد عن حربهم بعد هذا؟
- (قل يا رجل من الذي مات؟)
- (!بجير ولدك)
- (!وكيف مات)
- بل قتل. قتله المهلهل بن ربيعة. أفتقعد عن حربهم بهد هذا؟)
- مالك والمسألة عن هذا! أما بجير فنعم القتيل أصلح بين بكر وتغلب)
(وما أحسب المهلهل إلا قد أدرك به ثأر كليب وجعله كفؤاً له
قال الناعي: (لا. لقد غابت عنك أشياء. أما علمت أن المهلهل عندما طعن بجيراً قال له: (بؤبشسع نعل كليب)؟)
قال الحرث: (أقالها والله؟)
- (نعم ولقد تجاوبها الحي من أقصاه إلى أقصاه)
قال الفند الزماني: (يا للمذلة! ويا للعار!)
قال الناعي: (وارحمتاه لهمام زين الشباب!)
قال الحرث: (دعا هماماً وقتل زين الشباب. لقد أسرف المهلهل وجاوز الحد. وما عرف لها الفتى الذي لم يخط العشرين حرمته وهو ابن اخته. ولم يعرف لي سابقتي وقد كففت عن حربه:
قربا مربط النعامة مني ... لقحت حرب وائل عن خبالي
لم أكن من جناتها علم الل ... هـ وإني بحرها اليوم صالي
فأحضر له غلامه النعامة وهي فرس له، فركبها وخرج يدعو العشائر للقتال فلبته يشكر، وعجل، وبنو حنيفة، وبنو قيس بن ثعلبة، وسادتهم، وسار في القوم الفند الزماني وكان يقوم بألف رجل، وترأس القوم الحرث بن همام البكري ولما اجتمع القوم وقف الحرث بن عباد خطيباً فاعتذر لهم عن نفسه وعن الفند الزماني فيما كان منهما من إحجام عن خوض هذه اللجة التي طغت على القوم فأصبحوا فيها مغرقين وقال أنه والفند قد استمسكا بالصبر والأناة حتى لم يعد في قوس الصبر منزع، والمهلهل قد أسرف في سفك الدماء جاوز حد الفداء، ولم يحتسب لنا قعودنا عن حربه وقد ناصبه قومنا العداء، وها هوذا قد قتل بجيراً ولدي وإني لأشهدكم - علم الله - على أنني حين بلغت مقتل بجير طابت نفسي واطمأنت ظناً بأن المهلهل سيجد في قتله غناء عن الحرب وكفاء للفدية، ولكنني أسرفت في الظن الجميل، وأسرف المهلهل في التنكيل، فالسكوت بعد اليوم لا يزكو بالحر، ولا يبرره عذر، يا قوم! لا أدعوكم للقتال انتقاماً لعزة ديثت بالصفار، ودماء جرت كالأنهار، ودفعاً للمذلة والعار. . . . . .)
ثم نظر إلى الحرث بن همام البكري وقال له (وأنت يا ابن همام هل أنت مطيعي فيما آمرك به؟ قال: (ما أنا بتارك رأيك إلى ما هو شر منه) قال: (أعلم أن القوم مستقلون لقومك في السلم وازدادوا جرأة في الحرب فلنقاتلهم بالنساء فضلاً عن الرجال) قال: (وكيف قتال النساء؟) قال: (تعمدون إلى كل امرأة لها جلد ونفس، فتعطى كل واحد منهن اداوة وهراوة، فإذا صفقت أصحابك فصفهن خلفهم فان ذلك مما يزيد الرجال جلداً وشدة ونشاطاً، ثم تعلموا بعلامة تعرفها نساؤكم فإذا خرج منكم إنسان في القتال أمرن بسقيه، وإذا مررن من عدوكم بإنسان ضربته بالهراوة فقتلنه) وفعل الحرث بن همام ما أمر به الحرث بن عباد.
وكان هو أول من أشار بحشد النساء مع الرجال. وحلقوا رؤسهم علامة بينهم وبين النساء. وسمي هذا اليوم يوم (تحلاق اللمم)
وخرج النساء من دورهن أسراباً محتشدات، وفي يد كل واحدة اداوة وهراوة، ووقفت تلقاءهن إحدى بنات الفند الزماني وصاحت: (يا معشر القوم! أحب إلينا أن نموت مع الرجال في ساحة الوغى أحراراً، من أن نقبع في دورنا ذلة وانكساراً. فأما عدوا مع رجالنا منتصرين، أو هلاكا مع الهالين، وسيرى القوم أن المرأة البكرية لا تقل عن الرجل تحمساً للشرف وحفظاً للكرامة، وحرصاً على الثار. يا نساء الحي! حي على القتال! حي على القتال!)
ثم برزت أختها وقفت إلى جوارها وتغنت الفتاتان بأبيات ترهف الشعور، وتوغر الصدور وتدافع القوم رجالاً ونساء للقتال: فما كنت ترى إلا أعناقاً تمتد إلى الموت، وأجساماً

تتزاحم على الردى، وصدوراً تهبط وتعلو من فرط الجوى. ثم حمي وطيس الحرب، واشتد البلاء.
واشتبكت الأسنة، وسالت الدماء، وظهرت تغلب حمرة تستمر استعاراً، وناراً تضطرم اضطراماً، وانقضت على بكر تحصد أعناق رجالها، وتطيح رقاب أبطالها، حتى تراجع البكريون وأيقنوا بالفناء، وظنوا أن لا كاشف لهذا البلاء، وفيما هم يتعثرون في انكسارهم أقبلت كرمة بين صلع أم مالك بن زيد فارس بكر وغنت
نحن بنات طارق ... نمشي على النمارق
مشي القَطى البارق ... المسك في المفارق
والدر في المخانق ... إن تقبلوا نعانق
عرس المولى طالق ... والعار منه لا حق
وما أشد ما يفعل الغناء والنسا في نفوس الأبطال. كان لهذه الأنشودة نغم كأنه خيوط انتظمت عليها الصفوف واتحدت في سلكها القلوب، بل كان النغم قبساً من نور سماوي نفذ إلى القلوب فأضاءها، وإلى النفوس فأنارها، وإلى العزائم فقواها، والى الهمم فدعاها. وسار القوم على هداه إلى نصر مبين. تدافعوا على العدو واقتحموا الصفوف واستباحوا المعاقل، وانكشف الهول فإذا المهاجم يرتد، وإذا المهزوم يشتد، وإذا تغلب بين قتيل وأسير وشريد
وانكشفت الغاشية، ونظر البكريون فيما بينهم فإذا بالحرث ابن عباد قد خلت منه الصفوف. فجزعوا وفزعوا. وذهبت بهم الظنون كل مذهب. وفيما هم في حيرتهم إذ أقبل فارس ينهب الأرض نهباً. قالوا لعل عنده الخبر اليقين. قال: (كأني بكم تبحثون عن الحرث من أبطال تغلب وانقض الحرث عليه كما ينقض النسر على الفرخ، وإذا بطل تغلب بين يديه
كالعصفور قد هيض جناحه وقال له الحرث: أتدلني على عدي بن ربيعة المهلهل وأخلى عنك؟ قال الأسير: أدلك عليه إن وثقت من وعدك. قال الحرث: قد وعدتك. قال (الأسير: أنا المهلهل! فما وسع الحرث إلا أن يفي بوعده ويخلي الرجل
صاح القوم صيحة نكراء وهاجوا وماجوا. قالوا: (لقد أسرفت الحرث)، (يخلي المهلهل بعد أسره؟)، (أليس المهلهل قاتل ولده؟)
(!بل الحرث جبان) .(قلنا إن الحرث ضعيف الرأي)
(ولكن هو الوفاء) .(كانت فرصة ولن تعود) . . .
ولكن اسمعوا يا قوم. سماع! سماع! سماع: لقد بالغ الحرث في مذلة المهلهل - (ومهانته. فما تركه إلا وقد جز ناصيته كما يجز صوف النعاج
وفيما هم يتندرون على المهلهل وجز ناصيته، ويختلفون في تأويل مسلك الحرث، إذ أقبل الحرث على وجهه آثار مختلفة فيها الإعياء وفيها الزهو وفيها الأسف وفيها الرضى. فأقبل عليه القوم بعضهم يسد يده مهنئاً، وبعضهم ينحي عليه باللائمة، وبعضهم يقره على وفائه بالعهد
قال الحرث بن عباد: (وما تركته حتى جززت ناصيته عبرة ونكالاً، أما تخليته فما كنت لأعدل عنها، وقد وعدت الرجل وأنا أجهله، ولو قد نكثت بعهدي للحقت بي سبة لا يمحوها الدهر ولا يغفرها الأهل
!لهف نفسي على عدي، ولم أع ... رف عدياً إذ أمكنتني اليدان
قال الراوي: ومنذ ذلك اليوم فارق المهلهل قومه ونزل في مذحج ولم تقم له قائمة، وظل البكريون من رحيق النصر ينهلون
اليوزباشي أحمد الطاهر
البريد الأدبي
تعليق وتعقيب
لامرتين
قرأت في (الرسالة) الغراء في باب (من هنا ومن هناك) من العدد التاسع والسبعين، كلمة عن نسب لامرتين الشاعر الفرنسي الملهم واحتمال أن يكون متسلسلاً من أصل عربي كما كان يقول هو عن نفسه. وللتعاون مع الباحث في هذه المسألة أقول:
إنني وجماعة من الأدباء منذ مدة قريبة كنا تذاكرنا في هذا الموضوع، وبعد استعراض ما قيل فيه ما جلبه الأستاذ صاحب المجلة، جوزنا على تقدير عربية الشاعر أن يكون

بين اسمه واسم أسرة العمارتي صلة ما، ولا سيما أن أصل الاسم هو ألا مرتين أي العمارتي كما نكتبها بالحروف الإفرنجية. وأسرة العمارتي هي من الأسر المنتشرة في هذه الجبال الريفية، والتي يغلب أن يكون أهلها من عرب الأندلس المهاجرين إلى المغرب. فهذا مما يزيد قوة الاعتقاد بعربية لامرتين. نعم هذه النون التي في الطرف ليست في اسم الأسرة المذكورة، ولكن لا مانع أن تكون من تصرف الألسنة الفرنجية في الاسم كما هو معهود منها اليوم مع هذا الاختلاط العظيم، فكيف به قبل؟ وعلى كل حال فهذا التعليق القصير ربما يلقي بصيصاً من النور على هذا البحث الطويل

بشر بن عوانة

كذلك قرأت في الباب نفسه من نفس عدد المجلة بحثاً صغيراً مضمونه الشك في حقيقة حياة هذا الشاعر وترجيح أن يكون شخصية خرافية من شخصيات المقامات كأبي الفتح الإسكندري والحرث بن همام؛ ذلك لأن الكاتب لم يقف على اسم بشر هذا في سفر من أسفار التاريخ ولا في كتاب من كتب الأدب التي قرأها إلا في مقامات بديع الزمان وكتاب تاريخ أدب اللغة العربية لجرجي زيدان وكتب المحفوظات للمدارس المصرية فرجح عنده إنكار وجوده. وبما أنني كنت وقعت على اسم بشر المذكور في غير هذه الكتب، رجعت إلى المظان التي أذكر أنني رأيته فيها فوجدت من أقربها كتاب (المثل السائر). وقد جاء ذكر بشرفيه في الصفحة 64 (طبع مصر بالمطبعة البهية) حيث قال: (وكذلك وردت لفظة

مشمخر فان بشراً استعملها في أبياته التي يصف فيها لقاءه للأسد فقال:

وأطلقت المهند من يميني ... فقد له من الأضلاع عشرا

فخر مضرجاً بدم كأني ... هدمت به بناء مشخمرا

وخدمة للأدب فقط كتبت هذا التعقيب، وإلا فحياة بشر لا تثبت بمثل هذا الذكر استطراداً، على أن قصته التي حكاها البديع تسف حتى تلتحق بالخرافات لما فيها من المتناقضات

طنجة

عبد الله كنون الحسني

حول رواية نهر الجنون

قرأت في العدد (84) من الرسالة الغراء مقالاً للأستاذ (جورج وغريس) تحت . . . . عنوان (سياحة في نهر الجنون) . . .

ذكر فيه خلاصة موجزة للقصة التمثيلية (نهر الجنون) للأستاذ توفق الحكيم، وذكر كيف أن المرحوم جبران خليل جبران نشر شبيه هذه القصة في كتابه الجنون. وتساءل الأستاذ (جورج وغريس): هل هناك اقتباس؟ وأشارت الرسالة في نهاية المقال إلى أن مصدر الكاتبين قد يكون واحداً . . .

وقد نشر نفس القصة لكاتب التركي المرحوم (عمر سيف الدين) سنة (1326) رومية أي منذ خمس وعشرين سنة تقريباً في كتابه المعبد الخفي (كيزلي معبد) تحت عنوان (الماء الذي شربه الجميع، أسطورة صينية) صفحة (127) والقصة تتلخص فيما يلي:

كان (لينغ - يو) ملكاً عادلاً حكيماً، توفر في أيامه الهناء للرعية، فجاءه في أحد الأيام ساحر وأعلمه أن أمطار غزيرة ستهطل مدى أيام، وكل من يشرب ماء خالطته قطرة من هذه الأمطار يصبح مجنوناً لا محالة. فأمر الملك بملء صهاريج القصر وكل ما فيه من أوان ماء نقياً عذباً لينجو من شرب الماء المسبب للجنون. . . وبعد أيام بدأت الأمطار بالتهطال ودام انهمارها أياماً وأسابيع. . فخالط ماؤها ماء الينابيع والآبار فجن السكان كلهم، وانتشروا في الأزقة والساحات يصيحون ويصرخون. وتجمع قسم كبير منهم حول قصر الملك وأخذوا يسخرون منه ومن صحبه الذين ظلموا عقلاء حتى تلك الساعة بفضل

الماء المخزون في صهاريج القصر. فكان إذا بدا واحد من سكان القصر في إحدى الشرفات صاحوا بصوت واحد قائلين: (مجنون! انظروا المجنون!) وأصبحت الحالة لا تطاق، فلم ير الملك بداً من أن يشرب هو أيضاً من ماء الجنون، فتناول منه قدحاً وهو يقول: (لا لزوم لبضعة عقول صحيحة بين هؤلاء المجانين. . . !)

ومرت الأيام والسنون. . وتأصل هذا النظام الجنوني وأطلقوا عليه (نظاماً اجتماعياً)، وزُج كل من عاوده عقله من هؤلاء المجانين في أمكنة أطلق عليها (مستشفيات

المجاذيب). . ومنذ ذلك الحين لا ينفك العلماء من ترديد هذا القول: (الصين منبع الحكمة والعقل. . .)
فللقصة التي نشرها المرحوم جبران والأستاذ الحكيم ليست سوى أسطورة صينية تنقلتها أكثر اللغات

الدكتور محمد سالم

رسائل جديدة لبلزاك

لأدباء الغرب شغف خاص باستقصاء الآثار والرسائل الخاصة لأعلام الكتاب والمفكرين، وكثيراً ما يؤدي هذا الشغف إلى نتائج أدبية باهرة، فيظفر البحث بآثار ورسائل جديدة لها قيمتها في درس شخصية صاحبها. ومنذ بضعة أعوام ظفر الكاتب الفرنسي مارسل بوثرون بطائفة من رسائل بلزاك الخاصة إلى صديقته مدام (زولما كارو). واونوريه دي بلزاك هو القصصي الفيلسوف الفرنسي الذي تعد آثاره من أقيم ما أنتج الأدب الرفيع في القرن التاسع عشر. ونشر مسيو بوثرون بعض هذه الرسائل في مجلة (العالمين) سنة 1923؛ ثم ظفر بطائفة جديدة منها، وجمع الجميع في كتاب واحد صدر أخيراً، وعنوانه (مراسلة لم تنشر لبلزاك)

وليست هذه الرسائل غرام كما يتبادر إلى الذهن، ولكنها رسائل صداقة خالصة؛ وهذا النوع من المراسلة نادر في حياة أكابر الكتاب إذا كتبوا لامرأة يشغفهم سحرها، ولكن بلزاك كان فيلسوفاً. وقد جمعت بينه وبين مدام زولما كارو ظروف عرضية، فقد كانت تقيم مع زوجها الضابط كارو حوالي سنة 1820 بجوار أخت لها تدعى لور وهي زوجة مهندس يدعي سير فيل، وكان بلزاك يزور صديقه المهندس سير فيل وزوجه، فتعرف بالطبع بأختها مدام

زولما، ونشأت بينهما صداقة حميمة، وكان بلزاك يشعر نحو مدام زولما بعاطفة حنان خاصة ليست هي الحب، وكانت مدام زولما تبادله عطفه وصداقته، لما نقل زوجها إلى بعض مدن الأقاليم، سافر بلزاك لزيارتها، وأقام حيناً إلى جانبها، وكان أثناء بعده عنها في باريس، وحينما تحتجزه صاحبته المركيزة دي كاستري، ينفس عن نفسه بالكتابة إلى مدام زولما، وتكتب هي اليه، وكان بلزاك يودع هذه الرسائل كثيراً من أسرار روحه وقلبه وآماله وشجونه، ويصوغها في قالب رفيع من البلاغة، وذهب في إكباره وصداقته لمدام زولما إلى حد أن أهدي إليها قصته (منزل نوسنجان)

ثم وقع بلزاك في حب الكونتس هانسكا، وأثار هذا الغزو الجديد قلبه شجناً واضطراباً، فكان كلما غلبه الشجن، أو ضاقت به السبل وأرهقه الدائنون يفر إلى مدام زولما فيقيم مع هذه الأسرة المحبوبة أياماً يروح فيها عن نفسه خلال الإيناس والزهر وبعد فترة طويلة من الزمن قضاها الكاتب الكبير في متاعب وأزمات مختلفة اقترن بصاحبته الكونتة الأجنبية سنة 1850؛ ولكنه لم يعش بعد زواجه سوى ثلاثة أشهر، ولكن مدام زولما عاشت بعده أعواما طويلة؛ ولها اليوم حفيدة على قيد الحياة تدعى مدام جورج بابيل؛ واليها يهدي مسيو بوثرون رسائل بلزاك الجديدة

خمسون عاماً لوفاة فكتور هوجو

تستعد دوائر فرنسا الأدبية للاحتفال بالعيد الخمسيني لوفاة شاعر فرنسا الأشهر فكتور هوجو الذي توفي في يونيه سنة 1885 وسيجري الاحتفال بهذه الذكرى في جميع أرجاء فرنسا، ويوضع تحت رعاية الحكومة الرسمية، ويلقي وزير المعارف بهذه المناسبة خطاباً رسمياً على قبر الشاعر اتباعاً للتقاليد المعروفة، وقد رأت إدارة مسرح الكوميدي فرانسيز، وهو مسرح الدولة ان تشترك في الاحتفال بهذه الذكرى، وان يكون اشتراكها عملياً، وذلك بان تخصص موسماً خاصاً لتمثيل بعض روايات هوجو الشهيرة يبتدئ في مارس وينتهي في أول يونيه، وهو تاريخ وفاة الشاعر، وان يمثل خلال هذا الموسم من رواياته القطع الآتية: (روي بلاس)، (هزناني)، (ماريون دي لورم)، (لوكريس بورجيا) وغيرها

الكتب

أدولف

للكاتب الفرنسي بنجامان كونستان

ترجمة الدكتور حسن صادق

لا يزال فن القصص عندنا في بدء مرحلته الأولى، ولا زال أدباؤنا يتلمسون طريقهم

إلى القصة ويتوقون إلى رؤية هذا الفن من فنون الأدب، وقد انقاد لهم ووصل في أدبهم إلى مثل تلك الدرجة التي وصل إليها في الآداب الغربية، ذلك لأن القصة في منحاها وطبيعة تركيبها، من أهم وسائل التثقيف وأيسرها، كما أنها من ألذ ضروب الاستمتاع وأقربها إلى القلب والذهن، والقصة الجيدة بلا شك هي الحياة في ناحية من نواحيها، ففيها ما في الحياة من معان، وفيها الحياة من اضطراب

وهذا الافتقار في أدبنا إلى القصة، يجعلنا نرحب بكل تعريب جيد لشهيرات القصص في الأدب الغربي، إذ بذلك تتوفر لدينا النماذج وتتنوع المثل، فضلاً عما يكون لمثل تلك القصص من عظيم الأثر في تهذيب الذوق وصقله، وإيقاظ العواطف وحسن توجيهها نعم إن لكل أمة ذوقاً، ولكل أمة شرعة ومهاجاً، ولكل أمة وجهة تتجه إليها حسب ما ركب في طبيعتها من ميول، وفن القصص ملكة لا تكتسب، ولكن الأديب المصري الموهوب مع ذلك لابد له من نماذج، وهو كفيل أن يشكل قصته على هدى تلك النماذج حسبما يتفق مع بيئته

ولقد اختار الدكتور حسن صادق قصة أدولف، فنقلها إلى العربية، وهي من القصص الفرنسية التي حازت عظيم الشهرة في أوربا كلها، وهي واحدة من تلك القصص التي تلائم كل بيئة وكل عصر، فليست من ذلك النوع المحصور الذي يتقيد في وضعه بغاية محدودة كالدعوة إلى إصلاح اجتماعي في ناحية من نواحي الحياة، أو من ذلك النوع الذي تصور فيه أمال ومثل عصر من العصور، حتى إذا انقضى ومنها أصبحت لأغنية فيها، بل هي من تلك الآثار الخالدة التي تساير الحياة وتغالب الفناء، وحسبك أنها قطعة فنية تقرأ فيها خطرات نفس كبيرة أملتها تلك العاطفة المشبوبة، عاطفة الحب في شرخ الشباب

ولما كانت هذه ميزتها، فأنا أعتقد أن المترجم الفاضل قد أحسن الاختيار فقدم إلى قراء العربية أثراً أدبياً جميلاً ستلذهم قراءته وسيعجبهم ما جاء فيه من روعة التعبير عن خلجات النفس ومنازع القلب، ولقد أحسن أيضاً حين قدم لكتابه بفصل طويل دقيق، شرح فيه حياة المؤلف وحياة العصر الذي عاش فيه، مما جعل كتابه يجمع إلى اللذة الفنية، لذة ذلك البحث التاريخي القيم

أما أسلوب الترجمة فمتين مشرق، تحس به في أول الكتاب عسيراً بعض العسر، ولكنه لا يلبث أن يلين ويعذب ثم يطرد، وقد تتراءى في بعض مواطنه بعض الصور والتراكيب الفرنسية نشأت من محافظة المترجم على دقة الترجمة، ولكن الأسلوب على الجملة صحيح التركيب، فصيح الأداء، يشهد للمترجم بما بذله من الجهد وما تحراه من الإجادة

أما عن القصة في ذاتها فإني مع شديد إعجابي بها وتأثري بقراءتها تأثراً عميقاً، قد أحسست فيها ظاهرة أحسب القراء جميعاً سيحسونها مثلى، ذلك أن خواطر المؤلف كلها تدور حول نفسه وحول حبيبته، مما ضيق مجالها وتركها خالية من ذلك الجو الشعري الذي يوجد في مثل تلك الآثار الأدبية العظيمة، ومن تلك الأفكار الفلسفية الباهرة التي يعلق بها أصحاب تلك الآثار على ما سيصادفهم من ظروف ومواقف، فيزيدونها روعة وقوة، كما أن القصة تكاد تكون خالية من الأوصاف الطبيعية ومن أوصاف الرجال والبيئات. فهي من ناحية التعبير عما في داخل النفس، أو بعبارة أخرى من الناحية المعنوية البحت التي تدور حول عاطفة الحب قد بلغت غاية الجودة، ولكنها بالاقتصار على ذلك فقدت كثيراً من الصور والأطياف التي تشعر المرء لدى قراءة القصة بصدى الحياة

هذا وإني لأشكر للدكتور حسن صادق ما بذل من مجهود وأرجوه أن يتحف قراء العربية بين حين وآخر بمثل هذه النفحة الساحرة من أدب الغرب

الخفيف

أغاني الكوخ

نظم الأديب محمود حسن إسماعيل

أنتقل بالقارئ إلى هذا الديوان المسمى أغاني الكوخ، لناظمه محمود حسن إسماعيل، ويقع في نحو مائة وخمسين صفحة، وقد أخرجه صاحبه في صورة أنيقة جذابة تشهد له بحسن الذوق ولعلك ترى في هذا الاسم (أغاني الكوخ) ما ترتاح إليه نفسك وخيالك،

فإذا مضيت تقرؤه حمدت لناظمه هذه الروح المصرية، بل هذا الإعجاب الشديد بجمال الريف وبهائه، مما يعد خطوة محمودة نحو ما نتمنى بلوغه في نهضتنا الأدبية من صبغ أدبنا بالصيغة المحلية الطبيعية، وتصوير بيئتنا تصويراً يحفظ لثقافتنا لونها، ويبعد عن أدبنا ما يوشك أن يعلق به من بهرج زائف وتكلف مملول

وأذكر أني قدمت للقارئ على صفحات (الرسالة) من أمد قريب (ظلال القمر) للأديب أحمد مخيمر وقد أعجبتني منه هذه الروح المصرية التي أراها أكثر ظهوراً وأتم نضوجاً في ديوان الأديب محمود حسن إسماعيل، فان معظم قصائده تدور حول المناظر الريفية المحبوبة في صعيد مصر مع دقة في الوصف وصدق في الإحساس أعتبرهما باكورة طيبة لابد أن ستتدرج في سبيل الرقي إلى الكمال.

يبد أني وقد أعجبني صدق إحساس شاعرنا، أراه يأتي في شعره ببعض الأخيلة التي لم أستطع أن أصالح ذوقي عليها كما جاء في قصيدة الكوخ وفي قصيدة (تبسمي) و (القيثارة الحزينة) و (النعش) و (سنبلة تغني) و (عند زهرة الفول)، فقد ورد في تلك القصائد بعض المعاني الجزئية التي لا تتواءم وطبعه

هذا إلى استعماله بعض المجازات والاستعارات كتصفيق الألحان في القلب، وأجفان القلاع، وقوله إنه رشف قصائده من يغر عشيقته وغير ذلك مما لا يتسع له المجال ولست أغضب الأديب محمود حسن إسماعيل فيما أعتقد، إن نبهته في إخلاص إلى الاهتمام بتجويد فنه والاهتمام بمعانيه، فديباجته في الجملة مشرقة، ولغته سليمة وألفاظه جيدة، كذلك يجدر به أن يولي قوافيه من العناية أكثر مما يفعل، ولئن اهتم بذلك فسوف نرى منه في المستقبل القريب شاعراً مصرياً رقيقاً.

الخفيف

شعراؤنا الضباط

للأديب محمد عبد الفتاح إبراهيم

يجد القارئ هذا الكتاب كما يتضح له من عنوانه، تراجم لشعراء مصر من الضباط، وضعها الضابط الأديب محمد عبد الفتاح إبراهيم، ولعل القارئ يشاركني شعور الغبطة حين يتجلى له هذا الإخلاص من المؤلف لطائفة من أهل مهنته، كاد ينسى معظمهم المشتغلون بالأدب، على الرغم مما قدموه في ميدان الأدب من خدمة اللغة عامة: وفن القريض خاصة

ترجم هذا الأديب الفاضل للبارودي، وحافظ إبراهيم، وعبد الحليم حلمي المصري، ومحمد فاضل، ومحمد توفيق علي

وقد سار في دراسته فيما يتعلق بهؤلاء جميعاً على وتيرة واحدة تقريباً، فكان يأتي بلمحة عن تاريخ كل شاعر، مبيناً البيئة التي نشأ فيها، ثم يذكر المناسبات التي حركته إلى نظم القصيد، مورداً بعض الشواهد من مأثور نظمه ومن مشهور قصائده

وإني وان حمدت للضابط الأديب وفاءه واجتهاده، أحس أنه كان في كتابته يقصد إلى الوفاء أكثر مما يقصد إلى الدرس، ولن أظلمه إذا قلت أنه في بحثه كان يميل إلى سرد المعلومات متهماً باستيعابها دون تمحيصها، فلم تكن له طريقة محدودة، أو بعبارة أخرى لم يكن قوام عمله التحليل الأدبي الذي يستند إلى الفن وإلى الخبرة بالحياة، ولست أنكر هذه الخبرة عليه، ولكنني لم أتبين صداها في بحثه، وكان يخيل إلى أثناء كلامه عن البارودي، ثم عن حافظ - على الخصوص - أنني أستمع إلى محدث في مجلس الأدب، لا يتقيد فيه من يتعرض لحياة شاعر بأوضاع فنية أو يراعى وحدة الموضوع وسبيل التدرج فيه. هذا إلى أنه كان يترك الامر أحياناً لغيره، فيعرض أقوال من كتبوا عن حافظ دون أن يتناولها بتعليق

على أن كتابه على الرغم من هذه المآخذ، جدير أن يثير اهتمام أدبائنا بهؤلاء الشعراء، وهو وفاء يثاب عليه المؤلف، واجتهاد يستحق من أجله الثناء

الخفيف

العدد 87 - بتاريخ: 04 - 03 - 1935

مصر وأخواتها

كأنما السؤال عن الناس كسؤال الناس لا يتفق مع الرخاء ولا يكون مع الغنى! فإن مصر والعراق يكادان من سعة العيش لا يذكران من وراء الحدود؛ والوحدة العربية في البلدلين على الرأي الأغلب حديث خُرافة أو حديث مجاملة! فلولا الأدب الذي يجمع

الفؤاد بالفؤاد، ويربط البلاد بالبلاد، ويصل الأحفاد بالأجداد، لظلت منابت العروبة ومواطن الإسلام إغفالاً لا تُعرف، وإرحاءاً لا تُبلُ.

يزور المصري قطراً من أقطار العرب، فيكون أول ما يرد على سمعه عتب المحبين على الهجر، ولوم الأقربين على القطيعة، وعذل الجيرة على التخاذل؛ فيلقي معاذيره الملوم المحُرج في منطق عي ودفاع غير ناهض؛ ثم يزداد حرجه وتتخاذل حججه كلما رأى قلوبهم، تزخر بعواطفه، وصدورهم تجيش بأمانيه، وألسنتهم تضطرب بأخباره، ونهضتهم تسترشد بنهضته، ووجتههم تسير مع وجهته؛ فصحفه تُقرأ، وكتبه تدرس، وسياسته تحتذي وزعامته تتبع؛ ثم خصومته هي لهم خصومة، وحكومته هي عليهم حكومة، وقومه لقومهم أهل، وبلده لبلادهم قبلة حينئذ يقول لنفسه والخجل والعجب يتعاقبان على وجهه: إن وطني مترامي الحدود فلماذا أحده على الضيق؟ وقومي ضخام العديد فلماذاأحصرهم على القلة؟ وجيراني كرامُ يصفون المودة، ويصدقون العطف، ويولون المعونة، فلماذا أجعل بيني وبينهم سداً من الإهمال والغفلة؟ ن الأمم القوية الناضجة لَتُرخص الأموال والأنفس في التمكين لأدبها ونفوذها وعُروضها في الشرق، فكيف نعرض نحن عن ذلك وهو يأتينا عفواً عن طريق القرابة في البلد والنسب، والوحدة في اللغة والأدب، والمشابهة في الحظ والحالة؟

دع ما ترشد إليه الغريزة من تعاطف الأهل، وتناصر الضعاف، وتعاون الجيرة، وانظر في الأمر من جهة الفائدة: أليست سورية منفذ العراق إلى البحر المتمدن، والسودان طريق مصر إلى النهر المحيي؟؟ ومع ذلك فالعراق مصروف الهم عن سورية، ومصر قليلة العلم بالسودان، فلا تعرف عنه إلا أنه جزء من سياستها! أما أنه قطعة من جسمها، وكلمة من اسمها، فذلك ما لم تعلمه إلا بالسماع، ولم تفهمه إلا في المدرسة يزور الرسالة الحين بعد الحين أخ من السودان أديب أو طالب، فلا نسمعه يقول أول ما يقول إلا هذا المعنى الواحد في صيغه المتعددة: لأننا لنعلم عنكم كل شيء، وإنكم لتجهلون عنا كل شيء! فسياستكم لا تعرف السودان إلا في المفاوضات، وأدبكم يقف بالوادي عند (الشلالات). وصحافتكم لا تدري أفي الأرض نحن أم في السموات! فهل عُني سياسي بتعرف بلادنا، أم تفرغ أديب لتصوير حياتنا، أم توفر صحافي على درس أحوالنا؟ ولعمري إذا فرقتنا السياسة ولم يجمع شملنا الأدب، فعلى أي صورة نلتقي، وعلى أي حال نتحد؟

ذلك ما يشكوه السوداني المخلص، ويأسى على حدوثه المصري المخلص، وبين الأسى والشكوى ناشئة من الأمل المسفر، وعزيمة من العمل المثمر، تتجليان في العاملين الصادقين من شباب الوادي وكهوله. فالعمل الجليل الذي هُديَتْ إليه ووُفقتْ فيه (البعثة الاقتصادية المصرية) من الرحلة إلى السوادن، والاختلاط بأهله، والاتصال برجاله، والاطلاع على أحواله، والتحدث إلى حكامه، فاتحةُ فصل جديد من تاريخ النيل الحديث، سيسجل فيه رجال الأعمال والأموال تصافُقَ البلدين الشقيقين على المودة وتواصلهما على المنفعة، وتآلفهما على التعاون

فتحت هذه البعثة الميمونة أبواب السوادن الحصينة للنشاط الاقتصادي المصري، وهيأت الأسباب إلى اجتماع الأيدي التي يسقيها النيل ويطعمها النيل على استغلال خصبه في عمران أرضه، واستثمار خيره لسكان حوضه

فإذا أضفنا إلى ذلك عناية الأدب والصحافة بتوحيد الهوى والثقافة، ألفنا من أغاريد الوادي، أعاليه واسافله، نشيداً واحداً تردده الشفاه البيض والسمر، وتتجاوبه سلاسل الجبال الخالدة.

إن الاقتصاد والأدب يكونان الجسم والروح، فلا بد منهما أولا لإنشاء الأمة وإذكاء النهضة وإحكام الصلة؛ وما غزا الغربيون ممالك الشرق إلا بالتعليم والتجارة؛ أما السياسة فلا تأتي إلا آخر الأمر، فتؤيد الواقع، وتثبت الحالة، وتنظم العلاقة، وتحمي المنفعة.

من أجل ذلك كان احتفال المصريين بوداع (البعثة) المصرية ولقاءها، واحتفاء السودانيين بفكرتها وأعضائها. هزاتٍ من العواطف الصادقة والحماسة الدافقة والشعور الواثق المطمئن بأسفار المستقبل عن وجوه الفوز، فيتصل الحبل وينتظم الشمل وتقوم الوحدة بين الشعبين الأخوين على أساس صحيح.

إن من وراء حدودنا اليابسة يا قوم آداباً لا تقل عن آدابنا يحسن أن تُعرف، وشعوباً تتصل
بأنسابنا يجب أن تُؤلف، وأسواقاً تفتقر إلى إنتاجنا ينبغي أن تُكشف.
أما حَصْر النظر في حدود البحر فإدمان يفرق البصر، ويجمع الخطر، ويهجم بقوميتنا وأمانينا على الغرق!

أحمد حسن الزيات

الطفولتان

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

عصمت ابنُ فلان باشا طفلُ مُترف يكاد ينعصرُ ليناً، وتراه يرف رفيفاً مما نشأ في ظلال العز، كأن لروحه من الرقة مثل ظل الشجرة حول الشجرة. وهو بين لِداته من الصبيان كالشوكة الخضراء في أملودها الريان، لها منظر الشوكة على مجسة لينة ناعمة تُكذب أنها شوكةٌ إلا أن تيبس وتتوقح.

وأبوه (فلان باشا) مديرٌ لمديرية كذا، إذا سُئل عنه ابنه قال: إنه مدير المديرية. لا يكاد يعدو هذا الترتيب، كأنه من غُرور النعمة يأبى إلا أن يجعل أباه مديراً مرتين. . . .

وكثيراً ما تكون النعمة بذيئة وقاحاً سيئة الأدب في أولاد الأغنياء، وكثيراً ما يكون الغني في أهله غنىً من السيئات لا غير!

وفي رأي عصمت أن أباه من علو المنزلة كأنه على جناح النسر الطائر في مسبحه إلى النجم، أما آباه الأطفال من الناس فهم عنده من سقوط المنزلة على أجنحة للذباب والبعوض!

ولا يغدو ابنُ المدير إلى مدرسته ولا يتروحُ منها إلا وراءه جندي يمشي على أثره في الغدوة والروحة إذا كان ابن المدير، أي ابنَ القوة الحاكمة، فيكون هذا الجندي وراء هذا الطفل كالمنبهة له عند الناس، تُفْصحُ شارته العسكرية بلغات السافلة جمعاء أن هذا هو ابن المدير. فإذا رآه العربي أو اليواني، أو الطلياني أو الفرنسي، أو الإنجليزي أو كائن من كان من أهل الألسنة المتنافرة التي لا يفهم لسانٌ منها عن لسان - فهموا جميعاً من لغة هذه الشارة إن هذا هو ابن المدير؛ وانه من الجند الذي يتبعه كالمادة من القانون وراءها الشرح. . . .!

ولقد كان يجب لابن المدير هذا الشرفُ الصبياني. لو أنه يوم وُلِد لم يولد ابن ساعته كأطفال الناس، بل ولد ابن عشر سنين كاملة لتشهد له الطبيعة أنه كبيرٌ قد انصدعت به معجزة! وإلا فكيف يمشي الجندي من جنود الدولة وراء طفل فيتبعه ويخدمه وينصاع لأمره؛ وهذا الجندي لو كان طَريدَ هزيمةٍ قد فر في معركة من معارك الوطن، وأريد تخليده في هزيمته وتخليدها عليه بالتصوير - لما صور إلا جندياً في شارته العسكرية منقاداً لمثل
هذا الطفل الصغير كالخادم؛ في صورة يُكتب تحتها: (نُفَايَة عسكرية!)

ليس لهذا النظر الكثير حدوثه في مصر إلا تأويلٌ واحد: هو أن مكان الشخصيات فوق المعاني وان صغرت تلك وجلت هذه؛ ومن هنا يكذبُ الرجل ذو المنصب، فيرفع شخصه فوق الفضائل كلها؛ فيكبر عن أن يكذب، فيكون كذبه هو الصدق، فلا ينكر عليه كذبة أي صدقة. . . . .! ويخرج من ذلك أن يتقرر في الأمة أن كذب القوة صدق بالقوة!

وعلى هذه القاعدة يقاس غيرها من كل ما يخذل فيه الحق. ومتى كانت الشخصيات فوق المعاني السامية طفقت هذه المعاني تموجُ مَوجها محاولةً أن تعلو، مكرهة على أن تنزل؛ فلا تستقيم على جهةٍ ولا تنتظمُ على طريقة؛ وتقبل بالشيء على موضعه، ثم تكرُّ كرها فتدبرُ به إلى غير موضعه، فتضُّل كل طبقةٍ من الأمة بكبرائها، ولا تكون الأمة على هذه الحالة في كل طبقاتها إلا صغاراً فوقهم كبارهم؛ وتلك هي تهيئةُ الأمة للاستعباد متى ابتليت بالذي هو أكبر من كبارها؛ ومن تلك تنشأ في الأمة طبيعةُ النفاق يحتمي به الصغر من الكبر، وتنظم به ألفةُ الحياة بين الذلة والصولة!

وتخلف الجندي ذات يوم عن موعد الرواح من المدرسة، فخرج عصمت فلم يجده، فبدا له أن يتسكع في بعض طرق المدينة لينطلق فيه ابن آدم لا ابن المدير، وحن حنينه إلى المغامرة في الطبيعة، ولبست الطرق في خياله الصغير زينتها الشعرية بأطفال الأزقة يلعبون ويتهوشون ويتعابثون ويتشاحنون، وهم شتى وكأنهم أبناء بيتٍ

واحد مست بكل من كل رحمٌ، إذ لا ينتسبون في اللهو إلا إلى الطفولة وحدها وانساق عصمت وراء خياله، وهرب على وجهه من تلك الصورة التي يمشي فيها الجندي وراء ابن المدير، وتغلغل في الأزقة لا يبالي ما يعرفه وما لا يعرفه، إذ كان يسير في طرقٍ جديدة على عينه كأنما يحلم بها في مدينةٍ من مدن النوم وانتهى إلى كبكبةٍ من الأطفال قد استجمعوا لشأنهم الصبياني، فانتبذ ناحية ووقف يصغي إليهم متهيباً أن يقدم، فاتصل بسمعه ونظره كالجبان، وتسمع فإذا خبيث منهم يعلم الآخر كيف يضرب إذا اعتدى أو أعتُدي عليه، فيقول له: اضرب أينما ضربت، من رأهس، من وجهه، من الحُلقوم، من مراق البطن؛ قال الآخر: وإذا مات؟ فقال الخبيث: وإذا مات فلا تقُل إني أنا علمتُك. . .!

وسمع طفلاً بقول لصاحبه: أما قلت لك إنه تعلم السرقة من رؤيته اللصوص في السيما؟ فأجابه صاحبه: وهل قال له أولئك اللصوص الذين في السيما كن لصاً واعمل مثلنا؟

وقام منهم شيطان فقال: يا أولاد البلد، أنا المدير! تعالوا وقولوا لي (يا سعادة الباشا، إن أولادنا يريدون الذهاب إلى المدارس، ولكنا لا نستطيع أن ندفع لهم المصروفات. .)

فقال الأولاد في صوت واحد: (يا سعادة الباشا، إن أولادنا يريدون الذهاب إلى المدارس، ولكنا لا نستطيع أن ندفع لهم المصروفات) فرد عليهم (سعادته): اشتروا لأولادكم أحذية وطرابيش وثياباً نظيفة، وأنا أدفع لهم المصروفات

فنظر إليه خبيث منهم وقال: يا سعادة المدير، وأنت فلماذا لم يشتر لك أبوك حذاء. .؟ وقال طفل صغير: أنا ابنك يا سعادة المدير، فأرسلني إلى المدرسة وقت الظهر فقط. . . .!

وكان عصمت يسمع ونفسه تهتز وترف بإحساسها كالورقة الخضراء عليها طل الندى، وأخذ قلبه يتفتح في شعاع الكلام كالزهرة في الشمس؛ وسكر بما يكسر به الأطفال حين تقدم لهم الطبيعة مكان اللهو معداً مُهيأ كالحانة ليس فيها إلا أسباب السكر والنشوة، وتمام لذاتها أن الزمن فيها منسي، وأن العقل فيها مُهمل. . .

وأحسن ابن المدير أن هذه الطبيعة حين ينطلق فيها جماعة الأطفال على سجيتهم وسجيتها - إنما هي المدرسة التي لا جُدران لها، وهي تربيةُ الوجود للطفل تربية تتناوله من أدق أعصابه فتبدد قواه ثم تجمعها له أقوى ما كانت، وتفرغه منها ثم تملؤه بما هو أتم وأزيد. وبذلك تكسبه نمونشاطه، وتعلمه كيف ينبعث لتحقيق هذا النشاط، فتهديه إلى أن يبدع بنفسه ولا ينتظر من يبدع له، وتجعلُ خطاه دائماً وراء أشياء جديدة فتسدده من هذا كله إلى سر الإبداع والابتكار، وتلقيه العلم الأعظم في هذه الحياة، علم نضرة نفسه وسرورها ومرحها، وتطبعه على المزاج المتطلق المتهلهل المتفائل، وتتدفق به على دنياه كالفيضان في النهر، تفور الحياة فيه وتفور به، لا كأطفال المدارس الخامدين، تعرف للواحد منهم شكل الطفل وليس له وجوده ولا عالمه، فيكون المسكين في الحياة ولا يجدها، ثم تراه طفلاً صغيراً وقد جمعوا له همومَ رجل كامل!

ودبت روحٌ الأرض دبيبها في عصمت، وأوحت إلى قلبه بأسرارها، فأدرك من شعوره أن هؤلاء الأغمار الأغبياءَ من أولاد الفقراء والمساكين، هم السعداءُ بطفولتهم. وأنه هو وأمثاله هم الفقراءُ والمساكين في الطفولة، وأن ذلك الجندي الذي يمشي وراءه لتعظيمه إنما هو سجن، وأن الألعاب خير من العلوم، إذ كانت هي طفلية الطفل في وقتها، أما العلوم فرُجولةٌ مُلزقةٌ به قبل وقتها توقره وتحوله عن طباعه، فتقتل فيه الطفولة وتهدم أساسَ الرجولةَ، فينشأ بين ذلك لا إلى هذه ولا إلى هذه، ويكون في الأول طفلاً رجلاً، ثم يكون في الآخر رجلاً طفلاً.

وأحس مما رأى وسمع أن مدرسة الطفل يجب أن تكون هي بيته الواسعَ الذي لا يتحرجُ أن يصرخ فيه صراخه الطبيعي، ويتحرك حركته الطبيعة، ولا يكون فيه مدرسون ولا طلبة، ولا حاملو العُصي من الضباط؛ بل حق البيت الواسع أن تكون فيه الأبوة الواسعة، والأخوة التي تنفسح للمئات؛ فيمر الطفل المتعلم في نشأته من منزل إلى منزل إلى منزل، على تدريج في التوسع شيئاً فشيئاً، من البيت إلى المدرسة إلى العالم

وكان عصمت يحلم بهذه الأحلام الفلسفية، وطفولته تشب وتسترجل، ورخاوته تشتد

وتتماسك؛ وكانت حركاتُ الأطفال كأنها تحركه من داخله، فهو منهم كالطفل في السيما حين يشهد المتلاكمين والمتصارعين، يَستطيرُه الفرحُ، ويتوثب فيه الطفل الطبيعي بمرحه وعنفوانه، وتتقلص عضلاته، ويتكشف جلده، وتجتمع قوته؛ حتى كأنه سيُظاهر أحدَ الخصمين ويلكم الآخر فيكوره ويصرعه، ويفض معركة الضرب الحديدي بضربته اللينة الحريرية. . .!

فما لبث صاحبنا الغريرُ الناعمُ أن تخشن، وما كذب أن اقتحم، وكأنما أقبل على روحه الشارعُ والأطفال ولهوهم وعبثهم، إقبال الجو على الطير الحبيس المعلق في مسمار، إذا انفرج عنه القفص، وإقبال الغابة على الوحش القنيص إذا وثب وثبة الحياة فطار بها وإقبال الفلاة على الظبي الأسير إذا ناوصَ فأفلتَ من الحبالة

وتقدم فادغم في الجماعة وقال لهم: أنا ابن المدير. فنظروا إليه جميعاً ثم نظر بعضهم إلى بعض، وسفرت أفكارهم الصغيرة بين أعينهم، وقال منهم قائل: إن حذاءه وثيابه وطربوشه كلها تقول أن أباه المدير

فقال آخر: ووجهه يقول إن أمه امرأة المدير!

فقال الثالث: ليست كأمك يا بعطيطي ولا كأم جُعْلُص!

قال الرابع: يا ويلك لو سمعُ جعلص، فان لكماته حينئذ لا تترك أمك تعرف وجهك من القفا!

قال الخامس: ومن جعلص هذا؟ فليأت لأريكم كيف أصارعه، فاجتذبه، فاعصره بين يدي، فأعتقل رجله برجي، فأدفعه، فيتخاذل، فأعركه، فيخرُّ على وجهه؛ فأسمره في الأرض بمسمار!

فقال السادس: ها ها! إنك تصف بأدق الوصف ما يفعله جعلص لو تناولك في يده. . .!

فصاح السابع: ويلكم! هاهو ذا. جعلص، جعلص، جعلص!

فتطاير الباقون يميناً وشمالاً كالورق الجاف تحت الشجر إذا ضربته الريح العاصف. وقهقه الصبي من ورائهم فثابوا إلى أنفسهم وتراجعوا. وقال المستطيل منهم: أما إني كنت أريد أن يعدو جعلص ورائي، فأستطردُ إليه قليلاً أطمعه في نفسي، ثم أرتد عليه فآخذه كم فعل (ماشيست الجبار) في ذلك المنظر الذي شاهدناه

وقهقه الصبيان جميعاً. . . .! ثم أحاطوا بعصمت إحاطة العشاق بمعشوقة جميلة، يحاول كل منهم أن يكون المقرب المخصوص بالحظوة، لا من أجل أنه ابن المدير فحسب، ولكن من أجل أن ابن المدير تكون معه القروش. . . فلو وُجدت هذه القروش مع ابن زبال لما منعه نسبه أن يكون أمير الساعة بينهم إلى أن تنفذ قروشه فيعود ابن زبال. . .!

وتنافسوا في عصمت وملاعبته والاختصاص به، فلو جاء المدير نفسه يلعب مع أبائهم ويركبهم ويركبونه، وهم بين نجار وحداد، وبناء وحمال، وحوذي وطباخ، وأمثالهم من ذوي المهنة والمكسبة الضيئلة - لكانت مطامع هؤلاء الأطفال في ابن المدير، أكبر من مطامع الآباء في المدير.

وجرت المنافسة بينهم مجراها، فانقلبت إلى مُلاحاة، ورجعت هذه الملاحاة إلى مشاحنة، وعاد ابن المدير هدفاً للجميع يدافعون عنه وكأنما يعتدون عليه، إذ لا يقصد أحدٌ منهم أحدا بالغيظ إلا تعمدَ غيظ حبيبه ليكون أنكأ له وأشد عليه!

وتظاهروا بعضهم على بعض، ونشأت بينهم الطوائل، وأفسدهم هذا الغني المتمثل بينهم، ويا ما أعجب إدراك الطفولة وإلهامها! فقد اجتمعت نفوسهم على رأي واحد. فتحولوا جميعاً إلى سفاهة واحدة أحاطت بابن المدير، فخاطره أحدهم في اللعب فقمره، فأبى إلا أن يعلوَ

ظهره ويركبه؛ وأبى عليه ابن المدير ودافعه، يرى ذلك ثلماً في شرفه ونسبه وسطوة أبيه؛ فلم يكد يعتلُ بهذه العلة ويذكر أباه ليعرفهم آباءهم. . . . حتى هاجت كبرياؤهم، وثارت دفائنهم، ورقصت شياطين رءوسهم؛ وبذلك وضع الغبي حقد الفقر بازاءُ سخرية الغني؛ فألقى بينهم مسئلة المسائل الكبرى في هذا العالم، وطرحها للحل. . . . . .!

وتنفشوا للصولة عليه، فسخر منه أحدهم، ثم هزأ به الآخر، وأخرج الثالثُ لسانه؛ وصدمه الرابع بمنكبه؛ وأفحش عليه الخامس؛ ولكزه السادس؛ وحثا السابع في وجهه التراب!

وجهد المسكين أن يفر من بينهم فكأنما أحاطوه بسبعة جدران فبطل إقدامه وإحجامه،

ووقف بينهم كما كتب الله. . .! ثم أخذته أيديهم فانجدل على الأرض، فتجاذبوه يمرغونه في التراب!
وهم كذلك إذا انقلب كبيرهم على وجهه، وانكفأ الذي يليه، وأزيح الثالث، ولُطمَ الرابع، فنظروا، فصاحوا جميعاً: (جُعْلُص، جعلص!) وتواثبوا يشتدون هرباً. وقام عصمت ينتخلُ التراب من ثيابه وهو يبكي بدمعه وثيابه تبكي بترابها. . .!
ووقف ينظر هذا الذي كشفهم عنه وشردتهم صولته، فإذا جعلص وعليه رجفانٌ من الغضب، وقد تبرطمت شفته وتقبض وجهُه كما يكون (ماشيست) في معاركه حين يدفع عن الضعفاء.
وهو طفل في العاشرة من لِدات عصمت، غير أنه مُحتنكٌ في سن رجل صغير؛ غليظٌ عَبلٌ شديدُ الجبلة متراكبٌ بعضه على بعض، كأنه جني متقاصر يهم أن يطولَ منه المارد. فأنس به عصمت، واطمأن إلى قوته، وأقبل يشكو له ويبكي!
قال جعلص: ما اسمك؟
قال: أنا ابن المدير. . . .!
قال جعلص: لا تبك يا ابن المدير. تعلم أن تكون جلداً، فإن الضرب ليس بذلٍ ولا عار، ولكن الدموع هي تجعله ذلاً وعاراً؛ إن الدموع لتجعل الرجل أنثى. نحن يا ابن المدير نعيش طول حياتنا إما في ضرب الفقر أو ضرب الناس، هذا من هذا؛ ولكنك غنيٌ يا ابن المدير، فأنت كالرغيف (الفينو) ضخمٌ مُنتفخٌ ولكنه ينكسر بلمسه، وحشوهُ مثل القطن!
ماذا نتعلم في المدرسة يا ابن المدير إذا لم تعلمك المدرسة أن تكون رجلاً يأكل من يريدُ أكله؛ وماذا تعرف إذا لم تكن تعرف كيف تصبر على الشر يوم الشر، وكيف تصبر للخير يوم الخير، فتكون دائماً على الحالتين في خير؟
قال عصمت: آه لو كان معي العسكري!
قال جعلص: ويحك؛ لو ضربوا عنزاً لما قالت: آه لو كان معي العسكري!
قال عصمت: فمن أين لك هذه القوة؟
قال جعلص: من أني أعتملُ بيدي فأنا أشتد، وإذا جعتُ أكلت طعامي؛ أما أنت فتسترخي، فإذا جعت أكلك طعامك، ثم من أني ليس لي عسكري. . .!
قال عصمت: بل القوةُ من أنك لستَ مثلنا في المدرسة؟ قال جعلص: نعم، فأنت يا ابن المدرسة كأنك طفلٌ من ورق وكراسات لا من لحم، وكأن عظامك من طباشيرّ أنت يا ابن المدرسة هو أنتَ الذي سيكون بعد عشرين سنة، ولا يعلم إلا الله كيف يكون؛ وأما أنا ابن الحياة، فأنا من الآن، وعلي أن أكون (أنا) من الآن!
أنتَ. . .
وهنا أدركهما العسكري المسخر لابن المدير، وكان كالمجنون يطير على وجهه في الطرق يبحث عن عصمت، لا حباً فيه ولكن خوفاً من أبيه. فما كاد يرى هذا العفر على أثوابه حتى رنت صفعته على وجه المسكين جعلص
فصعر هذا خده، ورشق عصمت بنظره، وانطلق يعدو عدو الظليم!
يا للعدالة! كانت الصفعةُ على وجه ابن الفقير، وكان الباكي منها ابن الغني. . .!
وأنتم أيها الفقراء، حسبكم البطولة؛ فليس غَنى بطل الحرب في المال والنعيم، ولكن بالجراح والمشقات في جسمه وتاريخه؟
طنطا
مصطفى صادق الرافعي
السر الموزع
للآنسة النابغة (مي)
وسط الهرج الذي يحدثُ عادةً عند انفضاض مجلسٍ من المجالس تناثر الزائرون في الردهة يهمون بالانصراف مودعين أهل الدار وشاكرين لهم حفاوتهم، متبادلين مع هؤلاء وأولئك التحية والمصافحة، متواعدين فيما بينهم على الاجتماع في فرصةٍ قريبة أما ذلك الفتى فمضي يتسلل خلسةً، هرباً من كل شخصٍ خطر وللتملص منهم جميعاً: (والشخص الخطر) في تلك الحال هو أي شخص قد يشتبك معهُ في حديث ويصحبهُ إلى الخارج، إنه يحتاج إلى الوحدة لا يعكر عليه صفاءها أحد، لأنه في تلك الحالة

النفسية التي تبدو فيها الحياةُ طريفةً وتبدوا فيها الخليقةُ وكأنها خرجت الساعة من يدِ الباري غضةً جديدة

خرج إلى الرصيف وجال نظرهُ يبحثُ بين الناس والسيارات فاستقرت عيناه على خمس فتيات من اللائي حضرن الاجتماع، وقد أحطن بسيارة كبيرة أخذن يتوارين في داخلها الواحدة بعد الأخرى، فكانت الأخيرة في التواري صاحبة الثوب ذي الزرقة (الكهربائية). فجهد الفتى ليرى منها جميع حركاتها فرأى فيما رأى أنها التفتت إلى الوراء، شأن من يبحث عن شيءٍ أو شخص. وسرعان ما لمحتْ رأسه والتفت عيناها بعينه عن بعد. فأدركت أن نظره يتبعها ويرقبها، وأدرك هو أنها تأخرت والتفتت لتبحث عنه. فما إن تلاقي نظراهما وفاجأهما ذلك الإدراك حتى أعرض كلٌ منهما على عجل كأنما هو يخجل بانكشاف أمره. وعندما تحركت السيارة مندفعة إلى الأمام أرسل الفتى نظره يشيعها في حرية واطمئنان

- هأنذا! انتظرني أم تبحث عني؟

لقد وقع ما كان يخشاه، ولحق به زميل لم يكن ليتحاشى مصاحبته أو ينفر من حديثه عادة. ولكن الآن. . .

- هيا بنا إلى جروبي!

فتلكأ الشاب قليلاً وقال: - إني على موعد

- أي موعد؟ ألم نتفق عندما جئنا هذه الدار على موافاة أصحابنا عند جروبي بعد الخروج

من هنا؟

- آه. . . نسيت!

- أنسيت الموعد أم نسيت اتفاقنا؟

- نسيت الموعد. . .

- نسيت الموعد فلم تذكره إلا على الرصيف. . . إذا أوصلك بسيارتي إلى المكان الذي تقصد إليه، ثم أسبقك إلى جروبي حيث توافينا بعدئذٍ

رأى الفتى أن لا مفر من المقدور , ولو نجح في التفلت من صاحبه هذا فليس مضموناً أن يتفلت من غيره في مكان آخر.

فتراخت عزيمته واستسلم:

- الواقع أن الموعد اختياري يمكن تأجيله. هيا إلى جروبي

أما الفتيات الخمس فقد سارت بهن السيارة إلى ناحية الجزيرة وهن يتحدثن جميعاً في آن واحد وليس بينهن من تصغي. وعلامَ الإصغاء؟ المهم هو الكلام. وقد سرت الفتيات بتلاقيهن في هذا الاجتماع، وسررن باتفاق والدتهن بعده على الهاب معاً لتأدية فروض التعزية في بعض البيوت، فاتفقن فيما بينهن على ركوب سيارة إحداهن التي تعهدت بأن (توزع) صاحباتها على بيوتهن مجاناً لوجه الله الكريم وبدون (أكسيدان). وثم فرصة مواتية لتبادل الآراء وإبداء الملاحظات على حفلة الاستقبال وعلى الذين حضروها، إذا تيسر شيء من ذلك عند ما يأبين جميعاً احتمال فريضة السكوت. . . بيد أنهن سكتن فجأة عندما أنشأت إحداهن تنتقد هندام السيدات وتبرجهن وذوقهن وجمالهن. هذا حديث لذيذ حقاً، يوافقن عليه ويؤيدنه وإن كن في قلوبهن مقتنعات بعكس ما يقال. وإذ توغل النقد فأمسى لاذعاً، طربن طرباً ورنت ضحكاتهن بريئة، في نظرهن على الأقل. ونادت إحداهن صاحبة الثوب الأزرق قائلة: ألا تشاركينا في الضحك؟ ألا تسمعين؟

- أنا اتخذت لي محلاً مختاراً قرب (الشوفير) ولذلك أصبحتُ مسؤولة عن سلامتكن، وعلى أن أظل هادئة لئلا يحدث لنا (أكسيدان)

- بعد الشر! إذا تحتم (الأكسيدان) فليكن بعد وصولي إلى البيت سالمة. وها قد وصلنا والحمد لله! فتستطيعين الآن أن تستبدلي بمكانك مكاني داخل السيارة

وبعد وقوف السيرة ونزول الفتاة التي كانت تتكلم، حدثت مناقشةٌ لإقناع جارة السواق بتغيير مكانها ,. فأبت مؤكدة أنها هنا على ما يرام، وأنها تريد حراستهن إلى النهاية. واستأنفت السيارةُ السير والفتيات يضحكن من جارة السواق لأنها (كونسرفاتريس) وينصحن لها بأن تلبس العمامة للاندماج في هيئة كبار العلماء في الأزهر

كانت صاحبة الثوب الأزرق تسمع لغوهن ولا تعي معناه. إنها بعيدة عنهن وعن العالم

بما فيه ومن فيه، بعيدة عن النيل الذي يجري تحتها، عن سحر الجزيرة المنتشر حواليها، عن جمال الغروب وقد تمازج فيه انهزام النور واقتحام الظلام. لقد حدث في ذلك الاجتماع شيء مدهش قلب الدنيا رأساً على عقب. وهو بعدُ شيء بسيط يكاد يكون عادياً، وكأنها تنتظره على غير معرفة منها
اتفق أن فتى كان على مقربةٍ منها في ذلك الصالون، فصنع لها مثل ما صنع لغيرها، ومثل ما يصنع كل رجل له ولو بعض الإلمام بآداب الاجتماع. كانت فتاةُ الدار تبذلُ جهدها مع معاونيها ومعاوناتها لإرضاء الضيوف وقد تعبت كثيراً في القيام بمهمتها. فسارع ذلك الفتى إلى مساعدتها فجر أمام صاحبة الثوب الأزرق طاولة صغيرة وضع عليها قدح الشاي وجال يقدم ما يصحب الشاي من قطع الحلوى الصغيرة الجافة.
فتناولت صاحبةُ الثوب الأزرق قطعةً ورفعت ببصرها إليه في ابتسام، وقالت: (مرسي). وكان عليها أن ترد بنظرها في الحال إلى جارتها التي كانت تتحدث حديثاً طويلاً. ولكنها لم ترد نظرها ولم تخفضه. لأن نظره سار رسولاً إلى أعماق عينها، إلى أعماق جوانحها، إلى أعماق كيانها، فاهتدى هناك إلى شيء كان يلبه، ولم تدر هي ماهيته. وكان وجهه جاداً ونظره جاداً، شأن الرجل عندما ينبه إلى أمرٍ هام فجمدت الابتسامة على شفتيها، وكأن السر الذي وجده فيها يسأل السر الذي بعث به نظره: (ماذا؟) فخيل إليها أن سره يجيب: (أردت أن أنبهك فقط. . . لأنك نبهتني وأنتِ لا تعلمين)
لحظة لا غير، لحظة لم ينتبه إليها أحدُ من المحيطين بها، ولكنها كانت طويلةً مليئة كالدهور. وتكررت تلك اللحظة عندما التفتت في الشارع فلمحته يشيعها، وشعرت بالسر مقبلاً من نظره البعيد، يتوغل في كيانها من جيد. وفي هذا المساء الجميل المتهادي في
رفق على هذه الشواطئ الفتانة، هي لا تعي شيئاً ولا ترى أحداً. الوجود كله تلخص في ذلك النظر وفي السر الذي يحتويه. على صفحة الماء المائجة نظرٌ مليء بالسر. في الفضاء حولها نظر مليء بالسر. في الغصون المتشابكة نظرُ مليء بالسر. في الأبعاد المترامية، في ألوان الشفق، في هبوب النسيم، وبخاصة في صميم كيانها نظرٌ مليء بالسر يهمس: أردت أن أنبهك. . . .
- ألهُ مثل هذا النظر مع سائر النساء؟
هرولت السيارةُ في شارع الجيزة ولوت متحولة إلى ناحية الروضة لتعود إلى المدينة من شارع القصر العيني. وطول الطريق على صفحة الماء، في امتداد السبل، في رؤوس الأشجار، في المركبات والسيارات، في أشباح السابلة، في واجهات المخازن، في مصابيح الشوراع، في كل مكان لم يكن هناك إلا ذلك النظر الواحد وسره المكنون
- أهذه طريقته في النظر إلى النساء؟
ووقفت السيارة فنزلت صاحبة الثوب الأزرق مودعة صويحباتها، وكأنها تتكلم وتتحرك مرغمةً. ودخلت مخدعها، فإذا بالنظر ينتظرها هناك، مع أنها لم تتخيل وجوده عندما غادرت هذا المكان قبل ثلاث ساعات
دنت من مرآتها تتعرف فيها هيئتها فرسمت لمها المرآةُ وجههُ لا وجهها، وأقبل النظر يتسرب إلى كيانها مع سره. فتأملتهُ ملياً وسألت:
- ألك مثل هذه النظرة مع غيري؟
فلم تسمع لا من النظر ولا من نفسها الجواب
أطالت التحديق في المرآة، وقالت تخاطبهُ: - أين أنت الآن؟ كيف تجري حياتك؟ كيف تجري حياتك كل يوم؟ ماذا أنت صانع بنظرك في هذه الدقيقة؟
في تلك الدقيقة كان الفتى بين أصحابه عند جروبي، وقد رفع كأس الوسكي إلى شفتيه ناظراً بعينين ناعستين إلى الغادة الجالسة قربهُ في ثوب عاجي، وقائلاً ببطء:
- أشربُ (سركِ)
(مي)
الدعوة الفاطمية السرية
ضوء على موضوعها وغاياتها
للأستاذ محمد عبد الله عنان
تتمة

هذه خلاصة موجزة لتلك الدعوة الإلحادية الغريبة التي اضطلع بها لحساب الحاكم بأمر الله ذلك الداعية المغامر حمزة بن علي، ومما يلفت النظر بنوع خاص أن حمزة بن علي لم يفته خلال شرح مذهبه أن يدافع عن شذوذ الحاكم بأمر الله وتصرفاته المتناقضة، وأن يحاول أن يفسرها بما يلائم دعوته ويدعمها، أجل، لقد كان في تصرفات هذا الذهن الهائم المضطرب ما يبعث على التأمل، وما يجب أن يحمل لا على الشذوذ والتخريف، ولكن على الحكمة والسمو إلى ما لا يرتفع الذهن العادي إلى فهمه وتعليل بواطنه، هكذا يقدم إلينا حمزة تصرفات مولاه الحاكم؛ فإذا كان الحاكم قد ترك الصلاة والنحر، وإذا كان قد أبطل صلاة العيد وصلاة الجمعة بالأزهر، واسقط الزكاة عن الناس، فمعناه تحليل ذلك للكافة، وإذا كان الحكام يتبع أحياناً سياسة الاضطهاد بالنسبة للنصارى واليهود، فذلك لأنه يريد أن يهلك المرتدين والمارقين، ومن بقي منهم يؤدون الجزية، وهم اليهود، ويجب عليهم وعلى النصارى المرتدين من التوحيد، وهم المنافقون أن يلبسوا أزياء خاصة، وأن يعلقوا في صدورهم وآذانهم أثقالاً خاصة من الرصاص؛ وإذا كان الحاكم يؤثر التقشف في مأكله وملبسه وركوبه، فيركب الحمير مجردة عن الديباج والحلي الذهبية، فذلك لحكمة باطنة يؤولها الداعي بآيات من القرآن، ويفسرها بدلائل رمزية غريبة، وإذا كان الحاكم يخرج من سرداب القصر إلى البستان، وإذا كان يرتاد بستان المقس وغيره من بساتين القاهرة ويطوف أحياناً في المدينة، فذا أيضاً لحكم باطنة لا تدركها الكافة؛ وما يرتكبه أهل الفساد بجوار البساتين التي يرتادها من المنكر والفحشاء، إنما يرتكب في طاعته، وما يرتكبه الحاكم من ضروب البطش والسفك إنه مظهر لسطوة الحاكم (الإلهية) فهو يفتك بأكابر الدولة دون خوف ولا حرج كما فعل مع حاجبه برجوان وزيره ابن عمار ومع غيرهما من الأكابر والزعماء؛ ثم هو يخرج بالليل دون ركب ودون سلاح، لا يخشى نقمة أو أعتداء، ويخمد كل ثورة تشهر عليه، وكثيراً ما ينفرد بنفسه في جب الصحراء دون خوف من أحد من عسكره أو بطانته، وتلك أعمال وصفات ليست للبشر!

هكذا يفسر الداعي لنا أعمال الحاكم وتصرفاته المثيرة المدهشة؛ وما اعتبره المعاصرون شذوذاً وإسرافاً وجنوناً، وما يسمه التاريخ بميسم التناقض والتخريف والاغراق، إنما هو في زعم الداعي السمو فوق مدارك البشر، والتحلي بصفات ليست للبشر؛ ومهما يكن في ذلك التفسير من غلو وتحريف، فهو محاولة ذكية جريئة لتبرير ما لم تبرره الشرائع والمجتمع، وما لم يبرره التاريخ

ولا يقف حمزة بن علي عند الدعوة لسيده ومولاه، بل يدعو لنفسه أيضاً؛ فإذا كان الحاكم هو (الإله)، فان الداعي هو رسوله ونبيه؛ وعلى هذا فان حمزة الذي يصف نفسه في معظم رسائله بهادي المستجيبين، ينتحل النبوة لنفسه صراحة، ويزعم أن هذه النبوة قد تأيدت بالمعجزات التي أسبغها مولاه الحاكم عليه؛ ألم يشتبك عشرون من رجاله مع مائتين من عسكر خصومه، فلا يقتل من أصحابه سوى ثلاثة وينهزم الخصوم؟ ألم تنشب موقعه أخرى في المسجد بين قلة من أنصاره وكثرة من خصومه فينتصر الصحب دائماً؟ فهذه أعمال تخرج عن قدرة البشر، وهي من معجزات الداعي!

ويبدو من التواريخ التي يذيل بها الداعي رسائله أنها كتبت بين صفر سنة 408هـ، وأواخر سنة 409هـ. وكما أن الداعي يصف لنا سنة 408هـ بأنها هي أول سني قائم الزمان (الحاكم)، فهو يصفها أيضاً بأنها أول سني (ظهور عيد مولانا ومملوكه هادي المستجيبين) ومعنى ذلك أن حمزة بن علي بدأ القيام بدعوته في أوائل سنة 408هـ؛ ونستدل أيضاً من تعاقب التواريخ في هذه الرسائل الثمانية أنها تكون وحدة متصلة قائمة بذاتها؛ وهذه الرسالة هي متن الدعوة وهي ذروتها؛ وقد أستمر حمزة في تنظيم دعوته وبثها تحت رعاية الحاكم وإشرافه حسبما ينوه في بعض رسائله؛ ولكن الحاكم زهق غيلة في شوال سنة 411هـ فماذا حدث لتلك الدعوة بعد ذهابه؟ لقد كان اختفاء الحاكم بتلك الصورة الفجائية الغامضة مستقى جديداً للدعاة، فزغم بعضهم أنه اختفى ليظهر في عصر آخر، أو أنه رفع إلى السماء، وأن في هذا الاختفاء ذاته ما يؤيد الزعم بألوهيته وقد استمرت هذه الدعوة الإلحادية بعد مصرع الحاكم عصراً آخر، وإن كانت قد اتخذت سبلاً

ومواطن أخرى، وأمامنا مجموعة أخرى من تلك الرسائل الإلحادية هي التي أشرنا إليها فيما تقدم؛ ويبدو من موضوعها وأسلوبها وألفاظها أنها من تأليف حمزة بن علي ذاته؛

وقد ذيلت بتواريخ وضعها - في جمادى الآخرة من سني ولي الحق العاشرة، وفي صفر سنة إحدى عشرة من سني قائم الزمان، وفي السنة الرابعة عشرة من سني قائم الزمان. . . . الخ؛ وعهد قائم الزمان يبتدئ كما تقدم في سنة 408هـ، وعلى ذلك تكون هذه الرسائل قد كتبت بين سنة 418 وسنة 422هـ، ويكون حمزة بن علي قد استمر قائماً بدعوته الإلحادية إلى هذا التاريخ أو بعده بقليل؛ ولم تنته الدعوة بمصرع الحاكم بأمر الله، ولكنها استمرت تغذيها قوى وعناصر أخرى

ولقد كانت هذه الدعوة الإلحادية بلا ريب جزءاً من الدعوة الفاطمية السرية، ولكنها اتخذت في عصر الحاكم بأمر الله صورة خاصة، وانحرفت عن غايتها العامة لتعمل على تحقيق غاية خاصة. وقد نقل إلينا المقريزي بياناً شافياً عن هذه الدعوة السرية الشهيرة ومراتبها التسع، وهي في مجموعها فكرة إلحادية فلسفية نظمت في مراتب متعاقبة للعمل على هدم العقيدة الإسلامية بصفة خاصة والعقيدة الدينية بصفة عامة، واستبدالها بفكرة فلسفية ترتفع فوق إفهام الكافة. بيد أن هذه الدعوة الإلحادية العامة تنحرف في عصر الحاكم لتعمل على تحقيق فكرة خاصة هي (ألوهية) قائم الزمان أعني الحاكم بأمر الله، وهي مع ذلك تجري مجراها العام في مجالس الحكمة بالقصر ودار الحكمة. وإنها لصفحة من أغرب صحف الثورة على الإسلام؛ بيد أنها كانت ثورة سرية تقصد إلى غزو العقول والأفهام، ولم تكن فورة عنيفة تسحق كل شيء في طريقها بالقوة المادية كما كانت قوة القرامطة، وهذه الرسائل الكلامية الغريبة التي يتركها لنا الداعي تلقي ضياء على كثير من التفاصيل الخاصة التي كانت ترتبط بالدعوة السرية الفاطمية، وبفتن الدعاة في سكبها وتنظيمها.

ولقد نظمت الدعوة الفاطمية قبل عصر الحاكم بأمر اله بكثير؛ ومنذ عصر المعز لدين الله وولده العزيز تعقد مجالس الحكمة؛ ولكنها كانت عندئذ علنية، وكانت فقهية تجري المحاضرة فيها في فقه آل البيت ومبادئ الشيعة؛ وكانت الخلافة الفاطمية يومئذ تتشح بشعار الإمامة الإسلامية على أنها من حق الفاطميين وتراثهم الخالص، وعلى أنها عنوان الزعامة الشرعية من الوجهتين السياسية والدينية، ولكن هذه الدعوة الدينية السياسية ما

لبثت أن تطورت بسرعة، واتخذت صبغتها الإلحادية المغرقة في عصر الحاكم بأمر الله. ومن الغريب أن يكون الحاكم، ذلك الذهن الهائم المضطرب، هو القائم بأعظم دور في تغذية هذه الحركة وبثها، وهو المنشئ لدار الحكمة التي لبثت مبعثها وملاذها عصراً، بيد أن هذا الإغراق ذاته كان ضربة شديدة للدعوة الفاطمية، لأنه جعلها وقفاً على رهط من الدعاة المغامرين الخبثاء، وباعد بينها وبين الكافة، وأسبل عليها ألواناً خطرة من الزيغ والإلحاد، ولهذا فقدت الدعوة الفاطمية غير بعيد قوتها وأهميتها وإن كانت مجالس الحكمة قد استمرت بعد ذلك حتى أوائل القرن السادس

ونلاحظ من جهة أخرى أن معظم أولئك الدعاة الذين اضطلعوا ببث هذه المباديء والتعاليم الإلحادية في مصر لم يكونوا من المصريين، وإنما كانوا من الأجانب الذين اجتذبتهم الخلافة الفاطمية ببهائها ومشاريعها السرية. وقد ذكر لنا حمزة بن علي أسماء بعض أقطاب الدعاة مثل علي بن عبد الله اللوائي، ومبارك ابن علي، وأبو منصور البردعي، وأبو جعفر الحبال، هذا عدا الأخرم ومحمد بن إسماعيل الدرزي السابق ذكرهما؛ ولم يحسن المصريون استقبال هؤلاء الدعاة الخطرين، بل قاوموهم، وفتكوا بهم في أحيان كثيرة، أو اضطروهم إلى الفرار؛ ولم يستطع واحد منهم أن ينشئ له بمصر فرقة حقيقية من الأنصار والمؤمنين، وإن كان الدرزي قد استطاع أن ينشئ له بالشام فرقة جديدة هي طائفة الدروز التي ما زالت قائمة حتى اليوم

وهنا تعرض نقطة ما تزال موضع الجدل، وهي من هو مؤسس مذهب الدروز الحقيقي؟ وماذا كان نصيب حمزة بن علي في إنشائه؟ والمعروف أن بعض المستشرقين، ومنهم دي ساسي، يعتبرون أن حمزة هو مؤسس المذهب الحقيقي، لأن كثيراً من تعاليمه ورسائله تمثل في كتب الدروز المقدسة، وقد أشكل على بعضهم فهم مزاعم حمزة، فأعتقد أنه هو الذي يحمل لقب (قائم الزمن) الذي يتردد في رسائله ودعواته، في حين أنه صريح في إسناد هذا الوصف للحكام بأمر الله. والواقع أن فرقة الدروز تنسب قبل كل شيء إلى الدرزي، وهو الداعي محمد بن إسماعيل الذي تقدم ذكره، وفي بعض رسائلحمزة ما يلقي شيئاً من الضياء على نصيبه الحقيقي

من الدعوة؛ ومن المرجح أن الدرزي سبق حمزة في القدوم إلى مصر، وفي الدعوة إلى (ألوهية) الحاكم بأمر الله كما قدمنا؛ ولكن الظاهر أيضاً
أن حمزة ما لبث أن تفوق عليه وفاز دونه بالزعامة والقيادة، وأن خصومه نشبت بينهما كان الظافر فيها هو حمزة. ويشير حمزة إلى ذلك في رسالته الرابعة الموسومة بالغاية والنصيحة حيث يحمل علي الدرزي الذي هو (نشتكين) (وهو لقب تركي يطلق على الدرزي ويعرف به)
ويقول إنه (تغطرس على الكشف بلا علم ولا يقين، وهو الضد الذي سمعتم بأنه يظهر من تحت ثوب الامام، ويدعى منزلته. . . وكان من جملة المستجيبين حتى تغطرس وتجبر وخرج من تحت الثوب، والثوب هو الداعي والسترة التي أمره بها إمامه حمزة بن علي الهادي إلى توحيد مولانا جل ذكره) ثم يقول إن الدرزي أنكر التعاليم وتمرد وأثار للجدل بينهما، وغره ما كان يضربه من زغل الدنانير والدراهم، ويبدو من ذلك جلياً أن حمزة كان يقف من الدرزي موقف الإمام والأستاذ، وأن الدرزي خرج على تعاليمه ومبادئه، واستقل بعد ذلك بإنشاء فرقة - الدروز - في الشام، فهو المؤسس إذن لمذهب الدروز، وقوامه مزيج من نظرياته وتعاليمه، ونظريات حمزة وتعاليمه، ومن الصعب أن نحدد ما لكل من الداعيين في إنشاء هذا المذهب الغريب من المباديء والنظريات، بل من الصعب أن نعين منهما الأصل والناقل؛ بيد أن بعض النظريات الأساسية التي يعرضها حمزة في رسائله ما زالت قواماً لمذهب الدروز مثل القول بحلول الروح القدس في شخص الحاكم، واعتباره (قائم الزمان)؛ ثم إن التاريخ الذي يتخذه حمزة لمبدأ هذه الدعوة هو سنة 408هـ (1017م) وهي نفس السنة التي اتخذها الدروز بدأ لتاريخهم المقدس؛ وعلى ذلك فإذا كان الدرزي هو الذي أسس فرقة الدروز، فان لتعاليم حمزة أثراً كبيراً في صوغ هذا المذهب
ولا ريب أن حمزة بن علي كان نموذجاً قوياً لأولئك الدعاة؛ ففي تفكيره وآرائه وشروحه ما يشهد بكثير من الذكاء والبراعة؛ ولكن إنشاء دين جديد وعقيدة جديدة والدعوة إلى (ألوهية) بشر، محاولة تقصر عنها جهود أذكى الدعاة وأقواهم؛ ومن ثم فأنا نلمس في آرائه وتدليله كثيراً من ضروب التناقض والضعف، ونراه يلجأ إلى الرموز والخفاء كلما أعيته الحجة، ولا يحمل هذا المزيج الذي يقدمه إلينا من الشروح والأساطير اليهودية والنصرانية والإسلامية كثيراً من طابع الابتكار والطرافة، ثم هو فرق ذلك يقدم إلينا رسالته في أسلوب ركيك ينم عن ضعف بيانه العربي؛ ومع ذلك فان هذا التراث الذي انتهى إلينا من جهود
الدعاة يلقي كثيراً من الضياء على أسرار الدعوة الفاطمية وغاياتها، وهو بذلك يعتبر من الوجهة التاريخية وثيقة لها قيمتها وخطورتها

محمد عبد الله عنان
المحامي

الليث بن سعد
محدث مصر وفقيها ورئيسها
للأستاذ علي الطنطاوي

قال الإمام الشافعي: الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به
وقال الأمام أحمد: ليس في أهل مصر أصح حديثاً من الليث
عَلَم شامخ من أعلام الإسلام، وإمام من أئمة الدين، وأحد أفراد الدنيا علماً وذكاء، ونُبلاً ورفعة، وسخاء وكرماً؛ أجمعوا على أنه عَدْل مالك في الفقه، ونظيره في الاجتهاد، وانه لمصر مثل مالك للمدينة لا يفتي ومالك في المدينة، ولا يفتي والليث في مصر وهو بعد أعظم جاهاً من مالك، وأكثر مالاً وأسخى يداً، وأجزل عطاء. . . بَيْد أن الله قيض لمالك من دون علمه، وكتب مساءله، وحرر مذهبه، فعاش ونما واتسع، وكثر أتباعه ومقلدوه، واندثر مذهب الليث ونُسي اسمه فلا يذكره إلا المشتغلون بالرواية الإسلامية، المنقطعون لدراستها، العاكفون على كتبها. . . .
وما مثل الليث بالذي يُنسى، وان كان الليث أنكرة في الرجال، ولئن أنكره اليوم بعض الشباب أو جهلوا قدره، أو شغلهم عنه وعن أمثاله (أندره جيد) وهذا الآخر. . . (بول فاليري) فلقد عرف له الأولون فضله وعلمه، وسموه ورفعته. فعاش رئيساً في العلماء، مقدماً عند الخلفاء، مطاعاً عند الولاة، مبجلاً عند الخاصة، موقراً عند العامة،

وازدحمت عليه النعم، وأقبلت عليه الخيرات، ودنت منه الأماني، فأوتي العلم والعقل والصحة والمال والسيادة والجاه، وأوتي مع هذا كله نفساً أكبر من هذا كله، فما التفتت إليه، ولا تمسكت به، ولا شغلها عن دينها وتقواها. مالت إليه الدنيا فمال عنها، ومنح من كل نعمة أوفاها فما قصر في شكر، ولا زهد في أجر؛ وكان سيد مصر، أمرُه قبل أمر الولاة، وحكمه فوق حكم القضاة، فما اقتنص بذلك دنيا، ولا غُمض عليه في بطن ولا فرج؛ وكان دخله بين عشرين وثمانين ألف دينار في العام، فما كنز بيضاء ولا صفراء، ولا منعها فقيراً، ولا أمسكها عن ذي حاجة، فأطبق العلماء على إجلاله، واتفق المصنفون على الثناء عليه، وعقدت القلوب على حبه، وأجمع الناس على احترامه

اسمه وأصله ومولده:

هو الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفَهمي. كان أبوه من موالي قريش، ثم افترض في بني فهم (وهم بطن من قيس عيلان خرج منهم جماعة من العلماء) وتبعه الليث بعده، فكان اسمه في ديوان مصر، في موالي بن كنانة فهم؛ وقيل كان مولى خالد بن ثابت بن ظاعن الفهمي

وكنسته أبو الحارث

ولد غي قرقشندة (قرية بأسفل مصر على أربعة فراسخ من الفسطاط) فهو مصري المولد والمنشأ، وأصل أسرته من أصبهان. قال الليث نحن من أهل أصبهان، فاستوصوا بهم خيراً، وقيل إنهم من الفرس، ولم يصح ذلك

وكان مولده يوم الجمعة 14 شعبان سنة 94، قال الليث: قال لي بعض أهلي: إني ولدت سنة اثنتين وتسعين، والذي أوقن به أني ولدت سنة أربع وتسعين

شيوخه:

قال أبو نعيم الأصبهاني (في حلية الأولياء): أدرك الليث نيفاً وخمسين من التابعين سمع الليث بمصر من زيد بن أبي حبيب وجعفر بن ربيعة والحارث بن يعقوب وعبيد الله بن أبي جعفر وخالد بن يزيد وخير بن نعيم وسعيد بن يزيد

وحج الليث سنة 133 وكان عمره تسعة عشر أو عشرين، فسمع في حجته تلك من عطاء بن أبي رباح وهشام بن عروة ويحيى بن سعيد الانصاري وأبي الزبير المكي وعبد الله ابن أبي مليكة وعمرو بن شعيب وقتادة وعمرو بن دينار ونافع

قال الليث: حججت أنا وابن لهيعة فرأيت نافعاً مولى ابن عمر فدخلت معه إلى دكان علاف، فقال: من أين؟ قلت: من أهل مصر، قال: ممن؟ قلت: من قيس. قال: ابن كم؟ قلت: ابن عشرين، قال: أما لحيتك فلحية ابن أربعين!

وحدثني. فمر بنا ابن لهيعة، فقال من هذا؟ قلت: مولىمن قيس. قال: ابن كم؟ قلت: ابن عشرين، قال: أما لحيتك فلحية ابن أربعين! وحدثني. فمر بنا ابن لهيعة، فقال من هذا؟ قلت: مولي لنا فلما رجعنا إلى مصر، جعلت أحدث عن نافع فأنكر ذلك ابن لهيعة وقال: أين لقيته؟ قلت: أما رأيت العبد الذي كان في دكان العلاف؟ هو ذاك!

وخرج الليث إلى العراق سنة 161

قال أبو صالح: خرجنا معه من مصر في شوال وشهدنا الأضحى في بغداد، وقال لي الليث ونحن في بغداد: سَلْ عن قطيعة بني جدار، فإذا أرشدت إليها فاسأل عن منزل هُشيم الواسطي

فقل له: أخوك ليث المصري يقرئك السلام، ويسألك أن تبعث إليه بشيء من كتبك فلقيت هُشيما فدفع إلى شيئاً، فكتبنا منه وسمعته مع الليث، وكان الليث قد كتب من علم الزهري كثيراً، قال: فأردت أن أركب البريد إليه إلى الرصافة فخفت ألا يكون ذلك لله فتركته

أي أنه آثر أن يروي عنه بالواسطة خشية أن يكون في ذهابه إليه وسماعه منه حظ نفسي، فلا يكون ذلك خالصاً لله وحده

وسمع من سعيد المقبري ويونس بن يزيد وغيرهم وسمع منه خلق كثير

منزلة عند العلماء

قال الإمام أحمد بن حنبل: ما في هؤلاء المصريين أثبت من الليث، لا عمرو بن الحارث ولا أحد. ثم قال: الليث بن سعد؟ ما أصح حديثه! وجعل يثني عليه

فقال رجل لأبي عبد الله (يعني أحمد). إنسان ضعفه فقال: لا يدري

وقال مرة: ليس فيهم (أي أهل مصر) أصح حديثاً من الليث وعمرو بن الحارث يقاربه

وقال الإمام الشافعي: الليث أفقه من مالك، إلا أن أصحابه لم يقوموا به، أي لم يدونوا علمه، ولم يحرروا مذهبه فضاع واندثر
وقال: ما فاتني أحد فأسفت علي ما أسفت على الليث وابن أبي ذئب
وقال ابن حبان (في الثقات): كان من سادات أهل زمانه فقهاً وورعاً وعلماً وفضلاً وسخاء
وقال ابن أبي مريم: ما رأيت أحداً من خلق الله أفضل من ليث، وما كانت خصلة يتقرب بها إلى الله عز وجل إلا كانت تلك الخصلة في الليث
وقال أبو يعلى الخليلي: كان إمام وقته بلا مدافعه
وقال يحيى بن بكر: ما رأيت فيمن رأيت مثل الليث، وما رأيت أكمل منه؛ كان فقيه البلد، عربي اللسان، يحسن القرآن والنحو والحديث والشعر والمذاكرة (إلى أن عد خمسة عشرة
خصلة) ما رأيت مثله
وقال: الليث أفقه من مالك، ولكن كانت الخطوة لمالك وقال سعيد بن أبي أيوب: لو أن مالكاً والليث اجتمعا كان مالك عند الليث أبكم، ولباع الليث مالكاً فيمن يريد
وسئل أبو زرعة: الليث يحتج بحديثه؟ قال: أي لعمري وقال يحيى بن معين: ثبت
وقال يعقوب بن شيبة: ثقة وقال مثل ذلك محمد بن سعد
وقال النووي (في تهذيبه): أجمعوا على جلالته وأمانته وعلو مرتبته في الفقه والحديث قالوا: وكل ما في كتب مالك من قوله (وأخبرني من أرضى من أهل العلم) فإنما يعني به الليث بن سعد
البقية في العدد القادم
علي الطنطاوي
قصيدة تاريخية خطيرة
أهل غرناطة يستغيثون السلطان با يزيد
في أوائل القرن السابع الهجري ذهبت ريح الموحدين من الأندلس، ونشأت دولة بني نصر أو بني الأحمر في بقية الأحداث من الدولة الإسلامية العظيمة - الجنوب الغربي من الجزيرة الكبيرة جزيرة الأندلس. وثبت بنو الأحمر على قراع الخطوب، ونزال الكوارث خمساً وستين ومائتي سنة. ثم ذهبت الصولة ودالت الدولة، وأناخت الوحشة على المعقل الأخير للحضارة الإسلامية
هذا فجر اليوم الرابع من ربيع الأول سنة 987، وهذا أبو عبد الله الشقي يسير في خمسين فارساً ليسلم مفاتيح الحمراء إلى فرديناند وايزابلا
وكان المسلمون قد استوثقوا لدينهم وأنفسهم وأموالهم، وأخذوا على الأسبان من الشروط ما شاءوا. وبذل لهم الأسبان من العهود والأيمان ما جعلوه حبالة إلى السيطرة والقتل والسلب والإكراه على التنصر
اشترط المسلمون زهاء ستين شرطاً يكفل لهم الوفاء بها سلامة شاملة، وطمأنينة عامة. واشترطوا أن يقبل شروطهم زعيم النصرانية بابا رومية
وما هو إلا أن ظفر الأسبان بعدوهم حتى استباحوا نقض العهود، والإغراق في العدوان والظلم والنهب والقتل والإكراه على التنصر. فلما استيأس المسلمون ثاروا بعدوهم المرة بعد المرة يؤثرون الموت الوحي على الموت البطيء، وما زال بهم القتل والاستعباد والتشريد والنفي حتى جلا آخرهم عن البلاد عام 1017 من الهجرة
وقد استصرخ مسلمو الأندلس ملوك المسلمين، فلم يصرخهم أحد إلا خير الدين باشا قائد الأساطيل العثمانية في عهد السلطان سليمان، فقد أمدهم في إحدى ثوراتهم بجند نصروهم على عدوهم ومكنوا لهم الرحيل، فحملت السفن منهم سبعين ألفاً إلى أفريقية
وكان المسلمون أرسلوا وفداً يستغيث السلطان با يزيد الثاني العثماني، وبعثوا بقصيدة بثوا بها شكواهم، وعددوا ما أصابهم في أنفسهم ودينهم. وهي قصيدة طويلة ننشرها اليوم على صفحات الرسالة، معترفين بالفضل للشيخ الجليل العلامة الشيخ خليل الخالدي الذي كتبت في الرسالة عنه مرتين. جمعنا بالشيخ الكريم أحد المجالس في حلوان شهر رمضان

الماضي. فسأله بعض الحاضرين، وهو يفيض في حديثه، عن كتاب عن المدافع كتبه أحد الأندلسيين فحدث عنه وقال: وكانوا يسمون المدافع الأنفاض، وقد قال قائلهم:

وجاءوا بأنفاض عظام كثيرة ... تهدم أسوار البلاد المنيعة

وهذا البيت من قصيدة بعث بها أهل غرناطة إلى السلطان با يزيد. فاستنشدناه ما يحفظ ثلاثة وثلاثين بيتاً وقال: إن القصيدة طويلة تجاوز مائة بيت، وإنها عنده، قد نسخها في مدينة فاس. فسألناه أن يرسلها إلينا حين يعود إلى القدس وقد أنجز الشيخ حفظه الله وعده، فأرسل القصيدة لتنشر في مجلة (الرسالة). ويتبين من القصيدة أنهم استغاثوا السلطان من قبل فكتب إلى الأسبان فلم يأبهوا لما كتب وأن ملوك مصر أرسلوا رسلاً فادعى الأسبان أن المسلمين تنصروا مختارين، وسلكوا في الزور ما نعهده اليوم في السياسة الأوربية

ولسنا ندري ما كان جواب السلطان با يزيد على هذه الدعوة الملهوفة والقصيدة الباكية. فمن عرف شيئاً في هذا فليخربنا مشكوراً

عبد الوهاب عزام

القصيدة ومقدمتها

ومما كتبه بعض أهل الجزيرة بعد استيلاء الكفر على جميعها للسلطان أبي يزيد خان العثماني رحمه الله ما نصه بعد سطر الافتتاح

(الحضرة العلية، وصل الله سعادتها، وأعلى كلمتها، ومهد أقطارها، وأعز أنصارها، وأذل عداتها. حضرة مولانا، وعمدة ديننا ودنيانا، والسلطان الملك الناصر، ناصر الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، قامع أعداء الله الكافرين، كهف الإسلام، وناصر دين نبينا محمد عليه السلام، محي العدل، ومنصف المظلوم ممن ظلم، ملك العرب والعجم، والترك والديلم، ظل الله في أرضه، القائم بسنته وفرضه، ملك البرين، وسلطان البحرين، حامي الذمار، وقامع الكفار، مولانا وعمدتنا، وكهفنا وغياثنا، مولانا أبو زيد، لا زال ملكه موفور الأنصار، مقروناً بالانتصار، مخلد المآثر والآثار، مشهور المعالي والفخار، مستأثراً من الحسنات بما يضاعف الله به الأجر الجزيل في الدار الآخرة، والثناء الجميل والنصر في هذه الدار، ولا برحت عزماته العلية مختصة بفضائل الجهاد، مجردة على أعداء الدين من باسها ما يروي صدور السمر والصفاح، وألسنة السلاح، سالكة سبيل السابقين، الفائزين برضي الله وطاعته يوم يقوم الأشهاد

سلام كريم دائم متجدد ... أخص به مولاي خير خليفة
سلام على مولاي ذي المجد والعلا ... ومن البس الكفار ثوب المذلة
سلام على من وسع الله ملكه ... وأيده بالنصر في كل وجهة
سلام على مولاي من دار ملكه ... قسنطينةٌ أكرمْ بها من مدينة
سلام على من زين الله ملكه ... بجند وأتراك من أهل الرعاية
سلام عليكم شرف الله قدركم ... وزادكم ملكاً على كل ملة
سلام على القاضي ومن كان مثله ... من العلماء الأكرمين الأجلة
سلام على أهل الديانة والتقي ... ومن كان ذا رأي من أهل المشورة
سلام عليكم من عبيد تخلفو ... باندلس بالغرب في أرض غربة
أحاط بهم بحر من الروم زاخر ... وبحر عميق ذو ظلام ولجة
سلام عليكم من عبيد أصابهم ... مصاب عظيم يا لها من مصيبة
سلام عليكم من شيوخ تمزقت ... شيوبهم بالنتف من بعد عزة
سلام عليكم من وجوه تكشفت ... على جملة الاعلاج من بعد سترة
سلام عليكم من بنات عواتق ... يسوقهم الألباط قهراً لخلوة
سلام عليكم من عجائز أكرهت ... على أكل خنزير ولحم لجيفة
نقبل نحن الكل أرض بساطكم ... وندعو لكم بالخير في كل ساعة
أدام الإله ملككم وحياتكم ... وعافاكم من كل سوء ومحنة
وأيدكم بالنصر والظفر بالعدا ... وأسكنكم دار الرضى والكرامة
شكونا لكم مولاي ما قد أصابنا ... من الضر والبلوى وعظم الرزية
غُدرنا ونُصرنا وبُدل ديننا ... ظُلمنا وعوملنا بكل قبيحة

وكنا على دين النبي محمد ... نقاتل عباد الصليب بنية
ونلقي أموراً في الجهاد عظيمة ... بقتل وأسر ثم جوع وقلة
فجاءت علينا القوط من كل جانب ... بسيل عظيم جملة بعد جملة
ومالوا علينا كالجراد بجمعهم ... بجد وعزم من خيول وعدة
فكنا بطول الدهر نلقي جموعهم ... فنقتل فيها فرقة بعد فرقة
وفرسانهم تزداد في كل ساعة ... وفرساننا في حال نقص وقلة
فلما ضعفنا خيموا في بلادنا ... ومالوا علينا بلدة بعد بلدة
وجاءوا بأنقاض عظام كثيرة ... تهدم أسوار البلاد المنيعة
وشدو عليها في الحصار بقوة ... شهوراً وأياماً بجد وعزمة
فلما تفانت خيلنا ورجالنا ... ولم نر من إخواننا من إغاثة
وقلت لنا الأقوات واشتد حالنا ... أطعناهم بالكره خوف الفضيحة
وخوفاً على أبنائنا وبناتنا ... من أن يؤسروا أو يقتلوا شر قتلة
على أن نكون مثل من كان قبلنا ... من الدجن من أهل البلاد القديمة
ونبقي على آذاننا وصلاتنا ... ولا نتركن شيئاً من أمر الشريعة
ومن شاء منا البحر جاز مؤمناً ... بما شاء من مال إلى أرض عدوة
إلى غير ذاك من شروط كثيرة ... تزيد على الخمسين شرطاً بخمسة
فقال لنا سلطانهم وكبيرهم ... لكم ما شرطتم كاملاً بالزيادة
وأبدى لنا كتباً بعهد وموثق ... وقال لنا هذا أماني وذمتي
فكونوا على أموالكم ودياركم ... كما كنتمُ من قبل دون أذية
فلما دخلنا تحت عقد ذمامهم ... بدا غدرهم فينا بنقض العزيمة
وخان عهوداً كان قد غرنا بها ... ونصرنا كرهاً بعنف وسطوة
وأحرق ما كانت لنا من مصاحف ... وحلطها بالزبل أو بالنجاسة
وكل كتاب كان في أمر ديننا ... ففي النار ألقوه بهزؤ وحقدة
ولم يتركوا فينا كتاباً لمسلم ... ولا مصحفاً نخلو به للقراءة
ومن صام أو صلى ويعلم حاله ... ففي النار يلقوه على كل حالة
ومن لم يجئ منا لموضع كفرهم ... يعاقبه الألباط شر العقوبة
ويلطم خديه ويأخذ ماله ... ويجعله في السجن في سوء حالة
وفي رمضان يفسدون صيامنا ... بأكل وشرب مرة بعد مرة
وقد أمرونا أن نسب نبينا ... ولا نذكرنه في رخاء وشدة
وقد سمعوا قوماً يغنون باسمه ... فأدركهم منهم أليم المضرة
وعاقبهم حكامهم وولاتهم ... بضرب وتغريم وسجن وذلة
ومن جاءه الموت ولم يحضر الذي ... يذكرهم لم يدفنوه بحيلة
ويترك في الزبل طريحاً مجندلاً ... كمثل حمار ميت أو بهيمة
إلى غير هذا من أمور كثيرة ... قباح وأفعال عرار ردية
وقد بدلت أسماؤنا وتغيرت ... بغير رضى منا وغير إرادة
فآهاً على تبديل دين محمد ... بدين كلاب القوط شر البرية
وآهاً على أسماء حين تبدلت ... بأسماء أعلاج من أهل الغباوة
وآها على أبنائنا وبناتنا ... يروحون للألباط في كل غدوة
يعلمهم كفراً وزوراً وفرية ... ولم يقدروا أن يمنعوهم بحيلة
وآهاً على تلك المساجد حولت ... كنائس للكفار بعد الطهارة
وآهاً على تلك البلاد وحسنها ... لقد أظلمت بالكفر أعظم ظلمة
وصارت لعباد الصليب معاقلاً ... وقد أمنوا فيها وقوع الإغارة
وصرنا عبيداً لا أسارى فنفتدى ... ولا مسلمين نطقهم بالشهادة
فلو أبصرت عيناك ما صار حالنا ... إليه لجادت بالدموع الغزيرة
ويا ويلنا يا بؤس ما قد أصابنا ... من الضر والبلوى وثوب المذلة
سألنك يا مولاي بالله ربنا ... وبالمصطفى المختار خير البرية
وبالسادة الأخيار آل محمد ... وأصحابه أكرم بهم من صحابة
وبالسيد العباس عم نبينا ... وشيبته البيضاء أفضل شيبة
وبالصالحين العارفين بربهم ... وكل ولي فاضل ذي كرامة

عسى تنظر فينا وفيما أصابنا ... لعل إله العرش يأتي برحمة
فقولك مسموع وأمرك نافذ ... وما قلت من شيء يكون بسرعة
ودين النصارى أصله تحت حكمكم ... ومن ثم يأتيه إلى كل كورة
فبالله يا مولاي منوا بفضلكم ... علينا برأي أو كلام بحجة
فانتم أولات الفضل والمجد والعلا ... وغوث عباد الله في كل آفة
فسل بابهم أعني المقيم برومةٍ ... بماذا أجازوا الغدر بعد الأمانة
ومالهم مالوا علينا بغدرهم ... بغير أذى منا وغير جريمة
وحبسهم المغلوب في حفظ ديننا ... وأمن ملوك ذي وفاء وجلة
ولم يخرجوا من دينهم وديارهم ... ولا نالهم غدر ولا هتك حرمة
ومن يعط عهداً ثم يغدر بعده ... فذاك حرام الفعل في كل ملة
ولا سيما عند الملوك فإنه ... قبيح شنيع لا يجوز بوجهه
وقد بلغ المكتوب منكم إليهم ... فلم يعلموا منه جميعاً بكلمة
وما زادهم إلا اعتداء وجرأة ... علينا وإقداماً بكل مساءة
وقد بلغت إرسال مصر إليهم ... وما نالهم غدر ولا هتك حرمة
وقالوا لتلك الرسل عنا بأننا ... رضينا بدين الكفر من غير قهرة
وساقوا شهود الزور ممن أطاعهم ... والله ما نرضي بتلك الشهادة
لقد كذبوا في قولهم وكلامهم ... علينا بهذا القول أعظم فرية
ولكن خوف القتل والحرق ردنا ... نقول كما قالوه من غير نية
ودين رسول الله ما زال عندنا ... وتوحيدنا لله في كل لحظة
ووالله ما نرضي بتبديل ديننا ... ولا بالذي قالوا من أمر الثلاثة
وإن زعموا إنا رضينا بدينهم ... بغير أذى منهم لنا ومساءة
فسل انجرا عن أهلها كيف أصبحوا ... أسارى وقتلى تحت ذل ومهنة
وسل بلفيقا عن قضية أمرها ... لقد مزقوا بالسيف من بعد حسرة
ومنيافة بالسيف مزق أهلها ... كذا فعلوا أيضاً بأهل البُشُرة
واندَرَش بالنار أحرق أهلها ... بجامعهم صاروا جميعاً كفحمة
فها نحن يا مولاي نشكو إليكم ... بهذا الذي نلقاه من شر فرقة
عسى ديننا يبقي لنا وصلاتنا ... كما عاهدونا قبل نقض العزيمة
وإلا فيجلونا جميعاً من أرضهم ... بأموالنا للغرب دار الأحبة
فإجلاؤنا خير لنا من مقامنا ... على الكفر في عز على غير ملة
فهذا الذي نرجوه من عز جاهكم ... ومن عندكم تقضي لنا كل حاجة
ومن عندكم نرجو زوال كروبنا ... ومن عندكم تقضي لنا كل حاجة
ومن عندكم نرجوا زوال كروبنا - وما نالنا من سوء حال وذلة
فأنتم بحمد الله خير ملوكنا ... وعزتكم تعلو على كل عزة
فنسأل مولانا دوام حياتكم ... بملك وعز في سرور ونعمة
وتمدين أوطان ونصر على العدا ... وكثرة أجناد ومال وثروة
وثم سلام الله تتلوه رحمة ... عليكم مدى الأيام في كل ساعة
انتهت الرسالة من نسختين بقلم مغربي رأيتهما بعاصمة فاس صانها الله من كل باس
خليل الخالدي
3 - قصة المكروب
كيف كشفه رجاله
ترجمة الدكتور احمد زكي
لوفن هوك
أول غزاة المكروب
بائع القماش الهولاندي الساذج الذي ضحك منه أهل بلده فكاتب الجمعية الملكية) البريطانية وبها روبرت بويل واسحاق نيوتن فاستمعت له وصفقت خمسين عاماً)
- 4 -
وكانت تلك الحيوانات الصغيرة في كل مكان، حتى في فم (لوفن هوك). كتب (لوفن) إلى الجمعية الملكية يقول: (لقد بلغت العام الخمسين من عمري ومع هذا لي أسنان سليمة سلامة لا تتفق مع هذه السن، وسبب هذا أني أدلك أسناني بالملح كل صباح

دلكاً شديداً، وثم أنظف أضراسي بريشة وأدلكها بثوب دلكاً عنيفاً). ومع ذلك كانت تتبقى بقية من جسم أبيض فيما بين تلك الأسنان. فتراءى للوفن أن يتعرف كنهها فقشط منها بعضها ودافه في ماء مطر تقي وأخذ منه في شعرية من الزجاج ونصبها تحت عدسته، ثم أغلق الباب. وأخذ ينظر فرأى عند بؤرة العدسة مخلوقات جديدة، فنوع يثب قدماً في الماء (ككراكي الأسماك)، ونوع ثان لا يلبث أن يستقيم في عومه قليلاً حتى يدور بغتة فينتكس على رأسه انتكاسات رشيقة، ونوع ثالث حتى يدور بغتة فينتكس على رأسه انتكاسات رشيقة، ونوع ثالث كالعصي الملتوية يتحرك في بطء شديد تكاد تخطئه العين، إلا عين لوفن، فأخذ يحملق فيها حتى احمرت عيناه، وحتى رآها تتحرك يقيناً، وتنبض بالحياة يقيناً. كان فم (لوفن) مليئاً بالمتحركات من شتى الأجناس. وكان به جنس آخر كقضبان الخيزران سهلة التثني، تجيء وتروح في تؤدة الأسقف ووقاره، وهو على رأس موكبه بين قسيسيه وأخباره، وجنس خامس حلزوناتٌ كالبريمات نوازع الفلين، نفخ الله فيها من روحه فجاءت أشد ما تكون سعياً ونشاطاً لم يقع هذا الرجل الغريب على شيء إلا اتخذه موضوعاً لتجربته، ولم يعتق نفسه، فاتخذ

ذاته موضوعاً للتجربة أيضاً. وأتعبه العمل وأجهده طول التحديق إلى تلك الحيوانات التي بأسنانه فطلب الراحة في التريض تحت الأشجار العالية، وقد أخذت بقدوم الخريف تتناثر عنها ورقاتها المريضة الصفراء فتقع من تحتها على سطوح الترع وهي في سكونها وملاستها كالمرايا الغيراء، ولكنه ما لبث أن لقي في طريقه شيخاً هرماً، فحدثه فكان هذا إيذاناً بذهاب راحته وانتهاء رياضته. كتب (لوفن) إلى الجمعية الملكية عن هذا يقول: (وتحدثت إلى هذا الشيخ فألفيته عاش ما خلا من أيامه عيشة قصدٍ واستقامة، فالوسكي لم يذقه قط، والتبغ لم يمس فمه، والنبيذ ندر شربه إياه. ووقعت عيني على أسنانه مغطاة بالرواسب، فسألته متى نظفها آخر مرة، فأجاب إنه لم ينظفها مرة واحدة في حياته

فما قرع هذا الجواب سمع (وفن) حتى طار التعب عن عينيه. فقد وقع في نفسه أن فم هذا الرجل لابد أن يكون جنينة مليئة بالحيوانات من كل صنف بهيج وغير بهيج، وما لبث أن جر الشيخ القذر التقي إلى مكتبه. وبالطبع وجد الألوف من تلك الحيوانات الصغيرة في فمه، ولن كان همه أن يخبر الجمعية الملكية أنه وجد في فمه مخلوقاً جديداً ينساب في التواءاته كالأفعى بين شتى الحيوانات الأخرى، وأن الماء بأنبوبة الزجاج الشعرية كان يعج به تحت عدسته

ومن الغريب في (لوفن هوك) أنك مهما تصفحت كتبه، وهي مئات، فلن تجده يذكر مرة واحدة أن هذه الأحياء الصغيرة تضر بالإنسان. إنه رآها في ماء الشرب، ووقع عليها في فم الإنسان، ومضت الأعوام فتكشفت له نفس تلك الأحياء في أمعاء الضفدع وأمعاء الخيل وفي أمعائه هو، كان يجدها أسراباً أسراباً على حد قوله (كلما اعتراه إسهال). ومع هذا لم يقل إنها كانت سبباً في هذا الذي اعتراه. لقد كان محاذراً في أحكامه، ولم يكن له ذلك الخيال الذي اعتاد الناس أن يطيروا به إلى استنتاجات فطيرة غير ناضجة كالتي يثب إليها أهل هذا العصر الحاضر من دُراس المكروب. ولكم وَدِدْنا لو درس هؤلاء ما كتب (لوفن)، إذن لتعلموا من حذره الشيء الكثير. ففي الحق لقد وصف الواضعون في نصف القرن السالف آلافاً من المكروبات، ونسبوا إليها مئات من الأمراض، فكشف النقد في الكثرة الكبرى من تلك الحالات أن اجتماع المرض والمكروب في الجسم إنما كان ارتفاعاً عارضاً. كان (لوفن هوك) يخشى دائماً أن يشير إلى الشيء فالشيء ويقول هذا سبب هذا.

كان به إيمان فطري بتعقد الأمور واختلاط الأسباب التي تنتج الحياة وظواهرها، فكان دائماً محجاما لا يقدم على ربط سبب بظاهره

ومرت السنون وهو يشتغل بالبزازة في دكانه الصغير، أو يقوم بكنس دار البلدية (بدلفت). وزاد حذراً وزاد شراسة، وازدادت كذلك الساعات الطويلة التي كان يقضيها في التحديق في المئات من مكرسكوباته، وزاد اكتشافه لكل عجيب غريب. وذات يوم نظر إلى سمكة صغيرة في أنبوبة من الزجاج وقد علا ذيلها فلمح فيه لأول مرة أوعية الدم الشعرية التي تصل ما بين الأوردة والشرايين فاستكمل بذلك الدورة الدموية التي اكتشفها (هارفي) من قبله

وكان (لوفن) لا يمتنع عن امتحان الشيء لقداسة أو عاطفة، أو خشية أن يُسيء إلى الأدب والحرمات، فاكتشف الخلية المنوية للذكر من الإنسان - اكتشاف فيه تورط وفيه احراج، وفيه جمود وبرود في سبيل العلم تقشعر منه النفوس، ولكن (لوفن) كان رجلاً بسيطاً ساذجاً

ودارت الأيام فشاع ذكره في أوربا، وجاءه بطرس الأكبر قيصر الروس يقدم له احترامه، وسعت إليه ملكة الانجليز في بلدته لترى الأعاجيب من خلال عدساته. وأبطل للجمعية الملكية كثيراً من الخزعبلات السائدة، وكان أشيع أعضائها ذكراً ما خلا (اسحق نيوتن) و (روبرت بويل). ولم يغير كل ذلك شيئاً من نفسه؛ ذلك أنه كان من أول الأمر كبير التقدير لها كثير الإعجاب بها. وكانت كبرياؤه لا حد لها، ولا يضارعها إلا اتضاعه كلما فكر في هذا الكون وخفاياه، في السر الهائل المجهول الذي يَلفه ويلف سائر الناس معه. كان يعبد الله، وكان عباداً للحقيقة. قال: (في اعتزامي إلا أحتفظ بآرائي عناداً وتعصباً، فأنا أنبذها إلى ما يعرضه على غيري من الآراء، مادام هذا الغير لا يطلب من عرضها إلا إظهار الحقيقة لعيني، وأنا أعتنق هذا المعروض الجديد بمقدار ما أستطيع تحقيقه فيه من صواب. كذلك في اعتزامي أن استخدم ما حباني به الله من مواهب قليلة للحيلولة بين الناس وبين خرافات وثنية جاءتهم من الزمن القديم. وفي اعتزامي أن أنهض إلى الحق وأن أثبت عليه)

وكان صحيح الجسم صحة خارقة، ففي الثمانين كان يرفع بيده المكرسكوب، وهي ترتعد، إلى زواره لينظروا بها إلى الحيوانات الصغيرة، أو إلى صنوف الأجنة من المحار. وكان

مُغرماً بالشراب في الأمساء، وأي هولاندي ليس به هذا؟ وكأنما كان المرض لا يمسه إلا في الإصباح التي تلي تلك الإمساء، وما كان مرضاً بل ضيقاً في النفس واعتلالاً في المزاج. وكان يبغض الأطباء فلا يستنصح منهم أحداً. وأنى لهم معرفة بأدواء الجسد وعلمهم بتركيبه عشر معشار علمه؟ ومن أجل هذا كانت له نظريته الخاصة في تعليل سوء مزاجه - وأية نظرية تلك! كان يعلم أن بالدم كرات صغيرة مستديرة هو الذي اكتشفها وارتآها أول راء. وهو الذي اكتشف في ذيل السمكة تلك الشعريات الصغيرة التي تصل ما بين الأوردة والشران. فالليالي التي كان يعمرها بالكأس والطاس كانت على زعمه تؤثر في دمه فتجعله ثخيناً، فإذا هو جاء يمر بالشعريات تعذر عليه ذلك. فمن هذا كان اختلال مزاجه في الصباح. وإذن فدواء هذه الثخانة تخفيفها. وإليك ما كتب إلى الجمعية الملكية:

(فأنا إذا أكلت ذات مساء فأثقلت شربت في الصباح عدداً كبيراً من فناجيل القهوة، وهي على أسخن ما أحتمل حتى أتصبب عرقاً، فإذا لم يشفني ذلك فكل ما بدكان الصيدلاني لا يشفي. وهذا دوائي من أعوام كلما حُممْت)

وهداه شرب القهوة إلى حقيقة جديدة عن حيواناته الصغيرة. يا له من رجل! ما كان يفعل شيئاً حتى يهديه هذا الشيء إلى جديد في الطبيعة. فقد كان يعيش بسمعه وبصره وحسه وفكره في دُنى تلك الحيوانات التي كان يسترق منها النظرات من خلال تلك العدسات. لقد كان كالطفل إذا يستمع لحكاية البط والغراب وهو مستغرق عما هو حوله، لا ترى منه إلا شفتين منفرجتين وعينين واسعتين من شدة الدهشة والإعجاب. وكان كالطفل كذلك في إعادة ما قرأ من أقاصيص الطبيعة المرة بعد المرة، حتى لتجد على صفحاتها من إبهامه بصمات، وفي أركانها من فعله ثنيات تهديه إذا هو استراح فعاد ليبدأ من حيث انتهى. من ذلك أنه بعد سنوات من اكتشافه المكروب في فمه جلس ذات صباح إلى شراب القهوة يستشفي به، فبينا هو في عرقه الصبيب خطر له أن يعود فينظر إلى مكروب أسنانه من جديد. . ما هذا! أين ذهبت حيوانات أسناني فإني لا أرى واحدة تتحرك بالحياة! أو كأني أرى الألوف منها ولكنها أجساد هامدة، وإلا واحدة أو اثنتين تدبان على ضعف كأنما مسهما المرض! ثم صاح يستنجد بالأحبار والقديسين ألا يجيئه في تلك الساعة لورد من لوردات الجمعية الملكية يطلب إليه رؤية تلك المركوبات في فمه فلا يجدها فيكذبه فيما كتب عنها

ولكن صبراً إنه كان يشرب القهوة. كانت ساخنة جداً حتى كادت تتنفسط منها شفتاه. وهو إنما نظر إلى المكروبات في الرواسب التي بين أسنانه الأمامية بعد شربه هذه القهوة الساخنة مباشرة

وما لبث أن استعان بمرآة مكبرة واخذ يقشط ما بين أسنانه الخلفية، ثم ينظر. . . ما كَذَب المنظارُ وما أخطأ لوفن. قال: وما لبثت أن دهشتُ للكثرة التي وجدتها من تلك الحيوانات الحية في القليل التافه من تلك القِشاطة، كثرةٍ لا يؤمن بها إلا من رأى). وبعد هذا أخذ يجري تجارب صغيرة في أنابيب الزجاج، فسخن فيها الماء بما يَأهُله من تلك الأحياء إلى درجةُ فويق التي يحتملها المرء في حمامه، وفي لحظة فقدت الحيوانات روحاتها وجيئتها. وبرد الماء ومع هذا لم تعد إليها الحياة. إذن فالقهوة الساخنة هي التي قتلت تلك الحيوانات في أسنانه الأمامية

وأعاد النظر إلى هذه الحيوانات في غبطة وسرور، ولكن أساءه وأهمه أنه لم يتبين لهذا الحيوانات رأساً ولا ذيلاً، فإنها كانت تسير في تلويها مسرعة في اتجاه، ثم لا تلبث أن تكر راجعةً بنفس السرعة في عكس الاتجاه دون أن تنعطف أو يدور لها رأس على عقب، ولكن لابد أن يكون لها ذيل: لا بد أن يكون لها رأس! ولابد أن تكون لها أكباد وأمخاخ وأوعية دموية كذلك! وعاد بذاكرته إلى الوراء أربعين عاماً، إلى البراغيث وديدان الجبن كيف كانت تراها عينه مخلوقات بسيطة الصنع مجملة التركيب، فإذا بها تتراءى تحت عدسته معقدة التركيب مفصلة الصنع تامة كخلق الأنسان نفيه. فطمع أن ينشف له من هذه المكروبات ما تكشف من هذه الديدان. ولكن عبثاً حدق في أقوى عدساته، فقد ظلت هذه المكروبات تظهر في بصره عصياً أو كرات أو حلزونات بسيطة لا تفصيل فيها ولا تعقيد. وأخيراً اكتفى بأن حسب للجمعية الملكية قطر الوعاء الدموي بتلك المكروبات لو أنه كان، ولم يقل قط إنه رأى تلك الأوعية، وإنما أراد أن يتسلى بتخيله أولياءه من أعضاء الجمعية يتراجعون دهشةً من صغر الأرقام التي أسفرت عنها حسبته

وإذا كان (لوفن هوك) قد فاته أن يرى الجراثيم التي عنها تنشأ أمراض الإنسان، وإذا كان خياله قد قصر عن إدراك ما تأتيه حيواناته اللعينة من قتل وأجرام، فلم يفته أن يدرك أن هذه الحيوانات التي تُفلت العينَ قد تَقتل وقد تأكل حيوانات تجل عنها أضعافاً كثيرة. فذات

يوم كان يتلهى ببعض حيوانات الماء الصدفية كبلح البحر وأم الخلولَ جرفها من قيعان الترع، فوجد بداخل الأم الواحدة آلافاً من الأجنة، فهالته كثرتها وتساءل كيف لا تشرق مجاري الماء بهذا العدد العديد من الأحياء. وخال أن يُربى تلك الأجنة في زجاجة بها ماء أخذه من تلك الترع، وأخذ كل يوم يعبث بالماء وقد تلزج كالمخاط بما فيه من أجنة، وكان أن نظر إليها بعدسته يحسب أنها كبرتْ، فأفزعه أن وجد اللحم الطري يتلاشى بين أصدافه، ذلك لأن آلافاً من المكروبات الدقيقة استطعمته فالتهمته بشراهة أي شراهة

تعالى الله! حي يعيش على حي، وحياة تستمد البقاء من فناء حياة! تلك لا محالة) قسوة كبيرة، ولكنها مشيئة الله. ولا شك أن الخير كل الخير فيها، فلولا أن أكل المكروب صغار هذا المحار، وكل أم تلد ألفاً في المرة الواحدة، لانسدت به القنوات). هكذا فكر لوفن، وبهذا القنوات أسلم لقضاء ربه. كان يتقبل كل شيء ويرضى عن كل ما يجد، فلم يكن يعد قد جاء العصر الذي تهجم فيه البحاث على المقام الاسمي ورفعوا أيديهم إلى السماء يتسخطون ويتهددون على ما بالطيعة من قسوة لا معنى لها على ابنها الإنسان

وبلغت سنه الثمانين وفاتتها، وتخلخلت أسنانه بالرغم من قوة جسمه، وكل سن للتخلخل ولو أمهلتها السنون حيناً. وجاء شتاء أيامه وخيم بظله وقره فلم يشك شيئاً، بل انتزع سناً عتيقة من فمه وصوب إليها العدسة يمتحن تلك المخلوقات الضئيلة في الجذر الخاوي من السن مرة أخرى. ولم لا يفعل؟ فلعله يجد تفصيلاً جديداً فاته في سائر تلك المرات العديدة. وجاءته رفقة من صحابه وقد بلغ الخامسة والثمانين تسأله أن يترفق بنفسه ويدع البحث والدرس، فقارب ما بين حاجبيه وأوسع ما بين جفنيه، ولم يكن فارق البريق عينيه، وقال لهم: (إن الثمرة التي تنضج في الخريف تطول سائر الثمر عمراً). سمي الخامسة والثمانين خريفاً!

وكان كأرباب المعارض يحب أن يسمع إعجاب الناس بما يعرض إن حضروا، أو يقرأ لغيابهم إذا هو كتب لهم تلك الكتب الثرثارة المتفككة الطويلة. ولا تنس انه لم يكن يعرض بضاعته إلا على الفلاسفة والمتفلسفين وأحباب العلم. وكان لا يحسن التدريس

إذا هو حاوله. كتب إلى الفيلسوف الشهير ليبنتز يقول: (أنا لم أعلم أحداً، لأني لو علمت واحداً وجب على تعليم آخرين، وإذن أعبد نفسي عبودية لا تنقضي، وأنا أحب أن أكون سيداً
(حراً
فأجابه ليبنتز يقول: (. . . ولكنك يا رجل إذا لم تعلم الشباب صناعة العدس وطرق البحث والنظر زال كل هذا عن وجه الأرض بزوالك). فكتب صاحبنا الهولاندي باستقلاله المعهود يقول: (لقد أعجب أساتذة (ليدن) وطلبتها باكتشافاتي مرة في أيام سالفة بعيدة فاستأجروا من نحاتي العدسات وصاقليها ثلاثة جاءوا يعلمونهم صناعتها، فعلى أي نتيجة خرجوا؟ لا شيء بقدر ما أرى، لأن جل الدروس أو كلها كانت تعطى لاكتساب المال ببيع العلم أو إظهاراً للعلم بغية احترام الناس وإعجاب الدنيا، وتلك نوازع لا تمت بسبب إلى اكتشاف خبايا الطبيعة المحجوبة عن أبصارنا، فهذه دراسات قد لا يصلح لها من الألف واحد، لأن الزمن الكثير يضيع فيها، ولأن المال الكثير يضيع فيها، ولأنها تستغرق من صاحبها فكره كله وحسه أجمع لكي يخرج منها على شيء. . .)
هذا أول رجال المكروب وكاشفيه. وفي عام 1723، وقد بلغ الحادية والتسعين استدعى صديقه (هوجفليت) وهو على سرير الفناء. فلم يستطع رفع يده. وملأ الدمع جفنيه وتقاربا ليلتحما بلحام الموت. فغمغم إليه: (صديقي هوجفليت، رجائي إليك أن تترجم الكتابين اللذين على المنضدة إلى اللاتينية. . . . . ابعث بهما إلى لندن. . . إلى الجمعية الملكية. . . . . .)
وبذلك بر بوعده للجمعية الذي أبرمه من خمسين سنة خلت أنْ يكتب لها إلى آخر رمق. وبعث (هوجفليت) الكتابين وكتب معهما يقول: (أسيادي العلماء، أبعث لكم آخر هدية من صديقي المحتضر، راجياً أن تحظى آخر كلمة له بالرضاء منكم)
وهكذا ذهب أول البحاث في عالم الجرثوم. وستقرأون عن اسبالتراني وهو أنبه منه، وعن بستور وله أضعاف ما لصاحبنا من خيال، وهم روبرت كوخ وقد قام بأعمال أسرع ثمرة من أعماله في تخفيف ويلات المكروب عن الإنسان، وعن آخرين لهم اليوم كما لهؤلاء صيت أبعد وذكر أشيع ولكن صدقوني لم يكن بين هؤلاء وهؤلاء من كان يطاول في الأمانة، ولا في الدقة، ولا في الحكم على الأمور، هذا القماش الهولاندي البسيط.
أحمد زكي

محاورات أفلاطون - 15

الحوار الثالث

فيدون أو خلود الروح

ترجمة الأستاذ زكي نجيب محمود

- مهما يكن، فأنت تستطيع أن تحكم فيما إذا كان ينبغي أو لا ينبغي لمن لديه المعرفة أن يكون قادراً على تعليل معرفته
- لا شك أن ذلك حتم عليه
ولكن هل تظن أن كل إنسان قادر على تعليل هذه الموضوعات نفسها التي تتحدث عنها الآن؟
ليتهم يستطيعون يا سقراط! ولكم أخشى ألا يكون ثمت من يستطيع في مثل هذه الساعة من الغد أن يقدم تعليلاً جديراً بأن يؤخذ عنه
إذن فليس من رأيك يا سيمياس أن كل الناس يعملون هذه الأشياء؟
- يقيناً أنهم لا يعلمون
- إذن فهم آخذون في تذكر ما قد كانوا يعلمونه من قبل
- يقيناً
ولكن متى كسبت أرواحنا هذه المعرفة؟ - لم يكن ذلك بعد أن ولدنا بشراً؟
- لا، ولا ريب
- وإذن فقبل ذلك؟
- نعم
- إذن يا سيمياس، لا بد أن أرواحنا كانت موجودة قبل أن تُصور في هيئة البشر، ولا بد أن قد كان لديها ذكاء لما كانت بغير أبدان؟
- حقاً يا سقراط، ما لم تفرض أن هذه الآراء قد أوتيتنا في ساعة الميلاد، لأنه لم يبق

إلا تلك اللحظة وحدها
- نعم يا صديقي، ولكن متى افتقدناها؟ فهي لا تكون لدينا عندما نولد - وقد سلمنا بهذا.
هل افتقدناها في اللحظة التي فيها أخذناها، أم في وقت آخر غير هذا؟
- لا يا سقراط، لقد أدركت أني إنما كنت أنطق هراء لا أعيه
- إذن، أفلا يجوز لنا يا سمياس أن نقول ما نردده دائماً، وهو إذا كان ثمت جمال مطلق، وخير مطلق، وسائر الجواهر التي اكتشفنا الآن أنها سبقتنا في الوجود، وكنا نقيس إليها كل أحاسيسنا ونقارنها بها - زاعمين أن قد أن لها وجود سابق، فان لم يكن، ذهبت كل قوة في قولنا. فليس من سبيل إلى الشك بأنه إذا كان لهذه المُثُل المطلقة وجود قبل أن نولد، فلا بد أن أرواحنا كانت كذلك موجودة قبل ميلادنا، فان لم تكن المُثُل موجودة، لم تكن الأرواح موجودة كذلك
- نعم يا سقراط، إني مقتنع بأن مقتنع بأن لوجود الروح قبل الميلاد هذه الضرورة نفسها، وأنت إنما تتحدث من الروح عن كنهها: فقد انتهى بنا التدليل إلى نتيجة يسرني أنها تتفق مع ما أرتئيه. فلست أرى شيئاً يبلغ في بداهته مبلغ قولنا إن الجمال، والخير، وسائر الأفكار التي كنت تتحدث عنها الآن تواً، لها وجود غاية في الحق والتجريد، وإني لمقتنع بالدليل
- حسناً، ولكن هل اقتنع سيبيس اقتناعك هذا؟ لأنني لا بد أن أقنعه كذلك
قال سمياس - أظن سيبيس مقتنعاً؟ فإني أحسبه قد آمن بوجود الروح قبل الميلاد، على الرغم من أنه أبعد الكائنات عن التصديق. ولكن دليلاً لم يقم بعد على استمرار وجود الروح بعد الموت، بحيث يقنعني أنا، فلا أستطيع أن أتخلص من شعور الدهماء الذي كان يشير إليه سيبيس - ذلك أن الشعور بأنه إذا مات الانسان، فقد تتبعثر الروح، وقد يكون ذلك نهايتها، فلو سلمنا بأنها قد تتولد وتنشأ في مكان غير هذا، وقد تكون موجودة قبل حلولها في الجسم البشري، فماذا يمنع أن تبلي وتفنى بعد أن حلت فيه ثم خرجت منه ثانياً؟
فقال سيبيس - هذا جد صحيح يا سمياس، أما أن أرواحنا كانت موجودة قبل أن نولد، فهو الشطر الأول من الحديث، ويظهر أن قد قام الدليل عليه، وأما أن الروح ستبقى بعد الموت، كما كانت قبل الميلاد، فهو الشر الآخر، الذي لا يزال يعوزه الدليل، ولابد له من التأييد
قال سقراط - أي سمياس وسيبيس! لو أنكما أضفتما التدليلين أحدهما إلى الآخر - أعني
هذا وما سبقه، الذي سلمنا فيه بأن كل شيء حي قد ولد من الميت، لرأيتما أنا قد فرغنا من إقامة هذا الدليل، لأنه لو كانت الروح موجودة قبل الميلاد، وأنها إذ تجيء إلى الحياة وإذ تولد، لا تكون ولادتها إلا من الموت ومن يعالج الموت، أفلا يجب عليها بعد الولادة أن تستمر في وجودها ما دام لابد لها أن تولد مرة أخرى؟ لا ريب في أنا قد فرغنا من إقامة البرهان الذي ترجوان، ولكني مع ذلك، أحسبك أنت وسمياس، لا ترغبان في أن تُخبرا هذا الدليل أكثر من ذلك، فقد استولى عليكما ما يستولي على الأطفال من فزع، خشية أن يذرو الهواء الروح حقيقة، ويبعثرها عند فراقها الجسد، وبخاصة إذا كتب لإنسان أن يموت في جو عاصف، ولم يقدر له الموت حيث السماء ساكنة
فأجاب سيبيس باسماً - إذن يا سقراط، فواجبك أن تنفض عنا خوفنا بالدليل - ومع ذلك فليست هي مخاوفنا، إن توخيت الدقة في القول، ولكن هنالك في طويتنا، طفل ينظر إلى الموت، كأنه ضرب من الغول، فلا بد أن نحمله كذلك على ألا يفزع إذا ما انفرد وإياه في الظلام
قال سقراط - ردد في ل يوم صوت الساحر، إلى أن تطرد بالسحر ذلك الغول
- وأين عسانا أن نجد ساحراً حاذقاً يقينا مخاوفنا بعد ذهابك يا سقراط
فأجاب - إن هِلاس، لمكان فسيح يا سيبيس، وفيه كثير من طيبي الرجال، وهناك غير قليل من القبائل المتبربرة، فابحث عنه في طول البلاد وعرضها، بين هؤلاء جميعاً، ولا تدخر في البحث جهداً ولا مالاً، فليس من سبيل أفضل من استخدامك المال، ولا يفتك أن تبحث عنه كذلك بين أنفسكم فوجوده هاهنا أرجح منه ف أي مكان آخر

فأجاب سيبيس - لن نتردد في القيام في القيام بهذا البحث، ولنعد الآن، إذا شئت، في الحوار إلى النقطة التي استطردنا منها
فأجاب سقراط - طبعاً، وماذا أريد غير هذا؟ فقال: حسناً جداً
قال سقراط - أفلا ينبغي أن نسائل أنفسنا سؤالاً كهذا: - ما هو الشيء الذي تظنه عرضة للبعثرة، ونحن عليه حريصون؟ ثم ما هو الشيء الذي لا نحرص عليه؟ وبعدئذ نستطيع أن نمضي في البحث عما إذا كان ذلك الذي تمتد إليه يد البعثرة، من بيعة الروح أم لا - فعلى ذلك سنقيم ما نكن لأرواحنا من آمال ومخاوف
فقال - هذا صحيح
- قد نفرض أن الشيء المركب، أو الذي يتكون من أجزاء، أنه بطبيعته يمكن أن يتحلل، كما أمكن له أن يتركب، أما ذلك الذي لم يتركب من أجزاء، فيلزم أن يكون وحده غير قابل للتحلل، إذا كان ثمة شيء كهذا
فقال سيبيس - نعم فهذا ما قد أتصوره
- وقد يزعم أحد أن غير المركب، يظل كما هو، ولا يخضع للتغير، بينما يكون المركب دائم التغير، فلا يظل أبداً كما هو؟ فقال - إني أظن ذلك أيضاً
(يتبع)
زكي نجيب محمود
بين القاهرة وطوس - 13
من سلطان آباد إلى بغداد
للدكتور عبد الوهاب عزام
سلطان آباد حاضرة ولاية في إيران تسمى العراق، وهي في الجنوب الغربي من سهل فراهان، بناها منذ مائة وثلاثين سنة يوسف خان الكرجي وجعلها مربعة الشكل، وسورها وحصنها. وولاية العراق هذه خصبة كثيرة الزرع، فيها زهاء 680 قرية، وسجاجيدها مشهورة
وعلى مقربة من هذه المدينة كانت مدينة الكرج، في الإقليم الذي كان يعرف باسم كرج أبي دلف، وقد ذكره الشعراء في مدائحهم
دخلنا المدينة ليلاً فسرنا قليلاً فانتهينا إلى ميدان فسيح فيه حديقة تمتد منه أربعة شوارع واسعة. وهذا نظام جديد أتخذ لإصلاح المدن الإيرانية في السنوات الأخيرة وقف بنا السائق على فندق (مهما نخانه) في هذا الميدان فدخلنا إلى فناء واسع للسيارات وصعدنا في سلم إلى حجرات على مقربة منها منتدى (قهوة) فلم نرض هذه المجاورة، فنزلنا إلى فندق آخر بجانبه، ليس في المدينة سواهما. فاتخذنا حجرة لا بأس بها في مثل هذه المدينة، واسترحنا وطعمنا قليلاً ثم خرجنا نجول في البلد فلم نر شيئاً أكثر مما أحاطت به النظرة الأولى، ورأينا المدينة على صغرها وسذاجتها نظيفة جميلة
وبرحنا البلدة والساعة ثمان وأربعون دقيقة من صباح الثلاثاء رابع عشر رجب (23 أكتوبر) مسرعين صوب همذان نود أن نبلغ بأية وسيلة بغداد يوم الأربعاء لندرك قافلة السيارات التي تبرحها إلى دمشق صباح الخميس. بلغنا فخر آباد والساعة تسع. وقد استلفتتنا كثرة العمران والزروع على الطريق كما قلت من قبل، ووقفنا والساعة عشر على ضيعة اسمها زنكنة معروفة بجودة عسلها فأكلنا ونحن نقول إن لله دواء من العسل (مستعيذين من المثل القديم: إن لله جنوداً منها العسل). ثم وقفنا على ملايير (دولت آباد) والساعة إحدى عشرة فطلبت جوازات السفر للإطلاع عليها.
والمسافة بين سلطان آباد ودولت آباد 100 كيلو
وواصلنا السير تلقاء الغرب والشمال حتى بلغنا همذان والساعة واحدة بعد الظهر، فسرنا
في شارعها الكبير وجددنا العهد بمرقد الفيلسوف ابن سينا، ثم أوبنا إلى فندق يقوم عليه جماعة من الأرمن، والأرمن في إيران قومة الفنادق، تلقاهم في كل مدينة وقرية، وما نزلنا فندقاً أو مطعماً على طريقنا من طهران إلى حدود العراق إلا عرفنا صاحبه أرمنياً
وأعجلنا السفر عن الإقامة في همذان يوماً، فبرحناها بعد ساعتين سائرين شطر الجنوب للمبيت في كرمانشاهان، ونحن الآن على طريقنا التي سلكناها من قبل إلى

طهران فلا أعيد وصفها هنا. لما شرعنا نفرع الجبال جنوبي همذان أصاب مصدم السيارة خلل، فسقطت لوحة صغيرة كتب عليها جشن فردوسي (عيد الفردوسي) وقد علق مثلها على كل سيارة أعدت للسفر في حفلات الفردوسي، فوقفنا وبحث السائق فوجدها وفك المصدم فربطه خلف السيارة. وقد أدت هذه الحادثة الصغيرة إلى أن تأخرنا عن بلوغ بغداد يوم الأربعاء ففاتتنا قافلة الخميس كما يأتي. واجتزنا جبال أسد آباد وبلغنا كنكادر والساعة خمس وربع من المساء، وقد ذكرت هذه البلدة في طريقي إلى طهران. أزيد هنا أنا نزلنا فاسترحنا وشربنا الشاي وأكلنا البطيخ، وهو في إيران كثير لا يعدمه السائر حيثما سار، وخرجنا نمشي على الطريق ننتظر أن يعد السائق سيارته فإذا جماعة جالسون في عريش على جانب الجادة، فتقدم كبرهم فحيانا وقال إن في البلد آثاراً قديمة. أتريدون أن تروها؟. وعرفنا حينئذ انه حاكم البلد فسرنا لنرى الآثار وصحبنا الحاكم وجماعة من الموظفين فرأينا بلداً صغيراً فقيراً في وسطه أحجار ضخام وقطع من أعمدة كبيرة اختلطت بالدور، فقيل هذا أثر معبد قديم. واخترقنا بعض الدور وسرنا بضع دقائق فرأينا أحجاراً أخرى قيل لنا إنها من آثار المعبد نفسه. وكان معبداً للإلهة (أناهيتا) من آلهة الفرس القدماء بناه لها الاشكانيون، وكان أيام الفتح العربي مأوى اللصوص وقطاع الطريق فمن أجل هذا سموه قصر اللصوص قال ياقوت في المعجم: (قال صاحب الفتوح لما فتحت نهاوند سار جيش من جيوش المسلمين إلى همذان فنزلوا كنكور فسرقت دواب من دواب المسلمين فسمي يومئذ قصر اللصوص وبقي اسمه إلى الآن. . .) وقال مسعر بن مهلهل: (قصر اللصوص بناؤه عجيب جداً. وذلك أنه دكة من حجر ارتفاعها عن وجه الأرض نحو عشرين ذراعاً فيه إيوانات وجواسق وخزائن تتحير في بنائه وحسن نقوشه الأبصار. وكان هذا القصر معقل إبرويز ومسكنه ومنتزهه لكثرة صيده وعذوبة مائة، وحسن مروجه وصحاريه) تركنا كناكور والساعة ست. فما فارقنا ضوء النهار حتى نشر على الأرجاء بدر التمام أشعته، فسرنا في جبال وسهول حتى أشرف على الجادة جبل بيستون الشاهق وقد ذكرته من قبل وذكرت قصة فرهاد وشيرين التي لا يزال صداها طائراً في أرجائه ولما لاحت ذروة الجبل في ضوء القمر قلت: بيستون! ثم أنشدت:

لعل شيرين نصيب خسر وشد ... سنك بيهوده مي كند فرهاد

فأنشد السائق (صار لعل شيرين نصيب خسرو، وعبثاً يقطع فرهاد الحجر):

به بيستون كه رسيدم كرفت بارانم ... أكر غلط نكنم آب جشم فرهادست

ثم قال (.لما بلغتُ بيستون تساقط علي المطر، فان صدق ظني فتلك دموع فرهاد) السائق أتعرف قصة شيرين وفرهاد؟ فأحببت أن أسمعها منه، فقلت ما القصة؟ قال: (كان فرهاد راعياً لبرويز فرأى يوماً شيرين امرأة برويز فهام بها حباً وكان يظنها إحدى برويز فهام بها حباً وكان يظنها إحدى إماء الملك. ومرضت شيرين يوماً فقال الملك لفرهاد إن شئت أن أمنحك شيرين فانحت في الجبل قناة يسيل فيها اللبن من المرعى إلى القصر، فشق في الحجر قناة طولها فراسخ. فلما أبلت شيرين قال الملك لفرهاد بقي أن تبنى لها قصراً عظيماً. فنحت الأحجار وبني القصر. فلما خشي الملك أن يستنجره فرهاد وعده قال لمشيريه كيف الخلاص من فرهاد؟ فتطوعت امرأة عجوز بالحيلة وذهبت إلى فرهاد نائحة لاطمة. قال: ما خطبك؟ قالت: ماتت شيرين. فغشي عليه ومات لساعته، وخلصت شيرين لبرويز)

والقصة ذائعة في الأدب الفارسي، وقد نظمت مراراً وبلغ بها الشعراء آلاف الأبيات. فلما فرغ السائق من قصصه قلت: أنستطيع أن نرى أثر فرهاد في هذا الجبل؟ قال إنه عال، ولا يرى بالليل

بلغنا كرمانشاهان والساعة ثمان بعد أن قطعنا إليها من همذان 190 كيلاً. وأوينا إلى فندق اسمه (مهما نخانه بزرك) أي الفندق الكبير وهو فندق نظيف حسن النظام. واستأذن منا سائق السيارة أن يتأخر قليلاً غداً ريثما يصلح سيارته. ثم انصرف وأصبحنا ننتظر السائق فطال بنا الانتظار فذهبنا نمشي في المدينة، ثم ذهبنا إلى دار البريد فأبرقنا إلى وزير المعارف لنشكر له ما لقينا من حفاوة قبل أن نجتاز حدود إيران. ورجعنا

إلى الفندق فلم نجد السائق، وذهبنا نفتش عنه في الخانات حتى عثنا علياً مَكباً هو وبعض الصناع على إصلاح السيارة. ولم نستطع مغادرة كرمانشاهان إلا وقت الظهر.

فأيقنا أن سفرنا غداً إلى دمشق عسير أو محال. وجد بنا السير زهاء ساعتين فبلغنا شاه آباد، وقد ذكرتها من قبل، فنزلنا في فندق صغير فاسترحنا وطعمنا، ونشط أصحاب الفندق من الأرمن في خدمتنا فاستأنفنا السير بعد ساعة ومررنا بكرند وكده باطاق، وسربل ذهاب حتى بلغنا قصر شيرين والساعة خمس فتوقفنا هناك عشر دقائق. ثم تركناها نؤم حدود العراق

دخلنا حدود العراق والساعة ست، وقد غربت الشمس فلقينا الموظفون مرحبين ويسروا لنا السفر العاجل فسرنا إلى خانقين فعرجنا على دار السيد عبد القادر صالح معاون الجمارك لنسلم ونشكر له ضيافته حين مررنا بخانقين المرة الأولى

توجهنا إلى بغداد والساعة سبع من المساء، وأمامنا صحراء مشتبهة الأعلام، طامسة المناهج، ولكن مهارة السائق، وعلامات الطريق يسرت لنا بلوغ بعقوبة والساعة تسع، حين بلغ منا التعب مبلغه. وقفنا على منتدى في الطريق، ونزلنا فإذا صورة أم لثوم في صدر المكان. ولما عرف صاحب المنتدى أننا مصريون أسرع فأسمعنا غناءها. فشعرنا ونحن في العراق أن مصر قريب

ثم سرنا من بعقوبة فأدركنا شاب ينادي أن الطريق غير بينة فاحملوني لأدلكم. قلنا لا حاجة إليك. وأدركنا فارسان من العسس فقالا أمامكم صحراء لا تهتدون فيها إلى طريقكم. فخير لكم أن تبيتوا هنا، وهنا فندق نظيف. وإن شئتم فكلموا رئيس الشرطة ليرسل معكم دليلاً. وهذا الشاب إن حملتموه معكم لا يستطيع أن يهديكم الطريق. فأقسم الشاب أنه بها جد خبير، وأنه هدى من قبل كثيراً من المسافرين. فارتكبنا أهون الشرين وحملنا هذا الدليل معنا. ولم يكن له مكان في السيارة فركب على الرفرف

وسرنا فإذا الطريق واسعة لا حبة لا تحتاج إلى دليل. قلنا للدليل أكذلك طريقنا إلى بغداد؟ قال لا. فسرنا لا نستهديه ولا نبالي، إلا سؤالاً في الحين بعد الحين (هل نمت؟) فيقول لا، فنقول احذر أن تنام أو تقع فنضل في هذه الصحراء. فنعم الدليل أنت. لولا أن من الله بك علينا لهلكنا. ولسنا ننكر على دليلنا أنه كان حديثاً ممتعاً في الصحراء سميناه الدليل النائم،

واهتدينا به إلى الفكاهة وإن لم نهتد به إلى غاية؟

بلغنا مدينة السلام منتصف الليل فأوينا إلى الفندق وانصرف دليلنا ثم جاء صبحاً يطلب أجره فضحكنا وقلنا لخادم الفندق أبلغه أنا وهبنا له أجرة الركوب بما له من أجر الهداية فليذهب مأجوراً

(يتبع)

عبد الوهاب عزام

ضرورة الوحدة الأدبية بين مصر والسودان

بقلم التيجاني يوسف بشير

لن يكون مثل الأدب يصوغ الأمم على أسلوب واحد، ويصنع منها عقلية واحدة، ويقيم أساس وحدتها على الروح، وبناء مجتمعها على العاطفة، ودعامة ألفتها على الجمال، وقاعدة إخائها على الصدق، وصرح كيانها على يقظة الشعور، فلا يتزلزل ولا يضطرب ولن يكون مثل الأدب يوحد بين مشاعر الأمم، ويعين على توحيد المنافع، ويحقق من حلم الوحدة بما فيه من صور الفكر وجمال الفنون. ولا يمكن لها من ذلك إلا أن تعنى به فتوحد من الأساليب، وتوافق بين الإنتاج، وتقارب بين الأفكار ووجهة النظر إلى الكون والحياة، فمركز الأدب في وحدة الأمم مركز الفكرة في خلق الأدب، تؤسسه على القوة، وتبعثه على الجمال، وتنهضه على العاطفة، فيكسب من دقائقها في الصياغة والتعبير ما يأخذ على قاعدته الأمم فيهبها من دقائقه هو ما نأخذ به أفرادها على وحدة الشعور وجماعاتها على توحيد المصلحة. ولا أنفع لمصر ولا أجدى للسودان في سبيل وحدتهما الكبرى من أن يعني كلاهما بتقريب الفكر من بعضه، وتوجيهه بعد ذلك إلى منحى واحد، فتحقق الوحدة في كل شيء، ويستقيم لهما التواشج ويتم الامتزاج

فالأدب كان وما يزال أصدق ما يحمل إلى الفرد خصائص الفرد، وأقوى ما يعكس على الأمة مميزات الأمة، فيجمع بينهما في المشابه، ويوفق بينهما في الميول. وهو بما يدفع من جمال ويصور من لذة، وينقل من مثلٍ للاجتماع، وفروضٍ للإنسانية، وقوالب

للحياة، إنما يقتضي بما فيه من قوة الإيحاء أن يوحد من نظام الحياة في الشكل كما وحد بينه في الدخائل. وما فرضت أمة أدبها على أخرى إلا كان معنى ذلك أنها تفرض عليها النظام الذي تسير عليه، وتعين لها الحياة التي تؤمن بها، والغرض الذي ترمي إليه. فإذا جاءت مقاييس الأدب عندهما بمقدار واحد جاءت على وفق ذلك مصاير السياسة وأقيسة الحكم. وإن أوربا الآن لتبلغ بأدبها في الشرق ما جعل كثيراً من خصائص الحياة الغربية موزعة عليه بأوفى قسط وأوفره. وما كانت لتبلغ هذا المبلغ إلا بما يقوم به أدبها من بث صور الحياة العقلية في العالم. وعلى قدر ما فرضت أدبها على الشرق فرصت سيادتها عليه، وعلى قدر ما سنت له من أقيسة أدبها ومعايير الجمال فيه، كانت سياسة الحكم تنصب على
مقاييس بقدرها كثرة وتعداداً

وإن مصر لتتمتع منذ قرون بعيدة بأدب فيه من خصائص (المصري) وملازمات حياته ما يكفل لها أن تنتظم الشرق في وحدة أدبية تامة متى كان لها أن تعنى بذلك عناية خاصة، وأن تعمل في سبيله، فتقيم له المؤتمرات وتدعو إليها، وتنظم له المجامع وتبعث له البعثات، وتكون له في كل بلد (رابطة)، وتنشئ من أجله في كل قطر سوقاً، لتضمن لها في كل شعب حقوقاً. ولكن مصر لم تعمل لذلك حتى في ألزم شعب لها وألصقها به. وذلك هو السودان. . .

كلما فكرت في تعليل ذلك لم أجد ما يشفع لمصر في إفلات ما كان وما لا يزال يتهيأ لها أن تحقق فيه أن السودان قطعة من مصر يصح فيها ما يصح في مصر، ويجري على هذه ما يجري على تلك. ولا ينبغي أن نخادع أنفسنا في تقرير الحقائق، فان كل ما حصل لم يكن إلا نتيجة طبيعية لجهل مصر بالسودان وإغفالها بدأة بدء توثيق العلائق الأدبية والروحية بينهما، حتى لقد استغل سادتنا الإنجليز جهل مصر الفاضح بنا فوطدوا مصالحهم في السودان وانتزعوا منه كل ما يدل على مصر، إلا علماً ما تكاد تحس له بوجود. ولو قد كان لمصر أن تصرف عنايتها بعد عام 1924 إلى العلائق الأدبية وتنميتها لما اتسعت الهوة الفاصلة بين القطرين إلى هذا المدى، ولما قامت الموانع حتى دون أبسط شيء لا يغير من مجرى الحوادث بقليل. ولكن مصر لم يكن يهمها بعد ذلك أن تعود للتفكير فيما يجعل الوشيجة بينهما قوية على الحوادث، جديدة مع الأيام حتى ضرب الإنجليز ضربتهم القاضية، ووقفوا دون المصري والسوداني حتى عن معرفة ما ليس بد أن يعرفه كل عن أخيه، لأنهم - وقد استغلوا هذا الجهل - كانوا يعلمون أن ما ضربوا عليه من العلائق كان شيئاً لابد منه، فلا ينفيه الإنكار ولا يطمس عليه النسيان أو التغافل. ولهذا فهم أشد خشية أن يطلع أحد، وخاصة إن كان سودانياً على الحقيقة التي عبثوا بها. على وجود الصلات التي دفنت حيةً بعد أن جهدوا في خنقها، ولكنها كانت أطول نفساً وأكثر حيوية أن تموت، على روابط صنعها الله وأحكم في توثيقها، ولا حل لما عقد؛ وكانوا موفقين فيما أرادوا من تفرقة، حتى لقد حاولوا بما يبثون ويذيعون من ضروب الإرهاب وألوان النكال أن يجعلوا اسم مصر بعد عام 24 شيئاً لا تسوغ القوانين النطق به، وكلما شددوا في النكير وأمعنوا في المنع، كان اسمها أشد إغراء وأكثر جاذبية وأقوى على لفت النظر، وحمل عامة الناس أن يبحثوا عن السر الغامض الذي يأبى عليهم الإنجليز الاتصال به. ومصر - ألا سامح الله مصر - مع هذا كله لم يكن يهمها أن تعرف عن السودان شيئاً وهي تطالب بكل ما فيه. . .!

والآن. . . . لقد بلغ الإنجليز ما أرادوا. وضربت يد الغدر والمطامع على كل شيء، حتى لتوشك أن تضرب على النيل فيتزلزل فينفلق فلا يعود يعرف أين تكون مصر. ولقد طالما عبثت الأطماع بما بين مصر والسودان من ألفة وتعاطف، وأفسد الاستعمار هنا - في السودان - والحماية هناك ما بين هذين القطرين من روابط وصلات كلها بر وكلها رحمة. . . الآن لقد تم لهم ما أرادوا، ففرقوا وباعدوا، وأغربوا في التفرقة، وأفلحوا في مغالطة الحقائق الطبيعية، وتنكروا لخرائط الجغرافيين، وكابروا وخادعوا أن يكون شيء من هذا جديراً أن يحملهم على الاعتراف بخطئهم فيما حاولوا أن يطمسوا عليه من صلات كانت مصر هي في الحق أول من أغفل العمل في توثيقها والعناية بها، فماذا تفعل الآن. . . .؟

نحن نطل اليوم على عهد جديد تأخذ العلائق فيه صوراً جديدة فيها من صحة المعرفة

وحسن التفاهم ما يملؤنا ثقة بالمستقبل وإيماناً به، وشعوراً بالوحدة والعمل لها في جميع ما تقضي به مصالح القطرين، وفي كل ما لا ينبغي إلا أن يكونا متحدين في بطيعة (الجوار) إذا لم يكن إلا هذا ما يملي بوجوب هذه الوحدة في اتجاه الحس والشعور، وفي تبادل المنافع والمصالح. وأما وقد كان هناك من مستلزمات الوحدة ما يجعل الجوار في آخر قائمة العلائق من لغة ودين وأدب وعروبة ونيل زاخرٍ هادرٍ متدفق يصور الرباط المقدس بين بلدين أشد ما يكونان تلازماً وارتباطاً. أما وقد كان كل ذلك فقد توفرت بواعث توحيد الأمتين كما يتوحد النيل قطرةً إلى قطرةٍ وموجةً إلى أخرى وفياً إلى فيض. ولكن على أي أساس يقوم؟ إن شيئاً من سيرة مصر الأولى في السودان لن يعود إليها والحالة كما هي من تفكك في علائق الأدب وتباينٍ في وجهة التفكير - هذا كلام صريح لا مكان فيه للتأويل - وإنا لنرى قبل ل شيء أن تقوم الصلات على الأدب في بعض ما تقوم عليه، ولن يمر على ذلك عهد إلا ويجيء من بعده ما يكفل للقطرين الشقيقين أن يدفقا على مجرى واحد كما يفعل النيل. لا أن تظل نقرأ ونسمع بإلحاح مصر في سبيل السودان، فنعجب لها وهي لا تعرف عنا شيئاً صحيحاً. فان من الخير لنا ولا أن نلتقي الآن على الفكر ونتصل على الأدب من أن نظل هكذا لا صلتُنا بصلة ولا تعارفنا بتعارف، ولا انفصالنا بانفصال. ففي مصر (روابط) للأدب وفيها مجامع للعلم، وعندها شباب مثقف، وفيها صحف كثيرة، فكم هو أنفع لها وأجدى للسودان أن تعنى صحفها بشئونه فتأخذها بالمعالجة، وتكب عليها بالدرس، وتتناول أدبه بالنقد والتحليل فتقارب بين الأدبين وتلائم بين الذوقين. وكم هو خير لنا ولها وأكفل للوحدة، وأبقى على المعرفة أن تبعث البعوث العلمية والأدبية - والاقتصادية كما فعلت الآن - فتحقق من حلم الوحدة بالعمل، وتخرج بأقوالها إلى التنفيذ

ام درمان - سودان

التيجاني يوسف بشير

الأنتكيرة هي أنكلتيرة

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

نعود إلى الكتابة في هذا الموضوع مقتنعين بعد مراجعات طويلة بصحة رأينا أن الأنتكيرة في النص الذي نقلناه عن لسان الدين بن الخطيب في كتابة (الإحاطة) هب انكلتيرة وهي بالقاف بدل الكاف (انتقيرة) اسم مدينة ذكرها ياقوت في معجمه، فقال إنها حصن بين مالقة وغرناطة. ومنها أبو بكر يحيى بن محمد بن يحي الأنصاري الحكيم الانتقيري من أصحاب غانم، روي عنه إبراهيم بن عبد القادر بن شنيع إنشادات قال: كنا مع العجوز الشاعرة المعروفة بابنة ابن السكان المالقية، فمر علينا غراب طائر فسألناها أن تصفه فقالت على البديهة:

ملا غراب بنا ... يمسح وجه الربى

قلتُ له مرحباً ... يا لون شعر الصبا

وقد ذكر القلقشندي في صبح الأعشى (ص 269 ج5) الحادثة التي ذكرها لسان الدين بن الخطيب، فقال إنه لما هلك الهُنْشة بن بطرة سنة 751هـ في الطاعون الجارف ولي ابنه بطرة، وفر ابنه القمط إلى بَرْشَلونة، فاستجاش صاحبها على أخيه بطرة فأجابه، وزحف إليه بطرة فاستولى على كثير من بلاده، ثم كان الغلب لقمط سنة 768هـ، واستولى على بلاد قشتالة، وزحفت إليهم أمم النصرانية، ولحق بطرة بأمم الفرنج الذين وراء قشتالة في الجوف بجهة الليمانية وبرطانية إلى ساحل البحر الأخضر وجزائره، فزوج بنته من أبن ملكهم الأعظم المعروف بالبنس غالس وأمده بأمم لا تحصى، فملك قشتالة والقرنتيرة، واتصلت الحرب بعد ذلك بين بطرة وأخيه القمط، إلى أن غلبة القمط وقتله سنة 772هـ واستولى القمط على ملك بني أدفونس أجمع، واستقام له أمر قشتالة، ونازعه البنس غالس مالك الإفرنجة بابنه الذي هو من بنت بطرة، وطلب له الملك على عادتهم في تمليك ابن البت، واتصلت الحرب بينهما، وشغله ذلك عن المسلمين، فامتنعوا عن أداء الإتاوة التي كانوا يؤدونها إلى من كان قبله، وهلك القمط سنة 781هـ

وهذا النص الذي ذكره القلقشندي فيه ما يمكن به الاهتداء في أمر أمة الأنتكيرة التي وصفها لسان الدين بن الخطيب، ولكن فيه غموضاً في سرد تلك الحوادث لبعدها عن

القلقشندي، وقد كانت حوادث جديدة في عصره لم يتقرر أمرها ولم تدون في كتاب من كتب القوم الذين كانت في بلادهم وقائعها
وإنا نسوق من تاريخ هؤلاء القوم الحوادث التي اكتنفت هذه الحوادث التي وردت في ذينك الكتابين (الإحاطة) ز (صبح الأعشى) معتمدين في ذلك على كتاب تاريخ ملوك فرنسا لمونيغورس الفرنسي من مؤرخي القرن التاسع عشر الميلادي، وعلى كتاب تاريخ إنجلترا الجورجي زيدان
كان أدورد الثاني ملك إنجلترا زوجاً لايزابيلة أخت كرلوس ملك فرنسا (1322 - 1328م) فأرسل إليه أدورد الثاني ابنه برنس غالس ليهدي إلى فرنسة دوقية غيانة، فسافر إلى فرنسا وأدى ما كلفه به والده
ثم انقضى عهد أدورد الثاني على إنجلترا، وقام بعده ابنه أدورد الثالث وهو ابن إيزابيلة أخت كرلوس ملك فرنسة، وكان كرلوس قد توفي وقام بعده على ملك فرنسة ابن عمه فيلبس دوولواس، فنازعه أدورد الثالث هذا الملك، ورأى أنه أحق به منه لأنه ابن أخت كرلوس، وأما فيلبس فليس هو إلا ابن عمه، وقد أعان أدورد الفلمند على فليبس وحملهم على مبايعته بملك فرنسة سنة 1340م، ويقال إنه في ذلك الحين تقلب ملوك إنجلترا بملوك فرنسة وحملوا أسلحتهم
ثم اتصلت الحروب بين أدورد الثالث وملوك فرنسة، وقد أرسل إليها ابنه أدورد برنس غالس (أوف ويلس) وكان يعرف بالأمير الأسود لسواد دروعه وأسلحته فاستولى على بعض أقاليمها، وأسر ملكها يوحنا لوبون سنة 1355م ثم أقام فيها حاكماً عليها، وقد بعث في مدة إقامته بها حملة إلى أسبانيا لمساعدة بيدرو الظالم فتحمل بسببها ديوناً كثيرة أدت إلى اعتلال صحته، ثم حارب محاربة أخرى فاز بها، ولكنه لم ينل جزاء عليها، ثم حدث ما ألجأه إلى السفر إلى إنجلترا، فمات بها عن ولد اسمه ريكاردوس فضعفت شوكة إنجلترا في فرنسو، ولم يبق إلا قليل منها في طاعة أدورد الثالث، وقد أثر فيه موت ابنه حتى مات حزناً عليه سنة 1376م بعد وفاة ابنه بسنة وخلفه ورتشرد الثاني (ريكاردوس) ابن الأمير الأسود وهو ابن اثنتي عشرة سنة، وكان قد قام في فرنسة كرلوس الخامس (1364 - 1380م) واستعان في أمره بالفارس المعروف (براتراندد غسقلين) وما زال يترقى هذا
الفارس حتى صار أمير الجيوش الفرنسية، وجرت له حروب مع الإنجليز أسروه فيها ثم ردوه إلى بلاده، فأرسله كرلوس إلى إسبانيا سنة 1366م ليعاقب بطرس لوكريل (الجبار) ملك قسطيلة (قشتالة)، وكانت رعيته قد كرهته، وثقل ظلمه عليها، فخلعه وولى بدله أخاه هنري داتر نستمارة، وقد اصطحب دغلسقين معه في تلك الغزوة عصابات من الجنود التي كانت قائمة بحفظ البلاد الفرنسية التي تركت للإنكليز، فلما انقضت مهمتهم تجمعوا أحزاباً، وصاروا يعيثون في أرض فرنسة، فأنقذها دغسقلين منهم بأخذهم معه إلى إسبانيا وإلحاقهم بجند هنري الذي أقامه ملكاً عليها
وكان يعاصر ملوك فرنسة وإنكلترا المذكورين من ملوك قشتالة الفونس الحادي عشر (1312 - 1350م) وبيدرو (135 - 1368م) وهنري الثاني (1368 - 1379م) ولا شك أن الفونس الحادي عشر هو الهنشة ابن بطرة الذي ذكر القلقشندي أنه مات في الطاعون الجارف سنة 751هـ وهي توافق سنة 135م، وأن بيدرو هو بطرة بن الهنشة الذي ملك بعد أبيه في هذه السنة إلى أن قتل سنة 772هـ على ما ذكره القلقشندي وهي توافق سنة 1370ن، ولعل قتله كان سنة 770هـ لأنها هي السنة التي توافق سنة 1368م، وأن هنري الثاني هو أخوه القمط الذي ذكر القلقشندي أنه مات سنة 781هـ وهي توافق سنة 1379م
وقد كانت المنافسة قائمة في ذلك العصر بين فرنسة وإنجلترا، ولكل من الدولتين أنصار من الدول الأوربية، وكانت أحوال السياسة ف هذا العصر قائمة على هذه المنافسة، فلما قان النزاع على ملك أسبانيا بين ابني الفونس الحادي عشر (بيدرو وهنري) أنضم بيدرو إلى إنجلترا، وانضم هنري إلى فرنسة، ولا شك أن تلك الحملة الفرنسية التي أرسلها كرلوس الخامس فرنسة كانت من المساعدات التي لقيها هنري (القمط) حينما التجأ إلى ملك برشلونة، فأمده بجيش من عنده وزحف على أخيه بأمم من النصرانية كان منها تلك الحملة الفرنسية لأن تاريخها الميلادي (1366م) يوافق السنة الهجرية التي ذكر القلقشندي أن القمط تغلب فيها على أخيه بطرة (سنة

768هـ)
أما الإنكليزية التي وجهها لبرنس غالس (أوف ويلس) إلى أسبانيا حينما التجأ إليه بطرة بن الهنشة فكانت بعد الحملة الفرنسية السابقة وبها تمكن بطرة من خلع أخيه القمط والاستيلاء
على ملك أسبانيا إلى أن قتله أخوه القمط سنة 772هـ أو سنة 1368م والفرق بينهما سنتان على ما قدمنا، وجنوده هذه الحملة هي جنود الانتكيرة التي أعجب ابن الخطيب في كتاب (الإحاطة) بقتالها، ولا يصح بعد هذا شك في أن الأنتكيرة هي أنكلتيرة كما هو رأينا

تتمة
المدح والغزل أهم ما طرقه من الأغراض، أما الوصف فانه يأتي عرضاً غير مقصود، وقد وصف لنا ما تبتهج به نفسه من مُتع كما ذكرنا، وأما الرثاء فهو جيد وإن كان قليلاً، وهو يجيد الرثاء والعزاء، استمع إليه حين يرثي ويعزي قائلاً:
الناس للموت كخيل الطراد ... فالسابق السابق منها الجواد
والموت نقاد، على كفه ... جواهر يختار منها الجياد
مصيبة أذكت قلوب الورى ... كأنما في كل قلب زناد
يا ثالث السبطين خلفتني ... أهيم من همي في كل واد
ويا ضجيع الترب أقلقتني ... كأنما فرشي شوك القتاد
دفنت في الترب ولو أنصفوا ... ما كنت إلا في صميم الفؤاد
خليفة الله اصطبر واحتسب ... فما وهى البيت وأنت العماد
في العلم والحلم بكم يقتدي ... إذا دجا الخطب وضل الرشاد
ولعل الظروف التي أحاطت به لم تلجئه إلى الهجاء، ولذ لا نعثر عليه فيما بين أيدينا من شعر

يمتاز شعر ابن النبيه بالسهولة والرقة والعذوبة، سهولة تذكرنا بديباجة البحتري العذبة في نقاء والسلسة في امتناع، وهو مع سهولته يرتفع عن الأسلوب العامي إلا في النادر جداً، حين يجد التعبير العامي هو التعبير الذي يؤدي المعنى الكامن في نفسه تماماً، ولكنه مع ذلك يهذبه ويشذب أطرافه حتى يعلو ويرتفع. وهناك ظاهرتان أخريان فيه: أولاهما استخدامه كثيراً من الكلمات الفارسية في شعره، ولعل لمعيشته بالجزيرة وقربه من بلاد الفرس، ولحبه التجديد والتظرف أثراً في ذلك كبيراً، فأنت تسمع في شعره كلمة الملاذ
معرب اللاد وهو قماش حرير لطيف جداً، وتسمع كلمة الكلهبند وهي مركبة من كله وهو اسم لما يلبس فوق الرأس وبند وهي بمعنى رابط، ومجموعهما اسم لما يشد به ما على الرأس إلى الذقن لئلا يقع، ويستعمل كلمة جوكانه بمعنى صولجانة وغير ذلك.
وأخراهما ما تراه في شعره كما تراه في شعر غيره من المصريين من حب للبديع وافتتان بأنواعه وفنونه؛ ولقد أغرم شاعرنا بتلك الأنواع البديعية، ولاسيما الطباق والاقتباس وحسن التعليل واللف والنشر ومراعاة النظير والجناس والتلميح، كقوله:
تبسم عن منظوم در، فان ... تكلمت جاءت بمنثور
وقوله:
إن جنحوا للسلم فاجنح لها ... ما خدع الحرب بتقصير
وقوله يصف الخمر:
بكر إذا ابن سماء مسها لبست ... ثوب الحباب حياء منه واتشحت
وقوله:
فالناس بين بنانه وبيانه ... في نعمتين رغائب وغرائب
وقوله:
عزيز يوسفي الحس ... ن لم يُشر ولم يسجن

قد ابيضت به عيني ... وللمهجور أن يحزن
ولقد كان حينما يمدح القاضي الفاضل يتأنق ويجتهد الاجتهاد كله في الصناعة اللفظية شأنه في ذلك شأن غيره ممن اتصل بالقاضي ومدحه، ولقد نظم فيه قصيدة استخدم الاقتباس في كل أبياتها واقتبس من سورة المزمل إذ قال:
قمت ليل الصدود إلا قليلا ... ثم رتلت ذكرهم ترتيلا
ووصلت السهاد أقبح وصل ... وهجرت الرقاد هجراً جميلا
مسمعي كل عن كلام عذولي ... حين ألقي إليه قولاً ثقيلا
وفؤاد قد كان بين ضلوعي ... أخذته الأحباب أخذاً وبيلا
قل لراقي الجفون إن لعيني ... في بحار الدموع سبحاً طويلا الخ
وعلى هذا المنوال نسج قصيدته، وذلك غير مستغرب على رجل يخاطب القاضي الفاضل
الذي كان زعيم الطريقة التي تعني بالصناعة والبديع. غير أنه لا ينبغي أن نظن أن استخدامه البديع أضاع من جمال الشعر أو حط من قيمته، فشاعرنا لبق يجيد استخدام البديع من غير أن يؤثر في جمال الشعر وروعته. هذا ولشاعرنا بعض موشحات ليست بقوية ولا رائعة، وهي أضعف من شعره العادي، وأحدها ينطق بدون إعراب، ولعل محاولته في الموشحات لم تنجح فانصرف عنها ولم يكثر من الموشحات، كما أنه خرج على أوزان الشعر العربي القديم قليلاً حينما كان يقول شعراً من الدوبيت، وهو وزن لم يستعمله العرب القدماء وغنما اخترعه المولدون

فاتني أن أذكر لك اسم شاعرنا، وأنه أبو الحسن علي بن الحسن بن يوسف بن يحيى، ويلقب بكمال الدين، ويكنى بابن النبيه، وفاتني أن أقول لك: إنه كان حاضر البديهة حسن التعليل، ويذكرون من ذلك أنه رأى الأشرف يوماً يرتعش بالحمى، فنظم على البديهة وأنشده:
تباً لَحماك التي ... كست فؤادي ولها!
هل سألتك حاجة ... فأنت تهتز لها؟
ومرة انكسر يراع الأشرف وهو يكتب فالتمس غيره فلم يجد فقاله له: أقلامك يا كمال قليلة، فنظم ارتجالاً قوله:
قال الملك الأشرف قولاً رشداً=أقلامك يا كمال قلت عددا
ناديت لطول كتب ما تطلقه ... تحفى وتقط فهي تفنى أبدا
ومرة غُنى بين يدي الملك العزيز دوبيت بالعجمية معناه أنه جعل الليل برد دارا للحبيب ليحجب الشمس، فاستحسن المعنى وأرسل إلى وزيره أن يأمر الشعراء بالعمل في ذلك، فأنشد كل منهم ما ورد عليه، ودخل ابن النبيه على الوزير، فطلب منه أن يعمل في ذلك، فاستمهله فأبى فقال:
قلت لليل إذ حباني حبيباً ... وغناء يسبي النهى وعقارا
أنت ياليل حاجبي فامنع الصبـح وكن أنت يا دجى برد دارا
وبرد دارا فارسي معرب معناه الحاجب، والغناء بالفارسية قد يفسر لنا وجهاً من الوجوه
التي أدخلت الكلمات الفارسية في شعر ابن النبيه، ولسرعة بديهته تلك كان الملك الأشرف كثيراً ما يطلب منه قول الشعر ارتجالاً في أي موضوع يعن له
سكن ابن النبيه نصيبين، وهي مدينة في شال الجزيرة بعد أن غادر مصر، وبعد نحو ستين عاماً من مولده (إذ أنا نعلم تاريخ ميلاده على وجه التعين) مات ابن النبيه في اليوم الحادي والعشرين من جمادي الأولى سنة تسع عشرة وستمائة
(تم البحث)
أحمد أحمد بدوي
صور من أدب السودان
قصيدة نقدية
للأستاذ عبد الله عبد الرحمن
العروبة
تنكر من وادي العروبة مورد ... فلا الزهر مُفتر ولا الغضن أملدُ

ولا ماؤه ينساب بين رياضة ... ولا الطير في أفنانهن تغرد
وقفتُ على الوادي مليا فهزني ... وبدد شملي شمله المتبدد
مضى متنبيه وحسان دوحه ... وغاب معريه الحكيم المجدد
أسائله: أين الذين تحدثوا ... اليك وفي هذا المكان ترددوا
على ظلك الضافي جلوس وكلما ... أهاب بهم داعي السماحة أنشدوا
أحمد زكي باشا
كأن لم يكن شيخ العروبة نازلاً ... به ولهاً من علمه متزود
زكي! نصير العرب في كل موطن ... بهول، وماضيها الذي تتقلد
عليك سلام الله أحمدُ، هامداً، ... وأستغفر المولى، فما الفضل يهمد
وكان الرجال العبقريون إن قضوا ... بما لهمُ من شامل النفع خلدوا
لقد كنت برا بالعروبة كلها ... وفي نصرها قد كنت لا تتردد
إذ طلع الغرب الحديث بآية ... من العلم كبرى وازدهاه التفرد
عمدت التاريخ تسأله حكمه ... وأثبت أن العرب من قبل مهدوا
فساحوا وطاروا في السماء ويممت ... سفينهم الكونَ الجديد وأصعدوا
الفوضى
وفوضى على الأكوان جرت ذيولها ... وبات يعانيها مَسود وسيد
مظاهرها في كل نادٍ، وإنما ... عواقبها موت الشعور المؤكد
فشت في زمان فاض غدراً بأهله ... ودب إلى آدابهم فيه مُرقد
لنا لغة أما بنوها فأنكروا ... فضائلها والمنكر الحق ملحد
همو جهلوا منها علوماً كثيرة ... وفاتهمو منها المعين المجدد
وما قدروها في اللغى حق قدرها ... وكانوا أناساً للأباعد أخلدوا
وآياتها في كل يوم وليلة ... تثنى، ولكن بالمحامد تفرد
أرادوا، وظلم ما أرادوه بين، ... بما لم يكونوا فاعلين ليحمدوا
إذا نظروا للأقدمين مقالة ... ولم يفهموا، قالوا: كلام معقد
وإن لمتهم يوماً أشاحوا بوجههم ... وأرغوا كما يرغى البعير وأزبدوا
همو زعموا أن الزمان مؤخرٌ - وما لزمان في تأخرنا يد
ولكنه لما وهى حبل خُلقنا ... مشينا كما يمشي الأسير المقيد
لقد مُنيت أم اللغات بفتيةٍ ... طعام على أعلامها تتمرد
وقد أشربوا حب الأعاجم فانبروا ... إلى هذه الفصحى سهاماً تسدد
تواصوا بسرٍ وهو كتمان فضلها ... وقالوا بأنا معشر لا تقلد
وقالوا لقد ضاقت عن العصر حاجها ... وفي وجهها باب الثقافة يوصد
وقالوا بأنا أنجبتنا معاهد ... وأوحت إلينا يا بني العصر جددوا
وما هو تجديد فنكبر أمره ... ولن دعاوى منهمو وتزيد
وهل ينبغي التجديد إلا لعالمٍ ... له في فنون الضاد رأي مسدد؟
قضى زمناً في البحث والدرس جاهداً ... فقرت له الفصحى بما هو مَورد
حوى قصبات السبق في جيله وهل ... حوى قصبات السبق كسلان قُعْدُد
أقول لمن قالوا شهدت لها وقد ... تغاليتَ فيها. لكن الله يشهد
وهل كان إلا الله داع لرفعها ... وبنائها إلا النبي محمد
أرى الخرق يزداد أتساعاً بثوبها ... وعارٌ علينا ثوبها يتقدد
تمسك قوم بالجديد فاتهموا ... وعُلق بالعادي قوم فأنجدوا
وبين الفريقين استحرت كما ترى ... حروب. وخوفي أنها ليس تخمد
فما لبني الضاد الكريم تفرقت ... بهم سبل والحق لا يتعدد
ومرشدهم ضل الطريق فما عسى ... يكون سوى الخسران إن ضل مرشد؟
الشعر
لعمرك إن الشعر أضحى مخنثاً ... قوافيه من تحنانها تتأود
وأصبح غثاً في الركاكة ضارباً ... بسهم، وعما سنت العُرب يبعد
وأمعن في لين وبخس مطالبٍ ... وكاد على أيدي التشاعر يجمد
لقد خمدت بالقوم نار حميةٍ ... تلظى، وخوفي أنها ليس توقد
فحتى متى تغفى الجفون على القذى ... وحتى متى نُعنى بما ليس يحمد

إذا ما أسود الغاب خلت ذئابها ... تعيث فان الحرث والنسل يفسد
لقد هاجني أني أرى الروض باسما ... ولست أرى فيه بلابل تغرد
وقد هاجني أني أرى الربع مقفراً ... وليست له أنفاسنا تتصعد
إذا الشعر لم يترك بقلبك روعة ... فلا هو سيار ولا هو جيد
وإن هو لم ينهض بأعباء أمةٍ ... فذاك هراء ميت قبل ينشد
وإن أنت لم تذعن لآيات سحره ... فقل إنني بين الخلائق جلمد؟
إذا ما شياطين النفاق تمردت ... بأرض فباسم الشعر في الأرض تطرد
كتاب العصر
ولا أكذب الرحمن، في العصر أنجم ... حماة لها، من غيرة تتوقد
وصيابة أدت أمانة قومها ... وقامت على ضوء (الرسالة) ترشد
يطالعنا (الزيات) فيها بنافعٍ ... من القول لا يطغى ولا يتقيد
في أثوابه أي كاتبٍ ... خصيب إلى خير الأساليب يعمد (وهيكل)
ولله طه بن الحسين فانه ... على نثره الفذ الخناصر تعقد
وان تذكر الكتاب فاذكر غريبهم ... (شكيباً) ففي آثاره ما يخلد
حمى حوزة الدين الحنيف وغادرت ... جواثبه الدنيا تقوم وتقعد
شعراء العصر
يسمو للخيال مصعيداً ... فيألفه وحشية المتأبد (ومطران)
ويعجبني شعر (الهراوي) فإنه ... رصين قويم ليس فيه تجعد
جميل الزهاوي والرصافي كلاهما ... هو اليم في آذيه يتزبد
أقاما بأرض الرافدين ليرفدا ... وودا لو أن الناس طرا تبغددوا
السودان
وكانت لنا في غابر الأمس نهضة ... مباركة لا اللهو منها ولا الدد
فعبد الرءوف و (الخطيب) كلاهما ... له بيننا الفضل الذي ليس يجُحد
هما حركا منا النفوس وأنشرا ... علوماً على أضوائها اليوم نصعد
وقد طالما هزا النفوس بطيب ... من القول يرضاه الوليد وأحمد
ولاحا على الخرطوم نجمي مغارفٍ ... به وعوادي الدهر إذ ذاك تولد
وفي اليوم قد شابت وشب وليدها ... ومارسها منا كبير وأمرد
وذلك عهد قد سعدنا بظله ... لو أن الكريم الحرفي الدهر يسعد
فآليت لا أنسى له فضل نعمة ... علي، وللإحسان مني ممجد
أولئكم الكتاب آساس نهضة ... وكنز ثمين للثقافة يرفد
هم العائشون في نفوس كثيرةٍ ... وفي كل قطر من صنائعهم يد
تخيرتهم بين الأنام لفضلهم ... وأكبرتهم إن كنت للناس أنقد
إلى العرب
بني العرب في السودان والشرق كله ... بكم ولكم يوري زنادي ويصلد
أفيقوا فان الوقت سيق مجرد ... عليكم ووقت الناس في الغرب عسجد
إذا لم نشخص داءنا فدواؤنا عسير وفي إغفاله ما يهدد
يهدد نهضات بدت في شبابنا ... جديداً وخوفي أنها سوف ترقد
علوم اللسان لو علمتم كثيرة ... وفي جهلها ترك لما هو أوكد
وأولها أن تروي الشعر ناصعاً ... عن العرب لا يسمو إليه المولد
وأن تقتل الألفاظ فهماً وتنتقي ... أحاسنها يوم الكتابة تقصد
فيا ليت شعري هل ملأتم وطابكم ... من العلم حتى تكرموا وتمجدوا؟
هلموا نوادي العلم في كل بلدة ... تقول لكم إن الطريق معبد
إلى حاملي الأقلام من كل ملة ... إلى العرب في أي الأماكن توجد
نظمت لكم مما أحس قوافيا ... لعل أماني اليوم يأتي بها الغد
وهيهات يسمو للكرامة في الورى ... أديب عن الإنتاج في الفن يقعد
فان تنصروا العرب الأكارم تنصروا ... وإن تخذلوها فالبقية تفقد
أناس متى ما تطلب مشبهاً لهم ... طلبت من الأشياء ما ليس يوجد
الخرطوم - سودان
عبد الله عبد الرحمن

قصة أميرة مصرية
للأديب حسين شوقي

جلس الإله أوزيريس قاضي قضاة (الأمنتي) وهو الذي يحاسب الموتى في أعمالهم في الحياة الدنيا، إلى مكتبه يراجع ملفات بعض الموتى، وكانت نافذة المكتب تشرف على حدائق (الأورو) الغناء حيث حجم الزهور أضعاف حجم زهورنا الأرضية، ولكن أوزيريس لم يبال المنظر الجميل الذي أمامه، لأنه كان مشغولاً بمراجعة قضايا الموتى، وقد استلفت نظره على وجه خاص الملف الآتي، وهو لخادم شاب من أهالي منفيس. يقول صاحب الملف:

. . .أنا (سبدو) بن (واخ) كنتُ خادماً في قصر الأميرة العظيمة تتا بمنفيس

أي أوزيريس! سيد (الأمنتي) إني أنشر قصتي بين يديك: أنا (سبدو) بن (واخ) هربتُ من المدينة وذهبت إلى الصحراء، حيث قتلت نفسي بيدي لتأكل جسدي الوحوش حتى لا أبعث، لأني لا أرغب في هذا البعث، بل لا أستحقه . .

وكتبتُ هذه الوثيقة خشية أن أبعث على الرغم مني، وذلك بأن يعثر البدو على جسدي قبل أن تفترسه الوحوش فيحنطوه شفقة منهم. . . فإذا بُعثتُ أي أوزيريس! فعاقبني أشد العقاب. . .

إن أقاربي يستطيعون أن يقدموا إليك القرابين ابتغاء مرضاتك والتماس عفوك، ولكن لا تسمع إلى توسلاتهم، لأني مذنب شديد الذنب لا أستحق الشفقة. . .

كنتُ بستانياً لدى الأميرة تتا، وهي سيدة عظيمة تعيش بقصرها في عزلة عن العالم منذ أن فقدت زوجها في إحدى الحروب النوبية، ولم تكن لها تسلية غير ابنتها (شفيت)، وهي فتاة جذابة خلابة نضيرة، أشبه بزهرة اللوتس عندما تتفتح في الفجر . .

. . .

لقد أحببتها لأول وهلة. . إن قلبي كاد يثب من صدري حينما دنوت منها يوماً في الحديقة، وقد نزلت الأميرة تقطف بعض الزهور التي تحبها، وليس غريباً أن تحب الأميرة الزهور، فهي شبيهة بها في نضارتها. . . ساعدتها في القطف حتى لا يدمي الشوك أناملها الطفلة. . . شكرتني الأميرة الصغيرة في ذلك اليوم بابتسامة ساحرة دون أن تنظر إلي، لأني حقير ممعن في الحقارة بالنسبة إليها، وكنتُ فوق ذلك دميماً بل دميماً جداً. . .

أي أوزيريس! كم عذبني الحب! إن شياطينك القادرة لم يكن في استطاعتها أن تفعل بي مثل ما فعل الحب. . .

. .كنت أقضي الليل مؤرقاً، بل مختبئاً وراء الأشجار عند نافذة الأميرة، أتلمس رؤيتها كم ليال لذعني فيها البرد القارس وأنا في مخبئي أشتهي ضم ذلك الإنسان الجميل، ولكن بلا أمل، كما يشتهي الهر ضوء القمر وهو منعكس على المستنقع، وقد حسبه لبناً في طبق. . .!

ولقد أصبت بغيرة شديدة من جراء هذا الحب. . بلغ من غيرتي على الأميرة أني كنت أغضب حينما تنظر هي من نافذتها إلى القمر، لأني تخيلت أن القمر يبتسم لها ويغازلها. . صعقت يوماً بنبأ خِطبة الأميرة إلى أحد أقارب فرعون. . . فكرت في أول الأمر أن أقتل نفسي، ولكن الغيرة التي أنشبت مخاليبها في قلبي، أمرتني بقتل الأميرة قبل أن أقتل نفسي، حتى لا ينعم بها أحد. . .

وإليك أوزيريس كيف نفذت جريمتي:

نزلت الأميرة يوماً إلى الحديقة تقطف زهراً، فدنوت منها أساعدها وقلت:

اميرتي، إن عندي سراً عظيماً، هل تأذنين لي أن أفضي به إلي؟

قالت في شيء من الاهتمام: وما هذا السر؟

قلت: عثرت على كنز عظيم يحوي أساور من الذهب، وأقراطاً من الفضة، وخواتم من اللازورد. . . فقاطعتني قائلة في اهتمام شديد هذه المرة، لأن للنساء ضعفاً أمام الحلي كما تعلم

- وأين الكنز؟ إلي به!

قلت: إذا شئت يا أميرتي ذهبت بك إليه.

قالت: وهل مكانه بعيد؟

- قلت: كلا! إنه على مسافة قليلة من القصر

قالت: أين هو؟
قلت: في الصحراء
. .قالت: لنذهب على الفور، اذهب فناد وصيفتي لتصطحبنا
قلت: أرجو أن تأتي وحدك يا سيدتي، إذ يجب أن يبقي أمر الكنز مكتوباً، لأن فرعون لو علم به استولى عليه؟؟
. .قالت: إذن هيا بنا
سرنا في الطريق، وكنت أثناء المسير أود أن أضمنها إلي، ولكن كان لجمالها روعة نهتني عن ذلك. .
ولما بلغنا مكاناً خالياً في الصحراء، أدخلت الأميرة في نفق حفرته بالأمس على سعة مقبرة في جانب الجبل، ثم قلت: إليك الكنز! ولما دخلت الأميرة متشوقة إلى رؤيته، أغلقت عليها النفق بحجر ضخم كنت أعددته بالأمس أيضاً لهذا الغرض، ثم غادرت المكان تواً حتى لا تضعف نفسي في آخر لحظة فأعود عليها. . هاهو ذا جرمي أي أوزيريس! ولكني تمكنت من أن أحرم أي إنسان مساسها والتمتع بها، حتى أنتم معشر الآلهة حلت بينكم وبين الوصول إليها، فقد حرمت الأميرة من التحنيط بهذه الطريقة التي ماتت عليها، فهي لن تبعث في العالم الآخر! وبينما كان أوزيريس منهمكاً في قراءة هذه الوثيقة الغريبة، إذا ولده هوروس الشاب يقبل عليه يطلب منه شيئاً فالتفت إليه أوزيريس وناوله الوثيقة وقال:
اقرأ: أي عقاب يستحقه هذا الرجل؟
فتناول هوروس الوثيقة في امتعاض لأنه لم يأت لهذا الغرض، ولنه ما كاد يبدأ في تلاوتها حتى أهتم اهتماماً عظيماً، وما كاد يتمها حتى ألقى بها جانباً على المكتب وخرج يعدو، ناسياً مطلبه من أبيه:
فتبعه أوزيريس وهو يصيح:
إلى أين؟ إلى أين؟
فقال هوروس: إلى النفق الذي فيه الفتاة فلعلعي أبعثها!
كرمة ابن هانئ
حسين شوقي
البريد الأدبي
وصية بارتو الأدبية
نذكر أن مسيو لوي بارتو السياسي الفرنسي الكبير الذي قتل في أكتوبر الماضي في مرسيليا إلى جانب الملك اسكندر الربي، قد أوصى بمعظم تركته إلى الأكاديمية الفرنسية التي كان من أعضائها. وفي الأنباء الأخيرة أن الأكاديمية قد قررت بصفتها منفذة لوصية مسيو بارتو، أن تخصص من ريع التركة ثلاث جوائز أدبية كبرى الأولى باسم الفقيد نفسه، وتمنح لأعظم كاتب في العام، والثانية باسم مدام بارتو وتمنح لأعظم كاتبة، والثالثة باسم مكس بارتو ولد الفقيد الذي قتل في الحرب دون الثلاثين، وتمنح لأعظم كاتب من الشبان دون الثلاثين
هذا ومن جهة أخرى فقد تقرر أن تعرض المجموعات الأدبية والفنية التي تركها بارتو للبيع بالمزاد. وتحتوي هذه المجموعات التي أنفق بارتو في جمعها طول حياته على تحف نادرة من مخطوطة ومطبوعة وصور وتماثيل وغيرها
بين الخالدين
توفي أخيراً أحد (الخالدين) أعني عضواً من أعضاء الأكاديمية الفرنسية، وهو المؤرخ الكبير لينوتر توفي في التاسعة والسبعين من عمره بعد حياة حالفة بالبحث والتأليف والكتابة؛ وكان حتى آخر لحظة يقوم بتحرير فصله التاريخي الممتع في جريدة (الطان) تحت عنوان (التاريخ الصغير). وظهر فصله الأسبوعي كالعادة بعد يوم وفاته. ولينوتر اسم مستعار للمؤرخ، واسمه الأصلي هو لوزان تيودور جوسلان. وكان لينوتر من أعلام تلك المدرسة التاريخية الحديثة التي عنيت بالتحقيق والاستقصاء في الدقائق والتفاصيل الشخصية والاجتماعية لأنها ترى فيها أهم ما يلقي الضياء على طبيعة الحوادث والأشخاص، ومن زملائه في تلم المدرسة فونك برنتانو عضو المجمع العلمي، وبيير دي نولهاك عضو الأكاديمية. واشتهر لينوتر بالأخص بكتاباته عن الثورة الفرنسية وعن الشعب الفرنسي والحياة الفرنسية في ذاك العصر، وله في ذلك عدة مؤلفات

ورسائل قيمة. منها (أسر ماري انتوانيت وموتها) (المقصلة ومنفذو الأحكام أيام الثورة) (الملك وثورة لافندي) (دي شاربت) وله مجموعة عنوانها (القصور القديمة والوثائق القديمة). وكان
لينوتر أيضاً صحفياً بارعاً جم الإنتاج يكتب في اشهر الصحف والمجلات. ولبث أعواماً طويلة يكتب مباحثه في (الطان) بعنوان (التاريخ الصغير) وقد انتخب عضواً بالأكاديمية في ديسمبر سنة 1932. واستقبلت الأكاديمية نبأ وفاته بالمراسيم المعتادة، وألقي مديرها العامل المسيو هنري بوردو خطاب التأبين للمؤرخ الرال؛ ومما قاله: (إن لينوتر قد تبوأ في عالم المباحث التاريخية مركزاً خاصاً، فهو يتعلق بالأشخاص، والنوادر، والحياة الخاصة، والتفاصيل المغرية أكثر ما يعني بالحوادث وملحقاتها؛ ولقد كان يتمتع بموهبة يحسده عليها كثير من القصصيين: هي موهبة الحياة)

جائزة جر نجوار

لمجلة جر نجوار الفرنسية جائزة سنوية قدرها خمسة آلاف فرنك تمنح كل عام لأحسن أثر (إخباري) (ريبورتاج) يصدر في العام. وقد منحت هذه الجائزة خلال مأدبة عشاء أقيمت جرياً على العادة السنوية لمسيو مارسل جريول عن كتابه الذي ظهر أخيراً عن الحبشة وعنوانه (حارقو الإنسان). ومسيو جريول من العلماء الشبان، تلقى دراسة علمية عالية، وتخصص في مباحث الأجناس البشرية، وساهم في عدة بعثات علمية رسمية أرسلت إلى السنغال والحبشة وغيرهما؛ وله أسلوب علمي جذاب بما يسبغه عليه من البساطة والطابع الصحفي

عيد الربيع القومي في سورية

عقد فريق كبير من طلبة الجامعة السورية والمدرسة التجارية والمدارس الثانوية العالية اجتماعاً بحثوا فيه مشروع إقامة عيد قومي في الربيع، وقد أطلقوا عليه اسم (عيد الربيع القومي)

وسيكون هذا اليوم من الأيام التاريخية، إذ يسير الشباب بشكل مواكب تمثل أزاهير دمشق، وبعض مواكب تمثل مجد العرب الغابر على شاكلة أعياد الربيع في فرنسا وسيقوم الشاب الأديب السيد أحمد القباني الطالب في مدرسة التجارة العليا برحلة إلى المنطقة الشمالية للاجتماع بإخوانه الشباب والطلبة في الشهباء والبحث معهم في هذا الصدد لجعل هذا العيد عيداً قومياً شاملاً تشترك فيه سائر المناطق السورية في ربيع كل عام

(عن الجزيرة)

بلاطة أثرية تكشفها السيول في نابلس

كان من جراء السيول التي اجتاحت نابلس أن شف التراب عن بلاطة تاريخية عظيمة الشأن

وقد اهتمت دائرة الآثار في فلسطين بها وأوفدت لجنة فنية فعاينتها وقررت نقلها إلى المتحف وتكليف رجال الفن بترجمة ما نقش عليها

وقد ظهر حتى الآن أن هذه البلاطة نقلت من مكانها الأصلي المجهول حتى الساعة لتبني في السور حيث وجدت، وقد صرح أحد السامريين أن الكتابة المنقوشة عليها هي الوصايا العشر، وقد كتبت بالغة الآرامية التي كتبت بها توراة السامريين

ولا يزال علماء الآثار يفدون المشاهدة هذه البلاطة التاريخية التي ربما كشفت عن مدينة يهودية قديمة في شرقي نابلس

(عن الأرز)

هل للراغب الأصبهاني ترجمة وافية؟

احتجت إلى ترجمة الراغب الاصبهاني صاحب المفردات (وللمفردات شهرة ومكانة تداني شهرة القاموس ومكانته) و (الذريعة) و (تفصيل النشأتين) و (محاضرات الأدباء) وغيرها من المصنفات الجليلة، ففتشت فيما بين يدي من كتب التراجم، فلم أقف إلا على هذه النتف الصغيرة التي لا تروي غليلاً:

قال الزركلي في الأعلام:

هو أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل، أديب كبير من العلماء من أهل أصفهان (وتسمى أصبهان) مات سنة 502. من كتبه محاضرات الأدباء الخ. .

وقال بغية الوعاة:

هو المفضل بن محمد الأصبهاني الراغب المصنفات؛ كان في أوائل المائة الخامسة،)
له مفردات القرآن، وأفانين البلاغة، والمحاضرات وقد وقفت على الثلاثة، وقد كان في
ظني
أن الراغب معتزلي حتى رأيت بخط الشيخ بدر الدين الزركشي الخ ما نصه: ذكر الإمام
فخر الدين الرازي في تأسيس التقديس في الأصول، أن أبا القاسم الراغب من أئمة
السنة وقرنه بالغزالي، قال: وهي فائدة حسنة فان كثيراً من الناس يظنون أنه
(معتزلي
وأثبت مثل هذا في آخر الطبعة الميمنية للمفردات نقلاً عن كشف الظنون وغيره،
وروي مثله السلطان محمد صديق خان في البلغة
ولم أجد أكثر من ذلك، فأرجو ممن وقف له على ترجمة وافية، أن يتفضل فيبعث بها
!إلى (الرسالة) أو يرشدنا اليها، ولست أظن أن مثل الراغب تنسى ترجمته أو تضيع
دمشق
علي الطنطاوي
حول محطة الاذاعة اللاسلكية
مدير مجلة (الرسالة) الغراء . . .
وبعد، لقد نشرتم تحت عنوان الإذاعة . . . . . .
،اللاسلكية العربية بعدد 75 من مجلتكم فقرة تهم عالم الراديو
فإنني أشكركم على اعتناكئم هذا، حيث نهتم الرأي العام
المصري لمسألة جديرة بالاهتمام. حقيقة أن المحطة المصرية
لا تفي بالمقصود لأنها على ما أظن محطة إسلامية قبل كل
شيء. وبما أن مصر هي اليوم حاملة لواء الأدب العربي فان
.أنظار المسلمين قاطبة متجهة نحو ذلك الوطن المحبوب
ليست القاهرة قاعدة لمصر فحسب، بل هي عاصمة العالم
الشرقي الباسط جناحيه على أفريقية وآسيا
إذن ليست المحطة المصرية محطة محلية، بل هي محطة واسعة النطاق، وجدير
بمصر أن تكون لها محطة إذاعة تباهي بها أرقى الأمم. وبها تتغلب موجاتها الفائضة
بالفصحى على الموجات الأعجمية كي تنال الحظ الوافر من الأثير. إلا يكفي العالم
الغربي استعماره الأرض حتى يبغي الاستحواذ على الأثير؟
لهذا كله أرغب من ولاة الأمور بتلك الديار الشاسعة تحسين محطتنا العربية كي يعم
نفعها، فاقترح عليهم واحداً من اثنين
1 - تغيير طول موجة المحطة المصرية لأنها تشاركها في طول الموجة محطة
بروكسيل ول من المحطتين لها 630 كيلو سيكلا، ويجب أن يكون بينهما تسعة ك. س
على الأقل كيلا تمتزج الأصوات، فليختاروا لها مقياس محطة تكون أبعد من المحطة
البلجيكية وأضعف منها قوة كمحطات النرويج مثلاً التي يوجد بينها من لا تزيد قوتها عن
نصف كيلو وات كمحطة بودوي التي يبلغ طول موجتها 235. 1
2 - أو على المحطة المصرية إن أبت إلا طول موجتها أن تجاري محطة هويزه
الهولندية التي تجعل قوتها 7 كيلووات نهاراً و50 كيلو وات ليلاً
هذا رأيي أبديته لعله يقع موقع استحسان لدى مصر الفتية وحكومتها النبيلة
بو سعادة - الجزائر
بسكر عيسى
من روائع الشرق والغرب
محمد إقبال
من رباعياته المسماة (شقائق الطور)
ترجمة الدكتور عبد الوهاب عَزام
1 - يا قلبي إلام تجهل جهل الفراسة الرعناء؟ إلام تحيد عن سنن العظماء؟ احرق
نفسك مرة بنارك. إلام تطوف بنار غيرك؟
3 - يا رب أية لذة في الوجود؟ كل ذرة هائمة بهذا الشهود. تشق الوردة الفنن النضير،
فتبسم فرحاً بهذا الظهور
3 - سمعتُ الفراشةَ في العدمِ تقول: هب لي من الحياة حرقة واضطراباً، أذرُ رمادي

في السحر، ولكن متعني بالحياة ليلة
4 - فتحت في ضمير النجوم سبيلاً، وظلت بنفسك جاهلاً، كن كالنواة وأبصر نفسك، لتخرج نخلة باسقة من تُربتك
5 - ترنم الطائر الغرد على الأفنان، يقول في مطرب الألحان؛ أخرج كل ما في صدركُ صراخاً: آهة أو صرخة أو غناء أو نواحاً
6 - يضيرك النظر في بستاني العجب، إن لم يكن روحك شهيد الطلب، إني أبينُ عما في ضمائر الأغصان، وليس ربيعي طلسماً من الروائح والألوان
7 - أنا بين طير المروج غريب أظل وحدي على غصن العش في نحيب. إن تكن رقيق القلب فقف مني بعيداً، فإنما يرشح دمي في أنفاسي تغريداً
8 - تصب الحياة ألواناً جديدة كل حين، ما الحياة صورة واحدة على مر السنين. فان يكن صورة الأمس يومك فقد حُرمت شرارة الحياة طينتك
9 - ما علق قلبي بهذا البستان، فمضيت طليقاً من قيود الزمان والمكان. ولكن كريح الصبا سريت، فمنحت الورد اللون والنضرة ومضيت
10 - إن خمره جعلت خزفي كأس جم، واستسرت في قطرتي فصارت ليم. وضع العقل في رأسي صنماً، وجعل (خليل) العشق ديري حرما
11 - قل عني للشاعر المفلق، ما جدوى حرقتك إن احترقت كالشقائق؟ لا تصهر نفسك هذه النار، ولا تنير للبائسين الديار
12 - أنا لا أعرف حسنك وقبحك. فقد جعلت عيارهما خسارتك وربحك. ليس مثلي وحيداً بين بني آدم، إني أرى بعين أخرى هذا العالم

عبد الوهاب عزام

رثاء

للشاعر الإنجليزي اللورد بيرون

ترجمة الأستاذ محمود الخفيف

وهكذا تعدو عليك المنية، فتذهبين في غضارة إهابك وروعة جمالك، كما يذهب كل شيء كتب له الفناء؛ ويعود هذا الهيكل الرشيق وتلك المحاسن النادرة وشيكا إلى التراب!

لئن غيب اللحدُ هذا الجمال، وحللت من الأرض في بقعة يمر عليها الناس لاهين أو ضاحكين، فان هناك عيناً لا تطيق النظر لحظة إلى ذلك القبر الذي يحتويك

سوف لا أسأل بعد اليوم أين موضعك من جوف الأرض، لا ولن أمد عيني إلى تلك البقعة فوق ظهرها. ولْتَنْمُ هنالك الأزهار أو الأعشاب كيفما شاءت، فبذلك لن تقع عليها عيناي

حسبي ما لاقيت دليلاً على أن من أحببت، ومن سأحرص أبد الدهر على حبها، قد تطرق إليها البلى كما يتطرق إلى كل شيء خرج من الأرض؛ وما حاجتي بعد إلى حجر يقام أو علامة تنصب، وكل ما حولي ناطق بأن ما كان بالأمس موضع آمالي، قد أصبح اليوم. . . . لا شيء؟!

ومع ذلك قد أحببتك حتى النهاية في حماسة وقوة، كما أحببتني أنت، يا من ظللت على عهدك طوال تل الأيام السوالف ولا سبيل اليوم إلى تغيرك

إن الحب الذي طبعه الموت بطابعه لن يلحقه الفناء أبداً. فما تطاوُل الزمن بمذهبٍ من حرارته شيئاً، ولا المنافسة بقادرة على استلابه، ولا المين بواجد طريقاً إلى إفساده. وفضلاً عن ذلك فسوف لا ترين ما قد أرتكبه بعد اليوم من هفوة أو تحول أو خطأ

لقد تذوقنا معاً من أيام الحياة أحلاها، أما أمرها فسأتجرعه وحدي، إذن لن ترى عينك بعد

الموت الشمس التي تبعث البهجة في الكون، ولا العاصفة التي تنذر بالظلام والهم

إنني لأحسدك على تلك الضجعة الهادئة، حيث لا تزعجك الأحلام، ولذلك يخيل إلي أن أترك البكاء على موتك. كذلك لن آسف على انقضاء تلك المحاسن الغر، فلم يكن مفر من أن أراها تذوي يوماً بعد يوم أمام ناظري!

إن أسرع الزهور إلى الذبول وأسبقها إلى الفناء، أعظمها تفتحاً وأشدها بهاء، وإن تلك الزهرة التي بذلت صويحباتها تفتقاً ونماء، لتسقط وريقاتها واحدة تلو الأخرى، وإن لم

تمتد إليها الأيدي فتقطفها قبل أوانها
وإن رؤية تلك الزهرة وهي تموت ورقة فورقة، لأوجع للقلب، وآلم للنفس، وأدعى إلى الحسرة، من رؤيتها وهي تقتطف دفعة واحدة؛ ذلك لأن أعيننا، نحن بني الأرض، لا تستطيع أن تراقب خطى التحول من الجمال إلى القبح، دون أن يمضها ذلك ويحزنها وليت شعري هل كنت أستطيع أن أرى جمالك وما حزت من معاني الحسن، يخبو ثم ينطفئ؛ ألا إن الليلة التي تتلو مثل هذا الصباح لأشد ما تكون الليالي حلكة وكدرة لقد انقضى نهارُك ضاحياً لم تشب صفاءه غمامة، وبقيت حتى النهاية جميلة ناعمة، وكأني بك في موتك العاجل الشعلة تخمد في وهجها دون أن تخبو؛ كذلك الشهب التي تلفظها القبة الزرقاء، أعظم ما تكون التماعاً حين تسق من أعلى السماء
أه! لو أستطيع البكاء ما كنت أبكي من قبل. . . إذا لجرت دموعي غزيرة، على أني لم أكن قريباً منك يوم مت لأقوم إلى جانب سريرك ساعة احتضار، شاخصاً في وجهك في هيام وأي هيام!
هنالك كنت أتناول جسدك بين ذراعي فأضمك ضمة خفيفة رافعاً بيدي رأس المائل المحتضر، كي أشهدك ولو بغير جدوى، على ذلك الحب الذي لن يحسه كلانا بعد!
لقد تركتني اليوم حراً طليقاً، ومع ذلك لن يعدا كل ما يمكن أن تصل إليه يدي مما بقي في الوجود من حسن ذكرى إياك كما أفعل الآن
إن ذكراك وهي لي منك ذلك التراث الوحيد، الذي لن تصل إليه يد الفناء، تعاودني في هذا الوجود المظلم المخيف فتزيدني إعزازاً لذلك الحب الذي ضمه القبر، والذي لا أعدل به شيئاً في الحياة، ولن يفضله في نظري سوى أيامه التي قضيناها معاً قبل أن يعدو عليك
الموت
الخفيف
الكتب
الأطلال
رواية قصصية مصرية - تأليف الأستاذ محمود تيمور
عرض ونقد بقلم محمد أمين حسونه
ليست (الأطلال) التي أخرجها الأستاذ محمود تيمور أخيراً سوى ثغرة بين مرحلتين في حياة المؤلف القصصية، وأقصد بالمرحلة الأولى فنه الذي يمت إلى الواقعية، وبالمرحلة الثانية نزعته الجديدة إلى التحليلية (السيكولوجية)، هذا فضلاً عن خلوها من سيطرة أية نزعة أوربية
والناقد الحصيف يلمس بين سطور (الأطلال) من عصير الفكر ووضوح الوصف وخصوبة الخيال ما يكفل لها حياة نابضة. وقد عرف الأستاذ تيمور كيف يرتفع بموضوع روايته إلى أسمى من ذلك الفن الرخيص الذي يبدو في قصص غيره، واستطاع أن يضيف إلى جانب مهارته في رسم بيئته، تصويره لشعوره الخاص تحت نقاب شفاف من التورية الفنية، متخذاً شخصية (سامي) مرآة تحجب وراء زجاجها الصقيل الثورة الكامنة المتأججة في فجر حياة كل شاب، حتى تدفعه إلى الخروج من حالة القلق والحيرة إلى عالم الجسم وجحيم الشهوة
بسط المؤلف على لوحته أولاً رسم سامي، وهو من أبناء الذوات الذين يعيشون في القصور المحاطة بالأسوار العالية، تضم جدرانها العدد الوفير من الخدم والخصيان والأتباع، ويأوي إليهم بين يوم وآخر ضيوف تستغرق إقامتهم الأسابيع بل الشهور
وعندما يستطرد المؤلف في وصف نشأة الصبي سامي تتنبه فيه ملكة التصوير، فلا يفوته أن يسجل إعجاب ضابط المدرسة عندما يدعوه إلى داره ليلعب مع ابنته فتحية، وكيف يغرم الصبي بالفتاة وتستهويه رائحة الأنوثة المنبعثة من صورتها، حتى إذا ما شب كان عنفوان اليقظة الغامضة يدب في أوصاله، وتراه في ذات ليلة (أم خضير) - وهي خادمة حنكتها التجارب يستذكر دروسه وفتحية أمامه تخيط ملابسها فتسر إليه (لو كنت مكانك لما جلست هكذا أمام كتبي، بل كنت أجلس إلى جانبها أداعبها واختلس قبلة)
كان في استطاعة سامي بحكم تربيته وبيئته أن ينهر الخادم، أو يزجرها، ولكن المؤلف يضعه في هذا الموقف على أبواب لغز، وكأن كلمات (أم خضير) جاءت إليه من عالم

بعيد مجهول، فأيقظت العواطف الراكدة في أعماق نفسه، ودفعتها في طريق محفوفة بالآثام والمخازي
خطوات سامي في هذا الطريق الوعر قلقة مضطربة، فهو موزع الإحساس الجسدي بين فتحية وبين الغانيات وزوجة أخيه تهاني، وشخصيته في الرواية كخطواته غير مستقرة، يبدو أحياناً في هدوء عجيب، وأحياناً أخرى في عنف وشراسة. أما فتحية فيحوطها المؤلف بحالة غموض وإبهام وتجلد أمام الآلام، بحيث لا تتفق شخصيتها مع الواقع، وحالة تحفظ في التعبير بحيث يدفعها في الخفاء إلى كبت عواطفها كبتاً لا يمكنها معه أن تبوح بحب أو ترفع صوتها بشكوى برغم شعورها بالألم وإحساسها بأنها ليست مذنبة في نظر المجتمع. ولو أدرك المؤلف أن العواطف المكبوتة قد لا تخلو من الإحساس لاستكمل النضوج الفني للصورة
وعلى العكس يبدو فن المؤلف واضحاً وأفكاره مستوية وهو يعرض علينا عقب ذلك خيال فتحية غير المحدود، عندما يتراءى لسامي بين ظلال الوعي وساعة هدوء الروح وابتعادها عن إثم الجسد، فهي تتمثل له طهارة كل فكرة وصفاء كل هاجسة، حتى إن المؤلف ليكسو خيالها بإشعاع من روح العطف والحدب على مصيرها. أما تهاني - زوجة أخيه - فهي مثال الفتاة العابثة النزقة لتي لا تبالي بالتقاليد ولا بالأوضاع حتى إن صورتها كانت في عقله الباطن صورة امرأة غاوية قبل أن يفكر في ارتكاب الخطيئة معها، فهي تتمثل له في وجه كل غانية يلقاها، ونفس شخصيتها تتلاشى تماماً في الشهوة النجسة. ولما مات أخوه وأحس أمام جثمانه بالندم يفر وفر يطلب العزلة بعد ضجيج المأتم وانكفأ يستعرض حاله، فقاده حاضره إلى التفكير في فتحية فخرج من صمته هائماً لا يلوي على شيء، بعد أن أحس أن جدران القصر تنهار (كالأطلال)، وأن شبح تهاني يطارده حتى أدرك القرية، وهناك سأل عن فتحية فإذا بها قد ماتت، وإذا طفل يجري أمامه عليه ميسم اليتم ومسحة من جمال فتحية فيحتضنه بعد أن يعرف أنه ابنه ثم يبكي. . . . .
والأستاذ تيمور الذي يجسم يعيني الفنان كل صورة في عالم الأنوار والظلال ينجح نجاحاً
باهراً في وضع شخصية مودة هانم بحيث تتراءى أمامنا بين السطور مثالاً للمرأة التي استسلمت للقدر، فهي لا تشكو ولا تحتج وإنما تترقب أن يلعب القدر دوره في الخفاء فينزع زوجها من أحضان (ضرتها) وأن يعيده إليها سالماً. وحبذا لو أتى المؤلف إلى جانب هذا على طرق (مودة هانم) في اجتذاب زوجها بوساطة السحر أو التنجيم ما دام ينزع في فنه الجديد إلى التحليلية
بين الشخصيات التي رسمها المؤلف شخصية تظهر ثم لا تلبث أن تختفي، هي (أم خضير)، والمؤلف إنما يحركها فقط في المواقف التي تدفع فيها سامي إلى مواطن الإثم، وتشابهها من هذه الناحية شخصية العيوطي - مساعد البستاني - فهي قوية برغم عدم وضوحها، خصوصاً عندما يلتقي به سامي ويطلعه على رغبته في الوصول إلى زوجة أخيه فيجهز له على عادة العشاق في الجيل الماضي زياً نسائياً يتمكن به الوصول إلى خدر الزوجة
ومما يجدر بنا تسجيله للمؤلف أن النزعة الإرشادية يختفي ظهورها تماماً في فنه ولعل أبرز طابع فيها هو (الصراحة) التي تطبعها من أولها إلى آخرها، وفي الصراحة منجاة من الأدب الأناني الذي تغشاه دائماً سحابة مبهمة من نفس صاحبه فتدفعه إلى إخفاء المعنى جزيئاً، ولكن الصراحة في الأطلال شيء آخر، فهي تسهب في التحدث عن العلاقة الجسدية بحيث تصورنا ضعافاً تحكمنا غريزة الجنس وتطغى على ميولنا وعواطفنا
وتمتاز (الأطلال) بارتباط شخصية سامي بأبطالها ارتباطاً يجعلهم يعيشون في قراره الموضوع لا فوق سطحه
العدد 88 - بتاريخ: 11 - 03 - 1935
إلى أين يُساق الأتراك؟
مَنِ السائرون في شحوب الأصيل على حدود المغرب، يسرعون الخطى كأنهم هاربون من النهار، ولا يلتفتون إلى الخلف كأنهم ناجون من سَدُوم؟! مَنِ السائرون بين النور والظلام على الدرب الخادع المبهم، يخفقون كأطياف المساء على حواشي الطفل،

ويمسون الطريق من الوراء حتى لا يرجعوا إلى الأهل؟! إنها أمة من صميم الشرق نشأت في نوره، وطبعت على شهوره، وتنفست في عطوره، ألقت زمامها الأقدار الغالبة في يد عصبة من أبنائها، رُبُّوا في غير أحضانها، فنشأوا على غير منشئها، وجروا على خلاف مبدئها، فقطعوها بالكره عن مشرق الشمس ومبعث الروح ومنبت العاطفة ومنشأ الدين، وخرجوا بها متعسفين إلى طريق مشتبهة، وغاية مريبة، ودنيا مجهولة؛ ثم قالوا لأنفسها انسلخي عن شرقيتك بأمر القانون، ولقلوبها اعتقدي غير عقيدتك بحكم القوة، ولألسنتها أنطقي غير لهجتك بإرادة الحاكم، ولحاضرها انقطع عن الماضي بسطوة الجمهورية، ولأرضها وبيئتها وطبيعتها انفصلن عن آسيا بإذن الحكومة! كأنما الأمم تصاغ بالقوانين، والطبائع تغير بـ (الأوامر!!)

مهلاً ساقةَ الظعن وهُداة القافلة!! سترحلون عن وطن إلى غربة، وعن ولاء إلى عداوة، وعن إخوة إلى سادة. ماذا نقمتم من الشرق مهد الإنسان ومهبط الأديان ومنبع الإلهام ومسرح الأحلام ومبدأ النشأة؟ ألم يخلق اليابان اليوم كما خلق الصين والهند وبابل والفرس والعبران والعرب بالأمس؟

إن شمس المدينة أرسلت علينا أول أشعتها في صبح الوجود، ثم متَعَ ضحاها فغمرتنا بالنور والشعور والقوة، ثم انحدر إلى المغيب في بلاد المغرب حتى بلغت خيوطها أطراف الشفق! إنها ستغرب لا محالة، وإنها ستشرق لا محالة، وإن غروبها لا يكون إلا هناك، وإن شروقها لا يكون إلا هنا. فلم لا تنتظرون معنا يا بني العم طلوعها الجيد القريب على موطنها الأول؟

لقد ذر منها كما ترون على اليابان أشعة، وبص منها الساعة على مهاد العروبة وبلاد الإسلام شعاع! وعما قليل يسطع في أقصى الشرق وفي أدناه وهجُها وسناها، فتهتز الأرض من جديد وتربو، ثم تتشقق عن العبقريات التي ارتجلت الحكمة، وإكتشفت المعرفة، وسنت الأخلاق، ودفعت مدينة الإنسان إلى مداها البعيد

قالوا لتركي الأناضول: مالك وللشرق، ومالك وللعرب، ومالك وللإسلام؟ تعال نبحث عن أجدادك في الأولمب، وعن قومك في الفورم، وعن مدنيتك في اللوفر؛ ثم ألزموه أن يلبس القبعة، وأرغموه أن يكتب من الشمال، وفصلوا الدين عن الحكومة، وانتزعوا العربية من التركية، وحرموا الشعب المتدين تقاليد الإسلام، وحرموا عليه أخلاق الشرق، ثم ألغوا العيدين، واستبدلوا بعيد الجمعة عيد الأحد، ثم نقلوا الأمة المروعة المشدوهة على المدرعات إلى الشاطئ الأوربي، ثم أحرقوا من ورائها سفائن طارق! على أن التركي الأصيل الذي استضاء بهدى الإسلام، وتثقف بعلم العرب، وساهم في مجد الفتوح، لم يَصْغَ قلبه لهذا التغير المفروض، فظل فؤاده حيث طبعه محمد الرسول، وجسمه حيث وضعه محمد الفاتح!

أما موضع الخطر فأولئك النشء الذين قست عليهم الحرب، وبغت عليهم السلم، فحصروا علل أخطائهم وأسباب أرزائهم في معنى الخلافة فنفوها من الأرض، ثم أفرط عليهم العداء فتحيفوا ما يلابسها من شرقية وعروبة ودين؛ أولئك سيزهقون في حاضرهم روح الماضي، ويقطعون عن ضمائرهم صوت التاريخ، ويبنون قوميتهم على أسس مستعارة، ويجددون شخصيتهم على تقليد طائش، ويخضعون عقليتهم لعبودية قاتلة، ثم يتنفخون بالصوت الرفيع المدل: أن تركية للترك! فيقول لهم الدهر الساخر: نعم، وإن الترك لأوربا!

فخامة الغازي العظيم أتاتُورك! لقد جبرت الجناح المهيض، وأحييت (الرجل المريض)، وأنقذت من براثن العوادي السود تركية الفتاة، ما في ذلك شك، فاسمك العزيز عنوان تاريخها الحديث، وعزمك الجبار قوام دستورها القائم، وروحك الوثاب سناد مستقبلها الطارف، ولكنك ظلمت تاريخك الخاص بمخالفة الطبيعة في التجديد، ومجانبة المنطق في الاصلاح. أخشى أن يسجل الرقيب الذي لا يغفل أنك أحييت دولة وأمت أمة، وبنيت دستوراً وهدمت عقيدة، وبعثت لغة ودفنت ثقافة!

ما جريرة العرب على الترك وقد استخلفوهم على الدين واستأمنوهم على الرسالة؟ وما جريمة الإسلام على الترك وقد نعشهم من الخمول وأخرجهم من الجهالة؟ وماذا يبقى من الترك ولغة الترك وثقافة الترك إذا محوت أثر العروبة ودينها من كل ذلك؟ إن العرب ليسوا أقل شأناً من الطليان والجرمان، والإسلام ليس بأضعف في رفع الشعوب

من وثنية اليابان، ولكنها موجة من المادية الطاغية غشت على الأبصار وطغت على البصائر، ستنحسر غمرتها عن مجالي الفضيلة والحق ولو بعد حين!

أحمد حسن الزيات

الشيطان. . . .

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال الشيخُ أبو الحسن بن الدقاق: كان شيخي أبو عبد الله محمد (الأزهري العجمي - رضي الله عنه - رجلاً صاحب آياتٍ وخوارق مما فوق العقل، كأنما هو سرُ من الأسرار الجارية في هذا الكون، قد بلغ بنفسه رتبة النجم في أفقه البعيد؛ ففيه أهواءُ الإنسان وشهواته وطباعُه، إلا أنها كنوز النجم في تألقه ولألائه من إشراق روحه وصفاتها؟ وقد ارتفع بآدميته فوق نفسها؛ فأصبح في الناس ومعه سماؤه، يجعلها بين قلبه وبين الدنيا والرجل إذا بلغ هذا المبلغ كان حياً كالميت ساعة احتضاره؛ ينظرُ إلى كل ما في الحياة نظرة من يترك لا من يأخذ، ومن يعتبرُ لا من يغتر، ومن يلفظ لا من يتذوق، ومن يُدرك السر لا من يتعلق بالظاهر. ويرى الشهوات كأنها من لغة لا يعرفها، فهي ألفاظ فيها معاني أهلها لا معانيه، وإنما تلبسُ كلماتُنا معانيها من أنفسنا. وفي النفوس مثلُ الهشيم؛ إذا وقعت فيه المعاني المشتعلةُ استطار حريقاً وتضرم، وفيها على المجاهدة مثل الماء؛ إذا خالطته تل المعاني انطفأت فيه وخمدت

وقد سألتُ الشيخ مرة: كيف تحدثُ الكراماتُ والخوارق للإنسان؟ فقال: يا ولدي، إن الإنسان من الناس المحجوبين يتصرف في جسمه ولا يكاد يملكُ لروحانيته شيئاً، فإذا أبلي في المجاهدة ووقع في قلبه النور، تصرف في روحانيته ولا يكاد يملكُ لجسمه شيئاً، فمن أطاق أن ينسلخ من بشريته، واتسعت ذاته في معاني السماء بمقدار ما ضاقت من معاني الأرض، وكان مُعداً لأن يتحقق في روحانيته، مُعاناً على ذلك بطبيعةٍ فوق الاعتدال - فقد شاع في الكون وأصاب له وجهاً ومذهباً إلى تلك القوة التي تهدم في العالم وتبنى، وتفرق وتجمع، تنقل الصور بعضها إلى بعض؛ فان الكون كله جوهرٌ واحد هو النور. حتى الجبلُ هو نورٌ صخري، وحتى البحر هو نور مائي، حتى الحديدُ والذهبُ والتراب، كل ذلك نور صرفته القدرة الآلهية تصريفها المعجز، فكان على ما نرى: ظاهرٌ مخيلٌ يلائم نقصنا وعجزنا، وحقيقةٌ قارةٌ على غير ما نرى. ومن ذا يعقل أن الصخر نورٌ متجمدٌ إذا لم يكن له إلا عقلُ عينه وحواسِّه، ومن ذا يُطيق أن يفهم بحواسه وعينه قولَ الله تعالى: (وترى الجبالَ تحسبها جامدةً وهي تمرُّ مرَّ السحاب صُنْعَ الله الذي أتْقَنَ كلَّ شيء)؟ فالجبال جامدةٌ ثابتة، غير أنها تمر بأرضها وتموج في نفسها؛ ومتى تأذَّنَ الله أن ينكشف نورُ كلامه لعقل الإنساني، فستكون هذه الآية علماً جديداً في الأرض يُثبت أن السحاب والجبلَ مادةٌ واحدة وصُنعٌ واحد

ويا لها سُخرية بالإنسان وجهله! فانه إذا كانت الحقيقةُ غير ما نرى، فكل شيء في الدنيا هو ردُ على النظر الإنساني، ويكاد الجبلُ العظيم يكون كلمةً عظيمةً تقول للإنسان: (كذبت!)

فالشأنُ في الخوارق والكرامات راجعٌ إلى القدرة أن يسلط الإنسان الروحاني ما فيه من سر النور على ما في بعض الأشياء من هذا السر، وتلك هي طاعةُ بعض الكون لمن ينصرف عن المادة ويتصل بخالقها

فإذا بقي في الرجل الروحاني شيءٌ من أمر جسمه يقول: (أنا. . .) لم يكن في الرجل من تلك القدرة ذرة؛ فان هو حاول أن يخرق العادة أبى الكون أن يعرفه إلا كما يعرف حجراً مُلقى يحاول أن يتصرف بالجبل الذي هو منه فينقله أو يزحزحه أو يزلزله

ولا خير على الأرض مطلقاً إلا وهو أخذٌ من حقوق هذه الـ (أنا. .) في إنسانها، ولا شر على الأرض مطلقاً إلا وهو إضافة حقوق اليها؛ فحين لا يبقى له حقٌ في شيء عند نفسها، يجب لها الحق على كل شيء. وهذه هي الكرامة؛ تُكرِمُ الخليقة من أكرمه الخالق

فمن أراد أن تتصل نفسه بالله فلا يكنْ في نفسه شيءٌ من حظ نفسه، ولا يؤمن إيمان هؤلاء العامة: يكون إيمانهم بالله فكرة تذكر وتُنسى، أما عملهم فهو إيمانهم الراسخُ بالجسم وشهواته يُذكر ولا يُنسى.

وأنت ترى رجالَ الروح يأكلون ويشربون ويلبسون، ولكن هذا كله ليس فيه ذرة من

أرواحهم، على خلاف غيرهم من الناس؛ فهؤلاء كل أرواحهم في مطاعمهم ومناعمهم؛ ومن ثم لا يجري الشيطان من الأولين إلا في بحارٍ ضيقة أشد الضيق لا يكاد ينفذ منها إلى فكرة أو شهوة أو حُلُم من أحلام الدنيا، أما الآخرون فالشيطان فيهم هو تيار الدم يَعب عبابه في الأسفل والأعلى

قال أبو الحسن: وكنا يومئذ في دمشق، فنبهني كلامُ الشيخ عن الشيطان إلى ما قرأته عن كثيرين ممن رأوا الشيطان أو حاوروه أو صارعوه؛ فقلت للشيخ: إن من حقك عليَّ أن أسألك حقي عليك، وما في نفسي أحب إلي ولا أعجب من أن أرى الشيطان وأكلمه وأسمعه، وأنت قادرٌ أن تنقلني إليه كما نقلتني إلى ما دخلت بي عليه من عوالم الغيب

قال الشيخ: وماذا يردُ عليك أن ترى الشيطان وتكلمه؟

قلت: سبحان الله! لا يُجدي على شيئاً إلا أن أسخر منه

قال الشيخ: فإني أخشى - يا ولدي - أن يكون الشيطان هو الذي يريد أن تراه وتسمعه. . .!

قلت: فإني أريد أن أساله عن سره، فيكون علماً لا سخرية

قال: لو كشف لك عن سره لما كان شيطاناً، فإنما هو شيطان بسره لا بغيره

قلت: فأريد أن أرى الشيطان لأكون قد رأيت الشيطان!

قال الشيخ: لا حول ولا قوة إلا بالله! لو كنت يا أبا الحسن بأربع أرجلٍ لهربت من الشيطان بثلاثٍ منها وتركته يجرك من واحدة!

قلت: يا سيدي، فلو كنت حماراً لبطل عملُ الشيطان في أرجلي الأربع كلها، إذ لا حاجة به إلى إغواء حمار!

فتبسم الشيخ وقال: ولابد أن ترى الشيطان وتكلمه؟

قلت: لابد

قال: إنه هو يقولها، فقم!

قال أبو الحسن: وكان الشيخ إذا مشى إلى أمرٍ خارق بقيتُ معه غائباً عن الحس، كأنه يبطل مني ما أنا به أنا، فأصبحُ ظلاً آدمياً معلقاً به. ولا تقع الخوارق إلا لمن وجد القوة المُكملة لروحه، وهذه القوة تُستمد من الشيخ الواصل، فلا بد من إمام يأخذ عن إمام، كأنها سلسلة نفسيةُ متميزةٌ في الأرض، فتغير الواحدةُ منها بالواحدة إذ تقع في جوها فتورق وتثمر؛ كالشجرة جوٌ يكسوها وجوٌ يذبلها وجوٌ يسلبها سلباً، وكذلك تفعل النفس إذا كان لها جو

وخرجنا من دمشق وأنا خلف الشيخ كالمحمول، فرأيتُنا وقد أشرفنا على بناء عظيم، ورأيت أقواماً يتلقون الشيخ ويسلمون علي ويتبركون بمقدمه؟ فأنكرتهم نفسي وجدت منهم وحشة، فالتفت إلى الشيخ وقال: هؤلاء قوم من الجن، وما إليهم قصدنا فلا تشتغل بما ترى واشتغل بي

ثم ننتهي إلى البناء العظيم، فتستقبلُنا طائفةٌ أخرى، ويُدخلون الشيخ وأنا خلفهن ويمرون بنا على دنيا مخبوءةٍ تعجز الوصف مما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعت؛ فيقولون: هذه كنوزُ سليمان وذخائره، ويطوفون بالشيخ يعرضونها عليه كنزاً كنزاً؛ فرأينا ثم نعيما ومُلكا كبيراً، ثم انتهينا أخيراً إلى مغارة خسيفة كأنها عرقٌ من عروق جسم الأرض، يتفجر منها دويٌ كالرعد القاصف إلا أنه في السمع كخوار الثور، إلا أنه ثورٌ خُيلَ إلى أن رأسه في قدر جبل عظيم، يتعلق به غبغب في قد جبلٍ آخر، على جسمٍ يسدُ الخافقين، فخواره كأنه صراخ الأرض، وإذا أنا بأقبح مكان منظراً، وأنتنه ريحاً، كأنه سجنٌ بناؤه من الجِيَف

فقلت: ما هذا؟ قالوا: هذا سجنُ إبليس، وهو هنا في هذه المغارة منذ زمن سليمان عليه السلام

قلت: أفمسجونٌ هو؟

قالوا: وإنه مع ذلك مُوقرٌ بأمثال الجبال حديداً يربُضُ به في محبسه، فلا يتزحزح ولا يتحلحل

قلت: وإنه مع ذلك قد ملأ الدنيا فساداً، فكيف به لو كان طليقاً؟

قالوا: فلو أنه كان طليقاً لاستحوذ على الناس كافة فيجتمع أهلُ الأرض على شهوةٍ

واحدة لا شيء غيرُها، فيبطلُ مع هذه الشهوة الواحدة كلّ تدبيرٍ بينهم، فلا تقومُ لهم سياسة ولا يكون بينهم وازع، فيرجعون كالكلاب أصابها الكَلَبُ وهاج بها، فأنيابها في لحمها، لا يزالَ يَعضُّ بعُضها بعضاً، فليس لجميعها إلا عملُ واحدٌ يسلمها إلى الهلاك، ويصبح ظهرُ الأرض أعْرى من سَراة أديم

وإنما يَلُحُ الناسُ باختلاف شهواتهم وتنافرها وتنازعها؛ فبعضها يحكم بعضاً، وشيء منها يَزَعُ شيئاً، ومن تخلص من نَزوَةٍ قمع بها نزوة أخرى، كالمتزوج المحْصَنِ، يحكم بالجلد والرجم على من ليست له امرأةٌ فزنا؛ وكالغني الواجد، يحكم على اللص الذي لم يجد فسرق، وهلم جراً. وما ينشأ الناسُ في ثلاثة أعمار فيشبون ويكتهلون ويهرمون، إلا لتختلف شهواتهم وتختلف مقادير الرغبة فيها، فتتحقق من ثم تلك الحكمة الإلهية في التدبير، ويجد الشرعُ محله بينهم، كما يجدُ العصيان بينهم محله

ولو أن أمةً كلها أطفالٌ أو كهول أو شيوخ لبادت في جيل واحد، وإنه ليس أسمجَ من الرذيلة تكون وحدها في الأرض إلا الفضيلةُ تكون وحدها، فلا بد من شيء يظهرُ به شيء غيره، كالضد والضد. والمعركة إذا انتصر كل من فيها كانت هزلاً وكانت شيئاً غير المعركة

قال أبو الحسن: وقلت لهم: فإذا كان الشيطان سجيناً قد ربَضت به أثقاله حتى لهو في سجنٍ من سجنٍ مبالغةً في كفه والتضييق عليه - فكيف يَفتنُ الناسَ في أرجاء الأرض ويوسوسُ في قلوبهم، حتى لهو يد بينُ كل يدين، وحتى لَهو العين الثالثة لعيني كل إنسان؟

قالوا: إن في روحه النارية قوةً تَفْصِل منها وتنتشر في الأرض، كشعاع الشمس من الشمس، هذه كُرَةٌ ناريةٌ ميتة مطلقة على الأجسام مُرصدة لها، وتلك كرة نارية حية معلقة على النفوس مرصدة لها، وبهذه وتلك عَمارُ الدنيا وأهلِ الدنيا

قلت: لعلكم أردتم أن تقولوا: (خراب الدنيا وأهلِ الدنيا) فغلطتم فكان ينبغي أن يجيء بدل الغلط. . . .

فقال أحدهم: يا أبا الحسن، خَرَق الثوبُ المسمار. جاز هنا لأمن اللبْس أن يكون المفعول به وهو الثوب مرفوعاً وفاعله وهو المسمار منصوباً، هل جئت - ويحك - تطلبُ النحو وتطلب الشيطان. . . .؟

قال أبو الحسن: فقطعني الجني (والله) وأخجلني، ونظرت خلسة إلى الشيخ أراه كيف يسخر مني، فإذا الشيخ قد أملسَ فلا أراه، وإذا أنا وحدي بين الجن وبازاء هذا الساخر الذي وُضِعَت عينه في جبهته وشُق فمه في قفاه. . . . .! فَسُرِّيَ عني وزال ما أجده، وقلت في نفسي: الآن أبلغ أرَبي من الشيطان ويكون الأمر على ما أريد فلا أجد من أحتشم ولا تَقْطَعُني هيبة الشيخ. . . .!

وقع هذا الخاطر في نفسي، فاستعذت بالله ولعنت الشيطان وقلت هذا أول عبثه بي وجعله إياي من أهل الرياء، كأن لي شأناً في حضور الشيخ وشأناً في غيابه، وكأني منافق أعلن غير ما أسِر، وقلت: إنا لله! كدت يا أبا الحسن تتشيطن!

ثم هممتُ أن أنكص على عقبي، فقد أيقنتُ أن الشيخ إنما تخلى عني لأكون هنا بنفسي لا به، وما أنا هنا إلا به لا بنفسي، فيوشك إذا بقيتُ في موضعي أن أهلِكَ! بَيْد أن المغارة

انكشفتْ لي فجأة، فما ملكتُ أن أنظرَ، ونظرتُ فما ملكت أن أقف، ووقفتُ أرى، فإذا دخانٌ قد هاج فارتفع يثور ثورانه حتى تملأ المكان به، ثم رق ولطُفَ واستضرَمت منه نارٌ عظيمة، لها وهَجانٌ شديدٌ يضطرم بعُضها في بعض، ويُسمَع من صوتها مَعمَعة قوية ثم خَمدَت وانفجرَ في موضعها كالسد المنبثق من ماءٍ كثيف أبيضَ أصفرَ أحمرَ، كأنه صديدٌ يَتقيح في دمٍ ثم غاض

وتنبعثْ في مكانه حماةٌ منتنةٌ جعلتْ تربو وتعظمُ حتى خِفتُ أن تبتلعني وأذهَبَ فيها، فسميتُ الله تعالى فغارت في الأرض

ثم نظرتُ فإذا كلبٌ أسودٌ محمرِ الحماليق هائلُ الخلقة مَستأسد؛ قد وقف على جيفةٍ قذرة غاب فيها خَطمهُ يعُبُّ مما تسيل به

فقلت: أيها الكلب، أأنت الشيطان؟

وأنظرُ فإذا هو مَسخٌ شائه كأنه إنسانٌ في بهيمةٍ قد امتزجا وطغى منهما شيءٌ على شيء، أما وجهه، فأقبحُ شيءٍ منظراً، تحسبُه قد لَبِس صورةَ أعماله. . . ونطق فقال:

أنا الشيطان!
قلت: فما تلك الجيفة؟
قال: تلك دنياكم في شهواتها، وأنا ألتقم قلب الفاسق أو الآثم منكم، كما ألتقم دودة من هذه الجيفة
قلت عليك لعنةُ الله وعلى الفاسقين والآثمين، فكيف كنتَ دخاناً، ثم انقلبت نارا، ثم رجعتَ قِيحاً، ثم صرتَ حمأة، ثم كنت كلباً على جيفة؟
قال: لا تلعن الفاسقين والآثمين؛ فانهم العباد الصالحون بأحد المعنيين، وأنت وأمثالك عباد صالحون بالمعنى الآخر، أليس في الدنيا حياءٌ ووقاحة؟ فأولئك - يا أبا الحسن - هم وقاحتي أنا على الله! أنا معكم في زهدكم حِرمانُ الحرْمان، وفقرُ الفقر، ولقد أهلكتموني بُؤساً؛ غير أني معهم لذة اللذة، وشهوةُ الشهوة، وغِنىَ الغنيَ، لا تتم لذة في الأرض ولا تحلو لذائقها وإن كانت حلالاً، إلا إذا وضعتُ أنا فيها معنى من معاني أو وقاحةً من وقاحتي! حتى لأجعل الزوجة لزوجها مثل الشعر البليغ إذا استعار لها معنى . . . .مني، وكل ما فسدت به المرأة فهو مجازي واستعارتي لها أجعلها به بليغة
وأنتم يا أبا الحسن تقطعون حياتكم كلها تجاهدون إثمَ ساعةٍ واحدة من حياة عبادي، فانظر
رحمك الله - لئن كانت ساعةٌ من حياتهم هي جهنمكم أنتم، فكيف تكون جهنم هؤلاء - المساكين؟
إنك رأيتني دخاناً لأني كذلك انبعثُ في القلب الإنساني فمتى تحركتُ فيه حركة الشر كنت كالاحتيال لإضرام النار بالنفخ عليها. فمن ثم أكون دخاناً، فإذا غَفَل عني صاحبُ القلب تضرمتُ في قلبه ناراً تطلب ما يطفئها؛ ثم يُواقِع الإثم والمعصية نَهْمَته فأبَردُ عن قلبه، فيكون في قلبه مثل الحرق الذي بَردَ فتأكل موضعه فتقيح، ثم يختلط قيحُ أعماله بمادته الترابية الأرضية، فينقلب هذا المسكين حمأة إنسانية لا تزال تربو وتنتفخ كما رأيت
قلت: أعوذ بالله منك! أفلا تعرف شيئاً يردك عن القلب وأنت دخانٌ بَعْد؟
فقهقه اللعين وقال: ما أشد غفلتك يا أبا الحسن، إذ تسأل الشيطان أن يخترع التوبة! أما لو أن شيئاً يخترع التوبة في الأرض لاخترعها القبرُ الذي يدفن فه بعضُكم بعضا كل طرفة عين من الزمن فتُنزلون فيه الميتَ المسكين قد انقطع من كل شيء، وتتركونه لآثامه، وحساب آثامه، والهلاك الأبدي في آثامه؛ ثم تعودون أنتم لاقتراف هذه الآثام بعينها!
قلت: عليك وعليك أيها اللعين؛ ولكن ألا يتبدد هذا الدخان إذا ضربته الريح أو انطفأ ما تحته؟
قال: أوه! لقد أوجعتني كأنما ضربتني بجبل من نار، إن نبيكم عَرفها، ولكنكم أغبياء، تأخذون كلامَ نبيكم كأنما هو كلامٌ لا عَمل، وكأنه كلام إنسان في وقته لا كلامٌ النبوة للدهر كله وللحياة كلها. ولهذا غلبتُ أنا الأنبياء على الناس، فإني أضع المعاني التي تعمل، لا الحكمة المتروكة لمن يعمل بها ومن لا يعمل
أتدري يا أبا الحسن، لماذا أعجزني أسلافكم الأولون مثل: عُمر وأبي بكر؟ حتى كان إسلامهم من أكبر مصائبي، فتركوني زمناً - وأنا الشيطان - أرتابُ في أني أنا الشيطان. . . . . .؟
قلت: لماذا؟
قال: أراك الآن لم تَلعن، فلستُ قائلها إلا إذا تَرحمتَ علي
قلت: عليك وعليك من لَعنات الله! قل لماذا؟
قال: أسائلُ ويأمر؟ وطَفَيْلي ويَقْترح؟ لا بد أن تترحم!
قلت: يرحمنا الله منك! قل لماذا؟
قال: وهذه لعنةٌ في لفظة رحمة. لا، إلا أن تترحم علي أنا إبليس الرجيم!
قلت: فيُغني الله عن علمك؟ لقد ألهمتنيها روحُ النبي صلى الله عليه وسلم. إن النبوة كانت هي بأعمالها وصفاتها تفسير الألفاظ على أسمى الوجوه وأكملها، فكان روحُ النبي صلى عليه وسلم لتلك الأرواح كالأم لأبنائها. وقد رأوه لا يغضب لنفسه ولا لحظ لنفسه، وذلك لا يستقيم إلا بالقصد في أمر النفس، وجعل ناحية الإسراف فيها إسرافاً في العمل لسعادة الناس. وكلما ارتد الإنسان لنفسه وحظوظها ارتد إليك - أيها اللعين

- وأقبل على شقاء نفسه، وكلما عمل لسعادة غيره ابتعد عنك - أيها الرجيم - وأقبل على سعادة نفسه، وتركُ الغضب وحظوظِ النفس هو الصبر؛ وصبرُ الأنبياء والصديقين ليس صبراً على شيء بعينه في الحياة، بل هو الصبرُ على حوادث العمر كله؛ كصبر المسافر؛ إن كان عزيمةً مدةَ الطريق كلها، وإلا كان فساداً في القوة ووقع به الخذلان فهذا الصبر المُعْتزِمُ المصمم، الذي يُوطن به الرجلُ نفسه أن يكون رجلاً إلى الآخر - هو تعبُ الدنيا، ولكنه هو رَوْحُ الجنة مع الإنسان في الدنيا. والمؤمنُ الصابر رجل مَقْفَلٌ عليه بأقفال الملائكة التي لا يقتحمها الشيطانُ ولا تفتحها مصائب الدنيا. ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن المؤمنَ يُنْضِي شيطانه كما يَنضي أحدُكم بعيره في سفره.) كأنه يقول: لو لم يصبر المسافر دائماً معتزماً مدة سفرهِ كلها لما أنضى بعيره، ولو لم يصبر المؤمنُ دائباً معتزماً مدة حياته كلها لما أنضى شيطانه فصاح الشيطان: أوه، أوه! ولكن قل لي يا أبا الحسن، ما صَبْرُ رجلٍ مؤمنٍ قوي الايمان، قد استطاع بقوة إيمانه أن يُفيقَ من سَكْر الغِني، فتخلص من نزوات الشياطين الذهبيةِ الصغيرة التي تسمونها الدنانير؛ وقد أردتُه على أن يكذب، فرأى الإيمان أن يَصدق، وجَّهَدْتُ به أن يغضب، فرأى الحكمة أن يهدا؛ وحاولتُ منه أن يطمع، فرأى الراحةَ أن يرضي؛ وسَولتُ له أن يحسد، فرأى الفضيلة إلا يبالي. وأخذ لنفسه من كل شيء في الحياة بما يثق أنه الإيمان والصبرُ والهدوء والرضى والقناعة؛ وأحاط نفسه من هذه الأخلاق بالسعادة القلبية واجتزأ بها، وقصر نظره على الحقيقة، ووجد الجمالَ في نفسه الطيبة الصافية، وأجرى ما يؤلمه وما يسره مجرىً واحداً، ونظر إلى العمر كله كأنه يومٌ واحد

يرقبُ مغرب شمسه، وأخذ من إرادته قوة أنسته ما لم تعطهِ الدنيا، فلم يَجفل بما أعطت الدنيا وما منعت؛ وعاش على فقره بكل ذلك كما يعيش المؤمن في الجنة: هذا في قصر من لؤلؤةٍ أو ياقوتةٍ أو زبرجدة، وذاك في قصر من الحكمة أو من الإيمان أو من العقل

قال الشيطان: فلما أعجزني صلاحاً ورضى وصبراً وقناعةً وإيماناً واحتساباً، وكان رجلا عالماً فقيها - سولت له أن يخرج إلى المسجد ليعظ الناسَ فينتفعوا به، ويَبصرهم بدينهم، ويتكلم في نص كلام الله؛ فعقد المجلس ووعظ، وانصرفوا وبقي وحده؛ فجاءت امرأة تسأله عن بعض ما يحتاج إليه النساء في الدين من أمر طبيعتهم؛ وكانت امرأة جزلة غضة، يهتز أعلاها وأسفلها، وتمشي قصيرة الخط مثاقلة كالمتضايقة من حمل أسرار جمالها وأسرار بدنها الجميل، فبعض مشيتها يقظةٌ وبعضها نومٌ فاترٌ تخالطه اليقظة؛ ولا يراها الرجل الفحل التام الفحولة إلا رأى الهواءَ نفسه قد أصبح من حولها أنثى مما تعصف به ريحها العطرة عطر زينتها وجسمها. وكان الواعظ قد ترمل من أشهر، وكانت المرأة قد تأيمت من سنوات؛ فلما رآها غض طرفه عنها، ولكنها سألته بألفاظها العذبة عن أمور هي من أسرار طبيعتها، وسألته عن طبيعتها بألفاظها؛ فسمع منها مثل صوت البلور يتكسر بعضه على بعض وتحدثت له وكأنها تتحدث فيه؛ فسمع بأذنه ودمه؛ ثم كان غض عينه أقوى لرؤية قلبه وجمع خواطره ورأى صوتها يشتهي؛ وعانقته رائحتها العطرية النفاذة؛ وأحاطته بجو كجو الفِراش؛ وعادت أنفاسها كأنها وسوسة قُبل، وصارت زفراتها كالقدر إذا استجمعت غلياناً، وطلعت في خياله عريانة كما تطلع للسكران من كأس الخمر حورية عريانة، لها جسمٌ يبدو من اللين والبضاضة والنعمة كأنه من زَبَد البحر؟

قال أبو الحسن: وكنتُ كالنائم فما شعرتُ إلا بصوتٍ كصك الحجر بالحجر، لا كتكسر البلور بعضه على بعض، وسمعت شيخي يقول:

أفَسَقْتَ. . . . . ؟

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

صفحات من الدبلوماسية الأسلامية

السفارات الخلافية والسلطانية وعلائق الإسلام والنصرانية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

منذ نحو عام عرضت في الرسالة إلى موضوع السفارات النبوية؛ وتبادل السفارات بين الشرق والغرب في العثور الوسطى، سواء من الإسلام إلى الأمم النصرانية، أو

من هذه إلى الدول الإسلامية، من الموضوعات الهامة التي تشوق بتفاصيلها وما تلقيه من ضوء على علائق الشرق والغرب في عصور لم يكن الإسلام فيها سيد المشرق فقط، بل كان يساهم أيضاً بنصيب قوي في سيادة الغرب ذاته. وقد كان لهذه السفارات رسوم وقواعد تتفق مع صولة الإسلام وتلائم روح العصر، وكان لها في بعض الأحيان أثر كبير في توجيه سياسة الإسلام نحو النصرانية، أو سياسة النصرانية نحو الإسلام. وقد كانت ريح هذه السفارات تتجه بالأخص من الغرب إلى الشرق في عصور القوة والمجد. ذلك لأنها كانت في الغالب ترمي إلى التماس السلام والمهادنة أو تحقيق بعض المنح والمغانم من الإسلام القوي الظافر، ولكنها كانت في عصور الضعف والاضمحلال تتجه بالأخص من أمم المشرق إلى أمم المغرب التي تتبوأ مقام الزعامة والنفوذ، وتعمل لتوطيد سيادتها بالضرب والتفريق بين الدول الإسلامية المتنازعة، كما كانت تفعل الدولة البيزنطية منذ انحلال الخلافة العباسية وتمزق سيادتها بين مختلف الدول والامارت التي قامت على أنقاضها، وكما كانت تفعل إسبانيا النصرانية منذ انهارت الخلافة الأموية القوية، وانقسمت الأندلس إلى إمارات الطوائف، على أن هذه القاعدة لم تكن عامة، وإنما كانت ظاهرة ملحوظة فقط، فكثيراً ما كانت تعقد المعاهدات وتتبادل السفارات بين الدول الإسلامية القوية والدول النصرانية القوية تنظيما للعلائق والمصالح المشتركة بينهما

وسنحاول أن نعرض في هذا الفصل إلى طائفة من هذه السفارات الشهيرة التي ترد أخبارها أشتاتاً في تواريخ الشرق والغرب، وسنرى فيها من أوجه التماثل أحياناً، ومن أوجه التباين أحياناً أخرى، ما يفسر لنا بعض العوامل التي كانت في تلك العصور محور العلائق الدبلوماسية بين أمم الإسلام وأمم النصرانية، ومبعث التجاذب السياسي بينهما كانت الدولة الأموية دولة الفتح والانشاء، فلم يتسع وقتها لتنظيم العلائق الدبلوماسية السلمية؛ وكانت تقف طوال عهدها من جارتها الكبرى - الدولة الرومانية الشرقية - موقف الخصومة والتربص، فلا نقف في هذا العصر على كثير من أخبار السفارات المتبادلة بين الدولتين؛ ولكنا نجد بعد حوادث حصار قسطنطينية الأول وإخفاق الخلافة الأموية في مشروعها لاقتحام الدولة الشرقية (58هـ - 678م) سفراء الإمبراطور قسطنطين الرابع يستقبلون في دمشق بحفاوة ليعقدوا مع الخليفة الأموي (معاوية) معاهدة الصلح التي ارتضى بها معاوية أن يؤدي إلى الدولة الشرقية جزية سنوية متنوعة كانت على ضآلتها عنوان المهادنة والمسالمة من جانب الخلافة. وفي خلافة سليمان بن عبد الملك تردد على دمشق رسل الدولة الشرقية ليقفوا على أمر الأهبة الهائلة التي تتخذها الخلافة للسير إلى قسطنطينية ومحاولة اقتحامها كرة أخرى، وعاد سفير الدولة الشرقية إلى بلاك قسطنطينية يحمل عن أهبة الخلافة أروع الأخبار والروايات

ولما قامت الدولة العباسية وتوطدت أركانها، وقامت في نفس الوقت دولة أموية جديدة في الأندلس، كانت بغداد في المشرق، وقرطبة في المغرب، كلتاهما قطباً للتجاذب السياسي بين الإسلام والنصرانية. وكانت مملكة الفرنج القوية قد قامت يومئذ في الطرف الآخر من أوربا لتتزعم أمم الغرب إلى جانب الدولة الرومانية الشرقية؛ فكان ذلك عاملاً جديداً في إذكاء التجاذب السياسي بين الشرق والغرب؛ ومنذ خلافة المنصور ثاني خلفاء الدولة العباسية نرى مملكة الفرنج تحاول أن تأخذ بنصيبها في عقد الصلات السياسية مع زعيمة الإسلام في المشرق، وفي إقامة التوازن السياسي في العالم الجديد، ونرى ملك الفرنج بين يبعث رسله إلى عاصمة الإسلام الجديدة (بغداد) في سفارة إلى المنصور. ويضع مؤرخو الفرنج تاريخ هذه السفارة في سنة 765م (148هـ)، وتقول لنا الرواية إن السفراء الفرنجيين لبثوا مدى حين في بغداد وعادوا بعد ثلاثة أعوام إلى فرنسا يصحبهم رسل أو سفراء من قبل الخليفة إلى ملك الفرنج، ونزلوا بثغر مرسيليا؛ فاستقبل ملك الفرنج سفراء الخليفة أحسن استقبال، ودعاهم إلى تمضية الشتاء في مدينة متز التي كانت يومئذ منزل البلاط الفرنجي، ثم دعاهم للتنزه والإقامة مدى حين في قصر (سلس) على ضفاف اللوار؛ ثم عادوا بعد ذلك إلى بغداد بطريق مرسيليا أيضاً مثقلين بالتحف والهدايا. واستمرت هذه الصلاة السياسية بين الخلافة العباسية ومملكة الفرنج عصراً؛ وزادت أواصرها في عصر

الرشيد قوة وتوثقاً. وهنا نعطف بإيجاز على ذكر تلك السفارات الشهيرة التي تبادلها الرشيد، وكارل الأكبر أو شارلمان إمبراطور الفرنج ولد ببين، والتي تنفرد بذكرها الروايات الفرنجية أيضاً؛ فإن هذه الروايات تقول لنا إن شارلمان جرياً على سياسة أبيه، أرسل إلى الرشيد سفارة على رأسها يهودي يدعى إسحاق ليؤكد بينهما الصلات الودية، وليسعى لدى الخليفة في نيل بعض الامتيازات الخاصة بالنصارى والأماكن النصرانية المقدسة، فأكرم الرشيد وفادة السفراء الفرنج وردهم إلى شارلمان بهدية فخمة منها فيل وخيمة عربية وساعة مائية وحرائر وعطور شرقية وغيرها، وبعث إلى ملك الفرنج سفراءه بتحياته وتأكيد صداقته. وقد سر شارلمان بنتائج سفارته الاولى، فأوفد إلى الرشيد سفارة أخرى على رأسها مبعوثه إسحاق أيضاً؛ وتبالغ الرواية الفرنجية في نتائج هذه المراسلات بين الرشيد وشارلمان، فتقول إن الرشيد أرسل إلى ملك الفرنج مفاتيح الأماكن النصرانية المقدسة، ومنحه حق رعايتها وحمايتها. وقد وقعت هذه السفارات على ما يظهر في أوائل عهد الرشيد بين سنتي 786 و790 (171 - 176هـ)؛ ولكن الرواية الفرنجية تؤرخ سفارة الخليفة إلى شارلمان بسنة 800هـ، ولعلها رد الرشيد على السفارة الفرنجية الثانية. ويختلف البحث الحديث في أمر هذه السفارات والمكاتبات بين الرشيد وشارلمان، فيؤيد البعض صحتها وينكرها البعض الآخر، أما نحن فنرجح صحتها

وتستطرد الرواية الفرنجية؛ فتذكر أن هذه العلاقات الودية بين بغداد ومملكة الفرنج، استمرت بعد وفاة الرشيد وشارلمان؛ وأن المأمون ولد الرشيد بعث إلى (لويس) ولد شارلمان وملك الفرنج من بعده سفارة أخرى لتأكيد المودة والصداقة بينهم؛ وتشير الرواية الفرنجية في ذلك الصدد إلى ما كان لنفوذ الرشيد قبل وفاته من التأثير في سياسة خوارج البحر المسلمين وإحجامهم عن مهاجمة الشواطئ الفرنجية والرومانية، وإلى ما كتبه الباباليون الثالث إلى شارلمان بعد وفاة الرشيد من أنه إذا كان خوارج البحر المسلمين لا يحترمون بعد شواطئ الإمبراطورية الفرنجية، فذلك لأن نفوذ الخليفة في نفوسهم قد ذهب بعد وفاته

ونستطيع أن نرجع هذا التقرب بين بغداد ومملكة الفرنج إلى بواعث سياسية لها قيمتها؛ ذلك أن الدولة العباسية الفتية ما كادت تقوم على أنقاض الدولة الأموية في المشرق، حتى

بعثت الدولة الأموية في الأندلس من جديد على يد عبد الرحمن الأموي (الداخل)، وأخذت في الاستقرار والتوطد؛ وكان قيام هذه الدولة الجديدة في إسبانيا يثير في الخلافة العباسية ومملكة الفرنج معاً جزءاً ومخاوف جيدة؛ أما الخلافة العباسية فلأنها كانت تعتقد أنها قد سحقت الدولة الأموية نهائياً واجتثت أصولها وفروعها فلن تقوم لها قائمة بعد في المشرق أو المغرب؛ فلما استولى عبد الرحمن الأموي على الأندلس وأقام به ملك أسرته من جديد، أخذت الدولة العباسية تخشى بحق أن تنازعها هذه الدولة الخصيمة زعامة الإسلام، أو أن تبلغ من القوة مبلغاً يحملها على التفكير في مقارعتها ومناوأتها والإغارة على أملاكها الأفريقية؛ وأما مملكة الفرنج فقد كانت تخشى اجتماع كلمة الأندلس بعد تفرقها مدى حين، وهو تفرق مهد للفرنج استعادة الأراضي الإسلامية في غاليس وافتتاح ثغر أربونة آخر معقل للإسلام في فرنسا؛ وقيام الدولة الإسلامية الجديدة في الأندلس موحدة الكلمة موطدة الدعائم يعرض مملكة الفرنج إلى خطر الغزوات الإسلامية كرة أخرى؛ فكانت مملكة الفرنج ترقب قيام هذه الدولة يجزع، وتلتمس الوسائل لسحقها قبل أن تستفحل وتغدو خطراً داهماً عليها؛ ومن ثم كانت سياسة الفرنج في تشجيع جميع الزعماء الخوارج على عبد الرحمن الأموي، والعمل على إضرام نار الحرب الأهلية في الأندلس؛ وكان اقتحام شارلمان للبرنيه بتحريض الزعماء الخوارج ليحاول افتتاح شمال الأندلس؛ ومن ثم كانت هذه العلائق والمراسلات الدبلوماسية التي تبادلتها الخلافة العباسية مع مملكة الفرنج، ولم تكن بلا ريب بعيدة عن الفكرة المشتركة في التعاون على سحق الدولة الأموية الجديدة في الأندلس

وكانت ثمة فكرة مماثلة تحمل الدولة الأموية في الأندلس والدولة البيزنطية خصيمة الدولة العباسية ومناوأتها في المشرق على عقد التفاهم والصلات الودية؛ فكانت بين أمراء بني أمية وقياصرة قسطنطينية مراسلات وسفارات سياسية هامة. ففي سنة

836م (225هـ) بعث الإمبراطور تيوفيلوس إلى عبد الرحمن بن الحكم أمير الأندلس سفراءه بهدية فخمة ورسالة يدعوه فيها إلى التحالف، ويرغبه في ملك أجداده بالمشرق؛ وكانت هذه المحاولة الدبلوماسية من جانب قيصر قسطنطينية على أثر اضطرام الخصومة والحرب بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية وبميث المأمون ثم المعتصم في أراضيها. فرد عبد الرحمن ابن

الحكم على القيصر بهدية فخمة وبعث إليه سفيره يحيى بن الغزال، وهو من كبار الدولة وفحول الشعراء فاحكم بينهما الصلة والتحالف. على أن علاقة الإمبراطور بصاحب الأندلس لم تتعد المراسلة والمجاملة، لأن خلفاء عبد الرحمن الداخل حافظوا على سياسته التي رسمها من الامتناع بالجزيرة والاقتصار على توطيد ملك بني أمية فيها، حتى عمد الناصر إلى تغيير هذه السياسة والتدخل في شئون المغرب لظروف وحوادث عرضت يومئذ

ونعود إلى علائق الدولتين العباسية والبيزنطية، تاج العلائق بين الإسلام والنصرانية في تلك العصور؛ ففي أواخر القرن الثامن كان على عرش قسطنطينية امرأة وافرة الذكاء والعزم هي الإمبراطورة إيريني زوج الإمبراطور ليون الرابع، وكانت وصية على ولدها قسطنطين أثناء طفولته؛ ولكنه لما كبر وحاول أن يقبض على زمام السلطة، ناوأته وقاومته حتى ظفرت به، وزجته إلى ظلام السجن بعد أن سملت عيناه بأمرها؛ فانتهز المسلمون فرصة هذه الاضطرابات وغزوا آسيا الصغرى مراراً حتى اقتربوا من البوسفور، وقاد هارون (الرشيد) وهو يومئذ ولي عهد أبيه المهدي بنفسه معظم هذه الحملات، فاضطرت إيريني إلى التماس الصلح، وبعثت رسلها إلى هارون، وهو يعسكر بجيشه على مقربة من البوسفور، تطلب الصلح والهدنة؛ فاجابها الرشيد إلى ما طلبت وعقدت بين الفريقين معاهدة تعهدت إيريني بمقتضاها أن تدفع إلى الخلافة جزية سنوية مقدارها سبعون ألف دينار، وتبادل الرشيد والإمبراطورة بهذه المناسبة بعض الهدايا والتحف الملوكية (782م - 166هـ)، ولما تولى الرشيد الخلافة بعد أبيه، كانت إيريني قد خلعت وجلس على عرش قسطنطنطية نيكيفروس (ويسميه العرب نيقفور) كبير الخزائن؛ فما كاد يجلس على العرش حتى بادر بإعلان الخصومة على الخلافة وبطلان معاهدة الصلح، ورفض أداء الجزية والمطالبة بما أدى منها؛ وتنقل إلينا الرواية الغربية صورة الإنذار الذي وجهه نيكيفروس على يد سفرائه إلى الرشيد وفيه يخاطب الرشيد بما يأتي: (من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب، أما بعد فان الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقياً بحمل أضعافه اليها، لكن ذلك لضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي هذا فاردد ما حصل لك من أموالها وافتد نفسك بما تقع به المصادرة لك، وإلا فالسيف بيننا)؛ وألقى سفراء الروم أمام عرش الرشيد حزمة من السيوف إشارة بإعلان الحرب، فغضب الرشيد لهذه الجرأة أيما غضب؛ وكتب بنفسه على ظهر كتاب ملك الروم؛ أما بعد فقد فهمت كتابك يا ابن الكافرة، والجواب ما تراه لا ما تسمعه والسلام)، وبادر الرشيد إلى غزوا آسيا الصغرى على رأس جيش ضخم، فاجتاحها حتى هرقلية (806م) فاضطرب نيكيفروس إلى طلب الصلح، وأرسل إلى الرشيد سفارة على رأسها أسقف سينادا، وعقدت بين الفريقين معاهدة جديدة، يتعهد فيها القيصر باصطلاح الحصون المخربة، وبأن يدفع جزية سنوية قدرها ثلاثون ألف دينار، وأن يدفع عن نفسه ثلاث قطع ذهبية من نوع خاص وثلاث أخرى عن ولده عنواناً لخضوعهما لأمير المؤمنين

(للبحث بقية)

محمد عبد الله عنان المحامي

منازل الفضل

قصر الوالدة - 1

للأستاذ محمد محمود جلال

يوم أراد الله أن أفرغ من الدراسة الابتدائية، وقد أتممتها في كنف الجمعية الخيرية الإسلامية في معهدها ببني مزار، اتجهت أنظارنا إلى القاهرة عاصمة البلاد تطلعاً لإكمال الدرس في معاهدها الثانوية

لم يكن من ذلك بد، وقد قضت سياسة دنلوب، بتركيز الدراسة الثانوية بالعاصمة،

وحرمان مديريات القطر من الخطوة الثانية للتعليم فضلاً عما أفسد من برامجه وشوه من خططه
كثر التردد على القاهرة، بين تقديم الطلب، والاستعداد للكشف الطبي، والحرص على الظفر بمكان، إذ كان نطاق المدارس ضيقاً ومحاطاً بكثير من القيود تمشياً مع تلك السياسة
كان ذلك في أواخر سنة 1911 أي من نحو ربع قرن
فإذا كان يوم الجمعة، ذهبنا إلى ملعب الكرة بالحلمية الجديدة مررنا بشارع البرموني. هناك يستوقف النظر تجمع كثير من النسوة والصغار يختلفن إلى دار في مواجهة . . . . .(زقاق) صغير ينتهي بها فتغيره وتحيله ميداناً فسيحاً للرحمة والإحسان
كانت تلك الدار (مبرة محمد علي) تجد فيها فقيرات الأمهات وفقراء الأولاد رعاية عالية، وعطفاً كريماً: يلقين فيها يد الطب تأسو، ويد البر تواسي، تستنفذ اليدان بفضل الله أناسي من خلقه من براثن الأمراض وآلام الحياة
فإذا سألت لمن هذا العَلم؟ ومن يقوم على هذا البر؟ ومن يغذى تلك الشجرة المباركة! أجابك المغاثون الداعون هي: (الوالدة) أطال الله بقاءها
وأي اسم في الوجود أولى بهذه المعاني من هذا الاسم الكريم؟ وهل في !!(الوالدة) !!الدنيا أكثر عطفاً من الوالدة
أليس بين الاسم والفعل خير تناسق وأوثق صلة؟
إنا نرى اليوم في مصر كثيراً من مظاهر البر، وأماكن للعلاج وافية الأعداد، ولكنا حين نذكر ما كان، وحين أكتب اليوم، إنما ننظر واكتب عما كان منذ ربع قرن. كانت (مبرة محمد علي) لا تقل في عين الفقير عما يرى اليوم في عجيبة (الراديو) والطيران
ولما أعلنت الحرب بين إيطاليا والدولة العلية، ونزلت جيوش الأولى شاطئ طرابلس، تحمس المصريون ذاكرين ما هم فيه وما بهم من ويلات الاحتلال الإنجليزي، يأسون جراح المجاهدين بفضل من المال وشيء من العون، رأينا (الوالدة) تتقدم الصفوف وخلفها الفضليات من نساء مصر يقمن بواجب الاغاثة، ويجمعن التبرعات، يوفين ما علبهن لله، وما في ذمتهن للحق والأخلاق
هذه (سوق الإحسان) نافقة ترأسها (الوالدة)، وتلك دعوة للتشاور بين سيدات مصر في (قصر الوالدة)، وفي الصباح تتحلى صحف مصر بفاتحة التبرعات مصدرة باسم (الوالدة)
وفي الحلمية الجديدة بناء جميل، تسمع به حركة ولا تسمع فيه لغواً، يجمع كثيرين من أبناء البلاد، يتعلمون الصناعة، ينقل إليك الأثير نغمات آلاتهم توقع الأنشودة في تدعيم صناعة البلاد
فإذا خطوت إلى شارع سليمان باشا، راعك مخزن فاخو، فخاره وروعته قطع الأثاث المتقن برعت فيه أيدي المصريين والعبقرية الفنية الموروثة، فبينا نرى المخازن والمحال تطلى وتنسق إعلاناً عما بها إذا بذلك المعرض يحلي المكان ويعلن عنه والعهد بذلك الحي أنه (إفرنجي) في مساكنه ومقاهيه ومخازنه، وإنك لمفترض إذن أن هذا المكان (لكريجر) أو (لجانسان)، أو غيرهما من تجار الأثاث الثمين. ولكنه قطعة من مدرسة الحلمية وقفت كالراووق لا تبقى للعرض إلا ماله قيمة حقيقية، تعلن في صدق عن حقيقة البلاد وأبناء البلاد ولإنتاج البلاد، في الحي الذي لا يقطنه إلا الأوربيون وكذلك كانت (الوالدة) شغل السمع والبصر
التحقت بالمدرسة السعيدية، أجتاز من أجلها جسر قصر النيل في اليوم مرتين، فأمر بقصر (الوالدة) مرتين، ومن العجب أن يزداد المرء في كل نظرة شغفاً بالقصر، وألا يكون لتكرار رؤيته إلا استزادة الإعجاب وامتلاء العين من محاسنه، على نقيض ما يعرو الإنسان عادة من ملل إذا تكرر المنظر، ولو في نزهة
كان (قصر الدوبارة) أحب أحياء القاهرة إلي. فإذا أردت ترويحاً عن نفسي سرت على شاطئالنيل حذاءه، وإذا شعرت بضيق طلبت تفريجه في سويعات المساء بين مغانيه، وإذا جلت بالجزيرة وقفت على النيل من الشاطئالغربي أنظر إليه، وكثيراً ما طالعت العسير من
دروسي في تلك الناحية فساغ فهمها وانجلى الكرب
بلى إني تمنيت أن يكون لي فيه مسكن، وأن أصبح من قاطنيه، فلما استقر بنا المقام

بشارع (الحوياتي) حمدت الله وقلت هذه خطوة في القرب منه، وقد أوشكت على الخروج من سلك الطلبة
أدركنا من الحياة أكثر، وفهمنا بتقدم السن وتحول الأيام ما لم نكن ندرك من قبل، فإذا بي أبدأ اليوم متنزهاً في البكور بقصر الدوبارة، وأختم المساء بجولة في ربوعه، إذا أحسست القذى من قصر (العميد) لقيت الفرجة من (قصر الوالدة) كما يذهب عنك معرض الصنائع بشارع سليمان باشا، غصة التسلط الأجنبي في ميداني الصناعة والتجارة
وفي سنة 1932 أراد الله أن أظفر بشيء من الأماني، فسكنا داراً بالحي ذاته، وبلغ من عرفاني لجميل الله، وفيض السرور على قلبي أن قيدت في جريدتي الخاصة هذا الانتقال بما يستحقه
فلما أن كان يوم جمعة، ومررت بالقصر في طريقي إلى مسجد (الشيخ بركات) هالني إعلانات تلصق على الجدار الأنيقة، يضعها صبيان دون إكتراث، فأخذت ووقفت أقرأ، الله أكبر، هذه إعلانات عن بيع أثاث القصر!!!
لك الله يا دار! كنت مهبط رحمة، فرفعت بك (الوالدة) علم البر، وكنت منزل الفضل فدعوت للعلم، وقمت بإنشاء معاهدة وتمويلها، كنت آية الفن من الطلاء الخارجي والباب الكبير الجميل إلى الأثاث الداخلي الفاخر، وها أنت اليوم يعبث بجدرك صبية وقد كان يهاب المرور بها كبار! ويباع الأثاث، فتستباح من الشارين الدار. ولم ذلك؟ وفيم السخرية والتفريط فيك ووارثوك في نعمة وبسطة من العيش؟! وكيف هنت وأنت مصدر العزة لبيوتات طاهرة، وكنت الغوث والابقاء لدور وقصور
وكذلك أصبح يوم الجمعة عندي - وهو يوم الجمع والرحمة - يوم العظة والاعتبار، يوم كشف لي فيه عن (مبرة محمد علي) سنة 1911، ثم رأيت فيه ختام الآية، وكيف عبثت أطماع الدنيا بالتراث المجيد
ومنذ حل الأجل، وبدأ المكلف بالبيع من الخبراء ينفذ إعلانه أقصرت عن الطريق وتخليت عن عادتي، وكرهت أن أرى كعبة العافين ومنار الفضل مزدحمة المسالك بالمتفرجين
والعابثين
علم أبي - عليه رحمة الله - بالبيع فطلب إليَّ أن أزور القصر واشترى أثاثاً ينقصنا لغرفة المائدة، وبقي بالقاهرة يومين ثم سافر إلى الريف لبعض شأنه
وحين عودته سألني هل نفذت رغبته؟ وهل اقتنيت شيئاً؟ لقد كنت أهابه على رعايته لي، وما أظنني خالفت له مدى حياته رأياً، فلما سئلت لم أعدل بالحق شيئاً، قلت: لقد بر علي يا أبي - وقد أعجبت بالقصر فتى، وقدرت أثر صاحبته وأثره في عالم الخير والعلم لهذه البلاد شاباً - كبر علي أن تشترك قدماي في امتهانه فلئن لم يأبه منا ريحه ذوو الشأن، ولئن تدفقت الجموع تظفر بما يقتني، فإني سعيد بأن أقتني تذكاره، وأن أفي له بشيء من احترام الذكرى، ثم والأثاث موفور في مخازنه، وجيده اليوم معتدل الثمن
سر أبي بنظرتي، وقال على الفور: (إنك أشبه بجدك، فقد ذهب مرة مع فريق من صحبه لزيارة الخديوي إسماعيل بالآستانة، وكانوا في جملة من كبراء البلاد يطالبون بتدخل الباب العالي لجلاء الاحتلال - والدولة في ذاك الوقت صاحبة السيادة - فلما جلسوا قدمت إليهم السجاير، وطاف الخدم يشعلونها للضيوف الكرام، أبى جدك أن يشعل سيجارته، وكان الخديوي إسماعيل قد كف بصره
فلما سئل من بعض رفاقه بعد الانصراف من الزيارة، قال: (إني نقدت ظلمه، ومدحت إصلاحه - وهو خديوي - ولم أدخن أمامه بصيراً، وإني لأكره أن أدخن - وهو مكفوف البصر - احتراماً لعبرة مآله، وصوناً لذكرى عزته الأولى.
قلت: الحمد لله، لقد أفدت وفاء وعلماً أين منه اقتناء حطام سريع البلى مهما دام، وقمت بما يرضي ضميري ولو في أضيق مجال
واليوم أغلقت أبواب القصر؛ فلا حاجب ولا قاصد، واليوم تمر بقاعة (يورث) الأمريكي على قرب منه فترى رتل السيارات يزحم الطريق، جاءت بأصحابها يستمعون إلى ما يلقي في العلم والفن والأدب، بينا القصر العظيم، المقر السابق للسابقة بين المحسنين وأركان العلم يكاد يطمس سنا طلائه نسيج العناكب لا يرتفع فيه صوت

بحديث ولا علم ولا فن
أليس (قصر الوالدة) أولى مكان بنور العلم والأدب والفن؟ إنه أولاها، وإنه أرحب الأمكنة للفضل منذ نشأته
فهل نرى في ورثته من الأمراء في القريب ما يعيده إلى مكانته ويعيد إليه روح الأنس بخير ما خلق الله للإنسان فيكون ذلك استمراراً لروحه، وأنساً لروح سكنت الخلد - هي روح (الوالدة). . . . .
محمد محمود جلال المحامي
(روز)
للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني
كان الظلام قد خيم بعد غيوب الشمس، وذهبت معارف الأرض، وانتقل كل مجسد إلى عالم الأشباح الغامضة، وتسربت الألوان المختلفة في السواد الذي غمرها، وتحول الجو من طلاقة الاعتدال وطيبه إلى البرد، كعادته في هذه المناطق الصحراوية، فتحول أهل البيت إلى الحجرات طلباً للدفء، أو اتقاء لما يجر إليه التعرض للقر، وكان البواب النوبي يتمشى في الحديقة بعد أن خلت من المتنزهين وفي يده مسبحته الطويلة التي لا تفارقه، فهي على عنقه كالعقد إذا لم تكن حباتها بين أصابعه، وكان قد وصل إلى آخر الممر، ودار ليعود، فقال له حوضُ الأذريون
- أو هكذا خيل إليه -:
(!هشش)
فنظر مبهوتاً إلى هذا الزهر الأصفر ذي الخمل الأسود، وتعجب من نطقه، فلولا فرط الدهشة للاذ بالفرار، فقد كان من المؤمنين بالعفاريت وركوبها الناس واتخاذها أشكالاً وصوراً شتى، وتقمصها أجسام الحيوان، ولم يكن بعيداً في التصور عنده أن تطلع من أحواض الزهر
ومنعته الدهشة أن يجيب بشي. وأي جواب لمثل هذا النداء سوى الالتفات إلى مصدر الصوت؟ ولا مصدر له يعلمه سوى هذا الحوض
وعاد الصوت الخفي يقول:
(!هشش)
ولكنه لم يصدر في هذه المرة عن الحوض، بل انتقل إلى ما وراء الزرع المفرش على السور الحديدي، وكفى بهذا التحول سبباً للرعب، فما يمكن أن يجيء الصوت من الإمام مرة، ومن الخلف مرة إلا إذا كان صاحبه عفريتاً من الجن، فانطلق البواب يعدو كالنعامة إلى حيث يرجو أن يجد أنيساً يذهب عنه الخوف
وسخط العفريت لما رأى فريسته تفلت من يده، وتخلص من ألفاف الشجر المتشجنة تخلصاً لا يعود بحسن السمعة وطيب الأحدوثة على الجن قومه، ولا يشهد لهم بالبراعة والحذق،
فلما صار في الممر أخذ ينفخ من الجهد وينقض التراب عن ثيابه، ويلعن البرابرة وجبنهم. ولما أوسعهم لعناً، وشفى قلبه مما يجد عليهم تحول إلى نفسه، ولم يبخل عليها بحظ وافٍ من التعنيف والتقريع على ما كلفته سخافته من الزحف وراء الشجر الأشب من تلويث الثياب والتعرض للحشرات، وأحس - حين ذكر الحشرات - كأن بعضها - جيشاً كاملاً منها - يسير على ظهره تحت ثيابه
وفي هذه اللحظة، وقبل أن يتم ما بدأه من إبداء الرأي في نفسه ويصارحها به على أكمل وجه، سمع من الشرفة صوتاً يناديه باسمه، فكان من أثر المفاجأة أن رد: (نعم) بصوت عال، ولم يكد ينطق بهذه الكلمة المفردة حتى أدركته. الندامة وعاد سخطه فعظم على نفسه، فلو استطاع أن يجردها أمامه شخصاً لقتله بلا تحرج، ولم يسعه بعد أن وشى بنفسه إلا أن يمشي إلى حيث دعُي فأجاب، وكان الله في عونه حين يدعو الفضول إلى السؤال!
وفي هذه اللحظة كانت (روز) - كلبة البيت - قد شبعت من تفتيشه والإحاطة بمداخله وخارجه، واختبار الكراسي والبحث عما عسى أن يكون تحتها، وما لعلعه مخبأ وراء الستائر، وحدثتها نفسها بالخروج إلى الحديقة لعل فيها قطعة، أو عظمة تتسلى بها، فقد كانت (روز) طالبة لهو بريء، وسيان عندها أن يكون الملهو به حيواناً مثلها أو جماداً، ولكن الباب كان مغلقاً اتقاء لتيارات الهواء، ولو لم يكن في وسع (روز) أن

تفتحه بغير معونةٍ من الإنسان، فوقفت أمامه - أو لصقه - وجعلت تحك أنفها فيه منتظرة أن يدخل داخل أو يخرج خارج
وسرعان ما استجاب الله دعاءها وحقق رجاءها، فقد دفع صاحبنا الباب ودخل وهو ينفخ، ولم يكن يدري أن (روز) وراءه وأن أنفها أصابته منه ضربة قوية، أدرات رأسها وآلمتها وأخرجتها عن طورها. وكانت (روز) كلبة رقيقة الإحساس لينة العريكة، وقد ألفت أن يداعبها الناس - رجالاً ونساء وأطفالاً - واعتادت إذا مسها أذى غير مقصود، أن يسرع المسيء إلى ملاطفتها والاعتذار إليها، ولذلك أدهشها أن ترى صاحبنا يضربها بالباب ويكاد يبطط لها أنفها الجميل، ويمضي كأنما لم يحدث شيء على الرغم من الصرخة العالية التي أطلقتها من الألم، وهاجها هذا السلوك فانطلقت تجري حتى صارت أمامه ونبحته نبحتين كأنما تقول له:
(!لحظة من فضلك! لحظة واحدة، إذا سمحت)
فقال صاحبنا بجفوة: (اذهبي عني - فلست أحب الكلاب!)
فقالت (روز):
(صحيح؟ أهو ذاك؟ ومن تظن نفسك أيها الحلوف القذر حتى تضرب فتاة مثلي على أنفها؟)
فبشور صاحبنا بيديه مرة أخرى ليصرفها، لكنها ألحت عليه بالنباح قائلة:
(إن أمثالك في الدنيا هم الذين يحدثون الثورات والفتن والهزاهز. وما أظن بك إلا أنك من الملاّك الجشعين الذين يظلمون الفلاحين العاملين في أرضهم، ويلقون بهم في أحضان المهيجين والبلاشفة. . . .)
فضاق صدر صاحبنا، ورفسها برجله، ولم يرفسها في الحقيقة وإنما حرك ساقه حركة الرفس، فلم تصبها رجله، فقد كان يريد المعنى لا الفعل؛ ولكن (روز) كانت كلبة حرة تكفيها الإشارة، فغضبت جداً لكرامتها، ووثبت وثبةً مكنت أسنانها الحادة من طرف السترة فغرزتها فيها وجذبتها بكل ما فيها من قوة، فانهارت الظهارة، وتكشفت عن البطانة، وكانت لا تزال فائرة النفس، فهمت بوثبة أخرى، ولكن فتاة من أهل البيت دخلت في هذه اللحظة، فصاحت بها:
(!. . . .روز. . . روز)
فالتفتت (روز) على الصوت، وأدركت بذكائها الكلبي أن لا رجاء بها بعد ذلك في مواصلة الكر والفر، فدست ذيلها بين فخذيها واختفت
وقال الفتاة لصاحبنا:
(. . . . .آسفة جداً)
فنظر صاحبنا إليها مقطبا، ثم صوب عينه إلى سترته، وتناول الطرف المهلهل بيمينه، فغلا دمه، وشعر برغبة جامحة في أن ينقص تعداد القطر المصري واحدة، غير أنه استطاع بجهد أن يكبح نفسه، فما يليق أن يكون كالكلبة حماقة، ولا سيما في حضرة سيدة وقال:
(لا بأس! لا بأس! أعني لا شيء. . . هي غلطتي، وإن كنت لا أعرف كيف أسأت إليها. . هل اسمها روز؟ .)
قالت الفتاة: (نعم. . . روز. . . . اسم جميل، أليس كذلك؟)
قال: (ولكن الفعل غير جميل. . . والبذلة جديدة قبحها الله. . . أعني الكلبة لا البذلة. . . معذرة. . .! على كل حال يجب أن أرحل الآن، فما أستطيع البقاء بهذه الثياب الممزقة. . . استودعك الله. . .)
وهكذا مزقت (روز) ثيابي. . . ومن أجل هذا صرتُ أكره الكلاب بأنواعها، من مجازية وحقيقية، ولا أطمئن إليها، ولا آمن من غدرها، ولي الحق. أليس كذلك؟
إبراهيم عبد القادر المازني
- قصة المكروب كيف كشفه رجاله
ترجمة الدكتور احمد زكي وكيل كلية العلوم
اسبلنزاني ثاني غزاة المكروب
هكذا تساءل .(مات لوفن هوك وآ أسفاه! فمن بعده لدراسة تلك الحيوانات الصغيرة؟)
رجال الجمعية الملكية بإنجلترا، وهكذا تساءل رؤُمور، ورجال الأكاديمية الفرنسية الألمعية في باريس. سؤال أجابته الأيام سريعاً، فان قماش (دلُفت)، لم يكد يُغمض

عينته في عام 1723 ليستريح تلك الراحة الطويلة الأبدية التي استحقها بعد طول جهد وعناء، حتى ولد في عام 1729 صيادٌ للمكروب جديد، وذلك في بلدة (إسكانديانو) في شمال إيطاليا على بعد ألف ميل من مضجع (لوفن هوك). وكان اسم هذا المولود الجديد (لازارو اسبلنزاني) نشأ وترعرع فإذا به ولد يلثغ بالشعر بينا هو يلعب بالطين يصنع منه الكعك والفطير، ثم يعزُف عن طينه ويذهب في فطيره ليلهو بالخنافس والبق والذباب وأشتات الديدان يُجري عليها تجارب قاسية، هي عبث الصبي الذي لا يَحذق التجربة ولا يدر مبلغ الألم الذي تأتيه يداه. كان يُغرم بالطبيعة ويهوي الأشياء الحية، وبدلاً من أن يُبرم والديه بكثرة السؤال عنها، كان يمتحنها بنفسه، فينزع عن هذه رجليها، وعن هذه جناحيها، ثم يحاول أن يُثبتهما حيث كانا. كان يجب أن يعرف كيف تعمل الأشياء، ولم يكن يأبه كثيراً بأشكالها وظواهرها

وخاصم أهله كما فعل (لوفن) في تقرير ما يدرس من العلوم، وجاهدهم كثيراً من أجل دراسة المكروب. وكان أبوه محامياً، فبذل مجهوداً كبيراً في أن يُحبب إلى ابنه وثائق من القانون طويلة، وصحائف من حجج الدفاع عريضة، ولكن الصبي كان يهرب من هذا وذاك، فيذهب إلى بعض الجداول فيقذف سطحها برقيق الحجر، ويعجب من أن الحجر يقشط الماء ولا يغطس فيه

وكان يُغصب في الامساء على الجلوس إلى دروس لا لذة له فيها، فلا يكاد أبوه يوليه ظهر، حتى يقوم إلى الشباك ينظر إلى سماء إيطاليا وهي ناعمةٌ كالقطيفة السوداء قد تبعثرت عليها النجوم البيضاء، ثم يُصبح الصباح فيأتي رِفاقَه في اللعب يُلقى عليهم دروساً فيها حتى أسموه المنجم

وتأتي الإجازات فيضرب بجسمه العظيم في الغابات؛ فذات مرة وقعت عينه فيها على نافورات طبيعية يخرج منها الماء راغياً مزبداً، فحملق فيها من الدهشة، وذهب عنه لعب الطفولة وعبثها، وعاد أدراجَه يفكر تفكير الرجال. ما سبب هذه العيون وكيف كانت؟ لم يُحر جواباً إلا حكاية حكاها له ذووه والقسيس: أن فتيات جميلات ذهبن في الغاب فَضلِلْنَ الطريق بين أحراجه، فأحَسن الوحشة، فبكين، فانقلبت دموعهن عيوناً تتفجر ما شاء الله

وكان (لازارو) ابناً طيعاً، وان فيه خُلق الساسة، فلم يجادل أباه ولا القسيس، وإنما سخر من تعليلهم وأخفى سخريته في نفسه، واعتزم أن يكشف عن سر هذه النوافير يوماً

وكان (اسبلنزاني) في صباه شغوفاً بالكشف عن أسرار الطبيعة شغف (لوفن هوك)، ولكنه خالفه في السبيل التي سلك ليكون عالماً باحثاً. قال لنفسه: (والدي يصر على تعليمي القانون، وأنا أصر على غير القانون، إذن فسيعلمن مشيئة من تكون). وتظاهر أمام والده بحب القانون والإقبال على الوثائق الشرعية، ولكنه أقبل في كل أوقات فراغه إقبالاً مريعاً على دراسة الرياضة والمنطق واللغة الإغريقية والفرنسية، وفي عطلاته كان ينظر إلى الأحجار تطير فتكشط جلد الأنهار، وإلى الماء الفوار يتدفع من النبع الثرثار، ويحلم بالبراكين تقذف بالنيران مختلفة الألوان، ويحلم باليوم الذي يفقه فيه منشأها ومنتهاها

واستيقظت في نفسه الحيلة، فذهب إلى العالم الطبيعي الشهير (فالسنيري) وأفضى إليه بمكنون علمه فأكبره الرجل العظيم وصاح به: (إنك يا بني خلقت للعلوم فما إضاعة وقتك في كتب القانون؟). فقال الماكر: (ولكن، سيدي، إن أبي يصر، وما للابن غير الطاعة!)

فذهب فالسنيري إلى أبيه غاضباً حانقاً، فلما لقيه وبخه على العبث بمواهب إبنه وإضاعته في تعلم صناعة لا يعود عليه منها غير النفع والمال. (إن ولدك يا هذا يبشر أن يكون بحاثة كبيراً. إنه يشبه جاليليو. وسيشرف اسكانديانو ويرفع ذكرها في الوجود) ورضي الوالد وذهب الإبن إلى جامعة ريجيو ليحترف دراسة العلوم

وكان الزمان قد استدار قليلاً، فأصبح طالب العلوم الطبيعية ذا حظ أوفر من احترام الناس، ونصيب أكبر من الأمن على نفسه وحياته عما كان الحال يوم بدأ (لوفن هوك) ينحت عدساته. فان محكمة التفتيش كانت قد بدأت تتخاذل قليلاً، وتستر أنياباً كشفت عنها طويلا، فأخذت تطلب الزندقة، لا عند المعروفين النابهين أمثال سرفيتوس

وجاليلو، بل عند النكرات الخاملين، فعلى هؤلاء المستضعفين تجنت، وألسنتهم قطعت، وأبدانهم حرقت ولم
تعد (المدرسة المتسترة) تتستر، فقد كانت خرجت عن أقبيتها السوداء وقيعانها الظلماء، إلى ظهر الأرض حيث الهواء والضياء. ونالت الجمعيات العلمية في كل مكان رعاية الملوك وحماية البرلمانات. وأصبح من المأذون به أن يتشكك الناس في الخرافات، وأن يتحدث الناس حديث الترهات الشاسعة، حتى لبدأ أن يكون ذلك سمة العصر، والطراز الجديد المختار لذلك الزمان. وأخذ الناس يطلبون الحقيقة وقاموا يبحثون عنها في الطبيعة. ولم يلبث البحث العلمي، بما يتضمنه من لذة وما بلغه من وقار، أن شق لنفسه طريقاً إلى حظائر الفلاسفة، فقطع عليهم عزلتهم وحركهم عن سكونهم. فقام فولتير إلى ريف فرنسا وأوحاشها، وقضى فيها السنين الطوال يتفقه فيما اكتشفه نيوتن، لينشره في قومه من بعد ذلك ويؤلفهم عليه. ودخل العلم حتى في دور الندوة، والصالونات الفخمة، فاختلط فيها بالسمر النادر، واختلط فيها أحياناً بالعهر الفاخر. وأكب ذوات العصر، وذوات المجتمع أمثال مدام بمبادور على دائرة المعارف المحرمة يطلبون عندها فن توريد الخدود وتزجيج الحواجب، وصناعة الجوارب، وإلى جانب ما أثاره العصر المجيد الذي عاش فيه اسبالنزاني من الاهتمام بكل شيء كبير وصغير، من ميكانيكا النجوم إلى رقصات الأحياء الصغيرة في الماء، أخذ يشيع في الناس احتقارا مسموعا للدين، ولكل رأي حمته سلطة من أي نوع كانت، حتى تلك الآراء التي بلغت من القدم والقداسة مبلغاً كبيراً. ففي القرن الأسبق كان الرجل يعرض نفسه للأذى وحياته للخطر إذا هو قرأ كتب أرسطو في الحيوان، وضحك على ما فيها من حيوانات معكوسة مقلوبة لا تمت إلى الممكنات بسبب قريب أو بعيد. أما في هذا القرن فالرجل كان يستطيع أن يكشف عن سنه في نور النهار باسماً ساخراً وأن يقول ولو في شيء من الخفوت: لأنه أرسطو لا بد من تصديقه ولو كذب. على أن الدنيا كان لا يزال بها جهل كثير، وعلم كاذب كثير، حتى في الجمعيات الملكية والأكاديميات. وما كاد (اسبالنزاني) أن يتخلص من دراسة القانون، ومما يتبعه من مستقبل مليء بالمحاكمات التي لا حصر لها، والمخاصمات التي لا نهاية لها، حتى قام يحصل بكل ما فيه من قوة كل ما يستطيع من معرفة، من أي نوع كانت، ويمتحن شتى النظريات من أي مصدر جاءت، وأن ينفض عن نفسه احترام المحجّات الثّقات مهما علا صيتهم وشاع ذكرهم، واختلط بكل الناس من الأساقفة السمان، إلى موظفي الحكومة، إلى
أساتذة العلم، إلى ممثلي المسارح، إلى العازفين بالأشعار على القيثار كان في خلقه نقيضَ (لوفن هوك) أبعد النقض عاش (لوفن) عزوفاً جلداً صبوراً، ونحت العدَس وحدق في الأشياء زُهاء عشرين عاماً قبل أن يسمع به أحد، أو يُحس وجوده العلماء. أما (أسبالنزاني) ففي سن الخامسة والعشرين ترجم عن القدماء من الشعراء، وانتقد الترجمة الإيطالية لهوميروس، وكانت لها في قلوب الناس منزلة مستقرة وتقدير مكين، ودرس الرياضيات مع ابنة خاله (لورا باسي) الأستاذة الشهيرة بجامعة ريجيو فبرع فيها، وعندئذ أخذ يكشط سطح المياه بالحجارة، لا اللهو واللعب كما كان يفعل صبياً، بل للجد والدراسة؛ وكتب بحثاً في الحجارة، وكشطها لسطح الماء، وترسم قسيساً في الكنيسة الكاثوليكية، وأخذ يرتزق بما يقيم من القداديس قلنا إنه يحتقر في الخفاء كل سلطة، ومع ذلك نجده تملق هذه السلطات نفسها وكسب عطفها، وعاش هادئاً في أكنافها يعمل في مأمن من كل تهويش وإزعاج، وترسم قساً حامياً للدين، مدافعاً دفاع الأعمى عن حوزة اليقين؛ فإذا به يطلق لنفسه العنان إطلاقاً يسومها على التشكك في كل شيء، وعلى رفض التسليم بأي شيء، إلا وجود الله، لا إله الكنيسة التي صورته، ولكن إله عظيم فخم يهيمن على تلك الخلائق أجمعين. وقبل أن يبلغ الثلاثين من عمره تعين أستاذاً بجامعة (ريجيو) فأنصت لدروسه الطلبة في حماس ظاهر وإعجاب ثائر. وهنا في تلك الجامعة بدأ تجاربيه على تلك الحيوانات الصغيرة الضئيلة العجيبة التي أغراها (لوفن هوك) بالصبر الطويل والحيلة الواسعة على البروز من ذلك الخضّم الشاسع المظلم الذي احتجبت فيه منذ الخليقة عن عين الإنسان، والتي أوشكت من بعد وفاته أن تنسل راجعة إلى ظلمة ذلك المجهول بالترك والإهمال والنسيان

لقد كان من الجائز المقدور أن تُنسى تلك الخلائق الصغيرة، وإن عطف عليها القدر، فقد كان من الجائز الميسر أن تحظى بين الناس بنصيب من الذكر بقدر ما تحظى به الأعاجيب يتلاهى الناس بها ويتفاكهون عليها، ولكن نقاشاً قام بين أرباب الفكر بسببها ضمن لها الحياة كاملة، لأنه كان نقاشاً عنيفاً خاصم فيه الأصدقاء الأصدقاء، وود فيه العلماء الأساتذة أن يفلقوا جماجم الأحبار القساوسة. أما موضوع الخصام فهو ذاك: أيمكن من العدم أن تُخلق الأحياء، أم لا بد لها من آباء؟ أخلق الله الخلائق في ستة أيام، ثم
نفض يديه من الخليقة واستوى على العرش يُهيمن ويَسوس، أو هو لا يزال يتسلى من آن لآن بخلق جديد؟

أما الرأي الشائع في ذلك الزمان، فكان أن الشيء قد يخرج من لا شيء، وأنه لا ضرورة للآباء في كل حالة لتكون الأبناء، وإن في الأقذار المركومة والأوساخ المهيلة تتولد المواليد من غير والد. وإليك وصفة من تلك الوصفات يضمن لك ذلك العصر أنك تحصل بها على ثول عظيم من النحل: خذ ثوراً صغيراً واقتله بضربة على رأسه، وادفنه واقفاً في الأرض حتى لا يظهر منه إلا قرناه، واتركه شهراً، ثم عد إليه فانشر قرنيه يخرج مهما النحل طائراً في كثرة وزحام

أحمد زكي

الليث بن سعد محدث مصر وفقيها ورئيسها

للأستاذ علي الطنطاوي

تتمة

قال الإمام الشافعي: الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به

وقال الإمام أحمد: ليس في أهل مصر أصح حديثاً من الليث

وقال الإمام الشافعي: الليث أتبع للأثر من مالك

وان ابن وهب يقرأ على الشافعي مسائل الليث فمرت به مسألة، فقال رجل من الغرباء: أحسن والله الليث، كأنه كان يسمع مالكاً يجيب فيجيب هو، فقال ابن وهب لرجل: بل كأن مالكاً كان يسمع الليث يجيب فيجيب هو، والله الذي لا آله إلا هو ما رأينا أفقه من الليث

وقال ابن وهب: لولا مالك والليث لضل الناس

وقال الدراوردي: رأيت الليث عند يحيى بن سعيد وربيعة وانهما ليرجرجان له رجرجة ويعظمانه

وقال الذهبي: وكان من بحور العلم له حشم وافر، وكان نظير مالك

قال ابن عساكر: كان كبار العلماء يعرفون فضله ويشيرون إليه وهو شاب، وقيل له: أمتع الله بك، إنا نسمع منك الحديث ليس في كتبك؟

قال: أو كل ما في صدري في كتبي؟ لو كتبت ما في صدري ما وسعه هذا المركب!

منزلته عند الخلفاء والولاة

قال الليث: قال لي أبو جعفر: تلي لي مصر؟

قلت: لا يا أمير المؤمنين، إني أضعف عن ذلك، إني رجل من الموالي

فقال: ما بك ضعف معي إلا ضعف بدنك، أتريد قوة أقوى مني؟ ولكن ضعفت نيتك في العمل عن ذلك، فأما إذ أبيت فدلني على رجل

فقلت: عثمان بن الحكم الجذامي، رجل له صلاح وعشيرة فبلغ ذلك عثمان فحلف ألاّ يكلمني

فلما أردت أن أودعه قال لي: قد رأيت ما سرني من سداد عقلك فاتق الله في الرعية أمثالك

وقال يعقوب بن داود وزير المهدي: قال لي أمير المؤمنين لما قدم الليث بن سعد بغداد: إلزم هذا الشيخ، فقد ثبت عند أمير المؤمنين أنه لم يبق أحد أعلم بما حمل منه

وقال لؤلؤ خادم الرشيد: جرى بين هرون الرشيد وبين بنت عمه زبيدة بنت جعفر كلام، فقال هرون: أنت طالق إن لم أكن من أهل الجنة. ثم ندم فجمع الفقهاء فاختلفوا. ثم كتب إلى البلدان، فاستحضر علماءها إليه، فلما اجتمعوا جلس لهم فسألهم فاختلفوا، وبقي شيخ لم يتكلم، وكان في آخر المجلس وهو الليث بن سعد. فسأله فقال: إذا أخلى أمير المؤمنين مجلسه كلمته، فصرفهم. فقال: يدنيني أمير المؤمنين. فأدناه.

فقال: أتكلم على الأمان؟ قال: نعم. فأمر بإحضار مصحف، فأحضر، فقال: تصفحه يا أمير المؤمنين حتى تصل إلى سورة الرحمن فاقرأها، ففعل، فلما انتهى إلى قوله تعالى (وَلِمَنْ خافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنتانِ)
. . .قال: أمسكْ يا أمير المؤمنين، قل: والله
فاشتد ذلك على هرون. فقال: يا أمير المؤمنين الشرط أملك
فقال: والله (حتى فرغ اليمين). قال: قل، إني أخاف مقام ربي. فقال ذلك
فقال: يا أمير المؤمنين، فهما جنتان، وليست بجنة واحدة! (قال) فسمعنا التصفيق والفرح من وراء الستر، فقال الرشيد: أحسنت. وأمر له بالجوائز والخلع، أمر له بأقطاع الجيزة، ولا يتصرف أحد بمصر إلا بأمره، وصرفه مكرماً
قال الليث: وسألني هرون الرشيد: ما صلاح بلدكم؟ قلت: يا أمير المؤمنين صلاح بلدنا إجراء النيل وصلاح أميرها. وإنه من رأس العين يأتي الكدر فإذا صفا رأس العين صفت العين
قال: صدقت يا أبا الحارث
وقال السيوطي: كان نائب مصر وقاضيها من تحت أوامر الليث، وكان إذا رابه من أحد شيء كاتب فيه فيعزله
قال ابن أبي مريم: كان إسماعيل بن اليسع الكندي من خير قضاتنا، غير أنه كان يذهب مذهب أبي حنيفة في إبطال الحبس فأبغضوه، فجاء الليث فجلس بين يديه، فرفع إسماعيل مجلسه، فقال: إنما جئت إليك مخاصما، قال: في ماذا؟
قال: في أحباس المسلمين، قد حبس رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير فمن بقي بعد هؤلاء؟
وقام فكتب إلى المهدي، فورد الكتاب بعزله. فأتاه الليث فجلس إلى جنبه، وقال للقارئ: اقرأ كتاب أمير المؤمنين، فقال له إسماعيل: يا أبا الحارث، وما كنت تصنع بهذا؟ والله لو أمرتني بالخروج لخرجت؟
فقال له الليث: والله إنك لعفيف عن أموال الناس
وكان في كتاب الليث إلى المهدي: أنا لم ننكر عليه شيئاً غير أنه أحدث أحكاماً لا نعرفها
ولما أذن موسى بن عيسى للنصارى في بنيان الكنائس التي هدمها علي بن سليمان، بنيت كلها بمشورة الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة
منزلته عند الناس
كان له أربعة مجالس يجلس فيها كل يوم، فيجلس ليأتيه السلطان في نوائبه وحوائجه. وكان الليث يغشاه السلطان، فإذا أنكر من القاضي أمراً أو من السلطان كتب إلى أمير المؤمنين فيأتيه العزل، ويجلس لأصحاب الحديث، وكان يقول نحو أصحاب الحوانيت فان قلوبهم متعلقة بأسواقهم، ويجلس للمسائل يغشاه الناس فيسألونه، ويجلس لحوائج الناس فلا يسأله أحد من الناس حاجة فيرده، كبرت حاجته أم صغرت. . .
وقال منصور بن عمار: كان الليث إذا تكلم رجل في المسجد الجامع أخرجه، فلما دخلت مصر تكلمت في جامع، فإذا رجلان قد دخلا فأخذاني، فقالا: أجب أبا الحارث، فذهبن وأنا أقول: واسوأتاه أخرج من البلد هكذا. . .
فلما دخلت على الليث سلمت، فقال: أنت المتكلم في المسجد؟
قلت: نعم. قال: أعد علي ما قلت، فإعدته، فرق الشيخ وبكى، وقال: ما اسمك؟ قلت: منصور بن عمار. قال: أبو السري؟ قلت: نعم. فدفع إلى كيساً وقال: صُنْ هذا الكلام عن أبواب السلاطين، ولا تمدحن أحداً من المخلوقين، بعد مدحك لرب العالمين، ولك علي في كل سنة مثلها
وكتب إليه مالك في رسالة: (. . . وأنت في أمانتك وفضلك ومنزلتك وحاجة من قبلك إليه. . . الخ)
وقال له يحيى بن سعيد الأنصاري، وقد رآه يفعل شيئاً من المباحات: لا تفعل، فانك إمامُ
منظور إليك
سعة وكرمه

قال شعيب بن الليث: كان أبي يستغل في السنة ما بين عشرين ألف دينار إلى خمسة وعشرين ألفاً، فتأتي عليه السنة وعليه خمسة آلاف دينار ديناً
وقال محمد بن رمح: كان دخله ثمانين ألف دينار في العام وما أوجب الله عليه زكاة قط
وخرج يوماً فقوموا ثيابه ودابته بثمانية عشر الف درهم إلى عشرين ألفاً، وخرج شعبة فقوموا حماره وسرجه ولجامه بثمانية عشر إلى عشرين درهما
وقال أبو رجاء: قفلنا مع الليث من الإسكندرية، وكان معه ثلاث سفائن: سفينة فيها مطبخه، وسفينة فيها عياله، وسفينة فيها أضيافه
قال عبد الله بن صالح (كاتبه): صحبت الليث عشرين سنة لا يتغدى ولا يتعشى إلا مع الناس، وان لا يأكل إلا بلحم، إلا أن يمرض، وكان لا يتردد إليه أحد إلا أدخله من جملة عياله مادام يتردد عليه ويسمع منه، فإذا أراد الخروج زوده بالبلغة إلى وطنه
وكان يتخذ لأصحابه الفالوذج، ويعمل فيه الدنانير، ليحصل لمن أكل كثيراً أكثر من صاحبه!
وكان يطعم الناس الهرايس بعسل النحل وسمن البقر في الشتاء، وفي الصيف باللوز والسكر
وكان يصل مالكاً كل سنة بمائة دينار، فكتب إليه مرة أن عليّ ديناً، فبعث اليه بخمسمائة دينار. وكتب إليه مالك مرة إني أريد أن أدخل ابنتي على زوجها، فأحب أن تبعث لي بشيء من عصفر
قال ابن وهب: فبعث إليه بثلاثين جملاً محملة عصفراً فصبغ منه لابنته، وباع منه بخمسمائة دينار، وبقي عنده فضلة
قال أبو صالح (كاتبه): كنا على باب مالك بن أنس فامتنع علينا (أي احتجب) فقلنا: ليس يشبه هذا صاحبنا، فسمع مالك كلامنا فأمر بإدخالنا عليه، فقال لنا: من صاحبكم؟ قلنا: الليث بن سعد
قال: تشبهونني برجل كتبت إليه في قليل عصفر نصبغ به ثياب صبياننا، فأنفذ إلينامنه ما
صبغنا به ثياب صبياننا وثياب جيراننا، وبعنا الفضل بألف دينار؟
ولما حج الليث أهدى إليه مالك طبقاً فيه رطب، فرد إليه على الطبق ألف دينار
ولما احترقت دار ابن لهيعة وصله بألف دينار، وصل منصور بن عمار القاضي بألف دينار
وكان يجيء إلى المسجد كل يوم على فرس، فيتصدق كل صلاة على ثلثمائة مسكين، ولم يكن يرد سائلاً:
أتاه مرة سائل فأمر له بدينار، فأبطأ الغلام به فجاء سائل آخر فجعل يلح، فقال له الأول: اسكت. فسمعه الليث فقال: مالك وله؟ دعه يرزقه الله، وأمر له بدينارين
قال منصور بن عمار: كنت عند الليث جالساً فأتته امرأة ومعها قدح، فقالت: يا أبا الحارث إن زوجي يشتكي وقد نُعت لنا العسل. فقال: اذهبي إلى الوكيل فقولي له يعطيك. فجاء الوكيل يسارّه بشيء. فقال له الليث: اذهب فأعطها مطراً، إنها سألت بقدرها فأعطيناها بقدرنا (قال: والمطر عشرون ومائة رطل)
واشترى قوم من الليث ثمره بمال، ثم إنهم ندموا فاستقالوه فأقالهم، ثم استدعاهم فأعطاهم خمسين ديناراً وقال:
إنهم كانوا أملوا أملاً فأحببت أن أعوضهم
وقال أسد بن موسى: كان عبد الله بن علي يطلب بني أمية فيقتلهم، فرحلت إلى مصر فدخلتها في هيئة رثة، فزرت الليث، فلما خرجت من منزله تبعني خادم له في دهليزه، وقال: اجلس حتى أخرج اليك، فجلست، فلما خرج وأنا وحدي، دفع إليّ صرة فيها مائة دينار، وقال: يقول لك مولاي أصلح بهذه النفقة أمرك، ولم شعثك، وكان معي في حُجزتي ألف دينار، فقلت للخادم: أدخلني على الشيخ فإني في غنى عن هذه المائة، فاستأذن لي عليه، فأخبرته بنسبي، واعتذرت إليه عن رد المائة، أخبرته بما معي، فقال: هذه صلة وليست بصدقة، فقلت: أكره أن أعود نفسي هذه العادة، وأنا في غنى، قال: أدفعها إلى بع أصحاب الحديث ممن تراه مستحقا

فلم يزل بي حتى أخذتها ففرقتها في جماعة
وفاته
توفي الليث يوم الجمعة 14 شعبان سنة 175
قال خالد بن عبد السلام الصدفي: جالست الليث بن سعد، وشهدت جنازته مع أبي، فما رأيت جنازة قط بعدها أعظم منها، ولا أكثر من أهلها، ورأيت الناس كلهم في جنازتهم عليهم الحزن، يعزى بعضهم بعضاً ويبكون، فقلت: يا أبت كأن كل واحد من هؤلاء صاحب الجنازة!
فقال: يا بني، كان عالماً كريماً، حسن العقل، كثير الأفضال، يا بني لا ترى مثله أبداً. . . .
قال بعض أصحابه: ولما دفناه سمعنا صوتاً وهو يقول:
ذهب الليث فلا ليث لكم ... ومضى العلم قريباً وقُبر
فالتفتنا فلم نر أحداً
وصلى عليه موسى بن عيسى الهاشمي، ودفن في القرافة الصغرى، رضى الله تعالى عنه وبوأه من الجنة غرفاً
هذا ما بقي من هذه السيرة الجليلة، متفرقاً في شتى الكتب، ومختلف الأجزاء، وقد ضاع سائرها، كما ضاع هذا التراث العلمي الضخم، فرحمة الله على أولئك الأجداد الذين بنوا وشادوا، وألفوا وجمعوا، وعلموا وعملوا، ورزقنا التأسي بأعمالهم، والسير على سننهم. . . وألهمنا إحياء تاريخنا، ونشر ماضينا
علي الطنطاوي
محاورات أفلاطون - 16
الحوار الثالث
فيدون أو خلود الروح
ترجمة الأستاذ زكي نجيب محمود
وإذن فلنعد الآن إلى حوارنا السابق - هل يتعرض ذلك المثال، أو الجوهر، الذي نعرفه - في سياق الكلام، بأنه كنه الوجود الحقيقي - سواء في ذلك كنه المساواة، أو الجمال، أو أي شيءٍ آخر - أقول هل تتعرض هذه الجواهر، على مر الزمن، إلى شيء من التغير؟ أم كلاً منها يبقي هو ما هو دائماً، له نفس ما له من صور توجد بنفسها، لا تتغير، ولا تقبل التحول بتاتاً، كيفما كان، أو في أي وقت كان؟
فأجاب سيبيس - إنها لابد أن تكون دائماً كما هي يا سقراط،
وماذا أنت قائل في تعدد الجميل - سواء أكان أناساً، أم لباساً، أم جياداً، أم أي شيء - آخر يمكن أن يسمى متساوياً أو جميلاً - أهي كلها لا تخضع للتغير، وتبقى كما هي دائماً، أم أنها نقيض ذلك تماماً؟ أليس الأولى أن توصف بأنها متغيرة في الأغلب، وأنها لا تكاد تبقى أبداً كما هي، سواء مع أنفسها، أو بعضها مع بعض؟
فأجاب سيبيس: إنها الأخيرة. إنها دائماً في حالة من التغير
وأنت تستطيع أن تلمسها، وأن تراها، وان تدركها بالحواس، فأما الأشياء الثابتة، فلا - يمكنك إدراكها إلا بالعقل - إنها تخفي على الأبصار فلا تُرى
فقال هذا جد صحيح
فأضاف - حسناً، لنفرض إذن أن ثمت ضربين من الوجود: وجوداً مرئياً، ووجوداً خفياً - لنفرضهما
والمرئي هو المتغير، والخفي هو الثابت
- يمكن فرض ذلك أيضاً
- أليس الجسد، فضلاً عن ذلك، جزءاً منا، وما يبقى هو الروح؟
- ليس في ذلك شك
- تُرى إلى أي نوع من هذين يكون الجسد والجلد أشبه؟
- ظاهر أنهما أشبه بالمرئي: إن أحداً لا يشك في ذلك
- وهل الروح مرئية أم خفية؟
- لم يرها إنسان يا سقراط
- وهل نقصد (بالمرئي) و (الخفي) ما تراه عين الإنسان وما لا تراه؟
- نعم، بالنسبة إلى عين الإنسان

وماذا تقول عن الروح؟ أهي مرئية أم خفية؟ -
إنها لا تُرى -
هي خفية إذن؟ -
نعم -
وإذن فالروح أشبه بالخفي، والجسد أشبه بالمرئي؟
إن ذلك مؤكد جداً يا سقراط -
ألم نكن نزعم منذ عهد بعيد، أن الروح حين تتخذ من الجسد أداة للإدراك، أعني حين - تستخدم حاسة الأبصار، وحاسة السمع، أو غيرهما من الحواس (لأن معنى الإدراك خلال الجسد، هو الإدراك بواسطة الحواس) - ألم نكن نزعم أن الجسد بذلك يجر الروح أيضا إلى منطقة المتغير، وأنها تضل وترتبك؟ فان الدنيا عندئذ تضرب حولها نسيجاً، فتكون الروح عند خضوعها لتأثير الحواس كمن أثملته الخمر؟
جد صحيح -
ولكنها إذا ما ثابت إلى نفسها، فأنها تفكر، وبعدئذ تدخل عالم النقاء، والأبدية، - والخلود، والثبات. فهؤلاء عشيرتها وهي تعيش معها أبداً، إذا ما خلت إلى نفسها دون أن يعطلها معطل، أو يحول دونها حائل، وعندئذ لا تعود تسلك سبلها الخاطئة؛ فأنها إذا خالطت ما هو ثابت، كانت هي كذلك ثابتة، وتسمى هذه الحالة التي تكون فيها الروح بالحكمة
أجاب: هذا صحيح، فحق ما قلت يا سقراط
وبأي نوع ترى الروح أشد شبهاً وقربى؟ آستنتاجاً من هذا التدليل ومن سابقه؟ -
أني أظن يا سقراط أن كل من يتتبع هذا التدليل، يعتقد أن الروح ستكون قريبة - الشبه
بالثابت قرباً لا نهاية له - ولن ينكر هذا حتى أشد الناس غباء
والجسم أقرب شبهاً بالمتغير؟ -
نعم -
انظر بعد ذلك إلى الأمر مرة أخرى مستضيئاً بهذا: حينما تتحد الروح مع الجسد، تأمر - الطبيعةُ الروح أن تحكم وأن تسيطر، والجسدَ أن يطيع وأن يعمل، فأي هذين العملين أدنى إلى الإلهي؟ وأيهما أقرب إلى الفاني؟ أليس يبدو لك الإلهي أنه ما يأمر وما يحكم بطبيعته، وأن الفاني هو الخادم الخاضع؟
حقاً -
وأيهما تشبه الروح؟ -
إن الروح تشبه الإلهي، أما الجسد فيشبه الفاني - ليس إلى الشك في ذلك سبيل يا سقراط
إذن فانظر يا سيبيس أليست هذه هي خلاصة الأمر كله؟ إن الروح على أشد ما - يكون الشبه بالإلهي، وبالخالد، وبالمعقول، وبذي الصورة الواحدة، وبغير المتحلل، وبغير المتحول، وإن الجسد على أشد ما يكون الشبه بالإنساني، وبالفاني وبغير المعقول، وبذي الصور المتعددة، وبالمتحلل، وبالمتحول؟ هل من سبيل إلى إنكار ذلك، أي عزيزي سيبيس؟
لا ولا ريب
ولكن إن صح هذا، أفلا يكون الجسد عرضة للتحلل السريع؟ ألا تكون الروح غير قابلة - للتحلل، في أغلب الحالات، بل فيها جميعاً؟
يقيناً -
وهل تلاحظ فوق هذا، أن الجسد بعد موت الأنسان، لا يتحلل أو يتفكك دفعة واحدة، - بل قد يبقى أمداً طويلاً إذا كان قوى البنية عند الموت، ووقع الموت في فصل ملائم من فصول السنة، مع أن الجسد هو الجزء المرئي من الإنسان، وله مادة تراها العين، تسمى جثة، ستنتهي بطبيعتها إلى التحلل، فتتفرق أجزاؤها وتتبدد؟ لأن تقلص الجسد وتحنيطه، كما جرت بذلك العادة في مصر، يعملان في أغلب الأحيان على حفظه أبداً لا يبيد، وحتى إذا أصابه الفساد، فان بعض أجزائه تظل باقية، كالعظام وبعض الأعصاب التي تستعصي

على التحلل بطبيعتها. هل تسلم بهذا؟
- نعم
- وهل يجوز لنا أن نفرض أن الروح الخفية، عند انتقالها إلى عالم الأموات الحقيقي، وهو مثلها في خفائها، ونقائها، ونبلها وأنها إذ تكون في طريقها إلى الإله الخير الحكيم، الذي توشك روحي أن تنتقل إليه، إن شاء الله، بعد حين - أقول: هل يصح الفرض أن الروح، إن كانت هذه طبيعتها وذاك أصلها، تتبدد وتفنى عند فراق الجسد، كما تقول جمهرة الناس؟ يستحيل أن يكون ذلك، أي عزيزي سمياس وسيبيس وأولى أن تكون الحقيقة أن الروح، وهي نقية، لا تجر في ذيلها عند انتقالها أية صبغة جسدية، ما دامت لم تتصل قط بالجسد اختياراً، بل إنها لتتجنبه دائماً، وما دامت قد انحصرت في نفسها (فقد كان مثل هذا التجريد موضوع دراستها في الحياة). وماذا يعني هذا إلا أن الروح قد كانت تابعة مخلصة للفلسفة، وأنها قد مرنت على كيف تموت بغير عناء؟ أفليست الفلسفة هي مرانا على الموت؟
- يقيناً
أقول إن تلك الروح في خفائها، تنتقل إلى العالم الخفي - إلى الإلهي، والخالد، والعاقل، فإذا ما بلغته، رفلت في نعيم، وتخلصت من أوزار الناس، وحمقهم، ومن مخاوفهم وعواطفهم الحوشية، ومن النقائص البشرية جميعاً، ورافقت الآلهة إلى الأبد، كما يروي عن العالمين بالسر. أليس ذلك صحيحاً يا سيبيس؟
- فقال سيبيس: نعم، وليس إلى الشك فيه من سبيل
(يتبع)
زكي نجيب محمود

بين القاهرة وطوس من بغداد إلى الإسكندرية - 14
للدكتور عبد الوهاب عزام

أقمنا ببغداد أربعة أيام، فأحدثنا العهد ببعض مشاهدها، وزرنا مرقد الملك الشهيد فيصل. رأينا في العراء على مقربة من دار البرلمان مقصورة من الخشب ترتفع عن الأرض درجات، وعلى بابها جندي شاهر السلاح. ففتح لنا الباب إلى ضريح مغطى بالورد والزهر: هذا بقية الجهاد من النفس الطماحة، هذا ميراث الخلود من العزائم المريرة، هنا صفحة من مجد الإسلام والعرب، هنا حلقة يصلها النسب والمجد والتاريخ بسيد المرسلين وخاتم النبيين- غاية تتقطع دونها الأعناق، ويعيا بمرامها كل سباق. أترى هذا المصحف على حافة الضريح؟ هذا كتاب الله يشهد للسلف بما قدم، ويدعو الخلف إلى أن يمضي قدماً على سنة الآباء وسنن المجد وهدى الإسلام. فيا بني العرب والإسلام إحذروا غضب الله، وسخط الآباء، ولعنة التاريخ، وسيروا بالراية إلى الغاية، وتبوأوا مكانكم في جبهة الخطوب وصدر الأجيال

فإنا أناس لا توسط بيننا لنا الصدر دون العالمين أو القبر قرأنا صحائف المجد والعبر.

ثم قرأنا الفاتحة وخرجنا نقول: رحم الله فيصلاً!

وفي اليوم الثاني شرُفنا بين يدي جلالة الملك الشاب غازي بن فيصل! اقتربنا من الحجرة الملكية فرأينا جلالته واقفاً، فلما ولجنا الباب تقدم إلينافحيانا تحية العربي الكريم ضيفانه، وتلقانا كما يتلقى الأخ العظيم إخوانه- وجلسنا فسألنا كيف صحة جلالة مصر، وسألنا عما رأينا في سفرنا وما لقينا في حلنا وترحالنا، وكيف رأينا تقدم العراق بعد زورتنا الأولى، ثم تحدث أحاديث ملؤها الأمل والطموح في مستقبل العراق والعرب والإسلام. قلنا وإنا لندعو الله أن ييسر للملك الهاشمي العظيم السير على سنن آبائه، ويرعاه قرة عين للعرب والمسلمين- ثم خرجنا فرحين مغتبطين، فقلنا قد رأينا في فيصل صفحات من مجد الأمس! وهذه صفحات من مجد الغد

نبنى كما كانت أوائلنا ... تبني ونفعل مثل ما فعلوا

فصدق اللهم آمالنا، ومهد لنا طريقنا، ويسر لنا غايتنا. وزرنا مسجد الإمام أبي حنيفة والمدرسة الأعظمية ودار الكتب. وزرنا في الفندق كثير من إخواننا البغداديين، وتنافسوا

في دعوتنا إلى ضيافتهم، ولكن ضاق الوقت عن إجابة الدعوات، إلا دعوتين سبقتا قبل سفرنا إلى طهران من الأستاذ الفاضل أبي خلدون ساطع بك الحصري مدير كلية الحقوق، والأديب الهمام رفائيل بطي مدير جريدة البلاد، فذهبنا إلى حفلتين نعمنا

فيهما بلقاء جمع من زعماء العراق وعلمائه وأدبائه، وسعدنا بأحاديث في الأخوة والمودة، والسياسة والعلم والأدب
وفي اليوم الأخير كانت حفلة الوداع في دار المفوضية المصرية، إذ دعا الأستاذ حافظ بك عامر القائم بأعمال المفوضية جمعاً من أعيان بغداد، ومن المستشرقين الذين رافقونا في حفلات الفردوسي، وسفير إيران ببغداد وغيرهم إلى مأدبة شاي، ولم تكن هذه أول حفاوة حافظ بك والأخ حسين أفندي منصور سكرتير المفوضية
وبرحنا بغداد بكرة يوم الاثنين في سيارة جديدة من سيارات شركة (نيرن) ذات عشر عجلات طولها 25 متراً، وهي نمط جديد مركب من جزأين: القاطرة والعربة. وقد أريد بفصل المقدم من سائر العربة إضعاف الارتجاج، فالسيارة تسير رهواً في الطريق غير المعبدة. وقفنا قليلاً في الرمادي، فرأينا سيارة كبيرة تقل نفراً من الإنكليز، فيهم أطفال ونساء، وقد كتب عليها ما يدل على أنها سائرة من الهند إلى لندرة، سألت بعضهم متى فصلتم من الهند؟ قال: منذ شهر. قلت: ومتى تبلغون لندرة؟ قال: بعد شهر ونصف، لأننا سنلبث في القسطنطينية وبعض البلاد. فهانت علينا الشقة بين طوس والقاهرة، وأكبرنا هذه العزائم السيارة
بعيد مناط الهم فالغرب مشرق ... إذا ما رمى عينيه والشرق مغرب
وبلغنا الرطبة بعد الغروب فلبثنا ساعتين، جلسنا في فندق هناك نستمع إلي الغناء المصري، ونأكل ما تيسر من الزاد. ثم مشينا في أطراف الصحراء، فرأينا مجرى وادي حوران الذي يسيل من حوارن إلى وادي الفرات، ولم يكن به يومئذ ماء، ورأينا هناك آبارا يستقي منها الأعراب الضاربون في تلك النواحي وقد جاء إلينا أطفال الأعراب، فسألهم أحد الرفاق عن أسمائهم فلم يجيبوا، فقلت إن ابن البادية يتحرز من ذكر اسمه واسم قبيلته حتى يأنس، فلما استأنسناهم بالحديث والعطاء صرحوا بالأسماء طلعت الشمس ونحن في أرباض دمشق، فدخلناها في نضرة الصباح، وأشعة الشمس تموج
على ذوائب الغوطة الفيحاء، وما دخلت دمشق قط إلا خفق قلبي لها سروراً وحباً أوينا إلى فندق أمية يحببه إلينا هذا الاسم العربي، ولبثنا به يومين، ووجدنا خدام المائدة هناك من النوبيين فرحبوا بنا وبالغوا في إكرامنا
وهنا لطيفة أضن بها على الترك: جلست أنا ورفيقي الأستاذ العبادي للإفطار، فلما قدمت إلينا ألوان الطعام طاف بنا طائف من الشعر، فقال الأستاذ:
وقوم في أمية نازلينا ... من العسل المصفى يشربونا
فقلت:
ولو علموا مكانتهم لكانوا ... بصحن بني أمية ينزلونا
قال ما صحن بني امية؟ قلت صحن الجامع الأموي. قال إن النزول به شرف. قلت هذا أردت. والله أعلم بذات الصدور
بادرنا بعد أن استرحنا إلى زيارة أستاذنا العلامة محمد كرد علي بك كما فعلنا حينما وردنا المدينة في طريقنا إلى طهران، ومن فاته مجلس الأستاذ كرد علي في داره المعمورة فقد فاته خير كثير. وكنا نعمنا المرة الأولى بليلة غوطية قمراء سمرنا بها مع الأستاذ والأمير مصطفى الشهابي والأستاذ خليل مردوم وهم كما قال الحريري في رفقة غذوا بلبان البيان، وسحبوا على سحبان ذيل النسيان، ما فيهم إلا من يحفظ (عنه ولا يتحفظ منه، ويميل الرفيق إليه ولا يميل عنه)
ويوم الأربعاء زرنا الجامعة السورية، فإذا كلية الآداب قد ألغيت. ولقينا الأستاذ مدير الجامعة، فطاف بنا في حجرات الكيمياء والطب، ثم دعانا إلى غرفته فتحدثنا في الاصطلاحات العلمية وتوحيدها في البلاد العربية، ثم خرجنا شاكرين. وذهبنا إلى المتحف العربي لنرى الأمير جعفر الجزائري فإذا المتحف مغلق، وإذا المكتبة التي أمامه مغلقة
وهنا أقول إن دار المتحف العربي هي دار المدرسة العادلية لا دار الحديث الأشرفية، كما ذكرت خطأ في حديثي عن الشيخ الخالدي، وأنا أعترف بأن الغلط كان مني لا من الشيخ، وأنه نبهني إليه حينما قرأ المقال وهو بمصر (وهذا لا يُقل من شكري للأديب برهان الدين محمد الداغستاني الذي نبه إلى هذا الغلط في مقال بمجلة الرسالة)
وفي المساء ذهبنا إلى الصالحية فزرنا قبر الشيخ عبد الغني النابلسي ولم نكن زرناه،

فوقفت بنا السيارة على حارة هناك فترجلنا ومشينا بجانب بناء قديم مهجور فقيل: هذه المدرسة العمرية التي بناها أبو عمر بن قدامة. وفي هذا الحي مدارس كثيرة كانت مباءة العلم والعلماء في العصور الخالية. وتقدمنا قليلاً ثم ملنا ذات اليسار، فهبطنا مسجداً صغيراً مشرفاً على دمشق. ثم ولجنا باباً إلى اليمين فإذا مصلى واسع، فلما اتجهنا شطر القبلة رأينا في الجدار الذي إلى اليسار مقصورتين عليهما شبابي الحديد إحداهما مرقد الشيخ الصوفي العالم المتفنن عبد الغني النابلسي، والأخرى قبر أحد أبنائه فيما أذكر

وقد رأيت على باب المصلى الذي فيه الضريح هذين البيتين:

زان سورية الوزير نظيف ... بنظام يفوق عقداً نظيما

لمقام الولي عبد الغني مذ ... شاد أرخت (نال أجراً عظيما)

ومعنى ذلك أن والي سورية نظيف باشا عمر هذا المكان سنة 1306 ثم ذهبنا إلى دار العالم الفاضل الأمير مصطفى الشهابي إجابة لدعوته، وهي في أعلى الصالحية تشرف على دمشق كلها.

فتعشينا وسمرنا مع جماعة من الفضلاء، ثم هبطنا بعد هدأة من الليل فمشينا إلى الفندق، وسار معنا الأخوان مودعين فختمت إقامتنا بدمشق على أحسن ذكرى وأصبحنا نتأهب للمسير إلى بيروت فبلغناها ظهراً. وذهبنا إلى دار القنصلية المصرية فلقينا حضرة القنصل صادق بك أبو خضرة فأبى إلا أن يدعونا للغداء، ثم ودعناه بعد الغداء شاكرين فسرنا في أرجاء المدينة، فلما أرست الباخرة الرومانية (شارل الأول) وضعنا أمتعتنا بها ثم نزلنا فجلنا جولة في المدينة ورجعنا إليها والساعة إحدى عشرة، وفي منتصف الليل سارت الباخرة، فلما أصبحنا بها رأينا أسباط بني إسرائيل مزدحمين في أرجائها، وقد راجت سوق الملابس بينهم، هذا يعرض وهذا يساوم، وهذا يشتري وهذا يأبى. فقلنا لله در القوم!

وقفت الباخرة على حيفا صبحاً، وقد صارت حيفا ميناء كبيراً منذ العام الماضي، فنزلنا إلى المدينة صعدنا في جبل الكرمل وهو جبل عال مزدان بالدور والأشجار مشرف على البحر. ومررنا بقبر الباب صاحب الدعوة البابية، وقبر عبد البهاء عباس أفندي زعيم البهائيين السابق. وهما في بناء جميل تحيط به حديقة منضدة ينحدر الجبل عنها طبقة بعد

أخرى حتى يفضي إلى شارع واسع يستقيم من سفح الجبل إلى البحر

وسارت السفينة بالعشي فما زالت في بحر وهو حتى أقبلت على الإسكندرية المحبوبة قبيل الظهر يوم السبت ثالث نوفمبر. خفقت قلوبنا فرحاً بالأوبة إلى الوطن، وقذيت عيوننا بالمرائي الأجنبية المتزاحمة في الثغر، وزادها قذى منظر زورق الشرطة تعلوه راية كتب عليها من الجانبين كأن البلد لا يعرف اللغة العربية! وبينما تكفهر حولنا هذه المناظر المخزية وقع بصري على كلمة (زمزم) الكلمة العربية الوحيدة في مئلت الأسماء المحيطة بنا، وهذه زمزم إحدى بواخر بنك مصر! هذا كوكب يلوح في هذا الظلام الدامس! هذا برق من الرجاء يشق هذا الليل اليائس! هذه فاتحة المستقبل الوضاء! فاصبري أيتها النفس فان مع العسر يسرا

خاتمة

لم يتيسر لنا المقام في إيران حتى نعرف من أحوالها ودخائلها وسير العلم والأدب بها، وحتى نستقصي آثارها ومشاهدها، وإنما هو السفر العجلان الذي لا يقف ببلد إلا ليسير عنه. فهذه المقالات جهد النظرة العاجلة، ومبلغ الأيام القليلة التي قضيناها طائرين من مدينة إلى أخرى، ومقدار ما وعت الذاكرة دون الاستعانة بالمذكرات، وهو كما رأى القارئ كلام قريب الغور، قليل الجدوى، ولكنه لا يخلو من فائدة

وبعد، فقد سرا من القاهرة إلى طوس فما أحسسنا إنا اغتربنا، بل رأينا أنفسنا بين وجوه معروفة، سنن مألوفة، وتاريخ معلوم، وفي مشاهد حدثتنا عنها كتبنا، وعهدها تاريخنا ونشأ فيها علماؤنا، فالعالم الاسلامي، على اختلاف الأمم، أمة واحدة ألفتها مئات السنين على معنى واحد، وأسلوب واحد، وأورثها التاريخ حضارة واحدة، وآداباً متقاربة، وهذا ذخر لعمر الحق جدير أن يصان على رغم الزمان، وائتلاف ينبغي أن يجنب الاختلاف، وتقارب هو أسعد ما تحظى به الأمم في هذه العصور القلقة المضطربة. فقل للذين يريدون أن يقطعوا الأوصال بما يثيرون من الجدال، وقل للذين

يحقرون ماضينا، ويزدرون تاريخنا، ويحاولون أن يهدموا كل قديم ليشيدوا كل حديث،
وقل للذين يصدون عن المشرق ليولوا وجوههم شطر المغرب: ألا ساء ما تعملون!
لقد أعماكم التقليد عن الحق، وذهب بكم الضلال أبعد مذهب. فان تماديتم في الغواية
فستندمون حين لا ينفع الندم والسلام
عبد الوهاب عزام
الله
لشاعر الشباب السوري أنور العطار
أنا في كوني الصغير صلاة ... وسعت كونك العظيم المجود
يا إلهي قلبي الرفيقُ تنهدْ ... مُذْ صَداكَ الحبيبُ فيه تردّدْ
يا إلهي طيفُ العفاءِ يُناجي ... كَ، ونجواه أنةٌ تتصعدْ
غاب لما دعاك عن وَهْدةِ الإث ... م وعن طينةٍ مِنَ الإثم أوْهَدْ
يا إلهي أنا الفَنَاء أنادي ... ك، وأنت البقاء تُرجي وتُقصد
ضِعتُ عني لما دعوتكَ في السر ... ر وظلتْ رُوحي المشوقة تُرعد
أي ألطافِكَ العِذَابِ تجلى ... أي آلائكَ العظام تعددْ
حفل القلب بالتُقي فتصفى ... وجلاه الهدَى فصلى وَوَحدْ
وَلهي بهجةٌ وحبي لحنٌ ... وابتهالي الغالي نشيدٌ مُقصَّدْ
فنيتْ مُهجتي بحبك يارب (م) ... وغلغلت في الفناء لأشهدْ
أجد الفرحة العظيمة في الذ ... ل لربي، وفي انكساري سؤددْ
شفني الحبُ فاستحلت نداءً ... ومن الحب أن تذوب وتسْهدْ
وأنا العبدُ هام وجداً بمؤلا ... هُ، وإن أفْنَ في المحبة أوجَدْ
يا إلهي روحي تولّهُ حيري ... لا تعي أمهرها وثَغريَ يحَمد
طَيْ جفني عالمٌ لك حُلوٌ ... وبنفسي قصيدةٌ لكَ تُنشدْ
أترعَتْها ملائكُ الحبِّ بالسح ... ر فغنَّى بها الوجودُ وغرَّد
ما جفت مُقلتاي هذا الكرى الها ... نيء كفراً إلا ووجُهك أسْعد
أنا في هيكلي اللّهيف دعاءُ - فاض من سرِّك اللطيف المُمجَّد
ساهد الجفن خاشع القلب باكٍ ... ذاهل الروح مستهامُ مشرد
أرقبُ الفجرَ في غلائله البِيت ... ضِ وقد شف عن غُبار مُبدد
جدولٌ رائعٌ يرفُ من النُّو ... ر وأمواهُهُ تكاد توَرَّد
غرقٌ يغمر القلوبَ ابتهالاً ... وسناً يملأ النواظرَ عَسْجَد
وأطلتْ ذُكاءُ في الموكب السَّا ... حر دُنيا من الرُّؤى تتوقَّدْ
أنا آمنت يا إلهي بنُعما ... ك يقيناً وما خُلقتُ لأجْحَدْ
رُبَّ طاوٍ على الضَّغينةِ صدراً ... عاش في زحمةِ البِلى يَتَمرَّد
نسى الخالقَ اللطيف وجدْوا ... هُ وعافَ التُقى وتاهَ وعرْبَد
لا يُبالي أنامَ في حُفر الدي ... دان أم بالدُّجى الرهيب توسَّد
يَوْمُهُ آثمٌ وأمسِ مُجونٌ ... والغدُ المُحتملُ حلمٌ منضَّد
لا يحسُ الحياةَ إلا ضلالاً ... من يجدها هدىً يُذمُّ ويُنقَد
والإلهُ الرحيمُ يُوسعهُ الخي ... رَ فلا يَرعِوى ولا هو يَرْشد
يا إلهي جَداك غمرٌ وإحسا ... نُكَ فيضٌ على المدى ليس يَنَفذ
تنطوي الأرض في غياهِبها السُّح ... م وينهار كلَّ برجٍ مشّيد
ويُدوِّي الوجودُ بالعاب والُهو ... نِ وينسى أخُو الهَوى من تودَّدْ
يمَّحي الرِّفقُ من قلوب المحبيِّ ... ن ولا يرحُم السعيد المُنكَّد
وتموجُ الأكوانِ بالبُغضِ والشَّ ... رِّ وتغلي فيها نفوسُ توَعَّد
وَندَاكَ العميمُ ينهلْ سكّا ... باً وآلاؤهُ تظلُّ تجدَّدْ
عزَّت البيدُ، إنَّها موطنُ البأ ... س ومجْلى عيشِ النَّعيم المُمَّهدْ
تتثنَّى بكلِّ أروعَ سِباً - قٍ وتُزهى بكلِّ أبلَجَ أصْيَدْ
وُلدَ الحُبُّ في رُباها نقياً ... وعلى ساحِها العلاءُ توَطَّدْ
يا إلهي حلّيتَ بالنُّور مَغْنا ... ها وأطلعْتَ من حِماها مُحمد
أعشَب القفرُ حينَ لاحَ مُحيّا - هُ وسالَ النُّضارُ منْ كل فدْفدْ
واستنارَتْ بهِ القوافلُ في اللّيل وغنَّى الدليلُ أنساً وزغردْ

وسرَت نفحةُ النبيِّ من الصَّح ... راءِ أندى من الرَّبيع وأجوَدْ
طفح القَفْرُ بالشَّذا وانتشى الكوْنُ ... فلم يبقَ خافقٌ لم يُهدهدْ
يا نبيِّ الهدَى سبيلُك رشدٌ ... بيِّنٌ نهجهُ وشَرْعُكَ سَرْمدْ
عمَّتِ الأرضَ والسمواتِ نُعما ... كَ فيافوْزَ من جني وتزَوَّدْ
لستُ أنسى صحابةً لك غرَّا (م) ... نا زهاَ الحقُّ بإسْمهمْ وتأيَّدْ
علّموا الناسَ كيف تُفْتَتَحُ الأر ... ضُ وينقادُ للكريمِ المُسوَّدْ
ملأوا الكوْنَ رحمةً وسلاماً ... وسماحاً صفا وحُبًّا تجرَّد
فإذا العيشُ من شذا الزَّهر أرْكي ... نفساً عابقاً وأحلى وأرْغدْ
ومشى دينُكَ الحنيفُ على الغب ... راءِ حتى أغارَ فيها وأنجَدْ
فرَمى بالكتائبِ الغُرِّ كِسرى ... وهرقلاً وكلَّ ملكٍ مُقلّد
وجرى الفتحُ زاهرَ اليُمنِ وَضَّا ... ءً كما رفَّ في السمواتِ فرْقدْ
قبسٌ من هدايةِ الحقِّ ضافٍ ... ويدٌ من رعايةِ اللهِ تمتدْ
وازدهي الكونُ فرحةً وحبُوراً ... حين طافتْ به رسالةُ أحمدْ
يا إلهي عَنا لوَجهِكَ وَجهي ... وفؤادي منْ طول حمدِكَ معبَدْ
أنا في كوْني الصغيرِ صلاةُ ... وسِعتْ كونكَ العظيم المُجوَّدْ
دمشق
أنور العطار
عصبة الأمم بين الحبشة وإيطاليا
للأستاذ محمود غنيم
ويحي على محكمة السلامِ ... محكمة لكن بلا أحكام
للهو لا للنقض والإبرام ... سابحة في عالم الأحلام
والسيف يبري الهام كالأقلام ... ألم تر العصبة في المنام
تحرش الذئاب بالأغنام؟ ... (روما) تهز صفحة الحسام
وشفتا (جنيف) في ابتسام! ... إن رضى القاضي عن الإجرام
فإنه أولى بالاتهام ... ويل لحام من أخيه سام!
يا سودُ ماً أنتم من الأنام
يا جيرة الهضاب والآكام ... وساكني الذِّروة من شمام
لا فَصْل إلا بالحديد الدامي ... فالحق في أسنَّة السهام
لستم تنالون بالاحتكام ... ما ناله (منليك) بالصمصام
هم يخدعون الناس بالأوهام ... متى استطاعوا الفصل في خصام
أيوم فتك الترك بالأروام ... أم يوم رُوُعت بلاد الشام
أم يوم ديس الصين بالأقدام ... وهددت (طوكيو) بالانقسام
فآثروا الصمت على الكلام! ... ما للضعيف في الورى من حام
لولا نُيوب الأسد الضرغام ... لكان من فصيلة النعام
ولاستبيحت حرمة الآجام
كوم حماده
محمود غنيم
الضحية
للأستاذ محمد خورشيد
يا زمان الأسى طرحتُ سلاحي ... لم تعدْ بي بقيةٌ للكفاح
صرعتني الهمومُ حتى كأني ... لم أدع في دنانها إثرَ راحِ
كلما رُضتها انبرت لي همومٌ ... صلبةُ العود غاية في الجماحِ
أخدعَ الناس بالبشاشة والخفاق ... في الجنب ممعنٌ في النواح
حُلكةُ النفس لم ترِمْني ولما ... يطلق الحظُ من حماها سراحي
فمسائي هذي الحياةُ وما في ... ظُلمةِ الرمس غيرُ نور صباحي
سئمت روحي الإسارَ فودتْ ... لو غدتْ حرةً مع الأرواح
ما أراها غداة يدركني الأض ... حى سوى مستريحةٍ كالأضاحي
فيطيب النسيم منها أريجاً ... مثلما طاب بالشذا الفوّاح
وتُطيفُ ابتسامتي بثغور الزَّ ... هر الغضِّ وردِه والأقاحي

ويُغنى الهزارَ شعري شجياً ... فاسمعوا في الربيع منه صُداحي
لم يَعدْ لي غير الشَّغاف ضمادٌ ... منذ أعيا الأُساةَ لَمُّ جراحي
ما عسى يصنع الطبيبُ إذا ما ... عاد صبًّا مثلي مَهيض الجناح
هالهُ أن رأى شبابي يذوي ... فتولَّى متمتما غير صاح
في غدٍ تُغمضُ الدَّبالةُ جفني ... ها ويسري الظلامُ في المصباح
القدس
محمد خورشيد
منظر لا متاع
للأستاذ فخري أبو السعود
لا تبتغِ الدنيا متاعاً يُشترى ... بل فابْغها ما عِشتَ فيها منظرا
وابغِ الجمالَ بها إذا ما رُمته ... شكلاً بها للناظرين مصوَّرا
لا تُلفينَّك إن عَدَتْك لبانةٌ ... منها على آثارها متحسرا
أنت المصيبُ لُبابها وخِيارها ... ما دمتَ فيها المبصِر المتبصِّرا
والمجد كلُّ المجد فيما نلته ... متفكراً لا جامعاً متكثِّرا
إني أرى حُسنَ الطبيعة دائماً ... في كل يومٍ زائداً متكررا
ورأيت ما ملكتْ يمينٌ عالةً ... للمالك العانيِ وعبئاً موقرا
الكون مسرىً للعيون ومسرحٌ ... لفؤاد مَن راد الحياة مفكرا
أطلقْ به ما عشت فكرك رائداً ... تملكْه طُرًّا زاهداً متطهِّرا
واكْفُف يمينك عن أمور تُقتَنى ... فيه وأرْسِل فيه باصرةً تَرى
وأقِمْ به حُرًّا وأطلِقْ ما به ... يجري على سَنن الحياةِ مُحرَّرا
واقنع بتبرٍ من ذُكاَء إذا جَرى ... متحدِّراً في مائه متكسِّرا
عن كل تبرٍ مالكٍ أربابهُ ... لما غدَا في حرزهم متحجِّرا
حُسنُ الطبيعة خيرُ ما مُتِّعْتُه ... في عالمٍ لمْ أته متخيِّرا
وأجلُّ أجر في الخلودِ لمؤمنٍ ... يَبني بتقواهُ النعيم الأنضرا
الإسكندرية
فخري أبو السعود
فصول ملخصة من الفلسفة الألمانية
تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا - 8
للأستاذ خليل هنداوي
آثرنا ترجمة بعض مقاطع لشوبنهاور ونيتشه، لأن أسلوبهما الفلسفي تغلب عليه الصبغة الأدبية والشعرية في كثير من خطراتهما ونظراتهما
(خ. هـ)
صفحة من آثار شوبنهاور
(كيف تنعكس صورة العالم الخارجي في عقولنا)
مقطوعة صغيرة وضعها الفيلسوف على لسان جني يميط لنا اللثام عن سر الأشياء
أمامي شيئان، شيئان ثقيلان منتظمان، ما أجمل النظر إليهما! أحدهما إناء من حجر ثمين مُحلى بعروتين من ذهب، والآخر جسد تام الخلق والمفاصل، هو جسد إنسان، فبعد أن تأملت ظاهرهما كثيراً استأذنت من الجني أن يسمح لي بتأمل باطنهما، فأذن لي فدخلت في الإناء، فلا أدري أية ميول قائمة تتمشى في أجزائه تحت اسم الالتحام والالتئام
أما الشيء الثاني ويا للغرابة! أني لي أن أحدث بما رأيت، فأساطير الجن يمسي كل ما فيها أخاً للحقيقة، ففي ذروته العليا ألفيتُ ما يُدعى (رأساً) مظهره الخارجي كمثل كل مظهر، وهو كغيره من الأشياء يسبح في الفضاء ثقيلاً. ماذا وجدت؟ وجدت الكون نفسه مع سعة الفضاء. وجدته يحتوي على كل شيء، فيه سعة الزمان، وفيه يتحرك كل شيء، وخلتُني مع هذا التحول العجيب للأشياء في الزمان والفضاء، إنني في ذهاب وإياب!. . .
- 2 -
مقطوعة من كتابه (العالم هو إرادة وتمثيل)
قد لا يدخل في دائرة الصدق قولنا: إن الحياة ظاهرها وباطنها صماء مظلمة، هكذا

تجري حياة أكثر الناس، طافحة بالقلق والميول النافرة، تمشى في صدر الإنسان
حائرة مترجرجة، وصاحبها مستسلم للأحلام بين جدرانها الأربعة حتى يقضي نحبه، ما
أشبه الناس بالساعات التي رُبطت آلاتها فمشت لا تعلم سبب مشيتها وغاية دورتها،
وفي كل مرة يولد إنسان
تدور الساعة لتعيد - كرة ثانية وثالثة - دورها القديم، مرددة نفس الجملة وذات
المقطع بتبدل قليل لا يكاد يُحس
كل وجه بشري، وكل حياة بشرية حلم فانٍ مستمد من روح الطبيعة التي لا نهاية لها،
ومن إرادة الحياة العتيدة الثابتة , هي كالثورة أو الخيالة تمر سريعاً، لا ترسمها الحياة
على الشاطئاللانهائي للزمان والفضاء، ولكن تتركها لحظة أو لحظتين تنعم بهذه
الإقامة القصيرة، ثم تمحو رسومها، وتذهب بألوانها، مفسحة لغيرها مكانها؛ هذا هو
الجانب الذي يبعث على التفكر والتأمل. . . يجب على إرداة الحياة القاسية أن تكافئ
كل صورة من هذه الصور الصافية وكل أمنية من هذه الأماني الذاوية، جزاء ما تحملته
من آلام عميقة وأوجاع مضنية، وذعر متكرر من الموت الذي تفر النفوس منه إليه
إن ما يجعل النساء اكثر صبراً من الرجال على الاعتناء بشؤون أطفالنا، هو أنهن
يظللن أطفالاً ضيقات العقول، ويلبثن - طيلة حياتهن - أطفالاً كباراً، لا هن إلى
الأطفال، ولا هن إلى الرجال
لنلاحظ فتاة غانية تلعب وتمرح - سحابة نهارها - مع طفل صغير، ترقص أمامه وتغني
معه، ولنتمثل أي رجل شديد القسوة على إرادته يستطيع أن يضع صنعها، ويقوم
بدورها
في عصرنا هذا تقع عيوننا على كتاب يتخذون الكتابة مهنة، أما قبل هذا العصر فقد كان
الكتاب من ذوي الالهام، ولم يكونوا تجاراً، فلبثوا خالدين، ولبثت مقالاتهم ومواعظهم
خالدة كالدهر
ادوارد هرتمان
وجد (شوبنهاور) في (هارتمان) تلميذاً أميناً لتعاليمه، وإن اختلف مزاجهما بعض
الاختلاف، فوجه (شوبنهاور) جامد عابس، نافر التقاطيع، تكاد تبرز من وجهه كل علائم
التشاؤم متكلمة منتقمة، ووجه (هارتمان) هادئ تطفو عليه من التشاؤم سحابة رقيقة
لا غليظة، فهو متشائم مقبول لا يضيق به الناس، ولا يضيق بالناس، ولعل تعريجه
الكثير على نوادي النساء مما رقق حسه، ولطف شعوره، ومثل له الحياة العابسة
تبسم له من وراء هذه الوجوه الناعمة، والثغور الباسمة
مال في بدء نشأته إلى العلوم الطبيعية، وبعد تقلب طويل دخل في مدرسة (السلاح)
في
برلين، ثم وجد أن هذه الصناعة لم تكن لتلائم مزاجه ولا صحته فهجرها، وهو في إحدى
رسالاته يقص علينا أن سبب تشاؤمه لا يرجع إلى ضعف في صحته أو اعتلال في
مزاجه، بل يرى أن روحه في الحقيقة روح تفاؤل ورضا، ولكن زوجه كانت تطفو عليها
سحابة من التشاؤم والكآبة الخرساء، والعناد في الرأي الذي تذهب إليه
كان (هارتمان) في الثانية والعشرين من عمره حين أخذ يكتب كتابه (فلسفة
اللاشعور)
ولبث في تصنيفه خمس سنين. ما هو هذا اللاشعور؟ إنه الإرادة عند شوبنهاور تظهر '
كمادة شاملة عامة، أو هي ذات فكرة (هيجل) بعد خروجها من - مصنع شوبنهاور -
مُهمة مغمضة لا تُدرك. ولا يرى القارئ في هذا الكتاب مذهباً جديداً لأنه تغير للمذاهب
المتقدمة، ولا بحثاً ناضجاً لأنه عصارة شباب متوقد روحاً وعاطفة. وإنما هو شعلة
أضرمتها فتوة تنطوي على علم غزير، فتهوى نفسك أن تتبع آثار المؤلف في ما يعطيك
ويلهمك، ولا سيما في تحدثه عن (اللاشعور) في مقامات العقل الإنساني وحالاته
النفسية، وفي غرائز الحيوان، في اللغات ومسائل الدين، وفي كل حنايا التاريخ وما
احتواه، حتى يأتيك بالصورة الأخيرة التي يرى فيها الإنسانية وقد بلغت نهايتها متبعة من
إرادتها، ومن تفكيرها، ومن حياتها، وهي تواقة مشتاقة إلى العدم؛ حيث كانت ثم
انتشلت منه بغير إرادتها. وهذه صورة فيها شيء من السمو الشعري بشرط أن يتلقاها
الناظر كحلم خالص قذفت به مخيلة خالية. . .
وقد أحدث كتابه هذا دوياً بعيداً في العالم الفلسفي والعالم الأدبي، لا لأنه زاد - في

ألمانيا - أنصار الفكرة التشاؤمية، بل لأن هارتمان وشوبنهاور كانا أول من صرفا الذهن الألماني إلى مواجهة المسائل الفكرة بالفكر، وأعادا وصل الحلقتين اللتين قطع بينهما مذهب المثل الأعلى الذي سيطر على العقل الألماني طيلة عصر طويل

إن في كل ألماني مثقف نزعة خاصة به تتمشى في ثنايا روحه، تريد أن تتحرك وأن تنمو بذاتها؛ ترى الفرنسي يجنح إلى الفلسفة لتساعده على تفهم الحياة، وبعبارة أجلى لتعلمه كيف يعيش! الألماني - على الأغلب يرى فلسفته حلماً، ولكنه يعتقد أن يفتح عينه. . . وكل ألماني يتردد في حلمه أو يقظته - الى المدينة الكاملة - التي تحدث عنها شوبنهاور، المدينة المشيدة على ذرى الغمام، لأن الألماني واسع الحلم خصب الخيال، وهناك يُغادر

تصوفه الغريزي المبهم، ويؤوب من تلك المدينة إلى الحياة الحقيقية، وهو أشد حماسة وأكثر تأهباً للمعركة التي يشنها في سبيل الحياة

على أن هذا المذهب، (مذهب التشاؤم) قد لقي خصوماً ألداء ممن قارعوه الحجة بالحجة، ونازلوه نزالاً عنيفاً؛ وحق للفلسفة كلها أن تجمع أحزابها وشيعها على محاربة (مبدأ خطر) إذا فشا هدم كل أمل في البشرية، وقضي على كل جهادها الطويل. وقد انضوى (الماديون) تحت لواء المعارضة، وكان أشهرهم (أوجين دوهريك) الذي وصل إلى هذه الفكرة السامية: (بأن الحياة بمجموعها جميلة، في أفراحها وفي أتراحها، على أن نتناولها كما هي بعُجرها وبجرها، لا نحاول تغيير سنتها، ولا تبديل طبيعتها، ولا نطلب إليها أن تمنحنا مالا تقدر على منحه، لأنها سائرة إلى غايتها التي لا تبالي بغايتنا، وأن في تمردنا على نُظمها شقاءنا، وفي رضانا عن مذهبها نعيمنا

(يتبع)

خليل هنداوي

القصص

من أساطير الأغريق

أرفيوس الموسيقى أو رحلة إلى الدار الآخرة

بقلم الأستاذ ديني خشبة

أرفيوس! لسان الطبيعة، ونجيُّ الآلهة، ووحي السماء إلى جي، وصاحب القيثارة ذات الرنين. . . والأنين

كان يعزف، فتشيع الحياة في الصخر، ويقف أبوللو العظيم في مركبته الذهبية، مًطلا برأسه من عليين، يسمع ويطرب وكذلك كانت تصنع ديانا، فلطالما كانت تنزل من مركبتها الفضية في أعلى أجواز السماء، لتلبث هنيهة بباب أرفيوس، تتزود لرحلتها الليلية المرهقة، من مشرق الدنيا إلى مغربها

والأشجار! إن لها لجذوراً متغلغلة في أطباق الأرض، ومع ذلك فقد كانت حين تسمع أرفيوس، تنزع اليه، وتسير وراءه خباً! وكم شهد الناس حول بيته غاية من الدوح العظيم، والأيك الذاهب، سعت إليه تلتذ من موسيقاه، ثم هي تنصرف في المساء فتنغرس في أصولها، وقد ازدادت نضارة وازدهاراً!

ومع ذاك، فقد كان ذا غُرَّة مشرقة، وابتسامة حلوة ما تكاد تفارق ثغره الصغير الجميل. وكان جم الحياء؛ لم ينهر مرة أحد رواده، أو المترددين عليه؛ بل كان يلقي الجميع ببشاشة الأخوة، وهشاشة الود

وكانت له زوجة أجمل من روعة الفجر، وأفتن من وشي الأصيل، وأندى على قلبه من أنفاس الصباح

اسمها يوريديس. . . مصدر إلهامه، ومعين عبقريته، وجمال لحنه، وأغنية حبه، وأنشودة هواه. سئل مرة: ماذا تملك من الدنيا يا أرفيوس؟

فأجاب: (قيثارتي. . ويوريديس!)

وكانت يوريديس تجمع الأزهار البرية في ربرب من أترابها، لتصنع منها باقة مفوّفة تقدمها لأرفيوس، وكانت كلما راقتها سوسنة أو وقعت في نفسها زنبقة، طبعت عليها قبلة

ندية وضمتها إلى الباقة، وهي تقول: وأنت أيضاً لحبيبي أرفيوس. . .

وبينا هي كذلك إذا أفعى هائلة تنسل من بين الأشجار، فتلدغ قدمها الصغيرة المعبودة المطمئنة في الحشيش الأخضر؛ فتصرخ المسكينة صرخة داوية، ثم تنطرح إلى

الأرض، وتتناثر الورود والرياحين التي جمعته حولها، كأنها تنضد سرير موتها وتجتمع صديقاتها مذعورات، فتعولن وتبكين، وتحملنها إلى أرفيوس الذي يستطار من هول الكارثة، وينخلع فؤاده من فداحة المصاب، ويحاول المستحيل لإنقاذ أعز الناس عليه؛ ولكن. . هيهات! لقد ماتت، واحتلكت الدنيا في عيني أرفيوس التعس، وأجدبت قيثارته من ألحان المرح، واستروحت إلى البكاء والأنين. فيا رحمتا لمن ينصت إليها ويصغي لها! زفرات حارة تصعدها أوتارها، وأنات مؤلمة ينبثق منها الدم تنبعث من أنغامها!

وأرفيوس، مع ذلك منزوٍ عن العالم، عزوف عن الناس، مستغرق في وحدته القاسية، يفكر في يوريديس

وصم ألا يفقدها كما يفقد الناس أحباءهم. بل لابد من رحلة طويلة إلى الدار الآخرة. . إلى هيدز. . حيث إله الموتى بلوتو، فيضرع إليه أن برد عليه زوجته التي لا حياة له إلا بها

فكرة غريبة، وتصميم عجيب؛ رجل من دار الفناء، له جسم، وفيه نفس تتردد من أخمصيه إلى ذؤابة رأسه، كيف ينفذ إلى دار الموتى وعالم الأرواح، ومملكة الظلال والأشباح؟!

لكنه أمل ملأ قلبه على كل حال، وهاهو ذا يحمل قيثارته، ويبدأ رحلته ولا يدري إلى أين؟

ضرب في الآفاق على غير هدى، وذرع الأرجاء في ضلال وحيرة، حتى رثت له الآلهة، فرشدته، وأنارت له سبيله؛ فاهتدى إلى ضفاف ستيكس ذي الزبد، حيث وقف شارون النوتي الجبار، الذي يحمل أرواح الموتى في زورقة، يعبر بها أنهار الجحيم للقاء بلوتو العظيم

وصاح شارون صيحة راجفة حينما لمح أرفيوس، وزمجر قائلاً: (يا ابن العدم، يا سليل الفناء، يا من لم تفض روحه بعد، ما جاء بك إلى هنا، وما تزال تتعثر في برد حياتك الرث، وتتكفأ في قيد دنياك الوبيلة؟ عد من حيث أتيت، وإلا فوحق بلوتو المتعال لأسحقن عظامك، ولأقذفن بك إلى ستيكس، فيطويك اليم وتشويك الحمم. . . عد. . . عد. . . عد أقول لك. . . ويْ. . ويكأنك لا تسمع!!)

ولكن أرفيوس يثبت غير هياب، ويتناول قيثارته غير وجل، ثم يعزف لحناً من ألحانه الباكية فيزلزل به أركان شارون!

شارون! هذا الفظ، غليظ القلب، أقسى حراس جهنم، يذوب رقة ويمتلئ حناناً ورحمة لما رأى وسمع، فيهرول إلى أرفيوس مستميحاً معتذراً عما بدر منه من سوء اللقاء، وعبارات البذاء، ويسأله في لين ورفق عن حاجته فيجيب: (لا شيء إلا لقاء بلوتو!)

فيسأله شارون: (وكيف، وهذا بدنك لا يحتمل زفير الجحيم؟)

فيجيب أرفيوس: (لا عليك، ما دامت هذه - ويشير إلى القيثارة - بيميني)

فيقول شارون: (يا صاحبي أنت لا تعرف هول ما تريد أن تقتحم، وإني مخلص لك أمين؛ إنك غض الأهاب، موفور الشباب، وإن جهنم لا تبقى ولا تذر، وإنها أبداً ترمي بشرر كالقصر، وإني أمحضك نصحاً علمتني موسيقاك كيف أمحضك إياه، وأستنقذك به من عذاب مقيم. . . ألا فلتفكر فيما أقدمت عليه، فان من دونه مهالك، وإن من دونه نكالاً وأهوالاً. . .)

وتبسم أرفيوس بسمة حزينة، كانت رداً صامتاً على ما حذر شارون، ثم أعد قيثارته وانطلق يتغنى:

حملتُ جهنماً في بعضِ قلبي ... وفي بعضِ جراحاتٍ فنونا
فان حذرتني نارا، فإني ... أحذر نارك الدمع الهتونا
سأطفئها به حتى تراها ... تُذرف مثله صباً سخيناً
تخوفني لظاك وفي فؤادي ... لظي من جُننت بها جنونا
إذاً ما الحب إن لم يكتنفه ... غرام لا يؤود العاشقينا؟
لقد ذُقْتُ البِلى في دار عيشي ... أفي دار البِلى أخشى المنونا؟

وما يكاد يفرغ من هذه الزفرة الحارة، حتى تتحدر الدموع من عيني شارون، ويتقدم إليه معتذراً، فيحمله في الزورق، ويخوض به عباب تيكس، وما يكاد يفعل حتى يرى أرفيوس إلى تغيظ الموج وتلاطمه، فيسأل شارون عما يهيج النهر برغم سكون الريح،

فيقول: (إنك، وأنت من أنت، من فوقه، سبب هياجه واصطخابه؛ ولو خُلي بينك وبينه لما أنجاك منه شيء حتى تكون في أعماقه!!) ولكن أرفيوس يبتسم ابتسامته الحزينة، ويتناول قيثارته

فيوقع إحدى أناته المشجية، فيهدأ ستيكس الصاخب، وتصفو صفحته بين دهشة شارون وشدة تعجبه!

وتطول الرحلة، ويعبران (أشيرون) نهر العدم؛ و (ليث) نهر النسيان، و (كوكيتوس) نهر الآلام، و (فليجتون) نهر الحمم واللهب، ويصلان آخر الأمر إلى (هيدز) - دار الموتى - ومملكة بلوتو، بعد عقبات وأهوال تغلبت عليها جميعاً قيثارة أرفيوس، بألحانها الرقيقة، وأنغامها الباكية

وتبدأ من هذا الشاطئالأخير رحلة شاقة في ظلام دامس وحلك شديد، في مسالك ملتوية، وشعاب متداخلة، لا تجدي معها موسيقى أرفيوس فتيلا؛ وهنا يبدو له أن يقصر هذا السفر الطويل بالسؤال عن يوريديس، كيف حملها شيرون في زورقه، وكيف عبر بها في هذه الفجاج إلى المقر الأخير، وهل كانت تبكي؟ أم كانت راضية بالقضاء الذي فصلها من أحب القلوب وأقصاها عن أعز الناس؟ وهل حدثته عن الشاب أرفيوس؟ أم كانت في شغل عن كل شيء بما هي فيه؟ وهل كل روح من أرواح الموتى تستغرق كل هذا الزمن في عبور أنهار هيدز وفيافيها؟ وهل تألمت يوريديس حين كانت تعبرها؟ . . .

وكان شارون يجيب عن هذه الأسئلة المتتابعة إجابة مستفيضة حتى وصلا إلى بوابة كبيرة الحجم، تصل إلى قصر بلوتو!

ولكن كلباً ضارياً بادي النواجذ بارز الأنياب كان رابضاً عندها؛ فلما لمح أرفيوس، وهو من غير الأموات، هاج وماج، وتوثب يريد البطش بهذا اللاجئ الممنوع!

وتنبه أرفيوس، فحرك أوتار القيثارة، وتغنى على أوتارها ألحانه وآلامه؛ فثاب الكلب وهدأ، وبعد أن أقعى قليلاً، تقدم إلى الضيف الحبيب يلحس قدميه، ويتمسح به. . . ويا للموسيقى!

ثم هذا عرش بلوتو؛ وإلى جانبه زوجته الربيع، برسيفون كسيرة القلب مهيضة الجناح، تعلو أساريرها عبوسة قاتمة، وتجثم على قلبها لوعة دائمة. يا لبرسيفون! ويا لهذا المنفى السحيق!

ولشد ما دهش بلوتو حين بصر بهذا المخلوق الذي استطاع أن ينفذ إلى هيدز، وفيه رمق من حياة؛ بقضه وقضيضه، وعجزه وبجره!!

وقبل أن ينبس بلوتو، جثا أرفيوس لدى قاعدة العرش، وطبع على الأرض قبلة كلها احترام ووقار، ثم تناول قيثارته، وطفق يتغنى بقصته المشجية، يرسلها خلال أنغامه الحزينة، وملء ألحانه اليتيمة. . . حتى أتمها

وكانت الموسيقى ممتزجة بالغناء الحلو والشعر السامي، قد تغلغلت في السويداء من قلبي الزوجين؛ وكانت الرنات، ممتزجة بالأنات؛ والهديل، ليس مثله هديل، قد أحدث أثره في نفسيهما، حتى أن دمعة مترقرقة شوهدت تنسكب على خد برسيفون!

وفي الحق، لقد هاجت قصة يوريديس شجون برسيفون، لما لحظت فيها من الوشائج بينها وبين قصة حياتها التعسة، في هذا الملك البغيض!

وانزعج بلوتو لمجرد وسواس لج في صدره، لما شاهد من تأثر زوجته، وانسكاب هذه العبرة الحزينة على خدها الشاحب؛ حتى لقد خيل إليه أن شياطين الحب قد قفزت من فم أرفيوس الخبيث، ومن موسيقاه الشاجنة، إلى قلبها الغض الصغير!

وقال بلوتو: (إنهض أيها الشاب، فوحق أورينوس لقد كدت تكون من الهالكين، لولا قصتك الباكية، وموسيقاك المبللة بالدموع. والآن، ماذا جاء بك هنا؟ وما الذي تطلب أن ينتهي إليك من إحسان بلوتو؟)

فركع أرفيوس ركعة التذلل والضراعة، ثم قال: (مولاي! يوريديس يا مولاي؟ تأمر فتعود أدراجها معي إلى الحياة الدنيا!)

فأجاب بلوتو: (طلبت المحال أيها العبد؛ ولكن بلوتو الكريم، لن يرد رجية بائس مثلك. لك ما سألت، وستعود يوريديس معك، ولكن على شريطة واحدة! ألا تراها حتى تخرج من هيدز. إنها ستتبعك، فلا تلتفت وراءك أو تغادر دار الموتى!)

وركع أرفيوس ركعة الشكر، ثم قال: (سأنفذ مشيئة مولاي.)

وأمر بلوتو فأحضرت روح يوريديس، وبدأت الرحلة إلى الدار الأولى، في ظلمات بعضها فوق بعض، والحبيبان يدلجان خبباً
وكان قلب أرفيوس يدق. . . . يدق
وإنهما ليكادان يبلغان العُدوة الأخيرة من نهر ستيكس، حتى يوجس أرفيوس خفية، ويظن - وباشر ما يظن - أن يوريديس قد ضلت سبيلها من ورائه، فينسي شرط بلوتو، ويلتفت
فجأة خلفه، ليرى أنها ما تنفك تتبعه. ولكن يا للهول!
لقد رأى يوريديس باسطة ذراعيها إليه، كم يتلمس طريقه في الظلام؛ وحين تراه يلتفت إليها، فيخل بالشرط الذي عاهد ربها على تنفيذه، تنثني من لدنه راجعة أدراجها إلى هيدز. . . .
متمتمة في صوت ضعيف خافت: (وداعاً يا أرفيوس)! يا حبيبي أرفيوس. . . وداعاً. . .)
فيصرخ المسكين صرخة يكون معها في هذه الحياة الدنيا، حياة الشقاء والآلام!!
ويظل على شاطئستيكس سبعة أيام مفجعاً محزوناً. . .
يحاول عبثاً أن يعود إلى هيدز. . ولكن. . . هيهات!
ويدخل الدنيا محطم القلب، خفق الأحشاء، موهون القوى. . لا يطيب له عيش، ولا يسيغ لذة من لذائذها. ويتخذ مأواه في شعاف جبل تزمزم الرياح في جنباته، وتزمجر الوحوش في غيرانه، وتدوي البواشق في قننه، ويكون كل أولئك خير صحابه، ويا ما أعز الرفاق!
وتلقاه نسوة من اعتدن التخلف إليه في أيامه المواضي؛ فيحتلن عليه ليعزف لهن من ألحانه؛ ولكنه يعزف عنهم ويشيح؛ ثم يفر منهن، فيقتفين أثره؛ فيمعن في الفرار، فيتضايقن، ويصمينه بسهامهن؛ ثم يرجمنه بالحصى المسوّم؛ والحجارة الثقال؛ حتى يموت!
ويسمعنه إذ هو يجود بروحه يقول: (يوريديس. . . يوريديس!)
فتردد الأصداء نداءه الحزين: (يوريديس. . يوريديس!)
وما تزال الأشجار والأطيار تهتف إلى اليوم هتاف موسيقارها المغبون: (يوريديس. . . يوريديس!)
وانطلقت روحه البريئة تعبر بدورها ستيكس، وأشيرون، وليث، وكوكيتوس، وفليجتون. . . فيتلقاه شارون الجبار باسماً هاشاً محيياً. . . ويجلسان معاً في الزروق، يقصان ذكريات الماضي. . . القريب! ويتلقاه الكلب عند البوابة، فيهرول إليه، ويتمسح به، وفاء وذكرى! ويتلقاه بلوتو كذلك، فيهنئه بالعود. . . إذا كان العود أحمد!!
أما يوريديس. . . . .!
دريني خشبة
البريد الأدبي
رسائل سفت بيف
صدرت أخيراً مجموعة من رسائل سنت بيف العامة، وهي قسم من رسائله التي لم تنشر، والتي تملأ نحو عشرة مجلدات، وتولى إصدارها مسيو جان بونرو مقرونة بمختلف الشروح والبيانات. ومسيو بونرو هو اليوم أعرف الناس بسانت بيف وتراثه الأدبي. ويكفي أن نعرف سانت بيف بكلمة، هي أنه أستاذ النقد في الأدب الفرنسي، ويعتبره بعضهم إمام النقد في جميع الآداب والعصور وتشمل هذه المجموعة الأولى رسائله العامة بين سنتي 1818 و 1835، وهو بالنسبة لسنت بيف عهد التكوين الأول منذ مقدمه إلى باريس صبياً في الخامسة عشرة حتى التحاقه بتحرير مجلة (العالمين) وتوليه باب النقد فيها. وفي هذه الفترة الحافلة درس سنت بيف الطب، وبرز في الصحافة، ونشر كتابه عن الشعر الفرنسي في القرن السادس عشر، وأنجز قسماً عظيماً من رسائله النقدية، وأخرج كتابه عن شعر يوسف ديلورم وروايته (الهيام)، ثم تطورت حياته الأدبية واستقرت حول النقد الأدبي. وفي هذا العهد أيضاً تعرف سنت بيف بأقطاب الأدب في عصره مثل دي فيني ولامرتين وهوجو وبيرانجيه وشاتو بريان، ولكن العلائق الودية لم تطل كثيراً بينه وبين أحد منهم، لأن مهمته كناقد أدبي، وتوغله في ذلك الميدان وصرامته وحدة قلمه، لم تفسح مجالاً لمثل هذه الصداقة الخاصة، وهنا تلقى رسائل سنت بيف أكبر ضوء على هذه العلائق والصداقات، وتبين لنا إلى أي

حد كان النقادة الأشهر حريصاً على رأيه واستقلاله؛ بيد أنها تكشف عن ناحية أخرى من صفات سنت بيف، فهو لم يكن رقيق الطبع، ولم تكن روحه ترتفع إلى مستوى ذهنه من السمو والصقل؛ والواقع أن هذه الرسائل الخاصة ليست مما يؤيد عظمة سنت بيف، وإن كانت تفسر لنا كثيراً من خواص روحه المعقدة، ففيها يبدو لنا قليل اكرم، قليل الصراحة، مسرفاً في الحقد؛ ولعله لم يكن لينفذ إلى فكر الغير ومواهبه وأسراره إلا لأنه كان كثير الحقد والبغض ولئن كان سنت بيف بديعاً لا يجار في تصويره وتحليله للقدماء، فان أحكامه على معظم معاصريه كانت تتأثر في الغالب بعواطفه الشخصية، وليس أدل على ذلك من قسوته في الحكم على الفرد دي فيني، وبلزاك، وشاتوبريان، ولامرتين

ذلك أن سنت بيف كان نكد الروح، وقد كان قبيح الهيئة، وكان في حاجة لأن يحب، وكان رقيق الحاسة، معقد العواطف، ولم يلق نجاحاً في الحب ولا في المكتبة كشاعر وكاتب وقصصي، هذا بينما كانت تحيط به عبقريات سعيدة، محققة الأماني والرغبات، تغنم كتبها تأييد الجمهور. ويروي أنه قال ذات يوم إذ يشاد أمامه بعبقرية دوموسيه: (لست أقل شعرية منه). ولم يكن سنت بيف يجهل معايبه، بل كان يفطن إليها ويشقي بها، بيد أنه يجب أن نعترف بأنه كان يسمو دائماً بمثله الأعلى كناقد ومؤرخ للآداب، وأنه لم يكن يدخر وسعاً في خدمة هذا المثل بإخلاص، وهذا هو السر في عظمة تراثه الخالد

ولعل أهم ما تفصح عنه هذه الرسائل الجديدة لسنت بيف هو علاقته مع فكتور هوجو؛ وقد اتخذت تلك العلائق صورة مأساة حقيقية. والمأساة معروفة؛ ولكن الرسائل تلقي عليها ضوءاً جديداً. وخلاصته أن سنت بيف وهوجو جمعتهما منذ سنة 1827 مدى ثلاثة أعوام صداقة خالصة لم تشبها شائبة، ولكن سنت بيف تغير فجأة. ذلك أنه شعر أنه يهوى امرأة صديقه؛ وهنالك رسالة عجيبة تفصح عن حالة سنت بيف النفسية في أوائل سنة 1830، وهي رسالة عنيفة صارمة ينذر فيها سنت بيف بأنه لن يكتب عن رواية (هرناني) التي ستمثل يومئذ، (وهرناني من تأليف هوجو)، وأنه لم يعد يحتمل جو الصداقة والشاعرية الذي يعيش فيه مع أصدقائه مذ تظاهر هوجو بأنه زعيم مدرسة، وغص منزله بالمعجبين والأنصار حتى أصبح مكاناً عاماً، والظاهر أنه قد وقعت بين الصديقين على أثر ذلك محادثة اعترف فيها سنت بيف لصديقه بأنه يحب زوجه. وقد كان هوجو في تلك المسألة جواداً كريم النفس، فاستقبل هجر صديقه بأدب، مؤكداً له أنه سيلقي فيه دائماً أخاً وصديقاً. واعتكف سنت بيف مستسلماً إلى الحقد والأسف والغيرة، مصوباً سهمه لكل من لقيه في طريقه؛ وعكف هوجو على مكاتبته، يعزيه ويروح عنه؛ ومضت ثلاثة أعوام، وسنت بيف ماض في طريقه، وكلما التقى الرجلان آنسا تلك المرارة التي غشيت صداقتهما؛ وأخيراً ألقى سنت بيف قناعه، وأعلن الخصومة على صديقه، فإستسلم هوجو للقدر. ولكن الذي لم يكن يعلمه هو أن زوجته كانت تثابر خفية على رؤية سنت بيف في الأماكن المهجورة، كالكنائس وغيرها، وكانت تتنزه معه في عربة. وما يزال التاريخ يتساءل: هل كانت أديل هوجو زوجاً خائنة؟

والرأي المرجح هو أن أديل كانت تبادل سنت بيف حبه، ولا سيما منذ سنة 1832، أي مذ غدا زوجها عاشقاً لجولييت درديه. وقد ضاعت رسائل أديل لسنت بيف، ولكن سنت بيف كان يحتفظ بصور بعضها؛ وفيها تتحدث أديل عن حبهما. ولقد أيد لوي بارتو في كتابه (غرام شاعر) زلة أديل ودلل عليها

وإن في رسائل هوجو مع ذلك ما يدعو حقاً إلى التأثر، فقد لبث يجهل كل شيء مدى أعوام، وتطبع رسائله إلى سنت بيف بساطة وثقة ومودة مؤثرة، فلما ظهرت الحقيقة ووقعت الفضيحة كانت شديدة على نفسه، ومع ذلك فان أديل هوجو لبثت حيناً بعد ذلك ترى سنت بيف وتحاول أن توفق بين الصديقين القديمين، وذلك شاهد في رأى البعض على براءة أديل وطهرها. أكانت تسعى إلى مثل هذا الوفاق لو كانت امرأة خؤوناً؟

(ملخصة عن أميل هريو في الطان)

للحقيقة والتاريخ

قرأت في العدد 84 من مجلة الرسالة الغراء مقالاً للكاتب العبقري الدكتور عبد الوهاب عزام سجل فيه مجلساً من مجالس العلامة الواعية الشيخ الخالدي يذكرنا

بالأماني القيمة التي كان يلقيها فطاحل علماء الإسلام في عصور مدنيته الزاهرة وقد لاحظنا في هذا المقال ملاحظتين بسيطتين أجببنا ألا يفوت قراء الرسالة التنبه إليهما

(1) لما عدد الشيخ دور العلم العظيمة بالمغرب وذكر جامع القرويين بفاس قال: (إن الذي أسسه هو مولاي إدريس الأصغر) والحقيقة أن بناء القرويين كان بعد وفاة المولى إدريس باثنين وثلاثين سنة إذ شرع في بنائه يوم السبت من شهر رمضان عام خمسة وأربعين ومائتين، والمولى إدريس الأصغر توفي سنة ثلاث عشرة ومائتين وكان ذلك في عهد يحيى بن محمد بن إدريس والقائمة بتأسيسه هي السيدة (أم البنين) فاطمة بنت محمد بن أبي بكر الفهري قدم والدها من القيروان لفاس وتوفي بها وخلف ابنتين فاطمة هذه وأختها مريم، وأورثهما مالاً كثيراً صرفت فاطمة حظها منه في بناء القرويين، وفعلت مريم مثل ذلك فأسست مسجد الأندلس الذي يعتبر من المساجد العتيقة بفاس

(2) ذكر الشيخ حين نسب كتاب (جذوة الاقتباس) لأبن القاضي أنه فشتالي (من فشتالة على نهر ورغة) والمعروف أن مؤلف الجذوة (ابن القاضي) من أولاد ابن أبي العافية

المكناسيين، نسبه لذلك جميع من ترجم له ممن وقفنا عليه، بل هو نفسه انتسب إليهم في كتابه لما ترجم لموسى بن أبي العافية أمير مكناسة بعد أن تبرأ من أفعاله مع الأشراف ونص الغرض من كلامه: (ونسبتنا نحن هي إلى هذا الرجل أعني موسى بن أبي العافية والله أعلم، لكن فعله الذي كان منه لأهل البيت لا أرضاه. . . . الخ)

أما كتاب الشريف الكتاني فلا يسمى بالجذوة بل هو (سلولة الأنفاس فيمن أقبر بفاس) وهو للسيد محمد بن جعفر الكتاني الشهير برحلته إلى الشام وإقامته بها والمتوفى بالمغرب منذ بضع سنين

فاس

محمد علال الفاسي

مجلة الثقافة الإسلامية في إسبانيا

قالت جريدة (المانشستر غارديان) أن المستر مارماديوك بكثول اعتزل خدمة نظام حيدر آباد وفي نيته أن يعيش في إسبانيا حيث يواصل تحرير مجلة تصدر كل ثلاثة أشهر تسمى (الثقافة الإسلامية) صدرت منذ عشر سنوات

والمستر بكثول شاعر له مؤلفات كثيرة عن الشرق وكان يعمل في وزارة المعارف في حيدر آباد. وقد درس أخلاق الشعوب الشرقية فأقام عاماً في جبل الدروز وتعلم العربية. ومال إلى أفكار بعض الشرقيين ودرس عيشة الوطنيين في مصر وله فيها أعمال قام بها في مستهل هذا القرن لا تزال سراً من الأسرار

مؤتمر نادي القلم الدولي

من أنباء إسبانيا أن الاستعداد يجري في مدينة برشلونة عاصمة قطلونيا لعقد المؤتمر الثالث عشر لنادي القلم العالمي. وسيعقد هذا المؤتمر لمدة ستة أيام بين 20 و25 مايو القادم. وسيشهده مندوبون من مراكز القلم في أنحاء العالم. وقد أعد برنامج حافل للأعمال الداخلية، ومختلف الحفلات والاستقبالات والرحلات

من هنا ومن هناك

العلم والسياسة

كثر حديث الصحف البلجيكية والفرنسية أخيراً عن نظريات العلامة الاقتصادي البلجيكي هنري دي مان؛ ويعتبر هذا العلامة من أقطاب الاقتصاد السياسي في العالم، وكان إلى ما قبل عامين يتولى تدريس الاقتصاد السياسي في بعض الجامعات الألمانية، ولكنه عزل منذ قيام الحكومة الهتلرية؛ فعاد إلى وطنه يبشر بنظرية جديدة في السياسة؛ خلاصة رأي دي مان أن السياسة الدولية الحاضرة تقوم على الاقتصاد، وأن الأزمة الاقتصادية هي في الواقع أساس كل الانقلابات السياسية العنيفة التي وقعت في العهد الأخير؛ ولم يكن قيام الفاشستية في إيطاليا، وقيام الهتلرية في ألمانيا إلا من أثر الأزمة الاقتصادية؛ وليس هناك وسيلة لحماية النظم الديموقراطية ومقاومة الطغيان أفضل من ترقية الاقتصاد القومي ومقاومة الأزمات الاقتصادية. ولنظريات هنري مان أثر كبير في بلجيكا، وله نفوذ عظيم في الأوساط الاشتراكية والديموقراطية

جوكي يصبح شاعراً
أزيح الستار في وستمنستر مؤخراً بحضور الدوق أوف يورك عن النصب التذكاري الذي أقيم تخليداً لذكرى لندساي جوردن شاعر استراليا القومي
وقد أسهبت الصحف والمجلات بهذه المناسبة في الكلام عن حياة هذا الشاعر، الذي أسندت إليه أمارة الشعر في أوستراليا بعد موته وبعد حياة عجيبة حافلة بالمغامرات
ولد لندساي في سنة 1833 والتحق في شبابه بالمدرسة الحربية في (ودلريتش) وهناك عرف شارلوس غوردون الذي عرف فيما بعد باسم غوردون باشا
وأغرم لندساي بالألعاب الرياضية، وامتاز في مباريات الملاكمة والسباق وركوب الخيل، وعندما بلغ التاسعة عشرة من عمره ركب أحد جياد السباق واشترك به في إحدى المباريات على الرغم من أنف صاحب الجواد، وفاز بالجائزة الأولى، ولكن صاحب الجواد كان قد أبلغ الشرطة فألقى البوليس القبض عليه وكانت المدرسة الحربية قد ردته، وضاق أبوه به ذراعاً، فرحل إلى أوستراليا؛ ومع أنه كان مزوداً بخطاب توصية إلى حاكم أوستراليا الجنوبية إلا أنه لم يستغل هذا الخطاب، وانضم إلى فرقة البوليس الراكب؛ ولكن
حدث في أحد الأيام أن طلب إليه ضابطه أن ينظف حذاءه، فغضب لندساي واعتقد أنه أهين فترك خدمة البوليس واشتغل (جوكياً) واشترك في كثير من المباريات، وسقط عن ظهر جواده مراراً وأصيب برضوض أقعدته عن العمل مدة
وفي سنة 1864 توفي أبوه، فورث عنه بضعة آلاف من الجنيهات. وتزوج بابنة فندقي كانت قد عنيت به في مرضه
وفي هذه الأثناء اشتغل لندساي بقرض الشعر، ونشر ديوانه في سنة 1867، ولكن الديوان لم يلق رواجاً، ولم يبع منه أكثر من مائة نسخة، فغضب لندساي على الشعر كما غضب قبلاً على خدمة البوليس
وفي سنة 1870 كان لندساي يعاني أزمة شديدة، لأن المرض أقعده عن ركوب الجياد، وماتت ابنته الوحيدة وضاقت الدنيا في وجهه. فقصد إلى غاب قريب، وهناك أطلق الرصاص على نفسه فمات منتحراً وهو لا يزال في السابعة والثلاثين من عمره. ولم يشترك في تشيع جنازته غير بضعة أفراد
ولم تكد جثته توارى في التراب حتى شرع بعض الأدباء في استعراض قصائده. وما لبثت أوستراليا أن وجدت فيه شاعرها القومي. ولا يوجد الآن تلميذ في مدارس أوستراليا لا يحفظ عن ظهر قلبه قصيدته المشهورة (الفارس المريض)
(الجريدة السورية اللبنانية)

ذكرى علامة ألماني

احتفل المعهد العلمي الألماني أخيراً بذكرى العلامة المخترع فرتز هابر الذي توفي منذ نحو عام في برلين، ودفن في صمت مطبق. ولهذا الاحتفال الذي يقيمه اعظم معهد علمي في ألمانيا، يجمع أقطاب العلم الألماني كله، مغزى مدهش. ذلك أن فرتز هابر يهودي تنكره ألمانيا الهتلريه، وتنكر كل جنسه، ولكن فرتز هابر هو أيضا اعظم كيماوي ومخترع ألماني ظهر في العصر الأخير، وهو الذي اخترع (غاز) الحرب الخانق، أمد ألمانيا خلال الحرب بأعظم سلاح استطاعت أن تصمد به لخصومها أعواماً، وقد لبث هابر عميد المباحث الكيماوية الألمانية حتى قام الطغيان الهتلري في ألمانيا، ونظمت مطاردة اليهود المعروفة،
فاعتكف العلامة الشيخ في شبه اعتقال، وتوفي بعيداً عن كل تكريم وضجة، ولكن ألمانيا الهتلرية تحاول اليوم أن تعيد صرح العسكرية البروسية القديمة، وهي لا ترى اليوم بأساً من أن تكرم ذكرى قطب من أقطاب الاختراعات الحربية، ولا بأس أن يجمتع أكابر العلماء الألمان برغم النظريات الجنسية لتكريم زميلهم وعميدهم الراحل الذي استطاع أن يستخرج (الآزوت) من الهواء، وأن يخترع (غاز) الحرب، وكذلك أقنعة النجاة الواقية من الغاز؛ وخطب عدة من أكابر العلماء بينهم بعض الرجال الرسميين في تمجيد ذكرى العلامة الراحل وذكرى وطنيته ونبوغه؛ وأكد العلامة بلانك والكولونل كيرث أن فرتز هابر يستحق لقب (العالم المجهول) وأنه لولا اختراعاته لما استطاعت ألمانيا أن تتابع الحرب منذ سنة 1915، وذكر الخطباء كيف وفق هابر إلى اختراع (الغاز) في أبريل سنة 1915 وأشرف بنفسه على أول هجوم استعمل فيه الغاز في

منطقة (ايبر)؛ وأنه لو تقتصد ألمانيا في حرب (الغاز) لكان ظفرها في الحرب مرجحاً
ومع أن السلطات الرسمية صرحت بإقامة هذا الاحتفال، فإنها حظرت على الصحف
أن تنشر عنه شيئاً؛ ولم يعرف إلا مما نشرته الصحف الأجنبية لمراسليها
وهكذا تعيش ألمانيا النازية في غمر من المتناقضات!

بعثة أثرية في الهند تعثر على اكتشاف غريب

عثرت بعثة أثرية إنجليزية في الهند على آثار قديمة يرجع عهدها إلى خمسة آلاف سنة.
وقد تضاربت الآراء في هذه الاكتشافات الغريبة التي وجدها هؤلاء إذ أنها تتألف من
تماثيل متباينة الأشكال والأوصاف
فقد وجد رجال البعثة فيما وجوده قاعتين كبيرتين تحت سطح الأرض امتلأت الأولى
بهياكل شبان طوال القامة، والثانية بهياكل متلاصقة الأجسام من رجال ونساء. فحار
المكتشفون في هذه الهياكل وظلوا ينقبون ويعلمون حتى عثروا على لوحات كتبها
المؤرخون القدماء أماطت اللثام عن سر الغرفتين الذي يعد في التاريخ أبرز حادث
للتبذل والقساوة
وهذه اللوحات تشير إلى كاهنة شابة تدعى (لبيسوبامو) كانت تتمتع بنفوذ الملوك
والملكات. وهذه الكاهنة كانت محبوبة من الشعب ومقدسة منه
ولكن حدث لسوء الحظ أنها أحبت شاباً من عامة الشعب فحنق أخوها على هذا
الشاب وقتله. وغضبت الكاهنة وتبدلت أخلاقها واستحالت من فتاة محتشمة إلى امرأة
متبذلة؛ وصارحت أخاها الذي قتل عشيقها الأول دفاعاً عن عرضها بأنها ستقدم نفسها
إلى كل عابر، وأنها ستحب الرجال جميعاً وتنتقم منهم جميعاً
ومضت الكاهنة في حياة التبذل حتى أصبحت فضائحها حديث الناس. وعندئذ خطر لها
أن تلتمس الحصانة بإيهام الناس أنها ارتفعت إلى مصاف الآلهة. ونجحت في ذلك، ولم
تذكر لنا اللوحات كيف نجحت
ضمت الكاهنة إليها عدداً كبيراً من أجمل البنات أطلقت عليهن اسم (حاشية العذارى)
واشترطت عليهن أن يحذين حذوها في التغرير بالرجال والتنكيل بهم، وتوعدت بالموت
كل فتاة تحب رجلاً وتخلص له
وهكذا كانت الفتيات يرتدين الغلائل الرقيقة التي تكشف عن تقاطيعهن الجميلة
وينطلقن في شوارع المدينة ليلاً لاصطياد الفتيان، ثم يعدن بهم إلى القصر حيث
يقضي الجميع الليل كله في التبذل واحتساء الخمر وتعاطي الأفيون حتى إذا أقبل
الفجر وضعت كل فتاة في كاس فتاها قطرة من سم عجيب لا تذكر بجانبه سموم
يورجيا ودي مدسيس، وبعدئذ يأتي العبيد فيحملون الرجال إلى غرفة خاصة يقضون
فيها نحبهم قبل أن يفيقوا من نشوة الخمر
وكان يتفق في بعض الأحيان أن تحب الفتاة أحد أولئك الرجال فتؤثر أن تموت معه،
وتضع السم في كأسها وكأسه، فيحمل العبيد الاثنين إلى الغرفة الثانية الخاصة
بالعاشقين
ولم تذكر اللوحات التي عثر عليها رجال البعثة كيف كانت خاتمة تلك الكاهنة المتألمة
المبتذلة

(الأرز)

من روائع الشرق والغرب

من (شقائق الطور)

لشاعر الهند محمد إقبال

ترجمة الدكتور عبد الوهاب عزام

أيها الفاضل لا تخيم على الساحل. فهناك نغم الحياة واهنة. اقذف بنفسك في اليم
وتقلب مع أمواجه، فالحياة الخالدة في هذا الجِلاد
لا تحدث بالحياة وحقائقها، فليست بصيرا بطرائقها. لقد انتشيتُ من لذة الأسفار، حتى
لا أرى المنزل على الطريق إلا كالمنار
إن عالمنا الذي لا يُحد غريق في بحر الأيام، فانظر إلى القلب لترى الأيام غرقي في
هذا الجام
أنا نجى طير المروج الخضراء، وأنا لسان البراعيم الخرساء، فإذا مت فاذرُ ترابي في
الصبا، فلستُ أعرف إلا الطواف حول الورد

أُيظهر وادي الأزهار هذا كل كائن؟ فما الذي في ضمائر الشقائق المحترقة؟ نحن نرى المرج موجة من اللون والريح، فليت شعري ما المرج في نظر البلابل؟
أيها الغِر أنت ابن الإسلام، فاهجر الأنساب والألوان. إذا فخر العربي باللون والدم، والعصب والجلد، فليس منا ولسنا منه
لسنا من الأفغان ولا الترك والتتار؛ نحن بنو هذا المرج، نمتنا دوحة واحدة. إن فُرقة اللون والريح علينا حرام فقد أنبتنا ربيع واحد
لماذا تسألني ما أنا ومن أين أتيت؟ أنا ابن نفسي منذ حييت. أنا في هذا اليم موج لا يستقر، فإذا لم أتقلب على نفسي فنيت أنا في هذا اليم موج لا يستقر، فإذا لم أتقلب على نفسي فنيت
إن عالمنا صورة ناقصة، يتقلب بها الصباح والمساء. أعني أن مبرد القضاء يسوي هذه الدمية التي لم تتم
شق طريقك بفأسك، فالعذاب أن تسلك سبيل غيرك، إن أبدعت يدك عملا، فهو ثواب وإن
كان إثما
إن دليل القلب لا يطمئن إلى المنازل، ولا تأسره العناصر. لا تحسبنه مستريحاً في البدن، فهذا البحر لا يألف السواحل
أخذت خلوتي بين الماء والطين، وفررت من الفارابي وأفلاطون. ما اجتديت من أحد عينا، وما رأيت العالم إلا بعيني
أيها القلب خذ رمز الحياة عن البراعم، فالحقيقة في مجازها متجلية! إنها تنبت من التراب المظلم، ولكن نظراتها أشعة الشمس
عبد الوهاب عزام
' الوحدة
لشاعر الحب والجمال لامرتين
مهداة إلى الأستاذ. . أحمد حسن الزيات
لدى سرْحة من فوق قلة شاهق ... جلست شريد الفكر منشعب القلب
يشيِّع طرفي الشمس عند دلوكها ... ويرقب من تلك المشاهد ما يصبي
إذِ النهر صخابٌ تلاطم موجه! ... قد انساب في الوادي فأمعن في الشِّعب
وإذْ طرفُ أمواج البحيرة راقدٌ ... تراءى نجوم الليل في غمرها الرحب
وما زال ذوبُ التبر بعد غروبها ... يُنير أعالي الدوْح فوق ذرى الهضْبِ
وراح مليك الليل يختال صاعداً ... إلى عرشه العلوي في رفرفٍ رطب
وفي جنبات الأرض تبر مشعشع ... به ازدهر الأفق الجميل من السكب
وقد رنَّ في الأجواء ناقوس معبدٍ ... رنيناً يهز القلب في البعد والقرب
فكف عن الأعمال فلاح قريةٍ . .! ... وقد وقف الغادون من خشية الرب
قد اختلطت تلك الأرانين بالذي ... تبقى من الضوضاء في يومنا المُصبي
!!ولكن نفسي من مباهج ما رأتْ ... من المنظر الفتان خلو من الحب
أجل! كانت الدنيا بعيني كأنها ... خيالٌ مطيفٌ لا يقر على هُدْب
وهل تدفئ الموتى من الشمس شعلة ... تشع على الأحياء في السهل والكُثب؟
!!اقلب طرفي في الجبال وفي الربى ... وفي الشفق الباكي من الشرق للغرب
وفي القفر، والمأهول، في غسق الدجا ... لأنفض ما فيها؛ فابلغ من إربى
عسى أن أرى لي في محلٍ سعادةً ... ولست بلاق أو أغيب في الترب
وما تصنع الوديان لي، وجواسق ... على السفح بل تلك القصور التي تصبي
!!!إذا هي لا تبدو لعيني جميلة. . . . ... ولا سحرها ينفي بفتنته كربى
ألا يا مغاني الأنس أنت عزيزة ... على، ولكن قد خلوتن من حِبي
لغيبة مخلوق مدى الدهر واحد ... أراكن قفراً في عيوني، وفي قلبي
سواء أتبدو الشمس أم هي تختفي ... وتصحو سماء. . أم تلَفَّعُ بالسحب
ويظلم ليل. . أم ينير صباحه ... ويسعد أو يشقي أنيس مع السرب
فليس لنفسي في نهاري بغية ... ولا في غدي مادمت أحيا بلالب
ولست أرى إذا أتبع الشمس ناظري ... تدور على الأكوان في أفقها الرحب
أجل لا أرى إلا فراغاً وخلوةً ... لنأى حبيب ليس يلفي لدى الترب

وما حاجتي فيمن تظلله السما ... ومن تحت نور الشمس يهتز كالقضْب
!. .وخلف مدار الشمس مدارها ... على عالم أسمي تمنع بالحجب
فلو أن نفسي أطلقت من قيودها ... لألفت حبيب القلب يحيا مع الشهب
فأسعد باللقيا، وأنعم بالمنى ... وأحسو رحيق الخلد من ريقها العذب
لدى مُتع لم تهف يوماً بمسمع ... ولا خطرت في فكر ذي شغف صب
وأنّى لنفسي أن تطير فنلتقي. . . ... وقد قُيدت من حمأة الطين بالجذب
فياليت شعري لِمْ قضى الله أن أرى ... شريداً، وخلى ليس ينعشه قربي
إذا ما ذوت أوراق دوح بمرجها ... وأسلمها قر الخريف إلى السَّلب
وهبَّت من القطب الرياح زعازعاً ... عليها فألقتها أباديد في الترب
وحالي شبيه في حياتي بحالها ... فياويح نفسي من زعازعها النكب
إلا فانثريني يا أعاصير مثلما ... نثرت من الأوراق في جوك الرحب
فما بعد هذا الصبح إلا دجنَّة ... وما بعد يأسي وانفرادي سوى خطبي
دير الزور
عبد الجبار الرجبي
الكتب
علم الدولة: تأليف الأستاذ احمد وفيق
أبو تمام: تأليف عمر فروخ
للأستاذ محمود الخفيف
أما أولهما وهو علم الدولة، فهو الجزء الثاني من تلك الموسوعة الكبيرة التي اضطلع بتأليفها وإهدائها إلى لغة الضاد الأستاذ أحمد وفيق؛ ولعل القراء يذكرون أني حين قدمت إليهم الجزء الأول منها أشرت إلى خطر هذا المؤلف الجليل لمصر والعالم الشرقي، ولا سيما في هذا العصر الذي تشغل السياسة فيه عقول بني الشرق في توثبهم وتطلعهم إلى الحرية
ومما نغتبط له بحق، وقد طال افتقارنا في نهضتنا العلمية إلى هذه الناحية من نواحي المعرفة، أن الأستاذ قد جرى في هذا المؤلف على طريقة البسط والعرض تعقبهما المناقشة والتحليل؛ فهو يستوعب هذا العلم ويلم بأطرافه، لا يغادر شيئاً مما قيل فيه، فضلاً عن أنه يسير في سرده مع التاريخ فينقلك من عصر إلى عصر ويريك مبلغ ما طرأ على نظريات هذا العلم من تطور حسبما مرت فيه من عصور. وهو إلى جانب هذا يقف عند كل نظرية مبنياً لك ما دار حولها من المناقشات ومقدار ما لاقت من تأييد أو تفنيد
أقول إن هذه الطريقة التي سار عليها الأستاذ المؤلف هي ميزة الكتاب الأساسية، وإن كان في القراء سواي من قد يعيبها، إذ يستحضر في ذهنه تلك الكتب التي وضعت في هذا العلم في غير لغتنا وكان قوامها التخصص والاستقصاء والتعمق، فالعالم هناك يتناول ناحية خاصة من جزيئات العلم ويعرضها في تحليل ودقة وتقصّ، مما يفتق الذهن ويرهفه ويلذه، ولكننا الآن أو على الأقل كثرتنا، لم تتعد بعد مرحلة الإلمام والاستيعاب. وخير ما يعمله المؤلف في هذه الحالة أن يعرفك إلى العلم، حتى إذا تم لك ذلك أمكنك أن تتابع فيه من يتفلسف ويتقصى
وقف الجزء الأول من هذا الكتاب عن عهد الإصلاح، فابتدأ به الجزء الثاني الذي أحدثك عنه، واختتم بالثورة الفرنسية، وهي فترة لذيذة ممتعة بما تخللها من مواقف وحوادث كان
لها أعظم الأثر في تطور فكرة الدولة؛ وحسبك من تلك الحوادث الثورة الفرنسية الكبرى، وما مهد لها به كبار الفلاسفة من آراء في هذا الموضوع الخطير
هذا ولقد ارتحت كثيراً إلى أسلوب الأستاذ وفيق لملاءمته لطريقته، فهو يتدفق من غير التواء ولا تعقيد، ويتبسط في غير حشو ولا إسفاف
والكتاب الثاني عبارة عن رسالة صغيرة موضوعها أبو تمام، شاعر الخليفة محمد المعتصم بالله، ويقع في مائة صفحة من القطع الصغير، صدره مؤلفه الأديب عمر فروخ بصورة خيالية للشاعر بريشته، وهو على صغر حجمه، قد جمع كثيراً مما يهم كل أديب معرفته عن أبي تمام، ولقد كان صاحبه موفقاً في تقسيم موضوعه، فابتدأ بالترجمة مبيناً حياة الشاعر عهداً عهدا، ولا يخفى على القارئ أثر ذلك في المساعدة

على تفهم شعره. بعد ذلك أخذ يشرح خصائص أبي تمام وما امتاز به من غيره، وعرض أقوال المخالفين له والمعجبين به، ثم ختم بحثه بنقد فنون الشاعر، جاريا في ذلك وفق ما اصطلح عليه النقاد، دون أن يحول ذلك بين إدلائه برأيه في دقة وإنصاف جديرين بالثناء، فأفاض في نقد مدح أبي تمام وموقفه من ممدوحيه، ثم بسط طريقته في الرثاء ومكانته في هذا الباب، وتعرض لمقدرته في الوصف مستشهدا في ذلك كله بأبياته المشهورة محللاً لها مبينا رأيه فيها مما يشهد للمؤلف بحسن الذوق، ويكسب رسالته على الرغم من صغرها كثيرا من الثناء والتقدير الخفيف

العدد 89 - بتاريخ: 18 - 03 - 1935

بلاد الشكوى!

للأستاذ عبد العزيز البشري

لقد تحدثك نفسك يوماً بأن تتعرف الصفة التي تميّز مصر من بين بلاد العالم، والتي إذا أُطلقت انطلقت من فورها إليها دون أقطار الأرض جميعا. وإن مما لا يعتريه الشك أنه ما من أمة إلا ولها خاصية تستقل بها عن كل ما عداها من الأمم، لا يشركها فيها غيرها ولا يتصف بها سواها، وهذه الخاصية لقد تتصل بالأخلاق والعادات والتقاليد، ولقد تتصل بالتأريخ، ولقد تتعلق بالتصرف في سبب من أسباب الحياة، أو بالاستئثار والتبريز في فن من الفنون، أو بغير ذلك من وجوه الفروق المختلفة بين أصناف الناس فإذا قدر المستحيل، أو قدر النادر الذي يجاور المستحيل، ولم تتفرد إحدى الأمم بما يشخصها من تلك الأسباب الكثيرة، فلا أقل من أن تختص في طبيعة أرضها وسمائها، وجوهها ومناخها، بما يحقق لها هذا المعنى حتى يتسق لها هذا الوجود الخاص فلا تختلط بغيرها من العالمين. وتلك من سنن الكون التي لا ينشز عليها خلق من الكائنات أبدا!

ونعود فنفرض أنه لقد تحدثك نفسك بتعرف هده الخاصية التي تتفرد بها مصر دون سائر أمم الأرض. ولعل أول ما ينحط عليه ظنك أنها بلاد زراعية طوعاً لسخاء أرضها بألوان الغلات، ومهارة سواد سكانها في فنون الزراعة وفلح الأرض وحسن تعهدها، واستنباتها على خير الوجوه. إلى أن أهلها، في الجملة، لا يتكئون على سبب من أسباب العيش التي يتكئ عليها كثير غيرهم، كالتجارة، والصناعة، وصيد البحر أو البر، فإذا هي عالجت شيئاً من هذا فإنما تعالجه بالقدر الذي ينتظمها في مؤخرات الصفوف! إذا ميزتها بأنها أمة زراعية، فالأمم الزراعية في العالم كثير!

ثم إنها ليس لها حظ مذكور من علم، ولا من فن، ولا من قوة بدنية، ولا من امتياز في كفاية حربية، ولعل هذا يرجع إلى ظروفها التي لا خيار لها فيها لا إلى طبيعة أبنائها، فالمصريّ معروف بالشجاعة في الحرب، وطول الصبر فيها، وشدة الجلد عليها من قديم الزمان. ومهما يكن من شئ فليس لمصر الآن حظ مذكور في شيء من تلك الأشياء، فضلاً عن أن يكون لها به تفرّد واستئثار، بحيث إذا أطلقت صفته عرف الناس أن مصر هي المقصود به دون سائر البلاد.

ولقد تطلب هذه المزية في تاريخ مصر القديم، وحضارتها التالدة، وما سلف لها من مجد ما برح يثقل مناكب التاريخ. ألا فاعلم أن مصر لا تستأثر بهذا ولا تستقل به، فهذه الصين لها حضارة لعلها اقدم من حضارة مصر، وهذه أمة اليونان وما أدراك ما حضارة اليونان، وعلومها، وفلسفتها، وفنونها، وعظمتها الحربية. ومجدها الذي طاول السماء. فانظر إلى ما صارت عليه الآن، وكيف تغّير لها وجه الزمان!

وهذه أمم قد كانت لها حضارات فخمة، وكانت لها قوة لا تعد لها قوة، وسطوة في أمم الأرض دونها كل سطوة، فدارت عليها رحى الزمان حتى طحنتها طحناً، وأحالتها في الخلق عِهنا، ثم ذرتها في الهواء، ولم يصبح لها من الآثار، إلاّ ما قيدت الصحف من مأثور الأخبار. وأين منا الآن فينيقيا وأشور وبابل وغيرها من دول لم يدرك شأنها شان، ولم يدان سلطانها في الأرض سلطان!. ومهما يكن من شيء فالوصف بعظمة الماضي، وجلالة التاريخ، وفخامة المجد التليد، ليس مما يجدي المصريين في هذا الباب ولا يفيد!

أرجوك يا سيدي الطلعة إلا تجهد بطول البحث والتحري، وشدة الفحص والتقري، فانك، في الغاية، لن تخرج بشيء من هذه المظان التي ترجو أن توافقك فيها طلبتك، ولن تصيب لمصر في هذه الأيام من الصفات ما يقع عليها على جهة التعيين، ولو

فتشت نجوم السماء، ونقضت كل ما على ظهر الأرض من الحصباء!
على أنني متبرع، لوجه الفضول وشهوة التطلع، بان أهديك إلى الخلة التي تختص بها مصر في هذا الزمان وتستأثر، بحيث لا يشاركها فيها مشارك، ولا ينازعها عليها منازع.
وبحيث لو حشُرت الخلائق كلها في صعيد واحد؛ وبعث معهم كل من لحقهم الدثور، وجميع من غيبتهم القبور، ومن نهشتهم وحوش البر، وسباع الطير، والتقمتهم الحيتان في جوف البحر، من مهلك عاد وثمود؛ ومقتل أصحاب الخدود، وصحت فيهم أي الأمم ألان صفتها كيت؟ لأجابوك في نفس واحد: هي مصر!
وهذه الخلة التي تمتاز بها مصر اليوم وتنفرد دون سائر أمم الأرض جميعا هي الشكوى! نعم هي الشكوى!. وإنني أتحدى من شاء، وأخاطر من شاء على ما شاء، إذا زعم أن هناك أمة أشكى من مصر، أو أن هناك خلقاً من خلق الله يشكون بنسبة مما يشكو المصريون 18000000!
كل هيأة في مصر تشكو، وكل طائفة فيها تشكو، وكل جماعة تشكو، وكل فرد يشكو. ما تنقطع لأحد من هؤلاء شكوى ما عاقب الليل النهار، حتى لو قيض لعالم مخترع مثل السنيور مركوني أن يحيل جميع المصريين إلى معنى من المعاني، لاستحالوا إلى شكوى يطن في الآفاق طنينها، ويئن في الأجواء أنينها، حتى لو كان ملائكة السماء خلفاً مثلنا، يجري عليهم ما يجري علينا من الضجر والقلق، ويدركهم ما يدركنا من السهر والأرق، لقضوا من شدة هتاف شكوانا آلاف الأعوام لا تذوق جفونهم الغمض ولا يزور عيونهم المنام!. ولكنهم، لحسن حظهم، أيقاظ على الدهر، ما يهفو بهم التعب إلى ضجعة، ولا يضطرهم النصب إلى هجعة! لا ترى أحداً في مصر إلا يشكو، ولا تنقطع له شكوى على الزمان: هؤلاء الموظفون! أرأيتهم قد انقطعوا يوماً واحداً عن شكواهم، وبث مظلمتهم وعظيم بلواهم؟. الدرجات الدرجات!. العلاوات العلاوات!. الترقيات الترقيات!. ارفعي يا حكومة ما حل بنا من حيف، فقد حبست عنا علاوات الشتاء! وأبطأت علينا في علاوات الصيف!
وهؤلاء الحجاب والسعاة، لا تراهم يدعون كل يوم إلا بالويل والثبور، وعظائم الأمور، لأنهم أكثر خدام الحكومة تعباً، وأحقرهم مرتباً، وهيهات أن تفي بضعة الجنيهات، بما يزحمهم من وجوه المطالب في وجوه الحاجات، وقد أثقلتهم النفقة على الأهل والولد، بعد ما عم الغلاء هذا البلد، ولو كانت الحكومة على شيء من الإنصاف، لزادت مرتباتهم أضعافاً على أضعاف!
وهؤلاء رجال البوليس لا يفتأون يشكون الظلم اللاحق، والجور الحائق، فأعمالهم ثقيلة، ومهماتهم جليلة، ومع هذا فمرتباتهم قليلة، وعلاواتهم ضئيلة، ودرجاتهم هزيلة. والترقية إلى الدرجات مما يحتاج إلى طي الأحقاب، ودون ذلك مشيب الرجل بل مشيب الغراب! وهذا والله ما لا ينبغي أن يعامل به حفظة النظام، ومن يضحون برحتهم وأرواحهم في إقرار الأمن والسلام:
أما معاونو الإدارة، فلا تسكن لهم شكوى. تارة بتقديم (العرائض) وعلى ألسنة الصحف تارة!
ورجال القضاء أهليه وشرعيه، لا يفترون عن المطالبة بتعديل (كادر) الدرجات، وتحسين نظام العلاوات، حتى يتسق ما يتقاضون من الرواتب، لما يتقلدون من رفيع المناصب، ولا شك أن من أشد الإجحاف، أن تسوم الظلم من تقتضيه القيام على العدل والإنصاف
وهؤلاء حملة الشهادات ممن لم تستخدمهم الحكومة في مناصبها، هيهات أن تبطل لهم شكاية، أو تفتر لهم دعاية؛ فإذا استخدموا استأنفوا الشكوى من قلة الراتب، وسألوا الحكومة أن تمنحهم من الدرجات، ما يكافئ ما أحرزوا من عليا الشهادات!
أما المعلمون في التعليم الأولي بجميع ضروبه وأشكاله وألوانه، فهؤلاء لا ينقطع لشكاياتهم مدد، ولا يحصيه عدد، فهم كل يوم يمطرون المعارف (بالعرائض) إمطاراً، ويرسلون منها على الصحف وابلاً مدراراً. حتى أضحى المرء لا يشق صحيفة يومية أو مجلة أسبوعية، أو شهرية، إلا رأي الشكايات تنفذ إليها من أقطارها، وتجري في جميع أنهارها، وحتى اصبح خلو صحيفة واحدة من ذلك مما يثير الريب ويدعو إلى اعجب العجب!

هذا بعض ما يكون من الموظفين، أما التلاميذ وأولياء التلاميذ، ففي كل يوم شكوى من ضيق المدارس بالوافدين، ومن المصروفات المدرسية، ومن رسوم الامتحانات العامة، ومن صعوبة أسئلة الامتحان، ومن الدرجات التي تشترط للدخول في امتحانات الملاحق، وهكذا مما لا يبرح يطن في الآذان ما تعاقب المَلَوان، وطويت صحائف الزمان!

والأهلون الأهلون! لا ترى بلد في بلاد القطر كله إلا يشكو بعض أهله على الأقل، من عمدته، ويسرف في اتهامه بالظلم والجور، وإيثاره الهوى في معاملة الناس، وغفلته عن صيانة الأمن، ومصانعته لسراق الليل. وهكذا. فإذا لم تنفذ التهم إليه من أي باب، طلبوا إزالته لأنه (فقد النصاب)! وحسبك أن تزور يوماً وزارة الداخلية لترى من هذه العجب العجاب!

وهذا النيل إذا أقبل، فهل تسمع من أي بلد إلا موجع الشكوى. من احتباس الماء عن الأرض حتى عم الشرق، أو أن الماء طغى على الزرع حتى غمر الساق والورق!

وهؤلاء الأزواج يشكون الزوجات، وهؤلياء الزوجات لا ينين عن شكاية الأزواج، وهؤلاء أباء يقاضون الأبناء، وأبناء يستعدون للقضاء على الأباء!. وحسبك أن تطوف يوماً في بعض محاكم الشرع لتستيقن أن الحياة العائلية في هذه البلاد قد تصدعت أركانها، وتداعى بنيانها، وأنها عما قليل ستحور أطلالاً بالية، وأنقاضا من بنايات الأمم الخالية!.

ولا تنس الأحزاب واتهامها حكومات بسوء الحكم وخلف الوعود، وشكوى الحكومات مما يقابل به ما تبذل من الجهود من نكران وشدة الجحود! ولو قد ذهبت أسرد لك جملة الشاكين والشاكيات، والباكين على سوء حالهم والباكيات، لما اتسعت صحائف (الرسالة)، لاستيعاب هذه المقالة.

ومهما يكن من أمر، فلعلك قد اقتنعت الآن بأن اصدق وصف لمصر في هذا العصر، وان أدق تعريف ينطبق عليها دون سائر الأمم هي أنها بلاد الشكوى!

ولعلنا نوفق قريباً إلى إتمام المقال، بالبحث عن علة هذه الحال.

عروس تزف إلى قبرها

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

- 1 -

كان عمرها طاقة أزهار تسمى أياماً

كان عمرها طاقة أزهار ينتسق فيه اليوم بعد اليوم كما تنبت الورقة الناعمة في الزهرة إلى ورقة ناعمة مثلها

أيام الصبى المرحة حتى في أحزانها وهمومها؛ إذ كان مجيئها من الزمن الذي خص بشباب القلب، تبدو الأشياء في مجاري أحكامها كالمسحورة؛ فان كانت مفرحةً جاءت حاملةً فرحين، وإن كانت محزنةً جاءت بنصف الحزن.

تلك الأيام التي تعمل فيها الطبيعة لشباب الجسم بقوىً مختلفة، منها الشمس والهواء والحركة، ومنها الفرح والنسيان والأحلام!

وشبت العذراء وأفرغت في قالب الأنوثة الشمسي القمري، واكتسى وجهها ديباجةً من الزهر الغض، أودعتها الطبيعة سرها النسائي الذي يجعل العذراء فن جمالٍ لأنها فن حياةٍ وجعلتها تمثالاً للظرف؛ وما اعجب سحر الطبيعة عندما تجعل العذراء بظرف كظرف الأطفال الذين ستلدهم من بعد! وأسبغت عليها معاني الرقة والحنان وجمال النفس؛ وما أكرم يد الطبيعة عندما تمهر العذراء من هذه الصفات مهرها الإنساني!

وخطبت العذراء لزوجها، وعقد له عليها في اليوم الثالث من شهر مارس في الساعة الخامسة بعد الظهر، وماتت عذراء بعد ثلاث سنين، وأنزلت إلى قبرها في اليوم الثالث من شهر مارس في الساعة الخامسة بعد الظهر! وكانت السنوات الثلاث عمر قلبٍ يقطعه المرض، وينتظرون به العرس، وينتظر بنفسه الرمس! يا عجائب القدر! أذاك لحن موسيقي لأنينٍ استمر ثلاث سنواتٍ، فجاء آخره موزوناً بأوله في ضبطٍ ودقة؟

أكانت تلك العذراء تحمل سراً عظيماً سيغير الدنيا، فردت الدنيا عليها يوم التهنئة والابتسام والزينة - وهو يوم الولولة والدموع والكفن؟

- 2 -

واهاً لك أيها الزمن! من الذي يفهمك وأنت مدة أقدار؟ واليوم الواحد على الدنيا هو أيام مختلفة بعدد أهل الدنيا جميعاً، وبهذا يعود لكل مخلوقٍ سر يومه، كما أن لكل

مخلوق سر روحه، وليس إليه لا هذا ولا هذا
وفي اليوم الزمني الواحد أربعمائة مليون يوم إنساني على الأرض! ومع ذلك يحصيه عقل الإنسان أربعا وعشرين ساعة؛ يا للغباوة. . .!
وكل إنسان لا يتعلق من الحياة إلا بالشعاع الذي يضيء المكان المظلم في قلبه. والشمس بما طلعت عليه لا تستطيع أن تنير القلب الذي لا يضيئه إلا وجه محبوب
وفي الحياة أشياء مكذوبة تكبر الدنيا وتصغر النفس، وفي الحياة أشياء حقيقية تعظم النفس وتصغر بالدنيا؛ وذهب الأرض كله فقر مدقع حين تكون المعاملة مع القلب
أيتها الدنيا؛ هذا تحقيرك الإلهي إذا أكبرك الإنسان!
ويا عجبا لأهل السوء المغترين بحياة لابد أن تنتهي! فماذا يرتقبون إلا أن تنتهي؟ حياة عجيبة غامضة؛ وهل اعجب واغمض من أن يكون انتهاء الإنسان إلى آخرها هو أول فكره في حقيقتها؟
فعندما تحين الدقائق المعدودة التي لا ترقمها الساعة ولكن يرقمها صدر المحتضر. . . عندما يكون ملك الملوك جميعاً كالتراب لا يشترى شيئاً البتة. . .
ماذا يكون أيها المجرم بعد ما تقترف الجناية، ويقوم عليك الدليل، وترى حولك . . . الجند والقضاة، وأمامك الشريعة والعدل؟
أعمالنا في الحياة هي وحدها الحياة، لا أعمارنا ولا حظوظنا. ولا قيمة المال، أو الجاه، أو العافية، أو هي معاً - إذا سلب صاحبها الأمن والقرار! والآمن في الدنيا من لم تكن وراءه جريمة لا تزال تجري وراءه. والسعيد في الآخرة من لم تكن له جريمة تطارده وهو في السموات
كيف يمكن أن تخدع الآلة صاحبها وفيها (العداد)، ما تتحرك من حركة إلا أشعرته فعدها؟ وكيف يمكن أن يكذب الإنسان ربه وفيه القلب؛ ما يعمل من عمل إلا أشعره فعده؟
- 3 -
ورأيت العروس قبل موتها بأيام
أفرأيت أنت الغنى عندما يدبر عن إنسان ليترك له الحسرة والذكرى الأليمة! أرأيت الحقائق الجميلة تذهب عن أهلها فلا تترك لهم إلا الأحلام بها؟ ما اتعب الإنسان حين تتحول الحياة عن جسمه إلى الإقامة في فكره!
وما هي الهموم والأمراض؟ هي القبر يستبطئ صاحبه أحياناً فينفض في بعض أيامه شيئاً من ترابه. . .!
رأيت العروس قبل موتها بأيام، فيالله من أسرار الموت ورهبتها! فرغ جسمها كما فرغت عندها الأشياء من معانيها! وتخلى هذا الجسم عن مكانه للروح، تظهر لأهلها وتقف بينهم وقفة الوداع!
وتحول الزمن إلى فكر المريضة؛ فلم تعد تعيش في نهار وليل، بل في فكرٍ مضيء أو فكر مظلم!
يا إلهي، ما هذا الجسم المهدم المقبل على الآخرة؛ أو تمثال بطل تعبيره، أم تمثال بدأ تعبيره؟
لقد وثقت أنه الموت، فكان فكرها الإلهي هو الذي يتكلم؛ وكان وجهها كوجه العابد؛ عليه طيف الصلاة ونورها. والروح الإنسانية متى عبرت لا تعبر إلا بالوجه
ولها ابتسامة غريبة الجمال، إذ هي ابتسامة آلامٍ أيقنت أنها موشكة أن تنتهي! ابتسامة روح لها مثل فرح السجين قد رأى سجانه واقفاً في يده الساعة، يرقب الدقيقة والثانية ليقول له: (انطلق!)
ودخلت أعودها فرأت كأنني آتٍ من الدنيا. . .! وتنسمت مني هواء الحياة، كأنني حديقة لا شخص!
ومن غير المريض المدنف، يعرف أن الدنيا كلمة ليس لها معنى أبداً إلا العافية؟ من غير المريض المشفى على الموت، يعيش بقلوب الناس الذين حوله لا بقلبه؟
تلك الحالة لا تنفع فيها الشمس ولا الهواء ولا الطبيعة الجميلة، ويقوم مقام جميعها للمريض أهله وأحباؤه!
وكان ذووها من رهبة القدر الداني كأنهم أسرى حربٍ اجلسوا تحت جدارٍ يريد أن ينقض!

وكانت قلوبهم من فزعهاتنبض نبضاً مثل ضربات المعاول.
وباقتراب الحبيب المحتضر من المجهول، يصبح من يحبه في مجهولٍ آخر فتختلط عليه الحياة بالموت، ويعود في مثل حيرة المجنون حين يمسك بيده الظلّ المتحرك ليمنعه أن يذهب! وتعروه في ساعة واحدة كآبة عمرٍ كاملٍ، تهيئ له جلال الحس الذي يشهد به جلال الموت!
وحانت ساعة ما لا يفهم، ساعة كل شيء، وهي ساعة اللاشيء في العقل الإنساني!
فالتفت العروس لأبيها تقول: (لا تحزن يا أبي. . .) ولأمها تقول: (لا تحزني يا أمي. . .!)
وتبسمت للدموع كأنما تحاول أن تكلمها هي أيضاً؛ تقول لها: (لا تبكي. . .!) وأشفقت على أحيائها وهي تموت، فاستجمعت روحها ليبقى وجهها حياً من أجلهم بضع دقائق! وقالت: (سأغادركم مبتسمة فعيشوا مبتسمين، سأترك تذكاري بينكم تذكار عروس!. . .)
ثم ذكرت الله وذكرتهم به، وقالت: (أشهد أن لا إله إلا الله) وكررتها عشراً! وتملأت روحها بالكلمة التي فيها نور السموات والأرض، ونطقت من حقيقة قلبها بالاسم الأعظم الذي يجعل النفس منيرة تتلألأ حتى وهي في أحزانها
ثم استقبلت خالق الرحمة في الآباء والأمهات! وفي مثل إشارة وداع من مسافر انبعث به القطار، ألقت إليهم تحية من ابتسامتها، وأسلمت الروح!
- 4 -
يا لعجائب القدر! مشينا في جنازة العروس التي تزف إلى قبرها طاهرةً كالطفلة ولم يبارك لها أحد! فما جاوزنا الدار إلا قليلاً حتى أبصرت على حائطٍ في الطريق، إعلاناً قديماً بالخط الكبير الذي يصيح للأعين؛ إعلاناً قديماً عن رواية هذا هو اسمها: (مبروك. . .!)
واخترقنا المدينة وأنا أنظر وأتقصى، فلم أر هذا الإعلان مرة أخرى! واخترقنا المدينة كلها، فلما انقطع العمران وأشرفنا على المقبرة، إذا آخر حائط عليه الإعلان: (مبروك. . .!)
طنطا
مصطفى صادق الرافعي
صفحات من الدبلماسية الإسلامية
السفارات الخلافية والسلطانية وعلائق الإسلام والنصرانية
للأستاذ محمد عبد الله عنان
تتمة
لما تولى المعتصم الخلافة عقب وفاة أخيه المأمون، حاول قيصر قسطنطينية الإمبراطور تيوفيلوس (توفيل) أن يعقد الهدنة والصلح مع المسلمين، فأوفد إلى المعتصم سفارة على رأسها يوحنا النحوي. وكان يوحنا من أعظم علماء عصره، يجيد العربية، فقصد إلى بغداد يحمل أنفس الهدايا والتحف، وأنزل بأحد قصور الخلافة؛ وأدهش البلاط برائع بذخه، وما نثر حوله من مظاهر الفخامة والترف. وتعرض لنا الرواية البيزنطية قصصاً عجيبة عن بذخ يوحنا وفخامته. وكان لهذه السفارة غاية مزدوجة: الأولى أن تعقد بين الخليفة والقيصر معاهدة سلام دائم؛ والثانية أن يعمل السفير على إقناع منويل، وهو قائد بيزنطي يلوذ ببلاط الخليفة، بالعودة إلى قسطنطينية. فأفلح السفير في تحقيق الثانية، ولم يفلح في تحقيق الأولى؛ ولكن المعتصم رأى أن يجامل القيصر بالإفراج عن مائة من الأسرى النصارى. وعلى أثر هذا الفشل في عقد الصلح، زحف الإمبراطور على أراضى المسلمين، وغزا زبطرة من معاقل الحدود الإسلامية، وكان الروم يزعمون أنها مسقط رأس المعتصم؛ فاستولى عليها واستباحها وأنزل بسكانها المسلمين رائع الإثم والسفك؛ وتروي التواريخ البيزنطية أن المعتصم لما علم بزحف الروم على زبطرة، أرسل إلى الإمبراطور سفارة يرجوه فيها أن يفر المدينة العيث والسفك فأبى تيوفيلوس وارتكب فيها ما ارتكب، وهدمها حتى صارت قاعا صفصفاً
عندئذ قرر المعتصم الحرب وأقسم بالانتقام وسار إلى أراضي الروم في جيش ضخم، وقصد إلى عمورية (أموريوم) أجل وأمنع مدن الروم في آسيا الصغرى؛ فهاجمها

مراراً، ولكن الروم دافعوا عنها دفاعاً شديداً، فضرب حولها الحصار، واعتزم ألا يغادرها حتى تسقط في يده. عندئذ اضطر الإمبراطور أن يسعى إلى طلب الصلح، وأرسل بدوره سفارة إلى المعتصم، على يد أسقف عمورية وكبرائها، فأعلن المعتصم أنه لن يعقد الصلح، ولن يمنح شروطاً للتسليم، وأن الانتقام هو غايته واعتقل السفراء، فاستمر الحصار خمسة وخمسين يوماً، ثم سقطت المدينة في يد المسلمين، وأبدى المعتصم، كما أبدى تيوفيلوس من قبل منتهى الشدة والقسوة ففتك بالنصارى فتكاً ذريعاً، واسترق الناجون من الموت، وأحرقت عمورية حتى غدت أطلالاً، وهدمت حصونها وأسوارها؛ ثم أطلق المعتصم سفراء الإمبراطور بعد أن احتجزهم ليشهدوا ظفره، وردهم إليه بهذا الجواب! (نبئوا سيدكم بأني أديت دين زبطرة) وكان ذلك سنة 223 هـ (838م)

واستمر الصراع وتبادل الغزو بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية مدى قرن آخر. وفي عهد الإمبراطور قسطنطين السابع الذي حكم طفلاً تحت وصاية أمه الإمبراطورة زوي كاربوبسينا، أرسل بلاط قسطنطينية إلى الخليفة المقتدر بالله سفارة في طلب المهادنة وتنظيم الفداء. وتصف لنا الرواية الإسلامية حوادث هذه السفارة، فتقول لنا إن سفيري ملك الروم وصلا إلى بغداد في المحرم سنة 305هـ (917م)، فاستقبلا بترحاب وإكرام، ودخلا على الوزير في أفخم حفل ونظام، وقد اصطف حوله الجند في أتم سلاح وزينة، وأديا رسالة قيصر، ثم أخذا إلى الخليفة المقتدر فاستقبلهما ومن حوله الوزراء والقادة والجند في أروع زينة وأبهة وأديا رسالتهما، فأجابهما الخليفة إلى ما طلب قيصر من تنظيم الفداء، وسير خادمه مؤنساً ليحضر الفداء وعينه أميراً على كل بلد يدخله فيتصرف فيه على ما يريد حتى يغادره، وسير معه قوة من الجند، وزوده بمائة ألف وعشرين ألف دينار لافتداء الأسرى المسلمين، فقام مؤنس بالمهمة وافتدى آلافاً من الأسرى وكانت مسألة الفداء مبعث طائفة من السفرات التي تبودلت بين الدولتين خلال القرن الثالث الهجري، وطائفة من المعاهدات السلمية التي عقدت بينهما

وفي عهد الإمبراطورة زوى أيضاً بعث حاكم كلابريا (قلوريه) البيزنطي رسله إلى خليفة أفريقية الفاطمي (عبيد الله الشيعي)؛ وعقدت بين الفريقين معاهدة تعهدت بها الحكومة البيزنطية أن تؤدي إلى الخليفة الفاطمي جزية سنوية كبيرة، نظير تعهده بحمل أمراء صقلية المسلمين على وقف الحرب والغزوات المستمرة في قلورية، واستمرت هذه المعاهدة مدى حين. وان كانت الجزية قد أنقصت خلال ذلك ولنترك الآن علائق الدولتين العباسية والبيزنطية لنتحدث عن نواح أخرى من علائق الإسلام والنصرانية، والسفارات التي تبودلت بينهما

لما قامت الخلافة الفاطمية بمصر، غدت مصر منذ أواخر القرن الرابع، قوة إسلامية جديدة تشترك في قيادة الإسلام وتوجيهه في المشرق. ولم تكن مصر قبل ذلك مركزاً هاماً للتجاذب السياسي بين الإسلام والنصرانية، لأنها لم تكن أكثر من ولاية خلافية أو دولة ثانوية تظللها الخلافة العباسية بسلطانها الروحي. على أنه كانت ثمة علائق مستقلة في هذا العصر بينها وبين الدولة البيزنطية زعيمة النصرانية في المشرق.

وأشهر ما انتهى إلينا من أخبار الحوادث الدبلوماسية بين الدولتين في تلك الفترة سفارة الإمبراطور رومانوس الأول (ارمانوس) قيصر قسطنطينية إلى محمد بن طغج الإخشيد صاحب مصر (323 - 334هـ)، ورد الإخشيد على هذه السفارة. وحمل كتاب الإمبراطور إلى الإخشيد رسولاه نقولا وإسحاق، وفيه يطلب الإمبراطور تنظيم مسألة الفداء، وتسهيل المعاملات التجارية لرسله في البيع والشراء، وعقد الصداقة المتبادلة بين الدولتين، غير أن الإمبراطور يمن في نفس الوقت على الإخشيد بأن تنازل لمكاتبته مباشرة، لأن مقامه كقيصر الدولة الشرقية يحتم عليه ألا يكاتب من هو دون الخليفة، ولكنه مع ذلك قد خص الإخشيد بالمكاتبة لما نمى إليه من رفيع مكانته وحميد سيرته وفيض عدالته ورحمته. وقد رد الإخشيد على رسالة الإمبراطور بكتاب شهير من إنشاء إبراهيم بن عبد الله النجيرمي، وانتهت إلينا صورته بأكملها. وفيه يرد الإخشيد على رومانوس بالشكر على ما أسبغ عليه من حمد ومديح، ويقول: إنه مهما تكن منزلة ملك الروم فانه لا يرى بأساً أن يكتب إليه، وقد كتب من قبل إلى أقرانه ممن لا يرتفع إلى منزلته، فقد كتب القياصرة من قبل إلى خمارويه أحمد بن طولون،

والى تكين مولى الخليفة وحاكم مصر وحدها؛ وينوه الإخشيد بأهمية مكانته وضخامة ملكه وما لمصر من غابر الزمن من ملك باذخ، وأنه يحكم الشام وفلسطين إلى جانب مصر، ويشرف على مكة منبع الإسلام، ومدينة الرسول؛ وأنه لم يكن يحب أن يثير في ذلك جدلاً أو ملاحظة لولا ما تقدم به الإمبراطور. ثم يعبر الإخشيد عن حمده وثنائه للإمبراطور لما يبديه نحو الأسرى المسلمين من الرفق والرعاية، ويصرح بإجابته إلى ما طلبه من تنظيم الفداء ومبادلة الأسرى، ومن عقد الصداقة المتبادلة، ومن تسهيل المعاملات التجارية لرسله التجاريين، وقد صيغت هذه الرسالة الشهيرة في أسلوب سياسي

بديع يجمع بين حزم المخاطبة، ورقة المجاملة. وفي صيغتها ومحتوياتها ما يلقي ضياء كبيراً على طبيعة العلائق بين مصر الإسلامية والدولة البيزنطية في أوائل القرن الرابع الهجري (أوائل القرن العاشر الميلادي)

وكانت الدولة الفاطمية خصيمة الدولة العباسية تنازعها زعامة الإسلام في المشرق؛ وكانت السياسة البيزنطية تتجه يومئذ إلى الضرب بين الدول الإسلامية المختلفة والاستفادة من تنازعها وتنافسها؛ فلما تضاءل سلطان الدولة العباسية، وبرز سلطان السلاجقة في المشرق، اهتمت الدولة البيزنطية بمقاومة هذا الخطر الجديد ومصانعته، وعملت على أن تكون محوراً للتجاذب السياسي بين هذه القوى الإسلامية المختلفة.

وقد وقع بين مصر وقسطنطينية في منتصف القرن الخامس، حادث سياسي شهير يوضح لنا طبيعة هذا التجاذب، هو سفارة المستنصر بالله الفاطمي لبلاط قسطنطينية وما كان من أدوارها ونتائجها. ففي سنة 446هـ (1053م) أيام الخليفة المستنصر بالله نكبت مصر بوباء ذريع استطال مدى أعوام؛ واقترن الوباء بغلاء وقحط شديدين، وأصيبت مصر بصنوف مروعة من الدمار والفوضى. وتعرف هذه النكبة في تاريخ مصر (بالشدة العظمى). فأرسل المستنصر بالله (سنة 446هـ) إلى قسطنطين إمبراطور قسطنطينية يطلب منه العون، وأن يمده بالغلال والأقوات، ورأت السياسة البيزنطية في ذلك فرصة سائحة لتحسين مركزها وعلائقها مع مصر، التي كانت تهددها من البر والبحر، فلبى الإمبراطور الدعوى، وتم الاتفاق على بذل العون المطلوب؛ ولكن قسطنطين توفي قبل تنفيذه، وخلفته على العرش الإمبرطورة تيودورا، واشترطت لمعونة مصر شروطاً أباها المستنصر، واشتبك الفريقان في معارك شديدة في البر والبحر. وفي سنة 447هـ، أرسل المستنصر سفيراً إلى تيودورا هو القاضي أبو عبد الله القضاعي ليحاول تسوية الخلاف، فذهب إلى قسطنطينية ليحاول عقد الصلح مع بلاطها، ولكنه لم ينجح في مهمته، لأن السياسة البيزنطية آثرت عندئذ جانب السلاجقة الذين كثرت غزواتهم لأراضي الدولة، ورأت أن تصانعهم وأن تسعى إلى مهادنتهم، وسمح لرسول طغرل بك عاهل السلاجقة أن يخطب في جامع قسطنطينية باسم الخليفة العباسي القائم بأمر الله ولما وقف المستنصر بالله على ذلك رأى أن ينتقم بالقبض على أحبار القمامة (كنيسة قبر المسيح) في بيت المقدس ومصادرة تحفها وذخائرها؛ واستمرت الخصومة بعد ذلك عصراً بين مصر والدولة البيزنطية وفي أيام الحروب الصليبية كثر تردد السفارات والمفاوضات بين مصر باعتبارها زعيمة الجبهة الإسلامية يومئذ، وبين قادة الحملات الصليبية، وكثر عقد العهود والهدن والمعاهدات. ولا يتسع المقام لاستعراض هذه المبادلات الدبلوماسية التي وصلت يومئذ إلى ذرى التشعب والاتساع، والتي تملأ فراغاً كبيراً في أخبار ذلك العصر؛ ولكنّا نمثل لها بحادثين: الأول سفارة لويس التاسع (القديس لويس) ملك فرنسا إلى سلطان مصر الملك الصالح حينما جاء إلى مصر على رأس حملته الصليبية (1249م) وكتب إلى الملك الصالح باسم الأمم النصرانية يطالبه بتسليم مصر وينذره بالويل إذا أبى؛ وكان الملك الصالح يومئذ مريضاً في القاهرة، فتولى كاتبة بهاء الدين زهير الشاعر الأشهر كتابة الرد، وفيه يرد على الصلبيين وعيدهم وينذرهم بالانتقام؛ والثاني سفارة من ملك فرنسا أيضاً إلى سلطان مصر يطالبه بإعادة بيت المقدس إلى الفرنج، وان يفتح لهم ثغرا في الساحل وتكون البلاد وولايتها ة وإدارتها مناصفة بين المسلمين والنصارى على أن يؤدي الفرنج لمصر نظير ذلك جزية سنوية ضخمة. والظاهر أن مرسل هذه السفارة هو فيليب الجميل ملك فرنسا، وأن المرسل إليه هو السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وأنها وردت إلى مصر في أواخر القرن السابع

الهجري أو أوائل القرن الثامن. وقد نقلت إلينا الرواية الإسلامية تفاصيل الحادث دون أن تعين تاريخه، وذكرت أن السلطان غضب لجرأة الفرنج حين أبلغ السفراء رسالتهم، وذكرهم بنكبة دمياط، وأنذرهم بالويل والثبور وردهم أقبح رد

وقد كانت مصر منذ الحروب الصليبية محور الدبلوماسية الإسلامية ومجمعا للعلائق بين الشرق والغرب؛ وكانت علائقها مع الأمم النصرانية متشعبة النواحي والأطراف، فمن بلاط قسطنطينية إلى الدول الإيطالية - البندقية وبيزا وجنوه ونابولي - إلى مملكة فرنسا، وإلى إسبانيا النصرانية؛ وتاريخ مصر في القرنين الثامن والتاسع الهجريين (الرابع عشر والخامس عشر) حافل بأخبار هذه العلائق الدبلوماسية. وقد أورد لنا القلقشندي في (صبح الأعشى) عشرات بل مئات من الوثائق والمكاتبات الدبلوماسية التي تلقي أعظم ضياء على طبيعة هذا العلائق ومداها ونكتفي في هذا المقام أيضا بالتمثيل ببعض السفارات النصرانية إلى بلاط القاهرة؛ فقد أرسل قيصر قسطنطينية مانويل باليولوج سنة 814هـ (1411م)

كتاباً إلى الملك الناصر فرج، على يد تاجر يوناني يدعى سورمش يؤكد ما كان بين والده (أي والد قيصر) وبين والد السلطان (الظاهر برقوق) من أواصر المودة والصداقة، وبعث معهم عدة من البزاة هدية للسلطان؛ ورجا السلطان في كتابه أن يعامل الأحبار النصارى بالرفق والرعاية.

ووردت على بلاط مصر سفارة أخرى في نفس هذا العام (سنة 814هـ) من (دوج) البندقية ميميكائيل، وقدم السفير (نقولا البندقي) إلى السلطان ناصر فرج كتاباً من الدوج يبلغه فيه تحياته وثناءه على ما كان يلقاه التجار البنادقة من الرعاية وكرم الوفادة، ولكنه يحتاج على حبس بعضهم في ثغر دمياط، ويحتج بالأخص على ما وقع بالإسكندرية من القبض على (قنصل) البنادقة وأكابر التجار البنادقة، وأخذهم إلى القاهرة مصفدين بالأغلال، وينوه بأن هذه الإهانة إنما هي إهانة له بالذات (أي للدوج) ويرجو السلطان أن يعدل عن هذه السياسة إلى الرفق بالقنصل والرعايا البنادقة، لتحصل الطمأنينة للتجار ويكثرون من التردد على مصر. وهذه الوقائع التي يشرحها الدوج في رسالته إنما هي حادث دبلوماسي محض؛ وقد صيغت في أسلوب رقيق ينم عما كان لمصر يومئذ من عظيم الهيبة في نفوس الدول النصرانية؛ وفيها يستعمل قلم الترجمة السلطاني كلمة (قنصل) ترجمة للكلمة الإفرنجية المماثلة، وهي كلمة ما نزال نطلقها اليوم في اصطلاحنا الحديث على ممثلي الدول الذين يختصون بأعمال هذا المنصب

تلك طائفة متناثرة من السفارات الخلافية والسلطانية، والموضوع مشعب الأطراف واسع المدى. بيد أن ما أوردناه من أحاديث هذه السفارات والرسالات المتبادلة يكفي لشرح كثير من خواص العلاقات الدبلوماسية في تلك العصور. وهناك بالأخص ناحية أخرى من علائق الشرق والغرب والإسلام والنصرانية لم يتسع المقام للتحدث عنها: تلك هي علائقإسبانيا المسلمة (الأندلس) بأسبانيا النصرانية وبالأمم الإفرنجية الأخرى؛ فهذا العلائق وحدها تملأ صحفاً فياضة من تاريخ الدبلوماسية الإسلامية؛ وقد كان عهد الخلافة الأموية بالأندلس عهداً زاهراً في تنظيم هذه العلائق ففي عصر الناصر دين الله، ثم ولده الحكم المستنصر، انهالت وفود الأمم النصرانية وسفاراتها على بلاط قرطبة؛ فكانت تستقبل في قرطبة في أيام مشهورة ومراسيم شائقة بهرت أمم العصر وقصوره؛ وكان تقاطرها على

قرطبة في ذلك العصر الذي بلغت فيه الأندلس ذروة العظمة والسلطان، شاهدا بتطبيق هذه الخاصة التي أشرنا إليها في فاتحة هذا البحث، وهو أن اتجاه السفارات السياسية من الغرب إلى الشرق ومن الأمم النصرانية إلى الأمم الإسلامية كان في معظم الأحيان شاهدا بتفوق الشرق والإسلام في القوة والعظمة والسلطان

(تم البحث)

محمد عبد الله عنان المحامي

الانتحار

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

نعم، لابد مما ليس منه بد. وستنتهي الحياة على كل حال، طال العمر أم قصر، فلم لا (أختمها بيدي وأستريح من هذا العذاب؟)

كذلك كان يحدث نفسه وهو جالس إلى مكتبه، وأمامه عدة رسائل كتبها ووضعها في ظروفها، وعنونها، ونشفها، والصق عليها طوابع البريد، ولو أنك في هذه الساعة سألته عن الباعث أو البواعث له على هذا العزم، لقال لك إنها ليست مسألة بواعث، وإنما هي مسألة آلام في معدته لم يبق له صبر عليها، وعجز طب الأطباء عن تخفيفها، وما بقي في البلد طبيب إلا استشاره، وما قرأ إعلاناً في صحيفة عن دواء يلطف هذه الأوجاع إلا اشتراه وجربه، فذهب كل ذلك مع الريح، وكانت معدته توسعه إيلاماً كلما أوسعها تطبيباً، فكأنه لا يضع فيها أشفية، وإنما يضع فيها إبراً أو أظافر ومخالب وأنياباً! وما أكل شيئاً إلا نفخه وتخمر في جوفه وفارت منه غازات ترتقي إلى الصدر والقلب وتثقل عليهما وتخزه هنا وهناك فيروح يبلع الفحم قرصاً وراء قرص، والغازات كما هي، لا يمتصها أو يطلقها أو يخفف ضغطها وشكها شيء، فتلفت أعصابه ويئس من الشفاء، وعزم آخر الأمر على الانتحار

وكانت له زوجة وبنون، وبيت طويل عريض فيه خدم وحشم، ولكن آلامه سودت عيشه ونغصت حياته، وحرمته ما كان خليقاً أن يفوز به من المتع، فالموت لا يفقده لذة موجودة، ولعله يريح آله مما يحملهم معه من المتاعب والغصص، ويتيح لهم أن ينعموا بماله، وأن يخلو صفو حياتهم من كدر حياته

أما الرسائل التي أسلفنا الإشارة إليها فكتبها إلى الصحف ينعى نفسه فيها، ويحذر قراءها من الإعلانات المغرية وما تزعمه من قدرة الأدوية على الشفاء السريع، وأخرى كتبها إلى (النيابة) حتى لا تزعج أهل بيته بالسؤال والتحقيق، فان (للنيابة) ولعاً بتقصي أسباب الانتحار كأنما حياة المرء هبة من هذه (النيابة) أو عارية، فهو مسئول عنها قبلها! ولما صح عزمه على الانتحار قعد يفكر في وسائله، وأدواته، ولكنه استقبحها جميعاً، ولم يرض عن واحدة منها، وبدا له أن من السخافة وقلة العقل أن يلقي بنفسه من فوق السطح مثلاً،

فقد يتحطم جسمه ولا يموت! أو أن يغرق نفسه في النيل، فقد يراه أحمق فيدركه وينقذه، أو قد تعلق جثته بشيء فتظل راسية ولا يهتدي إليها أحد! ولم ير أنه يطيق أن يسدد إلى رأسه مسدساً، أو إلى قلبه، ولا أن يغمد في صدره سكيناً أو يبقر به بطنه، كلا! هذه الميتات جميعا قبيحة، وفي صورها هوان وحماقة؛ إنما الميتة الحسنة أن يستلقي على سريره، ويضع إلى جانبه طشتا على كرسي، ثم يقطع شريانا فيلح عليه النزف حتى يموت، في سكون وبلا ألم

واستغرب لما انتهى إلى هذا الرأي، أن يرى نفسه منشرح الصدر، وأنه لم يعد يشعر حتى بتلك الآلام التي أغرته بالتماس الموت وحرضته على نشدانه! فهز رأسه متعجباً وقال: إذا كانت هذه هي البداية فلا شك أن الخاتمة أحسن. وتمنى لو تيسر له أن يرى نفسه مسجى في أكفانه والناس حوله يبكون ويندبون، ويثنون عليه بالذي (كان) أهله! وتصور نفسه محمولاً على الأعناق وخلفه حشد عظيم من الأصدقاء والكبراء، وكبر الأمر في وهمه حتى لخيل إليه أنه الآن راقد في النعش، فتحرك حركة من يريد أن يطل على مشيعيه! ثم أفاق من هذا الحلم وابتسم! ولم تكن هذه ابتسامة السرور، وإنما كانت ابتسامة الأسف على أنه سيحرم لذة هذا المنظر

ودق الجرس فجاءت الخادمة، وكانت فتاة في الثامنة عشرة من عمرها، ولم تكن جميلة ولكنها لم تكن دميمة، وكان يحنو عليها لأنها يتيمة لا أب لها ولا أم، ولا أهل فيما يعرف، فلما أقبلت عليه رق لها قلبه من العطف، وقال لها:

(اسمعي! خذي هذه الرسائل وضعيها في صندوق البريد. فاهمة؟ وخذي هذا لك.)

ونهض وهو يناولها ورقة بجنيه، فدهشت المسكينة، فما لها عهد بمثل هذا الجود، وما وهبها أحد أكثر من قرش وقالت: (لي أنا؟)

فوضع راحته على كتفها وقال: (نعم لك أنت. ولم لا؟ إنك فتاة طيبة، وأنا راض عنك)

فقالت المسكينة: (ولكن ماذا تقول ستي؟ إنها إذا رأته معي ستظنني سرقته)

فقال: (كلا. لا تخافي. اطمئني!)

وأدناها منه وقبلها على خد، ثم أدار وجهها ليقبل خدها الآخر، فلمحت الفتاة أوسط أبنائه، وخشيت أن يثرثر لأمه بما رأى، فارتدت عن سيدها محتجة وقالت بصوت عال:

(عيب يا سيدي، عيب! أنا بنت يتيمة، وأنت رجل كبير. . . تؤ. . . تؤ. . . عيب!)

فبهت الرجل، فقد كانت قبلته من عطف أبوي، ومن كرم النفس ومروءة القلب،

وساءه جحودها وسوء ظنها، وأغضبه هذا التأويل، فقال:
(ولكن يا ابنتي ماذا حصل؟ أي عيب؟)
فقالت بصوت أعلى (أقول لك عيب يا سيدي، لا لا لا. . . أنا في أمانتك. حرام عليك يا سيدي! وأنت رجل كبير)
ولم يكن يرى ابنه فلم يفطن إلى الباعث لها على هذا الاستهجان؛ أما ابنه فرأى وسمع، وأسرع إلى أمه ينبئها ويقص عليها الحكاية فنهضت الأم كالمجنونة إلى هذا الزوج الذي يتغفلها ويزعم نفسه مريضاً مدنفاً ويروح يقبل الخادمات! ومن يدري ماذا يصنع غير ذلك؟ ومن الذي يمكن أن يثق به أو يصدقه بعد هذا؟
وكان الرجل قد طرد الخادمة من حضرته. لما رآها تلج في الاستنكار وتأبى إلا أن تسيء تأويل الحادثة، فخرجت، ولم تكد تفعل حتى دخلت الزوجة كاللبوة الهائجة:
(معلوم! معلوم! تدعي المرض، وتقول أبعدوا عني وخلوني استريح، لتخلو بالخادمة فتقبلها وتحضنها! ما شاء الله! هل المريض يعانق الخادمة؟)
فطار عقل الرجل، وله العذر، وخطر له أن الخادمة هي التي ذهبت تشكو إلى زوجته، وتذكر في هذه اللحظة أنه أعطاها الرسائل، وأن فيها نعيه إلى الصحف والنيابة، ولكن الغضب صرفه عن الموت، وفتر الرغبة فيه، وأحس أنه لا يريد أن يموت، بل أن يميت - يقتل هذه الخادمة اللعينة التي يحسن إليها فتسيء إليه، وتشنع عليه، وتحيل البيت قطعة من جهنم، فترك زوجته تتكلم وخرج يقول:
(أين هي؟ أين هي؟)
وعرف أنها خرجت فانطلق وارءها، ليسترد الرسائل منها، ويرى له بعد ذلك رأياً فيها - نعني في الفتاة. وبصرت به الخادمة مقبلاً، ورأسه عار، ووجهه مضطرم، وكانت تحس في قرارة نفسها أنها ظلمته وتجنت عليه، فأيقنت أنه خرج وراءها هائجاً، وأنه يطلبها ليضربها، فراحت تعدو، فلم يسعه إلا أن يجري وراءها، ولكنها في الثامنة عشرة من عمرها، وهو في الخامسة والأربعين. فما عسى قدرة مثله على إدراك مثلها؟ فأخذ يصيح
ويدعوها أن تقف ويناشد الناس أن يمنعوها، وهي كلما حاول أحد أن يصدها تتفلت منه، وتزعم له أن سيدها يهم بقتلها وتستحلفهم أن يردوه عنها. وتبعهما أطفال الحارة وأهل الفضول من الرجال والنساء، وأخيراً لحق بها الرجل، لأن الناس استوقفوها، فقبض على يدها وانتزع منها الرسائل وهو يلهث
وكان من السهل بعد ذلك أن يطلع زوجته على الرسائل، وأن يقنعها بان من يروم الانتحار لا يتبع الخادمة عينه
ونام صاحبنا في ليلته تلك نوماً عميقاً هادئاً لا حلم فيه، ولم يشعر بمعدته حتى ولا في الصباح، فتعجب وهو يتمطى ويتثاءب فما نام قط هذا النوم المريح في السنوات الأخيرة، وأقبل على الطعام فالتهم منه شيئاً غير قليل، ولم يكن يفطر قبل اليوم، وكان يدخن على ريق النفس، ويستغني بالقهوة عن الطعام، فقال لزوجته:
يظهر أن الجري نفعني أمس. . والغضب أيضاً! لقد حرك دمي في عروقي فزايلني الفتور، ونشطت. . . نعم إن حاجتي هي إلى ما ينشط جسمي، فليت لي كل يوم خادمة أقبلها فيسوء بي ظنك، فتثور نفسي!)
فضحكت الزوجة وقالت: (لقد كنت مجنوناً! وهل ينتحر إلا مجنون؟)
فقال: (نعم، ولكن الأطباء هم الذين أجنوني. والغريب أني لم أجد واحداً من بينهم يشير علي بالرياضة - ليس عندهم إلا وصفاتهم التي لا تنفع. . . أقول لك! سأطتب هذا إلى الصحف، وأفضح طب الأطباء)
ولكنه لم يكتب، لأنه شغل بالرياضة في ناد قريب من بيته، فتولينا نحن عنه ذلك، فهل بلغنا؟
إبراهيم عبد القادر المازني
قصة المكروب كيف كشفه رجاله - 5
ترجمة الدكتور أحمد زكي وكيل كلية العلوم
اسبلنزاني
صلة حديثه
حتى العلماء كانوا في جانب انبعاث الأحياء من لا شيء. أعلن الطبيعي الإنجليزي

(رس) بأسلوب توكيد تحس فيه يقين العالم وثقة العارف، قال: (إن من يتشكك في أن الخنافس والزنابير تكونت من روث البقر فإنما يتهم العقل والحس والتجربة). حتى الحيوانات التي هي أعقد من هذه وأكثر أعضاء كالفئران لا حاجة بها إلى الأمهات والآباء. ومن قال غير هذا فعليه أن يذهب إلى مصر ليعرف كيف تعج الحقول بالفئران التي تكونت من غرين النيل فآذت السكان إيذاء كبيراً

سمع اسبلنزاني كل هذه الأقاصيص التي اعتقد صدقها أناس كثيرون ذوو خطر وعلم، وقرأ قصصاً أكثر من هذه عدداً وأبعد في الأغراب، ورأى الطلبة تتنافس فتتخاصم وتتلاكم لتثبت أن الفأر لا حاجة به إلى أب أو أم. ومع كل هذا لم يعتقد في شيء مما رأى أو سمع. كان في رأسه تحزب، وفي قلبه تغرض وتعصب، وكثيراً ما نجد العلم يتقدم بمثل هذا التعصب والتحزب، بفكرة ليست من العلم، وليست مما يقال عادة في العلم، ولكن فكرة تخلق في رأس الرجل العلمي خلقاً، مبناها كره لخز عبلة شائعة وخرافة سائدة. رأى اسبلنزاني أن الإنسان تكفيه النظرة الظاهرة إلى الأمور ليقتنع بان الحياة لا توجد من عدم، وبأن الأحياء لا تخلق اتفاقاً من الأوساخ والأقدار، وإنما هي تولد عن سبب، وحسب نظام وقانون. ولكن كيف السبيل إلى إثبات ذلك؟ وفي خلوة في ذات ليلة وقع على كتاب صغير بسيط ساذج قرأه فأفاد منه طريقة جديدة لو اتبعها لعرف بها كيف تنشأ الحياة. كتاب لم يحاجج بالكلام، ولم يتمنطق بالألفاظ، بل اكتفى بالتجربة. وأي تجربة؟ وأي حقائق تتضح منها وتبين في سهولة . . .ويسر، وذهب عن صاحبنا النعاس، ونسى أن الفجر يقترب، وظل يقرأ ثم يقرأ قرأ في الكتاب أن تخلق الدود والذباب من اللحم الفاسد خرافة أي خرافة، وإن كثيراً من

العقلاء الأذكياء يؤمنون بهذا الزعم على سخافته وبطلانه. وبينا هو يقرأ أتى على فقرات من الكتاب كادت تخرج لها عيناه من رأسه استغراباً لها وإعجاباً بها، على وصف تجربة بسيطة ذهبت بالخرافة من نفسه دفعة واحدة ولغير رجعة

وقال لنفسه وهو يتخفف من بعض ملابسه ويميل بعنقه الغليظ إلى ضوء الشمعة: (إن (ريدى) هذا الذي كتب الكتاب رجل لا شك عظيم. انظر كيف هو يحل المشاكل حلاً غاية في البساطة. أخذ قدرين ووضع بكل منهما قطعة لم، ثم غطى أحدهما بغطاء خفيف، وترك الآخر مكشوفاً. ثم أخذ ينظر، فوجد الذباب يدخل إلى اللحم في القدر المكشوفة، وبعد زمن قليل وجد بها الدود، وبعد زمن آخر وجد بها ذباباً جديداً، ثم نظر إلى القدر المغطاة فلم يجد بها دوداً ولا ذباباً. فالأمر بسيط جداً. فالمسألة مسألة الغطاء الذي يحول بين اللحم والذباب وتجربة بسيطة جداً، ولكنها تدل على ذكاء كبير، فان الناس تناقشوا وتجادلوا وبحت أصواتهم آلاف السنين، ولكنهم لم يهتدوا إلى هذه التجربة البسيطة)

وفي الصباح لم يستطع (لازارو) صبراً، فأسرع إلى العمل يطلب حل الأشكال، لا فيما يختص بالذباب ودوده، ولكن فيما يختص بالأحياء المكرسكوبية الصغيرة. فان الأساتذة العلماء كانوا قد بدأوا يقولون إنه قد يجوز أن الذباب يخرج من بيض، ولكن الأحياء التي تدق عن البصر تأتي من ذات نفسها

وأخذ اسبلنزاني يتعلم في عثار كثير كيف يربي تلك الأحياء، وكيف يستخدم المجهر. فجرح يديه وكسر قبابات كبيرة ثمينة؛ وكان ينسى أحياناً أن يمسح عدساته وينظفها، ثم ينظر من خلالها إلى تلك الحيوانات الصغيرة، فلا يراها إلا بمقدار ما يرى السمك الصغير في الماء بساحل البحر وقد عكره بتحريك قاعه؛ ولم يكن يبالي أن يتحدث عن أخطائه ويقصف بالضحك منها، فلم يكن في خلقه ذلك الجمود وتلك الشراسة التي اتصف بها (لوفن هوك). وكان مندفعاً متهوراً، ولكنه برغم اندفاعه وتهوره كان لحوحاً لجاجاً، لا ينعطف لخيبة ولا يثنيه يأس؛ قام ليفضح تلك الأكاذيب التي يحكونها عن تلك الحيوانات الصغيرة فلن يقعد حتى يبلغ ما أراد، ولكن مهلاً. (إذا أنا نصبت نفسي بغية الوصول إلى غاية معينة فلست والله بعالم، إن العالم يجب عليه أول شيء أن ينزع من قلبه التعصب والتغرض، وأن يتعلم أن ينقاد للحقائق التي تتكشف له إلى حيث تسوق. . .) وأخذ يدرس

تلك الحيوانات بصبر طويل، وأخذ يسوم نفسه قصد السبيل، وينفي عنها الهوى بقدر الطاقة حتى علمها أن تنصاع للحق ولو كان مراً

واتفق في هذا الوقت أن قسيساً آخر اسمه (نيدم كان يسره أن يرى نفسه تحذق فن التجربة، وكان كاثوليكياً تقياً. وكان اسمه أخذ يذيع في إنجلترا وأيرلندا بأنه الرجل الذي يعرف كيف ينشئ تلك الأحياء الصغيرة في مرق الضأن من لاشيء. وأرسل إلى علماء الجمعية الملكية البريطانية يصف لهم تجاريبه، فتفضلوا بالإعجاب بها قال لهم إنه أخذ من قدر وهي تغلي بمرق الضأن مقداراً ثخينا من هذا المرق، ووضعه في زجاجة سدها بفلينة فأحكم سدها فأصبحت بمعزل عن الهواء، فلا تدخلها تلك الأحياء أو ما يمكن أن يكون لها من بيض. ولم يكتف بذلك، بل ذهب فوضع الزجاجة في رماد ساخن زيادة في الحرص والتوكيد. قال الرجل الطيب: (وبهذا لاشك قد قتلت كل ما قد يكون بقي في الزجاجة من كائن حي أو بيض). واحتفظ بهذا المرق في الزجاجة أياماً، ثم نزع سدادها، وأتى بالعدسة فرأى - وما أخطر ما رأى - رأى المرق يعج بالأحياء عجيجاً

وصاح (نيدم) يقول للجمعية: (إن هذا كشف خطير أي خطير. إن هذه الأحياء لا يمكن أن يكون مأتاها إلا من المرق، فدونكم إذن تجربة تثبت أن الشيء الحي قد يخرج من الشيء الميت). وقال لهم فيما قال: إن الحساء يصنع من الحب أو اللوز يقوم مقام المرق سواء بسواء

وثارت الجمعية الملكية والعالم المثقف لما علموا بكشف (نيدم) كشف صدق لا أقصوصة كاذبة، وحقيقة تجريبية لا يأتيها الباطل من أمامها أو خلفها، واجتمع أعضاء الجمعية يفكرون في جزاء (نيدم) بتنصيبه عضواً فيها، وهي الجمعية الوقور المترفعة التي تمثل أرستقراطية العلم وتتضمن صفوة العلماء. ولكن في هذه الأثناء كان اسبلنزاني بعيداً في إيطاليا يقرأ خبر هذا الكشف المدهش، وبينما هو يقرأ تقارب ما بين حاجبيه، وضاق حدق عينيه، وأخيراً أبرق وأرعد وقال: (إن هذا الحيوانات لا تنشأ من لا شيء، لا في المرق، ولا في حساء اللوز، ولا في شيء كائناً ما كان؛ إن في هذا التجربة تدليسة أو خدعة، من الجائز أن (نيدم) لا يعرف ذلك، ولكن لابد أن هناك ثغرة أنا كاشفها لا محالة)

وبدأ شيطان التعرض يستيقظ في نفسه، وقام القسيس يشحذ سكينه لأخيه القسيس. وكان الإيطالي رجلاً شريراً سفاحاً يغرم بنحر الآراء التي يخاصمها، فمن أجل هذا قام يسن سلاحه للإنجليزي. وفي ذات ليلة، وهو قائم وحده في معمله، بعيداً عن جلبة الإعجاب التي تتحشى بها دروسه، بعيداً عن زئاط الصالونات البهيجة حيث تتظرف له السيدات وتتلطف معجبة بذكائه وسعة علمه، في تلك الليلة خال أنه وجد الثغرة التي طلبها في تجارب (نيدم). فمضع ريشته، وأمر أصابعه خلال شعره المشعث، ثم قال: (لماذا ظهرت تلك الأحياء في مرق اللحم وفي نقيع الحب؟ لأن (نيدم) بلا شك لم يسخن زجاجته تسخيناً كافيا، لأن (نيدم) لم يحكم سد زجاجته إحكاماً كافياً)

وبدأ شيطان البحث الصادق يستيقظ في نفسه. فلم يذهب إلى مكتبه ليكتب لنيدم بالذي ارتأى، وإنما فزع إلى معمله الترب قد تناثر في أرجائه الزجاج من كل صنف، فأخذ من هذا الركن قبابة، ومن هذا الدرج بذوراً، ونفض التراب عن مجهره، وبدأ يمتحن موقع ظنه من الحقيقة، فأما أن ينصره، وإما أن يقهره. إن (نيدم) لم يسخن حساءه تسخيناً كافياً - وقد يكون من بعض تلك الأحياء أو من بيضها ما يحتمل المقدار الكبير من الحرارة. من يدري؟ وتناول اسبلنزاني قبابات من الزجاج كبيرة، عظيمة البطن، مستدقة العنق، وأخذ يغسلها ويدلكها ويدعكها، ثم جففها وصففها فبرقت على النضد فكانت كالجند لبس السلاح في ضحوة الصباح. ثم جاء بأصناف مختلفة من البذور ووضع شيئاً من كل صنف في قبابه، ثم جاء بشيء من البسلة وشي من اللوز ووضع كلا في قبابه، ثم صب ماء في القبابات جميعا، ثم صاح: (ولآن لن أقع في الخطأ الذي وقع فيه (نيدم). فلن أغلي هذه الأحسية دقائق بل ساعة كاملة)، وأوقد ناره، فلما تجهزت تساءل: (ولكن ماذا أصنع لسد هذه القبابات؟ أسدها بالفلين؟ ولكن هذه مهما أحمت فلعلها لا تمنع أصغر الأحياء أن يتسرب إلى الإناء). وأخذ يفكر: (لا. لا. بل أسيح عنق القبابة في النار فألحمه لحماً، وأختم على الزجاجة ختماً، فلا تعود هنالك حاجة إلى الفلين، والزجاج لن يأذن لأصغر المكروب أن يتسرب خلاله).

وهكذا تناول قباباته البارقة قبابة قبابة، وأدار عنقها الدقيق في اللهب حتى ساح

والحتم؛ وكانت تسخن بعض هذه القبابات سخونة شديدة وهي في يده فتحرقها، فتسقط القبابة فتنكسر فيسخط ويلعن، ثم يبدلها بغيرها. فلما أتم لحامها جميعاً صاح: (والآن فإلى نار
شديدة). وظل ساعات يرقب القبابات ترقص في ماء الغلايات ولم يغلها كلها مدة واحدة، فمن القبابات ما أغلاه دقائق. ومنها ما أغلاه ساعة كاملة
فلما بلغ منه الجهد، وضاقت عيناه من التعب، قام إلى أخيرة القبابات يخرجها من الماء والبخار يرتفع منها كأنها قطع اللحم المسلوق. وجمع القبابات كلها واختزنها، واصطبر أياماً على أخر من الجمر يداور في رأسه ما عساه أن يحدث فيها، وقام بشيء آخر كدت أنساه، شيء بسيط جداً: قام يكرر ما صنع من جديد، فجهز عدداً من القبابات كالتي سلف ذكرها، ولكن بدل أن يلحم رقابها سدها بالفلين، ثم غلاها ساعة كاملة، ثم اختزنها
ثم غاب عنها أياماً أمضاها في قضاء ألف مشغلة من مشاعل الحياة التي لم تكن تكفي لاستنفاد نشاطه الجم الكثير. وكتب إلى العالم الطبيعي (بونت في سويسرا ينبئه بتجاربه، وقام إلى كرة القدم وأخذ نصيباً من اللعب، وضرب في الريف يطلب صيده، وذهب إلى البحر يتلهى بسمكة، وألقى دروساً في العلم، وحاضر طلبته في كل ما هب ودب، في كل ما ثقل من العلم وجف، وفي كل ما خف منه وطاب، ثم اختفى فجأة. وتساءل الطلبة والأساتذة: (أين الأب اسبلنزاني؟) وتساءلت الهوانم أيضاً: (أين الأب اسبلنزاني؟)
الأب اسبلنزاني ذهب إلى قباباته
- 3 -
ذهب أول شيء إلى قباباته الملحومة، وكسر رقابها واحدة بعد أخرى، وغاص في مرقها بأنبوبة طويلة رفيعة لينال منه شيئاً، ثم لينظر هل تكونت فيه تلك الأحياء الضئيلة على الرغم من تسخينه إياه طويلاً، وعلى الرغم من عزله إياه هذا العزل المحكم عن الهواء وما قد يعلق بترابه من الأحياء. لم يكن اسبلنزاني في تلك الساعة اسبلنزاني المرح البشوش الضحوك. كان في حركته بطء وفي وجهه وجوم. كان يتحرك كرجل آلي صنعوه من الخشب، وأخذ ينقط من المرق القطرة بعد القطرة تحت عدسته
وكانت تلك القطرات من القبابات الملحومة التي أغلاها ساعة كاملة، وكان جزاؤه على كل متاعبه أنه رأى - لا شيء! وبسرعة البرق توجه إلى القبابات التي لم يكن أغلاها غير دقائق، وإذا به يكسر رقابها، وإذا بقطرات منها تحت عدساته، وإذا به يصيح: (ماذا أرى!) رأى في مجال البصر الأدكن حييوينات صغيرة منثورة هنا وهنا تسبح وتلعب شرقاً
وغرباً. حقاً إنها لم تكن مكروبات كبيرة، ولكنها كانت مخلوقات صغيرة تجري فيها الحياة على كل حال. وتمتم اسبلنزاني لنفسه: (إنها تسبح كالسمك! إنها صغيرة كالنمل!). وغاب في التفكر ثم قال: (إن هذه القبابات الحمت الحاماً فما كان لشيء أن يستطيع دخولها من الهواء. ومع هذا أجد تلك المخلوقات الصغيرة فيها. لا شك أنها مخلوقات كانت موجودة في المرق، فلم يكف لقتلها اغلاء الماء دقائق قليل)
وذهب بأيد راجفة إلى صف القبابات التي سدها بالفلين - كما فعل خصيمه (نيدم) - ونزع سدادها واحدة بعد أخرى. وما هي إلا ثوان حتى غاص بأنبوبته في مرقها، وما هي إلا ثوان أخرى حتى حدق بعدسته في قطرات منها. وإذا به يثور ويصخب ويقوم عن كرسيه فيمسك بكراسة قديمة، فيكتب فيها على عجل ملاحظات مختصرة بخط كنبش الدجاج، لو استطعت قراءته لوجدت معناه أن إحدى هذه القبابات ذات السداد كانت تتنغش وتموج بالأحياء! حتى القبابات التي أغليت ساعة كاملة كانت (كالبحيرة تعج بالسمك الصغير والحوت الكبير). وصاح يقول: (معنى كل هذا أن هذا (نيدم) جاء بتلك الأحياء التي طنطن بها من الهواء. وهذه نتيجة خطيرة في ذاتها ولكن أخطر منها هذه الأحياء يصمد بعضها للماء المغلي زمناً. فلا بد لقتله من إغلائه ساعة أو نحوها)
كان هذا اليوم لاسبلنزاني من الأيام الضخمة العظيمة، وللدنيا من الأيام المذكورة المشهورة، ولو اسبلنزاني لم يكن يدرك كبره وخطره حق الإدراك. إنه أثبت إثباتاً قاطعاً أن نظرية (نيدم) نظرية باطلة، وأن الحيوانات لا تنشأ في هذه الدنيا الجارية من

العدم. وأثبت ذلك بنفس اليقين الذي أثبت به (ريدي) العظيم أن الزعم بأن الذباب ينشأ من ذات نفسه في اللحم زعم فاسد وحسبان خاطئ. وفعل اسبلنزاني فوق هذا، فقد خلص علم المكروب من ضياع محقق، وانتشله من خرافة كادت تؤدي به إلى النسيان فالعدم، فان العلميين كانوا قد بدأوا يعتبرون علم المكروب صنفاً من العرفان المدلس الذي لا يتقبل قواعد العلم الصحيحة وطرائقه المستقيمة

واستدعى اسبلنزاني في هياجه أخاه نقولا وأخته كذاك، ليخبرهما بتجربته الرائعة. وذهب بعيون واسعة إلى تلاميذه يخبرهما بأن الحياة لا تنتج إلا عن حياة، وأن كل حي لا بد له من أب، حتى تلك الأحياء الصغيرة الحقيرة! إلحم قبابتك بما فيها من المرق فلن يدخل إليها

شيء. وسخنها تسخيناً طويلا تقتل ما بها من الأحياء، حتى تلك التي تستعصي على التسخين الهين القصير! افعل ذلك وأنا ضمين لك ألا تجد بها حياً واحداً، واختزنها وأنا ضمين لك أن تبقى خلواً من الأحياء إلى يوم يبعثون. ثم ترك تلاميذه وذهب فكتب مقالاً بارعاً لاذعاً توجه فيه إلى (نيدم) بالتقريع والسخرية. فمال عالم العلم واضطرب، وثار واصطخب. وتجمع المفكرون في الجمعيات العلمية بلندن وكوبنهاجن وباريس وبرلين، وتجمهروا في دورهم تحت أضواء المصابيح العالية وعلى أنوار الشموع الرفيعة، وأخذوا يتساءلون في لهفة: أيجوز حقاً أن يكون (نيدم) خاطئاً؟

ولم يقتصر الجدل الذي قام بين اسبلنزاني ونيدم على الأرستقراطية من العلماء، ولم يحتبس في قيعان الجمعيات العلمية النابهة، بل تسرب من خلال أبوابها الغليظة إلى الشوارع، وتحسس طريقه إلى الصالونات الفخمة، وودت الدنيا لو أن نيدم صادق، ومالت بقلبها إلى مؤازرته. ذلك لأن الناس في القرن الثامن عشر كانوا يميلون إلى اللهو والدعابة، والى التحرر من كل شيء، والتشكك في كل شيء، والضحك من كل فكرة تنتسب للدين، ورفض أي سلطان يهيمن على الكون. فلما جاءهم نيدم بأن الحياة تخرج اعتباطاً، وأن الشيء ينشأ من لا شيء. صادفت الفكرة هوى في قلوبهم، فسروا منها، وضحكوا وسخروا من هذا الإله المزعوم الذي لا يستطيع حتى تنظيم كونه، والسيطرة على خليقته. وساءهم أن تكون تجارب اسبلنزاني واضحة هذا الوضوح، ومقنعة هذا الإقناع، فلم يستطع دحضها حذاق الكلام، والبارعون في اللعب بالألفاظ

(يتبع)

أحمد زكي

من صور الحياة في دمشق

. . .في صحن الجامع الأموي

للأستاذ علي الطنطاوي

في أمسية طلقة (من صيف سنة 489هـ) خرج الناس - على عادتهم - إلى صحن المسجد الأموي، فبسطوا فيه البسط، وأسرجوا السرج، حتى (كاد المسجد يقطر ذهباً، ويشتعل لهباً)، وأقبلوا عليه زرافات ووحداناً، يقضون بالصلاة حق الله عليهم، وبالاجتماع والتعاون حق بعضهم على بعض، ويعودون بثواب الله، واطمئنان النفس، وراحة البال

وليس أشهى إلى النفس، ولا أحلى في العين، من صحن الأموي في ليالي الصيف؛ وإن المرء ليطوف ما يطوف، وينشق عبير الأزهار، ويسمع تغريد الأطيار، ويصعد الجبال تتفجر منها العيون، ويدخل الجنان تجري من تحتها الأنهار، ثم يعود إلى الأموي فيراه أجمل من ذلك كله، ويجد في نفسه حين يجلس فيه هزة طرب، ونفحة أنس، لا يجدهما في شيء من ذاك. . .

وكانت عشية ريحة، تنسم نسماناً منعشاً، فامتلأ المسجد بالناس وهم بين متوضئ يخلع رداءه فيلقي به على بلاط المسجد الأبيض الناعم، ويسرع إلى قبة الماء، وهي (في وسط الصحن) وهي صغيرة مثمنة من رخام عجيب، محكم الإلصاق، قائمة على أربع سوار من الرخام الناصع. وتحتها شباك حديد في وسطه أنبوب نحاسي، يمج الماء إلى علو، فيرتفع ثم ينثني كأنه قضيب (لجين) وقد زينت جوانبها بالمصابيح ومصلٍ يبتغي جماعة فلا يلبث حتى يجدها فيقوم في الصف خاشعاً، يشغله جلال الله الذي يقف بين يديه، عن الدنيا التي خلفها وراء ظهره. . .

وجالس إلى حلقة من هذه الحلقات الكثيرة يستمع إلى محدث أو فقيه أو واعظ، أو ينصت لقارئ، أو يذكر الله مع الذاكرين، أو مستند إلى اسطوانة من الأساطين، أو محتب تحت رواق من الأروقة، يقرأ في مصحف، أو ينظر في كتاب، أو يسبح على أصابعه، أو يتفكر في شأن من الشئون، أو ينتظر الصلاة فينعم بجمال المسجد، ورقة النسيم، ويكون من انتظاره الصلاة كأنه في صلاة. . .

وكان حيال قبة زين العابدين (قبة الساعات) في شرقي المسجد، رجل رث الثياب، ما عليه إلا مزق مردمه، وخلقان بالية. يرنو بعينه إلى الناس تارة، وينظر إلى المسجد أخرى، فيقرأ فيه تاريخاً جليلاً، يقرؤه في هذه القبة الباذخة، قبة النسر، وهي (من أعجب مباني الدنيا، ومن أي جهة استقبلت المدينة بدت لك قبة النسر، ذاهبة في الهواء، منيفة على جميع مباني البلد) (وليس في دمشق شيء أعلى ولا أبهى منظراً منها) وهذه المنارة العالية التي يسميها الناس (منارة عيسى) لما جاء في الحديث أن عيسى عليه السلام ينزل على المنارة البيضاء شرقي دمشق، ويعجب من سموقها وارتفاعها. وهذه المنارة العربية التي بناها المسلمون، فأجادوا بنيانها، ووضعوا فيها العجائب من براعة الزخرف، ودقة النحت، والضبط والأحكام. والمنارة الشمالية (منارة العروس) وقد ازينت وأوقدت فيها المصابيح، وقام في شرفتها المطلة على الصحن (المؤقت) ليعلن دخول العشاء ودخل المسجد قروي له مسألة. فسأل عن مجلس المفتين حتى دل عليه عند قبة عائشة فجاء فعرض عليهم مسألته، فلم يجد عند واحد منهم جوابها. فذهب يدور على الفقهاء والمحدثين يسألهم، فلم يفز منهم بطائل، فيئس منهم وهم بالخروج من المسجد. . . والفقير ينظر إليه، ويعجب من حاله وحالهم. وعز عليه أن ينصرف آيساً، فأشار إليه. فلما جاءه قال: اعرض علي مسألتك. . .

فضحك القروي، وصاح: انظروا يا قوم إلى هذا المجنون! أنه يجيبني عن مسألتي، وقد أعجزت المفتين والفقهاء وأصحاب الحديث! فأقبل الناس على الصوت، وطفقوا يتكلمون، فقال قائل: دعه فانه مجنون. . وقائل: لا عليك أن تسأله فلعل عنده علماً. . . وقائل: سله واحمل جوابه إلى المفتين، فانظر ما هم قائلون؟

ثم سكتوا، وسكت كل من في المسجد، وانقطعت أصوات القراء والمدرسين والذاكرين، ولم يبق فيهم متكلم، لأنها قد تكلمت فوق رؤوسهم النبوة، وسمعوا: (الله أكبر. .) تدوي في نواحي المسجد، تهبط عليهم من المآذن كأنما هي هابطة من السماء، فيها روعة الوحي، وجلال الدين، وجمال الإيمان. . . فتقوضت المجالس، ورصت الصفوف، وتحاذت المناكب، وقال الإمام: الله أكبر. . . فماتت الدنيا في نفوسهم وامحت منها الشهوات، وطمست فيها الميول؛ لأنه مهما يكن من كبير فـ. . . الله أكبر! ولا إله إلا الله! فلما قضيت الصلاة، عادوا إلى القروي، فقالوا له: اذهب فسل صاحبك. فذهب إليه، فقال:

ياهذا، زعمت أنك قادر على الجواب، فهل أنت على قولك؟ قال: أستعين بالله قال: وقد أعجزت المفتين وحيرتهم، أفأنت تستطيع أن تجيب عليها؟

قال: أستعين بالله

قال: هي كذا وكذا. . . قال الجواب كيت وكيت. . .

وابتدر الفقير الباب!

وحف الناس بالقروي، فقالوا: هل أجابك؟ بم أجابك؟ قل لنا بماذا أجابك؟

فقال: وما أنا بقائل لكم حرفا حتى ألقى المفتين، وأسرع وأسرع معه الناس إلى المفتين، وقد عادوا إلى مجلسهم: فقال: أرأيتم ذلك الفقير؟ قالوا: نعم. قال: قد أجابني عن مسألتي فضحكوا من جفائه وجهالته، وقالوا: بم أجابك؟ قال: بكذا وكذا فلما سمعوه أخذ منهم الجد مأخذه، ونظر بعضهم إلى بعض وكلهم مشدوه حائر لا يدري مم يعجب: أمن كثرة علم الرجل مع رثاثة هيئته. أم من رثاثة هيئته مع كثرة علمه، ثم انتهوا فقالوا: ويحكم، أدركوا الرجل، فان له لشاناً، وما نظنه إلا آية من آيات الله جاءت ترينا حقيقة العلم، وسمو الفقر، وجلال التواضع. . . أدركوا الرجل!

فقالوا: قد خرج

قالوا: أوليس فيكم من يعرفه؟

فقال رجل من القوم: والله ما رأيناه إلا في السميصاتية وقد نزلها منذ أيام، فكان

ينظف كنفها ومراحيضها، ويتخذ مجلسه على الباب. حتى أذنوا له بالدخول. وما رأيناه إلا عاكفاً على صلاة أو مشتغلا بتسبيح، ولم يكلم أحداً!
. . .قال المفتون: ويحكم، قوموا بنا إليه
فلما دخلوا عليه، قالوا له: من أنت؟
قال: رجل من الناس
قالوا: قد سمعنا جوابك، وإنا نسألك بالله الذي لا إله إلا هو إلا ما أخبرتنا من أنت
قال: إنا لله وأنا إليه راجعون. . . أما وقد أقسمتم، فأنا أبو حامد الغزالي
فصاحوا: حجة الإسلام! وانكبوا على يديه يقبلونهما، ويسألونه أن يعقد لهم مجلساً في الغد. ثم انصرفوا
فلما كان الغد نظروا فإذا. . الشيخ قد فارق دمشق!
دمشق
علي الطنطاوي
الأوزاعي88هـ - 157هـ أحد أصحاب المذاهب
المندرسة
بقلم عبد القادر علي الجاعوني
يؤخذ من المصادر التي بين أيدينا أن اسمه عبد الرحمن ابن عمرو بن يحمد وكنيته أبو عمرو، ولقبه الأوزاعي نسبة إلى أوزاع، ولقد اختلف في معنى هذه الكلمة، فمن قائل إنها بطن من ذي الكلاع من اليمن (وقيل بطن من همذان، وقيل إن الأوزاع قرية بدمشق خارج باب الفراديس. ومهما يكن من أمر، فان لقبه نسبة إلى هذه الكلمة، إذ أن جميع المصادر تتفق على هذا اللقب ولكنها تختلف في حقيقة أصله
ومن الثابت تاريخياً أن مهبط رأسه مدينة بعلبك، وتكاد المصادر تتفق على أنه ولد سنة 88 هـ
أما نشأته وحياته فلا نعرف عنهما شيئاً، لأن المصادر التي بين أيدينا تكاد تكون صامتة كل الصمت، فهي تتخطى هذا الدور بسرعة هائلة وتبرزه لنا (إمام أهل الشام) في عصره، اللهم إلا ما ذكره ابن خلكان من أنه نشأ في البقاع
قلنا إن الأوزاعي ولد في بعلبك، ونشأ في البقاع، إلا أنه لم يقض حياته في مهبط رأسه، وسرعان ما انتقل إلى دمشق خارج باب الفراديس، ثم ارتحل إلى بيروت تلك المدينة التي قضى بها حياته حتى أدركته الوفاة
ولقد كان رحمة الله فوق الربعة، مائلاً إلى السمرة، خفيف اللحية، ويظهر أنه كان يميل إلى التزين، فقد (كان يخضب بالحناء)
ولقد أخذ العلم عن عطاء وابن سيرين ومكحول والثوري. ولقد زاد عليهم أبوز كريا النووي صاحب كتاب تهذيب الأسماء رجالاً من التابعين أهمهم قتادة، ونافع مولى ابن عمر، والزهري، ومحمد بن المنكدر. وأهم تلاميذه: عبد الله ابن المبارك، وهقل وهذا الأخير أصدق الرواة وأثبتهم عن الأوزاعي، وروى عنه جماعة من الذين سمعهم كقتادة والزهري وغيرهم
كان الأوزاعي من تابعي التابعين، وقد قال الذهبي فيه: (هو إمام أهل الشام) وفي موضع آخر يقول: (كان ثقة مأموناً صدوقاً، فاضلاً حبراً، كثير الحديث والعلم والفقه) ويقول ابن خلكان: (هو إمام أهل الشام لم يكن بالشام أعلم منه). ويقول النووي: (كان إمام أهل الشام في عصره بلا مدافعة ولا مخالفة). ومما يدلك على عظم مركزه في الفقه أنه أجاب في سبعين ألف مسألة فقهية، وقيل ثمانين ألفاً ومما يدلك على علو مقامه وتقدير العلماء له ما ذكره ابن خلكان من أن (سفيان الثوري بلغه مقدم الاوزاعي فخرج حتى لقيه بذي طوى، فحل سفيان رأس بعيره من القطار ووضعه على رقبته فكان إذا مر بجماعة قال الطريق للشيخ)، وناهيك بمنزلة سفيان الثوري ورفيع مقامه في العالم الإسلامي. ولا يغيبن عن البال أنه كان فضلاً عن اشتهاره بالفقه إماماً في الحديث. ويقول كولد زهير: روى عبد الرحمن بن المهدي أن الأوزاعي ليس ثقة في الحديث، ولكنه يعلم كيف يطبق هذه الأحاديث للحصول على حلول المسائل الفقهية
ولم يكن الأوزاعي يتمتع بمركز ديني كفقيه ومحدث فحسب، بل يظهر أنه كان يتمتع بمركز دنيوي رفيع، فقد ذكروا أنه كان عظيم الشأن بالشام (وكان فيهم أعز من

السلطان) ولعل القصة الآتية تلقى نوراً على ما ذهبت إليه: قال عبد الحميد ابن حبيب بن أبي العشرين: سمعت أميراً كان بالساحل، وقد دفنا الأوزاعي ونحن عند القبر يقول: رحمك الله أباعمرو! فقد كنت أخافك أكثر ممن ولاني). وبعد، فقد تبين لك من هذه الروايات الكثيرة المحفوظة في الأصول الأدبية والتاريخية ما كان عليه الأوزاعي من الشهرة، ولا نعرف، لاندثار مذهبه، واندفاع المؤرخين في منح المديح والألقاب، صحة هذه الأقوال، ولكنها على أية حال تحمل بين طياتها الشيء الكثير عن عظم الأوزاعي وشهرته

والروايات مجمعة على أن الأوزاعي كان إمام أهل الشام في عصره، وأنه كان على جانب عظيم من المقدرة في الحديث والفقه، وتطبيق الأول على الثاني للحصول على حلول للمسائل الفقهية المختلفة

مذهبالأوزاعي:

انتشر مذهب الأوزاعي، المسمى باسمه، مدة من الزمن في سورية، وبلاد المغرب؛ وذكر صالح بن يحيى أن مذهب الأوزاعي دام في الشام نحو مائتي سنة، وأن آخر من عمل بمذهبه قاضي الشام أحمد بن سليمان بن جند لم، وقد ظلت المغرب متبعة مذهبه مدة لا تقل عن أربعين سنة

وسرعان ما انهزم مذهب الأوزاعي أمام غيره من المذاهب، والسبب في ذلك - كما يظهر - أن الأمراء وأصحاب السلطة ساعدوا غيره من المذاهب نصراً لسياسة أو تحقيقاً لغرض، كما كانت الحالة مع المذهب الحنفي، ويقول صالح بن يحيى (ثم تناقص بمذهب الأمام مالك على يد عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الأموي

ومن المعلوم، أن مذهب الأوزاعي هو أحد المذاهب المندرسة، ويا ليت التاريخ أبقى على هيكله في طواياه، فانه لم يسجل إلا نزراً يسيراً من فقهه لا يمكننا من الحكم عليه. إلا أن هذا النزر يلق نوراً على ماهيته، وقد دلتني قراءته إلى أن اهتمام الأوزاعي بالمسائل الفقهية كان من الوجهة العملية، ولم يكن كصنوه أبي حنيفة مشتغلاً بالفقه من وجهته النظرية. كذلك دلتني قراءة هذا النزر اليسير إلى أن الأوزاعي لم يكن يستعمل الرأي، بل إنه - كما فعل غيره - عدل إلى الكتاب والسنة ففي كلام الأوزاعي عن (سهم الفارس والراجل وتفضيل الخيل)

وعن (المرأة تسبى ثم يسبى زوجها) وعن (ما عجز الجيش عن حمله من الغنائم) وعن (قطع أشجار العدو) ففي كلامه عن أحكام هذه، وعن جميع ما ورد في كتاب (سير الأوزاعي) يستعمل الحديث والكتاب

وقد يطول بنا المقام إن ما شينا فهرس الفصل في سرده، فلا داعي للتكرار، ومن أراد التثبت فليرجع إلى هذه الأقوال في مظانها

ولقد ذهب بعض المؤرخين، أمثال كولد زهير، إلى أن الفقيه الإسلامي قد تأثر بالفقه الروماني. وأنا أقول، إن كان هذا صحيحاً، فأحر بالأوزاعي أن يكون آخر المتأثرين به لأنه من أبعد الفقهاء عن الرأي، ومن أقربهم إلى أتباع الكتاب والسنة. وبذلك قال أبو حاتم: (الأوزاعي إمام متبع لما سمع) والكتاب والسنة أبعد الأشياء عن التأثر بالفقه الروماني

وفاته:

كانت وفاة هذا الفقيه الكبير في سنة 157هـ، وقد ذكرها أبو الفداء في حوادث تلك السنة، وتوفي وهو في الحمام في بيروت، وقبره على ما ذكره أبو الفداء في قرية على باب بيروت يقال لها خنتوس، وأهل القرية لا يعرفونه، بل يقولون هاهنا رجل صالح. والسبب في وفاته على ما جاء في ابن خلكان، أنه دخل الحمام، واتفق أن صاحب الحمام كان

مشغولاً فأقفل عليه الباب ومضى، فلما عاد فتح الباب فوجده قد فارق الحياة. رحمه الله رحمةً واسعة، فقد كان إمام أهل الشام غير مدافع. هذا وإن ما ذهبت إليه في هذه الكلمة ليس إلا محاولة بسيطة أرجو إن لم أوفق في نتائجها، أن أكون قد وفقت في الطريق الذي سلكته. فالبحث في اعتقادي ناقص مبستر، لأني لم أطلع على كل ما كتب عن الأوزاعي فقد تكون هناك كتب كثيرة، لم تنشر أو لم أوفق إلى العثور عليها. وعسى أن تحفز هذه الكلمة بعض الباحثين من الفضلاء فيوفي هذه الترجمة ويحلل هذا المذهب إحياء لتراثنا العلمي الذي ذهبت به الأحداث والقرون.

القدس
عبد القادر علي الجاعوني بكلوريوس في العلوم
محاورات أفلاطون - 17
الحوار الثالث
فيدون أو خلود الروح
ترجمة الأستاذ زكي نجيب محمود
ولكن الروح التي قد أصابها الدنس، والتي تكون كدرة عند انتقالها، والتي ترافق الجسد دائما، وتكون خادمته، والتي تغرم وتهيم بالجسد ورغبات الجسد ولذائذه حتى ينتهي بها الأمر إلى العقيدة بأن الحقيقة لا تكون إلا في صورة جسدية، يمكن الإنسان أن يلمسها، وأن يراها، وأن يذوقها، وأن يستخدمها لأغراض شهواته - أعني الروح التي اعتادت أن تنفر من المبدأ العقلي، وأن تخافه وتتحاشاه، ذلك المبدأ الذي هو للعين الجسمانية معتم تستحيل رؤيته، والذي لا يدرك إلا بالفلسفة وحدها - أفتحسب أن روحاً كهذه سترحل نقية طاهرة؟
فأجاب: يستحيل أن يكون هذا
- إنها قد استغرقت في الجسدي، وقد أصبح ذلك طبيعياً بالنسبة لها، لاتصالها المستمر بالجسد، وعنايتها الدائمة به
- جد صحيح
- ويحق لنا يا صديقي أن نتصور أن هذه هي تلك المادة الأرضية الثقيلة الكثيفة، التي يدركها البصر، والتي بفعلها تغشي الكآبة مثل هذه الروح، فتنجذب هبوطاً إلى العالم المرئي مرة أخرى، لأنها تخاف مما هو خفي، وتخاف من العالم السفلي فتظل محومة حول المقابر واللحود، إذ ترى بجوارها - كما يحدثوننا - أشباح طيفية بعينها، لأرواح لم تكن قد رحلت قية، ولكنها ارتحلت مليئة بالمادة المنظورة فأمكن رؤيتها
- يغلب جداً أن يكون ذلك يا سقراط
- نعم يا سيبيس، فأغلب الظن أن يكون ذلك، ولا بد أن تكون هاتيك أرواح الفجار لا أرواح الأبرار، هؤلاء الفجار الذين كتب عليهم أن يجوبوا في تلك المواضع جزاء وفاقا بما اقترفت سبيلهم في الحياة من إثم، فلا ينقطع تجوابهم، حتى تشبع الرغبة التي تملؤهم، ثم يسجنون في بدن آخر، وقد يظن أن تلازمهم نفس الطبائع التي كانت لهم في حياتهم الأولى
- أي الطبائع تريد يا سقراط؟
- أريد أن أقول إن من اندفعوا وراء الشره والفجور والسكر، ولم تدر في خلدهم فكرة اجتنابها، سينقلبون حميراً وما إليها من صنوف الحيوان. فماذا ترى أنت؟
أرى أن ذلك جد محتمل
وهؤلاء الذين اختاروا جانب الظلم، والاستبداد والعنف، سينقلبون ذئاباً أو صقوراً أو حداً، وإلا فإلى أين تحسبهم ذاهبين؟ فقال سيبيس: نعم، إن ذلك، ولا ريب، هو مستقر تلك الطبائع التي تشبه طبائعهم
فقال: وليس من العسير أن نهيئ لهم جميعاً أمكنة تلائم طبائعهم وميولهم المتعددة
فقال: ليس في ذلك عسر
- وحتى بين هؤلاء ترى فريقاً أسعد من فريق، فأولئك الذين اصطنعوا الفضائل المدنية والاجتماعية التي تسمى بالاعتدال والعدل، والتي تحصل بالعادة والانتباه، دون الفلسفة والعقل، أولئك هم أسعد نفسا ومقاماً. ولم كان أولئك هم الأسعد؟ لأنه قد يرجى لهم أن يتحولوا إلى طبيعة اجتماعية رقيقة تشبه طبيعتهم، مثل طبيعة النحل أو النمل، بل قد يعودون مرة ثانية إلى صورة البشر، وقد يخرج منهم أناس ذوو عدل واعتدال
- ليس ذلك محالاً
- أما الفيلسوف، أو محب التعلم، الذي يبلغ حد النقاء عند ارتحاله، فهو وحده الذي يؤذن له أن يصل إلى الآلهة، وهذا هو السبب، أي سمياس وسيبيس، في امتناع رسل الفلسفة الحق عن شهوات الجسد جميعاً، فهم يصبرون ويأبون أن يخضعوا أنفسهم لها
- لا لأنهم يخشون إملاقاً، أو يخافون لأسرهم دماراً، كمحبي المال، ومحبي الدنيا بصفة عامة، ولا لأنهم يخشون العار والشين اللذين تجلبهما أعمال الشر كمحبي القوة والشرف. قال سيبيس: لا يا سقراط، إن ذلك لا يلائمهم فأجاب: حقاً إنه لا يلائمهم.

وعلى ذلك فأولئك الذين يعنون بأرواحهم، ولا يقصرون حياتهم على أساليب الجسد، ينبذون كل هذا، فهم لن يسلكوا ما يسلك العمي من سبل، وعندما تعمل الفلسفة على تطهيرهم وفكاكهم من الشر، ويشعرون أنه لا ينبغي لهم أن يقاوموا فعلها، بل يميلوا نحوها، ويتبعوها إلى حيث تسوقهم

- ماذا تعني يا سقراط؟

قال: سأحدثك. إن محبي المعرفة ليدركون عندما تستقبلهم الفلسفة أن أرواحهم إنما شدت إلى أجسادهم وألصقت بها، ولا تستطيع الروح أن ترى الوجود إلا خلال قضبان سجنها، فلا تنظر إليه وهي في طبيعتها الخاصة، إنها تتمرغ في حماة الجهالة كلها، فإذا ما رأت الفلسفة ما قد ضرب حول الروح من قيد مخيف، وأن الأسيرة تنساق مدفوعة بالرغبة إلى المساهمة في أسر نفسها (لأن محبي المعرفة يعلمون أن هذه كانت الحالة البدائية للروح، وأنها حين كانت في تلك الحال، تسلمتها المعرفة، ونصحتها في رفق، وأرادت أن تحررها، مشيرة لها بأن العين مليئة بالخداع، وكذلك الأذن وسائر الحواس، لتحملها على التخلص منها تخلصاً تاماً، إلا حين تدعو الضرورة إلى استخدامها، وأن تتجمع وتتفرغ إلى نفسها، وألا تثق إلا بنفسها وما توحي به إليها بصيرتها عن الوجود المطلق، وأن تشك في ما يأتيها عن طريق سواها، ويكون خاضعاً للتغير)، فالفلسفة تبين لها أن هذا مرئي ملموس، أما ذلك الذي تراه بطبيعتها الخاصة فعقلي وخفي، وروح الفيلسوف الحق تظن أنه لا ينبغي لها أن تقاوم هذا الخلاص، ولذا فهي تمتنع عن اللذائذ والرغبات، ولآلام والمخاوف، جهد استطاعتها، مرتئية أن الإنسان حينما يجوز قدراً عظيما من المسرات أو الأحزان أو المخاوف أو الرغبات، فهو لا يعاني منها هذا الشر الذي تقره الظنون - كأن يفقد مثلاً صحته أو متاعه، مضحياً بها في سبيل شهواته - ولكن يعاني شراً أعظم من ذلك، هو أعظم الشرور جميعاً وأسوأها، هو شر لا يدور في خلده أبداً

قال سيبيس: وما هو ذلك يا سقراط؟

- هو هذا: حينما تحس الروح شعوراً شديد العنف، بالسرور أو بالألم، ظننا جميعا، بالطبع، أن ما يتعلق به هذا الشعور العنيف يكون عندئذ أوضح وأصدق ما يكون، ولكن الأمر ليس كذلك

- جد صحيح

وتلك هي الحال التي يكون فيها الجسد أشد ما يكون استعباداً للروح

- وكيف ذلك؟

- لأن كل سرور وكل ألم يكون كالمسمار الذي يسمر الروح في الجسد، ويربطها به، ويستغرقها، ويحملها على الإيمان بأن ما يؤكد عنه الجسد أنه حق فهو حق، ومن اتفاقها مع الجسد، وسرورها بمسراته ذاتها، تراها مجبرة على أن تتخذ عادات الجسد وطرائقه نفسها، ولا ينتظر ألبتة أن تكون الروح نقية عند رحيلها إلى العالم السفلي، فهي مشبعة بالجسد في كل آن، حتى أنها سرعانما تنصب في جسد آخر، حيث تنبت وتنمو، ولذا فهي لا تساهم بقسط في الإلهي، والنقي، والبسيط. فأجاب سيبيس: ذلك جد صحيح يا سقراط؟

وهذا يا سيبيس هو ما دفع محبي المعرفة الحق أن يكونوا ذوي اعتدال وشجاعة، فهم لم يكونوا كذلك، لما تقدمه الحياة الدنيا من أسباب

- لا، ولا ريب

- لا، ولا ريب! فليست تفكر روح الفيلسوف على هذا النحو، إنها لن تطلب إلى الفلسفة أن تحررها، لكي تستطيع، إذا ما تحررت، أن تلقي بنفسها مرة أخرى، في معترك اللذائذ والآلام، فتكون بذلك كأنها تعمل ما تعمل، لا لشيء إلا لكي تعود فتنقضه، وكأنها تنسج خيوطها - كما فعلت بنلوب. بدل أن تعمد إلى حلها، ولكنها ستتخذ من نفسها عاطفة راكدة ستتأثر خطو العقل، فتلازمه لتشاهد الحقيقي والإلهي (وهو ليس موضوعاً للرأي) ومن ثم تستمد غذاءها، وهي تحاول بذلك أن تحيا ما دامت في الحياة، وتأمل أن تلتمس ذوي قرباها بعد الموت، وأن تتحرر من النقائص البشرية، أي سمياس وسيبيس، أن تتبدد روح كان ذلك غذاءها، وكانت تلك آمالها المنشودة، عند انفصالها عن الجسد فتذروها الرياح، وتصبح عدما ليس له وجود

(يتبع)
زكي نجيب محمود
أنشودة عبقر
لشاعر الشباب السوري أنور العطار
يا مزهري نغم أغاني الهوى ... القلب يعطي والهوى يسأل
أأنتِ مِنْ عَبْقَر أنْشُودَةٌ ... أرْسَلَها منْ رُوحِهِ مُرْسَلُ
أمْ أنتِ دُنْيا حَفَلَتْ بالهوَى ... يا طِيبَ ما جاءتْ بهِ تَحْفِلُ
أهمُ في حُسنِكِ لا أرْعَوِي ... أنْقُلُ مِنْ نُعْمَاهُ ما أنقُلُ
أغِيبُ في جَنَّاتِهِ سادِراً ... كغَيبْةِ النَّحْلِ إذا يَنْهَلُ
أنتِ نِدَائي في سُجُونِ الدُّجى ... ومَفْزَعِي في الرُّعْبِ وَالمَوْئِلُ
وَجْهُكِ هذا أمْ رُؤى حُلوَةٌ ... وثَغْركِ اللمَّاحُ أمْ سَلسَلُ
يَفْتِنُني مِنكِ صِبىً ناضِرٌ ... آذَارُ في أعطافِهِ يَرْفُلُ
مُزَوَّقُ الأفْياءِ يَنْدَى مُنى ... كأنَّهُ منْ ضِحكِهِ جَدوَلُ
تَضيعُ في أمْوَاهِهِ حَسْرَتي ... وما يُعاني القَلْبُ أوْ يَحمِلُ
تُلْهِمُني عَينَاكِ أنَّ الهوَى ... إذا طغَتْ أوْهَامُهُ يَقْتُلُ
إذاَ احْتَوَاكِ القلْبُ في حُلْمِهِ ... قُلْتُ أقَلبي أنْتَ أمْ جُلْجُلُ
يَظَلُّ منْ لوْعَتِهِ رَاجِفاً ... كما انثَنى واضطربَ السُّنْبُلُ
لوْلاَكِ لم يُسْكِرْ فُؤَادي الأسى ... ولم يُهَدْهِدْني الهوَى الأولُ
دُنْيايَ إمَّا غِبْتِ عَنْ نَاظِرِي ... فَوْضى فلاَ سُؤالٌ ولا مَأملُ
أحِسُّها صحْرَاء عُرْيانَةً ... مُوحشةً تُجْوَى وَتُستثقَلُ
لا الانْسُ ضَحَّاكٌ بساحاتِها ... وَليسَ فيها منْ حِمىً يَأهُلُ
أرُدُّ عنها الطَّرْفَ مُغْرَوْرِقاً ... غَيَّانَ في حَيْرَتِهِ يوُغِلُ
عِيشي بِقَلبي فرَحاً شامِلاً ... وَألهميني مِنْكِ ما يَجْمُلُ
وفَسَّرِي للرُّوحِ لغْزَ الهوَى ... تَكَشِفْ فجَاجاً سُبلُها تُجْهَلُ
ما ضَرَّني إنْ كُنتِ لي أنني ... يَكثُرُ حسَّادِي والعُذَّلُ
إنْ جدَّ في شكوْىَ الهوىَ شاعرٌ ... ظَنُّوهُ منْ ضَلَّتِهِمْ يَهْزِلُ
يَهُدُّني شَجوِي لكنما ... أظلُّ في غمرتهِ أجذلُ
على فَمي قيثَارة تشتكي ... وفي ضُلوعي زَهرةٌ تذْبُلُ
اقتَات بالأوهامِ في وَحدةٍ ... الرُّعْبُ فيها شَبَحٌ يمثُلُ
تَطفَحُ بالأهوالِ أرجاؤها ... والفكرُ تيَّاهٌ بها مُجفِلُ
إن خَلَصَت رُوحي مِنْ مَجْهَلٍ ... هَبَّ يُعمِّي قصدَها مَجْهَلُ
تعْمُرُ بالجنَّةِ دَارَتُهُ ... والرَّيْبُ يطغى والسَّنا يأفِلُ
أسيرُ فيه لا الهُدى رائِدي ... وليس لي عنْ خوضِهِ مَزْحَل
أخبطُ في يَهْماَء منْ حَيرَتي ... والليلُ مَرْهُوبُ السُرى ألْيَل
أسمعُ منهُ نغماً مُحزناً ... تصرُّه في أذني الشّمْألُ
اَمامَ عيْنَيَّ دُجىً راعِب ... يَلفّني مِطرَفُهُ المُسَبَل
وَمَنزِلي ناءٍ وَبي مِحنةٌ ... فآه لوْ يَقتربُ المَنزِلُ
ضججْتُ من مَحْبِسِ هذا الدُّجى ... فَهل يَبينُ النُّور أو يُقبل
أوَّاهُ من مُضطَرَبٍ جاهدٍ ... الغَيْبُ محجوبٌ بهِ مُقفَل
وَوَحشةٍ في القَلْبِ ما تمَّحي ... وَظُلمةٍ في النفَّسِ ما تنْصُل
هذي حياتي مِلْؤهاَ حسرةٌ ... وكاهِلي من عِبئها مُثقَل
كأنني في حقلها غَرْسَةٌ ... ذاويةٌ أخطأها المنجلُ
أفردها المقدارُ في عالمٍ ... نعيمهُ الخالِص مُستوْبَل
الرُّوحُ منِّي فقَدتْ تِرْبَها ... فاندَفَعت من همَّها تعْولُ
أناَ تَرَاها سَكَنت لا تَعي ... كأنها في صَمتِهاَ الهْيكل
وتارةً كالنارِ جَياشةً ... كأنما يَغلي بها مِرْجَل
كذاكَ أَحيا مُوجعاً ساهِماً ... والموتُ من هذا الضَّنى أمثَل
يا طيفْها يرْهِقُ قلبي الأسى ... وأنتَ عني ذاهِلٌ تَغفَل
أحببتها مُغريةً كالدّنا ... لا سحرها يَفْنَى ولا يَبْطُل

تتركُ في النفْسِ أحاديثها ... أعذب مما يترُكُ البُلبُل
أشمُّ منها عالماً عاطراً ... يكادُ من فرْطِ الشَّذا يَثمَل
يا مِزْهَري نَغِّمْ أغاني الهوَى ... القلْبُ يُعطِي والهوى يسَألُ
وأنْسِني الدُنيا وأشْجانها ... فمن عَناء العَيشْ ما يُذهِل
وأنت يا مَشْعَلي المُرتَجى ... أضئ لي الآفاق يا مشعَلُ
هذا السّنا الرقّافُ من خاطِري ... واللحْنُ من رُوحي مُسترسَل
دمشق
أنور العطار
من أدب الهند
الأمير خسرو الشاعر الهندي الكبير
بقلم السيد أبو النصر أحمد الحسيني الهندي
ترجم صديقي الدكتور عبد الوهاب عزام بعض الأبيات الفارسية للشاعر الهندي العلامة الصوفي الكبير الأمير خسرو في (الرسالة)، فأثارت الترجمة في نفسي ذكرى ذلك العبقري العظيم أياما كنت أطالع بعض دواوينه وأحاول أن أقيس عظمة عبقريته في الصغر بفهم غير ناضج وإدراك غير كامل فكانت تفيض عن سعتهما، فكنت أستعين بمسامرات الإخوان ومحادثات الأقران. واليوم بعد نضوج الفهم حين أحاول قياسها أرى أن استقصاء جميع نواحيها لا يزال من غير المستطاع لي، وإن كانت لذلك أسباب إخرى، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله. أحب أن أبلغ اليوم بقدر الإمكان رسالته إلى (الرسالة)، إذ حياة العظماء والأدباء رسالة وقدوة للأجيال في كل مكان وزمان، وأنثر أزهار الحديث عنه على مرقده الخالد الحي وهو ذكراه في القلوب
ولد الأمير خسرو في الهند في مدينة بطيالي بقرب دهلي في سنة 652 هجرية من سلالة عريقة في الشرف من الأتراك المهاجرين إلى الهند من مظالم جنكيز خان في وسط آسيا. فكانت قبيلته المسماة (لاتشين) تسكن في بلدة تكش في ولاية ما وراء النهر، قد هاجرت إلى الهند عند هجوم جنكيز خان؛ وكان أبوه سيف الدين محمود رئيس تلك القبيلة. وكان في الهند حينئذ شمس الدين التمش ملكاً من ملوك المماليك، فرحب بجميع المهاجرين وأكرم وفادتهم. وأما أم خسرو فكانت بنت عماد الملك وزير الحربية للسلطان بلبن. وقد روى أمير خوند في كتابه سير الأولياء عن والده أن في جوار والدي الأمير خسرو كان يسكن صوفي كبير مسمى (أمير لا تشين) فلما ولد خسرو حمله والده ملفوفاً في القماش إليه، فقال الصوفي: (أنتم جئتم إلى بمن سيسبق خاقاني (الشاعر الفارسي الشهير) بدرجتين؟
مات أبو خسرو وهو في السابعة من سنة، ولكن أسرته كانت مثرية فلم تهمل تربيته وتعليمه، فتربى خسرو في دهلي، وكانت دهلي إذ ذاك حاضرة الحكومة منذ ثلاثة أرباع قرن، فكانت مركز العلوم والفنون، ومحور الحضارة والمدنية، ومأوى الفضلاء والعلماء، ومطمح أنظار أهل الفن والصناعة مما يجعلها ثانية في الأهمية لبغداد. في هذا الوسط
الراقي تربى خسرو فنبغ في العلوم والفنون المختلفة، غير أن ميله الغريزي كان إلى ثلاثة: الشعر والموسيقى والتصوف، فأجادها في أقل وقت، وبلغ فيها درجة الإمامة بداء خسرو يقول الشعر وهو في صباه حتى أصبح الشعر له مهنة معترفا بها من الجميع في نهاية العقد الثاني. ولكن تقاليد ذلك الزمان والظروف العائلية كانت تقتضي أن يكسب العيش بواسطة مهنته هذه، فلم يكن له بد من أن يتصل بأمراء وسلاطين ذلك الزمن من مقدري مهنته. فاتصل خسرو في سنة 676 أول مرة بعلاء الدين كوشيل خان المعروف بين الناس باسم (ملك شجو)، وملك شجو كان ابن أخت الإمبراطور غياث الدين بلبن و (أمير حاجب) (أي رئيس الحجاب) في بلاطه. ولكنه كان فاضلاً يقدر العلم والفن، واسع الصدر كريماً. فقد قال المؤرخ الشهير ضياء الدين برنى، وهو من معاصري خسرو وأصدقائه في كتابة تاريخ فيزور شاهي: (أنا سمعت كثيراً ممن أعتمد عليهم، ومن الأمير خسرو أنه لم يوجد مثيل الملك علاء الدين كوشيل خان في سعة الصدر والكرم، وفي إطلاق الرصاص والصيد ولعب الكرة، وكان الملك علاء الدين قد نال شهرة واسعة وإن لم تدم، حتى أن هلا كوخان الشهير أرسل إليه خنجراً وعرض عليه أن يكون حاكما على نصف العراق لو أراد الذهاب هناك. ولكن

خاله الإمبراطور بلبن استنكر حريته الخارجة عن العادة. ويذكر المؤرخ برني في محل آخر أن شجو كان أغزرهم جوداً وأعظمهم منحاً، وزع جميع أملاكه على الناس ولم يبق لنفسه إلا المعطف الذي ستر جسمه. ومن أمثال جوده وتقديره للشعر أنه أعطى جميع الخيل في اصطبله للشاعر خواجه شمس معين ووزع عشرة آلاف تنكه على المغنين عند تقديم قصيدته وإنشادها إياه. ولم يكن خسرو أقل حظاً من هؤلاء الشعراء لتفوقه عليهم وذكائه الخارق. فقد قال قصائد غير واحدة في مدح شجو، ونحن ننقل إلى العربية بعض أبيات من قصيدته البديعة التي تعد مثالاً للغلو الشرقي في المديح قال

(إن الأشعة البهيجة لنور الصبح الملون بلون العنبر قد بددت ظلام الليل، والهلال الأصفر كالمريوق بقرنيه المقوسين كاد أن يغيب عن النظر، فسألت الصبح: أين شمسك الموعود بها؟ فأراني وجه شجو المشرق بنوره البازغ! ثم توجهت إلى السماء المرصعة بالنجوم، فسألتها: من يساعد نجومك في سيرها؟ فضحكت من سؤالي العبث، وأرتني أيدي الملك

(التي جعلتها مستقيمة

لم يدم اتصال خسرو مع ملك شجو أكثر من سنتين، فان قلب شجو تغير على الشاعر خسرو لحادثة حدثت، وهي أن نصير الدين بغراخان النجل الثاني الإمبراطور غياث الدين بلبن كان مرة على مأدبة شجو والشاعر كذلك، فلما سمع منه شعره استحسنه وسر كثيراً وقدم له طستاً مملوءاً بالنقود الفضية، فغضب شجو على خسرو لقبوله هذا الانعام وتغير؛ وعبثا حاول خسرو بعد ذلك إرضاءه

اتصل خسرو بعد ذلك بنصير الدين بغراخان حاكم سمانا لمدة قصيرة، ثم انقطع عنه واتصل بعده بسلطان محمد الشهير بخان شهيد، النجل الأكبر للإمبراطور غياث الدين بلبن؛ وكان خان شهيد حاكماً على إقليمي البنجاب والسند، وعندما حضر العاصمة دهلي مع ربع الإقليمين في سنة 782 هجرية قابل الشاعر خسرو وأخذه إلى البنجاب. بقي خسرو مع خان شهيد خمس سنين، وكان دائماً موضع العطف الخاص والإجلال والتكريم، لأن خان شهيد كان أمثل الأمراء على حسب تقاليد الزمن في الأخلاق والشجاعة والعلم والأدب، ومن أكبر مقدري الفنون والشعر، فقد وجد في بياضه ثلاثون ألف بيت يعترف بها نقاد الفن على كمال الذوق وحسن الاختيار والعلم الواسع، وكان بيته ملجأ العلماء ومأوى الفضلاء، وكان يبذل قصارى جهده في جمع كبار العلماء والفضلاء والشعراء في مجلسه، فقد دعا الشيخ سعدي الشيرازي الشاعر الفارسي الشهير مرتين، وأرسل إليه نفقات السفر ووعد ببناء صومعة له في بلدة ملتان والأنعام الكثير، ولكن الشيخ اعتذر لكبر سنه، وبعث إليه بعض غزلياته مكتوبة بيده، ولفت نظره للشاعر الأمير خسرو مبالغاً في مدح ذكائه وفضله

في سنة 787 هجرية هجم المغول على الهند؛ فقام خان شهيد للدفاع عن بلاده وقتل؛ ولم يكن الأمير خسرو جليس الأمراء فقط، بل كان قائداً عسكرياً أيضا، فقد اشترك في محاربة المغول مع سيده ووقع أسيراً في يدهم بعد أن قتل سيده فكابد ما كابد على أيديهم من الألم والأذى. ذكر ذلك بكلمات مؤثرة في رثائه الشهير لسيده ننقل بعض أبياته إلى العربية؛ قال: (ثم فاجأتنا نازلة من السماء الزرقاء، وقامت القيامة على الأرض، إذ فرقت جماعة أصدقائنا مثل تفريق أوراق زهرة الورد بريح الخريف المخربة للحديقة)

ثم وصف آلام أسره فقال:

(إن شهداء المسلمين لونوا الصحراء بلون دمهم، بينما كانت أعناق الأسارى منظومة نظم الأزهار في الإكليل. وأنا أيضا كنت أسيراً خوفاً من أنهم يريقون دمي، لم تبق في عروقي قطرة من الدم. وكنت أجري كالماء هنا وهناك مع نفطات لا تعد على قدمي مثل الفقاقيع على سطح النهر. وكان لساني قد جف من العطش الشديد، ومعدتي التصقت (بظهري) من الجوع. وهم (أخذوا ثيابي) وتركوني عريان مثل الشجرة المجردة من الأوراق في زمن الشتاء، أو الزهرة المخموشة بالأشواك. والمغولي الذي أسرني كان جالساً على الحصان مثل الأسد، وكانت الرائحة الكريهة تسطع من فمه وإبطه، وكان على ذقنه خصلة من الشعر الوسخ مثل النبات. فان توانيت وراءه من الضعف كان يهددني تارة بمقلاته وتارة برمحه. فكنت أتنهد على تلك الحالة وأرى أن

النجاة منها مستحيلة. ولكني أشكر الله على أني استعدت حريتي بغير أن يطعن (صدري برمح، أو يقطع جسمي بسيف
وحكاية استعادة حريته هي أن المغولي وحاشيته وخيله كلهم نزلوا في النهر عند غسق الليل لشرب الماء فانتهز خسرو الفرصة وهرب وبعد وصوله إلى دهلي كتب هذا الرثاء المؤثر الذي شاع وذاع حيث أصبح به خسرو معروفاً عند عامة الناس أيضاً بقي خسرو بعده في مسقط رأسه في خدمة أمه حتى تولى الأمر معز الدين كيقباد، وهو آخر ملوك المماليك، فاتصل به وصنف له كتابه الشهير (قران السعدين) على طلبه، ولم تمض مدة قليلة حتى انتقل الحكم من المماليك إلى الأسرة الخلجية. فتولى الأمر أول ملوكهم السلطان جلال الدين خلجي الذي كان يعرف خسرو ويعترف بشعره وذكائه قبل اعتلائه العرش. فمنح خسرو لقب (الأمير)، وعينه في منصب أبيه بمرتب ألف ومائتي تنكة في السنة. ثم رفعه إلى منصب محافظ القرآن الملكي. فأصبح من أعضاء بلاط الملك ومن ندمائه. فكتب له خسرو كتابه (مفتاح الفتوح)، وهو تاريخ غزوات جلال الدين خلجي بالشعر. نشبت حرب أهلية بين العائلة الملكية فقتل فيها جلال الدين وتولى الأمر ركن الدين خلجي لمدة أقل من سنة، ثم تولى علاء الدين خلجي، فاتصل به الشاعر خسرو، وهو أطول اتصالاته بالأمراء، لأن حكومة علاء الدين دامت عشرين سنة، وهي أيضا مدة أكثر إنتاجا في حياة خسرو. فقد صنف في أقل من ثلاث السنين الأولى من تلك المدة خمس روايات قصصية منظومة وهي: (1) مطلع الأنوار، (2) شيرين وخسرو، (3) ليلى والمجنون، (4) آئين سكندري (أي القانون الإسكندري)، (5) هشت بهشت (أي الجنات الثمان)، وتسمى كلها أيضا (بنج كنج) أي (الخزائن الخمس). ودشنها لشيخه في الطريقة الصوفي الولي الكبير مولانا (نظام الدين أولياء) وأهداها إلى السلطان علاء الدين. وبينما كان مشغولاً بتصنيف ليلى والمجنون منها فقد أمه وأخاه في سنة 697 فحزن، ورثاهما بكلمات تسيل الدموع في مصنفه، ننقل رثاءه لأمه إلى العربية قال: (وفي هذه السنة فقدت نورين من نجمتي وهما أمي وأخي، أسبوع واحد من سوء حظي فقدت فيه قمرين! إن حظي كبسني من جهتين، والفلك بددني بلطمتين، فأصبح نوحي مزدوجاً وغمي مضاعفاً، وا حسرتاه! أنوح على الاثنين وا أسفاه! ألمان لمثلى! إن شعلة واحدة كانت تكفي لزرعي إن صدرا واحدالا يتحمل ثقلين، ولا رأساً واحداً وجعين، إن أمي تحت التراب، فلا غرو أن ألوث رأسي بالتراب يا أمي! أين أنت؟ لم لا تريننى محياك)؟ اطلعي ضاحكة من قلب الأرض، وارحمي بكائي المر! إن في كل أثر من قدمك لي تذكاراً من الجنة، إن وجودك كان حافظاً لنفسي ومعيناً ومتكأ لي، يوم كنت تتكلمين بشفتيك كان نصحك صلاح أمري، واليوم ختم على (لساني) وسكوتك لا يزال ناصحاً صنف خسرو في عهد علاء الدين ما عدا بنج كنج (أي الخزائن الخمس) ثلاثة أو أربعة كتب أخرى سنبينها عند كلامنا عن مصنفاته، وفي سنة 715 هجرية توفي علاء الدين فتولى الأمر قطب الدين خلجي فاتصل به خسرو وصنف في عهده (نه سبهر) أي (الأفلاك التسعة) وقدمه إليه فسر السلطان منه جداً وأنعم عليه بفضة تساوي وزن الفيل، وبعد وفاة قطب الدين تولى الأمر نصير الدين خلجي لمدة أقل من سنة، ثم انتقل الأمر من الأسرة الخلجية إلى الأسرة التغلقية، وكان أول ملوكها غياث الدين تغلق فاتصل به خسروا وصنف له (تغلق نامه) أي كتاب تغلق في سنة 725 هجرية وهو آخر تصانيف خسرو لأنه مات في تلك السنة
عاش خسرو 73 سنة وصنف 99 كتاباً أكثرها في الشعر باللغة الفارسية والهندية ضاع جلها إلا القليل، وعاشر ملوك، وإن لم تجاوز مدة بعض منهم سنة، بينهم ملوك الأسرة الخلجية الكاملة؛ وكان خسرو عالماً فاضلاً وشاعراً مفلقاً، وموسيقياً بارعاً، وصوفياً كبيراً.
وسنتكلم عن نبوغه في الشعر والموسيقى والتصوف في المقال الآتي إن شاء الله.
السيد أبو النصر أحمد الحسيني الهندي
ملخص محاضرة
الفن الفارسي
للشاعر الإنكليزي
وفد على مصر في هذه الأيام الشاعر الإنكليزي المشهور مستر لورنس بنيون أمين)

القسم الشرقي بالمتحف البريطاني، وألقى أربع محاضرات تناول فيها أغراضاً مختلفة (في الفن والأدب، وهذه أولى محاضراته عن الفن الفارسي

إن الكلام عن الفن الفارسي يستوجب من المحاضر أن يلم في بادئ الأمر بالموقع الجغرافي الذي كان له أثر لا ينكر في توجيه الرسم الفارسي ناحية خاصة، يلاحظها كل من له اهتمام به وتعلق بدراسته، وإن وقوع فارس بالقرب من بلاد العرب وتوسطها بينها وبين بلدان الشرق الأقصى صبغ الفن الفارسي بصبغة خاصة وإن ظل مع ذلك محتفظاً بروحه القوية، وشخصيته البارزة التي تميزه تميزاً واضحاً جلياً من فنون الأمم الأخرى سواء أكانت غربية أم شرقية، فلهذا الفن مميزاته الخاصة وروحه المستمدة من صميم الواقع

وكما أن للظروف الجغرافية تأثيراً، كذلك للظروف السياسية أثراً لا يمكن للباحث أن يتجاهله أو ينكره، فقد تغلبت على هذه البلاد عدة دول حاكمة كالإغريق في القديم والساسان والمسلمين، وكانت الدولة الساسانية آخر الدول الفارسية التي حكمت إيران، والتي توطد لها العرش زهاء أربعة قرون منذ القرن الثالث حتى السابع الميلادي، إذ ظهر قبل ذلك بقليل دولة الإسلام الفتية، فاكتسحت ما في طريقها، وخفق علم الإسلام على كثير من ربوع العالم، ولما كانت فارس قريبة من بلاد العرب فقد اتجهت إليها أنظارهم بطبيعة الحال والموقع، ولم يلبث العرب أن خضدوا شوكة دولة بني ساسانواستتبت أقدامهم فيها، كما أخذ الدين ينتشر في ربوعها، ومن ثم أخذ الفن الفارسي من رسم إلى تصوير إلى شعر يتأثر بعض الشيء بهذه الظروف الجديدة التي أحاطت به، وربما كان ذلك أوضح في الشعر منه في الرسم والتصوير وهنا نرى لزاماً علينا أن نشير إلى أن العرب حين غزوا هذه البلاد كانت هناك نهضة فنية، تدلنا على ذلك الآثار التي أماطت اللثام عنها بعثة ألمانية، إذ عثرت على كثير من هذه الرسوم في بلاد الأفغان، وأقدم هذه اللوحات بوذية، ولكنها على درجة عالية من الإتقان

وقد قامت في ذلك الحين مدرسة فنية في بغداد التي كانت مركزاً ثقافياً إسلامياً مهما، وإذ كان العرب قد نشروا سلطانهم على هذه الربوع، فقد أدوا للفن خدمة كبرى بأن كانوا وسيطاً قوياً في نقل الروح الغربية إلى الشرق، وتطعيم الفن الفارسي بالفن العربي، وذلك بأن العرب اتصلوا اتصالاً مباشراً بالأمم الواقعة على شواطئ البحر الأبيض المتوسط، وتعاملوا معها في جميع مرافق الحياة. وإذا كان الشيء بالشيء يذكر، فلابد لنا من أن نشير إلى أن أثر الفن الصيني كان أقوى من تأثير الفن الأوربي في التصوير الفارسي، وإن المقارنة بين الفنين الصيني والفارسي لتظهر لنا هذا أجلى من المقارنة بين الثاني والغربي؛ وكان الاختلاط في أول الأمر قليلاً، ولكن الظروف المحيطة غيرت الأمر الواقع، وزادت الصلات توثقاً، إذ ظهرت دولة المغول، وهم من الجنس الأصفر تحت زعامة القائد المعروف تيمورلنك، فاتصلت البلاد الصينية بربوع الشرق الأدنى، وأصبحت هذه البلاد جميعاً أكثر ارتباطاً من ذي قبل. وهنا كان عصر ازدهار وقوة للفن الفارسي!

ذلك بان الفنانين الفارسيين حين شاهدوا آثار المصورين الصينين أعجبهم هذه البراعة الفائقة والدقة المتناهية في إبراز العواطف والمناظر المختلفة في صور محسوسة تسترعي الانتباه، وتشهد لهم بالعبقرية والفن، إذ كانت هذه الرسوم تستلزم التفكير الدقيق في كيفية تهيئتها وإبرازها على هذا النحو العجيب، ومن ثم بدأوا يجارونهم وينهجون سبلهم، ويترسمون آثارهم وقواعدهم، ورأوا أن إبراز الإحساس بالواقع عند الصفر أكثر مما عندهم، كما شاهدوا الدقة العظيمة والقدرة الرائعة في تجسيم كل ما تقع عليه العين في صورة جذابة، كما أنهم لم ينسوا أن يستلهموا الطبيعة صوراً ويستمدوا منها فنا جعلنا نقف موقف الإجلال إزاء هذا الفن العالي المجسم، حتى إنهم صوروا تسلسل المياه مما لا ينقصه إلا الخرير حتى تكون طبيعة ثانية من عمل المرء بجانب الطبيعة التي أوجدها الله

وقد يظهر لنا من هذا الكلمة السالفة أن الفن الفارسي كان صورة ثانية للفن الصيني، أو هو فن صيني رسمته ريشة فارسية، ولكن الحقيقة هي أنه بالرغم من تأثره إلى حد ما بالرسم الصيني فقد ظل محتفظاً بشخصيته وروحه وطبيعته الفارسية، ولا يشين

الفن الإيراني أن يكون قد أجل الفن الصيني؛ ومهما يكن الأمر فهناك فروق تظهر جلية للباحث المدقق، حين
تعرض عليه صورتان لمنظر واحد أولاهما لمصور صيني والأخرى لفارسي؛ ونحن حين نستعرض صورتين لمنظر من مناظر الطبيعة مثلاً، تبارت في إحداهما ريشة صينية وفي الأخرى فارسية، فإننا نلاحظ في الأولى التحرر من القيود الطبيعية وعدم التزام وحدة معينة، بل نرى كيف يخضع الفنان الطبيعة لريشته، بينما نلمس تناسق الأجزاء وترتيب بعضها بالنسبة للبعض الآخر في صورة الفنان الفارسي، وربما سأل السامع نفسه إزاء هذا عن العلة أو العلل الحقيقية والمباشرة أو غير المباشرة التي أدت إلى افتراقهما بعضهما عن بعض بعد أن اتحدا في الفكرة، أهي الخيال؟ أم الإحساس؟ أم طبيعة كل منهما؟ وقد يكون ذلك أحد هذه الأسئلة، وقد تكون جميعاً متحدة، ولكن هناك أمراً لا بد منه، ولا بد أن نذكره إذا أردنا إجابة شافية توصلنا أو تقربنا إلى بغيتنا، ذلك أن استيعاب الفنان الإيراني للمسافات لم يكن كاستيعاب الصيني لها واهتمامه بها، فبينا نجد عند الأخير الطلاقة الفنية، والإحساس بالحرية، إذا بنا نجد الفنان الفارسي يحدد قبل البدء، ويرسم لريشته محيطاً لا تتعداه، ومجالا لا تخرج عنه بحال من الأحوال

وصفة ثانية كان يمتاز بها الفنان الفارسي على وجه العموم، تلك هي أنه لم يكن ليشرد بريشته كثيراً، وربما عد هذا في نظر بعض نقاد العصر الحاضر جموداً، وقد يخالفهم في نظرتهم هذه كثيرون، ولكل من الفريقين وجهة ورأي يباين رأي الفريق الآخر، وقد يتعصبون لهذه الأفكار والآراء، ولكنهم يتفقون في أنه عمل رائع جدير بالإعجاب، وسواء أكان الحق في جانب هذا أم ذاك، فذلك أمر مرجعه إلى الذوق الفني والشعور الرهف الذي يستشف الحقيقة خلال الطلاسم، ويتلمس الشعلة من بين أسداف الظلام، ويتعرف الصواب والحق مهما تكالبت أسباب الباطل، ويستخرجه كما يستخرج التبر من الثرى نقياً ولعل أقرب الأمثلة على هذه الصفة التي أشرنا إليها آنفاً: أعمال (بهزاد) وهو أكبر فنان فارسي تبوأ ذروة المجد من رسومه الفنية، وكان ممتازاً في إخراجها، قوي الإفصاح عن مقصوده، ولكنه بالرغم من هذا المجد التالد والفن الخالد، فإننا لا نجده قد قام بأية ثورة على هذه القيود - كما يسميها البعض - ولم يحاول أن ينتزع نفسه من ربقة التقاليد وترسم الآثار، ولم نشهد له محاولة ولو ساذجة تجعلنا نقول إن هناك تباشير تطور أو حركة تجديدية ضد ما تآلفوا عليه، بل رأيناه وخلفه يسيرون على منهج واحد، كأنما استسهلوا هذه الطريق المعبدة، ولكنهم على أي حال، وإن كانوا قد انصرفوا عن هذا الطريق، إلا أنهم جميعاً كرسوا جهودهم وصرفوا قواهم في إبداع آيات خالدات في الفن، تشهد لهم بالعبقرية، وحسبهم فخراً أن يهتم المتحف البريطاني في إنجلترا بلوحات الفنانين قاسم على والسعدي وغيرهما من أقطاب الفن الفارسي. وعلى العموم يمكننا أن نقول إن الفن الفارسي فن لا يكتفي بالنظرة الواحدة للحكم عليه ففي ذلك شيء كبير من الاستبداد، وهو فن عالمي يشهد للفرس بالدقة والبراعة

تلخيص وترجمة حسن محمد محمود

القصص

من الفن القصصي الحديث

زوج آخر ساعة

للقصصي الإنجليزي ريس ديفز

ترجمة علي كامل

(ريس ديفز من أصغر القصصيين الإنجليز سناً. وهو كغيره من الكتاب الإنجليز المعاصرين شديد التأثر بالمذاهب الجديدة في علم النفس، فنراه في قصصه يعتمد إلى التحليل الدقيق لشتى العواطف والنزعات التي تعصف بكل نفس إنسانية. والقصة (التي نترجمها له اليوم قد ترجمت إلى عدة لغات حية

نزلت مارية من غرفة نوم والدها وقالت لعمتها في هدوء وحزن كعادتها دائما: لقد مات!

فرفعت عمتها (آن) عينيها من فوق الإنجيل الذي كان بين يديها، وفتحت فاها حتى آخره وقد انتابها فزع عظيم، ثم بحثت عن منديلها ومسحت به عينيها العجوزين اللتين

لا تتسرب إليهما الدموع، ثم بكت وهي تقول:
إنهم يذهبون جميعاً قبلي!
وفتح مارية الدولاب وتناولت منه (التريكو) وجلست أمام النار كعادتها كل مساء، وأخذت تشتغل باهتمام برغم ضجرها وتعبها من السهر الطويل وعنايتها بالميت فنظرت إليها عمتها وهي تكاد تصعق من الدهشة، ودب في جسمها النشاط وصرخت في وجهها قائلة:
تحركي يا مارية، ليس هذا وقت (التريكو). اذهبي وابحثي عن الستائر لنغطي بها النوافذ. ويجب أيضاً أن نغير للميت ملابسه ونقوم له بكل ما يلزم
على أن ماريا لم تتحرك، وبرغم أنها كانت منهوكة القوى كان يظهر عليها دلائل فرح مرير، فقد كان يبدو لها أنها تحررت مرة واحدة من قيود عنيدة مؤلمة، كانت تقول بصوت منخفض مخاطبة عمتها (آن):
- لقد كان والدي رجلاً قاسياً يا عمتي (آن)، وكان كل يوم عنده يوم أحد. لقد جعل من هذا المنزل (مدرسة يوم الأحد) وكم من مرات حقدت عليه وكرهته، وكانت والدتي تشبهه. وكنت أنا بين الاثنين كأنني في جحيم لا يطاق
في أثناء ذلك كانت عمتها (آن) تصعد تنهدات الحزن والألم. قالت الفتاة:
إنها الحقيقة المرة، والآن وقد مات الاثنان فإني أستطيع أن أحكم عليهما. لقد جعلا مني فتاة عجوزاً لم تر من متع الحياة شيئاً. فكنت لا أعرف غير الإنجيل من الصباح وعند الظهر وفي المساء
وكانت الفتاة تتكلم بصوت ملؤه الحقد والعداوة، وكانت ترتعش حسرة على نفسها. كانت تفكر في تلك الجثة الراقدة في الطابق الأعلى والسخط مستول عليها. كانت تريد البكاء ولكن دمعة واحدة لم تجد بها عيناها. وكان وجهها الغليظ الذي بدا عليه الغضب والكبرياء منكباً على (التريكو) الذي بيدها. قالت:
والآن وقد ضاعت خير أيام حياتي في العمل في سبيلهما، فسأبقى بقية حياتي وحيدة، ولو كانا تركاني أخرج من المنزل لاستطعت أن أجد الفرصة لأتزوج
قالت عمتها:
مهلاً. إنك لا زلت في الثلاثين من عمرك، وفي استطاعتك الآن أن تجتهدي في إيجاد زوج لك. إنك يا مارية فتاة قويمة الأخلاق تحسنين الطهي. إنك لست كفتيات اليوم الطائشات، وهناك كثير من الرجال الذين يبحثون عن فتاة مثلك ليتزوجوها
واستمرت مارية تشتغل في صمت. . . ثلاثة وثلاثين عاماً! قبيحة المنظر غليظة الجسم منكسرة القلب! أي رجل ذلك الذي يريد مثل هذه الفتاة في هذه الأيام؟
وتملكها خوف عظيم وهي تشتغل، كم من الأشياء فقدتها في الحياة! لقد أدركت تماماً أنها كانت تعيش بعيدة عن عالم المسرات واللذات، والآن فات الوقت التمتع. ولكن ألم يعد هناك أمل في شيء؟ قالت الفتاة:
إنني أظن يا عمتي (آن) انه يحسن أن أبيع هذا المنزل وأقيم على ساحل البحر
فأجابت المرأة العجوز على الفور في غضب:
لا تبادري ببعثرة المال الذي تركه لك أبوك. هلا فكرت في؟
وأجهشت العمة بالبكاء:
ها هو ذا المال يا مارية قد ابتدأ يجعل منك فتاة منطفئة الآمال قاسية القلب. إنني أعرف نفسيتك الآن
وخرجت العمة لرؤية الميت. وابتدأت عينا ماريا الزرقاوان المنطفئتان تلمعان من جديد؛ إن التفكير في المال الذي ورثته وفيما يمنحه هذا المال من السلطان، قد جعل حرارة السعادة تدب في جسمها الغليظ. غير أنها كانت تود أن تكون أصغر سناً مما هي الآن. وكانت تعرف أيضاً أنها قبيحة المنظر
ودخلت العمة آن قادمة من غرفة النوم وهي تقول: لقد رحل إلى العالم الآخر. إن وجهه جميل وطاهر، والآن يا مارية أي مجنز نعهد إليه بالقيام بحفلة الجنازة؟
فأجابت مارية:
جون جونز. إنه أرخص من توماس إيفانز
ولكن إيفانز ممن ينتسبون إلى الكنيسة القديمة. إن الذين يحترمون أنفسهم لابد يفضلونه، وعرباته أيضاً أكثر جمالا. فقالت مارية بصوت الآمر:

ولكنني أفضل جون جونز. لقد كنت معه في المدرسة وكان دائماً معي رقيقاً
فأجابتها العمة آن وقد أخذها الغضب:
- إنه رجل أعزب طماع
وذهبت مارية وأحضرت الأقمشة البيضاء لتغطي بها النوافذ، وكان ذلك علامة على أن الموت قد عرف طريقه إلى المنزل. ولم تكد تمضي عشر دقائق على ذلك حتى كان سيل الجيران قد ابتدأ يتدفق ليروا الميت. وكانت العمة آن جالسة بجانب جثته. بينما كانت مارية في الطابق الأرضي تصغي بسخرية إلى كلمات المجاملة والعزاء التي يوجهها إليها الزائرون
قالت إحدى النساء:
ولكنك سوف تكونين في سعة من العيش، فلقد ترك أيضاً وراءه مقادير مخبأة من المال لا بأس بها. لقد كان دائماً متبصراً يا مارية. كان يشح من أجلك
فمطت مارية شفتيها بسخرية وابتسمت ابتسامة باردة وقالت:
إن كل ما هنا قد عاد إليَّ. ولكنك عديمة الفطنة يا مسز هاولز. إنك تفكرين دائماً في المال
آه! مثلك أنت. إنه يبدو عليك أنك فتاة غير طبيعية من كل الوجوه يا مارية، ألا تذرفين دمعة واحدة على أبيك المسكين؟ ها أنت جالسة ككتلة من الثلج، لا تعرفين الكلام إلا في كل ما لا يتفق مع الموقف الذي أنت الآن فيه!
وكان الجيران خارج الغرفة يتكلمون عن عدم تأثر الفتاة وجمود عينيها اللتين لم تعرف الدموع اليهما سبيلاً؛ ولكن مارية كانت جالسة في هدوء، مفعمة القلب بالاحتقار والعداوة للجميع، متمتعة في أعماق نفسها بأن تكون موضع أحاديث الناس، هانئة بذلك الدخل الذي سوف تناله عما قريب. وعندئذ شعرت أنها أصبحت مستقلة طليقة، وفي نفس تلك الليلة آوت إلى سريرها في فراشها الوثير باستسلام شهواني. وكأنما الموت الذي أقبل إلى المنزل قد فتح في أعماق نفسها منبعاً من السرور العجيب
وفي صباح اليوم التالي أرسلت مارية عمتها (آن) لتبحث عن المجنز، فحرجت آن وهي تتمتم بعبارات السخط والغضب، ولكنها كانت تتعزى كلما فكرت في أنها ستفوز بخمسة شلنات، لتشتري بها ثوباً أسود وقبعة. وكانت تقول لنفسها وهي تبكي:
وإن دفنه بيدي جون جونز سيقلقه في مقره الأخير. فعرباته القديمة فرشها حقير للغاية. إني أخجل منهم
وعاد المجنز معها واستصحبته إلى الدور الأعلى لكي يقيس جثة الميت، ثم نزل إلى الصالون حيث انتظر مارية
وجاءت مارية، فبادرها بقوله:
ما أكثر وقار وجهه يا مس مورجنز
فأجابته مارية في الحال بنظرة خبيثة قائلة:
إن وجهك أنت سيكون أكثر هدوءاً ووقاراً حين يتوفاك الله!
فسألها وهو يهز رأسه الصغير:
وكيف ذلك؟ لقد عشت حتى الآن عاقلاً رزيناً
فقالت بخبث وهي تبحث له عن كرسي:
لقد كنت في المدرسة صبياً ماجناً خداعاً، اجلس الآن ودعنا نتكلم في الموضوع
كان جون جونز شابا نشيطاً عصبياً أشبه بعصفور. ألقى جون جونز قبعته بجانبه، وفرك يديه ثم وضعها على ركبتيه النحيلتين كركبتي مراهق، وكان يحاول عبثاً أن يتظاهر بالبرود الحزين الذي يتناسب مع مهنته، فقد كان خفيف الحركة، ويبدو كأنما يثقله العمل الكثير، وكانت لحيته كأنها محلوقة منذ برهة وجيزة، كما أنه لم يكن ناجحاً في عمله كمنافسه
قال جون جونز، وقد بدا على وجهه نوع من الاهتمام:
أي نوع من التوابيت تفضلين؟
وعندما نظرت إليه مارية نظرة باسمة احمرت وجنتاه وتولاه الاضطراب. سألته قائلة:
كم الثمن الذي تريده؟
كانت مارية جالسة أمامه وجهاً لوجه تناقش الأثمان بمكر ودهاء عجيبين، وقد لمعت شفتيها الغليظتين، وبدا عليها التفكير والانتباه، مما جعله يعجب بها برغم سخطه. وبعد

حساب طويل، قال:
إن كل شيء سوف لا يتكلف أكثر من عشرين جنيهاً، فهزت مارية رأسها قائلة:
إن توماس إيفانز يأخذ أقل من هذا
فقفز جون جونز من على كرسيه، وقد تملكه الغضب وقال:
إنك يهودية إلى آخر حد يا مارية مورجنز، إنه لا يليق أن تكوني شحيحة هكذا فيما يتعلق بالمآتم
فتوقفت مارية أيضاً، وقد احمرت وجنتاها من الغضب وصرخت:
إنك تريد أن تسرق الأيتام الفقراء، تريد أن تربح من فتاة لم يعد لها أب!
فضحك جون جونز ساخراً:
أيتام فقراء! إنني متأكد أن والدك قد ترك مالاً وفيراً، ولكن ابنته تريد أن يدفن كما يدفن رجل معدم
وفرقع أصابعه بعصبية، ونظرت مارية إليه طويلاً، وقد انخفض جفناها وعاد إليها خبثها من جديد، ثم قالت:
إنني أحب أن أراك غاضباً مهتاجاً، إنك بهذا تكون أكثر رجولة، ولكنك الآن أكثر غضباً مما يجب أن يكون عليه (حانوتي)
كان جون جونز يسائل نفسه: كيف يترك هذا الرجل الموقر وراءه مثل هذه الفتاة الوقحة ذات اللسان البذيء! على أنه تذكر تجارته التي كانت آخذة في التدهور، فقال بهدوء:
دعينا من هذا يا مس مرجنز، كوني أكثر عدلاً، سوف أنظم جنازة فخمة بتسعة عشرة جنيها ونصف جنيه
وطلبت مارية من عمتها أن تحضر الشاي لجون جونز، وأخرجت هي خير ما عندها من الحلوى والفاكهة وأعطته منها كمية كبيرة
وفي يوم الدفن كان المطر يسقط مدراراً، والسماء مكفهرة، والجو رديئاً. وكانت مارية حزينة لأنها أنفقت كثيراً من النقود في شراء فستان أسود جميل وقبعة، كانت تقول لنفسها بعصبية متنقلة بين الحوانيت:
سوف يعرفون أنه حتى مس مورجنز الفقيرة الملبس تستطيع أن تبرهن على أنها سليمة الذوق
على أن المطر ضايقها كثيراً، فقالت لعمتها (آن) وهي ساخطة في صباح يوم الدفن:
سأضطر للذهاب لشراء معطف للمطر وشمسية جديدة، إنني دائماً سيئة الحظ، فسوف يكون هذا النهار رديئاً
كان المطر يسقط والرياح تصفر بقوة شديدة بالقرب من المقبرة، وكانت مارية واقفة بجانب القبر متكئة بجسمها الضخم على ذراع ابن عمتها تفكر في شمسيتها الحريرية الجديدة وتنعم النظر في الزهور التي تداعبها الرياح، وتفكر بحسرة مريرة في شبابها المنطفئ. آه! ولكن كم من الأوقات الطويلة السعيدة ستتمتع بها حين ينتهي كل ذلك! لا، إنها سوف لا تبيع منزلها وتعيش بعيداً، فستكون مجهولة لا يعرفها أحد إذا ذهبت إلى مكان آخر، وسوف تشتري كمية من الفساتين وتنشر (الموضة) في الحي الذي تعيش فيه، وتدهش صديقاتها. وسرعان ما رأت نفسها تنزل إلى الدور الأرضي من الكنيسة في روعة يحسدها عليها الجميع. ولكن عندما أخذ الجميع يرتلون الترتيلة المحزنة الأخيرة فكرت من جديد في ألوان السعادة التي حرمت منها؛ وأخيراً بكت، فخفف بكاؤها كثيراً مما يثقل قلب عمتها (آن)
وعندما أخذت مكانها في العربة أقبل (الحانوتي) وفي يده غطاء غطى به ركبتيها وعلى وجهه إمارات التأثر، ثم قال:
إن داخل العربة بارد. إنك قادرة على كتم عواطفك بشجاعة يا عزيزتي مس مورجنز
فأجابته بشموخ:
أشكرك يا جون جونز، أظن أنه لابد لك من شلن من أجل هذا الغطاء!
وعندما دخل الجميع العربة اتجهت إليها عمتها (آن) وقد بدا عليها الغضب، وقالت:
إنك تتصرفين كما لو كنت قطعة من الخشب، لقد أفسدت علي عملية الدفن، وكنت خجلة منك إلى أقصى حد
فقال ابن عمة الفتاة في صوت متأثر:

يا عزيزتي، لقد بكت عندما كنا نرتل الترتيلة الأخيرة، فأجابت العمة:
آه، عندما كان كل شيء قد انتهى تقريباً. سوف يتكلم عنها كل من كانوا بالكنيسة
فقالت مارية بكبرياء:
إن كل ما يقولونه لا يهمني، وأنت يا عمتي (آن) عجوز مرائية، إنني أعرفك جيداً
ثم قالت ساخرة:
إن كل ما في المسألة أنك تحسدينني من أجل ثروتي لا غير!
وعندما وصلوا إلى المنزل صعدت مارية إلى الطابق الأعلى لكي تخلع حذاءها الضيق الذي جرح أصابع قدميها. وكانت جموع الناس قد اجتمعت منتظرة الطعام الذي يعد عادة بعد الجنازة. وكانوا يعلقون بأصوات خافتة من الجوع على كل ما حدث في الجنازة. أما مارية فقد فتحت صندوق مغلقاً بمفتاح، وعلى وجهها ابتسامة خفيفة. وأخرجت منه علبة المسحوق الأبيض التي اشترتها بعد موت والدها، ودهنت أنفها اللامع وخديها النحاسيين، وهي في غبطة وسرور من هذا الإثم الجديد. وبعد ذلك لبست قرطها بهدوء. ثم اتجهت نحو السلم فرحة منتفخة كأنها ملكة مهيأة من جديد للنزول وعليها إمارات الأبهة والجلال. وفي أثناء نزولها سمعت أصوات بعض النسوة آلائي كن يتكلمن عند المدخل بصوت منخفض، فوقفت تنصت إليهن، فسمعتهن يذكرن اسمها. قالت إحداهن:
لقد كانت دائماً سخيفة غبية. ولكنها اليوم كانت حقاً وضيعة النفسية لا يحمل قلبها ذرة من
النبل. لقد كانت معجبة بملابسها السخيفة كأنها في حفلة زواج
وقالت الأخرى:
ألم تكن تفكر أنه كان يجب عليها أن تبكي على الأقل اعترافاً بالجميل من أجل ذلك المال الكثير الذي تركه لها
لقد كانت كشخصية مضحكة في مأساة محزنة. ما هذه القبعة التي كانت تلبسها! أي مرض من الذوق ذلك الذي جعلها تلبس هذه القبعة في جنازة أبيها!
ونزلت مارية بهدوء. وعندما أحست النسوة بقدومها ابتدأن يتكلمن بأسى عن ساعة الدفن، ونظرن إليها بعيون كلها شفقة ورثاء. فنظرت إليهن مارية، وقد كشرت عن أنيابها وصاحت:
أخرجن من منزلي يا ذوات الألسنة البذيئة. أخرجن من هنا!
فجرى النسوة من وجهها الغاضب. ولكن إحداهن صاحت لدى الباب:
امسحي هذا المسحوق الأبيض الذي على وجهك أيتها الفتاة المفتونة!
وبعد أسبوع ذهب جون جونز إلى المنزل ومعه قائمة حسابه فأدخلته مارية إلى الصالون، ووضعت على الطاولة تسع عشرة ورقة من ذات الجنيه، فعد (الحانوتي) النقود بعناية. ثم التفت إليها وقد احمرت وجنتاه. ثم قال رافعاً صوته:
أرجو يا مس مرجنز أن تعطيني النصف جنيه الباقي. فأجابته
إذن قدم لي حساباً عن هذا المبلغ الضخم. لقد كانت الجنازة متواضعة
فصاح وهو يهز قبضته بانفعال شديد:
سوف اذكر ذلك أمام المحكمة. نعم سأقاضيك مطالباً بمبلغي أيتها المرابية الشحيحة!
كانت مارية متشحة برداء من القطيفة السوداء. لابسة عقدها وقرطها. معلقة ساعتها في ردائها الضيق الملتصق بجسمها المفصل على آخر طراز. قامت مارية من على كرسيها وقالت بطريقتها الإنجليزية الرشيقة:
لست ممن يتناقشن مع الحانوتي من أجل نصف جنيه. لقد كنت أظن أنك رجل مهذب ولكن يظهر أنني كنت مخدوعة
ظل جون جونز صامتاً وكأنه تذكر فجأة شيئاً. فنظر إليها بعينيه اللامعتين اللتين تشبهان عيني قرد، وقد بدا عليه الألم والحسرة، ولكن مارية خرجت من الغرفة ببرود وعادت وفي يدها كيس من التيل، وأخرجت منه حزمة منتفخة من أوراق البنكنوت. فنظر جون جونز إلى النقود. وقال بصوت تبلله الدموع
اغفري لي ثورتي يا مس مورجنز. لقد نسيت في فترة غضبي الخسارة المؤلمة التي انتابتك. يا إلهي! كم ستشعرين بالوحدة، إن عمتك ليست الرفيق اللازم لفتاة شابة. هلا وضعت بعد مشروعات تقومين بها في المستقبل؟

لقد كان قلبه الصغير الحساس يخفق حقيقة بحرارة رحمة بمارية التي لا أنيس لها.
وابتسمت مارية ابتسامة خفيفة، وهي تعبث بيدها في أوراق البنكنوت، بينما جون جونز ينظر إليها وعليه إمارات التأثر
أجابت مارية:
إنني لست مستعجلة. فسوف أعيش بمالي في بسطة من العيش
فقال جون جونز:
حقاً. ويمكنك أن تحصلي على ثمن جيد لهذا المنزل وللأربعة منازل الأخرى التي تقع في طريق المناجم. إنهم خالون من حق الاتفاق. أليس كذلك؟
فقالت مارية ضاحكة
إنك تريد أن تعرف كل شيء؟
وخرجت ثانية حاملة معها الكيس، ثم عادت ومعها زجاجة من النبيذ الفاخر وطبقاً من البسكويت. صرخت مارية بنشوة وافتخار رافعة الزجاجة إلى أعلى:
إنها الأولى في هذا المنزل
فقال جون جونز ضاحكاً أيضاً
لقد كان والدك مدمناً على شرب الماء!
وبينما كانا يشربان كانت مارية تنظر من النافذة بنشوة كأنها في حلم. ولكنها لاحظت أن الحانوتي يرمقها بنظرات عصبية
قالت مارية:
لا، إني لم أضع بعد مشروعات. كنت أريد أن أنتقل من هذا المنزل. ولكن فتاة غير متزوجة لابد أن ستشعر بالوحدة المضنية في مكان غريب. أما إذا وجدت زوجا. . .
ورفعت عينيها الذابلتين نحوه. وكان هو من ناحيته ينظر إليها بتحديق شديد
لقد كان ذلك أكثر مما كان يأمل، فشرب قدحه سريعا، ثم رفع كوبته بيد مرتعشة وانحنى على ركبتيه أمامها، وأمسك بيدها وهو يتكلم بعبارات سريعة مضطربة قائلاً:
خذي يا عزيزتي مس مورجنز. إنني أنا أيضاً أعزب وحيد. لقد أحببتك منذ أن رأيتك أثناء دفن والدك هادئة ووحيدة. حقاً إنني أحبك. إنني أشعر في أعماق نفسي بشيء غريب نحوك
فأخذت مارية تضحك ضحكاً طويلاً لا ينقطع ثم قالت: يا جون جونز إنك بخيل لدرجة أنك لا تستطيع أن تحب. هل تحبني من أجل ذاتي؟
فقال جون جونز بحزن:
إنك قاسية خبيثة
فأجابته في الحال بحدة:
أوه! إنني لا أشعر بالحب نحو أي رجل ما. إنني أريد أن أتزوجك ليكون لي اعتبار في أعين الناس. والآن كم يكون هذا مفاجأة عجيبة بالنسبة لأولئك النسوة جميعاً!
علي كامل
من هنا وهناك
ضوء جديد على قضية دريفوس
نعرف ما لقضية دريفوس الشهيرة من أهمية وآثار بالغة في تاريخ فرنسا المعاصر السياسي والاجتماعي. وقد مضى اليوم زهاء ثلاثين عاماً على خاتمة تلك القضية الشهيرة التي حكم فيها على الضابط البريء الفريد دريفوس بالنفي والتجريد، واستمرت أدوارها بين إعادة نظر ونقض وأحكام مختلفة مدى عشرة أعوام، تأثرت خلالها الحياة الفرنسية العامة أيما تأثير؛ ثم حكم نهائياً بتبرئة الضابط المظلوم ورد إليه حقوقه واعتباره. ومع ذلك لم تقل بعد آخر كلمة في هذه القضية الشهيرة. فقد صدر أخيراً كتاب بالفرنسية بقلم هنري مازيل عنوانه (تاريخ قضية دريفوس ونفسيتها) يذهب في المؤلف إلى رأي جديد يرفق فيه بين رأي القائلين ببراءة دريفوس، ورأي خصومهم، وأنه لم يكن في المسألة كلها خائن ولا متهم؛ وأنه إذا كان ثمة متهم، فهو متهم من نوع خاص لأنه لم يكن سوى الكولونل شفارتز كوبن الملحق الحربي للسفارة الألمانية، فهو الذي دبر الدسيسة كلها، وعمل على تغرير أركان الحرب وخديعته
ذلك أن الكولونل لاحظ منذ مدة أن مدام بستيان خادمة السفارة تحمل دائماً

قصاصات الورق التي يلقيها في سلة المهملات إلى قلم المخابرات الفرنسي؛ ففكر في أن يخترع حكاية (البردرو) وهي الوثيقة التي كانت أصل القضية كلها، فكتب عندئذ هذه الوثيقة بنفسه، مقلداً فيها خط الضابط استرهازي الذي كان لديه نماذج من خطه لأنه كان يكاتبه؛ ولما كتب الوثيقة مزقها بعد ذلك، وألقاها في سلة المهملات؛ فأخذت مدام بستيان القصاصات كالمعتاد إلى قلم المخابرات

ويؤيد مسيو مازيل رأيه بأدلة منها أن (البردرو) كان مكتوباً بفرنسية ركيكة لا يمكن أن تصدر من ضابط في أركان الحرب مثل دريفوس، ولا يمكن أيضاً أن تكون من كتابة استرهازي لأنه كان يكتب خطاباته دائماً في أسلوب مختار؛ وكل الدلائل تدل على أن (البردرو) إنما كتبه رجل بالفرنسية يفكر بلغة أخرى

وقد أثارت نظرية مسيو مازيل اهتماماً كبيراً في دوائر التاريخ والقضاء؛ ونالت تأييداً كبيراً

آثار ملكة سبأ

ما زالت أساطير العصر القديم التي تجري مجرى التواريخ تثير طلعة الباحثين والمكتشفين؛ فهم يحاولون في فلسطين مثلاً أن يعثروا بآثار سليمان وداود، ويحاولون أن يكتشفوا بقايا (ارم ذات العماد) في بلاد العرب. وهنالك من يحاول أن يكتشف آثار ملكة سبأ في بلاد الحبشة، وذلك هو الكونت بيرون دي بروورك العلامة الأثري البولوني، وهو ممن يعشقون الأساطير القديمة ويهيمون بتحقيقها، وقد اكتشف من قبل في ذلك المجاهل قبر (تيني هنان) الذي كان يعتبر من قبل خرافة. ومنذ أشهر عاد إلى الحبشة من طريق السودان المصري، ليحاول البحث عن مناجم سليمان الذهبية، وآثار ملكة سبأ الشهيرة؛ وعكف على البحث مدى حين في هضاب بلاد يامو؛ ولكنه لم يظفر بآثار حقيقية تكشف عن حقيقة تلك الأساطير الشهيرة؛ بيد أنه استطاع أن يجمع كثيراً من المعلومات الأثرية الهامة عن تلك المنطقة؛ وربما عاد في فرصة قريبة ليستأنف مباحثه

والواقع أن من الصعب أن نقتنع بصحة أمثال هذه الأساطير من الوجهة التاريخية. وقد يكون لبعضها أساس تاريخي، ولكن الأسطورة تحيط به وتجرده من حقيقته الأولى لتخرجه لنا في ثوب خرافي محض. ومن هذا القبيل أسطورة قبر (الإسكندر) المقدوني، وكونه قد دفن بالإسكندرية، فقد اهتم المستر هوارد كارتر مكتشف قبر توت عنخ آمون بهذه الرواية. وأخذ بالفعل يبحث عن تحقيقها تمهيداً لاكتشاف قبر الإسكندر. على أن لهذه الأسطورة مهاداً أخرى، إذا يروى أن الإسكندر دفن بالشام، أو ببلاد الفرس، وقد ذهبت جهود العلماء لتحقيقها سدى منذ نصف قرن

التنافس بين الفاشستية والهتلرية على استعباد الشعوب

كثر الجد أخيراً بين الصحف الألمانية والصحف الإيطالية، وانفردت الصحف الألمانية إلى جانب الصحف الروسية بالحملة على مشاريع إيطاليا وجهودها الاستعمارية، ولاسيما في بلاد الشرق الأدنى. وتنتهز الصحف الألمانية هذه المناسبة للحملة على (الفاشستية) والمقارنة بينها وبين (الاشتراكية الوطنية) (الهتلرية) الألمانية، وقد نشرت مجلة (فولك أوند رخت) (الشعب والحق) البرلينية أخيراً فصلاً تندد فيه بخطط إيطاليا وبالفاشستية الإيطالية، وتقول إن سلام شعوب الشرق الأدنى لا تحققه الفاشستية التي هي في الواقع

عنوان عصر قد ختم؛ أما (الاشتراكية الوطنية) فهي بالعكس نظام جديد، قد خلق أسلوباً جديداً للتفكير يعارض كل ما ذهب إليه النظرية الغربية في شأن الدولة والرأسمالية، ولا سلام للشرق إلا باعتناق مبادئ الاشتراكية الوطنية. وقد ردت جريدة (جورنالي ديتاليا) الإيطالية على هذه الحملة، فقالت إنه يراد أن يخلق تعارض بين الفاشستية والاشتراكية الوطنية، وأن يتخذ من هذا التعارض أساساً لمنافسة سياسية تزمع ألمانيا أن تقوم بها ضد إيطاليا في الشرق الأدنى. وتسلم الصحيفة الإيطالية بوجود فروق جوهرية بين الفاشستية والاشتراكية الوطنية، ولكنها تنوه بما تقوم عليه النظرية الألمانية من التفاضل بين الأجناس، وأنها تطالب بوحدة الأمم من الوجهة الجنسية. والواقع أن أمم الشرق الأدنى تتكون اليوم من مزيج من الأجناس المختلفة، وتتكون كل منها حول الجنس الغالب؛ فإذا فكرت في ألا تطبق المبادئ الهتلرية فعليها أن تمزق نفسها مختارة، وأن تتنازل عن أجزاء من أراضيها تعمرها الأجناس الدخيلة أو

المنحطة
وهكذا ينم هذا الجدل عن غايته، فأنصار الاشتراكية الوطنية يزعمون أنهم أحق باستعمار الأمم وبسط نفوذهم عليها؛ ويعارضهم أنصار الفاشستية في هذه الدعوة؛ وأمم الشرق تستهدف في الحالين إلى مطامع الاستعمار ودسائسه؛ ومن المفيد أحياناً أن تتبع الأمم الشرقية مثل هذا الجدل لتقف على ما تبطنه الفاشستية الإيطالية أو الهتلرية أو غيرها من الدعوات والمبادئ الخلابة نحوها من ضروب الغدر والعدوان
المسرح والسينما
كتب كاتب في جريدة (الطان) نبذة شائقة عن المسرح والسينما وما يضطرم بينهما من منافسة ينوء بها المسرح. ومنذ حين يثور الجدل حول هذا الموضوع، وتتجه معظم الآراء إلى أن تقدم الفن السينمائي كان ضربة قاضية للمسرح، وأن المسرح يتدهور بل ينحدر إلى الفناء بسرعة، وأن السينما قد انتزعت منه معظم رواده ومحبيه. ويقول لنا كاتب (الطان) إن هذه الجلسات السينمائية الصغيرة، ومناظرها الشعرية الغريبة، قد خلبت حقاً ألباب الناس، غير أنه يذهب إلى رأي جديد فيما يتعلق بتقدم الفن السينمائي؛ فهو يرى أن السينما ليس لها من الوجهة الفنية عدو ألد من نفسه، وأخطر من نجاحه، فهو من جهة عبد القوة المالية يطيعها طاعة عمياء، ومن جهة أخرى عبد المخرجين (مخرجي المناظر). ولما كانت الأشرطة السينمائية لغة عالمية، فإن مخرجيها لا يفكرون إلا في إخراج أشرطة ومناظر تجتذب أعظم مجموعة من الرواد، ويمكن أن تعرض في نفس الوقت في يوكوهاما وبرلين وباريس ولندن ونيويورك وشنغهاي، والنجاح يغدق المال. على أن هذا النجاح نفسه يحمل المخرجين على أن يتحروا دائماً التأثير في العدد، نجاح الكمية لإنجاح النوع، ومن ثم كانت جمهرة (الأفلام) المتماثلة في المناظر والأذواق العامة، وهي مناظر أصبحت معروفة يتوقعها ويتنبأ بها الجمهور بلا مشقة، وهذا الاتجاه المادي المحض الذي يتخذه الفن السينمائي يثير اليوم بين الكثيرين ضجراً وخيبة أمل، وهؤلاء يرون أن الفلم لم يعد يرضي أذواقهم وأمانيهم الفنية، وأن المسرح هو الكفيل بتحقيق هذه الأذواق والأماني
ولهذا يتجه الكثيرون اليوم صوب المسرح، ويعود المسرح فيحرز بعض النجاح والانتعاش، ولكنه انتعاش بطيء يحتاج إلى وقت غير قصير، غير أنها على أي حال ظاهرة تدعو إلى التفاؤل. وفي وسع أنصار المسرح والفن المسرحي أن ينتهزوا هذه الفرصة فيضاعفوا جهودهم لتجديد المسرح من الناحية الفنية ويستطيع الكاتب المسرحي أن يؤدي في ذلك التجديد دوراً خطيراً، إذا استطاع أن يزود المسرح بطائفة من الآراء والمناظر المبتكرة.
البريد الأدبي
في نادي القلم العراقي
عقد نادي القلم العراقي في بغداد جلسة في دار أحد الأعضاء، وقد ألقى في هذا الاجتماع رئيس النادي الأستاذ رضا الشبيبي محاضرة عن (المجريطي: فلسفته ومكتشفاته) وهي نتيجة دراسة كتاب من أهم كتب المجريطي، وهو من أنفس الآثار العربية النادر اسمه (غاية الحكيم وأحق النتيجتين بالتقديم)، وبعد أن ألم المحاضر بتاريخ المجريطي قائلاً في هذا الباب إنه صاحب رسائل (إخوان الصفا) الأندلسية التي ألفها على نمط (رسائل إخوان الصفا) العراقية فبذر فيما بذر التفكير العلمي في أذهان الأندلسيين، فلم تلبث الفلسفة أن ازدهرت في العصور التي تلي عصره في الأندلس، وجاء منها أمثال ابن رشد وابن الصائغ وابن طفيل وبني زهر وغيرهم من أعيان الفلاسفة والمفكرين. وذكر أيضاً أن المجريطي عالج عدة موضوعات تاريخية وفلسفية، وهو مؤلف كتاب (تاريخ فلاسفة العرب) ترجم فيه الكندي وغيره، وقد استظرف الكندي رسالة موضوعها (كمية بقاء دولة العرب) (؟)
وبعد ذلك شرع المحاضر يسرد نتيجة دراسته لهذا الأثر من آثار المجريطي وقال: يستفيد من هذا الكتاب، أي كتاب غاية الحكيم، من يعنى بدراسة تاريخ الحضارة البشرية في أقدم عصورها، ومستنبطات الأمم العريقة في القدم من أنباط وأقباط وسريان وهنود وغيرهم، ومكتشفاتهم وجهودهم في تقدم العمران؛ وبعد أن أورد هذا ونحوه قال: لا أستبعد أنا والحالة هذه أن يكون لآراء المجريطي ومكتشفاته أثر في عمران الأندلس وازدهارها خصوصاً فيما يتصل بالهندسة والكيمياء وعلم المواليد

الطبيعية، وإن سكت المؤرخون عن ذلك كله. واستنتج من مواضع أخرى من الكتاب أن المجريطي فيلسوف يميل إلى الدراسة الشاملة، ولكنه يرجح العلوم الواقعية التي يؤيدها الحس والتجربة، ولا يذعن إلا لأحكام العدد والأرقام في تفكيره. وأنه مفكر من طراز أعظم مفكري العصر في الرياضيات والطبيعيات. وينحو من بعض الوجوه منحى الرياضيين الأوربيين في محاولة إخضاع قوى الطبيعة واستخدامها لرفاه الإنسان ورفع مستواه في سلم الحضارة، هذا ونحوه

(البلاد البغدادية)

للحق والتاريخ

قرأت في الرسالة السابعة والثمانين نبأ (عيد الربيع القومي في سورية) وأن (فريقاً كبيراً من طلبة الجامعة السورية والمدرسة التجارية والمدارس الثانوية العالية عقدوا اجتماعاً بحثوا فيه مشروع إقامة عيد قومي في الربيع وأطلقوا عليه اسم عيد الربيع القومي). فعجبت من نفسي! كيف أكون في صلب دمشق، وأكون أشد الناس صلة بمثل هذه المشروعات، ثم لا أسمع بهذا الخبر إلا من مصر. . . وإني لأصفح (الجزيرة) كل يوم يتفضل منشئها الفاضل فيبعث بها إلى. ولكن من طبعي أني لا آكل الجوز بقشره. . . وأني أتخير اللباب من كل شيء، ولذلك لم أقرأ هذا الخبر في الجزيرة).

أما وقد نشر في (الرسالة) والرسالة ديوان العرب، وكتاب الشرق، فلم يبق من قراءته والتعليق عليه بد، كيلا يعلق منه شيء في نفوس القراء، ويبقى مخزاة خالدة لدمشق

والحق أن شيئاً مما قالوا لم يكن، وأن هذا الاجتماع لم يعقد إلا في رأس كاتب هذا الخبر، وأن لطلبة الجامعة السورية لجنة تنطق بلسانهم، وتنوب عنهم، ولم يدع واحد من أفرادها إلى اجتماع، ولم تدع هي أحداً إلى اجتماع لمثل هذا. . . ولها مشاغل وأعمال هي خير لهذه الأمة وأجدى عليها من تأليف مواكب (تمثل أزاهير دمشق). . . ورئيسها الشاب العالم الفاضل الشيخ معروف الدوالي رجل مسلم يكره أن يدخل بإخوانه (جحر الضب)!

أما المدرسة التجارية (العليا) (؟) التي يقوم أحد طلابها برحلة إلى شمال سورية من أجل هذا المشروع (!). فجماع أمرها أنها دار في طريق الصالحية استأجرها قنصل إيطاليا منذ شهور، وكتب على بابها (المدرسة التجارية) واشترى لها مدرساً أديباً كبيراً معروفاً. . . وذهب هذا وذاك ومن والاهما، يخطبون في الناس بلغة (الذهب الإيطالي. . . وفي الناس أناس عقولهم في جيوبهم، وبطون أكفهم، فاستجابوا لهم، وبعثوا بأبنائهم إلى المدرسة، فكان فيها أربعون طالباً، من أصل أربعمائة ألف، هم سكان دمشق وضواحيها!

وأما المدارس الثانوية في دمشق، فإن كبراها المدرسة التجهيزية، وأنا أعلم علم اليقين أنه ليس بين الألف من طلابها، طالب واحد يعلم من أمر هذا المشروع أكثر مما يعلم أي قارئ من قراء الرسالة

ودمشق أعقل بحمد الله من أن تسفل في التقليد إلى هذه الدركة، وإن دمشق لتعلم - إذا لم يكن من التقليد بد - أن في باريس شيئاً غير مواكب الزهر، هو الجيش الذي تستعرض مواكبه يوم 14 يوليه. وأن فيها غير الشباب الذين يحملون الأزهار شباباً يحملون البنادق والسيوف. . .

وحسب دمشق عاراً المؤتمر النسائي! أفلا تمشي المصيبة إلا على ساقين؟

دمشق

علي الطنطاوي

مأدبة تكريمية

كان مطعم (سان جمس) في مساء الثلاثاء الماضي مجمعاً حافلاً بصدور العلماء وأعلام الأدب وأئمة وأعيان الصحافة؛ اجتمعوا لتكريم صديقنا الأستاذ أحمد أمين رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر، وصاحب فجر الإسلام وضحى الإسلام، وأستاذ الأدب العربي بكلية الآداب. وكانت هذه المأدبة منذ طويل حاجة ملحة في نفوس أصدقائه وزملائه الذين راقبوا عن كثب جهاده الدائب المضني في خدمة العلم والتأليف عشرين سنة، فلما تهيأت الفرصة بانقضاء عشرين عاماً على رياسته للجنة التأليف والترجمة

والنشر، وإخراجه الجزء الثاني من ضحى الإسلام تلاقت رغبات الأعضاء والأصدقاء على إقامة هذه الحفلة، فأقيمت برياسة الأستاذ الجليل أحمد لطفي السيد بك زعيم النهضة الفكرية الحديثة، وساهم فيها أولياء الثقافة من رجالات وزارة المعارف والجامعة المصرية ومجمع اللغة العربية الملكي ولجنة التأليف والترجمة والنشر، فجلس المحتفلون عشرة عشرة إلى الموائد الفخمة يتبادلون شهى الأحاديث في وقار العلماء واحتشام السادة، حتى إذا فرغوا من الطعام نهض معالي رئيس المأدبة فافتتح الكلام بالثناء على جهود الدكتور طه حسين في تعرف الأديب العربي على ضوء المناهج العلمية، وذكر كيف تعاون (الثالوث الأدبي) طه حسين وأحمد أمين والعبادي على خدمة الثقافة العربية بتأليف فجر الإسلام وضحاه، ثم لمح بسبق الأستاذ صديقه إلى أداء نصيبه، ونوه بأثر كتبه في الحياة الأدبية الحديثة، وتساءل لماذا لا يتوج مجمع اللغة العربية الملكي هذه الكتب القيمة أسوة بالمجامع الأخرى. ثم قام من بعده صاحب الفضيلة الأستاذ المراغي فذكر في منطق عذب وبيان هادئ، أن الدراسة في الأزهر تروض العقل على مصابرة البحث ومتابعة الدرس ورغبة الاستقصاء، فإذا صادفت عقلاً خصيباً وخلقاً قويماً وطبعاً سليماً أنتجت أمثال (الشيخ أحمد أمين)؛ ثم تكلم الدكتور أحمد زكي وكيل كلية العلوم فبين فضل الأستاذ على لجنة التأليف والترجمة والنشر بقوة إرادته ودقة إداراته وكرم أخلاقه، وجودة تأليفه برياسته لها عشرين سنة متوالية. ثم تلاه الدكتور عبد الوهاب عزام فلخص الصفات الثلاث التي يمتاز بها الأستاذ أحمد أمين حب النظام والدأب والتثبت وجماعها صفة واحدة هي حب الحق

ثم قام على أثره الدكتور أحمد عبد السلام الكرداني فافاض في وصف الجاذبية الروحية التي يؤثر بها الأستاذ أحمد أمين في مناظريه ومعارضيه فيبلغ بسحرها من نفوسهم ما يريد؛ ثم تكلم الأستاذ محمد كرد علي عن البلاد العربية، والأستاذ نللينو عنالمستشرقين فأجاد التعبير عما تشعر به النفوس الفاضلة من إجلال العلم وأهله. ثم كان خاتمة المتكلمين الدكتور طه حسين فأشاد بفضل الأستاذ الكبير نللينو على دراسة الأدب العربي في مصر، ثم وفى صديقه الأستاذ الأمين ما هو أهله من التقدير والحمد؛ ثم نهض الأستاذ المكرم فشكر الداعين والمدعوين في عبارة أخاذة الأسلوب شديدة الروعة

والرسالة ترجو أن تؤدي واجبها لصديقها الأستاذ في عدد مقبل

الكتب

ترجمة نفسية تحليلية

!. . .هو ذا تاريخ إنسان

للأستاذ خليل هنداوي

وقلت للأستاذ النعيمي عقب وصوله إلى لبنان: هل أعددت وراءك غربالاً آخر؟ فأجاب: ذاك غربال انطوى، فتحت به طريقي إلى النور، والآن أراني سائراً إلى المحجة التي فرضتها على الحياة، أو فرضتها عليّ الحياة. . . .

فأعطانا (المراحل) وكتاب (جبران خليل جبران)

(خ. هـ)

- 1 -

وجه جبران خليل جبران

وما إن صدر كتاب (جبران خليل جبران) حتى تناولته الأكف، وتهافت عليه الناس. وما إن تلاه الناس حتى ضجوا به، وتفرقوا في شأنه شيعاً، شان العظيم لا يعرف أحداً معه معتدلاً: فمن ناقم على النعيمي لأنه فضح أسرار صديق كان يجب عليه أن يحفظ حرمته بعد الموت، ومن محبذ لأن الأدب لا يعرف تستراً! والحقيقة لا تعرف مواربة؛ وهكذا ذهب الناس في شأن الكتاب مذاهب مختلفة، وللناس مذاهبهم

أراد البعض أن يدرسه جملة، فخرج من درسه بما لا يرضاه، وشاء البعض أن يذهب في نقده ما يفرضه الناقدون على غيرهم من أساليب جافة، ومقاييس محدودة؛ ومتى كان الأدب - ابن الحياة - بقبل الحدود والقيود؟

الكتاب عظيم بنفسه، متفرد بروحه وبطريقته وبنقده، صارم ما شاءت الصرامة، وعادل ما شاء العدل. ولن نتبين هذه النقطة التي تمازج فيها العدل والصرامة في

مواطن كثيرة، إلا إذا اطلعنا على المقياس الذي أعلن عنه نعيمة في مطلع الكتاب، وهو مقياسه الخاص في الأدب والفن والحياة، فإذا فهمنا هذا المقياس فهمنا الكتاب، وإذا أعرضنا عن هذا المقياس
ضاع عنا جوهر الكتاب، والغاية التي ألف من أجلها
لا يريد نعيمة أن يعرض في كتابه تاريخاً له تفاصيله وله آفاقه، والبشرية - في اعتقاده - لم تكتب حتى الآن تاريخ إنسان، ولا تاريخ شيء على الإطلاق، وإنما أراد أن يجري في درسة لحياة جبران مع عقيدته الشائعة في نفسه (إن الفن مهما تسامى في نظر صاحبه ونظر الناس ليس من الأهمية على شيء ما لم يترجمه صاحبه والناس إلى قوة تنشط بهم من عقالات المعيشة المحدودة إلى حرية الحياة التي لا تحد - من الإنسان في الله إلى الله في الإنسان - والأدب مهما جمل لا معنى له إلا على قدر ما يكشف معنى الحياة الذي هو أثبت من الأرض وأبقى من السماء)
درس النعيمي جبران بهذا المقياس، ويدرس الأدب كله في جبران، والأدب عنده هو مثل أعلى إذا ربط الإنسان به حياته اللحمية والروحية، وهذا مقياس جاد صارم، لا يجعل من الأدب ملهاة، وإنما ينزله منزلة الحياة. . . وأنت واقع في الكتاب على فصول متنوعة، هي بجملتها حياة جبران، وهي بمجموعها تاريخ ذلك الصراع المادي لتذعن له المادة، وذلك الصراع الروحي المستمر لينقي روحه من أدرانها وشهواتها الأرضية. وفسادهما أن صاحبهما يحاول أن يفوز فيهما في وقت واحد
في الكتاب تاريخ جبران الإنسان، وجبران الفنان، وجبران الشاعر؛ تاريخ هؤلاء الأشخاص المفترقين تحت لواء عقل واحد. يمشي كل منهم في طريق؛ ولا يدري أين سلك رفيقه. وعقل جبران يظن أن نفسه هادئة مطمئنة - ونفسه منشقة على نفسها. جبران الإنسان لا يلتقي وجبران الشاعر الفنان إلا بالخيال؛ والخيال وحده لا يكفي إذا لم يقو على الإرادة، ويجنحها بجناحيه ويطير بها إلى حيث شاء
رسم النعيمي في كتابه لجبران وجوهاً كثيرة: منها وجه جبران الفنان، ووجه جبران الإنسان، ووجه جبران الطافح تمرداً، ووجه جبران الهادئ الذي جمدته السنون وارتسمت في غضونه الحكمة. أما جبران الفنان فأنت واجده في كل أدوار حياته التي أثرت فيه وأثر فيها، مهما كان من تباين بين شعره وفنه فالرجل استطاع أن يكون. . . برغم المصاعب التي اعترضته وبفضل المصادفات التي خلقت ذلك وفرضت ذلك. جبران الشاعر كغيره من الناس تسكره الشهرة وتستهويه لمعانها، وهو بعد جهاد عنيف استطاع أن يبلغ بخياله
تلك القمة التي دعاها الناقد قمة (المصطفى) حيث أشرف جبران على الوجود، ونظر إليه بخياله الخالص من تأثير (نيتشه) وغيره، ووقف على معنى (الازدواج) فيه. ولكن جبران الإنسان لم يكن برغم سمو خياله - عاليا سامياً كما تصوره لنا ريشته وبراعته، فهو نسر نشيط كبلته قيود الأرض وشهوات المادة. لم يغنه الفن شيئاً، بل زاد عذابه عذاباً، لأنه كان يكشف لعينيه قباب ذلك الوجود الذهبي ويمنع قدميه الملوثتين من الدخول. . جبران الإنسان تغلي في صدره شهوات ابن المادة، وهو أناني ونصير حب يود أن يكون فيه محبوبه عبداً؛ وهو طالب شهرة لم يستطع فنه أن يحرره من شهرة الناس الذين يكرههم: لا يخرج من - صومعته إلا جبران الفنان، أما جبران الإنسان فهو راس على صدره لا يفر منه إلا إليه. . .
هذا الاختلاف بين شخصين مندمجين في شخص واحد هو موضوع الكتاب
يتساهل النعيمي مع جبران الفنان وحق له أن يتساهل أمام فنه المرن ونزعته الشخصية مهما مازج فنه من عوامل غريبة عن فنه، أما جبران الإنسان فلم يرحم ضعفه ولم يستره بستار الرحمة، لأنه يرى أن رحمته تقوض معتقده الأدبي وتهدم نظرته الفلسفية، وإنما يعتقد أن العبقري الحقيقي لا يجعل من نفسه شخصين مختلفين، ويرى أن الفن الصحيح هو ما نقى النفس من أدرانها وأسوائها، فهل نقى جبرانالفنان جبران الإنسان؟
عمل جبران الفنان على تطهير جبران الإنسان، ورفعه من الهوة إلى القمة. ولكن قدمي جبران الإنسان كانتا من قصب، لا يكاد صاحبهما ينهض عليهما ويمشي قليلاً حتى تتحطما ويلبث مكانه. . . أليس في فرار ميشلين ابنة التراب! من وجه جبران الفنان ابن السماء: أكبر خزي لجبران؟ أليس في تألم الفتاة التي جاءت لتحيي (صاحب

النبي) اعتقاداً منها أنه سيكون أسمى من النبي الذي خلقه أكبر هزيمة لجبران الفنان؟ وهكذا ظل جبران في نزاع مع نفسه حتى قضى ولم يقض لبانته
قد يكون في هذا التصريح بعض ما يجرح، ولكن الحقيقة. . . الحقيقة الإنسانية لا تعرف المراعاة، ولو كان جبران فناناً عادياً لما قاسه النعيمي بهذا المقياس الدقيق الذي لا ينطبق إلا على العباقرة المختارين والنوابغ الموهوبين.
ألم يكن (فيخت) يغلب فيه الإنسان الأخلاقي على الإنسان الفيلسوف؟ والإنسان الأخلاقي
يغلب عليه الإنسان المجرد؛ وهو كلما تجرد ونزع عنه هذه الأقماط بدا أدنى إلى حقيقة السمو والكمال العاري كأنما كان يرتفع فنه معه متناسباً مع ارتفاع نفسه. وهذا هو المثل الأعلى الذي يطلب النعيمي إلى كل فنان يسمو إليه بعقله وجسده، وفنه؛ لا أن يقسم نفسه أقساماً، يضع كل قسم منه حيث يريد
ولا يكفي الإنسان أن يبصر النور ليكون مستنيراً بل عليه أن يجعل ذلك النور هاديه) الأوحد في حياته، وإن في ذلك وحده سراً لانعتاق الأيدي من جحيم المتناقضات، أما السبيل إلى ذلك ففي نبذ كل ما يحجب عنا النور من شهوات أرضية، ونزعات زمنية وطبقاً لهذا الاعتقاد يبين النعيمي (وشعور بالفردية التي لا تأتلف وروح الكلية الشاملة جانباً من حياة جبران - لا كل جوانبه - التي حالت دونه ودون الانعتاق، أو النكران المؤدي إلى الانعتاق.
وهكذا تطلع في هذا القسم على حياة مستقلة بذاتها عن الإنسانية، ومتصلة بذاتها مع الإنسانية؛ عارية كاسية، وإنما هي الحياة كلها بلحمها ودمها وروحها الذي لا يدرك
- 2 -
جبران الثائر وجبران الهادئ
لا يقف الناقد على درسه على جبران الفنان وجبران الإنسان، وإنما هو يعالج - من ناحية ثانية - المؤثرات التي أثرت في جبران، والعوامل المقدرة وغير المقدرة، والمتصلة - كما يقول الناقد - بمكوك الحائك الأكبر وغير المتصلة. فهو يولد مع جبران ويدرج معه من سياحة إلى سياحة، ومن فشل إلى رجاء ومن رجاء إلى فشل. طوراً ينطق جبران بما نطق، وتارة ينطق عن جبران بما لم ينطق. وفي هذه المنطقة يلتقي النعيمي الناقد بجبران الفنان المجرد، لا النعيمي الحامل المثل الأعلى لجبران الضائع وراء نوازعه الأرضية. ولا يمكننا أن نقف على قيمة جبران الأدبية إلا إذا تعمقنا في أحناء حياته. فجبران - في كتاباته - ذو وجوه متعددة، منها وجه المحب المنهزم، وجه المتمرد الثائر، وجه الهادئ الساكن، ووجه المتصوف السامي، وصاحب هذه الوجوه رجل واحد هو جبران. والنعيمي يستعرض هذه الوجوه وجهاً وجهاً دارساً عوالمها محللاً ألوانها
(يتبع)
خليل هنداوي
العدد 90 - بتاريخ: 25 - 03 - 1935
ورد الربيع!
للدكتور عبد الوهاب عزام
دار الفلك دورته، وعاد سيرته، فسرت في أعصاب الأرض هزة الحياة، وتفجرت عروقها بالمياه، وسالت قمم الجبال جداول وأنهاراً، واشتعلت الأرض أزهاراً وأشجاراً تبرجت بعد حياء وخفر ... تثنى على الله بآلاء المطر
صرحت الأرض بمكنونها، وأبانت الحياة عن ضميرها، فنبتت معاني الحياة والجمال، في ألفاظ من الأوراق والنوار
باح الربيع البساتين ... وعطر النفس أنفاس الرياحين
ونفخت أنفاس الربيع الحرى الحياة في كل ذرة، فأخرجت قواها أعشاباً وأزهاراً، فرقتها ألوان، وألفَّتها معان
لم يبق للأرض من سر تكاتمه ... إلا وقد أظهرته بعد إخفاء
أبدت طرائف شتى من زواهرها ... حمراً وصفراً وكل نبت غبراء
أيُّ مسرح للفكر! وأي مجال للخيال! وأي مراد للطرف!
دنيا معاش للورى حتى إذا ... جاء الربيع فإنما هي منظر!

وفي أرجواني من النور أحمر ... يشاب يا فرند من الروض أخضر
إذا ما الندى وافاه صبحاً تمايلت ... أعليه من در نثير وجوهر
إذا قابلته الشمس رد ضياءها ... عليها صقال الأقحوان المنور
والطير مغردات كأن أصواتها ذوب هذه الألوان، وكأن ألوان الروض جمد هذه الألحان.
يهتز الطائر الغريد على الغصن الأملود فيقرأ ما تحته من صفحات الجمال، كأنما الطير
إبر الحاكيات تنطق بما تضمنت الصفحات من نغمات - والعصفور مرح تتداوله
الأغصان، وتتهاداه الأفنان، تارة في انتزاء، بين الأرض والسماء، وتارة تغيبه الحديقة،
كأنه في هذا الجمال فكرة دقيقة. صغير تملأ الهواء نغماته، وضئيل تشغل الجو خفقاته
والفراش قلق بين النوار، هائم بين الأزهار، لا يقر له قرار، كأن كل فراشة زهرة
طائرة، أو قبلة بين الأزهار حائرة، أو نغمة في جمال الروض سائرة!
والشعراء ينافسون الطير على الأيك طرباً وتغريداً، وفي المرح تسبيحاً وتحميدا.
تنبجس
في جوانحهم ينابيع البيان، وتتفتح سرائرهم عن أزهار الشعر. ففي كل قلب ربيع، ومن
كل قصيدة روض، وفي كل معنى وردة، وعلى كل قافية نغمة
هكذا تفيض الحياة على الجماد والنبات والحيوان، وينتظم الجمال الخليقة والإنسان،
كأنما العالم كله فكرة واحدة، أو قصيدة خالدة!
ذلكم الربيع الذي فتن الناس فافتنوا في وصفه، والإبانة عن محاسنه، والإشادة بذكره،
والاحتفال بمقدمه. فاتخذته الأمم على اختلاف المذاهب عيداً، ومجدته بشتى الوسائل
تمجيداً، وأولع به الشعراء في كل قبيل، ولم يخل من المفتونين به جيل
والناس في مصر ربيع دائم، من أرضهم وسمائهم، وزرعهم ونيلهم. فهم لا يحسون
مقدم الربيع إلا قليلاً. ولو أنهم عرفوا كلب الشتاء، وانجماد الهواء، وقشعريرة الأرض،
وقسوة السماء، ورأوا كيف تموت الطبيعة في زمن، وتلتف من الثلج في كفن
وقد غاب في الثلج الربيع وحسنه ... كما اكتن في بيض فراخ الطواوس
ثم شهدوا كيف يأتي الربيع فيكهرب كل ذرة، ويفيض كل عين ثرة، ويخلق كل نضرة،
لاحتفوا بالربيع احتفاء غيرهم، وعرفوا فيه النشور بعد الموت.
على أن للربيع في مصر دقائق يسر لها الإنسان، وشيات أبصرها الشعراء في كل
زمان
جاء الربيع فليت في كل قلب من صفائه قطرة، وفي كل نفس من جماله زهرة، وفي
كل خلق من عبيره نفخة، لتعمر النفوس بمعاني الحياة، وتستنير بأشعة الجمال،
ويسكن الناس إلى السعادة حيناً، وينسوا أساليب العداوة والبغضاء زمناً. وليت الناس
جروا مع الحياة طلقها، ولم يفسدوا على الطبيعة خلقها، فأنبت الربيع في كل قسوة
رحمة، وفي كل يأس أملاً، وفي كل حزن سروراً، وفي كل ظلام نوراً، ليتهم اجتمعوا
على ورد الحياة متصافين، كما ترف على جداول الربيع الرياحين
ولكن الإنسان قد حاول بادعائه وكبريائه أن يكون عالماً بذاته، فكان نشوزاً في نغم)
الكون ونفوراً في نظام العالم! فلو أنه اقتصد في تصنعه وائتلف كما كان بالطبيعة، لا
تحد الآن مع الربيع فشعر بتدفق الحياة في جسمه، وإشراق الصفاء في نفسه، وانبثاق
الحب في قلبه، وأحسن أنه هو في وقت واحد زهرة تفوح، وخضرة تروق، وطائر
يشدو، وطلاقة تفيض على ما حولها البشر والبهجة!)
وبعد فان لكل ظاهرة من ظواهر الطبيعة رسالة بليغة تؤديها إلى النفوس الشاعرة)
والفطر السليمة، فليت شعري أية رسالة يحملها الربيع إلى ذوي القلوب الواعية منا؟
قابل أيها القارئ بين الشتاء والربيع، بين رقدة الطبيعة ونهضتها، وإن شئت فبين موتها
ونشورها، فستجد هذه الدورة على قصر أمرها قد تضمنت حكمة الحياة كلها. والى
هذه الحقيقة يشير الربيع في رسالته إلى الناس!
عبد الوهاب عزام
بين خروفين
للأستاذ مصطفى صادق الرافعي
اجتمع ليلة الأضحى خروفان من أضاحي العيد، فتكلما؛ فماذا يقولان؟
هذا هو الموضوع الذي استخرجه لي أصغر أولادي (الأستاذ) عبد الرحمن، وسألني أن
أكتب فيه للرسالة، وهو أصغر قرائها سنا ترف عليه النسمة الثالثة عشرة من ربيع

حياته - بارك الله لها فيها حاضرة ومقبلة
ولأستاذنا هذا كلمة هي شعاره الخاص به في الحياة، يحفظها لتحفظه، فلا يميل عن مدرجتها، ولا يخرج من معناها؛ وهي هذه الكلمة العربية: (كالفرس الكريم في ميعة حضره، كلما ذهب منه شوط جاء شوط).
فهو يعلم من هذا أن كرم الأصل في كرم الفعل، ولا يغني شيء منهما عن شيء؛ وأن الدم الحر الكريم يكون مضاعف القوة بطبيعته، عظيم الأمل بهذه القوة المضاعفة، نزاعاً إلى السبق بمقدار أمله العظيم، مترفعاً عن الضعف والهوينا بهذا النزوع، متميزاً في نبوغ عمله وإبداعه باجتماع هذه الخصال فيه على أتمها وأحسنها. فمن ثم لا يرمي الحر الكريم إلا أن يبلغ الأمد الأبعد في كل ما يحاوله، فلا يألو أن يبذل جهده إلى غاية الطاقة ومبلغ القدرة، مستمداً قوة بعد قوة، محققاً السحر القادر الذي في نفسه، متلقياً منه وسائل الإعجاز في أعماله، مرسلا في نبوغه من توهج دمه أضواء كأضواء النجم، تثبت لكل ذي عينين أنه النجم لا شيء آخر
ولما قدم إلى (الأستاذ) موضوعه في هذا الوزن المدرسي
وأظنه قد نزعته حاجته مدرسية إليه - قلت: حباً وكرامة. وهاأنذا أكتبه منبعثاً فيه - (كالفرس الكريم في ميعة حضره). . . ولعل الأستاذ حين يقرؤه لا يثور فيه علامات كثيرة بقلمه الأحمر. . .!
اجتمع ليلة الأضحى خروفان من الأضاحي في دارنا: أما أحدهما فكبش أقرن، يحمل على رأسه من قرنيه العظيمين شجرة السنين، وقد انتهى سمنه حتى ضاق جلده بلحمه، وسح بدنه بالشحم سحاً، فإذا تحرك خلته سحابة يضطرب بعضها في بعض، ويهتز شيء منها في شيء؛ وله وافرة يجرها خلفه جراً، فإذا رأيتها من بعيد حسبتها حملا يتبع أباه؛ وهو
أصوف، قد سبغ صوفه واستكثف وترا كم عليه؛ فإذا مشى تبختر فيه تبختر الغانية في حلتها، كأنما يشعر مثل شعورها أنه يلبس مسرات جسمه لا ثوب جسمه؛ وهو من اجتماع قوته وجبروته أشبه بالقلعة يعلوها من هامته كالبرج الحربي فيه مدفعان بارزان. وتراه أبدا مصعراً خده كأنه أمير من الأبطال، إذا جلس حيث كان شعر أنه جالس في أمره ونهيه، لا يخرج أحد من نهيه ولا أمره
وأما الآخر فهو جذع في رأس الحول الأول من مولده، لم يدرك بعد أن يضحى، ولكن جيء به للقرم إلى لحمه الغض؛ فالأول أضحية وهذا أكولة؛ وذاك يتصدق بلحمه كله على الفقراء، وهذا يتصدق بثلثيه ويبقى الثلث طعاماً لأهل الدار
وكان في لينه وترجرجه وظرف تكوينه ومرح طبعه، كأنما يصور المرأة آنسة رقيقة متوددة. أما ذاك الضخم العاتي المتجبر الشامخ، فهو صورة الرجل الوحشي أخرجته الغابة التي تخرج الأسد والحية وجذوع الدوحة الضخمة، وجعلت فيه من كل شيء منها شيئاً يخاف يتقي
وكان الجذع يثغو لا ينقطع ثغاؤه، فقد أخذ من قطيعه انتزاعاً فأحس الوحشة وتنبهت فيه غريزة الخوف من الذئب، فزادته إلى الوحشة قلقاً واضطراباً؛ وكان لا يستطيع أن ينفلت، فهو كأنما يهرب في الصوت ويعدو فيه عدوا
أما الكبش فيرى مثل هذا مسبة لقرنيه العظيمين، وهو إذا كان في القطيع كان كبشه وحاميه والمقدم فيه، فيكون القطيع معه وفي كنفه ولا يكون هو عند نفسه مع القطيع؛ فإذا فقد جماعته لم يكن في منزلة المنتظر أن يلحق بغيره ليحتمي به فيقلق ويضطرب، ولكنه في منزلة المرتقب أن يلحق به غيره طلباً لحمايته وذماره، فهو ساكن رابط الجأش مغتبط النفس، كأنما يتصدق بالانتظار. . .
فلما أدبر النهار وأقبل الليل، جيء للخروفين بالكلأ من هذا البرسيم يعتلفانه، فأحس الكبش أن في الكلأ شيئاً لم يدر ما هو، وانقبضت نفسه لما كانت تنبسط إليه من قبل، وعرته كآبة من روحه، كأنما أدركت هذه الروح أنه آخر رزقه على الأرض، فانكسر وظهر على وجهه معنى الذبح قبل أن يذبح، وعاف أن يطعم، ورجع كأول فطامه عن أمه لا يعرف كيف يأكل، ولا يتناول من أكله إلا أدنى تناول
وكأنما جثم الظلام على شحمه ولحمه؛ فانه متى ثقل الهم على نفس من الأنفس ثقل على ساعتها التي تكون فيها، فتطول كآبتها ويطول وقتها جميعاً.
فأراد الكبش أن يتفرج مما به؛ وينفس عن صدره شيئاً، وكان الصغير قد أنس إلى

المكان والظلمة، وأقبل يعتلف ويخضم الكلأ، فقال له الكبش: أراك فارهاً يا ابن أخي، كأنك لا تجد ما أجد؛ إني والله أعلم علماً لا تعلمه، وإني لأحس أن القدر طريقة علينا في هذه الليلة، فهو مصبحنا ما من ذلك بد

قال الصغير: أتعني الذئب؟

قال: ليته هو، فأنا لك به لو أنه الذئب؛ إن صوفي هذا درع من أظافره، وهو كالشبكة ينشب فيها الظفر ولا يتخلص، ومن قرني هذين ترس ورمح، فأنا واثق من إحراز نفسي في قتاله، ومن أحرز نفسه من عدوه فذاك قتل عدوه، فان لم يقتله فقد غاظه بالهزيمة، وذاك عند الأبطال فن من القتل.

وهذا القرن الملتف الأعقد المذرب كالسنان، لا يكاد يراه الذئب حتى يعلم أنه حاطمة عظامه، فيحدث له من الفزع ما تنحل به قوته، فما يواثبني إلا متخاذلاً، ولا يقدم على إلا توهم الذئبية للخروفية، فان أساس القوة والضعف كليهما في السوس والطبيعة، غبر أنه لا يعلم أني خرجت من الخروفية إلى الجاموسية. . .!

فما يعلمه ذلك إلا بقر بطنه أو التطويح به من فوق هذا القرن، أقذفه قذفه عالية تلقيه من حالق، فتدق عظامه وتحطم قوائمه!

قال الصغير: فماذا تخشى بعد الذئب؟ إن كانت العصا فهي إنما تضرب منك الصوف لا الظهر

قال الكبش: ويحك! وأي خروف يخشى العصا؟ وهي إنما تكون عصا من يعلفه ويرعاه، فهي تنزل عليه كما تنزل على ابن آدم أقدار ربه، لا حطماً ولكن تأديباً أو إرشاداً أو تهويلاً؛ ومن قبلها النعمة وتكون معها النعمة وتجيء بعدها النعمة؛ أفبلغ الكفر منا ما يبلغ كفر الإنسان بنعمة ربه؛ إذا أنعم عليه أعرض ونأى بجانبه، وإذا مسه الشر انطلق ذا صراخ عريض؟

وكيف تراني (ويحك) أخشى الذئب أو العصا، وأنا من سلالة الكبش الأسدي؟

قال الصغير: وما الكبش الأسدي، وكيف علمت أنك من نجله، ولا علم لي أنا إلا هذا الكلأ والعلف والماء، والمراح والمغدى؟

قال الكبش: لقد أدركت أمي وهي نعجة قحمة كبيرة، وأدركت معها جدتي وقد أفرط عليها الكبر حتى ذهب فمها، وأدركت معهما جدي وهو كبش هرم متقدد أعجف كأنه عظام مغطاة، فعن هؤلاء أخذت ورويت وحفظت

حدثتني أمي، عن أبيها، عن أبيه، قالت: إن فخر جنسنا من الغنم يرجع إلى كبش الفداء الذي فدى الله به إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وكان كبشاً أبيض أقرن أعين، اسمه حرير

واعلم يا ابن أخي أن مما انفردت أنا به من العلم فلم يدركه غيري، أن جدنا (قال). هذا كان مكسواً بالحرير لا بالصوف، فلذلك سمي حريراً. . . (قالت أمي): والمحفوظ عند علمائنا أن ذاك هو الكبش الذي قربه هابيل حين قتل أخاه لتم البلية على هذه الأرض بدم الإنسان والحيوان معاً (قالوا): فتقبل منه وأرسل الكبش إلى الجنة فبقي يرعى فيها حتى كان اليوم الذي هم فيه إبراهيم أن يذبح ابنه تحقيقاً لرؤيا النبوة، وطاعة لما ابتلى به من ذلك الامتحان، وليثبت أن المؤمن بالله إذا قوى إيمانه لم يجزع من أمر الله ولو جر السكين على عنق ابنه، وهو إنما يجرها على ابنه وعلى قلبه!

(قالت) فهذا هو فخر جنسنا كله

أما فخر سلالتي أنا، فذاك ما حدثتني به جدتي، ترويه عن أبيها عن جدها، وذاك حين توسمت في مخايل البطولة، ورجت أن أحفظ التاريخ. قالت: إن أصلنا من دمشق، وإنه كان في هذه المدينة رجل سباع، قد اتخذ شبل أسد فرباه وراضه حتى كبر، وصار يطلب الخيل، وتأذي به الناس، فقيل للأمير: هذا السبع قد آذى الناس، والخيل تنفر منه وتجد من ريحه ريح الموت، وهو ما يزال رابضاً ليله ونهاره على سدة بالقرب من دارك. فأمر فجاء به السباع وأدخله إلى القصر، ثم أمر بخروف مما اتخذ في مطبخه للذبح، وأدخلوه إلى قاعة، وجاء السباع فأطلق الأسد عليه، واجتمعوا يرون كيف يسطو به ويفترسه

قالت جدتي: فحدثني أبي، قال: حدثني جدك: أن السباع أطلق الأسد من ساجوره وأرسله، فكانت المعجزة التي لم يفز بها خروف ولم تؤثر قط إلا عن جدنا، فانه حسب الأسد خروفاً

أجم لا قرون له، ورأى دقة خصره، وضمور جنبيه، ورأى له ذيلاً كالألية المفرغة الميتة، فظنه من مهازيل الغنم التي قتلها الجدب، وكان هو شبعان ريان، فما كذب أن حمل على الأسد ونطحه، فانهزم السبع مما أذهله من هذه المفاجأة، وحسب جدنا سبعاً قد زاده الله أسلحة من قرنيه، فاعتراه الخوف وأدبر لا يلوى. وطمع جدنا فيه فاتبعه، وما زال يطارده وينطحه، والأسد يفر من وجهه ويدور حول البركة، والقوم قد غلبهم الضحك، والأمير ما يملك نفسه إعجاباً وفخراً بجدنا فقال: هذا سبع لئيم، خذوه فأخرجوه، ثم اذبحوه، ثم اسلخوه. فأخذ الأسد وذبح، وأعتق جدنا من الذبح، وكان لنا في تاريخ الدنيا إنسانها وحيوانها أثران عظيمان، فجدنا الأول كان فداء لابن نبي، وجدنا الثاني كان الأسد فداءه!

قال الصغير للكبش: قلت: الذبح، والفداء من الذبح؛ فما الذبح؟

قال الكبش: هذه السنة الجارية بعد جدنا الأعظم، وهي الباقية آخر الدهر؛ فينبغي لكل منا أن يكون فداء لابن آدم! قال الصغير: أبن آدم هذا الذي يخدمنا ويحتز لنا الكلأ، ويقدم لنا العلف، ويمشي وراءنا فنسحبه إلى هنا وههنا. . .؟

. . .تالله ما أظن الدنيا إلا قد انقلبت، أو لا، فأنت يا أخا جدي قد كبرت وخرفت!

قال الكبش: ويحك يا أبله! متى تتحلل هذه العقدة التي في عقلك؟ انك لو علمت ما أعلم لما اطمأنت بك الأرض، ولرجعت من القلق والاضطراب كحجة القمح في غربال يهتز وينتفض!

قال الصغير: أتعني ذلك الغربال وذلك القمح وما كان في القرية، إذ تناولت ربة الدار غربالها تنفض به قمحها، فغافلتها ونطحت الغربال فانقلب عن يدها وانتثر الحب، فأسرعت فيه التقاطاً حتى ملأت فمي قبل أن تزيحني المرأة عنه؟

فهز الكبش رأسه فعل من يريد الابتسام ولا يستطيعه، وقال: أرأيت حانوت القصاب ونحن نمر اليوم في السوق؟

قال: وما حانوت القصاب؟

قال: أرأيت ذلك السليخ من الغنم البيض المعلقة في تلك المعالق لا جلد عليها ولا صوف وليس لها أرؤس ولا قوائم؟

قال الصغير وما ذاك السليخ؟ إنه إن صح ما حدثتني به عن أمك، فهذه غنم الجنة، تبيت ترعى هناك ثم تجيء إلى الأرض مع الصبح، وإني لمترقب شمس الغد، لأذهب فأراها وأملأ عيني منها

قال: اسمع أيها الأبله! إن شمس الغد ستشعر بها من تحتك لا من فوقك. . .! لقد رأيت أخي مذ كنت جذعاً مثلك؛ ورأيت صاحبنا الذي كان يعلفه ويسمنه، قد أخذه، فاضطجعه، فجثم على صدره شراً من الذئب، وجاء بشفرة بيضاء لامعة، فجرها على حلقه، فإذا دمه يشخب ويتفجر، وجعل المسكين ينتفض ويدحص برجله، ثم سكن وبرد؛ فقام الرجل ففصل عنقه، ثم نخس في جلده ونفخه حتى تطبل وذرجع كالقربة التي رأيتها في القرية مملوءة ماء فحبستها أمك؛ ثم شق فيه شقاً طويلاً. ثم أدخل يده بين الجلد والصفاق، ثم كشطه وسحف الشحم عن جنبيه، فعاد المسكين أبيض لا جلد له ولا صوف عليه، ثم بقر بطنه وأخرج ما فيها، ثم حطم قوائمه، ثم شده فعلقه فصار سليخاً كغنم الجنة التي زعمت! وهذا - أيها الأبله - هو الذبح والسلخ!

قال الصغير: وما الذي أحدث هذا كله؟

قال: الشفرة البيضاء التي يسمونها السكين!

قال الصغير: فقد كانت الشفرة عن حلقه حيال فمه؛ فلماذا لم ينتزعها فيأكلها؟

قال الكبش: أيها الأبله الذي لا يعلم شيئاً ولا يحفظ شيئاً، لو كانت خضراء لأكلها!

قال: وما خطب أن تجيء الشفرة على العنق، أفلم يكن الحبل في عنقك أنت فجعلت تجاذب فيه الرجل حتى أعييته، ولولا أني مشيت أمامك لما انقدت له؟

قال الكبش: ما أدري كيف أفهمك إن هذا كله سيجري عليك، فسترى أموراً تنكرها، فتعرف ما الذبح والسلخ، ثم تصير أشلاء في القدور تضرم عليها النار، فيأكلك ابن آدم كما تأكل أنت هذا الكلأ. . .!

قال الصغير: وماذا علي أن يأكلني ابن آدم، ألا تراني آكل العشب، فهل سمعت عوداً منه يقول: الرجل والسكين، والذبح والسلخ. . .؟

قال الكبش في نفسه: لعمري إن قوة الشباب في الشباب أقوى من حكمة الشيوخ في الشيوخ، وما نفع الحكمة إذا لم تكن إلا رأياً ليس له ما يمضيه، كرأي الشيخ الفاني؛ يرى بعقله الصواب حين يكون جسمه هو الخطأ مركباً في ضعفه غلطة على غلطة لا عضواً على عضو. .؟ وهل الرأي الصحيح للعالم الذي نعيش فيه إلا بالجسم الذي نعيش به؛ وما جدوى أن يعرف الكبير حكمة الموت، وهو من الضعف بحيث تنكسر نفسه للمرض الهين، فضلاً عن المرض المعضل، فضلاً عن المرض المزمن، فضلاً عن الموت نفسه؛ وما خطر أن يجهل الشباب تلك الحكمة، وهو من قوة النفس بحيث لا يبالي الموت، فضلاً عن المرض؟

لو أذن الشباب من الفتيان بيوم انقطاع أجله، وعلم أنه مصبحه أو ممسيه، لأمدته نفسه بأرواح السنين الطويلة حتى ليرى أن صبح الغد كأنما يأتي من وراء ثلاثين أو أربعين سنة، فما يتبينه إلا كالفكر المنسي مضى عليه ثلاثون سنة أو أربعون. ولو أذن الشيخ بيوم مصرعه، وأيقن أن له مهلة إلى تمام الحول، لطار به الذعر واستفرغهالوجل من ساعته ورأى يومه البعيد أقرب إليه من الصبح. وابتلته طبيعة جسمه المختل بالوساوس الكثيرة، تجتلبها له كما تجتلب الرياح صدوع المنزل الخرب. فذاك بالشباب يقبض على الزمن، فيعيش في اليوم القصير مثل العام رخياً ممدوداً، فهو رابط جلد؛ وهذا بالكبر يقبض الزمن عليه، فيعيش في العام الطويل مثل اليوم متلاحقاً آخره بأوله، فهو قلق طائر. ولا طبيعة للزمن إلا طبيعة الشعور به، ولا حقيقة للأيام إلا ما تضعه النفس في الأيام

ثم إن الكبش نظر فرأى الصغير قد أخذته عينه واستثقل نوماً، فقال هنيئاً لمن كان فيه سر الأيام الممدودة. إن هذا السر هو كسر النبات الأخضر، لا يقطع من ناحية إلا ظهر من غيرها ساخراً هازئاً، قائلاً على المصائب: هاأنذا . .

فهذا الصغير ينام ملء عينيه والشفرة محدودة له، والذبح بعد ساعات قليلة؛ كأنما هو في زمنين أحدهما من نفسه، فبه ينام، وبه يلهو، وبه يسخر من الزمن الآخر وما فيه وما يجلبه

إن الألم هو فهم الألم لا غير. فما أقبح علم العقل إذا لم يكن معه جهل النفس به وإنكارها إياه. حسب العلم والعلماء في السخرية بهم وبه هذه الحقيقة من النفس. أنا لو ناطحت كبشاً من قروم الكباش، ووقفت أفكر وأدبر وأتأمل، وأعتبر شيئاً بشيء - ذهب فكري بقوتي واسترخى عصبي وتحلل غضبي كله وكان العلم وبالاً علي؛ فإن حاجتي حينئذ إلى الروح وقواها وأسبابها أضعاف حاجتي إلى العلم. والروح لا تعرف شيئاً اسمه الموت، ولا شيئاً

اسمه الوجع؛ وإنما تعرف حظها من اليقين، وهدوءها بهذا الحظ، واستقرارها مؤمنة ما دامت هادئة مستيقنة

وقد والله صدق هذا الجذع الصغير؛ فما على أحدنا أن يأكله الإنسان. وهل أكلناه نحن هذا العشب، وأكل الإنسان إيانا، وأكل الموت للإنسان - هل كل ذلك إلا وضع للخاتمة في شكل من أشكالها؟

يشبه والله إن أنا احتججت على الذبح واغتممت له أن أكون كخروف أحمق لا عقل له، فظن إطعام الإنسان إياه من باب إطعامه ابنه وابنته وامرأته ومن تجب عليه نفقته! وهل أوجب نفقتي على الإنسان إلا لحمي؟ فإذا استحق له فلعمري ما ينبغي لي أن أزعم أن ظلمني اللحم إلا إذا أقررت على نفسي بدياً أني أنا ظلمته العلف وسرقته منه

كل حي فإنما هو شيء للحياة أعطيها على شرطها، وشرطها أن تنتهي؛ فسعادته في أن يعرف هذا ويقرر نفسه عليه حتى يستيقنه كما يستيقن أن المطر أول فصل الكلأ الأخضر. فإذا فعل وأيقن واطمأن، جاءت النهاية متممة له لا ناقصة إياه، وجرت مع العمر مجرى واحداً وكان قد عرفها وأعد لها. أما إذا حسب الحي أنه شيء في الحياة، وقد أعطيها على شرطه هو، من توهم الطمع في البقاء والنعيم، فكل شقاء الحي في وهمه ذاك وفي عمله على هذا الوهم؛ إذ لا تكون النهاية حينئذ في مجيئها إلا كالعقوبة أنزلت بالعمر كله، وتجيء هادمة منغصة، ويبلغ من تنكيدها أن تسبقها آلامها؛ فتؤلم قبل أن تجيء، شراً مما تؤلم حين تجيء!

لقد كان جدي والله حكيماً يوم قال لي: إن الذي يعيش مترقباً النهاية يعيش معداً لها؛ فإن كان معداً لها عاش راضياً بها، فإن عاش راضياً بها كان عمره في حاضر مستمر، كأنه في ساعة واحدة يشهد أولها ويحس آخرها، فلا يستطيع الزمن أن ينغص عليه مادام ينقاد معه وينسجم فيه، غير محاول في الليل أن يبعد الصبح، ولا في الصبح أن يبعد الليل. قال لي جدي: والإنسان وحده هو التعس الذي يحاول طرد نهايته، فيشقى شقاء الكبش الأخرق الذي يريد أن يطرد الليل، فيبيت ينطح الظلمة المتدجية على الأرض، وهو لحمقه يظن أنه ينطح الليل بقرنيه ويزحزحه. . .!

وكم قال لي ذلك الجد الحكيم وهو يعظني: إن الحيوان منا إذا جمع على نفسه هماً واحداً صار بهذا الهم إنساناً تعساً شقياً، يعطي الحياة فيقلبها بنفسه على نفسه شيئاً كالموت، أو موتاً بلا شيء. . .!

وتحرك الصغير من نومه، فقال له الكبش: إنه ليقع في قلبي أن الساعة كنت في شأن عظيم، فما بالك منتفخاً وأنت ههنا في المنحر لا في المرعى!

قال الصغير: يا أخا جدي. . . لقد تحققت أنك هرمت وخرفت، وأصبحت تمج اللعاب والرأي. . .!

قال الكبش: فما ذاك ويلك؟

قال: إنك قلت: إن هذا الإنسان غاد علينا بالشفرة البيضاء، ووصفت الذبح والسلخ والأكل؛ وأنا الساعة قد نمت فرأيت فيما أرى، أنني نطحت ذلك الرجل الذي جاء بنا إلى هنا، وهجت به حتى صرعته، ثم إني أخذت الشفرة بأسناني، فثلمته في نحره حتى ذبحته، ثم افتلذت منه مضغة فلكتها في فمي؛ فما عرفت والله فيما عرفت لحماً ولا عفناً في الكلأ هو أقبح مذاقاً منها

إن الإنسان يستطيب لحمنا ويتغذى بنا ويعيش علينا؛ فما أسعدنا أن نكون لغيرنا فائدة وحياة، وإذا كان الفناء سعادة نعطيها من أنفسنا، فهذا الفناء هو سعادة نأخذها لأنفسنا. وما هلاك الحي لقاء منفعة له أو منفعة منه إلا انطلاق الحقيقة التي جعلته حياً، صارت حرة فانطلقت تعمل أفضل أعمالها

قال الكبير: لقد صدقت والله، ونحن بهذا أعقل وأشرف من الإنسان؛ فإنه يقضي العمر آخذاً لنفسه، متكالباً على حظها ولا يعطي منها إلا بالقهر والغلبة والخوف. تعال أيها الذابح، تعال خذ هذا اللحم وهذا الشحم؛ تعال أيها الإنسان لنعطيك، تعال أيها الشحاذ. . . . .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

مصر بين ثقافتين

الصراع القديم بين الإنكليزية والفرنسية وموقف مصر من ذلك الصراع

للأستاذ محمد عبد الله عنان

يعرف المتصلون بدوائر التعليم والثقافة في مصر أن صراعاً قوياً يجري بين الثقافتين الفرنسية والإنكليزية، تارة في الجهر وتارة في الخفاء. وقد كان تيار الثقافة الفرنسية هو الظافر حتى أواخر القرن الماضي، وكان يغمر المجتمع المصري المثقف، فلما رسمت سياسة الاحتلال الإنكليزية خطط الغزو المعنوي، اهتمت بنظم التعليم والتربية، وأخذت تعمل لتوجيهما بما يوطد نفوذ الثقافة الإنكليزية ويطبع الجيل الجديد بحبها والتعلق بها، فقلبت نظم التعليم، وحلت الإنكليزية مكان الفرنسية في معظم المواد، وتولى الأساتذة الإنكليز مقاليد الإدارة والتعليم في معظم المعاهد، وتحول سيل البعثات الحكومية من فرنسا إلى إنكلترا؛ ولم يمض ربع قرن حتى تم الانقلاب المنشود، وأسبغت على سياسة التربية والتعليم في مصر صبغتها الإنكليزية المحضة، وخرج الجيل الجديد من الشباب المتعلم يحمل تيار الثقافة الإنكليزية، وتضاءل نفوذ الثقافة الفرنسية وانحصر في بعض الجهات والمعاهد الأجنبية التي تعمل على نشرها

كان هذا الصراع بين الثقافتين الأجنبيتين على حساب لغتنا العربية وثقافتنا القومية، فلم تصب العربية خلاله حظاً يذكر من التقدم، وأغفلت كل المثل والاعتبارات القومية من برامج التعليم والتربية، وأوشك هذا الغزو الاستعماري المعنوي أن يقضي على

أرواحنا وعقولنا، لولا أن وثبت البلاد وثبتها الوطنية في سنة 1919، وتذرعت للمقاومة بما بقى لها من العناصر الحيوية الكامنة، واستطاعت أن تحول السياسة الاستعمارية عما كانت تعتزمه من خطط الاستئثار الشنيع والقضاء على الحقوق والأماني الوطنية نهائياً، وأن تحرز بعض الغنم في ميادين السيادة القومية. وكان التعليم أحد هذه الميادين، فحررت نظمه وبرامجه من أغلالها القديمة نوعاً، وأنصفت اللغة العربية وأخذت تتبوأ مكانها اللائق كلغة أساسية لتدريس المواد في معظم المعاهد ومراحل التعليم، وكان ذلك ظفراً حقيقياً للغة البلاد

ولكن هذا التطور في ميدان التعليم والثقافة لم يحل دون استمرار المعركة القديمة بين الثقافتين الإنكليزية والفرنسية؛ فقد بقيت الفرنسية لغة إضافية في التعليم الثانوي، وضعف تيار الإنكليزية بما أتيح للعربية من مجال قوى للعمل والمنافسة؛ وظهر الضعف في الإنكليزية بين الطلبة قوياً، وأخذ نفوذ الثقافة الإنكليزية الذي كان متمكناً منذ عشرة أعوام فقط، يتضاءل بسرعة؛ واهتم الإنكليز لهذه الظاهرة؛ وبحث ولاة الأمر في أسباب ضعف الطلبة في اللغة الأجنبية الأساسية أعني الإنكليزية، وتضاربت فيه الآراء الفنية والعملية؛ أما نحن فلنا فيه رأى لا نرى بأساً من إبدائه. وهو أن هذا الضعف لا يرجع فقط إلى قصور الجيل الجديد من الأساتذة الإنكليز، ولكنه يرجع بالأخص إلى عوامل قومية، خلاصتها أن الخصومة القائمة بين مصر وإنكلترا تحمل الطالب المصري الذي أشربت نفسه بمبادئ الوطنية على نوع من الأسف والغضاضة لتلقي لغة الأمة الخصيمة على يد بعض أبنائها، وأن الأساتذة الإنكليز لا يؤدون مهمتهم في المعاهد المصرية كأساتذة فقط، ولكنهم رسل استعمار وسيادة أجنبية. ينظرون إلى الطلبة نظرة السادة إلى الرعايا والمحكومين. وفي أقوالهم وإشاراتهم دائماً مل يجرح شعور العزة القومية في هذه النفوس الغضة ويزهدها في بضاعة هؤلاء الأساتذة المتكبرين، ولو قام بتدريس الإنكليزية أساتذة مصريون ممن تخصصوا في دراستها، لكان ذلك أجدى وأنفع، ولزال كثير من أسباب هذه الشكوى

ولسنا نقف طويلاً بهذه النقطة، وهي ثانوية في نظرنا؛ ولكنا نريد أن أن نعرض إلى ما هو أهم من أطوار هذه المعركة المستمرة بين الثقافتين الإنكليزية والفرنسية؛ فقد طلب ولاة الأمر في وزارة المعارف أخيراً إلى بعض الأساتذة الإنكليز أن يبدوا رأيهم في سبب ضعف الطلبة في اللغة الإنكليزية، فصرحوا في تقريرهم الذي رفعوه إلى وزير المعارف بأن من أهم أسباب هذا الضعف في نظرهم هو اشتغال الطلبة بدراسة لغة أجنبية إضافية هي الفرنسية إلى جانب اللغة الأجنبية الأصلية وهي الإنكليزية، وإنه يجب إلغاء تدريس اللغة الفرنسية من التعليم الثانوي إذا أريد أن يتفرغ الطلبة لدراسة الإنكليزية وأن تقوي مادتهم فيها. وقد كان إبداء هذا الرأي مثاراً لكثير من الجدل، ولاسيما من جانب الأساتذة الفرنسيين ومحبي الثقافة الفرنسية وأنصارها، فأخذوا يفندون رأي أساتذة الإنكليز ويدللون

على أهمية الثقافة الفرنسية بالنسبة لمصر ووجوب تفضيلها على أية ثقافة أجنبية أخرى

وموقف الأساتذة الإنكليز من اللغة الفرنسية طبيعي معقول، وسواء أكان رأيهم فنياً مجرداً عن كل اعتبار أدبي آخر، أم كان مغرضاً موحى به، فلا ريب أنه يمثل ناحية من نواحي هذه المعركة الخالدة بين الثقافتين الأجنبيتين اللتين تتنازعان النفوذ في مصر منذ نصف قرن. ويلوح لنا أنه من جهة أخرى رأي عملي سليم من الوجهة الفنية إذا جرد عما قد يكون وراءه من الاعتبارات والعوامل؛ فالطالب إذا تفرغ لدرس لغة أجنبية واحدة دون أن تزعجه لغة أجنبية إضافية أخرى، يستطيع أن يحرز في هذه اللغة شيئاً من التقدم. ومادام أن ظروفاً سياسية خاصة تقضي بأن تكون الإنكليزية هي اللغة الأجنبية الأساسية في مصر إلى جانب اللغة العربية، ومادام أن مصر لا تستطيع في الوقت الحاضر أن تقرر اختيارها حراً مطلقاً، فلا مناص من أن نصدع بالأمر الواقع، وأن نبحث المسألة على ضوء هذه الحقيقة

الإنكليزية هي اللغة الأجنبية الأساسية التي تقررت في نظام تعليمنا. ومن المسلم به أن تعليم اللغات الأجنبية الحية عنصر جوهري من عناصر الثقافة الناضجة، وفي جميع الأمم العظيمة التي تتمتع بحضارة رفيعة، تعلم لغة أجنبية أو أكثر إلى جانب اللغة القومية؛ وهذا ما تفعله مصر بتعليم الإنكليزية. ومن المحقق أن الإنكليزية في مقدمة

لغات الأرض انتشاراً وأهمية، وأن الثقافة والآداب الإنكليزية في طليعة الثقافات والآداب العالية الرفيعة. ولكن من سوء الطالع، أن تكون الإنكليزية في مصر إلى جانب هذه الاعتبارات العلمية، أداة للنفوذ الاستعماري؛ ومن مصائب مصر أنها مازالت مسرحاً للمنافسات الأجنبية؛ الثقافة الفرنسية أو بعبارة أخرى الثقافة اللاتينية، والثقافة الأنجلوسكسونية، واللغة الألمانية، واللغة الإيطالية، كل تحتل مقامها في هذه البلاد، وكل تحاول أن تدعم نفوذها وأن تزيده بطريق المدارس والبعثات الدينية والمؤسسات الخيرية المقنعة، وكل تدعي لأبنائها بعض الإدارات والمناصب الفنية في الحكومة المصرية قياساً على الماضي كأن الزمن لم يتغير، ولم تحرز مصر تقدماً، ولم تجش بأمنية التحرر من هذه الوصايات الخطرة

ففي هذا المعترك تتخبط مصر؛ وإزاء هذه الجبهة المشتركة من الثقافات واللغات الأجنبية المتنافسة في غزو عقولنا وأرواحنا تقف اللغة العربية وحيدة في الميدان. وقد أنصفت اللغة

العربية في العهد الأخير نوعاً كما قدمنا، ولكنها مازالت في حاجة إلى إنصاف أتم وأوفى؛ وهي اليوم بلا ريب أقوى وأشد كفاحاً ومقاومة، وقد أتيح لها أخيراً أن تدلل على حيويتها المدهشة باستعمالها في تدريس كثير من مواد الدراسات العالية التي كانت تغلق قبلاً دونها بحجة قدمها وقصورها. غير أن العربية مازالت في مهادها الرسمية عرضة لمنافسة قوية من اللغتين الإنكليزية والفرنسية، الأولى كلغة أجنبية أساسية، والثانية كلغة أجنبية إضافية. والواقع أن هذه الفرنسية الإضافية لم تبق لها أية قيمة عملية في الدراسة، وقلما ينتفع الطلبة بتعليمها، وإنما هي أثر من آثار الصراع القديم والعهد الماضي، ففيم بقاؤها اليوم عنصراً من عناصر الإرهاق والتعطيل؟ قد يكون في اقتراح الأساتذة الإنكليز ما يبعث على الشك في نزاهته وأنه يرمي قبل كل شيء إلى تخلص اللغة الإنكليزية من منافسة قديمة. فليكن؛ ولكنا نستطيع أيضاً أن نحول هذا الإلغاء لمصلحة اللغة العربية والثقافية القومية، ذلك أن اللغة العربية تتخلص أيضاً بإلغاء هذه الفرنسية الإضافية من منافسة لا مبرر لها وليست لها قيمة علمية تذكر؛ ويكفي أن تضطلع العربية بالدفاع عن نفسها أمام غزو لغة أجنبية رسمية واحدة، وأن تقف مع الإنكليزية وجهاً لوجه، وأن تكسب بذلك قوة جديدة وأن تغزو ميداناً جديداً للعمل والكفاح

في وسع مصر أن تلغي الفرنسية من معاهدها، ولكنها لا تستطيع لظروفها السياسية الخاصة أن تلغي الإنكليزية. وإذن فلا ضير أن تلغى الفرنسية؛ وفي الإنكليزية كلغة ثقافية عالمية ما يكفي لتزويد المتعلم بكل ما يطمح إليه من صنوف العلوم والمعارف الحديثة، وكفى ما تلقاه البلاد من غزو معنوي منظم على يد المعاهد الأجنبية فرنسية وغيرها، وكلها تقوم برسالة غير رسالة العلم الخالص

لسنا نجد موضعاً للمفاضلة بين الفرنسية والإنكليزية فكلتاهما من أعظم اللغات الحية سواء في العلوم أو الآداب أو الفنون، وكلتاهما من أهم اللغات الدولية في المعاملات التجارية. ولسنا من أنصار ثقافة أجنبية بعينها، وإنما نؤيد الأخذ والاقتباس من كل ثقافة رفيعة. ولكن الأساتذة الفرنسيين في وزارة المعارف وأنصار الثقافة الفرنسية في مصر يضجون لفكرة إلغاء اللغة الفرنسية من مواد الدراسة الرسمية، ويشفقون على مستقبل الثقافة الفرنسية في هذه البلاد، فلم هذه الضجة ولم هذا الإشفاق؟ يقولون إن الثقافة الفرنسية هي أصلح الثقافات

الغربية لمصر. وإن النهضة المصرية الأخيرة بدأت على أساس الثقافة الفرنسية واستمرت كذلك طوال القرن الماضي، وإن قادة الحركة الفكرية الحديثة في مصر تلقوا العلم جميعاً في فرنسا، وإن الصلات التاريخية والاجتماعية القديمة بين مصر وفرنسا، وكون مصر اقتبست قوانينها الحديثة من القانون المدني الفرنسي، وكون اللغة الفرنسية ما تزال لغة المعاملات المختلفة في مصر، وأخيراً كون مصر أمة من أمم البحر الأبيض التي تغمرها الثقافات اللاتينية: كل هذه العوامل تحتم الإبقاء على اللغة الفرنسية في مصر، والمضي في الاقتباس من الثقافة الفرنسية وتوثيق هذه الروابط المعنوية بين البلدين

ونحن لا نود أن نجادل في هذه الوقائع من الناحية المادية، ولكنا نلاحظ فقط أن مصر الحديثة لم تتجه إلى اختيار الثقافة الفرنسية قصداً بمحض اختيارها؛ وإنما هو مجرى

الحوادث القاهر الذي ساقها إلى هذا السبيل، فقد نظم الفرنسيون حينما غزوا مصر في خاتمة القرن الثامن عشر، غزوهم المعنوي إلى جانب الغزو السياسي، وعنوا ببث ثقافتهم في مصر عناية خاصة؛ ولما استخلص محمد على حكم البلاد لنفسه، ألفى أمامه بقية قائمة من هذه الثقافة، وألفى الفرنسيين على أهبة لمعاونته، وقضت ظروف سياسية معينة أن يقبل هذه المعاونة وأن ينتفع بها في تنظيم إدارته وإصلاح جيشه وماليته، وفي ظل هذه الظروف أرسلت البعثات المصرية الأولى إلى فرنسا، وقد كانت يومئذ أوثق الدول الغربية صلة بمصر، واستطاعت فرنسا أن تقوى نفوذها المعنوي والثقافي بمصر، وغدا هذا النفوذ بمرور الزمن ظاهرة قائمة في الحياة المصرية، واستمر ينتج أثره في طبع المجتمع المصري المثقف بالطابع الفرنسي حتى أواخر القرن الماضي. هذه هي قصة الثقافة الفرنسية بمصر، فلم تكن مصر عامدة أو حرة في اختيارها ولم تخترها وتؤثرها لأنها أصلح الثقافات لها، أو لأن ظروفها الجغرافية والاجتماعية كإحدى أمم البحر الأبيض تحتم عليها أن تسير وراء الثقافة اللاتينية، أو لغير ذلك مما ينتحله أنصار الثقافة الفرنسية في مصر؛ ولم يكن الأمر أكثر من حادث تاريخي عرضي زالت البواعث والظروف التي أدت إليه منذ بعيد لسنا ننتقص من الثقافة الفرنسية أو غيرها من الثقافات الغربية الرفيعة، ولكنا سئمنا هذا التنافس على غزونا من طريق اللغات والثقافات، ولا نريد بعد أن نعتبر منطقة نفوذ لهذه

الثقافة أو تلك، ونريد قبل كل شيء أن نوحد جهودنا المعنوية في مقاومة الغزو الذي لا مناص من قيامه في معاهدنا ومدارسنا؛ ذلك هو الغزو الإنكليزي؛ ولن يكون ذلك إلا بالعمل على تعزيز اللغة العربية وتقدمها، وتعزيز عناصر الثقافة القومية في صدور الشباب. ومن حسن الطالع أن هذا الغزو الإنكليزي المنظم لعقولنا لم يصادف كثيراً من النجاح رغم استئثاره في عصر ما بجميع المواد والدراسات؛ ذلك لأننا نشعر دائماً بما وراءه من الظروف والاعتبارات التي لا يرتاح إليها ضميرنا القومي، ولأننا نشعر دائماً أنه غزو مفروض علينا في معنى من المعاني. وليس معنى ذلك أننا لم نجن غنما علمياً من دراسة الإنكليزية، ومن التثقف بثقافتها، فقد جنينا بالعكس منها فوائد جليلة، ولكنا نعتقد أن هذا الغنم يكون مضاعفاً لو أن مصر استطاعت أن تتحرر من كل نفوذ معنوي، وأن تختار لنفسها ما شاءت من ألوان الثقافات المختلفة التي تحقق أمانيها الوثابة دون أن تجني على بنائها وتقاليدها القومية؛ ونحن على يقين من أنه يوم يتاح لنا مثل هذا الاختيار الحر، لا نستطيع أن نرى في الإنكليزية إلا أنها في مقدمة اللغات والثقافات، ولا نجد غضاضة في أن تكون هي اللغة الأجنبية الأساسية، وأن تكون أداة لسد كل نقص نشعر به في دراستنا

والخلاصة لا نجد غضاضة ولا ضرراً في إلغاء الفرنسية من برامجنا الدراسية والقضاء على هذا التنازع في النفوذ العقلي في معاهدنا، وتحرير اللغة العربية بذلك من أحد عناصر المنافسة التي لا مبرر لها، والتي ما زالت تشعر بوطأتها. بل نرى من الخير ومن الواجب معاً أن تقاوم البلاد كل ألوان هذا الغزو الثقافي الأجنبي ما استطاعت خصوصاً ما كان منه ستاراً لبث نفوذ معين يتخذ من آن لآخر وسيلة لتحقيق مختلف الغايات والمصالح؛ ولسنا نفرق في ذلك بين غزو وغزو ونفوذ ونفوذ؛ فالفرنسي والإيطالي والألماني كالإنجليزي يتخذون من بلادنا مسرحاً لهذه المنافسات الخطرة؛ وإنه لمن خير مصر وسلامها أن تقاوم هذا الغزو المعنوي دائماً وأن تعمل على تحطيم عناصره وأسلحته ما استطاعت

محمد عبد الله عنان

المحامي

كيف نبعث الأدبوكيف نترواه؟

للأستاذ عبد العزيز البشري

عرض وجلاء تاريخ:

لاشك في أن من أهم نهضاتنا التي نتواثب فيها الآن ومن أبرزها نهضة الآداب: فلقد زاد عدد المقبلين على الأدب العربي والذين يعالجونه في هذا العصر بقدر عظيم، كما أعليت مكانته، وأبعدت أغراضه، وتلونت فنونه. وبعد أن كان يضطرب في أضيق مضطرب، ويتقلب في أفسل المعاني، ولا يستشرق إلا للضئيل التافه من الغايات من

المديح الوضيع الذليل، ومن الغزل المصنوع المتكلف، ومن فخر مكذوب لا يمت إلى مفاخر العصر بسبب، ومن وصف مفترى على الطبيعة، فلا هو مما ينتظم الواقع، ولا هو مما يخلع عليه الخيال الصناع صورة الواقع، ومن هجو تتلقط فيه المعايب والمقاذير من هنا ومن هنا لتعفر بها وجوه الناس عفراً. ونحو ذلك مما كان يجول فيه الأدب في الجيل الماضي، على وجه عام، وتتجرد في طلبه والتشمير له جمرة المتأدبين. على أنه لم يكن له أي حظ من وجدان ولا من جيشان عاطفة، وكيف له بهذا وهو لم يذك له حس، ولم يخفق به قلب، وإنما أمره إلى حركة آلية لا تكاد تعدو في مذهبها تلك الحركة التي تنبعث بها الصناعات اليدوية. إلى أن تلك المعاني، إذا صدق أن مثل ذلك مما تطلق عليه كلمة المعاني، لقد كانت، في الكثير الغالب، تجلى في صور مترهلة متزايلة، لا يقوى بناءها أو يشد متنها شيء من جزالة اللفظ ومتانة الرصف، وتلاحم النسج، ولا يجتمع لتزيينها وتبهيجها شيء من حسن الصياغة وإشراف الديباجة وجمال النظام!

ولقد قيدت هذا (بالكثير الغالب) لأن ذلك الجيل الماضي لم يخل من كتاب ومن شعراء أغلوا حظ الأدب، ففسحوا في أغراضه، وأبعدوا في مطالبه، وحلقوا بمعانيه، وأبدعوا في البيان، فاتسق لجلالة المعاني شرف اللفظ، وبراعة النظم، وإحكام النسج، وكذلك استوى من المنظوم والمنثور كليهما كلام يترقرق ماؤه، ويتألق سناؤه. ورحم الله إبراهيم المويلحي وإبراهيم اللقاني وأضرابهما في الكتاب، ومحمود سامي البارودي وإسماعيل صبري في الشعراء، فقد هدوا إلى حسن البيان السبيل

وإذا كان الأدب يتمثل لأدباء هذا الجيل في صورة أبدع وأروع من الصورة التي كان يتمثل فيها لسلفهم القريب، كما أدركوا هم أن له مهمات أوسع أفقاً وأبعد مدى من تلك التي كان يدور فيها في ذلك العهد، حتى لقد أصبح يتقلب في جلى أسباب الحياة، بل لقد تجاوز أو كاد يتجاوز أفق الكماليات البحث إلى موطن الضرورات في الحياة - إذا كان المتأدبون قيد أصبحوا يحلون الأدب هذا الموضع، ويتمثلونه على هذه الصورة، فذلك لأنهم طالعوا أدب الغرب ورأوا ما يتصرف فيه من مختلف الفنون، وما يتجرد له من جسام المطالب

لقد أصبح الأدب وسيلة من وسائل تنعيم النفس وتلذيذها بما يجلو عليها من صور الجمال، وبما يرهف من الحس حتى يتفطن ألوان المعاني إلى كل دقيق وإلى كل بديع، كذلك لقد تبسط الأدب واسترسلت آثاره وإلى كثير من الأسباب العامة، على ما تقدمت الإشارة إليه، فعظم بذلك أمره، وجل في عيش الحضارة خطبه، وكذلك أضحى للبارعين من أهله في الغرب من الشأن ما لا يكاد يوصل شان

ولقد زعمت لك أن الذي بعث تقدير أبناء العربية للأدب هذا المبعث ما جلى عليهم من أدب الغرب وما طالعوا من بعيد آثاره في شتى الأسباب، فراح كثيرون منهم يتأثرونه، ويتصرفون بالبيان في مثل ما يتصرف فيه من مختلف الفنون. على أن كثيرين من هؤلاء الكثيرين قد انقطع جهدهم دون هذه الغاية فلم يظفروا من الأمر بجليل. ولاشك أن ذلك يرجع إلى أنهم، في غالب الأحيان، إنما ينقلون إلى العربية ما يتهيأ لهم نقله من آداب الغرب على الصورة التي يستوي فيها لأهله، لا يحاولون، أو لعلهم يعجزون إذا هم حاولوا، أن يطبعوه على ما يألفه الخيال الشرقي، ويستريح إليه الذوق العربي، وتسلس له بلاغات العرب!

ولقد يكون هذا من أثر الافتتان بأدب الغرب، والتجرد في محاكاته وتقليده من جهة، وقلة المحصول من فقه العربية ورقة الزاد من ألوان بلاغاتها من جهة أخرى

وبعد، فما نحسب أن هناك من ينكر على الأدب العربي جليل خطره في عهد الجاهلية وفي قيام الدولة العربية في الشرق والغرب، وأنه كان، في الجملة، يؤدي من مطالب الحياة ما يؤديه الأدب الغربي اليوم، وأقول (في الجملة) لأن الأدب قد تشعبت في هذا العصر فنونه، وتطاولت آثاره إلى كثير لم يلتفت إليه في الزمان القديم، ولعله لو ظلت دولة العرب قائمة، وظلت حضاراتهم في اطرادها، ما تقاصر اليوم عن شأو الأدب الغربي، بل لعله كان يسبقه

إلى كثير!. ولو قد عنى النشء من متأدبينا بدراسة هذا الأدب، وخاضوا في أمهات كتبه، وأطالوا تسريح النظر فيما أثر من روائعه، لرجعوا إلى نفوسهم بأنه أدب عظيم كل عظيم، أدب يمتع حقاً وينعم الروح حقاً بما ينفض من عاطفة متعجلة، ويصور من دقيق

حس، ويتدسس إلى ما استكن في مطاوي الضمير، إلى ما أصاب من المعاني البارعة، وما تعلق به من الأخيلة الرائعة، وما تصرف فيه من كل دقيق وجليل في جميع الأسباب الدائرة بين الناس. ما ترك جليلاً من الأمر ولا دقيقاً إلا مسه وعرض له وعالجه بالتصوير والتلوين، وكل أولئك يصيبه في مصطفى لفظ، ومحكم نسج، وبارع نظم، ودقة أداء، وحلاوة تعبير!

على أن الأدب العربي، مع هذا لقد طالما جال في بعض الأسباب العامة وساهم في الأحداث السياسية والقومية والمذهبية بقدر غير يسير، ومهما يكن من شيء فهو أدب واسع الغنى، رفيع الدرجة؛ بل إنه لمن أغنى الآداب التي قامت في العالم ومن أعلاها مكاناً

والواقع أنه قد انقبض بانقباض الدول العربية وضعف بضعفها، فجعلت تضيق أغراضه، وتتواضع معانيه، ويجف ماؤه، ويتجلجل بناؤه، حتى صار ما صار إليه وظل عاكفاً عليه، إلى ما قبيل نصف قرن من الزمان

ولا يذهب عنك أنه في فترة انقباضه الطويلة قد انبعثت في الغرب حضارة جديدة جعلت، على الزمن، تنبسط وتتناول وسائل الحياة دراكاً حتى بلغت شأواً بعيداً. ومما ينبغي أن يلتفت إليه أشد الالتفات في هذا المقام، أن هذه الحضارة قد أولت أجل عنايتها للشئون المادية، فكان حظ العلوم الطبيعية والكيميائية منها عظيماً، فاستكشفت أشياء كثيرة، واخترعت أشياء كثيرة، حتى كاد الإنسان لا يتناول شأناً من شئون الحياة إلا بسبب طريف. وبذلك كثرت الآلات المادية كثرة تفوق حدود الوصف، وهي تطرد في الزيادة كل يوم، إذ اللغة العربية جاثمة في أفحوصها لا تمتد بالتعريف عن هذا، إذا هي امتدت، إلا إلى قليل، بل إلى أقل من القليل

ولقد كان من آثار فقر العربية في هذا الباب أنها حتى بعد نهضتها الأخيرة لزمت في بيانها دائرة الأدبيات لا تصيب من المحسسات المادية، إن هي أصابت، إلا في حرج وفي عسر شديد! وكيف لها بهذا وليس لها به عهد قريب ولا بعيد؟!

وإذا كانت الحاجة تفتق الحيلة كما يقولون، فقد بعثت النهضة العلمية في عهد محمد علي الكبير رفاعة وأصحابه إلى أن ينفضوا قديم العربية لعلهم يجدون بين مفرداتها وما أثر في كتبها من المصطلحات العلمية والفنية ما يدلون به على ما استوى لهم من جديد في العلوم والفنون، فإذا أصابوا هذا وإلا عمدوا إلى الوسائل الأخرى من النحت والاشتقاق والتعريب. وإذا كان قد اجتمع لهم فيما نقلوا إلى العربية من علوم الغرب وفنونه صدر محمود، فإن ذلك أصبح لا غناء فيه ولا سداد له؛ بعد إذ فترت تلك النهضة وخبت جذوتها بعد ذهاب مذكيها المرحوم محمد علي الكبير، بينا تطرد العلوم والفنون في تبسطها حتى لتخرج على العالم كل يوم بجديد. وهذه الحاجة الملحة، والتي يشتد إلحاحها ويتضاعف كلما تراخت الأيام، لقد كانت تبعث جماعات الفضلاء الفينة بعد الفينة إلى تأليف الجمعيات للبحث والنظر في تحريك لغة العرب حتى تستطيع أن تتوافى لمطالب الحضارة الحديثة. على أنه لم يقدر لها النجاح لأسباب لا محل لذكرها في هذا المقام. فلم يبق بد من أن تضطلع وزارة المعارف بالأمر، وبعد لأي قام (المجمع الملكي للغة العربية)، نسأل الله تعالى أن يمده بروحه، ويعينه على مهمة جليلة المشقة جليل الآثار، وأن يهديه إلى أقوم سبيل!

لقد استطرد القلم من حديث الأدب إلى حديث اللغة، وماله لا يفعل واللغة مادته وملاكه. وإذا كان أجل همه إلى المعنويات فليس له عن هذه المادة غناء، بل لقد تكون وسيلته وأداته حتى في التعبير عن أخفى العواطف وأدق خلجات النفوس. على أن أهم ما يعنينا من هذا البحث إنما هو حيرة الأدباء أو على تعبير أضبط، خيرة بعض من يعانون الأدب في هذا العصر، وذلك أن في مأثور العربية أدباً غنياً سرياً واتى سلفنا العظيم بمطالب الشعور ومطالب الحضارة جميعاً. على أننا نعيش الآن في حضارة غير حضارتهم، ونعالج من وسائل الحياة غير ما عالجوا. ثم إنه مهما تطبعنا الوراثة على طبعهم، وتنضح علينا من أذواقهم وشعورهم وغير ذلك من خلالهم، فإن مما لاشك فيه أن لتطاول الزمن، وتغير البيئات، وتلون الحضارات، وما يجوز بالأقوام من عظيمات الأحداث أثراً لقد يكون بعيداً في كل أولئك. وأنت خبير بأن الأدب الحق إنما يتكيف بما هو كائن، ويترجم عما هو واقع. ومن هذا تجد كل أدب حي متحرك في تطور

مستمر طوعاً لتطور العوامل والأسباب.
ولست تلتمس دليلاً على أن الأدب العربي إنما كان كذلك في حياته القوية بخير من أن تستعرض شأنه في الجاهلية، وتقلبه في جميع الدول العربية في العصور الإسلامية. فلن تخرج من هذا إلا بأنه قد تأثر في كل عصر وفي كل بيئة بقدر ما تغير على القوم من مظاهر الحياة
ومعنى هذا الكلام أن الأدب العربي، في أي عصر من عصوره الخالية، مهما يجل قدره وتعظم ثروته لا يمكن أم يغنينا الآن في كثير من مطالب الحياة إذا نحن اتخذناه على حاله، ولم نعد ما كان من صوره وأشكاله. وإلا فقد سألنا الطبيعة شططاً. فهيهات للساكن الجاثم أن يلحق المتحرك السائر
وهناك أدب غربي دارج الحضارة الحديثة وسايرها خطوة خطوة، واتسع لكل مطالبها، وواتاها بجميع حاجاتها في غير مشقة ولا عناء. ولا يذهب عنك أننا إنما نتأثر الغرب في ثقافته وعلومه وفنونه وسائر وسائله، وهذه سبيلنا إلى ما نستشرف له من التقدم ومشاكلة الأقوياء، ولكن هذا الأدب الغربي الذي نقبل على محاكاته فيما نقبل عليه من آثار القوم، لا يتسق في بعض صوره لشأننا، ولا تستريح إليه أذواقنا، بل أنه قد لا يستوي في تصوراتنا، ولا يجدي علينا في كثير، أضف إلى هذا عجز بعض نقلته سواء في شعره أو في نثره، وقلة محصولهم من العربية، واضطرارهم، بحكم ذلك، إلى إخراجه مترجمين كانوا أم محاكين ومقلدين، في صور بيانية شائهة الخلق، ناشزة على الطبع، لا يحس إلا مليخة باردة في مذاق الكلام!
وبعد، فإن مما لا يتقبل النزاع أنه لابد لنا من أدب قوي سري يواتي جميع حاجاتنا، ويساير ثقافتنا القائمة، ويتوافى لهذه الحضارة التي نعيش فيها، بحيث تطمئن به طباعنا، وتستريح إليه أذواقنا، شأن كل أدب حي في هذا العالم، ولعل من أشد الفضول أن نقول إن هذا الأدب لا يمكن إلا أن يكون عربياً. ولكن كيف الحياة في ذلك؟
ذلك ما نعالجه في مقال آخر إن شاء الله تعالى، فلقد طال هذا الحديث.
عبد العزيز البشري
قصة المكروب
كيف كشفه رجاله
ترجمة الدكتور أحمد زكي
وكيل كلية العلوم
أسبلنزاني
صلة حديثة
القس الماكر الذي مالق الكنسية والسلطات وهو يحتقرها جميعاً لكي يعيش ولكي) يعمل في سكون؛ الذي ناضل نضال الجند بغير أهبة الجند وعدة الجند؛ الذي أثبت من مرق اللحم أن المكروبات ككل الأحياء لابد لها من آباء؛ الذي أهدى للعلم مثانته (الوبيئة، ذلك الأثر الوحيد الذي بقى للناس إلى اليوم من هذا الرجل الكبير الخالد ولم يكن (نيدم) في هذه الأثناء غافلاً نائما، بل كان يقظاً بكل ما جرى، محساً بخطره أيما إحساس؛ وكان حاذقاً في الدعاية ماهراً في النشر والإذاعة. فذهب إلى باريس وأخذ يحاضر فيها عن مرق لحمه؛ وفي باريس التقى بالكونت الشهير (بيفون) وكان الكونت ثرياً، وكان جميلاً، وكان يحب أن يكتب في العلم، ويعتقد أنه يستطيع تخريج الحقائق من رأسه أحسن تخريج. إلا أنه والحق يقال كان أنيق الثياب أناقة منعته من دخول المعامل وممارسة التجارب. وكان بحق يعرف شيئاً من الرياضيات، فترجم عن نيوتن إلى الفرنسية. فإذا أنت علمت فضلاً عن هذا أنه كان يستطيع أن يلعب على الورق بالأرقام الكبيرة المعقدة في سهولة لعب السحرة المهرة، وإذا أنت أضفت إلى أنه رجل أرستقراطي نبيل، وأنه فوق كل هذا رجل ذو مال كثير، استطعت أن تدرك في غير عناء كبير أنه رجل من الأفذاذ القلائل الذين يحق لهم أن يقضوا لنا في أمر تلك الأحياء الصغيرة قضاء صادقاً دون الرجوع إلى التجربة، وأن يقولوا لنا أتخرج تلك الأحياء عن آباء وأمهات، أم هي تخرج من ذات نفسها - أو على الأقل هكذا كان يتحدث عنه سخره باريس الكفرة الفجرة

وعمل (بيفون) و (نيدم) سوياً بتوافق تام، وفي صفاء لا يشوبه كدر، واقتسما العمل: أما (بيفون) فكان يلبس الثياب البنفسجية البديعة، والأكمام ذات الدانتلة النادرة العزيزة، فلم يكن ينتظر منه أن يوسخها على نضد المعامل القذرة بما عليها من تراب وزجاج منثور، ومرق مراق من وعاء مكسور، لذلك اختص بالتفكير وبالكتابة، وقام (نيدم) بالتجريب. واعتزم الاثنان أن يخترعا نظرية ضخمة يفسران بها كيف تنشأ الحياة، وفلسفة رفيعة عميقة يفهمها مع ذلك كل إنسان، فلسفة يجتمع عليها المؤمنون البررة والملاحدة السخرة على السواء. وأخرجا نظرية أهملت الحقائق التي استخرجها (اسبلنزاني) كل الإهمال، وتعامت عنها كل التعامي! ولكن ما ضرر هذا؟ ألم تخرج هذه النظرية من رأس (بيفون) العظيم؟ أليس في عظم هذا الرأس ما يبرر نقض كل حقيقة مهما كان مكانها من اليقين؟

يقول نيدم للكونت النبيل: (سيدي اللورد الجليل! ما الأسباب التي تنشأ عنها تلك الحيوانات الصغيرة في مرق الضأن برغم غليانها؟)

فيحتدم عقل بيفون، ويدور في الطبقات العليا من الخيال الرفيع دوراناً رشيقاً بديعاً، ثم يهبط إلى الأرض ويجيب: (عزيزي الأب نيدم، لقد كشفت كشفاً خطيراً، لقد وضعت اصبعك على أصل الوجود، لقد رفعت الغطاء في مرق لحمك عن تلك القوة التي تخلق الحياة). نعم لابد أن تكون قوة، كل شيء قوة!

(فيقول الأب نيدم: إذن فلنسمها: القوة النباتية، أي لوردي العظيم.

فيجيب بيفون: (اسم مناسب جميل، أيها الأب الجليل)

ثم يلبس الكونت أحسن ثيابه ويذهب إلى مكتبه، وقد تنضح جوه بأطيب العطور، ويبدأ يكتب عن عجائب القدرة النباتية التي تستطيع أن تخلق في مرق اللحم ونقيع الحب حيوانات صغيرة - يكتب هذا لا من ملاحظات دونها عن تجارب في المعمل شهد بها الزجاج والعدس واللهب، بل يكتبها من عقله الخصيب

وما هي إلا أيام معدودات حتى كنت تسمع (بالقوة النباتية) على كل لسان، يتحدث بها كل إنسان، وتتفسر بها كل الأمور، فالزنادقة أحلوها محل الله، ورجال الكنيسة قالوا إنها أمضى أسلحة الله. وشاعت في الناس كما تشيع الأغاني، وانتقلت بينهم انتقال الحكاية المليحة التي لا تتصل بالآداب اتصالاً وثيقاً، أو كما نتحدث اليوم عن النظرية النسبية

وأسوأ من هذا وأنكى أن الجمعية الملكية جارت رجل الشارع، بل سارعته حتى كادت تتعثر في خطاها، فانتخبت (نيدم) عضواً بها، ونادت به أكاديمية العلوم بباريس زميلاً. وفي هذه الأثناء كان اسبلنزاني يسير في معمله رائحاً غادياً يتمتم ويدمدم: ذاك خطر على العلم كبير، ذاك تعام عن الحقائق المتجسدة المتجردة الصامتة التي بدونها لا يكون العلم علماً، هذان رجلان يتغاضيان عن تجاربه البديعة وما تتضمنه من حقائق جميلة!

وظل اسبلنزاني لا يدري كيف يصنع. وأنى له ما يصنع، وقد أغرق نيدم وبيفون العالم العلمي بطوفان من الكلم، ولم يجيبا بشيء عن حقائقه، ولم يريا الناس مواضع الخطأ من تجاربه؟ وكان الطلياني مقاتلاً شديد المراس، ولكنه كان يحب القتال بالحقيقة وبالتجربة، وقام خصماه فأثارا حوله غباراً كثيفاً من اللفظ الفارغ، ولفاه من فرعه إلى قدمه بقتام الكلم البائر، فلما امتشق سيفه أن يضرب لم يجد ما يضرب. صاح اسبلنزاني ما صاح، وغضب ما غضب، وسخر سخراً مريراً بتلك الدعابة الهائلة، تلك القوة التي أسموها القوة النباتية، ولكن من دون جدوى. قال نيدم إنها القوة التي أخرجت حواء من ضلع آدم، إنها القوة التي كونت شجرة الصين العجيبة التي تكون في الشتاء دودة، فإذا جاءها الصيف استحالت ويا للعجب إلى شجرة باسقة جميلة - إلى غير هذا من الخرف والكذب، حتى خال اسبلنزاني أن علم الحيوان كاد يضيع، كادت تضيعه القوة النباتية التي ابتدعها نيدم وأخذ يفسر بها كل شيء، فلم يبق له إلا أن يخرج بوساطتها من البقر رجالاً، ومن البراغيث أفيالاً!

ثم جاءت على حين غفلة تلك الفرصة التي أمكنته من القتال.

ذلك أن نيدم كتب إليه ينقد تجربة من تجاربه. كتب إليه يقول: (إن تجربتك يا هذا لا تصمد للنقد طويلاً. إنك سخنت قباباتك ساعة كاملة، فهذه الحرارة الشديدة أضعفت تلك القوة النباتية فأصبحت لا تستطيع خلق تلك الأحياء الصغيرة)

وكان هذا كل الذي طلبه اسبلنزاني واصطبر من أجله طويلاً فنسى لاهوته، ونسى تلاميذه العديدين الذين كانوا يتشوقون إلى دروسه، ونسى العقائل الحسان الائي كن يتراحمن حوله ليطوف بهن في متحفه، وطوى أردانه الواسعة فكشف عن سواعده. وأخذ يعمل، لا بقلمه في مكتبه، ولكن بزجاجه وبذوره ومجهره على نضد معمله

نيدم يقول إن الحرارة تفسد في البذور تلك القوة التي أسماه النباتية. شيء جميل!) هل كان جرب قبل أن ينطق؟ وكيف عرف تلك القوة؟ هل أحسها؟ هل رآها؟ هل وزنها؟ هل قاسها؟ لم يفعل شيئاً من هذا، ومع هذا يقول إنها موجودة في البذور! (فليكن، وإذن فلنسخن هذه البذور ثم نر

وأخرج اسبلنزاني قباباته مرة أخرى وأخذ في تنظيفها. ونقعفي الماء النقي أنواعاً عدة من البذور والحمص والفول وغير هذه حتى امتلأت الحجرة بالقبابات، فكنت تراها تشرف عليك من فوق الأرفف العالية، وكنت تراها جالسة على النضد والكراسي الواطئة، وكنت تراها أوطأ من ذلك - قد تربعت على أرض الغرفة حتى يتعذر عليك السير فيها

قال اسبلنزاني: (والآن فلأغل طائفة كبيرة من هذه القبابات أزماناً مختلفة ثم انظر أيها يخرج أكثر عدد من تلك الأحياء الصغيرة). وأخذ يغطس هذه القبابات في الماء الغالي خمس دقائق، ثم يغطس هذه فيه نصف ساعة، ثم هذه ساعة تامة، ثم أخرى ساعتين. وبدل أن يلحمها ويختمها في النار سدها بالفلين. ولم لا؟ ألم يقل نيدم إن هذا يكفي؟ ثم رتبها جميعاً ونحاها؟ وأخذ ينتظر. وذهب يصطاد وينسى أن يشد الخيط عندما تأكل السمكة الطعم، وذهب يجمع المعادن والأحجار لمتحفه وينسى بعد جمعها أن يحملها عند الرواح إلى بيته. وأعمل الحيلة لزيادة مرتبه، وأقام القداسات، ودرس كيف يتناسل الضفدع - ثم اختفى مرة أخرى إلى غرفته المعتمة بما فيها من زجاجات مصفوفة وأدوات غريبة

لو صح قول نيدم، إذن لوجدنا القبابات التي أغليت عشر دقائق تعج بالأحياء، ولم نجد شيئاً في الأخريات التي أغليت ساعة أو ساعتين. ونزع السدادات سدادة سدادة، ونظر في القطرات قطرة قطرة، وأخيراً أخذ يقصف بالضحك، فالزجاجات التي أغليت ساعتين كان بها من تلك الخلائق الحية المرحة أكثر من التي أغليت دقائق

زعموها قوة نباتية! حديث خرافة وأضغاث أحلام. إنك مادمت تكتفي بسد القبابات) فسوف تدخل إليها الأحياء غصباً عنك من الهواء. ولن يغني الغليان عن ذلك شيئاً ولو ظللت تغليها حتى يسود وجهك من سخام النار، فإن تلك الأحياء تدخل إلى المرق من السداد بعد أن يبرد)

انتصر اسبلنزاني بهذا، ثم إذا به يحاول أمراً لا يحاوله إلا العالم القح، العالم الذي أشرب

الروح العلمية الحق، ذلك أنه قام يخاصم نظريته، ليرى أيستطيع أن يقهر فكرته، أن يقهر تلك النظرية العزيزة عليه، أن يقهر تلك الفكرة الحبيبة إليه. فرسم خطة الهجوم. وابتدع في أمانة وذكاء تجارب هي محك ما يقول، فأما له وإما عليه. هذا هو العلم، هذه هي روح العلماء التي وهبها الله قليلاً من الرجال أحبوا الحق حباً غلب على شهوات الأنفس وأماني القلوب. وأخذ اسبلنزاني يتمشى في غرفة عمله المظلمة وروحة وجيئة وكفاه خلف ظهره وهو يتفكر: ((. . . . ولكن مهلاً! أليس من الجائز أن نيدم خمن تخمينه وقعت في الصميم من الحقيقة وهو لا يدري؟! أليس من الجائز أن في هذه البذور قوة نباتية حقاً أعدمتها النار الشديدة؟!)

ثم قام فأتى بشيء من البذور، ثم قلاها في مقلاة كما يحمص اللبن، أعني حبه، حتى أرمدت واسودت، ثم وضعها في القوارير وصب عليها الماء، ثم هدر كالبعير يقول: (لو صح أن في هذه البذور قوة نباتية كما يزعمون إذن فقد أعدمها التحميص إعداماً) وبعد أيام رجع إلى قارورته وما بها من الأحسية المطبوخة من البذور المحروقة، وأخذ ينظر إليها بعدسته فوجدها جميعاً مليئة بتلك الحيوانات الصغيرة يزحم بعضها بعضاً في مراحها ومغداها، تنعم بالحياة وتبتهج بالعيش في مرق الحب المحروق نفس الحياة الناعمة والعيش البهيج الذي كانت تجده في حساء الحب غير المحروق. وعلت وجهه ابتسامة ساخرة، كأنما كان ينظر في هذه الساعة إلى نيدم وإلى بيفون ويتصور ما قد

نالهما من جراء ذلك من الحرج والضيق
حاول أن يقهر نفسه ويقهر نظريته، فإذا النتيجة تطلع بقهر نيدم رب التقوى، وبانحدار بيفون رب الظرافة. قالا إن النار تقتل القوة التي ابتدعاها فلا تتكون تلك الخلائق، وها هي ذي البذور تحرق حتى تتفحم وهي لا تزال ترفد تلك الأحياء بالغذاء الطيب المريء - (إذن فتلك القوة خرافة)ـ وبهذا النداء صاح اسبلنزاني في أوربا يسمع دانيها وقاصيها فأخذت تنصت إليه
وأراد أن يستجم من عناء المخلوقات الضئيلة وما يتصل بها من أبحاث مجهدة، فحول إلى المعدة الإنسانية وأخذ يدرس الهضم كيف يحصل فيها، وأجرى في ذلك تجارب على نفسه كانت مؤذية قاسية. ولم يكفه فطلع إلى ذروة بيته، إلى تلك الحجرة الحارة المظلمة التي
تلي سقيفة داره، وأخذ يدرس كيف أن الوطواط على عماه يستطيع أن يطير فيها ولا يصطدم بشيء مما بها. وفي ثنايا كل هذا استطاع أن يقتصد من وقته فيعين أولاد أخيه على التعلم، وأن يتكفل بحاجات أخته وأخيه، وما كانوا من ذكائه وعبقريته في شيء، ولكنهم كانوا من لحمه ومن دمه
ولم يلبث أن رجع القسيس يسأل نفسه ذلك السؤال القديم: كيف تنشأ الحياة؟ ذلك السؤال الذي منعه دينه من أن يجد له جواباً، وتلك الحياة العجيبة التي أوصاه دينه بأن يتقبلها بعين مغمضة وإيمان أعمى، وأن يتخذ من غرابتها آية من آيات الله العظيم، وأن يرى في غموضها لسراً من أسرار الحي القيوم. رجع يبحث في الحياة كيف تكون، وأخذ يجرب في الحيوانات الكبيرة بدل تلك الحيوانات المجهرية الصغيرة. وبدأ سلسلة من الأبحاث طويلة في سفاد الضفدع المسمى بأبي ذنيبة ساقته إلى فظائع كبيرة وتمثيل بالحيوان تقشعر منه الأبدان. . .
ولم يكن يأتي الفظاعة حباً لها، ولم يتعد حدود اللياقة ضيقاً بها، بل كان يتشمم حيثما قاده أنفه طلباً للمعرفة وتعشقاً لها. وقسا على نفسه كما قسا على الحيوان ـ ذلك أنه أراد أن يدرس كيف تهضم المعدة الطعام، فإذا يأتي بقطع صغيرة من الخشب يجعلها جوفاء ثم يملؤها باللحم ثم يبلعها، وبعد ذلك يضع إصبعه في حلقه فيقيئها، ثم يأخذ ينظر ما جرى للحم داخل الخشبات. وثابر كالمخبول على هذا العذاب حتى اعتراه غثيان دائم لم يجد معه إلا الإقرار بالضرر الحاصل فوقف التجارب
يتبع
أحمد زكي
من الشعر المنثور
أيها الطفل الغرير!
للآنسة (فتاة الفرات)
- 1 -
رأيتك طفلاً كما يثب العصفور، فوق الأغصان،
وسمعتك تغرد كما يغرد البلبل، على الأفنان،
فاغتبطت بك اغتباطاً، طار بي من عالم الحقيقة إلى عالم الخيال،
وملأت بمنظرك الجميل عيني،
وشنفت بصوتك العذب سامعتي،
- 2 -
ورأيتك يافعاً عائداً من المدرسة، تحمل أدواتك،
وجالساً إلى منضدتك تؤدي واجباتك،
على ثغرك ابتسامة الظفر، وعلى وجهك طمأنينة الأمل
فقلت: هلال سيكون بدراً تماماً،
وشبل سيكون أسداً ضرغاماً
- 3 -
ثم رأيتك بعد أيام وقد برح بك الداء،
وأقر الطبيب بالعجز عن الدواء!
تنتزع نفسك من صدرك، وتقتلعه من بين أضلاعك،
ففر قلبي جزعاً عليك وطار،

وانهل الدمع في إثرك وسار!
- 4 -
كنت جميلاً فزادك الموت جلالاً،
وكنت جليلاً فزادتك المنية جلالا،
فأنت على سرير الموت ملء القلب وملء البصر،
نعم إن لك فوقه جمال العريس،
وجلال السيد الرئيس
- 5 -
أيها الطفل الغرير!
أيها الغصن الغض النضير!
هذه قصيدة أنظمها فيك، بكاء لك وحزنا عليك،
كما تنظم يد الربيع لآلئ الأزهار
في أسلاك الأشجار،
- 6 -
ما هي في الحقيقة عبارات،
إنما هي هي عبرات وحسرات،
نثرتها يد الحزن نثراً، فجاءت غير موزونة ولا مقفاة
إنها أنفس ما يملكه القلب الكسير
وأثمن ما يحرزه الطرف الحسير
- 7 -
أنت للنفس سرورها!
وأنت للعين نورها!
لقد ذهب السرور وذهب النور، فلا نفس ولا عين،
كل شيء بعدك يسير،
وكل رزء غير رزئك حقير،
- 8 -
الشمس مشرقة ولكن ليس لها ضياء!
والقمر طالع ولكن فارقه البهاء!
والعنادل تغرد على الأغصان فلا تحرك ساكناً، ولا تثير كامناً،
فأنت مصدر كل نور
وأنت مبعث كل سرور
- 9 -
لو استطعنا لغسلنكا بالدموع
ودفناك بين الحشا والضلوع
ضناً بك عن سكن الأجداث، ونزول الأرماس
فالرمائم للقبور
أما اللآلئ فإنها للصدور والنحور
- 10 -
رجعنا عنك وقد شققنا القلوب والأجفان،
لا الجيوب والأردان
ونفضنا أيدينا من أنفسنا، بعد أن نفضناها منك،
فلا كدر بعدك ولا صفاء
ولا سعادة ولا شقاء
- 11 -
كل يوم للزمان فينا جولة
وله على صرح حياتنا صولة
ونحن إليه ساكنون مطمئنون، نرتع ونلعب،
فيا لله للإنسان ما أنساه!
وتباً للزمان ما أقساه!

- 12 -
نسر كاسر فوق حمام
وذئب ضار بين أغنام
تسمع النبأة فتجزع وتطير، وتنقطع عنها فتسكن وتلهو،
فهل يلين الزمان بعد قسوته؟
وهل يصحو الإنسان من سكرته؟
- 13 -
سيبقى على قسوته الزمان
وسيظل على غفلته الإنسان
لتتم كلمة القضاء القاهر، في سكان الدور والقبور،
وليبتهج اللاعب بلعبته
وينعم بصولجانه وكرته
- 14 -
نبكي فتتزايل منا الأضالع،
ونضحك فتهل المدامع،
فبريق الابتسامة ينذر بالويل، كما ينذر وميض البرق بالصاعقة،
فمتى نكون إذن مسرورين؟
ومتى نكون هانئين وادعين؟
- 15 -
أيها الملك القاهر!
أيها الصانع الماهر!
صنعت الأقداح وملأتها، ثم عدت إليها فحطمتها وأرقتها!
فقطرات من دموع الفرح
إلى بحار من دموع الحزن والترح
- 16 -
ليتك ما أخذت ولا أعطيت
وليتك ما أمت ولا أحييت
وليتنا بقينا بين طيات العدم وتحت أذيال الخفاء
فلم ننعم بنور الحياة
حتى لا نشقى بظلمة الممات
حلب
فتاة الفرات
18 - محاورات أفلاطون
الحوار الثالث
فيدون أو خلود الروح
ترجمة الأستاذ زكي نجيب محمود
وما إن انتهى سقراط من هذا الحديث حتى ساد الصمت فترة طويلة، فبدأ هو نفسه، كما بدأ معظمنا، كأنما نفكر فيما قيل، إلا أن سيبيس وسمياس تهامسا بكلمات قليلة، فلما لحظ ذلك سقراط، استنبأهما عما ارتأيا فيما أقيم من دليل، وهل لم يزل يعوزه التدعيم، وقال: إن كثيراً منه لا يزال عرضة للشك والطعن، إذا ما صحت من أحد عزيمته أن يقلب النظر في جوانب الموضوع كلها، وإن كنتما تتحدثان عن شيء آخر، فخير ألا اعترضكما، أما إن كنتما لا تزالان تشكان في الدليل، فلا تترددا في أن تصرحا بكل ما تريانه، ولنأخذ بما قد تقترحانه، إن كان خيراً مما قلنا، واسمحا لي أن أعينكما إن كان يرجى لكما من نفع

قال سمياس: لابد من أن أعترف يا سقراط بأن الشكوك قد ثارت في عقولنا، وكان كل منا يحفز الآخر ويدفعه ليلقي السؤال الذي أراد أن يستجيب عنه والذي لم يرد أحد منا أن يلقيه، خشاة أن يكون إلحاحنا مضنياً لك في حالك الراهنة

فابتسم سقراط وقال: ألا ما أعجب ذلك يا سمياس! ما أحسبني في أرجح الظن مستطيعاً إقناع سائر الناس بأنني لا أجد رزءاً في موقفي هذا، ما دمت عاجزاً عن

إقناعكم أنتم، وما دمتم على ظنكم أنني الآن أكثر مشغلة مني في أي وقت آخر. ألا تريان عندي من روح النبوة ما عند طيور التم؟ التي إذا أدركت أن الموت آت لا ريب فيه ازدادت تغريداً عنها في أي وقت آخر، مع أنها قد أنفقت في التغريد حياتها بأكملها، وذلك اغتباطاً منها بفكرة أنها وشيكة الانتقال إلى الله، الذي هي كهنته، ولما كان الناس يشفقون هم أنفسهم من الموت، تراهم يؤكدون افتراء أن طيور التم، إنما تنشد مرثية في ختام حياتها، ناسين أن ليس من الطيور ما يغرد من برد أو جوع أو ألم، حتى البلبل والسنونو، بل حتى الهدهد، الذي يقال عنه بحق إنه يغرد تغريدة الأسى، وأن كنت لا أومن أن ذلك يصدق عليه أكثر مما يصدق على طيور التم، فهي إنما أوتيت موهبة التنبؤ لقداستها عن أبولو، فاستطلعت ما في العالم الآخر من طيبات، فطفقت تغني لذلك وتمرح في ذاك اليوم أكثر مما فعلت في أي يوم سابق. كذلك أنا، فإني أعتقد في نفسي بأنني خادم قد اصطفاه الله نفسه، وإني رفيق لطيور التم فيما تعمل، فأنا أظن أن قد آتاني سيدي من التنبؤ موهبة ليست دون مواهبها مرتبة، فلن أغادر الحياة أقل مرحاً من التم. فلا تحفلا بعد هذا، وتكلما فيما تشاءان، وسلا عما تشاءان، في هذه الفترة التي يسمح فيها حكام أثينا الأحد عشر بالكلام

قال سمياس: حسناً يا سقراط، إذن فسأنفض إليك مسألتي، وسينبئك سيبس بمشكلته. فإني لأقول مجترئاً إنك تحس يا سقراط، كما أحس أنا، كم هو عسير أو يكاد يستحيل أن تبلغ في مثل هذه المسائل يقيناً، مادمت في هذه الحياة الحاضرة، ومع هذا، فإني لأتهم بالجبن كل من لا يدلل عليها ما وسعه الدليل، أو كل من خار به قلبه قبل أن يخبرها من كل جوانبها. فينبغي للمرء أن يثابر حتى ينتهي إلى أحد أمرين: إما أن يستكشف حقيقتها أو يعلمها، فإن استحال ذلك فإني أحب له أن يأخذ بأقوم الآراء البشرية وأبعدها عن التنفيذ، وليكن ذلك طوفه الذي يسبح به في الحياة - وأني مسلم بأنه لن يفعل ذلك دون أن يتعرض للخطر، إذا هو لم يستطع أن يجد من الله كلمة تسير به على هدى وطمأنينة

والآن فسأجسر، كما تريدني، على أن أستجيبك، لأني لا أحب أن آخذ على نفسي فيما بعد أنني لم أدل برأيي في حينه الملائم، فغني إذا ما قلبت النظر في الموضوع يا سقراط، سواء أكنت وحدي أم كنت مع سيبس، بدا لي أن التدليل لم يكن حاسماً أجاب سقراط - إنني لأعترف يا صديقي أنك قد تكون مصيباً، ولكني أحب أن أعلم في أي ناحية لم يكن التدليل حاسماً

فأجاب سمياس - في هذه الناحية: ألا يجوز أن يستخدم أحد هذا الدليل بذاته في القيثارة والانسجام - ألا يحق له القول إن الانسجام شيء خفي، غير جثماني، لطيف إلهي، موجود في القيثارة المنسجمة، ولكن القيثارة والأوتار، مادة، وهي مادية متألفة من أجزاء أرضية، وتربطها القربى بالفناء؟ وأنه إذا تحطمت القيثارة أو تقطعت أوتارها وتمزقت، فإن من يأخذ بهذا الرأي يدلل كما تدلل أنت، وبالتشابه نفسه، على أن الانسجام يبقى حياً ولا يفنى، لأنك لا تستطيع أن تتصور، كما يجوز القول، أن تبقى القيثارة بغير أوتارها، بل وتبقى الأوتار الممزقة نفسها، على حين أن الانسجام الذي يمت بأسباب القربى إلى الطبيعة

السماوية الخالدة يفنى - بل ويفنى قبل الذي هو فان. سيقول إن الانسجام لاشك موجود في مكان ما، وإن الفناء سيصيب الخشب والأوتار قبل أن يصيب ذلك الانسجام، وإني لأشك يا سقراط أنك ستأخذ، أنت أيضاً، في الروح بهذا الرأي الذي نميل جميعاً إلى الأخذ به، وستذهب كذلك إلى أن الجسد إنما أقيم وارتبطت أجزاؤه بفعل عناصر الحر والبرد والرطوبة والجفاف وما إليها، وأن الروح هي ما بين هاتيك العناصر من إنسجام، أو هي مزاجها المتزن المتناسب، فإن صح هذا نتج بداهة أن أوتار الجسد إذا ارتخت أو أجهدت بغير مبرر بسبب الفوضى أو أي فساد آخر فنيت لذلك الروح جملة واحدة، برغم ما بها من ألوهية غالبة، مثل سائر الانسجامات التي تكون في الموسيقى أو آيات الفن، ولو أن بقايا الجسد المادية ربما لبثت طويلاً حتى يدركها الفناء أو الاحتراق. والآن، إن زعم زاعم بأن الروح تفنى أولاً فيما يسمى بالموت، باعتبار أنها ما بين عناصر الجسد من انسجام، فبم نجيبه؟

(يتبع)
زكي نجيب محمود
من أدب الهند
الأمير خسرو - 2
الشاعر الهندي الكبير
بقلم السيد أبو النصر أحمد الحسيني
الهندي
قبل أن نلقي نظرة في شعر خسرو يجدر بنا أن نبين معنى الشعر والغرض منه في صوره المختلفة عند كبار المفكرين حتى يتمكن القارئ من الحكم على شعره بما هو خليق به
قال جانسون: إن الشعر هو توحيد اللذة مع الحق، يدعى فيه الخيال لمساعدة العقل. وعند استيوارت مل: الشعر هو ما يتوقف على الفكر والكلمات التي تجتمع العاطفة فيها من تلقاء نفسها. وقال ميكاليه: إننا نعني بالشعر استعمال الكلمات بطريق أن يوجد الوهم على التخيل، وهو فن يعمل فيه الشاعر بالكلمات ما يعمله الرسام بالألوان. وقال الأستاذ كورتهوب: إنه فن إيجاد اللذة بالتعبير الصحيح عن الفكر الخيالي والعاطفة في كلام موزون. وقال الشاعر نظامي العروضي السمرقندي من المسلمين: إنه فن يرتب به الشاعر القضايا الخيالية ويخلطها بالتشبيهات المثمرة، ليستطيع أن يظهر الصغير كبيراً، والكبير صغيراً، أو يظهر الخير في لباس الشر والشر في لباس الخير
نستنبط من التعاريف المذكورة المختلفة للشعر، أن الشعر هو تعبير عاطفي خيالي عن الحياة كما تصوغ نفسها في فكر المعبر - هو معالجة الحقائق والتجارب والمسائل بطريق يسود فيه العنصر الخيالي. والشعر ينقسم إلى قسمين: داخلي أو شخصي، وخارجي أو غير شخصي. ففي الأول يوجه الشاعر جل عنايته إلى نفسه يستوحي ويستلهم عواطفه الخاصة وتجاربه الذاتية. وفي الثاني يتوجه إلى غيره يعامل العالم الخارج عن نفسه بغير الاستناد إلى ذاته وشخصه. والأول يشمل جميع أقسام الأناشيد والشعر الغنائي مثل الغزل والنسيب وأناشيد الوطنية والروحانية الخ، كما يشمل الشعر الفلسفي والفكري. وأما الثاني فينقسم إلى قسمين: قصصي وتمثيلي. فالشعر المختص بالملاحم والفروسية والأساطير من أهم أصناف الشعر القصصي. والتمثيلي هو ما يقدم لك صوراً واضحة لسجايا الأشخاص المختلفة، وأخلاقهم في حكاية تمثل
في ضوء هذه التعاريف للشعر وأصنافه ونواحيه المترامية الأطراف حين نلقي نظرة على شعر خسرو نجد أن عبقريته الشاملة لم تترك نوعاً من أنواعه ولا ناحية من نواحيه إلا باشرتها بالإجادة والإبداع. فهو قد أتقن جميع أنواع الشعر اتقاناً حقيقياً. وأنتجت قريحته في جميع نواحي الشعر إنتاجاً نال استحسان كبار الشعراء والنوابغ في زمنه وفيما بعد. وهذه مزية لم توجد في غيره. فإن غيره من شعراء اللغة الفارسية لم يقدر أحد منهم لا قبله ولا بعده، ولا في الهند ولا في بلاد فارس، أن يقول الشعر ويحاكي إلهامه الشعري في أكثر من صورة واحدة أو صورتين من أنواع الشعر فملوك الشعر الفارسي يعدون ستة: فردوسي، وسعدي، وأنوري، وحافظ، وعرفي، ونظيري. ولكن مملكة كل منهم لم تتعد حدود نوع واحد من أنواع الشعر. فالفردوسي لم يقدر أن يتجاوز حدود المثنوي، وتصنيفه فيه هو الملحمة الكبيرة المسماة شاهنامه، وقد نشر ترجمتها بالعربية صديقنا الأستاذ عبد الوهاب عزام. وسعدي كان ملك الغزل، ولكنه لم يقدر أن يجيد القصيدة ولا المثنوي، كما أن براعة أنوري كانت محدودة في القصيدة، ولم تكن قادرة على الغزل المثنوي. كذلك حافظ ونظيري وعرفي كانوا نوابغ في الغزل، وغير قادرين على أنواع الشعر الأخرى. ولكن ذكاء خسروا الجامع المتسع لم يقتصر على واحد منها بل تناول (غزلاً) كما تناول (مثنوياً) وعالج (قصيدة) كما عالج (رباعياً) بغاية الإجادة والإتقان في جميع نواحيها، حتى لم يترك الأصناف الصغيرة الأخرى من الشعر الفارسي مثل (مستزاد) و (صنايع) و (بدايع)
هذا من حيث أنواع الشعر، وأما من حيث كمية الإنتاج، فنجد أنه لا يوجد له ند في ذلك أيضاً. فإن عدد الأبيات للفردوسي لم يزد على ثمانين ألفاً، كما أن عدد الأبيات للشاعر

الفارسي صائب لم يزد على ألف، ولكن ما جادت به قريحة خسرو يبلغ بضع مائة ألف بيت. فقد ذكر غير واحد من المؤرخين في كتبهم أن عدد الأبيات الفارسية له يتراوح بين ثلاثمائة وأربعمائة ألف. وفي بعض الروايات ستمائة ألف

كان خسرو يجيد بضع لغات إجادة تامة. فكان يتقن التركية لأنه كان من أصل تركي. والفارسية لأنها كانت لغة دينه، والاردية لأنها كانت اللغة الشائعة بين الناس. ولم يكن خسرو جاهلاً السنسكريتية لغة جيرانه الوثنيين المقدسة. فقد اعترف في كتابه (نه سبهر) بكل تواضع حيث قال: (عندي إلمام بتلك اللغة أيضاً). وعلى ذلك لم يكن خسرو شاعراً بالفارسية فقط، بل باللغات الأخرى أيضاً. بيد أن أكثر آثاره قد ضاع ولم يبق إلا القليل الذي بالفارسية والاردية

يعد خسرو من مؤتنف شعراء اللغة الاردية، لأنها كانت حينئذ في دور التكوين. فقد غذاها بالأناشيد والنكت والطرائف والكتب الدراسية للأطفال شعراً، ولا تزال شائعة بين الهنود وإن مر عليها أكثر من ستة قرون. وقد ذكر المؤرخ أوحدي في كتابه (تذكره معرفت) أن إنتاج خسرو في اللغة الاردية يساوي إنتاجه في الفارسية. فإن صح ذلك فمن الأسف أن لم يبق من ذلك الأثر العظيم إلا نزر يسير

لم يكن خسرو شاعراً فقط، بل كان ناثراً كذلك وإن قل إنتاجه في النثر بالنظر إلى إنتاجه في الشعر، فله غير واحد من الكتب الضخمة نثراً. اعترف أهل الفن بطول باعه فيه أيضا. وجميع منظوماته باللغة الفارسية التي توجد في الهند هي كما يلي: -

1 - من نوع المثنوي

(1) مطلع الأنوار: نظمه في مدة أسبوعين في سنة 698 هجرية وهو في التصوف، وقد نهج فيه منهج نظامي (الشاعر الفارسي الشهير) في كتابه (مخزن الأسرار) ويحتوي على 3310 أبيات

(2) شيرين وخسرو: نظمه في نفس سنة 698 هجرية وهو يحتوي على حكاية عشق خسرو لشيرين وكلاهما من أبطال الحب في الأدب الفارسي مثل مجنون ليلى في الأدب العربي. وعدد الأبيات فيه 4124 بيتاً

(3) ليلى ومجنون: صنفه في نفس السنة المذكورة وهو يشتمل على 2660 بيتاً

(4) آيئن اسكندري: صنفه في سنة 699 هجرية ونهج فيه منهج (سكندرنامه) للنظامي وعدد أبياته 4450 بيتاً

(5) هشت بهشت: أتمه في أوائل سنة 701 هجرية وقد نهج فيه منهج (هفت بيكر) للنظامي، وعدد الأبيات فيه 3382 بيتاً

وهذه الكتب الخمسة المذكورة يقال لها (بنج كنج) أو (خمسة خسرو) تدل على سرعة إنتاج المؤلف إذ هي تحتوي على 17926 بيتاً وقد صنفها في سنتين ونصف سنة. وللنظامي أيضاً خمسة كتب في نفس الموضوع، ولكن أكثر الشعراء رجحوا (خمسة خسرو) على (خمسة نظامي). ومنهم عبد الرحمن جامي فإنه قد رجحه في كتابه (بهارستان)

(6) قران السعدين: صنفه في سنة 688 هجرية حينما كانت سنه 36 سنة عن طلب السلطان معز الدين كيقباد، وهو يحتوي على حكاية مقابلة كيقباد لأبيه بغراخان مسالماً مع خروجه له محارباً

(7) تاج الفتوح: ملحمة تحتوي على حكاية فتوحات السلطان جلال الدين خلجي صنفها في سنة 90 - 689 هجرية

(8) نه سبهر (أي الأفلاك التسعة) صنفه في سنة 718 للسلطان قطب الدين خلجي، فسر به كثيراً وأنعم عليه بفضة تساوي وزن الفيل كما قيل

(9) دول راني خضرخاني: وهو يحتوي على بيان حب خضر خان بن السلطان علاء الدين لدول راني بنت راجا كجرات وانتهائه بالزواج

2 - من نوع الغزل

(10) تحفة الصغر: يحتوي على شعره الذي قاله بين 16 و19 من سنه، ويشمل الغزل والنسيب

(11) وسط الحياة: يحتوي على شعره الذي قاله بين 20 و33 من سنه

(12) غرة الكمال: يحتوي على شعره الذي قاله بين 34 و44 من سنه، وقد كتب في مقدمته ترجمة حياته بالإيجاز

من نوع القصائد - 3
بقية نقية: يحتوي على شعره إلى سنة 715 هجرية وفيه رثاء السلطان علاء (13)
الدين خلجي أيضاً
نهاية الكمال: يحتوي على شعره في آخر سنة، وفيه رثاء السلطان قطب الدين (14)
خلجي وقصيدة في مدح ولي عهده
جواهر البحر: لم أره (15)
خزائن الفتوح: صنفه للسلطان علاء الدين خلجي (16)
تغلق نامه: صنفه للسلطان محمد تغلق في 725 هجرية، وهو آخر تصانيفه (17)
من أنواع الشعر الأخرى - 4
رسالة نصر: لم أره (19)
مقالة: احتوت على أحوال الخلفاء الراشدين مع رسالة في التصوف (20)
خالق باري: كتاب للتدريس يحتوي على مفردات اللغات المختلفة المنظومة (21)
مصنفاته بالنثر - 5
إعجاز خسرو: في علوم البلاغة في خمسة مجلدات (22)
إنشائي أمير خسرو: في علم الإنشاء (23)
عظة البدر
للأستاذ (أبي أحمد)
البدر يرعاني وأرعاه ... قد يمكر الجلاس إلاه
أبثه من زفراتي فما ... لغيره يأمن أواه
يسري علي الليل رفيقَ الخُطا ... يضيء أقصاه وأدناه
تلوح فيه الأرض موشية ... من أقصر النبت وأسماه
لمثل ما أبصر من منظر تغفر للدهر خطاياه
وساحر الأجفان حلو اللمى ... ضعيف كر الطرف تياه
حديثه مثل دبيب المنى ... يبسم والدر ثناياه
حسبي من اللذة أنفاسه ... ومن رضِيَّ العيش لقياه
قد تمت الغبطة في ليلة ... قل لها في الدهر أشباه
ما العيش إلا ما يلد الفتى ... قل لها في الدهر أشباه
سألت هذا البدر كم منظرا ... رأى على الدهر بمسراه
قال ولم تَطْرِف له مقلة ... ولم تحرك منه ذكراه:
(هاتيك مَنْفيس بها ما بها ... من أرحب القصر وأعلاه
يلوح عن بعد بها موكب ... أخراه لا تبدو لأولاه
حتى إذا أبصرت أعلامه ... وخَرَّت الناس لمرآه
عرفت رب الملك في عرشه ... حسبك منه خُبْر سيماه
وذاك في بغداد قصر سما ... يضيء فيه العز والجاه
وربه في مجلس باهر ... مؤتلق تبهر رؤياه
وحوله من كل حورية ... هاروت في الأجفان مثواه
يأخذ عنها الطير ألحانه ... ويأخذ النرجس رياه
واليوم لا ملك ولا موكب ... إلا طلولاً من بقاياه
(!وهاهو العالم في سيره ... كأنما لم يعف مغناه
حياة قرجي ونترز
[عن الشاشة البيضاء]
للأستاذ فخري أبو السعود
بآمالها عاشت وفي ذِّكرياتها ... تَخَيَّلُ أحباباً لها خَطَرَاتِها
تُؤانِس أَشتاَ الطُّيُوف وإنَّها ... لآنَسُ ما تُبْقَى لَدَى خَلَوَاتها
تمُوج بجُلَّى الحادثات حياتُها ... على ضيق مثواها ونَزرِ لِدَاتها
على حُبَّ من يَرْعى هواها مقيمة ... وإن لَجَّتِ الأقدارُ في جَهَلاتها
تُصاحبُهُ في حِلِّهِ ورَحيلِهِ ... وما جاوَزِتْ يوماً مَدَى حُجُرَاتها
وتَبْلُغُ وَهْماً ما اشْتَهَتْ مِنْ وصالهِ ... إذا ضنتِ الدُّنيا بِمُشْتهَياتها
وتصبر عاماً كي تفوزَ بوصْلَةٍ ... فيا شَدَّ ما تَلقْى وطُولَ أناتِها

وتمْشي خَيَالاً في مَوَاكب نَصْرِهِ ... إذا أقْبَلَتْ تختالُ في خافِقاتِها
وَتَحْسَبُ مَجْداً نالَهُ مِن فَخَارها ... تقاسِمه إياه في نَشَواتها
وما ساَءها وَهْوَ الوَفِيُّ أن أغْتَدَى ... جميعُ الورى في حبِّه من عُدَاتها
وقالوا فلم تحفلْ بِقَوْلَةِ لائِم ... وَبِنَّ فَلَمْ تطلُب رِضَى هاجراتها
وكان لها الدنيا وكان لها الوَرى ... وكانت له في ليلها وَغَدَاتها
وزاد هواها رِقَةً ذِكْرُ طِفْلَةٍ ... لها منه يزهو الحُسْن في قَسَماتِها
تُسامُ ابتعاداً عن فتاها وَبنْتِها ... وإنها أدْنى لها من لَهاَتِها
وَتَرْصُدُ أحيْاناً لِفِلْذَةِ قَلْبِها ... لِتَرْوِيَ منها الطَّرف في غدواتها
فيا طِيبَ ريَّاها وعذب ابتسامها ... ولطف محياها وسحرَ الْتِفاتها
وطُوبى لها لو تستطيع احتضانها ... وإطفاء حَرَّ القلبِ من قبلاتها
وتقبيلَ كفَّيْها ولثم ثُغَيرها ... ورشْف نَدِيَّ الحُسْنِ في وجناتها
وإذ كان ذاك الشملُ يَلتامُ بعد ما ... تراءى بياضُ الشَّيب في شَعَرَاتها
وبَشَّرها بالوصلِ صاحبُ وُدِّها ... بِوَصْلٍ به لا تَنقَّي عاذلاتها
أبى الحَيْنُ ما راما وخَرَّ مُضَرَّجاً ... عَلَى قَدَمَيْهاَ لا يَعي دَعَوَاتها
ودَانُوا بِهِ مِن شَيَّعتْ فيه رُوحها ... ومَن لو أطاقَتْ لافتدَتهُ بذاتها
ومرَّ بها في السجن ماضي رُفاَتِهِ ... إلى قبره يُذْكى شَبَا حَسَراتها
تَحِنُّ له في وَحْشَةِ السَّجْنِ لَهْفَةً ... وتُذري عليهوحدها عَبَراتها
وَزَفُّوا إليها العفوَ منْ بَعدِ حِجَّةٍ ... فلم يَلْقَ منها العفوُ غَيْرَ صُماتها
وما هَزَّ قلباً للحياة مُطامِناً ... بأرْزَائِها تَعْتَامُ أو حسناتها
تَسَاوتْ لديها نضرةُ الروض في الضحى ... وأحناءُ ذاك السجن في ظُلُماتها
وهيهات ما مِن صادعٍ لاسارها ... سوى الموت أو من كاشفٍ غمراتها
وراحت تُقَضَّي العمر في فَيْءِ بنتها ... - ولم يَبْقَ منها غيرُ طَيْفِ حياتها
حُطامُ أمانٍ أو بقيَّةُ مهجةٍ ... قضت ليس يحيا ثَمَّ غيرُ رفاتها.

فخري أبو السعود

الهر المرائي

هِرَّي أراك تَوَدُّني بتملق ... لولا القِرى ما كان مثلك وَدّنى
مالي أراك تخصي بحفاوة ... ويميل ذيلك في الهواء وينثني
إن الرياء لظاهر يا صاحبي ... لولا اشتياقك للطعام هجرتني
فلعلة الطمع الوضيع ألفتني ... ولغاية الشره الحسيس صحبتني
فاخلع رداء الذل والملق الذي ... يقذي العيون بشكله القذر الدَّني
واقنع برزقك فالقناعة نعمة ... إن القنوع مدى الحياة هو الغني

محمد عشماوي صقر

ذكوان

للأستاذ زكي المحاسني

(مهداة إلى الصديق النابغة علي الطنطاوي)

ذَكْوَانُ أنشدني أرقَّ النشيدْ ... أنتَ أغانيَّ وأنتَ القصيدَ
ناغِ ولا تَبْكِ فإنَّ البُكا ... منكَ مُذيبٌ لفؤادي الوَدُودْ
عُمُركَ عشرونَ صباحاً وَلي ... عشرونَ عاماً في هَواكَ العميد
جئتَ إلى الدُّنيا برغْمٍ كما ... جئْتُ أنَا، لكننا لاَ نُريد
غداً ستنمُو وتُحِبُّ الهوَى ... مِثْلي ويُغريك العُلَى والجدُودْ
نَظَرْتُ في شِعْرِ المَعرَّى فما ... أمالني نحوَ الرَّدَى واللُّجُود
يَوَدُّ أنْ يَهدِمَ هَذي الدُنى ... وأكرَهُ الخَلْقِ إليهِ الوَلُودْ
سألتُهُ: لو كنتَ ذَا رؤيَةٍ ... وَذُقْتَ تقبيلاً وَلَمَسَ النُّهُودْ
لطَوَّحَتْ عقلَكَ بَرَّاقَةُ الخم ... رِ وأسقتك الهوَى كلَّ رُودْ
إرْضَعْ أيا طِفْلِيَ منْ دِرَّةٍ ... واهْتَزَّ في مَهدِكَ حُلْوَ الرُّقُود
ماذا ترَى في طولِ هذا الفضا ... تَعْيي به إن شئت دَرْكَ الحدود
أملِئُ بكفَّيك مدى إصبعي ... وانظُرْ إلى وَجهِي وَخَلَّ الكُمودْ
أمكَ تفْديكَ بِوَقدِا الحشَا ... فديتُها عَصمَاَء تَرعَى العُهُودْ
أدعو لِذَكوانَ مَديدَ البَقاَ ... وَأرتجِي في قومهِ أنْ يسود

أتى وللعِيد تَباشيرُه ... فكان لي في عُمُري خيْرَ عِيدْ
(دمشق)
زكي المحاسني
في الأدب الإنجليزي الحديث
بيرون وشلي وكيتس
للأستاذ بشير الشريقي
بيرون وشلي هؤلاء الأقانيم الثلاثة أعظم شعراء الإنجليز وأشهرهم. عاشوا في القرن التاسع عشر الميلادي وامتازوا بشعرهم الوجداني وطريقتهم الخيالية الابتداعية، لم يتكلموا إلا عن مشاهدة وتصور واعتقاد، ولم يتقيدوا تقيد المدرسين بالصناعة اللفظية ولا بالحقائق العلمية
لقد خصت الآلهة الشعراء الثلاثة بأقل نصيب من العمر، فقد كان سن بيرون يوم ثكلته عرائس الشعر ستة وثلاثين عاماً فقط، وشلي ثلاثين، وكيتس ستة وعشرين؛ ولكنهم وإن لم ينسأ لهم في آجالهم استطاعوا أن يملأوا أرجاء هذا العمر بأوفر نصيب من الشعر القوي والاعتراف الشجي والنسيب الفتي، لقد هتكت عن أنظارهم مسدلات الحجب، فجرى عنهم غير ما في الكتب
اللورد بيرن
1788 - 1824
إذا كان رأي أدباء اليوم، أدباء القرن العشرين، في اللورد بيرون كرأي معاصريه فيه، وجب أن يعد هذا النبيل الجميل أنبغ شعراء الإنجليز من غير نزاع؛ لقد ظفر بشهرة لم يظفر بها أحد سواه، وعلى يديه انتظم الشعر الإنجليزي لأول مرة ساحة الشعر الأوربي
في عام 1820 نظم لامرتين قصيدة غراء كلها إعجاب ببيرون؛ وكذلك تنبأ ماثيو أرنولد أن الأمة البريطانية يوم تحتفل في ختام عام 1900 بذكرى شعرائها الأعلام، شعراء القرن التاسع عشر، سوف تضع اسم بيرون في طليعة عباقرة الشعر
لم يكن بيرون فناناً عظيماً ولا ثاقب النظر، ولم يجد فيه العالم إلا أنموذجاً في صناعة الشعر، ولكنه كان في ذاته صورة مغرية في الربع الأول من القرن التاسع عشر؛ اتحدت شخصيته بشعره لدرجة صعب معها التفريق بينها، وحتى قالوا: حياة بيرون هي أحسن شعر بيرون؛ وقد تحدر من عائلة توورث بين أفرادها على ما يظهر ضعف الأعصاب؛
كان والده رجلاً شريراً فظاً، وكانت أمه متقلبة شديدة، وتوفي عمه وهو في سن العاشرة، فانتقل إليه لقب اللوردية، وهكذا لم يكن في ثقافة بيرون ما يعلمه ضبط النفس أو إنكار الذات في سبيل الصالح العام، فثار حين ألقى إلى تيار الزمن على مضايقات المجتمع ومضايقات القانون التي صدمته في رغباته الخاصة
لقد وجد - لا نقول ثقف - في مدرسة (هارو) ومن ثم في (كمبردج)، ثم قام بسياحة استغرقت عامين، واليونان هي التي صيرته شاعراً؛ وحين عاد وطنه، وكان قد نشر وقائع رحلته في الفصلين الأولين من كتابة (تشايلد هارولد) وجد نفسه شاعراً محبوباً مشهوراً
وأصبح بيرون الشاعر الجميل محور الحياة الماجنة في لندن، منغمساً في المعابثة واضعاً نفسه بين يدي هواه من النساء، ثم يتزوج في سنة 1815 بالآنسة ملبانك ولكن تهجره زوجه بعد أن تضع له طفلة وقبل أن يمضي على زواجهما عام واحد، والى الآن لم يقف أحد على السبب الحقيقي لهذا الهجران، غير أن الناس انتصروا يومذاك للادي بيرون، وفي سنة 1816 ترك زوجها انجلترا إلى غير رجعة، فعاش في سويتزرلاند (سويسرا) وإيطاليا 1816 - 1824 ينظم أحسن شعره ويتسلى بصداقة شلي، وينعم منذ ذ1819 بأكثر من صداقة الكونتيس كويسيولي
وهنا لا يغرب عن البال أن هذا الشاعر بينما كان يطلب لنفسه لذاتها ولهوها ويرى في الأنانية دستور الحياة، نجده قد تأثر إلى أقصى حد بالروح الوطني العام الذي انبعث في أيامه في بلاد اليونان، إنها الرغبة في مساعدة الغير على نيل الحرية هي التي رمت به سنة 1823 في القضية اليونانية وجعلته يطالب لليونانيين بالاستقلال عن الأتراك

ذهب اللورد بيرون إلى اليونان وساعد على إيقاظ شعور القوم الوطني وفي توحيد كلمتهم حتى جعلهم كرجل واحد في معركة الحرية والاستقلال، وفي (ميسولونيا) أصابته الحمى فهدت جسمه الذي أضنته حياة الفوضى التي غرق فيها هذا اللورد الشاب إن في موته وحيداً في بلاد الغربة ما يحز في القلب، لقد كان أشبه ما يكون يقبس لطيف من نور الشمس الذهبي ألقي وسط العالم في يوم مظلم عاصف لشعر بيرون تأثير في القلب، وعلوق بالنفس، لأنه استطاع أن يصور به حياته وهي كما رأيت شائقة غاوية، حياة شباب جميل موسر انغمس في اللذات وانكب على الملاهي حتى

مل وسئم، حياة لهو ومخاطرة، يتخللها شك مقلق وتبرم من الأقدار التي قضت على كل طيب وجميل بالانحلال البطيء والموت السريع وفي الحق كان كل ما أخرجه الشاعر للناس قوياً عجيباً فاتناً من باكورة شعر (ساعات البطالة إلى (عروس أبيدوس من الفصلين الأولين من (تشايلد هارولد) إلى الفصلين الأخيرين منه، من القصص الشرقية، إلى الأغاني العبرية، من (سجين تشيلون (بونيفار الذي صد هجوم دوق سافوي عن جنوه) إلى القصيدة الروائية (مانفرد إلى نظمها في إيطاليا على نسق رواية (فوست) وذكر فيها السحر والأرواح وخوارق الطبيعة، من (يوم الحساب) وهي من أقوى الهجاء الحديث إلى (الدون جوان) من رثاء تاسو (الذي اعتقل بتهمة الجنون لأنه أحب ليونورا ابنة الدوق) إلى (مارنيو فاليرو المأساة التاريخية - كان يرافق عبقرية بيرون سهولة تامة وقدرة عجيبة في التعبير عما يجيش به صدره

وهنا علينا أن نذكر أن في اللورد بيرون الفنان، عللاً كثيرة، فهو لا يكاد يحسن صناعة الشعر ولا ربط الفكر ولا اختيار العناوين، ذو أسلوب بسيط مضطرب، ولكن على الرغم من كل ذلك فان وليام فورس يقول عنه إنه أعظم ذخيرة أدبية في هذا القرن التاسع عشر

إنه شاعر الحرب، لهذا سوف لا نقدر على وفاء حقه في هذه الأيام التي يسود فيها السلام

برسي شلى

1792 - 1822

ولد شلي عبقرياً مفرداً فلم يكن له مثيل في بارونية من البارونيات الإنجليزية الفنية، لقد قاوم وهو يافع، ما كان يسود في طبقته من آراء وعقائد وتقاليد، وفي مدرسة (إيتون) وفي جامعة (أكسفورد) كان في تصادم دائم مع (المحافظين) نشر عام 1811 مقالاً بعنوان (حاجتنا إلى الجحود) طلب فيه من جميع مديري الكليات أن ينزلوا إلى مناقشة آرائه وتفنيد هرطقته مما أدى إلى طرده من الجامعة. وفي ذلك العام تزوج بهاريت ويستبرون، وهي فتاة في سن السادسة عشرة؛ ولدت له طفلين ثم هجرها عام 1814 من أجل ماري كودوين ابنة وليام كودوين الكاتب الروائي والسياسي؛ وبعد عامين، حين أغرقت هاريت نفسها في التيار، أصبحت ماري كودوين السيدة شلي ولكن محكمة تشانسري حرمت الشاعر حضانة ولديه

وفي عام 1818 ترك شلي إنجلترا إلى إيطاليا حيث قضى بقية عمره وكان دائم الاتصال باللورد بيرون

أحسن شعر شيلي ظهر في السنوات الأربع الأخيرة من عمره، وبعبارة أخرى أن شعره لم ينضج حتى سنة 1818، ومن أقوى وأمتن قصائده الطويلة، الروايتان الغنائيتان (ميتوس الغير محدود) و (هيلاس). وتمثل هيلاس يقظة اليونان وتأييد العالم لهم في ثورتهم على الأتراك

ولكن إذا كانت إجادة شلي تامة في هذه القصائد الطويلة فان إبداعه كان عظيماً كذلك في مقطعاته الغنائية التي نذكر منها قصيدة (القبرة) و (الضباب) و (أدونيس) و (غناء كونستانيا) و (الريح الغربية) و (إلى الحرية) و (إلى المساء)

كان شلي من بين الشعراء أجمعين شاعر المثل الأعلى، استطاع أن يتصور في أخلاق الإنسان وحياته كمالاً هو أسمي بكثير مما عرف حتى الآن

لقد ثار على كل ما يحط من قدر الإنسان ويحول دون تطوره السامي مدفوعاً بحبه العظيم للإنسان وإيمانه بزمن آت هو خير من زمانه

وقد أدرك بواسع علمه وثاقب رأيه أن فكرة الإنسان عن الله تتناقض كثيراً وفكرة

الحق والعدل والحقيقة، وهكذا يشوه التلوين الإنسان الصورة الإلهية كما يشوه زجاج نافذة مصبوغ جسماً تراه من خلاله، أو كما يوضح شلي ذلك في قوله: الحياة أشبه ما تكون بقبة من زجاج كثير الألوان
تلطخ أضواء الأبدية البيضاء
إلى أن يحطمها الموت
فان كنت تود أن تلتقي بهذا الذي تفتش عنه فمت إذن! تطلع شلي تطلع مشتاق إلى يوم قريب يتحقق فيه المثل الأعلى، وعلق آمالا كباراً على الثورة الفرنسية، ولكنه حين شاهد ما منيت به النظريات السياسية من فشل أحس بيأس مؤلم
لو طال عمر شلي عتنق مبادئ (وردزوس) الإصلاحية ولقال معه إن تقدم الجنس البشري يتوقف على رقى الفرد وتطوره، ولكنه عاش حياة قصيرة. ولد عام 1792 وغرق عام 1822 بانقلاب قاربه أثناء اجتيازه خليج اسبيزا، ولما أخرجت جثته من البحر أحرقت
على الشاطئ بمحضر من اللورد بيرون وبعض الأصدقاء ودفن رمادها في مقبرة البروتستنت في روما وقد كتب على قبره هذه الكلمة (قلب القلوب)
جون كيتس
1795 - 1821
يرقد كيتس حيث يرقد رماد شلي في مقبرة البروتستانت في روما، وقد نقش على قبره تنفيذاً لرغبته هذه الجملة (هنا يرقد من أشبهت ذكراه سفراً ألقى في الماء)
ولد من أبوين غير شاعرين، فكان والده يعمل في إسطبلات الخيل المعدة للإيجار في لندن، ولكن سرعان ما أصبح هذا الشاعر (اللندني) شاعر اليونان الحديث، سرعان ما أصبح هذا الطبيب (تحت التمرين) رسول الجمال، وموجد المدرسة المنسوبة خطا إلى تنسون
اهتم كيتس بدراساته الطبية، ولكنه لم يجد لها طعماً، فهجرها عام 1817 وهو العام الذي ظهرت فيه مجموعته الشعرية الأولى، وفي عام 1818 ظهرت له قصيدة (أنديميون فانتقدتها المجلة (الفصلية) ومجلة (الغابة السوداء) انتقاداً لاذعاً سفيها آلم الشاعر كثيراً، ولكن هذا الظلم الأدبي ليس هو الذي عجل بموت كيتس كما ظن شلي، وإنما داء السل هو الذي كان علة موته الباكر
ظهرت أجود شعره عام 1820، وفي ختام هذا العام رحل إلى (نايلز يرافقه صديقه (سيفرن) الذي وقف على العناية به امرأة طيبة، ظلت مخلصة في خدمته إلى أن توفاه الله في روما في شهر شباط سنة 1821
لقد نضجت عبقرية كيتس بسرعة مدهشة كما نضجت عبقرية شلي، وعلى الأخص ذوقه الفني إذ سرعان ما صلح، وسرعان ما كمل
قد تكون قصيدة (أنديميون غنية في الكلمات وفي الصور، أما فيما عدا ذلك فلم تكن بذات خطر. إنها تظهر رغبة الشاعر في جمال الأسلوب فحسب. ولكن إن نحن انتقلنا إلى مقطوعاته اليونانية الأخيرة التي وصفها بيرون بأنها (سامية سمو ايشيلوس) أدركنا الفارق العظيم بين شعره الأول وشعره الآخر الذي منه (لميا وهي قصة شاب اقترن بأفعى متخذة صورة امرأة جميلة، و (ايزابيلا) التي تكشف لنا عن مقدرة كيتس التامة في تأليف القصص الشعرية، (والأناشيد الستة) الباقية على الزمن
وما الذي كان ليعجز عبقرية كيتس لو قدر لها أن تعيش؟ إن موته المبكر كان أعظم نكبة حلت بالشعر الأنجليزي، لقد استطاع أن يتعلم من فنه ومرانه وجده خلال البرهة التي مرت بين نظمة (لأنديميون) ونظمه (الأشيد الستة) ما لم يتعلمه شاعر إنجليزي آخر في مثل هذه الفسحة من الزمن
لكي نتفهم نفسية هذا الشاعر ننقل هنا بعضاً من أقواله: (أنا رجل إحساس أكبر مني رجل تفكير)
(ليس في حس يمكن أن يخضع للجمهور أو لأي شيء في الوجود، إنما يأسرني الكائن الخالد، والجمال الخارق، وذكرى الرجال العظام)
(لم أستطع أن أعيش من غير حب أصدقائي، وإني لأقفز إلى أسفل جهنم من أجل الصالح العام، ولكني أكره الشهرة التي تقزز النفس)
(قد سبب لي نقدي لنفسي من الألم ما لم يسببه نقد المجلة (الفصلية) أو نقد مجلة

(الغابة السوداء)
(حين أشعر بأني على حق أحس بنشوة طرب لا أحس بها حين يثنى على الناس)
ليس أمامي) (أرى أنه لا يوجد مطلب يستأهل الطلب، اللهم فكرة عمل الصالحات)
(سوى طريق واحدة
سوف لا أخلف ورائي حين أموت) (أحسن أنواع الشعر، هو ما أهتم له وما أعيش له)
عملاً خالداً، سوف لا أخلف ما يثير إعجاب الأصحاب عند ذكراى؛ ولكني همت بالجمال
(كما ينبغي
الجمال الحقيقة، والحقيقة الجمال، هذا كل ما يجب أن تعرفه في الدنيا وكل ما تحتاج
إلى معرفته
(شرق الأردن)
بشير الشريفي
القصص
من أساطير الإغريق
بجماليون المثال
أسطورة الفنان الذي عشق أحد تماثيله
للأستاذ دريني خشبة
في مدينة أماذيس، الراقدة كالحمل بين مهاوي الجبال على شاطئ قبرص الجنوبي،
كان يعيش المثال بجماليون عيشة كلها عزوف عن العالم، وانزواء عن مشاغل الحياة،
وهرب من الناس. كان يأوى إلى ممثله إذا تنفس الصباح، ويكب على عمله حتى
تواري الشمس بالحجاب، فيأوي إلى فراشه، سادر النفس، معمود القلب، مكتئباً حزيناً
ولم يكن حزنه من نوع هذه الأحزان التي تتعارفها قلوب أبناء آدم، بل كان حزناً فريداً
في نوعه، غريباً في أسبابه، شاذاً في دواعيه، حتى لنحسب أن أحداً من الناس لم
يشق بمثله من قبل. . . . ولا من بعد
كان في بجماليون صدود عن الناس شديد، لا يراهم جديرين بتودد، ولا حفيين بمؤاخاة.
ومع أنه كان يضفي من عبقرية على تماثيل الآلهة التي طالما تفننت فيها يده الصناع،
فكان يخرجها على نسق الفاتنات الحسان، وفي سمات الغيد القيان، فانه لم يصب
مرة إلى امرأة، ولم ترتبط أسبابه بفتاة. فكأنه كان يسمو بحبه على النساء، وإن كن
في الحقيقة صاحبات وحيه، وفيض نبوغه، والمع الخاطفة التي يتجه شطرها مثله
الأعلى
ولم تكن هذه الحياة الصحراوية التي يحياها لترضيه، ولا تلك المعيشة الآلية التي
أغطشت أيامه لتقنع خياله الخصب، وقلبه الرحب. لقد كان يقف منقبض الصدر،
مغلول الروح، أمام هذه الدمى الصامتة، والتماثيل الخرساء، التي صنعها لأبوللو،
!ومينرفا، وديانا، وكيوبيد، وفلكان
ولقد كانت المناحت والأزاميل، والمثاقب والمناشير، والمبارد والمناعم، وكل عدده
تثير في نفسه السخط على الحياة، والبرم بالأيام، كلما فكر في حاله فعلم أنه يحيا بلا
!حب، ويعيش بلا أمل، ويعمل بلا غرض، ويسعى إلى غير مطمح
وبينما هو في يقظته النائمة هذه، إذا بحجارين يحملون رخامة كبيرة، على جرارة
ضخمة من هذه الجرارات الثقال، التي ترى كثيراً في محاجر اليونان، يقفون أمام
الممثل، ويطرقون باب بجماليون، فينقدهم ثمن الرخامة، وينصرفون كل إلى طيته
وكأنما كانت هذه الرخامة، على ثقلها الهائل، وحياً خفيفاً من السماء، أو آية من آيات
الأولب، هبطت على هذا المثال المهموم، فبدلت يأسه أملاً، وقنوطه المظلم رجاء نير
!الآفاق
فانه لينظر إليها نظرات تشف عن التمثال الرائع الذي سيولده منها، وإنه لينزع
ملابسه، ويضفي عليه ملابس العمل، ثم يتناول إزميله ومنحته، ويهوى على الرخامة
مستلهماً الحول والقوة من: (فينوس!!)
يا فينوس الجميلة، يا ربة الحسن والحب، يا من تسبح لك القلوب العاشقة، وتلهج)
باسمك النفوس الوامقة، يا سر الورد الجميل، وبسمة الفنن الضاحك! يا أم كيوبيد
(!الحالم، وبنت ديون الباسمة، يا فينوس الجميلة، العون العونيا فينوس
وهكذا لبث هنيهة يصلي، ثم أخذ في عمله، وكأن فكرة علوية تنزلت على فؤاده،

وامتزجت بشغاف قلبه، فراح يصورها ويمثلها، في هذه الرخامة النقية كالندف، البيضاء كالثلج. بل كأنما استجابت فينوس ربة الحب لصلاته، فأودعت في يده نفحاتها المباركة. فما دق دقة، أو نقر نقرة، إلا وتمثل فينوس الجميلة أمامه، ناذراً لها هذا التمثال، برغم التماثيل البارعة التي نحتها لها، والتي تملأ معابد اليونان وأقداسهم وأقبل على عمله بروح جديدة، ويد لا تكل، فلم يكن يحول بينه وبينه إلا الليليرخي سدوله، وإلا سنة من النوم ترقص في جفنيه، فإذا نام تتابعت الرؤى، وتلاحقت الأحلام، كل منها بيدي له ناحية كان يجلهها من جمال فينوس!

ولقد بدا له، كفنان، أن يروح عن نفسه بيوم يقضيه في الأدغال، وبين مسارب المياه، لكي يجدد نشاطه، ويبتعث ما خمل من ذهنه، وخبا من خياله، لطول ما أكب على العمل؛ فانطلق ذات صباح إلى سيف البحر يناجي أبوللو، وهو يوقظ الشمس من خدرها، فتعلو به في مركبتها الذهبية فوق الأثباج! وظل يعلو ويهبط، ويروح من هنا غادياً إلى هناك، حتى شارف اليوم أن ينتهي، وعاوده هواه الملح، فندم على ما قتل من ساعات في هذه الراحة

الخاملة، والفسحة الباطلة، فعاد أدراجه إلى الممثل، مستغفراً في طريقه الطويل فينوس!

ووصل ما انقطع من صنعته، فكان يستذكر أحلامه ليضفيها على التمثال، ويستوحي السماء فتلهمه من أديمها الصافي، وتشيع في يديه وقلبه بطهرها ونقائها، لتنتقل من ثمة سحراً وفتنة فوق تلك العضلة، وتحت ذياك الأبط، وبين انفراج هذين الثديين، وبالقرب من العكن، وحول الفخذين، وعند هذا الأنف الإغريقي الأشم، وملء ذاك الذقن الدقيق، والعنق الرقيق، ولفتة الحدقتين، وانفراجة الشفتين، وتبسيم الثغر، وتكويم الشعر، وتمليس الردف، وتدوير الكعبين. . . . وتباركت يا فينوس!

لكأن بجماليون يحس الحياة تسيل من إزميله الحنون، فوق هذا الجوهر المكنون! وكان يتقدم فينظر، ويتأخر فيرى، ويميل من هنا، وينثني هناك، ثم يهطع إلى عل، وينحني إلى أسفل؛ ليتفقد التمثال من جميع نواحيه؛ فماذا رأى؟ لقد استطير من الفرح، ومادت أعطافه من الخيلاء! ولكنه سكن قليلاً، وانطلق يتحدث إلى نفسه: (ويحي! لم صنعتك أيها التمثال، مادمت قد بلغت هذا الجمال ولا تتكلم؟ أنا بجماليون التعس، الذي يعيش في هذا العالم القفر، وعلى هامش تلك الدنيا المجدبة، لا أنيس لي، ولا قلب ينبض بحبي، فينبض قلبي بحبه؛ ولا نفس تصلي لي، فاصلي من أجلها! تكلم أبها الرخام الصامت، وانفرجا بكلمة واحدة أيتها الشفتان الساحرتان! أنا بجماليون! أنا صانعك أيها الأنثى المتحجرة. . تكلمي، ردي علي، فوحق فينوس المعبودة لقد أودعتك سر روحي، ولغز حياتي! أوه! ألا تردين على بجماليون المسكين؟ آه فينوس! النجدة يا فينوس! أنا لا أصلي إلا لك يا فينوس. . الغوث الغوث!. . .)

وظل المسكين مكباً على هذه الدمية التي صورها بقلبه كله، وروحه جميعها، يشكو إليها كأنها تسمعه، ويبثها كأنها تصغي إليه؛ ثم انتهى حاله إلى هيام شديد، وحب ودنف، ولوعة وصبابة؛ وانقلب عشقه المبرح إلى لون كاسف من الوجد، وضرب شديد من أمر ضروب الحزن! مصدره العقل الحائر والوجدان المضطرب. إذ كيف يعشق هذه الكتلة المجسمة من الرخام، وهي مما صنعت يداه؟ وأي أمل له في هذا العشق الشاذ؟ لا ريب أنه ضرب من الجنون، ما له من ضريب!

ولج به هواه، فأحضر عصبة من الحمالين الأقوياء، نقلوا له تمثاله إلى ردهة الآلهة - كما كان يسميها - وهي صالة واسعة في الطابق الثاني من البناء الذي فيه ممثله؛ وقصد إلى أمهر الصاغة وتجار اللآلئ، فاشتري ما وسعه من الحلي البالغة والجواهر النفيسة؛ وعاد فقرط الأذن، وقلد الجيد، وتوج الرأس؛ ثم هام في المروج الخضر، والحدائق الغناء، يجمع الورود والرياحين، كيما ينثرها تحت قدمي التمثال!

وتحولت الردهة إلى معبد من معابد البوذية المقدسة، بما عكف يحرقه من مقتني الند، وفواح الرند، في مباخر المرمر الجميل المصففة حول قاعدة التمثال

وتلف تلفاً شديداً من هذا الغرام العجيب، فلم يكن يكتفي بالعبادة في الحب والخبوت بين يدي ذلك الصنم المنتصب للفتنة، بل كان يشركه في كل أمره، ويعرض عليه جميع

شأنه، حتى القراءة! فطالما كان ينشده من دواوين الشعراء ما جادت به القرائح وشدت به الألسن، وتغنت بألحانه قلوب العاشقين!

معذور بجماليون! لقد تعب وراء الحب، ولكنه لم يلق هذه الغيداء الفاتنة، التي تستطيع التسلط على مشاعره، والهيمنة على فؤاده، وكان يتخيل روعة الجمال فلا يجدها مجتمعة إلا في هذا التمثال الذي نحته لهذه الأنثى، فعبده، وراح يتمنى على الآلهة الأماني، أن تنفخ فيه روحها، وأن تهبه الحياة ونعمة العيش

وبينما هو نائم في هدأة فجر اليوم التالي، إذا به يصحو فجأة على لغط شديد، وهرج عال في الشارع الذي يقع فيه بيته. فينهض إلى النافذة، ويرفع الستر، ويفتح أحد المصاريع قليلاً، ثم يحني رأسه ليرى. وإذا موكب زاخر من غوغاء المدينة يحمل تمثالاً كبيراً من تماثيل فينوس التي صنعها بجماليون؛ وإذا الدهماء ينشدون الأناشيد الشعبية، ويرسلون في غبشة الصبح أغانيهم (البرجوازية) الجميلة. . وكان من عادة سكان أماذيس أن يحتفلوا بالربة فينوس ثلاثة احتفالات يفاجئون بها النائمين ثلاث مرات كل سنة؛ فلما عرف بجماليون أن الحفل حفل فينوس، أسرع فارتدى أبهى ملابسه، وجمع بعض باقات الزهور المبعثرة تحت قدمي تمثاله، وهرول على الدرج، ثم انفتل في الشارع، واندمج في صميم الشعب الذي يلهج بالصلوات والأدعية باسم فينوس. ثم ما هي إلا هنيهة، حتى كان بجماليون يهتف كما يهتف الأطفال والسذج، ويرد من الصلوات ما يرددون

ولم لا؟ هل لحظة من الزمان هي خير من هداة الفجر ترسل فيها الصلوات على أول آراد الصباح، إلى آلهة السماء، وأرباب الأولمب، فتسمع وتلبى؟

وكان كل همه أن ينتهي هذا الحشد الهائل إلى المعبد، حيث يستطيع أن يرتل دعاءه، ويتمتم بصلاته

وقد تنظر حتى فرغ الكهنة من جميع الطقوس التي اعتادوا أن يقوموا بها في مثل ذلك اليوم؛ وأخذت الجماهير تنصرف هاشة مستبشرة، كأنما غمرتهم نفحات خالدة من فينوس. ولما لم يبق في المعبد إلا كهنته، وأفراد من الأتقياء الصالحين، يصلون صلاتهم، ويغمغمون بأدعيتهم، تقدم بجماليون في روعة التقى وخشوع الورع، ووقف خافتاً أمام المذبح، حيث تصاعدت ألسنة البخور المعطر، حاملة الأرج الشذى من لهب المحرقة إلى سقف. . . والسجف، فتكسب الهيكل جوه القدسي البديع.

ثم ألقى في اللهب بحفنة من فتيت الكافور والمسك، وطفق يرتل هذا الدعاء الطويل:

(فينوس الكريمة البارة، يا ربة الحب الطاهر، والهوى البريء، أيتها القديرة على كل شيء، المتصرفة في جدود العاشقين، وحظوظ المدنفين: أصغي إلي، ولا ترفضي دعائي: منذ اهتديت إليك، وأنا عبدك القانت لك، الهاتف باسمك في الغدو، المصلي لك في الأصال؛ لا أني عن ذكرك، ولا يفتر لساني عن التسبيح لك، والنسك من أجلك؛ باسمك أقبل على فني، ومنك استلهم وحي العبقرية فأنت لي كل شيء

ولقد أيقظتني صلوات الشعب لك من أحلامي الجميلة بك، فلم أطغ ولم أستكبر، بل هرعت إليك، أتوسل بك، وألتمس البركات منك، فحنانيك يا فينوس!

حنانيك يا ربة الحب، وجابرة القلوب الكسيرة، والنفوس الحائرة!

أنت، من غير ريب، تعلمين ما ألم بي من برح هذا الهوى الطارئ، وما تام قلبي من حب هذه الدمية التي صنعتها باسمك، ونذرتها لك، فدلهتني وشدهت روحي المبلبلة، وصارت لي أعذب الأماني وأعز الآمال. وهي بعد رخامة لا روح فيها ولا نأمة، أكلمها فما ترد، وأناجيها فما تجيب، وأغني لها فما تبتسم، أنت قديرة يا فينوس! فانفخي فيها من روحك، وانشري الحياة في أركانها، وامنحيها النبضات والأنفاس

(حنانيك يا فينوس! وسلام لك من قلوب العاشقين)

وما كادت صلاته تنتهي حتى انهمر الدمع من عينيه يروي قدمي التمثال المنتصب في المحراب فانبعث الشرر عالياً من المحرقة حتى أضاء قبة الهيكل، والتمع في جميع أرجائه وأقبل الكهنة والمصلون يباركون بجماليون ويهنئونه. لأن انبعاث الشرر هكذا، عقب الصلاة، وهو في اعتقادهم دليل رضى الربة، وأية تلبيتها واستجابتها!!.

ولكن مثالنا لم يشعر بقلبه يثلج، ولا بنفسه تهدأ، بل بالعكس، أحس كأنما الحياة تتدجى أكثر من قبل، ويحلو لك كل شيء في عينيه، وشعر كذلك بقنوط قاتل ينفذ إلى صميمه، فيطفئ فيه ما رجى من الآمال البيض، والأماني العذاب! فتعثر إلى الباب غير

آبه لما حوله من الآس المنضود في أنحاء المعبد، والزهر المبثوث في صحنه الرحيب. وما برح بين وني وبطء، حتى بلغ باب منزله، فولج متساقطاً على نفسه، وانبطح على أول سلاليم الدرج لا يحس ولا يعي!

وغفا إغفاءة مريضة، فبدا له أن يحمل أرزبة هائلة، يهوي بها على رؤوس الدمى، ويحطم بها التماثيل المنتشرة في ردهة الآلهة. . . إلا تمثال فينوس الجديد، المرصع باللآلئ واليواقيت! ففزع فزعة مروعة، ونهض يعدو إلى الصالة، يتفقد التمثايل. . . فما راعه إلا أن يسمع صوتاً رقياقاً يناديه: (بجماليون. . . بجماليون. . . إرق إلى هنا. . . هلم إلى!!)

(!!من؟ صوت من هذا؟ إنه صوت مرمري لا عهد لبجماليون به

وقفز قفزات كان بها في الطابق الثاني؛ ونظر فلم يجد تمثاله الحبيب في المكان الذي غادره فيه. . . (. . . أين؟ ويحي! لصوص!)

ولكن الصوت الرقيق الرنان عاد يطن. . . ويرن (لا. . ولكنها فينوس!) والتفت بجماليون فرأى غادة هيفاء في طبق تمثاله ونسجه، متكئة على الأريكة التي طالما وضعها أمام التمثال وأنشد الأشعار؟!

(من أنت أيتها المعبودة؟)

(!لست معبودة، ولكنني هبة فينوس لك! أنا جالاتيا. . تمثالك المكنون)

(!وكيف؟ أنا لا أصدق. هذه خديعة لاشك)

(وكيف تخدعك السماء يا بجماليون؟ أتريد أن تكفر بآلاء فينوس؟)

(لا. . لا. . لا أريد أن أكفر: وحاشا. . كيف حرت أنسية، ومن وهبك الحياة)

(!هذا سر فينوس. وهذه قبلاتك وما تزال مطبوعة على قدمي)

(!يا للسعادة)

انظر إلى هاتين الشفتين القرمزيتين، وهذين الخدين الموردين، وتينك العينين) (الزرقاوين. هل استطعت أن تموه تماثيلك بهذه الصباغ الفينوسية؟

وانظر إلى الأنفاس الحارة التي تتردد في صدري، هل وسعك مرة أن تبعثها في إحدى) (دماك؟

(.حاشا. حاشا)

(إذن فهلم إلي أحدثك حديثي)

(فدنا منها بجماليون المشدوه)

بجماليون! لقد استجابت فينوس دعائك، وقبلت صلاتك، وحضرت إلى هنا إذ كنت) - أنت في الهيكل تبكي وتنتحب، فمنحتني الحياة، وعلمتني من العلم ما لم أكن أعلم

(ولكن كيف بحق فينوس عليك يا جالاتيا) -

كنت منتصبة كما وضعتني على تلك القاعدة الناصعة، فاحسست حدقتي تتحركان) - وإذا بي أرى فينوس الجميلة أمامي، تأمرني أن أدلف نحوها، ففعلت، وكنت أحس كأن ثلجاً ينفذ من كياني، وأن حرارة تشيع في أركاني، وكانت فينوس تقول لي. . . (تعالي. . . تعالي، وكوني ربة هذا البيت، أحميه وأحرسيه، وانشري السعادة فيه!! هلمي إلي ألقنك دروس المحبة والحياة. . .) ثم إنها نفثت في أذني نفثات تعلمت بها هذه الكلمات، وأسبغت علي هذا الثوب الحريري الذي لابد قد رأيته على تمثالها في الهيكل. . . ليشهد لك أنها هي التي منحتني الحياة. . . ومنحتك الحب!)

(وماذا؟ وماذا يا حبيبتي جالاتيا؟) -

ثم تقدمت إلى فنولتني قبلة مشتهاة لن أنسى ما حييت أسرها. ودعت لي ولك) - بالوفاق الأبدي، والإخلاص السرمدي، لنكون أية السماء في هذه الأرجاء وابتسمت ابتسامة أرق من أطباقه أوراق الورد، ولم أعد أراها .. .)

وأتمت جالاتيا حديثها، فاستقر بجماليون في أحضانها!

دريني خشبة

على ذكر الربيع

شجرة المشمش

بقلم الأديب حسين شوقي

عندما فتحت صباح اليوم نافذتي التي تطل على الحديقة، تولاني العجب حينما شاهدت شجرة المشمش في ثوب زاه قشيب، وكانت بالأمس عارية يابسة. . . . حقاً! ما أبهى

شجرة المشمش في ثوبها الأبيض المزدهر، كأنها فتاة تتأهب لحفلة زفافها! من ذا الذي أتى بهذه المعجزة؟ من؟ هو أنت أيها الربيع، يا ألطف السحرة وأمهرهم؟ . .ولكن ظهور الربيع فجأة أعاد إلى قلبي ذكريات عزيزة، وإن تكن حزينة مؤلمة . .إن قدوم هذا الربيع ذكرني بربيع آخر قضيته في باريس، حينما كنت طالباً بها أذكر أنني ذهبت يوماً إلى حديقة (اللكسمبور) الغناء للمذاكرة في الهدوء والسكينة، قبل الامتحان بأسابيع، وبيدي كتاب (القانون المدني) للأستاذ (بلانيول) ولكن لم تكن عندي رغبة في المذاكرة هذا اليوم، لأن الطقس كان بديعاً؛ فالشمس أخذت تلمع في الأفق بعد احتجابها عنا طويلاً، والجو أخذ يعبق برائحة الربيع الزكية. . لشد ما كان جميلاً منظر جند الربيع، وهي تتسلق الأشجار في أثوابها الخضراء، وقد أخذت الطير تهتف وتصفق من فوق أغصانها لذلك الجيش الحليف الصديق، الذي أراجها من الشتاء البغيض. .

كنت أفتح كتابي لأقرأ فيه صفحة ثم أعود فأهمله لأتفرغ للنظر إلى التغييرات العجيبة التي تحدث في الطبيعة حولي. . . وكنت أغمض عيني، ثم استنشق - ملء الرئتين - عبق الربيع في نشوة عظيمة. . حقاً! لقد كانت بغيضة إلى نفسي تلك المذاكرة في هذا اليوم! مالي و (لبلانيول)؟ مالي وللعقود وتسجيلها؟ مالي وللحجز والاسترداد؟ والطبيعة تنجلي أمامي؟ وبينا أنا على هذه الحال، أفتح الكتاب لحظة لأهمله لحظات، إذ يرن من الخلف ضحك فتاة لم أنتبه إلى وجودها من قبل، وإذا هي تقبل فاسمعها تقول: إنك على حق! إنه لعذاب للنفس المذاكرة في مثل هذا الطقس البديع! أنا أيضاً لم أطق الذاكرة. . ثم أشارت إلى كتاب ألقته على الأرض. . وفي دقائق معدودة أصبحنا صديقين حميمين، وكأننا تعارفنا من زمان طويل، وكأن حديثنا هذا تتمة حديث قديم. . حقا! ما أمهرك أيها الحب في إحداث أمثال هذه المعجزات!

تركنا مقاعدنا وأخذنا نطوف جوانب الحديقة لنعرف ما إذا كانت جنود الربيع قد احتلت أنحاءها الأخرى

ثم دعوتها إلى تناول العشاء معي، فقبلت الدعوة دون تردد. . والعجيب أني وجدت من الطبيعي أن أدعوها إلى تناول العشاء، كما كان عجيباً أن تجد هي أيضاً من الطبيعي أن تتقبل هذه الدعوة. . ما أعجب تصرفاتك أيها الحب! وفي أثناء العشاء التهمت صديقتي بالنظرات، معجباً كل الإعجاب بعيونها الكستنائية الصافية التي قامت على حراستها أهداب براقة فتية، وأعجبت بقوامها الرشيق، وثوبها البسيط الأنيق. . ثم صرنا نتلاقى في كل يوم. . ولم يشأ أن يسأل أحدنا الآخر عن ماضيه. . ما شأن الماضي بنا؟ ما شأن الأشياء التي ماتت وانقرضت؟ لم نعذب أنفسنا بأوهام وأشباح؟ كذلك لم نشأ أن نفكر في المستقبل، لأن المستقبل لن يكون خالياً من الخطر والغموض. . أليس الفراق يراقبنا عن كثب؟ ألست طالباً أجنبياً تنتهي دراسته بعد أسابيع ثم يعود إلى وطنه؟ ما لنا وللمستقبل إذا كنا ننعم بالسعادة والحب في الحاضر؟

قضينا أياماً لذيذة سعيدة مرت كعادتها سراعاً. . . أي صديقتي العزيزة! إني لن أنسى وفاءك ما حييت! كم كنت تحثيني على المذاكرة عند اقتراب الامتحان، ونجاحي معناه الافتراق، معناه عودتي إلى الوطن. . ولو رسبت لطالت إقامتي معك. . ولكنك آثرت نفسي على نفسك، وقدمت مصلحتي على مصلحتك!

أي صديقتي المحبوبة! إن قلبي يتفطر حزناً كلما تذكرت يوم نجاحي، وقد جئت إلى الكلية أعرف النتيجة، فلما عرفت نجاحي طوقتني بذراعيك وقبلتني أمام الجميع بلا مبالاة من شدة الفرح، بينما لمحت دمعة تتحدر من عينك المحبوبة للفراق المرتقب! . .

أي صديقتي العزيزة! إني ما زلت أراك وأنت ترافقينني في مسيري لقضاء بعض حاجاتي قبل الرحيل، وقد تظاهرت بالغبطة والسرور كي لا تدخلي على الغم في الأيام القليلة التي سأقضيها معك في باريس! كنت فرحة وأنت تنتقين لي الهدايا التي سوف أقدمها لدى عودتي إلى أفراد أسرتي في مصر! أي صديقتيالعزيزة! إني ما زلت أراك تكفكفين دموعك خلسة حينما حجزنا تذكرة عودتي لدى إحدى شركات الملاحة! إني ما زلت أذكر عشاءنا منفردين في الفندق عشية الرحيل. . . لقد بدا عليك الحزن في أجلي مظاهره، لأنه لم يعد

بعد في طاقة قلبك الرقيق الصغير أن يتحمل تلك (الكوميديا). . (كوميديا الفرح) والسرور التي كان يحياها في أيامنا الأخيرة. . أي صديقتي المحبوبة! كم كان مؤلماً يوم الفراق! لقد رجوتك ألا تذهبي إلى المحطة لأن الوداع في المحطات مؤثر من نفسه، ولكنك أصررت على الحضور زاعمة أنه في طاقتك أن تتجملي. . ثم حضرت. . وكنت فعلاً شجاعة في أول الأمر فقد أخذت تضحكين، كما جعلت توصيني بأن أبعث إليك رسالة من كل مكان أحله في طريقي. . ولكن عندما علا صفير القطر المزعج المؤذن بالرحيل، ضاعت شجاعتك فأخذت تبكين بكاء مراً، ولم يكن في طاقتي أن أخفف عنك لأني كنت في مثل حالك من التأثر. . . ما أطيب قلب تلك السيدة العجوز التي جلست أمامي في العربة، وقد أخذت تبكي لبكائنا وهي تتمتم: يا لله! ما أقسى الحياة!

أي صديقتي المحبوبة! إذا كان حبنا لم يعيش طويلاً فإن عزاءنا فيه أنه انقضى في أوج شبابه وريعانه!

وأنت يا شجرة المشمش! ذكريني في مثل هذا اليوم من كل عام بهذه الذكريات العزيزة، لأن القلب البشري ضعيف قد ينسى أحباءه يوما ما!

كرامة بن هانئ

حسين شوقي

البريد الأدبي

هل لامرتين من اصل عربي؟

سيدي الأستاذ. . . الزيات

كنت قد قرأت في العدد التاسع والسبعين من (الرسالة) الغراء كلمة عن اتصال نسب شاعر الحب والجمال (لامرتين) بالعرب، وحثكم الباحثين على التنقيب عن هذه الصلة، لعلهم يوفقون إلى إضافة هذه العبقرية الخالدة إلى عبقريات العرب.

وإذ كنت أقرأ في (حياة لامرتين الغرامية للكاتب المعروف (لوكادوبريتين - صفحة 128، عثرت على نبذة لها علاقة متينة بذلك الأصل الذي يعترف به (لامرتين) نفسه بصراحة وثقة. وهأنذا أرسلها إلى (الرسالة) لعل فيها شعاعاً يضيء طريق البحث عن ذلك النسب.

قال لوكا:

(لما نفض لامرتين يده من السياسة تسنى له سنة 1832 أن يحقق أمنية طالما فكر فيها: وهي السفر إلى الشرق، لا حاملاً حقيبته وعصاه كما قد سبق له أن تخيل، بل على سفينة شراعية جميلة. . . هنالك نساء الشرق أرينه في عيونهن كما يقول: (أشعة من المخمل الرطب لم يكن قد رآها في عيني امرأة.) ففعلت بلبه تلك العيون ما تفعل الخمر. لذلك كان في قصصه التي عاد بها من سفره تلك اللجة الحادة، وذلك الخيال الذي تجده في قصائد (أريوست من هذا النوع قصيدته التي بارى بها شاعراً من الصحراء في الاشادة بمحاسن الآنسة الرائعة الجمال (مالاجمبا وأصدق هذه القصص على ما يظهر قصة زيارته (لادي استيراستهوب تلك الإنجليزية المحاطة بالأسرار التي كانت تعيش كسلطانة في قصرها القائم على أحد منحدرات لبنان، وقد تنبأت له بمكانة رفيعة وحظ عظيم؛ فسر بنبوءتها وارتاح إلى تصديقها. وأهم ما لفت نظر السلطانة في الشاعر تفاخره الساذج. وإليك حديثها عنه إلى زائر آخر هو الأمير (دي بويكليرموسكو -

قالت:

(بينما كان لامرتين يمد قدمه ليلفت نظري إلى جمال تقوسها، بينت له أن ذلك الشكل ينم عن أصل عربي، يدل عليه أيضاً بريق عينيه ورسم حاجبيه:

فاعجب بفراستي واستنتاجي؛ ثم روى لي كيف أن مائة وخمسين عربياً أسروا في غزة أيام الحرب الصليبية، فقيدوا إلى فرنسا واستوطنوا (ما كونيه) حيث أسسوا قريتين، وشادوا القصر الذي يسكنه لامرتين نفسه:

ثم تابع قائلاً: - كان عليك أيضاً أن تلاحظي في خاصة وراثية شوهدت في الاسكندر، وهي ميل الرأس قليلا نحو الكتف. . أليس هذا طابع البلاد الجنوبية؟. . . فأجبته

بالتأكيد:
- ' ' ?. . .
وكأن هذا الانتساب لم يرق للكاتب الفرنسي (لوكا) فقال فيه:
إن هذا الحديث ينم عن حقد (لادي استير) على الشاعر الذي أدرك ببصيرته الثاقبة (ما وراء تلك المظاهر الخلابة التي كانت لادي تحيط نفسها بها، من دسائس سياسية).
وليس في فراسة (لادي) ما ينم عن حقد أو تشف؛ وإنما هو استنتاج استنتجته من ملامح الشاعر وتكوين بعض أعضائه، وكانت فيه جد موفقة، لأنه صادف ارتياحاً من لامرتين، فقص عليها من نبأ الأسرى ما يؤيد فراستها ويدعم هذا الانتساب الذي يفتخر به، وبرهن لها أن القرية التي يسكنها والقصر القديم الذي توارثته أسرة لامرتين هما من بناء أولئك الأسرى العرب
ويروي أن لامرتين حاول مرة أن يبيع هذا القصر الأثري ليوفي ديونه، فأبت عليه ذلك ابنه أخته (فالنتين: وآثرت بيع معظم أملاكها حتى لا يفرط في هذا التراث الثمين، تراث أجداده العرب
بيروت (دار العلمين)
حسن باشو
ذكرى هاندل عميد الموسيقى الألمانية
احتفلت دوائر الفن والثقافة في ألمانية بمرور مائتين وخمسين عاماً على مولد الموسيقي
الألماني الكبير جورج فريد ريش هاندل، عميد الموسيقى والأوبرا الكلاسيكية. وأقيم احتفال رسمي في (هاله) مسقط رأس الموسيقى، شهده مندوبون رسميون من انكلترا التي عاش فيها هاندل أربعين عاماً وأخرج معظم قطعه وأوبراته الخالدة. وقد ولد هاندل سنة 1635، ودرس القانون أولاً، ولكن مواهبه اتجهت إلى الموسيقى فبرع في العزف على القيثارة والأرغن والهارب؛ وتلقى دراسته الموسيقية على العازف الشهير زوخاو؛ وعين عازفاً لكنيسة هاله. ولما ذاعت شهرته سافر إلى همبورج حيث تولي العزف في أشهر فرقها الموسيقية، وأخرج في ذلك الحين أولى أوبراته (الميرا) و (نيرون)؛ ثم سافر إلى إيطاليا وطاف بمدنها الكبيرة ونالت (أوبراته) هنالك نجاحاً عظيماً. وفي سنة 1710 سافر إلى إنكلترا وأخرج (رينالدو)، وذاعت شهرته هنالك؛ وبقي في إنكلترا زهاء أربعين عاماً حتى وفاته؛ وتعرف يومئذ بأقطاب العصر مثل بوب وفيدلنج وهو جارث؛ ولقى رعاية كبيرة من الملكة (آن) ملكة انكلترا؛ ورتبت له معاشاً حسنا. وفي تلك الفترة وضع هاندل سلسلة جديدة من الأوبرات الرائعة مثل (آسى وجلاتيا) و (استر) وهي بالنكليزية و (اتوني) و (تيمورلنك) و (سبيون) وغيرها؛ وأنشأ هاندل يومئذ فرقة أوبرا كبيرة؛ ولكنها فشلت من الوجهة المالية؛ فعاد إلى التأليف ووضع (آريان) و (أثاليا) و (السينا) وغيرها. وأصيب على أثر فشله في مشروعه بضربة من الشلل؛ فسافر إلى إكس لاشابيل يستشفى مدى حين؛ ثم عاد إلى إنكلترا، وترك التصنيف الأوبرا وأخذ يصنف القطع الكنيسة فوضع منها خمس عشرة؛ وأسبغ بمجهوده على الموسيقى الكنيسة بهاء وروعة لم تعرفهما من قبل، وأشهر هذه القطع الدينية (صالح) و (إسرائيل في مصر) وهما من أبدع قطعة. وفي سنة 1742 أخرج أعظم قطعة وهي: (المسيح) ومثلت لأول مرة في دبلن، ويجمع النقدة على أنها أعظم قطعة دينية موسيقية، ثم أخرج بعد ذلك (شمشون) و (يهوذا) و (تيودورا). وتأثر هاندل أعظم تأثر بالمدرسة الإنكليزية وتقاليدها. ورز في فنه على جميع معاصريه ما عدا (باخ) وتطبع مؤلفاته كلها روعة وفصاحة بالغة؛ وموسيقاه عميقة مؤثرة خصبة في الإلهام. وقد أصيب الموسيقى الكبير قبل وفاته بأعوام بفقد بصره؛ فكان ذلك نذيراً بتحطيم حياته؛ وتوفي بإنكلترا سنة 1759
وقد ألقى ممثل الحكومة الألمانية الدكتور روزنبرج في احتفال (هاله) الرسمي بهذه المناسبة
خطاباً جامعاً عن هاندل وآثاره؛ ونوه في خطابه بوحدة الثقافتين الجرمانية والأنجلوسكسونية، وقال إن ألمانيا كانت تعتبر شكسبير دائماً واحداً من أبنائها، بينما تعتبر عظماء المؤلفين الإيطاليين والفرنسيين أجانب عنها وعن ثقافتها وإن كانت تقدرهم وتعجب بهم، وكذلك هاندل فانه طبع الموسيقى الإنكليزية بأثره وطابعه مدى

قرنين، ثم قال إن (المسيح) وهي أعظم قطع هاندل لا علاقة لها بالمسيح ليهودي؛ وقد نعت المعاصرون هاندل بأنه وثني كبير، ولكن روعة هذه القطعة ونبراتها القوية إنما هي في الواقع نفحة انتصار تفهمها الروح الأوربية دائماً سواء في إنكلترا أو ألمانيا

اثر لشوبين

وضعت بلدية درسدن لوحة تذكارية على منزل في المدينة كان الموسيقي البولوني الأشهر شوبين يقيم فيه منذ قرن، وأقيمت بتلك المناسبة حفلة رسمية حضرتها السلطات السكسونية وسفير بولونيا في برلين. وألقيت بهذه المناسبة خطب من مندوب الحكومة الألمانية الدكتور فونك، والسفير البولوني حول حياة شوبين وذكرياته وأثره في تطور الموسيقى

من هنا ومن هناك

خواطر عن الدستور الإنكليزي

ملخص محاضرة للسيد جون سيمون

قرأنا في (الطان) نص المحاضرة الممتعة التي ألقاها السير جون سيمون وزير الخارجية البريطانية، في باريس، وافتتحت بها سلسلة المحاضرات السياسية الكبرى التي نظمتها (الطان) وشهدها رئيس الوزارة الفرنسية وأعضاؤها وأكابر رجال الحكم والسياسة والأدب والفن المال

وكان موضوع محاضرة السيد سيمون طريفاً شائقاً وهو: (بعض خواطر عن النظام الدستوري في بريطانيا العظمى) وقدم السير سيمون إلى الحضور رئيس الوزارة الفرنسية مسيو فلاندان، في كلمة بليغة نوه فيها بالمركز الرفيع الذي يتبوأه المحاضر في عالم السياسة والقانون؛ فهو اليوم عميد السياسة البريطانية، يتناول أقدارها ومصايرها بين يديه، وهو مشترع كبير ومحام بارع يترك وراءه ماضياً حافلاً بأعظم الذكريات

وألقى السير سيمون محاضرته بفرنسية بديعة؛ ولم يلجأ إلى الشروح الفنية أو الفقهية في بسط آرائه، ولكنه عرضها بطريقة واضحة سهلة، محكمة في نفس الوقت؛ واستهلها ببيان حقيقة يجهلها الكثيرون، وهي أنه لا يوجد في الواقع دستور إنكليزي، أو بالحرى لا يوجد دستور إنكليزي مكتوب ومبوب في نصوص ومواد يرجع إليها في تطبيقه؛ ولكن الدستور الإنكليزي عبارة عن مجموعة من القواعد والتقاليد القومية، تكونت مدى القرون وأصبحت مراجع محترمة تتبع بأمانة وإخلاص. ولهذه الخاصة الغريبة مزية قيمة هي المرونة التي تمكن ولاة الأمر من التمشي مع ظروف العصر ومقتضياته بتعديل بعض القواعد والتقاليد بطريقة عملية؛ وضرب السير سيمون مثلا عملياً لتطبيق هذه الخاصة، هو أنك لا تجد مطلقاً في القوانين البريطانية ذكراً للوزارة أو مسئولياتها أو رئيس الوزارة واختصاصه؛ فالوزارة التي تمسك بيدها مصاير الحرب والسلام هي نتيجة تطور دستوري لا يعرف أصله، ومع ذلك فهي تقوم على أصول دستورية معروفة؛ فهي مسئولة أمام البرلمان، ويجب أن يكون أعضاؤها جميعاً من أعضاء البرلمان؛ وأما رئيس الوزارة فليس له ذكر أو مرجع في القوانين الإنكليزية؛ وإقامته لا تستند إلى غير العادة والتقاليد، والمعروف أن

والبول هو أول وزير إنكليزي أطلق عليه هذا اللقب واعتبر رئيساً للحكومة؛ أما قبل ذلك فكان الملك يصطفي من بين وزرائه وزيراً أو أكثر يعهد إليهم بمهام الأمور وللوزارة البريطانية خاصة أخرى هي أن يفرق دائمً بين ديوان الوزارة (كابنت) وبين مجلس الوزارة. فأما ديوان الوزارة فلا يشمل كل الوزراء، ويعقد فقط من الوزراء الذين يمثلون الوزارات الهامة وفي مقدمتهم الرئيس؛ وهؤلاء هم الوزراء اللذين يحملون لقب (سكرتير الدولة) وعددهم سبعة، ومستشار المالية، واللورد تشانسلور، ورئيس البحرية، ورئيس مجلس التجارة وغيرهم؛ وهؤلاء يحضرون دائماً جلسات (الديوان) أما غيرهم من الوزراء الثانويين مثل وزير البريد، فلا يحضرون هذه الجلسات إلا في أحوال معينة

وقد كان العرش فيما مضى يشرف على اجتماعات الوزارة، ويرأس الملك جلساتها عادة؛ وكانت الملكة (آن) هي آخر من رأس مجلس الوزراء؛ ولكن حدث في عهد جورج الأول (أوائل القرن الثامن عشر) أن غيرت هذه العادة، فعدل الملك عن رئاسة المجلس لا لسبب سوى أنه كان ألمانياً لا يعرف الإنكليزية ولكنها غدت من ذلك الحين

سنة في الدستور الإنكليزي، فملك إنكلترا لا يرأس مجلس الوزراء منذ قرنين ولم يكن لمجلس الوزراء سكرتارية، ولا يوضع لجلساته مجلس أعمال حتى الحرب الكبرى، فاستحدث مستر لويد جورج هذه القاعدة، وعين سكرتيراً للمجلس بداعي الحاجة وما تقتضيه الأمور من سرعة الفعل؛ فغدت سنة دستورية؛ وأضحى هذا السكرتير من أهم أعضاء (الديوان) وعليه مسئولية كبيرة، فهو الذي يضع جدول الأعمال بمصادقة الرئيس ويوزعه على الأعضاء مشفوعاً بجميع الوثائق اللازمة، وفي وسع الوزراء البريطانيين متى تركوا خدمة الحكومة أن يكتبوا مذكراتهم كما شاءوا، ولكن قاعدة حكيمة مرعية تحملهم دائماً على احترام أسرار الدولة الخطيرة، فلا يبوحون بها مطلقاً

وهناك خاصة أخرى للوزارات البريطانية هي استقرارها وطول بقائها في الحكم؛ وهذه الخاصة ترجع إلى عوامل ثلاثة: الأول أن الأحزاب السياسية في إنكلترا قليلة العدد، وليست موزعة القوى والفرق كما هو الشأن في بلاد أخرى. والثاني هو أن صدور تصويت ضد الوزارة لا ينتهي بإسقاطها حتما؛ والوزارة الإنكليزية لا تطرح مسألة الثقة؛ ولا تسقط الوزارة إلا إذا هزمت في مسألة خطيرة أو وجه أليها قرار لوم على أثر المناقشة

في مسألة هامة. والثالث هو أن أعضاء الأغلبية يترددون غالباً في التصويت ضد الحكومة، لأنه يحتمل جداً أن رئيس الوزارة إذا هزمت الوزارة، يشير على الملك بحل البرلمان، وهو اعتبار له قيمته في اتزان النواب. والمفهوم دائماً أن الرئيس إذا أشار بحل المجلس، فإنما يرجع ذلك إلى أسباب جوهرية تقتضيه؛ ولم يحدث أن رئيساً أشار مرة بالحل ورفض طلبه

ولمجلس النواب البريطاني رئيس له تقاليد خاصة واحترام عميق في نفوس الأعضاء، وهو الذي يطلق عليه (مستر سبيكر) وهو يحمل مسئولية النظام في المجلس، ويؤديها بمقدرة عجيبة؛ وليس له جرس يقرعه، ولكنه إذا احتدم الجدل إلى حد كبير، يقوم من مجلسة فقط، فيضطر الأعضاء احتراماً لعادة قديمة أن يجلسوا جميعاً وبذلك تسود السكينة. ولم يحدث منذ ثلاثين عاماً أن أخرج عضو من المجلس أو اتخذت أي إجراءات غير عادية لتأييد النظام

الموسوعة الإيطالية

كان من مظاهر الأحياء الفاشستي في إيطاليا، أن عنيت إيطاليا الجديدة بالناحية الثقافية والعمل على ترقية العلوم والآداب؛ ومنذ سنة 1925 تعنى جهات الثقافة الرسمية بإصدار موسوعة إيطالية كبرى (دائرة المعارف) لا تقل في حجمها وموادها عن الموسوعة الإنكليزية أو الأمريكية أو الروسية؛ ولم تكن إيطاليا قد عملت بعد لإخراجموسوعة من هذا النوع، وكان أول من فكر في تنفيذ المشروع السناتو تريكاني وهو من أقطاب الصناعة والمال، ورأى أن يستعين على تنفيذه بأقطاب العلم والأدب والفن في إيطاليا وفي خارجها؛ ولما رأت الحكومة خطر المشروع وأهميته تناولته بيدها، وأصدرت به قراراً رسمياً في يناير سنة 1933؛ وتحولت الهيئة التي كانت قائمة به إلى هيئة رسمية، واشتركت معظم البنوك الإيطالية الكبرى في إنشاء الاعتماد اللازم؛ وتولى الإشراف على الناحية العلمية السنيور جنتيلي وزير المعارف السابق وهو علامة وفيلسوف كبير؛ فجمع حوله أقطاب العلم والأدب والفن؛ وقسمت أبواب الموسوعة إلى خمسين باباً وزعت على مختلف العلماء والاخصائيين؛ وروعي فيها أن تكون تامة التماسك والتناسق؛ فالمواد تفحص حين ورودها ويستبعد منها ما كان جدلياً أو مذهبياً أو متناقضاً مع غيره، وتصحح التجارب مراراً

عديدة، وقد بدأ ظهور هذه الموسوعة منذ سنة 1929 في ثوب أنيق رائع هو أبدع ما أخرجت المطابع الإيطالية وربما كان أبدع ما أخرجت مطابع العالم؛ ومن ذلك الحين يصدر مجلد واحد كل ثلاثة أشهر بانتظام تام؛ وسوف تظهر الأجزاء الأخيرة في سنة 1937، وتكون الموسوعة في ستة وثلاثين مجلداً. وقد ظهر إلى اليوم المجلد الرابع والعشرون ووصلت المواد إلى حرف ويحتوي كل مجلد على نحو مائتي صورة؛ وهي تطبع في مطبعة أنشئت خصيصاً لها في ميلانو عاصمة الطباعة الإيطالية، وقد اشترك في موادها جميع العلماء على اختلاف نحلهم ومذاهبهم العلمية والسياسية، وبلغ عدد الذين يشتركون في كتابتها 2500 عالم منهم نحو العشرة فقط من الأجانب، وكتب

السنيور موسوليني مادة (الفاشزم)، وكتب كثير من أقطاب الحركة الفاشستية عن مناحي الحركة وتطوراتها؛ وسوف تكون هذه الموسوعة بلا ريب من أحدث المجموعات العلمية والأدبية والفنية التي ظهرت حتى اليوم

الكتب

ترجمة نفسية تحليلية

هو ذا تاريخ إنسان - 2 .. .!

للأستاذ خليل هنداوي

جبران (دمعة وابتسامة) كان رؤوفاً بالناس محباً للناس، راحماً ضعفهم، مشفقاً على بؤسهم، وهو - وإن يكن في نزعاته هذه مقلداً - فقد عبر عن عاطفة صحيحة صادقة لم تدنسها الأرض. فهو مؤمن بالعدل السماوي والرحمة المتغلغلة في كل جزء من أجزاء الكون، ولكن جبران الإنسان أفسد على جبران الهادئ هدوءه، وقلقه الحسي عمل قلقه الروحي. . . فالفقر والهجرة وموت الأعزاء والخيبة، كلها عوامل تألبت على جبران فخنقت فيه جبران الهادئ، ووترت أعصاب جبران القاسي، ومن يطفئ مثل هذه الثورة إلا خمرة (نيتشه) يتناولها بيد (زرادشت)؟

خلقت خمرة (نيتشه) عواصف جبران، وقد أثبت الناقد تأثير نيتشه في (العواصف) وهو تأثير لمن يرى؛ وعندي أن هذا التأثير مهما أحاطت به عوامل هذا الفيلسوف فهو لا يخلو من تأثير روح جبران الباطنية التي تمثلت أن الناس كانوا سبب خيبتها، فكرهتهم، لأن في كراهيتها انتقاماً لها منهم.

قد كان - في طوايا جبران - زرادشت راقداً، فأيقضه زرادشت نيتشه. . . وألهبه بروحه، وهتف به ليكون هداماً مثله، دافناً للأموات الأحياء!

لا يرضى النعيمي عن كل هذا التمرد ولا بعضه، لأنه لا يعرف للتمرد غاية. . . وإنما أظهر رضاه عنه في (غرباله) لأنه كان نفثة صادقة من فتى التفت إلى لباب الحياة، أو طفل صاح صيحة الحياة، برغم القابلة الواقفة على كل طفل يولد لتحول بينه وبين صيحته بالخنق أو بالسحق: هتف جبران برغم ذلك هتاف المرارة والحرقة، فوجد الناقد في هتافه تحرقاً للمجهول، فرضى عن هذا التحرق وإن لم يرض عن هذا التمرد. . . فنظر - كما قال جبران - إلى مستقبله لا إلى ماضيه، وأدرك الناقد أن هذه الثورة النفسية هي ثورة لم يخل منها فنان أو شاعر، وأي حجر ينزل في القاع بدون دوائر وأمواج. وهذه الثورة هي علامة الحياة. . .

صدق النعيمي في نبوءته؛ فإن جبران لم يطل تمرده، ولو طال تمرده لما كان شريفاً كالذي قلده في تمرده؛ فإن تمرد نيتشه ناشئ عن المثل الأعلى الذي وجده واتبعه، لا يثنيه ثان عنه إلا رده، ولا يحول بينه وبين مثله حائل إلا صده. أما تمرد جبران فهو تمرد تقليدي - كمن يمد لمصافحة يداً شائكة إذا أنكره أو يداً ملساء إذا عرفه. تمرد نيتشه لا يقبل رحمة من يشتمهم، ولا يرضى بهبة من يدعوهم أمواتاً لأنه هو الحي العظيم! أما جبران فهو يعمل لهم ويقبل صداقتهم ويبني فنه على عطفهم ومعونتهم. ولو أن نيتشه حل محل جبران وعرضت عليه - ماري هاسكل - هذه الخمسة والسبعين دولاراً هبة، فماذا كان فاعلاً؟ لكن جبران علل نفسه بأنه اليوم مستسلماً وغداً يتمرد ثائراً. . وجاءت ساعة التمرد فأعلن العصيان، ثم فاء إلى منطقة السكينة الصامتة، والحياة كلها متوزعة في منطقة الصمت

ما هي العوامل التي دفعت جبران إلى السكينة بعد تلك العاصفة الهوجاء؟

ذلك ما حاول النعيمي أن يسدل عليه ستاراً فيأتي بالعوامل الخارجية التي لا يسكن إليها العقل. فجبران المتمرد قد يكون سبب سكونه أنه لم يكن داعياً بتمرده إلى مثل أعلى تؤمن به روحه كما يذيعهيراعه. ولكن (زرادشت) الثائر في قلب جبران هو ذات (زرادشت) الذي هدأ، والذي أسماه (المصطفى) وفيه لا يزال نتيشه عرقاً حياً ينبض في قلب جبران!

يرى (النعيمي) في المصطفى جبران الاسمي الذي بلغ بخياله ما لم يبلغه بإرادته. . . جبران الذي هو في القاع وهدأ في مكانه. جبران الساكن الذي دفن جبران المتمرد! جبران الذي رضى عن الحياة بكل ما انطوت عليه الحياة؛ وقبل الحياة المتصلة اتصال كل ذرة بذرة وكل قطرة بقطرة؛ الحياة التي لا ينفصل ألمها عن فرحها وجميلها عن قبيحها! هذه هي القمة التي بلغها جبران وأراد النعيمي من جبران أن يبلغها!

يقف النعيمي عند هذه النقطة ولا يتقدم، ويبقى القارئ مشوشاً لأنه لا يستطيع أن يصل بين حلقة التمرد وحلقة الكون؛ وقد تركهما الناقد مقطوعتين. عرف مولد التمرد ولم يعرف مولد السكينة، ولكن المحلل اليقظ يسهل عليه أن يدرك أن في (جبران المصطفى) أثراً من روح (نعيمة الهادئ)

أما جبران الثائر فقد علمنا أنه وليد نتيشه، أما جبران الهادئ فأي (نتيشه آخر) ذهب بروحه إلى هذا الأفق.، وهداه إلى هذه الغاية؟ إن الناقد الحقيقي قد يساعد الشاعر على

خلق نفسه وتتميم رسالته، والتغلب على الصدمات التي تعترض سبيله إذا كان فناناً. . . والناقد لا يحيط بمعاني العبقري إلا إذا كان ممن أوتوا من هذه العبقرية شيئاً. . والنعيمي هو صاحب فلسفة ومذهب في الحياة شامل، تراه في كل آثاره. ألم يحمل إلى جبران الثائر من هذا الطعام شيئاً؟ ألم يكيفه بشيء؟

أنا أعتقد بأنه أثر فيه وإن أخفى النعيمي هذه الصفحة تواضعاً منه، فجبران يوم كان يبعث بعواصفه المدمرة كان النعيمي يبشر بهذه الحياة الهادئة الساكنة. .

هذا هو كتاب (المصطفى) الذي يمثل الروح الشاملة المطلقة التي يبشر بها النعيمي؛ هذه الروح التي تضم إلى صدرها كل شيء، وتجعل صاحبها في أمن من الألم، لأن الألم عندها مفقود، وكيف يتألم من يؤمن بأن الحياة في كل حركة من حركاتها وفي كل سكنة من سكناتها ساعية دائبة وراء غايتها التي لا تحد!

(يتبع)

خليل هنداوي

العدد 91 - بتاريخ: 01 - 04 - 1935

الفردية علتنا الأصيلة

لا تزال الفردية أبين الصفات المميزة للعرب؛ ولا تزال هذه الصفة أجلى ما تكون في مصر! فان المرء ليغالي في فرديته حتى ليوشك أن يكون أمة وحده!

غلبت هذه الشيمة على العرب الأولين لقلة المرافق المشتركة، وأثرة الطبيعة الشحيحة، ووحدة الحياة الرتيبة، واستقلال النفس القوية، فالرجل منهم كان يحصر الدنيا في خيمته، ويجمع العالم في قبيلته، ثم يختصر القبيلة في نفسه فيجعلها قاعدة لتمثاله وإطاراً لصورته! فهو لا يحيا حياة بهائم الأنعام تحمي ضعفها بالاجتماع، وإنما يعيش عيش سباع الطير والوحش لا تشبل على أفراخها وأجرائها إلا ريثما ترتاض وتضرى. فلما اختيروا إلى الدعوة الكبرى استجابوا لقوة القوى، واطمأنوا لألفة الروح، واستجروا لحكم الجماعة، حتى بلغوا رسالة الله، ثم تحرك فيهم الهوى الموروث، وتيقظ الطبع الأثر، فهبت الفردية تحلل العقدة وتشتت الوحدة، حتى قسمت الوطن بلاداً، ومزقت الشعب أفراداً، خضعوا لسلطان المغير وداوا لقوة الغاضب!

لا تزال هذه الفردية القبيحة وتوابعها من شهوة الرياسة وحب الاستئثار ودناءة الحرص، تقطع أوشاج المجتمع في أقطار العرب، فتفد كل موضوع، وتبطل كل مشروع، وتشعث كل ألفة. وفي مصر أحد تلك الأقطار تستطيع أن تعرض جملة أمرها على رأيك فتجد المثال الذي لا يبعد والحال التي لا تختلف.

فالسياسة هنا وهناك لا تكاد أحزابها تقوم على فكرة جامعة ومبدأ متحد، إنما هي فرد ينبه في الخير أو ينبع في الشر، فتأتلف عليه الأفراد المختلفون، فيكون منهم مكان النظام من العقد، يمسكه ما دام حياً قوياً، فإذا ما انقطع ذهب الحب أباديد. والاقتصاد هنا وهناك جهود فردية تخشى المنافسة وتتعجل الربح وترضى بالنصيب الأخس، لأن الفردية قتلت فينا الثقة فلا نساهم في رأس مال، وأضعفت شعورنا بالخير العام فلا نشارك في مشروع، ونشرت بيننا داء الحسد فلا نستقيم على رأي جميع؛ وما النهضة الاقتصادية الحديثة إلا نبوغ فرد أنس الناس بناحيته، واطمأنوا إلى كفايته، فأخلدوا إليه بالثقة، وألقوا في يديه المقاليد. والأدب هنا وهناك لا تزال دوافعه فردية ومراميه خاصة؛ فالقصيدة عواطف

الشاعر لا تكاد تخرج عن دخائل نفسه ومدارج حسه، والمقالة خواطر الكتاب لا تكاد ترمي إلى غرض محدد ولا تجري في مذهب معين، والأغنية لواعج المغنى فلا تعبر عن المعاني العامة، ولا تهتف بالأماني المشتركة. أما الملاحم القومية، والقصص

الاجتماعية، والأناشيد الشعبية، فتلك أغراض لا تزال منابعها ناضبة ودوافعها دخيلة يأخذ المرء حال من الوجد أو الشوق أو الطرب، فيجد من القصائد والأناشيد ما يترجم هذه الحال، فيدندن ويتغنى؛ وتكون الجماعة منا في مجمع من المجامع، أو ملهى من الملاهي، أو موكب من المواكب، فيأخذها انفعال مشترك من ابتهاج أو احتجاج أو افتخار أو تحمس، فتريد أن تعبر عن ذلك بقول واحد وصوت واحد ونغم واحد، فلا تجد إلا خلجات تتوقد، ونظرات تتردد، ثم سكوناً بارداً كعرق المبهوت الخجل! حتى السلام الملكي الرسمي نعرفه نغماً ولا نعرفه كلماً كأنما وضعوه لأمة بكماء!

كذلك الفن هنا وهناك لا يجد من حرج الفردية مكاناً للتنوع ولا مجالاً للتقدم، فالتصوير كالشعر قلما يتعدى صورة الفرد وعاطفته، والرقص حتى الرجال لا يكون إلا من فرد، ولا يظهر من هذا الفرد إلا متعاقباً على أجزاء خاصة من جسمه، كالعجز والبطن والثديين والعنق، فهو حركات متقطعة مستقلة كأبيات القصيدة القديمة لا تربطها علاقة ولا تجمعها وحدة! والغناء والموسيقى يقعان دائماً على أصوات مفردة، وتقاسيم مرددة، وفرديات (مونولوجات) متشابهة، ومعان متكررة! فليس لنا - حتى ولا للقرويين - غناء جماعي ولا رقص جماعي يعبران عن شعور الجماعة ساعة الطرب أو الغضب أو النصر بكلمات موقعة وحركات موزونة؛ ولكل أمة من أمم الأرض أفنان شتى من ذلك حتى الزنوج!

إن الفردية تعلو فتكون الاستبداد، وتسفل فتكون الأنانية؛ وأن الجمعية ترتفع فتكون الإنسانية، وتنخفض فتكون العصبية؛ وإن بين الإنسانية والعصبية شعباً يعز، وأمة ترقي، وذكراً يبقى، وأثراً يخلد، ولكن بين الاستبداد والأنانية تحكم الهوى وشقاء العيش وذل الأبد. فإذا رأيت الأحزاب تتناقض وتنحل، مشروعات الشباب تضعف وتعتل، وإدارة الحكومة تسوء وتختل، فأبحث علل ذلك - غير مخطئ - في هذه الفردية حين تتعلى فتستبد، أو حين تتدلى فتستأثر. فلولا هذا الطبع الأصيل الذي طغى على الشعور، وبغى على الفطرة، لتنبه فينا الضمير الاجتماعي فأخلصنا للأمة كما نخلص للأسرة، وعملنا في

الديوان كما نعمل في البيت، وأحببنا لعامة الناس ما نحب لخاصة النفس؛ ولكن الفردية داء دخيل لا يحسمه إلا الدين الذي حسمه عن نفوس العرب حين اتبعوه، فهل إلى رجوع إليه من سبيل؟

أحمد حسن الزيات

تاريخ يتكلم . . .

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

أيعرف القراء أن في الأحلام أحلاماً هي قصص عقلية كاملة الأجزاء محكمة الوضع متسقة التركيب بديعة التأليف، تجعل المرء حين ينام كأنه أسلم نفسه إلى (شركة من الملائكة)، تسيح به في عالم عجيب كأنما سحر فتحول إلى قصة؟

إن يكن في القراء من لا يعلم هذا فليعلمه مني؛ فإني كثيراً ما أكتب وأقرأ في النوم، وكثيراً ما يلقى علي من بارع الكلام، وكثيراً ما أرى ما لو دونته لعد من الخوارق والمعجزات

وهذهالقصة التي أرويها اليوم، كانت المعجزة فيها أني مشيت في التاريخ كما أمشي في طريق ممتدة؛ فتقدمت إلى أهل سنة 395 للهجرة وما يليها، فعشت معهم وتخبرت من أخبارهم، ثم رجعت إلى زمني لأقص ما رأيته على أهل سنة 1353 . . .

أمسيت البارحة كالمغموم في أحوال ثقيلة على النفس ما تنطلق النفس لها، أولها سوء الهضم، ومتى كان البدء من هنا لم تكن الحركة في النفس إلا دائرة، تذهب ما تذهب ثم لا تنتهي إلا في سوء الهضم عينه. فجلست في الندى الذي أسمر فيه أحياناً، فكان لجوه وزن أحسسته كما يحس الغائص في الماء ثقل الماء عليه؛ ودخنت الكر كرة فلم تكن هواء ودخاناً يتروح، بل كانت من ثقلها كالطعام يدخل على الطعام؛ ونظرت ناحية فأخذت عيني رجلاً فيلي الخلقة، منطاد البطن، كأنما نفخ بطنه بالآلات، يحمل منه مقدار أربعة من بطون البدينات الحوامل، كل منهن في الشهر التاسع من حملها. . .؛ وكان معي إلى كل هذا البلاء خمس صحف يومية أريد قراءتها . . .!

ثم جئت إلى الدار، والمعركة حامية في أعصابي؛ وما كان سوء الهضم منومة فيدعو إلى النوم، فدخلت بيت كتبي وأردت كتاباً أي كتاب تناله يدي، فخرج لي كتاب في

خرافات الأولين وأساطيرهم وهذيانهم وسوء هضمهم العقلي. . كالكلام أدونيس وأرطاميس وديونيس وسميراميس وإيسيس وأتوبيس وأثرغتيس. . . فاستعذت بالله وقلت: حتى الكتب لها في هذه الليلة أعصاب قد نالتها الثقلة والألم.؟

وبات الليل يقظان، وبقيت متململاً أتقلب حتى أخذ الصداع في رأسي، فانقلب التعب نوماً، وجاء من النوم تعب آخر، وقذفت إلى عالم الأحلام في قنبلة، تستقر بي حيث تريد لا حيث أريد:

ورأيتني في قوم لا أعرف منهم أحداً، قد اجتمعوا جماهير، وسمعت قائلاً منهم يقول: (الساعة يمر مولانا العالي) فقلت لمن يليني: (من يكون مولانا العالي؟) قال: (أو أنت منهم؟) قلت (ممن؟) فألهاه عن جوابي تشوف الناس وانصرافهم إلى رجل أقبل راكباً حماراً أشهب؟ فصاحوا: (القمر القمر) ورفع الرجل الذي يناكبني صوته يقول: (البركات والعظمات لك يا مولانا العالي!)

قلت: (إنا لله! لقد وقعت في قوم من الزنادقة، يعارضون (التحيات والصلوات والطيبات لله)؛ ثم مر صاحب الحمار بحذائي، وغمزه الرجل علي، فقال: (ما بالك لا تقول مثله؟) قلت: أعوذ باله من كفر بعد إيمان؛ فكأنما أراد أن يلطمني فرفع يده، فصحت فيه: (كما أنت ويلك وإلا قبضت عليك وأسلمتك للبوليس، وشكوتك إلى النيابة، ورفعتك إلى محكمة الجنح!)

قال: (ماذا أسمع؟ الرجل مجنون فخذوه!) وأحاط بي جماعة منهم، ولكنه ترجل عن حماره واخذ بيدي ومشينا، فقلت: (من أنت يا هذا؟) قال: (أراك من غير هذا البلد؛ أما تعرف الحاكم بأمر الله؟ فأنا هو.) قلت: (انظر ويحك ما تقول؛ فما أظنك إلا ممروراً؛ لقد كتبت أمس كتاباً إلى مجلة (الرسالة) أرخته 13 ذي الحجة سنة 1353 و18 من مارس سنة 1935، وأرسلت به مقالة (الخروفين. . .)

قال: ماذا اسمع؟ نحن الآن فيسنة 395؛ فالرجل مجنون، أو لا فأنت أيها الرجل من معجزاتي. لقد جئت بك من التاريخ وتكتب، ثم تعود إلى التاريخ فتكون من معجزاتي، وتقص عني وتشهد لي. . .!)

قلت: (فإني أعرف أعمالك إلى أن قتلت في سنة 411. . .!)

قال: (أو إله أنت، فتخلق ست عشرة سنة بحوادثها؟ لقد كدت من أفنك وغباوتك تفسد على دعوى المعجزة!)

وهاج الصداع في رأسي، وبلغ سوء الهضم حده، واشتبكت سينات إيسيس وأتوبيس الخ بسين إبليس، ومرت بين كل هذا حوادث الطاغية المعتوه المتجبر، فرأيته يبتدع في كل وقت بدعاً، ويخترع أحكاماً يكره الناس على أن يعملوا بها، ويعاقبهم على الخروج منها ثم يعود فينقض أمره، ويعاقب على الأخذ به، كأن الذي نقض غير الذي أبرم، وكأنه حين يتبلد فيعجزه أن يخترع جديداً - يجعل اختراعه إبطال اختراعه!

ورأيته كأنما يعتد نفسه مخ هذه الأمة، فلابد أن يكون عقلاً لعقولها، ثم لابد أن يستعلي الناس ويستبد بهم استبداد الشريعة في أمرها ونهيها، فكانت أعماله في جملتها هي نقض أعمال الشريعة الإسلامية، وظن أنه مستطيع محو ذلك العصر من أذهان الناس وقتل التاريخ الإسلامي بتاريخ قاتل سفاك

وسول له جنونه أن خلق تكذيباً للنبوة؛ ثم افرط عليه الجنون فحصل في نفسه أنه خلق تكذيباً للألوهية. وفي تكذيبه للنبوة والألوهية يحمل الأمة بالقهر والغلبة على ألا تصدق إلا به هو؛ وفي سبيل إثباته لنفسه صنع ما صنع، فجاء تاريخه لا ينفي ألوهية ولا نبوة، بل ينفي العقل عن صاحبه؛ وجاء هذا التاريخ في الإسلام ليتكلم يوماً في تاريخ الإسلام. . .

رأيتني أصبحت كاتباً لهذا الحاكم، فجعلت أشهد أعماله وأدون تاريخه وأقبلت على ما أفردني به، وقلت في نفسي: (لقد وضعتني الدنيا موضعاً عزيزاً لم يرتفع إليه أحد من كتابها وأدبائها، فسأكتب عن هذا الدهر بعقل بينه وبين هذا الدهر 968 سنة صاعدة في العلم

ودونت عشرة مجلدات ضخمة انتهيت وأنا أحفظها كلها، فإذا هي جمل صغيرة، جعل الحلم كل نبذة منها سفراً ضخماً كما يخيل للنائم أنه عاش عمراً طويلاً وأحدث أحداثاً

ممتدة، على حين لا تكون الرؤيا إلا لحظة
. . .وهذه هي المجلدات التي قلت: إن التاريخ يتكلم بها في التاريخ
المجلد الأول
ابتلى هذا الطاغية بنقيصتين: إحداهما من نفسه والأخرى من غيره؛ فأما التي من نفسه فإني أراه قد خلق وفي مخه لفافة عصبية من يهودية جده رأس هذه الدعوة؛ فهو الحاكم بن العزيز بن المعز بن القاسم بن المهدي عبيد الله، ويقولون إن عبيد الله هذا كان ابن امرأة يهودية من حداد يهودي، فاتفق أن جرى ذكر النساء في مجلس الحسين بن محمد القداح فوصفوا له تلك المرأة اليهودية، وأنها آية في الحسن، وكان لها من الحداد ولد، فتزوجها الرجل وأدب ابنها وعلمه، ثم عرفه أسرار الدعوة العلوية وعهد إليه بها
من بعض اللفائف العصبية في المخ ما ينحدر بالوراثة مطبوعاً على خيره أو شره، لا يد للمرء فيه ولا حيلة له في دفعه أو الانتفاء منه، فيكون قدراً يتسلسل في الخلق ليحدث غاياته المقدورة، فمتى وقع في مخ إنسان فالدنيا كالحبلى ولابد أن تتمخض عنه
هذه اللفافة اليهودية في مخ هذا الطاغية ستحقق به قول الله تعالى: (لتَجدَنّ أشَدّ الناس عداوةً للّذين آمنُوا اليهود.) فهو لن يكون العدو للإسلام دون أن يكون الأشد في هذه العداوة، ولن يكون فيها الأشد حتى يفعل بها الأفاعيل المنكرة. وما أرى هذه المآذن القائمة في الجو إلا تخرق بمنظرها عينيه من بغضه للإسلام وانطوائه على عداوته؛ فويل لها منه!
وأما النقيصة الثانية فقد ابتلي بقوم فتنوه بآرائهم ومذهبهم، وهم حمزة بن علي، والأجرم، وفلان، وفلان. . . وقد لفقوا للدنيا مذهباً هو صورة عقولهم الطائشة، لا يجيء إلا للهدم، ثم لا يضع أول معاوله إلا في قبة السماء ليهدمها. . .! ولو أنا جمعت هذا المذهب في كلمة واحدة لقلت: هو حماقة حمقاء تريد إخراج الله من الوجود لإدخال الله في بعض الطغاة!
ويتلقبون في مذهبهم بهذه الألقاب: العقل، الإرادة، الإمام، قائم الزمان، علة العلل. . .! وهذه هي الشيوعية بعينها، تعمل على هدم فكرة الألوهية وإلحاقها بالخرافة؛ كأن القائم بهذا المذهب هو عقل الناس وإرادتهم، كرهوا أم رضوا، فلا إرادة لهم معه ولا عقل، وهو الزمن فيصبغ الزمن بما شاء، ويجعله كيف شاء، لأنه به وعلة العلل في سياسته وتدبيره
شيوعية آثمة، كبرت في حماقتها أن تقوم بجنون واحد، فلا تقوم إلا باثنين معاً: جنون العقل، وجنون السيف!
المجلد الثاني
أظهر الطاغية أن الله يؤيد به الإسلام، ليتألف الجند والشعب ويستميلهم إليه، وكان في ذلك لئيم الكيد دنيء الحيلة يهودي المكر. فأمر المدارس للفقه والتفسير والحديث والفُتْيا، وبذل فيها الأموال، وجعل فيها الفقهاء والمشايخ، وبالغ في إكرامهم والتوسعة عليهم والتخضع لهم، ودخل في ظلال العمائم. . . وأحضر لنفسه فقهين مالكيين (اثنين لا واحد) يعلمانه ويفقهانه، وكان أشبه بمريد مع شيخ الطريقة يتسعد به ويتيمن؛ أشرف ألقابه أنه خادم العمامة الخضراء، وأسعد أوقاته اليوم الذي يقول له فيه الشيخ: رأيتك في الرؤيا ورأيت لك. . .!
وكانت هذه المعاملة الإسلامية الكريمة من هذا الطاغية - هي بعينها ربا اللفافة اليهودية في مخه؛ تصلح بإقراض مائة، وفيها نية الخراب بالستين في المائة. .! فإنه ما كاد يتمكن من الناس ويعرف إقبالهم عليه وثقتهم به، حتى طلبت اللفافة رأس المال والربا؛ فأمرهم بهدم تلك المدارس وإخرابها، وأبطل العيدين وصلاة الجمعة، وقتل الفقهاء وقتل معهم فقيهيه وأستاذيه، وعاد كالمريد المنافق مع شيخ الطريقة، يقول في نفسه: إن هناك ثلاثة تعمل عملاً واحداً في الصيد: الفخ، والعمامة، واللحية. . .!
إن هذا الطاغية ملك حاكم، يستطيع أن يجعل حماقته شيئاً واقعاً، فيقتل علماء الدين بإهلاكهم، ويقتل مدارس الدين بإخرابها، ولو شاء لاستطاع أن يشنق كل ذي عمامة من سواد المسلمين في عمامته. ويبلغ من كفره أن يتبجح ويرى هذا قوة ولا يعلم أنه لهوانه على الله جعله الله كالذبابة التي تصيب الناس بالمرض، والبعوضة التي تقتل

بالحمى، والقملة التي تضرب بالطاعون، فلو فخرت ذبابة أو تبجحت قملة أو استطالت بعوضة لجاز له أن يطن طنينه في العالم. وهل فعل أكثر مما تفعل؟

لقد أودي بأناس يقوم إيمانهم على أن الموت في سبيل الحق هو الذي يخلدهم في الحق، وأن انتزاعهم بالسيف من الحياة هو الذي يضعهم في حقيقتها، وأن هذه الروح الإسلامية لا يطمسها الطغيان إلا ليجلوها

إنه والله ما قتل ولا شنق ولا عذب، ولكن الإسلام احتاج في عصره هذا إلى قوم يموتون في سبيله، وأعوزه ذلك النوع السامي من الموت الأول الذي كان حياة الفكر ومادة التاريخ، فجاءت القملة تحمل طاعونها. . .!

لقد أحياهم في التاريخ، أما هم فقتلوه في التاريخ، وجاءهم بالرحمة من جميع المسلمين، أما هم فجاءوه باللعنة من المسلمين جميعاً!

المجلد الثالث

يرى هذا الطاغية أن الدين الإسلامي خرافة وشعوذة على النفس، وأن محو الأخلاق الإسلامية العظيمة هو نفسه إيجاد أخلاق، وأن الإسلام كان جريئاً حين جاء فاحتل هذه الدنيا؛ فلا يطرده من الدنيا إلا جراءة الشيطان كالذي توقح على الله حين قال: (فَبعزَّتكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أجمعين.) ولهذا أمر الناس بسب الصحابة، وأن يكتب ذلك على حيطان المساجد

والمقابر والشوارع!

أخزاه الله! أهي رواية تمثيلية يلصق الإعلان عنها في كل مكان؟ لو سمع لسمع المساجد والمقابر والشوارع تقول: أخزاه الله. . .!

المجلد الرابع

هذا الفاسق لا يركب إلا حماراً أشهب يسميه: (القمر)، وقد جعل نفسه محتسباً لغاية خبيثة؛ فهو يدور على حماره هذا في الأسواق ومعه عبد أسود، فمن وجده قد غش أمر الأسود فـ. . .! ووقف ينظر ويقول للناس: انظروا. . .! ومن غلبة الفسوق على نفسه وعلى شيعته أن داعيته (حمزة بن علي) نوه بالحمار في كتابه وأومأ إليه بالثناء، لخصال: منها أن. . .! وكتب حمزة هذا في بعض رسائله: أن ما يرتكبه أهل الفساد بجوار البساتين التي يمر بها (الفاسق) من المنكر والفحشاء - إنما يُرتكب في طاعته. . .!

هذه طبيعة كل حاكم فاسق ملحد، يرى في نفسه رذائله عريانة فلا يكون كلامه وعمله وفكره إلا فحشاً يتعرى؛ وإن في هذا الرجل غريزة فسق بهيمية متصلة بطور الحيوان الإنساني الأول؛ فما من ريب أن في جسمه خلية عصبية مهتاجة، ما زالت تسبح بالوراثة في دماء الأحياء، متلففة على خصائصها حتى استقرت في أعصاب هذا الفاسق، فانفجرت بكل تلك الخصائص

ولست أرى أكثر أعماله ترجع في مردها إلا إلى طغيان هذه الغريزة فيه؛ فهو يحاول هدم الإسلام، لأنه دين العفة، ودين صون المرأة، يلزمها حجاب عفها إبائها، ويمنعها الابتذال والخلاعة، ويعينها أن تتخلص ممن يشتهيها ولو كان الحاكم. . . إنه يمقت هذا الدين القوي كما يمقت اللص القانون؛ فهو دين يثقل على غريزته الفاسقة، ولكل غريزة في الإنسان شعور لا مهنأ لها إلا أن يكون حراً حتى في التوهم؛ وهل يعجب السكير شيء أو يرضيه أو يلذه كما يعجبه أن يرى الناس كلهم سكارى، فينتشي هو بالخمر، وتسكر غريزته برؤية السكر

وما زال رأي الفساق في كل زمن أن الحرية هي حرية الاستمتاع، وأن تقييد اللذة إفساد للذة

المجلد الخامس

يزعم الطاغية أنه يعز قومه - وما أراه يعزهم - ولكنه يمتحن ذلهم وضعفهم وهوانهم على الأمم؛ فهو يتجزأ شيئاً فشيئاً منتظراً ما يتسهل مترقباً ما يمكن؛ وهو يرى أن أخلاقنا الإسلامية هي أمواتنا دفنوا أنسهم فينا؛ فمن ذلك يهدم الأخلاق ويظن عند نفسه أنه يهدم قبوراً لا أخلاقاً

ولقد سخر منه المصريون بنكتة من ظرفهم البديع، وجاءوه من غريزته فصنعوا امرأة من الورق الذي يشبه الجلد، وألبسوها خفها وإزارها، حتى لا يشك من رآها أنها آدمية، ثم وضعوا في يدها قصة وأقاموها في طريقه؛ فلما رآها عدل إليها وأخذ من يدها

القصة وقرأها، فإذا فيها سب له ولآبائه، وسخرية من جنونه ورعونته المضحكة؛ فغضب وأمر بقتل المرأة؛ فكانت هذه سخرية أخرى حين تحقق أنها من الورق، وأخذته النكتة الظريفة بمثل البرق والرعد؛ فاستشاط وأمر عبيده من السودان بتحريق الدور لا ونهب ما فيها وسبي النساء والفجور بهن؛ حتى جاء الأزواج يشترون زوجاتهم من العبيد بعد أن طارت الزوبعة والسوداء في بياض الأعراض

اندلعت ثورة الفجور في المدينة، لا من العبيد، ولكن من الحيوان العتيق المستقر في هذا الطاغية

المجلد السادس

وهذه رعونة من أقبح رعوناته، كأن هذا الحيوان لا يحسب نساء لأمة كلها إلا نساءه، فيأمرهن بأمر امرأته، وكأن النساء في رأيه هن إلا استجابات عصبية تطلق وترد

إن لموجة الفسق في الغريزة الطاغية جزراً ومداً يقعان في تاريخ الفساق؛ فهذا الطاغية قد جزرت فيه الموجة، فأمر أن يمنع النساء من الخروج ليلاً ونهاراً، لا تطأ أرض المدينة قدم امرأة؛ وأمر الخفافين ألا يصنعوا لهن الأخفاف والأحذية؛ ولما علم أن بعض النساء خرجن إلى الحمامات هدم الحمامات عليهن!

ولو مدت الموجة في نفس الفاسق لفرض على النساء الخروج والاتصال بالرجال والتعرض للإباحة

إن الصلاح والفساد كلاهما فساد، ما لم يكن الصلاح نظافة في الروح وسمواً في القلب

المجلد السابع

يزعم الطاغية أنه سيهدم كل قديم، وإني لأخشى والله أن يأمر الناس في بعض سطوات جنونه؛ أن كل من كان له أب أو أم بلغ الستين فليقتله لتخلص الأمة من قديمها الإنساني. . .!

كأنه لا يعرف أنه إنما يتسلط على أيام معاصريه لا على التاريخ ويحكم على طاعة قومه وعصيانهم لا على قلوبهم وطباعهم وميراثهم من الأسلاف؛ فما هو إلا أن يهلك حتى ينبعث في الدنيا شيئان: نتن رمته في بطن الأرض؛ ونتن أعماله على ظهر الأرض. . .إن هذا الرجل المسلط كالغبار المستطار، لا يكنس إلا بعد أن يقع

ولقد رأى المأفون أن أكل الناس الملوخيا الخضراء والفقاع، والترمس والجرجير، والزبيب والعنب - هوى قديم في طباع الناس فنهى عن كل ذلك، لا يباع ولا يؤكل، وظهر على أن جماعة باعوا أشياء منها فضربهم بالسياط، وأمر فطيف بهم في الأسواق، ثم ضرب أعناقهم؛ كأن الذي يحمل الملوخيا الخضراء على رأسه ليبيعها يلبس عمامة خضراء. . .

أهذا - ويحه - تجديد في الأمة، أم تجديد في المعدة. . .؟

المجلد الثامن

لا يرضى الطاغية إلا أن يمحق روحانية الأمة كلها، فلا يترك شيئاً روحانياً يكون له في أعصاب الناس أثر من الوقار. وبمن يستظهر إذا محقت روحانية الأمة وأشرفت نزعتها الدينية على الانحلال؟ كأنه لا يعلم أن حقيقة الوجود لأمة من الأمم إنما تستمد من إيمانها بالمثل الأعلى الذي يدفعها في سلمها إلى الحياة بقوة، كما يدفعها في حربها إلى الموت بقوة؛ وكأنه لا يعلم أن التاريخ كله تقرره في الأرض بضعة مبادئ دينية

هذا الحاكم الأخرق هو عندي كالذي يقول لنفسه: لم أستطع أن أفتح دولة، فلأفتح دولة في مملكتي. . . لقد أمر بهدم الكنائس والبيع، حتى بلغ ما هدم منها ثلاثين ألفاً ونيفاً

أي مجنون أسخف جنوناً من هذا الذي يحسب النفوس الإنسانية كالأخشاب؛ تقبل كلها بغير استثناء أن تدق فيها المسامير. . .؟

سيعلم إذا نشبت حرب بينه وبين دولة أخرى، أنه كسر أشد سيوفه مضاء حين كسر الدين!

المجلد التاسع

هذه الطامة الكبرى؛ فلا أدري كيف أكتب عنها: لقد تطاول المجنون إلى الألوهية فادعاها وصار يكتب عن نفسه: باسم الحاكم الرحمن.!

لو كان أغبى الأغبياء في موضعه لاتقى شيئاً، لا أقول تقوى الدين والضمير، ولكن

تقوى النفاق السياسي؛ فكان يحمل الناس أن يقولوا عنه: (أبانا الذي في الأرضين. . .!)
وإلا فأي جهل وخبط وأي حمق وتهور، أن يكون إله على حمار، وإن كان اسم حماره القمر!
المجلد العاشر
سيأخذه الله بامرأة؛ ولكل شيء آفة من جنسه، لقد بلغ من وقاحة غريزته أن ائتفك على أخته الأميرة (ست الملك)، ورماها بالفاحشة وهي من أزكى النساء وأفضلهن، واتهمها بالأمير (سيف الدين بن الدواس) وقد علمت أنها تدبر قتله، وأنها اجتمعت لذلك بسيف الدين. فسأمسك عن الكتابة في هذا المجلد، وأدع سائره بياضاً حتى أذهب إليهما فأعينهما بما عندي من الرأي، ثم أعود لتدوين ما يقع من بعد. . .
ورأيت أني اجتمعت بهما واطمأنا إلي، فأخذنا نذير الرأي: قالت الأميرة لسيف الدين فيما قالته: (والرأي عندي أن تتبعه غلماناً يقتلونه إذا خرج في غد إلى جبل المقطم، فإنه ينفرد بنفسه هناك!)
فقلت أنا: (ليس هذا الرأي ولا بالتدبير)
قالت: (فما الرأي والتدبير عندك؟)
قلت: (إن لنا علماً يسمونه (علم النفس)، لم يقع لعلمائكم، وقد صح عندي من هذا العلم أن الرجل طائش الغريزة مجنونها، وأن الأشعة اللطيفة الساحرة التي تنبعث من جسم المرأة، هي التي تنفجر في مخه مرة بعد مرة؛ فإذا خبت هذه الأشعة، وبطلت الغريزة - بطلت دواعي أعماله الخبيثة كلها وكف عن محاولته أن يجعل الأمة مملوءة من غرائز جسمه وشهواته لا من فضائلها ودينها. فلو أخذتم برأيي وأمضيتموه فإنه سينكر أعماله إذا عرضها على نفسه الجديدة، وبهذا يصلح ما أفسد، وتكون حياته قد نطقت بكلمتها الصحيحة كما نطقت بكلمتها الفاسدة؛ فإذا. . .)
قال الأمير: (فإذا ماذا؟)
قلت: (فإذا خصي. . .)
فضحكت ست الملك ضحكة رنت رنيناً. قلت: (نعم إذا خصي هذا الحاكم. . .) فغلبها الضحك أشد من الأول ورمتني بمنديل لطيف كان في يدها أصاب وجهي فانتبهت وأنا أقول (نعم إذا خصي هذا الحاكم. . .)
طنطا
عصر الخفاء في مصر الإسلامية
الحاكم بأمر الله
للأستاذ محمد عبد الله عنان
- 1 -
لبثت مصر منذ الفتح الإسلامي زهاء قرنين ونصف قرن ولاية خلافية، تتوارثها الخلافة أينما حلت؛ الخلافة العامة، فالأموية، فالعباسية. غير أن مصر كانت منذ الفتح تتبوأ بين الولايات الخلافية مركزاً ممتازاً؛ فقد اتخذت قاعدة لفتح إفريقية فالأندلس، وكان ولاتها الأوائل، ولاة لأفريقية؛ وكانت أيضاً، بموقعها الجغرافي، وأهميتها العمرانية مطمع الزعماء المتغلبين يرون فيها ملاذاً منيعاً للحركات الاستقلالية؛ فقد وليها فاتحها عمرو بن العاص ولايته الثانية من قبل معاوية، ولكنه جعل منها وحدة شبه مستقلة، وربما كان في اهتمام عمرو بالبقاء في ولاية مصر وسعيه لدى عثمان في تحقيق غايته، ثم اقتطاعها بعد ذلك من معاوية ثمناً لحلفه ومؤازرته ما يحمل على الاعتقاد بأنه لو ثابت لهذا القائد العظيم والسياسي البارع فرصة ملائمة لأنشأ بمصر لنفسه ولعقبه دولة أو خلافة مستقلة. ولما قام عبد الله بن الزبير بثورته على الخلافة الأموية ألفى في انتزاع مصر طعنة قوية يسددها لصدر الخلافة. ولما تألق نجم بني العباس وسحقت الخلافة الأموية في موقعة الزاب، فر مروان الثاني آخر الخلفاء الأمويين إلى مصر ليتخذها قاعدة للدفاع عن ملكه وتراث أسرته؛ ولعله لم يكن بعيداً عن التفكير في اتخاذ مصر بعد الشام معقلاً للخلافة الأموية وقاعدة لاسترداد تراثها الذاهب لو كتب له الظفر على مطارديه
ولما ضعف سلطان الدولة العباسية وتراخت قبضتها في النواحي، غدت مصر طعمة

لطائفة من الحكام الأقوياء، يحكمونها باسم الخلافة، ولكن ينشئون بها دولاً مستقلة، لا تكاد تربطها بالخلافة أية روابط سياسية أو إدارية. وكان ابن طولون أول هذا الثبت من الحكام الأقوياء؛ قدم مصر والياً من قبل الخليفة المعتز سنة 254هـ (868م)، فلم يلبث أن استخلصها بعزمه وقوة نفسه، وأنشأ بها لنفسه ولعقبه دولة باذخة ترامت حدودها إلى شمال الشام؛ واستمرت مدى ربع قرن تنافس دولة الخلافة في السلطان والبهاء؛ فلما آنست

الخلافة أن الانحلال قد سرى إلى الدولة الفتية، بعثت جيوشها إلى مصر غازية، فاقتحمت مدينة القطائع عاصمة بني طولون، وقضت على تلك الدولة الزاهرة (292هـ - 904م) واستعادت الخلافة سلطانها على مصر عصراً آخر؛ بيد أن هذا السلطان لبث عرضة للانتقاض بين آونة وأخرى، وحاول ولاة أقوياء مثل تكين وابن كيغلغ أن ينتزعوها لأنفسهم في ظل الخلافة الأسمى؛ حتى كانت ولاية محمد ابن طغج الإخشيد، فاستطاع أن يقوم بمصر بمثل ما قام به ابن طولون، وأن ينشئ بها دولة قوية مستقلة شملت الشام والحرمين، واستمرت مدى ثلاثين عاماً (327 - 358هـ)

كانت مصر تتمتع إذاً بمركزها الممتاز بين ولايات الخلافة؛ وكان هذا المركز الخاص يجعلها قبلة مختارة لأطماع المتغلبين وذوي النزعة الاستقلالية من الولاة والحكام؛ ويرجع هذا المركز الممتاز إلى موقع مصر الجغرافي ونأيها عن مركز الخلافة العباسية، ثم إلى اتساعها وغناها، وكونها تصلح بمواردها الخاصة لأن تكون مركز مملكة مستقلة. ولم تخف على الفاطميين هذه الحقيقة يوم استطاعوا أن ينفذوا بدعوتهم إلى أفريقية، وأن ينشئوا بها دولتهم الأولى على أنقاض ملك الأغالبة، فاتجهوا بأنظارهم إلى مصر؛ وما كاد ملكهم يستقر بأفريقية، حتى بعث أبو عبيد الله المهدي أو خلفائهم جيوشه لافتتاح مصر، فاستولت على برقة والإسكندرية، ولكنها ارتدت أمام جيوش مصر وجيوش الخلافة (302هـ)؛ ثم غزت مصر ثانية، واستولت على الإسكندرية والفيوم، وأشرفت على عاصمة مصر، ولكنها ارتدت إلى المغرب كرة أخرى بعد حروب طاحنة مع جيوش الخلافة (307هـ)

واستطاعت مصر أن تظفر مدى حين، في ظل الدولة الإخشيدية، بقسط من الاستقرار والقوة، ولكن الخلافة الفاطمية الفتية لم تنبذ مشروعها في افتتاح ذلك القطر الشاسع الغنى، وبعث القائم بأمر الله ثاني الخلفاء الفاطميين جنده إلى مصر، فاستولوا على الإسكندرية مرة أخرى (332هـ)؛ وكانت الخلافة الفاطمية تشعر أنها، وهي في مركزها النائي بقفار المغرب تبقى بعيدة عن تحقيق غاياتها السياسية والمذهبية الكبرى، أعني مناوأة خصيمتها الدولة العباسية والعمل على تقويض دعائمها، وانتزاع زعامة الإسلام منها؛ وكانت مصر بتوسطها العالم الإسلامي، وبما اكتمل لها من أسباب الغنى والخصب، هي أصلح مركز لتحقيق هذه الغاية، وفيها دون غيرها تستطيع الخلافة الفاطمية أن تقيم ملكها السياسي على

أسس قوية باذخة. فلما سرى الوهن إلى الدولة الإخشيدية، رأى الفاطميون فرصتهم قد سنحت، وجهز المعز لدين الله الفاطمي حملة كبيرة لافتتاح مصر بقيادة مولاه وقائده أبي الحسين جوهر الصقلي، فسار إلى مصر، واستولى عليها بعد معارك يسيرة في شعبان سنة 358 (يوليه سنة 960)، وفي مساء نفس اليوم الذي تم فيه ذلك الفتح العظيم، وضع جوهر بأمر سيده المعز خطط مدينة جديدة هي القاهرة، ثم اختط الجامع الأزهر بعد أشهر قلائل، وأعدت المدينة الجديدة لتكون منزل الخلافة الفاطمية، وقاعدة ملكها السياسي، كما أعد الجامع الجديد (الأزهر) ليكون منبراً للدعوة الفاطمية ورمزاً للإمامة الجديدة

وهكذا تحقق مشروع الخلافة الفاطمية في افتتاح مصر؛ ومنذ السابع من رمضان سنة 362هـ (منتصف يونيه سنة 973) وهو تاريخ مقدم المعز لدين الله إلى مصر، تغدو القاهرة منزل الخلافة الفاطمية، بدلاً من رقادة والمهدية، وتغدو مصر معقل الخلافة الفاطمية وملاذها بدلاً من المغرب. فلم تكن مصر للفاطميين غنماً سياسياً فقط، ولكنها غدت أيضاً معقلاً للدعوة الشيعية التي لبث بنو العباس يطاردونها زهاء قرنين، والتي بدأت ظفرها السياسي بافتتاح المغرب؛ وكانت الدولة الفاطمية منذ قيامها بمصر تحتفظ بنفس الصبغة المذهبية التي اتشحت بها منذ قيامها بالمغرب، وكانت هذه الصبغة المذهبية الخاصة عنصراً من أهم عناصر الخصومة السياسية التي نشبت

بين الدولتين العباسية والفاطمية؛ فالفاطميون الذين يرجعون نسبهم إلى فاطمة وعلي يختصون خلافتهم بالصفة الشرعية، ويعتبرون الدولة العباسية وريثة الدولة الأموية غاصبة للإمامة والخلافة اللتين اغتصبهما من قبل بنو أمية من علي وأبنائه، ويتخذون من هذا المبدأ دعامة لملكهم السياسي؛ فهم حسب دعواهم أبناء فاطمة بنت الرسول، وورثة علي وعقبه الشرعيين في إمامة المسلمين وخلافتهم

وهنا تعرض نقطة دقيقة. من هم في الواقع أولئك الفاطميون؟ وهل يرجع أصلهم حقاً إلى فاطمة وعلي؟ هذه مسألة يحيط بها الخفاء والغموض، ولم يقل فيها التاريخ كلمته الحاسمة؛ وقد لبثت مدى عصور موضع الخلاف والجدل في العالم الإسلامي والرواية الإسلامية؛ ففريق من العلماء والمؤرخين يؤيد الفاطميين في دعواهم وفي شرعية إمامتهم؛ ويرجع نسبة إمامهم ومؤسس دولتهم عبيد الله المهدي إلى الحسين بن علي وفاطمة. ولكن فريقاً

آخر ينكر عليهم هذه الدعوة ويرى أنهم أدعياء لا يمتون بأية صلة إلى علي، وأنهم إنما استتروا بالتشيع والإمامة ليكسبوا عطف العالم الإسلامي. ويرجع هذا الفريق المنكر نسبة الفاطميين إلى عبد الله بن ميمون القداح بن ديصان البوني، وهو فقيه وافر الذكاء والمعرفة من الأهواز يرجع إلى أصل مجوسي، وداعية من أعظم الدعاة السريين الذين عرفهم التاريخ؛ وقد كان يدعو سراً إلى مذهب فلسفي إلحادي لإنكار الأديان والنبوة ساغه في سبع دعوات سرية ينتهي الداخل فيها إلى إنكار جميع العقائد والشرائع، ومنها استمدت دعوة القرامطة وبعثت ثورتهم الإباحية المروعة؛ وكان يستتر بالتشيع ويدعو لإمام من آل البيت هو محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق من ولد الحسين بن علي؛ فلما توفي قام بدعوته السرية ولده أحمد، ومن بعد أحمد ولده الحسين فأخوه سعيد؛ واستقر سعيد بسلمية من أعمال حمص واستمر في نشر الدعوة وبث الدعاة حتى استفحل أمره وأمر دعوته، وحاول الخليفة المكتفي بالله أن يقبض عليه وأن يخمد دعوته ففر إلى المغرب؛ وبشر له هناك دعاته وقاتلوا من أجله حتى ظفر بملك الأغالبة وتلقب بعبيد الله المهدي، وادعى أنه من آل البيت وانتحل إمامتهم. ويقدم إلينا فريق آخر من المنكرين عن أصل عبيد الله رواية خلاصتها أن الحسين حفيد عبد الله بن ميمون هو الذي استقر بسلمية، وكانت له زوجة يهودية رائعة الحسن تزوجها بعد أن مات عنها زوجها الأول وهو يهودي ولها منه ولد فائق الذكاء والظرف، فتبناه الحسين وعلمه وأدبه ولقنه أسرار الدعوة، وتقدم إلى أصحابه بخدمته وطاعته، وزعمأنه هو الإمام، وهو الوصي؛ وانتحل له نسباً في ولد علي، فكان هو عبيد الله المهدي. وهنالك أيضاً من يقول إن عبيد الله هو ولد الحسين من زوجه اليهودية؛ وهنالك روايات وتفاصيل أخرى لا يتسع لها المقام

وهذا الجدل حول نسب الفاطميين، والطعن فيه وفي شرعية إمامتهم ومبادئهم يشغل فراغاً كبيراً في الكتب المذهبية؛ ونحن ممن يميل إلى الأخذ برواية المنكرين، ولا نجد في تدليل المؤيدين وشروحهم ما يلقي ضياء مقنعاً؛ وكان هذا الطعن سلاحاً في يد الدولة العباسية تشهره للنيل من الفاطميين وتشويه سمعتهم في العالم الإسلامي؛ وقد اتخذ قبل بعيد صبغة سياسية رسمية؛ ففي سنة 402 هـ في عهد الخليفة القادر بالله، أصدر بلاط بغداد محضراً رسمياً موقعاً عليه من كبار الفقهاء والقضاة، وبعض زعماء الشيعة، يتضمن الطعن في

نسب الفاطميين خلفاء مصر، وأنهم ليسوا من آل البيت، بل هم ديصانية ينتسبون إلى ميمون ابن ديصان، بل إنهم كفار زنادقة، وفساق ملاحدة، أباحوا الفروج، وأحلوا الخمور، وسبوا الأنبياء، وادعوا الربوبية. وفي سنة 444هـ، كتب ببغداد محضر آخر يتضمن نفس المطاعن؛ وزيد فيه أن الفاطميين يرجعون إلى أصل يهودي أو مجوسي. ونلاحظ أن الوثيقة الأولى صدرت من بلاط بغداد، وفي عهد الحاكم بأمر الله، وقد كان في تصرفاته وفي ظروف عصره، ما يصلح مادة غزيرة لهذه المطاعن

كانت مصر غنماً يسيراً للدولة الفاطمية الفتية، ولكنها كانت أسطع جوهرة في تاجها، وأعظم قطر في تلك الإمبراطورية الشاسعة التي أصبحت تسيطر عليها. ولقد كان قيام هذه الدولة القوية الشامخة في مصر مستهل عصرها الذهبي، ومفتتح تلك العظمة وذينك البهاء والبذخ التي نثرتها من حولها وطبعت بها حياة مصر العامة عصراً

مديداً؛ وكانت مصر بخصبها ونعمائها وفيض مواردها أعظم دعامة في إقامة هذا الصرح الباذخ الفخم؛ فالعصر الفاطمي من أسطع عصور مصر الإسلامية إن لم يكن أسطعها جميعا؛ غير أن هذا العصر الذهبي الوهاج يبعث إلى كثير من التأمل، فبينا نراه وضاء واضحاً في بعض النواحي، إذ نراه في البعض الآخر مظلماً مغلقاً، وإذا هذه الخلافة القوية الساطعة يكتنفها كثير من الخفاء والغموض والريب، وإذا تتبدى لنا في هذا الصرح البراق ثغرات سود لا نستطيع أن نسبر غورها أو نظفر بقراراتها؛ ويشتد هذا الخفاء والغموض بالأخص كلما حاولنا أن نستعرض من هذا العصر نواحيه الدينية والمعنوية، فهنا تبدو من آن لآخر ظلمات يصعب استجلاؤها. على أننا سنحاول مع ذلك أن نستعرض من العصر الفاطمي فترة ربما كانت أشده خفاء وغموضاً، وربما كانت مع ذلك أدعى إلى الاهتمام والدرس، لما تعرضه لنا من حوادث وظرف وخواص مدهشة، ولما تسفر عنه أحياناً من الحقائق والأسرار الغريبةالتي تلقي شيئاً من الضياء على روح السياسة الفاطمية الدينية والمدنية، وعلى حقيقة وجهاتها وغاياتها

نريد بذلك عصر الحاكم بأمر الله أغرب وأغمض شخصية في تاريخ مصر الإسلامية

قدم المعز لدين الله (تميم أبو معد) إلى مصر بجيوشه وأمواله وعصبته في السابع من رمضان سنة 362هـ (منتصف يونيه سنة 973) بعد أن أنشئت العاصمة الجديدة (القاهرة) وأعدت لنزوله، واستتب النظام، وتوطد الملك الجديد، وتلقى المعز ملك الشام كما تلقى ملك مصر على يد قائده جعفر بن فلاح، ودعا له بنوحمدان في حلب، فكانت مملكته الشاسعة تمتد من أواسط المغرب إلى شمال الشام؛ ولكن فورة القرامطة كانت تهدد ملكه الجديد في مصر والشام، وكان القرامطة قد زحفوا على مصر بالفعل في أوائل سنة 361، ونشبت بينهم وبين جيوش المعز بقيادة جوهر معارك هائلة على مقربة من الخندق (بجوار القاهرة) انتهت بهزيمتهم، ولكنهم ارتدوا عندئذ نحو الشام فافتتحوها من يد ابن فلاح نائب المعز، ثم زحفوا على مصر كرة أخرى، فلقيتهم جيوش المعز على مقربة من بلبيس، وهزمتهم هزيمة ساحقة (أواخر سنة 363هـ). وفي العام التالي خاضت الجيوش الفاطمية في الشام معارك شديدة ضد أفتكين المتغلب على دمشق وحلفائه البيزنطيين؛ وفي الوقت نفسه غلبت الدعوة الفاطمية على الحجاز ودعا للخليفة الفاطمي على منابرها

وتوفى المعز في 14 ربيع الثاني سنة 365هـ (ديسمبر سنة 975م)، فخلفه ولده العزيز بالله (أبو منصور نزار)، ولبث في الخلافة زهاء إحدى وعشرين سنة. وفي أول عهده زحف القرامطة وحليفهم أفتكين على مصر، فلقيهم العزيز في فلسطين وهزمهم بعد حرب شديدة وأسر أفتكين (368هـ) وفي أيامه استردت دمشق، وافتتحت الجيوش الفاطمية حمص وحماه وحلب وخاضت مع البيزنطيين معارك عديدة كان النصر حليفها فيها؛ ودعا للعزيز في الموصل واليمن، واتسع بذلك نطاق الدعوة الفاطمية اتساعاً عظيماً. ثم توفي العزيز في 28 رمضان سنة 386 هـ (سبتمبر سنة 996م) في بلبيس حيث كان يعتزم السير بعساكره إلى الشام؛ فخلفه يوم وفاته ولده وولي عهده أبو علي منصور، ولقب بالحاكم بأمر الله، وكان العزيز قد استدعاه إليه في مرض موته؛ وفي اليوم التالي سار الحاكم إلى القاهرة ومعه جثة أبيه، فدخلها في موكب فخم مؤس معاً

للبحث بقية

محمد عبد الله عنان

المحامي

كيف نبعث الأدب

وكيف نترواه للأستاذ عبد العزيز البشري

تتمة

أين أدبنا الصريح؟

لقد تعرف أن الأدب الحق لكل أمة هو الذي يشاكل حضارتها، ويكافئ ثقاتها، ويواتيها في جميع أسبابها، ويترجم في صدق ويسر عن عواطفها، وينفض ما يعتلج في الصدور من ألوان الشعور والإحساس. ولقد تعرف أن الأمم كما تختلف في ألوانها وفي ألسنتها وفي أخلاقها وعاداتها وغير أولئك، فإنها تختلف كذلك في شعورها وفي أذواقها ومنازع عواطفها. ومهما تختلف في أفراد الأمة الواحدة هذه العواطف بالقوة

والضعف، والرقة والجفاء، وغير ذلك من وجوه الاختلاف، فإنها ترجع إلى اصل واحد، وتندرج تحت جنس واحد، على تعبير أصحاب المنطق، وذلك لأنها أثر من أثار الإرث، والبيئة، والعادة، والتاريخ، وما يتردد عليه النظر من صور الطبيعة، وغير ذلك. كما أن لنوع الثقافة ومبلغ حظ الأمة منها أثره البعيد أو القريب في هذا الباب

ومهما يكن من شيء فان لون العواطف الشائع في كل أمة ليس بالشيء الذي يستعار استعارة، ولا بالذي تتناقله الأمم كما تتناقل العلوم وفنون الصناعات مثلا. وكيف له بهذا وقد رأيت أن أبلغ عناصره مما لا يدرك بالكسب ولا بالاختيار، إن هو إلا حكم الطبيعة وما من حكم الطبيعة مناص!

وأحسب أننا، بعد التسليم بهذا، في غير حاجة إلى أن نبعث الأدلة على أن ما يترجم عن عواطف قوم ويصور من حسهم الباطن قد لا يؤدي هذا لغيرهم، وأن ما يستقيم من البيان لأذواق خلق من الناس لقد ينشز على أذواق معشر آخرين. على أنه قد تشترك العاطفة والذوق كلاهما في معنى من المعاني وحينئذ يصدق البيان

وعلى هذا فانه مهما نسرف في مطالعة أدب الغرب والتروي منه، ومهما نجهد في محاكاته وتقليده، فانه لن يكون لنا أدباً في يوم من الأيام، اللهم إلا أن تنقلب أوضاع الطبيعة، فان الأمم لا تطبع على غرار الآداب، بل إن الآداب لهى التي تطبع على غرار الأمم!

لقد نكون في حاجة ولقد تكون هذه الحاجة شديدة جداً إلى مطالعة آداب الغرب وإطالة النظر فيها، واستظهار الكثير من روائعها، ونقل ما يتهيأ نقله إلينا منها في لسان العرب، ولكن ليس معنى هذا أن نتخذها آداباً لنا. فذلك، كما علمت، عبث لا يغني ولا يفيد

والآن نلتمس أدبنا باعتبارنا عرباً أو مستعربين نعيش في مصر، مأخوذين بثقافتها القائمة، وموصولين بتاريخها القديم. إننا نلتمس هذا الأدب الذي يوحي به إلينا تاريخنا العربي من ناحية، وتاريخنا المصري من الناحية الأخرى. هذا الأدب الذي تلهمنا إياه أخلاقنا وعاداتنا وثقافتنا، ويسويه لنفوسنا العيش في وادي النيل. إننا نلتمس هذا الأدب الذي يفيض بما تجيش به عواطفنا، ويصدق في الترجمة عما يعتلج في نفوسنا، ويصور دخائل حسنا أكمل تصوير، ويعبر عنها أدق تعبير. وإن شئنا الكلمة الجامعة قلنا إننا نلتمس الأدب القومي فلا نصيب أثره إلا قليلاً فيما يخرج لنا من آثار الأدباء والمتأدبين!

اللهم إن فينا أدباء جروا من العربية على عرق، وأحرزوا صدراً من بديع صيغها، وتفتحت نفوسهم لمنازع بلاغاتها، واستظهروا الكثير من روائعها فيما نظم متقدمو شعرائها وما أرسل المجلون من كتابها. على أن أكثر هؤلاء، والشعراء منهم على وجه خاص، إذا اجتمع أحدهم لحديث العاطفة لم ينفض ما يحس هو وما يشعر، وإنما تراه يترجم عما كان يجده السلف الأقدمون من مئات السنين، لأنه جعل كل همه إلى المحاكاة والتقليد ليخرج شعره عربياً لا شك فيه، وهؤلاء يتناقص عديدهم على الزمان حتى أشفى فنهم على الزوال

وهناك شباب لم يبلغوا حظاً مذكوراً من العربية، ولعل من بلغ منهم حظاً منها لم يعن ولم يكترث لها، وهؤلاء أقبلوا على أدب الغرب فجعلوا يحاكونه ويترسمون آثاره، فيستحدثون أخيلة لم تتراء لأحلامهم، ويسوون صوراً لم تتمثل لخواطرهم، ويريقون عواطف لم تترقرق في نفوسهم، ويفصدون أحاسيس لم تجش قط في صدورهم.

وتراهم يستكرهون هذه الأمشاج من المعاني على نظام ليس فيه من العربية إلا مفردات الألفاظ، يشد بعضها إلى بعض بمثل قيود الحديد برغم تنافرها وتناكرها بحيث لو أطلقت من إسارها لتطايرت إلى الشرق والغرب ما يلوي شيء منها على شيء! فيخرج من هذا ومن هذا كلام لا يستوي للطبع، ولا يستريح إليه الذوق، ولا يخف للتعلق به الخيال! وكيف له بشيء من هذا ولم ينتصح به طبع، ولا رهف له حس، ولا تحركت به عاطفة، ولا انبعث إليه من نفسه خيال! فهو أدب مصنوع مكذوب على كل حال بل إن هناك شباباً لم يحذقوا شيئاً من لغات الغرب، ولم يظهروا فيها على شيء من آداب القوم، ولكن لقد تعاظمتهم صنعة أولئك فراحوا هم الآخرون يشاكلونها ويحذون جاهدين حذوها ليضافوا هم كذلك إلى جمهرة (المجددين)، وما التجديد في شرعة أكثر هؤلاء إلا الإتيان بالغريب الشامس في نظمه وفي صوره وأخيلته ومعانيه! وإذا كان هذا اللون من البيان مما

يصح أن ينتسب إلى أي أدب من الآداب، فانه مما لا يصلح لنا على أي حال!
وإن مما يضاعف الإساءة ويزيد في الألم أن يقبل الناشئون من طلبة المدارس على هذا اللغو فيتخذوا منه نماذج يحتذونها إذا شمروا للبيان، ولن يجشمهم التجويد والبراعة فيه جليلاً من جهد ولا مشقة، لأن قسر أي معنى على أي لفظ، وتسوية الخيال في أية صورة، وليس مما يعي جهد المرء ولا مما يعتريه بالمشاق. ومن هنا يشيع ارخص الآداب، أو أنه ينذر بالشيوع في هذه البلاد! ولو قد ترك في مذهبه هذا لطغى أشد الطغيان ما تغني في صده جهود الأعلام من الأدباء وحينئذ يكتب على مصر أن تعيش من غير أدب أو تعيش بهذا الأدب المنكر الشائه الذي لا نسب له مدة طويلة من الزمان!

الأدب القومي

إذن لا مفر لنا من أن نلتمس أدبنا القومي. ولا يكون هذا الأدب إلا عربي الشكل والصورة، مصري الجوهر والموضوع. وإذن فقد حق علينا أن نبعث الأدب العربي القديم، وننثل دواوينه، ونستظهر روائعه، ونتروى منها بالقدر الذي يفسح في ملكاتنا، ويقوم السنتنا، ويطبعنا على صحيح البيان. فإذا أرسلنا الأقلام في موضوع يتصل بالآداب، بوجه خاص. أطلقنا القول في صيغة عربية لا شك فيها، على ألا نطلب بها إلا الترجمة عما يختلج في نفوسنا، ويتصل بإحساسنا، ونصور بها ما نجد مما يلهمه كل ما يحيط بنا، وما يعترينا في مختلف أسبابنا من فكر ومن شعور ومن خيال
ولقد قدمت لك أننا قد نكون في حاجة شديدة جداً إلى مطالعه آداب الغرب وإطالة النظر فيها، واستظهار الكثير من روائعها. ونقل ما يتهيأ نقله إلينا منها في لسان العرب. وهذا أمر لا شك فيه ولا غناء لنا عنه، فان ذلك مما يهذب من ثقافتنا، ويفسح في ملكاتنا، ويرهف من حسنا، ويهدينا إلى كثير من الأغراض التي تشتعبها آداب الغرب في هذا
العصر. والواقع أننا تهدينا من آداب الغرب إلى فنون لم يكن لنا بها عهد من قبل، أو أنها مما عالجه سلفنا ولكن لم يكن حظهم منه جليلاً. ومن أظهر هذه الفنون القصص بالمعنى القائم، ومذاهب النقد الحديث!
على أن شيئاً من ذلك الأدب الأجنبي لا يجدي علينا، ولا يؤدي الغرض المقسوم بمطالعته والإصابة منه إلا إذا هذبناه وسوينا من خلقه ولونا من صورته حتى يتسق لطباعنا ويوائم مألوف عاداتنا، ويستقيم لأذواقنا. كما ينبغي أن نجهد الجهد كله في تجليته في نظام من البلاغة العربية محكم التنضيد، فلا نحس فيه شيئاً من نبو ولا نشوز. وبهذا نزيد في ثروة الأدب العربي، ونرفع من شأنه درجات على درجات وليس هذا الذي نرجوه لأدبنا بدعا في شريعة الآداب سواء في جديد الزمن أو في قديمه. فقد كان الأدباء وما برحوا إلى اليوم يعتمدون الفكرة البديعة، والمعنى السامي، والخيال الطريف المنسجم، ويصيبونه في لغي أجنبية، فلا يزالون به يطامنون منه لأذواقهم، ويروضونه لأساليب لغاهم، حتى يجلوه فيها من غير عسر ولا استكراه.
وان تصرف المتقدمين من أقطاب البيان العربي فيما شكوا من ألوان المعاني في اللغات الأجنبية لمن أصدق الدليل على صحة هذا الكلام. وهل رأيت إلى ابن المقفع لو لم يجئك أنه ترجم كتابه (كليلة ودمنة) عن إحدى اللغات الهندية. أفكان يتسرح بك الشك في أنه عربي الأصل والمنجم، عربي الحلية والنسب؟ اللهم إن تسوية المترجم لما ينقل إلى لغته، وطبعه على ما يواتي أحلام معشره، ويسوغ في أذواقهم، وينزع منازع بلاغاتهم، ليس مما يقدح في كفايته، بل إنه لما يرفع من قدره ويغلى من تصرفه. وكيف لا وهذا القرآن الحكيم لقد حدثنا عن عشرات من الأمم، كانوا ينطقون في الأعجمية لغات متفرقة، ونقل إلينا كثيراً من أحاديثهم ومقاولاتهم ومحاوراتهم ومجادلاتهم، فما أداها إلا في أعلى العربية الخالصة، بل في العربية البالغة حد الاعجاز، وهل بعد بلاغة القرآن بلاغة، وهل وراء بيان الكتاب العزيز بيان؟!
وصفوة القول أنه لا يعيب اللغة أو يغض من شأنها أن تصيب من بلاغات غيرها على أن تسيغه وتهضمه وتسويه حتى ينتظم في سلكها، ويتصل بخلقها، ويوسع في مادتها، ويضاعف ثروتها، لا أن يقسر عليها قسراً ويستكره لها استكراهاً، فينكر صورتها ويشوه من خلقها على ما نرى من صنع كثير يعربدون في الأدب العربي باسم (التجديد) في هذه

السنين!

كيف نعلم الأدب:

ولا شك في أن الينبوع الأول الذي يرده النشء لينهلوا من فنون العربية ويترووا آدابها ويستشعروا بلاغتها، وينبعثوا لترسمها إذا هم أقبلوا على البيان، هو معاهد التعليم على وجه عام، فإذا هي جدت في مهمها وأخذت من بين يديها من التلاميذ بما ينبغي أن يؤخذوا به من أساليب التعليم والتمرين، كان لنا في هذا الباب كل ما نريد

وإذا كان الأدب كسائر الفنون إنما يبرع المرء فيه بالاستعداد الفطري مع الكلف به وشدة الاقبال عليه وطول التمرين فيه بأكثر مما يحرز بالتعليم والتلقين، فان مما لا يعتريه الريب أن للأستاذ، وخاصة في ابتداء العهد بالطلب، أثراً بعيداً في تعليم أصول الفن وبيان حدوده، وإعلام طريقه بين يدي الطالب، وتهذيبه بطول التعهد، وتوسيع ملكاته بألوان الملاحظة، وإسلاس الإجادة له بفنون التدريب والتمرين. ولعمري لو قد أخذ الأساتيذ تلاميذهم بهذا الأسلوب في تعليم الأدب العربي لأحبوه وكلفوا به وانبعثوا من تلقاء أنفسهم لمراجعته في أوقات فراغهم، وإمتاع النفس بتسريح النظر في بدائعه. وكذلك تصبح مطالعة الأدب رياضة يطلب بها الترفيه والاستجمام إذا لحق الكد، وأجهدت المطاولة في طلب العلم. وسرعان ما تستقيم الطباع، وتدرك الملكات، ويجري صادق البيان في الأعراق مجرى الدماء

أما إذا حصب التلاميذ بالقواعد جافة لا يترقرق فيها ماء البيان صافياً، وقنع الأساتذة بأن يلقوا إليهم قطعاً من الشعر أو النثر ليحفظوها دون أن يوصل بين نفوسهم وبين ما تحوي من ناصح البلاغة، فقد استثقلوا الدرس وكرهوه وبرموا به، وتجرعوه تجرعاً إشفاقاً من العقوبة أو من التخلف إذا كان الامتحان! وإني لأكره أن أقول إن إقبال كثرة التلاميذ على هذا الأدب الرخيص الذي يخرج في العامية حيناً، وفي تلك العربية المنكرة الشائهة أحياناً، وتهافتهم عليه، وافتتانهم به، وأخذ الأقلام بمحاكاته وترسمه، إنما هو أثر من آثار ذلك البرم والاستثقال لدروس العربية وآدابها في معاهدنا المصرية!

والآن فالرأي في قيام أدبنا القومي وفي لغة الكتاب العزيز إلى أساتيذ المدارس، وإلى وزارة المعارف، فلننظر ما هم فاعلون!

عثرة ورجاء:

بقيت هنالك مسألة لا يجمل بنا أن نختم هذا المقال دون أن نعرض لها بشيء من البيان: يقولون إن اللغة العربية فقيرة، أو إنها أصبحت فقيرة بحيث لا تستطيع أن تؤدي بعض مطالب الحياة في هذا العصر إلا في شدة عسر وحرج، ولا تستطيع أن تؤدي بعضها أبداً. وهذا كلام، على أنه لا يخلو من الحق، فانه لا يخلو من الإسراف إلى حد بعيد. إذ الواقع أن اللغة العربية غنية سخية بالكثير مما يواتي مطالب العاطفة، ويصور نوازع الشعور أحسن تصوير. فلقد بلغ المتقدمون من شعراء العربية في هذا الباب ما لا أحسب أن قد برعهم فيه كثير من أصحاب البيان في اللغات الأخرى. ولو قد نفض متكلفو الأدب دواوين أولئك الشعراء وفروا ما أجنت من قصائد ومقطوعات لخرج لهم من ذلك ما يبلغهم جليلاً من تصوير مختلف العواطف والتعبير عن خفيات الحس والشعور. وهذا، لو علمت، أجل مطالب الأدب في جميع اللغات. وحبذا لو أكثر الأساتيذ من عرض هذه الأشعار على تلاميذهم، وتقدموا إليهم الفنية بعد الفنية بالحديث في الموضوعات الإنشائية، عن الحس والعاطفة في مختلف الأسباب، واستدركواعليهم ما عسى أن يكون قد أخطأهم في ذلك من ناصح البيان

على أن هناك عقبة أخرى تحتاج إلى جهد في التذليل، وهي أنه في ركود لغة العرب بانقباض حضارتهم، عقد ما لا يكاد يحصره العدد من الاصطلاحات العلمية والفنية، واستحدثت أشياء كثيرة جداً في جميع وسائل الحياة، سواء منها الضروريات والكماليات. ولا شك في أن إصابة هذه الأشياء في لغاتها إفساد للعربية واستهلاك لها. كما أنه لا معنى للالتفات عنها إلا الإعراض عن هذه الحضارة العريضة، بل الإعراض عن أكثر ما نجده وما نعالجه في هذه الحياة. وهذه العقبة تقوم الآن على تذليلها جهود أفاضل الأدباء من جهة، والمجمع الملكي للغة العربية من جهة أخرى، بالغوص عما يدل على ذلك في مجفو العربية سواء بأصل الوضع أو بالطرق الفنية الأخرى

ولقد يكون من المفيد في هذا المقام أن ننبه حضرات رجال هذا المجمع أن الاكتفاء

بإثبات ما يتسق لهم من المصطلحات والألفاظ في معجم جامع أو نشرها في كراسات دورية ليس مما يجدي كثيراً في إصابة الغرض المقسوم، فقد ثبت، بحكم التجربة، أن أبلغ الوسائل في

شيوع الألفاظ والصيغ المستحدثة أو المبعوثة من جاثم اللغة، وكثرة دورانها على الألسن والأقلام، هي استعمال كبار الشعراء والكتاب لها، وترديدها فيما تجليه الصحف السائرة لهم من الآثار، فحبذا لو سعى إلى هذا أولياء اللغة، وخاصة فيما يتصل، مما يستظهرون، بالفنون والآداب

نسأل الله تعالى أن يهدي الجميع سواء السبيل

عبد العزيز البشري

موسى بن ميمون

وعقدة الاتصال بين الفلسفة الإسلامية والفلسفة الغربية

بمناسبة ذكراه المئوية الثامنة

للدكتور إبراهيم مدكور

موسى بن ميمون، هو فيلسوف الأندلس ومصر في القرن الثاني عشر، وأحد كبار حكماء بني إسرائيل الذين خلدوا أسماءهم بما خلفوا من كتب وآراء. ولد بقرطبة في الثلاثين من شهر مارس سنة 1135؛ وتوفي بالقاهرة سنة1204. تنقل بين مراكش وفلسطين؛ إلا أنه قضى بمصر جزءاً عظيما من حياته، فعاش بها سبعاً وثلاثين سنة يدرس الفلسفة والطب، ويشغل كرسي الحاخام. فكان بذلك وليد الحياة العقلية الإسلامية، وتلميذ المدرسة العربية التي أثرت فيه تأثيراً عظيما. وليس ثمت من مثل أوضح لهذا التأثير من كتابه (دلالة الحائرين)، تلك المرآة الناصعة والصادقة في أغلب الأحيان، التي تعكس علينا في تفصيل ودقة تاريخ شطر كبير من الأفكار الدينية والفلسفية الإسلامية

لا أحاول في هذه الكلمة القصيرة أن أبين الصلة بين فلسفة ابن ميمون وفلسفة الإسلام، أو إن شئت بين هذه والفلسفة اليهودية عامة في القرون الوسطى، والتي يمثلها رجلنا أصدق تمثيل؛ فقد تصديت لهذا الموضوع في بحث حديث العهد، وأثبت ببراهين لا تدع مجالاً للشك أن ما يصح أن نسميه فلسفة يهودية إنما هو امتداد طبيعي للدراسات الإسلامية. ولقد كتب في هذا من قبل مؤرخين متعددون على رأسهم رينان.

وإنما أريد فقط أن أوضح نقطة لم يوفها الباحثون حقها، لم يتنبهوا إلى أهميتها التاريخية: ألا وهي الدور الذي لعبه ابن ميمون في نشر الفلسفة والأفكار الإسلامية في العالم الغربي. لم يكتف مفكرو اليهود باعتناق آراء فلاسفة الإسلام ونظرياتهم، بل عملوا على نقلها إلى المدارس المسيحية؛ فوصلوا الشرق بالغرب، وربطوا حلقات التاريخ بعضها ببعض. وفضلهم في هذا الصدد أوضح من أن ينوه عنه؛ وحسبنا دليلاً ما صنعوا ببعض الكتب الفلسفية التي فقد أصلها العربي، ولم يبق لنا منها إلا المترجمات العبرية واللاتينية. فابن رشد مثلا تتعذر علينا دراسته إن وقفنا عند مؤلفاته العربية التي وصلت إلينا؛ ويكاد يكون أعرف إلى قراء العبرية اللاتينية منه إلى قراء العربية. وعلى الجملة فاليهود الذين تتلمذوا على العالم العربي، وانتشروا في كبار العواصم الأوربية يعدون بحق عقدة الاتصال بين الفلسفة الإسلامية والفلسفة المسيحية

لم يكن ابن ميمون بالناقل أو المترجم؛ بيد أن كتابه (دلالة الحائرين) كان من أول ما ترجم إلى اللاتينية في الدائرة الفلسفية والعلوم الدينية. ليس في مقدورنا أن نحدد بالدقة تاريخ ولا صاحب أول ترجمة لاتينية لهذا الكتاب؛ وكل ما يمكن تعيينه أن هذه الترجمة سابقة لمنتصف القرن الثالث عشر الميلادي: ذلك لأن و ; يرددان كثيراً اسم ; موسى بن ميمون؛ كما أن , و يشيران إلى (دلالة الحائرين) كمصدر أخذا عنه واعتمدا عليه. لم يكد هذا الكتاب يترجم إلى اللاتينية حتى أكب على دراسته كبار فلاسفة القرن الثالث عشر الذين ذكرنا بعض أسمائهم. فأفادوا منه كثيراً؛ وكان عمدتهم في تعرف النظريات الإسلامية الهامة.

ونستطيع أن نقول إن (دلالة الحائرين) أول وأشمل مؤلف درس فيه اللاتينيون الفلسفة العربية، وأنه قد عمل على نشر هذه الفلسفة بدرجة لا يعادله فيها كتاب آخر. نحن لا ننكر أن بعض مؤلفات الفارابي وابن سينا وحظاً وافراً من مؤلفات ابن رشد قد

ترجم إلى اللاتينية، غير أن (دلالة الحائرين) كان أسبق من هذه المترجمات وأعظم شيوعاً. فأما الفارابي فما كان يعرفه إلا آحاد من فلاسفة الغرب، وإذا استثنينا لا نكاد نجد مؤلفاً قد أشار إلى اسمه في كتاب من كتبه. وأما ابن سينا فبرغم نفوذه العظيم لدى طائفة من علماء القرن الثالث عشر لم يكن بالمقرب إليهم قرب ابن ميمون؛ ولعل للفوارق الدينية أثراً في هذه الظاهرة. وأما ابن رشد فقد كانت خرافة إلحاده التي سادت أوربا في القرون الوسطى، والتي درسها (رينان) دراسة مفصلة سبباً في أن ينظر إليه بنظرة خاصة. على العكس من هؤلاء جميعا قد استطاع ابن ميمون بفصل كتابه (دلالة الحائرين) أن يمكن من نفوذ الفلسفة الإسلامية في المدارس الغربية عن طريق غير مباشر لا يشك فيه ولا يخشى خطره

ويجب أن نضيف إلى ما تقدم أن نقد هذا الحبر لبعض نظريات المتكلمين قد حببه، فيما يظهر، إلى الفلاسفة المسيحيين. فهو ينقض نظرية الجوهر الفرد ونظرية تعريف الله ونظرية الصفات الألهية بشكل يقربه من أرسطو بقدر ما يبعده عن علماء التوحيد المسلمين. وقد كان لهذا النقض أثر واضح على كبار فلاسفة القرن الثالث عشر. ونظرة إلى مناقشة الجوهر الفرد تحملنا على أن نجزم بأنه اعتمد اعتماداً كبيراً على كتاب لابن ميمون؛ على أنه هو نفسه يعترف بذلك في صراحة تامة، ولا يفوتنا أن نشير إلى أن هذا الكتاب هو المصدر الوحيد الذي عرف منه الفلاسفة اللاتينيون نظرية الجوهر الفرد الإسلامية؛ فإنا لا نجد أي إشارة هامة متعلقة بهذه النظرية فيما ترجم إلى اللاتينية من كتب عربية أخرى. (فدلالة الحائرين) قد اختص إذاً بنقل بعض المسائل الإسلامية إلى المدارس الغربية في القرن الثالث عشر الميلادي لم يقف أثر هذا الكتاب في نشر الأفكار الإسلامية عند القرون الوسطى، بل جاوزها إلى العصور الحديثة. وذلك أنا نجد لدي واحد كاسيبنوزا أو كلابنتزا آراء كثيرة الشبة بآراء فلاسفة الإسلام. فنظرية النبوة عند الأول تشبه شبها عظيماً النظرية التي أخذ بها الفارابي؛ ومشكلة العناية ' عند الثاني لا تختلف كثيراً عما قال به ابن سينا من قبل. ربما يبدو غريباً أن نحاول إثبات علاقة بين مفكري الإسلام وهؤلاء الفلاسفة المحدثين؛ خصوصاً وقد جرت عادة مؤرخي الفلسفة الإسلامية أن يقفوا بها عند القرون الوسطى؛ وما فكر واحد منهم، فيما أعلم، أن يدرس الصلة بين هذه الفلسفة وفلسفة العصور الحديثة. غير أنا نرى أن هذه الصلة جديرة بالبحث والدرس ومعتمدة على أسس تعززها، فقد عرف اسبينوزا كتاب (دلالة الحائرين) وعني به عناية خاصة، كما عرفه لايبنتز، وأثنى عليه ثناء كبيراً. فعلى ضوء هذا الكتاب نستطيع أن نحدد إلى أي مدى تأثر رجال العصور الحديثة بالأفكار الإسلامية. يخيل إلينا أنا أول من تنبه إلى هذه العلاقات التاريخية؛ وقد حققناها فيما يتعلق بنظرية النبوة. ونأمل أن يمعن الباحثون في هذه الطريق التي سلكناها كي يلقوا جزءا من الضوء على طائفة كبيرة من النقط الغامضة، ويخدموا في آن واحد القرون الوسطى والتاريخ الحديث. نحن لا نقول بأن الفلسفة الإسلامية قد أثرت تأثيرا مباشرا في الفلسفة الحديثة، ولكنا نلاحظ فقط أن هناك مواطن شبه بين الفلسفتين فلنعمل إذا على توضيحها وبيدنا كتاب (دلالة الحائرين) الذي ألف بلغة الإسلام وفوق أرضه وتحت سمائه؛ ثم نقل إلى أوربا فكان موضع تقدير المفكرين منذ القرن الثالث عشر الميلادي حتى اليوم

إبراهيم مدكور

دكتور في الأدب والفلسفة

حول الأوزاعي

للأستاذ أمين الخولي

المدرس بكلية الآداب وكلية أصول الدين

الأوزاعي الكاتب: تفسير النصوص التاريخية والاستنباط منها

اتفق وأنا قريب عهد بكتاب (أحسن المساعي، في مناقب الأمام أبي عمرو الأوزاعي) الذي نشره ونقحه وعلق عليه، وقدم له، الأستاذ الكبير الأمير شكيب أرسلان؛ أن وصلني العدد 89 من الرسالة الصادر في 18 مارس سنة 1935، وفيه مقال عن الأوزاعي لحضرة الأديب عبد القادر علي الجاعوني؛ فلما قرأته تبدت لي نواح من القول عن الأمام الأوزاعي؛ وعن مقال الرسالة فيه، وأحببت أن أحدث بها قراء الرسالة؛ لكنما أحب قبل الخوض في شيء من ذلك أن أرسل وراء البحار، على

صفحات الرسالة الغراء، تحية وإجلالاً للأمير العربي الكبير الأمير شكيب أرسلان لصدق غيرته، وجليل خدمته للعروبة وأهلها علمياً وأدبياً واجتماعيا: تحية تقدير لحقه على الشرق والعرب؛ وإجلال لذكريات كريمة للأديب العالم الأمير، على تمادي الأيام، ونأي الديار

الاوزاعي الكاتب

اشتهر عند القدماء والمحدثين، أن الأوزاعي إمام فقيه مجتهد، صاحب مذهب، أو ما يتصل بذلك وينتهي إليه، فحسب، ولم يعرفه الأدباء ومؤرخو الآداب، من أصحاب الأقلام والناثرين المقتدى بهم في القرن الثاني الهجري، من جيل عبد الحميد الكاتب أو يكاد؛ لكن هناك ناحية أدبية، في الأوزاعي، له فيها تفوق خطير، وآثار ذائعة، ومشاركة فعلية في حياة النثر العربي الأولى، وتاريخ الرسائل؛ إذ يذكر مترجموه أنه كان بارعاً في الكتابة والترسل؛ وأنه كانت صنعته الكتابة والترسل فرسائله تؤثر وينقلون أنه كان من ذلك موضع الإعجاب والإكبار، إذ يروون أن كتبه كانت ترد على المنصور فينظر فيها، ويتأملها، ويتعجب من فصاحتها وحلاوة عبارتها؛ بل كان في موضع الاحتذاء والتقليد، بل كان يقتبس رءوس الكتابة من قوله، ويأخذون عنه، ويتهيبون الإجابة عن رسائله؛ إذ يقول المنصور يوماً لأحظى كتابه عنده، وهو سليمان بن مخلد: ينبغي أن تجيب الأوزاعي عن

كتبه، فيقول: والله يا أمير المؤمنين لا يقدر أحد من أهل الأرض على ذلك وقال: لا على مثل كلامه ولا على شيء منه؛ وإنا لنستعين بكلامه نكاتب به إلى الآفاق، إلى من لا يعرف أنه كلام الأوزاعي. لكن فقه الشيخ طغى على أدبه، وأخمل ذكره فيه؛ حتى يقول الذهبي في طبقات الحفاظ بعد أن روى عن أبي زرعة الدمشقي أن الأوزاعي كانت صنعته الكتابة والترسل فرسائله تؤثر: قلت: هذا ناقلة سوى الفقه؛ وهكذا غلب الفقه الأدب على الرجل، كما غلبه على الشافعي من بعده؛ وكما لا تزال تهيئ تلك الغلبة ظروف الحياة، فتمضي بأدباء متفوقين إلى غير حرفة الأدب. لكنا لا ننصف حين نؤرخ الأدب فنتابع القدماء على اعتبار أدب الأوزاعي نافلة؛ ولا ننصف إذا أعطينا هذا العهد المبكر بنثره لعبد الحميد وابن المقفع وحدهما؛ ولا نتحرى درس الأوزاعي الأديب الناثر الممتاز إذ ذاك، ولا نعني بجمع آثاره في هذا، ولاسيما بعد ما نسمع قول المؤرخين أنهم عرفوا له كلاماً ومواعظ ورسائل كثيرة. فلعل الأدباء يعنون بجمع هذه الآثار وتتبعها؛ ولعل المؤرخين يعنون بدراسة أثر الرجل ومنزلته بين الأدباء الناثرين في هذا العصر. وفي سبيل هذا التعاون أشير إلى مواضع ذلك في الكتاب المنشور عنه؛ ففي الصفحات - 84، 120، 121، 136، كتب للأوزاعي. وفي - 87، 124، 137، مواعظ له؛ وفي - 138 وما بعدها كلمات له وحكم، ولعل الزمن يسعفني على المشاركة في شيء من ذلك الدرس

تفسير النصوص التاريخية والاستنباط منها - 2

تاريخنا الفني والعلمي والاجتماعي لم يكتب بعد، إذ اتجهت عناية القدماء إلى التاريخ السياسي واستيفائه؛ فلم يتركوا إلا أصولا متفرقة عن التاريخ غير السياسي، وإن النهضة لتتقاضانا هذا الحق، سداً لذلك النقص البادي، ونحن في هذا العصر نحاوله في النواحي المختلفة، وننتفع بما كتبة المستشرقون فيه، ولكن المادة الحقيقية إنما هي تلك المتفرقات القديمة التي كتبها أهل ذلك الشأن، عن قرب ومباشرة، وبادراك صحيح لروح ما يؤرخون وحقيقته. وفي الرجوع إلى هذه المتفرقات نحتاج إلى تفسير النصوص التاريخية بعد فهمها على وجهها فهما صحيحا لنستنبط منها أحكامنا على العصور والرجال والأعمال؛ والمتصدون لهذه الدراسة التاريخية الفنية أو العلمية أو الاجتماعية، يجرون من ذلك على أسلوب أشعر أنه لا يزال يحتاج إلى غير قليل من الدقة؛ وإن أحكامهم معه لا تسلم من

الدخل والوهن؛ وليس هذا موضع الإفاضة والبيان المسهب في ذلك، فانه مما يستحق القول المفرد في غير هذه الفرصة؛ وإنما أحببت في هذا المقام أن أشير إلى ما يقع كثيراً في تفسير هذه النصوص، من عدم الرجوع إلى مواضعات القدماء أنفسهم في الشؤون الخلقية والعلمية والعملية مما تشرحه كتبهم؛ والاعتماد في الفهم على ظواهر العبارات، أو القياس على مواضعاتنا وعوائدنا دون تقدير لما هناك من اختلاف قد يكون كبيراً، وكذلك عدم التنبه إلى نواميس الحياة النفسية الإنسانية التي يجب توفر الخبرة

بها قبل التصدي لتفسير أعمال الأشخاص وأقوالهم أو الأقوال عنهم، ثم وجوب رعاية السنن الاجتماعية وتأثيرها وتأثرها قبل الحكم على الحوادث أو الرجال وتعليل الأعمال وبيان آثارها؛ فكل أولئك وكثير غيره مما يجب أن يقوم عليه فهم النص التاريخي، وتفسيره بله الاستنباط منه؛ وليست تلك المهمة من الهوان بما يتراءى لبعض محاولي تلك الدراسة، وأستميح الأديب الجاعوني عذرا في أن أشير إلى بعض تفسيرات تاريخية وردت في مقالته، تمثيلا لهذه الدقة وما تجب مراعاته في هذه المهمة. فهو مثلا يقول، حين عد شيوخ الأوزاعي وتلامذته: (وروى عنه جماعة من الذين سمعهم كقتادة والزهري وغيرهم) (ص 419 رسالة) وعلق على ذلك في الهامش رقم 7 بقوله: (يظهر أن قتادة والزهري كانا معاصرين للأوزاعي، فسمع عنهم وبذلك نعدهم أساتذته، ومن ثم رووا عنه، ولذلك يصح لنا تجاوزاً أن نعدهم من تلاميذه) وتنظر أولا إلى قوله إن قتادة والزهري كانا معاصرين للأوزاعي فلا ترى ذلك صواباً على هذا الإطلاق؛ فهؤلاء من التابعين، وليس الأوزاعي منهم - وإن ادعي بعضهم له ذلك - ثم هم على كل حال جيل آخر، بين وفاة الأوزاعي ووفاة آخرهم نيف وثلاثون عاماً - قتادة توفي سنة 117، والزهري سنة 123، والأوزاعي توفي سنة 157 - وتدع هذا فترى تفسير الكاتب لأخذه عنهم وأخذهم عنه واعتبارهم تجوزا تلاميذه، تراه قلقاً مظطربا. وكانت تدفعه ملاحظة عادة القوم في هذا النوع من الروية الذي كانوا يسمونه رواية الأكابر عن الأصاغر، ويفردونه بالبيان الخاص في أصول الروية؛ وكانوا يرمون فيه إلى اعتبار خلقي نبيل من تقدير العلم وأخذه حيث كان، وحطم الكبرياء المغرورة للأستاذية، ليظل المروى عنه أبدا طالب علم، ومرتاد حقيقة يأخذها حتى عن تلميذه، وهذا التفسير نفسه

منصوص في كتاب أحسن المساعي الذي أرجح كثيرا أن الكاتب قد رجع إليه، إذ ورد في ص 52 - 53 منه ما نصه (. . . وحدث عنه جماعات من سادات المسلمين، كمالك بن أنس، والثوري، والزهري، وهو من شيوخه، وهذا من رواية الأكابر عن الأصاغر فان الزهري من التابعين، وليس الأوزاعي من التابعين) ثم إن الكاتب صاحب المقال عن الأوزاعي يتعرض لقول جولدزيهر بتأثر الفقه الإسلامي بالفقه الروماني، ويرى أن الأوزاعي أحرى بأن يكون آخر المتأثرين؛ ص 420 (رسالة)؛ ويحتاج لهذا الاستنباط (بأنه من أبعد الفقهاء عن الرأي، ومن أقربهم إلى اتباع الكتاب والسنة. . . والكتاب والسنة أبعد الأشياء عن التأثر بالفقه الروماني). ومع عدم تعصبي للقول بهذا التأثر، ومع القصد في بيانه، فإني أرى هذا الاستدلال على عدم تأثر الأوزاعي غير مقبول من الوجهة الاجتماعية والنفسية، فان متبع الكتاب والسنة لا بد له من أن يفهمهما، ويتبين مراميهما، وأغراضهما، وعللهما وحكمهما، ولكل شخص في هذا الفهم والتبين عقله الخاص، وشخصيته الخاصة، ومنهجه الخاص، وذلك كله من أشد ما يكون تأثراً بالثقافة والبيئة، فلا غرابة في أن يتأثر فهم الفاهم للكتاب والسنة المتبع لهما، تأثراً جلياً بعوامل تثقيفه، وظروف حياته، كما تأثر بذلك تفسير القرآن في كل الأزمنة، بل كما تأثر بذلك فهم العقائد وأصول الدين ذاتها تأثراً لا يسعنا إنكاره؛ ولا قيمة لحرصنا على هذا الإنكار، لأننا بذلك نقاوم سنن الله في خلقه

تلك مثل صغيرة لما تجب مراعاته في تفسير النصوص وفهمها والاستنباط منها، حتى نوفق لكتابة تاريخنا غير السياسي، بل السياسي كذلك كتابة علمية صحيحة، تنير ماضينا وتمد مستقبلنا بكل قوة وحقيقة

أمين الحولي

حول الأوزاعي أيضاً

للأستاذ علي الطنطاوي

أسكر للكاتب الفاضل صاحب ترجمة الأمام الأوزاعي رضي الله عنه المنشورة في الرسالة التاسعة والثمانين عنايته بدراسة تاريخنا الجليل، واستخراج (جواهره) التي شغلتنا عنها (أصداف) غيرنا، وأرجو أن يقبل هذه الملاحظات قبولاً حسناً، وأن يعلم أن الذي حفزني إلى نشرها إنما هو حرمة الحق، وأمانة التاريخ

1 - يقول الكاتب في تحقيق نسبة الأوزاعي: (وقد اختلف في معنى هذه الكلمة، فمن قائل إنها بطن من ذي الكلاع من اليمن، وقيل بطن من همذان (بالذال)، وقيل إن الأوزاع قرية

بدمشق خارج باب الفراديس) اهـ
والصحيح أنه ليس بين هذه الأقوال اختلاف، فالأوزاع اسم قبيلة من اليمن، سكنت هذا الموضع فسمي بها - كما ذكر باقوت - ونسبهم في حمير ولكن عدادهم في همدان - كما قال في التاج - وهمدان - كما في اللسان - قبيلة في اليمن، أما همذان التي ذكرها الكاتب فمدينة مشهورة في أرض العجم، وعجيب أن ينسب إليها الأوزاعي، وأعجب منه أنه نقل هذه الرواية عن ابن خلكان، وهي في ابن خلكان في الصفحة التي نقل منها الرواية، همدان بالدال لا همذان بالذال!

وقد وجدت في كتاب - لا يحضرني اسمه - أن الأوزاعي من العقيبة (قرية بظاهر دمشق). والعقيبة اليوم حي كبير من أحياء دمشق، بالقرب من السور خارج باب العمارة، وهذا الباب هو باب الفراديس بعينه، وهولا يزال موجودا، ولا يزال داخله طريق مواز للسور، يسمى طريق (بين السورين)، فعلى هذا تكون العقيبة هي قرية الأوزاع

2 - وقال الكاتب إن الأوزاعي (لم يكن يستعمل الرأي، بل إنه - كما فعل غيره - عدل إلى الكتاب والسنة) اهـ

والذي يفهم من هذه الجملة أن من يقول بالرأي يعدل عن الكتاب والسنة، وهذا خطاء فاحش، لأن أصحاب الرأي أو القياس، لا يعملون رأيهم، ولا يجرون قياسهم، إلا في المسائل التي لم يرد فيها نص من كتاب ولا سنة، فهم يرجعونها إلى هذين الأصلين، ويطبقونها عليهما؛ وليس لمسلم أن يقول في الدين برأيه، ويتكلم فيه بهواه؛ والحنفية هم الذين يسمون بأصحاب الرأي؛ وجميع الحنفية - كما يقول ابن حزم - مجمعون على أن مذهب أبي حنيفة أن ضعيف الحديث عنده أولى من الرأي والقياس. وقد قدم أبو حنيفة رحمه الله العمل بالأحاديث المرسلة على العمل بالرأي في مسائل عدة ولعل الكاتب لم يقصد هذا الذي قد يفهم من كلامه!

3 - وقال الكاتب: (ذهب بعض المؤرخين أمثال كولدزيهر إلى أن الفقه الإسلامي قد تأثر بالفقه الروماني، وأنا أقول إن كان هذا صحيحاً فأخر بالأوزاعي أن يكون آخر المتأثرين به لأنه من أبعد الفقهاء عن الرأي) اهـ

فلم يهتم الكاتب بدحض هذه الفرية التي افتراها كولدزيهر وأمثاله من المؤرخين، ولم يبين أنها في رأي العلم خرافة من الخرافات، وأن المحققين قد تكلموا فيها، وبينوا خطأها، بل كان جل همه أن يبرئ الأوزاعي منها، ولو يسلم ضمنا بأن الفقهاء قد تأثروا بالفقه الروماني!

على حين أنه لا يمكن أن يقوم دليل علمي واحد على أن الفقه الإسلامي مأخوذ من الفقه الروماني، إلا إذا كان القرآن مترجما عن لغة الرومان، وكان سيدنا محمد صلى الله عليه واله وسلم رومانياً خرج من أبوين عربيين! والذي نقوله إنه إذا كانت هناك علاقة بين الفقهين، فإن الفقه الروماني المعروف اليوم هو المقتبس عن الفقه الإسلامي، ودليلنا على هذا أن الفقه الروماني الحاضر جديد، لفقه طائفة من العلماء، بعد أن اندثر الفقه الروماني القديم، وهذا الدليل على علاقة أقوى من دليلهم على دعواهم، فليثبتوا إن استطاعوا أن الفقه الروماني الحاضر هو القديم ذاته، وليأتونا بالأسانيد الصحيحة والروايات المضبوطة، كما نأتيهم نحن بأسانيد حديثنا، وروايات سنتنا!

4 - هذا وإن في ترجمة الأوزاعي كتابا قائما برأسه نشره من عهد قريب كاتب الإسلام الأمير شكيب أرسلان فلينظره الكاتب الفاضل

علي الطنطاوي

الحكم في المسابقة الأدبية

يذكر قراؤنا أننا نشرنا في العدد 79 من الرسالة قصيدة من الشعر الفرنسي عنوانها. (ارتياب) للآنسة النابغة (مي) ومعها ترجمتها بقلمها، وقد قدمتها إلى شعرائنا مقترحة أن ينقلوها نظماً إلى العربية جاعلة للسابق الأول جائزة مالية قدرها جنيهان مصريان؛ وقد استبق إلى مقترح الآنسة الفاضلة سبعة وعشرون شاعراً من مصر ومن سائر الأقطار العربية، وفي مساء يوم الجمعة الماضي اجتمعت في دار الشاعرة لجنة

التحكيم وهي مؤلفة كما ذكرنا في عدد سابق من حضرات الدكتور طه حسين، والأستاذ مصطفى عبد الرزاق، والدكتور أحمد زكي، ومحرر هذه المجلة، فقرأوا القصائد، ثم غربلوها، ثم نخلوها، حتى علق بالعيون ثلاث قصائد منها، فأعادوا النظر فيها، ثم وازنوا بينها، فكانت الأولى لشاعر لم يذكر اسمه ولم يرمز إليه، والثانية للأستاذ فخري أبو السعود، والثالثة لشاعر دمشقي إمضاؤه أ. ط، فقرروا نشر القصائد الثلاث وحكموا للشاعر الأول بالجائزة. والرسالة ترجو منه أن يرسل إليها عنوانه لترسل إليه حقه. وتلك هي القصائد:

القصيدة الأولى

ارتياب

أصديقتي ذات العيو ... ن النجل! قد ولى النهارُ!
والريح هوجاء تهب (م) ... بنا، وليس لها قرارُ
ولها أنينٌ ثائرُ، ... كالقلب عاوده ادّكارُ
ولها صدى في النفس مك ... بوتٌ عَصى مستثار
أصديقتي، ذات العيو ... ن النحل! قد ولى النهار
بين الزهور جلست أح ... لمُ في حنينٍ واكتئابِ
والزعزعُ النكباءُ تع ... صِف كل أَونة ببابي
والسحب باكية، فوا ... شجني لهذا الانتحابِ!
فلكم يثير من الشجى ... في مهجتي دمعُ السحاب!
بين الزهور جلست أح ... لم في حنين واكتئاب
هل تذكرين اليومَ رأ ... سَ العام؟ ما أحلاه ذكرى!
يومُ به السرّ الخفيّ ... أضاَء في عينيك سحرا
وهلالُ روحي عابدُ ... مِنْ رُوحك المعبود بدرا
يومُ به أوحيت في نف ... سي حديثاً مستسرَّاً
هل تذكرين اليومَ رأ ... س العام؟ ما أحلاه ذكرى!
أسفي لهذا الشهر قد ... ولَّى، وآذن بانتهاءِ
فيه رأيتك مرتي ... ن، لدي سويعات المساءِ
والآن أقضي الليل في ... غير ابتهاج أو صفاءِ
واحرّ أشواقي لفج ... رِ منك فتان الضياءِ
أسفي لهذا الشهر قد ... ولي وآذَنَ بانتهاءِ
ليلُ مطير حالكُ ... وكأنه ليلُ الوداعِ
والفكر أقتمُ لم يزل ... وسط الهواجس في صراعِ
أمس الفؤاد ممزقاً ... بين ارتياب وارتياعِ
ماذا لو أن فؤادَك المغ ... رورَ أُولعَ بالخِداعِ
ليلُ مطيرُ حالك، ... وكأنه ليل الوداعِ

القصيدة الثانية

ارتياب

أصديقتي يا رَبّة الحَدَقِ العِذا ... بِ النُّجل روُحي رددتْ نجواك
الريحُ في هذا المساَء عنيفة ... هوجاء ذات صدى عصيّ باك
جاّرةُ أمسى عَصيّاً داوياً ... في النفس مكبُوتاً صَدَاها الحاكي
أصديقتي يا ربة الحدق. . .
ما بين هاتين الزهور جلستُ واس ... تسلمتُ للأحلام والأشجان
يغزو جناحُ النَّوْءِ نافذتي وقد ... بكتِ السماءُ بِدَمعِها الهتَّان
واهاً لذاك الدمع يجري ناحباً ... ماذا يُحرَّك في مدى الأعوان؟
ما بين هاتيك الزهور. . .
يا هل نراك ذكرت فيما قد مضى ... يوماً لنا قد كان رأس العام؟
يوماً بمغرى السر نوَّرَ مقلة ... خاطبتني منها بغير كلام
ورأت به روحي بروحك أختها ال ... كبرى ونلتِ عبادتي وهيامي
يا هل تراك ذكرت. . .
قد راح شهر بعد ذاك مولياً ... ها نحن نرقب متهاه الداني

ولى وقد جادت بحُسْنَ لقاك أُم ... سيتان في أثنائه ثنتان
والآن إذ جذلي إلى غده انتهى ... أصبو إلى فجر مضى فتان
. . .قد راح شهر بعد ذاك
هذا مساء ممطر متساقط ... ساجي الدجى، هذا مساء وداع
تعتامني غُبْرُ الهموم وقد مشى ... رَيْب بقلبٍ للجوى مُنْصاع
ريْب خبيث! ما ترى لو لم يكن ... لك غير قلبٍ مُزدْهٍ خدَّاع؟
هذا مساء ممطر متساقط ... ساجي الدجى، هذا مساء وداع
فخري أبو السعود
القصيد الثالثة
صديقتي ذات العيون العذابْ ... روحي تناديك! فهل تسمعينْ
جُنْ جنون الريح هذا المساءْ ... وانفعت صحَّابة كالحُممْ
تروى وذي صيحاتها في الفضاء ... يعيدُ في نفسي صداها الأصم
صديقتي ذات العيون العذابْ ... روحي تناديك! فهل تسمعينْ
!هأنذى أجلس بين الزَهَر ... حالمةً مغمورةً بالشُّجون
نافذتي تلطُمها العاصفة ... والسحب تُذري عبرات الحنان
لله هذي الأدمع الواكفة ... ماذا ستذكي في صميم الكيان
هأنذى أجلس بين الزّهَرْ ... حالمةَ مغمورةً بالشُّجون
صديقتي بالله هل تذكرين ... أول هذا العام هل تذكرين؟
إذ نم عنك الكلم الصامت ... ونور عينيك نِمى السرَّا (كذا)
ويوم نفسي، والفضا ناصت (كذا) ... ألفت لديكِ روحها الكبرى؟
صديقتي باللهِ هل تذكرين ... أول هذا العام، هل تذكرين؟
شهر تولى ومضى مُسرعاً ... وراحَ يغفو في خضمّ القرونْ
لم نحظ في أيامهِ باللقاء ... سوى مساءين، ولم نسعدِ
. . .والآن، إذ في الغَدِ كلُّ الهناءْ ... أذوب أشواقاً لفجر الغد
شهر تولى ومضى مسرعاً ... وراح يغفو في خضم القرون
هذا مساءٌ دامعٌ قاتمٌ ... مثل أماسي الوداع الحزين
خواطري فيه تُحاكي الدُّجى ... والغم في نفسي طغى، والملل
والشك يلهو بيَ: ما تُرى ... لو كان منك القلب جم الحيل؟
هذا مساءٌ دامعٌ قاتمٌ ... مثل أماسي الوداع الحزين
أط
دمشق
قصة المكروب
كيف كشفه رجاله
ترجمة الدكتور أحمد زكي
وكيل كلية العلوم
اسبلنزاني
صلة حديثه
القس الماكر الذي مالق الكنيسة والسلطات وهو يحتقرها جميعا لكي يعيش ولكي) يعمل في سكون؛ الذي ناضل نضال الجند بغير أهبة الجند وعدة الجند؛ الذي أثبت من مرق اللحم أن المكروبات ككل الأحياء لا بد لها من آباء؛ الذي أهدى للعلم مثانته (الوبيئة، ذلك الأثر الوحيد الذي بقي للناس إلى اليوم من هذا الرجل الكبير الخالد وجرت مكاتبات كثيرة بين اسبلنزانى وبين الكثير من بحاث أوروبا وشكاكيها. وجرت صداقة بالبريد بينه وبين فلتير ذلك الماكر الخبيث، وشكا له في كتبه أن إيطاليا ليس بها إلاأفذاذ قليلون من الرجال ذوي العقول الراجحة، وشكا له الطقس والرطوبة والضباب. ودار الزمن فإذا اسبلنزانى يتزعم تلك العصابة الرعناء من الفلاسفة والعلماء الذين طلبوا الحق صادقين وأرادوا للناس السعادة والعدل مخلصين، فإذا بهم يمهدون غير قاصدين لفتن هوجاء، تلطخ بها وجه الأرض بأغزر الدماء
واعتقد هؤلاء العلماء أن اسبلنزانى قضى كل القضاء على تلك الفرية التي افتراها الخصماء حيث قالوا إن الحياة قد تنبعث من لا شيء، وأخذ هؤلاء العلماء، وفي

طليعتهم (فلتير)، يقهقهون بالنكات النادرة، ويتندرون بالفكاهات المستملحة، على القوة النباتية وعلى (بيفون) الفخم الطنان، وعلى صبي معمله الأدب (نيدم) وبينا هم على هذا، صاح نيدم: (ولكن هذه القوة النباتية موجودة يا قوم. إنها شيء مستسر خفي. حقاً إنها لا ترى ولا توزن، ولكن بسببها تخرج الحياة من مرق اللحم ونقيع الحب، وقد تخرج بواسطتها من لا شيء. من الجائز أنها احتملت ذلك التحميص الشديد الذي

أولاها إياه اسبلنزانى. إنها قوة أكثر ما تحتاج إليه مرونة الهواء، وقد أغلى اسبلنزانى (قبابته ساعة فأفسد مرونة الهواء بداخلها، ففسدت القوة النباتية فلم تتكون الأحياء سمع الطلياني بهذا فقام تواً للصراع. ونادى نيدم: (هل من تجارب تثبت بها أن الهواء إذا سخن قلت مرونته؟). وانتظر التجارب فلم يجب نيدم بغير ألفاظ. فصاح به الطلياني: (إذن فأنا آتيك بالتجارب). ورجع إلى معمله مرة أخرى فوضع البذر في القوارير، وصفها وأغلاها ساعة. وفي ذات صباح ذهب إليها يقصف رقابها. قصف الأولى وأرهف سمعه فسمع لها صفيراً. (ما هذا؟). واختطف الثانية فأدناها من أذنه وكسرها فسمع لها صفيراً. (هذا هو الصفير يعود! ومعنى هذا أن الهواء يدخل إلى القارورة أو أنه يخرج منها). وأشعل شمعة وأدناها من فم قارورة أخرى وفض قاها فإذا اللهب ينعطف نحوها. فصاح: (معنى هذا أن الهواء يدخل القارورة، ومعنى هذا أن الهواء بالقارورة أقل مرونة من الهواء خارجها، ومعنى هذا أن نيدم قد يكون على حق!) وعندئذ أحس اسبلنزانى بجيشان في معدته، وأحس بالعرق يتصبب من جبينه، والأرض تدور به. . . أيجوز أن يكون هذا الأبله نيدم قد خبطها خبطةً عشواء فأصابت؟ أيكون قد تظنن فيما تحدث الحرارة في الهواء المخزون بداخل الزجاج المختوم فوقع على الحقيقة وهو لا يدريها؟ أيكون قد قدر لهذا الفيهق الثرثار اللغاط الهراء أن يفسد عليه الجهد الكبير الذي أنفقه في استنباط الحقائق في حرص وحذر كل هذه السنوات الطويلة؟ وقضى اسبلنزانى أياماً وهو سقيم المزاج، مشتت الفكر، ضيق الصدر، واشتد لتلاميذه واخشوشن من بعد رفق ولين. وأراد أن يروح عن نفسه فأخذ ينشد شعر (دانتى) و (هوميروس)، فلم يزده الإنشاد إلا ضيقاً. واستيقظ في نفسه شيطان أخذ يوسوس له: (قم وادرس لم يدخل الهواء داخل القبابة كلما كسرت ختمها، فلعل هذا لا صلة له بمرونة الهواء). وصاحبه هذا الوسواس الخناس وألح عليه حتى استيقظ ذات ليلة على صوته مخبولاً مرتبكاً. . . . وفي برهة كلمحة البصر وقع على تفسير للمعضل الذي هو فيه، فجرى إلى معمله، وكان نضده قد تغطى بقوارير مكسورة وزجاجات مهجورة تبعثرت جميعها عليه فكانت شواهد على ما كان فيه رجلنا من ترك ويأس. ومد يده إلى قمطر فأخرج منه قبابه. لقد كان ضل الطريق واليوم اهتدى اليه، وعما قريب يثبت أن نيدم مخطئ ضال. وتمطى يملأ رئتيه وسمعهما، ثم زفر زفرة طويلة أبدلته من ضيق سعة ومن أزمة فرجا. ومع أنه لم يكن أثبت أن ما بدا له هو التفسير الحق لصفير الهواء، إلا أنه وثق بالذي ارتآه وثوقاً آثر معه أن يستعجل الغبطة والسرور. ونظر إلى القبابات وابتسم وقال: (كل القبابات التي استخدمتها فيما سبق كانت لها رقبة واسعة استلزمت حرارة كثيرة وتسخيناً طويلاً لتسيح ويتم ختمها. وهذه الحرارة الكثيرة تطرد الهواء من القبابة قبل لحامها، فلا عجب إذن أن يندفع الهواء فيها إذا فض اللحام)

وارتأى أن ما قاله نيدم عن إغلاء القبابات الملحومة في الماء وإفساده مرونة ما بداخلها من الهواء كلام هراء. ولكن أنى له بإثبات ذلك؟ أنى له بختم القبابة دون أن يطرد هواءها؟ وجاء شيطانه يوسوس إليه، فأخذ قبابة أخرى فوضع بها بذراً وملأ بعضها بالماء، وأدار رقبتها في اللهب الشديد حتى ساحت وضاقت حتى كادت تلتحم إلا ثقباً صغيراً ضيقاً يصل بينها وبين هواء الجو.

عندئذ برد القبابة؛ حتى إذا تمت برودتها قال: (إن الهواء بداخلها لا بد أن يكون مثله بخارجها. ثم جاء بلهب صغير سلطه على الثقب الباقي وهو كعين الإبرة فسده في لمحة دون أن ينطرد من هواء القبابة شيء. فلما اطمأن إلى ذلك وضع القبابة في الغلاية وأخذ يرقبها ساعة، وبينا هي تتأرجح وترقص في الماء كان هو ينشد الشعر ويترنم بالغناء. ثم نحاها أياماً، وفي ذات صباح جاء ليفتحها وهو واثق مما سيكون، فأشعل شمعة وأدناها من فم القبابة، وفي حذر شديد كسر فاها فسمع صفيراً، إلا أن

لهب الشمع لم ينجذب إلى القبابة في هذه المرة بل مال عنها، دليلاً على أن مرونة الهواء داخلها أكثر من مرونته خارجها!

فكل هذا الغلي لم يفسد مرونة الهواء، بل على النقيض قد زاد مرونة، تلك المرونة التي قال نيدم بضرورتها لتلك القوة النباتية العجيبة. وأخرج اسبلنزانى من المرق القطرة فالقطرة، وعبثا حاول أن يجد فيها من الأحياء شيئاً برغم ازدياد مرونة الهواء. وأعاد التجربة فالتجربة بتلك المثابرة التي عرفناها عن (لوفن هوك)، وكسر قبابات وكب المرق على صدر قميصه ووسخ يديه، ولكنه لم يخرج على غير تلك النتيجة التي سلفت

- 5 - انتصر اسبلنزاني فصاح بتجاربه ليسمع أوروبا، فتردد صداه شرقاً وغرباً، وسمعه نيدم وبيفون فجلسا على أنقاض نظريتهما البالية ينعيان أطلالها في كآبة ظاهرة وحزن باد.

وما كان لهما مندوحة من هذا، وقد أفسدها عليهما هذا الطلياني بحقيقة واضحة بسيطة. فلما اطمأن على الذي كان، جلس يكتب. وبمقدار براعته في المعمل كان بارعاً في المكتب، وعلى حسن جلاده بالقباب والعدس، كان يحسن الجلاد بالقرطاس والقلم، على شريطة أن يكون قد اطمأن إلى أن حقائقه العلمية قد سبقت فغلبت في الصراع خصيمه، وهذا ما كان، فهو في هذا الوقت كان قد اطمأن إلى انصراع نيدم، وإلى ضياع نظريته الفكهة التي تنشئ الشيء من لا شيء.

وكان اطمأن إلى أن الحيوانات جميعاً - حتى تلك الحيوانات الصغيرة - لا تأتي إلا من حيوانات مثلها عاشت من قبلها، وإلى أن هذه المكروبات الصغيرة تظل طيلة حياتها مكروبات من النوع الذي كانته آباؤها، فإذا هي أنتجت كان نتاجها من جنسها؛ كذلك الحمار في حياته لا يستحيل جملاً، وهو لا يأتي إلا عن حمار، فإذا ولد فإنما يلد حماراً

وصاح اسبلنزانى يقول: (واختصاراً قد ثبت أن نيدم مخطئ، وقد أثبت فوق هذا أن في علم الأحياء نظاماً وقانوناً، كما أن في علم الأفلاك قانون ونظاماً) ثم أخذ يصف ما تكون حال هذا العلم لو أن نيدم لم يجد من يراقبه ويحاسبه، إذن لعشنا في اختبال وارتياع من

نزق هذه (القوة النباتية) المتقلبة الهوجاء تلك القوة التي إن هي شاءت أخرجت من الشيء ضفدعة، وإن هي شاءت أخرجت منه كلباً؛ أو هي تخرج منه اليوم فيلاً، وغداً عنكبوتاً؛ أو تخرج منه في الصباح حوتاً سابحاً، وفي الظهر بقرة حلوباً، وفي المساء إنساناً ناطقاً

قضى على نيدم، وقضى على قوته النباتية، وأصبح الإنسان يستمرئ العيش، ويستنشق الهواء في أمان وسلام، فلا تروعه تلك القوة الرهيبة اللعينة التي كان يتخيلها مخبوءة في هذا الركن ووراء ذلك الحائط تنتهز الفرصة لتحيله فيلاً أو تخلق منه غولاً وسرى اسماسبلنزانى في جامعات أوروبا يسطع كالماس، ويتألق كالنجم. وأيقنت جماعاتها العلمية بأنه عالم العصر الأوحد وكتبإليه فريدريك الأكبر طويلة، وبيمينه أمضى براءه تعيينه عضواً في أكاديمية برلين. وماريا تريزا النمسا وعدوة فريدريك اللدودة، نافست هذا الملك العظيم في تكريم هذا العالم الكبير، فنفسته، وذلك أنها عرضت عليه أن يكون أستاذاً في جامعة بافيا العتيقة بلمباردي إليه رسلها من عظام مستشاريها فجاءوه في حفل ضخم، وموكب فخم، مثقلين بكتب ملكية، وأختام امبراطورية، يتوسلون إليه في قبول المنصب عسى أن تجد جامعتهم فيه منقذها من السوء الذي هي فيه، ورافعها من الدرك الذي هبطت إليه. وجرت بينه وبينهم مناقشات، وجرت مباحثات ومساومات، في الأجر الذي يتقاضاه اسبلنزانى، فقد كان دائماً يحسن جمع المال كلما أمكنته الفرصة. وانتهت تلك الأحاديث بقبوله أستاذية التاريخ الطبيعي بالجامعة، وبتنصيبه أميناً لمتحف التاريخ الطبيعي في بافيا كذلك وذهب إلى متحف بافيا فوجده خاوياً خالياً. فشمر عن ساعده، وأخذ يحاضر في كل ما هب ودب، ويلقى دروساً في الجمهور يضمنها تجارب كبيرة هائلة يجريها على سمعهم وأبصارهم فهالت

الناس وراعتهم، لأن النجاح كان يأتيها دائماً من حذق يديه، وأراد أن يملأ متحفه الخالي فأرسل إلى هنا وإلى هناك في طلب مجموعات من حيوانات عجيبة ونباتات غريبة وطيور لا يعرفها القوم. وذهب هو بنفسه إلى الجبال فتسلقها على خطورة مرتقاها، ورجع منها بركائز كثيرة وخامات غالية. وذهب إلى البحار يصطاد قروشها المفترسة، وإلى الغاب يقتنص من ذوات الريش كل ذات لون بهيج. ذهب كل مذهب ليس من اليسير تحقيقه، وضرب كل مضرب ليس من الهين تصديقه، وكل هذا في سبيل الجمع لمتحفه، وفي سبيل التخفف من ذلك النشاط الجم وتلك الطاقة الصخابة التي امتلأ بها جلده

فخرجت به عما وسم العرف به العلماء من طمأنينة وهدوء

وفي الفترات التي تخللت هذا التجميع هذا التدريس، كان ينفلت إلى معمله بأمراقه ومجاهره فيغلقه على نفسه، ويجري فيه التجارب الطويلة ليزيد في إثبات أن الأحياء الصغيرة تنصاع لقوانين الطبيعة انصياع الخيل والفيلة والرجال لها. ووضع قطرات من أحسيته وهي تموج بالمكروب على قطع من الزجاج المنبسط، ونفخ فيها من دخان تبغه، ثم أسرع فنظر إليها بعدسته، ثم ضحك ملء فيه عندما رآها تتهارب لتتقى أثر دخانه، وأطلق عليها شرراً كهربائياً، وعجب لما رآها تطيش وتميد، ثم تتمطى وتموت سريعاً

قال اسبلنزانى: (إن بذور هذه الأخبار الدقيقة أو بيضها قد يختلف عن بيض الدجاج أو بيض الضفدع أو بيض السمك، وهذه الأحياء نفسها قد تصمد للماء الغالي في قباباتي المختومة، ولكن عدا هذا فهي يقيناً لا تختلف عن سائر الحيوانات). ولم يكد أن ينطق بهذا اليقين حتى عاد يسترد ما انفلت به من أنفاسه

فذات يوم وقد انفرد في معمله قال لنفسه: (كل حيوان على ظهر هذه الأرض لا بد له من الهواء ليحيا، وإذن فلأتبين حيوانية هذه الأحياء الصغيرة فأضعها في فراغ خلو من الهواء وأرقبها وهي تموت). وببراعة بينة مط بالنار من أنبوب الزجاج السميك أنبوباً شعرياً رفيعاً كما كان يصنع (لوفن هوك) وغمس أنبوبة منها في مرق يعج بتلك الأحياء، فصعد فيها منه شيء. وأساح أحد طرفيها في النار فسده، ووصل الطرف الآخر المفتوح بمضخة قوية لتفريغ الهواء، وشغلها، ولصق عدسته بجدار أنبوبة الزجاج الرفيع، وأخذ يصوب بصره إلى تلك الأذرع الدقيقة التي منحها الله لتلك الأحياء لتجدف بها في الماء، وضل يرقب من ساعة لأخرى عله يجد في حركتها المنتظمة الهادئة ميدانا وطيشانا، وأخذ يتربص الفناء بتلك الأحياء، ولكن المضخة ظلت في دورانها، وظلت الأحياء في جريانها وروغانها متناسية صاحبنا العالم ومضخته البديعة، متجاهلة هذا الهواء الذي يقول بلزومه لحياة الأحياء. وعاشت أياماً. وعاشت أسابيع. وأعاد اسبلنزانى تجربته المرة بعد المرة. هذا غريب!. هذا محال. لا يعيش حي بلا هواء، كيف تتنفس هذه الأحياء. وكتب إلى صديقه (بونيت) مستغرباً: -

إن طبيعة هذه الحيوانات مدهشة. فإنها تعيش في الفراغ مثل عيشها في الهواء،) وتنشط في هذا نشاطها في ذلك، فهي تعلو في السائل ثم تهبط، وهي تظل تتكاثر فيه أياماً. ألا ترى في هذا عجباً! ألم نقل دائماً أنه ما من حي يستطيع العيش من دون هذا الهواء)

كان اسبلنزانى معجباً بقوة خياله، معجباً بسرعة خاطره، وزاد إعجاباً بنفسه، وزاده غروراً إعجاب طلبته، وملق الأوانس والغواني، وإطراء الأساتذة العلماء، وتقريب الملوك الفاتحين. ولكنه كان إلى جانب خياله يتعشق التجربة، بل هو يقضى حقوق التجربة أولاً ثم يخال بعد ذلك، فان هي عارضت خاطرة بديعة من خياله الخصيب فسرعان ما كان يقر بالحق، وينزع عن خواطره مهما بلغت من الإبداع

وفي هذه الأثناء كان هذا الرجل الأمين، الغالي في أمانته في كل ما يتعلق بتجاربه، هذا الرجل الذي كان لا يخط قلمه إلا الحق الذي يجده بين روائحه الكريهة وأبخرته السامة وأدوات معمله اللامعة، هذا العالم الجليل الأمين، نعم أعيد فأقول الأمين، كان يتدنى إلى الحيلة الخسيسة ليزيد مرتبه في جامعة بافيا. هذا الرجل الشديد، لاعب الكرة، الكشاف، متسلق الجبال، يأتي إلى عاصمة النمسا متخاذلاً متواعكاً متأوهاًمتوجعاً، يشكو إلى رجال الحكم فيها سوء صحته، ويقول إن ضباب بافيا وأبخرتها

تكاد تقتله. وأراد الإمبراطور أن يستبقيه فزاد أجره وضاعف إجازاته. وتحدث اسبلنزانى عن هذه الواقعة فضحك وسماها في خبث مداورة سياسية. هذا الرجل كان يصل إلى الغاية التي يريد فلا يقف شيء في سبيله. يريد الحقيقة فينالها بالتجربة البارعة والملاحظة القريبة والصبر المضني، ويريد المال والترقي فيناله بالعمل الشاق وأحياناً بالحيلة والكذب، ويريد أن يتقى ظلم الكنيسة واستبدادها فينال ذلك بدخوله قسيساً فيها

ولما كبر وطالت به السنون تشهى إلى تجارب غير تجارب معلمه، تجارب صخابة عنيفة يطلق فيها القياد لنفسه وحسه، فاعتزم أن يزور موقع طروادة القديمة لأن قصتها كانت تهزه هزاً؛ واعتزم أن يزور الشرق بحريمه وأرقائه وخصيانه، فقد كان يعتبر هذه الأمور جميعاً جزءاً من التاريخ الطبيعي كوطاويطه وضفادعه والحيوانات الصغيرة التي بنقيع بذوره. وشغل الشفاعات، وأعمل المحسوبية، واتصل ورجا، حتى أعطاه الإمبراطور إجازة عام، وأعطاه نفقة السفر إلى القسطنطينية، كل ذلك لاستعادة صحته واسترداد عافيته، وعلم الله ما كان أحسن صحته وأتم عافيته وقام اسبلنزانى فاختزن فباباته، وأغلق معمله، وودع

تلاميذه وداعاً حاراً استطاع أن يذري فيه ما تيسر من الدمع. وركب البحر الأبيض فاعتوره دواره وآذاه إيذاء شديداً، وارتطمت سفينته بالصخر وتحطمت، ولكنه استطاع أن ينجو وأن ينجى ما كان قد جمعه من بعض جزائر البحر، وجاء السلطان فأولم له وسقاه وأكرم وفادته، وأذن له أطباء السراي في دراسة عادات السراري الجميلة. . . . . وبعد كل هذا قال للأتراك، وهو الرجل الأوربي الطيب - رجل القرن الثامن عشر - قال لهم إنه يعجب بكرمهم، ويعجب بعماراتهم، وما تضمنته من الفن الجميل، ولكنه يمقت استرقاقهم للجواري والعبيد، ويمقت استسلامهم للأقدار والأقسام. فكنت تخاله يقول لصديقه الشرقي، والشرقي رجل جامد، تقول حوله الدنيا وهو قاعد، وتجري عليه الأيام وهو مركوم، وتنبو عنه الحوادث وهو ملموم، كنت تخاله يقول له: (نحن الغربيين سنفتح بعلمنا الجديد هذا من الأمور مالا يفتح، ونجتاز به مالا يرجى اجتيازه، وسنمحو عن الإنسان وبني الإنسان هذا العذاب الأبدي والشقاء السرمدي الذي يئست الدهور من محوه). كان اسبلتزانى يؤمن بالله، ويؤمن بقدرته وجبروته، ولكنه كان بحاثا نقاباً طلاباً للحقائق فكانت تغلبه غيرة الباحث وروح المنقب على كل ما يقوله، وتسيطر على كل ما يفكر فيه، حتى ينسى الله، وحتى ليعتذر عنه آنا فيسميه الطبيعة، وآناء أخرى فيسميه المجهول، وحتى دفعته إلى أن ينصب نفسه شبه وكيل أول لله، يفتتح وإياه مجاهل هذه الطبيعة الغامضة ويكشف أسرارها

وبعد أشهر عديدة قضاها في الشرق عاد أدراجه، لا عن طريق البحر هذه المرة، بل عن طريق البلقان، وأنفذت معه الحكومات من الجند أصوبهم رماية، وأولم له أشراف البلغار وأراء الأفلاق. وأخيراً دخل فينا عاصمة الإمبراطورية وذهب إلى الإمبراطور يوسف الثاني، صاحب نعمته وراعيه، ليقضي واجب الشكر ويقدم فرائض الاحترام.

وكانت هذه الساعة أفحم ساعات حياته، وأملؤها بالمجد، ذلك المجد الذي يعطيه الملوك والأمراء. وأسكرته خمرة تلك الساعة، وذهب دبيبها إلى رأسه، ومشت سورتها إلى أعماق نفسه، فكنت تسمعه يقول: (ما أحلى تحقيق الأحلام). ولكن . . . .

(يتبع)

أحمد زكي

إلى الأستاذ مصطفى صادق الرافعي

-

رؤيا في السماء

بقلم الأديب فليكس فارس

إنك تتناول أدق المباحث الاجتماعية التي شغلت وما زالت تشغل المفكرين في كل عصر وفي كل بلاد، تتناولها وتخوض غمارها معتكفاً على موضع السر في ثقافتك العربية، مستنيراً بأضواء الكتاب الحق وحكمة من اهتدوا قبلك في هذا الشرق النير، فكانت عبادتهم فلسفة، وكانت صلواتهم استغراقاً وتفكيراً كثير من مجددي الإنشاء في هذا الزمان ينحرفون عن ثقافتهم وغرائزهم القومية، فينتحلون مذاهب كتاب الغرب وأساليبهم، أما أنت فمن الفئة القليلة الآخذة بروح الشرق لأحياء الشرق، النافخة في

الأحفاد أرواح أجدادهم

قرأت لك في منارة العرب الوهاجة، في (الرسالة)، ما تتحف به العالم العربي من طرائف وبدائع، فأيقنت أنك من الكتاب العالميين الذي يستخدمون آياتهم من الألهام، ويستجلون الحقائق من قلب الحياة الخفاق، وما أقل من ينحنون على أنفسهم في هذه البلاد حين يكتبون! وما أكثر من يستطبعون الرواسم وينقلون مقلدين مشوهين!

بين ما نشرته لك (الرسالة) قطعة (رؤيا في السماء) وقفت عندها مأخوذاً بروعتها، فأردت أن أنقلها إلى اللغة الفرنسية لنشرها في مجلة أدبية في باريس، وقد ترجمتها فجاءت بما أبقيت لها من أسلوبك الفخم دليلاً على استقلال لغة العرب عن كل هذه الأساليب التي ينتحيها أكثر كتابنا مأخوذة عن الأسلوب الغربي، وعلى تفرد بيانها بهذا الإيجاز المعجز وفيه سر سحرها وبهائها

إن في مقالك من الدفاع عن حق الحياة وواجبات الحياة ما يعزز الوحي الذي أنزل على عيسى ومحمد (عليهما السلام) تحت سماء الشرق، فلم ينفذ الغربيون إلى كنهه في مبادئ المسيحية إذ ذهبوا منها في مسألة التبتل مذهباً أتى به الحواري بولس متأثراً بفلسفة الرومان وضائقة أزمنة الاضطهاد، لذلك ترى الأمم الغربية عندما تقف واجفة من تناقص النسل تهب إلى معالجة الأخطار المحدقة بها متوسلة بنظريات الكفاح والتفوق على الأمم المجاورة، فهي ترمي طغمات الأطفال فيالق للجهاد في ساحات الحروب من أجل المال، وكتلاً من لحم تعصرها الآلات عصراً فتتدفق بدمائها رحيقاً تتجرعه المدنية سماً زعافاً

إن الغربيين ليفوتهم أن يحاربوا أعداء الأسرة والنسل بالمبادئ الروحية تتناول ما وراء هذه الحياة. وما أذكر مما قرأت لكتاب الغرب انهم شعروا بالأبوة كما شعرت بها أنت مخترقة حجاب الموت لتتجلى عند هدفها الأسمى في عالم الخلود

إن الأدب الغربي يقف بالأبوة عند نهاية الشطر الفاني من الحياة، فهو يرى الأرحام تدفع بالأجنة للقبور لا للأبد، لذلك أردت ألا يفوته ما أتيت به في مقالك الرائع من دعوة هي أقوى ما يتوسل به داع إلى حق الله في تناسل عبادة. وقد ترجمت هذا المقال لا مباهاة بروح الشرق العربية التي تهب من كل سطر فيه فحسب، بل لأنشر أيضاً في الغرب ما استوحته عبقريتك الشرقية من مبادئ الهداية الخالدة

إن هذا الحديث الذي أنطقت به أبا خالد وشيخه أبا ربيعة، لخير ما ابتكرته الآداب العالمية في هذا المطلب، وهذه الرؤى التي تقبض على الروح وترفعها قسراً إلى عالم الخفاء لتبسط من الحق أمام المتطلعين إلى ما وراء المادة ما يشعرون به في قرارة نفوسهم وينكرها عليهم عقلهم المنتبه المحلل الغارق في لجج الزائلات من قوة ومال ودول وجنود وحروب

غير أنني قبل أن أعلق على مقالك بما لا أرى بداً من إيراده بالفرنسية، أجدني مضطراً لإيضاح وجيز لا أراك تضن به، فان في ختام مقالك ما يفسح للفكر مجالاً للذهاب مذاهب تختلف اختلافاً بيناً عند النتيجة التي ترمي إليها

قلت: إن أبا ربيعة وقف في آخر حلمه تمر به طغمة الخالدين وتلقى إليه بكلمة (المشئوم) حتى مر غلام هو آخرهم فقال له: (كنا نرفع عملك في أعمال المجاهدين في سبيل الله، ثم ماتت امرأتك وتحزنت على ما فاتك من القيام بحقها، فرفعنا عملك درجة أخرى، ثم أمرنا الليلة أن نضع عملك مع الخالفين الذين فروا وجبنوا)

فهل لك أيها الأستاذ الكبير أن تأتينا بإيضاح عما رآه الحق تخلفاً وجبنا في أبي ربيعة. فهل استحق هذا الشيخ نعته بالمشئوم لأنه، وقد استهوته عظة رفيقه، إلى على نفسه أن (يحول المرأة التي كانت في قلبه إلى صلاة) فأراد قتل تذكارها بالوفاء لله دون الوفاء لها في قبرها. أم كان ذلك لأنه قرر التبتل بعدها فلا يأخذ من بنات حواء من تقوم مقامها

إن من ينظر إلى حديث الشيخين ويأخذ بما ورد في القصة وفي ختامها ليقف مخيراً محتاراً بين السببين، وليس غير الأستاذ الكبير من يزيل هذا الإبهام فيأتي بمقال عن مسألة

لها مكانها بين العقد الاجتماعية، فيقول لنا ما إذا كان المثل الأعلى في العلاقة الزوجية محبة الشخصية في الأنوثة أم محبة الأنوثة، في الشخصية

إسكندرية

فليكس فارس
رئيس قسم الترجمة في البلدية
الأمير خسرو
الشاعر الهندي الكبير
للسيد أبي النصر أحمد الحسيني الهندي

إن اتصال الشعر دائماً هو بالماضي وبالحال، فان اتصل بالمستقبل فذلك بواسطة الحاضر. فما يقدم لنا الشعر إما من قبل (كان) أو (يكون). ولكنه يجمع ويرتب الحقيقة من جديد. لذلك حينما يسعى لا خراج فكرة من تلبك الأمور الواقعية وتنافرها ونقائصها، يميل بطريق راهن إلى ما لم يجمع ولم يرتب. فالشاعر لا يمثل الواقع كما هو، بل يخلقه من جديد بقوة خياله. لذلك ليس الشعر هو التمثيل البحت للحقيقة، بل الخيال دائماً يكون أعظم جزء في أساسه. هذا ما يشرحه لنا شعر خسرو في البيتين الآتيين قالهما في مدح حاتم خان قال:

قلت للبحر أنت كريم مثل خان
فأجاب بصوت مرتجف لا! لا!
إن أمواجي الشحيحة تلقى عشباً لا قيمة له
ولكن حاتماً يبعثر الجواهر في فخره الكريم

إن الشاعر يجد في سعة الطبيعة مستودعاً كبيراً للأشباح والصور التي تعبر عن أدق المراتب للفكر الإنساني وعواطفه. ففي هذا المستودع تطوف روحه طليقة، وفيه تدبر وتفكر حتى تنتج. فالشاعر يشعر بكل مظهر حوله كأنه رمز لشيء يتعلق بالعالم الآخر، وكأن كل شيء مؤثر في حواسه شبيه بالغائب المحجوب، وكأن الطبيعة بأسرها محبوكة كالأعضاء بالمشابهة والمماثلة بما هو خفي فيها، وكأن كل وجود مستقل متصل في جميع فروعه بغيره بواسطة رمز دقيق. وهذا هو الفرق بين العلم والشعر، فان العالم يقسم ويحلل والشاعر يجمع ويركب. فأنت ترى كيف أن خسرو جمع بين رفع الحجاب عن وجه محبوبه، وطلوع الشمس، وصلاة الصبح، في البيت الآتي وأوجد بينها الاتصال الشعري الدقيق الجميل قال:

برداشت طره أزرخ جون روزرفن كرد ... برمن نماز صبح بوقت نماز شام
كشف (الحبيب) القناع عن وجهه عند ما دفن النهار، (فأوجب) على صلاة الصبح في وقت الليل

إن أهم ناحية من نواحي الشعر هي الحب والغرام، وقد قالوا إن من حسن الشعر وجماله أن يكون له اتصال بنفسه الشاعر، وأن يكون عليه مسحة من تجاربه النفسية. وبخاصة في هذه الناحية، فانه إذا تجرد عن ذلك أصبح تصنعاً وخداعاً. والشعر في هذه الناحية يصور تصويراً شعرياً دقيقاً ما بين قلب المحب والمحبوب من الأثر والتأثر، والجذب والانجذاب، والعزم والانثناء، والصبر والجزع، والرضا والسخط، والهجر والوصال. وشاعرنا العاشق قد صوره في غير واحد من الديوان وعبر عن حبه بآلاف من الأبيات. نقتطف بعضها هنا قال:

دلم به ناوك جشمت هزار وزن شد ... زصورت توبهر روزن آفتابى هست
شب من أزجه سبب تيره ترشود هرروز ... جوازرخ توبهر خانه ما هتابى هست

(إن سهم عينيك قد ثقب قلبي آلافا من الثقوب، وفي كل ثقب شمس محياك طالعة.)
(لم تظلم ليلى كل يوم ما دام قمر وجهك طالعا في كل بيت.)

وقال:

عاشق شدم ومحرم ابن كارنه دارم ... فريادكه غم دارم وغمخورانه دارم
يك سينه برار قصه هجراست وليكن ... ازتنكد لي طاقت كفتارنه دارم

(إنني عشقت وليس من يعرف عملي هذا. وا حسرتاه! عندي ألم، وليس لي رفيق في الألم)
(إن صدري مملوء بحكاية هجر (المحبوب)، ولكني من ضيق صدري لا أقدر أن أعبر عنها.)

وقال:

جندمى برسى كه خسرو راكه كشت ... غمزه توجشم توا بروي تو
إلى متى تسألين من قتل خسرو؟ ... ما قتله إلا لحظك وعينك وحاجبك

وقال:
بجان رسيدم وازدل خبر نمي يابم ... وزآنكه برد دلم نيزا ثرنمى يابم
وقال:
بهارآن وكلها شكفت ليك جه سود ... كه نوى توز نسيم سحر نمى يابم
(دنوت من الموت وليس لدي خبر عن قلبي، ولا أجد أثر من خطفه.)
جاء الربيع وتفتحت الأزهار، ولكن لا فائدة لي منه، لأني لا أجد ريحك في نسيم الصبح)
وقال:
مردمان درمن وبهوشى من حيرانند ... من درآ نكس كه ترابيند وحيران نشود
(يعجب الناس منى ومن فقدان صوابي، وأنا أعجب ممن يراك ولا يفقد الصواب)
وصف أرسطو الشعر أنه رمز إلهامه أو محاكاة عمل ذلك الإلهام. وذهب دانتى إلى أن عمله هذا أيضاً رمزي، فالكلام الشعري الذي يقوله الشاعر لا يمثل ذلك العمل في شكل وقوام فني خاص، بل يقدم فيه المعنى الرمزي له. فأنت ترى خسرو كيف رمز إلى شدةنعاناته في الحب في البيت الآتي حين أشار إلى أنه عرف قدر الليل بألم الأرق، ولكنه لم يقدر أن يقيس ليلة الهجر بألم الهجر العظيم حتى بعد معرفة الليل، فان مقياس إدراك الأسباب الآلام هي الآلام قال:
ازين دو ديده بي خراب شب شناس شدم، ... ولي قياس شب هجر درنمى يابم)
(إني عرفت قدر الليل بعيني هذه المؤرقة، ولكني لم أجد قياساً لليلة الهجر)
قال شيلى: إن الشعر ليس له أثر أخلاقي بغير تعيين ناحية خاصة من نواحي الأخلاق. لأن حقيقة الأخلاق عنده هي الحياة الفكرية في أعلى سموها وأبهى جمالها. ومظهر حيوية الفكر الخيال الذي يغذيه الشعر. ففي نعيش في العالم الذي يصدر منه شعورنا بغاية الأشياء وبالخلق العملي فالأبيات الآتية لخسرو تبين لك ما ذهب إليه شيلي قال ما ترجمته:
ما دامالحبيب معنا فلم نستعجل رؤيته؟ وما دام يوسف في مصر قلبنا، فلم يجري نهر النيل من عيوننا؟)
طلبت منه قتلى بلحظة القتال فقال، ما دام الصياد في كمين فلماذا يستعجل الصيد؟)
إن سالكي طريق العشق لا يبالون بالراحة والألم، إن عشاق الكعبة لا يسألون عن الطريق والميل)
السيد أبو النصر أحمد الحسيني الهندي
موكب آذار
الربيع
لشاعر الشباب السوري أنور العطار
عضو المجمع الأدبي
كل شيء هنا يغنى ويحيا ... نغماً ممتعاً وشدواً عجيباً
يا حبِيبي أفِق فقَد ضَحِك الرَّوْ - ضُ وَأبدَى جَمَالَه المَحْجُوباَ
واسْتَعادَ الوَادِي الأَنيسُ سَناَهُ ... وَبَنى الّطيْرُ عُشَّهُ الَخْرُوباَ
طَرِبَ الْقَلْبُ فانْتَشى وَتَغنَّى ... وَمِنَ الحبَّ أَنْ أعِيشَ طَرُوبا
وأناَ الشاعِرُ الذي يَغْمرُ الأَرْ ... وَاحَ ضِحْكا وَما يَرِيمُ كئِيَبَا
في فؤادي اللَّهيف دَا قدِ اسْتعَ ... صَى وَجُرحُ يِمضني تَعْذِيبَا
يا حبيبي دُنْياكَ تَطْفحُ بالحُسن ... فَخُذْ لِلفُؤادِ منها نَصِيبا
هاتِ نِايَ الهوَى وَقمْ نملأ الأك ... وانَ منْ سكْرةِ الغِناَءِ ضُروبا
لا تُرَعْ فالحياةُ يَوْم وَيَمضي ... ليس يُرْجى لِطَيْفِهِ أَنْ يَوويَا
رَفْرَفَ الرَّوضُ وَازْدَهَى وَتَجلَّى ... رَائعاً فِتنْةَ العيُون قشِيباً
هو ذَا موكِب لآذَارَ حُلْوٌ ... يَتَمشَّى على السُّهولِ لَعوبا
مَلأ الأرضَ وَالسمَواتِ عطراً ... وَنفى الهَمَّ وَالضنَّى والشّحُوبا
وعلى مِعطفِ المُروجِ تَراَءتْ ... قُبَلٌ لِلرَّبيعِ تَنْفَحُ طِيباً
اليَوَاقِيتُ في النَّواظِرِ ذابت ... وجرى السَّحْرُ بالضَياءِ مشُوبا
جدوَل يُترِعُ القُلُوبَ غِناءً ... ظَلَّ منْ موْجِهِ السَّنى سَكُوبا

ألمسُ النور في تَلاميعِهِ الزه ... رِ وأشْتَمُّ رَوْحَهُ المحْبُوبا
وأرى العِطْرَ وهو هَيمْانُ في الدَّوْ ... حِ يُنَاجي في غُصنِه العَندَليبا
وَأُحسُّ الحياةَ تَرْكُضُ في العُش ... بِ وَتسْرِي بين الحقُول دَبيبا
نَفَسٌ هَامِسٌ وَآخَر شادٍ ... وَرؤَى همَّ سِحرهَا أن يُجيباَ
كلُّ شيءٍ هُنا يُغنَّى وَيَحيا ... نغماً ممتعاً وَشدواً عَجِيباً
هَا هُنا تَسمَعُ الأناَشِيد أذْني ... وتَرى العْين في كَراها الغُيوبا
ها هُنا يَرْكَنُ المُحِبُّ إلى الأُن ... سِ وَيُغفِي الفُؤادُ إلا وحِيباَ
يا حبيبي أفِقْ فَهاذَاك طَير ال ... حُبِّ قد أسكَرَ الرُّبا تَطْرِيبا
تتَرَاءى السموات ألحا ... ظاً وَتَبدُو الأرْض الفضَاء قلُوبا
يا حبيبي هنا الهَوى فاغْتَنِمْهُ ... لستَ عنْ جُرحهِ العَميقِ غَريبا
لَكَ منْ هَذه الدَّغَالِ أليفٌ ... يَتَصَبَّاكَ فاَتِناً وَحبيباَ
ورياضٍ فيها العِشاشُ تُغنَّي ... فيذُوبُ الغِناَءُ خمراً صبيباً
إن هذا الجَمالَ يا قلب نَهبٌ ... فابْتَدِرْ نَخْطفِ السَّناَ المَنْهوبا
إحىَ لِلنُّورِ، لِلمسرَّةِ، للشّدْ ... وِ، وَخلَّ الأسى وَخلَّ النَّحِيبا
دمشق
أنور العطار
زهرة آذار
بقلم أمجد الطرابلسي
(مهداة إلى صديقي أنور العطار)
يا زهدةً بعدَ طويلِ الأسى ... جادتْ بها أفراحُ آذارِ
حُيّيتِ بَلْ قُدسْتِ من زخرةٍ ... رَفَّتْ رَفيفَ الحُلُمِ الساري
حُيَيتِ من مَزْهوَّةٍ كالصبا ... مُحْمَرَّةٍ كاللَّهبِ الواري
طلعتِ فانجابتْ غُيومُ الأسى ... مِن بعدِ أرياحٍ وأمطارِ
بَسَمتِ للرَّوضِ وَحَيَّيْتِهِ ... تحيَّةَ الغائبِ للدارِ
فَضَجَّ بشراً واكتسى حُلةً ... بيضاء من نورٍ ونَوّارِ
وانبعثَ الوُرْقُ بأفيائِهِ ... تشدو لآصال وأسحارِ
ودَغْدَغتْ أفنانَه نَسمةٌ ... تَخْطِرُ بين الآس والغارِ
تالله ما أدري أيا زهرتي ... ما هِجْتِ في قلبي وأشعاري
تركتِ قلبي أيَّ مستعبرٍ ... ينزو، ودمعي أيَّ مدرارِ
لولا هوىً أجَّجتِ في خافقي ... ما صغتُ يوماً فيه أشعاري
أحييتِ في قَلْبيَ مَيْت المنى ... وهِجْتِ أحلامي وأسراري
أأنت من نارِ الحشا جمرة؟ ... أم أنتِ مَلآى بدمي الجاري . .!
أنَرْتِ هذا الرَّوضَ يا زَهْرتي ... كما أنارَ الحبُّ أغْواري
ألم يكُنْ قَلبي قُبَيْل الهوى ... يا زَهرتي، كالهيكَلِ العاري
كهفاً يَئِنُّ الحُزْنُ في جَوفِهِ ... أنينَ أرْياحٍ وأوتارِ
مستوحِشاً قفراً سوى عاصف ... للشكِّ، يلهو فيهِ، موّارِ
كهفَ مُنى لم يُبْق منها الأسى ... غير خيالاتٍ وآثارِ
حتى إذا ما حلَّ فيهِ الهوى ... من بَعدِ أحزانٍ وأكدارِ
تَفَتَّحَتْ أحلامُهُ بَهْجَةً ... تَفَتُّحَ الزهرِ لآذارِ
إيه أماني القلبِ ماذا تُرى ... يُخفى لَكُنَّ الزمنُ الضاري؟
أخشى عليكُنَّ غداً حالكاً ... يجري بأسرارٍ وأقدارِ
عَوَّدَني دهريَ خُلْفَ المُنى ... وهدمَ آمالي وأوطاري
هذا صبايَ الغضُّ، والهْفَتا، ... كمْ مَأملٍ لي فيهِ مُنهارِ
يا زهرةً بعدَ طويلِ الأسى ... جادتْ بها أفراح آذارِ
أيَّ المُنى في القلبِ أيقَظتها ... مَعسولةً، بل أيّ تَذْكارِ؟
دمشق
أمجد الطرابلسي
القصص
من أساطير الإغريق

برسيوس وأندروميدا
والجرجون الثلاثة
للأستاذ دريني خشبه

في إحدى مدى الشاطئ الأغريقي، كانت تعيش أميرة جميلة تدعى (داناي)، هي وابنها الوحيد الجميل برسيوس، الذي كتب عليه أن يحرم من صدر والده الحنون، ذلك الوالد الذي طوحت به أسفاره، فشط مزاره، ولم يعد أحد يعرف أين انتهى قراره

ولقد كان هذا الوالد - فيما يظهر - على جانب عظيم من البأس وقوة الجانب، حتى لقد فرح أهل المدينة لبعده فرحاً شديداً؛ ولخوفهم من أن ينشأ طفله برسيوس على وتيرته، تآمروا فيما بينهم على نفيه هو وأمه من جزيرتهم في زورق صغير يدفعون به إلى اليم، والأمواج المتلاطمة كفيلة، ثمة، بإجراء حكمها فيهما. .

يا للوحوش! لقد أنفذ الأشقياء تدبيرهم؛ وتناوحت الأمواج حول الزورق تقذف به ها هنا وهاهنا، والأم المسكينة تغالب أحزانها وتنسى مخاوفها، فتغني لطفلها الراقد في حضنها، وتدلله كي ينام، وكي يكون بنجوة من فزع هذا البحر المصطخب

وبعد أن كان الموت المحقق قاب قوسين من هاتين الفريستين، وبعد أن كانت كل موجة تشق للزروق قبراً في أعماق الماء، شاءت العناية أن تسخر موجة هائلة تدفع به، في هوادة ورفق، إلى ساحل جزيرة نائية في وسط المحيط. وهناك، نزلت الأم الموهونة متهالكة على نفسها، حاملة وديعتها البريئة، شاكية إلى الآلهة صنع الإنسان بالإنسان، ولمحت في الأفق قرية متطامنة، فيممت شطرها، وما فتئت تتعثر في خطاها حتى بلغتها والشمس تتوارى بالحجاب

ورحب الناس بالضيفين البائسين، لأن دينهم كان يأمرهم بإيواء أبناء السبيل، وإكرام الغرباء واللاجئين؛ فعاشا ناعمين، وشب برسيوس سليما من الآفات، مكتنز العضلات، بادي الفتوة، موفور القوة، عذب اللسان، مشبوب الجنان، وأحبه الناس وأعجبوا به، والتف

الجميع حوله يصغون إلى أحاديثه العذاب،

وقصصه الرطاب. . . .

وتسامع الكل به، وترامت إلى ملك الجزيرة اخباره، فشغله انصراف الناس إليه، وافتتانهم به؛ وكان (قاتله الله)، غيوراً رعديداً، فآلى أن يكيد له، ويدبر حيلة يقصيه بها عن طريقه، ليطمئن على نفسه. . . . وعرشه؟

وكان في إحدى الجزر النائية ثلاثة من الجرجون الضارية، وهي أفزع ما جاء في أساطير اليونان، وكل من هذه الجرجون تنين هائل له رأس امرأة، ويدان من النحاس الأصفر الصلب، ذواتا أظافر حادة، تنفذ في أقسى المعادن وأصلبها، وليس لها شعر في رءوسها كما للنساء، بل لها، عوضاً عن الشعر، حيات وأفاع ذات رؤوس مرعبة تنفث السم الزعاف. وقد أوتيت قوة خارقة، لتستطيع إحداها أن تقصم جذع النخلة بضربة ضعيفة من ذنبها الجبار! وليست هذه الجرجون مخيفة بسمها وقوة بنيتها فحسب، بل الأدهى والأمر، هو هذا السر الدفين في عيونها؛ إذ كل من جرؤ على النظر إلى هذه العيون، يتحول في الحال إلى صنم من الحجارة لا يتحرك، ولا يعي!!

وكانت الجرجونة (مديوسا) أفظع أنواع الجرجون جميعاً، ولذا كانت أختاها الأخريان تحترمانها، وتسهران على راحتها ولكن ماذا اعتزم الملك الجبار في كل ذلك؟ لقد دبر أن يغري برسيوس بالذهاب إلى جزيرة الجرجون لقتل (مديوسا) والاياب رأسها كأحسن هدية تقدم إلى ملك. وكان هذا الرجل الخبيث يعلم تمام العلم أن مجرد محاولة الذهاب إلى جزيرة الجرجون هو ضرب من الجنون لا يقدم عليه إلا المأفونون، فان نظرة واحدة من عين مديوسا كفيلة بوضع حد لكل شيء وأرسل الملك إلى برسيوس فمثل بين يديه، وطفق يكيل له المدح جزافاً، ويبالغ في الثناء على ما ترامي إليه من أخباره، وضروب شجاعته التي يتحدث بها الجميع.

وامتلأ برسيوس، الفتى، زهواً، وشاعت في أعطافه الكبرياء، وراح هو بدوره يشكر الملك حلو ثنائه، وجميل إطرائه، فما إن أدرك الملك ما بلغ ثناؤه من قلب برسيوس الغرير، ونفسه الصغيرة، حتى أخبره بما انتدبه له؛ فقبل الفتى المسكين وهو لا يدري ما هي هذه الجرجون، ولا أين الجرجون؟

وانطلق من فوره، وأرسل الملك من حاشيته من أبلغوه خارج الأسوار، في مهرجان فخم، وموكب أنيق. ثم غربت الشمس فغلقت الأبواب، وجلس برسيوس على صخرة عظيمة مشرفة على البحر يفكر في هذه الجرجون، وينظر إلى القمر يشرق من الاثباج، فيفضض الموج، ويحور به البحر رجرجاً من لجين! ويذكر فجأة أنه لم يودع أمه، ولم يتزود منها قبلة أو دعاءً لهذا السفر الطويل. فيبكي. . . ويبكي بكاءً مراً! وتصدع قلبه حينما خيل إليه أنه قد لا يعود إليها، مع أنه عزاؤها الوحيد في هذه الحياة وانتصف الليل!

وفيما هو غرق في لجة الفكر، شرق بواكف الدمع، إذا بصوت رقيق يناديه من فوق الصخرة المقابلة: (برسيوس أيها العزيز! فيم بكاؤك؟ ولم تذرف كل هذه الدموع؟ لقد هجت الآلهة، وأحزنت أرباب الأولمب!). ونظر برسيوس ليرى من صاحب هذا الصوت الرخيم الذي يناديه، فعجب عجباً شديداً! لقد رأى مخلوقاً جميلاً مشرق الجبين، يترقرق البشر في ` وجهه، لا يعقل أن يكون بشراً! يلبس فوق هامته قلنسوة ذات أرياش وأجنحة، وفي قدميه نعلان غريبتان يتصل بكل منهما جناح كجناح البازي، وفي يده عصا سحرية تتلوى بطرفها الأعلى ثعابين وحيات!!

على أن برسيوس لم يعلم أن الذي يتحدث إليه، إن هو إلا الإله هرمز رسول الآلهة بين السموات والأر ?، الذي لا يفوقه في سرعته أحد

وبعد، فلقد قص برسيوس قصته على هرمز. وما فرغ منها، حتى قال الإله له: (بني! إنك مقدم على أمر جلل، وشأن بعيد المدى، صعب المنال. ولقد أراد الملك أهلاكك حين اختارك لهذه المهمة، لأن أحدا لا يجسر على الذهاب إلى جزيرة الجرجون إلا إذا كان أحمق أو مجنوناً! ولكن أصغ إلى! انك لا بد فائز إذا علمت بوصاياي، ولم تحد عما أشير عليك به.

وسأذهب عنك لحظة، ثم أعود إليك بآلاء من الآلة، تقرب لك النجح، وتسهل عليك كل شاق من أمرك. فانتظر).

ورقى هرمز، ثم غاب في السماء، وبهت برسيوس حين رآه يطوي الأديم الفضي، ويطرق أبواب أورانوس!

وقص هرمز قصة صاحبه على الآلهة، فرثت للفتى المسكين وتحركت في قلوبها الرحمة

العلوية، التي طالما تنهمر من السماء، لتغسل الآم الأرض: وتعاهدت أن تؤازر برسيوس، وتمده بكل ما يسهل عليه أشق أمره. فنزل بلوتو، إله الموتى، عن قلنسوته التي تخفي من يلبسها فلا يراه أحد، وتبرعت مينرفا بترسها الذي يحمي لابسه من حراب الأعداء، وهو درع ثمين من الذهب الخالص، يلمع لمعاناً شديداً، حتى ليعكس المرئيات في صفحته، كأنه السجنجل

وحمل هرمز المنحتين، وعاد بهما إلى حيث يجلس برسيوس فقدمهما إليه، وزوده بجرازه المتلوي القاطع، الذي ليس كمثله سيف ولا حسام. ومنحه نعليه المجنحتين، اللتين تسبقان به الريح، فلبسهما ثم قال له: (تلك يا برسيوس هدايا الآلهة أسبغها عليك. بيد أنه ينبغي قبل كل شيءأن تذهب معي إلى هذه الجزيرة القريبة حيث تقيم ثلاث إناث من السيكلوب ذوات العين الواحدة، فتحتال عليهن حتى تعرف منهن موضع جزيرة الجرجون، لأن أحداً من العالمين لا يدري أين موضعها بالضبط غير هؤلاء السيكلوب. سر إذن على بركة الآلهة في أثري، واحترس لنفسك، والسماء تكلؤك.)

وكم عجب برسيوس حين رآه يطير في إثر هرمز، والبحر من تحتهما تتلاطم أمواجه، ويعج عجيجه، وهما من فوقه كالعصافير المهاجرة، وحطا في الجزيرة المنشودة، بعد أن دوما فوقها طويلا. وكان ذلك بالقرب من كهف حالك، في منحدر صخرة صعبة المرتقى. وقد لمح فيه برسيوس السيكلوب الثلاث، بفضل ترس مينرفا الذي كان يعكس في صفحته كل ما في الجزيرة

إنها مخلوقات غريبة حقاً، ليس كمثلها شيء في الآفاق، شاذة في خلقها، عجيبة في تنسيق جسمها؛ وهي إناث على كل حال، يعيشن في هذه الجزيرة المعشوشبة، بعيدات عن العالم، منزويات في هذا الركن السحيق من أركان الدنيا. وأغرب ما في أجسامهن من شذوذ، أنهن ليس لهن أعين كما للناس، ولكن لهن، لثلاثتهن، عين واحدة! تركبها إحداهن لوقت معلوم، في حفرة غائرة من جبينها، حتى إذا انتهى الوقت

وجاءت نوبة السيكلوبة الأخرى، نزعت الأولى تلك العين وأعطتها للثانية، وهذه تعطيها للثالثة بدورها، وهكذا دواليك، وبوساطة تلك العين العجيبة تستطيع السيكلوب رؤية أصغر شيء في أقصى جهات العالم، من دون ما مشقة ولا عناء

وبعد أن زود هرمز صاحبه بوصايا غالية، انتحى ناحية قريبة، واختبأ بريسوس خلف شجرة باسقة؛ ولشد ما دهش إذ رأى إحدى السيكلوب تقود أختها، وفي جبينها العين العجيبة ترمق بها أصقاع العالم، وتحدث أختيها عما ترى. وبعد قيل ثار نزاع بين الأخوات على العين، كل تريد أن تأخذ نوبتها، وكل تدعى أن الدور دورها. وفيما كانت الأولى تنزع العين، وتوشك أن تعطيها للثانية، انقض برسيوس فتسلمها من السيكلوبة، دون وعي منها!! لأنها بدون العين لا تستطيع أن ترى شيئاً في العالم. وينشب نزاع شديد بين السيكلوب على العين، كل منهن تتهم أختها بأن العين معها وتدعى الإنكار، حتى وضع برسيوس حداً لتنازعهن، بان هتف بهن: (أيتها الأخوات العزيزات، لا تنازعن على عينكن، فهي في هذه اللحظة معي وبين يدي.) وانقضت السيكلوب هلعات نحو مصدر الصوت، ولكن هيهات أن يقبضن على شخص تحمله نعلا هرمز، فلقد قفز قفزة هائلة، أقصى بها نفسه عنهن، ثم قال: (أيتها الأخوات العزيزات! أنا أعلم أنكن لا تستطعن الحياة بدون العين الغالية، وأنا أعدكن بردها اليكن، ولكن بشرط واحد: ذلك أن تخبرنني عن المكان الذي تأوي إليه (مديوسا) وأخواتها الجرجون، فان لم تفعلن فلا عين لكن عندي.)

وهنا تميزت السيكلوب من الغيظ وكدن لا يجبن بشيء، لأنهن منهيات عن إذاعة أسرار العالم، ولكن إذاعة السر في هذه اللحظة أهون ألف مرة من هذا العمى المطلق، والظلام المبين يغطش حياتهن، فأخبرنه بموضع الجزيرة ومأوى الجرجون فيها، ولكي يثق مما أنبأنه به نظر في العين التي بين يديه فرأى الجزيرة، وأيقن أنهن لم يخنه؛ ثم إنه تحين الفرصة الملائمة ودفع بالعين في جبهة اقرب السيكلوب منه وغاب في الجو ميمماً شطر هرمز، حيث وجده يمرح في غيضة ناضرة فتعانقا عناقاً طويلاً، وشكره برسيوس على جزيل مساعدته، ثم افترقا على أن يبدأ برسيوس رحلته إلى جزيرة الجرجون

وكانت رحلة طويلة شاقة، برغم نعلي هرمز. فكم بحار طوى، وكم وهاد رأى، وكم ريح صرصر كافح، وكم مشقة احتمل، حتى وصل إلى جزيرة الجرجون! ولم ينس ما أوصاه به هرمز من وجوب النظر إلى أعلى دائماً حتى لا تقع عيناه على عيني إحدى الجرجون فيحور حجارة صماء. وكان يتخذ من درع مينرفا مرآة صافية يرى فيها ما تعج به الجزيرة من كهوف وزروع وغابات. ولشد ما سر سروراً لا مزيد عليه حين وجد الجرجون الثلاث

مستغرقات في سبات عميق عند مدخل كهفهن السحيق. وفي وسطهن مديوسا العاتية. تغط غطيطاً مروعاً. فاستخار الآلهة، وامتشق جراز هرم ?، وتعوذ ثم تعوذ، ثم انقض كالصاعقة، فأهوى على عنق مديوسا بضربة قاتلة، انفصل بها الرأس عن سائر الجسد. وهنالك، علا فحيح الأفاعي الباسقة في رأس مديوسا، تدمدم في الكيس الجلدي الذي ألفاها برسيوس فيه، حتى لقد استيقظ أختاها، وانطلقتا مرتاعتين في إثر الفتى، تودان لو تمسكان به، فتعتصران عظامه اعتصاراً. . .

ولكن قلنسوة بلوتو تخفيه عنهما، وتحفظه من شرهما وبينما هو يطوي الضحاضح والبحار، وبينما هو منتش بخمرة انتصاره، مفكر في اللحظة التي يلقي فيها الملك ليريه رأس مديوسا، ويحظى لديه بثمرة فوزه، بينما هو كذاك، إذا به يلمح في إحدى الجزر زحاماً شديداً، وجماهير حاشدة، متكبكبة حول صخرة ناتئة، مشرفة على البحر، وقد تدلت منها فتاة بارعة الجمال، بادية الحسن، مغلولة العنق، مربوطة الأطراف بسلاسل وأصفاد من حديد صلب. ونظر فرأى تنيناً بحرياً هائلاً يطفو فوق الماء، ويقترب من الفتاة قليلاً قليلاً، وراعه أفزع الروع تلك الصرخة الهائلة التي صرختها الفتاة فرددت الغيران والكهوف ومشارف الجبال صداها

. . .ماذا؟

. . .الفتاة مذعورة أيما ذعر، والناس من حولها ينظرون ولا يحركون ساكناً والتنين يقترب ويقترب. . .؛ ولم ينتظر برسيوس حتى يفترس الوحش تلك الفتاة المفزعة، بل استل جراز هرمز وانقض فوق ظهر التنين وأهوى على عنقه بضربات

سريعة متلاحقة غاص بها في أحشائه، ولبثا يتصارعان ساعة من الزمان كانت كلها هولاً، وكانت كلها فزعا، والناس ينظرون مشدوهين، زائغة أبصارهم، لا يصدقون ما يبصرون.

ثم انجلت المعركة عن جثة التنين الضخمة طافية فوق الماء، الذي تحول بدوره خضما من الدماء. وقفز برسيوس إلى الشاطئ، وذهب إلى الفتاة ففك أصفادها، وهدأ من روعها، وسأل الناس فقادوها إلى والدتها المسكينة المعذبة التي حبست نفسها في حجرة مظلمة، وانتظرت ثمة من ينعى إليها ابنتها

أما هذه الأم، فهي الغادة الأغريقية كاسيوبيا، المشهورة بجمالها، وحسن روائها، والتي كانت

أفتن حسان هيلاس في زمانها، ولقد امتلأت زهواً بما أضفت عليها الآلهة من قسامة، وما أسبغت عليها من وسامة، فزعمت، وهي تفاخر أترابها، أنها أجمل من عرائس البحار التي لا يدانيها في جمالها الباقي، جمال هذا البشر الفاني. فغضبت عرائس الماء، لهاذا الادعاء، وأقسمن ليعذبنان أهل الجزيرة التي فيها كاسيوبيا بهذا التنين المروع الذي شرع يغدو كل يوم إلى شواطئ الجزيرة، فيقتل ويلتهم عشرات من سكانها!

وذعر القوم، وحاروا في أمر هذا التنين، وذهبوا إلى الهيكل يقدمون قرابينهم للآلهة، ويستوحون كهنتها نبوءة تبعد عنهم شره، وتكفيهم أمره. ولقد أجيبت أدعيتهم، وتقبلت أضحيتهم؛ وأرهفت الأسماع، وشمل الهيكل هذا السكون المقدس الرهيب، وما هي إلا لحظة حتى انطلق صوت خفي من أعماق المذبح، يقول: (قدموا العذراء أندروميدا، ابنة الغانية كاسيوبيا؛ ضحية حلالاً لتنين البحر، جزاء غرورها وكبريائها

ذلك إن أردتم أن يكف التنين عنكم شره، ولا يعاودكم أذاه!) وانكفأ القوم محزونين - مروعين، لأنهم كانوا يحبون كاسيوبيا وابنتها، حباً هو العبادة. وحاروا كيف يتقدمون للأم بهذا النبأ العظيم؟!

. . .وكان لا بد من النفاذ، لإنقاذ الجزيرة وجميع سكانها

والآن، لقد أنقذ برسيوس أندروميدا الجميلة من براثن التنين، وشعر في سويدائه بعاطفة نورانية تجذبه إلى هذه الفتاة، وأحس كأن مستقبله مرتبط بمستقبلها برباط قدسي تباركه السماء وتحرسه العناية؛ فتقدم إلى والدتها يطلب إليها يد أندروميدا ووافقت الوالدة، وسعدت الفتاة بهذا البطل الشاب الذي أنقذ حياتها مرتين: مرة من هذا الوحش الضاري الذي تركه برسيوس جثة هامدة، ومرة ثانية من ذلك الشيخ الفاني الهرم الذي تقدم إليها يريدها زوجة له، وكادت أمها تقسر على الموافقة لما للشيخ في الجزيرة من صولة وجبروت، لولا المقادير التي تتابعت بعد ذلك

وأقيم مهرجان كبير، وزينات فخمة للاحتفال بالعروسين؛ فمدت الأخونة، وأعدت الأسمطة، وبدأت الموسيقى الإغريقية تعزف أشجى ألحانها، وأخذ الجميع في قصف حلو وسمر برئ وإنهم لفي كل ذلك إذا بالرجل الهرم الذي تقدم لخطبة أندروميدا من قبل، يقتحم الحفل هو وعصبة قوية من رجاله المسلحين، وإذا بالرجل يهتف ببرسيوس قائلاً: (برسيوس! لقد

اعتديت على مولى هذه الجزيرة اعتداء صارخاً بانتزاعك أندروميدا من يدي؛ وإنك إن لم تنزل عنها طواعية فسأكرهك على تركها قسراً، بعد أن تروي هذه السيوف من دمائك ودماء من يلوذ بك!. . . .) فحدجه برسيوس بنظرة ساخرة وقال: (من أنت أيها الرجل الذي يجسر على مخاطبتي بهذا الهراء؟ لقد أصبحت أندروميدا زوجي، وإن كانت من قبل خطيبتك؛ أنت من غير ريب تحلم. . . غير أني أسألك: أين وليت وجهك يوم اضطرت أمها المسكينة أن تنزل عنها قرباناً للتنين؟ لقد كان أولى بشجاعتك أنت ورجالك لو توليتم إنقاذها من الأفعوان البحري الذي أذلك وأذلهم. . . .) ومد يده إلى الكيس الذي كان به رأس مديوسا، فأخرجه وقال: (ولكن انظر إلى هذا قبل أن تقتلني.) وما كاد الرجل ينظر إلى عيني مديوسا، حتى تصلبت عضلاته، وتحجر جسمه، وظل مكانه كأنه تمثال! ودهش أصحابه لجموده، وظنوه قد سمر حيث هو، فلما لامسوه استطيرت ألبابهم، ولاذوا من الفزع بالفرار

وأخفى برسيوس رأس مديوسا، واستمر القوم في سمرهم كأن لم يحدث شيء. . . اللهم إلا هذا التمثال المنتصب في أول ردهة، والذي كان يهرف منذ لحظة، فاصبح

عبرة الزمان، وضحكة الأيام! وحان يوم الرحيل، فخرج أهل الجزيرة يودعون الزوجين، وظلت كاسيوبيا تعانق برسيوس مرة، وإندروميدا مرة أخرى، والدموع فيما بين هذه وتلك، تنهمر على خديها انهماراً. . .
والناس ينظرون. . . ويبكون
ثم حمل برسيوس عروسه، ومرق في الهواء كالسهم، والقوم من عجب يتصايحون ويهتفون
وكانت الرحلة هذه المرة، على شدتها وطولها، من أروح الرحلات إلى قلب برسيوس. وتستطيع أن تتصور القبل الحلوة تنطبع على هذين الثغرين الحبيبين، في ملكوت السماء، لتدرك أي سعادة شعرية، وأي هنيهات سحرية، فازا بها في لازورد الفضاء وبلغ مدينة الملك بعد نأى طويل، وسنين عدة، فذهب أول ما ذهب إلى منزل أمه، وناهيك بما كان من عناق، وما تبودل من تحيات. وبكت داناي المسكينة وهي تهنئ ابنها بأندروميدا، ثم أخذت تقص، ملء أحزانها، وفي فيض أشجانها ما انتابها من سوء، وما لحقها من عسف، لأنها أبت أن تكون خليلة الملك المخاتل الجبار، الذي صب عليها جام
نقمته، وأذاقها من الهوان ألواناً! فحزن برسيوس حزناً ممضاً، وهيج حتى خيف عليه، وذهب من فوره إلى قصر الملك بكل عتاده! ودخل إلى البهو الملكي بدون استئذان، وهو يضمر في القلب غصة، وفي النفس لوعة، وفي الكيس رأس مديوسا!!
وقال الملك حين لمح برسيوس: (هلا! برسيوس! لقد عدت أخيراً، وما أحسبك وفيت بما قطعت على نفسك من عهود! لعل شجاعتك التي بالغ الناس في إطرائها والثناء عليها قد واتتك في حربك مع الجرجون؟)
فأجاب برسيوس، دون أن يحيي بالتحية الملكية: (أيها الملك! لم تخاطبني هكذا ولا تتريث حتى تنظر إن كنت قد عدت إليك برأس مديوسا الرهيب؟)
فقهقه الملك، وملأ التهكم شدقية، وقال: (طبعاً ستدعى أنك قتلت مديوسا ولكن رأسها وقع منك في البحر، فالتقمه الحوت؟. . . يا للشباب المخدوع؟!)
وثارت ثائرة برسيوس، ولم يجد إلى صبر من سبيل، فحسر عن رأس مديوسا وقال: (أيها الملك. . . انظر!)
وبهت الملك مكانه حين وقع بصره على عيني مديوسا؛ ثم تحول في لمحة إلى تمثال من الحجر ما يأتي بحركة، ولا ينبس ببنت شفة!!
وحدث عما شمل أهل الجزيرة من الفرح حين ترامت إليهم أخبار الملك؛ وما تم له مع برسيوس. لقد كانوا يؤثرون الموت على أن يحكمهم مثل هذا الظالم العاتي المستهتر، ولقد كانوا يودون له الهلك، حتى خلصهم برسيوس منه، فهرعوا إليه، وهتفوا في كل مكان باسمه، وحملوه على الأعناق إلى حيث الملك التمثال وهناك، صبوا لعناتهم على الطاغية، وانصرفوا، يهنئ بعضهم بعضاً، بعد ان اختار لهم برسيوس ملكا منهم. . . . فاضلاً، عادلاً. . . .
وقد عرضوا عليه الملك فأبى. . . لأن مملكته الكبيرة المكونة منه ومن أمه، ومن أندروميدا كانت آثر لديه من كل ملك عتيد!!
وتوجه إلى حيث لقي هرمز، عند الصخرة المشرفة على البحر، فوجده ينتظره، فتعانقا عناقاً يفيض محبة، ويقطر وداً، ثم رد إليه هدايا الآلهة بالحمد والثناء. . .
أما رأس مديوسا، فقد أهداها إلى منيرفا، ففرحت بها فرحاً شديداً، وهي إلى اليوم مركبة
في وسط ترسها ترهب بها أعداءها الألداء. . . .
دريني خشبة
البريد الأدبي
إحياء ذكرى الفيلسوف الطبيب موسى بن ميمون
لمرور ثمانمائة عام على ميلاد موسى بن ميمون أحد أقطاب الطب والعلم في عصر السلطان صلاح الدين الأيوبي وفيلسوف اليهود الأكبر في العصور الإسلامية ورئيس الطائفة الإسرائيلية بالقاهرة والفسطاط، ذلك الرجل الذي ترك أثراً خالداً في الفلسفة الإسرائيلية والطب العربي، وكان واسطة الاتصال بين الحضارتين الشرقية والغربية

قررت جمعية المباحث الإسرائيلية بمصر إحياء ذكراه في ثلاث حفلات كبرى، أولاها بإشراف الجامعة المصرية وتحت رعاية صاحب المعالي وزير المعارف العمومية، وتقام بدار الأوبرا الملكية يوم الاثنين أول أبريل سنة 1935 (اليوم) يفتتحها معالي الوزير نجيب بك الهلالي ثم حضرة صاحب السعادة علي باشا إبراهيم مدير الجامعة المصرية بالنيابة

ويخطب في هذه الحفلة الدكتور جورجي صبحي أستاذ التاريخ الطبي بكلية الطب عن مصنفات موسى بن ميمون الطبية. والعلامة الدكتور ماكس مايرهوف عن كتاب العقار لموسى ابن ميمون، والأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرزاق أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية الآداب عن موسى بن ميمون في نظر مؤرخي فلاسفة المسلمين، والدكتور إسرائيل ولفنسون أستاذ اللغات السامية بدار العلوم العليا عن كتاب (دلالة الحائرين ومذهب موسى بن ميمون في الفلسفة) ويلقى في هذه المناسبة شاعر القطرين خليل بك مطران قصيدة رائعة، ويختتم الحفلة صاحب السعادة يوسف قطاوي باشا رئيس جمعية المباحث الإسرائيلية بمصر وأما الحفلتان الثانية والثالثة فعامتان وجميع الخطب والقصائد التي تلقى في الحفلات الثلاث تجمع في كتاب واحد ينشر على نفقة الجمعية المذكورة

العيد الألفي للمتنبي

اعتزمت رابطة الأدب العربي بالقاهرة، إقامة العيد الألفي لأبي الطيب المتنبي في خلال شهر رمضان المقبل عام 1354 (ديسمبر سنة 1935) تذكاراً لانقضاء ألف عام على وفاته

ويشمل برنامج هذا العيد إقامة مؤتمر أدبي عربي عام يبحث جوانب الأدب العربي قديمه وحديثه، وما يجب أن يحاط به من العناية والإصلاح

ومن النواحي التي يوليها المؤتمر عنايته الخاصة:

أ - توحيد الثقافة الأدبية في البلاد العربية

ب - حدود التجديد في الأدب العربي

جـ - إصلاح مناهج الدراسة الأدبية

د - الأدب النسوي

هـ - أدب الأطفال

وأدب القصص

ز - أدب المسرح

ح - الأغاني والأناشيد

ويسر رابطة الأدب العربي أن يؤازرها الأدباء بحضورهم، أو بإرسال ثمرة بحثهم، عن المتنبي، أو عن أحد أغراض المؤتمر ليلقى في الحفل ويضم إلى كتاب الذكرى وترجو الرابطة أن يصل الرد إلى لجنة تنظيم المؤتمر قبل آخر ربيع الثاني عام 1354 (يوليو سنة 1935)

ارفيوس ويوريدس

الآنسة أمينة شاكر فهمي - أسيوط

حول إلى أستاذنا الجليل صاحب (الرسالة) كتابك الكريم الذي ذكرني بالقصاص وعنترة والرجال الذي أقسم لا يذوق طعاماً حتى يخرج ابن شداد من سجنه؛ وكان القصاص قد انتهى إلى أسر عنترة، ثم وعد السامعين إلى الليلة المقبلة!

تسألينني يا أختاه هل لقي أرفيوس يوريدس بعد عودته إلى هيدز روحاً بلا جسد؟ فأجيبك

أن نعم! لأن الأرواح كلها تلتقي في هيدز، فيما كان يزعم الإغريق القدماء وتسألينني هل كان الإغريق يؤمنون بالحياة الآخرة، واجتماع الأرواح وتعارفها بعد الموت؟

ولعل من حسن التوفيق أن كنت أكتب فصلاً عن ديانات الشعوب الهيلانية عامة، وعن مذهب الأرفزم خاصة، ذلك المذهب الذي شاع بين اليونانيين فيما قبل القرن السادس (ق. م)، وظلت آثاره قوية جلية في أكثر آداب الأغريق، منذ هسيود شاعر الطبيعة الصداح، حتى يوريدز كبير ملاحدة التاريخ القديم. وإني أعدك بإرسال هذا الفصل إلى (الرسالة)، وإن لم أكتبه للصحف، لأن فيه الرد الوافي الذي تطلبين

على أني أحسبك قد قرأت دانتي اليجيري، فذكرتك أسطورة أرفيوس برحلته في الجحيم والمطهر والفردوس، ليلقى ثمة حبيبته بياتريس
الأسطورة الأغريقية، وكوميدية دانتي متشابهتان يا آنسة؛ فإلى اللقاء، على صفحات الرسالة الغراء
دريني خشبة
بجماليون المثال
سيدي. . . . . صاحب (الرسالة)
قرأت في عدد (الرسالة) الأخير قصة (بجماليون المثال) للأستاذ دريني، فكانت حقاً رائعة. ولكن الأستاذ لم يكمل الأسطورة، بل اكتفى بجزء منها. لأنني قرأت هذه الأسطورة نفسها في كتاب لا أذكره ولا أذكر كاتبه. ويغلب على ظني أنه لجبران خليل جبران
ومجمل القصة الكاملة أن بجماليون عشق تمثاله، وطلب من فينوس أن تنفخ فيه الروح فاستجابت دعاءه، وراعه أن رأى أمامه جسداً بشرياً لغادة بارعة الحسن. . . . .
إلى هنا انتهى الأستاذ، وفاته أن يذكر أن هذا التمثال الحي: جالاتيا، قد ألم بها مرض ملح أوشك أن يودي بحياتها، فتملك بجماليون الرعب واليأس، وذهب ليلاً إلى ممثله وأحضر إزميله ومنحته وأعملهما في جسم حبيبته المريضة فارتدت رخاماً كما كانت - خالدة كما أراد لها الخلود، بعد أن أراد لها الحياة فدبت فيها الحياة -
ولعل هذا الجزء الأخير من الأسطورة يكسبها روعة على روعتها فضلاً عن أنه يجعل لها
مغزى بارعاً يرفعها إلى مصاف القصص الفلسفي فوق مكانتها في عالم الأساطير
شبرا
زكي شنودة جندي
في الأكاديمية الفرنسية
عينت الأكاديمية الفرنسية يوم 28مارس الماضي لأجراء الانتخاب للكراسي الثلاثة التي خلت بوفاة الأب بريمون، ومسيو لوي بارتو، ومسيو رايمون بونكاريه. وقد خلا أخيراً كرسي جديد بوفاة المؤرخ الكبير لينوتر، فصارت الكراسي الخالية أربعة، وقد شهدت الأكاديمية في الأشهر الأخيرة انقلاباً عظيماً في تكوينها الجديد، فذهبت منها فجأة بالوفاة عدة من الشخصيات البارزة، مثل ليوتي وبارتو وبوانكاريه، واندمجت فيها شخصيات جديدة عظيمة أيضاً، مثل الماريشال فرانسيه دسبري الذي ملأ كرسي ليوتي، والدوق دي بروجلي العلامة الأشهر. وفي مقدمة المرشحين للعضوية، مسيو دومرج رئيس الجمهورية السابق إذ يرشح لكرسي بوانكاريه، ومسيو جورج دوهامل. وبيير ميل، من أعلام الكتاب
من هنا ومن هناك
كتاب عن مقاهي باريس
أجل كتاب عن مقاهي باريس صدر أخيرا بقلم مسيو فرانسوا فوسكا، وعنوانه (باريس قريتي) وانه لنوع طريف من الأدب أن يعنى كاتب بهذه الناحية من الحياة مدينة عظيمة؛ فكما أن باريس تزخر بمتاحفها وكنائسها وآثارها العظيمة، فهي أيضا تزهو وتتألق بمقاهيها ومنتدياتها الليلية. وقد تناول مسيو فوسكا في كتابة صور المقاهي الباريزية الشهيرة في العهد المنقضي والعهد الحالي، ووصفها وصف خبير طاف بأرجائها وتسكع في أركانها؛ فمن مقاهي بروكوب دي ديكلو، والريجانس، إلى مقاصف البالية رويال، وسورس دي فرلين، وفاشيت دي موريا، وفبير، وبار دي لابية، وتولية وغيرها إلى منتديات اليوم ومعاهده. وهي صور تثير في نفس الباريزي الحق شجنا وذكريات عزيزة، ولا سيما حين يتصفح أسماء وصورا كانت بالأمس متألقة شهيرة ملء الأبصار والأسماع، وكان يهرع إليها ويتخذ مكانة بها ويقضي فيها ساعات لذيذة، قبل العشاء أو بعد المسرح، ثم اختفت اليوم صورها وأثوابها القديمة المحبوبة لتفسح مكانا لأثوابها الجديدة، وأي باريزى حق لا يتأثر حين يستعرض ذكريات (قهوة الإنكليز) (كافيه ديزانجليه) الشهيرة التي كانت قطعة من حياة كثيرة من أقطاب السياسة والقلم في أواخر القرن الماضي، والتي أضحت أثرا بعد عين، ثم (مقهى نابولتان) الذي غيرت معالمه ومظاهره، وكذلك مقهى فبيروباردبلابيه. لقد ذهبت هذه المعاهد القديمة،

واكتسحها تيار التحول الحديث، فأسبغ عليها تخطيطاً خشناً، وأنوارا مؤذية، وترفاً سخيفاً، ورفع عنها ذلك الجو العائلي الذي كان يشعر به الرواد من قبل. بيد أنه ما زالت توجد طائفة من المقاهي القديمة، الفرنسية حقاً، وهذا ما زالت كعبة الباريزيين المحافظين الذين يسحرهم المكان والمجلس بأكثر مما يسحرهم المأكول والمشروب وينوء مسيو فوسكا في كتابه بما كان لهذا المقاهي الباريزية الشهيرة من أثر في تكوين الأوساط الأدبية والفنية؛ فقد كانت مقصد الكتاب والفنانين والشعراء من كل ضرب، وكانت مجمعهم، وكثيراً ما كانت مركزاً للحلقات الأدبية والفنية الشهيرة، وكثيراً ما كانت مصدر الوحي لكاتب أو شاعر أو فنان. ومن ثم كان كتاب مسيو فوسكا قطعة اجتماعية أدبية فنية

فياضة السحر والمتاع

كتاب عن الأبهاء الأدبية

صدر أخيراً بالفرنسية كتاب طريف فريد في نوعه وموضوعه للسيدة ماري شكيفتش عنوانه (ذكريات عصر مضى)، وفيه تتحدث المؤلفة عن حياة المجتمع وأبهاء الأدب والاجتماع قبل الحرب، ولا ريب أن كثيراً من نواحي الحياة الاجتماعية قد تغير تغيراً عظيماً، وأصبحت تلك الحياة الذاهبة نكرة بالنسبة للجيل الحالي، والحياة تتغير دائماً بلا ريب، ولكن المرحلة التي استحالت إليها الحياة الاجتماعية بعد الحرب كانت سريعة عنيفة، وكان الانقلاب ثورياً لم يتخذ أسلوب التطور العادي. فمن يقرأ كتاب السيدة شكيفتش من شباب العصر يكاد يعتقد أنه يقرأ عن مجتمع غاضت كل آثاره وكل ألوانه الأولى. على انه مما يلاحظ أن الحياة الاجتماعية ولا سيما حياة الأبهاء الأدبية تسير أيضاً إلى تطور مستمر؛ ولقد كان أولئك الذين عرفوا هذه الحياة أيام روسو ومدام ديبناي مثلاً، ينكرونها بعد ذلك بنحو نصف قرن، أيام عود الملوكية في أوائل القرن التاسع عشر. وكان أولئك الذين عاصروا مدام ريكامبية وشاتو بريان وتذوقوا الحياة الاجتماعية الأدبية في ذلك العصر يرون في أطوارها وأساليبها التي اتخذتها في عصر الإمبراطورية الأولى حياة جديدة لم يعرفوها؛ على أن هنالك ظاهرة يجب الالتفات إليها، وهي أن صور الحياة العقلية في ذاتها لم تتطور كثيراً من الوجهة الاجتماعية؛ وفي وسعك أن تتصور أن الكتاب والمفكرين في العصور الخالية كانوا يجتمعون في حلقاتهم أو أبهائهم لمثل ما يجتمع له الكتاب والمفكرون في عصرنا؛ غير أن أساليب الاجتماع ذاته قد تغيرت؛ وتبوأت المرأة في العصور الحديثة مقامها اللائق في الأبهاء الأدبية والحلقات الاجتماعية فنفثت فيها من نفوذها وسحرها ألواناً قوية أضحت اليوم من أظهر خواصها الاجتماعية. وحياة الأبهاء الأدبية من أهم عناصر الحياة الفرنسية الاجتماعية في جميع أطوارها الحديثة؛ وإنك لتقرأ في مذكرات سانت سيمون، أو رسائل مدام سفنييه ما تقرأه اليوم في ذكريات مدام شكيفتش من ألوان هذه الحياة الاجتماعية والأدبية الساحرة، وقد لاحظ كاتب كبير بحق أن أهم ظاهرة في الأدب الفرنسي هي أنه اجتماعي، فكل ما فيه كلام عن المجتمع، وكل ما فيه موجه اليه، والحياة الفرنسية في ذاتها تقوم على الاجتماع والروح الاجتماعية قبل كل شيء؛ وسحر مؤلف مدام

شكيفتش في أنه يصور هذه الروح أقوى تصوير

جيته وفن الحياة

نعرف أن شاعر ألمانيا الأكبر (جيته) قد ترك فيما ترك محادثاته التي تملأ عشرة مجلدات ومذكراته اليومية ومراسلاته العديدة؛ ومن الصعب اليوم، في عصر السرعة والحياة المثقلة، أن يتفرغ المرء لقراءة هذه المجلدات العديدة وأن يستمرئ كل ما فيها من المعاني والصور، ولكن كاتباً فرنسياً هو المسيو ربوز داركور استطاع أن يدرس هذا التراث دراسة مستفيضة وأن يضع كتاباً بخلاصة دراسته بعنوان (جيته وفن الحياة) ' يحاول المؤلف في كتابه أن يلخص تراث جيته أو يردده، ولكنه يحاول أن يقدم للقارئ مجموعة الحكم والصور والمواعظ التي تتخلل تراث الشاعر الأكبر. وتسمية الكتاب بهذا العنوان ترجع إلى اللقب الذي يطلقه الألمان أنفسهم على جيته، فهم يسمونه (فنان الحياة)

والواقع أنه قلما يوجد بين عظماء الرجال من يضارع جيته في حياته المنظمة المركزة حول غايات معينة؛ فقد عاش جيته تحدوه إرادة راسخة في أن يعرف وأن يشبع

حاجات النفس وحاجات الخلق، وأن يباعد بين نفسه وبين ما تتأذى منه، وأن يرتفع بكرامته إلى الذرى؛ وقد فطن جيته إلى ذلك النقص الاجتماعي الذي يبعثه تشبع الناس بفكرة حقوق الإنسان نحو المجتمع، وأدرك أن للإنسان نحو نفسه حقوقاً خاصة، هي أن يرتفع بخلاله وأن يسعى إلى الكمال، وفي عصرنا لا يكاد يفطن المرء إلى هذا الواجب، لأن مشاغل الحياة وحمى الشهوات البشرية تستغرق كل عنايته وتفكيره؛ وقد كان جيته من أشد الناس عملاً وانشغالاً، ولكنه لم ينس أن يعمل لنفسه من الناحية الخلقية والمعنوية، وأن يكونها حسبما توحي به المثل العليا. غير أنك تشعر خلال هذه الصور الممتازة التي يقدمها إليك كفاح جيته في سبيل الكمال بنقص بين، هو ما تأنسه في كل أقواله وأفعاله من ضروب الأثرة؛ فقد كان يحرص على ألا يعكر حياته معكر، وألا يثير عواطفه شيء، حتى لا يضعف أمام النوازل والحوادث؛ وهي فلسفة الجمود والقسوة التي تبعد كثيراً عن مثل الإنسانية الرفيعة. هذه الصور والحقائق يدرسها مسيو داركور دراسة فياضة ممتعة، ويقدم إلينا حياة الشاعر الأكبر على ضوء المبادئ والفلسفة التي تكونت فيها

ذكرى يوهان باخ

تتأهب الدوائر الفنية والموسيقية في ألمانيا وفي جميع أنحاء العالم للاحتفال بذكرى الموسيقي الأكبر يوهان سبستيان باخ وذلك لمناسبة مرور مائتين وخمسين عاماً على مولده. وباخ من أعظم أبطال الفن والموسيقى لا في ألمانيا وحدها، ولكن في العالم كله. وقد كان مولده في مدينة إيزناخ سنة 1685، من أسرة عرفت بمواهبها الموسيقية، ونبغ منها أكثر من موسيقي كبير، وقد كان لهذا الظرف أثره في تربية باخ وفي تكوينه، وظهر هيام باخ بالموسيقى مذ كان طفلاً في العاشرة، وكانت أسرته تخشى على مستقبله من هذا الهيام وتخفى عنه المؤلفات الموسيقية ولكن باخ كان يبحث عنها وينقلها لنفسه على ضوء القمر، وكان للغلام صوت بديع لم يلبث أن استرعى الأنظار، فعين مرتلاً في مدرسة لينبرج؛ ولما ساء صوته بعد ذلك عين عازفاً على القيثارة؛ ثم ظهرت مواهبه الموسيقية بسرعة، وكانت رائعة، فاستدعى إلى بلاط فيمار وعين موسيقياً ملكياً، وهنالك استطاع أن يدرس الموسيقى الإيطالية؛ ثم عين بعد ذلك عازفاً على (الأرغن) في كنيسة ارنشتاث، ومن ذلك الحين أعني مذ كان باخ في نحو العشرين فقط، أخذ في وضع القطع الموسيقية؛ وكانت أولى قطعه (رحيل أخي الفجائي) من أبدع ما عرف التأليف الموسيقي، وقد استلهمها من رحيل أخيه عن وطنه ليلتحق بالجيش السويدي، وتزوج باخ بابنة عمه ماريا بربارا، وعاد بعد عامين أو ثلاثة إلى العمل في بلاط فيمار؛ وهنالك أقام نحو تسعة أعوام، ووضع أبدع قطعه الموسيقية، وتأثر في دراسته بالأساتذة الإيطاليين أعظم تأثر. وفي سنة 1720 توفيت زوجته ماريا فتزوج من بعدها (أنا فلكنس)، وكانت ذات مواهب موسيقية بديعة، فعاونته في عمله؛ وفي ذلك الحين ابتدأ باخ يضع قطعه الشهيرة المعروفة (بالتوابع). ثم عين باخ أستاذاً للغناء في مدرسة توماس في ليبزج، وهنالك وضع معظم قطعه وأناشيده الغنائية ومنها أناشيد قصة (الآلام)، وقدم في ذلك الحين بعض قطعه إلى أوجستوس ملك سكسونية فأنعم عليه بلقب (مؤلف البلاط). وفي سنة 1747 زار فردريك الأكبر في بونسدام ونال عطفه ورعايته، ثم أصيب باخ بضعف في بصره انتهى بالعمى، وعقب ذلك أصابه الصرع؛ وكانت وفاته (سنة 1750). وكان باخ فوق نبوغه الباهر في التأليف والموسيقى مخترعاً موسيقياً أيضاً، ومن اختراعاته الوضع الإصبعي الحديث، وتنظيم (البيانو) بحيث يتسع للعزف بجميع الأوضاع والأصوات

الكتب

ترجمة نفسية تحليلية

هو ذا تاريخ إنسان - 3 .. .!

للأستاذ خليل هنداوي

(ومع ذلك فكيف لي أن أكتب عن جبران من غير أن أذكر نفسي وقد كان بيننا من القرابة ما كان؟ (نعيمة ميخائيل نعيمة

(الناقد الفنان يترك أثراً من نفسه في شخصية من يحلله، لأنه يحلل بنفسه ويفهم بنفسه

(درسوا جبران في غضون الكتاب، ولم يدرسوا (نعيمة) وإنما في الكتاب وجهان

متلاصقان في ناحية مفترقان في ناحية، لا يفترقان في ناحية إلا ليجتمعا، ولا يجتمعان إلا ليفترقا. . .)
(خ. هـ)
- 2 -
وجه ميخائيل نعيمة
لنعيمة - في كتاب جبران خليل جبران - وجه بادي الملامح مستقل النزعة، يجب أن نفتش عنه كما نفتش عن وجه جبران؛ ولا يكمل أحدهما إلا بالآخر. ففيه نعيمة الإنساني ونعيمة الشاعر، ونعيمة المصور، ونعيمة الناقد. لأنه ليس من أولئك الناقدين الجافين الذين يعجزون عن تمثيل شخصياتهم فيما يكتبون وفي أي نوع كتبوا؛ ونعيمة صاحب فلسفة يعمل لها وصاحب مذهب اجتماعي يدور حوله ويؤمن به كل الإيمان. قد أخذ جبران مثلاً له، وألف من حياته رواية نفسية لفتى استحوذ عليه القلق، وألم بخيوط تلك الحياة وحاكها بفلسفته الإنسانية، وبلغ به ما شاء أن يبلغه الفن الذي يترجمه صاحبه والناس إلى قوة تنشط بهم من عقالات المعيشة المحدودة إلى المعيشة التي لا تحد. . .
فلسفة نعيمة الإنساني
تكاد تطغى على كل تعاليمه موجة الإنسانية التي لا تقيم بين بني الإنسان حدوداً وفواصل.
فهنالك الإنسانية المتصلة الشاملة المشتركة في الألم والهناء، الساخرة من هذه التقاليد التي فصلت بين أبناء الأصل الواحد. وإذا عدت إلى فصله (تمخضت الفأرة فولدت جبلاً) عرفت ذلك العدو الذي فكك بين وشائج الإنسانية الحقيقية، وجاء بوشائج كاذبة مستعارة يبني عليها حضارته الجديدة
ينظر نعيمة إلى الحياة المتآلفة في باطنها، المتنافرة في ظاهرها، حيث يمتزج كل شيء بشيء، ويتصل كل جزء بجزء، ولا جزء يستطيع أن يفنى بالانفصال. يبشر (نعيمة) بهذه الدعوة الإنسانية التي يجد عروقها مغروسة في الشرق، والتي بشر بها الشرق من أزمان. . . والإنسانية - في اعتقاده - لا تفر من نفسها إلا إلى نفسها - ولكن السامعين نداء أنفسهم قليل! وهي لا تقسم طرقها إلا لتجد سبيلها الواحد ومحجتها الواحدة
فلسفة تحب العرى النفسي المجرد والطبيعة السامية، ألم يقل لي في حديث له (هذا الجبل عاريا ما أجمله! أحب كل عار في الحياة لأنه يظهر على الحياة بحقيقته) إن الحياة عارية والإنسانية عارية، فلماذا نستر عريهما بأوهامنا وتقاليدنا؟ والحياة جوهر عار فلماذا نجعل منها مركباً تفرح لتركيبه عقولنا وتضل عنه أرواحنا؟ (الحياة شركة شاملة للواحد فيها ما للكل، وللكل ما للواحد. لأن الكل هو الواحد والواحد هو الكل. لكننا أفسدنا تلك الشركة بما أدخلناه عليها من روح الإستئثار والكسب عندما جعلنا ثمناً لكل هباتها التي لا تثمن. . .)
وهذه الإنسانية المجردة التي يبشر بها (نعيمة) قد لا تروق للبعض لضيق آفاقهم، ولأن عقولهم تزين لهم أن يطعنوا هذه الإنسانية ويردوها منهزمة مجرحة. . . وقد تثبت هذه الإنسانية أمام العقل، لأن (نعيمة) يستمد هذه الإنسانية من قلبه لا من عقله، فهو يريد لها القلوب وعاء لا العقول. وقد جرب (نعيمة) كما جرب غيره أن يقف على غاية الحياة بعقله، جرب كثيراً وتاه كثيراً لأنه كلما بلغ به عقله نقطة، ضاعت عنه الثانية، فليس له إلا ما يبلغه أمامه، وليس له من ورائه شيء، سار به عقله إلى سلسلة متناقضات يصارع بعضها بعضاً وينفي بعضها بعضاً، وأين سبيل النجاة أيها العقل؟ وأخيراً يجد نعيمة سبيل النجاة في واحة الخيال المنعتق من كابوس المقاييس الزمنية والمكانية والتفلت من قيود التقاليد. وجده في الخيال ووجد إنسانيته في الخيال، يخاطبه الناس بعقولهم ويخاطبهم بخياله وومضاته، أما طريق الوصول إليه، فهو الفن الذي يحمل
صاحبه على جناحي الخيال إلى تلك المعيشة التي لا تحد - من الإنسان في الله، إلى الله في الإنسان
فهو مع الحياة في سلم أبدي، لأن الحياة طاهرة الجوهر، لا تتمخض بالسوء؛ وهب أنها تمخضت بسوء - كما تراه مداركنا - فهذا السوء سوء عندنا، وليس بسوء عند الحياة،

الحياة التي تسعى وراء تحقيق غايتها، وإنما الأجدر بنا أن نؤلف بين غايتنا وغاية الحياة، لأن السعادة التامة الكاملة، إنما تتم في هذه الألفة! وأنى لنا أن ندرك سبل الحياة وغايتها؟

- ستدرك كل ذلك - أيها الإنسان عندما تصبح إلهاً!

(ما أشفق الحياة على بناتها وعلى أبنائها، فلا تضع في حدقتي مخلوق من نورها أكثر مما يحتاجه ذلك المخلوق ليستدل على طريقه. ولا تودع ساقيه من قوتها أكثر مما يلزمه لقطع المسافة التي تخطها له (والإنسان خلال ذلك مزهو بكبريائه، تسول له ذاته أن يكون رب نفسه، والحياة تشفق على هذه الربوبية الضعيفة وتحضنها كالأم التي تحضن ولدها العاق المتألم

- ستعرف غايتي أيها الإنسان عندما تصبح إلها!

(يتبع)

خليل هنداوي

العدد 92 - بتاريخ: 08 - 04 - 1935

. . .على ذكر كتاب

في مصر من الباشوات المثقفين فئة كثيرة، تميزوا عن الأشباه لأنهم مهروا في أداء العمل، أو وقعوا في طريق الفرص، أو رقوا في معارج السياسة؛ ثم تهيأت لهم بالدراسة والممارسة أسباب العمل والخبرة، فخبروا أسرار الأمور، وسبروا أغوار المشاكل، وصرفوا شؤون الدولة على نحو من الحكرة المفروضة؛ فهم لا يبرحون ضاربين في الميدان الحكومي فرقه فرقة، يتقاذفون الإدارة، ويتنازعون الوزارة، ويتداولون الأمر، حتى أسرفوا على خير الأمة، وافتاتوا على رأي الجماعة، فقصروا كفايتهم على الخصومة، وحددوا غايتهم بالحكومة؛ فهم إذا وثبوا إلى الحكم استفرغوا الوسع في البقاء فيه، وإذا انقلبوا عنه استنفذوا الوسائل في الرجوع إليه؛ أما تسجيل التجربة بالتأليف، ونشر المعرفة بالصحافة، وتأييد العدالة بالمحاماة، فعمل لا يدخل في حساب الجهد، ولا يخطر في مرام النية! كأن العودة إلى ملابسة الشعب، ومداخلة العامة، ومزاولة الحرفة، أصبحت لا تتفق مع نباهة الاسم ولا تتسق مع جلالة اللقب، ولا تجري على تقاليد المنصب!

في البلاد التي نطيل إليها النظر، ونزعم لها الكمال، ونحصر فيها القدوة، نجد رئيس الحكومة إذا تعطل من الحكم، ورئيس الجمهورية إذا انتهى من الرياسة، عاد كل منها إلى الموضع الذي صعد منه إلى الديوان، أو انتخب فيه إلى القصر، فيستأنف الجهاد اليومي في سبيل الأسرة والأمة الحاكمة بنشاط البادئ، ونفسية التابع، ورجاء الطموح، فهو يدور مع الطبيعة دورة العام: يبدأ لينتهي، وينتهي ليبدأ؛ وفي كل طور من أطواره المتعاقبة تراه يندمج في البيئة، ويتألف مع النظام، ويرمي عن الواجب، فينشر المذكرات، ويحرر المقالات، ويحضر المرافعات، ويكابد في خلال ذلك طمع الناشر وعنت الناقد ومنافسة الحرفة؛ ولكنه على الرغم من رهق الحياة الحافلة، وكلال السن العالية، يؤدي إلى وطنه المنعم زكاة النبوغ وضريبة المجد عملا لا يتأبه، وإحسانا لا يمن، وإخلاصا لا يمين

ذلك هناك والكفاية موفورة، والمحجة واضحة، والأمر متسق. أما هنا ورجالات الرأي قلال، وتبعات العمل ثقال، وميادين الجهاد عزل، ترى النابه منا متى بلغ الوزارة من أي طريق وفي أي سن، ختم حياته العاملة، فاختزل الماضي، واعتزل الشعب، وازدرى العمل، وغفا على رخاء معاشه. فهو وزير ما دامت وزارته، فإذا سقط انقلب إلى مداره العالي يزجي فراغه الملول بالتردد بين أبهاء المستوزرين ونادي الحزب أو نادي (محمد

علي) يتشم الريح، ويتسقط الأخبار، ويتربص بالحكومة الدوائر

هو وزير أو منتظر؛ فمالك تكلفه أن يكتب في صحيفة حزبه، أو يساهم بالجد في نهضة شعبه؟ تلك أكلاف العيش لمن لم يدرك الثروة، وأزواد الطريق لمن لم يبلغ الغاية؛ والوزارة غاية الأمل في الثراء والعظمة، فإذا أدركها لا يسعه بعدها كرسي في مكتب، ولا يجزيه سهم في شركة؛ والظفر بها ولو مرة حق مكتسب يسلكه في سلسلة المتعاطين حرفة الحكم، فيضع نفسه ولقبه في صندوق ذهبي، ثم يعلقه في خيوط المنى، ثم يدع النسيم يهدهده بين باب القصر ونافذة المندوب حتى إذا عصفت

بالوزارة أزمة، أو شغر في مجلسها محل رفع برأسه الغطاء العسجدي وقال:
أنا أشرئب! إذن أنا موجود!

على أن القاعدة العنيدة أخذت تحمل في طواياها بعض الشواذ، فقد رضى الوزير والسفير حافظ عفيفي باشا أن ينزل إلى صفوف الباحثين والمؤلفين فأصدر كتابه القيم (الإنجليز في بلادهم) عن استقراء دقيق واطلاع شامل، فكان تعريضا أليما بذلك الذكاء العاطل الذي يستفيد ولا يفيد، وذلك النبوغ الفاجر الذي يدخل الحكم ليعسف ويخرج منه ليكيد!

أحمد حسن الزيات

اليمامتان

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

جاء في تاريخ الواقدي (أن (المقوقس) عظيم القبط في مصر زوج ابنته (أرمانوسة) من (قسطنطين بن هرقل) وجهزها بأموالها وحشمها لتسير إليه، حتى يبنى عليها في مدينة قيسارية (سورية) فخرجت إلى بلبيس وأقامت بها. . وجاء عمرو بن العاص إلى بلبيس فحاصرها حصارا شديدا وقاتل من بها، وقتل منهم زهاء ألف فارس، وانهزم من بقى إلى المقوقس، وأخذت أرمانوسة وجميع مالها، وأخذ كل ما كان للقبط في بلبيس. فأجب عمرو ملاطفة المقوقس، فسير إليه ابنته مكرمة في جميع مالها، (مع قيس بن أبي العاص السهمي)؛ فسر بقدومها. . .)

هذا ما أثبته الواقدي في روايته، ولم يكن معنيا إلا بأخبار المغازي والفتوح، فكان يقتصر عليها في الرواية؛ أما ما أغفله فهو ما نقصه نحن:

كانت لأرمانوسة وصيفة مولدة تسمى (مارية)، ذات جمال يوناني أتمته مصر ومسحته بسحرها، فزاد جمالها على أن يكون مصريا، ونقص الجمال اليوناني أن يكونه. ولمصر طبيعة خاصة في الحسن؛ فهي قد تهمل شيئا في جمال نسائها أو تشعث منه، وقد لا توفيه جهد محاسنها الرائعة؛ ولكن متى نشأ فيها جمال ينزع إلى أصل أجنبي، أفرغت فيه سحرها إفراغا، وأبت إلا أن تكون الغالبة عليه، وجعلته آيتها في المقابلة بينه وبين الطابع المصري، وبين أصله في طبيعة أرضه كائنة ما كانت؛ تغار على سحرها أن يكون إلا الأعلى

وكانت مارية هذه مسيحية قوية الدين والعقل، اتخذها المقوقس كنيسة حية لابنته، وهو كان واليا وبطريركا على مصر من قبل هرقل؛ وكان من عجائب صنع الله أن الفتح الإسلامي جاء في عهده، فجعل الله قلب هذا الرجل مفتاح القفل القبطي، فلم تكن أبوابهم تدافع إلا بمقدار ما تدفع، تقاتل شيئا من قتال غير كبير، أما الأبواب الرومية فبقيت مستغلقة حصينة لا تذعن إلا للتحطيم، ووراءها نحو مائة ألف رومي يقاتلون المعجزة الإسلامية التي جاءتهم من بلاد العرب أول ما جاءت في أربعة آلاف رجل، ثم لم يزيدوا آخر ما زادوا على أثنى عشر ألفا. كان الروم مائة ألف مقاتل بأسلحتهم ولم تكن المدافع معروفة، ولكن

روح الإسلام جعلت الجيش العربي كأنه اثنا عشر ألف مدفع بقنابلها؛ لا يقاتلون بقوة الإنسان، بل بقوة الروح الدينية التي جعلها الإسلام مادة منفجرة تشبه الديناميت قبل أن يعرف الديناميت!

ولما نزل عمرو بجيشه على بلبيس، جزعت مارية جزعا شديدا؛ إذ كان الروم قد أرجفوا أن هؤلاء العرب قوم جياع ينفضهم الجدب على البلاد نفض الرمال على الأعين في الريح العاصف؛ وأنهم جراد إنساني لا يغزو إلا لبطنه؛ وأنهم غلاظ الأكباد كالإبل التي يمتطونها؛ وأن النساء عندهم كالدواب يرتبطن على خسف؛ وأنهم لا عهد لهم ولا وفاء، ثقلت مطامعهم وخفت أمانتهم؛ وأن قائدهم عمرو بن العاص كان جزارا في الجاهلية، فما تدعه روح الجزار وطبيعته؛ وقد جاء بأربعة آلاف سالخ من أخلاط الناس وشذاذهم، لا أربعة آلاف مقاتل من جيش له نظام الجيش!

وتوهمت مارية أوهامها، وكانت شاعرة وقد درست هي وأرمانوسة أدب يونان وفلسفتهم، وكان لها خيال مشبوب متوقد يشعرها كل عاطفة أكبر مما هي، ويضاعف الأشياء في نفسها، وينز إلى طبيعته المؤنثة، فيبالغ في تهويل الحزن خاصة، ويجعل من بعض الألفاظ وقودا على الدم. . .

ومن ذلك استطير قلب مارية وأفزعتها الوسواس، فجعلت تندب نفسها وصنعت في

ذلك شعرا هذه ترجمته:
جاءكِ أربعةُ آلافِ جزارٍ أيَّتُها الشاةُ المسكينة!
ستذوق كل شعرةٍ منكِ ألمَ الذبح قبل أن تُذبحي!
جاءكِ أربعُ آلافٍ خاطفٍ أيتها العذراءُ المسكينة!
ستموتين أربعةَ آلافِ ميتةٍ قبل الموت!
قَوِّني يا إلهي، لأغمد في صدري سكيناً تردُّ عني الجزّارين!
يا إلهي، قوِّ هذه العذراءَ لتتزوجَّ الموتَ قبل أن يتزوجها العربي!. .
وذهبت تتلو شعرها على أرمانوسة في صوت حزين يتوجع؛ فضحكت هذه وقالت: أنت واهمة يا مارية؛ أنسيت أن أبي قد أهدى إلى نبيهم بنت (أنصنا) فكانت عنده في مملكة بعضها السماء وبعضها القلب؟ لقد أخبرني أبي أنه بعث بها لتكشف له عن حقيقة هذا الدين
وحقيقة هذا النبي؛ وأنها أنفذت إليه دسيسا يعلمه أن هؤلاء المسلمين هم العقل الجديد الذي سيضع في العالم تمييزه بين الحق والباطل، وإن نبيهم أطهر من السحابة في سمائها، وأنهم جميعا ينبعثون من حدود دينهم لا من حدود أنفسهم؛ وإذا سلوا السيف سلوه بقانون، وإذا أغمدوه أغمدوه بقانون. وقالت عن النساء: لأن تخاف المرأة على عفتها من أبيها أقرب من أن تخاف عليها من أصحاب هذا النبي؛ فأنهم جميعا في واجبات القلب وواجبات العقل، ويكاد الضمير الإسلامي في الرجل منهم - يكون حاملا سلاحا يضرب به صاحبه إذا هم بمخالفته
وقال أبي: إنهم لا يغيرون على الأمم، ولا يحاربونها حرب الملك؛ وإنما تلك طبيعة الحركة للشريعة الجديدة تتقدم في الدنيا حاملة السلاح والأخلاق، قوية في ظاهرها وباطنها؛ فمن وراء أسلحتهم أخلاقهم؛ وبذلك تكون أسلحتهم نفسها ذات أخلاق!
وقال أبي: إن هذا الدين سيندفع بأخلاقه في العالم اندفاع العصارة الحية في الشجرة الجرداء؛ طبيعة تعمل في طبيعة؛ فليس يمضي غير بعيد حتى تخضر الدنيا وترمي ظلالها؛ وهو بذلك فوق السياسات التي تشبه في عملها الميت ما يشبه طلاء الشجرة الجرداء بلون أخضر. . .! شتان بين عمل وعمل، وإن كان لون يشبه لون
فاستروحت مارية واطمأنت باطمئنان أرمانوسة، وقالت: فلا ضير علينا إذا فتحو البلد، ولا يكون ما نستضر به؟
قالت أرمانوسة: لا ضير يا مارية، ولا يكون إلا ما نحب لأنفسنا؛ فالمسلمون ليسوا كهؤلاء العلوج من الروم، يفهمون متاع الدنيا بفكرة الحرص والحاجة إلى حلاله وحرامه، فهم القساة الغلاظ المستكلبون كالبهائم، ولكنهم يفهمون متاع الدنيا بفكرة الاستغناء والتمييز بين حلاله وحرامه، فهم الإنسانيون الرحماء المتعففون
قالت مارية: وأبيك يا أرمانوسة إن هذا لعجيب؛ فقد مات سقراط وأفلاطون وأرسطو وغيرهم من الفلاسفة والحكماء، وما استطاعوا أن يؤدبوا بحكمتهم وفلسفتهم إلا الكتب التي كتبوها. . . فلم يخرجوا للدنيا جماعة تامة الإنسانية، فضلا عن أمة كما وصفت أنت من أمر المسلمين؛ فكيف استطاع نبيهم أن يخرج هذه الأمة وهم يقولون إنه كان أميا. أفتسخر الحقيقة من كبار الفلاسفة والحكماء وأهل السياسة والتدبير فتدعهم يعملون عبثا أو كالعبث،
ثم تستسلم للرجل الأمي الذي لم يكتب ولم يقرأ ولم يدرس ولم يتعلم؟
قالت أرمانوسة: إن العلماء بهيئة السماء وأجرامها وحساب أفلاكها، ليسوا هم الذين يشقون الفجر ويطلعون الشمس؛ وأنا أرى أنه لا بد من أمة طبيعية بفطرتها يكون عملها في الحياة إيجاد الأفكار العملية الصحيحة التي يسير بها العالم، وقد درست المسيح وعمله وزمنه، فكان طيلة عمره يحاول أن يوجد هذه الأمة، غير أنه أوجدها مصغرة في نفسه وحوارييه، وكان عمله كالبدء في تحقيق الشيء العسير؛ حسبه أن يثبت معنى الإمكان فيه
وظهور الحقيقة من هذا الرجل الأمي هو تنبيه الحقيقة إلى نفسها، وبرهانها القاطع أنها بذلك في مظهرها الإلهي. والعجيب يا مارية، أن هذا النبي قد خذله قومه وناكروه وأجمعوا على خلافه، فكان في ذلك كالمسيح، غير أن المسيح انتهى عند ذلك؛ أما هذا فقد ثبت ثبات الواقع حين يقع؛ لا يرتد ولا يتغير؛ وهاجر من بلده فكان ذلك أول خطا الحقيقة التي أعلنت أنها ستمشي في الدنيا، وقد أخذت من يومئذ تمشي. ولو كانت

حقيقة المسيح قد جاءت للدنيا كلها لهاجرت به، فهذا فرق آخر بينهما. والفرق الثالث أن المسيح لم يأت إلا بعبادة واحدة هي عبادة القلب، أما هذا الدين فعلمت من أبي أنه ثلاث عبادات يشد بعضها بعضا: إحداها للأعضاء، والثانية للقلب، والثالثة للنفس؛ فعبادة الأعضاء طهارتها واعتيادها الضبط؛ وعبادة القلب طهارته وحبه الخير؛ وعبادة النفس طهارتها وبذله في سبيل الإنسانية. وعند أبي أنهم بهذه الأخيرة سيملكون الدنيا؛ فلن تقهر أمة عقيدتها أن الموت أوسع الجانبين وأسعدهما

قالت مارية: إن هذا والله لسر إلهي يدل على نفسه؛ فمن طبيعة الإنسان ألا تنبعث نفسه غير مبالية الحياة والموت إلا في أحوال قليلة تكون طبيعة الإنسان فيها عمياء: كالغضب الأعمى، والحب الأعمى، والتكبر الأعمى. فإذا كانت هذه الأمة الإسلامية كما قلت، منبعثة هذا الانبعاث، ليس فيها إلا الشعور بذاتيتها العالية - فما بعد ذلك دليل على أن هذا الدين هو شعور الإنسان بسمو ذاتيته، وهذه هي نهاية النهايات في الفلسفة والحكمة

قالت أرمانوسة: وما بعد ذلك دليل على أنك تتهيئين أن تكوني مسلمة يا مارية! فاستضحكتا معا وقالت مارية: إنما ألقيت كلاما جاريتك فيه بحسبه، فأنا وأنت فكرتان لا مسلمتان

قال الراوي: وانهزم الروم عن بلبيس، وارتدوا إلى المقوقس في (منف)، وكان وحي أرمانوسة في مارية مدة الحصار - وهي نحو الشهر - كأنه فكر سكن فكرا وتمدد فيه؛ فقد مر ذلك الكلام بما في عقلها من حقائق النظر في الأدب والفلسفة، فصنع ما يصنع المؤلف بكتاب ينقحه، وأنشأ لها أخيلة تجادلها وتدفعها إلى التسليم بالصحيح لأنه صحيح، والمؤكد لأنه مؤكد

ومن طبيعة الكلام إذا أثر في النفس - أن ينتظم في مثل الحقائق الصغيرة التي تلقى للحفظ؛ فكان كلام أرمانوسة في عقل مارية هكذا: (المسيح بدء وللبدء تكملة، ما من ذلك بد. لا تكون خدمة الإنسانية إلا بذات عالية لا تبالي غير سموها. الأمة التي تبذل كل شيء وتستمسك بالحياة لا تأخذ شيئا، والتي تبذل أرواحها فقط تأخذ كل شيء.) وجعلت هذه الحقائق الإسلامية وأمثالها تعرب هذا العقل اليوناني؛ فلما أراد عمرو بن العاص توجيه أرمانوسة إلى أبيها، وانتهى ذلك إلى مارية قالت لها: لا يجمل بمن كانت مثلك في شرفها وعقلها أن تكون كالأخيذة تتوجه حيث يسار بها؛ والرأي أن تبدئي هذا القائد قبل أن يبدأك؛ فأرسلي إليه فأعلميه أنك راجعة إلى أبيك، واسأليه أن يصحبك بعض رجاله؛ فتكوني الآمرة حتى في الأسر، وتصنعي صنع بنات الملوك!

قالت أرمانوسة: فلا أجد لذلك خيرا منك في لسانك ودهائك؛ فاذهبي إليه من قبلي، وسيصحبك الراهب (شطا)، وخذي معك كوكبة من فرساننا

قالت مارية وهي تقص على سيدتها: لقد أديت إليه رسالتك فقال: كيف ظنها بنا؟ قلت: ظنها بفعل رجل كريم يأمره اثنان: كرمه، ودينه. فقال أبلغيها أن نبينا (صلى الله عليه وسلم) قال: (استوصوا بالقبط خيرا فإن لهم فيكم صهرا وذمة.) وأعلميها أننا لسنا على غارة نغيرها، بل على نفوس نغيرها

قالت: فصفيه لي يا مارية

قالت: كان آتيا في جماعة من فرسانه على خيولهم العراب، كأنها شياطين تحمل شياطين من جنس آخر، فلما صار بحيث أتبينه أومأ إليه الترجمان - وهو (وردان) مولاه - فنظرت، فإذا هو على فرس كميت أحم لم يخلص للأسود ولا للأحمر، طويل العنق مشرف له ذؤابة أعلى ناصيته كطرة المرأة، ذيال يتبختر بفارسه ويحمحم كأنه يريد أن يتكلم،

. . .مطهم

فقطعت أرمانوسة عليها وقالت: ما سألتك صفة جواده

. . .قالت مارية: أما سلاحه

قالت: ولا سلاحه، صفيه كيف رأيته (هو)

. . .قالت: رأيته قصير القامة علامة قوة، وافر الهامة علامة عقل، أدعج العينين

فضحكت أرمانوسة وقالت: علامة ماذا. . .؟

. . . أبلج يشرق وجهه فيه كأن فيه لآلاء الذهب على الضوء، أيدا اجتمعت فيه القوة حتى لتكاد عيناه تأمران بنظرهما أمرا. . . داهية كتب دهاؤه على جبهته العريضة يجعل

فيها معنى يأخذ من يراه؛ وكلما حاولت أن أتفرس في وجهه رأيت وجهه لا يفسره إلا تكرار النظر إليه. . .
وتضرجت وجنتاها، فكان ذلك حديثا بينها وبين عيني أرمانوسة. . . وقالت هذه: كذلك كل لذة لا يفسرها للنفس إلا تكرارها. . .
فغضت مارية من طرفها وقالت: هو والله ما وصفت، وإني ما ملأت عيني منه، وقد كدت أنكر أنه إنسان لما اعتراني من هيبته. . . .
قالت أرمانوسة: من هيبته أم من عينيه الدعجاوين. . .؟
ورجعت بنت المقوقس إلى أبيها في صحبة (قيس)، فلما كانوا في الطريق وجبت الظهر، فنزل قيس يصلي بمن معه والفتاتان تنظران؛ فلما صاحوا: (الله أكبر. . .!) ارتعش قلب مارية، وسألت الراهب (شطا): ماذا يقولون؟ قال: إن هذه كلمة يدخلون بها صلاتهم، كأنما يخاطبون بها الزمن أنهم الساعة في وقت ليس منه ولا من دنياهم، وكأنهم يعلنون أنهم بين يدي من هو أكبر من الوجود؛ فإذا أعلنوا انصرافهم عن الوقت ونزاع الوقت وشهوات الوقت، فذلك هو دخولهم في الصلاة؛ كأنهم يمحون الدنيا من النفس ساعة أو بعض ساعة؛ ومحوها من أنفسهم هو ارتفاعهم بأنفسهم عليها؛ أنظري، ألا ترين هذه الكلمة قد سحرتهم سحرا فهم لا يلتفتون في صلاتهم إلى شيء؛ وقد شملتهم السكينة، ورجعوا غير من كانوا، وخشعوا خشوع أعظم الفلاسفة في تأملهم
قالت مارية: ما أجمل هذه الفطرة الفلسفية! لقد تعبت الكتب لتجعل أهل الدنيا يستقرون
ساعة في سكينة الله عليهم فما أفلحت، وجاءت الكنيسة فهولت على المصلين بالزخارف والصور والتماثيل والألوان لتوحي إلى نفوسهم ضربا من الشعور بسكينة الجمال وتقديس المعنى الديني، وهي بذلك تحتال في نقلهم من جوهم إلى جوها؛ فكانت كساقي الخمر؛ إن لم يعطك الخمر عجز عن إعطائك النشوة. ومن ذا الذي يستطيع أن يحمل معه كنيسة على جواد أو حمار؟
قالت أرمانوسة: نعم أن الكنيسة كالحديقة؛ هي حديقة في مكانها، وقلما توحي شيئا إلا في موضعها؛ فالكنيسة هي الجدران الأربعة، أما هؤلاء فمعبدهم بين جهات الأرض الأربع
قال الراهب شطا: ولكن هؤلاء المسلمين متى فتحت عليهم الدنيا وافتتنوا بها وانغمسوا فيها - فستكون هذه الصلاة بعينها ليس فيها صلاة يومئذ
قالت مارية: وهل تفتح عليهم الدنيا، وهل لهم قواد كثيرون كعمروا؟
قال: كيف لا تفتح الدنيا على قوم لا يحاربون الأمم بل يحاربون ما فيها من الظلم والكفر والرذيلة، وهم خارجون من الصحراء بطبيعة قوية كطبيعة الموج في المد المرتفع؛ ليس في داخلها إلا أنفس مندفعة إلى الخارج عنها؛ ثم يقاتلون بهذه الطبيعة أمما ليس في الداخل منها إلا النفوس المستعدة أن تهرب إلى الداخل. . .!
قالت مارية: والله لكأننا ثلاثتنا على دين عمروا. . .
وانفتل قيس من الصلاة، وأقبل يترحل، فلما حاذى مارية كان عندها كأنما سافر ورجع؛ وكانت ما تزال في أحلام قلبها؛ وكانت من الحلم في عالم أخذ يتلاشى إلا من عمروا وما يتصل بعمروا. وفي هذه الحياة أحوال (ثلاثة) يغيب فيها الكون بحقائقه؛ فيغيب عن السكران، والمخبول، والنائم؛ وفيها حالة رابعة يتلاشى فيها الكون إلا من حقيقة واحدة تتمثل في الإنسان
وقالت مارية للراهب شطا: سله: ما أربهم من هذه الحرب، وهل في سياستهم أن يكون القائد الذي يفتح بلدا حاكما على هذا البلد؟
قال قيس: حسبك أن تعلمي أن الرجل المسلم ليس إلا رجلا عاملا في تحقيق كلمة الله، أما حظ نفسه فهو في غير هذه الدنيا
وترجم الراهب كلامه هكذا: أما الفاتح فهو في الأكثر الحاكم المقيم، وأما الحرب فهي عندنا
الفكرة المصلحة تريد أن تضرب في الأرض وتعمل، وليس حظ النفس شيئا يكون من الدنيا؛ وبهذا تكون النفس أكبر من غرائزها، وتنقلب معها الدنيا برعونتها وحماقاتها وشهواتها كالطفل بين يدي الرجل، فيهما قوة ضبطه وتصريفه. ولو كان في عقيدتنا

أن ثواب أعمالنا في الدنيا، لا نعكس الأمر
قالت مارية: فسله: كيف يصنع عمروا بهذه القلة التي معه والروم لا يحصى عددهم؛ فإذا أخفق عمروا فمن عسى أن يستبدلوه منه؟ وهل هو أكبر قوادهم، أو فيهم أكبر منه؟
قال الرواي: ولكن فرس قيس تمطر وأسرع في لحاق الخيل على المقدمة كأنه يقول: لسنا في هذا. . .
وفتحت مصر صلحا بين عمروا والقبط، وولى الروم مصعدين إلى الإسكندرية، وكانت مارية في ذلك تستقرئ أخبار الفاتح تطوف منها على أطلال من شخص بعيد؛ وكان عمروا من نفسها كالمملكة الحصينة من فاتح لا يملك إلا حبه أن يأخذها؛ وجعلت تذوي وشحب لونها، وبدأت تنظر النظرة التائهة، وبان عليها أثر الروح الظمأى، وحاطها اليأس بجوه الذي يحرق الدم، وبدت مجروحة المعاني؛ إذ كان يقاتل في نفسها الشعوران العدوان: شعور أنها عاشقة، أنها يائسة!
ورقت لها أرمانوسة، وكانت هي أيضا تتعلق فتى رومانيا، فسهرتا ليلة تديران الرأي في رسالة تحملها مارية من قبلها إلى عمروا كي تصل إليه، فإذا وصلت بلغت بعينيها رسالة نفسها. . .
واستقر الأمر أن تكون المسألة عن مارية القبطية وخبرها ونسلها وما يتعلق بها مما يطول الإخبار به إذا كان السؤال من امرأة عن امرأة. فلما أصبحتا وقع إليها أن عمرا قد سار إلى الإسكندرية لقتال الروم، وشاع الخبر أنه لما أمر بفسطاطه أن يقوض أصابوا يمامة قد باضت في أعلاه، فأخبروه فقال: (قد تحرمت في جوارنا، أقروا الفسطاط حتى تطير فراخها) فأقروه!
ولم يمض غير طويل حتى قضت مارية نحبها، وحفظت عنها أرمانوسة الشعر الذي أسمته: نشيد اليمامة:
على فسطاط الأمير يمامة حائمة تحضن بيضها.
تركها الأمير تصنع الحياة، وذهب هو يصنع الموت!
هي كأسعد امرأة؛ ترى وتلمس أحلامها.
إن سعادة المرأة أولها وآخرها بعض حقائق صغيرة كهذا البيض
على فسطاط الأمير يمامة جاثمة تحضن بيضها.
لو سئلت عن هذا البيض لقالت: هذا كنزي.
هي كأهنأ امرأة، ملكت ملكها من الحياة ولم تفتقر.
هل أكلف الوجود شيئا كثيرا إذا كلفته رجلا واحدا أحبه!
على فسطاط الأمير يمامة جاثمة تحتضن بيضها
الشمس والقمر والنجوم، كلها أصغر في عينها من هذا البيض.
هي كأرق امرأة؛ عرفت الرقة مرتين: في الحب، والولادة
هل أكلف الوجود شيئا كثيرا إذا أردت أن أكون كهذه اليمامة!
على فسطاط الأمير يمامة جاثمة تحضن بيضها
تقول اليمامة: إن الوجود يحب أن يرى بلونين في عين الأنثى، مرة حبيبا كبيرا في رجلها، ومرة حبيبا صغيرا في أولادها.
كل شيء خاضع لقانونه؛ والأنثى لا تريد أن تخضع إلا لقانونها
أيتها اليمامة، لم تعرفي الأمير وترك لك فسطاطه!
هكذا الحظ: عدل مضاعف في ناحية، وظلم مضاعف في ناحية أخرى
إحمدي الله أيتها اليمامة، أن ليس عندكم لغات وأديان، عندكم فقط: الحب والطبعة والحياة
على فسطاط الأمير يمامة جاثمة تحضن بيضها،
يمامة سعيدة، ستكون في التاريخ كهدهد سليمان،
نسب الهدهد إلى سليمان، وستنسب اليمامة إلى عمرو.
واها لك يا عمرو! ما ضر لو عرفت اليمامة الأخرى. .!
طنطا
مصطفى صادق الرافعي

ولي الحاكم بأمر الله الخلافة حدثا دون الثانية عشرة؛ وكان مولده بالقصر الفاطمي بالقاهرة المعزية في الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة 375 (13 أغسطس سنة 985)، وأمه نصرانية من الملكية، وكان لها أيام العزيز نفوذ كبير في الدولة، حتى أنه عين أخويها بطريقين للملكية، أحدهما بالإسكندرية، والآخر لبيت المقدس، مخالفا بذلك الرسوم الكنسية المقررة؛ وكان من أثر نفوذها أن سياسة التسامح الديني التي اتبعت في عهد المعز، قويت أيام العزيز، وتمتع النصارى واليهود بكثير من الحريات والنفوذ. وقد كان لهذا المنبت أثره بلا ريب في نفس الحاكم، وتكوين عقيلته الدينية كما سنرى. ولم يترك العزيز من البنين سوى الحاكم، ولكنه ترك - من زوجة النصرانية أيضا - ابنة تدعى سيدة الملك، كانت أكبر من أخيها ببضعة أعوام؛ وكانت حازمة عاقلة ذات نفوذ.

ومنح العزيز ولاية عهده لابنه الحاكم مذ كان طفلا في الثامنة (شعبان سنة 383) وبويع بالخلافة يوم وفاة أبيه. وقد انتهى إلينا وصف لبعض المناظر التي أحاطت بتولية الخليفة الصبي، وهي مناظر شائقة مؤسية معا، نقلها إلينا المسبحي، وهو مؤرخ معاصر ووزير الحاكم وصديقه، نقلا عن الحاكم ذاته؛ قال: (قال لي الحاكم، وقد جرى ذكر ولده العزيز: يا مختار، استدعاني والدي قبل موته وهو عاري الجسم، وعليه الخرق والضماد، فاستدناني إليه وقبلني وضمني إليه، وقال: وا غمي عليك يا حبيب قلبي؛ ودمعت عيناه. ثم قال: امض يا سيدي والعب، فأنا في عافية، قال: فمضيت، والتهيت بما يلتهي به الصبيان من اللعب إلى أن نقل الله سبحانه وتعالى العزيز إليه. قال: فبادر إلي برجوان، وأنا في أعلى جميزة كانت في الدار، فقال: انزل ويحك، الله الله فينا وفيك؛ قال فنزلت، فوضع العمامة بالجوهر على رأسي وقبل لي الأرض، وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، قال: وأخرجني حينئذ إلى الناس على تلك الهيئة، فقبل جميعهم لي الأرض وسلموا علي بالخلافة)

وقع هذا المنظر في مدينة بلبيس حيث أدرك العزيز مرض موته كما قدمنا؛ وفي صباح اليوم التالي - وهو يوم الأربعاء 29 رمضان - سار الحاكم إلى عاصمة ملكه في موكب فخم تظلله أبهة الخلافة، رهيب يظلله جلال الموت؛ وأمامه جثة أبيه، وقد وضعت في عمارية برزت قدماه؛ وعلى رأسه المظلة يحملها ريدان الصقلبي، وبين يديه البنود والرايات؛ وقد ارتدى دراعة مصمت وعمامة يكللها الجوهر، وتقلد السيف، وبيده رمح. فدخل القاهرة عند مغيب الشمس في هذا الحفل الرهيب الفخم؛ وفي الحال أخذ في تجهيز أبيه؛ فتولى غسله قاضي القضاة محمد بن النعمان، ودفن عشاء إلى جانب أبيه المعز في حجرة القصر. وفي صباح اليوم التالي، أعني يوم الخميس، بكر سائر رجال الدولة إلى القصر، وقد نصب للخليفة الصبي في الإيوان الكبير، سرير من الذهب، عليه مرتبة مذهبة؛ وخرج من القصر إلى الإيوان راكبا وعلى رأسه معممة الجوهر، والناس وقوف في صحن الإيوان فقبلوا الأرض ومشوا بين يديه حتى جلس على عرشه، وسلم عليه الجميع بالإمامة وباللقب الذي اختير له وهو: (الحاكم بأمر الله) ونودي في القاهرة والبلدان، أن الأمن موطد والنظام مستتب، فلا مؤونة ولا كلفة، ولا خوف على النفس أو المال

وأوصى العزيز قبل موته بولده ثلاثة من أكابر رجال الدولة هم برجوان الصقلبي خادمه وكبير خزائنه؛ والحسن بن عمار الكتامي زعيم كتامة، أقوى القبائل المغربية وعماد الدولة الفاطمية منذ نشأتها؛ ومحمد بن النعمان قاضي القضاة. وعهد بالوصاية الفعلية إلى الأول والثاني. وكان برجوان، ويسمى أبا الفتوح، خصيا صقلبيا، ربي في القصر، واصطفاه العزيز بالله وولاه أمير القصر، وخلع عليه لقب (الأستاذ) وهو من ألقاب الوزارة في الدولة الفاطمية، وعهد إليه بمهام الأمور، وأولاه ثقة عظيمة. وكان ابن عمار رجلا قوي الشكيمة، وافر العصبة؛ ولكن برجوان كان بظروفه وطبيعة منصبه أوثق اتصالا بالخليفة الصبي، وأشد تأثيرا فيه ومقدرة على توجيهه؛ فلم يلبث أن نشب الخلاف بين الرجلين واشتدت المنافسة بينهما، وقام ابن عمار بتدبير الشئون بادئ بدء،

وتلقب بأمين الدولة، وهو أول لقب من نوعه في الدولة الفاطمية؛ واقتسم الكتاميون من صحبة وشيعته السلطات والمناصب، وعاثوا في شئون الدولة ومرافقها؛ وحرضه بعضهم على قتل الحاكم والتخلص
منه فأبى استصغارا لشأنه أو رهبة من العواقب؛ ولكن برجوان كان ساهرا يرقبه ويتلمس الفرص لمناوأته وإسقاطه، ويدس له الدسائس، ويؤلب عليه زعماء الجند الناقمين عليه؛ فلم يمض عام حتى تفاقمت الصعاب والأحقاد من حوله؛ ووثب جماعة من الزعماء والجند بتحريض برجوان بالكتامين وأثخنوا فيهم، فتوارى ابن عمار، واضطر أن يترك الميدان حرا لمنافسه، عندئذ قبض برجوان على زمام الأمور، واستأثر بكل سلطة حقيقة داخل البلاط وخارجه، واختار لمعاونته كاتبا نصرانيا يدعى فهد ابن إبراهيم ولقبه بالرئيس، وفوض إليه النظر والتوقيع والمراجعة. ولزم برجوان الحاكم، يقيم معه بالقصر، ويسهر على توجيهه، ويستأثر لديه بكل صلة ونفوذ؛ واستبد بكل أمر في الدولة؛ واستقرت الأمور حينا
واستمر برجوان يتبوأ ذروة القوة والنفوذ زهاء عامين ونصف؛ وفي عهده وقعت عدة ثورات وقلاقل في الشام والمغرب، وحاول بعض الحكام والزعماء المحليين الخروج على حكومة القاهرة؛ فسير برجوان جيشا إلى الشام بقيادة جيش بن الصمصامة، فقاتل الثوار في عدة مواقع، وأخضعهم تباعا، واستعاد دمشق؛ واشتبك مع الروم (البيزنطيين) في عدة معارك في شمال الشام، وكانوا قد انتهزوا فرصة الاضطراب للإغارة على الثغور وتأييد الخوارج؛ فهزمهم وردهم إلى الشمال. وسير برجوان جيشا آخر إلى برقة حيث اضطرمت الثورة، فرد النظام إليها، واستعمل عليها يانسا الصقلبي. وكانت الدولة الفاطمية منذ نشأتها تعتمد على تأييد القبائل المغربية ذات البأس والعصبية؛ ويستأثر زعماؤها بمعظم مناصب القيادة والحكم والأدارة حتى عهد المعز لدين الله؛ ولكن ولده العزيز مال إلى اصطناع الموالي من الترك والصقالبة فقدمهم في القصر وفي الجيش، وبدأت المنافسة من ذلك الحين بينهم وبين الزعماء والمغاربة وكانت سياسة برجوان ترمي إلى تحطيم نفوذ الزعماء المغاربة، ونزعهم عن الولايات والثغور؛ وتوزيع السلطة على نفر من أصدقائه الصقلبيين يستطيع أن يعتمد على ولائهم وأن يسيرهم طبق أهوائه؛ فعين إلى جانب يانس، طائفة منهم لحكم الولايات والثغور، مثل ميسور الخادم والي طرابلس، ويمن الخادم والي غزة وعسقلان، وعين بالقصر عددا كبيرا منهم وجنح الروم بعد هزيمتهم إلى السلم، وعقدت بين بلاط القاهرة والإمبراطور بزيل الثاني قيصر قسطنطينية أواصر الصداقة والمهادنة
مدى حين
ماذا كان الموقف الحاكم خلال هذه الفترة الأولى من خلافته؟ لقد كان برجوان بلا ريب يحجبه ما استطاع عن الاتصال برجال الدولة وبشئونها، ويدفع به ما استطاع إلى مجالي اللهو واللعب؛ وكانت أم الحاكم وهي نصرانية كما قدمنا، تشهد ولدها ينمو ويترعرع في ظل هذه الوصاية الخطرة عاجزة عن التدخل لحمايته أو توجيهه، لأن برجوان لم يفسح لها أي مجال للتدخل في شئون الدولة. غير أن الحاكم كان يشعر رغم حداثته بخطورة المنصب الذي يتبوأه؛ ولم يلبث أن استرعى سير الأمور اهتمامه، ولم يلبث أن فطن إلى موقف برجوان، واستئثاره بالسلطة واستبداده بالشئون. ولما بلغ برجوان ذروة السلطان والنفوذ، كان الحاكم قد أشرف على الخامسة، وأضحى الطفل فتى يافعا شديد اليقظة والطموح. وكان برجوان يذهب في طغيانه وعسفه إلى حدود بعيدة، ويثير حوله ضراما من البغضاء والحقد، ويحفز بذلك خصومه داخل البلاط وخارجه إلى العمل على تقويض سلطانه ومكانته. واعتقد برجوان أن الجو قد خلا له، فانكب على ملاهيه وملاذه، يقضي معظم أوقاته في مجالس الأنس والغناء والطرب، ولم يفطن برجوان من جهة أخرى إلى ما وقع في نفس الأمير الفتى ومشاعره من التبدل والتطور، فاستمر يعامله معاملة الطفل المحجور عليه؛ وذهب في استهتاره إلى مدى شعر الحاكم أنه لا يتفق مع مقامه ومكانته، وربما يذهب برجوان إلى حد الإساءة إلى الحاكم ونقض أوامره، بل إلى حد إهانته والتنكر له، ويقص علينا المقريزي منظرا من هذه المناظر التي اجترأ فيها برجوان على إهانة سيده خلاصته: (أن الحاكم استدعاه ذات يوم وهو راكب معه، فسار إليه وقد ثنى رجله على عنق فرسه، وصار

باطن قدمه وفيه الخف قبالة وجه الحاكم)، ونحو ذلك من المناظر والإهانات المثيرة أحفظت نفس الحاكم لهذا الضغط وهذا الاجتراء، فأضمر التخلص من ذلك الوصي الطاغية، وربما تأثر في هذا العزم بتحريض بعض خصوم برجوان ولا سيما ريدان الصقلبي حامل المظلة وخصمه القوي داخل البلاط؛ ولكن لا ريب أن الحاكم كان قد بدأ يومئذ يثور لسلطته المسلوبة، وأخذت تتفتح في نفسه الوثابة تلك الأهواء العنيفة المضطرمة التي بلغت ذروتها فيما بعد. وعلى أي حال فقد حكم على برجوان بالموت؛ وفي ذات مساء بعث إليه الحاكم للركوب معه، وانتظره في إحدى حدائق القصر ومعه ريدان حامل المظلة، فوافاه برجوان هنالك؛ وبعد أن سلم سار الحاكم حتى خرج من باب الحديقة، فوثب ريدان عندئذ على برجوان فطعنه في عنقه بسكين، وانقضت عليه جماعة كانت قد أعدت للفتك به، فأثخنوه طعنا بالخنجر، واحترزوا رأسه، ودفنوه حيث قتل (ربيع الثاني سنة 360 - 1000م) ولما عاد الحاكم إلى القصر كان خبر مقتل برجوان قد ذاع على لسان خادمة عقيق، فاضطربت البطانة، وأشرف الحاكم عليهم ليرى الخبر؛ وصاح فيهم ريدان: (من كان في الطاعة فلينصرف إلى منزله ويبكر إلى القصر المعمور) فانصرف الناس منزعجين، وفي نفس المساء اتخذ الحاكم عدته لتوطيد الأمور، واستدعى الرئيس فهدا، وهدأ روعه وأقره في منصبه؛ وصودرت أموال برجوان وكانت عظيمة طائلة، واختفى أصدقاؤه من الميدان

وهكذا ظفر الحاكم لنحو أربعة أعوام فقط من ولايته بأن يطوي مرحلة الحداثة، وأن يستخلص السلطة لنفسه، وأن يبدأ عهد الحكم الحقيقي. وكان الحاكم يومئذ في نحو الخامسة عشرة من عمره، مضطرم النفس والأهواء، ولكن وافر الذكاء والجرأة والعزم. فبدأ بتعيين مدبر للدولة مكان برجوان، ووقع اختياره على الحسين بن جوهر الصقلي. وكان العزيز قد ولاه القيادة بعد وفاة أبيه جوهر، واصطفاه وأولاه ثقته وعطفه، فلما توفي العزيز قلد الحسين ديوان البريد والإنشاء؛ ولما قتل برجوان لم يكن بين رجال الدولة من هو أرفع منه مقاما وأجدر بتولي الشئون العامة؛ فاستدعاه الحاكم وخلع عليه، وقلده النظر في أمور الدولة والتوقيعات، ولقبه في سجل التعيين (بقائد القواد) وعكف الحسين على تدبير الشئون بمعاونة خليفته الرئيس فهد، وأمر أن تبلغ إليه المهام والظلامات في مكانه بالقصر وألا يقصد أحد داره، وألا يخاطب بغير لقبه الرسمي (القائد) دون تعظيم أو تفخيم، وألا يمنع أحد من مقابلة الحاكم أو الاتصال به؛ وغدا الحسين بن جوهر وصهره عبد العزيز بن محمد بن النعمان، الذي خلف أباه في منصب القضاء، أعظم رجلين في الدولة؛ واستمر الحسين يدبر الأمور مدى أعوام حتى تغير عليه الحاكم كما سيأتي

وتناول الحاكم إدارة الدولة العليا بيديه؛ ونظم له مجلسا ليليا يحضره أكابر الخاصة ورجال الدولة، وتبحث فيه الشئون العامة؛ وكانت هذه أول ظاهرة لهيام الحاكم بالليل والتجوال في

ظلماته. بيد أنه أبطل مجلسه الليلي بعد حين. وتوفي جيش ابن الصمصامة وإلي الشأم، فعين الحاكم مكانه فحل بن تميم، ولما توفي لأشهر من ولايته عين مكانه علي ابن فلاح؛ وكان اتجاه الحاكم يومئذ نحو إقصاء الأتراك والصقالبة وتمكين المغاربة، كما كان الشأن أيام جده المعز، ولعله كان يقصد في ذلك أيضا إلى هدم سياسة برجوان في اصطفاه الصقالبة. ووفد عليه ولد جيش بن الصمصامة يحمل وصية أبيه التي يوصي فيها بجميع أمواله للحاكم، ويحمل إليه الأموال الموصى بها، وكانت تبلغ نحو مائتي ألف دينار بين نقد متاع، فقرأ الحاكم الوصية ورد المال إلى أهله؛ ودلل بذلك على صفة من أخص صفاته، هي العفة عن مال الرعية، والزهد في المال بصفة عامة؛ وسنرى أنه يدلل على هذه الخلة في مواطن كثيرة

للبحث بقية
النقل ممنوع
محمد عبد الله عنان
المحامي
صورة في المرآة
للأستاذ محمد فريد أبو حديد
إن كل شيء ممكن ولا سيما في هذه الأيام. وليس لأحد أن يكذب إمكان حدوث شيء

بعد أن شهد هذا العصر ما شهد من صنوف المخترعات والمبتدعات. فمن ذا الذي كان يحلم أن الإنسان قد يكون جالسا إلى مكتبه بالقاهرة، فيسمع موسيقى دار الأوبرا في باريس أو فينا؟ وينصت إلى نجوى النظارة وتصفيقهم، حتى كأنه جالس معهم هناك يسمع ما يسمعون ويشهد ما يشهدون؟ وما هي إلا خطوة واحدة ثم يستطيع الإنسان أن يسمع ويرى في آن واحد. فيتيسر له عند ذلك أن يرى بعينيه أهل باريس أو فينا أو سواهما، وهم يتمايلون للموسيقى ويعجبون بالراقصة أو المغنية، وأن يرى المسرح بما فوقه من الفتن الشهية، ولن يحس الناس عند ذلك بوجود المسافات ولا بحدود الدول والبلدان. وهكذا أرجو إذا أنا وصفت للقراء ما أوصلني إليه الدأب، ومكنني منه الدرس من الاختراع، ألا يكذبني ما كذب، فما غرابة قصتي هذه بمنقصة من قدرها، إذا صارت الحقائق أعجب من صور الخيال، وأصبح إدراك المشاهد أعسر على الذهن من تصور الخيالات، فبينا يرى الإنسان الآلة المحدثة بين يديه حقيقة ماثلة ملموسة إذا به يراها عند غاية الاستعصاء والغموض والتأبي

ولقد وفقني الله لاختراع آلة عجيبة، ولكنها من مثل تلك الآلات المحدثة التي ذكرتها آنفا تراها وتلمسها، وتؤمن بأنها حيالك ماثلة موجودة. ثم تحار في معرفة كنهها والغوص إلى موضع سرها. هي مرآة لا أكثر ولا أعظم، ولا يختلف ظاهرها عن المرآة المعتادة إلا في أنه يحيط بها إطار به لولب مختلفة لتحريكها وتحديد موضعها. ولكنها في حقيقتها فذة فريدة، إذ أنها لا تنقل إلى الرائي صورة وجهه إذا نظر إليها، بل لقد يظهر له فيها إذا وضعها أمام عينيه شكل شخص آخر، أو شكل بعض الحيوان، أو شكل كائن آخر من الكائنات، ولعلها تفزع من لا عهد له بها ولا دراية له بسرها؛ فقد تنظر إليها حسناء لترى هل دهان شفتيها لا يزال هناك لم تخطفه الشمس ولم يمحه بنان النسيم، فترتاع إذ تجد المرآة تبرز لها صورة كريهة كصورة قرد مثلا، أو كصورة عجوز شوهاء. وقد ينظر إليها فتى من الفتيان ليتحقق من أن سحر عينيه لا يزال على عهده به، وأن موضع رباط رقبته

لا يزال حيث رآه آخر مرة في آخر مرآة مر بها من تلك الزجاجات المنصوبة على جوانب الحوانيت والدكاكين الكبرى فتظهر له صورة أخرى مثل صورة فتاة لعوب، أو صورة تيس أو حيوان آخر مما تعارف الرجال على كراهة التشبه به والظهور في مظهره. ولكن الإنسان إذا عرف إن هذه المرآة لا تظهر للرائي صورته، لم يلتمس أن يرى فيها صورة نفسه، وبذلك يحفظ نفسه من الألم الذي قد يصيب من يجهل أمرها وسرها. فإن سر تلك المرآة أنها لا تلتقط إلا أشعة الضوء القديمة التي مضى على سيرها آلاف السنين على الأقل. وهذا الأمر يحتاج إلى شيء من التفسير، ولكني سأشرحه شرحا يسيرا حتى لا أخرج بالقارئ طويلا عن صلب القصة

أنت تعلم أن المادة لا تفنى، وأن الطاقة لا تنعدم، فهذا يعرفه كل من درس أوليات العلم. وتعلم أن شعاع النور طاقة، والنور على ذلك لا ينعدم. فإذا سار الشعاع الضوئي في الفضاء فأنه يظل سائرا إلى أبد الدهر إلا إذا تحول إلى طاقة أخرى. وتعلم أن الإنسان يرى الأشياء لأن الضوء يقع عليها ثم ينعكس منها إلى عينه فيحمل صورة الأشياء إلى العين. فإذا سار الشعاع المنعكس إلى أبعد الجهات أمكن أن يحمل صورة الأشياء إلى تلك الجهات البعيدة. والضوء كذلك يسافر بسرعة هائلة، فهو يحمل الصور بتلك السرعة، ولكن المسافة إذا كانت بعيدة جدا لم يستطع الضوء أن يقطعها إلا بعد مدة قد تكون طويلة، فإن شعاع الضوء يأتي إلى الأرض من بعض الكواكب في أعوام وقرون، ومنها ما يصل إلى الأرض من كوكب بعيد في آلاف السنين

هذه كلها مقدمات، وهناك بعد ذلك أمر آخر، وهو أشد استعصاء على الفهم، وذلك أنني قد كشفت أن الضوء لا يسير في خط مستقيم كل الاستقامة، بل إنه منحن قليلا، فإذا سار منحنيا على هذا النمط تكونت من سيره دائرة، لأن الدائرة تتكون من خط منحن انحناء منتظما سائرا على نمط واحد. فإذا سار شعاع فوقع على شيء ثم انعكس إلى الفضاء، فأنه يسير حاملا صورة الشيء الذي وقع عليه، ويستمر في سيره دائرا حول الأرض حتى يعود إلى موضعه، ولا يزال يفعل هكذا أبد الدهر، فإذا استطاع إنسان أن يخترع آلة من خواصها أن تقبض على هذا الشعاع التائه في الفضاء، أمكنها أن تتلقى صورة الشيء الذي انعكس منه ذلك الشعاع

وإذن فالأمر هين، إذا اخترعت مرآة من معدن خاص لا يلتقط إلا الأشعة الضعيفة التي قضت في سيرها في الفضاء أو في دورانها حول الأرض آلاف السنين. ومن شأن هذه المرآة أنها لا تلتقط الأشعة القوية الطازجة، فإن تلك الأشعة تقفز عن سطحها قفزا بغير أن تثبت قليلا لتنعكس عليه، فالذي ينظر إلى تلك المرآة لا يرى فيها شيئا إلا إذا اتفق أن سقط عليها شعاع من تلك الأشعة المعتقة التي تنم عن أشياء الماضي وحوادث الماضي، كما أنها قد تلتقط أيضا أشعة النجوم البعيدة إذا كانت لا تبلغ الأرض إلا معتقة أي بعد آلاف السنين من تركها كواكبها

أخذت هذه الآلة يوما كعادتي كلما خرجت إلى نزهة وذهبت إلى جوار الأهرام لأجول حولها جولة، ولما أتعبني ذلك التجوال جلست أستريح على حجر من تلك الأحجار الضخمة التي قد انفرطت من عقدها، ولم يكن معي كتاب أقطع الوقت بالقراءة فيه، فأخرجت الآلة أنظر فيها وأقلبها في يدي، فقد عودتني كلما نظرت فيها أن أجد صورة مسلية من صور الماضي إذ تلتقط شعاعا من تلك الأشعة القديمة التي تقص علي نبأ حديث قد مضت على وقوعه القرون الطويلة. ولكنها لم تحقق أملي عندما نظرت فيها فلم أنزعج من ذلك، وقلت إن الموضع الذي كنت فيه ليس مما تكثر به الأحداث والقصص. وجعلت أتأمل لون مائها وأحدق في نكتة سوداء عند حافتها لا أقصد من وراء ذلك إلا العبث والتلهي. فلاح لي عند ذلك خيال يتحرك فيها وكان خيالا ضئيلا. فعلمت أن المرآة قد التقطت شعاعا، ولكنه شعاع قوي لم تمض عليه المدة الكافية لإضعافه وتعتيقه، فجعلت أحدق في المرآة حتى استطعت أن أتبين الصورة بشيء من الجلاء

رأيت الفضاء الذي حولي هضبة مستوية ليس عليها شيء غير كوم واحد، فعلمت أن ذلك الشعاع يحمل صورة الهضبة قبل أن تبنى فيها الأهرام الصغرى وعندما كان الهرم الأكبر لا يزال يبنى. وكان الهرم لم يبلغ بعد نصف علوه، وكان يدور حوله جسر من التراب كالحلزون يتضايق كلما ارتفع، وكان على ذلك الجسر ألوف من الناس بعضها صاعد وبعضها نازل تلوح في الصورة كما يلوح النمل في قرية من قراه تتماوج في ترددها بين الجيئة والذهاب تارة تتقارب وأخرى تنتشر، وتارة تجتمع وتارة تتفرق. ورأيت سموطا من تلك الألوف قد اجتمع كل سمط منها عند جبل قد أخذ كل فرد بقبضة منه، وكان وراء كل

سمط جماعة في أيديهم السياط فلا يكاد أحدهم يرى رجلا قد استرخى في عمل حتى يهوي عليه بالسوط، فإذا به يقفز إلى الأمام وقد تشنجت عضلاته وأقبل على العمل عنيفا، وكان كل سمط من هذه السموط يجر بالحبل الذي اجتمع عليه حجرا ثقيلا من تلك الحجارة الضخمة التي نراها اليوم في بناء الهرم، فلا يزال السمط يجرر الحجر حتى يعلو به الجسر الدائر حول البناء ثم يصعد به جانب ذلك الجسر فيدور حوله صاعدا في دورانه حتى يبلغ أعلى البناء فيقربه إلى حافة البناء ويضعه حيث يطلب البناؤون وضعه. فإذا ما بلغ المساكين الذين يجررون الحجر أعلى البناء ووضعوا الحجر وهم يلهثون من التعب انطرحوا على الأرض إعياء يطلبون بعض الراحة ويستردون النفس المنبت، غير أنهم لا يكادون يلمسون الأرض بجنوبهم حتى تلحق بهم جماعة المراقبين فيهوون عليهم بالسياط يمزقون بها جلودهم. فيهب الأشقياء مرتاعين يتلوون من ألم الضرب يجررون أرجلهم بما استطاعوا من السرعة ويهبطون إلى أسفل البناء لكي يعيدوا الكرة فينقلوا حجرا جديدا لبناء هرم فرعون

والحق لقد آذاني ذلك المنظر وتفظعته من شدة قسوته، فهممت أن أضع المرآة حتى لا أرى بقيته، لولا أنني رأيت شيئا أخذ على انتباهي قسرا فلم أجد حيلة في الانصراف عنه أو الانفلات منه. وذلك أنني بصرت بسمط من هذه السموط البشرية قد علا جانب الجسر سائرا في خطاه الوئيدة يحرك حجرا جديدا نحو أعلى البناء، غير أنه ما توسط الجسر حتى هبط عليه حجر أفلت من سمط فوقه إذ تقطعت الأحبال التي كان أصحابه يجررونه بها فوقع الحجر متدحرجا فأصاب في طريقه ذلك السمط الصاعد فدك جماعة منه دكا وحطم أعضاء جماعة أخرى. فتفرق الناجون مرتاعين أيما ارتياع والموت الفظيع في أعينهم الحائرة المذعورة، وسمع صياحهم بعض إخوانهم فما هي إلا لحظة حتى اجتمع حول المكان ألوف من العمال مضطربين هلعين، وفيما هم في ذلك أقبل الرقباء وفي أيديهم السياط فأهووا عليهم من كل صوب لا يبالون أين يقع

السوط منهم، ففر البعض إلى أسفل وتردد البعض قليلا، ثم مضوا إلى أسفل في شيء من التلكؤ، وعادوا إلى حجارتهم يزحزحونها شبرا فشبرا نحو أعلى الهرم فانجلى المنظر عن بقية ضئيلة واقفة حول مكان الكارثة وعن رجل قد ارتمى على أحد الضحايا يبكيه ويطيع فيه قلبا محبا

فخيل إلي أنه أخ قعد لرثي أخاه الفقيد، أو صديق برح به الوجع عندما رأى صديقه يختطف من بين الجموع على هذه الحال المؤلمة، فارتمى عليه يبكيه ويؤدي إليه حق القلب الإنساني في رثاء الصديق الحميم؛ غير أن المقام لم يطل به على ذلك، فقد عاد إليه الرقباء وفي أيديهم السياط، فألهبوا ظهور من بقي حول المكان، وأهووا إليه بالسوط فمزقوا ظهره العاري وهو مكب على جثة صاحبه، فقفز الرجل من الألم، وانتفض انتفاضة كأنما هو وحش أستثير، وأقبل على الذي ضربه من الرقباء، فرفع هذا يده بالسوط ليعيده عليه الكرة فلم يمكنه من ذلك، بل أسرع في سطوة الغاضب وانتزع السوط من بين يده ثم علاه به مرتين، ثم دفعه إلى الأرض فتدأدأ عليها، وكان قريبا من حافة البناء فهو في الفضاء فلم يستقر إلا على سطح الهضبة بعد أن تهشم وتحطم. ثم وقف الرجل على حجر من أحجار البناء متحديا سائر الرقباء، فلم يجرؤ منهم أحد على الاقتراب منه، وعاد الاضطراب إلى مثل ما كان عليه، وأسرع ألوف من العمال مرة أخرى نحو المكان ينظرون إلى الحدث الجديد وينتهزون فرصة للراحة من عملهم المضني. غير أنها لم تكن سوى مدة قصيرة، فإذا الجمع يضطرب في جانب من جوانبه، ثم إذا بالاضطراب يسير خطوة خطوة بين الوقوف، ثم إذا بالجمع ينفرج عن رجل شيخ يسير في تؤدة ووقار، وهو كلما سار في جمع انفرج له وركع من حوله إجلالا وخشوعا، فلقد كان ذلك هو كاهن القوم أتى بأمر الإله (رع)، وأقبل بكلمة الحكمة من (تحوت)، وكان يلبس ثوبا طويلا يظهر من بين الجموع العارية، وقد تدلت على صدره لحية طويلة بيضاء كاللبن، وكان طويل القامة في انحناء يسير بأعلى ظهره، وعلى رأسه منديل يغطي شعره إلى شحمتي أذنيه، وقد لف حوله عصابة تمسك به حول الرأس. فلما صار على قيد ذراع من العامل الثائر وقف وحرك شفتيه ببعض القول ثم رفع يمناه بطيئا نحو الرجل وتكلم كلمات أخرى، غير أن الرجل وقف وقفته الأولى ولم يزل متحديا، وحرك شفتيه ببعض كلمات والغضب باد في عينيه، وجعل ينظر إلى القوم الذين اجتمعوا حوله كأنه يستنصر بهم، فنظر الكاهن الشيخ لحظة نحوه، ثم نظر إلى الألوف الواقفة حوله وتكلم، وجعل يرفع يديه نحوهم في تؤدة ووقار وهو يتكلم. فقضى على ذلك حينا، ثم وقف ونظر إلى الجمع فإذا بحركة تبدأ في الواقفين وتتزايد، ثم ما هي إلا لحظة حتى كان الجمع مضطربا يصيح رافعا أيديه مهدد غاضبا

وهو متجه نحو الزميل المجرم المسكين. فرأيت العامل الشقي ينظر نحو من حوله وهم حانقون يتهددونه ويتوعدونه، وعند ذلك لم يقو على المضي في مقاومته، بل داخله اليأس وتخاذل مضطربا، فنظر الكاهن إليه وجعل يتكلم بكلمات ورفع يمناه مرة أخرى نحوه، فرأيت العامل المسكين يمد يده بالسوط فيسلمه وينزل عن الحجر الذي كان واقفا عليه ويتقدم في ذلة وخشوع نحو الشيخ الكاهن

فتكلم الكاهن مرة أخرى، ونظر نحو الجمع الزاخر حوله في تؤدة ووقار، ثم رفع يده نحوه، فألقى الكل ساجدين، ثم وقفوا خاشعين، ونظروا إلى الكاهن وهو يقبض على يد أخيهم الشقي، ثم نظروا إليه وهو يسير به نحو حافة البناء ويعصب عينيه، وكانوا عند ذلك لا تتحرك منهم يد، ولا تطرف لهم عين، وهم ينظرون إلى رسول الحكمة ونجي الإله ينفذ رغبة (رع) في العدل والرحمة، وتريث الكاهن قليلا، وهو يحرك شفتيه خاشعا بشيء يشبه الصلاة، فلما أتمها دفع العامل الشقي فجأة فقذف به على المنحدر الذي هوى عليه من قبل الرقيب القاسي، وتحطم كما تحطم ذلك الرقيب من قبل

ونظر الكاهن إلى الجمع المحدق به وقال لهم كلمات خروا بعدها للأذقان سجدا؛ ثم قاموا فأشار إليهم أخرى فانصرفوا وتبددوا كما يتبدد السحاب في الريح، فما هي إلا لحظة حتى عادت السموط تنتظم، وتجرر الأحجار نحو أعلى المنحدر صاعدة إلى قمة البناء الهائل ليبنوا لفرعون قبرا جديرا بمجده

وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب، وكنت امتلأ قلبي بما رأيت، فقمت عن الصخرة

التي كنت جالسا عليها ووضعت المرآة في جيبي، وجعلت أعزي نفسي عن وقع ما رأيت بأن أقول لها: (رويدك يا نفس! فما زال الإنسان هو الإنسان)

محمد فريد أبو حديد

الدرر الكامنة

للأستاذ محمد كرد علي

عضو مجمع اللغة العربية الملكي

طبعت عدة كتب في الطبقات والتراجم لأهل القرون الماضية في الإسلام، وإلى الآن لم تطبع تراجم أهل القرن الثامن والتاسع عشر، مع أن تراجمهم عني بها في القرن الثامن ابن حجر العسقلاني المصري المتوفى سنة 852، ووضع تراجم أهل القرن التاسع السخاوي المصري المتوفى سنة 902، وتراجم أهل القرن العاشر قام بتدوينها الغزي الدمشقي المتوفى سنة 1061 وسمى الأول كتابه (الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة)، والثاني (الضوء اللامع لأهل القرن التاسع)، والثالث (الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة)

ومن لطف المولى أن هذه الكتب الثلاثة بقيت في الأرض وظفر بعدة نسخ منها في خزائن الشرق والغرب، لا كأكثر تركة أسلافنا بعثرت وأحرقت وأغرقت وأصابها كل خطب عظيم

ترجم صاحب الدرر الكامنة لألف وثلثمائة وثلاثة وأربعين رجلا وامرأة، تراجم اعتمد في وضعها على من سبقوه في هذا الشأن من رجال التاريخ، أو كانوا ممن عاصرهم وسمع عنهم وأخذ منهم الحديث، أو أخذ مشايخه عنهم. ويغلب على ابن حجر الحديث والعناية برجاله ونسائه، ولذلك ذكر عشرات من المحدثات ممن كن يروين الأحاديث النبوية ويروينها. وترجم لبعض المشهورين تراجم لا بأس بها. ترجم لابن تيمية، ولسان الدين بن الخطيب، والصلاح الصفدي، وابن فضل الله العمري، وابن كثير، والبرزالي، والذهبي، وشيخ الربوة، وأبي الفداء، وابن المطهر الشيعي، وغازان، وابن دقيق العيد، والبدر البلقيني، وابن الوكيل، وابن سيد الناس، وابن نباتة، وابن الحاج، وابن المكرم، والشمس القونوي، وابن الوردي، وابن جماعة، والتاج السبكي، والتقي السبكي، والأردبيلي، وابن الأكفاني، والخطيب القزويني، وابن الزملكاني، وأبي حيان الأندلسي، والقطب الشيرازي، والبازري، والمزي، وغيرهم

وإلى جانب هؤلاء تجد تراجم أناس من الخاملين كبعض المجاذيب والموظفين والطلبة، كأن لسان حال ابن حجر يقول: يجب ألا يحتقر أحد، وأن يدون كل شيء. ولكن هذه الطبقة شغلت فراغا من الكتاب على غير جدوى ومثلهم كثير في كل عصر ومصر، لو تطلعت نفوسنا إلى التعرض لذكرهم لملأنا منها قماطر ودفاتر، والمقصود تدوين سير العظماء ممن كان لهم أثر محمود في علم وعمل. وفي نظرنا أن من أهم من دون المؤلف حياتهم بعد علماء الدين ورجال الأدب أناسا من أرباب الغناء والموسيقى والهندسة والطب، وبهم في الجملة عرفنا روح ذاك القرن، قرن المماليك في مصر والشام، بل مبدأ قرون الانحطاط ومنتهى قرون الارتقاء في الإسلام

يقع القارئ في هذا السفر على الروح الذي سرى في ذاك العصر إلى النفوس فلوثها بلوثات التعصب الذميم. وقد ذكرها المؤلف على الأكثر غير متعرض لجرح أو تعديل فيها. بيد أن القارئ لعهدنا، قد وضع المؤلف أمامه هذه الوثيقة أو الوثائق التاريخية الكافية، تهيئ له أسباب الحكم على ذاك المجتمع الذي فاض بالجور السياسي والجور الفكري. فالجور السياسي غزوات الططر (التتر) من الشرق على الديار الشامية، أي الجزء المتمم للملكة المصرية إذ ذاك، وغزوة بعض شعوب الإفرنج بعض السواحل المصرية حتى افترضها أحد الجورة من المماليك فرصة ليصادر النصارى في مصر ويستصفي ما في بعض كنائسهم من الجواهر والمعادن الكريمة أو يخربها حبا في التخريب وإبلاغا في النكاية على زعمه. هذا هو الجور السياسي. أما الجور الفكري فتحامل الموسومين بالدين على من بيت منهم بعض نزعات قيل إنها مخالفة للشريعة فكان جزاؤهم القتل. وما نظن أكثر تلك التهم مما يصح أن يتهم به صاحبه من أنه جنى بما قال على الدين إذا تدبرنا ما لاقاه شيخ الإسلام ابن تيمية من متعصبة العلماء في عصره في مصر والشام، وهو النابغة الذي عقمت القرون عن أن تلد أمثاله بعلمه وعقله وإخلاصه على ما دون ذلك ابن حجر في هذا الكتاب. فكانت ترجمته له أحسن

ترجمة فيه لأول عالم نابغ في أول القرن
ثم إن من نظر في كتب المتأخرين وكتب المتقدمين يجد فروقا كثيرة بين الأولى والثانية: فروقا في الأسلوب وفي المكتوب؛ وهل التاريخ إلا مرآة العصر الذي يكتب فيه، وروح صاحبه الذي يمليه؟ وما كان لابن حجر أن يكتب في التراجم ويجود إجادة ابن خلكان في وفيات الأعيان مثلا، ولا للسيوطي في مؤلفاته التاريخية أن يجود تجويد الكندي صاحب
كتاب ولاة مصر وقضاتها؛ وهكذا قل في الزمن الذي بدأت فيه الشروح والحواشي في الكتب الدينية، وصار من يسلخ من كلام غيره أو يمسخه وينسخه يعد مؤلفا فيزيد عدد الأسفار المحفوظة في الخزائن على غير فائدة جليلة
تمنيت في سنة 1328هـ (1910م) في مجلة المقتبس، وقد درست هذا الكتاب في نسخة خطتها أنامل إبراهيم البقاعي أحد أعلام عصره - الذي قال في نسخته: وكان فراغي من هذه في 17 شوال سنة 859 بمنزلي بحارة بهاء الدين في القاهرة - تمنيت لو يقدم رجل منا فيطبع هذا الكتاب، وقلت يومئذ لو لم يكن في هذا الكتاب سوى ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية، لكان كافيا في طبعه؛ ولكن قومي شغلتهم الشواغل، وأصيبوا بالإهمال، فتهيأ لطبعه صديقي العلامة كرينكو أحد علماء المشرقيات من الألمان، فطبعه في أربعة مجلدات في أكثر من ألفي صفحة معارضا له على نسخ مهمة، وذلك على يد مجلس يد دائرة المعارف العثمانية في حيدر آباد الدكن من ممالك الهند. وقد اعتادت هذه الدار أن تطبع من كتب العرب كل مفيد، فأحيت كتبا في الحديث والفقه والأصول واللغة والأدب والتاريخ والفنون، ونشرت حتى الآن نحو ثمانين كتابا منها ما دخل في بضعة مجلدات ضخمة، ومما طبعت لابن حجر مؤلفنا الذي نحن بصدد الكلام على كتابه (لسان الميزان) و (تهذيب التهذيب) و (تعجيل المنفعة في رجال الأئمة الأربعة) الخ
هذا ولا يسعنا إلا أن ننوه بالناشر الغيور على العلم، وقد رأيناه جود معارضة النسخ وإثبات الصحيح من النصوص على عادة علماء المشرقيات في تدقيقهم إذا أرادوا طبع كتب العرب؛ وكم لهم من أياد بيضاء علينا لا ينكرها إلا منكر الجميل وغامط العارفة. وحبذا لو شفع الناشر هذا الكتاب الجليل بالفهارس المنوعة التي تسهل على العلماء الأخذ منه، فإن كتابا بلا فهرس تقل فائدته إذا كان من كتب المراجع؛ وعلمت أن الناشر وضع الفهارس والطابع تأخر في طبعها، وما أدري ما اعتذاره
وقد نشر السيد سالم الكرينكوي - كما دعا نفسه - كتاب التيجان لوهب بن منبه، وأخبار اليمن لعبيد بن شرية، وحماسة ابن الشجري، أتكلم عليهما في فرصة أخرى وأكتفي هنا بشكره، وأن أوجه نظره إلى كتاب آخر لابن حجر لا يقل عن الدرر الكامنة في الفائدة، وهو (إنباء الغمر في أبناء العمر) وفي الخزانة الظاهرية بدمشق مسودة هذا المخطوط بخط
مؤلفه، وهو تعليق كما قال فيه جميع حوادث الزمان منذ مولده سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة، وهلم جرا مفصلا في كل سنة أحوال الدول ووفيات الأعيان، مستوعبا لرواة الحديث خصوصا من لقيه أو أجاز له. وقد امتد هذا الكتاب إلى سنة خمسين وثمنمائة، وجاء من ذيل عليه، كما جاء من اختصر له الدرر مثل ابن المبرد وجلال الدين السيوطي الذي عرف بالولوع باختصار الكتب
القاهرة
محمد كرد علي
الفن والطبيعة
بقلم نظمي خليل
ونعني بالطبيعة العالم المرئي الذي يقع تحت بصرنا، ولسنا نبغي من وراء تعريفنا . . للطبيعة تحديدها أو تبسيطها، ولكنا نريد أن نعرف هل هناك تباين بين العالم المرئي وبين الفنان، وهل هناك اختلاف جوهري بين جمال العالم المرئي، وذلك الجمال الذي نراه ونحس به عندما ننظر إلى لوحة مصور أو تمثال مثال؟
إذا أجبنا عن هذا السؤال بالإيجاب، وهو الحق والصواب كما اعتقد - رأينا أنفسنا مضطرين إلى أن نشرح وظيفة الفنان الذي يقف بيننا وبين الطبيعة. فلو وقف الفن عند سرد مناظر الطبيعة، أو اقتصر على التقاط مناظرها وصرها كما هي، لرأينا آلة

التصوير تسرع إلى انتزاع مكانة التصوير. ولكن الحقيقة أن الفن ليس تمثيلا للطبيعة، ولكنه تفسير لها. ولسنا نغالي إذا قلنا إن الفن يبتدئ حيث يترك الفنان صحبته القوية للطبيعة، بعد أن يشيع في جوها أنغاما من عمله الخاص تبعا لشعوره الشخصي وذوقه الموسيقي. فالطبيعة معين لن ينضب للفن، - وهي اليوم - كما كانت، وكما ستبقى أبدا - أكبر موح له بروائع الحسن والجمال. ولكن القوانين التي تتحكم في عمل الفن منفصلة تماما عن قوانين الطبيعة. فإذا كانت النغمة التوافقية في موسيقى الرعاة عملا فنيا جليلا، فذاك لأن بيتهوفن لم يحاك نغمات الطبيعة تبعا لشروط الموسيقى وقوانينها، وأفصح عن تلك العواطف الخاصة التي أثارتها فيه صحبته القوية للطبيعة في أنغام سامية، كانت من وحيه وإلهامه، ثم وجهت في هذا الطريق الموسيقى بواسطة المهارة الفنية التي هي أصيلة في كل عمل فني. . .

يقول بعض الناس عن مهمة الفن في ذا العالم هي أن يكمل ما في الطبيعة من نقص. وقد يفهم البعض منهم أن الفن يأتي بأشياء ليست في الطبيعة، أي أنه يزيد في مواد الطبيعة الأساسية. ولكن هذا الفهم خطأ، وهذا الظن إثم وجور على الطبيعة. فليس لدى الفن ما يجود به على الطبيعة من روائع المناظر وعجائب الآثار. . وليس لدى الفنان شيء جديد. ولكن لديه شيئا واحدا، وهو الذي يخدع هؤلاء البسطاء، فيتوهمونه زيادة أو جديدا، هذا الشيء الذي يبدو جديدا هو الحصر أو التحديد لمناظر الطبيعة ومظاهرها. فقد يرى إنسان

نهرا يجري فلا يحس إحساسا كاملا بروعة مياهه وقوة تياره، وما على شاطئيه من رمال ونباتات أو غابات وصخور. قد لا يفطن الناظر إلى هذا النهر للجمال المختبئ في هذه المناظر الطبيعية الفسيحة الضخمة الهائلة. فينصرف عن النظر إليها إلى صورة رسام أو مصور ماهر قد صور هذا النهر وهو يتدفق ويتغلغل في الأحراج والجبال وليس معنى هذا أن النهر الجاري أقل جمالا وروعة من صورة الرسام، لا، بل إن الناظر نفسه لم يفطن إلى هذا الجمال الأصيل في تلك المناظر الطبيعية العظيمة، لأنه جمال متشعب فسيح. فلما جاء الفنان وحصره في لوحته الصغيرة، أمكنه أن يشعر به، وأن يقف على أسراره الدفينة؛ ولو أمكن الرائي أن يدرك الجمال الطبيعي في مظهره الطبيعي لوجده جمالا خالصا عبقريا. ولكن عين الإنسان لا تستطيع أن تأخذ النهر الجاري من منبعه إلى مصبه، أو أن تلقي نظرة كاملة على الجبل الشامخ من قمته إلى سفحه. فإن حاولت ذلك لحقها الكلل والملال، وفضلت النظر في الصورة على التطلع إلى المرئي ذاته مهما يكن جماله وروعته

هذا هو الشائع بين الناس. ومن أجل هذا قيل إن الفن يكمل ما عجزت عنه الطبيعة، والحقيقة أن الفنان لا يزيد شيئا على ما في الطبيعة من ثروة وغنى، وإن كان يحصر هذه الثروة ويبرزها في صورة جميلة ومنظر بهي. . .

هذا شيء، والشيء الآخر هو أن الفن ليس محاكاة للطبيعة أو للحياة، ولكنه خلاصة ما في الطبيعة والحياة

فالفن قد يحاكي الطبيعة، وقد يحاكي الحياة، ولكنه لن ينسخ من الطبيعة أو الحياة صورا متشابهة متطابقة، فهو محاكاة وليس نسخا. والفرق بين المحاكاة والنسخ هو أن الفنان الذي يحاكي الطبيعة يأخذ منها ما يجده ملائما لفنه، أي ينتقي أروع ما فيها من الآثار، ثم يسلط عليها قوانينه الفنية فيلم أجزاءها ويعطي لها الوضع المناسب الجميل، فتبرز للرائي جديدة ضافية في حلل الجدة والإبداع

أما النسخ، فهو صورة طبق الأصل للطبيعة. ولو كان الفن نسخا للحياة لما أحسسنا بعظمة الفن الأصلية وسحر قوته الدفينة، ولجاء ثقيلا مضطربا مشوها كالحياة ذاتها. ولما وجدنا فيه هذا الشعور الخفي الذي يسكن آلامنا، ويريحنا من آلام الحياة وعنت الأيام. بل لما

اعتبرنا الفن مأوى لنا نلجأ إليه كلما أثقلتنا متاعب الحياة وضقنا بمطالبها ذرعا، ولما كانت لنا حاجة ماسة إليه. فلو كان الفنان يقدم لنا جبلا كالجبل الذي نتسلقه، أو نهرا كالنهر الذي نعبره، أو مرعى مخضوضرا قد انتثرت فوقه الأغنام والمواشي، كتلك المراعي التي نراها كل يوم في قرانا، لما اهتززنا لصوره، ولما أدركنا لها سر أو معنى ولو كان الفن يصور لنا حادثة يومية، أو عملا من أعمالنا العادية التي نلامسها كل يوم دون أن يخلع عليها شيئا من شعوره وشخصيته، لما شعرنا بحاجة الحياة إليه، ولما

عملنا على نموه وازدهاره واكتفينا بالتاريخ
ولكن الفن لا يقدم لنا كل ما في الطبيعة ولا كل ما في الحياة، ولكنه يختار أروع ما في الطبيعة، وأجمل ما في الحياة، ثم يقدم لنا هذه في شكل رائع جذاب، وفي صورة فنية جميلة
هذا هو السبب الذي من أجله نلجأ إلى الفن ونهرع إليه كلما أثقلتنا الحياة أو ثقلت علينا الطبيعة. فنحن لا نعمل في هذه الحالة أكثر من أن نتخلص من بعض هذه المنغصات أو الأشياء الثقيلة الجافة التي يتجاهلها الفن، ولا يقف عندها أو يأبه لها والفن لا يختار في الغالب موضوعه من الحياة الظاهرة، أو من تلك المرئيات التي تلوح للعين في كل يوم، ثم تختفي وكأنها لم تكن، وإنما يختار موضوعه من قلب الطبيعة، ويتخذ مادته من لب الحياة
فالفنان العظيم حقا هو الذي ينفذ إلى الحياة الداخلية، وهو الذي يتغلغل في أعماق الطبيعة، ويقف على كامن أسرارها ويبرزها للعين والحس في صورة فاتنة أخاذة فهو لا يصور كل ما يحس به أو يقع عليه بصره، وإنما يفكر كثيرا فيما يبدعه للناس. فلا يختار إلا ما كان عميقا في النفس، أصيلا في الطبيعة. وهو في عمله هذا يخالف المدنية كل المخالفة، لأن المدنية تطور الحياة الظاهرية، الحياة الحسية؛ أما الفن فهو تطور لحياتنا الداخلية. فهو يتصل بالقلب الإنساني والفكر الإنساني، أما المدنية فتتصل بأعمال الإنسان وأحداثه في هذه الحياة المائجة الصاخبة. لذلك كان الفن أصيلا في أصوله ثابتا في جوهره، وكانت المدنية سريعة التغير، كثيرة التباين والاختلاف. . .
وليس معنى هذا أن الفن جامد محافظ، عدو للتطور، ولكنه في الحقيقة في تغير دائم، وإن خفي عنا مظهر هذا التغير لعمقه وبعده عن إدراكنا الحسي المجرد. . .
نظمي خليل
هل تدين الإغريق
للأستاذ دريني خشبة
لا نحسب أن أمة من الأمم شذت عن قانون التدين فلم تتخذ آلهة تعبدها وتعنو لها، وتلتمس منها البركات، أو على الأقل، إلها تفزع إليه كلما مسها ضر، أو حز بها أمر. والإغريق، ككل الأمم، كانت لهم آلهتهم ومعابدهم وقديسوهم. وقد لا نستطيع أن نحصر الأقوال المتضاربة في حقيقة تدينهم، وهل كانوا، كالأمم السامية مثلا، يستغرقهم هذا التدين، ويغمر أفكارهم وأعمالهم؟
فالمشهور عن الأجناس الآرية أنهم قوم آداب رفيعة وفلسفة، وبذلك امتازوا من الساميين المتدينين، ومن المغول وأربي الهنود المتقشفين. على أن الإغريق، من وجهة الدين، ينقسمون إلى فئتين، إن لم يكن أكثر؛ فهذه الطبقة المستنيرة المثقفة، التي ورثتنا تلك الثروة الطيبة من الشعر والأدب والفلسفة والتاريخ والفنون، قد كان لها وجهة نظرها الخاصة بالنسبة إلى الدين.
فلم يكن هوميروس مثلا يعتقد في آلهة اليونان مثل ما يعتقد هسيود؛ ولم يكن بندار كذلك، يعتقد ما يعتقده أرفيوس أو تؤمن به الشاعرة سافو. وقد أثبت البحث أن هوميروس كان ينظر إلى هذه الجمهرة من أرباب اليونان، ورباتهم، كما ننظر نحن إلى أشخاص درامية ازدحمت بها المثيولوجيا اليونانية، وقدسها الشعب، فرأى أن يستمد منها هذا الخيال الحلو الساذج، ليكون منه مادة ملاحمه، وليضفي من هذا الخلود السماوي، على فناء تلك البشريات الهالكة؛ ولم يثبت أنه آمن بشيء منها. وذلك عكس ما ثبت من إيمان هسيود، واحترامه الشديد لجميع الأرباب اليونانية. نقرأ ذلك في مواضع كثيرة من قصيدته الخالدة (الأرجا ومن درته العجيبة (الثيوجونية بل إن من الإغريق من أنكر هذا التهريج الميثولوجي، وكفر بكل الثيوجونية اليونانية؛ وهذا يوربيبيديز فخر أدباء اليونان وشيخ شعرائها، قد كان من أشد الملحدين سخرية بمعتقدات الناس الدينية قاطبة
والشاعر الدرامي أسخيلوس قد حاول في إحدى روائعه المدهشة (بروميثيوس المصفد) أن ينقد هذا الكمال المطلق الذي يضفيه قومه على كبير الآلهة زيوس؛ بل هو يتهمه بالقسوة والوحشية وعدم الميل إلى ما ينفع العالم؛ ويضرب لذلك أمثالا طريفة مما جاء في

الأساطير القديمة، كأسطورة باندورا ويو. ثم هذا صولون العظيم يلحد بزيوس ويجدف فيه تجديفا يشبه السباب، فيقول في الجزء الأول (ص32): (إن الله حقود حسود، وهو مشغوف أيما شغف بإرباك الناس وترويعهم!)

على أننا محاولون هنا أن نثبت المعتقدات الشائعة بين العامة، وهي الفئة الثانية، في هيلاس (اليونان) قبل القرن السادس (ق. م). تلك المعتقدات التي مهما قيل فيها، لم تخرج عن كونها ألوانا من الديانات البدائية الساذجة، التي تشبه كثيرا مما دانت به الأمم الجاهلية

ولقد دلت الأستقراءات التاريخية على أن قدماء اليونان كانوا قوما خائفين، يخشون الآلهة، ويرقبونها في كل أعمالهم، وكانت الظواهر الطبيعية توحي إليهم بأحلام لاهوتية لا يستطيعون الإفلات من ربقتها، فكانوا يقيمون الهياكل الضخمة باسم القوى التي يزخر بها الكون من رياح وشمس وقمر ونجوم وبحار. . . وكانوا يقيمون التماثيل الرائعة لآلهتهم في تلك الهياكل، ويوكلون بها كهنة يؤدون الشعائر الخاصة بكل منها، ويتقبلون القرابين والضحايا لتي يتقدم بها الشعب المتدين البريء في كثير من المناسبات

ومن الأغاني والتراتيل الدينية التي تركها لنا الشاعر الغنائي أرفيوس، نعلم أن عبادة ديونيزوس كانت ذات شان كبير بين الغالبة العظمى من قبائل الإغريق. وديونيزوس هو إله النماء والخضرة، وموسمه حين تنظر الحقول، وتكتسي سندس القمح، وتزدهر البساتين فتتفتح عن أفواف الورد، كان موسم الرخاء والمرح، وعيد الخير عند سائر اليونانيين؛ لذلك تواضع المؤرخون على تسمية هذا اللون من ألوان العبادات (بعبادة القمح)، ولما كان الثابت أن أحدا من الهيلانيين لم يعبد القمح بالذات فنرى أن هذه التسمية مجازية، وأن من الخير للتاريخ أن نعرفها باسمها الحقيقي، الذي هو (عبادة ديونيزوس). وقد نشأت هذه العبادة، أول ما نشأت، في (إليزيس) إحدى قرى (أتيكا)، حيث كانوا يعتقدون أن أم القمح (أي حبة القمح!) وابنها (أي ساق القمح!) يتفضلان على الناس كل شتاء، فيخرجان من بطن الأرض ليعم الرخاء وينتشر الخير. . .

وقد انتقلت عبادة باخوس، إله الخمر، من تراقيا إلى الجنوب، ثم ما برحت تنتشر وتستفيض، حتى تمازجت على مر الأيام بعبادة ديونيزوس. وصارت هذه (التثنية) ذات اعتبار كبير ولا سيما بين العامة. وصار هذا الإله المركب: (ديونيزوس - باخوس!) هو رب القمح. . . والخمر. وإله الحقل. . . والكرم!

ومن دراسة الأدب الإغريقي في الإسكندرية ورومة، نعلم أن ديونيزوس - باخوس كان ذا شهرة مستفيضة في المهاجر اليونانية

أرفيوس ومذهبه: (الأرفزم)

ويسوقنا البحث في ديانة الإغريق إلى الكلام عن أرفيوس الشاعر الديني، الذي تعتبر تراتيله في الشعر اليوناني كمزامير داود في العهد القديم، ولأرفيوس ضريب قديم يدعى موسيوس قد يكون أشعر منه، وأعلى في دولة الآداب كعبا، ولكن - للأسف - لم يصلنا من آثاره ما نستطيع به الكشف عن شخصيته، ولذا نشير إليه، دون أن نعرض له بشيء. وحسبنا أن نذكر أن مؤرخي الأدب اليوناني يختلفون أشد الاختلاف حول أشعار أرفيوس، وأكثرهم يرجح أن طائفة كبيرة من هذه الأشعار هي لموسيوس، ونرجو أن يوفق الكاشفون من رجال الآثار إلى شيء يلقي النور على هذه الناحية المعتمة من تاريخ الأدب اليوناني

ولقد كادت ملاحم هوميروس وهسيود تكسف هذه التراتيل الدينية وتغمرها، بل كادت تفقدها هذه القدسية التي يكنها العابد المتزمت لكل ماله علاقة بأربابه. وزاد الطين بلة، تلك الفلسفة الخبيثة التي حملها الايونيون معهم حين غزوا بلاد الإغريق. فهي قد جرأت الكثيرين على التشكيك في صحة معتقداتهم، وغلا البعض فركن إلى العقل والعلم في النظر إلى الحياة والكون، وما يزدحمان به من ظاهرات

بيد أنه حدث خلال القرن السادس قبل الميلاد، من الأحداث اليونانية داخل البلاد وخارجها، ما شجع الشعور الديني، وقوى الأواصر بين الشعب وآلهته، بعد إذ كادت تنحل وتتفكك على أيدي هؤلاء الملاحدة من شيعة الفلسفة الأيونييه. ذلك أن الحروب المستمرة التي مزقت أوصال البلاد، وسقوط مدينة الترف وبلهنية العيش (سيباريس) أغنى المدن الإغريقية على خليج تارنتوم الإيطالي، وإفلات مدينة نينوى من أيدي

اليونانيين. . . كل ذلك حفز الشعور الديني، وابتعث المعتقدات القديمة في صدور الدهماء العامة، فذكروا آلهتهم، وخيل لهم أن ما حل بهم من ضنك، إنما سببه إعراضهم عنها، وانشغالهم بما هو أدنى!؟

ومن ثمة، عمرت الهياكل، وارتفعت فيها الأصوات بتراتيل أرفيوس، ولهج الشعب المهيض بهذه المزامير يلتمس فيها عزاء وتسلية. وسرعان ما انتشر مذهب جديد أطلق عليه مذهب (الأرفزم) - نسبة إلى أرفيوس - وهو لون طريف من عبادة ديونيزوس يؤمن أتباعه بالثواب والعقاب في الدار الآخرة، وأس إيمانهم هو الاعتقاد بتجسد التثنية المركبة من الإلهين (ديونيزوس - زجريوس). وزجريوس هذا هو ابن زيوس من البتول (!) كوريه؛ وقد حدث أن التيتان قد حنقوا على زجريوس فقتلوه، فغيض أبوه (زيوس) وسلط عليهم الصواعق حتى أبادهم؛ وعاد فاستولده من إحدى بنات حواء (سيميليه) فعاش كما يعيش الناس؛ وإن يكن قد بلغ مرتبة الإلهة وهو بينهم، ثم رفعه أبوه إلى السماء، حيث صار فيها السيد الصمد، والإله الأوحد

ولقد ظل (ديونيزوس - زجريوس) صاحب الشأن الأعظم في الديانة اليونانية، وتنوسي رب الخمر باخوس، أو على الأقل، تضاءلت أهميته، لما كان يشاع عن عباده في تراقيا من الفضائح المخزية، والموبقات التي كانت تنخر كالسوس في أخلاق الشعب، وتصدع آدابه. ذلك أن كل فرد من عباد باخوس كان لزاما عليه كطقس من الطقوس هذه العبادة الخمرية، أن يستبيح عرض واحدة من عابداته، آلائي كن يطلق عليهن لقب (ميناد) فإذا كان الليل، وبدأت الحفلات الدينية، انطلقت الشهوات المكبوتة، وتدفق دم الدعارة حارا في عروق هؤلاء وهؤلاء، وراحوا يمارسون أحط ألوان البغاء باسم الشعائر الدينية؛ وكثيرا ما كان يعتدى على أعراض الحرائر، فلا يستطيع الزوج أو الأب أو الأخ دفع المنكر عن عرضه، لأن ذلك صميم شريعة باخوس!!

لهذا، اعتبرت شريعة ديونيزوس - زجريوس، منبع الطهر الروحي، والتهذيب الصوفي الجميل، وحافظت على مكانتها، كديانة عامة لليونان، منذ قبيل القرن السادس (ق. م) إلى ما بعد القرن الرابع. وكان لها قديسوها وعلماؤها، بل وأنبياؤها أيضا، إن صح أن نطلق هذه التسمية في تاريخ الديانة اليونانية؛ ولقد كانت الغالبية - حتى من العلماء والأدباء - تتناول أبحاثها في الأرفزم بكل تأدب واحتشام. وشذ أفلاطون وحده، عندما ثار ضد ما كانت تبيحه هذه الشريعة - أو قل هذا المذهب - من الغفران وقبول التوب، لمجرد طقوس تافهة يقوم بها أحد العصاة الآثمين

وكما يطلق العامة في العالم الإسلامي لقب (واصل) أو (صاحب سر) على من زكت نفسه، وطابت سريرته، وصفا ما بينه وبين الله، من المسلمين، وكما يفعل مثل ذلك أخواتنا النصارى؛ وكما يذهب إلى هذا النحو ربيون من اليهود وأحبار، فكذلك كانت سنة اليونانيين؛ فكل من تعمق في عبادة ديونيزوس، واستبحر في تحصيل شريعته، وكان مع ذلك تام التقى، شامل الورع، ارتفع إلى طبقة باكيس كما يرتفع المخلصون من نساك الهند إلى مرتبة (مهاتما). ويبدو أن هذه تقاليد قديمة تغلغلت في المذاهب الحديثة التي نشأت في هيلاس بعد القرن السادس (ق. م). آية ذلك أن كل من كان يستبحر في عبادة باخوس يصبح باخس وكل من كان يخبت للإله (كيبيب) إله فرجيا، يصير كيبيبس وقد انتقلت هذه السنة إلى أتباع مذهب الأفرزم، فأصبح كل من حوارييه يحمل لقب أرفيوس. . .

وبمثل ما تدر إخلاف الرزق، السهل الميسر، على (واصل) المسلمين، وأحبار اليهود؛ فكذلك كانت القرابين والضحايا والزكوات تقدم بكثرة هائلة، ومن جميع طبقات الشعب، إلى الباكيس والباخس والكيبيبس والأرفيوس من رجال الكهنوت اليوناني. وكانت هذه الأعطيات والمنح، تقدم في مناسبات غريبة، لا تختلف عما هو شائع بيننا اليوم. فهذا يريد الاستفسار عن حلم رآه، وذلك يطلب وصف دواء لعلة استعصت على نطس الأطباء، وثالث يطلب نبوءة عما تنتهي إليه شدة حلت به، إلى آخر هذه العلل والأسباب

وإلمامة عجل بأشعار ما قبل التاريخ، في الأدب اليوناني، تشعر بمدى ما كنت متأثرة به من شتى المذاهب الدينية، وصنوف العبادات الساذجة التي تفعم هذا الأدب القديم. وأثارة الأرفزم شديدة الوضوح في هذه الأشعار؛ وأشعار أرفيوس خاصة، تشبه عندنا

أشعار عمر بن الفارض، وهي ترتيلات كان يرسلها الناظم إلى أربابه سلاما في سلام، اسمع إليه يتناجى:
(أدعوك يا هيكاتيه يا ربة الطرق
(يا حامية مفترق الشعاب
(يا باعثة الأمن من ديجور الظلام
(أيتها المسيطرة على السموات والأرضين والبحار
(يا مؤنسة الموتى في قبورهم، مياسة في الوشائح المعصفرة
(وأنت يا برسييه، أضرع إليك
(يا من تؤثرين الهدوء والسكون
(أيتها المليكة التي تقبض على مفاتيح الدنيا
(ألا هلمي، وكوني معنا، إذ نسبح باسمك
(كيما تطهر نفوسنا، وتنتقي قلوبنا
(باركينا يا برسييه، وأفيضي علينا مما فاض به قلبك الكريم من محبة. . . .
ويشك بعض المؤرخين في انتشار مذهب الأرفزم قبل القرن السادس (ق. م). غير أن الأناشيد القديمة تثبت أنه كان لهذا المذهب أشياع كثيرون ومريدون، بل لقد كانت الآداب تتأثر به غير صقع من أصقاع اليونان. وهذا نشيد (الأليميونيس دليل على ذلك؛ فلقد ظهر فيه اهتمام الشاعر الذي أنشده بطقوس التطهير، وشدة حرصه على إيراد ما كان أهل التقى يؤدونه من مراسم دينية، تستلزمه عملية (تنقية القلب) من الأدران الدنيا، بالضراعة إلى زجريوس، رب الأرباب، المشرف من عليائه على الكون! والتطهير ومراسمه لب لباب الأرفزام
وقد أثبتت دراسات الأساتذة الألمان كارل مللر ونوك وكنكل وغيرهم أن شاعر كورنثه فيما قبل التاريخ (يوميلوس) كان يدين بالأفرفزم؛ وأنه تبتل إلى ديونيزوس في نشيده الجميل (يورويبا) تبتلا؛ وقد أثبتت في هذا النشيد ما كان في الأزل من اعتداء التيتان على زجريوس وقتلهم إياه، وتعرض أيضا للرؤى والأحلام، وخاض في ذكر هيدز (الدار الآخرة)
أما أثر الأرفزم في الألف سنة التي تبدأ بالقرن السادس ق. م فواضح أشد الوضوح، وهو على أتمه في بندار وهيرودوتس وصولون، ولا يخلو شيخ الملحدين يوربيبيديز من أثارة منه، وقد تأثر به كل من سوفوكلس، وإسخيلوس، وتأثرت به الإسكندرية كذلك
أما هذه الكثرة المدهشة من إلهة اليونان، فقد سلسلها لنا الشاعر هسيود في منظومته الرائعة (الثيوجونيه)، وهي بكلمة خاصة أولى

دريني خشبة

8 - قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكي

وكيل كلية العلوم

اسبلنزاني

ختام حديثه

هدم اسبلنزاني نظرية نيدم التي تقول بأن الأحياء قد تخرج من لا شيء، قد تخرج من غير آباء وأمهات واحتال على السلطات فمنحته إجازة ونفقة ليسوح في الشرق، فكرمه الشرق وأكرمه، وعاد فتلقاه إمبراطوره، إمبراطور النمسا، فبلغ بذلك ذروة مجده، فأسكرته خمرة الساعة وقال: (ما أحلى تحقق الأحلام)

ولكن بينما كان اسبلنزاني في سياحته المجيدة، يتنقل بين البلدان تنقل الفاتح، وتستقبله العواصم استقبالها القائد المنتصر، كانت تتجمع في جامعة بافيا حول اسمه سحابة سوداء. نعم في جامعة بافيا نفسها، تلك الجامعة التي صنع لها ما صنع ليعيد إليها الحياة. فأن أساتذتها الإجلاء ظلوا زمانا ينظرون إلى طلبتهم تعزف عن دروسهم إلى دروسه، وتتفرق عنهم لتتجمع حوله، فنال الحقد منهم، فسنوا سكاكينهم، وشحذوا خناجرهم، واصطبروا يرقبون الفرصة حتى أمكنت.

جاء اسبلنزاني إلى متحف بافيا فوجده خاليا، فقام يجمع له التحف وينتقي له من

أحضان الطبيعة كل نادر معجب، فاحتمل المتاعب، ولقي المصاعب، وواجه الأخطار، حتى جعل المتحف حديث أوربا كلها. ولكنه كذلك جمع لنفسه بعض الشيء، وحفظ ما جمع في بيته العتيق باسكنديانو. فذات يوم ذهب القسيس فولتا إلى اسكانديانون وكان من أعدائه وحساده، فاحتال حتى دخل منزله وتسلل منه إلى متحفه الخاص، وأخذ يشمشم في أركانه، وإذا بابتسامة للشر سوداء تعلو شفتيه، فانه وجد بهذا الركن وعاء، وبهذا طائرا، وبذلك
سمكة، وقد حملت جميعها البطاقة الحمراء لجامعة بافيا. وخرج فولتا يتخبأ في طيات عباءته السوداء، وفي طريقه إلى داره أخذ يدبر المكيدة لاسبلنزاني، واجتمع بالأستاذين إسكاربا وأسكوبولي وما كاد اسبلنزاني يعود من سياحته فيخطوا عتبة داره، حتى كان هؤلاء الثلاثة الأشراف قد فتحوا كوة من جهنم فاندلعت ألسنتها في أروبا تعلن فضيحة صاحبنا للأمم، فما تركوا رجلا نابها من رجالاتها، ولا جماعة من جماعاتها إلا بعثوا إليها بكتاب يتهمونه فيه بسرقة متحف بافيا، ويقولون إنه خبأ ما سرقه في متحفه الخاص باسكنيانو
وفي لحظة أحس صاحبنا دنياه العظيمة تتقوض حوله، حتى ليسمع تصدع حيطانها وانهيار بنيانها. وفي دقيقة وجد جنته البهيجة تتصوح، حتى ليرى زهرها الجميل يذبل، وريح ريحانها تحول؛ وأخذ يحلم يقظان، فخال أنه يسمع اليوم ضحكات رجال مجدوه بالأمس، وشماتة خصومه قهرهم شر قهرة بحقائقه وتجاربه، حتى خال أن (القوة النباتية) التي قضى عليها قضاء مبرم تنبعث من قبرها وتخرج من كفنها
ولكن لم تمض عليه أيام حتى تماسك، وأحس أن الأرض لا تزال جامدة تحت قدميه. بالطبع كانت الفضيحة لا تزال قائمة، وألسنة الأعداء لا تزال صاخبة، ورحى الحرب لا تزال دائرة، ولكنه تجمع بعد تشتت، وتبوأر بعد تشعع، فألضق ظهره إلى الحائط، وامتشق سيفه، وصاح في القوم بالنزال. ذهب عنه الصبر الذي صحبه في صيد المكروب، وغابت عنه اللطافة والظرافة اللتان زانتا كتبه إلى فلتير، وأصبح كالنمر الغاضب، وأخذ يدفع النار بالنار! وجاءه دهاء الساسة فطلب تعيين لجنة للتحقيق فأجيب طلبه
وعاد إلى بافيا، ولعله وهو في الطريق إليها كان يتهيب دخولها، ويدبر أمره لينسل فيها انسلالا، حتى لا يرى عيون أحبابه الأقدمين تزور عنه، وحتى لا يسمع شفاههم تهمس فيه بالشر، ولكنه ما كاد يصل إلى أبواب بافيا حتى وقعت أعجوبة نعم أعجوبة، فقد تلقاه فعلا على أبوابها جم غفير من تلاميذه مهللين مكبرين فرحين مرحبين بقدومه، وقالوا أنهم له لناصرون، والتفوا حوله في صراخ وزئاط حتى بلغوا به كرسيه القديم الذي كان يحاضر عليه بالجامعة. وقام هذا الرجل القوي، الذي اعتمد دائما على نفسه، واعتز دائما وأعجب بنفسه، قام في هذا الجمع الكبير يخطب شاكرا ويعترف لهم بالجميل، فإذا بصوته يخذله،
وإذا به يرفع منديله إلى أنفه، وإذا به يجتزئ بأن يقول لهم في كلمات قليلة وصوت أبح إنه يقدر هذا الإخلاص تقديرا عظيما
وانعقدت لجنة التحقيق، واستدعته هو وخصماؤه إليها. والآن بعد أن عرفت من هو اسبلنزاني تستطيع أن تصور لنفسك العراك الذي تلا هذا اللقاء، بل المذابح والمجازر. وأثبت للقضاة أن الطيور التي زعموا أنها سرقت لم تكن إلا طيورا خسيسة، ساء حشوها واتسخ ريشها، فقذفوا بها في الكناسة قذف النعال البالية. وهي طيور لا تليق بمتحف في مدرسة بقرية فضلا عن جامعة. وأما الثعابين التي زعموا أنها ضاعت من متحف بافيا فلم تضع، وإنما استبدل بها أشياء أخرى من متاحف أخرى، وكانت بافيا الرابحة في هذا الاستبدال. وأما السارق الذي تبحثون عنه فهو فولتا، كبير المتهمين هذا، فانه سرق من المتحف أحجارا كريمة وأهداها أصدقاءه. . . .
وبرأه القضاة من تلك الوصمة، ولو أن تاريخ اليوم لا يستطيع أن يؤكد كل التأكيد أنه لا يستحق ولو قليلا من الملام. وعزلت الجامعة فولتا والمؤتمرين معه شر عزلة. وبعث الإمبراطور أمره إلى المتخاصمين وأشياعهم أن يقلعوا عن خصامهم ويعقدوا ألسنتهم؛ فإن الأمر كان استحال إلى فضيحة عامة شاع خبرها في أوروبا؛ وبلغ جدال الطلاب فيها حد العنف والاستهتار بالنظم فحطموا الأثاث بقاعات الدرس، وجامعات أوروبا أخذت تتسارق الضحك من هذه الجرسة التي لم يسبقها مثيل. وأراد اسبلنزاني أن

يطلق آخر طلقة على أعدائه المنهزمين فسب فولتا بأنه مزمار ذو فوهة كبيرة جوفاء لا يملؤها غير الهواء، أما الأستاذان اسكاربا وإسكوبولي فأسماهما أسماء غاية في البذاءة يمنع التجمل من كتابتها. وبعد هذا عاد مطمئنا إلى صيد مكروبه

وعاوده سؤال كان يجيئه مرارا في السنوات الماضية العديدة التي قضاها في التحديق إلى حيواناته الصغيرة، وهو: كيف تتكاثر تلك الحيوانات؟ أنه كثيرا ما رأى الفردين منها متلاصقين، فكتب إلى بونيت يقول: (إنك إذا رأيت فردين من أي نوع متزاوجين، استنتجت بطبعك أنهما يتناسلان). ولكن هل هذا التزاوج الذي أراه بين هذه الحيوانات الضئيلة تناسل؟ لم يحر لسؤال نفسه جوابا، فانه على رعونته في أمور أخرى، كان شديد الأناة في العلم، حذرا في استنتاجاته حذر (لوفن هوك). لهذا اكتفى بأن سجل هذا السؤال

على الورق من غير جواب، ورسم صورة هذه الأحياء أزواجا كما رآها

وكان لـ (بونيت) صديق يدعى صوصير وكان رجلا ذكيا أضاع اسمه الزمان. فلما علم بالذي كتبه اسبلنزاني إلى صديقه قام يدرس كيف تتناسل تلك الأحياء. ولم يمض غير قليل حتى نشر بحثا مذكورا إلى اليوم، يقول فيه إنك إذا رأيت اثنين من هذه الحيوانات متلاصقين فلا تظنن أنهما التصقا ليتناسلا. إذ الواقع الغريب أنهما حيوان واحد، انشق انشقاقا فصار حيوانين. وهذه هي الطريقة التي تتكاثر بها هذه الأحياء، أما الزواج فهي لا تعرف للذائذه طعما

قرأ اسبلنزاني هذا البحث فطار إلى مجهره، وهو لا يكاد يصدق ما قرأ، ولكنه نظر، وداوم النظر، فأثبت صدق صوصير. وقام الطلياني إلى دواته يهنئ السويسري تهنئة حارة على ما كشف. كان اسبلنزاني يميل للحرب والخصام، وكان يميل للكيد بعض الميل، وكان أمالا شديد الأمل، وكثيرا ما كان يغار من اشتهار غيره من الرجال، ولكن إعجابه بتلك الملاحظة الدقيقة التي أتاها صوصير، واستغراقه في جمال تلك الحقيقة التي وجد، أنساه أمله، وأنساه غيرته، فكتب يهنئه بالذي كتب فانعقدت بين اسبلنزاني وصوصير والعلماء الطبيعيين في جنيفا روابط مبهمة، ولكنها على إنبهامها متينة، هي نتيجة استشعارهم بأن الجماعة تستطيع أن تتعاون فتكشف من الحقائق الكونية ما لا يكشف عنه الأفراد متفرقين، ونتيجة اقتناعهم بأن صرح اعلم لابد لإقامته من بنائين عديدين متفقين على رسمه ورفع حجره وانسجام أوضاعه. وكره هؤلاء العلماء الحرب أول من كره، فهم أول من صدق الدعوة لائتلاف الأمم لتكون أمة واحدة هم أبر رعاياها

وقام اسبلنزاني بعدئذ ببحث من أمجد الأبحاث التي قام بها في حياته، دفعه إليه حبه لأصدقائه السويسريين وإخلاصه لهم، وكذلك كرهه لشقشقة علمية جديدة شر من تلك الأكذوبة القديمة الشهيرة (بالقوة النباتية). وحديث هذه الشقشقة أن إنجليزيا يدعى (أليس) كتب يقول: إن صوصير كان مخطئا، ويقول إن هذه الحيوانات قد تنقسم أحيانا، ولكن ليس معنى هذا أنه سبيلها في التولد والتكاثر، فإن هذا الانقسام إنما يحدث من أن حيوانا من تلك الحيوانات يسبح في الماء بسرعة كبيرة فيختبط متعامدا في بطن حيوان مثله فيشقه نصفين. وزاد (أليس) على هذا أن هذه الحيوانات تولد من أمهاتها كما يولد الناس، وقال

إنه كلما حقق النظر في تلك المخلوقات، في بطون تلك الأمهات، رأى فيها بناتها لم تصب بعد ميلادا، وكلما حقق النظر في بطون البنات رأى فيها أحفادا

فصاح اسبلنزاني لنفسه يقول: (أضغاث حالم، وتخريف معتوه) ولكن كيف يثبت أنها أحلام؟ كيف يثبت أنها تخريف؟ كيف يثبت أن هذه الأحياء تتكاثر بالتناصف؟ لقد كان عالما متشبعا بروح العلم، يعرف الفرق بين السب والشتم واتهام خصيمه (أليس) بعمى البصر وخرف العقل، وبين أن ينقض بالحجة الدامغة ما يقوله من أختباط تلك الأحياء فانقسامها أشطارا

وفكر قليلا فواتته الحجة. قال لنفسه: (كل الذي علي لأثبت خطأ هذا الجاهل الفدم هو أن آتي في ماء بحي واحد من تلك الأحياء لا ثاني له فيختبط بهن ثم أجلس أرقبه في المجهر حتى ينقسم نصفين، وبذلك أقطع لسان الثرثار الغبي). وفي الحق هذه طريقة بسيطة للبت في أحد الرأيين، بل هي الطريقة الوحيدة لأبطال إحدى النظريتين، ولكن الصعوبة الكبرى في استخراج حي واحد من هذه الكثرة من الحيوانات. أنك تستطيع

أن تفصل الجرو الواحد من مجموعة الجراء، وتستطيع أن تعزل السمكة الصغيرة من بين أخواتها الكثيرات، ولكن قل بربك كيف تستطيع بيدك أن تمسك بذيل حي من تلك الأحياء المجهرية، وهي أصغر مليون مرة من تلك السمكة الصغيرة

فاعتزل اسبلنزاني دنياه الزائطة بحفلاتها ومحاضراتها وجماهيرها المعجبة به، وأخذ يبحث عن طريقة يفصل بها واحدا من تلك المخلوقات، مخلوقا لا يعدو طوله بضع أجزاء من ألف من المليمتر، ويفصله وحده لا ثاني له

ذهب إلى معمله وأسقط قطرة من ماء تعتلج تلك المخلوقات فيه على قطعة منبسطة من الزجاج الرائق النظيف، وأسقط إلى جانبها بأنبوبة شعرية نظيفة قطرة أخرى من الماء النقي الخالي من تلك الخلائق. ونظر إلى القطرتين من خلال عدسته، وجاء بإبرة رفيعة فغمسها بالقطرة الأولى، ثم خرج بها في خط مستقيم حتى وصلها بالقطرة الثانية النقية، وبغاية السرعة صوب نظره إلى قناة الماء الرفيعة التي وصل بها بين القطرتين، وابتسم اغتباطا لما رأى حيا من هذه الأحياء يدخل القناة في تخطر والتواء. فما كاد يصل القطرة النقية من الماء حتى اختطف اسيلنزاني ريشة نظيفة فقطع بها البرزخ الذي يصل

القطرتين. وصاح فرحان جذلا. (إنه حي واحد، واحد فحسب، في هذه القطرة! يا للنجاح، ما أحلاه! نعم مخلوق واحد لا ثاني له يتخبط به على حد قول المأفون المغفل (أليس) فيقسمه نصفين! وإذن فلأرقبه لأرى كيف ينقسم!). وصوب عدسته إلى هذا المخلوق الوحيد الصغير في هذه القطرة العظيمة، (إنه كالسمكة الفريدة تسكن وحدها الأقيانوس الواسع)

وعندئذ رأى عجبا أي عجب. فإن هذا المخلوق، وشكله كالقضيب، أخذ يدق وسطه ثم يدق، ويرهف خصره ثم يرهف، حتى لم يصل مقدمه بمؤخره غير خيط كنسيج العنكبوت، وإذا بالنصفين يضطربان ويختلجان ويتلويان حتى انفصلا، فكانا مخلوقين حيين جديدين انزلقا برشاقة في الماء انزلاق المخلوق الأول الذي عنه نشآ. نعم كانا أقصر منه، ولكن عدا هذا فلم يكن بينهما وبينه ما يميزه عنهما. واستتمت الغبطة واكتمل العجب بعد دقائق، فإن هذين المخلوقين انقسما من جديد على النحو الفائت فكانا أربعة

وأعاد اسبلنزاني هذه الألعوبة البديعة عشرات المرات، وفي كل مرة يجد الذي وجده أولا. وعندئذ سقط على (أليس) المسكين بكل ثقله سقوط طن من الحجر، ففرطحه، وسواه بالأرض حتى خفي، وخفى اسمه من الوجود، وخفيت خزعبلته الجميلة، وخفى ما كان حكاه من وجود أحفاد في بطون بنات في بطون أمهات من تلك المخلوقات. وكان اسبلنزاني لذاع اللسان، فقال له: (أنا يا بني ناصح لك أن تعود إلى المدرسة من جديد فتتعلم ألف باء المكروب) وأشار بعد ذلك إلى (أليس) فقال إنه أخطأ لأنه لم يقرأ بحث صوصير القيم الرائع باعتناء، إذ لو فعل لما قام يخترع نظريات فاسدة لا يكون من ورائها إلا القيام العلماء بتكذيبها، فينفقون الجهد الكثير في استخراج حقائق من طبيعة معروفة ببخلها وكزازة كفها

إن الباحث العلمي، الباحث الحق في الطبيعة، يشبه الكاتب والرسام والموسيقي، بعضه فنان وبعضه نقاب جامد الشعور بارد النفس. لذلك نجد اسبلنزاني يتخيل الخيالات، ويتصور أنه بطل مغوار لعهد من الكشف جديد، ويكتب فيشبه نفسه بـ (كريستوف كولمب)، وينظر إلى عالم المكروب فيخاله عالما جديدا قائما بذاته كبعض العوالم، ويخال نفسه كشافة جريئا مغامرا قام ببعوث لم تكشف من تلك المجاهل إلا حوافيها. ومع كل هذا

لا نجده يذكر مرة أن هذه المكروبات قتالة. لم يرد أن يعمل في هذا خياله، ولو أن عبقريته كانت دائما توسوس له أن هذه الحيوانات العجيبة في هذه الدنيا الجديدة الغريبة لابد من علاقة بينها وبين أخواتها الحيوانات الكبيرة من بني الإنسان

وفي أوائل عام 1799، بينما نابليون يقوم لتحطيم الدنيا العتيقة البالية، وبينما بيتهوفن يقرع باب القرن التاسع عشر بأولى سمفونياته الهائلة - روحان كبيران ثائران يصدران عن روح العصر الثائر الذي أولده اسبلنزاني وأقرانه، وينطقان عن هذا الزمان بلسانه، ذاك بمدافعه المتجاوبة، وهذا بموسيقاه الصاخبة - أقول في أوائل عام 1799 أصاب الصرع صاحبنا الكبير صياد المكروب

وفي أوائل عام 1799، بينا نابليون يقوم لتحطيم الدنيا العتيقة البالية، وبينا بيتهوفن يقرع باب القرن التاسع عشر بأولى سنفوناته الهائلة - روحان كبيران ثائران يصدران عن روح العصر الثائر الذي أولده اسبلنزاني وأقرانه، وينطقان عن هذا الزمان بلسانه، ذاك من مدافع المتجاوبة، وهذا بموسيقاه الصاخبة - أقول في أوائل عام 1799 أصاب الصرع صحبنا الكبير صياد المكروب
ولم تمض على أصابته ثلاثة أيام حتى كنت ترى هذا الرجل العجيب الهازئ بالموت يخرج رأسه الذي لا يهدأ من بين أغطية سريره ينشد قصائد (هومير) ويغني بشعر (تاسو) ليضحك أصدقاءه الذين جاءوا ليشهدوا احتضاره. وما كان هذا منه رغم إنكاره إلا صياح الديك الذبيح. وما كانت تلك الأناشيد إلا للموت، وتلك الأغاني إلا للفناء، فأنه مات بعدها بأيام قلائل
مات العظماء من ملوك مصر فحفظوا أسماءهم لذراريهم بما خلفوا من مومياء فخمة حفظها رجال الجنائز بكل نادر غال من الحنوط. وذهب الإغريق والرومان ولكنهم خلدوا سحنهم، وسجلوا أشباههم في الحجر، في تماثيل يحفها المجد، ويلفها الوقار. وقضى كثير من عظماء القرون نحبهم، وبليت أجسامهم، ولكن بقي منها صور مرقومة بالزيت على القماش تكاد تجري فيها الحياة. ومات اسبلنزاني فماذا خلف للناس؟ إن أردت أن تعرف ماذا خلف فاذهب إلى (بافيا)، فستجد له بها تمثالا نصفيا متواضعا. وإن أنت أردت أن ترى المزيد منه فسر قليلا حتى تجيء المتحف، فادخله، وإذن سترى فيه - مثانته. . .
أي إرث يتركه اسبلنزاني للدهور خير من هذا؟ أي أثر أحق من هذا بالتعبير في إيجاز عن حبه المدله للحقيقة، هذا الحب الذي لم يقف به عند شيء، هذا الحب الذي اقتحم التقاليد وضحك للصعاب وهزئ بالأذواق الموضوعة، وبمراسيم اللياقة المصنوعة علم أن مثانته مريضة، فكنت تسمعه يقول في خفوت لأصحابه وهو يحتضر: (إذن أخرجوها من جسمي عند موتي، فلعلكم تكشفون فيها عن حقيقة جديدة غريبة في أمراض المثانات). هذا روح اسبلنزاني وهذا هو روح قرنه، القرن الثامن عشر. روح استخفاف واستهتار. روح تشوق وتشوف لكل مجهول. روح المنطق البارد القاسي في برودته، قرن لم يفض على الخلائق بكثير من الكشوفات العملية النافعة، ولكنه القرن الذي مهد لفرداي وبستور وأرانيوس وأميل فيشر وأرنست رذرفورد لينجبوا ويمجدوا ويعملوا في جو حر طليق
أحمد زكي
محاورات أفلاطون - 19
الحوار الثالث
فيدون أو خلود الروح
ترجمة الأستاذ زكي نجيب محمود
فأجال فينا سقراط النظر، كما هي عادته، وقال باسما: إن دليل العقل ناهض في جانب سمياس، وإن في مهاجمته إياي لقوة، فلماذا لا يتصدى منكم لأجابته من هو أقدر مني؟ ولكن قد يحسن بنا قبل أن نجيبه، أن نصغي كذلك لما يريد سيبيس أن يناهض به الدليل - وسيكون لنا من ذلك للروية متسع، فإذا ما فرغ كلاهما من الحديث، وبدا قولهما مستقيما مع الحقيقة سلمنا لهما، وإلا، فلنا أن نؤيد الجانب الآخر، وأن نناقشهما. قال: تفضل إذن فحدثني يا سيبيس، أي مشكلة صادفتك فأتعبتك؟
قال سيبيس: سأحدثك - إني لأشعر بأن التدليل لم يتزحزح عن موضعه، فأنا مستعد أن أسلم بأن قد قام الدليل القاطع الوافي جدا، إن جاز لي هذا القول، على وجود الروح قبل حلولها في الصورة الجسدية. ولكني أرى أن بقاء الروح بعد الموت لا يزال يعوزه الدليل، ولست أعترض في ذلك بما أعترض به سمياس، لأنني لا أريد أن أنكر أن الروح أقوى من الجسد وأطول بقاء، فعقيدتي أن الروح تسمو على الجسد في كل هذه النواحي سموا بعيدا. وقد يخاطبني الدليل فيقول: حسنا أذن، فلماذا تقيم على ارتيابك؟ إذا رأيت أن الأضعف يظل باقيا بعد موت الإنسان، أفلا تسلم بأنه يتحتم أيضا أن يبقى ما هو أطول بقاء خلال هذه الفترة نفسها؟ ويجمل بي الآن أن أستخدم المجاز، كما فعل سمياس، وسأطلب إليك أن تنظر في استعارتي لترى هل جاءت

ملائمة لموضوعها. أما المثل الذي سأسوقه فهو مثل نساج قديم، يموت فيزعم بعض الناس بعد موته أنه لم يمت وأنه لا بد أن يكون حيا، ويستشهد على ذلك بالعطاف الذي نسجه بنفسه وارتداه، والذي لا يزال جيدا متينا، ثم يمضي فيسأل المرتاب من القوم. هل الإنسان أطول بقاء أم العطاف الذي يستخدم ويرتدي؟ فإذا ما أجيب بأن الإنسان أطول جدا في البقاء، ظن أنه قد أثبت بذلك يقينا بقاء الإنسان الذي هو أطول بقاء ما دام الأقصر بقاء لا يزال باقيا. ولكني أرجو أن تلاحظ يا سمياس أن ليست تلك هي الحقيقة، وليس بخاف على الناس أن من يتحدث بهذا إنما ينطق هراء، فحقيقة الأمر أن هذا النساج قد ارتدى ونسج كثيرا من هذه الأعطف، ولئن كان قد أفنى كثيرا منها وعمر بعدها، إلا أن آخرها قد ظل بعد فنائه باقيا، وكن لا ريب في أن هذا أبعد جدا من أن يقوم دليلا على أن الإنسان أقل من العطاف شأنا وأشد ضعفا، غير أنك تستطيع أن تعبر عن علاقة الجسد بالروح باستعارة كهذه، فلك أن تقول بحق إن الروح باقية، وإن الجسد بالقياس إليها ضعيف قصير الأجل، فقد يقال عن كل روح أنها تبلي أجسادا كثيرة، وبخاصة إذا امتد بها أجل الحياة، لأنه إذا كان الجسد يتحلل ويفنى في حياة الإنسان فالروح لا تني تنسج لنفسها لباسا جديدا، وتصلح ما قد أصابه البلى، فطبيعي إذن أن تكون الروح مرتدية آخر أثوابها حينما يدركها الفناء، وذاك الثوب وحده هو الذي سيبقى بعد فنائها، ولكن الجسد بدوره، إذا ماتت الروح، سيكشف آخر الأمر عن ضعف طبيعته، فلا يلبث أن يدركه الفناء، ولهذا لن أركن إلى هذا الدليل برهانا على بقاء الروح بعد الموت، لأنه إذا سلمنا فرضا حتى بأبعد مما تؤكد أنت أنه في حدود الممكن، فارتضينا - فضلا عن اعترافنا بوجود الروح قبل الميلاد - أن أرواح طائفة من الناس لا تزال موجودة بعد الموت، وأنها ستظل موجودة، وأنها ستولد وتموت كرة بعد أخرى، وأن في الروح قوه طبيعية ستقاوم بها حتى تولد مرات عدة - فقد نميل مع هذا كله إلى الظن بأنها ستعاني من آلام الولادات المتعاقبة رهقا قد ينتهي بها آخر الأمر إلى السقوط في إحدى مرات موتها، فتفنى فناء تاما، وربما خفيت عنا جميعا هذه المرة التي يموت بها الجسد ويتحلل، والتي قد تؤدي بالروح إلى الفناء، فليس يمكن لأحد منا أن تكون لديه عن ذلك خبرة فإن صح هذا، زعمت أن من يثق في الموت فإنما يثق وثوقا غاشما، ما لم يكن قادرا على التدليل بأن الروح لا تخضع للموت أو الفناء إطلاقا؛ أما إن كان عاجزا عن إثبات ذلك، فمعقول ممن يقترب من الموت أن يخشى فناء الروح فناء تاما عند انحلال الجسد

فلما سمعنا منهم هذا القول، أحسسنا جميعا بالكآبة، كما لاحظ بعضنا إلى بعض فيما - بعد، وأحسب أنه قد داخلنا الاضطراب والشك، لا فيما سلف من دليل فحسب، بل في كل ما قد يجئ به الدهر من دليل، لأننا، وقد كنا من قبل نؤمن إيمانا راسخا، قد رأينا ذاك الإيمان تتزعزع دعائمه؛ فأما أننا لم نكن قضاة صالحين، وإما أن العقيدة لم تقم على أساس صحيح

اشكراتس - إني لأشاطرك إحساسك في هذا - حقا إني لأشاطرك إياه يا فيدون، وقد هممت، وأنت تتحدث، أن أستجيب نفس السؤال. أي دليل يمكن أن أومن به بعد اليوم، فماذا عسى أن يكون أقوى في الإقناع من تدليل سقراط، وهاهو ذا قد هبط إلى الجحود؟ فيا طالما فتنتني فتنة عجيبة هذا المذهب القائل بأن الروح هي الأنسجام، ولم يكد يرد ذكره حتى عاودني بغتة، لأنه عقيدتي الأولى. وجدير بي الآن أن أعود فألتمس دليلا آخر، يؤكد لي بأن الروح لا تموت مع الإنسان عند موته. فأرجو أن تنبئني كيف مضى سقراط في الحديث؟ هل بدا كأنما يشاطركم إحساسكم الكئيب الذي ذكرت؟ أم أنه استقبل الاعتراض هادئا، فأجاب عنه جوابا وافيا؟ أنبئنا بما وقع دقيقا ما استطعت

فيدون - أي اشكراتس، إني ما فتئت معجبا بسقراط، ولكني لم أعجب به قط أكثر مما فعلت وقتئذ، أما أنه استطاع الجواب فيسير، ولكن ما أدهشني أولا هو ما تناول به كلمات الشبان من وداعة وغبطة واستحسان، ثم سرعة إحساسه بما أحدثه الحوار من جرح وما واتته به لباقته من فنون العلاج. مثله في ذلك مثل القائد الذي يستجمع جيشه وقد انهزم واندحر، ويحفز جنده أن يتابعوه فيعودوا إلى ميدان الحوار

اشكراتس - وكيف كان ذلك؟

فيدون: ستعلم مني، فقد كنت قريبا منه، جالسا إلى يمينه على مقعد وطئ، أما هو

فقد استوى على سرير يرتفع كثيرا عن مقعدي، وقد أخذ يداعب شعري، ثم مسح رأسي بيديه، وصفف شعري على عنقي وقال: أي فيدون! غدا ستجذ هذه الجدائل الجميلة فيما أظن

أجبت - نعم يا سقراط، إني أظن ذلك

إنها لن تجذ لو أخذت بنصحي -

قلت - وماذا عساي أن أفعل بها؟

أجاب - إني وإياك سنقطع اليوم جدائل شعرنا، فلا نرجئها إلى غد، لو كان هذا الحوار ليموت، واستحال علينا أن نرده إلى الحياة مرة أخرى. وإني لو كنتك، ولم أستطع أن أثبت ضد سمياس وسيبيس، لأقسمت ألا أرسل شعري قط، كما يفعل الأرجيفيون، حتى أثير المعركة من جديد وأدحرها

(يتبع)

زكي نجيب محمود

الأمير خسرو

الشاعر الهندي الكبير

للسيد أبي نصر أحمد الحسيني الهندي

تتمة

إن الشعر الراقي يشمل طموحا غامضا مائلا إلى اللانهائي؛ ومع هذا يتخذ لذلك من هذا العالم المادي وسيلة، فهو يعطي صوتا لصمت الغرائب التي تبرزها أسرار هذا العالم. وبناء عليه يكون بيت واحد من ذلك الشعر يحتوي على قيادة روحانية وفكرة سامية مؤثرة في النفس إلى قرار سحيق، وهو ما لا تجده في صفحات من النثر، وذلك لأن من لوازم النبوغ الشعري الراقي بصيرة نافذة من ظواهر الأشياء إلى صميمها. فبها يجمع الشاعر الفيلسوف المفلق الكامل حقيقة الأشياء الأصلية في مجموع كامل جديد مؤثر غاية الأثر، وبها يدرك ويرى من مطالع الحق والجمال في هذا العالم ما لا يراه العامي. فإذا عبر عما يدركه ويراه برموز واصطلاحات مادية فهو لا ينويها بالذات، بل ينوي بها تلك الحقيقة العليا الخالدة التي طالما طمحت إليها روحه ونفسه كلما أدرك مظاهر تلك الحقيقة المتنوعة ومناظرها المختلفة في هذا العالم. وهذا الصنف من الشعر هو شعر فلسفي روحاني. ولقريحة خسرو في هذه الناحية إنتاج واسع لأنه كان صوفيا كبيرا. نذكر الأبيات الآتية منه قال:

جان زتن بردى ردرجاني هنوز ... دردرها دادى ودرماني هنوز

آشكارا سينه أم بشكا فتى ... همجنان در سينه ينهاني هنوز

ملك دل كردى خراب ازتيغ ناز ... واندرين ويرانه سلطاني هنوز

هردو عالم خود كفته ... نرخ بالاكن كه ارز انى هنوز

(أخذت روحي من جسمي ولا زلت أنت في روحي، وأعطيتني الآلام ولا زلت أنت الشفاء)

(شققت صدري على الإعلان، ولا زلت أنت مخفيا فيه كما كنت)

(خربت إقليم القلب بسيف الدلال، ولا زلت أنت السلطان في هذا الخراب)

(قلت ثمن نفسك العالمان. ارفع الثمن فأنك لا تزال رخيصا)

لم يكن خسرو نابغة في الشعر فقط، بل كان أيضا موسيقيا بارعا، فقد برع في الموسيقى إلى أن نال لقب (نايك) وهو لقب قل أن ناله أحد غيره فيما بعد من المسلمين. فقد نقل عنه المؤرخ دولت شاه في كتابه (تذكرة الشعراء) بيتين قال فيهما:

(أنا سيد الموسيقى كما أنا سيد الشعر. أنا كتبت ثلاثة مجلدات في الشعر لو كان ممكنا تحويل جميع ما ألفته من الألحان الموسيقية إلى الكتابة لبلغ إلى ثلاثة مجلدات أيضا)

وحقا قال أمير خسرو ولأنه كان صاحب ذكاء حاد فوق المعتاد، يملك ملكة اختراعية في الشعر وفي الموسيقى فبلغ فيهما ما لم يبلغه أحد. واختراعاته وتأليفه في الألحان والنغمات لا تزال رائجة وشائعة بين الهنود إلى اليوم، وهو الذي اخترع (سيتار) الآلة الموسيقية التي تشبه تقريبا القيثارة العربية والتي لا تزال تهز الأفئدة بنغماتها الشجية في محافل الهند وأفراحها إلى اليوم طالبة الشهادة على كمال عبقرية مخترعها

قد ذكر صاحب (مانك سهال) (وهو كتاب في تاريخ الموسيقى صنفه في عهد الإمبراطور محي الدين أورنك زيب عالمكير وقد ترجم إلى الفارسية باسم (راكي دربن)) كثيرا من النغم والألحان التي اخترعها أمير خسرو، وذكر حكاية تدل على براعة خسرو في الموسيقى وهي أن السلطان علاء الدين خلجي دعا مرة (نايك جوبال) الموسيقي الوثني الشهير حينئذ للأطلاع على كماله في الفن، وكان له ألف وستمائة تلميذ إذا أراد الخروج من بيته حملوه على أكتافهم فلبى دعوة السلطان وأسمعه الألحان والنغمات ستة أيام متوالية، وكان خسرو يسمعها مختفيا. وفي اليوم السابع تصدى له خسرو وأدعى أن جميع الألحان والنغم التي سمعها السلطان هو مخترعها وأعادها واحدة واحدة بإتقان وإجادة أكثر من جوبال فتحير الرجل في كمال خسرو وبراعته في الفن

كانت براعة خسرو في الموسيقى أحرزت له شهرة واسعة لدى عامة الناس أيضا وعلى الأخص السيدات والأولاد منهم، إذا كانوا يحفظون نغماته وألحانه وأناشيده، ويغنونها في أفراحهم ومحافلهم ولم يكن يكتب نشيدا إلا كان يخترع له لحنا خاصا. وقد اخترع أصنافا كثيرة من الألحان والأناشيد التي لم يكن لها وجود قبله، وعلى الأخص باللغة الأردية أذكر

منها (أنميل) (مكرني) و (دوخسنة) و (دهكوسلا) الخ وكلها شائعة بين العامة إلى اليوم كان خسرو يرتجل الشعر والأناشيد بداهة. ومن حكايات ارتجاله أنه عطش مرة فذهب إلى بئر كان أربع سيدات يخرجن منه الماء فاستسقاهن. فعرفته واحدة منهن وقالت للأخريات: إن هذا خسرو: فسألته: هل أنت خسرو الذي يغني كل واحد أناشيده وألحانه ويسمع ألغازه وأنميله ومكرنيه؟ فأجاب نعم، فقال واحدة منهن: اعمل لنا نشيدا واستعمل فيه كلمة (كهير) (أي المهلبية) وقالت الثانية: استعمل فيه كلمة (شرخا) (أي المغزل) أيضا، وقالت الثالثة: كلمة (دهول) (أي الطبلة)، وقالت الرابعة: كلمة (كتا) (أي الكلب) أيضا فقال لهن: أعطينني الماء أولا فأني أموت عطشا، فقلن له: لا نعطيك الماء حتى تقول النشيد المشتمل على كلماتنا: فارتجله خسرو؛ وهذه ترجمته ولكن لم يبق فيها جماله الأصلي:

إن المهلبية طبخت بالاعتناء
واستعمل فيها خشب المغزل وقودا
ثم جاء الكلب وأكلها
وشغلكم ضرب الطبلة
وأنا عطشان، أعطينني الماء

كان الأمير خسرو صوفيا كبيرا ورعا صالحا تقيا. قال المؤرخ (ضياء الدين برني) وهو من أصدقائه في كتابه تاريخ فيروز شاهي: (إنه مع حصافته العقلية، وذكائه الشاذ، وعلمه الواسع كان صوفيا من الطبقة الأولى، فكان يصوم تقريبا كل يوم ويصرف أكثر أوقاته في تلاوة القرآن وفي إقامة النوافل والفرائض من الصلاة، وكان خليفة في الطريقة لسيدنا الشيخ الولي الصوفي مولانا (نظام الدين أولياء) قدس الله سره، وإني لم أر خليفة يعتقد اعتقادا قويا في شيخه مثله)

إن من أهم مبادئ الصوفية التحرز التام من جرح عواطف الناس، وقتل أمانيهم وبذل أقصى المجهود في قضاء حاجاتهم. وكان الشيخ نظام الدين قدس الله سره يقول: إنه لا عمل يساوي يوم القيامة إدخال السرور على قلوب الناس، وفي حديث عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: الخلق كلهم عيال الله، فأحب الخلق إلى الله من أحسن إلى عياله. فكان خسرو من أكبر العاملين بهذا الحديث، لذلك كان محبوبا عند الجميع. وله في ذلك

حكايات كثيرة منها: أنه عندما كان يرجع من السراي الملكية كل يوم إلى البيت يرجع راجلا، لأنه كان يحب البساطة والسذاجة في العيش، وهو أيضا من لوازم الحياة الصوفية، فيمر بدكان عجوز تسمى شمو فتقدم له كرسيا ونرجيلة، وتطلب منه تشريفها ولو بدقيقة. فلكي لا يجرح عواطفها كان يقعد عندها ولو دقيقة. ومرة قالت له: يا سيدي خسرو! آلامك وبلاؤك على رأسي إنك تقول آلافا من الغزل وتؤلف النغمات والألحان وتصنف الكتب. أما تؤلف شيئا باسمي حتى يذكر اسمي أيضا بفضلك؟ فقال لها حاضر يا سيدتي شمو وارتجل نشيدا فيه اسمها. فخلد اسمها بذلك

النشيد إلى اليوم
كان خسرو لين الجانب رقيق العواطف قطع جميع مدارج التصوف ومنازله، فكان صاحب حرقة قلبية دائمة في حب الله. وقد قال فيه شيخه مولانا نظام الدين أولياء قدس سره: (في يوم القيامة كل واحد يفتخر بشيء، وفخري بحرقة هذا (ترك الله)).
ولعل خسرو أشار إلى هذا حين قال البيت الآتي:
خسرو من كوش براي صواب ... تاتو شود (ترك خداى) خطاب
يا خسرو اجتهد في الحق ليكون لك لقب (ترك الله))
انتهى البحث
السيد أبو النصر أحمد الحسيني الهندي
يا شمس
للأستاذ فخري أبو السعود
يا ليتني كالشمس في عليائها ... لم يُرضها إلا المحلُّ الأَرفعُ
لم تمس الدنيا ولا أقذاءها ... لكن إليها من عَلِ تتطلع
تحوِي جوانبَها بنافِذِ نظرةٍ ... وتُضيء غَيْهبَها بنورٍ يَسطعَ
وتَظَلُّ تَشَهدُ من شؤون أنيسها ... ما مرَّ من أمرٍ وما يُتوَقَّع
وتَقلَّبَ الأحوالِ فيما بينهم ... في أعصُرٍ تَمضي وأخرى تَتبَع
يا ليتني كالشمسِ في تَدْآبها ... ليست بمكْثٍ في مكان تَقْنَع
تطوي الفضاَء محلَّةً فمحلَةً ... وتغيب عن أفق السماء وتطلع
موصلةً رحلاتُها فلها هنا ... مستقبل ولها هناك مُوَدَّع
مأْنوسَةَ الأسفارِ يَصْحَبُها السَّنى ... وطريقها بين العوالم مَهيْعُ
عرَضَت جمالَ الكون في غدواتها ... ورواحها مُرْتادةً ما يُمْتِع
إن خلفت حسناً بديعاً لم تزل ... حتى يلوحَ لها أحَبُّ وأبدَع
كم شاَرَفتْ نهرا يفيض وواديا ... الزَّهر في أفنانهِ يتضوَّع
وطوى عبابُ اليمّ آيةَ ضوْئها ... فرأى محيَّاها اليبابُ البلقع
وأجازَتِ البيدَ القِفار فطالعت ... غاباً ألَفَّ به البلابِلُ تسجع
يا ليتني كالشمس في إخلادِها ... لا الخوف يعروني ولا بيَ مَطمع
لا المادحُ الشادِي يَخِفُّ بمهجتي ... طرَباً ولا لهجاء هاج أجزع
أتدَبرَّ الدنيا وأغنم حُسنها ... وأجوب أطراف الحياة وأذرع
يا شمس إنَّ الشعر يسمو بي إلى ... أوْجٍ لديك هو الأعزُّ الأمنع
يَسْرِي خفيُّ ندائه فيُهيبُ بي ... ويَرِنُّ في أذني صداه فأسمع
أسمو على الدنيا به وأودُّ لو ... أني إلى أقذائها لا أرْجع
فخري أبو السعود
من أدب السودان
ما كان أوفقه لو ضمنا أدب
لشاعر السودان الأستاذ عبد الله عبد الرحمن
نبَّهتَ منَّا فؤاداً غير سَهْوَانِ ... وجئتَنا بحديث ممتع دانِ
قد نطقتَ بما ... نُحِسُّه من أحاسيس ووجدان (محمد بن الجلال)
دعوتَ للأدب العالي يحرّك من ... بني العروبة من مصر وسودان
وصحت بالقائلين الشعر بينكم ... أليس عندكم السودان ذا شان؟
ما للمسارح لم تخرج روايته ... وللرواية من ألف مَيْدان!
وكيف لم يهزز الكتّابَ ما عصفت ... به الحوادث في سرٍّ وإعلان؟
مضى يُثابر لم يفطن له أحدٌ ... كأنما القوم من هيٍّ بن بيَّانِ
فقلت لله مصر شَدَّ ما عُنيت ... بكلّ فعلٍ عظيم النفع إنساني
وتلك قولة حق ما أبرَّ وما ... أحقَّها أنْ لها يسعَى الشقيقان
ما كان أوفقَه لو ضمَّنا أدبٌ ... له الكنانة والسودان ركنانِ
ينمّ عنا وعنكم غير مختلق ... لا كالذي عبَّ من زورٍ وبهتان
يقلُم الظفر من ساعٍ لتفرقة ... ويقصم الظهر من داعٍ لهجران
والناس من بات يشقى من جهالته ... حيًّا - سيشقى بها في العالم الثاني
كم للطّبيعة في السودان من فِتنٍ ... وكم لأطيارها من سحر ألحان

ما أكثر الملهماتِ الشعر فيه وما ... أمدّها للأديب الهادم الباني
الرمل عند ضفاف النيل تحسبه ... لُعس الشّفاَه جلاها بيض أسنانِ
وظلمة الليل في العتمور ملهمة ... خوالد الشعر ترويها الجديدان
والسّرح والسُدر والجميز كارعة ... من صيّب القطر أو من فيض غدران
ما للكهارب سلطان على قمر ... ولا على الشمس سلطان لبنيان
كلُّ تسيل على الآفاق غرّته ... فتملأ النفس من حسنٍ وإحسان
وللحوادث تَلعابٌ بساحته ... تملى علينا شَروداً ذات ألوان
إذا مررت من أمْ دُرْمان في كررى ... ألقى عليك القوافي الخالد الفاني
من كلّ من صدقت في الله همّته ... وراح لم يحتمل ضيماً لإنسان
كم بالجزيرة أو سهل القضارف من ... مزارع حُلوة المرآي وأقطان
وحِلّة ذهبت في جودها مثلاً ... ومنزل فيه تُتلَى آي قرآن
ألله أكبر! تدوي في مساجدها ... فتعمر القلب من دِينٍ وإيمان
والقوم سُمر وجوه يُسرعون إلى ... ما ينبت العزّ من إكرامِ ضيفان
وفي أبا حيث تلفى الأرض كاسيةً ... والطير خاطبةً من فوق أغصانِ
تهشّ للزائريها كلَّ آونة ... وتملأ القلب من رَوْح وريحانِ
هناك في كردفان أيُّ مُتَّدَعٍ ... للطرف في بارة أو أرض خِيران
حيث البداوة في أجلى مظاهرها ... والإبل طالعة بين كثبان
ما أجمل الريف مصطافا ومرتبعاً ... وغادة الريف في عين وغزلان
الخدّ لم ترْعَ موسى في جوانبه ... والجيد من حسنه عن زينة غانِ
فإن يكن شعب بوّان ازدهى نفراً ... ففي البطانة كم من شعب بوّان
إذ تقبل الأرض أعقاب الخريف بها ... بكل وجهٍ إلى الفنَّانِ فنَّانِ
والصيد نافرة حتى إذا أنِست ... أوفت على نجوة ترنو بفنَّان
والضان والمعز والأنعام تابعة ... مواقع الغيث قطعاناً لقطعان
وللحداة حداء كله كرم ... فيه الإباء وفيه نُصرة العاني
وسامر الحي من غيد وفتيان ... بين البيوت وفي أعطاف وديان
في كل ليل تحاجيهم عجائزهم ... بابن النمير وسوبا وابن سلطان
وتارة يرهف الفتيان سمعهم ... إلى نوادر أجواد وفرسان
لم تبرح حكايته ... في الناس يسردها أشياخ حمران (وابن المحلق)
يا قبر تاجوج حياك الحيا ومشى ... بصفحتيك شَذَى ورد وريحان
إني أميل إلى الأشعار يبعثها ... حسٌّ قويّ وأقلى الفاتر الواني
وفي البلاد وفي ماضي أبوتنا ... فخر - وإن لم تكن تُعنى بإعلان
وكم بتاريخها من قصة عجب ... جدّ الحكيم ولهو الودع الهاني
فإن يكن بات فيها الحرّ يصهرنا ... فللحرارة يُعزى فضل شجعان
إذا (الرسالة) أدَّت من رسالتها ... ولم تُجرّر علينا ذيل نسيان
رعى لها أدب السودان خدمتها ... ونالت الشكر من قاص ومن دان
(الخرطوم)
عبد الله عبد الرحمن

القصص

من أساطير الإغريق

بين أبوللو وكيوبيد

للأستاذ دريني خشبة

عصى الناس، في قديم الزمان، سيد أرباب الأولمب، السند الأعظم، المهيمن على ملكوت السموات والأرض: زيوس. ومع ما اشتهر به من واسع الحلم، وطول الأناة، وجم المغفرة، فانه لم يشأ أن يمد للعالم في حبل الغواية، لدرجة إنكارهم لذاته، وإلحادهم فيه، وكفرهم به؛ فأقسم ليهلكن حرثهم ونسلهم، وليقطعن دابرهم أجمعين! فأطلق الرياح الجنوبية الهوجاء، وأرسل السحب تتدجى كقطع من الليل البهيم، وأذن للأرض فتشققت ينابيع وعيونا، ثم انهمرت الأمواه من فوقهم، وتفجرت من تحت أرجلهم، وطغى الموج يجرف الدور ويعفي الآثار. وفي أيام قلائل، كان الطوفان يغمر وجه الأرض، ولم يكن ثمة إلا بحر خضم عظيم

وهلك الناس جميعا، وشفى زيوس موجدته عليهم، ثم بدا له أن يعيد مياه الحياة إلى مجاريها، فأطلق الرياح من عقالها، فهبت في شدة وعنف، وأخذت ترشف ماء الطوفان، تعاونها في ذلك مركب أبوللو. . . يوح العظيمة. وبدأت الأرض تجف، وشرع بساطها السندسي الجميل يبدو قليلا قليلا، حتى ازدهرت المروج، وأينعت الخمائل، وسمق الدوح، واهتزت الربى، وأخذت السهول زخرفها. وبدا له مرة أخرى أن يخلق أناسي يعمرون الأرض الجديدة؛ فما كاد يفعل حتى ظهرت حيوانات بحرية هائلة، جعلت تزحف من الماء إلى الأرض، فتهلك الخلق الجديد. وكان أشد هذه الحيوانات وطأة، وأكثرها فتكا، ذلك التنين البحري الهائل، الذي كان يصمد للعصبة القوية من الرجال فيفنيها عن آخرها؛ حتى ضج الناس واستغاثوا، وجأروا بالدعاء إلى زيوس الرحيم، فرق لهم وحدب عليهم، وأرسل أعز أبنائه من زوجه لاتونا: أبوللو، فأنقذهم من التنين (بيثون) بسهامه التي سددها إليه حتى أرداه

وانثنى ثملا بخمرة النصر، مزهو بما رفع الناس إليه من صلوات وابتهالات، وبينما هو راق إلى سماء الأولمب، إذا أخوه كيوبيد بن أفروديت يصيد الظباء في غيضة لفاء، ويلهو

باجتناء الثمر، ويمرح بين افواف الزهر، كالمستهتر الخالي. فأراد أبوللو أن يناوشه، فقال له: (كيوبيد يا ابن أفروديت! أنت هنا تصيد الظباء الضعيفة، وتريش سهامك إلى أطلائها المفزوعة، ولا تجسر على اقتناص الأفعوانات البحرية المرعبة التي تفتك بعباد أبينا زيوس؛ ومع ذاك لا تفتأ تفاخر الإلهة بسهامك التي لا تطيش، ورمياتك التي لا تخيب. كيوبيد الصغير! يجمل بك أن تنزل لي عن قوسك المرنان، وسهامك الذهبية، أو أن تحد من كبريائك، وتأتي إلي كل يوم أعلمك كيف تكون الرماية، وكيف ينبغي أن تسدد السهام!)

وغيظ كيوبيد من هذا التقريع الذي لا مسوغ له، وذلك التفاخر الأجوف الذي لا فائدة منه، ولا طائل وراءه، فعبس وبسر، وتجهم وزمجر، وقال في عبارة ملتهبة، وأسلوب مشبوب: أبوللو يا ابن لاتونا!! كان الأولى بك أن تذكر كيف عذبت حيرا في سالف الأيام أمك وأذلتها، فتقنى حياء، وتتوارى خجلا، ولا تملأ الهواء بمثل هذا الفخر الكاذب! أبوللو! أنت تتيه بسهامك وتدل؛ وتدعي أنك تقنص بها الأفعوانات البحرية، على حين أصيد الظباء، وأقتل الأطلاء، ألا فلتعلم أنني أمهر منك ألف مرة في تسديد السهام، وأقوى في توتير القوس، وإن كنت بعد حدثا صغيرا. على أنني أنذرك، أنت يا أبوللو يا ابن لاتونا بسهامي التي سأجربها فيك قريبا!!)

فضحك أبوللو ملء شدقيه، وقال: بخ بخ يا كيوبيد بن أفروديت! ليس هكذا يخاطب سيد الشمس أبوللو! ولكن يبدو لي أنك متعب من طول ما أخذت نفسك به من الصيد في هذه الغيضة، وأحسبك قد أعياك ظبي نافر فأخرجك عن طورك، خصوصا وأفردويت تنتظرك لتعد الشواء!. . أنت ستجرب سهامك في. . . . في أنا. . . .!)

فقال كيوبيد: (فيك أنت. . . . فيك أنت يا أبوللو ابن لاتونا. . . . وسترى. . .)

وامتلأت أسارير أبوللو بضحكة ساخرة، وفصل مستهزئا

وشرع كيوبيد يدبر انتقامه، ويرسم له الخطط التي ينال بها من أبوللو، فلا يستطيع أن يفلت، وكان يحمل كنانتين، يحتفظ في الأولى بسهامه الذهبية التي يصمي بها القلوب فتملأها حبا وصبابة؛ وفي الأخرى بسهامه الرصاصية التي يصيب بها القلوب فيفعمها بغضا وكراهية. . . ونثر كنانتيه وانتقى من كل واحدة سهما حاد الشباة مزدوج السنان، ثم انطلق في الأدغال يفكر ويدبر. ويمم شطر غدير قريب منه غلته، فرأى القينة الحسناء

متجردة من ثيابها، جالسة كالقطاة على عدوة الجدول، تداعب الماء بقدميها (دفنيه) الحبيبتين، وتظللها صفصافة ممتدة الفيء وارفة، والأطيار من فوقها تغني لها. فقال كيوبيد، متحدثا إلى نفسه: (فرصة نادرة لن أفلتها. . هذه (دفنيه) الجميلة تستنقع من القيظ، وهي وسيمة قسيمة، بارعة الحسن، تامة المفاتن؛ لابد أن أسدد سهما رصاصيا إلى قلبها الصغير فيمتلئ كراهية وبغضاء. . . ويحسن ألا أشعرها بوجودي حتى أصمي قلبها. . . فلأختبئ هنا. . .)

وتوارى خلف دوحة كبيرة، وثبت السهم الرصاصي في مكانه من القوس، ثم أطلقه في قلب دفنيه؛ وما كاد يفعل حتى انخلع قلب الفتاة من الذعر، وأسلمت ساقيها للريح

تعدو بين الأيك، صارخة من ذلك الثلج الذي ذهب بحرارة فؤادها
وقصد كيوبيد إلى حيث أبوللو، وكان قريبا من دفنيه، فسدد إلى قلبه السهم الذهبي فأصماه. وتلفت أبوللو ينظر ماذا أصابه، وحدث ان كانت دفنيه منطلقة تعدو إذ ذاك، فلمحها، وسرعان ما جن بها جنونا. لقد ملأه سهم كيوبيد حبا، كما ملأ سهمه الرصاصي دفنيه بغضا. . .
لقد كانت دفنيه أول من وقع عليه نظر أبوللو بعد إذ ملأه سهم كيوبيد حبا، فهام بها، وشعر نحوها بهوى ممض وبرح قديم، كأنه برح آلاف من السنين؛ وكذلك كان أبوللو أول من وقع نظر دفنيه عليه بعد إذ أفعمها سهم كيوبيد كراهية، فأبغضته، وشعرت بسم تنفثه عيناه في قلبها حينما رأته
أفلح كيوبيد إذن في الفتك بأبوللو، حين أوقعه في أحبولة الهوى؛ ورداه في شرك الغرام، بهذه الفتاة الكارهة المحنقة، دفنيه! أفلح كيوبيد، وتبع أبوللو يرى إليه يتذلل ويتضرع. . . ويبكي كما يبكي الآدميون. . وهو سيد الشمس، ورب الموسيقى، وقانص الأفعوانات كما دل على كيوبيد وافتخر!
انتصر كيوبيد إله الحب، صاحب القوس الذهبية، كيوبيد الطفل، ذو الجناحين، على أبوللو سيد الشمس، صاحب القوس والوتر العرد!!
إن الحرب لم تبدأ، حين بدأت، بين أبوللو بن لاتونا، وكيوبيد بن أفروديت، بل هي بدأت بين البغضاء والحب، والقلى. . . والهوى!
انطلق أبوللو في إثر دفنيه المذعورة يبكي ويتذلل، ويحاول اللحاق بها. . . ولكن هيهات! لقد كانت تمعن في الهرب، كلما جد هو في الطلب؛ ولقد كانت تنظر إليه كأنه قاتل أبيها. . . وخانق أمها!. .
وصاح أبوللو ضارعا: (دفنيه أيتها العزيزة! قفي أرجوك! تمهلي أتوسل إليك! الشوك يجرح قدميك المعبودتين يا دفنيه! أوه! رويدك يا حبيبة! لا تنطلقي هكذا فقد يؤذيك اندفاعك! فيم أنت مذعورة هكذا؟ قفي؛ فأنا أبوللو. . . قفي!. .)
ولكن دفنيه لا تجيب إلا بنظرة القنص، ولفتة الواجف المراش، وتجد في الهرب. . فيقول ابوللو: (قفي يا دفنيه! قفي ولك نصف ملكي! بل لك الشمس كلها إذا وقفت! أنا رب الموسيقى سأغني وأصدح لك! سأطربك بقيثارتي الذهبية بعد أن أغسل لك قدميك في كل ليلة (!!)، سأطير بك في أرجاء السموات! ستكون لك القصور في جنة الأولمب! سأمنحك الخلود يا دفنيه! أحبك! أستحلفك بزيوس إلا ما وقفت! مالك هيمانة على وجهك هكذا؟ هل أخيفك؟ هل أزعجك إلى هذا الحد؟. . . ويلاه!)
ولا تبالي دفنيه، بل تعدو وتعدو. . .
ويضيق أبوللو بغصته ذرعا، فيلجأ إلى جبروت الإلهة، ويبدى سلطان السماء! ويصيح صيحة هائلة، فيكون سد منيع في طريقه دفنيه!
فيقول أبوللو وقلبه يضطرب من طول الإعياء: (فيم تهربين منى يا دفنيه! ألم تعبديني مرة وتقدمي الضحايا باسمي إلى كهنة الهيكل؟: هأنذا أبوللو المعبود، أرجوك وأتوسل إليك! ماذا تريدين بعد هذا؟ لقد بلغت من أبوللو منزلة لم تبلغها ربة من قبل! لقد فضلتك على كليمين، زوجتي المعبودة، وأجمل عرائس البحر، وأم طفلي المحبوب فيتون!! فيتون أسرع الإلهة بعد أخي هرمز، سآمره يكون خادما لك! إنه يقتني أغلى المركبات، ولديه من الصافنات الجياد أغلاها؛ ستركبين معه فتطوفين العالم في ساعتين، وترين ما بين الشرق والغرب في لمحتين، لو رضيت! دفنيه! أرجوك يا دفنيه! إنني أبدا ما بكيت بمثل ما أبكي لك، وأذرف الدمع بين يديك! حنانيك يا دفنيه فقد سحقت قلبي بكبريائك، وأذللت نفسي بخيلائك!)
وكان فعل السهم الرصاصي في قلب دفنيه قد خف، ووقفت الغادة حائرة مترددة مما تسمع، وكانت عيناها ثرتين بعبرات حبيسة. ولكن كيوبيد المختبئ في عساليج الكروم القريبة كان
يرى ويسمع، فلما شاهد من ضعف دفنيه وقرب تسليمها، تناول قوسه، وانتقى سهما مسنونا من كنانة الأسهم الرصاصية وسدده إلى قلبها، فصرخت المسكينة صرخة داوية، وهبت في وجه أبوللو تقول: (إليك عني أيها المسخ! تنح! أبغضك! أكرهك! أغرب عني! أنت أنجس من التيتان، وألأم من شارون، أذهب! لا أطيقك؛ انظر إلى هذا الغدير لترى الشرر ينقدح من مقلتيك، والدخان يصاعد من منخريك! كريه. . كريه. .

شائه أنت أيها الوحش. .)
وكذلك كان فعل السهم الذهبي قد شارف أن يبطل في قلب أبوللو. . وكاد الإله العظيم يخلص من هذا السحر العجيب، فيسحق دفنيه، لولا أن تنبه كيوبيد، فأصماه بسهم ذهبي آخر، فجن جنونه، وتجدد حبه، وتألب به هواه. . . فصرخ صرخة راجفة، وأشار إلى السد فزال عن طريق دفنيه، فانطلقت تعدو. . وتعدو. . . وانطلق هو في إثرها يتوسل. . ويذرف أغلى العبرات!!
لقد كانت دفنيه تطوي الطريق كأنها فكرة شاردة في رأس شاعر، ولقد كان أبوللو يقتص آثارها كأنه الكوكب السيار منجذبا إلى نجم كبير! وكان كلما سرق اللمحة من ساقيها الجميلتين التهب قلبه بحبها، واشتعلت نفسه بالرغبة الملحة فيها، وانجذبت روحه إليها. . . . يا لكيوبيد! ويا لسهامه. . . . الذهبية. . . والرصاصية، على حد سواء!!
وتعدو دفنيه حتى تكون عند حفافي النهر العظيم الذي أقام زيوس والدها الكبير إلها عليه، فتصرخ قائلة: أنقذني يا أبي! خلصني من هذا الوحش الذي يدعى أنه أبوللو الكريم! إنه يعدو من ورائي. . . خلصني منه. . . إني أبغضه. . . يا أبي. . . يا أبي .)
وينشطر الماء، ويخرج أبوها، إله النهر، فيرى أبوللو مقبلا فيعرفه، ولكنه يرق لابنته، ويقسم ليخلصنها من سيد الشمس، فيغرس قدميها في الشاطئ، ويحتفن من الماء بيديه، وينثرها به، بعد أن يتلو عليه من تعاويذه؛ ويقف أبوللو مشدوها، موزع اللب، ينظر ويرى!
لقد تحولت دفنيه، في لمحات، إلى شجرة باسقة من أشجار الغار، وأخذت الخضرة تينع في أغصانها، بين حيرة أبوللو وشدة تعجبه!
ووقف الإله العظيم يبكي ويا ويح العاشق المخبول!
ثم تقدم فبارك الشجرة، وسقاها من دمعه، الذي كان من خلائقه الكبر! وانصرف محطم النفس، معمود القلب، كاسف البال. . . ولقيه كيوبيد، فسأله الخبيث: (أين سهامك التي أرديت بها الأفعوانات يا أبوللو بن لاتونا؟) فقال: (كيوبيد! اشفني مما ألم بي!) فقال كيوبيد: (بهذا السهم الرصاصي أشفيك!)
وتلقى أبوللو السهم في قلبه عن طواعية فبرئ مما به، ولم يعاد كيوبيد بن أفروديت بعدها!

دريني خشبة

البريد الأدبي

كلود فارير عضو الأكاديمية الفرنسية

في 28 مارس جرى في الأكاديمية الفرنسية انتخاب طال انتظاره على كراسيها الخالية؛ فانتخب ثلاثة من الأعلام الأحياء مكان ثلاثة من الأعلام الذاهبين؛ هم كلود فارير مكان لوي بارتو، وجاك بانفيل مكان بوانكاريه، وأندره بليسور مكان الأب بريمون. والثلاثة من أقطاب الكتابة والأدب، فإن كلود فارير قصصي كبير، وجاك بانفيل مؤرخ وصحفي بارع، وأندره بليسور مؤرخ ورحالة وصحفي كبير اشتغل حينا سكرتيرا لتحرير مجلة (العالمين) الشهيرة. ولكن أشد الخالدين الجدد اتصالا بالأدب هو بلا ريب كلود فارير

وكلود فارير ضابط بحري سابق؛ وكان مدى أعوام طويلة زميلا لبيير لوثي وصديقه الحميم؛ وقد تأثر بحياة البحر كما تأثر بها لوثي؛ وتأثر بعبقرية صديقه واتجاهه الأدبي.
ولما توفى لوثي سنة 1923 استمر فارير يحمل رسالته وينهج نهجه، فيؤثر البحر ورجاله، والمواني وأحياءها ومنتدياتها بكتابته؛ ولبث مثل لوثي يهيم بالمناظر والبيئات والشخصيات الغريبة

وكان أول ظفر أدبي لكلود فارير في سنة 1903 إذ صدر كتابه الشهير (خان الأفيون) وهو مجموعة قصص وصور تمثل حياة المدمنين في الشرق الأقصى؛ وكان فارير يومئذ ضابطا برتبة ملازم في إحدى الدارعات الحربية؛ وفي سنة 1905، أخرج قصته الكبيرة: (المتحضرون)، فنال بها جائزة أكاديمية (جونكور)، وذاع اسمه بين أقطاب الأدب، وبعد ذلك استمر فارير في الكتابة وإخراج القصص الصغيرة والكبيرة، ومن قصصه الكبيرة: (الرجل الذي قتل)، وهي على ما يرى بعض النقدة أعظم قصة لفارير، ومنها: (الحرب) و (منزل الأحياء) و (الآلهة الأخيرة) و (المحكوم عليهم بالإعدام) و

(الرجال الجدد) وغيرها؛ وله عدة مجموعات من القصص الصغيرة أشهرها: (سبع عشرة أقصوصة بحرية) و (أحمد باشا جمال الدين) و (قصص الأباعد والأقارب) و (أربع عشرة أقصوصة عسكرية) وغيرها. ولفارير قطع مسرحية أيضا منها (توما لا نليه) و (قبيل الحرب)

وكلود فارير مثل صديقه بيير لوثي من أقطاب المذهب الابتداعي (الرومانتيزم)، وقد تأثر مثل لوثي بأميل زولا. وقد كتب فارير مثل لوثي أيضا كثيرا عن تركيا والمجتمع التركي

وخلاله متأثرا في ذلك بسحره الشرقي القديم. وقد كان مثل لوثي يدافع عن تركيا القديمة، ويحاول أن يخرج أبدع صورها للغرب، وما زال فارير متعلقا بهذا السحر الشرقي القديم، يأسف لما حل بتركيا القديمة من تبدل وتطور، ويرثي هذا المجتمع القديم الساحر، بقصوره الشاهقة، ونسائه المحجبة، وبذخه وبهائه، ولا يرى في تركيا الحديثة سوى صورة ممسوخة لا هي استبقت القديم، ولا بلغت في الحديث شيئا.

ولفارير عدة كتب وقصص عن تركيا في آخر عصور السلاطين

وأما أسلوب فارير فهو ساحر، وهو أقرب إلى البساطة وعدم التكلف، وهو أشبه الأساليب بأسلوب جي دي موباسان، ومع هذه البساطة الجمة تراه ينفث المتاع والسحر في قارئه. ثم هو أسلوب مكشوف في بعض النواحي، بمعنى أن فارير يذهب في التصوير والوصف إلى حدود لا يبلغها الكثيرون، وأشد ما تبدو براعة فارير في وصف حياة الموانئ الكبيرة، وما يقع في منتدياتها وبؤرها السرية من أنواع الخلاعة والتهتك وصنوف الانحلال الأخلاقي والاجتماعي، فهو يصف لنا مقاهي الأفيون والحشيش في ثغور الشرق، وحياة البؤر والمواخير السرية في أمريكا وفي الهند الغربية، ويصف لنا عادات رجال البحر في السفينة وفي الميناء عند الجد وعند الهزل، ويصف حياة البغايا في الموانئ، ومجتمع السفلة والأوغاد؛ وكل ما يتعلق بهذه الحياة المثيرة التي لا يدرك أغوارها إلا رجل مثل فارير طاف العالم وثغوره، ونفذ إلى أعماق هذه الحياة بصورة عملية

وقد انقطع فاير إلى الأدب منذ أعوام طويلة؛ وهو اليوم يعمل في الصحافة إلى جان كتابة القصص، وينشر في الصحف الفرنسية، ولا سيما جريدة (الجورنال) مقالات طريفة ساحرة في مختلف الموضوعات والصور

ومما يذكر في حياة فارير الفياضة بالسياحة والمخاطر، أنه كان إلى جانب مسيو دومير رئيس الجمهورية الفرنسية السابق حينما اغتاله القاتل جور جولف برصاصة، وحاول فارير إنقاذه، فأصابته في ذراعه رصاصة من القاتل ألزمته فراشه مدى حين

صاحب الجائزة في المسابقة الأدبية

صديق العزيز صاحب الرسالة

تحية وسلاما. أما بعد. فقد زعم علماء النفس - والنفس أمارة بالسوء - أن ارتكب جرما

مرة نازعته غريزته إلى ارتكابه مرة أخرى. ومهما حاول الشقي أن يتوب ويرجع، فان جوارحه تتحرك، وأعضاءه تتدافع نحو تلك الجريمة، رغم كل مقاومة

والجريمة التي نحن في حديثها الآن هي ترجمة الشعر بالشعر. جريمة قديمة أليمة. ولها في صفحات الأجرام الأدبي أصول عريقة عميقة. والذين ارتكبوها وأمعنوا في ارتكابها، كان نصيبهم عادة الإعدام الأدبي مدى الحياة

ولقد كنت تبت من تلك الجريمة - أو خيل إلي أني تبت - حتى قرأت - وأنا أقضي عيد الفطر تحت شمس أسوان المشرقة - تلك القصيدة البديعة التي نظمتها كاتبتنا البارعة الآنسة مي، فنازعتني النفس اللجوج، إلى أن أكسر التوبة، وتقوضت صروح المقاومة أمام ذلك الشعر المغري والمعاني الساحرة. وسهلت الشاعرة أمامنا الصعاب بترجمة نثرية قربت البعيد، ومهدت العسير، فما شككت في أن كل أديب في الأقطار العربية سيندفع بالرغم منه إلى ترجمة تلك القصيدة

أما أني لم أرسل مع الترجمة اسما، بل وحاولت إخفاء خطي، فهل ينتظر من مرتكب الجريمة الاعتراف الصريح، وهل يستغرب منه أن يخفي معالمها جهد طاقته؟

والآن وقد نجحت المجازفة، فلا بأس عليك من إرسال الجائزة. فان دراهم الأدباء حلال للأدباء. ولا أشك في أن أصدقائي الأدباء سيلحون في أن تنفق تلك الدرهم، في وليمة

أدبية تعد لهم. وهم يزعمون أن خير الطعام ما جاء من طريق مسابقة أدبية. ولقد أحاول إفهام هؤلاء أن الأفضل أن يشتري بالدرهم سفر قيم يكتب في أوله حديث الجائزة، من أجل الذكرى والتاريخ. وما أظنهم ممن يجدي فيهم الإقناع. وإليك التحية الخالصة من أخيك

محمد عوض محمد

الجيزة في 3 أبريل سنة 1935

يجمالبون المثال

الأديب الفاضل زكي شنوده جندي: - شبرا

قرأت ملاحظتك الطيبة على أسطورة يجماليون المثال (الرسالة - العدد 90). والحقيقة أن هذه الأساطير قد تناولتها يد التبديل والتحوير طيلة العصور السحيقة التي مرت بها. وأكبر ظني أن الإغريق لم يكن لهم من أسطورة يجالبون المثال إلا ما لخصته أنا؛ لأني أعتمد فيما أكتب على أوثق المصادر التي لا يمكن أن يعتورها الشك، أما بقية الأسطورة التي أشرت أنت إليها فهي، كما أذكر، من ابتكار الكاتب القصصي الفذ ج برنردشو في قصته الخالدة (يجماليون)، وقد استمد الأديب الأيرلندي الكبير مادة قصته من الأسطورة اليونانية، وزاد عليها هذه الزيادة التي لاحظتها، لأنها بذلك، في نظره، تكتمل ما أحببته أنت لها من الرونق والكمال؛ وأحسبك في غنى عن أن أذكر لك، أن هذه الأساطير الجميلة كانت أبدا، ولا تزال، مصدر الإلهام للشعراء في الغرب الحديث، وهذا جون كيتس في قصيدته أنديميون، قد بدل في الأسطورة الإغريقية وحور، مع ذاك زادها جمالا وكمالا؛ وكذلك فعل شلي في (أدونيس) التي بكى فيها كيتس ومع ذاك، فأنا و (الرسالة)، إذا منحتني هذا الحق، نشكرك

د. خ

الاحتفال الألفي بذكرى المتنبي

علمنا أن لجنة تألفت في دمشق لوضع برنامج شامل للاحتفال الألفي بذكرى وفاة أبي الطيب المتنبي، وستدعو إلى الاشتراك في هذا الاحتفال جميع البلدان العربية. ويقال إن سلسلة هذه الاحتفالات ستبدأ في رمضان القادم

مصير اياصوفيا

لن يجد الذين يزورون استانبول من المسلمين في (اياصوفيا) مسجدا تؤدى فيه الصلاة كما كان حتى العام الماضي. ولكن (اياصوفيا) أنبل الآثار الرومانية في (قسطنطينية) قد حول الآن إلى متحف قومي تنفيذا للقرار الذي اتخذته الجمهورية في هذا الشأن، يزوره الجمهور مقابل أحد عشر قرشا تركيا (نحو قرش صاغ) وقد رفع من ساحاته الأثاث والرياش وكراسي المصاحف، وأرسلت طنافسه إلى مساجد أخرى في أدرنة. وظهرت في ساحته المنطقة القديمة التي كان يؤمها عباد الصور في القرن الثامن الميلادي؛ ولكن ترك المحراب ومنبر المؤذن والمصابيح البرنزية الكبرى (القناديل) وسلالها البيزنطية؛ وترك أيضا المنبر السلطاني الذي أقامه السلطان أحمد الثالث، واللوحتان اللتان كتبهما الخطاط التركي الشهير تقنج زاده إبراهيم في سنة 1642 وستنقل التحف الرومانية والبيزنطية إلى (اياصوفيا) عما قريب؛ وبذلك ترفع عن المسجد صفته الدينية التي أسبغت عليه منذ فتح قسطنطينية سنة 1453م

جائزة مينيرفا

من أنباء باريس أن جائزة مينيرفا الشهيرة قد منحت إلى مدام كلير سانت سولين؛ من أجل روايتها المسماة (نهار) وقد فازت بها دون عدة من الكتاب المنافسين. ومدام سانت سولين روائية فرنسية شابة، تلقت تربية عالية وتخرجت في جامعة باريس، وهي تكتب منذ أعوام كتابة الهواة لا المحترفين ولم تنشر سوى قليل مما كتبت، ويقال إنها أحرقت من تأليفها عدة قصص لم ترها جديرة بالنشر، وهي من عشاق القرية والغابة والمناظر الريفية، وقد لفت فوزها بهذه الجائزة الأدبية الشهيرة الأنظار إليها، وبدأت الصحف والمجلات تتناول حياتها وجهودها الأدبية بالنقد والتعليق

الكتب

ترجمة نفسية تحليلية

4 - هو ذا تاريخ إنسان. . .!
للأستاذ خليل هنداوي

الحياة عاقلة تسعى إلى غايتها الأزلية وهي تلهم ما تريد ومن تريد لتحقيق غايتها المحجوبة عنا. أصغر ذرة في الكون وأكبر جزء من أجزاء الكون سيان في خدمة هذه الغاية. . . وكل ما في الكون دائب عامل على تحقيقها، وهل الحياة إلا دوائر بعضها يموج في قلب بعض، لا تنفتح دائرة عبثا ولا يولد شيء عبثا، وفي كل ذلك سر، جهلنا به لا ينفي وجوده! وهذا الاتصال يؤمن به (نعيمه) حتى لا يجد حدودا بين البداية والنهاية. لأن بداية كل شيء مرتبطة بنتيجته. والواقف على متفجر الينبوع يرى فيه المسيل والبحر، والطريق والمحجة، لأن بدايته مرتبطة بنهايته، لا تستطيع أن تقول: من هاهنا ابتدأ وهنالك انتهى! بل يبتدئ وينتهي، ويبتدئ وينتهي من أصغر من لحظة، فهو - من بدايته ونهايته - في نقطة لا يفرق فيها مفرق بين البدء والنهاية

وقد يصل (النعيمي) بين خيوط الحياة الحقيقية وخيوط الحياة الحالمة، فيحاول أن يجعل من الأحلام مؤثرات في اليقظات! وكم حلم أراد تفسيره بالحقيقة، ومشابهة حللها بمشابهة أخرى! كأن الحياة عنده واعية تخلق ما تهوى وتخلق الإنسان كما تهوى ولا يخلق هو من نفسه شيئا، وهذه الوقائع التي تتراكم في حياة الإنسان وندعوها نحن (مصادفات) يراها هو (حقائق) كبرى مرسومة في كتاب الحياة، وإنما دعانا عجزها إلى تسميتها بالمصادفات. وما فيها من معنى المصادفة شيء!

فلسفة هادئة عميقة لم تنبت جذورها إلا في الشرق؛ الشرق البعيد، الذي وجد معنى الألوهية في كل ذرة من ذرات الوجود، هذه الفلسفة لم فيه يبعثها الغرب الذي سكنه طويلا، وإنما حاول الغرب أن يخنقها فيه، فهب بصيحة المخنوق فيه، فأنقذه قبل إسلام الروح

فلسفة شرقية هادئة لا تحارب العالم لأنها هي العالم، ولا تثور على القوة المجهولة بل تدور معها كما تدور الأفلاك والنجوم، ولكل جرم دورته وسبيله. والعوالم كلها تؤلف عالما واحدا

كاملا. كلنا دورات في دورات، وكلنا ضمن دائرة الحياة الكبرى. وهي تكره التمرد على الحياة، لأنها لا تدرك معنى هذه الثورة، والتمرد - عندها - نزق شباب وثورة محموم، ورغوة تلهيك عن الصريح، وخير من هذا التمرد على الناس وحياتهم التوجه إلى تفهم أسرار تلك الحياة بصمت وهدوء، وكشف ما فيها من جمال ينضح من معين الجمال الكلي. وهو يأخذ على جبران تمرده الذي يضعه فوق (أبناء الحياة) ويريد من فنه أن يعليه فوق الناس. فيرى نفسه نسرا عظيما، ويرى غيره دجاجا وديدانا،

لا يرضى غير الفضاء ميدانا، ولا يشرف على الحياة إلا من القمم العالية، يأخذ نعيمه على جبران هذا الأدعاء، ويجيبه بلسان (ميشلين) المتواضعة المتهكمة (وأنت يا جبران! لا تأنف من أن تغذي جسمك ببيوض الدجاج ولحومها! جعل (ميشلين) رفيقة تحسن المشي في مسالك الأرض قبل أن تجعلها شاعرة تجوب رحاب الجو. اجعلها دجاجة سعيدة قبل أن تجعلها نسرا قويا، اجعلها إنسانا راضيا قبل أن تجعلها إلها كاملا)

فلسفة متواضعة غايتها أن تبشر بالحياة الشاملة التي تربط بين الأقاليم التي مزقها طمع الناس، قضوا على أسمى رابطة بينها ورضوا بأن يربطوا - ما قطعوه - بالمسخ الذي خلقوه وألهوه - وهو الفلس - وبهذه الفلسفة يجرب أن يؤلف بين البشر ويفني الذات الفردية، ويحل محلها الذات العامة التي لا شريعة إلا شريعتها؛ فلا يبغض إنسانا لأنه كل الناس، ولا يملك شيئا لأن كل شيء له. ولا يهرب من الألم لأنه السبيل إلى النجاة، ولا يدين مجرما لأنه يدين نفسه، ولا يطلب مجدا لأن كل مجد باطل

هذا هو عالم الوحدة الكاملة حيث الحياة ألفة أبدية، كل ما فيها يعانق بعضه بعضا عناق محبة لا حواجز فيها ولا حد لها، يبلغه الإنسان فيدرك بلاغة الصمت وهيبة السكون، وسمو النفس في حضرة ما لا يحد. ومرتبة الصمت - عند نعيمة - هي أسمى مراتب البلاغة، ولكن أي صمت! هو الصمت المبطن بتلك المعرفة، وقد يكون أن ذلك الصمت هو المحجة التي نسير إليها على غير علم منا

بلى: سيصمت الإنسان - الصمت الأكبر - عند القبر، وينفصل الإنسان عن كل شيء ولكنه الانفصال الظاهر! لأن الانفصال لا حقيقة له. . . (وأين هي القدرة التي في

وسعها أن تحل حلقة واحدة من سلسلة الزمان وتترك السلسة مفككة مقطعة؟ أليس الإنسان يغيب
من ناحية من نواحي الزمان ليبرز في غيرها، كالشمس تغيب عنا في بقعة من الأرض فتشرق في سواها؟ الاتصال! الاتصال! ليس على الأرض ولا في السماء قدرة تستطيع أن تفصم عروة مكنتها الحياة بين إنسان وإنسان، أو بين شيء وشيء وهل في الكون ذرة ليست مربوطة بكل ما في الكون
سيذهب الجدول مترنما إلى البحر، وسيعود دون أن ينقطع المسيل الذي يصل بينه وبين البحر. . . .
خليل هنداوي
العدد 93 - بتاريخ: 15 - 04 - 1935
العام الهجري 1354
ها هو ذا العام الجديد يهُل، فأين السجل؟ تعال نقرأ ما خطه التاريخ في صفحتنا التي طواها الدهر أمس! هل انفرجت خوانق الأغلال قليلا عن الرقاب العانية؟ هل انجلت غواشي الغفلة عن العيون السادرة؟ هل إنجاب قتام الذل عن النفوس العزيزة؟ هل ائتلفت على عوادي الخطوب هذه القلوب الشتيتة؟ هل اقتنع المعتدون والمستبدون أننا ماض ينبعث، ومجد يستيقظ، وأمة تريد أن تستأنف بلاءها في جهاد الناس، وتستعيد مكانها من صدر الوجود؟
رويك لا تطل النظر فلن تجد فيه وا أسفاه إلا عبر عينيك!! لقد طويت هذه الصفحة كما طويت قلبها تلك الصفحات على بياض غير ناصع! وإن تاريخنا لا يزال يكتب عرضاً في تاريخ الدول، أو لحقا في تاريخ إنجلترا! فليس له في التقويم العربي حساب جارٍ، ولا في سفر العالم فصل مستقل!
لو كنا نسير إلى الوراء لعثرنا يوماً بمجد المصريين والعرب، ولو كنا نسير إلى الأمام لظفرنا يوماً بمجد الفرنسيين والانجليز، ولكنا سقطنا من الونَى والوهن في طريق الإنسانية، يخطو فوقنا الركب، ويدور علينا الفلك، حتى رن في أسماعنا صوت الأجداد يُهيب صارخاً بالرقود، فنهضنا نهضة المنبت الحائر نستلهم الأعراق، ونستنبئ الدلائل، ونتملق الأحداث، ونستحث القادة؛ ثم انقضى على هذه النهضة المتلكئة قرن، وما نزال شملاً يتجمع، وأملاً يتطلع، وعزماً يشب.
متى السير إذن يا هادي المحجة؟! لقد مللنا قرع الطبول ودق البشائر، وقتلنا الزمن في تأييد رأي وتفنيد رأي، وأضعنا الجهد في عقد لواء وحل لواء، وخجلنا من هذا الموقف السلبي الذي يرصد الأهب في الخيال، ويصور الخطط بالشعر، ويطلب النضر في أحلام المنى!
انطوت صفحة العام المنصرم ولم تسجل في أوطان العروبة غير الأسى والألم: سجلت في مصر كما سجلت من قبل أهواء تتصارع، وأطماعاً تتعارض، وفردية تطغى، وأثرة تسف،
وخصومة تكيد، وشعباً يكابد داء الضرائر في زعمائه، ويكاد يستجير بعدوه من أوليائه، وينظر فيرى في يده العتاد وفي طبعه الاستعداد، ثم لا يزال برغم ذلك وضيع الشأن في الحياة، مسلوب الإرادة في الحكم، مبذول المقادة للغاصب.
وفي العراق سجلت أحداثاً ترمض القلوب وتثير دفائن الهم، من دبيب العقارب بين الجيرة، وسعي النمائم بين الاخوة، وتمكين الطائفية للنفوذ الدخيل!
وفي الشام سجلت تفرق الكلمة بالوعود، وتمزيق الجسم بالحيلة، وتسكين الألم بالمرقد؛ كذلك سجلت في المغرب دموعا يمسحها اللاطم بكفه، ووشائج يقطعها الظالم بسيفه، ونفوساً ينزو بها الحفاظ للجنس والدين فتركض في القيد، وتضطرب اضطراب المهيض في القفص.
ثم سجلت في شبه الجزيرة فعل الفقر البئيس في دار الهجرة وملاذ الدعوة، ومطمأن الضريح المقدس.
أما السطور الحمر التي خطتها لفلسطين البائسة، فمن صبيب دمائها كان المداد، ومن نشيج بكائها كان الكَلِم: هي إعلان يبعها القهري في سوق السياسة، يتزايد فيه أهلها العرب بالحق - والحق رأي واجتهاد، وبالقانون - والقانون ورق ومداد؛ ثم يهود العالم

كله بالذهب - والذهب إله وشيطان، وبإنجلترا - وإنجلترا أسطول وبرلمان! فالعرب في فلسطين مقضي عليهم بالقتل والتشريد، وإخوانهم في الأوطان الأخرى ينظرون إليهم نظر العواد إلى المريض المشفى، يسعفونه بالدعاء، ويؤاسونه بالبكاء، والدعاء لا يرفع الواقع، والبكاء لا يدفع الموت.

هذه عناوين الصفحة المطوية ليس بينها عنوان جميل، فليت شعري ماذا اتخط أقلام القدر في صفحة العام الجديد؟!

لو كنا ننتفع بالذكريات، ونستفيد من العظات، لما بددنا الجهود في التجارب، وأفسدنا الأمور بالتردد؛ إن لنا تاريخاً إنسانياً حافلاً فيه لكل عظمية ذكرى، ولكل ملمة تجربة؛ وأن لنا دستوراً إلهياً كاملا فيه لكل مضلة هدى، ولكل قضية بينة؛ فاذا التمسنا على الطريقة التي نهجها الرسول، فتوفينا معاً على الغاية، وانتهينا جميعاً عندها إلى الوحدة.

إن الرسالة العربية التي هاجرت مغلوبة من مكة إلى المدنية، سافرت غالبة من الشرق إلى

الغرب، بفضل مبدئها الإلهي الذي قامت عليه ودعت إليه وفازت به، وهو توحيد الله، وتوحيد الكلمة، وتوحيد القوى، وتوحيد الغاية.

وقد استوثق الأمر لأهلها ما استمسكوا به؛ فلما تراخت العرى بينهم وبينه تقاذفتهم السبل، وتقاسمتهم الأطماع، وصار بهم التخاذل والتواكل إلى ما هم عليه اليوم.

احمد حسن الزيات

مساجلة الرمال

للآنسة النابغة (مي)

أفواج عديدة من الرمل تتململ شيئاً فشيئاً، فوجاً بعد فوج، وتتحدث في أواخر الغلس الظلام يولي، هارباً، وعمود الفجر يكاد ينشق، عما قليل تشرق الشمس فلا يلبث قرصها أن ينقلب أتوناً يُصلينا نار السعير.

- سيان لدينا الليل والنهار. كل يوم ننتظر من الظلام عذوبةً تحت أنوار الكواكب الواهية، ولكن حرارة الشمس تظلُ مستودعة في كياننا فنلبث في اتقادٍ واضطرام يوماً بعد يوم، وليلةً بعد ليلة.

- إنما جعلتنا الأقدار متحاذيات متلاصقات لنفرش هذه الأرض ونكون منها الصدأة المحترقة، يتهموننا بأن لمسنا يشوي اليد والقدم شياً، ولكن ألسنا نعاني في كياننا المقدور علينا من عذاب السعير؟ وددتُ لو أن لي دمعاً أذرفهُ من فرط السآمة والحنق والألم!

- طالما شهدنا الخلائق تهبط علينا وقد أضناها التعب والوصب، فنفق الحيوان على صدرنا، ومات الإنسان بين يدينا، ووجد كل منها عندنا ملجأ طبيعياً يتلقاهما ويضمهما إليه. ونحن الجائعات الظامئات المتعبات على الدوام، ليس لنا من يرثي لحالنا ويسعفنا. نحن التائقات إلى التفلت من حالتنا الراهنة، ليس لنا أن نمضي في علو ما ونهبط في مستقر غير هذا. واتعبي من هذا الوجود القاحل في ديمومة السكوت والجمود!

- ليست هذه هي الحركة التي ننشد. إن شوقاً عميقاً فينا يتلهف على حركة من نوع آخر.

- كم من حركةٍ مفاجئة خبرتُ عندما عصفت بي السموم في النهار أو الحرور في الليل! زعازع وأنواء انتزعتني في عنفٍ من مقري إلى مقرٍ آخر، فما كنت منتقلةً إلا من الرمضاء إلى الرمضاء حيث السعيرُ دائمٌ والأوارُ مقيم!

- وأنا تلقفتني العواصف غير مرة. فحطت بي يوماً عند ساحل البحر فامتزجتُ بالماء ورسبتُ في القعر. وأغفلني هناك زمناً الدهرُ الوسنان. ثم قذفت بي الأمواج على الشاطئ، فتناولتني الزوبعة الهوجاء، وردتني إلى مستقري في هذه البطحاء!

- وأنا كم حدت بي الريح إلى حيث الينابيع تتفجر والمياه تجري! إلى حيث الأرض كريمة والأشجار ظليلة، وقد نورت الأزهار هنا وهناك وهنالك على صفحة الروض، وتشابكت الرياحين بمثيلاتها من شذى النباتات فعبق الهواء بأريج العطور. . .!

- لا تذكرَن الماء والعطر والظلال لرمال شقية قضى عليها بالمحل والاضطرام والصدى، لا ترهفن فينا أشواقاً تأبى التحقيق!

- أتوق إلى الذوبان في سائلٍ ما، ولو كان ذاياك السائل القاني الذي رأيناه أحياناً على

جسد الإنسان أو الحيوان! ولكننا غير قابلات للجرح الذي يغسل قحلنا بنجيع الدماء، ولن نكون يوماً قمينات بابتسامة الحياة وعذوبة الحنان. قضى علينا بأن نكون دوماً في حكم الموتى، وقد حرمنا نعماً يجنيها غيرنا في جنة الأرض.

- أنكون في حكم الموتى ونحن نشتاق ونتعذب؟ ألا ليت كل قافلة عابرةٍ تسير بي إلى حيث ينيخ الركبُ! حيث الخيمة المضيافة والناس يضرمون النار ويأكلون، وينهلون الماء ويرتوون! وا حنيني إلى هناء المضارب! وا حنيني إلى كيانٍ قابل للريّ والارتواء!

- لو كان لي أن أرجو الوصول يوماً إلى تلك الحالة الراغدة لأعانني الرجاء على الاحتمال، وكان لي منه العزاء والسلوى! ولكننا في هذه البطاح الصماء البكماء، إنما وجدنا لنقطع كل صلةٍ بين الحياة والحياة!

- ويك! ماذا تقولين، نحن قاحلات جائعات ظامئآت مشتاقات، ولكننا وجدنا لنكون صلة بين الحياة ولباب الحياة!

- أولا ترين الفجر يتلألأ في الأفق سنياً؟ غبار دقيق من النور يتناثر حولي، كأنه سحيق من الذهب والبلور. هذا يوم عيد.

- لولا هذا اليوم وما ميّزهُ بين الأيام، ما كانت تلك القوافل العديدة، قوافل الحجاج التي نراها منذ قرونٍ وقرون ذاهبةً آئبةً.

- لقد شهدتُ القوافل ذاهبةً آئبةً منذ أن خرجت على الصحراء رملاً، وتعرفت قوافل العرب الرحل وقوافل الغزاة والمحاربين والشعراء والعاشقين. وكم من حداء سمعتُ!

- تلك القوافل تعددت ألوفاً وألوف الألوف منذ أربعة عشر قرناً، وتبدل الغرض من ترحالها منذ أن انبثق من سويداء قلب الصحراء جحفل النصر العظيم. فصارت القوافل قوافل الذكرى والعبادة والسلام، تقبل علينا في عجاجة وردية من قصيّ الابعاد حيث يخيل ان الآفاق تتحرك، وتغادرنا في عجاجةٍ وردية لتتوارى وراء الآفاق التي تحنو على وديعتها الفريدة الغالية.

- أعرف تلك الوديعة، فقد ساقتني إليها الريح مرة! هناك مثوى ذاك الذي عرف الصحراء يلقي في أرواح الشعوب روحاً حيةً خالدة.

- فتى الصحراء! فتى الصحراء الذي اصطفاه ربهُ ليحمل الكتاب. فهجر دياره، وسلاحه كتاب فغزا به العالمين!

- الفاتح الذي لا يشبهه فاتح! إنه لم يغزُ البلدان والأمصار وكفى، بل غزا القلوب بسره، وفتح النفوس بسحره، يوم خروجه من الديار هو بدء تاريخ الهجرة. وها الناس على توالي القرون، وقد هاموا بجاذبيته النورانية، يهجرون ديارهم وخيراتهم ويقتحمون المفاوز والأخطار ليحجوا إلى البقعة الصغيرة العظيمة التي تجمع عندها معنى الديار والأوطان، وتركزت فيها ثقة اليقين وانبعث منها نور الإيمان!

- سيد الغزاة والفاتحين! إنه فتانا، فتى الرمضاء وفتى الرمال! إنه جاء بمعجزة المعجزات فأخرج الخصب الخصيب من ديار القحط والجدب!

- فتى الصحراء العجيب، ذو العينين الدعجاوين حيث أودعت السماء نطفة الضياء! إن ذكراه لممتزجة بذكرانا!

- نحن الرمال لم يكن وجودنا عبثاً كما زعمنا في أجلنا المديد الأليم! نحن الجامدات، كنا مبعث الحركة والحياة! نحن القاحلات، كنا وما زلنا سبيل الهجرة الخصيبة.

أشرقت الشمس - شمس اليوم الأول من العام الهجري. من الرمضاء تتصاعد أشباح أثيرية تدور رشيقةً في نور النهار الجديد. وقد أصبحت أفواج الرمال القريبة والبعيدة كلها جوقة واحدة تنشد:

نحن الرمال القاحلة،
لا خصب يوازي خصبنا!
نحن الرمال الجامدة
هل من حياةٍ كحياتنا؟

أُمْنيةٌ

للدكتور محمد عوض محمد

ألا منِ لنفَسي - والأماني عزيزةٌ - ... بأرْضٍ خَلتْ من ظالمٍ ولئيمِ
وصومعةٍ شيدت على رأس رَبْوةٍ ... مهبِّ رياحٍ: زعزعٍ ونسيمِ.
تُطِلُّ على بحر يعُبّ عُبابه ... كصدرٍ لأسرار الزمان كتُومِ؛

ومن خلْفها يُنبوع ماءٍ مسلسلٍ ... كدُرّ على نحرِ الصخورِ نظيمِ
أُطالع منها الكونَ: سِفراً، تزاحمتْ ... به الآيُ، قد خطَّتْهُ كفّ حكيمِ،
وأقرأ منها الغيب سراً محجّباً ... بقلبٍ بصير بالخفِيّ عليمِ.
وإن زارني فيها الرَّدَىُ متَخَشِّعاً=فأهلاً به مِن زائرٍ ومقيمِ
محمد عوض
الهجرة
للأستاذ علي عبد الرازق
حينما فكر أولو الأمر من أهل السبق في الإسلام في اختيار مبدأ للتاريخ الإسلامي كانت هنالك حوادث ما يزال ذكرها حياً في أذهانهم، يملؤها روعةً وجلالاً.
هنالك حادث الهجرة غزوات النبي صلى الله عليه وسلم، ويوم الفتح - فتح مكة - وهنالك اليوم الذي أنزل الله تعالى فيه على عباده المؤمنين: (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً) وغير ذلك أيضاً. كل أولئك وكثير مما لم نذكره، قد كان ماثلاً أمام أولى الأمر من أهل السبق في الإسلام يوم أرادوا أن يختاروا مبدأ للتاريخ الإسلامي، فاختاروا من بين أولئك كله حادث الهجرة - هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من مكة إلى المدينة - وبذلك سجلوها ذكرى بين المسلمين متجددة، وأرسلوها فيهم حديثاً مأثوراً وعبرة دائمة.
ما تحسبهم فعلوا ذلك إلا وقد عرفوا لهذه الحادثة من القدر والخطر ما لم يعرفوا لغيرها من الحادثات التي عرفوا، وإن كانت ذات قدر جليل وخطر عظيم.
لقد يبدو غريباً أن يتفق الصدر الأول من بناة الإسلام وأهل السبق والفضيلة فيه على أن ينظروا إلى الهجرة بذلك النظر، وأن يعتبروها أهم الحوادث في الإسلام وأبرزها وأبلغها في نشأته أثراً.
والذين يقرءون سيرة النبي صلى الله عليه وسلم قد يدركون في غير مشقة أن هذه الهجرة كانت في الحق حدثاً ذا شأن عظيم وخطر، فأما أن يبلغ من خطرها أن تكون هي الحادث يغطي على جميع الحادثات، وتغلب ذكراه ذكراها، ويرتفع اسمه فوق أسمائها، فذلك ما قد يبدو غريباً يحتاج إلى شيء من البحث والنظر. بل لقد يبدو لبعض المتعسفين أمر هذه الهجرة وكأنه مظهر من مظاهر الهزيمة، وكأنه عمل من أعمال اليأس والتسليم. وكذلك يظنه بعض الكفار، وكذلك يسميه بعض كتابهم من الإفرنج بالهرب والفرار.
ولعل أولئك الذين يصفون هذه الهجرة بأشنع الصفات، ويدعونها بشر الأسماء، هم الذين سخرهم الله من حيث لا يشعرون ليكشفوا لنا عما أدرك السلف في هذه الهجرة من روعة تتضاءل دونها كل روعة، ومن عظمة لا تدانيها عظمة، ومن حقائق وأسرار ما كنا لنهتدي
إليها لولا أن أتاح الله لنا أولئك الحاسدين ينشرون فضل الهجرة كما تنشر النار طيب عرف العود.
وفي الحق قد كانت هذه الهجرة في ظاهرها نهاية أسيفة لمعركة حامية طالت واشتدت بين دعوة الله ودعوة الطاغوت، ولقي المسلمون فيها بأساً عاصفاً وزلزلوا زلزالاً شديداً. ولعل كُتاب السيرة النبوية لم يستوفوا ما في هذه الحرب المرة من تفاصيل ودقائق، ولم يتوسعوا في وصف ما تخللها من بأس وشدة، ولعلنا لو استطعنا أن نحيط إحاطة شاملة بحقيقة هذه المعركة لوجدنا فيها قصة فريدة لمعركة كانت من أشد ما عرف التاريخ صراعاً بين الحق والباطل، واصطداماً بين كلمة الله العليا وكلمة الكفر السفلى. لسنا نعرف من أمر هذه الحرب القاسية إلا ذلك الذي يكرره كتاب السيرة ويتناقلونه من أحاديث الصحيفة، وأحاديث التعذيب والإيذاء ونحو ذلك، ولكن الذي يدرس طبيعة هذه الحرب، ويحلل ظروف زمانها ومكانها، ويستقصي ما ورد في سياق الحديث عنها في القرآن وفي السنة، وفي كتب التاريخ لا يسعه إلا أن يعتقد اعتقاداً جازماً بأن هذه المعركة قد كانت عنيفة إلى أقصى درجات العنف، وقاسية إلى أبعد حدود القسوة، وأنها كانت أكبر محنة ابتلى بها المسلمون في صدر الإسلام، وكانت نهايتها أن تشتت المسلمون، وأخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا: ربنا الله. وخرج صاحب الدعوة ورفيقه عليهما السلام، كما خرج موسى كليم الله خائفاً يترقب (إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه: لا تحزن إن الله معنا) وهكذا كانت الهجرة

نهاية أسيفة لمعركة طالت واشتدت بين دعوة الله ودعوة الطاغوت.
ثم كانت هذه الهجرة نفسها بداية سعيدة ناجحة لمعركة طالت واشتدت بين دعوة الله ودعوة الطاغوت، وفيها عاد الله سبحانه على المسلمين بالنصر مؤزراً (فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وأنزل جنوداً لم تروها، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله العليا والله عزيزٌ حكيم).
ليس يشق علينا أن يقولوا عن الهجرة إنها كانت هزيمة وكانت فراراً. ولئن كانت الهجرة هزيمة فلقد كان في هذه الهزيمة النصر كل النصر والفوز كل الفوز. ولئن كانت الهجرة عملاً من أعمال اليأس والتسليم، فلقد كان مع اليأس والتسليم أمل باسم، قضى الله أن يتحقق، وغلبة شاملة أراد الله أن تتم؛ ولئن كانت الهجرة هروباً وفراراً، فلقد أعقبها رجعة
على الكفر ساحقة، وكرة كانت القاضية.
وهل يجد المسلمون في تاريخهم، وهل يجد غير المسلمين في تاريخهم، وهل تجد البشرية كلها في تاريخها حادثة غير هذه الهجرة تستحيل فيها الهزيمة نصراً ويرتد اليأس رجاء، ويصير الفرار سلطاناً وتمكيناً؟ أم كان ذلك فضلاً من الله يختص به من يشاء، وكان فضل الله عليك عظيما!
إذا كان المسلمون قد استيأسوا يوم الهجرة وظنوا بالله الظنون، فان المسلمين قد علموا يوم الهجرة أن يد الله الرحيمة، قد امتدت من السماء فتلقت الإسلام تحفظه وتؤيده، وأحاطت بالمسلمين فهدتهم إلى طرق السعادة، وكتبت لهم أن يكونوا هم الفائزين.
لقد علم المسلمون يوم الهجرة أن الله قد كتب لهذا الدين النصر الخالد، ولن يخلف الله وعده؛ ولقد علم المسلمون يوم الهجرة أن الله وحده هو الذي يحمي هذا الدين ويدافع عنه، وأن الله وحده هو الذي يحفظ هذا الدين وينصره (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكتبهم فينقلبوا خائبين، ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون، ولله ما في السموات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم).
علي عبد الرازق
آية الهجرة
للأستاذ أمين الخولي المدرس بكلية الآداب
(وجاهدوا في الله حق جهاده، هو اجتباكم، وسماكم المسلمين)
(ليهلك من هلك عن بينة، ويحي من حي عن بينة)
من أول خطبة له عليه السلام بعد الهجرة
تخيرت الأمم من عيون أيامها، وأعلام أحداثها، ما جعلته ميقاتاً تؤرخ به؛ فقالت لعام كذا من وفاة الأسكندر، أو غلبة دقيانوس، أو ميلاد المسيح، أو هو من ذاك. فلما تأذن الله أن يتخذ الإسلام ميقاتاً، أبى له أن يكون مولد فلان، أو مهلك فلان، أو تملك مملك، أو مصرع متوج؛ فكل أولئك خفيف عند الله في الميزان، وكل أولئك لقد يهون على الزمان.
يرحم الله ابن الخطاب! لقد كره التاريخ بالوفاة؛ نفر منه طبعه، وعافته فيه قوة الحياة، فتجلت بقلبه روح الإسلام مشرقة؛ وسمت له ألمعية لبقة؛ إذ آثر لذلك المبدأ يوم جلاد، واختار له ذكرى جهاد؛ يوم غالب فيه فرد جماعات، وناضلت عزمة عزمات؛ فبينا الباطل في قبائل يتنمر، والموت على يد الأجلاد يرصد ويدبر، تصدى لذلك كله (محمد) وحده يسخر؛ (وجعلنا من بين أيديهم سداً، ومن خلفهم سداً، فأغشيناهم فهم لا يبصرون). ما عز عليه أن يخلي الأهل والوطن، ولا راعه أن يغترب لغير مستقر، فغلب الحق وظفر، وانتصر الإيمان وقهر، في قلة وروعة وتجرد.
تلك آية الهجرة، وذلك في اختيارها سر الفكرة، ألقاه إلى الدهر عمر، وخلده حين حمله القمر، فجعله في التاريخ تقديراً؛ وإنما بعثه لرسالة الإسلام تفسيراً، يدور مع الأيام، ويتجدد لكل عام. . . . أفيتساءل المسلمون بعد أين الطريق وكيف النجاة؟ وتلك آية الهجرة أول الحياة في تاريخهم وأول تاريخهم في الحياة!
يا شرق. . . إن لك عند القمر معنى تاريخياً، وإن لك فيه لرمزاً حيوياً؛ فإن يبد في الغرب ناحلاً نضو أسفار، فهو الطلعة يرتاد لك طريق الفخار؛ وإن يتألق في الشرق

بدراً كاملاً، فهو تاج مجدك، ومثال جدك.
الآن يرزح القمر سجف الغيب عن عام جديد، فيطالع في الشرق وجوهاً ناضرة، إلى ربها ناظرة، تحييها منه إشراقة باهرة، وطلعة نيرة، تجل فيهم ما فهموا من معاني المجد والنبل
في آية الهجرة، ووجوه. . . لا جرى القلم بوصفها، قد غلبت على أمرها. . . لكنها لم تفقد رجاءها، ولم تضعف أملها، فلن تهي ما استمسكت بعروة الإيمان (إن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين). . . أولئك لهم من القمر في إشفاقه الوديع نظرة راجية، ولفتة حانية، وإيماءة نافذة، تثير ذكريات حافزة، تلهمهم معاني المجد والنبل من آية الهجرة.
أمين الخولي
على هامش السيرة
من معجزات الهجرة
للأستاذ علي الطنطاوي
قال:
- هل لك يا سُراقةُ في مائة من الإبل؟
- قال سُراقةُ: ما أحوجني إلى عشرين! فكيف السبيل إلى مائة؟
- قال: ترد على قريش صاحبها، فقد خرج من مكة حين مكرت به قريش وأجمعت على قتله، مهاجراً إلى المدينة. فبثت قريش عيونها في سبل مكة وشعابها، وبعث رسلها فنفضوا الصحراء نفضاً فما وقعوا له على أثر، فعادوا إلى قريش بالاياس منه، فأذنت قريش في العرب، أن من رد علينا محمداً فله مائة من الإبل، وقد رأيت ركبة ثلاثة مروا علي آنفاً، وإني لأراهم طلبة قريش. . . فهل لك أن نلحق بهم فنردهم إلى مكة ونأخذ مائة الناقة فنقسمها بيننا؟
فرقص قلب سراقة فرحاً، ولعب به الطمع؛ وكان سراقة ابن مالك الجعشمي رجلاً متعفرتاً متشيطناً، فعقد النية على أن يستأثر وحده بالغنيمة حتى تكون خالصة له، فقال لصاحبه:
- ما هؤلاء من تريد، هؤلاء بنو فلان ينشدون ضالة لهم.
فصدق الرجل وانصرف، وذهب سراقة فجلس في نَدِيّ قومه كما كان يجلس كل عشية فما اطمأن به مجلس، وما وعى من أحاديث القوم شيئاً، وإنما كان يخيلُ إليه أنه يرى قطاراً طويلاً من الإبل يمر أمامه، ويدور من حوله، فيخفق لمرآه قلبه، وتتحلب أشادقه. . . ثم طمي به الطمع، فبرح النادي إلى بيته، يلوص بعينيه آفاق المستقبل، ويقلب أوجه الممكن ويفكر في مائة الناقة.
أيملكها حتى تكون طوع أمره يصرفها كما يشاء فتلد، وتتكاثر فينحر منها، ويطعم الجائع، ويقري الضيف، ويرفد الوافد فيسير ذكره في العرب، وتنتجعه الشعراء، وتمسي بمدائحه الركبان؟ أم هو لا ينالها، ولا يفيد من سفره إلا لذع الشمس، وبرح العطش، وطول التعب؟. . .
وامتد به التفكير حتى ما يكاد يخرج منه، ولا يكاد يستقر على الرأي لحظة حتى ينتقل إلى
غيره: لم لا أذهب؟ إني سأجدهم فأردهم على قريش. ولكن ألم تعجز رسل قريش عن أن تهتدي اليهم؟ فكيف أجدهم أنا؟. . . بل سأجدهم، إني سالك كل طريق تؤدي إلى المدينة. . . ولكن يا للسخف! ألم تسلك رسل قريش هذه الطرق كلها؟
ولما أضناه التردد أزمع أن يستفتي الحظ، ويهتدي بالمصادفة - فأخرج أزلامه فاستقسم بها، وحاول أن يشتف الغيب من خلالها: إن خرج الزلم الذي أكره (لا يضره) لم تكن النياق لي. وإن خرج الذي أحب (يضره) كانت لي، إن الحكم للأزلام. . .
وضرب بيده فخرج الزلم الذي يكره، فتألم واشتد ذلك عليه، لأنه إنما عمد إلى الأزلام ليستمد منها العزم على الذهاب لا الرغبة في القعود، ثم قال:
إنها أول مرة، وهي للشيطان! وإني ضارب الثانية، إن الثانية لآلهتنا، وضرب الثانية فخرج الزلم الذي يكره. فقال لنفسه: ما لي؟ وهل يقنع امرؤ بمرتين؟ إن المعول على الثالثة. وضرب الثالثة فخرج الزلم الذي يكره. . . فتصبب على جبينه العرق البارد، فألقى الأزلام حنقاً، وأمر غلامه أن يسرج فرسه ويقوده إلى بطن الوادي!
وتريث سراقة حتى إذا تصرم الليل، أسحر سالكاً طريق المدينة فسار فيه إلى الصباح

فلم يقع من القوم على أثر. فعاد أدراجه يتبع طريق الساحل فلا يلقى فيه أحداً، حتى زالت الشمس؛ وحميت الظهيرة، وتسعرت الأرض، وأحرق جوفه العطش، وكان ينهزُه الطمع فيعدو فرسه عدواً شديداً، حتى يرى الآكام هي التي تسير عن يمينه وشماله، يأخذ بعضها بسفوح بعض. . . ثم يدركه القنوط فيدع الفرس يمشي متباطئاً متخاذلاً. . . حتى إذا بلغ منه التعب والعطش والجوع واليأس نظر فإذا عند الغار من جبل ثور محمد وصاحبه. . . فصبت القوة في عضلاته، وعادت إليه الحمية والنشاط، فصاح في الفرس، فانطلق نحو الغار كالسهم المرسل؟

قال أبو بكر رضي الله عنه:

فقلت: هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله وبكيت . . .

فقال: ما يبكيك؟

قلت: ما والله على نفسي أبكي، ولكن أبكي عليك

فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: اللهم اكفناه بما شئت، فساخت فرسه في

الأرض إلى بطنها. . .

فلما رأى سراقة ما رأى، وثب عن الفرس، وقد طار الخوف بلبه، وأبرأه الفزع من داء الطمع، وصاح:

- يا محمد! قد علمت أن هذا عملك، فادع الله أن ينجيني مما أنا فيه، فو الله لأعمين على من ورائي من الطلب. فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأنقذه الله. . . وكلمه فكان من قوله له:

- كيف بك يا سراقة إذا لبست سواري كسرى؟

ورجع سراقة، وقد اجتمعت عليه منذ اليوم المتناقضات من الأفكار والعواطف، وهاج نفسه الطمع والخوف، والأمل واليأس، فجعل يقهقه في هذه البادية، ويصرخ كمن به جنة، ولم لا يجن؟ وقد كان يأمل أن ينال الغنى ففاته ما كان يأمل، وقد فتحت فاها لتبلعه الأرض فنجا، ولم يصدر بعد هذا كله إلا بوعد دونه خرط القتاد، وخرق النار، وخوض البحار. . .

- ماذا؟ أيعدني محمد سواري كسرى، كسرى شاهنشاه ملك الملوك. . . وهو يقطع الصحراء هارباً من قومه، مختفياً في غار.

- ليس معه إلا رجل واحد - أيبتلع هذا الغار ملك كسرى وجبروته وجلاله؟ أتنتصر هذه الصحراء على ملك كسر وجنانه وأنهاره؟ أيغلب هذان المهاجران كسرى على خزائنه وجنوده وبلاده؟ ولو أن العرب اجتمعت كلها، ورمت عن قوس واحدة، ما نالت من كسرى منالاً، على أنها لن تجتمع العرب قط، ومن ذا الذي يجمع مضر بن نزار وقحطان. . . وبكراً وتغلب. . . وعبساً وذبيان. . . وأين يذهب ما بينها من دماء؟ أما إن قريشاً كانت أدرى بصاحبها حين قالت عنه ما قالت فما أراه يعجبه أن ينجو من قريش، ويفلت من أذاها حتى يكون له ملك كسرى. . . إنه والله ما يريد إلا أن يتركنا (نحن أيضاً) مجانين!

وانطلق يقهقه ويصرخ:

ويحٌ لك يا سراقة! ستلبس سواري كسر. . . كسرى شاهنشاه ملك الملوك

والفرس ينفر من صراخه، فيطير على وجهه حتى اختفى وراء الآكام. . .

ومرت السنون

وكان يوم صائف متوقد، ففر سراقة من حره إلى حائط له، فما استقر فيه حتى سمع منادياً ينادي:

- يا سراقة بن مالك الجعْشُمي. . . . يا سراقة. . . .

فصاح: أن لبيك، وانطلق يؤم الصوت، فإذا رسول عمر يدعوه أن أجب أمير المؤمنين وإذا الشمس بين يدي عمر تأخذ الأبصار ببريقها ولمعانها، وإذا بين يديه تاج كسر ومِنْطَقَتع. . .

قال عمر:

هلم يا سراقة، أتذكر خبر الغار، وسواري كسرى شاهنشاه ملك الملوك؟. . .

- قال: نعم

- قال. قد أذهب الله بالإسلام ملك كسرى، فلا كسرى بعد اليوم. . هات يديك

فألبسه السوارين، وقال ارفعهما فقل:
- الله أكبر! الحمد الله الذي سلبهما كسرى بن هرمز، وألبسهما سراقة بن مالك، أعرابياً من بني مدلج.
يا سراقة لقد انتصر المهاجرون على كسرى وقيصر، وكان لهما ملك الأرض! يا سراقة! لقد أضاء النور الذي انبثق من بطن مكة الدنيا جميعاً! يا سراقة! لقد ظفر الغار بالعراق والشام، وغلبت الصحراء العالم!
يا سراقة! لقد ملك كسرى وقيصر كبيراً قوياً، ولكن الله مع الذين آمنوا، والله أقوى. . والله أكبر!.
علي الطنطاوي
عضو (المجمع الأدبي) بدمشق

مُحرم

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

يبشّر بالعام الجديد محرّمُ ... وينعته كلٌّ بما هو يزعمُ
فيوليه من إطرائه مُتفنِّلٌ ... ويكثر من ذِمّ له متشئمٌ
ولا يعلم الإنسان ماذا به له ... ومَنْ فيه قد يشقى ومن فيه ينعم
ومن ذا الذي فيه المنايا تغوله ... ومن ذا الذي منهن ينجو ويسلم
جديدٌ، أجل، عام جديدٌ تجّد في ... لياليه أحداثٌ بها لست أعلم
فيفرح قلبٌ بالكآبة مثقلٌ ... ويحزن قلب بالمسرَّة مفعم
وربّ سعيدٍ بالشقاء مهدّدٌ ... وربّ شقيٍ بالسعادة يحلم
ونفرح بالأعوام إمَّا تصرَّمت ... على أنَّها من عمرنا تتصرَّم
وددت لو أن العام قال منبّئاً ... وماذا يقول العام والعام أبكم؟
وللغرب أعوامٌ وللشرق مثلها ... ولكنهما الأعوام في الشرق تُسئم
وفي الغرب أفراحٌ وفي الشرق غمّةٌ ... وما الأرض إلاّ جَنّة وجَهنم
شقيقان هذا ليل أبنائه بهم ... مضيءٌ وهذا يوم أهليه مظلم
وتختلف الأخلاق إلاّ أقلّها ... ويختلف التفكير والعرق والدّم
بلى اختلفا فالغرب منصرف القُوَى ... إلى فعله والشرق بالقول مغرم
ونحن تثبّطنا، وهم قد تعجّلوا ... ونحن تأخّرنا، وهم قد تقدموا
وما كان مجدٌ كان يبنيه أهله ... كمجدٍ بأيدي أهله يتهدّم
ومن لي بعام لا يشابه غيره ... أرى فيه أظفار البغاة تقلّم
وأبخل أرضٍ بالرجولة بقعةٌ ... يضام الفتى فيها ولا يتبرّم
إذا أنت لم تألم من الضغط غاضباً ... فمن أي شيء في حياتك تألم؟
أدير عيوني في الوجوه فلا أرى ... سوى الذل مقروءًا ولا أتوسم
ليحزنني أن العنادل آثرت ... صموتاً وأن الزهر لا يتبسّم
لقد صوّح الزهر الذي كان باسما ... ولم يبق للصيداح ذاك الترنم
يريدون ألا يشكو الحزن ثاكل ... وألا يئن المثخن المتألم
من الناس آلافٌ يعضّهم الطوى ... وفي كل ألفٍ واحدٌ يتنعّم
إذا عجز المكروب عن شرح ما به ... فعلّ دموع العين عنه تترجم
أمن قام يشكو بثّه فعو مزعجٌ ... ومّن قال يبغي حقه فهو مجرم!
وإني لا أدري وإن كنت دارياً ... أقومي تعاموا أم عن الحق قد عموا
بني وطني لا تسكتوا عن حقوقكم ... أليس لكم منكم فمٌ يتكلم
لكم ثروة في الأرض أتعابها لكم ... وأرباحها للغرب نهبٌ مقسّم
ولا خير في بدء الفتى بجليلةٍ ... إذا كان عن عجز له لا يتمّم
ولا فخر إلا للذي هو ماجدٌ ... ولا مجد إلا للذي يتقحّم
وما الحرّ إلا من إذا ضِيم لم يَلن ... وإن قال حقاً فهو لا يتلعثم
ويا رُبّ فردٍ قد أتى في جهاده ... بما لم يكن يأتي الخميس العرمرم
وما بال أبناء العروبة أصبحت ... على الذل أشتاتاً تشبّ وتهرم
وما بال أبناء العروبة سلمت ... وقد كان عهدي أنها لا تسلّم
لآلام قومي الصَّيد نفسي تألمت ... لكِ الويل يا نفسي التي تتألم
وما خفقان القلب ما أنت سامعٌ ... ولكنه آمال قومٍ تَحَطّم

(بغداد)
جميل صدقي الزهاوي
الرجولة في الإسلام
للأستاذ أحمد أمين
لعل من أهم الفروق التي تميز المسلمين في أول أمرهم وفجر حياتهم عن المسلمين اليوم، (خلق الرجولة) فقد غنى العصر الأول بمن كانوا هامة الشرف، وغزة المجد، وعنوان الرجولة.
تتجلى هذه الرجولة في (محمد) إذ يقول: (والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته). كما تتجلى في أعماله في أدوار حياته، فحياته كلها سلسة من مظاهر الرجولة الحقة، والبطولة الفذة، إيمان لا تزعزعه الشدائد، وصبر على المكاره، وعمل دائب في نصرة الحق، وهيام بمعالي الأمور، وترفع عن سفسافها. حتى إذا قبضه الله إليه لم يترك ثروة كما يفعل ذوو السلطان، ولم يخلف أعراضاً زائلة كما يخلف الملوك والأمراء. إنما خلف مبادئ خالدة على الدهر، كما خلف رجالاً يرعونها وينشرونها، ويجاهدون بأموالهم وأنفسهم من أجلها.
وتاريخ الصحابة ومن بعدهم مملوء بأمثلة الرجولة، فأقوى ميزات (عمر) أنه كان (رجلاً) لا يراعي في الحق كبيراً، ولا يمالئ عظيماً أو أميراً. يقول في إحدى خطبه: (أيها الناس إنه والله ما فيكم أحد أقوى عندي من الضعيف حتى آخذ الحق له، ولا أضعف عندي من القوي حتى آخذ الحق منه).
وينطق بالجمل في وصف الرجولة فتجري مجرى الأمثال كأن يقول: (يعجبني الرجل إذا سيم خطة ضيم أن يقول: (لا) بملء فيه) - ويضع البرنامج لتعليم الرجولة فيقول: علموا أولادكم العوم والرماية، ومروهم فليثبوا على الخيل وثبا، ورووهم ما يجمل من الشعر). ويضع الخطط لتمرين الولاة على الرجولة فيكتب إليهم. (اجعلوا الناس في الحق سواء، قريبهم كبعيدهم، وبعيدهم كقريبهم، إياكم والرشا والحكم بالهوى، وأن تأخذوا الناس عند الغضب)، ويعلمهم كيف يسوسون الناس ويربونهم على الرجولة فيقول: (ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم، ولا تجمروهم فتفتنوهم، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم).
من أجل هذا كله كان هذا العصر مظهراً للرجولة في جميع نواحي الحياة، تقرأ تاريخ المسلمين في صدر حياتهم فيملؤك روعة، وتعجب كيف كان هؤلاء البدو وهم لم يتخرجوا في مدارس علمية، ولم يتلقوا نظريات سياسية، حكاماً وقادة لخريجي العلم ووليدي السياسة - إنما هي الرجولة التي بثها فيهم دينهم وعظماؤهم هي التي سمت بهم وجعلتهم يفتحون فتحاً حربياً يعتمد على القوة البدنية وكفى، إنما يفتحون فتحاً مدنياً إدارياً منظماً، يعلمون به دارسي العدل كيف يكون العدل، ويعلمون علماء الإدارة كيف تكون الإدارة، ويلقون بعلمهم درساً على العالم أن قوة الخلق فوق مظاهر العلم، وقوة الاعتقاد في الحق فوق النظريات الفلسفية والمذاهب العلمية، وأن الأمم لا تقاس بفلاسفتها بمقدار ما تقاس برجولتها.
هل سمعت عدلاً خيراً من أن يضرب ابن لعمرو بن العاص - وهو والي مصر - رجلاً مصرياً فيستحضره عمر بن الخطاب وابنه، ثم يأمر المصري أن يضرب من ضربه وأن يضع السوط على صلعة عمرو، ثم يقول له: (مذ كم تعبدتم الناس وقد ولتهم أمهم أحراراً). أو هل سمعت عطفاً على الرعية، وأخذ الولاة بالحزم كالذي روى أن معاوية قدم من الشام على عمر، فضرب عمر بيده على عضده فتكشف له عن عضد بض ناعم. فقال له عمر: (هذا والله لتشاغلك بالحمامات، وذوو الحاجات تقطع أنفسهم حسرات على بابك!)
أو هل سمعت قولاً في العدل يحققه العمل كالذي يقوله عمر (إذا كنت في منزلة تسعني وتعجز الناس، فو الله ما تلك لي بمنزلة حتى أكون أسوة للناس) - أو هل رأيت حزماً في الإدارة كالذي فعله في مسح سواد العراق وترتيب الخراج، وتدوين الدواوين، وفرض العطاء.
حقاً لقد كان عمر في كل ذلك رجلاً، ولئن كان هناك رجال قد امتصوا رجولة غيرهم، ولم يشاءوا أن يجعلوا رجالاً بجانبهم، فلم يكن عمر من هذا الضرب، إنما كان رجلاً

يخلق بجانبه رجالاً، فأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص والمثنى بن حارثة، وكثير غيرهم كانوا رجالاً نفخ فيهم عمر من روحه كما نفخ فيهم الإسلام من روحه، وأفسح لهم في رجولتهم، كما أفسح لنفسه في رجولته.

وكان أدبهم في ذلك العصر صورة صحيحة لرجولتهم يتغنون فيه بأفعال البطولة ومظاهر الرجولة.

وخير الشعر أشرفه رجالاً ... وشر الشعر ما قال العبيد

يعتد الشاعر بنفسه ويسمو بها عن النعماء والبأساء فيقول:

قد عِشْتُ في الناس أطواراً على طرُقٍ ... شتى وقاسيتُ فيها اللينَ والفَظَعا

كُلاًّ بلوتُ، فلا النعماءُ تُبْطِرُني ... ولا تخّشْعتُ من لأوائها جَزَعا

لا يملأ الهوْلُ صدْرِي قبلَ موقِعه ... ولا أضيقُ به ذَرْعا إذا وَقَعاَ

ويعتز بشرفه وقوته وإبائه الضيم فيقول:

وكنت إذا قوم رمَوْني رميتهم ... فهل أنا في ذَايالَ هَمْدَانَ ظالِمُ

متى تجمَع القلبَ الذَّكيّ وَصارِماً ... وَأنفاً حَمِيًّا تَجْتَنِبكَ المظَالِمُ

ويمدح رجل قوماً فيقول (انهم كالحجر الأخشن إن صادمته آذاك وإن تركته تركك) ويقول أميرهم: (والله ما يسرني أني كُفيتُ أمر الدنيا كله قيل ولم أيها الأمير، قال لأني أكره عادة العجز) إلى كثير من أمثال ذلك.

وعلى الجملة فأدبهم تام الرجولة، قد شعت فيه الحياة، وامتلأ بالقوة، حتى اللاهي الماجن كأبي محجن الثقفي: كان يغازل، وكان يشرب، ولكن إذا جد الجد وعزم الأمر كان رجلاً يبيع نفسه لدينه، ويبيع كل شيء لشرفه وشرف قومه.

ونستعرض الغزل في الجاهلية وصدر الإسلام، فإذا هو غزل قوي لا مُيُوعة فيه، ولا تخنث، لا يذوب صبابة، ولا يلتاع هياماً، ولا يفقد الرجل فيه رجولته لحبه

وقلتُ لقلبي حين لجَّ به الهَوى ... وكلَّفنِي مَا لاَ أُطِيقُ منَ الْحُبِّ

ألا أيُّها القلبُ الذي قادَهُ الهوَى ... أَفِقْ لاَ أَقَرَّ اللهُ عَيْنَكَ مِنْ قَلب

وما أنا بالنّكْسِ الدَّنِيِّ وَلاَ الذِي ... إذا صَدَّ عَنِّي ذُو المَوَدَّةِ أَحْرَبُ

وَلكنّني إنْ دَامَ دُمتُ وَإنْ يكُنْ ... لهُ مذْهَبٌ عَنِّي فَلِي عنْهُ مَذْهَبُ

ولم يضن التاريخ على المسلمين من حين لآخر برجال لفتوا وجه الدهر، وغيروا مجرى الحوادث، ودفعوا عن قومهم الخطوب، وأنزلوا منزل العز والمنعة، تضيق عن وصف أعمالهم الرسائل والكتب.

ثم توالت الأحداث وتتابعت النوب، تفل من شوكتهم، وتفت في رجولتهم حتى رأيناهم بذلوا الشرف للمال، وقد كان آباؤهم ينظرون إلى دينهم وأمتهم، وتفرقوا شيعاً وأحزاباً يذيق بعضهم بأس بعض، فكانوا حرباً على أنفسهم بعد أن كانوا جميعاً حرباً على عدوهم -

ورضوا في الفخر أن يقولوا (كان آباؤنا) مع أن شاعرهم يقول:

إذا أنت لم تَحْمِ القديم بحادث ... من المجد لم يَنْفَعْك ما كانَ مِنْ قبل

وناثرهم يقول: (لم يدرك الأول الشرف إلا بالفعل، ولا يدركه الآخر إلا بما أدرك به الأول)

ورأينا خير ما في الأمم حاضرها وخير ما فينا ماضينا.

أريد بالرجولة صفة جامعة لكل صفات الشرف من اعتداد بالنفس واحترام لها، وشعور عميق بأداء الواجب، مهما كلفه من مصاعب، وحماية لما في ذمته من أسرة وأمة ودين، وبذل الجهد في ترقيتها، والدفاع عنها، والاعتزاز بها، وإباء الضيم لنفسه ولها.

وهي صفة يمكن تحققها مهما اختلفت وظيفة الإنسان في الحياة فالوزير الرجل من عد كرسيه تلكيفاً لا تشريفاً، ورآه وسيلة للخدمة لا وسيلة للجاه، أول ما يفكر فيه قومه، وآخر ما يفكر فيه نفسه، يظل في كرسيه ما ظل محافظاً على حقوق أمته، وأسهل شيء طلاقه يوم يشعر بتقصير في واجبه، أو يوم يرى أن غيره أقوى منه في حمل العبء، وأداء الواجب، يجيد فهم مركزه من أمته ومركز أمته من العالم، فيضع الأمور موضعها ويرفض في إباء أن يكون يوماً ما عوناً للأجنبي عليها، فاذا أريد على ذلك قال: (لا) بملء فيه، فكانت (لا) منه خيراً من ألف (نعم) وكانت (لا) منه وساماً تدل على رجولته - يقتل المسائل بحثاً ودرساً، ويعرف فيها موضع الصواب والخطأ ومقدار النفع والضرر، ثم يقدم في حزم على عمل ما رأى واعتقد لا يعبأ بتصفيق

المصفقين، ولا بذم القادحين، إنما يعبأ بشيء واحد هو صوت ضميره، ونداء شعوره.
والعالم الرجل من أدى رسالته لقومه من طريق علمه، يحتقر العناء يناله في سبيل حقيقة يكتشفها أو نظرية يبتكرها، ثم هو أمين على الحق لا يفرح بالجديد لجدته، ولا يكره القديم لقدمه، له صبر على الشك، وغرام بالتفكير وبطء في الجزم، وصبر على الشدائد، وازدراء بالإعلان عن النفس، وتقديس للحقيقة، صادفت هوى الناس أو أثارت سخطهم، جلبت مالا أو أوقعت في فقر، يفضل قول الحق وإن أهين على قول الباطل وإن كرم.
والصانع الرجل من بذل جهده في صناعته، فلم يشأ إلا أن يصل بصناعته إلى أرقى ما وصلت إليه في العالم، عشقها وهام بها حتى بلغ بها ذروتها، يشعر بأنه وطني في صناعته
كوطنية السياسي في سياسته، وأن أمته تخدم من طريق الصناعة كما تخدم من طريق السياسة، وأن الصناعة لا تقل في بناء المجد القومي عن غيرها من شؤون الدولة، فهو لهذا يحسن فنه، وهو لهذا يحسن سلوكه، وهو لهذا يرفض ربحاً كثيراً مع الخداع، ويقنع بربح معتدل مع الصدق، وهو لهذا كله كان رجلاً.
بل الرجولة تكون في المعنويات كما تكون في الماديات، فالرأي العام هو الرأي العام اليقظ، شديد التنبه لما يحيط به من مخاطر، يعرف كيف يدفع عنه الأذى إذا نيل منه، ويصد الشر إذا نزل به، صحيح التقدير لأعمال الرجولة، شديد الاحتقار للنذالة، يظهر إعجابه للمحسن أيا ما كان في أشكال تدعو إلى الإعجاب، ويظهر ازدراءه للمسيء أيا ما كان في أشكال تدعو إلى الإعجاب أيضاً، ولا يكون الرأي العام رجلاً حتى تشيع في أفراد الأمة الرجولة وتكثر فيهم البطولة - وفي الرجولة متسع للجميع، فالزارع في حقله قد يكون رجلاً، والتلميذ في مدرسته قد يكون رجلاً، وكل ذي صناعة في صناعته قد يكون رجلاً، وليس يتطلب ذلك إلا الاعتزاز بالشرف وإباء المذلة.
من لنا ببرنامج دقيق للرجولة كالبرنامج الذي يوضع للتعليم، يبدأ يرعى الطفل في بيته فيعلمه كيف يحافظ على الكلمة تصدر منه كما يحافظ على الصك الذي يوقع عليه، ويعلمه كيف يكون رجلاً في ألعابه، فيعدل بين أقرانه في اللعب كما يحب أن يعدلوا معه، ويلاعبهم بروح الرجولة من حب ومساواة ومرح في صدق وإخلاص.
ويسير مع التلميذ في مدرسته، فيعلمه كيف يحترم نفسه، وكيف لا يفعل الخطأ وإن غفلت عنه أعين الرقباء، ولا يغش في الامتحان ولو تركه المعلم وحده مع كتبه؛ وكيف يعطف على الضعفاء ويبذل لهم ما استطاع من معونة.
ويتمشى مع الطالب في جامعته فيعوده الاعتزاز بنفسه والاعتزاز بجامعته والاعتزاز بأمته. ويبعثه على أن يفكر في غرض شريف له في الحياة يسعى لتحقيقه - حتى إذا ما أتم دراسته كان قاضياً رجلاً أو معلماً رجلاً، أو سياسياً رجلاً، وعلى الجملة إنساناً رجلاً.
ويتابع الأمة فيضع لها الأدب الذي يبعث قوة، والأناشيد والأغاني التي تملأ النفس أملاً. ويراقب في شدة وحزم دور السينما والتمثيل والملاهي، فلا يسمح بما يضعف النفس ويلثم الشرف، ولا يسمح بما يحي الشهوة ويميت العزيمة، ويأخذ على أيدي الساسة والحكام
ورجال الشرطة، حتى لا يقسوا على الناس فيميتوهم، ولا يرهبوهم فيذلوهم.
من يبادلني فيأخذ كل برامج التعليم، وكل ميزانية الدولة ويسلمني برنامجاً للرجولة وميزانية لتنفيذه ليس غير.
ولي كبد مقروحة، من يبيعني ... بها كبداً ليست بذات قروح؟
أحمد أمين
حقيقة المسلم
للأستاذ مصطفى صادق الرافعي
لا يعرف التاريخ غير محمد (صلى الله عليه وسلم) رجلاً أفرغ الله وجوده في الوجود الإنساني كله، كما تنصب المادة في المادة، لتمتزج بها، فتحو لها، فتحدث منها الجديد، فإذا الإنسانية تتحول به وتنمو، وإذا هو (صلى الله عليه وسلم) وجودٌ سارٍ فيها فما تبرح الإنسانيةُ تنمو به وتتحول.
كان المعنى الآدمي في هذه الإنسانية كأنما وهن من طول الدهر عليه يتحيفه ويمحوه

ويتعاوره بالشر والمنكر، فابتعث الله تاريخ العقل بآدم جديدٍ بدأت به الدنيا في تطورها الأعلى من حيث يرتفع الإنسان على ذاته، كما بدأت من حيث يوجد الإنسان في ذاته؛ فكانت الإنسانيةُ دهرها بين اثنين: أحدهما فتح لها طريق المجيء من الجنة، والثاني فتح لها طريق العودة إليها. كان في آدم سر وجود الإنسانية، وكان محمدٍ سرُ كمالها.

ولهذا سمي الدينُ (بالإسلام)؛ لأنه إسلام النفس إلى واجبها، أي إلى الحقيقة من الحياة الاجتماعية؛ كأن المسلم ينكر ذاته فيسلمها إلى الإنسانية تصرفها وتعتملهافي كمالها ومعاليها؛ فلاحظ له من نفسه يمسكها على شهواته ومنافعه، ولكن للإنسانية بها الحظ.

وما الإسلام في جملته إلا هذا المبدأ: مبدأ إنكار الذات و (إسلامها) طائعة على المنشط والمكره لفروضها وواجباتها؛ وكلما نكصت إلى منزعها الحيواني، أسلمها صاحبها إلى وازعها الإلهي. وهو أبداً يروضها على هذه الحركة ما دام حيا؛ فينتزعها كل يوم من أوهام دنياها ليضعها ما بين يدي حقيقتها الإلهية: يروضها على ذلك كل يوم وليلةٍ خمس مراتٍ مسماةٍ في اللغة خمس صلوات، لا يكون الإسلام إسلاماً بغيرها؛ فلا غرو كانت الصلاة بهذا المعنى كما وصفها النبي (صلى الله عليه وسلم): هي عماد الدين.

بين ساعاتٍ وساعات في كل مطلع شمس من حياة المسلم صلاة، أي إسلام النفس إلى الإرادة الاجتماعية الشاملة القائمة على الطاعة للفرض الإلهي، وإنكارٌ لمعانيها الذاتية الفانية التي هي مادة الشر في الأرض، وإقرارها لحظاتٍ في حيز الخير المحض البعيد عن الدنيا وشهواتها وآثامها ومنكراتها. ومعنى ذلك كله طرقاً تتشتت فيها الأرواح وتتبعثر، حتى تضل روح الأخ عن روح أخيه فتنكرها ولا تعرفها!

وهذا الوجود الروحي هو مبعث الحالة العقلية التي جاء الإسلام ليهدي الإنسانية إليها؛ حالة السلام الروحاني الذي يجعل حرب الدنيا المهلكة حرباً في خارج النفس لا في داخلها، ويجعل ثروة الإنسان مقدرة بما يعامل الله والإنسانية عليه؛ فلا يكون ذهبه وفضته ما كتبت عليه (صنع في مملكته نفسي)؛ ومن ثم لا يكون وجوده الاجتماعي للأخذ حسب، بل للعطاء أيضاً؛ فان قانون المال هو الجمع؛ أما قانون العمل فهو البذل.

بالانصراف إلى الصلاة وجمع النية عليها، يستشعر المسلم أنه حطم الحدود الأرضية المحيطة بنفسه من الزمان والمكان، وخرج منها إلى روحانية لا يحد فيها إلا بالله وحده.

وبالقيام في الصلاة، يحقق المسلم لذاته معنى إفراغ الفكر السامي على الجسم كله ليمتزج بجلال الكون ووقاره، كأنه كائن منتصب مع الكائنات يسبح بحمده.

وبالتوالي شطر القبلة سمتها الذي لا يتغير على اختلاف أوضاع الأرض، يعرف المسلم حقيقة الرمز للمركز الثابت في روحانية الحياة؛ فيحمل قلبه معنى الاطمئنان والاستقرار على جاذبية الدنيا وقلقها.

وبالركوع والسجود بين يدي الله، يشعر المسلم نفسه معنى السمو والرفعة على كل ما عدا الخالق من وجود الكون.

وبالجلسة في الصلاة وقراءة التحيات الطيبات، يكون المسلم جالساً فوق الدنيا يحمد الله ويسلم على نبيه وملائكته ويشهد ويدعو.

وبالتسليم الذي يخرج به من الصلاة يقبل المسلم على الدنيا وأهلها إقبالاً جديداً من جهتي السلام والرحمة.

هي لحظات من الحياة كل يوم في غير أشياء هذه الدنيا؛ لجمع الشهوات وتقييدها بين وقتٍ وآخر بسلاسلها وأغلالها من حركات الصلاة، ولتمزيق الفناء خمس مرات كل يوم عن النفس؛ فيرى المسلم من وراءه حقيقة الخلود، فتشعر الروح أنها تنمو وتتسع.

هي خمس صلوات، هي كذلك خمس مرات يفرغ فيها القلبُ مما امتلأ به من الدنيا، فما أدق وأبدع وأصدق قوله صلى الله عليه وسلم: (جُعِلَتْ قُرَّةُ عيني في الصلاة).

لم يكن الإسلام في حقيقته إلا إبداعاً للصيغة العملية التي تنتظم الإنسانية فيها؛ ولهذا كانت آدابه كلها حراساً على القلب المؤمن كأنها ملائكةٌ من المعاني؛ وكان الإسلام بها عملاً إصلاحياً وقع به التطور في عالم الغريزة، فنقله إلى عالم الخلق، ثم ارتقى بالخلق إلى الحق، ثم سما بالحق إلى الخير العام؛ فهو سمو فوق الحياة بثلاث طبقات، وتدرج إلى

الكمال في ثلاث منازل، وابتعادٌ عن الأوهام بمسافة ثلاث حقائق.
وبتلك الأعمال والآداب كانت الدنيا المسلمةُ التي أسسها النبي (صلى الله عليه وسلم) دنيا أسلمت طبيعتها، فأصبحت على ما أراد المسلمون لا ما أرادت هي؛ وكأنها قائمة بنواميس من أهليها لا على أهليها؛ وكان الظاهر أن الإسلام يغزو الأمم بالعرب ويفتتحها، ولكن الحقيقة العجيبة أن إقليماً من الدنيا كان يحارب سائر أقاليم الأرض بالطبيعة الأخلاقية الجديدة لهذا الدين؛ وكأن الله تعالى ألقى في رمال الجزيرة روح البحر، وبعثها بعثه الإلهي لأمره، فكان النبي (صلى الله عليه وسلم) هو نقطة المد التي يفور البحر منها، وكان المسلمون أمواجه التي غسلت بها الدنيا. . .
لهذا سمع المسلمون الأولون كلام الله تعالى في كتابه، وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم، لا كما يسمعون القول، ولكن كما يتلقون الحكم النافذ المقضي؛ ولم يجدوا فيه البلاغة وحدها، بل روعة أمر السماء في بلاغة؛ واتصلوا بنبيهم، ثم بعضهم ببعض، لا كما يتصل إنسان بإنسان، بل كما تتصل الأمواج بقوة المد، ثم كما يمد بعضها بعضاً في قوةٍ واحدة.
وحققوا في كماله (صلى الله عليه وسلم) وجودهم النفسي؛ فكانوا من زخارف الحياة وباطلها في موضع الحقيقة الذي يرى فيه الشيء لا شيء.
ورأوا في إرادته (صلى الله عليه وسلم) النقطة الثابتة فيما يتضارب من خيالات النفس، فكانوا أكبر علماء الأخلاق على الأرض، لا من كتبٍ ولا علمٍ ولا فلسفة، بل من قلب نبيهم وحده.
وعرفوا به (صلى الله عليه وسلم) تمام الرجولة؛ ومتى تمت هذه الرجولة تمامها في إنسان رجعت له الطفولة في روحه، وامتلك تلك الطبيعة التي لا يملكها إلا أعظم الفلاسفة والحكماء، فأصبح كأنما يمشي في الحياة إلى الجنة بخطوات مُسددةٍ لا تزيغ ولا تنحرف فلا شر ولا رذيلة، ودنياه هي الدنيا كلها بشمسها وقمرها، يملكها وإن لم يملك منها شيئاً ما دامت في قلبه طبيعةُ السرور، فلا فقر ولا غنى مما يشعر الناس بمعانيه، بل كل ما أمكن فهو غني كامل، إذ لم تعد القوة في المادة تزيد بزيادتها وتنقص بنقصانها، بل القوة في
الروح التي تتصرف بطبيعة الوجود، وتدفع قوى الجسم بمثل دوافع الطفولة النامية المتغلبة، حتى لتجعل من النور والهواء ما يُؤتَدَمُ به مع الخبز القفار، كما يؤتَدَمُ باللحم وأطايبِ الأطعمة.
وبذلك لا تتسلط ضرورةٌ على الجسم - كالجوع والفقر والألم ونحوها - إلا كان تسلطها كأنه أمرٌ من قوةٍ في الوجود إلى قوةٍ في هذا الجسم أن تظهر لتعمل عملها المعجز في إبطال هذه الضرورة. وهذا الجنس من الناس كالأزهار على أغصانها الخضر؛ لو قالت: (إن ثروتي في الحياة هي الحياةُ نفسها، فليس لي فقرٌ ولا غنى، بل طبيعةٌ أو لا طبيعة. . .).
ولقد كان المسلم يضرب بالسيف في سبيل الله، فتقع ضربات السيوف على جسمه فتمزقه؛ فما يُحسها إلا كأنها قُبل أصدقاء من الملائكة يلْقونه ويعانقونه!
وكان يبتلى في نفسه وماله، فلا يشعر في ذلك أنه المُرزأ المبتلى يُعرف فيه الحزنُ والانكسار، بل تظهر فيه الإنسانية المنتصرة كما يظهر التاريخُ الظافرُ في بطله العظيم أصيب في كل موضعٍ من جسمه بجراح، فهي جراحٌ وتشويهٌ وألم، وهي شهادةُ النصر!
ولم تكن أثقالُ المسلم من دنياه أثقالاً على نفسه، بل كانت له أسباب قوةٍ وسمو؛ كالنسر المخلوق لطبقات الجو العليا، يحمل دائماً من أجل هذه الطبقات ثقل جناحيه العظيمين.
وكانت الحقيقةُ التي جعلها النبيُ (صلى الله عليه وسلم) مثلهم الأعلى، وأقرها في أنفسهم بجميع أخلاقه وأعماله - أن الفضائل كلها واجبةٌ على كل مسلم لنفسه، إذ أنها واجبة بكل مسلم على غيره؛ فلا تكون في الأمة إلا إرادة واحدة متعاونة، تجعل المسلم وما هو إلا روح أمته تعمل به أعمالها هي لا أعماله وحدها؛ المسلم إنسانٌ ممتدٌ بمنافعه في معناه الاجتماعي حول أمته كلها، لا إنسانٌ ضيقٌ مجتمعٌ حول نفسه بهذه المنافع؛ وهو من غيره في صدق المعاملة الاجتماعية كالتاجر من التاجر: تقول الأمانة لكليهما: (لا قيمة لميزانك إلا أن يصدقه ميزان أخيك. .).
ولن يكون الإسلام صحيحاً تاماً حتى يجعل حامله مثلاً من نبيه في أخلاق الله؛ فما هو

بشخص يضبط طبيعته، يقهرها مرةً وتقهره مراراً؛ ولكن طبيعةٌ تضبط شخصها فهي قانون وجوده؛ لا يضطرب من شيء، وكيف يضطرب ومعه الاستقرار؟ لا يخاف من شيء، وكيف يخاف ومعه الطمأنينة؟ لا يخشى مخلوقاً، وكيف يخشى ومعه الله؟ أيها الأسد، هل أنت بجملتك إلا في طبيعة مخالبك وأنيابك. . .؟

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

الدفاع عن الإسلام

للأستاذ توفيق الحكيم

قرأت لتسع سنوات خلت قصة فولتير التمثيلية (محمد)، فخجلت أن يكون كاتبها معدوداً من أصحاب الفكر الحر. فقد سب فيها النبي سباً قبيحاً عجبت له. وما أدركت له علة، لكن عجبي لم يطل، فقد رأيته يهديها إلى بنوا الرابع عشر بهذه العبارات: (فلتستغفر قداستك لعبد خاضع من أشد الناس إعجاباً بالفضيلة، إذا تجرأ فقدم إلى رئيس الديانة الحقيقية ما كتبه ضد مؤسس ديانة كاذبة بربرية. والى من غير وكيل رب السلام، والحقيقة أستطيع أن أتوجه بنقدي قسوة نبي كاذب وأغلاطه؟ فلتأذن لي قداستك في أن أضع عند قدميك الكتاب ومؤلفه؛ وأن أجرؤ على سؤالك الحماية والبركة. وإني مع الإجلال العميق أجثو وأقبل قدميك القدسيتين) (فولتير 17 أغسطس 1745).

وعلمت في ذلك الحين أن روسو كان يتناول بالنقد أعمال فولتير التمثيلية، فاطلعت على ما قال في قصة (محمد) علني أجد ما يرد الحق إلى نصابه، فلم أر هذا المفكر الحر أيضاً يدفع عن النبي ما ألصق به كذباً، وكأن الأمر لا يعينه، وكأن ما قيل في النبي لا غبار عليه ولا حرج فيه، ولم يتعرض للقصة إلا من حيث هي أدب وفن. ولقد قرأت بعد ذلك رد البابا بنوا على فولتير، فألفيته رداً رقيقاً كيساً لا يشير بكلمة واحدة إلى الدين، وكله حديث في الأدب. فعظم عجبي لأمر فولتير، وسألت نفسي طويلاً: أيستطيع عقل مثقف كعقل هذا الكاتب العظيم أن يعتقد ما يقول. دين تبعه آلاف الملايين من البشر على مدى الأجيال، هو في نظره حقاً دين كاذب؟ ومبادئ إنسانية كالتي جاء بها الإسلام، هي عنده حقاً مبادئ بربرية؟ أم إنه التملق والزلفى والنفاق. وإن الزمن والتاريخ يضعان أحياناً أقنعة زائفة على نفوس تزعم أنها خلقت للدفاع عن حرية الفكر. . .

منذ ذلك اليوم وأنا أحس كأني فجعت في شيء عزيز لدي: الإيمان بنزاهة الفكر الحر. ولقد كنت أحياناً ألتمس الأعذار لفولتير، وأزعم أنه قال ما قال لا عن مجاملة أو ملق، بل عن عقيدة وحسن طوية استناداً على علم خاطئ بأخبار النبي، ولكن كتابه إلى البابا كان يتهمه اتهاما صارخاً، ويدع مجالاً للشك في دخيلة أمره. إني قرأت لفولتير كتباً أخرى كانت تكشف عن آراء حرة حقاً في مسائل الأديان، وتنم عن روح واسعة الآفاق تكره التعصب الذميم، فما باله عند عرض لذكر محمد والإسلام كتب شيئاً هو التعصب بعينه، تعصبٌ لدينه، ذهب فيه إلى حد السجود وتقبيل الأقدام، لا لرب العزة والخلق، بل لبشر هو رئيس الكنيسة التي ما أرى أن فولتير كان في ذات يوم من خدامها المخلصين. هي الأطماع التي كانت تدفع فولتير فيما أرى إلى التمسح بأعتاب الملوك والبابوات، ولقد يقدم ثمناً لذلك أفكاره الحرة أحياناً. منذ ذلك الحين وفولتير عندي متهم، ولن أبرئه أبداً، ولن أعده أبداً من بين أولئك العظام الذين عاشوا بالفكر وحده وللفكر. وأحسب أن التاريخ العادل سوف يحكم عليه هذا الحكم، فينتقم للحق بما افتراه على نبي كريم ظلماً وزوراً. على أن الذين يدعو إلى الدهش أكثر من كل هذا أن الشرق والإسلام وقفا من الأمر موقف النائم الذي لا يعي ولا يشعر بما يحدث حوله، فلم أر كاتباً من كتاب الإسلام قام في ذلك الوقت يدفع عن دينه هذا الهراء الذي قال فولتير، ويقذف في وجه هذا الكاتب بالحقائق الباهرة القاطعة، أو أن مؤلفاً وضع كتاباً يبرز فيه شخصية النبي الخيرة العظيمة واضحة جلية. لقد كان الشرق في ليل هادئ بهيم لم تثر فيه حركة فولتير يومئذ ساكناً، ولكن اليوم قد تغير الأمر، ولاحت في أفق الشرق خيوط الفجر، وقام في هذا القرن كتاب يمجدون عقيدتهم وهم يعلمون أن في ذلك تمجيداً للحق وللشرق، فان المسألة ليست مسألة دين فقط، إنما هي أيضاً مسألة

جنس وقومية؛ وإذ تقول أوربا: (الإسلام) فإنما تعني في غالب الأحيان (الشرق) إن الحروب الصليبية في حقيقتها لم تكن إلا حرب الغرب على الشرق؛ وإن الفتح الإسلامي عندما بلغ فرنسا وهدد أوربا لم يكن في الواقع إلا حرب الشرق على الغرب. هذا المد والجزر بين الغرب والشرق يفهمه مفكرو الأوربيين تمام الفهم، ويحسبون له الحساب، ويعملون دائماً على أن تكون الغلبة لهم آخر الأمر، أو أن يطيلوا على الأقل أمد غلبتهم إن كان لابد من تبدل الحال ومن دوران الفلك طبقاً لناموس أعلى لا قبل لهم به. فالدفاع عن شخصيتنا وعقيدتنا دفاع عن حياتنا، وإن الكتابات التي توجه لهذا الغرض النبيل ينبغي أن يكون لها علينا حق المؤازرة والتعضيد؛ وإني لست بناقد منقطع للنظر في أعمال المؤلفين وتقدير ما يكتبون، ولكني أريد أن أشير إشارة سريعة إلى ثلاثة أساليب مختلفة من أساليب الكتابة، اتجهت في العصر الحديث إلى هذه الغاية، كل في دائرته.

ففي الكتابة الدينية: (الرد على هانوتو) للأستاذ الإمام محمد عبده، فلقد نشر هانوتو الكاتب

والوزير الفرنسي يوماً مقالة جاء فيها:

لقد أصبحنا اليوم إزاء الإسلام والمسألة الإسلامية، اخترق المسلمون أبناء آسيا شمال) القارة الأفريقية بسرعة لا تجاري حاملين في حقائبهم بعض بقايا البيزنطيين (يونان الشرق) ثم تراموا بها على أوربا، ولكنهم وجدوا في نهاية انبعاثهم هذا مدنية يرجع أصلها إلى آسيا، بل أقرب في الصلة إلى المدنية البيزنطية مما حملوه معهم، ألا وهي المدنية الآرية المسيحية، ولذلك اضطروا إلى الوقوف عند الحد الذي إليه وصلوا، ثم قال في (وأكرهوا على الرجوع إلى أفريقية حيث ثبت فيها أقدامهم أحقاباً متعاقبة موضع آخر: (وقصر فريق منا بحثه وحكمه على ما شاهده من المناقضات والخلافات بين الدينين المسيحي والإسلامي، فرأى في الإسلام العدو الألد والخصم الأشد. قال جذام فشا بين الناس وأخذ يفتك فيهم فتكاً ذريعاً، بل هي مرض مريع وشلل عام، وجنون ذهولي يبعث الإنسان على الخمول والكسل، ولا يوقظه منهما إلا ليسفك الدماء، ويدمن على معاقرة الخمور، ويجمح في القبائح، وما قبر محمد في مكة إلا عمود كهربائي يبث الجنون في رؤوس المسلمين ويلجئهم إلى الأتيان بمظاهر الهستريا (الصراع) العامة والذهول العقلي، وتكرار لفظة الله إلى ما لانهاية، والتعود على عادات تنقلب إلى طباع أصلية ككراهية لحم الخنزير، والنبيذ، والموسيقى، والجنون الروحاني، والليمانيا، والماليخوليا، وترتيب ما يستنبط من أفكار القسوة والفجور في اللذات) الخ الخ

أمثال هذا الكاتب يعتقدون أن المسلمين وحوش ضارية، وحيوانات مفترسة (كالفهد والضبع، كما يقول المسيو كيمون (وأن الواجب إبادة خمسهم) كما يقول أيضاً (والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة، وتدمير الكعبة، ووضع ضريح محمد في متحف اللوفر) وهذا أيضاً قوله (. . وهو حل بسيط وفيه مصلحة للجنس البشري. . أليس كذلك؟ ولكن قد برح عن خاطر الكاتب أنه يوجد نحو 130 مليوناً مسلماً، وأن من الجائز أن يهب هؤلاء (المجانين) للدفاع عن أنفسهم والذود عن بيضة دينهم. . الخ الخ)

فما ظهر هذا الكلام في صحيفة المؤيد، حتى قام الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده لساعته مجرداً قلمه وكتب نحو أربع مقالات هي أقوى ما قرأت دفاعاً عن الإسلام، وإظهاراً لحقيقة مبادئه الخافية على أغلب الأوربيين. وقد ورد على هانوتو فيما أوردنا صائحاً: (ما هذا

(التمدين الآري الذي كانت عليه أوربا عندما انتقص أطرافها المسلمون؟؟

هل كانت تلك المدنية هي التسافك في الدماء، وإشهار الحرب بين الدين والعلم، وبين عبادة الله وبين الاعتراف بالعقل، نعم هذا هو الذي كان معروفاً عند الغربيين وقت ما ظهر الإسلام.

ماذا حمل الإسلام إلى أوربا، وما هي المدنية التي زحف عليهم بها فردوها؟ زحف عليهم بما استفاد من صنائع الفرس وسكان آسيا من الآريين، زحف عليهم بعلوم أهل الفرس والمصريين والرومانيين واليونانيين. نظف جميع ذلك ونقاه من الأدران والأوساخ التي تراكمت عليه بأيدي الرؤساء في الأمم الغربية المتسكعين الذين كانوا في ظلمات الجهالة لا يدرون أين يذهبون.

إني أكيل لمسيو هانوتو إجمالاً بأجمال، والتفصيل لا يجهله قومه، وكثير من منصفيهم لم يستطع إلا الاعتراف به.

إن أول شرارة ألهبت نفوس الغربيين فطارت بها إلى المدنية الحاضرة كانت من تلك الشعلة الموقدة التي كان يسطع ضوؤها من بلاد الأندلس على ما جاورها، وعمل رجال الدين المسيحي على إطفائها مدة قرون فما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. واليوم يرعى أهل أوربا ما نبت في أرضهم، بعد ما سقت بدماء أسلافهم المسفوكة بأيدي أهل دينهم في سبيل مطاردة العلم والحرية وطوالع المدنية الحاضرة).

ثم رد الامام في موضع آخر: (يجب على الباحث في الإسلام أن يطلبه في كتابه، كما يجب عليه أن يطلب آثاره والإسلام إسلام، والمسلمون مسلمون، ولو استشم مسيو (كيمون) الذي استشهد هانوتو بكلامه ريح العلم لما استفرغ ذلك القذر من فيه، ولا حاجة إلى الكلام فيه، فسخافة رأيه وقلة أدبه تكفيه.

من أين أُتى المسلمون وكيف دخل عليهم في عقائدهم بالتشبيه، وفي عوائدهم بالتمويه؟ وممن تعلموا الافتراس، وعمن أخذوا الضراء بالشهوات؟ أنا أعلم ذلك وأهل العلم يعلمون، والله من ورائهم محيط.

اتبع المسلمون سنن من قبلهم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى سقطوا في مساقطهم، وطارحوا الأوهام حتى انجروا إلى مطارحهم، وباءوا بما كان لهم وما عليهم.

حدثت في الدين بدع أكلت الفضائل وحصدت العقائل، وترامت بالناس إلى حيث يصب عليهم ما استفرغه (كيمون).

أما لو رجع المسلمون إلى كتابهم واسترجعوا باتباعه ما فقدوه من آدابهم لسلمت نفوسهم من العيب، وطلبوا من أسباب السعادة ما هداهم الله إليه في تنزيله على لسان نبيه، ومهده لهم سلفهم وخطه لهم أهل الصلاح منهم، واستجمعت لهم القوة ودبت فيهم روح الفتوة، وكان ما يلقاه هانوتو وكيمون من دين صحيح شراً عليهما مما يخشونه من دين شوهته البدع.

يرى كيمون أن تخلى وجه الأرض من الإسلام والمسلمين، ويستحسن رأيه هانوتو لولا ما يقف في طريق ذلك كثرة عدد المسلمين؛ وبئسما اختارا لسياسة بلدهما أن يظهرا ضغنهما، ويعلنا خطل رأيهما وضعف حلهما.

أما فليعلم كل من يخدع نفسه بمثل حلمهما أن الإسلام إن طالت به غيبة، فله أوبة، وإن صدعته النوائب فله نوبة، وقد يقول فيه المنصفون من الانكليز مثل (اسحق طلير) وهو قس شهير ورئيس في كنيسة:

إنه يمتد في أفريقيا ومعه تسير الفضائل حيث سار، فالكرم والعفاف والنجدة من آثاره، والشجاعة والاقدام من أنصاره).

بهذا القلم وهذه المعرفة وهذا الذهن، وقف رجل الإسلام الحديث محمد عبده يذود عن بيضته أمام عدوان جهابذة الفكر والقلم من الأوربيين.

أما في الكتابة الأدبية، فأذكر (على هامش السيرة) للدكتور طه حسين، ففي هذا الكتاب دفاع عن الإسلام كما يستطيع الأدب البحت أن يدافع. فهو لا يسلك الطريق المستقيم في الكلام عن الإسلام، ولا يلجأ إلى التدليل العقلي، إنما يخلق جواً شعرياً يحبب إلى النفس سيرة النبي وبيئته؛ وقد عمد الدكتور طه حسين إلى الأساطير ينسج منها هذا الجو الأدبي الجميل، وتلك وسيلة الأدب والفن، ومن ذا يقرأ هذا الوصف لبلاد النبي ولا تأخذه روعته؟:

هنالك دعت (آمنة) إليها من حضرها من نساء بني هاشم، فأسرعن إليها وقضين معها ليلة لا كالليالي، أنكرن فيها كل شيء وأعجبن بكل شيء، أنكرن حتى أنفسهن، فقد رأين ما لم ير أحد، وسمعن ما لم يسمع أحد، وأحسسن ما لم يحس أحد. ولم تكن آمنة أقلهن إنكاراً وإكباراً وإعجاباً - فقد كانت ترى وهي يقظة غير نائمة أن نوراً ينبعث منها فيملأ الأرض من حولها، ويزيل الحجب عن عينيها، وكانت تنظر فترى قصور بصري في أطراف الشام، وكانت تنظر فترى أعناق الإبل تردى في أقصى الصحراء، وكانت لا تتحدث إلى من حولها بما ترى مخافة أن ينكرن ما تقول، وأن يظنن بها الظنون، وكانت هذه من صاحباتها لا تمد طرفها إلى شيء حتى تراه نوراً كله، لا ظلمة فيه وإنما هو مشرق

مضيء، أو هو الإشراق الخالص، وكانت هذه الأخرى من صاحباتها تنظر، فإذا نجوم السماء تدنو من الأرض وتمد إليها أشعة قوية نقية باهرة ساحرة، وإنها لتدنو وتدنو حتى يخيل إلى الرائية أنها توشك أن تمسها وتقع عليه).

لقد دافع طه حسين عن الإسلام في كتابه (على هامش السيرة) وإن كان لم يقصد إلى ذلك. فان الأدب الصرف والفن الصرف لا يقصدان أحياناً إلى شيء، ولكن في مجرد صوتيهما أبلغ الكلام.

أما في الكتابة العلمية فها هو ذا كتاب (حياة محمد) للدكتور محمد حسين هيكل بك.

ولو أني أعتقد أن أسلوب الدكتور هيكل في (حياة محمد) يدخل أيضاً في منطقة الكتابة الأدبية، فان هذا الكتاب يعتبر في نظري من كتب (التراجم والسير) التي يضعها الكتاب الأدباء، لا من البحوث العلمية التي يؤلفها المؤرخون العلماء ويعنون فيها بإضافة شيء جديد إلى العلم المعروف، أو استكشاف وثيقة من الوثائق التحريرية أو الآدمية، أو تحقيق مصدر من المصادر. على أن كتاب هيكل هو بلا نزاع أول سيرة نبوية خليقة أن تمثل تطور العقلية الإسلامية في هذا العصر الحديث.

وما أشق انتظارنا هذه الأجيال الطويلة لهذه السيرة الحديثة نضعها إلى جانب سيرة ابن هشام والسيرة الحلبية وطبقات ابن سعد وغيرها من السير القديمة حتى يستطيع عصرنا أن يجهر بأنه فعل شيئاً من أجل الإسلام.

ولو ان الأستاذ الشيخ محمد عبده حي اليوم لاستقبل هذا الكتاب بمثل ما استقبله به الأستاذ الشيخ المراغي، فرحاً بهذا القلم الجديد ينهض لخدمة الحق والإسلام.

ولقد ذكرت هذه الكتاب وهذه الأساليب الثلاثة بالذات لما رأيته فيها من نظرة جديدة إلى محمد والإسلام. نظرة ملؤها الاكبار الصادر عن فكر حر لا عن تعصب أعمى. ان الناس

لم تعد تعني بتلك الكتب المفعمة بالثناء الأجوف والألقاب الطويلة يحاط بها اسم النبي، وهو في عظمته أجل من أن يحتاج إليها. إنما تريد الناس اليوم حقيقة مجردة ناصعة هي في تجردها أجمل وأسمى وأبلغ في النفوذ إلى القلوب، وهذا ما صنع هيكل بك في كتابه (حياة محمد) على نحو خليق بالثناء، فلقد أسقط من حياة النبي تلك المعجزات التي لا تغني من الحق شيئاً ما دمنا في مجال التدليل العقلي، وأظهر شخصية النبي عظيمة في بشريتها السامية، وأبان عن غرض النبي والدعوة إلى دين جوهره اقتناع النفس بالحقيقة العليا. ان هذه النظرة الجديدة فيها إجلال للنبوة. وان أولئك السفهاء الذين كانوا يطلبون إلى الأنبياء أن يثبتوا نبوتهم بالمعجزات قد أثموا في حق الفكر البشري قبل أن يأثموا في حق الدين.

ان المعجزة: أي الإتيان بعمل خارق للمعتاد لا يدل على شيء ولا يثبت نبوة ولا يدحضها. فان من الكهان أو بسطاء الناس من يملكون أحياناً تلك القوى الخارقة في أجسامهم أو عقولهم أو أرواحهم دون أن يكونوا من أجل ذلك أنبياء. إن النبي ليس في حاجة إلى معجزة كي يكون نبياً. إنما النبي من حمل رسالة علوية لا ينصرف عن الحياة بغير ذلك، فقد بلغهم رسالته واعتمد في إثباتها على العقل المجرد.

ولقد جاء في كتاب هيكل بك: (لما جهد المسلمون عطشاً أثناء مسيرة جيش العسرة إلى غزوة تبوك ثم أمطرتهم السماء ذهب بعضهم إليه (إلى النبي) يقول إنها معجزة، فكان جوابه: (إنما هي سحابة مارة)؛ ولما كسفت الشمس يوم اختار الله ابنه إبراهيم إلى جواره قال الناس: (إن هذا الكسوف معجزة) فكان جوابه: (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته) هذا جواب محمد الذي قيل إنه نبي كاذب!!! فهل يمكن أن يكون هذا جواب نبي كاذب؟؟

ان في كتاب هيكل صفحات تصلح رداً بليغاً على فولتير. إن محمداً هو أعظم من فهم حقيقة النبوة، ووعى معنى الحقيقة العليا، وأدرك أن أكبر معجزة في هذا الكون هي انه لا يوجد في الكون معجزات، وأن كل شيء يسير طبقاً لنظام دقيق. وإذا قيل نظام قيل قانون، وإذا قيل قانون قيل عقل مدبر، وهذا العقل واحد أحد تبدو سعته في إدارة الأجسام غير المحدودة في الصغر، ذات اليد العلوية وعين أثرها في كل شيء، يد واحدة لا تتغير وقانون واحد لا يتغير. إن محمداً كما يبدو في وصف الدكتور هيكل قد تأمل الطبيعة كثيراً،

وفكر ملياً في نظامها العجيب فكشف عن بصيرته وبصره فامتلأقلبه بالله، كما اقتنع عقله بوجوده، فجاء دينه ديناً كاملاً، صادقا في نظر القلب والعقل معاً. ولئن كان على الأرض نبي أحب العلم، ولم يخش دينه العلم، ولم يضطهد العلماء، فهو (محمد) الذي قال: (فضل العلم خير من فضل العبادة) (اطلب العلم ولو في الصين) وكثيراً من الأحاديث التي تثني على العلم وتحض عليه. ذلك أن مصدر اقتناع العلم ومصدر اقتناع محمد واحد: الكون وملاحظة ما فيه من إبداع ينم عن يد الخلاق العظيم.

في كتاب حديث العالم انشتين فصل ذكر فيه رأيه في الدين، قال إنه يعتنق ما يسميه (الديانة الكونية) تلك الديانة التي تملأ قلب كل عالم انقطع لتأمل (ذلك التناسق العجيب بين قوانين الطبيعة وما يخفي من عقل جبار لو اجتمعت كل أفكار البشر إلى جانبه لما كونت غير شعاع ضئيل أقرب القول فيه انه لا شيء).

لا ريب عندي أن إحساس انشتين نحو الكون والله هو عين إحساس محمد يوم كان يتحنث في غار حراء قبل نزول الوحي. لنما الأنبياء والعلماء قلوب واعية تشعر بجلال الله. ولا يمكن لنبي أن يكون نبياً إلا أن يشعر من تلقاء نفسه بعظمة الخليقة ويتحرق شوقاً إلى معرفة صانعيها، ولا يزال الشوق بقلبه حتى يكشف له الصانع الأعظم عن بعض نوره، ويوحي إليه بنشر هذا النور على الإنسانية. أني كلما تأملت شخصية محمد مجردة ثبت إيماني بأن الخصومة المعروفة بين العلم والدين ليس لها في الحقيقة وجود، وان الدين الحق لا يتعارض والعلم الحق. . . بل إن الدين والعلم شيء واحد، كلاهما يطلب نور الله ويريد وجه، وكلاهما يعي ويؤمن ويلهج بتناسق الوجود ووحدة قوانينه ودلالة وحدة الوجود على وحدة الخالق. ولم يظهر نبي حق ولا عالم حتى شعر بغير ذلك. إنما الفارق بين العلم والدين في السبل التي يسلكها كل في الدنو من الله.

ومن قال إن وسائل العلم ينبغي أن تماثل وسائل الفن أو وسائل الدين؟؟؟ إن الطرائق والسبل يجب أن تظل مختلفة مميزة لا يختلط بعضها ببعض، إنما المصدر واحد دائماً والغاية واحدة. فما الدين والعلم والفن إلا خيوط ثلاثة كتب على بشريتنا القاصرة العمياء أن تتمسك بها لتهتدي إلى ذلك النور الذي لا بداية له ولا نهاية: الله إن الإسلام وهو أحدث الأديان، وهو الذي لم يخاصم العلم، وهو الذي أتسع صدره لكل شيء يصلح فيما يرى الدكتور هيكل لمعالجة أزمات العالم الحاضر، الروحية والاجتماعية والاقتصادية. وهو رأي صادق إذا قيض الله للإسلام رجالاً ذوي نظرة وذهن مستنير واطلاع واسع، يبرزون فضائله بأساليب جديدة، ويتولون إذاعته والدفاع عنه بأقلام ذكية قديرة. ولقد صنع هيكل كثيراً في هذا السبيل بأسلوبه الجديد في (حياة محمد). ولئن كان قد أثم في دنياه فلقد اشترى بكتابه آثامه!!! ولسوف يتقدم يوم الدين وكتابه بيمينه يشفع له في دخول الجنة!!! ولسوف يدخلها بأذن الله متأبطا ذراع طه حسين بما قدمت يمناه هو أيضاً من كتاب أدبي جميل (على هامش السيرة)، كان له ولا ريب الأثر في حمل الناس على استمراء أخبار النبي، ولهما بعد ذلك ولأمثالهما ممن دافعوا ويدافعون عن الإسلام خير التحية: فإني قلتها وأقولها دائماً: ليس الأمر أمر عقيدة وديانة، إنما هو إلى جانب هذا أمر حياة تلك الكتلة التي يسميها الغربيون: الشرق. وما الدفاع عن الإسلام إلا الدفاع عن الشرق.

توفيق الحكيم

صفحة من التاريخ - ليسمع العلماء

مشايخ الأزهر والسياسة في القرن الثامن عشر

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

حدث غير مرة في تاريخ العالم أن تصدى رجال الدين أو رجال العلم للسياسة ولم يكونوا في ذلك مختارين، بل كانت الظروف تدفعهم إلى موقف يجدون فيه أنفسهم مسئولين عن التدخل في أمر السياسة. فلا يجدون مفراً من أن يضطلعوا بحملهم، حدث أن بابا (روما) وجد نفسه حيال حكومة غالبة في إيطاليا من قوم أجانب عن أهلها جنساً ولغة، وذلك عندما استولى القوط على إيطاليا ونزعوها من سائر الدولة الرومانية. وكان البابا بغير شك زعيم القوم في أمور الدين، فكان الغالبون من القوط يلجأون إليه فيما يمس قومه لكي يلتمسوا عنده رضا أهل البلاد. وكان أهل البلاد في الوقت عينه يتطلعون إليه لكي يقف على رأسهم ويحفظ عليهم كيانهم وتقاليدهم، ويتوسط عند أهل الدولة فيما يمس مصالحهم وأمور دنياهم. فكان لا غنى للبابا عن

النظر في أمور الدولة، ولا مندوحة له عن التدخل في أمور السياسة. وكان هذا هو شأنه عندما ذهبت دولة القوط وحكمت إيطاليا دولة اللمبارديين، فان البابا وقف الموقف عينه، ووجد نفسه بطبيعة الظروف القاهرة ممثل الإيطاليين وزعيمهم والناطق بلسانهم إذا ما احتاج الأمر إلى من ينطق بلسان أهل البلاد في وجه الدولة اللمباردية الحاكمة. وكذلك كان الحال عند ما جاء الروم إلى مصر وفتحوها وأقاموا بها الحكم على المصريين، فان بطريق المصريين كان يحكم مركزه الديني زعيماً في قومه في أمور الدين، فلما جاء الروم صار ذلك الزعيم الديني مضطراً إلى أن يمثل قومه عند الحكام وينطق بلسانهم ويتصدى لأمورهم، حتى لقد أصبح بطريق المصريين في آخر الأمر هو الممثل القومي للمصريين؛ وكم وقف البطارقة على رأس الشعب المصري في وجه الحكم الأجنبي الروماني، ومن هؤلاء البطريق الأكبر بنيامين الذي ناله من التصدي لأمور السياسة أكبر الأذى، وتحمل النفي والخوف، وتحمل أتباعه من رجال الدين ألوان العذاب في سبيل استقلال مصر كما كانوا يفهمونه.

إذن لم يكن لمصر أن تخرج عن هذه السنة الطبيعية، فإنها كانت في القرن الثامن عشر تحكمها حكومة على رأسها الباشا ممثل السلطان التركي، ويعاونه الأمراء المصريون الذين هم من أجناس غير مصرية الأصل. فكان لابد لهذا النظام أن يتجه إلى ممثلي الشعب وزعمائه، وكان لابد له أن يلجأ إليهم في كثير من الأحوال لكي يسترضي ذلك الشعب ويتحبب إليه ويسهل بذلك طريق الحكم. وكان لابد كذلك للشعب من أن يتخذ له ممثلين من صفوفه وأن يجعل له زعماء يهرع إليهم إذا آذاه شيء من جانب الحكومة الأجنبية التي تحكم البلاد.

وكان علماء الأزهر الطبقة المستنيرة من الشعب، وهم الذين يعرفون تقاليد الحكم الإسلامي في الدول الماضية، وهم الذين يعرفون العرف الذي جرت عليه الأجيال الماضية في أيام الحكومات المستقلة الجليلة التي حكمت البلاد من قبل. فكان من الطبيعي أن يتصدر هؤلاء العلماء في الحوادث، وأن يلجأ إليهم أهل مصر عندما تلم بهم ملمة يطلبون إليهم أن ينادوا بالحق الذي يبيحهم إياه القانون، وأن يطالبوا بالحريات التي كفلها لهم العرف والدين في الأجيال المتعاقبة. ولقد تصدر جماعة من هؤلاء العلماء وقاموا بما وجب عليهم في ذلك قياماً محموداً؛ وإنا لذاكرون هنا بعضهم اعترافاً بما كان من فضلهم على البلاد.

ولو شئنا أن نفصل مواقف مشايخ الأزهر في أمور السياسة لما اتسع لذلك مجال القول هنا. ولهذا سنجتزئ بذكر ما كان منهم في موقف واحد في تاريخ مصر في القرن الثامن عشر في الوقت الذي اشتد فيه عبث مراد وابراهيم بالمصريين.

بلغت محاولات مصر نحو الاستقلال قصاراها في عهد علي بك الكبير، ثم قضي عليها إذ كان الوقت لم يحن بعد للاستقلال الدائم، إذ أن الاستقلال لا يمكن أن يدوم إلا إذا قام على دعامة قوية من الشعب، وهذا ما كان ينتظر حدوثه حتماً في يوم من الأيام.

غير أن الملك المصري الذي حكم بعد علي بك الكبير لم يكن بأقل منه قدراً، ولا بأهون منه خطراً، ولا بأهدأ منه حماسة للاستقلال. وقد أراد الله ألا تطول أيامه فمات والبلاد في أشد الحاجة إلى وجوده ليقوم على ملكها ويسيطر على زعماتها. فوقعت السلطة في أيد طائشة ليس لها خبرة بالحكم ولا مكانة في القلوب، وأصبح الأمر في يد مراد وإبراهيم وهما من مماليك أبي الذهب، ولكنهما لم يكونا بعد قد صفوا وجربا وظهرا في الحوادث بالمظهر الذي يرشحهما ترشيحاً صادقاً لحكم البلاد، فحكما وكان حكمهما تجربة قاسية.

كان الشعب المصري قد خضع لعلي بك الكبير ولمحمد بك أبي الذهب منذ رأى فيهما ملكين عظيمين قادرين على حمايته وحكمه، ولكنه لم يجد في مراد وإبراهيم غير طاغيتين متجبرين لا ينظران من الحكم إلا إلى النفع، ولا يعرفان من أساليبه إلا الكبرياء والسطوة. ومنذ رأى في الحاكمين الجديدين هذا تحرك واضطرب ووقف على استعداد للدفاع عن مصلحته وكرامته ثابتاً متنبهاً.

وكان مشايخ الأزهر هم الطبقة المستنيرة من أبناء مصر الصميمين، جاءوا جميعاً من قراها وأريافها ومدنها، فكانوا من بين صفوف الشعب وأبناء الأرض يحسون ما يحسه الناس وينظرون بأعينهم ويسمعون بآذانهم. وقد زادوا على إخوانهم ميزة كبيرة بأنهم

حفظوا في صدورهم نصوص الشريعة والآراء المختلفة في أحكامها وحفظوا ما تخلف من تراث القرون من عرف وما يبيحه القانون الإسلامي لأفراده من حقوق وحريات. فكان من الطبيعي أن يقفوا من الشعب المصري موقف الزعامة في كل حادث جليل، وأن ينطقوا باسمه ويعربوا عما في قلبه من الآمال والآلام. فوقفوا على رأس الشعب في كل خلاف قانوني حاول فيه الطغاة أن يخرقوا حرمة القانون، وانتصروا في كل وقفة من وقفاتهم فنصروا فيها القانون والحق، ثم وقفوا يمثلون الشعب في ديوان الحكم فنطقوا باسم مصر وأعربوا عن آمالها وعن شخصيتها، وانتصروا في وقفتهم فأعلوا من اسم الشعب الذي يمثلونه ورفعوا رأسه، ثم وقفوا على زعامة الشعب في نضاله مع الطغاة في سبيل إصلاح الحكم، وانتصروا مرة ثالثة وساروا بشعبهم في سبيل الحصول على ماله من الحقوق والحريات؛ وما كان أجدرهم أن يبلغوا به الغاية والقصد ويقيموا في مصر حكومة وطنية صالحة قائمة على احترام حقوق الأفراد والسعي إلى ما فيه مصلحتهم. وما كان أحراهم لو طال بهم الزمن أن يبلغوا بمصر قصارى ما تصل إليه الأمم الحريصة على حقوقها الساعية إلى الإصلاح.

بعد مضي سنة واحدة من حكم الطاغيتين مراد وإبراهيم ثارت مسألة في خلاف على وقف، ولم يكن للمسألة في ذاتها خطر خاص، بل كان الأمر نضالاً على مبدأ وقف فيه بعض الأمراء يلوحون بالقوة والطغيان، ووقف فيه بعض أفراد الشعب يعتصمون بالحق والشريعة. والتجأ الجانبان إلى المحكمة فحكمت حكمها في الخلاف. وكان في مصلحة الأفراد على رغم ما يريده الأمير المدل بالقوة، فأبى الأمير الإذعان، وأصبح الأمر معلقاً

بين أن ينتصر القانون وبين أن تجتاح القوة كل سياج وكل حرمة. فأدرك العلماء أن واجبهم يناديهم بالمحافظة على القانون، ولم يترددوا لحظة، بل هبوا لينصروا الحق لم يتخلف منهم واحد، وكان على رأس الحركة الشيخ الدردير رحمه الله وطيب ثراه. أرعد الأمير وأبرق، وأرغى وأزبد، ونهر وتوعد، غير أن العلماء وقفوا وثبتوا، وأرغوا وأزبدوا في سبيل الحق والقانون. وقام الشعب من ورائهم يؤيدهم، وكانت مظاهرة كبرى، فأغلق الناس حوانيتهم انتصاراً للعلماء والشرع، وأوشك الأمر أن يفضي إلى فوضى شاملة. فجزع عقلاء الأمراء المصريين من تلك الحال وأشفقوا أن تسيل الدماء وأن تعطل المصالح. فاجتمعوا وتشاوروا ثم أرسلوا إلى الأمير المعاند فاحتجوا على موقفه وأمروه بالنزول على ما أراد القانون، فأذعن وهو كاره بعد مشادة عنيفة، ولم يرض العلماء أن يتركوا الأمر يفلت من أيديهم بغير حق مسجل يكتسبونه للناس، فكتب لهم صلح رسمي به شروط على الأمراء وتعهد من الحكام بالتزام ما يقضي به القانون ويحتمه العرف. وهكذا كان العلماء يكسبون للشعب حقوقه حقاً حقاً ويبنون في دستور مصر حجراً بعد حجر وإن كانوا في ذلك يسيرون في تؤدة وبطء.

وإنا إذا ذكرنا اسم السيخ الدردير فلسنا نذكره إلا لأنه كان علم القوم وزعيمهم. ولقد كان معه عدد كبير من إخوانه يستند إليهم وينتصر بإمدادهم. وفي الحق إن العلماء بمثل هذه الهمة لم ينزلوا ولم يسمحوا لأنفسهم أن ينزلوا إلى موضع المهانة في تلك الأيام التي يصفها البعض بأقسى النعوت. بل لقد كانوا أكفاء لأعلى الرؤوس في الدولة؛ ثارت مرة مناقشة حادة بين بعضهم وبين أمير من كبار الأمراء في مسألة قانونية، فخرج الأمير الغاضب عن حدود الأدب بأن قال للعالم: (والله أكسر رأسك) فكان جواب العالم الغاضب أشد وأقسى، إذ قال له صارخاً: (لعنك الله ولعن اليسرجي الذي جاء بك ومن باعك ومن اشتراك ومن جعلك أميراً) وتوسط من كان بالمجلس من الأمراء فيما بينهما. ولم يجد الأمير بداً من الإذعان لما يقضي به الشرع حسب ما رآه العلماء.

وكان بيت العالم حرماً لا يعتدي عليه مهما كان الباعث على ذلك، فقد كان بعض الأمراء يهربون خوفاً من انتقام منافسيهم فلا يجدون ملجأ يهربون إليه ويعتصمون به إلا بيت العالم يدخلونه ليأمنوا فيه. وقد طلب من أحد العلماء مرة أن يسلم جاره الأمير الذي دخل بيته

ملتجئاً فلم يرض أن يسلم اللاجئ إلى بيته، ولم يجرؤ أحد على دخول منزلة عنوة خوفاً من أن يكون في ذلك جرح لكرامة زعيم الشعب.

وقد زاد نفوذ العلماء في أيام هذا الاضطراب وعلا صوتهم فأصبح مسموعاً دوياً في

الحوادث الكبرى، كما أصبح مسموعاً داوياً في الديوان الذي كان ينعقد بالقلعة لحكم البلاد، وكان فيه الأمراء والرؤساء وأكابر العلماء يمثلون الشعب. وأصبح صوت العلماء في ذلك الديوان يمثل المعارضة وينادي بما فيه نفع لمصر وما فيه مصلحة أبناء مصر.

ثم أرسلت تركيا جيشاً بقيادة القبطان حسن باشا لتأديب الطاغيتين مراد وإبراهيم على سوء حكمهما فخرج العلماء على رأس وفد لمقابلة القائد التركي ليذكره بضرورة الاحتراس والاحتياط في حربه الأمراء حتى لا يؤذي مصالح الناس ولا يضحي بأموالهم.

قال الجبتي يصف ذلك: (فتعين لذلك الشيخ أحمد العروسي والشيخ محمد الأمير والشيخ محمد الحريري، ومن الأجاقلية إسماعيل أفندي الخلوتي وإبراهيم أغا الورداني وذهب صحبتهم سليمان بك الشابوري. . . . . على أنهم يجتمعون به (بالباشا القائد) ويكلمونه ويسألونه عن مراده ومقصده ويذكرون له امتثالهم وطاعتهم. . . ويذكرونه حال الرعية وما توجبه الفتن من الضرر والتلف).

وقد بلغ من ذعر ابراهيم ومراد وخوفهما من حركة الشعب أن جعلوا في ذلك الوقت يتملقون المشايخ خوفاً منهم أن ينتهزوا الفرص فيثيروا على حكمهم ثورة عندما تقبل جنود الدولة العلية من الشمال. قال الجبرتي: (فذهب إبراهيم (في عيد الفطر) إلى الشيخ البكري ثم إلى الشيخ العروسي والشيخ الدردير وصار يحكي لهم وتصاغر في نفسه جداً وأوصاهم على المحافظة وكف الرعية من أمر يحدثونه أو قومة أو حركة في مثل هذا الوقت فإنه كان يخاف ذلك جداً).

وقد كسب العلماء للمصريين حقاً جليلاً في أثناء هذه الحوادث فإنه بفضل سعيهم أصدر القائد التركي حسن باشا عندما دخل مصر قانوناً كان يقضي بأن أهل مصر لا يمس أحد منهم إلا بمقتضى القانون الشرعي وأن لا سبيل على أحد منهم إلا بمقتضى ذلك القانون وحده. ثم لم يتردد العلماء بعد ذلك في الوقوف إلى جانب القانون ولو كان وقوفهم في وجه الباشا القائد المنتصر نفسه. فانه عقب انتصاره أحب أن ينكل بالمنهزمين من الأمراء المصريين فأراد أن يبيع نساءهم، مع أن القانون الشرعي لا يبيح بيع الجارية المملوكة إذا صارت أما أو أصبحت حرة، فوقفوا في وجه ولم يمكنوه من ذلك لمخالفته المكفولة للأفراد في الشريعة الإسلامية.

أما في جلسات الديون فلم يكن صوت العلماء أضعف جرساً، فكانوا يعارضون في كل شيء يمس مصالح المصريين حتى في الأمور الخاصة بالدولة ذاتها، فقد عرضت مرة مسألة الديوان خاصة بالاستعانة بجنود من بلاد الدولة العثمانية، فوقف الشيخ العروسي فقال: (إن الأمر لا يحتاج إلى ذلك، فان العساكر الرومية (التركية) لا تنفع بين العساكر المصرية، والأولى استجلاب خواطر الجند بالإحسان اليهم، والذي تعطونه للأغراب أعطوه لأهل بلادكم أولى) وقد أخذ الديوان برأيه في ذلك اليوم.

ولكن العلماء اظهر تمثيلاً للشعب المصري، وأكثر جلالاً في وقوفهم على رأس مظاهرات العامة كلما جد أمر يدعوا إلى الاحتجاج، أو حدث حادث فيه تعرض للحقوق والحريات. ولم تكن تلك الحركات قليلة، كما أنها لم تكن مقصورة على القاهرة، فقد ثارت ثورات في القاهرة، وثارت مثلها في رشيد، ومثلها في طنطا وفي بلبيس. وكان العلماء دائماً على رأس تلك الثورات الشعبية، يظلون كذلك حتى ينتهي الأمر بإذعان القوة للحق. قال الجبرتي في وصف ثورة من ثورات الشعب في الحسينية: (وحضروا إلى الأزهر ومعهم طبول، والتف عليهم جماعة كثيرة من أوباش العامة، وبأيديهم نبابيت ومساوق، وذهبوا إلى الشيخ الدردير فونسهم وساعدهم بالكلام، وقال لهم: أنا معكم) واستقر العزم عند ذلك على جهاد الأمراء الظالمين وإيقافهم عند حد القانون بالقوة ما لم ينتهوا بالقول. وحدث مثل ذلك في طنطا وكان الشيخ الدردير كذلك على رأس المتظاهرين ضد الظلم هناك، قال الجبرتي: (فركب بنفسه وتبعه جماعة من العامة حتى التقى بالأمير، فكلمه ووبخه، وهو راكب على بغلته، وقال لهم: انتم ما تخافون الله) وحدث اصطدام أثناء ذلك بين العامة والحاكم وأتباعه، أصيب فيه جماعة من الجانبين، وضُرب الحاكم نفسه ضرباً شديداً.

وحدث مرة أخرى أن اعتدى موظف إداري وهو (الوالي) أحمد أغا على بعض أهالي الحسينية، وأشتد في مطالبة أحمد سالم الجزار، وأراد القبض عليه مخالفاً في ذلك

العهد الذي تعهد به الباشا من قبل، ألا يمس أحد إلا بمقتضى الشريعة الإسلامية. فثار أهل
الحسينية ثورة هائلة، والتجأوا إلى الشيخ العروسي يلتمسون عنده الحماية من الظلم
(وكان الشيخ الدردير قد توفي إلى رحمة الله) فقام الشيخ العروسي بأمر الوساطة
في شأنهم، وانتهى الأمر بعد مشادة طويلة بعزل الوالي وتولية والي آخر. قال
الجبرتي: ونزل الوالي الجديد من الديوان إلى الأزهر، وقابل المشايخ الحاضرين
واسترضاهم. ثم ركب إلى بيته وأنفض الجمع، وكأنها طلعت بأيديهم والذي كان راكباً
(حماراً ركب فرساً.
وأشتدت مرة وطأة أحد الأمراء على أهل بلبيس في تحصيل الأموال، فالتجأ الفلاحون
إلى الشيخ الشرقاوي ليحميهم، فبدأ الشيخ بمخاطبة مراد وإبراهيم، فلما لم يجد
لمسعاه أثراً في إصلاح الحال بالسعي السلمي، دعا إلى الثورة فأجتمع له كثير من
أهل القاهرة ومن أهل الأطراف، وأوشك الأمر أن يكون ثورة دموية مدمرة، وقضت
القاهرة ثلاثة أيام في اضطراب وخوف، قال الجبرتي: (ثم حضر الباشا إلى منزل
إبراهيم بك، وأجتمع الأمراء هناك، وأرسلوا إلى المشايخ، فحضر الشيخ السادات
والسيد النقيب والشيخ الشرقاوي والشيخ البكري والشيخ الأمير. . . . . ودار
الكلام بينهم وطال الحديث، وأنحط الأمر على انهم (الأمراء) ثابوا ورجعوا والتزموا بما
شرطه العلماء عليهم، وأنعقد الصلح. . . . . وان يكفوا اتباعهم عن امتداد أيديهم
إلى أموال الناس. . . . . ويسيروا في الناس سيرة حسنة. . . . . وكان
القاضي حاضراً بالمجلس، فكتب حجة عليهم بذلك، وفر من عليه الباشا، وختم عليها
ابراهيم بك وأرسلها إلى مراد بك فختم عليها ايضاً، وانجلت الفتنة ورجع المشايخ
وحول كل منهم وأمامه وخلفه جملة من العامة، وهم ينادون حسب ما رسم سادتنا
العلماء).
وبعد فما الذي بين هذا الحال وبين بناء صرح الحريات المصرية كاملاً متماسكاً؟ لقد
كان العلماء يبنون ذلك الصرح حجراً حجراً، وكان الشعب من ورائهم يطالب بحقوقه
ولا يتنازل عن شيء منها مطالبة المصر على الحياة الكريمة العازمة على التمتع
بإنسانيته تمتعاً تاماً. وما كان لمثل هذا الشعب أن ينتهي به السير إلا عندما يريد من
العزة والكرامة.
غير ان الله لم يرد ان يكون هذا في ذلك الوقت، فقد نزلت بمصر كارثة الغزوة
الأجنبية، غزوة الحملة الفرنسية التي عاقت ذلك السير المجيد وحفرت هوة عميقة
بين ماضي مصر المجيد وحاضرها، وبين سعيها في القرن الثامن عشر وسعيها اليوم.
ألا فلتقطع ألسنة الذين يقولون إن دستور مصر كان منحة مهداة، أو أن حريات مصر
كانت عطية مسداة. فلقد كان شعب مصر لا يني يسعى إلى تلك الحريات، ويحمي
تلك الحقوق، مضحياً في ذلك بكل شيء، حتى بالدماء!

محمد فريد أبو حديد

عبرة الأندلس

للأستاذ محمد عبد الله عنان

ليس في تاريخ الإسلام كله صفحة أدعى إلى الشجن والأسى من تاريخ الأندلس، ففي
الأندلس وحدها بادت أمة إسلامية عظيمة، ومحيت حضارة إسلامية زاهرة، ولم تبق
ثمة من تلك الصفحة الباهرة سوى ذكريات دارسة.
وقد زالت دولة الإسلام في الأندلس ومحيت صفحته وأبيد أبناؤه منذ أربعة قرون، وقام
فوق الأرض شعب غير الشعب، ودين غير الدين، وحضارة غير الحضارة، ولكن المأساة
ما تزال حية في صدر كل مسلم يستعرض هذه الصفحة، وما زالت تثير في النفس
بالغ الحسرات.
عاشت دولة الإسلام في الأندلس زهاء ثمانية قرون، ولم يكن غريباً أن تغيض في هذا
القطر النائي المنعزل عن باقي الأقطار الإسلامية، بعد أن لبثت قروناً تمزق بعضها
بعضاً، ولكن الغريب هو انها استطاعت رغم جراحها الدامية أن تصمد للعدو الخالد
المتربص بها مدى قرون.
على أن تاريخ الأندلس نفسه يقدم إلينا سر هذا الفناء البطيء الذي سرى إلى الدولة
الإسلامية منذ قيامها، سنحاول أن نستعرض في هذه اللمحة السريعة بعض العلل

الجوهرية التي أصابت المجتمع الإسلامي في الأندلس منذ تكوينه، وغدت بمضي الزمن داء ذريعاً يقضم أسسه ويقوض دعائمه، وما زالت به استنفدت قواها وحملته إلى هاوية الانحلال والعدم.

كان فتح العرب لأسبانيا فاتحة عصر جديد وبدء تطور عظيم في حياتها العامة وفي نظمها الاجتماعية. ومع أن العرب شغلوا حيناً بتوطيد الفتح الجديد ودفع حدوده، فأنهم استطاعوا في أعوام قلائل أن يقمعوا عناصر الشر والفوضى وأن ينظموا إدارة البلاد المفتوحة، وأن يبثوا في الجزيرة روحاً جديداً من الأمل والحياة.

وقد قضى الفتح على سلطان الطبقات الممتازة، وتنفس الشعب نسيم الحرية، وفرض المسلمون الضرائب بالمساواة والعدل بعد أن كان يفرضها حكم الهوى والجشع، وأمن الناس على حياتهم وحرياتهم وأموالهم، وترك الفاتحون لرعاياهم الجدد حق أتباع قوانينهم وتقاليدهم، والخضوع لقضائهم. أما في شأن الدين وحرية العقائد والضمائر فقد كانت السياسة الإسلامية مثلاً أعلى للتسامح، فلم يظلم أحد أو يرهق بسبب الدين والاعتقاد، وكانت تأدية الجزية هي كل ما يفرض على الذميين من النصارى واليهود لقاء الاحتفاظ بدينهم وحرية شعائرهم، ومن دخل الإسلام سقطت عنه الجزية وأصبح كالمسلم سواء بسواء في جميع الحقوق والواجبات. وفي ذلك يقول العلامة دوزي: (لم تكن حال النصارى في ظل الحكم الإسلامي مما يدعو إلى الكثير من الشكوى بالنسبة لما كانت عليه من قبل. أضف إلى ذلك أن العرب كانوا يتصفون بكثير من التسامح، فلم يرهقوا أحد في شئون الدين. . . ولم يغمط النصارى للعرب هذا الفضل، بل حمدوا للفاتحين تسامحهم وعدلهم وآثروا حكمهم على حكم الجرمان والفرج) ثم يقول دوزي عن آثار الفتح الاجتماعية: (كان الفتح العربي من بعض الوجوه نعمة لأسبانيا، فقد أحدث فيها ثورة اجتماعية هامة، وقضى على كثير من الأدواء التي كانت تعانيها البلاد منذ قرون. . .).

غير أن هذه الدولة الجديدة التي بعثها الإسلام في أسبانيا، كانت تحمل منذ البداية جرثومة الخلاف والخطر، وكان المجتمع الجديد، الذي جمع الإسلام شمله ومزج بين عناصره يضطرم بمختلف الأهواء والنزعات، وتمزقه فوارق الجنس والعصبية. كانت القبائل العربية ما تزال تضطرم بمنافساتها القديمة الخالدة، وكان البربر الذين يتألف منهم معظم الجيش يبغضون قادتهم ورؤساءهم من العرب، وينقمون عليهم استئثارهم بالسلطة والمغانم الكبيرة، وكثيراً ما رفعوا لواء العصيان والثورة. وكان المسلمون الأسبان، - وهم المولدون أو البلديون - محدثون في الإسلام يشعرون دائماً بأنه، رغم إسلامهم أحط من الوجهة الاجتماعية من سادتهم العرب. ذلك أن العرب، رغم كون الإسلام، يسوي بين جميع المسلمين في الحقوق والواجبات ويمحو كل فوارق الجنس والطبقات، كانوا يشكون في ولاء المسلمين الجدد، ويضنون عليهم بمناصب الثقة والنفوذ، هذا إلى أن العربي في الأقطار القاصية التي افتتحها بالسيف لم يستطع أن يتنازل عن كبرياء الجنس التي كانت دائماً من خواص طبيعته، فكان مثل الإنكليزي السكسوني يعد نفسه أشرف الخليقة. على أن الخلاف بين العرب أنفسهم كان أخطر ما في المجتمع الجديد من عوامل التفكك والانحلال؛ فقد كانت عصبية القبائل والبطون ما تزال حية في الصدور، وكان التنافس بين الزعماء والقادة يمزق الصفوف ويجعلها شيعاً وأحزاباً، وكانت عوامل الغيرة والحسد تعمل عملها في نفوس القبائل والبطون المختلفة. وأشد ما كانت تستعر نار الخلاف والتنافس بين اليمنية والمضرية، وذلك لأسباب عديدة ترجع إلى ما قبل الإسلام، منها أن الرياسة كانت لعصور طويلة قبل الإسلام في حمير وتبَّع أعظم القبائل اليمنية، وكانت لهم دول ومنعة وحضارة زاهرة، بينما كانت مضر بدواً خشنين يخضعون لحمير ويؤدون لهم الجزية؛ وكان بينهما خصومات وحروب مستعرة طويلة الأمد؛ ولنا في (أيام) العرب ووقائعها المشهورة أمثلة رائعة من هذا النضال. قال ابن خلدون (واستمرت الرياسة والملك في هذه الطبقة اليمانية أزمنة وآماداً بما كانت صبغتها لهم من قبل، وأحياء مصر وربيعة تبعاً لهم - فكان الملك بالحيرة للخم في بني المنذر، وبالشام لغسان في بني جفنة ويثرب، وكذلك في الأوس والخزرج، وما سوى هؤلاء من العرب فكانوا ضواعن بادية، وأحياء ناجعة، وكانت في بعضهم رياسة بدوية، وراجعة

في الغالب إلى أحد هؤلاء. ثم نبضت عروق الملك وظهرت قريش على مكة ونواحي الحجاز؛ فاستحالت صبغة الملك اليهم، وعادت الدول لمضر إلى بينهم، واختصت كرامة الملك بالنبوة منهم، فكانت فيهم الدولة الإسلامية كلها إلا بعضاً من دولها، قام بها العجم اقتداء بالملة وتمهيداً للدعوة). وهكذا أسفر، النضال لظهور الإسلام عن تحول في الرياسة، وانقلبت الآية فأصبحت المضرية تعمل على الاحتفاظ برياستها، واليمنية تجاهد في انتزاعها منها. وكانت مسألة اللغة أيضاً من أسباب ذلك الخلاف. ذلك أن لسان الحمير كان أصل اللغة العربية التي اعتنقتها مضر، وأسبغت عليها آيات من الفصاحة والبيان، ونزل بها القرآن الكريم على النبي القرشي المضري، فكانت اللغة من مفاخر مضر تغار عليها، وتحافظ على سلامتها ونقائها، أضف إلى هذا وذاك ما كان بين الفريقين من تباين شديد في الطبائع والخلال مما كان يذكي بينهما أسباب التنافس والتباعد، وقد كان الإسلام مدى حين عاملاً قوياً في جمع الكلمة، ولكن العصر الأول ما كاد ينقضي حتى هبت كوامن الخصومة والنضال من مرقدها وعادت تعصف بوحدة المجتمع الإسلامي، وكان هذا الخلاف أخطر وأشد في الأقطار القاصية التي افتتحها الإسلام بالسيف، ففتحت أمام القبائل والأجناس المختلفة التي تعمل تحت لوائه مجالاً واسعاً للتنافس والتطاحن؛ وكان هذا هو بالأخص شأن المجتمع الإسلامي المضطرب الذي قام بأسبانيا.

وكان البربر الذين اشتركوا في فتح الأندلس واستعماره عنصراً خالداً في إذكاء هذا الخلاف؛ فكانت هذه المعركة المزدوجة: العرب فيما بين أنفسهم، ثم العرب والبربر، هي قوام المجتمع الأندلسي.

كان هذا الخلاف يقضم أسس المجتمع الأندلسي الفتي، ولم يمضي على قيامه أربعون عاماً حتى تحولت الأندلس إلى بركان مضطرم من الحروب الأهلية؛ واستمرت هذه المعارك الداخلية زهاء قرن ونصف، ولم يقف تيارها قيام دولة أموية جديدة، ولم تتخللها في ظل هذه الدولة سوى فترة يسيرة من السكينة والتوطد، منذ الناصر إلى المنصور. بيد أن خطراً جديداً كان خطر المملكة النصرانية الأسبانية، التي نشأت صغيرة متواضعة ونمت بسرعة مدهشة، وأخذت تنافس المملكة الإسلامية، وتتحين فرص الإيقاع بها، ولم تفطن الأندلس إلى هذا الخطر الداهم؛ وما كاد صرح الدولة الأموية ينهار، حتى وثب المتغلبون على أشلاء الأندلس يقتسمونها، وقامت دويلات الطوائف في المقاطعات والمدن، تنافس بعضها بعضاً، وتحاول كل منها أن تنتزع ما بيد الأخرى، وألفى عدو الأندلس الخالد - أسبانيا النصرانية - فرصته السانحة، فأخذت تؤلب دويلات الطوائف بعضها على بعض؛ وملوك الطوائف يرتمون في أحضان النصارى، ويلتمس كل محالفتهم على خصمه ومنافسه. وكادت الأندلس يومئذ تسير مسرعة إلى قدرها المحتوم، وانتزع النصارى كثيراً من قواعدها وأراضيها، لولا أن ظهر في الميدان عامل جديد، هو قيام الدولة المرابطية فيما وراء البحر، ومقدم أميرها يوسف بن تاشفين إلى الأندلس على رأس جنوده البربر، ملبياً داعي الغوث من جانب ملوك الطوائف؛ فهنا استطاعت الدولة الإسلامية أن تنسى خلافها مدى لحظة، وأن تلقي على النصرانية بمؤازرة المرابطين هزيمة حاسمة في سهول الزلاقة؛ ثم افتتح المرابطون الأندلس، وأقاموا بها دولة جديدة، ولكن الصرح القوي الباذخ كان قد أخذ ينهار؛ ولم يدم تماسك الدولة المرباطية طويلاً، فقامت بالأندلس ملوك طوائف بربرية جديدة، وعادت الأندلس تسير إلى فنائها، وجاء الموحدون بعد المرابطين، فوصلوا دولة البربر بالأندلس مدى حين.

ثم كانت دولة بني الأحمر بغرناطة، وكانت أندلس جديدة، ولكن صغيرة لا تعدو القطر الجنوبي المسمى بهذا الاسم؛ وكانت أسبانيا النصرانية قد نمت واتسع نطاقها، واستولت

على قواعد الأندلس وثغوره العظيمة: قرطبة مهد الإسلام، وطليطلة، وأشبيلية، ومرسية، وبلنسية، وسرقسطة وغيرها، وسطعت في مملكة غرناطة، مدى حين، لمحة من عظمة الأندلس الذاهبة وحضارتها الزاهرة، واجتمعت أشلاء الدولة الأندلسية العظيمة في هذه المملكة الصغيرة المتواضعة، وشغلت الممالك النصرانية الشمالية مدى حين بخلافها الداخلي. ولكن الأندلس كانت تشعر بمصيرها شعوراً قوياً، واستطاع رجال مثل ابن الخطيب وابن خلدون أن يستشفوا ببصرهم الثاقب ذلك المصير المروع

الذي تسير إليه مملكة غرناطة. ذلك أن نفس الخلاف الداخلي الذي قامت عليه الدولة الإسلامية منذ البداية، واستمر يدفع الأندلس إلى مصيرها خلال القرون، كان يعصف أيضاً بهذه المملكة الصغيرة، ولم يمض بعيد حتى أخذت تمزقها المعارك الداخلية، ويثب أمراؤها بعضهم ببعض، ويستعدون خلال هذه المعركة الخطرة، العدو الرابض المتربص بهم جميعاً.

وكان مصرع الأندلس خلال إحدى هذه المعارك الداخلية، وما زالت قصة السلطان أبي الحسن، وأخيه الزغل، وابنه عبد الله أبي محمد، وانشقاق المملكة الصغيرة في أدق ساعات الخطر إلى شطرين، والتجاء أبي عبد الله إلى ملك النصارى لينصره على أبيه وعمه، ثم انتهاز النصارى هذه الفرصة لإيقاع ضربتهم الأخيرة بتلك المملكة التي مهدت لهم سبل الظفر بتمزيق بعضها بعضاً، وتلك الأمة المسلمة التي لم تعرف قط أن تواجه الخطر متحدة الكلمة والقوى - ما زالت هذه كلها عبرة العبر، وكان مصرع الأندلس هذه المرة يسيراً محققاً، فسقطت قواعدها الباقية تباعاً في يد النصارى، وسلمت غرناطة أخيراً، ووقعت النتيجة المحتومة، وطويت صفحة الدولة الإسلامية في الأندلس، ولم يمض جيل أو اثنان حتى طويت صفحة الإسلام كله، وكل آثاره وذكرياته من أسبانيا.

وقد كانت مأساة الأندلس وما زالت عبرة بالغة ودروساً خالداً للعالم الإسلامي كله. ولكن العالم الإسلامي لم يعتبر بهذه العبرة، ولم يع هذا الدرس، وما زال التفرق يمزق أوصاله حتى التهم الغرب الجشع معظم أشلائه، وأضحى الإسلام ذليلاً في أرضه تخفق عليها أعلام النصرانية.

فإني يسير الإسلام؟ ومتى يدرك العالم الإسلامي قوة الاتحاد؟

محمد عبد الله عنان المحامي

الشهيد الغريب

عثمان بن مظعون

للأستاذ محمد سعيد عريان

بات (عثمان بن مظعون الجمحي) ليلته يقلب الرأي، ويستلهم الفطنة؛ وإن الهم ليصطرع في رأسه، وأن الشك ليتلجلج في صدره، وإن بين عقله وعاطفته لحرباً مشبوبة ومعركة طاحنة أحق ما يقول محمد بن عبد الله؟ فما هذه اللاتُ والعُزَّى، ومَناةُ الثالثة الأخرى؟ وما ديننا الذي أورثنا آباؤنا ومضى عليه أسلافنا؟ أذلك الحق أم دين محمد؟

إني لأعرفه مذ كان - أصدق العرب حديثاً وأعظمها أمانة؛ أفيكذب حين يبدو الشيب في صدغيه، ثم لا يكون كذبه إلا افتراءً على الله. . .؟

أما ورب الكعبة لقد جاء محمد بأمر عظيم، إن يكن الصدق فما يقعد بي أن أكون في السابقين إليه. . .؟

فلما أسفر الصبح غدا عثمان على محمد في مجلسه ليسمه منه؛ فما هو إلا أن تلا عليه آياتٍ من الكتاب حتى اهتزت نفس عثمان، ونفذت السماء إلى قلبه، وغمره النور الإلهي، وشرح الله صدره للإسلام، فتمت به عدة المؤمنين أثنى عشر. . .

وانطلق عثمان إلى أهله يدعوهم إلى الله؛ فما تلبث أخواه (قدامة وعبد الله) أن آمنا بما آمن، وآمن من بعدهم بضع عشرة من بني عمه وولده؛ وإذا المؤمنون يزيدون ويكثرون، وإذا الدين الجديد يتنقل نبؤه في همس من فم إلى أذن، وينفذ في رفق من قلب إلى قلب، ثم يتدافع في قوة حتى ينتظم الأربعين من شباب قريش وكهولها. ثم إذا هو من بعدُ نداءٌ عام، يدعو إليه رسول الله من فوق (الصفا)، فيفشو أمره، ويتحدث به الناس، وتتناقله القبائل، وتتقاذفه فلوات شبه الجزيرة؛ فما ينكر على محمد دعوته إلا الملا من أشراف العرب. . .

أكنت ترى السادة من قريش أهل الرفادة والسقاية - ينزلون عن جاههم وسلطانهم بهذا لهوان لمحمد؛ أم تحسبهم يتركون ما كان يعبد آباؤهم مختارين انقياداً لهذا الداعي؟

إن كبرياء النفس البشرية هو إيمانها بنفسها؛ فما يغلبها على كبرياءها إلا الإيمان الأكبر؛ وما إن تبلغ هذا الإيمان إلا مقهورة عليه، نازلة على سلطانه الأقوى، من قادة له انقياد

الرضى والاستسلام؛ فإذا هي بلغت ذاك فقد تبدلت النفس غير النفس؛ فما تتكبر إذ تتكبر
بنفسها ولكن بما تدين، وما تفاخر حين تفاخر بخصائصها الذاتية، ولكن بقوة العقيدة التي اعتنقت؛ ويعود تعصبها لنفسها تعصباً للحق الذي آمنت به، وأخلصهم في طاعته، وأشدهم استبسالاً في الدعوة إلى دينه والذياد عنه؛ فكانت هذه المعجزة الإنسانية الكبرى التي انبثق لها هذا الفجر الضاحك فأشرق بالسلام على البشرية كلها، وامتد امتداد القدر يقبض راحته على الدنيا، وانبسط انبساط الأمل بتناول كل ما في الوجود، ورسم للانسانية حدود سعادتها في معاني الإخاء والمساواة والحرية!

تذامر الملأُ من أشراف مكة على محمد وأصحاب محمد ليفتنوهم عن دينهم، فآذوهم في أنفسهم وأهليهم وأموالهم، وأخذوا بكل نكال، حتى بلغوا من تعذيبهم الغاية ولم يبلغوا من مسلم أربا؛ ورأوا أمر الله أغلب من أمرهم في هذه القلوب، فمضوا يقتنون في الكيد لهم ما يتورعون من شر. وأيقن المستضعفون من المسلمين أن لا مقام لهم على هذا الهوان خوف الفتنة، فجلوا عن أراضيهم وديارهم فراراً إلى الله بدينهم. . .!

وأنطلق عثمان بن مضعون يقدم الفوج الأول مهاجرين إلى الحبشة، تفيض أعينهم من الدمع حزناً، أن تركوا أموالهم وأولادهم وعشيرتهم، منهم الراجل قد ثقلت عليه نفسه، والراكب قد ناء بما يحمل من همه. حتى انتهوا إلى البلد الذي أرادوا.

وأمنوا الفتنة، يروحون ويغدون في ظل ملكٍ كريم. أتراهم على ذلك قد اطمأنت بهم الدار؟ ومن أين للغريب النازح عن أهله وأحبابه أن تستقر به الدار!

وطال بهم الحنين إلى بلدهم والى مشرق النور من وجه النبي الكريم، يستروحون من كل نسمة تهب من أرض الحجاز ذكرى تشوق وحنيناً يستجد. فما كذبوا أن جاءهم بشير بإسلام قريش، فقفلوا آملين مستبشرين، وما منهم إلا مشرق الوجه تحدثه نفسه حديث المبعد يوشك أن تستقر به النوى ويلقى عصاه بين أحبته وأهله وملاعب صباه!

ثم ما هي إلا أن دانوا مكة وبدت لهم أعلامها وهبت عليهم نسماتها، حتى انكشف لهم أن إسلام قريش لم يكن إلا أمنية. . . فألقوا على الوطن المهجور نظرة اللهفان فاتته المنى، ثم لووا عنان الركب عائدين إلى المهاجر، وإن قلوبهم لتتلفت مودعة وما سعدت باللقاء. . .!

وتحدرت دمعتان على وجه عثمان إذ حضرته صورة المصطفى من الله، فهفت نفسه إلى لقائه، وهان عليه مايستهدف له من أذى المشركين ما دام سعيداً بطلعة النبي، يراه في كل
غدوة ورواح، ويتمتع به كلما حلا له أن يستمتع.

ودخل مكة في جماعة من المهاجرين مستخفين على حذر ورقبة، حتى لقيه (الوليد بن المغيرة المخزومي) فأستظل بجواره وأمن عثمان عدوان المشركين في حماية أعز قريش وأمنعها، ومن ذا يجرؤ أن يستبيح ذمة الوليد في جاره؟ فأنه ليغدو ويروح لا يناله شر ولا يعرض له أحد بسوء. . .

وخرج عثمان مرة لبعض شأنه، فإذا هو يبصر رجل من أصحاب رسول الله مطروحاً على الرمضاء عارياً في حر مكة وقد حميت الظهيرة وقد وضعت على صدره صخرةٌ ينوء بها الفحل، تعذيباً له بما آمنة بمحمد!

واهتزت نفس عثمان مما رأى، وبرح به الألم مما ينال أخاه المسلم فلا يستطيع له دفعاً، فصغرت نفسه في عينه، ومضى والهم يجثم على صدره أثقل من صخرة العذاب على صدر أخيه!

ومشى خطوات، فإذا هو يشاهد شراً مما رأى: هذا أبو بكر، يلقاه سفيهٌ من سفهاء مكة فيحثوا عليه التراب، وأولاء جماعةٌ من المشركين يشهدون سفاهة صاحبهم فيضحكون ويسخرون.!

وزاد الهم بعثمان، وغشيته غاشية من الحزن والألم! إنه ليحس التراب على رأسه، وإنه ليشعر بمثل حر الرمضاء يشوي جسده هو، وإن قلبه ليفيض غماً. إنه ليرى نفسه في جوار سيد قريش، فما يمنعه ذلك أن يلقي من آلام النفس فوق ما يلقى صحابته من آلام الجسد!

وسار مثقل الرأس، يحمل همه على كفيه، ضيق الخطى كأنما يطأ الشوك. وإذا واحدٌ

من المسلمين يلقاه فيحدثه بما لقي (آل ياسر) من أذى بني مخزوم: لقد مات (ياسر) في العذاب وماتت زوجه (سمية) طعيناً بيد أبي جهل، وهذا (عمار بن ياسر) لا طاقة له بدفع ما يلقى من أذى بني مخزوم، وما أراه إلا موشكا أن يلحق بأبويه. . .!

واشتد به الهم إذ سمع ما سمع بعد إذ رأى ما رأى، ومضى يتحدث إلى خواطره، فإذا هو على الأمان والطمأنينة في عذابٍ أشد مما يلقى إخوانه المستضعفون. وقال لنفسه: والله إن غدوّي ورواحي آمناً بجوارٍ رجل من أهل الشرك، وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء

والأذى في الله ما لا يصيبني - لنقصٌ كبير في نفسي! إنه والله الفرارُ من الأجر والمثوبة، وإن لهم عند الله لمنزلة هيهات أن يعزيني عن فقدها أنني في سلامة الأذى. بل إنه الفرار من حمل أثقال حمل الإيمان، وإنه لأرْوَح لقلبي أن ألقي ما يلقى إخواني في الله، فأني لأوشك أن يغلظ قلبي فما آمن على نفسي من أوضار الشرك!

يا نفسي، ما برهانك على أنك مؤمنة إذا لم تحملي أثقال الحياة راضية؟

ما دليلك على أنك قاسيت في سبيل دينك وإنك لتفرين فرار المتمسك بدنياه؟

ماذا قدمت - يا نفس - لله من حظك وراحتك فيكون لك في الآخرة أن تدعي وتستطيلي؟

ألا إن الإيمان هو أن ينالك ما نال المؤمنين، وإن عذاب الناس لهو ثواب الله، وما يصدق الخبر عن بسالة الجندي إلا أن تشهد له جراحه، وما أنا رجلاً إن لم أكن الآن رجلاً. . .!

ومشى إلى الوليد بن المغيرة فقال له: (يا أبا عبد شمس، وَفَتْ ذمتك، وقد رددت إليك جوارك!)

قال الوليد: (يا ابن أخي، لعله آذاك أحد قومي. .؟)

قال عثمان: (لا، ولكني أرضى بجوار الله ولا أريد أن أستجير بغيره. .!)

قال الوليد: (فانطلق بنا إلى المسجد فاردد علي جواري علانيةً كما أجرتك علانية)

فانطلقنا حتى أتيا المسجد، فقال الوليد: (هذا عثمان قد جاء يرد على جواري)

وقال عثمان: (صدق، قد وجدته وفيا كريم الجوار، ولكني قد أحببن ألا أستجير بغير الله، فقد رددت عليه جواره!)

ثم افترقا. وجلس عثمان يستمع إلى إنشاد (لبيد بين ربيعة) في مجلس من قريش، فقال لبيد: (ألا كل شيءً ما خلا الله باطل)

قال عثمان: (صدقت!)

قال: (وكل نعيم لا محالة زائل!)

قال عثمان: (كذبت. . .!)

وأعاد لبيد، وعاد عثمان يقول: (كذبت؛ نعيم الجنة لا يزول أبداً)

فغضب لبيد وقال: (يا معشر قريش، والله ما كان يؤذي جليسكم؛ فمتى حدث هذا فيكم؟)

قال رجل من القوم: (إن هذا سفيه في سفهاء معه قد فارقوا ديننا؛ فلا تجد في نفسك من قوله!)

ورد عليه عثمان حتى شرى الشر بينهما، فقام الرجل فلطم عين عثمان فاخضرت، والوليد بين المغيرة بمجلس قريب يرى ما بلغ من عثمان، فقال: (أما والله يا ابن أخي، إن كانت عينك عما أصابها لغنية، لقد كنت في ذمة منيعة!)

قال عثمان: (والله إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله، وإني لفي جوار من هو أعز منك وأقدر!)

فقال له الوليد: (هلم يا ابن أخي، فعد إن شئت إلى جوارك!)

قال عثمان: (لا. . . . . .)

وسار في سبيله عامر القلب بالإيمان، طيب النفس بما يبذل في سبيل الله، قرير العين بأنه لم يلجأ إلا إليه. . .

ومضى المشركون في عدوانهم لا رفق ولا هوادة؛ وآذى النبي ما يلقى صحابته، فدعاهم إلى اللحاق بمن سبق من المهاجرين إلى الحبشة.

وخرج عثمان فيمن خرج، عائداً إلى المهاجر النائي طاعةً لرسول الله. فأقام هناك ما

أقام، ضيق النفس على سعة من العيش، مكروباً من الغربة على الأمان والأذى!
وتصرمت السنون عاماً بعد عام وهو يكافح الشوق والحنين، حتى أذن له أن يفارق الحبشة بعد ست سنين، لا إلى مكة الحبيبة إليه، ولكن إلى المهجر الثاني، إلى المدينة، من مغترب إلى مغترب. فما مضى عام وبعض عام على مقامه حتى مل غربته، فودع دنياه إلى الوطن الباقي بقاء السموات والأرض، إلى جوار الله. ومات أول من مات من المهاجرين بالمدينة!
وقبله النبي (صلى الله عليه وسلم) وهو يبكي وعيناه تذرفان، ووسده الثرى ونفض يديه من ترابه، ولكن ذكراه ظلت حية في قلبه؛ فلما مات ولده (إبراهيم) زوده بالتحية إلى الشهيد الغريب، وودع ولده الواحد وهو يقول: (ألحق بسلفنا الصالح عثمان بن مضعون!).
يا ابن مضعون، فرغت من أمر الدنيا وآلامها، بعد أن قضيت أيامك على الأرض تتقاذفك الفلوات من غربة إلى غربة. ولم تبك، وبكت لك دموع النبوة؛ دموع تقدمك إلى الله يثيبك، وتقدمك إلى التاريخ يترحم عليك. وفي الوقت الذي يسلب الملوك فيه تيجانهم وضع عليك التاج. . .!
طنطا
محمد سعيد العريان
مجد الإسلام
وقفة على طلل
للأستاذ محمود غنيم
مَالي وللنَّجْمِ يرعاني وأرعاهُ! ... أمسى كلانا يعافُ الغمضَ جَفْنَاهُ
لي فيكَ يا ليلُ آهاتٌ أردِّدُها ... أوَّاهُ لو أجْدَت المحزونَ أوّاه
لا تحْسبَنَّي مجبِّنا يشتكي وَصَباً ... أهونْ بما في سبيل الحب ألقاه
إنّي تذكَّرْتُ - والذكرى مُؤَرِّقةٌ - ... مجداً تليداً بأيدينا أضَعْنَاه
أنَّي اتجهتَ إلى الإسلام في بلدٍ ... تجدْه كالطير مقصوصاً جَناَحاه
وَيح العرُوبة كان الكونُ مسرحَها ... فأصبحت تتوارى في زواياه
كم صرَّفَتْنَا يدٌ كنا نصرِّفُها ... وبات يملكنا شعبٌ مَلَكْناه
كم بالعراق وكم بالهند ذو شَجَنٍ ... شكا فردَّدت الأهرامُ شكواه
بني العمومةِ إنَّ القُرْحَ مَسَّكمو ... ومسَّناَ. نحن في الآلام أشباه
يا أهلَ يثْربَ أدْمتْ مقلتيَّ يدٌ ... بدريَّةٌ تسألُ المصريَّ جدواه
الدِّينُ والضادُ من مغناكم انبعثا ... فطبَّقا الشرق أقصاهُ وأدناه
لسنا نمدُّ لكم أيماننا صِلَةً ... لكنما هو دَينٌ ما قضيناه
هل كان دينُ ابنِ عَدنْانٍ سوى قَلَقٍ ... شقَّ الوجودَ وليلُ الجهل يغشاه؟
سَلِ الحضارةَ ماضيها وحاضرَها ... هل كان يتَّصل العهدان لولاَه؟
هي الحنيفةُ عينُ الله تكلؤُها ... فكلَّما حاولوا تشويهَهَا شاهُوا
هل تطلبون من المختار معجزةً ... يكفيه شعبٌ من الأحادثِ أحياه
مَنْ وَحَّدَ العُرْبَ حتى كان واترُهم ... إذا رأى ولدَ الموتور آخاهُ
وكيف كانوا يداً في الحرب واحدةً ... من خاضها باع دنياه بأخراه
وكيف ساس رعاةُ الابل مملكةً ... ما ساسها قيصرٌ من قبلُ أو شاهُ
وكيف كان لهم علمٌ وفلسفةٌ ... وكيف كانت لهم سُفْنٌ وأمواه
سَنُّوا المساواةَ لا عُرْبٌ وَلا عَجَمٌ ... ما لامرئ شرفٌ إلا بتقواه
وقررت مبدأ الشورى حكومتُهم ... فليس للفرد فيها ما تمناه
ورَحَّبَ الناس بالإسلام حين رأوْا ... أنَّ السلامَ وأن العدلَ مغزاه
يا من رأى عُمَرًا تكسوه بردتهُ ... والزيت أدْمٌ له والكوخ مأواه
يهتزُّ كسرى على كرسيّه فَرَقاً ... من بأسه وملوكُ الروم تخشاه
سلِ المعاليَ عنا إننا عرَبٌ ... شعارُنا المجدُ يهوانا ونهواه
هي العروبةُ لفظ إن نطقت به ... فالشرقُ والضادُ والإسلام معناه
استرشد الغربُ بالماضي فأرشَدَهُ ... ونحن كان لنا ماضٍ نسِيناه
إنّا مَشَيناَ وراء الغرب نقبسُ من ... ضيائه فأصابتناَ شظاياه
بالله سل خلفَ بحر الروم عن عرَبٍ ... بالأمس كانوا هنا ما بالهم تاهوا؟

فان تراءتْ لك الحمراءُ عن كثَبٍ ... فسائل الصَّرْحَ أين المجدُ والجاه
وانزلْ دمشقَ وسائل صخرَ مسجدها ... عمن بناه لعل الصخرَّ يَنعاه
وطُفْ ببغدادَ وابحثْ في مقابرها ... علَّ امرَ أمن بني العباسِ تلقاه
هذى معالم خُرْسٌ كلُ واحدةٍ ... منهنَّ قامت خطيباً فاغراً فاه
إني لأشعر إذ أغشى معالمهم ... كأنني راهبٌ يغشى مُصلاه
الله يعلم ما قلَّبتُ سيرتَهم ... يوماً وأخطأ دمع العين مجراه
أين الرشيد وقد طاف الغمامُ به ... فحين جاوز بغداداً تحدَّاه
مُلْكٌ كملك بني التاميز ما غربت ... شمس عليه ولا برْقٌ تخطَّاه
ماضٍ نعيش على أنقاضه أمما ... ونستمدُّ القوى من وَحْي ذكراه
لاَ دَرَّ دَرُّ امرئٍ يُطري أوائلَه ... فخراً وَيُطْرِقُ إن ساءلته ما هو
ما بالُ شمل بني قحطانَ منصدِعاً؟ ... ربَّاهُ أدرك بني قحطان ربَّاه
عهد الخلافة في البسُفُور قد دَرَستْ ... آثارُه طيّب الرحمنُ مثواه
عرشٌ عتيدٌ على الأتراك نعرضُه ... ما بالُنا نجد الأتراكَ تأباه
ألم يرَوْا كيف فدَّاه معاويةٌ ... وكيف راح عليٌّ من ضحاياه
غالَ ابنَ بنتِ رسولِ اللهِ ثم عَدَا ... على ابن بنتِ أبي بكر فأرداه
لما ابتغَى يدَها السفاحُ أمْهَرَها ... نهراً من الدم فوق الأرض أجراه
ما للخلافة ذنبٌ عند شانِئِها ... قد يظلِمُ السيفَ من خانته كَفّاه
الحكْمُ يَسلس باسم الدين جامحُه ... ومن يَرُمْهُ بحدَّ السيفِ أعياه
يا رُبَّ مولًى الأعناقُ خاضعةٌ ... وراهبُ الدَّيْرِ باسم الدِّين مولاه
إني لأعتبرُ الإسلام جامعةً ... للشرق لا محضَ دين سنَّهُ اللهُ
أرواحُنا تتلاقى فيه خافقةً ... كالنحل إذْ يتلاقى في خلاياه
دستورُه الوحْيُ والمحتارُ عاهِلهُ ... والمسلمونَ - وإن شتُّوا - رعاياه
لاهُمَّ قد أصبحت أهواؤنا شيعاً ... فامنن علينا براعٍ أنتَ ترضاه
راعٍ يُعيدُ إلى الإسلام سيرته ... يَرْعَى بَنيهِ وعينُ اللهِ تَرْعاهُ
(كوم حمادة)

محمود غنيم

من الفلسفة الإسلامية

عينية أبن سينا أو قصة الروح

للأستاذ زكي نجيب محمود

ادْنُ مني يا صديقي واستمع إلى هذه القصة الممتعة الرائعة التي يرويها ابن سينا عن الروح. وما أدراك ما الروح؟ هذا السر العجيب الذي سري واستكن بين أحنائك فلا تكاد تدري من أمره شيئاً! وهل يداخلك شيء من الريب في أنك مزيج من مادة وروح؟ فأما المادة فهي هذا اللحم والعظم، وأما الروح فهي تلك الفكر الرائع والخيال البارع وتلك الحركة المتوثبة الدافعة، حتى إذا جاءك يوماً قضاؤك المحتوم، انطلق كل من العنصرين إلى سبيله! فأنى لك هذا السر المكنون، وأيان يذهب بعد الموت؟ ذلك ما يرويه ابن سينا في قصيدته وما أنا محدثك به الآن - قال ابن سينا:

هَبَطَت إليك من المحلِّ الأرفع ... ورقاءُ ذاتُ تَعَزُّزٍ وتمَنُّع

فقد كانت تعيش الروح أول أمرها مطلقة مجردة في الرقيق الأعلى، ثم كتب عليها أن تهبط إلى هذا الدرك الوضيع؛ ولقد آثر فيلسوفنا الشاعر لفظ الهبوط على السقوط لأنها في رأيه لم تسقط إلى هذا الحضيض من علٍ كما يسقط الحجر الجماد سقوطاً لا شعور فيه، أو كمن ينتكس من أوج الجبل إلى سفحه انتكاساً يقربه من الجماد المرغم على السير في طريق بعينها لا يملك لنفسه شيئاً، إنما هبطت إليك الروح؛ وفي لفظ الهبوط معنى الشعور والإدراك، من محلها الأرفع، حيث تسبح العقول المجردة روحانية خالصةً لا تشوبها شائبة من مادة. . . ولكني عهدتك يا صديقي عنيداً ملحاحاً لا ترضى بالقول يرسل إرسالاً، بل تقتضي محدثك الأمثلة يضربها توضيحاً لما يريد. وكأني بك تسائلني أو تسائل الشاعر: وكيف كان ذلك الهبوط؟ فهو يجيب: إن شئت للروح في هبوطها مثلاً مما تعلم من ألوان الحركة، فهي أشبه بالطير سابحةً في أجواز الفضاء، محومةً صاعدة هابطة، وماذا ترى بين الأشياء التي تتحرك بالإرادة أشد شبهاً بالروح من الطير في خفته ولطف جوهره، وفي هبوطه وصعوده؟ لعمري لقد وفق فيلسوفنا،

بل لقد وفق أصحاب الفن منذ أقد العصور في تصويرهم للملائكة أو ما يتصل بالملائكة من كائنات روحانية بالجسوم المجنحة إدراكاً منهم بهذه الرابطة القوية الصادقة بين خفة الأرواح ولطفها، وبين رشاقة الطير ورقته. ولكن فيلسوفنا الشاعر لا يرضيه تشبيه الروح في هبوطها بالطير على عمومه، بل أجال بصره في عالم الطير لعله يجد بينها نوعاً خاصاً يكون أقربها صلة بالروح، فما أسرع أن ساقه صدق شعوره وكمال إحساسه إلى الحمائم، وهل تستطيع أن تدلني على طير هو أشد من الورق استئناساً ووداعة، وأطول من الورق حنيناً وأصدق بكاء؟! وإذن فما أشبه الروح بالورقاء، فهي قد نشأت في عالم قدسي رفيع، مجردة عن ملازمة المادة ومواصلتها، فلما كان لها أن تهبط إلى الجسد المادي، طال ترددها واشتد تعززها وتمنعها، وكانت فيما أحست من ألم كمن ينتحب بالبكاء، حنيناً إلى عالمها ذاك، ونفوراً وازوراراً من الأخلاط الجثمانية التي كتب لها أن تهبط إليها فتعيش بينها فترة من زمان محجوبةٌ عن كل مقلة ناظرٍ وهي التي سفرت ولم تتبرقع. ألا ما أعجب الروح! إنها تلازمك أينما حللت، لا تفارقك إلا يوم تكون أنت لست اياك، فهي قريبة منك، بل هي أنت؛ تسري في دمائك، وتدب في كل عضو من أعضائك، ثم هي مع ذلك تمتنع عن النظر وتستعصي على الادراك! فاذا ما حاولت رؤيتها تحجب وأسدلت حول نفسها قناعاً صفيقاً لا ينفذ منه شعاع من بصر، لماذا؟ لأنها تذكر ماضيها الجليل، يوم كانت في العالم الأقدس الرفيع، فتأخذها العزة والكبرياء، وتتعالى عن إدراك العيون! وكيف تردها على الظهور أمام مقلتيك وهما لم تخلقا إلا لرؤية الأجساد المادية وحدها؟ فأما هذه الماهية المجردة فهيهات أن تدركها بالنظر؛ وكل محاولة منك في هذه السبيل صائرة حتماً إلى فشل وإفلاس، ولكن لا تيأس يا صاحبي، فثم سبيل لإدراكها غير هذه المقل، وغير هذه الحواس جميعاً، انظر إليها بعين العقل تجدها واضحة سافرة كاشفة عن وجهها لا تسدل من دونه البراقع والستور، فهي إن كانت تأبى أن تبدو للحواس فذلك لأنها تعلو بنفسها عن هذا الدرك الخسيس، وهي إنما تتضح وتجلو لكل عاقل من الناس، يبحث عنها بعقله في آثارها ودلائلها. إذن فالروح مع كمال خفائها وشدة غموضها عن العين، يمكن إدراكها بالعقل لمن يريد معرفتها بالدليل والبرهان.

وَصَلَتْ على كرهٍ إليك وربما ... كرهت فراقك وهي ذات توجع

لقد علمت أن الروح قد اتصلت بهذا الهيكل الجثماني متأبية مقهورة مكرهة، ولكنها من عجيب أمرها عادت فكرهت أن تفارق هذا الجسد الذي أرغمت على الحلول فيه أول الأمر إرغاماً، أما كونها جاءت مكرهة فلأنها حين هبطت إليك كانت تعلم أنها إنما تتصل بكتلة من المادة. ليس بينها وبينها تآلف وتجانس، إذ ليست هي في تجردها وروحانيتها شبيه بالجسد في ماديته، وهل تستطيع أن تظفر بأنس من رفيقك إذا لم يكن بينك وبينه تجانس في الصفات؟ فإن أرغمت على هذه المرافقة إرغاماً على ما بينكما من تنافر وتناكر، فأنت لاشك غاضب كاره؛ وأما كونها تعود فتكره فراق الجسد فذلك لأنها قد تمكنت منه وسرت في أنحائه سرياناً شديداً، فتشبثت به تشبثاً قوياً متيناً ليس انحلاله أو زواله هنة هينة، وأنت تستطيع أن تلتمس ذلك في نفسك إذا هممت بالانتحار، فلن تجد من نفسك إقبالاً على الموت ورضى به واطمئنانا اليه، ومعنى ذلك أن روحك قد استطابت مقامها الجديد بعد نفور، ولكن حذار أن يذهب بك الظن إلى أنها قد ارتبطت بالجسد ارتباطا بلغ من القوة والمتانة حد الاندماج، بحيث إذا زال الجسد زالت الروح تبعاً له، كلا، إنما ترتبط الروح بالجسد ارتباطاً يقع بين القوة الشديدة والضعف الشديد، فلا هو إلى القوة التي تدمجها فيه ادماجاً، ولا هو الضعف الذي ييسر لها سبيل الفرار. ولكني لم أحدثك بعد عن علة كرهها لفراق الجسد، وقد جاءته مكرهة أول الأمر. أما ذلك فلأنها رأت أنها تستطيع أن تتخذ من هذا الجسد أداة للخير والفضيلة، لقد كانت في حياتها المطلقة الأولى خالية من الصفات الإيجابية جميعاً، وها هي ذي قد رأت في الحواس سبيلاً قومية تحصل بها من الأخلاق والعلم حظا موفوراً، وإذن فاتصالها بالجسد قد جعلها عارفةً بعد سذاجة وجهل، متحركةً بعد خمول وسكون، فهل تدهش بعد هذا إذا رأيت الروح جازعة فازعة حين يدنو منها الأجل المحتوم الذي يفصل بينها وبين زميلها انفصالاً ليس بعده من لقاء؟ وهل تعجب إذا رأيتها حين اتصالها بالجسد

تدافع جهدها عنه لتدفع ما يتهدده من علة أو مرض، وتحرص وسعها أن يكون موفور الحظ من السلامة والعافية؟

أنِفَتْ وما أَنِسَتْ فلما واصلت ... أَلِفَتْ مجاورةَ الخراب البلقع

إذن لقد هبطت الروح إلى هذا الهيكل معرضةً عنه مزدريةً له صلفاً منها وتيهاً، وحق لها ذلك، فهي خالدة لا تخضع للفناء، وهو وضيع يتعاوره الكون والفساد، لهذا أنفت منه ولم تأنس له بل استكبرت عليه وأبت أن تنزل بنفسها إلى حضيضه الأسفل، وظل النفور بينهما حيناً من الدهر لم يطل، حتى عرفت أنه أداة قويمة صالحة لتحصيل الفضيلة

والخير، عندئذ أنست به ورضيت بالإقامة معه في إخاء وائتلاف، وما هي ألا أن وضح أمامها الطريق وقام الدليل قاطعاً على أنها ستحقق بالجسد مرادها من الكمال، فقومت العلاقة واشتدت الملازمة على الرغم من علمها أن هذا الذي ترافقه وتزامله لن يلبث حتى ينقلب خراباً بلقعاً لا غناء فيه، إذ هو صائر إلى الفناء بعد حين يقصر أو يطول. ولعلك تلاحظ أن فيلسوفنا قد عبر هنا عن العلاقة بينهما بلفظ المجاورة قاصداً متعمداً، لأنه أراد أن تعلم أنها ليست من الجسد بمثابة الأبصار من العين مثلاً، يكادان يكونان شيئاً واحداً، ولكنهما منه كالملاح من سفينته يديرها ويدبر أمرها. ثم هو بعد يستطيع أن يستقل بوجوده بعيداً عنها، فهي علاقة تجاورٍ لا علاقة وإدغام.

وأظنها نسيت عهوداً بالحِمى ... ومنازلاً بفراقها لم تقنع

نعم: لقد اطمأنت إلى الجسد بعد صدٍ ونفور، وأنست به بعد وحشة، وبلغ بها الاطمئنان والأنس حداً نسيت معه تلك العهود والمواثيق التي أخذت عليها أيام كانت في عالمها الرفيع السامي، وركنت إلى غير جنسها ركوناً لا تحب معه الفراق، وقد بلغ منها ذلك النسيان لمنازلها الأولى حد الغلو والإسراف، فهي لم تقنع بمجرد فراقها لعالمها الأول، بل زادت عليه عشقها للعالم الجديد، وهنا كأنما تحس من فيلسوفنا إشفاقاً على الروح أن تكون قد رضيت بالأدنى عن الأعلى لتغيرٍ في صفاتها وتحولٍ في إدراكها وفسادٍ في طبيعتها

حتى إذا اتصلت بهاء هبوطها ... من ميم مركزها بذات الأجرع

علقت بها ثاءُ الثقيل فأصبحت ... بين المعالم والطلول الخُضَّع

يا ويح النفس! والله لكم أخشى أن تكون الروح قد مازجت المادة حتى فسدت عنصراً، فهي لم تكد تهبط من أبعد الذرى لتمس عالم المادة حتى علقت به وهو بعد لا يأتلف إلا من الخسيس الكثيف الذي يندر أن يكون سبيلاً إلى الكمال (ذات الأجرع هي المادة الأرضية الكثيفة أي البدن)، نعم، لم تكد تهبط الروح، وتدب في مادة الجسد حتى علقت بها هذه المادة الجثمانية وأحلتها بين أجزائها وطي ثناياها، بين معالم الجسد وأطلاله الخربة المتداعية- بين عظامه وغضاريفه ولحمه وشحمه، التي تخضع للفناء وتؤول للبطلان وتنقلب إلى الدثور. ولكن لعلها قد دبت بين أجزاء الجسد الفانية لا لتجري مجراها. ولكن لتستخدمها في تحصيل المعارف والفضائل.

تبكي إذا ذكرت عهوداً بالحمى ... بمدامعٍ تهمي ولم تتقطع

لقد حم القضاء ووقعت الواقعة، فقد حان للروح حين فراقها وجاء أجلها، وها هي ذي قد فصلت عن رفيقتها وخلفته وراءها رماداً وتراباً، فهي إذا ما ألقت بنظرها إلى هذه الأوصال المفككة، والى هذا البيت المعمور، وقد دب فيه الخراب والدمار، عظم عليها الوجد وجل في عينها الخطب، وقد تتزاحم أمامها ذكريات الماضي أيام كانت تنعم بزمالة هذا البدن المحطوم في شتى ألوان النعيم، فتتفجع وتتوجع وتحزن وتأسى، فان كانت روحاً خيرة فاضلةً كانت فجيعتها أن افتقدت أداة الخير والفضيلة إذا افتقدت الجسد، وإن كانت روحاً شريرة خبيثة مستهترة كانت حسرتها أن سلبت وسيلة اللذة والمتاع - ألا وهي الجسد كذلك.

وتظل ساجعة على الدِّمن التي ... درست بتكرار الرياح الأربع

ولا تحسبن الروح بعد فراقها للجسد قد غفلت عنه وأنسيته بل أنها تتردد إليه الحين بعد الحين، فتقف بازائه باكية نادبة، وقد أبت قريحة الشاعر الفيلسوف إلا أن تصور الروح، وقد جاءت تنشد أطلال الجسد فتجد منه بقية باقية يهيج منظرها ما كان كامناً فيها من شجون، وإنما تعظم الحسرة إذا بقيت من منازل الأحباب آثارها لما تثيره في النفس من ألم وحنين، أما تلك الرياح الأربع التي ما فتئت تهب على مادة الجسد حتى

درستها درساً، فيغلب أن تكون الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة التي لا تنفك، تعتور الصخور الصلدة حتى تفتتها هشيماً تذروه الرياح هنا وهناك، فتنطمس المعالم الأولى لك يا صديقي أن في هذا البيت تصريحاً من الفيلسوف بخلود الروح بعد الموت، فهي باقية خالدة تروح وتغدو، ويستحيل عليها التحلل والفناء.

إذ عاقها الشّرَكُ وصَدَّها ... قفصٌ عن الأوجِ الفسيحِ المِرْبَعِ

ولكن ليت شعري فيم بقاء الروح بين هذه الأطلال الدارسة باكيةً نادبةً، وماذا يعوقها أن تعلو وتصعد إلى حيث العقول المجردة في الملأ الرفيع؟ أليس في ذلك فكاك لها من شوائب المادة ونقائصها، وتحرير من قيود الحس وأصفاده الثقيلة الباهضة إلى حيث تسبح في تلك الأرجاء الفسيحة تتسرح فيها تسريحاً مطلقاً لا يصدها ضيق ولا تزاحم؟ لعمري إنها الدنيا التي تجتذبها كما يجتذب الشرك سوابح الطير الطليق بما يلقى فيه من حب، فهذه اللذة والشهوة والمتاع كفيلة أن تغري النفس إغراءً يكون لها غلاً ووثاقاً، وليس شرك الدنيا الذي تطوقُ به النفوس تطويقاً من ذلك الضرب الهين الخفيف الذي تحطم قضبانه وسلاسله في سهولة ويسر ولكنه شركٌ عاتٍ قوي كثيفٌ يحوك حول السجين آلافاً من الحبائل والحوائل التي يتعذر منها الخلاص إن لم يستحل وإذن فهذا الجسد للروح بمثابة القفص للطير القنيص، لا تستطيع أن تغادره أو تجاوز حدوده إلا إذا أراد لها ذلك واضعها، ولكنه قفص على ما ضربه حولها من سياج منيعٌ مشبكُ القضبان فيه من نوافذ ما يسمح للسجينة أن ترسل خلالها الفكر والبصر إلى أرجاء الكون، وما تلك المنافذ التي تتسلل منها الروح إلى أنحاء الوجود إلا الحواس من بصر وسمع وما إليهما، وإلا العقل تتقصى به أطراف الأرض والسماء.

حتى إذا قَرُبَ المسيرُ إلى الحميَ ... ودنا الرحيلُ إلى الفضاء الأوسعِ

وغَدت مُفارِقةً لكلِّ مُخلَّفٍ ... عنها حليفَ التُّرْبِ غيرُ مشيَّعِ

هكذا ارتبطت الروح بالجسد ارتباطاً مكيناً. حتى إذا دنت ساعة الرحيل وحان أجل الفراق لهذا البدن إلى حيث تنطلق في الفضاء الرحب الفسيح، وأخذت تقطع ما بينه وبينها من صلات وعلائق وأسباب، وهو تلك الكتلة المادية المخلفة المعطلة المطروحة بعد المفارقة تحت أطباق الثرى دون أن يلتفت إليه أو يعني بشأنه احتقاراً له وازدراء، . . .بعد أن خلفته الروح وخلعته، نقول إذا دنت ساعة الرحيل وفارقت الروح جسدها

هَجعتْ وقد كُشف الغطاءُ فأبصرتْ ... ما ليس يُدركُ بالعيون الهُجَّعِ

عندئذ يزول عنها حجاب البدن فينكشف الغطاء فتدرك ما كان يستحيل عليها إدراكه أيام اتصالها به، ذلك لأن الأرواح المتلبسة بالأجساد إنما تكون رقوداً هجعاً أو كالرقود الهجع لأنها إذ تكون عالقة بالأبدان تكون محجوبة عن الإدراك الذي تحصله النفوس المجردة كما يحتجب النائم عن إدراك ما يدركه اليقظان، إذن فالروح عندما تلقي الجسد وتطرحه تكون كأنما تكشف عن بصيرتها غطاء طالما حال بينها وبين مطالعة الرفيق الأعلى بما يغمسها فيه من عرض مادي زائل باطل مصيره إلى الفناء، أما إذا فارقت البدن فقد خلصت من أغلالها وانحسر عن بصرها الغشاء فأبصرت أسرار الحق صافية خالصة وانكشف لها الغيب وأيقنت أنها كانت أثناء حياتها مع الجسد غافلةً راقدةً وقد تنبهت الآن واستيقظت.

وغدت تغرِّد فوق ذِروة شاهق ... والعلمُ يرفع كل من لم يُرفعِ

فإذا كانت قد نفضت عن نفسها ما كان لحقها من غفلة ورقاد، إذن فقد تجردت من قيود المادة وأصفادها وغدت عنصراً عقلياً صرفاً لا تشوبه شائبة من كدورة أو نقص، مبرأةً عن حاجات البدن التي تجذبها إلى أسفل، واتصلت بالعالم الروحاني المجرد، فأحست بالنشوة والسعادة وغردت سروراً لما ظفرت به بذلك الاتصال؛ ولعلك هنا تحتج على الفيلسوف وتعترض حديثه، فما لهذه الأرواح قد صعدت إلى العالم الأقدس ولم تلبث حول أجسادها محومة باكية راثية إلفها الحبيب، فهو يجيبك إنما ترتفع إلى هذه الذروة الشاهقة السامية، تلكم الأرواح التي كسبت من العلم صدراً محموداً وحظاً موفوراً، وإن العلم لجد كفيل أن يرفع إلى حالق ما من شأنه أن يكون في الحضيض الأخس فضلاً عما يكون له بطبيعته اتصالٌ وقربى بالعالم الأشرف الرفيع.

فلأي شيء أهبطت من شامخ ... عالٍ إلى قصر الحضيض الأوضعِ

ولكن قف!! أأنت محدثي يا صاح فيم هذا العناء كله إن كان مصير الروح في نهاية

أمرها أن تعود إلى حيث بدأت السير؟ فلقد زعمت لي أنها هبطت من علٍ فحلت بالبدن حيناً من الدهر ثم أخذت سبيلها آخر الشوط إلى مستقرها الذي صدرت عنه وفاضت منه! ما هي الحكمة الباعثة للنفس أن تهبط من ذراها هاوية إلى الدرك الأسفل؟

إن كان أهبطها الآله لحكمة ... طويت عن الفذ اللبيب الأروع

فهبوطها لاشك ضربة لازب ... لتكون سامعة لما لم تسمع

هكذا تساءل صاحبي في دهشة وعجب، قال: إن كان الله جل وعلا قد أهبطها لحكمة خفيت عن بصائرنا، واستعصت على إدراكنا، بل طويت عمن بلغ منا من الحكمة أروعها وأبعدها غوراً، فلا ريب في أن الله تعالى في هذا العالم الأرضي توفق إلى اكتساب المعرفة، واستيفاء أسباب الكمال، إذ كانت في أول أمرها جاهلة ساذجة غافلة، فأهبطها لتسمع ما لم تكن قد سمعت به من العلوم والأخلاق؛ وسبيلها إلى ذلك هي الحواس والعقل.

وتعود عالمة بكل خفيَّة ... في العالَميْن فخُرقُها لم يُرقَع

فاللهم إن كانت هذه رسالتها التي هبطت من أجلها، أعني أنتعود بعد زيارتها إلى الدنيا عالمة بالأسرار الخفية في العالمين - عالم الغيب والشهادة - فلا سبيل إلى تحقيق ما جاءت من أجله؛ لأنها مهما حصلت من فروع العلم وجوانب الأخلاق؛ ومهما أسرفت في التحصيل فهي قاصرة مقصرة، وكيف سبيلها إلى ذلك والعلوم لا تنتهي عند حد، وحتى إن أمكن تحصيلها فلا تكفي لها مدة الحياة على قصرها؛ ولكن ليكن هذا فليس الفشل فيما نظن مما ينتقص من نبل الغاية المقصودة ويحط من شرف الوسائل المؤدية إلى تلك الغاية.

قال صاحب: لقد زعمت أو زعم فيلسوفك ابن سينا أن الروح إنما هبطت فسرت في البدن ففارقته وعادت أدراجها، والله لا يفعل شيئاً إلا لحكمة، إذا كان ذلك لم يكن لهواً ولا عبثاً؛ فلأي شيء هبطت فتعلقت بالجثمان لتتخذه وسيلة إلى الكمال على شرط أن تكون من أصحاب الفضيلة والخير. قال: وإن كانت الروح من الملأ الأعلى فكيف تكون ناقصة وقد حدثتني في صدر الحديث أن ذلك الملأ مجردٌ مطلقٌ كاملٌ كمالاً محضاً، وأنه خير خالص، كما حدثتني إلى جانب ذلك أن عالمنا هذا شر - أو على أكثر تقدير مزيج بين الخير والشر فما قولك الآن إن الروح قد هبطت من ملأها الأعلى إلى هذه الأرض تنشد عن طريق الكمال؟! وهل يكون الشر وسيلة إلى الخير والكمال؟ لعمري لو كانت العناصر المجردة لا يتم كمالها إلا إذا اتصلت بالمادة فما أوجب أن يهبط عالم الأرواح كله ليمتزج بالأرض ومادتها؟ قلت: جوابك يا صاحبي في هذا البيت الآتي:

وهي التي قطَعَ الزمانُ طريقَها ... حتى لقد غَرُبَتْ بغير المطلع

فقد كان مراد النفس وأملها أن تبلغ حد الكمال بما يرتسم في صفحتها من الصور العقلية، لكن الزمان لم يمهلها وا أسفاه! فقطع عليها السبيل وصدها عما كانت تسير نحوه، وذلك بإهلاكه للبدن وهو أداتها في تحقيق رغبتها، ولكنها إلا تكن قد ظفرت بكل شيء، فهي لم تفقد كل شيء، لأنها لم تغرب - حين غربت - ساذجةً جاهلة كما أشرقت أول الأمر بل عرفت الكمال وعرفت النعيم الذي يكون لها لو بلغت هذا الكمال، وكفاها بهذه المعرفة حافزاً قد يدفعها إلى متابعة السير يوماً آخر.

فكأنه برق تألق بالحمى ... ثم انطوى فكأنه لم يلمع

أنعم برد جواب ما أنا فاحص ... عنه فنار العلم ذات تشعشع

ولكن فيلسوفنا الشاعر يعود فيوافقك يا صديقي إلى حد كبير، إن النفس عند فراقها للبدن تكون في الحقيقة كأنها لم تفد شيئاً وكأنها لم تصحب البدن قط، وما أسرع ما انقضى زمن إقامتها فيه، فقد اختفت سريعاً كالبرق الخاطف، وعادت كأن لم تكن بالأمس شيئاً مذكوراً. وإنه ليختم حديثه معك بحفزك وإثارة الطلعة في نفسك لعلك تمعن في التفكير والنظر لترى جواباً لهذا السؤال المربك: فيم هبوط الروح للوصول إلى كمالها، ثم فصلها قبل أن تصل؟ قال محدثي: اني لأرى شبها قويا بين هذه القصة التي قصصها علي عن ابن سينا وبين ما رويته لي بالأمس عن فلسفة أفلاطون من أن النفس كانت تسبح في عالم المثل صافية سعيدة مفكرة، ثم حلت بالجسم وتعلقت به، فإذا وافت الإنسان منيته عادت من حيث أتت، قلت نعم ولعل لي معك في هذا

حديثا آخر.
زكي نجيب محمود
مقتل عمر بن الخطاب
نقلها عن جرائد ذلك العهد الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني
اختلف المؤرخون في مقتل عمر رضي الله عنه، فمنهم من قال إن أبا لؤلؤة حقد عليه لأنه لم يخفف عنه الخراج الذي ضربه عليه سيده المغيرة بن شعبة؛ وقال آخرون بل ائتمر به الهرمزان وهو قائد فارسي أظهر الإسلام وأضمر الغدر، وجفينةُ وهو من نصارى نجران الذين أجلاهم عمر عن جزيرة العرب. وقد فاتني - لسوء حظي - أن أشهد الحادثة الضخمة وتأخرت عنها أكثر من ثلاثة عشر قرناً. ولو حضرتها لعرفت كيف أقول! ولكنه لا يجدي الأسف على شيء فات؛ وما لا يدرك كله لا يترك كله؛ وقد وقعت لي (أعداد) من (صحف) ذلك الزمن، مثل جريدة (يثرب)، وجريدة (دار الهجرة)، وجريدة (العذراء)، وغيرها من الصحف الأولى التي كانت تصدر - صباحاً أو مساءً - في صدر الإسلام. وأكبرها جميعاً (يثرب)، وكانت تظهر في الفجر، فيتخطفها الناس وهم خارجون من صلاتهم بالمسجد، وكان لها مكاتبون في الأمصار قاصيها ودانيها، يوافونها بأخبارها وأحوالها، وسيرة ولاتها وعمالها، وجلهم - أي المكاتبون - ممن دخلوا مع رسول الله مكة، واشتركوا في حروب الردة، وقاتلوا مع سعد بن أبي وقاص، وأبي عبيدة، وخالد بن الوليد، في فتوح العراق وفارس والشام، ومن أجل هذا كانت الثقة بأنبائهم عظيمة، والاطمئنان إلى الرواية تاماً؛ ولا عجب بعد ذلك إذا كانت (يثرب) كبرى الصحف في ذلك العهد وأوسعها انتشاراً، وأوثقها حالاً. ومما ينبغي أن يذكر من مفاخر هذه الجريدة أن العرب إلى عهد عمر رضي الله عنه كانت تتعامل بالنقود الفارسية والرومية فدعت (يثرب) إلى ضرب نقود عربية وألحت في ذلك؛ ورأى عمر رضي الله عنه أنها على حق، فأمر فضربت الدراهم على شكل النقود الفارسية، فلم تقنع (يثرب) بهذا، وطلبت أن ينقش اسم الله تعالى واسم رسوله تمييزاً لها عن نقود الفرس، فاستحسن الخليفة رأيها، فأمر فكتب على الدراهم: (الحمد الله) على وجه، و (محمد رسول الله) على الوجه الآخر. وقد زعم حاسدوها وشانئوها - من الفرس المغلوبين على أمرهم - أنها ما دعت إلى ذلك إلا ليسهل بيعها، فينشر أمرها ويعظم ربحها، وقالوا: ألا تراها قد أشارت بضرب الدراهم ولم تذكر الدنانير قط؟ فذاك لأن الدراهم خسيسة، ولأن النسخة من جريدة (يثرب) تباع بدرهم! ولكن هذا طعن الفرس الموتورين فلا يسمع في العرب.
على أن من المحقق أن حاجة (يثرب) إلى سنة تؤرخ بها، هي التي أملت عليها الدعوة إلى وجوب الاتفاق إلى سنة معينة للتاريخ منها، غير عام الفيل وعام الفجار وما أشبه ذلك مما لا آخر له، فكان أن استشار الخليفة أصحابه في ذلك فأشار عليه علي كرم الله وجهه - على رواية (يثرب) - باتخاذ السنة التي هاجر فيها الرسول إلى المدينة مبدأ للتاريخ الإسلامي.
بعد هذا الاستطراد الذي لم نر منه بداً للتعريف (بيثرب) ورفعة مقامها وعلو منزلها، نقول إنا وجدنا فيما عندنا من أعدادها وصفاً مفصلاً لجريمة مولى المغيرة، فرأينا أن ننقله بحروفه حسما للخلاف، وإحقاقاً للحق.
قالت في ملحق أصدرته ضحى الأربعاء 26 ذي الحجة سنة 23 هجرية تحت العنوانات الآتية المكتوبة بالخط الجليل على سبعة أعمدة: (غلج فارسي يطعن أمير المؤمنين وهو يقيم الصلاة - ويصيب 13 رجلا ثم ينتحر - أهي مؤامرة فارسية نصرانية؟ - تحريات مندوبي يثرب الخصوصيين).
ثم قالت الجريدة:
لم نكد نفرغ من طبع العدد الأخير من (يثرب) وندفع به إلى الباعة، ونذهب إلى) المسجد للصلاة، حتى فوجئنا باعتداء أثيم مروع من علوج فارس على حضرة صاحب الجلالة أمير المؤمنين وخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، الفاروق عمر بن الخطاب وهو يسوي الصفوف في المسجد ويهم باقامة الصلاة. وهو اغتيال دنيء وغدر خسيس تنكره الشهامة ولا تعرفه العرب، ولو أن مائة من أمثال هذا العلج الزنيم تصدوا لجلالته، وهو يراهم لخلط عظمهم بلحمهم وأكلهم وتأدم بآبائهم وأجدادهم إلى قابيل، ولكن هذا العلج جاءه من وراء ظهره، وأخذه غدراً وطعنه غلية، وهو رافع يديه

يكبر للصلاة.
وقد سبق لنا أن حذرنا الحكومة من هؤلاء الفرس والنصارى الذين يفدون على مدينة الرسول؛ فإنها - على وفرة الماء فيها بالقياس إلى غيرها من بلاد العرب - يابسة الضرع، وغيرها من الأمصار التي فتحها أخصب، والعيش فيها أرغد، فمجيء هؤلاء الأغراب الموتورين إلى المدينة وإقامتهم فيها أمر مريب، فما يعقل أن يطيب لأمثالهم فيها
عيش، وهو الذين نشأوا في ظلال الدعة وألفوا حياة اللين والترف، وهذا ما جناه السماح لهم بالإقامة بين ظهرانينا.
ودعوا مراراً إلى اتخاذ الشرطة والحراس، والعسس بالليل، ومراقبة الأجانب، وقلنا إن خروج الخليفة وليس معه حارس، ولا في يده سلاح، ونومه في الأحيان الكثيرة في ظل شجرة أو جدار لا يخلو من الخطر، وأنه تعرض لا تؤمن مغبته، ولو أنه ليس بالمدينة إلا العرب لما أشفقنا، ولكن الأغراب كثروا بيننا، وهو من بلاد داستها جيوشنا، ودوخت أممها، وثلت عروشها، فهم حاقدون مضطغنون، لا يؤمن غدرهم ولا يتقي شرهم إلا بالحيطة والتحرز منهم. وقد صدق ظننا مع الأسف، وليته خاب ألف خيبة، (نسأل الله اللطف فيما وقع).
ثم فصلت الجريدة الحادث كما وقع فقالت:
دخل جلالته المسجد ليصلي بالناس على عادته، وكانت في يده الدرة التي لا تفارقه،) فاخترق الصفوف والناس يفسحون له، ويحيونه بأحسن من تحيته، حتى صار إلى الصدر فاستقبل الناس ليقوم صفوفهم، وذاك دأبه، فان جلالته يكره الفوضى ويحب النظام، فمألقى الدرة من يمينه - وكان يسوي بها الصف ويشير للمتقدم أن يتأخر، وللمتأخر أن يحاذي الذي بجانبه، ثم اتجه إلى القبلة ورفع يديه وكبر، ولم يكد صوته الجهوري يرتفع بالتكبير حتى هجم عليه رجل - ظهر فيما بعد أنه غلام المغيرة - وفي يده خنجر وضربه به في كتفه، فانحنى أمير المؤمنين قليلاً من عنف الصدمة وقوة الضربة على غير توقع منه، فمال معه المجرم وكاد يسقط، غير أنه اعتمد بيسراه على ظهر جلالته ونزع الخنجر الذي أصاب عظمة الكتف، وكان جلالته قد تمالك، وذهبت عنه دهشة المفاجأة فدار ليواجه المعتدي عليه، فعاجله الجاني بطعنة في خاصرته، وأسرع فنزع، وتشدد جلالته فضربه بجمع يده في صدره وهو يقول: (تريد قتلي يا ابن الفاعلة؟) فارتد المجرم خطوات، ثم كر عليه بالخنجر يطعنه طعناً سريعاً فسقط أمير المؤمنين على الأرض.
وكان الناس قد اذهلتهم هذه المباغتة، وأصابتهم منها لأول وهلة كالرعب، فتراجعوا والتوت صفوفهم، ثم أفاقوا، فصاح بعضهم يطلب الشرطي - وأين هو حتى يلبي النداء؟ - وهجم منهم عليه رهط، فأعمل فيهم خنجره يضرب يميناً وشمالاً كالمجنون، فأصاب منهم
ثلاثة عشر رجلاً، وألهم الله بعضهم فألقى عليه برنسا - كما تلقى على الجواد الجامح ثوباً - فأعماه وشل حركته، ثم تكاثروا عليه، وأيقن هو أنه هالك لا محالة فطعن نفسه فمات!
وأقبل الناس بعد ذلك على أمير المؤمنين واجمين محزونين - حتى الجرحى منهم - فردهم جلالته عنه باشارة وسأل:
(هل فيكم عبد الرحمن بن عوف؟)
فتلفت الناس ينظرون، فإذا ابن عوف يفرقهم ويقول:
(نعم يا أمير المؤمنين)
فقال جلالته: (تقدم، فصل بالناس)
فكانت دهشة، ولكن عمر هو عمر، لا يشغله خطب عن دينه وواجبه، ولا يجرؤ أحد على خلافه من هيبته، فصلى ابن عوف بالناس صلاة خفيفة، وعيونهم على جلالته، وهو ساكن وادع معتمد على الأرض بمرفقه، يصلى معهم بشفتيه، ثم أقبلوا عليه فحملوه، يريدون أن يذهبوا به إلى داره، فقال:
(مهلاً، ناولتي درتي يا هذا)
فناولوه إياها، فأخذها وهو يقول وعلى فمه ابتسامة:
(أرأيتم ماريشالاً بلا عصاه؟)

فابتسموا لابتسامته، ولكن دموعهم كانت تساقط على لحاهم وأيديهم التي خضبها دمه الزكي، فنظر اليهم يبكون وقال يزجرهم:
(بل الحمد الله الذي لم يجعل منيتي بيد مسلم)
أما الجاني فهو أبو لؤلؤة فيروز غلام المغيرة بن شعبة، وأصله فارسي من نهاوند، وقد كتب الينا مندوبنا القضائي يقول:
منذ بضعة أيام جاء فيروز هذا إلى أمير المؤمنين يشكو إليه أن مولاه المغيرة بن شعبة يشتط في الخراج الذي ضربه عليه ويرهقه بما يتقاضاه منه، وسأله التخفيف عنه.
فسأله جلالته: (كم خراجك؟)
فقال: (درهمان في كل يوم)
فسأله: (أو كثير هذا عليك؟)
قال: (نعم، وحقك)
قال جلالته: (دع هذا، وقل ما صناعتك؟)
قال الغلام: (نحاس ونقاش وحداد)
فقال جلالته: (ثلاث صناعات في يديك، وتشكو رقة الحال وتستكثر درهمين؟ كلا ليس خراجك بكثير على ما تصنع من الأعمال) وأعرض عنه.
وقد يؤخذ من هذا أن فيروز حقدها على جلالته، وأسرها في نفسه، وأضمر أن ينتقم، ولكنا لا نعرف أن الناس يقتل بعضهم بعضاً من أجل درهمين، فكيف باغتيال خليفة؟ ثم إن تحرياتي تدل على أن الأمر كان مبيتاً بليل، فقد حدثني عبد الرحمن ابن أبي بكر - وهو ثقة - أنه رأى عشية أمس الهرمزان الفارسي وجفينة النصراني وأبا لؤلؤة هذا، وهم يتناجون، فلما رأوه اضطربوا، وسقط من أحدهم خنجر له شعبتان، يقول ابن أبي بكر أنه هو نفس الخنجر الذي ضرب به أبو لؤلؤة أمير المؤمنين. فبماذا كانوا يتناجون في غلس الليل، وهذا فارسي أعجمي، وذاك نصراني عربي وثالثهم مملوك للمغيرة؟ وماذا جمع العربي النصراني، والفارس المجوسي وإن تظاهر بالإسلام؟
ومعروف أن الهرمزان هذا كان من قواد الفرس الذين هزمهم سعد بن أبي وقاص، وقد أظهر الإسلام لينجو بجلده، وخان المسلمين مراراً ثم زعم أنه تاب، ومثله خليق أن يبطن العداوة للعرب وألا يغفر لهم أنهم مزقوا عرش الأكاسرة وغلبوهم على بلادهم مجوسيتهم، وسووا بين الناس فلا سيد ولا مسود، ولا شريف ولا وضيع.
أما جفينة فأمره مشهور، وهو نصراني من نجران، أتى به سعد بن أبي وقاص ليعلم الناس الكتابة - فيا سوء ما أتى به سعد من هذا! وقد كان أمير المؤمنين خاف انتقاص النصارى في نجران عليه، وهو في حرب الفرس والروم، فأجلاهم عن جزيرة العرب ثم عوضهم وأوسع لهم من الأرض في الشام والعراق، وأعطاهم خيراً مما تركوا، ثم هزم المسلمون جيوش هرقل وهو حامي النصرانية، فجفينة لا ريب مضطغن لذلك؟
وقد وجد في الهرمزان حليفاً ونصيراً، وفي فيروز وهو فارسي كالهرمزان، أداة لارتكاب الجريمة المدبرة.
وهذا هو الذي عليه الرأي العالم، ولو ترك الناس لرأيهم وخلى بينهم وبين ما يريدون لفتكوا بالفرس والنصارى وشربوا دماءهم، فان النفوس فائرة، والصدور مضطرمة، ولكنهم يكبحون أنفسهم ويحملون عليها ويردونها على مكروهها احتراماً لأمير المؤمنين وانتظاراً لما يفعل، شفاه الله وعافاه.
بل هذا هو رأي أمير المؤمنين نفسه، فقد اجتمع إلى جلالته في داره بعد أن حمل إليها، المهاجرون والأنصار، فقال لابن عباس وكان معه:
(أخرج إليهم فاسألهم أعن ملأ منهم ومشورة كان هذا الذي أصابني؟)
فعاد إليه ابن عباس يقول إن القوم يقولون (لا والله، ولوددنا أن زاد الله في عمرك من أعمارنا).
فقال جلالته: (إذن أبرق إلى العراق وفارس وأنبئ العمال بما كان، وحذرهم أن ينتقض الناس على غرة منهم، فما يدريني ويدريك، لعله تدبير من هناك.)
وقد أرسلت البرقيات اللاسلكية إلى عمال الأمصار بالاستعداد لكل طارئ فلا خوف من هذه الناحية فان قوتنا كافية لقمع ما عسى أن ينجم من الفتن.)
وعند مثول هذا الملحق للطبع أبلغنا مندوبنا ما يأتي تليفونياً:
عرفتم أن المجرم أبا لؤلؤة عليه لعنة الله وملائكته، أصاب ثلاثة عشر من المصلين

بخنجره، كانوا يحاولون القبض عليه وانتزع الخنجر منه، فالآن أقول إن سبعة منهم كانت جراحهم خطيرة، فتوفوا من النزف، وسيجهزون للدفن وتشيع جنازتهم بعد صلاة العصر باحتفال كبير يمشي فيه المهاجرون والأنصار والبدريون، وقد أمر جلالة الخليفة بأن ينوب عنه في تشييع الجنازة، صهيب.

أما الستة الآخرون فجراحهم خفيفة، وقد بعث إليهم جلالة الخليفة بابنه عبد الله بن عمر ليعودوهم ويستفسر عن حالهم، فشكروا له هذا العطف السامي ودعوا الله أن يعجل بشفائه

هذا وقد فحص الطبيب الشرعي الخنجر فتبين أنه مسموم فلا حول ولا قوة إلا بالله وأذيعت نشرة طبية موجزة جاء فيها أن الإصابات ست في الكتف والخاصرة والظهر، وإن النزف منها شديد، وقد سقى جلالته لبناً فخرج من إحدى الطعنات أبيض كما هو، فنصح الطبيب لجلالته بأن يعهد، تولانا الله برحمته.

صدر العدد التالي من (يثرب) مجللاً بالسواد، وفيه نعت أمير المؤمنين إلى العالم الإسلامي، ورثته رثاء طويلاً، ولخصت سيرته في الجاهلية والإسلام، ولا نحتاج أن ننقل من هذا شيئاً فإنه معروف، ووصفت تجهيزه للدفن، وتشييع جنازته والصلاة عليه بالمسجد، وحمله على سرير رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودفنه معه إلى جانب أبي بكر الصديق، وسردت أسماء المشيعين من الأنصار والمهاجرين وغيرهم، وروت فيما روت أن علياً وعثمان تقدما للصلاة عليه فردهما ابنه عبد الرحمن وقال منكراً عليهما ذلك: (لا إله إلا الله! ما أحرصكما على الإمرة! أما علمتما أن أمير المؤمنين قال ليصل بالناس صهيب؟) وأثبتت تصريحاته قبل موته، لابن عباس، ووصيته لمن يخلفه، وقالت إنه دفع بها إلى ابنه عبد الله وقال له: (إذا اجتمع الناس على رجل - أي أمير المؤمنين - فادفع إليه هذا الكتاب وأقرئه مني السلام). وما أمر به في اختيار خليفته، وما أوصى به أبا طلحة الانصاري والمقداد بن الأسود، وكل هذا مشهور فلا داعي لنقله.

ولكن حادثاً وقع بعد ذلك، تعد (يثرب) مسئولة عنه، فقد ذهب إلى أن قتل عمر كان عن تآمر من جفينة النصراني والهرمزان الفارسي، وأنهما هما اللذان أغريا أبا لؤلؤة بقتله، وروت ما شهد به عبد الرحمن بن أبي بكر وغيره في ذلك، وأيدت ذلك بالدليل العقلي، فهاج عبد الله بن عمر، ومضى إلى ابنة أبي لؤلؤة فقتلها، ثم إلى جفينة والهرمزان فألحقهما بها، انتقاماً لأبيه؛ ولم يكن الذين وكل إليهم التشاور في أمر الخلافة قد فرغوا، فبعث صهيب عمرو بن العاص إلى عبد الله، وكان عمرو داهية، فلم يزل يحاوره ويداوره ويمسح منه في الذروة والغارب حتى سكنت نفسه، فأخذ منه سيفه، ثم جاء سعد بن أبي وقاص فقبض عليه وحبسه في داره.

ولما تولى عثمان بن عفان الخلافة، استشار أصحابه في أمر عبد الله بن عمر، فأشار بعضهم بقتله فيمن قتل، ولكن آخرين استنكروا أن يقتل الأب أمس ويقتل الابن اليوم، ووجد عمرو بن العاص مخرجاً من هذه الورطة، فقال لعثمان:

(يا أمير المؤمنين، إن الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث كان، ولك على المسلمين سلطان، إنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك).

أي قبل أن تكون خليفة، فمال عثمان إلى الرأفة، ورفض رأي علي بن أبي طالب، وكان يذهب إلى قتل عبد الله بن عمر، وقال عثمان: (أنا وليهم، وقد جعلتها دية واحتملتها في مالي).

وقد أثنت يثرب على مشورة ابن العاص، ومروءة عثمان بن عفان، وقالت إن هذا درس عسى أن ينفع العجم والنصارى فيصرفهم عن التآمر مرة أخرى ولكن فريقاً من الأنصار كتبوا إليها يفندون رأيها، ويقولون إن الواجب كان أن يقتل ابن عمر؛ فكان هذا أول خلاف في عهد عثمان.

ولم ننقل هذا إلا لأن الفريق الذي طالب بقتل ابن عمر كذب ما روته (يثرب) في ملحقها من أن أبا لؤلؤة قاتل عمر انتحر لما كثر عليه الناس وأيقن من الهلاك، وأكد أنه لم ينتحر، وإنما ثار رجل من المصلين فقتله وأخذ منه الخنجر.

وكذب أيضاً أن الخنجر كان مسموماً، ولم يحفل ما قاله الطبيب الشرعي في ذلك، وقال إن ستة ممن طعنهم أبو لؤلؤة بخنجره هذا شفوا ونجوا، ولو كان الخنجر

مسموماً لماتوا، وإنما مات من مات لإصابته في مقتل، أو من شدة النزف.
وطال الجوار والأخذ والرد بين (يثرب) ومخالفيها في الرأي حتى لأنكروا عليها أن الحدث كان عن تآمر، واستهجنوا منها أن تحض على اضطهاد العجم والنصارى، وقالوا إن هذا التحريض من سوء الرأي، وإنه خليق أن يفسد أمور الدولة ويخلق لها متاعب هي في غنى عنها في عهد التأسيس، وأنه توجد عصبيات لا يؤمن شرها في المستقبل، وتفاقم الخلاف بين الفريقين حتى لدعا علي كرم الله وجهه، الخليفة إلى إغلاق يثرب، أو على الأقل تعطيلها حتى تقر الفورة وتهدأ النفوس، ولكن الخليفة شق عليه أن يصيب حرية الرأي في عهده أي سوء، فاكتفى بالنصح لجريدة (يثرب) ألا تسرف في دعايتها، وأن تتقي اللجاجة وما قد تجر إليه من الفتنة.
وقد آثرنا التخليص، لأن النقل يطول، والقارئ أدرى بالصحف وكيف تبدئ وتعيد حتى تعكر الجو وتضجر وتغشى. وقد بلغ من تفرق الرأي في ذلك الوقت أن الناس كانوا يجلسون في المسجد حلقات وفي أيديهم أعداد (يثرب)، فهذا يؤيد، وذاك يعارض ويكذب، حتى خيفت الفتنة وحسبنا هذا القدر.

إبراهيم عبد القادر المازني

الفلسفة الإسلامية ودراستها

للدكتور إبراهيم بيومي مدكور

قد يكون من عبث القول أن نحاول اليوم إثبات وجود فلسفة إسلامية انفردت بما لها من خصائص ومميزات؛ فقد انقضى الزمن الذي ادعي فيه (رينان) ومن نحا نحوه أن فلاسفة الإسلام اكتفوا بترديد نظريات (أرسطو) دون أن يغيروا فيها شيئاً. هناك فلسفة إسلامية، كما أن هناك فلسفة مسيحية، أو بعبارة أخرى تقابل المدرسة الفلسفية العربية في الشرق، المدرسة اللاتينية في الغرب. ومن هاتين الفلسفتين مضافاً إليهما الدراسات اليهودية يتكون تاريخ البحث النظري في القرون الوسطى. للإسلام فلسفة قد امتازت بموضوعاتها وأبحاثها، بمسائلها ومعضلاتها، وبما قدمت لهذه وتلك من حلول وأجوبة. فهي تعني بمشكلة الوجود والتعدد , والصلة بين الله ومخلوقاته التي كانت مثار جدل طويل بين علماء التوحيد المسلمين. وتحاول أن توفق بين الوحي والعقل، بين العقيدة والحكمة، بين الدين والفلسفة، وأن تبين للناس أن الوحي لا يناقض العقل في شيء، وأن العقيدة إذا استنارت بضوء الحكمة تمكنت من النفس وثبتت أمام الخصوم، وأن الدين إذا تآخي مع الفلسفة أصبح فلسفياً، كما تصبح الفلسفة دينية. وقد وصل الفلاسفة المسلمون في كل هذه النقط إلى نتائج جديرة بالتقدير والإعجاب.
لا يستطيع باحث أن ينكر أن هؤلاء الفلاسفة قد أخذوا عن (أرسطو) معظم آرائه، وتأثروا بأفلاطن + 270) إلى حد كبير. ومن ذا الذي لم يتتلمذ على من سبقه، ولم يقتف أثر من تقدموه؟. . . وها نحن أبناء القرن العشرين لا تزال عالة في كثير من المسائل على أبحاث الأغريق والرومان. غير أن الفلسفة الإسلامية، وإن بنيت على أفكار السابقين، تشتمل على نظريات جديدة؛ فهي فلسفة أنتجتها البيئة والوسط، وأملتها الظروف المحيطة بها؛ وتلك سنة من سنن التاريخ، وأصل من أصول الاجتماع. على أنا إذا نظرنا إلى المسألة من وجهة الفرد، وجدنا القانون لا يتغير، ولاحظنا أن الفكرة الواحدة إذا تناولها بالبحث أشخاص متعددون، ظهرت في مظاهر متباينة. لفيلسوف أن يقترض من آخر بعض آرائه، ولن يمنعه ذلك من أن يأتي بنظريات خاصة وفلسفة متميزة. (فاسبينوزا + 1677) مثلاً، رغم متابعته الواضحة (لديكارت + 1950)، يعد بحق صاحب مذهب فلسفي مستقل.
وكذلك (الفارابي + 950) و (ابن سينا + 1037) و (ابن رشد + 1192)، الذين كانوا تلامذة مخلصين (لأرسطو)، قد اعتنقوا آراء تمتاز كثيراً عما جاء به أستاذهم. وإذاً استطاع العالم الإسلامي أن يكون لنفسه فلسفة تلتئم وظروفه الدينية والاجتماعية.
بيد أن الفلسفة الإسلامية، في تاريخها، في نظرياتها، في رجالها، لم تدرس الدرس اللائق بها، ولا تزال الحلقة المفقودة في تاريخ الفكر الإنساني، فحتى الساعة لم يبين الباحثون بدقة أصل نشأتها، وتاريخ تكوينها، والعوامل التي أدت إلى نهوضها، ولا الأسباب التي انتهت بانحطاطها والقضاء عليها، ولم يناقشوا نظرياتها واحدة واحدة ليوضحوا ما اشتملت عليه من أفكار الأقدمين، وما أنتجت من ثروة جديدة. وأما رجالها

فغرباء في أوطانهم، مجهولون لدى أقرب الناس إليهم؛ ولا أدل على ذلك من أن كثيرين منا يعرفون عن (روسو + 1778) أو (سبنسر + 1903) ما لا يعرفون عن (الكندي + 870) أو (الرازي + 932)، ولو لم يقيض الله لفلاسفة الإسلام جماعة من المستشرقين وقفوا عليهم جزءاً من أبحاثهم ودراساتهم، لأصبحنا ونحن لا نعلم من أمر الفلسفة الإسلامية شيئاً.

إلا أن هذه الدراسات وتلك الأبحاث قليلة ومعيبة من وجهين: أولاً إهمالها للجانب الفلسفي واشتمالها على كثير من الأخطاء اللغوية والفنية والتاريخية. ولعل سر ذلك أن أغلب من كتبوا في تاريخ الفلسفة الإسلامية لا يجدون العربية، ولا يحيطون تمام الإحاطة بتاريخ الثقافة الإسلامية؛ أو إن عرفوا ذلك فهم يجهلون تاريخ الفلسفة العامة، ولم يتوفر لديهم التفكير الفلسفي المنتظم؛ ولسنا في حاجة إلى سرد أمثلة، فإن هذا الحكم ينطبق، إذا استثنينا طائفة محدودة، على عامة الكتب المتصلة بتاريخ الفلسفة والفلاسفة المسلمين. وأما العيب الثاني فميل شديد إلى الاختصار يكاد يخل بالغرض المطلوب، ويحول دون القارئ والنفوذ إلى صميم ما يقرؤه. ومن أوضح الأمثلة على ذلك مختصر قيم حقيقة للعالم الهولاندي (دي بور)؛ غير أن عيبه الهام يرجع بالتحديد إلى اختصاره المبالغ فيه؛ وفوق هذا فان هذه الكتب في جملتها قديمة العهد، قد ألفت في زمن ما كان يعرف فيه عن التاريخ الإسلامي إلا الشيء القليل. أما اليوم وقد تقدمت معلوماتنا تقدماً محسوساً في هذه الدائرة، فنحن في حاجة ماسة إلى أبحاث تتناسب مع مصادرنا الجديدة، ومع ما استكشفنا من مخطوطات ومؤلفات للفلاسفة والعلماء المسلمين.

لا يقاس انتشار صوت مفكر أو مخترع بمقدار ما أحدث من آراء ومخترعات فقط، بل بدرجة نبوغ الوسط الذي يعيش فيه والشعب الذي ينتمي إليه. فالأمم النبيلة تزيد أبناءها عظمة على عظمتهم، وتعمل على رفعتهم بقدر قد لا يصلون إليه وحدهم. ورب نظرة عادية لاقت مشجعين فنموها، وأخذوا بيدها حتى صعدت إلى عنان السماء؛ ورب فكرة ممتازة صادفت منبت سوء فماتت لساعتها. عرفت ذلك الشعوب الناهضة، فأشادت بذكر علمائها وفلاسفتها، وخدمت في الوقت نفسه العلم والثقافة الإنسانية. فهي تخلد ذكرى رجالها بمختلف الوسائل، وتعمل على نشر آثارهم ما وجدت إلى ذلك سبيلاً. فمن تماثيل مقامة في المدن والقرى، ومن جمعيات نشر وترجمة وتأليف قد أخذت على عاتقها إذاعة ما أنتج السلف من أفكار. فهل آن لنا أن نحتذي بهذه المثل الصالحة، وأن نعرف لتاريخنا حقه كي نعرف وننال منزلتنا تحت الشمس؟ متى يكتب عن (الفارابي) بقدر ما كتبوا عن (موسى بن ميمون + 1204)؟ ومتى تعرف مؤلفات (ابن سينا) كما عرفت كتب (سان توما + 1274)؟ ومتى يدرس (الغزالي + 1111) بقدر ما درس (ديكارت)؟

إن دعوتنا هذه موجهة إلى كل بلاد الشرق، وبوجه خاص إلى مصر التي تستطيع بحكم مركزها الاقتصادي والاجتماعي والعلمي أن تخدم البحث والتأليف. فإلى أبناء مصر عامة، أفراداً خاصة، نتقدم بكلمتنا هذه آملين أن يعبروا تاريخ الفلسفة والبحث العقلي في الإسلام جانباً كبيراً من الأهمية. إن ميدان العمل فسيح، وإن سبله عديدة، ولسنا الآن بصدد أن نرسم خطة شاملة، أو أن نبين منهجاً مكتمل المواد، وإنما نريد أن يتولى الشرقيون بالدرس فلاسفة الإسلام على النحو الذي درس به الغربيون رجالهم. لنترجم لمفكرينا ترجمة مستفيضة، ولنصف وصفاً دقيقاً نواحي حياتهم المتعددة؛ لنبحث عن أصول نظرياتهم لدى حكماء الإغريق والهند والعراق، ولنقارن هذه النظريات بما جاء به اللاتينيون في القرون الوسطى، ولنبين وجوه النسبة بينهما وبين الأفكار الحديثة. إنا لا ننكر أن هذه الأبحاث مملوءة بالمصاعب، إذ تستلزم معرفة عدة لغات: قديمة وحديثة، شرقية وغربية، وتستدعي الاطلاع على مصادر لا حصر لها، ولكن إن لم يكن في هذه الدراسة إلا أنها عمل جديد من نوعه لكفي مرغباً في مزاولتها والإقبال عليها. وأخيراً لنعمل على طبع ونشر مؤلفات الفلاسفة المسلمين، فإنّا لا نستطيع أن نفهمهم فهماً حقاً دون أن نقرأهم بلغتهم وفي كتبهم؛ وهنا نتجه بصفة خاصة إلى الجامعة المصرية التي سلكت في هذا الباب مسلكاً تحمد عليه، فقد بدأت منذ زمن، متبعة سنة الجامعات الأوربية، في أحياء المخلفات العربية، وجمع المخطوطات الإسلامية وطبعها.

وعلها تخطو في هذه السبيل خطوات أخرى حثيثة ومتتابعة. إنه لمحزن أن يبقى قدر من مؤلفات (الفارابي) مخطوطاً حتى اليوم، وموزعاً بين مكاتب أوربا المختلفة: ليدن، باريس، والاسكريال. على أن ما طبع من كتب هذا الفيلسوف العظيم مملوء بالأخطاء.

فهل لنا أن نسعى إلى جمع مؤلفاته في شكل وطبعها كلها طبعاً مناسباً، مصحوباً بوسائل التحقيق والإيضاح الضروري. الفكرة تخامرنا منذ زمن؛ وقد أشرنا إليها في كتابنا على (الفارابي)، ونحن نرحب بكل من ينضم إلينا في تنفيذها. وليس (ابن سينا) بأعظم حظاً من سلفه وأستاذه؛ فان كتابه الأكبر في الفلسفة: (الشفا)، قد طبع طبعة مشوهة في طهران منذ خمسين سنة. وقد أهمل الناشر الجزء الأول منه، الخاص بالمنطق، والذي اهتدينا إليه أخيراً في مخطوطة بالبرتش ميوزيم وأخرى بالأنديا أوفس وإنا لنأمل أن نوفق يوماً لنشر هذه المخطوطة وضمها إلى الجزأين الآخرين في طبعة جديدة مستقيمة.

تلك سلسلة من الأعمال تبين نواحي النقص في دراسة الفلسفة الإسلامية، وهناك ملاحظات كثيرة متعلقة بكبار فلاسفة الإسلام الذين لم نشر إليهم قد أرجأناها إلى فرصة أخرى.

وكلنا رجاء أن تتضافر الأيدي على حرث وزرع هذا الحقل المترامي الأطراف، وأن نتعهده متكاتفين حتى يؤتى أثماره الطيبة.

إبراهيم بيومي مدكور
دكتور في الآداب والفلسفة

بلالٌ يؤذن

للدكتور عبد الوهاب عزام

كاد الليل ينسلخ عن النهار، وبشرت بالصبح أنفاس الأسحار، والدجى مهود وسنان، سيفزعه عما قليل ذنب السرحان والناس هاجدون وكأنهم أيقاظ ينتظرون صلاة الصبح؛ وكأن آذانهم مصيخة تلقاء المسجد. تتحين دعاء المؤذن، وكأن قلوبهم إبر المغناطيس ترصد قطبها، وتتجه إلى إمامها، والأمام هاجد يرعاه ربه، تنام عيناه ولا ينام قلبه. وملء الأرض والسماء السكينة والسلام.

وسرى في أحشاء الليل كطيف الخيال، اتخذ من الليل جلباباً، وطوى من الصبح قلباً وجاباً، (آدم شديد الأدمة، نحيف طوال أجنأ، له شعر كثير، خفيف العارضين، به شمط كثير) تحمل جمته الشمطاء، تباشير الصباح الوضاء.

ويرتقي جدار المجلس، فيجلس مقلباً وجهه في السماء، ثم ينتفض قائماً، فيضع سبابتيه في أذنيه، فيبعث في حواشي الظلماء، صوتاً يجلجل في الأرجاء: الله أكبر الله أكبر - الله أكبر الله أكبر! أترى فلول الظلام مذءودة تلوذ بالباطل المنهزم، أم ترى الباطل مذعوراً يلتف في تلك الظلم؟ ذلك النور المنبثق من الأفق الشرقي بسمة الفجر الصادق لهذا الصوت الإلهي، بل ذلك النور الوضاء، استجابة النهار لهذا النداء. فما الفجر إلا صوت نوراني، يتلألأ بنغمات ذلك النور الصوتي؛ ليت شعري أيهما الصباح، وأيهما أذان بلال بن رباح؟ ويمضي بلال يصدع قلب الظلام، بشهادتي الإسلام: أشهد أن لا أله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله. ثم يحيل بالصلاة والفلاح، ثم يعيد التكبير في تمديد، فيختم بكلمة التوحيد: لا إله إلا الله!

ويحسب بلال أن صوته لم ينفذ إلى القلوب، فلم تتجاف عن مضاجعها الجنوب، فيثوب بالقوم: الصلاة خير من النوم.

يتهلل وجه الرسول (صلى الله عليه وسلم) لصوت الحق مدوياً في أعقاب الباطل، ويبتسم لصوت الحق عالياً طليقاً يملأ ما بين الأرض والسماء، والمشرق والمغرب. يبسم حين يسمع دعوة الحق في قلب الجزيرة العربية على لسان عبد حبشي. وهل في شرعة الإسلام عبد وحر؟ وهل في سنة محمد عربي وحبشي؟

وتنبعث في كل أذن من هذا الصوت نغمة، وفي كل قلب من هذا النور إشراق. فيهب الأصحاب من مراقدهم، تقشعر جلودهم، وتطمئن قلوبهم. فتستيقظ كل دار بأهبة الصلاة من الرجال والنساء والولدان والولائد.

وينزل بلال فيقف بباب الحجرة النبوية قائلاً: (حي على الصلاة، حي على الفلاح. الصلاة يا رسول الله).

ويسفر النهار وتنثال الجموع إلى المسجد فانظر من ترى:

يخرج نفر إلى المسجد من خوخات في دورهم، فهذا الآدم الربعة عظيم العينين ذو البطن سيف الله الغالب علي بن أبي طالب، يخرج من حجرة فاطمة. وهذا الآدم الطويل الجسيم الأصلع عمر الفاورق، وهذا الأسمر الرقيق البشرة ضخم المنكبين كثير شعر الرأس عظيم اللحية عثمان ذو النورين، والصديق كان في السُّحْ هذه الليلة فيقدم مسرعاً فتراه أبيض نحيفاً معروق الوجه غائر العينين خفيف العارضين أجنأ.
ويقبل من دور بني زهرة بجانب المسجد ثلاثة: أحدهم قصير دحداح ذو هامة عظيمة، شثن الأصابع، كثير الشعر يخضب بالسواد، هو سعد بن مالك بن أبي وقاص، والثاني آدم نحيف قصير له شعر يبلغ ترقوته، يلبس ثوباً ناصع البياض، تضوع منه ريح الطيب، يمشي في وقار وسمت، هو عبد الله بن مسعود، والثالث ضخم طويل الجسيم خالد بن الوليد، وهذا القصير الأبلج الأدعج عمرو بن العاص، وفي أثرها رجل جميل عظيم الهامة مكتحل يخطر في مشيته هو معاوية بن أبي سفيان، وبجانبه رجل نحيف طوال معروق الوجه خفيف اللحية اجنأ أثرم الثنيتين هو أبو عبيدة ابن الجراح. ويقبل من ناحية الحرة الشرقية رجلان: سعد بن معاذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة سيد الخزرج؛ ويأتي رجل طويل نحيف كثير الشعر عليه سيما الحزن هو سليمان الفارسي، ووراءه رجل ربعة أحمر شديد الحمرة كثير شعر الرأس، يخضب بالحناء هو صهيب الرومي؛ وانظر بين الجمع طلحة والزبير وأبا موسى الأشعري وأبا أيوب الأنصاري. ويأتي بنو الصحابة، فهذا الغلام الطويل الأحمر عبد الله بن عمر، وهذا الغلام الطويل الأبيض المشرب بالصفرة الجسيم الوسيم الصبيح الوجه عبد الله ابن العباس، وهذا الصبي الذي يشبه أبا بكر عبد الله بن الزبير.
ويخرج رسول الله صلوات الله عليه، فيقيم بلال الصلاة: الله أكبر الله أكبر الخ، فيسوي
الرسول الصفوف، ويسد الفرج فيها ويكبر فيكبرون. ويذهب هذا التكبير نغمة متسقة بين ضوضاء العالم وجلبته في الأرجاء طمأنينة لقلوب، ورعدة لقلوب، ورجاء لقوم، وخوفاً لآخرين، يبشر الضعفاء والمظلومين بملكوت الله في الأرض، وينذر الجبارين والظالمين بالقصاص العادل. إنما مزق شمل الظالمين هذه الصفوف لا صفوف القتال، وإنما زلزل عروش الجبارين ذلك التكبير لا وقع النبال.
ويقرأ الرسول في الركعة الأولى آيات من سورة النور منها: (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئاً. ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون).
ويقرأ في الركعة الثانية آيات من سورة الحج منها:
(إن الله يدافع عن الذين آمنوا، إن الله لا يحب كل خوان كفور. أذن للذين يقاتلون بأنهم ظُلموا، وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربُّنا الله، ولولا دفع الله الناسَ بعضَهم ببعض لهدّمت صوامعُ وبيعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يذكر فيها اسمُ الله كثيراً. ولينصرنّ الله من ينصره إن الله لقوّي عزيز. الذين إن مكنّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوُا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور).
هذه جماعة يمحصها الله ليورثها أرضه، ويعلمها لتقوم بين الناس بعدله. وهذا الصف من العُبّاد يجمع خلفاء الأرض وأمراءها وولاتها وقضاتها ومعلميها وقوادها وجندها، وتلك الشرذمة من الزهاد هم ورثة العروش والتيجان عما قليل، الذين يقسم الله رزقه بأيديهم، ويصرف حكمه في الأرض بألسنتهم. جماعة تضمهم جُدُر المسجد اليوم ولا يسعهم العالم غداً، جماعة في أرض فقيرة بين لابتين، سينشرون بين المشرقين والمغربين، وستجفُ الأرض بحملاتهم، وتقر بعدلهم، وتضيء بإيمانهم قضيت الصلاة وانتشر المصلون.
لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده. قد فتحت بهذه الجماعة الأقطار، وعمرت بهم الأمصار، هذا عمر في الشام قد أزال عنها سلطان الروم، ثم جاءها ليبرم العهود، ويتفقد الرعية؛ وهذا بلال في جيش المجاهدين غازياً؛ ينظر عمر إلى بلال يود أن يسمع آذانه، ويهاب أن يستمع لمؤذن رسول الله. ويقول الناس لعمر: لو أمرت

بلالاً أن يؤذن! ويقترح عمر على بلال الآذان. فينهض الشيخ ابن السبعين تحت أعباء السنين، فيدوّي في الأرجاء: الله أكبر، الله أكبر. . .
لقد كان آذان الشام تصديق آذان المدينة. . . أجل أجل لقد صدق الله وعده!!
ولكن انظر إلى عمر، ألا تراه ينشج؟ ألا ترى دموعه تبلّ لحيته؟ ألا ترى القوم في بكاء ونحيب؟ ما دهاهم؟ ما أبكاهم؟ لقد نصرهم الله ومكن لهم في الأرض، وأغناهم وأعزهم. فما دهاهم وما أبكاهم؟ يبكون إذ رأوا المؤذن ولم يروا الإمام! يبكون إذ سمعوا مؤذن رسول الله، ثم نظروا فلم يجدوا رسول الله!

عبد الوهاب عزام

ألحان الفجر

بقلم أمجد الطرابلسي

(ترفع إلى مجد الهجرة وفجر الإسلام)

في هَدْأَةِ الكونِ وَصَمتِ الورى ... قامَ يُوالي في الظلام اللُّحونْ
يدعو لشكرِ اللهِ صَرعى الكرى ... والناسُ في أحلامِهم مُغرِقون
يا مُنشداً في السَّحَرِ الرائقِ ... رَدَّد عليَّ النَّغماتِ العِذابْ
لعلّها تَفْثأُ عن خافِقي ... بَرْحَ العوادي وَمُمِضَّ العذاب
مؤذّنَ الفجرِ عداك الأذى ... أصّمنا عنكَ غرورُ الحياهْ
أسمَعْتَ لو يَسمعُ أهلُ البِلى ... فكَفْكِفِ الدَّمعَ وناجِ الإله
سبَّ فإن الكونَ تحتَ الحَلَكْ ... سبَّحَ للهِ وأبدَى الخشوعْ
وابعَثْ أغاريدَكَ تشْجي الفَلَكْ ... وإن أثارَت في شؤوني الدموع
وارَحمتاً للناسِ وارحَمتاَهْ ... من عَبَثِ الدنيا ومن شرِّها
ضلوا مع اليقَظَةِ كُنْهَ الحياة ... فساَءلوا الأحلاَمَ عن سرِّها
تعدو على الفجرِ عوادِي الدُّجونْ ... والفجرُ من بعدِ الدُّجى يسطَعُ
والناسُ في ليْلِ المنى مُدْلِجُون ... يَرجونَ فجراً وهو لا يَطلُع
هل نحنُ في الدنيا سِوى قافِلة ... تَعبُرُ في الليلِ صَحارَى الحياهْ
تمضي كهذي الأنجم الآفِلةْ ... من قبلِ أن يبَلغَ فردُ مناه
تَخُطّ في الرَّملِ رسومَ الخطى ... وتملأ الجوَّ بزَجْعِ الحُداءْ
فتَطمِسُ الرِّيحُ خُطوطَ السُّرى ... ويُطفيُّ الضَّجَّةَ رَحْبُ الفضَاءْ
يا فجرُ إني قد أطَلتُ النَظَرْ ... في الكوكبِ المضطربِ الساهمِ
وقلتُ عَلّي اسْتَشِفُّ القَدَرْ ... وراَء هذا الأُفقِ الحالمِ
حَدَّقتُ! لكن ما عسى أن أرى ... والبصرُ الظامئُ في الأفْقِ تاهْ
كونٌ هَنيءٌ في خِضَمَّ الكَرَى ... يَحلُم مَغموراً بَعطْفِ الإلهْ
لا هُمَّ أغراني وهاجَ الخيالْ ... تثاؤُبُ الأكوانِ بعدَ الرُّقادْ
ربّاه، ربّاه، أفضتَ الجمالْ ... حتى ازدَهى الحيُّ ورَفَّ الجمادْ
في كلَّ ما نُبْصِرُه نَفْحَةٌ ... من حُسنِكَ الضافي ومن لُطفِكا
ربَّ وفي كلَّ صدَى نَغْمةٌ ... تَشْدو بآلائِكَ أو عطْفِكا
ربَّ تجلَّيتَ لأرْوَاحِناَ ... في ثَبَجِ الدَوَّ وشُمَّ الجبالْ
وفي مآسينا وأفراحِنا ... وبَسْمَةِ الفجْرِ وَصَمتِ اللّياليْ
وفي اصطِخَابِ المَوجِ إذ يَصْطَخِب ... وفي سكونِ اليَّم إذ يسكُنُ
وفي هزيمِ الرّعد إما غضِبْ ... وفي نُوَاحِ الطيرِ إذْ تَحْزَنُ
والقرْيةِ الهادئةِ الحالِمَهْ ... والرَوْضةِ الفَوّاحةِ الناضِرَهْ
والليلةِ المقمِرَةِ الباسِمهْ ... والأنجُمِ البرَّاقةِ الحائرَه
لا هُمَّ إن السكوْنَ ذا مَعْبَدُكْ ... أرْنُو فلا أُبصرُ فيه سِواكْ
وكلُّه ألْسِنَةٌ تَحْمَدُكْ ... تَشدو بما يَعْمُرُها من نَداكْ
وارَحمنا رَبَّ لمن لا يراكْ ... هَل يَعرِفُ السلوَى تُرَى قلبُه؟
ما حالُه إن طوَّقَتْه الشَّرَاك ... وآدَهُ من دَهرِهِ خَطبُه؟
يا زَوْرَقَ الأكوانِ فِضْ بالمُنى ... واجرِ رُخاءً في خِضَمَّ الأبد
واعزِفْ بِمِجْدَافِكَ لحنَ الهنَا ... بين رُؤَى الأمسِ وآمالِ غَدْ
سِرْ آمِناً في لُجَّهِ حالَما ... فإن رُبَّانَكَ جَمُّ الحَنانْ
قد وسِعت رَحمتُ العالَما ... مُذ أبدعَ الكَوْن وأجرى الزمان

يا رَوْعةَ الفجرِ أطَلتِ السكون ... تحتَ الدياجي وأطَلتِ الوُجومْ
فزَحْزحي عن منْكَبَيْكِ الدّجونْ ... فقد نَزَتْ فيَّ خَوابِي الهموم
غَشَّت على عينيَّ سُحْب الضَّجَرْ ... حتى كأني أبداً في ظلَمْ
مِنْ أين تأتينَيَ سُحْب الضَّجرْ ... حتى كأني أبداً في ظِلَمْ
مِنْ أين تأتينيَ سُودُ الفِكرْ؟ ... من أينَ يَنْصَبُّ عليَّ الألم؟
ما حيلتي والقلب مُستعبِرُ ... جمُّ الأسى حَفَّ بهِ غَيْهب
أرجو له البِشْرَ فلا يَحْبَرُ ... وأنشُد السلوى فلا يَطْرَبُ
ربَّاه قد أضنى فؤادي الأسى ... وآن للجاهِدِ أم يستريح
أكلما افترَّتْ زُهور المنى ... طاحت بها في حَوْمةِ اليأس رِيح
ربَّاه كم نُؤْتُ بما أحمِلُ ... وكنت يا ربَّ مَناطَ الرجاءْ
رباه لولا عطفُكَ المُسبَلُ ... ما ساغَ لي طولَ حياتي عزاء
لا همَّ أفعَمتَ الدُّنا بالضياءْ ... وانجابَ عنها ليلُها الأغبَرُ
فاسكُب على قلبيَ نورَ الرَّجاء ... من قبْلِ أن يَطوِيَه المَقبَرُ
(دمشق)
أمجد الطرابلسي
النظرية الموسيقية عند العرب
بقلم حسين سراج
ما هي الحقائق المختصة بنظرية الموسيقى العربية؟
تقول الآنسة إن علم الموسيقى الذي تطور على أيدي العرب تطوراً عظيماً - يعزى اقتباسه من الفرس الذين غلبهم العرب إلى أمر النبي، وإذا أردنا زيادة في التدقيق قلنا إنه أخذ من اليونان.
ولتسمح لي الآنسة أن أقول بصراحة إنه لا مبرر للرأي القائل إن النبي أمر بشيء كهذا. والحقيقة - كما يعرفها المستشرقون - هي أن الغناء في الإسلام كان ولا يزال معدوداً من الملاهي المحرمة، وأن كل فرقة من المذاهب الأربعة قررت حرمة السماع، أو على الأقل جعلته غير لائق ديناً، وقد كتبت مئات من الرسائل في أحاديث النبي عن تحريم الغناء.
لم تنشأ الثقافة العربية ولا الحضارة البدوية مع البدو الرحل أو الإسلام - كما افترضت الآنسة وإنما تجد منذ أوائل العصر الألفي الثاني قبل الميلاد أخباراً من مملكة عرب الجنوب، حيث نتلمس حضارة زاهية تضاهي ثقافة البابليين والآشوريين، وفي الحقيقة أن اليونان مدينون ثقافة للعرب، ويعتقد (همل) وآخرون أن من المرجح أن يكون اليونان قد أخذوا عن عرب الجنوب لا (أبولو (وليتو و (ديونيسوس و (هرمس فحسب، بل (الفاء) و (السين) من حروف الهجاء أيضاً.
وقبل الإسلام بزمان طويل نقرأ في ثنايا الكتب عن الكفاية الموسيقية عند العرب القدماء، ومن الإجحاف أن ندعي أنه لم تكن عندهم نظرية موسيقية إذا واجهنا أو قابلنا بين ما نعرفه من الثقافة العامة عند الكلدان والمعينيين والسبئيين والنبطيين والتدمريين، وبين من جاء بعدهم من اللخميين والغساسنة.
وتتبع الآنسة المدرسة القديمة القائلة - قبل قرن أو أكثر - إن العرب لم تكن عندهم نظرية موسيقية غير ما اقتبسوه من الفرس أو اليونان، وتسترسل في القول أن كلا الشعبين (اليونان والفرس) كانت لهما نظم موسيقية خاصة بهما، ولم يكن عند العرب حتى هذا الوقت نظام يستطيعون أن يجعلوه نظرية. ولدينا عبارة مماثلة لهذا القول في كتابها (رسل أسرة الكمنجة) (ص 397 - 398) إذ تقول: (أفتتح العرب فارس في القرن السادس، ومن
سجلاتهم نقرأ أنهم وجدوا نظام الفرس الموسيقى أرقى بكثير من نظامها، فاقتبسوه ودرسوه درساً عميقاً على أساتذة وطنيين).
أما الحقيقة فهي أن العرب حين افتتحوا فارس في القرن السابع، وكان لهم نظام صيروه نظرية قبيل فتح فارس.
ونجد المغنين العرب من حين إلى آخر يفاخرون بالتقاليد الموسيقية التي تحدرت إليهم من عصور الجاهلية مثل المغنية الجاهلية (رائقة) معلمة (عزة الميلاء). وكان العرب في هذه الحقبة التي ظن فيها حدوث هذه العارية الأجنبية حذرين من أي تعد على ذلك

الشيء المقدس وهو القومية العربية. وهل يتساهل العرب في دخول الطرق والعادات الأجنبية بهذا القدر وكل كلمة من عمر تدعو إلى الجامعة العربية؟

ولئن قلنا إن العرب لم يكن عندهم نظام موسيقى في هذا الوقت (أي وقت فتح فارس) ليبنوا عليه نظرية لا تتفق مع الحقيقة، فلدينا شواهد كثيرة على وجود موسيقى وغناء في عصور الجاهلية، ويكاد يكون مستحيلاً أن نتصور هؤلاء القوم الذين كانت الموسيقى لهم من الحاجات الضرورية، والذين استطاعوا تهذيب أشعارهم كما نراها في المعلقات والحماسة والمفضليات، غير قادرين على تنظيم غنائهم.

ومن حسن الحظ أن حفظ لنا الفارابي مطولات عن نظام جاهلي في سلم الطنبور البغدادي كان يتوصل إليه بتقسيم طور الوتر إلى أربعين قسما؛ ويرجح أن عرب الجزيرة ورثوا هذا السلم عن الكلدان الذين ورثوه عن الآشوريين والبابليين، وحينما حل محله النغم الفيثاغوري في الشرق الأدنى وفارس كما حل بين عرب سوريا والحيرة، عاش هذا الطنبور في أرجاء الحجاز واليمن القاصية ووجد له عشاقاً حتى القرن العاشر بعد الميلاد.

كانت الحيرة في أيام الجاهلية المركز الأعظم للآداب العربية ومنها انتشر الشعر في أنحاء شبه الجزيرة. وبما أننا نعلم الصلة الشديدة بين الشعر والموسيقى فمن الممكن أن نتصور أن الموسيقى نفقت سوقها كالشعر، وفي الحقيقة يجب أن تكون الحيرة على ثقافة موسيقية عالية متى علمنا أن ملك الفرس العظيم بهرام غور (430 - 438م) أرسل إلى بلاط اللخميين العرب في تلك المدينة ليثقف، وهناك تعلم الموسيقى بين الآداب العربية الأخرى. وكان هذا قبل أن يتغلب العرب على الفرس.

ولربما سأل سائل: ما الذي اضطر يزدجرد الأول والفرس إلى إرسال الأمير الصغير إلى شعب ليس له أسلوب خاص فني فيطلعه عليه (كما تقول الآنسة ومن المستغرب أيضا أن فارس وهي النبع المشهور للنظام الموسيقي العربي تفتقر تحت حكم بهرام غور إلى مغنين محترفين يرسلون إليها من الخارج.

ويضع الطبري بين سقطات النعمان الثالث (580 - 602م) آخر ملوك اللخميين ميله للغناء. ومن الحيرة اقتبس العرب حوالي آخر القرن السادس الميلادي ذلك الغناء الذي حل محل (النصب) والعود والمزهر.

أما أن العرب كان لهم نظام موسيقي محلي فيثبت جلياً بحجج عديدة. وأما أن يكون هذا النظام قد تأثر بنظريات الفرس والبيزنطيين وفيما بعد بالأصول اليونانية القديمة فرأي يسهل قبوله؛ كذلك لا ينكر أن الفرس والبيزنطيين تأثروا جميعا بالنظرية الموسيقية العربية (ولو كانت التسمية مرشداً لقلنا إن النظرية الفارسية مبنية بالكلية على الأصول العربية).

كان التأثير الأجنبي على الموسيقى العربية سطحياً ولم يكن له في البدء أثر على النظرية. قرأنا عن المغنين المتقدمين أمثال طويس وسائب خاثر اللذين قلدا أسلوب الفرس في الغناء وفي نفس الوقت وجدنا مغنياً فارسياً كنشيط يدرس أسلوب العرب في الغناء. ليس هنالك تعقيد نظري وجل ما هناك هو اقتباس شعب من آخر شكلاً خاصاً أو أسلوباً غنائياً.

على أن تبعة الظن بوجود صبغة موسيقية أجنبية تلقى على ابن خلدون الذي يقول في مقدمته إن اتصال المغنين من الفرس والروم بالحجاز ولعبهم على العود والطنبور والبربط والمعزف والمزمار قاد العرب إلى اقتباس ألحان الفرس والروم في أشعارهم.

هذا القول لا يتفق مع أقوال المؤرخين الأول كابن عبد ربه والأصفهاني والمسعودي أولاً: لأن هذه الرواية تضلل الناس وتجعلهم يعزون بغير حق الفخر للفرس والبيزنطيين بإدخال هذه الآلات إلى البلاد العربية. وفي الواقع أنها كانت عند العرب من قبل. ثانياً: لم يذكر كتاب الأغاني وهو أعظم مصدر لأخبار الغناء عند العرب مغنياً رومياً واحداً. وإذا استثنينا نشيطاً فمن المرجح أن كل من يدعون بالمغنين الفرس ولدوا بالجزيرة أو تثقفوا فيها

والحقيقة أن المغنين البارزين الذي أتوا من غير الحجاز في هذا الزمن أربعة: نشيط

الفارسي، وأبو كامل الغزيل الدمشقي، وابن الطنبورة اليمني. وحنين الخيري؛ ولهذا نرى
أن أي تأثير خارجي في الموسيقى العربية حتى بالطريقة العرضية التي ألمعنا إليها أتى على أيد عربية.
لم يقرر المؤرخين نهائياً ولا في موضع ما اقتبس العرب من الفرس والبيزنطيين في قضية النظرية. دعونا قبل كل شيء نحرر أذهاننا من الظن بأن العرب أقروا بأن الفرس كان لهم نظام موسيقى أرقى بكثير من نظامهم. ثم فيما يتعلق بالرسائل فان أقدم كتاب فارسي في الغناء مؤلف في القرن الثاني عشر الميلادي. ولكن عندنا رسائل في الموسيقى العربية يرجع تاريخها إلى القرن التاسع (الكندي توفي سنة 874م): ولدينا دليل على تآليف مصنفة في القرن الثامن (يونس الكاتب توفي سنة 760م والخليل بن أحمد توفي سنة 791).
وفي الحقيقة أن كل ما نعرفه عن الموسيقى الفارسية الأولى أتى من مصادر عربية، والمرجع الوحيد الذي يعالج هذه القضية بتوسع هو المسعودي (توفي سنة 956م) فهو يقول - مستشهداً بقول ابن خرداذبة (القرن التاسع) وهو كاتب متقدم - (اخترع الفرس النغم والتوقيعات والمقاطع والطرق الملوكية ولكي نقدر تماماً قيمة هذه الفقرة علينا أن نتذكر أن الغناء كان محرماً عند المسلمين وأن المؤرخين لم يكونوا مهتمين بالتماس عذر لمن يتجاوز مصدراً محلياً لشيء (منكر) كالغناء كما يطلق عليه المتشرعون من المسلمين.
ويجب ألا ننسى أن عصر الأمويين عصر ساد فيه الشعور القومي فعظمت فيه المثل الوثنية العربية وهذبت أكثر التأثيرات الأجنبية في الموسيقى العربية، وقد أشار إليها (لاند بقوله: (ما استورده العرب من الفرس والرومان لم يحل محل الموسيقى الوطنية بل طعم على جذر عربي وبقي له شكله الخاص).
ما أخذ العرب من الفرس لا يمكن التأكد منه بالضبط، وجل ما نعرفه أن الفائدة التي نشأت من الاحتكاك الفارسي هي من جهة الآلات الموسيقية. فمثلا كلمة (دستان فارسية استعملها العرب لمواضع الإصبع على لوحة رأس العود الخشبية أو الطنبور. ومن المؤكد أن العرب لم يأخذوا السلم الفارسي. لأننا نجد أنهم انتقدوا لاستعمالهم الأنغام الفارسية التي كانت متمثلة في سلم الطنبور الخراساني، فأدخل (زلزل) أحد المغنين في عصر العباسيين شكلاً جديداً من العود حل محل العود الفارسي وسمي هذا العود بعود (الشبوط
وهنالك أسباب تحملنا على الاعتقاد بأن العرب عدلوا دوزان (عودهم) على النمط الفارسي. فقد كان الدوزان العربي القديم كما يظهر - ولكن بدخول النمط الفارسي لحن على - ولعل هذا يوضح لنا الأسماء الفارسية (زير) و (بم) المرموز للوترين الأول والرابع بينما الوتر الثاني والثالث اللذان لم تصبغهما الفارسية ظلا محافظين على أسميهما العربيين وهما: المثنى والمثلث.
أما الخطة التي سار عليها البيزنطيون في قضية النظرية الموسيقية فليس لنا بها علم، فمنذ القرن الرابع حتى القرن الحادي عش الميلادي - وهو يشمل القسم الأكبر من عهد البيزنطيين - لم تصلنا مؤلفات بيزنطية. ومن المرجح أنه لم يكتب شيء بالنظر إلى الحالات الثقافية التي نعرفها، ومن المؤكد أن اللاتينيين (امدوا وو وفي القرنين الخامس والسادس، ولكنهم لم يدونوا نظرية معاصريهم، كلا ولا خبرة اللاتين لأن تأليفهم عبارة عن مجموعات للمشتغلين بالأمور النظرية من اليونان القدماء. أما الشيء القليل الذي نعرفه في هذه الحقبة عن نظرية البيزنطيين ومزاولتهم للموسيقى، فقد أتى إلينا من مصادر عربية وسريانية.
ليس لدينا رسائل بيزنطية أو فارسية تثبت وجود الموسيقى حتى القرنين الحادي عشر تقريباً. ولكن حق للعرب أن يفاخروا بعشرات من الرسائل القديمة. ويجب علينا قبل كل شيء أن نكون حذرين في قبول الروايات المختصة بما اقتبس العرب من الفرس والبيزنطيين. أما أن يتسرب شيء من التأثير من هذين المصدرين فمن الممكن تجويزه.
وأول خبر لدينا عن تأثير فارسي وبيزنطي محدود في الموسيقى العربية، هو ما ذكره الأغاني عند كلامه عن ابن مسجح الذي يعزى إليه إدخال الأنغام الموسيقية الأجنبية

على الفن المحلي.
يقول صاحب الأغاني: (وفي سورية تعلم ابن مسجح الألحان الرومية وتلقى إرشادات الباربطية والأسطوخسية. وبعد ذلك انقلب إلى فارس فأخذ بها غناء كثيراً وتعلم الضرب ثم رجع إلى الحجاز وقد أخذ محاسن تلك النغم وحذف منها ما استقبحه من النبرات والنغم والتي هي موجودة في نغم غناء الفرس والروم خارجة من غناء العرب.
فما اقتبسه العرب فيما بعد من البيزنطيين والفرس لا يمكننا إثباته بالتحقيق، ومن المحتمل
أن النظاميين المعروفين (بالمجربين كانا من أصل بيزنطي أو لعلهما عرفا بين تعاليم الساميين أما الأصول العامة للأسطوخسية البيزنطيين فلم يأخذها العرب، وإذا كان هنالك شيء قليل لأن مخطوطة الكندي التي ألمعنا إليها قبلاً تقول إن مبادئ الأسطوخسية الرومية تختلف عن المبادئ العربية.
أما مسألة الإيقاع والقيم القياسية فنحن نعلم أن العرب كان لهم نظام منذ أوائل القرن السابع الميلادي فقد كتب الخليل ابن أحمد (كتاب الإيقاع) في القرن الثامن. ونجد في القرن التاسع نظاماً يصفه الكندي جيداً بقوله (وهنا لدينا قسم موحد من الموسيقى العربية نظامه - كما يظهر - تطور وفقاً لنظام محلي) وقد اقتبس الفرس توقيعاتهم وقوافيهم من العرب.
ولقد غير إسحاق الموصلي (767 - 850) شكل النظرية العربية القديمة في وقت ترجمت فيه النظريات اليونانية القديمة إلى العربية ولكن هذا التغيير حدث بدون الاستعانة بكتاب اليونان. يقول صاحب الأغاني: (كان إسحاق أول من ضبط الألحان والتوقيعات وقسمها بطريقة لم تعرف من قبل، وكان العالم المتقدم يونس الكاتب المتوفى سنة 760 قد أشار إليها. ويقال إن إسحاق توصل في عمله إلى نتائج أقليدس والأوائل الذين كتبوا عن علم الموسيقى، ولكنه توصل إلى هذه النتائج بتجاربه الخاصة المنفردة بدون معرفة كتاب واحد من كتب الأوائل) أما أن إسحاق لم يعرف شيئا عن المشتغلين بالنظريات من اليونان القدماء فمثبت في فقرة أخرى. وكان نظام إسحاق شائعاً في أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الميلادي. وقد وضح هذه العبارة بجلاء تام صاحب الأغاني ويحيى بن علي الذي ميز هذا النظام من نظام اليونان.
فاستندنا إلى ما فصله الكندي وغيره من الكتاب كصاحب الأغاني في تعريفه النظام العربي القديم قبيل زمن الشراح اليونان كاف لأن يثبت لنا أن هذا النظام كان يختلف عن نظام فارس والروم واليونان.
أما في تاريخ الأنغام ففي استطاعتنا معرفة ما اقتبسه العرب من فارس وبيزنطة.
كان لدى الهنود - على رأي (راميانا - سبعة وهي أشبه بالرقص ويقول أمين (كان للفرس سبعة أنغام إلا أنها في أيام خسرو ابرويز (590 - 628) أصبحت أثنى عشر نغماً). ويسجل (بارهبروس السرياني) هذه الإثني عشر لحناً للفرس. ومع أن بعضا منها
قلده العرب على أصله أو بتحريف قليل فيما بعد، نتذكر أيضاً أن العرب استعملوا أنغامهم الوطنية زمناً طويلاً قبل هذا التقليد.
ففي القرن الثامن الميلادي ألف يونس الكاتب (توفي سنة 760م) والخليل بن أحمد (توفي 791م) كتاب النغم. ونقرأ في كتاب الأغاني (كتب في القرن العاشر) ثماني نغمات لم توضع لها أسماء خيالية كما هي في الفارسية واليونانية، وإنما هي أسماء بعد أصابع. وكان للسريان أيضا (آحادهم ومثلهم اليهود، ولكنها (أي الأنغام) لم تكن كالأنغام اليونانية، وهي حالة يجب أن ننعم النظر فيها. أما النغمات العربية والفارسية والبيزنطية في القرن التاسع فكانت مختلفة، كما ثبت في الرسالة المنسوبة للكندي التي أشرت إليها قبلاً. ويظهر جلياً أن للنظام الأساسي لكل من هذه الشعوب مزية هامة. يقول أخوان الصفا: (. . . إذا تأملت فلكل أمة من الناس ألحان ونغمات يستلذونها ويفرحون بها ولا يستلذها غيرهم ولا يفرح بها سواهم مثل غناء الديلم والأتراك والعرب والأكراد والأرمن والزنج والفرس والروم وغيرهم من الأمم المختلفة الألسن والطباع والعادات).
وقد نجد في تأثير النظام العربي القديم على أوربا الغربية ما يدعم قولي ويزيده إيضاحا. على أني وإن لم أهيئ العدة تماما للإعراب عن هذا التأثير. فإني أجتزئ

باليسير من آراء كتاب غربيين عن هذا التأثير:
مما لا ريب فيه أن أوربا الغربية شعرت على العموم بتيار الثقافة العربية من جراء) الاحتكاك السياسي وأرى أن الموسيقى الأوربية تأثرت في هذه الناحية بتجوال المطرب العربي أو المغربي.
كان اكثر ما اقتبسه الغرب من الشرق في هذه الناحية هو الآلات، قال (كارانجل (لما أتى العرب أوربا في ابتداء القرن الثامن كانوا أكثر تقدماً من الشعوب الأوربية في الثقافة الموسيقية، أو على الأقل في تركيب الآلات الموسيقية. وهكذا لا يسعنا إلا تقدير تأثيرهم الموسيقي الرائع).
وهم كما يقول (فارمر أول من أتحفونا بوصف علمي حقيقي للآلات الموسيقية. . . (وما كان لدينا من نظم في تعليم الآلات في العصور الوسطى فمقتبس من العربية.)
وتسلم الآنسة أن للعرب فضلاً على أوروبا في العصور الوسطى في مسألة الآلات الموسيقية
ولكنها تنكر أن أوروبا - أخذت أي نظرية منهم، وهذا القول يتجاهل تأثير نقطتي الاحتكاك الثقافي العربي وهما:
(1) الاحتكاك السياسي الذي ابتداء في القرن الثامن وانتشر في الخارج خصوصاً على أيدي العازفين.
(2) الاحتكاك الفكري الأدبي الذي ابتدأه العقليون
إذن يمكنني أن أستنتج - استناداً على ما أدليت من الحجج - أن العرب كان لهم نظام موسيقي قديم يختلف عن نظام الفرس والروم واليونان القدماء، وأن القائلين بنسبة هذا النظام الموسيقي العربي إلى فارس وغيرها، جديرون بالعدول عن أقوالهم أمام هذه البراهين.

بيروت

حسين سراج

من تراثنا الأدبي

إحياء مخطوطات

للأستاذ محمد كرد علي عضو مجمع اللغة العربية الملكي

وعدت أن أتكلم على الكتب التي نشرها العلامة كرينكو، ومنها هذه الثلاثة الكتب المهمة. أولها كتاب التيجان لوهب بن منبه والثاني أخبار عبيد بن شرية، والثالث كتاب الحماسة لابن الشجري. ويهمنا أن نعرف أولاً من هو وهب بن منبه. كان وهب من علماء التابعين، وهو من الأبناء أبناء فارس المبعوثين مع سيف ابن ذي يزن لقتال الحبشة في اليمن، فهو على الأرجح فارسي الأصل، وكتاب التيجان كما قال فيه ابن خلكان ترجمة بذكر الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم. وهو رواية أبي محمد عبد الملك بن هشام عن أسد بن موسى عن أبي إدريس بن سنان عن جده لأمه وهب بن منبه. وتوفي وهب في صنعاء اليمن في سنة عشر وقيل أربع عشرة وقيل ست عشرة ومائة.
ذكر ابن سعد صاحب الطبقات الكبير في ترجمة وهب بن منبه أنه قال: لقد قرأت أثنين وتسعين كتاباً كلها أنزلت من السماء، اثنان وسبعون منها في الكنائس، وفي أيدي الناس، وعشرون لا يعلمها إلا قليل، وجدت في كلها أنه من أضاف إلى نفسه شيئاً من المشيئة فقد كفر. قال: وفي مقدمة كتاب التيجان: قرأت ثلاثة وسبعين كتاباً مما أنزل الله على الأنبياء، فوجدت فيها أن الكتب التي أنزلها الله على النبيين مائة كتاب وثلاثة وستون كتاباً: أنزل صحيفتين على آدم بكتابين: صحيفة في الجنة وصحيفة على جبل لبنان، وعلى شيث بن آدم خمسين صحيفة، وعلى أخنون وهو إدريس ثلاثين صحيفة، وعلى نوح صحيفتين، وعلى إبراهيم عشرين صحيفة، وعلى موسى خمسين صحيفة وهي الألواح.
بدأ وهب كتابه بأحوال خلق العالم، ونسب ولد سام وحام ويافت، وملك حمير ووائل والسكسك ويعفر وعامر ذي رياس، والمعافر بن شداد وشداد بن عاد ولقمان بن عاد، والهمال بن عاد والحارث بن الهمال والصعب ذي القرنين، وأبرهة والعبد بن أبرهة وعمرو بن أبرهة، وشرحبيل والد وهب وملك بلقيس وملك رحبعم بن سليمان وغيرهم

من المتوجين من ملوك غسان، وغيرهم من ملوك اليمن والتبابعة وقصة النار التي تعبدها حمير إلى آخر من ذكر من الملوك المتوجين.

وأهم ما في الكتاب هذا القسم التاريخي. ومن قرأ القصائد الواردة فيه بإمعان يستنتج منها مادة تاريخية، بيد أن كتاباً عرف مؤلفه بإكثاره لا يخلو من مسائل نعدها اليوم ترهات، وربما كانت في عصره وقطره حقائق مسلمة.

أما الكتاب الثاني، فقد نقل عن عبيد بن شرية من المعمرين من أهل اليمن أيضاً. كان وفد على معاوية بن أبي سفيان في الشام، فلما رآه معاوية آية في تاريخ اليمن وملوك العرب والعجم يروي أخبارهم مشفوعة بأشعار، أمر كتابه أن يدونوا ما يتحدث به عبيد بن شرية في كل مجلس سمر فيه مع معاوية، فعبيد هذا كان الراوية والمدونون كتاب معاوية.

وفي هذا الكتاب حديث هلاك عاد وثمود وجرهم وخروجهم من اليمن إلى الحرم، وناشر النعم بن عمرو بن يعفر بن عمر، وشمر يرعش بن افريقيس بن أبرهة بن الرائش، وتبع الأقرن وهو ذو القرنين، وملكي كرب بن أسعد ابن تبع الأكبر، وأسعد أبو كرب الأوسط. وتتخلل كل ذلك قصائد عليها مسحة السذاجة والبداوة، والغالب أنها أو بعضها من شعر الجاهلية القريب العهد بالإسلام، كان ينقل من الصدور ثم دون في السطور.

ذكر ابن النديم صاحب الفهرست أن معاوية لما أمر بتدوين ما يرويه في مجلسه عبيد بن شرية أمر أن ينسب إليه، وأن لعبيد عدة كتب. وكان معاوية يعجب بحفظ عبيد ويستزيده، وقال له مرة: (خليق يا عبيد أن يكون هكذا، فزادك الله علماً وفهماً، وزادنا بك رغبة وعليك حرصاً فأنا لا نحصي أياديك، فزادك الله فضلاً إلى فضل وهدى إلى هدى).

وفي تدوين معاوية روايات عبيد دليل بأن التدوين حدث منذ القرن الأول، فقد ذكروا أن زيد بن ثابت ألف كتاباً في علم الفرائض، وأن عبد الله بن عمر كان يكتب الحديث وألف كتاب في قضاء علي في عهد ابن عباس، وأن وائلة بن الأسقع من أهل الصفة المتوفى سنة ثلاث وقيل خمس وثمانين، كان يملي على الناس الأحاديث وهم يكتبونها بين يديه. وكل هذا يدل على أن القوم بدأ تدوينهم في عصر الصحابة، وإن لم يدونوا ما أفرد في التأليف إلا في القرن الثاني للهجرة.

أما عبيد بن شرية هذا فهو من الإخباريين، ولناشر كتابه الأستاذ كرينكو رأى فيه. كتب إلي يقول: (إنك تعتقد كما اعتقد قبلك ياقوت الحموي وابن خلكان أن عبيد بن شرية كان رجلاً أخبارياً بالحقيقة، وأنا أخالف رأيك، ورأى من سلف، وأعتقد أن روايته من موضوعات محمد بن إسحاق مؤلف السيرة، ومن الدلائل على هذا أن أكثر المصنفين الذين تكلموا في هذا الكتاب لم يروه، بل نقلوا ما وجدوه في الكتب التي تداولوها، وكثرة الأشعار الركيكة التي لا معنى لها فيه تخالف أسلوب الشعر القديم كما نجدها في دواوين القدماء البدويين والحضريين مثل حسان بن ثابت وأقرانه. ولم يكن لي غير نسختين كلتاهما مكتوبة في صنعاء، وهما من أصل واحد بلا شك، إذ أغلاطهما واحدة، وما كان عندي يوم تصحيح كتاب التيجان سوى نسختين، نسخة مختصرة في خزانة برلين، والنسخ الثلاث الأخرى مكتوبة في اليمن. ولو أنعمت النظر في الكتابين كتاب التيجان ورواية عبيد تجد أن مؤلفهما كتبهما ليزيد مفاخر اليمن على النزارية، وليثبت أن مجد اليمن أقدم وأكبر مما كان مجد النزارية، وهذا تعصب من قريش، ولهذا لم تكن لهما سوق في سائر بلاد العرب؛ وتجد كثيراً من أساطير اليمانيين مختلطة بالآثار الصحيحة. وقد نقل الهمداني كثيراً من الروايات غير المحققة في كتاب الإكليل، ولا سيما في القبوريات؛ ثم جاء عبد الملك بن هشام مع تعصبه لليمانية فشوش الكتاب كما شوش السيرة، ولم ينبه عليه أحد؛ إلا أن المحدثين كلهم يضعفون أبا إسحاق ويسمونه أخبارياً لا محدثاً، وقد أبنت رأيي في ذلك في أطروحة باللغة الإنجليزية نشرتها قبل طبع التيجان في مجلة الثقافة الإسلامية

أما الكتاب الثالث، فهو كتاب الحماسة لهبة الله بن الشجري المتوفى سنة 542، فهو سفر صغير في نحو ثلاثمائة صفحة، أورد فيه أطايب من شعر الجاهليين والمخضرمين والمحدثين على مثال حماسة أبي تمام وحماسة البحتري. وابن الشجري معروف عند الأدباء بأمياله، وأماليه طبعت في مصر، وهي كأمالي المرتضى في اللغة والأدب

والنحو والبيان، ولا تشبه أمالي القالي، وهي في شعر الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين.

وقد كسر ابن الشجري حماسته على أبواب وفصول، فساق في الأبواب أشعار الحماسة واللوم والعتاب والمرائي والمديح، والهجاء والأدب، والنسيب والحنين إلى الأوطان، والارتياح عند هبوب الرياح، والاشتياق عند لمعان البروق، والنزاع عند نوح الحمام، والشوق عند حنين الإبل، والطيف والخيال؛ وساق مقطعات من غزل جماعة من المحدثين وصفات النساء والتشبيهات؛ وأورد في الفصول (طيب النكهة وعذوبة الريق) و (طيب الريح) و (وصف العين والنظر) و (حسن الحديث وطيبه) و (المضاجعة وشدة الالتزام) و

و (وصف التنائف، والوحش والإبل والركب، وأخبية السفر)، والصفات (وصف النار) والتشبيهات في الليل، والنجوم والمجرة والهلال والصبح، والصفات والتشبيهات في الرياض والمياه والنبات، والصفات والتشبيهات في السحاب والبرق والغيث، وصفات آلة الحرب وتشبيهاتها، وصفات الكتب والخط وآلته، وصفات الشعر، وصفات الشيب والباب والخضاب، والتشبيهات الخمرية، والتشبيهات في الغناء وآلته والمغنين، والتشبيهات الغزلية، وتشبيهات المدح، وتشبيهات الهجاء، وتشبيهات وصفات في معان مختلفة. وختم الكتاب بباب الملح وبالأشعار المزيدة على الأصل. ودونك طريقته في الاستشهاد، وقد يحل بعض العويص والغريب من المفردات حلاً مختصراً مقبولاً، قال في صفات آلة الحرب وتشبيهاتها:

(قال امرؤ القيس يصف فرساً)

وقد اغتدى والطير في وكناتها ... بمنجرد قيد الأويد هيكل
مكر مفر مقبل مدبر معاً ... كجلمود صخر حطه السيل من عل
له ايطلا ظبي وساقا نعامة ... وارخاء سرحان وتقريب تتفل

وقال البحتري:

أراجعتي يداك بأعوجي ... كقدح النبع في الريش اللؤام
بأدهم كالظلام أغر يجلو ... بغرته دياجير الظلام
ترى أحجاله يصعدن فيه ... صعود البرق في جون الغمام
ترى أحجاله يصعدن فيه ... صعود البرق في جون الغمام
وله وكان وصافاً للخيل
أما الجواد فقد بلونا يومه ... وكفى بيوم مخبراً عن عام
جاري الجياد فطار عن أوهامها ... سبقاً وكاد يطير عن أوهامه
جذلان تلطمه جوانب غرة ... جاءت مجيء البدر عند تمامه
واسودّ ثم صفت لعيني ناظر ... جنباته فأضاء في اظلامه
مالت جوانب عرفه وكأنها ... عذبات أثل مال تحت حمامه
وكأن فارسه وراء قذاله ... ردف فلست تراه من قدامه
لانت معاطفه فخيل أنه ... للخيزران مناسب بعظامه
في شعلة كالشيب تم بمفرقي ... غزل لها عن شيبه بغرامه
وكأن صهلته إذا استعلى بها ... رعد تقعقع في ازدحام غمامه
مثل الغراب مشى يباري صحبه ... بسواد صبغته وحسن قوامه

وله:

وأغر في الزمن البهيم مخجل ... قد رحت منه عن أغر محجل
كالهيكل المبني إلا أنه ... في الحسن كصورة في هيكل
ذنب كما سحب الرداء يذب عن ... عرف وعرف كالقناع المسبل
جذلان ينقض عذرة في غرة ... يقق تسيل حجولها في جندل
تتوهم الجوزاء في إرساغه ... والبدر فوق جبينه المتهلل
فكأنما نفضت عليه صبغها ... صهباء للبردان أو قطربّل
وتخاله كسى الحدود نواعماً ... مهما تواصلها بلحظ تخجل
وتراه يسطع في الغبار لهيبه ... لوناً وسراً كالحريق المشعل
هزج الصهيل كأن في نغماته ... نبرات معبد في الثقيل الأول
ملك العيون وأن بدا أعطيته ... نظر المحب إلى الحبيب المقبل

وأهدى البحتري إلى عبد الله بن خاقان فرساً وكتب إليه:
ماذا ترى في مدمج عبل الشوا ... من نسل اعوج كالشهاب اللائح
يختال في شية يموج ضياؤها ... موج القتير على الكميّ الرامح
لو يكرع الظمآن فيها لم يمل ... طرفاً إلى عذب الزلال السائح
أهديته ليروح أبيض واضح ... منه على جذلان أبيض واضح
فيكون أول سنة متبوعة ... أن يقبل الممدوح رفد المادح
وقال عبد الله بن المعتز:
وخيل طواها القود حتى كأنها ... أنابيب سمر من قنا الخط ذّبل
صببنا عليها ظالمين سيوطنا ... فطارت بها أيد سراع وأرجل
إلى آخر الفصل. . .
وروى فيها فصل صفات الكتب والخط وآلته
قال الكندي يصف الدفاتر:
خرس تحدث آخرً عن أول ... بعجائب سلفت ولسن أوائلا
سقيت بأطراف اليراع بطونها ... وظهورها طلا أحم ووابلا
تلقاك في حمر الثياب وسودها ... فتخالهن عرائساً وثواكلا
وتريك ما قد فات من دهر مضى ... حتى تراه بعين فكرك مائلا
وقال آخر:
نعم المحدث والنديم كتاب=تلهو به إن ملّك الأصحاب
لا مفشياً سراً إذا استودعته ... ولديه ما تحيا به الألباب
وقال الهلبي يصف كتاباً:
وفضضته فوجدته ... ليلاً على صفحات نور
مثل السوالف والجباه ال ... بيض زينت بالشعور
وكنظم در كالثغو - ر وكالعقود على النحور
أنزلته مني بمن ... زلة القلوب من الصدور
وقال أبو تمام يصف كتابا:
فضضت ختامه فتبلجت لي ... غرائبه عن الزهر الجني
وضمن صدره ما لم تضمن ... صدور الغانيات من الحليّ
ووقال آخر في وصف كتاب:
مداد مثل خافية الغراب ... وأقلام كمرهفة الحرب
وقرطاس كرقراق السراب ... وألفاظ كأيام الشباب. . . الخ
هذا ما نشره الأستاذ كرنيكو من كتب العرب وهو ينشر اليوم في القاهرة كتاب (المؤتلف والمختلف) للآمدى، و (رسالة ابن الجراح) وما بقى من معجم الشعر للمرزباني، وفي هذا الكتاب أخبار لا توجد في الكتب التي بأيدينا فضلاً عما حوى من الشعر القديم. وبعد هذا ألا نشكر لعلماء المشرقيات غيرتهم على نشر كتب العرب وإظهارها بمظهر التحقيق الدقيق يغبطون عليه.
القاهرة
محمد كرد علي
أثر الفن الإسلامي في فنون الغرب
للدكتور زكي محمد حسن الأمين العلمي لدار الآثار العربية
ورث الإسلام فنون رومة وبيزنطة وإيران وكلديا وأشور وتأثر المسلمون بالأساليب الفنية في البلاد التي خضعت لهم وانتشر فيها دينهم، فظهر في عالم الوجود فن بل فنون إسلامية أثرت بدورها في فنون الغرب، وتركت فيها ذكريات قل أن تخفى على من لهم دراية بتاريخ الفنون في العالم.
والواقع أن العالم المتمدن في القرون الأولى بعد الميلاد كان قد سئم الفن اليوناني القديم، وتاق إلى نوع التجديد ينقذه من منتجات هذا الفن التي أعوزها التنوع والابتكار، فتطلع إلى تقاليد فنية أعظم أبهة وأكثر حرية في الزخارف والموضوعات لا يعدل فيها من خيال ساحر وجاذبية ومفاجأة عظيمتين إلا ما تمتاز به من أسرار في مزج الألوان تملأ البصر وتبهج الخاطر. تلك الأساليب الفنية المنشودة وجدها العالم المتمدن عند الساسانيين أولا، ثم في الفنون الإسلامية بعد أن امتدت الإمبراطورية العربية واتسعت

أرجاؤها. أما حلقتا الاتصال بين الشرق والغرب، والمعبران اللذان اتخذتهما الأساليب الإسلامية للوصول إلى أوربا، فهما الأندلس، والحروب الصليبية.

ففي الأندلس أينعت المدنية الإسلامية، وأدخل العرب صناعة الورق، وأصبحت قرطبة في القرن العاشر أكثر المدن في أوروبا ازدهاراً وأعظمها مدنية؛ وكان عصر ملوك الطوائف باعثاً على تعدد مراكز العلم والأدب والفن في شبه الجزيرة، وجاء ملوك المرابطين والموحدين فكان اضطهادهم للمستعربين من بني الأندلس سببا في هجرتهم إلى الشمال، فزاد بذلك محيط المدنية الإسلامية اتساعا، ونقل هؤلاء المستعربون إلى مهجرهم الجديد كثيرا من عادات المسلمين وأزيائهم وصناعاتهم، وما لبث نجم المسلمين في الأندلس أن أذن بالأفول، فتقدمت فتوحات المسيحيين، وأخذ نفوذ العرب في التقلص، ودخل كثير منهم تحت السلطان المسيحي، فصاروا يعملون للملوك والأمراء الأسبان، وتعلم منهم غيرهم، فانتشرت أساليبهم الفنية؛ وكان سقوط طليطلة سنة 1085، وقرطبة سنة 1236، وأشبيلية سنة 1248، أكبر عامل على امتزاج الصناع العرب أو المستعربين بغيرهم. ثم كان سقوط غرناطة سنة 1492 خاتمة هذا الطور الذي تعلم فيه صناع الغرب عن المسلمين كثيراً من أسرار صناعاتهم في العمارة والفنون الفرعية؛ ولعل أهم مظهر لهذا الطور والطرز الأسباني الذي ينسب إلى المدجنين أو المسلمين الذين دخلوا خدمة المسيحيين بعد زوال دولة العرب؛ وقد نشأ هذا الطرز في طليطلة واشتغل الصناع (المدجنين) بزخرفة الكنائس ودور الخاصة في أنحاء أسبانيا، ونبغوا في الفنون الفرعية كصناعة الخزف والمنسوجات والنقش على الأخشاب، وكانت لهم في ميدان العمارة آثار تذكر، وأهمها قصر أشبيلية ' الذي بنوه سنة 1360 والذي ظل مقرا للأسرة الملكية حتى إعلان الجمهورية منذ سنوات فأصبح متحفاً يعجب الزائرون بعمارته العربية وبما جمعه ملوك أسبانيا من تحف جمهورية منذ سنوات فأصبح متحفا يعجب الزائرون بعمارته العربية وبما جمعه ملوك أسبانيا من تحف إسلامية نادرة.

أما الحروب الصليبية فلا يعنينا من نتائجها إلا أنها كانت كالأندلس وجزيرة صقلية وسيلة إلى نزاع دائم تتبعه علاقات متواصلة بين المسيحية والإسلام، وأوجدت هذه الحروب منفذاً لتجارة الجمهوريات الإيطالية الناشئة كجنوا والبندقية وبيزا، وكان من النتائج العملية لتأسيس المملكة اللاتينية في بيت المقدس نمو تجارة هذه الجمهوريات وإنشاء معاقل لها في الشرق الأدنى.

وإن صح القول بأن الأندلس وجزيرة صقلية لعبتا الدور الأكبر في نشر الثقافة الإسلامية في المغرب، وان فضل الحروب الصليبية في هذا الميدان لم يكن كبيراً نظراً لأنه لم يكن في الشام في عصر الحروب الصليبية مدينة تعادل مدينة الأندلس أو صقلية فضلا عن أن هذه الحروب لم تكن مرتعاً خصيباً للدرس والتحصيل وتبادل الثقافة، نقول إن صح ذلك في ميدان العلوم والآداب فإنا نعتقد أن الدور الذي لعبته الحروب الصليبية في نقل الصناعات والفنون الإسلامية إلى أوربا خطير لا يستهان به. ولعل استعمال الرنوك عند أمراء المسلمين في الحروب الصليبية كان أكبر عامل في تطور علم الرنوك والأشعرة عند الغربيين فأصبحت له اصطلاحاته الدقيقة وقواعده الثابتة؛ وكانت الحروب الصليبية أيضا وما تبعها من انتشار التجارة الغربية السبب فيما فعله البنادقة من صك نقود ذهبية للتعامل مع المسلمين وعليها كتابات عربية وآيات قرآنية فضلاً عن التاريخ الهجري، وظل هذا حتى احتج البابا أنسونت الرابع سنة 1249.

وليس خفياً أن العمارة كانت أجل الفنون عند العرب فبلغوا فيها شأواً بعيداً، وأخذوا من الأمم التي اختلطوا بها ما أخذوا، وابتدعوا أساليب جديدة غاية في الجودة والإبداع، ثم أخذت عنهم أوروبا كثيراً من هذه الأساليب. ولكن العلماء ليسوا على اتفاق في هذا الرأي، فبعضهم يرى أن العرب لم تكن لهم عمارة خاصة، وإن صح أن هناك أوجه شبه بين طرزهم المعمارية وبين الطرز الأوربية فإنما ذلك لأن مصدر هذه الطرز كلها واحد. ومهما يكن من شيء فإننا نفضل ألا نعرض للعمارة في هذا المقال مكتفين بالتحدث عن الفنون الفرعية أو المنقولة كما اصطلح بعضهم على تسميتها.

ولسنا نذهب إلى أن المسلمين وصلوا في هذه الفنون الفرعية إلى ما وصل إليه الغربيون. ولكنا لا نشك في أنهم تفوقوا في بعضها تفوقاً خاصاً وبلغوا في صناعة الزخارف مبلغاً يشهد بعبقرية نادرة وخيال واسع.

ولما كان تصوير المخلوقات مكروهاً في الإسلام، فقد أصبح عماد الزخارف الإسلامية الأشكال الهندسية والرسوم النباتية مضافاً إليها عامل جديد هو حروف الكتابة بالخط الكوفي أو بالخط النسخي أو بغيره من الخطوط، ونحن نعلم كيف اهتم المسلمون وخاصة الفرس بتحسين الخطوط وزخرفتها؛ وقد فطن إلى ذلك صناع الغرب، فأخذوا أحياناً يقلدون الكتابة العربية على مصنوعاتهم، ومن أمثلة ذلك صليب أيرلندي من البرونز المذهب يرجع عهده إلى القرن التاسع، وهو محفوظ الآن بالمتحف البريطاني وعليه بالخط الكوفي (بسم الله)، وفي المتحف البريطاني أيضا عملة ذهبية ضربها الملك حكم مرسية من سنة 757 إلى 796، وهذه العملة نقلها الملك المذكور عن دينار عربي ضرب سنة 774 فنقل فيما قلده التاريخ الهجري والعبارة العربية المكتوبة عليه، ولا نشك أنه في الحالتين لم يفقه العمال الغربيون معنى الكتابة العربية، فنقلوها كزخارف فحسب، وقلدهم في ذلك كثيرون من بعدهم.

وقد كان للخزف الإسلامي أثر كبير في تطور صناعة الخزف في أوربا، وقد كان الغربيون ينسبون اللونين الأزرق والأبيض الصيني في هذه الصناعة إلى بلاد الشرق الأقصى، ولكن الحقيقة أن الصينيين كانوا يسمون هذا اللون الأزرق بالأزرق الإسلامي، لأنهم أخذوه عن إيران الإسلامية في القرن الخامس عشر.

ومن المعروف أن صناعة الخزف ذي البريق الذهبي قد ارتقت في أسبانيا رقياً عظيماً، فكانت مصانعها تشتغل لحساب كثير من البابوات والكرادلة والأسرات النبيلة في أسبانيا والبرتغال وإيطاليا وفرنسا، ويرون أن الكردينال اكسيمينز قال عن هؤلاء الصناع (الكفرة): (ينقصهم إيماننا وتنقصنا صناعاتهم).

وقد ظلت صناعة الخزف الأسباني العربي - في الأندلس حتى القرن السادس عشر، وتعلمها الإيطاليون في القرن الخامس عشر، فتأثروا في الصناعة والزخارف والأشكال بما كانوا يستوردونه من أسبانيا، وأصبح أنموذجاً للصناع في وو وأطلق على هذه المصنوعات اسم مايولكا نسبة إلى جزيرة مايوركا من جزائر البليار الأسبانية هذا وقد وصل إلى الفنون الغربية من إيران وتركيا رسوم بعض الزهور التي لم تكن معروفة فيها حينئذ إلا بفضل رسومها على الخزف الإسلامي الوارد من الشرق الأدنى منذ القرن الرابع عشر.

ولم يكن أثر صناعة المعادن الإسلامية في أوروبا بأقل من أثر صناعة الخزف؛ ولن يستغرب ذلك من يعرف ما وصلت إليه هذه الصناعة من التقدم في عصر الفاطميين والمماليك ومن قرأ ما دونه القريزي عن كنوز المستنصر بالله.

ومما أخذ الأوربيون عن الشرق الإسلامي الاسطرلاب، وهو آلة فلكية لقياس بعد الكواكب. اخترعها الإغريق وحسنها بطليموس الجغرافي ثم علماء الفلك من المسلمين، حتى أخذها عنهم علماء الغرب في القرن العاشر. وفي المتحف البريطاني أقدم إسطرلاب عليه تاريخ صنعه أحمد ومحمود ابنا إبراهيم الإسطرلابي الأصفهاني سنة 1260 - وقد ظل البحارة يستخدمون الإسطرلاب في مراقبة الجو وشؤون الملاحة، حتى خلفته اختراعات أخرى في القرن السابع عشر.

وقد كان للأوربيين في القرون الوسطى نوع من أواني المياه كانوا يستعملونه في غسل أيديهم قبل الأكل وبعده، وأطلقوا عليه اسم ولا ريب أن صناعته متأثرة بما كان عند المسلمين من أوان مماثلة على شكل طيور أو حيوانات من البرونز والنحاس، ولعل أحسن مثل مكبر لتلك الأواني - وإن كان عظم حجمه يفرقه عنها - هو ذلك العقاب النحاسي الكبير المحفوظ الآن بالكامبو سانتو بمدينة بيزا في إيطاليا، والذي يظن أنه من عصر

الفاطميين بدليل ما عليه من نقوش كوفية وزخارف هندسية، وصور حيوانات، وليس معروفاً من الذي نقله إلى إيطاليا، ولا في أي المناسبات كان ذلك.

وقد صنع المسلمون الثريات والأواني والصناديق والكراسي والتنانير والمباخر من النحاس المكفت بالفضة والمذهب، وكثر الإقبال على هذه التحف في أوروبا، وخاصة بعد أن عظمت تجارة الجمهوريات الإيطالية في الشرق منذ الحروب الصليبية، وبلغت أوج عزها في القرن الخامس عشر.

والواقع أن اضمحلال هذه الصناعة بدأ في الشرق منذ القرن الخامس عشر بعد ظهور المغول وغارة تيمورلنك على دمشق سنة 1401، ولكن المدن الإيطالية وخاصة

البندقية ورثتها عن الشرق؛ وظهرت في المدينة الأخيرة مدرسة من رجال الفن عملت على التوفيق بين ذوق الغربيين في عصر النهضة، وبين الصناعة والزخارف الإسلامية.
ومن المعروف أن صناعاً من الشرق اشتغلوا بصناعات أجدادهم في البندقية وجنوه وبيزا وفلورنسا. وفي المتاحف والمجموعات الأثرية أمثلة كثيرة من التحف الفنية النفيسة المصنوعة في إيطاليا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، والتي تشهد بحسن الذوق وجمال الزخرف ودقة الصناعة. هذا ولا يفوتنا الإشارة إلى ما في اللغة الإيطالية وغيرها من اللغات الأوربية من الألفاظ الاصطلاحية المنسوبة إلى المدن الإسلامية في صناعة المعادن كدمشق وبلاد العجم. وكان لصناعة الزجاج المموه بالمينا شأن كبير عند المسلمين كما يتجلى من مجموعة المشكاوات النفيسة المحفوظة بدار الآثار العربية بالقاهرة، والتي يرجع عهدها إلى القرنين الرابع عشر والخامس عشر.
وقد تقدمت صناعة الزجاج في البندقية منذ القرن الثالث عشر تقدماً كبيراً، وبدأ البنادقة منذ القرن الخامس عشر يقلدون صناعة الزجاج عند المسلمين، فما لبثوا أن برعوا مثلهم في تمويه الزجاج بالمينا، وانتشرت هذه الصناعة من البندقية إلى غيرها من المدن الأوربية، وظهرت زخارف وطرز جديدة دون أن تزول القرابة بينها وبين النماذج الإسلامية الأولى.
أما أساليب المسلمين في نقش الخشب وزخرفته وتطعيمه، فقد ظهر تأثيرها في فنون البلاد الأوربية التي كان لها بالعرب اتصال مباشر كالأندلس وجنوب فرنسا وصقلية، ولكن هذا التأثير لم يكن كبيراً، لأن هذه البلاد لم تكن أحوالها الجوية تستدعي ما اضطر إليه
المسلمون من استعمال طريقة المربعات بله أن رسم الخطوط والزخارف الهندسية لم يكن ليلعب فيها الدور الكبير الذي لعبه في بلاد الإسلام.
وكذلك قلد البنادقة صناعة التجليد الإسلامية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، ونقلوا بعض أساليبها، ونقلها عنهم غيرهم من صناع الغرب، فلا عجب إن وجدنا حتى الآن في صناعات التجليد الأوربية المختلفة كثيراً من تفاصيل الصناعة الإسلامية وزخارفها. ومعروف أيضاً أن بعض المجلدين المسلمين نزحوا إلى البندقية وعلموا البنادقة اختراعات المسلمين في هذا الميدان. ولا يزال (اللسان) المعروف في صناعة التجليد العربية موجوداً في تجليد بعض الكتب الأوربية، ولا سيما المحاسبين وأصحاب المصارف. ومما أشتهر به المسلمون في الأندلس وصقلية صناعة الصناديق من العاج، وفي المتاحف أمثلة عديدة منها، وبينها وبين أمثالها من صناعة أوربا في القرون الوسطى قرابة تنبئ عن تأثير الصناعة الإسلامية.
بقي أن نتحدث قليلاً عن المنسوجات في البلاد الإسلامية وعن أثرها الكبير في صناعات النسيج الأوربية ولسنا نجهل أن صناعة النسيج كانت زاهرة في فارس ومصر وسورية قبل الفتوح العربية، ولكن تعضيد الخلفاء والأمراء، وتولي الحكومة إدارة المصانع، وعادة الخلع التي كان يمنحها الملوك وأولوا الأمر، كل هذا جعل الصناعة تخطو في سبيل الكمال خطوات واسعة، وكثر الإقبال على المنسوجات الإسلامية وتهافت على شرائها التجار فعمت شهرتها أوربا في العصور الوسطى، وأصبحت أكثر أنواع المنسوجات في ذلك العهد تحمل أسماء شرقية أو تنسب إلى مدن إسلامية.
ولما رأى التجار ذلك هب كثير منهم لإنشاء المصانع في أنحاء أوروبا المختلفة لمنافسة مصانع الشرق الأدنى والأندلس، وكان العرب قد أقاموا في صقلية مصانع شهيرة للنسج ظلت عامرة بعد أن تقوض سلطان المسلمين في الجزيرة، فتعلم الإيطاليون في هذه المصانع أسرار النسيج الإسلامي ودقائقه ونقلوه إلى بلدان إيطاليا المختلفة، وحفلت المنسوجات الحريرية الإيطالية في القرن الرابع عشر بالزخارف الشرقية حتى الكتابات العربية منها.
وبدأ النساجون الأتراك والإيطاليون منذ القرن السادس عشر ينافس كل منهما الآخر ويقلده، حتى لقد يصعب أحيانا التفرقة بين مصنوعاتهم؛ وظهرت في الأسواق بعد ذلك أحزمة من
القماش من صناعة أوروبا على الطراز الشرقي وأطلق عليها اسم الأحزمة البولونية نسبة إلى بولندة حيث كثرت صناعتها.

وكان السجاد أيضاً مما أخذه الأوربيون عن الشرق منذ القرن الرابع عشر، فتعلم الصناع الغربيون صناعته من المسلمين واحتفظوا مدة طويلة بالأساليب العربية في زخارفه.

وأما أثر المسلمين في النقش والتصوير الأوربي فيكاد لا يستحق الذكر، وما نقله الغرب في هذا الميدان من أساليب في تصوير الحيوان ليس إسلامياً في جوهره؛ وإنما يرجع إلى الفنون القديمة في الشرق الأدنى؛ وليست لدينا أمثلة لمصورين مسلمين اشتغلوا في أوربا في القرون الوسطى، اللهم إلا أولئك الذين عملوا في بلاط روجر الثاني ملك صقلية في أوائل القرن الثاني عشر لنقش بيعة في بالرمو تعرف باسم الكابلا بلاتينا.

هذا وقد أثرت الزخارف الإسلامية على الزخارف في شمال أوربا؛ ولا عجب فقد كان هناك اتصال بين أمم الشمال وبين الشرق الإسلامي، وكان كلاهما يناهض أمم أوربا الوسطى والجنوبية، بيد أن هذه الشعوب الجرمانية الشمالية لم تكن فقدت تماما ذكرى تجوالها في آسيا قبل أن تغزوا أوربا ويسير بعضها حتى يصل إلى شمال أفريقيا.

ولا يسعنا أن نختم هذا المقال قبل الإشارة إلى الأثر التركي الذي نراه في كثير من زخارف أمم البلقان وسكان جزائر بحر الأرخبيل، فقد كان استيلاء تركيا على هذه الأقاليم وحكمها إياها قروناً من الزمان أكبر عامل على طبع فنونها والحياة الاجتماعية فيها بطابع شرقي لم يزل كله بعد.

زكي محمد حسن

العلامة المستشرق كراتشكوفسكي

للأستاذ محمود تيمور

في عصر يوم من الأيام نحو عشرة أعوام ذهبت لزيارة المرحوم. والدي - كما كنت أفعل دائماً - بمنزله الخاص بالزمالك حيث كان يسكن وحيداً بين كتبه معتزلاً العالم. دخلت عليه في حجرة عمله فوجدته أمام مكتبه بين أكوام من الكتب والدفاتر - شأنه دائماً - يطالع ويقيد. فلما أحس بوجودي رفع رأسه وأزاح نظارته (الخاصة بالقراءة) ودعاني إلى الجلوس. ووقع نظري على صورة لقبر إسلامي كانت ضمن الأوراق العديدة التي يزدحم بها مكتبة. فسألته، فابتسم وقال: هذه صورة قبر الشيخ طنطاوي المدفون في روسيا. وعجبت لأمر هذا الطنطاوي الذي اختار بلاد الروس مدفناً له. فاستوضحته الأمر. فأخذ يحدثني عن هذا العالم المصري الذي نزح إلى روسيا في العصر الماضي ليدرس اللغة العربية وآدابها في جامعة بطرسبرج - كما كان اسمها في ذلك العهد - وكيف أقام فيها حتى وافاه الأجل فدفن بها. ثم كيف قام اليوم من بين الأساتذة المستشرقين من يعنى بهذا العالم المصري فيحقق أمره ويؤلف رسالة عنه تخليداً لذكراه.

واستهواني هذا الحديث، وجعلت أنظر إلى الصورة وأنا معجب فخور بهذا الأستاذ المستشرق الذي انبرى لعالم من علمائنا المنسيين ينشر حياته على الملأ ويشيد بذكراه. فينشر معه صفحة من صفحات تاريخنا المغمور ويشيد بذكرى بلادنا بين أصدقائنا البعيدين. ورفعت رأسي ونظرت إلى والدي مستفهماً. فقرأ في عيني ما يجول بخاطري وقال:

- إن صاحب هذا البحث هو الأستاذ كراتشكوفسكي الروسي

في هذه اللحظة أحببت الأستاذ كراتشكوفسكي وشعرت في صميم قلبي بأنه ليس غريباً عني. وشاهدت صورته فيما بعد فراعني منها مسحة الوقار المنطبعة على محياه، وذلك الإشعاع العجيب الذي يشع من عينيه - إشعاع الطيبة والإخلاص. واتصلت بالأستاذ عن طريق المراسلة، فعرفت فيه رجلاً ذا خلق متين وعزيمة صادقة وأدب جم، فقد وهب حياته منذ نحو ثلاثين عاماً لخدمة اللغة العربية وآدابها. فلم يهن ولم يتراجع بل ثابر وثابر حتى امتلك ناصيتها وتبحر فيها، فأصبح علماً راسخاً من أعلامها؛ وقوة من قواها العتيدة.

وإني لا أنسى أول خطاب جاءني من الأستاذ، فقد وقفت أمامه حائرا مبهوتاً: خط عربي جميل ونظيف يماثل في وضوحه وتنسيقه خطوط الآلة الكاتبة. تسوده روح لطيفة من سلامة الذوق في التعبير والبساطة والهدوء. كل ذلك في سلاسة عجيبة وصفاء غريب. وغمرني شعور لطيف فيه شيء من الزهو لوجود مثل هذا الصديق

الكبير لنا - معشر العرب - في بلاد نائية قد وقف حياته على خدمة آدابنا وإعلاء كلمتنا.
وازداد اتصالي بالأستاذ فتوالت الرسائل بيني وبينه. وأهدى إلى كثيراً من مؤلفاته بالروسية، ومضت الأعوام ومعرفتي بالأستاذ تزداد اتساعاً. وكلما عرفت عنه شيئاً جديداً قويت محبتي له وعظم تقديري إياه.
بدأ الأستاذ دراسته للعربية وبعض اللغات السامية الأخرى كالحبشية والعبرية في جامعة بطرسبرج عام 1908. ثم رحل إلى الشرق فزار مصر وسورية، وأقام فيهما أكثر من عام انكب أثناءه على دراسة الأدب العربي القديم والحديث. واهتم بالشعر وعلم البيان بنوع خاص. وما إن عاد إلى روسيا حتى أخذ ينشر مقالات عن الأدب العربي. وظهر له بحث مستفيض عن القصة التاريخية في الأدب الحديث وهو بحث نقدي تحليلي عن روايات جورجي زيدان ويعقوب صروف وفرح أنطوان وجميل مدور. (صاحب كتاب حضارة الإسلام في دار السلام) وتوالت بعد ذلك أبحاثه القيمة. ومن أعماله المشهورة إصداره ديوان أبي الفرج الوأواء الدمشقي باللغة العربية مع ترجمة روسية ومقدمة مسهبة عن الشعر في العصر العباسي تعد من أنفس ما كتبه العلماء في ذلك الموضوع؛ كذلك يجب ألا ننسى بحثه التاريخي عن حياة الشيخ طنطاوي، وهو بحث فذ مبتكر حقق فيه بطريقته العلمية المعروفة كثيراً من النقاط الغامضة التي تكتنف حياة هذا العالم المصري (المنسي). ومن أعماله الهامة إصداره كتاب البديع لابن المعتز باللغة العربية مع مقدمة للكتاب بالإنجليزية، وهذا الكتاب يعد من أنفس الكتب التي عالجت علم البديع في الأدب القديم. هذا خلاف رسائله الأخرى التي والى ويوالي إصدارها، وآخر ما صدر له ترجمة بالروسية لكتاب الأيام للدكتور طه حسين، مع مقدمة عن مؤلفات وتعليقات عن الكتاب.
أكتب هذه الكلمة الصغيرة بمناسبة الاحتفال بتكريم الأستاذ في روسيا أحييه فيها أصدق تحية، معبراً له عما يكنه العالم العربي عامة والأمة المصرية خاصة من عواطف الولاء
والشكر له. فان رجلاً قصر حياته على نشر ثقافتنا العربية في العالم الغربي، وأوسع لنا الطريق لنتبوأ مكاننا بين آداب الأمم العالمية لجدير بأن يحتل في قلوبنا أكبر مكانة.
محمود تيمور

على هامش السيرة

نزيل حمص

للدكتور طه حسين

قال عمير بن عبد الله السلمي لمحمد بن نصر الكلابي: إن الله فيما يأتي من الأمر لحكمة بالغة يفهمها الناس حيناص ويقصرون عن فهمها في كثير من الأحيان. وإن الرجل الرشيد خليق أن يتعظ بما يفهم، وألا يلح في تأويل ما لم يفهم، وأن يطمئن قلبه إلى أن حكمة الله بالغة، وإلى أن قضاءه منته إلى الخير دائماً.
قال محمد بن نصر لصاحبه: هو ذاك، وما أظن أن أحداً منا ينكر ذلك أو يماري فيه فما تحدثك به؟ وما هذا التفكير العميق الذي أرى آثاره بادية في وجهك؟ وكانا هذان الرجلان من فتيان قيس، شديدي البأس، قد ملأ قلبهما إيمان قوي بالله، وحفاظ قوي للعرب، واعتزاز قوي بالنفس، وحب قوي للجهاد. وكانا قد مضيا مع الصائفة غازيين حتى بلغا ثغراً من ثغور الروم، فأمعنا في الغزو ولقيا فيه من الجهد والشدة، واحتملا فيه من المشقة والبلاء شيئاً عظيما، لم يزدهما إلا إيماناً على إيمان، وحفاظاً إلى حفاظ، وحباً للجهاد إلى حبهم القديم للجهاد، وكان الله عز وجل قد قضى لهما أن يعودا من هذه الغزوة موفورين، فلما بلغا مأمنهما مع الجيش في بلاد المسلمين نذرا لئن مد الله في حياتهما حتى ينقضي الشتاء، وتستأنف الصائفة من قبل غارتها على بلاد الروم ليكونن لهما في هذه الغارة بلاء، وليضعن كل واحد منهما نفسه في مقدمة الجيش المغير، وكانا قد أزمعا من أجل ذلك ألا يبعدا في الرجوع إلى موطنهما، وأن ينفقا فصل الشتاء في مدينة من مدن المسلمين هذه المنبثة في الشام، والتي ترابط فيها الجنود، قد قسمت بينها تقسيماً، ووزعت عليها توزيعاً، ولم يكونا من أصحاب الديوان في جند من أجناد الشام، وإنما كانا رجلين قد باعا أنفسهما من الله وتطوعا في الجهاد، وأقبلا يبتغيان المثوبة، فلحقا بالصائفة فيمن يلحق بها من المتطوعين؛ ولم يصرفهما عن حمص أنها لم تكن للمضرية داراً، وما يريدان إلى المضرية أو إلى

اليمنية، وهما إنما يمران بهذه المدينة مروراً ينتظران أن ينقضي فصل من فصول العام ويقبل فصل آخر ليستأنفا نشاطهما وليقبلا على ما يبتغيان من ثواب الله مجاهدين؟

فلما استقر بهما المقام في حمص أياماً وأسابيع أخذا يدوران فيها ويتعرفان بعض أمرها،

ويسمعان إلى ما كان يجري على ألسنة أهلها من بعض الحديث. وقلما كان أحدهما يخرج منفرداً، إنما كانا أكثر أوقاتهما متلازمين كأن ما دفعها إلى الهجرة من أوطانهما قد جمع بين نفسيهما في الجهد والبأس، كما جمع بين نفسيهما في الرخاء واللين. فقلما كانا يفتقران أثناء الغارة على اختلاف الظرف وتباين الخطوب التي كانت تعرض للجيشين وتلم بالمغيرين. وهما الآن لا يفترقان أو لا يكادان يفتقران، وقد أظلهما الأمن وضمنتهما سلم لا يخافان معها شدة ولا بأساً ولا فراقاً. ولكنهما في هذا اليوم لم يكادا ينفتلان من صلاة الغداة حتى فرقت بينهما حركة الناس وازدحامهم مسرعين كأن هناك أمراً ذا بال يروعهم ويدعوهم إلى الازدحام ويدفعهم إلى أن يشهدوا مشهداً يجب أن يشهده الناس. وقد دفع محمد بن نصر مع المزدحمين وأسرع مع المسرعين، لم يكن له في ذلك رأي أول الأمر، ولكنه لم يلبث أن حمد ما أدركه من ذلك، فمضى مع الماضين مختاراً لا كارهاً، وحرص على أن ينتهي إلى حيث كانوا يريدون أن ينتهوا. وقد سمع في أثناء ذلك ما سمع، ورأى ما رأى، وامتلأ قلبه بالعظات والعبر، وشغل عقله بالتفكير المتصل العميق، حتى إذا تفرق الناس وكلهم يملأ نفسه العجب عاد إلى صاحبه يحدثه بما سمع ويحدثه بما رأى، ويبدأ حديثه بهذا الكلام الذي أوجزته لك آنفاً فلما سأله صاحبه عما به قال: لقد شهدت اليوم أمرا عظيما: شهدت جنازة رجلا ملأ قلوب الناس حبا وبغضا، ورضى وسخطا، وأثار في نفوسهم كثيرا من الحفيظة، بل حفيظة لا تنتهي، وأثار في نفوس الناس كذلك إعجاباً وإكباراً، وأطلق ألسنة الناس بالذم الشنيع، وأطلق ألسنة الناس بالثناء الكثير، ورسم على وجوه الناس آثار الموجدة المنكرة، ورسم على وجوه الناس كذلك آثار الاعتراف بالجميل، ورسم على وجوههم بين ذلك ابتسامات فيها سخرية وازدراء، وفيها عطف وإشفاق؛ ثم رأيت الناس يعودون من تشييعه إلى قبره، وإن الحيرة لتملأ قلوبهم، وإن الشك ليضطرب في نفوس كثير منهم، وإنهم على هذت كله ليقولون فيما بينهم مثل ما كنت أقوله لك منذ حين، وانهم على هذا كله ليظهرون الثقة بحكمة الله البالغة والاطمئنان إلى عفوه الذي ينال به من يشاء.

قال عمير بن عبد الله: ما رأيت كاليوم رجلا يؤثر التلميح على التصريح، ويقصد إلى الغموض دون الوضوح، فحدثني بحديثك لا أبا لك ولا تطل، فما تعودت منك إطالة ولا إملالاً. قال محمد بن نصر: فالله يعلم ما آثرت تلميحاً، ولا اجتنبت تصريحاً، ولا قصدت إلى غموض، ولا تنكبت وضوحاً، وإنما أصور لك نفسي كما أجدها، وما أدري كيف أتحدث إليك بهذا الحديث، وما أعرف من أين آخذه. آخذه من مبتدئه أم آخذه من منتهاه، أم آخذه مما بين ذلك، فإن كل موضوع منه تملؤه العبرة والعظة، وتظهر فيه هذه الروعة التي تتأثر لها القلوب، وتفكر فيها العقول. إنه رجل لم يعرف الناس من أول أمره إلا أنه كان عبد حبشياً لسيد من سادات قريش في مكة، هو جبير بن مطعم، وكانوا يرونه فتى شديد البأس عظيم الأيد شجاعاً جريئاً، يعمل لسيده فيما يعمل فيه الرقيق، ولو أن الرق لم يعرض له لكان خليقاً أن يسود في بلده وبين قومه هؤلاء السود. ولكن الرق عرض له كما عرض لكثير من أشراف الروم والفرس فألقاه إلى هذا الحي من قريش، وفرض عليه ما يفرض على الأرقاء، من الخنوع، والخضوع، ومن الذلة والهوان، ومن العمل فيما لا يعمل فيه أصحاب النجدة والمروءة من الناس. وكان هذا الفتى ضيقا بحياته أشد الضيق، منكراً لها أعظم الإنكار، جامحاً حين يتاح له الجموح، شامساً حين يتهيأ له الشموس، لا يخفي بغضه للرق وطمعه في الحرية مهما يكلفه ذلك من غضب سادته وزجرهم، ومن إعناتهم له وإلحاحهم عليه بالإعنات. وكانت قريش قد لقيت من النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه جهدا شديداً يوم بدر، وفقدت جماعة من سادتها وأشرافها، وذاقت الهزيمة المنكرة، وذاقت فقد الأحياء، وذاقت هذا الذل الذي يكره العرب أن يذوقوه، ذل الموتور الذي لم يدرك وتره؛ وكانت قريش تتجهز لإدراك الوتر والأخذ بالثأر، وشفاء حزازات النفوس، وإرضاء قتلاها من

أهل الحفير؛ وكان جبير بن مطعم قد فقد عمه طعيم بن عدي يوم بدر، وكان حريصا على أن يثأر به وينتقم له من قاتله. ولم يكن قاتله إلا حمزة ابن عبد المطلب عم النبي، وأسد الله، وشجاع قريش، وحامل لواء المسلمين لأول ما عقد اللواء. قال عمير بن عبد الله: فإنك إنما تتحدث عن وحشي، فما خطبه وما الصلة بينه وبين هذا الرجل الذي شهدت جنازته اليوم؟ قال محمد بن نصر: فان هذا الرجل الذي شهدت جنازته منذ اليوم هو وحشي نفسه. قال عمير: ليتني عرفت مكانه من هذه المدينة حين أقبلت إليها إذن لسعيت إليه، ولسمعت منه، ولسألته عن بلائه ذلك المنكر. قال محمد بن نصر: وكذلك قلت لنفسي أنا منذ حين، ولكني رأيت من رآه، وسمعت ممن سمع منه، ولقد رأى من رآه رجلا
كان خليقاً أن يرى، وأن الذين سمعوا ليتحدثون من أمره بالأعاجيب. قال له سيده حين أجمعت قريش أمرها: إني أرى شوقاً إلى الحرية وكلفك بها، وإسرافك في الجموح، وامتناعك عما لا ينبغي لمثلك أن يمتنع عنه من الطاعة والإذعان لمواليه، وإني أعرض عليك هذه الحرية التي تهواها، فان شئت فأد ثمنها، وما أظنك تفعل. قال العبد: فقد شئت أن أؤدي إليك ثمن هذه الحرية لو أني أستطيع أن أبلغه في جو السماء أو أقصى الأرض. قال جبير: فإنه أدنى إليك من ذلك، إنه في يثرب، فاذهب مع قريش في حربها هذه التي تتجهز لها، ثم عد إلي بمقتل حمزة وأنت بعد ذلك طليق.

قال العبد: أما إني ذاهب مع قريش فعائد إليك بمقتل صاحبك أو لاق من دون ذلك الموت فهو أهون على وآثر عندي من حياة الرقيق.

ولقد سمع الناس منه حديثه عن ذلك البلاء المنكر الذي أبلاه يوم أحد، وما أرى أنك تعرف كما أعرفه، فقد أخذ يرقب حمزة، وهو يقوم من المسلمين مقام الأسد يذود عن أشباله، يهز الجيش بسيفه هزاً، والناس يرونه من بعيد كأنه الجمل الأورق، فتمتلئ قلوبهم لمنظره رعباً، وينصرفون عن موقفه انصرافاً، وهو يتحداهم ويدعو فرسانهم ومغاويرهم. والعبد قائم قد استتر عنه بشجرة ينظر إليه ويرتقب غفلته، وحمزة لا يراه ولا يحس بمكانه. فلما أمكنته الفرصة هز حربته حتى رضي عنها، ولم يكن له بغير الحربة من السلاح علم، فلما تهيأت له الرمية رمي، وإذا الحربة تصيب حمزة في مقتل فيخر صريعاً، والعبد قائم مكانه لا يريم، يرقب أسد الله صريعاً بعد أن كان يرقبه جائلاً في الميدان؛ فلما استوثق من أن صريعه قد قضي عليه أقبل يسعى إليه، فانتزع حربته ثم عاد إلى المعسكر فأقام فيه. لم يصنع قبل مقتل حمزة شيئاً، وما يعنيه هذه الحرب بين قريش والأنصار، وإنما أقبل يشتري حريته بمقتل هذا الرجل العظيم، وقد ظفربما أراد، فانتظر قفول قريش إلى مكة، ولم يشهد ما كان تمثيل هند وصاحباتها بعم النبي، ولم يشهد ما كان من حزن النبي حين رأى عمه في منظر لم ير (صلى الله عليه وسلم) قط منظرا أوجع له وأثقل عليه منه. ولم يسمع العبد نذير النبي حين أقسم لأن أظفره الله على قريش ليمثلن منهم بسبعين مثله لم تعرفها العرب قط، ولم يعلم العبد أن النبي قد رد عن ذلك رداً، وأن الله قد أنزل في ذلك قرآنا، وإن النبي قد تلا قول الله عز وجل (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين. واصبر وما صبرك إلا بالله، ولا تحزن عليهم ولاتك في ضيق مما يمكرون. إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون).

ولم يعلم العبد أن النبي فد اضطر إلى أن يكفر عن يمينه، ثم لم يعلم العبد أن النبي قد عاد إلى المدينة محزوناً أسفاً، فلما سمع نساء بني الأشهل يبكين قتلاهن قال: ولكن حمزة لا بواكي له! وسمع ذلك منه الأنصار، فأرسلوا نساءهم يبكين حمزة عند بيت النبي، وخرج نساء النبي فبكين معهن حتى ردهن النبي داعياً لهن، ثم أصبح فنهى عن البكاء.

لم يعلم العبد من هذا شيئاً، وماذا يعنيه من هذا، إنما كان يريد حريته وقد بلغها، وماذا صنع البائس بحريته؟ لم يعد إلى بلده، وكيف سبيل العودة إليها؟ ولم يسد في مكة، وكيف إلى السيادة فيها؟ إنما عاش بين قريش حراً كالعبد، وطليقا كالأسير. نعم لم يعد العبد بشيء من هذا، ولكنه علم ذات يوم أن جيوش المسلمين مقبلة على مكة، ورأى ذات صباح جيوش المسلمين تدخل مكة، واستيقن العبد أنه مقتول إن ظفر به المسلمون، ففر وانطلق في الأرض يلتمس لنفسه مأمناً فلا يجده. هؤلاء المسلمون ينتصرون على العرب يوم حنين، وهذه أرض العرب كلها تذعن للنبي، فأين الملجأ من

الله؟ لقد آوى العبد إلى الطائف يتهيأ للسفر إلى المدينة، وما هي إلا أيام حتى تذعن الطائف لما أذعنت له مكة. والآن يفكر العبد في مهاجرة البلاد العربية كلها. ولكن كيف السبيل إلى الهجرة؟ لقد أُخذت عليه سبيل الحبشة، وأُخذت عليه سبيل الروم، وانبسط سلطان النبي على الشمال والجنوب. لقد كانت الهجرة ميسورة قبل الآن. فأما الآن فقد تقطعت من دونها الأسباب.

هنالك يلقي بعض الناس في نفس العبد أن النبي لم يقتل قط رجلاً جاء مسلماً؛ وأن النبي ذات يوم لجالس بين أصحابه، وإذا رجل قائم على رأسه يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله؛ وينظر النبي فيرى العبد فيعرفه، ولكن الله قد عصم دمه بالإسلام، وما قتل النبي قط رجلا جاءه مسلماً، وان كان قد قتل عمه حمزة. فيأمر النبي ذلك العبد أن يجلس ويحدثه كيف قتل عمه؛ وهذا العبد قد جلس وهو يعيد على النبي بلاءه المنكر، وحديثه يملأ قلب النبي حزناً ولوعة وأسى؛ والعبد بين يديه، لو أراد لأرضى حزنه ولوعته بمصرعه، ولكن أنّى له ذلك وقد أعتصم العبد بالإسلام؟ وقد آثر النبي أن يعفو، وآثر أن يصبر. أليس قد عفا عن هند وقد مثلت بعمه ولاكت كبده،

وجدعت أنفه وأذنيه؟ فما له لا يعفو عن عبد مأمور؟ ولكنه قال للعبد: غيب وجهك عني، فجعل العبد لا يرى رسول الله إلا تنكب طريقه واجتنب لقاءه.

وعاش وحشي في المدينة حراً كالعبد، وطليقا كالأسير، وجعل الندم يحز في قلبه حزاً، ويمزق فؤاده تمزيقا، يؤرقه إذا دنا الليل، ويعذبه إذا أقبل النهار.

ولكن العرب يرتدون، ويذهب خالد بن الوليد لقتال مسيلمة، وهذا العبد يذهب معه ليقاتل في سبيل الله بعد أن كان يصد عن سبيل الله.

وهذا العبد يهز حربته ذات يوم كما هزها يوم أُحد، ويتهيأ ليرميها كما تهيأ يوم أُحد، وإذا هي تصيب رجلا فتصرعه، وإذا الحربة التي قتلت حمزة قد شاركت في قتل مسيلمة، وإذا وحشي قد قتل خير الناس، وقتل شر الناس. وقد عفا النبي عن قاتل عمه، وعفا الناس عن قاتل أسد الإسلام، ولكن نفس وحشي لم تعف عن وحشي، ولكن دم مسيلمة لم يغسل من نفسه دم حمزة. وهذا العبد الحر يمضي مع جيوش المسلمين غازياً فيقاتل الروم وينتصر مع المنتصرين، ويستقر مع المستقرين في مدينة حمص هذه. ولكن بلاءه أيام الردة وبلاءه أيام الفتح، وما أحتمل هذا كله من جهد، وما ناضل في هذا كله عن الإسلام، لم تغسل عن نفسه دم حمزة، ولم تبرئ نفسه من الندم لمقتل حمزة؛ ولم يبلغ الإسلام من قلب هذا الرجل ما بلغ من قلوب كثير من الناس فيمحو من قلبه ما قدم في جاهليته، وإذا هو يستعين على الندم بالخمر، وإذا هو يشرب ويسرف في الشرب، وإذا هو يضرب في الشراب فلا يمنعه الحد من معاودة الشراب، وإذا هو معروف في أهل حمص بما قدم من خير وشر، وإذا هو معروف في أهل حمص بسكره إذا سكر، وبصحوه إذا صحا، وإذا هو يسكر حتى يصبح مخوفاً على من يدنو منه، حتى يصبح عاقلاً حلو الحديث. والندم يلح عليه حتى يبغضه إلى نفسه تبغيضاً، ويصرفه عن الصحو صرفاً، وكلما مضت الأيام ازداد إمعاناً في الشراب، والسن تتقدم به، وجسمه يضعف شيئاً فشيئاً، وعقله يذهب قليلاً قليلاً، والندم ماثل مع ذلك في نفسه، ملم بداره، يأخذه من كل وجه، وهو لا يجد سبيلاً إلى الفرار منه إلا إلى الشراب، وهو يُضرب في الشراب، وقد ضعف وفني فلا يحتمل الضرب فيموت. ونشهد جنازته اليوم.

أرأيت أني لم أكن ملمحاً ولا مؤثراً للغموض حين كنت أحدثك بما كنت أحدثك به من هذه

العواطف المختلفة التي كانت تثيرها جنازته في نفوس الناس. قال عمير: أشهد أن حكمة الله بالغة، وأن الرجل الرشيد خليق أن يتعظ بما فهم من قضاء الله، وأن يطمئن إلى عدل الله وعفوه إذا أشكلت عليه الأمور. قال محمد بن نصر: فإني لا أعرف شيئا يغسل عن النفس إثمها وينقيها من السيئات كهذا الذي نحن فيه من جهاد عدو الله ما وجدنا إلى هذا الجهاد سبيلاً.

طه حسين

حول الهجرة

للأستاذ محمد أحمد الغمراوي

تحتفل (الرسالة) اليوم بذكرى حادث كريم لم يكن بعد النبوة أعظم ولا أبعد أثراً منه في تاريخ الإسلام بل في تاريخ الإنسانية. فلولا الهجرة ما ظهر الإسلام ولا غلب على جزيرة العرب، ثم على أهم مواطن نصف الكرة الشمالي من الأرض. ولولا ظهور الإسلام، وما استلزمه من جهاد في سبيل الله، وما أنزله الله من هدى يهدي به المجاهدين سبله، لحُرم الإنسان ذلك الهدى، ولظل في أموره موكلاً إلى نفسه، لا يكاد في السلم يقف عند حد في طلب اللذة، ولا يكاد في الحرب، كما تشهد الحرب العظمى، يقف عند حد في إتيان ما يظن أنه يكفل له النصر. فالعهد الذي كان في الإسلام قبل الهجرة إنما هيأه الله ليؤدي بقدر منه إلى الهجرة، ثم إلى ما كان في حياة الرسول بعد الهجرة. وهو إلى ذلك كان عهد تشريع من الله على يدي رسوله للناس فيما ينبغي أن يفعلوه إذا كانوا في حالة من الضعف لا يملكون معها من أمورهم إلا القليل: يصابرون في سبيل الله ويصبرون ما استطاعوا، ويهاجرون إن استطاعوا بدينهم في سبيل الله إلى حيث يمكنهم أن يقيموا دينهم آمنين، فإن أمكنتهم بعد ذلك قوة يستطيعون بها الدفاع عن دينهم ولو بالسلاح، فقد وجب الدفاع. إنما عليهم في كل ذلك، مهما يكن الحال، أن يستمسكوا بدينهم كما يتمسك الغريق بحبل النجاة.

والعهد الذي كان في النبوة بعد الهجرة كان، فيما كان، عهد تشريع من الله على يدي رسوله للناس فيما يجب عليهم وما ينبغي لهم في حال القوة، سواء أكانت قوة ناشئة قد حيا لها الأعداء أم كانت قوة غالبة قد مكن الله لأهلها في الأرض، فلم تبق يد أعلى من أيديهم، ولا كلمة تنافس كلمتهم في الرفعة والسلطان. وفيما بين هذين الحالين أحوال تنقلب فيها الأمم الناشئة، لولا الهجرة ما عرف الإنسان سنن الله في مثلها ولا طريق الفلاح فيها.

فالهجرة إذا شئت هي نقطة الانقلاب من الضعف إلى القوة لا في تاريخ شعب فحسب، ولكن في تاريخ دين شاءت رحمة الله بالبشر أن يمن عليهم به ليعرفوا ما لم يكونوا لولاه ليعرفوه من سنن الله في الإنسانية بحذافيرها، ولا فيما يتعلق بالفرد فقط، فقد كان فيما أنزل الله قبل الإسلام من دين ما يكفي لأن ينجو به الفرد مما يتهدد نفس الفرد من أخطار، ولكن فيما يتعلق بالمجموع على الأخص، أي فيما يتعلق بالإنسان من حيث هو أمم وشعوب، ثم من حيث هو جنس واحد، أبدعه إله واحد، وجعل طريق بلوغه أعلى غاياته التي قدرت له في التعاون في الله والاجتماع، لا في العزلة والافتراق.

ولعل هذه الناحية هي الفرق الأكبر بين الإسلام وبين ما قبله من الأديان التي أنزلها الله. بالأديان قبل الإسلام هدى الله الإنسان من حيث هو فرد ومن حيث هو جماعة منعزلة؛ وبالإسلام هدى الله الإنسان من حيث هو فرد ومن حيث هو جماعة منتشرة متصلة، ثم من حيث هو جنس حياته ورقيه في اتباع سنن الفطرة التي فطر الله الناس عليها وفطر الكون. وكان عهد التشريع الإلهي للجماعة العامة هو ما بعد الهجرة، وعهد التشريع للفرد كان فيما قبل الهجرة، ثم فيما بعد الهجرة ضمن دائرة الجماعة. فكأن الله سبحانه أراد أن يكمل للإنسانية دينها في الإسلام، ويجمع لها فيه الدين كله، جعل الإسلام عهدين يكادان يتساويان: عهد الفرد قبيل الهجرة، وعهد الجماعة بعد الهجرة. فقبل الهجرة كان عهد التضحية في سبيل الله من الناحية الفردية البحتة كما كان يحدث في الأديان التي قبل، كالنصرانية. وبعد الهجرة كان عهد تكون الجماعة وتطورها إلى جماعة كاملة تسير في الاجتماعات طبق الفطرة: قانونها كتاب الله، ولا حكم فيها ولا سلطان عليها إلا الله. فتاريخ النبي صلى الله عليه وسلم يمثل تاريخ الأنبياء قبله في شطره، ويختص ويمتاز في الشطر الآخر، وبالشطر الآخر. فهو مبدئه إلى منتهاه يمثل تاريخ ترقي الله بالإنسان في الدين، كما يقولون إن تاريخ خلق الله الإنسان يتمثل في خلق الجنين.

إن الإنسان خارج دائرة الدين لا يزال يتخبط في الاجتماعيات إلى الآن. قد استطاع في عهده الحديث أن يتوصل إلى كثير من سنن الله فيما ليس بإنسان، أما سنن الله في الإنسان خصوصاً من الناحية الاجتماعية فلا يكاد يعرف منها شيئاً يقينياً، وما يسميه علم الاجتماع، على ضيق مداه، أكثره آراء ولا تزال تنتظر التمحيص. ومن عجب لطف الله بالإنسان أن وكله إلى نفسه فيما لا يتعلق بالروح، ولم يكله إلى نفسه فيما يتعلق بالروح. وكله إلى نفسه في العلوم الطبيعية فلم يرسل رسولاً يعلم الناس حقائق

العلم، وإن لهم على طريق التوصل إلى ذلك بأنفسهم في كثير من آيات القرآن في معرض التذكير والتعريف به سبحانه. لكنه لم يكله في أمر الروح إلى نفسه، وإلا لقضي على أجيال كثيرة من الأرواح، إن لم يكن على جميع أجيالها، بالهلاك. ترك الإنسان يتواصل بمجهوده وتجاربه إلى سنن الله في كل محسوس تستطيع أن تتناوله تجارب الإنسان، لكن ما لا تستطيع أن تتناوله التجارب مما يتعلق بنفس إنسانية الإنسان فقد اقتضت حكمة الله سبحانه ورحمته أن يتولاه هو من الإنسان، لا بتعريفه بتلك السنن كما نعرف أمثالها في العلوم، ولكن بتيسيره للإنسان الاستفادة من تلك السنن كما لو كان محيطاً بها، خبيراً بطرق تطبيقها على نفسه وعلى مجتمعه. وما الدين إلا النظام العملي الكامل لحياة الإنسان طبق الفطرة التي فطرها سبحانه عليها. والفرصة بعد فسيحة أمام الإنسان ليعرف قوانين تلك الفطرة بالبحث والنظر إذا شاء وإذا سلك إليها الطريق. ولكن سبيل ذلك التجارب يجريها الفرد في معمله، لأنه إن استطاع أن يخضع المادة والطاقة بل والخلية الحية في معمله للتجربة فلن يستطيع أن يخضع الروح لمثل ذلك. وإن استطاع ذلك إلى حد لا يكاد يذكر في امتحان الفرد، فلن يستطيع ذلك إلى حد ما في الجماعة. لا. ليس طريق الوصول إلى سنن الله في الاجتماعيات التجربة العلمية، إنما سبيل ذلك النظر العلمي في تاريخ الأنبياء، وفي شرع الله بواسطة الأنبياء للناس. حوادث ذلك التاريخ وأحكام الله كما تبينها أفعال أنبيائه، وكما تنطق بها كتبه المنزلة، هي المادة التي يجب أن يستخلص منها سنن الله في الناس، كما إن نتائج التجارب العلمية هي المادة التي يستخلص منها سنن الله في غير الإنسان. وكل الذي يتطلبه العلم في هذا، إذا قدر أن يتجه العلم هذا الاتجاه، هو صدق المادة؛ هو صحة حوادث التاريخ وصحة نسبة الأحكام. ولا أدري إلى أي حد ممكن الاعتماد الآن على ما كان قبل الإسلام من ذلك، إنما الذي أدريه أن ما كان في الإسلام من ذلك ممكن الاعتماد عليه كل الاعتماد. ممكن الاعتماد على ما ضبط وصحح من حوادث النبوة وأفعال الرسول وهو شيء كثير، أما القرآن فهو المعين الذي لا يغيض، والكنز الذي لا يفنى، والكتاب الذي (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد).

لكن العلم لن يستطيع الانتفاع بذلك أو يؤمن، وأظن العلم يقترب شيئاً فشيئاً من الإيمان.

محمد أحمد الغمراوي

قصة المكروب كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكي وكيل كلية العلوم

بستور غزاة المكروب

مات اسبلزاني، وجاء ثلث قرن من بعد وفاته وقف فيه البحث عن المكروب وقوفاً تاماً، ونسى الناس تلك الأحياء واستصغروا أمرها، واتجهوا بهمهم إلى علوم أخرى كانت تخطو في طريق التقدم خطوات سريعة وكانت القطر البخارية قد أخذت تشق طريقها في البلاد، ضخمة دميمة، تسعل كالمصدور فتفرغ الخيل والبقر في أوروبا وأمريكا. والتلغراف كاد يهم بالظهور. واخترعت مكرسكوبات عجيبة، ولكن لم يتقدم رجل للتحديق فيها ليثبت للدنيا أن هذه المكروبات الضئيلة تستطيع أن تقوم من العمل النافع المجدي ما لا تستطيعه تلك القاطرات المعقدة الفظيعة - لم يتقدم أحد ليقول للناس، ولو إيحاء وتلميحاً، إن هذه الخلائق تستطيع قتل الملايين من البشر في خفاء وسكون، وأنها في قتلها أكثر حصاداً من الجيلوتين. وأبعد مدى من مدافع واترلو في يوم من أيام أكتوبر عام 1831، بقرية من قرى الجبال بشرق فرنسا، تجمهر نفر من أهل القرية على دكان حداد. وكان الفزع يبدو على وجوههم الشاحبة، وكان الهلع يستبين في أحاديثهم الخافتة، وقد حولوا جميعا وجوههم شطر الحداد بداخل المكان. وإذا بطشيش يسمع كطشيش الشواء، وإذا بصراخ يعقبه من تباريح الألم مكظوم، وإذا بطفل في التاسعة يخرج من حافة الزحام هارباً إلى بيت أبويه وقد أخذ منه الرعب ما أخذ. أما الرجل المسكين الذي أنضج الحديد لحمه ففلاح يدعى نقولا لقيه في الطريق ذئب هائج مسعور، نزل على القرية يعوي عواء المجنون، ويزبد فاه برغاء مسموم، فهجم على صاحبنا فمزقه تمزيقاً. وأما الطفل الهارب فكان اسمه لويس بستور ابن دباغ في أربوا وحفيد خادم عبد لكونت أدريسييه

ومضى على هذا المشهد أسابيع سقط فيها ثمانية رجال فريسة لداء الكلب، وعانوا ما عانوا من جفاف الحلق، وضيق الخناق، وجنون النفس، وصرخوا طويلا فترددت أصداؤهم في أذن صاحبنا الطفل، فارتاع فأسماه بعض القوم جباناً، وانطبع في ذاكرته أثر الكي الذي رآه وسمعه في دكان الحداد انطباع الحديد في لحم ذلك الفلاح البائس.
وسأل لويس أباه: (ما الذي يصيب الكلاب والذئاب بالجنون؟ ولم يموت الناس بعضة منه؟). وكان أبوه في زمان مضى جاويشاً قديماً في جيش نابليون، فرأى عشرات الألوف من الناس تمون من الرصاص، ولكنه لم يدر لم يموت الناس من الأمراض.
فكنت تسمع هذا الدباغ التقي يجيب ابنه السائل فيقول: (من الجائز يا بني أن شيطاناً من الشياطين دخل جلد الذئب، وإذا قضى الله لك بالموت فلا مرد لقضائه). هذا جواب، لو تأملته لوجدته على بساطته كأحسن ما يجيب به أكثر العلماء حكمة، وأغلى الأطباء أجوراً. ولم يكن أحد يعرف في عام 1831 لم يموت الناس من عضة الكلب المسعور، فأسباب هذا المرض كانت غامضة مجهولة.
أنا لا أحاول أن أدخل في روعك أن هذا الحادث الذي وقع لـ (بستور) في صباه كان السبب الذي حدا به في رجولته إلى كشف سبب هذا الداء وكشف علاجه. إذن لزاد هذا في جمال قصتنا، وكان كذباً وبهتاناً. ولكن الحق أن هذا الحادث راعه طويلاً، ولزمته ذكراه الأليمة طويلاً، وتفكر فيه طويلاً. والحق أنه أحس ريح الشواء تصعد من لحم الفلاح إلى أنفه إحساساً أشد ألف مرة ممن أحسوها، وأنه سمع صراخه فنفذ في نفسه إلى أغوار أبعد من أغوار الآخرين ممن سمعوها، واختصارا أريد أن أقول إن هذا الصبي كان مجبولاً من تلك الطينة التي يجبل منها الفنانون، وان ذلك الفن فيه عاون علمه يداً بيد في إخراج تلك المكروبات إلى الوجود بعد انزوائها مرة أخرى بوفاة (اسبلنزاني). ولا أحجم عن القول إن (بستور) في السنوات العشرين الأولى من حياته لم تظهر عليه شارة تنبئ بمصيره بحاثاً كبيراً، فإنه قضاها طفلاً جلداً 0على الشغل، ذا عناية بما يعمل، ولكن عين الناظر المتفقد لم تكن تقف عنده طويلاً. وكان يقضي فراغه في التصوير، فكان يصور النهر الذي يجري بجوار المدبغة، وكان يصور أختيه فيثبتان له ساعات حتى تتصلب أعناقهما، وتتوجع ظهورهما. وصور أمه صورا قاسية، ليس فيها من الملق شيء، وليس فيها من الجمال شيء، ولكنها أشبهت أمه.
وفي هذه الأثناء أهمل الناس حيوانات (اسبلنزاني) الصغيرة حتى نسوها، وقام العالم السويدي (لينيأس) يقسم الأحياء ويبوب أجناسها، فيجعل لكل جنس جذاذة، ويجعل من الجذاذات فهرساً عظيماً، حتى إذا جاء إلى تلك الأحياء الصغيرة، رفع يديه يأساً منها، قال:
إنها أحياء شديد صغرها، مختلط أمرها، وستظل على إنبهامها، وإذن فلأضعها في باب) (الأشتات الغامضة.
ولم تجد تلك الأحياء من يدفع عنها، ويتحدث بالحسنى عنها، غير ايرنبرج ذلك الألماني الشهير، ذو الوجه البض المليء، فانه في الوقت الذي لم يكن فيه يقطع المحيطات أو يمنح الأوسمة والمكافآت، كان يشتبك في مجادلات عقيمة عن هذه الحيوانات: ألها أمعاء كسائر الحيوان؟ أهي حيوان كامل الأعضاء، أم هي بعض صغير من كل كبير؟ أم هي ليست بحيوان قط، بل نبات؟
ظل (بستور) يكد في الدراسة ويكب على القراءة، وبدأت تظهر عليه وهو في كلية (أربو) سمات، وتتراءى في خلقه صفات، بعضها حسن وبعضها قبيح، ولكنها جميعاً خلقت منه شخصا التقت فيه المتناقضات بقدر لم تلتق على مثله في سواه. فقد كان أصغر التلاميذ في المدرسة، ومع ذلك أراد أن ينصب نفسه عليهم قيماً. كانت به رغبة شديدة في تعليم غيره من الأولاد، وعلى الأخص في حكمهم والسيطرة عليهم. ونال أمنيته فنصبوه قيماً. وقبل بلوغه العشرين ارتقى إلى منصب أشبه بمساعد في كلية بيزانسون وأجهد نفسه في العمل إجهاداً مريعاً. وأراد كل من حوله على أن يعملوا بمقدار ما يعمل. وكتب إلى أختيه المسكنتين كتباً شديدة اللهجة، بارعة الأسلوب، يحضهما فيها على العمل، وقد كانتا - طيب الله ثراهما - تبذلان كل ما في وسعهما من مجهود.
كتب إليهما يقول: (أختي العزيزتين، إن العزيمة شيء عظيم، لأن العزيمة يتبعها العمل، والعمل يتبعه النجاح دائماً، إلا في القليل النادر. وهذه الأمور الثلاثة - الإرادة، والعمل، والنجاح - تملأ الوجود الإنساني. فالعزيمة العزيمة، والعمل العمل، فسيفتحان

لكما أبواب السعادة والمجد. إن الطريق الطويل المجهد في آخره خير الجزاء عما صب الإنسان على ترابه من عرق، وأحفى فيه من قدم).

تلك عظاته الأولى في شبابه، وهي من عظاته الأخيرة عند ما بلغ السبعين - عظات بسيطة، ولكنها كانت تخرج من قلبه.

وبعث به أباه إلى باريس، إلى مدرسة النرمال، فاعتزم أن يقوم هناك بأعمال كبيرة، ولكنه أحس حنيناً أليماً إلى وطنه، وإلى روائح المدبغة التي خلف في بلده، فعاد إليها تاركاً في باريس آماله وأحلامه. . . ولكنه لم يغيب عنها طويلاً، فإنه رجع إلى باريس بعد عام، إلى

نفس المدرسة، وفي هذه المرة أطاق الإقامة فيها بعيدا عن بلده وأهله. وذات مرة خرج من محاضرة دوماس مغتمر الحس، فائض النفس، مغروق العين، يتمتم لنفسه، (ما أجل الكيمياء علماً! ودوماس، ما أمجده وأوفر حظه من محبة الناس!). عرف (بستور) حينئذ أنه سيكون كيميائياً كذلك عظيماً. ونظر إلى الحي اللاتيني بشوارعه القاتمة، وهوائه الغبيش، وإلى عيشة الخلاعة والتخليط التي يعيشها الناس فيها، فقال لا يرفع هذا الحي من وهدته إلا الكيمياء. كان (بستور) قد ترك الرسم والتصوير، ولكنه حفظ في قلبه روح الفنان الشاعر.

ولم يلبث أن بدأ أبحاثه، بين قوارير من كل رائحة كريهة، وأنابيب من كل سائل ذي لون بهيج، فاشتغل بها وتعثر فيها. وكان يحاضر صديقه الطبيب شبيوس ساعات عن بلورات حامض الدردي، ولم يكن إلا طالب فلسفة، فكان المسكين لا يجد مندوحه عن الإنصات كل تلك الساعات. وكان (بستور) يقول له: (إن من المحزن ألا تكون كيميائياً مثلي). كان يريد كل الناس على أن يكونوا كيميائيين، كما أراد كل الأطباء بعد أربعين عاماً أن ينقلبوا بحاثاً للمكروب.

وبينا كان يكب بأنفه الأفطس، وجبينه العريض، على كومات البلورات يمتحنها، كان رجلان، أحدهما فرنسي، والآخر ألماني، قد أخذ على انفراد يوجهان همهما إلى تلك الحيوانات الصغيرة الحية التي تدعى بالمكروبات، يعتقدان أنها حيوانات على صغرها خطيرة نافعة كالخيول والأفيال. أما الأول فكان اسمه كبنارد دي لا تور وكان رجلا متواضعاً متخاشعاً، إلا أنه كان يعرف كيف يكشف من الحقائق عن إبكارها. فذات يوم كان يدور خلال الجعة المختمرة في أحواضها، فأخرج من حوض قطرتين يعلوهما الرغوة، ونظر إليهما بمجهره فوجد أن حبات الخميرة قد نتأت على جوانبها نتواءت كما تتنبت البذور. فقال لنفسه: (إذن هذه الخمائر حية، لأنها تتكاثر كغيرها من الخلائق). وتابع أبحاثه فعرف أن الشعير لا يستحيل إلى (البيرة) إلا حيثما وجدت فيه هذه الخمائر الحية المتزايدة. (إذن فهذه الخمائر، وهي تمارس العيش، تخلق من هذا الشعير كحولاً). ونشر مقالاً صغيراً عما وجد، ولكن الدنيا رفضت أن تستمع إلى هذا الكشف المجيد. وكان (كنيارد) حيا، ولم يكن دعاء لنفسه، ولم تكن له صلة بالصحافة.

وفي نفس العام نشر دكتور ألماني يدعى إشفان مقالاً قصيراً، في جمله طول، وفيها إبهام، يقص على الناس فيه خبراً عجيباً، خال أنه سيقيمهم ويقعدهم، فإذا بهم يستمعون له بصدور ضيقة وأمزجة فاترة. قال: (أغل اللحم إغلاء طيباً، وضعه في قارورة نظيفة، ثم أدخل إلى القارورة هواء بعد إمراره في أنبوبة حمراء بما حولها من النار، يبق اللحم صالحاً عدة أشهر. ولكنك إذا نزعت القارورة سدادها، فأدخلت إليها الهواء العادي بما فيه من جراثيم، فلن يلبث اللحم أن تخبث ريحه، ويتنغش بأحياء أصغر ألف مرة من رأس الدبوس، هي التي تعيث فيه بالفساد).

لو أن (لوفن هوك) سمع بهذا لفتح عينيه وسعها لما سمع، ولو أن (اسبلنزاني) جاءه هذا الخبر وهو يصلي بالناس في الكنيسة لفض جمعهم وهرع إلى معمله. أما أوربا فلم تحرك ساكناً. وقرأت الخبر في الصحف فكان كبعض الأخبار. وكان (بستور) في تلك الساعة على وشك أن يكتشف أول كشف خطير كشفه في الكيمياء.

كشف بستور كشفه الخطير الأول وهو ابن ست وعشرين فبعد نظرات قريبة عديدة إلى بلورات صغيرة دقيقة، خرج على أن حامض الدردي يوجد على صور أربع لا على صورتين، وخرج على أن المواد الكيمياوية منها مركبات تتساوى جزيئاتها في كل شيء، في عدد ذراتها، وفي الحال التي تترابط عليها هذه الذرات يكاد المركبان يكونان مركبا واحداً، لولا اختلاف بسيط في وضع ذراتهما، وخرج على هذين الوضعين يختلفان

كاختلاف الشيء وصورته في المرآة.
تمطى (بستور) فاستقام ما انحنى من ظهره الوجيع، واستبان قدر الكشف الذي أتاه، فخرج مسرعاً من معمله الصغير المظلم القذر، فبلغ البهو الكبير، فالتقى بشاب فيزيائي لم يكنيعرفه إلا لماماً، فإذا به يطوقه بذراعيه، ويقوده خارج المعهد إلى حدائق لكسمبرج وتحت ظلال أشجارها الوريفة، أخذ يصب على صاحبنا الكلم صباً، ويغمره بالشرح والتفسير غمراً. لم يكن له مندوحة من هذا. ملأه الحديث فلم يستطيع كظمه. لابد أن يفيض به إلى أحد. لا بد أن يخبر الدنيا بالذي وجد.
لم يمض شهر حتى أثنى عليه الأشياخ من الكيميائيين، وحتى اصطحبه علماء أعمارهم ثلاثة أضعاف عمره. وتعين أستاذاً بجامعة استراسبورج وفي فترات ما بين أبحاثه وقر في نفسه أن يتزوج من ابنة العميد. ولم يكن موقناً من حبها، ولكنه جلس فكتب لها كتاباً وثق أنها لن تقرأه حتى تحبه. كتب لها. (ليس في ما يجذب فتاة صغيرة مثلك، ولكن ذاكرتي تطمئنني إلى أن الذين عرفوني حق المعرفة، أحبوني أصدق الحب).
وتزوجته، فصارت بذلك أشهر الزوجات في التاريخ، ومن أكثرهن مكابدة ومقاساة، من أكثرهن هناءة وسعادة من بعض الوجوه - وسنذكر في هذه القصة الكثير عنها.
ولما أصبح رب أسرة، زاد بذله من نفسه للعمل، فنسى ما تفرضه الزيجة الحديثة على الزوج من واجبات، وما تنتظره من محاسنات وملاطفات. وغلا فقلب ليله بالعمل نهاراً.
كتب في ذلك يقول: (أنا على وشك أن أرفع الحجاب عن خبايا غامضة. وأرى هذا الحجاب يشف كل يوم عنها، ثم يشف، ثم يزداد شفوفاً. وتطول الليالي عليّ في انتظار الصباح. وزوجي كثيراً ما تؤنبني للسهر، فأقول لها: (إنني بذلك إنما أخذ بيمينها إلى حظيرة الخالدين) واستمر ببحث البلورات، ويسلك لاكتنانها طرائق لا تلبث أن تنسد في وجهه فيرتد عنها خائبا، ويدبر التجارب كل سخيف مستحيل، تجارب لا تصدر إلا عن عقل مخبول، ولكنها كانت من ذلك النوع الذي لو صادف نجاحا لصير هذا المخبول عبقريا يدوي اسمه في الآفاق؛ فوضع الأشياء الحية بين مغناطيسيين كبيرين رجاء أن يغير بذلك كيمياء الحياة فيها. واخترع مكنات كمكنات الساعات، وعلق بها النباتات فأخذت تهتز كالبندول روحة وجيئة، وحسب بذلك أنه يهز ذراتها في جزيئاتها، وحسب أنها تحول عن أوضاعها القديمة إلى أوضاع جديدة تنتسب إلى الأولى انتساب الشيء إلى خياله في المرآة، أو كما ينتسب من حامض الدّردي جزئيه الأيمن بجزيئه الأشول. . وأراد أن يقلد الله فحاول أن يغير فصائل الأحياء
وكانت زوجه تسهر الليالي إلى جانبه، وتعجب بما يصنع، وتثق به، وتؤمن بكل الذي يأتيه. كتبت إلى أبيه تقول: (يجب أن تعلم أن التجارب التي هو قائم بها الآن، لو نجحت، فستخلق منه رجلاً يناهض في الذكر (نيوتن)، ويطاول في المجد (جاليلو)).
لسنا نستطيع اليوم أن نؤكد أن مدام (بستور) كانت تقول ذلك فهماً لما يقوم به زوجها، أم هو إعجاب المرأة ببعلها، وعلى كل حال فلم تتحقق آمالها هذه المرة فإن تجارب (بستور) هذه كان نصيبها الخيبة.
أحمد زكي
قصة
ومن يرقيه؟
للآنسة سهير القلماوي
في أيام عاشوراء كان قد اعتاد أن يجوب الطرق صباحاً منذ مطلع الفجر مناديا بصوته العذب العميق: (عاشورا المبارك. . . حليمة رقت نبينا محمد من العين. . .) وكان يحمل فوق رأسه مقداراً من مساحيق مختلفة الألوان والأصناف. كان الرجل فوق الأربعين، وسيم الطلعة، قوي البنية،؛ وكان أعذب ما فيه الصوت الحنون العميق المؤثر الذي يرسله كل صباح فيمتزج بنسيم الفجر ونور الشمس الباهت الرفيق، فيوقظ النيام أجمل يقظة وألذها. لم تكن هذه حرفته بالطبع، فقد طول العام يبيع الفواكه، إما في محل لقريب له، وإما سائرا هكذا في شوارع القاهرة؛ ولكنه اعتاد منذ أعوام عديدة أن يطوف هذه العشرة الأيام الأولى من العام الهجري وعلى رأسه هذه المساحيق ليرقي بها من يخاف شر العين والحسد.
كان الرجل يؤمن أشد الإيمان بالحسد وشر الحسد، أليس قد ذكره الله تعالى في قرآنه الكريم؟ ألم يأمر الله نبيه الكريم أن يقول (أعوذ برب الفلق. . . ومن شر حاسدٍ

إذا حسد) ألم يرو لنا كيف رقت حليمة النبي محمداً من (أعين) الحساد؟ أليس في الحياة اليومية ما يثبت لنا شر هذا الحسد؟ كانت لأخته طفلة جميلة، وكانت تتركها دائما قذرة الملابس وسخة الوجه لا يكاد يبين منها إلا أحجية وتمائم وتعاويذ، ولكنها لأمر ما نزعت هذه الأحجية يوماً، فإذا بها تمرض، وإذا المرض يشتد بها يوما بعد يوم، ولم يعد بخور ينفع، ولم تعد تمائم تصد إصابة (العين)، وإذا (العين) أصابت فليس لأصابتها مرد. وبعد أيام جاهدت الطفلة فيها جاهدت الطفلة فيها جهادا لا تحتمله إلا تلك الأجسام التي زودت حديثاً بالحياة، فهي حارة قوية بنيانهم؛ بعد أيام توفيت الطفلة الجميلة فتوفيت معها أفراح الأسرة ومباهجها إلى زمن طويل. أبعد هذا لا يعتقد (بالعين)؟

وفي ثاني يوم هذا العام كان الرجل يسير في الطريق كالمعتاد يرسل صوته الجميل وهو متلذذ بسماعه مرات ومرات بهذا النداء المستحب وتلك النغمة الساذجة البديعة: (عاشورا المبارك. . . حليمة رقت نبينا من العين)؛ وأطلت من النافذة فتاة في نحو العشرين، جميلة الصورة نجلاء العينين. وكانت عيناها أول ما يبدؤك منها لسوادهما وجمالهما. كانتا عينين

تجذبان النظر إليهما جذبا كما يجذب الحديد الحديد بفعل الجاذبية الطبيعية.

رفع الرجل بصره إلى النافذة فإذا بالعينين النجلاوين تنظران إليه في احتجاب غير خاف. فأرسل صوته العذب الجميل بندائه العذب كأنما يعلن إليها عمله. فابتسمت ثم أسرعت وتركت النافذة عاطلة من أجمل ما يمكن أن يزينها.

واستمر الرجل ينادي نداءه، ويكرر ويطيل النداء، ويتقن الغناء، ولكن الفتاة لم تعد؛ وأخيرا قال لنفسه: غدا تراها، أ، ك ستمر لثمانية أيام أخر. صبرا ففي الغد الفرج.

وفي الغد ما كاد يقترب من باب هذا المنزل حتى سمع صوتا يناديه: (يا عم يا بتاع عاشورا!) فالتفت صوب الصوت، فإذا العينان، عينا أمس تنظران إليه من جديد.

جلست الفتاة على حافة السلم، وقالت له في صوت خافت إن سيدتها نائمة، وإنها تخاف أن تصحو فتراها على تلك الحال فتطردها شر طردة. كل ما تريده منه هو أن يرقيها من عين خادم الجيران لأن هذه تغار منها لجمالها، وتنظر إليها نظرات شريرة. ولقد زاد في شر هذه النظرات أن خدم الجيران جميعاً لا يعبأون ولا يقتربون إلا من فتاتنا هذه، فزاد ذلك في نيران الغيرة، ومتى اشتدت الغيرة، فالحسد وشرور الحسد متوقعة منتظرة.

سمع الرجل هذه الاعترافات الساذجة فوجدها عادية، وأخذ يقوم بعملية الرقية خالطاً بعض المساحيق متمتماً كثيراً، وموصياً وصايا عدة، وكان بوده أن يطيل ويطيل لولا أن نبهته تلك بأن سيدتها قد تصحو، وفي تلك الصحوة عقاب لها أليم.

سار الرجل مبتعداً عن البيت مكرها، يحس في نفسه ألما لا يرى له مبرراً ولا سبباً؛ إنه كان في حلم، كان في سعادة ما بعدها سعادة، كان في سماء ثم هبط إلى الأرض، ثم صحا من الحلم اللذيذ فكانت صحوة أليمة بغيضة.

وأخذ ينادي فإذا صوته كأنما هو صوت إنسان آخر لا عهد له به. تبدل الصوت ولم يعد فيه الجمال الذي كان يلذه ويستمتع به. وعبثا حاول الرجل أن يقنع نفسه بأن هذه خيالات تتراءى له وحده، وعبثا حاول أن يقنع نفسه بأن الناس كلهم لم يشعروا بما طرأ على نفسه من تغير أثر في صوته.

عاد الرجل إلى أهله كئيباً ملولًا برماً بكل شيء، وأمضى ليله والعينان السوداوان النجلاوان تنظران إليه وتطيلان النظر، فيحاول الفرار منهما فلا تلبثان أن تعودا من جديد أقوى

تحديقاً وأعمق أثراً في النفس.

وفي الصباح عاد الرجل يجوب الطرقات منادياً كعادته. دار حول البيت المعهود مرة ومرات فلم ير إلا نوافذ مفتوحة كأنها فتحات القبور. لم ير العينين! وأخذ طريقه كالمعتاد، فسار وسار ينادي، ولكن في غير لذة وفي غير نشوة، وإذا به يسمع من بيت قريب: (الله! ما لصوت الرجل تغير؟ يا خسارة! كان صوته جميلاً وحلواً! لا بد أنه مريض!).

لم يعد مجال للشك. لقد فقد هذا الصوت الذي كان له ذخراً وأي ذخر: أصابته العين ولم يصبه إلا هاتان العينان السوداوان الواسعتان، حُسِد وجازت فيه عين الحسود!

عاد إلى أهله ورقى في نفسه ورقاه أهله، ولكن الرقية ضاعت سدى. ولم يكن من يتقن الرقية إى هو، ولا يمكن أن يقوم بها لنفسه كما يقوم بها لغيره. فالرقية فن له حركاته وأعماله ومراسيمه، واليوم أصابته هو العين، فيا ترى من يرقيه؟

سهير القلماوي

بين الشرق والغرب

للأستاذ محمود الخفيف

غَنَّ يا شِعرُ فقد طالَ البكاءُ ... وَتَطَلَّعْنا إلى بعض العَزاءْ
غَنَّ بالشرق وماضي عِزِّه ... حان أن يُطربَنَا هذا الغِناءْ
صُغْ من اللَّحْنِ نشيدَ الأمَلِ ... وأهازيجَ الضُّحى المُقْتَبَلِ
هات يا شعرُ أحاديثَ العلىَ ... لا تَقِفْ عند حَدِثِ الأوَلِ
عَلِّم الأشبالَ في وثبتِهِمْ ... كيف يرقون إلى أوج العلاء
أنشِد الألحانَ لِلصُّبح الوليدْ ... واملأ الآفاقَ من هذا النشيدْ
أيقِظِ النوَّامَ من غَفْوَتِهِمْ ... وتَرنَّمْ بالأماني من جديد
رَفَّ نورُ الصبح في هام الشجَرْ ... وانجلتْ آياتُه ملء البَصَرْ
وسَرَت في الكون من أنفاسه ... نَفْحَةٌ نمَّتْ بأحلام الزَّهَرِ
عَرَفتْ رُوحي شَذَا فانْتشَتْ ... ورأى قلبي بها معنى الرَّجاءْ
هِيهِ ما أجمل أطياف الشّفَقْ ... تَتَراءى بَعدَ أن طال الغَسقْ
صورٌ ضاحِكةٌ خافِقَةٌ ... ضَحِكَ القَلبُ إليها وخَفَقْ
لُمَعٌ توحي أحاديثَ الخلودْ ... عن جلال الشرق في صُبح الوجودْ
وعن العِزَّةِ إبَّان الضُّحى ... وبنو الغرب على الذُّل قعودْ
شَدَّ ما تبْهجُني تلك الرُّؤى ... وسَناَ أيامِهاَ الغُرِّ الوضاءِ
هِمْتُ بالشَّرقِ نورِهِ ... وَهَفَتْ نَفْسي لخافي سره
كم ملأتُ العينَ من ألوانه ... واجْتَلَى قلبي الرُّؤَى من سِحْرِهِ
ولكم كان لفكري مَسْرَحاَ ... كلما أوْحى لشعري أفْصَحاَ
أبعَثُ الغابِرَ من أخباره ... نَسَماَتٍ كالصَّباَ أو أرْوَحا
نسماتٍ يهمسُ المجدُ بهاَ ... تلهم الأبناء معنى الكبرياء
خُذْ من النيل حديثَ الغابرينْ ... وتأمَّلْ في القرون الأرْبعينْ
واستَزِدْ دِجْلَةَ من أخباره ... عن بنيهِ النابهينَ الأوَّلينْ
وردِ الهندَ ففي غاَباتها ... وُلِدَ الساحرُ من آياتها
واهبط الصينَ وَزُرْ مُستْلَهِماً ... مَهْدَ (كوْ نفُشيوس) في جنَّاتِها
سوف تلقى الشَّرْق إما جئته ... مَنبتَ الحكمةِ أرْض الحكماء
نشأ الإيمان في أحضانهِ ... حسبُه ما فاض من إيمانهِ
حسبُه النورُ الذي أطْلعَهُ ... فوق ما قدَّمَ من إحسانهِ
أطلعَ الله الشموسَ النيراتْ ... فجلوا فيه ظلامَ الشُّبُهاَتْ
بلغ الإنسان في أرجائه ... بهدى الخالق أعلى الدَّرَجات
شدَّ ما يبعثُ في نفسي الهدى ... مَهْبطُ الوحي ومهد الأنبياء
آنس النارَ بواديهِ الكليم ... قبساً من جانب الطورِ القديم!
فأراه الله من آياتهِ ... وحباه العلم والرأيَ القويمْ
واجتبي عيسى من الشرق نبياً ... فروَى الآياتِ في المهدِ صبيًّا!
بشَّرَ الناسَ فتيًّا برسولٍ ... يحملُ الحق كتاباً عربيًّا
فَطنَ الدَّهْرُ إلى مقْدمِهِ ... يوم هزَّ الكونَ صوتٌ من حِراءْ!
يا بني الغرب لنا العزُّ التليدْ ... والمعاني الغُرُّ والماضي المجيدْ
لا تقولوا أدبَرَتْ أيامُناَ ... وتباهُونا بنارٍ وحديدْ
كم رَأينا بينكم من أثَرَهْ ... وشهدنا نارَكم مُستعرةْ
ضَربَ الحرصُ على آذانكم ... وأذاع الشرُّ فيكم نُذرَهْ
كل يوم خبرٌ عن فِتْنَةٍ ... ينذِرُ الأرضَ جميعاً بالفناءْ!
كم تفاخرتم بعلمٍ وذكاءْ ... وسَخِرتُم من خيال الشعراءْ؟
ضاق وجهُ الأرض عن همتكم ... فتلاقيتم على متن الهواءْ!
ليت شعري هل تبادلتم سلاما ... أم ملأتم جانبَ الجوَّ خصاماً؟

هل أفادَ العِلمُ إلا فِتنةً ... وغروراً يبعث الموت الزؤاماَ؟
حسبكم في الفخر ما أجريتمو ... من دُموع وأرقم من دماءْ!
خبِّروني كم لديكم من أجيرْ ... بات يبكي مثلما يبكي الأسيرْ؟
كم فقير بات يشكو ذِلةً ... وهوانا وهْو بالرفق جدير!
لا ترون العيش إلا نهَمَاَ ... هل عفَفتم أو عرفتم ندَماَ؟
قد تَمشّى السُّقم في وجدانكم ... فرأيتم كل عطفٍ حُلُماَ
أين هذا البغيُ من حرِّيةً ... طالما غازلتموها وإخاءْ!
كم بلونا من أفانين العذابْ ... ورأينا منكمو فتْكَ الذئابْ
كم فضحْنا من طِلاءِ خادع ... فوق ما تخفون من ظفْرٍ ونابْ!
تلك أعراض البلاءِ القاتلِ ... وعلاماتُ الفناءِ العاجلِ
قد ذَهِلتم من مزايا جنسكم ... واغتررتم بحطامٍ زائلِ
يوبِقُ الرُّوحَ لديكم جَشَعْ ... هل عَرَفتم غير رُوح الكَهرُباءْ
مالت الشمس إلى أفق المغيب ... وسيغشي أرضَكم ليل قريبْ
قد تلفتتم إلى الخلف كما ... لو رأيتم شبحَ الليل الكئيب
هل فزعتم من دنوَّ المنحدَرْ ... فخننتُم للصباح المنتظر؟
أم ترى آمنتمو بعد الجحود ... تؤمن النفس إذا الموتُ حضر
مالكم عدتم إلى الروح وما ... شاع عنها من ظهور وخفاء؟
هو ذا الصبح بدا في (يوكهامه) ... هل تبينتم على الأفق ابتسامَهْ؟
عادت الشمس إلى مطلعها ... أبداً لن يُخْلِفَ الكون نظامَه
نهض المشرق من غفوتِه ... واهتدى بالحق في نهضته
جعَلَ الماضِي وحياً وهدى ... ومضى يسعى إلى غايته
انظروا تلقوه في إقدامه ... ظافرَ الأيام خَفَّاقَ اللواء
محمود الخفيف

ابن ماجد أسد البحر الهائج

للأستاذ قدري حافظ طوقان

لا يظنن القارئ أننا نستطيع أن نوفي ابن ماجد حقه بمقالنا هذا، فذلك ما لا ندعيه وما لا يمكن أن نقول به، ولا سيما أن ناحية الملاحة عند العرب لا تزال غامضة لم تعط حقها من البحث. والتنقيب عدا أنها لا تدخل في دائرة اختصاصنا. وجل ما أقصده من هذه العجالة إعطاء فكرة عن ابن ماجد عسى أن يكون في ذلك حفز الهمم للعناية بالمآثر والإسلامية والآثار العربية في شتى النواحي، وعسى أن يكون في ذلك إثارة العزائم للكشف عن آثار أحاطها إهمالنا بالغموض والإبهام. إن حياة ابن ماجد حافلة بالأعمال، وقد تركت آثارا جليلة، وهي صفحة لامعة في التراث الإسلامي، يحق لنا أن نباهي أمم الأرض بها كما يباهي البرتغاليون بصفحة فاسكو دي غاما الذي طاف حول الأرض. وجدير بالمنقبين من أبناء هذه الأمة أن يخرجوها للنشء حتى تثير فيه ما يحي خصائصه الممتازة. نريد بل نطلب من أحد المتخصصين في التاريخ الإسلامي أن يتخصص في ناحية الملاحة عند العرب والمسلمين، وفي تاريخ إنشاء الأساطيل عندهم، ونريد منه أن يبحث ويدقق، حتى يخرج من ذلك بسفر جامع يكون جزءاً من الثقافة الحديثة يمكن للخاص والعام أن يستفيد منه، وإن في تلك الاستفادة ما يخلق في النفوس روح الإقدام وروح الاعتقاد بالقابلية والنبوغ، ولا يخفى ما في هذا كله من قوى تدفع بالأمة إلى المجد والسؤدد.

كان العرب في بدء فتوحهم يخافون البحر ويهابونه. وكيف لا يخافونه ويهابونه، وهم أهل صحراء منقطعون عنه لم يتعودوا رؤيته فكيف بركوبه. . ولم يكن الخلفاء الراشدون يشجعون على ركوب البحار لخوفهم على أرواح المسلمين؛ وقد جاء أن الخليفة عمر بن الخطاب كان لا يشجع على ركوب البحر، وكثيراً ما عاقب الذين يخوضون عبابه، ويقال إنه عنف عرفجة بن هرثمة الأزدي لركوبه البحر حين غزوه عمان. وقد يكون السبب في منع الخلفاء هو خوفهم على المسلمين لنهم لم يكونوا أهل بحر ولم يتعودوا السير على أعواده. وبقى الأمر على هذه الحال إلى أن اتسعت الفتوح الإسلامية والعربية، وأصبح من العسير بل من المستحيل حماية بعض البلاد، ولا

سيما وقد أصبح المسلمون مجاورين الرومان وقد رأوا أن الحاجة ماسة لحماية الشواطئ، ولقد اتخذوا في إنشاء السفن مثال الرومان؛ ومن الغريب أنك تجدهم في مدة وجيزة قد صارت لهم دراية وخبرة بالبحار وبركوبها، وقد طافوا أشهرها وقهروا محيطات العالم، واتصلوا بالبلاد البعيدة وعرفوا عنها الشيء الكثير، مهروا في صناعة السفائن، وأنشئوا لذلك دورا عظيمة، وصار لهم أيضا في مختلف الأنحاء أساطيل أصبحت عرائس البحار وزينة الشواطئ، متقنة الصنع كثيرة العدد تفننوا في عملها، وأدخلوا تحسينات جمة على آلاتها، وضعوا لها الخرائط والمصورات البحرية، كانوا على علم بالأوقات الملائمة لخوض البحار وعلى معرفة تامة بأوقات هبوب الرياح، اتخذوا المنائر في المرافئ وفي المواضع الخطرة لهداية السفن، واستعملوا الإبرة المغناطيسية لتعيين الجهات، ولقد وصل الأسطول الأندلسي في عصر عبد الرحمن الناصر إلى مائتي مركب، وكذلك كان أسطول أفريقيا إذ وصلت أساطيل المسلمين في دولة الموحدين من العظمة والفخامة ما لم تصله في أي عصر آخر، وبلغت المراكب في أيام المعز لدين الله بمصر ستمائة قطعة. ولسنا الآن في موقف نستطيع معه تعداد أمجاد العرب والمسلمين في الملاحة، ولسنا أيضا في موقف نتمكن معه من سرد مواقع المسلمين البحرية وبراعتهم في ذلك. فهذا كله لا يزال محاطا بسحب الإبهام، ولم ينفض عنه بعد غبار الإهمال؛ ومما يؤلمنا أننا إلى الآن لم نسمع عن جماعات علمية أو منقبين أقاموا أنفسهم لهذه البحوث وصرفوا أوقاتهم في تهيئتها، وعلى كل حال يمكننا القول من مطالعة كتب التاريخ التي بين أيدينا أن العرب وصلوا في الملاحة إلى درجة لم يصلها غيرهم من قبلهم. إذ جعلتهم سلاطين البحار وغزاة المحيطات، وكان لذلك تأثيرا كبير على فتوحاتهم، فلقد تمكنوا بأساطيلهم من فتح سردينيا وصقلية وقبرص ومالطة وأقريطش، وكذلك فتحوا بها كثيرا من شواطئ البحر الأبيض المتوسط مما يلي أوروبا إلى بريطانيا في الشمال. وقد بقي العرب أسياد العالم في البحار إلى أن قامت عليهم قيامة الغرب بحروبه الصليبية، وإلى أن قامت عليهم أيضا المغول والتتار، وهبت عليهم عواصف الفتن والقلاقل من كل جانب، فضعف شأنهم وأضاعوا عزهم ومجدهم، واستولت عليهم غفلة طويلة وجمود مروع كما كاد يذهب بالكيان والخصائص التي يمتاز بها العرب على غيرهم، وكاد يستحيل كل هذا إلى موت أكيد . . .

قلنا أن الأمة العربية وصلت إلى درجة في البحرية لم يصلها غيرها من الأمم التي سبقتهم،

أخضعوا البحار لأساطيلهم، ولم يعبأوا بمدها وجزرها، وساحوا بسفنهم المحيطين الهندي والهادي، وأصبح لهم دراية وخبرة في الملاحة، وإن أمة كان هذا شأنها، وكانت هذه درجتها لمن الطبيعي أن يظهر فيها من مهر في الملاحة وبرع في البحرية واطلع على أسرارهما ووقف على دقائقهما، ومن الطبيعي أيضا أن يظهر فيها من ألف المؤلفات العديدة، ووضع الكتب الكثيرة في علم البحار، ولا عجب إذن إذا كانت هذه المؤلفات وتلك الكتب منهلا نهل منه كثير من ملاحي الغرب، ولا عجب إذن إذا استعانوا بها في تسيير سفائنهم ورسم الخرائط والمصورات البحرية، وفي معرفة المواقع والمرافئ والخلجان. ومن هؤلاء الذين نبغوا في الملاحة ووقفوا على دخائلها وعرفوا أسرارها ابن ماجد الذي ظهر في القرن التاسع للهجرة؛ وهو شهاب الدين أحمد بن ماجد بن محمد بن معلق السعدي بن أبي الركائب النجدي، كان يلقب نفسه بشاعر القبلتين، وقد حج إلى الحرمين الشريفين ويعرف بسليل الأسود، وكان أبوه ومن قبله جده من الذين اشتهروا في الملاحة، حتى أن جده كتب رسالة في الملاحة في البحر الأحمر خدمة للسفن التي تقل الحجاج، ولقد زاد ابن ماجد على هذه الرسالة نتيجة اختباراته الشخصية. من هنا يظهر أن ابن ماجد منحدر من عائلة اشتهرت بالشئون البحرية والاعتناء بالملاحة، فلا غرابة إذا نبغ هو في ذلك، ولا عجب أيضا إذا فاق أجداده في هذا كله. وقد اعترف بعض المنصفين من علماء الإفرنج بفضل العرب (وخصوصا ابن ماجد) على الملاحة البرتغالية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر للميلاد. وقد قال الأستاذ فران الفرنسي إن الفضل في تفوق الملاحة البرتغالية يعود إلى العرب والأستاذ فران هذا هو الذي ترجم كثيرا من مؤلفات ابن ماجد وقد علق عليها، وقد صدرها بعنوان (مؤلفات ابن ماجد الملقب بأسد البحر الهائج

ربان فاسكو دي غاما الذي طاف حول الأرض.) وثبت لبعض علماء أوربا أن فاسكو دي غاما استعان بابن ماجد في تسيير أسطوله حول الأرض من مالندى على ساحل أفريقيا الشرقية إلى قاليقوت في الهند. ووضع ابن ماجد مؤلفات عديدة ورسائل كثيرو في علم البحار وكيفية تسيير السفن، هي من الأهمية العلمية والتاريخية بمكان عظيم. ومن مؤلفاته القيمة المعروفة كتاب اقتناه المجمع العلمي العربي بدمشق وهو موجود الآن في دار الكتب العربية الظاهرية. واسم هذا الكتاب (كتاب الفوائد في معرفة علم البحر والقواعد)، وقد كتب عنه المرحوم العلامة الشيخ سعيد الكرمي في الجزء الثاني من المجلد الأول من مجلة المجمع مقالا جاء فيه: (والكتاب عبارة عن مائتي صفحة كل صفحة 23 سطرا يتضمن معرفة سير السفن في البحر بمعرفة منازل القمر ومهب الرياح ومعرفة القبلة. . .) ونجد في هذا الكتاب كيفية الاستدلال بمنازل القمر والروج على البلاد التي يقصدها المسافر، ويتبين منه أيضا أن المؤلف اتخذ بنات نعش وسهبلاً والناقة والحمارين والعيوق والعقرب والنسر الواقع والأكليل والسماكين والتير من جملة الأدلة التي تساعد المسافرين في الأسفار، وقال إنه علم ذلك بالاختبار، واعترف بأن ثلاثة من مشاهير الربابين سبقوه إلى ذلك، وأن الفرق بينه وبينهم (أن ما ذكره هو صحيح مجرب، وما ذكره أولئك ليس على التجريب منه شيء. . . .) ويوجد أيضاً في هذا الكتاب عرض بعض الثغور على الأقيانوس الهندي والبحر الصيني وشكل البرور ومراسي ساحل الهند الغربية والجزر العشر الكبرى المشهورة، وفيه وصف تفصيلي للبحر الأحمر بما فيه مراسيه وأعماقه وصخوره الظاهرة والخفية، وفيه أيضا بعض أسعار تتعلق بالملاحة والبحار، ويتبين من قراءة بعضها أنه كان معجبا بنفسه وبما استنبطه في علم الملاحة إذ قال:

يفوتك غفلة نظمي ونثري ... وتزعم أن ليلك ذو نهار
فوالحرمين لم تظفر بعلم ... يسرك في البحار وفي البراري
إذا ما الراميات رمتك فاعلق ... بتصنيفي وحكمي في المجاري

ويجد القارئ في هذا الكتاب بعض أشعار تعلي من شأن العلم وتحببه للناس ويقول ناظمها إن طالبه والساعي إليه يزداد رفعة، وإن الذي لا يسعى إليه ولا يهمه منه شيء يورثه الله الذل والهوان. . .

العلم لا يعرف مقداره ... إلا ذوو الإحسان عند الكمال
من ناله منهم ترقى به ... ما بين أعيان الملا واستطال
ومن تراخى عنه هوناً به ... أحوجه الله لذل السؤال
فذاك بين العلي أخرس ... أقعده الجهل بصف النعال

ولابن ماجد رسائل عديدة أكثرها منظوم رجزا كرسالة (حاوية الاختصار في علم البحار) ففيها بحث عن العلامات التي يجب على الربابين معرفتها استدلالا على قرب البر وعن منازل القمر ومهاب الرياح وعن السنة الهجرية والرومية والقبطية والفارسية وعن طريق السفن على ساحل العربية والحجاز وسيام وشبه جزيرة ملقا وأطراف بلاد الزنوج وعلى سواحل الهند الغربية، وسواحل القرومندل والناط والبنغال وسيام حتى جزيرة بليطون وجاوة والصين وفرموزة، وعن سير السفن على سواحل جزر جاوه وسومطرة والغال ومدغشكر واليمن والحبش والصومال وجنوبي العربية والمقران، وعن المسافات بين الثغور العربية والثغور الهندية، وعن عرض الثغور على البحر الهندي. وله أيضا رسالة (المعرية) وفيها بحث عن الخليج البربري، ورسالة تبحث في معرفة القبلة في جميع الأقطار يقول في أولها: (لما رأيت الناس يميلون عن معرفة القبلة وليس لهم أصل علم يعرفونها به خصوصا في المدن اللواتي بقرب البحر وجزره التي يمر بها المسافر، نظمت هذه الأرجوزة وأقمتها بأوضح الأدلة وأساسها بأربعة وجوه: الوجه الأول بطول مكة المشرفة وعرضها وطول البلد الذي فيه الإنسان وعرضه، الوجه الثاني على الجدي، الوجه الثالث على بيت الإبرة، الوجه الرابع جهات الكعبة الأربع. . . .) وله أيضا أرجوزة بر العرب في خليج فارس، وأرجوزة السير في البحر على بنات نعش، وقصيدة تبحث في علم المجهولات في البحر والنجوم والبروج وأسمائها وأقطابها، وأرجوزة في بيان بر الهند والعرب؛ وله أيضاً قصائد أخرى بعضها

يبحث في معرفة الجهات من الشعري والنسري ومن سهيل والسماكين، وله أراجيز غير التي مر ذكرها تتضمن ذكر المراسي على ساحل الهندي الغربية، وعلى ساحل العربية، وتبحث في فائدة بعض النجوم الشمالية في سير السفن، ويذكر فيها أيضا بعض الكواكب المفيدة للملاحة، ومنها ما يبحث في الطرق البحرية من جدة إلى جنوبي بلاد العرب فبعض بلدان وسواحل أخرى، ومنها ما يبحث عن الصخور البحرية والأعماق وعلامات البر وعن الحيوانات التي تعيش في الماء كالضفادع والأسماك والحيتان، وعن علم الفلك والملاحة. . . الخ.

هذه بعض مؤلفات ورسائل ابن ماجد أتينا على ذكرها ليتبن للقارئ الكريم أنه وجد في الأمة العربية من برع في الملاحة ومهر في تسيير السفن ومن ألف في ذلك المؤلفات القيمة والرسائل الطريفة. ومن الغريب أن يجد المرء في هذه المؤلفات وتلك الرسائل ابتكارات ونظريات في علم البحار ما كنت لتخطر على بال المتقدمين، وقد يعجب البعض إذا قيل له

إن أكثر هذه المؤلفات ضاع وراح ضحية الإهمال وعدم الاعتناء وأن الموجود منها (وهو القليل) الذي عثر عليه بعض المنقبين والباحثين من الفرنجة بقي سنين عديدة المرجع الوحيد الذي يرجع إليه الملاحون في أوروبا. ولقد بقيت القواعد التي وضعها ابن ماجد من القرن الخامس عشر للميلاد إلى منتصف القرن التاسع عشر منهلا عاما لملاحي الشرق والغرب. وذكر برتن الإنجليزي أن بحارة عدن في سنة 1854 كانوا قبل السفر يتلون الفاتحة إكراما لابن ماجد مخترع الإبرة المغناطيسية. ومما لا ريب فيه أن نسبة اختراع بيت الإبرة إلى ابن ماجد خطأ وليس فيه شيء من صحة، فقد ثبت لدى العلماء والباحثين أن استعمال الإبرة كان معروفا في أواخر القرن التاسع للهجرة أو الخامس عشر للميلاد، فالقول بأنه هو مخترع الإبرة غلط، وقد تكون النسبة آتية من مهارته في تسير السفن وبراعته في فن الملاحة ووقوفه على أصول الإبرة وكيفية استعمالها وفهمه المبادئ المنطوي عليها عملها وتأليفه الرسائل فيها.

ولقد ظهر في الأمة العربية كثيرون أمثال ابن ماجد من الذين أتقنوا الملاحة وتسيير السفن وعرفوا عنها شيئا كثيرا، وظهر فيها أيضا من ألف في ذلكالتأليف القيمة التي بقيت قرونا عديدة منبعا يستقي منه الأوربيون، وقد عرفوا كيف يستفيدون منها ويستغلون محتوياتها لما يعود عليهم بالتقدم والرقي، ولو جئنا نعددهم ونذكر خصائص كل منهم لطال بنا المطال، ولخرجنا عن موضوع هذا المقال، ولكنا نكتفي بسرد بعض الربانين والملاحين الذين قطعوا أشواطا بعيدة في علوم البحار وفي وضع الكتب الممتعة عن ذلك. من هؤلاء محمد بن شاذان وسهيل بن أبان وليث بن كهلان وسليمان المهري وعبد العزيز بن أحمد المغربي وموسى القندراني وميمون بن خليل وغيرهم. . .

هذه ترجمة موجزة لملاح عربي مهر في الملاحة ونبغ في التأليف وترك آثارا . . . . . جليلة كانت خير معين للذين أتوا بعده من رباني الشرق والغرب، إذ كانت لهم حلولا لألغاز علم البحار ومفتاحا للاطلاع على أسراره والوقف على دقائقه. ولا ندعي أننا في هذا المقال قمنا بشيء من الواجب نحو ابن ماجد فقد قام بواجبه غيرنا من الفرنجة وقد عرفوا قدره أكثر منا ولم نكن نحن في هذا المقال إلا عالة على بحثوهم ونتاج قرائحهم، وجل قصدنا من هذه الترجمة أن تثير في بعض الذين يعنون بالتاريخ الإسلامي اهتماما يجعلهم يوجهون

بعض عنايتهم لناحية الملاحة عند العرب لينفضوا عنها غبار الإهمال ويظهروها على حقيقتها واضحة جلية لا تشوبها غموض، إذ الوقوف على هذه النواحي والتعرف على مآثر السلف في العلوم والآداب والفنون والاطلاع على سير رجالهم وما أدوه من جليل الخدمات للحضارة يخلق في النشء العربي روح الاقتداء بهم وروح اقتفاء آثارهم، وما يذكي فيهم الشهامة وحب ركوب المخاطر، وإن في هذا كله ما يخلق أيضا روح الإقدام وروح المغامرة، وهذا هو الذي يوصلهم إلى ما يصبون إليه من عز لأمتهم ورفعة لقوميتهم وإعلاء لشأن حضارتهم.

نابلس

قدري حافظ طوقان

كتاب حياة محمد
تأليف الدكتور محمد حسين هيكل
بقلم الأستاذ م. ف. ا
حل العام الهجري الجديد، ونرجو أن يكون حلوله مباركاً على العالم أجمع، وأن يشمل العالم من نعمة دين الهجرة في العام الجديد أكثر مما ناله في العام المنصرم. إذا تطلب الإنسان مثلاً على في الحياة تطلع إلى دين محمد، وإذا تطلب الطمأنينة لجأ إلى كنف دين محمد، وإذا اشتدت به الحياة المادية جنح إلى روحانية دين محمد، فأي شيء أشهى إلى النفس من أن تقرأ شيئا عن محمد في مستهل العام الهجري الجديد؟
هكذا قد قرأت كتاب الأستاذ المفضل الدكتور محمد حسين هيكل (حياة محمد) عند ميلاد هلال العام الجديد، فكانت بشرى، وكانت مسرة، وكانت عظة. والدكتور هيكل شاعر النفس، وإن لم يقل الشعر. لم يكن لي عهد بقراءة شعر له، حتى أعرف فيه هذه الصفة. غير أني قرأت له الكتاب، فإذا به في بعض نواحيه شعر يملأ النفس ويثير أشجانها. ولئن كانت كتب السيرة كثيرة، فإن كتاب الدكتور هيكل له ميزة على سائر السير بأنه قد انعكست فيه مشاعر الكاتب وخلجات نفس الإنسان، فإذا قرأه القارئ وجده يصور صورة حية تامة ناطقة في ثنايا ذكر الحوادث ووصف الحالات.
يبلغ الكاتب زيارة الرسول مع أمه آمنة. ثم عودتها منها وموتها في الطريق، فلم يشأ أن يذكر تلك الحادثة وحدها، بل لها صورة ظاهرة الألوان، حية تفيض عطفا وقوة فيقول: (فلما كانوا بالمدينة أرت الغلام البيت الذي مات أبوه فيه، والمكان الذي دفن به، فكان ذلك أول معنى لليتيم انطبع في نفس الصبي، ولعل أمه حدثته طويلا عن هذا الأب المحبوب الذي غادرها بعد مقامه معها أياما معدودة ليجيئه بين أخواله أجله.
ولما تم مكثهم بيثرب شهراً اعتزمت آمنة العودة، فركبت وركب من معها بعيريهما اللذين حملاهما إلى مكة، فلما كانوا في منتصف الطريق مرضت آمنة بالأبواء وماتت ودفنت بها، وعادت أم أيمن بالطفل إلى مكة منتحباً وحيداً يشعر بيتم ضاعفه عليه القدر فيزداد وحدة وألما. لقد كان منذ أيام يسمع من أمه أنات الألم لفقد أبيه وهو جنين ما يزال، وهاهو ذاقد رأى بعينيه أمه تذهب كما يذهب أبوه، وتدع جسمه الصغير يحمل هم اليتم كاملاً).
ولو شئنا أن نضاعف ضرب الأمثلة لضاق مجال الكلمة عن إيرادها، فالحق أن الكاتب قد أبرز في الكتاب عاطفة تكسو ما بين سطور السنين، وتحي جسد الحوادث إحياء ولقد وفق الكاتب في معالجة السيرة مراعاة التناسب بين أجزائها، فكان يطيل الوقفة عندما يجمل به الوقوف عنده، وكان يمر سريعاً عندما يجمل الإسراع في ذكر الحادثة.
ونذكر على سبيل التمثيل وقفتين له أحسن في التريث عليهما من الدلس: أعني مسألة إسماعيل ونسبة العرب إليه، ومسألة الغرانيق العلا. فأنه في الوقفة الأولى كشف عن تلك البدعة المضلة التي يقصد بها إلى التشكيك في أمر يكاد يكون من العقائد، فأبان عن الوهن في حجة المشككين إبانة لا تدع مجالاً للريب؛ وفي الوقفة الثانية عرض لحجج الخائضين فانتظمها جميعا في طعنة قاضية. ولست أستطيع أن أذكر شيئا من تلك الحجة، فإن المجال هنا لا يتسع لها ولا يصلح إيراد قطعة من حجة لا تكون مجزئة.
على أن وقفاته التي من هذا القبيل كثيرة، بل هي تتخلل الكتاب في كل الفصول وفي كل وجوه البحث.
غير أننا مع إعجابنا بالكتاب وأسلوبه، ونقده وطريقته، لا يسعنا إلا أن ننكر منه أشياء إلا تكن في صميمه فهي في حواشيه، نعني بذلك أولا عنايته بقول من قال السوء من أعداء الإسلام، فقد أورد من أقوال بعض الأفاكين من أهل الضلال والتضليل ما يجرح الأذن سماعه، على حين لم يكن ذكره في صميم الموضوع ولا في عرض الحجة. فأي شيء يجديه علينا ذكر سباب شنيع للرسول الكريم ورد على ألسنة بعض أهل الحقد والزيغ؟ ولقد قيل شيء من أمثال ذلك في أيام الجاهلية، فتعفف أهل السير عن إيراده، وخيراً ما فعلوه، فإن المؤمن إنما يتعرض لحجة خصمه، لا لسبابه ولا لفحشه، وما كان أغنانا أن نُسمع الناس بعض ما نز من قلوب هؤلاء الأنجاس.
وأمر آخر نذكره عرضاً وننبه إليه الأستاذ الكبير، وهو بعض ما سها فيه عند ذكر السنين، ولعل ذلك كان خطأ في الطبع أو المراجعة، وذلك مثل قوله في حوادث

اليمن؛ وما كان فيها من الحرب في أيام جوستنيان أنها وقعت في القرن الخامس الميلادي والمقصود هو القرن السادس، لأن حكم جستنيان يقع فيما بين سنتي 527، 565 بعد الميلاد؛ وكذلك قوله بعد ذلك هذا النزاع الذي كانت اليمن مسرحه منذ القرن الرابع المسيحي، كما ننبهه إلى
قوله عند ذكر الأوس والخزرج إن الخزرج كانت على وشك أن تختار أحد زعمائها ملكاً وهو (عبد الله بن محمد)، يقصد به عبد الله بن أبي.
ومن هذا القبيل قوله في فارس قبيل الإسلام (على أن فارس رغم انصراف شيرويه إلى مسراته كانت ما تزال في قمة مجدها). والحق لقد كانت إنما تتعلل بماض مجدها، على حين كانت نهب الفتن ومعترك الأطماع وميدان الخطط الحربية التي تدبرها جارتها الدولة الرومانية.
ولا يفوتنا أن ننبه إلى شيء من التجوز في سياق القول قد يؤدي إلى شيء من سوء الفهم، نعني ما جاء في وصف شباب الرسول وما مالت نفسه من لهو الشباب، فقد أورد المؤلف الخبر عن الرسول إذا كان صبياً تحدثه نفسه أن يلهو كما يلهو الشباب، فأفضى إلى زميله ذات مساء أنه يود أن يهبط إلى مكة يلهو ويعبث عبث الشباب في جنح الليل، وطلب لذلك إليه أن يقوم على حراسة أغنامه إلى آخر ما قال:
وذكر القصة على هذا النحو مخالف لما هو وارد في السير، لأنه قد يلقي في ذهن القارئ الخالي الذهن أن الرسول المعصوم قد كان في نفسه في شبابه ذلك الميل المضطرم إلى العبث واللهو. فليس في الأمر أكثر من أن الرسول عليه الصلاة والسلام طلب إلى زميله أن يحرس غنمه حتى ينزل إلى مكة ليسمر فيها كما يسمر الفتيان، فلما بلغ أعلى مكة سمع صوت غناء ومزامير، فسأل عنها فقيل له عرس فلان وفلانة، فعرج على العرس يلتمس السمر، ولكنه لم ينشط إلى ذلك الطرب، بل ضرب الله على أذنه فنام، وبذلك حفظه الله من أن يرد أقل موارد اللهو، إذ لقد كان قلبه منصرفاً منذ نشأ إلى الجليل وإلى الجد. ولا يخفى ما في إيراد القصة على الصورة الثانية من فرق عما في التصوير السالف. فالرسول عليه الصلاة والسلام منذ طفولته عظيم النفس لا يميل إلا إلى الوقار والجد. ولقد كان جده عبد المطلب يراه وهو صبي يجلس على البساط الذي يفرش له بجوار الكعبة، لا يجرؤ أحد على أن يقترب من كبير قريش إلا ذلك الصبي الصغير، فكان عبد المطلب يقول عنه في كثير من الإعجاب: (إنه يأنس ملكاً) ولقد قال النبي عليه الصلاة والسلام في وصف حاله العامة: (لست من ددٍ ولا ددٌ مني) أي أنه كان لا يميل بطبعه إلى اللهو فلقد تنزه مقام الرسول عن أن تسول له نفسه الهبوط إلى مكة ليصيب من لهوها ويعبث فيها عبث الشباب في جنح الليل؛ فلكم كان بمكة من فجور ما أبعد الرسول في صباه عن أن تحدثه نفسه بشيء منه، وما أبعد الفرق بين عبث الشباب ولهوه وبين السمر البريء الذي يسمر به الفتيان. ولقد وصف المؤلف في عرض حديثه حياة الجاهلية وعلاقة الرجل بالمرأة فيها، ونرى أنه في حكمه على تلك الحياة كان دائما يميل إلى أن يتخذ من الجزئيات أحكاماً كلية، ولم يكن في هذا مقتصرا على تعميمنوع واحد من الأحكام، بل كان أحيانا يعمم فضيلة لم تكن عامة، وأحياناً يعمم رذيلة لم تكن عامة. فقال مثلاً في موضع: أن العرب كانوا قبل الإسلام تجتمع فيهم (خلال الكرم والشجاعة والنجدة وحماية الجار والعفو عند المقدرة، وما إلى ذلك من خلال تقوى في النفس كلما قاربت حياة البادية الخ).
وهذه الخلال وإن كانت مثلاً عليا عند العرب لا يمكن أن يقال إنها كانت خلالاً عامة للعرب. وقال في موضع أخر: (إن صلات الرجل والمرأة في هذه الجماعة العربية لم تكن تعدو صلات الذكورة والأنوثة). وقال في موضع ثالث (وبلغ من أمر هذه الصلة - أي صلة الإباحة بين المرأة بالرجل - أن لم تأب هند زوج أبي سفيان أن تقول في أشد مواقف الجد والشدة وهي تحث قريشا حين الحرب يوم أحد:
الخ (إن تقبلوا نعانق ... ونفرش النمارق)
وقال بعد ذلك: (ثم إن المرأة كانت إذا ولدت، ولم يعرف لمولودها أب، لم تأب أن تذر من لامسها من الرجال الخ).
وهذه القطع كلها فيها تعميم لا تبرره الوقائع، يدرك ذلك كل من ألم بتاريخ العرب، ولا يتسع المجال هنا لنقض مثل هذه العبارات العامة، وإنا نجتزئ بذكر كلمة صغيرة قالتها

هند عندما جاءت لتسلم عند الفتح إذ قال لها النبي يعلمها قواعد الدين: (وألا تزني) فقالت (وهل تزني الحرة).
على أن المؤلف وهو يصف أحوال الجاهلية قد نسي فزاد التعميم حتى جعله يتناول عهد عمر بن أبي ربيعة، واستدل على ذلك بما يمكن أن نقرأ في شعره من دلائل علاقات المرأة بالرجل
فالحق أننا إذا خرجنا من الوقائع ومنطقها. ومن ذكر السيرة ومواقفها لم نجد في وصف الحالات الاجتماعية ما نستطيع الإعجاب به. فإن الدكتور قد درس السيرة، وأسبل المنطق
على مواقفها. ولكن الذي يتناول السيرة لا يكفيه مثل ذلك الدرس بل يجب أن يكون كذلك قد سبق له حظ عظيم من العلم بتاريخ العرب وأيامها وأحوالها كيما يكون في استطاعته أن يحسن الحكم على عاداتها، وأن يحسن تأويل أخبارها. ولعله قد أدرك أن قوله فيه هذه المبالغة فاتهم القارئ وقال (ربما بدا هذا التصوير للقارئ المعجب بالعرب وحضارتهم وللمعجب حتى بعرب الجاهلية، مشوبا بشيء من الغلو، وللقارئ العذر في ذلك) ولقد صدق المؤلف في هذا الاستدراك.
على أننا وإن أخذنا هذه المآخذ على الكتاب نرى أنه فتح جديد في التأليف الحديث، ونشكر للدكتور الفاضل والمؤلف النابه الهدية الثمينة التي أهداها إلى قراء العربية.
ضحى الإسلام
تأليف الأستاذ أحمد أمين
بقلم الدكتور عبد الوهاب عزام
أخرج أستاذنا العلامة أحمد الأمين كتابه فجر الإسلام، وهو أحد أجزاء ثلاثة بهذا الاسم، تقسمت بينها تاريخ المسلمين الفكري والأدبي والسياسي في الصدر الأول ثم تقدم أستاذنا ليبلغ بالبحث نهاية العصر العباسي الأول، فأخرج الجزء الأول من كتابه ضحى الإسلام عام أول، وامتد به البحث فأخرج الجزء الثاني هذا العام، ومضى ليخرج الجزء الثالث والجزء الرابع إن شاء الله
وقد تلقى الناس كتب الأستاذ بالقبول، وأفوه حقه من الثناء، ونالت الكتب من الذيوع والانتشار ما هي جديرة به، ولكن هذا الثناء لا يكفينا ولا يجدي علينا كثيرا. فهذه الكتب تتناول تاريخ الحضارة الإسلامية في أعظم نواحيها أثناء القرنين الأولين، وفيهما كان نشوء الحضارة الإسلامية ونمائها، واختلاف الآراء وتنازعها. ولم تدرس هذه الموضوعات على هذا النسق من قبل، فواجب على كتاب المسلمين، وكل من يعنى بتاريخ الحضارة الإسلامية أن يجعلوا من هذه الكتب مدار بحث ونقد، ويشتقوا منها أبحاثا تبلغ بهم الغاية أو تقاربها، وتكمل ما يكون في الكتاب من إيجاز. وفي ذلك معاونة المؤلف في عمله الشاق. فإنا إذا بحثنا فقلنا للمؤلف أصبت أو أخطأت وأدلينا بالحجة فقد أعناه على بلوغ غايته، وسررناه بالاهتمام بما اهتم به. علينا أن نتلقى هذه الكتب بالبحث المتصل وللنقد المخلص لله والحق، ونجعلها قطبا لطائفة من المناقشات حتى ننير، على قدر الطاقة، ما أظلم من جوانب الحضارة الإسلامية
وقد هممت منذ صدر الجزء الأول من ضحى الإسلام بالكتابة عنه ثم حالت حوائل حتى ظهر الجزء الثاني. ثم لم أفرغ للكتابة عنه في هذا العدد الممتاز من الرسالة، فبادرت بدعوة الناس إلى الكتابة واعدا أن أكتب في الأعداد الآتية ما يتيسر لي في ضحى الإسلام
وقد قلت في كلمتي القصيرة التي قلتها في حفلة تكريم أستاذنا العلامة أني وبعض أصحابي عزمنا أن نقرأ الكتاب ونكتب عنه في دار الأستاذ المؤلف ثم عرفت آسفا أن صفحات الرسالة أقرب إلينا من دار الأستاذ وأوسع فموعدنا الأعداد الآتية
أحاديث جدتي
تأليف الآنسة سهير القلماوي
بقلم الأستاذ محمود الخفيف
تناولت هذا الكتاب الظريف، فما وضعته حتى أتممت قراءته، ولكم تمنيت لو طالت تلك الأحاديث الرقيقة وما زخرت به من الصور الطلية، فشغلت من الصحائف أكثر مما ضمه بين دفتيه ذلك الكتاب، فإن إعجابي بها وشدة تأثري بأخيلتها الهادئة الساحرة قد جعلاني أشعر عند انتهائها بما كنت أشعر به ليالي الطفولة العذبة حين كانت تنتهي

الحكاية الشيقة بغتة وأنا أكثر ما أكون استمتاعاً بها.
على أن الشيء الجميل إذا علق بالنفس فإنما هو مبعث سرور دائم، ولقد يتزايد ما يبعثه في النفس من الغبطة بعد أوانه. ذلك ما أحسه بعد قراءة هاتيك الأحاديث الجميلة، وهي سلسلة أحاديث دارت بين الكاتبة وجدتها تصف الحياة المنزلية والحياة الاجتماعية للجيل الذي سبق جيلنا؛ أثارتها الذكريات من نفس الجدة فتحدثت عن الحياة المنزلية، ثم أعاد إلى ذهنها استشهاد فتاها في الحرب ذكر الثورة العربية، فوصفتها معلقة عليها ثورة أفكارها وخواطرها، إلى أن عادت في نهاية الكتاب إلى وصف الحياة الزوجية وما كان يتخللها من عواطف في ذلك الجيل
استطاعت الكاتبة النابهة في غير تكلف أن تقدم بين يدي كتابها جوا خياليا لطيفا، يستهويك فيخيل إليك أنك تسمع ولست تقرأ، وكأنك تعيش في هذا المنزل وتراها تستمع إلى جدتها، وترى ما تصف لها من أماكن وأشخاص. نعم كأنك ترى عائشة لا تعرف كيف تلبس البرقع فتضحك صاحباتها، وكأنك ترى الشيطان يقطع عليها صلاتها بطرطوره الأحمر، وكأنك ترى إسماعيل معلقا في العمود، وصباح تهش عنه البعوض متألمة باكية، بل لكأنك أنت الذي تحس لذعات البعوض، ثم كأنك ترى الحمام وتسمع ما ينبعث منه من أصوات، وكأنك ترى غير هذا من المناظر المؤلمة، فترى الجيش المحتل يخترق شوارع القاهرة، وترى الجدة تأخذ سكين المطبخ تدفع بها كيد الضابط الذي يطرق الباب، وكأنك ترى مذبحة الدراويش في أحراج الأبيض، إلى غير ذلك من المواقف القوية المثيرة.
وتحت تأثير ذلك الخيال توحي إليك (سهير) أحاديث الوفاء والوطنية والبطولة، وتعرض عليك طرفا من انتقادها وآرائها الصائبة عن حياتنا الاجتماعية بين الماضي والحاضر.
وإن أنس من شيء فلست أنسى أبدا ما كان من نبل أنجاس وزوجها، وما بعثه موقفها في قلبي من غبطة وما أثار من عاطفة، ولكن مالي أذكر فصلا بعينه والكتاب كله حديث لا ينسى؟
وإنك لتجد في لأسلوب الكتاب ناحية من نواحي جماله، إذ لا يسعك حين تتذوق تلك السهولة العذبة إلا أن تعترف بما لهذا الأسلوب الرائق من أثر قوي في تحبيب الكتاب إلى نفسك.
لقد آن لنا أن نتجه إلى الأدب الإنشائي الخالد، وننصرف عما أسرفنا فيه من أدب وصفي لا يمت إلى الحياة بصلة قوية، نعم آن لنا أن نخلص من أدب المقالة، ونتجه إلى القصة، آن لنا أن نرفع المرآة لتنعكس فيها طبائعنا وحياتنا؛ وإني لأقرر هنا مع مزيد من الغبطة أن هذه الأحاديث التي أقدمها إلى القراء من البواكير الطيبة في هذه الناحية التي نتوق إليها، وأدعو فتياننا وفتياتنا إلى الاستئناس بتلك الروح اللطيفة، والاستمتاع بذلك النموذج الصادق، فيما ينشدون من نهوض، أو يتوخون من لذة. هذا وإني أقدم إلى الكاتبة النابهة ثنائي وإعجابي.
الخفيف

العدد 94 - بتاريخ: 22 - 04 - 1935

جمعية نهضة القوى

احتفلت هذه الجمعية البرة منذ يومين بانقضاء عامين من جهادها النبيل في إنهاض القرية المصرية. وهذه الجمعية هي أيضا من أعمال الشباب؛ ولعلها أقرب أعمالهم الجليلة إلى الخير المحض! فإن ما ركبوه إلى اليوم من قحم السياسة، وما عالجوه من خطط الاقتصاد، إنما كان مبعثه الغرور القومي، أو الشعور الوطني، أو هما معا؛ أما هذا العمل الخالص عاطفة البر في الإنسان بأخيه الإنسان؛ وهذه العاطفة إنما غرستها في القلوب يد القدرة، وأنمتها قوة الفطرة، وفرضتها طبيعة الحياة، ليحصل بها التئام شمل الناس، وانتظام عقد المجتمع، واتحاد وجهة الإنسانية بالتعاون والتضامن إلى

كمال البشري الممكن

راع الشباب - وهم موضع الحس المرهف من الأمة - ما جره تفشي الأمية على القرى المصرية من انقطاع السير، وانخزال الحركة، وانتشار العلل، وانفجار الأحداث، واغبرار العيش، وهي مصدر القوة للشعب، ومورد الثروة للوطن، فحشدوا جنودهم في هذا الميدان، وسددوا جهودهم إلى هذا الغرض، وراحوا يهاجمون الجهل والفقر والمرض في تلك الحظائر أو المقابر التي ضمنت أجوافها السود أربعة أخماس الأمة، ثم دأبوا

يقرعون الآذان بالخطابة، ويخزون الضمائر بالكتابة، ويهيبون بالحكومة والقادة أن يأخذوا من تجميل المدينة لتأثيل القرية، ومن ترف الباشا لحاجة الفلاح، ومن فلسفة الخاصة لأمية العامة، حتى ارتفعت حجب الأسماع، وانكشفت أغطية القلوب، فعطف على قضية القرويين رجال البلد من أولي الحكم وأهل العلم وذوي المثالة، وألفوا من قدرة الشبيبة، وخبرة الكهولة، دستور العمل المنتج لإنجاد الفلاح وإسعاد القرية
لعل أنطق الأدلة بخطورة العمل الذي تقوم به هذه الجمعية الجليلة أن
أصف لك قرية أعرف بيوتها كما أعرف بيتي، وآلف أهلها كما آلف
أهلي، وستجد حين توازن بين قريتي وقريتك أنني وصفت على الجملة
قرى مصر جميعا:
كومة من سبانخ الأرض قام عليها أكواخ متلاصقة من اللبن، سقوفها بالخشب والقصب، وحلوها بالعلف والحطب، وجملوها بشرفات من الروث اليابس، ثم جعلوا ظهورها خلاء للحاجة، وبطونها مسرحا عجاجا لشتى الأوالف والدواجن من الكلاب والقطاط والعجول
والدجاج والبط، ثم جمعوا بين قاعة الإنسان وزريبة الحيوان في فناء واحد، فالحديث يمتزج بالخوار، والمضغ يشتبه بالاجترار، والرجل والثور، والمرأة والبقر، والطفل والعجل، يعيشون في شيوعية عجز عن تحقيق حلمها (الروس)! لا يؤديك إلى هذه الدويرات العمى مسلك واسع ولا طريق مشروع، إنما هي طوائف وطوائف، تفتحت كل طائفة منها على زقاق ضيق غير نافذ، ولن تستطيع الدخول في هذا الزقاق إلا من الطريق الدائر حول القرية!. . . بلى قد يشق البلدة منفذ صاعد هابط متحدر متعرج وعر، ولكنه بين الفجوات والحفر يكون أشبه بصراط الحق بين مزالق الفتنة يركبها من الشمال مستنقع ومن الجنوب مستنقع، ثم يحيط بها ويتخللها من السرجين والسماد منها الرطب ومنها اليابس، وفي أحضان هذه التلال، وعلى حوافي هذه المناقع، قامت مجالس القوم، يجلسون فيها تحت الجدران وفوق المصاطب يستجمون حينا من العمل الدائب والعناء المرهق، لا يألمون لسع البعوض، ولا ينكرون ريح الوحل؛ ثم لا يجري بينهم إلا الحديث القابض كتضاعف الدين على الأرض، وتحكم المالك في الريع، وفتك الآفات بالزرع، وإلحاح الكساد إلى القطن، وما تدخله تلك الحال على النفس الجاهلة من وساوس الأطماع وسخائم الحقد وغوائل الحسد!
اصطلحت على دمائهم الفقيرة جراثيم الملاريا والبلهارسيا والانكلستوما، فغدوا كواسف الوجوه، خواسف الجسوم، خوائر القوى، يعالجون المرض بالصبر، ويخففون الألم بالتسليم، ويدافعون الموت بالتعاويذ، ويسيئون الظن بالمستشفيات التي لا تقبلهم إلا بالشفاعة، ولا تعاملهم إلا بالفظاظة، ولا تحسن علاجهم إلا بالمال في العيادات الخاصة. . . وأين المال من رجل كل ما يملكه أجرة يومه لقوت يومه؟ وليت هذا القوت كان من الأقوات التي تصلح الجسم، وتدفع السقم، وترد العافية! إنما هو . . .في الغالب رغفان من الذرة أو الشعير مأدومة ببعض أحرار البقول واللبن المملح
استغل الملاك ضعفهم، والمرابون جهلهم، فوضعوا أيديهم على أختامهم يطبعونها على العقود والصكوك في غير رحمة ولا ذمة، حتى إذا انقضى الحول وآل كدح الأسرة الناصبة، وجهد الماشية الاغبة، وشقاء الفلاح المسكين، إلى الثمرة المرجوة، عدا عليها الدائن اللص، أو المالك الظالم، فجباها لجيبه، أو جناها لمخزنه
ذلك على الإجمال وصف القرية، فهل تجد فرقا بينها وبين أخصاص الهمج في نشأة الحياة وطفولة الزمن؟ وتلك هي على التقريب حال الفلاح، فهل تجد فرقا بينه وبين البهيم الذي لا يصطنع العلم، ولا يدعي المدنية، ولا يزعم لنوعه الرقي؟
فإذا استطاعت هذه الجمعية الشابة أن تجعل من هذه الأقذار المركومة مسكنا يجمل في العين ويجدي على الصحة، ومن هذا الكائن المهمل رجلا يشعر بالحياة ويسير مع الأمة، فقدر في نفسك أي واجب تؤدي وأي خير تفيد!!
أحمد حسن الزيات

كلمة وكليمة - 4

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

لا يفشو الكذب إلا في الأمم؛ فإذا فقدوا سلطة الحكم واستشعروا في الحياة معنى فقدها، سلطوا أنفسهم على ما يسهل الحكم عليه لكل ضعيف: على المعاني في

. . .ألفاظها. . ولكن هذا أيضا كذب في الحكم
إذا رأيت قوما عمهم الكذب في باب ما يفتخر به، فاجعل هذا وحده في تاريخهم باب ما سقطوا به
تمتم بعض اللذات في الحرمان من بعض اللذات
ما أسعد العقل الذي يتأثر ببلاهة كالطفل؛ ولكن هل يسمى عقلا. . .؟
الحب في طبيعته حمق عاقل؛ ألا تراه حين يبغض كيف ينقلب إلى الصورة الأخرى فيكون عقلا أحمق؟
أشد العداوة لا تكون إلا من أشد الحب
كرهت رجلا من الدين، وكرهت امرأة في الحب؛ فكان النزاع بيني وبين من كرهت كالنزاع بين دينين لا بين شخصين
من أسخف ما رأيته تنبل الموظفين بثيابهم وظاهر هيأتهم؛ تكون وظيفة أحدهم ستة جنيهات في الشهر، وهو مدين للخياط في أثنى عشر. . يريد أن يقلد الرئيس الكبير في تقرير مكانته بجاه الحكومة؛ فيقررها ولكن بجاه الخياط. . .
لو تاه غني في الصحراء ونفد زاده ثم أصاب رغيفا ملقى هناك - لعرف به لذة الفقر، ولأدرك أن أغنى الغنى يعجز أن يؤتي النفس مثلها. إن إمكان المتعذر وهو وجود تام السعادة بنفسه، وهذا ما حرمه الأغنياء وهو للفقراء كل يوم
قاعدة الحياة أن ما امتنع على الجسم من شهواته جعلته الروح من مسراتها؛ ففي بعض الفقر نوع من الثروة، وفي نوع من الحرمان بعض العطاء. ولكن أين الروح القوية التي تعرف هذا الضرب من المعاملة وتصبر عليه، وأكثر الناس في معاملة الله كالأبله يعطي صكا بألف دينار على (البنك) فيحسبه ورقة كالورق فيمزقه أو يلقيه ويذهب يتوجع من الفقر. . .
لا يجمع الطفل على نفسه همين في وقت معا، بل يحصر نفسه في الهم الواحد ليخرج منه أقوى وأسرع ما استطاع. ولكن أين من يقدر على هذا إلا الطفل في همومه الصغيرة؟
رؤية الكبار شجعانا هي وحدها التي تخرج الصغار شجعانا. ولا طريقة غير هذه في تربية شجاعة الأمة
يقول أهل السياسة أحيانا في الاعتذار إلى الضعفاء المساكين: أيها العقلاء! إن هذا لا يمكن أن يحدث
. . .والمعنى السياسي: أيها البله! إنه لا يمكن أن يحدث إلا هذا
إذا دام ما أرى من حماقة الشرقيين الناقلين عن أوربا؛ فستنقل أوربا يوما عن الشرقيين متى احتاجت إلى مخازيها في شكل همجي. . .
. . .أبلغ ما في السياسة والحب معا: أن تقال الكلمة وفي معناها الكلمة التي لا تقال
الحرب تصحيح لخطأ وقع في السلم أو لما يزعمه القوي خطأ وقع. فلن تنتفي هذه الحرب من الدنيا إلا يوم تربى الذئاب تربية خروفيه. . .
دارها في الزينة والمرح كأنما هي متزوجة أيضا
طبيعة المرأة بفنها منزلية حجابية. والدليل على ذلك وضع امرأة جميلة تعمل في مصنع فيه رجال. فطبيعتها بفنها لا تجعلها حينئذ إلا بين أثنين: إما تطرد من بينهم، وإما أن تكون بينهم كالزوجة. . .
يمثل النساء الغاليات في المطالبة بحقوق المرأة فصلا من رواية العاطفة في شكل من الحق؛ يردن المطاردة والسلام. . .
كن الرجل في معانيه القوية فلن تجد المرأة معك إلا في أقوى معانيها
وددت والله لو أمكن أن يجتمع المطالبات بحقوق المرأة على زعيمة واحدة يخترنها من نساء العالم كله؛ فلن تكون هذه الواحدة إلا المرأة التي يستحيل أن يتزوجها رجل في العالم. . . . . .
قضت الطبيعة قضاءها: أن سعادة المرأة في أن تكون هي سعادة لغيرها؛ فنساء المعامل والحوانيت هن. . . هن والله الشريدات المتصعلكات
أنا مستيقن أن العلم سينتهي إلى إثبات هذه القضية: إن المرأة مريضة بأنها أنثى
. . .الخطأ والمرأة: كلاهما أكبر همه أن يظهر ويغلب
طلب الخليفة المنصور إماما زاهداً عظيما ليوليه القضاء. فلما دخل الإمام قال

للمنصور: كيف حالك، وكيف عيالك، وكيف حميرك. . . فقال أخرجوه فإنه مجنون
كذلك يضطر الرجل العظيم أن يخرج أحيانا على عقل سواه ليخرج بعقله هو
الفيلسوف الحق هو الذي ينتهي من نفسه إلى موضع عقلي يكون فيه مع الحياة كما
يكون القاضي موضعه العقلي مع الحوادث: تأتيه ليحكم لا تحكم عليه
قلة الرغبات هي قلة الهموم
استطراد
عندما انتهيت إلى هذا الموضع من تصنيف هذه الكلمات، ألقي إلى كتاب ورد من
مدينة (حمص) يذكر فيه صاحبه ضيقا وشدة ويسأل: (ما هو علاج الملل النفساني
واليأس الدنيوي، عن لم يكن الموت، عن لم يكن الانتحار؟)
ثم يرجو أن يتولاه أول عدد ينتهي إليه من (الرسالة) كيلا يبغي على نفسه؛ وهاأنذا
أعجل له كلمات تأتي على أثرها إن شاء الله في العدد التالي مقالة الانتحار
كان عمر بن الخطاب - وفي يده الدنيا - يشتهي الشهوة من الطعام ثمنها درهم،
فيؤخرها سنة. يثبت لنفسه بذلك أنها نفس عمر
ليس الذي ينتحر هو صاحب النفس العاملة بإيمانه؛ فإن هذا تنتحر شهواته، ومطامعه، وخسائسه
الانتحار كفر صريح يذهب بالدنيا والآخرة؛ فاليائس وهو يفكر أن ينتحر إنما يقول لله
بلغة فكره: إنك عاجز
أنت عجزت أيها الإنسان فأيقنت أنك لا تستطيع أن تغير أطوار الدنيا؛ ولكن كي نسيت
الذي يستطيع أن يغيرها وهو يغيرها كل طرفة عين؟
لا يمكن أن ترضيك الدنيا كلما أحببت ولا بكل ما تحب، فلست أنت العاصمة في
مملكة الله؛ ولكن الممكن أن ترضى أنت بما يمكن
لقد عجزت أن تنال شيئا به درجة؛ أفعجزت أن تستغني عنه فتنزل درجة؟
في الأرض ناس على أطباق بين الملك إلى الزبال. أفيجتمع الزبالون جميعا فيمجزر
لينتحروا إذ لم يكونوا ملوكا؟
ليست الدنيا بما فيها هي التي ترفعك عند نفسك أو تخفضك؛ بل فكرك بما يكون هو
يخفضك أو يرفعك. ومن الذي يملأ فكرك غيرك؟
سر سعادة المؤمن على ما يجد من الفقر والشقاء في هذه الحياة؛ أن في ضميره من
فكرة الآخرة وجودا إلهيا عظيما فيه الرضى الدائم عن الله، والصبر الدائم على قضاء
الله، والأمل الدائم في رحمة الله. فكل حرمان الدنيا يذهب في الرضى فلا حرمان،
وكل مصائبها تقع في الصبر فتتحول معانيه، والأمل الدائم في رحمة الله قوة للقوتين
(طنطا)
مصطفى صادق الرافعي
ربيع الغوطة
للأمير مصطفى الشهابي عضو المجمع العلمي ومدير أملاك الدولة
بدمشق
جلست في الدار في سفح (قاسيون) أجيل الطرف في أرجاء الغوطة الفيحاء، وقد
ازينت للربيع وتبرجت وتجلت فتنة للناظرين. وجرت مياه بردى ومشتقاته صخابة
جرافة، قد بجسها شتاء هذه السنة الممطار، بعد أن لبثت ثلاث سنين لاصقة من
الجفاف بأرض النهر، وهي تتنغص وتتمور كأنها ترتقب من يدفعها إلى جنان الغوطة
دفعا؛ ودبت الحياة في الأشجار الغبياء، فأرسلت عساليجها تتنشق أنفاس الربيع
العليلة، وأطالت غماليجها تستقبل أشعة الشمس المنعشة، ونشرت أوراقها تهيئ
للدوح وسائل الحياة وغضارة العيش
وبشر اللوز بإقبال الربيع فنور. وأعقبه المشمش فاشتعل زهرا وتضوع عطرا، وملأ جو
الغوطة بهجة وإشراقا. وغار التفاح والكمثري والخوخ فعمدن إلى الازهرار، وتلألأن
بالنوار، وسكر الصفصاف المستحي فدلى أغصانه وتمايل، وانتصب الحور فصعر خده
وتثاقل، وعربد الجوز الدواح فنثر هريراته ذات اليمين وذات الشمال، وترزن السرو
الجبار المتشائم وصاح قائلا كلنا للزوال. وابتسم الزيتون بأوراقه الخضر الحانئة، وقد
نثرت أرومته السنون، وكسر فروعه الدهر الطحون. أما الرمان فلبث عاري الجسد
ينتظر الدفء، فما ازدهى بنوره، ولا أشعل الجو بناره

وجن جنون النباتات البرية، فنبتت بين الزروع وعلى ضفاف الجداول وفي كل أرض سبخة أو بائرة، فالخردل هجم على الحنطة فكساها من زهره حللا صفرا، والنرجس نجم في مياه المناقع ونثر فوقها دررا وتبرا، وبدت شقائق النعمان بألوانها الزاهية، وتجلى الخشخاش بحمرته القانية، وتضوع البابونج والأقحوان، واستسرا تحت جنبه الآس والرمان

وشاركت الطير النبات فهبت تغرد بشتى الألحان، وتتراقص في كل مكان. فمن سمانيات تغلغلن بين الزروع خشية الصيادين، وشحارير سود الجلابيب إن طارت هتفت، وإن استقرت صدحت، وسنونوات لا يبرحن في السماء مدومات، أو على البعوض هاويات، وأنواع العصافير، في زقزقة وصفير، كأنها تشكر الباعث الغيث آلاء المطر، وكأنها تدعوا الإنسان إلى الأخضرين، لينعم بهما قرير العين

جلست في الدار أدير الطرف بجنان الغوطة وقراها، فبدت عن يميني رياض (النيربين)، فذكرني بأبيات وجيه الدولة ابن حمدان:

سقى الله أرض الغوطتين وأهلها ... فلي بجنوب الغوطتين شجون

فما ذكرتها النفس إلا استخفى ... إلى بر ماء الْنبرَ بَيَن حنين

وقد كان شكى للفراق يروعني ... فكيف يكون اليوم وهو يقين؟

وبدت جنوبها بساتين داريا فقلت مع الصنوبري:

ونعم الدارُ دارَيَّا ففيها ... صفا لي العيش صار أرَيا

ولي في باب جيرون ظباء ... أعاطيها الهوى ظبياً فظبيا

والتفت إلى دمشق فإذا بها غرقى في خضم أخضر كأنها ياقوتة في نثير من الزمرد، وبرز الجامع الأموي عظيما جبارا بمآذنه الشاهقة العالية التي قال فيها نابغة بني شيبان من قصيدة غراء وصف بها ذلك الجامع الكبير:

وقبة لا تكاد الطير تبلغها ... أعلى محاريبها بالساج مسقوف

لها مصابيح فيها الزيت من ذهب ... يضيء من نورها البنان والسِّيف

قلت رحم الله نابغة بني شيبان! فلو عاش في أيامنا هذه لا في أيام بني أمية لقال:

لها مصابيح فيها الكهربا سطعت ... يضيء من نورها لبنان والسيف

ورق النسيم وراق الجو، فتذكرت قول القائل:

يا نسيما هبَّ مسكاً عبقاً ... هذه أنفاس ريَّا جِلَّفا

لكنني ما كدت أنشق هذه الأنفاس العطرات وأغرق في بحر من التأملات حتى فتح الخادم مذياع مصر فأسمعني ألحانا شجية حملتها أنفاس القاهرة الكهربائية، فذكرت شتاء مدينة المعز وعهدي به قريب، ورددت قصيدة لي ودعت بها تلك المدينة الساحرة، منها الأبيات الآتية في نسمات النيل:

أوَّاه يا نسمات النيل ساجيةً ... كم ضمك الصدرَ شهَّاقاً وزفّاراً

وكم تعطرت بِالريحان وامتزجتْ ... رّياك بالروض أفناناً وأزهاراً

ما إن نشقتك حتى خلتُ منتعشاً ... ماء الحياة جرى في جسم أنهاراً

وخفق القلب لشتاء مصر ولربيع دمشق معا، فكلاهما ساحر جذاب، وكلاهما مجتلي ذكريات عذاب، وفي البلدين رفاق وصحاب، وأهل وأحباب، وفيهما للثقافة العربية أفسح رحاب

دمشق

مصطفى الشهابي

عصر الخفاء في مصر الإسلامية

الحاكم بأمر الله

- 3 -

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كان الحاكم بأمر الله صبيا في نحو السادسة عشرة حينما بدأ يضطلع بمهام الدولة على هذا النحو؛ بيد أن هذا الفتى القوي النفس، كان حاكما حقيقيا يقبض على السلطة بيديه القويتين؛ ويشرف بنفسه على مصاير هذه الدولة العظيمة، ويبدي في تدبير شئونها مدهشا، فيباشر الأمور في معظم الأحيان بنفسه، ويتولى النظر والتدبير مع وزرائه؛ وهكذا كان الأمير اليافع يؤثر العمل المضني على مجالي اللهو واللعب التي يغمر تيارها من كان في سنه، وفي مركزه وظروفه؛ وقد لزم الحاكم هذا النشاط

المضني طوال حياته. وكان الحاكم ذا بنية قوية متينة؛ وكان منذ حداثته يتمتع بمظهر الجبابرة: مبسوط الجسم، مهيب الطلعة، له عينان كبيرتان سوداوان تمازجهما زرقة، ونظرات حادة مروعة كنظرات الأسد لا يستطيع الإنسان صبرا عليها؛ وله صوت قوي مرعب يحمل الروع إلى سامعيه؛ وقد كان في الواقع سليل نسل من الجبابرة الصحراويين الأقوياء، الذين يذهبون في زهرة العمر والقوة؛ وكان أبوه العزيز بالأخص عظيم القامة عريض المنكبين قوي التكوين، فورث عنه ولده هذه الخواص الطبيعية البديعة، ولم يبددها في شهوات النفس التي ينغمس فيها أبناء القصور

وهنا يبدأ عصر الحاكم بأمر الله حقا، وهو أغرب عصر في تاريخ مصر الإسلامية، وربما كان أغرب عصر في تاريخ الإسلام كله؛ عصر يمازجه الخفاء والروع، وتطبعه ألوان من الإغراق والتناقض مدهشة مثيرة معا؛ ولكن هذه الألوان الخفية المغرقة، وهذه النواحي المتباينة هي التي تسبغ على العصر أهميته وطرافته، وهي التي تحيط شخصية الحاكم بحجب كثيفة من الظلمات يعب اختراقها. ويحسن قبل أن نعرض إلى درس هذه الشخصية العجيبة وقبل أن نحاول استجلاء غوامضها، واستقراء حقيقتها، أن نستعرض أولا أعمال الحاكم وتصرفاته، وحوادث العصر وظروفه؛ ثم نحاول على ضوئها أن نتفهم روح

العصر، ونفسية تلك الشخصية الفريدة التي أفاضت عليه من خفائها وروعتها، وملأته بنشاطها ونزعاتها وأهوائها، وتبوأت فيه المقام الأسمى

تقدم الرواية الإسلامية إلينا الحاكم في صور مروعة مثيرة؛ فتقدمه إلينا أولا في صورة جبار منتقم، وسفاك لا يخبو ظمؤه إلى الدماء؛ ثم تقدمه إلينا في صورة طاغية مضطرم الأهواء والنزعات، متناقض الرأي والتصرفات، لا تكاد تلمس لأعماله باعثا أو حكمة؛ شرسا جموحان ميالا إلى الشر، خؤونا وافر الغدر، لا يستقر على ثقة أو صداقة؛ وتقدمه إلينا على العموم في ثوب شخصية بغيضة خطرة، فاقدة الرشاد والتعقل، يغلب عليها الجانب الأسود، ولكنها مع ذلك لا تنكر عليه بعض نواحي الخير والخلال الحسنة، فتصفه لنا بالجود والتقشف والزهد في كثير من متاع الحياة الدنيا كانت خلافته متضادة بين شجاعة وإقدام، وجبن وإحجام وانتقام من العلماء، وميل) إلى الصلاح وقتل الصلحاء؛ وكان الغالب عليه الصلاح، وربما بخل بما لم يبخل به أحد وكان جوادا، سمحا، خبيثا ماكرا، رديء الاعتقاد، سفاكا للدماء، قتل عددا كبيرا) .(قط من كبراء دولته صبرا؛ وكان عجيب السيرة يخترع كل وقت أمورا وأحكاما يحمل وكان حاله مضطربا في الجور والعدل، والإخافة والأمن، والنسك) .(الرعية عليها في هذه الصور وأمثالها تقدم الرواية الإسلامية إلينا الحاكم؛ ولا ريب أن في .(والبداعة حياة الحاكم وفي أعماله وتصرفاته ما يبرر كثيرا من هذه الأوصاف المثيرة؛ غير أنها ليست كل شيء في هذه الحياة العجيبة الغامضة؛ ومن الخطأ أن نقف عندها في تصوير الحاكم والحكم عليه، ومن الواجب أن نتقصى في حياة الحاكم جوانب أخرى، وأن نحاول تفهم شخصيته ونفسيته على أضواء أخرى

افتتح الحاكم عهد حكمه بقتل برجوان وصيه ومدبر دولته؛ وكان للجريمة باعث سياسي قوي؛ فلم تك يومئذ دليلا على حبه للسفك أو ظمئه إلى الدم، غير أن الحاكم ما لبث أن أتبع ضربته بضربة دموية أخرى هي مقتل ابن عمار زعيم كتامة وأمين الدولة السابق؛ وكان الحاكم قد حماه من برجوان وأطلق له رسومه وجراياته، وأذن له بالركوب إلى القصر؛ ففي ذات مساء، حين انصرافه من القصرن انقض عليه جماعة من الغلمان الترك كانت قد

هيئت للفتك به، فقتلوه وحملوا رأسه إلى الحاكم (شوال سنة 390) ولم تكن للجريمة بواعث ظاهرة، ولكنا نستطيع أن نعللها برغبة الحاكم في سحق الزعماء ذوي البأس والعصبية، وهي رغبة يدلل عليها كما سنرى في مواطن كثيرة؛ وكانت كتامة أقوى القبائل المغربية كما قدمنا، وكان ابن عمار أقوى زعماء الدولة. ولكن سنرى من جهة أخرى أن الحاكم يسرف في القتل، فيقتل وزراءه وغلمانه تباعا، دون حكمة ظاهرة إلى ما كان من نزعة مؤقتة أو سخط فجائي

وفي سنة 393هـ قتل الحكم وزيره فهد بن إبراهيم بعد أن قضى في منصبه زهاء ستة أعوام، وأقام مكانه علي بن عمر العداس، ولكن لم تمض أشهر قلائل حتى سخط

عليه وقتله، وقتل معه الخادم زيدان الصقلي حامل المظلة، ثم قتل عددا كبيرا من الغلمان والخاصة (سنة 394)، ثم تبع ذلك بمقتلة أخرى كان من ضحاياها الحسين بن النعمان الذي شغل منصب القضاء منذ سنة 89، وعدد كبير من الخاصة والعامة، قتلوا أو أحرقوا؛ وقتل جماعة من الأعيان صبرا؛ ولم يك ريب في أن هذه المذابح المتوالية كانت عنوان نزعة خطيرة إلى البطش والفتك واحتقار الحياة البشرية؛ وكان أشد الناس تعرضا لهذه النزعات الخطرة، أقرب الناس إلى الحاكم من الوزراء والكتاب والغلمان والخاصة، ولم يك الكافة أيضا بمنجاة منها، فكثيرا ما عرضوا للقتل الذريع لأقل الريب والذنوب، أو لاتهامهم بمخالفة المراسيم والأحكام الغريبة الصارمة التي توالى صدورها في تلك الفترة. وكان رجال الدولة ورجال القصر وسائر العمال والمتصرفين يرتجفون رعبا وروعا أمام هذه الفورات الدموية؛ وكان المجتمع القاهري، ولا سيما التجار وأرباب المصالح والمعاملات يشاطرونهم ذلك الروع؛ ويروي لنا المسبحي صديق الحاكم ومؤرخه فيما بعد، أن الحاكم أمر في سنة 395 بعمل شولة كبيرة مما يلي الجبل ملئت بالسنط والبوص والحلفا، فارتاع الناس وظن كل من له صلة بخدمة الحاكم من رجال القصر أو الدواوين أنها أعدت لإعدامهم، وسرت في ذلك إشاعات مخيفة، فاجتمع سائر الكتاب وأصحاب الدواوين والمتصرفين من المسلمين والنصارى في أحد ميادين القاهرة، ولم يزالوا يقبلون الأرض حتى وصلوا إلى القصر، فوقفوا على بابه يضجون ويتضرعون، ويسألون العفو عنهم؛ ثم دخلوا القصر، ورفعوا إلى أمير المؤمنين عن يد قائد القواد الحسين بن جوهر رقعة يلتمسون فيها العفو والأمان فأجابهم الحاكم على لسان الحسين إلى ما طلبوا؛ وأمروا بالانصراف والبكور لتلقي سجل العفو. واشتد الذعر بالغلمان والخاصة على اختلاف طوائفهم، فضجوا واستغاثوا وطلبوا العفو والأمان فأجيبوا إلى ما طلبوا؛ وتبعهم في الاستغاثة التجار وأرباب المهن والحرف؛ وتوالى صدور الأمانات لمختلف الطوائف؛ وقد أورد لنا المسبحي صورة أحد هذه الأمانات ونصها: (هذا كتاب من عبد الله ووليه المنصور أبي علي الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين لأهل مسجد عبد الله: إنكم من الآمنين بأمان الله الملك الحق المبين، وأمان جدنا محمد خاتم النبيين، وأبينا على خير الوصيين، وآبائنا الذرية النبوية المهديين صلى الله على الرسول ووصيه وعليهم أجمعين؛ وأمان أمير المؤمنين على النفس والحال والدم والمال، لا خوف عليكم ولا تمد يد بسوء إليكم، إلا في حد يقام بواجبه، وحق يؤخذ بمستوجبه فيوثق بذلك، وليعول عليه إن شاء الله تعالى؛ وكتب في جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وثلثمائة. . . الخ)

وهكذا هبت على المجتمع القاهري ريح من الرهبة والخشوع، وأصبح اسم هذا الخليفة الفتى الذي لم يجاوز يومئذ العشرين من عمره، وأصبحت نزعاته وتصرفاته مثار الرعب والروع. ولم يك ثمة ريب في أن القتل كان في نظر الحاكم خطة مقررة، ولم يكن فورة أهواء فقط؛ وقد لزم الحاكم هذه الخطة الدموية طول حياته؛ ووقعت في الأعوام التالية حوادث ومناظر من القتل الذريع لا نهاية لها، وكانت تقترن أحيانا بضروب مروعة من القسوة، وقلما كان يغادر وزير أو كبير من كبراء الدولة إلا مسفوك الدم، وفي الأحوال النادرة التي كان ينجو المعزول فيها بحياته، كانت تلازمه نقمة الحاكم حتى يهلك. ففي شعبان سنة 398هـ عزل قائد القواد الحسين بن جوهر، وعين مكانه صالح بن علي الروذبادي ولقب بثقة ثقات السيف والقلم؛ وبعد أسابيع قلائل أمر الحاكم الحسين وصهره قاضي القضاة عبد العزيز ابن النعمان بلزوم دارهما؛ ثم أمر بالقبض عليهما، ففر الحسين وقبض على عبد العزيز؛ واضطربت القاهرة لمكانة الحسين، ثم عفا عنهما وأعيد عبد العزيز إلى منصبه، ولكنهما لم يطمئنا إلى هذا العفو المريب، ففرا بأسرتيهما، فأمر الحاكم بمصادرة أموالهما، وسير الخيل في طلبهما، وأنفذ إليهما كتب الأمان؛ فعادا إلى القاهرة بعد أن استوثقا من الخليفة بالأمان والعفو، واستمرا يركبان إلى القصر مدى حين؛ وفي ذات يوم استبقيا بالقصر (لأمر تريده الحضرة) ثم قتلا فجأة (12 جمادى الآخرة سنة 401، وصودرت أموالهما، وعاد الحاكم بعد ذلك فأمن أولاد القتيلين وخلع عليهم

وإليك طائفة أخرى من حوادث القتل والسفك التي أمعن فيها الحاكم: في سنة 399، قبض الحاكم على جماعة كبيرة من الغلمان والكتاب والخدم الصقالبة بالقصر،

وقطعت أيديهم من وسط الذراع ثم قتلوا، وقتل فضل بن صالح من أعظم قواد الجيش وفي العام التالي وقعت مقتلة أخرى بين الغلمان والخدم، وقتل جماعة من العلماء السنية؛ وقبض على صالح بن علي الروذبادي لأسابيع قلائل من عزله، وقتل؛ وعين مكانه ابن عبدون النصراني، ثم صرف وقتل لأشهر قلائل؛ وخلفه أحمد بن محمد القشوري في الوساطة والسفارة، ثم صرف لأيام قلائل من تعيينه وضربت عنقه (سنة 401). وللحاكم قصة دموية مروعة مع خادمه غين وكاتبه أبي القاسم الجرجرائي، وكان غين من الخدم الصقالبة الذين يؤثرهم الحاكم بعطفه وثقته، فعينه في سنة 402 للشرطة والحسبة ولقبه بقائد القواد، وعهد إليه بتنفيذ المراسيم الدينية والاجتماعية، وعهد بالكتابة عنه إلى أبي القاسم الجرجرائي وكان الحاكم قد سخط على غين قبل ذلك ببضعة أعوام وأمر بقطع يده فصار أقطع اليد؛ ثم سخط عليه كرة أخرى وأمر بقطع يده الثانية وحملت إلى الحاكم في طبق، فبعث إليه الأطباء للعناية به ووصله بمال وتحف كثيرة؛ ولكن لم تمض أيام قلائل على ذلك حتى أمر بقطع لسانه، فقطع وحمل إلى الحاكم أيضا، ومات غين من جراحه (جمادى الأولى 404). وأما أبو القاسم الجرجرائي فقد أمر الحاكم بقطع يديه لوشاية صدرت في حقه، ولكنه أبقى على حياته، وعاش أقطع اليدين

وفي سنة 405هـ قتل الحاكم قاضي القضاة مالك بن سعيد الفاروقي، وقتل الوزير الحسين بن طاهر الوزان، وعبد الرحيم ابن أبي السيد الكاتب، وأخاه الحسين متولي الوساطة والسفارة؛ وقلد فضل بن جعفر بن الفرات، ثم قتله لأيام قلائل من تعيينه. وهكذا استمر في الفتك بالزعماء ورجال الدولة والكتاب والعلماء حتى أباد معظمهم؛ هذا عدا من قتل من الكافة، خلال هذه الأعوام الرهيبة، وهم ألوف عديدة.

(للبحث بقية)

محمد عبد الله عنان المحامي

روح المدرسة الإنجليزي الحديثة

للأستاذ محمد عطية الأبراشي

المفتش بوزارة المعارف

إن الزائر الغريب لمدرسة إنجليزية حديثه لأول مرة يلاحظ على الأطفال شيئين:

أولا: النشاط والاستعداد للعمل

ثانيا: السعادة

فالتلاميذ مملوءون نشاطا، وحياتهم كلها بهجة وهناءة؛ وجوه ضاحكة مستبشرة، تملأ المدرسة بشرا وسرورا؛ والجو المدرسي كله حياة ويقظة وانتباه، وحب للعمل واستعداد لأداء الواجب، يتمثل فيه روح الوفاء والإخلاص والعناية والدقة في العمل، والتعاون بين النظار والمدرسين والتلاميذ. هناك لا تجد تلاميذ يتظاهرون بالعمل وهم لا يعلمون، أو يصغون وهم يتثاءبون، لا ترى من يحل مسائل حسابية بطريقة آلية من غير ما تفكير، أو من ينقل قطعا إنشائية، أو كلمات إملائية لا يدرك لها معنى

هناك ينشغل الطفل بعقله ويده؛ فلا يكتفي بتعلم النظريات، بل يشتغل أيضا بكثير من الأعمال اليدوية، ويعطي مقدارا من الحرية في العمل، يعمل على حساب قواه العقلية، وله رأي خاص به. هناك يعتمد الطفل على نفسه في كل عمل مع الاستعانة بمدرسه وإرشاداته عند الحاجة. قد يحل المسألة خطأ، ولكن المهم أنه حاول أن يعمل، وعمل برغبة، وتركت له الفرصة في التفكير، وفي رسم الخطط وتدبير الوسائل

ولقد حدث، في إحدى المدارس الحديثة للبنات أن معلمة من المعلمات اضطرت إلى الذهاب إلى المستشفى يوما ما، فرأت رصيفة لها أن الواجب يقضي بمصاحبتها؛ وكانت ناظرة المدرسة على فراش المرض، ولسوء الحظ قد حدث لرابعتهن وهي في طريقها إلى المدرسة ما أوجب تأخرها نصف ساعة عن الميعاد؛ وعلى هذا بقيت المدرسة ولا ناظرة فيها ولا مدرسة. فلما دخلت الأخيرة المدرسة وجدت كل البنات في أمكنهن، يعلمن بنظام، فلقد نظر بعضهن في جدول أوقات الدروس، واخترن من التلميذات من يستطعن التعليم في

السنين الأولى من المدرسة، وأخذت البقية تعمل بنفسها. فكان كل فصل يسير في عمله بنشاط كالعادة، ولم يحدث من إحداهن ونية أو تقصير في العمل، وكان النظام مستتبا. فمثل هذه الحادثة تبرهن على أن روح المدرسة الحديثة هي: روح التعاون، والاعتماد على النفس، وحب العمل، والفخر بالمدرسة، والإخلاص لها؛ وهذه الروح وتلك المبادئ وحدها تكفل نجاح أي مدرسة من المدارس، وتغني عن استعمال الثواب والعقاب، والمنافسة في المدرسة

فالتلاميذ بالمدرسة الإنجليزية مغتبطون بمدرستهم، يستنفذون جهدهم، ويبذلون كل ما في وسعهم في سبيل تقدمها. محال أن يتمنوا الرفعة على أكتاف غيرهم، يعمل الكل لمصلحة الكل وينسى نفسه. ومن أظهر مقدرة ومهارة في أمر ما فمكافأته أن يسمح له بمعاونة غيره من الضعفاء أحيانا

مثل من المدارس الريفية التي الابتدائية بإنجلترا

من المدارس التي رأيتها مدرسة ريفية ابتدائية داخلية تقبل التلاميذ بعد الانتهاء من قسم الأطفال. فيها يستيقظ التلاميذ مبكرين، فيرتب كل منهم سريره، وينظفون معا حجر النوم.

وبعد ارتداء الملابس يقوم بعضهم بمساعدة الطاهية في إعداد الطعام، أو في إعداد المائدة وتنظيمها. وبعد تناول طعام الإفطار يساعدون في تنظيف الآنية وتنشيفها ومدة الدراسة النظرية في الصباح أربع ساعات. وبعد الظهر يشتغل التلاميذ بالزراعة في حديقة المدرسة، أو بالنجارة في حجرة النجارة التي يقوم بالتعليم فيها أحد النجارين وفي هذه المدرسة تظهر روح التعاون بأجلى معانيها: فمن التلاميذ من يقوم بإصلاح ما يحدث في بناء المدرسة من خلل، ومنهم من يكوى الملابس، ومنهم من يخيط ما تحتاج إليه من رتق، وهكذا

وتتصل بالمدرسة حديقة كبيرة، تبلغ مساحتها ثلاثة أفدنة، بها قسم لتربية الطيور والحيوانات الداجنة، ويتولى بعض التلاميذ إطعامها والعناية بها. ويقوم التلاميذ أنفسهم بزرع ما أمكن من أنواع الخضر والفواكه والأزهار في تلك الحديقة، وبهذه الوسيلة تستطيع المدرسة أن تستغني عن شراء كثير من المواد الغذائية وغيرها. وتجمع بين التعليم النظري والعملي أو الصناعي فتفتح كثيرا من السبل أمام كل تلميذ حتى تنتفع بميول، وتعرف ما يرغب فيه من الأعمال، فتوجهه حيث يحب، ويختار له من سبل الحياة ومن المهن والصناعات ما يتفق مع ميوله الطبيعية. فالمدرسة تعطيه الفرصة في أن يعرف شيئا عن النجارة، والزراعة، والحياكة، والكي، والبناء، والرسم، والتصوير، والموسيقى، بجانب المواد المدرسية الأخرى. وهذه هي التربية

ولا يسمح لأحد من التلاميذ بأكل شيء فواكه الحديقة في غير مواعيد الأكل. ومن يخالف ذلك يحرم هذه الفاكهة حتى ينتهي فصلها. وهذا عقاب طبيعي؛ لهذا لا يجرؤ أحد أن يقطف شيئا من الحديقة. ولكل تلميذ صوان خاص به، يضع فيه أدواته. وللناظر وحده الحق في الاطلاع على ما به

وبعد تناول الشاي يسمع التلاميذ اللاسلكي، أو يتعلم بعضهم العزف على المعزف (البيانو)، ويلعبون ألعابا رياضية ككرة المضرب

وفي يوم الأحد صباحا يذهبون إلى الكنيسة مع أستاذتهم، ثم يخرجون للرياضة في جهات خاصة. فأوقاتهم منظمة، موزعة بين العمل واللعب؛ يلعبون حيث يجب اللعب، ويعملون حيث يجب العمل. ويجتهد ناظر المدرسة في ألا يترك لأي تلميذ الفرصة في أن يفكر في أعمال شيطانية، فيدعه يشتغل بأي عمل من الأعمال، حتى لا يفكر في أي عثو أو إفساد في المدرسة

إن الشباب والفراغ والجِدَة ... مفسدة للمرء أي مفسدة

وإن دروس مشاهدات الطبيعية، والجغرافيا، والتاريخ كثيرا ما تكون في الخارج على شاطئ نهر أو في الحديقة، أو زيارة لدار آثار، أو حصن، أو كنيسة قديمة. وفي كل أسبوع يختار بعض تلاميذ المدرسة لزيارة مدرسة أخرى، لتكثر تجاربهم ويروا أشياء ربما لم يروها قبل في مدارسهم. وبذلك تتبادل المدارس الزيارات في يوم من أيام الأسبوع

وكثيرا ما يقف ناظر المدرسة ليباشر التلاميذ وهم يشتغلون في حديقة المدرسة، ولا يعزب عنه شيء في مدرسته؛ فهو خبير بكل تلميذ، وبالظروف المحيطة به، وبنقط

الضعف فيه، وبوسائل العلاج. فيمكنه أن يقول إن (جاك) قوى لأن أمه كثيرة العناية به. أما (جان) فضعيف لأنه لا يجد ما يكفيه من الغذاء، وهذا جيد في التاريخ، وذلك يحتاج إلى العناية بالحساب، وهكذا

والمدرسون يعتبرون تلاميذهم أبناء يفكرون فيهم كما يفكرون في أبنائهم. ففي تلك المدرسة وفي معظم المدارس الإنجليزية تجد التلميذ محبا الألعاب الرياضية، كثير المعلومات، ناضج الرأي، مرتب الفكر، بعيد النظر، قوي الملاحظة، يستطيع التعبير عما في نفسه، يحب النظام، والدقة في العمل. يعرف معنى الطبيعة، ويقدر ما فيها من حياة وجمال، ويمكنه القيام بكثير من الأعمال؛ وهذه نتائج العناية بالطفل في المنزل والمدرسة والبيئة، نتيجة العناية بالتربية العملية لإعداد كل فرد للحياة الكاملة

محمد عطية الأبراشي

محاضرة قيمة:

في الشعر. . .

للمسيو بول فاليري عضو المجمع الفرنسي

عرض وتلخيص للأستاذ محمد روحي فيصل

سيداتي وسادتي:

حديثنا الليلة إليكم في الشعر! والموضوع دائر كما تعلمون الآن في كثير من الصحف والمجالس، ولعل الغرابة أن ينال الشعر الاهتمام وتبذل للفن الجهود في زمن مادي أخذته الواقعية المحسوسة، وطغت عليه الوضعية العلمية، وسادت فيه الفكرة الاقتصادية!

للشعر في الإفهام معنيان: أولهما أنه مجموعة العواطف والانفعالات التي تهيجها في نفوسنا أحداث الزمن، ومجالي الطبيعة، ومعاني الوجود، وألوان الحياة، فنقول منظر شعري، وظرف شعري. وثانيهما أنه فن قائم وصناعة عجيبة، يتناول الأهواء المشبوبة بالتنسيق والتأليف والجلاء، ثم يبرزها لغة جميلة تطرب لها الأذن ويهتز منها القلب! وبين المعنيين صلة شديدة وتباين كتابين الرائحة التي تضوع من الزهر، والرائحة التي تضوع من الكيمياء

ومهما يكن من شيء فالناس لا يزالون في لبئس من المعنيين، وحيرة في الشعر والشعور؛ وكان من أثر هذا أن طائفة من الأحكام والنظريات والمؤلفات قد فسدت وغمضت لإطلاق الكلمة والواحدة على معنيين شتيتين وإن اتصلت أسبابهما اتصالا وثيقا!

فالشمس الغاربة، والغاية الوارفة، والقمر الناعم، والبحر العظيم - هذه وغيرها تبعث في الناس حين يستشرقون لها انفعالات وجدانية تختلف في الشدة والمدة والنقاوة والأثر؛ وقد تكون أزمة الهوى، وفاجعة الموت، ونازلة الفقر، أسبابا مباشرة لاضطراب نفسي عميق أو خفيف يلون الشعور، ويشتت المعاش، ويبدل المثل الأعلى! ولكن هذه العواطف الإنسانية المعروفة تغاير ما نسميه (العاطفة الشعرية) ولعل بيان أوجه التغاير والاختلاف لا يخلو من عنت ومشقة، لأنهما في الواقع متحدان اتحادا شديدا ما ينفصل أحدهما عن الآخر أو يبرز له ويسمو عليه، فالعاطفة الشعرية تتصل أبدا بالحب والألم والخوف والغضب، وما

إلى هذا من مشاعر النفس وأهواء القلب

وإنما العاطفة الشعرية عندي إحساس قوي بحياة غريبة، وشعور واضح بعالم جديد جرده المبين من نفسه لنفسه، ثم قوم أشياءه وأحداثه وأشخاصه بالميزان الذي له خاصة، وخلع على ما فيه قيما حديثه، قد تتفق وقد لا تتفق مع القيم المألوفة التي تواضع الناس عليها في حياتهم الدراجة! ولئن تشابهت أشياؤه بالأشياء، وتعارفت الأحياء بالأحياء، فلقد يشملها جميعا قانون النفس العام، وتصطبغ كلها بالشعور والإنساني، تتجاذب تلك الأشياء والأحداث والأشخاص وتتنادى وتطرد لغاية عملها في دقة ونظام؛ والأولى أن نقول إن الأشياء والأحداث والأشخاص تؤلف في العالم الجديد لحنا موسيقيا منسجما لا ضجة فيه ولا نشوز، يتملاه الشاعر ويستوحيه ويخضع له! دنيا رحبة هادئة جميلة هي ملك المبين لأنها من خلقه! ولعل هذا العالم الشعري يماثل من وجوه عديدة عالم الرؤى والأحلام

التي تضطرب في خيال المرء، وتطيف في رأسه الغافي. . .

ولقد أحب أن أشير هنا، وقد انحدرت (الأحلام) مع الحديث، إلى أن جماعة الإبتداعين (الرومانتك) وأدباء العصر الحاضر قد خلطوا بين الشعر والرؤيا ووحدوا معناها! نعم، قد تكون الرؤيا والأحلام صورا شعرية خالصة، ولكنها صورة بارزة مؤلفة من عمل المصادفة والإتقان؛ وما دامت كذلك فهي صور شعرية بالمصادفة والاتفاق إن عالم الرؤى عالم غريب قد ملأ ساحته الشعور المبهم، وانفرط فيه عقد المنطق المحترم، وهب عليه إدراك غير إدراكنا، وتفكير غير تفكيرنا! فهو عالم مغلق تبرز الأشياء فيه على غير حقيقتها ولونها المعهود، وهي إنما بأهوائنا المكظومة ومثلنا المرجوة ورغائبنا الكامنة. والعاطفة الشعرية حالة نفسية كهذه الحال الطليقة تظهر على غير انتظام، وتعمل في غير استقرار، وتضمحل من غير إنذار! لقد تقوم في أنفسنا بالمصادفة وتخفتي عن أعيننا بالمصادفة! وعجيب - يا سادتي - أثر المصادفة العابثة في ظهورها وفنائها! (تصفيق)

- 2 -

يكر الزمان مسرعا ولا يؤوب، وتتجدد الحياة مشرفة ولا تتشابه، وتزول الصور ماضية بدون أثر! والله القادر الحكيم إنما تفرد بالطي والنشر، والمحو والإبداع، ثم أودع في الحياة معنى الموت، وفي الجذوة قوة الركود، وفي الخلق سر الأعجاز!! ولكن الشاعر المبين لن يرضى عن اللحظة الحية التي تطوي إلا إذ، سجلها على القرطاس، وأمد في عمرها، وأثبتها على الدهر، كأنما يعارض انحدار الأشياء إلى صندوق العدم، أو يغالب عبث الليالي وتطور الوجود، فهو يقف بالذاهب الآفل وقفة طويلة ممنعة فيقيد خواطره، ويعلن أحاسيسه، ويحي حبه، ثم ينزع من الحياة قطعا يقذفها في إطار خالد جميل إلى العصور التي تليه، والأجيال التي تضطرب بعده على الأرض! كذلك استطاع أن يستمتع بالعاطفة الشعرية الطليقة وأن يستحضرها في نفسه كلما أراد كما تستحضر الرؤى بالتنويم؛ والفنون كلها تقلب العرض الزائل إلى حال دائم، والعمل الفني إنما هو الآلة الحسية لهذا التوليد العجيب والخلق الموفق؛ فالموسيقى والنحت والأدب والتصوير طرائق مختلفة للتمثيل والتعبير اقتضتها كثرة الحواس الظاهرة، واشتباك النفس الباطنة، وغموض المدينة الحاضرة. . . التمس الشاعر طائفة من السبل الملتوية لاستحضار العاطفة الشعرية، ورياضتها على الفن. ولعل أقدم السبل المشروعة، وأعمقها أثرا، وأشدها تركيبا هي اللغة! ولكن اللغة بطبيعتها المادية وسلطانها الواهي واستخدامها العملي أجهدت الشاعر أيما إجهاد، وهو الذي يقوم ويؤلف منها الجرس!

أرجو أن أظفر - أيها السادة - يعرض ما يكابد الشاعر من آلام، ويبذل من جهود، ويغالب من مصاعب

إن اللغة كما ذكرت أداة قديمة يخلص الناس إلى حاجات العيش ومطالب الجسد، فهي على هذا أداة سمجة خلقتها المصلحة، وشوهتها الظروف، وأخضعتها الشهوات! فقيم الكلمات، ومدلول الألفاظ، وقواعد التركيب، وفن الكتابة، ومخارج النطق إنما هي ألهية من الألاهي الطريفة نبعث بها على ما تقتضيه المآرب وترتضيه الأهواء. ولقد نجل مقررات المجمع الأدبي، ونقدر عمل الطباعة والصحافة في تحديد معنى اللفظ وكف شرة الفرد، ولكن خصائص اللغة من حيث قدرتها على إبداع الجرس الموسيقي وتشقق المعني الواحد فيها عن كثير من المعاني المندرجة لم تجد - وا أسفاه - من يرد عنها عادية النزوات وعرف الأوضاع؛ فقد ننطق بالحرف وترسل الكلمة كما تقوى حناجرنا، وتنفرج شفاهنا، وتتسع ثقافتنا، وتزخر نفوسنا فنحرف الكلم عن موضعه، وندخل الفوضى على المفهوم، وننشر الشك في قيمة اللغة والحق أن اللغة لو أنها لم تصلح لغايات العيش، ولم تشتمل على معنى السعادة لما كانت تكون وسيلة من وسائل الشعر والفن، ومطلبا من مطالب الدقة والتعبير

هكذا، يا سادتي، شاء الحظ العاثر المشؤوم أن يستخدم الشاعر أداة حسية عملية ليحقق بها فنا أبي إلا أن يثور على المعاش، ويشرف على العمل، ويسمو على المادة. .!!

أما الموسيقى السعيد - وا لهفي على حظه - فقد يشرع فيما اختص له توفير عليه، ووسيلته جاهزة سامية مستقلة، لا يشركه فيها أحد من الناس، ولا تتدنى إلى ما لم

تخلق له، وهو إنما يعمد إلى مادة قد صهرتها العصور، وهيأتها الطبيعية، وحددتها الغاية! لشد ما يشبه الموسيقى الصناع نحلة ولودا جاءت لتفرخ فوجدت الخلية قائمة على أحسن ما تقوم البيوت، مقسمة على أدق ما تقسم الغرف، فولدت مرتاحة هانئة ثم اهتمت للعسل وحده تجمعه من هنا ومن هناك! كذلك رجل الألحان يؤلف فنه من غير جهد، ويسلك سبيله بهجاً طروباً كأنما الملحن قد انسجم وبرز واكتمل قبل أن تمسه يد الموسيقى الفنان!!

ذلك بأننا نعيش بالسمع في عالم الأصوات؛ ونحيا بالأذن حين تعمى العين ويعيا اللسان؛ وبالأذن تدرك بطبيعتها أن الأصوات المتعالية إنما تتألف من وحدات بسيطة بالغة البساطة، صغيرة بالغة الصغر، حتى كأنها لا تقاس بشيء أو تلمح لوحدها، وهذه الوحدات قد تنسجم لمسافات محدودة، وتطرد بنسب معينة، فتكون الصوت الموسيقى، وقد تضطرب بغير نظام، وتسير على غير منهاج، فتكون الضجة الراجفة.

فالأذن تعلم بالغريزة مكان الوحدة من الجرس، وتتذوق بالفطرة نور الجمال في الهمس، وتدرك أن الفرق بين النغم والضجة كالفرق بين النقاوة والكدورة، أو بين النظام والفوضى، ثم جاء العلم الطبيعي فأتم إدراك الغريزة وفطنة الأذن، وهو العلم القديم الدقيق، فقاس النسب، واخترع الآلات وإبداع من الألحان ما لا تستطيعه دنيا الطبيعة بذاتها. . .

وللموسيقى عمل السحر في النفس، تخلق جوا خاصا بها لست أدري ما طبيعته، وإنما أعلم أنه جو هادئ يتخدر فيه الشعور، وتطير العاطفة، ويحلو التخيل، وتبرز الأحلام!

ولو أن لحنا شجيا انبعث خافتا من كمان في هذه القاعة الرحبة التي يهزها صوتي المضطرب المتعاظم لرأيتكم فجاءة تميلون الرؤوس وترهفون الآذان إلى مصدر اللحن، تتحسسونه وتتذوقونه، وتمدونه في أنفسكم وأنتم لا تشعرون! أفلا فطنتم إلى الأشعة القوية التي سطعت عليكم من شعاع لطيف، وإلى الدنيا الحالة التي طغت عليكم إثر جرس خفيف؟

ولقد يعطس شخص أو يقع كرسي أو يفتح باب فتستيقظ أنفسكم الحالمة وكأنما صار لها ما يصير للزجاج إذا كسر، أو الحبل إذا تصرم

تلكم الألحان الهادئة، والآذان الواعية، تعين الموسيقى على إحياء النفوس من غير تعب؛ أما لغة الشاعر فكما علمتم ألفاظ جامدة مبهمة، وتخاطب الأذان والنفس على السواء، وتدخل إليهما مزيجا مضطربا من الأصوات والصور، وتثير فيهما ألوانا متداخلة من العواطف والميول. وهنا موضع الشذوذ، فلست أعرف أثرا متداولا أفرط في الغموض والاشتباك كاللغة، ولقد تقول كلاما صحيحا يقبله العقل ولكنه لا يهز الأذن ولا يطرب القلب، أو تقول كلاما منسجما جميلا ولكنه خلو من التفكير والمعاني! وليس أدل على اشتباك اللغة من نشأة هذه العلوم المختلفة التي تتظاهر كلها على شرحها وتفسيرها، فثم علم النقد والأدب والبلاغة والمنطق والاشتقاق والنحو تشترك جميعها في الكشف عما يحجب الألفاظ من الإبهام والتعقيد. ولن يستطيع المبين أن يتجاهل هذه العلوم أو يثور على سلطانها أو يكتفي بالتوقيع على الأذن دون النفوذ إلى النفس!

ولكن الكلام كلامان: منثور ومنظوم، والنثر والنظم مظهران قويان للغة، وبينهما حدود على وضوحها متداخلة متشابكة. . . (تصفيق شديد)

أذكر أني كنت أحاضر مرة في هذا المعنى طائفة من الأجانب، فلما بلغت هذا الموضع من الحديث إذا أحد المستمعين يتلو علي رسالة طريفة بعث بها الكاتب (راكان) إلى صديقه (شايلان) يقول فيها: (. . . وأنت تستطيع أن تنعت نثري بما شئت من الظرف والكياسة والبساطة، فلقد اعتزمت على ألا أحيد عن نصائح أستاذي الكبير (مالرب) ولا التزم ما يلتزمه غيري من الوزن والإيقاع والجرس، وحسبي الوضوح من تاج أزين به نسيج ألفاظي ولفتات ذهني! كان مالرب الذكي يشبه النثر بالمشي، ويقرن الشعر بالرقص، ويقول إن ما نفعله مرغمين يستحق التسامح والاعتدال، ثم لا بد فيه من التجاوز والإهمال، وأما ما نعمله باختيارنا ورغبتنا فمن السخرية أن يكون المرء فيه ضعيفا أو وسطا، فالأعرج مضطر إلى المشي اضطرارا، ولكنه متحذلق سخيف لو راح يرقص على الفالس والخطوات الخمس)

إن تشبيه النثر بالمشي والشعر بالرقص تشبيه خصب جميل لا أعرف أصح منه ولا أدق ولا أشمل! فالمشي كالنثر يقصد به صاحبه أن ينال غاية مائلة ويحقق فكرة مرسومة، فهو يرجو شيئا، ومن أجله يمشي، ولعله لم يدب برجليه ويضرب في الأرض إلا لأن الباعث قد تحرك فيه وألح عليه؛ وظروف المشي، أعني طبيعة الشيء وحالة البدن والأرض واشتداد الرغبة، هي التي تحدد سرعته وتعين وجهته؛ فالمشي على هذا واسطة قائمة تزول متى برز وجه الغاية، أو هو فعل متجدد سوف ينطوي بعد حين. أما الرقص فهو هو الواسطة والغاية، ليس يغني ولا يسير على غير هدى؛ ولئن قصد به فهو الرياضة على الفن الجميل، والشعور بالحياة السعيدة، والاستماع بالمثل الأعلى! على أن الرقص يستخدم نفس الأرجل والأعضاء ولأعصاب التي يستخدمها المشي، وكذلك الشعر أداته الكلمات والصور والمعاني التي يقوم بها النثر عند البيان إنما يمتاز الشعر من النثر بأنه يتناول الألفاظ على نحو من التركيب والتوجيه يخالف ما يتناول منها النثر في أغلب الأحيان، فنحن نعجب بالكناية والمجاز في الشعر أشد العجب، بل نحن لا نعجب بالشعر إلا إذا كان كله أجله كناية ومجازا. أما القول بوحدة الشعر والنثر فهو قول لم يقره النقد الصحيح ولم يسغه الذوق والحديث، ولعل ما يجوز في أحدهما لا يجوز في الآخر على أوجز تعبير

والمشي كالنثر يسلك به صاحبه أخصر الطرق وأقومها وأقلها عوجا ومنعطفات ليصل إلى بغيته التي يرجوها دون تريث ولا تذبذبن ولكن الرقص بخلاف ذلك لا يحلو إلا إذا أكثر من الروحات والغدوات، وأفرط في اللف والدوران، وأمعن في الجيئة والذهوب؛ ولو سمح لنا الرياضيون لقلنا إن الخط المستقيم سبيل الماشي والناثر، والخط المنحرف سبيل الراقص والشاعر!

تلك السماء تسح مطرا - هكذا يعبر الناثر في نزول المطر الشديد، وهكذا علمنا منذ الطفولة على الكلام، أما الشاعر فلن يبين كما يبين الناثر ويتكلم الناس وإنما يكسو الحقيقة العارية، ويزين الصورة الواقعة، ويعرض الحس في إطار رائع يبهر البصر ويعجب البصيرة. وما ينبغي للشاعر الفنان أن يقول (تلك السماء تمطر تسح مطرا) حتى نحمل المظلة ونتقي البلل لأن (تلك السماء تسح مطرا) قاعدة الكاتب الناثر، ينشئ فيوجز

ويصرح ثم لا يجمل ولا يبالغ

يمشي الرجل متثاقلا أو مسرعا إلى غايته، فما يكاد يبلغها حتى يقف قائما لا يسعى كأنما التثاقل والإسراع كانا من أثر الحاجة والإلحاح، فالرجل يكف عن المشي لأن علة المشي قد زالت ولأن غاية السعي قد برزت! وهذا الأعرج الضعيف الذي ذكره مالرب في حديثه إنما يجلس مستويا على مقعده كما يجلس الراكض العاني بعد طوال اللهث والتعب. كذلك لغة النثر تضطرب وتموت في الذهن متى عرف معناها واستابنت غايتها؛ فهذه محاضرتي غنما ألقيها على مسامعكم لتفهموا عني ما أحب وتعتقدوا بالذي أعتقد، فأنا أقول الآن نثرا، ومتى انتهيت من الكلام وارفض جمعكم الحافل طارت الألفاظ سريعا من ذاكرتكم، وبقي الأثر منطبعا في أذهانكم كأنما أقول من الكلام المنثور لأدفنه بيدي وأذيبه متعمدا، ولقد يتفاعل هذا الأثر الحديث مع غيره من الآثار السابقة كما تتفاعل فيما بينها عناصر الكيمياء؛ ومهما تكن نتيجة التفاعل الفكري فالألفاظ التي أقذفها إنما أقذفها لتتلاشى كما يتلاشى البخار في الفضاء. وكمال محاضرتي أن تفهموا معناها لا أن تحفظوا مبناها، لأن المعنى متى أشرق في الذهن ووضح في الخيال وجد اللفظ سجنا يحد من سعته ويضعف من شأنه؛ فالفهم والدقة والوضوح غاية النثر التي لا غاية له غيرها وأعني أن الكلام المنثور يحيا حياة قصيرة ثم يموت. . .

وما ينبغي أن يحيا النثر إلا حياة قصيرة ثم يموت بعد أن يبلغ رسالته تامة صحيحة واضحة! ولكن الشعر خالد تتجدد ألفاظه في القراءة، وتحلو معانيه عند الإعادة؛ وقيمة الشعر في شكله الظاهر وكلماته المزجاة، قد انتظمت كما ينتظم العقد وانسجمت كما تنسجم الموسيقى؛ فرؤوسنا تحفظ اللفظ تتلوه مترنمة هازجة وتعيده على نحو ما سمعته في الرصف والاتساق. ثم لا تبالي إن ثملت أو حزنت أو ثارت ما دام في إنشادها رنة الفرح أو أنة الألم أو نزوة الهوى. ولقد جهل قوم كثيرون طبيعة الشعر، وهاموا في وضع الحدود وتباين المعالم فما نجحوا ولا استراحوا؛ وعندي أن الشعر

لفظ جميل تستمع به الأفهام الراجحة، وتتناشده الشفاه اللاغية، وتهضمه النفوس الواعية. ثم تخرجه كما كان لفظا جميلا تبقي جدته على الزمان كأنما يستعلن في متشابهة قوية رائعة (ميكانيكية). . .

هاتان نقطتان ثابتتان تقابل إحداهما الأخرى على مسافة صغيرة، يتأرجح بينهما رقاص مضطرب كرقاص الساعة، قد تدلى وتذبذب في جيئة وذهوب. أما النقطتان الثابتتان المتقابلتان فهما اللفظ والمعنى، أو الشكل والفكرة، أو الجرس والعاطفة؛ وأما الرقاص المضطرب فهو النفس المتصفحة الممعنة، تقرأ القصيدة المنظومة أول ما تقرأ، فتجوز اللفظ لتفهم المعنى، وتنسى الشكل لتذكر الفكرة، ثم تخلص من الجرس إلى العاطفة تستطلع مطاويها كما هو الحال في التخاطب والكلام، وهنا في هذه السطور يتساوى النثر والشعر، ولكنه طور خاطف لا يلبث أن يزول. ذلك أن النفس القارئة تكر راجعة بعد هذا إلى اللفظ تعيده وتتملاه. ثم لا ترى خيرا منه صندوقا يضم أشتات المعنى، ويحفظ دقائق الفكرة، ويعلن جمال العاطفة! تعود إلى اللفظ بعد ما عرفت المعنى كما يعود الرقاص من جولته إلى حيث ابتدأ في الجولان! وهكذا تضطرب النفس القارئة بين اللفظ والمعنى كما يضطرب الرقاص بين النقطتين الثابتتين المتقابلتين، وهذا الاضطراب بين الظاهر والباطن هو الذي أسميناه (بالعاطفة الشعرية) في صدر المحاضرة، وهو غاية الشعر التي لا غاية له غيرها، ولعل الشاعر الموهوب من يختار اللفظة الصالحة لأحداث الاضطراب النفسي، وإحياء العاطفة الشعرية

فالشعر كما أراه يفترق عن النثر ولا يلتبس به، وهو أشد ما يكون بعدا وتساميا عن القصة والرواية اللتين تصفان حوادث الواقع وتعرضان مشاهدة الحياة، وهذا التباين نلمحه واضحا في الوضع الطبيعي الذي يأخذه قارئ الرواية وقارئ الشعر، فالأول ينساق مع تيار الحوادث، فيفخر أو يغضب أو يفرح أو يحزن، وقد وضع جبهته بين كفيه، وركب رأسه فيما يقرأ، وتعجل التلاوة ليأمن الذي يلي ويطمئن للخاتمة، فجسده غائب وحواسه فارغة، وعقله منغمس تائه لا يشعر بما حوله ولا يدرك إلا ما هو فيه، ولو انصفنا لقلنا إن قواه الجسمانية قد انحلت، وأن قواه النفسانية قد انقلبت عقلا يمعن ويتلو ويتأثر، أما قارئ الشعر فلا تتقسم طبيعته ولا تتوزع قواه، وإنما يذهب في القراءة بجوارحه كلها ما دق منها وما ظهر، ما رق وما غلظ، ما شرف وما سفل؛ فالقصيدة تهيج نفسه وعصبه، وتوقظ ملكاته الحسية والفكرية. ثم تريده على أن يتصور الأشياء ويتمثل الحقيقة كما هي غير محرفة ولا ملتوية ولا مضطربة!!

ولكني على هذا ألمح بين الشعر والنثر درجات من الصور خافة متوسطة تربط قطبين متقابلين في الأدب، وتصل مظهرين قويين للغة، ثم تنشئ بينهما حدودا على وضوحها متداخلة متشابكة. . .

- 4 -

أينظم الشاعر مضطرا أم ينظم مختارا؟

هذا آخر ما أفكر فيه وأتحدث عنه، والغريب أن الباحثين لم ينتهوا بعد من تقرير شيء في هذا. فالجدال عنيف، والتعقيد ظاهر، والعمل شاق. وقد يئست طائفة من الشعراء وتبرمت بالقريض، ثم قالت: إن مهنتنا تضني النفس وتأكل القوى، وصاحبنا مالرب يزعم مخلصا أن الشاعر ينهي مقطوعته الفنية وجب أن يهدأ مرتاحا بعد ذلك عشر سنوات!!

ينظم الشاعر. . . ولكنكم تدرون متى ينظم الشاعر، وما حاجتي إلى شيء تعرفونه حق المعرفة. ينظم الشاعر حين يفيض قلبه ويمتلئ صدره، فينطلق لسانه ويقول شعرا، ولكم وددت أن يكون هذا الرأي الفطير صحيحا سديدا، إذن لاحتمل الشاعر تكاليف الحياة، ورضى المبين بميسور الشقاء! ولكن القريحة الفنية قد تتبلد وتظلم حتى لا تعي أمرا ولا تنطق حرفا، فمن يقول بهذا الرأي الغرير يخضع الشاعر لسلطان القدر العابث، ويغدو الإنتاج الشعري حينئذ مرهونا بالمصادفة المواتية واللمحة المشرقة، أو متصلا بالوحي العالي والموهبة الخارقة. ولست أعلم افتئاتا على حرية الشاعر وامتهانا لكرامته كهذا الرأي القائل العاثر يجعله منفعلا لا فاعلا، وحاكيا أمينا يقول ما يلقى إليه من الكلام، وهو، يحاسب كما يحاسب مدير الصحيفة المسئول، فما كان خيرا قالوا هذا من عند الله، وما كان شرا قالوا هذا من عنده! والعجيب أن الكثرة

الغالبة من الشعراء تؤمن بهذا الرأي وتناضل عنه، أو هي على الأقل لا تجد الفضاضة الذليلة بأن ترضى قانعة بمشيئة المصادفة والوحي

توافرت الأدلة وأثبتت التجربة أن الشعر الذي يعترف بجودته وبلوغه المنزلة الرفيعة التي تملى القارئ أثر الوحي والإحساس النفسي، إنما هو الواقع من عمل الجهد الدائب، والإدارة الصابرة، والتفكير العميق. أفلا نحس بهذا المجهود الكبير يبذله الشاعر حين نقرأ قصيدة من قصائده الطويلة الجميلة؟ فنحن نخطئ كثيرا إن حسبنا أن الشعر وحدة لا تقبل التجزئة؛ وموهبة لا تقوى على المران، وأثرا لا يخضع للزمن لقد يمتاز الشاعر من بين الناس كافة بلحظات مشرقة خاطفة تعصف بذاته وكيانه عصف الريح بفروع الشجر، فتتفتح لديه مغاليق نفسه، ويطل على دنياه الكامنة، ويلمح عجائب الروح. تلك لحظات ثمينة غريزة تضئ ما اختبأ بين اللحم والدم، وتبعث من المعاني والصور ما لا يفهمها أو يقدرها إلا الشاعر وحده، لأنها مختلطة بأوضار المادة وصادرة عن أسرار الظلام؛ وهي معان وصور لا تلبث للمنطق الظاهر ولا تلين للبيان الشعري، وكل ما في الأمر أنها قطع تنتثر من أعماقنا في حالها الطبيعي كما تنتثر الأحجار الكريمة من جوف البركان. ولقد ينبغي أن نطرح الأوشاب، ونحتفظ بالعنصر الصالح النقي لنذيبه في قالب جديد ونقدمه جوهرة خالصة للناس

فالذين يؤمنون بالوحي الشعري يقتلون العمل والإبداع، ويرضون بالشاعر وسيطا تملي عليه القدرة القادرة ما تشاء من ضروب القول وألوان المطالعة، وما لمثل هذا الفن ويخلق الشعراء! لشد ما هزئنا بالذين كانوا يؤمنون بحلول الجن أجساد البشر، ثم يجرون ألسنتهم ما يشتهون من الحجج واللهجات والنزوات! نعم إن شعور الصادق في اللفظ الجميل قوام الشعر الصحيح، ولكن الشعور النفسي لن ينبجس صافيا عذبا مهيئا للبيان، وما أحسبه يصفو ويعذب إلا إذا نهد له الشاعر بنشاطه فجرده من الأدران التي تمازجه، ونفض الغبار عنه ثم أهداه للقارئ أنشودة وأثرا كاملا. . .

بيروت

محمد روحي فيصل

رشيد في ضحى عيدها

للأستاذ محمد محمود جلال

كدنا لا نذكر اليوم عن (رشيد) إلا إخراج الأرز طعاما شهيا. وأنها مقر صناعته ولا نعرف لها أكثر من الترويج الذي نلقاه من جمال موقعها حين نبرم بالمصيف المتمدين المملوء بالرسميات على شاطئ الإسكندرية فنفزع إليها نلتمس شيئا من التغيير وقربا من الطبيعة في أهنأ مظاهرها

فأما نصيبها من حياتنا المعنوية فمقصور على ما نتوارثه سماعا عن سرعة النكتة في طبيعة أهلها، فنتنادر بشيء مما حفظنا منه في مناسبات متباعدة، فإذا طلبت في إحدى بيئاتنا مزيدا فلست تجده إلا رواية عن مختصر مخل من كتب الجغرافيا (فهي ميناء على ملتقى النيل بالبحر الأبيض المتوسط وهي مركز من مديرية الغربية كانت محافظة إلى عهد قريب)

وهكذا غمطت (رشيد) حقها، وغمر في قاموسنا أصلها كما ذهب الإهمال بأكثر صحفنا، وعصفت الأنواء بمفاخرنا. كأنها لم تكن طغراء في كتاب الجهاد الحديث، ومسرحا أظهر الله فيه آيات الحكمة والبسالة لشعب وادي النيل. كأنها ليست هي رشيد التي حققت في سنة 1807 ما لا يزال في أحضان التقدم والرقي مجرد أمل لوادي النيل، وأمنية لأكثر أقطار الشرق

أحببت أن أرى رشيد أول مرة في أول أبريل، وكنت بالإسكندرية والمسافة بينهما تقطعها السيارة في ساعتين

تخيرت (سيارة أجرة) أعجبني مظهرها واطمأنت نفسي إلى أدب سائقها، وسارت تقطع الطريق وقد أوصيت قائدها بالتؤدة لعلة الأمعاء التي أشكو

وقف بي السائق في الطريق عند (ادكو) المشرفة على بحيرتها ونزلت أمشي قليلا على قدمي، فلما عدت أستأنف رحلتي وجدت السائق قد أعد فنجان قهوة وكوبة ماء وقدمهما إلي في أدب يندر أن تراه في زملائه. شكرت له صنيعه وألححت في أن يطلب له فنجانا آخر وسرحته ريثما يشربه في قهوة مجاورة بيد أنه لم يقبل إلا بعد مشقة

جلست إلى جوار السائق مستأنفا رحلتي وقد ألهمت أن للرجل قسطا من العلم ولابد من سر
مؤثر في حياته وبدأت آنس به
قلت: (لأي غرض تظنني أقصد إلى رشيد؟) قال: (لعل حضرتك محام ولديك اليوم جلسة) قلت: (لقد تركت المهنة منذ ثماني حجج وأنا اليوم فلاح مقيم بالوجه القبلي) قال: (لعلها نزهة، فكثير من الخواجات يأتونها في أوقات مختلفة) قلت: (ولا هذا أيضا وليس معي رفيق ولم أر رشيد من قبل)!! قال: (لعلك تزور صاحبا) قلت: (لا أعرف أحدا وقد ذكرت لك أن هذه أول زيارة لها)
اكتفيت من حدس السائق بما سمعت، وخففت عنه عبء الفكر فقلت: (هذا يوم عيد رشيد - بل عيد لوادي النيل. فقد أشرقت شمس هذا اليوم منذ 128 عاما وللمدينة غنى بشمس النصر، وحرارة الجهد والظفر على المعتدين حتى جلا الإنجليز في ظل معاهدة محمد علي باشا عن البلاد بعد ذلك بشهور)!!
سر السائق بما سمع وبدا لي أنه يريد أن يتكلم فلزمت الصمت قال: (إن بلاءنا منا وبسببنا. قلت: لم وكيف كان ذلك؟ قال: (ألا تذكر حضرتك كيف التجأ الخديو توفيق باشا لحماية الإنجليز؟ - ألم تسرق من معسكر عرابي خريطة في التل الكبير بواسطة أحد الضباط)؟!
ذكرت على التو أمر الخريطة وأني قرأت شيئا من ذلك في أحد المؤلفات التي كتبت عن المسألة المصرية وإذا لم تخني الذاكرة فهذا الضابط الذي يعنيه يدعى (علي يوسف خنفس)
(قلت: ولكن بعد ذلك ألم يكن السبيل لتصحيح الخطأ ودرء الخطر؟
قال: (ألم يكن رؤساء الحكومة أغرابا بين الترك وأرمني ورومي؟)
تساءلت: ومن هذا الأرمني؟ أو كان لنا رئيس حكومة أرمني؟
قال: نعم. نوبار باشا، ألم يساعد على سلخ السودان؟ استدركت قائلا (بل قل الوجه السوداني كما تقول الوجه البحري والقبلي. أو تعرف للسودان قيمة؟)
قال: (إنه حياتنا، ولقد عشت فيه، وتلك الشهادة الابتدائية من كلية غوردون)
صدق ظني فأنا بأزاء رجل متعلم، وطاب لي أن يستمر في حديثه وكله سمر مفيد متصل بما أعنى به
سألت السائق: (وما الذي دفع بك إلى الوجه السوداني؟)
قال: (ولدت هناك؛ وقد كان أبي موظفا بمصلحة السكة الحديد. أرسل إلى السودان ليدرب المبتدئين هناك من عمال التلغراف، ولما عدنا أتممت دراستي إلى شهادة الكفاءة، وشق علي أن أسعى للوظيفة وسط أمواج الساعين وذل الوساطة، فتعلمت قيادة السيارات واشتريت هذه، وأنا بعيشي قانع ولله الشكر)
لم أجد بدا من تحيته تحية تجزئ شيئا من كرامته وحسن تقديره للحياة ولوطنيته. قلت: قف السيارة - وقد ظن أني أريد استئناف السير على قدمي لدقائق أخرى، فهم بفتح الباب قلت: كلا أمد يدك أني أصافحك، وأنت الآن في نظري خير مني، وأنت إذن سائق ورفيق
أشرفنا على المدينة، فسألت السائق هل يعرفها جيدا؟ قال (نعم) فاطمأن خاطري فنزلت وصورت مدخلها
رأيت أعلاما منشورة، وزينات مرفوعة، وبشرا يغمر الوجوه. فقلت: الحمد لله إنهم يعرفون لليوم حقه. والتفت إلى رفيقي خريج (كلية غوردون) وقلت: (ألا ترى مظاهر العيد؟) أجاب الرجل: (إنه اتفاق سعيد، فقد ازينت المنازل والطرقات لعودة الحجاج من أهل رشيد، وقد دعيت أمس ليركب سيارتي أحد أعيانها القادمين، ولكني وعدتك أن أوفيك بفندق وندسور. فاعتذرت مهما علا الأجر، وأنا اليوم أعد نفسي سعيدا)
قلت: بل أنا يا بني، فقد وجدت فيك من يحتفل معي بهذا العيد على معرفة!) وقلت: لا يزال في الدنيا من يرخص المادة في سبيل الوفاء، وإذن ما تزال الدنيا بخير
رشيد بلد ظريف جذاب. إذا نظرت إلى التقاء النيل عنده بالبحر الأبيض المتوسط، ذكرت على التو كيف انسابت مدينة وادي النيل القديمة إلى أوربا، وعرفت كيف سارت تعاريج الأمواج الحلوة الهادئة بين الشاطئين الهادئين، فكانت أشبه بالسطور يحملها الأثير بفعل الاختراع - فنقلت في أقدم العصور التشريع المصري إلى (أثينا)

فأضفت على تاريخها مفخرة التقنين وسن الشرائع
أمواج النيل الهادئة، بالإضافة إلى أمواج البحر الصاخبة الهائلة، كذلك الخلق الرصين المتين يثابر متئدا فيتغلب على صخب الجبروت، والهيولي الضخمة المخيفة لكتائب الغضب والغزو - وقد شهد وادي النيل مصارع أمم كبيرة فأفنى قواها أو مثلها ففنيت في شعبه
ممرنا بالمباني الحديثة فقلت خلوا بيني وبينها، أروني المباني القديمة، أسمعوني الشهود العدول، دعوها تحدثني عما شهدت وتطلعني على ما خفي من تفاصيل المفاخر
رأيت المنازل القديمة، ووقفت بربوعها أسائلها وتجيبني. أصغي إلى (طيقانها) الصغيرة، فأسمع حديث الإباء والشمم، ووقفت بأبوابها أذكر القرى والكرم التقيت بأحد أبناء رشيد الكرام الأستاذ فؤاد نور المحامي فحمدت الله رفقته وحمدت السري في ظله، زرنا المنازل الأثرية فهذا بيت (الأماصيلي) كان يملكه حاجب المحكمة الأهلية فابتاعته مصلحة الآثار ولكنه مقفل فلا دليل يقف ببابه للمسترشدين، ولا نشرة توزع بما يجب للبناية الأثرية من بيانات، ولا (كارت بوستال) يباع - حاويا صوره الداخلية
والبيت من داخله تحفة فنية وفيه متعة وشغل للبصر والبصيرة، بني في 28 شوال سنة 1223 هجرية وقل أن تجد من يعنى بتاريخ البناء إلا في السنوات الأخيرة وأعجب ما ترى فيه (مقصورات) شبيهة بالألواح التي نراها اليوم بالمسارح أعدت لجلوس السيدات ليشهدن مجالس الغناء وتسمى (الأغاني) إضافة إلى الغرض منها وفقت إذن: أن هذا البيت قد شهد موقعة النصر وأنه شاهد أمين عليها، وقفت به طويلا وقلت: ما يؤلمني أن أكون وحيدا ولا يرافقني رهط قليل ما دمنا نقوم بما نعلم من واجب، فغدا يزور رشيد آلاف وغدا يكون الاحتفال عاما، ولا ضير أن نبدأ قلة وقد نعلم أن (واشنتجون) عد في وقت مجنونا، وأنه لم يخل من تآمر حرسه عليه، وهو اليوم، وفكرته اليوم متجه الأنظار للأمريكان جميعا
ليس في رشيد فندق لائق. وقد أعد يوناني مطعما منذ سنوات قليلة فقاطعه أهل البلد حتى لم يجد مناصا من إغلاقه وهجرة البلد
كل دار أحق بالأهل إلا ... في خبيث من المذاهب رجس
ولكن هذا الميدان الذي خلا أليس من أهل البلد من يملؤه؛ أولئك الذين كتب عنهم الجنرال ستيورات إلى القائد فرزيه في 31 مارس سنة 1807 يقول: (أن الأهالي لا يعبأون بالمصائب برغم ما أحدثنا بالمدينة من تخريب حتى بلغ ما أطلقناه من القنابل من المدافع البعيدة المرمى وحدها 300 قذيفة)
على أحفاد أولئك الكرام أن يحتفلوا بذكرى أجدادهم وبمجد بلدهم. وعليهم أن يسدوا كل
ثغرة، ولعلنا نقتبس الرشد عما قريب عن رشيد
الشيخ عطا
محمد محمود جلال المحامي
فلسفة موسى بن ميمون
(ومصنفه دلالة الحائرين
بقلم إسرائيل ولفنسون
إذا كانت مدونات موسى أبن ميمون التشريعية قد صنفت لأبناء الثقافات اليهودية قبل كل شيء، وإذا كانت البحوث التي وردت فيها لا تتجاوز حدود الدين وأدب الدين والتشريع الإسرائيلي فإن كتاب دلالة الحائرين يشغل ناحية أخرى من التفكير الإنساني، هي الناحية الفلسفية والمنطقية، أو الناحية الإنسانية العامة التي كانت تشغل بال المفكرين ورجال الفلسفة في ذلك العهد
وقد اعتمد بن ميمون في أثناء تأليفه كتابه (دلالة الحائرين) على المصادر العبرية التي كان له بها إلمام يندر أن يكون في شخص آخر من أحبار اليهود في القرون الوسطى، كما كانت له دراية تامة بمؤلفات اليهود باللغة العربية، ومع أنه لم يسرد أسماء المؤلفين إلا في أحوال نادرة فإن نظرياتهم تتكرر في كثير من فصوله في كتابه (دلالة الحائرين) إذ يسرد آراء سعديا الفيومي وبخيا وسليمان بن جبيرول ويهودا هالوي

وإبراهيم بن حيا وإبراهيم بن عزرا
وكذلك كانت له دراية بآداب اليهود القرائين
أما الفلسفة اليونانية فكان يعرفها من التراجم العربية شأن غيره من الفلاسفة في البلدان الإسلامية وهو متأثر قبل كل شيء بأرسطاطاليس الذي يراه رئيس الفلاسفة، يجله إجلالا عظيما إذ يقول: (وكل ما قاله أرسطاطاليس في جميع الوجود الذي من لدن فلك القمر إلى مركز الأرض هو صحيح بلا ريب، ولا يعدل عنه إلا من لم يفهمه، أو من تقدمت له آراء يريد الذب عنها، أو تقوده تلك الآراء إنكار أمر مشاهد. . .)
وكان قد درس كتاب الأخلاق لأرسطاطاليس من ترجمة إسحق بن حنين كما علم نظرياته من شروح يونانية مترجمة إلى العربية مثل إسكندر الأفروديسي وتامستيدس ويحيى النحوي
وكذلك وصلت إليه نظريات أرسطاطاليس بوساطة المصنفات العربية مثل الغزالي وابن باجة أبو بكر بن الصائغ وأبن الطفيل والفارابي وآراء المتكلمين، وكذلك أدمج في (دلالة
الحائرين) بعض النظريات لبطليموس وجلينوس اليونانيين
وكذلك ورد في دلالة الحائرين بحث في منزلة المعتزلة والأشعرية مما يدل على أنه درس المذاهب الإسلامية دراسة وافية
وكان السبب المباشر في نشر كتابه دلالة الحائرين إلحاح تلميذه يوسف بن عقنين عليه، ويقول موسى بن ميمون في مقدمته إلى تلميذه: أيها التلميذ العزيز، لما مثلت لدي وقصدت إلى عظم شأنك لشدة حرصك على الطلب، ولما رأيت في أشعارك التي وصلتني وأنت مقيم بالإسكندرية من شدة الاشتياق للأمور النظرية، وقبل أن أمتحن تصورك قلت لعل شوقه أقوى من إدراكه، فلما قرأت علي ما قرأته من علم الهيئة وما تقدم لك مما لا بد منه، زدت بك غبطة لجودة ذهنك، وسرعة تصورك، ورأيت شوقك للتعليم عظيما فتركتك للارتياض فيه لعلمي بمآلك ولما قرأت علي ما قرأته من صناعة المنطق تعلقت آمالي بك، ورأيتك أهلا لأن تكشف لك أسرار الكتب النبوية حتى تطلع منها على ما ينبغي أن يطلع عليه الكاملون، فأردت أن ألوح لك تلويحات وأشير لك بإشارات، فرأيتك تطلب مني الازدياد وأن أبين لك أشياء من الأمور الإلهية أن أخبرك بمقاصد المتكلمين وطرائقهم. . . وآمرك أن تأخذ الأشياء على ترتيب قصدا مني أن يصح لك الحق بطرقه لا أن يقع اليقين بالعرض؛ ولم أمتنع طول اجتماعك بي إذا ما ذكر نص من نصوص الحكماء فيه تنبيه على معنى غريب من تبيان ذلك لك، فلما قدر الله بالافتراق، وتوجهت إلى حيث توجهت أثارت مني تلك الاجتماعات عزيمة كانت فترت وحركتني غيبتك لوضع هذه المقالة التي وضعتها لك ولأمثالك، وقليل ما هم، وجعلتها فصولا منثورة وكل ما أكتب لك منها يصلك أولا فأولا ودمت وأنت سالم. . .
ولم يقصد موسى بمصنفه هذا الجمهور أو المبتدئين بالنظر، بل كان نصب أعينه (جماعة الذين أخذوا أنفسهم بالكمال الإنساني وإزالة هذه الأوهام السابقة من سن الطفولة) أو إنه (ما ألف الكتاب إلا لمن تفلسف وعرف ما قد بان من أمر النفس وجميع قواها. . . . .) أو (لمن هو كامل في خلقه ودينه ونظر في علوم الفلسفة وعلم معانيها. . . . .)
أما عن غرض تأليف دلالة الحائرين فيقول المؤلف: ما كان الغرض نقل كتب الفلاسفة. . . وما كان قصدي أن أؤلف شيئا في علم الطبيعة، أو أن ألخص معاني العالم الآلهي على
بعض المذاهب، أو أبرهن على ما يبرهن منها، أو أن أقتضب هيئة الأفلاك، ولا أن أخبر بعددها إذ الكتب المؤلفة في جميع ذلك كافية، وإن لم تكن كافية في غرض من الأغراض فليس الذي أقوله أنا في ذلك الغرض أحسن من كل ما قيل، وإنما كان الغرض بهذه المقالة أن أبين مشكلة الشريعة وأظهر حقائق.
ويقع الكتاب في ثلاثة أجزاء، يشتمل كل جزء على فصول أو موضوعات، وعلى كبر حجم الكتاب وتنوع موضوعاته فإن ما ورد فيه من النظريات يتدرج تدرجا منطقيا محكما من قضية إلى أخرى، فكأن جميعها سلسلة واحدة مرتبطة ارتباطا وثيقا والهدف الأسمى الذي يرمي إليه موسى بن ميمون هو أن يلقى أشعة من أنوار

الفلسفة والمنطق والعقل على الأيمان والشعور (العقل الفائض علينا هو الصلة بيننا وبين الله تعالى. . .)
وهو يقصد التوفيق بين الدين والفلسفة (الحكمة المقولة بإطلاق في كل موضوع هي إدراكه تعالى)، كما يقصد التوفيق بين موسى كليم الله وأرسطاطاليس شيخ الفلاسفة حتى ينظر العالم إلى الدين عن طريق الفلسفة، وحتى يطلب الحق والعرفان لا في أفق الدين وحده، بل في ميدان العقل والمنطق أيضا، وقد رفع بذلك الفلسفة والفلاسفة إلى مصف واحد مع الدين وكبار مفكري الدين
ويبحث الجزء الأول من دلائل الحائرين في ماهية الله وكيفية إدراكه وتوحيده، كما يدخلنا في الكتاب المقدس عن طريق الفلسفة والمنطق، ويفتح الكتاب بمحاربة عنيفة كل ما يقصد من الأوصاف المادية المنسوبة لله، فيشرح الآية (نصنع إنسانا على صورتنا وشبهنا) إن الناس قد ظنوا أن لفظ صورة في اللسان العبري يدل على شكل الشيء وتخطيطه فيؤدي ذلك إلى التجسيم المحض، ورأوا أنهم أن فارقوا هذا الاعتقاد كذبوا النص. . . وأما صورة فتقع على الصورة الطبيعية، أعني على المعنى الذي يجوهر الشيء بما هو حقيقته من حيث هو ذلك الموجود المعنوي، هو الذي عنه يكون الإدراك الإنساني. . . فيكون المراد من الصورة النوعية التي هي الإدراك العقلي لا الشكل والتخطيط. . .
وإدراك الإله عنده على الطريقة السلبية لا الإيجابية، فإنه يقول: (اعلم أن وصف الله عز وجل بالسوالب هو الوصف الصحيح الذي لا يلحقه شيء من التسامح، ولا فيه نقص من
(حق الله تعالى جملة ولا على حال، أما وصفه بالإيجابيات ففيه من الشرك والنقص
ويبحث الجزء الثاني في مشاكل وجود الله وتوحيده وروحانيته وما يرى الفلاسفة في الكون إذا كان قديما أو (محدثا)، ومع أن موسى بن ميمون من أشد أنصار أرسطاطاليس ففي مسألة قدم الكون يحاربه محاربة عنيفة، لأن الأخذ بقدم الكون ينفي ما ورد في التوراة من أن الكون محدث، ويقول موسى بن ميمون بعد بحث طويل في هذه المشكلة إن كل ما ذكره أرسطاطاليس وأتباعه من الاستدلال على قدم الكون ليس له براهين قطعية، بل لها حجج تلحقها الشكوك العظيمة. . .
ثم يبحث في النبوة وماهيتها ودرجاتها وتعريفها عند رجال الدين من الملل المختلفة وعند أصحاب المدارس من الفلاسفة
ويشغل البحث في النبوة أغلب فصول الجزء الثاني وهو من أرقى ما وصل إليه التفكير اليهودي الفلسفي في القرون الوسطى
أما الجزء الثالث فيتم موسى في فصوله السبعة الأولى بحثه عن النبوة بشرحه رؤيا النبي حزقيال الذي ورد في الفصل الأول والثالث من سفره من أسفار العهد القديم، وكل ما ورد فيها من الاصطلاحات العويصة والمعاني الغامضة
ثم ينتقل إلى البحث في الشر، وما يحل من المصائب بالعالم وهل الإنسان هو الذي يكون مسئولا عما يقع من الكوارث على المخلوقين أم الله سبحانه وتعالى، ثم ينتقل إلى مشكلة العناية الآلهية بالكون والمخلوقات، وما يقول الفلاسفة من اليونان والمسلمين واليهود فيها
ثم يتعرض لأمور دينية في الشريعة التي جاءت لصلاح النفس وصلاح البدن، كما يشرح واجبات وعبادات وردت في التوراة على الطريقة الفلسفية
وقد ورد في هذا الجزء معلومات كثيرة عن الأخلاق والعادات عند الصابئة وعبدة الأصنام من الآراميين من أهل حران بجزيرة العراق كما ذكرت بعض كتبهم
وكذلك ورد الذكر لكتاب الفلاحة النبطية لأبن وحشية ولم ينتبه العلماء المستشرقون إلى هذا الكتاب إلا بعد أن قرأوا ما كتبه عنه موسى بن ميمون
وفي الفصول الأربعة الأخيرة يبحث المؤلف في العناية بالعبادات والواجبات الدينية التي هي الغاية المثلى في حياة الإنسان حتى يدرك الحقائق الآلهية، وحتى يتقرب إلى الحق
والعدل والحكمة وهي ألفاظ يعرفها موسى تعريفا منطقيا فلسفيا، وهذه الفصول من أدق ما وضع في مصنفه دلالة الحائرين وأكملها

إسرائيل ولفنسون
أستاذ اللغات السامية بدار العلوم
قصة المكروب
كيف كشفه رجاله
ترجمة الدكتور أحمد زكي وكيل كلية العلوم
بستور
صلة حديثة

وصل الفائت: ترك باستور مدبغة أبيه وذهب إلى باريس. فتلقى على الكيميائي العظيم (دوماس). وبعدئذ أتم أبحاثه في حامض الدردى. وبينما هو كذلك أكتشف (كنيارد دي لاتور) أن الخمائر بالبيرة المختمرة تتكاثر فتحيل الشعير بذلك إلى كحول. وتعين بستور أستاذا بجامعة (ليل) وتزوج ابنة عميدها فسهرت إلى جانبه. وأجرى كثيرا من التجارب الجامحة واخفق فيها.

وتعين (بستور) عميدا لكلية العلوم بجامعة (ليل) فسكن واستقر في (شارع الأزهار. وهنا اتصل عفوا ولأول مرة بالمكروبات. وفي هذه المدينة الأصيلة، مدينة المقطرين للخمور، مدينة زراع البنجر وتجار الآلات الزراعية، قام (بستور) بحملة قوية، بعضها علمي، وبعضها قصصي روائي، وبعضها ديني، وبعضها سياسي، ليضع المكروب في موضعه اللائق من اهتمام الناس ورعايتهم. نعم في هذه المدينة ذات الخطر اليسير والجمال القليل، في هذه المدينة التي لم تشتهر قط بالعلم، أثار بستور زوبعة هائلة نالت سفائن العلم فظلت تؤرجحها ثلاثين عاما. أبان بستور للدنيا خطر المكروب فأوجست منه خيفة، وخلق لنفسه في سبيل ذلك أعداء ألداء، وخلق لها أحبابا خلصاء، وملأ أسمه صفحات الجرائد الأولى. وطلبه خصوم للمبارزة. وضحك الجمهور بادئ بدء من مكروباته الغالية، وقصف بالنكات عليها، بينما كانت كشوفه تنجي حياة العديد من النفساء. واختصارا في هذه المدينة المتواضعة، ومن فوق أرضها شال الشولة الأولى إلى فردوس الخالدين

جاء بستور إلى مدينة (استراسبورج) فحاورته الحقائق فيها واختلطت عليه، ثم جاء إلى مدينة (ليل) فجاءه المجد يسعى، وذلك بإسدائه المعونة إلى. . . خمار!

جاء إلى (ليل) فقال له الرجال ذو المال، وأرباب النفوذ من ذوي الأعمال: (إن العلم جميل

في أرستقراطيته، ولكن الذي نريده، والذي تريده المدينة الناهضة، هو التعاون بين علمك وصناعتنا. نريد أ، نعلم هل يزيد العلم في مكاسبنا. زد يا هذا في الحقل مقدار السكر في بنجرنا، وزد في المصنع مقدار الكحول المتقطر من سكرنا، ندر عليك الخيرات، ونتولى معاملك بالرعايات)

سمع بستور ما سمع في أدب واحتشام، ثم أخذ يريهم كيف يستجيب العلم إذا دعاه الداعي. فإنه لم يكن رجل علم فحسب، بل كان رجلا خبيرا بأمور دنياه وسنن العيش فيها. تصور جماعة من أرباب الأعمال يأنون (نيوتن) فيسألونه ماذا تستفيد مصانعهم من قوانين حركته، إذن لرفع يديه إلى السماء واستعاذ منهم بالله، ولذهب من بعد ذلك إلى إنجيله يقرأ كتاب دنيال ويدرس ما فيه من نبوءات. ولو أنهم جاءوا فراداي إذن لآثر صناعته الأولى، وعاد إلى تجليد الكتب وحزم الأوراق. ولكن بستور كان من أبناء القرن التاسع عشر، يعرف حق المعرفة أن العلم لا بد أن يكسب خبز يومه إذا أراد الحياة. لذلك بدأ يحاضر أهل االبلد فيه، ويدبر لهم المحاضرات الشيقة ليخطب ودهم ويكسب عطفهم

وفي ذات مساء كان يخطب في جمع من أرباب المصانع وأزواجهم، فصاح فيهم: (من من أبنائكم لا ينهض للعلم توا، من من أولادكم لا يتحرق للعلم تحرقا، إذا أنا وضعت في يده بطاطة، وقلت له: إنك تستطيع أن تخرج من هذه البطاطة سكرا، وتستطيع أن تخرج من هذا السكر كحولا، وتستطيع أن تخرج من هذا الكحول خلا وأثيرا؟).

ومضت على هذا أيام، فجاءه أحد الذين حضروا وخطابه، وكان رجلا يدعى (بيجو)، وكانت صناعته تقطير الكحول من سكر البنجر المختمر؛ جاء يتوسل للأستاذ: (سيدي، أنا في حرج من صناعتي، فاحتمار البنجر لا يتم على وجهه، وخسارتي تبلغ ألوف الفرنكات في اليوم، فبودي لو جئت مصنعي، ونظرت في معونتي، فأنقذتني من

خيلتي)
وكان ابن (بيجو) طالبا في قسم العلوم بالكلية، فأسرع (بستور) إلى معونة أبيه. فذهب إلى مصنع التقطير، وأخذ يتشمم في الحواض المريضة، تلك الأحواض التي تأبى أن تخرج من البنجر كحولا؛ وانكب عليها، واغترف منها، فكان شيئا مختلطا أدكن هلاميا، فوضعه في قارورات وحمله إلى معمله. ولم يفته أن يغترف كذلك من لبابة البنجر من الأحواض الصحيحة السليمة المختمرة الراغية بما تنتج من كحول كثير. ولم يكن يدري كيف يختمر
السكر فيستحيل كحولا، ولم يكن في الدنيا كلها كيمياوي يعرف عن ذلك شيئا. عاد إلى معمله، وأخذ يحك رأسه وهو يفكر، ثم استقر رأيه على أن يمتحن ما اغترفه من الأحواض السليمة أولا، فوضع قطرة منه تحت مجهره، ولعله كان يحسب أنه سيرى بلورات كتلك التي طال تحديقه أليها زمانا مضى، ولكنه وجد هذه القطرة مليئة بكريات أصغر كثيرا من أية بلورة رآها. وكانت هذه الكريات صفراء، وازدحم جوفها بجسيمات كثيرة ترقص كأنما عن طرب، وتمتم لنفسه: (ليت شعري ما هذه الكريات!) وأسعفته الذاكرة فصاح ثانية لنفسه: (يا للنسيان! بالطبع هي الخمائر التي تجدها دائما في كل محلول به سكر يختمر ليصير كحولا) وأعاد النظر فأبصر هذه الكريات فرادى، وأبصر طائفة أخرى منها متعنقدة، وأبصر أخرى متقاطرة. ثم حدق فدهش لرؤية بعضها قد تنبتت جوانبه كما تنبت البذور الصغيرة، فقال: (لقد صدق كنيارد، فهذه الخمائر حية. ولا بد أنها هي التي تصير السكر كحولا. ولكن ما فائدة بيجو من هذا! وما الذي أصاب الأحواض المريضة فتعطلت؟) واختطف القارورة التي بها ما كان اغترفه من حوض مريض، وحدق فيه بمنظار مكبر، وشمه، وذاقه، وغمس فيه ورقة زرقاء فاحمرت. . . ثم وضع قطرة منه تحت مكرسكوبه ونظر فيها
(عجبا! أين ذهبت الخمائر، فليس في هذه القطرة منها شيء؟ ما هذا؟ ما معناه؟) وتناول القارورة مرة أخرى، وأخذ ينظر ويفكر، ولا ترى عينه فيها جديدا. وبينا هو يركب في التعليل الخيال، ويسوم ذهنه طلب المحال، إذا بالسائل في القارورة يتراءى له في صورة جديدة تبعث فيه أملا جديدا. (ماذا أرى؟ بقعا صغيرة دكناء لاصقة بجدار القارورة. وهذه بقع أخرى مثلها تطفو على سطح سائلها المريض - إذن صبرا!. . . لا. إنها لا توجد في القارورة ذات السائل الصحيح حيث الخمائر والكحول) ثم غاص في القارورة المريضة، وبشيء من العناء استطاع أن يخرج شيئا من تلك البقع فوضعها في ماء نقي، ثم علاه بمجهره هذا يوم (بستور) جاء أخيرا!
لم يجد في هذا السائل كريات الخمائر. لا، ولكنه وجد شيئا جديدا، لم يره من قبل، أحياء صغيرة كثيرة شديدة الزحام، شكلها كالعصي، بعضها قائم وحده، وبعضها متقاطر كالأبل، وكلها يرقص في ارتعاد غريب لا هدأة له. كانت الخمائر في عينه صغيرة فجاءت هذه
تصاغرها فتصغرها كثيرا، فلم يعد طولها جزءا من ألف من المليمتر
وفي هذه الليلة أرق (بستور) طويلا، وتقلب في مضجعه طويلا. وفي الصباح كنت تراه يجرجر ساقيه الغليظتين القصيرتين إلى مصنع (بيجو)، وبنظارته المنحرفة على بصره القصير، مال على حافة حوض مريض لم يكن أتاه من قبل، وجرف من قاعه بعض الذي فيه. ثم مال على أحواض مريضة غيره. ونسي (بيجو)، ونسي أنه إنما بدأ هذا العمل لمعونة (بيجو). اختفى (بيجو) من فكره، واختفى كل شيء في الوجود إلا نفسه الشمامة البحاثة، وإلا تلك العصي الراقصة الغريبة التي وجد الآلاف المؤلفة منها في تلك البقع الكدماء الصغيرة. . .
ولما جاء الليل أخذت زوجه تنتظره لينام، فلما يأست ذهبت إلى الفراش وحدها، وتركته ينصب الجهاز تلو الجهاز حتى ازدحم معمله بها. ووجد أن جميع السوائل بالأحواض المريضة تحتوي حامضا عرف أنه حامض اللبن، وأنه ليس بها كحول. ولم يلبث أن خطر له خاطر غمر فكره كله، وملأ رأسه أجمع: (إن هذه العصي بالسوائل المرضة حية، وهي هي التي تصنع حامض اللبن؛ وهي ربما تشتجر مع الخمائر في قتال شديد فتقضي عليها فلا تنتج كحولا. إن هذه العصي تصنع حامض اللبن كما تصنع هذه الخمائر الكحول). وهرول إلى السلم، فصعد إلى مدام (بستور) يخبرها بالذي وجد - مدام (بستور) التي لم تعرف من التخمر والخمائر شيئا، مدام (بستور) التي لم تفهم

من علمه إلا قليلا، إلا أنها فهمت نفسه المتحمسة وروحه الوثابة، فأعانته بعطفها وحبها كثيرا
بالطبع لم يكن الذي ارتآه إلا ظنا، ولكن قام في نفسه شيء يوسوس له أن هذا الظن حق لامرية فيه. لقد تظنن (بستور) مئات المرات فيما وقع عليه بصره القصير من مئات الظواهر في الطبيعة التي حوله. وكانت ظنونا خاطئة. ولكنه إذ وقع هذه المرة على ظن صادق، إذ خال أنه أصاب تفسيرا لظاهرة التخمر التي أشكلت على القرون من قبله، أخذ يمتحن هذا الظن، ويفحص هذا الخال، ويقلبه، ويداوره، ويتقرى الحقيقة فيه حتى وصل إلى كنهها
وبينما ازدحمت في رأسه الخطط الكثيرة لتقري كنه هذه الحقيقة لم يفته أن يعين أرباب العمل على مصاعبهم، ولا أهل الحكم إذا دهوه إلى نصيحة، ولا المزارعين إذا جاءوه، ولا
الطلبة إذا طلبوه. وحول جزءا من معمله لاختبار الأسمدة الكثيرة التي تأتيه. وهرع إلى باريس يدبر لانتخابه عضوا في أكاديمية العلوم فما أفلح. ورحل بتلاميذه إلى معامل الجعة في (فالنسين9 وإلى مسابك الحديد في بلجيكا. وفيما هو في هذا، تراءى له يوما أنه اهتدى إلى الطريقة السوية التي يثبت بها أن هذه العصى القصيرة تحيا حياة الخلائق، وأنها على صغرها، وعلى قصرها، وعلى حقارتها، تفعل فعل العمالقة - تفعل ما لا يستطيعه العمالقة: تحيل السكر إلى حامض اللبن
حدث (بستور9 نفسه قال: (لا يمكنني أن أدرس هذه العصي في عصير البنجر المسكر وفيه ما فيه من أخلاط عدة. لا بد لي من عصير رائق أتتبع فيه ما تصنع هذه العصي. لا بد لي من ابتداع مرق صاف به غذاء طيب خاص لها، أضعها فيه، ثم أرقبها لأرى هل تتكاثر، هل تتوالد، هل أجد في هذا المرق بعد حين مكان العصا الواحدة عصيا راقصة كثيرة؟)
ووضع شيئا من تلك البقع الكدماء التي كانت بالحياض المريضة في محلول من سكر نقي، فوجد أن العصي لا تتكاثر فيها، فقال: (إنها تريد غذاء أمرا من هذا). فجرب بطلب الغذاء المريء فخاب. ثم جرب وخاب. وأخيرا صنع لها مرقا غريبا بأن أخذ شيئا من خميرة جافة، فأغلاه بالماء ثم صفاه، وأخذ مرقه الرائق فأضاف له شيئا من كربونات الكلسيوم ليضيع ما قد يحدث فيه من حموضة. وأتى بإبرة فغمسها بالبقع الدكناء بالحياض المريضة، وحمل ما علق بطرفها الرفيع من العصي الصغيرة إلى مرقه ودافها فيه. ثم وضعه في قارورة وضعها في فرن دافئ للتفريخ ذي درجة حرارة ثابتة، وأخذ ينتظر في قلق واضطراب. أن لعنة هذا البحث، بحث المكروب، يجدها الباحث دائما في هذه الخيبات المتوالية الكثيرة التي تعوق النجاح طويلا
وذهب فأمضى رجعات، وألقى محاضرات، وعاد إلى قارورته ينظر إليها وهي في مدفئها. ومضى مرة أخرى فألفى فلا حين جاءوا يستنصحونه في محاصيلهم وأسمدتهم فنصحهم بالذي ارتآه. وجاءت أوقات الطعام فابتلع منه ابتلاعا ولم يع مما أكل شيئا. وعاد فنظر إلى قارورته واصطبر. وذهب إلى سريره جاهلا بالذي يجري في تلك القارورة، وليس من اليسير النوم في مثل هذه الجهالة. . .
وجاء الصباح ولم يظهر على مرق القارورة تغير. وجاء الظهر، ومضى أكثر النهار، فأحس رجليه تثقلان من الخيبة مرة أخرى. وجاء المساء وتمتم لنفسه: (يظهر أن كل تلك المحاليل الرائقة لن تأذن لهذه العصي اللعينة بالتزايد فيها. ومع هذا فلأنظر مرة أخرى. . .!)
وكان في معمله مصباح واحد من الغاز يضيئه، وقع بين الأجهزة الكثيرة فألقى على الحائط خيالات كبيرة مروعة. فإلى هذا المصباح رفع بستور قارورته، ثم همس يقول: (لا شك أن شيئا تغير في هذا المحلول، فإني أرى فقاعات صغيرة من غاز تصعد متقاطرة متحاذية من تلك الجسيمات الدكناء التي لقحت المحلول بها. وقد زاد مقدار هذه الجسيمات عما كان بالأمس، وكلها تخرج منه هذه الفقاعات). وعندئذ أغمض بستور عينيه. وبقى في غيبوبة عند محضنه الصغير. ومضت ساعات تلو ساعات ولعله لم يحس بها. ورفع قارورته برفق وحنان، وحركها في الضوء بلطف وئيد، فصعد من قاعها من شيء كالغمام الاقتم دار صاعدا كاللولب، وخرج منه غاز كثير. والآن فإلى المجهر. . .

قطرة قطرة من السائل تحت مكروسكوبه. يا لشياطين الأرض وملائكة السماء! إنها مليئة تعج بالملايين من تلك العصي الراقصة. وهمس لنفسه في لهفة: (إنها تتكاثر! إنها حية!). ثم صاح يجيب زوجه: (نعم، نعم، سأصعد بعد قليل). وكانت تدعوه من عل إلى لقمة، وكانت تدعوه إلى نومه. ومضت ساعات وهو باق تحت معمله وفي الأيام التي تلت أعاد بستور التجربة، فوضع قطرة تزخر بتلك العصي في قارورة جديدة بها مرق من مرق الخمير رائق جديد ليس به عصا واحدة، وفي كل مرة امتلأ المرق بالبلايين من تلك العصي، وفي كل مرة تكون حامض اللبن فيه. ثم صرخ (بستور) بأعلى صوته يخبر الدنيا، فلم يكن بالرجل الصبور. وأخبر المسيو (بيجو) أن الذي أمرض أحواضه هي هذه العصي الحية: (يا مسيو بيجو، حل بين هذه العصي وبين حياض بنجرك، تحصل دائما على الكحول الكثير) وأخبر طلبته بكشفه الكبير، بأن هذه الخلائق البالغة الصغر تستطيع تخريج حامض اللبن من السكر، وقال لهم إن هذا الشيء لم يستطعه رجل ولن يستطيعه. وكتب بالخبر إلى أستاذه القديم (دوماس)، وإلى جميع أصدقائه. وحاضر فيه للجمعية العلمية بمدينة (ليل)، وكتب مقالا فيه وبعثه إلى أكاديمية العلوم
بباريس
ليس في الإمكان اليوم أن نؤكد أن (بيجو) استطاع أن يمنع دخول هذه العصي إلى سكره المختمر، فهذا ليس بالأمر اليسير، ولكن (بستور لم يحفل بذلك، فكل الذي احتفل له كشف الحقيقة الآتية: (أن التخمر مرجعه الحق إلى أحياء تدق عن النظر) وبكل سذاجة أخبر كل من لقى أن كشفه هذا كشف عجيب. كان فيه شيء من بساطة الطفولة فلم يحس بالحاجة في هذا إلى التواضع والتخاشع. ومن هذا الوقت ملأت تلك الخمائر الصغيرة دنياه. أكل وشرب ونام وأحتلم وأحب. وأتى كل هذا ولم يستغرق في شيء منه. وأتى كل هذا وخمائره إلى جانبه لا تفارقه. إنها كانت روحه التي ينبض بها
وكان يشتغل وحده، لا معين له إلا نفسه، فلم يكن له حتى خادم واحد يغسل له قواريره. وكأنى بك تتساءل فكيف إذن وجد من يومه الفراغ لاحتواء هذه الأحداث الكثيرة المتزاحمة؟ والجواب أن هذا رجع بعضه إلى نشاطه الجم، ورجعت بقيته إلى مدام (بستور). قال (رو) (إن مدام بستور أحبته حبا كادت به تفقه أبحاثه). كانت الزوجة الطيبة تخلص من خدمة أطفالها ووضعهم في الفراش، وعندئذ قد تسهر وحيدة تنتظر انتهاءه من عمله لتسوقه إلى النوم، أو كانت تجلس بجانب زوجها في اعتدال على كرسي ليس بالمريح إلى نضد صغير تكتب ما يملى من مقالات علمية طويلة، أو كانت تتركه يكب على قواريره ويفكر في أنابيبه وتظل في حجرتها تبيض ما كتب من ملاحظات كنبش الدجاج في خط واضح جميل. كان (بستور) روحها، وكان روح (بستور) عمله، فأخذت هي تذوب في روح بستور - في عمله - حتى أمحت فيه
يتبع
أحمد زكي
شاعرنا العالمي أبو العتاهية
للأستاذ عبد المتعال الصعيدي
تمهيد:
الشعراء العالميون في شعراء العربية قليلون، وإنهم ليبلغون من القلة بحيث إنك لا تكاد تبلغ بهم عدد أصابع اليد الواحدة، وهذا بينما ترانا الآن نعرف من أسماء شعراء أوربا في هذا العصر أكثر مما نعرف من شعرائنا الأقدمين، وندرس من شعرهم وأدبهم أكثر مما ندرس من الشعر والأدب العربيين، حتى أصبح الشعر والأدب الأوربيان فتنة شبابنا الناشئين، يكلفون بهما أكثر مما يكلفون بشعرنا وأدبنا، ويصرفون جل أوقاتهم في دراستهما، وتعرف طرائقهما حتى أثر هذا في شعرهم، وصرنا نرى بهذا الشعر العربي أساليب كثيرة ما كان يعرفها من قبل، ومعاني جديدة تغزوه كما يغزونا أصحابها برجالهم وأسلحتهم، وأموالهم ومصنوعاتهم
وربما يكون أبو العتاهية أول شاعر عربي بلغ هذه المنزلة الشعرية العالية، وكان له شعر عالمي تتسابق الأمم المختلفة اللغات إلى روايته ودرسه، وترجمته إلى لغاتها وإذاعته في بلادها. قال أبو الفرج: أخبرنا أبو الحسن أحمد بن محمد الأسدي إجازة

قال: حدثني الرياشي قال: قدم رسول لملك الروم إلى الرشيد، فسأل عن أبي العتاهية وأنشده شيئا من شعره، وكان يحسن العربية، فمضى إلى ملك الروم وذكره له، فكتب ملك الروم إليه، ورد رسوله يسأل الرشيد أن يوجه بأبي العتاهية، ويأخذ فيه رهائن من أراد، وألح في ذلك، فكلم الرشيد أبا العتاهية في ذلك، فاستعفى منه وأباه، وأتصل بالرشيد أن ملك الروم أمر أن يكتب بيتان من شعر أبي العتاهية على أبواب مجالسه وباب مدينته وهما:

ما اختلف الليل والنهار ولا ... دارت نجومُ السماءِ في الفَلَك
إلا لنقل السلطان عن مَلِك ... قد انقضى مُلكَه إلى مَلِك

وهما في الحق بيتان جديران بأن ينالا مثل هذه العناية من ملك الروم، فما أحسنهما عظة بالغة، وما أصدقهما حكمة نافعة، وما أجمل أسلوبهما في سهولته وامتناعه، ولكن علماءنا جازاهم الله لا يقدرون من هذا ما قدره ملك الروم لأبي العتاهية، وقد ينظرون إلى هذين البيتين إذا قرأهما إلى صناعتهما اللفظية، ولا يعنيهم منها هذا المعنى الجليل الذي عنى به ملك الروم، وربما يعيبونهما بما يسمونه التضمين الذي عابا به بيتي النابغة الذبياني:

وهُمْ وردوا الجِفارَ على تَمِيم ... وهم أصحاب يوم عُكاظَ إنِّي
شهدتُ لهم مَوَاطِنَ صادقات ... شَهِدْنَ لهم بحسن الظن مني

والتضمين عندهم هو تعليق قافية بيت بما بعده بحيث لا يتم الكلام إلا به، وهذا بأن يكون جواب شرط أو خبراً أو نحوهما لا نعتا أو نحوه من التوابع والفضلات، فلا يرضيهم إلا أن يكون لكل بيت من القصيدة وحدة مستقلة عن البيت الذي قبله، والبيت الذي بعده، ولا يكفيهم أن تكون القصيدة كلها وحدة يصح أن تتصل أبياتها بمثل هذا التضمين الذي يعدونه من عيوب القافية، ويصح ألا تتصل به إذا اتصلت بأمر آخر غيره، وربما يكون اتصال أبياتها بمثل هذا خيرا من تقاطعها وتباعدها، والاكتفاء في الربط بينهما إذا عني به بمثل قولهم (دع ذا أوعد عن ذا)

وقال أبو الفرج: أخبرني عيسى بن الحسين الوراق، وعمي الحسن بن محمد وحبيب نصر المهلبي، قالوا: حدثنا عمر بن شبة، قال: مر عابد براهب في صومعة فقال له: عظني، فقال: أعظك وعليكم نزل القرآن، ونبيكم محمد صلى الله عليه وسلم قريب العهد بكم، صلى الله عليه وسلم وعلى آله؟ قلت: نعم، قال: فاتعظ ببيت من شاعركم أبي العتاهية حين يقول:

تجرد من الدنيا فإنك إنما ... وقعت إلى الدنيا وأنت مجرد

وكلا هذا وذاك يثبت لنا من أبي العتاهية شاعرا عالميا نباهي به من يباهينا بشعرائه العالميين في القديم والحديث، على قلة هذا الصنف من الشعراء عندنا، وندرة الشعر العالمي في شعرنا، ويهمنا الآن أن ندرس العوامل التي كان لها أثرها في هذا الأمر إلى ظهور شاعرنا أبي العتاهية، لنعرف كيف ظهر في الشعر العربي بهذا المظهر، ونعرف حال العصر الذي نشأ فيه، وكيف كان أثره في شعره

يجري مؤرخو الآداب العربية على أن الصناعة البديعية لم تظهر في الشعر العربي، ولم يكلف بها شعراء العرب إلا في العصر العباسي، بعد ظهور أبي تمام وأضرابه من الشعراء الذين حذوا في ذلك حذوه، واستنوا فيه سنته، ثم زادوا عليه فيه حتى جعلوا من الشعر صناعة لفظية، لا تنطوي على معنى جليل، أو غرض نبيل، وإنما هي ألفاظ جوفاء لا طائل تحتها، ولا تهم الناس في أمر دينهم أو دنياهم

أما أنا فأرى في هذا ما يخالف رأيهم فيه كل المخالفة، أرى أن الصناعة البديعية كانت موجودة في الشعر قبل الإسلام، وأرى أن الشعراء قبله كانوا يقصدون إليها في شعرهم، ويتكلفونها فيه كما تكلفها أبو تمتم ومن أتى بعده، وإن أربوا في ذلك عليهم، وقصدوا إليه أكثر منهم، وأرى أن أبا تمام لم يفعل إلا أن جدد هذه السنة، ونهج في شعره على منوالها، بعد أن كاد الشعراء العباسيون قبله يسلكون بالشعر مسلكا جديدا يخالف هذا المسلك، ويتلائم مع العصر الذي ظهروا فيه كل الملاءمة

وكان أمرؤ القيس أول من عني بالصناعة البديعية في الشعر العربي، فتكلف منها ما لم يتكلفه أحد من قبل، وتزاحمت في شعره الكنايات والتشبيهات والاستعارات وما إليها، فكل هذا من الصناعة البديعية، وأسم البديع يشمل عند القدماء التشبيه مثلا، كما

يشمل المقابلة والجناس ونحوهما
وقد ضاع أكثر شعر القدماء قبل امرؤ القيس، فلا نعرف مقدار ما كان فيه من تلك الصناعة؛ والذي نرجحه أنه كان لا يخلو منها، ولكن الذي كان يغلب عليه العناية بالمعاني الأصيلة، فكانت تظهر فيه على فطرتها في غير تصنع ولا تكلف ولا اجتهاد في تحسين، يأتيها بتصرف الخيال فيها بتشبيه أو كناية أو نحوهما
وغاية ما ذكره علماء الأدب في ذلك أن القدماء قبل امرئ القيس كانوا يقولون في المرأة الحسناء: (أسيلة الخد، تامة القامة أو طويلتها، جيداء أو طويلة العنق،) فقال أمرؤ القيس في هذا: أسيلة مجرى المع، بعيدة مهوى القرط، وكانوا يقولون في الفرس: يلحق الغزال، ويسبق الظليم. فقال أمرؤ القيس فيه: (بمنجرد قيد الأوابد هيكل)، ولا يكادون يجاوزون هذا في بيان الفرق بين حال الشعر العربي قبل امرئ القيس وحاله بعده
وقد شغف الشعراء بد امرئ القيس بصناعة البديع في شعرهم، وكانت حياتهم البدوية تضيق بهم، وتضيق بعقولهم وأفكارهم، فوقفوا بالشعر العربي عند معان محدودة، متأثرة في ضيقها وعدم اتساعها، وقلة أثر العقل المثقف فيها بضيق تلك الحياة، وقلة أثر الثقافة فيها، وأخذوا يدورون حول تلك المعاني كما تدور الرحى حول محورها، لا يتصرفون فيها إلا بتشبيه أو استعارة، أو مجاز أو كناية، أو نحو هذا من تلك الصناعة التي تنافسوا فيها،
حتى وصلوا بها في سجع كهانهم إلى آخر حدودها، فكان لهم فيه سجع متكلف مرذول، لا يقل قبحا في تكلفه عن السجع الذي تكلف بعد الإسلام في آخر العصر العباسي، إلى أن ظهرت هذه النهضة الحاضرة
ثم جاء المتأخرون من شعراء هذا العصر، فزادوا الطين بلة، واتخذوا الشعر تجارة، وتكسبوا به في المدح والهجاء، وداروا به في تلك المعاني لا يكادون يتجاوزونها، أو يحسنون شيئا سواها، فساء أثر هذا الشعر في الأمة العربية، وصار شعراؤه معاول هدم في بنائها، وقد جمدوا على ما ألفوه من هذا جمود أمتهم على أوثانها وأصنامها وفي وسط هذا الجمود الأدبي، وذلك الضيق الفكري، ظهر الإسلام يدعوا العرب إلى دين جديد يأخذ بهم من عزلتهم، في هذا الضيق وذلك الجمود، إلى معترك الحياة التي تتلاقى فيه الشعوب، وتجتمع متنافسة في وسائل الرقي والنهوض، فحاربه أولئك الشعراء وحاربهم، لأنهم رأوا فيه خطرا على ما جمدوا عليه في صناعتهم، ورآهم هو من الجمود وضيق الفكر بحيث لا يصلحون ولا يتفق شعرهم مع دعوة هذا الدين الجديد، ورأى أنه لا يتفق معه إلا أدب مثقف يعنى فيه بالمعاني الأصيلة السامية، أكثر مما يعنى بتلك الصناعة التي تضيع فيها تلك المعاني، ويتلاعب فيها بما يسمونه المعاني الثانوية التي لا يصح أن تؤثر في حال من الأحوال على المعاني الأصيلة، ولا شك أنه كلما أوغل الشعر والأدب في إيثار تلك الصناعة بعدا عن هذه الغاية السامية التي يراد لهما فيها أن يتفقا مع هذا الدين، فيكونا للبشر كافة، لا للعرب خاصة، ولا تقف تلك الصناعة حائلا دون فهم الناس لهما، أو العناية فيهما بما يعنيهم منهما
فإذا أردت أن تعرف نظر الإسلام إلى ما كان عليه الشعر والأدب العربي من هذا كله إبان ظهوره، فانظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقد قال له بعضهم يتشادق في كلامه تشادقهم: (يا رسول الله، أرأيت من لا شرب ولا أكل، ولا صاح فاستهل، أليس مثل ذلك بطل؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم منكرا لهذا منه: أسجع كسجع الجاهلية؟) وانظر إليه صلى الله عليه وسلم يفتخر بنشأته على بغض هذا الشعر فيقول: (لما نشأت بغضت إلي الأوثان وبغض إلي الشعر ول أهم بشيء مما كانت الجاهلية تفعله. الحديث). وانظر إلى قوله تعالى: (وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين)، وقوله أيضا
في سورة الشعراء: (والشعراء يتبعه الغاوون. ألم تر أنهم في كل واد يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون)
وقد انقضى عهد النبوة وعهد الخلافة في محاولة إصلاح الأدب العربي، والوصول بالشعر إلى تلك الغاية النبيلة. ثم جاء بعد هذين العهدين عهد بني مروان، وهم من بني أمية الذين كانت تغلب عليهم النعرة العربية، لما كان لهم قبل الإسلام من الزعامة في

قريش، وهذه النعرة هي التي وقفت بهم على رأس المناوئين للدعوة التي أتى بها الإسلام، حتى أنهم لم يسلموا إلا بعد فتح مكة والسيف مصلت على رؤوسهم، وهي التي تأثروا بها في سياستهم حينما آل أمر المسلمين إليهم، فرجعوا بالشعر إلى نعرته العربية، وحولوه عن وجهته الإنسانية التي أخذ يسير عليها في عهد النبي وخلفائه الراشدين

فوقف لهم بنوا عمهم من بني هاشم، قوم النبي وعشيرته الأقربين، وهم الذين كانوا أول من بادر إلى الإيمان بدعوته، وفهموا حقيقة ما يدعوا إليه، وعرفوا أن هذا الدين للبشر عامة، لا للعرب خاصة، وأنه لا يصح أن يكون فيه فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير)

وعلى هذا قامت الدعوة العباسية الهاشمية، فنشأت دولة إسلامية محضة، وكانت للعرب كما كانت للفرس وللقبط وللبربر وللترك ولغيرهم من الشعوب التي دانت للإسلام، وقليل من الناس من يفهم كما نفهم كيف قامت هذه الدعوة، وأنها كانت ثورة دينية سياسية أدبية، قام بها العباسيون ومن ناصرهم من الفرس وغيرهم، وأن غايتها كانت إقامة دولة للمسلمين لا للعرب خاصة، وانتهاج خطة جديدة تأخذ فيها بيد كل الشعوب التي دانت للإسلام، لتشترك في بناء الوحدة الإسلامية، وقد كان لهذا أثره العظيم في الدين والعلم والأدب والشعر، إذ أخذ العلماء من كل الشعوب يشتركون في بناء هذه الوحدة، وأخذ الأدباء والشعراء يقضون في الأدب والشعر على تلك النعرة العربية، ويعملون على تسهيل الشعر للناس، وتقيبه لتلك الشعوب الأعجمية التي رفعت رؤوسها في تلك الدولة، وكان أكثر أولئك الشعراء من أصل غير عربي، فانتهزوا فرصة قيام دولة العباسيين وإنصافها لهم، وقاموا بثورتهم الأدبية في عنف وشدة، حتى صاروا في الشعر أعلام هذه المدة من العصر العباسي، وضعف شأن الشعراء الذين كانوا من أصل عربي، إذ جمدوا في شعرهم على نعرتهم العربية، وعنايتهم بتفخيم لفظ الشعر وتجويد صناته أكثر من عنايتهم بتثقيفه وتهذيبه، والتفنن في معانيه وأغراضه، وقد عاد شأن هؤلاء الشعراء إلى الظهور حينما ظهر أبو تمام والبحتري وأضرابهما من الشعراء الذين تأثروا بأصلهم العربي، وأخذوا يعودون بالشعر إلى سنته القديمة

ولعل هذا الاسم (عصر الثورة العباسية) هو الاسم الذي يجدر أن تسمى به تلك المدة من ذلك العصر، فهو خير مما يسمونها به (صدر الدولة العباسية) وكثير منهم لا يراعي ما يمتاز الأدب به في هذه المدة عما بعدها من هذا العصر، فيجعل العصر العباسي كله عصرا واحدا، ويجري في هذا على ما كانوا يعتادونه من تقسيم عصور الأدب العربي إلى أقسام سياسية محظة، تتبع قيام الدول العربية وسقوطها، ولا تتأثر بغيرها في بدئها ونهايتها، وقد كان أعلام الشعر في هذه المدة هؤلاء الشعراء الثلاثة - بشار - أبو نواس - أبو العتاهية - فلنوازن بينهم فيها.

عبد المتعال الصعيدي

تحية مولود

للأستاذ محمود غنيم

سرَّكَ اليومَ قولُهم أمْ ساَءكْ ... حينَ قالوا: هذا غلامُ جاَءكْ؟
جانبُ اللهو من شبابكَ ولّى ... فَدَع اللهوَ ينتظرْ أبناَءكْ
وتحمَّلْ عبَء الأبُوة يا وَي ... حَكَ لم يحمل امُرؤُ أعباَءكْ
أيها الطارقُ الجديدُ سلاماً ... أسألُ الصفحَ إن أسأتُ لقاَءكْ
عَلِمَ الله ما كرهتُكَ ضيفاً ... لا ولكني كرهت شقاَءكْ
بتُّ أخشى عليكَ جوْرَ الليالي ... فالليالي ما أنصفتْ آباءكْ
غيرَ أني أمسيتُ رغم شعوري ... أتمنى على الزمان بقاَءكْ
وأراني إذا أصابكَ سوءُ ... أبذلُ النفسَ والنفيسَ فداَءكْ
ساءني يا بنيّ أنْ كنت نجلاً ... لي فكانت أبوَّتي لك داءِكْ
أيَّ ذنب جنيتَ في المهد حتى ... يُصبحَ الهمُّ في الحياة جزاءكْ
ليت شعري أقانعُ أنت أم لوْ ... تستطيعُ الكلامَ تُبدي استياَءكْ
أفتدري كم بتُّ أرفو كسائي ... وأوشّي بكل زاهٍ كساَءكْ

وإذا ضنَّ ثديُ أمِّك يوما ... بالحيا جعتُ والتمستُ غذاءك
ولقد أسمعُ الرعودَ تدوَّي ... في ثباتٍ ولا أطيقُ بكاَءك
كم حملتَ البكاَء سيفاً صقيلاً ... إن تُلَوَّحْ به ينلْك رجاَءك
دمعةُ الطفل من دموع الغواني ... صاحِ صُنْ من كليهما أحشاءْك
أنت في مهدك الصغيرِ أميرُ ... فوق عرش يرجو الجميعُ رضاَءك
فتحكَّمْ تَرَ الذكورَ عبيداً ... لك في البيت والإناثَ إماَءكْ
هو عرشُ أساسه الحبُ لابط ... شَك نخشى ولا نرومُ عطاَءك
أتُراها جنايةً أم تثراها ... مِنَّةً تستحقُّ مِنكَ ثناَءكْ
ليتني عشتُ مثلما عِشتَ غرَّا ... تُغمِضِ المقلتين عما وراَءكْ
إنني يا بني أسكُنُ أرضاً ... دائماً همُّها فصف لي سماَءكْ
قد توارت طفولتي في ظلامِ ال ... غيَبْ فانشُرْ على دجاها ضياَءك
لكأنِّي نشأتُ خلقاً جديداً ... يوم ناديتَ فاستمعتُ نداَءكْ
يا دقيقَ البنانِ واليَد جلَّت ... يَدُ مثَّال صوَّرَتْ أعضاَءكْ
نم هنيئاً يرعاكَ من شقَّ عيني ... كَ وأجرى بين العروق دماَءكْ
عَلَّ من وكَّل البِلَى بردائي ... يجعلُ الخزَّ يا بنيَّ رداَءكْ!
كوم حمادة
محمود غنيم
تمادوا بشكواهم
للأستاذ فخري أبو السعود
لقد زهَّدَتني في القريض معَاشر ... إذا نَظَموا فالحزنَ والمّ والغَمَّا
كأنْ ليس غيرَ البؤسِ للشعرِ مُلْهِمُ ... ولولاه ما قالوا ولا عرَفوا النظما
قوافيهمُ آهُ فواهُ فعَبْرَةٌ ... تَلى زَفرةً من مُهجَةٍ منْ أسَى تَدْمَى
تمادَوْا بشكوَاهم فَمُلَّتْ وَأصبحوا، ... إذا ما شكَوْاهَمَّا لقارئهم، همَّا
أكلُّ أخي شِعرٍ خدينُ بلابل ... يفوز سواه بالأماني وبالنعمى؟
يَخالون أنَّ الشعرَ يزداد رقةً ... إذا وصفَ الأشجانِ والألم الجمّا
فهذا شكا في جنبه ألفَ طعنةٍ ... وذاك طوى في كلِّ جارحةٍ سِهما
وذا صدرُهُ وعيناه ديمةٌ ... وأضلاعُه حرَّى وأحشاه كَلْمى
وذاك بطئُ ليلهُ متطاولُ ... يُساهر فيه وحده الأفْقَ والنجما
وذلك أضواه وأوْهَى اصطبارهُ ... غرامُ مَشَى في جسمه يُنْحِل الجسما
وذلك يبكي كالوليدة ساخطاً ... بلا سبب يُدرى ولا غرض يُسمَى
وذَيَّك يشكو دهره ويذمه ... ويزعم أنَّ الدهر أوْسَعَهُ ظلماً
يكلِّف باعَ الدهر ما لا يطيقه ... ويُنحي عليهِ - حين يَمْنعُه - لوما
يود لَوَ أنَّ الدهر يأتيه بالمني ... جميعاً ولم يدأب ولا عَقَد العزما
وقد يَبْلُغُ الساعي إذا جَدَّ سعيُه ... مُناهُ ولم يَلْحَ الزمانَ ولا ذَما
يَخَلُ حياةَ الناسِ قارئُ شعرِهم ... بلاءً فلا نُعمى هناك ولا رُحْمى
وكم في رحيب الكون من نِعَم ومن ... مَحَاسِنَ تُصْبى العينِ والروحِ والفهما
وكم عَرَضَتْ فينا الطبيعيةُ حسنَها ... بلا ثمنٍ غُمْاً لِمَنْ بَادَرَ الغنما
تَرَى في مجاليها وألوان حسنها ... عَزاَء لمن يأسى وَرِيًّا لمن يَظْماَ
ووحياً لشعرٍ ينبذ الشكوَ والبُكا ... ويستلهم الأنوارَ والروضَ واليَماَّ
فخري أبو السعود
القصص
من أساطير الإغريق
إيخو ونركيسوس
الفاتنة التي أصابها البكم، والجميل الذي عشق صورته
للأستاذ دريني خشبة
كان زيوس - كبير آلهة اليونان - يتعشق فتاة حلوة الدل، بارعة الحسن، رقيقة الشمائل، تدعى يو. وكان، برغم زوجاته الخمس أو الست، يختلف إلى حبيبته في الخلسة بعد الخلسة، يؤانسها ويسامرها، وتؤانسه وتسامره، ويبل فمه الظامئ من ثغرها الراوي، بقبلة. . . أو رشفة. . . .

وكانت أولى زوجاته (حيرا) هي التي تزعجه بما تبث حوله من الرقباء، وتنشر من الجواسيس، يحملون إليها كل حركة من حركاته. وكان هو يضيق بكل ذلك، ولكنه لا يستطيع إلا أن يداهن ويداهن. . . ويبالغ في المداهنة، لشدة شغفه بحيرا، ولأنه كان يحس في الخضوع لها لذة أولمبية لا تعدلها لذة. . . إلا لذة تدليله لحبيبته يو
!. . .وكما كانت حيرا تمكر مكرها في كل حين، كذلك قد مكر الإله مكره
أراد أن يشغلها عنه بملهاة تذهب من وقتها كل يوم بساعات يقضيها في أحلامه الغرامية بين يدي يو، ملتذا قوامها الخصب، مستمتعا بجمالها الفينان، سابحا في هذه اللجة المترعة بالمفاتن، في كل جارحة من جسمها الممشوق
. . .وقد سنحت له الحيلة
حدثها عن فتاة ناضرة الشباب، ريانة الأهاب، عذبة اللسان، وقادة الجنان، تعرف من قصص الحياة وأنباء الدنيا ما لم يتيسر بعضه للآلهة أنفسهم! وكانت حيرا، ككل الأنثيات، مولعة بالثرثرة، مشغوفة بالمعرفة، تبغض الصمت وتغرم بالكلام الطويل الموشي. وهي مع ذاك طلعة، بقدر ما هي أذن، تتكلم كثيرا، وتثرثر كثيرا، وتسمع كثيرا وانطلقت إلى الفتاة فشغفت بها لأول لقاء، ووجدتها، كما حدث زوجها فياضة القول غزيرة القصص، تتدفق في حديثها تدفق الخمر في الكأس، حتى إذا استقرت في مكانها من الجسم،
!شاعت حمياها فيه، فأطربت، وأرقصت، كأنها عصرت من حديث الفتاة
ثم جعلت تتردد عليها؛ وما تكاد الفتاة تفرغ من إحدى قصصها العجيبة حتى تأخذ في أعجب منها وأغرب، وهي بين الآونة والأخرى ما تنى تنمق حديثها بالنكات البارعة، والملح الرائعة، مرسلة المثل في مقامهن والحكمة في موضعها، في غير كلفة ولا عناء. ثم هي كانت رقيقة دقيقة، لا تمل السامع ولا ترهق الناظر. وكانت تقبل على سمارها وكأنها تختص كلا منهم بقلبها، وكأنما تلقي إلى كل منهم بقرارة نفسها، حتى ليحسبها كل له وحده، بما يحسبه تؤثره به من عطف، وتغمره من ود، وتزجي إليه من محبة. . .
!!وكانت حيلة صائبة من زيوس، شغل بها حيرا طويلا، ليفرغ هو إلى يو. . . فيا للآلهة ولكنها شعرت من زوجها لفحة الصد، وأحست فيه انقباضا وجفوة، فوقر في نفسها أن لا بد من أمر، وأن هناك سرا إي سر؛ فألت لتكشفن ما تغفلها فيه
وبثت عيونها، وأرسلت أرصادها، حتى استوثقت مما كان بينه وبين يو، وحتى أدركت أنه قصد إلى إلهائها بهذه القصاصة الخبيثة ليفرغ هو إلى لباناته وأوطاره!
ولا تدري ما ذنب الفتاة التي ملأت أذني حيرا سحرا، ونفثت فيهما موسيقى وألحانا؟ لقد ظلمتها زوجة الإله الأكبر، التي تحمل بالباطل لقب حامية النساء وحافظة الأجنة، حين أقسمت لتسلبنها الطلاقة والذلاقة، ثم لتسلطن على لسانها العي والحصر يشقيانها ويعذبانها!
لقد كان كل ما اتهمت الفتاة به أنها كانت سببا في تمادي زوجها في غي حبه، وإبعاده في ضلالة هواه؛ فنفثت في عقد سحرها، ثم قصدت إلى الفتاة المسكينة فبهرتها، وأرسلت عليها شواظا من غضبها، وقذفتها من رقاها المهلكة، لم تستطع بعدها أن تلجلج لسانها بكلمة واحدة تفرج بها عما في نفسها. . .
وقهقهت حيرا حين حاولت الفتاة أن تتكلم فلم تستطع؛ ثم شاءت الخبيثة أن تظهر آية أخرى من آيات غدرها، فقالت، بعد أن نفثت ثانية: (أنا أسميك إيخو؛ وأمن عليك فأطلق لسانك باللفظة المفردة ترسلينها في ذيل كل كلام تسمعين. . . اللفظة الأخيرة فحسب يا إيخو. . .)
فرددت الفتاة المسكينة: (إيخو!!)
أما يو فقد نفذت إليها حيرا وصبت عليها جام سحرها ما تحولت به إلى بقرة فاقع لونها. . .
. . .تسوء الناظرين. ولهذا حديث طويل مشج ندعه الآن، لنرى ما كان من أمر إيخو
دهشت الفتاة لبيانها أين ذهب، ولصوتها الجميل أين ولى، وللرخامة الفضية التي كانت تترقرق فن فمها الشتيت كيف ضاعت، ولهذا السحر الدنيء كيف قضى على أولئك جميعا؟!
لقد بكر كثيرا، وتوسلت الإلهة، ولكن. . . أين الإلهة؟ لقد تصاموا جميعا، لأن حيرا هي

القاضية، ولأنهم يشفقو أن تفسد أسباب السماء كما أفسدت الأرض على عرائس البحر!

وأطلقت ساقيها للريح، فيممت شطر غابة ذات ماء وذات أفياء، ثم إنها اتخذت لها مأوى في أصل سنديانة ضخمة الجذع، معروشة الفروع، وارفة الأفنان، وأقامت ثمة تجير أحزانها وتسعر أشجانها، وتقابل بين ماضيها السعيد وحاضرها الشقي، وتسكب فيما بين هذا وذاك دموعا ساخنات وعبرات غاليات!

وبينما هي سادرة في كهفها، مستغرقة فيما آل إليه أمرها، إذا بصحب يافع من الشباب اليانع يمرون ببابها، من دون أن يروها، وهم يتحدثون أحاديث الصبى، ويتسامرون سمر الفتوة، ناعمين بأشهى مناعم الحياة

وظلت ترقبهم، وتستذكر أيامها الخوالي، إذا الشمل مجتمع، والرواد محدقون، مرهفة آذانهم، شاخصة أبصارهم، فاهتزت هزة المحموم بالشجن، المروع بالشجى!

وأطلت من كناسها، فرأت الغلام الإغريقي المشهور، (نركيسوس) الذي دله الإلهة بجماله، وتام عذارى أثينا بنضارته وإشراقه. رأته يتخلف عن أصاحبه، مأخوذ بجمال نرجسة حلوة اقتطفها من غصنها المياس وفنها المياد. ثم وقف يحدق فيها بعينيه المعسولتين، اللتين لونتهما شمس الجنوب بهذه الصبغة الساحرة، وكمنت ملأها يعاسيب الفتنة، تنتثر منهما في دنيا القلوب!

والسبيل إلى الغاب ملتوية متداخلة. . . تيه يضل فيه العابر، ويباب أخضر لا يهتدي فيه السائر؛ هنا منعرج لا يصل منه الإنسان إلى أمن، وهناك منحنى لا ينتهي إلى السلام.

ولقد مضى الدليل مع الصحاب، ولبث نركيسوس وحده، يضرب أخماسا لأسداس

ولم تستطع إيخو حين أبصرت به أن تفلت من هذا الشرك المنتشر حوله، تعلق بخيوطه السحرية القلوب والألباب. . . فأحبته بكل قلبها، وأرسلت في نظراتها إليه نفسها تتمرغ تحت قدميه، وتهمهم بين قدميه، كأنها خلقت له. . . لا لها!

ولكن كيف السبيل إلى التعبير عن هذا الهوى الملح والحب المخامر، ولسانها في عقال إلا من المقطع الأخير، ينطلق في إثر الحديث، أو اللفظة المفردة تردفها بصياح كل صائح، وهتاف كل هاتف؟!

وراحت تقتفي أثره، من غير أن تشعر هي، ودون أن يشعر هو! وتقص خطاه وهي لا تعي ما تفعل، وهو لا يدري كذلك؛ فكان دبيبها كدبيب القطا، أو كوثب الضفادع. على أن حركة غير مقصودة أتت بها إيخو جعلته يعتقد أن أحدا من سكان الغابة يتبعه، فصاح قائلا:

(. . .من؟)

فرددت المسكينة نداءه: (من؟. . .)

فقال: (هل من أحد هنا. . .؟)

وأسل هذا السؤال في رعب خفيف، فرددت إيخو اللفظة الأخيرة: (هنا. . .)

فبهت نركيسوس، وقال، وقد خال المتكلم امرأة:

(. . .هلمي يا فتاة. . . هلمي)

فرددت إيخو اللفظة الأخيرة. . . (هلمي. . .)

فزادت حيرته، وتضاعف خباله. . وقال:

(لم لا تأتين إلي، وليس هنا أحد يرى؟ ولا إنسان يشهد؟)

فثار كامن الهوى في نفس إيخو، وملأت اللفظة الأخيرة: (يشهد؟) بكل ما تركت لها حيرا في قرارة لسانها من رنين فضي، وجرس جميل. . .)

وعاد نركيسوس يقول: (يا فتاة! ليت شعري ما يحجزك؟ أين أنت إن كنت هكذا تستحين؟ تعالي)

وكأن إيخو أدركت أن الفرصة سانحة للقاء هذا الحبيب الطارئ، فبرزت من مكمنها من غير هيبة ولا وجل، وقصدت إليه، تعرض حبها ولظى جواها عليه؛ ولما لم يكن في مكنتها أن تخاطبه، لتكشف له عما تضمر من هيام به، ومحبة له، بدا لها أن تثب إلى حيث هو فتعانقه، وتضم صدره إلى صدرها، ليبث أحدهما إلى الآخر

ولم تكد تفعل حتى جهد نركيسوس في تخليص نفسه منها، ثم انطلق في الغابة لا يلوي على شيء، كالرئم المروع والظليم المفزع. . .!!

وذلك أنه لم يجرب هذه المفاجأة بالحب، ولا وقع مرة في شراك غرام، وقد ربكته إيخو حين غمرته بكل حبها، فشرق به وغص، وقال: الفرار الفرار!

وتسلط الهم على قلبها فشقه، والشجن على جسمها الناحل فأضناه، وكانت صدمة هائلة صدعت جوانب نفسها، وزادتها نكالاً على نكال، ثم تتابعت الأيام وهي ما تزداد إلا سقاما. . .

واضمحلت. . . ثم اضمحلت. . . حتى غدت. . لا شيء!!

ولا شيء هذه ليست مبالغة فيما حل بها، إذ الصحيح إنها غدت لا شيء، إلا هذا الصدى يتردد في كل واد، ويذهب إثر كل نداء

وهي إلى اليوم تأوي إلى الغيران، وتتخلف إلى الشطئان، وتنحدر مع الريح على جنبات الجبال، تنعى همها، وتندب حظها في الناديين!

وشاءت المقادير أن تنتقم لإيخو المعذبة من هذا الشاب الجميل نركيسوس، الذي حطم قلبها الغض، وقضى على نفسها المحزونة. فبينما كان في طراد عظيم، في يوم قائظ، عرج على خميلة ناضرة ملتفة الأغصان، ليشرب من الغدير الصافي الذي يترقق من تحتها. . وما كاد ينحني إلى الماء حتى رأى صورته في صفحته الساكنة، فبهره حسنها، وأخذ يرمقها بقلب مشوق ونفس هائمة، وهو لا يعلم أن الحبيب الذي تامه إن هو إلا ظله، وعروس الماء التي تبلت فؤاده إن هي إلا خياله!!

عينان كبيرتان ذواتا أهاب زانهما وطف، وجبين واسع وضاء مشرق، وخدان أسيلان كخدود دريات الأولمب، وخمل حلو نابت فوق بشرة الوجه يزيده رونقا وجمالا، وثغر حبيب كأقحوانة أوشكت تتفتح، ترف حوله بسمة ساحرة من حين إلى حين، وذقن رقيق مستدق يرتفع على عنق يوناني رائع، ثم فتنة تغمر ذلك جميعا!!

خاطبه نركيسوس، ولكن. . . وا أسفاه! إنه لا يرد إلا تمتمة، ولا يجيب غلا كما تهمم الريح!

ومد يده. . فمد الخيال يده، واستطير صاحبنا من الفرح، ظانا أن حبيبته تواق إلى ما يريد!

واقترب بفمه، يريد قبلة، فاقترب الخيال بفمه كذلك. ولكن. . . يا لخيبة الأمل! ما كاد العاشق الولهان يمس الماء بشفتيه حتى ذهب حلمه أباديد، وتكسرت منى نفسه الحيرانة،

وفر الخيال في شظايا الماء. . . وتحطمت الصورة الرائعة بددا!! وخيل لنركيسوس أنها تقول وهي تهتز، قبل أن تلتم: (لا. . . لا. . . لا. . . لا. . .)

ولبث عبثا يحاول قبلة، وتتكرر الآية كلما مست الماء شفتاه. . . فانطلق مغيظا محنقا، وهام في القفار على وجهه، لا يطيب لجفنه المسهد كرى، ولا يحلو لفمه المرير عيش، لجفاء الحبيب، ونفزة آسيه العجيب!؟

نركيسوس! الذي بلبل قلوب العذارى، وسفك دموع الحسان، وضرج كبرياء الغيد بالدم، وأذل البسمات التي طالما حملتها إليه أجنحة الحب من ثغور الفاتنات. . .

نركيسوس، الذي ألقى بحب إيخو في التراب، تستبيه صورته، ويتصباه خياله، ويأسره ظله؛. . . فيالنقمة كيوبيد، ويالعدالة فينوس!!

لقد طفق يختلف إلى الغدير لدى كل شروق شمس، يناجي حبيبه المعبود وأمله المنشود، فلا ينثني إلا توارت بالحجاب!

وما انفك يشكو ويتوجع ويستعطف، وما انفك الخيال يتصام ويتباكم. وإذا تحدث تمتم!!

ثم. . . أجل فلابد من ثم هذه. . .

ثم ذوى عوده، وذبلت نضرته، وتهدم جسمه، وتحطم قلبه، وتأرجحت روحه في حدقته،. . . و. . . دنت ساعته!

ووقفت إيخو في فتن وارف، في أيكة قريبة من الغدير، تشهد الفصل الأخير، من مأساة حياتهما. . .

وسمعته يقول مخاطبا ظله: (أيها الحبيب! أجل! لقد حق لك أن تنتصر على كبريائي، وتسحق مرتي وتهدأ أعضائي. . . هاأنذا أموت أيها الحبيب. . . بقربك. . . يا عروس الماء النافر. . . أموت. . . وأحبك. . . فالوداع. . . الودا. . . ع)

وبكت إيخو. . . . ورددت هذا الصدى الحبيب: (الودا. . . ع!)

وأقبلت عرائس الماء تنوح بدورها على نركيسوس، ثم ذهبت في أرجاء الغابة تجمع الحطب لإحراق الجثة، كما جرت بذلك العادة في ذاك الزمن. . . ولكن؛ يا للعجب! لقد عادت فما وجدت غير زهرة جميلة من أزهار النرجس! انحنت على صفحة الغدير تنظر فيه إلى ظلها. . . وتذرف دمعها. . . قطرة، قطرة، قطرة. . .

دريني خشبة

في ربوع أمريكا الجنوبية

للأستاذ الرحالة محمد ثابت

عبر الأنديز الرائعة:

لقد كان من أحلامي التي خلتها منذ أمد بعيد خيالا بعيد المنال، أن أعبر جبال الأنديز وأمتع النظر بمشهد (أكونكاجوا) ثانية ذرى العالم علوا، وكانت تعاودني تلك الأمنية سنة بعد أخرى، حتى شاءت المقادير فحققت لي ذاك الأمل في الصيف الماضي، وكم كثرت الأراجيف وأنا على ظهر الباخرة إلى (الأرجنتين) بأن الطريق معطل ولن يمكن عبوره اليوم، وما كدت أصل بونس إيرس حتى قصدت على الفور دار للسياحة مستعلما، فقيل لي إن الطريق معطل على أثر السيول والثلوج التي اجتاحت منه أثنى عشر ميلا بقطرها ومحاطها وقناطرها، ولن يمكن عبوره في ذاك الجزء إلا على متون البغال الممضة وسط الثلوج الرهيبة مدى أسبوع، فأخذتني الدهشة، وكاد يتطرق اليأس إلي، لكني عدت فاعتزمت القيام بتلك التجربة حتى لا أحرم رؤية مجاهل الأنديز الرهيبة، وبعد لأي ما قبلت شركة السياحة أن تبيعني التذكرة، وقد اشترطت ألا تتحمل أية مسئولية إذا حدث لي حادث في الطريق، وكم سرح الخيال في تلك المجاهل بقية يوم السبت وطيلة الأحد، فكان تارة يبدو الأمر قاتما مخيفا، وطورا يضيء الأمل فتبدو الرحلة ناجحة شائقة. قصدت دار الشركة صباح الاثنين لأتسلم التذكرة، وما كاد يراني الرجل حتى صاح باسما أن قد فتح الطريق لأول مرة، وأني سأعبر المنطقة المنهارة على السيارات المريحة بدل البغال الخطرة، وذاك أول يوم يستأنف فيه السفر المأمون بعد أكثر من نصف عام، ومن العجيب أني لم أقابل ذاك النبأ بما يستحقه من الفرح والبهجة إذ كانت النفس تطمح إلى ركوب البغال وسط الثلوج فتكون مخاطرة جديرة بالتجربة. ابتعت التذكرة إلى سانتياجو ودفعت زهاء ستة عسر جنيها مصريا ثمنا لها

قمنا في الساعة السابعة صباحا بالسيارة نبرح مندوزا صوب جبال النديز وما كدنا نغادر جوانب البلدة حتى أوغلنا في سهول شبه صحراوية، يكسوها الحصى وتتخللها أعشاب وشجيرات قصيرة شائكة يابسة، وكانت تقوم جبال الأنديز أمامنا في صفحة قاتمة منفرة عريت من النبت، ولبثنا نسير صعدا على ليات أحد وديانها الغائرة الجافة حتى فاجأنا شبه

سهل في وسط الجبال، به بعض الزرع والشجر الأخضر فبدا كأنه الواحة وسط الصحراء وتلك محطة (أسباياتا وهنا بدت الجبال العاتية تكسوها الثلوج المشرقة يسيل ماؤها في واد ضيق، جوانبه مشرفة عاتية مجدبة، ويجري في أسفله ماء شحيح - وهو نهر مندوزا - وهذا ممر اسباياتا الذي سلكه الإنسان منذ حل أمريكا في العصور البائدة مخترقا به تلك الجبال، ولما جاء الأسبان اتخذوه طريقهم على متون البغال ثلاثة قرون، حتى أقيمت سكة الحديد، وقد شاهدنا قنطرة صغيرة محدبة من عمل الهنود الحمر قديما ولا يزال يسميه القوم أي طريق الأنديز) بعد ذلك أخذن السيارة تصعد في منعطفات وعرة دونها هوى سحيقة وأمامها نجاد شاهقة تجللها الثلوج الناصعة في مشهد يأخذ بالألباب، وكثيرا ما كنا نلمح على بعد جواناكو يسرع بالهروب بمجرد إحساسه بنا وهو كاللاما من فصيلة الجمال، وبعد مسيرة ست ساعات بسياراتنا وصلنا محطة: لاس فاكاس: وكنا نشاهد فلول القضبان والقناطر مهشمة أيما تهشيم وقفنا نتظر القطار والريح عاصفة والبرد قارس زمهرير، وكنا نرى على بعد قمة بهامتها المدببة البيضاء وهي من أعلى ذرى الأنديز إذ يبلغ علوها 22136 قدما أقبل القطار مقدمه مغطى بالثلوج كأنه يحمل وسقا من الجليد الناصع، وحللت مكاني من الدرجة الأولى وهي تقارب الدرجة الثانية عندنا، وليس بالقطار سوى درجتين، وكان قد أمضني الجوع إذ كانت الساعة الثانية بعد الظهر فلجأت فورا إلى عربة الطعام وتناولت الغداء الشهي الجيد، وكان ثمنه زهيدا لا يجاوز ثمانية قروش، وذلك

من أثر الرخص الذي كنا نسمع عنه في بلاد شيلي. وفي منتصف الطعام فاجأنا منظر غريب: مجموعة من أسنان الصخر بعضها فوق بعض تتوجها صخرة كبيرة حاكت الدير على بعد، والأسنان شابهت الرهبان الصاعدين إليه، ومن ثم أطلق عليها القوم اسم ثم وقف بنا القطار في محطة (بونتادل أنكاس) ومعناها جسر الأنكا، فنزلنا سراعا نحو الجسر العجيب، فإذا به صخرة متصلة بالجوانب، تحتها واد فسيح يجري به ماء، بعضه مستمد من عيون حارة عظيمة النفع في الاستشفاء، والجسر طبيعي عظيم الاتساع، يمكن ثلاث عربات متجاورة من المرور، فعرضه تسعون قدما وعله 65 وسمكه 70 وقد عرف منذ القرن الخامس عشر وأحيط بالخرافات وأنه مقر الأبالسة في عرف الهنود الحمر، وأطلق عليه اسم أحد قواد

الأنكا توباك توباكوي وقد وقفنا بعد قيام القطار نترقب قمة (أكونكا جوا) أعلى ذرى الدنيا الجديدة (23300 قدم) وأول ما تسم الإنسان هامتها في 14 يناير سنة 1897 ظهرت تشمخ باسقة في السماء ومن حولها جمهرة من الذرى الأخرى يجللها جميعا بياض الثلج الناصع، وبين فترة وأخرى كان يحلق فوق رءوسنا طائر الهائل ملك المرتفعات وأقدر الحيوانات على احتمال عصف الريح وقر البرد، وكان الثلج يسود الأرجاء كلها، اللهم إلا في بعض الشجيرات القصيرة ونبات الصبار (الكا كتاس) في شكله العجيب وكأنه اسطوانات تقوم متجاورة، ويكسوها زغب من شوك طويل، وكنا كلما تقدمنا زادت كثافة الثلج حتى أن القطار كان يجري بين جدران خانق من الجليد الناصع كاد يغطي العربات إلى نصف ارتفاعها. وفي محطة: (لاس خويفاس) دخل القطار ظلة أقيمت من الحديد المجزع تفاديا من ثقل الثلج، وهنا تعددت الربى، فكانت كأنها الهامات الشم جللها الشيب الناصع، ومن ألسنة جليدها كان يسيل لعابها في زرقة مستملحة يزينها زبد أبيض، وكم تكاثر الثلج على أسلاك غلاظ وصفائح قاسية فقوضها، وأنت ترى بقع الثلج الأبيض كمندوف القطن تملأ التجاويف الواحدة تحت الأخرى فيذيبها، وقد يجمد بعض الماء فيظهر في زوائد وأسنان بلورية، وفي الهوى الغائرة يتجمع الماء ويجري في واد ضيق، وفي كثير من البقاع كان للقطار نفق من حديد مخافة تكاثر الثلج، وفي هذا الجزء كان القطار يسير على ثلاثة قضبان، الأوسط منها مسنن لكي تستبك به تروسه خشية وعورة المنحدر. دخل بنا القطار نفق طوله ميلان تقريبا، ومن غريب المصادفات أن ارتفاعه عن سطح البحر ميلان أيضا، وهو أعلى جهات سكة الحديد، فهي هنا 10512 فوق سطح البحر وفي وسط النفق الحد الفاصل بين الأرجنتين وشيلي، وبمجرد عبور القطار بنا هذا الحد داخل النفق، سمعنا صليل أجراس تدق من تلقاء نفسها عندما يضغط القطار على أسلاكها وذلك إيذانا بتخطي الحدود. ولما أن خرج القطار من النفق إلى ضوء الشمس أشار القوم أن هاهو (الكريستو) إلى يميننا، وهو تمثال هائل للمسيح أقيم في سنة 1904 حينما أحتكم الخصمان في مشكلة الحدود إلى ملك إنجلترا إدوارد السابع، والذي توسط في حسم النزاع وعرضه للتحكيم نساء الفريقين وقساوستهم على أن تنفق نقود الحرب في تحسين الطرق على الأنديز، وبجزء من ذلك المال أقيمت سكة الحديد. ثم اكتتبوا لهذا التمثال، وقضى

ملك الإنجليز بجعل الحد عند تقسيم المياه بين الدولتين، وهي هنا على علو 12800 قدم، والتمثال من البرنز القاتم صيغ من بعض المدافع الحربية القديمة التي أخذوها من الأسبان في حرب الاستقلال رمز للسلم وتحطيم أدوات الحرب، ويقوم على قاعدة من جرانيت وعلوه 26 قدما، وقد نقش على قاعدة التمثال، وتحت أقدام المسيح ما معناه:

لقد أقسم رجال الأمتين بين يدي المسيح ألا ينقض عهد السلام بينهما، حتى ولو دكت) على أن التمثال كادت تكسوه الثلوج فتخفيه. أخذنا في .(تلك الجبال فصارت هباء الانخفاض من منحدر وعر، ما كان القطار ليستطيعه لولا القضبان المسننة، ومن دوننا وادي أكونكاجوا الغائر، بين محطتي كارا كولس، بورتيليو، فاجأتنا مجاميع الربى في تعقيد رهيب تتوسطها بحيرة الانكا على علو 9000 قدم، ويقولون بأن ماءها ثابت المقدار لا يزيد ولا ينقص طيلة العام وذاك ما زاد قدسيتها عند الهنود! ولن يستطيع قلم مهما أوتي من البيان والإفصاح أن يعرب عما يحسه المسافر من رهبة وجلال تتمثل في عظمتهما القدرة الإلهية التي تزرى بكل شيء، وما الوصف بمجدي شيئا،

فلن يأخذ القارئ من قولي ألا قبسا ضئيلا، وعليه إذا أراد الوقوف على شيء منها أن يمتع نظره بمرآها كي يحس بما أحسست. ويقولون أن أجمل ما ترى مناظر الصخور وأروعها في العالم بين تينك المحطتين. أخذنا نمر بالمحاط الشيلية، وكلما هبطنا ندر الثلج وزادت القرى وتعددت المسايل المائية، وقد بدا هذا الجانب من الجبال أغنى بعناصر الحياة بين إنسان وحيوان ونبت وشجر من الجانب الشرقي، لأن رياح الباسفيك تدر عليه من بللها ماءا وفيرا على نقيض الجانب الآخر الشرقي. ومن الأنهار التي استرعت نظرنا (الريو بلانكو) أو النهر الأبيض، وسمي كذلك لكثرة ما يعترض ماءه من صخور يرغي فوقها فيبدو أبيض ناصعا. ثم وقفنا طويلا في محطة وعندها غيرنا القطار الضيق إلى آخر. ثم خيم المساء فحرمنا بقية الاستمتاع بجمال الطبيعة بين هذه وسنتياجو، ولقد غيرنا القطار مرة أخرى وفي محطة (لاي لاي) وهنا يرى أول قبس من مياه المحيط الهادي إلى يمين المسافر

وفي منتصف الثانية عشر مساء دخلنا سانتياجو بعد مسيرة زهاء سبع عشرة ساعة من مندوزا أو سبع وثلاثين ساعة من بونس إيرس، وكان مقدرا لعبور القارة كلها من بنيس إيرس إلى سانتياجو ثلاثون ساعة بالقطار مسافة قدرها 888 ميلا أو تزيد

محمد ثابت

البريد الأدبي

كتاب عن سنت هيلانه

صدر أخيرا كتاب بالفرنسية في مجلدين عنوانه (سنت هيلانه) بقلم مسيو أوكتاف أوبري. والكتاب مثل بديع للتاريخ القصصي أو القصص التاريخي؛ ومن الواضح أن مسيو أوبري لم يرد أن يقدم لقارئه (سنت هيلانة)، تلك الجزيرة المنسية النائية، وإنما أراد أن يقدم تفاصيل المأساة التاريخية العظيمة التي كانت سنت هيلانه مسرحا لها، ونعني اعتقال الإمبراطور نابليون بها مدى ستة أعوام، ثم وفاته وثواءه الأخير بها. ولقد كانت مأساة سنت هيلانه في حياة نابليون أعظم من أي حرب ومن أي موقعة؛ فقد جعلت من الإمبراطور العظيم مسيحا آخر، وشهيدا؛ وما هي سنت هيلانه؟ هي جزيرة صغيرة طولها ستة عشر كيلو مترا، وعرضها اثنا عشر كيلو مترا، وترتفع عن سطح البحر بمئات الأمتار، وتبعد في أعماق المحيط نحو خمسمائة كيلو متر عن الشاطئ الأفريقي، فهذه البقعة النائية القفراء هي التي اختارتها إنكلترا لاعتقال أعظم جندي وقائد في العصر الحديث

ويستعرض مسيو أوبري في كتابه تاريخ الإمبراطور منذ هزيمته وأفول نجمه في سنة 1815، ثم اعتقاله وإقامته في المنفى حتى وفاته سنة 1821؛ ولم يصدر من قبل كتاب أوفى وأدق عن هذه الفترة من حياة نابليون. وقد كتب من قبل عنها كتاب عدة، بالاعتماد على الوثائق والمذكرات المختلفة التي تركت من زملاء نابليون في المنفى؛ ولكن مسيو أوبري لم يكتف بالوثائق المكتوبة، بل سافر إلى سنت هيلانه، وأقام مدى أسابيع في (لونجوود) وهو المنزل الذي سكنه منذ معتقله حتى وفاته؛ واستعرض هناك الوثائق الإنكليزية ورسائل السير هدسون لو سجان الإمبراطور، ورسائل زملائه في المنفى وأطبائه، وهي وثائق تملأ نحو تسعين مجلدا كبيرا؛ ولم يترك صغيرة ولا كبيرة في حياة الإمبراطور وحياة زملائه في المنفى إلا أستوعبها. وتستطيع أن تتأمل في كتاب مسيو أوبري، لا صورة الإمبراطور وحدها، ولكن صور أولئك الرفاق المخلصين من الرجال والنساء الذين ربطوا حياتهم بحياة سيدهم؛ فهناك أسرة مونثولون، وأسرة برتران، والجنرال كورجو، والسكرتير لاسن كاز، والوصيف مرشان، والطبيبان أوميارا ومنيول؛ هذا عدا حاشية الإمبراطور من الحراس الذين رتبتهم الحكومة الإنكليزية؛ ومما يشوق

القارئ حياة المرأتين اللتين تبعتا الإمبراطور مع زوجيهما وهما مدام مونتولون ومدام برتران؛ فقد كانتا على خصام دائم، ولهما قصص ومنافسات ودسائس مشجية وهناك نقطة تاريخية هامة يصححها مسيو أوبري، وهي تتعلق بموقف السير هدسن لو، حاكم سانت هيلانه وسجان الإمبراطور؛ فقد ملأت التاريخ والسير التي كتبت عن مأساة سنت هيلانه بذم السير لو واتهامه بالقسوة والجمود والنذالة؛ ولكن مسيو أوبري يصحح كثيرا من أخطاء هذا الرأي، ويقد إلينا السير لو في الصورة الآتية: (كان السجين وكبير حراسه في سن واحدة. وكان الأخير رجل صغير القد، نحيفا أحمر

الشعر، في وجهه بقع، يخفي وجله تحت ثوب من الخشونة الحربية؛ ومع أنه لم يكن يتمتع بصفات باهرة، فإنه لم يكن مجردا عن الخلال؛ ولقد كان مخلصا لوطنه، وكان إداريا حازما، مستقيما، متقشفا؛ ولم يكن تنقصه الطيبة الطبيعية؛ بيد أنه كان يصدر عن تحكم، وكان مدعيا، متكبرا؛ ولم يكن ذا رقة ولا ظرف)، والحقيقة أن السير لو كان موظفا أمينا يقضا، يسهر على أسيره بعناية، ويخشى إفلاته من سجنه؛ فكان يراقبه ليل نهار، ويضيق عليه سبيل الحرية والحركة؛ ومن هنا نشأت فكرة اتهامه بالقسوة والنذالة

وقد كان لصدور كتاب مسيو أوبري صدى عميق في دوائر التاريخ والأدب. وأجمع النقدة الثقات على أنه خير كتاب صدر في موضوعه

ذكرى سيرفانيتس مؤلف دون كيشوت

ظهرت منذ أعوام حركة في إسبانيا وفرنسا للعمل على تخليد ذكرى الكاتب والشاعر الإسباني الأشهر سيرفانيتس سافدرا مؤلف القصة الخالدة (دون كيشوتي دي لامنكا)؛ واتخذت هذه الحركة مظهرا عميقا بتأليف لجنة في فرنسا تحت رياسة دومرج الفخرية، وقد كان يومئذ رئيسا للجمهورية، ورياسة مسيو بول بورجيه الفعلية؛ وكان ذلك منذ سبعة أعوام، وما زالت اللجنة قائمة، ولها برنامج ضخم يقتضي تنفيذه الملايين. وقد تجدد الحديث عن مهمة هذه اللجنة وعملها أخيرا بمناسبة ظهور طبعة أثرية جديدة بالفرنسية (لدون كيشوتي). وهذه الطبعة الجديدة من أجمل وأفخم ما ظهر من اليوم من طبعات القصة الخالدة، وهي في مجلد واحد ضخم، وقام على إصدارها الكاتب الفرنسي جان كاسو، وهي من أقدم التراجم الفرنسية المعروفة؛ منها قسم من ترجمة جيزار أودان، وهو كاتب وجاسوس فرنسي أوفده هنري الرابع إلى مدريد في مهمة سرية، فقضى هنالك تسعة أعوام، وعاد وفي حقيبته مخطوطة الترجمة؛ والقسم الثاني من ترجمة دي روسيه؛ وقد صدرت لعامين فقط من صدور النص الأصلي في إسبانيا (سنة 1605)؛ وقد عني مسيو كاسو بتصحيح النصوص القديمة وتنقيحها وشرحها عناية كبيرة

أما حديث اللجنة التخليدية الفرنسية، فهو أنها وضعت برنامجا ضخما لأحياء ذكرى الكاتب الكبير بالتعاون مع اللجنة الإسبانية، وذلك في مدينة ثوبوزو من مقاطعة لامانكا التي ينسب إليها الفارس المتجول (دون كيشوتي)؛ ومن المقرر أن يقام لسير فانيتس تمثال فخم من صنع ماشادو عميد المثالين الإسبانيين؛ ويقترح البعض أن يقام في ثوبوزو تمثال هائل يمثل دون كيشوتي، يتبعه وصيفه سانكو، وهو يجر حماره؛ ويرى أصحاب هذا الاقتراح أن يكون جواد الفارس من الضخامة بحيث ينشأ في بطنه متحف لسير فانيتس، يصعد إليه من سلم في ساقه؛ وأن ينشأ في رأسه مقصف صغير، وأن يكون في جوف الحمار مطعم! وهو مشروع كالحلم يذكرنا بأعاجيب العالم القديم؛ والمهم أنه يقتضي الملايين أو عشرات الملايين، وليس في يد اللجنة منها شيء

اللغة العربية في تركيا

جاء في صحف الأستانة ما نصه:

اجتمع مجلس بلدية ماردين في 8 الجاري برياسة عزيز أوراس وتذاكر في الاقتراح الذي قدمه بعض الأعضاء احتجاجا على تعميم اللغة العربية في ماردين وضرورة منعها، وبعد المذاكرة تقرر مجازاة كل من يتكلم اللغة العربية بخمسين قرشا تركيا، وفي المرة الثانية بمائة قرش، وفي حالة التكرار يحكم عليه بالسجن!!!

اللغة العربية في أمريكا

جامعة برنستن في الولايات المتحدة من أشهر الجامعات في العالم على الإطلاق، وقد أعلنت أخيرا أنها قررت تدريس اللغة العربية والعلوم الإسلامية في فصل الصيف تحت إشراف الدكتور العلامة فيليب حتي اللبناني المعروف. ولأول مرة تفتح هذه الدروس العربية في تلك الجامعة للرجال والنساء على السواء!!

الكتب

الإنكليز في بلادهم

تأليف الدكتور حافظ عفيفي باشا

للأستاذ م. ف. ا

لسنا نحاول في هذه الكلمة أن نقدم كتاب الدكتور حافظ عفيفي باشا إلى الجمهور،

فقد تقدم به مؤلفه إليه مباشرة، وله من أسمه ومعرفة الجمهور به ما يغنيه عن ذلك التقديم، كم أننا لسنا نحاول في هذه الكلمة أن نجامل الدكتور، فإن احترامنا للمؤلف إنما يبعثنا عل أن لا نحاول مجاملته بغير الحق

إن ذلك الكتاب الذي أخرجه الدكتور من تلك الكتب التي لا يملك القارئ أن يصفها وصفا موضوعيا، فإن كل فصل منه، بل كل فقرة منه، تدعو إلى التفكير وتتداعى لها المعاني في ذهن القارئ تداعيا يجعله في شبه معترك أحيانا، وفي شبه حماسة أحيانا أخرى، بحسب اختلافه مع المؤلف أو اتفاقه معه في الرأي؛ فالذي يقرأ ذلك الكتاب يحس ما يحسه المتحدث إلى جليسه في اجتماع خاص: لا يخيل إليه أنه يتعلم، ولا يخيل إليه أنه يعرف شيئا جديدا، بل يشعر كأنه يجاذب جليسه أطراف حديث في سمر، وهو في أثناء ذلك تارة يناقش، وتارة يوافق، وتارة يخالف، ولكنه في كل الأحوال مستغرق في الحديث ومستمتع به

لا يحاول الدكتور أن يظهر بمظهر المعلم الذي ينقل إلى الناس شيئا جديدا، بل يلقي ما يريد قوله في نغنة هادئة تنسي الإنسان أنه يعالج موضوعا لم يسبق لأحد أن عالجه بمثل استيعابه وطريقته. مع إن الكتاب جديد في موضوعه، جديد في طريقته، جديد في لونه

يتكون الكتاب من مقدمة ومن ستة أبواب، كل منها يعالج ناحية من نواحي الحياة الإنكليزية، فالأول: يتناول الدستور البريطاني، والثاني: يتناول الرأي العام الإنكليزي وتكوينه، والثالث: المسائل المالية، والرابع: التعليم في بريطانيا، والخامس: نظام القضاء، والسادس: الإمبراطورية الإنجليزية. فأنت ترى من هذا الكتاب بحث شامل يكاد لا يفقد فيه القارئ ناحية من نواحي الحياة الاجتماعية والسياسية في بلاد الإنكليز. على أننا مع ذلك

شعرنا بأن مقدار ما يخرج به القارئ من العلم بالحياة العادية في بلاد الإنكليز لا يشفي الغلة، فإن تصوير الكتاب لطبقات الشعب، ونفسية كل طبقة، وعلاقة الطبقات مع بعضها ببعض، يترك محلا كبيرا يشبه التشوق إلى المزيد

والكتاب جدير بأن نعقد له غير فصل واحد في صفحات الأدب والاجتماع. ولكن حسبنا اليوم أن نقول كلمة واحدة عامة عنه، لنبين معنى واحد من المعاني التي رأينا فيها مأخذا على الكتاب، ولكي نقدره تقديرا مجملا بغير تفصيل

لعل من أكبر أسباب الزلل في الحكم على قوم أن يكون الذي يقف نفسه للحكم عليهم متأثرا بميل سابق قبل أن يتصدى للحكم. وقد ظهر ذلك المأخذ واضحا لنا في معالجة الدكتور للحكم على طبقات الشعب الإنكليزي وتحديد ماهيتها. فكما أن الحكم قد يكون منتقدا لتحامل صاحبه على من تصدى للحكم عليهم، كذلك قد يكون منتقدا إذ كان صاحبه مملوء القلب بإجلال من تصدى للحكم عليهم. بل قد يكون زلل الحكم أعظم وأكثر تضليلا إذ كان الذي يحكم متأثرا بالميل والمودة. ويكون ذلك الزلل أشد أثرا إذا صحبته تلك النغمة الهادئة التي تلقي في روع القارئ أن الكاتب غير متحيز في الحكم. فالحق أن الدكتور معجب بالشعب الإنجليزي إعجابا جعله في حكمه لا يكاد يرى بع غاية ذلك الشعب غاية، ولا دون قصاراه قصارى

فنظام إنجلترا في نظره يحوي في نواحيه نزعة ديمقراطية جمهورية بارزة متغلغلة في جميع أسسها ونواحيها، بل إن المؤلف يقول أنه لا يبالغ إذا قال: (إن هذه النزعة أظهر في أنظمة الحكم في بريطانيا منها في أنظمة الحكم في فرنسا التي لما أعلنت الجمهورية استبقت لأسباب تاريخية. . . . . جميع أسس الأنظمة التي خلفها الملوك المستبدون)

ويقول: (ومها يكن من بلوغ الديمقراطية البريطانية أعلى غاية ممكنة في هذا الزمان فإن بريطانيا لا تزال محتفظة بجميع مظاهر الأرستقراطية الملكية)

ولن يستطيع أشد الإنجليز تعصبا لقومه، ولا أعظمهم إكبارا لكبريائه القومية، أن يقول أكثر من هذا

وهو يقول بعد ذلك في وصف طبقات الشعب مبتدئا بوصف الأشراف: (فالواقع أن هؤلاء الأشراف في إنجلترة مهما سمت مراكزهم وبلغت ثروتهم هم كغيرهم يعملون ويكدون، لا

(يأنفون الاشتغال بأي عمل أو مزاولة أية مهنة
فهو قد نظر إلى تلك الطبقة من خير جهاتها، وتطلع عليها بعين الرضى والعجاب، ولا بعين الناقد المتحكم
ويقول في عرض حديثه عن الحمل الثقيل الذي تشكو منه حكومات الإنجليز المتعاقبة، وهو ما تبذله في ميزانيتها للعمال العاطلين: (ولئن كان هذا العبء الناشئ من تنفيذ هذه القوانين الاجتماعية في إنجلترة لا يزال ثقيلا، إذ يتراوح بين الخمسين والثمانين مليونا من الجنيهات سنويا، فإن إنجلترة في الوقت نفسه قد اشترت راحتها وطمأنينتها السياسية بهذا المبلغ الذي يتضاءل بجانب النتائج العظيمة التي جنتها من تنفيذ هذه القوانين)
وكأننا به قد تجاهل ما كان لأثر هذه التحيات المالية العظيمة في فداحة الضرائب، وإبهاظ كاهل الإنتاج، وعرقلة المصنوعات الإنجليزية، بطريق غير مباشر في ميدان المنافسة التجارية الدولية
وقد يطول بنا القول إذا التمسنا الأمثلة الدالة على هذه النظرة العاطفة في الكتاب حتى لتكاد تجعل القارئ ينسى أنه يقرأ كتاب رجل من أمة أجنبية يصف ما في إنجلترة بعين الناقد المستقل
ولئن كانت نظرة العطف هذه مالت بالمؤلف النابه إلى هذه الناحية الكريمة في التقدير، فإن نظرة رجل السياسي الدبلوماسي قد أثرت من جهة أخرى في تقدير المؤلف، حتى كاد في بعض الأوقات يصل من المقدمات إلى نتائج لا يبررها الاستنتاج. ولا يمكن أن يؤول هذا إلا بمجاملة الرجل الدبلوماسي الذي اعتاد أن يوحي إلى نفسه بما تصوره الظروف السياسية، فإذا هو ناطق عن هذا الإيحاء بغير أن يحس. يريد الرجل الدبلوماسي مثلا أن يقول أحيانا إن عمل من الأعمال يؤدي حتما إلى نشوب حرب بين دولته وبين الدولة التي هو ممثل لدولته فيها، فإذا به يقول إن ذلك العمل قد لا يكون مما يؤدي إلى زيادة حسن التفاهم بين الدولتين، وعلى هذا القياس كان للدكتور الكبير يصل من بعض مقدماته إلى بعض نتائجه. ولأضرب لذلك مثلا من الفصل الأخير الذي عقده على مصير الإمبراطورية الإنجليزية، فإنه ابتدأ بحثه بسؤال فقال: (أهي سائرة نحو التفكك والانحلال أم أنها ستستطيع المحافظة على وحدتها إلى أجل طويل؟) ثم ناقش السؤال مناقشة لا يشك القراء منها أنه واصل إلى نتيجة أن تلك الإمبراطورية محتوم عليها أن تتصدع، أو على الأقل أن ينصدع عنها نصفها عند أول حرب جديدة، ولكن القارئ يعجب إذا هو بلغ النتيجة فإذا بها: (من كل ما تقدم يمكن القول بأن لا محال للتشاؤم نحو مستقبل الإمبراطورية البريطانية). ثم استثنى من ذلك أيرلندة وحدها وقال عنها: (إنها سحابة تعكر هذا الجو)
ولا شك في أن الرجل الدبلوماسي هو المسئول عن مثل تلك المجاملة. لقد يكون من المستحسن أحيانا أن نجامل، ولكن المؤلف إذا تعرض لكلمة عامة كان واجبا عليه أن يسير مع المنطق، ومع المنطق وحده، والكلمة التي يقولها مثل الدكتور الكبير لها من الأهمية والوقع ما لا يكون لرجل دونه في المكانة أو أقل منه علما بما يقول
وفي الكتاب فوق كل ذلك نقد ثالث على وجه عام. فإننا إذا قرأنا عن الإنجليز لا يمكن أننا نقرأ عن قوم بيننا وبينهم مسألة قومية، وإذا كان المعنى في ذهن القارئ فإنه بغير شك يعجب أشد العجب إذا هو قرأ كتاب الدكتور الفاضل. إذا يخيل إليه إنه على تقدير إنما يقرأ كتابا لرجل من بلاد غير مصر عن قوم هو معجب بهم إعجاباً خاصاً
على هذا المأخذ الذي أخذناه على نظرة المؤلف لا ينبغي أن يعد مفسدا للكتاب أو منقصا من قدره نقصا فادحا، فإن البحث الذي ساقه المؤلف من دون هذه النظرة العاطفة المجاملة بحث جدير بكل إكبار. ففيه وصف للحياة الدستورية وأساليب الحكم في بلاد الإنجليز قلما يجد قارئ مثله في كتاب واحد؛ وفيه باب في تكوين الرأي العام يمكن أن يعد بحثا خاصا لصاحب رأي مجتهد مستقل؛ وفيه بحث في المسائل المالية استعرض فيه المؤلف الموقف العملي، ودس فيه نظريات المالية والاقتصاد زبدا وافية مع القصد والجمع للأطراف؛ وكان المؤلف موفقا كل التوفيق في بحثه الخاص بالتعليم في بريطانيا، فقد وصفه وصفا دقيقا يدل على نظره الفاحص وعقله الثاقب. فإذا نحن نقدنا لون التفكير ونغمته، فلا يسعنا إلا شكر المؤلف الكبير على بحثه فيما دون ذلك،

وعلى هديته من المعلومات الثمينة التي زفها إلى قراء العربية
م. ف. ا
العدد 95 - بتاريخ: 29 - 04 - 1935
أعياد الحياة والحرية
تخرج الرسالة اليوم إلى الناس في (شم النسيم)؛ وشم النسيم في مصر عيد اكتمال الربيع، يخرج الناس من دورهم فيه إلى الطبيعة السافرة المجلوة، في العراء الكاسي بأفنان الزهر، وفي الهواء الناسم بأنفاس الرياحين، يشهدون افتضاح سر الحياة في الأرض، وانفتاح باب الجنة على الروض، وانتشار جمال الله في الكون، وافترار الدهر العابس عن بسمات البشر تفيض في العيون والصدور، وتشرق على الحقول والدور، وتهيؤ القرب بين الله والإنسان والطبيعة
لشد ما تفعل بالنفوس مشاهد الحياة وذكرى الحرية! في هذا اليوم
يحتفل المصريون في (شم النسيم) بعودة الروح إلى الدنيا، وهبة
الطبيعة من مرقد الموت؛ وبالأمس كان عيد الفصح المسيحي، احتفل
،فيه نصارى الشرق، كما احتفل في مثله من قبله نصارى الغرب
،برجعة الناسوت وقيامة يسوع؛ ومنذ أيام كان عيد الفصح اليهودي
احتفل فيه بنو إسرائيل بخروجهم من ظلم الفراعين، وعودة الحرية بهم
،إلى أرض فلسطين! فلله هذا الفصل الجميل كيف يعود فيه الخلق
ويرجع معه الشباب، وتحيا به الحرية، ويسبح منه الوجود في فيض
من الشعور القدسي يوقظ في الإنسان أنه حي، وفي الحي أنه حر، وفي
الحر أنه جميل، وفي الجميل أنه صالح، وفي الصالح أنه خليق
بملكوت الله وخلافة الأرض
تباركت يا مبدع الربيع، ومصور الجمال، ومعيد الخلق! هذا النبل يتنفس بالحياة ماؤه فما لأنفسنا تموت؟ وهذا الوادي يتفجر بالخصب ثراه فما لآمالنا تذوي؟ وهذا الربيع يرف بالحسن نسيمه فما لأخلاقنا تسوء وتقبح؟ ألسنا جزءاً من الطبيعة نتجدد كما تتجدد، وندور على قطب الحياة كما تدور، ونجري على سنن الكون كما تجري؟ إذن فلماذا يعود إبريل في كل عام فيرد إلى الشجر حلاه، والى البلبل أغاريده، وإلى العش زياطه، والى الحيوان
نشاطه، وإلى العالم كله بهاءه ورونقه. ونلقاه نحن في كل موعد إبان وروده، فلا نجد عنده وا أسفاه ريشة لجناح، ولا نفحة لأمل، ولا جدة لدارس
هكذا قضى الله أن يكون الربيع مستأنف القوة والفتوة والرجاء لكل حي، ومسترجع الذكر الممصة، والأطياف الحزينة لابن آدم! فهذه الشجرة التي تراها فينانة الأفرع ريا الأماليد طالما ورف ظلها السجسج في هذا الأوان على صبي ناعم وهوى وليد! كانت عشاً لطائرين بسط الشباب لهما في الجناح، وفسح الحب لهما في الجو، فيطيران ما شاء الهوى أن يطيرا، ثم يأويان إليها، ويغردان عليها، حتى تقوض العش ونسل الجناح ويبست الحنجرة! وها هي ذي الشجرة عراها الخريف عشرين مرة، وكساها الربيع عشرين مرة، ولكن ذاوي الشبيبة لن ينضر، وماضي الحبيبة لن يعود!!
وهذا المرج الذي تراه موشي البرود منضور الجنبات، كان في عام من الأعوام مسرحاً لمشهد من مشاهد الصبابة! انتظمت به عقود الحب، وأنثرت فيه حبات القلب، وتبددت عليه خطوات السعادة.
ثم تصوح المرج وعاد فاخضوضر وأزهر، ولكن مضاجع الهوى لن تمهد، وذواهب الخطى لن تؤوب!!
وهذا الجدول الرقراق الذي تسمع هسيسه فوق الحصى وتحت الصفصاف، كان في ربيع من الأربعة مرآة لوجهين حبيبين قرءا سراريهما في صفائه، ومزجا حديثيهما بخرير مائه، ثم جف مجراه وما لبث أن فاض، وانقطع حديثه ثم عاد فاستفاض، ولكن الوجهين لن يعود بينهما لقاء، والحديثين لن يكون لانتهائهما ابتداء!
وهكذا يجد الإنسان وحده في كل منظر من مناظر الأرض، ومظهر من مظاهر الربيع، أثراً بعد عين، ودواراً بعد نشوة، وبلي بعد جدة، وذكرى بعد أمل!!
على أن للربيع يداً على النهضة المصرية لا تكفرها له القلوب ما تجدد على الدهر عيده: تلك هي رجعة الروح فيه إلى حياتنا الاقتصادية، وما هذه الروح الراجعة إلا بنك

مصر، بثها الله في نفحات الحلد من أوائل مايو، فنضرت من حياتنا ما ذوى، وأقامت من بنائنا ما هوى، واتحدت بطبيعة الزمن الموزون، وحركة الفلك المنتظم، فهي تتقدم ولا تتأخر، وتجري ولا تتعثر، وتطلب الغاية ولا تحيد

لذلك يعود الربيع كل عام فيفتح للناس هوة الماضي، ويفتح لبنك مصر وحده باب المستقبل، فينمو نمو النبات بركة على بركة، ويتضاعف تضاعف الحياة شركة بعد شركة، ويجذب الوجود المصري معه إلى السبيل التي يأمن فيها الفناء ويخرج منها إلى العافية!

بعد ثمانية أيام يحتفل المصريون بمرور خمسة عشر ربيعاً على مولده؛ وسيكون هذا الاحتفال المرتقب حجة لمصر أو حجة عليها! فإذا أجمعت على أن يكون احتفالها بعيده احتفالاً بنهضتها به وحياتها فيه، دلت الناس على جدارتها بفضله، وعرفانها بجميل أهله، واطرادها مع الكفاية والجد في سبيله، وإلا كان احتفالها بهذا العيد العظيم كاحتفالها اليوم بشم النسيم. تحتفل فيه بالفسيخ والعرق والعهر، ثم لا تعبأ بجمال الطبيعة في جنة ولا نهر!

أحمد حسن الزيات

الانتحار

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

حدث المسيب بن رافع الكوفي قال: بينا أنا يوماً في مسجد الكوفة، ومعي سعيد بن عثمان، ومجاهد، وداود الأزدي، وجماعة - أقبل فتى فجلس قريباً منا، وكان تلقاء وجهي؛ لا أمد نظري إلا انطلق في سمته ووقف عليه؛ وكنا نتحدث، فرأيته يتسمع إلى حديثنا؛ فلما تكلم سعيد، وكان خافت الصوت من علة به، وكنا نسميه الملة الصخابة - رأيت الفتى يتزحف قليلاً قليلا حتى صار بحيث يقع في سماعه حسيس نملتنا وكان سعيد يقول: اجتزت أنا والشعبي أمس بعمران الخياط، فمازحه الشيخ فقال له: عندنا حب مكسور، تخيطه؟ قال: نعم، إن كان عندك خيط من ريح! فقلت أنا: فاذهب فجئنا بالمغزل الذي يغزل الهواء لنصنع لك الخيط

قال مجاهد: هذا ليس بشيء في تنادر شيخنا وما يتفق له؛ أخبرني إن رجلاً جاءه في مسألة، فدخل عليه البيت وهو جالس مع امرأته؛ فقال الرجل: أيكما الشعبي. . .؟ فأومأ الشيخ إلى امرأته وقال: هذه. . .!

قال المسيب: وضحكنا جميعاً، وأخذ نظري الغلام فإذا هو ناكس حزناً وهماً، وكأنه لا يتسمع إلينا ليسمع، بل ليشغل نفسه عن شيء فيها، فتتوزع خواطره، فيتبدد اجتماعها على همه، بصوت من هنا وصوت من هنا، كما يفعل المحزون في مغالبة الحزن ومدافعته، يشغل عنه بصره وقلبه وسمعه جميعاً، فيكون الحزن فيه وكأنه بعيد منه فقلت في نفسي: أمر أمات الضحك في هذا الفتى وكسر حدته وشبابه. ثم تحولت إليه وقلت: رأيتك يا بني مقبلاً علينا كالمنصرف عنا؛ فما بالك لم تضحك وقد ضحكنا جميعاً؟

قال: إليك عني يا هذا. فأين مني الضحك وأنا على شفير القبر، وروح التراب مليء عيني في كل ما أرى. وكان حفرتي ابتلعت الدنيا التي أنا فيها لتأخذني فيها، وأنا الساعة ميت حي؛ رجل في الدنيا ورجل في الآخرة!

قلت: فأعلمني ما بك يا بني؛ فلقد احتسبت ولداً لي كان في مثل سنك وشبابك ولم ارزق غيره، فقلبي بعده مريض به، يتوسمه مفرقاً في لداته متوهماً أن وجوههم تجمعه بملامحه؛ فأنا من ذلك أحبهم جميعاً وأطيل النظر إليهم والتأمل في وجوههم، ولست أرى أحداً منهم

إلا كان له ولقلبي حديث! فإن رأيته حزيناً مثلك تقطعت له من إشفاق ورحمة، وطالعني فتاي في مثل همه وحزنه وانكساره؛ فيعود قلبي كالعين التي غشاها الدمع، تحمل أثر الحزن ومعناه وسره، فبثني ما تجد يا بني، فلعل لي سبباً إلى كشف ضرك أو إسعافك بحاجتك؛ ولعلك تكون قد حزنت من أمر قريب المتناول هين المحاولة، لم يجعله عندك كبيراً أنه كبير، ولكن انك أنت صغير

قال الفتى: مهلاً يا عم، فإن ما نزل بنا مما تنقطع عنده الحيلة ولا تقاد فيه الوسائل، ولا علاج منه بالموت يأخذنا ويأخذه

قلت: يا بني، هذه كلمة ما احسب أحداً يقولها إلا من أخذ للقتل بجنايته ولم يعف أهل

الدم، فهل جنيت أو جنى أبوك على أحد؟
قال: إن الأمر قريب من قريب، فإني تركت أبي الساعة مجمعاً على إزهاق نفسه، وقد اغلق عليه الدار واستوثق من الباب!
قال المسيب: فكأنما لدغتني حية بهذه الكلمة، وأكبرت أن يكون رجل مسلم يقتل نفسه؛ فتناهضت، ولكن الغلام أمسك بي وقال: إنه لا يزال حياً وسيقتل نفسه متى اظلم الليل وهدأت الرجل
قلت: الحمد لله، إن في النور عقلاً، ولكن ما الذي صار به إلى ما قلت، وكيف تركته لقدره وجئت؟
قال الفتى: إنه قال لي: يا ولدي ليس لك أب بعدي، فإن أردت اللحاق بي فارجع مع الليل لنسلم أنفسنا، وان آثرت الحياة فارجع مع الصبح لتسلمني إلى غاسلي!
قلت: أما من أنت إلا يكون أبوك قد أخرجك عنه لان عينك تمسك يده وترده عما يهم به، حتى إذا خلا وجهه منك ازهق نفسه؟
قال: لم أدعه حتى اقسم أن يحيا إلى الليل، وحتى أقسمت أن ارجع لأموت معه، فإن لم تمسكه يمينه أمسكه انتظاري، وقد فرغت الحياة منا فلم يبق إلا أن نفرغ منها؛ ومن كان فيما كنا فيه ثم انحدر إلى ما انحدرنا إليه، لم ير الناس من نفسه ضعة ولا استكانة؛ وإنما خرجت لأسأل هذا الإمام (الشعبي) وجهاً من الرأي فيمن يقتل نفسه إذا ضاقت عليه الدنيا، ونزلت به النازلات، وتعذر القوت، واشتد الضر، وتدلت به المسكنة إلى حضيضها،
والجئ إلى أحوال دقته دق الرحى لما تدور عليه، ولم يعد له إلا رأي واحد في الدنيا: هو إنه مكذوب مزور على الدنيا.
قلت: يا بني. فإني أراك أديباً؛ فمن أبوك؟
قال: هو فلان التاجر، ظهر ظهور القمر ومحق محاقه، وهو اليوم في احلك الليالي واشدها انطماساً، جهده الفقر، ويا ليته كان الفقر وحده، بل انتهكته العلل، وليتها لم تكن إلا العلل مع الفقر، بل اخذ الموت امرأته فماتت هماً به وبي، ولم يكن له غيري وغيرها، وكان كل من ثلاثتنا يحيا للاثنين الآخرين، فهذا ما كان يجعل كلا منا لا يفرغ إلا امتلأ، ولما ذهبت الأم ذهبت الحقيقة التي كنا نقاتل الأيام عنها؛ وكانت هي وحدها ترينا الحياة بمعناها إن جاءتنا الحياة فارغة من المعنى، وكنا من أجلها نفهم الأيام على إنها مجاهدة البقاء؛ أما الآن فالحياة عندنا قتل الحياة. .!
قلت: يا بني، فإنك والله لحكيم، وإني لأنفس بك على الموت؛ فكيف ردتك حياة أمك عن قتل نفسك ولا تردك حياة أبيك؟
قال: لو بقى أبي حياً لبقيت، ولكن الدهر قد انتزع منه آخر ما كان يملك من أسباب القوة، حين اخذ القلب الشفيق الذي كان يجعله يرتعد إذا فكر في الموت؛ فهو الآن كالذي يحارب عن نفسه تلقاء عدو ليرحمه؛ أن عجز عن عدوه قتل نفسه ليستريح من تنكيل العدو به.
قال المسيب ابن رافع: وأدركت أن الفتى يريد من سؤال الشيخ تحلة يطمئن إليها أن يموت مسلماً إذا قتل نفسه كالمضطر أو المكره؛ فأشفقت أن اكسر نفسه إذا أنا حدثته أو أفتيته؛ وقلت: هذا مريض يحتاج العلاج لا الفتيا؛ وكان أمامنا (الشعبي) حكيما لحناً فطناً سقر بين أمير المؤمنين (عبد الملك) وعاهل الروم، فحسدنا العاهل أن يكون فينا مثله. وقلت: لعل الله يحدث به أمراً. فأخذت بيد الفتى إليه، ومشيت أكلمه وأرفه عن نفسه. وقلت له: أما تدري انك حين فرغت من سرور الحياة فرغت من غرورها أيضاً، وان الزاهد المنقطع في عرعرة الجبل ينظر من صومعته إلى الدنيا - ليس باحكم ولا أبصر ممن ينظر من آلامه إلى الدنيا؟
يا بني، أن الزاهد يحسب أن قد فر من الرذائل إلى فضائله، ولكن فراره من مجاهدة الرذيلة هو في نفسه رذيلة لكل فضائله. وماذا تكون العفة والأمانة والصدق والوفاء والبر
والإحسان وغيرها، إذا كانت فيما انقطع في صحراء أو على راس جبل؛ أيزعم أحد أن الصدق فضيلة في إنسان ليس حوله إلا عشرة أحجار؟ وأيم الله أن الخالي من مجاهدة الرذائل جميعاً، لهو الخالي من الفضائل جميعاً!
يا بني، إن من الناس من يختاره الله فيكونون قمح هذه الإنسانية: ينبتون ويحصدون

ويطحنون ويعجنون ويخبزون، ليكونوا غذاء الإنسانية في بعض فضائلها. وما أدراك أنت وأباك إلا من المختارين كأن في أعراقكما دم نبي يقتل أو يطلب!

قال المسيب: وانتهينا إلى دار الشعبي، فطرقت الباب، وجاء الشيخ ففتح لنا، وسلمنا وسلم، ثم بدرت فقلت: يا أبا عمرو، إن أبا هذا كان من حاله كيت وكيت، فترادفت عليه المصائب وتوالت النكبات وتوارت الأسقام. . . ثم اقتصصت ما قال ابنه حرفاً حرفاً، ثم قلت: وانه الآن موشك أن يزهق نفسه وسيتبعه ابنه هذا؛ وقد (هداه الله إليك) فجاء يسألك: أيموت مسلماً من ألجئ واكره واضطر واستضاق واختل، فتحسى سماً فهلك، أو توجأ بجديدة فقضى، أو ذبح نفسه بنصل فخفت، أو حز في يده بسكين فما رقأ دمه حتى مات، أو اختنق في حبل ففاضت نفسه، أو تردى من شاهق فطاح. . .؟

وأدرك الشيخ معنى قولي: (هداه الله إليك)، ومعنى ما أكثرت من الألفاظ المترادفة على القتل وما استقصيت من وجوهه؛ فعلم إني لم أسأله الفتيا والنص، ولكني سألته الحكمة والسياسة؛ فقال: هذا والله رجل كريم، أخذته الأنفة وعزة النفس، وما أنا الساعة بمعزل عن همه، فنذهب نكلمه والله المستعان

ومشينا ثلاثتنا، فلما شارفنا الدار قال الفتى: إنه لا يفتح لي إذا رآكما، وربما استفز بنفسه فأزهقها، وساتسور الحائط وأتدلى ثم أفتح لكما فتدخلان وأنا عنده

ودخلنا، فإذا رجل كالمريض من غير مرض، خوار مسلوب القوة، انزعج قلبه إلى الموت وما به جرأة، والى الحياة وما به قوة؛ وصغر إليه نفسه إنها أصبحت في معاملة الناس كالدرهم الزائف لا يقبله أحد، وثابر عليه داء الحزن فأضناه وتركه روحا تتقعقع في جلدها، فهي تهم في لحظة أن تثب وتندلق

وسلم الشيخ وأقبل بوجهه على الرجل، ثم قال: (بسم الله الرحمن الرحيم، والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون)

فقطع عليه الرجل وقال كالمحنق: أيها الشيخ، قد صبرنا حتى جاء ما لا صبر عليه؛ وقد خلونا من معاني الكلام كله، فما نقدر عليها إلا لفظة واحدة نملك معناها، هي أن ننتهي!

ومد الشيخ عينه فرأى كوة مسدودة في الجدار، فقال لي: افتح هذه ودع الهواء يتكلم معنا كلامه. فقمت إليها فعالجتها حتى فتحتها، ونفذ منها روح الدنيا، وقال الشيخ للرجل: أصغ إلي، فإذا أنا فرغت من الكلام فشأنك بنفسك: أعلمت أن رجلا من المسلمين قد مرض، فأعضل مرضه فأثبته على سريره ثلاثين سنة لا يتحرك، وطوى فيه الرجل الذي كان حياً ونشر منه الرجل الذي سيكون ميتاً، فبقى لا حياً ولا ميتاً ثلاثين سنة. . . .؟

قال الرجل: وفي الدنيا من يعيش على هذه الحال ثلاثين سنة؟

قال الشيخ: صحح الكلام واسأل: أيصبر على هذه الحال ثلاثين سنة ولا يقول: (جاء ما لا صبر عليه)! وأي شيء لا صبر عليه عند الرجل المؤمن الذي يعلم أن البلاء مال غير أنه لا يوضع في الكيس بل في الجسم؟

أفتدري من كان الصابر ثلاثين سنةً على بلاء الحياة والموت مجتمعين في عظام ممددة على سريرها؟ إنه أمامنا (عمران ابن حصين الخزاعي) الذي أرسله عمر ابن الخطاب يفقه أهل البصرة، وتولى قضائها وكان الحسن البصري يحلف بالله ما قدمها خير لهم من عمران بن حصين. ولقد دخلت عليه أنا وأخوه (العلاء) فرأيناه مثبتاً على سرير الجريد كأنما شد بالحبال وما شد إلا بانتهاك عصبه وذوبان لحمه ووهن عظامه؛ فبكى أخوه، فقال: لم تبكي؟ قال: لأني أراك على هذه الحال العظيمة! قال لا تبك؛ فإن أحبه إلى الله تعالى أحبه إلي. ثم قال: إن هذه الأرض تحمل الجبال فلا يشعر موضع منها بالجبل القائم عليه، إذ كان تماسك الأرض كلها قد جعل لكل موضع منها قوة الجميع، ولولا هذا لدك الجبل موضعه وغار به؛ وكذلك يحمل المؤمن مثل الجبال من البلاء على أعضائه لا ينكسر لها ولا يتهدم؛ إذ كانت قوة روحه قوةً في كل موضع، فالبلاء محمول على همة الروح لا على الجسم، وهذا معنى الخبر: (إن المؤمن بكل خير على كل حال، إن روحه لتنزع من بين جنبيه وهو يحمد الله عز وجل!)

ثم قال: ولكن ذاك هو المؤمن، فمن آمن بالله فكأنما قال له: (امتحني) وكيف تراك

إذا كنت بطلاً من الأبطال مع قائد الجيش، أما تفرض عليك شجاعتك أن تقول للقائد: (امتحني وارم بي حيث شئت!) وإذا رمى بك فرجعت مثخناً بالجراح ونالك البتر والتشويه - أتراها أوصافاً لمصائبك، أم ثناء على شجاعتك؟

ثم قال: إذا لم يكن الإيمان بالله اطمئناناً في النفس على زلازلها وكوارثها - لم يكن إيماناً، بل هو دعوى بالفكر أو باللسان لا يعدوهما، كدعوى الجبان أنه بطل، حتى إذا فجأه الروع أحدث في ثيابه من الخوف. . .! ومن ثم كان قتل المؤمن نفسه لبلاء أو مرض أو غيرهما كفراً بالله وتكذيباً لإيمانه، وكان عمله هذا صورة أخرى من طيش الجبان الذي احدث في ثيابه!

والإيمان الصحيح هو بشاشة الروح، وإعطاء الله الرضى من القلب، ثقة بوعده ورجاة لما عنده، ومن هذين يكون الاطمئنان. وبالبشاشة والرضى والثقة والرجاء، يصبح الإيمان عقلاً ثانياً مع العقل. فإذا ابتلى المؤمن بما يذهب معه الصبر ويطيش له العقل، وصار من أمره في مثل الجنون - برز في هذه الحالة عقله الروحاني وتولى سياسة جسمه حتى يفيق العقل الأول. ويجيء الخوف من عذاب الله ونقمته في الآخرة، فيغمر به خوف النفس من الفقر أو المرض أو غيرهما، فيقتل أقواهما الأضعف، ويخرج الأعز منهما الأذل

فالاطمئنان بالإيمان هو قتل الخوف الدنيوي بالتسليم والرضى، أو تحويله عن معناها بجعل البلاء ثواباً وحسنات، أو تجريده من أوهامه باعتبار الحياة سائرةً بكل ما فيها إلى الموت، وهو بهذا عقل روحاني له شأن عظيم في تصريف الدنيا، يترك النفس راضية مرضية، تقول لمصائبها وهي مطمئنة: نعم، وتقول لشهواتها وهي مطمئنة: لا وما الإنسان في هذا الكون، وما خيره وشره، وما سخطه ورضاه؟ إن كل ذلك إلا كما ترى قبضةً من التراب تتكبر وقد نسيت أنه سيأتي من يكنسها. . . .!

قال الشيخ: وانظر، أما تبتلي الشجرة الخضراء في بعض أوقاتها بمثل ما يبتلى به الإنسان، غير أن لها عقلاً روحانياً مستقراً في داخلها يمسك الحياة عليها ويتربص حالاً غير الحال؛ ومهما يكن من أمر ظاهرها وبلائه فالسعادة كلها في داخلها، ولها دائماً ربيع على قدرها حتى في قر الشتاء

فالعقل الروحاني الآتي من الإيمان، لا عمل له إلا أن ينشئ للنفس غريزة متصرفةً في كل غرائزها، تكمل شيئاً وتنقص من شيء، وتوجه إلى ناحية وتصرف عن ناحية؛ وبهذه الغريزة تسمو الروح فتكون اكبر من مصائبها واكبر من لذاتها جميعاً وتلك الغريزة هي نفسها معنى الرضا بالقدر خيره وشره، وهي تأتي بالتأويل لكل هموم الدنيا، فتضع في النكبات معاني شريفةً تنزع منها شرها وأذاها للنفس، وليست المصيبة شيئاً لولا تأذي النفس بها. وإذا وقع التأويل في معاني النكبات أصبحت تعمل عمل الفضائل، وتغيرت طبيعتها، فيعود الفقر باباً من الزهد، والمرض نوعاً من الجهاد، والخيبة طريقاً من الصبر، والحزن وجهاً من الرجاء، وهلم جراً

والنفس وحدها كنز عظيم، وفيها وحدها الفرح والابتهاج لا في غيرها، وما لذات الدنيا إلا وسائل لإثارة هذا الفرح وهذا الابتهاج. فإن وجدا مع الفقر بطلت عزة المال واصبح حجراً من الحجر، والبلبل يتغرد بحنجرته الصغيرة ما لا تغنى فيه آلات التطريب كلها. وفي النفس حياة ما حولها، فإذا قويت هذه النفس أذلت الدنيا، وإذا عفت أذلتها الدنيا!

قال المسيب: ثم سكت الشيخ قليلاً، وكنت أرى الرجل كأنما يغتسل بكلامه، وقد اشرق وجهه وتنضر وانقلب إلى روحه التي كان منصرفاً عنها، فعادت مصائبه تضغط روحاً لينةً كما تضغط اليد على الماء، وأيقن إن النكبة كلها هي أن ينظر الإنسان إلى الحياة بعين شهواته فينكب أول ما ينكب في صبره ويقينه

ثم قال الشيخ، ولقد رأيت بعيني رأسي معجزة (العقل الروحاني) وكيف يصنع: رأيت عروة ابن الزبير وهو شيخ كبير - عند الوليد بن عبد الملك، وقد وقعت في رجله الأكلة، فأشاروا عليه بقطعها لا تفسد جسده كله، فدعى له من يقطعها، فلما جاء قال له نسقيك الخمر حتى لا تجد لها ألماً. فقال عروة: لا استعين بحرام الله على ما أرجو من عافية! قال: فنسقيك المرقد. فقال عروة: ما احب أن اسلب عضواً من أعضائي وأنا لا أجد ألم ذلك فاحتسبه

ثم دخل رجال أنكرهم عروة، فقال: ما هؤلاء؟ قالوا: يمسكونك، فإن الألم ربما عزب

معه الصبر. قال أرجو أن أكفيكم ذلك من نفسي!
قال الشيخ: فانظر أيها الضعيف الذي يريد قتل نفسه كيف صنع عروة، وكيف استقبل البلاء، وكيف صبر، وكيف احتمل. إنه انصرف بحسه إلى النفس فانبسطت روحه عليه، وأخذ يكبر ويهلل ليبقى مع روحه وحدها، وخرج من دنيا ظاهره إلى دنيا باطنه، وغمرت حواسه وأعصابه بالنور الإلهي من معنى التكبير والتهليل، فقطع القاطع كعبه بالسكين وهو لا يلتفت، حتى إذا بلغ العظم وضع عليها المنشار ونشرها وعروة في التكبير والتهليل. ثم جيء بالزيت مغلياً في مغارف الحديد فحسم به مكان القطع، فغشى على عروة ساعة ثم أفاق وهو يمسح العرق عن وجهه، ولم يسمع منه في كل هذه الآلام الماحقة أنة ولا آهة، ولم يقل قبلها ولا بعدها ولا بين ذلك: (جاء ما لا صبر عليه؟)
قال المسيب: وارهف بأس الرجل الضعيف وقوى جأشه وانبعثت فيه الروح إلى عمر جديد، ونشأ له اليقين من عقله الروحاني وعرف إن ما لا يمكن أن يدرك، يمكن أن يترك
وجاء هذا العقل الروحاني فمر بالمنشار على اليأس الذي كان في نفسه فقطعه، فما راعنا إلا أن وثب الرجل قائماً يقول: الله اكبر من الدنيا، الله اكبر من الدنيا!
ثم أكب على يد الشيخ وهو يقول: صدقت؛ (إن كل ذلك إلا كما ترى قبضةً من التراب تتكبر، وقد نسيت أنه سيأتي من يكنسها)
ماذا يصنع الإنسان إذا غلط في مسألة من مسائل الدنيا إلا أن يتحرى الصواب ويجتهد في الرجوع إليه ويصبر على ما يناله في ذلك؟ وماذا يصنع الإنسان إذا غلطت فيه مسألة. . . . . .؟
طنطا
مصطفى صادق الرافعي
عصر الخفاء في مصر الإسلامية
الحاكم بأمر الله - 4
للأستاذ محمد عبد الله عنان
والآن ماذا نستطيع أن نقرأ في هذا الثبت الدموي الحافل من خواص الحاكم وصفاته؟ لقد كانت هذه الجرائم المثيرة بلا ريب عنوان اجتراء مروع على الشر، وشغف واضح بالسفك واحتقار بين للحياة البشرية؛ ولكنها لم تكن نزعة دموية فقط، ولم تكن بالأخص دون غاية. كان الإرهاب في نظر الحاكم وسيلة للحكم، وكان القتل المنظم دعامة هذا الإرهاب الشامل؛ فإذا زعيم أو رجل من رجال الدولة وصل إلى مدى خطر من السلطان والنفوذ، فإن القتل انجح وسيلة لسحقه وسحق نفوذه؛ وإذا بدرت من فريق من الناس بادرة تذمر أو تمرد على أمر من الأوامر أو قانون من القوانين، فإن إزهاق عدد منهم يكفل عودهم إلى السكينة والخشوع. وكانت هذه السياسة الدموية تحيط عرش الحاكم بسياج منيع من الرهبة، وتخمد الأطماع المتوثبة في مهدها، وتنذر الزعماء ورجال الدولة بالخضوع المطلق لهذا الفتى الجريء. ولقد كان القتل دائماً وسيلة الطغاة إلى تأييد سلطانهم، وكان الحاكم طاغية قوى النفس والشكيمة. وقد كانت الأهواء والفورات العنيفة التي تجيش بها نفس الحاكم تمد هذه السياسة الدموية بروح من الإسراف والقسوة، ولكنها كانت في نظره قبل كل شيء وسيلة من وسائل الحكم، وكان لها بلا ريب اكبر الأثر في توطيد سلطة الحاكم، وسحق عناصر الخروج والثورة التي تتربص عادة بأمثاله الطغاة المسرفين
هذا ويفسر لنا بعض المؤرخين المسلمين إسراف الحاكم في القتل بأنه كان تقرباً منه (لزحل وطالعه المريخ)، وقد كان الحاكم شغوفاً بالفلك ورصد النجوم كما سنرى، ولكنا لا نستطيع أن نسيغ هذا الرأي من الوجهة التاريخية، فليس في سيرة الحاكم رغم شذوذه، وتباين معتقداته وشغفه بالخفاء، ما يدل على أنه كان يأخذ بمثل هذه الرسوم الوثنية المثيرة
- 6 -
كان شغف الحاكم بالليل من اظهر خواص هذه المرحلة الأولى من حكمه. كان الحاكم يعقد مجالسه ليلاً، ويواصل الركوب كل ليلة، وينفق شطراً كبيراً من الليل في جوب الشوارع

والأزقة (سنة 391هـ)، وكانت القاهرة تبدو في هذه الفترة بالليل، كأنها شعلة مضيئة؛ وتجري جميع المعاملات بالليل، وتختلط حياة الجد بحياة اللهو والقصف، فتسطع الميادين والمنتديات بالوقود والزينات، وتغص بصنوف اللهو والمرح. فلما خرج الناس في ذلك عن الحد، وبالغوا في اللهو والإسراف والزينة، منع الحاكم النساء من الخروج ليلاً لكي تخف عوامل الفتنة والغواية، ثم أمر بمنع الرجال من ارتياد الحوانيت والمقاهي، وعاد الظلام يخيم على القاهرة بالليل؛ وشغف الحاكم بالليل وظلماته من غريب أطواره ونزعاته، حتى لقد لبث مدى حين يؤثر الجلوس في الظلام بيد أنه ينم في نظرنا عن روح فلسفي يزيد في غموض نفسه

ولم يمض عامان أو ثلاثة حتى عمد الحاكم إلى إصدار طائفة من الأوامر والقوانين المدهشة التي لم يسمع بمثلها من قبل في أي مجتمع إسلامي، وكانت هذه المراسيم دينية واجتماعية، وكان مما يزيد في غرابتها وغموض بواعثها إنها كانت تصدر ثم تمحى بعد قليل وتستبدل بعكسها، ثم يعاد صدورها وهكذا. وقد اتخذ المؤرخون المسلمون على كر العصور هذه المراسيم حجة للحكم على الحاكم وعصره بأقسى الأحكام، واكتفوا في تعليلها بنظرية بسيطة، هي أن الحاكم كان ذهناً مضطرباً لا يصدر عن روية أو حكمة، ولم تكن هذه الأوامر والإجراءات الشاذة سوى نزعات مخبول لا يستقيم له منطق أو غاية. ويحسن قبل أن نناقش هذا الرأي أن نستعرض المراسيم أولاً، وان نحاول أن نتفهمها، وان نستقصي بواعثها على ضوء الظروف التي كان يجوزها المجتمع يومئذ

ونبدأ بالمراسيم الاجتماعية. في سنة 395هـ، صدرت أول طائفة من هذه القوانين المدهشة، فمنع الناس من أكل الملوخية والترمس والجرجير والتوكلية والدلينس، وحرم ذبح الأبقار السليمة إلا في أيام الأضحية، وحرم بيع الفقاع وعمله البتة وحرم صيد السمك الذي لا قشر له وكذلك بيعه؛ وحرم دخول الحمام بلا مئزر؛ وحرم على النساء أن يكشفن وجوههن في الطريق، أو خلف الجنائز، وحرم عليهن التزين والتبرج؛ وشدد الحاكم في تنفيذ هذه الأوامر، وعوقب كثيرون من المخالفين بالجلد والتشهير والإعدام. ثم حرم على الناس أن يخرجوا من منازلهم إلى الطرقات بعد الغروب، وان يزاولوا البيع والشراء بالليل، فخلت الطرق من المارة، وأقفرت الشوارع والميادين بالليل، وغدت القاهرة كالمدينة المحصورة؛ وحرم شرب الخمر من نبيذ وغيره، وكسرت أواني الخمور وأريقت في كل مكان، وأمر بتتبع الكلاب وقتلها أينما وجدت، فطوردت في كل مكان وأعدمت حتى خلت منها كل الطرق والدور؛ وفي هذا العام أيضاً حرم على كل من يركب مع المكاريين أن يدخل راكباً من باب القاهرة، وحرم ذلك على المكاريين أنفسهم، وحظر على التجار والباعة أن يجلسوا على باب الزهومة (من أبواب القصر)، وألا يمشي أحد بحذاء القصر، ثم أعفى المكارية بعد ذلك من الأمر وصدر لهم أمان خاص

وهكذا اضطربت أوضاع الحياة الاجتماعية المصرية، واستمر تطبيق القوانين والأوامر الجديدة على اشده. وفي سنة 398هـ صدرت عدة مراسيم جديدة؛ فمنع الناس من التظاهر بالغناء، ومن ركوب البحر للتفرج، وذلك لمناسبة نقص النيل في هذا العام؛ وشدد في منع بيع الخمور؛ ثم صدر مرسوم بمنع الناس كافة من الخروج قبل الفجر وبعد العشاء، فزادت المعاملات اضطراباً واشتد الأمر على الكافة، وسرى إليهم الخوف والجزع، واشتد الغلاء، وتفاقمت الحال بظهور الوباء، وعصف المرض والموت، وعز القوت والدواء. وفي سنة أربعمائة صدرت أوامر جديدة بالتشديد في حظر الخمور وبيعها؛ ومنع ركوب المراكب في الخليج، وسدت أبواب القاهرة التي تلي الخليج وأبواب الدور والطاقات المطلة عليه وعوقب الكثيرون من اجل إحراز الفقاع والملوخية والسمك الذي لا قشر له ومن اجل بيع النبيذ وإحرازه، وكانت العقوبة تصل في أحيان كثيرة إلى الإعدام. وفي سنة اثنتين وأربعمائة منع النساء من زيارة القبور، فلم ير في الأعياد بالمقابر امرأة واحدة، وحظر الاجتماع على شاطئ النيل للتفرج؛ وحرم لعب الشطرنج وعوقب المخالفون بالجلد؛ وحظر بيع الزبيب واستيراده، واحرق جميع ما كان موجوداً منه، وحظر بيع العنب إلا أربعة أرطال فما دونها حتى لا يستعمل في صنع النبيذ، وحظر عصره واتلف كثير منه واغرق في النيل أو ديس في الطرقات، وسير المأمورون إلى الجيزة، وكانت يومئذ عامرة بحدائق الكروم فأتلفوا كرومها،

وصودر ما كان في معاصرها ومخازنها من جرار العسل، وكسرت وأريقت في النيل، وحدث مثل ذلك في سائر الجهات
وفي سنة أربعة وأربعمائة صدر مرسوم بتحريم صناعة التنجيم والكلام فيها، وان ينفى المنجمون من سائر المملكة، فاستغاث المنجمون بالقاضي الأكبر مالك بن سعيد الفارقي،
فعقد لهم التوبة من هذه الصناعة، واعفوا من قرار النفي؛ وحدث مثل ذلك للمغنين والمطربين، فهجروا الغناء واعفوا من المطاردة؛ وشدد في قتل الكلاب مرة أخرى.
وفي شعبان من هذه السنة ذهب الحاكم في معاملة النساء إلى ذروة القسوة والشدة، فاصدر مرسومة الشهير بمنعهن من مغادرة دورهن والخروج إلى الطرقات بالليل والنهار، ومنعهن من دخول الحمامات العامة، ومنع الأساكفة من عمل خفافهن، فاختفى النساء من المجتمع المصري، وساده الانقباض والوحشة، وأغلقت المتاجر التي تبيع السلع النسوية، وساد الذعر بين النساء، ولزمن دورهن في روعة وخشوع، وعوقب كثير من المخالفات بالموت؛ واشتد الأمر بنساء الكافة اللائى ليس لهن من يقوم بأمرهن واستغثن بأولي الأمر، فأمر الباعة أن يحملوا السلع والأطعمة وكل ما يباع في الأسواق إلى الدروب، ويبيعوه للنساء في منازلهن، وان يحمل الباعة أداة كالمغرفة لها ساعد طويل يمد إلى المرأة وهي من وراء الباب وفيه ما تشتريه، فتتناوله وتضع مكانه الثمن، ولا يسمح لها مطلقاً أن تبدو من وراء الباب وعانى النساء هذه الشدة زهاء سبعة أعوام حتى وفاة الحاكم بأمر الله، وكان حادثاً منقطع النظير.
ولم يحدث قط في أي مجتمع إسلامي، بل لم يحدث في أي عصر من عصور التاريخ أن عانى النساء مثل هذه المحنة القاسية، وسلبن الحرية على هذا النحو الشامل
وكان مما يزيد في صرامة القوانين الاستثنائية، الشدة في تنفيذها، وروعة العقوبات التي سنت لمخالفيها؛ وكان السهر على تطبيقها من أهم واجبات مدبر الدولة أو قائد القواد؛ فنجد مثلاً في السجل الصادر بتعيين (غين) قائداً للقواد ومديراً للشرطة والحسبة، (سنة 402هـ) تنويهاً خاصاً بمراعاة تحريم النبيذ وغيره من الخمور وتتبع ذلك والتشديد فيه، وفي تحريم الفقاع وبيعه، وتحريم أكل الملوخية والسمك الذي لا قشر له، والمنع من الفرجة والملاهي كلها، ومنع النساء من حضور الجنائز، ومنع بيع الزبيب والعنب والعسل الخ، وكانت العقوبات تختلف بين التشهير والجلد، وتصل في أحيان كثيرة إلى الإعدام
هذه خلاصة وافية لما أصدر الحاكم أو أصدر في عهده من المراسيم والأوامر الاجتماعية الاستثنائية، ومعظمها يحمل طابع القسوة والشذوذ؛ ولكن سنرى إنها لم تكن دون غاية، ولم تصدر كما يبدو لأول وهلة، عن نزعة مخبولة أو هائم، وان كثيراً منها يحمل بالعكس
طابع الطرافة والحكمة، ويرمي إلى غايات بعيدة قد فطن إليها هذا الذهن الجريء، واتخذ منها مثلاً

نعرض بعد ذلك إلى طائفة أخرى من مراسيم الحاكم بأمر الله هي المراسيم الدينية، وقد كانت كالمراسيم الاجتماعية تحمل في كثير من الأحيان طابع الشدة والتناقض
وبدأ الحاكم بهذه المراسيم الدينية لأول عهده بالحكم أيضاً. ففي سنة 395هـ، اصدر أمره للنصارى واليهود بلبس الغيار وشد الزنار؛ وفي سنة 99 أمر بهدم بعض كنائس القاهرة ونهب ما فيها، ونفذت الأوامر بهدم كنيسة قمامة (القبر المقدس) ببيت المقدس ونهبها، ولكن أكابر الأحبار والنصارى سعوا على ما يظهر حتى عدل عن تنفيذ الهدم؛ وفي العام التالي صدر مرسوم جديد بالتشديد على اليهود والنصارى في لبس الغيار وتقلد الزنار. وفي سنة 402 صدر مرسوم شامل ضد النصارى واليهود، يقضي بأن يلبسوا العمائم السود، وان يعلق النصارى في أعناقهم صلباناً ظاهرة من الخشب طول الواحد منها ذراع في ذراع ووزنه خمسة أرطال، وان يعلق اليهود في أعناقهم قرامي من الخشب زنتها خمسة أرطال أيضاً. وحرم على الفريقين معاً ركوب الخيل، وان يكون ركوبهم الحمير والبغال بسرج من الخشب وسيور سود عاطلة من كل حلية، وألا يستخدموا مسلماً أو يقتنوا عبداً مسلماً أو جارية مسلمة، أو يركبوا حماراً لمكاري مسلم، أو سفينة لملاح مسلم، وأن يحمل النصارى الصلبان، واليهود الأجراس في

أعناقهم عند دخول الحمام تمييزاً لهم عن المسلمين؛ ثم أفردت لهم بعد ذلك حمامات خاصة، وعلقت الصلبان على حمامات النصارى، وقرامي الخشب على حمامات اليهود، وطبقت هذه الأوامر والقوانين بمنتهى الصرامة فاشتد الأمر على اليهود والنصارى وساد بينهم الروع والرهبة، وأسلم كثيرا منهم تجنباً لهذه المطاردة ونفى الكثير منهم خارج الديار المصرية، وهدم كثير من الكنائس والأديار والبيع ونهبت، وصدر بعد ذلك أمر جديد بهدم كنيسة قمامة (القبر المقدس). وعانى اليهود والنصارى هذه المحنة أعواماً، وكانت من اشد ما عانوا في ظل الدولة الإسلامية بمصر. ثم خفت وطأة المطاردة عنهم، وأطلقوا من بعض قيودهم، وسمح لهم بتجديد ما درس من الكنائس والبيع، وارتد كثير ممن أسلموا منهم إلى دينه الأول، بيد انهم لبثوا يعانون آثار المحنة حتى وفاة الحاكم بأمر الله

ولقد كانت هذه المطاردة الصارمة للذميين من أهم ظواهر عصر الحاكم بأمر الله؛ وكانت بلا ريب خطة مقررة، ولم تحمل في مجموعها طابع التناقض، ونستطيع أن نقول إنها كانت انقلاباً جوهرياً في السياسة الفاطمية إزاء اليهود والنصارى. ذلك إن الدولة الفاطمية، كانت منذ قيامها بمصر تؤثر سياسة التسامح الديني، وتذهب في هذا التسامح إلى ابعد مدى، فتصطفي اليهود والنصارى، وتوليهم الثقة والنفوذ، وكان بين وزرائها كثير من اليهود أو النصارى مثل الوزير يعقوب بن كلس وزير المعز، ثم ولده العزيز، فقد كان يهودياً ثم اسلم، وكان اعظم وزراء الدولة الفاطمية؛ وعيسى بن نسطورس النصراني، ومنشا اليهودي، وزيرا العزيز بالله؛ وتولى الحكم ثلاثة من الوزراء النصارى في الفترة الأولى من عصر الحاكم ذاته، هم الرئيس فهد بن إبراهيم، وابن عبدون، وزرعة بن عيسى بن نسطورس،. وكان النصارى واليهود يتمتعون قبل عصر الحاكم بكثير من الحرية والتسامح، ويؤذن لهم ببناء الكنائس والأديار والبيع. ولم يشذ الحاكم عن هذه السياسة لأول عهده، وكان ذلك راجعاً إلى نفوذ الوزراء النصارى، وربما إلى نفوذ أمه النصرانية وأخته ست الملك، وقد كانت تؤثر سياسة أبيها العزيز في الرفق بالذميين؛ ولكن الحاكم انقلب فجأة إلى سياسة المطاردة الدينية، وأبدى في تطبيقها منتهى الغلو والتطرف، بيد إنا سنرى أن هذه السياسة ترجع أيضاً إلى بواعث لها خطرها وقيمتها.

للبحث بقية

محمد عبد الله عنان المحامي

كلمات. . .

للأستاذ محمد روحي فيصل

الشعراء ثلاثة: شاعر موهوب ينفث من صدره معنى الفاظه، ويستخرج من لغته ألفاظ معناه! ينحدر إلى طبعه عند البيان، وينطوي على نفسه لينشرها ويجلو المبهم منها، ويدع العرض العابث، ويفرز المتداخل المتشابك، ثم يسجل الخلجة الجميلة أو الخاطر الأصيل وكأنما يلد من لحمه ودمه جنيناً حياً، يكفله ويحبه ويحرص على أن يكون قوياً نشيطاً صحيحاً، ويأخذه بألوان من التهذيب والرعايا والنضارة حتى يثمر ويؤاتي أكله. ولئن نصب الشاعر في الولادة، وعانى ألم البيان، فلقد يستمتع بمرأى الوليد النضر الجميل يسعى وينطق، ثم يكون له أثره القوي في الوجود، ونصيبه الموفور من الحياة، وفضله العميم على الناس. .!!

وشاعر ميت يتصيد اللفظة الشاردة والكلمة المتأبدة والحرف الناشز من بطون المعاجم، وإنتاج الزملاء، وقديم الشعراء، وكأنما يتصيد الفريسة الدسمة الفارهة السمينة! ويلتزم صنعة البديع وحسن التشبيه ودقة المقابلة ورقة الجناس، وكأنما يلتزم طرائق البيان الخالدة، ويعلن عن ثقافته البالغة وذوقه الصحيح!

وشاعر مفلس لو اجتمع المرثاء، واعتزم التعزية والبكاء، لتصفح المراثي الباكية واحدة واحدة، ومعنى معنى، وبيتاً بيتاً، ثم اختلس هذا، وشوه هذا، وحرف ووجه وزاد. . لقد يقتفى المسكين روائع غيره، ويختبئ وراء نظمه، وينزل عن شخصيته، ويسف بكرامته حباً للذكر والأحدوثة -!

قال التاريخ: (عبثاً ينتج شاعر الصنعة وشاعر السرقة)

الألفاظ! الألفاظ!

أداة المبين، ووكر المعنى، وسر الفن! والشاعر العبقري من عرف كيف يزاوج بينها ثم

أحسن التأليف، وأبدع الموسيقى، ونشر الجرس! فإنما الشعر لو تدبرت نغم علوي لطيف يهز الأذن، ويشيع في القلب، ويحيا في النفس، ويخلد في الذاكرة، ويرن في الخيال. كان اللفظ وما يزال الساحر العجيب الذي يلعب بالأهواء والأعصاب كما يلعب المرتاض بكرة القدم، ولعلك تذكر فيما تذكر درامة شكسبير في يوليوس قيصر، وقوة البيان عند انطوان
وبروتس، وسلطان اللفظ على العامة والرومانيين

لشد ما يشبه الفنان الإنسان الأول أو الطفل الناشئ! ينظر إلى الدنيا بعين رغيبة، ويشعر بنفس ظمآنة، ويفكر بعقل طلعة. ولكنه يمتاز منهما - إن صح له الامتياز - بأنه يجمع الأسباب وينظم المنثور، ويلمح التناسب، ويتذوق الجمال! ومهمته الكبرى أما هي على التحقيق الانحدار إلى النفس ينفض غبارها، ويكشف اتساقها، وينير زواياها، ثم يخرجها لغة تهز القلب وتفيد العقل

كذلك العالم في استقرائه يدرك المجهول، ويصل العلة بالمعلول، ثم يضع القاعدة ويعمم القانون، فلو خطا أحد أمامه خطوة أو خطوتين لقدّر القوة، وراز الشدّة، وقاس المسافة، ووزن الكتلة، وانتهى من هذا كله إلى تقييد الحركة وإعلان العمل العالم والفنان كلاهما ينظر إلى أبعد من أنفه، ويسبر غور الأشياء. لقد يشتركان في الذات، ويتداخلان في الموضوع، ثم يختلفان بعد هذا في الآلة والطريق . . .!!

أرأيت إلى الحياة في مضطربها كيف تبدلها اللمحة، وتنقلها الملاوة، وتصبغها العاطفة، وتخضعها الظروف؟ ذلك ما يبعث على خلودها وامتدادها وجدَّتها وجمالها، وذلك ما وكل إلى الفن بتصويره. فالحقيقة الفنية تتصل بالمزاج والزمن والموقف، وهذه كلها أبداً في تطور مستمر عجيب، أما الحقيقة العلمية فثابتة على الدهر والأشخاص، ولئن طرأ عليها تحوير أو هدم فإنما يكون لتقريبها من الصحة والدقة والشمول

الدنيا واحدة عند العالم من حيث الجوهر والنظام. ولكنها دنى كثيرة عند الفنان من حيث الشكل والإحساس

ما عجبت لأحد من أبناء الفن عجبي لهؤلاء الأدباء اللذين يزهون بأنفسهم فلا يكتبون إلا لها، ويعنون بعواطفهم فلا يتحدثون إلا عنها، وهم لو سئلوا ما بال الجمهور يقرأ آثاركم وينشد أشعاركم؟ لقالوا: إنه متطفل يحب أن يسمو بقدره إلى منازل الكتاب والشعراء، فيستشعر الذي يستشعرون، ويطوف حيث يطفون. فالجمهور - مهما دقت نظرته وسمت أهواؤه - طفل لدن ما برح في كل العصور والأقوام يلهو ويعبث!!

أدب هؤلاء الأثرين يغشاه في أغلب الأحيان غموض، وتطل عليه فوضى، ثم لا يصح معه مقياس من المقاييس الأدبية المعروفة، وكيف تستطيع أن تقدره وتحكم له أو عليه ما دمت
لا تفهمه ولا تتذوقه؟ إنما ينبغي للكتاب والشعراء أن يقطفوا من النفس والحياة ما يشترك في فهمه الناس جميعاً، أو الكثرة الغالبة من الناس، أو الطبقة النيرة منهم. ولئن صادف ألاَّ يكون هذا ولا هذا فهو إلى السخف والهذيان أدنى وأقرب . . .

غاية الفن أن يجلو النفوس ويهز الشعور، النفوس بأسرها والشعور على تلونه، شريطة أن تكون نفسنا وشعورنا في البداءة!

الكلمة الواحدة تدخل في رأسين اثنين، فتحمل إلى هذا النشوة والسلام، وتحمل إلى ذاك الفتنة والآلام!

كل امرئ وإن ثار متصل بالمجتمع، مدني بالطبع. وهذه الوشائج القوية المبهمة التي تربطه بالإنسانية تؤثر فيه ويؤثر فيها، قد لا يلمحها أوساط الناس وطغمتهم، وإنما تلمحها طائفة رفيعة خصها الله بسلامة الفكر، وحسن البصر، وقوة التصور، وهبة التصوير

قد يجيش صدر الأديب بالمعاني حتى ما يستطيع أن يحتملها، وقد ينضب حتى كأنه بلقع قفر. فحياته أبداً في نقلة وتناقض واضطراب، ما أشبه بإسفنجة رخوة لدنة تمتلئ حيناً وتفرغ حيناً! فكل ما خرج على لسانه قد تمثله من قبل ووعاه خياله، قاعدته في البيان: (خذْ وأعط)

قال سنت بوف: نصيحتي إلى أدباء الشباب ألاَّ يقلدوا من يعجبون بهم من أعلام البيان ورجال الفن، فذلك يميت نفوسهم ويشوه شخصيتهم، وإنما يتذوقون آثارهم فحسب، ثم يصورون حياتهم الخاصة كما صورها في صدق وغير تكلف، وليكن لهم مثل أعلى

يوجه إنتاجهم ويصحح مقاييسهم ويهذب أهواءهم، ولا غضاضة عليهم - وهم ينشئون في لغتهم الصحيحة متأثرين بالمحيط والبيئة يستمدون منهما الوحي والقوة - أن يتساءلون من حين لآخر، وجباههم مرفوعة إلى السماء، وعيونهم شاخصة إلى الأموات الأحياء: (ترى ماذا يقال فينا!)

تستهل الحياة الأدبية عملها في الفرد والأمة بالشعر، وتدرج على الشعور، ثم تستشرف للتفكير، وتنتهي إلى النثر. ويكاد هذا يكون قانوناً لا يقبل استثناء، فلقد تذكو العاطفة فينطلق الكلام شعراً منظوماً، ويخبو الوجدان فينمو العقل ويستفيض النثر! وهنا السر كل السر في مناعة الشعر الصادق الرفيع، وندرة النابغين فيه من المعاصرين

القارئ - هذه قصيدة قديسة قد فرعت من تلاوتها منذ حين. ما أصدقها وما أنور معانيها! إنها الحقيقة بإطارها وإشراقها! لا، إنها قطعة من حياتي! لا لا، إنها مصدر حياتي! ويح نفسي كم أحب أن أعلن هذا الشاعر. . .

المرأة - حذار حين تلقاه أَلاَّ تهمس في مسمعيه ما تريده، وحذار أن يجمد خاطرك ويحتبس لسانك وتنكمش طبيعتك! إنما الشاعر خطيب لسن قد وقف إلى الراديو يرسل معانيه الطلقة كأشعة رفَّافة تنطلق في الفضاء وتتوزع على الأرض، ما يرى جمهوراً صاغياً مشجعاً ولا خيالاً لجمهور، ولكن حياة صامتة هادئة تأخذ السبل وتملأ العيون! أرأيت إلى الحياة الصامتة الهادئة كيف تكون جافة ملولة إذا لم يتخللها الفينة بعد الفينة صراخ النقد أو هتاف الاستحسان! لقد يطل من كوة الفضاء صدى جميل تبرق له أسارير الشاعر، وينطلق بيانه، وتخصب عبقريته، ويسمو إنتاجه، ثم يعلم أن معانيه التي أرسلها شعاعاً قد لامست حياً يسعى، وحسب الفنان هذا من غاية وراحة!!

القارئ - أنا متصل يا عزيزتي اتصالاً وثيقاً بكبار الكتاب وسادة الفن، أما (ع) في الشعراء فقد تلابسينه اليوم واليومين وتجلسين إليه طويلاً، وتتحدثين إليه ما شئت أن تتحدثي، فما يبرح في حضرتك جامداً بكئ اللسان، سخيفاً إذا ارتأى، مضحكاً إذا أشار، ينشر عليك اضطراباً من رأيه ودمامة من وجهه ووساخة من ملبسه! ولكن ما يكاد يرجع إلى نفسه ويغلق أبواب غرفته، ويستحي شيطان شعره حتى ينقلب مبيناً محدثاً حلواً رائعاً في رأي البصر ورأي البصيرة. لشدّ ما أسكرتني أشعاره وهزتني موسيقاه! فنصيحتي إليك ألا تقربي عظماء الرجال، أو تدخلي بيوتهم وتعيشي في ظلهم، ولكن اعشقيهم إن شئت عن بعد، وكوني معهم على غير اتصال!

المرأة - دع (عيناً) هذا فما أحب أن نتحدث فيمن غبر من الأحياء. إنما الأموات خيوط عريضة قوية تنسج مادة الماضي وتقوّم أحداث التاريخ، وتؤلف وحدة الأمة! هذا ابن أبي ربيعة الكبير كان يدلف إلى الكواعب الحسان في فحمة الليل، وغفوة الناس، وغفلة الحراس، فيقضي لبانته منهن كما شاء الهوى والشباب، ثم يلاقي ناقته في العراء، ويغيب في مطاوي الزمن! ومثله في اجتلاء الجمال جوت وبودلير ولامرتين يسبحون جاهدين في بحر الوجود، لا يستشرفون إلى شاطئ من شطآنه، ولا تريحهم موجة من أمواجه. . .

القارئ - هم يسبحون؟ لا، إنهم أوعية يملؤها الزمان ويختبئ فيها

المرأة - ثق أن الفنان يعطي أكثر مما يأخذ، ويعمل أكثر مما يجب، ويهب أكثر مما يدع

القارئ - ماذا تعنين؟

المرأة - أعني أنك مخطئ حين تجل الفن وتجعله تاجاً جميلاً على رأس الإنسانية، فالفنان كالممثل يصور معالم الحقيقة، ومواضعات الناس، واضطراب الحياة فهو كما ترى (ناقل) لا (مخترع). هو نفس في النفوس، ورجل كالرجال

القارئ - هل دريت إن حفيد الشاعر المشهور (ج) قد مات على أسوأ ما يموت البؤساء من الفقر والوحدة والنكران؟ أنا أرى إلا يعقب الفنان ذرية تعيش من بعده، وتسعى خلف نعشه، وإنما يقوم بعمله الفني أعزب وحيداً في ذاكرة التاريخ

المرأة - أنا لست أرى هذا، فالفنان حلقة في سلسلة الإنسانية ما ينبغي أن يكون آخرها وقاطعها، فلينحدر منه الناس كما انحدر هو من الناس، فأما البؤس فكما يصيب الفنان قد يصيب غيره. .!!

بيروت

محمد روحي فيصل

المصادر الإغريقية للفلسفة الإسلامية

للدكتور إبراهيم بيومي مدكور

لا يستطيع باحث أن يفهم الفلسفة الإسلامية فهماً صحيحاً دون أن يدرسها على ضوء الفكر الإغريقي ومتجاته، ولا نبالغ مطلقاً إذا قلنا إنه تعذر علينا أحياناً فهم مسألة لدى (الفارابي) أو (ابن سينا) قبل أن نقرأ مصدرها في كتب (أرسطو) أو (أفلاطون). وعلّ أحسن ما كتب في تاريخ الفلسفة الإسلامية إلى اليوم كان من عمل رجال قارنوا القديم بالحديث، وقرّبوا فلاسفة الإسلام من أساتذتهم الإغريق. على العكس من ذلك يكاد يرجع العيب العام لأكثر ما كتب في هذه الناحية إلى أن مؤلفيه نسوا أو تناسوا الصلة بين الفلسفة العربية والفلسفة الإغريقية؛ فنسبوا إلى أشخاص آراء ونظريات ليست نتيجة بحثهم وتفكيرهم المستقل، ومن التجني على الحقيقة والتاريخ أن يعزي إلى عالم أو فيلسوف، ما لم يأت به ابتداء، وما لم يبتكره ابتكاراً، ومنشأ هذا الإسناد الباطل جهل بالتاريخ وإغفال للعلاقات الثابتة بين المراحل المختلفة للتفكير الإنساني، فرب فكرة بدت مبتكرة في حين أن الأقدمين اهتدوا إليها من قبل وأبرزوها في صورتها الحاضرة، أو في صورة أخرى تبعد عن هذه بعض البعد. ومن الغريب أن هناك طائفة من المؤرخين تنزع إلى اعتبار أبطالهم ومن يكتبون عنهم مصدر كل جديد؛ فهم ينسبون إليهم شخصياً كل ما جاء في كتبهم أو روي عنهم. في هذا، بلا شك، اعتداد كبير بمن يترجمون لهم، ومن يدرسون حياتهم؛ غير أن النزاهة والتحقيق العلمي يأبيانه. قد يبدو طريفاً أن يقال إن نظرية كذا من ابتكار فلان وحده، ولكن أليس أطرف من هذا وأعمق بحثاً أن يبين المؤلفون المقدمات التاريخية التي مهدت لهذه النظرية؟ قضى الناس زمناً يرددون فيه أن (ديكارت) مثلاً اخترع نظرية الشك الفلسفي اختراعاً دون أن يتأثر فيه برأي سابق؛ وها هم أولاء اليوم يعلنون أنه سبق إليها في صور أخرى مصغرة، ويبرهنون على ذلك بطرق دقيقة أخّاذة إزاء هذه الظروف كلها نحاول في هذه الكلمة أن نلقي نظرة عامة على المصادر الإغريقية التي كانت ذات أثر بين في تكوين الفلسفة الإسلامية، وفي تعرف هذه المصادر ما يعيننا على أن نحدد بالدقة ما جاء به العرب، وما سبقهم إليه الأقدمون عرف المسلمون الفلاسفة السابقين لسقراط ونصف السقراطيين - والسفسطائية واللاأدرية والرواقيين والأبيقورين فنظرية (الجوهر الفرد) التي قال بها (ديموقريط) و (أبيقور) تتصل إلى حد ما بتلك النظرية التي وردت على السنة علماء التوحيد المسلمين. ومذهب الرواقيين المادي اثر تأثيراً غير قابل للإنكار في جماعة المعتزلة، ونخص بالذكر منهم (النظام) الذي اعتنق نظريات ذات أصل رواقي واضح، وان من يقرأ آراءه في (الكمون) لا يشك مطلقاً في أنه تأثر فيها بما جاء به الرواقيون من قبل. وقد أخذ علماء الكلام بوجه عام عن اللاأدرية الإغريقيين كثيراً من أفكارهم، وخاصة ما اتصل منها بنقد (أرسطو) ونظرياته. ونرى في كتب التراجم العربية ملخصات قصيرة عن حياة (تاليس) و (فيثاغورس) و (أنخزاجور) و (أمييدوقل)، وفي كتاب الملل والنحل (للشهرستاني) أحسن أنموذج لهذه الملخصات. بيد أن هذه المعلومات في جملتها ناقصة وغير صحيحة أحياناً؛ ولا يبدو على مفكري الإسلام أنهم كونوا رأياً ناضجاً عن هذه المذاهب الفلسفية المختلفة. (فالشهرستاني) نفسه يخلط مذهب (فيثاغورس) بمذهب (أفلاطون)، ويعزو إلى أصحاب الرواق بعض نظريات مدرسة الإسكندرية. وإذا استثنينا (أفلاطون) و (أرسطو) نجد أن المسلمين لم يعرفوا فلاسفة الإغريق إلا عن طريق غير مباشر، وفي ثنايا كتب (بلوتارك) و (جالينوس) و (بورفيد) التاريخية

لم يترجم العرب حقيقة من كتب الإغريق الفلسفية إلا مؤلفات (أفلاطون) و (أرسطو) وشراح الأخير وتلاميذه. فأما (أفلاطون) فقد ترجمت محاوراته الهامة، وعلى رأسها: الجمهورية والنواميس وطبماوس والسوفيسط وبوليطيقي وفادن ودفاع سقراط ' فباطل إذن ما يقال من أن العالم العربي لم يعرف (أفلاطون) إلا معرفة ناقصة أو خاطئة. والواقع يثبت، على العكس من ذلك، أن (مؤسس الأكاديمية) استطاع بفضل نظرياته ومذهبه الروحي أن ينفذ إلى قلوب المتصوفة والمتكلمين والفلاسفة من علماء الإسلام، وقد بينا في بحث لنا أن (الفارابي) في محاولته التوفيق بين (أفلاطون) و (أرسطو) اعتمد على أربع محاورات هامة من مؤلفات الأول: فادن، بوليطقي،

الجمهورية، وطيماوس، كما بينا إنه اصدر عنها واستشهد ببعض ما جاء فيها بشكل لا يدع جالاً للشك في أنه قرأها قراءة روية وتدبر. وفي هذا ما يؤيد فلاسفة الإسلام درسوا (أفلاطون) دراسة مباشرة وفي كتبه التي نقلت إلى العربية غير أن هؤلاء الفلاسفة لم يعنوا (بمؤسس الأكاديمية) عنايتهم (بأستاذ الليسيه) ولم ينل (أفلاطون) لديهم الخطوة التي نالها تلميذه
وقد أبان (رينان) من قبل مقدار إعجاب فلاسفة الإسلام بالأخير، وإحلالهم .(أرسطو) إياه محلاً خاصاً وتعلقهم بتعاليمه، واعتبارهم إياه حجة في العلوم النظرية فكان طبيعياً أن يبحث العرب عن مؤلفاته، وأن يترجموها في دقة وأمانة. وقد توفر لهم من ذلك عدد غير قليل في الاقتصاد والأخلاق، والطبيعة، والمنطق، وما وراء الطبيعة كي يفهم (أرسطو) فهما حقاً ألا يدرس بمعزل عن تلاميذه وشراحه، لهذا اتجه العرب نحو أتباعه الأول وكبار مؤسسي (مدرسة المشائين) فأخذوا عنهم، وترجموا قدراً من كتبهم. وفي مقدمة هؤلاء الأتباع يجدر بنا أن نشير إلى تيوفرست الذي عرف بصلاته الشخصية (بأرسطو) وببعض مؤلفاته المترجمة إلى العربية. وهناك فيلسوف آخر من المشائين نال منزلة ممتازة في العالم العربي لا يفضلها إلا منزلة (أرسطو)، ونعني به الاسكندر الأفروديسي ' وكان (ابن سينا) يسميه (فاضل المتأخرين)، ويعتد بآرائه اعتداداً كبيراً ويروي لنا (يحي ابن عدي) إن شروحه على الميتافزيك والأناليتيك (لأرسطو) عرضت في السوق يوما فتسارع الناس إلى اقتنائها، ودفعوا فيها ثمناً باهظاً. أما شرحه على كتاب النفس فيعد من أقوم مصادر نظرية العقل ' التي لعبت دوراً هاماً في العالم الإسلامي وفي فلسفة القرون الوسطى عامة وإذن يمكننا أن نقول إن العرب عرفوا (مدرسة المشائين) ممثلة في أكبر رجالها ودرسوها مستعينين بأولى المصادر الموثوق بها بين مفكري الإغريق رجل آخر معاصر (للإسكندر الأفروديسي)، وعلم من أعلام الحركة العلمية الإسلامية، لا في الطب فقط بل في الفلسفة وتاريخها، ألا وهو جالينوس فإليه يرجع الفضل، فيما نعتقد، في نشر نظريات الرواقيين واللاأدريين بين العرب. وفي شرحه لمؤلف (أفلاطون) المشهور والمسمى طيماوس ما رفع من شأن هذا الكتاب، وما منحه سمعة عالمية في الفترات الأخيرة من العصور القديمة، وفي القرون الوسطى لدى السريانيين والعرب واللاتينيين ولا يفوتنا أن نشير إلى أن مكاتب (استامبول) تحتفظ بترجمة عربية لهذا الشرح الذي فقد أصله الإغريقي؛ وقد أطلعنا على بعض أجزائها صديقنا المسيو (كرادس) المدرس بمدرسة الدراسات العالية (بالسربون). فعسى أن تنشر هذه الترجمة كي نضم خدمة جديدة إلى خدمات العربية في ربطها بين التاريخ القديم والمتوسط، بل والحديث. و (لجالينوس) أيضاً أثر في العلوم المنطقية، فقد أدخل في منطق
عناصر جديدة تقبلها العرب وأخذوا بها. وعلى الجملة (فأرسطو) و (أرسطو) (جالينوس) هما الباحثان الإغريقيان اللذان سادا الحركة العلمية الإسلامية واقتسماها فيما بينهما: (أرسطو) في الفلسفة، و (جالينوس) في الطب. على أن الثاني قد عدا في غير موضع على ميدان الأول واصبح العرب يسمونه بحق: (الطبيب الفيلسوف!) لو وقف المسلمون عند (أرسطو) وكتبه وكتب تلاميذه المشائين، لكانت فلسفتهم مخالفة تمام المخالفة لتلك الفلسفة التي خلفوها. غير أنه لا يصح أن ننسى أن بينهم وبين (رئيس الليسيه) مدرسة الإسكندرية التي أثرت فيهم تأثيراً كبيراً. وان أثرها ليتناسب مع قربها الزمني من الثقافة الإسلامية، واعتناقها آراء أشربت بروح دينية؛ فنظرياتها تعد أول خطوة صادقة في سبيل التوفيق بين الفلسفة والدين. هذا إلى أن (أرسطو) نفسه وصل إلى العرب في ثنايا كتب علماء الإسكندرية وفلاسفتها؛ ذلك لأن هؤلاء الفلاسفة شرحوا النظريات الأرسطية في مؤلفات عديدة ترجم أكثرها إلى العربية. ويمكننا أن نذكر بين هؤلاء الشراح بورفير وتيمستيوس وأمونيوس وسمبليسوس وداود الأرمني ' وجان فيلوبون أو يحي النحوي، الذين كانوا أكثر اتصالاً بالمسلمين من تلاميذ (أرسطو) القريبين منه. ويتكلم (الشهرستاني) عن (بورفير) و (تيمستيوس) في لغة مملوءة بالاحترام ملاحظاً أنهما من أدق الشراح لنظريات (أرسطو) وإن كانا يخلطانها ببعض مبادئ الأفلاطونية الحديثة.
وينقل (الفارابي) بعض آراء (أمونيوس) مستشهداً بها في مواضع مختلفة. وقد تمكن (يحيى النحوي)، بفضل نظريته في خلق العالم ومناقشته لمذهب (أرسطو)، أن ينال

حظوة علماء التوحيد المسلمين. وإذا تتبعنا شروح كتب (أرسطو) في المنطق التي ترجمت إلى العربية، وجدنا أغلبها من عمل فلاسفة الإسكندرية. وقد ترجمت هذه الشروح في آن واحد مع المتون التي تتصل بها، وأصبحت غير قابلة للفصل عنها. وليس هذا قاصراً على العلوم المنطقية، بل يتعداها إلى الدراسات الأخرى؛ ففي كل ناحية من نواحي البحث النظري لجأ العرب إلى علماء الإسكندرية ليستعينوا بهم على فهم (أرسطو) ومؤلفاته. وإن نظرة قصيرة إلى كتاب تاريخ الحكماء للقفطي ترينا أن هذه المؤلفات وشروحها التي ألفها علماء الإسكندرية كانت تكون في نظر المسلمين كلا مرتبط الأجزاء. وجملة القول أن مدرسة الإسكندرية بحكم موقعها الجغرافي والتاريخي كانت مهيأة لأن تنشر علومها وكتبها
في العالم الإسلامي؛
من هذه العناصر المختلفة التي أشرنا إليها في اختصار تألفت فلسفة الإسلام، فإذا كان مذهب (أرسطو) عمادها القوي، فإن (أفلاطون) و (أفلاطن) قد أقرضاها مواد غير قابلة للأنكار، وقد لوحظ منذ زمن بعيد ما في الفلسفة الإسلامية من مخلفات الأفلاطونية الحديثة، إلا أنه لم يحدد بعد بالدقة المصادر التي أخذت عنها هذه المخلفات. فتارة يبحث عنها في إنياد (أفلاطن)، وأخرى في كتاب الربوبية وكتاب الخير المحض اللذان ينسبان خطأ إلى (أرسطو). فأما (أفلاطن) أو (الشيخ اليوناني) كما يسميه (الشهرستاني) فلم يترجم قط إلى العربية، وما ينقله (الشهرستاني) من آرائه يرجع إلى ما كتبه فلاسفة الإسكندرية الآخرون. وأما كتاب الربوبية وكتاب الخير المحض فقد نقلا من غير شك نظرية (أفلاطن) إلى المسلمين، غير أنه يجب أن نضيف إلى هذين الكتابين بين مؤلفات شراح (أرسطو) من فلاسفة الإسكندرية الذين أشرنا إليهم آنفاً. فإن هؤلاء الشراح لم يقدموا للعرب المذهب الأرسطي في صورته القديمة، بل مختلطاً ببعض النظريات الأفلاطونية والرواقية وأجزاء من الأفلاطونية الحديثة، ويدهشنا أنه لم يتنبه أحد بعد إلى هذه النقطة برغم مالها من أهمية، وإن من يتأمل قليلاً يدرك أن واحداً (كبورفير) أو (كسميليوس) إن شرح (أرسطو)، فإنه لا يستطيع التخلص تماماً من آرائه الشخصية، أو التخلي بتاتاً عن نظريات مدرسته، لذلك لم تنتج الحركة الفلسفية التي قام بها علماء الإسكندرية في القرن الثاني الميلادي، والتي بينها (رينان) و (رافيسون) بياناً شافياً، مذهباً أرسطياً خالصاً، بل نظرية مشوية بعناصر مختلفة، فقد كان شراح الإسكندرية معنيين بالتوفيق بين (أرسطو) (وأفلاطون) من جانب، وبين الأول وجماعة الرواقيين من جانب آخر، وهذا التوفيق نفسه هو أوضح خاصة من خصائص الفلسفة الإسلامية. ونعتقد أنا إذا أردنا أن ندلي بحكم دقيق على هذه الفلسفة، فلابد أن يكون بين أيدينا شروح فلاسفة الإسكندرية وشروح كبار أتباع (أرسطو) الأول، وما دامت هذه الشروح لم تدرس دراسة وافية فإن آراء وأحكامنا المتعلقة بتاريخ الأفكار الفلسفية في الديار الإسلامية ستبقى ناقصة ومؤقتة.

إبراهيم بيومي مدكور دكتور في الآداب والفلسفة

إلى الشاب المسلم المثقف

الإسلام دين القوة

بقلم أحمد بديع المغربي

أستاذ الاجتماعيات بالمدرسة الثانوية بالموصل

طفا على الجزيرة العربية نور سماوي تسرب إلى القلوب المغلقة فاقتحم أقفالها ونفذ إلى الضمائر الميتة فبعث فيها حياتها، وتغلغل في أحشائها فبدد ظلماتها. وصحب هذا النور صوت عربي ينادى بالإسلام تعالى في أرجائها، فجمع أشتاتها وألف بين قلوبها (هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين، وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم أنه عزيز حكيم).

قبائل بدوية متنافرة أعمى الجهل أبصارها، وعشائر رحل متناحرة مزق الغزو وحدتها، وهدد السلب والنهب كيانها؛ نفوس أبية رضعت لبان الحرية منذ طفولتها، وتنشقت هواء البادية المشبع بروح الأنفة والكبرياء والشمم والإباء منذ أن شبت عن أطواقها هذه القبائل المتنافرة، وتلكم العشائر المتناحرة، ما استطاعت أن تجد من نفسها حولاً ففاضت دموعها خشوعاً وإجلالاً، وخرت للأذقان سجداً، وانصاعت لذلك الصوت الدوي الذي اخترق آذانها الصماء، وانقادت قلوبها الغلف طوعاً لذلك النور السماوي الذي

غمرها بالضياء. . .
إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً، ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا)
(وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق)
فتحولت من الضعف إلى القوة، وانتقلت من التفرقة إلى الوحدة، واستبدلت بالتخاذل ائتلافاً، وبالجهل والوحشية علماً ومدنية، وارتفعت من أسفل دركات الشرك والإلحاد، إلى أعلى درجات التوحيد والإيمان
ثم هبت من باديتها الفسيحة الأرجاء الممتدة الأطراف هبوب العاصف الزعزع، متكاتفة متراصفة، متحدة متضامنة، فعصفت الممالك التي اعترضت سبيلها عصفاً ودكت المعتقدات
الدينية البالية دكاً، وحطمت العروش المستبدة الجائرة تحطيماً! ولم يمض عليها القرن، إلا قليلاً، حتى قيض الله لها أن ترفع راية الإسلام وتنشر ألوية السلام من أقصى البرنات إلى جملايا، ومن بوادي أواسط آسية حتى صحارى أواسط أفريقية؛ وما كنت تسمع صبحاً وظهراً وعصراً مغرباً وعشاء، إلا صوت المؤذن داعياً بقلب عامر بالإيمان: -
الله أكبر!
أشهد أن لا اله إلا الله!
أشهد أن محمداً رسول الله!
فيتقاطر المؤمنون كالموج الزاخر، متدافعين متسابقين، لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، إلى بيت الله، بيت الأمة، بيت الديمقراطية الحق؛
فما السر في تهافت العرب والأمم التي دانت للعرب على الإسلام؟!
إنه، وأيم الحق، لسؤال تقف دون تفسيره العقول النيرة حيارى. ولئن حاولنا في رسالتنا إلى الشاب المسلم المثقف أن نجلو هذا السر الغامض ونعلل هذه المعجزة الكبرى فإنما نحاول أن نظهر ناحية واحدة من نواحيها المتشعبة، هي (القوة في الإسلام): -
1 - القوة في المبدأ
2 - القوة في الاتحاد
3 - القوة في الأخلاق
4 - القوة في الشخصية؛
وهي الناحية التي يفتقر إليها المسلمون في تنظيم شئونهم في هذا العصر، عصر القوة، بل عصر تنازع البقاء وبقاء الأنسب، حتى يتسنى لهم أن يعيدوا مجداً كاد يندثر، بما منيت نفوسهم من خور العزيمة، وضعف الهمة، وتذبذب الاهواء، والميول، وميوعة الأخلاق، وانحلال الشخصية، متوسلين إلى الله عز وجل أن يهدينا وإياهم سواء السبيل
1 - القوة في المبدأ
تأمل، رعاك الله، في تلك الوفود القرشية العربية التي هرعت إلى أبى طالب بعد أن ضاقت صدورها من سب الرسول صلى الله عليه وسلم آلهتها وآباءها، وبعد أن عيل صبرها من تسفيه أحلامها مهددة متوعدة ليكفه عنها، أو تنازله وإياه حتى يهلك أحد الفريقين، ثم أرجع البصر فيما جرى بين الرسول الكريم وعمه الجليل حين أنبأ ابن أخيه بما قالت قريش: -
(ابق على نفسك وعلي ولا تحملني من الأمر مالا أطيق)
يتجلى لك بصورة لا يداخلها الريب ما انطوت عليه نفس رسولنا الأعظم وزعيمنا الأكبر من قوة الثبات في المبدأ: -
والله، يا عماه، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه. . . ما تركته!)
وتبصر ما أصاب المسلمين الأولين من الاضطهاد والعذاب، وما تجشموه من المشاق والصعاب، من تعذيب المشركين لهم بحر الرمضاء وبقر بطونهم بالحراب في سبيل الدفاع عن هذا المبدأ، ثم أخل إلى نفسك وانظر ما أنت عليه اليوم وما كانوا عليه أمس!
2 - القوة في الاتحاد

إذا تدبرت مبدأ الفاشيست علمت أن شعار موسوليني ومشايعيه ذوى القمصان السود: (الفأس وحزمة العصي).
والفأس رمز الدولة، والعصي الأفراد الذين يؤلفونها، والفرد، في نظرهم قوى بجماعته، ضعيف بمفرده؛ مثله في ذلك مثل العصا يسهل كسرها بمفردها، ولكن الصعوبة كل الصعوبة في كسرها إذا ما ضمت إلى أخواتها. والفاشستيه تنحصر فلسفتها في فناء الأفراد في الدولة وانحلال شخصياتهم فيها. ولماذا نذهب بك إلى الفاشستية ولدينا ديننا الإسلامي، دستور الحضارة والإنسانية، ففيه الأمثلة المتعددة على أن حياة الشعوب في تضامن أفرادها واتحادهم. قال الله في كتابه العزيز: -
(وَاعْتَصِمُوا بِحَبلْ الله جمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا؛ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ إذ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعمتِهِ إِخْوَاناً)
- سورة آل عمران.
سورة الأنفال - (وَأطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيُحكُمْ)
سورة الحجرات (وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اَقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا)
سورة الحجرات - (إِنما المؤْمنُونَ إِخْوَةٌ فَاَصلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ)
- وقال منقذنا الأعظم رسول الله صلى الله عليه وسلم:
(المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا)
(لا تدابروا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله إخوانا)
(لا تختلفوا فإن كان قبلكم اختلفوا فهلكوا)
(المسلمون كرجل واحد إن اشتكى عينه اشتكى كله، وإن اشتكى رأسه اشتكى كله)
فليتق الله، عباد الله، الذين يعملون على التفرقة ويسعون إلى التجزئة فإن في ذلك الخسران المبين.
3 - القوة في الأخلاق
وإنما الأممُ الأخلاق ما بَقِيَت ... فإنْ هُمُ ذَهَبَتْ أخلاقهُمْ ذَهَبُوا
سورة النساء - (إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كانَ مُخْتَالاً فَخُوراً)
سورة الإسراء - (ولا تمْشِ في الأرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تخرقَ الأرْضَ ولَنْ تبلغَ الجبالَ طولاً)
سورة لقمان - (واقصِدْ فِي مَشْيِكَ واغْضُضْ مِنْ صوتِكَ؛ إنّ أنكرَ الأصواتِ لصوتُ الحمير)
وَلاَ تُصَعِّرْ خَدّكَ لِلنَّاسِ ولا تمشِ في الأرْضِ مرحاً، إنّ اللهَ لا يحبُّ كلَّ مُختال فَخورٍ؛)
- وقال رسولنا الأعظم:
(بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)
(إن الله أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد)
يقول الله عز وجل: - (الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منها ألقيته في النار)
ألا فليعلم أولئك الضعاف العقول الذين إذا تبوأوا منصباً رفيعاً شمخوا بأنوفهم وصعروا للناس خدودهم، واشتطوا في غرورهم وكبريائهم؛ إنهم مهما ما بلغوا من السلطان والجبروت، لن يخرقوا الأرض ولن يبلغوا الجبال طولاً!
أين انتم يا مساكين من رسول الله وحبيبه صلى الله عليه وسلم، من شهد الله وأثنى على خلقه العظيم!
(!هَوّنْ عَلَيْكَ، يَا رَجُل؛ فإنما أنا ابنُ امرأةٍ من قريش كانت تأكل القديدَ في مكة)
بمثل هذا القول الكريم خاطب نبينا المصطفى ذلك الرجل البائس الذي أصابته رعدة لدن دخوله عليه وبمثل هذا الخلق المتين استعبد الإسلام قلوب الناس!
4 - القوة في الشخصية - الشجاعة والأقدام
إن التواضع لا يناقض الشجاعة والأقدام، فكما أن القرآن الكريم حث المؤمنين على التواضع، واعتبره من الأسس المتينة التي تقوم عليها الأخلاق القويمة، كذلك أمرهم أن يصمدوا لأعدائهم ويدافعوا عن كرامتهم ويذودوا عن أوطانهم، ويصدوا من تسول له النفس الاعتداء عليهم ما استطاعوا من قوة يرهبون بها خصومهم وأعداءهم، حتى هدد الجبناء الذين يفرون من القتال والجهاد بغضبه ونقمته، كما نستدل من الآيات الكريمة التالية: -

وقاتلوا في سبيلِ اللهِ الذين يقاتلوكم ولا تعتدُوا إنّ الله لا يحب المعتدين، واقتلوهم)
سورة البقرة - (حيث ثَقِفْتمُوهُمْ وأخْرِجوهم من حيث أخرجوكم
سورة الأنفال - (يا أيها الذين آمنوا إذا لَقِيتم فِئة فاثبتوا)
- (وأعِدُّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل. ترهبون به عدو الله وعدوكم)
سورة الأنفال
يا أيُّها الذين آمنوا إذا لَقِيتم الذين كفروا زحفاً فلا تُوَلّوهُم الأدبارَ. ومن يُولِّهِمْ يَومئذٍ)
دُبرَه إلاّ مُتحرِّفاً لقتال أو متحيزاً إلى فِئةٍ فقد باءَ بغَضَبٍ من اللهِ وَمأوَاهُ جهنَمُ وَبِئْسَ
سورة الأنفال (المصِير
وجاء في الحديث الشريف عن الرسول صلى الله عليه وسلم مخاطباً سيدنا علياً كرم
الله وجهه: -
(يا علي! كن شجاعاً فإن الله يحب الشجاع)
كذلك حرض المصطفى المؤمنين على الاتصاف بصفات الرجولة الكاملة، ولعن
الشباب المائع المتخنث، كما لعن تلك الفتيات المتشبهات بالرجال
(لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال)
والآن وقد انتهينا من محاولتنا إثبات أن الإسلام دين القوة؛ القوة في المبدأ، والقوة
في الاتحاد، والقوة في الأخلاق، والقوة في الشخصية؛ لابد لنا قبل أن نختم رسالتنا أن
نلفت
أنظار شبابنا المسلم المثقف إلى الملاحظات التالي:
1 - كن أيها الشاب المسلم، وكوني أيتها الفتاة المسلمة، مثلاً طيباً في قوة المبدأ.
ليضع كل منكما هدفاً واحداً أمام عينيه هو توحيد الأمة الإسلامية، يعمل على تحقيقه
بكل ما حباه الله من قوة الشباب غير عابئ بما يعترض سبيله من عقبات كأداء، أو
مكترث لما يحاول بعض المغرضين الدساسين من تثبيط همته القعساء
اعمل يا أخي المسلم، اعملي يا أختي المسلمة على نشر مبدأ الاتحاد والوحدة أينما
كنتما وحيثما حللتما، وألقما حجراً كل من تسول له النفس أن يثنيكما عن عزمكما
2 - اقتديا برسولنا الأعظم سيد المرسلين، وزعيمنا الأكبر خير العالمين في تقويم ما
اعوج من أخلاقكما، فإن أمتكما العربية أحوج ما تكون في تحقيق ما تصبو إليه من
الآمال إلى شباب يمتازون بثبات الجنان، ولين الجانب، وقوة الإرادة، ومضاء العزيمة
3 - ليتعصب كل منكما لمبادئه الدينية، وليتمسك بعقائده الإسلامية، وليحافظ على
تقاليده العربية، فإن الأمة التي تتسامح في مبادئها، وتتساهل في عقائدها، وتنكر
تقاليدها مقضي عليها بالانحلال والاضمحلال.
الموصل - العراق
أحمد بديع المغربي
دار وحبيب. . .!
للأستاذ محمد سعيد العريان
يا دار، ليتني ضللت إليك الطريق. . .! منذ سنوات وسنوات، كنت مغداي ومراحي،
وكنت سعادتي وانسي، وكنت دنياي الصغرى، تلتقي عندك أماني الشباب، تستيقظ
فيك أحلام الهوى!
فأين يومك من امسك يا دار؟ أما يومك - وا أسفاه - فهذا الذي أرى: كومة من أحجار،
إلا جداراً يريد أن ينقض! وأما أمس. . هل تذكرينه يا دار. . .؟
أين، أين ألقى اهلك الذين ابتعدت خطاهم على الأيام، وأيان، أيان تعود لياليك التي
طواها الزمان؟
هنا. . . منذ سنوات وسنوات. . . أودعت قلبي إلى ملتقى موعود؛ فأين منك الوديعة يا
دار؟
ما أظن الأيام على سلطانها بقادرة على أن تهدم ذكراكِ في نفسي!
ومضيت أتخطى الأنقاض وهي تئن من تحتي أنين الواجد، حتى انتهيت إلى الهيكل
المستباح!
يا لله! كل شئ حي في هذا المكان، أني لأسمع همس الذكرى يرجع في مسمعي
حديث الماضي؛ وإني لأرى أطياف الحب ترف رفيف الحياة؛ وإني لأشم من حولي
عبير اللقاء يتخطى بي الزمان والمكان؛ وإني لأراها هي أمامي كأول عهدنا يوم التقينا،

فتعارفنا، فأسرت وأسررت النجوى!
مرحباً بك يا فتاة! يا لعينيك الساحرتين! ما لأهدابك تختلج كأنما تغالبين النعاس؛ ومالك صامتة لا تنسين كائناً غريبان في هذا المكان؟ ماذا؛ مالك معرضة منكرة. . .؟
. . .إنني أنا هو فتاتي كعهدك يوم افترقنا على ميعاد
ردي على ليالي، وصلى يومنا بماضينا. . . لقد ابتعدت عني بلا وداع شد ما تسخر الأماني!
وبدأ لي من خلل الدموع شبح شيخ يقترب بين الأنقاض. . . ذاك شيخ يدب على عكازة لوحتها السنون. . . يعلو حجراً ويهبط عن حجر؛ فدنا مني وقد تقلصت شفتاه عن مثل الابتسامة أي منظر موحش. . .؟
قلت: (من تكون أيها الشيخ ومالي بك عهد؟) قال (أنا. . .؟ ما أشد حماقة الفتيان! أنا الزمان. . .! وإنما لي أن أسألك: ماذا تنشد بين هذه الأنقاض؟)
قلت: (في هذا المكان، أودعت شيئاً عزيزاً على، أنه قلبي؛ أفتدري أيها الشيخ أين ألقاه؟)
هنا في هذا المكان، كان لي أهل وأحبة وكان قلبي لديهم وديعة إن الدار لتشهد؛ فإني لأنشد هنا قلبي وشبابي وحبي. . .!
قال: (ويحك يا مسكين! أتسأل؟ الزمان أن يرد عليك ما فات. . .؟ إنك يا بني تؤمن بالحب فأسأل الحب - إن أجاب - أن يرد عليك ما استودعته. . .! ما الحب يا بني إلا خرافة؛ هل هو إلا ارق يراوح بين جنبيك ودموع تقرح بين جفنيك وانتظار يستلب شبابك من عمرك، وحنين يستغرق يومك من تاريخك وغيرة تسلبك الطمأنينة والقرار وشك ينبت في صدرك الشوك؛ وهل هو من بعد إلا الندم واللهفة والذكرى؟ أفرأيت شيئاً من ذلك يعدل ساعة من ساعات الشباب، أو يرد عليك سعادة من سعادات الماضي. .؟
(!. . .هيهات يا بني هيهات
!. . .ومضى الشيخ على وجهه وإن صدره لسراً
وعدوت في اثر الزمان أجاذبه السر فما بلغت إليه نفسي وغاب في جوف الظلام.
ورجعت منكسراً لفان أنهنه أدمعي وأغالب نفسي
وإذا على الطريق شاب يبتسم
قال: (مرحباً بك يا صديقي أراك على حيد الطريق فأين أزمعت السير؟)
قلت: (أتراك تعرفني يا فتى؛ فمن تكون؟)
قال: (أنا. . .؟ ما أعجب أن تنسى! أنا رفيق صباك وأنيس أحلامك؛ أنا الأمل. . .! فما أشد أن ينكرني الشباب!)
قلت: (معذرة إليك يا أملي وإنما صرفني عن ذكرك هذاك الزمان!)
قال: (الزمان. . .؟ ويحك! وأين منك الزمان وما تزال في يديك أيامك؟ ألا إن الشباب ليصنع بيديه أيامه ويخط بيديه تاريخه ويملئ على الزمان مشيئته. . .! ألا إن هذا الشيخ الخرف الذي تسميه الزمان لعاجز أن ينالك ومعك الشباب والأمل!)
قلت: (فأنني افتقد شيئاً هنا. . . في هذا المكان. . . كان لي أهل وأحبة، أودعتهم قلبي إلى ملتقى موعود؛ فهذه الدار خلا كما ترى إلا أنقاضاً ركمها الزمان حجراً على حجر؛ أفتدلني أين أجد أحبابي وقلبي؟)
قال: (لك الله ولأحبابك! أفحسبت انك وحدك الوفي الذاكر؟ إن فتاتك ما تزال هناك تنتظر وان الوديعة الغالية ما تزال في الحرز الأمين!)
قلت: (فما هذه التي تراءت لي هنا ثم تولت معرضة لم تنبس؟)
قال: (ويحك! ألم تفهم مقالة عينيها وأهدابها تختلج؟ إنها تقول: اتبعني يا حبيبي. . .!)
قلت: (أفتراها مستطيعة أن ترد علي أيامي وقد تولى الزمان وحال المكان؟)
قال: (إن الحب لا يعرف الزمان ولا يحده المكان أنه لشيء من غير دنيانا لا يخضع لنواميس هذه الحياة؛ إن العاشق ليذكر على البعاد من يحب فإذا الماضي كله بين يديه وإذا الذي يهواه تحت ذراعه؛ وإنهما لاثنان هنا: هو خيال من يحب واثنان هناك: هي وطيف من تهوى. أفرأيت الزمان والمكان ساعتئذ قد استطاعا أن يحولا دون هذا اللقاء؛ أو رأيت شيئاً غير الحب يجعل الاثنين أربعة في زمان ومكان. . .؟
(!. . .ألم تفهم مقالة عينيها وأهدابها بها تختلج إنها تقول: اتبعني يا حبيبي)

ولمحت زهرة ترف رفيفها في ظل جدار قائم وهي تناجي أختها نجوى الحزين إلى الحزين؛ كانتا وحدهما في هذا المكان رمز الحياة بين رموز الموت من تلك الصخور المجدلة. وإن للأحجار والجماد لحياة كحياة الناس وموتا كالذي ماتوا، إن البيت الآهل لحي بسكانه ما عمروه فإذا احتملوا وهجروه فما هو حينئذ بيتا حيا وإن بقيت له معالمه وأبوابه ومفاتحه وأقفاله وان في التراب يغطي أرضه وجدرانه لمعنى من معاني القبر!
ودنوت استمع إلى نجوى الزهرتين:
قالت إحداهما لجارتها: (ويلي - يا أختاه - من المقام بين تلك الأنقاض الميتة ما أكاد أشعر إنني زهرة ذات روح وعبير لماذا نمتني الأرض وزينتني بألوان الربيع إذا كنت لا أرى العين التي تتملى حسنى معجبة شهوى؛ ولماذا أنا زهرة إذا انقضت حياتي على وتيرتها بين هذه الأنقاض لا يشم عبيري أحد ولا تتناولني يد رفيقة. . .؟)
قالت أختها: (فإنك لتبطرين النعمة! وإنك في مقامك هنا لأسعد من أخوات لك هناك في
الروض؛ ما تكاد تتفتح عنهن الأكمام حتى تتناولهن الأيدي؛ فيوماً في الحرير على الصدر ويوماً في زهرية على المائدة؛ ثم هي بعد مع الزبالة تطؤها النعال. . .!)
قالت: (وهل أنا زهرة إلا أن أكون عطراً يستنشي وجمالاً يشتهي؛ ويوماً على صدر ويوماً في زهرية؟ إلا إن يوماً واحداً هناك يشعرني جمالي - لخير من أيام هنا على هذا الغصن الشائك ما ينفك يخزني كلما مالت به النسمات! ألا إنما السعادة قلب وابتسامة وإنما الحياة أن أكون شيئاً في الحياة!)
وهبت نسمة عاتية فإذا الزهرة ورقات منثورة على التراب. . .!
يا ويلتا! حتى هذه الأشياء تنشد الحب وتستوحش من الوحدة والخراب. . .!
أيتها الزهرة التي انتثرت غضة عبقة لم تنعم بالحب؛ كم من قلوب بشرية كقلبك؛ انتثرت أحلامها بددا على أنقاض اليأس والحرمان قبل أن تستنشي عطر الحب أو تذوق لذة المنى. . .!
عزاءً لك ولي. . .
طنطا
محمد سعيد العريان
قصة المكروب
كيف كشفه رجاله
ترجمة الدكتور أحمد زكي
وكيل كلية العلوم
بستور
صلة حديثه
وصل الفائت: اثبت بستور إن الذي يحيل السكر إلى كحول في صناعة المشروبات الروحية إنما هو الخمائر. وهي أحياء غاية في الصغر، شكلها كري، تتوالد وتتزايد بالتنبت فالتقسم. واثبت إن عملية التخمر عند ما تفسد فلا تنتج من السكر كحولاً، فإنما يكون ذلك بسبب مكروبات اصغر من الخمائر، شكلها كالعصى، تسطو على محاليل السكر فتذهب بخمائرها، وتقوم بعملية جديدة مفسدة هي تحويل السكر إلى حامض اللبن الزبادي بدلاً من الكحول
وبينا هو في هذا، وبينا هو مستقر بأسرته في (ليل) إذ جاء زوجه يوماً يقول لها: (نحن ذاهبون إلى باريس فقد ولوني في مدرسة النرمال إدارة أبحاثها. وهذه فرصة عظيمة لا بد من انتهازها)
وانتقلوا إلى باريس. ولما جاء بستور مدرسة النرمال لم يجد بها مكاناً يشتغل فيه. وجد قليلاً من معامل للطلبة ووجدها سيئة قذرة. أما الأساتذة فلم يجد لهم شيئاً. وأسوأ من هذا أنه ذهب إلى وزير المعارف يستوضح الحال، فقال له الوزير إن الميزانية ليس بها قرش واحد ينفق على تلك القوارير والأفران والمجاهر التي لا يستطيع الحياة إلا بها. وما رجع حتى اخذ يدور في المكان القديم القذر يبحث في أسافله وأعاليه عن ركن يعمل فيه وهداه البحث أخيراً إلى سلم هداه في مشقة إلى حجرة صغيرة عند سطح البناء كانت ملعباً للفئران فطرد الفئران منها واستولى عليها

وصاح: هذا معملي. ولم يلبث أن وجد مالاً لشراء مكرسكوباته وأنابيبه وقواريره - ولكن من أين لا يدري أحد يقيناً. كان لا بد له من المال فأعتزم أن يجده فكان. لا بد أن تعلم الدنيا خطورة خمائره هذه في الحياة. ولم تلبث الدنيا أن علمت بخطورتها

استيقن من تجاربه السابقة إن تلك العصى الصغيرة تحيل الكسر إلى حامض اللبن وعندئذ قام في نفسه إن الدنيا لا بد بها الألوف من أشباه هذه العصى تجري ألوفاً من أشياء هذه التحويلات وتأتي بأمور أكبر وأخطر من هذه منها الضار ومنها النافع. (إن هذه الخمائر التي أرانيها مجهري في أحواض البنجر السليمة، هي هي التي تخرج من السكر كحولاً. وإنها لخمائر كذلك تلك التي تخرج من الشعير جعة. وإنها لا شك خمائر تلك التي تخرج من عصير العنب خمراً. أنا بالطبع لم أثبت هذا بعد ولكني أعلم أنه صواب سيأتي إثباته). ومسح نظارته في سرعة وصعد إلى معمله في بشر وخفة. فلا بد له من تجارب ليثبت لنفسه صدق الذي يقول لا بد من تجارب ليثبت للدنيا صدق ما يزعم. فالعالم لم يكن أمن بعد بالذي قاله

وكان ممن عارضه الألماني ليبج شيخ الكيمياء وسيدها وأميرها: (. . . ليبج يقول إن الخمائر لا دخل لها في تحويل السكر إلى كحول. ليبج يدعى أنه لا بد من وجود زلال في السائل وان هذا الزلال ينحل ويتهدم فيهدم السكر معه فيتكسر إلى كحول). واعتزم بستور أن يدحض رأي ليبج وفي ساعة برقت في خاطره بارقة، حيلة ماكرة تجربه بسيطة واضحة تقهر ليبج وكل من يشد أزره من هؤلاء الكيميائيين الذي يسخرون من هذه الخلائق المكرسكوبية الصغيرة ويهزؤون بما تقوم به من عظائم الأمور

يجب علي أن أزرع هذه الخمائر في محلول من السكر لا زلال فيه. فإذا هي أحالت) السكر إلى كحول إذن فعلى ليبج وعلى نظرياته العفاء(. وامتلأ عناداً وامتلأ تحديا فقد كادت تنقلب هذه الخصومة العلمية إلى خصومة شخصية. جاءته الفكرة الجميلة للرد على خصيمه ولكن الفرق واسع بين الفكرة تخطر في الرأس وبين الفكرة تنفذ في المعمل فأنى له بطعام خلو من الزلال وهذه الخمائر اللعينة شبت على النعمة واعتادت مذاق كل لذيذ مرئ. أخذ بستور يدور في معمله ثم يدور يبحث عن طعام يطيب لهذه الخمائر وقضى على هذا أسابيع حتى فرغ جهده وضاق صدره. وفي ذات صباح وقع له حادث غير منظور فتح له ما استغلق عليه

كان قد وضع بالمصادفة شيئا من ملح النشادر في مرق الزلال وضع فيه خمائر لتتزايد وتتكاثر. (ما هذا؟ إن ملح النشادر يتناقص من المرق كلما تزايدت تلك الخمائر فيه! ما معنى هذا؟) وأخذ يفكر. (نعم. نعم. إن الخمائر تعيش على النشادر. إنها تعيش من غير زلال!). ورد الباب رداً عنيفاً فاهتز البناء، فلا بد له الآن من الوحدة وقد أراد العمل، كما كان لابد له من الناس إذا أراد المتعة بالإفاضة بنتائجه الباهرة إلى الجماهير المعجبة المتحمسة. وتناول قبابات نظيفة وصب فيها ماء مقطراً نقياً؛ ووزن في دقة مقداراً من السكر النقي، وزلقه إلى الماء، وأضاف إليه ملح النشادر، وكان نشادر الدردي. ثم غاص في القارورة التي تنغشت بالخمائر الصغيرة المتنبتة، وأخرج منها شيئا وضعه في القبابة مع السكر وملح النشادر. ثم وضع القبابة في محضن دافئ ثم تركها

وفي هذه الليلة أخذ يتقلب في مضجعه، يطلب النوم فلا يؤاتيه. وأسر رجياته ومخاوفه إلى مدام بستور، فهدأت من روعه، ولكنها لم تستطع نصحه. نبض قلبها بنبض قلبه، وضاق صدرها بمثل الذي ضاق به صدره، ولكنها لم تقدر على مطارحته العلم وتأميله في النجاح القريب. كانت خير عون لخير زوج

وما كاد الصباح يهم بالشروق حتى كان إلى جانب قارورته، تلك القارورة التي خبأت له من صروف المقادير ما خبأت. لم يدر كيف صعد السلم إليها. لم يدر ما الذي أكله في إفطاره. كل الذي أحس به أنه واقف إلى قارورته قد احتواها هذا المحضن الترب، حتى لكأنما طار في الهواء إلى حيث كانت. فتح القارورة واخذ منها قطرة عكرة، فوضعها بين قطعتين رقيقتين من الزجاج، وضعهما تحت عدسة مجهره، ثم نظر. وعندئذ علم إن الدنيا أسلمت إليه القياد

هاهي! هاهي! جميلة في تنبتها، جليلة في صغرها وكثرتها. مئات الألوف في احتشاد) بديع. وهاهي وحدات من أمات الخمائر الكبيرة التي بذرتها في القارورة بالأمس(.

وامتلأ صدره فهم بالخروج ليفيض على الخلائق بالذي ملأه، ولكنه رجع فكبح جماح شهوته، فلا بد له من علم شيء آخر خطيراً جداً. واخذ شيئا من سائل القارورة ووضعه في معوجة، وأخذ يقطره على النار ليرى هل أنتجت تلك الخلائق من السكر كحولاً. (ليبج مخطئ في زعمه، فالزلال لا ضرورة له، فتلك الخلائق النامية هي التي تخلق من السكر كحولاً).

وأخذ يرقب قطرات الكحول وهي تسيل من عنق المعوجة. وقضى ماثلا من أسابيع في تكرار تجربته، ثم تكرارها، ليؤكد إن الخمائر لا تني تتكاثر، وأنها لا تني تخرج كحولاً. ونقلها من قبابة إلى قبابة، ومن مرق إلى مرق، فوجدها تتنبت دائماً، وتتزايد دائماً وملا رقاب القبابات دائما برغاء من أكسيد الكربون المتصاعد من التخمر. ووجد الكحول دائما بالقبابات. كان عملاً جد عسير، حدا به إليه زيادة الحرص على صدق نتائجه، وخشية الخدعة فيما يتراءى له أنه الحق

استوثق من خمائره، واصبح أمرها لديه معروفاً مألوفاً، ولكنها لم تزد في عينه على الأيام إلا جدة، ولم تزده الفته إياها إلا إعزازاً لها. كان يرعاها كالأم الرؤوم، يطعمها ويحبها ويعجب بمجهودها الهائل في قلب السكر الكثير إلى كحول. وفوت على نفسه بذلك وجبات الطعام، حتى اعتل مزاجه وفسدت صحته. ذكر أنه جلس إليها ذات مساء في الساعة السابعة - وهي الساعة التي يحرص فيها كل فرنسي محافظ على إجابة دعوة المائدة - وأخذ يتجسس عليها وهي تتقسم فتتزايد، واخذ يحدق فيها، ولزمت عينه المجهر حتى منتصف الساعة العاشرة. وعندئذ، وعندئذ فقط، آمن بأنه رآها تتقسم فعلا، فتتزايد من جراء ذلك. وأجرى تجارب واسعة النطاق، بعيدة الأمد، تجارب امتدت من يونيو إلى سبتمبر، ليرى متى يفرغ صبر هذه الخمائر فتنكص عن تحويل السكر. فلما علم من هذا ما علم صاح يقول: (أعط خمائرك سكراً، تظل تعمل أشهراً ثلاثة أو فوق ذلك عدداً)

وعندئذ انقلب البحاث إلى دعاء. انقلب العالم إلى تاجر بارع يعنى بعرض بضاعته للناس، فيثير إعجابهم ويبعث الحمية فيهم. وذلك في سبيل الدعوة للمكروبات. فالدنيا يجب أن تعلم حقيقة أمرها، والناس يجب أن تنقطع أنفاسهم من الدهشة إذا أتاهم نبؤها - إذا هم أنبئوا أن ملايين الجالونات من خمر فرنسا، وبحار البيرة التي تصنع في ألمانيا، لا يصنعها الرجال كما يحسبون، ولكن جنود مجندة تعمل ليل نهار من المخلوقات لا تبلغ عشرات البلايين منها حجم طفل صغير من بني الإنسان والق عن أبحاثه محاضرات، وألقى في الناس خطابات.

ورمى في وجه ليبج حججاً تدمغ مزاعمه. ولم تلبث دولة العلم على الشاطئ الأيسر لنهر السين في باريس أن تحركت، فشمله أساتذته الأقدمون بالثناء. وأكاديمية العلوم التي

رفضته بالأمس عضواً، جاءت اليوم تمنحه جائزة الفسلجة. وكلود برنارد رب الفسلجة ذاتها، قام يصوغ لها المدائح عقوداً. ودوماس، أستاذه القديم، أستاذه الذي أصعد بمحاضراته الدمع إلى عينيه وهو صبي أبله، قام في جمع عام يطرى بستور بحديث رائع، حديث جدير بإخجال رجلنا. ولكن رجلنا لم يخجل، لأنه أستيقن أن دوماس إنما يقول الحق. كتب بستور إلى أبيه: (وقام دوماس يتمدّح استقصاءاتي واستطراداتي، ثم وجه الخطاب إلي فقال: قد إجازتك الأكاديمية يا سيدي منذ أيام على أبحاث بارعة أخرى. واليوم يصفق لك هذا الحشد اعترافاً بأنك أستاذ في أساتذتنا عظيم مجيد. نطق دوماس بهذه الألفاظ ذاتها يا والدي، وتبع هذا تصفيق كان له دوي بعيد)

وبين هذا التصفيق كان من الطبيعي أن تسمع هسيساً من خصوم لا يرضون عما يقول. خصوم من خلق بستور نفسه. خصوم لم تخلقهم كشوفه الجديدة، وتخطيئه لنظريات قديمة وعقائد عتيقة، ولكن خصوم خلقهم سوء تحديه للناس. كان يكتب فتقرأ بين اسطره إعجاباً بنفسه، وتحقيره لكل من يتلكأ فلا يؤمن بالذي يأتيه تواً. كان يحب حوار الكلم، ويغرم كالديك بالمناقرة لأتفه الأمور. كان يغضب ويدمدم لكل نقد، حتى للتعليقة الساذجة يلفظ بها امرؤ عن اجروميته، أو تنقيطه لكلماته. انظر إلى صورته في هذا العهد. عام 1860 على التقريب - تقرأ في كل شعرة من حاجبه اعتداده بنفسه، وتحفزه للحرب دون يقينه. وطالع أبحاثه الشهيرة في هذا الوقت، تجد فيها الشموس والأباء، حتى في مصطلحاته العلمية وفرمولاته الكيمياوية

أثار بستور الخصومات حوله لتحديه الناس وازدرائه إياهم، ولكن كان من بينهم من خاصموه بسبب اختلاف برئ على تجاربه. كانت تجاربه بديعة مدهشة، ولكنها لم تبلغ دائماً الغاية والكمال. كانت عليها مأخذ وبها ثغرات. مثال ذلك أنه كان يبذر في محلول السكر بعض تلك العصى القصيرة التي تحيله إلى حامض اللبن، فكان أحياناً يشم رائحة كريهة تخرج من القارورة هي رائحة الزبد إذا فسد، ثم ينظر بمجهره فلا يرى للعصى أثراً. ويمتحن السائل فلا يجد به من حامض اللبن الذي أراده شيئاً. فهذه الخيبات التي اعتورت تجاربه كان يتخذ منها خصومه قذائف يحاربونه بها. وكانت تقض مضجعه فلا ينام ليله. ولكن لم يدم ارقه طويلاً. كان بستور غريب الأطوار عجيب المسالك، ولم يكن

بأقلها مسلكه إذا هو خاب. لم يستطع أصلاً أن يعلل لِمَ تحيط تخميراته أحياناً عن الطريق السوي المعروف، إلى طريق معوج غير مألوف، ومع هذا لم يظهر عليه أنه اهتم لهذا أبداً. كان ماكراً ذا حيلة، فإذا انسد في وجهه الطريق لم يحاول فتحه بنطحه، فقد علم أن هذا لا يجديه إلا تحطيم رأسه، فكان يدور حول المشكل دوراناً، ويزوغ من ورائه زوغاناً، فيلويه ويثنيه حتى يصبح له بعد أن كان عليه

لِمَ هذه الرائحة الكريهة رائحة الزبد الفاسد؟ لِمَ لا ينتج حامض اللبن أحياناً؟! وفي ذات صباح حدق في قطرات السائل، فرأى حياً جديداً يعوم حول تلك العصى المتخاذلة المتناقصة. (ما هذه الأحياء؟ إنها أكبر من العصى كثيراً، وهي تعوم كالسمك عوماً، هي إذن حيوانات صغيرة)، وأخذ يلحظها لحظات الكاره لها، الضائق بها، المتبرم منها، فقد عرف بالسليقة أنها دخيلة، إنها زورة الضيف الثقيل لا أهلاً به ولا سهلاً. وكانت تتقاطر كالإبل، ولكنه إبل كريهة المنظر، شوهاء الوجوه. أو هي كالأفعى تنسل انسلالاً. وأحياناً كانت توجد فرادي، وكان يدور الفرد منها دوراناً رشيقاً، أو يتزن على عقبه ثم ينفلت انفلاتاً بديعاً. وكان منها الرعاد والرقص.

مناظر ممتعة حقاً، ولكن ما دخولها إلى ماء السكر بغير دعوة ولا استئذان! وحاول بستور مائة مرة أن يسدّ عليها السبيل كي لا تدخل إلى القوارير. وسلك لذلك سبلاً لا تروق لنا اليوم. وكان كلما ظن أنه قطع دابرها، إذا بها تنط له في القوارير من جديد. وذات يوم خطر له أن هذه الأحياء ذات صلة بالرائحة الكريهة التي كان يجدها ببعض القوارير

وبهذا أثبت؛ في نوع من التحقيق، إن هذه الأحياء صنف جديد من الخمائر تحيل السكر إلى حامض الزبد الفاسد. أقول في نوع من التحقيق، لأنه لم يكن موقناً يقيناً تاماً بخلو قواريره من أنواع أخرى من الأحياء غير التي رآها. وبينما هو في خبلته، ساهم في حيرته، تراءى له أن يخرج النجاح من خيبته، ويطلب الفرج من أزمته. نظر إلى بعض السائل بأحيائه الجديدة فوجد أن أوسط القطرة يتنغش بها، ويعج بحركاتها. ودار بمنظاره قليلاً قليلاً غير قاصد حتى جاء إلى حرف القطرة، فوجد تلك الأحياء فاقدة الحراك كجثث الأموات تصلباً وهموداً. وعاد فنظر في قطرة أخرى، فوجد بها ما وجد بالقطرة الأولى، فصاح: (إن الهواء يقتل تلك الأحياء). وأكد لنفسه أنه كشف كشفاً خطيراً. وبعد قليل أخبر

الأكاديمية أنه وجد خمائر جديدة، خمائر غريبة، تخرج حامض الزبد من السكر، وأنه وجد فوق ذلك أنها تستطيع العيش والحركة واللعب والعمل بدون هواء. بل إن الهواء يقتلها قتلاً. ثم عقب على هذا يقول: (وهذا أول مثل لحي يعيش بلا هواء)

ولسوء طالع بستور لم يكن هذا أول مثل، بل ثالث الأمثال، فإن لوفن هوك كشف هذا قبله بمائتي عام. واسبلنزاني قبله بمائة عام وجد أن الأحياء المكرسكوبية تعيش ولا تتنفس

يترجح عندي أن بستور لم يعلم بهذين المثلين، بل أنا جازم أنه لم يقصد إلى سرقة مجهود غيره، ولكنه في ثورته لكسب مجده، وتحرقه لتكثير كشوفه، تناقص اهتمامه بما جرى قبله وما كان يجري حوله، ومن هذا أنه كشف من جديد أموراً كشفها غيره، كأن كشف أن المكروبات تفسد اللحم، ونسى أن إشفان سبقه إلى ذلك، ونسى أن يؤدي إليه حقاً وجب.

على أنه يحسن بنا ألا نحرج بستور هذا كثيراً، ونعد سيائته في هذا الصدد عداً، ونحاسبه حساب الملائكة الشّداد. ذلك إن خياله، وهو من خيال الشعراء، كان قد بدأ يثبت الوثبة

الأولى فيخال إن هذه المكروبات أعداء الإنسانية وقتلة الرجال. ففي مقال هذا كان يتحدث حديث الحالم فيقول: كما أن اللحم يفسد، فكذلك قد تفسد الأجسام، فتعتري الناس الأمراض. وتحدث عما قاساه من اللحم الفاسد وهو يعمل فيه. وتحدث عن كراهته للروائح الكريهة التي ملأت معمله وهو يجري هذه التجارب. (إن تجاربي في التخمر ساقتني بطبيعة الحال إلى هذه الدراسات فتقبلتها على ضرها وخطرها وبرغم الكراهة التي تبعثها في نفسي). ثم حدث الأكاديمية عما سيلقاه في سبيل هذه الأبحاث، وذكر لهم أنه لن يحجم عنها. واقتبس قول لافوازيه: (إن أقذر الأشغال وأكثرها حظاً من كراهة النفوس لتهون على المرء النبيل إذا هو توخاها لخير الإنسانية، وهي لا تزيد الرجل إلا قوة على قطع الصعاب التي يلقاها)

(يتبع)

أحمد زكي

موعد

للأديب حسين شوقي

لماذا تسرع هذه الفتاة في السير؟ لماذا؟ إنها خفيفة الخطى كأنها القبرة، وكأنها عما قليل ستطير عن رصيف الشارع. .! لماذا تسرع في السير؟ لو أنها ذاهبة إلى عملها لكان هناك ما يبرر هذه العجلة، ولكن هذا غير مستطاع لأن الساعة الآن السادسة، والمكتب الذي تعمل فيه قد أغلق أبوابه منذ الساعة الخامسة. . لماذا تسرع الفتاة في السير إذن؟ إنه يكفي أن تلمح في وجهها علائم البشر والاغتباط لتدرك لماذا تسرع . .في خطاها. . إنها على موعد من حبيبها

إنها سعيدة، ولما كانت سعيدة أصبحت تعتقد أن الناس كلهم سعداء مثلها. . . ولكن انظر إلى هذه الطفلة الفقيرة النائمة على طوار الشارع بجانب الحائط، لا يمكن أن تكون سعيدة وهي على هذه الحال من البؤس، أحست نحوها الفتاة بحنو شديد حتى فكرت في تبنيها. . . ربما تبنتها لدى عودتها من الموعد. . ها هو أيضاً كلب لا يمكن أن يكون سعيداً، لأنه مجروح، يتألم من جرحه، فقد قذفه أحد الأطفال الأشقياء بحجر فأدماه، تود الفتاة لو أنها تحمله إلى الصيدلية لتضميد جرحه، ولكنها مع السف متعجلة، فهي على موعد من حبيبها، وقد تأخرت عنه، فالموعد في الساعة السادسة، والساعة الآن ست عشرة. . . مسكين حبيبها لابد أنه قلق من طول الانتظار! إنها ترغب في ركوب سيارة لتدركه بسرعة، ولكنها تخشى أن يرفض سائق السيارة توصيلها، لأن المكان الذي ينتظرها فيه الحبيب قريب جداً، فهو على خطوات منها. . تنتقل الفتاة إلى الطوار الآخر، تخترق الطريق وهو غاص بالحركة دون أن تنتظر إشارة الشرطي المؤذنة بالمرور. . حقاً! إن أمر هذه الفتاة عجيب! ألكونها تحب تظن نفسها معصومة من الأخطار؟ تدخل المقهى حيث ضرب لها حبيبها موعداً. . . . . إنها تحس بدوار خفيف عندما وضعت رجلها على عتبة المكان، إن قلبها أيضاً ليس في حال طبيعية، أنه يخفق بسرعة، إذ هو أشد منها رغبة في ملاقاة الحبيب، ولكن لماذا تجهم وجه الفتاة فجأة؟ لماذا؟ لم تجد حبيبها في المقهى، بحثت عنه في كل ركن ولكن بدون فائدة، إنها تحس خوراً في قواها، لذلك جلست هناك إلى مائدة، ثم أخذت تنظر إلى ساعتها اليدوية التي أشار عقربها إلى السادسة والثلث، ثم نظرت إلى ساعة المقهى الكبيرة المعلقة في صدر المكان، كأنها لم تقتنع بساعتها، فإذا هي أيضاً السادسة والثلث. . . تنادي الخادم فتسأله: هل ساعة المقهى مضبوطة؟ فيؤكد لها الخادم ذلك. . علامَ هذا القلق؟ علامَ؟ إن الحبيب سوف يحضر. . . لعل طارئاً قد عاقه. . . إنها تطلب فنجاناً من القهوة لتهدئة أعصابها، ولكن تأتي القهوة وأعصابها ما زالت مضطربة. . . تتناول مجلة لتلهى بها نفسها ولكنها تعيدها بعد برهة إلى مكانها، لأنها لا تفهم ما تقرأه، مع أن المجلة ليست علمية صعبة، بل هي تتحدث عن نجوم (هوليود). .

تعود الفتاة إلى إرهاق ساعتها، تنظر إليها مرة، ثم ثانية، ثم ثالثة، ثم تعيد النظر في ساعة المقهى. . ربّ! كيف مر الوقت بهذه السرعة؟ إن العقرب أشرف على السابعة! هل داخل الساعة شيطان يا ترى يعجل الوقت لإغاظة الفتاة؟ يأتي الخادم وقد رآها قلقة، فيسألها: هل تنتظرين أحداً يا سيدتي؟ فتجيبه متلهفة بالإيجاب، ثم تعطيه علامات الحبيب لعله يكون قد رآه، ولكن الخادم آسف لأنه لم يشاهده. .

تتأهب لمغادرة المقهى إذ يئست من الانتظار، تغادر مكانها وهي أشد حزناً من حمامة هجرها أليفها، ولكنها تعود ثانية إلى المقهى فقد نسيت أن تؤدي قيمة ما شربته. . . تقف برهة على الباب، إذ عساه يحضر. . ثم تطأطئ رأسها وتنصرف. . .
تعود إلى المنزل، ولكنها تسلك هذه المرة طريقاً أخرى غير الطريق الأول، لأنها لم تعد ترغب بعد في تبني الطفلة الفقيرة، ولا في تضميد جرح الكلب. تدخل حجرتها فترتمي على السرير لأنها تحس بتعب شديد كأنها صعدت جبال (الهملايا) مع أنها في الواقع مشت قليلاً. . ليس ما بها من التعب، بل من الحزن، الحزن العميق. . .
تركت باب الحجرة مفتوحاً لتسمع التليفون إذا دق، فهي تأمل أن يعتذر الحبيب إليها. . . يدق التليفون فتسرع إليه، كما يسرع الغريق إلى قارب النجاة. . . . يالخيبة! ليس هو الحبيب الذي يتكلم، بل هو إنسان آخر قد أخطأ الرقم، يدق التليفون من جديد فتهرع إليه الفتاة، فإذا المتكلم سيدة تسأل عن (س) الجزار. . .! ثم يدق التليفون مرة ثالثة، في هذه المرة هو الحبيب الخاطب المتكلم، لأن الفتاة اغتبطت فجأة اغتباطاً عظيماً كأنها ربحت اليانصيب الايرلندي. . . الخاطب يسألها عن سبب تأخرها لأنه ظل ينظرها ساعتين كاملتين في المقهى، وكان أنظاره في المقهى آخر، إذ اخطأ اسم المكان، الفتاة تسرع في
الذهاب إليه، وقد زال عنها تعبها في غمضة عين، إنها تنهب الدرج نهباً أثناء النزول، فتزل قدميها وتسقط سقطة مؤلمة، ولكنها لا تحس ألماً، بل تضحك من أجل هذا ضحكاً متواصلاً. ثم أخذت تفكر مرة أخرى في تبني الطفلة الفقيرة، وفي إسعاف الكلب الجريح!. .
كرمة ابن هاني
حسين شوقي
-
محاورات أفلاطون - 20
الحوار الثالث
فيدون أو خلود الروح
ترجمة الأستاذ زكي نجيب محمود
قلت - نعم ولكن لم يرو عن هرقليس نفسه أنه نازل اثنين
فقال - ادعني إذن، وسأكون لك أيولاوس حتى تغرب الشمس
قلت - سأدعوك، لا كما يدعو هرقليس أيولاوس، ولكن كما كان يفعل أيولاوس لو كان يدعو هرقليس
قال - لا فرق بين هذا وذاك، ولكن لنأخذ الحذر أولاً لكي نتقي خطراً
قلت - وما ذاك؟
أجاب - خطر أن تتمكن منا كراهة المنطق فذلك من أسوأ ما قد يصيبنا من أحداث، فكما أن ثمة أعداء للإنسانية وهم من يمقتون البشر، كذلك هنالك من يكرهون المنطق وهم من يمقتون المثل، وكلاهما ناشئ من سبب بعينيه، هو الجهل بالعالم، فتجيء كراهة البشر من الغلو في الركون إلى عدم الخبرة، فأنت تثق برجل، وتظنه مخلصاً تمام الإخلاص. وخيراً وأميناً، ثم لا يلبث أن يتكشف لك زائفاً خبيثاً، وهكذا غيره وغيره.
فإذا وقع ذلك الإنسان مرات عدة، وبخاصة من جماعة أصدقائه الذين يظنهم اشد الناس إخلاصاً له، وكثر النزاع بينه وبينهم، فإنه ينتهي آخر الأمر إلى كراهة الناس جميعاً، ويعتقد أن ليس بين الناس على الإطلاق صاحب خير. أحسبك بغير شك قد لاحظت هذا.
قلت - نعم
- أليس ذلك مدعاة للخزي؟ وسببه إن الإنسان في اضطراره إلى معاملة سائر الناس، لا يكون لديه بهم علم، لأنه لو عرفهم لعرف الأمر على حقيقته، وذلك إن ذوي الخير قليلون، وان ذوي الشر قليلون، وان الكثرة الغالبة هي فيما يقع بين هذين
قلت - ماذا تعني؟
أجاب - أعني أنه كما قد نقول عن بالغ الكبر وبالغ الصغر، بأنه ليس أندر من رجل بالغ

الكبر، أو رجل بالغ الصغر، فهذا ينطبق بصفة عامة على الهايات، سواء أكانت ذلك عن الكبير والصغير، أم السريع والبطيء، أم الكدر والصافي، أم الأسود والأبيض، وسواء ضربت أمثلة ناساً أو كلاباً أو أي شيء آخر، فقليلون هم النهايات، أما الكثرة فتتوسط بين النهايات، أو لم تلاحظ هذا فقط؟

قلت - نعم لاحظته

قال - ثم ألست ترى أنه لو كان بين الشرور تنافس، لوجد أن قليلاً جداً منها هو اسبقها في الشر؟

قلت - نعم فذاك ارجح الظن

أجاب: نعم ذاك أرجح الظن، ولست أعني إن مثل الأحاديث في هذا مثل الناس - وأراك ها هنا قد حملتني أن أقول أكثر مما اعتزمت أن أقول، ولكن وجه المقارنة هو أنه إذا ما آمن رجل ساذج، لا يحذق علوم الكلام، بصحة دليل، وخيل إليه فيما أنه باطل، سواء أكان باطلاً حقاً أم لم يكن، ثم تكرر هذا في غيره وغيره، فلا تبقى للرجل عقيدة واحدة، وينتهي المر كما تعلم بكبار المجادلين إلى الظن بأنهم قد باتوا احكم بني الإنسان، لأنهم هم وحدهم الذين أدركوا ما في التدليلات كلها من تزعزع وضعف شامل، لا بل أدركوا ذلك في الأشياء جميعاً، وهي تظل هابطة في مد وجزر لا ينقطعان، كما هي الحال في تيار يوربيوس

قلت: هذا جد صحيح

أجاب: نعم يا فيدون، ولشد ما يبعث على الأسى أيضاً أن يصادف إنسان تدليلاً هنا أو هناك، فيبدو له أول الأمر أنه حق، ثم يتكشف له عن باطل، فبدلاً من أن ينحو باللائمة على نفسه وعلى ما يعوزه من ذكاء، تراه لحنقه آخر الأمر يغتبط شديد الغبطة في إزاحة اللوم عن عاتقة ليلقيه على التدليل بصفة عامة، ويظل بعد ذلك إلى الأبد كارهاً لاعناً لكل تدليل، فتفلت منه حقيقة الوجود وعرفانه، لو كان ثمة ما يسمى بالحقيقة أو اليقين أو القدرة على المعرفة إطلاقاً

قلت: نعم، إن ذلك ليبعث على الحزن الشديد

قال: فلنحاول إذن بادئ ذي بدء، أن نسلم في نفوسنا بالفكرة القائلة أنه لا حقيقة ولا عافية

ولا قوة في أي تدليل على الإطلاق، ولنعلن قبل ذلك أن ليس فينا نحن الآن عافية وانه يجب أن نطلق فينا العنصر الإنساني، ونسعى جهدنا في اكتساب العافية - فتكسبها أنت وسائر الناس جميعاً من أجل حياتكم المقبلة كلها، وأما أنا فمن أجل الموت، فلست أحس الساعة إني متخلق الفيلسوف، وما أنا في الرأي إلا مشايع كأفراد السوقة، وليس يعبأ المتشيع، حينما يلج في المخاصمة، بأوجه الصواب من الموضوع، بل يحرص على إقناع سامعيه بأقواله وكفى، وليس بينه وبين في اللحظة الراهنة من فرق إلا هذا ـ بينا هو يحاول إقناع سامعيه بصحة ما يزعم، تراني أحاول إقناع نفسي قبل كل شيء، فإقناع سامعي أمر ثانوي بالنسبة إليّ. ولتنظرن كم عسى أن أفيد بهذا، فلو كان ما أقوله صحيحاً فما اجمل أن أكون مقتنعاً بالحقيقة، وأما إن كان لا شيء بعد الموت، فسأفو على أصدقائي هذا العويل فيما بقي من حياتي من أجل قصير، هذا وسترتفع عني جهالتي، ولهذا فلن يقع مني ضرر. أي سيماس وسبيس، تلك هي الحالة العقلية التي أتناول بها الحوار، وإني اطلب إليكما أن تفكرا في الحقيقة لا في سقراط؛ فإن رأيتما إني أتكلم حقاً فوافقاني وإلا فقاوماني بكل ما وسعكما من جهد، حتى لا أخدعكما جميعاً كما اخدع نفسي، وحتى لا أكون لكما كالنحلة، فادع فيكما حمتي قبل موتي

قال: والآن دعنا نمضي، ولأتأكد منك قبل كل شيء إن ما في ذهني يطابق ما كنت تقوله، فإن كنت مصيباً فيما أتذكر، فقد كان لدى سيماس مخاوف وشكوك أن تكون الروح أسبق إلى الفناء، ما دامت في عبارة عن انسجام، على الرغم من أنها أشد من الجسد ألوهية وصفاء. وقد بدا سيماس من جهة أخرى أنه يسلم بأن الروح أطول من الجسد بقاء، ولكنه قال: عن أحداً لا يستطيع أن يعلم إن كان يمكن للروح بعد أن تكون قد أبلت أجساداً عدة، أن نفني هي نفسها، مخلفة وراءها آخر أجسادها، وأن هذا الموت الذي يجلب الدمار للروح لا للجسد، لأن فعل التخريب لا يفتأ عاملاً في الجسد أبداً. أليست هذه، ياسيماس وسيبيس، هي النقط التي تستوجب منا النظر؟

فوافق كلاهما على إن ذلك تقرير لرأيهما
فمضى سقراط: وهل تنكران ما في الحوار السابق كله من قوة، أم تنكران ما في بعضه فقط؟
فأجابا: بل ما في بعضه فقط
قال: وماذا ارتأيتما في ذلك الجزء من الحوار الذي ذكرنا فيه إن المعرفة عبارة عن تذكر فحسب، واستنتجنا منه إن الروح لا شك كانت موجودة فيما سبق، في مكان آخر، قبل أن تنحصر في الجسد؟ فقال سيبيس أنه قد تأثر بذلك الجزء من الحوار تأثراً عجيباً، وانه لبث فيه راسخ اليقين، ووافقه سمياس، وأضاف أنه عن نفسه لم يكد خياله يجيز أن يجيء يوم يرى فيه حول ذلك رأياً مخالفاً لهذا
فاستأنف سقراط: ولكن يجدر بك، أي صديقي الطيبي، أن ترى رأياً مخالفاً، لأنك إن أصررت على إن الانسجام في إطار الجسد، فلا ريب انك لن تجيز لنفسك القول بأن الانسجام سابق للعناصر التي يتألف منها الانسجام
كلا يا سقراط فذلك مستحيل -
(يتبع)
زكي نجيب محمود
في مجمع الرذائل
للأستاذ فخري أبو السعود
عقَدَ الرذائلُ في خلاءٍ مجمعاً ... في مهمةٍ نائى المزار يباب
يَنْثُرنَ كلّ حديثِ سوءٍ مْجتَوًى ... بينَ الدِّنانِ ومُتْرَعِ الأكواب
وتتابعت ثَمَّ الرذائلُ كلها ... يَخْطبْنَ في لَسَنٍ وفي إطناب
متفاخراتٍ بالذي رَنَقَنَ من ... نعماء أو قطعنَ من أسباب
وتدفقَ الحسدُ المفَوّه واصفاً ... مَسْرَاه في الأكباد والألباب
وتلاهُ ثمتَ الاغتيابُ يَقُصُّ ما ... يمشي به من فتنةٍ وتَباب
حتىإذا سكت الجميع وقَرَّ ما ... في الحفل من جدل ومن تَصخاب
ارتدَّ حُبُّ النفْسِ ثمتَ قائماً ... نضرَ الصبا مُتألقَ الجلباب
متبسماً متمكناً من نفسه ... فِعْلَ العريقِ المجدِ والأحساب
فدعا: ضُيوفي! قد سمعتُ خطابَكم ... فتسمعوا أنتم لفَصْلِ خطابي
أنا ربُّ هذا الخَلْقِ دانوا كلهم ... لِعُلاَيَ قَبْلَ عِبَادَةِ الأرباب
وأنَا قَهَرْتُ عَدُوىَ الإيثارَ إن ... ناداهمُ وَلوْا بغيرِ جواب
وإذا دعوتُهُمُ فَرَهْنُ إشارَتي ... وهُمُ علي ما رُمْتهُمْ أحَزابي
أنا مُفسِدُ الوُدِّ الذي زعموه من ... قدَمٍ فكلُّ الود محض كِذاب
إما رأيتُ وثيقَ ود بَينهمْ ... أنفَذْتُ سهمي فيه أو نُشابي
فأنَبتَّ أو وَهَنَتْ عُرَاهُ أو اغتدى ... زَيفاً مِنَ الأقوال والألقاب
مِن ذاك يحسَبُهُمْ جميعاً مَنْ رأى ... وقلوبُهمْ شَتى هَوىً وطِلاَب
ويُرَى الودادُ أَقَلَّ ما احتفلُوا به ... منِ طيبِ ذُخْرٍ أو كريمِ رغاب
لم يأخذوا في العيش أو يُعطُوا سوى ... ما دوّنوا في دَفتَرٍ وحساَبِ
وأنا المغالي في النفوس بِقَدْرها ... حتى تُصَغرَ مدحَ كُلِّ محابي
وأنا المبررُ للخَطايَا عِندَها ... فَتَرَى صواباً كلَّ غيرِ صواب
وأنا مشوهُ كل فضلٍ ظاهرٍ ... للغير وهو أحقُّ بالإعجاب
وأنا محرضُ من تجاوزَ حقه ... وبغَى على القُرَناءِ والأصحاب
وكذاكَ أضرِمُها عوَاناً بينهم ... يَصلوْنها حِمَماً وبرحَ عذاب
وإذا أشاء أَبُثُّ فيهمْ منكمُ ... رسلي وأنشر بينهم أذنابي
امشي بحقدٍ بينهم وضغينةٍ ... وأوَكلُ المغتاب بالمغتاب
ويكون لي الكذبُ المموه برقعاً ... ويكون من زَيْفِ النفاق خضابي
وأهيج بالحسد الجوانحَ والحشا ... فتعجُّ بالأوضارِ والأوصاب
انتم جنودي لا عَدِمْتُ ولاَءكم ... أبداً على الأجيالَ والأحقاب
فأحُسوا الشرابَ لقد رضيتُ بَلاَءكم ... لكمُ ثنائي كله وثوابي
فخري أبو السعود

أمراض الحضارة
ليت الذي بجليل الفكر حققها ... يشاهد الآن (فقد العز في الحضر) //
هذا فانظرن معي ... أللبطولة عند القوم من أثر؟ (جيل الحضارة)
أم للمودة والإخلاص منزلة ... أم للمروَءة والإخلاص من خطر؟
تقدم العلم فانحطت به قيمَ ... كانت هي العرف بين الله والبشر
مالوا عن الدين لما شك عالمهم ... والشك أدعى لأخذ الأمر بالحذر
فأصبحوا هملاً لا يفقهون لما ... في الدين من وازع والعلم من بصر
وأولعوا بسخيف من عوائدهم ... عجزاً عن الجد في الإبداع والظفر
ظواهر الأمر تكفيهم وتشغلهم ... عن النفوذ وراء السطح والصور
فضيلة لم تُذع ليست لصاحبها ... فاحرص على النشر دون الصدق في الخبر
يا من يريد بجهد صامت شرفاً ... أقصرْ ودع عنك هذا الوهم واعتذر!
(أجاعل أنت بيقوراً مسلعة ... وسيلة لك بين الله والمطر؟)
ويح البرية من علم يضيء لها ... جوانب الكون دون النفس والفكر
(. . . .)
نعيم الحب
بقلم حلمي اللحام
عضو المجمع الأدبي
هاجَتْ بِيَ الذكْرى شُجُونَ الهوَى ... وأضرَمَتْ في الصدر نارَ الْجَوَى
تلفتَ القلبُ إلى أَمِسهِ ... لَهْفَانَ مِما جَشمَتْهُ النوَى
أيْنَ عُهودٌ كالرؤَى لذة ... وظلَّ عَيش كَرَفِيفِ الْحُلَى
وأيْنَ حُلْمٌ سائغٌ وِرْدُهُ ... كَسَلْسلِ الْخُلْدِ إذا ما جَرَى
يا نِعْمَةَ النسْيَانِ جُودِي عَلَى ... قلْبٍ رماهُ اليَأسُ حتى ذَوَى
وَهَدْهِدِي بالسحْرِ أحزانَهُ ... وَأَرْقِدِى فيه طَيُوفَ الأذَى
أَواهُ كم يَهفُو إلى رَفْدَةٍ ... في ظِلِكِ الوَارِفِ هَفْوَ الصبا
إنْ سَاوَرَتْني سِنَةٌ حُلْوَةٌ ... نَعْمتُ باللثْمِ وطِيبِ اللقاَ
وإنْ تَغِبْ أَشْقَ، فيالَيْتَني ... اقضِي حياتي في ظِلال الكَرَى
يا طَيْفَهَا كم زُرْتَني مُنْعِماً ... في هَدْأَةِ الليلِ وسَجْوِ الدُجى
وَطِرْتَ بالروحِ إلى عالَمٍ ... مُزدَهِرِ الأَرْجاءِ، ضَاحي الذرَى
يُرَفْرِفُ الحُبُّ على أُفْقِهِ ... ويَنْعَشُ المحزُونَ فيه الرضاَ
مُضْنَاكِ يا رَيْحانَتي يائسٌ ... طاحَتْ أغانيهِ وغابَ الصدَى
إِنْ هَاجَهُ الشوْقُ بكَى حَظهُ ... وعَادَهُ الماضِي فأَغضى أَسَى
آضتْ منَ الهِجْرَانِ جَنانُهُ ... صَحْرَاَء لا يَضْحَكُ فيها الْجَنَى
فَنَضرِيها تَأتَلِقْ بَهْجَةً ... وتكْتَنِفْها نُعْيَمَاتُ الدنا
أنْتِ سَناَ الروْضِ ورَيْحانُهُ ... وفِتْنَةُ الزهْرِ وعِطْرُ الشذَا
منْكِ اسْتَمَدَّ القلبُ أَلْحَانَهُ ... واسْتَلْهَمَ الشعْرَ وذاقَ الهوَى
يَا حُسْنَ ذِكْرَاكِ وَيَا طِيبهَا ... قُوتاً لِرُوحي إنْ عَرَاها الوَنَى
لم يَبْقَ في الكأسِ سِوَى جُرْعَةٍ ... والنفْسُ ظَمْأَى! أَفَتُرْوِى الصدَى؟
مَنَيْتِني بالوَعْدِ، لكِنني ... مِثْلُ فَرَاشٍ حامَ حَوْلَ السنَا
تَرَكتِني في لوْعَةٍ مُرةٍ ... مُستَعبرَ العَينيْن، جَمّ الضُى
لا الطيْرُ يُصبِينيَ ترْجِيعُهُ ... في السحَرِ الندْيَانِ إما شَدَا
ولا الأغارِيدُ تَذُودُ الأَسَى ... عن مُهجَتي الحَرى وتَنْفى الشجاَ
هذا الصبا المِمرَاحُ أيامُه ... رَفافةٌ، حاليَةٌ بالمُنى
والمُجتنَي دانٍ فهيا نَهِمْ ... مثلَ طيورِ الفْجرِ بينَ الربا
ونَحْىَ كالزهرِ أَلِيفيْ هَوى ... في رَوْضةٍ وَشى رُباها الحَيا
ونَقطفِ اللذاَتِ مَنضورةً ... من قبلِ أنْ يَذْوىَ عُودُ الصبا
عينَاكِ سِرُّ الوَحْيِ في خاطِري ... وثَغْرُكِ المَعْسولُ كأسُ الطلى
فأَرْشِفيني نَهلَةً عذْبةً ... تَغْمُرْ جَنَاني بِسَنىِّ الرؤى
وألهِميني نَغماً فاتناً ... أنْسَ بهِ بَرْحَ الأسَى والبُكا
إذا انتَشَى قلبيَ من حبهِ ... فلا صَحاَ منْ سُكرِهِ لاَ صَحاَ

الحبُّ رُوحُ اللهِ في خلقهِ ... ونَفْخَةُ الوَحيِ، ونورُ الهُدَى
جادتْ قِفارَ الكوْنِ أنداؤُهُ ... فبَشتِ الدنيا، وغضَّ الثرَى
لولاهُ ما غردَ في أيكةٍ ... طيرٌ ولا غَنى حَمَامُ الضحَى
ولا أراقَ الورِدُ أنفَاسَه ... في الجوِّ رَيا مِرُضَابِ الندَى
آمنْتُ بالحبِّ وآلامهِ ... كلُّ نعيمٍ ما عداهُ سُدَى
(دمشق)
حلمي اللحام
القبلة
بقلم الياس فيصل
أنتِ سِلك مكهرَبٌ بشعاعِ ال ... حبِّ ينبث منه همسُ الفؤادِ
فيكِ من نكهةِ الشعور حميا ... سحرُها المستطابُ خافٍ وبادِ
أنت معنى، بيانه الفذ يبرى ... من جمال المراحِ أفقاً جديدا
أنتِ أنشودةٌ تزفُّ ثنايا ... ها رجاَء مذهباً منشودا
وسواء ألممت مسرعةَ ذا ... ت نفورٍ أو ذبتِ بين الشفاه
ففتونُ الفتونِ كالنور يغشا ... كِ بلَونٍ من التمتع زاهي
نزوة الشوق تسكبين عليها ... ما يوارى لهيبها المنثورا
والحنين الملحّ في القلب يغدو ... حين تهفين لذةَ وحبورا
ليس ينسى النبوغ مالك من فض ... ل ولن تغفل العلى عن جميلكْ
كم فتى سجل الخلود اسمه ما ... كان لولا جهوده في سبيلكْ
يا خيالا من اللذاذة فيه ... قبس الذكرى دائم الإيماض
ليتَ محبوبتي تروى غليلي ... مرة من معينكِ الفياض
عاصمة الجمهورية الفضية
الياس قنصل
القصص
من أساطير الإغريق
يو أو منشأ إيزيس
للأستاذ دريني خشبة
كان لأحد أرباب الأنهار التي تنحدر من شواهق الأولمب ابنة بارعة الجمال فتانة، حلوة كأنها قبلة على فم حبيب، رقيقة كأنها زنبقة على غصن رطيب
وكانت تخطر كما تخطر نسمة معطرة أفلتت من الجنة لتملأ القلوب حباً، ولتشيع في الحب سعادة، ولترف في قيظ الحياة فتروح على المكدورين المحزونين
وكانت هذه الفتاة (يو)، مفتتنة بجمال الطبيعة، مشغوفة بسحرها الأخاذ، تود لو تستطيع فتعيش ملء السهل والجبل، أو تقدر فتنسجم والحياة الدائبة في الغابة، أو تكون روحاً شفافاً يرف في زرقة السماء، ويمتزج بالظلال والأفياء
ولم تكن عاشقة، ولكنها كانت حين تجلس على الصخرة المشرفة على البحر تعبد القمر في هدأة من الليل، يتهيج حب الطبيعة في نفسها، فتبكى وتبكى، ولا يقطع عليها بكاءها إلا خرير الغدران المترقرقة التي تنسرب في الأدغال. . . وكانت عبادة الطبيعة تقطعها عن أترابها من عرائس الماء، وصاحباتها من بنات الغاب، فكن إذا تفقدنها، توزعن في مهاوي الجبل، وتفرقن في منبسط السفح، وتنادين بها ههنا وههنا، حتى يجدنها آخر الأمر مستغرقة بين يدي قمرها المعبود، تناجى البحر المصطخب، وتلكم النجم المضطرب
ونزل زيوس يوماً من ذروة الأولمب التي هي أول مراقي السماء، يرتاد جنات الأرض في مملكة جدته (جي)، وما كاد يوغل في إحدى جنبات الجبل حتى لقي يو، تلك الفتاة الأولمبية الساحرة، واقفة على الصخرة تستمتع جمال الشروق في صبيحة من أوليات الربيع. . . وكانت السماء ما تزال موشاة بسحائب خفيفة من بقايا الشتاء، وأراد، ذكاء تنتشر خللها فتفضض أذيالها، وتذهب أوساطها، وتكسب الأفق رونقاً زاهياً خلاباً
وسحر زيوس، وهو كبير الآلهة، بجمال العروس التي هي من خلقه، وابنة أحد اتباعه وأحس بعطف يغمر قلبه العظيم من أجلها، وشعر كأنه ظمئ إلى هذا الجمال الفتان

المشرق، الذي كف في عينيه جمال زوجاته، وفيهن حيرا وديون ولا تونا.
ووقف الإله المشدوه يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، وسمر مكانه، وهو سيد الآله، يعبد عبدته الصغيرة التي أبدعتها يداه. . وهو لا يدري!
وعول على اغتنام الفرصة، وأقسم ليملأن وطابه استمتاعاً لا يضيره ألا يكون بريئاً، ولذاذة ليس به أن تكون نقية خالصة. . . (أنا سيد أرباب الأولمب، وكل ما بين لابتيك أيتها الأرض لي؟، وقد اشتهيت هذه الجميلة الخبيثة فمن الذي يجرؤ أن يحجزها عني أو يمنعها مني!. . . .؟)
ثم بد له ألا يزعجها بالظهور لها في سيماه الحقيقية فينخلع قلبها وتطير نفسها، لأنها ستكون منه تلقاء إله فتحول في لمحة إلى فتى يافع ينهل الشباب في برديهن ويترقرق الصبي في أعطافه، وتشع عيناه صبوة وفتوناً. وتقدم إليها فحياها تحية كلها صفاء وكلها دعة، فحيت بأحسن منها، ولقيته أرضى لقاء. . .
وجلس يحدثها وتحدثه، وكان الإله المحتال يمزج أحاديثه بالسحر، ويزخرف صوته بالموسيقى، ويعسل ابتساماته بالمحبة، ويطلق في نظراته كل ما وسعه من شياطين الهوى، وكان ما ينفك يقترب منها ويقترب، حتى لامس ذراعه ذراعها، فأخذ يدها الصغيرة البضة بين كفيه الحارتين، وطفق يضغط قليلاً قليلاً. . .
وصمتا هنيهة. . . ثم فرغ طور اللسان، وبدأت نوبة العين، وأخذا في رشفات وقبل. . .
وعاد أدراجه إلى الأولمب، ولما يزر من أطراف الأرض غير هذه الناحية الحبيبة التي سعد فيها لحظة بيو، وظل منذ ذلك اليوم يتردد إليها فيلقاها على أنها كأسه الروية التي تبترد بها غلته، وتلقاه على أنه حبيب أسعدتها فينوس به، وما درت قط أنه كبير الآلهة ورب الأرباب. . .
وكان يتحرق إلى لقائها، وكانت تتسلى عنه بقمرها الفضي، فإذا سعدت منه بزورة، اندغمت عبادتها للطبيعة في عبادتها له، وأذهلتها نشوة الحب عن الدنيا وما فيها!
وأحست حيرا ببعض ما يشغله، ولحظت أنه صادف عنها، فأيقنت أن لابد من أمر، وأن في الأمر أنثى، وأن في الأنثى صبابة وغراماً، فبثت العيون ورصدت الرقباء، حتى وقفت من شأنه على كل شئ!
ولشد ما دارت الدنيا لحيرا! لقد ودت أن تقلب جبلاً على رأس يو!! وأقسمت أن تبغتهما إذ يتراشقان كؤوس الهوى دهاقا، لكيلاً يكون لبعلها على خيانته حجة، ولكيلا يكون له من بعدها برهان
وذر قرن الشمس في صبيحة ضاحكة، فذهب زيوس يشفى ما في قلبه من برح عند يو، وكانت حيرا قد أوهمته إنها ستقضى سحابة يومها هذا عند واحدةٍ بعينها من صديقاتها، وزاد ذلك في ابتهاج الآله، وضاعف انشراحه، واعتزم أن يستمتع طيلة يومه هو الآخر لدى يو
وانه لفي لهو النشوة وأبان السكرة وعنفوان المرح، إذا به يلمح حيرا مقبلة!. . .
وكانت ما تزال في أول الأفق، فأيقن أنها مكيدة دبرته لتفجأه مع يو، وإنها قد كشفت من سره ما بالغ في كتمانه.
فتناول إذن صاحبته فنفث فيها نفثة سحرتها في أقل من لمحة بقرة بيضاء ناعمة، ثم شرع يلاطفها ويمسح عنقها. . .
ووصلت حيرا، ولم تنطل عليها حيلة الآله، وما شكت قط إن البقرة الواقفة تبحث بأنفها في الحشيش الأخضر كأنها تنشد الكلأ، إن هي إلا يو. .! عدوتها اللدود!!
فبسمت لزوجها بسمة كلها دل وكلها فتون، وسألته، وهو يحاول منها قبلة، أن يمنحها هذه البقرة الخصبة التي. .:
(لم أر في حياتي أشق منها ولا أجمل. . لقد أحببتها ن وهي من غير ريب، حين تكبر، ستعطينا أجود اللبن وأسلمه، وسيكون لبنها خير غذاء لوادينا الحبيبين ايرس وهيفيستوس ولطفلتنا الجميلة هيب. . .)
وارتبك زيوس، ولم ير بدا من إجابة زوجه إلى ما تريد. . .
ومضت حيرا بالبقرة فرصدت لها أحد اتباعها الأقوياء:
آرجس الهائل، ذا مائة العين التي لا تنام! ناطته بها، وأمرته ألا يغفل عنها. . . (وإلا فالويل لك يا آرجس إذا هربت منك، أو احتال عليك فألهاك عنها. . . إذن يحل عليك غضبي وأسحقك سحقاً. . .)

وظل الحارس الساهر يرعى يو، ويرقب كل حركة من حركاتها، حتى فزعت المسكينة من
سوء منقلبها، وصبت اللعنات على هذا الحبيب الشيطان الذي ردها بعد جمالها إلى ذا الخلق الشائه، وصيرها إلى ذاك المصير المؤلم. لقد كانت تتحين الفرصة لتستطيع أن تفلت من رقابته الثقيلة، ولكن كي؟ إن الخبيث كان إذا أضناه السهد وأعياه السهر، ينام بخمسين عيناً، ويقدح الشرر بخمسين أخرى!! فإذا استيقظت هذه نامت تلك، وهكذا دواليك، حتى تشرق الشمس فتصحو المائة كلها! وكانت تقابل صواحبها عرائس البحر كلما مررن بها، فتود لو تستطيع مخاطبة إحداهن، ولكن. . . هيهات! لقد كانت. . !مو. . مو. . تنطلق من فمها الكبير مالته أشداقها، فتنزعج أيما انزعاج
. . .ومضت أيام. . . وأيام
ثم لقيت أباها مرة، فنظرت إليه وهو ينكرها، ونظرت، ولكنه لم يستطع أن يفسر نظراتها، فذرفت أحر الدموع وأدمى العبرات! وحاولت أن تلفته إلى أنها ابنته، فلم يأبه لها!
وبدا لها أن تخط على ثرى الشاطئ حكايتها، وما كادت تفعل حتى فطن أبوها لما تريد، فلما قرأ ما رقشته في أديم الرمل، أجهش المسكين وسكب دموع الحنان، ثم عانقها عناقا طويلا! ولكنها أسقط في يديه! إذ ماذا يستطيع رب نهر صغير أن يصنع في سحر الإله الأكبر!؟
ولما شهد أرجس ما كان من بكاء البقرة، ثم بكاء رب النهر وعناقه إياها، تأثرا باديا. . ولو لم يفقه من كل ما كان شيئا. ثم ذكر وعيد حيرا، فنطلق بالمسكينة إلى مكان سحيق، وثمة، تخير بقاعاً عاليا أقام ليشرف منه على كل شيء، فلا يخشى على بقرته رهقاً، ولا تستطيع هي مهربا
وذكر زيوس فتاته المسكينة التي كان حبه إياها سبب تعسها وشقائها، وذكر تلك الأويقات الحلوة التي يسرت له فيها أصفى لحظات السعادة، التي لم يتيسر له مثلها في مملكة الأولمب على ما جمعت من صنوف الرفاهة والنعيم، فثارت في قلبه عوامل الرحمة، وتحركت في صميمه تلك الشفقة الآلهية التي اتصف بها في قديم الآباد
وفكر وفكر. . . ثم استدعى من فوره ابنه من زوجته مايا، البطل الطيار المشهور، هرمز، وأمره بالتوجه إلى حيث أرجس فيحتال عليه ويقتله
ومرق هرمز كالسهم إلى حيث الأكمة التي جلس فوقها أرجس، فألفاه يحرس البقرة حراسة
شديدة منكرة، وكانت القمراء تغمر السهل والغاب والجبل، وكان البدر يتنقل في دارات السماء، والرياح تهب سجسجاً، والبلابل تغرد فوق أغصان التفاح فتطرب وتشجي؛ وكأن سنة من النوم خفيفة رقصت في خمسين من عيون أرجس فأطبقت قليلاً، ولكن ما برحت الخمسون الأخرى تنافس الثريا ببريقها؛ وكانت البقرة ملقاة على الثرى المندى من الإعياء، فلما شهدت هرمز لم تحفل به
!!ولكن ما هذه الموسيقى الحنون
!ومن العازف في هدأة الليل
وما للنجوم تضطرب هكذا من الطرب؟
آه. . لقد تحول هرمز الصناع إلى شاب ذي قوة وذي فتوة وذي جمال، وبدأ في شكل راع من رعاة الضأن، وجلس القرفصاء على صخرة مقابلة لأرجس، ثم انبرى يعزف على يراعه المثقب الذي اتخذه من قصب البرية الفسيحة التي اقبل منها، وانبطحت
. . . .في السفح شاؤه ونعمه. تغط في شبه نوم عميق
واستيقظت الخمسون الأخرى من عيون الأرجس، ودب النشاط في هيكله الضخم مما سمع من حسن التوقيع وروعة اللحن فانتفض انتفاضة كان بها عند هرمز - الراعي الفتي - فسلم عليه وصافحه وجلس بين يديه كالعنز يسمع ويطرب وينتشي، ثم اخذ معه في حديث طويل عن موسيقاه العذبة وألحانه الرقيقة، ثم استطرد فسأله عن
. . .نايه، مم صنعه، أو من ذا الذي وهبه له؟
فقال هرمز: (في إحدى الغابات ذات الأيك البالغ عنان السماء، والدوح المنتشر في الأرجاء، كانت تعيش سيرينكس عروس الماء المرحة، ذات السيقان الناعمة، والجسم

الأبيض الخصب الجميل. وكانت تهوى الرياضة وتقبل عليها، وتؤثر منها الجري والوثب والقفز، والتعلق بأطراف الشجر، ثم السباحة. وكانت تجري فتسبق الريح وتعدو فيتعثر الظليم في آثارها، ولا تدرك الصافنات غبارها. وطالما طلبت إليها آلهة الغاب مسابقتها، فكانت تأذن لهم فيجرون قبلها مرحلة، ثم تنطلق فتحلق بهم، وتسبقهم بمراحل!.. .)

وتثاءب هرمز الخبيث وقال: (ومن طريف ما حدث لها، إن بان العظيم، رب الرعاة واله المروج وسيد الغاب، ومعبود الناس في اركاديا، لمحها يوماً تعدو وكأنها زوبعة، فتبعها؛

ولكنها شأته. وأجهدته! مع ما هو معروف عنه من السبق والتفوق في الجري وحاول أن يلحق بها فضاعف سرعته وأطال خطواته ولكن هيهات!. . . والتفتت سيرينكس فرأته يطوي أديم الأرض من خلفها. ففزعت أيما فزع، وهالها منظره الشائه الغريب. . . فسيقانه العنزية الأربعة، وأذناه البهيميه الشاخصة، وجسمه المفتول ذو العظل ووجه الواسع العريض. . . كل ذلك بعث في قلبها الذعر وهاج في نفسها الرعب حتى كادت تذهب شعاعاً.)

وتثاءب هرمز ثانية وثالثة، ثم قال: (. . واعترضها نهر عظيم فصرخت في أخواتها عرائس الماء تستغيث بهن، وتطلب إليهن النجدة، فما أذهل بان عن نفسه إلا أن رأى طائفة من هذه العرائس تبرز من الماء فجأة فتجذب سيرينكس حتى تغيبنها في اليم، ثم ما أذهله أيضاً إلا أن يرى قصبات رقيقة، ذوات أرياش صفيقة، تنمو في الموضع من الماء غيبت فيه سيرينكس!!

ووقف بان مشدوه اللب، ذاهل الفكر، يحملق في النهر الذي طوى منية القلب، وهوية النفس، ثم انثنى فنزع القصبات النامية، وراح يصنع منها نايا حلو النغم رقيق اللحن، حنون الجرس

ولقيته مرة في روضة مونقة، منضورة منسقة، وكان بان يجلس على رابية بها معشوشبة، عازفاً على يراعه، فطربت لموسيقاه طرباً شديداً؛ ودلفت إليه، فرجوته أن يهب الناي لي، فتبسم قائلاً. (إليك يا بني أكرم القنى وأعز الذكريات. . .)

. . .وشهدت عبرات تنطلق من مقلتيه، حاول أن يخفيها عني

وكان هرمز وهو يبقي هذه الأقصوصة التي اخترعها اختراعاً، يحاول أن يمطها مطا، ويزيد في ثناياها حواشي مملة، ويزخرفها بتعليقات لا غناء فيها. وكان يتثاءب ويتثاءب، وكانت الكلمات تساقط من فمه كأنها مشدودة بسلسلة من حديد، حتى تثاءب آرجس هو الآخر، وغلبه نعاس شديد أغلق عيونه كلها. وابتهج هرمز الخبيث لذلك، وجعل يروح على وجه آرجس، حتى انطلق الشخير من أنفه الكبير تجاوب أصداءه الضفادع!. . .

وهنا. . . امتشق هرمز جرازه المرهف وأهوى به على عنقه الطويل، فانفصل الرأس عن البدن، وغادرهما معفرين بالتراب، وعاد أدراجه إلى الأولمب يحمل إلى والده نبأ المعركة.

وحزنت حيرا على خادمها أمض الحزن وأشده، وذهبت بنفسها فحملت رأسه إلى مخدعها في قصر الأولمب الكبير، وطعقت تسمل العيون عيناً عيناً وتركبها في ريش طاووسها الجميل لتظل إلى الأبد رمز حبها له، ووفائها لذكراه. . . ثم آلت لتسلطن على يو - البقرة المسكينة - ذبابة صفراء من ذباب الأبالسة، تقرصها وتجعل من حياتها نكالاً، حتى ضجت المخلوقة التعسة ورفعت أكف الضراعة تستمطر الرحمة من زيونس. . . كبير الآلهة، ورب الأرباب: (يا الهي العظيم الرحيم، يا أبا الآلهة، وابن الآلهة! أتوسل إليك بأبنائك الكرام الرحماء!

أدركني يا أبا جريوس! اغفر لي زلتي حين أحببت هذا الفتى الجميل وأحبني! إن كنت قد صنعت في ما صنعت انتقاماً، فحسبك ما حل بي من عذاب الهون! لن أزل يا الهي إذا غفرت لي ورفعت عني وزر غضبك! اقبل يا رب الأولمب صلاتي واجعلها شفيعي إليك! أنا. . . يو المسكينة. كنت أعبد ابنتك أرتميس ربة القمر، فكنت أنزوى عن العالم، وألبث وحدي بين يدي قمري الحبيب، أصلى لك ولا بنتك المعبودة، في هدأة الليل، وسكون السحر، فما هو إلا أن قطع عل هذا الفتى صلاتي، وهو من خلقك، وجماله الفتان آية من آياتك، فإذا سحرني وأذهلني عن عبادتي، فإني أستأهل كل هذا .الذي أنافيه!. . . يا إلهي اغفر لي، فقد وسع غفرانك كل شئ. . .)

ويستجيب الإله لهذه الصلاة الحارة الخالصة، فينطلق إلى حيرا، حيث يجدها مكبة على رأس آرجس تسمل عيونه، فيواسيها ويسيلها، ثم يرجوها أن ترحم يو، وأن تخفف عنها العذاب، وهو لقاء هذا يعطيها كل المواثيق إلا يصل أسبابه بأسبابها مرة أخرى. فترق حيرا، وتتفجر الرحمة لأول عهدها بها، في قلبها، وترسل من يرفع الذبابة عن البقرة .ونأذن لزيوس فيعيدها إلى صورتها الأولى. . الصورة القديمة المحبوبة . . .!
ولكنها تشترط عليه أن يرسل من يذهب بها إلى أقصى أطراف الأرض، حتى تطمئن عليه. . . وعلى قلبه المتصابي!. . . من حبها ويأمر زيوس بعض اتباعه فيحتمل يو إلى . . . . ضفاف النيل!! وتخرج من الصحراء فيلقاها المصريون، فتبهرهم بجمالها الرائع، وحسنها الوضاء، ومفاتنها البارعة، ثم يجتمعون على عبادتها، ويقيمونها مليكة عليهم، ويسمونها: (إيزيس)
. . .وتمر الأيام
فيتزوجها كبير آلهة مصر، آزوريس، وتلد له ابنه حوريس!

دريني خشبة

البريد الأدبي

ملك الصحافة

توفي أخيراً قطب من أقطاب الصحافة هو أدولف اوكس صاحب جريدة (نيويورك تيمس) هي أعظم الصحف الأمريكية، وكانت حياة أوكس كقصة روائية، فقد بدأ الحياة بائع صحف متجول، ثم غدا بعزمه وذكائه ومثابرته اعظم صحفي في العالم الجديد وصاحب اعظم صحيفة فيه. وقد ولد أوكس في سنسناتي من أعمال أوهيو في سنة 1858؛ وبدأ حياته العملية في نوكسفيل يبيع الصحف ويدرس أعمالاً مطبعية وصحفية صغيرة، واستمر يعمل كصبي بائع في الطريق، وصبي في المطبعة حتى سنة 1877 وفي ذلك العام عمل صفافاً في مطبعة صحفية. ثم سمت به همته بسرعة، فاصدر في العام التالي جريدة اسمها (شاثانوجا تيمس) استمرت ملكه طول حياته، وتقدم أوكس بسرعة في الصحافة وتقدمت جريدته حتى غدت صحيفة إقليمية هامة تتمتع بقسط لا بأس به من النفوذ والتقدير. وفي سنة 1896، أثار أوكس دهشة العالم الصحفي بإقدامه على شراء جريدة (نيويورك تيمس) وكانت الصحيفة الكبرى قد توالت عليها الأزمات والصعاب حتى كادت تتوقف عن الصدور؛ واضطر أصحابها إلى عرضها للبيع، فتقدم أوكس لشرائها، ودفع جزءاً فقط من الثمن. وكانت الدوائر الصحفية تتوقع الفشل لأوكس، لأنه لم يعمل من قبل إلا في صحيفة محلية؛ ولكن أوكس أبدى في إحياء صحيفته الكبرى همة وكفايات مدهشة، فلم يمضي سوى قليل حتى عادت الصحيفة إلى سابق قوتها، واختار أوكس لها اللون المحافظ مع اعتدال في اللهجة، ومع التزام الجد والوقار، والرصانة، ومجانبة الصيغ والحملات المثيرة، وكان شعاره الذي يطبع إلى جانب العنوان في كل عدد (كل الأخبار صالحة للنشر)، وهو شعار مازالت تحمله الصحيفة، حتى اليوم، واستطاع أوكس من خلال أعوام قلائل أن يسدد جميع الثمن وأن يستأثر بامتلاك الصحيفة الكبرى. ومازال أوكس يعمل حتى غدت (النيويورك تيمس) أعظم صحيفة في العالم الجديد، سواء في حجمها، أو تحريرها ومادتها، أو تصويرها وطباعتها، وأصدر أوكس لصحيفته ملحقاً أسبوعياً (ملحق الأحد) غدا أعجوبة في الصحافة العالمية، حيث يصدر مصوراً في 180 صفحة كبيرة، وملحقاً به قسم خاص بالنقد الأدبي، والنيويورك تيمس أيضاً من اقدم الصحف الأمريكية؛ فقد بدأ صدورها سنة 1851 في مدينة نيويورك وكادت اكثر من مرة تختفي من الميدان، ولكن أوكس أسبغ عليها حياة جديدة، وهي الآن من أعظم صحف العالم، ولها اكبر مجموعة من المراسلين الخارجيين في سائر العواصم، وقلما تجاريها اية صحيفة كبرى في أنبائها أو موادها. ومع إن انتشارها لا يعدو نصف مليون نسخة في اليوم، فإنها تتمتع بأكبر نفوذ في عالم السياسة والفكر والمال

العلامة المكتشف سفين هيدين

عاد أخيراً من مجاهل الصين الوسطى والغربية الرحالة المكتشف والعلامة الباحث السويدي سفين هيدين إلى ستوكهلم مسقط رأسه، فاحتفلت به الهيئات العلمية احتفالاً شائقاً، وقدمت إليه الحكومة النمساوية على يد سفيرها في ستوكهلم وسام الشرف العلمي والفني، وهو أرفع وسام تمنحه النمسا الجديدة لرجال العلوم والفنون،

ولا تمنح منه إلا لممثلي أربع وعشرين دولة فقط؛ وقد عاد سفين هيدين وهو يتحدث إلى الهيئات العلمية والصحف الكبرى عن رحلاته واكتشافاته الجغرافية والعلمية في المناطق والوهاد السحيقة التي تجول فيها مدى أعوام؛ وأذاع سفين هيدين أيضاً عن حوادث التركستان الصينية، وما وقع في عاصمتها كشغر من الثورات والانقلابات معلومات نفيسة، وقد كان هنالك وقت اضطرام المعارك الأهلية في تلك الأنحاء وقد ولد سفين هيدين في ستوكهلم سنة 1865، ودرس فيها وفي برلين وأوبسالا، وشغف منذ حداثته بالأسفار، وتتلمذ للرحالة الألماني الشهير البارون فون رختهوهن، وقد بدأ رحلاته مذ كان طالباً بالسفر إلى العراق وفارس في سنة 1885، وفي سنة 1890 أرسلته الحكومة السويدية عضواً في السفارة التي أرسلها الملك أوسكار إلى شاه الفرس، وفي سنة 1891، اخترق خراسان والتركستان حتى كشغر، ويبدأ عمله كمكتشف أسيوي في سنة 1893، حيث بدأ في اختراق آسيا الصغرى من أورنبورج إلى بكين، وقد سافر عن طريق لوبنور وهضاب التبت، وأنفق في رحلته أربعة أعوام واكتشف خلال هذه الفترة آكام مستجاستا الثلجية، والجبال الواقعة حول منابع يرقند داريا، واكتشف أطلال مدينة بوذية قديمة في صحراء ثكلا ماكن، وفي سنة 1859 قام برحلته الأسيوية الثانية، وفيها سار في نهر تاريم حتى بحيرة لوبنور، واكتشف حول البحيرة آثار حضارة صينية قديمة، ثم اخترق التبت وحاول عبثاً أن يدخل مدينة لاسا، وهي مدينة (اللاما) المقدسة، وفي سنة 1926 قام برحلة ثالثة في آسيا، وقام برحلات أخرى في الهند والهملايا، وغيرها، وله مؤلفات كثيرة شائقة منها: رحلة إلى خرسان وتركستان - خلال آسيا - مخاطرات في التبت - نتائج علمية لرحلة في أواسط آسيا - من القطب إلى القطب - مع الجيوش الألمانية في الغرب - بغداد وبابيليون - التبت الجنوبية - حياتي كمكتشف، وغيرها

الرياضة والثقافة

كان من الآثار الاجتماعية التي أحدثتها الحرب انتشار الروح الرياضي بين الشباب بسرعة مدهشة، وكان الروح قبل الحرب محدود المدى، وكان كثير من الآباء يخشون على أبنائهم من أن يحملهم تيار الرياضة فيهملوا دروسهم ومدارسهم، وكان الاعتقاد الغالب هو أن الشباب الذين يشغفون بالرياضة هم أقل ذكاء واجتهاداً من أقرانهم؛ وفي غداة الحرب تطورت هذه الأفكار القديمة واكتسح الروح الرياضي مجتمع الشباب ذكوراً وإناثاً، وغمر شغف الرياضة فصول المدرسة والجامعة، وذاعت النظريات الرياضية الجديدة عندئذ، فقيل إن الجنس الأبيض مدين بتفوقه إلى الحركة والرياضة، وأنه ينشط متى تحرك؛ وأصفى ما تكون العقول عقب الركض أو الكرة أو الصعود أو السباحة أو غيرها من صنوف الرياضة. ولكن ناحية واحدة لم يوفق دعاة المدرسة الجديدة إلى تحقيقها، هي خلق الأدب الرياضي الثقافة الرياضية، فقط لوحظ إن أولئك الذين يشغفون بالرياضة قلما يقرأون، ولا يقرأون حتى كتب الرياضة ذاتها، فعقولهم وأذهانهم دائماً في معزل عن اجتناء متعة القراءة والرياضة العقلية، ولهذا لم يجد الأدب الرياضي سبيله حتى اليوم إلى دور النشر، وما زالت دور النشر تأباه وتعترض عليه، وتحرص ألا تتورط فيه، وهذه أول ظاهرة سيئة تلازم الحركة الرياضية بيد أن هنالك ظاهرة أهم واخطر، هي اليوم موضع الجدل في فرنسا، وذلك أن الأساتذة والمفكرين قد اخذوا يتوجسون خفية من عواقب هذا التيار الرياضي الجارف، ويقول كثير منهم اليوم إن الانهماك في الألعاب الرياضية إلى هذه الحدود يخشى أن يسفر عن عواقب سيئة في تكوين النشئ، وأن يخرج للأمة شباباً من الذكور والاناث، يتمتعون بأجسام وهيئات حسنة؛ ولكن بعقول وأذهان ضيقة؛ لا يسهل فهمهم ولا يحتمل التفاهم معهم؛ يضيقون ذرعاً بالإيضاح والتروي؛ ويجنحون إلى الإيجاز والتحكم، وهذا ما يلاحظ اليوم على معظم الشباب الرياضي؛ وفي رأي هؤلاء إن الشباب الرياضي إنما هو عنصر منحط من الوجهة العقلية والثقافية؛ وإذا كانت الرياضة تبعث النشاط إلى العقل؛ فإن الانهماك فيها من جهة أخرى يحول دون ثقافة الذهن ومرونته؛ ولاسيما في هذا العصر الذي ضاقت فيه الأوقات؛ وحملت السرعة كل مجتمع؛ ولم تبقى أمام النشئ فرصة للارتواء من تلك المناهل الثقافية التي أتيحت لآبائهم. فهل تكون هذه الدعوة بدء انحلال في الحمى الرياضية التي تغمر المجتمع؟ هذا ما سيبدو لنا في المستقبل

القريب
هبة فنية
من أنباء فينا إن أكاديمية الفنون الحية قد تلقت وصية من سيدة كبيرة، توصي فيها إليها بمجموعتها الفنية النفيسة. والسيدة المذكورة هي زوج المستشار السابق البرخت شميت، وكانت من أكابر الهواة، وقد جمعت في حياتها كثيراً من التحف الفنية النادرة، وفيها صورة أصلية من صنع تنتيرتو وهو من أعظم مصوري إيطاليا في القرن السادس عشر، ومنها آنية بديعة من المرمر تقدر بمئات الألوف، وتحف ثمينة أخرى.
الشاعر الفرنسي لوي مارساللو
لم يكن لوي مارساللو الشاعر الفرنسي الذي توفي أخيراً، شاعراً كبيراً فقط، ولكنه كان أيضاً صحفياً ذا أسلوب ساحر، وكان مؤلفاً مسرحياً تنال قطعه المسرحية في الكوميدي فرانسيز اعظم تقدير واستحسان. بيدا أن مارساللو اشتهر كشاعر قبل كل شيء. وقد ظهر له أول ديوان شعري، سنة 1886 وهو في الثانية والعشرين فقط بعنوان (القبلات الضائعة)؛ وهو بريتاني الأصل ولد في بريست سنة 1864، وقدم إلى باريس فتى، وانخرط في سلك جماعة أدبية كان فيها شارل كروس وماري كرسنسكا وجورج لوران؛ ولم يبقى منها حياً إلى اليوم سوى جان اجالبر. وقد ظهر في ديوانه الأول (القبلات الضائعة) مبلغ تأثره بمناظر وطنه الأصلي، وتقاليده وكبريائه الطبيعية. ثم كتب مارساللو بعد ذلك للمسرح فصادف فيه نجاحاً عظيماً. ومن قطعه المشهورة، (الملك المغرم) (شريط بسيشيه) وقد مثلتا مع غيرهما من قطعه في الكوميدي فرانسيز، و (قلبه الصغير) و (ملاهي باريس) التي كتبها مع جورج كورتلين أمير الفكاهة، و (شخص يعكر الحفلة) وغيرها وقد مثلت في مسارح باريس الكبرى، وكان مارساللو صحفياً ونقاداً بارعاً يعمل في بعض الصحف الباريسية، ولكن النزعة الشعرية كانت تغلب عليه دائماً.
معهد للدراسات السياسية
أنشئ في باريس معهد للدراسات السياسية الخارجية، واشترك في إنشائه جامعة باريس ومدرسة العلوم السياسية، ومكتبة الوثائق الدولية المعاصرة، وجماعة الدراسات الدبلوماسية، وقد زود هذا المعهد بمكتبة سياسية عظيمة تشمل نحو مائة وأربعين ألف مجلد في مختلف المسائل والشؤون الدبلوماسية، والوثائق والمعاهدات والمذكرات السياسية، وسينقسم المعهد إلى أقسام يلتحق بها الأخصائيون في كل ناحية من النواحي التي يعني بها سواءً كانوا من أساتذة الجامعات ام رجال السياسة، ام رجال الأعمال، أو الصحفيين السياسيين. واهم أعماله الثقافية تنحصر في تنظيم محاضرات ودراسات سياسية عالية: وقد افتتح المعهد دورته الحالية بإلقاء محاضرة موضوعها (نهوض العالم العربي وأثره في أفريقية الشمالية) ألقاها الكابتن مونتاني مدير المعهد الفرنسي بدمشق، تحت رياسة الأستاذ شارليتي مدير جامعة باريس، واشترك في مناقشة الموضوع جمع من أعلام الأساتذة والساسة
والظاهر إن غاية هذا المعهد ترمي قبل كل شيء إلى خدمة السياسة الفرنسية وتوجيهها إلى ما يحقق مصالح فرنسا الخارجية والاستعمارية، وذلك بدرسها على ضوء التطورات السياسية الدولية
الكتب
المختار من شعر بشار
بقلم محمد فهمي عبد اللطيف
بشار بن برد شاعر مطبوع خلاق، نقل الشعر العربي من جفوة البداوة إلى رقة الحضارة، فنهج به في الأداء منهجاً مطرد القياس، سهل المخرج، وحمله من المعاني كل بديع مخترع، فسمي لذلك أبا المحدثين وشيخهم. ولقد كان فوق ذلك ثرّ القريحة، فياض الشاعرية، واسع المجال، حدث عن نفسه قال: لي اثنا عشر ألف بيت عين، فقيل له هذا ما لم يكن يدعيه أحد سواك!! فقال: لي اثنا عشر ألف قصيدة لعنها الله ولعن قائلها إن لم يكن في كل واحدة منها بيت فرد
ولكن هذه الثروة الشعرية الضخمة ضاعت في أجواء العصور الخالية، وذهبت بين سمع الأرض وبصرها، ولم يصلنا منها إلا نتف قصيرة جاءت في الأغاني وفي غيره من كتب الأدب والتراجم. ولقد اخبر العلامة المرحوم أحمد تيمور باشا منذ سنين بأن

نسخة خطية من ديوان بشار موجودة في تونس لدى الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب عضو المجمع العلمي بدمشق وانه شارع في طبعه واخراجه، فتلهفت نفوس الأدباء على تحقيق هذه الأمنية العزيزة، وكتب بعضهم في مجلة المجمع العلمي يستحث همة الأستاذ حسن حسني على الإنجاز، وتقدم السيد بدر الدين العلوي بكلمة قال فيها أنه وجد نسخة عنوانها: المختار من شعر بشار في حيدر آباد بالهند، وهي من اختيار الخالديين أبي بكر وأبي سعيد شاعري سيف الدولة وخازني دار كتبه، وعليها شرح من عمل أبي الطاهر إسماعيل بن احمد بن زيادة من أدباء القرن الرابع، ثم ذكر أنه يستعد لطبع هذا المختار وإخراجه في اقرب نهزة بمساعدة الأستاذ عبد العزيز الميمني المدرس بجامعة عليكرة، ثم ناشد الأستاذ حسني عبد الوهاب أن يعينه وان يخبره عن النسخة الموجودة لديه فلعلها تكون نسخة أخرى من المختار، ولكن الأستاذ حسني ضجع في الأمر ولم يسعف، وبقى الأستاذ بدر الدين عند وعده ومازال حتى أدى الأمانة ووفي دين العربية فدفع بالمختار منذ حين إلى (لجنة التأليف والترجمة والنشر) فجلته للناس في ثوب قشيب، صقيل الورق، جيد الطبع، دقيق التصحيح، مستوفي البيانات والتعاليق، مذيلاً بالفهارس الكاملة، والفوائد المتممة. .

ولقد قرأت الكتاب فرأيته لا يشتمل على مقدار كبير من شعر بشار، ولكن اكثر ما به من القصائد والمقطوعات لا يوجد في غيره من كتب الأدب المعروفة. ويبدو لي أن الكتاب لا يشتمل على كل ما اختاره الخالديان بدليل قول الشارح: (ورأيت بعد نظري في اختيار الخالديين وما اخترته منه. . ص8)، وقوله في النهاية (انتهى اختيارنا فيما وجدناه من المختار من شعر بشار. .)، فكأنه قد اختار بعض ما اختاره الخالديان، بل إن كلمة (وجدناه) تدل على أن ما اختاره الخالديان لم يقع جميعه بالشارح

أما الكتاب من حيث هو فروض أدب حافل، يأتي عليه القارئ بلذة وشغف؟ فقد نهج الشارح في شرحه منهج الاستطراد، يذكر أبيات بشار ثم يشرحها شرحاً لغوياً وافياً إن كان بها من الألفاظ ما يستغلق على القارئ، ثم يذكر ما لها من الأشباه والنظائر لفظاً ومعنى في شعر المتقدمين الذين اخذ منهم بشار، أو المتأخرين الذين اخذوا عن بشار؛ والرجل يطيل كثيراً في سرد الأشباه والنظائر كأنه يباهي بكثرة محفوظة، وقد يذكر ما يتصل بذلك من أخبار الشعراء ونوادرهم مما جعل الكتاب حافلاً ممتعاً، تظن وأنت تقرأ فيه انك تقرأ في (البيان والتبيين) أو في (زهر الآداب) أو في غير ذلك من الكتب التي تشتمل على أمشاج من الأدب، وصنوف من المعارف. .

وقد يكون من الإنصاف أن نذكر بالثناء المجهود الكبير الذي بذله الأديب الناشر في إخراج الكتاب وضبطه وتصحيحه وتعليق الفوائد عليه وتخريج أبياته، كما لا يفوتنا أن ننبه إلى بعض هفوات قد ندت عن خاطره اليقظ، فمن ذلك أنه نظر في قول الشارح: (ولكنه لتراخي الحالب وتضجيعه ص112) فلم يطمئن لكلمة تضجيعه وقال لعلها تضييعه، وكلمة التضجيع اصح وأدق وهي التي أرادها الشارح، فإنه يقال ضجع فلان في الأمر إذا تراخى فيه وأهمله

ومن ذلك أنه قيد كلمة (الحبوة) بالضم في قول الشارح (فما حل حبوته ولا كلمهم حتى قضى سبحته ص193) وإنما هي بالكسر، أما بالضم فمعناها العطاء ولا يصح هذا المعنى في هذا التركيب

ومن ذلك أنه علق على قول عدي بن الرقاع (ص216) فكأنها بين النساء أعارها عينيه أحور من جآذر (عاسم) فقال يروي عاسم وجاسم، وذكر أن عاسماً اسم موضع، قلنا وقد جاءت الكلمة في الشعر والشعراء بالغين المعجمة، وحقيقتها جاسم بالجيم اسم قرية بالشام قريبة من دمشق وقريبة من موطن الشاعر وقد وردت في قول حسان: فالمرج مرج الصفرين (فجاسم) فديار سلمى درساً لم تحلل

ومن ذلك أنه أورد قول ابن الرومي (ص235) وما تعتريها آفة بشرية من النوم إلا (إنه تتحير) فأثبت (أنه) بالهاء كما في الأصل، ورأى أن كلمة تتحير تصحيف تتخثر، وهذا تخريج يفسد معنى البيت ويتجه به إلى الهجاء وما أراد ابن الرومي إلا وصف محبوبته بالحسن، وإنما صحة القول (إلا أنه تتحير)

ومن ذلك أنه حسب كلمة الحضر محرفة عن الخفر في قول الشارح: (فهذه القبنة من أهل الكفايا والترفة والحضر ص257)، وعندنا أن كلمة الحضر هي المتعينة في هذا

المقام فقد عقب عليها الشارح بما يعينها فقال (وليست ممن يمتهن ويبتذل في رعي الغنم والإبل أي إنها من أهل الحضارة لا من أهل البداوة) وهذا ما يريده بشار في البيت الذي يتولى الشارح تفسيره بهذه الكلمات

على أن هذه هنات طفيفة خفيفة لا تغض من قيمة كتاب قل أن تخرج المطابع مثله دقة في التصحيح والتنقيح، فالشكر الجزيل للأستاذ الناشر على جهده واهتمامه، وللجنة التأليف والترجمة والنشر على عنايتها بإخراج هذا الكتاب الذي لا يستغني عنه أديب. . .

محمد فهمي عبد اللطيف

العدد 96 - بتاريخ: 06 - 05 - 1935

بنك مصر

غداً في الساعة الخامسة يبدأ الاحتفال القومي بمرور خمسة عشر عاما على مولد بنك مصر. والاحتفال بعيد هذا البنك النامي الخصيب احتفال بالنصر المؤزر في جهاد الأمة لاستقلالها الحق؛ فإن مصر منذ انحسر عن الأرض ذلك الطوفان الدموي الذي غمرها أربع سنين، هبت تقرر في الدول وجودها الطبيعي الحر، فما صغت لها إذن، ولا نهضت بحجتها عدالة. ذلك لأن أوربا الجائعة المجهودة تريد أن تسد فجوات القنابل وحفائر الخنادق وأخاديد القبور بما بقي على الأحداث من أقوات الشرق؛ والشرقي - كما تعلم - يستطيل بالكرم ويستعز بالجاه، فما دمت تحله الصدر، وتبوئه الوظيفة، فلا عليه بعد ذلك أن يكون كرسيه بالاستعارة، ومأكله بالدين، ومسكنه بالأجرة!

حمل المنتجون العجاف من أهل أوربا ثمر نشاطهم الصناعي إلى أسواقنا القاصرة المستهلكة، وقاموا على أرزاقنا مقام القيم يبِصُّون لنا بما لا يكاد يستر الجسم ويمسك الرمق، ثم يحولونها عمرانا في خرائب باريس، وسلطاناً في حكومة لندن، ويسمعوننا نثور في المحابر ونصيح على المنابر، فيقولون اكتبوا ما واتى المداد القلم، وأخطبوا ما أسعف الريق اللسان، فلن ينزع العلق خراطيمه الماصة من الجلد مادامت الجنود مقبورة في الثكنات، والأموال مطمورة في الخزائن! حينئذ قال رجل الساعة محمد طلعت حرب باشا: رويدكم! سنرسلها شعواء بالذهب لا بالحديد!

كانت مصر في العهد الذي أسس فيه بنك مصر في مأزق من مآزق الحياة المشتبهة الخادعة: تنعم في رخاء كاذب وأمن مريب، ووراءها أوزار حرب ضروس، وأمامها لوائح أزمة طاحنة، وشباب البلاد تعصف في رءوسهم نخوة الوطنية والحرية والكرامة، فلا يفكرون إلا في الإحتلال، ولا يعملون إلا للسياسة؛ وأغنياء الأمة جاثمون على أموالهم المكدسة جثوم الدجاجة المرخم على بيضها العقيم، لا يُثمِّرونه بأنفسهم لنقص الكفاية، ولا يكلون استثماره لغيرهم لفقد الثقة؛ ورجال الدولة مشغولون بجباية الخراج، وتحضير الميزانية، واستئناف المفاوضات، وتحرير مشروعات المعاهدة، فلا يملكون حماية التجارة لقيود الجمرك، ولا يستطيعون إنشاء الصناعة لمناوأة المحتل؛ والأجانب عاكفون على منابع الوادي يستنزفونها بالربا، ويكدرونها بالسفه، ثم لا يسمحون للظمآن أن يألم، ولا للمهان أن يغضب

وكانت عناية الله التي ألهمت سعد زغلول أن يخرج شعبه من رق الاحتلال السياسي، هي التي ألهمت في الوقت نفسه طلعت حرب أن يخرج قومه من رق الاحتلال الاقتصادي؛ وكلا الرجلين منذ نشأ ميسر لما قام له: فسعد باشا بطبعه رجل كفاح وخصومه وزعيم برلمان وحكومة، ورسول من رسول الوطنية الروحية، له عصمته وجاذبيته وإيمانه؛ وطلعت باشا بطبعه رجل إنشاء وعمل، وصاحب تدبير وخطة، ورسول من رسل الوطنية المادية، يهذب النفس برفاهة الجسم، ويرفع العمران بوفرة الإنتاج، ويضمن الاستقلال بقوة الثروة، وله كذلك عبقريته ونزاهته وإخلاصه

وثق الناس بالزعيمين الخطيرين فجادوا للأول بالأنفس فشاد بيت الأمة، وكون الرأي العام، وألف الوفد؛ وجادوا للثاني بالأموال، فشاد بنك مصر، وأنشأت شركات مصر، وكوّن ثروة مصر؛ وربى سعد باشا لوطنه شباب جهاد وتضحية، كانوا منه مكان القلب الشاعر، والحس المدرك، والروح الملهم؛ وربى طلعت باشا لشعبه شباب اقتصاد وروية، كانوا منه مكان البصيرة الحازمة، واليد العاملة، والعقل المنظم؛ ثم كان من هؤلاء وهؤلاء دليل ناهض على يقظة هذه الأمة وشعورها بإرادتها لما تفعل، وسيادتها على ما تملك، وحريتها فيما تريد

لا أستطيع بهذا القلم الموجز في هذا المكان المحدود أن اجمل ما أضفاه بنك مصر وشركاته ومنشآته من النعمة على الأمة؛ وإن في تقرير مجلس الإدارة الذي نشر منذ أيام عن السنة الخامسة عشرة من حياة البنك، والخطبة الخطيرة الذي سيلقيها المدير الجليل في احتفال الغد عن حياة البنك، لبلاغاً لمن لم يسمع إلى اليوم ذلك اللحن القومي القدسي الذي يتألف من صريف الأموال المصرية في البنك، وهدير البواخر المصرية في البحر، وأزيز الطوائر المصرية في الجو، ودوي المصانع المصرية في المحلة!

إن نجاح بنك مصر وشركاته هو وحده الحجة الدامغة على نضوج هذا الشعب، لأنه نسق من الضرورة والقدرة والنظام والثقة لا يقوم على الهوى، ولا ينتظم على الطيش، ولا يصبر على الفساد، ولا يتقدم على العجز، ولا يبلغ شيئا وراء الزعامة الرخوة؛ فبينما نجد النهضة السياسية تنتكس فترجع إلى الموت، والحالة الأخلاقية تنحل فتعود إلى المهانة، والحركة الأدبية تضطرب فتنقلب إلى الفوضى، نجد هذا البنك ينمو نمو النبات بَرَكة على

بَرَكة، ويتضاعف تضاعف الحياة شركة بعد شركة، ويجذب الوجود المصري معه إلى السبيل التي يأمن فيها الفناء، ويخرج منها إلى العافية!

أحمد حسن الزيات

الانتحار

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال المسيب بن رافع: وقام الشعبي إلى رجل فأعتنقه فرحا بما آل أمره إليه، بعد إذ رأى النور يجري على لونه ويترقرق في ديباجته؛ كأنما وقع الصلح بين وجهه وبين الحياة. ثم قال له: نِعمَ أخو الإسلام أنت، فاستعذ بالله من خذلانه، فإنه ما خذ لك إلا وضعك نفسك بازاء الله تعارضه أو تجاريه في قدرته، فيكلك إلى هذه النفس، فتنتهي بك إلى العجز، وينتهي العجز بك إلى السخط؛ ومتى كنت عاجزا ساخطا، محصورا في نفسك، موكولا إلى قدرتك - كنت كالأسد الجائع في القفر، إذا ظن أن قوّته تتناول خلقَ الفريسة؛ فيدعو ذلك إلى نفسك اليأس والانزعاج والكآبة، وأمثالها من هذه المهلكات تقدح في قلبك الشك في الله، وتثبت في روعك شرَّ الحياة، وتهدي إلى خاطرك حماقات العقل، وتقرر عندك عجز الإرادة؛ فتنتهي من كل ذلك ميِّتا قد أزهقتك نفسك قبل أن تزهقها!

ولو كنت بدل إيمانك بنفسك قد آمنت بالله حق الإيمان - لسلطك الله على نفسك ولم يسلطها عليك؛ فإذا رمتك المطامع بالحاجة التي لا تقدر عليها، رميتها من نفسك بالاستغناء الذي تقدر عليه؛ وإذا جاءتك الشهوات من ناحية الرغبة المقبلة، جئتها من ناحية الزهد المنصرف؛ وإذا ساورتك كبرياء الدنيا أذللتها بكبرياء الآخرة.

وبهذا تنقلب الأحزان والآلام ضروباً من فرح الفوز والانتصار على النفس وشهواتها، وكانت فنوناً من الخذلان والهمّ؛ وتعود موضع فخر ومباهاة، وكانت أسباب خزي وانكسار. وعزيمة الإيمان إذا هي قويت حصرت البلاء في مقداره، فإذا حصرته لم تزل تنقص من معانيه شيئاً شيئاً؛ فإذا ضعفت هذه العزيمة جاء البلاء غامراً متغشياً يجاوز مقداره بما يصحبه من الخوف والروع، فلا تزال معانيه تزيد شيئاً شيئاً بما فيه وبما ليس فيه.

وللإيمان ضوء في النفس ينير ما حولها - فتراه على حقيقته الفانية وشيكا أن يزول؛ فإذا انطفأ هذا الضوء انطمست الأشياء فتتوهمها النفس أوهاما متباينة على أحوالها المختلفة: كما يرى الأعمى يوهمه؛ لاعينه مع الأشياء تكون في طبيعتها، ولا أشياؤه عند عينه تكون في حقيقتها.

قال المسيب: وكانت الشمس قد طفلت للمغيب؛ فقال الأمام للرجل: قم فتوضأ وأسبغ

الوضوء، وسأعلمك أمرا تنتفع به في دينك ودنياك: فإذا قمت إلى وضوئك فأيقن في نفسك واعزم في خاطرك على إن في هذا الماء سرا روحانيا من أسرار الغيب والحياة، وأنه رمز للسماء عندك، وانك إنما تتطهر به من ظلمات نفسك التي امتدت على اطرافك؛ ثم سمِّ الله تعالى مفيضاً أسمه القادر الكريم على الماء وعلى نفسك معاً، ثم تمثل انك غسلت يديك مما فيهما ومما تتعاطاه بهما من أعمال الدنيا، وأنك

أخذ فيهما من السماء لوجهك وأعضاءك؛ وقرر عند نفسك أن الوضوء ليس شيئاً ألا مسحةً سماوية تسبغها على كل اطرافك، ليشعر بها جسمك وعقلك؛ وانك بهذه المسحة السماوية تستقبل الله في صلاتك سماوياً لا أرضيا.

فإذا أنت استشعرت هذا وعملت عليه وصار عادةً لك، فإن الوضوء حينئذ ينزل من النفس منزلة الدواء، كلما اغتنمت أو تكرهت أو تسخطت، أو غشيك حزن أو عرض لك وسواس؛ فما تتوضأ على تلك النية إلا غسلت الحياة وغسلت الساعة التي أنت فيها من الحياة وترى الماء تحسبه هدوءاً ليناً لين الرضا وإذا هو ينساب في شعورك وفي أحوالك جميعا.

قال المسيب: وقمت أنا فجددت وضوئي على هذه الصفة في تلك النية؛ فإذا أنا عند نفسي مستضيئ بروح نجمية لها إشراق وسناء، وإذا الوضوء في أضعف معانيه هو ما علمنا من أنه الطهارة والنظافة، أما في أقوى معانيه فهو إفاضة من السماء فيها التقديس والتزكية وغسل الوقت الإنساني مما يخالطه كلما مرت ساعات وابتداؤه للروح كالنبات الأخضر ناضراً مطلولاً مترطباً بالماء.

ثم صلى بنا الشيخ وأمرني بالمبيت مع الرجل، كأنما خشي البدوات أن تبدو له فتنقض عزمه، أو كأن الشيخ لم يأمن على الرجل أن يكون إنسانه الروحي قد تنبه بأكمله فوضعني كالتنبيه له.

وجاءنا العشاء من دار الشيخ فطعمنا، ثم قام الرجل فتوضأ وصلينا العتمة وجلسنا نتحدث، فاستنبأته نبأه، فقال: مهلاً، ثم نهض فتوضأ الثالثة وقال: تالله ما أعرف الوضوء بعد اليوم إلا ملامسةً بين السماء والنفس. وما أعرف وقته من الروح إلا كساعة الفجر على النبات الأخضر.

قال المسيب: أتصبحنا فغدونا على الامام؛ ثم لزمني الرجل في بعض أموري، ثم وافينا المسجد صلاة العصر لحضور درس الشيخ؛ وكان الناس كالحب المتراصف على العنقود لا أدري من ساقهم وجمعهم؛ كأنما علمت الكوفة أن رجلاً مسلماً كفر بالله كفرة صلعاء، وأنه سيحضر درس الشيخ وسيحضر الشيخ من أجله، فهبت الرياح الأربع تسوق أهلاها إلى المسجد من أقطارها.

وجلس الشيخ مجلس الحديث فقال:

روينا أن رجلاً كانت به جراحة، فأتى قرناً له فأخذ مشقصاً فذبح به نفسه؛ فلم يصل عليه النبي (صلى الله عليه وسلم) وترك جنازته مطرودةً تقتحم متلفة الآخرة كما اقتحمت متلفة الدنيا!

روينا في الحديث عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: الذي يخنق نفسه يخنقها في النار، والذي يطعن نفسه يطعن نفسه في النار، والذي يقتحم يقتحم في النار!.

روينا عنه (صلى الله عليه وسلم): (من قتل نفسه بشيء عذب به يوم القيامة!)

روينا عنه (صلى الله عليه وسلم) قال: (كان رجلا به جراح فقتل نفسه، فقال الله: بدرني عبدي بنفسه فحرمت عليه الجنة!).

قال الشعبي: يقول الله: (بدرني عبدي بنفسه) أي بدرني وتأله في أخر أنفاسه لحظة ينقلب الي، فكان مع ظلمه مغرورا أحمق!.

بدرني وتأله حين ضاق، فهور نفسه في الموت من عجزه أن يمسكها في الحياة، فكان عاجزا مع ظلمه وغروره وحمقه!

بدرني وتأله على جهله بسر الحياة وحكمتها، فلم يستح هذا المخلوق الظالم المغرور في حمقه وعجزه وجهله - لم يستح أن يجيئني في صورة إله!

بدرني وتأله، فطبع نفسه طابعها الأبدي من غي وتمرد وسفاهة، وأرسلها إلى مقتولة يردها علي

بدرني وتأله، كأنما يقول: أن له نصف الأمر ولي النصف، أنا أحييت وهو أمات . . .!

بدرني عبدي بنفسه فحرمت عليه الجنة!

قال الشعبي: وإنما تحرم الجنة على من يقتل نفسه، إذ ينقلب إلى الله وعلى روحه جناية يده ما تفارقها إلى الأبد؛ فهو هناك جيفة من الجيف مسمومة أبدا، أو مخنوقة أبدا، أو

مذبوحة أبدا، أو مهشمة أبدا، يقول الله له: أنت بدرتني بنفسك، وجريت معي في القدر مجرى واحدا، فستخلد نفسك في الصورة التي هي من عملك، وما قتلت ألا

حسناتك.
قال الشعبي: ولو عرف قاتل نفسه أنه سيصنع من نفسه جيفة أبدية، فمن ذا الذي يعرف أنه إذا فعل كذا وكذا تحول حمارا وبقي حمارا فيرضى أن يتحول ويسرع ليتحول؟
من ذلك نظر النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى جنازة ذلك الرجل الذي قتل نفسه كما ينظر إلى ذبابة توجهت بالسب إلى الشمس والكواكب والأفلاك كلها، ثم جاءته تقول له: اشهد لي.
قال الشيخ: ومم يقتل الإنسان نفسه؟ أما إن الموت آتٍ لا ريب فيه ولا مقصر لحي عنه، وهو الخيبة الكبرى تلقى على هذه الحياة، فما ضرر الخيبة الصغيرة في أمر من أمور الدنيا؟
أن المرء لا يقتل نفسه من نجاح بل من خيبة؛ فإن كانت الخيبة من مال فهي الفقر أو الحاجة، وان كانت من عافية فهي المرض أو الاختلال؛ وإن كانت من عزة فهي الذل أو البؤس، وان كانت مما سوى ذلك - كالنساء وغيرهن - فهي العجز عن الشهوة أو التخيل الفاسد
وليس يخيب الإنسان إلا خيبة عقل أو ارادة، والا فالفقر والحاجة، والمرض والاختلال، والذل والبؤس، والعجز عن الشهوة وفساد التخيل - كل ذلك موجود في الناس، يحمله أهله راضين به صابرين عليه، وهو الغبار النفسي لهذه الأرض على نفوس أهلها، ويا عجبا أن العميان هم بالطبيعة اكثر الناس ضحكا وابتساما وعبثا وسخرية؛ أفتريدون أن تخاطبكم الحياة بأفصح من ذلك؟
ليست الخيبة هي الشر، بل الشر كله في العقل إذا تبلد فجمد على حالة واحدة من الطمع الخائب، أو في الإرادة إذا وهنت فبقيت متعلقة بما لم يوجد. أفلا ترون أنه حين لا يبالي العقل ولا الإرادة لا يبقى للخيبة معنى ولا أثر في النفس، ولا يخيب الإنسان حينئذ بل تخيب الخيبة نفسها؟
لهذا يأبى الإسلام على أهله الترف العقلي والتخيل الفاسد، ويشتد كل الشدة في أمر الإرادة؛ فلا يترخص في شيء يتعلق بها، ولا يزال ينميها بأعمال يومية تشد منها لتكون رقيبة على
العقل حارسة له، فإن للعقل أمراضا كثيرة يطيش فيها درجات من الطيش حتى يبلغ الجنون أحياناً؛ فكانت الإرادة عقلا للعقل؛ هل لينة إذا تصلب، وهي حركته إذا تبلد، وهي حلمه إذا طاش، وهي رضاه إذا سخط
الإرادة شيء بين الروح والعقل، فهي بين وجودين؛ ولهذا يكون بها الإنسان بين وجودين أيضا، فيستطيع إن يعيش هو في الدنيا كالمنفصل عنها، إذ يكون في وجوده الأقوى، وجود روحه، وأكبر همه نجاحه في هذا الوجود
وهذا النجاح لا يأتي من المال، ولا تحققه العافية، ولا تيسره الشهوات، ولا ينسيه التخيل الفاسد؛ ولا يكون من متاع الغرور، ولا مما عمره خمسون سنة أو مائة سنة، بل يأتي مما عمره الخلود، ومما هو باق أبدا في معانيه من الخير والحق والصلاح.
فههنا يعين المرض بالصبر عليه مالا تعين الصحة، ويفيد الفقر بحقائقه ما لا تفيد الثروة؛ وهنا يكون العقل الإنساني عاملا اكثر مما هو متخيل، وقانعا اكثر مما هو طامع، وههنا لا موضع لغلبة الشهوة، ولا كبرياء النفس، ولا حب الذات؛ وهذه الثلاث هي جالبة الشقاء على الإنسان حتى في أحوال السعادة، وبدونها يكون الإنسان هانئا حتى في أحوال الشقاء
بالإرادة المؤمنة القوية ينصرف ذكاء المؤمن إلى حقائق العالم وصلاح النفس بها، وبغير هذه الإرادة ينصرف الذكاء إلى خيال الإنسان وفساد الإنسان
وإذا انصرف الذكاء إلى حقائق الدنيا كان العقل سهلا مرنا مطواعا، واستحال عليه أن يفهم فكرة قتل النفس أو يقرَّها؛ فإن هذه الفكرة الخبيثة لا تستطرق إلى العقل إلا إذا تحجر وانحصر في غرض وأحدٍ قد خاب وخابت فيه الإرادة ففرغت الدنيا عنده
ولو أن أمرا أتم عزمه على قتل نفسه ثم صابر الدنيا اياما، لانفسخ عزمه أو رك، إذ يلين العقل في هذه المدة نوعا ما، ويجعل الصبر بينه وبين المصيبة مسافة ما، فتتغير حالة النفس هونا ما. فالصبر كالتروح بالهواء على العقل الذي يكاد يختنق من احتباسه في معنى وأحد مقفل من جوانبه. ومثل العقل في هذه الحال مثل القائم في إعصار

لفه بالتراب لفاً وسد عليه منافذ الهواء، وحبسه في هذا التراب الملتف حبس الحشرة في جوف القصبة؛ فهو على اليقين أنها حالة ساعة طارئة في الزمن لا حالة الزمن؛ وأن الهواء الذي جاء بهذا الهم هو الذي يذهب بهذا الهم

وكما أن الأرض هي شيء غير هذا الإعصار الثائر منها، فالحياة كذلك هي أمر أخر غير شقائها

قال الإمام: وفي كتاب الله آيتان تدلان على أنه كتاب الدنيا كلها، إذ وضع لهذه الدنيا مثالين: أحدهما المثال الروحي للفرد الكامل، والأخر المثال الروحي للجماعة الكاملة أما الآية الأولى فهي قوله تعالى: (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الأخر.)

واما الثانية فهي قوله تعالى: (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم.)

ففي رجاء الله واليوم الأخر يتسامى الإنسان فوق هذه الحياة الفانية، فتمر همومها حوله ولا تصدمه، إذ هي في الحقيقة تجري من تحته فكأن لا سلطان لها عليه؛ وهذه الهموم تجد في مثل هذه النفس قوى بالغة تصرفها كيف شاءت، فلا يجيء الهم قوة تسحق ضعفا، بل قوة تمتحن قوة أخرى أو تثيرها لتكون عملا ظاهرا يقلده الناس وينتفعون منه بالأسوة الحسنة، والأسوة وحدها هي علم الحياة

وقد ترى الفقير من الناس تحسبه مسكينا، وهو في حقيقته أستاذ من أكبر الأساتيذ يلقي على الناس دروس نفسه القوية

وفي رجاء الله واليوم الأخر يبطل أكبر أسباب الشرَّ في الناس، وهو نظر الإنسان لمن هو أحظى منه بفتنة الدنيا نظرا لا يبعث ألا الحقد والسخط، فينظر المؤمن حينئذ إلى ما في الناس من الخير والصلاح والإيمان والحق والفضيلة، وهذه بطبيعتها لا تبعث ألا السرور والغبطة، ومن جعلها في تفكيره ابطل اكثر الدنيا من تفكيره؛ وبها تسقط الفروق بين الناس عاليهم ونازلهم؛ كالرحل الفقير العالم إذا قدم على الغني العالم؛ جمع بينهما الاتفاق العقلي وسقط ما عداه

وفي رجاء الله واليوم الأخر يعيش الإنسان عمره الطويل أو القصير كأنه في يوم يصبح منه عاديا على الحشر والحساب؛ فهو متصل بالخلود غير معنى إلا بأسبابه؛ وبهذا تكون أمراضه وآلامه ومصائبه ليست مكاره من الدنيا، بل هي تلك المكاره التي حفت الجنة بها؛ ولا يضره الحرمان لأنه قريب الزوال، ولا يغره المتاع لأنه قريب الزوال أيضا

وفي رجاء الله واليوم الأخر يسود الإنسان على نفسه؛ ومن كان سيد نفسه كان سيد ما حولها يصرفه بحكمه، ومن كان عبد نفسه صرفه بحكمه كل ما حوله

قال الشعبي: وأما المثال الروحي للجماعة الكاملة، فهو في وصف المؤمنين بأنهم (رحماء بينهم) فهذا هذا، ما أحسبه يحتاج إلى بسط وبيان

إن اكثر ما يضيق به الإنسان يكون من قبل من حوله ممن يعايشهم ويتصل بهم لا من قبل نفسه، فإذا قام اجتماع أمة على أنهم (رحماء بينهم) تقررت العظمة النفسية للجميع على السواء؛ ومن كانوا كذلك لم يحقروا الفقير بفقره ولم يعظموا الغني لغناه، وإنما يحقرون ويعظمون لصفات سامية أو حقيرة. وبين هؤلاء يكون الفقير الصابر أعظم قدرا من الغني الشاكر، وأعظام الناس لفضيلة الفقير هو الذي يجعل فقره عند نفسه شيئا ذا قيمة في الإنسانية

ومتى تصححت آراء الجماعة في هذه المعاني المؤلمة للناس بطل المها واستحالت معانيها، وصار لا يبلي معنى من معاني الحياة في إنسان ألا وضع إيمانه معنى جديدا في مكانه، وتصبح الفضيلة وحدها غاية النفس في الجميع؛ وبذلك يصبر الفرد على مصائبه، لا بقوته وحده ولكن بجميع القوى التي حوله. أفلا ترون إن إعجاب الناس بالشجاعة وتعظيمهم صاحبها يضع في ألم السلاح لذة يحسها لحم الشجاع البطل؟

قال المسيب بن رافع: فقام رجل من المجلس. فقال: أيها الشيخ، وإذا فسد الناس وغلظت قلوبهم، وتقطعت بينهم الأسباب، ولم يعودوا (رحماء بينهم)، وشمتوا بالفقير، وتهزءوا بالمبتلى وطرحوه في ألسنتهم كما يطرح الشاعر في لسانه رجلا يهجوه لا يكف عنه - فما عسى أن يصنع المسكين حينئذ وكل شيء يدفعه إلى قتل نفسه؟

وقال الشعبي: ها هنا الرجاء في الله واليوم الأخر، وهو شعور لا يشترى بمال، ولا

يلتمس من أحد، ولا يعسر على من أراده؛ والفقير المبتلى وغيرهما إنما يصنع كل منهم مثاله السامي؛ فالصبر على هذا العنت هو صبر على إتمام المثال، وإذا وقع ما يسوؤك أو يحزنك فابحث فيه عن فكرته السامية، فقلما يخلو منها، بل قلما يجيء إلا بها

قال المسيب: فقام أخر فقال: وكيف يصنع أمرؤ آلت به أحوال الدنيا إلى ما يخيفه، أو بلغ الهم مبلغه من قلبه فهم أن يقتل نفسه؟

قال الشعبي: فليجعل الخوف خوفين: أحدهما خوفه عذاب الله خالدا مخلدا فيه أبدا؛ فيذهب الأقوى بالأضعف.

وإذا ابتلى فليضم إلى نفسه من هو اشد بلاء منه؛ ليكون همه أحد همين، فيذهب الأثقل بالأخف

إن الإنسان ونفسه في هذه الحياة كالذي أعطى طفلا نزقاً طياشاً عارماً متمرداً، ليؤدَّبه ويحكم تربيته وتقويمه، فيثبت بذلك أنه أستاذ، فيعطي اجر صبره وعمله، ثم يضيق الأستاذ بالطفل ساعة فيقتله. أكذلك التأديب والتربية؟

(لهذا المجلس بقية)

مصطفى صادق الرافعي

عصر الخلفاء في مصر الإسلامية

الحاكم بأمر الله - 5

للأستاذ محمد عبد الله عنان

ولم تقتصر سياسة الحاكم الدينية على هذه الناحية من اضطهاد النصارى واليهود، ولكنها كانت تتناول الناحية الإسلامية أيضا، بكثير من الأحكام والأوامر الشاذة. وقد كانت الخلافة الفاطمية تحكم في مصر شعبا لا يتبعها من الوجهة المذهبية، وكان العمل على تدعيم هذه الصبغة المذهبية أهم عناصر سياستها الدينية؛ وقد حذا الحاكم في ذلك حذو أبيه العزيز وجده المعز، وعمل لبث الدعوة الفاطمية في قوة وجرأة ولكن في نوع من التناقض أيضا؛ ففي سنة 395هـ، أمر بسب السلف (أبي بكر وعمر وعثمان وعائشة ومعاوية. . . الخ)، وكتب ذلك على أبواب الجوامع والمساجد والمقابر والحوانيت، وأرغم الناس على المجاهرة به ونقشه في سائر الأماكن. وفي نفس العام انشأ الحاكم دار الحكمة لتنظيم الدعوة وبثها بطريقة منظمة؛ وسنعود للكلام عنها في فصل خاص. وكان سب السلف مظاهرة شيعية عملية، ولكن سخيفة مبتذلة؛ فلم يلبث أن ضج الشعب لهذا الاجتراء المثير، وألغى المرسوم (سنة 97) وشدد في هذا المنع فيما بعد، وعوقب المخالفون بالضرب والتشهير. وفي سنة 398هـ صدر مرسوم يقرر بعض الأحكام الدينية ويفسرها، على أثر ما وقع بين الشيعة وأهل السنة من خلاف وشغب على فهم بعض الأحكام وتطبيقها؛ وهو مرسوم يشف عن روح العصر، ويحمل طابع التوفيق بين المذهبين، وإليك نصه بعد الديباجة:

أما بعد فإن أمير المؤمنين يتلو عليكم آية من كتاب الله المبين، لا إكراه في) الدين. . . مضى أمس بما فيه، وأتى اليوم بما يقتضيه؛ معاشر المسلمين نحن الائمة، وأنتم الأمة. . . من شهد الشهادتين. . . ولا يحل عروة بين اثنين، تجمعهما هذه الأخوة، عصم الله بها من عصم، وحرم عليها ما حرم، من كل محرم من دم ومال ومنكح، الصلاح والأصلح بين الناس أصلح؛ والفساد والإفساد من العباد يستقبح؛ يطوى ما كان فيما مضى فلا ينشر، ويعرض عما انقضى فلا يذكر؛ ولا يقبل على ما مر وأدبر من أجزاء الأمور على ما كانت في الأيام الخالية أيام آبائنا الأئمة المهتدين، سلام الله عليهم أجمعين، مهديهم بالله، وقائمهم بأمر الله، ومنصورهم بالله ومعزهم لدين الله، وهو إذ ذاك بالمهدية والمنصورية؛

وأحوال القيروان تجري فيها ظاهرة غير خفية، ليست بمستورة عنهم ولا مطوية؛ يصوم الصائمون على حسابهم ويفطرون؛ ولا يعارض أهل الرؤية فيما هم عليه صائمون ومفطرون؛ صلاة الخميس للدين بها جاءهم فيها يصلون، وصلاة الضحى وصلاة التراويح لا مانع لهم منها ولا هم عنها يدفعون؛ يخمس في التكبير على الجنائز المخمسون، ولا يمنع من التكبير عليها المربعون؛ يؤذن بحي على خير العمل المؤذنون، ولا يؤذى من بها لا يؤذنون؛ لا يسب أحد من السلف، ولا يحتسب على

الواصف فيهم بما يوصف، والخالف فيهم بما خلف؛ لكل مسلم مجتهد في دينه اجتهاده، وإلى الله ربه ميعاده عنده كتابه، وعليه حسابه؛ ليكن عباد الله على مثل هذا عملكم منذ اليوم؛ لا يستعلي مسلم على مسلم بما أعتقده، ولا يعترض معترض على صاحبه فيما أعتمده، من جميع ما نصه أمير المؤمنين في سجله هذا، وبعده قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم، إلى الله مرجعكم جميعا، فينبئكم بما كنتم تعملون). والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ كتب (في رمضان سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة

ومن الصعب أن نحدد موقف الحاكم إزاء الشؤون الدينية تحديداً واضحاً؛ فقد نسبت إليه في هذا الشأن تصرفات كثيرة متناقضة؛ وقيل أنه حاول أن يعدل بعض الأحكام الدينية الجوهرية كالصلاة والزكاة والصوم، بل قيل أنه شرع في إلغائها، غير أنه ليس ثمة ما يدل على أنه ذهب إلى هذا الحد، على الأقل في الفترة التي نتحدث عنها، وان لم يكن ثمة شك في أنه عدل بعض الأحكام والرسوم تعديلا يجعلها اقرب إلى الصبغة الذهبية. وأما عن عقيدة الحاكم الدينية فمن المجازفة أن يقطع فيها رأي حاسم، ومن المحقق أنها لم تثبت على وتيرة واحدة، وأنها حسبما تدل تصرفاته وأوامره الدينية، كانت تختلف باختلاف فترات حكمه؛ ونستطيع أن نصف الحاكم طورا بعد أخر، بالتعصب الديني والإغراق المذهبي، واليقين والتشكك، والإيمان والإلحاد؛ وسنرى عند الكلام عن الدعوة الفاطمية السرية أن الحاكم، كان في أواخر عصره يذهب إلى ابعد مدى من الغلو والإغراق، فيؤيد الدعوة السرية إلى نسخ أحكام الإسلام، وإلى الدعوة بألوهيته وقيامه. ويعترض ابن خلدون بشدة على القول بكفر الحاكم وإلحاده وإلغائه للصلاة، ويقول أنه زعم لا يقبله ذو عقل، ولو صدر من الحاكم شيء منه لقتل لوقته. بيد أن هذا المنطق لا يتفق مع الأدلة والوثائق التي انتهت إلينا عن الفترة الأخيرة عن عصر الحاكم وعن تصرفاته الدينية ومؤازرته للدعاة السريين كما سنبين بعد

ولننتقل إلى ناحية أخرى من تصرفات الحاكم هي تصرفاته المالية. كان الحاكم بإجماع الرواية، جواداً وافر البذل، وكان كثير الزهد بالمال؛ وكانت الخلافة الفاطمية قد حققت في عهدها القصير من الأموال والثروات الطائلة من الجواهر والتحف الباذخة ما يفيض في وصفه المؤرخون المعاصرون بما يدهش ويبهر، وتكدس لدى الحاكم من الأموال والتحف ما يجل قدره ووصفه. ولكن الحاكم لم يغرق في تلك المظاهر الفخمة التي كانت تنثرها الخلافة الفاطمية من حولها؛ وكان يؤثر بطبيعته مظاهر الانكماش والبساطة، وكان خلافا للطغاة يعف عن مال الرعية، فإذا بدا له أن يصادر مال كبير مغضوب عليه فإنه يضيفه إلى الأموال العامة، وقد انشأ لذلك ديونا خاصا يسمى بالديوان (المفرد) تضاف إليه أموال من يقضى عليهم بالمصادرة؛ وقد ترد هذه الأموال إلى أصحابها متى زالت أسباب السخط عليهم؛ وقد تبقى نهائيا وتستعمل في الشؤون العامة

واشتهر الحاكم طوال عهده بالسخاء والبذل، وكان يسرف في العطاء أحياناً إلى حدود تهدد مالية الخزينة، وتثير اعتراض الوزراء ورجال الدولة؛ ومما يؤثر في ذلك أن أمين الأمناء الحسين ابن طاهر الوزان اعترض ذات مرة على إسراف الحاكم في الصلات والعطايا، وبلغ الحاكم اعتراضه وتوقفه في تنفيذ الأوامر، فبعث إليه بخطه في الثامن والعشرين من رمضان سنة 403 بهذه الرقعة المؤثرة:

(بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله كما هو أهله ومستحقه:

أصبحت لا أرجو ولا اتقي ... إلا إلهي وله الفضل

جدي نبيٌّ، وإمامي أبي ... وديني الإخلاص والعدل

ما عندكم ينفذ، وما عند الله باق، والمال مال الله عزوجل، والخلق عيال الله، ونحن أمناؤه في الأرض، أطلق أرزاق الناس ولا تقطعها والسلام) وكان ذوو الحاجات يقصدون الحاكم أثناء طوافه، سواء بالنهار أو الليل، ويرفعون إليه حاجاتهم وظلاماتهم، فيقضي فيها بنفسه، ويقضي حاجات الكثيرين، ويثير العطايا على المحتاجين. بيد أنه لم يكن يخلو في ذلك من

الشذوذ أيضا فيبخل أحياناً بأقل الصلات
وكان الحاكم يميل إلى التخفيف عن الشعب في أمر الضرائب فكان يرفع عنه أحياناً بعض المكوس حين الأزمات العامة؛ وقد يعيدها طبقا للظروف والأحوال؛ ولما فتحت دار الحكمة كان من رسومها أن يؤدي (المؤمنون) مال النجوى، وهو رسم اختياري ينفق من دخله على النقباء، وكانت تحصل أحياناً وتبطل أحياناً

إلى جانب هذا الجود الشامل، وهذا التعفف عن أموال الرعية، كان الحاكم يتمتع بخلة أخرى اجمع المؤرخون على الإشادة بها، تلك هي زهده وتقشفه في مظاهره العامة وفي حياته الخاصة، ثم تواضعه المؤثر واحتقاره للرسوم والألقاب الفخمة التي كان يحيطه بها ملك قوي وخلافة باذخة. وكان لأول حكمه قد أمر بمنع الناس كافة من مخاطبة أحد أو مكاتبته بسيدنا ومولانا إلا أمير المؤمنين وحده؛ ثم عاد فاصدر أوامره، بألا يقبل أحد له الأرض، ولا يقبل أحد ركابه ولا يده عند السلام عليه، إذ لا يجوز الانحناء إلى الأرض لمخلوق، وإنما هي بدعة من صنيع الروم لا يجمل أن يجيزها أمير المؤمنين؛ ويكفي في السلام الخلافي أن يقال: (السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته)، كذلك يجب ألا يصلى عليه أحد في مكاتبة ولا مخاطبة، بل يقتصر في ذلك على (سلام الله وتحياته ونوامي بركاته على أمير المؤمنين) ويدعي له بما تيسر من الدعاء فقط، وقد كانت الصلاة على أمير المؤمنين من أخص رسوم الخلافة الفاطمية، وكانت الإمامة عنوانها، وكان يصلى على الخليفة كما يصلى على النبي في الخطبة، وفي المكاتبات والمحادثات الرسمية. ولكن الحاكم ابطل هذه الرسوم ولم يقل الخطباء يوم الجمعة سوى: (اللهم صلي على محمد المصطفى، وسلم على أمير المؤمنين على المرتضى، اللهم وسلم على أمراء المؤمنين، آباء أمير المؤمنين، اللهم اجعل افضل سلامك على عبدك وخليفتك. . . الخ)، ومنع الحاكم أيضا ضرب الطبول والأبواق حول القصر، فصار الحرس يطوفون بلا طبل ولا أبواق. وركب الحاكم يوم عيد الفطر (403هـ) إلى المصلى بلا زينة ولا جنائب ولا موكب فخم، واكتفى بأفراس عليها سرج ولجم محلاة بفضة خفيفة، وبنود ساذجة، ومظلة خلافية بيضاء بلا ذهب، يرتدي البياض بلا حلية ولا ذهب، وعمامة دون جوهر، ولم يفرش المنبر، ولم تتخذ بالمسجد أهبات غير عادية، وركب إلى الصلاة في عيد الأضحى على هذا المنوال البسيط

وكانت هذه النزعة إلى البساطة تسود معظم المواكب والاستقبالات الرسمية. وكان الحاكم يركب في المدينة في ابسط المظاهر الديمقراطية التي تذكرنا بديمقراطية المسلمين الأوائل؛ فيرتدي ثيابا بسيطة، أو يرتدي دارعة صوف بيضاء ويتعمم بفوطة وفي رجله حذاء عربي ساذج، وقد يركب فرسا بلا زينة أو حمارا، وفي أحيان قليلة يركب محفة يحملها الرجال، وعشارية تشق به النيل؛ وكان اغلب طوافه بالقاهرة على الحمير دون موكب ولا ضجة، لا يصحبه من الحشم سوى بضعة من الركابية؛ وكان كثير الاتصال بالشعب فكان القصر مفتح الأبواب للمتظلمين وذوي الحاجات؛ وكان يستمع إليهم أثناء طوافه وينظر في مطالبهم كما قدمنا

وأما عن حياة الحاكم الخاصة فلم تصلنا سوى لمحات ضئيلة؛ ولكن لا ريب أنه كان يعيش بنفس البساطة التي كان يبدو بها في مظاهره الرسمية؛ وقد رأينا كيف اضطلع الحاكم بأعباء الحكم صبيا دون السادسة عشرة، وكيف أن انهماكه بالشؤون العامة منذ حداثته لم يترك له فرصة للانغماس في مجال اللهو والعبث التي يغرق فيها من كان في سنه وفي ظروفه؛ وقد كان الحاكم تحمله بلا ريب نزعة صوفية فلسفية؛ ذلك أنه كان يرى في التقشف مثله، ويحتقر متاع هذه الدنيا الدنيئة؛ ويرتفع عن مفاسد هذا المجتمع وعن غرائزه وشهواته النفسية الوضيعة. ولم يقل لنا أحد ممن كتبوا عن الحاكم، معاصرين أو متأخرين أنه كان يتصف بشيء من الرذائل الاجتماعية، بل تدل أقوالهم جميعا على أن هذا الطاغية الفيلسوف، كان نقيا في حياته الخاصة، بعيدا عن هذا الترف الناعم الذي يفت في الأجسام والأرواح القوية، متقشفا في مأكله وملبسه، حتى قيل أنه لبث أعواما يرتدي الصوف، وأنه امتنع عن دخول الحمام. والخلاصة إن هذه الشخصية العجيبة التي تقدم إلينا من نواحيها العامة في صورة مثيرة مروعة، تحملنا من نواحيها الخاصة على الإعجاب والاحترام بما تشف عنه من سمو ونقاء

واحتقار للشهوات الإنسانية
للبحث بقية
محمد عبد الله عنان المحامي
المكتبات المدرسية والمتنقلة بإنجلترا
بقلم الأستاذ محمد عطية الأبراشي
المفتش بوزارة المعارف
ليس في المدرسة الإنجليزية مكتبة واحدة فحسب، بل في كل فصل من فصول المدرسة مكتبة صغيرة للتلميذ، بها كتب مدرسية وأدبية تناسب المستوى العلمي للفصل، وبها مصورات جغرافية، وروايات تمثيلية، وكتب للمراجعة. ويقوم كل فصل بانتخاب أحد تلاميذه للعناية بالمكتبة، وهو مسؤول عن ترتيبها ونظامها، فيحضر الكتب منها وقت الحاجة إلى استعمالها، ويعيدها إلى مكانها بمساعدة بعض إخوانه بعد الانتهاء من الدرس
ولكل تلميذ الحق في أن يستعير من الكتب ما شاء لمدة معينة؛ بأن يذهب إلى دفتر الإعارة فيكتب فيه أسم الكتاب الذي استعاره، وأسم المؤلف، ورقم الكتاب، وتاريخ الاستعارة ثم يمضي. والأمانة سائدة بين التلاميذ، فحينما ينتهي التلميذ من قراءة الكتاب في المدة المعينة يعيده إلى موضعه في المكتبة، فلا يضع رقم (10) مثلا موضع رقم (105). وبهذه الوسيلة يتعود التلاميذ النظام، ويبث فيهم روح التعاون. وإذا لم يستعر أحد التلاميذ شيئا سأله مدرسه عن السبب، وكلفه بالاستعارة، ثم أختبره بعد الانتهاء من قراءة الكتاب في موضوعه، وسأله عن أحسن قطعة قرأها فيه، وأحسن رجل اعجب به؛ وبهذه الطريقة يضطر كل تلميذ إلى أن يستعير ويقرأ، ويشجع التلاميذ على البحث والاطلاع. وإذا اعتاد الفتى أن يقرأ كتابا في الخارج كل أسبوعين مثلا قرأ ما ينيف على العشرين كتابا في السنة، فتكثر معلوماته، ويشعر بحب الكتب من الصغر
وحبذا الأمر لو فكر كل مدرس لدينا في أخذ طلبته إلى مكتبة المدرسة، وشوقهم إلى القراءة والاطلاع، وفهمهم طريقة البحث في الكتب، وحثهم على الاستعارة والمطالعة في أوقات الفراغ
وزيادة على المكتبات المدرسية تجد في كل مدينة إنجليزية مكتبة عامة أو اكثر في المدن الكبيرة. وفي كل منزل إنجليزي مكتبة بها الكثير من الكتب الأدبية والعلمية والصحية، ويهدي لكل طفل إنجليزي كثير من الكتب التي تناسب سنه في يوم ميلاده وفي عيد الميلاد كذلك
وقد تكون للطفل مكتبة خاصة به، وحجرة خاصة بلعبه أو مربى إذا كان من أسرة متوسطة أو غنية. ولا أبالغ إذا قلت إن الطفل في إنجلترا رجل صغير، قوي الملاحظة، كثير الآراء والأفكار الصائبة، فقد يقول لك قبل إن يرى المدرسة: إن هذا الفيل من الهند، ولو فقد هذا الجزء من السيارة لحدث كذا، وهذا الجزء من الطائرة أسمه كذا، ووظيفته (العلمية) كذا، ولقد حدث (لعلي بابا) في ألف ليلة وليلة كيت وكيت
المكتبات المتنقلة بإنجلترا
وهناك أيضا مكتبات متنقلة تنتقل من المدينة إلى القرية مثلا بوساطة سيارة معدة لان تكون مكتبة، تنقسم أربعة أقسام وهي: قسمان للروايات، وقسم للكتب العلمية المختلفة، والقسم الرابع خاص بكتب الأطفال. وتقوم هذه المكتبات بعمل جليل في نشر العلم، وإعطاء الفرصة لسكان القرى النائية الأطراف في أن يستعيروا ما يريدونه من الكتب للقراءة والاستفادة. وهي منتشرة الآن في جميع أنحاء إنجلترا
وتعد المكتبة المتنقلة فرعا من المكتبة العامة التي تمدها بما تحتاج إليه من الكتب. ويقوم بإدارتها موظف تابع لمدير المكتبة العامة. وفي (كنت) مثلا - وهي إحدى الضواحي التابعة للندن - مكتبة متنقلة أنشئت في نوفمبر سنة 1921 وبها نحو 150 ألف كتاب للأستعارة، يستعيرها القراء بالتناوب، ويتداولونها بينهم وأحدا بعد الأخر؛ في سنة 1930 قد بلغ المستعيرون من هذه المكتبة 1223000 وهذا العدد يدل على كثرة الإقبال على القراءة، وعلى أن إنجلترا من اكثر الأمم حباً للقراءة، فلا تركب قطارا أو سيارة عامة إلا وتجد في أيدي كل فرد صحيفة، أو مجلة أو كتابا. فالمكتبة المتنقلة قد سدت فراغا كان الناس يشعرون بالحاجة إلى ملئه منذ زمن ليس بالقصير. وفي

(كنت) سيارتان تملأن من المكتبة الرئيسية العامة بها، ثم تزوران كل قرية في تلك الجهة مرتين أو ثلاث مرات في السنة، وقبل قيام المكتبة من (كنت) وهي المركز الرئيسي في تلك الجهة يخبر القائم بأمور المكتبة في القرية بوقت وصول السيارتين إليها حتى يستطيع استدعاء عدد كبير من المستعيرين للمساعدة في اختيار المجموعة الجديدة من الكتب، ورد ما يمكن رده من المجموعة القديمة التي كانوا قد استعاروها من قبل. وينتهي الأمر وهو رد الكتب القديمة، وأخذ كتب أخرى بدلها في نحو ساعة من الزمن

وكتب الأطفال في المكتبات المتنقلة اقل من كتب غيرهم من القراء. وحب القراءة مشاهد لدى كل طفل، وبخاصة قراءة القصص والحوادث. ومن الصعب أن تشبع رغبات الأطفال في الحكايات وقراءتها. وليس في هذه المكتبات من الكتب ما يكفي كل الأطفال، ففي (كنت) مثلا 75666 طفلا في المدارس الأولية، وليس في قسم الأطفال بالمكتبات إلا نحو 32 ألف كتاب، ولذا يضطر رؤساء المكتبات إلى جعل الاستعارة خاصة بمن تبلغ سنه 12 سنة. ويقص الرؤساء أحياناً بعض الحكايات المحزنة لرفض مطالب كثيرين من صغار الأطفال، ثمة بأنه كلما كان الكتاب جميل المنظر، جيد الطبع، كثرت عنايتهم به. ولا يزال الكتاب لدى الطفل القروي شيئا ثمينا. فالمكتبات المتنقلة والمدرسية والعامة تقوم بخدمة جليلة للتلاميذ وغيرهم ممن يحبون القراءة، ويجدون مسرة فيها

ودور الكتب العامة مملوءة بالقراء. وهناك نوع من المكتبات التجارية التي تخصص قسما منها للإعارة نظير دفع اشتراك سنوي يسير. فلدى كل فرد صغير أو كبير، غني أو فقير، الفرصة في أن يجد ما يريده من الكتب، من أي نوع من الأنواع

وفي وصف الكتاب وفوائد الكتب، قال نابغة العرب، وأديب العلماء، والعالم بين الأدباء (أبو عثمان عمرو الجاحظ) (الكتاب وعاء ملئ علماً، وظرف حشي ظرفا، وبستان يحمل في ردن، وروضة تقلب في حجر، ينطق عن الموتى، ويترجم كلام الأحياء.)

وقال: (. . . . . ولا اعلم نتاجا في حداثة سنه، وقرب ميلاده، ورخص ثمنه، وإمكان وجوده، يجمع بين التدابير الحسنة، والعلوم الغريبة، ومن آثار العقول الصحيحة، ومحمود الأخبار عن القرون الماضية، والبلاد المتراخية، والأمثال السائرة، والأمم البائدة ما يجمع الكتاب)

ودخل الرشيد على المأمون وهو ينظر في كتاب، فقال: ما هذا؟ فقال: كتاب يشحذ الفكرة ويحسن العشرة، فقال: الحمد لله الذي رزقني من يرى بعين قلبه اكثر مما يرى بعين جسمه

وقيل لبعض العلماء: ما بلغ من سرورك بأدبك وكتبك؟ فقال: هي إن خلوتي لذتي، وان اهتممت سلوتي، وإن قلت أن زهر البستان ونور الجنان يجلوان البصر، ويمتعان بحسنهما الألحاظ، فإن بستان الكتب يجلو العقل، ويشحذ الذهن، ويحيي القلوب، ويقوي القريحة، ويعين الطبيعة، ويبعث نتائج العقول، ويستثير دفائن القلوب، ويمتع في الخلوة، ويؤنس في الوحشة، ويضحك بنوادره، ويسر بغرائبه، ويفيد ولا يستفيد، ويعطي ولا يأخذ، ونصل لذته

إلى القلب، من غير سامة تدركك، ولا مشقة تعرض لك

وفي الكتب العربية آيات بينات عن الكتب وفوائدها، شعرا ونثرا فليرجع إليها من أراد الزيادة

محمد عطية الأبراشي

قصيدة شوقي

في جلالة الملك فيصل

بقلم الأستاذ حسين الظريفي

لما اعتزم مغني مصر الكبير الأستاذ محمد عبد الوهاب السفر إلى العراق عام 1932، رأى المغفور له شاعر الضاد وأمير الشعراء أحمد شوقي بك، ألا يدع الفرصة تفوت دون أن يملأها بما يريد، فألف قصيدته الخالدة التي أثنى فيها الثناء الجم على أمة العراق وملكه ساكن الجنان فيصل الأول

وقد انشد الأستاذ القصيدة على مسرح المعرض الذي أقيم في بغداد في السنة المذكورة، وانشدها أمام الملك في قصره في حضور رجال الدولة وكبار الساسة

وأعيان البلد وجمهور المستمعين من شتى الطبقات. ثم رأينا مكروفون المذياع وأبواق الحاكي تعيد لنا ما أبدع به محمد عبد الوهاب على مسرح المعرض حتى شاعت القصيدة وذاعت على الأفواه. والذي نريد إثباته في هذه الفرصة هو أن مطلع القصيدة وبيتا أخر قد كثر حولهما كلام الناس في بغداد. وأنتقدهما غير واحد من الشعراء، وكان اكثر هؤلاء المنتقدين - على ما اعتقد - يجهلون معنى البيت جهلا تاما، وبهذا الجهل انحدروا إلى التهجم على شاعرية شوقي، وهو الشاعر الفرد الذي أضاف إلى لغة الضاد مادة جديدة من معانيه المبتكرة. وأنتقل بالشعر في بعض مواقفه من عالم الطبيعة إلى ما وراءها، حيث تجتمع الفلسفة والشعر الرفيع في نقطة واحدة ولذلك أحببت أن اعرض رأيي الخاص فيما يجب أن يحمل عليه البيتان. وأولهما هو مطلع القصيدة:

يا شراعاً وراء دجلة يجري ... في دموعي، تجنبتك العوادي

وقد رأى كثير من الشعراء والأدباء، أن المخاطب بهذا البيت هو جلالة الملك فيصل، والحقيقة أن الخطاب إلى الأستاذ محمد عبد الوهاب، لعدم امكان حمله على غيره، ولدلالة الأبيات التي تلي هذا البيت، وهي:

سر على الماء كالمسيح رويداً ... واجر في اليم كالشعاع الهادي

وائت قاعا كرفرف الخلد طيبا ... أو كفردوسه بشاشة وادي

وقد شبه الشاعر - محمداً - بالشراع لما شاع وذاع من أمر غنائه في البلاد، وهو تشبيه يمت بصلة قوية إلى التشبيه بالعلم بمعنى الجبل كقول الخنساء في أخيها صخر - كأنه علم في رأسه نار - وأراد بقوله وراء دجلة - بقصد دجلة. وذلك عند اعتزام المغني السفر إلى العراق

ولما كان محمد عبد الوهاب دائم التغريد بما يؤلف له شوقي بك من قطع الشعر والقصائد، وكانت أكثرية هذه القصائد تعج بلواعج الهوى بحيث تحمل دموع الشاعر الغزيرة من أثر الحب فيه، جعل الشراع جاريا في هذه الدموع، بإنشاد المغني قصائد الشاعر. فكأن شوقي يقول: يا من اعتزم السفر إلى العراق وهو كأنه الشراع في الشهرة، مرتلا قصائدي التي هي كالدموع في الهوى، وهو يجري فيها كالشراع - تجنبتك العوادي - وحفظك الله من كل مكروه

وهذا البيت ولا ريب من انبغ الشعر، وهو ابن العبقرية التي اصبح فيها لشوقي الخلود، وللغة الضاد التيه والفخر

وأما البيت الثاني فقوله:

قف تمهل، وخذ أماناً لقلبي ... من عيون المها وراء السواد

والمخاطب فيه محمد عبد الوهاب أيضا، والسواد هو العراق من قولهم - أرض السواد - ولا يمكن أن يحمل المعنى على أن الظباء كائنة وراء العراق، إذ لا يمكن أن يكون هذا قصد الشاعر، وإلا فسد عليه المعنى، ولأن سائر أبيات القصيدة إنما تبحث عن العراق وملكه وساكنيه، وقد ذهب إلى هذا التفسير الباطل كثير من الشعراء والأدباء، اغترارا بظاهر اللفظ مع أن الواقع خلاف ما يدعون. وزعم قوم أن المراد بالسواد هنا - سواد العيون - وبهذا التفسير يختل معنى البيت ويبقى مهملا لا يشير إلى شيء وادعى آخرون أن معنى البيت فاسد من اصله، وقالوا في تعليل الفساد أن لفظ البيت يؤدي إلى وصف الظباء خارج العراق، وذكر ذلك لا مكان له في القصيدة، مع أن هذا غير مقصود من الشاعر كما سبق ذكره، وبالنظر لروحية القصيدة ولظروف وضعها ولخواطرها المتسلسلة

وذهب غيرهم إلى حمل البيت على إرادة الحجاب بالسواد، كأن أعين الحساد تستطيع التأثير على قلوب الناس، وهي متحجبات من وراء النقاب. وهذه مبالغة لم نر لها مثيلا في شعر شوقي، وقد يتجاوز هذا المفهوم حدود المبالغة إلى تكذيب الواقع له والذي أراه في هذا البيت، هو أن القادم إلى العراق إنما يرى منه السواد قبل كل شيء فيه، بالنظر لكثرة ما فيه من خمائل ومزارع ونخيل حتى عرف في التاريخ بهذا الاسم، وبذلك تكون الظباء وراء السواد بالنظر إلى القادم إليه، وهي في أثنائه في حقيقة الأمر الواقع. وهذا البيت ولاشك من وحي العبقرية أيضا، وفيه ابلغ ما تصل إليه رقة الشاعر في شعره

وإننا نجد المبرز في الشعر قد يرتفع في كل قصيدة من قصائده بالبيت أو البيتين أو

الثلاثة أو ببضعة أبيات. ولكنه مع ارتفاعه هذا لا يغيب بشعره عن أعين القراء. غير أن شوقي قد شب في الشعر عن الطوق، وبذ زملائه الشعراء في كل بيت يرتفع فيه عن مستوى الشعر حتى يتواري فيه عن الأبصار. فلا تكاد تقع عليه إلا بعد الجهد الجهيد، ولا تنظر إليه إلا من بعيد كما ظهر لقراء الضاد في هذين البيتين، ونحن لا نشك في إن فهمهما يحتاج إلى مجهود عقلي كبير، وتلك ميزة النابغ من الشعر، تفرد بها شوقي عن شعراء جيله، وبها فضل الجميع

وهنا أود أن اذكر ملاحظة العالم النفسي الدكتور ناجي بك الأصيل حول شاعرية أحمد شوقي بك، قال الدكتور: على الجيل الحاضر أن يحدد شاعرية شوقي بك في المدى الذي بلغت إليه، وإلا فإن الأجيال القادمة سوف تخطئ في تقديره. وعلل هذه الفكرة بأن هناك من الشعر لشوقي ما قاله وهو فيما وراء الشعور، ومع ما في هذه الفكرة من العلو والنضوج فإنها لا تأتلف والحقيقة. لان مثل هذه الأبيات التي يشير إليها الدكتور هي من وحي الإلهام، وقد قالها شوقي وهو في غيبوبة العبقرية وبها أستحق كل هذا التقدير من أبناء الضاد واصبح له فيها الخلود، ولا يمكن أن تحمل على أن شوقي قال ما لم يدر، أو أن شاعريته اقل من شعره، لان في ذلك المنطق المغلوط. ولعل الدكتور ينحرف في فكرته قليلا إلى القول بوجوب تحليل أبيات شوقي التي قالها في غيبوبة العبقرية، لئلا تفوت الأجيال القادمة بعض الدقائق النفسية التي يعرفها الجيل

هذا ما عنّ لي ذكره في هذين البيتين اللذين كثر حولهما القيل والقال ومن كان له فيهما شيء يقال فليأت بما عنده، إذ الحقيقة بنت البحث

بغداد

حسين الظريفي

المحامي

بين الدعاية والجد

!!القديس (تبريها)

قد يبدو غريبا أن نترجم لشخص لما يمض شهران على مولده، وأنه لغريب حقا، ولكن الذي دعانا إلى أن نكتب عنه وان نترجم له، هو أنه ولد ولم يلبث أن شب واكتهل وحصل على درجة القديسين، وغشى دور كثير من العظماء والأدباء والعلماء، وان لم يعرفه بعض أولئك الذين دخل عليهم دورهم

ولد القديس تبريها في شهر مارس سنة 1935م. وولد في مصر وفي بيئة عظيمة جدا إلى أقصى حدود العظمة. وهنا نستمهل القارئ برهة وجيزة نخرج فيها إلى موضوع أخر عرض لنا. ثم نعود إلى قديسنا العظيم

قرأت كتاب الدكتور هيكل (حياة محمد) من عنوانه إلى إمضاء الدكتور في أخر صفحة منه، وكنت أجد من السرور لقراءته ما ينسيني نفسي وما يتعلق بها من شؤون الحياة وكانت تأخذني في كثير من مواقفه تلك الروعة العظيمة التي سورها المؤلف عند وفاة الرسول إذ يقول: (أستعيد الساعة صورة هذا المشهد الرهيب، فأراني شاخصاً له مأخوذاً به ممتلئ القلب من جلال هيبته أكاد لا أجد إلى الانصراف عنه سبيلاً)

فرغت من قراءة الكتاب وفي نفسي من الآثار لكثير من حوادثه ما في نفس الدكتور هيكل لوفاة الرسول

طفقت أقلب الصفحات الأخيرة من الكتاب عن غير قصد حتى وصلت من فهرس الأعلام إلى حرف التاء في صفحة 512 فوقف نظري عند أسم القديس (تبريها) فجعلت أستعيد في ذاكرتي ما قرأت فوجدتني لا اذكر هذا الاسم، ولا لأي شيء ورد ذكره، فأسفت على أن لم أع مما قرأت شيئاً

ثم رأيت أمام اسم القديس في الفهرس أن أسمه ورد في صفحة 43 من الكتاب، فرجعت إليها لأعرف ذلك الذي شرد عن ذهني، فإذا بي أجد في تلك الصفحة هذه العبارة:

وإن الذين زاروا كنيسة القديس بطرس في رومية ورأوا قدم تمثال القديس تبريها) قبلات عبادة المؤمنين، حتى لتضطر الكنيسة إلى تغييرها كلما انبرت ليعذرون أولئك الذين. . . . الخ)

عندئذ فقد عرفت ما شرد عن ذهني، وعرفت ذلك القديس العظيم الذي ولد في مصر وفي مطبعة مصر
وعرفت أنه ولد على يد واضع فهرس الأعلام، وعرفت إن ذلك الواضع هو أبو ذلك القديس العظيم!!
أبو حجاج
دين البادية
عن لامرتين
للأستاذ التنوخي
عضو المجمع العلمي العربي وكاتب سره
وأولئك الملاحون السابحون إلى الأبد على بحار من الرمال، قد أكسبهم الاعتياد أخلاقاً متشابهة، بمشاهدة مناظر متشابهة، وسكنى منازل متشابهة، وبنقلهم المستمر لخطوات متشابهة، في طرق ومسالك متشابهة، فسجاياهم على ذلك مشابهة لسجية البادية. أنهم لمتمسكون بدينهم تمسك اللانهاية بهم، وأحرار كحرية الفضاء المكشوف لهم؛ وجوالون تجوال الجواد الذي يقلهم، والناقة التي تحملهم، والقطيع الذي يتبعهم؛ وهم أجاويد مثل الخيمة المفتوحة أبداً لأخي الأسفار، أضلته مجاهل القفار؛ ومغاوير لهم جرأة المدين بحياته لقوة عضلاته، والمضطر للذود عن حريمه ومأواه، والدفاع عن مائة ومرعاه، من غزوات القبائل والغارات المداهمة؛ وهم بحكم العادة ميالون كالوحدة إلى الصمت، ومولعون بالحديث أحياناً شأن الإنسان الذي يلاقى بعد طوال الوحشة أخاه الإنسان فيحدثه عن كل شيء، ويستخبره عن كل شيء؛ وهم مفطورون على الشعر وعلى التأمل فطرة الليل والنهار، والكواكب والآفاق التي يقع عليها أبصارهم أبداً؛ وهم قصاص بارعون لاضطرارهم إلى قضاء ساعات الفراغ الطويلة في سرد الحكايات والأخبار والعجائب إما تحت الخيام أو حول الآبار تسلية للقلب من البلبال، وتزجية لساعات الفراغ والملال
إن من لم يكتحل بمشاهدة غروب الشمس في ضبابة حمراء من الجحيم يعكس نورها ذلك الرمل المنتشر ما بين النهرين، أو بلاد الكلدان، ومن لم يراقب طلوع الكواكب متهادية، ثم هبوطها في ليالي الشتاء على بحر محيط من الأثير الأزرق، اعمق من الفكرة التي تغوص فيه، وأصفى من ماء البحر في رأس الأرض المنتصب الذي يحول دون لآلائه والتجمد، ومن لم يسمع همس تلك النسمات المتوالية من ريح لم يتم في البادية سكونها، وكيف تهينم بصوت رخمه في المسامع مروره على تلك الروابي والهضاب، وعلى عذبات أوراق الاعشاب، ومن لم يطرح طرفه كل مطرحٍ في ذلك الفضاء الذي لا وراء بعده، والذي يغيب في الله افقه الرحيب، ومن لم يبصر في تلك الظلال الجانبية من الجمال الباركة كيف ترتسم صورها في أجواز السماء، وهي جامدة جمود تلك الصور الجانبية من ظلال تماثيل أبي الهول الصخرية على سود تلك الرمال المصرية، من كان هذا شأنه لا يحق له أن يحكم على ذلك العربي المنتجع لمواطن الماء والكلأ، ولا على ذلك السحر الذي يستهويه، وبقضاء الله الذي يرضيه
اجل إن تلك الارتسامات والحساسات، وما يعرو الإنسان في البادية من وساوس وهواجس لبعيدة المصدر بعدا يخيل معه للمرء أنها صادرة عن اللا نهاية نفسها، وان تلك الأنوار المنهمرة أمطاراً من النار على الروابي والبوادي، لم تنهمر قط على سطوح المدن والقرى، ولا تلوثت بالدخان المتصاعد من مداخن المساكن، وفي أناء الليل والنهار لا يحول بين الروح وصانعها حائل، فيشعر الإنسان لذلك بيد خفية لكنها ملموسة، هي يد الخالق على خلقه، ويبصر في كل لمحة تجلي الصانع خلال ذلك البحر من الضياء الذي يغمره، وفي حدود ذلك الأفق الذي يكتنفه من الغموض ما يخيل للمرء أن لا وراء بعده إلا المجهول، وفي ظلال الليالي تجوس الأبصار خلال الكواكب فتلحقها أو تسبقها إلى منازلها، فهي تشهد بدون حجاب ذلك النظام المحكم، بل ذلك الإتقان الناطق بكلمة الإيمان!
إن الدين وهذا الإيمان المستقر في الأرض منشؤه علم النجوم في بوادي كلدة، وإن الحروف التي يتألف منها الاسم الإلهي تقرأ بأبهر مبني واعمق معنى، وهي منقوشة على ألواح السماوات، وان المخيلة لتغتذي برؤى السماء ورقى الأضواء؛ وإن التجليات

الخارقة الغيبية مع تجسيم الحقيقة بالأوهام، لا تزال منذ بدء العالم على حالها، والرجل المدثر برداء التقوى والإيمان لا يتأثر إلا بالانفعال الذي هو به جدير: اعني به انفعال اللانهاية والخلود

إن جميع العقائد لمنبعثة من تلك الخلوات منذ عهد الإله (الكوكب) مركز عوالم زرادشت، حتى (الله) رب محمد، ومنذ الإله المشرع (يهوه) موسى، حتى الإله (الكلمة) التي يبحث عنها متى سجا الليل رعاة بيت لحم

فالعربي (وهو السر المكنون كالسكون، والمتأمل كالليل، والمستوحش كالوحدة، والمصدق بالمعجزات كرقية السحر الخالدة يستنزل بها الوحي، ويسترق بها السمع)، له من قوة الحواس ما يدرك بها الله في الصحراء اكثر منا: إن حياته لعبادة أبدية، فهو لا يلهيه عن الخالق شيء، ورحابة البادية التي لا حد لها هي معبده والمحراب، فما كان لهذه الطبيعة أن تلتقي والإلحاد أبدا

أمع مثل هذه الطبيعة يتاح لبدوي أن يلحد يوما؟ خذوا أي زنديق من زنادقة الغرب، واقذفوا به بضع سنين إلى المشرق تجدوه لا يخرج منه إلا معافى من تلك العاهة الروحية: إن الإلحاد لا ينشأ إلا في الظلال، وفي مواطن الحرمان من التأمل والخيال، ومدن الغرب التي يصاب فيها المرء بدوار الرأس والخبال؛ إن الشمس لتستأصل شافة الكفر والإلحاد والشبهات، لان تلك السموم الباردة لا تنمو إلا في الظلمات؛ وإن ذلك الفضاء الرحب، وهو ملك البصر، ليمنح العربي من الشعور بكرامته ما هو اشد من البادية عنجهية، واكثر منها حرية، ذلك إن الجماعة تسحق الأفراد والوحدة تسمو بهم، والمنفرد يشعر بعظمته في كل حين، لأنه إنما يقيس نفسه بالنظر إلى عظمة الطبيعة وسعة سلطانها، لا إلى تلك القيمة العددية الخفية التي يمثلها بكيانه بين ظهراني جمهور لا يحصى من مدينة غاصة بأحيائها، وأمة كبيرة بوفرة أبنائها. إن هذا الشعور بالعظمة الذاتية ليجعل من الإنسان مخلوقا غير خليق بالصغار، وليحمله على آباء الضيم والعبودية؛ اجل إن العربي ليخضع لدينه ولرياسة الأسرة الإلهية، ولعادات السادات شريعة العرف المقدسة؛ ولكنه لا يخضع للقوة الغاشمة أبداً!

التنوخي

عضو المجمع العلمي العربي وكاتب سره

فتح العرب للأندلس

بقلم فريد مصطفى عز الدين

في مدة قصيرة لا تتجاوز عقدين من السنين، ولا تساوي في حياة الأمم فترة من حياة الأفراد تمكن العرب من تدويخ إمبراطوريتين كانتا أعظم دول ذلك العهد. فاكتسحوا الإمبراطورية الفارسية وثلوا عرش أكاسرتها، وسودوا دينهم ولغتهم على سكانها، وكانوا في الوقت ذاته ينتزعون من الإمبراطورية البيزنطية ولاياتها الشرقية الواحدة تلو الأخرى. فدخلت سورية الكبرى ومصر، وطرابلس الغرب، وتونس والجزائر والمغرب الأقصى في دولتهم الفتية، وانضوى سكانها تحت راية القرآن والدين الحنيف وكأني بالفاتحين وقد جثموا على الشاطئ الأفريقي، ورأوا قبالتهم الشاطئ الأوربي لا تفصلهم عنه إلا شقة ضيقة من الماء أخذتهم نشوة النصر والظفر، ووطنوا العزم الأكيد على تدويخه وان يمثلوا مع الأسبان الدور الذي مثلوه قبلا مع الفرس والرومان كانت إسبانيا قبل الفتح العربي في حالة اضطراب وفوضى، تتنازعها الثورات والفتن. والعامل الأكبر في هذا التقلقل والاضطراب راجع إلى النظام الاجتماعي الفاسد الذي كان سائدا عندئذ في البلاد. فقد كان سكانها يقسمون إلى أربع طبقات هي:

1) العبيد - 4) الفلاحون - 3) سكان المدن - 2) الأشراف

أما الأشراف فكانوا أصحاب النفوذ والسيادة، غير أنهم انصرفوا في أخر عهدهم عن أمور الدولة إلى اللهو والبذخ والمجون.

وكان سكان المدن - ومعظمهم يهود - يتحملون معظم الضرائب التي كانت عبئا ثقيلا على عاتقهم جعلتهم تواقين للخلاص من حالتهم الحاضرة. أما الفلاحون فكانوا وسطا بين الأحرار والعبيد، إذ أن التملك كان محرما عليهم إلا بإذن الشريف الذي يقعون في دائرة نفوذه، ولذا كان القليل النادر منهم ملاكا

وكان العبيد وهم اكثر السكان عددا يباعون كالسلع ويسامون من العذاب أشكالا

وألواناً. فليس غريبا إذا أن يهربوا في بعض الأحايين من نير أسيادهم إلى الجبال والقفار، فيعتصموا بها وينعموا بالحرية المفقودة، ويعيشوا في البلاد فسادا انتقاما لحريتهم المسلوبة. وكانت هذه الحالة السيئة كافية لإزاحة الحكم الروماني عن هذه البلاد والتمهيد للقبائل
البربرية الغازية.

كانت القبائل التي اكتسحت إسبانيا عديدة، منها (الفندال) و (الزواف) و (القوط). ولم يمض وقت طويل على تدفق البرابرة في إسبانيا، حتى ترك القوط القبائل الأخرى من البلاد، واستأثروا بالسلطة المطلقة. ثم بدأوا يأخذون بأساليب الحضارة المسيحية، وتمكنت الكنيسة الكاثوليكية من ضمهم إلى حظيرتها سنة 587، فاكتسب الكهنة مكانا ساميا في الدولة لا يقل خطرا عن مكان الأشراف، غير أنهم استثمروه لمنفعتهم الذاتية، فاقتنوا الضياع وبنوا القصور العظيمة ولم يلتفتوا إلى الطبقات الأخرى التي كانت تعاني أمر العيش وأبشعه مذاقا فيصلحوا أحوالها، بل اندفعوا في سبيل مآربهم الدنيوية، فاصبحوا عاملا أخر في زيادة الفساد والاضطراب

وقد خلق أيضا وجود اليهود في البلاد فسادا في الحكم، لأنهم كانوا في إسبانيا كما كانوا في غيرها طبقة مضطهدة مهيضة الجناح تنوء تحت عبء الذل والاحتقار، فكانوا صابرين في مضض على حالتهم السيئة، منتظرين بذاهب الصبر تغير الحال وزوال حكم القوط عن كواهلهم

حدث الفتح أثناء ولاية موسى بين نصير على أفريقية. وكان العرب يعنون بأفريقية تونس الخضراء والجزائر ومراكش، وتمكن موسى من فتح طنجة وهي من أعظم فرض المغرب وولي عليها طارق بن زياد ثم قفل راجعا إلى مدينة القيروان - التي بناها الفاتح العربي الكبير عقبة بن نافع في عهد معاوية بن أبي سفيان الخليفة الأموي الأول - تاركاً سبتة وهي المدينة الوحيدة التي لم تخضع لسلطان المسلمين في أفريقية

وكانت الفوضى - كالعادة - ضاربة إطنابها في إسبانيا. فإن أحد الأشراف ويدعي لذريق اغتصب الملك وطرد أبناء الملك غيطشة المتوفى من البلاد، فعبر هؤلاء البوغاز إلى الشاطئ الأفريقي وحاولوا الاستعانة بالعرب عن طريق يوليان حاكم سبتة، الذي كان على وداد مع العرب. فأجابهم يوليان إلى طلبهم وأخذ يحبب إلى العرب حرب لذريق. أما السبب الذي حدا يوليان إلى استنفار العرب على لذريق فشخصي محض، وذلك أنه أرسل ابنته - وكانت آية في الجمال - جريا على عادة أشراف القوط إلى القصر الملكي في إسبانيا لتتأدب، فرآها لذريق واستهواه جمالها الفتان، وما زال بها حتى أوقعها في حبائله

وعبث بها. فلما علم والدها بالأمر استشاط غيظا وغضبا، وعز عليه أن ينتهك عرضه وشرفه على هذه الصورة القذرة، فاقسم على الانتقام من هاتك عرضه وملصق العار بجبينه. وأخذ يشوق العرب إلى فتح الأندلس

ولكن بعض المؤرخين يشكون في صحة هذه الرواية ويقولون إن السبب في قيام يوليان علي لذريق أن غيطشة ملك القوط المتوفى ساعده مرة على العرب فحفظ له يوليان هذا الجميل، ورأى من الواجب أن يساعده أبناء ولي نعمته على مغتصب ملك أبيهم، فطلب مساعدة العرب ظانا أنهم بعد أن يفتحوا البلاد ويوطدوا ملك أبناء غيطشة فيها يرجعون إلى أفريقية

كانت الغزوة الأولى غزوة استكشافية محضة غرضها درس حالة البلاد عن كثب، وذلك لان موسى بن نصير كتب إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك - الخليفة الأموي السادس - يستشيره في أمر هذا الفتح، فأرسل إليه الخليفة العظيم أن يتريث ويستكشف الأحوال قبل الإقدام على أية مغامرة. فأمر موسى طارقا بإرسال قوة صغيرة إلى الأندلس لمعرفة أحوالها الحقيقية، فأنفذ طارق فصيلة مؤلفة من 400 مقاتل بقيادة مولاه طريف فنزلت في جنوبي الأندلس - الجزيرة - فكتب الله لها النجاح في مسعاها الدنيوي الديني، فشجع هذا النجاح موسى ابن نصير وعول على فتح الأندلس وسرعان ما حقق غايته

فأرسل قوة كبيرة بقيادة البطل الفاتح طارق بن زياد مؤلفة من البربر والموالي وقليل من العرب، فعبروا مضيق جبل طارق وفتحوا الجزيرة ثم زحفوا شمالا نحو

قرطبة، وكان لذريق عندئذ في الشمال يقاوم حملة من الإفرنج غزت حدود بلاده الشمالية ولكنه أسرع - حالما علم بقدوم المسلمين - وعاد إلى الجنوب على رأس جيش لجب عدده مائة الف مقاتل لصد تيار الفاتحين

فطلب طارق من موسى إمداده بالنجدات فأمده بخمسة آلاف مقاتل. وهناك في مكان جنوبي إشبيلية على نهر غواديلاثا التقى الجيشان فكان النصر حليف العرب، وذلك إن فرقة من الجيش القوطي موالية لأبناء غيطشة انسحبت من ميدان القتال فتضعضعت معنويات جيش القوط وتراخت عزائمهم فظفر بهم العرب وكان نصرهم نصرا مبينا. وتقول بعض الروايات العربية إن لذريق غرق في النهر، غير إن روايات أخرى تقول أنه بقي حيا إلى

أن جاء موسى بن نصير الأندلس فهزمه في معركة فاصلة أودت بحياته

ثم قسم طارق جيشه إلى أربعة أقسام: قسم سار بقيادته إلى طليطلة، وقسم سار إلى قرطبة، وأخر سار إلى غرناطة، ورابع زحف إلى مالقا؛ وكان النصر حليفهم فاستولى كل قسم منهم على البلد الذي زحف عليه، وكانت الطبقات المضطهدة تساعد الجيش الزاحف وتمده بمعلومات قيمة عن جيوش العدو وترشده إلى أسهل الطرق وأقربها، وكان طارق يكافئ أعيان البلاد بتعيينهم حكاما على المناطق المفتوحة، ورأى الإسبانيون عندئذ أن غزوة العرب لم تكن مؤقتة يرجع العرب بعدها إلى أفريقية بل كانت دائمة لأنهم ذهبوا إلى إسبانيا ليبقوا فيها

وكان كثير من الأشراف قد فزعوا إلى الجبال بعد الانتصارات التي أحرزها العرب، فخاف طارق العاقبة وأرسل إلى موسى يستنجده. فعبأ موسى قوة عظيمة وعبر إلى الأندلس سنة 712 بعد ذهاب طارق إليها بسنة، واتبع خطة منظمة في الاستيلاء على البلاد. فكان ينظم كل مدينة يحتلها ويعدها لحكم عربي دائم. فاستولى على قرمونا وإشبيلية وسار توا إلى طليطلة فالتقى بطارق - وكان لقاؤهما جافا - ووحدا جبهتهما وانتصرا على جيش أسباني لجب، يقال إن لذريق كان يقوده، انتصارا حاسما، وافتتحا طليطلة مرة ثانية. وكانت آخرة لذريق في بطون أسماك نهر التاج

وفي سنة 713 سك موسى نقودا عربية في الأندلس، وظل يتوغل في هذه البلاد وينتقل من نصر إلى نصر إلى أن جاءه رسول الوليد يستدعيه إلى دمشق - عاصمة الإمبراطورية العربية - فغادر موسى الأندلس آسيفاً لأنه كان قد عزم على التوغل في بلاد الفرنجة حتى يصل إلى القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية فيفتتحها ويسير منها إلى دمشق بعد أن يكون قد دوخ أوربا وأخضعها للخلافة الإسلامية وسطر أسمه في سجل الخالدين

ثم أستخلف موسى على الأندلس ابنه العزيز وعلى سبتة ابنه الثاني عبد الملك، وعلى أفريقية ثالث أبنائه عبد الله، وسار إلى العاصمة الأموية يصحبه طارق مثقلا بالغنائم، فوصلها بعد وفاة الوليد بن عبد الملك وقيام سليمان. وبالرغم مما قدمه لسليمان ابن عبد الملك من الغنائم لم يلق في عيني الخليفة حظوة، لان أخبار الأندلس وصلت إلى دار

الخلافة مغالى فيها. فوجد سليمان إن ما جاء به موسى قليل رغم كثرته فاضطهده وسجنه. ولم يكن حظ طارق بأسعد من حظ زميله فناله بعض سخط أمير المؤمنين وبقي موسى بن نصير في محبسه مدة قصيرة. ثم أطلق سراحه بعد أن شفع له القائد الكبير يزيد بن المهلب بن أبي صفرة، فسار إلى مكة المكرمة يحج البيت، غير أن المنية عاجلته وهو في طريقه إلى الديار المقدسة

أما ابنه الأكبر عبد العزيز فقد عمل على توطيد الحكم العربي في الأندلس بتزوجه من أرملة لذريق واستمالة القوط، ولكن مؤامرة دبرت لاغتياله بعد سنتين من ولايته؛ ويتهم بعض المؤرخين سليمان بتدبير المؤامرة، وتحريض أصحابها على الفتك بابن مدوخ الأندلسي. وهكذا كانت نهاية فاتحي الأندلس قتلاً وسجناً وتشريداً

فريد مصطفى عز الدين

قصة المكروب - 12

كيف كشف رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكي

وكيل كلية العلوم

بستور
صلة حديثه
وصل الفائت: أثبت بستور أن الذي يخمر السكر فيحيله إلى كحول إنما هو خمائر كرية صغيرة تتزايد بالانشقاق. وان الذي يحيله إلى حامض اللبن هو مكروبات كالعصى. وأخترع بستور حساء من السكر وملح النشادر تتكاثر فيه هذه الأحياء بدل مرق اللحم ونقيع الحب. وقال للناس أن اللحم يفسد لان المكروب يناله، فتخرج منه بالتحلل روائح كريهة تحمل المرض والموت في طياتها. وأنه سيخوض في سبيل البحث غمار هذه الأوبئة لخير الإنسانية
- 4 -
وبذلك هيأ بستور المسرح لإجراء تجاربه الخطيرة. هيأه قبل إجرائها بزمن طويل. فوضع فيه المناظر ووزع فيه الستائر، ومازج وآلف بين الألوان، وأخفت الأنوار حيث وجب خفوتها، وأسطعها حيث يجمل سطوعها، فأثار بذلك طبيعة العلماء الباردة، فاستمعوا له بآذان مرهفة، وقلوب واجفة، انتظارا لدور البطولة الذي سيقوم به في القريب على أعينهم، حتى لكائني بهؤلاء الأساتذة الموقرين يسيرون في شوارع الحي اللاتيني العتيق، بين ربوعه الغبراء، رائحين في الإمساء إلى منازلهم، وقد ثارت ثائرتهم، والتهب خيالهم، فتمثلوا بستور يودعهم في حرقة وداع الفراق الذي لا أوبة له، ثم يوليهم ظهره، ويسير بقدم ثابتة، وصدر مفتوح، ورأس مرفوع، وانف وسيع، نحو تلك الروائح الكريهة قد حملت في طياتها جراثيم الموت وأسباب الهلاك. . .
في هذا فاق بستور صاحبنا لوفن هوك، وفي هذا آفاق أسبلنزاني كذلك. كان بستور يجيد
التجربة، ولكنه كان كذلك يجيد عرضها على الناس والدعاية لها فيهم. أما العلماء فاضطربوا واشرأبو للمزيد من أنبائه، وأما البسطاء فاغتبطوا بصورة الخمائر التي أحلها واضحة في أذهانهم، تلك الخمائر التي تصنع لهم الخمر الذي هو شرابهم الأول في فرنسا، ولكنهم كذلك ارتاعوا لما تصوروا تلك المكروبات المعفنة ترفرف بها أجنحة الهواء من فوق رؤوسهم في سكون الليل، فتبذر فيهم أسباب الموت، وتفتح لهم أفواه القبور
وأجرى بستور تجارب غريبة طالت سنوات. تناول قوارير ووضع في بعضها شيئا من اللبن، ووضع في البعض الأخر شيئا من البول، ثم غطسها مدة في الماء الغالي، ثم ختم رقابها الدقيقة في النار، ثم أختزنها عدة سنين. وأخيرا فتحها ليثبت إن اللبن لم يتخثر، وأن البول لم يتغير، وان الهواء الذي علاهما في القبابات أحتفظ بكل أكسجنه أو كاد، فلا مكروب ولا فساد.
ثم أعاد التجربة على اللبن والبول مرة أخرى، ولم يغل القبابات، بل أذن للمكروبات أن تنمو وتتزايد فيهما. فلما فتح القوارير لم يجد اكسجينها، فإن المكروبات استخدمته فاستنفذته لتحرق به مادة البول واللبن وتحللهما لتتغذى بها. وعندئذ بسط بستور جناحين عظيمين وطار في سماء الخيال، فتمثل هذه الأرض العظيمة ليس بها مكروب واحد، وتمثل حيوانها يموت، في جو مليء بالأكسجين، ولكنه أكسجين عاجز في غيبة المكروب عن أكسدة هذه الحيوانات والنباتات، عاجز عن حرقها وتحليلها وتطهير الأرض منها. سمع السامعون من بستور ذلك فراعهم ما سمعوا، وجاء الليل، فتمثلت لهم مدينتهم في الأحلام، وقد خلت شوارعها من وقعة قدم أو قرعة حافر، من كل مظهر من مظاهر الحياة، إلا جثث اموات، ورمما سدت الطرقات لما أعوزتها المكروبات. قال بستور: إن عجلة الحياة لا تدور بغير مكروب
ولم يلبث بستور أن جاءه السؤال الذي جاء البحاث قبله، جاءه وجها لوجه يتطلب الجواب بلا مراوغة أو تسويف. ولم يكن بد من مجيئه أما اليوم واما غدا. وهو نفس السؤال الذي جاء أسبلنزاني من قبله فأثار من الفكاهة بينه وبين خصمائه ما أثار.
هذا هو السؤال البسيط، المفرط في بساطته، هذا السؤال المحير المفرط في تحييره: من أين تأتي المكروبات؟
سأل بستور خصومه: (من أين تأتي هذه الخمائر؟ أنها تظهر في عصير العنب فتصيره خمرا أين كان من الأرض، وفي أية ساعة كان من الزمان. وتلك الأحياء الصغيرة الأخرى التي تحمض اللبن، وتفسد الزبد في كل قدر أين وجد من مشارق الأرض

ومغاربها، تلك الأحياء كيف مأتاها؟)
اعتقد بستور كما اعتقد أسبلنزاني، أن هذه المكروبات لا يمكن أن تأتي من مادة اللبن أو مادة الزبد، وهي ميتة لا روح فيها. واعتقد أنه لأبد لها من آباء. فترى من هذا أنه كان كاثوليكيا صميما. نعم لقد عاش بين الشكاكين ذوي العقول الراجحة على ضفة (السين) اليسرى في باريس، حيث لم يكن يذكر أسم الله إلا كما يذكر أسم (لينين) في بورصة نيويورك. ولكن هذا الشك لم ينل شيئا من عقيدة بستور. وكانت نظرية النشوء قد بدأت تشيع بين هؤلاء الشكاكين على أنها طراز للتفكير مستحب جديد. كانت أنشودة الكون العظمى تحكي لنا كيف بدأت الحياة مادة لا شكل لها ولا قوام، تخرج من حمأ وبخار، ثم تظل تتحول على ملايين السنين، فتتشكل في عدد عديد من الصور، وتمر في موكب حافل طويل من الاطوار، حتى تصل إلى طور القردة، وعندئذ تتمطى القردة فتصير رجالا تمشى على رأس هذه الخلائق. وقال الفلاسفة في شيء من يقين العلم ووثوق العلماء: أن هذا الاستعراض الهائل ليس بحاجة إلى إله يبدؤه، ولا إله يديره
وأجابهم بستور يقول: (أما فلسفتي أنا ففلسفة قلبي لا فلسفة عقولكم. فلسفتي تأتي من مثل هذا الشعور الذي يأتي بالسليقة إلى قلب المرء وقد جلس إلى سرير ولد عزيز عليه أخذ يجود في عسر بالبقية الباقية من أنفاسه. من مثل هذا الشعور أتعلم فلسفتي عن الوجود. وفي مثل هذه الدقائق الرهيبة أسمع أصداء تأتي من أعماق روحي تقول لي: (من يدريك، فلعل هذه الدنيا أكثر مما يزعمون، لعلها أكثر من مجموعة أحداث تأتي من توازن آلي يخرج من عماء العناصر بفعل قوى المادة وحدها).
لقد كان بستور رجلا تقياً نقياً
ولى بستور للفلسفة ظهره، وتوجه للعمل. واعتقد أن الخمائر، وأن العصى الحية، وتلك الأحياء الصغيرة الأخرى إنما تأتي من الهواء. وتخيل الهواء مليئاً بتلك الخلائق التي لا ترى. بالطبع كان غيره من بحاث المكروب قد أثبتوا أن هذه الأحياء مأتاها من الهواء،
ولكن بستور اصطنع أجهزة مركبة ضخمة لإثبات ما أثبتوه مرة أخرى. حشا أنبوبة من الزجاج بشيء من القطن، ثم أخرج أحد طرفيها من الشباك، ووصل الطرف الآخر داخل الغرفة بمضخة تجر الهواء، وشغلها حتى امتص نصف هواء الجنينة، ثم أنتزع القطن، وحاول أن يعد الأحياء التي احتبست عليه. واصطنع أجهزة أخرى غير أنيقة المنظر ليحمل سدادات القطن هذه بما عليها من المكروب إلى مثل هذا الحساء الذي كان نما فيه الخمائر ليعلم أيتكاثر هذا المكروب فيه. وأعاد تجربة أسبلنزاني القديمة، فأتى بقارورة مكورة، ووضع فيها بعض هذا الحساء وختم على رقابها بإساحتها في اللهب، ثم أغلاها دقائق، وامتحن حساءها من بعد ذلك فلم يجد فيه مكروباً أصلاً.
صاح به من كانوا لا يزالون يعتقدون في انبعاث الحياة من ذات نفسها، من غير آباء وأمهات. صاحوا به يقولون: (ولكنك يا هذا أغليت الحساء فأسخنت معه الهواء، وهذه الأحياء الصغيرة إنما تحيا في الهواء وهو على طبيعته من غير تسخين. وشركهم في صياحهم النشوئيون، والنباتيون المرتابون، والفلاسفة الملحدون، صاحوا من بين المداد والكتاب، لا من بين اللهب والقباب)
فاختلط الأمر على بستور حيناً، وحاول عدة طرائق ليجمع بين حساء مغلي، وبين هواء لم تنله النار بالتسخين، ومع هذا خلو من تلك الأحياء. وجاهد في أثناء ذلك ما استطاع أن يلبس وجهاً مطمئناً للأمراء والأساتذة وأرباب الصحف الذين أحاطوه عندئذ يترقبون المعجزات التي أوشكت أن تقع على يديه.
وكان أولو الأمر قد نقلوه من معمله الضيق ذي الفئران بسطح المكان، إلى بناء صغير يقع على أربع دقائق أو خمس من باب مدرسة النرمال، بناء يضيق بالخنازير الجينية التي تحتاجها معاهد البحث في الأيام الحاضرة. وفي هذا البناء الصغير قام بستور بجهاده الشهير ليثبت أنه لابد لكل حي مهما قل وحقر من آباء. وكان جهاداً بالتجربة الحاذقة، ولكنه كاد يتسفل أحياناً إلى نزاع كالذي ينشأ بين الغوغاء، فلا ينفض إلا بصفع الأقفية ولكم الوجوه. ودار بستور بادئ بدء يحتال للتجارب العديدة وينصب الأجهزة الكثيرة، فأبدل من تجاربه البسيطة الأولى تجارب مركبة، ومن أجهزته اليسيرة الأولى

أجهزة صعبة معقدة، فكثر حجاجه وكثر كلمه، وقلت حجته وقل إقناعه. والحق أنه وقع في مأزق
لم يجد منه مخلصاً

وذات يوم دخل عليه الأستاذ (بلارد) وهو في معمله، وكان (بلارد) في مبدأ حياته صيدلانياً، ثم اكتشف عنصر البروم على ذلك النضد البسيط الذي يركب عليه عقاقيره في تلك الحجرة الصغيرة بظاهر صيدليته، فذاع اسمه وكسب مدح العلماء، وتعين من اجل ذلك أستاذاً للكيمياء بباريس. ولم يكن أمالاً طموحاً، فلم يطمع في كشوف الدنيا كلها، فقنع بهذا الكشف الواحد، وهو لعمري نعم النتاج في حياة الفرد الواحد. ولكنه كان يحب أن يتشمم حوله ويتعرف كل ما يجري بجواره من بحوث

دخل (بلارد) الكسول على (بستور) وهو في ربكته فتحدث إليه، وكأني بك تسمعه يقول له: (تقول يا عزيزي إنك مرتبك، وإنك لا تستطيع الجمع بين الحساء المغلي وبين الهواء دون أن تظهر تلك الأحياء في الحساء. إذن فأستمع لي يا صديقي. نحن سوياً نعتقد أن هذه الأحياء لا تنبعث من ذات نفسها في الحساء، بل هي تقع فيه مع ما في الهواء من هباء، أليس كذلك؟)

فيقول بستور: (هذا حق، ولكن. . . .)

فيقاطعه بلارد: (صبراً، صبراً! أترى لو وضعت شيئاً من الحساء في قارورة، ثم أغليته، ثم صيرت فتحة القارورة بحيث تأذن للهواء بالدخول إلى الحساء، ولا تأذن لما فيه من تراب وهباء بالسقوط فيه. . .)

فيقول بستور: (وكيف ذلك)

فيجيب بلارد: (الأمر هين. خذ قارورة من قواريرك المستديرة، وضع الحساء فيها، ثم سيح رقبتها في اللهب ثم مطها حتى تستدق، ثم لين هذه الأنبوبة الدقيقة وأستدر بها متسفلاً، ثم لين طرفها وأستدر به متصاعداً حتى تصبح رقبة القارورة كرقبة الإوزة العراقية وقد غاصت بمنقرها في الماء لتلتقط منه شيئاً - حتى تصبح هكذا). ورسم بلارد شكلها. بلارد الذي نسي اليوم أمره

فيمعن بستور في الفكرة ثم يقول لما يرى حسن الحيلة في هذه التجربة الصغيرة: (بالطبع. بالطبع. الأمر واضح. فذرات التراب التي تحمل المكروب لا تسقط إلى أعلى. هذا ما تقصد إليه؟)

فيبتسم بلارد ويقول له: (بالضبط. جربها وأخبرني بالذي يكون. وإلى اللقاء!) وتركه وذهب إلى معامله الكيميائية ليتمم فيها دورة يومه

وكان لبستور الآن صبية تغسل له القوارير وكان له أعوان، فأمرهم أن يسرعوا في تجهيز القبابات. وبعد زمن قليل كنت تسمع نفاخات اللهب تصم الأذان. وأقبل بستور على العمل في غير رفق ولا هوادة. فتناول القوارير ووضع بها الأحسية، ثم سحب رقابها ولواها كرقاب الإوز، ثم أغلاها فطرد بخار الماء كل هوائها، فلما بردها رجع هواء الجو فدخل فيها بارداً نقياً

فلما تجهزت القبابات حملها قبابة قبابة إلى محضنه الدافئ وكان تحت حنية السلم الضيقة فلم يصل إليه إلا مكفوءاً على يديه وركبتيه، على صورة يزيدك ضحكاً منها محاولته أن يحتفظ بوقاره فيها. وفي الصباح بكر إلى معمله. وفي لحظة اختفى تحت السلم إلى محضنه. وبعد نصف ساعة كنت تراه خارجاً من هذا الجحر يدب على أربع، وقد برقت عيناه بالسرور من وراء نظارته الندية. وقد حق له السرور، فإن القبابات ظلت جميعها رائقة، ولم يكن بها مكروب وأحد، وظلت على روقائها غداً وبعد غد. لقد نفعت حيلة (بلارد). وقد بطلت نظرية انبعاث الخلائق من ذات نفسها. (تجربتي هذه تجربة في الحق بديعة. وهي تثبت أنك تستطيع أن تترك في الهواء ما شئت من مرق أو حساء، على شريطة أن تغليه، وعلى شريطة أن يدخل الهواء إليه بعد الإغلاء من أنبوبة طويلة ضيقة ملتوية هذا الالتواء)

وعاد (بلادر) وابتسم لما أخذ بستور يصب على رأسه خبر التجربة صبا. قال بلارد: (لقد حسبت أنها تنجح، فإن القبابة عندما تأخذ في البرودة بعد الغلي، يأخذ الهواء يدخل إليها بترابه وهبائه ومكروبه، فتتصيدها جميعاً تلك الأنبوبة الطويلة الرفيعة بما عليها من البلل)

قال بستور: (ولكن كيف تثبت هذا؟)

قال بلارد: (الأمر هين. هات قبابة من هذه القبابات التي بقي حساؤها طاهراً رغم تدفئتها في المحضن أياماً، وأملها حتى يسيل حساؤها إلى الرقبة العوجاء، ثم رد الحساء إلى بطن القبابة حيث كان، ثم أرجعها إلى المحضن، فلن تلبث طويلاً حتى تتعكر بالملايين من المكروبات، هي نسل تلك التي احتبست في عنق القبابة البليل) فأجرى بستور هذه التجربة، فكانت كما قال صاحبه. وكان بعد هذا اجتماع، تزاحمت إليه بالمناكب علماء باريس وكتابها ومزاحها وفنانوها. وفي هذا الجمع شرح بستور تجاربه، وذكر ما كان لأعناق الإوز من الخطر، وذكر نظرية الانبعاث التلقائي.

ثم صاح: (والآن فلن تستطيع هذه النظرية قياماً بعد هذه الضربة القاتلة)

لو أن بلارد كان في هذا الجمع، إذن والله لصفق تصفيقاً شديداً مع المصفقين. كان بلارد من تلك الأنفس الطيبة السخية النادرة

(يتبع)

أحمد زكي

محاورات أفلاطون - 21

الحوار الثالث

فيدون أو خلود الروح

ترجمة الأستاذ زكي نجيب محمود

- ولكن ألست ترى أنك إنما تقرر هذا فعلاً حينما تقول إن الروح كانت موجودة قبل أن تأخذ صورة الإنسان وجسده، وأنها تألفت من عناصر لم يكن لها وجود بعد؟ فليس الانسجام شيئاً يشبه الروح كما تظن، وإنما القيثارة والأوتار والأصوات توجد أولاً في حالة من التنافر، فيجئ الانسجام بعد هذه جميعاً، ثم هو يسبقها جميعاً في الفناء. فكيف يمكن أن نلائم بين هذا الرأي في الروح وبين الرأي الآخر؟

أجاب سمياس: لا يمكن قطعاً

قال: ومع ذلك فينبغي بلا ريب أن يكون ثم انسجام، ما دام الانسجام هو موضوع الحديث

أجاب سمياس: ينبغي أن يكون

قال: ولكن ليس ثم انسجام بين هاتين القضيتين. إن المعرفة عبارة عن تذكر، وان الروح انسجام، فأيهما إذن تستبقي لنفسك؟

أجاب: إني لأحسبني يا سقراط أشد يقينا بأولاهما التي أقيم لي عليها الدليل الوافي، مني بالثانية التي لم ينهض عليها دليل قط، فليست ترتكز إلا على أسس من الظن والأستحسان، وأنا عليم علم اليقين أن هذه الأدلة التي تعتمد على الظنون مضللة، وهي خداعة ما لم يؤخذ عند استخدامها حذر شديد - هي خداعة في علم الهندسة وفي سائر الأشياء أيضا. أما نظرية المعرفة والتذكر فقد أقيم برهانها على أسس من اليقين، والبرهان هو أن الروح لابد كانت موجودة قبل أن تحل في الجسد، لأن الجوهر متعلق بها، ومجرد أسم الجوهر يقتضي الوجود، وما دمت قد ارتضيت هذه النتيجة بحق وعلى أسس وافية، كما أعتقد، فينبغي، فيما أظن، ألا أستطرد في الجدل، وألا أسمح لسواي أن يزعم بأن الروح هي عبارة عن انسجام

قال: دعني يا سمياس أبسط الموضوع من وجهة نظر أخرى: هل يمكن فيما تتصور أن يكون الانسجام أو أي مركب آخر، في حالة تختلف عن حالة العناصر التي تألف منها؟

- لا ولا ريب

- أم هل هو يفعل أو يعاني شيئاً غير الذي تفعله هي أو تعانيه؟

فوافق سمياس

- لأنه يستحيل على الانسجام أن يكون على شيء من الحركة أو الصوت أو أية صفة أخرى تكون مضادة للأجزاء.

فأجاب: يستحيل أن يكون ذلك

- أو ليس كل انسجام يتوقف على الحالة التي تنسجم فيها العناصر؟

قال: لست أفهم ما تقول

- أريد أن أقول أن الانسجام يقبل التدرج، فهو أكثر انسجاماً، وهو أقرب إلى الانسجام التام، حينما تدنو الأجزاء في تناسقها إلى التمام، إن أمكن لها ذلك. وهو أقل انسجاماً، وأبعد عن الانسجام التام، حينما تكون الأجزاء اقل تناسقاً.

- حقاً
- ولكن هل تقبل الروح التدرج؟ أعني هل تكون الروح، ولو إلى أقل حد ممكن، أكثر أو أقل روحانية من غيرها، أو أبعد عن تمام الروحانية، أو أدنى إليه من روح أخرى؟
- لا يكون ذلك قطعاً
- ومع ذلك فقد يقال بحق إن روحاً تتصف بالذكاء والفضيلة وأنها خيرة؛ وأن روحا أخرى تتصف بالغباوة والرذيلة، وأنها شريرة: وحق هذا الذي يقال؟
- نعم هو حق
- ولكن ماذا يقول أولئك الذين يصرون على أن الروح انسجام، فيما رأيت من وجود الفضيلة والرذيلة في الروح؟ - أيقولون إن ثم انسجاماً آخر وتنافراً آخر، وإن الروح الفاضلة تكون منسجمةً، وما دامت هي نفسها انسجاما، ففي باطنا انسجام آخر، وان الروح الرذلة ليست منسجمة ولا يكون في باطنها انسجام؟
- أجاب سمياس: إني لا أحير جوابا، ولكني أحسب أن سيزعم أولئك الذين يأخذون بهذا الرأي شيئاً كهذا
ونحن قد اتفقنا فيما سبق أن ليست روح أكثر روحانيةً من غيرها، وهذا الاتفاق يساوي الموافقة على أن الانسجام لا يزيد في درجة انسجامه ولا ينقص، أي لا يكون أكمل ولا أنقص انسجاما
- جد صحيح
- وما لا يزيد في درجة انسجامه ولا ينقص لا يكون أكثر ولا أقل تناسقاً!
- صحيح
- وما لا يكون أكثر ولا أقل تناسقاً لا يكون فيه من الانسجام أكثر ولا أقل، ولكنه دائماً مقدار متساو من الانسجام
- نعم هو الانسجام متساو
- فإذا لم تزد روح ولم تنقص في روحانيتها المجردة عن غيرها، فهي ليست أكثر ولا أقل انسجاما منها؟
- تماماً
- وعلى ذلك فليس فيها من الانسجام أو التنافر مقدار أكثر أو أقل؟
- ليس فيها ذلك
- ولما كان ما فيها من الانسجام أو التنافر ليس أقل ولا أكثر فلا يكون لروح من الرذيلة أو الفضيلة اكثر مما يكون لغيرها، على فرض أن الرذيلة تنافر، وان الفضيلة انسجام؟
- أنها لا تكون أكثر من غيرها أبداً
- وان توخينا يا سمياس في حديثنا دقة أكثر فلن يكون لروح أية رذيلة، إن كانت الروح انسجاما، لأنه ما دام الانسجام مطلقاً فهو لا يساهم في غير المنسجم؟
- لا
- وعلى ذلك فلا تقع رذيلة من روح هي روح مطلقة؟
- كيف يمكن، وفاقاً لما سبق من حديث، أن تقع منها الرذيلة؟
- وبناء على هذا إذن تكون أرواح الحيوانات جميعاً سواء في الخير ما دامت كلها متساوية ومطلقة في روحانيتها؟
- فقال: إني موافقك يا سقراط
- فقال: وهل يمكن في ظنك أن يصدق كل هذا؟ أنسلم بهذه النتائج كلها - وهي مع ذلك ناتجة فيما ظهر من الزعم بأن الروح انسجام؟
- فقال: كلا ولا ريب
- قال: وأيضاً، أي عنصر بين الأشياء البشرية تراه مسيطراً، سوى الروح، والروح الحكيمة بنوع خاص؟ أترى بينها مثل ذلك العنصر؟
- حقاً أني لا أرى
- وهل الروح على اتفاق مع رغبات الجسد، أم هي وإياها في خلاف؟ فمثلا عندما يكون الجسد ظمآن ساخناً، أفلا تصدف الروح بنا عن الشرب؟ وعندما يحس الجسد جوعاً، أفلا تصدفنا عن الأكل! وذلك وأحد فقط من عشرة آلاف من أمثلة التضاد بين الروح وبين أشياء الجسد

- جد صحيح
ولكن سبق منا اعتراف بأن الروح ما دامت انسجاماً، فلا يمكنها أن تنطق بإشارة لا تتفق مع الأوتار التي تألفت هي منها، من حيث حالات التوتر والاسترخاء والتموج وسائر المؤثرات، أنها تتبعها فقط، ولا تستطيع أن تقودها؟
فقال: نعم؛ إنا اعترفنا بذلك يقيناً
- ومع ذلك فلسنا نرى الآن أن الروح تفعل الضد تماماً - فهي تقود العناصر التي يظن أنها تتألف منها، وهي في معظم الأحوال تعارضها وتقهرها طيلة الحياة بكل ما أمكنها من سبل
وقد تكون معها أحياناً أشد عنفاً بأن ترغمها على آلام الأدوية والألعاب، ثم قد تعود فتكون وإياها أرق وداعة، وهي في ذلك تتهدد بل وتزجر الشهوات والعواطف والمخاوف، كأنما هي بذلك تتحدث إلى شئ غير نفسها، كما يصور لنا هوميروس أو ذيسيوس في الأوذيسة بهذه الكلمات:
لقد ضرب على صدره لكي يؤنب قلبه:
(يا قلب صبراً، فيا طالما احتملت أسوأ من ذلك شراً
أفتظن هوميروس قد تأثر حين سطر هذا بالفكرة القائلة إن الروح انسجام، وأن رغبات
الجسد قمينة أن تسوقها، وإنه لم يكن يرى أنها هي التي بطبيعتها تسيطر على تلك الرغبات وتقودها، وأنها أمعن في الألوهية من أي انسجام؟
نعم يا سقراط، إني موافق جدا على ذلك
إذن فلن نصيب يا صاح في قولنا أن الروح انسجام، لان في ذلك تناقضا ظاهرا مع هوميروس الإلهي، كما أنه متناقض وإيانا
فقال: حقا -
(يتبع)
زكي نجيب محمود
شاعرنا العالمي - 2
أبو العتاهية
للأستاذ عبد المتعال الصعيدي
أبو العتاهية وبشار وأبو نواس:
هؤلاء هم الشعراء الثلاثة الذين كانوا أعلام هذه الثورة في الشعر، قضوا فيها على طريقته القديمة التي مضت في عصر بني مروان على جاهليتها العربية، لا تفكر في تجديد، ولا تنظر إلى ما حدث في العرب من أحداث دينية وسياسية واجتماعية، خلقت منهم أمة جديدة، وشعباً يتألف من أجناس مختلفة، وله نظر جديد في الأدب يخالف نظر أولئك العرب الخلص، وذوق أرقى من ذوقهم في الشعر والنثر. وقد بدأت هذه الثورة لينة هادئة في بشار بن برد، شديدة لا تبلغ درجة العنف في الحسن بن هانئ (أبي نواس)، شديدة عنيفة في إسماعيل بن القاسم (أبي العتاهية)
وكان مظهر هذه الثورة في أربع نواح من الشعر:
ألفاظ الشعر التي انتهت ثورتهم فيها إلى نقل الشعر إلى ألفاظ العربية الحضرية، (1) وهجر ألفاظها البدوية الخشنة؛ وإذا قلنا ألفاظ الشعر فإنا نعني بذلك ما يشمل معانيه، لأن التجديد في الألفاظ يستدعي التجديد في المعاني حتما حتى يتلاءم أمرهما، وتتناسب رقة المعاني وجمالها مع رقة الألفاظ وصقلها
طريقة الشعر ومذهبهم في ترتيب القصائد من مطالعها إلى مقاطعها (2)
أغراض الشعر ومقاصده (3)
أوزانه وقوافيه (4)
فأما ألفاظ الشعر فقد اشترك الشعراء الثلاثة في تلك الحركة التي انتهت بنقلها من البداوة إلى الحضارة، وكان بشار أول من بدأ بذلك وفعله عن قصد إليه يحقق فيه معنى تلك الثورة، فإنها لا تكون إلا عن قصد، ولا تثبت بالاعتباط والمصادفة، ولكنه لم يصل في ذلك إلى غاية هذه الحركة، لأنه نشأ متقدماً على أبي العتاهية وأبي نواس، وقضى شطراً كبيراً من عمره يأخذه بطريقته الجديدة وحده، وشعراء العصر المرواني يحيطون به من هنا

وهناك، ويعيبون عليه تلك الطريقة التي يأخذ بها، ويرمونه بالقصور والعجز عن اللحاق بالفحول، فيؤثر هذا فيه بعض التأثير ويمسكه عن الغلو في طريقته والاندفاع فيها، ويجعله يأخذ أحياناً في تقليد أولئك الفحول، والأخذ بطريقتهم في الغريب، والتشادق بالألفاظ

وقد مدح رُؤبَةُ بن العَجّاج عُقبَةَ بن مسلم بأرجوزة من أراجيزه وبشار حاضر، فاستحسن ذلك من رؤبة. فقال له رؤبة: هذا طراز لا تحسنه أنت يا أبا معاذ. وكان رجزهم في ذلك الوقت غاية ما وصلت إليه طريقتهم البدوية في إيثار الغريب والتشدد في اللفظ، فكان هذا سبباً في إنشاء بشار أرجوزته في مدح عقبة بن مسلم:

يا طَلَلَ الحي بذات الصّمْد ... بالله خبّرْ كيف كنت بعدي
أحسنت من رعد وتِرْبِ رعد ... سقيا لأسماء ابنة الأشد
قامت تُرَائيِ إذا رأتني وحدي ... كالشمس تحت الزِّبرِجِ المنقد

إلى أن قال في مدح عقبة:

أسلم وحييت أبا الْمِلَدّ ... مفتاح باب الحدث المنسد
مشترك النَّيْل وريِّ الزند ... أغر لَبّاس ثياب الحمد
لله أيامك في مَعَدّ ... وفي بني قحطان غير عد
كل أمرىء رهن بما يُؤَدّي ... ورب ذي تاج كريم الجد
كآل كِسرىَ وكآل بُردٍ ... أنكبُ جاف عن سبيل القصد
فصلته عن ماله والولد

وروى الأصمعي أنه قال: كان أبو عمرو بن العلاء وخلف الأحمر يأتيان بشاراً فيسلمان عليه بغاية الإعظام، ثم يقولان: يا أبا معاذ ما أحدثت؟ فيخبرهما وينشدهما ويكتبان عنه متواضعين له حتى يأتي وقت الزوال ثم ينصرفان، فأتياه يوماً فقالا: ما هذه القصيدة التي أحدثتها في ابن قُتيبة؟ قال: هي التي بلغتكما، قالا: بلغنا أنك أكثرت فيها من الغريب، قال: نعم، إن ابن قتيبة يتباصر بالغريب فأحببت أن أورد عليه مالا يعرف، قالا: فأنشدناها يا أبا معاذ، فأنشدهما:

بَكِّرا صاحبي قبل الهجير ... إن ذاك النجاح في التبكير

حتى فرغ منها، فقال له خلف: لو قلت يا أبا معاذ مكان (إن ذاك النجاح) (بَكِّرا فالنجاح)

كان أحسن، فقال بشار: إنما بنيتها أعرابية وحشية، فقلت: (إن ذاك النجاح) كما يقول الأعراب البدويون، ولو قلت (بَكِّرا فالنجاح) كان هذا من كلام المُوَلَّدين ولا يشبه ذلك الكلام، ولا يدخل في معنى القصيدة، قال: فقام خلف فَقَبَّل بين عينيه. وهذه القصة تعطينا أن طريقة بشار الجديدة (طريقة المولدين) كانت قد تقررت في ذلك الوقت، وصارت واضحة النهج، معروفة الأسلوب واللفظ، وتعطينا أن بشاراً كان لا يعدل عنها إلا لدواع نادرة تجعله يتكلف طريقة الأقدمين، ليثبت لهم قدرته عليها، وأنه يهجرها عن عمد، ويتركها عن اعتقاد بعدم صلاحيتها، بعد انتقال الأمة من البداوة إلى الحضارة، ومن خشونة العيش إلى لينه، ومن ظلمة الأمية إلى نور العلم، ولكنه كما قلنا لم يصل في تلك الطريقة إلى غايتها، ولم يبلغ بها إلى الدرجة التي وصلت إليها في شعر أبي نواس وأبي العتاهية، من تلك السهولة الممتنعة التي تقرب الشعر إلى الناس وتبعده عنهم، وتعتمد في ذلك على القدرة الشعرية الحق، لا على التشدق الذي يخفي وراءه من الضعف الشعري ما يخفي، ويوهم الناس أنهم لا يقدرون عليه، وهم لا يعجزهم منه إلا هذا التشدق وحده

وأما طريقة الشعر فلم يحدث فيها بشار حدثاً، بل مضى على ابتداء القصيد بالنسيب كما مضى عليه من قبله؛ وقد ثار أبو نواس على هذه الطريقة، وأخذ على الشعراء ابتداءهم القصيد بذكر الأطلال في عصر الحضارة والعيش المستقر، وبذكر هندا ودعدا بعد أن امتلأت القصور في عصرهم بمن لا يصح أن يجري معه ذكر لهند ودعد؛ وقد ذكروا لأبي نواس في تنديده بذلك قوله:

صفةُ الطلول بلاغة القِدْمِ ... فاجعل صفاتك لابنة الكرْمِ

وقوله:

لا تَبكِ ليلى ولا تَطرَبْ إلى هِندِ ... واشرب على الوردْ من حمراء كالوَرْدِ

وقوله:

سقياً لغير العلياء فالسّنَدِ ... وغير أطلال مَيّ بالجرَد
وقوله:
يا رَبْعُ شُغلَكَ إني عنك في شُغل ... لا ناقتي فيك لو تدري ولا جملي
وقوله:
تبكي على طلل الماضين من أسَد ... لا دَرّ دَرُّكَ قل لي من بنو أسد
لا جَفّ دمع الذي يبكي على حجر ... ولا صفا قلب من يصبو إلى وتد
وهذه ثورة على القديم حقاً، ثورة تفتن بعض دعاة التجديد في عصرنا، ولكنها عندي ليست هي الثورة الصحيحة التي يجدر بها أسم الثورة، وتستحق أن تدعى تجديداً في الأدب، وإنما هي ثورة شعوبية عابثة، ولا فرق بين ابتداء القصيد بالنسيب وابتدائها بوصف ابنة العنب، بل ربما يكون ابتدائها بالنسيب أروح عند النفس، وأخف في السمع؛ وإنما التجديد في ذلك ما سبق به شاعر بني مروان العظيم: الكميت ابن زيد الأسدي، وهذا في هاشمياته التي أنشأها في مدح بني هاشم والدعاية لهم في ذلك العصر، وكانت أول شعر قاله فسترها ثم جاء الفرزدق فقال له: يا أبا فراس إنك شيخ مضر وشاعرها، وأنا ابن أخيك الكميت بن زيد الأسدي، فقال له: صدقت أنت ابن أخي فما حاجتك؟ قال له: نُفِثَ على لساني فقلت شعراً أحببت أن أعرضه عليك، فإن كان حسنا أمرتني بإذاعته، وإن كان قبيحاً أمرتني بستره، وكنت أولى من ستره عليّ، فقال له الفرزدق: أما عقلك فحسن، وإني لأرجو أن يكون شعرك على قدر عقلك فأنشد ماقلت، فأنشده:
طربُت وما شوقاً إلى البيض أطرَبُ
قال: فيم تطرب يا ابن أخي؟ قال:
ولا لعباً مني وذو الشوق يلعب
قال: بلى يا ابن أخي - قال:
ولم يُلهني دار ولا رسم منزل ... ولم يتطربني بَنانٌ مُخضَّب
قال: وما يطربك يا ابن أخي؟ قال:
ولكن إلى أهل الفضائل والتقى ... وخير بني حَوّاء والخير يطلب
قال: ويحك من هؤلاء؟ قال:
إلى النفر البيض الذي بحبهم ... إلى الله فيما نابني أتقرب
قال: أرحني ويحك من هؤلاء؟ قال:
بني هاشم رهط النبي فإنني ... بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب
خفضت لهم مني جناحي مَوَدّةً ... إلى كنف عِطافهُ أهل ومرحب
وكنت لهم من هؤلاء وهؤلا ... مِجَنّاً على أني أُذَمُّ وأُقصب
وأُرْمَى وأرْمِي بالعداوة أهلها ... وإني لأوذَى فيهمُ وأؤنب
فقال له الفرزدق: يا ابن أخي أذع ثم أذع، فأنت والله أشعر من مضى وأشعر من بقى؛ وفي رواية أخرى أنه قال له: قد طربت إلى شئ ما طرب إليه أحد قبلك، فأما نحن فما نطرب ولا طرب من كان قبلنا إلا ما تركت أنت الطرب إليه
فهذا هو التجديد الصحيح في مطلع القصيد، لا ابتداؤه بوصف الخمر بدل النسيب كما أراد ذلك أبو نواس، فكل منهما غرض مستقل من أغراض الشعر، والتمهيد به لغيره من الأغراض الشعرية تصنع قبيح، وتكلف مسترذل.
وقد سلم أبو العتاهية من هذا العبث في مطلع قصيده بعد أن أقلع فيما يأتي عن سنة شعراء عصره، وأخذ نفسه بالجد في الشعر وترك العبث واللهو فيه.
وأما أغراض الشعر فإن أبا العتاهية هو حامل راية التجديد فيها، وصاحب القدح المعلى في تذليل ذلك الشعر العربي الجامح للآداب الإسلامية العالية، والأخلاق الكريمة السامية، والمواعظ الحسنة النافعة، وما إلى ذلك مما يدخل في نشر الثقافة الإسلامية، واستخدام الشعر في الدعاية إليها، وأخذ الناس جميعاً بها، حتى تعلو كلمة الشعر عليهم أجمعين، ويكون الشعراء الحكام على الملوك والعظماء، ولا يكون الملوك والعظماء الحكام على الشعراء، ولقد نجح أبو العتاهية في ذلك أيما نجاح، وذاع شعره في الشرق والغرب، وطار به صيته عند الأدباء والعلماء والعظماء في سائر الأمم واللغات، وأدى بهذا كله رسالة الشعر في عصره أحسن تأدية. ولم يكن لبشار ولا لأبي نواس في ذلك أثر يصح أن نذكره، اللهم إلا بعض أبيات نادرة تأتي في أثناء

القصيد على عادة غيرهما من الشعراء، وإلا قصيدة بشار في الدعاية لابراهيم بن عبد الله بن حسن حينما خرج على المنصور، وكان بشار من أشياعه، وهي قصيدة جليلة نعى فيه على المنصور قيام حكمه على الاستبداد بالرعية، ونصح إبراهيم أن يقيم حكمه على الشورى بأبياته المشهورة فيها:

أبا جعفر ما طول عيش بدائم ... ولا سالم عما قليل بسالم
على الملك الجبار يقتحم الردى ... ويصرعه في المأزق المتلاحم
كأنك لم تسمع بقتل متوج ... عظيم ولم تسمع بفتك الأعاجم
تقسم كسرى رهطه بسيوفهم ... وأمسى أبو العباس أحلام نائم
ومروان قد دارت على رأسه الرحى ... وكان لما أجرمت نزر الجرائم
فأصبحت تجرى سادراً في طريقهم ... ولا تتقي أشباه تلك النقائم
تجردت للإسلام تعفو سبيله ... وتعرى مطاه لليوث الضراغم
فما زلت حتى أستنصر الدين أهله ... فعاذوا عليك بالسيوف الصوارم
أقول لبسام عليه جلاله ... غدا أرحياً عاشقاً للمكارم
إذا بلغ الرأي المشورة فأستعن ... برأي نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فإن الخوافي قوة للقوادم
وما خير كف امسك الغل أختها ... وما خير سيف لم يؤيد بقائم
وخل الهوينا للضعيف ولاتكن ... نؤوما فإن الحر ليس بنائم

وقد صرف بشار وأبو نواس شعرهما في العبث والمجون، وهتك الأعراض، والخروج على الدين والآداب، حتى ضج منهما الناس في عصرهما، وساءت في الناس سيرتهما. وأما أوزان الشعر وقوافيه فلم يكن لبشار ولا لأبي نواس أثر يذكر فيها، وأبو العتاهية هو الذي جدد في تلك الناحية أوزاناً ظريفة، واخترع فيها قوافي جديدة، ومضى فيها على نحو لم يسبقه إليه أحد من الأوائل، ولم يكن يدخل في العروض الذي عرف لعهده؛ وقد سئل من بعضهم هل تعرف العروض؟ فقال: أنا أكبر من العروض. وهذا جزاب له قيمته في بيان اعتداد هذا الشاعر بنفسه، وفي الدلالة على أنه كان يذهب في الثورة على القديم مذهباً لم يصل إليه بشار ولا أبو نواس ولا غيرهما من شعراء عصره.

وإنا نسوق له قولًا آخر له دلالته في ذلك أيضاً: روى أنه اجتمع مع سلم الخاسر فأنشده بعض أشعاره ثم قال له: كيف رأيتها؟ قال سلم: لقد جودتها لو لم تكن ألفاظها سوقية، فقال له أبو العتاهية: والله ما يرغبني فيها إلا الذي زهدك فيها.

فإذا قسنا أبا العتاهية إلى بشار وأبي نواس فيما أحدثوه من التجديد في هذه النواحي التي هي أهم نواحي الشعر، وجدناه يربى فيها عليهما، ووجدنا أنه كان موفقاً فيما أحدثه من التجديد فيها كلها، ووجدنا أن بشار وأبا نواس لم يكن لهما تجديد يذكر إلا في الناحية الأولى وحدها، وخرجنا من ذلك كله بأن أبا العتاهية أولى منهما باسم الشاعر المجدد في هذا العصر.

عبد المتعال الصعيدي

الرَّبيعْ

لشاعر الشباب السوري أنور العطار

كل شيء هنا يغني ويحيا ... نغما ممتعا وشدواً عجيباً
يا حبيبي أفِقْ فقد ضحك الرَّو ... ضُ وأبدى جمالَهُ المحجوبَا
واستعادَ الوادِي الأنيسُ سَنَاهُ ... وبَنى الطيرُ عُشَّهُ المخروبَا
طربَ القلبُ فانتشى وَتغنّى ... وَمن الحبِّ أن أعيش طروبَا
وأنا الشاعرُ الذي يَغْمُرُ الأرْ ... واحَ ضحكا وما يريم كئيبا
في فُؤَادي اللهيف دَاءٌ قد اسْتَعْ ... صى وَجُرْحٌ يُمِضُّني تعذيبا
يا حبيبي دُنياكَ تَطْفَحُ بالحسْ ... نِ فَخُذْ للفُؤَادِ منها نصيبا
هاتِ نايَ الهوى وَقُمْ نَملأ الأك ... وانَ من سَكْرَةِ الغِنَاءِ ضُروبا
لا تُرَعْ فالحياةُ يومٌ وَيمضي ... لَيْسَ يُرْجى لطَيفِهِ أن يَؤُوبَا
نَحن شَدْوُ الطُّيورِ يُصْغِي لنا الدَّهْ ... ر فَيُغرى باللحنِ حَتى يطيبا
يَذَرُ الهائمينَ في فرحةِ الحبِّ ... وَيصْفِيهمُ الوِدَادَ الخصِيبا

يحتَسونَ الحياةَ خمرةَ وَجْدٍ ... وَيَرَوْنَ الدُّنا من السُّكْرِ كوبَا
لهمُ الليلُ في حواشيهِ يحيَوْ ... نَ وَيَطْوُونَ جنحَهُ تشبيبا
نَهَبوا العُمْرَ واستباحوهُ لَهْواً ... واستطابوا الأسى وَلَذوا اللَّغوبَا
ضحِكُوا والحياةُ بِنْتُ التَّلَهِّي ... مَنَعَتْ مُحْجِماً وأعطَتْ طَلُوبا
يَسأمُ العَيشَ مَنْ يَبيت خَلِيًّا ... والشَّجِيُّ العميد ينسى الكُرُوبا
رُبَّ صَحْرَاءَ طَوَّفَ الحبُّ فيها ... أزْهَرَتْ رَبْوَةً وَرَوْضاً عشيبا
نَضِرَ الغابُ ساحةً وتَجَلَّى ... رائعاً فِتنةَ العُيُونِ قَشيبا
هُوَذَا موكبٌ لآذارَ حُلوٌ ... يَتمشى على السُّهولِ لَعوبا
ملأ الأرضَ والسمَوات عِطراً ... وَنَفى الهمّ والضَّنى والشُّحُوبا
وعلى معطَفِ المُروجِ تراءتْ ... قُبَلٌ للرّبيع تَنْفَحُ طِيبا
تَجِدُ النفسُ في شذاها الأماني ... صُوَراً تُتْرِعُ الجَنانَ لَهيبا
تَغْمُرُ الرُّوحَ بالهَناءةِ والصَّف ... وِ كما يَغمرُ الحبيبُ الحبيبا
اليَواقيتُ في النَّواظرِ ذابت ... وَجَرى السِّحرُ بالضِّيَاءِ مَشوبا
جدولٌ يُلهِب القلوبَ غِناءً ... ظلَّ من موجهِ السنيِّ سكوبا
أَلْمُسُ النُّورَ في تلاميعهِ الزُّهْ ... رِ وأشْتَفُّ روحُه المحبوبا
وأرَى العِطْرَ وهو هَيمْانُ في الدوْ ... حِ يُناجي في غصنهِ العندليبا
وأُحسُّ الحياةَ تَرْكُضُ في العُش ... بِ وتسرِي بينَ الحقولِ دبيبا
نَفَسٌ هامِسٌ وآخرُ شادٍ ... وَرُؤىً هَمَّ سِحرُها أن يُجيبا
كلُّ شيءٍ هُنَا يُغَنِّي وَيحيا ... نَغماً ممتعاً وشدْوا عجيبا
هَاهُنا تَسْمَعُ الأناشيد أذْني ... وترى العينُ في كَراها الغُيُوبا
ها هنا يَرْكنُ المحِبُّ إلى الأُن ... سِ وَيُغفى الفُؤَادُ إلا وجيبا
يا حبيبي أَفِقْ فَهَاذَاكَ طَيْرُ الْ ... حُبِّ قد أسْكَرَ الرُّبا تَطريبَا
تَترَاءى له السمواتُ ألْحا ... ظاً وتبدُو الأرضُ الفضاءُ قلوبا
يا حبيبي طابَ الهوَى فاغْتَنِمْهُ ... لستَ عن جُرْحِهِ النَّدِيِّ غريبَا
لكَ من هذه الدِّغالِ أليفٌ ... يَتَصَبَّاكَ مُؤْنِساً وَرَقيبَا
غَنِّ في مِسْمَعي نشيداً رقيقاً ... وَاسْرِ في مُهجتي شُعاعاً رَطيبَا
وَدَعِ الحبَّ يَأتَلِقْ في خيالي ... أُفُقاً ساحراً وَكَوْناً رَحيبَا
اطْعَنِ القلبَ يَنْفَجِرْ بالأغارِ ... يدِ ويملأُ هذا الفضاء طُيُوبَا
لا تُضَمِّدْهُ يَذْكُ شوقاً وشَجواً ... وَاتْرِكْ نارَه تشبُّ شُبُوبا
أوْقِدِ الحبَّ بالمدامعِ تَنْهَلُّ ... وبالوجدِ صارِخاً وَمُهيبا
لا تَخَفْ أنْ يَضِجَّ بالحبِّ مَأْوَى ... وَاخْشَ إمَّا أحْسَستَ منه نُضُوبا
صاغَهُ اللهُ للعَذابِ وللحبّ ... وأحياهُ بالدِّماءِ خَضِيبا
وَرياضٍ فيها العِشَاشُ تُغَنِّى ... فيذُوبُ الغِنَاءُ خمراً صَبِيبا
إن هذا الجَمالَ يا قَلبُ نَهبٌ ... فابْتَدِرْ نخطَفِ السَّنا المنهوبا
إحْىَ لِلنُّورِ، للمسَرَّةِ، لِلشَّد ... وِ، وَخَلِّ الأسى وَخَلِّ النَّحِيبا

أنور العطار

وحي عصفورة

أسطورة الخلود

بقلم أمجد الطرابلسي

مِلتُ إلى روضتي صَباحا ... مُضْطَرِمَ الفِكرِ والشجُونِ
ألتمِسُ البِشْرَ والمِراحا ... في مَعرِضِ الحُسنِ والْفُتون
جلَستُ في ظِلِّها ونفْسي ... يَلهو بها جامِحُ الخَيالِ
أُسطِّرُ الحزْنَ فوْقَ طِرْسي ... مُستَوْحِياً رَوْعَةَ الجمالِ
سمِعتُ إذ ذاك صَوْتَ هَمْس ... أتْرَع نَفْسي أسًى وَشَكًّا
عُصفُورةٌ تلكَ فوْقَ رَأسي ... تمعِنُ بينَ الْغصونِ ضِحكا
تقولُ: هيّا اغْنم الزَّمانا ... فما مَضى منْه لا يَعودُ
قُلتُ: أرَى عَيشَنا هَوانا ... وإنما هَمِّيَ الخلودُ
قالت: بلِ امْرَحِ وَعِشْ طَروبا ... ترجو خلوداً؟ وَما الخلودُ؟
قَصِيدةٌ تَسحَرُ القُلوبا ... أبدَعها شَاعِرٌ مَرِيد

كفَاكَ يا شَاعِري بُكاءً ... لا النَّوْحُ يُغْني ولا الغِنَاءُ
كَيْفَ تُرَى تَفْهَمُ البَقاَء ... في عَالَمٍ رَمزهُ الفَناءُ؟
واعجباً! كلهمْ سكارى ... سعَوا إلى الخُلْدِ في الفَيافي
وَطَوّفوا فَوْقَها حيَارَى ... وقبْرُهُم غايَةُ المطافِ
رأَوْا ظلاماً أزَالَ صبْحاً ... والدَّهر عفَّى على الجديدِ
والموتُ منْ خلْفهمْ مُلِحّا ... فأبدعوا فِتْنةَ الخُلودِ
أبعدَ أن تألفَ الرُّغاما ... وَتَبْتَلي وَحشَةَ اللحُودِ
وتَغْتدي في الثَّرَى رِمَامَا ... تَنعمُ يا صَاحِ بالخُلودِ؟
تَهْزَأُ بالموْتِ والفَناءِ؟ ... وهكذا الجدوَلُ الصغِيرُ
يَحلُمُ بالخُلدِ وَالبْقَاءِ ... وإنما طَبعُه المسِيرُ
يُرَتِّل اللَّحْنَ والنَّشيدا ... في مَوْلدِ اللَّيْلِ أو رَدَاهُ
يَرْجو لألْحَانِهِ خُلودا ... لا اللَّحْنُ يَبْقَى وَلا صَداه
أمعَنَ في سجْنِهِ أنينَا ... وَوَدَّ لوْ يَغْمرُ الهضابا
وَضَجَّ في قَيْدهِ جنُونا ... يرِيدُ أنْ يُغْرِقَ السَّحابا!
سلْ زَهْرَةَ الأمسِ يا صَديقُ ... كيفَ خبا عِطْرُها الذَّكِيُّ؟
وأيْنَ منْ خدِّها بَرِيقُ ... مثل بَرِيقِ المَنى، بَهيُّ؟
أيْنَ أغانِيَّ في الغُصونِ ... أرْسلُها في الفَضَاءِ وَهْنا؟
هَل حفِظَ الرَّوْضُ منْ لُحوني ... يا شَاعري مذْ هَتَفْتَ لَحْنا؟
أيُّ بقَاءٍ وَأيُّ خُلدٍ ... في عالَمٍ كنْهُهُ الزَّوَالُ؟
سَيمَّحِي الكَوْن بعدَ عَهدِ ... كما أمَّحَى واختَفَى خَيالُ. . . .
وَانْطَلَقت في الفَضَا المديدِ ... مُمعِنةً بالخُلودِ سُخْرا
تُنْشدُ أسطورَةَ الخلودِ ... تُسمِعها العالَمينَ طُرّا
رَجعتُ من رَوْضتِي مهَاناً ... مضْطَرِمَ الفِكْرِ والشُّجُونِ
عُصفُورَةٌ تَفْهمُ الزَّمَانَا ... وَنحْنُ في غَمْرَةِ الظنُونِ
أمجد الطرابلسي
من أدب السودان
فجرٌ في صحراء
بقلم التيجاني يوسف بشير
إملأِ الرُّوح من سناً قُدُسيٍّ ... مبهَمٍ كالرُّؤى وَديعٍ رَضِيِّ
قمريّ كأنما سَكَبَ البَدْ ... رُ عليه من فيضهِ القَمرِيِّ
وَاغْمِرِ القَلْبَ في مُفاضٍ من الفْج ... ر وضيءٍ جَمِّ النَّدَى عبقرِيِّ
يَثِبُ الحُلْمُ حَوْلَ مَشْرَعِهِ السَّا ... جي وَيجري مع الضُّحى في أتيِّ
كم تَظَلُّ الرؤى به شارِعاتٍ ... في يَنابيعَ من جلالٍ ندِيِّ
يتلفَّفْنَ في جوانحَ بَيضا ... ءَ وَيَسحبْنَ من رِداء وضِيِّ
ويحومن سوما باسمات ... يتخففن من هموم العشي
ساحبَاتٍ على الكَنهوَرِ أصباً ... غاً رقاقاً من واضحٍ وخفيِّ
ناسجاتٍ شَفَائفَ الأفُقِ الزَّا ... هِي بُرودلً على الصباحِ السَّنيِّ
ذاب في الأفْقِ رافقاً فوقَ هامِ ال ... بيدِ يَهْمي على تُرى بدويِّ
يغسل النوْمَ من مضاجعِ رُعيا ... نِ الصَّحاري ومضربِ القَرَوِيِّ
عجباً للجلالِ والحُسنِ ماجا ... في إطارَينِ فاتِرٍ وقويِّ
ينسُجانِ الهوى من الفجر بُرْداً ... عُلُويَّا لشاعِرٍ علويِّ
صَاحَ منْ رُوحهِ وكبَّرَ في أع ... مَاقِ دُنيَاهُ صَارِخاً كالصبيِّ
أفَهذَا الجَمَالُ يا رَبِّ، هذَا الس ... حرُ، منْ أجلِ ذَلكَ الآدَميِّ؟
أم درمان - السودان
التيجاني يوسف بشير
في الأدب الفرنسي المعاصر
رومان رولان
بقلم كامل
يطلع علينا رومان رولان بين وقت وآخر من أعماق عزلته في سويسرا بعيداً عن وطنه

فرنسا بكتاب أو مقال جديد فيشعر من قرأ هذا الأديب العظيم بحنين زائد إلى قراءة هذا الكتاب أو هذا المقال. ذلك أن رومان رولان كاتب عالمي الفكر والعاطفة لا يكتب لأمة معينة ولا لشعب خاص، بل يكتب للعالم أجمع ناظراً إليه كأسرة إنسانية واحدة لا تمزقها حدود، ولا تفرقها لهجات، ولا تبذر بذور الحقد والضغينة في قلوب أعضائها فكرة الأجناس. لذا كان رومان رولان من أحب الكتاب المعاصرين إلى كل قلب رحيم ونفس واسعة الآفاق. وكتابه عن (مهاتما غاندي) يقربه إلى قلوبنا نحن الشرقيين لأنه وقف فيه موقف المدافع القوي عن الحركة الهندية وشعبها المجيد المهضوم، كاشفاً القناع عن فضائح الغرب وآثامه في قتل أمة عظيمة بلغت مئات الملايين والوقوف في وجهها بالالتجاء إلى البطش الخسيس حين تنهض مطالبة بحقها في الحياة

ولا عجب أن يبدو ذلك من رجل مثل رومان رولان لم تكد تعلن الحرب الكبرى - وكان وقتذاك في جنيف بسويسرا - حتى أخذ يكتب سلسلة مقالات ملتهبة بالعاطفة الإنسانية، مطالباً فيها بالمبادرة بحقن الدماء وعودة السلام وإنقاذ أرواح الشباب البريء الذي يلعب بعقله خطباء الشوارع مستغلين حرارة قلبه وسمو نفسه في سبيل جشع أصحاب مصانع السلاح ودجل رجال الحكومات. ولقد آثر رومان رولان عداء الرجعيين من أبناء وطنه والصحافة المادية المغرضة التي أثارت عليه الرأي العام الساذج في كل أمة مهما بلغ رقيها، آثر ذلك عن أن يتنازل عن حريته في الفكر والقول، عن إنسانيته التي هي ثروته الكبرى

ولد رومان رولان في بلدة كلاميسي في اليوم التاسع والعشرين من شهر يناير عام 1866 من أسرة ريفية برجوازية عريقة القدم. وتعلم أولاً في البلدة التي ولد بها. ثم أنتقل إلى

باريس عام 1886 حيث التحق بمدرسة النرمال العليا وفي عام 1889 نجح في امتحان (الأجريجاسيون) في التاريخ والفلسفة، وفي عام 1895 حصل على شهادة الدكتوراه في الآداب برسالة قدمها عن (أصول المسرح الغنائي الحديث) وعين بعد ذلك أستاذاً لتاريخ الفن في مدرسة النرمال العليا، ثم عين أستاذاً في السربون حيث أدخل مادة (تاريخ الموسيقى) وبقي فيها حتى عام 1911.

ابتدأ رومان رولان حياته الأدبية بكتابة عدد كبير من القصص المسرحية، ولم يكن ذلك منه عفواً بل كان تنفيذاً لفكرة مختمرة في نفسه عن وجوب تجديد الفن المسرحي بالطريقة التي شرحها في سلسلة مقالاته التي كتبها بعنوان (مسرح الشعب) (1900).

كتب رومان رولان من هذه القصص المسرحية (1897) - (1898) - (1898) - (1899) - (1900) - 14 (1902) - (1902) - (1904) (1905) (1917) - (1919)

وفي مقالاته عن (مسرح الشعب) نادى رومان رولان بان يكون المسرح متحرراً من برجوازيته أي من اقتصاره على رسم ألوان الحياة الدائرة بين الطبقات الوسطى والغنية، لأن هذه الطبقات لا تكون إلا جزءاً ضئيلاً من الأمة. فاقتصار موضوعات الكتاب المسرحيين عليها يحرم المسرح من أن يكون معبراً عن روح الشعب الحقيقية وآماله التي لا نلمسها إلا في الطبقات الفقيرة وهي الكثرة في كل شعب. كذلك هاجم رومان رولان المسرح الكلاسيكي والمسرح الرومانتيكي داعياً إلى أن يكون الفن المسرحي صدى لتفكير العصر الذي نعيش فيه، وأن يكون ممهداً الطريق لمجتمع جديد. وبرغم أن رومان رولان بقي حتى الحرب الكبرى لا يعلن فكرته السياسية المحددة، فإن كل كتبه كانت تفيض بتمجيد الحرية والأحرار وبنزعة إنسانية عظمى. ولقد كان هذا المجتمع الجديد الذي يرمي إلى التمهيد له هو ذلك الذي تحيا فيه الطبقات الفقيرة المهضومة حياة حرة كريمة، ونجد بين أحضانه أكبر قدر من الحنان والتقدير.

على أننا ونحن في انتظار ذلك اليوم المطوي في ثنايا الغيب يرى رومان رولان وجوب أن نعد الشعب لنقبل ذلك المجتمع الجديد، وما ذلك إلا بأن نهيء الفرد لبلوغ أعظم درجة مستطاعة من الكمال الإنساني حتى يقابل كل تطور جديد بقلب مفتوح وصبر جميل. ولذا

نرى رومان رولان (أخلاقيا) يطالب الفرد بأن يكون قوي الخلق عظيم النفس، حنون القلب محبا لكل الناس، راغباً في معرفة كل شيء، مستعذباً التضحية في سبيل

الفكرة السامية. فبهذا وحده نستطيع أن نقبل راضين مجتمعاً جديداً مترفعاً عن الدنايا كارهاً لضروب الرياء الذليل، بعيداً كل البعد عن الأنانية الحيوانية. ولهذا أيضاً كان رومان رولان يهيم بحياة الأبطال الذين يرى فيهم مثلا أعلى لما يجب أن يكون عليه الفرد من الفضائل. فنراه يكتب - كما ذكرنا - قصتيه المسرحيتين (سان لويس) و (دانتون). ثم نراه بعد ذلك يكتب ثلاث تراجم بعنوان (حياة الرجال المشهورين) أولاهما عن (حياة بيتهوفن) (1903) والثانية عن (حياة ميشيل آنج) (1906) والثالثة عن (حياة تولستوي) (1913)، ثم أخيراً يصدر كتابه الشهير عن (مهاتما غاندي) (1926).

ويرى رومان رولان أننا في عصرنا الحاضر أحوج ما نكون إلى دراسة أولئك الأبطال (لأن أوربا الآن يغشاها جو خانق مفعم بالرذيلة. إذ طغت المادية الوضعية على الفكر. . . إن العالم يختنق. فلنفتح النوافذ حتى يدخل الهواء الطلق العليل. فلنستنشق نفثات الأبطال) وما هؤلاء الأبطال إلا أولئك الذين نرى فيهم - كما يقول رومان رولان - (روح البطولة. ورجاحة العقل والابتسامة الدائمة، وشهوة النور والمعرفة. تلك الصفات التي نراها في فرنسا في رابليه وموليير وديدرو، وبين الموسيقيين نستطيع أن نقول بيرليوز وبيزيه لأنه لا يوجد خير منهما).

على أن رومان رولان يرى في بيتهوفن وفي ميشيل آنج وتولستوي عبقريةً لم يجدها في أبناء وطنه. فيرى في بيتهوفن الشخص (الذي منه تنتقل عدوى الشجاعة الخارقة. والإحساس بالسعادة في الكفاح، وتغلب الضمير الذي يشعر في نفسه بأنه إله). ويرى في تولستوي (ذلك النور الذي انطفأ، والذي كان لأبناء جيلين أطهر نور أضاء شبابهم) وهو يجد فيه أيضاً (الصديق الحقيقي الوحيد بين كل رجال الفن المعاصر). ولسنا في حاجة إلى تأكيد الصلة الوثيقة بين تولستوي ورومان رولان، إذ أن تولستوي هو الكاتب الوحيد بين الكتاب الحديثين الذي طالب بأن تكون رسالة الفنان أخلاقية ودينية. وهذا هو اظهر ما يميز فن رومان رولان ودعوته.

ونحن إذا نظرنا الآن إلى هؤلاء الثلاثة الذين يمجدهم رومان رولان رأينا أن أولهم ألماني، والثاني إيطالي والثالث روسي. فكأنه لم يجد بين أبناء وطنه مثله الإنساني الأعلى. لذا كان ذلك داعيا إلى أن يجد رومان رولان عددا ليس بالقليل من النقاد الفرنسيين يتهمونه بانتقاص العبقرية الفرنسية والطعن فيها. والواقع أن رومان رولان كان دائم اللوم لأبناء وطنه على (شدة تأثرهم بالأوهام الخداعة التي تصوغها الخطب الرنانة) وكان يصرح دائما (بكرهه لذلك النوع الجبان من المثل الأعلى الذي يدير العيون عن بؤس الحياة وضعف النفس. إن البطولة الكاذبة جبن ونذالة. فليس هناك إلا نوع واحد من البطولة. تلك هي التي ترى الحياة كما هي وتحبها).

والعجيب أن رومان رولان عندما أراد أن يرسم صورة خيالية تتجمع فيها فضائل أبطاله السابقين لم يجعل بطلها فرنسياً بل ألمانيا. فكتب قصة (جان كرستوف) (1904 - 1912) وبطلها جان كرستوف - موسيقي ألماني (تغلغلت فيه نفس بتهوفن العظيمة. فصلبت أعضاءه ونفسه وبدت كأنما جعلت حجمها ضخما هائلاً. لقد كان يتجه نحو العالم. كان كجبل شامخ تدوي بين أرجائه العواصف، عواصف الحرارة والحماسة، عواصف الهم الدفين، آه! ياله من هم! على أن ذلك لم يؤثر بشيء! كان يحس بنفسه وافر القوة!. . . العذاب! العذاب أيضاً!. . . آه! ما أجمل أن يكون المرء قوياً ما أجمل أن يتعذب المرء عندما يكون قوياً!. . .).

وقصة (جان كرستوف) تقع في عشرة أجزاء، وهي في نظر الناقد أندريه بي أقرب إلى أن تكون ترجمة لشخصية خيالية من أن تكون قصة؛ وهي - كسائر أعمال رومان رولان - تفيض بالضمير الحر والحب النبيل والموسيقى الرائعة

وليس إعجاب رومان رولان ببتهوفن قاصراً على كونه نموذجاً للبطل الذي ينشده مما دفعه لأن يرسم شخصية (جان كرستوف) ماثلة له، بل أيضاً لأنه (إمام الموسيقيين)، و (الموسيقى الآلهية) عند رولان كأبطاله بمثابة (الضوء الذي ينير حياته) ولقد رأينا كيف كان له الفضل في إدخال مادة (تاريخ الموسيقى) في السوربون حين عين أستاذاً فيها. كما أنه كتب فضلا عن دراسته الخالدة عن بتهوفن عدة دراسات أخرى في الموسيقى. منها ` (1908) و ` ` (1908) و (1915) ذلك أن رومان رولان يرى - ككاتب أخلاقي - أن الموسيقى خير مهذب للنفوس المريضة، وأعظم حافز للعواطف الخامدة، كما أن

الموسيقيّ العبقري يستطيع أن يجعل موسيقاه خير تعبير عن روح العصر وآماله وظروفه الملموسة.
(البقية في العدد القادم)
علي كامل
القصص
من أساطير الإغريق
أجنحة ديدالوس
أول محاولة للطيران عرفها التاريخ
للأستاذ دريني خشبة
لم يكن في أثينا القديمة على ما اشتهرت به من روعة الفن وكثرة الفنانين، من هو أمهر من ديدالوس العظيم في نحت الدمى وصناعة التماثيل، وهندسة المباني الضخمة. ولقد كان يتنقل بين المعاهد اليونانية، وخاصة بين إقريطش وقبرص وأثينا، لكثرة الدعوات التي كانت تصله من ملوكها، ليقوم على بنايتهم وليتعهد تماثيلهم، وليشرف بنفسه على هياكلهم، ليقال في مواضع الفخر، إن هذا التمثال، أو تلك الدمية، أو هذه الزخرفة من عمل ديدالوس
واستفاضت شهرته، وذاع صيته، وملأ الخافقين أسمه، ولاسيما بعد إذ شاد اللابيرنث (التيه) لمينوس ملك إقريطش، واللابيرنث عمل من أجل الأعمال الهندسية القديمة، إن لم يكن أجلها جميعاً. ذلك أنه كان لمينوس وحش هائل مخرب يسمى (المينوطور)، نصفه الأسفل نصف عجل جسد، ونصفه الأعلى نصف رجل له أنياب الأسد، وغدرة الذئب، وقوة التنين العظيم
وكان لا ينفك يقتل كل من اقترب منه، ولو كان من خاصة الملك. فلما استطار شره، وعظمت بليته دعا مينوس الملك، ديدالوس المهندس، ليشيد هذا البناء الرائع، ذا المنعرجات والحنيات، والشعاب المتداخلة، التي لا يستطيع أحد أن يفلت منها، إذا انفتل فيها. وقد بناه ديدالوس على شكل دائرة عظيمة محيطها هذه الشعاب والمنعرجات، وفي وسطها فضاء فسيح يربض فيه المينوطور أو يركض
ولندع الآن ذاك المينوطور الرهيب جاثما في اللابيرنث، لنرى ما كان من أمر ديدالوس بعد ذلك
ظل الناس يتحدثون عما وهب ديدالوس من عبقرية، وما أوتي من حذق ونبوغ، وظلوا يتهافتون على آياته الفنية التي كساها إلهامه ظلالا كظلال السحر، وموهها بأمواه القداسة
والخلود، حتى كبر الفتى بردكس، ابن أخي ديدالوس؛ وكان شاباً ممتلئ الجسم، مفتول العضل، قوي الملاحظة، دقيق الفهم، سريع التصور؛ ما كاد يتتلمذ لعمه حتى بلغ شأوه، بل هو قد فاقه بمزج الشعر والموسيقى بفن الحفر والمثالة، ولاءم بين روحها جميعاً، فكان يبرز تحفه في مظهر دقيق وطراز أنيق؛ ثم هو يضفي عليها من شبابه الغض، وروحه العطرية الشاعرة، ظلال الحب، وسمات الفتنة، ويحرك فيها عواطف الآلهة!
ولهج الاثينيون باسم هذا الفنان الشاب، وتناسوا عمه الذي هو أستاذه وملهمه. وضاق ديدالوس بابن أخيه ذرعاً، وساءه أن تكسف شمسه الوضاءة المتلألئة، نجمه الذي لبث زماناً يسلسل نور الفن في أرجاء هيلاس
وما فتئ العم يحنق ويحنق، وما فتئ بردكس يسمو بفنه إلى الذروة، حتى لسعت عقارب الغيرة قلب الشيخ الفنان، ونفثت فيه سمها، فلم يعد يطيق هذا الخصم الذي صنعه لنفسه بيديه، ولم يعد يحتمل أن يرى نفسه كماً مهملا بجانب الفتى العبقري، فأقسم ليزيحنه من طريقه، ولو بتجريعه كأس المنون، وزين له أن يحتال عليه، فيذهب وإياه إلى شعاف جبل شاهق، ذي مهاو تنتهي إلى اللج الجياش في اليم، حتى إذا كانا فوق القنة المشرفة على البحر المصطخب، نهز منه غرةً ودفع به إلى الأعماق، حيث ينشق له قبر من الموت. . . والنسيان!
وأنفذها ديدالوس المسكين!
ولكن الآلهة كلها كانت تنظر، وتستعد للمعجزة! وكيف؟!
لقد أستجمع الشيخ كل قوته، ووضع في يديه كل منته، ودفع بابن أخيه من فوق القنة،

فتردى الفتى على حدور الجبل، حتى إذا كان بينه وبين الموت قاب قوسين، هبطت منيرفا سيدة الأولمب، وصاحبة أثينا، من عليائها، فأنقذت بردكس من قتلة محققة، ثم نفثت في إذنه نفثتين، كان بهما فرخاً حزيناً من أفراخ القطا، راح يرف في السماء مدوماً فوق عمه، حتى كاد يصعقه من حيرة وعجب!!

وانقلب ديدالوس إلى بيته أسوان أسفاً، ووقر في نفسه أن الآلهة التي سحرت بردكس لتنقذه من تدبيره السيء، لأبد أنها تترصده، ولابد أنها ستأخذه بأوزاره في القريب، غير متجنية ولا ظالمة؟

ثم مضت سنون وولد لديدالوس طفل جميل الصورة، طلق المحيا، مشرق الغرة، سماه إيكاروس. ولكن الطفل لم يستطع أن يخفف من الروع الذي كان ينتاب أباه، أو يذهب بسورة الهم التي كانت تجثم على قلبه، وتثقل على نفسه، كلما تصور الهامة المفزعة التي يضطرب بها نومه، فتقض مضجعه وتزلزل كيانه

لقد كانت القطاة تتمثل له كلما أغمض طرفه، كأنها روح ميت ترنق على خصمها تكاد تصعقه. وازداد الشيخ خبالاً حينما ألحف عليه الأثينيون يسألونه عن بردكس أين قضى وأيان ولى! وأخذ الغوغاء يلغطون، وشرع الخاصة يتسقطون أخبار الفتى الفنان، ودأبوا على عمه يسألونه عنه، وهو يضلل بهم ويخترع لهم، حتى أوجس أن ينكشف سره، فينكل الناس به. فآثر الهجرة عن أثينا المحبوبة، إلى صديقه مينوس ملك إقريطش، مصطحباً معه ابنه الطفل إيكاروس

وتطامن الدهر، وشب إيكاروس وترعرع، وأخذ عن والده من الفن ما أخذ بردكس من قبل، وحسب ديدالوس أن الزمان قد غفل عنه، وأن أعين الآلهة قد غفت واستنامت، وأن الأيام قد ابتلعت إثمه الكبير في تضاعيفها القاتمة المظلمة، فأستيقظ الغرور في قلب الفنان الشيخ، ولم يتقبل ما غمره به مينوس الملك من النعم بالشكر الواجب على لاجئ طريد مثله، بل بطر وأستكبر، وكفر بأنعم مولاه وآلائه، ومد له هواه فولغ في إناء الملك، بعد أن أختلط بأهل بيته اختلاطاً شائناً أدى إلى كثير من القيل والقال وعلم الملك بما كان من خيانة ديدالوس فأمر بالقبض عليه، واعتقاله في إحدى غرف القصر حتى يقضى في شأنه؛ فألقي به في حجرة منفردة في طرف القصر، مشرفة على الماء، متصلة بالسماء

وطالت عزلت الفنان الشيخ في معتقله هذا، وضاق ابنه بالحيز الضيق الذي يحبس أنفاس روحه، ويحسر مرامي مقلتيه، ويشيع الهم في حنايا ضلوعه، فقال لوالده وهو يحاوره: (أهكذا قضى علينا أن نموت هنا صبراً يا أبتاه!) وكانت كلمات إيكاروس المبللة بالدموع تذهب كالصدى في أذان الشيخ، وكان الغلام يجتذب اللفظة المفردة من فم أبيه، فما كاد يفوز إلا بلا. . . أو بنعم. . .

وكانت للغرفة التي اعتقلا فيها شرفة صغيرة تطل على البحر الأبيض المتوسط، وكان منظر السفائن الماخرة كالأعلام، والطير صافات من فوقها كأنها تسبح بدورها في لج من زرقة السماء، يثير في نفس الفتى أحلاما وأخيلة وأمنيات. وأنه لفي أصيل جميل يناجي الطبيعة من شرفة سجنه الصغيرة، إذا به يذهب إلى والده مستبشراً متهللا، ويقول: (أبي! أعجزنا أن نصنع لنا أجنحة كهذه الطير. فنفلت بها من هذا المكان الرهيب؟.)

وكان الشيخ جالسا في زاوية مظلمة من زوايا الغرفة يجتر أحزانه، ويتغنى آلامه، فلما سمع ما خاطبه ابنه به، افتر فمه العجوز عن ابتسامة منقبضة مغضنة، وشاعت في أساريره بوارق أمل جديد!

وقال لابنه: (أجنحة وأنى لنا بالريش يا إيكاروس؟)

فقال الولد: (لا عليك يا أبي، أن غرفة الدجاج قريبة من هنا!)

وعبس الفنان الشيخ، وقال: (والحارس الفظ؟. . .)

فتضاحك إيكاروس قائلا: (الحارس!؟ أمره أهون مما ترى. . . سنرشوه يا ابتاه، فيحضر لنا ما نشاء من الريش، وسنخدعه أننا صانعان له لباسا لا تحلم الملوك بمثله!)

ولكن العبوسة التي رفت على جبين الشيخ أنشبت فيه جميع مخالبها، وقال: (دعني أفكر يابني، دعني أفكر يا إيكاروس. . .)

وهكذا كانت العبقرية البكر، الكامنة في هذا الفتى الصغير، لقاحا بعيد الأثر في عبقرية الشيخ الفاني المتهدم، وهكذا بدأ الفنان الأكبر، باني اللابيرنث، ومشيد هياكل الآلهة،

يفكر في هذا المقترح الشارد الذي اقترحه عليه الفنان الصغير!
أجنحة. . . دجاج. . . ريش. . . الحارس الفظ. . . مينوس. . . بردكس. . . فرخ القطا.)
وهكذا انبطح الشيخ على وثيرته تتداعى هذه (!. . .. . الطير. . . إيكاروس ابني
الخلجات في رأسه الساخن المتأجج، تذكى فيه الذكريات والماسي!
وأحتال الفتى على الحارس حتى حصل على مقادير هائلة من ريش البط والإوز
والديكة؛ وفكر الشيخ كيف يثبت الريش في مكانه من عضد الجناح، فادخر الشموع
التي كانت تترك له يضيئها في الليل، ليتضاعف بلهيبها الخافت حزنه؛ حتى إذا كان لديه
قدر كبير منها، عمد إليها فصهرها، وثبت بها ما شاء من الريش، وبذلك صنع زوجين من
الأجنحة الكبيرة، يكفي أحدهما لحمل فيل!
وجلس يمحض ابنه النصح فقال:
أي بني! أي إيكاروس العزيز! سنطير من هنا يا ولدي! إلى أين؟ لست ادري! ولكننا)
سنفلت من هذا السجن على كل حال! وهاأنذا قد صنعت الأجنحة التي تخيلها املك
الصغير الذي هو أكبر من جميع آمالي! ولقد رأيت إلى كيف كنت أذيب الشمع قريبا
من النار يا ولدي، فأوصيك إذا طرنا ألاّ تترك سمتي، وأن تكون دائما قريبا مني، فإني
أخشى إذا علوت علوا شاهقا أن تصهر الشمس شمع جناحيك، فتهوى في البحر،
فتتردى في أعماق الموت! وكما أخشى عليك من العلو الشاهق، فكذلك لا أرى لك أن
تدنو من الماء، فإنه إن وصل إلى الشمع أيبسه، ولم يعد يصلح لمهمة الطيران، إذ
يساقط قطعة فقطعة، ويتناثر الريش، وتسقط، إما في البحر فتغرق، وإما في الأرض
فيندق عنقك. فلا تنس يا بني أن تتبعني أبداً، وأحذر أن تعلو فتدنو من الشمس، أو أن
تسفل فيصيبك رذاذ الماء ورشاشه. إليَّ يا ولدي اثبت لك جناحيك، ولنمض على بركة
زيوس. . . ز. . . ز!!)
وتلجلج لسانه حين أراد أن ينطق باسم الإله الأكبر، لأنه يثق أنه لا تخفى عليه خافية
في الأرض ولا في السماء، وهو محيط بعباده، لا ينسى أن ينتقم من الظالمين
للمظلومين!
وانطلقا من الشرفة، والقيا على القصر، وما أحاط به من حرس وعسس، نظرات كلها
نقمة وتغيظ. . .
ومرا بشطوط كثيرة ومروج كبيرة، وكان الصيادون والزراع والبحارون وأهل القرى
كلما رأوا هذين الطائرين الكبيرين، ذوي الهيئة الآدمية، خروا للأذقان سجدا، يحسبون
أنهما إلهان من آلهة السماء، هبطا يباركان الناس والخلق، فيهللون ويكبرون!!
فهذا شيخ يطلب إليهما أن يباركا في عقبه ويمدا في اجله، وهذه شمطاء تدعو أن يردا
عليها جمالها الضائع وشبابها الذاهب، وتيك رؤوم تناجي ابنها في قبره فتطلب إليهما
أن ينفضاه من الثرى! وهؤلاء فلاحون يصرخون أن يمنا عليهم فيخلصاهم من الفقر
والمتربة. . .
وشاع الزهو في أعطاف إيكاروس، فكان يرتفع قليلا، أو يهبط قليلا عن سمت أبيه؛ ثم
تشجع وتشجع، وبهرته زرقة السماء وأديمها الصافي، فجازف وارتفع ارتفاعا شاهقا،
ونسي وصية أبيه، فعلا وذهب في السماء صعدا، وكان يغريه أن يصغر العالم الأرضي
في عينيه، فيعلو ويعلو
وا أسفاه!! لقد دنت ساعة الانتقام لك يا بردكس! فلقد صهرت الشمس شمع
الجناحين، وهوى إيكاروس إلى الأعماق! ولما دنا من والده صرخ صرخة هائلة دوت
في إذن أبيه، فتلفت الشيخ ليرى ولده يغوص في اليم، يبتلعه مرة ويلفظه أخرى!
فأسرع الوالد المسكين إلى البحر، وأنتشل ولده من الماء جثة هامدة! وكان هو بدوره
قد أذاب الماء شمع جناحيه، فعالج الموج معالجة، وسبح بفلذة كبده إلى جزيرة قريبة،
بلغها بعد جهد وعناء!
وجلس يبكي ولده. . .
ثم شق له قبرا صغيرا في رمل الشاطئ، وما كاد يسره فيه، حتى رأى قطاة حزينة
تدوم في السماء، ثم تهبط قليلا قليلا، حتى تكون بمقربة من القبر، فتقف كاسفة
مشجونة وتنظر إلى الجثة والدموع تنهمل من عينيها. . عبرة، فعبرة. .
ويفرغ الشيخ من مواراة ولده في التراب! وينته! فيرى القطاة! فينشج نشيجا مؤلما،
ويقول: (بردكس!! أتيت تبكي إيكاروس!! سامحني يا بردكس!)

فتزقو القطاة كأنها تنتحب! ثم تدنو من القبر حتى تكون فوقه، فتذرف عبرتين غاليتين، وترف في الهواء حتى تغيب عن عيني ديدالوس!!

دريني خشبة

البريد الأدبي

سان ماركو

قامت إيطاليا في ظل الفاشستية بكثير من الأعمال العلمية والفنية العظيمة؛ ومن ذلك اكتشافات أثرية عظيمة في ضواحي رومة وفي جنوب إيطاليا، وإصلاح لكثير من الآثار الشهيرة، وإصدار موسوعة إيطالية كبيرة، ووصل ثغر البندقية بالأرض بجسر عظيم يبلغ طوله نحو كيلومترين. وأخر الأعمال الفنية العظيمة التي أتمتها الحكومة الإيطالية، هو إصلاح كنيسة سان ماركو (القديس مرقس) الشهيرة في البندقية؛ وتعتبر هذه الكنيسة التي يرجع بناؤها إلى نحو ألف عام من أعظم التحف الفنية في إيطاليا، وتعتبر الثانية من حيث عظمتها الفنية بعد كنيسة القديس بطرس في رومة. وتمتاز بالصور والنقوش الرائعة التي صنعت كلها من الفسيفساء الملون، في جدرانها السفلية وأروقتها العليا. وهي تجاور قصر الدوجات وتقع على يساره، وأمامها ميدان سان ماركو الشاسع الذي كان خلال العصور ميدان الاحتفالات والاجتماعات العامة أيام الجمهورية؛ وقد بدأت أعمال الإصلاح فيها منذ ثمانية وعشرين عاما، وذلك بعد أن قرر الخبراء أنها في خطر، وأن أسسها قد اضطربت وتشققت جدرانها؛ وذلك على أثر سقوط برج (الكامبنيلي) الشهير في سنة 1902؛ وهو يقع أمام قصر الدوجات على مقربة من الكنيسة، وقد جدد، وهو يرتفع إلى علو شاهق، ويشرف على ثغر البندقية وجميع الجزر (اللاجون) التي تقوم عليها. وبدئ الإصلاح بتقوية أسس الكنيسة وأعمدتها، وعهد إلى المهندس والفنان الكبير الأستاذ لويجي مارانجوني بالأشراف على أعمال الإصلاح الفنية. وقد بذل هذا الفنان مجهودات فادحة لإنقاذ زخارف الفسيفساء التي كاد بعضها يتلاشى، واستطاع بمعجزة حقيقية أن يعيدها إلى بهائها الأول. ولم تمضي أسابيع قلائل حتى ترفع الأعمدة والحواجز الخشبية التي حجبت بعض واجهات الكنيسة عن النظارة زهاء ثلاثين عاما، ويستطيع الزائر أن يمتع الطرف بمشاهد الصور والنقوش البديعة التي صنعت كلها من فسيفساء ملون، وبينها صور القديسين ومناظر من الكتاب المقدس

ويعتبر إصلاح هذه الكنيسة من أعظم الأعمال الفنية التي قامت بها إيطاليا في هذا العصر؛ ويرجع إلى عزم الحكومة الفاشيستية وسخائها في تعزيز الأعمال الفنية والأثرية، الفضل في سرعة إنجاز هذا العمل العظيم

حول أزمة السياحة

تتحدث الصحف الفرنسية منذ حين عن (أزمة السياحة)، لان السياحة مورد من موارد فرنسا العظيمة، وقد لوحظ أن الإقبال على زيارة فرنسا قد أخذ يتناقص في الأعوام الأخيرة، وتأثرت جميع الجهات والمصالح التي تتصل بموسم السياحة، وأخذت تفكر في ابتكار الوسائل لمكافحة هذه الأزمة وترغيب الأجانب في زيارة فرنسا. وقد درس كثير من الخبراء والباحثين أسباب هذه الأزمة في الصحف، ونسبها بعضهم إلى ارتفاع الفرنك وغلاء الأسعار في فرنسا لدرجة فاحشة؛ ونسبها البعض إلى الأزمة العالمية التي أصابت كل الموارد؛ ولكن كاتبا مطلعا وعضوا في مجلس الشيوخ، أدلي برأي جديد في أسباب أزمة السياحة، فقال أنها ترجع قبل كل شيء إلى تغير النفسية الفرنسية، وتحول الفرنسي من مضيف رقيق الطبع كريم الوفادة، إلى تاجر جاف الخلال، تغلب لديه فكرة الكسب على كل فكرة أخرى، فجميع الجهات والأفراد الذين يشتغلون بموسم السياحة كوكالات السفر والفنادق، والسكك الحديدية، وأصحاب المطاعم والملاهي وغيرها، يعمل كل لصالحه فقط، ولا تجمع بينهم رابطة مشتركة وكل يحاول أن يقتضي من السائح أوفر غنم؛ واليوم يلقى السائح في الجمارك الفرنسية موظفين جامدين، وتستقبله في فرنسا قوانين وإجراءات شديدة، ولا يكاد يلقى الابتسامة على ثغر أحد؛ ومن رأي الكاتب أن الاستقبال الحسن هو أهم عنصر لتشجيع السياحة، ويجب أن يشعر الزائر بهذه الخاصة، منذ دخوله البلد حتى خروجه منها، ويجب أن يحسن استقباله أين سار: في الجمارك وفي الفندق، وفي المتاجر

والمصالح، وكل ماله مساس بتجواله أو درسه أو متعته. وعلى هذا الأثر الحسن يتوقف مستقبل السياحة اليوم؛ وقد فرنسا في الأعوام الخيرة كثيرا من هذا الأثر الحسن الذي كانت تشتهر به فيما مضى

حول الراغب الأصبهاني

طالعت في العدد السابع والثمانين من مجلة الرسالة الغراء كلمة الأستاذ الباحثة . . . علي الطنطاوي في الراغب الأصبهاني، فأستغربت كثيرا عدم عثوره على غير المصادر التي أشار إليها، ولهذا أرى أن من حق الأدب عليّ وخدمة للتاريخ أن ادله على المصادر التالية التي أفردت للكلام عنه بحثا ضافيا، وهي:

(1) كتاب هدية الأحباب للشيخ عباس القمي المطبوع في النجف

(2) كتاب روضات الجنات للشيخ محمد باقر الخونساري المطبوع في إيران

وسأتقدم بمقال ضاف عما قريب إلى (الرسالة) الزهراء عن المشار إليه، والأمل أن يتفضل صاحب الرسالة بنشره

النجف - العراق

محمد كاظم كمونة

جامعة مشيغن الأمريكية وشباب الشرق

على أثر عودة الدكتور أغا أوغلو أستاذ الفنون والصنايع الإسلامية في جامعة مشيغن إلى أمريكا، بعد زيارته إيران وحضوره حفلات الفردوسي، رفع إلى إدارة الجامعة تقريرا مفصلا بلزوم تعهد الجامعة بنفقات عشرة طلاب من طلاب الممالك الإسلامية ليدرسوا فيها فروع الصناعات الإسلامية والفنون الجميلة الشرقية. وبعد مداولات كثيرة بين الأستاذ اغا أوغلو وبين أعضاء إدارة الجامعة، وافقت الجامعة على طلبه، أما الطلاب العشرة فقد وزعتهم الجامعة على الوجه التالي:

طالبان من العراق، طالبان من ايران، طالبان من تركيا، طالبان من مصر، طالبان من سوريا وفلسطين.

تأليف مجمع للغة الإيرانية

بالنظر إلى اتجاه الأوساط الأدبية والصحفية نحو إحلال اللغة الإيرانية محل الفارسية وتطهيرها من الكلمات والتعبيرات الأجنبية التي قد دخلت عليها واعتبارها أن مثل هذه الحركة إذا تركت بلا توجيه يخشى أن تضر بجمال اللغة - قررت الحكومة أن تنشئ قريباً مجمعاً للغة الإيرانية. وسيضم هذا المجمع نخبة الكتاب وعلماء اللغة الوطنيين، وستكون مهمتهم أن يضعوا معجماً لاستبدال الكلمات الأجنبية الكثيرة، ولاسيما الكلمات المشتقة من العربية والتركية في اللغة الإيرانية الحالية بكلمات إيرانية بحتة وقد أرسلت وزارة المعرف تنفيذا لهذا القرار وتجنبا لأي اضطراب في أعمال المجمع منشورا إلى جميع الوزارات والمصالح يحرم استعمال الكلمات الجديدة التي تذيعها الأوساط الأدبية التي ليست لها السلطة ولا الخبرة التامة المطلوبة لهذا العمل؛ والكلمات المستعملة سيستمر استعمالها إلى أن تستبدل تدريجياً كلما انتهى مجمع اللغة الإيرانية الملكي إلى اتخاذ قرارات في بعض البحوث

مؤتمر القلم الدولي

يجتمع المؤتمر الدولي الثالث عشر لنوادي القلم في ثغر برشلونة عاصمة قطلونية (أسبانيا) في العشرين من شهر مايو الجاري، ويستمر انعقاده إلى يوم 25 منه. وقد وضع البرنامج النهائي لأعماله واجتماعاته. ففي الساعة العاشرة من يوم الاثنين 20 الجاري تفتح مكاتب المؤتمر في (كازال ولايتجي) وفي الظهر يطوف الأعضاء ثغر برشلونة، ويزورون متاحفها ومشاهدها، وفي اليوم التالي يفتح المؤتمر بصورة رسمية، وتلقى خطب الافتتاح وتصرف بقية اليوم في حفلات نظمتها لجنة المؤتمر؛ وفي اليوم الثالث يستقبل الفنانون في برشلونة أعضاء المؤتمر في معرض للصور والتماثيل أقيم تكريما لهم. وفي الأيام الثلاثة الباقية يعقد المؤتمر جلساته في صباح كل يوم، ويشهد المؤتمرون بقية اليوم بعض الحفلات والاستقبالات التي نظمت لهم، ويختتم المؤتمر بمأدبة غذاء رسمية في فندق (رتز) أعظم فنادق برشلونة؛ وقد نظمت رحلات أثرية للمؤتمرين في بعض أنحاء قطلونية ورحلة إلى جزائر البليار؛ وستعنى لجنة المؤتمر بأن تعرض على المؤتمرين جميع النواحي الفنية والثقافية الأسبانية والقطلانية بنوع

خاص
في الجامعة المصرية
وأخيرا صدر المرسوم الملكي بتعيين زعيم النهضة الفكرية الحديثة الأستاذ الجليل أحمد لطفي السيد بك مديرا للجامعة المصرية. والتعيين هنا معناه إعادة الأستاذ إلى منصبه بعد أن ظل باستقالته منه شاغرا أربع سنين كابدت فيها الجامعة من الأحداث الجسام ما كابدته الأمة كلها في سيادتها ومرافقها وأخلاقها من عبث الطغيان المسرحي الأحمق. استقال الأستاذ استقالته المثلية النبيلة حين رأى عبث العهد البائل ينال حرم الجامعة فيعدو على
استقلالها، ويعتدي على حقوق رجالها، وينقل عميد كلية الآداب فيها إلى منصب أخر من غير رأيه ولا علمه. ثم هيمنت على إدارة الجامعة وإرادتها سلطة متجنية كانت تدفع الحق دفعاً عن أهله، حتى انجلت عن السياسة المصرية غشاوة الزيغ وسحابة الباطل، فوجد المظلوم العدل، وابصر التائه الطريق
ولم يكن من السهل حتى في ذلك العهد الذي أنكر الكفاية، وجانب المنطق، أن تظفر الجامعة بخلف للطفي بك، فإن ثقافته الشاملة، وعقليته المنطقية، ونزعته الحرة، وطبيعته المعلمة، وخلقه الفيلسوف، جعلته اصلح الناس لهذا المنصب، وأحزم العلماء بهذا العمل
في الجامعة الأزهرية
كذلك صدر مرسوم ملكي أخر بتعيين صاحب الفضيلة العالم الجليل الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخا للجامع الأزهر. ومسألة الأزهر كانت كمسألة الجامعة عقدة من عقد العهد البائد، فقد رضى فيه شيخ الأزهر المستقيل أن يكون مطية ذلولا من مطاياه تخب في الزور، وتخبط في الباطل، حتى غضب الناس للدين، وضج العلماء للعلم، وثار الطلاب للكرامة، ووفق الله الوزارة القائمة فعالجت هذه الحال بإقصاء الشيخ الظواهري وتعيين الأستاذ المراغي. والأستاذ المراغي من العباقرة الآحاد الذين يفهمون القرآن بالأدب، ويطبقون الدين على الخلق، ويوفقون بين المدنية والفقه، وينهجون في الإصلاح منهج الإمام محمد عبده
وفاة الشيخ عبد المحسن الكاظمي
في يوم الخميس الماضي استعز الله بالشاعر العربي العراقي الكبير الأستاذ عبد المحسن الكاظمي عن سنة عالية وشهرة مستفيضة؛ وهو من الذين ساهموا في نهضة الشعر الحديثة بقسط وافر من السليقة الخالصة، والقريحة الطيعة، والبديهة التي ترتجل القصيدة المطولة عفو الساعة. هبط الأستاذ مصر منذ خمس وثلاثين عاما، فطابت له فيها الإقامة، ولاذ بكنف الإمام محمد عبده، وهو يومئذ موئل العلم والأدب، فظاهر نعمه عليه كما ظاهرها على الشنقيطي وحافظ والمنفلوطي، حتى اتصل سببه وأثمر أدبه في حماه وتحت عينه. ولم يبتغ الكاظمي الوسيلة إلى الحياة إلا بالشعر - والشعر في هذا الزمن رحم قطعاء وأداة
عاجزة - لذلك نكد عيشه قليلا بعد الإمام، فرضى بميسور الكفاف من الرزق، وبالإنتاج القليل من القريض، وأقعده ضعف القلب وكلال البصر وتقدم السن عن غشيان المجالس والأندية، حتى أختاره الله إلى جواره. وسنعود إلى تفصيل أمره وتحليل شعره في عدد مقبل
الكتب
كتاب المواقف والمخاطبات للنفري
للدكتور عبد الوهاب عزام
- 1 -
الأستاذ نيكلسون أستاذ الأدب العربي بجامعة كمبردج، أحد العلماء الأوربيين الذين عنوا بدراسة التصوف الإسلامي، وبلغوا في درسه والعلم بتاريخه درجة عالية
وللأستاذ نيكلسون أياد مشكورة في ترجمة كتب التصوف الفارسية والعربية إلى الإنكليزية، ونشر نصوصها، والكتابة في كثير من مباحث التصوف. وأعظم مآثره في ذلك ترجمته الكتاب الخالد، كتاب المثنوي إلى الانكليزية، ونشره الاصل الفارسي في طبعة مرتبة مصححة، لا تقاس بها طبعة أخرى؛ ولا ريب أن الأستاذ بعد اليوم من أئمة هذا الشأن في المشرق والمغرب

وللأستاذ نيكلسون تلاميذ نهجوا نهجه واقتفوا أثره في العناية بالتصوف الإسلامي، والاهتمام بأحياء كتبه ونشرها
ومنهم صديقنا النابغة العلامة اربري الذي سعدنا بصحبته حينا في كلية الآداب، ثم شقينا بفراقه هذا العام، إذ ولى منصب في المكتبة الهندية بلندن
وكان صديقنا اربري، زمان إقامته بالقاهرة، دائب البحث عن المخطوطات الصوفية، يواصل الجهد في تصحيحها ومقابلة بعضها ببعض، ونسخها بخطه العربي الجميل، وقد يسر له أن يجمع جملة نادرة من رسائل التصوف وكتبه، منها: رسائل المحاسبي والسلمي من متقدمي الصوفية
ثم بدأ ينشر ما جمعه وصححه، فطبع في القاهرة كتابي المواقف والمخاطبات اللذين نكتب عنهما اليوم، وترجمهما إلى الإنكليزية، ثم نشر الأصل والترجمة في كتاب واحد، وكتب له مقدمة نفيسة

محمد بن عبد الجبار بن الحسن النفري، أحد صوفية القرن الرابع الهجري، توفي سنة 354 أو بعدها بقليل. وينسب إلى قرية نفر إحدى قرى العراق، وهي مدينة نبور البابلية القديمة
ويقال إن أبا الشيخ كان جوالا في البراري لا يستقر في مكان، ولا يسكن إلى إنسان، وأنه توفي بإحدى قرى مصر
ولم ينبه ذكر الشيخ بين رجال الصوفية، ولم تذع كتبه بين الناس. وقد ذكره محي الدين بن العربي في كتاب الفتوحات، والشعراني في الطبقات الكبرى، ولكن المأثور من أخباره قليل
وللشيخ النفري كلمات في التصوف، طائفة منها تبدأ بقوله: أوقفني على كذا، والأخرى تبدأ بقوله: خاطبني. وقد جمع ابن بنته كلماته في كتابي المواقف والمخاطبات اللذين نشرهما صديقنا العلامة اربري
وخير تعريف للكتابين أن اعرض على القارئ بعض كلماتهما، فهذه شذرات من المواقف، وفي العدد الآتي ننقل شذرات من المخاطبات
وسيرى القارئ إن هذا الكتاب بدع من كتب التصوف، وأنه من الأدب الصوفي الذي لا يعرف نظيره:
موقف العز
أوقفني في العز وقال لي:: لا يتسقل به من دوني شيء، ولا صلح من دوني لشيء، وأنا العزيز الذي لا يستطاع مجاورته، ولا ترام مداومته. أظهرت الظاهر وأنا اظهر منه، فما يدركني قربه، ولا يهتدي إلى وجوده. وأخفيت الباطن وأنا أخفى منه، فما يقوم عليّ دليله، ولا يصبح إليّ سبيله
وقال لي: أنا اقرب إلى كل شيء من معرفته بنفسه، فما تجاوزه إليّ معرفة، ولا يعرفني أين تعرفت إليه نفسه
وقال لي: لولاي ما أبصرت العيون مناظرها، ولا رجعت الأسماع بمسامعها.
وقال لي: لو أبديت لغة العز لخطفت الإفهام خطف المناجل، ودرست المعارف درس الرمال عصفت عليها الرياح العواصف
وقال لي: لو نطق ناطق العز لصمتت نواطق كل وصف، ورجعت إلى العدم مبالغ كل حرف
وقال لي: إن من اعد معارفه للقائي لو أبديت له لسان الجبروت، لأنكر ما عرف، ولمار مور السماء يوم تمور مورا
وقال لي: طائفة أهل السماوات وأهل الأرض في ذل الحصر. ولي عبيد لا تسعهم . . . طبقات السماء، وتقل أفئدتهم جوانب الأرض. أشهدت مناظر قلوبهم أنوار عزتي فما أتت على شيء إلا أحرقته. فلا لها منظر في السماء فتثبته، ولا مرجع إلى الأرض فتقر فيه. الخ
موقف البحر
أوقفني في البحر، فرأيت المراكب تغرق، والألواح تسلم، ثم غرقت الألواح
وقال لي: لا يسلم من ركب

وقال لي: خاطر من ألقى بنفسه ولم يركب
وقال لي: هلك من ركب وما خاطر
وقال لي: في المخاطرة جزء من النجاة
وجاء الموج فرفع ما تحته وساح على الساحل
وقال لي: ظاهر البحر ضوء لا يبلغ؛ وقعره ظلمة لاتمكن، وبينهما حيتان لا تستأمن
وقال لي: لا تركب البحر فأحجبك بالالة، ولاتلق نفسك فيه فأحجبك فيه
وقال لي: الدنيا لمن صرفته عنها، وصرفها عنه، والآخرة لمن أقبلت بها عليه . . . وأقبلت به علي
موقف المطلع
أوقفني في المطلع وقال لي: أين اطلعت رأيت الحد جهرة، ورأيتني بظهر الغيب
وقال لي: إذا كنت عندي رأيت الضدين والذي أشهدتهما فلم يأخذك الباطل ولم يفتك الحق
وقال لي: الباطل يستعير الالسنة، ولا يوردها موردها. كالسهم تستعيره ولا تصيب به
وقال لي: الحق لا يستعير لسانا من غيره
وقال لي: إذا بدت أعلام الغيرة ظهرت أعلام التحقيق
وقال لي: يا عالم اجعل بينك وبين الجاهل فرقا من العمل وإلا غلبك. واجعل بينك . . . وبين العلم فرقا من المعرفة وإلا اجتذبك
وقال لي: اليقين طريقي الذي لا يصل سالك إلا منه
وقال لي: من علامات اليقين الثبات. ومن علامات الثبات الأمن في الروع
وقال لي: إن أردت لي كل شيء علمتك علماً لا يستطيعه الكون، وتعرفت إليك معرفة لا يستطيعها الكون
وقال لي: يا عارف أرى عندك قوتي، ولا أرى عندك نصرتي. أفتتخذ إلهاً غيري؟
وقال لي: يا عارف أرى عندك حكمتي، ولا أرى عندك خشيتي. أفهزئت بي؟
وقال لي: يا عارف أرى عندك دلالي ولا أراك في محجتي
وقال لي: من لم يفر إلى لم يصل إلى. ومن لم أتعرف إليه لم يفر إلي
وقال لي: إن ذهب قلبك عني لم أنظر إلى عملك
وقال لي: إن لم أنظر إلى عملك طالبتك بعلمك. وإن طالبتك بعلمك لم توفي بعملك
وقال لي: من عبدني وهو يريد وجهي دام، ومن عبدني من أجل خوفي فتر، ومن عبدني من أجل رغبته أنقطع
وقال لي: العلماء ثلاثة، فعالم هداه في قلبه، وعالم هداه في سمعته، وعالم هداه في تعلمه
وقال لي: القراء ثلاثة فقارئ عرف الكل، وقارئ عرف النصف، وقارئ عرف الدرس
وقال لي: الكل الظاهر والباطن، والنصف الظاهر، والدرس التلاوة
وقال لي: إذا تكلم العارف والجاهل بحكمة واحدة، فاتبع إشارة العارف؛ وليس لك من الجاهل إلا لفظه
موقف الموت
أوقفني في الموت فرأيت الأعمال كلها سيئات. ورأيت الخوف يتحكم على الرجاء، ورأيت الغني قد صار نارا ولحق بالنار. ورأيت الفقر خصما يحتج، ورأيت كل شئ لا يقدر على شئ. ورأيت الملك غروراً. ورأيت الملكوت خداعا. وناديت يا علم فلم يجبني. وناديت يا معرفة فلم تجبني. ورأيت كل شيء قد أسلمني، ورأيت كل خليقة قد هربت مني. وبقيت
وحدي. وجاءني العمل فرأيت فيه الوهم الخفي والخفي الغابر. فما نفعني إلا رحمة ربي. وقال لي أين عملك؟ فرأيت النار
وقال لي: أين عملك؟ فرأيت النار
وقال لي: أين معرفتك؟ فرأيت النار، وكشف لي عن معارفه الفردانية فخمدت النار
وقال لي: أنا وليك فثبت
وقال لي: أنا معرفتك فنطقت
وقال لي: أنا طالبك فخرجت
عبد الوهاب عزام

العدد 97 - بتاريخ: 13 - 05 - 1935
بنك مصر أيضاً
2
نعود إلى الحديث عن بنك مصر مغتبطين كما يعود المطرب إلى تكرير لحنه، والمؤمن إلى ترديد صلاته! وهل كان بنك مصر وعيده في الأسبوع المنصرم إلا لحناً شدا على كل لسان، ودعاء صعد منك كل قلب؟ لقد جاء هذا العيد القومي كما توقعناه دليلاً على رشد هذه الأمة الكريمة: رَحَض عن سمعتها الأذى، ودَحضَ عن كفايتها التهم، وجلا عن نهضتها الشكوك، وبدّد عن مستقبلها السحب، وأعلن - في شاي الحديقة، وعشاء الكونتننتال، ومهرجان القاهرة، وحفلات الأقاليم، بلسان طلعت حرب باشا مدير البنك، وأحمد عبد الوهاب باشا وزير المالية والسِّر إدوارد كوك عميد سياسة الاقتصاد الإنجليزية، والمسيو هنري نوس ممثل رءوس الأموال الأجنبية - أن مصر التي عَلَّها العجز الاجتماعي حيناً من الدهر عن استعمال حقها واستغلال خيرها واستثمار غناها، قد أتاح لها بنك مصر وشركاته أن تشعر بالقوة التي كمنت فيها، وتفطن إلى القدرة التي ذهلت عنها؛ وتخرج من ذلة اليُتم والعُدم والقصور إلى عزة الرشد الوُجْد والأهلية نعم كانت الأيام الثلاثة التي حفِلت بعيد بنك مصر مظاهرة قومية موفقة، شارك فيها قصر الملك، ودار المندوب، وجميع الأحزاب، وكافة الطبقات، وعامة الشعب، في الساعة التي رجعت فيها السياسة المصرية إلى ذبذبتها الأولى: تتحرك ولا تسير، وتتردد ولا تستقر، وتتصرف ولا تملك. وكان ابتهاج الأمة بها ابتهاجاً بحقها الذي يتخلص من الباطل، وفوزها الذي يتميز من الفشل، ونصرها الذي يتبرأ من الهزيمة!!
تستطيع أن تناقش وتعارض وتستريب إن زعم لك زاعم أن يقظتنا للعلم والأدب، والحرية والسياسة، بلغت الحس العالي المرهف، ولكنك أمام الأرقام التي قدمها إليك بالقول طلعت حرب، والمنتجات التي وضعها في يديك بالفعل طلعت حرب والمؤسسات التي عرضها عليك بالسينما طلعت حرب، تعتقد اعتقاداً رياضياً أن نهضتنا الاقتصادية يقين لا يخامره شك، وواقع لا تزخرفه مبالغة. وإن في تسميتنا هذه النهضة التي نهضها بنك مصر فحلَّت عن الأمة حبوة العجز، بالنهضة الاقتصادية، تسمية لها بالوصف الأشهر والأثر الأغلب. أما الواقع فإنها انتظمت مرافق البلد من كل نوع، وتناولت أمور الناس من كل جهة: أجدْت
على العلم ففتحت له أبواب العمل؛ وعلى التعليم فمهدت له سبل التطبيق؛ وعلى الأدب فاستعملت اللغة في أعمال المال، ونشرت الثقافة بتسهيل الطباعة؛ وعلى الأخلاق فأحيت في الرجال الثقة، وقوَّت في الشباب الرجولة؛ وعلى الاجتماع فوقَت الأمة شر العطلة المجرمة، والأزمة المستحكمة، باستخدامها الألوف المؤلفة من الموظفين والصناع والعمال في شركات البنك وفروعه؛ وعلى القومية فخلقت الروح الجماعية بإنشائها الأعمال التي تقوم على رءوس المال، وتوزع العمل، وتساند القوى، وتضامن الجماعة؛ وعلى السياسة فكفكفت عنها شِرَّةَ النفوذ المالي الأجنبي بمنازلته الجريئة في ميادينه القوية الحصينة؛ وعلى الإسلام، فساعدت على إقامة ركن من أركانه، وكشف الضر عن بيت الله ومنزل قرآنه؛ وعلى وحدة العرب فوصلتها بأسباب التعاون، وثقَّتها بسلاسل الذهب؛ والاقتصاد اليوم وقبل اليوم كان دستور الحياة، وعلة السعي لها، وغاية الجهاد فيها، فلا بدع إذا أثر في كل شيء، وعمل في كل حركة، وهاج في كل ثورة، وصاح في كل نهضة
شهدت كثيراً من المؤتمرات والمظاهرات والاحتفالات في أغراض شتى، فكان شعوري الذي أجده فيها شعور الحالم الذي يتوهم الحقيقة، والفاقد الذي ينشد الوجدان، والأمل الذي يرجو الظفر؛ ولكني شهدت هذه المرة احتفالات قومي بعيد بنك مصر، فكان الشعور الذي ملكني وملك الناس شعور العالم الذي اطمأن إلى التجربة، والواجد الذي اغتبط بالحصول، والظافر الذي انتشى بالنصر، والحي الذي استعز بالكرامة
وكنا نلحظ البشر الذي يجول في المحيا الذي لا ينبسط، والابتسام الذي يجري على الشفة التي لا تَفْتَرُّ، فنتخيل في وجه طلعت حرب وهو يَشِعُّ بالإخلاص الساذج مستقبل بلادنا الذي يتهلل، وأمل شبابنا الذي يبتسم
نضّر الله بالرضى والغبطة وجوه أولئك الأبرار المخلصين الذين شغفهم حب الخير

ففكروا وأمِلوا، ثم آمنوا وعملوا، ثم استمسكوا بِرَوح الله وقوة الشعب على عصف الخطوب وإلحاح المكايد، حتى استقر بهم الإيمان على الفوز، واستقام بهم الإخلاص على الطريقة، فكانوا مثلاً لجهاد الصابر المثابر الذي يتلمس القوة من جوانب الضعف، ويتطلب الكثرة من أشتات القلة، ويخلق النجاح اليقين من أحاديث المني، ويرفع في مُعترك الشُّبَه والظنون هذا الصرح الباذخ فيكون قاعدة للمصلح الباني، ومنارة للمتخلف الواني، ومثابة للمتنكب الشريد!

أحمد حسَن الزيات

الانتحار - 3

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال المسيْبُ بنُ رافع: وكان الإمام قد شَغَل خاطرَه بهذه القصة فأخذت تمدُّ مدّها في نفسه، ومكَّنت له من معانيها بمقدار ما مكن لها من هَمه، وتفتَّق بها ذهنُه عن أساليبَ عجيبةٍ يتهيأ بعضُها من بعضٍ كما يلدُ المعنى المعنى. فلما قال الرجُلان مَقالها آنفاً وأجابهما بتلك الحكمة والموعظةِ الحسنة، انْقدَح له من كلامهما وكلامِه رأي فقال: يأهلَ الكوفة: أنشُدكم اللهَ والإسلام، أيُّما رجلٍ منكم ضاق بروحه يوماً فأراد إزهاقَها إلا كشف لأهل المجلس نفسه وصَدَقَنا عن أمره؛ ولا يَجِدَنَّ في ذلك ثَلباً ولا عاباً، فإنما النكبةُ مذهبٌ من مذاهب القَدَر في التعليم؛ وقد يكونُ ابتداء المصيبة في رجلٍ هو ابتداءَ الحكمة فيه لنفسه أو لغيره؛ وما من حزينٍ إلا وهو يشعر في بعض ساعات حزنه أنه قد غُيِّبت فيه أسرارٌ لم تكن فيهن وهذا من إبانة الحقيقة عن نفسها وموضعها كما لألأ في سيفٍ بَريقُه

وعقلُ الهمِّ عقلٌ عظيم، فلو قد أُريدَ استخراجُ علمٍ يَعلمُهُ الناسُ - من اللذات والنِّعم، لكان من شرح هذا العلم في الحمير والبغال والدَّواب ما لا يكون مثله ولا قرابة في العقلاء، ولا تَبلغةَ القُوى الآدميةُ في أهلها؛ بَيد أنه لو أُريد علمٌ من البؤس والألم والحاجة لما وُجد شرحُهُ إلا في الناس ثم لا يكون الخاصُّ منه إلا في الخاصة منهم وما بَانَ أهلُ النعمةِ ولا غَمَروا المساكينَ في تَطاولهم بأعناقهم إلا من أنهم يَعُلون أكتافَ الشياطين؛ فالشيطانُ دابّة الغنيّ الذي يجهلُ الحقَّ عليه في غناه ويحسبُ نفسه مُخَلى لشهواته ونعيمه؛ كما هو دابةُ العالِم الذي يجهل الحق عليه في غناه ويحسب نفسه مخلي لشهواته ونعيمه؛ كما هو دابة العالم الذي يجهل الحق عليه في علمه، ويزعمُ نفسه مخلى لعقله أو رأيه، وما طال الطويل بذلك ولا عن ذلك قصُر القصير، وهل يصحُّ في الرأي أن يقال هذا أطولُ من هذا لان الأول فوق السُّلم والآخر فوق رجليه. . . .

قال المسيَّب: فقام شيخٌ من أقصى المجلس وأقبل يتخطَّى الرقابَ والناسُ يَنفرجون له حتى وقف بازاء الإمام؛ وتَفرّسته وجعلتْ عيني تَعجمُهُ، فإذا شيخ تبدو طَلاقَةُ وجهه شباباً على وجهه، أبلجُ الغُرَّة مُتهَللٌ عليه بشاشة الإيمان، وفي أساريره أثرٌ من تقطيب قديم، ينطق هذا وذاك أن الرجلَ فيما أتى عليه من الدهر قد كان أطفأ المصباحَ الذي في قلبه مرةً ثم أضاءه. وعجبتُ أن يكون مثلُ هذا الشيخ قد همَّ بقتل نفسه يوماً وأنا أرى بعينيَّ نفسه هذه منبثقةً في الحياة انبثاق النخلةِ السحوق

وتكلم هذا الرجل فقال:

أمَا إذ ناشدتنا الله والإسلام وميثاقَ العلم ووحيَ الأقدار في حكمتها، فإني محدِّثك بخبري على وصفه ورَصْفه: أملقْتُ منذ ثلاثين سنة ووقف بي من الدهر ما كان يجري، وأصبحتُ في مزاولة الدنيا كعاصرِ الحَجَر يريد أن يشرب منه، وعجزتْ يدي حتى لَظُفْرُ دجاجة في نبشها الترابَ عن الحبة والحشرة أقدرُ مني، وَطرَقَتني النوائبُ كأنما هي تُساكنُني في داري، وأكلني الدهر لحماً ورماني عظاماً فما كان يقف عليّ إلا كلاب الطريق؛ ولي يومئذ امرأةٌ أعقبت منها طفلاً ويَلزمني حقُّهما ولا أستطيعه، وكان بيننا حبٌّ فوق المعاشرة والألفة قد تركني من امرأتي هذه كالشاعر الغزِلِ من صاحبته، غير أن الشعر في دمي لا في لساني

فلما نكتني المصائبُ وتناولتني من قريب ومن بعيد؛ قلت للمرأة ذات يوم وقد شَحِبَتْ وانكسر وجهها وتَقبضَ من هُزاله: وأيمُ الله يا فلانة لو جاز أن يُؤكل لحمُ الآدميْ

لذبحت نفسي لتأكلي وتدِرِّي على الصبي. ولقد هممتُ أن أركبَ رأسي وأذهب على وجهي لتفقداني فتفقدا شُؤمي عليكما؛ ولكن ردّني قلبي، وهو حبسني في هذه الدنيا الصغيرة التي بينكما، فليس لي من الأرض مَشرقٌ ولا مغربٌ إلا أنت وهذا الصبي.
ولستُ أدري والله ما نصنع بالحياة وقد كنا من نباتها الأخضرِ فرَجعنا من حطبها اليابس، وعادت الشمس لا تغذوها بل تمتصُّ منها ما بقى، ولا تستضيء لها، ولكن تَستوقد عليها!
إن من فَقَد الخيرَ ووقع في الشر، حَريٌّ أن يكون قد أصاب خيراً عظيماً إذا قتل نفسَه فخلَص من الشر والخير جميعاً، لا يُكدي ولا ينجح، ولا يألم ولا يَلذْ؛ وكما أنكرته الدنيا فلينكرها. أما إنه إن كان القبرُ فالقبرُ ولكن في بطن الأرض لا على ظهرها كحالنا؛ وإن كان الموتُ فالموتُ ولكن بمرَّة واحدة وفي شيء واحد لا كهذا الذي نحن فيه أنواعاً أنواعاً. قد ماتت أيامنا وتركتنا نعيش كالموتى لا أيام لهم، وزاد علينا الموتى في النعمة والراحة أنهم لا يتطفَّلون على أيان غيرهم فيطَردوا عن يوم هذا ويوم ذاك
قال: فاستعبرَت المرأةُ باكية، ولما فرغتْ من كلام دموعها قالت: كأنك تريد أن تفجعنا فيك؟ قلتُ: ما عَدَوْتِ ما في نفسي؛ ولكن هل بقي فيّ من تُفجعين فيه؟ أما ذهب مني ذاك الذي كان لك زوجاً وكاسباً، وجاء الذي هو هُّمك وهَّم هذا الصبيّ من رجلٍ كالحفرة لا تنتقل من مكانها وتأخذ ولا تعطي؟
أم واللهِ لكأني خُلقتُ إنساناً خطأ، حتى إذا تبين الغلط أريد إرجاعي إلى الحيوان فلم يأتِ لا هذا ولا ذاك، وبقيت بينهما؛ يمر الناس بي فيقولون إنسان مسكين. وأحسبُ لو نطقت الكلابُ لقالت عني كلبٌ مسكين. يا عجباً عجباً! لا ينتهي، أصبحت الدنيا في يدنا من العجز واليأس كأنما هي بَعرةٌ نجهدُ في تحويلها ياقوتةً أو لؤلؤة . . .
فقالت المرأة: والله لئن حَييت على هذا إن هذا لكفرٌ قبيح، ولئن متّ عليه إنه لأقبحِ وأشد
فقلت لها: ويحكِ وماذا تَنظر العينُ المبصرةُ في الظلام الحالكِ إلا تنظَّر العمياء؟
قالت: ولِمَ لا تنظر كما ينظر المؤمن بنور الله؟
قلت: فأنظري أنت وخّبريني ماذا ترَيْن أترَين رغيفاً؟ أترين إداماً؟ أترَيْن ديناراً؟
قالت: والله إني لأرى كل ذلك وأكثر من ذلك. أرى قمراً سيكشف هذه السُّدفَةَ المظلمة إن لم يطلع فكأن قَدْ
قال: فغاظتني المرأة ورايتها حينئذ أشدّ علي بقلة ذاتِ عقلها من قلت ذات يدي؛ ولا حبي إياها ورحمتي لها لأوقعت بها. واستحكم في ضميري أن أزهِق نفسي وأدَعَّها لما كُتب لها
وقلت: إن جُبن المرأة هو نصف إيمانها حين لا يكون نصف عقلها، وللقَدَر يدٌ ضعيفة على النساء تَصفعهنَّ وتمسح دموعَهن، وله يدُ أخرى على الرجال ثقيلة تصفع الرجلَ وتأخذُ بحقله فتعصرُه
قال: وكنتُ قد سمعتُ قولَ الجاهلية في هذه الخليقة: أرحامٌ تَدفع، وأرض تَبْلع. فحضرني هذا القولَ تلك الساعةَ وشُبِّه لي، واعتقدتُ أن هذا الإنسان شيء حقيرٌ في الغاية من الهوان والضَّعة: حملتْه أمُّه كُرْهاً، وأثْقَلتْ به كُرهاً، ووضعته كُرهاً؛ وهو من شؤمِه عليها إذا دَنَا لها أن تَضعَ لم يخرج منها حتى يضربَها المخَاضُ فتتقلَّب وتصيح وتتمزَّق وتَنْصَدع؛ وربما نَشِبَ فيها فقتلها، وربما التوى فيُبْقرُ بطنُها عنه. وإذا هي ولدته على أيِّ حالِهْا من عُسرٍ وتطريق بمثل المطارق المحطِّمة، أو سَرَاحٍ ورَواحٍ كما يتيّسر - فإنما تلده في مَشِيمَةٍ ودماءٍ وقذَرٍ من الأخلاط كأنما هو خارج من جُرْحٍ. ثم تتناوله الدنيا فتضعُه من معانيها في أَقبحَ وأَقذرَ من ذلك كله. ثم يستوفي مُدَّته فيأخذه القبر فيكون شراً عليه في تمزيقه وتعفينه وإحالته
قال: وحضرني مع كلمة الجاهلية قَولُ ذلك الجاهل الزنديق الذي يُعرفُ (بالبَقلْيّ) إذ كان يزعم أن الإنسان كالبَقْلة - فإذا مات لم يَرجع. وقلت لنفسي؛ إنما أنتِ بقلةٌ حمقاءُ ذاوية في أرض نشَّاشَةٍ فقتلها مِلْحُ أرضها أكثرَ مما أحياها
قال: وثُرتُ إلى المُدْية أريد أن أتوَجَّأ بها، فتبادِرُني المرأةُ وتحولُ بيني وبينها؛ وأكاد أبطُشُ بها من الغيظ، وكانت روحُ الجحيم تَزْفِرُ من حولي، لو سَمِعوا سمعوا لها شهيقاً وهي تفور؛ فما أدرى أيَّ مَلكٍ هبط بوحي الجنة في لسان امرأتي

قلت لها: إنها عَزْمةٌ مني أن أقتلَ نفسي
قالت: وما أريد أن أنقُضها ولستُ أرُدَّك عنها وستُمضيها
قلت: فخلى بين نفسي وبين المُدية
قالت: كلنا نفسٌ واحدةٌ أنا وأنت والصبيّ فلنقْضِ معاً؛ وما بنفسي عن نفسك رغبةٌ، ولا ندعُ الصبيّ يتيماً يصفعُه من يُطعمه، ويضرُ به ابنُ هذا وابنُ ذاك إذ لا يستطيعُ أن يقول فيأولاً د الناسِ أنا ابن ذلك ولا ابنُ هذا
قلت: هذا هو الرأي
قالت: فتعالَ اذبح الطفل. . . .
قال المسيَّب بن رافع: وما بلغ الرجل فبي قصته إلى ذبح ابنه حتى ضجَّ الناسُ ضجةً منكَرة؛ وتوهم كل أبٍ منهم أن طفله الصغير مُمدَّدٌ للذبح وهو ينادي أباه ويشُقُّ حَلْقَه بالصراخ: يا أبي؛ أدركني يا أبي
أما الإمام فدَمَّعتْ عيناه وكنتُ بين يديه فسمعتُه يقول: إنا لله، كيف تصنعُ جهنمُ حطَبها؟
وأنا فما قَطُّ نسيتُ هذه الكلمة، وما قطُّ رأيتُ من بعدها كافراً ولا فاسقاً فاعتبرتُ أعمالَه إلا كان كلُّ ذلك شيئاً واحداً هو طرقة صنعته حطباً. . . كأن الشيطان لعنه الله يقول لأتباعه: جَفِّفُوه. . . .
وكانت هُنيهاتٌ، ثم فاءَ الناسُ ورجعوا إلى أنفسهم وصاحبوا بالمتكلم: ثم ماذا؟
قال الرجل: ففتحتُ عيني وقلبي معاً ورمقْتُ الطفلَ المسكين الذي لا يملك إلا يديه الضعيفتين ونظرتُ إلى مَجرى السكِّين من حلقه وإلى مَحزِّها في رقبته اللينة؛ ورايتُه كأنما تَفرَّقَ بصرُه من الفزَع على كل جهة، ورأيته يتضرّع لي بعينيه الباكيتين ألا أذبحَه، ورأيته يتوسل بيديه الصغيرتين كأنه عرف أنه منى أمام قاتله؛ ثم خُيِّل إلى أنه يتلوّى وينتفضُ ويصرخ من ألم الذبح تحت يد أبيه
يا ويلتاه! لقد أخذني ما كان يأخذني لو تهدّمت السماء على الأرض، وحسبت الكونَ كلّه قد انفجر صُراخاً من أجل الطفل الضعيف الذي ليس له إلا ربُّه أمام القاتل فَهرُولْت مسرعاً وتركت الدارَ والمرأةَ والصبيْ وأنا أقول: يا أرحمَ الراحمين. يا من خلق الطفل عالَمُهُ أمُّه وأبوه وحدهما وباقي العالم هباءٌ عنده. يا من دبّر الرضيعَ فوهبه مُلكاً ومملكة وغنى وسروراً وفرحاً، كلُّ ذلك في ثَدْي أمِّه وصدرها لا غير. يا إلهي: أنسني مثلَ هذا النسيان، وارزقني مثل هذا الرزق، واكفلني بمثل هذا التدبير فإني منقطعُ إلا من رحمتك انقطاعَ الرضيع إلا من أمِّه
قال الرجل: ولقد كنتُ مغروراً كالجيفة الراكدة تحسب أنها هي تفور حين فارت حشراتُها. ولقد كنت أحقرَ من الذباب الذي لا يجد حقائقه ولا يلتمسها إلا في أقذر القذر
وما كدت أمضي كما تسوقني رجلاي حتى سمعت صوتاً ندِياً مطلولاً يُرجِّع ترجيع الورقاءِ في تحنانها وهو يُرتل هذه الآيةِ:
(واصبرْ نفسك مع الذين يدْعون ربّهم بالغداةِ والعشيِّ يريدون وجهه ولا تَعْدُ عيناكَ عنهم تريد زينةَ الحياة الدنيا، ولا تُطعْ من أغفلنا قلبَه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فُرُطا.)
قال: فوقفت أسمع وماذا كنت أسمع؟ هذه شُعَلٌ لا كلمات، أحرقت كلّ ما كان حولي ولستْ مصباحَ روحي المنطفئ فإذا هو يتوهج، وإذا الدنيا كلها تتوهج في نوره، وارتفعتْ نفسي عن الجدبْ الذي كنت فيه وكأنما لفّتني سحابةٌ من السحب ففي روحي نسيم الماء البارد ورائحةُ الماء العذب
لعن الله هذا الاضطرابَ الذي يُبتلى الخائفُ به. إننا نحسبه اضطراباً وما هو إلا اختلاطُ الحقائق على النفس وذّهابُ بعضها في بعض، وتَصُّبُ الشرّ في الخير والخيرِ في الشر حتى لا يَبينَ جنسٌ من جنس، ولا يُعرف حَدُّ من حد، ولا تمتاز حقيقة من حقيقة. وبهذا يكون الزمنُ على المبتَلى كالماء الذي جَمدَ لا يتحركُ ولا يَتَسايَرُ، فيلوحُ الشرُّ وكأنه دائماً
لا يزال في أوله يُنذرُ بالأهوال، وقد يكون هَوْلهُ انتهى أو يُوشك
قال الرجل: وكنت أرى يأسي قد اعْتَرى كل شيء، فامتد إلى آخر الكون وإلى آخر الزمن؛ فلما سكن ما بي إذا هو قد كان باسَ يوم أو أيام في مكان من الأمكنة؛ أما ما

وراء هذه الأيام وما خلف هذا المكان فذلك حكمُهُ حكمُ الشمس التي تطلع وتغيب على الدنيا لإحيائها؛ وحكم الماء الذي تَهْمي السماءُ به ليسقي الأرض وما عليها، وحكم استمرار هذه الأجرام السماوية في مَدَارِها لا تُمسكها ولا تزنها إلا قوة خالقها
أين أثر الإنسان الدنيء الحقير في كل ذلك؟ وهل الحياةُ إلا بكل ذلك؟
وما الذي في يد الإنسان العاجز من هذا النظام كله فيَسُوغَ له أن يقول في حادثةٍ من حوادثه إن الخير لا يبتدئ وإن الشر لا ينتهي؟
تعتري المصائب هذا الإنسان لتمحوَ من نفسه الخِسَّة والدناءة، واكسر الشرَّ والكبرياء، وتَفنَأ الحدَّةَ والطيش؛ فلا يكون من حمقه إلا أن يزيد بها طيشاً وحدة، وكبرياءَ وشراً، ودناءة وخسة، فهذه هي مصيبة الإنسان لا تلك
المصيبة هي ما ينشأ في الإنسان من المصيبة
قال: وردَّدتُ الآية الكريمةَ في نفسي لا أشبع منها، وجعلتُ أرتلها أحسنَ ترتيلٍ وأطرَ به وأشجاه فكانت نفسي تهتزُّ وترّبحُّ كأنما هي تبدأ تنظيمَ ما فيها لا قرار كل حقيقة في موضعها بعد ذلك الاختلاط والاضطراب
صبرُ النفس مع الذين يمثلون روحانيتها تمثيلاً دائماً بالغَداة والعشيّ، وعلى نور الحياة وظلامها، يريدون وَجهَ الله الذي سبيلُه الحبُّ لا غيرُه من مال أو متاع. وتقييدُ العينين بهذا المثل الأعلى كما يكون الأمر في الجمال والحب؛ والربطُ على الإرادة كيلا تَتَفَلَّت فتُسفَّ إلى حقائر الدنيا المسمى هُزُءاً وتهكما زينةَ الدنيا، تلك التي تشبه حقائق الذباب العالية. . . فتكون قذرةً نجسةً، ولكنها مع ذلك زينة الحياة لهذا الخلق . . .
تلك والله هي أسباب السعادة والقوة. أما المصائب كلها، فهي في إغفال القلب الإنساني عن ذكر الله
قال: ولما صحَّت توبتي، وقوىَ اليقينُ في نفسي، كَبُرَت روحي واتسعت، وانبعثت لها بواعث من غيره حقائق الذباب، وأشرق فيها الجمال الإلهي ساطعاً من كل شيء، وكان
الصبح يطلع عليَّ كأنه ولادة جديدة، فأنا دائماً في عمر طفل. وجاءني الخير من حيث أحتسبُ ولا أحتسب، وكأنما نمتُ فانتبهتُ غنيّاً، وعَمِلَ القلبُ الحيُّ في الزمن الحيّ ولقد أفدْتُ من الآية طبيعةَ لم تكن فيَّ، ولا يثبتُ معها الشر أبداً؛ فاصبح من خِصالي أن أرى الحاضرَ كلَّه متحركا يمرُّ بما فيه من خيره وشره جميعاً، وأستَشْعِرَ من حركته مثلما ترى عيناي من قِطَار الإبل يهتزُّ تحت رِحاله وهو يُغِذُّ السَّير
لم أُبْعِدْ قليلاً وأنا أمشي مطمئناً تائباً متوكلاً حتى دعاني رجلٌ ذو نعمة ومروءة وجاء، وكأنما كلَّمه قلبه أو كلمه وجهي في قلبه فاستَنْبأني، وبَثَثْتُه حالي واقتصصتُ قصتي.
فقال: سيُحييك الله بالطفل الذي كدتَ تقتله فارجع إلى دارك. ثم وجَّه إلى دنانير وقال: اتَّجِر بهذه على اسم الله وبركته فسينمو فيها طفلٌ من المال حتى يبلغ أُشدَّه.
وقد صدق إيمانه وإيماني فبارك لي الله ونما طفلُ المال وبلَغَ وجاوز إلى شبابه
قال المسيَّب: وجلس الرجل وكان كالخطيب على المنبر، فقال الإمام: وما أشبه النكبَة بالبيَضةُ تحسَب سجناً لما فيها وهي تحوطُه وتربِّيه وتُعينُه على تمامه، وليس عليه إلا الصبرُ إلى مدة، والرضى إلى غاية، ثم تَنْقُفُ البيضةُ فيخرجُ خلقاً آخر
وما المؤمنُ في دنياه إلا كالفَرخ في بيضته، عملُه أن يتكوَّن فيها، وتمامُه أن ينبثقَ شخصُه الكامل فيخرج إلى عالَمِه الكامل
(طنطا)
مصطفى صادق الرافعي
السكون في الظلام
للأستاذ أحمد أمين
!ما ألذه، وما أهنئه، وما أحلاه
يذهب بالأوصاب، ويرد العافية إلى الأعصاب
فترة سكون في ظلام يجب أن يقضيها كل إنسان في كل يوم - وإذا كان كل الناس في حاجة إليها فرجال الفكر إليها أحوج، هي راحة من عناه مجهودهم، واسترداد لما فقدوا من رءوسهم، واسترجاع لما قطروا من عصارة عقولهم
وهي فوق ذلك أدعى لصفاء الذهن، وصحة التفكير، وجودة الإنتاج - فالبذرة لا تنبت في جلبة وضوضاء وضياء، إنما تنبت في جوف الأرض، حيث لا تراها عين، ولا تؤذيها

حركة، وحيث تستمتع بكل ما في السكون والظلام من قوة، حتى إذا تم نضجها خرجت إلى السكون والظلام من قوة، حتى إذا تم نضجها خرجت إلى النور والهواء والحركة - بساقها وفروعها، لا بنفسها

لا وردة تفتن بجمالها ومنظرها وعبيرها قبل أن تدفن بذرتها، يجب أن تمر بها أيام وأيام، تشعر بنفسها ولا يشعر الناس بها، وحتى إذا أعجبت الناس ونفحتهم بنعيمها يجب أن يبقى اصلها منعماً بظلامه وسكونه، فإذا أقلقَتَ مضجعها، وسلبتها هدوءها سلبتك محاسنها

وكذلك كل حي لابد أن يموت ليحيا، وهل النوم إلا ضرب من الموت، ونوع من الفناء. دع الحي يحيا أياماً من غير نوم تره وقد تهدلت أعصابه، وتهدمت قواه، وقرب من الفناء الأبدي

وليس يكفي النوم للمفكر، فهناك ضرب خير من النوم هو أويقات يمضيها في هدوء وسكون وظلام، يكون فيها منتبهاً نائماً، وشاعراً حالماً، يلذ فيها لذة النوم، كما يلذ لذة الصحو، يتعرض فيها لنفحات الله، ويلمع في روحه قبس أشبه ما يكون بالإلهام، وتأتيه الفكرة الناضجة، أو الخَطْرة الكاشفة، أو اللمحة الدالة؛ فتكون خيراً من ساعات وساعات يقضيها في العمل، وبين المحبرة والقلم، والصحف والكتب

قرأت مرة أن متعلماً كان يقص على معلمه أنه يصبح مبكراً فيقضي ساعات في استذكار دروسه، وساعات في تعلم لغات أجنبية، وساعات في أخذ دروس جديدة في علوم مختلفة،

حتى يمضي جزء كبير من الليل فيذهب إلى فراشه وقد أنهكه التعب، وأخذ منه كل مأخذ، فقال له أستاذه: ومتى تفكر، وأين تجد نفسك؟

وهو سؤال له دلالته ومغزاه، فاكثر الناس لا يفكرون، وإن ظنوا أنهم فيما يقرءون ويكتبون ويفكرون، وأكثر الناس يفقدون أنفسهم في ثنايا صحفهم وكتبهم

ولأمر ما كان النبي صلى الله عليه وسلم (يخلوا بغار حراء، ويتعبد فيه الليالي ذوات العدد يتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء)

في غار حراء حيث السكون والظلام. بعيداً عن الخلق قريباً إلى الحق، قد انقطع عن العالم وضوضائه، والدنيا وألاعيبها، قد صفت نفسه من صفاء محيطه، ووجد نفسه فوجد ربه، وتعرض للإلهام فجاءه الإلهام، وتهيا للوحي فنزل عليه الوحي

لكَمْ تمنيت أن يكون للمسلمين تكايا أو خانقات في أمكنه نزهة منقطعة، ليست من هذا النوع الذي يأوي إليه العاجزون والعاطلون، والذين يأكلون ولا يعملون، ولكنها من طراز حديث يهرع إليها من أراد أن يَسْتجم نفسه، ويريح قلبه، ويسترد هدوءه، بعد أن أتلفتها ضوضاء المدينة، وجلبة الحياة العصرية - تكون مستشفى للنفوس بجانب مستشفيات الأبدان، ويترهب فيها من أضناه العمل، وأعياه الجهد، رهبانية مؤقتة يجدد فيها نفسه، ويغذي بهدوئها وسكونها عقله وحسه، ويُبعْث إلى العالم خلقاً جديداً كما يبعث النوم الحياة - إذَنْ لقلّت أخطاء الناس ومظالمهم، فأكثرها مبعثه فساد الأعصاب - وإذن لقلّ إلحادهم فأكثره منشؤه الانغماس في المادة وشؤونها، فإذا تجرد المرء منها زمناً وخلا بنفسه وأتيحت له فرصة التفكير في هدوء وسكون وظلام تحرك قلبه للعبادة، ونزع إلى الإيمان، فاستجاب لفطرته، واستمع لطبيعته - وإذن لقلة مطامع الناس، وتكالبهم على الحياة، فحياة الهدوء والسكينة توحي بأن الحياة ظل زائل، ومرحلة مسافر

لقد اعتاد الناس أن يفروا من متاعبهم إلى المقاهي والفنادق في الهواء الطلق، وعلى شواطئ الأنهار والبحيرات والبحار، ولكنها كلها تفيد الجسم ولا تفيد - كثيراً - الروح والنفس، هي من نوع المستشفيات البدنية لا المستشفيات الروحية والنفسية، فيها - عادة - كل مظاهر المدينة وتعقيداتها وأخيلتها وتكاليفها، فهي لا تغني غناء صحيحاً في العلاج النفسي والروحي - إنما يغني هنا الغناء أنواع من المعاهد والمؤسسات قد بني على أساس

نفسي وروحي لا يعبأ بزخارف المدنية وزينة الحضارة، يريح النفس من عناء التكاليف والتقاليد، ويسمو بها فوق المواضعات والمصطلحات. فتجد النفس راحتها الطليقة، وتعود إلى طبيعتها الحرة. وتسبح في تأملاتها، وبذلك تسترد حيويتها ونشاطها

في سكون الظلماء يرى الإنسان بعينه ما لا يراه في الضياء، ويسمع بأذنه ما لا يسمع في الضوضاء، على أنه هو لا يرى بعينه فحسب، ولا يسمع بإذنه فحسب، بل كل شيء فيه يسمع ويرى، يفهم منطق الطير، ويتذوق موسيقاه، ويدرك معاني المياه في تحريرها، والرياح في هبوبها، والأشجار في حفيفها - فكأنه منح من الحواس ضعاف حواسه، وملك من الملكات ما لا يعد بجانب ملكاته - وكأن عالم الصخب والجلب يغشي عينه، ويثقل سمعه، ويبلد عقله ويثلم ذوقه، فلئن كان الصوت في عالم الحس له حدود، فإذا قلت تموجاته عن حدوده أو زادت انعدم السمع، فليس في عالم الروح حدود للصوت، ولئن كانت العين في عالم الحس لا تدرك من الألوان إلا اقلها، وتعجز عن إدراك أكثرها، فعين الفكر لا يحدها حد ولا يعجزها لون، ولئن كانت عيننا البصيرة لا تبصر إلا في ضياء، وأذننا لا تسمع إلا من قرع هواء، فعيوننا وآذاننا الروحية تستعين بالسكون والظلماء، أكثر مما نستعين بالضوء والهواء

إني لأرثي لهؤلاء الذين يضيعون كل حياتهم في هزل بل أرثي كذلك لهؤلاء الذين يقضون نارهم في وظائفهم وأعمالهم. ثم ينصرفون إلى لهوهم حتى يناموا، بل أرثي أيضاً لهؤلاء الذين يقضون أوقاتهم بين بحث علمي، وقراءة وتأليف وتعليم. ثم لهو قليل ونوم، واعتقد أن هناك عنصرا في الحياة ينقصهم وهو عنصر التأمل، ولست أعني بالتأمل ذلك الضرب من الأسلوب المنطقي العلمي في البحث والتفكير، إنما اعني ذلك الضرب الذي عناه القرآن بمثل قوله: (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) وقوله: (قل انظروا ماذا في السماوات والأرض) هو نوع من العقل قد مزج بنوع من الشعور، وقد امتاز به الشرق على الغرب قديما، ومن ثم كان مبعث الأديان، ومصدر الإلهام

في هذا الضرب من التأمل يجد الإنسان نفسه حيث لا يجدها في هزل ولا جد، وفيه يعرف نفسه على حين أنه يعرف غيره أكثر مما يعرف نفسه، وفيه يجلس إلى نفسه ويصادقها ويصارحها على أن أكثر الناس يجالسون الناس ولا يجالسون أنفسهم، ويصارحون الناس

ولا يصارحون أنفسهم، ويصادقون الناس وهم أعداء لأنفسهم

وأظن أن في الاستطاعة أن يوضع برنامج متسلسل للتأمل كبرنامج القراءة والكتابة وتعلم اللغات وتعلم العلوم، يبدأ فيه بألف باء التأمل، وينتهي بيائه إن كان له ياء، وتخصص له حصص يومية كحصص المواد العلمية، وإن كانت حصصه تمتاز بأنها في ميسور كل إنسان، ليست تحتاج إلى مدرسة يتردد عليها، ولا إلى معلم يأجر، ولا أدوات وكتب يتداولها، وإنما هي من قبيل تربية النفس بالنفس - وليست تحتاج إلا إلى مران واعتياد وعرفان بكيفية السلوك

أول دروسها أن تخلو بنفسك، ولا يكون ذلك إلا في هدوء وسكون، وخير أن يكون في ظلام. ثم تجرد في هذه الحصة من شواغل الدنيا وهمومها؛ واستعرض نفسك من حيث بدنك كيف تؤذيه ببعض عاداتك؛ وهل تدبره تدبير عاقل حكيم، أو مستبد جاهل، وما خير الوسائل لإصلاح ما تقع فيه من أغلاط؟

وتدرج من هذا إلى التأمل في ناحية أخرى نحو علاقتك بعقلك، وعلاقتك بالناس واستعراض ما يكون منك ومنهم

وارق إلى خطوة ثالثة تسائل فيها نفسك، ما غايتك وما مبادئك في الحياة، وهل وضعت لها خططاً؟ وما مقدار تقدمك إليها أو تأخرك عنها؟

سيسلمك ذلك - من غير شك - إلى خطوات أوسع، وتأمل أعمق حسب جهدك واستعدادك؛ وستكون لك في النهاية فلسفة لا من جنس فلسفة أفلاطون وأرسطو، ولكنها فلسفة شخصية قد بينت على تأملك وشعورك لا على حفظك وقراءتك. وستتصل من هذا الطريق بأفق أوسع وملكوت أعلى

في الحديث: (الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا). ولعل هذا الضرب من التأمل ينبههم في حياتهم، من غير أن ينتظروا أن ينتبهوا بموتهم

ربما كان هذا ضرباً من التصوف يتفق وروح العصر، وإن شئت فقل إنه نوع من التصوف على أحدث طراز وأبدع نمط، يبعث على الحياة لا الموت، ويدعو إلى النشاط والعمل لا إلى الخمول والسأم، ولعل الإنسان يجد في الركون إليه بعض أوقاته راحة مما رمتنا به المدينة الحاضرة من عناء، وما أرهقتنا من عنت، ولعلنا نستروح من هذا

البرنامج نسيم الراحة فيراجعنا نشاطنا، وتثوب إلينا قوتنا، وتعود إلينا نفوسنا
أحمد أمين
عصر الخفاء في مصر الإسلامية
الحاكم بأمر الله - 6
ختام البحث
للأستاذ محمد عبد الله عنان
- 10 -
إلى ذلك الحين سلخ الحاكم زهاء خمسة عشر عاماً في الحكم؛ وكانت فترة تحمل طابع الاضطراب والعنف والمفاجأة بما تخللها من غريب الأحكام والتطورات التي أتينا على ذكرها. . ولكن الحوادث تدخل من ذلك الحين في طور آخر، ويميل العهد إلى نوع من الهدوء، ويتجه الحاكم وجهة أخرى. كان ذلك الذهن المضطرم الهائم معاً لا يسكن إلى ركود الحياة العادية، وكان دائماً يؤثر التوغل في عوالم الحياة الروحية. وكانت أعوام العصر الأخيرة مليئة بهذه التيارات الخفية التي تحجب عنا أغوارها ريب وظلمات كثيفة. كانت مصر في هذه الأعوام مهداً خصباً لعصبة من الدعاة المغامرين الذين هبطوا إليها يبشرون بأديان وعقائد جديدة؛ وكان الحاكم من وراء هذه الدعوات يرعاها ويرقب تطوراتها حتى استحالت في أواخر عهده إلى دعوة جريئة إلى (ألوهيته)، ونعت الحاكم عندئذ بقائم الزمان وناطق النطقاء. وقد سبق أن فصلنا عناصر هذه الحوادث والدعوات في (الرسالة) في بحثنا (الدعوة الفاطمية السرية) فلا نعود إليها هنا
وكانت خاتمة الحاكم، كحياته، خفية مدهشة؛ فقد أغاض من هذا العالم وزهق في ظروف غامضة مازالت على التاريخ سراً عسير الجلاء
وهنا نحاول، بعد استعرضنا أعمال الحاكم بأمر الله وغريب أحكامه وتصرفاته، أن نعرض إلى أدق وأصعب نقطة في دراسة هذه الشخصية العجيبة
ماذا كانت حقيقة هذه الشخصية التي جمعت بين خلال وصفات يحمل أكثرها طابع العنف والشذوذ والتناقض؟ وبأي عين يجب أن ننظر إليها، وبأي معيار نستطيع أن نقدر صفاتها وأعمالها؟ وأي أحكام يسوغ لنا أن نصدرها لها أو عليها؟
لدينا في ذلك مادة منوعة: أقوال الرواية الإسلامية المعاصرة والمتأخرة، وحوادث العصر،
وأعمال الحاكم وتصرفاته ذاتها. فأما الرواية الإسلامية، فلا ترى في أمر الحاكم لغزاً يصعب استجلاؤه؛ ولنلاحظأولاًأن ما انتهى إلينا من أقوال الرواية الإسلامية، إنما هو في الغالب أقوال المؤرخين السنيين، خصوم الشيعة وخصوم الدولة الفاطمية، وإننا لم نلتق من تراث الشيعة الذي بددته الحوادث والدول الخصيمة ما يلقي ضياء كافياً على ذلك الخفاء الذي يحيط بشخصية الحاكم وأعماله. والحقيقة أن الرواية الإسلامية تأخذ بظواهر الحوادث المادية، وتكتفي بأن تقدم إلينا الحاكم في تلك الصور المروعة المثيرة التي أشرنا إليها؛ وقلما تحاول أن نلتمس في ما وراء ذلك شيئا من البواعث والأسباب التي يمكن أن نعلل بها بعض نزعات الحاكم وتصرفاته العجيبة. وقد أوردنا بعض أقوال الرواية الإسلامية في وصف الحاكم؛ فهي لا ترى فيه أكثر من أمير مضطرب العقل والتفكير، عنيف الأهواء والنزعات، كثير العبث والسفك، شديد التناقض، لا يصدر عن رؤية أو منطق متزن، ولا يتحرى غاية أو مثلاً معقولة. هذه هي الصورة العامة التي يقدمها إلينا المؤرخون المسلمون عن الحاكم؛ وهي صورة بسيطة ساذجة مستمدة من ظاهر الحوادث المادية؛ فقد كان الحاكم طاغية شديد البطش والسفك، ولكنه كان يتخذ السفك وسيلة لا غاية، وكان القتل في نظره خطة سياسية؛ وكان عنيف الأهواء والنزعات، ولكنها لم تكن نزعات شهوة نفسية، وإنما نزعات ذهن يرتفع عن الوسائل العادية لتوجيه مجتمع يراه جديراً بالتغيير والتطور؛ وكان متناقضاً في كثير من تصرفاته، ولكن تناقض الذهن الذي يحاول مختلف الوسائل والتجارب لتحقيق غايات معينة. ومع ذلك فإنه لم يفت بعض المؤرخين أن يلاحظ أن عقلية الحاكم لم تكن بتلك البساطة التي تصور بها، فقد وصفه الذهبي بأنه كان (خبيثاً، ماكراً، ورديء الاعتقاد)، وهي صفات ليست من خواص الذهن المضطرب السقيم الذي يفكر دون تدبر ويعمل دون غاية
والواقع أن الحاكم بأمر الله كان عقلية مدهشة، وكان لغزا عسير الفهم؛ وإذا كان قد

أشكل على المؤرخين المسلمين من معاصرين ومتأخرين فلم يحاولوا فهمه، فإنه مازال أيضاً في بعض نواحيه لغزا على عصرنا، وإن كنا نستطيع أن نحاول فهمه من بعض النواحي، وتعليل كثير من أعماله وأحكامه. ويصفه العلامة الألماني ميللر بأنه (من أعجب وأغمض الشخصيات التي عرفها التاريخ)؛ ويقول: (إن من يقرأ ما أورده المؤرخون المتأخرون من مختلف الأساطير والقصص يخرج بأنهم لم يفهموه، وأنهم اعتبروه مجنونا فقط؛ وقد جرى رأيهم فيه مجرى الحقيقة، ولكن توجد ثمة شواهد واضحة على أن هذا الأمير الذي هو أعجب من أنجبت أسرته، كان أشدهم إثارة للأساطير من حوله، وأن حجابا كثيفا قد أسبغ على صورته فلا نستطيع أن نظفر منها إلا بلمحات)

والآن ماذا نستطيع أن نقول في قوانين الحاكم وتصرفاته؟ وكيف ننظر إليها؟ هل كان في مجموعها فورات مجنون ونزعات مخبول كما تصورها معظم الروايات الإسلامية؟ إن كثيراً من هذه القوانين والأحكام يحمل طابع القسوة والإغراق، ولكن من التحامل والظلم إن نصفها بالسخف المطبق، وان ننعت صاحبها بالجنون ولقد ظلم التاريخ الحاكم كما ظلم كثيراً من الطغاة المصلحين؛ وقد كان الحاكم طاغيا، ولكن مصلحا على طريقته، وكان يرمي بما يصدر من القوانين والأحكام إلى تحقيق غايات معينة، دينية وسياسية واجتماعية، ربما خفيت على الكافة، لأنها تتعلق بسياسة الدولة العليا؛ ومن ثم كان الريب في حكمتها والسخط عليها؛ وكانت القسوة في تطبيقها فأما معاملة الذميين: أعنى اليهود والنصارى، وما صدر في شأنها من الأوامر والأحكام المشدودة، فلم تكن بدعة في ذاتها ولم تكن حدثاً جديدا في الخلافة الإسلامية؛ ولم يكن فيها من الجديد سوى روحها ووسائلها الشديدة التي جعلت منها نوعا من الاضطهاد المنظم. ولقد كانت الخلافة الإسلامية تأخذ بسياسة التسامح الديني وتطلق لرعاياها الذميين الذين يؤدون الجزية حرية الاعتقاد والشعائر؛ ولكن الذميين كانوا يلقون من الوجهة الاجتماعية دائما نوعا من المعاملة الخاصة؛ ومنذ خلافة عمر فرضت عليهم بعض الأحكام والقيود التي تجعلهم من الوجهة الاجتماعية أدنى من المسلمين، وكان منها قيود تتعلق بالأزياء وركوب الخيل، وحمل السلاح واقتناء العبيد؛ وكانت هذه الأحكام تتخذ في عصور الحماسة الدينية لوناً من الشدة يختلف باختلاف الظروف والأحوال. قد رأينا إن الخلافة الفاطمية كانت تتبع سياسة التسامح الديني نحو اليهود والنصارى، وإنهم في ظلها ازدهروا وتبوءوا أرفع مناصب الثقة والنفوذ وإن موقف الحاكم نحوهم، واشتداده في معاملتهم على هذا النحو، كان انقلابا في السياسة الفاطمية. وقد نستطيع أن نفسر هذا التطرف من جانب الحاكم، بأنه نوع من الغلو الديني له بواعثه السياسية؛ ففي هذه المرحلة التي أشتد فيها الأمر على اليهود والنصارى، كان الحاكم يبدي كثيرا من التعصب والغلو سواء من الناحية الدينية العامة أو الناحية المذهبية الخاصة ولكن هذه الشدة استحالت في أواخر عصره إلى نوع من اللين والرفق بالنصارى واليهود؛ ذلك لان هذا الذهن المضطرم يستحيل عندئذ إلى ذهن فلسفي حر التفكير، ينظر إلى الأديان كلها نظرة واحدة؛ وإن كانت السياسة العليا تحتم عليه أن يؤيد دين الدولة ومذهبها الرسمي؛ وقد كان الحاكم ولد أم نصرانية كما قدمنا أفلا نستطيع، أثر هذه الأرومة أيضاً في هذا التكوين الديني المضطرب، وفي هذا التردد بين الشدة واللين؟ ومما يلاحظ في هذا الصدد إن موقف الحاكم إزاء النصارى واليهود هو من المواقف القليلة التي ثبت فيها الحاكم على سياسة واحدة، وإنه لن يجنح فيه من الشدة إلى اللين إلا في أواخر عصره حينما ظهر الدعاة السريون الذين يدعون إلى دين جديد وعقائد جديدة وقوانين الحكم الاجتماعية؟ هل كان تشريعاً جنونياً خاليا من كل باعث وحكمة؟ إن الحكم على هذه القوانين يقتضي أن نفهم روح العصر وخواص المجتمع المصري يومئذٍ؛ كان الحاكم بأمر الله على رأس خلافة مذهبية يقوم سلطانها السياسي على صفة الإمامة الدينية؛ وكانت هذه الخلافة تريد أن تحيط ملكها في مصر بسياج قوي من الخلال القوية التي أحاطت ملكها في المغرب؛ ولكنها الفت في مصر مجتمعا متحضراً يميل إلى الترف والحياة الناعمة، ولم ترد أن تضيق على هذا المجتمع بادئ بدء، لأنها كانت تخطب وده وتسعى إلى تأليفه؛ ولهذا كانت تسايره، وتغيره ببذخها وبهائها، وتطلق له أعنة البهجة والمرح، وتغمره بالمواسم الفخمة والحفلات والمواكب الشائقة؛ فكانت تذكر بذلك مرحه وخفته

واستهتاره بدلا من أن تذكر فيه الخلال القوية التي تنشدها. وكانت عوامل الانحلال تجثم في قرارة هذا المجتمع الذي يخفى انحلاله تحت أثواب من الفخامة والبهجة؛ وكانت الرذائل الاجتماعية على اشدها حينما تولى الحاكم بأمر الله، وظهر ذلك الانحلال الاجتماعي في اشد مظاهره حينما نظمت حياة الليل، وشهد الأمير مواكبه الليلية مظاهر هذا الفساد الشامل. عندئذ عمد الحاكم إلى وضع هذه الخطة التي يمكن أن توصف بحق بأنها برنامج للإصلاح الاجتماعي، ولجأ إلى تلك القوانين والإجراءات الصارمة كوسيلة لمكافحة هذا الفساد الاجتماعي الشامل؛ وفيم تحريم الخمر ومطاردة المدمنين، وتحريم الغناء واللهو الخليع إلا أن يكون لتقويم أخلاق الشعب، وحماية أمواله وصحته من الإسراف

والعبث، وحماية المجتمع من ضروب الفساد التي يغرق فيها؟ إن الأمم العظيمة في عصرنا تلجأ في أحيان كثيرة إلى إصدار مثل هذه القوانين لبث الإصلاح الاجتماعي؛ وما عهد التحريم الأمريكي ببعيد، فقد حرمت الخمر في أمريكا مدى أعوام، وكانت تجربة اجتماعية هائلة لا تزال ذاكراها ماثلة في الأذهان؛ وما تزال بعض الدول تحرم بعض الملاهي التي تراها خطرا على الأخلاق العامة؛ وما تزال بعض الحكومات تحد من حريات الشعب في التجوال بالليل في ظروف معينة حرصاً على الأخلاق والأمن العام ومطاردة المرأة والحجر عليها؟ لا ريب أن الحاكم كان يذهب في ذلك إلى ذروة الغلو والإغراق، ولكن المرأة من أشد عوامل الفتنة والغواية، ولاسيما في عصور الفساد والانحلال، وقد رأى الحاكم، في الحجر على المرأة، والمباعدة بينها وبين الرجل في حياة المدينة، وسيلة لمكافحة الرذيلة وحماية الأخلاق الفاضلة. أما الإغراق في تطبيق التجربة، فهو بلا ريب أثر من إغراق هذا الذهن الهائم في كل ما يعتقد ويبتكر؛ وإذ كنا نستطيع أن نعلل فكرة الحجر على المرأة وإبعادها عن مجتمعات المدينة، فمن الصعب علينا ذلك الإغراق في تطبيقها إلى حدود من القسوة الذريعة. بيد أنه ليس من الإنصاف أن ننكر على الإجراء كل حكمة، فإن من المحقق أنه كان ذا اثر كبير في درء الفساد الشامل وتنقية حياة المدينة، وإنا لنشهد في عصرنا في بعض الأمم العظيمة فكرة مماثلة في الحد من حريات المرأة الاجتماعية وردها إلى حظيرة الأسرة مع فرق في العصر والظروف. ففي إيطاليا الفاشستية، وألمانيا الهتلرية تفقد المرأة كثيرا من حريتها، ويحضر عليها التبذل والتهتك في الأزياء؛ وفي إيطاليا تلزم بان لا يقل ثوبها عن طول معين؛ وفي ألمانيا وإيطاليا يحضر اليوم كثير من ضروب اللهو الخليع، وتمنع الحانات الليلية والملاهي العارية. ولا ريب أن الفكرة التي أملت على الحاكم خطته، وتملى اليوم على ألمانيا الهتلرية وإيطاليا الفاشستية خطتها نحو المرأة، ترجع في جوهرها إلى اصل واحد، هو مكافحة عوامل الغواية والفساد التي يبثها تهتك المجتمع النسوي وإمعانه في صنوف الاستهتار والخلاعة

وأما تحريم بعض أنواع الأطعمة فقد يرجع إلى أسباب صحية لها قيمتها في ذلك العصر، وإما تحريم ذبح الأبقار السليمة فهو إجراء ظاهر الحكمة وهو المحافظة على النسل. وأما قتل الكلاب فهو تحوط صحي لا يزال يتبع في عصرنا في جميع الأمم المتمدنة

ولسنا ندعي أننا نستطيع أن نعلل كل قوانين الحاكم وإجراءاته وتصرفاته أو أن ننفذ إلى بواعثها وحكمتها جميعاً، فهناك الكثير منها مما لا يستطاع فهمه وتعليله؛ ولكن الذي نود أن نقوله هو إن هذه القوانين والإجراءات، كانت عكس ما تصورها الرواية الإسلامية بأنها نزعات طاغية مضطرب الذهن، تكون في مجموعها برنامجاً إصلاحياً شاملا، وترمي في مجموعها على تحقيق غايات لا ريب في حكمتها وسموها

يقول العلامة دوزي: (لم تكن قوانين الحاكم سخيفة كما يحب أن يصورها الرواد السنيون الذين اعتادوا ان يقدموا إلينا من هذا الأمير شخصية مضحكة لا صورة حقه) ثم يقول: (ولقد أراد الحاكم أن يكافح الانحلال الشامل الذي سرى إلى مجتمع عصره بقوانين بوليسية صارمة، وأحيانا غريبة شاذة) ثم يشرح رأيه بعد ذلك على ضوء هذه القوانين والأحكام المختلفة، ويحدثنا بعطف عن تواضع الحاكم وتقشفه، ويقول ميلر بعد أن يلخص قوانين الحاكم الاجتماعية (إن هذه التصرفات ليست كلها تنم عن الحماقة؛ وإذ كنا لا نستطيع أن نعلل كل أعماله، فليس ذلك مما يحملنا على أن نعتبر تصرفاته فورة أهواء مستبد ولا سيما ونحن نراها في نواحٍ أخرى سليمة معقولة. وكل

ما وصلنا من الروايات إنما هو وقائع مجردة، مشوهة ومبالغ فيها بلا ريب؛ وإنه ليكون من المدهش اليوم أن نستطيع أن نحل رموز هذه المعضلة الشاملة) ثم يقول: (وليس لدينا إلا أن نعتقد أنه أما باطني متعصب، توهم في نفسه الإغراق والألوهية، وأما أمير ذكي بارع في تاريخ أسرته ومذبها، وأعتقد أنه يستطيع أن يسمو فوق البشر وأن يحتقرهم ويصنفهم كالشمع طوع إرادته. وربما كان يجمع في طبيعته المتناقضة بين شيء من هذا وشيء من ذاك وربما لا يستطيع أن يظفر بالحقيقة هنا سوى خيال شاعر)

والخلاصة أن الحاكم بأمر الله لم يكن تلك الشخصية الوضيعة الساذجة، ولا تلك العقلية المخرفة التي تقدمها إلينا الرواية؛ ولم تكن أعماله وأحكامه، كما صورت على كل العصور مزيجا من النزعات والأهواء الجنونية؛ وإنما كان الحاكم لغز عصره، وكان ذهنا بعيد الغور وافر الابتكار وكان عقلية تسمو على مجتمعها وتتقدم عصرها بمراحل. وكان بالاختصار عبقرية يجب أن تتبوأ في التاريخ مكانها الحق.

تم البحث

محمد عبد الله عنان

المحامي

سقراط والعالم الإسلامي

للدكتور إبراهيم بيومي مدكور

في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد لهجت السنة الأثينيين باسم حكيم لا كالحكماء، وفيلسوف لا كالفلاسفة. لا يتفق شكله وزيه مع جلال الحكمة، ولا يتلاءم أصله ونسبه مع عظمة الفلسفة. فقد كان أفطس الأنف، مرسل الشعر في غير انتظام، حافي القدمين، حاسر الرأس مرتديا كساء غليظا. أبوه نقاش وأمه قابلة: مهنتان ليس لهما من الشرف نصيب كبير وهو مع هذا يناقض أهل أثينا ويبين خطأهم، ويسفه أحلامهم دون أن يدعي الإتيان بجديد، أو تعليم الناس ما لم يعرفوه. أجل لم يك هذا الفيلسوف رئيس مدرسة يجتمع فيها الطلاب ولا صاحب نظرية محدودة يتدارسها الأتباع والتلاميذ. بل كان يبعث حكمته في الأسواق والطرقات ويلقى درسه أمام الحوانيت وفي ملعب الشبان. وما كان هذا الدرس وتلك الحكمة إلا إعلانه دائماً إنه لا يعرف شيئاً وترديده لهذه الجملة المأثورة: (أعرف نفسك بنفسك). ذلكم الحكيم الغريب شكله، القبيح منظره، الشاذة تعاليمه وطريقته هو سقراط الذي نهج بالفلسفة نهجاً جديداً، وكان على رأس طوائف فلسفية متعددة ومتباينة

بين فلاسفة الأغريق ثلاث أسماء لا يكاد الإنسان يذكر واحدا منها إلا وحضر بذهنه الآخرون. ومن ذا الذي يلفظ أسم أفلاطون دون أن يخطر بباله أنه كان تلميذا لسقراط وأستاذا لأرسطو؟ أو من ذا الذي يتكلم عن سقراط ولا يلحظ تلميذه أفلاطون وتلميذ تلميذه أرسطو؟ وفي الحق أن هؤلاء الحكماء الثلاثة يكمل بعضهم بعضا: تضافروا على تكوين نظرية مشتركة نشأت بين يدي الأول، وترعرعت لدى الثاني، وأخذت شكلها الكامل عند الأخير. فكلهم أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض وعني بالإنسان في تفكيره وسلوكه أكثر من عنايته بالشؤون الطبيعية في نظامها وتقلبها. وكلهم بحث عن الفكرة ' في طريق تكونها وأصل نشأتها ودرجة وجودها وبذا كانوا جميعاً أساتذة (الفلسفة الفكرية) التي لعبت دوراً هاماً في تاريخ الدراسات النظرية والتي لا تزال عماد البحث العقلي إلى اليوم

لم يقف نفوذ سقراط عند الشعبة الأفلاطونية والأرسطوية، بل تعداهما إلى مدارس أخرى كانت من أشد الناس عداءاً لأفلاطون وأرسطو. فالميجاريك تلاميذ أقليد الميجاري والسينيك أتباع أنطستين يصعدون إلى سقراط وان كانوا من أول من خرج عن المنطق،

وشكك الناس في الحقيقة وكيفية الوصول إليها. فهم بهذا من أكبر الخصوم (الفلسفة الفكرية) التي تحدثنا عنها. والأخلاق لدى أصحاب الرواق تعتمد على أساس سقراطي واضح؛ فالرواقيون يرون - كما يرى سقراط - أن الحسن ما أملته الإرادة، وما أتفق مع العاطفة الشخصية. وعلى هذا يجب أن تؤسس الأخلاق لديهم جميعا على دعامة من العزيمة والشعور الفردي. وطريقة اللاإداريين في الحوار والمناقشة متأثرة قطعاً بطريقة سقراط ومن قبله من السوفسطائيين

ذلكم هو سقراط في العالم الإغريقي؛ وبودنا أن نعرف على أي صورة وصل إلى العالم العربي هل وجد بين العرب أنصارا وأتباعا مثلما وجد بين الأغريق، وهل عنى المسلمون بشأنه عنايتهم بأفلاطون وأرسطو؟ مما لا شك فيه أن هذين الأخيرين ملكا على العرب الجانب الأعظم من تفكيرهم الفلسفي، وكان موضع شغل الباحثين منهم ولعل ذلك راجع إلى أن قدرا كبيرا من كتبهما ترجم إلى العربية، فساعدا على دراستهما دراسة مستفيضة. أما سقراط فلم ينفذ إلى الفكر الإسلامي إلا بواسطة ما رواه على لسانه أفلاطون وأرسطو وبعض المؤرخين أمثال بلوتارك. بيد أن شيخ أثينا هذا، ورسول (أبولون) وترجمان وحي (دلف) قد أثر في نواحي عربية هامة غامضة؛ وسنحاول الكشف عنها اليوم

في سقراط ظاهرتان هامتان: حياته أن شئت شخصيته الغريبة، وطريقته وتعاليمه؛ وقد يكون ذيوع صوته راجعاً إلى الأولى اكثر من رجوعه إلى الثانية فكثير من الناس يعرف سقراط الزاهد المتقشف الذي أعرض عن ملاذ الدنيا فلم يشرب نبيذا قطاً ولم يتناول طعاماً شهياً؛ وكثير منهم يعرف سقراط القوى العزيمة الذي لا يخضع لإرادة غير إرادة الحق مهما عظم شأنها؛ وكثير منهم يعرف سقراط البطل الذي ضحى بنفسه آمنا مطمئنا في سبيل رايته وعقيدته. كل هؤلاء يعرفون ذلك من سقراط، وان خفيت عليهم آراءه ونظرياته. هذه الظاهرة الهامة في الفيلسوف الأثيني هي التي بهرت المسلمين بوجه خاص، فرعاهم منه شخصه أكثر مما راعهم علمه ودرسه. وإن إذا رجعنا إلى كتب التراجم العربية وجدنا أنها لا تكاد تدرس إلا حياته وقصة موته. فابن النديم الذي ترجم له في اختصار بلغ حد الإخلال اكتفى بأن قال أنه (كان زاهدا خطيبا حكيما قتله اليونانيون لأنه خالفهم)، والقفطي الذي وقف عليه نحو تسع صفحات من القطع الكبيرة بين في

تفصيل كيف حوكم هذا المتهم البريء وكيف نفذ فيه حكم الإعدام. وابن أبي أصيبعة يشارك القفطي في ترجمته المطولة ويضم إليها بعض حكم يعزوها إلى سقراط إلا أن هذه التراجم في جملتها تحوي أخطاء يجدر بنا أن نشير إلى بعضها فمثلا يزعم ابن النديم ومن جاء بعده أن سقراط ألف مقالة في السياسة ورسالة في السيرة الجميلة؛ والحق أن هذا الفيلسوف لم يكتب شيئاً قط. ومن الغريب أن ابن أبي أصيبعة قد تنبه إلى هذا ولاحظ أن سقراط (لم يصنف كتاباً، ولا أملي على أحد من تلاميذه ما أثبته في قرطاس وإنما كان يلقنه تلقيناً لا غير)؛ ولكنه عاد فوقع فيما وقع فيه من قبله من الخطأ. ويكاد يجمع أصحاب التراجم هؤلاء على أن سقراط عاش ثمانين سنة أو جاوزها إلى مائة مع أنه توفي عن إحدى وسبعين سنة. ويروي القطفي عن بعضهم أن سقراط كان شامياً وهذا خطأ واضح فإن هذا الحكيم أثيني في نشأته ونسبه ويمثل أول خطوة في الحركة الفلسفية التي دامت في أثينا نحو قرن أو يزيد. ومهما يكن من شيء فإن إن غضضنا الطرف عن هذه الهفوات الصغيرة وجدنا أن هؤلاء المؤلفين وصفوا حياة سقراط في جزيئاتها الهامة

لم تلفت هذه الحياة العظيمة نظر مؤرخي العرب وحدهم بل كان لها اثر بين كل طائفة من الفلاسفة والعلماء فالكندي بلغ به حبه للفيلسوف الإغريقي وإعجابه به أن كتب فيه عدة مؤلفات منها: رسالة في خبر فضيلة سقراط، رسالة في ألفاظه رسالة في ما جرى بينه وبين الحرانين، رسالة في موته. وهناك تشابه بين سقراط والكندي لن يفوتنا أن ننبه إليه؛ فلئن كان الأول قد مهد (للفلسفة الفكرية) في العالم الإغريقي ووضحها بأمثلة من الأخلاق والحياة الدارجة، فأن الثاني هو أول من أتجه نحو الدراسات الفلسفية في العالم العربي. وإخوان الصفا يصعدون بسقراط إلى درجة النبوة، ويعقدون لموته فصلاً قيماً في رسائلهم؛ وعلهم استقوه مما كتبه الكندي من قبل. ويرى الرازي طبيب الإسلام الأكبر وفيلسوفه الذي لم يدرس بعد الدرس اللائق به إن سقراط هو الفيلسوف الحق، ويعارض به أتباع أرسطو من زملائه ومعاصريه المسلمين. ومعروف ما بين الرازي وإخوان الصفا من صلات في العقيدة والآراء الفلسفية والسياسية. فلسقراط إذن أبناء وتلاميذ في الديار الإسلامية، كما كان له من قبل في البلاد الإغريقية؛ وهؤلاء التلاميذ ألصق بشعبة الإسماعيلية والمتصوفة الذين شاءوا أن ينهجوا نهج حكيم أثينا في زهده وتقشفه وأن يتفانوا تفانيه في نصرة

مبادئهم
أما تعاليم سقراط وإن بدت ثانوية في نظر مفكري فإنها لم تكن مجهولة لديهم. وقد أختص الشهرستاني بإيراد أكبر قدر منها في كتابة الملل والنحل. فهو يعرضأولاًآراء سقراط الدينية والميتافيزيقية، مبيناً ما قاله في صفات الباري وذاته ومفيضاً في ذلك بدرجة محسوسة. ثم يجاوز هذا إلى الكلام عن مذهب سقراط في المبادئ والعلل، وفي أزلية النفوس الإنسانية ووجودها السابق لوجود الأبدان. وهذه الآراء المنسوبة إلى سقراط قد جاءت بنصها على لسان أفلاطون؛ على أن العرب أنفسهم لم يستقوها إلا من مؤلفات الأخير. وهنا تعترضنا مشكلة تاريخية مشهورة، ألا وهي أنا إن سلمنا بأن كل ما رواه أفلاطون باسم أستاذه من عمل الثاني لم يبقي للأول شيء وعلى العكس من ذلك إن كانت مؤلفات التلميذ تترجم عن رأيه الخاص فإنا لا نكاد نجد لسقراط نظرية مستقلة؛ وقد كنا نأمل أن نحل هذه العقدة التي حار فيها المؤرخون المعاصرون على ضوء المصادر الإسلامية، فلم نظفر فيها بما ينقع الغلة. وفي رأينا إن سقراط لم يعن بتكوين نظريات فلسفية مفصلة، وكل مهمته أنه أشار إلى أفكار عامة تولاها أفلاطون من بعده بالدرس والتحليل
بيد إن لسقراط عمل آخر شخصياً لا ينكره عليه أحد؛ وهو طريقته الجدلية المبنية على الاستنباط والتشكيك. بهذه الطريقة أشتهر، وبها تمكن من قهر جماعة السوفسطائيين وبواسطتها أصلح كثيراً من الأخطاء الشائعة، ومهد السبيل لتكوين الأفكار العامة. وقد وصلت هذه الطريقة إلى العرب - كما وصلت إلى المحدثين - في ثنايا كتب أرسطو وأفلاطون؛ ولفلاسفة الإسلام في شرحها ومناقشتها أبحاث مختلفة؛ فسقراط المثل الأعلى في التضحية، وسقراط الباحث النظري، وسقراط المناظر القوي الحجة قد وجد في العالم العربي أتباعاً وتلاميذ، بل أنصاراً ومحبذين
إبراهيم بيومي مدكور
دكتوراه في الآداب والفلسفة
رسالة الأزهر للأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر
الشيخ محمد مصطفى المراغي
قد يسال بعض الناس: ما فائدة الأزهر، أو ما هي رسالة الأزهر كما يقال اليوم؟ . . . فأقول لهؤلاء: رسالة الأزهر هي حمل رسالة الإسلام. ومتى عرفت رسالة الإسلام عرفت رسالة الأزهر
الإسلام دين جاء لتهذيب البشر ورفع مستوى الإنسانية والسمو بالنفوس إلى أرفع درجات العز والكرامة. قد طوح بالوسطاء بين الناس وربهم، وصل بين العبد وبه. ولم يجعل لأحد فضلاً على أحد إلا بالتقوى، وقدس العلم والعلماء، وقرر في غير لبس ما يليق بذات الخالق من الصفات. وما قرره في ذلك هو منتهى ما سمت إليه الحكمة، ووصل إليه العقل. وفرض عبارات كلها ترجع إلى تهذيب النفس، وتلطيف الوجدان، وأبان أصول الأخلاق، وقرر التمتع بالطيبات ولم يحرف إلا الخبائث، ووضع حدوداً تحد من طغيان النفوس ونزوات الشهوات، ووضع أصول النظم الاجتماعية وأصول القوانين: قواعد كلها لخير البشر وسعادة المجتمع الإنساني
هذه صورة مصغرة جداً للدين الإسلامي، ورسالة الأزهر هي بيان الدين الإسلامي، وشرح قواعده وأسراره، ومتى أدى هذه الرسالة على وجهها فقد أدى نصيباً عظيماً من السعادة والخير للجمعية الإنسانية
في القرآن الكريم حث شديد على العلم، وعلى معرفة الله وعلى تدبر ما في الكون، وليس هناك علم يخرج موضعه عن الخالق والمخلوق. فالدين الإسلامي يحث على تعلم جميع المعارف الحق. وليس في المعارف الصحيحة المستقرة شيءٌ ممكن أن يناقض أصول الدين ويهدمها
نعم قد توجد معارف تناقض بعض ما وضعه العلماء في شرح القرآن والحديث والفقه وغير ذلك، ولكن لا نهتم لهذا. فليس العلم في طريقه، ولنصحح معارف الماضين، لكن على شريطة أن يكون ما يخالف معارفنا من العلم البرهاني المستقر
ولست أقصد بحديثي هذا أن يكون الأزهر مدرسة طب أو هندسة، أو كلية للكيمياء أو ما يشابه هذا: ولكني أعني إن هناك علوماً ومعارف لها صلة بالدين وثيقة، تعين على فهمه،

وتبرهن على صحته، ويدفع بها عن الشبهات. فهذه العلوم يجب أن يتعلمها العالم الديني ويتعلم منها القدر الضروري لما يوجه إليه

قد تغيرت في العالم طرق عرض السلع التجارية، وأصبح الإعلان عنها ضرورياً لنشرها وترغيب الناس فيها. ولديكم الحوانيت القديمة ومخازن التجارة الحديثة، فقارنوا بينها تدركوا ما في طريقة العرض الحديثة من جمال يجذب النفوس إليها وما في طريقة العرض القديمة من تشويه ينفر الناس منها. وقد توجد في الحوانيت القديمة سلع أحسن صنفاً وأكثر قيمة وأمتن مادة، ومع ذلك فهي في كساد

وكما تغيرت طريقة عرض السلع تغيرت طريقة عرض العلم، وأحدث العلماء طرائق تبعث الرغبة الملحة في العلم، وتنفي عنه الملل والسأم

حدثت هذه الطرق في إلقاء الدروس والمحاضرات، وحدثت في تأليف الكتب أيضاً. وهذا المثل ينطبق علينا. ففي جميع الكتب التي تدرس في الأزهر، وفي جميع العلوم التي تدرس في الأزهر، أعلاق نفسية لا تحتاج إلا إلى تغيير طريقة العرض في الدرس والتأليف، وفي الفقه الإسلامي نظريات تعد الآن أحدث النظريات عند رجال القانون، وفي الفقه الإسلامي آراء يمكن أن يسير عليها الناس الآن من غير حرج، وهي تحقق العدالة في أكمل صورها. ولكن هذه النظريات البالغة منتهى الجمال والحكمة يحجبها عن الناس أسلوب التأليف القديم

على الأزهر أن يسهل فهم علومه على الناس، وان ييسر لهم هذه المعارف وأن يعرضها عرضاً حديثاً جذاباً مشوقاً

ومسألة أخرى يجب أن يعنى الأزهر بها: هي تطهير الدين الإسلامي من البدع، وما أضيف إليه بسبب الجهل بأسراره ومقاصده. فهناك آراء منثورة في كتب المذاهب وفي غير كتب المذاهب يحسن سترها ظناً بكرامة الفقه والدين

ومن الواجب أن يعترف بأن المذاهب الإسلامية جملة تغني عن الاجتهاد في المسائل التي عرضت من قبل متى تخير العلماء منها وأذكر قصة طريفة تجدونها في كتاب الولاة والقضاة للكندي:

كان في مصر قاضٍ شافعي المذهب في عصر الإمام الطحاوي. وكان يتخير لأحكامه (ما يرى إنه محقق للعدل من آراء الأئمة ولا يتقيد بمذهب. وكان مرضي الأحكام لم يستطيع أحد أن يطعن عليه في دينه وخلقه. سأل ذلك القاضي إمام الطحاوي عن رأيه في واقعة من الواقعات فقال الطحاوي: أتسألني عن رأي أو عن رأي أبي حنيفة؟ قال القاضي: ولما هذا السؤال؟ قال الطحاوي: ظننتك تحسبني مقلداً. فقال القاضي: (ما يقلد إلا عصبي أو غبي؟

فتخير الأحكام نوع من الاجتهاد ولكنه الاجتهاد الذي لم يغلق الناس أبوابه

إصلاح التعليم في الأزهر واجب اجتماعي لإصلاح الأمم الإسلامية على مختلف أقطارها وأجناسها، وعلى كل مسلم أن يساهم فيه إذا استطاع إلى ذلك سبيلاً

وأنا ارجوا الله سبحانه أن يوفق العلماء وطلاب العلم إلى الإخلاص في النهوض بالأزهر، فإن الإخلاص في ذلك إخلاص لله ولرسوله وللمؤمنين ولدين الحق الذي وعد الله أن يظهره على الدين كله، وجعله هداية عامة لجميع البشر

ونصيحة أقدمها إلى العلماء وطلاب العلم في الأزهر راجياً تدبرها، هي احترام حرية الرأي، والتحرج من الاتهام بالزندقة والكفر ولا أطالب بشيء يدعى بدعة. ولا أحدث في الدين حدثاً لهذه النصيحة. فهي موافقة للقواعد التي وضعها سلف الأئمة رضى الله عنهم. وترونها مبسوطة واضحة في كتب الأصول وفي جميع كتب الإمام الغزالي

وحاصلها - على ما أذكر - أن المسائل الفقهية يكفر منكر الضروري منها كالصلاة والزكاة وحرمة الزنا وشرب الخمر وقتل النفس والربا

أما إنكار أن الإجماع حجة، وخبر الواحد حجة، والقياس حجة، فلا يوجب الكفر، وما عدا ذلك من المسائل الفقهية لا إثم في إنكاره مطلقاً. على شرط أن يكون الإنكار غير مصادم لنص أو إجماع على هذا أجمع الصحابة رضي الله عنهم، وأجمع عليه الأئمة، ولم يعرف أن بعضهم أثم بعضا

وعلى الجملة فما دام المسلم في دائرة القرآن لا يكذب شيئاً منه، ولا يكذب ما صح عن رسوله صلى الله عليه وسلم بطريق قاطعة فهو مسلم لا يحل لأحد أن يتهمه

بالكفر
عرضت لهذه النصيحة لأنها تسهل على أهل الأزهر معاشرة الناس، والعمل بها يمكن من نشر الدعوة ومن الجدل بطرقه المقبولة. والعمل على خلافها منفر يحدث الشقاق ويورث العداوة
أسأل إليه أن يهبنا رشداً، وأن يملأ قلوبنا خشية وهيبة من جلال الله، ويملأها عزاً وشفقة ورحمة لعباه
وإذا كانت مهمة الأزهر حمل رسالة الإسلام للعالم فمن أول واجب على أهله أن يعدو أنفسهم لتعلم اللغات، لغات الأمم الإسلامية وغير الأمم الإسلامية، والله لم يرسل رسولاً إلا بلسان قومه ليبين لهم
فليحقق الأزهر القدوة، وليرسل إلى الناس رسلاً يفقهونهم في دينهم بلسانهم:
وسأعنى بهذه المسألة كما أعنى بتثقيف إخواننا الذي أسماهم القانون (أغراباً) فإن لهم من الحقوق والحرية في هذا الوطن ما لكل فرد من أهل البلاد، وأرجو أن يفكروا طويلاً فيما يفرضه عليهم دينهم من الهداية والإرشاد وإسعاد المجتمع
في طريق المدينة
للأستاذ علي الطنطاوي
لفح وجهه نسيم الفجر البارد، فهم بأن يقوم إلى النافذة فيغلقها ويعود إلى سريره، ثم تخاذل واسترخى، ولبث مستلقياً، فسمع أصواتاً غريبة، خيل إليه أنها أصوات الوحوش، أو أحاديث الجن، فجمد من الخوف، وحدق فيما حوله، فرأى كأنما هو نائم في أرض الشارع، وعلى جانبيه أبنية فخمة عالية، مربعة ومستديرة، والوحوش تطل عليه من أعاليها، تصرخ صراخاً مرعباً، فاستعاذ بالله من هذا الحلم - وتقلب في فراشه، وألقى بيده على طرف السرير، فأحس كأن قد وخزته إبرة، أو كأن حية لدغته، فقفز مذعوراً. وإذا هي بالحقيقة لا الحلم، وإذا حيال يده نبت من نبت الصحراء، قصير شائك يقال له القتاد. . . كانت تضرب به الأمثال، وإذا هو في البادية، في (خور حمار) وإذا هي الرحلة تمتد به ثلاثة عشر يوماً، وهو لا يزال دون (العلا)، ولا يزال بينه وبين المدينة جبال وصحاري تسير فيها السيارة أياماً
فجلس يذكر ما رأى في هذه الرحلة من ألوان العذاب، وأشكال الخوف، وما مر به من مشاق وصعاب أبصر فيها الموت عياناً، ويئس فيها من النجاة. . . . وذكر أنهم طالما تمنوا الموت لما وجدوا من العذاب، وأنهم طالما سلكوا من شعاب تقوم فيها السيارة وتقعد، ولا تنجو من شدة إلا إلى أشد منها، وطالما ساروا في رمال كانت تغوص فيها السيارة إلى المرقاة فيدفعونها دفعاً، ويمدون لها الخشب على الأرض مداً، وطالما صعدوا جبالاً يعجز صعودها الماشي على رجليه، فكانوا يجرون السيارة بالحبال، وطالما هبطوا أودية لا يهبطها ممثلو الروايات الأمريكية. . . وأنهم ساروا ألفاً وثلثمائة كيل في أرض لم تطأها قط سيارة. . .
وأنهم سلكوا بين تبوك والعلا مسلكا في جبال الطلع، ساروا فيه بالسيارة من ضحوة اليوم إلى عصر الغد، فلم يقطعوا من الطريق خمسة عشر كيلاً. . . وكانوا يدورون فيه كما دار بنو إسرائيل في التيه. يمشون ما يمشون ثم يعودون من حيث جاءوا، وجبال المطلع جبال عظيمة غريبة الشكل، ليست سلاسل، ولكنها آكام عالية، وجبال منفردة، عالية الذرى محددة القمم، تشبه ذراها رءوس المآذن وهام البروج، لها منظر جميل فتان، فيه هيبة،
وعليه جلال، وهي منثورة نثراً، تفصل ما بينها مضايق وطرق صخرية ملتوية متشابهة، حار فيها الدليل؛ وكان معهم دليل حاذق شيطان من شياطين العرب، يقال له محمد الأعرج من مشايخ بني عطية، وهو أعرج طويل له عينا ذئب، حاد الذكاء، ضيق الصدر، مخيف كانوا يتهيبون سؤاله، فداروا في هذه المسالك حتى نفد منهم الصبر، وأدركهم اليأس، فصعد الدليل قنة أكمة، فنظر يميناً، ونظر شمالاً، ثم صاح: لا إله إلا الله، وتلك عادتهم: إذا أبصروا وادياً، أو رأوا سهلاً، أو طلع عليهم جبل، تشهدوا. . . ثم نزل يظلع وقادهم في طريق ملتوية حتى جاوز بهم المطلع، وأشرف بهم على السهل الفسيح. وكان عليهم أن يهبطوا السهل ليخترقوا جبل الأقرع وهو قبالتهم، فنظروا فلم يجدوا مهبطا، وكانوا على رأس جدار قائم من الصخر، ارتفاعه أكثر من أربعين متراً، والنزول منه خطر محقق، ولكن الرجوع موت أكيد، وإذا هم رجعوا وضلوا أياماً نفذ فيها ما

معهم من ماء، فهلكوا لا محالة عطشاً، فاستخاروا الله ونزلوا نزولاً ما نظن سيارة نزلته مذ خلق الله السيارات: تتدحرج من تحتهم الحجارة إلى قرارة المنحدر، فيكون لها قرقعة مخيفة، والسيارة كأنما هي من الانحدار قائمة على مقدمها، والركاب شاخصة أبصارهم، ينظرون عن أيمانهم وعن شمائلهم، لا يدرون من أين يأتيهم الموت وقد تابوا واستنفروا، واستودعوا اللهأولاً دهم وأموالهم.

ومرت عليهم ربع ساعة أهون منها رباط سنة في جبهة الحرب، ثم وفق الله فبلغوا السهل، وهم يشهدون أن لا إله إلا الله. . . ويهبون كمن حلم مروع!

وكانت الشمس قد غابت، والليل قد ارتفع، فنزلوا للمبيت يستعدون لوادي الأقرع، وكانوا على رغم ما لقوا يسمعون من الدليل أنه هين بجنب خور حمار، وان العناء والبلاء إنما هما في خور حمار، فكانوا يرون خور الحمار هذا في أحلامهم، ويبصرونه فاتحاً فاه لابتلاعهم، ويرون حيال رأسه حجراً مكتوباً فيه: هنا مات الوفد الأول الذي ذهب لفتح طريق السيارات. . .

وتلقوا من الغد وادي الأقرع، فلما ولجوه ذكروا بالخير جبال المطلع، ووجدوها حيال نار الأقرع جنة النعيم، والوادي عريض فسيح ولكنه وعر، كله صخور عظيمة، ورمال خطرة، إذا نجت السيارة من رملة صدمتها صخرة، وان خلصت من الصخر غاصت في الرمل،

فداروا فيه كما يدور الحمار في الساقية، وكان سيرهم سير السواقي، سفراً لا ينقطع. . . . ثم فتق لهم التفكير وجه الحيلة، فأجمعوا الرأي على أن يركبوا السكة بالسيارات وعجبوا من أنفسهم كيف حملوا هذا العناء كله، ولم يهتدوا إلى هذا الرأي. . . وكانت السكة عالية تمشي فوق الوعرة كأنها الصراط ممدوداً فوق جهنم، فامضوا ساعتين في ارتقائها، ثم لما ركبوها تعذر المسير عليها، فعجبوا من أنفسهم كيف ارتكبوا هذه الحماقة، ولم يعلموا أن السيارة لا تمشي على سكة القطار، وأنفقوا ساعتين أخريين في النزول عنها، حتى إذا نزلت جلسوا على الأرض. قد طحن الجهد أجسامهم، وملأ اليأس نفوسهم، وانقطع أملهم من كل شيء إلا من الله، وضل من يدعون إلا إياه، فاقبلوا على الله بالدعاء والاستغفار، وذاقوا من حلاوة الإيمان وبرد اليقين، ما اطمأنت به نفوسهم، وارتاحت له ضمائرهم؛ ثم لم يلبثوا أن استجاب الله دعاءهم، وجاءهم منه الفرج، وسمعوا هتاف الجند الذين بعث بهم أمير العلا بأمر جلالة الملك عبد العزيز لمعونتهم وخدمتهم. . .

جلس يفكر في هذا كله، فيراه هيناً إذا قيس بخور حمار وذكر كيف أمضوا نهاراً بطوله، يستعدون لدخول الخور، فلما أقبلوا عليه رأوا مدخله كالشارع العظيم، على جانبيه صخور كبيرة مكعبة مستوية قائمة كالبنيان، كأنما قد بنتها يد بناء حاذق، بميزان الزئبق والشاقول، وفي وسطها جدار من الصخر عرضه ستة أمتار، يشبه غي شكله سفينة عظيمة لم تنزل بعد إلى البحر، لها مقدمها وجوانبها، وقد قدر أصحابنا علو هذه الصخور من مائة إلى مائة وخمسين متراً، فامتلأت نفوسهم رهبة وخشوعاً، وأحسب أن لو رأى هذا الممر سياح الأمريكان لحملوا في سبيل رؤيته عناء السفر في البادية مهما طال وشق. . .

وأرض هذا المضيق رملية حمراء يغوص فيها الماشي إلى الركبة، لها شكل متموج جميل يشبه شكل البحر، يلذ المرء أن يلقي بنفسه عليها، فيشعر كأنما يلقي بنفسه على فراش ناعم حلو. أو ينام على سطح الماء. . .

وذكر كيف انقضى النهار وانقضى الغد ولم يجاوزا نصف المضيق، ورفع رأسه وكان الفجر قد انبلج، وبدت طلائع النهار، فرأى هذه الصخور الشاهقة المستوية، وهذه الشقوق التي تحدث فيما بينها مثل الأزقة، يملأ مرآها النفس خشوعاً

وذكر كيف بذلوا جهدهم، واستعانوا بعشرين من الجنود الأقوياء ثم لم يقطعوا في يومين

أكثر من كيلين في هذا المضيق، وخالط نفسه الضيق والملل من طول هذه الرحلة وعنائها وما قاسى فيها من التعب والجوع والعطش والنعاس، وما عانى من سوء الصحبة، وقبح الأخلاق، وخلف أن تعطل السيارة، أو يضلوا الطريق، أو تمسكهم وعرة، فينفد الماء ويموتوا عطشاً. . ولم يخف لصاً ولا سارقاً، فقد جعل ابن السعود خور حمار وهو أفظع مكان في البادية، آمن من ميدان النجم في باريز!

وفكر أيبلغ المدينة أم يهلك من دونها، وهاجمه تصور المدينة، وأحيا في نفسه الأمل مرأى القبة الخضراء وهي طالعة عليه من وراء الأفق البعيد، وطار بها إلى الملأ الأعلى تخيله الوقوف بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصلاته في الروضة، وقيامه من بعد أمام الكعبة، وشربه من ماء زمزم، وسعيه بين الصفا والمروة، وشهوده هذه الأماكن التي ولد فيها الإسلام وعاش فيها محمد صلى الله عليه وسلم، وكانت مهبط الوحي، ومطلع شمس النبوة، ومعقد الآمال من نفس كل مسلم.

واستغرق في تفكيره فلم ينبه إلا صوت مؤذن القوم يرن في هذا الوادي الساكن: الله أكبر، لا إله إلا الله فتردد نداءه هذه الصخور الشم. وتمد الإبل أعناقها مصيخة هادئة، ويهب البدو من منامهم ليقيموا الصلاة، وأصحابنا السواقون ومعلموهم يغطون غطيط البكر. . .

ثم قاموا إلى الصلاة، فأمحى الخوف من نفسه، وصغرت عليه البادية، وهانت عليه مشاقها، وتضاءلت هذه الجبال القائمة حتى كأنما لصقت بالأرض، وكأنما طويت له الغبراء فلم يعد ملقى في البادية على بعد ألف وثلثمائة كيل من منزله في دمشق كحبة من الرمل، أو هو أهون على الحياة منها، لأنها وان طار بها ريح، أو حملها سيل، باقية كما كانت، لا تموت ولا تندثر، وهو يموت من أجل رغيف من الخبز وكأس من الماء، بل أحس كأنما هو في منزله، ولم لا؟ وما يناله في البادية إلا ما قد كتب عليه، ولا ينال في منزله إلا ما كتب له، وإذا كان يأمن على نفسه اللصوص والأعراب وينام في عرض الصحراء، كما ينام في أرض غرفته، لا يمنعه باب، ولا يحميه حارس، ولا يخالط نفسه خوف ولا جزع، لأنه في حمى ابن السعود وأرضه، أفلا يأمن من كان في حمى الله رب ابن سعود وأرضه؟

وكان القوم قد هبوا فأقبلوا يضمون الشاي والقهوة، وجلست حيال صخرة أكتب هذه الكلمة (للرسالة)، لأبعث بها مع جندي من البدو إلى بريد العلا. . . . ولست أدري أتخرج من

هذه البادية فنقرؤها، أم تبتلعنا هذه الصحراء التي ابتلعت دولاً وأمماً وجيوشاً وسيقرأ هذا الفصل قراء (الرسالة) وهم في دورهم ومساكنهم، لا يدرون ما الصحراء، ولا يعرفون منها إلا ذكرها في الكتب ووصفها في الأشعار، فيحسبونها تسلية أو خيالاً، وما هي بالتسلية ولا بالخيال، ولكنه مقام بين الموت والحياة. . . اللهم سلم!

علي الطنطاوي

هل تأثر الفقه الإسلامي بالفقه الروماني؟ أو الحقيقة هي العكس؟

بقلم صالح بن علي الحامد العلوي

اطلعت في العدد الحادي والتسعين من (الرسالة) الغراء على مقالين أحدهما للأستاذ أمين الخولي، والآخر للأستاذ علي الطنطاوي؛ وكلا المقالين دائر على مقال آخر قد نشرته الرسالة عن الإمام الأوزاعي للأديب الفاضل عبد القادر الجاعوني

ولم يستثر كتابتي من هذا ولا ذاك شيء إلا نقطة واحدة طرقها الثلاثة وكانوا فيها جد مختلفين، وكادت بل شاءت الرسالة أن تساهم في المعمعة ولكن بإيجاز وإيماء.

والنقطة المختلف فيها هي ما جعلته عنواناً لأسطري هذه وهي: هل تأثر الفقه الإسلامي بالقوانين الرومانية أم الحقيقة هي العكس؛ إذ تعرض الكاتب الجاعوني فيما كتبه عن الأوزاعي لقولة كولد زهير يتأثر الفقه الإسلامي بالفقه الروماني وقال: (إن كان هذا صحيحاً فأحر بالأوزاعي أن يكون آخر المتأثرين به لأنه من أبعد الفقهاء عن الرأي ومن أقربهم إلى اتباع الكتاب والسنة، والكتاب والسنة ابعد الأشياء عن التأثر بالفقه الروماني) فكان الأستاذ الخولي فيما كتبه مؤيداً لرأي تأثر الفقه الإسلامي بغيره، وكان الأستاذ علي الطنطاوي في مقاله منكراً كل الإنكار أن يكون الفقه الإسلامي مأخوذا من الفقه الروماني، وتشاء الرسالة أن تعلق عليه بان هناك فرقاً شديداً بين التأثر والأخذ

وعلى تسليم صحة الفرق بين التأثر والأخذ فمحصل كلام الأستاذ الطنطاوي إنكارهما معاً والجزم بان ذلك في زمن العلم خرافة من الخرافات

هذه هي وجهات نظر هؤلاء الكتاب. ومهما قلنا بالفرق بين الأخذ والتأثر فكلا المعنيين بجريان إلى مدى واحد، وهو أن يكون في أصل الفقه الإسلامي ومزاجه شيء من

الفقه الروماني. غير أنه على الأول بوجه مباشر، وعلى الثاني بواسطة الثقافة كما يقول الأستاذ الخولي
وموضوع مناقشتي الآن هو ما ارتآه الأستاذ أمين الخولي - من تأييد دعوى كولدزهير بأن الفقه الإسلامي متأثر بالفقه الروماني. وقد كنت في غنية عن كتابة هذه الأسطر لو كان الأستاذ علي الطنطاوي - الذي أؤيده الآن - أسهب في الموضوع ووفاه حقه من البسط
والتدليل، لكنه على قوة حجته نحا في الموضوع منحي الإيجاز والاختصار، وذاك ما حملني على أن أعود - على بعد الدار - للفت أنظار قراء الرسالة للموضوع مرة اخرى، وبما أن مثار مناقشتي إنما هو ما كتبه الأستاذ الخولي أذكرأولاًما قاله في هذا الصدد قال: (. . ومع عدم تعصبي للقول بهذا التأثر ومع القصد في بيانه فإني أرى هذا الاستدلال على عدم تأثر الأوزاعي غير مقبول من الوجهة الاجتماعية والنفسية، فإن متبع الكتاب والسنة لابد له من أن يفهمهما أو يتبين مراميهما وأغراضهما وعللهما وحكمهما، ولكل شخص في هذا الفهم والتبين عقله الخاص وشخصيته الخاصة ومنهجه الخاص، وذلك كله من أشد ما يكون تأثراً بالثقافة والبيئة، فلا غرابة في أن يتأثر منهم الفاهم للكتاب والسنة المتبع لهما تأثراً جلياً بعوامل تثقيفه وظروف حياته كما تأثر بذلك تفسير القرآن في كل الأزمنة، بل كما تأثر بذلك فهم العقائد وأصول الدين ذاتها تأثراً لا يسعنا إنكاره، ولا قيمة لحرصنا على هذا الإنكار لأننا بذلك نقاوم سنن الله في خلقه)
وقبل كل شيء نقول إن الإسلام في ذاته جاء خارقاً لقاعدة البيئة والثقافة، إذ قام النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وهو النبي الأمي الذي نشأ من ابعد الناس عن يطلع على قانون روماني أو حكمة منقولة، وأتى بهذا الدين الأقدس مناقضاً كل التناقضات لما عليه قومه، مبايناً لهم في عاداتهم وعقائدهم إذ وجد في وسط بعيد عن العلم، ودرج في بيئة كلها شرك، وجو كله خرافات وأوهام، وبينما هو في هذا المحيط المشبع بالشرك والجاهلية إذا هو ينهض بدين كله حكمة، ونور يسفه الشرك وينبذ الخرافات، ويدعو إلى شريعة سمحة بكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد
ورداً على زعم التأثر نقول: إن الشريعة الإسلامية وجدت كاملة دفعة، أو بعبارة أصح جاءت في زمن واحد، واستقيت من ينبوع واحد، هو النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وقد حكم بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على جميع الجزيرة العربية إلى العراق وأطراف الشام، ولم يلحق الشارع الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم بالرفيق الأعلى إلا وقد تركنا على المحجة البيضاء، وهيأ لنا شريعة كاملة وقانوناً ربانياً منظما يصلح لأن يطبق على أي جيل، وعلي أية أمة، ولم يزد فيه الفقهاء بعده شيئاً قط إلا تصنيفه ونقله، غير أنهم فيما لم يجدوا فيه نصاً صريحاً يطبقونه على قواعده الأساسية. والنصوص الفقهية كلها
صريحة بينة الأغراض واضحة المرامي، أما الأغلب منها فمن الحديث والسنة، وبعضها عن الكتاب مفسراً بالسنة، فكيف يكون لكل شخص فيها فهمه الخاص وشخصيته الخاصة ومنهجه أو عقله الخاص، متأثراً بالثقافة والبيئة كما يقول الأستاذ الخولي؟ إن الكلام الصريح لا يحمل معنى غير ما يتبادر لذهن سامعه، فإذا قلت مثلاً: لا تكذب فليس معناه إلا لا تخبر بغير الواقع، سواء كان ذلك في القرن الأول للهجرة أو في يومنا هذا في القرن الرابع عشر، وسواء أكان السامع متأثرا بثقافة عربية أو رومانية أو صينية فلن يستطيع بعامل ثقافته وظرف حياته أن يزيد في معناها شيئاً، وأرى أننا لو نقلنا خطبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حجة الوداع مثلاً ونشرناها اليوم لما فهم منها من يعرف مدلولات الكلام العربي من مثقفي اليوم إلا ما فهمه عشرات الألوف من المسلمين حينما خطبهم رسول الله صلى عليه وآله وسلم في ذلك الموقف الرهيب قبل ثلاثة عشر قرناً ونصف
ولا يجوز أن يقاس الفقه بالتفسير، إذ لا يقاس بكتاب الله شيء لبلاغته وأسلوبه العجز، مع عمق معانيه وبعد أغراضه التي لا يستطيع حصرها واكتناهها فهم أو فكر، وهذه فيه من أعظم الدلالات على إعجازه، فهو لا يزال على الأحقاب والأجيال ينفحنا بمعانيه ومراميه بما يشرح الصدور ويقوي الإيمان

على أن الاختلاف في تفسيره وهو ما يراه الكاتب من تأثير البيئات - ليس إلا لا يجازه المعجز مع بعد مراميه الغيبية مما تاه لبعضه المفسرون الأولون، فجاء الزمن يفسره، فكان هذا من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم

ثم إن الفقه الروماني الحديث على الرغم أنه اختفى ثم اكتشف لم يظهر ولم يعمل به إلا في القرن الثاني عشر أو الثالث عشر بعد الميلاد. أما قبل الحادي عشر فإنه لم يكن معروفاً حتى عند الرومان أنفسهم

ولاشك أن الفقه الإسلامي قد قرر وصنف قبل ظهوره بقرون، فكيف يكون متأثراً بشيء لما يوجد بعد؟ وما قيمة زعم تأثر الفقهاء بالقوانين الرومانية إذا كان مصنفو الفقهاء وأئمتهم، ومنهم مالك والشافعي وأحمد وأبو حنيفة والثوري والأوزاعي الخ درسوا وألفوا وصنفوا قبل أن توجد أو تعرف القوانين الرومانية للرومان أنفسهم؟ أليست هذه مهزلة مضحكة؟

وفحوى هذا كله أنه محال أن يكون الفقه الإسلامي متأثراً بالفقه الروماني فضلاً عن أن يكون مأخوذاً منه، وسنبين بالبراهين القاطعة أن القوانين الرومانية هي المتأثرة به الفقه الروماني هو المأخوذ من الفقه الإسلامي

وإذا سقط احتمال تأثر الفقه الإسلامي بالفقه الروماني، فإذا كان هناك تشابه بينهما فالمرجح بل المحقق أن الفقه الروماني هو الذي أخذ مباشرة عن الفقه الإسلامي.

وقد كتب أحد علماء العلويين الحضارمة مقالاً في هذا الموضوع وفاه حقه بعنوان: من أين أخذ الإفرنج قوانينهم، نشرته مجلة النهضة الحضرمية قال فيه ما ملخصه:

إن دعوى اختفاء الفقه الروماني ثم ظهوره بعد ستة قرون أكذوبة لا مرية فيها، وقد كان الفقه الروماني معروفاً، وهو أشبه شيء بالفصول المضحكة. أنظر تاريخ الدولة الرومانية للعالم جيبون الجزء 4 صفحة 527، وذكر أمثلة من معاملاتهم ثم قال: يمثل هذه المحاكات القاسية كانت تجري الأحكام لغاية القرن الحادي عشر، ولم تتبدل إلا في الثاني عشر أو الثالث عشر. وقد قال ابن تيمية في القول الصحيح: (إن النصارى في طائفة من بلادهم ينصبون لهم من يقضي بينهم بشرع المسلمين إذ لم يكن لهم شرع عام يحكم به بين الناس، وليس في الإنجيل حكم عام، بل عامته الأمر بالزهد)

فكيف يصح أن ينسب هذا الفقه المشابه للفقه الإسلامي الحكيم بزعمهم إلى أمة معروفة، ولها فقه شائع معروف، وكله قسوة وهمجية؟ وكيف يسوغ عقلاً لأمة عظيمة أن يضيع عليها فقهها جملة، ويبقى غائباً عنها طيلة قرون عديدة ثم يعود إلى الظهور؟

هل يصح هذا إلا إذا صح أن تضيع عن أمة عاداتها وأخلاقها ودينها جملة؟

ثم إن حكاية اختفائها وبروزها في القرن الحادي عشر لم يقل بها غير هولود نيكوس سنة 1501م. ثم راجت، انظر جيبون 4 صفحة 555، وقد اعتبرها بعض العلماء إذ ذاك غير حقيقة، فقد قال القانوني الشهير سافينيه: إن القوانين الرومانية لم تختف لأنها ظلت معمولاً بها إلى البوم من غير انقطاع اه. ويعني بها القوانين القديمة المتقدم ذكرها. وبهذا وذاك تدحض دعوى اختفاء الفقه الروماني ثم ظهوره. ويتضح أن القوانين الحديثة ليست إلا حديثة الوضع، وضعها بعض علمائهم مقتبسة من الفقه الإسلامي وتبريراً لها عند العامة

انتحلوا اختفاءها وظهورها كسراً لتعصبهم

أما أدلة أخذ القوانين الرومانية من الفقه الإسلامي فهي:

(أولاً) ما قدمنا من إقرار الإفرنج بفضل الفقه الإسلامي وإعجابهم بأحكامه، ونصلهم في بعض بلادهم قضاة يقضون به كما نقل ذلك العلامة ابن تيمية

(ثانياً) إن الفقه الإسلامي، كما قدمنا، قد ألف وصنف قبل أن تبرز القوانين الرومانية الحديثة من اختفائها المزعوم، فلم يبق يد من أحد أمرين: إما أن يكون الفقه الإسلامي قد تأثر بها قبل وجودها وظهورها، وهذا محال، أو تكون هي المأخوذة عن الفقه الإسلامي، وهذا هو المعقول والمنقول

(ثالثاً) ما نقله العلامة العلوي الذي اعتمدنا على ما كتبه في مقالنا هذا قال: نقل العلامة المحقق الأستاذ الجرفادقاني الإيراني في مقالة له في هذا الموضوع من مجموعة للعالم الباحث مفضل بن رضى الفراوي الاسفارنكي (وفراوة كورة من خراسان بين شهرستان ومرو) فيها رسالة في شرائط كمال الفقه للفتوى قال: كتب

أبو العباس الكركري من تلامذة بهمنيار، وهو تلميذ الشيخ الرئيس ابن سينا، في رسالته إلى مفتي مرو أحمد بن عبد الله السرخس في معنى كمال الفقه: إن أبا الوليد محمد بن عبد الله بن خيرة نقل في تعليقاته على النهاية: إن طلبة العلم من الإفرنج الذين كانوا يسافرون إلى غرناطة لطلب العلم، اهتموا كثيراً في نقل الفقه الإسلامي إلى لغتهم لعلهم يستعملونه في بلادهم لرداءة الأحكام فيها خصوصاً في المائة الرابعة والخامسة من الهجرة، فقد برعوا في اللغة العربية، ومنهم غربرت والبرت، فإنهما طلبا مساعدة العلماء لإبراز مقصودهما، وقد ساعدوهما حتى دونوا الفقه كاملاً وحوروه إلى ما يوافق بلادهما اه، وقال موسهيم الجرماني إن غربرت المذكور كان مديناً في معرفته لعرب أسبانيا ثم قال: (إن العرب ولا سيما عرب أسبانيا هم أصل وينبوع كل معرفة. . من القرن العاشر فصاعداً) كما نقله الأستاذ العلوي المذكور آنفاً هذه البراهين كلها تؤيد ما قاله الأستاذ علي الطنطاوي من أن الفقه الروماني جديد لفقه جماعة من العلماء وتحقق أنهم أخذوه من الفقه الإسلامي، وهذا ما يجب ألا يعتقد خلافه كل مسلم

ولست أرى دعوى تأثر الفقه الإسلامي بالفقه الروماني إلا مكيدة دبرها من يريد الطعن في الإسلام بطريق غير مباشر مثل كولدزهير وأمثاله، وتلقنها عنهم منا معشر المسلمين من لم

يدرك مراميهم السيئة وأغراضهم العدائية، وجعل يقررها كأنها قضية مسلمة لا تصادم عقلاً ولا ديناً؛ وعجيب جداً أن تجد هذه الفكرة لها قبولاً في مصر. وأن تطبع وزارة الأوقاف كتاباً في الفقه على المذاهب الأربعة يأتي في مقدمته تقرير هذه الفرية التي انتحلها كولد زهير وتأييدها؛ وعجيب أن يأتي الأستاذ الخولي مستسيغاً لها بل مبرهناً ومؤيداً مطبقاً ذلك على قاعدة تأثير الثقافة والبيئة

وبعد، فلم يبق مساغ لدعوى التأثر في الفقه الإسلامي، ولا مجال للريب في بطلانها، وأنها ليست إلا خرافة وفرية تلقنها بعض المسلمين، وليست إلا أغنية من تلحين مستشرقي المبشرين.

سنغافورة

صالح بن علي الحامد العلوي

محاورات أفلاطون - 22

الحوار الثالث

فيدون أو خلود الروح

ترجمة الأستاذ زكي نجيب محمود

قال سقراط: كفى يا سيبيس حديثاً عن هارمونيا؛ آلهتكم الطيبة، فما أحسبها قد أغلظت معنا الصنيع، ولكن ماذا أقول لكادموس الطيب، وكيف أسترضيه؟

قال سيبيس: أظنك واجداً سبيلا إلى استرضائه، فلست أرتاب في أنك رددت حديث الانسجام بطريقة لم أكن أتوقعها قط. فقد أيقنت حينما تقدم سمياس باعتراضه أن ليس إلى أجابته من سبيل، فأدهشني لذلك أن أرى قوله يخور فلا يثبت أمام هجمتك الأولى، وليس بعيداً أن يلاقي الآخر، الذي تدعوه كالدوس مصيراً كهذا المصير

فقال سقراط: لا يا صديقي العزيز، فما ينبغي أن نزهي خشاة أن تنطلق من عين خبيثة هذه الكلمة التي أوشك أن أنطق بها، فلنا أن ندع الأمر بين أيدي من هم في عليين، حتى أدنو، على طريقة هومر، فاختبر ما يتوقد في عبارتك من حماسة، وخلاصة اعتراضك باختصار هي ما يأتي: انك تريد أن يقام لك الدليل على أن الروح باقية خالدة، وتظن أن الفيلسوف الذي يطمئن إلى الموت إنما يركن إلى طمأنينة فارغة حمقاء، إذا هو ظن أنه سيكون في العالم السفلي أوفر جزاء ممن سلك في حياته سبيلا أخرى، ما لم يستطيع أن يدلل على ذلك، وأنت تزعم أن إثبات ما للروح من قوة وألوهية، واثبات وجودها السابق لوجودنا في هيئة البشر، لا يقتضي بالضرورة خلودها. فإذا سلمنا بأن الروح قد عمرت طويلاً، وأنها في حالتها الأولى علمت وعملت شيئاً كثيراً، فليس هذا الاعتبار دليلاً على خلودها، وقد يكون حلولها في الصورة البشرية ضرباً من الموت الذي هو ابتداء الانحلال، وقد تنتهي آخر الأمر إلى ما يسمى بالموت، بعد أن تفرغ من عناء الحياة. وسواء أكانت الروح تحل في الجسد مرة واحدة فقط أم مرات عدة، فذلك، كما قد تقول، يخفف من مخاوف الأفراد شيئاً، فليس يخلو إنسان

من الشعور الطبيعي، فإن لم يكن لديه عن خلود الروح علم وبرهان حق له أن يخاف.
،ذلك ما أحسبك قائلة يا سيبيس، وهو ما أعيده عامداً
حتى لا يفلت منا شيء منه، ولكي نستطيع إن شئت أن تضيف إليه أو تحذف منه شيئاً
فقال سيبيس: ولكن، فيما أرى الآن، لا أجد ما أضيفه أو ما أحذفه. إنك عبرت عما أريد
فسكت سقراط هنيهة، وبدا عليه كأنما غاص في تأمله، وأخيراً قال: إن هذا المبحث
الذي أثرته يا سيبيس لذو خطر عظيم، فهو يتضمن موضوع النسل والفساد برمته،
وذلك ما أود، إن شئتم بعين على حل إشكالكم
فقال سيبيس: لشد ما أرغب في أن أنصت لما تقول
قال سقراط: إذن فهاك حديثي يا سيبيس: لقد كنت في صباي شديد الرغبة في
معرفة ما يسمى بالعلم الطبيعي من أبواب الفلسفة، فقد ظننت أن له أغراضا سامية،
إذ هو العلم الذي يبحث في علل الأشياء، فينئنا لماذا وجد الشيء، وفيم خلقه وفناؤه،
وكنت لا أنى أقلق نفسي بالنظر في مسائل كهذه: هل يرجع الناس؟ أيكون العنصر
الذي نفكر به هو الدم أم الهواء أم النار؟ أم قد لا يكون شيئاً من هذا القبيل؟ - فربما
كان المخ هو القوة التي تبتدع أحاسيس السمع والبصر والشم، وقد تنشأ عن هذه
الأحاسيس الذاكرة والرأي، وعلى الذاكرة والرأي قد يبني العلم، ولكن إذا وقفت فيهما
الحركة وأدركهما السكون؛ وبعدئذ مضيت أختبر انحلال الأحاسيس، وأتناول بالبحث
أشياء الأرض والسماء، واستخدمت أخيراً أنني عاجز كل العجز عن هذه المباحث،
وعلى ذلك سأقيم لك الدليل قاطعاً.
فقد فتنت بها إلى درجة عميت معها عيناي أن ترى الأشياء التي كنت أحسبني،
ويحسبني الناس، عالماً بها علم اليقين؛ وقد أنسيت ما كنت ظننته من قبل بديهياً لا
يحتاج إلى دليل، وهو أن نمو الإنسان نتيجة الأكل والشرب، لأنه بهضم الطعام يجتمع
لحم إلى وعظم إلى عظم، وحيثما تجمعت عناصر متجانسة كبر الجرم الضئيل، وعظم
الإنسان الصغير. ألم يكن ذلك رأياً معقولاً؟
قال سيبيس: نعم أظن ذلك
حسناً، دعني أنبئك شيئاً آخر، فقد مر بي زمن كنت فيه أحسب أني أفهم معنى الأكبر
والأصغر فهما جيداً، فإذا أبصرت رجلاً ضخماً واقفاً إلى جانب رجل ضئيل، توهمت أن
أحدهما أطول من الآخر قيد رأس، أو أن حصاناً كان يلوح لي أنه أكبر من حصان أخر،
بل أوضح من ذلك أنني كنت فيما يظهر أحسب العشرة تزيد على الثمانية باثنين، وان
ذراعين أكبر من ذراع واحدة، لأن الاثنين ضعف الواحد
قال سيبيس: وماذا أنت اليوم قائل في مثل هذه الأمور؟ - فأجاب: كان ينبغي أن أنأى
بنفسي بعيداً عن توهم أنني اعلم إليه سبباً؛ حقاً كان ذلك ينبغي، فلست أستطيع أن
أقنع نفسي بأننا لو أضفنا واحداً إلى واحد صار الواحد الذي جاءته الإضافة اثنين، أو أن
الوحدتين مضافتين معاً تساويان بسبب الإضافة أثنين، فلست بمسيغ كيف أنه إذا
انفصلت إحداهما عن الأخرى كانت واحداً لا أثنين، ثم إذا تلاقيا، فقد يكون مجرد
التقارب بينهما سبباً في أن تصبحا اثنتين: هذا ولست أفهم كيف تكون قسمة الواحد
سبيلاً للحصول على اثنين، لأنه عندئذ تكون النتيجة الواحدة ناتجة من سببين متباينين -
ففي المثال الأول نشأ اثنان من جمع واحد إلى واحد وتقاربهما، وفي الثاني كان
السبب هو انفصال واحد من واحد وطرحه منه ولست مقتنعاً بعد ذلك بأنني أفهم لماذا
يتولد الواحد، أو أي شيء آخر، ولماذا نزول، بل ولماذا يكون إطلاقاً. إنني لن أسلم
بهذا قط وإني لأتمثل في ذهني فكرة مهوشة عن طريقة أخرى
ثم استمعت إلى رجل كان عنده كتاب أناكسجوراس، كما قال، وطالع فيه أن العقل
هو المصرف والعلة لكل شيء، ولشد ما اغتبطت لذكر هذا الذي كان باعثاً على
الإعجاب. وقلت لنفسي: إذا كان العقل هو المسير فإنه سيسير بكل شيء إلى
الصورة المثلى، ويضع كل شيء أحسن موضع، وزعمت أن من يرغب من الناس في
استكشاف علة تولد أي شيء أو زواله أو وجوده، فعليه أن يرى كيف تكون الصورة
المثلى لذلك الشيء من حيث وجوده وسعيه وعمله، لذلك كان لزاماً على المرء ألا
يضع نصب عينه إلا الحالة المثلى بالنسبة إلى نفسه وإلى الناس، ثم عليه بعد ذلك أن
يعلم الأسوأ أيضاً، فالأمثل والأسوأ يحويهما علم واحد. وسرني ما ظننت أي واجد في
اناكسجوراس من يعلمني ما وردت أن أعلم من أسباب الوجود، وخيل إلى أنه منبئي

أول الأمر عن الأرض أمسطحة هي أم كروية، وأنه باسط لي بعد ذلك علة هذا وضرورته، وأنه معلمي طبيعة الأمثل ومظهري على أن الأمثل إنما هو هذا، فإن زعم أن الأرض قائمة في المركز شرح كيف أن هذا هو الوضع الأمثل، وكنت سأقتنع به ولو بين لي ذلك، وما كنت لأقتضيه غير ذلك سبباً، وحسبت أنني قد التمسه بعد ذلك فأسائله عن الشمس والقمر والنجوم، فيشرح لي سرعتها

المقارنة، ونكوسها ومختلف حالاتها، وكيف أنها تتجه بميولها المتعددة، القابلة منها والفاعلة نحو الأمثل دائماً، وما كنت أتصور أنه إذا ما تحدث عن العقل باعتباره مصرفاً لها، يعلل وجودها على هيئتها الراهنة بغير علة أن هذه هي الصورة المثلى، وظننت أنه بعد أن يفرغ من الشرح المفصل لعلة كل منها وعلتها جميعاً، سيمضي يبين لي الحالة المثلى لكل منها والأسوأ، فتلوثها مسرعاً ما استطعت إلى السرعة سبيلا، وقد رجوت آمالاً لم أكن لأبيعها بكثير.

(يتبع)

زكي نجيب محمود

في الأدب الفرنسي المعاصر

رومان رولان

بقلم علي كامل

تتمة

في (النهار الجديد) (1912) وهو آخر جزء من قصة (جان كرستوف) كتب رومان رولان يقول: (إن أوربا الآن توحي للناظر كأنها في ليلة حرب). كتب ذلك قبل أن تعلن الحرب بعامين. وعندما اندلعت الحرب الشرارة الأولى عام 1914 كان رومان رولان في سويسرا. فكان بعده عن وطنه مساعداً له على أن يكون حر الرأي بعيداً عن التأثر بضروب الدعاية المختلفة التي كان يصيح بها ساسة الدول المتحاربة - ومنها فرنسا - تبريراً للحرب وحثاً للناس على خوض غمار القتال (كإنقاذ المدنية) أو (الحرب من اجل السلام الخالد) إلى غير ذلك من الأقوال

ومنذ التاسع والعشرين من أغسطس عام 1914 شرع رومان رولان يكتب سلسلة مقالات في (جريدة جنيف) بدأها بخطاب مفتوح إلى الكاتب الألماني هويتمان مستنكراً الوحشية الألمانية التي أحرقت بلدة (لوفان) البلجيكية. وقال فيه: (كثير منكم أن يبدو ذلك العنف الذي تعاملون به هذه الأمة الكبيرة النفس - يقصد بلجيكا - التي لا ذنب لها إلا الاستماتة في الدفاع عن استقلالها وعن الحق كما فعلتم أنتم الألمان عام 1813. . .! احتفظوا بهذه القسوة لنا نحن الفرنسيين أعداءكم الحقيقيين. أما أن تتحمسوا ضد ضحاياكم، ضد ذلك الشعب البلجيكي الصغير السيئ الحظ البريء. فيا له من عار!) ثم يقول: (ولم تكتفوا بان تأخذوا البلجيك الحية، فأعلنتم الحرب على الأموات، على مجد القرون، فأمطرتم (مالين) بالقنابل وأحرقتم (روبان)، وأصبحت لوفان تلاً من الرماد، لوفان بكنوزها الفنية وعلمها، لوفان المدينة المقدسة. . . . هل تحاربون الجيوش أم الفكر الإنساني؟ اقتلوا الرجال لكن احترموا الأعمال الفنية، إنها تركة الجنس البشري الذي أنتم منه والذي نحن جميعاً الأمناء عليه. إنكم حين تحطمونه كما تفعلون الآن تثبتون أنكم غير جديرين بذلك التراث العظيم).

وفي مقالته الثالثة (فوق المعركة) - التي أطلق عنوانها على مجموعة المقالات حين جمعها فيما بعد، نسمع رومان رولان يوجه اللوم الشديد إلى قادة الرأي العام والرؤساء الدينيين والمفكرين والخطباء الاشتراكيين قائلاً: (بين أيديكم ثروات حية، كنوز من البطولة، فماذا فعلتم بها؟ لقد وجهتموها إلى الصراع والموت!) ثم تراه يظهر استنكاره المرير من أن تنتقل شهوة رجال السياسة إلى رجال الفكر فتتولد بينهم العداوة (فيصبح أوكن ضد برجسون، وهويتمان ضد مترلنك، ورولان ضد هويتمان، وولز ضد برناردشو. كما يتغنى كبلنج ودانونزيو ودو رينييه وبارس ومترلنك بأغاني الحرب والقتال. بينما يطلب الفيلسوف الشيخ قندت - الذي بلغ من العمر الثانية والثمانين - بصوته المحطم من طلبة جامعة ليبنزج الاشتراك في (الحرب المقدسة))

وفي هذا المقال أيضاً صرح رولان أن اعظم هيئتين خانتا مهمتهما وظهرتا بمظهر الضعف أثناء الحرب هما (أولاً) المسيحية: أي السلطة الدينية (وثانياً) الاشتراكية. إذ أن

كلا من هاتين الهيئتين من أول مبادئهما الدعوة إلى السلام العالمي والإخاء بين الشعوب. لهذا كان تأييدهما للحرب وقبولهما دخول سعيرها إنكارا لا يليق لمبادئهما السامية. (فهؤلاء الاشتراكيون الذين لم يجدوا في نفوسهم الشجاعة على الموت في سبيل عقيدتهم قد وجدوها للموت في سبيل عقيدة الآخرين)

وعندما يتكلم عن الباعث الحقيقي على الحرب يقول: (إن العدو الألد ليس خارج حدود الوطن بل هو رابض داخل كل أمة. وليس هناك أمة واحدة تملك الشجاعة لمحاربته. إنه ذلك الشبح ذو المائة راس الذي يسمى التوسع الاستعماري. تلك الإرادة في الكبرياء والتسيطر التي تريد أن تمتص كل شيء فإما الخضوع لها وإما الهدم. تلك الإرداة التي لا تحتمل مطلقاً أي عظمة ونمو خارج دائرتها)

وبعد أسبوع من معركة المارن أعلن رومان رولان فكرته العالمية (ووجوب إقامة المدينة الواسعة الممتدة الأطراف التي تزال منها المظالم وأحقاد الأمم وتجتمع فيها النفوس المتآخية الحرة في العالم أجمع) على أنه لم يكن يطلب تحقيق ذلك عن طريق العنف فهو ألد أعدائه. بل يترك للزمن تحقيقه على مهل حين تسمو النفوس عن الصغائر وتتجرد العقول مما تتعلق به الأوهام

لقد رأينا كيف أن رومان رولان في مقالاته كان متجرداً من كل خضوع لفكرة وطنية، أو التأثر بتيار الحماسة الذي كان يجرف كل الأمم المتحاربة. ولذا لم يتردد - كما رأينا - في السخرية من كل رجال الفكر والدين، لأنهم خانوا مبادئهم النبيلة في الوقت الذي كان يمكنهم فيه تأدية أكبر جانب من مهمتهم في الحياة. كما أنه لم يتردد في إظهار ألمه من تردي العلم في حمأة الأغراض، حين يدعى الأستاذ بيريه مدير المتحف وعضو أكاديمية العلوم في باريس أن البروسيين لا ينتمون إلى ينتمون إلى الجنس الآري.

كذلك كان من الأسباب التي زادت عدد مهاجميه احتفاظه بعد أن أعلنت الحرب بصداقة من كان يعرفهم من الكتاب الألمان (إذ ليس حبي لوطني - كما قال - معناه أن أكره أناساً مخلصين يحبون هم كذلك أوطانهم)

كل هذه الأسباب إلى جانب التهم التي وجهت إليه قبل الحرب عن طعنه في العبقرية الفرنسية جعلت عدداً من جرائد بلاده تنشر مقتطفات محرفة من مقالاته في لتثير عليه الرأي العام. ولقد استطاعت بلوغ ذلك إلى حد كبير. فكان جواب رومان رولان على هذا أن نشر مقالاته لتثير عليه الرأي العام. ولقد استطاعت بلوغ ذلك إلى حد كبير. فكان مستقل في سبتمبر عام 1915، حتى يطلع الشعب الفرنسي بنفسه على حقيقة ما كتب ليعرف مقدار اتهامات أعدائه من الحق أو الضلال. وقد قال في مقدمة كتابه ما يأتي: (إذا باغتت الحرب شعباً عظيماً فإنه ليس فقط أن يدافع عن حدوده، بل أمامه عقله أيضاً فإنه ليس عليه فقط أن يدافع عن حدوده، بل أمامه عقله أيضاً يجب أن يحميه من الخرافات والخروج على العدل ومن السخافات. تلك الأمور التي تطلقها من عقالها المصيبة العظمى لكل شخص مهمته، فكما أن على الجيوش أن تحافظ على أرض الوطن، كذلك على رجال الفكر الدفاع عن الفكر؛ فإذا سخروه لخدمة شهوات شعبهم، فقد يستطيعون أن يكونوا آلات نافعة، ولكنهم يخاطرون بخيانة العقل الذي ليس هو أقل جزء من تراث هذا الشعب) ثم يقول في النهاية: (لقد ظللت عاماً بأكمله غنياً بالأعداء، والآن أقول لهم أنهم يستطيعون أن يحقدوا علي، ولكنهم لن يستطيعوا أن يعلموني أن أكون حقوداً. . . أن مهمتي أن أقول ما أعتقده عدلاً وإنسانياً)

والواقع أن التهم التي أسندت إلى مقالات رومان رولان في (جريدة جنيف) لا أساس لها من الصدق، إذ خلقتها عداوة بعض الإفراد والجرائد من جهة، ومن جهة أخرى الرقابة على المطبوعات إبان الحرب التي كانت حين تحذف من مقالاته كثيراً من الفقرات التي ترى فيها تطرفاً لا يجوز نشره، تترك بذلك المجال لأعدائه لتأويل الجزء الضئيل الباقي تأويلاً سيئاً

وعلى كل حال فقد كان هذا الصراع الهائل بين رجل وأمة داعياً لأن تتسع شهرة رومان رولان بعد الحرب، وخصوصاً وقد حصل عام 1916 على جائزة نوبل للآداب، وكانت شهرته خارج فرنسا أوسع من داخل فرنسا نفسها؛ وقد قوبلت كتبه التي ظهرت بعد الحرب بشغف زائد وإقبال عظيم، فطبعت عشرات الطبعات ومن هذه

الكتب: (1917) - الذي طبع عام 1914 ولم ينشر إلا عام 1919 - , ' ' (1920) - ((1924. - ' (1925) ' (1926 - 1927) و (1926) (1928) - ' (1930)
ولا يزال رومان رولان يعيش في سويسرا متخذاً إياها وطناً ثانياً له، محافظاً كل المحافظة على تفكيره وآرائه التي أثارت عليه الحملات غير عابئ بها، مؤمناً بذلك الإحساس الذي دفعه إلى أن يقول أثناء الحرب رداً على متهميه في إحدى مقالاته ' إن (الوقت الذي يخصصه الرد على خصم ما إنما يعتبر كزقة من أولئك التساء، أولئك السجناء. من تلك الأسر التي تسعى ونحن في جنيف أن نمد لها أيدينا).
ويرى الناقد رينيه لالو أن هذه الصلابة الشديدة التي نجدها عند رومان رولان في التسمك برأيه والإحتفاظ بنقاء ضميره كرجل أخلاقي قد آذته إلى حد ما - كفنان، إذ أفقدت قصصه كثيراً من الليونة والطراءة. على أن هذا الإخلاص لعقيدته بين عواصف الافتراء الكاذب، وذلك الاحتمال الباسم للاضطهاد الذي بعثنه النفوس الصغيرة، وتلك السعادة في العذاب التي انعكست عليه من أبطاله بيتهوفن وتولستوي وغاندي، قد جعلت جميعاً منه أحد أعاظم قادة الفكر الأوربي الحديث الذين في أعناقهم - هم وسائر مفكري العالم - يقف مصير المجتمع الإنساني

علي كامل

ملوك الغرب

لمناسبة احتفال الإنجليز بعيد ملكهم

للأستاذ فخري أبو السعود

تيهوا بعيد المليك المفرد العلم ... وفاخروا بِعُلاهُ سائر الأمم
ومجِّدوا فيه عنواناً لمجدكمُ ورمز ... مُلْكٍ وطيدٍ ثابت الدعم
مُلْكٍ حَوَى مشرقَ الدنيا ومغربَها ... لم يَرْوِ عن مثلهِ التاريخُ من قِدَم
تيهوا بني الغرب بين العالمين بما ... بلغتم اليوم من مجد ومن عِظم
ولْتَزْدَهُوا بملوك في عروشكُم ... همْ زينة المُلْكِ والأحكام والنظم
تأوي الشرائع منهم والحقوقُ إلى ... حصنٍ حصينٍ وركنٍ غير منهدم
هم أول الحارسي الدستور من عبث ... والحافظين لِما أولوه من ذِمم
وهم مَناطُ أمانيِّ البلادِ وَهُمْ ... أبُوَّةُ الشعب في الأحداث والغُمم
في كل يومٍ لهم في الشعب مأثرة ... تُغيث منه مكان الداء والألم
ملائكُ النور في سلم وفي دعة ... وهم حُماةُ وَأوج كمال الخُلق والشيم
وسادة الناس في علم وفي أدب ... هُمُ وُأَوْجُ كمال الخُلق والشيم
نالوا من العز شَأواً لم يُنَلْ ولهم ... محبةٌ في قلوب الشعب لم تُرَم
محبةُ الشعب ترعاهم وتحرسهم ... لا الشاهقاتُ من الأسوار والأُطم
محبةٌ هي أغلى لِلْمُدِلِّ بها ... من منظرٍ فارهٍ أو مظْهَرٍ سَنِمِ
تَوَارَثوا صولجانَ المُلْك في أُمم ... لا تبتغي بَدَلاً - لو خُيِّرَتْ - بِهِم
لا كالملوك الأُلى - بالأمس - إذ حَكموا ... ساقوا الرعيةَ سَوْقَ الشاء والنَّعَم
ولم يخالوا شعوباً تحت رايتهم ... سوى عبيدٍ لرَبِّ التاج أو حَشَم
ولم يرَوا لهمُ جاهاً ولا حَسبَاً ... في الناس حتى يُذلُّوا كلَّ ذِي شمم
يقُصي الأبيُّ ويَشْقَى الحُرُّ عندهم ... ويَمْرَحُ المالِقُ الأفَّاكُ في النِّعَم
باسم المكارم أعْلَوْا مُلكَهُم وهُم ... حَرْبٌ على كَرَم الأخلاق والهمِم
عن حاجةِ الشعب باللذات في شُغُلٍ ... كانوا وعن دعوة المهضوم في صمم
سِيَّانِ إن سَعِدَتْ في ظل دَوْلَتِهم ... رعيةٌ أو هَوَتْ في البؤس والوصَم
لا يِرْقُبُ الناسُ منهم فضلَ مكرمة ... لكن يخافون منهم بطش محتكم
ذيَّاك عهدٌ تولى غيرَ مرتجَع ... هيهات يَبعْثَهُ باغٍ من العَدَم
وعاصرتْنا ملوكٌ في ممالكهم ... همُ لمن حكموهم أول الخدم
يشاطرون صروفَ الدهر قومَهُمُ ... ويعطفون عليهم عطفَ ذي رحم
وهم على شعبهم في كل ما صنعوا ... فيضٌ من البرِّ لا صوبٌ من النِّقم
تَسَنَّمُوا ذروةَ العليا، وباسمِهم ... تُزْجى الجحافلُ في الوديان والأكَم
وينزلون - إذا ما الجِدُّ جَدَّ - على ... ما قالهُ قائلوا الساداتِ والعَمَم
ولا يرَوْنَ لهم من دون أمتِهِم ... مجداً ولا دون حب الشعب من عِصم

فخري أبو السعود

يعجبني. . .
للأستاذ محمد الحليوي
يُعجبني الحطَّابُ في غابه ... وفأسُه تعملُ في جذعِهِ
يهوي بها - فهي قضاً نازلٌ ... تَرْتجف الغابة من وَقْعِهِ
وتحملُ الريحَ إلى مسمعي ... صَدَى نحيب الغاب في رجعه
يُعجبني المِزْمار في سامِرٍ ... في هَجعة اللَّيل وفي وَهْنهِ
غناؤه في الحيِّ يَهْتاَجُني ... ويستبيني بشجي لَحْنِهِ
وتحمِلُ الرِّيحُ صدَى شاكياً ... مِثْلَ شَكاةِ الْقَلْبِ في حُزْنِه
يُعجبني الآذانُ في هَدْأَةٍ ... يُرْسِله العابدُ من جوِّه
يُرسله شَفْعاً يهز الفضا ... مُرَجَّعاً يهتاَجُ في شَجْوِهِ
وتحمل الرِّيح صدَى هائماً ... تَنْجَذِبُ الرُّوح إلى نحوِه
يعجبني الدُّولاب في رَوضَةٍ ... وصوتُه الآتي على رِودِهِ
وَجُلْجُلُ الناقِةِ في عنقها ... والماءُ إذ يهمس في وخْدِه
وتحمل الريح صدَى غامضاً ... يستَوْقِف الآذانَ في بُعدهِ
وإذ تَؤُمُّ الريحُ في سيرها ... بَيتيَ أو تحثُمُ في قُربهِ
أُحبُّ أن تحمل أمواجها ... شَّى اللَّغَي، كلَّ على ضربهِ
وهْمسةُ الأورَاق في دَوْحِها ... وغُنَّةُ الطائرِ في سِرْبِهِ
وَنَقَّةُ الضِّفْدعِ في مائها ... وهزمةٌ للرعدِ في سُحْبِهِ
تُبهجني، تُعجبُني كلُّها، ... وتلك حسبُ القلب من حبِّهِ
يا عجباً! قد تأملُ الأَذْنُ أنْ ... تستوعب الكونَ على رُحْبِهِ
(تونس)
محمد الحليوي
الدبكة
ليلة عرس في القرية
بقلم محي الدين الدرويش
سكب البدر على القر ... ية ضوءاً فزهاها
وبدت حالية الأك ... ناف تهتزُّ رُباها
نَفَحتها نسمةٌ عط ... ريةٌ يُغرى شذاها
يا لها من ليلة قد ... أغرقتني في سناها
جُليتْ فيها فُتو ... نٌ ضلّ عقلي في مداها
وَفَدَ القوم إلى السّهلِ ... نساءً ورجالا
يتهادون نَشَاوي ... ويميلون دلالا
موكبٌ للعرس أضحى ... يملأ العين جلالا
علت الصّوضاء فيه ... وكذا الطبل تعالى
وبدت فيه العذا ... رى كنجوم تتلالا
يا عذارى الحيّ هذى ... فَرحةُ العرس السعيدِ
عرس هند إتها ... كالظّبي في لحظٍ وجيد
غادةٍ عوذتها با ... لله من عين الحسود
يا عذارى لا رأي ... تنْ سوى عيشٍ رغيد
كمل الأنس فبادِ ... رْنَ إلى رقصٍ فريد
علت الأنوار حتى ... أصبح الليل نهارا
وغدا كلُّ فؤادٍ ... من رُؤاها مستطارا
بُسُطُ الديباج صُفَّتْ ... فبدت تحكي إطارا
جلس القوم عليها ... وبها الرَّقص استدارا
جُنَّ صوت الطبل في ... البطحاء والرَّامر ثارا
عقدوا الأيدي وداروا ... هالةً فيها النُّجومُ
كهرباءُ قد سرت ... فارتعشت منها الجسوم
مالت الأعناق وال ... أعطافُ تهوى وتقوم
والنُّهود اختلجت، في ... حسنها تَغْوَى الحُلُو

لُجَجٌ فوق صُدورٍ ... ليتني فيها أعُومُ
وقَّع الرّامرِ أنغا ... ماً فمالت بالصُّفوفِ
من رجال ونساءِ ... وغويّ وعَزُوفِ
أرسلوا الأرجلَ في الأرْ ... ض وعادوا للوقوف
ماجت الأعطاف فالقا ... ب بها جِدُّ شَغُوف
يا لأعطاف العذارى ... فتنتْ كلَّ عفيف
وتعالتْ نغماتٌ ... سلبت منّى نُهايا
مشجيات ردَدَت أص ... داءها كلَّ الرَّوَايا
وأثارت ذكرياتٍ ... رَقَدَتْ بين الحنايا
يا صبايا حسبكنَّ اليو ... مَ شجواً يا صبايا
نحن نهواكنَّ فأر ... فُقْن قَليلاً بالصْحايا
حمص (سوريا)
محي الدين الدرويش
قصة المكروب - 13
كيف كشفه رجاله
ترجمة الدكتور أحمد زكي
وكيل كلية العلوم
بستور
صلة حديثه
وصل الفائت: أثبت بستور أن المكروب ضروري للحياة على ظهر هذه الأرض. فإن الأموات من الحيوان والنبات لابد من تعفنها وتحللها وأكسدتها لتتسع البسيطة للنبات الجديد والحيوان الوليد. وأن هذا التحلل لابد له من الأكسجين. ولكن أكسجين الجو عاجز عن هذه الأكسدة فإنها لا تتم إلا بواسطة المكروب. ثم أثبت بستور بعد ذلك أن المكروب منشؤه الهواء، يحمله غباره. وأنك لو أدخلت الهواء دون الغبار إلى اللبن والأمراق ونحوها بعد إغلائها جانبها الفساد، فقضى بذلك على نظرية الانبعاث التلقائي التي تقول إن المكروب ينشأ في الأمراق والألبان وأمثالها من تلقاء نفسه، من العدم وبعد ذلك قام بستور بتجربة يدلّ البحث الدقيق بين المخلفات والسجلات أنها من صنع نفسه. تجربة هائلة، ركب لها القطار، وصعد من أجلها الجبال، ودار في أعاليها في حذر وريبة حول ما انجمد بها من الأنهار. وعاد معمله مرة أخرى فازدحم فيه القباب، ورنّ الزجاج، وغلت الأحسية فأرغت وتفقعت. وقام أعوانه على العمل قومةً واحدة، فلم تر فيهم إلا رائحاً مسرعاً أو غادياً مهرولاً، حتى لكائنهم عبيد مسترقّون السياط، وما كان وراءهم إلا قلوب مؤمنة وعزمات صوادق. قاموا يجهزون مئات القوارير، ويملئونها بالأحسية بعض الملء، ثم يُغلون كل واحدة منها دقائق، وبينا هي تغلي يسيحون رقابها في نفخات اللهب الشديد، ثم يمطونها ويختمون على القوارير وقد ذهب هواؤها. فإذا بردت لم يكن بها غير الحساء فوقه فراغ. وقاموا على هذا التجهيز ساعات عديدة طويلة حسبوها دقائق من فرط اهتمامهم
وبدأ بستور رحلته بهذه القوارير. فذهب أول ما ذهب إلى مرصد باريس فنزل إلى حجراته المطمورة تحت الأرض. وأجال نظره فيها ثم التفت إلى صبيته وقال: (كيف تجدون هذا المكان؟ إنه هادئ بالغ الهدوء، ساكن بالغ السكون، قل فيه الغبار فعز فيه المكروب)، وقام الصبية إلى القوارير فامسكوها بعيداً عن أجسامهم بمقابض من المعدن أحميت في النار قبل ذلك، وأخذوا يفضون أختامها حتى بلغ المفضوض منها عشر قوارير، وكلما فضوا ختم قارورة دخلها الهواء فسمعوا له صفيراً. وما كاد يدخلها الهواء حتى عادوا فختموا القارورة على التو مرة أخرى، وذلك في لهب مصباح زيته الكحول. وذهبوا إلى فناء المرصد ففضوا فيه عشر قوارير أخرى على مثال ما وصفنا: ثم أسرعوا عائدين إلى معلمهم، إلى ذلك المحضن تحت حنية السلم، فوضعوا القوارير فيه
وبعد أيام كنت تجد بستور قاعداً القرفصاء أمام هذا الفرن ينظر قواريره في رفق وحنان، وعلى فمه ابتسامة من ابتساماته النادرة، فإنه لم يكن يضحك إلا إذا جاءه التوفيق والنجاح. وكتب شيئاً في كراسته وحرج يزحف من هذا الحجر ليخبر أعوانه أنه

وجد تسع قوارير رائقة من العشر التي فتحوها في قاع المرصد، (فهذه القوارير التسع لم يدخلها مكروب واحد. أما العشر التي فتحناها في الحوش فتعكرت كلها بالملايين من تلك الخلائق. إن الهواء هو الذي أدخلها في القوارير. إن هباء هذا الهواء هو الذي حملها معه!)

وكان الوقت صيفاً، ودراسات المعاهد معطلة والأساتذة يستجمون، وحق لبستور أن يستريح مثلهم، ولكنه جمع ما بقي من القوارير وأسرع إلى القطار، إلى بلده القديم في جبال الجورا فصعد جبل بوبية وهناك فض أختام عشرين قارورة ثم لحمها. وذهب بالقوارير إلى سويسرا، وتسلق جبل مونت بلان مغامراً مخاطراً، وعلى أكتاف هذا الجبل العظيم فض أختام عشرين قارورة أخرى فدخلها الهواء صافراً. ورجا بستور أنه كلما علا في الجو قل العدد الذي يتعكر من قباباته. وقد تحقق رجاؤه. قال: (هذا ما كنت أرجو، وهو ما يجب أن يكون. فإني كلما صعدت في الهواء قل الغبار فقل المكروب الذي يركبه دائماً). وعاد إلى باريس فخوراً، وأخبر الأكاديمية أنه اصبح من الثابت المحقق أن الهواء وحده لا يستطيع إحداث المكروب في الأمراق، وأن لديه على ذلك براهين سيدهش لها كل إنسان. صاح فيهم يقول: (هنا، بهذا المكان توجد مكروبات. وهنا، على مقربة من المكان الأول لا توجد

المكروبات. وهناك، في ذلك المكان الأبعد توجد مكروبات غير تلك التي وجدناهاأولاً. . . . وهذا مكان آخر، قد هدأ هواؤه هدوءاً بالغاً، فلم نجد فيه مكروبا أصلاً). وأراد أن يمهد لانتصارات أخرى، فقال: (لوددت أن أصعد في منطاد إلى طبقات أعلى في الجو فأفتح فيها قباباتي). ولكن سامعيه اغتمروا حساً بحديثه، واكتفوا بالذي كان، ووثقوا بالذي يقول، فلم يعد بستور عندهم عالماً باحثاً عادياً فحسب، بل وقع من حسبانهم موقع أولئك الأفذاذ الذين يجود الدهر بهم آنا بعد آن. كان بستور أول الأبطال المخاطرين في عصر المغامرة الذي تلا، والذي سنتحدث عنه في هذه القصة بعد حين

وكان بستور كثيراً ما يفور في خصوماته بالتجارب البارعة التي كانت تترك خصومه طرحى صرعى. ولكن في بعض أحايين كان فوزه لضعف في خصومه أو لغباوة فيهم. وأحياناً كان يأتيه الفوز حظاً ومصادفة. قام بستور يوما في جماعة من الكيميائيين فحط من المقدرة العلمية للطبيعيين صاح فيهم: (فإن أعجب فعجبي لهؤلاء القوم كيف لا يدخلون على العلم من بابه، من باب التجربة. فإنهم لو فعلوا، إذن لنفخوا في علمهم روح الحياة). وأنت تستطيع أن تتصور ما كان من كره الطبيعيين لهذا المقال. فقد كرهه بخاصة المسيو يوشيه مدير متحف روان وشركه في كرهه الأستاذ جولي والأستاذ موسيه وهما الطبيعيان الشهيران بكلية تولوز. ثلاثة من أعداء بستور لم يستطع شيء في الدنيا أن يقنعهم بان تلك الأحياء المكرسكوبية إنما تتخلق من آباء. لم تستطع حجة أن تذهب باعتقادهم في إمكان نشوء الحياة والأحياء من ذوات أنفسها. ومن أجل هذا أجمع الثلاثة أمرهم على أن ينازلوا بستور في أرضه وبنفس سلاحه

فملئوا مثله القوارير، ووضعوا فيها الأحسية على مثال ما صنع، وأغلوها وختموها كما أغلى وختم، إلا أنهم اتخذوا أحسيتهم من مرق الأعشاب الجافة لا كما اتخذها هو من أمراق الخمائر. وحملوا قواريرهم إلى جبل مالاديتا في البرنيز فأخذوا يصعدون فيه ثم يصعدون حتى بلغوا مكاناً أرفع مما بلغ بستور على جبل مون بلان في سويسرا. وهناك خرجت عليهم من مغاور الثلوج رياح قارسة نفذت من خلال أكسبتهم الغليظة إلى جلودهم. وزلقت رجل المسيو جولي من فوق كتف الجبل، فكاد يذهب ضحية العلم لولا أن أمسك بعض الأدلاء بذيل كسوته. وقاموا وهم في هذه الحال بفتح القوارير وملء فراغها بالهواء ثم

ختمها. ونزلوا يجرون أقدامهم، وقد نال الجهد منهم والبرد، فدخلوا إلى خان في الطريق فنصبوا فيه محضنا حيثما اتفق، ثم أودعوه قواريرهم. وبعد أيام نظروا إليها فبرقت أساريرهم لما رأوا أمراقها تعج بالخلائق الصغيرة. إذن لقد أخطأ بستور وعندئذ أشهروا الحرب بينهم وبينه. وقام بستور يهزأ في الناس بتجارب الأسياد: يوشيه وجولي وموسيه. وقارعهم بحجج نعلم نحن اليوم أنها كانت تمحكا ولجاجة فرد عليه يوشيه. قال فيما قال: (إن بستور قدم قواريره هو إنذاراً أخيراً للعلم ليدهش كل إنسان). فغضب بستور واهتاج، ووسم يوشيه بالكذب، وطلب اعتذاره على رؤوس

الأشهاد. وخيل للناس أن الفصل بين الحق والباطل سيكون للدماء الصبيبة بدل التجارب الهادئة. وكان من بعد ذلك أن احتكم يوشيه وصديقاه إلى تجربة يجرونها بين رجال أكاديمية العلوم، فإذا وجد واحد أن قارورة واحدة من قواريرهم خالية من المكروبات عقب فتحها، إذن لأقروا بأنهم مخطئون. وجاء اليوم الموعود، واقتربت ساعة النزال، ساعة الاحتكام إلى القوارير، واشرأبت أعناق الناس، ودفئت قلوبهم في انتظار ما يكون. ولكن خصوم بستور رجعوا على أعقابهم ناكصين. فروا من المعركة قبل أن تكون. فقام بستور نفسه بتجاربه أمام المحكمين، أجراها في وثوق واطمئنان، وسخر من خصومه وهو يجريها. وبعد قليل أعلن المحكمون (أن الوقائع التي ارتآها المسيو بستور، فخاصمه فيها يوشيه والمسيو جولي والمسيو موسيه حقائق لا تحتمل النزاع ولا تسمح بالخصومة)

انتصر بستور بالحق، وكذلك انتصر بالحظ، فإن خصومه لم يكونوا مخطئين في الذي وصوفه من تجاربهم. لأنهم لسوء الحظ اتخذوا أمراقهم من العشب، لا من حساء الخمائر. وقد أثبت العالم الإنجليزي تندال بعد ذلك بسنوات أن هذه الأعشاب تحمل جراثيم مكروب تصمد للغليان ساعات فلا تموت. فالذي أنهى الخصومة بين بستور وأصحابه إنما هو في الحق تندال. وهو هو الذي أثبت ان بستور مصيب

وعندئذ حظى بستور بالمثول بين يدي الإمبراطور نابليون الثالث. فقال لهذا الملك الحلام إن كل أمله أن يعثر على تلك المكروبات التي تتسبب عنها الأمراض يقيناً، ودعاه الملك إلى نزهة ملكية في كومبين وهناك صدر أمر الملك إلى ضيوفه بالاستعداد للصيد، فتوسل

بستور ورجا أن يعفى من هذا، لأنه كان في انتظار حمولة عربة من الأجهزة ستأتيه من باريس، مع أن ضيافته في القصر الملكي كانت لأسبوع واحد. وأكبره الملك والملكة لما رأياه مكباً على مجهره، بينا يكب الآخرون من الأضياف على صنوف اللهو والخلاعة لابد أن يعلم الناس أن المكروب لابد له من آباء! وفي باريس، في سهرة علمية بالسربون، قام بستور فالقى خطاباً سهلاً في الجمهور الحاضر، وكان من بينهم اسكندر دوماس القصصي الشهير، وجورج ساند المرأة العبقرية المعروفة، والأميرة ماتلدا، ومئات من ذوات البلد وأعيانه. وقام في هذا الحشد بقطعة مسرحية رجعوا من بعدها إلى بيوتهم يثقلهم الهم ويساورهم الخوف. فقد أراهم بستور على الشاشة صوراً عديدة من مختلف المكروبات. وبدون إنذار أظلم المكان فجاءة، وأرسل في كتلة الظلام الأسود شعاعاً ابيض من الضياء. وصاح فيهم: (انظروا إلى هذا الشعاع، وانظروا إلى العدد الهائل من ذرات التراب التي ترقص فيه، ثم اعلموا أن الهواء الذي انتم فيه مليء بهذا الهباء، ثم تعلموا إلا تحتقروا دائما شيئا لصغره، فتلك الذرات الصغيرة قد تحمل المرض والموت، قد تحمل فوق ظهورها مكروب التيفوس والكوليرا والحمى الصفراء، وأنواع كثيرة غير هذه من الوباء). هذا هو النبأ الفظيع الذي جمعهم من أجله! ألقاه إليهم في صوت يتهدج غيرة وإخلاصا، فآمنوا به وارتجفوا ارتياعا منه. بالطبع لم يكن هذا النبأ صادقا كله، ولكن بستور لم يكن كذاباً فياشا، بل كان يؤمن كل الإيمان بالذي يقول. فهذا الهباء، وهذا المكروب الذي حمله، أصبحا من ضرورات حياة صاحبنا. إذا فكر ففيهما التفكير، وإذا نظر فإليهما النظر. ويدعوه الداعون من رجالات المجتمع إلى موائدهم فلا يبالي أن يرفع إلى أنفه الصحون والمعالق، فيحملق فيها، ثم يدور عليها يمسحها بمنديله. كان كل عمل يأتيه إعلانا بعيد المدى عن تلك المكروبات نعم أغرق بستور كل فرنسي أن يهتم لهذه المكروبات، من الإمبراطور في عظمته وأبهته. إلى الزبال بين قمامته. وتسارق الناس الأخبار من أبواب مدرسة النرمال عن أحداث مريبة غريبة، حدثت أو تحدث قريباً: ومر الأساتذة والطلاب بتلك المعامل، وفي خطاهم بعض سرعة، وفي قلوبهم شيء من فزع؛ وكأني بك تسمع الطالب يتحدث إلى رفيقه الطالب، وقد مرا في طريقهما بمدرسة النرمال فأظلتهما حيطانها العالية الغبراء، فيقول له:

إن وراء هذه الحيطان رجلا يدعى بستور يكشف أموراً عجيبة عن مكنة الحياة، وقد) بلغ من علمه أنه يعرف كيف تنشأ الحياة، ويقولون إنه ربما كشف منشأ الأمراض ونجح بستور في إغراء السلطات بزيادة سنة على سنوات الدراسة، وبدأت (وأسبابها

المعامل تزداد عدداً، وخطب في تلاميذه خطباً من نار، فبعث بفصاحته الدمع إلى عيونهم، وتحدث عما تحدثه المكروبات من العلل في الأجسام قبل أن يعلم عن هذا شيئاً، فلم يكن بعد بحث الطاعون، ولم يكن بعد كشف غيره من الأوبئة القتالة، ولكنه فعل ذلك ليحمس الجمهور، والجمهور الفرنسي عنيد، عسير تحميسه

كتب يوماً رسالة صغيرة حارة يخاطب فيها جمهور الفرنسيين قال: (أرجوكم، أتوسل إليكم أن تعيروا شيئاً من اهتمامكم هذه البيوت التي أسميت معامل عمداً وقصداً. طالبوا بزيادتها. طالبوا بتكميل ما نقص منها. إنها معابد الغد. ومنها ستخرج لكم أسباب الرفاهية وأسباب الغنى). بقد سبق بستور زمانه بنصف قرن، وكان كالنبي الذي يعرف من أين تؤكل الكتف، فنصب لقومه مثلاً للكمال عظيمة، ولكنه لم ينس أن يذكرهم بما سيكون لهم كذلك من متع مادية دون تلك المثل عظماً، لم يكن بستور بحاثاً كبيراً فحسب، بل كان خبيراً بأمور دنياه خبرة فائقة

(يتبع)

أحمد زكي

القصص

من أساطير الإغريق

ثيذيوس يقتل المينوطور ويخلص أثينا

لعب يثير حرباً

للأستاذ دريني خشبة

كان الملك إيجوس، ملك أثينا، في شرخ صباه وعنفوان شبابه زير نساء، وأخا شهوات؛ وكان ذا نزوات تكاد تسعى به إلى حتفه. . . . بظلفه. . .

ذهب مرة يجوب ريف مملكته، فلمح وجهاً مشرقاً ينبثق من كوة كوخ في إحدى القرى، تتراقص حول ثغره الصغير بسمات هن رسل الحب، وتنطلق من عينيه النجلاوين نفثات تصرعن ذا اللب. . . حتى لا حراك به. . .

وطرق الباب يستسقي، وما به ظمأ، فامتدت إليه ذراع عاجية لدنة، تحمل كوباً من البلور مفعماً برحيق الحب، وإن لم يحو غير الماء القراح!

وتناول الكوب ولبث لحظة يشرب ما به بعينيه، دون أن يمتد فمه إليه، ثم أرسل زفرةً دفعت الباب فانفتح على مصراعيه، ودخل غير مستأذنٍ، فروى فمه، وبرد قلبه، وبل جاحم الحب الذي زلزل أركانه

ثم تزوجها، ومكث عندها شهراً كان عسلاً كله!

ووصل إلى قاعدة الملك، وأم القرى، أثينا، بعد أن ترك وصاته المكتوبة الآتية: (في الغرفة التي ضمتنا لأول مرةٍ نلتذ الحياة وننعم بطيب العيش؛ هنا؛ في هذا المنزل الصغير الذي اتسع لدنيا من الآمال والأحلام؛ وتحت الحجر الكبير الملون، حيث كانت قدماي تحييان في سكرة الهوى قدميك؛ قد استودعت نعلي اللتين حملتاني إليك، وسيفي الذي فربت به رؤوس الأعداء حتى سعدت بك؛ فإذا وضعته غلاماً فسميه ثيذيوس، ونشئيه وطرئيه حتى يصلب عوده، ويشتد ساعده، فخذيه إلى الحجر فليرفعه، وليلبس نعلي وليمتشق سيفي، ثم ليمض إلى أثينا، لا حافظ له إلا قلبه، ولا حارس إلا سيفه، فإذا شاءت العناية فإنه بحول زيوس العظيم ولي عهدي، وصاحب التاج من بعدي.)

وتتابعت السنون

وكانت أثينا تزهى كل سنةٍ بعيدها الرياضي الفخم؛ فتلبس حلةً من البهجة والإيناس، وتؤمها وفود الأقاليم المجاورة تتفرج بالألعاب الجميلة، وقد تشترك فيها

وكان لمينوس ملك كريت، ابن مفتول العضل قوي البنية حبيب الطلعة، كان يقدم إلى أثينا إبان عيدها الرياضي ليباري أبطالها، ثم يعود مشمولاً بحب الأثينيين وإعجابهم الشديد، ولقد كان يحدث ألا يكون للموسم بهجته المعتادة إذا تخلف ابن مينوس فلم يحضر إلى أثينا

ومن غريب المصادفات أن يولد ابن ملك كريت هذا في نفس اليوم الذي تضع فيه القروية الحسناء الغلام ثيذيوس ابن ملك أثينا

ومن يرغب المصادفات أيضا أن ينشأ ثيذيوس هذه النشأة الرياضية التي نشأها ابن مينوس، والتي كانت إماراتها تبهر الأثينيين وتخلب ألبابهم في موسمهم الرياضي

ولم يكن الأثينيون يعلمون أن لملكهم ولداً، هو إن لو يبرز على ابن مينوس في الألعاب الرياضية، فإنه لا يقل عنه شأنا فيها. ولم يكن الملك نفسه يعلم عن ولده شيئاً، ولو قد علم عنه شيئاً لما سولت له نفسه الأثيمة أن يدبر غيلة ابن مينوس في حلك الليل، وفي طريقه المقفرة إلى المرفأ، حين آب بأكثر جوائز الموسم الرياضي، في المصارعة والملاكمة والعدو ورمي القرص. .!

لقد أكلت الغيرة العمياء قلب الملك الجبان، وتلظى فؤاده بحقد أسود حجب بصيرته، فأرسل عصابة من اللصوص وقطاع الطرق والسفاكين، ذبحوا الشاب المسكين، ونبذوا جثته بالعراء، تنوشها الوحوش وسباع الطير!

واهتزت أثينا المضيافة، أثينا أم القرى، لهول الجريمة، ونقموا على القتلة الأشرار اعتداءهم الشنيع على ضيفهم المحبوب؛ وكادت تندلع ألسن الثورة حين استفاضت الإشاعات وراجت سوق الأقاويل، لولا أن وصل في صبيحة ليلة الجريمة، البطل الصغير ثيذيوس ولي العهد فجأة، ومن غير سابق علم، ولا ترقب ولا انتظار!

(ثيذيوس! ومن يكون ثيذيوس هذا؟!

(ولي عهد المملكة، ورجاؤها، ومعقد آمالها

(وأين كان الشاب؟ وابن من؟ ومتى ولد؟

(كان ينشأ في الريف، وهو ابن حسناء من أميرات الأقاليم وولد منذ عشرين

(ولم لم تعلم به أثينا من قبل؟

(أراد الملك أن يفاجئ شعبه بهذا الخبر السار، لولا اغتيال ابن مينوس؟!

(وهل هو حقاً أشجع من ابن مينوس؟

(ومن يكون ابن مينوس، وألف بطل كابن مينوس إلى ولي عهدنا ثيذيوس؟ وهكذا راحت الجماهير يتحدث بعضها إلى بعض حديث ثيذيوس

أما كيف وصل هذا الأمير الصغير، فإن أمه لما آنست فيه القوة واكتمال البنية، ولما رأت من تدفق ماء الشباب في وجناته، وسريان كهرباء الحياة في عضلاته، قادته إلى الحجرة التي لقيت فيها لأول مرة أباه، ثم ناولته الخطاب المكنون الذي يحمل وصاة الملك. وما قرأ الفتى ما جاء بالخطاب حتى تأكدت له الأماني العذاب التي كانت أمه تهتف له بها، فتقدم إلى الصخرة فرفعها بأقل جهد، ثم حمل السيف فقبله، ووضعه هنيهة على رأسه، ثم على عينيه، ثم على قلبه، كأنه يطبع به خاتم المحبة الأبوية على أعز جوارحه!

وربط النعلين العزيزتين على قدميه، وانهال على خدي أمه ويديها يقبل هذين ويلثم هاتين، وودعها، وتزود من نصائحها، وانطلق ميمما شطر أثينا

وكانت الطريق إلى العاصمة صعبة شائكة محفوفة بالمكاره، ككل طريق تؤدي إلى جنة أو نعيم؛ فاللصوص وقطاع الطرق والسفاكون يأخذونها من كل حدب، والسباع الضواري تعج في جنباتها، والغيلان والأبالسة تهمهم في جميع منعطفاتها. . . ولكن هذا كله لم يثن من عزم ثيذيوس؛ فلقد قتل كل من تعرض له من لصوص هذه البرية المرعبة، وفري رؤوس سباعها، حتى لقد فر الكثيرون أمامه يذيعون نبأ مقدمة في أثينا. فما وصل إليها حتى كان صيته قد سبقه وشاع فيها. وما إن تقدم إلى أبيه الملك حتى عرفه، ونزل من فوق العرش فعانقه وقبله، ثم عاد فأجلسه بجانبه، وألقى إليه بأذنيه يصغي إلى قصة حياته، ومجازفته في الطريق التي تكتنفها الأهوال إلى أثينا!

وأعلن السرور العام في المدينة، وطفقت النواقيس تدق في الهياكل، وأطلق سراح المجرمين من جميع السجون، وجعل الناس يتندرون بشجاعة ولي العهد وقصته العجيبة، حتى لأنساهم ذلك هول المأساة الدامية التي روعتهم وزلزلت قلوبهم

وانتظر مينوس أوبة ابنه، بيد أنه قلق لانقطاع أخباره، وساورته الظنون من أجله، وحسب أن ريحاً عاصفاً ثارت بمركبه في البحر الإيكاري فأغرقته، لولا أن أحد التجار الكريديين عثر بجثة القتيل فاحتملها إلى الملك، الذي تصدع قلبه من الأسى!

ولا تسل عما انتاب مينوس من الحزن، وما شمل كريد من الهم، حتى لم تبق فيها عين لم تذرف ماءها على ولي العهد!

واتصل بالملك ما كان من فعلة إيجوس ملك أثينا، فاستيقظ الناس صبيحة اليوم التالي على صيحة الحرب، تدوي في غبشة الفجر فتقض المضاجع، وترن في الآذان وتتجاوب لها حبات القلوب! وما تطلع الشمس حتى تكون البطاح مائجة بجنود كريد البواسل،

هائجة بالمتحمسين من الشبان والشيب، هرعوا جميعا فدى الملك، وريا لمجد الوطن، وإثئاراً لولي العهد!

وترامت الأخبار إلى أثينا، فاعتكرت أفراح البلاد، وسكن ضجيج الشعب، وسارع الجميع يستعدون للقاء العدو، فها هي القلاع قد سهر عليها حراسها، والسبل منبثة فيها الجنود شاكي السلاح، والمرافئ تعج بالسفائن الحربية، وكل رجل في المملكة قد اضطلع بنصيبه في الذود عن بيضة الوطن!

وأقلع مينوس بأسطوله اللجب، وعسكره المجر، وفرسانه العديدين، مزودين بميرة ليس كمثلها ميرة، وذخيرة يا لها من ذخيرة. . . ومخر الأسطول لا تحول بينه وبين مطمحه عقبة، ولا يقف من دونه محمق ولا مجنون

ووصل الأسطول إلى أثينا، غادة هيلاس، وهدية الآلهة إلى فينوس، وعروس الأحلام الجميلة؛ فوجد الأسوار مخفورة، والبوابات مغلقة، والناس داخل المدينة مستعدين للدفاع عنها، فألقت الفلك مراسيها. واندفع الكريديون يحتلون السهل الواسع المحيط بالمدينة حتى ملأه، وحتى لا ترى إلا خياماً تصل أقصى الشمال بأقصى الجنوب، وتربط أول الشرق بآخر الغرب. . .

جنود وضوضاء. . . وصهيل ورغاه. . . وعسكر كالجراد المنتشر لا تبلغ آخره عين، ولا يذهب إلى آخره خيال!

وصابر مينوس يحاصر المدينة أياما طوالا حتى قلت الأقوات داخلها، وأخذ أهلها يشكون الجوع والجهد، وزاد شدتهم أن نضب الماء، فعم البلاء

ولم يكن أمام الأثينيين إلا إحدى اثنتين: إما الموت داخل الأسوار صبراً وهذا ما لن يكون، وإما الخروج للقاء المحاصرين ومناضلتهم، وذلك مالا طاقة لهم به، ولا قدرة لهم عليه

أمران أحلاهما مر، وأخفهما فيه الويل، وعقباه الدمار والبوار! وأجمع بعض عقلائهم على أن يذهبوا إلى ملكهم يرجونه أن يذهب إلى الهيكل فيقدم القرابين إلى الآلهة حتى تأتيهم نبوءة السماء ووحي الأولمب بما ينبغي أن يكون. . . ولكن الملك أبي واستكبر، ثم قبل بعد إلحاح أعيان القوم أن ينوب عنه في هذا الشأن أحدهم وقصد قائم مقام الملك إلى هيكل فينوس فتقرب بالضحايا وعقر القرابين، وقبل الأرض بين يدي تمثالها المنتصب فوق المذبح، ولبث غير قليل. . .

وخشعت الأبصار وسكنت القلوب، وساد المعبد وجوم عجيب. . .

ثم انبعثت الصوت القدسي الضعيف من خلوة الكاهن يقول:

(ليفعل الأثينيون ما يأمرهم به مينوس ملك كريت. . . الويل لهم إن حاربوا؟) وهلعت الأفئدة. . . وطاشت الأحلام!!

وتلقاها الملك كما يتلقى الإنسان حكما عليه بالإعدام. . . ولكن ما العمل؟ ولا حيلة لبني الموتى في دفع أحكام القضاء؟ وأرسل إيجوس إلى ملك كريد يعرض عليه الصلح، ويسأله عن شروطه. . . فقال مينوس لرسل الملك: (قولوا لإيجوس، الآن عرفت كيف طعنت فؤاد مينوس تلك الطعنة النجلاء بقتلك ابنه ولي عهده. . . ولقد جئناك نطلب ثمن هذه الفعلة الشنعاء، ولن تكفينا أثينا كلها ثمناً لها! أما وقد ذللت، فحسبنا أن نرجع بسبعة من خير شبابكم وأجمل فتيانكم، وسبع من أبكار الأثينيات وأبهى حسانها، ليكون الجميع غذاء حلالاً للمينوطور، وعلى أن ترسلوا كل عام في مثل هذا الزمن أربعة عشر آخرين من خيرة شباب أثينا وأكرمهم حسباً

(. . .إن رضي الملك وسلم فدية هذا العام رحلنا عنكم إلى العام المقبل

. . .وسكت الملك، وتحدرت من عينيه دموع غلاظ، وثار في قلبه هم قديم طلب مرعب ينم عن قسوة وغلظة! غير أن قتل ابن مينوس غيلة، في رحاب أثينا، وفي دجنة الليل، وبتدبير الملك، كل ذلك يبرر الغرامة الوحشية التي فرضها ملك كريت!

وكاد إيجوس يرفض هذا الهوان الذي طلب إليه أن يؤديه عن يدٍ وهو صاغر، ولكن الشعب هاج هائجه، وضج الرعاع يطلبون الخبز، أو تسليم المدينة، أو. . . دم الملك!!

فذل إيجوس المسكين وصغر، وقبل شروط مينوس مرغماً، واختير من شباب المدينة سبع كواكب أتراب، وسبع فتيان في ريعان الصبى، وشيع هؤلاء وهؤلاء إلى الأسوار بين بكاء الأمهات وعويل الآباء وآلام المحبين!

وهرع الكريديون إلى خيامهم فاقتلعوها، وإلى شراعهم فنشروها، وأقلعوا في الصباح الباكر بعد أن القوا على كبرياء إيجوس هذا الدرس المهول!

ومضت سنون وأثينا العظيمة تؤدي الفدية عن يد وهي ضارعة، حتى ثارت كبرياء ثيذيوس وفارت نخوته، وتقدم إلى أبيه الملك الشيخ، حين دعا النفير العام لتقديم الفدية، يضرع إليه أن يكون هو الفداء الرابع عشر من شباب هذا العام: (على الأقل يا أبي يكون هذا بعض العزاء للأثينيين، وليثقوا أننا لا نذلهم، وأننا منهم وهم منا، وأننا آخر الأمر، نشرب الكأس التي يشربون!)

وصعق الوالد حين تقدم إليه ولي عهده بهذا الطلب، ورفض رفضاً باتاً. . ويغلي الدم في راس البطل، فيقول للملك: (إذن فأنا أحطم كأس الحياة التي أفعمت مذلة وهوانا، وسأريق مع سمها الأسود هذا الدم الأرجواني الذي لا استحقه، ولا أشرف به. . أبتاه! لن تتحرك السفينة الحزينة حاملة ضحايا قسوتنا واستبدادنا حتى أحييها بحياتي، وأرويها بدمي، ليكون قرباناً لمن عليها من عشيرتي ولداتي. . .)

وقبل أن يفصل البطل الشاب، ناداه والده باكياً، ونهض فباركه، وقبل، والهم يمزق أحشاءه، أن يكون بين الضحايا. .

وفي الحق إن ثيذيوس لم يكن يعرض نفسه للتهلكة، ولكنه كان واثقا من شجاعته، مؤمنا بما وهبته الآلهة من جلد وبأس، وقلب لا يفله إلا الحديد، لأنه من حديد. ولقد صمم أن ينازل هذا المينوطور الخبيث، فأما قتله وعد مرفوع الرأس، موفور الكرامة، ليعيش في وطنه منقذا لأثينا، وإما قضى القضاء أمره فيه، وليس هو بأعز ممن راحوا ضحية هذا الوحش المخيف!

وقال لأبيه وهو يودعه، حينما ركب المركب السوداء التي يرفرف عليها علم الموت!

(أبي!

لا تبك! إنك ملك، ودموع الملوك لا تذرف إلا في سبيل الوطن! إنني ذاهب إلى معركة أرجو أن يكتب لي النصر فيها! لقد كنت أتغلب على عشرات من أمثال هذا الوحش ولما أكن بعد إلا طفلاً. . . ادع لي أن أفوز به، فأريح أثينا العزيزة من شره)

وأقلعت السفينة تحمل هذه الفلذات الغالية من أبناء البلاد، ومخرت في بحر تلاطمت أمواجه، وزخرت أثيابه، واشمخر أنفه، وانتفخت أوداجه، حتى وصلت إلى كنسوس حاضرة كريت. وهرع الناس من كل فج يستقبلون ضحايا المينوطور، وفي وجه كل منهم عبوسة حزن، وملء قلوبهم ثورات مكبوتة من الأسى، على هذا الشباب الناضر الذي أقبل إلى الموت من قرار بعيد!

وكانت في الجماهير فتاة غضة الأهاب، بضة الشباب، حلوة ناعمة، نهضت في مركبتها لمشاهدة الضحايا الأثينيين، وما كادت عينها تصيب نظرة ثيذيوس، حتى أحست في أعماقها بنفحة السماء التي تسبق لفحة الحب!!

(ترى من يكون هذا الشاب الأنيق والفتى الرقيق؟)

(إنه يقبل في غير وجل، ويقتحم الجماهير في غير هيبة! أعبر بحار الموت قبل هذا؟)

(لا شك يا فتاة أنه أمير إن لم يكن ابن الملك!)

(إن الحمرة التي تطير من الورد إذا قطف، ما تفارق خديه، وهو مقدم على الردى!!)

(إن صفرة الموت تستحي أن تموه هذه الوجنات!؟) . . .

(أمن السماء هذه الزرقة التي تملأ عينيه؟) . . .

(بل مثله لم يخلق إلا ليكون زهرة هذه الحياة الدنيا) . . .

(أيها الشاب. . . لن تموت!)

وهكذا جعلت تتحدث تلك الغادة. . . الأميرة الجميلة بنت مينوس. . .!!

وكأنما قرأت وصيفتها الأمينة ما دهى سيدتها من حب الفتى قي كتاب عينيها، فقالت: (أتحس سيدتي بتعب؟)

(لا يا فتاة. . ولكن انظري إلى هذا الفتى المتفتح كالزهرة!)

(والله يا سيدتي إنه جدير بعطفك، خليق برحمتك. . .)

(وما العمل يا فتاة وليس لنا في إنقاذه يدان!)

(هوني عليك يا مولاتي! إنه وايم الله من سلالة الملوك، إن لم يكن ابن ملك! وهو بادي الشجاعة ظاهر الفتوة! وإن له سيفاً طويل النجاد ما حمل أحد مثله، ولم أعهد قط أن من ضحايا المينوطور من جاء بذي غرارين من شنه. . . فلم لا ندبر معه قتل

(. . .المينوطور!؟
قتل المينوطور؟ إنك تهرفين! ومن يجسر أن يدخل والمينوطور في معترك؟)
لا عليك؟ نرشو السجان فيفلت الشاب في ظلام الليل، ونهديه إلى باب اللابيرنث)
(!فينطلق إلى الوحش الغاط في نومه العميق فيجذ رأسه بهذا الجراز الذي ترين
ياله من تدبير! ولكن كيف يعود الشاب وأنت تعرفين من منعرجات اللابيرنث وشعابه)
(. . .ما تعرفين؟
لا أسهل من هذا أيضاً! خيط طويل من أمراس الكتان يمسك هو بطرفه الأول،)
(!!ونمسك نحن بطرفه الآخر، يهديه في الأولى ويرشده في الثانية
وطربت بنت منيوس لتدبير وصيفتها، فمنحتها قبلة شهية وخلعت عليها جائزة سنية. . .
!وانطلقتا تترقبان المساء
وعرف ثيذيوس أنها ابنة الملك فاستطير من الفرح؛ وعرفت أنه ابن ايجوس؛ فكبر
. . .رجاؤها وتلألأت آمالها
وقتل المينوطور؛ وفك اسار رفاقه ورفيقاته، وأقلعت بهم الفلك؛ حاملة جوهرة جديدة
غالية: هي ابنة مينوس. . . وربيبة كريد
!أما الملك
فقد صبر! وأرضاه أن يحضر إيجوس فيعتذر له ويصالحه!. . وهكذا حسم الحب هذا
الخصام الطويل
دريني خشبة
البريد الأدبي
كتاب العام
أزمة أوربا
بقلم أندريه زيجفريد
صدر أخيراً بالفرنسية كتاب يعتبره بعض النقدة (كتاب العام)، وهو كتاب (أزمة أوربا) '
لمؤلفه الكاتب السياسي والاقتصادي الكبير أندريه زيجفريد، وهو يصدر في ظروف
عصيبة تواجهها القارة القديمة. وقد شغلت هذه المعضلة منذ نهاية الحرب كثيراً من
رجال السياسة والاقتصاد ولكن لم يلفت الأنظار مما كتب فيها سوى كتب ثلاثة: الأول
كتاب (مصير أوربا) ' الذي ظهر غداة الصلح بقلم مسيو آبير ديمانجون، وفيه ينوه
بخطورة التقدم الصناعي الذي حققته أمم كاليابان والولايات المتحدة (أمريكا). ثم
أصدر مسيو لوسيان روميه كتاباً ينوه فيه بعجز أساليب الإنتاج الأوربية القديمة عن
مناهضة الإنتاج الضخم الذي تتبعه أمريكا؛ وتلاه مسيو شارل بوماريه في كتاب يبحث
فيه أسباب نجاح الغزو الذي قامت به أمريكا لأسواق أوربا القديمة في القارة ذاتها
ولما وقعت الأزمة الاقتصادية الأمريكية خفت حدة هذه المسألة الشائكة؛ وخفت حدة
الجدل عن الصراع الاقتصادي بين أمريكا وأوربا؛ ولكن الأزمة لما انتقلت إلى أوربا
وعصفت بصرحها الاقتصادي، عادت نظرية الغزو الأمريكي والياباني لأوربا تشغل
أذهان الساسة والاقتصاديين
وقد جاء كتاب مسيو أندريه زيجفريد يذكر أوربا القديمة أن الداء لا يذهب بداء آخر؛
ويقول مسيو زيجفريد إن أوربا يجب أن تواجه نفس المشاكل التي تواجهها باقي
الأمم، ويجب أن تصلح نفس الأخطاء، ولكنها تواجه في نفس الوقت مشاكل خاصة
بها؛ وقد لاحظ كثير من الباحثين ذوي النظر البعيد منذ نهاية الحرب أن الأمم الصناعية
القديمة تجد نفسها اليوم أمام أمم فتية منافسة لم تكن تتوقع نهوضها؛ أمم تتفوق
عليها بأجورها المنخفضة، وإنتاجها الضخم، وحداثة أدواتها واستعداداتها الفنية. ويلاحظ
مسيو زيجفريد يحق أن ذلك الاحتكار القديم الذي كانت تتمتع به أوربا قد دخل في دور
الانحلال، وهذه
هي ناحية المشكل التي يعالجها ببراعة ووضوح
وأهم قسم في الكتاب هو الذي يشرح فيه المؤلف لنا كيف استطاعت أوربا أن تفرض
سيادتها على العالم، وكيف بدأ العالم ينازعها هذه السيادة، ويقدم لنا المؤلف صورة
قوية مما كانت عليه أوربا والعالم في أواخر القرن التاسع عشر، حينما كانت أوربا تكاد
تحكم العالم في نوع (من الحق الإلهي). وقد استطاعت أوربا منذ عهد الأحياء
(الرينصانص) (بوسائلها وشهواتها) أن تتفوق على باقي القارات الأخرى؛ ولم يمض

قرنان على ذلك حتى استطاعت أوربا بواسطة ثورتها الصناعية أن توطد احتكارها بلا منازع؛ وكأن عناية إلهية مكنتها من تحويل جميع المواد الأولية التي ينتجها العالم إلى سلع ومنتوجات تستدر بها ثروات العالم كلها؛ وقامت سيادتها على إمبراطوريتها الاستعمارية التي شملت معظم بقاع الأرض، وسادت أساطيلها جميع البحار؛ واستطاعت بالاعتماد على قانون دولي مرن أن تفرض من النظريات والنظم على معظم الأمم ما يوافق مشاريعها ومصالحها؛ وانتهى الأمر بإقامة نظام اقتصادي هائل تستولي أوربا بمقتضاه على جميع المواد الأولية، ثم تردها إلى العالم سلعاً مصنوعة. يقول مسيو زيجفريد: وهذا نظام ضخم ذكي، تخضع فيه الحريات لصولة التوسع، والأخلاق لسلطة الفتح؛ تخضع فيه الحريات لصولة التوسع، والأخلاق لسلطة الفتح؛ ويعتبر فيه الحريات لصولة التوسع، والأخلاق لسلطة الفتح؛ ويعتبر فيه من الأمور المشروعة الخالدة أن يقسم العالم إلى طبقتين متباينتين: أرستقراطية أوربية تحتفظ لنفسها بالعمل الفني المثمر، وطبقة فقيرة يترك لها العمل الخشن المضني

ولكن هذه السيادة تبدأ منذ القرن التاسع عشر دور الانحلال؛ وقد كانت أول خطوة في ذلك تحرر بعض الأمم البيضاء كالولايات المتحدة والمستعمرات الأسبانية والبرتغالية، والدومنيون البريطانية. وفي أوائل القرن العشرين نزلت إلى الميدان بعض الأمم الملونة التي كانت تعتبر منحطة، وجاءت الحرب فزادت في بواعث الأزمة؛ ذلك أنها حطمت الأداة القديمة التي كان يقوم عليها توازن العالم، وحولت الإنتاج الأوربي عن مهمته الطبيعية. فاستطاعت القارات الفتية أن تغتني بسرعة وأن تغدو دائنة، وأن تنظم صرحها الصناعي على قواعد ضخمة، وبعد نهاية الحرب لاحظت أوربا أن منافسيها الجدد يحاربونها بأسلحة لا تستطيعها مثل الأجور المنخفضة في الشرق الأقصى، والإنتاج

الضخم في أمريكا، يقول مسيو زيجفريد: (ولقد نزلنا إلى معترك عام، وحصرنا بين نارين؛ بين آسيا وأمريكا؛ بين الأجر المنخفض في الأولى، والأجر المرتفع في الأخرى؛ ومهما كان من الأمر فأنا نستكين إلى ذلك في ضعف)

ويتساءل مسيو زيجفريد، هل حكم على هذه القارة التي سادت العالم مدى ثلاثة قرون حكماً نهائياً لا مرد له؟ وهنا يعدد المؤلف لنا ما بقى لأوربا من عناصر التفوق ووسائل النضال؛ ويرى أن افضل طريق للسلام هو تمسك أوربا بالإنتاج الفني الرفيع الذي يقتضي علماً وخبرة فنية، بيد أن هذه الطريق ليست أيضاً محققة ولا حاسمة؛ ذلك أن اليابان تخطو نحو الإنتاج ليست أيضاً محققة ولا حاسمة؛ ذلك أن اليابان تخطو نحو الإنتاج الفني خطوات سريعة؛ وقد بدأت أمريكا تحتل مكان ألمانيا في التطبيقات العلمية والفنية. فالمستقبل إذن غامض ومصير أوربا القديمة في كفتي ميزان: (عن لورب نوفيل بتصرف)

تكريم الدكتور محمد حسين هيكل بك

بمناسبة صدور كتاب (حياة محمد) تألفت لجنة لتكريم الدكتور محمد حسين هيكل بك برياسة حضرة صاحب العزة الأستاذ أحمد لطفي السيد بك مدير الجامعة

وسيقام لهذا الغرض حفلة شاي بفندق الكونتننتال مساء يوم الأربعاء 15 مايو الجاري، وستذاع بالراديو الخطب التي تلقى في هذه الحفلة

وسيصدر عدد خاص من جريدة السياسة بآراء وأبحاث رجال الفكر بمصر والشرق فيما ألفه الدكتور هيكل بك، وفي آثاره الأدبية ومؤلفاته المختلفة

وترجو اللجنة أن تكون جميع المراسلات باسم الأستاذ جلال الدين حسن بشارع الناصرية رقم 60 بمصر

كتاب جديد لفرنسيس كاركو

فرانسيس كاركو كاتب فرنسي يعرفه الكثيرون في مصر. وقد زار مصر منذ نحو عامين وكتب عنها سلسلة من المقالات والصور كانت أشنع وأقبح ما كتب منها من الوجهة الاجتماعية والأخلاقية. ذلك أن فرانسيس كاركو كاتب لا يرتع قلمه إلا في عالم الطبقات الدنيا والمجتمعات السافلة، عالم البغاء والفجور والإدمان والتدهور الاجتماعي. ولكن كاركو

يدهش اليوم قراءة بإخراج قصة جديدة جردت عن هذه الخاصة عنوانها (ظلمات) ففي هذه القصة الجديدة يعالج كاركو مأساة عائلية عادية، لا أثر فيها للسفلة والأوغاد

والحياة السافلة، قصة زوج فتى متعلم خانته زوجه، وضبطها متلبسة بالخيانة فقتل منافسه، وقدم إلى القضاء فحكم عليه بأعوام في السجن. ويحاول كاركو أن يبدد (الظلمات) التي حاقت بضمير هذا الزوج المعتدى عليه، ويحاول أن يحلل بالأخص تلك العواطف المختلفة التي جاشت بنفسه؛ فهو من جهة يشعر بأنه يحب الزوجة الخؤون أكثر مما كان يتصور، ومن جهة يشعر بأنه يبغضهاأولاًلأنها خانته وسحقت عرضه، وثانياً لأنها صيرته مجرماً يلفظه المجتمع؛ وهكذا. ويرى النقدة أن كاركو بإصدار هذه القصة الجديدة ينحو في الكتابة والتصوير ناحية جديدة ربما كانت فاصلة في حياته الأدبية

بين السياسة والأدب

في أنباء سان فرنسيسكو (أمريكا) إن الكاتب الأمريكي الكبير أوبتون سنكلير قد اعتزم نهائياً أن يعتزل الحياة السياسية. وسنكلير كاتب اجتماعي كبير، ولكنه يخوض غمار السياسة إلى جانب الحزب الراديكالي منذ عشرين عاماً. وكان قد حاول أخيراً أن يرشح نفسه لمنصب حاكم كاليفورنيا، ولكنه فشل في الانتخاب؛ وأثر هذا الفشل في عواطفه ونفسيته، فمرض مدى حين، ومازال مريضاً يستشفي. وقد كان من أثر الصدمة أن عاف الحياة السياسية وقرر أن ينبذها نهائياً

الكتب

كتابا المواقف والمخاطبات للنفري

للدكتور عبد الوهاب عزام

كتبت في عدد الرسالة الماضي كلمة عن كتابي محمود بن عبد الجبار النفري المعروفين باسم المواقف والمخاطبات، ونقلت شذرات من الكتاب الأول، وهو يحوي سبعة وسبعين موقفاً عرف القارئ مثالاً منها فيما قدمت

واليوم أنقل شذرات من الكتاب الثاني كتاب المخاطبات وهو يحوي ستا وخمسين مخاطبة على أسلوب قريب من أسلوب المواقف، وعسى أن أفرغ قريباً لبحث مفصل عن الكتاب، ما استبان من معانيه وما غمض، وما وقع من تحريف في سياقه، وللكلام عما كتب عليه من الشروح. فمثل هذا الكتاب العجيب لا يكتفي فيه بهذه النظرة العجلى:

مخاطبة

يا عبد! قل أعوذ بوحدانية وصفك من كل وصف، وأعوذ برحمانية برك من كل عسف

يا عبد! قل أعوذ بوجهك من كل وجه

يا عبد! قل أعوذ بقربك من بعدك، وأعوذ ببعدك من مقتك، وأعوذ بالوجد بك من فقدك

يا عبد! اجعل ذنبك تحت رجليك، واجعل حسنتك تحت ذنبك

يا عبد! من رآني عرفني وإلا فلا، من عرفني صبر على وإلا فلا

يا عبد! من أبصر نعمتي شكرني وإلا فلا

يا عبد! من شكرني تعبد لي وإلا فلا

يا عبد! من تعبد لي أخلص وإلا فلا، من أخلص لي قبلته وإلا فلا، من قبلته كلمته وإلا فلا

يا عبد! من كلمته سمع منى وإلا فلا، من سمع مني أجابني وإلا فلا، من أجابني أسرع وإلا فلا، من أسرع إلى جاورني وإلا فلا. من جاورني أجرته وإلا فلا، من أجرته نصرته وإلا فلا، من نصرته أعززته وإلا فلا

مخاطبة

يا عبد! إن عبدي الذي هو عبدي هو اللقي الملقي من يدي

يا عبد! عبدي الذي هو عبدي هو الغضبان لي على نفسه فلا يرضي

يا عبد! إن عبدي الذي هو عبدي هو المستقر في ذكرى فلا ينسى

يا عبد! إذا جاءت ترجمتي فانقطع بها عن ملكي وملكوتي، ثم إذا بدت ترجمتي فانقطع عنها إلى نصير التراجم والحروف آلة من آلات معرفتك، ومركبا من مراكب نطقك

يا عبد! أقبل على لا من طريق ولا من علم، تقبل على وأقبل عليك

يا عبد! اجأر إلي بمحامدي في السراء أدافع عنك بنفسي في الضراء

يا عبد! واصل بين طهارتك تواصل بين نعميك، إنك إن لم تفصل بين طهارتك لم تفصل بين نعميك

يا عبد! لن تعرفني حتى تراني أوتى الدنيا ارغد وأهنأ ما عرفت من الدنيا لعبد عصي،

وأغنى من عرفت من العبيد فترضى بما زويت عنك، وتعلم أنني زويت إعراضي عنك وزويت حجابي
يا عبد! ميعاد ما بينك وبيتن أهل الدنيا فترى أين أنت وأين أهل الدنيا
مخاطبة
يا عبد بنيت لك بيتاً بيدي إن هدمت ما بنيته بيدك
يا عبد إذا رأيتني فلا والد يستجرك ولا ولد يستعطفك
يا عبد! إذا رأيتني في الضدين رؤية واحدة فقد اصطفيتك لنفسي
يا عبد! ولني أمرك بطرح أمرك
!يا عبد! الغيبة ألا تراني في شيء، الرؤية أن تراني في كل شئ
يا عبد! اجعل لي يوماً ولك يوماً وابتدئ بيومي يحمل يومك يومي
يا عبد! اصبر لي يوماً أكفك غلبة الأيام
يا عبد! إذا لم ترني تخطفك كل ما ترى
يا عبد! لو ألفت بحزنك بين ما يختلف عليك، وارتبطت بفرحك ما يلائمك كان مرادي الغالب
مخاطبة
يا عبد! استغن بي تر فقر كل شيء
يا عبد! من استغنى بشيء سواي افتقر بما استغنى به
يا عبد! سواي لا يدوم، فكيف يدوم به غنى
يا عبد! إن أحببت أن تكون عبدي لا عبد سواي، فاستعذ بي من سواي وإن أتاك برضاي
يا عبد! رضاي يجعل رضاي سكنا بقلوب العارفين، سواي يحمل رضاي فتنة لعقول الآخذين
يا عبد! رضاي وصفي، وسواي لا وصفي، فكيف يحمل وصفي لا وصفي؟
يا عبد! أنا القيوم بكل ما علم وجهل على ما افترقت به أعيانه واختلفت به أوصافه
يا عبد! استعذ بي مما تعلم تستعذ بي منك، واستعذ بي مما لا تعلم تستعذ بي مني
يا عبد! أين ضعفك في القوة، وأين فقرك في الغنى، وأين فناؤك في البقاء، وأين زوالك في الدوام؟
عبد الوهاب عزام
رسالة العلم
تلقينا العدد الرابع من السنة الثانية لرسالة العلم، وهي الصحيفة التي تصدرها جمعية خريجي كلية العلوم بالجامعة المصرية في 166 صفحة من القطع الكبير. وهذا العدد حافل بالمقالات الممتعة والبحوث القيمة في النبات والحيوان والكيمياء والفيزياء والفلك، مدبجة بأقلام الأساتذة والطلاب على أسلوب واضح وغرض مشوق واستيعاب مفيد. و (رسالة العلم) تحمل طابع العلم من خشونة الجد، والذهول عن حركة الكلية، وعن تصوير الحياة الجامعية فيها، فهي لا تعني بأخبار المحاضرات والمناظرات والرحلات والجمعيات والرياضة، وحظها من كل ذلك موفور مشكور يستحق التسجيل ويستوجب الإشادة
صحيفة الجامعة المصرية
كذلك تلقينا العدد الأول من السنة الرابعة لهذه المجلة التي يصدرها مجلس اتحاد الجامعة المصرية في 160 صفحة ممن القطع المتوسط، وهي تعتبر صورة لألوان الثقافة في كليات الجامعة، ولكن أثر كلية الآداب فيها غالب، ولعل هذا العدد بتبويبه وتنويعه وشموله
أقرب إلى الذوق الصحفي من سوابقه؛ وقد يكون في بعض فصوله هبوط عن مستوى التفكير الجامعي، ولكن الآنسة نهير القلماوي رئيسة تحرير الصحيفة تقول في افتتاحها: (والآن تقبلون صحيفتكم فستجدون ثرثرة وجداً، والطلبة ثرثارون دائماً، وثرثرتهم حبيبه إلى كل نفس وقلب، والطلبة جادون أحياناً أو كثيراً. ومن ذا الذي لا يستبشر بجد الطلاب؟ فهذه صحيفتكم دون لكم فيها مختار من ثرثرتكم وكثير من جدكم، لتكون لكم ذكرى جميلة لأجمل أيام الحياة)
جريدة الوفاق

بمناسبة دخول جريدة الوفاق في عامها الثامن. تصدر هذه الجريدة على عادتها صباح الاثنين الموافق 13 مايو سنة 1935 في ثماني صفحات كبيرة مزينة بالصور والألوان، حافلة بالموضوعات الأدبية الطريفة والمقالات الاجتماعية الممتازة. وقد فتحت أبواباً جديدة تعالج فيها قضية المرأة وتعني بكل ما يهم المتأدب الاطلاع عليه مدبجة بأقلام الكتاب البارعين والأدباء الممتازين.

العدد 98 - بتاريخ: 20 - 05 - 1935

هو ذا الربيع!

للآنسة النابغة (مي)

الربيع الربيع، هو ذا الربيع!

في قمر الأسحار، في انبلاج الأسحار

في مرح الأطيار، في عبير الأزهار

في النهار الدوار، في الأصيل البديع!

الربيع الجديد، هو ذا الربيع!

أنا القلب السعيد، وهو ذا الربيع!

في سويدائي يحتجب الوجه المحبوب دواماً

وراقه أن يستهل مشرفاً على البرية، فانقلبت قبة الفلك محراباً تلألأ فيه طيف من بهائه، وفي مدى الأبعاد شاعت بهجة تعكس شيئاً من حلاوة ابتسامته وفيض سنائه. وانبرى الربيع يزجي آيات التسبيح والتهليل بأشكاله وألوانه، لأنه اقتنص لمحة من ذلك الوجه، فتنضحت مجاليه برونقه واتزرت بروائه

وتجمدت الأزمان في لحظة، فهي أبدية آبدة تخلد حبوري والوجود كله هالة تحيط بالوجه الفريد المعافى وخوالجي حيال الوجه وهالته نبض للوجود وترتيل:

أنت مرتع هيامي، أيها الربيع!)

يا ربيع النشوان، أيهذا الربيع!)

أنا الحدائق والرياض، وهو ذا الربيع!

أرواح الأحباب والخلان متجمهرة في رحابي

معارض الوشى والزركشة نضيدة، ومتاحف اللمعان والإشراق عديدة؛

الأشجار تكللها تيجان الظلال والأنوار، وفيالق الغصون خاشعة كأنها في حضرة ربانية؛

والمرئيات كلها على ارتقاب وانتظار، تتوقع نبأ خطيراً قد يكون إفصاحاً عن بعض ضمير الأكوان.

أقضي الأمر ففزت، يا أخواتي الكائنات، بما كنت تتوقعين؟

سيال من ذوب النصر والابتهاج يدفق علينا، وكان كل ما ترى في الأمكنة من مراجع الألحان يتلخص في حضني نشيداً:

شتيت الأجزاء وحدة واحدة، أيها الربيع!)

على طور حسنك نتجلى معك، أيهذا الربيع!)

أنا الينبوع الصافي، وهو ذا الربيع!

ظليلة تحنو الشجرة علي، وأنا في فيئها الحنون جاثم.

بلورية الجلباب بلورية الرنين تتلاحق مياهي، وقد أودعها الربيع لاعج الشوق ووصب الحياة؛

وفي مترنح أسجوعتها نداء وإغراء، ونعومة واستعطاف، ووعد ووفاء، وثقة ونوال.

مياهي تفضض الحصى وترطب الأعشاب والادغال، في جريها الحثيث إلى حيث لا تدري. هي تتوق إلى رشيد السخاء كيلا تحسب ولا تدخر.

وتتوالى الساعات فلا يتفيأ شجرتي شريد الهجير، ومرآتي المتثنية لا ترسم وجه المرتوي الشكور!

ليس من عابر، غير ذلك الذي مني أخذ ما أخذ ليقذفني بالأحجار، ويترك منه تذكاراً، اللعنة والأقذار!

اليأس خالط صفائي، والكآبة حلت في مياهي!

وبت أحلم بالذين طوحت بهم السبل فهاموا في القفر عطاشا، بينا مدرار أجاجي يناديهم وينطق باسمهم جزافاً!

ولامستني مؤاسية في الظلام الأفنان، فاستحالت مياهي عبرات وغدا نشيدي شهيقاً

وانتحاباً:
(الربيع الحزين الحزين، هو ذا الربيع!)
(ربيع الجحود والهجران، كيف احتمل الربيع؟)
أنا الصحراء القحطاء، وهو ذا الربيع!
الصحراء الواجمة الكتوم، كذلك كنت وكذلك أكون!
الحياة صور وأشكال وسنن؟
أفي الحياة ولادة وموت؟
أفي الحياة تبديل وتحويل؟
أفي الحياة نمو ونشوء وازدهار؟
مه عن الصحراء، أيهذا اللغو السقيم!
أنا مملكة العي والبكم والصمم والعمي!
أنا منطقة السأمة الآيسة والغليل القتال!
مائي سراب، وظلي تراب، وسبلي أتاويه، وملامسي لوافح وسموم، ومعالجي مجاهل المفاوز، وأفجاج الأهوال.
إني في ربدتي ومحلي حجة رهيبة على إجحاف الأقدار، الأقدار التي تعاقب بلا ذنب وتغرم بلا سبب، وتبتاع خصب المروج بعقمي المقيم
أنا في قحطي المفروض وسكوتي المستمر، أسيرة الوحدة والانزواء.
أنا في رحاب الأرض حبيسة.
أنا تزدردني الرمال على الدوام، فأنى لي أن أعول:
(ليس لي الربيع، ليس لي الربيع!)
(ربيع الرمال والسعير، ما حاجتي إلى الربيع؟)
هو ذا الربيع، هو ذا الربيع:
مغرياً في الفضاء، فتاناً في الحدائق،
بهيجاً في الالوان، رشيقاً في الشقائق،
طروباً في قلب الجذلان!
هو ذا الربيع، هو ذا الربيع!
كئيباً في قلب المظلوم، جريحاً في قلب المحروم؛
شاملاً بعطف نصفه قسوة،
حاضناً برفق نصفه عنف،
موحياً أملاً نصفه يأس،
مذكياً خصباً نصفه قحل،
حافزاً شباباً نصفه هرم،
مجدداً حياة نصفها ردى!
الربيع الربيع، لمن يكون الربيع؟
الربيع الجديد هو ذا الربيع!
الربيع العابر، هو ذا الربيع!
(مي)

4 - الانتحار

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال المسيب بن رافع: ومد الإمام عينه وقد رفع له شخص من المجلس؛ ثم جلى بنظره كأنما يتطلع إلى عجيبة كالحق إذا بطل، والصدق إذا كذب؛ ثم رد بصره علي كأنه يعجبني من عجبه؛ ثم سجا طرفه كأنما أنكر رأى عينيه فهو يلتمس رأى قلبه. وتبينت في وجهه انقباضاً خيل إلى أن الشيطان جاءه بهذا الرجل يفحمه به يريه كيف يجعل أحد المؤمنين الصالحين يتحمس في دينه ليرجع بعد ذلك أصلاً لا غنى عنه في إنشاء قصة كفر!

هذا هو ضيفنا (أبو محمد البصري) يتخوض الناس ليجيء فيحدثنا حديثه في قتل نفسه والأثم بربه؛ فلو قيل لي: إن قوس السماء بأحمره وأصفره وأزرقه وأخضره، قد وقع إلى الأرض واصطبغ من ألوانه أوحالاً وأقذاراً - لكان هذا كهذا في تعاظمه وإنكاره والعجب منه؛ فأبو محمد من الرجال الخمس الذين لو كفر أحدهم ثم قيل (إنه كفر)،

لقصر اللفظ أن يبلغ الحقيقة أو يصف شنعتها، كما يقصر لفظ الجنون عن وصف حكيم تآلى أن يعمل عملاً يخرج به من الكون، فلا يبقى في أرض ولا سماء ولا تناله يد الله! إن يف لفظ الكفر مع ذاك، وفي لفظ الجنون مع هذا - شيئاً من نفاق العقل وتأدبه في أداء المعنى الأخرق الذي لا يشبهه جنون ولا كفر

ونعوذ بالله من خذلانه؛ فلقد يكون الرجل المؤمن في تشدده وإيغاله في الدين - كالذي يصنع حبلاً يفتله فتلاً شديداً فيمره على طاق بعد طاق، ليكون أشد له وأقوى، ثم يجاذبه الشيطان حبله، فإذا هو كان في الوهن مثل العنكبوت اتخذت بيتاً في سقف حداد؛ فرأته يصب الحديد المصهور يجعله سلسلةً حلقةً في حلقة، فذهبت تحكيه وترسل من لعابها خيطاً في خيط تزعمه سلسلة . . .!

إن مع كل مؤمن شيطانه يتربص به، فلهذا ينبغي للمؤمن أن يكون في كل ساعة كالذي يشعر أنه لم يؤمن إلا منذ ساعة، فهو أبداً محترس متهيئ متجدد الحواس مرهفاً يستقبل بها لدنيا جديدة على نفسها بين الفترة والفترة؛ ومن هذا حكمة أن يؤذن المؤذن وأن تقام الصلاة مراراً في اليوم، فكلما بدأ وقت قال المؤمن: الآن أبدأ إيماني أطهر ما كان وأقوى

وقال الأمام هيه يا آبا محمد! فقال البصري وقد رأى الكراهة في وجه الأمام: لا يفز عنك

أيها الشيخ؛ فإن الله تعالى قد يجعل ما يحبه هو فيما نكره نحن؛ وليس للأقدار لغة فتجرى على ألفاظنا؛ وقد نسمي النازلة تنزل بنا خساراً وهي ربح، أو نقول مصيبة جاءت لتبديل الحياة، ولا تكون إلا طريقة تيسرت لتبديل الفكر. إنما لغة القدر في شيء هي حقيقة هذا الشيء حين تظهر الحقيقة؛ وكأين من حادثة لا تصيب أمراً في نفسه إلا لتقع بها الحرب بين هذه النفس وبين غرائزها، فتكون أعمال الطبيعة المعادية أسباباً في أعمال العقل المنتصر

وكثير من هذا البلاء الذي يقضي على الإنسان، لا يكون إلا وسائل من القدر يرد بها الإنسان إلى عالم فكره الخاص به؛ فإن هذه الدنيا عالم واحد لكل من فيها، ولكن دائرة الفكر والنفس هي لصاحبها عالمه وحده. والسعيد من قر فيعالمه هذا واستطاع أن يحكم فيه كالملك المطاع في مملكته، نافذ الأمر في صغيرتها وكبيرتها؛ والشقي من لا يزال ضائعاً بين عوالم الناس، ينظر إلى هذا الغني، وإلى ذاك المجدود، وإلى ذلك الوفق؛ وهو في كل هذا كالأجنبي في غير بلده وغير قومه وغير أهله، إذ كل شيء يصبح أجنبياً عن الإنسان ما دام هو أجنبياً عن نفسه

لقد كنت ضالاً عن نفسي وعالمها، فكنت في هذه الدنيا أستشعر شعور اللص، أشياؤه هي أشياء الناس جميعاً؛ واللص ينظر إلى أموال الناس بعيني شاعر متحبب كلف، وهي تنظر إليه بعيني مقاتل متربص حذر

كنت والله إن ضقت بالناس أو وسعتهم - رأيت في ذلك معنى من ضيق اللص وسعته؛ هو على أي حاليه لا ينظر في أعماق نفسه إلا شخصاً متوارياً تحت الظلام يتسلل في خشية وحذر!

وكنت نزقاً حديد الطبع سريع البادرة؛ ومن فقد عالم نفسه، وكان في مثل اللص الذي ذكرت - فإن هذه الطباع تكون هي أسلحته يدفع بها أو يعتدي. وما قط تمكن إنسان من نفسه وأحاط بها ونفذ فيها تصرفه - إلا كان راضياً عن كل شيء، إذ يتصل من كل شيء بجهته السامية لا غيرها، حتى في اتصاله بأعدائه من الناس وأعدائه من لأشياء؛ فما يرى هؤلاء وهؤلاء إلا امتحاناً لفضائله وإثباتاً لها. وقد يكون عدوك في بعض الأمور عيناً لك في رؤية نفسك؛ ففيه بركة هذه الحاسة ونعمتها

ولو نحن كنا مسلمين إسلام نبينا (صلى الله عليه وسلم) وإسلام المقتدين به من أصحابه - لأدركنا سر الكمال الإنساني: وهو أن يقر الإنسان في عالم نفسه ويجعل باطنه كباطن كل شيء إلهي، ليس فيه إلا قانونه الواحد المستمر به إلى جهة الكمال، المرتفع به من أجل كماله عن دوافع غيره؛ فنظر الإنسان إلى نقص غيره هو أول نقصه. والمؤمن كالغصن؛ إن أثمر فتلك ثمار نفسه، وأن عطل لم يشحذ ولم يحسد واستمر يعمل بقانونه

ولقد نشأت في مغرس كريم، وعلى صورة من الحياة تشبه صورة الثمرة الحلوة، اجتمع لها من طبيعة مغرسها ومرتبتها ما تتعين به من حلاوة ونكهة ومذاق؛ فلما عقلت

وعرفت الناس بعد فجاريتهم وخالطتهم، رأيتني منهم كالتفاحة ملقاة في البصل. . .
وكانت التفاحة حمقاء فزادت حمقاً، وكانت حدية فزادت حدة -، وظنت أن الحكمة قد مسخت في الدنيا وبدلت إذ خلقت البصلة بعد أن خلقت التفاحة؛ وما علمت الخرقاء أن الكمال في هذه الحياة مجموع نقائص، وأن للجمال وجهين: أحدهما الذي اسمه القبح؛ لا يعرف هذا إلا من هذا؛ وأن البصلة لو أدركت ما يريد الناس من معناها ومعنى التفاحة لسمت نفسها هي التفاحة، وقالت عن هذه إنها هي البصلة!
ولما رأت تفاحتي أنها عاجزة أن تجعل الشجر كله في مثل مرتبتها ومغرسها - قالت: إن الأمر أكبر من طبيعتي، ومادام سر الكون مغلقاً فلا تعريف له إلا أنه سر مغلق، وليبق كل شيء في طبيعة نفسه، فعلى هذا يصلح كل شيء ولو في نفسه وحدها
قال أبو محمد: ولكن بقيت وحشة الدنيا وجفوتها، إذ لم أكن اهتديت إلى عالمي، ولا تأكدت عقيدتي بنفسي؛ فكان كل ما حولي منبجساً في روحي بشره، وكانت الدنيا بهذا كالمتطابقة في رأيي على معنى واحد، وزادني أني كنت رجلاً عزباً متعففاً؛ وما أشبه فراغ الرجولة من المرأة بفراغ العقل من الذكاء؛ هذا هو العقل البليد، وتلك هي لرجولة البليدة! والمرأة تضاعف معنى الحياة في النفس، فلا جرم كان الخلاء منها مضاعفة لمعنى الموت؛ علم هذا من علم وجهله من جهل، فكنت أعيش من الكون في فراغ ميت، وكنت أحس في كل ما حولي وحشةً عقلية تشعرني أن الدنيا غير تامة؛ وكيف تتم في عيني دنيا أراها غير الدنيا التي في قلبي؟
وعرفت أن كل يوم يمضي على الرجل العزب المتعفف لا يمضي حتى يهيء فيه مرض
يوم آخر. ومن هذه الأيام المريضة المتهالكة، تعد الحياة انتقامها من هذا الحي الذي نقض آيتها وافتات عليها، وجعل نفسه كالإله لا زوجة له ولا صاحبة!
وأيم الله إن الشيطان لا يفرح بالرجل الزاني وبالمرأة الزانية ما يفرح بالرجل العزب والمرأة العزباء؛ لأنه في ذينك رذيلة في أسلوبها، أما في هذين فالشيطان رذيلة في أسلوب الفضيلة. . .! هناك يلم الشيطان ويمضي، وهنا يأتي الشيطان ويقيم!
وقد عشت ما عشت بقلب مغلق وعقل مفتوح؛ وليتني كنت جاهلاً مغلقاً عقله، وكان قلبي مفتوحاً لأفراح هذا الكون العظيم!
ومضت أيامي يضرب بعضها في بعض، ويمرض بعضها بعضاً حتى أنهت منهاها، وجاء اليوم المدنف الهالك الذي سيموت. . .
أصبحت فقلت لنفسي: كم تعيشين ويحك في أحكام جسد مختل لا تصدق أحكامه، وما أنت معه في طبيعتك ولا هو معك في طبيعته؛ ففيم اجتماعكما ألا على بلائي ونكدي؟ لم تصطلحا قط على واجب ولا لذة، ولا حلال ولا حرام؛ فأنتما عدوان لا هم لكليهما إلا إفساد المسرة التي تعرض للآخر. وما أدرى بمن يسخر الشيطان منكما؟ فالعابد الذي يوسوس باللذات يتمنى اقترافها، كالفاجر الذي يواقعها ويقتحمها!
ويحك يا نفس! إني رأيت هذه الدنيا الخرقاء لم تقدم لي إلا رغيفاً وقالت: املأ بهذا بطنك وعقلك وعينيك وأذنيك ومشاعرك. آه آه! ممكن واحد معه أربعة مستحيلات؛ إن هذا لا يلبثني أن يذهب مني بالأربعة التي تمسني على الحياة: الأمل والعقل والأيمان والصبر
لقد استوى في هذه الكآبة صغير همي وكبيره، وما أراني إلا قد أشرفت على الهلكة التي لا باقية لها، فإن وجهي المتكلح المتقبض يدل مني على أعصاب محتضرة تهكتها أمراضها ووساوسها، وإنما وجه الإنسان في قطوبه أو تهلله هو وجهه دنياه تعبس أو تبتسم
وتالله لقد عجزت عن كفاح الدنيا بهذه الأعصاب المريضة الواهنة، فإن حبالة الصيد، صيد الوحش، لا تكون من خيط الإبرة. . .! وأراني أصبحت كإنسان حجري ليس في طبيعته الالتواء إلى يمين الحياة ويسارها؛ ويخيل إلى من صلابتي أني الأسد، ولكني أسد من حجر، لانقرض قوته الفرار منه على أحد!
قال أبو محمد: ورأيت نفسي في هذا الحوار كالميتة، لا تجيب ولا تعترض ولا تنكر؛ وكنت أظنها تراودني على الحياة أو تردني عن غوايتي؛ فملأني سكونها جزعاً، وأيقنت أن الشيطان بيني وبينها، وأنه أخذ بمنافذها، فأرادت الصلاة فثقلت عنها ورأيتني لا أصلح لها، بل خيل إلى أني إذا قمت إلى الصلاة فإنما قمت لأتهزأ بالصلاة!

وجعل الشيطان يأخذني عن عقلي ويردني إليه، ثم يأخذني ويردني، حتى توهمت إني جننت، وكأنما كان يريد اللعين بقية إيماني يجاذبني فيها وأجاذبه، فلم ألبث أن مسني خبال وألقيت هذه البقية في يديه!

ثم أفقت إفاقة سريعة، فرأيت (المصحف) يرقبني من قريب، فعذت به وعطفت عليه وقلت له: امنع الضربة عن قلبي. بيد أني أحسست أنه خصمي في موقفي لا ظهيري؛ كأني جعلته مصحفاً عند زنديق، فكان كل أيماني الذي بقي لي في تلك اللحظة أني ضعفت عن حمل المصحف كما ثقلت عن الصلاة، فبقي الطاهر طاهراً والنجس نجساً ولم تكن نفسي في ولا كنت فيها؛ فرأيت الدنيا على وجه لا أدري ما هو، غير أنه هو ما يمكن أن يكون معقولاً من تخاليط مجنون تركه عقله من ساعة: بقايا شعور ضعيف، وبقايا فهم مريض، تتصاغر فيهما الدنيا ويتحاقر بهما العقل

فلما انتهيت إلى هذا لم أعقل ما عملت، وكانت الموسى قد أصابت من يدي عرقاً ناشزاً منتبراً، ففار الدم وانفجر منه مثل ينبوع ضرب عنه الصخر فانشق فانبثق وتحققت حينئذ أنه الموت، فنظرت فرأيت. . .

قال المسيب راوي القصة: وتجهم وجه الرجل فأطرق وسكت، وكان على وجهه شفق محمر فأظلم بغتة عندما قال: (فنظرت فرأيت)

وأرتج المسجد بصيحة واحدة: فرأيت ماذا، رأيت ماذا؟ وبعثت الصيحة أبا محمد فقال: رأيت ثلاثة وجوه أشرفت من المصحف تنظر إلي كالعاتبه، وكان أوسطها كالقمر الطالع، لو تمثلت آيات الجنة كلها وجهاً لكانته في نظرته وبشاشته. وغمغمت بكلمات لم أسمع منها شيئاً، ولكن نظرها إلى كان يؤدي لي معانيها وكأنها تقول: (أكذلك المؤمن. . .؟) ثم غابت وتخلت عني وبرزت ثلاثة وجوه أخرى، كأنها نقائض تلك، وأعوذ بالله من أوسطها، لو تمثلت آيات الجحيم كلها وجهاً لكانته في نكره وهوله، وخيل ألي أن الوجه الأصغر منها وجه سورة من سور المصحف، ففكرت، فوقع لي مما قام في نفسي من اللعنة أنها: (تبت يدا أبي لهب وتب. . .)

وطمس الظلام هذه الرؤيا وتغيمت الدنيا، فأيقنت أن آثامي قد أقبلت على ظلمة بعد ظلمة، والتمع شيء أحمر، فنظرت فإذا الدم يتخايل في عيني كأنه شعل تتلوى، فجزعت أشد الجزع، وحسبتها طرائق ممتدة لروحي تذهب بها إلى الجحيم وماتت كل خواطري بعد ذلك إلا فكرة واحدة بقيت حية تأكل في قلبي أكل النار، وهي: (كيف تجرأت فوضعت بيني وبين الله حمقي؟)

ويقولون: إن أختي قد رأتني أتشحط في دمي فصاحت، وجاء الناس على صوتها، وكان فيهم طبيب، فبعد لأي ما استطاع حبس الدم، واحتال حيلته حتى أسف الجرح دواء وضمده، فجعلت أثوب نفساً بعد نفس، وراجعت قليلاً قليلاً. . .

ثم طافت الحياة على عيني ففتحتهما، فإذا الأشياء تبدو لي وليس فيها حقائق ولا معان، كأنها تتخلق جديدةً تحت بصري، وكأنها خارجة لساعتها من يد الله!

وتماثلت شيئاً بعد ساعات، فأحسست أن نفسي قد رجعت إلى ساخرة مني تقول: كيف رأيت عمل العقل أيها العاقل؟

وبدأت الحياة تتجدد، فأقسمت بيني وبين نفسي أن أجدد إيماني بالله. ولم أكد أفعل حتى أحسست كأن قوة الوجود كلها مستقرة في روحي، وخيل إلى أني أنا وحدي القوي على هذه الأرض قوة جبالها وصخورها، على حين كان جسمي ممدداً كالميت لا يتماسك من الضعف!

فأيقنت حينئذ ما لم أعرفه قط من الدنيا ولم أشعر به قط في الحياة ولم يأتني به علم ولا فكر: أيقنت أنها معجزة الأيمان الجديد الغض، المتصل بالله لتوه كأيمان الأنبياء دون أن تلمسه شهوة، أو تعترضه خاطرة، أو تكدره ذرة واحدة من فكر أرضي دنس

قال المسيب: ثم جلس المتحدث، وكان الناس في آخر كلامه كأنما غادروا الدنيا ساعة ورجعوا إليها على مثل حالته ومثل إيمانه؛ فسكت الأمام ولم يتكلم، ليدع كل نفس تكلم صاحبها

(للمجلس بقية)

(طنطا)

مصطفى صادق فهمي
شم النسيم
في مركز بوليس!
للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني
اشتهيت مرة أن اخرج إلى الظل، ورقاق بغيضة معشاب، وأن أجلس تحت شجرة عظيمة تميل على أفنانها من الري واللين، فقلت لصاحب لي: (إني في ارض واسعة سهلة، ولكني كرهت مقامي بها، وأضجرني منها أني لا أرى في فضائها الرحيب عوداً ثابتاً، ولا أسمع إلا صوت الرمال وهي تجري على رمالها وتوقع بعضه على بعض، وغدا شم النسيم، فتعال بنا إلى ناحية من الريف قريبة من بعض أرباض المدينة، وعسى أن أحمد بقعة في طريقنا، فأنزل بها وأسكنها، فقد اجتويت الصحراء كما قلت لك، وما أظن بي ألا أن الحنين إليها سيعاودني، ولكن البعد عنها سنة أو سنتين، يكون كالاستجمام، فما قولك؟)
قال: (وتخرج في شم النسيم؟)
قات (: ومالي لا أفعل؟ أهو حرام - علي وحدي؟)
(قال): لا، ولكنه يوم تكثر فيه العربدة، وأولى بك أن تلزم دارك - كعادتك
قلت (: يا أخي، الله يوسع لي في الأرض، وأضيق على نفسي! كلا، ولن نعدم مكاناً ننأى فيه عن ضجات السكارى والمعربدين، فاختر لنا مكاناً، وتوكل معي على الله)
فاختار (المرج)
وحملنا معنا كفايتنا من الطعام والشراب، وكنا أربعة - أو خمسة، لا أذكر - وركبنا قطار الزيتون وكان كالحمار النهاق البليد، يمضي ويتوقف، ويميل هنا وههنا، ولا يزال يصلصل، كأنما يقطع أرضا أو يصنع شيئاً يستحق هذه الضوضاء، وأنا أمرؤ خلقني الله أكره التثاقل والاسترخاء، وأحب أن أفرغ مما أكون فيه بأسرع ما أستطيع، فمشي قفز،، وأكلي لقم، وكلامي لغط، وخطى أشبه بما تتركه أرجل على الرمل، من فرط العجلة؛ ولا صبر لي على دلال امرأة، ولا أعرف التمهيد لشيء؛ فإنه لف أو تطويل لا موجب له؛ وما أكثر ما أحببت، وما أسرع ما سلوت، وكم قلت لامرأة: (يا صاحبتي لقد أحببتك، ولكنني لم أحبك ليوجعني رأسي وقلبي، فإن كنت لا تحسنين إلا تصديعي وتنشيف ريقي، وإلا هذا الذي تسمينه دلالاً، فلا يا ستي ويفتح الله عليك بغيري) وأدعه وأمضي، ولا أعود بعدها
إلى ذكرها. وما أكثر ما قلت لنفسي: (ما هذا يا مازني؟ إني أرى حبك قد طال ساعات، وهذا شيء يمل ويسئم، وليس معقول أن تحب غائباً كأنه حاضر معك! نعم معقول أن تحبه ساعة يكون إلى جانبك، ولكن بعد أن يمضي عنك أو تمضي أنت عنه، لا يقبل منك أن يظل قلبك يتلفت إليه ويشغل به عن سواه)
فتقول نفسي: (أي والله، صحيح)
وأستلقي على سريري وأغمض عيني، وأنام، ثم أقوم وقد نسيت حتى اسم من أحببت.
لهذا قلت لأصحابي (يا رفاق! ما قولكم؟)
قالوا: (ماذا؟)
قلت: (ننزل من هذا القطار ونذهب نعدو إلى جانبه)
فضحكوا ولم يسمعوا مني، ولكني كنت واثقاً أني أستطيع أن اسبقه على الرغم من عرجي؛ ونزلنا في (المرج) فلم نجد شجرة نجلس في ظلها، ولا جداراً يقينا وقدة الشمس، ولم نلمح في الأفق البعيد شيئاً يغري بالأمل، فقلت: أرجع إلى صحرائي فهي بي ارفق من هذا المرج فإن لي فيها على الأقل بيتاً آوى إليه، ولذي لا يرضى بالخوخ يرضى بشرابه
وإنا لكذلك وإذا بضابط يقبل علينا ويحيي واحداً منا، ويسأله عما جاء به، فيخبره أنه جاء معنا، ليشم النسيم، ولكنا لا نجد مكاناً ظليلاً نميل اليعه، فيقول الضابط الكريم: (تعالوا عندي)، فنسأله (عندك أين؟ فأنا لا نرى بيتا ولا كوخاً) فيقول: (في مركز البوليس، فإني ملاحظ النقطة!) فينظر بعضنا إلى بعض وأقول: (نشم النسيم في مركز البوليس! هذا جديد!) وترددنا، ولكنه ضابط بوليس، وتحت أمره قوة كافية لإرغامنا، فقلنا: (لا بأس! هي تجربة جديدة فلننظر ماذا عسى أن تفيدنا من المتعة؟ وما يدرينا؟ لعل مركز البوليس خير مكان نقضي فيه يومنا! وما نظن أن أحداً جرب ذلك من قبل،

فهي ميزة ننفرد بها ونستبد)
ودخلنا المركز، فدبت أقدام الجنود، وارتفعت أيديهم إلى رؤوسهم بالتحية، وتحركت عيونهم دون وجوههم، وجعلت تنظر إلينا وتتبعنا ونحن داخلون ومعنا السلة فيها الطعام والشراب، وصعدنا إلى غرفة فيها مائدة من خشب غير منجور، وحولها كراسي ثقيلة، وأنا نحيف هزيل، يقول أحد الأطباء في وصف جسمي إنه شبكة من الأعصاب تحملها طائفة من العظام، وتكسو هذه وتلك طبقة رقيقة من الجلد، ولا لحم لي ولا شحم فأحتمل الجلوس على
هذه الكراسي الناشفة، ولكن ما حيلتي؟
وجاءونا بأطباق وملاعق وسكاكين وأشواك وفوط، فسألت الضابط:
(من أين لكم هذا!)
قال: (ماذا تظن؟)
قلت: (أظنكم أخذتموها من اللصوص الذين وقعوا في قبضتكم)
قال: (أو لعلنا سرقناها؟ هيه؟)
قلت: (كل شيء جائز في هذه الدنيا! ومتى صار جائزاً أن نشم النسيم في مركز البوليس، فكل شيء بعد ذلك هين ومقبول ومعقول)
وكان الجنود كلما دخلوا علينا بصحن أو كوب أو فنجان، يدبون بأحذيتهم الضخمة الثقيلة، ويحيون، ويضعون ما في أيديهم الأخرى، ثم يعودون إلى التحية والدب بالأرجل، ويخرجون، وتكرر ذلك منهم ألف مرة، فقلت للضابط:
(ألا تعفيهم من هذا التكليف؟)
قال: (إنهم جنود وقد ألفوا ذلك فليس في وسعهم إلا أن يفعلوه)
قلت: (لو لم تكن معنا لما تكلفوه)
قال: (ولكني معكم)
قلت: (إذن فأعفنا نحن، فإنه إزعاج)
فسال: (كيف أصنع؟)
قلت: (والله لا أدري! هل تستطيع أن تختبئ تحت المائدة حين يدخل منهم أحد؟)
وأكلنا هنيئاً، وشربنا مريئاً، ولم تمنعنا هذه التحيات والدبات أن نضحك ونمزح، ولم يحل شعورنا بوجودنا في (مركز البوليس) دون التبسط والمرح، واحتجت بعد ذلك أن أنام دقائق، والنوم من عاداتي بعد الغداء، فإذا حرمته حرمت الراحة، وتفتر جسمي، وغاض معين نشاطي، وساء خلقي، وانقلبت مخلوقاً شرساً مشاكساً، وشريراً مجرماً، تقذف عيناه الشرر، ومن أجل هذا تتخذني زوجتي هولة تخوف بي الأطفال والخدم. فإذا رأت أني لم أنم بعد الظهر، أقبلت تقول: (تعال!)
فأقول: (إلى أين؟)
فتقول: (تعال خوف الأطفال، فإنهم لا يريدون أن يسكنوا!)
فأقول: (يا سيدتي، إن التخويف شر أساليب التربية)
فتقول: (دع هذه الفلسفة وقم، فقد كاد رأسي يطير من ضجتهم، ثم إن عند الجيران أطفالاً كثاراً يصيحون، فأخرج لهم وجهك من النافذة يخرسوا، وفي الشارع رجال يتشاجرون فاذهب إليهم واطردهم إلى شارع آخر)
فأهز رأسي وأقول: (تالله ما اشتهي إلا أن أخوفك أنت!) ثم أنهض آسفاً، وأصدع بما أمرت، فيهدأ البيت ويسكن الشارع، ويخفت كل صوت حتى صوت الترام، فينشرح صدرها وتقرعينها، وتتنهد مسرورة، وتقول: (ليت أنك لا تنام بعد الظهر أبداً!)
فأسألها: (أتكرهين لي الراحة؟)
فتسألني مغالطة: (أتكره أي أنت الراحة؟)
فلا أجد جواباً حسناً، وأسألها: (هل أستطيع أن أنام الآن؟)
فتقول: (وإذا قامت ضجة جديدة؟)
فأقول: (اطمئني. . . وفي وسعك دائماً أن توقظيني لهم) فتذهب تصف وجهي معجبة بما يكون مرتسماً عليه من مظاهر الإفزاع وبواعث الرعب، مباهية به وجوه القتلة والسفاحين وقطاع الطريق؛ ولكن هذا استطراد، فلنرجع إلى ما كنا فيه من شم النسيم
كان لا بد أن أنام، فنمت على كرسيين، حططت نفسي على واحد، ومددت ساقي

على الآخر، ولم يكن هذا فراشاً وثيراً بالمعنى الصحيح، ولكن النسيم كان عليلاً في مركز البوليس، فأغفيت دقائق زعمها أصحابي ثلاثين، وقالت لي عظامي المهيضة إنها كانت رقدة أهل الكهف

ولم تكن لي يومئذ زوجة، فلما عدت إلى البيت لاحظت أمي أشكو وجعاً في ظهري وتكسيراً في عظامي، فسألتني: (أين كنت؟)

قلت: (في مركز البوليس بالمرج)

فصاحت بي: (مركز البوليس؟ لماذا؟ ماذا صنعت؟)

قلت: (شممت النسيم!)

قالت: (أكنت تشم النسيم أم تضرب علقة؟)

وظلت إلى أن ماتت، وهي في شك من هذا الأمر

إبراهيم عبد القادر المازني

مصرع الصحافة العظيمة في ظل النظم الطاغية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

لا يستطيع مؤرخ أن يتجاهل الدور العظيم الذي أدته الصحافة في تطورات العالم السياسية والثقافية منذ أوائل القرن الماضي؛ ولا يستطيع مؤرخ الحرب الكبرى أن ينسى أن الصحافة كانت إلى جانب الجيوش والأساطيل أداة من أدوات النصر؛ وليس مبالغة أن توصف الصحافة الحديثة بأنها في الدولة سلطة رابعة إلى جانب السلطات الدستورية الثلاث: التشريعية، والتنفيذية، والقضائية؛ وفي ظروف معينة تبدو الصحافة أولى السلطات وأهمها في الدولة أو المجتمع: تنشئ حكومات وتسقط حكومات، وتحشد الرأي العام لتحقيق برنامج معين أو فكرة معينة، وقوتها في ذلك لا تعادلها قوة، ونفوذها لا يجاريه نفوذ. هذه حقائق بديهية لا تقتضي جدلاً أو مناقشة. وما زالت الصحافة في الأمم العظيمة الحرة هي صاحبة المقام الأول في قيادة الرأي العام، وفي توجيه القوى السياسية والاجتماعية. وفي عصرنا قطعت الصحافة في سبيل التقدم العلمي والفني مراحل مدهشة؛ ولكن الصحافة أصيبت في عصرنا أيضاً بأقسى محنة عرفتها في تاريخها القصير المدى. ففي عدة من الأمم العظيمة لقيت الصحافة ضربتها القاضية، وأصبحت شبحاً فقط لما كانت عليه من قبل، وجردت من أعظم وأسمى مظاهرها: حرية التفكير والكتابة؛ ولم تبقى سوى أداة ذليلة خانعة للقوى الطاغية التي تخنقها وتسيرها كيفما شاءت

وقد كانت الصحافة الحرة وما زالت مظهراً من أهم مظاهر الديمقراطية والنظم الحرة؛ وقد أصيبت الديمقراطية والنظم الحرة في عصرنا برجعة خطيرة، وأصيبت معها كل مظاهرها الحقيقية ومنها الصحافة؛ فحيثما نكبت الديمقراطية: في روسيا السوفيتية، وفي تركيا الكمالية، وفي إيطاليا الفاشستية، وأخيراً في ألمانيا الهتلرية، تلقى الصحافة أشد محنة عرفتها، وتسحقها النظم الطاغية التي رأت أن تتخذها مع باقي القوى العامة، أداة لتحقيق برنامجها وتوطيد سلطانها. وفي هذه البلاد التي يسود فيها الطغيان المطلق، لم يبق رأي حر يستطيع أن يتنفس، ولا رأي عام يستطيع أن يعبر عن شعوره أو يحدث أثره المشروع في الحياة العامة؛ ولا تستطيع أن تخرج من الصحافة إلا بصورة واحدة مكررة هي إرادة الطغاة ومزاعم الطغاة، تفرض على ملايين من الناس لا حق لهم في مناقشة أو تذمر، ولا يسمح لهم بغير التأييد الأعمى

وتزعم هذه الحكومات الطاغية دائماً بأنها تحظى بتأييد الأمة المطلق، وتحاول دائماً أن تتخذ من إجماع الصحافة المصفدة المسيرة دليلاً على هذا التأييد؛ ولكن كيف يعرف رأي أمة لا يسمح لها بإبداء الرأي، وكيف يوصف شعور أمة نحو الطغاة، وهي ممنوعة بالقوة عن إبداء هذا الشعور؟ إن حكومات الطغيان تسن من القوانين الاستثنائية ما يكفل إخماد كل صوت وكل رأي معارض، ثم هي لا تقف عند هذه القوانين، بل تلجأ في أحيان كثيرة إلى إجراءات الهوى، فتنزل بأولئك الذين يجرءون على معارضتها أشنع العقوبات من قبض واعتقال ومصادرة، بل ومن إعدام، كل من ذلك دون قانون ودون تحقيق أو محاكمة؛ وليس من المبالغة أن نقول إن الحياة البشرية في هذه الأمم، أضحت كالحريات العامة، دون ضمان وطمأنينة؛ وما زلنا نذكر كيف أن مئات من الألمان أزهقوا في 30 يونيه الماضي بيد هتلر ومعاونيه لريب في تأييدهم للنظام

القائم؛ وقد أهدر دمهم جميعاً لأن (الزعيم) أراد إعدامهم وكفى
تصفد الحرية الفكرية بهذه الأغلال حيثما يقوم الطغيان (الدكتاتورية). وقد كان البلاشفة أول من أخضع الصحافة لهذا النظام الحديدي، فلقيت في ظل العهد الجديد ما لم تعرفه في ظل القيصرية من القيود والأغلال المرهقة، ولم تلبث أن استحالت إلى أداة رسمية صماء لا رأي لها ولا إرادة، وخفت الرأي العام الروسي منذ ثمانية عشر عاماً فلا يعرف العالم لخارجي عنه شيئاً؛ وحذت الفاشستية حذو البلشفية في استبعاد الصحافة وإخماد هذا المتنفس الذي قد يثير حولها الصعاب إذا ترك طليقاً؛ ثم اقتفى الكماليون هذه الخطة في تركيا، وفرضوا على الرأي العام أغلالاً لم يعرفها في العصر الحميدي؛ ولما قام الطغيان الهتلري في ألمانيا، كانت أولى وسائله لتوطيد سلطانه أن يسحق الرأي العام الألماني، وذلك بسحق الصحافة متنفسه الطبيعي. وقد ذهب الهتلريون في ذلك إلى حدود لم تعرفها أشد عصور الطغيان
كان في ألمانيا، قبل أن يغمرها طغيان الوطنية الاشتراكية، صحافة عظيمة زاهرة تعد في مقدمة أعظم صحافات العالم؛ وكان لها نفوذها القوي في توجيه الرأي العام وفي التعبير عن رغباته وميوله، شأنها في كل الأمم العظيمة. ولكن زعماء النظام الجديد أدركوا قوة
الصحافة وخطرها على نظم الطغيان، فسحقوها بيد من حديد ووضعوا لها تشريعاً استثنائياً خاصاً يسلبها كل حرية وكل استقلال في الرأي، وجعلوا منها صناعة رسمية، ومن محرريها المسئولين عمالاً للحكومة؛ وأنشأوا وزارة خاصة للدعاية، تتمركز فيها جميع عناصر الوحي والرأي والقول في ألمانيا كلها؛ ولم يحجموا بذلك عن أن يمزقوا بيدهم آخر الأقنعة التي تستتر بها الدكتانورية، وأن يعترفوا جهاراً بأنهم هم الذين يوجهون الصحافة ويغذونها بكل عناصر القول والرأي؛ ولم يصفد الهتلريون الصحافة السياسية فقط، ولكنهم صفدوا كل أنواع التفكير والكتابة؛ والأدب والشعر، والفنون والعلوم وكل ألوان الثقافة، وجعلوا منها جميعاً أداة لبث مبادئهم وتمكين سلطانهم من أعناق الأمة التي يدعون الوصاية عليها. ومنذ أيام قلائل أصدرت الحكومة الهتلرية قانوناً استثنائياً جديداً يشدد أغلال الصحافة الألمانية ويقضي على آخر المظاهر التي بقيت لها. وقد وصف القانون الجديد بأن القصد منه (صون استقلال الصحافة) والواقع أنه يقضي على أخر ما بقى لها من لمحات الاستقلال، والمقصود به بنوع خاص أن يقضى على الصحافة التي تمثل مصالح المهن والطوائف والجماعات العامة، وعلى الصحافة الكاثوليكية التي ما زالت قوية في جنوب ألمانيا وغربها. وهو ينص على حرمان كل شخص لا ينتمي إلى الجنس الآري من العمل في الصحافة وكل متعلقاتها؛ وإذا أريد تغيير ناشر الصحيفة أو محررها وجبت موافقة السلطات؛ وإذا رؤى في أي جهة من الجهات أنه يوجد من الصحف ما يزيد عن حاجتها عطل منها ما كان زائداً عن الحاجة، وقد نص أيضاً على تعطيل جميع الصحف التي تعنى بنشر الحوادث الجنائية والاجتماعية ووصفت في المرسوم بأنها (صحافة الفضائح)، والخلاصة أن القانون الجديد لا يفسح مجال الحياة والظهور لغير الصحافة النازية الحكومية
ولقد كانت هذه الضربة الجديدة لقتل صحافة عظيمة مثار الاشمئزاز حيثما تقدس حرية الفكر والرأي، واستقبلتها الصحافة الإنكليزية بعاصفة من السخط؛ وكتبت (التيمس) مقالاً رناناً قالت فيه؛ (إن خضوع الشعب الألماني أمام تقييد حرياته ومورد أخباره يعتبر حادثاً مزعجاً جداً. وكيف يستطيع الشعب الألماني بعد ذلك أن يقف على الظروف الحقيقية للسياسة الدولية من هذه المصادر التي تقدم له الآن. وكيف يفهم الألمان عبارة (الاعتزال
السياسي) في أوربا، وهي عبارة يرددها زعماؤهم وهي في الغالب من صنعهم وتدبيرهم؟ وهل يفهمون الظروف الحقيقية التي قتل فيها الدكتور دولفوس المستشار النمساوي؟ والتي دبرت فيها مذبحة 30 يونيه في ألمانيا؟ وما يلقاه اليهود والسجناء السياسيون، وما يكون لهذه الأمور من أثر في الرأي العام الأوربي؟) وقالت الجارديان: (أن الصحافة التي كانت في ألمانيا من أعظم الحرف وأرفعها، تنحدر الآن إلى الحضيض. وليست الجرائد (النازية) الحالية التي حلت محل الصحف التي كانت من قبل من أمهات الصحف العالمية، سوى وريقات لبث الدعاية الخاصة؛ ولم يبق أثر للحرية الفكرية والجدل والمناقشة. وكان من مفاخر هذه الحرفة الكريمة في ألمانيا

أن عدداً عظيماً من كتابها وصحفييها آثروا الخراب والنفي والسجن على هذا الانحطاط الشنيع) ثم تتساءل الجارديان: (فهل بقي في الشعب الألماني روح حي يأسف على ضياع حرياته الفكرية والقلمية أو يثور على تلك التدابير التي تخذ لسحق هذه الحريات بصفة نهائية؟)

والواقع أن الصحافة الألمانية سقطت من عداد الصحافات العظيمة مذ تولى الهتلريون الحكم؛ ولم تفقد كل قوتها ونفوذها السياسي والاجتماعي فقط، ولكنها فقدت كل قوتها ونفوذها السياسي والاجتماعي فقط، ولكنها فقدت كل خواصها ومميزاتها الثقافية الممتعة التي كانت من قبل فجر التفكير الألماني؛ وأخذت الصحف الألمانية العظيمة تختفي من الميدان تباعاً بعد أن فقدت مركزها وخاصة قرائها، وامتدت النكبة إلى الصحافة الأدبية والفنية والعلمية، فأخذت تنحدر إلى نفس المصير المحزن؛ وتسيرها نفس الدعاية السياسية والثقافية التي غمرت ألمانيا؛ وغدت الصحف الألمانية العلمية التي كانت من قبل أسفاراً جليلة تحمل على الإعجاب والاحترام، أدوات للدعاية الهتلرية، تحدثك باستمرار عن نظريات (الزعيم) في خواص الجنس الآري، وانحطاط الأجناس السامية، وتفوق السلالة الألمانية، وأصول الثقافة الجرمانية القديمة، ويغره من المبادئ والنظريات الجنسية المتعصبة التي أصبحت ظاهرة الحياة العامة في ألمانيا، وأضحى أصدقاء الثقافة الألمانية الحرة في حيرة من هذا الخلط المحزن بين الحقائق والغايات العلمية، وبين النظريات والدعيات الحزبية التي جعلتها وزارة الدعاية الهتلرية فوق كل شئ في حياة الشعب الألماني وتشعر الدوائر العلمية والأدبية والطبقات المفكرة الألمانية عامة بخطر هذا التيار الجارف على مستقبل التفكير وال آدابالألمانية، ولكنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً لمقاومة هذا الخطر لأنها توضع تحت نفس انظم الجديدة التي جعلت من الصحافة ووسائل الثقافة الفنية كالمسرح والسينما والموسيقى والراديو، أدوات لدعوة الحزبية المحضة. ويشعر الزعماء الهتلريون أنفسهم بفداحة الأثر الذي أحدثه هذا الاستبعاد المطلق للتفكير الألماني، ويحاولون تبريره بمختلف النظريات والمحاذير. وملخص نظريتهم في ذلك هو أن الصحافة من مظاهر الأنظمة الحرة وخواصها، ومثل هذه المظاهر لا توجد في ظل الاشتراكية الوطنية؛ والمبادئ الحرة لم تسمح بتوحيد كلمة الشعب، والاشتراكية الوطنية تريد الشعب كتلة واحدة. وقد كانت الصحافة في عهد الحريات القديمة تستمد أعظم قواتها ونفوذها من الانتماء إلى الأحزاب، أو زال منه تلقاء نفسه انحدرت الصحافة الحرة إلى مثل هذا المصير، وفقدت أهميتها الحزبية والسياسية؛ والاشتراكية الوطنية لا تقيم وزناً للجدل السياسي، وفي رأيها أنه متى زالت البواعث الموجبة لهذا الجدل، وهو الخلاف الحزبي، فإن الصحافة تغدو أداة متماثلة في عملها ومظهرها. والاشتراكية الوطنية لا تعتمد على الصحافة كأداة للدعوة، ولكنها تعتمد في ذلك على الإذاعة اللاسلكية؛ وهي عمادها في قيادة الشعب وإرشاده. وأما الصحف فمهمتها أن تنقل للناس ما يسمعونه بواسطة (الراديو) لكي يعودوا فيقرءوه ويتدبروه. وأخيراً ترى الاشتراكية الوطنية أن الصحافة من الأنظمة القومية، فيجب أ، تكون حرفة رسمية تشرف عليها الدولة، ويجب ألا يشتغل بها سوى الآريين، فلا يسمح لليهود أن يشتغلوا بها سوى الآريين، فلا يسمح لليهود أن يشتغلوا بها أو يساهموا في امتلاكها (وهذا ما يقرره قانون الصحافة الهتلري). وكما أن الصحافة السياسية تتلقى كل مواد الكتابة والتعليق من المكتب السياسي بوزارة الدعاية، فكذلك تشرف على توجيه الصحافة العلمية والأدبية والفنية (غرفة للثقافة) وعلى توجيه الصحافة الاقتصادية والمالية (غرفة الدعاية الاقتصادية)، وهكذا يسير التفكير الألماني كله طبقاً لخطة حزبية موضوعة تقرر له المبادئ والمواد من وراء ستار وتلقنها إليه تحت سلطان القوة والوعيد

وهل نحن في حاجة لأن ندحض هذه النظريات والآراء الرجعية الطاغية؟ إن الاشتراكية الوطنية تعترف بأنها تقتل الصحافة لأنها لا تطيق النظم الحرة، وفي ذلك ما يكفي للحكم على تدليلها ووسائلها. ولقد كانت حرية التفكير في جميع العصور والأمم من خواص الأنظمة والحضارات العظيمة. ولكن ما هي الاشتراكية الوطنية الألمانية في الواقع؟ هي مزيج من الآراء والنظريات القومية والجنسية المغرقة، التي تحمل في معظمها

طابع التناقض وضيق الأفق، وهي في روحها واتجاهها، أشد طغياناً من البلشفية والفاشستية، وأشد إذكاء للشهوات والأحقاد الجنسية والطائفية، وهي أوهام أذهان ضيقة متعصبة، لا تؤمن بغير القوة والعنف؛ وإنما يسبغ العنف عليها طابع النجاح. ومن الطبيعي أن تمقت كل صنوف الحرية وتخشاها. والصحافة الحرة من أخطر القوى على نظم الطغيان

ولنلاحظ أخيراً أن محنة التفكير الألماني لا تقف عند مصرع الصحافة، بل هي أشد أثراً وأوسع مدى، فهي تشمل كل صنوف التفكير وال آداب والعلوم والفنون؛ وهذه كلها تخضع اليوم لنفس الأغلال والقوى، وتمزقها وتشوهها نفس الأهواء والشهوات الهدامة؛ وهي كلها تسير في ظل الاشتراكية الوطنية إلى نفس المصير المحزن الذي تنحدر إليه جميع القوى الروحية والفكرية في ألمانيا

محمد عبد الله عنان المحامي

أيا صوفيا

للأستاذ علي الطنطاوي

كنا في (أوتيل مكة المكرمة)، ذلك القصر الفخم، الذي كان للشريف عدنان حمى منيعاً، وحصناً حصيناً، يهاب الجبابرة الدنو من بابه، وتخشى الطير التحليق في سمائه، ويتجنب الناس النظر إليه إلا نظر الخائف الحذر، لأنهم يعلمون أن الكلمة متى خرجت من فم صاحبه كانت كسهم القضاء، من أصابت أصمت، وأنه ليس بين أحدهم وبين أن يقتل أو يدفن حياً في جب القصر المظلم، أو تهب أمواله، أو تحرق دوره. . . إلا أن يشي به إلى الشريف واش، أو تصيبه عرضاً نقمة من نقماته!

وكنا في الردهة الكبرى التي بناها فأجاد بنيانها، وزخرفها فبالغ في زخرفها، حتى كانت تحفة من التحف، وآية من آيات العمران، نعجب من تصاريف القدر، وأحداث الزمان: كيف ذهب الملك، واندثر السلطان، وغدا الشريف الجبار، الذي كان يتبختر في ثياب الوشي، وأردية الديباج، وتمشى أمامه العبيد بالسيوف، والخدم بالمجامر، ويسير وراءه الوجهاء والأعيان. . . كيف غدا بعد هذا الجمال الناظر، عظاماً نخرة، في حفرة مقفرة، وكيف استبدل بالقصر الكبير، هذا القبر الحقير، وكيف ذهب المال والولد، والخدم والعبيد، والحجاب والأعوان، والعداء الأخوان، ومات الحب والبغض، والخوف والرجاء. . حتى لكأنما لم يمر يوماً سيد مكة وجبارها، وكيف ورثنا القصر أياماً وليالي نطؤه مطمئنين، وننام فيه آمنين، ونأمر فيه مطاعين، لا نذكر صاحبه وبانيه، ولا نقيم له وزناً، ولا نحسب له حساباً!

كنا جالسين مع إخواننا رجال الوفد السوري، نتحدث أن لا بقاء للإنسان. وأن لا خلود في الدنيا، وأن الأيام دول، والدهر دولاب، فكم من عزيز قد ذل، ومن ذليل قد عز، ومن ملوك كانوا أعز من النجم، وأمنع من السحاب، ضاعوا وضاعت ذكراهم، فلا يغرن امرؤ بالدنيا:

فما الدنيا بباقية لحي وما حي على الدنيا بباق ولا يدخرون وسعاً في كسب الذكر للدنيا والأجر للآخرة، فما الحياة إلا حياة التاريخ، وحياة الجنة. . .

وكنت لا أني أسأل عن (الرسالة)، وألح على مدير الأوتيل وهو من المشتركين فيها، أن يأتيني بالأعداد الأخيرة منها، وقد كنت في دمشق إذا تأخرت (الرسالة) يوماً قلقت من تأخرها، وأشتد شوقي إليها، فكيف وقد مرت أربعة أعداد لم أرها؟ صدرت ونحن على هامش الحياة، من وراء حدود العالم، نسير في الصحراء سبعة عشر يوماً من دمشق إلى المدينة، لم نر فيها إلا ثلاث قرى، مالقينا من دونها بشراً ولا شجراً، ولا وحشاً ولا طائراً، وما أبصرنا إلا سلاسل الجبال، وتلال الرمل التي تتعاقب لا حد لها، فتانة متموجة، كأنها قد مرت عليها يد نقاش صناع، سبعة عشر يوماً، ملأت فصلاً طويلاً من سفر حياتي، بأعمق الشعور، وأشد العواطف

فلما جاءني خادم الأوتيل بأعداد الرسالة، أقبلت أصفحها وأقرأ من كل مقالة عنوانها، فرابني منها عنوان مقالة، ما إن قرأتها حتى سقطت الرسالة من يدي وعرتني رجفة وأحسست أن قد دبر بي خبر هائل تصدع له القلوب، قلوب المؤمنين حزناً وألماً، وتندى له الجباه حياء وخجلاً، وتكل عن وصفه الألسنة دهشة وتفظعاً

ذلك إن الجمهورية التركية، لم يشف غيض قلوبها، كل ما صنعته بالإسلام، وما أنزلته بأهله، فعمدت إلى بيت من بيوت الله، تقام فيه شعائر الله، فجعلته بيتاً للأصنام،

ومثابة للوثنية، أماتت فيه التوحيد، وأحيت فيه الشرك، وطمست منه آي القرآن، وأظهرت فيه الصور والأوثان، لم تضق بها الأرض حتى ما تجد مكاناً لمتحفها هذا إلا المسجد الجامع، ولكن النفوس الملحدة ضاقت بهذا المسجد، وأحس أصحابها كأن هذه المآذن في عيونهم، وكأن هذه القبة على ظهورهم، وعشيت أبصارهم من نور الله، فأرادوا ليطفئوه بأفواههم، ويمنعوا مساجد الله أن يذكر فيها أسمه، فعطلت الصلاة في أيا صوفيا فلا تقام فيها بعد اليوم - وسكت المؤذن فلا يدعو في مآذنها إلى الله - ولا يصدع بالتهليل والتكبير، ونأى عنها المؤمنون فلا يدخلونها إلا مستعبرين باكين، يندبون فيها مجد الإسلام، وعظمة الخلافة، وجلالة السلطان، وذل فيها المسلمون وصاروا غرباء عنها وهم أصحابها وأهلوها، وعز فيها المشركون، وشعروا أن أيا صوفيا قد ختمت فيها صفحة الإسلام، باسم هذا الـ. . (أتاتورك) كما فتحت باسم (محمد الفاتح)!

أيا صوفيا التي صيح في مآذنها خمسين وثلاثمائة واثنتين وسبعين وثمانمائة (872350) ألف مرة: حي على الصلاة، حي على الفلاح. الله أكبر الله أكبر. . . لا إله إلا الله، فاصطف فيها المسلمون خاشعة أبصارهم مؤمنة قلوبهم، ساكنة جوارحهم، قد وضعوا الدنيا

تحت أقدامهم، ودبر آذانهم، وأقبلوا على الله بخشوع وإخلاص، فجزاهم بما خشعوا وأخلصوا، قلوباً استنارت بالإيمان، وعمرت باليقين، وكان القلب منها وهو يخفق بين جوانح صاحبه، أكبر من الأرض وهي تجري في ملكوت الله. . . فملكوا بهذه القلوب الأرض، وفتحوا بها العالم!

أيا صوفيا التي بات فيها المسلمون سبعين وأربعمائة وأربعاً وسبعين ومائة ألف (174470) ليلة، ولهم في جوفها دوي بالتسبيح والتكبير والتهليل كدوي النحل، وما في أرضها شبر لم يكن موطئ قدم مصل، أو مجلس قارئ، أو مقام ذاكر، أو مقعد مدرس أو سامع، وليس يحصى إلا الله، كم ختم فيها من ختمة، وكم ألقى فيها من درس، وكم ذكر فيها الله، وكم أقيمت فيها الصلاة!

أيا صوفيا التي تشهد كل حجرة فيها، وتشهد أرضها وسماؤها، وتشهد قبتها المشمخرة، وتشهد مآذنها السامقة، ويشهد الناس، ويشهد الله وملائكته، أنها بيت من بيوت الله، وحصن من حصون التوحيد، ودار من دور العبادة. . .

أيا صوفيا. . . تعود للجبت والطاغوت، وتحمل الصور والأصنام، ويخسرها الإسلام والشرق، ليربحها الكفر والغرب؟ لقد أريقت حول أيا صوفيا دماء زكية، وزهقت في سبيل أيا صوفيا أرواح طاهرة، من لدن معاوية إلى عهد الفاتح، إلى عهد عبد الحميد. . . أفراحت الدماء هدراً وذهبت النفوس ضياعاً، وعادت أيا صوفيا بعد سبع وثمانين وأربعمائة سنة وكأنما لم يذكر فيها الله، ولم يتل فيها القرآن، ولم تقم فيها الأئمة، ولم تتجاوب مآذنها بالأذان؟

لقد بنى المسلمون هذا المجد على جماجمهم، وسقوه بدمائهم، وحموه بسيوفهم، ثم وقفوه على الإسلام، أفيأتي في ذيل الزمان، من يعبث بالوقف، ويهزأ بالدماء، ويلعب بالجماجم، ثم لا يردعه رادع، ولا يعظه واعظ؟

ومن هم الأتراك لولا الإسلام؟ على أي حسب يتكلمون، وبأي نسب يفخرون، وبأي ماض يعتزون، وبأي مجد يباهون؟ أبمجد رعاة البقر في تركستان، أم بمجد أرطغرل بك، وقد جاء من مشرق الشمس بدوياً جافياً فقيراً لا يملك إلا أعنة ركائبه، وطنب خيامه، يفترش الغبراء، ويلتحف السماء، فصار أحفاده بالإسلام سادة القارات الثلاث؟ أفرأيت من ينطح برأسه الصخر، ويشرب بفيه البحر، ذاك هو التركي حين ينكر الإسلام، ويسعى لإيذائه. إنه لا يحطم الصخر، ولا يجفف البحر، ولكن يمشي على رأسه إلى القبر، وإن الإسلام إلا يكن بالترك يكن بغيرهم، ولكن الترك إلا يكونوا بالإسلام لا يكونوا والله بغيره أبداً. .

.

وعدنا نعتبر ونتحدث أن لا بقاء للإنسان، وأن لا خلود في الدنيا، وأن الأيام دول، والدهر دولاب، فكم من عزيز قد ذل، وكم ذليل قد عز، وكم من ملوك (ورؤساء جمهوريات) كانوا أعز من النجم، وأمنع من السحاب، ضاعوا وضاعت ذكراهم وأن (الشريف عدنان) مهما يكن جباراً قوياً، فنه سيصبح ويصبح أعوانه، رمماً بالية، في حفر خالية،

وسيبقى الله، وسينصر دينه، ويؤيد حزبه (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)
أيها (الشريف عدنان)! لاتغتر، قد ورثنا القصر، وورثت القبر، وهدمنا ما بنيت، وبنينا ما
. . .هدمت. . وما هدمت إذ هدمت، إلا مجدك في التاريخ، وأجرك في الآخرة
مكة المكرمة
علي الطنطاوي
صديقي الكاظمي
للأستاذ الشيخ عبد القادر المغربي
رئيس المجمع العلمي بدمشق
قرأت في الرسالة (عدد96) نعي شاعر العرب الأكبر الشيخ عبد المحسن الكاظمي
رحمه الله. فألمت لفقده، وتذكرت سابق عهده، وقديم وده
وقد ذكر ناعيه من خبره: (إنه لاذ بكنف الإمام محمد عبده الذي ظاهر نعمه عليه. وإنه
نكد عيشه بعد الإمام، فرضى بالكفاف من الرزق) فرأيت خدمة للتاريخ، وتوفية لحق
الصديق، وتنويراً لسيرة حياته - أن أضيف إلى الجملة المذكورة ماله من اتصال بها، أو
هو كالشرح يعلق عليها
عرفت الشيخ عبد المحسن في إدارة (المؤيد) لأول عهدي بالتحرير فيه. وهناك توثقت
بيني وبينه عرى المودة، وأخذت أعرف من دخيلة أمره ما لا يعرفه سواي. وكان ذلك
بعد وفاة أستاذنا الأمام بسنة ونيف
ومما أخبرني به أن الإمام رحمه الله كان يتعهده في آخر كل شهر بعشرة جنيهات:
يودعها غلافاً ثم تسلم إليه في داره من دون أن يشعر بما في الغلاف أحد. وبعد وفاة
الإمام لم يجد مندوحةً عن السعي لدى الخديو في أن يكون له مرتب شهري من
الأوقاف. فتوسط في هذا الأمر الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد. فكان الشيخ يراجع
الخديو في تقرير الراتب، والخديو يأبى - كلما روجع بشأنه - إلا الرضخ له من مال
الأوقاف بنحو خمسين جنيهاً؛ وكنت أذهب مع الشيخ عبد المحسن إلى الديوان
فيقبضها. وقد تكررت هذه المعاملة المرة بعد المرة. والشيخ عبد المحسن في كل
مرة يظهر التأفف من تناوله المعونة على هذه الصورة التي ما كان يراها تتفق مع
كرامته وإباء نفسه. وكان يلح على الشيخ علي: تارةً بنفسه، وطوراً بواسطتي - أن
يكلم الخديو في تعيين راتب شهري مقطوع: (عشرة جنيهات فقط) يربحه بها من عناء
التوسط ومكابدة المعاملات الديوانية وان انتساب الشيخ الكاظمي إلى الإمام المفتي
إن كان من شأنه أن يحدث فتوراً نحوه في نفس الخديو، فما كان قط ليحدث مثل هذا
الفتور في نفس الشيخ على يوسف. فكنا ننزه الشيخ علياً عن وصمة الفتور، لكننا كنا
واقفين وقفة الإيجاس من حالة الخديو عباس
ثم ضاق الشيخ عبد المحسن بالأمر ذرعا، فكلفني أن اخذ من الشيخ علي وعدا بإنجاز
المسألة مع الخديو: أما سلبا يريح النفس أو إيجاباً يزيح العلة
فتركت الشيخ عبد المحسن في غرفة التحرير، ودخلت على الشيخ علي، وبلغته
الرسالة، وكان يصحح مقالةً للطبع. فترك القلم من يده، وتنفس الصعداء ثم قال: ماذا
أصنع يا أستاذ؟ أنهيت القضية أمس مع الخديو، ووعد وعداً أكيداً بإصدار أمره بتعيين
الراتب، وقد شكرت له وخرجت من عنده. لكنني لم أكد أبرح الباب حتى دخل عليه
بعض الناس (ولم يسه لي) فقال للخديو: رأيت فلاناً خارجاً من عندك، فماذا يبغي؟
قال: قررنا راتباً للشيخ عبد المحسن الكاظمي. قال: أنسيت أنه الشاعر المفتى، وقد
قال فيه من الشعر كذا وعرض فيك بكذا وكذا؟
قال الشيخ علي: فما كان من الخديو إلا الشح برفده والنكول عن وعده
فلما وعيت هذا رجعت إلى الشيخ الكاظمي، فأخبرته الخبر، فتأثر جد التأثر، وقال لي:
أتعرف من هو بعض الناس؟ قلت: لا. قال: هو أحمد شوقي
وكنت إلى ذلك الحين لم أعرف سعادة أحمد شوقي بك رحمه الله، ولا اجتمعت به،
وإنما لقيته بعد ذلك في إدارة المؤيد وقد طلب من الشيخ علي أن يراني فتلاقينا
وتعارفنا
ثم قال لي الشيخ عبد المحسن: وما الحيلة الآن يا أستاذ؟ قلت: تحسين العلاقة مع
أحمد شوقي بك، ففارقته على نية اللقاء في وقت نذهب فيه إلى (كرمة ابن هانئ)،
وكانت الكرمة بنيت، حديثاً فذهبنا إليها وأرسل الشيخ عبد المحسن بطاقته إلى البك،

فأجيب بأنه خرج، أما الشيخ عبد المحسن فقد أقسم أنه لم يخرج، وإنما أراد ألا يقابله ومن ذلك الحين يئس من الخديو والراتب. وفوض أمره إلى الله. ثم لما اشتد به المرض، ولازم داره في (درب الكحكيين) جعلت أتردد إليه فيها، وكنا نقضي ساعات في الحديث ورواية الشعر ومطارحة الأدب وأخبار الأدباء، وخاصة أدباء العراق من الشيعة، وقد لخصت بعض أحاديثه عنهم في أملية العدد الصادر في 1 يوليو سنة 1907 من (آمالي الأدب) التي كنت أنشرها في (المؤيد) من وقت إلى آخر وكان الشيخ عبد المحسن يخص بإعجابه من بين شعراء العراق (إبراهيم الطباطبائي النجفي) الذي جمع بين جودة الشعر وحسن الإنشاد ورخامة الصوت، وهو الذي يقول في
صغيريه حسن ومحمد من قصيدة:

أما وضوء الأبيضين لأنتما ... قمراً سعودي في الليالي السود
ما أنتما إلا كقرطي غادةٍ ... يتذبذان على خدود الخود

وتأخرت عن زيارة (الكاظمي) أياماً فكتب إلى بهذه الأبيات:

يا من تحيّرتُه دون الرفاق أخاً ... ألقى به عادياتِ الدهر والأزما
عد مدنفاً كاد يُملي جسمه سَقم ... لعل قربك منه ُيبعد السقماُ
إذا ألمتْ به غماءُ جائحة ... فنور وجهك عنه يكشف الغما
كم منة لك طول الدهر في عنقي ... مازلت أذكرها أو أسكن الرجما

وقوله (الأزما) بكسر الهمزة وفتح الزاي جمع أزمة بمعنى الشدة والضيق، وهو جمع نادر. ومنه قولهم في جمع (بدرة) (بدر) ولم آسف على شيء أسفي على خبرين كان حدثني بهما فلم أستقص تدوينها في مذكراتي عنه

(الأول) ما وصفه لي من نشأته الشعرية تحت إشراف أخيه الأكبر، وكانت دار أخيه (في بغداد أو الكاظمية) مثابة لشعراء الشيعة وأدبائهم. فكان الكاظمي الحدث يطارحهم الأدب ويسابقهم إلى قرض الشعر، وكان أحياناً يجيد إجادة يعجب بها القوم ويهتز لها أخوه طرباً وسروراً. وأنشدني قطعاً من شعره قالها لمناسبات عرضت في تلك الاجتماعات فاتني تدوينها مع المناسبات التي قيلت فيها

(الثاني) ما وصفه لي من إلحاح الفاقة عليه في بعض الأيام حتى أنه سأل تاجر الدجاج الذي كان يبتاع من دجاجه أن يصف له طريقته في تفريخها وتغذيتها والقيام عليها ليعتاش هو من وراء ذلك. فوصفها الرجل له. وحاول أن يجربها، ففعل. وأصبح عنده ألوف من الفراريج. وكان يعتني بها ويطعمها الأرز، لكنه لم ينجح في تجربته، وكانت الخسارة عليه عظيمة. قال: وما كان يخطر لي قط أن الكتاكيت سريعة العطب، رقيقة المزاج إلى هذا الحد. وأنها إذا لم يتدبر صاحبها أمرها بانتباه وفرط حيطة، ومراعاة الأصول في تغذيتها وتدفئتها لا يبقى من الألف منها سوى بضعة عشر كتكوتاً وكان في سرده لهذه الحادثة استقصاء دقيق، ودرس اقتصادي عميق، وفكاهة تسري عن النفس البائسة كآبتها، وتعيد إلى الأسارير العابسة بشاشتها

ولما زرته في السنة الماضية مع صديقي الأستاذ (الهراوي) في داره بمصر الجديدة ظننت أنه يمكنني محادثته بشأن كتاكيته، فلم أصادف من صحته ونشاطه ما يساعد على الكلام في هذا الموضوع، وإنما اقتصر حديثنا على وصف المسرة بتلاقينا بعد نحو ثلاثين سنة من تنائينا

والكاظمي ينظم الشعر على طريقة شعراء عرب الجزيرة من حيث متانة الأسلوب وجزالة الألفاظ، وربما امتاز عن كثيرين منهم يخلو شعره من المعاظلة والتعقيد والأغراب

وكما أنه تفوق على شعراء زمانه بهذه الطريقة الفحلة نراه امتاز عنهم أيضاً في أنه يرتجل الشعر ارتجالاً غاية في السلاسة لا جمجمة فيه ولا تلكؤ. وإذا إرتجله وقع شعره المرتجل في قالب طريقته الشعرية المطبوعة، أي إنه مهما طال نفسه في الارتجال جاء شعره المرتجل موسوماً بطابعه الشخصي، متقاوداً مستوى المتون، لا تشاخس فيه ولا تفاوت؛ لا يخذل آخره أوله، ولا ينوء عجزه بكلكله، وهذا موضع الغرابة في ارتجاله. وربما لا يجاريه في هذه المزية إلا القليل من الشعراء الأقدمين بله المتأخرين من شعراء هذه الأيام

ومن ظريف أخبار بداهته ما اتفق لي معه: ذلك أنه زارني يوماً في إدارة المؤيد،

فابتدره زميلي الصحافي المشهور سليم سركيس رحمه الله بالعتب الشديد عليه لإغفاله تهنئته بزيه البلدي الجديد وكان من خبر هذا الزي أن (سليماً) تضايق من اللبوس الإفرنجي المحزق ولا سيما ياقة القميص المكوي، وربطة الرقبة (الكرافات) وشطاطها أو بكلتها التي كانت تمنعه الحركة وإدارة رأسه يمنة ويسرة وهو يحرر ويترجم والفصل فصل الصيف والحر حر القاهرة. فما كان منه إلا أن أعلن هجر ذلك الزي والزراية عليه، واصطنع لنفسه الزي البلدي: قفطاناً مشدود الوسط بالزنار، ويحيط أعلى القفطان بعنقه من دون الياقة ولا عرى ولا أزرار؛ وقد سدل فوق القفطان جبةً بلديةً مخصرة الوسط، فضفاضة الأذيال، سهلة الطي، سريعة اللي. وأعلن خبره هذا في الصحف المحلية مشفوعاً برسمه العربي الأصيل، وزيه البلدي الجميل؛ وأخذ إخوانه المحررون - وهم كثر - يصفون خبره في صحفهم، والشعراء منهم يهنئونه بقصائدهم

وكان صديقنا (سليم) تعجبه طريقة الصحافي الأمريكي الكبير (برزباين) الذي يتخذ في موضوعات كتابته من الحبة قبة، فكيف لا يتخذ هو موضوعاً يلذ المصريين من القفطان والجبة؟

وكم مرة سمعته يقول: إنني أنا الكاتب الصحافي، وقد تلقيت فن الصحافة من سفري إلى أمريكا ومعاشرة صحفييها. أما زميلاي: (المنفلوطي) و (المغربي) فليسا صحافيين بالمعنى المقصود من كلمة الصحافة: المغربي كاتب عالم، والمنفلوطي كاتب شاعر

فلما دخل علينا السيد الكاظمي وأسمعه سليم عتبه عليه قال له:

ألِقُ دواتك واقربُ ... وخذ أداتك واكتبُ

ثم جعل يرتجل شعراً في مدح سليم، ووصف زيه الجديد يمليه عليه وهو يكتب. حتى إذا طال نفس القول اعترضته أنا قائلاً: أرى أنه سيكون لهذه القصيدة نبأ عظيم بين أدباء القاهرة، فلم لا يكون لي فيها ذكر وأنا ثالثكما وشاهد حادثتكما؟ فتحول الكاظمي عن (سليم) وأقبل علي، وخاطبني ببضعة أبيات من شعره المرتجل على وزنه وقافيته. ثم عاد إلى إتمام الكلام في سليم حتى أكمل قصيدة بلغت الثلاثين بيتاً فيما أذكر، وقد نشرها صديقي سليم في مجلته - سنتها الثانية أو الثالثة - وحكى القصة كما وقعت، لكنه ذهب إلى أنني، إنما اقترحت على السيد الكاظمي أن يذكرني في القصيدة امتحاناً له، واستيثاقاً من أمر ارتجاله. رحم الله (الكاظمي) وعوضنا الدهر منه ولا أراه فاعلاً

دمشق

المغربي

رئيس المجمع العلمي العربي

ماذا يقولون عنا؟

العالم الإسلامي

فرنسا وشمال أفريقية

ترجمة مقال نشرته مجلة (لموا) لكاتب فرنسي مطلع

العالم الإسلامي:

العالم الإسلامي إمبراطورية واسعة تنقسم كالعام المسيحي إلى عدد كبير من الممالك التي تجمعها عقيدة مشتركة ويفصلها اختلاف الجنس والموقع الجغرافي والنظام السياسي. وهذه الممالك تتفاوت درجات تقدمها الاقتصادي والفكري تفاوتاً شديداً. ففي نجد وملحقاتها التي تسمى الآن المملكة العربية السعودية لا تزال تسود حياة القبائل الرحل، بينما نجد تركيا والبلاد التي تحت الانتداب الفرنسي والبريطاني وأفريقيا الشمالية قد بلغت الآن درجة رفيعة في مدينتها الصناعية.

نهضة العالم الإسلامي:

ولقد كان من نتيجة احتكاك هذه الممالك بالمدينة الحديثة أن دخلت كلها في دائرة النشاط العالمي بعد أن كانت بعيدة - مع تفاوت درجات هذا البعد - عن تيارات التعامل الكبرى. وذلك هو ما يمكن أن نسميه نهضة العالم الإسلامي، ويقصد بها نفس ما قيل عن نهضة الصين. ولقد عجلت الحرب الكبرى هذه الحركة بصهرها شعوب العالم في الأتون الجهنمي، فقد كان لهذه الحرب نتيجتان - على الأخص - غير منتظرتين ولكنهما كانتا عظيمتي الأثر؛ إذ منحت اليهود وطناً قومياً في فلسطين فتحقق بذلك الحلم الذي

كان يسعى وراءه بنو إسرائيل منذ تخريب بيت المقدس على يد عام 70م. ثم حررت العالم العربي من الحكم التركي

وبعد الحرب سارت نهضة العالم الإسلامي بخطوات سريعة لأن المحاربين وجدوا أنفسهم مضطرين كيما يصلحوا الأضرار التي أصابتهم إلى أن يوسعوا تجارتهم ويجدوا للحصول على أسواق جديدة، فكان استغلال المناجم وأعمال الري وبناء الطرق والسكك الحديدية

والسيارات والطيران وبعبارة موجزة (كل المعدات الحديثة للدول الشرقية التي تقوم على قدم وساق وتعمل على تغيير أحوال معيشتها تغييراً عميقاً) ولقد انقلبت دار الصناعة رأساً على عقب وهي التي عليها تقوم حياة البلاد الاقتصادية. وذلك بسبب طرق الصناعة الحديثة ومنافستها. ففي عام 1932 كانت المنسوجات اليابانية تعادل 70 % مما في أسواق العراق، وفي سوريا توقفت صناعة النسيج وكان في ذلك القضاء الأخير على دور دودة القز

ولقد نتج عن ذلك كثير من ضروب العراك بين المعتقدات والعوائد الماضية، وبين الأفكار والمستلزمات الجديدة. فلا تزال المساجد مركزاً للهياج السياسي، ووسط جزيرة العرب لا يزال متمسكاً بالقانون الديني التقليدي الذي يقول بقطع يد السارق، والجماهير لا تزال في كل مكان شديدة التأثر بخطب المهيجين. على أن نخبة القوم في مصر وسوريا والعراق يهجرون شيئاً فشيئاً الدراسات الدينية، ويوشك أن يزول أثر الإسلام في شئون الحكومات. وبالرغم من ذلك فقد أثار تحرر تركيا من سيطرة الدين كثيراً من الاضطرابات. على أن ضروباً من التقاليد المقدسة قد أمحت الثقة بها، وثل ذلك أعمال الدراويش في حلقات الذكر. ومن ناحية أخرى فإن مسألة القبعة وإن لقيت تقدماً بطيئاً نجد مشكلة حجاب المرأة لم يطرأ عليها تغير ما بالرغم من الثورة التركية. أما الخلافة فليس لها الآن إلا عدد قليل من الأنصار إذا استثنينا الهنود

في وسط هذه الحركات المختلفة نرى اتجاهين رئيسيين كانا نتيجة لتقدم السكان ورقي البلاد: اتجاه توحدي واتجاه قومي

الاتجاه التوحدي:

إن الاتجاه التوحدي يستمد قوته من النهضة العامة للضمير الإسلامي، ومن شعور هذه الممالك باشتراكها من حيث الأصل. وهذا الشعور يقويه مكافحة الغرب وكره الأجنبي.

ومن هنا قامت كل هذه الهيآت والمؤتمرات التي تحاول جهدها أن تربط جميع الشرقيين على اختلاف طبقاتهم وأديانهم وممالكهم لتوجههم إلى غرض واحد هو الاتحاد ومقاومة الأجنبي. ولاجتماعات المسلمين في الظاهر صفة دينية على الأخص. وهي بغية الوصول لتحقيق فكرة الجامعة الإسلامية، لكن فكرة مؤتمر مكة قد أهملت دون أن يصيبها النجاح

ويؤكد بعضهم من جهة أخرى أن عدد الحجاج الذين (في عام 1930 وعام 1931) يذهبون إلى مكة قد هبط من 120ألفاً في عام 1929 إلى 90ألفاً في عام 1930 و 70 ألفاً في عام 1931 و 30 ألفاً في عام 1932 ومن 20 ألفاً إلى 25 ألفاً في عام 1933 ولم يأت من مصر إلا ألفان من الحجاج عام 1933 وليس للأزمة الاقتصادية إلا أثر جزئي في هذا الهبوط

والواقع أن فكرة الجامعة الإسلامية تصطدم باستحالة توجيه ثلثمائة أو أربعمائة مليون من المسلمين. كما أن الفكرة الدينية لا تكفي لربط العالم الإسلامي وحفزه. وهناك برهان مادي على صدق هذا القول وهو فشل فكرة الخلافة: (ففكرة الخلافة التي تقاومها السلطات التركية باستمرار في كل المناسبات يظهر أنها قد ماتت تماماً في الوقت الحاضر في البلاد العربية. ولقد أعلن الملك عبد العزيز بن سعود نفسه وهو يستقبل الحجاج في مكة أنه لم يجر ولن يجري مطلقاً وراء لقب خليفة المسلمين. فالخليفة يجب عليه مراقبة أوامر الدين ونواهيه في كل أجزاء الأرض. وفي عصرنا الحاضر لا يوجد رجل قادر على أن يضطلع بهذا الأمر. وعلى ذلك فإن النهضة الدينية في الشرق الإسلامي يمكن اعتبارها (رد فعل) في سبيل الدفاع السياسي أكثر منها بداية نهضة. فالإسلام هو الآن قوة لمكافحة الاستعمار الغربي واليهودي، لكن أثره في حياة الحكومات يفقد تدريجياً خطره الذي كان له في الزمن السابق. ويجب أن نضيف أيضاً أن مما يتفق وتاريخ المدينة الإسلامية ما نراه الآن من تقدم حركة دينية قوية

ترمي إلى توحيد قوى قسمتها السياسية، وإقامة جبهة صلبة ضد الغرب) ومنذ عهد قريب تبذل الجهود لبعث النشاط الإيجابي في كل عضو من جسم العالم الإسلامي ولقد نتج عن الحبوط (النسبي) لفكرة الدينية أن اتخذت كل الحركات المبذولة في سبيل الوحدة صبغة سياسية. وقد قوى تقدم الحركة الصهيونية في فلسطين الشعور بواجب الدفاع عن بيت المقدس وهو المدينة المقدسة الثانية للعالم الإسلامي. وفي أثناء عام 1931 دعا المفتي الأعظم إلى المؤتمر الذي عقد في ديسمبر، (وكان الغرض من هذا المؤتمر يبدو أولا دينياً محضاً: وهو التعاون الإسلامي ونشر الثقافة الإسلامية ومقاومة الإلحاد، والدفاع عن الأراضي المقدسة، والمحافظة على التقاليد، وإنشاء جامعة علمية في بيت المقدس،
وبحث حالة سكة حديد الحجاز) والواقع أنه لم يكن المحافظة على البرنامج المبدئي. فقد كان من اللازم التوسع فيه حتى يستطيع أن يعالج أيضاً موضوعات مختلفة تهم حالة الشعوب الإسلامية من الناحيتين السياسية والثقافية. وبالرغم من ذلك فإن سلطة المؤتمر قد ضعفت لغياب الممثلين الرسميين لمصر والعراق ونجد، وبتأكيد الحكومة التركية عداوتها لكل سياسة داخلية أو خارجية (تستخدم الدين كوسيلة سياسية)، وفي بيت المقدس نفسه أعلن الحزب المعادي للمفتي الأكبر أن الرؤساء المسلمين لم يؤيدوا المشروع إذ لم يؤخذ رأيهم فيه

الجامعة العربية:

ومنذ الحرب الكبرى، أو بعبارة أخرى منذ سقوط الإمبراطورية العثمانية تتخذ الحركة التوحدية صبغة جديدة. فالجامعة الإسلامية قد تحولت إلى توسع استعماري عربي. إذ حلت محل الفكرة الدينية التي حاق بها الضعف فكرة الوحدة الثقافية: أي وحدة البلاد التي تتكلم اللغة العربية، والتي يبلغ مقدارها 70 مليوناً، ولقد بذل منذ نصف قرن على الأخص مجهود في سبيل اللغة - لم يكن الغرب يشك في قوته - كان له أثر في تغيير الحالة الثقافية للبلاد العربية لدرجة أنه لم يعد من السهل المقارنة بين اللغة القومية واللغات الأجنبية من جهة، وبين البلاد العربية وأفريقيا الشمالية من جهة أخرى. وفي منتصف القرن التاسع عشر كان السكان الذين يتكلمون اللغة العربية في الشرق الأدنى وخصوصاً في سوريا وفلسطين يعتمدون على المصادر التي لا بأس بها في لهجاتهم الدارجة، وكانت اللغة الفصحى غير كافية، ولم تكن تؤدي الحاجة الضرورية. لذا كان من اللازم الالتجاء إلى اللغات الأجنبية كالفرنسية والإنجليزية والتركية واليونانية والروسية ولقد غيرت هذه الحالة تغييراً عميقاً بخالق لغة فصحى حديثة. وكان مركز الحركة في دمشق وفلسطين وبغداد. وكان جعل التعليم العام باللغة العربية الفصحى الحديثة في كل البلاد الشرق الأدنى مما ساعد بطريقة أكثر تحقيقاً للغرض على التقليل المسافات التي تفصل لغة الكتابة عن اللغة الدراجة. وتبين الإحصاءات المدرسية التي نشرت في السنين الأخيرة في مصر وسوريا ولبنان والعراق وفارس أن عدد طلبة المدارس قد أزداد بعد الحرب في معظم هذه البلاد 300 % إلى 600

وفي ظل هذه الأشكال المختلفة التي تبدو بها حركات الجامعة الإسلامية والجامعة العربية قام عمل متوصل لتعديل الالتزامات المالية والاقتصادية والسياسية التي عقدتها أو فرضتها البلاد الغربية. وهذا التعديل يصعب على الأخص في بعض البلاد مثل فلسطين حيث يتقابل وجها لوجه العنصران اليهودي والعربي اللذان حررتهما الحرب. ولقد استطاعت الحكومة البريطانية أن تتحاشى حتى الآن (الانفجار القوي الذي كان يحق للمرء أن يخشاه. . . وعلى الرغم من اضطرابات أكتوبر عام 1933 كانت مما يوجب أشد الأسف فقد تبدو حركة ضئيلة إذا قارنها باتساع مأساة الكفاح بين الصهيونية والقومية العربية)

الاتجاه القومي:

والاتجاه الضروري الآخر الذي يبدو في البلاد الإسلامية هو الاتجاه القومي، وهو يظهر بشكل أقوى في أفريقيا الشمالية، والواقع أن (البلاد العربية) تفكر تفكيراً غامضاً في الوحدة، أي في تحقيق أمة عربية. بينما تجد بلاد أفريقيا الشمالية تظهر الرغبة من تلقاء نفسها - كمصر مثلً - في أن تبقى أمماً مستقلة. والواقع أن حوادث العراق وفلسطين يصل صداها مباشرة إلى دمشق، كما أن اليمن - على رغم اختلاف الجو

والحياة المادية والعقائد الدينية - قد تكون من الناحية السياسية أقل بعداً عن سوريا من بعد مراكش عن الجزائر

أفريقيا الشمالية:

إن حوادث أفريقيا الشمالية قليلة وغير معروفة. وهي بذلك تترك المجال للأقاويل التي تدخلها الأغراض، وللحملات الصحفية التي تصول فيها الشهوات السياسية لأحزاب اليسار واليمين. ولا تزال المعلومات في الوقت الحاضر سيئة للغاية فيما يتعلق بالاضطرابات التي حدثت أثناء الحرب في مراكش والجزائر وتونس، ومع ذلك فإن مسألة باتنا لا تزال على حرارتها حيث فقد هناك وكيل المديرية حياته ولتعويض الأعمال المجيدة التي قامت بها الفرق الوطنية في ساحات القتال أثناء الحرب العظمى منحت حكومة كليمنصو سكان أفريقيا الشمالية وعودا لم تنفذ لسبب من الأسباب، ولقد اعترف المقيم العام مسيو بيروتون للنائب الاشتراكي مونيه فقال: (الواقع أن من سبقوني قد تركوا الحبل كله على الغارب. ولقد وجدت من اللازم أن يصلح كل شئ من جديد سواء من جهة الخطة السياسية أو من جهة الخطة الاقتصادية)

وقد كان مسيوب. هيريكور يجمع هذه الشكوى التي تقول: (ألا تعتقدون أن أولئك الذين هم منا والذين دفعوا ضريبة الدم ليس لهم بعض الحق في أن يتألموا لكرامتهم حيث يرون أنفسهم يعاملون معاملة الأهل الضعفاء وسط الجالية الفرنسية ذات الصدر الواسع بالنسبة للإيطاليين والأسبان والمالطيين بل وحتى الألمان؟) وبالرغم من اختلاف وجهات النظر الذين ينتقدون السياسة الفرنسية في شمال أفريقيا فإنهم متفقون على أنه ليست هناك وحدة ما في إدارة الجزائر وتونس ومراكش. ولقد حدثت محاولة واحدة بعد الحرب للوصل بين هذه الأدارات، على أنها لم تتلها أخرى. وهذا هو أحد أسباب الضعف الخطير أمام ثورة الجامعة الإسلامية والجامعة العربية، ويضاف إلى ما سبق أن أعباء دولية تثقل تونس لأن السياسة الإيطالية ما تزال على نشاطها، وتثقل مراكش لأن للمصالح البريطانية أهميتها. ومن الآن يظهر أن إنكلترا سوف تطلب تعويضاً من مراكش الإسبانية عند احتمال تركها لجبل طارق

اضطراب شمال أفريقيا:

في خلال عام 1934 قامت في تونس والجزائر ومراكش سلسلة من الحوادث والاضطرابات والثورات يجد المرء تفصيلاتها في مجلة (أفريقيا الفرنسية) التي بينت في عدد سبتمبر أخطاء حكومة الجمهورية بقولها: (عندما تكونت الجبهة المعادية لفرنسا بشكل كتلة عربية، كانت تقابل على الدوام بسياسة تشتيت الجهود والمجاهرة بالعداء للأقاليم الفرنسية وتصديق الأخبار الكاذبة الخاصة بحالة هذه الأقاليم. . . إن المسئولية الكبرى فيما يتعلق بحالة القلق في شمال أفريقيا ترجع إلى باريس، فحكومة الجمهورية تغمض عيونها عن المطالب الشرعية التي تقتضيها الحالة الاقتصادية في شمال أفريقيا، ويجب ألا ننسى أن أفريقيا الشمالية قد أصبحت العنصر الأساسي في حياة الجمهورية الاقتصادية)

في الجزائر:

إن الجزائر هي مركز المصالح الفرنسية والنشاط الفرنسي في شمال أفريقيا. فإذا هدد المركز عرض كل شئ في تونس ومراكش للخطر. وقد قال أحد العلماء الذين هم على جانب كبير من الخبرة في هذه المسألة ما يأتي: (إن أهمية الجزائر لفرنسا أكثر من أهمية الهند لانجلترا، لكن الواقع أن الهند بالنسبة للإمبراطورية البريطانية مصدر قوة، بينما الجزائر تصبح من حيث القوة أمة من الدرجة الثانية)

ولقد كانت الحوادث الدموية التي شبت في الخامس من أغسطس شيئاً جزئياً استغلته الأحزاب السياسية. فصحافة اليسار قالت إنها حركة موجهة ضد اليهود، بينما اعتبرت صحافة اليمين مرسوم كرميو الذي يمنح عدداً كبيراً من اليهود الجنسية الفرنسية عملاً إجرامياً. والواقع أن مرسوم كرميو لم يقابله المسلمون عند إعلانه مقابلة سيئة، والربا هو إحدى النكبات الكبرى التي تضني الجزائر، وهو مهنة نمت على يد اليهود الجزائريين، ولكنها الآن تسير بنجاح في شمال أفريقيا بواسطة أفراد ليسوا من اليهود. هذه الضروب المختلفة من الشطط تعرض للخطر شيئاً فشيئاً أبناء المستعمرات

الفرنسية وفرنسا نفسها. وإذا أضفنا إلى ذلك أثر الأزمة الاقتصادية كان لابد لهذه الحالة من أن تنتهي بالمذابح. ومن الغريب أن الحكومة التي من واجبها السهر على النظام والعدالة والرخاء لا تجد إلى الآن وسيلة لوضع نظام للأقراض يضع حداً للسلف الصغيرة التي كانت أول ما اهتمت به الحكومة الإنجليزية في مصر

السياسة البربرية:

يعيش في أفريقيا الشمالية مليون من الفرنسيين لا يمكن أن يتركوا وسط عدد من السكان الوطنيين يبلغ اثني عشر مليوناً. فيجب أن توجد طريقة للتوفيق بين فريقين مختلفين حتى يستطيعا الحياة. ولقد حاول بعضهم إيجاد سياسة خاصة ببلاد البربر يقصد بها خلق العداوة بين أهل هذه البلاد وبين العرب وذلك عملاً بالمبدأ القائل: فرق تسد. وبناء على تقرير مسيو ماسينيون السنوي يوجد 29 % من البربر في الجزائر، و60 % في مراكش، و12 % في تونس. على أن الالتجاء إلى سياسة بذر الشقاق لم تأت كما سمعنا بإحدى النتائج المنتظرة. ولقد كان ظهير عام 1930 مبعث الاضطرابات التي انبعثت من ذلك الوقت في مراكش؛ ومؤهلات المسلمين في شمال أفريقيا تحتم أن تكون الثقافة هناك عربية محضة. وعلى ذلك فالقوانين في بلاد البربر بدائية، وبعبارة أخرى متأخرة جداً بالنسبة للقوانين في سائر البلاد الإسلامية فالمرأة مثلاً بموجب القوانين في بلاد البربر سلعة من السلع، وهي تعتمد على والدها الذي يستطيع أن يبيعها، وعلى زوجها الذي يملك طردها، وعلى أشقائها الذين يمكنهم إنزال العقاب بها. لذا كان من الوهم الاعتقاد بأن البربر يستطيعون أن يصبحوا فرنسيين دون أن يصلوا أولا إلى ما وصل إليه المسلمون. وتطبيق ما يسمى السياسة البربرية لا يمكن أن ينتج غير بقاء الاعتقادات البالية واستمرار العادات الماضية

المعارضة الوطنية:

يكاد ينحصر البربر المقيمون بالجزائر في بلدة قابلية وقد اقترح إنشاء إقليم رابع لهم، على أن هناك عوائق لابد من انتظار حل لها، وهي أن التعليم غير كاف، وسكان المستعمرات لا يتعلمون العربية، كما أن هناك هوة تزداد تدريجياً بين الفرنسيين وأهل البلاد. ولقد كان هؤلاء مخلصين حتى عام 1930 وخصوصاً المتعلمون الجزائريون وعددهم 20 ألفاً. ويرى أكفأ الخبراء أن عدم السماح لهم بالتجنس بالجنسية الفرنسية كان خطأ بيناً. ولكن هل هذا صحيح؟ إننا لا نستطيع أن نعطي رأياً قاطعاً. على أن الواقع أن الاحتفالات بمرور مائة عام على احتلال الجزائر لم تحمل لأهل البلاد إلا خطباً فارغة. ومنذ أربعة أعوام لم يتحقق إصلاح واحد من الإصلاحات التي طلباها أو وعد بها أهل البلاد. ولذا ابتدأت المعارضة وشجعتها الأزمة الاقتصادية. فحمل (الوفد)، وهو الحزب الوطني، إلى باريس شكواه من الحكومة العامة، وأحيت جمعية العلماء المسلمين الثقافة العربية بين جماهير الشعب. والنتيجة أن سكان المستعمرات يزداد قلقهم تدريجياً، وأهل البلاد يتفاقم تذمرهم، والحكومة المركزية لم تصل إلى تسوية الحالة

في تونس:

إن معلومات الصحافة عن الاضطرابات التي قامت في سبتمبر عام 1934 سيئة. وقد شكت مجلة (أفريقيا الفرنسية) من (العقبات التي تصادفها الأخبار الواردة من تونس) في النصف الأول من شهر سبتمبر. وفي أوائل يونيو أكد البيان الرسمي للجنة المستعمرات في مجلس النواب أن تونس (تسير في الطريق السوي) وبعد ذلك بشهر عرف أن الجرائد (الخطرة) قد عطلت، وأن تذمراً هائلا يسود الموظفين والعمال والفلاحين. وإن السكان الوطنين محرضون على الامتناع عن دفع الضريبة. ومن الجلي أن المتطرفين من الدستوريين الحديثين يريدون بذلك التغلب على الأحرار الدستوريين. وفي 3 سبتمبر اتخذ المقيم العام عقوبات صارمة. فتكاثرت الحوادث

وقامت المظاهرات الصاخبة أمام دار المقيم، وأغلقت الحوانيت وحدثت الاضطرابات، وهوجمت الفرق الحربية وشبت الحرائق. وحدث في موكنين حادث خطير نسبياً حيث هاجم الثائرون عساكر البوليس، فعطلت الجرائد المتطرفة

ولا يكفي أن تلقى تبعة اضطرابات شمال أفريقيا على الدعاية الشيوعية. فالواقع أن التذمر العام له أسباب محلية أكثر عمقاً، هي أسباب سياسية واقتصادية. لكن الواضح أن اضطراب البلاد الاقتصادي والفكري قد استغلته الدعايات الخارجية من الشيوعية وغيرها.

والحقيقة أن المقيم العام في تونس أعلن في 14 سبتمبر قرارات لغرض تسوية الديون الزراعية وتعطيل الإجراءات القضائية ووقف الحجوز. وعهد إلى خمس لجان تحكيم بحث موقف المدينين المعسرين. وأعظم نقص في السياسة المتبعة في تونس أنها تتحول مرة واحدة من لين شديد إلى قسوة شديدة. فهناك يباح كل شطط يرتكبه المرابون ونقابات الموظفين إلى أن يأتي يوم تجد فيه الحكومة نفسها مرغمة على الالتجاء إلى الشدة. وتلك هي السياسة المرتكبة التي مآلها الفشل العظيم

في مراكش:

ومراكش ليست محرومة هي الأخرى من الفضائح، فهناك حكاية حي مراكش المحجوز أو - من الناحية الاقتصادية - المضاربات على القمح الذي قدر بستة وثلاثين فرنكا، واشترى بخمسة وعشرين، ثم بيع ثانية للرباط بمائة وعشرة فرنكات مع كل ضروب المجاملة التي يؤسف لها.

ويظهر أن حكومة المقيم العام قد أخذت تشعر، ولكن - كما تقول مجلة أفريقيا الفرنسية - (إذا لم تحقق هذه الآمال وخصوصاً القضائية والمالية فلا بد من عودة الأيام العسيرة)

النتيجة:

والنتيجة أن شمال أفريقيا يعاني نقصا في وحدة الإدارة، وكذلك يعاني - كحكومة الجمهورية - نقصاً في السلطة. وهو يعاني أيضاً من نظام الإنتاج والتبادل الذي يرتكز كما هو واضح على مذهب الحرية. والواقع أن تدخل السياسة في الأعمال ينتج أثرين: يساعد المصالح الخاصة على حساب المجموع، ويعارض تطور القوانين اللازم منذ الحرب. إن من الواجب وجود توازن بين حقوق حكومة الجمهورية وآمال أهالي البلاد؟

ع. ك

استدراكات وتصويبات

1 - اطلعت في العدد 96 من (الرسالة الغراء) على المقال البحاث المؤرخ السيد محمد عبد الله عنان عن (الحاكم بأمر الله) فرأيته يسمى صاحب (مرآة الزمان) (ابن قزأوغلي)، ولعل ذلك تصحيف وقع في الكثير من الكتب ككشف الظنون، والنجوم الزاهرة، والأعلام وغيرها، وصوابه (فرغلي) كما في نسخة قديمة من الوافي بالوفيات، ووفيات الأعيان لابن خلكان حيث نص عليه بما يوافق ما قاله الزبيدي في شرح القاموس، ويعلل بعضهم لصحة (قزأوغلي) بأنه ابن البنت في اللغة التركية، وغفل عن أن ابن البنت هو السبط نفسه لا أبوه (فرغلي)، كما ترى ذلك مبسوطاً في شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد) في ترجمة سبط ابن الجوزي يوسف بن فرغلي صاحب مرآة الزمان وغيرها

2 - وورد في العدد نفسه من (الرسالة الجليلة) في (باب القصص) مقالة فيها (قبرص) بالصاد، وهو غلط فاش بين الناس غالب على أقلامهم، وصوابه (قبرس) بالسين كما قيده ياقوت في معجم البلدان والفيروز إبادي في القاموس وغيرها

3 - وتقدم في عدد سابق من (الرسالة) أيضاً الكلام على المدرسة (السميساطية) في دمشق الشام فجاءت محرفة، وهي تنسب إلى أبي القاسم السميساطي حيث كانت داره فوقفها على الفقراء المؤمنين والصوفية ووقف علوها على الجامع الأموي الملاصق لها، وسميساط بضم السين للهملة الأولى وفتح الميم والسين الثانية بينهما مثناة تحتية وآخره طاء مهملة بلد بالشام. وواقف المدرسة المذكورة كان من أكابر الرؤساء والمحدثين بدمشق، بارعاً في الهندسة والهيئة، صاحب حشمة وثروة واسعة، عاش ثمانين سنة وتوفي سنة 453 كما في شذرات الذهب ومعجم البلدان وغيرها

أبو أسامة

أبو سيلمان الخطابي
هـ 388 - 319
بقلم برهان الدين محمد الداغستاني

إذا تصفحنا كتب غريب الحديث المؤلفة بعد القرن الرابع الهجري أو قرأنا شرحاً من شروح كتب الحديث المشهورة - وجدنا اسم الخطابي ورأيه بارزين واضحين، يكفي لمن يريد تأييد رأي على آخر أن ينقل عن الخطابي ما يؤيده كما يكفي من يريد الاحتجاج على أمر أن يذكر رأي الخطابي فيه حتى يتم له ما أراد

وقد درج الكثير من المؤلفين والرواة عنه على الاكتفاء عند ذكر اسمه بالخطابي، وسواء أكان اقتصارهم هذا لشهرته عندهم أم لعدم معرفتهم اسمه الحقيقي، فقد كان سبباً من أسباب الخلاف الطويل حول اسمه الذي سمي به

وقد خدم الخطابي رحمه الله اللغة العربية وعلم الحديث بنوع خاص - بما كتبه في غريب الحديث وإصلاح خطأ المحدثين وشرحي البخاري وسنن أبي داود خدمة جليلة فوق ما كتبه في فنون أخرى. حتى لقد أصبحت كتبه من بعده مصادر لمن أتى بعده يأخذ منها ويعتمد عليها، غير أن أكثر كتبه مفقودة الآن لا يعرف غير أسمائها ككثير من كتب الأقدمين من علمائنا الأعلام وسأحاول - بقدر الإمكان - أن أصور للقارئ الكريم صورة واضحة جليلة لأبي سليمان الخطابي البستي في هذه الكلمة الوجيزة

اسمه ومولده ونسبه

هو حمد (بفتح الحاء وسكون الميم) بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب الخطابي البستي، كذا ذكره النووي في طبقات الشافعية والحافظ الذهبي في تذكرة الحفاظ وعبد الجبار الهروي في تاريخ هراة والحاكم ابن البيع في كتاب نيسابور وابن خلكان في وفيات الأعيان والسبكي في طبقات الشافعية وهو الصواب وعليه المعول، فقد سئل الخطابي نفسه عن اسمه فقال: (اسمي الذي سميت به حمد ولكن الناس كتبوه أحمد فتركته عليه)

ووهم الثعالبي في اليتيمة وأبو عبيد الهروي صاحب كتاب الغريبين والوزير المؤرخ جمال الدين القفطي في أنباه الرواة في أنباه النحاة حيث سموه أحمد

ولد الخطابي في رجب سنة تسع عشر وثلثمائة بمدينة بُستْ (بضم الباء وسمون السين) وهي من بلاد كابل عاصمة الأفغان، بين هراة وغزنة، كثيرة الأشجار والأنهار، وكما اختلف الذين ترجموا في نسبته إلى من هذه النسبة (الخطابي)؟ فياقوت في إرشاد الأريب (معجم الأدباء)، والسيوطي في بغية الوعاة، والسمعاني الأنساب يذكرون بأنه من ذرية زيد بن الخطاب بن نفيل العدوي آخى عمر بن الخطاب مقتصرين عليه، بينما ابن خلكان والسبكي والشيخ محمد الأنصاري البهنسي في الكافي يقولون: أنه منسوب إلى جد أبيه الخطاب، ثم يقولون: وقيل إنه من ذرية زيد بن الخطاب آخى عمر رضي الله عنه

شيوخه وتلاميذه

تفقه الخطابي على الأمام الجليل محمد بن علي بن إسماعيل القفال الشاشي الكبير والقاضي الإمام أبي علي بن أبي هريرة وسمع الحديث من أبي سعيد بن الأعرابي بمكة، وأبي بكر بن داسة بالبصرة، وإسماعيل الصفار ببغداد، وأبي العباس الأصم بنيسابور، وتأدب أخذ اللغة عن أبي عمر محمد بن عبد الواحد اللغوي المعروف بغلام ثعلب، وسمع من أحمد بن سليمان النجار، وأبي عمر السماك، ومكرم القاضي، وجعفر الخلدي، وأبي جعفر الرزاز وأخذ عنهم

وسمع من الخطابي وروى عنه الإمام الفقيه الشيخ العراق أحمد ابن محمد بن أحمد الأسفراييني، والحاكم أبو عبد الله محمد بن البيع النيسابوري، وأبو عبيد الهروي صاحب كتاب الغريبين، وعبد الغفار بن محمد لفارسي، وأبو القاسم عبد الوهاب بن أبي سهل الخطابي، وأبو نصر محمد بن أحمد البلخي الغزنوي، وأبو مسعود الحسين بن محمد الكرابيسي، وأبو عمر محمد بن عبد الله الزرجاهي وخلق كثير غيرهم

مكانته العلمية وثناء الناس عليه

كان الخطابي رحمه الله تعالى عالماً أديباً زاهداً ورعاً حسن التدريس والتأليف، إماماً في اللغة والفقه والحديث، ثقة متثبتاً من أوعية العلم، حجة صدوقاً من كبار أئمة الشافعية. رحل في طلب العلم إلى العراق فسمع ببغداد والبصرة والحجاز وجال

خرسان وخرج إلى ما وراء النهر، كريماً يتجر في ماله الحلال وينفق على الصلحاء من إخوانه
قال أبو منصور الثعالبي: كان يشبه في عصرنا بأبي عبيد القاسم بن سلام في عصره علماً وأدباً وزهداً وورعاً وتدريساً وتأليفاً إلا إنه كان يقول شعراً حسناً وكان أبو عبيد مفحماً
وقال أبو المظفر السمعاني: كان الخطابي حجة صدوقاً رحل إلى العراق والحجاز وحال خراسان وخرج إلى ما وراء النهر، وكان يتجر في ملكه الحلال ويتفق على الصلحاء من إخوانه. وقال أيضاً: كان من العلم بمكان عظيم وهو إمام من أئمة السنة صالح للاقتداء به والإصدار عنه
وقال الذهبي: كان ثقة مثبتاً من أوعية العلم قد أخذ اللغة عن أبي عمر الزاهد ببغداد، والفقه عن أبي علي بن أبي هريرة والقفال، وله شعر جيد
وقال ابن خلكان. كان فقيهاً أديباً محدثاً له التصانيف البديعة، وعدد كتبه ثم نقل عبارة الثعالبي المتقدمة
وقال ياقوت: قد أخذ العلم عن كثير من أهله ورحل في طلب الحديث وطوف وألف في فنون من العلم وصنف وقال النووي في طبقات الشافعية له: حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب الفقيه الأديب أبو سليمان الخطابي البستي صاحب التصانيف المتداولة. قال الحاكم أبو عبد الله الحافظ النيسابوري أقام عندنا بنيسابور سنين وحدث بها، كثرة الفوائد من علومه وقال الشيخ شرف الدين البهنسي في الكافي: ألو سليمان الخطاب من الأئمة الأعلام المجتهدين في قواعد الأحكام. كان رحمه الله فقيهاً محدثاً أصولياً جمع بين الحديث والفقه، ومد في تحقيق العلم باعاً مديداً، وأحكم من مبانيه ركناً شديداً حتى قلد أعناق أهل العلم المنن
وأورد النووي في طبقات الشافعية هذه الأبيات الثلاثة:
أخ تباعد عني شخصه ودنا ... معناه مني فلم يضعن وقد ضعنا
أبا سيلمان سر في الأرض أو فأقم ... بحيث شئت دنا مثواك أو شطنا
ما أنت غيري فأخشى أن تفارقني ... قد بت روحك يا روحي فأنت أنا
وقال إنها لأبي الفتح علي بن محمد البستي قالها في أبي سليمان الخطابي؛ وياقوت في معجم الأدباء ذكر البيتين الأخيرين هكذا:
أبا سليمان سر في الأرض أو فاقم ... فأنت عندي دنا مثواك أو شطنا
ما أنت غير فأخشى أن تفارقني ... قدبت روحك بل روحي فأنت أنا
وقال إنهما من شعر الثعالبي في الخطابي. والظاهر أن هذه الأبيات من شعر الثعالبي فس شيخه وصديقه أبي سليمان، فقد كانت بينهما صلة وثيقة نلمسها في شعر الخطابي نفسه الذي يقوله في الثعالبي بعد مفارقته، فقد قال فيه:
قلبي رهين بنيسابور عند أخ ... ما مثله حين يستقري البلاد أخ
له صحائف أخلاق مهذبة ... منها التقي والنهي والحلم ينتسخ
وفاة ورثاؤه
أكثر الذين أرخوا وفاة الخطابي يؤرخونها سنة ثمان وثمانين وثلثمائة من غير تعيين يوم أو شهر، إلا أن الذهبي قال ليست في ربيع الآخر، والسبكي يقول في ربيع الآخر من دون تعيين يوم، وابن خلكان يقول كانت وفاته في شهر ربيع الأول وجاء في معجم الأدباء: نقلت من خط أبي سعيد السمعاني قال نقلت من خط الشيخ ابن عمر توفي الإمام أبو سليمان الخطابي ببست في رباط على شاطئ هندمند يوم السبت السادس عشر من شهر ربيع الآخر سنة ست وثمانين وثلثمائة، ومع اختلافهم في سنة وفاته على ما سبق ذكره فهم متفقون على أنه توفي ببست كما اتفقوا على أنه ولد فيها أيضاً
ولما مات الخطابي رثاه تلميذه وصديقه أبو منصور الثعالبي فقال:
انظروا كيف تخمد الأنوار ... انظروا كيف تسقط الأقمار
انظروا هكذا تزول الرواسي ... هكذا في الثرى تغيظ البحار
ورثاه أبو بكر عبد الله بن إبراهيم الحنبلي أيضاً فقال:
وقد كان حمداً كاسمه حمد الورى ... شمائل فيها للثناء ممادح
خلائقٌ ما فيها معاب لعائب ... إذا ذكرت يوماً فهن مدائح

تغمده الله الكريم بعفوه ... ورحمته والله عاف وصافح
ولازال ريحان الإله وروحه ... قرى روحه ما حن في الأيك صادح
تآليفه:
ليس الخطابي من المكثرين في التأليف لكنه من المجيدين فيما ألف. فمن تآليفه
القيمة:
1 - (معالم السنن) في شرح سنن أبي داود شرح فيه غريب اللغة وبين وجوه الأحكام
التي تأخذ من الأحاديث الواردة في السنن وذكر أقوال العلماء وآراء الفقهاء بلفظ
جزل، وأسلوب سهل، وعبارة موجزة، قال في مقدمته: (ورجوت أن يكون الفقيه إذا
ما نظر إلى ما أثبته في هذا الكتاب من معاني الحديث ونهجته من طرق الفقه
المتشعبة عنه دعاء ذلك إلى طلب الحديث وتتبع عمله، وإذا تأمله صاحب الحديث رغبة
في الفقه وتعلمه)
2 - (غريب الحديث) ذكر فيه ما لم يذكره أبو عبي ولا ابن قتيبة في كتابيهما وهو كتاب
ممتع مفيد، في غاية الحسن والبلاغة
برهان الدين محمد الداغستاني
3 - شاعرنا العالمي أبو العتاهية
للأستاذ عبد المتعال الصعيدي
ترجمته:
كان المسلمون حينما ثاروا ثورتهم على بني مروان ينشدون في بني العباس حكماً
يعيد لهم عهد الخلفاء الراشدين، ويكون خليفتهم فيه كأحدهم لا يؤثر نفسه بشيء من
أمور الدنيا عليهم، ولا يأخذ لنفسه من أموال الدولة إلا ما يفرضونه له منها، كما
فرضوا لأبي بكر وغيره، فلم يحقق لهم بنو العباس كل هذا الرجاء، بل ظهروا بأبهة
الملك التي كان يظهر بها بنو مروان، واستأثروا لأنفسهم بأموال الدولة، وجعلوها ملكاً
لهم ينفقون منها في مصالح المسلمين ما تجود به أنفسهم، وما يبقى بعد حاجتهم،
وحاجات أهل بطانتهم وحاشيتهم، وكذا أهل الملق من الشعراء والندماء ومن إليهم،
ولم يحققون للمسلمين من كل ما أملوه فيهم إلا هذين الأمرين المهمين: المساواة
بين الشعوب الإسلامية في حكم الدولة، وتحضير الدولة الإسلامية بالثقافة العلمية
الواسعة التي أحسنوا البلاء فيها
وقد انقسم المسلمون في شأن هذه الدولة بعد قليل من ظهورها إلى قسمين:
فتجافاها أهل الورع منهم وأبوا أن يتولوا أعمالها، وسار معها جمهور المسلمين في
ذلك السبيل الذي سارت فيه، واستولى عليهم اليأس من ذلك المثل الأعلى في الحكم
الذي كان على عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، ثم أقبلت الدنيا عليهم
فانغمسوا فيها أيما انغماس، وتفننوا في أنواع التلذذ بها أيما تفنن، وكادوا ينسون
الآخرة كما نسيها من كان قبلهم، فكانوا في أشد حاجة إلى شاعر ملهم يوقظهم من
تلك الغفلة القاتلة، ويؤدي في الشعر رسالته التي يجب أن يؤديها في كل عصر على
الوجه الذي يتطلبها، وكان لهم ذلك في شاعرنا أبي العتاهية
ولد أبو العتاهية سنة ثلاثين ومائة من الهجرة قبل قيام الدولة العباسية بسنة أو سنتين،
ونشأ بالكوفة ولكن أصله من عين التمر، وأبو العتاهية لقبه، واسمه إسماعيل بن
القاسم بن سويد بن كيسان مولى عنزة، وكان خالد بن الوليد قد سباه مع جماعة
صبيان من أهل عين التمر، فوجه بهم إلى أبي بكر، وكانوا أربعين غلاماً يتعلمون
الإنجيل، ففرقهم في أهل البلاد والأمصار، فاعتنقوا الإسلام وأعتقهم مواليهم، فكان
لهم أثر صالح في العلم والأدب،
ونبغ من أولاًدهم جماعة كانوا من أكابر رجال العلم والسياسة والحرب، مثل موسى
بن نصير، ومحمد بن سيرين، ومحمد بن إسحاق. وكان كيسان جد أبي العتاهية من
نصيب عباد بن رفاعة العنزي، لأنه سمعه حين سأله أبو بكر عن نسبه يذكر له أنه من
عنزة، وكان يكفله في عين التمر قرابة له منهم، فاستوهبه عباد من أبي بكر ثم أعتقه
فتولى عنزة؛ وكان بنوه يزعمون أنهم منها ويكرهون من ينسبهم إلى النبط الذين كانوا
يسكنون عين التمر، ولكن الظاهر أن أصلهم منهم، لأنهم كانوا يحترفون بالكوفة من
صنعة الجرار ما كانت تأباه فطرتهم لو كانوا عرباً
وقد نشأ أبو العتاهية بالكوفة بين أسرته يعمل الجرار معهم، ولم يذكر الرواة أنه

اشتغل بالتعليم في صغره، ولكن الظاهر من أمره أنه اشتغل بقدر منه كان له عوناً في الحياة التي آل إليها أخيراً أمره؛ وكان بالكوفة طائفة من خلفاء الشعراء وأهل المجون والمخنثين، وناهيك بشاعرها والبة بن الحباب الأسدي وما بلغ إليه في الخلاعة والعبث، وهو في ذلك أستاذ أبي نؤاس وغيره، فاتصل أبو العتاهية بتلك الفئة اللاهية، وأطلق لنفسه في ذلك عنانها، فوصل فيه إلى غايته، وتخنث وحمل زاملة؛ وأخذ عنهم شعرهم الخليع في التغزل والمجون وما إليهم، فنبغ فيه، واشتهر به أمره، وكان الأحداث والمتأدبون يأتونه وهو جرار فينشدهم أشعاره، فيأخذون ما تكسر من الخزف فيكتبونها فيه

ثم قصد بغداد في عهد المهدي ليتصل بأمرائها. ويستفيد بشعره عندهم، وكان ثالث ثلاثة فتيان شباب أدباء، ولم يكن لهم ببغداد من يقصدونه، فنزلوا غرفة بالقرب من الجسر، وكانوا يبكرون فيجلسون بالمسجد الذي بباب الجسر في كل غداة، فمرت بهم يوماً امرأة راكبة، معها خدم سودان، فقالوا من هذه؟ قالوا خالصة، فقال أحدهم: قد عشقت خالصة، وعمل فيها شعراً فأعانوه عليه، ثم مرت بهم أخرى راكبة، معها خدم بيضان، فقالوا من هذه؟ قالوا عتبة، فقال أبو العتاهية: قد عشقت عتبة؛ ولم يزالوا كذلك إلى أن التأمت لهما أشعار كثيرة فيهما، فدفع صاحب خالصة بشعره إليها، ودفع أبو العتاهية بشعره إلى عتبة، وألحا في ذلك إلحاحاً شديداً، فمرة تقبل أشعارهما، ومرة يطردان، إلى أن صح عزم الجارتين على امتحان عاشقيهما بمال على أن يدعا التعرض لهما، فإن قبلا المال كانا مستأكلين، وإن لم يقبلاه كانا عاشقين، وكان لهما معهم شأن في الحالين. فلما كان الغد مرت

خالصة فعرض لها صاحبها، فقال له الخدم اتبعنا فتبعهم؛ ثم مرت عتبة فعرض لها أبو العتاهية، فقال له الخدم اتبعنا فتبعهم؛ فمضت به إلى منزل خليط لها بزاز، فلما جلست دعت به فقالت له: يا هذا إنك شاب وأرى لك أدباً، وأنا حرمة خليفة، وقد تأنيتك فأن أنت كففت وإلا أنهيت ذلك إلى أمير المؤمنين ثم لم آمن عليك. فقال لها: فافعلي بأبي أنت وأمي، فإنك إن سفكت دمي أرحتني، فأسألك بالله إلا فعلت ذلك إذ لم يكن لي فيك نصيب، فأما الحبس والحياة ولا أراك فأنت في حرج من ذلك. فقالت: لا تفعل يا هذا وأبق على نفسك، وخذ هذه الخمسمائة الدينار وأخرج عن هذا البلد. فلما سمع ذكر المال ولى هارباً. فقالت ردوه، وألحت عليه فيها فقال: جعلت فداك ما أصنع بعرض من الدنيا وأنا لا أراك، وإنك لتبطئين يوماً واحداً من الركوب فتضيق بي الأرض بما رحبت. فزادت له ذلك إلى ألف دينار، فجاذبها مجاذبة شديدة، وقال لها: لو أعطيتني جميع ما يحويه الخليفة ما كانت لي فيه حاجة، وأنا لا أراك بعد أن أجد السبيل إلى رؤيتك. ثم خرج فجاء الغرفة التي كانوا ينزلونها فإذا صاحبه مورم الأذنين، وقد أمتحن بمثل محنته، فلما مد يده إلى المال صفعوه، وحلفت خالصة لئن رأته بعد ذلك لتودعنه الحبس، فأستشار أبا العتاهية في المقام فقال له: اخرج وإياك أن تقدر عليك

ثم التقتا فأخبرت كل واحدة صاحبتها الخبر وأحمدت عتبة أبا العتاهية، وصح عندها أنه محب محق. فلما كان بعد أيام دعته إليها وقالت له: بحياتي عليك - إن كنت تعزها - إلا أخذت ما يعطيك الخادم فأصلحت به من شأنك، فقد غمني سوء حالك، فأمتنع أبو العتاهية من ذلك؛ فقالت له: ليس هذا مما تظن، ولكني لا أحب أن أراك في هذا الزي، فقال لها: لو أمكنني أن تريني في زي المهدي لفعلت ذلك، ثم أقسمت عليه فأخذ الصرة فإذا فيها ثلاثمائة دينار، فاكتسى كسوة حسنة، وأشترى حماراً يركبه، وحسن بها حاله

وهذه الرواية تعطينا أن أبا العتاهية كان صادقاَ في حب عتبة التي شبب بها في شعره، وتوله بها فيه إلى أن اقلع عن ذلك فيما سيأتي من نسكه، وربما يكون ذلك كله حسن حيلة منه، وهو ما كان يراه فيه ابنه عتاهية، وقد روي عنه أن أباه إنما أقبل إلى بغداد ليمدح المهدي، ويجتهد في الوصول إليه، فلما تطاولت أيامه أحب أن يشهر نفسه بأمر يصل به إليه، فلما بصر بعتبة راكبة في جمع من الخدم، تتصرف في حوائج الخلافة تعرض لها،

وأمل أن يكون تولعه بها هو السبب المصل إلى حاجته، وأنهمك في التشبيب والتعرض في كل مكان لها، والتفرد بذكرها، وإظهار شدة عشقها، وكان أول شعر قاله فيها:

راعني يا زيد صوتُ الغراب ... بحذاري للبين من أحبابي
يا بلائي ويا تقلقل أحشا ... ئي وتعْسي لطائر نعَّاب
أفصح البينُ بالنعيب وما أف ... صح لي في نعيبه بالإياب
فاستهلت مدامعي جزعاً من ... هـ بدمع ينهل بالتسكاب
ومُنعتُ الرقادَ حتى كأني ... أرمدُ العين أو كحلتُ بصاب
قلت للقلب إذ طوى وصل سع ... دي لهواه البعيد بالأنساب
أنت مثل الذي يفر من القط ... ر حذار الندى إلى الميزاب

والذي أرجح من ذلك رأى عتاهية، لأنه أدرى بأبيه، ولأن عتبة لم تصدق في حبه حتى يصدق في حبها، وإنما كانت تتخذه للإعلان عنها لتنافس بذلك أترابها من جواري المهدي، وقدهم المهدي يوماً بعد اتصاله به أن يدفعها إليه فجزعت وقالت: يا أمير المؤمنين: حرمتي وخدمتي! أتدفعني إلى رجل قبيح المنظر، بائع جرار، ومتكسب بالشعر؟ فأعفاها منه. ولم يكن أبو العتاهية إلا رجلاً تاجراً لا يهمه الحب، وهو لم يقصد بغداد إلا من أجل المال كما سنبينه بعد.

عبد المتعال الصعيدي

كلفت فكرا عسرا

للأستاذ فخري أبو السعود

ما خِلْتُ ذَا الفِككْرِ بالتفكير ينتفع ... كلُّ المذاهبِ إنْ قلَّبْتَهَا شَرَعُ
كلٌّ له مذهب في العيش يُؤْثِرُهُ ... ولستِ تعلم ما الحُسنى وما البِدَع
كلَّفْتَ فِكْرَك عُسراً إن طمحتَ به ... إلى يقينٍ لديه الريبُ ينقطع
يَمُّ الحياة يُضِلُّ الفكرَ مُلتَطِم ... مِنْ مَوْجِهِ هائلُ الأثباج مُندفع
تَظَلُّ فيه وجوهُ الرَّأي ساهمة ... حَيرى مفرَّقةً من حيث تجتمع
لَكَمْ تَفَكَّرْتُ في الدنيا وفي أُمم ... تَفرَّقُوا في فجاج الأرض واصطرعوا
الجبيرُ والشرُّ ما قالوا وما فعلوا ... والنفع والضُّرُّ ما سَنُّوا وما ابتدعوا
يا هل يُراد بهم في أمرهم رَشَدٌ؟ ... أم هل ترى القومَ قد ضلوا بما اتَّبعوا؟
فَشَرَّدَ اللُّبَّ تفكيري وأَجْهَدني ... وما اهتديتُ لأمرٍ فيه مُقْتَنَع
وكلما زِدْتُ علماً زِدْتُ - وَا أسفي - ... جهلاً، ولم أدْرِ ما آتي وما أدَعُ
فَرُحْتُ أشكو إلى روض الضحى نَصَبي ... فضمَّني منه مُرتادٌ ومُنْتَجَع
ومَرَّ بَرْدُ بنانٍ من نسائمِهِ ... على جبيني فزال الهمُّ والوَجَع
وقال لي الزهرُ: ذا عطري نفحتُ به ... من رام، ليس على من رام يمتنع
وقال لي النهر: ذا مائي النمير به ... - إن رُمْتَ منْتَفَعاً - للروح منتَفَع
وقال لي الروض: فُزْ بالطيبات ولا ... تحفل بما قاله قومٌ وما اشترعوا
إن رمتَ حقًا فهذا الحسنُ في كَنَفِي ... هو الحقيقةُ لا رَيبٌ ولا خُدَع
مجدَّد النسيج موصول الحُلي أبدا ... يطيب في ظلِّهِ مَشْتى ومُرْ تبَع
وليس يُصلحه قوم إذا رَشَدُوا ... ولن يضيروه - إن ضَلوا - بما صنعوا
يبقى على الدهر مرموقَ السنَى بَهِجاً ... وتنقضي شَيِعٌ في إثرهم شَيِع

فخري أبو السعود

خواطر في العلم

للأستاذ محمد الحليوي

العلمُ أصبحَ في أيّامنا صنماً ... وأصبح الجيل من عُبَّادِ ذا الصنم
دينٌ جديدٌ بدت لِلقل آيتُه ... فآمن العقل بالآيات والكِلَمِ
عصاهُ بالسحر تُنشى العُدْمَ مُعجزةً ... وَتبْرئُ الصخْرةَ الصَّماء من صَمَمِ
وتجعَلُ في كلّ آنٍ آيةً عجباً ... وَيَلْبِسُ الواقِعَ المشْهودَ بالحُلم
فَفي الهَبَاءةِ روحُ الكَوْنِ شائقةٌ ... وفي القُطَيْرَةُ آزالُ مِنَ النُّظمِ
وَرةُ النّور في إشعَاعِهَا أبَدٌ ... وزَهْرَةُ الحقْلِ لا تَخْلو من الألم
كما فيه من رَحْمةٍ عمَّتْ مراحمُهَا ... نعمْ وكم فيه من بَلْوى من نِقَم
كأنهُ ربُّ (ماني)، في طبيعته ... تصارعت آيةُ الأنوار والظلم
العلمُ لا يُرتجي للحقّ يَرفَعه ... كلا ولا هو يهدي النفْسَ للقُدسِ
الغرْبُ في علمِه ساءت خلائِقُه ... وبات في خُلقْه يمشي إلى خَنَسِ
الغربُ ينعم واللَّذَّات ضاريةٌ ... والحسنَ يعرم والأفراحُ في عَرُسِ

والرّوح قَفْرُ فلا إيمان يَعمُرها ... ولا بقينَ يَضيءُ القبَسِ
العلمُ هدَّم أَوْهاما مُحبَّبة ... كانت تقيءُ لها الأرواحُ الغَلَس
العلمُ هل طهَّر الأخلاق فاحترقَتْ ... بنَارِهِ من أصيل اللوْمِ والدنَسِ
العلمُ! هَلْ صَدَّ أقواماً ذَوِى حرس ... أن يستطيلوا على قَومٍ بلا حرسِ
وهل كفى أهلَهُ شتَّى مذابِحهم ... وكيف بات يسرْ الكَوْنِ في خرسِ؟
كفى هُراءً فإن البحر يُدهشنا ... ونحن لّما نزلْ في السَّاحل اليَبَسِ
تونس
محمد الحليوي
من مآسي الفيضان في العراق
الفلاح المنكوب
للأستاذ أنور شاءول
أَرأَيْتَ الحَقْلَ يُصبي الناظرينْ؟ ... أسَمِعْت الطَّيرَ حولَ الجدوَل؟
ذَاكَ يُحيي السعدَ في القلبِ الحَزينْ ... وَهْي تشدو نَغماتِ الأملِ
أنَشِقتَ الزَّهرَ قد فاحَ شذاهْ ... يُتْرِعُ الأرواحَ طيباً مُلْهِماً
فَتُذِيع الرِّيحُ سِراً قد طَواهْ ... في حَناياهُ ولم تَفْتَحْ فَما
أَوَعَى الفكْرُ حدِيثاً قد رواهْ ... بُلْبلٌ حُرٌّ أطالَ النّغما؟
قِصّةُ الفَلاَّحِ رَمْزِ الْبَائسينْ ... قِصَّةٌ تَعْصُرُ دَمْعَ المُقَلِ
!سوفَ يَبقى ذِكْرُها في كلِّ حينْ ... وَمكانٍ غَيْمَمةً لا تَنْجلِي
قد سَقَى الزرعَ صباحاً ومساءْ ... تارةً ماء وَطوْراً عَرَقا
رمزُهُ في السَّعْي جِدٌّ وَعَنَاءْ ... مُنْذُ ما الشَمسُ تُحَيِّ المَشرِقا
أَسَيُولُ الْغَيْثِ أم نارُ ذُكاءْ ... داهَمتْهُ ليسَ يَخشى المُلْتَقَى
مُستعيناً بِبنَاتٍ وَبَنينْ ... وبِزَوْجٍ ذاتِ خُلْقٍ أمثلِ
أُسْرَةٌ تَحْياَ بِمَسفوحِ الجبينْ ... تَرْتَجي الخيرَ جَراَء العملِ
هُو ذَا الزرعِ، وما أَوْفَرَهُ! ... يَنبئُ الفَلاّحَ بالخيرِ العميمْ
إن تُجِلْ طَرْفاً فلَنْ تحصُرَهُ ... أيْنَ مَنْ يُمكِنُهُ حَصْرُ النجومْ
ناضر الخُضْرَةِ؛ ما أزهَرَهُ؛ ... يُطْرِقُ الرأسَ إذا هَبَّ نسيمْ
فمتى تُصْبِحُ يَا مَرْعَى العيونْ ... ذَهَبيَّ اللَّوْنِ زَاهِي المَخُملِ؟
وَمتى حَبُّكَ يُهْدِي الجائعينْ ... خُبْزَةً تُشْبِعُ ذَا الجَوْفِ الخلي؟
رَقَدَ الفَلاحُ مَقْرُورَ الفؤاد ... حالماً والسَّعدُ في أحلامِهِ
يُبصِرُ الآتيَ مُنْصاعَ القِيادْ ... وَيَرى الأيامَ من خُدَّامِهِ
لا عناءٌ، لا شَقاءٌ، لا سُهاَدْ ... قلْبهُ حُرِّرَ مِنْ آلامِهِ
يَا لأبناءِ الرزايا البائسينْ ... يَا لَمخْدوعي الرُّؤى والأملِ
ما دَرَوْا أنَّ اللَّيالي في الكَمينْ ... سوفَ تُصْلِيهِمْ بِخَطْبٍ جَلَلَ
دَوتِ الآفاقُ ليلاً وَالقِفَارْ ... بِصُراخٍ رَدَّدَتْهُ الصَّائحات
قد طَغَى النهرُ فيا قَومُ البَدارْ. . . ... أَنْقِذُوا الأَنْفُسَ. . . صُدُّوا النّكَبَاتْ
. . .أَنْقِذُوا النسوَةَ والوُلْدَ الصِّغارْ ... وَشُيُوخَ الحيِّ مِن قَبلِ الفَواتْ
جنباتُ الكَونِ ضجَّت بالرَّنين ... فكأنَّ الشُّهْبَ حَطَّتْ مِن عَلِ
وتوالت صعقَاتُ الصَّاعقين ... يَستحِثُّونَ الخُطى في وجَلِ
وَزَهاَ الصُّبحُ وفي طلعتِه ... تبسمُ الأنوارُ في الأفقِ البعيد
إنما الفلاحُ من نَكْبَتِه ... يشتكي لله ذي البَأسِ الشديد
الأسى والحزُنُ في نَظرَتِهِ ... واللَّظى في صدرِه حامي الوُقُود
أين حقلي وحِمَى كُوخي الأمين؟ ... أين زرعي؟ أينْ زاهي النُّبلِ؟)
(قد حواهُ اللُّجُّ مَسْدولَ الجفُون ... قَبْلَما لاقَى بَريق المِنْجَلِ
سارَ والأطفَالُ نَهْبٌ لِلْبُكاءْ ... وأنينُ الأمِّ مَسْموعُ النّغَم
وَدَّ لو عادَ قليلاً لِلوراءْ ... إنمَا هَيْهَاتَ إرجاعُ القَدَمْ
أيْنَ يَأْوي؟ هُو ذا قَصرُ عَلاَءْ ... ظاهِرُ الرّونَقِ، مَلْموس النَّعَم
هتفَ الفلاّحُ: (هَلْ من مَوْئِلِ؟) ... (أيُّهَا السَّاكِن في القَصرِ الحصينْ)
صِرَخَ السَّاكِنُ في القَصر العَلي ... (ليسَ بَيتي مَلجَأً لِلشاردين)

بغداد
أنور شاءول المحامي
فصول ملخصة من الفلسفة الألمانية
تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا - 10
فلسفة نيتشه 1844 - 1900
للأستاذ خليل هنداوي
عملت على إنجاز كتاب (فلسفة نيتشه) للأستاذ (هنري)
(ليشتانيرجر
(خ. هـ)
- 1 -
نيتشه هو ممثل الفكرة الألمانية الجبارة في تاريخها الحديث كما كان (بسمارك) رجلها الحديدي في السياسة. فهما وإن اختلفت منازعهما وتباينت الحقول التي غرسها فيها، فما غرس الاثنان إلا بذور القوة والإرادة في شعب تلقحت دماؤه وأفكاره بمصل القوة والإرادة.

هنالك كلمة تسطرها براعة الفلاسفة والنقاد وتشغل مكاناً من العصر الحديث. هذه الكلمة هي كلمة (الانحطاط الاجتماعي) وفلاسفة الاجتماع لا يرون في هذا الانحطاط شيئاً سياسياً يمكن إصلاح الفاسد فيه، أو اعوجاجاً يمكن تقويمه، بل هو داء عضال قد تأصل في جسم البشرية وتمشى في لحمها وعظمها ودمها فهو لا يذهب إلا بذهابها ولا يتلاشى إلا بانقراضها. ومن هؤلاء المغالين في تشاؤمهم (فردريك نيتشه) الذي نازل العالم كله وحده، وهدم العقائد والتقاليد مستمداً من عقله وقلبه عقائد وتقاليد أسمى منها.

- 2 -

الشخصية في نيتشه

إن من الجور أن ننظر فيما ترك نيتشه من تعاليمه (كمذهب محدود) لأن الرجل لم يعمل على أن يؤلف مدرسة فلسفية، ولم يكن لمثل عقله الوثاب أن يقيد نفسه بقيود ضيقة؛ وإنما هو الثورة المتدفقة التي لا تعرف نظاماً ولا انتظاما يملك عليها الاضطراب في اندلاعها،

ويملك على عقله التناقض حتى في الفكرة الواحدة. وإنما الأجدر بنا أن ندرس من فلسفته (الناحية الفردية والشخصية) وهي أبرز نواحي فلسفته جلاء وقوة، لأنها ابنة طبع خاص، وهوى صادق مستقيم إن فلسفة (نيتشه) فلسفة تتجلى فيها (الذاتية) المنقطعة عن الناس. (ماذا يقول لك شعورك؟ يجب أن تكون كما أنت! فينبغي للإنسان أن يعرف نفسه وجسده وحواسه، وأن يمشي بحياته كما تريد ذاته وشخصيته، وأن يغتنم من الفرص أحسن ما يغتنم، ومن المصادفات ما يحقق مطامعه، وبقرب غايته. وأن يصحح - بقدر ما يستطيع - هذه الطبيعة بالفن، ليتسنى له أن يظهر ذاته ويبعث حياته. كلٌ يغترف من هذا المذهب بحسب غريزته وطبيعته؛ إذ لا قواعد ولا أساليب محدودة تصنع لكل إنسان نفسه. فمذهب (عدم المساواة) بين الناس هو من مبادئ نيتشه. إذ ينبغي لكل إنسان أن يخلق بنفسه حقيقته وهدفه وفضيلته؛ فما كان صالحاً للواحد قد يكون ضاراً للآخر. وما كان ضاراً للواحد يكون صالحاً للآخر. وكل ما يستطيع المؤرخ أن يصنعه هو أن يقص تاريخ نفسه، والطريقة التي اكتشف بها نفسه، والإيمان الذي وجد به راحة نفسه. وأن يكون المثال الذي يقتدي به معاصروه للوصول إلى عوالم أنفسهم. . . . ولكنه ليس له بعد هذا كله من مذهب أو من طريق. لأنه لا يود أن يكون راعي قطيع خاضع ذليل

يقول (زرادشت) لرفاقه الأمناء: (إنني وحدي أذهب يا رفاقي. . . وأنتم وحدكم اذهبوا.) . . أنا أريد ذلك

في الحقيقة أعطيكم هذه النصيحة. ابتعدوا عني كثيراً، واحموا أنفسكم من زرادشت. . وخير لكم أن تخجلوا منه .

أنتم تقولون: إنكم مؤمنون به ولكن ماذا يهمه إيمانكم؟ أنتم المؤمنون به، ولكن ماذا يهمه كل المؤمنين؟

أنتم لم تفتشوا بعد عن أنفسكم، ولذلك وجدتموني. هكذا يقول كل المؤمنين، ولهذا

أرى أن كل إيمان هو شيء ضئيل. والآن آمركم بأن تفقدوني لتجدوا أنفسكم، وعندما تكفرون بي أعود إليكم في تلك الساعة. . .)

يتميز نيتشه من أصحاب المذاهب الفلسفية بأنه لا يخاطب العقل وحده كما يفعلون، بل يخاطب الإنسان بأسره عقلا وجسداً. فما التفكير عنده والعاطفة إلا أهواء تعبث بها قوة خفية كامنة تصرفها كما تشاء إلى أين تشاء. (إن وراء أهوائك وعواطفك - يا أخي - سيداً (قادراً) وعاقلاً مجهولاً يسمى (الذات) يسكن جسدك، وإنما هو جسدك، فالجسد بما يضم من أعضاء وبما يحتوي على إرادة القوة، ذا ما يدعوه نيتشه (العقل الكبير للإنسان) وأن العقل الحقيقي - وحده - ناقص سريع العطب. تستعين به الذات على بسط قوتها ونفوذها. فإذا أراد إنسان أن يؤثر في آخر فبهذه الذات الخفية وحدها يمكنه أن يؤثر. وكل شيء سواها باطل. ومن اللغو أن تعرض مذهباً فلسفياً بالطرق المنطقية، أو تحدد العقل بالمقاييس التي اخترعها العقل. وإنما هذه الأحكام المنظمة (مجموعة التقاليد المقدسة) محددة الخير والشر، والجميل والقبيح، هي أحكام موضوعة لا ظل لها من حقيقة، ولكن الإنسان هو واضعها ومقدسها. وخيرهم من ساعد على نشر (ذاته) وشخصيته. فالكتاب - مثلاً - إن هو إلا فعل يقوم بقيام شخصية صاحبه، وبكيانه الكامل. فهو ليس بمفكر فحسب بل هو نبي. . . لا يقول للناس (أنا أحمل إليكم الحقيقة العالمية غير المتعلقة بذاتي. ولكنه يقول (ها أنا بما فيّ من إيمان وحقيقة وخطأ، كما أنا. أقول (نعم) للكون، لكل أفراحه وآلامه. فانظروا إن كنتم تجدون أيضاً سعادتكم في هذه الآراء التي وجدت فيها سعادتي)، وبينا يروح غيره من الفلاسفة متباهين (بانسلاخهم عن شخصيتهم نرى نيتشه يجعل من شخصيته مدار فلسفته. . . فلسفته في الحقيقة هي تاريخ نفسه. وزرادشت النبي الذي يكتب عنه بلهجة شعرية مؤثرة هو ذات نيتشه بما يجول في ذاته من رغائب وآمال وأحلام ومن لم يفهم شخصيته لا يفهم فلسفته

صفحة من حياته الأولى:

ولد نيتشه عام 1844 من أسرة يعتقد بأنها أسرة بولونية قديمة ألجأها إلى ألمانيا ما ألجأها. نراه في حداثته مثال السيطرة والاعتماد على الذات وقهر الآلام الجسدية. وقد كان كثير الوفاء والاحترام لأصدقائه برغم ميله الطبيعي إلى العزلة، صارماً في معاملته. لا يميل إلا إلى من يلائم هواه ويوافق مزاجه ولا ينفر إلا ممن طغت الرداءة والشراسة على خلقه. صارم في حديثه، جاد في مزحه. لا يهوى المزح الكاذب مهما كان عنصره. لأن خروج الرجل عن طبيعته في الحياة الخاصة يخرجه عنها ما يخرجه في الحياة العامة. لا يطيب له مجلس العوام ولا الدخول في حلقاتهم. وإنما هو في حياته كما تمثله لنا كتاباته إرادة فولاذية وسيطرة بعيدة. وكأنه جبل من طينة غير طينة البشرية. لا يهوى الضعف ولا الاستكانة ولا يميل إلى الاستسلام. ولعل الكاتب الدانماركي (أبسن) قد رسم شخصية نيتشه في روايته التمثيلية (الراعي براند) الذي كان رجل كل شيء ولا يقفه حائل. لا يشفق على نفسه ولا على غيره. يضحي - بدون وجل - بسعادته في سبيل تتميم إرادته. يمشي ولا يتسرب إليه الضعف، دامي القدم، محطم القلب. مخترقاً سبيله، بطلاً أبسل في كل ما يخترق. ولا يزال هذا دأبه حتى يريحه الجنون، وترحمه المنون) مثل نيتشه مثل هذا الراعي رجل كل شيء أو رجل لا شيء. يذهب بإرادته لا يصده صاد ولا يمنعه مانع. وقد تكون هذه البطولة - عند نيتشه - أحد عوامل سروره. كما يكون الاستشهاد عند من يقضي في سبيل وطنه. على أن هنالك (نفوساً شاذة) في هذا المجتمع، ممن يقدر لها أن تحارب التعالم وهي تلم أن في هذه الحرب شقاءها وبلاءها، تراها مضطرة بطبيعة حالها إلى أن تكون ذات قلب شديد وإرادة فولاذية، تستعين بها على اقتحام المصاعب ومثل هذه البطولة بطولة المجاهد الذي تتصلب إرادته، وتتحجر عزيمته وهو - خلال ذلك - مفتقر إلى صداقة تسعفه وتساعده، ومن عسى يتخذ صديقاً من بين هذه (المخاليق الناقصة) ولكنه اتخذ أصدقاء يقبل بكمالهم ويؤمن بمثلهم ويغضي طرفه عن نقصهم، وقد صور في مطلع حياته بعض صور أصدقائه تامة كاملة كأنها المثل الأعلى، وبهذا وجد في (شوبنهاور) أسمى مثل

للفلسفة. وفي (ريشارد فاحبز) أسمى مثل للفن. وإذا هو وجد في صحبة هؤلاء راحة نفسية فإنه وجد في نهاية هذه الصحبة ألماً طالما أمضه وعذبه. ومبعث هذا الألم أن الفيلسوف ظل ساعياً دائباً وراء الإنسان الكامل الذي كان مثله الأعلى. فكان - لذلك - في نزاع مستمر مع نفسه، وقد كلفته هذه الصداقة كثيراً، لأن مثله الأعلى يقضي عليه بأن يضحي بها. فجرب كثيراً أن يغض الطرف عن نقص صديقيه، وألا ينظر فيهما إلا مثلاً أعلى الصداقة. فتذوق من الصداقة مرارتها كما تذوق حلاوتها. . . وهكذا آب إلى عزلته لأن طبيعته تدعوه إليها

(يتبع)

خليل هنداوي

-

القصص

من أساطير الإغريق

بلوتو يخطف برسفونيه

أسطورة الربيع

للأستاذ دريني خشبة

كانت ديميتير الطيبة، ربة الخيرات ومغدقة البركات؛ الرحيمة البارة؛ ملونة الزهر، ومنضجة الثمر؛ واهبة الحقول خضرتها والبساتين نضرتها. . . كانت ديميتير الطيبة تسكن في قصر منيف يشرف على سهل إنا أروع سهول جزيرة صقلية جمالاً وأعذبها ماء وأطيبها هواءً، وكانت، حين يتنفس الصبح، تلبس تاجها اليانع الذي ضفرته من سنابل القمح، وتتناول باقة من زهرات الخشخاش ريانة، وتقبض بيمينها على صولجانها العتيد، المرصع بالزبرجد، ثم تستوي في عربتها المطهمة فتنطلق بها الصافنات الجياد تجوب أنحاء الأرض، وتمر بكل مزرعة، وتقف عند كل كرمة؛ تهب القمح من نفحاتها فيربو، والثمر من بركاتها فيزكو، والينع من أنفاسها فيطيب. ثم تعود إذ يجن الليل، فتهرع إليها ابنتها الصغيرة برسفونيه فرحة متهللة، لافة ذراعيها الجميلتين حول ساقي أمها، كأنما تبثهما ما في قلبها الصغير من لوعة وغليل!

وكانت الفتاة - برسفونيه - تقضي ساحبة النهار، إلى أن تؤوب أمها، في سرب من أترابها، بنات الغاب الحسان؛ فيظللن يقطفن الزهر، ويجمعن الرياحين، ثم تنشب بينهن معركة حامية من معارك الطفولة، وملحمة صاخبة من ملاحم الصبى؛ فيتراشقن بالورد، ويترامين بالزنبق الغض، ويتضاربن بأفواف السوسن. . . وهن فيما بين هذا وذاك يقرقعن بالضحك، ويتبادلن النكات، ويتغنين الأغاريد؛ فتستجيب الغابة لهن، وتترقرق الغدران من تحتهن، وتهدل الأطيار من فوقهن، وتمتلئ الدنيا حولهن نشوة وحبوراً

وكأن بلوتو: إله الموتى، ورب الدار الآخرة؛ قد مل هذا السكون المخيم في مملكته تحت الأرض: هيدز، وسم هذه الأشباح التي تطيف به هنا وهناك في الظلمات المحيطة به، وأرواح الموتى تئن وتتوجع في كل مكان من ملكه القابض الحزين؛ فأسرج عربته الضخمة، وألهب جيادها بسياطه القاسية، فانطلقت تعدو به إلى. . . الدار الأولى. . . هذه الحياة الدنيا!!

خرج بلوتو يروح عن نفسه، وينشق هذا النسيم الحلو الذي يغمر ملكوت أخيه زيوس، ويروي روحه الظامئة بالتفرج على عرائس الماء وبنات الغاب، إذ أبين جميعاً أن يشاركنه ملكه الرحيب، ورفضن التزوج منه، برغم ما أغراهن به من اللآلئ والبواقيت وفيما هو ينهب الأرض بعربته، إذا به يسمع في غيضةٍ قريبة، ضحكات مرنة، وأصواتاً موسيقية متقنة، وأحاديث كأنها دنانير من ذهب في كف صيزفي حذق! فساقه الفضول إلى استكشاف أولئك الغيد اللائي يتضاحكن هكذا، كأنما يترنمن بالشدو، ويرجعن بالغناء! ففرق العساليج التي كانت تحجبهن، فرأى البدور البيض يتلاعبن على الحشيش الأخضر، كأنهن نغمات حلوة تنطلق من أوتار أرفيوس!

وجن جنون بلوتو!. . . وأقسم ليخطفن هذه الفتاة الخدلجة الممشوقة، التي تدل على الجميع كأنها فينوس في دولة الحب، أوديانا تخطر بين أماليد!

إلام أظل في هذا الديجور الحالك وحدي؟! وحتام أقاسي منفاي السحيق من غير) صديق أو رفيق؟! وما قيمة ملكي الشاسع، وأنهاري الفائرة بالحمم، مادمت لا سمير

لي ولا مؤنس، إلا زبانيتي وكلابي؟ وإلا شارون المسخ الكئيب؟
!لقد مللت! ولا بدلي من هذه الكاعب الحسناء، والغادة الهيفاء
!إن لها لفماً رقيقاً. . . . وإنها لتتثنى كالغصن، وتخطو كالقطاة
!يا للثدين
مالهما بارزتين هكذا؟ أتطلبان حضناً قوياً كحضني؟ أم يملؤهما لبن الآلهة، ورحيق السماوات؟!
!!يا للفخذين الملتفتين الممتلئتين
!إنهما مترعتان باللذة، فياضتان بالإغراء والترغيب! مالهما تنفجان شهوة هكذا؟
!!وهاتان حماتا الساقين! ويلي عليهما وويلي منهما
إنهما حماتان خبيثتان كأبرع ما تنحت يدا فنان! إنهما تمتلئان لذاذة، وتطلقان رقي السحر في قلوب الناظرين! كورتا تكويراً خفيفاً من فوق، وانعقد دهاء الفتنة عند التفاف العضل
!!فأفعمهما رغبة واشتهاء
!!وقدماها
!!يا للكعبين المستديرين، والجنة النائمة فيهما
!والذراعين الناعمتين
!والظهر العاجي الناصع
!والشعر الذهبي الذي يداعبه النسيم كأنه خصلة من ظلال الخلد
!ويلي
!!أنا لا أري إلا هذه الأعضاء السابية، وأغفل عن هذه الابتسامة التي ترف حول الفم
إنها أجمل من زهرة التفاح في أوائل شهر مايو، وأرق من بتلات أزهار اللوز في شهر أبريل!!
!تلمظ يا فمي فإنك ظمئ إلى قبلة تطبعها على هاتين الشفتين الأقحوانيتين
وسمع إحدى الفتيات تناديها: (برسفونيه! أنظري! هاك بنفسجةً حلوة!)
فتحدث إلى نفسه:
!برسفونيه)
!هذه عروس الربيع إذن! ابنة ديميتير من أخي زيوس
!!لقد كبرت وترعرت، ونهدت؛ وطابت في جسمها البض ثمرة الحياة
!اغفر لي يا أبي ساترن! سامحيني يا رها
سأخطفها! سأجلسها بجانبي على عرش هيدز! ستصبح مليكة دار الموتى! ستنقشع ظلمات ملكوتي بوجهها المشرق الجميل
لن أشعر بشقوة، ولن أحس خباء في ملكي!! إنها ستكون جوهرة التاج، وفتنة العرش، وستسجد الأرواح تحت قدميها المعبودتين!!
(!سأترك لها أن تغفر وتثيب، وسأدع لها مقاليد السفل تصنع فيه ما تشاء
ثم ألهب جياده فانطلقت نحو الفتيات، ولشد ما تفزعن إذ لمحن وجهه الأغبر، يتدلى عليه شعره الأشعث؛ والظلال المظلمة تتخايل فوق جسمه البار كالسمادير!
!ولقد كان كلبه سير بيروس، ذو الرؤوس الثلاثة، يلقى الرعب في القلوب
وفر الحسان مذعورات. . . . إلا برسفونيه، فقد قبض بلوتو على ذراعها الرخصة، وجذبها إليه في العربة، وذهب يسابق الريح ويلاحق البرق، حتى اعترضه ماء نافورة أخذ عليه سبيله. وسرعان ما فار الماء كالتنور، وصار يغلي كالحميم الآن، حتى خشى بلوتو الجبار أن يعبره، وأوجس، إن هو انثنى يبحث عن طريق آخر، أن يضيع الوقت، وتفلت الفرصة، وتروح ديميتير تفتقد ابنتها حتى تستنقذها من يديه. فتناول صولجانه الهائل، وضرب به الأرض فرجفت وزلزلت، وانشقت عن أخدود كبير بعيد الغور. . .
وكانت برسفونيه قد أفيقت من هلعها، فلما رأت النافورة تغلي وتصطخب، أدركت أن إحدى عرائس الماء قد عرفت من أمرها كل شئ، وأنها قد تستطيع أن تؤدي لها خدمة
في ذلك المأزق الحرج، فحلت (برسفونيه) زنارها الحريري الأبيض وألقت به عند ضفاف النافورة عسى أن يصل يوماً إلى أمها عن طريق هذه العروس، فتعلم أين هي، وماذا تم من أمرها
وانطلق بلوتو في ظلام الأخدود حتى وصل منه إلى مملكته. . هيدز! فاستوى على

عرشه مثلوج الصدر خفاق الفؤاد!
ثم طفق يترضى برسفونيه بشتى الوسائل، وهي ما تزداد إلا شماساً ونفوراً. . . طاف بها أرجاء مملكته الشاسعة، وأراها شطئان ستيكس وأشيرون وليث، وسائر أنهار الجحيم؛ ثم خاض بها وادي الأفاعي والعقارب، ومدينة الزنابير واليعاسيب، والدرك الأسفل من النار حيث يأوي المنافقون والكذابون، وحديقة الخونة واللصوص ذات الأشجار من لظى ولهب. . . ولم يفقه المغفل أنه كان يضاعف فزعها أضاعفاً مضاعفة كلما مر بها على منظر جديد من ملكه البغي!!
وعادت ديميتير في المساء، ولكن برسفونيه لم تهرع للقائها كعادتها؛ فحسبتها نائمة. . . بيد أنها لم تجدها في مخدعها، فافتقدتها في جميع الغرفات، ولكن عبثاً حاولت أن تقف لها على أثر! فاضطربت نفسها بالوساس، وخرجت تبحث عنها في الحديقة، فلم تجدها كذلك!
ريعت الأم وارتعدت فرائضها، وانطلقت تعدو وهي تصيح كالمجنونة:
ولكن لسان الصدى - إيخو - وحده الذي (!برسفونيه! برسفونيه! أين أنت يا برسفونيه) كان يردد نداءها. . . . .
ووصلت إلى ابن أخيها هيفيستيوس إله النار فأعارها شعلة عظمية تنير لها ظلمات العالم، ودياجير الليل، عسى أن تهتدي إلى برسفونيه
جاست خلال الغابات، واخترقت الأودية. وفتشت الشطوط، ونفذت إلى أعماق الكهوف، وجالت في مهاوي الجبال، ورقت إلى شعاف الآكام. . . وبحثت عنها في جميع الآفاق. . . فلم تعثر به!!
. . .استعانت بالآلهة، واستنجدت بعرائس البحار، ولكن جهودها ضاعت عبثاً
وجلست ديميتير كاسفة البال ملتاعة القلب، تعلو جبينها عبوسة قمطريرة، وتنوء بروحها آلام وأشجان. . . وأضربت عن الطعام، وآلت لا ينضر حقل ولا يذر نبات، ولا تثمر شجرة، ما دامت ابنتها نائية عنها.! فجفت السهول، ويبست سوق الحنطة قبل أن تؤتى أكلها، وخرقت البساتين دون الثمر، فعجف الناس، وضمرت بهيمة الأرض، ونشر الجوع ألوية الخراب في العالمين!!
وانصرف الناس يصلون لزيوس، ويضرعون لديميتير، ولكن الحزن صرفها عنهم، فلم تسمع لصلاتهم ولم تلب ندائهم. . .
وفيما كانت تجوب القفار، وتطوي المهامه البيد، إذا بها تصل إلى النافورة التي ألقت عندها برسفونيه بزنارها
وإنها لتجلس عند حفافيها تفكر في أعز البنات، إذا بعروس الماء أريثوذا؛ التي لمحت بلوتو يخطف برسفونيه، والتي أهاجت النافورة لتقطع عليه سبيله، تظهر من الماء فجأة لترى من هذه الجالسة عند دارتها تئن وتتوجع؛ وتعلم أنها الربة ديميتير وأم الفتاة، فتتحدث إليها قائلة: (ديميتير! عزيز علينا أن تجزعي هكذا؟! طيبي نفساً وقري عينا، فإن بلوتو رب هيدز هو الذي خطف برسفونيه! وهاك زنارها شاهدي على ذلك! ولقد تبعتها إلى الدار الآخرة أحسب أني أستطيع أن أؤدي لها يداً أو معونة ولكن الإله القاسي أغرى بي زبانيته، فانطلقت مذعورة من اللعين ألفيوس. . . . وعليك أن تخلصي الفتاة فنها لا تذوق طعاماً، ويكاد الحزن يصعقها برغم أنها أصبحت مليكة دار الفناء
وتناولت ديميتير زنار ابنتها فعرفته، ثم طفقت تلقيه على عينيها وصدرها. . . ساكبةً دموعها الغوالي!
وقصدت من فورها إلى زيوس فحدثته بما قالت عروس الماء أريثوذا، وأقسمت لديه، إن لم يأمر أخاه برد برسفونيه، لتهلكن عباده جوعاً، ولتجعلن وجه الأرض فدفداً يبابا. . . لا تسمن بزرع، ولا تروي بضرع!!
فتأثر زيوس من قولها، وابتسم ابتسامة حزينة، ثم قال: (لا بأس من عودة برسفونيه إذن. . . . ولكن! على شريطة ألا تكون قد ذاقت طعاماً في هيدز، مملكة أخي! فإنها، إن كانت قد فعلت، لا تصلح للحياة في هذا الدار الأولى!)
ولسوء الحظ، كانت برسفونيه، بعد امتناعها عن ذوق شيء من طعام هيدز طوال هذه الأشهر، قد أكلت في نفس ذلك اليوم الذي وعد فيه زيوس بعودتها إلى الدنيا ست حبات من الرمان فحسب! فلما علم زيوس بذلك، عدل حكمه، فقضى أن تلبث

برسفونيه في هيدز عند شقيقه بلوتو ستة أشهر من كل سنة، أي شهراً بكل حبة مما أكلت!! وتعود إلى أمها فتلبث معها ستة أخرى؛ فيعود بعودها الماء إلى الزروع، والأزدهار إلى الحدائق، والشبع والثروة إلى الناس، ويكون عودها ربيع الحياة وبهجة الأرض

عاشت برسفونيه ربة الربيع! ولا طال عن الناس مغيبها في هيدز. .! عند الشرير بلوتو. . . الذي حرم الحياة من أن تكون ربيعاً كلها!!

دريني خشبة

البريد الأدبي

عيد الأكاديمية الفرنسية

سبق أن تحدثنا عن الظروف التي نشأت فيها الأكاديمية الفرنسية منذ ثلاثة قرون في عهد لويس الثالث عشر ووزيره الكاردينال ريشيلو، وعما تعتزمه الحكومة الفرنسية والأكاديمية من إحياء هذا العيد والاحتفال به. وقد صدر أخيراً أول بيان رسمي عن برنامج هذا الاحتفال؛ وسيبدأ تنفيذه منذ 17 يونيه القادم؛ ففي هذا اليوم قداس رسمي في كنيسة جامعة السوربون؛ ويفتتح معرض الأكاديمية في المكتبة الوطنية؛ ويستقبل رئيس الجمهورية أعضاء الأكاديمية؛ وفي اليوم الثاني (يوم 18)، تعقد جلسة رسمية للأكاديمية في قصر اللوفر في بهو (الكارياتيد)، وتلقى الخطب، وتقام حفلة تمثيلية، ثم تقام مأدبة عشاء يعقبها استقبال في دار البلدية. وفي يوم 19، تقام مأدبة للأكاديميين في حدائق شانتيلي، ويزار متحف كوندي؛ وفي يوم20 منه تعقد الأكاديمية جلسة رسمية في دارها (تحت القبة)؛ ثم تولم في المساء وليمة رسمية كبرى. هذا وستصدر الأكاديمية بهذه المناسبة كتاباً ذهبياً يشترك فيه كل عضو بكتابة فصل من فصوله، وستقدم نسخة من القاموس الجديد في جلد فخم إلى رئيس الجمهورية (وهو النصير الرسمي) للأكاديمية

ذكرى الفرد دي موسيه

عنيت جمعية أصدقاء الشاعر الأشهر الفرددي موسيه بإقامة معرض لكتبه ورسائله وآثاره في السابع من مايو الجاري، وذلك لمناسبة مرور مائة عام على نظمه (ليالي مايو)، وأقيم هذا المعرض في نفس المنزل الذي كان يعيش فيه دي موسيه حين ألف هذا الكتاب وهو يقع في شارع جرنيل رقم 59. وقد رأت جمعية أصدقاء الشاعر بهذه المناسبة أيضاً أن تصدر كتاباً يحتوي على طائفة من الوثائق والرسائل التي تتعلق بحياة الشاعر ولم تنشر بعد

الفكرة الاشتراكية - شرح جديد لها

صدر أخيراً كتاب عنوانه (الفكرة الاشتراكية) بقلم العلامة الاقتصادي البلجيكي هنري دي مان أحد وزراء بلجيكا اليوم. ولهذا الكتاب أهمية خاصة من الوجه الاقتصادية والعملية لأن

مؤلفه يشترك اليوم في حكم مع وزارة مسيوفان زيلند التي تحكم البلجيك على قواعد اقتصادية. ونظرية دي مان في الاشتراكية هي أنه يجب التفريق بين المركسية وبين المركسيين (والمركسية هي الاشتراكية طبقاً لمبادئ، كارل ماركس)، كما أنه يجب التفريق بين المعارك الحزبية وبين العمل لتغيير المجتمع. وما هي الاشتراكية؟ هي أن يسحق النظام الرأسمالي؟ يجيب هنري دي مان أن نعم وأن لا، ذلك أن الغاية هي أن نجعل الإنسان ينعم بقسط أوفر من السعادة، وذلك بتحسين الانتاج، وأن نقلل جهد الاستطاعة من تبديد الجهود البشرية في العمل، وأن نقسم ثمرات الإنتاج بطرق أكثر عدالة؛ ومن أجل هذا يرى دي مان أنه يجب تغيير الوسائل الاقتصادية والاجتماعية التي يقوم عليها المجتمع الحاضر، وهذه مسالة في الواقع يكاد يتفق عليها العالم؛ وما يقع اليوم في إيطاليا الفاشستية، وألمانيا الهتلرية، وروسيا السوفيتية، وأمريكا في عهد روزفلت إنما هي محاولات من هذا النوع وفي سبيل نفس الغاية. كذلك تسير الأمم القديمة الحرة إلى تحقيق هذا المثل وإن كانت تسير بطيئة كسير الشيوخ.

ويقول مسيو دي مان أن المسالة كلها تتوقف على الوسائل التي تكفل النجاح. ومن رأيه أن الثورة تنجح بالعنف والسفك، والواقع أن (الماركسية) هي التي هزمت سنة 1917 وليست الرأسمالية، ولم تهزم الرأسمالية إلا فيما بعد، حين بدئ بتطبيق الوسائل والنظريات الاقتصادية الجديدة. بيد أن مسيو دي مان يرى أن أنصار فكرة

الإصلاح لقوا نفس الفشل الذي لقيه أنصار الوسائل الثورية؛ ففي ألمانيا، وفي إيطاليا وفي غيرهما من الأمم الغربية قد فشلوا، إما في الوصول إلى الحكم كما حدث في فرنسا، والسبب في ذلك هو أنه في ظل البرلمان وهو نظام رأسمالي، لا تملك الدولة إلا قوة محدودة، ولا يتم النصر إلا إذا كان العمل مباشراً وسريعاً لا يحد منه شيء

مارك توين لمناسبة عيده المئوي

تحتفل الدوائر الأدبية الأمريكية بذكرى العيد المئوي لمولد الكاتب القصصي الفكه (مارك توين) الذي يعتبر أمير الدعابة والفكاهة في الأدب الأمريكي. ويجب أن نعرف بادئ بدء أن (مارك توين) ليس هو اسم الكاتب الحقيقي، وإنما هو اسمه القلمي؛ وأما اسمه فهو صامويل لانجهورن كليمنس؛ ولد منذ مائة عام (سنة 1835) في فلوريدا من أعمال

ميسوري (بالولايات المتحدة) من أبوين فقيرين، وتلقى تربية مدرسية عادية في هذه المدينة، واضطر منذ حداثته أن يحترف أعمال الطباعة ليكسب قوته، واشتغل بهذه الحرفة مدى حين في سان لوي وفي نيويورك وفي غيرهما من العواصم. وفي سنة 1851، حينما بلغ السادسة عشرة، ترك أعمال الطباعة واشتغل بحاراً نوتياً في قارب بخاري يعمل في نهر المسيسيبي، وفي أثناء عمله في النهر راقت له صيحة بحرية مما يستعمل حين سبر أغوار الماء: (مارك توين)، فاتخذها فيما بعد اسما رمزياً للتوقيع على كتاباته. وقد أثارت حياة النهر خياله، وأمدته بطائفة من التأملات والملاحظات اتخذها فيما بعد مادة لبعض صوره وأقاصيصه، ولما نشبت الحرب الأهلية الأمريكية كان (مارتن توين) في نحو السادسة والعشرين من عمره، فترك حياة النهر، وذهب إلى ولاية نيفادا وأشتغل بالصحافة، وتولى تحرير جريدة (انتربرايز) في فرجنيا سيتي. واشتغل في نفس الوقت بهندسة المناجم وإلقاء المحاضرات. وفي سنة 1867 أصدر أول كتبه محتوياً على عدة أقاصيص وصور فكاهية بعنوان (الضفدعة الوثابة) وغيرها، فلفت الأنظار بطرافته وخفة روحه وفكاهته الفياضة، وكان نجاحاً عظيماً. وربح مارك توين من كتابه الأول مبلغاً حسناً أنفقه على رحلة إلى أوربا، طاف خلالها ثغور البحر الأبيض، واتخذها مادة لكتاب أصدره سنة 1869 بعنوان (الأبرياء في الخارج)، فزاد هذا الكتاب في شهرته الأدبية وبالأخص في شهرته كأستاذ للفكاهة والأدب المرح. وفي هذا العام تولى تحرير جريدة جديدة هي (اكسبريس بافالو)، واستمر في تحريرها مدى عامين. وفي سنة 1872، أصدر كتابه (كيف تخشن) وفيه صور وملاحظات عن الحيات في الولايات الغربية، وفي العام التالي أصدر كتاباً بالاشتراك مع صديقه وارنر عنوانه (العهد المذهب)، وظهرت له بعد ذلك تباعاً عدة قصص ومجموعات نقدية وقصصية نذكر منها (سائل في الخارج) (1880)، (الأمير والحقير) (1882) (الحياة في نهر المسيسيبي) (1883) (مخاطرات هكلبري فن) (1885) (الورقة ذات المليون جنيه) (1893) (مأساة بدهد ولسون) (1894) (ذكريات جان دارك) (96) (سائلون آخرون في الخارج) (97) (الرجل الذي أفسد هدلبرج) (1900) (مذكرات ايف) (1906) (العلم المسيحي) (1907) وغيرها.

ومما يذكر في حياة مارك توين أنه في سن 1884 اشترك مع صديقه تشارلس وبستر وشركائه في إنشاء دار نشر كبيرة، وازدهرت أعمال الشركة بادئ بدء، ولكنها ساءت بعد ذلك وأفلست سنة 1895، وتحمل مارك توين بسبب هذه النكبة أعباء مالية فادحة، ولم ير مارك توين وسيلة للاقلة من هذه العثرة سوى الطواف حول العالم وإلقاء المحاضرات الفكهة. وقد نجحت رحلته نجاحاً عظيما وجمع مبلغاً كبيراً من المال، واستطاع أن يسدد ديونه. وكان مثله في ذلك مثل الكاتب الفرنسي يلزاك الذي أراد أن يحقق الغنى من الاشتغال بنشر الكتب فباء بالخسارة والإفلاس.

ومن ذلك الحين كان مارك توين يقضي معظم أوقاته في أوربا، وفي سنة 1901 عاد إلى الولايات المتحدة وتابع الكتابة، وفي سنة 1907 زار إنكلترا فاستقبل بحماسة عظيمة، وأنعم عليه بدرجة فخرية من جامعة أكسفورد. وتوفي 1910 في الخامسة والسبعين.

ومارك توين من أقطاب الأدب الفكه، وهو أستاذ هذا الفن في الأدب الأمريكي، كما أن جورج كورتلين هو أستاذ هذا الفن في الأدب الفرنسي، وفكاهة مارك توين مرسلة ليس فيها تكلف، وقد تكون أحياناً خشنة يطبعها الاغراق، ولكنها على أي حال ممتعة

مؤثرة؛ وأحياناً تبدو دقيقة تقوم على بعض المبادئ الجدية. وما يزال تراث مارك توين فريداً في الأدب الأمريكي.

تكريم الدكتور محمد حسين هيكل بك

في مساء الأربعاء الماضي أقامت لجنة ممتازة رئيسها الأستاذ الجليل مدير الجامعة المصرية، حفلة تكريمية في فندق الكونتننتال، للأستاذ الكاتب النابغ محمد حسين هيكل بك، بمناسبة إصداره كتابه القيم (حياة محمد)، شهدها صفوة متخيرة من رجال الفكر، وتكلم فيها نخبة متميزة من رجال البيان، وكان الكلام الجاهر على المنصة، والحديث الخافت حول الموائد، يدور على هذا الجهاد المنصور المبرور الذي جاهده الأستاذ هيكل في الأدب والسياسة هذه الحقبة الطويلة. والأستاذ هيكل في الأدب أحد الأساطين الرواسي التي قام عليها أدبنا الحديث ما في ذلك خلاف؛ توفر بحكم دراسته على الثقافة الغربية، ومال بحكم قراءته إلى الآداب الفرنسية، وتعصب بحكم مصريته للفنون الفرعونية، وهو كاتب بالاستعداد، فنان بالفطرة، فلابد أن يكتب، ولابد أن يكتب بالعربية؛ والعربية لم يعطها بعد نصيباً جدياً من ذكائه، فظهر في الثمرات الأولى ضعف الائتلاف بين المعنى القوي

والتفكير المهذب، وبين اللفظ الضعيف والأسلوب المهمل، ولكن النفوس الفنية تهتدي بغرائزها إلى الطريق، وتسير وراء إحساسها إلى القاعدة، فلم يلبث الأستاذ هيكل أن فرض أسلوبه الغني بالصور، وأدبه القوي بالمنطق، على أبناء الأدب العربي؛ ولم يلبث الدكتور هيكل الذي خضع لأثر الفرنسية والفرعونية وبدأ (بزينب)، أن يسمو إلى العربية والإسلامية وينتهي بـ (حياة محمد).

فوز مبين للإسلام والعرب والشرق أن يصدر عن الأستاذ هيكل هذا الكتاب الروحي الخالد؛ فهو يدل فيما يدل على أن أدبنا الأصيل العريق أخذ يرتد إلى منبعه، ويستمد من وحيه، ويتمتع باستقلاله. والاحتفال بالدكتور هيكل هو احتفال ضمني بهذا التطور الأصيل المحمود الذي سما بالفكر المصري إلى رتبة الخلق، وبالأدب العربي إلى مقام الأصالة.

من رونسار إلى بودلير

صدر أخيراً في باريس كتاب عنوانه (من رونسار إلى بودلير) بقلم مسيو فرنان فليريه، ورونسار هو شاعر فرنسا الأكبر في القرن السادس عشر؛ وبودلير هو شاعرها الأكبر في القرن التاسع عشر. وقد تناول مسيو فليريه في كتابه تطور الشعر الفرنسي؛ وحياة أقطابه منذ القرن السادس عشر؛ وتحدث عن الأساليب الأدبية التي توالت على الأدب الفرنسي في هذه العصور؛ وخص الأسلوب التهكمي منها بفصل بديع. ومسيو فليريه ناقد قدير؛ وقد سبق أن نشر معظم فصول كتابه في بعض الصحف والمجلات الأدبية فأثارت تقديراً واهتماماً.

وفاة كاتب روماني

من أنباء بوخارست أن الكاتب الشاعر الروماني الشهير بنايت استراني قد توفي في سن الحادية والخمسين بعد مرض طويل. وقد بدأ هذا الكاتب حياته العامة عاملاً؛ ولكنه ظهر بمواهبه الفكرية، وجذبه المعترك السياسي منذ حداثته، فكان زعيم حركة اشتراكية قوية. ولما أعلنت الحرب الكبرى هاجر إلى سويسرا اتقاد الاضطهاد، وهناك كتب عدة قصص قيمة؛ منها: (العم انجل) و (كيرالينا)؛ ولفتت قصصه أنظار الدوائر الأدبية، ولا سيما الدوائر الفرنسية؛ وترجمت إلى معظم اللغات، ووصفه الكاتب الفرنسي رومان رولان بأنه

(جوركي البلقان)

وبعد الحرب زار استراتي روسيا السوفيتية ليدرس التجربة الاشتراكية ولكن عاد بخيبة أمل، وانهارت عقيدته الاشتراكية وتحول إلى مبادئ الوطنية البرجوازية (الرأسمالية) وكان في أعوامه الأخيرة يشترك في المعترك السياسي بحماسة ونشاط، وكان يقارع خصومه السياسيين بحملات صحفية شديدة كانت تثير كثيراً من الجدل والاضطراب.

العيد المئوي لبلليني

من الأعياد الفنية الشهيرة التي تتأهب إيطاليا للاحتفال بها بعد بضعة أشهر؛ العيد المئوي لوفاة الفنان المؤلف الموسيقي الأشهر فنشتر بلليني الذي توفي شاباً في عنفوان فتوته وفنه منذ مائة عام. وقد ولد هذا الفنان البارع في مدينة قطانية من

أعمال صقلية في أواخر سنة 1801؛ وكان أبوه معلماً للموسيقى. فنشأ الطفل موهوبا في الفن. وأخذ يؤلف القطع الموسيقية منذ السادسة من عمره. وفي سن الثانية عشرة ذهب إلى نابولي والتحق بمعهدها الفني؛ وكان أستاذه هنالك تسنجار يللي المؤلف الموسيقي المشهور وملحن رواية (روميو وجولييت). ولم تمض بضعة أشهر حتى وضع الطالب بلليني أول (أوبرا ته) وعنوانها (أدلسون وسالفيني)، ومثلت في قاعة المعهد ونالت نجاحاً عظيماً حتى أنها كانت تمثل كل يوم أحد. ولما رأى الفتى نجاحه السريع وضع قطعة أخرى عنوانها (بيانكا وفرناندو)، ومثلت في مسرح سان كارلو، فنالت نجاحاً أعظم، وذاع صيت الفتى الفنان حتى أن دومنيكو بارباجا أعظم مخرجي العصر دعاه إلى وضع قطعة جديدة تمثل في مسرح (سكالا) بميلانو وهو أعظم مسارح إيطاليا يومئذ؛ فسافر بلليني إلى ميلانو ووضع قطعته الشهيرة (القرصان) (سنة 1827)، فكان ظفره بتمثيلها عظيماً، وارتفع في الحال إلى وصف أعظم فناني العصر؛ وأتبعها بقطعة جديدة عنوانها (الأجنبية) ثم بأخرى عنوانها (جولة الليل) ثم (نورما) وهي قطعة موسيقية بلغ بها ذروة مجده، وبعدئذ وضع بلليني قطعاً خاصة لمسارح إيطاليا الشهيرة في البندقية ونابولي وغيرها، ثم سافر إلى باريس ووضع هناك قطعة (البورتانيين) فنالت نجاحاً عظيماً، ولكن المرض كان قد أخذ يسري إلى الفنان الفتى وأخذت صحته تسوء بسرعة؛ ولم يلبث أن توفي في باريس في سبتمبر سنة 1835 ودفن بمقبرة (بير لاشيز) ثم نقلت رفاته بعد ذلك إلى مسقط رأسه (قطانية) سنة 1876

وقد احتفلت الأوبرا النمساوية (بمدينة فينا) بذكرى بلليني احتفالاً خاصاً مؤثراً، فأحيت ذكرى روايته (جولة الليل) بتمثيلها مدى أسبوع لأنها في هذا الشهر شهر مايو مثلت بالأوبرا النمساوية من مائة عام

الكتب

قصة الفلسفة اليونانية

تصنيف الأستاذين أحمد أمين وزكي نجيب محمود

للدكتور عبد الوهاب عزام

أستاذنا أحمد الأمين رجل بارك الله عليه، فرزقه من الفكر السليم، والعلم الواسع، والدأب على الأعمال وتأديتها في أوقاتها، وترتيبها ما أتاح الله للتأليف القيم النافع. فاخرج للناس في بضع سنين كتابيه فجر الإسلام وضحى الإسلام

والأستاذ منذ عهد بعيد معنى بالفلسفة، ترجم في مبادئها كتابا عن الإنجليزية، قبل خمسة عشر عاما، ودرس نواحي منها في درسه علم الإخلاف والتأليف فيه. وقد أحس، وهو يألف ضحى الإسلام، حاجة إلى الاستزادة من الفلسفة اليونانية ليستعين بها على فهم الفلسفة الإسلامية. يقول الأستاذ: (حتى إذا عرضت لوصف الحياة العقلية عند العرب وألفت في ذلك فجر الإسلام وضحاه، ووصلت في التأليف إلى المعتزلة والمتكلمين في العصر العباسي، رأيت أنهم تعرضوا لمسائل هي من صميم الفلسفة اليونانية، ورأيت أن لابد لفهمها من الرجوع إلى منابعها لأعرف كيف فهموها وكيف نقلوها وما الذي زادوا عليها، فاضطرت إلى العودة إلى كتب الفلسفة استعرض مسائلها، وأتفهم غوامضها الخ)

قرأ الأستاذ ودون خلاصة ما قراء، فأخرج بمعونة شريكه الكتاب الذي سماه (قصة الفلسفة اليونانية). يقول الأستاذ: (فلما عاودت القراءة في الفلسفة بدت مني رغبة في أن اكتب خلاصة ما أقرأ فذلك أدعى إلى وضوح الفكرة في ذهني، وإذا أن ينتفع بما انتفعت به غيري. وكان من حسن حظي أن رأيت أخي وزميلي الأستاذ زكي نجيب محمود يرغب رغبتي ويتمنى أمنيتي، فتعاونا معا على إخراج هذا الكتاب وتقديمه للقراء)

من هنا تم التصليح

وكنت وعدت أن أكتب في مجلة الرسالة عن (ضحى الإسلام)، وحالت حوائل دون المبادرة بإنجاز الوعد؛ ثم تيسر لي الفراغ لكتابة المقال الأول، وبنا أن في شغل به مررت

على لجنة التأليف والترجمة والنشر فأخذت الكتاب الجديد (قصة الفلسفة اليونانية): ولما أخذت مكاني في قطار حلوان فتحت الكتاب لأقراه مقدمته وفهرسه، ثم أطبقه إلى أن تتاح فرصة لقراءته. فلما قرأت المقدمة شاقني ما بعدها، وقادني حسن البيان، وسلاسة العبارة، وسهولة الشرح من صفحة إلى أخرى حتى عبرت من الكتاب صفحات كثيرة، فآثرت أن أتمة، وبدا لي أن اكتب عنه إذا أتمته، ناقداً حاسباً ما للكتاب وما عليه. فلما انتهت بي القراءة إلى فصل سقراط قولت: هنا فاصلة يحسن الوقوف عندها فقد كان سقراط فصلا في تاريخ الفلسفة تغيرت به سيرتها، فوقفت القراءة لأكتب عما قرأت، وأجعل بقية الكتاب موضوع مقال آخر. وهكذا يأبى الأستاّذ احمد الأمين إلا أن يعمل ويشغلنا بعمله عن أعمالنا.

- 3 -

أراد المصنفان أن يعرضا على القارئ العربي الذي لا علم له بالفلسفة اليونانية قصة هذه الفلسفة في نشأتها وتطورها في إيجاز وإيضاح، وتسهيل وتيسير، وبعد عن التعمق والتفصيل، والتقصي في البحث. وقد تسنى لهمه ما أرادا فجاء الكتاب كما ابتغيا (قصة) يسيرة شائقة، كفيله بتقريب الفلسفة اليونانية إلى المبتدئين. ولا يحتاج الناقد إلى تبيين هذا، فكل صفحة في الكتاب شاهدة به. يبدأ المصنفان كل فصل ببيان ما يريدان، حتى إذا بلغا ما أرادا أجملا ما قد ما، فإذا بدأ الفصل التالي ذكرا القارئ بما قدماه. حتى إذا جاوزا عهدا من عهود الفلسفة إلى عهد آخر وفقا بالقارئ يلفتانه إلى ما أوضحا من قبل ليتعرف فرق ما بينه وبين ما يستقبله في العهد التالي، وهلم جرا وقد قرأت ما قرأت من الكتاب مثنيا على المصنفين مسرورا راضيا إلا هنات يسيرة منها ما يلي:

1 ـ قال المصنفان إن من الفروق بين العلم والفلسفة أن كل علم يبحث في ظواهر محدودة من العالم، وأن الفلسفة تحاول النفاذ إلى بواطن الأشياء كلها واستكناه حقائقها. وقد أوضحا هذا إيضاحا حسنا وساقا الأمثلة، ولكن فرطت في أثناء ذلك عبارات تثبت أن العلوم تقنع بالظن وأن الفلسفة لا تقف دون اليقين. فقالا في صفحة 10: (ولكن هذا الذي أقنع العلم لن يرضى الفلسفة. هي لا تطمئن إلى هذا الركون والركود، ولا تستقر إلا إذا وجدت لكل ظاهرة ما يؤيدها تأييداً تاماً.) وقالا في صفحه 13: (وهي (الفلسفة) لا تجيز لنفسها أن تركن إلى حكم من الأحكام بالغا ما بلغ من القوة والذيوع إلا إذا أيداه الدليل القاطع) وفي الصفحة نفسها (كذلك لا ترضى الفلسفة أن تسلم بصحة مبدأ أو فكرة إلا إذا ثبتث لديها ثبوتاً لا يدع مجالا للريب والشك. فهاتان صفتان تستطيع بهما أن تفرق بين العلم والفلسفة:) وهذا كلام يفهم القارئ أن الفلسفة قائمة على اليقينيات وأن العلوم قائمة على الظمنيات، والمعروف غير هذا. فقد كانت الفلسفة نظراً عاماً في الكون ظاهره وباطنه، ثم تحددت مواضع النظر وأدرك الباحثون قوانين في العالم نشأت بها العلوم المختلفة يؤيدها التجربة والاستقراء والبرهان العقلي. وكلما خرجت طائفة من ظواهر الكون من الحدس إلى اليقين خرجت من حضانة الفلسفة حتى لم يبقى للفلسفة في العصر الحاضر إلا موضوعات لم تحط بها التجارب ولم تضبطها البراهين وهي ما وراء الطبيعة، والنفس، والأخلاق، والنطق، والجمال الخ

نحن نعترف بأن العلم لا يبحث في حقيقة موضوعه ولكن في خصائصه. فهو لا يبالي بحقيقة الزمان والمكان والمادة، بل يبحث في خصائصها ومظاهرها، ولكن هذا لا يستلزم أن تكون العلوم الظنية والفلسفة يقينية، بل مجال الظن والغرض أوسع في الفلسفة منه في العلم. وقصارى القول أنه ينبغي التفريق بين غاية العلم والفلسفة ومباحثهما، فغاية العلم بحث ظواهر ولكن مباحثاته قائمة على الحس والتجربة، وغاية الفلسفة النفاذ إلى حقائق الأشياء ولكن مباحثهما مليئة بالحدس والظن

2 - أين بدأت الفلسفة؟

قال المصنفان تحت هذا العنوان: (لعلك الآن في ضوء هذا التحليل الذي تقدمنا به إليك تدرك معنا أن هذا الضرب من التفكير الذي يحاول أن يوحد بين ظواهر الكون المتنافرة والذي يرفض التسليم الساذج رفضاً تاماً، والذي يسمو بالعقل فوق المستوى المادي من حيث أسلوب التفكير وصور الفكر - نقول لعلك تذهب إلى ما ذهبنا إليه من أن هذا التفكير الفلسفي الصحيح لم ينشأ ولم يتم إلا عند شعب واحد دون الشعوب

القديمة جميعاً هم اليونان القدماء:)
وقالا في الصفحة 16: (لم تستمد الفلسفة اليونانية أصولها من تلك الأمم القديمة ولكن خلقها اليونان خلقاً وأنشئوها إنشاء. فهي وليدتهم وربيتهم ليس في ذلك ريب ولا شك:) فأما ادعاء
أن الفلسفة على هذا النحو لم تنشأ إلا عند اليونان فهو مجازفة. ولو اطلعا على فلسفة الهند مثلاً لاقتصدا في هذه الدعوى. ولعلهما يسمعان عما قليل بقصة الفلسفة الشرقية كما أسمعا الناس قصة الفلسفة اليونانية. وقد ذكرا في أول الفصل الثاني أن
فيثاغورس رحل إلى مصر وبلاد الشرق، وقالا في آخره: (وأنت ترى من ذلك أنهم (الفيثاغوريين) خطوا بالفلسفة خطوة جديدة نحو التفكير المجرد. فبدأت الفلسفة منذ ذلك الحين تتحلل بعض الشيء من تلك النزعة الطبيعية التي سادت عند فلاسفة يونيا لتستقبل صبغة جديدة - هي صبغة الفلسفة في أصح معانيها - أعنى التفكير المحض فيما وراء الطبيعة وظواهرها. الخ) وقالا في الفصل السادس إن ديمقريطيس (كان واسع العلم، راغباً في تحصيله رغبة حارة. . . . وقد حفزته تلك الرغبة الملحة في التحصيل إلى الرحلة في أقطار الأرض، فزار مصر وجاس خلالها، وعرج على بابل وطوف في أنحائها.) فإن يكن فيثاغورس الذي تعلم في مصر ورحل إلى الشرق قد نحا في الفلسفة نحواً جديداً، وارتقى بها إلى التفكير المجرد الذي هو أقرب إلى الشرقيين، فلم نجزم جزماً أن فلاسفة اليونان لم يستمدوا قط من الأمم الأخرى؟ وإن يكون ديمقريطيس وهو إمام مذهب في الفلسفة رحل إلى مصر وبابل في طلب العلم فكيف نجزم بأن اليونان لم يأخذوا عنهم (ليس في ذلك ريب ولا شك)
3 - وقالا ص33 أثناء الكلام على آراء الفيثاغوريين:
وقد .(أي انك تستطيع أن تتخيل في غير عسر كوناً يخلو من اللون والطعم والحرارة) جهدت أن أتخيل عالماً لا لون له فلم يتيسر لي
4 - في الكلام على هرقليطس ص56 (بعد أن عمر نحو ستين عاماً كان فيها معاصراً لبارمنيدز.) والعبارة توهم أنه عاصر بارمنيدز ستين عاماً، وليس هذا مقصوداً كما يعرف من تاريخ الرجلين
5 - في الكلام على السوفسطائيين ص99: (ومن أجل ذلك سمي اللعب بالألفاظ والتهريج في الحجج سفسطة اشتقاقاً من السوفسطائيين.) وكان ينبغي هنا تفسير كلمة سوفسطائي في وضعها الأصلي حتى لا يتوهم القارئ أن فيها معنى السفسطة المعروف
6 - تكلم المصنفان على الأحوال السياسية والاجتماعية في بلاد اليونان عند ظهور السوفسطائيين ليبينا أثرها في فلسفتهم، ولم يذكر آثار الحروب الفارسية المتمادية، وكانت
ذات أثر بليغ في اليونان
وهناك هنات لفظية كثيرة نتركها حتى نفرغ من نقد الآراء والمعاني
العدد 99 - بتاريخ: 27 - 05 - 1935
. . .إلى بعض الكبراء
عندكم يا سادتي المال، ولكم الجاه، وكان فيكم الحكم، فلم تأبون أن يكون معكم المجد أيضاً؟ رفعناكم واتضعنا، وحكّمناكم وأطعنا، ثم صغنا مجداً ألقاباً لعظمتكم، وحشدنا أبناءنا جنداً لسطوتكم، وجعلنا أموالنا مدداً لثروتكم، وقلنا أفراد تقويهم روح الجماعة، ورموز تلبسهم فكرة الوطن، وألوية ترفعهم سواعد الأمة، فإذا ضعفكم ينوء بقوة الحكومة، وإسفافكم يهبط بسمو المنصب، وارتفاعكم كارتفاع الأسهم النارية: فرقعة ولألا، ثم سقوط وفناء!
يزعم أرباب الشعر وأصحاب الخيال أن الإنسان ملكٌ مُرتَّق الجناح هبط من سمائه ولم يصعد، فهو لا ينفك ما عاش نزوعاً إلى موطنه! وهم يعنون بذلك أن الإنسان بالجزء الإلهي الذي فيه مسوق إلى الكمال مشوق إلى الرفعة، فهو يفرغ من مطالب الجسد ليخلص إلى رغائب الروح، ويبتدئ بالأثرة في ضيق الأنانية لينتهي إلى إيثار في سعة الغيرية، وينشأ على هوى الطبيعة معنى جزئياً ليعود بحكم التطور فكرة إنسانية!
فما الذي قتل فيكم هذا النزوع السماوي، وصرف عنكم هذا الطموح المقدس، فقيدتكم جاذبية المادة، وعقلتكم شهوة الغرض، وأبيتم على نداء البطولة واسحثاث

الرجولة إلا أن تكونوا ناساً كأقل الناس، لكم كروش لا تكتفي، ونفوس لا تشتفي، وأطماع لا تحد
ربما علل النفسيون هذا الميل الشاذ في بعض كبراء اليوم، بأنهم من فقد الخلق الصالح في قصور ذاتي معنوي لا ينفك؛ فهم يرتفعون قذفاً في السماء، ويسقطون جذباً إلى الأرض، ولا يشعرون إلا كما يشعر الحجر بأن القاذف المجهول رمى بهم أماني فوق، وسحق بهم أناسٌ تحت!!
كذلك من يتعلم ولا يتربى، ويتربى ولا يتدين، ويتحرك ولا يقصد، ويتصرف ولا يريد! أولئك يحُدون دنياهم بالأفق، ويختمون حياتهم بالموت، ويزنون سعادتهم بالمادة، ويضخمون على أقوات الشعب ضخامة الفيلة المروضة ليكونوا مركباً للملوك، وفرجة للناس، وغذاء للأرض!! وهؤلاء أنماط من الخلق كانوا صُبابة العهد القديم رسبت فيها أكداره وشوائبه، ثم كانوا بحكم تخلفهم جسراً محطم الأركان مهدَّم القواعد، لابد للجيل الجديد من اجتيازه لينتقل من عالم إلى عالم، ويخرج من عصر إلى عصر، فهو يحملنا على اضطراب وخلل، ونحن نعبره على احتراس ومهل، وفي هذا الاحتراس وذلك الاضطراب سر ما ترى في خُطانا من قِصَر وفي نهضتنا من بطء
ما علة هذه الهزيمة في مصر، وما سبب هذا الخلاف في فلسطين، وما باعث هذه الثورة في العراق؟ لا تلتمس دواعي ذلك كله في كيد الدخيل وخداع العدو، فإن الغاصب يستطيع إن شاء أن يسلبك مالك بالحيلة، أو استقلالك بالغيلة، ولكنه لا يستطيع أن يفتنك عن شرفك وخلقك وضميرك وأنت رجل! إنما يدفع هذه الفيلة الأهلية الغُلف بخراطيمها الماحقة، وأخفافها الساحقة، وإهابها الصفيق، فتسوّى أمامه الأرض، وتمهد له الطريق، وتحمل له فوق ظهورها العرش!
إن مشكلة الدستور، وقضية (نزاهة الحكم) برهانان صارخان على أننا أُتينا يوم أُتينا من ناحية الخلق! وتلك ناحية لا يحصنها وا أسفاه شهادة تُعطى، وخطبة تُلقى، ومقالة تُكتب؛ إنما يحصنها الله بدينه، والمعلم بتهذيبه، والأب بسيرته، والزمن بطوله. وهل في سيادتنا وكبرائنا الذين أضلونا السبيل من لم يشدُ شيئاً من العلم في المدارس، ويدرك ذرواً من الأخلاق في الكتب؟ ولكن علم هؤلاء بالحلال والحرام كعلم القاتل واللص، لا يعصم النفس، ولا يوقظ الضمير، ولا ينفي الجهل، ولا يمس الحياة العملية! فنحن كما ترى مقضيٌّ على نهضتنا بالتثاقل، وعلى أمتنا بالتخاذل، حتى يصبح الدين قائماً، والضمير حاكماً، والعمل عقيدة، والإحسان طبيعة، والواجب مرعياً، والتبعة مفروضة؛ وحينئذ ينتظم وضعنا الشاذ، ويتسق وجودنا النافر، وتنفق من السُّلال مطايا الرجعية الذميمة!
قل لأولئك الذين أحرقوا روما وما زالوا يعزفون أناشيد الجحيم على أوتار نيرون! ماذا جنى هذا الشعب الكريم حتى سفهتهم حقه في الحياة، وأضعتم نصيبه من الحرية؟ كان في يديه دستور فأين ذهب؟ وفي طريقه استقلال فأين اختفى؟ وفي تاريخه ستة عشر عاماً حامية بالجهاد، دامية بالضحايا، فأين قطوفها المشتهاة، وحصائدها المرجوة؟
تصرفتم في حقوقه تصرف السفيه في المال المتروك، واتخذتم من مرافقه وسائل للكيد الأحمق وموارد للربح الخاص، وجعلتم من وحدته أولياء لا يعدوهم الإحسان وخصماء لا تُغبهُّم الإساءة، ونسيتم أن في البلد احتلالاً يقظ الرأي، كلوء العين، يحصى عليكم الأنفاس، ويتربص بكم الدوائر!
كان يقظان وكنتم غارّين، فدلف إلينا من جهتكم، واحتج علينا بخطئكم، ثم ذبكم عن الحكم ذبَّ البعوض، وقبض بيديه العاريتين على سياسة البلاد، ووقف الأمة المنكودة بين الحيرة
والشك في عواقب هذا الفساد!!
أحمد حسن الزيات
الانتحار - 5
للأستاذ مصطفى صادق الرافعي
قال المسيَّب بن رافع: وأطرق الناسُ قليلاً بعد خبر (أبي محمد البصري)؛ إذ كان كلٌّ منهم قد جمع باله لما سمع، وأخذ يحدسُ في نفسه ويراجعها الرأي؛ وكان المجلسُ قد امتدّ بنا منذ العصر وما يكاد النهارُ يشعرُ بأدباره، حتى اعترضت في شمسه الغبرةُ

التي تعتريها إذا دنت أن تعربُ.
وكان إلى يساري فتى ريان الشباب، حسن الصورة، وضيءٌ مشرق له هيئة وسمت، أقبل على الأيام وأقبلت الأيام عليه
فسمعني أطن على أذن (مجاهد الأزدي)؛ وكنت اعرفهُ شاعراً في كلامه وشاعراً في قلبه؛ فقلت له: إنه لم يبقَ من النهار يا مجاهد إلا مثلُ صبر المحبِّ دبا له الموعد، ولم يبقَ من الشمس إلا مثلُ ما تتلفف صاحبته، تأخذُ عليها ثوبها وغلائلها ولكن بعد أن تسقطها من هنا ومن هنا، لترى جمال جسمها هنا وهنا!
فاهتز الفتى لهذه الكلمات وسالت الرقَّة في أعطافه وقال: ياعم، أما ترى ما بقى من النهار كأنه وجهُ باكٍ مسح دموعه وليس حوله إلا كآبة الزمن؟
قلت: كأن لك خيراً يا فتى، فإن كان شأنك مما نحن فيه فقصَّه علينا وعلّ لنا به سائر الوقت إلى أن تجب الشمس، ولعلك طائرٌ بنا طيرةً فوق الدنيا.
قال: فمهْ؟
قلت: تقومُ فتتكلم، فإني أرى لك لساناً وبياناً
قال: أو يحسن أن أتكلم في المسجد عن صرعه الحب وصريعه، وعاشقةٍ وعاشق؟
فبادر مجاهدٌ فقال: ويحك يا فتى! لقد تحجرت واسعاً؛ إن المؤمن ليصلّى بين يدي الله وكتابُ سيئاته في عنقه منشورٌ مقروء. وهل أوقات الصلاة إلا ساعاتٌ قلبية لكل يومٍ من الزمن، تأتي الساعة مما قبلها كما تأتي توبةُ القلب مما عمل الجسم؟ إنما يتلقَّى المسجدُ من يدخله لساعته التي يدخله فيها، ولو أنه حاسبه عن أمسٍ وأول منه وما خلا من قبل، لطردهُ من العتبة! إن المسجد يا بني إنما يقول لداخله: أدخل في زمني ودع زمنك، وتعال إلي أيها الإنسانُ الأرضي، لتتحقق أن فيك حاسةً من السماء، وجئني بقلبك وفكرك، ليشعرا ساعةً
إنهما في لا فيك. ولسنا الآن يا بني في متحدثٍ كنديٍّ القوم يتطارحون فيه أخبارهم، بل نحن في مجلس علمٍ تكلمت فيه رقبةُ هذا ورقبةُ هذا بما سمعت؛ فقم أنت فاذكر علم قلبك وقص علينا خبرَ طيش الحبَّ والشباب الذي يشبه الكلام فيه أن يكون كلاماً عن الصعود إلى القمر والقبضِ من هناك على البرق!
قال المسيّب: فانتهض الفتى، ورأيت مجاهداً يتنهّد كأنما انصدعت كبده؛ فقلت: ما بالك؟ قال: إن شبابي قد مرّ على الساعة فنسمت منه في بردة هذا الفتى، ثم فقدته فقداً ثانياً فهرمت هرماً ثانياً، وجاءني الحزن من إحساسي بأني شيخ حزن من همّ أن يدخل باب حبيبٍ ثم رُدّ. . .!
وتحدث الفتى، فإذا هو يديرُ بين فكيه لسان شاعرٍ عظيم، يتكلم كلامه بنفسين: أحدهما بشريةٌ تصنع المعنى واللفظ، والأخرى علويةٌ تلقى فيها النار والنور
قال: إن لي قصة أيُها الشيخ، لم يبقى منها إلا الكلامُ الذي دفنت فيه معانيها؛ وقد تأتي القصة من أخبار القلب مفعمة بالآلام والأحزان، لا يراد بآلامها وأحزانها إلا إيجاد أخلاق للقلب يعيش بها ويتبدّل. والذي قُدِّر عليه الحبُّ لا يكون قد أحب غيره أكثر مما يكون قد تعلم كيف ينسى نفسه في غيره، وهذه كما هي أعلى درجات الحبّ - فهي أعلى مراتب الإحسان
ومتى صدق المرءُ في حبّه كانت فكرتهُ فكرتين: إحداهما فكرةٌ والأخرى عقيدةٌ تجعل هذه الفكرة ثابتة لا تتغيّر؛ وهذه كما هي طبيعة الحب فهي طبيعة الدِّين
ولا شيء في الدنيا غير الحب يستطيع أن ينقل إلى الدنيا ناراً صغيرة وجنة صغيرة، بقدر ما يكفي عذاب نفس واحدةٍ أو نعيمها! وهذه حالة فوق البشرية.
والفضائلُ عامَّتُها تعمل في نقل الإنسان من حيوانيته، وقد لا تنقل إلا أقلّه ويبقى في الحيوانية أكثره؛ ولكن الحب الصادق يقتلع الإنسان من حيوانيته بمرةٍ واحدة، بيد أنه لا يكون كذلك إلا إذا قتله بآلامه؛ فهو كأعلى النسك والعبادة.
كان من خبري أني دُعيتُ يوماً إلى ما يدعى لمثله الشباب في مجلس غناءٍ وشراب يا له من مجلس! وقد قال تعالى: (إن اللهَ لا يَسْتَحي أن يَضرِبَ مَثلاً ما بَعُوضةً فما فوْقَها) والبعوضةُ في قصتي أنا كانت امرأة نصرانيّة. . . قينة فلان المغنية الحاذقة المحسنة
المتأدبة، تحفظ الخبر وتروي الشعر، وتتكلم بألفاظ فيها حلاوة وجهها، وتخلق النكتة إذا شاءت خلق الزهرة المتفتحة عليها سقيط الندى؛ وتجدُّ بالحديث ما شاءتْ وتهزل،

فتجعل للكلام عقلاً وشهوة تضاعفُ بهما من تحدثه في شهواته وعقله!
وستجري في قصتها ألفاظ القصة نفسها، لا أتأثَّمُ من ذلك ولا أتذمم؛ فقد ذكر الله الخمر بلفظ الخمرِ ولم يقل: (الماء الذي فيه السكر)، ووصف الشيطان ولم يقل: (الملك الذي عِمل عملَ المرأة الحسناء في تكبرها)، وذكر الأصنام بأنها الأصنام ولم يُسمِّها: (حاملة السماء التي يصنعها الإنسان بيديه)، وحكاية ما بين الرجل والمرأة هي كلامٌ يقبِّل بعضهُ بعضاً ويلتزمُ ويتعانق!
قال المسيَّب: فتبسم إمامنا ونظرتْ عيناه تسألان سؤالاً. أما مجاهدٌ الأزدي فكان من هزةِ الطَّرب كأنه على قتب بعير، وقال: لله دَرُّه فتىً، إن هذا لبيان كحيلُ العين. . .
ثم قال الفتى: وذهبت إلى المجلس وقد جعلته هذه المغنيةُ من حواشيه وأطرافه كأنه تفسيرٌ لها هي. أما هي فجعلتْ نفسها تفسيراً لكلمةٍ واحدة هي: (اللذّة. . .)
قال المسيَّب: وطرب مجاهدُ طرباً شديداً، وسمعته يخافت بصوته يقول: (لله درُّها امرأة، هذه، هذه عدوّةُ الحور العين!)
ثم قال الفتى: وتطرّب جماعة أهلِ المجلس إلى الشرب، وما ذقت خمراً قط، ولن أتذوقها ولو شربها الناس جميعاً، ولن أذوقها ولو أنقطع الغيثُ ولم تمطرِ السماء إلا خمراً؛ فأني مذ كنت يافعاً رأيت أبي يشربها، وكانت أمي تلومه فيها وتشتد في تعنيفه وتحتدم، وكانا يتشاحنان فينالُها بالأذى ويندرئُ عليها بالسبَّ وفحش القول. وسكر مرة وغلبه السكر حتى ثارت أحشاؤه فذرعه القيء فتوهمني وعاء، وجاء إلى وأنا جالس فأمسك بي وقاء في حجري، حتى أفرغ جوفه، وثارت أمي لتنتزعه وأنشأت تعالجه عني فتصارع جنونه وعقلها حتى كفأته على وجهة كالإناء؛ فالتوى كالحية بطناً لظهر وستجمع كالقنفذ في شوكه، ثم لكزها برجله أسفل بطنها فانقلبت، وأصاب رأسها إجانة العجين فتثلم تثليم الإناء كأنما شدخ ضرباً بحجر، وأنتثرِ دماغها على الأرض أمام عينيّ، ورأيتها لم تزد على أن دفعت بإحدى يديها في الهواء وضمت بالأخرى إلى صدرها، تتوهم أنها تحميني وتدفعه، ثم سكنت ولو لم تمت من الشجة في رأسها لماتت من الضربة في بطنها!
قال المسيَّب: وأطرق الفتى هُنيهةً وأطرق الناسُ معه؛ فرفع مجاهد صوته وقال: رحمها الله! فقال الناس جميعاً: رحمها الله!
ثم قال الفتى: وكان عامة من في المجلس يعرفون ذلك مني، ويعرفون أنه لو ساغ لإنسان أن يشرب دم أمِّه ما شربتُ أنا الخمر. فقالوا للمغنيَّة: إن هذا لا يدخلُ في ديواننا. فنظرت إليّ، وهربتُ أنا من نظرتها بإطراقة؛ ثم قالت: تشربُ على وجهي؟ فقلت لها: إن وجهك يقول لي: لا تشرب. . . فتضاحكت وقلت: أهو يقول لك غير ما يقول لهؤلاء؟ فهربتُ من كلامها بإطراقةٍ أخرى، ووصلت الإطراقتان ما بيني وبين قلبها؛ وتنبه فيها مثل حنوِّ الأمّ على طفلها إذا آذته بلسانها فأطرق ساكتاً يشكوها إلى قلبها!
والتفت لمن حضر وقالت لهم: لست أطيبُ لكم ولا تنتفعون بيّ إلا أن تشربوا لي ولهُ ولأنفسكم، وانحطّ عليهم الساقي، فشربوا أرطالاً وأرطالاً، وهي بين ذلك تغنيّهم وقد أقبلت عليهم وخلا وجهها لهم من دوني وإنما تخالسني النظرة بعد النظرة
فوسوس لي شيطاني أن تشدد مع هذه بمثل عزمتك مع الخمر. ولكني كنتُ أحدُّ النظر إليها، فمرةً أوامقُها نظرة المحبِّ للحبيب؛ وكأني بذلك كنتُ آخذها وأدعها، وأصلها وأهجرها. فقالت لي كالمنكرِ عليّ: ما بالك تنظر إليّ هكذا! ولكن هيئة وجهها جعلت المعنى: لا تنظر إليّ إلا هكذا. . .!
وأسرع الشرابُ في القوم وأفرط عليهم السُّكر؛ فبقيت لي وحدي وبقيتُ لها وحدها؛ ثم تناولت عودها وضمته إليها ضماً شديداً أكثر من الضمّ. . . وألمسته صدرها ونهديها، ثم رنت إليّ بمعنى، فما شككتُ أنها ضمةٌ لي أنا والعود؛ ثم غنت هذا الصوت:

ألا قاتل اللهُ الحمامة غُدوةً ... على الغصن؛ ماذا هيجتْ حين غنتِ؟
فما سكتت حتى أويتُ لصوتها، ... وقلتُ: تُرى هذى الحمامة جنتِ؟
وما وجْدُ أعرابيةٍ قذفتْ بها ... صُروفُ النوى من حيث لم تكُ ظنتِ. . .
إذا ذكرتْ ماءَ العضاهِ وطيبَه، ... وبرْد الحمى من بطنِ خبتٍ، أرنَّتِ. . .
بأكثر مني لوعةً، غيرَ أنني ... أجمجمُ أحشائي على ما أجنتِ!

وغنَّته غناءً من قلبٍ يئنّ، وصدرٍ يتنهّد، وأحشاءٍ لا تخفى ما أجنتْ؛ وكانت ترتفع بالصوت ثم كأنما يهمي الدمعُ على صوتها، فيرتعش ويتنزّل قليلاً قليلاً حتى يئنَ أنين الباكية، ثم يعتلج في صدرها مع الحب، فيتردد عالياً ونازلاً، ثم يرفضُّ الكلامُ في آخره دموعاً تجري

قال المسيَّب: فنظر إليّ مجاهد وقال: عدُوّةُ الجنة والله هذه يا أبا محمد، لا تقبل الجنةُ من يكون معها. تقول له: كنتَ مع عدُوتي!

ثم قال الفتى: وكان القوم قد انتشوا، فاعتراهم نصف النوم وبقى نصف اليقظة في حواسهم، فكل ما راؤه منا راؤه كأحلام لا وجود لها إلا خلف أجفانهم المثقلة سكراً ونعاساً. ووثبت المغنيةُ فجاءت إلى جانبي والتصقت بيّ، وأسرع الشيطانُ فوسوس لي: أن أحذر فأنك رجلُ صدق، وإذا صدقت في الخمر فلا تكذبنّ في هذه، ولئن مسسْتها إنها لضياعك آخر الدهر!

فعجبتُ أشدّ العجب أن يكون شيطاني أسلم وأعنْت عليه كما أعين الأنبياء على شياطينهم. ولكن اللعين مضى يصدُّني عن المرأة دون معانيها، وكان مبني كالذي يُدني الماءَ من عيني القتيل المتلهب جوفه ثم يجعله دائماً فوتَ فمه، ولقد كنتُ من الفحولة بحيث يبدو لي من شدة الفورةِ في دمي وشبابي أن أجمع في جسمي رجالاً عدةً، ولكن ضربني الشيطانُ بالخجل فلم أستطع أن أكون رجلاً مع هذه المرأة

وعجبتْ هي لذلك وما أسرع ما نطق الشيطانُ على لسانها بالموعظة الحسنة. . .! فقالت: لقد أحببتك ما لم أحبّ أحداً، وأحببتُ خجلك أكثر منك، فما يسرُّني أن تأثم فيّ فتدخلَ النار بحبي، ولو أنك ابتعتني من مولاي؟ فقلت: بكم اشتراكِ؟ قالت: بألف دينار! قلت: وأين هي مني وأنا لو بعت نفسي ما حصلت لي؟

فتمم الشيطانُ موعظته وقالت: إن قلبي قبلك غنياً كنت أو فقيراً، وأحسّ بك وحدكُ حبِّ العذراء أول ما تُحبّ، وأنا - كما تراني - أعيش في السيئات كالمكرهة عليها، فأعمل على أن تكون أنت حسنتي عند الله، أذهب إليه حاملةً في قلبي إياك وعفتي عنك، ولئن كانت عفةُ من لا يشتهي ولا يجد تعدُّ فضيلة كاملة، إن عفة من يجد ويشتهي لتعدُّ ديناً بحاله. ولا يزال حبي بكراً، ولا أزال في ذلك عذراء القلب، وهؤلاء قد نزعوا الحياء عني من أجل أنفسهم، فألبسينهِ أنتَ من أجلك خاصة، وإن قوة حبي الذي سيتألم بك ويتعذب منك لطول ما يصبر عنك، ستكون هي بعينها قوةً لفضيلتي وطهارتي ثم تناولتْ عودها

وسوته وغنتْ:

فلو أنا على حجر ذُبحْنا ... جرى الدّميان بالخبر اليقين

وجعلت تتأوه في غنائها كأنها تُذبح ذبحاً، ثم وضعت العود جانباً وقالت: ما أشقاني! إذا اتفقت لي ساعةُ زواجي في غير وقتها فجاءت كالحلم يأتي بخيال الزمن فلا يكون فيه إلا خيال الأشياء

ثم سألتني: ما بالك لم تشرب الخمر ولم تدخل في الديوان؟ فبدر شيطاني المؤمن. . وساق في لساني خبر أمي وأبي، فانتضحت عيناها باكية وتم لها رأيٌ فيّ كرأي أنا في المسكُر؛ وكان شيطانها بعد ذلك شيطاناً خبيثاً مع أصحابها، وبطريقاً زاهداً معي أنا وحدي!

ورأيتها لا تجالسني إلا مُتزايلة كالعذراء الخفرة إذا انقبضت وغطت وجهها، وصارت تخافني لأنها تحبني، وهيّبني الشيطان إليها فعادت لا ترى فيّ الرجل هو تحت عينيها الثَّيِّبتين. . ولكن القديس الذي تحت قلبها البكر

ولم يعد جمالي هو الذي يعجبها ويصبيها، بل كان يعجبها مني أني صنعةُ فضيلتها التي لم تصنع شيئاً غيري. . .

وأنطلق الشيطانُ بعد ذلك فيّ وفيها بدهائه وحنكته وبكل ما جرَّب في النساء والرجال من لدن آدم وحواء إلى يومي ويومها. . .! فكان يجذبني إليها أشدَّ الجذب، ويدفعها عني أقوى الدفع، ثم يغريني بكل رذائلها ولا يغريها هي إلا بفضائلي. وألقى منها في دمي فكرة شهوةٍ مجنونةٍ متقلّبة، وألقي مني في دمها فكرةٍ حكمةٍ رزينةٍ مستقرّة. وكنت ألقاها كلَّ يومٍ وأسمع غناءها؛ فما هو بالغناء ولكنه صوتُ كلِّ ما فيها لكل ما فيّ، حتى لو التصق جسمها بجسمي وسار البدنُ البدن، وهمس الدم للدم، لكان هو هذا الغناء الذي تغنيه

وأصبحت كلما استقمتُ لحبها تلوّت عليّ؛ إذ لستُ عندها إلا الأمل في المغفرة والثواب، وكأنما مسختُ حبلاً طوله من هنا إلى الجنة لتتعلّق به. وعاد امتناعها جنوناً دينياً ما يفارقها، فابتلاني هذا بمثل الجنون في حبها من كلف وشغف
وانحصرت نفسي فيها، فرجعتُ معها أشد غباوةً من الجاهل ينظر إلى مدّ بصره من الأفق فيحكم أن ههنا نهاية العالم، وما ههنا إلا آخر بصره وأوّلُ جهله. وانفلت مني زمامُ روحي، وانكسر ميزان إرادتي، وأختل استواء فكري، فأصبحت إنساناً من النقائض المتعادية أجمع
اليقين والشك فيه، والحبّ والبغض له، والأمل والخيبة منه، والرغبة والعزوف عنها. وفي أقل من هذا يخطفُ العقل، ويتدلّه من يتدله
ثم ابتليتُ مع هذا اللّمم بجنون الغيظ من ابتذالها لأصحابها وعفتها معي، فكنت أتطاير قطعاً بين السماء والأرض، وأجدُ عليها وأتنكر لها، وهي في كلِّ ذلك لا تزيدني في حالةٍ واحدة من الرهبانية؛ فكان يطير بعقلي أن أرى جسمها ناراً مشتعلة، ثم إذا أنا رمتهُ استحال ثلجاً. وقرحت الغيرة قلبي وفتّتت كبدي من عابدة الشيطان مع الجميع، الراهبة مع رجل واحد فقط. . . .!
ورجعت خواطري فيها مما يعقل وما لا يعقل؛ فكنت أرى بعضها كأنه راجع من سفر طويل عن حبيب في آخر الدنيا، وبعضها كأنه خارج من دار حبيبٍ في جواري وبعضها كأنه ذاهب بيّ إلى المارستان. . .!
ورأيتنا كأننا في عالمين لا صلة بينهما ونحن معاً قلباً إلى قلب، فذهب هذا بالبقية التي بقيت من عقلي؛ ولم أرَ لي منجاةً إلا في قتل نفسي لأزهق هذا الوحش الذي فيها وذهبتُ فابتعت شعيرات من السم الوحي الذي يُعجل بالقتلِ، وأخذتها في كفي وهممتُ أن أقمحها وأبتلعها، فذكرت أمي، فظهرت لخيالي مشدوخة الرأس في هيئة موتها، وإلى جانبها هذه المرأة في هيئة جمالها، وثبتت على عيني هذه الرؤيا، وأدمنتُ النظر فيها طويلاً فإذا أنا رجلٌ أخر غير الأوّل، وإذا المرأة غير تلك، وطغت عبرةُ الموت على شهوة الحياة فمحتها، وصح عندي من يؤمئذٍ أن لا علاج من هذا الحبّ إلا أن تقرن في النفس صورة امرأة ميتة إلى صورة المرأة الحيّة، وكلما ذكرت هذه جيء لها بتلك، فإذا استمر ذلك فإن الميتّة تميتها في النفس وتميت الشهوة إليها، ما من ذلك بُد، فليجربه من شك فيه
وانفتح لي رأى عجيب، فجعلت أتأمل كيف آمن شيطاني ثم كفر بعد، على أن شيطانها هي كفر في الأول ثم آمن في الآخر؟ فوالله ما كنت إلا غبياً خامد الفطنة إذ لم يسخ لي الصواب حتى كدت أزهق نفسي وأخسر الدنيا والآخرة؛ فإن الشيطان - لعنه الله - إنما ردّني عن الفاحشة وهي ذنب واحد ليرميني بعدها في الذنوب كلها بالموت على الكفر!
وردّ إلى هذا الخاطرُ ما عزب من عقلي؛ ومن ابتلى بلاءٍ شديد يزلزل يقينه ثم أبصر اليقين، جاء منه شخص كأنما خلق لساعته؛ فلعنت شيطاني واستعذتُ بالله من مكره، وألقيت السمّ في التراب وغيَّبته فيه، وقلتُ لنفسي: ويحك يا نفس! إن الحياة تعمل عملاً بالحي، أفترضين أن تعمل الحياةُ بأبطالها ورجالها ما عرفت وما علمت، ثم يكون عملها بك أنت القعود ناحية والبكاءَ على امرأة؟
أيُتها النفس، ما الفرق بين سرقة لحم من دكان قصاب، وبين سرقة لحم امرأة من دار أبيها، أو زوجها، أو مولاها. .؟ أيُتها النفس إن إيمان أسلافنا معنا؛ إن الإسلام في المسلم
قال المسيَّب: وهنا طاش مجاهد واستخفه الطرب، فصاح صيحة النصر: الله أكبر! وجاوبه أهل المسجد في صيحةٍ واحدة: الله أكبر! ولم يكد يهتف بها الناس حتى ارتفعت صيحة المؤذِّن لصلاة المغرب. الله أكبر. . .
(انتهى المجلس، وبقيت لحديث المسيَّب بقية)
(طنطا)
مصطفى صادق الرافعي
سبيل المدنية
للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني
رآني مرةً صاحبٌ لي آكل لحماً نيئاً، فاستغرب، وسألني عنه كيف أجده؟ قلت: أطيب

ما يكون، فأبى أن يصدّق، وذهب يكابر، وجعل يسأل: (كيف تستطيبه وهو نيئ؟)
قلت: (يا أخي إن المسألة ليست مسألة منطق وجدل، إنما هي مسألة طعام، فخذ منه وذق، وأنظر بعد ذلك كيف تجده، ثم إنه لا شك أخف على المعدة وهي أقدر على هضمه من اللحم الذي أنضجته النار، وأثقله ما يخلط به)
فهز رأسه منكراً، وأبى أن يجرب. ومضت أيام، فاشتهيت أن آكل كبداً نيئة، فصارت الخادمة بعد ذلك تعلن الخوف مني ولا تخفيه، وتغلق عليها الأبواب حين تنام، كأنما خشيت أن آكلها حية، ثم لم تطق صبراً فتركت البيت، وتحدث إلى المخدم بأني (غول) فتعذر عليه أن يقنع غيرها بالعمل في بيتي، فجئت بواحدة من الريف ويخيل إلي أن المدينة تضعفنا من حيث ترقينا، وتشيع في نفوسنا روح الأنوثة، فنزداد عليها رقة وتطريا، ولا نزداد قوة وقدرة على المقاومة. فنحن مثلاً نقاوم البرد بالثياب لا بأجسامنا وما فيها من المناعة الطبيعية التي تستفاد من التجرد، ولا يستطيع الواحد منا أن يخطو عشر خطوات بقدم حافية، وما أكثر ما تسمع الأم تحذر ابنها أن يمشي حافياً حتى في البيت مخافة أن يصيبه أذى من الرطوبة أو نحوها. والخبز يوضع على المائدة في طبق حتى لا يمس السفرة، والأشواك والسكاكين والملاعق توضع مستندة إلى قطع من الزجاج أو المعدن ترفع أطرافها، وهكذا في كلّ شيء، ولكن القطة مثلاً تعتمد إلى كوم الزبالة فتنبشه وتأكل ما تجد فيه من فتات الخبز أو غيره، والكلب يقضم العظام مخلوطة بالتراب فلا يصاب بسوء ولا تعروه حمى، وينام تحت عين الشمس فلا تضربه، وإذا جاء الشتاء لم يتخذ لحافاً ولا شبه. وحدثني طبيب يعمل في الريف أنهم قلما يعنون بتطهير أدوات الجراحة في مستشفيات القرى عنايتهم بذلك في المدن، ولا يرون أن هذا يضير المرضى، أو يحدث لهم تسمماً، وهو يعلل ذلك بأن الأجسام في القرى أعظم حصانة وأقوى مناعةً لكثرة تعرضها، على خلاف الحال في المدن ونصحني مرة طبيب من أصدقائي أن أكف عن أكل اللحم وأن أقتصر في طعامي على الخضر والفاكهة، فقلت له: (لا يا صاحبي، فأني أرى الحيوان أقواه آكل اللحم وأضعفه آكل النبات، وأنا أكره لنفسي أن أحيا حياة خروف. والعمر طوله أو قصره لا قيمة له، وليست العبرة بأيام تزداد في الأجل أو تنقص منه، فأنه إلى انتهاء على الحالين، (ومرجوع وهاج المصابيح رمدد) كما يقول الشاعر، ولأن يحيا المرء حياة قصيرة ولكنها قوية، خير ألف مرة من يعيش ألف سنة ويكون بغلاً أو حماراً)
فضحك ولكني كنت جاداً ومن ذا الذي لا يؤثر أن يكون نمراً على أن يكون ثوراً؟ أعني أن تكون له قوة النمر وصولته وبطشه، ولا بأس بالغدر والقسوة أيضاً، فأن لكل مزية ثمنها، وعسير أن تؤتي فضلاً وأن تسلم من عيب أو نقيصة؛ وإذا كان ثمن القوة القسوة أو الغدر، فأن ثمن الجمال الضعف، وهكذا في غير ذلك
وعلى ذكر ذلك إن الحب عند الحيوان تنزّ، وهو بين البدو شهوة تغري بالاستحواذ بالقوة أو الحيلة، ولكنه في ظل المدينة يستحيل حنين عاجزٍ، وصبوة حائرٍ، ولهفة ضائع، ودموع مفؤود، لا حيلة له ولا دواء من دائه إلا أن يرق له المحبوب ويحنو عليه كما تحنو الأم على طفلها الرضيع. والتماس معاني الجمال في الإنسان والحيوان والأشياء عنوان رقي ودليل على دقة الحس والتمييز، ولكنه أيضاً التماس لمعاني الضعف، وتطرٍّ من الإنسان، ونزوع إلى الأنوثة. وهذا كلام أحسب القراء سينكرونه ولا يقبلونه، ولعل منهم من يتوهمه إغراقاً في التخيّل، ولكنه الحقيقة - وسبيل المدينة هذا، ولا حيلة لي ولا لهم.
وأحسب أن في نفسي أثراً من آثار البداوة، فأني أحب الصحراء وأكره هذه البني العالية ولا أرتاح إلى الفرش الوفير، وأمقت التعقيد وأوثر البساطة في كلّ شيء؛ وقد أرتاب بعض أهلي في صحة عقلي لما تزوجت، لا لأني تزوجت، فما في ذلك من بأس، بل لأني قلت لهؤلاء الأهل لما أبلغوني أن صاحبهم يأبى أن يزوجني الصغرى قبل تتزوج الكبرى: (قولوا له أني سآخذها على الرغم منه إذا لم آخذها برضاه)
فعجبوا وقال قائلهم: (كيف؟ في أي عصر نحن؟ أم تريد أن تحدث حدثاً في الأسرة؟)
قلت: (كلّ ما أعرفه أني أطلبها وأني سآخذها - خطفاً أو غصباً أو سرقة - آخذها والسلام، فقولوا ما بدا لكم، وظنوا ما شئتم، ولكني أنصح لكم أن تردوا صاحبكم إلى الرشد)

فلم يسمع منهم، فكان أن أخذتها على رغم كلُّ أنف - إلا أنفها! ولم أخطفها ولم أسرقها،
ولكني أحسنت التدبير وجودت الحيلة. وما معنى أن أطلب شيئاً، وأروح أنحسر وأتلهف وأقطع قلبي عليه؟ هذا كلام فارغ! والطلب يقتضي السعي، فأما أن يوافق المرء وإلا فليقصر إذا عزه المطلب، ولكنها المدنية تحيل النفوس كالورق المبلول، فمن كان يريغ القوة فليجفف نفسه قليلاً، ولينأ بها عنا الترف والرقة
وقد قرأت للكاتب الإنجليزي هـ. ج. ولز، قصة لا أذكر أسمها، ولكني أذكر أنه يتخيل أن البطل انتقل إلى كوكب آخر أرقى من هذه الأرض، وأعلى في درجات الحضارة وأسبق إليها ببضعة آلاف من السنين، فكان أن ظهرت الأنفلونزة، ففشت بسرعة ولم يدرِ سكان هذا الكوكب كيف يتقونها أو يصدونها، لأن جرثومتها لا تجد من أجسامهم مقاومة، فأخذوا يعزلون المصابين بالطيارات
وهذا فعل المدينة لأنها ترمي إلى التسهيل والتيسير على الإنسان والتخفيف عنه، ورفع مؤونة الكد والتعب، وهذا مفضٍ إلى التطري والضعف. وقد قيل للمشترع الإسبرطي مرة: (ألا تبني لنا سوراً يقينا الغارات المفاجئة؟)
فقال: (كلا. خير سور ما كان من اللحم والدم)
يريد أن يقول إن بناء السور من الحجر يغري بالاستنامة والاطمئنان ويؤدي إلى الضعف، أما إذا بقيت المدينة بلا سور يحميها فإن هذا يبعث على تنبه أهلها ويقظتهم ويدفعهم إلى الاستعداد الدائم، فلا تضعف نفوسهم ولا تذهب رجولتهم. وهذا صحيح. وقس على ذلك في سائر الأمور.
إبراهيم عبد القادر المازني
من آثار هوجو
أمبير جلوا
رمز الشبيبة المعذبة
للآنسة النابغة (مي)
بمناسبة انقضاء خمسين عاماً على وفاة فيكتور هوجو، سيكون النظر في كتاباته والتحدث عنها من خير الوسائل للاحتفاء بذكراه، بل هو أحسنها على الإطلاق، لأن الشاعر يعيش بآثاره لا بما يقول الناس عنه، ولا بما يصنعون (لتخليد) اسمه
ومن آثار هوجو ما هو خصيص بعصره، ومنها ما لن يستوعبه إلا المستقبل، ومنها ما هو لكل زمن وكل مكان، ومنها ما يخيل أنه وضع لأيامنا هذه. ومع أن حكاية أمبير جلوا من أقل كتابات هوجو ذيوعاً، فهي أكثر ما تكون انطباقاً على حالة طائفة من الشبان في هذا العصر، حتى في هذه البلاد - مع اختلاف نوع الحافز لانفعال الغرام
ومن يكون أمبير جلوا؟
هو فتى سويسري، ووالده يعلم الخط في مدارس جنيف، استغواه أسم باريس، فراح يجري وراء السراب الذي أغرى الكثيرين بأن تلك المدينة العظيمة هي عاصمة المغامرة بالمواهب والمضاربة، وأن كلُّ لبيبٍ باسلٍ يجد فيها المستقبل الذي يستحقه وخلاصة ما يصبو إليه من نجاح وثروةٍ وشهرةٍ ومجد. (فمن دخلها بلا حذاء، خرج منها في مركبة)
وقد دخلها أمبير جالوا في أكتوبر 1827، ومات فيها بؤساً ويأساً في أكتوبر 1828 عامٌ واحدٌ لا غير، لتحيا فيه جميع الآمال، ولتخيب فيه جميع الآمال. ويصف هوجو بطله شاباً مديد القامة، محني الظهر قليلاً، برّاق العينين، فاحم الشعر، وردي الوجنتين، يرتدي رادنجوتاً أبيض، وعلى رأسه قبعة قديمة. في الجملة الأولى يتلعثم إذا هو يذكر أسمهُ وأسم المدينة التي كان فيها طفلاً ثم أسم المدينة التي يريد أن يكون فيها رجلاً. هو في الحادية والعشرين من عمره، وثقته بنفسه أقلّ من ثقافة فكره ومن خصب جنانه. هو يسعل قليلاً؛ وبحركةٍ مرتبكةٍ يحاول إرجاع قدميه إلى الوراء تحت الكرسي. ربما ليخفي حذاءه الرث ذا
الخروق، أو هو يحاول تدفئة قدميه بعض الشيء بعد تسرُّب ماء المطر إليهما من هاتيك الخروق. وبعد الكلمات الأولى يتركز صوته، ويتكلم بطلاقه، وتكاد تقتصر أحاديثه على شعراء إنجلترا. كذلك عرفهُ الرجال الثلاثة أو الأربعة من كبار الكتّاب والأدباء الذين رحّبوا به وشجعوه وساعدوه قدر المستطاع، مقدرين فكرهُ المشبوب وثقافتهُ

وتأدبه وحسن بيانه
انتابته في الشهور الأولى حمى باريس، فأراد أن يرى كلَّ شيء ويسمع كلَّ شيء. لم يعن بأهل السياسة والتسوس، ولا بالمتحذلقين الذين لا هم لهم غير (قتل الوقت) والظهور، ولا بجماهير المتقاطرين لزيارة المكاتب والمتاحف، بل كان همه روح باريس الحية، ورسالة باريس الفكرية واتجاهات باريس في تطورها الفني. وحيث الجدل الأدبي واحتكاك الآراء فهو موجود، يساهم في الحديث والمناقشة، ويطرح أفكاره العديدة لمن يبغي النقد والتحميص
كذلك كان في الشهور الأولى. أما في الشهور الأخيرة فاستسلم لليأس، وقد مل كلَّ شيء، وزهد في كلِّ شيء. أترى مثله الأعلى كان أكبر من باريس أم أصغر؟ ليس من يعلم. إلاَّ أنهُ بات يوماً وقد أعرض عن الحياة، وكأنه قد صمم على الموت بدون انتحار. وكان عارفو مواهبه يمكنونه من مزاولة بعض الأعمال الكتابية التي يسعى إليها ويعيش عليها الألوف، كتحضير المواد اللازمة لتأليف المعاجم، وجمع المعلومات المقتضاة لتدوين سير العظماء - العمود الواحد منها بعشرين فرنكاً! فاشتغل قليلاً ثم أحجم. والعلة البطيئة التي لازمتهُ منذ الطفولة أخذت تتفاقم وتشتدّ بسرعة. وقد تلاشت آماله، واختفت من حواليه رؤى المجد المرجوّ، وأمتهن حتى ما تركه من منثور ومنظوم، لعجز شعره بنثره عن تقديم شيء ولو صورة باهتة من نفسيّته المتفجّعة. وعندما قضى نحبه في الثانية والعشرين كان موقناً بأن شيئاً من آثاره لن يبقى
أما فكتور هوجو فيرى أنه كان مخطئاً، إذ بقيت منه رسالةٌ متقطعة كتبها في عدة شهور إلى أحد أصحابه السويسريين، ولا يقتصد هوجو في إعجابه بتلك الرسالة التي يعتبرها (اعترافاً سرياً من نفس قليلاً ما تشبه غيرها، على حين أنها صورة لجميع النفوس. وهذه هي ميزة تلك الرسالة: فهي الاستثناء، الشاذ، وهي الشيء الشائع المألوف)
ونشر هوجو الرسالة بنصها المكتمل، فلم يحذف منها إلا الأسماء مراعاة لأصحابها. وإلى القارئ فقرات جوهرية من تلك الرسالة التي لا يتسع المجال لنشرها كلها. ففي هذه الفقرات ترتسم من أمبير جلوا صورته النفسية، مع خيال الغرام الواحد الذي عاش عليه إلى النهاية:
(اليوم 11 ديسمبر، ونحن في الساعة الثالثة. لقد مشيت، وقرأت. السماء جميلة، وأنا أتألم في تفطر. وصلت باريس في 27 أكتوبر، فأنا هنا أذبل وتذهب قواي بلا رجاء. عرفت ساعات وأياماً بتمامها لامس فيها يأسي الجنون. متعباً، في انقباض حسيّ وأدبي، متشنج النفس في هذه الأحياء المليئة بالوحل والدخان، كنت بلا توقف أهيم (مجهولاً، وحيداً وسط جمهور عظيم من الناس يجهل بعضهم بعضاً هم أيضاً اتكأت ذات مساء على جدار جسر نهر (السين)؛ ألوف الأنوار تترامى إلى بعيد المدى،) والنهر يجري، وكنت من الكلال بحيث لم أستطع مواصلة السير. وهناك، وقد نظر إلى بعض السابلة كأني مجنون، اشتدت على وطأة العذاب فلم أقو على البكاء. أنت في جنيف كنت أحياناً تمازحني هازئاً بشدة تأثراتي. وأنا هنا ألتهمها وحيداً، تلك التأثرات التي تنكل بي، ولا تفتأ تهتاجني بلا مهادنة. كلّ شيء يتعاون على تمزيق نفسي: الإحساس الرحيب المتوالي الذي يشعرني بفناء زهونا وأفراحنا وأتراحنا وأفكارنا وتزعزع موقفي، ورهبة الفاقة، ومرضى العصبي، خمول اسمي، وبطلان ومساعيّ، وعزلتي حيال عدم اكتراث الآخرين وأثرتهم، ووحدة قلبي، وحاجتي إلى السماء والحقول والجبال والأفكار الفلسفية أيضاً، وفوق هذا - أجل، واهاً! فوق كلّ هذا، الحنين الموجع إلى بلاد الجدود. يتفق لي في بعض الأوقات أن أحلم يقظان بكل ما أحببت، فأمضى متنزهاً في بلادي أُطيل التذكر بما قاسيت من الآلام في جنيف، وبنادر المسرات التي ذقتها هناك. وملامح من أصدقائي وأهلي، وطيفٌ من مكان قدّستهُ الذكرى، أو شجرة، أو صخرة، أو زاوية شارع، تتخايل لي، فتنبهني إلى الواقع صيحات سقاء باريسي. واهاً! كم أتألم عندئذ! وكثيراً ما أعود إلى حجرتي المنفردة عيّ الجسد ألا ما أتعس) (. . .والروح، فأجلس لأحلم أحلاماً مريرة مدلهمة في بحران وهذيان الذي يأسف على ما يسارع إلى لعنه عندما يجدهُ! ليس لي حتى أن أستمتع بألمي، لأن روح التحليل قائمة عندي على الدوام تشوّه كلّ شيء)

(. . . . . سآمة نفس ذبلت في سن الحادية والعشرين، الشكوك القاحلة، الأسف المبهم على سعادة تراءت لي في إبهام أيضاً كمجد الغروب على ذرى جبالنا، أوجاع حسية، وأوجاع إيدياليستية، الاقتناع بأن الشقاء متأصل في النفس، اليقين بأن الثروة على ما فيها من كثير خير لن تجعل السعادة تامة: هذا ما يفطِّر نفسي البائسة. واهاً! يا صديقي الوحيد، ما أتعس أولئك الذين ولدوا تعساء!)

(ومع ذلك، يخيل إليَّ أحياناً أن موسيقى تعزف في الهواء لمسمعي، وأن ألحاناً شجيةً غريبةً عن أنواء البشر تدوي من فلك إلى فلك لتنتهي إليَّ. ويخيَّل إليَّ أن ممكنات آلام جليلة هادئة تحط على أفق فكري، كأنهار قصيّ الديار في أفق الخيال. غير أن كلَّ شيءٍ يضمحل بقسوة الرجوع إلى الحياة المجسوسة، كلُّ شيء! كم مرةٍ قلت مع روسو: (يا مدينة الوحل والدخان! كم تعذَّب هنا صاحب تلك النفس الحنون! وحيداً، شريداً، منكلاً مثلى - ولكن أقلّ شقاء بستين عاماً من عصر جادّ خطير الحوادث - كان في باريس ينتحب، وأنا أنتحب. وسيأتي غيرنا ينتحبون. يا للفناء! يا للفناء!)

. . . .إلى الآن لا أربح شيئاً، مع أن لي أصدقاء مخلصين يجهدون ليجدوا لي عملاً . . .

.

(يا صديقي. أعود إلى رسالتي بعد بدأتها، ثم استأنفتها. نحن في 31 مارس والساعة الثامنة مساءً. أكاد أجنّ من فرط الآم، ويأسي يفوق الاحتمال. تألمتُ اليوم ألماً يكاد لا يستطيع أن يتخيله بشر. ثم داهمتني الحمى في هذا المساء، وما الحمى المحسوسة سوى فضلة الحمىّ النفسية(أسمع) . . .(. . .

(قد اكتشفت شيئاً فيّ فعلمتُ أني لستُ شقياً بسبب هذا الأمر أو ذاك، ولكن فيَّ عذاباً مقيماً يتخذ أشكالاً عدَّة. . . أنت تعلم أني في جنيف كنتُ أتخيل أني لو نفذتُ إلى باريس كنت سعيداً. وأنا، يا صديقي، هنا أعاشرُ أكبر الأدباء. . . وأشعر أحياناً بنشوة الظفر في الأندية والسهرات والاجتماعات. . . وما كلُّ ذلك؟. . . إن في أعماق حياتي سرطاناً آكلاً. . . منذ شهرين تجمعت قوى عذابي على نقطةٍ واحدة، أخافُ أن ذاك المصدر المركزي لآلامي هو أني لم أولد إنجليزياً.) . . .(أذكرها لك لفرط شذوذها أتوسل إليك ألا تضحك، فعذابي مبرح. العاشقون حقاً مهووسون لاعتكافهم على فكرة واحدة تستغرق جميع تأثراتهم. وأنا

(بعد أن كانت نفسي زمناً طويلاً فريسة جبلةٍ منوَّعة، أنا الآن مهووس أيضاً هاك منشأ غرامي بإنجلترا: أنت تعلم أني أحب أن أعيش مع الموتى متعرفاً حياتهم السالفة فأقطنها معهم وأسايرهم في أحوال معيشتهم، وأن أخلق بيني وبينهم تعاطفاً ييسرهُ وهم الزمن، فلا يستطيع بعد أن يزعزعه وجود الأفراد. وأجد في إنجلترا خمسين شاعراً على الأقل، زخرت حياتهم بالمغامرات، وعمرت كتبهم بالفكر وبالخيال. أما في فرنسا فلا أجد ثلاثة. وفيما عدا ذلك، قد كنت أحب من وطني الإنجليزي حتى مزاعمهُ اللاغية. ففي مزاعم إنجلترا كثير من الشاعرية وكثير من الخيال. وبدلاً من أدب واحد، فللإنجليز آداب أربعة: الأمريكي والإنجليزي والاسكوتلاندي والايرلندي، تُكتب جميعاً بلغةٍ واحدة ولكلّ منها خصائص تميزها. فأية ثروة أدبية!. . .

(يوجد الآن ثلاثون شاعراً بين الأحياء، كلُّ منهم مستقلٌ بشخصيته لا ينتحلُ طريق غيره، وكلّ منهم خصيب. بالثروة! وبالمغامرات سافيج المسكين، وشليّ! وأيّ عملاق هو بايرون! كم من كنز عند هؤلاء للنفس التي تحبُّ الفرار من العالم لتلقي بأصدقائها في مخدعها! وكم ذا يعني الإنجليز بكتّابهم! إنهم يطبعون مؤلفاتهم في جميع الأحجام، وأي ذوق في طباعتهم، وكم من الخيال في نقوشهم! وأنظر إلى الأمة نفسها. فذوو السحنة الخسيسة في إنجلترا نادرون ندرة ذوي الهيئة الممتازة في فرنسا! كلُّ ما في تلك الأمة شاذّ. هناك تسود الحماسة في ألف شكل. هناك إلى جانب الآراء الوضعية الأكثر صرامة، تجد الترهات الأكثر نضارة. هذا بلد يحوي المذاهب الوضعية والنظريات الإيديالستية: فرنسا وألمانيا معاً هو وحده له من القوة ما يكفي ليفهم كلَّ شيء، ومن العظمة ما يكفي كيلا ينبذ شيئاً. وأية ذاتية! إنك لتميز الإنجليزي بين ألف شخص. أما الفرنسي فيشبه الجميع. ووفرة الشيع الدينية في إنجلترا تثبت على الأقل خلوص النية في نفوس تحتاج إلى الرجاء ولم تجففها الماديات. وشذوذ شبان الإنجليز وتهورهم ينم على نفوس يتنازعها القلق(. . .

(أتألم لشعوري بأني في غير مكاني وسط شعبٍ طائش ثرثار، ملحد، ما حل، ذي زهوٍ

وبرودة، في حين أن الدنيا تحوي شعباً متديناً أو متطرفاً في التشكُّك، ولكنه على الأقل لا يعيش في غير اكتراث، شعباً تجد فيه الأصدقاء الخلصاء، والنفوس المتفززة، وحيث الطيش نفسه ذو نكهة غريبة شاذة ليس له هذه اللهجة الماجنة الفاترة التي نجدوها في
فرنسا
في المطعم الذي أتناول فيه طعامي يوجد إنكليز وفرنسيون. ويا للفرق! جميع) الفرنسيين تقريباً مشاغبون صخابون عاديون، وجميع الإنجليز نبلاء محتشمون. وختاماً، يا صديقي، أظن أن صديقاً يستطيع التحدث إلى صديقه عن غرامه، لأن انفعال الحب يلاقي صدىً في جميع النفوس وليس فيه ما يستدعي الامتهان. على أن ألمي العارم من الشدة بحيث لا أستطيع التبيان، ولأنه جد شخصيّ خاص فقد يبدو سخيفاً مزرياً للذين لم يشعروا بمثله. ومع كلّ ذلك، فهذا الجنون يشعرني بآلام مروعةٍ لا تطاق. وكلّ شيء يرهفها: مشهد شخص إنجليزي، أو كتاب إنجليزي، حتى السخرية الموجهة إلى الإنجليز تلتهمني التهاماً. . . وهوسي هذا يجعلني أمجّ حتى الطمع في المجد. أودُّ أن أكون شهيراً في إنجلترا، وعليَّ لذلك أن أكتب بالإنجليزية. . . لو كنت إنجليزياً بمزاجي هذا المريض، لما تألمت دون ألمي الحاضر، ولكن معنى الألم قد كان يتغير. يخيل إليَّ أني لو ولدتُ إنجليزياً لاستطعت احتمال جميع آلامي. ولو ولدتُ لورداً إنجليزياً من أهبل اليسار، بنفسي ومزاجي كما هما، لكانت جميع ميولي وجميع . . .أطماعي راضية قانعة، وعند ما أقارن بين هذا الحظ وحظي الراهن أجنّ استأنفتُ دراسة الإنجليزية منذ شهرين بنشاط وحماسة حتى صرت أقرأ الشعر) بسهولة. أفكر في الذهاب إلى إنجلترا والكتابة بالإنجليزية بعد أعوام. صاحبي ج. ل. يسلفني شعراء البحيرات الإنجليز. إنهم يفتنونني. وقد استبدلت بالكتاب الذي أرسلتهُ أنت إليَّ مجموعة مؤلفات بايرون في مجلد واحد، وتلوث فيه قصيدة صغيرة، (الحلم)، تقول السيدة الإنجليزية التي تعطيني دروساً إني) . . .(فكان لها عندي وقع الصاعقة بعد الإقامة بإنجلترا عامين اثنين سأجيد كتابة الإنجليزية، لأني منذ الساعة أكتبها كما يكتبها قليلون من الفرنسيين. والواقع أني أنفق نصف نهاري في دراسة الإنجليزية إن هوسي شديد دائماً، فيا للضنى؟ وأني وجهت نظري وجدت التباريح. ومسائل) العيش عندي ومازالت موضوع عذاب. أشتغل الآن في كتابة ترجمة حياة، ولكني في انتهى (حاجة إلى النقود، بل أنا في ارتباك عظيم من جراء ذلك
وقد علق هوجو على هذه الرسالة في تبسط، وبإنشائه وبتوسعه في اقتناص المعاني و الاستشهادات، مما يتعذر نقله إلى العربية. إلا أني ألخص من تعقيبه قوله: (عند ما نذكر أن الرجل الذي كتب هذا، مات عليه، تأملات من كلّ صنفٍ تتفجر من كلّ سطر في هذه الرسالة الطويلة. أية رواية، أي تاريخ، أية سيرة هي هذه الرسالة!). . . (ليست هذه سيكولوجية تدرس على السمع أو على الجثة، ولكنها تدرس في الأعصاب والأنسجة والعروق، في اللحم الحي ينز دماً، في اللحم الذي يعول. أنت ترى الجرح وتسمع الصيحة
كتابة خطاب كهذا في تفطُّر وإهمال وجمال، دون بؤس كبؤس أمبير جلوا، كتابة) خطاب كهذا بمجرد مجهود الإبداع الأدبي تقتضي العبقرية. أمبير جلوا متألماً يوازي بايرون. شيئان يجعلان الإنسان شاعراً: العبقرية أو الغرام، وهذا الرجل الذي كان نثره باهتاً وشعره فاتراً أصبح في خطابه كاتباً يستدعي الإعجاب. عندما ينسى أن يطمع في أن يكون شاعراً وناثراً، ينقلب شاعراً عظيماً وناثراً عظيماً. وسيبقى هذا الخطاب، فقد اشتمل على خليط قد يكون أدهش من كلّ ما أنتجه إلى الآن دماغ بشريّ في بابه، وبتأثير تضاعف الألم الحسي والألم الأدبيّ، والذين عرفوا جالوا يرون تشريحاً رهيباً، تشريح نفس، في الخطاب المتوتر، المضطرب، الطويل، حيث الألم يرشح قطرةً قطرةً مدى أسابيع وشهور، حيث الرجل الذي يجري دمهُ ينظرُ إلى دمهِ جارياً، حيث لا حوادث في) (الرجلُ الذي يصبح يصغي إلى صوته صائحاً، وحيث في كلّ كلمة دمعة الحياة، ولكن فيها أفكاراً. ارو الأفكار تسرد حياة الرجل. بيد أن حادثاً عظيماً يهيمن على هذه الحكاية المكدرة؛ وهو أن مفكراً مات من فرط البؤس! هذا ما فعلته باريس، (. . .مدينة الذكاء، بفتىً ذكيّ
أمبير جالوا، ليس فقط أمبير جلوا، بل هو في نظرنا يرمز إلى طائفة معدودة من . . .)

شباب اليوم الكريم. في داخل هذا الشباب عبقرية غير مفهومة تلتهمه، وفي الخارج مجتمع ساءت أوضاعه، يخنق الشباب والعبقرية. فلا منفذ للعبقرية المحاصرة في الدماغ، ولا منفذ للإنسان المحاصر في المجتمع (
الذين يفكرون ويتولون الحكم لا يهتمون في أيامنا قدر الضرورة بحظ هذه الشبيبة) الزاخرة بعديد الغرائز، المتهافتة بحرارة ذكية، وبصبر واحتمال على جميع اتجاهات الفن. جمهور هذه العقول الفتية المختمرة في الظل، يحتاج إلى الأبواب المفتوحة، وإلى الهواء والنور والعمل والمسافة والأفق. ما أكثر ما يمكن عمله بهذا الجيش من الفطن! كم من قناة يمكن
حفرها، وكم من سبيل يمكن تمهيدها في العلم، وكم من مقاطعة يمكن غزوها، وكم من عالم يمكن اكتشافه في الفن! ولكن، لا! جميع المهن مغلقة أو مزدحمة. وهذا النشاط المنوَّع الذي يستطيع أن يكون نافعاً مجدياً، يُترك متراكماً، مزدحماً، مختنقاً في ضيِّق الأزقة. قد كان هذا الشباب يكون جيشاً، فإذا به غمارة. إن تنظيم المجتمع سيئ حيال المقبلين، مع أن لكلّ ذي فكرٍ حقاً عند المستقبل. أليس محزناً حال هؤلاء المتألمين من العقول، المستقر نظرهم على الشاطئ المنير حيث كثير من الأمور الساطعة من مجدٍ وقدرةٍ وشهرةٍ وثروةٍ؟ .. .)
وهذا بعض تعقيب هوجو، وهو في عطفه شفيقٌ نبيل. ولهجتهُ في كلّ هذا التعقيب تحملني على الاعتقاد بأنه عرف أمبير جلوا وأحبه في حياته. ومن يدري؟ قد يكون الخطاب موجهاً إليه لا إلى غيره، وكون أمبير جلوا يرمز إلى الشبيبة المعذَّبة صحيح من الناحية الواحدة
على أن لهذه الشبيبة نفسها رمزاً آخر، هو فيكتور هوجو نفسه. فقد نشأ مريضاً، فقيراً، مجهولاً، مكروها من أخويه اللذين كانا يحسدان لمواهبه، بين أبوين منفصلين، فكان والدهُ بعيداً لا يعتني بزوجته الأولى وبأبنائه، في حين أن الشخص الوحيد الذي يكبرهُ ويحبه، أي والدته، أنكرت حقوق عواطفه وحالت دون اتصاله بالفتاة التي جعلت للحياة رونقاً ومعنى عنده.
وكان فيكتور هوجو باسلاً، فاحتمل الألم بقوةٍ أقوى من قوة الألم، وأستغلَّ جميع المصائب والمصاعب والحوائل لإنماء شخصيته واستحثاث مواهبه. فكان سيداً في زمن عصفت فيه الأطماع وكثر فيه السادة والنابهون.
إن ما كتبه عن أمبير جلوا موضوع تأمُّل لجميع القارئين. أما حياته وبسالتهُ وانتصارهُ فمثالٌ لجميع العاملين.
(مي)
1 - لوكريسيا بورجيا
صور من عصر الأحياء
للأستاذ محمد عبد الله عنان
عصر الأحياء - إحياء العلوم - وشرق الأنوار على ظلمات العصور الوسطى، وتفتح العبقرية العظيمة في مختلف ضروب النبوغ الإنساني: في العلوم والآداب والفنون؛ وعصر المعارك والتطورات السياسية والاجتماعية العظيمة؛ وعصر اضمحلال المشرق ونهوض المغرب؛ وذوي الحضارات الإسلامية الزاهرة الأوربي (الرينصانص) الذي ينبثق فجره في إيطاليا منذ القرن الرابع عشر، في تلك الجمهوريات والدول الصغيرة الزاهرة، التي تستطع تواريخها كالآلىء في حلك العصور الوسطى؛ ثم لا يلبث حتى يغمر معظم أمم الشمال والغرب.
ولكنه أيضاً عصر الانقلابات السياسية والاجتماعية العنيفة، والشهوات المضطرمة، والمؤامرات والدسائس المروعة؛ وعصر المعارك الدينية والفورات المذهبية، وطغيان الأحبار، وعصفت مجالس التحقيق؛ وإذا كان يبدو في إيطاليا من بعض النواحي في أسطع وأبهى ألوانه، فإنه يبدو من بعض نواحيه الأخرى في ألوان قاتمة، فيما يجرف المجتمع الإيطالي يومئذ من عوامل الفساد والانحلال: وغمر اللهو والفجور والترف، وتدهور معاني الفضيلة والحشمة والحياء، واضطرام نزعة العدوان والأجرام والشر، وعلى الأجمال في تغلب الغرائز والشهوات المادية على المثل الروحية العليا كان المجتمع الإيطالي يومئذ، كالمجتمع الروماني في عصوره الأخيرة، ويسطع بأشعته عظمته الأخيرة، ويسطع في نفس الوقت بحياة المجون العاصف، والترف الناعم

في أواخر القرن الخامس عشر تألق في أفق ذلك المجتمع الإيطالي الزاهر، نجم أسرة جديدة طبعت تلك المرحلة من تأريخ رومة بطابعها الخالد، وأسبغت مدى حين على المجتمع الروماني آية من الفخامة والبهاء، ونثرت عليه ألواناً من المرح الصاخب، ولكنها بسطت عليه في نفس الوقت ريحاً من التوجس والخشوع والورع

تلك هي أسرة بورجيا التي اعتلى مؤسسها وعميدها ردريجو بورجيا عرش البابوية باسم اسكندر السادس، وأنشأ ولده الطاغية الدموي تشيزاري (سيزار) بالسيف والنار مملكة

رومانية قصيرة المدى؛ وأثارت حياة أبنته الحسناء. لوكريسيا ثبتاً حافلاً من التواريخ والأساطير الشائقة

لوكريسيا (أو لوكريس) بورجيا! تلك الحسناء الفاتنة التي تحيطها الروايات المعاصرة أحياناً بألوان ساحرة من البهاء والفخامة، وأحياناً بألوان مثيرة من الإثم والفحش، وتصورها أحياناً ملكاً كريماً يسمو عن ذلك المجتمع الروماني الفياض بالدس والفجور والجريمة، وأحياناً بغياً سحيقة تنحط إلى أسفل درك من الإثم والرذيلة، هي نموذج لتلك الشخصيات النسوية الساحرة التي يثير جمالها وسحرها حولها نوعاً من الغموض والخفاء، فلا يستطيع التاريخ أن يقول فيها كلمته بعيدة عن مؤثرات الرواية الخيال

كانت لوكريسيا ابنة للكردينال ردريجو بروجيا من خليلته الرمانية روزا فانوزا. وكان ردريجو ينتمي إلى أسرة أسبانية نزحت قبل ذلك إلى إيطاليا وسمت إلى بعض الوظائف الكنسية الرفيعة، وتولى أحد أعضائها كرسي البابوية باسم اسكندر الثالث، ورقي ردريجو ولد أخيه إلى مرتبة الكردينال. وكانت فانوزا كانتاني فتاة حسناء من أسرة طيبة، وكانت زوجة لسيد يدعى دي كروشي، يشغل وظيفة في الديوان الرسولي فهام بها الكردنال ردرريجو، وأغضى كروشي عن تلك العلاقة الغرامية لما غمره به الكردينال من صنوف الرعاية والبذل. ورزق الكردينال من خليلته بأربعة أولاد هم: بيدرولويس الذي توفي حدثاً، وجوفاني (جان) وشيزاري (سيزار) ولوكريسيا، وجوفري. وكانت فانوزا تقيم مع أولادها في منزل يجاور قصر الكردينال؛ ولم تكن علائقهما سراً، بل كانت أمرا ذائعاً في المجتمع الروماني، حتى أن فانوزا كانت تدعي فانوزا بورجيا. وعهد الكردينال ردريجو بتربية أبنته لوكريسيا إلى ابنة عمه أدريانا دي ميلا أورسيني، وهي سيدة رفيعة المقام والخلال يثق بها أعظم ثقة؛ فبعثت بالطفلة إلى دير القديس سكستوس في وادي (الابنين) على مقربة من رومة؛ وتلقت لوكريسيا هنالك تربية دينية عميقة ودرست الإيطالية والأسبانية والفرنسية واللاتينية والرسم والموسيقى، وتلقت بالجملة تربية تليق بأميرة عظيمة. وفي سنة 1489، هجر الكردينال ردريجو خليلته فانوزا واستبدلها بفتاة رائعة الحسن تدعى جوليا فارنيسي؛ ورأى حرصاً عليها أن يزوجها، فزوجها بفتى يدعى أورسينوس وهو ابن لابن عمته أدريانا. وكانت لوكريسيا عندئذ في التاسعة من عمرها - لأنها ولدت سنة1480

وبعد عامين فقط رأى والدها أن يزوجها، وعقدت خطبتها على فتى نبيل أسباني - يدعى الدون شيروبان؛ ثم ألغيت هذه الخطبة بعد بضعة أشهر فقط، وعقدت خطبة لوكريسيا على نبيل أسباني آخر يدعى الدون جسبارو، وذلك في إبريل سنة 1492 وكانت لوكريسيا عندئذ في الثانية عشر، وكان خطيبها في الخامسة عشرة.

ولم تمض سوى أشهر قلائل حتى وقع حادث عظيم في حياة ردريجو بورجيا. ذلك أنه في ليله 11 أغطس سنة 1492، أنتخب لعرش البابوية، وتولاه باسم اسكندر السادس؛ وكان عندئذ في الحادية والستين.

وكان اسكندر السادس من أعظم الأحبار الذين تولوا كرسي القديس بطرس؛ وكان رجلاً وافر الذكاء والعزم، وافر الدهاء والجرأة، قوى الشكيمة، مقداماً لا يحجم عن وسيلة لتحقيق مشاريعه. وكان يعشق حياة المجون واللهو ويشغف بالمرح الخليع، ويهيم رغم سنة بالنساء الحسان، ويعيش في بذخ طائل.

وكانت مآدبه وحفلاته الشائقة من أعظم ظواهر الحياة الرومانية يومئذ، ولكنه كان رغم بذخه ومجونه وخلاعته يقبض على مصاير الكنيسة والبابوية بيد من حديد، ويوجهها طبق أرادته، ويأخذ بقسط وافر في مجرى الحوادث السياسية العظيمة التي كانت تجوزها الدول الإيطالية يومئذ؛ وكان يقرن مصاير الكنيسة بمصاير أسرته، ويعمل لمجد أسرته، وأولاده، ما استطاع سبيلاً، وبعد ابنه الأكبر شيزاري لمستقبل عظيم باهر؛ وقد

ترك لنا الكردينال دي فتربو زميل اسكندر السادس ومعاصره عنه وعن مجتمع عصره تلك الصورة القوية الآتية:

(كان اسكندر ذا ذكاء خارق؛ وكان بارعاً، حازماً، نشيطاً ثاقب النظر، ولم يعمل أحد من قبل قط بمثل براعته، ولم يقنع بمثل صرامته؛ أو يقاوم بمثل ثباته. وكان يبدو عظيما في كلّ شيء، في تفكيره وفي كلامه وفي عمله وعزمه؛ ولو تفتحت المواهب التي يتمتع بها، ولم تخنقها رذائلة العديدة، لكان أميراً وافر العظمة، وكان يخيل لمن يشهده في القول أو العمل أنه لم يكن ينقصه شيء ليقود العالم؛ فقد كان دائماً على أهبة لأن يحرم نفسه متعة الراحة، وكان يسرف في ملذاته، ولكنها لم تحل مطلقاً دون حملة عبء الشئون العامة. بيد أنا لا نستطيع رغم اتصافه بهذه الخلال أن نقول إن عهده امتاز بيوم سعيد؛ ظلمات وليل عميقة. ولنضرب صفحاً عن هذه المآسي المنزلية المروعة، ولكن الاضطراب في الأراضي الكنسية لم يكن أشد وأخطر، ولم يكن السطو أكثر، والقتل والعيث في الطرق العامة أروع، ولم تكن طرق السفر أخطر، ولم تشهد رومة من قبل قط أياماً أسوأ ساد فيها الشر والجريمة واللصوص ولم يكن ثمة حق ولا حرية. كان المال والقوة والفجور صاحبة السلطان والحول؛ ولم تتحرر إيطاليا النير الأجنبي إلا يوم انهار ذلك الطغيان البربري).

كان اسكندر السادس أباً رحيماً يحب أولاده حباً جماً؛ وكان أول عمل عائلي قام به إثر ارتقائه عرش البابوية، هو إلغاء خطبة ابنته لوكريسيا لدون جسبارو؛ ذلك أنه لم يبق بعد قريناً كفؤاً لابنة سيد الكنيسة وخليفة النصرانية. وأرغم دون جسبارو على التنازل على الخطبة نظير مبلغ من المال، وطرحت مسألة زواج لوكريسيا على بساط البحث كرة أخرى. وهنا تدخلت العوامل السياسية التي أخذت تملي على اسكندر السادس خططه ومشاريعه في تقرير مصير ابنته. ذلك أن صديقه الكردينال اسكانيو سفورزا الذي كان أكبر عون له على ارتقاء عرش البابوية تسعى لعقد التحالف بين البابا بين أخيه لودفيكو سفورزا طاغية ميلان ضد آل أورسيني أقوى أمراء رومة الإقطاعيين، وحماتهم آل أرجوان ملوك نابولي، ورأى توطيداً لهذا التحالف أن تزوج لوكريسيا من ابن أخيه جان سفورزا أمير بيزارو؛ وأثمر سعي الكردينال، وعقد الزواج في رومة في أبريل سنة 1493؛ وكانت لوكريسيا يومئذ في نحو الثالثة عشرة، ولكن سجل في عقد الزواج أنها بلغت السن المرغوبة، وكان جان سفورزا في السادسة والعشرين.

واحتفل بزفاف لوكريسيا في قصر الفاتيكان في 12 يونيه احتفالاً فخماً شهده أكابر الأحبار والأمراء والسفراء؛ ومثل جان سفورزا على يد وكيله المختار طبقاً لرسوم العصر؛ وفي المساء أقيمت حفلة شائقة في قصر بلفيدير، تحت إشراف جوليا فارنسي خليلة البابا ونخبة من سيدات رومة، وشهدها اسكندر السادس وأعضاء أسرته. ويصف البابا شاهد عيان لهذا الحفل في قوله: (كان عظيم القامة، مورد الوجه، أسود العينين، يفيض صحة ظافرة، تمكنه من تحمل أعباء المنصب، وشؤون الدولة وعصف الملاذ، وكان دائماً متألقاً ظريفاً رقيقاً). أما لوكريسيا بورجيا فقد كانت عندئذ فتاة صغيرة القد، وافرة الحسن، شقراء تسطع كالذهب، خفيفة الروح والخلال، دائمة المرح، يزيد في سحرها الطبيعي القاهر، مزحة من الحياء ومحيا عذري، أو كما يصفه بعض الرواة المعاصرين محيا كاثوليكي، هو مظهر تربيتها الدينية، وحياتها في الدير، وتفيض نظراتها رقة ووقاراً).

وأفرد البابا لابنته قصر سان مارتينللو المجاور للفاتيكان، وعين لها خليلته جوليا فارنيسي وصيفة شرف تقيم معها، وكان فرق نهائياً بينها وبين زوجها؛ وكانت كلتاهما آية ساطعة من الجمال والسحر؛ واستمرت لوكريسيا مقيمة في رومة حتى صيف سنة 1494، وعندئذ حل برومة الملاريا، فبادرت لوكريسيا إلى مغادرة رومة مع زوجها إلى قصره في مدينة بيزارو تصحبها في هذه الرحلة والدتها فانوزا، وجوليا فارنيسي، وعمتها أدريانا اورسيني، فوصل الركب إلى بيزارو في 8 يوليه. وكانت بيزارو مدينة متواضعة، ولكن بديعة الموقع تشرف على وديان نضرة على مقربة من الأدرياتيك؛ وكانت إمارة متواضعة لا تقاس بإمارات فيرار، وأربينو، ومانتوا وغيرها من الإمارات الزاهرة في ذلك لعصر؛ ولكن لوكريسيا كانت ذهناً رضياً متواضعاً، فتذوقت حياتها الجديدة بسرعة، وقضت في بيرازو زهاء عام كامل.

ثم استدعتها بواعث السرة والسياسة إلى رومة، فعادت إليها مع زوجها بمناسبة زواج أخيها الأصغر جوفري من دوناسانسيا وهي ابنة غير شرعية لألفوسو الأرجوني ملك نابل (نابولي)، وأقامت لوكريسيا مع زوجها إلى جانب أبيها واخوتها في رومة؛ وكان اسكندر السادس يحرص على أن يستبقي أولاده حوله في المدينة الخالدة؛ فكان ولده جان أو دوق جانديا يقيم معه في قصر الفاتيكان، وأخوة شيزاري في حصن سانت انجلو المجاور للفاتيكان، وأخوة جوفري على مقربة منه؛ وتقيم لوكريسيا وزوجها في قصر آخر مجاور للفاتيكان.

وغدت لوكريسيا وزوجة أخيها سانسيا زينة الحفلات الرسمية والاجتماعية في الفاتيكان، وكانت سانسيا فتاة وافرة الحسن، وافرة الجرأة، عنيفة الشهوات، يقال إنها كانت تصطفى العشاق من الأمراء والكرادلة. وأما لوكريسيا فكانت متحفظة، ولكنها كانت ترغم بحكم الظروف على خوض هذه لحياة الباهرة المنحلة التي كانت تسود قصر الفاتيكان؛ وكانت أداة مسيرة في يد أبيها البابا وأخيها الطاغية شيزاري؛ ولكنها كانت دائماً فياضة المرح فياضة البهجة، وكانت روح هذه الحفلات الباذخة الصاخبة التي كان يعشقها البابا، والتي كانت دائماً مثار الأقاويل والظنون.

وكان يسود ذلك المجتمع الروماني الرفيع يومئذ نوع من الفساد الشامل، وتغلب فيه حياة الفجور والمرح؛ وما قولك بمجتمع يقدم فيه سيده وزعيمه الروحي - البابا - أسوأ المثل الأخلاقية. فيصطفى الخليلات جهاراً، وينتزع الزوجات من أزواجهن؛ ويقتني فيه شيوخ الدين من كرادلة وأساقفة الخليلات جهاراً، وتنتقل فيه الزوجات الشرعيات، زوجات الكبراء والأمراء بين أحضان العشاق من مختلف الطبقات، ويغمره ظمأ التهتك والخلاعة، ويغفل في حفلاته وفي مرحه ومجونه كلَّ مظاهر الحشمة والحياء؟ هكذا يصف لنا بوركات مجتمع رومة في عصر آل بورجيا. وقد كان بوركات يومئذ مدير التشريفات البابوية، وكان شاهد عيان لكثير من الحوادث والمظاهر ولظروف التي امتاز بها العصر؛ وقد ترك لنا عن حوادث عصره ومجتمع عصره مذكرات نفسية سنعود إليها من آن لآخر.

كانت لوكريسيا بورجيا من آلهة هذا المجتمع؛ وكان يثور حولها من الريب والظنون ما يثور عادة حول (آلهة) للجمال والحب. هل كانت هذه الفتاة الشقراء الفاتنة التي لم تجاوز السابعة عشرة من عمرها كما تصورها الرواية المعاصرة بغياً سافلة تتقلب بين أذرع عشاق لا حصر لهم؛ بل تتقلب بين ذراعي أبيها - البابا - وبين أذرع إخوتها؟ أم ظلمتها الرواية وبالغت في اتهامها اعتماداً على ظواهر خادعة؟ هذا ما سنحاول أن نناقشه في البحث.

للبحث بقية

محمد عبد لله عنان المحامي

بين الفقه الإسلامي والروماني

للأستاذ الشيخ عبد القادر المغربي

رئيس المجمع العلمي العربي

وقع نظري على ما كتب أخيراً في مجلة (الرسالة) بشأن علاقة الشرع الإسلامي . . . بالشرع الروماني، وقد كان بعض الفضلاء من الشبان المسيحيين حملة الشهادات الحقوقية العالية - منذ بضع سنوات - كتب في (مجلة القضائية) تصدر في منطقة سورية سمتها السياسة (منطقة العلويين) وهي متصرفية اللاذقية - كتب في هذا الموضوع كتابة خشنة تدل على أن القوم يريدون أن يجردوا الإسلام ونشأته من المزايا القدسية. وقد رددت عليه يومئذ بهذا المقال، وسلكت في الرد مسلكاً ربما أعجب الباحثين لديكم.

المغربي.

لقيني بعض الأصدقاء في سوق الحميدية فجذبني من يدي إلى مخزنه وقال: تعال أنظر.

وإذا هو يريني العدد 22 من مجلة (الأبحاث القضائية في دولة العلويين).

وإذا في فاتحتها مقال السيد ميشيل بولص حامل رتبة العالمية (الدكتوراه) في الحقوق، وإذا موضوع المقال (الوكالة الدورية) وإذا نتيجة الموضوع - كما لخصها كاتب

المقال - ما نصه:
إن الوكالة الدورية إنما هي طريقة رومانية. وشكل هذه الوكالة وأصولها وكيفية) استعمالها هي هي عند العرب المسلمين كما كانت عند البيزنطيين. (السُّنة) في الإسلام ما هي إلا مجموعة القوانين الرومانية في عصر الفتح العربي. وإن المبدأ الساري منذ الأجيال بين علماء الغرب والشرق بأن الشرع الإسلامي مستقل تمام الاستقلال عن بقية الشرائع اللاتينية - ليس إلا أسطورة لا أساس لها!!! والأحاديث الإسلامية مختلقة اختلاقاً بدليل أن الأمام الأعظم أب حنيفة لم يعترف إلا بسبعة عشر أهـ - (حديثاً من أربعمائة ألف حديث.
هذا ما صرح به الأستاذ ميشيل بولص في بلادنا العربية وبلغتنا العربية. فكيف ترونه يقول لو أراد أن يكتب عن الشرع الإسلامي في بلاد أجنبية بلغة أجنبية؟
هذا ما قاله عن السنة النبوية بين ظهر أني قوم توفروا من علوم الدنيا على حفظ تلك والاستيثاق من صحة أسانيدها، والتقرب إلى الله بخدمتها. ثم بعد هذا كله (السنة) يقول الأستاذ ميشيل عنهم أنهم لم يعلموا شيئاً سوى أنهم أوجدوا للعالم في السنة نسخة ثانية من مجموعة القوانين الرومانية. فكيف تكون جرأته أو أمانته في النقل إذا أراد أن يكتب لنا مقالاً في علم يجهله المسلمون سكان هذه البلاد كلَّ الجهل؟؟ يقول بعضهم: ولكن الكاتب إنما كتب في مجلة تصدر في بلاد العلويين للعلويين. وأوطناه!
كأن بلاد العلويين في عالم المريخ وليست جزءاً من وطننا؟
وكأننا لسنا على مقربة من بلاد العلويين نسمع ونرى؟ وكأنه لا يوجد في بلاد العلويين فقهاء راسخون، وحقوقيون متضلعون؟
كأن العلويين إنما سموا علويين من أجل أن يطعنوا في كرامتهم، ويساوموا على إسلاميتهم!
وأية كرامة تبقى إذا قيل لهم: إن (علياً) الذي اشتق اسمكم من اسمه الكريم ما كان يقاتل ويناضل لأجل تأييد سنة الإسلام، وإنما كان يقاتل ويناضل من أجل أن تأييد سنة (يوستينانيوس) ملك الرومان؟
وبعد، فإذا اقتضت حالة الرومانية الاجتماعية أن يستندوا في بعض معاملاتهم على (الوكالة الدورية) فقرروا أحكامها في قوانينهم، ألا يوجد في الاجتماع الإسلامي حالة تشبه تلك الحالة تستدعي تقرير أحكام الوكالة الدولية في فقه المسلمين أيضاً؟
لا جرم أن طبائع الأمم والشعوب وأخلاقها وأطوارها مترشحة من ينبوع (الإنسانية) الأعظم.
والإنسانية مهما اختلف أبناؤها في ظواهر الاجتماع، يبقون متحدين في جواهر الأخلاق والعادات والطباع.
والشرائع سواء أكانت سماوية أم وضعية إنما تستند إلى هذه الأخلاق والعادات، فكثيراً ما تشَّابه بين الأمم بسبب تشابه الأمم نفسها فيما ذكرنا من الأخلاق والعادات.
فإذا وجدنا في الشريعة الإسلامية أحكاماً تشبه أحكاماً مقررة في الشريعة اللاتينية مثل (إن البيع يتم بإيجاب وقبول) لا ينبغي لنا أن نتسرع في الحكم بأن الشريعة الأولى اقتبست من الشريعة الثانية مباشرة، ولا سيما إذا كان هناك أسباب جوهرية تدل على عدم إمكان هذا الاقتباس.
إذ كيف يتصوّر من أئمة الإسلام الذين حرموا التصوير ابتعاداً عن الوثنية - أن يقتبسوا أحكاماً مدنية من شريعة وثنية، وهم يعتقدون أن العمل بهذه الأحكام المدنية عبادة يتقرب إلى الله بها كما يتقرب إليه بممارسة الصوم والصلاة!
خلفاء الإسلام إنما رحبوا بالفلسفة اليونانية لأن نظرياتها لا رائحة للديانة الوثنية فيها.
أما الآداب اليونانية والميثولوجيا والتمثيل والإلياذة والفنون الجميلة فلم يجرؤ الخلفاء على ترجمتها إلى لغة الإسلام، وذلك لأنها مشبعة بروح الوثنية، ومتشربة بروح عقيدة تعدد الآلهة. فهل يعقل أن يجرؤ أئمة الإسلام الأتقياء الورعون على انتحال شرائع وثنية تتعلق بالحلال والحرام، ويدخلونها في فقه الإسلام، وهم يعتقدون أن كلَّ حكم شرعي لا يستمد من محمد (ص) وقرآنه وسُّنته باطل بل كفر.
كلُّ إمام من الأئمة الأربعة كلُّ يبرر نفسه رافعاً صوته أمام الجماهير من المسلمين بأن مذهبه وسنده في استنباط الأحكام إنما هو القرآن وحديث النبي (ص) الذي ثبتت صحته، وإلا فأنه يقيس الحكم على حكم آخر مستنبط من حديث يطمئن إليه قلبه

بهذه الصورة من الإخلاص والورع والتمسك بتعاليم محمد (ص) حاز الأئمة ثقة المسلمين كلهم، فوقروهم وعظموهم وقلدوا مذاهبهم ولم يعولوا على غيرها من لمذاهب

وقد بلغ الورع في هؤلاء الأئمة حداً لم يقع مثله في أمة من الأمم. حتى أن أبا حنيفة سجن وضرب ولم يتول القضاء مذ بلغه أن نبيه قال: (من تولى لقضاء فكأنما ذُبح بغير سكين)؛ وأحمد بن حنبل لم يأكل البطيخ طول عمره لأنه لم يبلغه كيف كان نبيه (ص) يأكله: أيقطعه بالسكين ويتناوله قطعة قطعة، أم يمسك الحزة بيده ثم يتناولها بأسنانه؟

أئمة هذا ورعهم وتشددهم في تقليد نبيهم في الأشياء المباحة؛ أيتصور في العقل يحيدوا عن شريعته إلى الشريعة الوثنية، شريعة الإمبراطور الروماني (يوستينانيوس) فيستندون إليها بتقرير أحكام الحلال والحرام التي هي الطريق الوحيد إلى الجنة والنار؟ وقول الأستاذ ميشيل أن أبا حنيفة لم يعترف إلا بسبعة عشر حديثاً ليس معناه ما ظن. وإنما المعنى أن هذه الأحاديث القليلة هي التي بلغت في الصحة والثبوت ما يقرب من درجة القرآن. وإلا فأن بقية الأحاديث الأخرى لها درجتها. وبحسب هذه الدرجة تستنبط منها أحكام ليست في وجوب العمل بها كوجوب العمل بأحكام الأحاديث التي ثبتت صحتها عند الإمام أبي حنيفة،

بدليل أن تلاميذ هذا الإمام (أبو يوسف ومحمد وزفر) الذين دونوا فقهه وشرحوا مذهبه كانوا يعتمدون في استنباطهم على أحاديث أخرى غير القليل الذي أعترف به أبو حنيفة بعد أن يعرضونها على قواعد فن (مصطلح الحديث). على أنه لو فرض أن أبا حنيفة لم يعترف إلا بأحاديث قليلة لكان ذلك من أدلة ورعه وحرصه على متابعة نبيه (ص)، فهو يخشى أن يعمل بحديث لا يثق بصدوره عن النبي، وهذا هو السبب في إنكاره الكثير من الأحاديث، فهو قد أنكرها تورعاً وخشية ألا يكون تابع النبي (ص)، ولم ينكرها استهتاراً وجنوحاً إلى شريعة الرومانيين الوثنيين

أحاديث مروية بالسند: فلان التابعي الجليل فلان الصحابي الكريم، ولكلٍّ واحد منهم ترجمته وسيرته، يتورع أبو حنيفة فلا يثق ببعض ما روي عنهم، ثم هو بعد ذلك يجيز لنفسه العمل برواية بطرس عن فيلبوس عن نيقولاوس عن الملك (يوستينانيوس)!!! سبحانك هذا بهتان عظيم!

لما فتح المسلمون البلاد التي كانت خاضعة للرومانيين وجدوا لأهلها عادات راسخة، وأحكاماً متوارثة، فأقروهم عليها، وبعضها ينطوي تحت أصول الإسلام الثابتة في القرآن، وعمل النبي (ص) والصحابة: مثل (العادة محكمة) (المعروف عرفاً كالمشروط شرطاً)، (لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان)، (استعمال الناس حجة يجب العمل بها)، (التعيين بالعرف كالتعيين بالنص) فإذا أعتبر أئمة الإسلام تلك الأحكام اللاتينية التي يعمل بها سكان تلك البلاد وأقروهم عليها، ثم دونوها أو دونوا نظاهرها في كتبهم الفقهية، لا يكون ذلك منهم اعترافاً بشرائع اللاتين وإذعاناً لها، وإنما هو منهم عمل بأحكام مستندة إلى القواعد الإسلامية وسُّنة النبي (ص).

وهم كما دونوا في كتبهم الفقهية أحكاماً تشبه الأحكام الرومانية دونوا أيضاً أحكاماً تشبه أحكام شرائع الفرس والترك والتتار الطورانيين وغيرهم من الأمم التي فتحوا بلادها.

فمن جملة القواعد في مجلة الأحكام الشرعية:

إن الحاجة سواء كانت عمومية أو خصوصية تنزل بمنزلة الضرورة، ومن هذا القبيل) تجويز (البيع بالوفاء) فإنه لما كثرت الديون على أهالي بخارى جوزت هذه المعاملة أ. هـ. فهل يقوم أحد من الكماليين فيزعم أن (البيع بالوفاء) شريعة (لداعي الاحتياج طورانية

عمل بها أئمة الإسلام كما عملوا (بالوكالة الدورية) التي هي شريعة رومانية في رأي الأستاذ ميشيل!

إذا رأينا الشاعر العربي (معروف الرصافي) وافق (كيبلنغ) الشاعر الإنكليزي في بعض معانيه الشعرية المبتكرة فهل يسوغ لنا أن نقول إن ديوان (معروف) هو نفس ديوان (كيبلنغ) مع أن شاعرنا لا يعرف الإنكليزية، ولا عاش في وسط إنكليزي ولا اجتمع بكيبلنغ ولا برواة شعره، وإنما هو توارد الخواطر.

ونحن إذا راجعنا تاريخ حياة أئمة الإسلام نراهم قد عاشوا في محيط إسلامي محض: الكوفة، وبغداد، ومكة، والمدينة؛ نعم سكن (الشافعي) مصر ودفن فيها، ولكنه جاءها قبل وفاته بنحو خمس سنين.

فأئمتنا ما عرفوا لغة لاتينية قط، ولم يدرسوا فقهاً لاتينياً قط، ولم يعاشروا مشترعين لاتينين قط، ولو لوحظ من أحدهم شيء من ذلك لسقط اعتباره وتحاماه المسلمون، ولما كان إماماً وأحب الاتباع.

ومن العجب قول الأستاذ ميشيل إن (السُّنة) في الإسلام ما هي إلا مجموعة القوانين الرومانية؛ إذن محمد (ص) عضواً في مجلس العشرة الذين جمعهم الملك (بوستينانيوس) تحت رياسة الفقيهة الروماني (تريبونيان) فقام في الحجاز وانتحل وما تعلمه من القوانين الرومانية التي وضعها المجلس الروماني وبشر بها المسلمين!!!

ذكرت بهذا ما كنت سمعته من القوماندان الفرنسي (ميلانجو) مدير مدرسة الترجمة في دمشق (وقد توفي) - قال لي: إن بعض أهل بلادنا (يعني الأوربيين) يتحدثون أن (محمداً) كان أسقفاً مسيحياً، فطمحت نفسه إلى رتبة كهنوتية فوق رتبته، فغضب عليه البابا فحرمه، فادعى النبوة نكاية به!!!

قال لي المرحوم ميلانجو هذا القول مستغرباً مستحيياً بعد أن عاشر فضلاء المسلمين في الجزائر ودمشق، وفهم حقائق كثيرة عن الديانة الإسلامية جعلته على قاب قوسين من اعتناقها.

والأعجب من قول الأستاذ ميشيل السبق قوله الآخر: (إن الأحاديث الإسلامية مختلقة اختلاقاً)، أي إنها كلها مكذوبة على النبي

لكن أيصح من حضرته هذا الحكم الجائر على الأحاديث لوجود طائفة من الأحاديث موضوعة مكذوبة؟

إن دعواه هذه كدعوى أحد المسلمين أن الأناجيل الأربعة باطلة لا أصل لها، لأن هناك أناجيل وهي المسماة (أبو كريف) موضوعة لا أصل لها!!

والعجب الثالث، (وهو لعمري مثار للدهشة أيضاً) قول الأستاذ ميشيل:

إن المبدأ الساري منذ الأجيال بين علماء الغرب والشرق بأن الشرع الإسلامي (مستقيم تمام الاستقلال عن بقية الشرائع اللاتينية، ليس إلا أسطورة)!!

وإذن قام الأستاذ ميشيل في (وجه علماء الغرب والشرق) يفهمهم حقيقة يجهلونها، ويبرهن على كذب أسطورة يزعمونها وهي أن شريعة الإسلام شريعة لاتينية!

أدرك هذا هو وحده وجهله علماء الشرق والغرب!! وإذن يحق لي أن أنسحب من ميدان البحث وأترك الكلام فيه لعلماء الشرق والغرب، فلعل فيهم من يقدر بزلاقة لسانه ونصاعة بيانه أن يقنع حضرة الأستاذ ويفهمه خطأه.

أإلى هذا الحد يجهلنا ابن وطننا الأستاذ ميشيل بولص ويجهل تاريخنا الديني؟

أيصح لأبناء أمة واحدة، في بقعة واحدة، أن يجهل بعضهم بعضاً كلَّ هذا الجهل؟

وأخيراً أقول: إن ابن وطننا الأستاذ ميشيل لم يسيء إلى الأمة الإسلامية وكرامتها، بقدر ما أساء إلى (الدكتوراه) وشهادتها.

عبد القادر المغربي

الجمال في الشعر والحب

(المرأة)

للأستاذ الحوماني

صاحب مجلة العروبة البيروتية

الجمال وحي الطبيعة يلهمه الشاعر من أبنائها ليكون صلة بينهم وبين المثال الأعلى في حياة. فهو رسول أمة الطبيعة يرسل بنات أفكاره إلى قومه فترفع بيمينها حجاب الغفلة عنهم، ثم تمر بها على أعينهم فتمسح عنها غشاء الجهل، وتقابلهم يسارها بمرآة الحياة فيتبينوا فيها من نفوسهم الماثلة رموزاً تشير لهم إلى مُثُل الحياة العليا.

والشاعر ينشد الجمال في كلّ شيء فيفتتن بكل جزئي منه، ولكنه أشد اقتناناً بما هو إلى الروح أقرب منها إلى المادة، ولا أقرب إلى الروح من هذا يشاركه الشعور بالحياة وينشد معه ذلك الجمال.

يفتن بالمرأة التي هي رمز الجمال التام في الحياة، يفتتن بها للجمال، ويفتتن لها بكل ما في الحياة من جميل يشعر به. فالجمال التام علة لفتنة الشاعر بالمرأة، أما المرأة

فهي علة ولفتنته بكل ما يشير إلى هذا الجمال الكلي من جمال جزئي في نبات أو جماد، فالشاعر ينشد الجمال في الحياة ولن يظفر به كما يشاء إلا عن طريق الحب:
وهل المرأة إلا رمز الحب الخالد؟
الشاعر كالطائر يحلق في أفق الجمال، وكما يقع الطائر على الشجرة يفتش عن الثمرة الناضجة ليتقوم بها، حتى إذا بلغها وقف حيالها يداعب الروض من على فننه، هكذا يقع الشاعر على المرأة آلهة الجمال يستلهما الشعر فيشخص إليها وهي بعينه تمر على وجهه بيدها البضة، وتمسح عينيه ببنان يحس روحها من ورائه ترف على أهدابه.
فهو من أجلها (يصعد الرابية)، والقمر يهبط من عليائه، فيفترش الترب، ويتوسد الصخر، يصغي إلى نجيء الكواكب فيستوحي منها الشعر ثم يلهمه الطبيعة؛ حتى إذا تنفس صبحه، وهبط إلى الأودية فهام فيها عائماً في بحر ضبابها ينشد هذا الجمال، وقفت به آلهة الشعر بين الرياض، والصبح لما تخمد أنفاسه، فأحنى على الورد يلثمه، وعلى النرجس يمسح
دمعه، يضع خده تحت الزهرة ويده فوق كبد يكاد يعصرها دمعاً ينحدر على وجناته).
وهو من أجل آلهته تلك (يمسك الماء، ويقبض على الريح، سعياً وراء الجمال في الحياة، وهو هائم به، ولعل الروح التي تخفق بين جنبيه، والشعر الذي يحوم على شفتيه).
يستحيل على الشاعر وهو رسول الجمال، أن يكتم شعوره، فما بينه وبين إبلاغ رسالته إلا أن يشعر، وربما بلّغ هذه الرسالة بدمعه:
وإذا الحزين بكى ولم يك شاعراً ... فالشعر ما نطقت بهِ عبراته
أو ما تراه، وقد جلس إلى ظل سرحة، أو إلى جنب صخرة، على رابية يراقب منها) نزاع الشمس بين يديه المغيب، فتحس كأن شعوره يغيب معها في ظلمات الحزن؟؟؟
وقد يحنو على الزهرة في حر الظهيرة يقيها لفح الهاجرة بنفسه، فكلما ألوى بها الذبول شاطرها جفاف الرونق وشحوب اللون، وربما لصقت بالأرض فغسلها بدمعه وود لو واراها في حنايا ضلوعه).
ذلك هو الشاعر الصامت، لم يخلد بشعره لكن بروحه الشاعرة، ولم يشعر بلسانه لكن بقلبه المتفجر عيوناً تفيض بالدمع على خديه.
يفتن الشاعر في وصف المرأة وتأثير جمالها لا ليعلن هذا الجمال إلى الملأ ولا ليلفت إليه الغافل عنه فحسب، وإنما يريد بذلك إلى تأدية ما حُمّل من أمانة، أن ينادي على جمال نفسه بما أدرك من جمال، ثم ليثبت في نفس السامع ما يحمله على عذر في الهيام به، من أجل ذلك يعمد في وصفه الجمال إلى التفصيل دون الإجمال
فلن تستطيع أن تبث في نفس سامعك دعايةً لهذا الجمال وأنت تجمل في وصفه حتى تأتي على جزيئاته مفتنًّا في إثباتها على مرآة النفس الشاعرة عن طريق القلب.
فليس لقول القائل:
أبصرت دون شعاب مكة مصبحاً ... سبعاً أجزن وكلهن جميل
من التأثير البالغ في نفس السامع ما لقول الآخر:
وتملكت قلبي ثلاثٌ كالدمى ... زهر الوجوه نواعم الأبدان
للفرق بين إجمال الأول وتفصيل الثاني.
وقد يفتن الشاعر في وصف من أحب لمجرد البث والتغلب على اليأس كما يكون للنفس
عزاء وسلوة.
وقد يشعر بما يحب للشعر، كما قد يحب فيما يشعر للحب وليست ميزة الشاعر في النداء على جمال من يفتن في وصفها وإنما الميزة في إثبات ذلك الجمال في نفس السامع والذهاب بها في اللذة مذاهب تتركها وفقاً على جمال ما تسمع حتى كأنها تنظر إليه وتلمسه وتشمه فتشعر به شعور من وقفها عليه، وليس من ذلك للإجمال يد طولى وهو يمر بالنفس لمحاً بينما الشعر يمعن في تمكينها منه عن طريق التفصيل.
أفلا تبصر بقوله:
بالذي ألهم تعذي ... بي ثناياك العِذابا
والذي ألبس خدي ... ك من الحس نقابا

والذي أودع في في ... ك من الشهدِ رضابا
والذي صير حظي ... منك هجراً واجتنابا
ما الذي قالته عينا ... ك لقلبي فأجابا؟
كيف يهز النفس بما فيه من روعة لم تكن لتتوفر في كلماته لو أجمل فقال:
بالذي أفرغ في قا ... لبك الحسن الُجابا
ما الذي قالته عينا ... ك لقلبي فأجابا؟؟؟
فإن في تعداد جزيئات الجمال في الأبيات الأولى ما يشغل النفس في تصورها، فيثبت فيها جمال الوصف والواصف ثم الموصوف آخر الأمر، وهي في مجموعها مصداق البيت الأول من البيتين الآخرين وهما كما ترى.
تحب في المرأة وأنت شاعر خلاف ما تحبه منها وأنت لا تشعر، فالشاعر يحب المرأة لجمالها الذاتي، وغيره يحبها لجمال ما يحف بها، فقد يعبدها الغبيُّ لما لها، وقد يستغويه ما يمت بها إلى نسب عريق، وربما كان علمها سبباً في أسر هواه، أما الشاعر فلم يكن ليحب المرأة يغمرها المال، ويزهوها النسب، ويسمو بها العلم، وهي بعيدة عن روحه الهائمة بالجمال. ومقياس هذا الشعور شدةً وضعفاً تجده في جمال ما يحب كمالاً ونقصاً.
فلم تستطيع أن تحكم على الشاعر بما يهيم به من جمال، ولكنك، وأنت تحكم عليه، يجب أن تكون شاعراً لئلا يفوتك من أسرار الجمال ما تشعر به وأنت غافل عنه.
فقد يقف في طريق الشاعر إلى حب المرأة أن يشم منها ما يكره، وهي قطعة من جمال الحياة، روحاً وجسداً لولا أنها أهملت جسدها أن تتعهده بالنظافة فكان ذلك حائلاً دون خلوصه إلى روحها إذ كان نقصاً بيناً في جمال هذه الروح.
وربما هام الشاعر بالمرأة، وهي ناقصة الجمال، لتضاؤل ما يبدو من نقصها في عينه إلى جنب ما امتازت به من جمال يأخذ العين والأذن بما فيه من سحر، فهو إذ ذاك أعمى عن كلِّ ما ينقصها لما تفتن في تنمية هذه الناحية فيها وصرفه عن الشعور بما عداها.
وكثيراً ما تستطيع المرأة أن تسبغ جمال روحها على ما يشين جسدها من قبح فتتغلب على شعور الهائم بالجمال بما امتازت به من خصائص النفس، فللشاعر إذ ذاك العذر في قصر هواه على جمالها الناقص.
وله هذا العذر أيضاً في محيط نماه وليس فيه من ربات الجمال التام من يهيم بها فلجأ إلى الجمال الناقص يهيم به ويسبغ عليه فنه الخالد إذ كان هو الجمال التام عنده.
وهكذا هو مع المرأة التي مُني بها قبل أن يشعر وهي ناقصة الجمال، فلما دق شعوره بالحياة نظر إليها نظرة شاعر فوقف منها على ما خفي عنه من قبل، ورأى أن في العدول عنها عذاب الضمير ثم التياث الغرض من وراء ذلك كله، فحمل نفسه على القنوع بها وأغضى عما يعترضه من جمال خارج، فكانت عروس خياله تجلو عليها آماله وينفحها من شعره بما تخلد به إلى جنبه

الحوماني

مستشرق إسباني

في طليعة علماء إسبانيا الحديثين يظهر أسم جوليان ريبيرا العالم البحاثة المؤرخ المتغلغل في قلب تاريخ إسبانيا في جميع أطواره ومراحله. وهو متضلع من اللغة العربية ومطلع كلَّ الاطلاع على تاريخ آدابها وله فيها أبحاث جليلة. وليس ريبيرا من اللغويين الذين يقصرون همهم على درس قواعد اللغة العربية شأن أكثر المستشرقين الأسبان باستثناء العالمين غايانكوس وكوديرا، بل جاوزه إلى التاريخ والثقافة العربية فعني بهما عناية البحَّاثة المدقق والعالم المحقق.
اعتبر ريبيرا أن للتاريخ الإسلامي كما لتواريخ بقية الأمم وجهين. السياسي والأدبي. وقد اكتفى المستعربون الأسبان قبل ريبيرا بدرس الحوادث السياسية دون أن يهتمُّوا بسواها. وأن لهذه الإهمال عذره وأسبابه، فالبحَّاثة التاريخي يبدأ بدرس الناحية السياسية لأن حوادثها أكثر وضوحاً وأسهل درساً وأقرب منالاً من درس تاريخ الثقافة وكيفية نشوئها وتطورها مما يقضي البحث في أخلاق الأمة وعاداتها وطرق معيشتها ونظمها الأدبية والاجتماعية والدينية لكي يتمكن من تفهُّم ما نعّبر عنه بكلمة - تمدن - التي هي لباب التاريخ، ولكي نتوصل إلى الإلمام بكل هذا وجب علينا أن نبدأ بما هو

أبسط وأجلى وهو الوجه السياسي أي الخارجي.
إن درس التاريخ يخضع للقاعدة ذاتها التي يخضع لها درس الفلسفة، إذ لا يمكن البحث فيما وراء الطبيعة إلا بعد فهم علم الطبيعة. وعلى من شاء درس تاريخ التمدن درساً وافياً أن يكون مراقباً بصيراً ومدققاً حصيفاً يتمكن من فهم الحوادث وتمحيصها وغربلتها، لأن الحقيقة كثيراً ما تختفي وراء نقاب شفاف من الظواهر الخدَّاعة. وينبغي له أن يكون ذا قدرة على جمع الحوادث ووصلها واستنطاقها والمقابلة بينهما. وأخيراً أن يكون ذا ضمير حي فيما يرتئيه ويعلله.
لم يقدم ريبيرا في أواسط القرن الماضي على درس تاريخ التمدُّن الإسلامي الشرقي عامة والأندلسي خاصةً إلا بعد أن اجتمعت فيه كلُّ هذه الصفات الأساسية الضرورية، فولج وحده هذا الباب الذي لم يطرقه عالم قبله. وبعزيمة صادقة توغل في مجاهل هذا البحث وأكتشف حقائق كانت مجهولة أودعها كتبه القيّمة التالية: (تاريخ التدريس في الإسلام). (تاريخ المكاتب والمدارس الفقه في الإسلام). (تاريخ الفلسفة الإسلامية). (تاريخ شيوع
اللغة الأسبانية بين عرب الأندلس). (تاريخ أصل الشعر الغنائي والشعر الحماسي). (تاريخ الموسيقى العربية وتأثيرها على الموسيقى الإسبانية).
وكفى بهذه المؤلفات شهادة تفوق ريبيرا في التاريخ الإسلامي، وعلى جهوده التي تحله في المقام الأول بين كلُّ العلماء الذين عنوا بدراسته. ويمتاز ريبيرا على كثير من هؤلاء بأنه شق لنفسه طريقاً جديدة في أبحاثه، غير مثقف آثار من تقدموه من البحاثين الذين يتبعون خطوات من تقدموهم، ويحتذونهم في كلُّ شيء تقريباً. ولا غرو أن يتبوأ أحد المراكز الأولى بين العلماء الذين درسوا التاريخ والآداب الإسلامية. ومن أظهر مميزاته تحري الحقائق المدعمة بالبراهين، وإثباتها بعد أن يحللها تحليلاً عقلياً ومنطقياً. وحجتنا على هذا أبحاثه في التعليم الإسلامي في الشرق والأندلس، فهي تطلعنا على أنه كان مقيداً وخاضعاً للسلطة في الأقطار الشرقية الإسلامية، على حين كان حراً طليقاً من كلُّ رقابة في الأندلس. وترينا أن أسلوب التعليم الإسلامي كان في عهده قدوة ومثالاً للتعليم في مدارس أوربا المسيحية التي أخذت عنه رتبها وألقابها وتنظيم صفوفها وطريقة امتحانها.
وإذا كان قد درس بإسهاب كيفية تأسيس القضاء وتنظيمه في مملكة أراغوان، فلكي يبرهن أن نظامها القضائي ككثير من الأنظمة القضائية نسخته إسبانيا المسيحية عن الإسلام، كما أن شكل القضاء في الإسلام هو نسخة طبق الأصل عن نظام القضاء الفارسي القديم. وما درس موشحات (ابن قزمان) التي هي منبع الأغاني العربية الأسبانية إلا لكي يفتش بين تقاطيعها وأوزانها وتراكيبها ومعانيها عن المثال الذي نسجت على منواله الأغاني الأسبانية العامية المعروفة (بالبروفينسيال). وقد كان مؤرخو الآداب الأسبانية يعتبرون هذه الأغاني وليدة بيئتها حتى جاء ريبيرا وكشف عن حقيقة أصلها العربي الأندلسي؛ وقد أوصلته أبحاثه إلى اكتشاف ذاته فيما يتعلق بالقصائد الفرنسية الحماسية إذ أن أقدمها عهداً هو أحدث من الملاحم الأندلسية، فضلاً عن التشابه الموجود بين أبطالها ومواضيعها، وأبطال ومواضيع الشعر الحماسي الأندلسي الذي نبشه ريبيرا من بطون النسيان.
(العصبة)
أديب سعادة
قصة المكروب - 14
كيف كشفه رجاله
ترجمة الدكتور أحمد زكي وكيل كلية العلوم
بستور
صلة حديثة
وصل الفائت: أثبت بدستور أن تخمر عصير العنب وفساد اللبن واللحم مرجعها كلها إلى وجود أحياء صغيرة يحملها تراب الهواء، وإنه كلما قل تراب الهواء قلت الأحياء التي فيه حتى تكاد تعدم. واليوم نقص كيف طبق علمه على حالتين ونجئ به صناعتين كان مآلهما الخراب: صناعتين الخمر وصناعة الخل، فأثبت للناس كيف يلي العلم دعاء هم في شدة المحنة وظلمة اليأس.

وبدأ مرة أخرى يرى فرنسا كلها كيف يستطيع العلم أن يوفر المال لصناعتها. فحزم صناديق ملأى بالأواني والأجهزة الزجاجية، وحزم معها مساعداً نشيطاً من مساعديه أسمه (ديكلو)، وسافر مسرعاً إلى بلده القديم (أدبوا) ليدرس أمراض الخمور وما نزل بهذه الصناعة من الدمار. واتخذ معمله في مكان مقهى عتيق. واكتفى عن مصابيح الغاز بموقد من الفحم النباتي قام (ديكلو) عليه يؤجج جمراته بمنفاخ في يديه شغله طويلاً في غير ملل أو كلل. وكانا كلما أراد الماء ذهب (ديكلو) إلى مضخة القرية يستقي منها. أما ما احتاجوه من الأجهزة فصنعه لهم نجار القرية وسمكاريها في غير أناقة كبيرة، وذهب بدستور إلى معارفه الأقدمين يسألهم بضع زجاجات من الخمر، المرة، والخمر الهلامية، والخمر الزيتية، واختصاراً من كلّ خمر فاسدة مريضة. كان بستور قد أيقن من أبحاثه السابقة أن الخمائر هي التي تصنع من عصير العنب خمراً، فلما جاء اليوم يبحث أدواءها وقع في نفسه أن هذه الأدواء لا بد ترجع إلى أحياء مكرسكوبية أخرى.

وما أسرع ما تحققت نبوءته! فما كاد يصوّب عدسته إلى الخمر الهلاميّة حتى وجدها تعجّ بمكروبات جديدة غريبة غاية في الصغر يتصل بعضها ببعض كالعقد النظيم. ونظر إلى الخمر المرّة فوجدها مليئة بنوع جديد من الأحياء. ونظر في الخمر الفاسدة الأخرى فوجد

بها أحياء أخرى. ثم جمع زراع العنب وصناع الخمر وتجار الإقليم، وأعتزم أن يفتنهم بسحره.

صاح فيهم: (هاتوا لي ست زجاجات من خمر أصابتها ستة أمراض مختلفة، ولا تخبروني بنوع مرضها، فأنا أدلكم عليه بالنظر إليها). فلم يصدقه منهم أحد، وتغامزوا وتلامزوا عليه وهم في طريقهم إلى إحضار خمورهم المريضة، وضحكوا من أجهزته الغريبة في ذلك المقهى القديم، وتفاكهوا بحاله تفاكههم بمخبول جاد غير هازل.

وجاءوا بين الخمور المريضة بخمر صحية ليخدعوه ويضلوه. فقام فيهم يملأ قلوبهم عجاباً وإعجاباً. فأخذ أنبوبة دقيقة من الزجاج وإدخالها في إحدى قوارير الخمور ورفعها بقطرات فيها ووضعها بين قطعتين منبسطتين من الزجاج وانحنى فوق الغمزات.

. . .ومضى زمن وصاحبنا في تحديقه، وأصحابنا يزدادون بمر الدقائق جلبة ونكاتاً وبغتةً رفع بستور رأسه وقال: (ليس بهذه الخمر مرض. أعطوها للذواق وانظروا هل يؤمن على قولي.)

وذاقها الذوّاق , ثم رفع أنفه الأحمر فتجمّد، واعترف أن بستور صدق فيما ذهب إليه. وجرى بستور على صف الزجاجات واحدة واحدة. وكان كلما رفع رأسه عن المجهر وصاح (هذه خمر مرة) أمن على قوله الذوّاق. وكلما قال هذه (الخمر هلامية) أكد ما وجد الذوّاق.

وانصرف الجماعة من عنده مكشوفي الرؤوس تلهج ألسنهم بالثناء وتتعثر بالشكر. (لا ندري ما يصنع بهذه الخمور ليتعرفها. ولكنه رجل ماهر غاية في المهارة) هكذا قال بعضهم لبعض، وهو اعتراف لعمر ربي منا الفلاح الفرنسي ليس بالهين اليسير. .

وبعد انصرافهم أخذ بستور ومساعده ديكلو يعملان في هذا المعمل الخرب، وقد شد النصر عزائمهما وقوّى النجاح قلبيهما. وأخذا يدرسان كيف يمنعان هذه المكروبات الغريبة من الدخول إلى الخمور السليمة، وخرجا على أنهما إ ذا سخنا الخمر، ولو تسخينا هينا دون درجة غليانها بكثرة، فإن هذا التسخين يقتل تلك المكروبات الدخيلة فلا تفسد الخمر بعد ذلك. وهذه الحيلة اليسيرة التي جاءا بها هي التي تعرف اليوم (بالبسترة) نسبةً إلى اسم صاحبها بستور، وعلى مقتضاها تعالج الألبان اليوم فتعقم فتنجو من التخثر طويلاً.

وما كاد يطمئن الفرنسيون في شرق فرنسا على خمرهم، ويتعلمون كيف يمنعون الفساد عنها، حتى علا الصراخ في المقاطعات الوسطى يهتفون ببستور ليأتيهم فينجي صناعة الخل لديهم من البوار. فأجاب بستور دعاءهم وسافر مسرعاً إلى مدينة وكان في هذا الوقت قد ألف البحث عن المكروب والعثور عليه حيثما كان، فلم ينفق في التحديق وراءه ذلك الجهد الكبير والزمن الطويل اللذين أنفقهما أولاً. ولما اقترب من البراميل التي فيها تستحيل الخمر خلا، رأى على سطح سائلها زبداً غريب المنظر. فصاح به الخلالون: (هذا الزبد لا بد منه لتخليل الخمر) وقضي بستور بضعة أسابيع في

البحث فوجد أن الزبد إن هو إلا ملايين بعضها فوق بعض من خلائق مكرسكوبية. فأخذها، فامتحنها، فوزنها، فصنع بها ما لا يُصنع. وأخيراً جاء إلى جمع من الخلالين وزوجاتهم وأولادهم وأقاربهم فأخبرهم أن الذي يحيل خمرهم إلى خل إنما هي مكروبات صغيرة، وأنبأهم أن هذه المكروبات تحيل من كحول الخمر إلى حامض الخل مقادير تبلغ عشرات الألوف من أوزانها. (فانظروا واعجبوا من ضخامة العمل الذي تقوم به هذه الأحياء الضئيلة. ماذا تقولون لو أن رجلاً زنته مائتا رطل قام يقطع خشباً فقطع مليوني رطل في أربعة أيام!) وبهذه التشبيهات الساذجة، أدخل بستور هذه المكروبات الصغيرة في حياة هؤلاء السذج فأكبروها واحترموها. وبستور نفسه ظل يفكر طويلاً في جسامة ما تقوم به من الأعمال حتى ألف الفكرة واعتيادها.

وخطر له أن المكروب على ضآلته قد يدخل جسم الثور العظيم أو جسم الفيل أو جسم الرجل فيميته، فلم يجد في هذا الخاطر استحالة أو غرابة. وقبل أن يرحل عن بلدة (تور) علم أهلها كيف يربون هذا المكروب النافع ويعنون به حتى يحسن استلاب الجوأ كسجينه لأكسدة الكحول في خمرهم فيملأ بذلك جيوبهم بالملايين من الفرنكات.

وبهذا النجاح وأمثاله زاد بستور ثقة بالتجربة أداةً لكشف الغامض من الأمور. وأخذ يحلم الأحلام الطويلة العريضة المستحيلة عن فتوحات المستقبل التي سيأتيها في تقفي آثار هذه الخلائق الضئيلة ولم يحبس هذه الأحلام على نفسه، بل وصفها في خطبه ونادى وبشر بها كما بشر الرسول يوحنا المعمدان بالنصرانية، سوى أن صاحبنا كان أكثر حظاً من يوحنا الرسول، لأنه قدر له أن يعيش يتحقق ولو قليلاً من نبواته.

وتلت ذلك فترة قصيرة قضاها بستور في معمله بباريس يشتغل هادئاً ساكناً. فلم يبق له من الصناعات ما ينجيه. وظل في هدوئه حتى يوم من أيام عام 1865، ففي هذا اليوم جاء القدر يدق بابه. وما كان الطارق إلا أستاذه القديم دوماس، جاءه يتطبب لدود القزّ المريض. فقال بستور دهشاً: (وما الذي دهى دود القزّ، فما كنت أعلم أن المريض يعتريه؟ على أني لا أعرف عن هذا الدود شيئاً، وإن شئت المزيد ففي الحق أني لم أر دودة قزّ واحدة في حياتي).

(يتبع)

أحمد زكي

أبو سليمان الخطابي

هـ 883 - 319

بقلم برهان الدين محمد الداغستاني

تتمة

تابع مؤلفاته

3 - (أعلام السنن) في شرح البخاري، وهو شرح لطيف فيه نكت لطيفه وفوائد شريفة.

4 - (كتاب الاعتصام بالعزلة) كتبه بطلب من أحد تلاميذه حقق فيه معنى العزلة وما المراد منها، ثم عرض لأدلة من أنكر العزلة ومن قال بها ووازن بينها، فكانت الغلبة في جانب أنصار العزلة.

5 - (كتاب شأن الدعاء) ذكر فيه بعض الأدعية المأثورة وشرح معانيها.

6 - (إصلاح غلط المحدثين) أورد فيه قرابة مائة وثلاثين حديثاً يرويها أكثر المحدثين ملحونة أو محرفة أصلحها وبين الصواب فيها.

7 - (شعار الدين) التزم فيه إيراد أوضح ما يعرفه من الأدلة من غير أن يلتزم طريقة المتكلمين.

8 - (كتاب الشجاج)

9 - (كتاب شرح أسماء الله الحسنى)

10 - (كتاب الغنية عن الكلام وأهله)

11 - (كتاب العروس)

12 - (الرسالة الناصحة) فيما يعتقد فيما يعتقد في الصفات، وهذه الستة الأخيرة لم أراها ولم أعلم مكان وجودها.

هذه هي كتب أبي سلمان التي ذكرها الذين ترجموا له. وجاء في طبقات الشافعية الكبرى للسكي (ج2ص222) ما يأتي:

قال الخطابي في كتابه تفسير اللغة التي في مختصر المزني في باب الشفعة: بلغني عن إبراهيم بن السرى الزجاج النحوي أنه كان يذهب إلى أن الصاد تبدل سيناً مع الحروف
كلها لقرب مخرجهما، فحضر يوماً عند على بن عيسى فتذاكرا هذه المسألة واختلفا فيها وثبت الزجاج على مقالته، فلم يأت على ذلك إلا قليل من المدة، فاحتاج الزجاج إلى كتاب إلى بعض العمال في العناية فجاء إلى علي أبن عيسى الوزير ينتجز الكتاب، فلما كتب علي بن عيسى صدر الكتاب وانتهى إلى ذكره كتب: وإبراهيم بن السرى من أحسن أخواني، فقال الرجل أيها الوزير: الله الله في أمري! فقال له علي بن عيسى إنما أردت أخص، وهذه لغتك فأنت أبصر، فإن رجعت وإلا أنفذت الكتاب بما فيه. فقال قد رجعت أيها الوزير فأصلح الحرف واطو الكتاب. أ. هـ.
فهذا الذي نقلناه عن طبقات السبكي يفيد أن للخطابي كتاباً شرح فيه غريب اللغة التي في مختصر المزني ولكني لم أر أحداً ذكر هذا الكتاب من كتب الخطابي، ولم يذكر صاحب كشف الظنون هذا الشرح لمختصر المزني مع أنه عدد الكثير من شروحه لكثير من المتقدمين والمتأخرين.
شعره:
يُعد الخطابي أديباً ذا حظ وافر في الصناعتين النثر والنظم؛ فإما نثره ففي إمكان القارئ الكريم الاطلاع عليه في كتبه التي كتبها في العلوم، ومنها ما هو مطبوع، لذلك لا أرى حاجة إلى ذكر شيء منه، وأما شعره فمع أنه شعر جيد سلس عذب الألفاظ فهو مفرق هنا وهناك بين بعض كتبه وكتب بعض الذين ترجموا له، وإني لذلك ذاكر منه كلَّ ما عثرت عليه.
قال أبو سعيد الخليل بن محمد الخطيب: كنت مع أبي سليمان الخطابي فرأى طائراً على شجرة فوقف ساعة يسمع ثم أنشأ يقول:
يا ليتني كنت ذاك الطائر الغردا ... من البريّة منحازاً ومنفردا
في غصن بأن دهته الريح تخفضه ... طوراً وترفعه أفنانه صعدا
خلو الهموم سوى حب تلمسه ... في الترب أو نغبة يروى بها كبدا
ما إن يؤرقه فكر لرزق غدٍ ... ولا عليه حساب في المعاد غدا
طوباك من طائر طوباك ويحك طب ... من كان مثلك في الدنيا فقد سعدا
وله في معاملة الناس بالحسنى وحب الخير لهم:
أرض للناس جميعاً ... مثل ما ترضى لنفسك
إنما الناس جميعاً ... كلهم أبناء جنسك
فلهم نفس كنفسك ... ولهم حس كحسك
وله في الرد على من لامه على اعتزاله الناس وطول احتجابه:
وقائل ورأى من حجتي عجباً ... كم ذا التواري وأنت الدهر محجوب
فقلت حلت نجوم العمر منذ بدا ... نجم المشيب ودين الله مطلوب
فلذت من وجل بالاستتار عن الأ ... بصار إن غريم الموت مرعوب
وله في مدارة الناس ومصانعتهم:
مادمتُ حياً فدار الناس كلهم ... فإنما أنت في دار المداراة
من يدر داري ومن لم يدر سوف يرى ... عما قليل نديماً للندامات
وله يشكو إيذاء الناس بعضهم بعضاً فوق أذى الوحوش الضارية:
شر السباع الضواري دونه وزر ... والناس شرهم ما دونه وزر
كم معشر سلموا لم يؤذهم سبع ... وما نرى بشراً لم يؤذه بشر
وله يشكو من وسطه الذي لا يجد فيه من يفهمه وتسكن إليه نفسه:
وما غربة الإنسان في شقة النوى ... ولكنها والله في عدم الشكل
وإني غريب بين بُست وأهلها ... وإن كان فيها أسرتي وبها أهلي
وله في تهوين أمر الدنيا وعدم الاهتمام بها:
لعمرك ما الحياة وإن حرصنا ... عليها غير ريح مستعاره
وما للريح دائمة هبوب ... ولكن تارة تجري وتارة
وله في الحث على انتهاز الفرص قبل فواتها:
تغنم سكون الحادثات فأنها ... وإن سكنت عما قريب تحرك

وبادر بأيام السلامة إنها ... رهون وهل للرهن عندك مترك
وله في التحذير من الجهال وعدم الركون إليهم:
تحرز من الجهال جهدك إنهم ... وإن لبسوا ثوب المودة أعداء
وإن كان فيهم من يسرك قربه ... فكل لذيذ الطعم أو جُلّه داء
وله في العفو والقصد والذم المغالاة:
تسامح ولا تستوف حقك كله ... وأبق فلم يستقص قط كريم
ولا تغل في شيء من الأمر واقتصد ... كلا طرّفيْ قصد الأمور ذميم
وأورد جعفر بن شمس الخلافة في كتاب للخطابي هذين البيتين:
وإني لأعرف كيف الحقوق ... وكيف يبر الصديق الصديق
ورحب فؤاد لفتى محنة ... عليه إذا كان في الحال ضيق
وله يذكر حسن أثر العزلة في نفسه:
إذا خلوت صفا ذهني وعارضني ... خواطر كطراز البرق في الظلم
وإن توالى صياح الناعقين على ... أذني عرتني منه حكلة العجم
وله يصف ميله إلى البعد عن الناس وقلة مخالطتهم:
قد أولع الناس بالتلاقي ... والمرء صب إلى هواه
وإنما منهم صديقي ... من لا يراني ولا أراه
وله في عزة النفس والتعفف مع الحاجة الملحة:
دعني فلن أخلق ديباجتي ... ولست أبدي للورى حاجتي
منزلتي يحفظها منزلي ... ديباجتي تكرم ديباجتي
وله:
قد جاء طوفان البلاد ولا أرى ... في الأرض ويحي للنجاة سفينه
فاصعد إلى وزر السماء فأن يكن ... يعييك فابك لنفسك المسكينه
وله:
سلكت عقاباً في طريقي كأنها ... صياصي ديوك أو أكف عقاب
وما ذاك إلا أن ذنباً أحاط بي ... فكان عقابي في سلوك عقاب
وله:
قل للذي ظل يلحاني ويعذلني ... لنائل فاته والخير مأمول
لا تطلب السمن إلا عندي سمن ... نال الولاية فالمعزول مهزول
بعض الآراء المنقولة عنه
كان الخطابي شديد الإنكار على الفقهاء الذين يغفلون الحديث أو يتساهلون فيه ويقصرون همهم على آراء أئمتهم من الفقهاء كما كان ينكر على المحدثين إغفالهم الفقه واشتغالهم بالغريب وجمع الروايات لذلك لم يكن غريباً من الخطابي أن يخالف من تقدموه إذا رجوت رأى الدليل يسعفه؛ فمن ذلك قوله برد شهادة أحد الزوجين للآخر لما في ذلك من التهمة قياساً على رد شهادة القانع لأهل البيت الوارد في الحديث، والقانع من يخدم القوم ويكون في حوائجهم. وكان يرى تحريم البول في الطريق لحديث فيه ولما فيه من إيذاء المسلمين. وكان كراهة خاتم الفضة للمرأة لأنه من شعار الرجال كما أن الذهب من شعار النساء، وكان يرى أن أكل الثوم والبصل لا يعد عذراً في ترك الجمعة لما لها من الأهمية والخطر. وكان يعيب على المتكلمين قولهم في صفات الله الذاتية: إنها قديمة، ويختار أن يقال فيها أزلية، لأن معنى الأزلي هو ما لم يزل كائناً، ومعنى القديم هو ما له صفة القدم، ولا يجوز أن يكون للصفة صفة.
هذه كلمة أردت بها الكشف عن فضل هذا العالم الذي نسي الناس حتى أسمه فلا يعرفونه على حقيقته، وأرجو أن أكون قد وفقت ولو إلى بعض ما أردت.
برهان الدين محمد الداغستاني
محاورات أفلاطون - 23
الحوار الثالث
فيدون أو خلود الروح
ترجمة الأستاذ زكي نجيب محمود
ما أبعد ما رجوت من أمل، وما أسوأ ما عدت به من فشل! فما مضيت حتى ألفيت

فيلسوفي قد نبذ العقل نبذاً كما نبذ كلُّ ما سواه من أسس الاتساق، وانتكس إلى الهواء والأثير والماء وما إليها من شوارد الآراء. فكان عندي أشبه برجل أصر بادئ ذي بدء أن العقل هو علة أفعال سقراط بصفة عامة، فلما أراد أن يبيّن بالتفصيل أسباب أفعالي العديدة، أخذ يبرهن أنني أجلس ها هنا لأن جسمي مصنوع من عظام وعضلات، وأن العظام، كما كان ينتظر أن يقول، صلبة تفصل بينها أربطة، وأن العضلات مرنة وهي العظام التي يحتويها كذلك غشاء، أو محيط من اللحم والجلد. ولما كانت العظام مشدودة إلى مفاصلها لقبض العضلات وسطها، كان في استطاعتي أن أثنى أطراف بدني، وهذا علة جلوسي ها هنا في وضع منحنٍ. أنه كان سيزعم هذا، وكان سيشرح بمثل هذا كلامي إليكم، فقد كان سيفرده إلى الصوت والهواء والسمع، وكان سيذكر من هذا النوع من الأسباب عشرة آلاف سوى ما ذكر، ناسياً أن يشير إلى السبب الحقيقي وهو أن الأثينيين قد رأوا في إدانتي صواباً، فرأيت أنا بناء على ذلك أن الأفضل والأصوب هو مقامي ها هنا محتملاً ما حكم عليّ به، فأرجح الظن عندي أن عظامي وعضلاتي هذه كانت تود لو فرت إلى ميغاراً أو بوتيا - وإني لأقسم بكاتب مصر أنها كانت تود ذلك، إذا لم يكن يسيرها إلا فكرتها هي عن الأمثل، وإذا لم أكن أنا قد آثرت أن أحتمل كلَّ عقوبة تقضي بها الدولة، على اعتبار أن ذلك أفضل وأشرف مسلكاً، بدل أن أمثل دور الآبق فألوذ بالفرار. لا شك أن في هذا كله خلطاً عجيباً بين الأسباب والحالات. وقد يمكن القول حقاً أنني لا أستطيع تحقيق غاياتي بغير العظام والعضلات وسائر أجزاء الجسد، أما القول بأنني أفعل ما أفعل من أجلها، وأن فعل العقل إنما يكون على هذا النحو ولا يكون باختيار الأمثل، فذلك ضرب من القول العابث العقيم؛ وإني لأستغرب ألا يستطيع الناس أن يفرقوا بين السبب والحالة، وهو ما يخطئ الدهماء فيه وفي تسميته دائماً، لأنهم يتخبطون في الظلام؛ وهكذا ترى واحداً من الناس يصطنع دوامة من الماء تشمل الكون فيثبِّت الأرض بالسماء، وترى آخر يذهب إلى أن الهواء عماد الأرض وأن الأرض في شكل الحوض الفسيح، ولا تسيغ عقولهم قط وجود أية قوة تسير بهم إذ تصرفهم نحو الأحسن وهم لا يتخيلون أن في ذلك قوة فوق القوة البشرية، إنما هم يتوقعون أن يجدوا للعالم عماداً آخر أقوى من الخير وأكثر منه دواماً وشمولاً، وهم بغير شك يرون أن قوة الخير القسرية الشاملة هي كلُّ شيء، ولكني مع ذلك أتمنى أن أكون هذا هو المبدأ الذي أتعلمه إن وجد من يعلمنيه، ولما كنت قد فشلت أن أستكشف بنفسي أو بإرشاد غيري من الناس طبيعة الأمثل، فسأعرض عليكم إذا شئتم طريقة البحث في العلة التي وجدتها تتلو الأمثل في المثالية.

أجاب: لشد ما أحب أن أصغي إلى ذلك.

فمضى سقراط: ظننت أني ما دمت قد فشلت في تأمل الوجود الحقيقي فينبغي أن أحرص على عين روحي فلا أفقدها كما قد يؤذي الناسُ عيونهم الجثمانية بشهود الشمس والنظر إليها أثناء الكسوف، ما لم يتحوطوا فلا ينظرون إلا إلى الصورة المنعكسة على الماء أو ما يشبه الماء من وسيط؛ حدث لي ذلك فخفت أن تصاب روحي بالعمى الشامل إذا أنا نظرت إلى الأشياء بعينيّ أو حاولت أن أتفهمها بوساطة الحواس، وفكرت أنه يحسن بي أن أعود إلى المُثل فأبحث فيها عن حقيقة الوجود، وأني لأعترف ينقص هذا التشبيه - لأنني بعيد جداً عن التسليم بأن من يتأمل صور الوجود بوساطة المثل يراها (معتمة خلال منظار) دون من ينظر إليها وهي في نشاطها وبين نتائجها، ومهما يكن من أمر فهذه سبيلي التي سلكتها: فرضت بادئ الأمر مبدأ زعمت أنه أمتن المبادئ، ثم أخذت أثبت صحة كلَّ شيء يبدو متفقاً مع ذلك المبدأ، سواء أكان ينتمي إلى السبب أو إلى أي شيء آخر، واعتبر كلَّ ما يتنافر وإياه غير صحيح، ولكني أحب أن أوضح بالشرح ما أعني، فما أحسبكم تفهمون ما أريد.

فأجاب سيبيس: كلا، حقاً إنا لم نفهم جيداً.

قال: ليس فيما أوشك أن أنبئكم به من جديد، فهو ما ظللت أكرره أينما حللت، فيما سبق من نقاش، وفي ظروف غيره سلفت، فثمة علة قد ملكت على خواطري، أريد أن أبسط لكم

طبيعتها، ولا مندوحة لي عن العودة إلى تلك الألفاظ المألوفة التي يلوكها كلَّ إنسان، فأزعم قبل كلَّ شيء أن ثم جمالاً مطلقاً وخيراً مطلقاً وكبراً مطلقاً وما إلى ذلك. سلم

معي بهذا ولعلي أستطيع أن أدلك على طبيعة العلة، وأن أقيم لك الدليل على خلود الروح.

فقال سيبيس: تستطيع أن تمضي من فورك من برهانك، فلست أتردد في أن أسلم لك بهذا.

فقال: حسناً، إذن فأحب أن أعلم هل تتفق معي في الخطوة التالية، وتلك أنه لو كان هنالك شيء جميل غير الجمال المطلق لما شككت في استحالة أن يكون ذلك الشيء جميلاً إلا بمقدار مساهمته في الجمال المطلق - وأني أقرر هذا عن كلّ شيء. أأنت موافقي على هذا الرأي في العلة؟

فقال: نعم أوافقك.

فمضى قائلاً: لست أعلم شيئاً ولا أستطيع أن أفهم شيئاً عن أي سبب آخر من تلك الأسباب الحكيمة التي يزعمونها، فإن قال لي أحد إن جمالاً ينبعث عن ازدهار اللون أو الشكل أو ما شئت من شيء من هذا القبيل، لطرحت قوله جملة، فليس لي منه إلا ربكتي، ولتشبثت بفكرة واحدة دون غيرها تشبثاً قد يكون على شيء من الحمق، ولكني من صوابها على يقين، وهي أنه لا يجعل الشيء جميلاً إلا وجود الجمال والمساهمة فيه، مهما تكن سبيل الوصول إلى ذلك، وكيفية الحصول عليه، فلست أقطع برأي في الكيفية، ولكني أقرر بقوة أن الأشياء الجميلة كلها إنما تكون جميلة بالجمال، وعندي أن ذلك وحده هو الجواب المعصوم الذي أستطيع أن أدلي به لنفسي أو لأي أحد آخر، وإني لأتشبث به، ويقيني أن لن تصيبني الهزيمة قط، وأنه في مكنتي أن أجيب، في عصمة من الزلل، على نفسي أو على أي أحد من الناس، بأن الأشياء الجميلة لا تكون جميلة إلا بالجمال. ألست توافق على ذلك؟

- نعم أوافق.

- وبالكبر وحده تصير الأشياء الكبيرة كبيرة فأكبر وأكبر، وبالصغر يصير الصغير صغيراً؟

- حقاً.

(يتبع)

زكي نجيب محمود

سل الجديدين

للأستاذ فخري أبو السعود

هذي الحياة التي راقت مجاليها ... يُحصَى حصاها ولا تُحصى مآسيها
ما كنت تلهو بما أبدت ظواهرُها ... لو كنت ما تُخفي خوافيها
تَظَلُّ تَعْرِضُ ألواناً مَفاتنَها ... وللشرورِ مجالٌ في نواحِيها
تجاور الحُسْنُ فيها والأسى ومشت ... ما بين أفراحها الكُبرى منَاعيها
يشقى ويفنى بنوها وهي لاهيةٌ ... يدلّها وحُلاها عن ذراريها
تروقك الغابةُ الفيحاء ناضرَة ... يرفُّ بالحُسنِ عإليها ودانيها
ويانعُ الزهرِ في أفنانها عبقٌ ... وَرَيِّقُ الماء يجري في مساريها
ويَسْتبيكَ برودٌ من نسائمها ... هينٌ وظلٌ ظليلٌ من حواشيها
وبين أطوائها حربٌ مخلّدة ... تعجُّ ما بين ماضيها وآتيها
في عشبها أو ثراها أو لفائفها ... يُكنُّ رائحُها شرّا لغاديها
وما اغتذى حبُّها إلا بهالكها ... ولا سما نضرُها إلاَّ بذاويها
تغلغلَ الظّلْمُ في أحنائها وَعَدَا ... على الضعيف من الأحياء عاديها
في كلِّ طرفة عين ثمَّ مهلكةٌ ... أو ثمَّ معركةٌ يا ويحَ صاليها
تشقى وتألمُ آلافٌ مؤلَّفة ... في كلِّ آن وترْدي في دياجيها
وتعشق البحر في رحبٍ وفي عظمٍ ... والبحرُ مطَّردِ الأمواج طاميها
تُلاعِبُ الريحُ أحياناً غوارٍ به ... وساكبُ النُّور أحياناً يناغيها
يصفو الأَصيل عليها والضحى ولها ... تردُّدٌ وخريرٌ في شواطيها
وتحت أثباجها حربٌ مُؤرَّثة ... موصولةٌ ليس يخبو الدَّهر واريها
وكم مآسي في قيعانها دَرَجَت ... وكم فجائعَ غابت في غواشيها
سل الجديدين كمكرًّا على مُهجٍ ... مَرُوعةٍ عزَّ في اللأواء آسيها
قد عزَّ في قبضة الأقدارِ ناصرُها ... وعزَّ مِنْ بَعْدُ رائيها وباكيها

لو أطْلَقَ المرءُ للعين العنانَ على ... تلك المآسي لما جفَّتْ مآقيها
ولو رَأى لضحاياها العِدادِ لما ... حلا له الشعرُ إلا في مراثيها
ولو تدبَّرت النفسُ الحياة لما ... صَحَتْ من الهم، لكنّا نُماريها
نشيحها عن مآسيها ونصرفها ... لما تُحبُّ وترضى من ملاهيا
فخري أبو السعود
نِدَاءُ الحُبّ
وقلبي أنشودة حلوة=تغنى بها قافلات الهوى
لشاعر الشباب السوري أنور العطار
تعالَ أيا حُبُّ نولِ الوُجودَ ... أناشيدَ يملكُها مَنْ روَى
تعال نُغَنِّ السُّهولَ الفساحَ ... ونُصبِ الهضابَ ونُغْرِ الرُّبا
تعال نَهمْ هَيَمانَ العُطورِ ... ونَهْتزَّ مثلَ شُعاعِ الضُّحَى
تعال نُطوِّفْ رِحَابَ الفضاءِ ... ونسْرِ إلى غامضِ المُنْتَأى
تعالَ نَغُصْ في عُبَابِ السَّماءِ ... ونُفْنِ الزمانَ ونطْوِ الدُّنا
ولا ندَّحرْ فَرْحَةً للجنَان ... ولا نُبقِ للرُّوح من مشْتَهى
ونَحْىَ مِنَ الحُبّ في عالمٍ ... نضير الأزاهيرِ حُلوِ الجنى
تُؤلِّفنا الطَّيْرُ أُغرودةً ... وتَمزُجُنا بنُفاحِ الشّذا
نعيشُ نجيّيْن في سكرةٍ ... كما عاشَ في الزهرِ خَمْرُ الندى
فما العُمرُ إلا سَناً راجفٌ ... تَلألآ بارقةٌ وأمَّحَى
فأيامُهُ ضُيَّعٌ كالسَّرابِ ... وأحْلامُه ذاهباتٌ سُدى
نطيرُ إلى ربواتِ النّعيمِ ... ونلكُ أنفاسَ ريح الصَّبا
لنا في النَّسائمِ أرْجوحةٌ ... تَطُوفُ بنا في فجاج السَّما
تُهدْهِدُنا بالنشيدِ الحبيبِ ... وتغمُرنا بالسّنَا المرتجى
ننامُ وفي الأذنِ أُغنيةٌ ... وفي العين حُلْمٌ رقيقٌ سَرَى
وأرواحُنا انطلقتْ في العَلاءِ ... تَغلغلُ في سدرةِ المنتهى
فيا لكِ غيبوبةً لذَّةً ... تراءى الخَفَاءُ بها وانجلى
ويا لكِ أُمْنيَّةً تُستَطابُ ... ولحْناً على الدَّهْرِ لا يُجتوى
ويا لكِ دُنيا قَلَتْهَا الهمومُ ... وماتَ الرَّياءُ بها وانطوى
فلا الشَّرُّ يأوي إلى ساحها ... ولا البُغْضُ يَسْكُنها والقلى
تَنَقّتْ من العابِ أعطافُها ... ورَفَّ النعيمُ بها وازدهى
يَسودُ حِماها هوىً خالدٌ ... وحُبٌّ تسامى وعيشٌ صفا
ويهفو إليها الشعاع الرقيقُ ... ويألفها الأملُ المُبتغى
وتَنْفُثُ فيها الثُّغُورُ الحِسانُ ... أحاديثَ يلتذُّها منْ وعى
فما يَبْهَجُ الرُّوح بَادٍ هُناكَ ... لَمَنْ يَشْتَهيهِ وخافٍ هُنا
تعال لقد بُحُ صوتي الشّجيُّ ... وعاجلني منْ صُراخي الونى
تعالِ فإني مُستوْحشٌ ... يُريني طولُ الضّنى ما اختفى
أُحسُّ يداً مُلئتْ بالحنانِ ... تُنهنهُ دمعي إذا ما همى
وألمسُ في وحدتي خافقاً ... يذوبُ على ما أُعاني أسى
وألمح في وحدتي طيفاً يلوحُ الهُزالُ ... على وجههِ ويبينُ الضَّنى
يُغمغْمُ في سرِّهِ دائباً ... ويرعى خُطاي ويحمي الحِمى
ويُؤنُسني إن عَراني الملالُ ... ويحَمْلُ عني وقْدَ الجَوى
ويَنْفَحُني بأريحِ الخلودِ ... ويَغْمُرني بشهيِّ المُنى
كأني أبصرْتُ شِهْاً لهُ ... تعلَّقْتهُ في غُصونِ الصِّبَا
يُذكِّرُني وجُههُ بالحبيبِ ... وإنْ غَيَّرتْهُ عوادي النوَّى
من الزائري في إسارِ الشّجونِ ... يُزحْزِحُ عَنّى خطباً عرا
يُقاسمُني غَمراتِ الحياةِ ... وما رَوَّعَ القَلْبَ أو ما دهى
ويُنقذُني من وجومي الرّهيبِ ... ومن ليليَ الجْهمِ إما غشا
ومنْ هاجسٍ ضجَّ منهُ الجَنَانُ ... ومِنْ خاطرٍ فرَّ منه النهى
غَنيتُ بهذا الخيال العجيبِ ... وشنَّتَ لُبّي هذا الغنى
ذهِلتُ ولم أدْرِ مِنْ حيرتي ... أَلِلْغَيِّ مَسْرَاي أمْ للُهدى

فلا العَيْنُ تعرِفُ سجو المنامِ ... ولا الليل يُسعدُها إن سجا
يُريني اكتئابي طُيوفاً تموجُ ... وقافلةً لا تقلُّ السُّرى
ترامتْ بها نائياتُ القِفارِ ... فضاعتْ معالمُها والصُّوى
وجنَّا تألقُ مثلَ اللَّهيبِ ... وجنَّا تأجَّجُ مثلَ اللَّظى
وأرْضاً تَفَجَّرُ منها الدَماءُ ... وفيها تغُوصُ ألوفُ المُدى
وجرحى يئنُّونَ خلفَ الزِّحام ... وصرعى يغيبون تحت القَنا
وأفقاً تدوِّي بهِ السَّافياتُ ... وتملأُ جَنْبيهِ نارُ الوَغى
فمنْ أسهمٍ لَمعتْ كالوميضِ ... ومِنْ أسْيُفٍ إثْرَها تُنتضى
ومنْ أجنُحٍ دوَّمتْ في الفَضَاءِ ... ومدتْ على الكَوْنِ ظلاًّ ضفَا
ومن خائف قد عصاه الصياحُ ... فخارتْ عزائمه والقُوى
ومنْ نهمٍ أكلَ الكائناتِ ... وَعَبَّ خِضَمَّاتها واحتسى
وغالَ مِنَ النَّجْمِ مالا يُعَدُّ ... ومالا يُرَامُ ولا يُحتوى
يُقهْقهُ قهْقهةَ كالرُّعودِ ... ويمتدُّ كالبرق إما بَدا
ويَنَفُثُ حتى إدخال السَّحابَ ... تدفَّقَ من جانبيهِ الحيا
وعيني إلى مَلكٍ نائم ... يُجمْجِمُ في الحُلْمِ أحلى اللُّغى
أناديه مِنْ طول شوقي المِلحّ ... فيبسم والقَلبُ منه هَفا
سريرك حوَّمَ بينَ الغُيوم ... وأغفى على شُرُفاتِ السُّها
وفي القلْبِ عُشُّكَ لكّنهُ ... عفاهُ ومِنْ طيْرهِ قد خلا
وأنت أيا طيفُ ظلَّلْتني ... بِعَطْفِكَ حتى ازدَهاني الرِضا
أفدِّيكَ من مُشفِقٍ لاهِفٍ ... ويا ليتَ يُرضيك أنيِّ الفدا
تكلمْ عَلامَ تُطيلُ السكوتَ ... وفي شَفَتَيْكَ كلامٌ يُرى
تعالَ فها ذاكَ ركْبُ الحياةِ ... تَسَربلَ صحراءها وارتدى
ولم يَبْقَ مِنهْ سِوَى ومضةٍ ... كخطِّ الأصيلِ بأقصى الفلاَ
تعال فإنْ يحتجبْ نورُهُ ... يَعُمَّ الشقاءُ ويطْغَ الأذَى
تعال فإني أُحسُّ المَاَء ... يَحُطُّ على شامخاتِ الذُّرى
وينشُرُ أجنحَهُ الضافيات ... ويُرسِلُها في رحابِ الفَضا
محفّتُهُ حَيلَيَتهْا العُيونُ ... وإنْ غامَ لآلأؤُها أو دَجَا
تعالَ فِلِليلِ حُزنٌ يَطولُ ... وهولٌ إذا ما تناهى ابتدا
تعالَ فإنْ أدركتْنا خُطاهُ ... فليسَ يُتَاحُ لنا المُلتقى
حياتي طائفةٌ كالخيالِ ... وصوتيَ ليسَ لهُ منْ صَدَى
ونفسيَ تحملُ همَّ أثنينِ ... وهَمِّي جاز بنفسي المدَى
كأنيَ قَبرٌ ترامَى العفاءُ ... على جانبيهِ وعَجَّ البِلَى
وقلبي أُنشودةٌ حلْوةٌ ... تغنى بها قافلاتُ الهوى
مررتُ بصحراءِ هذي الحياةِ ... كما مرَّ الغُمْضِ طيفُ الكَرَى
على منكبيَّ بياضُ النَّهار ... وفي مُقلتيَّ سواد الدُّجى
لئنْ نَقَمَ القلبُ أشجانهُ ... لما كربتْهُ صُروفُ الرَّدى
وإن أنكرتهْ الأماني العذابُ ... فما حَفَلَ الدهرَ مُرَّ الشَّجا
تصبَّرتُ حتى فقدْتُ المعِينَ ... وأجملْتُ حتى مَلِلْتُ الأسا
فيا قلْبُ حَبْسٌ عليكَ العذَابُ ... ويا عينُ وقفٌ عليكِ البُكا
أُحسُّ كأنيَ قمرْيَّةٌ ... تنُوحُ على حُلُمٍ قد نَأى
تُودِّعُ آمالهَا الضحكاتِ ... وما ضَمَّ عالمُها مِنْ دُمى
وتمشي إلى شَجَنٍ قاتمٍ ... رهيبِ الكونِ سحيقِ الهُوى
عييتُ بحبِّيَ لَمَّا استفَاضَ ... وذُقْتُ لذاذَتهُ مذْ مضى
وعشتُ بفرحتهِ حالما ... أطوفُ بأوهامهِ والرُّؤَى
فيالكَ من جَدولٍ هانئٍ ... إذا شَربَ القلْبُ منه ارتوى
فواردُهُ لا يُحسُّ الشقاَء ... وراشفُهُ لا يذوق الصَّدى
ويا رُبَّ واهٍ براهُ الهزال ... ترشَّفَ أمواهَهُ فاشتفى
وسكران من كأسِ هذا الزَّمان ... تنشَّقَ نافحه فانتشى
تموجُ الغُيوبُ بأعطافه ... ويطفحُ في حافتهِ الجَدَا

خلاَ منْ منا كدِ هذي الحياةِ ... ومن رتقِ جرعتها والقذى
يُعنِّى فيهتزُّ هذا الوجودُ ... ويشدو فيطربُ هذا الوَرَى
أُحِبُّ السماَء ولكنما ... يدافعني عنْ هواي الثرى
هي الأرض مهدى أتى شردْ ... ت وحنّقْت في الكائنات العلى
ولكنَّ روحي مِلْكُ الخلودِ ... ورهن البقاءِ وخذن السَّنا
أنور العطار

القصص

من أساطير الإغريق

بَنْدُورَا وسرقة النارُ المقدسة

للأستاذ دريني خشبة

(هدية الآلهة إلى الآنسات في جميع العصور!!)

توزَّعَ الآلهة تعمير الكون، فكانت الأرض من نصيب بروميثيوس بن يابيتوس، أحد ذراري التيتان العمالقة، الذين حبسهم أبوهم خشية جبروتهم ومخافة بأسهم. . .

وطفق بروميثيوس يفكر ويفكر، حتى بدا له أن يجعل في الأرض أناسيٌّ يخلقهم على صورِ الآلهة، فاستعان أخاه أبيمثيوس فهداه إلى الحمأ المسنون، أو الطينة البشرية، فخلقا منها الإنسان الأول، وذهبا إلى إيروس فنفخ فيه من روحه؛ التي هي الحياة؛ وقصدا إلى فنفثت فيه نفثتين، هما النَّفس والعقل.

وخلق بروميثيوس رجالاً كثيرين على هيئة آدم الأول، وجلس على أكمة عالية يشرف على عبادة الصالحين!! ولشد ما كانت الكبرياء تشيع في أعطافه، كلما نظر فوجدهم يتحدثون بآلائه، ويسجدون له، حتى فكَّر في نعمة أخرى يسبغها عليهم فتكون أجزل النعم!

(النار! النار المقدسة تنفعهم وتُلين لهم حديد الحياة!).

فلا ذهب إلى الأولمب ولأتحسَّس؛ فإذا استطعت أن أتغفَّلَ زيوس، فأني سارقٌ لهم (قبساً من ناره التي آثر بها نفسه على سائر العالمين!).

ومع أن بروميثيوس يعلم من أمر هذه النار ما يعلم، ومع أنه يعلم أنها محرمة على غير الآلهة، وأن كلَّ من استباحها لنفسه ممن عداهم تعرض لمقت الإله الأكبر ونكاله، فقد ذهب إلى الأولمب وتغفل زيوس، ودسَّ قبساً من النار في تضاعيف ثيابه، وعاد كالبرق إلى عباده المخلصين يقدم إليهم هديته التي سرقتها من أجواز السماء!.

ونظر زيوس من علياء الأولمب، فرأى النيران تتأجج هنا وهناك في أديم الأرض، ففطنا إلى السرقة المنكرة، وانقذفت من فمه المزبد رعود الغضب!

وارتجف الأولمب، وزُلزلت السماء، وارتعدت فرائض الآلهة، وأمر الإله الأكبر فأحضر بروميثيوس مُكبلاً بالأصفاد، مُلطخاً بالوحل؛ وعبثاً حاول الدفاع عن نفسه؛ ثم حُكم عليه فسيق إلى جبال القوقاز، حيث غُلَّ عنقه الضخم وذراعاه الكبيرتان، وفخذاه اللتان تزريان بفخذي فيل، في قنَّةٍ عالية. وسخَّر الإله الأكبر رُخَّا عظيم الجثة، حاد الأظافر، كبير المنسر، فذهب إلى حديث بروميثيوس، ينوشه، ويمزق جسمه، وينفذ أظافره ومنسره في أحشائه حتى تبلغ الكبد، فيهرأه ويطعمه حتى يأتي عليه، وينصرف إلى غد.

فإذا كان الليل، وهبّت الريح سجسجاً، التأمت جراحات الإله المسكين، وخلق له كبدٌ آخر؛ وينام حتى تشرق الشمس، فيعود الرخ ليبدأ ما انتهى منه أمس، وليأخذ في تعذيب بروميثيوس التعّس، إلى تغيب ذكاء!! وهكذا دواليك، أحقاباً وأحقاباً. . .

ويلبث الإله المنكود في هذا العذاب الطويل حتى يلقاه هرقل الجبار في أحد أسفار، فتثور الشفقة في قلبه، وينقض كالصاعقة على الرخ، ولا يتركه حتى تزهق روحه، بعد صراع عظيم، ثم يفك أغلال بروميثوس ويحرسه، حتى يقبل الليل فيشفى مما يه، ويسير بين يديه حتى يبلغ أوطانه، حيث عباده الصالحون!!

وفرح الناس بإلههم وسروا بقائه، وقدروا ما ألقى في سبيلهم ومن أجل سعادتهم فعنوا له وأخبتوا.

وكانوا يحيون في بَلهنيةٍ، غارِّين في طراوة من العيش، وسعةٍ من الرزق، هواؤهم رخاء وماؤهم صفاء، لا يشكون متربةً ولا يعرفون ضنكاً، ولا تلم بهم ملمة من مرض أو رجسٍ.

ولم يعرفوا الموت، ولم يدروا ما البكاء، فكأنما كانت حياتهم طوبى، ونعيماً مقيماً.
وعلم زيوس ما كان من أمر بروميثيوس، وفرح الناس بأوبته إليهم، فغيظ غيظاً شديداً، وآلى ليكيدن لهم كيداً، وليرسلن عليهم من مكره ما لا طاقة لهم به. . .
ونظر زيوس فرأى أنهم مخلوقون على صور الآلهة، ولكنهم كلهم ذكران، (ومن الآلهة أنثيات، فلم لا أصنع لهم أنثى تذهب بحرثهم ونسلهم، إن صح أن يكون لهم نسل؟. . .)
وأرسل دعوةً عامة إلى جميع الآلهة فسعت إليه من كلِّ فج عميق، وأخذ يحدثهم حديث بروميثيوس، ثم أخبرهم أنه يريدهم أن يخلقوا له أنثى جميلةً يودع فيها كلٌّ منهم سراً من أسراره: (لأنني سأرسلها هدية إلى هذا المجنون بروميثيوس ليشهد بعينيه ماذا تصنع بعبادة الذين خلق. . .).
واقترح الآلهة أن يفرغ هيفستوس إله النار والفن، وابن زيوس، إلى ابتداع هذه الأنثى، فسوّاها من نفس الحمأ الذي خلق منه الإنسان، وجاءت آيةً من آيات الحسن، رقيقة كأنها صُوِّرت لتكون فتنة الأولمب.
واحتملها إلى زيوس، وأقبل الآلهة بنفثوس فيها أسرارهم، ويستودعون نفحاتهم؛ فهذه فينوس تهها من جمالها، وحيرا من ثرثرتها، ومينرفا من حكمتها، ولاتونا من استيحاشها، وديانا من رشاقتها، وكيوبيد من حبه، وأبوللو من شعره وموسيقاه. . .
أما هرمز الخبيث، فقد أنتظر واستأنى حتى فرغ الآلهة من إسباغ آلائهم، ثم تقدم، وملء وجهه ضحكةٌ ساخرة، فأودع الحواء قلبَ كلبٍ، ونفس لص، وعقل ثعلب!!. .
ثم نفخ فيها زيوس من روحه، فذبت الحياة في أعطافها، ونظرت حولها فأبصرت الآلهة مشدوهين، مأخوذين بسحر جمالها، فولَّت مدبرةً، ولكن إلى غير مهرب!
وشرع الآلهة يتخيرون لها الأسماء، ثم سماها ربها (يندروا.) وأومأ إلى هرمز فاحتملها، كالطفلة المدللة، وذهب بها، هديةً غاليةً من السماء إلى التعس بروميثيوس، الذي رفضها غير شاكر وأباها غير حميد!!
وكان لديه أخوه أبيمثيوس فكادت نفسه تذهب شعاعاً حين أبصر هذه الغادة الهيفاء، يرفضها أخوه هدية من السماء! وتقدم هو فضرع إلى هرمز أن ينزل عنها، وأن يغفر لأخيه حماقته، وقلة بصره، وكفرانه الذي لا كفران بعده!!
ومع ذلك فقد نصح بروميثيوس لأخيه ألا يقبل هذه الهبة من الآلهة، وأن يرفضها، غير مشكورة، كما رفضتها:
- (إنها فتنة يا أخي، بل هي خدعة من خدع السماء حريٌّ ألا تنطلي علينا!).
- خدعة؟! خدعة ماذا يا أخي؟ خذ عينيّ فابصر بهما، وقلبي فضحِّه على مذبح هواها. . . ألا ترى إلى عينيها النجلاوين، وشفتها القرمزيتين، وثدييها الناهدتيين، وفخذيها المملؤتين، وساقيها الجميلتين؟. . .
- (بل بحبي عيناي يا أخي! إني أستشفُّ بهما فتوناً نفثته الآلهة في كلِّ جوارحها، فحذار! إنها ستكون خراب هؤلاء المساكين الذين صنعتهم يداي!!).
- (حسبك يا أخي وحسبي! هي لي من دونك، فتوّل عنا أودعْ!).
وعاشت بندورا مع ابيمثيوس كما يعيش الآلهة في الفردوس. . . حياة كلها مرح، وأياماً جميعها لذة وإيناس، يخلو إليها فتمتزج روحهما، وتختلط نفساهما، وتكون هي فتنة زوجها المسكين؛ تأسر لبه بموسيقاها الحنون: وتسحره بالرزقة النائمة في عينيها، وتبهره بكلماتها الغوالي في الحكمة والموعظة الحسنة!!
وتركهما زيوس حيناً من الدهر ينهلان خمر الحياة، ويعبان من عسلها المصفى؛ ثم دعا إليه هرمز، فحمله صندوقاً ثميناً، وأنفذه به إليهما. . . (. . . وإياك أن تبعث به في الطريق، فأنه هديتي إلى بندورا، وفيه انتقامي من عباد بروميثيوس؛ فسر به إلى الفتاة، وأوصها به خيراً. . .).
وكان الزوجان يتراقصان على الحشيش الأخضر أمام قصرها المنيف حين أقبل هرمز بالصندوق، يتعثر في مشيته، وقد بدت وثاء السفر عليه، وعلق الثرى بأسماله البالية، فلفتت بندورا نظر زوجها إليه، وذهبا سويه للقائه والاحتفاء به؛ لكن هرمز أبى إلا أن يذهب إلى القصر، ليسلم الهدية، وليبلغ رسالة السماء. فسار الجميع حتى كانوا في المخدع الوثير وجلس هرمز يستريح قليلاً، ثم قال:
(هاك يا بندورا العزيزة هدية الإله الكريم إليك، خصك بها من دون براياه أجمعين. وأحسبك في غني عن أن أصفها لك. فها هي أمامك تتكلم عن نفسها. ولكن الإله

.(الأكبر يشترط ألا تفتحها إلا بإذنه، فلا تتعجلي، حتى يأتيك أمره. وإنه لقريب
ونهض هرمز، وسلم وانصرف، وما تزال بوجهه تلك الضحكة الساخرة التي كانت عليه
. . .يوم استودع بندورا قلب الكلب، ونفس اللص، وعقل الثعلب
. . .وكان ابيمثيوس قد قدم إليه من ثمر حديقته الشيء الكثير، ولكنه لم يمد يده إليه
وكان الليل قد قارب أن ينتصف، وكان الكري قد لعب بطرفها الوسنان، فاستلقت
.على أريكتها الحريرية، وغرقت في سبات عميق، ممتلئ بأحلى الرؤى، وأطيب الأحلام
وخيِّل إليها أن في الصندوق أرواحاً سحرية تكلمها، وتنسج الأماني العذاب لها؛ وأن دينا
بأكملها تتفتح وتزهر حولها. . . فلما نهضت من نومها من في بكرة اليوم التالي،
أحست أن أملا كبيراً يملأ قلبها، وأن رغبة ملحةً تسوقها إلى الصندوق كلما ابتعدت
عنه؛ وحدثت زوجها بما تجد، فعللها هو الآخر بالآمال، وأخذ يهدئ من روعها الذي بدا
اضطرابه بأحلى
مظاهره. . . ودعاها إلى نزهة خلوية فأقسمت لا تغادر البيت، بل لا تغادر الغرفة التي
تضم الصندوق الصغير، (الذي أحس أنه مغلق على قلبي ونفسي جميعاً. . .!) فرثى
لها، وانطلق هو، لأول مرة منذ عرفها، وحده، ينام إخوانه الآلة ويلاعبهم؛ وبندورا،
.وحدها في مخدعها، تقلب الصندوق العجيب، وتتحدث إليه، كأنه يسمع ويرى
وغبرت أيام وهي في حال من الهم لم تعهدها من قبل، وكانت تجلس وحدها حزينة
كاسفة، تنتظر بشير الآلهة الذي يأذن لها بفتح الصندوق. . . ولكن هيهات!. . . لقد طال
ما انتظرت حتى نفذ صبرها وعيل، ونهضت إلى الصندوق تقلبه، وتقلبه، وهي مأخوذة
. .بجمال صنعه، ودقة زخرفته، وهذا الغطاء المزركش الذي انغلق على آمالها وأحلامها
.
وحاولت أن تفتحه، ولو أغضبت بذلك السماء ومن فيها من آلهةٍ وأرباب، ولكنها فشلت
غير مرة، وضاقت بها الدنيا بما رحبت؛ فدفعت بالصندوق دفعة قوية على أديم الغرفة،
فانصدع، ولما تناولته ثانية، هالها أن وجدت بعض أربطة الغطاء قد تقطعت، ثم هالها
أكثر أن تسمع هذه الأصوات، منطلقة من الداخل:
بندورا! بندورا! بندورا العزيزة! حنانيك! خلصينا من هذا السجن السحيق! إننا نتعذب)
هنا. . . أنقذينا يا بندورا فقد ضقنا بما نحن فيه. . . إننا لم نصنع شيئاً حتى نرسف في
.(. . .هذا الحيز الضيق
. . .ماذا؟)
ما الذي يتحدث هكذا في هذا الصندوق. . .؟ إنها أصوات حزينة ملكومة، وإني لابد
!!منقذتها! ماذا أنتظر؟ أمر السماء! هذا لا يهم
(!. . .أنفتح أيها الغطاء
وضغطت الصندوق ضغطة هائلة فانفتح الغطاء؛ وسرعان ما انطلقت خفافيش سوداء
ذات مخالب حادة فملأت هواء الغرفة، وأهوت على بندورا المسكينة تعضها وتجرح
بدنها الغض، وكلما وخزها خفاش لعين، انطلق قائلاً: (أنا المرض!) ويقول آخر: (أنا
الفقر!) ويقول ثالث: (أنا الجوع!). ويقول رابع: (أنا البخل!). وخامس: (أنا القحط).
وسادس: (أنا النفاق!) وسابع. . وثامن. . . إلى آخر الرذائل التي تكظ الحياة إلى يومنا
. . .!هذا؟
وانطلقت الخفافيش من الغرفة إلى القصر، فجرّحت الخدم والخول ثم انطلقت إلى
.الحديقة
والى الطريق حيث كان ابيمثيوس وأقرانه الآلهة، فأوسعتهم عضاً وقضماً وتجريحاً.
وتركتهم يترنحون من الألم، وذهبت تفسد في الأرض، وتنتقم لزيوس الجبار من عباد
بروميثيوس المخلصين، فكثرت الآلام، وعم الفقر، وامتلأت الأرض رذائل
. . .!!وأشجاناً
وكانت بندورا قد أسرعت إلى الصندوق فأغلقته، حين رأت من أمر هذه الخفافيش ما
.رأت
!!ولكن: وا أسفاه
إنها حين أغلقت الصندوق، حبست فيه الروح الطيب الوحيد، الذي خبأه فيه زيوس. . .
.ألا وهو: (روح الأمل!)
وانبطحت بندورا على أرض الغرفة تئن وتتوجع، وتشكو البرح الذي ألم بها، حتى أقبل

. . .ابيمثيوس فانبطح إلى جانبها يشكو شكاتها، ويتألم آلامها
. . .ولبثا يبكيان
وكلما حدثته بندورا حديث الصندوق، تسخط الإله التعس وتبرم، وحدجها بنظرة فاترة، قائلاً: (نصحتك فلم تصيخي. . .!).
وسمعا صوتاً ضعيفاً في الصندوق يقول: (بندورا! بندورا! لماذا حبستني هنا وحدي، وأنا روح الخير. . . افتحي. . . افتحي. . . إني سأشفيك من جراحك، وآسو آلامك وأوجاعك. . . . افتحي. . .)
ولكن بندورا كانت في شغل بآلامها فلم تنهض ولم تجب، ولكن ابيمثيوس تناول الصندوق ففتح غطاءه، فانطلق فراش أبيض جميل، وهو روح الأمل، ما فتئ يرف بكل جرح من جراحات الزوج حتى شفاها جميعاً؛ ثم شفى جراح الزوجة كذلك، وانطلق إلى عباد بروميثيوس يشفيهم ويأسو جراحهم؛ وما فتئ إلى اليوم، هذا الفراش الأبيض الجميل، روح الأمل، يشفي أوجاع المحزونين والملكومين.
بورك الفراش الأبيض!
ولا بوركت خفافيشك السوداء يا بندورا!
دريني خشبه
البريد الأدبيّ
الذكرى الخمسون لفكتور هوجو
في 22 مايو سنة 1885 توفي فيكتور هوجو الشاعر والكاتب الفرنسي الأشهر، ومحيى روح المذهب الابتداعي (الرومانتزم) في الأدب الفرنسي في أواخر القرن الماضي؛ وكانت الدوائر الأدبية الفرنسية تستعد منذ حين للاحتفال بمرور الذكرى الخمسين على وفاته؛ وقد بدأت هذه الاحتفالات التذكارية منذ 19 مايو الجاري في باريس على أن تستمر شهراً يسمى بشهر (فكتور هوجو)؛ وكانت فاتحة هذه الاحتفالات في قصر (التريكاديرو) الشهير، وهنالك اجتمع جمهور كبير من الكتّاب والشعراء والأساتذة والطلبة للاحتفاء بذكرى الشاعر الأشهر؛ وفي اليوم التالي، أعني في يوم 20 منه، أفتتح في المكتبة الوطنية معرض كبير خاص بهوجو، وعرض فيه كلّ ما يتعلق بالشاعر من الآثار والذكريات من مخطوطات ورسائل بخطه، وصور له في بعض أدوار حياته لم تنشر من قبل، وصورة رائعة (لجان فالجان) بطل (البؤساء) وهو أمام محكمة الجنايات، وصورة لهوجو وهو على سرير موته، وعدة رسوم مختلفة من رسم الشاعر نفسه، إذ المأثور عنه أنه كان يلهو بالرسم عن التفكير وقت الكتابة، وغير ذلك من التحف الفنية التي احتشدت الجماهير لرؤيتها.
وفي يوم 22 مايو، وهو اليوم الذي توفي في مثله الشاعر منذ خمسين عاماً افتتحت الاحتفالات الرسمية بحفلة أقيمت في (البانثيون) (مدفن العظماء)، حيث ترقد رفات الشاعر، شهدها رئيس الجمهورية ووزير المعارف، وأعضاء الأكاديمية، وعدد كبير من الكتّاب والشعراء والفنانين، وألقيت الخطب والتحيات المناسبة.
وهذا تستمر الاحتفالات الرسمية وغير الرسمية مدى شهر كامل، ومنها احتفال في مجلس الشيوخ، واحتفالات في دار (الكوميدي فرانسيز) تشمل تمثيل بعض قطع الشاعر مثل (هرماني) و (ماريون دي لورم)، واحتفال آخر يقام في المنزل الأثري الذي كان يقيم فيه الشاعر في ميدان (اثموج)، واحتفالات رسمية أخرى في مدينة (بيزانصون) مسقط رأسه.
وسنعود في فرصة أخرى إلى ترجمة الشاعر ودرس آثاره.
عيد الفن في روسيا
طغت الثورة السياسية والاجتماعية التي شهرها البلاشفة على المجتمع القديم على كلّ شيء
في حياة روسيا القديمة؛ ولكن شيئاً واحداً لم يتأثر بهذه الحرب الهدامة، هو الفن، فالفن ما زال في روسيا السوفيتية محتفظاً بتراثه القديم، يتطور ويتقدم في جو سلمي هادئ، بل لقد كان الفن من نواحي الحياة التي شملتها الثورة البلشفية بالعطف والحماية، فأسبغت عليه حكومة الثورة كلّ تشجيع ومؤازرة؛ وقد لقي الفن في ظل البلشفية عهده الزاهر؛ وشمل هذا التشجيع كلّ ضروب الفن الجميل من التصوير والنحت والموسيقى والمسرح، وغدت موسكو كعبة الفن الرفيع وملاذاً

لأقطاب الفنانين؛ ولكن لننجراد عاصمة روسيا القديمة ما زالت كما كانت في عهد القياصرة ملاذاً للفنون، وما زالت عاصمة روسيا الفنية.

وقد رأت حكومة موسكو أخيراً أن تقيم عيداً عظيماً للفن في لننجراد، وسيبدأ هذا العيد من أول يونيه القادم ويستمر إلى العاشر منه، وستقام حفلات مسرحية باذخة ينظمها معهد الموسيقى الشهير في لننجراد في يومي أول ورابع يونيه، وتعزف فيها روائع الأوبرات والقطع الخالدة، وتمثل عدة روايات شهيرة روسية وأجنبية، من شكسبير إلى سكوثارفسكي وغيرهم. وفي نفس الوقت تفتح متاحف لننجراد الشهيرة أبوابها للزائرين، وتعرض أبدع الأشرطة السينمائية التي أخرجها الفن السوفيتي، وقد منحت السلطات السوفيتية تسهيلات عظيمة للزائرين في أجور النقل وغيرها.

والمفهوم أن هذا العيد إذا انتهى بنجاح، فأن حكومة موسكو تنوي أن تجعله عيداً دورياً، وأن تقيم للفن في لننجراد مواسم عظيمة أسوة بمدن الفن العظيمة الأخرى، مثل سالزبورج في النمسا، وبايرويت في ألمانيا وغيرهما.

كتاب عن نابوليون الثاني

صدر أخيراً كتاب عن (نابوليون الثاني) بقلم الكاتب الفرنسي رنيه درفيل. ونابوليون الثاني هو كما نعلم ابن نابوليون الأول من زوجته الثانية ماري لويز، وهو المعروف بملك رومه، (والنسر الصغير) وأخيراً بدوق ريخشتات. وليس في حياة هذا الأمير الذي عاش وتوفي في ظروف مؤلمة ما يستحق الذكر من الوجهة التاريخية؛ فقد أخذته والدته ماري لويز طفلاً إلى فينا، وهنالك ربي تربية نمسوية، واحتجزه البرنس ماترنيخ رئيس الحكومة النمسوية، وفرض عليه نوعاً من الحراسة، لكي يبقى رهينة بيد النمسا؛ وقطع في فينا حياة أليمة مؤثرة يكدر صفاءها السقم والمرض؛ ثم أصابه السل حدثاً، وبعثه إلى القبر في ربيع

الحياة؛ وكانت حياة (النسر الصغير) مأساة أثارت كثيراً من قريض الشعراء، وخيال القصيين؛ ولكن الاهتمام بتدوين حياته من الوجهة التاريخية لم يظهر إلا في العصر الأخير، حينما نشرت مذكرات (الدوق ريخشتات) (النسر) وكشفت عن كثير من دخائل هذه الحياة المؤثرة، وليس في كتاب رنيه درفيل جديد في حياة النسر الصغير، ولكنه من الكتب التاريخية القليلة التي دونت عن هذه الحياة.

الكولونيل لورنس

توفي في الأسبوع رجل يرتبط أسمه أشد الارتباط بتاريخ الثورة العربية، هو الكولونيل توماس لورنس، والذي يهمنا في هذا المقام هو ناحيته الأدبية، فقد كان لورنس أديباً ومستشرقاً وأثرياً معروفاً. وكان مولده سنة 1888 في كارنارفون شير (إنكلترا)، وتلقي تربية جامعية حسنة، وبدأ حياته العملية بالاشتغال بالتنقيب الأثري مع العلامة الشهير فلندرزبتري في مصر وسينا منذ سنة 1910، ولما نشبت الحرب الكبرى أرسلته السلطات البريطانية إلى القاهرة في سنة 1916 ليتصل بزعماء العرب، ويعمل معهم لتنظيم ثورة عربية على الترك، فسافر لورنس إلى الحجاز وقام بمهمته خير قيام، واشتغل بالتعاون مع الأمير فيصل (المرحوم الملك فيما بعد)؛ ونثر الأعطية على البدو، وجمع قوات لا بأس بها، وخرب مواصلات الترك، ومهد الظفر لقوات الماريشال اللنبي، وسقوط فلسطين وسوريا في يد الإنكليز. ولما انتهت الحرب تظاهر لورنس بالعطف على العرب ومشاركتهم في السخط على السياسة الإنجليزية لأنها نكثت بوعودها للعرب، ونزل عن ألقابه ورتبه العسكرية، واشتغل عاملاً بسيطاً بالطيران المدني باسم جديد هو (شو)؛ ومن ثم كان اللقب الذي خلع عليه من بعض العرب الحسني الظن وهو (صديق العرب).

والواقع أن لورنس لم يكن صديقاً للعرب، وإنما كان طليعة الاستعمار البريطاني وأداته النافذة في جزيرة العرب، وهو الذي مهد لتمكين النير الإنكليزي منها باسم العمل لتنظيم الثورة العربية وإنشاء دولة عربية مستقلة؛ وكان كمعظم أقرانه طلائع الاستعمار يستتر بالأثواب والمظاهر المعروفة؛ حب الإسلام والعروبة، والاستشراق، والعطف على مجد العرب.

وكان لورنس مع ذلك مستشرقاً أدبياً، وقد ترك عدة آثار قيمة، منها (سبعة عمد من الحكمة)

وهي دراسات وصور وصفية للقاهرة وإزمير واستنبول وحلب ودمشق والمدينة. والثورة في الصحراء وهي قصة بديعة لأدوار الثورة العربية، وفيها يكشف عن كثير من أسرارها.

وفاة كاتب نمسوي كبير

من أنباء النمسا الأخيرة أن الكاتب القصصي النمسوي الكبير أميل أرثل قد توفي في جرائر في الثالثة والسبعين من عمره. وقد ولد أرثل في فينا وربى بها، ولكنه ذهب إلى جزائر منذ فتوته، وتولى هنالك إدارة مكتبة المدرسة العليا للفنون، وهنالك انقطع لدرس الأدب، وتوثقت صداقته مع الكاتب الشهير بيتر روزيجر وحلقته، وأصدر عدة كتب نقدية وقصص لها المقام الأول في الأدب النمساوي الحديث.

إحياء ذكرى المتنبي في الجامعة الأمريكية ببيروت

جاءنا من بيروت أن (جمعية العروة الوثقى) ستقيم في الجامعة الأمريكية حفلة لأحياء ذكرى المتنبي بمناسبة مرور ألف عام على وفاته، وذلك في الساعة الخامسة بعد ظهر الأحد الموافق 2 يونيو 1935 في القاعة الكبرى من الجامعة.

وسيشترك في الحفلة أكثر الأقطار العربية، فيتكلم فيها الدكتور حسين هيكل عن (مصر)، والأستاذ معروف الرصافي عن (العراق)، والأستاذ معروف طوقان عن (فلسطين)، وفؤاد باشا الخطيب عن (شرق الأردن)، والأستاذ الكيالي عن (حلب)، والأستاذ شفيق جبري عن (دمشق)، والأستاذ فؤاد البستاني، وأنيس المقدسي عن (بيروت).

تنقية اللغة الإيرانية من الألفاظ الدخيلة

عقد المؤتمر اللغوي في طهران ثلاث جلسات إلى الآن، وقد وضع كلمات إيرانية بدلاً من كلمات عربية وأجنبية، وسيذيعها في الصحف بعد شهر لتصقلها الألسنة والأقلام، والمعروف في الأندية العلمية أن المؤتمر متردد في ترك الحروف العربية إلى حروف أخرى، ففريق من أعضائه يريد استعمال البهلوية، وآخرون يريدون الحروف اللاتينية، ويظهر أن الشاه لا يرغب في إملاء إرادته في هذا الشأن ويفضل أن يترك البت في حل هذه المسألة إلى رجال العلم والأدب.

اكتشاف أثر مصري في إنكلترا

كتب أحد المراسلين إلى جريدة الديلي تلغراف يقول إن المتحف البريطاني تمكن من الحصول على تمثال من الرخام الأسود المصري بدون رأس يرجع إلى عهد البطالسة، ولكن لهذا التمثال أهمية مخصوصة لأنه وجد في هايس من مدلكس في إنكلترا على أعماق 8 أقدام أو 9، حيث كان مدفوناً بين الحصى تحت طبقة كثيفة من الصلصال. وقد قيل في تعليل وجوده هناك إن بعض محبي الآثار ابتاعه ثم رماه غير حافل به. لكن العمق الشديد المدفون فيه ينقض هذا التعليل.

وقد سبق أن وجدت آثار مصرية صغيرة متعددة في إنكلترا ولكن لم يوجد حتى الآن أثر بهذا الحجم الضخم الذي يستحيل وروده إلى إنكلترا بالطرق التجارية القديمة.

مسكوكات عربية قديمة ضربت في عهد الدولتين الأموية والعباسية

حصلت إدارة المتحف العراقي قبل مدة على عدد من المسكوكات القديمة كانت في حيازة بعض الرعاة، وهذه المسكوكات وجدت في تلول كشكوبل علي باشا التابعة إلى ناحية قره تبه، وبعد دراسة المتحف لها تبين أنها مسكوكات عربية (ما عدا قطعة واحدة ساسانية) وأن تواريخ هذه المسكوكات تختلف ما بين عام 122و171 للهجرة، وفيما يلي تواريخ هذه النقود:

أربع قطع باسم هشام بن عبد الملك، وضرب واسط، سنة 122و124هـ، قطعتان باسم الوليد الثاني بن يزيد الثاني، ضرب واسط، سنة 125هـ، ثلاث قطع بأسم إبراهيم الأول بن الوليد الأول، ضرب واسط سنة 126هـ، أربع قطع باسم مروان الثاني بن محمد، واحدة في البصرة سنة 128هـ، والباقي واسط سنة 129و130هـ، ست قطع باسم السفاح، أربع من ضرب الكوفة في 132و123و136هـ واثنان من ضرب البصرة في 133و135هـ، أربعون قطعة باسم أبي جعفر المنصور. إحدى عشرة من ضرب الكوفة في 137، 129، 141، 1242، 144، 147هـ، وخمس من ضرب البصرة في 137، 139، 140، 145هـ، واثنتان وعشرون من ضرب مدينة السلام في 150، 151،

هـ، واثنتان من ضرب المحمدية في 150،158، 157، 156، 155، 154، 152، 154هـ، ستة وأربعون باسم المهدي، ثلاثون من ضرب مدينة السلام في 159، 160، 161، 162، 163، 164، 165، 166، 167، 168هـ، وثمان من ضرب المحمدية في 160، 161، 165، 166، 168، 169هـ، وثلاث من ضرب البصرة في 160، 162، 166هـ، وثلاث من ضرب حبي في 162، وواحدة من ضرب كرمان في 196هـ، وواحدة من ضرب المنصورية 161هـ، باسم محمد بن سليمان والي البصرة. قطعة واحدة باسم الأمير هارون في عهد الهادي، من ضرب اليمامة في 170هـ، قطعة واحدة باسم الخليفة هارون الرشيد، من ضرب المحمدية في 171هـ قطعة واحدة باسم الأمير الأمين في عهد هارون الرشيد، من ضرب المحمدية سنة 171هـ.

الكتب

الأوشال

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

بين يدي الآن الديوان الخامس من شعر الأستاذ الزهاوي الذي فاضت به قريحته الخصبة في الأيام القريبة، والذي شاء له تواضعه أن يسميه (الأوشال) بينما تزخر صفحاته التي تربو على الثلاثمائة صفحة بالقصائد الغر في شتى الموضوعات ومختلف الفنون.

قلب صفحات هذا الديوان يتولك الدهش من ذلك النشاط الذهني العجيب، إذ ينتقل بك الزهاوي من العراق إلى مصر، ومن مصر إلى سوريا، تارة صادحًا وتارة نائحًا، وطوراً حافزاً إلى المجد قومه، أو ناعياً عليهم تقاعدهم، وأحياناً تراه يرسم لهم سبل النجاح، ويدلهم على ما يرقي بهم إلى العلى، هذا ولا تنسى نزعته الفلسفية وصفاء ذهنه إذا اتجه في شعره إلى وصف الحياة وآلامها وما وراء الحياة من عالم الغيب، والنفس البشرية وما ركب في طباعها من ميول، والمجتمع الإنساني وما يجول فيه من نزعات أو يختلج من مشاعر. وانك لتجد الزهاوي إلى جانب ذلك يضع الأناشيد ويحكم صوغها، ثم تراه يعتمد إلى الوصف فيأتي به متنوعاً يوائم تقدم العصر ويسايره مستحدثاً، فهو يصف لك كمنجة الشوا، وألحان عبد الوهاب، وترانيم أم كلثوم، ويصف لك جمال الطبيعة في العراق أرضه وسمائه. أما مرايته فيتدفق فيها الشعر تدفقاً مدهشاً، فهو لا يكتفي مثلاً إلا بقصيدتين في رثاء شوقي، ثم هو يرثي أديسون ويتفجع على العلم من بعده، بله أعلام الشرق حديثهم وقديمهم. وجملة القول أن الزهاوي على الرغم من شيخوخته فياض المعاني، تواتيه قريحته في سهولة ويسر بكل ما يختلج في نفسه أو يجول في رأسه، فهو بحق فتى الشيوخ، وما أظنك لو طلعت على ديوانه غفلاً من أسمه كنت تصدق أنه ديوان شاعر اجتاز مرحلة الشباب.

أما عن شعره، فيكفي أن نقول هنا لضيق المجال، إن آثار الزهاوي قد أصبحت في ذاتها ناحية هامة من نواحي الحركة الفكرية العصرية، وسوف يكون لها فصل مستقل في تاريخ الأدب المعاصر، وما أظنني أستطيع أن أوفى شعر هذا الديوان ما هو جدير به من الدرس والتحليل في عجلة كهذه، ولعلي أعود تلك الدراسة في فرصة قريبة، مكتفياً الآن بتقديم

تحياتي إلى الشاعر الكبير.

الخفيف

جولة أثرية في بعض البلاد الشامية

بقلم أحمد وصفي زكريا

شاء لي حسن الحظ أن أهبط يوماً دار صديقي المصور الفنان النابغ الأستاذ شعبان زكي بالمطرية، فلم تكد عيني تقع من الجدر على ما زينها به صاحبها من آيات الفن الرائعة حتى أحسست في أعماق النفس غبطة ونشوة، وكأنما سمعت حينئذ صوتاً يجلجل في أغوار الضمير يصيح بي: مصر العزيزة كنانة الله في أرضه!! ومبعث هذا الصوت وذلك الإحساس هو أني رأيت بلادي داخل الأطر وقد ألبسها الفنان زخرفاً وزينة لم يكن لي بهما عهد من قبل. . . قال لي الأستاذ: ذلك مبدئي وهو أن يأخذ الفنان بأيدي الناس حتى يضع أصابعهم على مواضع الجمال من بلادهم، فأن وفق كانت لنا وطنية تشتعل في الصدور، فأصل الوطنية حب الوطن، وباعث حب الوطن إحساس بجماله. قلت: والله ما أجمل أن يكون هذا وسيلة الفنون جميعاً، تصويراً

وكتابة وشعراً وموسيقى.
ومنذ ذلك اليوم رسخ في نفسي مذهب مصورنا الفنان، وتمنيت أ، يكون لنا بين الكتّاب والشعراء من يضعون لنا بلادنا تحت أبصارنا وأسماعنا تستهوي الألباب فتدفع الأفئدة إلى الفتنة والهيام ثم إلى العبادة والتفاني
ذكرت ذلك كله عندما أخذت أتصفح هذا الكتاب القيم الجليل، الذي نقدمه الآن إلى القراء، فهو كما ترى من عنوانه جولة في بعض البلاد الشامية، وصفت وصفاً دقيقاً بارعاً، فلا تقرأ من الكتاب جزءاً إلا وقد ارتسمت في ذهنك له صورة قوية رائعة كأنما جاءتك من رؤية العين، بل إن الكثرة الغالبة من الأعين لتمر مر الكرام على أغلب ما تقع عليه مما لا يفوت الأستاذ المؤلف منه شيء؛ فما أحوجنا في الحق إلى مطالعة بلادنا بأقلام الكاتبين، إذ الحقيقة المرة هي ما يصفها المؤلف في مقدمة الكتاب بقوله: (فقد كنت وأنا أتوغل في هذه الأبحاث أرى بكثير من الأسف أن جل مثقفينا ومفكرينا لا يعرفون من شؤون مساقط رؤوسهم وجغرافيتها وتاريخها القديمين والحديثين ولا من بقاعها ومصانعها الأثرية ومفاخرها التليدة ومدافن رجالاتها البارزة وتراجمهم قدراً كافياً. . .).
وقد رجع المؤلف فضلاً عن المشاهدة إلى عشرات من أوثق المصادر، وإن نظرة عجلى لتكفي للدلالة على ذلك المجهود الجبار الذي أنفقه الأستاذ المؤلف في هذا السفر الجليل:
(ومعظم هذه الأوصاف مما رأيته بعيني وتحققته بنفسي أو بالوساطة الوثيقة على عسرة نواله، أو مما عثرت عليه فيما ظفرت به من الكتب الجغرافية والتاريخية والرحلات القديمة والحديثة العربية والتركية والإفرنجية على تفرقة في تضاعيف السطور. فجاء الكتاب وافياً على ما أظن ببعض حاجة من يقدر هذه الأبحاث قدرها ويعرف مبلغ التعب والنشب اللذين تتطلبهما. . .).
الحق الذي لا ريب فيه أنه كتاب تفتقر إليه المكتبة العربية افتقاراً شديداً، وإننا لننتهز الفرصة لنتقدم مخلصين إلى المؤلف بكل إعجاب وتقدير.
ويقع الكتاب في نيف وأربعمائة صفحة من القطع المتوسط، وهو فوق ذلك كله أنيق طبعاً وورقاً وذوقاً.
زكي نجيب محمود
شرح ديوان علقمة الفحل
- عمل السيد أحمد صقر خاتم النبيين -
تأليف عبد الغفار الجيار
أما شرح ديوان علقمة الفحل فهو عمل أدبي أضطلع به شاب ناشئ هو الأديب سيد أحمد صقر من طلاب القسم الثانوي بالجامعة الأزهرية، فأخرج لنا ديوان علقمة في طبعة أنيقة تقع في ثمانين صفحة من القطع الكبير، ولقد صدره بمقدمة جيدة في حياة علقمة ورحلته إلى الشام وآراء الأدباء في شعره، ثم قام بشكل شعره وضبطه، وشرح مفرداته في ذيل كلّ صفحة، ولعل اختياره علقمة دون سواه راجع إلى شغفه بشعره، فهو يحدثنا أنه (طحابه في علقمة قلب نابض كله صوغ قريضة وجشمه تبيان غريبة فشرع ينقب درره المتناثرة حتى جمعها ونظمها في هذا العقد).
وأنا مع شأني على نشاطه الأدبي أحب أن أصارحه بأنني لا أميل كثيراً إلى هذا النوع من الشرح الذي يقف عند المعاجم والإتيان بالمرادفات، وخير ما يعمله الأديب في رأيي وبخاصة إذا كانت تحدوه عاطفة الحب والإعجاب كما هو الحال في موقف صاحبنا من علقمة؛ أن يبين لنا جمال شعر الشاعر ومقدرته على التعبير عما في نفسه ومقدار ما في شعره من قوة وعذوبة، وبذلك يكون لعمله من القيمة أكثر مما لو أقتصر على شرح المفردات، على أنها باكورة طيبة أكبر ظني أن ستعقبها خطوات موقفه في خدمة الأدب. كذلك يجدر بمثل أحمد صقر أن يضرب صفحاً من الآن عن تلك (التقاريظ) التي ذيل بها كتابه، والتي لا نرى فيها إلا غلواً يسئ إلى الحقيقة بقدر ما يسئ إلى الأدب.
يأتي بعد ذلك كتاب خاتم النبيين ويقع في نحو مائة وسبعين صفحة كبيرة طبع طبعاً جيداً على ورق متين، ويدور حول حياة النبي العربي محمد صلى الله عليه وسلم وشريعته، ولقد سار فيه على طريقة طريفة ارتحت إليها كثيراً، فبعد أن سرد في إيجاز

حياة الرسول، عمد إلى توضيح بعض المسائل والعقائد بأن يذكر الموضوع، ثم يعرض في إيجاز ما كان يدور في خلد العرب عنه، وبعد ذلك يأتي بالآيات أو الأحاديث التي تبين ما أحدثه الإسلام في تلك المسائل في ترتيب ووضوح يبعدان السأم عن كتابه، ولقد يضطر إلى شيء من الإفاضة فيأتي به بين حين وآخر تحت عنوان على الهامش، وقد استطاع بذلك أن يجتذب
القارئ إلى كثير من المسائل الدقيقة دون أن يشعره بملل أو يجعل للفتور سبيلاً إليه، وهي طريقة جديرة بالثناء والتقدير.
الخفيف
العدد 100 - بتاريخ: 03 - 06 - 1935
مأساة الآثار المصرية
اكتشفت أخيرا عدة حوادث جديدة تسربت فيها آثار مصرية إلى الخارج بطرق غير مشروعة، ومن ذلك مجموعات ثمينة من أوراق البردي المصري القديمة ظهرت في لندن وبرلين. ولتسرب آثارنا القديمة، أو بعبارة أخرى لسرقة آثارنا، حديث قديم مؤثر، فليس بين بلاد الأرض بلد نكب في آثاره كما نكبت مصر؛ ونكبتنا في آثارنا فادحة مضاعفة، لأن القدر شاء أن تتلقى مصر من أجيالها الغابرة المجيدة أقدم تراث أثري وأنفسه، ولأن هذا التراث مازال مطمع أنظار المتربصين من الهواة والعلماء. .
ليس بين متاحف العواصم الأوربية الكبرى متحف لا يضم بين أبهائه مجموعة كبيرة من آثارنا المصرية؛ ففي لندن وباريس ورومة وفينا وبرلين وغيرها أقسام خاصة للآثار المصرية، ومن هذه الأقسام ما لا يقل كثيرا في ضخامته وتنوعه عن متحفنا المصري؛ هذا عدا المتاحف الامريكية، وعدا المجموعات الخاصة التي تسربت إلى أيدي الهواة.
وإن المصري الذي يتاح له أن يزور هذه المتاحف ويرى كل هذا التراث المصري المنهوب يزين هذه الأبهاء الشاسعة كلها لتأخذه دهشة يمازجها الألم والحسرة لفداحة الخطب الذي نزل بتراثنا الأثرى.
ومن الحقائق المؤلمة أن تكون مصر هي أول مسؤول عن هذا الخطب، وأن تحمل فيه اكثر تبعة؛ فهي التي أسلمت تراثها الأثرى منذ أواخر القرن الماضي إلى طائفة من البعثات الأجنبية تعمل في أرضنا باسم العلم والاستكشاف الاثري، ولكنها لم تكن دائما حريصة على مبادئ العلم ونزاهة العلم، ولم تكن بالأخص جديرة دائما بالثقة التي وضعت فيها، فلم ترع حرمة الأمانة والذمة، بل كانت تتربص دائما لما تعثر عليه من آثارنا، فتهرب منه إلى بلادها بمختلف الوسائل ما استطاعت، ثم تعود فتتقسم ما تعف عنه من البقية الباقية مع حكومتنا وتفوز دائما في ذلك بالنصيب الأوفر.
ومصر هي التي وضعت لنفسها تلك اللائحة السخيفة التي تسمح للبعثات الأجنبية والمكتشفين الأجانب باقتسام آثارنا المكتشفة معنا؛ ومصر هي التي تقصر في حراسة مناطقها الأثرية؛ ومصر هي التي تسلم إدارة مصلحة الآثار والمتاحف المصرية إلى الأجانب، وهي التي لا تسمح لأولئك الأجانب بأن يعتقدوا أن هذا الأشراف على آثارنا ميراث لهم يدخل في منطقة نفوذهم وحقوقهم في بلادنا.
لقد وقعت حوادث مثيرة في انتهاب الآثار المصرية كانت حرية أن تنبه الحكومة المصرية إلى خطورة هذا التقصير المؤلم؛ منها حادث تمثال الملكة نفرتيتي الذي يعتبر اجمل قطعة آثار في مصر القديمة، والذي استطاع عالم ألماني أن يستلبه بوسائل غير شريفة مازالت وصمة في جبين العلم الألماني؛ ومنها حادث أوراق البردي التي وجدت منذ أعوام في الفيوم وتسربت إلى متحف برلين ووجد أنها من انفس ما وجد من أوراق البردي القديمة، لأنها تحتوي على نصوص كاملة لبعض كتب ماني الفيلسوف الفارسي وصاحب المذهب المشهور؛ ومنها حادث أوراق البردي الأخيرة التي ظهرت في لندن؛ ومنها كثير غير ذلك مما لم يذع أمره.
كل ذلك ونحن سكوت؛ نشهد هذا الانتهاب لآثارنا تحت ستار العلم والبحث لا ساخطين، ولكن مستسلمين؛ وإذا اهتمت حكومتنا فكل مظاهر اهتمامها أن تدعو لجنة الآثار لبحث الأمر، كما فعلت أخيرا؛ ثم يطوى أمر اللجنة وأمر الآثار.
الواقع أنها مأساة، ومأساة أليمة لا تحتمل السكوت بعد؛ فإذا كانت مصر تحرص على آثارها حقا، وإذا كانت تريد أن تعتبر بالحوادث وأن تعمل لصون تراثها الاثري، فعليها أن

تبادر قبل كل شيء إلى إلغاء هذه اللائحة الأثرية العتيقة التي تنص على اقتسام الآثار، وهو نص لا نظن له نظيرا في أي بلد متمدين يحرص على تراثه القومي، وان تستبدل بها لائحة جديدة تناسب روح العصر، وتكفل نصوصها المشددة صون الآثار المكتشفة وبقائها في مواطنها؛ وعليها بالأخص أن تحرم المباحث الأثرية على البعثات الأجنبية بعد أن أثبتت الحوادث منذ نصف قرن أن هذه البعثات هي أساس الشر، وأنها لم ترع حقوق الأمانة التي ألقيت إليها؛ ولتكن المباحث الأثرية في المستقبل مهمة حكومية أو مهمة جامعية تتولاها الحكومة أو الجامعة المصرية بمعاونة بعض الخبراء الأجانب الذين يعملون بإشراف الحكومة مدى حين، حتى يجيء الوقت الذي يستطيع الأخصائيون المصريون فيه أن يستأثروا بالبحث عن كنوز بلادهم، وهو فيما نعتقد غير بعيد.

وليترك ولاة الأمر تلك النظرية العتيقة التي ترى في الأجانب وحدهم الأهلية لإجراء المباحث الأثرية، فقد دلت الاكتشافات الأثرية الباهرة التي وفق إليها الأساتذة المصريون في منطقة الأهرام وفي بعض مناطق الوجه القبلي بإشراف الجامعة المصرية على خطأ هذه النظرية المجحفة، وعلى أن الشباب المصري إذا مهدت له سبيل الدرس والتخصص استطاع أن يضطلع بجلائل البحوث والمهام.

وليعمل ولاة الأمر أخيرا على انتزاع مصلحة الآثار والمتاحف المصرية من تلك الأيدي الأجنبية التي ما زال تراثنا يبدد في ظلها، ولتسلمها إلى الأيدي المصرية، فهي ابر بتراثها القومي واكفل بصونه وحمايته من عدوان الطامحين والمتربصين.

(ع)

الانتحار - 6

تتمة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال المسيب بن رافع: وانفض مجلس الشيخ، ودرجت بعد أعوام في عدة شهور من حمل المرأة، بلغت فيها أمور الناس مبلغها من خير الدنيا وشرها، مما أعرف وما لا اعرف؛ ودخلت البصرة وأنا ومجاهد الأزدي، نسمع الحسن ونأخذ عنه؛ فإنا لسائران يوما في سكة بني سمرة، إذ وافقنا الفتى صاحب النصرانية مقبلا علينا، وكنا فقدناه تلك المدة، فأسرع إليه مجاهد فالتزمه وقال: مرحباً مرحباً بذي نسب إلى القلب؛ وسلمت بعده وعانقته؛ ثم اقبلنا نسأله، فقلت له: ما كان آخر أو لك؟ قال مجاهد: بل ما كان آخر أولها هي؟

فضحك الرجل وقال: النصرانية تعني؟ قال: نعم. قال: آخرها من أولها كهذا مني؛ وأومأ إلى ظله في الأرض ممدودا مشبوحاً مختلطا غير متميز؛ كأنه ثوب منشور ليس فيه لابسه، وكنا في الساعة التي يصير فيها ظل كل شيء مثليه فهو مزج المسخ بالمسخ. .

قال مجاهد: ما أفظ جوابك وأثقله يا رجل؟ كأنك والله تاجر لا صلة له بالأشياء إلا من أثمانها؛ فنظره إلى فراهة الدبة من الدواب وإلى فراهة الجارية من الرقيق سواء: قال الرجل: فأنا والله تاجر، وأنا الساعة على طريق الإيوان الذي يلتقي فيه تجار العراق والشام وخراسان؛ وقد ضربت في هذه التجاراات وحسنت بها حالي وتأثلت منها؛ غير أن قلب التاجر غري التاجر، فليس يزن ولا يقبض، ولا يبيع ولا يشترى. أما (تلك) فأصبحت نسيانا ذهب لسبيله في الزمن!

قال مجاهد: فكيف كنت تراها وكيف عدت تنظر إليها؟

قال: كنت انظر إليها بعيني وأفكاري وشهواتي؛ فكانت بذلك اكثر من نفسها ومن النساء، وكانت ألونا ألوانا ما تنقضي؛ فلما دخل بيني وبينها الزمن والعقل، أبعدها هذا عن قلبي وأبعدها ذاك عن خيالي؛ فنظرت إليها بعيني وحدهما، فرجعت امرأة ككل امرأة؛ وبنزولها من نفسي هذه المنزلة، رجعت اقل من نفسها ومن النساء، وهذه القلة فيما عرفت لا تصيب امرأة عند محبها إلا فعلت بجمالها مثل ما تفعله الشيخوخة بجسمها، فأدبرت به ثم أدبرت واستمرت تدبر!

وأنت إذا أبصرت امرأة شيخة قد ذهبت التي كانت فيها. . وأخطرت في ذهنك نية مما بين الرجال والنساء، فهل تراك واجدا للشهوة والميل، إلا النفرة والمعصية؟ إن هذا الذي كان الحب والهوى والعشق، هو بعينه الذي صار الإثم والذنب والضلالة!

قال مجاهد: كأنك لما ذهبت تقتل نفسك من حبها قتلتها هي في نفسك؟
قال: يا رحمة قد رحمت بها نفسي يومئذ! أما والله إن الذي يقتل نفسه من حب امرأة لغبي. ويحه! فليتخلص من هذا الجزء من الحياة لا من الحياة نفسها. وقد جعل الله للحب طرفين: أحدهما في اللذة، والآخر في الحماقة؛ ما منهما بد. فهذا الحب يلقي صاحبه في الأحلام ويغشى بها على بصره، ثم إن هو اتجه بطرفه السعيد إلى حظه المقبل واتفقت اللذة للمحب - أيقظته اللذة من أحلامه؛ وإن اتجه الحب بطرفه الشقي إلى حظه المدبر وقعت الحماقات فنونا شتى بين الحبيبين، وفعلت آخراً فعل اللذة فأيقضت العاشق من أحلامه أيضاً. وهذا تدبير من الرحمة، في تلك القسوة المدمرة المسماة الحب. أفلا يدل ذلك على أن اللذة وهم من الأوهام مادام تحققها هو فناءها؟
خذ عني يا مجاهد هذه الكلمة: (ليس الكمال من الدنيا ولا في طبيعتها، ولا هو شيء يدرك، ولكن من عظمة الكمال أن استمرار العمل له أو إدراكه)
قال مجاهد: لقد علمت بعدنا علما، فمن أين لك هذا، وعمن أخذت؟
قال: عن السماء؟
قال: ويلك! أين عقلك، فهل نزل عليك الوحي؟
قال الرجل: لا، ولكن تعاليا معي إلى الدار فأحدثكما
قال المسيب: وذهبنا معه؛ فآتينا بطعام نظيف فأكلنا، وأشعرتنا الدار أن ربها قد وقع فيما شاء من دنياه وتواصلت عليه النعمة؛ فلما غسلنا أيدينا قال مجاهد: هيه يا أبا. . يا أبا من؟ قال: أبو عبيد. قال: هيه يا أبا عبيد. .
ففكر الرجل ساعة ثم قال: عهد كما بي منذ تسع في مجلس الإمام الشعبي بالكوفة؛ وقد كنت في بقية من النعمة أتجمل بها، وكانت تمسكني على موضعي في أعين الناس؛ فما زالت تلك البقية تدق وتنفض حتى نكد عيشي ووقعت في الأيام المقعدة التي لا تمشي بصاحبها، وانقلب الزمن كالعدو المغير جاء ليصطلم ويخرب ويفسد، فأثر في اقبح آثاره، فبعت ما بقي لي وتحملت عن الكوفة إلى البصرة، وقلت: إن لم تتغير حالي تغيرت نفسي، ولا أكون في البصرة قد انتهيت إلى الفقر، بل أكون قد بدأت من الفقر كما يبدأ غيري، وأدع الماضي في مكانه وامضي إلى ما يستقبلني.
فالتمست رفقة فالتأمنا عشرين رجلا، فلما كنا في الطريق، سلبنا اللصوص وحازوا القافلة وما تحويه، ونجوت أنا راكبا فرسي وعمري، وأدركت حينئذ أن الحياة وحدها ملك عظيم، وأنها هي الأداة الإلهية، والباقي كله هو من أنفسنا لأنفسنا والأمر فيه هين والخطب يسير.
وقلت: لو أن اللصوص قد مروا بنا كما يمر الناس بالناس لما نكبونا، ولكنهم عرضوا لنا عروض اللص للمال والمتاع لا للناس فوضعوا فينا الأيدي الناهبة، ومن هذا أدركت أن ليس الشر إلا حالة يتلبس بها من يستطيع أن يتخلص منها. فإذا كان ذلك فاصل السعادة في الإنسان ألا يعبأ بهذه الحالات متى عرضت له؛ وهو لا يستطيع ذلك إلا إذا تمثل الشر كما يراه واقعا في غيره؛ فالمرأة العفيفة إذا عرضت لها حالة من الفجور ونظرت إلى نفسها وحظ نفسها فقد تعمى وتزل، ولكنها إذا نظرت إلى ذلك في غيرها وإلى أثره على الفاجرة كانت كأنما زادت على نفسها نفسا أخرى تريها الأشياء مجردة كما هي في حقائقها.
قال: ومضيت على وجهي تتقاذفني البقاع والأمكنة، وأنا أعاني الأرض والسماء، وأخشى الليل والنهار، وأكابد الألم والجوع، حتى دخلت البصرة دخول البعير الرازح قطع الصحراء تأكل منه ولا يأكل منها، فأنضاه السفر وحسرة الكلال ونحته الثقل الذي يحمله، فجاء بينية غير التي كان قد خرج بها. وكانت أيامي هذه عمرا كاملا من الشقاء جعلتني أوقن أن هؤلاء الناس في الحياة إن هم إلا كالدواب تحت أحمالها، لا تختار الدابة ما تحمل ولا من تحمل، ولا يترك لها مع هذا أن تختار الطريق ولا مدة السير وليس للدابة إلا شيئان: صبرها وقوتها؛ إن فقدتهما هلكت، وإن وهنا فيها كان ضعفها بحسب ذلك
إن هناك أوقاتا من الشقاء والبؤس تقذف بالإنسان وراء إنسانيته وإنسانية البشر جميعا لا تبالي كيف وقع وفي أي واد هلك، فلا ينفع الإنسان حينئذ إلا أن يعتصم بأخلاق

الحيوان، في مثل رضاه الذي هو احكم الحكمة في تلك الحال، وصبره الذي هو أقوى القوة، وقناعته التي هي أغنى الغنى، وجهله الذي هو اعلم العلم، وتوكله الذي هو إيمان فطرته بفطرته.

لا يبالي الحيوان مالا ولا نعيما ولا متاعا ولا منزلة ولا حظا ولا جاها، ولن تجد حمار الملك يعرف من الملك اكثر مما يعرف حمار السقاء من السقاء؛ ولعلك لو سألتهما وأطاقا الجواب لقال لك الأول: إن الذي فوق ظهري ثقيل مقيت بغيض؛ ولقال لك الثاني: إن الذي يركبه خفيف سهل سمح!

ولكن بلاء الإنسان أنه حين يطوحه البؤس والشقاء وراء الإنسانية، لا ينظر لغير الناس؛ فيزيده بؤسا وحسرة، ويمحق في نفسه ما بقي من الصبر، ويقلب رضاه غيظا، وقناعته سخطا، ويبتليه كل ذلك بالفكرة المهلكة أعجزها أن تهلك أحدا فلا تجد من تدمره غير صاحبها؛ فإذا هي وجدت مساغاً إلى الناس فأهلكت وعاثت وأفسدت جعلت صاحبها إما لصا أو قاتلا أو مجرما أي ذلك تيسر!

وقال: وكنت اعرف في البصرة فلانا التاجر من سراتها ووجوه أهلها، فاستطرقته فإذا هو قد تحول إلى خراسان، وليس يعرفني أحد في البصرة ولا اعرف أحدا غيره؛ فكأنما نكبت مرة ثانية بغارة شر من تلك، غير أنها قطعت علي في هذه المرة طريق ايامي، وسلبتي آخر ما بقي لنفسي وهو الأمل!

ورأيت أنه ما من نزولي إلى الأرض بد، فأكون فيها إنسانا كالدابة أو الحشرة، حياتها ما اتفق لا ما تريد أن يتفق؛ وأنه لا رأي إلا أن اسخر من الشهوات فازهد فيها وأنا القوي الكريم، قبل أن تسخر هي مني إذا جئتها، وأنا الطامع العاجز!

وفي الأرض كفاية كل ما عليها ومن عليها ولكن بطريقتها هي لا بطريقة الناس؛ وما دامت هذه الدنيا قائمة على التغيير والتبديل وتحول شيء إلى شيء، فهذا الظبي الذي يأكله الأسد لا تعرف الأرض أنه قد أكل ولا أنه افترس ومزق، بل هو عندها قد تحول قوة في شيء آخر ومضى؛ أما عند الناس فذلك خطب طويل في حكاية أوهام من الخوف والوجل؛ كما لو اخترعت قصة خرافية تحكيها عن أسد قد زرع لحما. . . فتعهده فأنبته فحصده فأكله، فذهب الزرع يحتج على آكله، وجعل يشكو ويقول: ليس لهذا زرعتني أنت، وليس لهذا خرجت أنا تحت الشمس، وليس من اجل هذا طلعت الشمس عليّ وعليك!

والإنسان يرى بعينيه هذا التغيير واقعا في الإنسانية عاميتها وفي الأشياء جميعها؛ فإذا وقع فيه هو ضج وسخط، كأن له حقا ليس لأحد غيره؛ وهذا هو العجيب في قصة بني آدم، فلا

يزال فيها على الأرض كلمات من الجنة لا تقال هنا ولا تفهم هنا؛ بل محل الاعتراض بها حين يكون الإنسان خالدا لا يقع فيه التغيير والتبديل. ومن هذا كان خيال اللذة في الأرض هو دائما باعث الحماقة الإنسانية.

قال أبو عبيد: وذهبت أعتمل بيدي وجسمي على آلام من الفاقة والضر، ومن الخيبة والإخفاق، ومن إلجاء المسكنة وإحواج الخصاصة؛ فلقد رأيتني وإن يدي كيد العبد، وظهري كظهر الدابة، ورجلي كرجل الاسير، وعنقي كعنق المغلول، ويطلع قرص الشمس على الدنيا ويغيب عنها وما اعتمل إلا بقرص من الخبز، ولقد رأيتني أبذل في صيانة كل قطرة من ماء وجهي سحابة من العرق حتى لا أسأل الناس، ويا بؤسا لي إن سألت وإن لم أسأل

وما كان يمسكني على هذه الحياة المرمقة، تأتي رمقاً بعد رمق في يوم يوم - إلا كلام الشعبي الذي سمعته في مسجد الكوفة، وقوله فيمن قتل نفسه، فكان كلامه نورا في صدري يشرق منه كل يوم مع الصبح صبح لأيماني. ولكن بقيت أيام نعمتي الأولى ولها في نفسي ضربان من الوجع كالذي يجده المجروح في جرحه إذا ضرب عليه، فكان الشيطان لا يجد منفذا إلى إلا منها. وفقدت الصديق وعونه، فما كان يقبل عليّ صديق إلا في أحلامي من وراء الزمن الأول

قال مجاهد: والحبيب؟

فتبسم الرجل وقال: إذا فرغت الحياة من الذي هو أقل من الممكن، فكيف يكون فيها الذي هو اكثر من الممكن؟ إن جوع يوم واحد يجعل هذه الحياة حقيقة جافية لا شعر فيها، ويترك الزمن وما فيه ساعة واحدة معطرة. . والبؤس يقظة مؤلمة في القلب

الإنساني تحرم عليه الأحلام؛ وما الحب من أوله إلى آخره إلا أحلام القلوب بعضها ببعض!
قال أبو عبيد: وتضعضعت لهذه الحياة المخزية وأبرمتني أيامها، وحملت في الميت والحي، ورأيت الشيطان لعنه الله كأنما اتخذني وعاء مطرحاً على طريقه يلقي فيه القمامة. .؛ وظهر لي قلبي في وساوسه كالمدينة الخربة ضربها الوباء فأعمر ما فيها مقبرتها؛ وعاد البؤس وقاح الوجه لا يستحي، فلا أراه إلا في أرذل أشكاله وأبردها؛ ولقد يكون البؤس لبعض الناس على شيء من الحياة فيأتي في أسلوب معتذر كالمرأة الدميمة في نقابها.
وقلت لنفسي: ما هو والله إلا القتل، فهذا عمر أراه كالأسير أقيم على النطع وسل عليه السيف، فما ينتقم منه المنتقم بأفظع من تأخير الضربة، وما يرحمه الراحم بأحسن من تعجيلها!
وبت أوامر هذه النفس في قتلها وأحدثها حديث الموت فسددت رأيي فيه، وقالت: ما تصنع بجسم كالمتعفن اصبح كالمقبور لا أيام له إلا أيام انقراضه وتفتيته؟ بيد أني ذكرت كلام (الشعبي) في ذلك المجلس وأنا أحفظه كله، فجعلت أهذه ما أترك منه حرفا، واتخذته متكلما مع نفسي لا كلاما، وكنت كلما غلبني الضعف رفعت به صوتي وأصغيت كما أصغى إلى إنسان يكلمني؛ فرأيت الشيطان بعد ذلك كاللص إذا طمع في رجل ضعيف منفرد، ثم لما جاءه وجد معه رجلا ثانيا قويا فهرب!
قال أبو عبيد: ونالني روح من الاطمئنان وجدت له السكينة في قلبي فنمت، فإذا الفزع الأكبر الذي لا ينساه من سمع به فكيف الذي رآه بعينيه؟
رأيتني ميتا في يد غاسله يقلبه ويغسله كأنه خرقة؛ ثم حملت على النعش، كأن الحاملين قد دفعوني يقولون: انظروا أيها الناس كيف يصير الناس؛ ثم صلى عليّ الإمام الشعبي في مسجد الكوفة؛ ثم دليت في قعر مظلمة وهيل التراب عليّ، وتركت وحيدا وانصرفوا!
وما أدري كم بقيت على ذلك؛ ثم رأيت كأنما نفخ في الصور وبعثرت الأموات جميعا، فطرنا في الفضاء، وكانت النجوم غباراً حولنا كتراب العاصفة في العاصفة؛ وإذا نحن في عرصات القيامة وفي هول الموقف!
وتوجهت بكل شعرة في جسمي إلى الرجاء في رحمة الله؛ ورأيت أعمالي رؤية احزنتني، فهي كمدينة عظيمة كل أهلها صعاليك إلا قليلا من المستورين، أرى منهم الواحد بعد الواحد في الساعة بعد الساعة، ندروا وتبعثروا وضاعوا كأعمالي الصالحة!
وذكرت أني كدت اقتل نفسي فرارا بها من العمر المؤلم، فنظرت، فإذا الزمن قد ظهر في أبديته، ورجع الماضي حاضرا بكل ما حوى كأنه لم يمض، وإذا عمري كله لا يكاد يبلغ طرفة عين من دهر طويل، فحمدت الله أني لم أفتد ألم اللحظة القصيرة القصيرة، بعذاب الأبد الخالد الخالد الخالد.
وجيء على أعين الخلق بأنعم أهل الدنيا وأكثرهم لذات في تاريخ الدنيا كله، فصاح صائح:
هذا أنعم من كان على الأرض منذ خلقها الله إلى أن طواها. ثم غمس هذا المنعم في النار غمسة خفيفة كنبضة البرق، واخرج إلى المحشر، وقيل له الناس جميعا يسمعون: هل ذقت نعيما قط؟ قال: لا والله
ثم جيء بأتعس أهل الأرض وأشدهم بؤسا منذ خلقت الأرض، فغم في الجنة غمسة أسرع من النسيم تحرك ومر، ثم أخرج إلى المحشر وقيل له: هل ذقت بؤسا قط؟ قال: لا والله.
وسمعنا شهيق جهنم وهي تفور، تكاد تميز من الغيظ؛ فأيقنت أن لها نفسا خلقت من غضب الله. وخرج منها عنق عظيم هائل، لو تضرمت السماء كلها نارا لأشبهته، فجعل يلتقط صنفاً صنفا من الخلق؛ وبدأ بالملوك الجبابرة فالتقطهم مرة واحدة كالمغناطيس لتراب الحديد؛ وقذف بهم إلى النار؛ ثم انبعث فالتقط الأغنياء المفسدين فأطارهم إليها؛ ثم جعل يأخذ قوماً قوما وقد ألجمني العرق من الفزع؛ ثم طرت أنا فيه ونظرت فإذا أنا محتبس في مظلمة نارية كالهاوية، ليس حولي فيها إلا قاتلوا أنفسهم.
ولو أن بحار الأرض جعل فيها البحر فوق البحر فوق البحر، إلى أن تجتمع كلها فيكون العمق كبعد ما بين الأرض والسماء، ثم تسجر نارا تلظى لكانت هي الهاوية التي نحن

في أعماقها، وكنت سمعت من إمامنا الشعبي أن عصاة المؤمنين الموحدين إذا ماتوا على إيمانهم كانوا في النار أحياء وجوارحهم وينتظرهم إيمانهم على باب النار، فكان إلى جانبي رجل قتل نفسه، فسمع قائلا من بعيد يقول لمؤمن: أخرج فإن إيمانك ينتظرك. فصاح الذي إلى جانبي: وأنا، أفلا ينتظرني إيماني؟ فقيل له: وهل جئت به؟ ورأيت رجلا ذبح نفسه يريد أن يصرخ يسأل الله الرحمة، فلا يخرج الصوت من حلقه، إذ كان قد فراه وبقى مفريا! وأبصرت آخر قد طعن في قلبه بمدية، فهو هناك تسلخ الزبانية قلبه تبحث هل فيه نية صالحة، فلا تزال تسلخ ولا تزال تبحث!

ورأيت آخر كان تحسّى من السم فمات ظمآن يتلظى جوفه، فلا تزال تنشأ له في النار سحابة روية تبرق بالماء، فإذا دنت منه ورجاها انفجرت عليه بالصواعق ثم عادت تنشأ وتنفجر!

وقال رجل إنما كنت مجنونا ضعيفا عاجزا فأزهقت نفسي فنودي: أو ما علمت أن الله يحاسبك على أنك عاقل لا مجنون وقوي لا ضعيف، وقادر لا عاجز؟ كنت تعقل بالأقل أنك

ستموت، وكنت تقوى على أن تصبر، وكنت تقدر أن تترك الشر.

وقال رجل عالم قد حز في يده بسكين فمات: (لم يكن الكمال من الدنيا ولا في طبيعتها ولا هو شيء يدرك.) فصرخ فيه صوت رهيب: (ولكن من عظمة الكمال أن استمرار العمل له هو إدراكه!).

قال أبو عبيد: ثم انتصب بازائي شيطان مارد أحمر، يلتمع التماع الزجاج فيه الخمر، فقام في وجهي وقال: بماذا جئت إلى هنا يا عدو الخمر؟ فما كان إلا أن سمعت النداء: شفعت فيك الخمر التي لم تشربها، أخرج إن إيمانك ينتظرك!

فصحت الحمد لله! وتحرك بها لساني فانتبهت. لقد علمت أن الصبر على المصائب نعمة كبرى لا ينعم الله بها إلا في المصائب.

(طنطا)

مصطفى صادق الرافعي

لوكريسيا بورجيا - 2

صور من عصر الأحياء

للأستاذ محمد عبد الله عنان

أقامت لوكريسيا في رومة مدى حين، أداة لمشاريع أبيها البابا وأخيها شيزاري، ومستودعا لدسائس البلاط الروماني؛ وكانت تشعر أنها في هذا المعترك تعيش في نوع من الأسر؛ وقد قالت فيما بعد: (إن رومة كانت سجني). وكان زواجها من جان سفورزا كما رأينا، لبواعث سياسية ترجع إلى رغبة اسكندر السادس في تقوية التحالف بينه وبين لودفيكو سفورزا طاغية ميلانو وعم جان. ولكن لودفيكو لم يلبث أن ارتد عن هذا التحالف إلى محالفة شارل الثامن ملك فرنسا وتحريضه على غزو إيطاليا، والاستيلاء على مملكة نابل اعتمادا على زعم قديم بوراثة عرشها. عندئذ رأى البابا أنه لم يبق حكمة لبقاء هذا الزواج، فاعتزم إلغاءه حتى يستطيع بعد أن تسترد لوكريسيا حريتها أن يتخذها أداة لعقد صفقة أخرى.

ولكن جان سفورزا لم يقبل الانفصال عن زوجته الحسناء طوعا، فهدده شيرازي بالقتل وفر إلى بيزارو؛ ولجأت لوكريسيا حزينة باكية إلى دير القديس سكستوس لأنا كانت تحب زوجها؛ وعمد البابا لإبطال الزواج إلى إجراء مدهش، فانتدب لجنة مؤلفة من كردينالين لتهيئة أسبابه، ورأى الحبران أن يسندا الفسخ إلى أن لوكريسيا ما تزال بكرا عذراء، وأن زوجها جان سفورزا كان عنينا ولم يكن رجلا كاملا؛ وأرغم البابا ابنته على أن توقع إقرارا بأنها ما تزال بكرا عذراء كيوم مولدها. وعلى ذلك أعلن فسخ الزواج؛ ودهشت رومة، ودهشت إيطاليا كلها لهذا الزعم، لأن جان سفورزا كان فتى متين البنية، وكان أرمل توفيت عنه زوجته الأولى بعد أن رزق منها طفلة. وحاول جان أن يثور على هذا القرار وأن يقاوم، ولكنه أذعن لنصح عمه لودفيكو وعمه الآخر الكردينال اسكاينو وكيل الكرسي الرسولي، وارتضى مصيره صاغرا؛ وكان ذلك في ديسمبر سنة 1497؛ وكانت لوكريسيا عندئذ في عامها السابع عشر. وهنا يصيح مؤرخ معاصر هو (جيشا ردينو): (لم يحتمل البابا أن ينافسه في ابنته أحد حتى زوجها!). وثار

حول لوكريسيا سيل من أروع الإشاعات والأقاويل.
وحدث في ذلك الحين أيضاً حادث اهتزت له رومة، هو مقتل جان دوق جانديا ابن البابا؛ وكان إلى جانب الطلاق مستقى خصبا لهذه الإشاعات الغريبة التي تصور الأسرة البابوية عرينا من الضواري التي جردت من كل عاطفة بشرية. وكان دوق جانديا أكبر أبناء اسكندر السادس، في الرابعة والعشرين من عمره، وأخاه شيزاري في الحادية والعشرين؛ وكان البابا يعتبر ابنه البكر عميد أسرته من بعده، ويرشحه دون شيزاري لكل مشاريعه السياسية العظيمة. أما شيزاري فقد زجه أبوه إلى الحياة الكنسية، ورقاه بسرعة كردينالاً لبلنسية؛ ولكن شيزاري كان بطبيعته الوثابة المغامرة، وأطماعه الدنيوية البعيدة يزهد في الحياة الكنسية ويتلمس الفرار منها؛ وكان يرى في أخيه الأكبر دوق جانديا حائلا دون أطماعه. ففي ربيع سنة 1497، كان البابا قد عاد إلى التفاهم مع مملكة نابل (نابولي) واتفق مع ملكها الجديد فردريك الأرجوني على أن يتلقى التاج من قبل الكرسي الرسولي، وأن يقطع بعض ولاياتها الجنوبية لدوق جانديا ولد البابا؛ وانتدب البابا ولديه جان وشيزاري للسفر إلى نابل، الأول ليتسلم إقطاعه الجديد، والثاني ليمثله في تتويج ملك نابل. وفي مساء 14 يونيه، قبيل رحيلهما، أقامت لهما والدتهما فانوزا مأدبة عشاء حافلة في قصرها المتواضع؛ وبعد العشاء انصرف دوق جانديا مع أخيه شيزاري، ثم افترق الاثنان في منتصف الطريق، وسار الدوق مع تابع له واختفى في جوف الظلام؛ ولم يعرف قط ما حدث له بعد ذلك؛ ولكن تابعه وجده ملقى في صباح اليوم التالي على شاطئ التقيري (التيبر) جثة هامدة، وانتشلت جثة الدوق بعد ذلك من النهر، وقد أثخنت طعنا، ولم يكشف سر الجريمة قط.
وطار الخبر في رومة بأن دوق جانديا قد قتل، وحزن البابا لمصرع ولده الأكبر أيما حزن، ولبث يذرف الدمع الثخين مدى يومين وهو معتكف في غرفته لا يتذوق طعاما ولا يرى أحدا. من اجترأ على ارتكاب هذه الجريمة الشنعاء؟ ولأي الأسباب؟ كثرت في ذلك الظنون والريب، وتنوعت التهم والبواعث؛ فقيل إن الجريمة من تدبير جان سفورزا انتقاما للتفريق بينه وبين زوجته، وقيل إنها من تدبير عمه الكردينال اسكانيو انتقاما لشرف الأسرة، وقيل إنها من تدبير آل أورسيني ألد خصوم البابا؛ ولكن هذه التهم لم تلق كبير سند؛ أما أولئك الذين يعرفون آل بورجيا فقد ألقوا تبعة الجريمة على شيزاري بورجيا نفسه.
أجل، قتل شيزاري أخاه جان دوق جانديا لأنه يفوز دونه بعطف أبيه، ويخصه أبوه دونه بمشاريعه السياسية، ويعتبره لسنه زعيم الأسرة. وشيزاري لا يطيق أن يرى دون أطماعه عقبة إلا ويسحقها. ولذلك التعليل الظاهر من الوجاهة. ولكن الرواية تذهب إلى أبعد من ذلك، فتقول إن شيزاري قتل أخاه لأنه ينافسه في غرام أختهما لوكريسيا!
أرأيت كيف تميل الرواية دائما إلى تصوير هذا الغادة الفاتنة آلهة للحب الأثيم والفجور في أروع مظاهره؟ كانت لوكريسيا خليلة أبيها، خليلة أخويها! وكان ثمة معارك خفية تضطرم في ذلك العرين بين عباد الجمال والهوى المحرم؛ وكان جان سفورزا زوج لوكريسيا اشد الناس تأييدا لهذه التهم، يؤكد لزملائه الأمراء ولصحبه وللناس جميعا أنه إذا كان البابا قد عمل على تمزيق العلائق التي تربطه بزوجته لوكريسيا، فذلك بسبب الهوى الأثيم الذي تبثه إلى أبيها، وإنه إذا كان شيزاري قد دبر مقتل أخيه وألقاه في التفيري، فذلك بسبب المنافسة بينهما على حب لوكريسيا. وكانت الفضيحة رائعة، والتهم أروع، تجوب إيطاليا من أقصاها إلى أقصاها، وتجوب قصور أوربا كلها! ويتناولها الرواة والسفراء والشعراء بالتدوين نثرا ونظما باعتبارها من أهم حوادث العصر وأعجب السير.
وهنا يرى بعض النقدة المحدثين الذين يميلون إلى تبرئة لوكريسيا من هذه التهم الشنيعة، أن هذه الخصومة الزوجية هي أصل هذه التهم وهي روحها، وأن هذه التهم قد تلقاها المعاصرون من الأفواه الخصيمة، ثم زادوا عليها وبالغوا في تصويرها، ثم تناقلتها أجيال الخلف، واستمرت على كر العصور مستقى خصبا للشعراء وكتاب القصص.
لم تمض أشهر قلائل حتى وضع مشروع جديد لزواج لوكريسيا، وكان اسكندر السادس يتجه يومئذ نحو مملكة نابل، ويلتمس وسيلة لبسط نفوذه عليها؛ وكان يرى هذه

الوسيلة في تزويج ابنه شيزاري من ابنة فردريك ملك نابل؛ ولكن ملك نابل أبى أني يزوج ابنته (لقس ابن قس) بيد أنه ارتضى أن يتخذ ابنة البابا زوجة لألفونسو ولد أخيه غير الشرعي، وعقد الزواج الجديد في قصر الفاتيكان في يولية سنة 1498 وكان الزوج الجديد فتى حديثا لا يجاوز السابعة عشرة؛ وكان جميلا، حلو الشمائل، تصفه الرواية المعاصرة بأنه أجمل فتى في رومة؛ وكانت لوكريسيا عندئذ في الثامنة عشرة؛ ومنح الفونسو دوقية بيزيليا، وغدت لوكريسيا دوقة بيزيليا؛ واشترط أن يقيم الفونسو مدى عام في رومة، وألا تغادر لوكريسيا رومة إلا بعد وفاة أبيها؛ وشغفت لوكريسيا بزوجها الفتى النضر، وعاشت مدى حين في
نوع من السعادة والسلام.

ولكن هذه السكينة لم يطل أمدها. ذلك أن اسكندر السادس ألغى فرصة جديدة للعمل السياسي؛ وكان ملك فرنسا الجديد لويس الثاني عشر يتوق إلى التخلص من زوجته جان دوقة بري، والتزوج من الدوقة حنه أرملة سلفه شارل الثامن لكي يستطيع أن يضم إمارتها بريطانيا إلى مملكته؛ وكان لابد له لإجراء الطلاق من مرسوم بابوي؛ فرأى اسكندر السادس أن يجيز هذه الرغبة، وبعث ولده شيزاري إلى فرنسا، ليلقي صيغة الطلاق، فاستقبله ملك فرنسا أعظم استقبال، وأنعم عليه بلقب دوق فالنتنوا؛ وعندئذ خلع شيزاري ثوبه الديني، وزوجه لويس الثاني عشر من أميرة فرنسية هي شارلوت دالبير أخت ملك نافار؛ وبذلك وثقت أواصر التحالف بين فرنسا والفاتيكان، وكلاهما خصم لمملكة نابل وكلاهما يدعي فيها حقوقا.

وهنا فكر شيزاري في التخلص من زوج أخته الجديد إذ غدا يراه عقبة في سبيل مشاريعه؛ وشعر الفونسو دوق بيزيليا بحرج مركزه في الفاتيكان إزاء تطورات الحوادث على هذا النحو، وخشى بالأخص غدر شيزاري وعدوانه، ففر من رومة والتجأ إلى ال كولونا في جينازارو، تاركا زوجه الفتية حاملا تبكي فراقه؛ واستمر يكاتب لوكريسيا ويتوسل إليها أن تلحق به، ولوكريسيا مستسلمة إلى حزنها لا تجرؤ على تلبية دعوته. فلما رأى البابا يأس ابنته، فكر في وسيلة للجمع بينها وبين زوجها، لا تؤذي كرامته في نفس الوقت، فعين ابنته حاكمة لسبوليتو؛ وسافرت لوكريسيا إلى سبوليتو مع أخيها الأصغر جوفروا؛ وهنالك لحق بها زوجها؛ وأقاما هناك مدى حين حتى هدأت العاصفة؛ ثم عادا معا إلى رومة؛ ولم تمض على عودتهما أيام قلائل حتى وضعت لوكريسيا غلاما سمى رودريجو باسم جده البابا رودريجو بورجيا (31 أكتوبر سنة 1499).

واحتفل البابا بمولد حفيده في حفلات شائقة، وغدت لوكريسيا كأنها ملكة رومة يحف بها الحب والعطف والإجلال أينما حلت؛ وأقطعها والدها حكم عدة مدن وجهات من أملاك الكرسي الرسولي.

ولكن القدر المروع كان جاثما يتربص. ففي مساء 15 يوليه سنة 1500، بينما كان الفونسو دي بيزيليا زوج لوكريسيا يصعد درج الفاتيكان المفضي إلى الجناح البابوي، إذ فاجأه عدة رجال مقنعين وأثخنوه طعنا بالخناجر حتى خر صريعا يتخبط في دمه؛ ثم فر الجناة دون أن يراهم أو يظفر بأثرهم أحد.

ولكن الفونسو لم يمت على الأثر؛ بل استطاع أن يجرجر نفسه حتى الجناح البابوي؛ وهناك تلقاه البابا ولوكريسيا في دهشة وانزعاج؛ وأغمى على لوكريسيا وأصابتها الحمى؛ وحمل الجريح إلى إحدى القاعات، ولزمته زوجته تعني به، وأقام البابا حرسا خاصا على غرفته؛ وأخذ يتماثل إلى الشفاء سريعا.

ولم يك ثمة ريب في مدبر هذه الجريمة الشنعاء؛ فقد كان شيزاري؛ وكان يرى بعد أن رزقت أخته بهذا الغلام، أنه لا سبيل إلى فسخ زواجها، وأنه لا سبيل إلى التخلص من الفونسو غير الجريمة، ولما لم تحقق هذه الجريمة الأولى غرضها، قرر شيزاري أن يعيد الكرة، فدخل ذات يوم إلى حيث يرقد الجريح ومعه ميشليتو وصيفه وساعده الأيمن في مشاريعه السوداء؛ وأبعد أخته عن غرفة زوجها، وأمر ميشليتو فأجهز على الفتى الجريح خنقا.

هكذا يقول لنا بور كارت مدير التشريفات البابوية في مذكراته. بيد أن شيزاري لم ينكر الجريمة بعد أن حققت غايتها؛ وكان يقول إن الفونسو كان يزمع قتله فسبقه هو إلى القصاص. ولم يفه البابا بكلمة احتجاج أو تذمر خشية بطش ولده الأثيم.

أما لوكريسيا الزوجة الثاكل، والأم الأرمل، فلم تستطع البقاء في رومة، وذهبت بإذن أبيها تجرجر أذيال الحزن والعزلة في قصر نيبي على مقربة من سبوليتو، وهنالك فعل النسيان فعله سريعا، فلم يمض عام حتى استعادت الأرمل الفتية كل بهجتها، وعادت مسرعة إلى رومة تخوض غمار هذه الحياة العنيفة الباهرة التي كأنما خلقت لها.

وفي يوليه سنة 1501، غادر اسكندر السادس رومة على رأس حملة عسكرية ليتم الاستيلاء على بعض المناطق والحصون المجاورة للولايات البابوية والتي يزعم للكنيسة حقا في انتزاعها، وهنا وقع حادث فريد من نوعه ومغزاه. ذلك أن اسكندر السادس انتدب ابنته لوكريسيا للقيام بالشؤون البابوية أثناء غيابه، ويقول لنا بور كارت إن قداسته (عهد بالقصر كله، وتصريف الأمور الجارية إلى ابنته السيدة لوكريسيا، وفوض إليها أن تفتح كل الرسائل التي ترد لقداسته، وأن تستعين في المسائل الصعبة برأي كردينال لشبونه)

وفي ذلك ما يدل على تقدير خاص من البابا لمواهب ابنته ومقدرتها على الاضطلاع بمهام الأمور. والواقع أن لوكريسيا بورجيا كانت فتاة وافرة العقل وافرة الذكاء، تتبع سير الشؤون العامة بدقة، وتفهم بالأخص آراء والدها واتجاهاته المختلفة؛ وكانت عند ثقة أبيها حيث قامت بمهمتها زهاء شهرين بفطنة وذكاء.

ثم عاد البابا إلى رومة، واستأنف بلاط الفاتيكان حياة البذخ والحفلات الشائقة، وكانت لوكريسيا يومئذ قد ناهزت عامها الحادي والعشرين، واكتملت زهرة شبابها وجمالها.

وهنا، وفي تلك الفترة، تقدم لنا الروايات المعاصرة، أغرب الصور وأروعها عن تلك الحياة الأثيمة الفاجرة التي كانت تنتظم وراء جدران الفاتيكان، وتخوض لوكريسيا بورجيا غمارها إلى جانب أبيها الحبر المتهتك وأخيها الطاغية الفاجر.

ومن ذلك تلك الحفلة الراقصة الشهيرة التي تفيض في تفاصيلها روايات العصر وتسميها (مرقص الكستنة) والتي كانت مسرحا لأسفل ما يتصور الذهن الخليع من مناظر التهتك والفحش.

ويقول لنا بور كارت في مذكراته إن تلك الحفلة الشهيرة كانت في مساء 31 أكتوبر سنة 1501؛ وفيه استقدم البابا خمسين غانية من أجمل نساء رومة؛ ومثلن جميعا عاريات أمام البابا وابنه شيزاري وابنته لوكريسيا، وقمن بأفحش المناظر الراقصة والجنسية التي يمكن تصورها؛ ومن ذلك أنهن كن يركضن عاريات على أربع وراء حبات الكستنة التي كان يلقيها البابا وابنه وابنته تحت الأضواء الساطعة، وتعطى الجوائز للسابقات، كما تعطى لأبرعهن في عرض افحش المناظر والأوضاع.

هذا ما يرويه بور كارت مدير التشريفات البابوية في مذكراته الشهيرة بإفاضة مثيرة تحمر لها الوجوه وتندى الجباه حياء وخجلا، وهذا ما ترويه معظم الروايات والتواريخ المعاصرة مع فرق في بعض الوقائع والتفاصيل.

كانت هذه الحفلات والمناظر الشائنة تتكرر وراء جدران الجناح البابوي في الفاتيكان؛ في تلك الأبهاء الشهيرة التي أنشأها اسكندر السادس، وأفاض عليها أقطاب الفنانين والمصورين أروع بدائعهم، والتي ما زالت تعرف حتى اليوم (بجناح آل بورجيا) وتعرض لأنظار السائح المتجول، فيحمله التأمل والخيال إلى تلك الأيام والذكريات المرحة البعيدة.

(للبحث بقية)

محمد عبد الله عنان المحامي

الخرافة

للدكتور إبراهيم بيومي مدكور

الخرافة حليفة الجهل، وأليفة الأوهام، عنوان ناقصي الثقافة، ورمز ذوي العقول الضعيفة؛ كالحشرات الدنيئة، لا يحلو لها العيش إلا في الأماكن المظلمة، أو كالحشائش الضارة، لا يعظم نموها إلا في التربة الفاسدة؛ تقف في طريق الحق، وتقاوم كل تفكير. وكأنها ذات قوة سحرية تغشى الأبصار، وتصم الآذان، وتقضي على كل ما في المرء من عقل وروية؛ أو كأنها مظهر لوحي خفي يستولي على النفوس والأفئدة. وكيف لا والسحر خرافة لبست ثوب الفن؟ والخرافات في أغلبها اكتست بكساء الدين، لذلك لبى نداءها معتنقوها، ونزل عن إرادتها من آمن بها، ولو أدى ذلك إلى ارتكاب جرائم شنيعة، وإزهاق أرواح بريئة، وتبديد ثروات طائلة. وكم باعدت

الخرافة بين الصديق وصديقه، والمرء وزوجه، والأخ وأخيه، والابن وأبيه. وقد لا يقف عدوانها عند الأحياء، بل يتعداهم إلى الأموات، فخرجت من جرائها قبور، وانتهكت حرمات. وبذا كانت من أشد أخطار الإنسانية وأكبر أعداء الحضارة والمدنية. وما أصدق مونتيسكيه حين يقول: (أعد نفسي أسعد الأحياء إذا استطعت أن أبرئ الناس من خرافاتهم).

بيد أن الخرافة ليست شرا كلها؛ ففي حجرها درج العلم، وتحت كنفها نما كثير من النظم الاجتماعية. فالعلوم في نشأتها كانت سلسلة خرافات متصلة، وطائفة غير ملتئمة من الظنون والأوهام؛ وما الكيمياء الحقيقية إلا وليدة الكيمياء الصناعية وما الفلك في قواعده وأصوله إلا ربيب العرافة والتنجيم، وما الطب إلا نتيجة وصفات بلدية هذبت، وتجارب عادية سلك بها سبيل البحث والتمحيص؛ وما طبيعة اليوم المملوءة بالأصول والقوانين إلا الثمرة الناضجة للآراء الخاطئة المشحونة بالأوهام والخزعبلات، والتي أدلى بها فلاسفة الإغريق الأول أمثال طاليس وأنكسمندر.

والحكومة في سلطانها، والأسرة في نظامها، والملكية في احترامها مدينة للخرافة إلى حد كبير. فالملك مسموع الكلمة مطاع الأمر، لأن الخرافة شاءت قديما أن تضعه في صف الآلهة والأرباب؛ والزواج محترم لأن الزنا والفسوق ما كانت لتغضب الله والناس فقط، بل وربما استتبعت هلاك الحرث والنسل وخراب القرى والأمصار؛ والملكية مقدسة لأن الاعتداء عليها كان يثير غضب المردة والشياطين والقوى الخفية المتصرفة في هذا العالم؛ وإذا بحثنا عن منشأ كثير من عاداتنا الاجتماعية وجدناها ترجع إلى أصل خرافي: فتفضيل اليد اليمنى على اليد اليسرى يفسر في غالب الظن مبدأ من مبادئ السحر والشعوذة؛ والعطلة الأسبوعية التي ننعم بها الآن لم تكن إلا لأن الإنسان اعتقد أن هناك أوقات نحس وأوقات سعادة وفوق هذا وذاك فالخرافة تغذي ناحية نفسية لا يصح تجاهلها، ذلك لأن الإنسان لا يلبي داعية العقل والمنطق فقط، بل هو خاضع لخياله وعواطفه. وللخيالة ميادين تسبح فيها، وعالم يتفق مع ميولها وأهوائها؛ وما الخرافة إلا مظهر من مظاهر هذا العالم وأثر من آثار هذا الصنع، وحياة لا تعتمد إلا على الأسس الطبيعية والبراهين العقلية - كما ينادي بها أصحاب الرواق - جافة قطعا ولا وجود لها إلا في أدمغة زينون وكريزيب.

ليس هناك شك في أن الإنسان مستعد بطبعه لقبول الخرافة؛ فهو ميال دائما لأن يعرف أكثر مما يرشده إليه بصره وعقله، ولأن يخلق بجانب الحقائق الحسية والفكرية صورا أخرى تحقق رغبة من رغباته، أو تسد ناحية من نواحي نقصه. هذا إلى أنه في ضعفه يحاول أن يعتز بقوى خفية - وإن تكن خيالية - في التغلب على مشاق الحياة. ومن هنا كان التعلق بالخرافات عالميا، وكان قدر منها مشتركا لدى عامة الشعوب. فالسحر والتنجيم والشعوذة من خرافات الإنسانية بأسرها، قام عليها معظم تقاليد الأمم المتوحشة، وتشبث بها الناس بعد أن خطوا خطوات فسيحة في سبيل العلم والمدنية، ولا يزالون خاضعين لشيء من سلطانها إلى اليوم. وحديث القصور الزبرجدية والآرائك المسجدية التي بناها المردة والشياطين في أرض نائية وجزر منقطعة، بهر الإنسان الهمجي وشغل عقول بعض أبناء القرن العشرين. والتفاؤل والتشاؤم والطيرة كانت من خرافات الإغريق والرومان والعرب، وحتى الساعة يقول عاميتنا: (خذوا فألكم من قبالكم)، وإذا سمعوا نعيق غراب رددوا الجملة المشهورة: (اللهم اجعله خيرا). وبديهي إن انتشار الخرافة يختلف من بلد لآخر تبعا لدرجة الثقافة، ونمو التربية الدينية، وطرق الحكم السياسية من ديمقراطية واستبدادية، ولظروف اجتماعية أخرى متعددة. ويحاول بعض الباحثين أن يعقد موازنات بين الأمم في هذا المضمار، فيزعم مثلا أن المشاهد السينمائية في إنجلترا وفرنسا تؤذن بأن الشعب الإنجليزي إلى الغريب أميل، وفي الخرافة أرغب. وهذه الموازنات وإن تكن مثار شك كبير، ربما وصلت إلى نتائج شيقة إن عني بضبطها وصحتها. وإذا كنا نتحدث عن الأفراد والشعوب واستعدادهم لقبول الخرافة، فيجدر بنا أن نشير إلى ملاحظة هامة، وهي أنه لا يوجد شخص يسلم بالخرافة التي يعتنقها في حين أنه متيقظ دائما إلى خرافات الآخرين. وقد يصل بنا الأمر إلى أن نقيس الشيء الواحد بمقياسين مختلفين، وننظر إليه بمنظارين متباينين، فإن كان مما عرفناه وألفناه أضحى دينا وعقيدة؛ وإن اتصل بتقاليد غريبة عنا استنكرناه وتبينا ما فيه من تضليل وتخريف. وكأن ما هو دين في

رأيك خرافة في رأي غيرك وبالعكس: وعل ذلك راجع إلى أن الخرافة تسلب معتنقها قوة النقد والحكم الصحيح؛ هذا إلى أنها نسبية وصعبة التحديد: فما كان عقيدة بالأمس أصبح خرافة اليوم؛ وما هو صواب شرق جبال البرانس يعد خطأ غربها؛ ومقياس الخرافة - كمقياس الحق والباطل - يتغير بتغير الظروف والأزمنة.

يعز علينا حقيقة أن نعرف الخرافة تعريفا شاملا، وأن نضع لها حدا ثابتا. فلا يمكننا أن نقول إنها كل ما خالف العلم الصحيح، فإن هذا العلم نفسه لما يحدد تماما؛ على أنه قد يقصد أمورا يصعب علينا أن نخرج بها عن دائرة الخرافة. فكثير من المثقفين يؤمن اليوم بتحضير الأرواح، ويجتهد في أن يفسره تفسيرا علميا. ولا نستطيع أن نقول إن الخرافة كل ما ناقض الدين، فإن هناك أشياء اكتست بكساء ديني كامل في حين أنها خرافة صريحة. وفي شيء من التقريب يمكن القول بأن الخرافة كل فكرة أو عقيدة فردية أو جمعية تفسر ظواهر العالم على نحو لا يلتئم مع العقل ولا مع درجتنا العلمية الحاضرة. وعلى في سرد بعض الأمثلة ما يعيننا على تفهم الخرافة في حقيقتها ومدلولها. من ذلك أن بعض الأوربيين يرى أن كب الملح نذير سوء. وأن اجتماع ثلاثة عشر شخصا على مائدة واحدة مؤذن بأن واحدا منهم سيموت في العام نفسه، وأن تقديم السكين يقطع المودة، وأن وضع المكنسة في الماء مجلبة المطر. وخرافاتنا المصرية التي هي ميدان فسيح للدراسة غير متناهية العدد؛ ومن أشهرها حديث (الشمامة) ورعراع أيوب وأكل البصل أيام شم النسيم، وصناعة التبخير أو (الزار) والرقى والتعاويذ. وعبثا نحاول إن شئنا أن نأتي هنا على مختلف الخرافات العالمية أو المصرية. وفي مقدورنا أن نلاحظ بوجه عام أن الخرافات تكاد تتمركز حول نقطتين هامتين: المعتقدات والعبادات الدينية؛ وهذا ما سماه الألمان

لقد شغل الباحثون بالخرافة منذ زمن بعيد؛ فبينوا مضارها السياسية والدينية والاجتماعية، وعملوا على إحصاء الخرافات المتعددة وإثباتها في قواميس خاصة (نذكر من بينها: وتقسيمها إلى فصول وأنواع مختلفة. ومن أقدم من كتب في هذا الباب؛ لكريس + 51 - وفلوطرخس + 125 والأخير بوجه خاص هو أول باحث درس الخرافة في شيء من التوسعة ونقدها نقدا مرا؛ وربما كان متأثرا في ذلك بما ساد عصره من خرافات لا حصر لها إلا أن الفضل في دراسة الخرافة دراسة علمية منظمة يرجع إلى علماء الاجتماع المحدثين الذين تولوها بالشرح والتحليل. فبحثوا عن أصلها، وسبيل انتشارها، وأثرها في المجتمع، وطريق علاجها. وكان لهم في ذلك مؤلفات قيمة جذابة نخص بالذكر منها كتاب فريزر الذي سنعرض له بالتفصيل في فرصة مقبلة إن شاء الله.

إذا تصفحنا التاريخ وجدنا الإنسانية نشأت حاملة معها خرافاتها. فالأمم المتوحشة الأولى خضعت للخرافة خضوعها لدين ثابت وأصل مقرر؛ ولا زلنا نرى أثر هذا الخضوع لدى القبائل الهمجية المعاصرة. وإذا جاوزنا هذه الأمم إلى الشعوب التي أخذت من الحضارة بنصيب، لاحظنا أنها تعلقت بقسط وافر من الأوهام والخزعبلات. وخرافات قدماء المصريين أعرف من أن ينوه عنها. والإغريق الذين بهروا العالم بعلمهم وثقافتهم لم يكونوا أقل اعتناقا للخرافة من غيرهم، وتاريخهم الديني مجموعة خرافات سخر منها فلاسفتهم غير مرة. وربما كان اللاأدريون من أول من رفع الصوت جهرة في وجه الخرافة والانقياد الأعمى، ودعا إلى تحرير الفكر الإنساني. كذلك حاربت الديانات السماوية بعض الخرافات وقضت عليها. غير أن رجال القرون الوسطى عادوا - تحت تأثير الجهل وعاطفة دينية عمياء - فارتطموا في بؤرة الخرافة، وتفننوا فيها أيما تفنن. ثم جاء عصر النهضة والإصلاح الديني فسلكا بالعقل الإنساني مسلكا جديدا وآثارا على الخرافة حربا شعواء. ولا تزال العلوم الحديثة تنكل بها يوما بعد يوم، وتطاردها في كل مكان.

والآن يحق لنا أن نتساءل هل الخرافة في سبيل الانقراض؟ وهل تأمل الإنسانية أن تتخلص منها بتاتا؟ ليس بيسير أن نجيب إجابة شافية على السؤال الأول، فإن الإحصاءات في هذا الميدان ناقصة وغير دقيقة؛ والخرافة، وقد تمكنت من نفوسنا وأضحت جزءا من

عاداتنا وتقاليدنا، صعبة التمييز وكثيرا ما بدت بمظهر الشيء المعقول والمسلم به. ولكن مما لاشك فيه أن الفكر الإنساني تبرأ من خرافات كثيرة كان يرزح تحت نيرها آباؤنا الأقدمون. وكلما بسط العلم نفوذه بدد غياهب هذه الترهات والأباطيل، فهو من الخرافة كالنور من الظلمة بكشف دخيلها وبين ما اشتعلت عليه من خطر وأضرار. ومع هذا يخيل إلينا أنه لن يتمكن من انتزاع جرثومتها والقضاء عليها تماما، وستبقى الخرافة ما بقى الإنسان لتسد حاجة من حاجاته النفسية والاجتماعية.

وها هي ذي خرافة تفنى لتحل محلها خرافة أخرى، فلئن بادت الخرافات الوحشية لقد أعقبها خرافات حضرية. على أنه ليس ثمت ضير - على ما يظهر - في أن تتعلق أمة من الأمم بقدر محدود من الخرافات، فإن فشت الخرافة وسدت طريق التفكير والحكم الصحيح فهنا الداء القاتل والخطر المحدق.

وكأني بهذه الحال تنطبق تماما على ما يعانيه بلدنا اليوم. فنحن فريسة للخرافة في طعامنا وشرابنا، في ملبسنا ومسكننا، في حركاتنا وسكناتنا، في مختلف عاداتنا وتقاليدنا، بل وفي آرائنا ومعتقداتنا، وكثيرا ما وقفت الخرافة عقبة كأداء في طريق تقدمنا العقلي والجسمي، والخلقي والاجتماعي. وفي رأينا أن خرافاتنا المتفشية ترجع إلى أسباب كثيرة أهمها:

(1) طريقة الوعظ والإرشاد والتربية الدينية الفاسدة، (2) حياة القهر والاستبداد، (3) الفقر، (4) والجهل. لقد سلكت طائفة من وعاظنا مسلكاً خاطئاً للغاية، وأرسلت لنفسها العنان - طمعا في الترغيب أو الترهيب - في سرد خرافات يأباها العقل والدين، وخاصة ما اتصل منها بالحشر والنشر واليوم الآخر وعمدتها في ذلك مجموعة ضارة من كتب القصص والتفسير المملوءة بالإسرائيليات والآثار الضعيفة أو المكذوبة. وكأن علم هؤلاء الوعاظ خرافة كله، أو كأنهم يحيون على حساب الخرافة فهم يثبتون دعائهما ويبالغون في نشرها. وليست حياة القهر والاستبداد بأقل آثراً في نشر الخرافة من هذا الوعظ الفاسد، فالمغلوب على أمره يبحث عن قوى خفية يزعم أنها تعينه على التخلص مما هو فيه. كذلك تمني الخرافة الفقراء بأحلام ذهبية وآمال خلابة، وتسبغ عليهم من الخيال ما عجزت الحقيقة عن الوفاء به. ويحرم الجهل أخيرا عامة الناس من أن يفتحوا أعينهم للضياء، وقلوبهم للرجاء، لذلك كانت الخرافة والجهل نوعين متلازمين، وأخوين لا ينفصلان، وقديماً قالوا: الخرافة عمياء تخشى ما تحب، وتحب ما تخشى. وإذا كنا قد شخصنا الداء فلنعالج أسبابه الدفينة وعوامله الخفية وحذار أن نحارب الخرافة وجها لوجه ونقتصر على تسفيه أحلام معتنقيها، فإنه قد يكون أيسر أن نصرف الملحد عن إلحاده من أن نحول المخرف عن خرافته.

إبراهيم بيومي مدكور

دكتور في الآداب والفلسفة.

حول الأوزاعي (ثانياً)

للأستاذ أمين الخولي المدرس بكلية الآداب

كنت كتبت في العدد 91 من الرسالة، كلمة عن الأوزاعي، قصدت فيها أول ما قصدت إلى ملاحظات في أسلوب تفكير الكاتب، وعرضت في ذلك لإنكاره تأثر الأوزاعي بالفقه الروماني في الشام. ودار حول ذلك كلام، آخره ما كتبه الأديب الفاضل صالح بن علي الحامد العلوي في العدد 97 من الرسالة، تحت عنوان: (هل تأثر الفقه الإسلامي بالفقه الروماني أو الحقيقة هي العكس)؛ وإني أشكر لحضرته غيرته الدينية، وجميل أدبه في نقاشه، ثم أعود إلى الموضوع من الناحية التي عرضت له منها أول ما عرضت: ناحية أسلوب التفكير، وصحة الانتقال والاستنتاج.

ويبدو لقارئ مقال الأديب السنغافوري أنه متأثر بمقال نشر في مجلة النهضة الحضرمية بعنوان: (من أين أخذ الإفرنج قوانينهم) وقد نقل منه قدرا كبيرا. ولعله يسر حضرته أن أبلغه أن هذا الموضوع نفسه نشر في مصر - وربما بنصه - منذ ربع قرن مضى، ملحقا بكتاب مقدمة القوانين للأستاذ عبد الجليل سعد، وقد طبع سنة 1910م. وقرأت هذا الموضوع منذ بضعة عشر عاما، ولا أزال أذكره جيدا، ومع ذلك كله قلت فيما قلت عن تأثر الأوزاعي بالفقه الروماني تلك الكلمة المتواضعة العلمية وهي: مع عدم تعصبي للقول بهذا التأثر، ومع القصد في بيانه فإني أرى هذا الاستدلال على عدم

تأثر الأوزاعي غير مقبول من الوجهة الاجتماعية والنفسية. . . الخ) ولا أزال أقول للكاتب إن ما نقله عن مجلة النهضة الحضرمية لا يؤثر في هذا الرأي كما لم تؤثر فيه قراءتي لهذا الموضوع في مصر منذ عهد بعيد؛ ولا أجعل موضوع الأخذ أو التأثر هنا محل بحث جديد ومناقشة على صفحات مجلة سيارة، لأنه أوسع من ذلك وأعمق، ولأن ملاحظاتي لا تتوقف عليه، كما لن أعمد في تعليق على ذلك المقال إلى الإطالة والإسهاب نزولا على حكم الوقت الضيق الآن، ثم نزولا على حكم البتة، إذ لا أرى قراء الصحف الأسبوعية ينشطون لتلك المناقشة الفنية الطويلة. وسأكتفي بأن أضع بين يدي السيد العلوي والقراء ما أراه موضع ملاحظة في إجمال تام.

1 - قال السيد: ومهما قلنا بالفرق بين الأخذ والتأثر لكلا المعنيين بجريان إلى مدى واحد، وهو أن يكون في أصل الفقه الإسلامي ومزاجه شيء من الفقه الروماني)، ومع صرف النظر عن مسألة الفقهيين لا نرى محلا للتسوية بين التأثر والأخذ هذه التسوية، لأن التأثر قد يكون سلبيا صرفا، فنقول إن الوثنية العربية قد أثرت في تحريم الإسلام للتصوير والنحت، ولن ينتهي هذا إلى أن في مزاج الإسلام وأصله شيئا من الوثنية الجاهلية. والنظر يقضي بأن التأثر السلبي قد يكون أقوى أنواع التأثر وأشدها، فلا محل للتسوية بين التأثر والأخذ.

2 - وقال: إن الإسلام في ذاته جاء خارقا لقاعدة البيئة والثقافة، إذ قام النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وهو النبي الأمي الذي نشأ أبعد الناس عن أن يطلع على قانون روماني أو حكمة منقولة، وأتى بهذا الدين الأقدس مناقضا كل التناقض لما عليه قومه،. . . الخ. وغريب هذا القول من السيد، لأنه لا يصح إلا على تقدير أن هذا الدين من صنيع الرسول نفسه، وهو أمي. . الخ فعمله ناقض لقاعدة البيئة والثقافة، أما على أن الإسلام - كما هو في حقيقته - وحي إلهي فلا يستقيم هذا التمثيل مطلقا في نقض قاعدة البيئة والثقافة، لأنا لم نقل إن الله خاضع للبيئة والثقافة، بل نقول إن الله أجرى الحياة على نواميس منها تأثير البيئة والثقافة. . . الخ. وعلى وفق هذه النواميس جاء الإسلام العرب موافقا لحالهم معالجا لأمراضهم، جاريا على أسلوب تعبيرهم محكما له في فهم القرآن الكريم دستور العربية، ولم لم يجيء الإسلام بحيث تتقبله النفوس العربية، وتفهمه العقول العربية لكان عبثا - تعالى الله عنه - ولم يعش ولم ينجح.

3 - وقال: (إن الشريعة الإسلامية وجدت كاملة دفعة، أو بعبارة أصح جاءت في زمن واحد،. . الخ) وهذه العبارة أوضح من أن تحتاج مخالفتها إلى دليل، ويتجلى ذلك في قوله بعد، (وهيأ لنا شريعة كاملة وقانونا ربانيا منظما يصلح لأن يطبق على أي جيل وعلى أية أمة، ولم يزد فيه الفقهاء بعده شيئا قط إلا تصنيفه ونقله. .) فهذا الكلام ليس أحسن حالا من سابقه، فالفقهاء قد فهموا وطبقوا، واستنتجوا واستنبطوا، وخلفوا كل هذا المجهود الفقهي الكبير الهائل مبنيا بيدهم على الأصول العامة التي جاء بها الوحي، ولم يكونوا مصنفين وناقلين فقط، على أن حضرته يقول (. . . والنصوص الفقهية كلها صريحة بينة الأغراض واضحة المرامي) وهذه العبارة بنفسها ينقضها هو في الصفحة ذاتها حين يقول

عن القرآن: (على أن الاختلاف في تفسيره. . . ليس إلا لإيجازه المعجز مع بعد مراميه الغيبية) فإن هذا الإيجاز المعجز لم يفت آيات الأحكام كذلك، وبعد المرامي يشملها أيضاً؛ وإذا كانت النصوص صريحة بينة الأغراض واضحة المرامي ففم اختلف فقهاء المذاهب الكثيرة المتعددة، وفيم اختلف فقهاء المذهب الواحد في الزمنين المختلفين، وفيم تغايرت الأحكام في المسألة الواحدة هذا التغاير البين؟ والطريف في ذلك أن السيد يمثل لهذه الصراحة والوضوح بقولك مثلا لا تكذب، وأنه ليس معناه إلا لا تخبر بغير الواقع في كل زمن ومكان، وفات السيد أن هذه المسألة الخلقية نفسها على وضوحها الشديد عنده محل خلاف طويل تعدى حتى إلى كتب البلاغة، فقيل الصدق مطابقة الخبر الواقع، وقيل مطابقته للاعتقاد، وقيل مطابقته للواقع مع الاعتقاد؛ وعلى هذا يختلف كذلك تفسير الكذب، فحبذا لو كان الأمر من السهولة والصراحة والوضوح على مثل ما يراه السيد.

4 - ويقول حضرته في النصوص الفقهية (. . . أما الأغلب منها فمن الحديث والسنة، وبعضها عن الكتاب مفسرا بالسنة) ولا نعرف وجها للحكم بأن أغلب النصوص من

السنة لا من الكتاب، ولا يفهم أن الأغلب ما هو من السنة والكتاب معا إذ ليس هناك مصدر للنصوص سواهما.

5 - ويقول (ولا يجوز أن يقاس الفقه بالتفسير) ولا أدري كيف لا يقاس الفقه بالتفسير في الاختلاف والفقه ليس إلا تفسير آيات الأحكام!!

وعندي أن الكاتب الفاضل يحسن أن يعدل رأيه في هذه الأشياء قبل أن يهتم بمسألة الفقه الروماني وأخذه أصوله عن الفقه الإسلامي، أو تأثر للفقه الإسلامي به، فتلك مسائل متأخرة.

ويلي ذلك في مقال السيد ما نقله عن مجلة النهضة الحضرمية وأشرت إلى أنه منشور في مصر منذ زمن طويل؛ وقد وعدت ألا أحمله ولا أحمل القراء مؤونة مناقشته - على كثرة مواضع ذلك فيه - وإنما أقول للسيد إن كلمتي في التأثير والتأثر لا تتوقف على البت في تاريخ أصول القانون الروماني الحديث، وإنما ترجع إلى مسلمات لا محل لاختلافنا فيها: تلك هي أن الرومانية حكمت الشام قطعا، وكان ذلك الحكم لقرون كثيرة قطعا، وكانت الدولة الرومانية التي ورثت حضارة اليونان نظم للحكم قطعا، وكانت لها شرائع مدنية

وعسكرية ومالية قطعا، وكان الإسلام هو الذي خلف على ذلك كله بلا شك، - وكان لهذا على طول الزمن أثره الذي تختلف به الشام عن الحجاز مثلا ولا بد، والأوزاعي ابن هذه البيئة الحديثة العهد بهذه الحال الرومانية، فلتلك البيئة وهاتيك الثقافة أثرهما المحتوم في تكوين الأوزاعي، ولهذا التكوين أثره في فهم الكتاب والسنة والاستنباط منهما - ولا يتوقف شيء مما قلنا على درجة رقي الفقه والنظام الروماني، ولا على أن الحديث منه مسروق من الإسلام أو مقتبس منه أولا.

لكني حينما أترك هذا المقال في الفقه الروماني الحديث دون مناقشة لا أدع منه عبارة ختامية للسيد في مقاله، تلك هي قوله (. . . إن الفقه الروماني جديد لفقه جماعة من العلماء وتحقق أنهم أخذوه من الفقه الإسلامي، وهذا ما يجب ألا يعتقد خلافه كل مسلم). بل أقول للسيد لسنا في شيء من المطالبة بهذه العقيدة المعروفة ثم سرقة الفقه الروماني من الفقه الإسلامي. وحرام علينا في الدين والعقل أن نعتقد ما نشاء ونلزم بما نشاء، فدع يا سيدي هذا لمثله من الرأي والبحث. ولا تتوجس خيفة من كل شبح، ولا تعدن كل رأي دسيسة، ولا تتهمن كل مسلم بالضعف والانخداع، فالأمر أخطر من ذلك كله، وأهون من ذلك كله أيضاً.

أمين الخولي

التربية الخلقية والاجتماعية في المدرسة

للأستاذ فخري أبو السعود

أدخلت الإصلاحات والتغييرات العديدة على أنظمة مدارسنا، ولكنها كانت دائما تدور حول طرق تدريس العلوم ومناهجها، ولم تتجه إلى الناحية الخلقية - كما أشار إليه صاحب المعالي وزير المعارف في تقريره عن التعليم الثانوي - والحقيقة التي لا شبهة فيها أن مدارسنا لا تهتم بغير المواد المدرسية ولا تعمل شيئا في سبيل تربية أخلاق الطلاب.

بل الحقيقة التي يعترف بها الخبير المنصف أن مدارسنا كانت بنظمها سببا في نشر الفوضى الخلقية بين الشبان: لقبولها الطلاب من جميع الطبقات، ووضعها أبناء الطبقات المحترمة بجانب أبناء الطبقة الوضيعة في المدرسة الواحدة بلا تمييز؛ وقد دلت المشاهدات على أن الطالب المهذب يكتسب أخلاق زميله الوضيع التربية ولا يحدث العكس؛ وقد زاد هذا البلاء استفحالا في السنين الأخيرة بإقبال الطبقة السفلى على تعليم أبنائها لتأهيلهم للوظائف واكتظاظ المدارس بطلابها.

مع أن إنجلترا - على عراقتها في الحرية والديمقراطية - مدارس لا تقبل إلا أبناء الطبقات المحترمة التي تستطيع دفع المصروفات العالية، فيظل أبناؤها بمنجى من مخالطة أبناء السوقة، ذلك بان الحرية والديمقراطية يجب ألا تتعارضا مع الأمر الواقع، أو تتجاهلا وجود الطبقات المتفاوتة.

لا تعمل مدارسنا شيئا لتهذيب أخلاق أبنائها مع أننا أحوج من غيرنا إلى التربية الخلقية في مدارسنا: إذ لا يجد ناشئتنا هذه التربية غالبا في بيئة غير بيئة المدرسة: فلا في البيت ولا في الشارع ولا في المجتمع: فالتربية المنزلية عندنا ناقصة، ومعظم الآباء لا

يوجهون إلى تربية أبنائهم من وقتهم وعنايتهم ما يجب، وهم يتقادون لحنانهم الأبوي فيسمحون لأبنائهم بكل ما يريدون وإن عارض مصلحتهم وجنى على تنشئتهم؛ وطبقة العامة التي يصادفها الناشئ في غدواته وروحاته فاسدة تعم فيها رذائل الكذب والغش والقحة وجرأة اللسان مما لا مثيل له في بلد راق؛ والحجاب الذي فرضته التقاليد على المرأة يحرم المجتمع من اختلاط الجنسين وهو عامل كبير في تهذيب الخلق وترقيق الطبع وتنمية الذوق وتربية الرجولة الصحيحة.

ومصر التي جربت في مراكز الحكم زمرا من أبنائها لا يشك أحد في عظيم ذكائهم وكبير مواهبهم وواسع تعليمهم وثقافتهم، ومع ذلك كانوا عليها سوط عذاب وبثوا فيها فساد الأخلاق، مصر هذه يجب أن تنتبه إلى النقص الجسيم في نظم تربيتها، وأن تعرف جيدا قلة جدوى التعليم بدون التربية الخلقية الصحيحة التي تقوم الطباع وتبعث الاستقامة وتشعر الفرد بمسئوليته أمام ضميره وواجبه نحو مجتمعه ووطنه.

فمدارسنا اليوم تجعل واجبها الأول التربية العقلية، على حين يجب أن تكون التربية الخلقية أول مراميها، وأن يأتي تزويد الناشئ بالعلوم بعد ذلك في المحل الثاني: فتختلف برامج التعليم زيادة ونقصا وتعديلا كما تدعو الحاجة أو تشير التجارب. ووظيفة المدرسة الخلقية هي هي في مكانها الأول، وهي هي الغرض الأسمى من كل تربية وفي كل معهد، وهي عدة الناشئ وكفيلة بالنجاح في حياته مهما زادت معلوماته أو نقصت أو تنوعت.

ومن المسائل المفروغ منها بين المشتغلين بالتربية والتعليم أن التربية الخلقية لا تأتي بالتلقين ولا تكون باستظهار فوائد الفضائل ومضار الرذائل، وإنما العامل الأكبر في تشكيل أخلاق الناشئ وتوجيهها إما إلى الحسنى وإما إلى الخسران، هو الوسط الذي يعيش فيه، والناس الذين يخالطهم في ذلك الوسط، والأعمال التي يزاولها فيه كل يوم؛ فأخلاقنا تنمو نموا غير مقصود ولا متعمد ولا سيما في عهد نشأتنا، وتتشكل بالمحاكاة والاقتداء ومسايرة الغير، فالطفل الناشئ في وسط راق ينشأ فاضلا دون أن تلقى إليه كلمة واحدة في مزايا الفضيلة، والناشئ في بيئة مسمومة يشب دنيئا مهما أسمع من عظات الحكماء، ووضع بين يديه من كتب الفضلاء.

فإذا هيأنا في المدرسة للناشئ جوا نقيا صالحا نمت أخلاقه نقية صالحة دون بذل جهد ما من جانبه أو من جانب المدرس أو إدارة المدرسة؛ ولكن جو مدارسنا ليس من النقاء والصلاح بحيث ينشئ الطلاب تلك النشأة، ومهما فرض المدرس وإدارة المدرسة بعد ذلك من أنظمة وقواعد وعقوبات فعبث ليس وراءه طائل.

فقد تقدم كيف يختلط في المدرسة ابن الأسرة الطيبة بابن الأسرة الوضيعة فتسود الفوضى الخلقية الجو المدرسي، ثم إن ازدحام ساعات المدرسة بالمواد الدراسية يحول دون توثق الحياة الاجتماعية المدرسية، ويجعل الطلاب في حالة من الإرهاق والملال تحفزهم إلى

التمرد والإخلال بالنظام وإساءة المسلك كلما لاحت لهم الفرصة لذلك، وكل المواد الدراسية تتطلب منهم إجهاد عقولهم وتقييد أبدانهم، فتنوء عقولهم بالمجهود المتواصل العقيم، وتضيق أبدانهم بالتقييد، ويتجمع نشاطهم الجثماني المكبوح الذي لا يجد منصرفا في وجهة الخير فينصرف إلى ضروب الفساد والعبث بالنظام ومشاكسة الغير والتفكير في أنواع الإثم أو اللهو الفارغ.

ومن هذا تتضح الوسائل التي يجب أن تتذرع بها مدارسنا لتربي أخلاق أبنائها؛ وهي: تنقية الجو الدراسي، ووضع التربية البدنية في مكانها الذي هي جديرة به بجانب التربية العقلية، وتوثيق عرى الحياة الاجتماعية في المدرسة:

(1) فيجب أن تراعى طبقة الطالب الاجتماعية قبل أن يقبل في المدرسة، وأن يكون لهذا شأن في توزيع الطلاب على المدارس بل على الفصول، وتخصيص مدارس في البلدان المختلفة لأبناء الطبقات الممتازة والأسر الطيبة. وليس هذا بدعا: ففضلا عن وجود هذا التفريق في إنجلترا كما سبق كان بمصر ذاتها شيء منه فيما مضى: إذ كانت بعض المدارس كالخديوية والسعيدية تكاد تختص بأبناء الأسر الراقية، ولكن المدارس التي كانت لها هذه الميزة قد فقدتها أخيرا، وصار بعض المصريين يحجم عن إلحاق الأبناء بالمدارس المصرية مخافة أن يختلطوا بمن لا تحسن مخالطتهم ويفقدوا ما شبوا عليه في بيوتهم من طيب العادات والأخلاق.

وأن تختصر برامج التعلم اختصارا كبيرا وتقلل ساعاتها في اليوم المدرسي، (2) ويخصص جانب كبير من الوقت للألعاب الرياضية التي يجب أن يمارسها جميع الطلاب في كل يوم، فإن هذه الألعاب هي أساس كل تربية صحيحة شاملة ترمي إلى تكوين الفرد والمجتمع، ولا نعلم أمة بلغت شأوا كبيرا من العظمة والرقي في ماض ولا حاضر إلا كانت التربية البدنية المكان الأول في تنشئة أبنائها.

فرياضة البدن ضرورية لنموه وصحته، وصاحب الجسم الصحيح أقدر على تلقي العلوم وأداء الأعمال، ونظرته إلى الحياة نظرة تفاؤل وإقدام ورغبة في العمل وعزيمة واعتداد بالنفس، والناشئ الذي ينمو سليم البدن كذلك ينمو سليم النفس مستقيم الطبع متجها إلى الخير يؤثر من أنواع الترويح والاستجمام والسرور ضروب الألعاب الرياضية وصنوف

اللهو البريء، ولا تنحصر معظم أفكاره في مسائل الجنس ومرذول العبث كما يرجح أن تنحصر أفكار صاحب الجسم البليد الخامل.

من ذاك ترى أن الألعاب الرياضية هي قوام التربية البدنية والعقلية والخلقية، ويكفي دليلا على فشل طرق التعليم عندنا أن الزمن المخصص في المناهج لهذا العامل الحيوي في التربية هو دون الساعة في الأسبوع، وأن تعليم الرياضة البدنية في مدارسنا منوط بالجنود القدماء، وأنها لا تحسب من المواد الأساسية، وكل أولئك يزيد الطالب استخفافا بها.

كذلك يجب أن يصرف جانب كبير من أوقات المدرسة في الألعاب والأعمال (3) الجمعية والحفلات لشتى المناسبات: من ابتداء العام المدرسي أو انتصافه أو انتهائه أو توزيع الجوائز أو تكريم أبناء المدرسة أو خريجيها أو زوارها أو المحاضرات المشوقة الممتعة: ففي قيام الطلاب بتنظيم هذه الجماعات واشتراكهم فيها واهتمامهم بنجاحها خير تربية لأخلاقهم الاجتماعية، وأحسن تدريب لهم على حسن المسلك بين الجماعة، وأفضل تهذيب لذوقهم العام، وهم بأشد حاجة إلى ذلك: فما يقول مطلع منصف إن مسلك شبابنا المتعلمين في أغلب مجتمعاتهم مما يشرف. فأغلبهم يعوزهم التعقل، وحسن الذوق، والتمييز بين مقام ومقام، وما يقال هنا ويفعل، ومالا يقال أو يفعل هناك؛ وكثير منهم يعجزون عن استشعار الجد ومواصلة الرزانة في أمر من الأمور، وبهم نزعة إلى الهزل لا تقاوم ولا يكاد يطيب لهم مجتمع حتى يهبطوا به إلى قرار بعيد من التبذل والإسفاف.

نعم إن بالمدارس المصرية أنواعا من الجمعيات العلمية والعملية، ولكنها مقصورة على عدد محدود من الطلاب بينما يجب أن تكون شاملة للجميع، ويعد الالتحاق بها أمرا إضافيا على حين يجب أن يكون أساسيا، وما دامت لا تدخل في المنهاج ولا يمتحن في أعمالها الطلاب المرهقون خارجها ببرنامج حافل فإنها لا تجتذب إلا القليلين، وأغلبهم ممن لا يحفلون بالمواد الدراسية وكان يجدر الجمع بين الأمرين.

فبتطهير الوسط المدرسي من أوشاب السوقة، ولإعطاء الرياضة البدنية مقامها اللائق، وخلق الحياة الاجتماعية الجذابة بالمدرسة مكان الحياة المقفرة المنفرة، تهيئ المدرسة الجو النقي الصالح الذي يبعث الطالب على مكارم الأخلاق، ويهديه إلى القدوة الحسنة، ويسموا به إلى احترام النفس والمجتمع، وبذلك تؤدي المدرسة واجبها الأول، وتحقق التربية

غرضها الأسمى.

وهذه بعينها هي السنة التي درجت عليها المدارس الإنجليزية من قديم، ولاشك أن المدرسة الإنجليزية تفوق غيرها من المدارس، ولم يبلغ الإنجليز ما بلغوا من العظمة بتزويد أبنائهم بمقدار من المعارف أكبر مما يناله غيرهم، بل بالرياضة البدنية والحياة الاجتماعية المدرسية، وهذه هي وسيلة التربية الخلقية وهي أداة الكفاح والنجاح في الحياة للأفراد والأمم. ومن المأثور المشهور قول ولنجتون إن معركة واترلو كسبت في ملعب كلية إيتون، فهو لم يقل إنها كسبت في حجرات الدراسة أو معاملها، بل في الملعب حيث تخرج الرياضة البدنية جسما سليما وعقلا سليما وخلقا قويما وفردا ينفع نفسه والمجتمع.

الإسكندرية

فخري أبو السعود المدرس بالعباسية الثانوية

هراقليوس في المعبد
البطل
للأستاذ المعروف الأرناءوط
أي صديقي معروف! إنك لتغمر أشخاص عالمك الذي صغت في هذه الرواية البارعة،) بشعاع رقيق يحفل بالطيوب واللحون والألوان والصور.
إنك تفيض على كل ما تكتب بركة الحياة والنور، فالأشكال تتكلم، والصور تغني، والأخيلة تتفتح عن ألوان لماحة كالطيف، مفترة كالصباح.
فهنا حياة كاملة لجبل من الناس تنبسط وتأتلق حتى تملأ الأكوان بسعتها وإشراقها.
وهنا الحدائق تتدفق بأنهار كأنهار الجنة تتنهد وتغرد، وتتلفت وتزهى، وتعبق حافاتها بخمائل الحلد وأزاهير النعيم، ثم تذوب في الجو الساهم الهائم أنفاسا مشبوبة بالعطر، لاهبة بالغناء طافحة بالشوق.
فمن أحب أن يشعر بهنائة الفن، ورغادة الأدب فليقرأ (عمر بن الخطاب).
ومن فاته أن يرى إلى جنائن عبقر، وحدائق الشرق المسحورة، ويتسمع إلى حكايات الحب وأناصيص الحرب، وينظر إلى مواكب المجد وكتائب النصر فيلتمسها في هذه الملحمة الكبرى!)
أنور العطار
سرب (هراقليوس) في أنحاء الكنيسة بين العمد والأقواس والحنايا والقناطر والتصاوير والشموع، فكأنه في سروبه طائف ألقت به دنيا الأموات إلى دنيا الناس، وما كان قاهر الفرس وسيد الكتائب الظافرة في أفريقية وأوربة ليستطيع أن يكافح شجونا علقت في نفسه وملكت عليه إحساسه وشعوره، وتلك هي شجون لم يحسر عنها أمام خلصائه وأصفيائه استبقاء لزهوه وكبره، وحرصا على ذلك المجد الذي بلغ نواحيه في عمره الطويل، ولكنه أحب أن يلقي بحزنه وشجوه إلى هذا الليل الغاسق الذي بسط جناحيه على غابة تمور بالصور والدمى والمرمر والبرفير واللآلئ واليواقيت، وقد يكون من الخير لنفسه أن تطفو روحه على هذه المشاهد والاشياء، فكان كلما مر برواق من هذه الأروقة الممتعة هتف الجرح بقلبه وحسه، فترسل في مشيته، وأقبل إلى العمد المرمرية الماثلة فترفق على
جذوعها وجعل ينظر إلى أضواء الشموع، ثم إلى هذه الصور التي قبست شحوبها من نفوس عمرت بالألم والتقى والورع، فإذا صدف عن العمد المرمرية ونازعته نفسه إلى الطواف بالأماكن المقدسة، انبسط أمامه فضاء الكنيسة واتسع، وخيل إليه أن الحوائط والجدر تفر منه وتنأى عنه، فما يستطيع لحاقا بها، ولا تستطيع أن تسايره في منازعه فتسكن وتستريح؛ وكان في بعض الأحايين لا يجد معدى من الوقوف أمام هذه الصور الملونة رجاة أن يتعرف إلى أصحابها، فيفتح عينيه ويمد يده إلى مذبح صغير ازينت أطرافه وجنباته بالذهب، ويأتي إلى الصور ويقرأ أسماء الرسل على الضوء، ثم لا تعجبه هذه الأسماء فيرتد عنها في مثل خفة الوميض، ويطرح الشمعة إلى حضيض البيعة، فيخبو نورها، ثم لا يغمه ويحزنه أن يستأنف طوافه في ليلين راعبين: ليل نفسه، وهذا الليل الذي يغشى المعبد!
وربما كان من أحب أمانيه ألا يقول شيئا لأصحاب التصاوير، وقد يكون من أرضى هذه الأماني أن يلقي بدخيلة نفسه إلى المسيح وحده، وذريعته في الحرص على صمته حتى يخلو إلى صورة السيد المسيح أنه ناضل ونافح في سبيله، فأولى للنبي الذي نصره على الوثنية وبارك سلاحه في سوق الوغى أن يفزع إلى الرسول العبقري، وإنما يضيره أن يقص حياته على صور مكان أصحابه من طرازه وعنصره!
ولقد وقف (هراقليوس) بعد إفلاته من القبر المقدس بجوار صخرة قيل إن ملكا من السماء وقف عليها ليتحدث إلى العذراء مريم، فتهافت عليها وتمسح بها، ثم دخل إلى بيعة صغيرة أسماها نصارى القرون العافية (معبد الملائكة)، ثم لم يلبث أن ازور عنها وجاء إلى بيعة محاذية في رحبتها قطعة كبيرة من المرمر الرمادي قيل إن السيد المسيح صعد عليها وتراءى لمريم المجدلية، وعليه لباس جنان يحمل الورد، وكانت البيعة الصغيرة تسبح في ظلام شديد، فثنته الجهمة الراعبة عن شعور الرجل التقي، فجثم مصليا على المرمر وحدق إلى سماء المحراب كأنه يريد أن يتعرف المكان الذي خرج المسيح منه بعد دفنه، ولم يطل مكثه في المحراب، فعافه وغشى المعبد الذي

ظهر فيه السيد للعذراء بعد بعثه، فطاف بودائعه طوفة الحاج المنيب، وكانت المصابيح المذهبة الملونة تضيء جوانب المعبد، فرأى هراقليوس على وميضها صورة تمثل المسيح ووالدته، فرق للصورة وابتسم، ولكن
ذلك العزاء الذي تمناه لم يخالط نفسه، فجمع ذيول ردائه وخرج من المعبد ليدأب في طوافه، فاستقبلته العمد المرمرية الرفيعة، كأنها خيالات الموتى، فأخافه ما عليها من سعف النخيل وورق الغار، وأنمى مخاوفه احتراق البخور في كل ناحية من نواحي البيعة الكبرى، وإطلال الصور على الحوائط والجدر، وكان يخيل إليه أن حجه قد انتهى، فينبغي له وقد بلغ غايته من زيارة الأماكن الطاهرة أن ينقلب إلى أحراسه الذين أبوا مفارقة أبواب الكنيسة قبل فراغه من حجه، فلما هم أن يخرج لم يستطع أن يتعرف الأبواب، فقد امتد صحن الكنيسة وفاح حتى مائل الحرجة الغبياء، فألقى بنفسه إلى تيه راعب، وبلغ به المطاف محراب القديسة (هيلانة) المائل إلى يساره، فشخص إليه وقرأ اسم هيلانة منقوشا على المرمر بحروف إغريقية، وهو لا يجهل أمر هذه المرأة التي لبست التاج في كنيسة الرسل، وابتعثها شغفها العنيف بقصة حياة المسيح على فراق القصر، فجاءت إلى بيت المقدس لتبحث عن خشبة الصليب، فلما عثرت عليها بالغت في تكريمها، ثم رفعت هذه الكنيسة تخليدا لذكريات تلك الحياة الماجدة!
لألأ الفرح على جبين هراقيلوس فتشاجى ورق، وجعل يستعرض تاريخ تلك المرأة التقية التي أزجاها الورع الشديد العنيف إلى الإيغال في منافحة الوثنية، فأكبر حياتها. ثم فاضل بين هذه الحياة وحياته، فراقه تساوق عجيب في الحياتين، ولذه أن تبدأ المرأة العاقلة أمرها في البحث عن الصليب حتى حصلت عليه، وأن يبدأ هراقيلوس أمره في إرجاع الصليب إلى مكانه الأصيل بعد انتصاره على جيوش ملك الملوك كسرى!
وكانت هذه المفاضلة التي ذهب إليها ساعة وقف إلى جانب المحراب مثارا لذكريات نبيلة في نفسه، فاطمأن البطل المقارع إلى خاتمة حياته، ووثق بقدرته على اجتناء النصر حتى يغيب في رمسه! وما عاد يخيفه هذا البغض الذي يشعر به الناس في الشام وفلسطين ومصر، بل عاد هراقيلوس يخاف أمر هذه الصحراء التي أخرجت الأبطال والمساعير إلى مشارف الشام للثأر بدم الرسول الذي قتله أمير من غسان! ومن أين لهذه الصحراء الغارقة في الرمال، والتي لا يسمع لها نشيد في البلاد الوارفة الظل، حظ هراقيلوس اللامع وجده الساطع؟ وهذا الملك الطويل العريض الذي استعبد الشعوب وأذل الملوك؟ بل من أين لهذه الصحراء الغطشاء السادرة في حر الهاجرة، هذه الأنهار الجارية، وهذه البحار الطاغية،
وهذه الشطآن التي لا حد لها ولا انتهاء!
قد تغري الحماسة فرسان الصحراء بالوثوب على القرى والمسالح، ولكن دون وصول هؤلاء الفرسان إلى المدن الضاحكة على ضفاف الأنهر وشواطئ البحار، حمية هؤلاء الملوك الذين مشوا في ركاب قيصر لقتال كسرى في مدائنه! وبسالة الجيش الذي ظفر بأسلاب العدو في جبال الألب وفي سهول مقدونيا، وعلى شواطئ البحر اليوناني!
وماذا يستطيع (فروة بن عمرو) الذي ثار على سيده ومولاه أن يفعل، وفي جيش هراقيلوس قواد ما تزال صدورهم تخفق بتلك الأناشيد التي سمعها العراق وسمعتها فارس، ولا يزال صليلها الراعب يرعد في سمع هذه الدنيا التي لا يرتفع لها علم بجوار علم قيصر!.
لقد همس هراقيلوس باسم فروة، وهو منحدر إلى الهاوية العميقة التي نقرت على جلامدها كنيسة القديسة هيلانة، همس الساخر العابث، ولما جاز السلاليم إلى ذلك المنحدر الأوهد رفع يده إلى الفضاء كأنه يتوعد الفيلارك فروة بن عمرو الجذامي، ثم تضاحك، حتى لقد رن ضحكه في جوف الهاوية وأردف صائحا: (ما أنا بحاجة إلى قتالك أيها الفتى الذي ابتعثته أماني الشباب على الزراية بسيد الجيوش وأمير الجحافل! فمثلك لا يقاتله رجل إلا من طرازه ونوعه، وقد وفقت في العثور على الرجل فاليكه، فأنه الحارث الغساني أمير دمشق وسيأتيك من حيث لم تحذر، ويقاتلك من مأمنك).
جاز قيصر السلاليم في رفق وهوادة، فاستقبلته الظلمة الفاحمة، وارتمت على جبينه الرطوبة، وسرت إلى نفسه عفونة ما كان يستطيع عليها صبرا، ومع هذا كله مضى

هراقيلوس لما شاء، ودأب في انحداره حتى انتهى إلى الهاوية، فإذا عليها سحب من ليل صارد، وإذا الرطوبة التي استقبلته على وصيد الباب تستقبله عند كل خطوة، وإذا هو لا يبصر غير بريق الفسيفساء على الحياط والجدر والحنايا، فانكمش وتقاصر وردت إليه هواجسه، وثابت إلى قلبه وساوسه، وامتلأ رأسه بالتهاويل والتصاوير، فاطرح عبقرية الرجل الأريب، وأخذته جنة الرجل السروب، وفكر في الرجوع على عقبيه فما جرؤ على رجعة وشيكة، فقد سالت نفسه على الحياط والجدر، وأنمى مخاوفه بصيص من ضياء يتسرب إلى حضيض البيعة من ثقوب في قبتها السامقة، وقد تسايل على الجدر والحياط

فضوءها، فنظر هراقيلوس إليها فإذا عليها تصاوير غاتمة شاحبة تمثل أشخاصا ذوي وجوه كامدة، وقد قعد هؤلاء القرفصاء، وحسروا عن صدورهم فإذا هي قد أكلتها القروح وأثخنتها الجروح، فسال صديدها على أطمار بالية عافية، وبين هؤلاء المناكيد المشائيم فقراء متسولون يغشى وجوههم الناصلة أثر غير يسير من بؤس ويأس، ومن حولهم فتى رائع الجمال، ضاحك الأسارير قد سدر شعوره الشقر على منكبيه حتى ماثل المسيح في ملامحه البارعة؛ ولكنه ضرير لا يبصر ما حوله!

خيل إلى هراقيلوس وهو ينظر إلى هذه التهاويل أنه في مكان يسوده العذاب، فتلطفت نفسه ورجفت أسنانه ووضع يده على عينيه كأنما هو يحاول ألا يرى إلى هذه الأشياء الجاهمة، ثم فكر في الرجوع إلى المعبد، ليلحق برجاله الذين ينتظرون معاده على الأبواب فما استطاع إلى ذلك سبيلا، فلقد أمالته مخاوفه إلى الإيغال في الطواف فمشى بين صفين متقابلين من أشباح وصور ثم لم يعد في ميسوره أن يدأب في طوافه، فوقف تحت قنطرة المعبد وجعل يستمع لفحام مؤلم ينبعث من صدره.

ليس بين هذه المحاريب التي غصت بها أنحاء كنيسة القبر المقدس ما يماثل محراب القديسة هيلانة في ظلمته وروعته، وفي ذكرياته الحافزة المثيرة، فلقد يستطيع الإنسان أن يمر بالمعابد جميعا وينسل إلى الأروقة جميعا، ويتجسس العمد والتصاوير جميعا فلا يحس خوفا، فإذا ألقت به حظوظه العاثرة إلى معبد القديسة هيلانة بدت له نواحيه وأطرافه صامتة ذاهلة، فإذا تدفق في سيره ألفاه خياليا عاطلا إلا من هذه الأشباح والأطياف الجاثمة على سلاله ودرجاته وعند مداخله، وإلا من هذه التصاوير التي لا تفارق جدره وحياطه، فإذا طاف بهياكله ومنابره لم تتبدل في عينيه هذه الصور التي أبصرها على عمده وحناياه وأقواسه، ثم لا يلبث أن يفر من هذا المكان الراعب الذي يماثل في تهاويله وتصاويره معابد الوثنية.

لم يجد هراقيلوس معدى عن الصلاة فخافت بصوته لعل صلاته تنسيه هذا الضجر الأحمق الذي علق بنفسه، أو لعل هذه الصلاة التي همس بها في الراموس الراعب ترجع به إلى حزمه ومضائه فينقلب على أحلامه وهواجسه، ويجفو هذه العزلة الجاهدة، ويفيء إلى سريه صحيح العقل موفور الذكاء، ولكن الرجل الذي أوفى لنصرانيته وبر بمسيحه ما كان

يجد في هذه الصلاة التي رددها أمام التصاوير، ذلك الصفاء الذي كان يشتاقه، وذلك لأن ماضيه مثل له في الراموس النابي، فزحمته طيوفه وأشباحه، وخرجت على فمه أسماء معاركه وملاحمه، وانفلتت من صدره ذكريات مخازيه ومساويه، فوازن بين انتصاره على الوثنية وبين إيغاله في تنكيد أبناء الشيع النصرانية، فرجحت كفة رذائله على كفة فضائله، فتشاجى ورق وهام على وجهه في فضاء المعبد حتى بلغ هيكله المرمري، فوقف خياله كأنما هو يريد أن يعترف بذنبه، أو كأنما هو ينزع إلى إلقاء جرائمه في هذا المكان المخوف، فذكر أمام الهيكل اسم: (مارتينا) زوجه، وقد نهاه البطريرك (سرجيوس) عن مخالطتها، فأبى ذلك مسايرة لميول قلبه، ثم تزوجها وألبسها لباس القياصرة ومشى بها إلى كنيسة أيا صوفيا من غير أن يفطن إلى عظيم ذنبه عند ربه.

وكان كلما طافت به هذه الذكر الشجية لا يمنع عينيه البكاء حتى لقد استفاض أنينه في أنحاء المعبد، فاستمعت لها التصاوير ووعتها السدفة، ثم غشيته ذهلة قاتلة، فجعل يهذي هذيانا بليغا، وانكفأ يخلط ماضيه بحاضره، وقذف فمه أسماء ضحاياه، وبين هذه الأسماء التي لا تحصى اسم فتاة وطئ قيصر عفافها في ليلة عاصفة بالبروق والرعود، وأرادها على فراق وطنها فخرجت منه إلى ربوع الشام وفي نفسها المحطمة من

الذكر الراعبة ما ليس في كتاب.
وكان هذا الخوف الذي تولاه ساعة نظر إلى صورة الأعمى مبعث حيرته ومصدر وساوسه، فسأل نفسه عن هذا الجزع الذي غشيها وهو الزعيم الكمي الذي جاز بفرسانه شواهق إنطاكية وسهولها ليلحق بجيوش (كسرى) عند (تدمر) فتنة الصحارى، فلما فرت جيوش كسرى أمام كتائبه ثارت حميته واستأنف زحفه في أرض محصبة واعرة، حتى لقى كسرى عند دجلة فنهد إلى مقارعته وحمله عار الانكسار، ولحق به إلى المدائن وأقسره على إرجاع الصليب الذي حمله ملك الملوك من بيت المقدس.
وليس هذا كل ما فكر فيه، بل لقد ذهب في تفكيره إلى أبعد مدى، فتمثل دخوله إلى هياكل الوثنية في موكب ضاحك ينس تلك الحماسة البالغة التي لقيها في معابد (جوبيتير) و (منرفا) فوازن بينها وبين هذا الفتور الذي استقبلته به معابد النصرانية!
وعيناه لا تزالان تنظران إلى صورة الفتى الأشقر الذي لا يبصر!
(البقية في العدد القادم)
معروف الأرناءوط
-
شاعرنا العالمي أبو العتاهية
للأستاذ عبد المتعال الصعيدي
ويجب أن نضيف إلى تلك الأدلة على أن حب أبي العتاهية لعتبة جارية المهدي لم يكن حبا صادقا، دليلا آخر هو ذلك الشكل الذي ابتدأ به حبه لها، وحب صاحبه لخالصة صاحبتها، فإن وقوف كل واحد منهما في الطريق لتمر عليه أي امرأة كانت، فيتفق أن تمر عليهما هاتان الجاريتان، فيقول أحدهما قد عشقت عتبة، ويقول الآخر قد عشقت خالصة، لا يدل إلا على أنهما كانا يريدان حبا كيفما اتفق، حبا يتخذانه وسيلة للظهور والمران على الشعر، لا حبا صادقا يملك عليهما حياتيهما وشعريهما، كما ملك ذلك على الشعراء العشاق قبلهما.
ولم يكتف أبو العتاهية باتخاذ عتبة وسيلة له إلى الاتصال بالمهدي، بل اتصل أيضاً بيزيد بن منصور خال المهدي، وكان بارا بأبي العتاهية، كثيرا فضله عليه، وكان أبو العتاهية منه في منعة وحصن حصين، مع كثرة ما يدفعه إليه، ويمنعه منه من المكاره، ومن أجله كان أبو العتاهية يتعصب لليمانية أخوال المهدي، ويمدحهم فيما يمدحه به من شعره، ومن ذلك قوله:
سُقيت الغيثَ عليك نورا ... فنعم محلَّةُ الملك الهمام
لقد نشر الإله عليك نوراً ... وخفَّك بالملائكة الكرام
سأشكر نعمة المهديَّ حتى ... تدور عليَّ دائرة الْحِمَام
له بيتان، بيتٌ تُبَّعِيٌّ ... وبيت حَلٌّ بالبلد الحرام
وقد اتصلت مدائحه بالمهدي فقربه منه، وعظم مقامه في دولته، ونال من جوائزه ما لم ينله غيره، وكان الأمر يصل بينهما أحيانا إلى التبسط في أوقات اللهو إلى حد تسقط في الكلفة، وينسى الفارق بين المهدي وبينه، ومن ذلك أنه خرج معه يوما إلى الصيد في بعض من حاشيته، فوقعوا منه على شيء كثير، وتفرقوا في طلبه، وأخذ المهدي في طريق غير طريقهم وكان معه أبو العتاهية، فعرض لهم واد فسيح، وتغيمت السماء وبدأت تمطر، فتحيرا في أمرهما، وأشرفا على الوادي، فإذا فيه ملاح يعبر الناس، فلجأ إليه وسألاه عن الطريق، فجعل يضعف رأيهما، ويعجزهما في بذلهما أنفسهما في ذلك الغيم للصيد؛ ثم ادخلهما كوخا له، وكاد المهدي يموت بردا، فقال له الملاح: أغطيك بجبتي هذه الصوف؟
قال: نعم، فغطاه بها فتماسك قليلا ونام، فافتقده غلمانه، وتبعوا أثره حتى أتوا إليه، فلما رأى الملاح كثرتهم علم أنه الخليفة فهرب، وتبادر الغلمان فنحوا الجبة عنه، وألقوا عليه الخز والوشى، فلما انتبه قال لأبي العتاهية: ويحك ما فعل الملاح فقد والله وجب حقه علينا، فقال: هرب والله خوفا من قبح ما خاطبنا به، فقال إنا لله، والله لقد أردت أن أغنيه، وبأي شيء خاطبنا؟ نحن والله مستحقون لأقبح مما خاطبنا به، بحياتي عليك إلا ما هجوتني، فقال: يا أمير المؤمنين كيف تطيب نفسي بأن أهجوك، فقال: والله لتفعلن فإني ضعيف الرأي مغرم بالصيد. فقال:
يا لابس الوشى على ثوبه ... ما أقبح الأشيب في الراح

فقال له زدني بحياتي فقال:
لو شئت أيضاً جُلتَ في خامة ... وفي وشاحين وأوضاح
فقال له: ويلك هذا معنى سوء يرويه عنك الناس وأنا أستأهل، زدني شيئا آخر. فقال: أخاف أن تغضب، فقال لا والله، فقال:
كم من عظيم القدر في نفسه ... قد نام في جُبةِ ملاَّح
وهذه حادثة أخرى له مع المهدي تدلنا على أن اتصاله به لم يكن اتصال الشاعر المستجدي الخانع، بل اتصال الشاعر الذي يعرف لنفسه قدرها، فإذا رأى شيئا أمامه من ممدوحه لا يرضى عنه، نسى فيه ماله وجوائزه، ولم يذهب فيه معه على ما يرضى هواه، بل يذهب فيه على ما يرضى نفسه هو، وإن كان يتلطف في ذلك بقدر ما تسمح به ظروف عصره في مخاطبة الملوك، وتهدئة ثائرتهم عند غضبهم.
دخل على المهدي وزيره أبو عبد الله، وكان قد وجد عليه في أمر بلغه عنه، وأبو العتاهية حاضر مجلسه، فجعل المهدي يشتم أبا عبيد الله ويتغيظ عليه، ثم أمر به فجر برجله وحبس، ثم أطرق المهدي طويلا فلما سكن أنشده أبو العتاهية:
أرى الدنيا لمن هي في يديه ... عذاباً كلما كبرت عليه
تهين المكرمين لها بصُغر ... وتكرم كل من هانت عليه
إذا استغنيت عن شيء فدعه ... وخذ ما أنت محتاج إليه
فتبسم المهدي وقال لأبي العتاهية: أحسنت، فقام أبو العتاهية ثم قال: والله يا أمير المؤمنين
ما رأيت أحدا أشد إكراما للدنيا، ولا أصون لها، ولا أشح عليها، من هذا الذي جر برجله الساعة؛ ولقد دخلت إلى أمي المؤمنين، ودخل هو، وهو أعز الناس، فما برحت حتى رأيته أذل الناس، ولو رضى من الدنيا بما يكفيه لاستوت أحواله ولم تتفاوت. فتبسم المهدي ودعا بأبي عبيد الله فرضى عنه، فكان أبو عبيد الله يشكر ذلك لأبي العتاهية.
فإذا قيل لنا كيف صار الفتى بائع الجرار إلى هذه المنزلة من علو النفس، بحيث يسمو ذلك السمو على وزير المهدي، إذا بدا للناظر غريبا أن ينقلب هذا الشاعر الماجن ذلك الانقلاب الذي يتنافى مع ماضيه كل المنافاة، فإن هذا لا يجعلنا نتعجل درس هذا الشاعر العظيم، ولا بد أن ننتظر ذلك الإرهاص إلى غايته، ونمضي في درسه مرحلة مرحلة.
ومن مدائحه في المهدي تلك القصيدة التي مدحه بها أمام بشار وأشجع السلمي وغيرهما من الشعراء، وقد إذن لهم المهدي فجلسوا وسكت أهل المجلس، فسمع بشار حسا، فقال لأشجع: من هذا؟ فقال أبو العتاهية، فقال: لا جزي الله خيرا من جمعنا معه، ثم أمره المهدي فأنشد:
ألا ما لسيدتي ما لها ... أدَلاًّ فأحمل أدلالها
وإلا ففيمَ تجنَّت وما ... جنْيتُ سقى الله أطلالها
ألا إن جارية للإما ... م قد أسكن الحب سربالها
مشت بين حور قصار الخطى ... تجاذب في المشي أكفالها
وقد أتعب الله نفسي بها ... وأتعب باللوم عذالها
فقال بشار لأشجع: ويحك يا أخا سليم! رأيت أحر من هذا؟ ينشد مثل هذا الشعر في هذا الموضع! حتى بلغ قوله:
أتته الخلافة منقادة ... إليه تجرر أذيالها
ولم تك تصلح إلا له ... ولم يك يصلح إلا لها
ولو رامها أحد غيره ... لزلزلت الأرض زلزالها
ولو لم تطعه بنات القلو ... ب لما قبل الله أعمالها
فقال بشار: أنظر ويحك يا أشجع، هل طار الخليفة عن فراشه طربا لما يأتي به هذا الكوفي؟
والناظر في هذه القصيدة يرى أبا العتاهية إلى هذا العهد يبتدئ مدائحه بالنسيب على عادتهم في ذلك، ولكنه لا ينسب بليلى ولا هند كما كان ينسب الشعراء قبله، وإنما ينسب بالجواري البغداديات الحسان، ليجاري في ذلك عصره الذي يعيش فيه، ولا يجمد على ما كان يجمد عليه غيره، ولم يكن مع هذا يعني بتطويل النسيب أمام المديح حتى يستفرغ فيه وسعه، بل يلم به إلماما، ثم يدخل في مقصده. قال صاحب

الأغاني حدثنا الصولي، قال حدثنا الغلابي، قال حدثنا عبد الله بن الضحاك أن عمرو بن العلاء مولى عمرو بن حريث صاحب المهدي كان ممدحاً، فمدحه أبو العتاهية، فأمر له بسبعين ألف درهم، فأنكر ذلك بعض الشعراء وقال: كيف فعل هذا بهذا الكوفي! وأي شيء مقدار شعره؟ فبلغه ذلك، فأحضر الرجل وقال له: والله إن الواحد منكم ليدور على المعنى فلا يصيبه، ويتعاطاه فلا يحسنه، حتى يشبب بخمسين بيتا، ثم يمدحنا ببعضها، وهذا كأن المعاني تجمع له، مدحني فقصر التشبيب وقال:

إني أمنت من الزمان وريبه ... لما علقت من الأمير حبالا

لو يستطيع الناس من إجلاله ... لحذوا له حر الوجوه نعالا

عبد المتعال الصعيدي

محاورات أفلاطون - 24

الحوار الثالث

فيدون أو خلود الروح

ترجمة الأستاذ زكي نجيب محمود

فلو لاحظ شخص أن (أ) أطول من (ب) بمقدار رأس، وأن ب أصغر بمقدار رأس، فسترفض أن تسلم له بهذا، وستزعم بقوة أنك لا تعني إلا أن الأكبر أكبر بالكبر، وبسببه، وأن الأصغر ليس أصغر إلا بالصغر، وبسببه، وهكذا تجنب نفسك خطر القول بأن الأكبر أكبر، وأن الأصغر أصغر، بمقياس الرأس، الذي هو هو في كلتا الحالتين، وستجنب نفسك كذلك ما في افتراض أن الرجل الأكبر أكبر بسبب الرأس الذي هو صغير، من سخف فظيع. ألم تكن لتخشى ذلك؟

فقال سيبيس ضاحكا: كنت لأخشاه حقا

وكنت تخشى، بنفس الطريقة، أن تقول إن عشرة تزيد على ثمانية بأثنين، وبسببها، ولكنك كنت تقول إنها تزيد عليها بالعدد، وبسببه، أو أن ذراعين يزيدان على ذراع واحد بنصف بل هما يزيدان عليه بالكبر - ذلك ما كنت تقوله لأن الخطر بذاته موجود في كلتا الحالتين.

قال: جد صحيح

- ثم ألم تكن لتحذر من التأكيد بأن إضافة واحد إلى واحد، أو قسمة واحد، هي سبب اثنين، وكنت لتقسم أمام الملأ بأنك لا تدري طريقة يجيء بها أي شخص إلى الوجود، إلا مشاطرته لجوهره الأصلي، فينتج أن سبب الاثنين الأوحد هو - في حدود ما تعلمه أنت - مشاطرة الأثنينية، فهذه المشاطرة هي طريقة عمل أثنين كما أن مشاطرة الواحد هي طريقة عمل الواحد؛ وكنت ستقول إني مطرح ألغاز القسمة والإضافة جانبا - فقد تجيب عنها رؤوس أبلغ من رأسي حكمة، وما دمت كما أنا عديم الخبرة، أفزع من ظلي كما يذهب المثل، فلست أقوى على أن أتناول بالهدم مبدأ ذا أساس مكين. فإن هاجمك في ذلك مهاجم، لم تحفل به، أو أجبته حتى ترى إن كانت النتائج الناجمة متفقا بعضها مع بعض أولا، فإن طلب إليك بعد ذلك أن تتناول هذا المبدأ بالشرح، مضيت تزعم مبدأ أسمي، فأسمي المبادئ السامية، حتى تجد لنفسك مكمنا، ولكنك لم تكن لتخلط في تدليلك بين المبدأ والنتائج، كما فعل الأرستيون على الأقل إذا أردت أن تستكشف الوجود الحقيقي. لا لأن هذا الخلط كان سيتبين لهؤلاء الذين لا يعنيهم الأمر إطلاقاً ولا يفكرون فيه، فلديهم من الذكاء ما يكفي أن يجعلهم يغتبطون بأنفسهم غبطة عظيمة، مهما يكن ما تحويه أفكارهم من عناء كبير، ولكني أعتقد أنك فاعل كما أقول إن كنت فيلسوفا.

فقال سيمياس وسيبيس في صوت واحد: إن ما تقوله لحق بالغ اشكراتس - نعم يا فيدون، وليس يدهشني منهما هذا التسليم، فكل إنسان له من الفكر أدنى حدوده ليقر بما في تدليل سقراط من وضوح عجيب.

فيدون - يقينا يا اشكراتس، بلى، وهو إحساسنا أيضاً، نحن الذين نصغي الآن لروايتك ولم نكن من الرفاق، ولكن ما الذي أعقب هذا؟

فيدون - بعد أن سلموا بهذا كله، ووافقوا على وجود المثل، وعلى مساهمة سائر الأشياء فيها، تلك الأشياء التي اشتقت أسماؤها من تلك المثل، قال سقراط ما يأتي، إن كنت مصيبا فيما أتذكر:

تلك هي طريقتك في الحديث، ومع ذلك فحين تقول إن سمياس أكبر من سقراط

وأصغر من فيدون، ألست بذلك تضيف إلى سمياس الكبر والصغر معا؟
- نعم إني أفعل ذلك
- ولكنك على رغم هذا تسلم بأن سمياس لا يزيد في الحقيقة عن سقراط بسبب أنه سمياس، كما قد يدل عليه ظاهر العبارة، ولكنه يزيد عليه بسبب ما له من حجم. فليس يزيد سمياس على سقراط لأنه سمياس أكثر مما يزيد عليه لأن سقراط هو سقراط، إنما بسبب الزيادة أن فيه صغرا حينما يقرن إلى كبر سمياس؟
- حقاً
- وإذا كان فيدون يربي عليه حجما، فليس ذلك لأن فيدون هو فيدون، بل سببه أن في فيدون كبرا بالنسبة إلى سمياس الذي هو أصغر بالمقارنة؟
- هذا حق
- وإن فسمياس يقال عنه إنه كبير كما يقال عنه إنه صغير لأنه في موقف وسط بينهما، فهو يزيد بكبره على صغر أحدهما، وهو يسمح لكبر الآخر أن يزيد على صغره. ثم أضاف ضاحكا: ما أشبهني فيما أقول بكتاب، ولكني أعتقد أن ما أقوله حق فوافق سمياس على هذا
- والسبب في هذا القول مني هو رغبتي في أن تروا معي أنه ليس الكبر المطلق وحده هو الذي يستحيل عليه أن يكون كبيرا وصغيرا في آن واحد، بل إن ما فينا من كبر، وكذلك ما في المحسات، لن يقبل كذلك الصغير بتاتا، ولن يرضى أن يربي عليه، وسيحدث بدلا من هذا أحد شيئين - إما أن الأكبر سيزول أو يتراجع أمام ضده، وهو الأصغر، أو أنه سيتلاشى بازدياد الأصغر، لكنه لو قبل أو سلم بالصغر فلن يتغير ذلك منه، كما أني لا أزال كما كنت تماما الشخص الصغير بذاته مع كوني قد تلقيت الصغير وقبلته حينما قرنت إلى سمياس. فكما أنه يستحيل قطعا على مثال الكبير أن يتنازل ليكون أو ليصير صغيرا، كما يستحيل على أي ضد آخر كما هو، أن يكون أو يصير ضد نفسه ابدا، فهو إما أن يزول أو يمحى أثناء التغير
أجاب سيبيس: هذا عين ما أرتئيه
فلما أن سمع ذلك أحد الرفاق، ولست أذكر على التحقيق من هو، قال: بحق السماء، أليس هذا هو النقيض تماما لما سبق التسليم به - ذلك أن من الأكبر جاء الأصغر، ومن الأصغر جاء الأكبر، وإن الأضداد إنما تولدت من أضداد، فأحسبكم الآن منكرين هذا إنكارا قاطعا.
فمال سقراط نحو المتكلم برأسه منصتا، ثم قال: تعجبني جرأتك في تذكيرنا بهذا، ولكنك لم تلاحظ أن هنالك اختلافا بين الحالتين، فقد كنا نتحدث فيما سلف عن الأضداد في المحسوسات، أما الآن فحديثنا عن الضد في الجوهر الذي يستحيل عليه - كما هو مقطوع به - أن يكون على خلاف مع نفسه سواء أكان هذا الضد فينا أو في الطبيعة. إذن فقد كنا يا صديقي نتحدث عن الأشياء التي تكون الأضداد فطرية فيها، والتي سميت تبعا لها، أما الآن فنحن إنما نتكلم عن الأضداد التي تكون فطرية فيها (في الأشياء) والتي تخلع اسمها عليها، فلن تقبل قط هذه الأضداد الجوهرية، فيما نعتقد، التوليد أو الخروج بعضها من بعض. وهنا التفت إلى سيبيس وقال: هل أدخل اعتراض صاحبنا شيئا من الحيرة في نفسك يا سيبيس؟
فأجاب سيبيس: لم أشعر بذلك، ولكني لا أنكر أني أوشك أن أحس الارتباك
فقال سقراط: إذن فنحن بعد هذا كله متفقون على أن الضد لن يكون مضادا لنفسه بأية حال؟
فأجاب: إننا في هذا على اتفاق تام
- ولكن اسمح لي أن أطلب إليك مرة ثانية أن تنظر إلى المسألة من وجهة أخرى، لترى إن كنت متفقا معي: أهنالك شيء تسميه بالحرارة وشيء آخر تطلق عليه اسم البرودة؟
- يقينا
- ولكن أهما النار والثلج ذاتهما؟
- كلا، بغير شك
- ليست الحرارة هي النار، ولا البرودة هي الثلج؟

- لا
- ولكنك لن تتردد في التسليم بأنه إذ يكون الثلج تحت تأثير الحرارة، كما سبق القول، فلن يلبثا ثلجا وحرارة، بل كلما ازدادت الحرارة، تراجع الثلج أو أدركه الفناء؟
أجاب: جد صحيح
(يتبع)
زكي نجيب محمود
أرض النبوة
مهداة إلى الصديق النابغة علي الطنطاوي بمناسبة عودته من الديار المقدسة
للسيد أمجد الطرابلسي
حَدِّثْ رِباعَكَ عن أفياءِ عدنان ... يا شِبْلَ غَسّانَ هِجْ أشبالَ غسانِ
هاتِ الأحاديث عنها فَهْيَ شيقَةٌ ... تَشفى بها النفسُ من سُقْمٍ وأحزانِ
أرضُ النبوةِ ماذا في أباطِحِها ... ماذا أجَدَّ بأهليها الجديدانِ
ومبعثُ النورِ هل تدوي كَأَمْسِ بهِ ... آياتُ (أحمدُ) أو أشعارُ (حسّان)
ومَهبطُ الوحيِ، والذكرى مُواسِيَةٌ ... ماذا تُحَدِّثُ عن وَحيٍ وفُرْقان!
حَدِّثْ عنِ المُلْكِ في أرضِ النبيِّ وعنْ ... عَرْشٍ هناكَ وريفِ الظلِّ فَيْنان
تَهْفو الملائِكُ فَرْحى حول سُدَّتِهِ ... مثلَ الحمائِمِ تهفو فوق أفنان
حَفتْ به مُهَجُ الإسلام تَكْلؤهُ ... ورفْرَفَتْ فَوقَهُ آمالُ عدنان
حدث عن القَبْرِ! هل أشجَتهُ مائجةً ... أنباءُ (جِلّقَ) أو أرزاءُ (تَطْوان)
لهفي عليهِ يُقِضُّ اليومَ مضْجَعَهُ ... ما يُرهقُ العُرْبَ من بَغْيٍ وعدوان
مَهْدَ النبي! يكادُ الشوق يَحملُني ... إليك مستيقظا أو غير يَقظان
ماذا أُرددُ عن وجدٍ يساوِرُني ... قلبي لهيفٌ وَطَرفي جِدُّ هَتّان
أرضُ عليها جرى الإسلامُ مندفِقاً ... ليغسل الأرضَ من رِجْسٍ وأدران
أهفو إليها لعلَّ العيشَ يَهْنَأُ لي ... ما بين أهلي وأرحامي وإخواني
مُلَّ المُقامُ بأرْضِ الشام في زمَنٍ ... طغى به الجوْرُ فيها شَرَّ طُغْيان
عفا بها كَلُّ مَجْدٍ بعد عزَّتِها ... واندكَّ للعُرْبِ فيها كلُّ سلطان
لا الزهرُ في (نَيْرَبَيْها) باسِمُ أرِجُ ... ولا البَلابِلُ تَشْدُو فَوْقَ (كيوان)
يا من رأى (تَرَدى) والحزنُ يُثقِله ... يجرى مع الدهرِ شَأْنَ المُتْعِبِ الواني
أسْوانُ تَغْشاهُ سُحْبُ الهمِّ داجِيَةً ... فيقطعُ الليل في بَثٍّ وأشجان
تمشي المُسوخُ على جنبيهِ معجَبَةً! ... يا للَّبَهاليلِ من فِهْرٍ وعدنانِ
يا شامُ لولا ضحايا جِدُّ غاليَةٍ ... زانَتْ بِطاحَكِ من شِيبٍ وشُبَّان
لولا ثَرًى طَيِّبُ كالمِسكِ تُرْبَتُهُ ... جرتْ عليهِ دماهُمْ مثلَ غُدْران
لَسِرتُ عنكِ إلى أرضِ النبي هوًى ... أليس كلُّ بلادِ العُرْبِ أوطاني؟
لكن أأنسى بلادي وَهْيَ داميةٌ ... تَئِنُّ من عَسفِ أعلاجٍ وَذؤبان
حسبي فَخارا وحسبي عِزّةً وَطَنُ ... في كلِّ شِبْرٍ بهِ أشلاءُ قُربان
يا فتيَةَ العُرْب والإسلامِ قاطِبَةً ... كونوا على النصْرِ طُرا خير أعوان
دعوا التخاذُلَ إنّا كلُّنا عرَبُ ... هل نابنا منه إلا كلُّ خذلان؟
ماذا تُرَجُّونَ من دُنياكُمُ فِرَقاً ... مصَفَّدينَ بها أشْبَاهَ عبدان
تِلْكُمْ جزيرتُكم يا عُرْبُ باسِمةٌ ... تزْنو إليكمْ وتحنو أي تحنان
سيروا إليها نُعيدُ البَعثَ ثانيةً ... ونملأ الأرضَ من عدلٍ وعُمْران
أليس مِنّا الأولى قادوا جَحَافِلَهُمْ ... وأخضعوا الأرضَ من فُرْسٍ ورومان
مشوْا لنصرِهُم والأرضُ تحتهمُ ... فرحى تمايَلُ تِيهاً مثلَ نَشوان
ساسوا الأنامَ بعدلٍ غير ذي وهَنٍ ... وأنطَقوا الدهرَ من بِرٍ وإحسان
شادوا على جبْهةِ الدنيا عروشَهمُ ... ولو أرادوا بَنْوها فوقَ كيوان
تباركَ المُلْكُ في (الفَيْحاءِ) منبسطاً ... لا الملك دامَ ولا أسادُ مروانِ
تباركَ العرشُ في (بغْدانَ) مزدَهِراً ... يا أرضُ أين تولَّى عرشُ (بغدان)
يا ليت شعري أطَيْفُ ذاك مرَّ علي ... وجهِ البسيطةِ أم أحلامُ وَسْنان؟
أرضَ النُبُوّة، والأيامُ جاهِمَةُ ... ماذا أُردَّدُ من بثّي وأشجاني
دارَ الزمانُ، وللأزمانِ دورتُها، ... والدهرُ - مُذْ كان هذا الدهر - يومان

فلا (الوليدُ) وعرشُ الشامِ مبتسم ... يشيدُ لْلمجْدِ فيها خيرَ بُنيان
ولا (الرشيدُ) على بغدانَ في يدهِ ... دهرٌ يُصرَّفُهُ كالموثَقِ العاني
يا دهرُ ويحَكَ! رُدَّ العرشَ ثانيةً ... فكم عروشٍ مَلَكناها وتيجان
لنا نفوسٌ أبيّاتٌ تُهَيَّجُها ... ذكرى جدودٍ كنُورِ الشمس غُران
يشُوقُها المجدُ وصّاَء بقُرطُبةٍ ... والعزّ منبسطاً في ظِلّ (بْغدان)
أراجعٌ أنت ذَيّاكَ الزمانِ لنا ... أم لا رُجوعَ لأيام وأزْمان
سنرجع المجدَ أو نقضي بساحتِهِ ... ذُلّ الحياةِ وطعمُ الموتِ سِيّان
دمشق
أمجد الطرابلسي
الحياة
للأستاذ محمود غنيم
حرةٌ لا تزور إلا لِماما ... تيّمَ الشيخَ حبُّها والغلاما
تيم النملَ حبُّها فتولّى ... يطلب الماَء مثلَنا والحطاما
كشرت عن أنيابها لِلْبرايا ... فرأوْا ذلك القطوبَ ابتساما
كم سقتهم من الجفاء زعافاً ... وسقَوْها من الوفاءِ مداما
قد يراها السعيد حلماً لذيذاً ... ويراها الشقي موتاً زؤاما
أنا لولا الحياة ما بت أخشى ... شبح الموت أو أهاب السقاما
قال بالجنّ معشرٌ وأرها ... وحدها جنَّا يلبس الأجساما
أوليست تحزُّ لحم البرايا ... مثلَ حزّ المُدى وتبرى العظاما
قسما لو أنَّ الأجنة تدري ... كنهها لم تفارق الأرحاما
أيهذا الجمادُ حسبُك ألا ... تصحبَ الشيب أو تذوقَ الحِماما
صاح أن الحياة لغز إذا ما ... زدتُه بحثاً زادني إبهاما
ليت شعري ماذا تكون، أحسًّا ... أم خيالاً ويقظةً أم مناما؟
أم طريقاً إلى الفناء قصيرا ... قد ركبنا لطَّيه الأياما؟
كل حي له كتابٌ، ولكن ... أعجم اللهُ خطَّه إعجاما
لو عرفنا متى تكون المنايا ... لانتظرناها مذ بلغنا الفطاما
أيها العلم كم هتكت حجابا ... فأمط عن سر الحياة اللثاما
تلك آثارها إذا عرضت لي ... ألهمتني وجودها إلهاما
فإذا رمتُ وصفها بلساني ... ألجمتني فلا أحير كلاما
هي كالكهرباء لستُ أراها ... وأرى ضوءها يشق الظلاما
هي من روح الله وهو خفيٌّ ... ذو صفاتٍ دلت عليه الأناما
يا ابنة الشمس وجهُ أمك بادٍ ... فعلام احتجبتِ أنت علاما؟
عرف الناس فضل أمك قِدْما ... فتلقّوْها سجَّداً وقياما
حدثينا كيف ابتدأتِ على الأر ... ض وحرّكتِ هذه الأجراما؟
وأرينا متى ظهرت عليها ... وإلى م البقاء فيها إلى ما؟
أخذ الناس في التكاتف حتى ... باتت الأرض وهو تشكو الزحاما
ليث شعري أضل (دَرْون) بحثاً ... حين آخى الوحوش والأنعاما
قال قوم هلا شهدنا ذبابا ... في الحياة ارتقى فصار حَماما
وغلا آخرون فيه فقالوا ... كان في مذهب النشوء إماما
قد عرفنا أبا الأنام جميعا ... فهل الطير والوحوش يتامَى؟
وهل الجن تنتمي كالبرايا ... لأبٍ يُدعى يافثاً أو حاما
سائل البحر كيف أنبت لحما ... من أواذيَّة وسوّى عظاما
وتأملْ بين الحقول نباتا ... سوت الأرض سوقَه فاستقاما
علَّ من بارد النمير شرابا ... وتغذى من الهواء طعاما
ولقد يولد النباتُ ويفنى ... ويعاني مثل الأنام سقاما
حكمة تملأ النفوس يقينا ... بإله يدير هذا النظاما
سائل الشمس عن بنيها لماذا ... كانت الأرض وحدها مِتآما
ليت شعري أللكواكب نسل ... يشبه الناس أم تُراها عِقاما
ليتني أركب الرياح إلى الأف ... لاك أو أمتطي إليها الغماما

أيُّهذا الأثيرُ إن كان في المر ... يخ حيٌّ فأحمل إليه السلاما
حيَّ أهليه إن مررت عليهم ... إن للجار حرمة وذماما
محمود غنيم
القصص
من أساطير الإغريق
فينوس ربة الجمال والحب
مولدها، نشأتها، إحدى مغامراتها الغرامية
للأستاذ دريني خشبة
تعالوا يا أعزائي المحبين نسمع أغنية الجمال والحب، من ربة الجمال والحب، بارزة من الثبج، فوق الموجة الكبيرة وسط اليم.
لقد كانت السماء زرقاء صافية، ولكنها لطفت ورقت، وتضاعف صفاؤها، عندما ذاع في ملكوتها النبأ العظيم، وبشرت بمولد فينوس!
ابتسمي أيتها الشفاه الحزينة، وانبسطي أيتها الأسارير المقطبة، وأثلجي يا صدور المكلومين!
وأنت أيها القلب الملتاع قف خفقانك، وأنت أيها الطرف الساهم كفكف عبرتك، ويا نفوس العاشقين اطربي، فقدت ولدت فينوس!
برزت عرائس البحار يصلين في بكرة الصباح لأبوللو، فما راعهن إلا الطفلة المعبودة تخرج من الزبد الأبيض كما تخرج من الصدفة لؤلؤة غالية؛ وتتهادى على رؤوس الموج كطيف نوراني فيسجد الماء تحت قدميها الصغيرتين، متمما بصلاة الحب لربة الحب، مرتلا أنشودة الجمال لربة الجمال!
وافتر فم الدنيا عن ابتسامة سعيدة حلوة، يحيي الفم السعيد الحلو، الذي سيملأ قلوب العالمين رضى وسعادة!
وأشرقت ذكاء حمل أبوللو فلمح السوسنة الوردية تخطر على لازورد الماء، فترك عربته المطهمة بالذهب تعرج وحدها في القبة الزرقاء، وانثنى هو يزف البشرى إلى آلهة الأولمب!
وهرعت عرائس الماء إلى فينوس الطفلة فرقصن وزغردن وتغنين وحملنها إلى قصورهن المرجانية في الأعماق، حيث أرضعنها لبان الهوى، ولقنها كلمات المحبة، ونشأنها على
أساليب الصبابة والغرام، حتى أينعت وترعرت، فأزمعن المسير بها إلى الأولمب حيث يتلقاها الآلهة، فتأخذ مكانها بينهم. . .
وكم كان جميلا رائعا أن يصطف التريتون والأوسيانيد والنيريد من حولها؛ وكم كان جميلا رائعا رقص التريتون على صفحة الماء الجياش بالزبد، وتغريد الأوسيانيد كأنهن بلابل الروض الأخضر ترسل في هدير المحيط شدوها فيحور غناء كله!
وكم كان جميلا رائعا من النيريد أن يتضاحكن مترنمات في الحلقة الأولى حول فينوس فتستجيب السماء لهن، ويميد البحر من طرب بهن!
كم كان جميلا رائعا أن يخب موكب الحب فوق الماء حتى يكون على فراسخ من قبرص معدودات، فينثني الجميع إلا فينوس التي يهدهدها زفيروس الطيب، رب النسيم الجنوبي، حتى يصل بها إلى الشاطئ، حيث يكون في انتظارها بنات ثيميز ربة العدالة، وبنات يورينوم ربات الفضيلة والخلق الحسن، فيتقدمن إلى ربة الحب، فيصلين لها، ويجففن شعرها الذهبي المتهدل فوق كتفيها العاجيتين؛ ثم تدلف بينهن، لفاء هيفاء غراء غيداء مهتزة الجيد وضاحة الجبين، كلما خطت خطوة قبلت الأرض قدميها المعروقتين، وكلما مرت ببلقع اهتز وربا، واعشوشب وأزهر، حتى يلقاها آلهة الحب الأربعة، رب الشهوة هيميروس، ورب الغزل سواديلا، ورب الألفة بوثوس، وهيلين رب الزواج؛ فينخرطون في الجماعة، ويهطعون إلى الأولمب!
وتكون الأنباء قد تواترت عن قدوم الربة الجديدة، فيصنع لها عرش عتيد ما تكاد آخر ياقوتة تركب فيه حتى تصل فينوس فجأة فتستوي عليه، وتتصارع أبصار الآلهة العطشى حول جسمها الخصب، المترع بالمفاتن، وتتلمظ الشفاه الجائعة تود لو تفترس هذا الفم الأحوى الجميل، وتسري كهرباء الاشتهاء في الأذرع القوية، والصدور الهرقلية، تحلم بضم الجيد الناهد، ومخاصرة الوسط المياس، و. . . تثور الرغائب،

وتفور الشهوات. . . . وفينوس ممتلئة كبرياء. . . كأنها العنقاء. . . ترسل اللمحة عن طرفها الساجي فتصرع هؤلاء وهؤلاء!!
وتقدم الآلهة كل بدوره يطلب يد فينوس، وكان كل إله يفاخر أخاه بما لديه من نعم وآلاء. وكان مضحكا أن يسفه الآلهة بعضهم بعضا بين يدي ربة الجمال والحب حتى ازدرتهم
جميعا، وخبرت حماقاتهم مالا يتفق وهذا الورد المتفتح في خديها، والسحر النائم في مقلتيها، والفتنة الثاوية في كل جارحة من جارحاتها؛ فرفضتهم أجمعين. وإن تكن برفضها قد أغضبت أباها كبير الآلهة وسيد أرباب الأولمب.
ولم يغض الآلهة عن تحقير فينوس لهم، بل انقلب إعجابهم ثورة، وارتد افتتانهم نقمة، وود كل منهم لو خلى بينه وبينها فيبطش بها بطشا شديداً
وأجمعوا أمرهم ضحى، وذهبوا إلى زيوس يطالبونه بالإثئار لكرامتهم كأرباب مرهوبي الجانب مخوفي الشيطان، من ابنته ربة الحب الطائشة!!
وخاف زيوس ثورة الآلهة، وأفزعه تجمهرهم في ردهة الأولمب يتصايحون ويصخبون، فخرج إليهم هاشا باشا، ودق بصولجانه على الأرض المرمرية وقال: إخواني. أبنائي:
(لستم أنتم وحدكم تنقمون على فينوس الجميلة ما بدر منها في حضرتكم من زهو وخيلاء، بل أنا معكم ناقم على هذه الابنة العاقة التي صعرت في حضرتي خدها، وشمخت بأنفها، وحسبت أنها خير من الآلهة درجة وأعلى مقاما. .
لتطب نفوسكم يا إخواني ويا أبنائي! لقد أصدرت الساعة إرادة أولمبية تقضي بأن تتزوج فينوس المتكبرة المتغطرسة المختالة، من فلكان الحداد صانع دروعكم ولجم خيولكم!).
وما سمعها الآلهة حتى صاحوا لسانا واحدا: (ليحي زيوس العادل! تقدست يا زيوس! طوبى لك يا أولمب!)
وكان فلكان بين الجماعة وهي تهتف، ولكنه كان مشغولا عنهم بتلك السعادة التي هبطت عليه من السماء، وكان يحمل إرزبته الهائلة، فلما سمع النطق الأولى، ضرب بها الأرض ضربة راجفة، أحس بها بلوتو في أعماق الجحيم. . .
- (يحسب الآلهة أننا معشر الربات ملك أيمانهم دائما، يتصرفون بنا كما يحلو لهم! ما عليهم إلا أن يأمروا، وما علينا إلا أن نطيع! لقد كنت أؤثر أن ألبث في القصور المرجانية في أعماق الأعماق، على أن تشرق علي شعاعة من الشمس الدافئة التي يرتع فيها أولئك الآلهة العتاة الظالمون!)
- (هوني عليك يا مولاتي فقد يصفح غدا سيد الأولمب!
- (يصفح أو لا يصفح. .
- (يا للهول!. . .
- (أي هول يا فتاة. . .
- (ينبغي ألا تعرضي نفسك لغضب رب الأرباب. . .
- (رب الأرباب! أنت تضحكينني يا أجمل العرائس الأوسيانيد!
- (مولاتي. . . .!
- (إن رب الأرباب يحكم دنيا من الخزعبلات. . أما القلوب. . أما قلوب العذارى. . فالحب وحده يتولاهن، ويهيمن عليهن. . .
- (إلهتي فينوس. . .
- (لا تنزعجي هكذا يا عروس الماء. . . لقد ولدت لأكون ربة الجمال والحب. . فأولى لي ثم أولى، أن أسعد بالحب، وأن أختار من ذوي الحسن متعتي الغالية ونعيمي الأوفى. . . فلكان!! أنا أقسم أن هذا الحداد لا يفرق بين القبلة والجذوة، ولا بين نشوة الحب وزفير الكير!! وأخشى أن يغازلني يوما فيحذفني بإرزبته، يحسبها ريحانة أو زنبقة!!). يا للحداد القذر!!
- (ولكن زواجكما تسجل في السماء يا ربتي!
- (إن كان سجل السماء مدنسا بكل هذه المقابح الاستبدادية، فأنا. . فينوس ربة الجمال والحب والزواج. . آنف أن يدرج في صفحاته اسمي!
والآن اسمعي يا أوسيانة، اذهبي إلى حبيب مارس فبلغيه أنني منتظرته الليلة، بعد مغيب الشفق، تحت السنديانة الكبرى في أول منعرجات الغابة. . .)

وهكذا أقبلت ربة الحب على كؤوس الحب تنهل منها ما تشاء، وتستعرض الآلهة وأنصاف الآلهة تقبل منهم على من تشاء وتعرض عمن تشاء. . وما أكثر القطيع وما أنهم الذئب!

لقد علقت مارس القوي، إله الحرب، ورب الدمار، ولم تبال بزوجها الفظ القذر المنتن، الذي لا يميز جرس الموسيقى من طرق الحديد، ولا نسيم الجنة من زفرات الجحيم!

وعلقها مارس وافتتن بها، حتى لكان يعد دقات قلبه دقة فدقة، حتى يلقاها، فتهدأ أعصابه، ويطمئن قلبه، ويثوب إليه رشده

ولقد كان اللعين إذا خلا إلى فينوس، يذهب في الاستمتاع بها إلى أقصى حدود الطاقة؛ وكان يبهره منها ألا يلقاها إلا متجردة، فيجس هذه الذراع، ويتحسس ذلك الثدي، ويرشف ذياك الفم، ويرتع في هذه الجنة ذات الثمر التي نسميها الجيد، ويخضع لرقي السحر النافذة من جفنيها المدججين بالسهام؛ ثم يضل في تلك الظلال الشفقية التي يعكسها عليه شعرها. فإذا أفيق زودته بابتسامة تظل ترقص على الخدين والشفتين، وشكت فؤاده بغمزة من طرفها تتركه بين الحياة والموت. . . وهكذا حتى يرضى!!

وكان لا يخشى من أعين الرقباء مثل ما يخشى من عين أبوللو، ولذا كان إذا وافى فينوس في هذا المنعزل الغرامي السحيق، في أعمق أحشاء الغابة، ترك خادمه أليكتريون عند أول الشعب المؤدي إلى الطريق العام، يلحظ المارين وينبه إلى خطر الأعداء والناقمين، حتى يكون الأليفان بنجوة من الفضيحة، وفي حرز من ألسن الكاشحين. فإذا تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، ذهب أليكتريون فأيقظ العاشقين الآثمين، فينهضان من غفوة الهوى إلى يقين الفراق، قبل أن تشرق الشمس ولكن! وما أقسى ولكن هذه إذا لم تكن سعودا على المحبين!! لقد ذهب العاشقان يتراشفان كؤوس الهوى دهاقا، ويلتذان بكل مأثم ومحرم، حتى إذا نال منهما الجهد، وترنحت أعينهما تحت عبء السهاد الطويل، انبطحا على الحشيش الأخضر، هو إلى جانبها، وهي إلى جانبه، غارقين في سبات هنيء! ولمح أليكتريون ظبيا نافرا، يتفزع في ظلام الغابة؛ فتبعه، وطفق يدور وراءه حتى لحق به بعد عناء شديد، فاحتمله وعاد به إلى مركزه من مكان الحراسة. . ولكنه ما كاد يصل ثمة، حتى تساقط متهدما من التعب، وغلبه نعاس عميق. . .

وأشرقت الشمس!! وبرزت المركبة الذهبية حاملة أبوللو، رب هذا الكوكب المشرق المتأجج، وبدأت رحلتها السماوية، وأخذت ترتفع في العلاء رويدا، حتى إذا كانت بمنزلة الضحى، أطل أبوللو فرأى مارس الأثيم، وفينوس الغاوية، متعانقين على الحشيش الأخضر، وكانت بين أمه لاتونا، وأمها ديون ما يكون عادة بين (الضرائر) من بغضاء ومشاحنات؛ وكانت ديون تفخر على زوجات زيوس جميعا بأنها أم فينوس وحسب! وكانت لا تعدل بابنتها واحدة من جميلات الأولمب، بما فيهن ديانا أخت أبوللو، وابنة لاتونا

انطلق أبوللو والشماتة تضطرب في قلبه الناقم على فينوس، يحمل الخبر الفاجع إلى فلكان، فألفاه مستغرقا في صنع شبكة حديدية هائلة، والنار تتلظى في أتونها الكبير، والدخان ينعقد

في جو المصنع كأنه ينقذف من بركان، والملاقط والمبارد والمخارط متناثرة على الأديم المعفر القذر كأنها أعجاز نخل. . .

- (فلكان!. . .)
- (هلا. . . أبوللو. . ماذا جاء بك في هذه الضحوة. . . وأني غادرت عربتك؟)
- (أثرت أن أطأ ثرى هذه الأرض بقدمي على أن تحملني يوح، وقد تدنس شرف الأولمب بالفضيحة المزرية!. . .)
- (الفضيحة المزرية؟ ماذا وراءك يا أبوللو؟. . .)
- (فلكان! أين زوجتك؟. . . هل أويت إليها الليلة؟)
- (زوجي؟ فضيحة مزرية؟. . . ماذا تعني أيها الأخ؟)
- (أولم تفقه بعد؟. . . ولكن قل لي: ماذا تصنع بكل هذه الأسلاك الغليظة؟)
- (أصنع شبكة كبيرة. . .)
- (ولمة؟)

- (لقد لاحظت النجس مارس يحوم حول حماي. . وأنا لا بد صائده)
- (. . .هلم، هلم)
- (. .وإلى أين؟)
- (تصيده. . ألم تنته من صنعها بعد؟)
(. . .بل انتهيت. . . وأين مارس؟
- (على الحشيش الأخضر، في أول شعاب الغابة، مما يلي الطريق العام)
- (. .ومع من؟)
- (مع. . . . . إنه قطعة واحدة مع. . . . فينـ)
- (. . . .معها؟. . . يا للهول؟. . . هلم. . . . يا للعرض الأحمر؟)
واحتمل شبكته العظيمة، وانطلق الإلَهان إلى حيث. . . النائمان الحالمان الآثمان!
لقد كان ملتصقين التصاقا تاما. . حتى ما يكاد ينفذ الماء بينهما ونسى كل إلف شفتيه
في شفتي إلفه، فهما جلنارتان تبثان نجوى الهوى إلى جلنارتين!
يا لله!
ليس هذا فسقا أيها الآلهة، بل هو التمازج الذي سميتموه الزواج!
وانقض فلكان كالمذنب المدمر، فألقى شبكته على الخائنين!
وانتفض مارس وهو يكاد يصعق من الذعر، وانتفضت فينوس وهي تكاد تذوب من
الخجل! ولكن! أي ذعر وأي خجل وهذه الشبكة قد أمسكت بهما كسمكتين!!
لقد مضى فلكان، بعد إذ ربط الشبكة بما كسبت في أصل دوحة كبيرة، وعاد بكل
الأسرة الأولمبية (لضبط الحادثة!)
وكانت ساعة رهيبة، انصبت فيها لمزات الآلهة الناقمين على رأس فينوس، وراح كل
منهم ينتقم لكرامته المهدورة من كبريائها وصلفها، وهي ما تكاد تبين!!
وأطلق فلكان سراحهما؛ أما فينوس فذهبت تنشد عشاقا آخرين!
وأما مارس، فمضى إلى حيث خادمه الأحمق أليكتريون، فألفاه ما يزال يغط في نومه
غطيطا مزعجا، فركله ركلة أطارت صوابه، وأخذ بتلابيبه فخضضه تخضيضاً!
ثم إنه أقسم لينتقمن منه انتقاما يكون أحدوثة الآباد وضحكة العباد، فنفث في أذنيه
نفثتين، ارتد بهما الخادم المسكين ديكا عجيب الصورة، أرجواني التاج، طويل
الجناحين، عظيم الذل!
وركله مارس ركلة ثانية، وقال له: (اذهب إذن فلن تذوق عيناك غفوة الفجر أبد
الآبدين، ودهر الداهرين، وستصحو قبل كل الخليقة لتصيح في النائمين:
. . .!ويحكم أيها الغفاة، هبوا فقد كاد أبوللو يقطر مركبة الشمس
. . .!وما يزال أليكتريون، ديكنا المحبوب، يوقظنا قبل الشروق إلى اليوم

دريني خشبة

من الأدب الإيطالي

الليالي العشر

ترجمة اليوزباشي الأديب احمد طاهر

يعد جيوفاني بوكاشيو زعيم النثر الإيطالي غير منازع في زعامته، وكانت رسائله
نبراسا يستضيء به الكتاب من بعده، ونذكر منهم بترارك، شوسر، دريدن، كيتس،
تنيسون. أولئك وغيرهم كانوا فيما يخرجون للناس من كتب يغترفون من بحر بوكاشيو
ويستلهمون وحيه ويتقفون أثره.
ولد في قرية سرتالدو التي تبعد عشرين ميلا عن فلورنسا ونشأ بها. ولما جاوز الحول
السادس والعشرين رحل إلى نابولي وكانت مهد غرامه ومهبط وحي الحب على قلبه،
فشغف بحب (ماريا داكوينو) فبدأت من حياته صفحة جديدة فياضة بالخير سيالة
بالنفع. فلقد كان حبها حبا كريما: بسط على نفس الفتى فضله فلقي فيه ما لقي
المحبون من سعادة ونعيم، وفاض على نفوس الناس أجمعين بما أوحى إلى الفتى،
فتلقوا منه نثرا هو أبدع ما أخرج للناس من أقلام الكاتبين، فيه دقة، وفيه روعة، وفيه
جمال، على نحو ما خلقت الفتاة من دقة وروعة وجمال. حتى لقد زعم الناس أن هذا
البيان إن هو إلا وحي يوحي من الفتاة إلى هذا المحب المختار، ثم اصبح زعمهم يقينا
فأغمضوا العين عن تلك الصلة الوشيجة بين المحبين، وانصرفوا إلى فضل الفتاة على
رسائله، فما يذكرونها إلا برسائله وما يذكرون رسائله إلا بها، وغالوا فيما انصرفوا إليه

فسموا الفتاة (صاحبة رسائل بوكاشيو).!!
وعاد الفتى إلى فلورنسا عام 1350 وكان قد انتهى من كتابة الليالي العشر أو كاد، وأخرجها إلى الناس عام 1353م. ولقد دفعه إلى كتابتها عاملان ألحا عليه: رغبته في إخراج شيء بديع قيم يزجيه إلى محبوبته، ولا أبدع لدى الكاتب من ثمرات قلمه، والزلفى إلى ملكة نابولي، وكانت تشتهي أن تقرأ للفتى خير ما ينتجه يراعه.
وكانت عودته إلى فلورنسا في الوقت الذي أفلتت فيه المدينة من براثن الطاعون، ونضت عنها قميص قيصر بعد أن لم يترك فيها موضعا بغير قرح، ولا عضو بغير جرح. وكان
هذا الوباء على ما روى لنا الكتاب حديث الناس في تلك السنين العجاف، فما كان عجبا أن يصدر بوكاشيو كتابه بوصف هذه المحنة التي تزلت بالبلاد. ولقد وصفها في بيان فصيح، وأسلوب صريح، ثم تخلص من وصف الوباء إلى سرد قصصه المائة في الليالي العشر التي قدر لها أن تكون من اكبر كتب العالم مدى الدهر
الفتيات السبع
هذه إحدى قصص الليالي العشر، أو هي مقدمة قصص الليالي نوردها في اختصار وتلخيص، لا نحاول أن نتسامى إلى منزلة الكاتب في براعة الأسلوب، ولا ندعي القدرة على مجاراته في ميدان البلاغة، ولكن حسبنا الأمانة في النقل والدقة في التعبير عما أراده الكاتب مما كتب، أمانة ودقة لا ينقص منهما ما يقتضيه الأسلوب العربي من أحكام وأوضاع.
فلورنسا اجمل مدائن إيطاليا، وأبهاها، وأغناها، تصبح ما بين عشية وضحاها أفقر البلاد واشدها بؤسا وفاقة بما أصابها من كارثة الوباء التي نزلت بها عام 1348م. لقد كان هذا الوباء مرضا ملحا جبارا لم تفلح فيه عقاقير الأطباء ولا اعتصام الناس بالعزلة والفرار. وماذا تعني العزلة وماذا يفيد الفرار؟ والوباء ينساب بين الناس انسيابا تحمله أنفاسهم حين يتحدث بعضهم إلى بعض، ويسري بينهم إذا لمس السليم ثياب الموبوء. حتى إذا بدت على الجسم علامات حمر كانت نذيرا بالموت لا مفر منه، ودليلا على انقضاء الاجل، وتصرم أسباب الأمل، إن هي إلا أيام ثلاثة ثم ينتهي كل شيء إلى ما تنتهي إليه كل الأشياء.
وغشي الناس من هول الكارثة فزع وجزع. وإذا فزع الناس فما أيسر خروجهم على القوانين الوضعية، وإذا خلت قلوبهم من طمأنينة الثقة فما أيسر خروجهم على الشرائع السماوية، فإن تحرروا من هذه وتلك فليفعل كل امرئ ما شاء. وإنهم لواجدين في هذه الفوضى متسعا لإشباع الشهوات، ورضاء النزوات، ومتى لم يكن من الموت بد ففي رأيهم أن من الخرق أن تموت عابسا كئيبا، وهذه قصور الأغنياء وخدور الغانيات فلنقتحمها وردا، ولننعم فيها قبل الموت بما حرمنا منه في الحياة، ولنمت وعلى وجوهنا ابتسامة اللذة ومخاييل السرور!! كذلك كانوا يقولون. على أن بعض الناس أقام بينه وبين الناس سدا وحسب أن الحمية تعصمه من فتك المرض وظن بعضهم أن في الاعتصام بالجبال والتأبد
في الخلاء، منجاة من الوباء، ففروا تاركين وراءهم حطام الدنيا ومتاع الحياة، وما يغني متاع الحياة وحطام الدنيا إذا فر الأخ من أخيه، وفصلت الزوجة عن زوجها، وأفزع الآباء والأمهات عن فلذات الأكباد؟ هذه جثث الموتى متناثرة في الطرق رأيتها بعيني ورأيت الكلاب تدس أنوفها في الأجساد فيسري إليها الداء، فتخر صريعة على الأرض وتقعد مكانها بين ضحايا الوباء.
في خمسة اشهر من العام بين مارس ويوليو فتك الطاعون بمائة ألف من الأنفس، وما كنا نحسب أن في فلورنسا هذا العدد من الناس.
ولكن! مالي اردد ذكرى هذه الفاجعة، ولقد برمت بها وبذكراها! أليس الخير كل الخير في أن يجتنب المرء ذكر ما تسوئه ذكراه، وينسى ما يجد السبيل إلى أن ينساه؟ فلأذكر إذا أنه عندما أصبحت فلورنسا قفرا من الأهل والسكان جمعت البأساء بين فتيات سبع لهن من الجمال حظ وافر، وعليهن من الثياب سواد، واجتمعن يوم الثلاثاء في كنيسة سنت ماري، ولم تحو الكنيسة غيرهن من شهود الصلاة. وكانت تربطهن فوق رابطة البأساء صلة القرابة الوشيجة، وصلة أوثق من هذه وتلك هي صلة الصداقة والوفاء. شهدن الصلاة ثم انتبذن ناحية من الكنيسة خلصن فيها نجيا يتدبرن فيما يجمل

بهن أن يتخذن من سبيل في الحياة وقد تخلين عن متاع الدنيا وتخلى عنهن الأهل والخلان. قالت كبراهن - يامبينيا: (الرأي عندي أن نرحل عن فلورنسا فننجو بأنفسنا من خطرها المحدق وشرها المحيق، وأي خطر اشد من الطاعون، وأي شر أسوء من أولئك المارقين يجوسون الطرق ويقتحمون الدور؟ هيا إلى الريف نجد فيه مراغماً، وهواء طلقا، وحياة وادعة، في كنف التلال الخضراء والمزارع تموج فيها الحنطة كموج البحر، ولا يرى البصر إلا نعيماً، مالنا ولهذه المدينة الخاوية على عروشها تبعث في النفس أمض الذكريات وأقساها؟).

- قالت فلومينا (وكيف السبيل إلى هذه الرحلة وليس لنا ساعد من الرجال؟).

- قالت أليزا (وأين الرجال يا أختاه، وكل أترابنا منهم قد تبدد شملهم، وانصدع جمعهم، فمنهم من فتك به الطاعون، ومنهم من ضرب في الأرض لا يعرف له مستقر فهم لا يرجعون).

وفيما هن يقلبن الرأي على وجوهه إذ وفد عليهن ثلاثة فرسان: فتيان في ميعة الصبى وروعة الجمال، خرجوا يلتمسون بين الناس فتيات لهم بهن صلة، وما كانوا يبحثون إلا عن (نيفيل) و (يامبينا) و (فيلومينا) من فتياتنا السبع.

صاحت يامبينا (لقد ابتسمت لنا الأقدار فساقت إلينا ثلاثة رجال أكفاء أشداء وأنا زعيمة لكن بأنهم سيلبون دعوتنا إذا دعوناهم) ثم أقبلت على الفرسان تقص عليهم ما كان فيه يتحدثن، وطلبت إليهم في توسل ورجاء أن يكونوا عونا لهن ونصراء، وأن يصحبوهن إلى حيث أردن.

ضحك الفرسان منهن وتندروا على هذا الرأي ما شاء لهم أن يتندروا، ثم أنسوا من الفتيات جدا في الرأي وصلابة في العزم، فأذعنوا راضين، وتقدموا غير هازلين، وافترق الجمع على أن يكون الرحيل عن فلورنسا في صبيحة اليوم التالي.

وذر من الشمس شعاع، فهب الفتيات والفرسان ومعهم الوصفاء وساروا على هدى العزيمة فرسخا ألقوا بعده عصا الترحال، وكان ذلك عند شَرَف من الأرض يشبه التل، تجلل هامته غابة باسقة الرماح، ممتدة الصفاح، يقوم في جوفها صرح شاهق يعجبك رواؤه، ويبهرك بناؤه، قد انبسط تلقاءه سرح فسيح، وتشعبت في أنحائه أبهاء واسعة، وفي مقاصيره من دلائل العز والميسرة، تحف مثورة، وصور مشهورة، وحاطت بالقصر حدائق ذات أشجار وأثمار تقوم على ريها نافورات تقذف بسهام الماء، فكأنما يصب على الأرض من السماء. وكان كل ما في القصر متسقا منضوداً، كأنما أعد لاستقبال الوافدين، واسترواح المتعبين؛ وظل الفتيات والفتيان يمشون في سروحه وارجائه، وأفنيته وأبهائه، ويقطفون من زهوره وأثماره، ويتغنون في هذه الجنان، بأعذب الألحان، حتى حان موعد الغداء فمد سماطه في بهو الولائم. وما انتهوا منه حتى تناول (ديونيو) أحد الفرسان آلة من آلات الموسيقى، وأمسكت (فيامتا) إحدى الفتيات بآلة أخرى، وواءمتا بين نغمتين طرب من مزاجهما الجميع حتى غنى ورقص ما وسعه الجهد.

وظلوا كذلك حتى أدركهم الليل وهم في طربهم ماضون، وأسلمهم التعب إلى نوم عميق، وكانوا قد اتفقوا فيما بينهم على أن ينصبوا (يامبينيا) أميرة عليهم في الغداة، ولها عليهم حق الامر، وعليهم لها واجب الطاعة، على أن تدبر لهم شأن المحافل والجلسات وما يتخللها من الملاهي والمسرات.

وفي ضحوة اليوم التالي لبوا دعوة الأميرة وانتظموا حولها فحيتهم تحية جميلة، وأخذت عليهم في رفق ولين تكاسلهم عن النهوض مبكرين، وفي نوم الضحى مضرة للأبدان تشفق منها عليهم وتعيذهم من إذلا ها. ثم سارت أمامهم إلى واد ذي زرع أخضر تقوم على عطفيه أشجار باسقة، وقالت: (هنا الشمس مشرقة مشرفة، ترسل علينا أشعة حامية محرقة، فليس من الرأي أن نواصل المسير ضنا راحتنا وحرصا على هنائنا، فلنجلس إلى ظل هذا الوادي الوادع تحت أغصان الزيتون، ولتكن جلستنا على نحو دائرة لا يلتقي طرفاها، وليقصص كل واحد وكل واحدة منا قصة شيقة، فإن هدأت الشمس وانكسرت حدتها اتخذنا في اللهو سبيلا آخر؛ ولتكن أنت يا (بامفيلو) أول من يقص علينا قصته:

- واستوى الفتى في جلسته وقص القصة الآتية:

(يتبع)
اليوزباشي احمد الطاهر
البريد الأدبي
ذكرى العلامة روبرت كوخ
احتفل أخيرا في ألمانيا بذكرى روبرت كوخ أحد أقطاب العلم الألماني، وذلك بمناسبة مرور خمسة وعشرين عاما على وفاته؛ وقد خلد كوخ اسمه في عالم الطب بما وفق إليه من الاكتشافات الطبية والبكترلوجية الباهرة؛ ولاسيما في شأن السل والكوليرا؛ وكان مولد هذا العلامة في سنة 1843. وفي سنة 1876 بدأ اكتشافاته البكترلوجية باكتشاف (البشيل) وطريقة الحقن باللقاح، وفي سنة 1882 كان اكتشافه الباهر (لبشيل) السل الذي يفتك بعشرات الملايين، فكان ذلك بدء تلك الجهود الطبية الجاهدة التي تبذل منذ كوخ إلى عصرنا لمكافحة هذا الداء الوبيل؛ وفي العام التالي زار كوخ مصر والهند على رأس بعثة لبحث أسباب الكوليرا، ثم عين أستاذا في جامعة برلين، ومديرا لمعهد الأمراض المعدية. وكان من رأيه أن هناك فارقا بين السل الذي يصيب الإنسان، والسل الذي يصيب الماشية، وأن المرض لا ينتقل من هذا الجنس إلى ذاك، ولكن الجمعية الملكية البريطانية عارضت هذه النظرية بمباحثها وتقاريرها. وفي سنة 1896 زار كوخ أفريقية الجنوبية ليدرس طاعون الماشية، وفي العام التالي زار أفريقية الشرقية الألمانية ليدرس خواص الملاريا ومرض النوم. وله عدة مؤلفات عن السل والملاريا والتيفوس تعتبر حجة في موضوعها، وكانت وفاة كوخ في 1910.
وقد احتفل العلم الألماني بتكريم ذكرى هذا العلامة في احتفال رسمي أشيد فيه بعبقرية كوخ وفضله على الإنسانية كلها بما وفق إليه من الاكتشافات العظيمة التي مازالت أساساً لبحوث الطب في عصرنا؛ وأعلن بهذه المناسبة أن الحكومة الألمانية قررت إنشاء (معهد كوخ) الذي تقرر إنشاؤه قبل الحرب لتخليد ذكرى كوخ ثم حالت الحرب دون إنشائه؛ ثم رأى العلم الألماني أن ينتهز فرصة هذه الذكرى ليعمل بمعونة الحكومة الألمانية على تحقيق هذا المشروع الإنساني الجليل.
موسم الكتب في فرنسا
يعاني الأدب وتعاني الكتب في مختلف الفنون أزمة ظهرت آثارها واضحة في كثير من الأمم الأوربية؛ ولهذه الأزمة أسباب كثيرة أهمها الإذاعة اللاسلكية والسينما وطغيان الترجمة الرخيصة على الأدب المحلي، ومنافسة الصحافة للكتب بما تخرجه من الصحف العلمية والأدبية والفنية وغيرها وتعرضه بأبخس الأثمان؛ وقد نشطت السلطات والهيئات المختصة في فرنسا لمحاربة هذا الركود الفكري، وبث الدعاية لنشر الكتب بمختلف الوسائل المرغبة؛ فأقامت نقابة الناشرين وغرفة المكاتب معرضا كبيرا في حي سان جرمان أطلق عليه (عشرة أعوام من الطباعة الفرنسية)، وعرضت فيه الكتب في سائر العلوم والفنون من أرخص الطبعات إلى أغلاها وأثمنها، بطريقة تبين تطور الطباعة وأساليب النشر في عشرة الأعوام الأخيرة؛ وصفت كتب الفلسفة والدين والعلوم والآداب والمباحث الروحية والقصص كلها جنبا إلى جنب. وأقيم في بهو خاص منصة فخمة خصصت للجوائز الأدبية التي منحت منذ سنة 1925، وأسماء الفائزين وأنواع الجوائز؛ وقد أم هذا المعرض الحافل جماهير غفيرة من الزوار، وأحدثت أقامته حركة كبيرة في اقتناء الكتب.
وفي الوقت نفسه أقامت نقابة الناشرين مظاهرتها السنوية التي تعرف (بيوم الكتاب) وهي مناسبة تتخذها المكاتب كل عام لتعرض في واجهتها أكداسا من الكتب الجديدة الخلابة بأثمان معتدلة، وقد أصبح يوم الكتاب (أسبوعا) كاملا يجرى فيه هذا العرض في جميع مكاتب باريس الشهيرة ومكاتب المدن الكبيرة، وتقدم فيه بهذه المناسبة فرص حسنة للشراء، وفي كل عام تصدر نقابة الناشرين مؤلفا نفيسا يهدى إلى من يشتري كتبا قيمتها عشرون فرنكاً. وأسبوع الكتب يعتبر من المواسم الأدبية الحافلة، التي تدر الخير على الناشرين والمؤلفين.
فمتى نفكر في مصر في تنظيم مثل هذه الحركات والمعارض المفيدة، ومتى نفكر في محاربة ذلك الركود الأدبي الذي يكاد يشل عندنا كل تقدم فكري وأدبي؟
بلسودسكي الشاعر والكاتب
لم يكن المارشال بلسودسكي بطل بولونيا القومي الذي توفى منذ أسابيع قلائل جنديا

وسياسيا عظيما فقط، ولكنه كان كذلك شاعرا وكاتبا له آثار في الشعر والنثر، والمعروف عن المارشال أنه تربى وتكون في معترك الصحافة، وكان في شبابه يحرر جريدة ثورية سرية، كان ضبطها سببا في الحكم عليه بالنفي إلى سيبيريا؛ ولما قبضت القيادة الألمانية

على بلسودسكي أثناء الحرب الكبرى حينما ارتابت في حركاته وخشيت من نفوذه على الجيش البولوني، وزجته في قلعة مجدبرج لم يجد المارشال وسيلة لتخفيف آلام الأسر سوى الكتابة، فوضع كتابا سماه (معاركي الأولى)، وصف فيه ما خاضه من المعارك الثورية ضد جنود القيصر، ثم المعارك الأولى التي خاضها عند نشوب الحرب الكبرى بأسلوب بليغ ينم عن مقدرته الكتابية، وأصدر بعد الإفراج عنه كتابا آخر عنوانه (سنة 1920) وصف فيه الحرب الروسية البولونية، وكان المارشال ينظم الشعر، ويشغف بقراءة دواوين أكابر الشعراء الفرنسيين، مثل لامرتين وهوجو وبودلير، وفيريلين ومالارميه. ومما يؤثر عنه قوله: (إن الشعراء هم أقرب الناس إلى رجال العمل!).

مركز هوجو في النثر

مازالت الصحف الأدبية الفرنسية فيض في الحديث عن فيكتور هوجو، وعن نظمه ونثره ورفيع منزلته في الأدب الفرنسي، وذلك لمناسبة الاحتفال بالذكرى الخمسينية لوفاته حسبما أشرنا بالعدد الماضي، وليس بين النقدة خلاف في المنزلة الرفيعة التي تبوأها في الشعر؛ بيد أن هنالك من يقول بأن هوجو يتبوأ في النثر أرفع من هذه المنزلة. وقد شهد لهوجو بالعظمة في النثر كتاب عظام مثل بلزاك صديقه ومعاصره، ثم جاء موريس باريس بعد ذلك فقال: (إن هوجو أعظم ناثر في القرن التاسع عشر). وقد وصفه أخيرا كاتب كبير في إحدى المجلات الأدبية، فقال: إن هوجو الناثر يتفوق في تحليل أشد عواطف الروح وأحوالها تعقيدا، وأعمق أزمات الضمير، ومعارك الإنسان والقدر. ولمناسبة الاحتفال بذكرى الشاعر الكبير أصدرت إحدى دور النشر الباريسية الكبرى طبعة كاملة من جميع مؤلفاته تقع في 82 مجلدا.

الكتب

ضحى الإسلام

الجزء الثاني تأليف الأستاذ أحمد أمين

للأستاذ عبد الوهاب حمودة

لقد أخرج للناس الأستاذ الجليل (أحمد أمين) كتابه ضحى الإسلام، الجزء الثاني منه، فقرأته قراءة ناقد متفحص؛ فألفيته قد هوى جهدا محمودا، ونهج منهجا جديدا. استقصى الأستاذ فأحسن الاستقصاء، وقرأ فأجاد القراءة، وفهم فأتقن الفهم، واستنبط فوفق إلى الصواب، في حسن ترتيب، وجمال تصوير، وقدرة على الإحاطة، وصبر على التفصيل.

وصف الأستاذ في الفصل الأول من (الضحى) قوانين الرقي العقلي، ثم طبقها على الفكر العربي، وتدرج من ذلك إلى انقسام العلوم عند العرب في العصر العباسي، ثم ختم هذا الفصل بالكلام على حرية الرأي في ذلك العصر، فكان الأستاذ في هذا نسيج وحده، مبتكرا لمنهج جديد في البحث، وأسلوب طريف في التعليل.

وفي الفصل الثاني والثالث تكلم الأستاذ على معاهد التعليم ودرجات التدريس، وعلى المكتبات والمناهج، ثم انتقل بعد إلى الحديث عن مراكز الحياة العقلية، فأبدى في مطاوي هذا البحث عن شخصية قوية، ورأي مستقل. وقد وفق الأستاذ التوفيق كله في المقابلة بين الروايات المختلفة عن (بيت الحكمة)، وفي الاطمئنان إلى نتيجة معقولة حسنة، ولاسيما عند استخدام الأستاذ في تحقيقه (فقه اللغة) وتاريخ الألفاظ. فهو طرافة في التفكير، وجدة في الأساليب. وما أجمل الأستاذ وهو يعلل ضعف الفن في الحجاز في عصر الدولة العباسية تعليلا متواضعا مقنعا. أما كلامه عن (المربد) في هذا الفصل، فكلام المستقصي الدارس. ولست مغاليا إذا قلت إن باحثا لم يسبق الأستاذ في إلقاء نور وضاء قوي على هذا (المربد) وبيان أثره في الحياة العقلية عامة، واللغوية خاصة، بل كان المؤلفون يمسونه مسا رقيقا، ويمرون به في أبحاثهم مرا رفيقا.

وجاء الأستاذ أيضاً في هذا الصدد بنظرية العصبية للقطر، ثم للبلد، ثم تدرج بعد ذلك

إلى نشوء مدارس النحو المختلفة حتى وقف بمصر فإذا بالشعور القومي الخالص يملك على
الأستاذ عواطفه، وإذا بالوطنية الصادقة تأسر عليه مشاعره، فيأبى إلا أن يجلي مصر في مضمار النهضة العلمية تجلية مشرقة، فينصفها في البحث وإن لم ينصفها الدهر في الحظ، في غير محابة ولا تحيز، شأن العالم الورع، والمحقق العادل.

أما في الفصل الرابع والخامس فقد تكلم الأستاذ عن الحديث والتفسير والتشريع. ومن أجدر من الأستاذ (أحمد أمين) بتوفيه هذه البحوث والقيام بواجب تحقيق هذه المسائل، فهو ابن بجدتها، وأبو عذرتها. ولا يرضيني في الكشف عن محاسن هذين الفصلين إلا أن أشير على القارئ الكريم بقراءتهما، وأرغب إليه في دراستهما حتى يتذوق جمال حقائقهما بنفسه؛ ويقف على بديع تنسيقهما بدرسه. إذ هما يقعان فيما يقرب من مائة وخمسين صفحة من الكتاب. فجزى الله الأستاذ عن الحديث والقرآن خير الجزاء.

أما في الفصل السادس من الكتاب، وهو الفصل الذي يمت إلى الأدب في صميمه، ويرتبط في اللغة في أصولها. فقد بحث فيه الأستاذ اللغة والأدب والنحو، فتراه في هذا الفصل أمينا محافظا على طبيعة هذه العلوم من الوقوف عند النقل والاقتصاد في الرأي والنقد في غير ما سرف ولا إفراط.

أما الفصل السابع وهو الأخير في الكتاب فكان الكلام فيه عن التاريخ والمؤرخين. أتى فيه الأستاذ بتقسيم جميل لأنواع التاريخ، من تاريخ في السيرة، وتاريخ للحوادث، وتاريخ للأنساب، وتاريخ للرجال، وأخبار وقصص. فكان موفقا جد التوفيق في تحليله لمغازي ابن اسحق تحليل المنصف الدارس في بصيرة نافذة ورأي حر طليق. ثم ختم الأستاذ هذا الفصل بالكلام على عيوب المؤرخين الإسلاميين ومزاياهم فأنصفهم ووفاهم حقهم.

وبعد، فسأذكر ما أخالف الأستاذ فيه من الرأي، وهي مخالفة يسيرة واختلاف هين. وقد عودنا الأستاذ تقبل ذلك بما عهدناه فيه من سمو في الخلق ونبل في القصد.

أولا: أحصى الأستاذ في ص (173) المذاهب الفقهية التي ظهرت في العصر العباسي سوى المذاهب الأربعة، ولكنه أغفل مذاهب الشيعة. مع أنها مذاهب لها قوتها ولا يزال بعضها منتشرا كمذهب الزيدية في اليمن والإمامية في العراق وإيران. فلهذا المذهب أئمة ومؤلفون وكتب فقهية تطبع وتدرس.

إلا إذا كان الأستاذ قد رأى تأخير ذلك إلى الكلام على عقائد الشيعة في الجزء الآتي بعد من
الضحى.

ثانيا: ذكر الأستاذ في ص (245) أن من نتائج الاختلاف بين القبائل كثرة المترادفات في اللغة العربية ثم ساق مثلا لذلك فقال (إن السُّكّر اسمه المِبرَت بلغة اليمن).

ولي على هذا اعتراضان: الاعتراض الأول أن لفظ السكر ليس بعربي بل هو تعريب للفظ شكَر الفارسية وهي قريبة جدا في نطقها من لفظها في اللغة الإنجليزية (راجع ص 92 من كتاب الألفاظ الفارسية المعربة للسيد أدّي شير. وص 8 و105 من شفاء الغليل للخفاجي. والقاموس للفيروز أبادي وص 326 من مجلة مجمع اللغة العربية الملكي. وجـ 6 من اللسان وص 166 جـ1 من المزهر لليسوطي).

والاعتراض الثاني هو أنني كنت أود أن يذكر الأستاذ من آثار ذلك الاختلاف بين القبائل، المشترك من الألفاظ بقسميه لأن هذا النوع له أثر واضح في اختلاف المذاهب في التشريع كلفظ القروء في قوله تعالى (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء).

ثالثا: ذكر الأستاذ في ص (248) أن استعمال الكلمات المعربة كثر بعد الإسلام والفتح، ثم أخذ يسرد أمثلة للألفاظ التي تغلغلت في اللغة إثر الفتح.

واعتراضي أن بعض تلك الألفاظ التي ساقها الأستاذ كان قد دخل اللغة العربية وعُرّب منذ عصر الجاهلية فلم يكن دخوله إذن نتيجة للفتح الإسلامي. مثال ذلك لفظة (الفلفل) قال امرؤ القيس في معلقته:

ترى بعر الآرام في عرصاتها ... وقيعانها كأنه حب فلفل

وقال أيضاً:

كأن مَكاكِيَّ الجواء غُدَيّةً ... صبحن سلافا من رحيق مفلفل

وجاء في اللسان خمر مفلفل ألقى فيه الفلفل.
مثل آخر لفظة (الورد)
فقد جاء في اللسان ص (470) من الجزء الرابع (الورد ببلاد العرب كثير ريفية وبرية وجبلية. قال الزجاج في قوله تعالى: فكانت وردة كالدهان: أي صارت كلون الورد).
وقد جاء في القاموس أن أم طرفة سميت بوردة.
ومثل ثالث وهو لفظة (مسك) ويكفي في إثبات جاهليتها في التعريب ورودها في القرآن
الكريم قال تعالى (ختامه مسك).
رابعا: لقد استقصى الأستاذ الكبير الفروق في اللغة والنحو بين مدرسة البصرة والكوفة.
ووددتُ لو أنه أعقب ذلك بذكر خصائص المدرسة البغدادية في النحو أيضاً. وهو قد ألمع إلى هذه المدرسة في ص (83) حيث قال: ثم تظهر في النحو مدرسة بغدادية لها طابعها الخاص ولها لونها ولها متعصبوها.
ومهما يكن من شيء فهذه هنات يسيرة لا خطر لها ولا أثر في حسن الكتاب وقيمته. وإني أشهد مع الدكتور طه بحق أن الأستاذ (أحمد أمين) قد وفق في هذا الكتاب إلى الإجادة العلمية والفنية، وكشف عن الحياة العقلية الإسلامية كشفا، ثم عرضه عرضا هو أبعد شيء عن جفاء العلم وجفوته، وأدنى شيء إلى جمال الفن وعذوبته. فلينعم القراء بفصول هذا الكتاب ولينعم المؤلف بما ينعم به الظافر الموفق.
عبد الوهاب حمودة
الدسائس والدماء أو علي بك الكبير
كتاب للأستاذ خيري سعيد
للأستاذ محمود تيمور
إنها لصفحة مروعة تلك التي قرأناها في هذا الكتاب. صفحة الدسائس والدماء حقا. صفحة تصور لك في أسلوب روائي أخاذ ذلك العصر الدامي الفاجر الذي عاشت فيه مصر حقبة من الزمن، وهي ترى بعيون ذاهلة وقلب ينبض حسرة وألما، ونفس صابرة هذه المشاهد الجهنمية التي تمثل على مسرحها. ذلك هو عصر المماليك الذي أحياه أمامنا في لباقة صديقنا القصصي الأستاذ خيري سعيد، فاستطعنا ونحن نقرأ كتابه أن نحيا في ذلك العصر نعاشر أهله ونصاحب حكامه ونشهد مواقعه المتلاحقة، ونحضر حفلاته الرائعة - حفلات الانتصار والاندحار - استطعنا أن نعيش في ذلك الجو الغريب نشم فيه رائحة البخور ممزوجة في الدم، ونصغي فيه إلى صوت المؤذن يطغي على أنات المحتضرين وصليل السيوف، وهي تهوى على الرقاب. أجل لقد استطاع الأستاذ خيري بأوصافه الدقيقة وخياله الواسع أن ينقلنا إلى ذلك العصر ويتركنا فيه برهة من الزمن، شعرنا أثنائها أننا رجعنا القهقري إلى القرون الوسطى، وأن الدنيا غيرها بالأمس، فلا كهرباء ولا قهوات ولا ولا. . فإذا أردنا أن ننتقل فعلى الدواب ذات السرج المفضضة والبراذع المنقوشة تخترق بنا الحارات الضيقة. نذهب بها في نزهة إلى الخليج. أو في مهمة إلى بركة الفيل حيث قصور الأمراء. أو في أمر بيع وشراء إلى ساحل بولاق، ذلك المرفأ النيلي العظيم المزدحم بخيرات البلد. . وإذا أردنا أن نعلم شيئا مما هو جار من الحوادث تسقطناه لماما من أفواه الناس. فهناك فتنة تختمر، أو مجزرة تستعر، أو حرب على الحدود تدور رحاها. وإذا أردنا أن نريح أعصابنا ورغبنا في الترويح عن أنفسنا قصدنا إلى دور أصدقائنا العلماء فنحظى بجلسة هادئة نشرب فيها القهوة الفاخرة، ونتناول العشاء السخي، ونستمع إلى مسامرتهم الجميلة أو إلى أناشيد المنشدين. . أجل لقد عشنا حقا في مصر في ذلك العهد القاسي المضطرب.
رأينا الأمة منقسمة إلى طبقات لا يتعدى أهل الواحدة على الأخرى. فهناك طائفة الفلاحين تعمل طيلة العام لتمون الكُشاف والسَّناجق (الأمراء المماليك) إذ أن الحكم حكم إقطاع. الفلاح آلة نشطة طيعة ليس لها إلاّ أن تعطى. ولكنها كانت في الوقت نفسه آلة ماكرة تعلمت الخبث من هؤلاء السادة الطغاة فاستطاعت أن تراوغهم هازئة بهم. ترشو هذا لتبعد ذاك، وتعطي جزءا لتحتفظ لنفسها بأجزاء. ثم هناك الطبقة الحاكمة وهي المماليك، تلك الطائفة الغريبة التي امتهنت الحكم ورضيت بما يحفه من خطر دائم. طائفة كانوا يشترونها في الأسواق أطفالا أرقاء يأتون بهم من مواطنهم

في بلاد الشركس وأواسط آسيا، وينشئونهم نشأة حربية، فإذا ما نما المملوك واكتمل أصبح فارسا يجيد الحرب كما يجيد الحكم. وهو في الحالتين غدرا خبيث يعمل بقول القائل: الغاية تبرر الواسطة. يعيشون طول حياتهم والسيف لا يهمد لحظة في يدهم. وانك لترى على ملابسهم المزركشة المقصبة المحملة بالخناجر والسيوف بقعا من الدم كأنها أوسمة فخار. . وإذا ما دخلت دورهم عثرت قدمك برأس أو بضعة رؤوس بشرية تعترض طريقك. فإذا ما أغضيت النظر وتابعت سيرك دوى في أذنك صراخ مستغيث، فإذا بهارب يهوي أمامك متخبطا في دمه. . هؤلاء المماليك وعلى رأسهم شيخ البلد كانوا حكام مصر الحقيقيين في تلك الحقبة الرهيبة التي زعم العثمانيون أن البلد فيها إيالة تركية لا أكثر ولا أقل. ولكن أين مظهر تلك التبعية؟ أفي الباشا الوالي ذلك الحاكم المسكين الذي كان يوليه السلطان حكم مصر فلا يتعدى حكمه دائرة القلعة المسجون فيها؟ وليته كان يُترك سعيدا بحكم هذه المنطقة الصغيرة. إنه كان فيها أشبه بالطرطور يلبسه شيخ البلد. ليس عليه إلا أن يصدر الفرمانات التي يطلبها منه هذا الشيخ، فإذا عصى فإلى العزل أو الحبس أو القتل!! أم في تلك الحامية التركية الضعيفة التي نقص أفرادها على توالي الزمن فاستعيض عنهم بنفر من أهل البلد؟. . وهناك غير هاتين الطائفتين طائفة قوية تحتكم في ثروة البلد هي طائفة التجار، تلك التي كانت كلها من أبناء البلد والتي عاشت بالرغم مما انتابها من عسف كان يهد في ثروتها، عاشت في شيء من الرخاء والهدوء؛ وبجانب هذه الطائفة كانت طبقة العلماء - شيوخ الأزهر - تلك التي كانت تسيطر على البلاد بقوتها الروحية. وكانت الأمة كلها وحكامها على رأسها تضمر لها الاحترام وتعمل بنصائحها. ولكن هذا لم يكن يمنع عنها في بعض الأحيان بطش هؤلاء الحكام وغدرهم.

أجل لقد استطاع الأستاذ خيري سعيد أن ينقلنا إلى ذلك الجو وكأنه أركبنا طيارة . . . وطار بنا على صعيد مصر كلها فإذا بنا نرى النار تشتعل في كل مكان: حكام القاهرة يريدون أن يسيطروا على الأرياف، وحكام الأرياف يريدون أن يحتفظوا باستقلالهم الإداري يستمتعون بما جنوه من أموال وخيرات، وبين هؤلاء الحكام وبعضهم حروب لا يخمد لها لهيب، والناس لا تعرف من الأمن إلا اسمه. فإذا ما سار التاجر بأسطوله النيلي المحمل بخيرات البلد من منطقة إلى أخرى وجب عليه دفع الإتاوة إلى شيوخ قطاع الطرق - طائفة أخرى مستقلة عن كل الطوائف امتهنت السلب وتفننت فيه وأثرت منه - وإلا أصاب أسطوله النهب والتحطيم.

في ذلك الجو الخانق ظهر علي بك الكبير. وكان كبقية المماليك. عاش منذ نعومة أظافره بين مؤامرات الخيانة تطيح برؤوس الأمراء. عاش مملوكا طيلة حياته تتمثل في سياسته أساليب القسوة والغدر. ولكنه كان مملوكا أكثر ذكاء وأشد صلابة وأكبر أطماعا من غيره. تمثلت فيه صفات الملك فاستطاع أن يستخلص لنفسه حكم مصر فاستغنى عن الباشا الوالي وأخضع سائر المماليك لحكمه وضرب على أيدي قطاع الطرق. فاستمتعت البلاد في عهده بالأمن وبشيء من الطمأنينة لم تستمتع بهما في عهد غيره. وأحست بنوع من الكرامة الوطنية تذكو في فؤادها. فقد رأت حاكمها العظيم يقطع صلته بالدولة العثمانية ويجعل لمصر مركزا ممتازا بين الدول. . . ولكن هذا العهد لم يدم طويلا، فقد تألب المماليك المدحورون برياسة محمد بك أبي الذهب مملوك علي بك وساعده الأيمن فيما مضى - وشقت عليه عصا المطاعة وقاتلته حتى دحرته، ومن ثم أرجعت الباشا الوالي إلى عرشه الواهي المتآكل. . . وعادت الحياة كما كانت قبل أن يحكمها ذلك العاهل الكبير.

صور عنيفة جبارة، يعرضها أمامك المؤلف في دقة غريبة وتنسيق جميل في كتابه الدسائس والدماء، وإنك لتعجب وأنت قرأ هذه الصحائف الممتعة كيف استطاع الكاتب أن يجمع لك في كتاب لا يتعدى المائة والخمسين صفحة، هذه الحوادث الجسيمة والشخصيات المعقدة في شبه ملحمة لم تدع كبيرة ولا صغيرة عن هذا العهد إلا سجلته. ولعلك تعجب أيضاً إذا علمت أن كل فصل من فصول هذا الكتاب يصح أن يكون قصة مستقلة يستطيع مؤلفها أن يملأ بها عشرات الصفحات. . .

فإلى صديقي خيري تهنئتي الخالصة وتقديري الكبير.

محمود تيمور

العدد 101 - بتاريخ: 10 - 06 - 1935

ذكرى المولد

ذكرى مولد الرسول هي ذكرى قيامة الروح وولادة الحرية ونشور الخلق؛ فكأن مولده كان البعث الأول الذي طهر النفس وعمر الدنيا وقرر الحق للإنسان، كما أن البعث الأخير سيخلص الروح ويبتدئ الآخرة ويعلن الملك لله

كان العالم يومئذ يضطرب في رق المادة، وعبودية الشهوة، وسلطان القوة، فلم يكن للمثل الأعلى وجود في ذهنه، ولا للغرض النبيل أثر في سعيه، ولا للشعور الإنساني مجرى في حسه، ولا للسمو الإلهي معنى في نفسه؛ إنما كان حيواناً شهوته الغلب، مادياً غايته اللذة، أنانياً شريعته الهوى؛ ثم أسرف في البهيمية حتى جعل كل أنثى مباحة لكل ذكر، وفي المادية حيث اتخذ إلهه من خشب أو حجر، وفي الأنانية حتى قتل أولاده خشية الإملاق والضرر. فلما أتى النبي العربي فتح في غار حراء، باباً إلى السماء، تنزلت منه الملائكة والروح على هذا الهيكل المنحل والجسد المعتل، فنفخت فيه سر الحياة ومعنى الخلود وحقيقة الله. وحينئذ شعر سليل الأرض أن له أسباباً إلى السماوات رثت على طول غفلته، وأن له حياة خيراً من هذه الحياة استسّر علمها في جهالته؛ فتشوف إلى الأفق البعيد، واستشرق إلى السمت العالي، وأرسل نظره وراء النظر النبوي من فوق الجبل، في صمت حراء المفكر، وفي سكون الوادي الملهم، وفي غيابة الفضاء الرهيب، يفكر في الملكوت الدائم، ويسبح للجلال القائم، ويفنى في الوجود المطلق

كانت العقيدة قبل محمد أن تموت الروح أو يموت الجسم، وأن يحكم الله أو يحكم الإنسان، وأن يظهر الدين أو تظهر الدنيا، أما تقرير الصلة بين المعنى والذات، وبين المصباح والمشكاة، وبين الحياة الأولى والحياة الأخرى، وبين الإرادة السفلى والإرادة العليا، فذلك هو القصد الإلهي من رسالة محمد، والتنفيذ المحمدي لإرادة الله

وكان العالم قبل يوم محمد يرسف في عبودية عقلية تقتل التفكير، وعبودية جسمية تعقل التصرف؛ فلم يكن للأسرة نظام، ولا للقبيلة قانون، ولا للأمة دستور، ولا للعقيدة شريعة؛ إنما هو طغيان عاسف يتحكم في الفرد ويسيطر على الجماعة: فالأب يملك على بنيه الموت والحياة بحكم الطبيعة، والشيخ يفرض على عشيرته الأمر والنهي بمقتضى العرف، والملك يخضع نفوس الشعب باسم الدين، والكاهن ينسخ عقول الناس بقوة الجهل، والناس أجمعون عدا هؤلاء الأربعة أتباع وأوزاع وهمل

فلما بعث الرسول الكريم رحمة للعالمين بعث الحرية من قبرها، وأطلق العقول من أسرها، وجعل التنافس في الخير، والتعاون على البر، والتفاضل بالتقوى، ثم وصل بين القلوب بالمؤاخاة، وعدل بين الحقوق بالمساواة، ودخل بين النفوس بالمحبة، حتى شعر الضعيف أن جند الله قوته، والفقير أن بيت المال ثروته، والوحيد أن المؤمنين جميعاً اخوته؛ ثم محا الفروق بين أجناس الإنسان، وأزال الحدود بين مختلف الأوطان، فأصبحت الأرض كلها وطناً مشاعاً، والعالم كله أسرة متحدة، لا يهيمن على علائقها إلا الحب، ولا يقوم على مرافقها إلا الإنصاف، وليس فيها بين المرء وخليفته حجاب، ولا بين العبد وربه واسطة

يا رعى الله ذكراك المقدسة يا غار (ثور)! لقد كنت مبعث الحرية، كما كان غار (حراء) مبعث الروح! فأنت في جبل الخلاص وهو في جبل التجلي!!

وكان العالم قبل مولد محمد يعاني تفكك الخلق وتحلل الرجولة وتقلب الأثرة وتحكم السفاهة؛ فسطوة اليد تسرف على العدل، وعصبية الدم تبغي على الحق، وسلطان المال يجني على الإنسانية، وسورة الترف تتعدى على المروءة؛ فالتجارة بخس وتطفيف، والعهود نقض وتسويف، والناس يعيشون عيش الوحش، تنافر وتدابر واحتيال واغتيال وشهوة!! فلما ظهر البطل العظيم والإنسان الكامل كانت شمائله وأفعاله رسالة أخرى في الخلق: كان تطبيقاً لقوانين الدين بالمثل، وتعليماً لآداب النفس بالعمل، وتنظيماً لغرائز الحياة بالقدوة؛ ثم فعلت شخصيته ودعوته في نفوس رويت بالدماء، ونغلت بالعداء، وعاشت على الفرقة، فألفهم على المودة، وجمعهم على الوحدة، ثم جعل لهم من كتاب الله نوراً، ومن سنته دستوراً، ورمى بهم فساد الدنيا فأصلحوا الأرض، ومدنوا العالم، وهذبوا الناس

ذلك ما تلقيه ذكرى مولد الرسول في روع المؤمن العقول الذاكر! فليت شعري ماذا يجد في نفسه وفي قومه من روح محمد وحرية محمد وخلق محمد! ألسنا نعيش

اليوم صوراً كقطع الشطرنج، وأتباعاً كعبيد الأرض، وهمجاً كهمج الجاهلية؟ وهل كان ذلك يكون لو أننا اتخذنا من أحكام الله منهاجاً، ومن كلام رسوله علاجاً، ومن حياة السابقين الأولين قدوة؟

إن ذكرى مولد الرسول ذكرى انطلاق الإنسانية من أسر الأوهام، وطغيان الحكام، وسلطان الجهالة، فما أجدر القلوب الواعية الحرة على اختلاف منازعها ومشارعها أن تخشع إجلالاً

لذكرى رسول التوحيد والوحدة، ونبي الحرية والديمقراطية، وداعية السلام والوئام والمحبة!

أحمد حسن الزيات

ورقة ورد

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

وضعنا كتابنا (أوراق الورد) في نوع من الترسل لم يكن منه شيء في الأدب العربي) على الطريقة التي كتبناها بها في المعاني التي أفردناه لها، وهو رسائل غرامية تطارحها شاعر فيلسوف وشاعرة فيلسوفة على ما بيناه في مقدمة الكتاب. وكانت قد ضاعت (ورقة ورد)، وهي رسالة كتبها ذلك العاشق إلى صديق له، يصف من أمره وأمر صاحبته، ويصور له فيها سحر الحب كما لمسه وكما تركه. وقد عثرنا عليها بعد طبع الكتاب فرأينا ألا تنفرد بها، وهي هذه:)

كانت لها نفس شاعرة، من هذه النفوس العجيبة التي تأخذ الضدين بمعنى واحد . . . أحياناً؛ فيسرها مرة أن تحزنها وتستدعي غضبها، ويحزنها مرة أن تسرها وتبلغ رضاها، كأن ليس في السرور ولا في الحزن معان من الأشياء ولكن من نفسها ومشيئتها وكان خيالها مشبوباً، يلقي في كل شيء لمعان النور وانطفاءه؛ فالدنيا في خيالها كالسماء التي ألبسها الليل، ملئت بأشيائها مبعثرة مضيئة خافتةً كالنجوم

ولها شعور دقيق، يجعلها أحياناً من بلاغة حسها وإرهافه كأن فيها أكثر من عقلها؛ ويجعلها في بعض الأحيان من دقة هذا الحس واهتياجه كأنها بغير عقل

وهي ترى أسمى الفكر في بعض أحوالها ألا يكون لها فكر ألبته؛ فتترك من أمورها أشياء للمصادفة، كأنها واثقة أن الحظ بعض عشاقها. على أن لها ثلاثة أنواع من الذكاء، في عقلها وروحها وجسمها: فالذكاء في عقلها فهم، وفي روحها فتنة، وفي جسمها. . . خلاعة

وكنت أراها مرحة مستطارة مما تطرب وتتفاءل، حتى لأحسبها تود أن يخرج الكون من قوانينه ويطيش. . .؛ ثم أراها بعد متضورة مهمومة تحزن وتتشاءم، حتى لأظنها ستزيد الكون هماً ليس فيه!

وكانت على كل أحوالها المتنافرة - جميلة ظريفة، قد تمت لها الصورة التي تخلق الحب، والأسرار التي تبعث الفتنة، والسحر الذي يميز روحها بشخصيتها الفاتنة كما تتميز هي بوجهها الفاتن

وكان حبي إياها حريقاً من الحب. فمثّل لعينيك جسماً تناول جلده مس من لهب، فتسلّخ هذا

الجلد هنا وهناك من سلخ النار، وظهر فيه من آثار الحروق لهب يابس احمر كأنه عروق من الجمر انتشرت في هذا الجسم. إنك إن تمثلت هذا الوصف ثم نقلته من الجلد إلى الدم - كان هو حريق ذلك الحب في دمي!

والحب - إن كان حباً - لم يكن إلا عذاباً؛ فما هو إلا تقديم البرهان من العاشق على قوة فعل الحقيقة التي في المعشوق، ليس حال منه في عذابه، إلا وهي دليل على شيء منها في جبروتها

ولقد أيقنت أن الغرام إنما هو جنون شخصية المحب بشخصية محبوبه، فيسقط العالم وأحكامه ومذاهبه مما بين الشخصيتين، وينتفي الواقع الذي يجري الناس عليه، وتعود الحقائق لا تأتي من شيء في هذه الدنيا إلا بعد أن تمر على المحبوب لتجيء منه، ويصبح هذا الكون العظيم كأنه إطار في عين مجنون لا يحمل شيئاً إلا الصورة التي جنّ بها!

وتالله لكأن قانون الطبيعة يقضي ألا تحب المرأة رجلاً يسمى رجلاً، وألا تكون جديرة بمحبها، إلا إذا جرت بينهما أهوال من الغرام تتركها معه كأنها مأخوذة في الحرب. . .

تلك الأهوال يمثلها الحيوان المتوحش عملاً جسمياً بالقتال على الأنثى، ثم ترق في الإنسان المتحضر فيمثلها عملاً قلبياً بالحب
أحببتها جهد الهوى حتى لا مزيد فيه ولا مطمع في مزيد، ولكن أسرار فتنتها استمرت تتعدد فتدفعني أن يكون حبي أشد من هذا؛ ولا أعرف كيف يمكن في الحب أشد من هذا؟
ولقد كنت في استغاثتي بها من الحب كالذي رأى نفسه في طريق السيل ففر إلى ربوة عالية في رأسها عقل لهذا السيل الأحمق، أو كالذي فاجأه البركان بجنونه وغلظته فهرب في رقة الماء وحلمه؛ ولا سيل ولا بركان إلا حرقتي بالهوى وارتماضي من الحب
أما والله إنه ليس العاشق هو العاشق، ولكن هي الطبيعة، هي الطبيعة في العاشق هي الطبيعة، بجبروتها، وعسفها، وتعنتها. إذا استراح الناس جميعاً قالت للعاشق: إلا أنت. . .!
إذا عقل الناس جميعاً قالت في العاشق: إلا هذا. . .!
إذا برأت جراح الحياة كلها قالت: إلا جرح الحب. . .!
إذا تشابهت الهموم كالدمعة والدمعة، قالت: إلا هم العشق. . .!
إذا تغير الناس في الحالة بعد الحالة، قالت في الحبيب: إلا هو. . .!
إذا انكشف سر كل شيء، قالت: إلا المعشوق؛ إلا هذا المحجب بأسرار القلب. . .!
ولما رأيتها أول مرة ولمسني الحب لمسة ساحر، جلست إليها أتأملها وأحتسي من جمالها ذلك الضياء المسكر الذي تعربد له الروح عربدة كلها وقار ظاهر. . . فرأيتني يومئذ في حالة كغشية الوحي، فوقها الآدمية ساكنة، وتحتها تيار الملائكة يعّب ويجري
وكنت ألقي خواطر كثيرة، جعلت كل شيء منها ومما حولها يتكلم في نفسي، كأن الحياة قد ضاقت وازدحمت في ذلك الموضع الذي تجلس فيه، فما شيء يمر به إلى مسته فجعلته حياً يرتعش، حتى الكلمات
وشعرت أول ما شعرت أن الهواء الذي تتنفس فيه يرق رقة نسيم السحر، كأنما انخدع بها فحسب وجهها نور الفجر!
وأحسست في المكان قوة عجيبة في قدرتها على الجذب، جعلتني مبعثراً حول هذه الفتانة. كأنها محدودة بي من كل جهة
وخيل إلي أن النواميس الطبيعية قد اختلت في جسمي إما بزيادة وإما بنقص؛ فأنا لذلك أعظم أمامها مرة، وأصغر مرة
وظننت أن هذه الجميلة إن هي إلا صورة من الوجود النسائي الشاذ، وقع فيها تنقيح إلهي لتظهر للدنيا كيف كان جمال حواء في الجنة
ورأيت هذا الحسن الفاتن يشعرني بأنه فوق الحسن، لأنه فيها هي، وأنه فوق الجمال والنضرة والمرح، لأن الله وضعه في هذا السرور الحي المخلوق امرأة
والتمست في محاسنها عيباً، فبعد الجهد قلت مع الشاعر:
(إذا عيبتها شبهتها البدر طالعاً. . .!)
ورأيتها تضحك الضحك المستحي؛ فيخرج من فمها الجميل كأنما هو شاعر أنه تجرأ على قانون. . .
وتبسم ابتسامات تقول كل منها للجالسين: أنظروها! أنظروها. . .!
ويغمرها ضحك العين والوجه والفم، وضحك الجسم أيضاً باهتزازه وترجرحه في حركات كأنما يبسم بعضها ويقهقه بعضها. . .
وتلقي نظرات جعل الله معها ذلك الإغضاء وذلك الحياء، ليضع شيئاً من الوقاية في هذه القوة النسوية، قوة تدمير القلب
وهي على ذلك متسامية في جمالها حتى لا يتكلم جسمها في وساوس النفس كلام اللحم والدم؛ وكأنه جسم ملائكي ليس له إلا الجلال طوعاً أو كرهاً
جسم كالمعبد، لا يعرف من جاءه أنه جاءه إلا ليبتهل ويخشع
وتطالعك من حيث تأملت فكرة الحياة المنسجمة على هذا الجسم، تطلب منك الفهم وهي لا تفهم أبداً؛ أي تريد الفهم الذي لا ينتهي؛ أي تطلب الحب الذي لا ينقطع
وهي أبداً في زينة حسنها كأنها عروس في معرض جلوتها؛ غير أن للعروس ساعة، ولها هي كل ساعة

أما ظرفها فيكاد يصيح تحت النظرات: أنا خائف، أنا خائف!
ووجهها تتغالب عليه الرزانة والخفة، لتقرأ فيه العين عقلها وقلبها
وهي مثل الشعر، تطرب القلب بالألم الذي يوجد في بعض السرور، وبالسرور الذي يحس في بعض الألم
وهي مثل الخمر، تحسب الشيطان مترقرقاً فيها بكل إغرائه!
وكلما تناولت أمامي شيئاً أو صنعت شيئاً خلقت معه شيئاً؛ أشياؤها لا تزيد بها الطبيعة، ولكن تزيد بها النفس
فيا كبداً طارت صدوعاً من الأسى. . .!
ورأيتني يومئذ في حالة كغشية الوحي، فوقها الآدمية ساكنة، وتحتها تيار الملائكة يعب ويجري
يا سحر الحب! تركتني أرى وجهها من بعد هو الوجه الذي تضحك به الدنيا وتعبس
وتتغيظ وتتحامق أيضاً. . .
وجعلتني أرى تلك الابتسامة الجميلة هي أقوى حكومة في الأرض. . .!
وجعلتني يا سحر الحب؛ وجعلتني يا سحر الحب مجنوناً. . .!
(طبق الأصل)
طنطا
مصطفى صادق الرافعي
في الجبانة
للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني
قالت لي أمي - رحمها الله - مرة:
(ألا تنوي أن تزور أباك في هذا الموسم؟)
وكنا قد أوشكنا أن ندخل في رجب، وكانت حريصة على زيارة موتاها في كل موسم، بل في كل خميس وجمعة، لا تهمل منهم أحداً، فتطوف بهم جميعاً وتقرأ لهم الفواتح، ولا تأكل فاكهة جديدة حتى (تفرق) منها على قبورهم، وكان ذلك يثقل علي، ولكني كنت أكلها إلى رأيها فيه، إيثاراً لمرتضاتها
فقلت - بلهجة من ضاق صدره: - (كيف أزوره وهو ميت وأنا حي، وهو تحت الأرض وأنا فوقها، فلا يسمع مني ولا يراني ولا يحسني؟)
فقالت: (إني أراك مغتراً بالحياة ومعتزاً بها، ولا أستحسن لك هذا) ولم تزد، فأقصرت
أنا أيضاً وقد شعرت أني آلمتها بسخافتي وحماقتي، وكرت الأيام، فما يقف الدهر، وماتت - كما يموت كل حي - فكان أوجع لي من موتها أنها ذهبت وهي موقنة أني لن أزور قبرها، وكأنما أردت أن أغالط نفسي فيما تحسه من الوخز والندم، فجعلت أزورها من حين إلى حين، ولكني كنت أتسلل كاللص، وأتخير أوقاتاً غير أوقات الزيارة المألوفة، فلا يعلم بذلك أحد، ولا يراني مخلوق، ثم كففت لأني أنكرت هذا كله من نفسي، وكبر علي أن أذهب إلى المقابر على رجلي، وقلت لنفسي: (إذا كان المراد بالزيارة الذكر، فإنها به أبداً بين العين والقلب، وإذا كان صحيحاً ما يقال من أن الميت يموت مرة أخرى كلما نسيه واحد من الأحياء، فإني لن أجني ميتة جديدة على أمي ما دمت حياً)
ولم يفتر ندمي مع ذلك، فظل دائراً في نفسي، فتشددت، وحملت نفسي على مكروهها، ومضيت إلى قبرها في ليلة سوداء - أعني مظلمة - وفتحت الباب ودخلت المقبرة وقلت (السلام عليكم) كأنما أردت أن أونس نفسي بصوتي في هذه الوحشة، فما راعني إلا صوت يقول: (وعليكم السلام! من تراك تكون؟)
فذعرت، وهممت بالجري، ولكني استحييت، فما يمكن أن يرد السلام غير حي، ولعله مسكين أوى إلى هذا المكان الموحش من الفاقة، وما أكثر من رأيتهم يفعلون ذلك! فما
خوفي من رجل يقول: (وعليكم السلام)؟؟ ولو كان امرءاً سوء لاستخفى، فتشجعت وأدرت عيني في المكان فلم تأخذ شيئاً في هذا السواد، فقلت:
(من عساك تكون أنت يا صاحبي؟)
فقال الصوت: (وما سؤالك هذا؟ لن تعرفني على كل حال. فإني قديم - قديم، ولكن تعال ساعدني واحتقب شكري)

فدنوت منه - أعني من مصدر الصوت - وسألت: (على أي شيء تريد أن أساعدك؟)
قال: (على حمل هذا الحجر - فقد وهن عظمي جداً)
قلت: (ولماذا تريد أن تحمله؟ دعه حيث هو، فإنه من حجارة المقبرة وليس لأحد أن يزحزحها عن مكانها أو ينقلها)
قال: (إنك معذور)
قلت: (كيف؟ ماذا تعني؟)
قال: (هذا قبري. وهذا من سواه - عليه اسمي مكتوباً. . . تستطيع أن تقرأه إذا شئت)
فكان من دواعي عجبي بعد ذلك أني لم أذعر ولم أول هارباً، بل أقبلت عليه أسأله وأستخبره فقال: (لقد هجرنا جميعاً هذه المقبرة المهملة - لم يبق لنا فيها مقام. وكيف المقام في قبور متهدمة؟؟ لقد كانت جديدة حسنة البناء يوم جئنا، وكان أهلنا - الباقون منا على قيد الحياة - يعنون بها ويرشون أرضها بالماء ويحملون إليها الزهر والرياحين، فكان نشرها يفوح ويتضوع، فإذا جن الليل خرجنا من القبور مسرورين وأقبلنا عليها نشمها وننعم بشذاها، وكان القراء يتلون على أجداثنا القرآن فيندى على قلوبنا وترف له نفوسنا ونحس أن عظامنا قد طريت. أما الآن. . .!؟ لا يا صاحبي، لم تعد هذه المقبرة صالحة للإقامة! وقد هجرناها، وجمع كل منا كفنه وحمل من له حجر حجره، ورحلنا، وكيف كان يسعنا غير ذلك؟ إنها لم تعد جبانة. . . هذه هي مساكن الأحياء أراها من مكاني هنا. . . فهل هذه مقبرة؟ لقد زحف الناس ببنائهم وغزوا أرضنا وجاروا علينا، وجاورونا، فبالله كيف نطيق جوارهم؟ كيف نحتمل لغطهم وضجاتهم التي لا تنتهي؟ ما عسى صبرنا على حركاتهم التي لا يعقبها سكون؟؟ لكأنا ما متنا ولا استرحنا إذن!؟ وأقول لك الحق لقد بدأنا نأسف على أنّا متنا. . . لا يا صاحبي، لم تبق هذه الأرض للموتى، ولم يعد ثم مفر من الرحيل عنها. . . لقد تعبنا جداً هنا واضطررنا إلى ما لم يكن لنا في حساب. ومن لطف الله بنا أن هذه البلاد قليلة المطر، ومع ذلك كنا إذا أمطرت ينفذ إلينا الماء من سوء حال القبور، وتبتل أكفاننا فنضطر إلى الخروج وننشرها بين أيدينا أو على هذا السور حتى تجف وتعود صالحة للبس. وعلى ذكر ذلك أقول إني لا أدري ماذا جرى للدنيا؟ لقد كانت حفيدة لي مدفونة هنا، وكان عليها كفن من الحرير الغالي، فسرقه لص! تصور هذا؟ ولا أعلم هل سرقه واحد من الأحياء، أو تغفلتها ميتة أخرى وسرقته؟ فإن كان السارق من الموتى فلابد أن يكون من جيراننا فما في أسرتنا هذا السوء. وقد شكت إلي ما صارت إليه من العري، فلم أدر أول الأمر ماذا أصنع؟ وكيف أكسوها؟ وخطر لي أن أنتظر حتى يجيئنا ميت جديد، أو يموت ابنها فآخذ من كفنه لها، فإن الميت الجديد يلف في أكثر مما يحتاج إليه، ولكنه لم يمت مع الأسف، فلم أجد حيلة إلا أن أجعلها دقة بدقة، والبادئ أظلم، فذهبت أرتاد هذه الجبانة حتى رأيت كفناً من الحرير لا أشك في أنه الكفن المسروق، فجئتها بشق منه وتركت شقاً)
وضحك - أعني أنه أخرج صوتاً سألته عنه لأني حسبته كلاماً فقال إنه كان يضحك، فسرت في بدني رعدة، واستأذنته في الانصراف
فقال: (ألا تعينني؟ إن الحجر ثقيل، وأنا هرم، وقد فتر نشاطي من طول الرقاد)
فتناولت الحجر من ناحية، وتناوله من طرفه الآخر، ووضعناه معاً على ظهره، وذهب يخطو، وكانت عظامه تقرقع وهو يمشي، فلما بلغ الباب سألته:
(ألم يبق هنا أحد منكم؟)
قال: (لا. . . ماذا نصنع هنا؟ كلا ليبن فوقها الأحياء إذا شاءوا)
قلت: (وأين ذهبتم، فقد نحب أن نزوركم)
قال: (أين ذهبنا؟ وأين تنتظر أن نذهب؟ انتشرنا في فضاء الله، فإن أرضه ما زالت واسعة، ولن نعدم فيها منأى عن مساكن الأحياء. . . وعلى ذكر ذلك أسألك: ألستم تموتون في هذه الأيام؟)
قلت: (يا له من سؤال؟ كيف لا نموت؟)
قال: لماذا إذن هذا الزحف علينا كأن الدنيا تضيق بكم وكأنكم تزيدون ولا تنقصون؟ لماذا
لا يكفيكم ما كان يكفينا؟ كل الجبانات المشهورة صارت أحياء عامرة بالسكان فكيف هذا؟)

فسألته: (وجلا عنها الموتى؟)
قال: (بالطبع! وهل يمكن أن يحتملوا الناس؟ إذن لماذا ماتوا؟)
قلت: (هل تفزعكم الحياة إلى هذا الحد؟)
قال: (كما يفزعكم الموت - كلا. لا يطيق الحياة من نجا منها. . . والآن عم مساء يا صاحبي! هل لك في مرافقتي؟ لا؟ لا بأس! كل شيء مرهون بوقته. . .)
. . .فلم أطلق أكثر من ذلك، وخرجت من الجبانة أعدوا
إبراهيم عبد القادر المازني
لوكريسيا بورجيا - 3
صور من عصر الأحياء
للأستاذ محمد عبد الله عنان
وينكر بعض الباحثين المحدثين هذه الروايات المثيرة، ولا يرون فيها سوى حديث خرافة أو على الأقل أحاديث مغرقة لا تؤيدها أدلة مقنعة؛ ويستبعدون بالأخص أن تمثل لوكريسيا بورجيا في مثل هذه الحفلات العاصفة الشائنة إلى جانب أبيها وأخيها
ولكن الرأي الغالب يميل إلى الاتهام؛ ويرى في أقوال بوركارت ما يؤيد تهمة مخزية أخرى تنسب إلى لوكريسيا هي عشرة المحرم التي أشرنا إليها؛ والتي تزعم أنها كانت خليلة أبيها، خليلة اخوتها
وإليك واقعة خطيرة يستشهد بها الاتهام. في أول سبتمبر سنة 1501، أصدر البابا اسكندر السادس مرسومين مازالا يحفظان حتى اليوم في محفوظات مودينا؛ في أولهما يعلن البابا بأن أبنه شيزاري قد رزق غلاماً غير شرعي يدعى جوفاني في نحو الثالثة من عمره، وأنه يبرئه من عيب هذا المولد غير الشرعي، ويباركه ويعتبره أبناً شرعياً لولده شيزاري، يتمتع بكل حقوق الوراثة الشرعية، وينعم عليه بلقب دوق نيبي؛ وفي المرسوم الثاني يقرر البابا، أنه وإن كان يبرئ هذا الغلام ويرفعه إلى مرتبة الولد الشرعي، فإنه يقرر بأن عيب هذا المولد لا يرجع إلى ولده شيزاري بل يرجع إليه هو (أي البابا) وسيدة حرة (من قيود الزواج)، وإن كان ما يؤول إليه من الحقوق والمزايا طبقاً للمرسوم السابق يؤول إليه أيضاً بصفته ولد البابا وليس ولد ولده شيزاري؛ أو بعبارة أخرى يعترف البابا في هذا المرسوم بأن هذا الطفل هو ولده وثمرة غرامه
فمن هي أم هذا الطفل (الروماني)؟ ومن هي هذه السيدة الحرة، حظية البابا أو حظية ولده شيزاري أو حظيتهما معاً؟
يقول المؤرخ الكبير أميل جبهارت في الرد على ذلك: إن مولد هذا الغلام الروماني (جوفاني) الذي تولت لوكريسيا فيما بعد، حين غدت دوقة فيرارا تربيته، باعتباره أخيها، هو اشد ما في حياة اسكندر السادس وحياة شيزاري غموضاً وإيلاماً. والواقع أن لوكريسيا قد وضعت في سنة 1498 ولداً يتفق مولده بالضبط مع تفاصيل المرسومين البابويين،
وتوجد مراسيم أخرى في محفوظات الفاتيكان تنسب هذا الولد إلى شيزاري. يقول جبهارت، فهذا الاعتراف المزدوج بالأبوة، وهذا التناقض، مما يسمح لنا بالإشارة إلى عناصر هذه المسألة المحزنة دون أن نحاول بسطها
وبعبارة أخرى يرى جبهارت أن هذا الغلام هو ولد اسكندر السادس من أبنته لوكريسيا، أو ولد شيزاري من أخته؛ وأن ما كان ينسبه جان سفورزا إلى زوجته عندئذ من أنها كانت خليلة أبيها، خليلة أخيها، إنما هو حق صراح
بيد أن العلامة فوك برنتانو يعترض على هذا الإيضاح بشدة، ويقول أن بوركارت الذي يعني في مذكراته بكل ما يتصل بالفضائح البابوية وبالأخص بفضائح لوكريسيا لا يشير إلى مولد هذا الغلام بشيء؛ وليس معقولاً أن تعنى لوكريسيا بتربية غلام غير شرعي ينسب إليها في بلاط زوجها دوق فيرارا، وهو أمير رفيع الجلال والكرامة؛ وكيف تفعل ذلك، وقد تركت ولدها الشرعي رودريجو لعناية جده؟ ويرى هذا العلامة أن مصدر الشنائع كلها هم سفراء البندقية لدى الفاتيكان، وقد كانت مهمتهم الحقيقية أن يشهروا بإسكندر السادس وأسرته وكل ما يتصل بها
ويرى بعض الرواة المعاصرين أن هذا الغلام إنما هو ولد البابا من خليلته جوليا فارنيسي؛ ويرى آخرون أنه ولد لوكريسيا من وصيف البابا المدعو بيروتو، وقد عاقبه البابا بأن زجه إلى ظلام السجن

وعلى أي حال، فإن في هذه الروايات والشواهد كلها، ما يسبغ أشد الريب على خلال لوكريسيا بورجيا؛ تلك الفتاة الطروب الفاتنة، التي كانت تخوض بلا انقطاع حياة فياضة بالفتنة والغواية، والتي كان جمالها الساحر يثير حولها ضراماً من الشهوات الخطرة؛ وما يسبغ اشد الريب على علائقها بأبيها الحبر الفاسق الذي يسحق تحت قدميه كل مبادئ الأخلاق والحشمة، وأخيها الطاغية الذي كانت الجريمة وسيلته الوحيدة إلى كل غاية

ننتقل الآن إلى صفحة جديد وفي حياة لوكريسيا بورجيا

لم يكد يزهق زوجها الثاني الفونسو دي بزيليا، حتى وضع مشروع جديد بزواجها. وكان المرشح هذه المرة الفونسو ديستي ولد دوق فيرارا وولي عهده؛ وكان الترشيح لنفس البواعث السياسية التي ما زالت تملي على اسكندر السادس وشيزاري تلك المشاريع الزوجية المتعاقبة. وقد تردد الدوق وولده في قبول هذه المصاهرة بادئ بدء لما يعلمانه من غدر البابا وولده، وما توصم به لوكريسيا من شنيع التهم؛ ولكن سفراء فيرارا قدموا عن لوكريسيا تقارير حسنة وصفت فيها بالحشمة والتواضع والتحفظ وبأنها ضحوك يغلب عليها المرح. وتمت الصفقة على أن يدفع البابا لابنته مهراً قدره أربعون ألف دوقة، وأن يتنازل لدوق فيرارا عن بعض الحصون والجهات، وأن يخفظ إتاوته للكنيسة إلى أدنى حد. وتم العقد في فيرارا في أول سبتمبر سنة 1501؛ وفي اليوم الخامس احتفل البابا بإشهار زواج ابنته في كنيسة القديس بطرس احتفالاً شائقاً وفي أواخر ديسمبر قدم وفد حافل من أمراء فيرارا وأعيانها وعلى رأسه فرديناند ديستي أخو الزوج لينوب عنه في استقدام زوجه، وشهدت رومة مدى أيام سلسلة من الحفلات والمأدب الباذخ والليالي الساطعة المرحة؛ وفي السادس من يناير (سنة 1502) أجريت مراسيم الوداع؛ وغادرت لوكريسيا رومة في ركب فخم من الأمراء والفرسان إلى وطنها الجديد فيرارا فوصلت إليها في الثاني من فبراير بعد رحلة باهرة، واستقبلت بأعظم مظاهر الفخامة والتكريم

وكان مقامها الجديد في قصر قاتم موحش لا يتناسب مع مقامها الفخم في رومة، ولكنها اعتادت حياتها الجديدة بسرعة، وعاشت في هدوء وبساطة، ولم تفقد شيئاً من مرحها وبهجتها؛ وكان هذا المرح الفياض يسحر أهل فيرارا ويجذبهم إليها، وكان زوجها الفونسو ديستي فتى متين الخلق والخلال كثير الخطورة والجد، يؤثر الاهتمام بالشؤون الحربية، ولكن رقيق الشمائل وافر الثقافة، يعشق الفن ويحميه؛ وكانت لوكريسيا تعيش معه في وفاق، يحيط بها حب الأسرة الجديدة واحترامها

بيد أن هذه الحياة الهادئة كانت تكدرها عن بعد مشاريع شيزاري وأعماله؛ وكان شيزاري يومئذ يخترق أواسط إيطاليا بجيشه، ويمزق العدو والصديق معاً، ويحاول بتلك الوسائل الدموية الغادرة، التي أثارت إعجاب مكيافيللي وجعلته يعتبر شيزاري مثله الأعلى للأمير البارع - أن ينشئ مملكة رومانية كبرى؛ وكانت لوكريسيا تقاسي في عزلتها من التبعة المعنوية التي تلحقها من جراء هذه المشاريع والأعمال المثيرة ثم نزل بها مصاب فادح، ذلك أن ولدها رودريجو الذي كان يربى في بابل في أسرة أبيه،

توفي في الثالثة من عمره (أغسطس سنة 1502) فحزنت عليه أيما حزن، وأثر الحزن في هيكلها الدقيق، فلزمت فراشها مدى حين وجداً وأسى؛ ولكنها لقيت من عطف زوجها ووفائه في محنتها ما خفف لوعة وجدها وعاونها على استكمال صحتها وهنا يحمل بعض المؤرخين على لوكريسيا، ويتهمونها بالقسوة والنذالة لأنها لم تعن بتربية ولدها بنفسها في حين أنها عنيت بتربية (الطفل الروماني) الذي أشرنا إلى قصته

وكانت لوكريسيا في تلك الفترة تعنى بالقراءة؛ ولم تلق في فيرارا شيئاً من تلك الحفلات المرحة التي كانت كل حياتها في الفاتيكان، بيد أنها كانت قد عافت هذه الدنيا الصاخبة، وارتاحت إلى حياة العزلة والسكينة

ولم يمض عام آخر حتى فقدت لوكريسيا أباها اسكندر السادس؛ وكانت وفاته في 18 أغسطس سنة 1503 في سن الثالثة والسبعين

ويصف لنا المؤرخ جيشاردينو وقع وفاته في روما فيما يأتي: (هرعت روما بأسرها، وقد غمرها فرح لا يوصف، إلى كنيسة القديس بطرس، تتأمل ذلك الميت؛ ذلك الشيطان

الذي يضطرم طمعاً ويفيض غدراً؛ ذلك الذي سمعت قسوته الوحشية، وفجوره المروع، وجشعه، وجرأته المثيرة في إدارة الشؤون المدنية والدينية، جو العالم كله) ووقع النبأ كالصاعقة على لوكريسيا. ذلك أنها كانت تحب أباها رغم رذائله وآثامه، حباً جما؛ وكانت تشعر بأن هذا الحنان الفياض الذي كان يغدقه عليها دائماً، هو ملاذ حياتها وعزها، فغمرها الحزن مدى حين. ولكن زوجها وأسرته استقبلا النبأ بارتياح؛ ولم تر لوكريسيا أباها مذ غادرت رومة عقب زواجها، لأن زوجها كان يأبى دائماً أن تزور رومة أو يزورها أبوها في فيرارا

وقد كانت وفاة اسكندر السادس خاتمة ذلك السلطان إلى تبوأ آل بورجيا في إيطاليا مدة ثلاثة عشر عاماً، وكان نكبة حقه لولده شيزاري. ذلك أن مشاريعه انهارت في الغداة كانهيار قصر أسس على الرمال أن فقد ذلك العضد القوي الذي كان مصدر كل قوته وبطشه؛ فالتجأ إلى جونزالفو دي كردوفا قائد الجيوش الإسبانية في نابل، ولكنه اعتقله وسلمه إلى ملك إسبانيا فرديناند الكاثوليكي؛ فزجه إلى السجن معتزماً أن يحاكمه على جرائمه التي أصابت كثيراً من أفراد أسرته؛ ولكن شيزاري استطاع أن يفر من سجنه بعد

خطوب جمة، وان يلتجئ إلى حمية ملك نافار؛ وهناك جرح في إحدى المعارك، وتوفي في سنة 1507؛ واختتمت بذلك حياته المدهشة التي اتخذها الفيلسوف ماكيافيللي مادة لشرح كثير من آرائه من خلال (الأمير) الأمثل

في يناير سنة 1505 توفي هرقل ديستي دوق فيرارا، فخلفه ابنه الفونسو في الحكم، وغدت لوكريسيا بورجيا دوقة فيرارا

وكانت فيرارا تجمع في ذلك العهد طائفة من أكابر الكتاب والشعراء والفنانين بظلهم الدوق برعايته، أسوة بباقي القصور والعواصم الإيطالية الزاهرة؛ وكان ذلك السحر الذي تنفثه لوكريسيا أينما حلت يجذب إليها هذه الصفوة، فتجتمع حولها في ذلك البلاط الزاهر؛ وتشملهم الدوقة المستنيرة النابهة بعطفها وحمايتها

وكان من هؤلاء الشاعر الشيخ شتروتسي وولده هرقل شتروتسي وهو شاعر أيضاً، وأنتونيو تبالديو، وكالكانيني؛ ونيكوليو كوريجيو وهو من اعظم شعراء العصر؛ وجاكوبو كافيشيو أسقف فيرارا، وهو كاتب قاص؛ ثم الشاعرين الفتيين لاريوستي وبيتروبمبو

وكانت هذه الصفوة المفكرة تتغنى بسحر الدوقة الحسناء وتشيد بخلالها ومواهبها في نثرها وشعرها؛ وتهدي إليها كتبها وقصائدها. ومما يذكر أن شتروتسي الشيخ وصفها في بعض قصائده بأنها (مجمع عجائب الأرض والسماء كلها، وليس يوجد لها نظير في العالم كله)

وكانت لوكريسيا تبادلهم القريض أحياناً، وتنظم باللاتينية قصائد ساحرة، فتذكى بذلك إعجابهم وهممهم

بيد أن هذا الجو الأدبي الزاهر كانت تكدره سحب الريب والظنون، وكان اشد أولئك الشعراء تأثراً بسحر لوكريسيا بيتروبمبو؛ وكان بمبو من سادة البندقية، فتى جميلاً، بديع الخلال والمواهب، بارعاً في التاريخ والشعر، وكان من شعراء بلاط فيرارا، ومن أخصاء الدوق، يضطرم نحو الدوقة الحسناء إعجاباً وحباً؛ وكان يوجه إليها كثيراً من الرسائل والقصائد في مختلف المناسبات؛ ومن ذلك تلك القصيدة التي نظمها باللاتينية للإشادة بمعبودته

إلى لوكريسيا بورجيا

أيتها الحسناء، أنت أجمل من أوربا، أنت ابنة ملك آجنور، ولست مثل هيلانة) الإسبارطية

التي اختطفها باريس التروادي، تسمحين لجمالك أن يطغى على عبقريتك. وإذا قلت الشعر بالإيطالية فأنت ابنة الأرض الإيطالية. وإذا تناولت القلم لتكتبي القريض بنفسك، فإنه لقريض يجدر بوحي الشاعر؛ وإذا راق لك أن تهزي أوتار القيثارة، فإن أمواج نهر بو ترتجف في مجراها سحراً من غنائك، وإذا راق لك أن تستسلمي إلى الرقص بقدمك الطائر، فآه! إني لأخشى أن تلفتي نظر إله ما، فيأتي لاختطافك من قصرك، ويحملك (إلى السماء، ويجعل منك أيتها الحسناء الرائعة، إلهة كوكب جديد

كان بمبو يشعر نحو لوكريسيا بأكثر من الإعجاب والحب، كان يشعر نحوها بهيام مبرح؛ وكان هذا الهيام يبدو في قصائده ورسائله مع شيء من التحفظ تمليه عليه الظروف

واتقاء الريب. ذلك أن الفونسو ديستي كان أميراً صارماً عنيف الأهواء، وكان يحب زوجه، وإن لم تكن كل شيء في حياته الغرامية؛ وكان يحيط الدوقة بسياج منيع من غيرته وصرامته، ويرد العواطف المتوثبة إلى سحرها وجمالها في مهادها

بيد أن الروايات المعاصرة تقول إن لوكريسيا كانت تقابل حب بمبو بمثله، وأن علائقهما الغرامية اتصلت مدى حين أثناء إقامة الشاعر في فيرارا حتى سنة 1506؛ وقد كان طبيعياً أن يتفتح قلب لوكريسيا في مثل هذه الظروف؛ فقد كان الفونسو ديستي مشغولاً عن حب زوجه بمشاريعه السياسية والعسكرية، وكانت لوكريسيا تتأثر بجمال الشاعر ورقة شمائله وفيض هيامه؛ وكانت تبادله الرسائل؛ وما زالت رسالة منها تحفظ في مكتبة امبرواز بميلان ومعها خصلة من شعرها، ذلك الشعر الذهبي الأشقر الذي كان يبث من حولها النور والسحر. وقد كانت نفحة الوداع. ذلك أن بمبو رأى أن يغادر فيرارا فجأة (سنة 1506) بعد أن أقام بها ثلاثة أعوام؛ وقد كان ذهابه نوعاً من الفرار، ولعله كان اتقاء لريب الدوق وبطشه، وربما رأى المحبان أن الفراق خير وسيلة للسلامة من عواقب غرام خطر

ولقد لبث بمبو يكاتب معبودة قلبه من أوربينو مقامه الجديد حتى وفاته في سنة 1519. وهناك من يرى أن علائق لوكريسيا بالشاعر لم تتعد الصداقة الحميمة، وأن هيامه بها لم يكن سوى نوع من عبادة الجمال والحب الفلسفي

ولا ريب أن بمبو كان فتى حريصاً فطناً حين خشي نقمة الدوق. ذلك أن زميله الشاعر الفتى شتروتسي وجد ذات يوم قتيلاً مخضباً بدمائه (يونيه سنة 1508). وطارت الإشاعة

في الحال بأنه ذهب ضحية لغيرة الدوق وبطشه، ذلك أنه كان يهيم بالدوقة، ويشيد بجمالها في شعره دون تحفظ. ولكن رواية أخرى تقول إن لوكريسيا لم يكن لها في تلك المأساة شأن، وأن الدوق كان يهوي فتاة حسناء هي بربارة توريللي، وقد تزوجت من شتروتسي، فقرر الدوق موته لكي يزيله من طريق هواه

وعلى أي حال فإن الرواية تقرن اسم لوكريسيا بكثير من مآسي الحب الخفية التي وقعت يومئذ ببلاط فيرارا.

للبحث بقية

محمد عبد الله عنان المحامي

استدراك وتصويب

قرأت في العدد 99 من (الرسالة الغراء) مقال الأستاذ المغربي (بين الفقه الإسلامي والروماني) فرأيته تلطف في الرد على الخواجه ميشيل عند قوله:

(إن أبا حنيفة لم يعترف إلا بسبعة عشر حديثاً) وهي غلطة ظاهرة لا يسوغ لأحد أن يغتر بها، لأن روايات أبي حنيفة على تشدده في شروط الصحة لم تكن سبعة عشر حديثاً فحسب بل أحاديثه في سبعة عشر جزءاً يسمى كل منها بمسند أبي حنيفة، وقد خرجها جماعة من الحفاظ بأسانيدهم إلى الإمام ما بين مقل منهم ومكثر حسبما بلغ إليهم من الأحاديث التي يرويها، وليس بين تلك الأجزاء جزء أصغر من سنن الإمام الشافعي رواية الطحاوي ولا من مسند الشافعي رواية أبي العباس الأصم اللذين عليهما مدار أحاديث الإمام الشافعي. وقد عنى أهل العلم بتلك المسانيد جمعاً وتلخيصاً وتخريجاً وقراءة وسماعاً ورواية؛ فهذا الشيخ محدث الديار المصرية الحافظ محمد بن يوسف الصالحي صاحب الكتب الجليلة في السير وغيرها يروي تلك المسانيد السبعة عشر عن مشايخه ما بين قراءة وسماع ومشافهة وكتابة بأسانيدهم إلى مخرجيها، وذلك في كتابه (عقد الجمان). وكذا يرويها بطرق كثيرة محدث الديار الشامية الحافظ شمس الدين بن طولون في (الفهرست الأوسط) عن شيوخه سماعاً وقراءة ومشافهة وكتابة بأسانيدهم كذلك إلى مخرجيها، وذانك الحافظان هما زينا القطرين في القرن العاشر الهجري، وكذلك حملة الرواية إلى قرننا هذا ممن لهم عناية بالسنة.

وما تلك المسانيد والكتب ببعيدة عن متناول أهل العلم، بل بعضها مطبوع في الهند. . . إلى غير ذلك مما تراه مفصلاً في (شروط الأئمة الخمسة للحازمي المطبوع سنة 1346)

أبو أسامة

هراقليوس في المعبد

البطل
للأستاذ معروف الارناءوط
كاتب (سيد قريش) وصاحب (فتى العرب)
تتمة المنشور في العدد الماضي

كان معبد القديسة هيلانة غارقاً في الصمت، فليس في نواحيه أثر من صلاة، ولا تنير محارمه ومناسكه هذه الشموع الكثيرة التي تنير أروقة كنيسة القبر المقدس؛ وقد جفاه المرتلون والعازفون، فما يسمع هراقليوس في عزلته صوتاً يحرك في نفسه شعور التقي والورع، بل ليس في هذا الرمس الذي انحدر إليه، قسيس يطمئن إلى لباسه أو يستريح إلى إرشاده ونصحه، ولو كان هنالك تقي لخف إليه وسأله أن يترع نفسه بالعزاء الذي يحبه ويشتاقه

ثم عاف هراقليوس الهيكل وأقبل على الجدر يتجسسها ويتفحصها ويستند إليها، وهو يحاول الخروج من المعبد؛ وأنه ليمشي في لين ورفق حذر السقوط إذ صافحت عيناه نزلة أخرى صورة ذلك الأعمى، فوقف ينظر إليها على ذلك النور الضعيف الذي يرسله القمر من صدوع في القبة الفيحاء، فلما حدق إليه ارتد به الخاطر في خفة الوميض إلى الحياة (موريس) التعس الذي سوغ الظالم (فوكاس) قتله مع بنيه في ليلة من ليالي الخريف الحافزة. وقد كان (موريس) قيصر الرومان وسيد هذه الدنيا طولا وعرضا، فألب (فوكاس) عليه الغوغاء وهاجمه وهو نائم في قصره، ففر إلى جزيرة (انتيغون) على الساحل الهادئ في بحر (مرارا) ولحق به بنوه وصحبه، فما تريث الطاغية (فوكاس) في اللحاق به حتى أدركه وقتله شر قتلة بعد أن غمس يده في دماء بنيه الخمسة، ولم يفلت من هذا الموت الكريه غير فتى صغير اسمه (كريستيا)، وغير فتاة صغيرة اسمها: (سافو) ومعهما تلك الإمبراطورة التعسة (تيوفانو)، ثم ثار الشعب على (فوكاس) الذي لبس التاج، وكان (هراقليوس) زعيم هذه الثورة وبطلها، وكان شعاره وشعار الثائرين الذين صحبوه إلى قصر الطاغية اسم الصغير: (كريستيا)، وكان ينبغي لهراقليوس بعد ظفره بالقاتل السفاح أن يضع على رأس الفتى تاج أبيه. فما فعل إرضاءً لمطامعه ونزواته، ثم كان من أمر (كريستيا) أن توارى عن الناس خشية أن يفتك به أنصار هرقليوس، وطويت الأحاديث عنه وما عاد رفاق أبيه يذكرون من أمره وأمر أخته وأمه شيئاً!

لقد كانت خيالة الفتى الأعمى في الصورة المائلة تشبه خيالة كريستيا، فهتف هرقليوس

وهو ينظر إليها: (كريستيا! كريستيا!) ثم وضع يده على عينيه كأنما هو يحاذر أن لا ينظر إلى الصورة نزلة أخرى، ولكن الذكريات المؤلمة التي تعاورت نفسه في المعبد المقدس، ظلت على عنفوانها وعنفها، فما كان يستطيع أن يفلت منها، ثم زحمته هذه الذكر الطاغية وانقلبت به إلى تلك الليلة الصادرة التي ابتعث فيها بعض رجاله على الذهاب إلى (نيكوميديا) تحت الودق المنهمر، فذهبوا وبعد قليل عادوا ومعهم فتاة حسناء احبها قيصر حتى شغفه حبها، ثم جاءوا بضحيتهم إلى القصر والقوا بها إلى سرير في غرفة ينام فيها هراقليوس وعلى حوائطها صور الصالحين والرسل!

لقد ناشدته تلك الفتاة انتصاراته لعله يستبقي عفافها فلا يدنسه، فلما لم تنجح في استمالته أو مضت بيدها إلى صور الصالحين والرسل، وسألته بحق هؤلاء ألا يعبث بطهارة فتاة يتيمة كان أبوها من احسن المنافحين الذائدين عن حياض النصرانية، فما أمالته ذكريات انتصاراته عن أهوائه، ولا ثنته صور الصالحين والرسل عن منازعه، فراح يحتبس الفتاة العانية بين ذراعيه المشبوبتين غير ذاكراً فضل أبيها النبيغ البطل في تأثيل انتصاراته وتوثيق غاراته!

اسم هذه الفتاة (بليتزا) واسم أبيها الغطريف (تيوفان)، ذكر هراقيليوس هذا كله فيئس وابتأس وترجف ورعد، ورأى إلى كوارث حياته كأنها تجتمع في حضيض البيعة الصغيرة، فأدرك وهو الذكي الألمعي لماذا لم تستقبله الأماكن الطاهرة بمثل تلك الحماسة البالغة التي لقيها في معابد الوثنية، فصاح صيحة أليمة وخرج على شفتيه اسم (بليتزا)، فردد هذا الاسم فضاء المعبد الساكن! وراح الرجل الذي دخل بيت المقدس في حاشية من بطاريق الجيش وبطاريق الكنيسة يغمس يده في صدره، فيمزق ثوبه القيصري ويرمي بدرره وذهبه إلى حضيض المعبد، وشفتاه تتحركان بذلك الاسم الذي

ما كان يفكر فيه قبل هذه الليلة:
بليتزا، بليتزا!
كان هذا الاسم أول ألحان هراقليوس في الأماكن الطاهرة، ولكن هذا اللحن الشجي لم يلبث أن استحال إلى نواح مذيب، فجعل الرجل المنتصر على الوثنية ينشج ويده تتجسس العمد الرخامية، ثم جلس على الأرض ووارى عينيه حتى لا يرى إلى هذه الصور!
ولما فتح عينه وردد نظراته في الجدار القائم إلى يساره أخذته صورة جديدة لم ينظر إليها من قبل فحدق فيها على زهده في الصور وابتعثته هواجسه الثائرة على الوقوف حيالها وفمه لا يزال ندياً بذلك الاسم الذي ألقى به إلى جوف الكنيسة الكبرى ثم ترعد وترجف وانفلت من صدره صياح اليم وارتد القهقري مسفوعاً عانياً، وأخذت الصورة التي أبصرها قائمة إلى يساره تتحرك وتهتز. ثم جفت الجدار ومشى ناسها في صف واحد إلى ناحية هراقليوس، فكان كلما تراجع أمام أشباحها أخذته هذه الأشباح أخذ عزيز مقتدر ومنعته أن يشق طريقه!
فأي صورة هذه؟ وكيف قدر لأشباحها أن تترك مكانها على الحائط لتمشي في حضيض المعبد كما يمشي الناس، وتنظر بعيون فيها من وميض الحياة وإشراقها ما في عيون الأحياء من وميض وإشراق!
ولما أوشكت هذه الطيوف الخرساء أن تزحمه حدق فيها عن كثب فإذا هي أربعة أشباح أحدها مشوه الخلقة، محمر الصدر، تضطرب في وجهه عينان غائرتان وإلى جانب هذا الشبح ثلاث نساء، فيهن امرأة عمياء على وجهها الصبيح شيء كثير من النعماء، وكانت العمياء تلبس السواد، وقد سدرت شعرها الأشقر على كتفيها وراحت تستند إلى ذراعي فتاة ما تزال حديثة عهد بالحياة، فما قدر هراقليوس أن يتعرف إلى خيال المرأة الثالثة، فصدف عنه وتهافت على العمياء ينظر إليها في خوف وإشفاق، واخذ فمه يردد اسم (بليتزا) بينما ضياء القمر لا يزال يتسرب من صدوع في القبة إلى الحوائط والجدر، وبينما ملابس الأشباح قد حاكت في حمرتها وصفرتها وزرقتها ألوان الفسيفساء التي أخذت تخطف على العمد والأقواس والقناطر، ولقد خيل إلى هراقليوس أن الصورة التي خرجت من الحائط الشمالي ما عادت تمعن في اللحاق به فسخر من هذا الجنون الذي تولاه، وتضاحك حتى لقد سرى ضحكه إلى أنحاء المعبد وأدرك أن قيصر الرومان قد افرط في مخاوفه، وما ينبغي له أن يفرق من صورة تراءت له على الرخام، ولما اطمأنت نفسه جعل ينظر إلى يده فإذا عليها ذلك الدم الذي تسايل من جبينه، وللمرة الأولى أخذته عزة الزعيم الغطريف، فأزرى بالشعور الذي رافقه في مطافه، وهو شعور يشعر به الدهماء، ولا يشعر به الزعيم تحت اللواء وفيم هذا الخوف؟ ولماذا تميد نفسه لذكريات الماضي، وليس في هذه الذكريات ما تنكره السلائق والشيم؟ نعم، لقد احب في مواضي أيامه امرأة اسمها (بليتزا)، وأحب القياصرة من قبل نساءً من الشعب، ثم ماتوا، ولم يقرض نفوسهم المخاوف، وحيث قد احب هراقليوس فتاة من بنات الشعب فأولى له أن يطمئن إلى هذا الحب ثم أولى له أن يطمئن إلى غده، لان (بليتزا) التي احب صارت في الغابرين
ولما رفع رأسه شامخاً مستكبراً، وأنحى ناحية الباب يريد الإفلات من هذه الهوة الراعبة، لحق به الأشباح في صف واحد، فما حفل بهذا المشهد، وخيل إليه أن اهتزاز الصورة ما كان غير وليد تصوراته وسبحه، ولكن المرأة العمياء أدركته عند الباب وهتفت باسمه (هراقليوس!)
وفي هذه الفينة لم تفته الحقيقة الراعبة فعضض يده من جزع وإشفاق وسرى جرس العمياء إلى نفسه كالصليل، فتلفت فإذا التي تصورها خيالاً تقبض على يده فتناديه:
هراقليوس! هراقليوس! انظر إلى وجهي ملياً وقل لي ماذا رأيت عليه؟
وأخذت (بليتزا) تجذبه إلى ناحيتها فشعر بحرارة أنفاسها ينظر إليها مبهوتاً حائراً ثم أطبق عينيه كأنما هو يريد ألا يرى إلى صورتها الشجية، وظلت (بليتزا) تستجيشه وتحركه وتذكر له الماضي حتى أفاق وفتح عينيه على الصورة الجاهمة سائحاً:
- بليتزا! بليتزا! قالت:
- نعم بليتزا، تلك الفتاة التي جئت بها من حجرتها في (نيكوميديا) إلى حجرتك في القصر ورحت بها إلى سريرك، فتوسلت إليك ألا تعبث بعفافها عن كثب من صور

الصالحين والقديسين والرسل! نعم أنا بليتزا، ولست خيالاً كما توهمت، فإذا كنت لا تزال في ريب من أمري، فهاك يدي فجسها، ودونك صدري فاستمع إلى وجيبه، وقل بعد ذلك إذا كنت لا تزال تحلم أم انك تؤمن بهذا الذي ترى!

لقد كان البرد الشديد، وهذا الخوف الذي تولاه، وذكريات الماضي التي تجددت في نفسه، وانبعاث بليتزا في المكان النابي المليء بأوجاع النصرانية وآلامها، وهذه الأشباح التي رافقته في مطافه، كان هذا كله مثار أحزان جديدة في نفسه، فما عاد يستطيع أن يجنب عينيه النظر إلى رفاق بليتزا، فرأى إلى (نفتالي) ثم إلى (بنيامينا) ثم إلى (مارية)! وفتح فمه ليتكلم فما خرج لسانه على شفتيه، فأومض بيديه كأنه يريد أن يسأل العامدة عن رفاقها ففطنت إلى أمره وقالت له:

- هذه الصغيرة التي ترى هي ابنتي وقد أسميتها (مارية) تحبباً إلى مريم والدة السيد المسيح، ولقد تسألني عن أبيها، ألا فاعلم يا مولاي أن أباها هو هذا الرجل الذي سألت نفسه على حوائط الكنيسة في هذه الليلة القمراء! واسمه هراقليوس ومكانه في قصر (الشالسيه) عند شاطئ البحر الأزرق في القسطنطينية! فانطلق لسانه ساعة رن في سمعه اسم مارية وأثنى صائحاً:

- ابنتي! ابنتي! فقالت العمياء:

- ابنتك وابنتي معاً!. . . فقال:

- وهذا؟ فصاحت العمياء:

تقدم أيها السيد نفتالي وقل له أي رجل أنت، واحسر له عن أمر هذه الفتاة التي هي ابنتك، فتقدم ذو القروح من قيصر وكشف عن صدره سائحاً:

لعلك أيها المولى الذي تفيأ أعلام الحرب، واستمع لأناشيد النصر من شواطئ أفريقيا إلى شواطئ البحر الزاخر في بيزنطية، لم تنس ذلك الرجل السري الذي كان يجوب شطآن البحر الأحمر باسمك، ثم يفيء إلى دار ملكك وقد ملأ سفنه بطيوب الهند ونفائس عدن

كان الناس يعيدون ذكرى ليلة الميلاد، وكنت في جملة الذين آمالهم التقى والورع إلى الصلاة، وكان الناس يرون في (نفتالي) وذلكم هو اسمي البغيض الكريه، سيد بلاد الجليل في ثرائه وترفه، فحسدني الجميع، وأخذتهم الغيرة من ذيوع أمري، فلما صليت مع المصلين راحت عيناي تنظران إلى صورة للسيد الناصري، فالتقيت إليها بنجوى القلب، وسألت الرجل الذي طربت جبال الجليل لصوته أن يباركني، ثم رجعت إلى منزلي لأمضي ليلة العيد حيال طفلتي وامرأتي، وفي الصباح أحاط الجند بمنزلي وتبارى الناس في سبي ولعني، ثم خرج بي الجند إلى الميادين، وقرئ علي أمر قيصر بإحراقي، لأنني نظرت في صلاتي إلى صورة السيد، ولان هذه الصورة وجدت مطروحة على أديم المعبد، ثم استبدل قيصر التحريق بالتغريب، وألقى بي رجاله في القفرة النائية بجوار البحر الميت، وماتت امرأتي من الألم والغم، وعاشت ابنتي عيشة لا تشرف حياتها!. . . هذا هو

كل أمري فما أظنك نسيت نفتالي، ولا أراك نسيت (بنيامينا) ابنته التعسة

لقد جئت هذا المكان الطاهر من مكاني السحيق البعيد، لأرى إليك وأسمعك دعاء وعيته وحفظته، ثم علمته ابنتي لتجهر به أمام السيد الذي رد إلى المحزونين والماحلين وما هم في حاجة إليه من شباب وعافية، وطلاقة وبشر. انظر يا مولاي إلى ابنتي! لقد كانت في عفافها ونقائها كهذه الصورة التي تمثل السيد في طفولته، فعبث بها رجالك، هؤلاء الذين جابوا العالم كله باسم النصرانية، فلما رجعوا إلى مهدها رجعت إليهم سلائق الوثنية فقتلوا البريء واضطهدوا البريئات!

ولما سكت (نفتالي)، قالت (بليتزا): (لقد حرمني الألم والنفي والسهد ضياء عيني فما نعمت بالنظر إلى محيا الطفولة التي انبثقت من دمي، وعشت في (عين كارم) عيشة راعبة لا تليق بمن كانت ابنة لتيوفان البطل! وكانت آلامي تنمو بجانب نمو ابنتي حتى كرهت الحياة ومللت مقامي بين الأحياء، ولكن صوت الطفلة التي أحببت جنبني موتاً ما كنت أجد في غيره راحة لنفسي، ثم نذرت لأمضين إلى المسيح في مهده فاسمعه بثى، فإذا لم يسمع انطلقت إلى لحده وأيقظت رفاته

وكنت عالمة بوصولك الوشيك إلى الشام فرجعت أسأل عنك فإذا قيل لي أنك بلغت

في زحفك شواطئ الفرات، حلق وهمي في فضاء النهر الزاخر، وطغت هواجسي، فلعنتك وأسرفت في اللعن، وإذا قيل لي أن قيصر وطئ البوادي سرب خيالي على الرمال وقذف فمي البغض والحقد وإني لأقسم لك أن بغضي في احتدامه وثورته مقتبس من سموم الرياح الهوج ساعة ترتمي على الرمل فتذروه في كل فضاء! فإذا قيل لي انك نزلت في منازل عدوك عند المدن الوارفة الظل نزل بي شعوري حيث أنت ورفعت صورتي لأمنعك من غناء جندك الظافر، وهكذا كنت اتبع ظلك وأترسم خطوك وأنا في القرية المتواضعة فالحق بك إلى الأنهار والرمال وإلى المدن حتى اطل شبحك على المدينة المقدسة وسمعت عزيف أبواقك ولم يفتني صليل سلاحك فجفوت مكاني في (عين كارم) وجئت (بيت لحم) فدعوت عليك ورافقت موكبك إلى الكنيسة (القبر المقدس)، وما زلت ارقب خطوك حتى خلت الكنيسة من المصلين والزائرين، وحتى رأيتك تنحدر إلى محراب القديسة هيلانة فسبقتك إليه ووقفت مع رفاقي في الألم والعذاب انظر بعيني قلبي إلى نفسك السائلة على الحوائط والجدر! هراقيليوس! هراقيليوس! كيف أنت؟ كأننا لم نفترق وكأن الأيام لم تفصل بيني وبينك وكأن تلك الحجرة التي ازدانت بتصاوير الصالحين والرسل، وما زالت تحتوينا معاً! ولكن مصاير الناس تعاورها الحذف والتبديل فقد كنت لسنين خلت ذلك الرجل المزهو بانتصاراته، وكانت (بليتزا) التي فزعت إلى الناصري في الليلة الليلاء تنظر في كثير من الزهو إلى مصرع ذكائك!. . هراقيليوس! ناشدتك الله أن تقول لي كيف أنت؟

لم يكن في ميسور هراقليوس أن يرفع عينيه إلى هذه الأطياف فلقد برح الرعب به تبريحاً أليماً، وأيما بأسه وشجونه خيال بليتزا، وخيال ابنتها واستجاش جواه ذلك الصدر القريح الذي حسر نفتالي عنه، فتقاصر وتصاغر وراح جاثياً على قدمي العمياء مستغفراً تائباً، فسمعت مارية ابنته صلاته الهامسة، فدلفت إليه وقالت: أبي! أبي! فما سمع ندائها الرفيق الشجي، بل ظل يتخافت بصوته، بينما كان نفتالي وبنيامينا يصليان في زاوية المعبد صلاة لم يخالطها كثير أو يسير من البغض، وبينا ماريا الصغيرة تنظر إلى أبيها الدميع بعينين رحيمتين بريئتين

وكان ضياء القمر لا يزال يتسرب من صدوع في القبة إلى أرض المحراب، فينير الصور التي على الحوائط والجدر. ثم ينثر أشعته الخفيفة على وجوه الأربعة الذين أتموا نذورهم في الليلة الرهيبة التي أرادها هراقيليوس خاتمة صومه وحجه!

رزح قيصر تحت وقر هذه الصور القائمة، فأغفى على الحجارة، وسبحت نفسه في عالم قصي بعيد، فلما استوثق نفتالي من إغفاءته تلفت إلى بليتزا وقال لها: (لنذهب يا سيدتي قبل أن يستفيق، فلقد قضينا نذورنا ولم يبق لنا ما نعمله في الأماكن الطاهرة! فقالت بليتزا: (أترجع إلى البحر الميت أيها السيد نفتالي، قال: نعم سأرجع إلى منفاي مع ابنتي، قالت: فإذا أبصرك الحرس فماذا تقول؟ فقال: لن يبصرنا الحرس يا سيدتي، لأننا سنخرج من باب خفي، وما اكثر الأبواب الخفية في هذه المحاريب! فقلت: افعل ما تريد فعله حماك الله ورعاك! ثم نظرت إلى هراقيليوس النائم نظرة راثية وألقت بنفسها بين ذراعي ابنتها هامسة: لقد عفوت!. . .) فبرقت أسارير الصغيرة من الفرح وقالت:

- إن الله قد عفا يا أماه!

ولم يشأ نفتالي أن يكون في معزل عن هذه الرحمة التي خالجت قلبي الأم والبنت، فاخذ بذراع ابنته وقال لبيتزا:

- لقد عفوت يا سيدتي وعفت ابنتي!

وفي خفة البرق صعد الأربعة سلم المحراب فاستقبلتهم جميعاً سدفة فاحمة تغشى الكنيسة الكبرى!

دمشق

معروف الارناءوط

تطور الحبشة

لكاتب مطلع

الحبشة بلد المتناقضات إلى أقصى حد، فهي تجمع بين مناخ المنطقة الاستوائية ومناخ

جبال الألب، وبين الخشونة والرقة؛ وهي أفريقية الموقع، ولكنها وليدة التقاليد العريقة التي تعاونت على إيجاد أوربا. والإمبراطور يحمل فوق رأسه تاج سليمان ويحكم أقواماً حربيين يعيدون ذكرى رجال الإقطاع في العصور الوسطى، وفوق ذلك كانت الحبشة موطن قبائل الجالا أثناء حكم الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية، كما أنها غزت مصر قبل المسيح بثمانية قرون

ولقد ساعد اختلاف الجو وتراوح ارتفاع الأرض عن سطح البحر بين 4000 , 900 متر على اختلاف الأجناس. ولعل هذا الاختلاف في الأجناس كان السبب في إطلاق العرب على هذه البلاد لفظ الحبشة، ويعنون به (تعدد الأقوام)، فإن الواقع أنك تجد كل أنواع الأجناس البشرية فوق هذه الهضبة العالية المنفصلة عن العالم بأسوار شامخة وصحار سحيقة. والأحباش يتكونون في الأصل من قبائل الجالا والصومال، ثم كان نتيجة اكتظاظ القصور بالجواري السود أن نشأ جنس ضارب إلى السواد. أما قبائل الوالوس فهم يهود يدعون أنهم من نسل أصحاب ملكة سبأ ومن التجار الذين كانوا يتاجرون أيام سليمان. وكل هؤلاء الأقوام يتكلمون لغات مختلفة تقرب من ستين لغة فصيحة ومائتي لغة دارجة. على أن أكثر اللغات تداولاً هي اللغة الأمهاريكية وهي لغة اليهود الأولى بعد اللغة العربية، واللغة التيجربة المسماة (لغة المسيحيين)، أما اللغة الجيزية فهي اللغة الأدبية التي ترجمت إليها التوراة. على أن من يحسنها من أبناء الشعب لا يتعدى عدداً يسيراً. ويجب أن نفهم من هذا الاختلاف الظاهر تاريخ هذه الأمة التي استطاعت حتى الآن أن تحافظ على استقلالها بفضل استعدادها الحربي والمنافسات القائمة بين أعدائها

إن الأحباش على رغم اختلافهم يشتركون جميعاً في الاستعداد الحربي الذي هم مدينون به لطبيعة بلادهم. فالجبل يخلق أجناساً أقوياء البنية، ولقد روى مسيو مونفريد أنه كثيراً ما أرسل سعاة يحملون رسائل إلى دير داؤوا حيث كان يسكن تشرشر، وكانت المسافة ثمانين كيلو متراً خلال الجبل والوديان المحرقة (فكان الرجل يرحل عند الصباح حاملاً خطابه في

عصا مشقوقة، ويعود بالجواب في مساء اليوم التالي، فكأنه قطع مسافة 160 كيلو متراً في ست وثلاثين ساعة. وفي المرة الأولى كنت عظيم الدهشة والحيرة، إذ بينما كنت أنتظر من الرجل أن يلهث أمامي من الإعياء إذا بي أراه بعد ساعة يشترك في الرقص دون أن تظهر عليه دلائل التعب. ومما يبعث على العجب أن أولئك الرجال يقومون بهذه الرحلات الشاقة وطعامهم حفنة من القمح وسيقان من الذرة يقتلعونها أثناء الطريق ويأكلونها أثناء جريهم، أما نساء بعض الأقاليم فهن يقطعن كل يومين مسافة 35 أو 40 كيلو متراً تقريباً حاملات على ظهورهن حملاً يبلغ خمسين كيلو، وذلك لقاء ثمانية أو عشرة قروش، أو ما يعادل فرنكين وخمسين سنتاً تقريباً، وعندما يعرض عليهن في منتصف الطريق شراء ما يحملن بالثمن الذي سيبعن به في دير الداؤوا يرفضن خشية أن يفقدن بذلك نصف قرش. وأولئك التاجرات اللواتي لا يتعبن هن اللواتي يصحبن الجنود في غزواتهم، فالجيش تمده ذخيرة من النساء فيسهلن له أكلاف الحياة الضرورية، ويحملن أدوات المنازل المتنقلة. وحالة الجيش المعنوية تكون دائماً على جانب عظيم من القوة، والجندي لا يعرف نظام المعسكرات، وهو يحيا حياة كاملة الحرية. فينزل في أي مكان كأنه في داره الخاصة؛ والإنجليز والطليان يعرفون بالتجربة القيمة الحربية للشعب الحبشي: يعرفها الإنجليز منذ الاستيلاء على مجدلة وإخلائها عام 1868، ويعرفها الطليان منذ هزيمتهم في دوجالي عام 1887، وفي (عدوه عام 1896

وعواطف هذا الشعب من نوع شجاعته أثناء العمل وأثناء القتال، وهي ترجع إلى تمسكه الشديد بالعوائد والمعتقدات، وقد دخلت البلاد مع الديانة المسيحية منذ القرن الرابع. ويروي أن القس فيليب الذي كان من أوائل المبشرين المسيحيين هو الذي نصر رئيس خدم أميرة حبشية (ففتح بذلك في الحبشة السبيل للديانة المسيحية).

ومن المعلوم أن القرن الخامس كان شديد الاضطراب بسبب المسائل الدينية، إذ قامت المناقشات حول مريم إن كانت أم الله أو أم المسيح فقط. كما أن مجلس إفيز الديني طرد نسطورياس الذي دامت هرطقته وانتشرت حتى يومنا هذا. وفي نفس ذلك الوقت أعلنت عدة مجالس دينية على التوالي إيمانها أو إنكارها لطبيعة السيد

المسيح الواحدة أو المزدوجة. وقد أعلن مجلس ال451 عداوته لفكرة طبيعة السيد المسيح الواحدة، واستند المعلنون في قرارهم إلى الكنيسة المسيحية في مصر التي استطاعت خلال القرون أن تحافظ على استقلالها تحت اسم الكنيسة القبطية. والعلاقات بين مصر والحبشة ترجع إلى زمن بعيد مما كان سبباً في أن تصبح الكنيسة الحبشية فرعاً من الكنيسة القبطية في مصر، فرئيس الكنيسة المسيحية في الحبشة الملقب بالأب (أب السلام) إنما يعينه بطريق الإسكندرية الذي يقيم في القاهرة؛ ولقد فشلت محاولة البابوية ضم كنيسة الحبشة إليها. وقد تمكن البرتغاليون في أوائل القرن السادس عشر أثناء كفاحهم مع المسلمين في سبيل السيادة على طريق الهند من إرسال بعثة كاثوليكية، ولكن سيطرة الجزويت لم تدم، واستعادت الكنيسة القبطية في الحبشة علاقاتها مع بطريق الإسكندرية عام 1633. على أن حوادث جديدة قامت فدلت على أن السياسة لا تترك مطلقاً الفرصة لاستغلال العواطف الدينية مما أحدث تغييراً في أفكار البلاد الحبشية. إذ في 2 يونيو من عام 1929 استطاع أخيراً بطريق الإسكندرية بعد إجازة دامت ثلاثين شهراً أن يرسم الأب كيرول سيداروس، وكان عليه في الوقت نفسه بالرغم منه أن يرسم خمسة أساقفة حبشيين، فكان في هذا الحادث الذي لم يسبق له مثيل تحديد لتقدم الاتجاه القومي في الحبشة، فتوترت العلاقات بين النجاشي والبطريق، وكان الدليل على ذلك تلك الرحلة التي قام بها الأب إلى الإسكندرية في مارس من عام 1931، وقيل يومئذ إنها التمضية مدة النقاهة بعد الإبلال من مرضه. وهناك حادث آخر عظيم الخطر هو زيادة نفوذ الفاتيكان، فقد قامت محاولات منذ سنين طويلة لفصل إرتريا عن الكنيسة القبطية الحبشية. وبطريق الإسكندرية يواصل رسم القسس في هذه البلاد، على الرغم من أن قسس إرتريا يستمدون الأوامر الدينية من رومة لا من أديس أبابا. ولا شك أن الدعاية الدينية تصحب التقدم الاقتصادي وتقوية

وللقس حق التزويج مرة واحدة. وهم على العموم على جانب عظيم من الجهل. ومعلوماتهم لا تكاد تتعدى أمور العبادة، وللقسيسين والرهبان سلطان عظيم على الجماهير الجاهلة التي كان يحتم عليها سلطانها المدني الذي نالته منذ القرن الثالث عشر الدفاع عن حقوقها ومصالحها. ولقد أصبح رئيس الأديرة الأكبر - وكانت مهمته في البداية التفتيش على الأديرة - الرئيس الحكومي للأب والكنيسة. والأب يكون دائماً أجنبياً يعينه بطريق الاسكندرية، ورئيس الأديرة الأكبر يكون دائماً حبشياً تعينه السلطة المدنية. وسلطان رجال

الدين شديد النفوذ عظيم القوة، حتى أنهم يمتلكون جزءاً كبيراً من الأرض المزروعة وقرى بأكملها، وعلى حسب العرف الجاري في البلاد ينال المالك خمس محصول الأرض، ومن ذلك يستطيع المرء أن يتصور المعارضة التي يصادفها مشروع يرمي إلى تغيير نظام مضت عليه أجيال طويلة. وكل حياة الأحباش تقوم على الأيمان بالمعجزات وتقديس القديسين والملائكة وعلى الفرائض الدينية: كالاعتراف بالخطايا والصيام القاسي والغفران، والحج إلى بيت المقدس واجب يكفر عن الذنوب. وقد أخذت الديانتان المسيحية والوثنية يؤثر تدريجياً بعضهما في بعض، فديانة قبائل الجالا الأفريقية الأصل قد تأثرت بالمسيحية. ومع ذلك فقد تأثرت أيضاً الديانة المسيحية القبطية بالخرافات والسحر، وقد امتزج الإيمان بآله إبراهيم والمسيح بضروب الإيمان التي كانت شائعة قبل التاريخ، كتعظيم الماء والأمواج والغابات والأشجار المقدسة والشمس، وفي الوقت الحاضر يتقدم الدين الإسلامي في الحبشة كما يتقدم في كثير من البلاد الأفريقية

وهكذا نرى الحبشة تبدو حكومة من حكومات القرون الوسطى التي كان يحكمها الكهنة نيابة عن الله. فهناك لا يمكن أن يحدث شيء لا يريده رجال الدين، والحاكم الذي يأمل في السلطة العليا يجب أن يتأكد قبلا من تأييدهم ومعونتهم. على أن الدهماء ورجال الدين الجهلاء يستفيدون من تلك المدينة القديمة التي يمكن أن يقال إنها بدائية وفي نفس الوقت مهذبة. فمبدأ الصدقة المسيحية قد تغلغل في أعماق الغشاء الكثيف الذي يغشى القلوب. حتى أن فضيلة إعطاء الصدقات التي كانت واجباً أضحت غريزة. وهذه المدينة الدينية القديمة تنتج رجالاً أكفاء. ولقد روى مسيو دو مونفريد فقال: (عندما بلغنا قمة الهضبة قدم إلينا رجل حبشي تغطى رأسه عمامة

بيضاء كالتي يلبسها الرهبان. كان وجهه دقيق التقاطيع عليه مخايل المهابة والهدوء. وكان هذا الوجه طويلاً مسنوناً تطفر منه نظرة تائهة شاردة. وقد تناول يدي بحركة لا شعورية كأنه أحد أصدقائي. لقد كان ذلك الرجل هو الراهب حنا ممثل الكنيسة والحارس للأمير المخلوع. وكانت عباءته من الكتان الغليظ، وكان عاري القدمين، لكن يده كانت ناعمة رقيقة. وكان يتكلم بصوت منخفض لكنه مؤثر. ونظراً لأني أعرف إلى أي حد يتمتع رجال الدين الأحباش بقوة تختفي وراء ما للأباطرة من مظهر السلطان، فقد دهشت دهشة عظيمة لذلك المظهر المتواضع الذي يبدو به ذلك الرجل الضئيل ذو العمامة البيضاء المصنوعة من القطن. ولم يكن يتبعه حاشية ولا حرس خاص، إذ لم يكن في حاجة لذلك، لأنه أينما ذهب انحنى أمامه كل من صادفه مظهراً الإجلال والاحترام. وجاء في ذلك الوقت ددجاز جوبانا يرى الأعمال الجارية. وكان راكباً بلغته السوداء الموشاة بالفضة، وكان يحف من حوله خمسون جندياً، وهو رافع بندقيته على كتفه. حقاً لقد كان منظره رهيباً وهو ينظر نظرة النسر ملتحفاً بردائه الرمادي. ها قد اجتمع الراهب وقائد الحرب. وقد يقول قائل: قد اجتمع عدوان في مكان واحد. على أن رجل الكنيسة هو أعظم الاثنين رهبة وأشدهما خطراً. وهو نفسه يشعر بذلك، فكان يبتسم ابتسامة هادئة. ومستقبل الحبشة يقف على هذين الرجلين، وشقاؤها يرجع إلى أن كلا منهما يستخدم الآخر ويستعين به. فرجل الحرب يستعين برجل الدين على الاستيلاء على عرش ملك الملوك، ورجل الدين يستعين برجل الحرب على الاحتفاظ بسيطرته على النفوس وبثروته العقارية. على أن وحدة البلاد المعنوية أثناء ذلك تتفكك. والأجنبي رابض أمام جميع أبواب البلاد

وتاريخ الحبشة السياسي يكاد ينحصر في حروب دائمة بين كبار رجال الإقطاع في سبيل الفوز بتاج سليمان. وفي اللحظة التي تقاسمت فيها أوربا القارة الأفريقية، وجدت الحبشة في مينليك الرجل الذي استطاع صد أول هجمة على البلاد. ولقد عرف ذلك الإمبراطور العظيم كيف يفرض سلطته على الجميع بفضل نشاطه الحربي وحنكته السياسية وكان أول همه تأييد سلطته في الداخل وإغلاق أبواب البلاد في وجه الغزاة. على أنه وقف عند ذلك الأمر ولم يتعده. إذ كان من الواجب الاستفادة من الانتصار المزدوج لينظم البلاد على الطريق الحديثة في الإنتاج والتبادل. ولكن الإمبراطور العظيم لم يستطع أو لم يرد ذلك. وقد يكون الموت عاجله قبل أن يتم ما أراد. ولقد حدثت قريباً حوادث عدة تبين أن النجاشي ليست له على بعض الأقاليم البعيدة إلا سلطة اسمية، وأن هناك كثيراً ممن يدعون الحق في عرش ملك الملوك. ويقال إن النجاشي يفهم تماماً حقيقة الموقف ويعرف ما يجب أن يفعله. على أن هناك عقبات تقف في طريقه، ذلك أن من الواجب اليوم أن يبذل جزءاً من قواه في سبيل المحافظة على سلطته، وأن يطلب مساعدة كل أولئك الذين يشلون حركته في كل مشروع إصلاحي، وذلك في الساعة التي تهدد فيها مملكته بغزوة استعمارية جديدة.

ومنذ عصر مينليك، أي منذ خمسين عاماً، تغيرت في العالم وفي الحبشة نفسها أمور كثيرة. فدخلت أفريقيا كلها في تيارات التجارة العالمية الكبرى، وصحب ذلك كل ما يلزم من الضرورات والآراء الجديدة. فالسيارات والطيارات زادت في طرق المواصلات، ولم تعد هناك قوة إنسانية نستطيع أن تطيل تلك العزلة التي ملكت الحبشة عدة قرون، إذ كان لزاماً عليها أن تستعد لتأخذ مكانها بين سائر الشعوب. وكل ما في المسألة هو معرفة ما إذا كانت تستطيع ذلك بمفردها مستعينة بوسائلها الخاصة، أم هي - نظراً لشدة شبهها بمراكش - في حاجة إلى دولة تحميها

إن استقلال كل دولة من الدول يقف من جهة على الدولة نفسها، ومن جهة أخرى على الدول المجاورة. ولقد كان لينليك الحظ في استطاعته الاستفادة من المنافسات الاستعمارية في الوقت الذي كان يوجد فيه كثير من الأراضي الأفريقية القابلة للاستعمار. والآن انتهى التقسيم. وبدلا من البحث في هذه لم يبق إلا الابتداء في استغلال الحبشة. ويضاف إلى ما سبق أن المنافسات على هذه البلاد يلوح عليها الهدوء، وأن الاتفاق بين الدول المتنافسة محتمل الوقوع. ومن هنا يعظم الخطر على الحبشة

وهذا الخطر الأجنبي يجعل المهمة الواجب القيام بها فيما يتعلق بالسياسة الداخلية

تفوق قدرة رجل فرد مهما كان نابغاً. إن من الواجب إزالة الفوارق القائمة بين المدينة البدائية الدينية الساذجة والمدنية الغربية المادية. والواقع أن الحياة في الحبشة قد تطورت، إذ من العسير أن يعيش شعب بأكمله عيشة الزهد والتقشف. ومن المحال إقامة روابط طبيعية دائمة بين الأفراد والجماعات من غير وجود مبادئ مشتركة بين الجميع. من الحق أن المدنية الغربية تتضمن كثيراً من الرياء، فالرق على شكله الذي نراه في الحبشة ليس أفظع من العمل الذليل في الصناعة الكبرى، إلا أن في الحبشة نظماً معينة هي تراث الماضي العتيق يجب أن تختفي من الوجود. وسواء دخلت الحبشة عصبة الأمم أم لا فهي لا تستطيع في العالم الحديث الإبقاء على قانون التعذيب وعلى السطو والنهب والرق. على أن المرء يتساءل: على أية قوة منظمة يستطيع أن يستند ملك عظيم للقيام على خير ما يرام بالإصلاحات الضرورية إذا كان السكان لا يشعرون بالحاجة إليها قبله؟ إن رجال الطبقات العليا الذين يملكون الأرض والسلطة لا يرغبون في تغيير يظنون أنه سيفقدهم كل شيء ولا يربحهم شيئاً. ذلك أنهم لا يطلبون إلا أن تزيد ثروتهم يوماً بعد يوم. وليس عند الطبقات العاملة في مختلف الأقاليم فكرة ما عن إمكان تحسين حالهم. واستغلال القوي للضعيف كأنه قانون طبيعي لا يجب أمامه إلا الاستسلام والخضوع. أما رجال الدين والرهبان وهم أصحاب السلطة العليا فأية مصلحة سيجنونها من نظام جديد؟ بقيت الشبيبة المتعلمة القليلة العدد التي تطلب العلم في جامعات أوربا وأمريكا، إنها تعود إلى بلادها خشنة الطباع كارهة للأجانب. على أن الفكرة القومية وحدها لا تكفي، إذ يجب أن تستخدم هذه الفكرة في تحقيق أمر من الأمور أو مبدأ من المبادئ. على أن المظنون إن استخدام هذه الفكرة في سبيل خدمة الحبشة سيكون أقل من استخدامها في سبيل الاحتفاظ بالحالة الراهنة من اقتصادية واجتماعية ودينية. وأمام هذه الحالة، فإن حدوث حرب ولو انتصرت فيها الحبشة، سوف لا ينتج إلا نصراً مؤقتاً. ليس في الحبشة فلاح واحد يقارن بين ما يحدث في أسواق بلاده وطرقاتها وبين الحالة التي يستطيع أن يراها وراء الحدود. أما حال العقيدة الدينية فمن المحقق أن الكنيسة القبطية في مصر تسودها الآراء الحديثة، وأن المعتقدات القديمة تفنى شيئاً فشيئاً تحت تيارات العقل المستنير. ومن المحتمل أن هذه التيارات والاتجاهات ستظهر أخيراً عند مسيحي الحبشة نظراً لموقع البلاد الجغرافي

(لموا)

ترجمة ع. ك

الأدب العربي في المغرب

أبو العباس أحمد المقري

هـ - 1631م1041

بقلم عبد الهادي الشرايبي

- 1 -

إننا نشاهد، بملء الأسف، كثرة مفكرة من شباب المغرب ورجاله، يساور نفوسهم ضعف الثقة وارتياب مؤلم من ماضيهم القومي وتراثهم الجليل. فنجدهم لذلك يتأففون ويضجرون كلما عرضت عليهم صورة من ذلك الماضي الزاهر، ويكيلون للمغرب والمغاربة عواصف من النقد اللاذع والسخط الشديد

ولعل منشأ ذلك، فيما نرى، هو الجهل بما للمغرب في عصوره الغابرة من روعة وسمو يفوقان كثيراً ما يتخيله أولئك في تاريخ المغرب

ولو أنهم عمدوا إلى الوقوف على بعض من تلك الآثار الجليلة، واستعراض النماذج المتناثرة في ثنايا الكتب، لوجدوا في سجل المغرب من الصور الطريفة الرائعة ما يكون غذاء لروحهم المجدبة، ورياً لنفوسهم الظمأى!

ولعلهم إن فعلوا فتذوقوا من ذلك الجمال الحي الخالد، ونهلوا من تلك المتع اللذيذة، فسوف يجدون فيه المرهم الشافي لنفوسهم المريضة بداء اليأس، ويستبدلون بتشاؤمهم القاتل تفاؤلاً

- 2 -

وها نحن أولاء نجلى لهم اليوم صورة حية من ذلك التراث المجيد، وينتزع لهم من بين الصور الكثيرة مثلاً سامياً لنهضة الأدب العربي في المغرب في القرن الحادي عشر:

شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد المقري التلمساني المالكي الأديب الكبير، الشاعر المؤرخ، ولد في تلمسان، ونشأ بها في بيت علم وأدب، وثقف كثيراً من الفنون على عمه أبي عثمان سعيد المقري الأديب العالم الشهير، وأتقن اللغة العربية وآدابها، وبرع في معرفة أخبار العرب وأنسابها. وكان له ميل شديد واطلاع واسع على الآداب العربية وتاريخها في مختلف العصور، وأولع من لدن نشأته بالمطالعة والتنقيب عن أحوال الدولة
الإسلامية، واستظهار آثارها، وبصفة خاصة ما كان متعلقاً منها بدولة العرب في الأندلس، والوقوف على سر عظمتها، وتطورها بين صعود ونزول، وكيف عبثت يد الزمان بتلكم الآثار الحافلة التي خلدها العرب في أوربا
شب الفتى، خصب الفكر، متقد الذهن، واسع الذاكرة. يتقلب في فنون من الحديث، ويحلق في جو رائع من الخيال. ينتقل بين قصور قرطبة ومغانيها، ويقلب نظره الحائر في بدائع الحمراء ومجاليها، ثم يعود فيسترحم القدر إشفاقاً على مجالس أدبها الممتعة ونواديها
وقد حدثته نفسه الطموح إلى مشاهدة آثار الفن الأندلسي الجميل بالذهاب إلى (فاس) وريثة الحضارة الأندلسية، ورؤية هذه الآثار عن كثب، إذ هي صورة مصغرة من الحياة الأندلسية، بما فيها من مبان وآثار، ومجالس علمية وأدبية تضم أئمة الأدب وفطاحل العلم. فقصد فاس سنة 1009 وملأ بها وطابه، وأخذ عن جلة العلماء كالشيخ القطار، وابن أبي النعيم، وأحمد بابا السوداني التمبكتي وغيرهم؛ وأقام بفاس ميمون الحظ بين مظاهر الإجلال والاحترام إلى أن صار مفتى فاس وخطيب (جامعة القرويين)؛ ثم رحل إلى مصر والشام، وتردد على الحجاز كثيراً، وألف بالقاهرة كتابه (نفح الطيب). وله مطارحات ومساجلات مع أدباء مصر والشام

آثاره الأدبية: أبو العباس المقري متشعب النواحي كثير المباحث لمن شاء دراسته. له آثار قيمة في الفقه والكلام والأدب والتاريخ، وشعر متناثر في ثنايا كتابيه الجليلين: (نفح الطيب، من غص الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب) و (أزهار الرياض، في أخبار القاضي عياض)
وقد قصرنا هذا البحث على الناحية الأدبية، إذ كانت هي البارزة في حياته، فهو (حافظ المغرب وجاحظ البيان) شاعر رقيق العاطفة، يصطبغ شعره بلون الأدب الأندلسي في الرقة والجزالة، والسهولة والامتناع
ولا بدع، إذا وجدنا ذلك الطابع بارزاً في آثاره الأدبية، فقد رأيناه كلفاً بالفن الأندلسي وآثار العرب في الأندلس منذ النشأة إلى حد التوهم أنه كان يعيش في ذلك الوسط الخصب المشبوب العاطفة
وقد قال في أكثر أغراض الشعر: في الغزل، والشوق، والمدح، والوصف، والحكم، والعتاب، والذكرى المؤلمة، والقصص الشعري
وإذ كان الشطر المهم من حياته قد أمضاه في الشرق بعيداً عن الأهل والوطن، نائياً عن معاهد الصبى ومسارح الطفولة الأولى التي لم يبق في ذهنه منها إلا الذكريات المرة الممضة، فنستطيع أن نكشف كيف كان الشوق والحنين أبرز صفة في شعره؛ ولنسق لك مثلاً من ذلك. فمن قوله وهو في الشام يتشوق إلى بلاد المغرب:

كساها الحيا بُرد الشباب فإنها ... بلاد بها عق الشباب تمائمي
ذكرت بها عهد الصبي فكأنما ... قدحت بنار الشوق بين الحيازم
ليالي لا ألوي على رشد ناصح ... عناني، ولا أثنيه عن غي لائم
أنال سهادي من عيون نواعس ... وأجني مرادي من غصون نواعم
وليل لنا بالسد بين معاطف ... من النهر ينساب انسياب الأراقم
تمر إلينا، ثم عنا، كأنها ... حواسد تمشي بيننا بالنمائم
وبتنا، ولا واش نخاف كأنما ... حللنا مكان السر من صدر كاتم

وأسمعه يقول:

شربت حميا البين صرفاً وطالما ... جلوت محيا الوصل وهو وسيم
فميعاد دمعي أن تنوح حمامة ... وميقات شوقي أن يهب نسيم

ويثور كامن عواطفه كلما سمع ترجيع حمامة بصوتها الشجي، فيصف لك حاله عند

سماعها بهذه القطعة الرقيقة:
رُب ورقاء في الدياجي تنادي ... إلفها في غصونها المياده
فتثير الهوى بلمس عجيب ... يشهد السمع أنها عواده
كلما رجَّعت توجعت حزناً ... فكأنا في وجدنا نتبادَه
ثم يحاول أن يطفئ غلة ذلك الشوق المضني بالصبر، ويتخذه شعاراً وسلوة، فيسير على سنن غيره من الشعراء، ولكنه يخفق إذ يجد أن الصبر معناه إلهاب نار الشوق:
وإني لأدري أن في الصبر راحة ... ولكن إنفاقي على الصبر من عمري
فلا تُطفِ نار الشوق بالشوق طالباً ... سلواً، فإن الجمر يسعر بالجمر
ويعاوده الأمل في أن يلمس غرة من الدهر، فيلتقي بعد طول البين، ويجتمع بعد أليم الفراق
فنلتقي، وعوادي الدهر غافلة ... عما نروم، وعقد البين محلول
والدار آسنة والشمل مجتمع ... والطير صادحة والروض مطلول
ولو أنا ذهبنا في هذا الباب نقتطف قطعاً من زهراته المتناثرة، لاقتضى ذلك منا وقتاً أوسع مما افترضناه لهذا البحث من الإيجاز
وفي الوصف نجتزئ بهذه القطعة:
ورياض تختال منها غصون ... في برود من زهرها وعقود
فكأن الأدواح فيها غوان ... تتبارى زهوا بحسن القدود
وكأن الأطيار فيها قيانٌ ... تتغنى في كل عود بعود!
وكأن الأزهار في حومة الرو ... ض سيوف تُسَلّ تحت بنود
ويبهره ما يرى في جنة الدنيا (دمشق) ضريبة الأندلس والمغرب في بساتينها، وأنهارها، وجداولها، فتعاوده الذكرى ويقول:
ذكرتني الورقاء أيام أنس ... سالفات فبت أذرى الدموعا
ووصلت السهاد شوقاً لحبي ... وغراماً، وقد هجرت الهجوعا
كيف يخلو قلبي من الذكر يوما ... وعلى حبهم حنيت الضلوعا؟
كلما أولع العذول بعتبي ... في هواهم، يزداد قلبي ولوعا!
ثم يقول في وصفها:
محاسن الشام أجلى ... من أن تحاط بحد
لولا حمى الشرع قلنا ... ولم نقف عند حد:
كأنها معجزات ... مقرونة بالتحدي
ويقول:
قال لي ما تقول في الشام حبر ... كلما لاح بارق الحسن شامه؟
قلت ماذا أقول في وصف قطر ... هو في وجنة المحاسن شامه!
(البقية في العدد القادم)
عبد الهادي الشرابي
النهضة التركية الأخيرة
للدكتور عبد الوهاب عزام
وجهت أجدى المجلات الكبيرة في مصر إلى بعض الكتاب هذا السؤال: (إلى أي حد يجب الاقتداء بتركيا في نواحي نهضتها الأخيرة)، فحفزني هذا إلى الكتابة في موضوع تجنبته زمناً طويلاً، لا استهانة به فهو جد خطير، ولكن إشفاقاً مما يثور بالنفس حين تعالجه
- 1 -
الترك العثمانيون إخوان لنا، نشأنا على حبهم، ومنحناهم قلوبنا فتمكن بها ولاؤهم، وشببنا نعدهم على المسلمين الخفاف في زمن تنكست فيه أعلامهم، وجيشهم المجاهد على حين تفرقت الأجناد، وتخاذلن الأعضاد. كنا نعد مفاخرهم مفاخرنا، ومثالبهم مثالبنا، ونرى صلاحهم صلاحنا، وفسادهم فسادنا، ونفرح كما فرحوا، ونبتئس كلما ابتئسوا. وكلما نزلت بهم نازلة نصرناهم جهد العاجز بألسنتنا وأموالنا وأيدينا وسع الأيدي المغلولة، والأعضاد المغلوبة. ولا يزال التاريخ الحديث يدوي بحادثات المدرعة (حميدية)، وحروب طرابلس والبلقان، وقدوم الطيارين العثمانيين إلى مصر، وغير هذا مما يشهد بالحب الصادق، والمودة المخلصة

ولقد نشأت على هذا الحب، لا يطربني إلا ما أطرب الترك، ولا يسوؤني إلا ما ساءهم؛ وفيهم تعلمت الشعر فشدوت به في حروب طرابلس والبلقان، وكتبت في الحرب الأخيرة أعطف عليهم القلوب، وأستحث الهمم على الإمداد بالمال. ولست أمن عليهم بذلك فقد كان فرضاً علي وعلى غيري

ولما قذف جنود الترك الأنجاد بجيش اليونان في البحر كاد الناس في مصر وغير مصر يجن جنونهم فرحاً وزهواً

- 2 -

ثم وقعت هذه الواقعات التي تسمى (النهضة التركية الأخيرة)، فخاجت من الناس الظنون، وتحطمت الآمال وتصدعت القلوب، ووقفوا وقفة من أصيبت آماله في أخ صميم أو صديق حميم، يراه قد ركب رأسه، واشتط في هواه، يقطع أواصر الأخوة، ويصرم حبال المودة،

لا يستطيع أن يغضي عن سيئاته وهي وخيمة العواقب، ولا تطيب نفسه أن يسمع به ويذيع عيوبه على مسمع من الأعداء

قومي همُ قتلوا أميم أخي ... فإذا رميت يصيبني سهمي

فوقف يلومه حيناً، ويجادل عنه حيناً، ويرد مقالة الخصماء، ويحذر شماتة الأعداء، ويلتمس له المعاذير، ويتربص به الأفاقة من غيه، والإياب إلى رشده، ويدعو الله أن يلهمه السداد، ويهديه سبيل الرشاد. وها نحن أولاء ندعوا ونرجوا وننتظر

- 3 -

وبعد فما هذه الأحداث التي تسمى (النهضة التركية الأخيرة)؟ نستعرض الحادثات لنرى ما هي:

فأما ذود الترك عن حياضهم، ودفعهم عن استقلالهم، وإيثارهم الموت الحر على العيش الذليل فشنشنة أعرفها من أخزم، عرف الترك بها في كل زمان، وامتازوا بها في كل ميدان، وكان لسلفهم فيها غرر مشهورة، وأعمال مأثورة، يدوي بها التاريخ ويشهد بها العدو والصديق. فلا ينبغي أن يعد هذا من (النهضة الأخيرة). فقد كان السلف فيه خيراً من الخلف. كان ميدانهم أوسع، وعدوهم أكثر، وخطبهم أفدح، وعبئهم أثقل. وتلك، على كل حال، محامد ينبغي أن تتقيلها الأمم، ويتنافس فيها أولو الهمم وأما عكوف الحكومة التركية الحديثة على إصلاح البقعة التي أبقتها الأحداث في أيديها، وتركتها النوائب من الميراث العظيم - عكوفهم على الإصلاح والتعمير والتنظيم فأمر محمود، وسعي مشكور، وفرض تأخر عن وقته، إذ حالت دونه الخطوب الكارثة، والمصائب المتوالية؛ وهم في هذا الإصلاح ليسوا مبتدعين ولا سابقين، فهم يحتذون على مثال الأمم التي سبقتهم في الغرب والشرق. هم في ذلك مأمومون لا أئمة، ومقتدون لا قدوة. والأئمة في ذلك أمم أوربا، عنها أخذوا وبها اقتدوا. وعملهم في هذا التقليد، عمل حميد. والله يهيئ لهم في ذلك رشداً، ويهديهم إلى الخير أبداً

- 4 -

وبعد ذلك أمور نجمل الكلام فيها واحدة واحدة، ثم نلق عليها نظرة جامعة لنتبين أين مبدؤها

ومنتهاها، ومصدرها ومواردها، ونرى مكانها من الاختراع أو المحاكاة، وسنعترف لهم في هذا بحسناتهم، ونأخذ عليهم سيئاتهم، أخذ الصديق الناصح لا العدو الشامت، آملين أن يزدادوا من الإحسان، وينزعوا عن الإساءة

ونحن إذا خاصمنا القوم في هذه الأمور فليس خصمنا الأمة التركية جميعها بل الحكومة التركية، يشاركنا في رأينا كثير من رجالات الترك الذين حملت كواهلهم أعباء الحرب الأخيرة، ومهدت أعضادهم لهذا النصر المجيد، ويشاركنا كثير من العلماء وأولي الرأي، وكثير من المستضعفين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً

ونبدأ بمسألة الخلافة، إذ جعلوها فاتحة هذه الأمور، ومفتاح هذه النهضة، قانعين بالقول الموجز واللمحة الدالة في هذا الموضوع الواسع:

مهما يقل القائلون في صحة الخلافة العثمانية وفسادها، وجدواها وضررها، ومهما يفتن المجادلون في تبيان ما جلبت على الدولة من مصائب، ورمتها به من عداوة أوربا، فلا ريب عندي أن الخلافة ما أضرت بالدولة العثمانية قط بل نفعتها أحياناً.

ما حاربت أوربا العثمانيين بما كانوا دولة الخلافة، بل بأنهم دولة مسلمة شرقية. وقد

ثارت الحروب منذ نشأت الدولة قبل أن يلقب الخليفة العباسي في مصر بيزيد الأول بلقب (سلطان الروم)، وقبل أن يفتح السلطان سليم مصر ويحمل إلى استنبول الخليفة المتوكل على الله. ولم يكن مكان الترك في الخلافة الإسلامية واضحاً في معظم أطوار حروبهم، بل استقرت لهم الخلافة عند المسلمين ودول أوربا أثناء هذا الجلاد المديد، والحروب المتوالية، إذ اعترف المسلمون أن رأسهم هو هذه الدولة القوية المجاهدة، واعترف الأوربيون في العصور الأخيرة أن للترك أن يتكلموا عن المسلمين كما يتكلم الروس عن المسيحيين. فلم تكن الحروب نتيجة الخلافة، بل كانت الخلافة نتيجة الحروب، وهي على هذا لم تكن واضحة ولا ادعاها العثمانيون صراحة إلا في العصور الأخيرة. . . لو أن أوربا شنت على الدولة العثمانية غاراتها من أجل الخلافة فلماذا قضت على الدولة التيمورية في الهند، ودولة الأشراف السعديين في المغرب وغيرهما؟ ووالت غاراتها على المسلمين في المشرق والمغرب والحق أن انتحال الخلافة نفع الدولة العثمانية حين ضعفها، وكساها هيبة وجلالاً في الشرق
والغرب؛ وقد أدرك ذلك السلطان عبد الحميد فاجتهد أن يمكن هذه الخلافة في نفوس المسلمين كافة ليرهب بهم أوربا
وإن يكن المسلمون قصروا في الدفع عن الدولة، وإمدادها بالمال والجند، فماذا عسى أن تستطيع الأمم المغلوبة على أمرها، الذليلة في أسر أعدائها. وقد خاف الأوربيون أثناء الحرب الكبرى أن يلقوا الدولة برعاياهم المسلمين فاحتالوا لذلك حيلاً شتى: كان الفرنسيون يأخذون جنود أفريقيا يوهمونهم أنهم سيدافعون عن الخلافة والإسلام، ولم يستطع الإنكليز، بعد تمرد الرديف المصري وإبائه أن يحارب الترك، أن يرسلوا إلى القتال جندياً من المصريين، فاحتالوا عليهم وأخذوهم عمالاً وراء الجيش. وقد تطوع كثير من المسلمين لنصرة الدولة في الحرب والسياسة، ولو كان أمر المسلمين بأيديهم لكان لهم موقف آخر. وقد سمعنا من كبار الساسة الترك وغيرهم أن إنكلترا أشفقت من أن تقف بجانب اليونان جهرة، وتنصرهم بكل قواها في الحرب الأخيرة، حين ثار المسلمون الهند وطلبوا منها الإبقاء على دولة الخلافة، وأن هؤلاء المسلمين على ضعفهم عاونوا على إنقاذ البقية الباقية من الدولة العثمانية. ولا تنس معاونة أمثال السيد السنوسي وطوافه في الأناضول وكردستان لتأليب الناس وإثارتهم للجهاد. وقد رأيت بعيني صورة الغازي مصطفى كمال باشا في قلعة سنوسية أهداها إليه السيد أحمد فلبسها تبركاً
ثم هذه الخلافة العثمانية على وهنها وغموضها كانت في هذا الزمن العصيب علماً ينظر إليه المسلمون إن لم ينحازوا إليه، وتنضوي إليه آمالهم إن لم تنله أيديهم، وتعتز به نفوسهم وترى في خفقانه ذكرى الماضي العظيم، وتباشير المستقبل العزيز
ولقد كان إلغاء الخلافة في هذه الخطوب المكفهرة كحل رباط حزمة من القصب في ريح عاصف بلغت من المسلمين أسوأ مبلغ، وبلغت أعداءهم أبعد غاية. لا ينكر هذا إلا جاهل بطبائع الأمم أو غبي عن تاريخ المسلمين. وأحسب أن الإنكليز - مثلاً - كان يهون عليهم أن يبذلوا ملايين الجنيهات ليبلغوا الغاية التي بلغهم إياها الكماليون بغير ذل ولا كد
ولا ريب أن الترك حين دفعتهم نشوة الظفر على اليونان إلى إلغاء خلافة الإسلام قد أخروا دولتهم من صف الدول العظيمة إلى صف الدول الصغيرة، فهم اليوم في صف دول البلقان، وإن دول العالم العظيمة كانت تتمنى أن تشتري مكانة الترك بين المسلمين بالجهد
الطويل، والمال الوفير، طيبة نفوسهم بما بذلوا وما نالوا
يقال إن للثورة آثارها، وللمحنة أعذارها، وما كان إلغاء الخلافة ضرورة اقتضاها الإصلاح، ولكن إفراطاً أدت إليه الثورة. ونحن نقول مهما يكن السبب فذلك شر أصاب المسلمين لا محالة، وإن عجز عن إدراكه الثائرون في غبار الثورة، فقد أدركه البعيدون يقيناً، وبكوا من أجله طويلاً. على أن عمل الكماليين من بعد دل على أن إلغاء الخلافة لم يكن نزوة ثورة، بل كان الحلقة الأولى في سلسلة مصنوعة، والخطوة الأولى في خطة موضوعة. ويعتذر بعض المعتذرين بأنه كان لابد للنهضة الأخيرة من جمهورية، وكان لابد للجمهورية من إلغاء الخلافة، وهذا عذر أشبه بالذنب. ويعتذر آخرون بأن

الصلة بين الروس والترك وحاجة هؤلاء إلى معونة أولئك اضطرتهم إلى إلغاء الخلافة، فهل يرضى الكماليون أن يعد عملهم في الخلافة وما بعدها خطة أملاها الروس عليهم؟ ما أحسبهم يرضون من أصدقائهم أن يقفوهم هذا الموقف ليدافعوا عنهم: وهذا بعد لا يخفف المصيبة التي أصابت المسلمين بإلغاء الخلافة

له بقية

عبد الوهاب عزام

قصة المكروب - 15

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكي وكيل كلية العلوم

بستور

صلة حديثه

وصل الفائت: ذهب بستور إلى شرقي فرنسا يبحث فساد الخمور فأصلحها، ثم ذهب إلى أواسط فرنسا على نداء الخلالين واستغاثتهم فأصلح ما فسد من صناعة الخل. وما كاد يستقر في معمله بباريس حتى جاء القدر يدق بابه، جاءه أستاذه القديم (دوماس) يتطبب لدود القز المريض في جنوب فرنسا

- 6 -

فأجابه دوماس: (إن إقليم الحرير في الجنوب هو مسقط رأسي، وقد حضرت تواً من هناك. وقد رأيت، ويا هول ما رأيت! رأيت بلدي المسكين، قريتي (ألياس) المنكودة، تلك البلاد التي كانت ثرية بالأمس، زاهية بشجر التوت حتى أسموه الشجر الذهبي، تلك البلاد أصبحت عراء بلقعا، وتلك العراص الخضر أصبحت غبراء ذابلة، وأهملها وهم أهلي أصبحوا لا يجدون القوت). وكان صوت الشيخ فيه حزن وضيق حتى كاد يتندى بالدمع

وكان بستور يقدر نفسه ويعضها فوق الرجال، وكان قليل التقدير للغير، إلا أنه حفظ في قلبه إجلالاً خاصاً لدوماس. واعتزم أن يبذل المعونة لهذا الأستاذ الشيخ الحزين. ولكن كيف؟ فبستور في هذا الوقت لم يكن يستطيع على الأرجح أن يميز دود القز من دود الأرض. بل لقد حدث بعد ذلك الوقت أنهم أعطوه شرنقة حرير فرفعها إلى أذنه وهزها وصاح: (ما هذا! كأن داخلها شيء!). جهل مطبق بالشرانق والدود

وكره بستور السفر إلى جنوب فرنسا ليفحص مرض هذا الدود، لأنه كره أن يخيب، والخيبة كانت أبغض الأشياء إلى نفسه. ولكن الجميل فيه أنه برغم كبريائه، وبرغم اعتداده المرذول بنفسه، استبقى من صباه حب الطفل واحترامه لعلمه القديم. فقال لدوماس: (أنا ذا

(طوع يديك، فمرني بالذي تريد، وارم بي حيث شئت من الأرض

وحزم أدواته ومكرسكوباته، وحزم ثلاثة أعوان نشيطين من خلصائه ومريديه، وحزم كذلك أولاده، ومدام بستور - تلك المرأة الصبور التي لم تكن تشكو أبداً - وسافر بهذه الحمولة كلها إلى حيث الوباء يفتك بالملايين من دود القز، ويفقر الألوف من الخلق في جنوب فرنسا. وبلغ (ألياس) فأخذ يتعلم هناك أن دودة الحرير إن هي إلا دودة كالديدان تغزل حول نفسها ثوباً من الحرير يعرف بالشرنقة، وأنها تتحول إلى يرقة داخل الشرنقة، ثم إلى فراشة ترفض ثوبها الحريري فتخرج عنه فتتسلق الشجر وتبيض البيض، وهذا يتفقس في الربيع التالي عن جيل جديد من دود جديد. واستاء رعاة الدود من جهله الفاضح. وذكروا له أن المرض الذي يصيب دودهم يعرف بالندوة، وأنه يتراءى على الدود في صورة بقع صغيرة سوداء كالفلفل. ووجد بستور هناك مئات من النظريات تدعى كلها تفسير هذا المرض، ولم يجد من الحقائق الثابتة غير اثنتين، أولاهما تلك البقع السوداء التي تظهر بظهور المرض، وثانيتهما كريات صغيرة تتكون داخل الدودة، صغرت حتى لا ترى إلا بالمجهر

وقبل أن يستقر في مهبطه الجديد، وقبل أن تستقر أسرته في بيتها الجديد، كشف عن مجهره وأخذ يحدق في باطن هذا الدود المريض، ولا سيما في تلك الكريات، وخرج سريعاً على أن هذه الكريات عرض ثابت من أعراض الداء. وبعد خمسة عشر يوماً من حلوله بـ (ألياس) دعا إليه أعضاء اللجنة الزراعية وقال لهم: (عندما يحين أوان اللقاح، ضعوا كل أنثى وذكر وحدهما، ثم اتركوهما لينسلا وتبيض الأنثى، فإذا خرج البيض

فافتحوا بطنيهما وأخرجوا من تحت الجلد شيئاً من شحمه، وانظروا إليه بالمجهر، فإذا هو خلا من تلك الكريات فاعلموا أن هذا الزوج من الدود سليم، وأن بيضه سيفرخ في الربيع المقبل دوداً سليماً

ونظر الريفيون إلي المكرسكوب وهو يلمع وقالوا: (نحن الزراع لا نعرف كيف نعالج مكنة كهذه). وكان في قلوبهم ارتياب وكان فيها قلة إيمان بهذه البدعة الجديدة، فعندئذ تراجع عنهم بستور العالم، وتقدم إليهم بستور الداهية الخبير بأهواء الرجال، فقال لهم: (حسبكم! حسبكم! واخفتوا أصواتكم حتى لا يتناقل الناس هذه الفضيحة عنكم! كيف تعجزون يا

رجالاً ضخاماً عن استخدام المكرسكوب وعندي في معملي بنت لا يتجاوز عمرها ثماني سنوات تعالجه في لباقة، وتكشف هذه الكريات في سهولة؟!). وقررت اللجنة شراء مكرسكوبات وانصرفوا يعملون بنصائحه

وذهب بستور يبذل من نفسه لحركة لا تعرف السكون، فطاف بالمناطق المصابة بالداء وألقي المحاضرات، ويسأل الأسئلة، ويعلم الفلاحين استخدام المجاهر. ثم يعود في رجعة الطرف إلى معمله يوجه مساعديه ويزودهم بالنصائح في تجارب لم يستطع هو أجراءها حتى ولا ملاحظتها. ثم يملي في المساء على مدام بستور أجوبة كتابات وخطباً ومقالات، ولا يطلع الصباح حتى تراه عاد إلى مناطق الوباء يروح عن الزراع البائسين، ويخطبهم ويبشر فيهم بالفرج القريب

ولكن عاد الربيع بغير الفرج والبشرى. وجاء الوقت الذي يبدأ الدود يصعد فيه إلى أفرع التوت لينسج عليها الشرانق فعجز عن الصعود. وقعت الواقعة وخابت الآمال وأنفقت الجهود في غير طائل! أنفق هؤلاء القوم الطيبون أيامهم على المكرسكوب حتى نال الكلال من عيونهم وأوجع ظهورهم، يطلبون الفراش السالم الصحيح ليخرج لهم البيض الخالي من تلك الكريات اللعينة، فلما حصلوا على هذا البيض السليم، أو الذي حسبوه سليماً، فرخ فخرج منه دود سقيم، قل نماؤه، وضعفت شهيته فقل طعامه، وذهب نشاطه، فأخذ يدور حول عيدان التوت عاجزاً عن تسلق أطرافها، زاهداً في الحياة وفي أطوارها، غير آبه لهوى الغواني الحسان في مفوفات الخز وجوارب الحرير

وا رحمتاه لبستور في تلك الخيبة! جمع المسكين كل همه لتخليص صناعة الخز مما دهاها، فسار ودار وخطب، ولم يبق لنفسه وقتاً يقبع فيه في معمله هادئاً ساكناً يتعرف كنه الداء الذي أصاب الدود. أغراء المجد فخدعه عن العلم، وأغواه الصيت فصرفه عن الحقيقة، والحقيقة لا يفوز بها إلا ساخر بالمجد، عازف عن الصيت، صبور على العمل، جلد على التجربة المسئمة الطويلة

ودفع البأس بعض أصحاب الدود إلى السخرية به والضحك منه، ودفع بعضهم إلى السخط عليه والنيل منه. واسود بياض أيامه، وطلب الخلاص في العمل فزاد انهماكاً فيه، ولكنه كان الغريق ينهمك في العوم يرجو النجاة ويبغي الساحل، ثم يقف هنيهة بعد إجهاد ليحس

الأرض عله يجد قراراً فلا يجد قراراً. واختلط عليه أمر هذا الدود، فقد كان يقع أحياناً على نسائل تسرع في تسلقها عيدان التوت وتأخذ في نسج شرانق جميلة فيأخذ منها أفراداً للتشريح وينظرها تحت المجهر فيجدها مليئة بتلك الكريات التي كان يحسبها دليل الداء. وأحياناً أخرى كان يقع على نسائل أخرى من الدود سقيمة لا تكاد تهم بالصعود إلى أفرع التوت، حتى يعتريها إسهال غازي ثم تنضمر فتموت، فهذه أخذ منها أفراداً للتشريح ونظرها تحت المجهر فلم يجد فيها من تلك الكريات شيئاً. فأخذ بستور يتشكك في اعتبار هذه الكريات عرضاً من إعراض الوباء. وزاد الطين بلة والحالة سوء أن دخلت الفئران إلى دوده الذي كان يجري عليه تجاربه فاستطعمته فالتهمته، وأخذ أعوانه الثلاثة المساكين (ديكو) و (مايو) و (جرنيه) يسهرون الليل بالتناوب على حراسة الدود واصطياد الفئران. وقد يطلع الصباح فلا يكاد ينصرف كل إلى عمله، حتى تظهر السحب في الغرب قائمة، فيترك كل عمله ويهرول إلى شجر التوت يغطيه من المطر. وكنت ترى مدام بستور في أعقابهم والأطفال في أعقابها. وبستور المتعب المجهود كان لا يستقر في المساء في كرسيه الكبير المريح حتى يأخذ في إجابة رعاة الدود المناكيد الذين خسروا كل شيء باتباعهم طريقته في تصنيف البيض

ومضت أشهر طويلة ثقيلة على هذه الحال، جاءته بعدها غريزته تحضه على التجريب،

والقدر يمهد له سبيل الخلاص، قال لنفسه: (أنا على الأقل نجحت في الحصول على بعض نسائل من الدود صحيحة سليمة، فإذا أنا غذيتها على ورق التوت بعد تلويثه بإفرازات الدود المريض، فهل يا ترى تموت هذه النسائل السليمة أم تمرض وتذهب؟!). وفعل هذا فماتت النسائل يقينا. ولكن غاظه أن التجربة لم تأت بكل الذي حسبه، فبدل أن يتغطى الدود بنقط كالفلفل سوداء ويموت بطيئاً في خمسة وعشرين يوماً كما يفعل الدود المريض بهذا الوباء، إذا به يتقوس وينضمر ويقضي في اثنتين وسبعين ساعة. واغتم بستور وناله اليأس فأوقف التجربة، وخاف عليه إخوانه الخلصاء مما هو فيه، وودوا لو أنه يعيد هذه التجربة مرة أخرى

(تبع)

أحمد زكي

مراجعات

1

السكر والمبرت

كتب الأستاذ عبد الوهاب حمودة في العدد (100) من (الرسالة) كلمة طيبة حقاً عن الجزء الثاني من (ضحى الإسلام) للأستاذ أحمد أمين. ثم أعترض على عبارة وردت في الكتاب. وقد استغلق على فهم الاعتراض فأحببت أن أناقش فيه الأستاذ عبد الوهاب، عله يجلو لنا وجه الصواب

قال: (ذكر الأستاذ - أحمد أمين - في ص245 أن من نتائج الاختلاف بين القبائل كثرة المترادفات في اللغة العربية، ثم ساق مثلاً لذلك فقال إن السكر اسمه المبرت بلغة اليمن؛ ولي على هذا اعتراضان: الاعتراض الأول أن لفظ السكر ليس بعربي، بل هو تعريب للفظ شكر الفارسية، وهي قريبة جداً من لفظها في اللغة راجع. . . والاعتراض الثاني هو أنني. . . الخ) وهذا الثاني ليس في موضوع المناقشة

ولقد رأيت أن الأستاذ أحمد أمين لم يقل أن كلمة سكر عربية، ولا يمكن أن يفوته أنها معربة، ولا سيما وقد سردها في الكلمات التي أخذها العرب الفاتحون من الفرس في ص248 من الجزء الثاني من (ضحى الإسلام)

لهذا لم أخرج اعتراض الأستاذ عبد الوهاب إلا على وجه أنه ينكر الترادف في اللغة العربية بين لفظين أحدهما معرب والآخر عربي

وقبل الإفاضة في هذا البحث أرى أن أضع أمام القارئ نص العبارة التي وردت في (ضحى الإسلام)، والتي وجه إليها الاعتراض لتكون على بينة في فهمها وفهم الاعتراض. وها هي ذي: (وكان هذا الاختلاف أيضاً أهم الأسباب في كثرة المترادفات في اللغة العربية، فإحدى القبائل تضع اسماً لشيء، وتضع قبيلة أخرى اسماً آخر، وقد وردت أدلة على ذلك فقالوا: - مثلاً - إن السكر اسمه المبرت بلغة اليمن. . . ولهذا كثرت المترادفات كثرة غريبة، فقالوا إن للعسل ثمانين اسماً و. . . الخ). وعبارة الأستاذ أحمد أمين على هذا الوضع لا تفيد أن السكر لفظ من وضع إحدى القبائل، إنما هي تفيد أن المبرت من وضع أهل اليمن، وأن المبرت والسكر قد أصبحا مترادفين. والترادف على ما عرفه الإمام فجر الدين هو الألفاظ المفردة الدالة على شيء واحد باعتبار واحد، كذا من الجزء الأول من المزهر للسيوطي ص238. وهذا ينطبق على سكر ومبرت، فلا خلاف في أن كلمة سكر وإن كانت معربة قد اندمجت في العربية واستقرت بين ألفاظها وجرت في كلام فصحاء العرب (وأصبحت ذات حق بمضي مدة طويلة عليها تجري على أسلات الأقلام، وتجيء في أفصح الكلام، وقد عربها العرب فجرت مع الألفاظ العربية في عنان) هكذا يقول الأستاذ الجارم في ص 326 من مجلة المجمع اللغوي الملكي. وقد ذكر عدة ألفاظ من هذا القبيل من بينها سكر ومبرت. وإن كان الأستاذ الجارم قد عبر عن هذا بأنه ترادف متوهم فقال: (وهناك أسباب دعت إلى توهم الترادف: منها دخول كلمات في العربية من لغات أخرى. . . الخ) إلا أنه عد هذا التوهم من مذهب المتشددين ثم استدرك بما يفيد جواز الترادف فقال: (نعم إن المتشدد لا يعد هذه الكلمات من المترادفات لاختلاف اللغة، ولكن ما الحيلة وقد شاع استعمالها وأصبحت ذات حق بمضي المدة الطويلة. . . الخ) العبارة التي اقتبسناها. وهناك دليل آخر على صحة إطلاق الترادف بين لفظين أحدهما عربي والآخر معرب نجده في كلام الأستاذ

الجارم الذي استند إليه الأستاذ عبد الوهاب في اعتراضه. بل هو دليل على صحة إطلاق الترادف بين لفظين أحدهما عربي والآخر أعجمي خالص. ذلك قوله في ص 314 من مجلة المجمع: (والمثل الذي نختاره لذلك هو ما أورده السيوطي في المزهر للعسل من الأسماء؛ وقد وردت على أنها من باب الترادف. . . فمن مرادف العسل الدستفشار - والمستفشار. وهو العسل الذي لم تمسه النار؛ وليست واحدة منهما عربية. . . إلى أن قال. . . ونستطيع مما سقناه من مرادفات العسل أن نقيس عليه غيره). فلعل الأستاذ عبد الوهاب يرى بعد هذا جواز إطلاق الترادف بين لفظين في لغة أحدهما عربي والآخر أعجمي أو على الأقل معرب وللفظ السكر بين المعربات مكان وطيد في العربية

اليوزباشي أحمد الطاهر

2

التربية الخلقية والاجتماعية في المدرسة

إلى الأستاذ فخري أبو السعود

قرأت يا سيدي مقالك الذي دبجه براعك تحت هذا العنوان في عدد (الرسالة) السابق، فخطر لي أن أعلق عليه هذا التعليق

كلنا متفق على أن الأخلاق في مدارسنا ليست مما يشرف، ولا ينبئ بخير. ولكن الشيء الذي بلبل بالي وشرد خيالي هو طبكم لهذا الداء: هو نصحكم بفصل طبقات الناس في المدرسة، حتى تستقيم أخلاق الطلبة فيها، إذ يقولون في وصف الداء (قبولها - أي المدرسة - الطلاب من جميع الطبقات ووضعها أبناء الطبقة المحترمة بجانب أبناء الطبقة الوضيعة في المدرسة الواحدة بلا تميز) ثم قولكم في مكان آخر تصفون الدواء (فيجب أن تراعى طبقة الطالب الاجتماعية قبل أن يقبل في المدرسة، وأن يكون لهذا شأن في توزيع الطلاب على المدرسة بل الفصول وتخصيص مدارس في البلدان المختلفة لأبناء الطبقات الممتازة والأسر الطيبة)

أين يا سيدي هذه الطبقات الاجتماعية التي تعنيها؟ وعلى أي قاعدة نقسمها؟ أفنتراجع إلى القرون الوسطى نستلهم هذا التقسيم فنضع فواصل ومتاريس بين الأشراف والعامة؟ وإن كان ذلك يا سيدي، فأين طبقة الأشراف هذه أو الطبقة المحترمة كما تسميها؟ وأين طبقة العامة أو الطبقة الوضعية في رأيك؟ كيف نعرفها؟ وبم تميز إحداها من الأخرى؟

أجل أجبتم يا سيدي عن هذا السؤال فقلتم: (الطبقات المحترمة التي تستطيع دفع المصروفات العالية)

إذن يا سيدي كل غني في هذا البلد شريف عالي المكانة سامي الأخلاق، لا يجوز أن يجلس في معهد علمي إلى جانب الفقير الذي يجب أن يكون من (طبقة وضيعة فاسدة تعم فيها رذائل الكذب والغش والقحة وجرأة اللسان)

إذن كل من يستطيع أن يدفع مصروفات عالية يعد من طبقة الأشراف، وكل من يقصر عن ذلك يعد من الطبقة الوضيعة

فأين شرف أكثر الأغنياء في مصر يا أستاذ، ومن الذي يعترف بذلك الشرف؟ أمن الشرف هذه الفضائح الخلقية التي تنتشر عن بعضهم كل يوم؟ أمن الشرف هذه الفضائح المستورة بين جدران (الفيلات) التي لا يسكنها إلا الأغنياء، وفي قيعان (الصالات) التي لا يؤمها إلا الأغنياء؟

ما رأيك يا سيدي في أنني ما رأيت أفسد أخلاقاً ممن (يستطيع دفع المصروفات العالية)، وممن يستطيع أن يخرج لك من بطانة ثوبه من المال ما يسيل اللعاب ويغري الأفئدة، ومن يعلن في صوت كالرعد أنه اغتنى غناء لا يجاريه في غناه أحد. . ثم ما رأيك في أن أغلب من (لا يستطيع أن يدفع مصروفات عالية) ومن يطرد من المدرسة كل يوم لعجزه عنها هو المثل الكامل للخلق الكامل. . .؟

ثم أراك يا سيدي تشبهنا في ذلك بالإنجليز. . ولست بالطبع في درايتكم حتى أتحدث عن إنجلترا حديث عارف، ولكن ترامى إلى علمي أن الإنجليزي كلما زاد غناه عظم خلقه، والأمر هنا على النقيض، فالارتفاع هناك بالخلق، والارتفاع هنا بالمال، حقيقة مرة ولكن لا شك فيها

ولكم أود مع ذلك يا سيدي لو تفصل طبقات الطلاب في المدرسة على هذه القاعدة
قاعدة الجاه والغنى حتى يتسنى لكل فقير مؤدب أن يحتفظ بأدبه ويستقيم على خلقه
زكي شنودة جندي

ذكرى سيد الوجود محمد

للأديب محمد البزم

نبيُّ حبَا عدنان فضلاً وسُؤْدَداً ... فُعَّمتْ جميع العالَمينَ مواهبُهْ
أخُو هِمَمٍ لا يُدرِكُ الدهرُ شَأوَها ... ويجهلُها أعداؤُهُ وأقارِبُهْ
رأى الكَوْنَ في تيهٍ من الجهلِ أسفَعٍ ... تَشُقُّ عُبَابَ الداجِيَاتِ مراكِبُهْ
فأطلَعَ في آفاقِهِ فَرْقَدَ الهدى ... إلى أن أصاب الحقَّ في الليلِ حاطِبُهْ
وَقِيدت له الدنيا مَقادَةَ طائعٍ ... ذَلولٍ فكانت في سواها مآرِبهْ
مُحَمَّدُ إني من مَدِيحِكَ عاجِزٌ ... وَشَأْوُ بيآتي دون ما أنا طالِبُهْ
أتَيتَ وقد شاخَ الزمانُ فَرَدَّهْ ... نداكَ فَتِيًّا بعد ما ارْبَدَّ حالبُهْ
سطعْتَ وَلَيلُ الغَيّ مُلْقٍ جِرَانَهُ ... على الكونِ تَهْمي بالرزايا سحائبُهْ
يؤتيكَ وَحْيٌ لا يُرَام ومنطقٌ ... بوادِرُهُ مَحْمُودةٌ وعواقُبهْ
فجِئْتُ بقُرْآنٍ حوى كلَّ حِكْمَةٍ ... أنارتْ دياجي الكائناتِ كواكبُهْ
يُنَصُّ فَتُصْمي الظالمينَ حُدُودُهُ ... وَيُتْلَى فَتُرْدِي المارقينَ ثَوَاقبُهْ
وَقَوَّمْتَ من زَيغِ الأعاريبِ فاستَوَوْا ... على مَنْهَجٍ لِلْعَدْلِ يَأمَنُ راكِبُهْ
وَرُضْتَ جِمَاحَ المُستبِدِّينَ راكباً ... من الحقِّ متنْاً يُوضِحُ السمْتَ لاحِبُهْ
تلطفتَ بالغاوِي فَطَوْراً تُلِينُهُ ... وحيناً تُصَاديهِ وآنًا تُغالبُهْ
جَلوْتَ عَمَاياتِ القلوبِ فأبصَرتْ ... وزِيحَتْ عنِ اللُّبِّ السليمِ غيَاهبُهْ
ودافَعْتَ عن ذاتِ الإلهِ بِعَزْمَةٍ ... متى رامتِ الجبَّارَ صاحت نوأدبهْ
وأوصيتَ خيراً بالكنائِسِ مانعاً ... ذَوِيها، وجيْشُ الحقِّ تمضي قَوَاضِبُهْ
صَقَلْتَ حواشي الدهرِ فانْصَاعَ طَيِّعاً ... وأذْعَنَ لا تَسْرِي بِشَرٍّ عقارِبُهْ
وَقلَّمتَ أظْفَارَ الزمانِ فأعرَضَتْ ... عن الضارعِ المسكينِ تَنْأى مصائبُهْ
وذي أشَرٍ أنَعْمتَ بالخيرِ قَلبَهُ ... وقد أنعمَتْ بالشَّرِّ قَبْلاً تَرَائبُهْ
وذي دُرْبَةٍ رازَ الزمانَ تَركْتَهُ ... كَذِي الجهل ما أجدَت عليه تجارِبُهْ
وَغَضْبَةِ حقٍّ في عُلَى العُرْبِ غادرتْ ... عدوَّ بني عدنانَ سُفْلا مراتِبُهْ
وَفيْلَقِ ظُلمٍ سَارَ كالبحرِ زاخراً ... يَجُرُّ بهِ ذَيلَ الغوايةِ ساحبُهْ
بَعثت به جيشاً من الرُّعْبِ فَارْعَوَى ... تضيقُ بهِ أجْوَاؤُهْ وسباسِبُهْ
يخِفُّ إليك الدارعونَ مخافَةً ... وقد أمِنَتْ أطفالُهُ وكواعِبُهْ
تحوطُكَ من عُلْيا قُرَيْشٍ عصابةٌ ... لها الفَلَكُ الدوَّارُ تعنُو ذوائبُهْ
جَرَرْتَ بهم ما بين شَرْقٍ ومغرِبٍ ... كتائِبَ عزمٍ نائياتٍ رغائبُهْ
إذا مرَّ منْهُمْ موكِبٌ لاحَ موكِبٌ ... تمُجُّ زُعَافَ الموتِ صِرْفاً مَقَانبُهْ
بكلِّ فتى ماضِي العَزَائِمِ لَهْذَمٍ ... إذا اعتَزَّ شَأنُ العُرْبِ يعتَزُّ جانبُهْ
يرُومونَ مَجْداً لا تنى عزَماتُهُمْ ... عن المجدِ حتى يدركَ المجدِ خاطِبُهْ
دفعتَ بهم في وَجهِ كلِّ عظيمةٍ ... فخاضوا إليها الموْتَ دُهْماً مسارِبُهْ
فأسْأرْتَ للأقْوَامِ في كلِّ وجهَةٍ ... جَداً لم تَشُبْهُ بالأذَاةِ شَوائبُهْ
وغادرْتَ للإسلامِ صَرْحاً مَمرَّداً ... تُناطحُ أعنانَ السَّماء مناكِبُهْ
فلا زَالَ مِنْ قُرْقانِكَ البرِّ للوَرَى ... مناهِلُ هَدْيٍ صافيات مشارِبُهْ
دمشق

محمد البزم

تأبين الكاظمي

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

صدق النعيُّ ومات عبد المحسن ... يا شعر أبّنه ويا نفس احزني
يا شعر أنت ومحسنٌ قد كنتما ... عمراً رفيقيْ غربةٍ وتوطّن
قد عشتما في كل منزلة معا ... كالفرقدين اللامعين وأحسن
أو زهرتين ولا أراني داريا ... أشغفتُ بالنسرين أم بالسوسن
حتى احتوته يدُ المنايا بغتة ... بمخالبٍ معقوفةٍ كالمحجن
لمن الزعامة في القريض ومن لها ... بعد الحفيّ الشاعر المتفنّن

ملأت قصائدُه القلوبَ حماسةً ... من بعد ما شغلت جميع الألسن
شعرٌ يكاد يسيل منه لفظُه ... مثل الندى من رقةٍ فيهزّني
شعرٌ إليه بفعل مغناطيسه ... في السمع تنجذب القلوب وتنحني
العبقريةُ فيه مُعتَرَفٌ بها ... من ذا يسئ ظنونه في المحسن؟
شيخ القريض قضى فكان عليه لي=حزنٌ بعيدٌ غورُه قد مضّي
في كل قطر أبّنته عصبةٌ ... ما كلٌ من لاقى الردى بمؤبّن
بكت العروبة في الجزيرة محسناً ... ما موتٌ شاعرها الكبير بهيّن
فقدت فأوجع قلبَها فقدانُها ... منه فتىً شهماً كريم المعدن
مات الذي كانت به معتزَّةً ... يا رب إن الخطب جلّ فهوّن
قد كان في كل المواقف واثقاً ... بالنفس شأن الشاعر المتمكن
دفنوه في ملحودة وخيالُه ... في أعيني فكأنه لم يُدفن
ما كان للآداب إلاَ روضةً ... ما شَئت من زهر حوته تَجتَني
مَن للغريب قضى وكان موليّا ... للطرف عند الموت شطرّ الموطن
قدودّ لو أن المنيّة أمهلت ... وإليه عبدَ به قريرَ الأعين
لكنها قد أعجلته بضربةٍ ... من كفّها في وثبةٍ من مكمن
الشعرُ أسمع شاجياً خفقاتَه ... فكأنهّ أنات قلبٍ مُثْخَن
يا شعر أنت من الفجيعة مؤلَمٌ ... وأرى الأسى بجبينك المتغضّن
بيني وبينك في الحياة وشيجةٌ ... وجميعٌ ما هو محزنٌ لك محزني
يا شعر بعد الناثرين دموعَهم ... إن كان عندك ما تبثّ فبيّن
ما أكبر الأخلاق في نفس امرئ ... إن خاشنته الناسُ لم يخشوشن
قد عاش عيشاً والحياةُ مُلَّحةٌ ... ما كان بالمْغنى ولا بالمسمن
من ديدن الشرق احتقار دوى النهى ... والشرق ليس مُغّيراً للديدن
الكاظميّ قد اعتني ببلاده ... وبلاده بحياته لم يعتن
لو كان يحظى في العراق ببلغةٍ ... ما سار يقصد مصرَ عبد المحسن
بلدُ به بخلاف ما في غيره ... شبع الدخيلُ وأسغب ابن الموطن
للمرء في الأرض الفضاء مساكنٌ ... أنّي مضى والقبرٌ آخر مسكن
والموت فوق جنادل وصفائح ... كالموت حُمَّ على فراشٍ ليّن
لا تسألوني عن مصير مَن انطووا ... أنا بالعواقب لستُ بالمتكهّن
قالوا وراء الموت أهوالٌ ولم ... أحفل بما قالوا ولم أتيقّن
ولعل هذا الموت مبدأ رحلةٍ ... للروح خالدةً وراء الأزمن
تبنى الحياة لها الصروحَ من المنى ... والموت يهدم كلّ ما هي تبتني
في الكون هذا كلُ شيء ممكنٌ ... إلا البقاء فذاك ليس بمكمن
وكأننا صور الخيال لبرهةٍ ... نبدو ونخفى عن شعاع الأعين
الكون عن ماضيه لم أك راضياً ... والكون عن آتية لستُ بمأمن
فرحُ بجانبه همومُ جمةُ ... هذا منيحةُ دهرك المتلوّن
لابد من موتٍ لمن هو عائشُ ... فاشجُع إذا قابلَته أو فاجبن
إن المنون لرابضٌ مُتحيّنٌ ... ماذا مرادُ الرابض المَتَحيّن
أرَبابُ إن الحزن يقتل أهلَه ... أرَبابُ يا ابنة محسنٍ لا تحزني
أرباب صبراً فالحياة فريسةٍ ... والموت ذئبٌ إن سطا لا ينثني
يا بلبل الشعراء مالك صامتاً ... من بعد تغريد بشعرك مُشجِن
قد سرتَ قبلي للردى متعجِّلاً ... ولعّلني بك لاحق ولعلّني
(بغداد)

جميل صدقي الزهاوي

أبو الطيب المتنبي

للأستاذ معروف الرصافي

كان أبو الطيب امرأ قُوَلَهْ ... يبتكر الشعر مذكياً شُعَله
صاحب نفس كبيرة شرفت ... فشرَّفت حله ومرتحله
كان هو الشاعر الذي انتشرت ... أشعاره في البلاد منتقله
أوجد للشعر دولة عظمت ... به فعزت من غيره دُوَله

من كل معنى أغر مؤتلق ... في لفظه كالعروس في الحجَله
وربما رق لفظه فبدت ... في شعره كل كِلْمةٍ ثمله
وربما لم تَبن مقاصده ... لأنها فيه غير مبتذله
فسائلن عن قريضة حلبا ... كم قطفت منه زهرة خَضِله
خلد ذكراً لسيف دولتها ... أيام وشَّى بمدحه خلله
فاعجب لسيف لم تَبْل جدته ... وشاعر بالمديح قد صقله
ولو حاز موسى مضاء عزمته ... ما تاه في التيه عندما دخله
وهو الذي اجتازه بِعْمُلَةٍ ... تحمل منه الهمام لا التُكَلَه
قد بات كافور من جراءتها ... على الموامي بمهجة وجله
إذ أعجزته بالسير عن طلب ... لا خيله تخشى ولا إبله
فسل به النيل يوم ناقتُه ... تغمرت منه وانتحت جبله
كيف أتى مصر كالعقاب لكي ... يبلغ فيها بشعره أمله
وكيف أحيا بالمدح أسودها ... ثم وشيكا بهجوه قتله
في شعره حكمة مهذبة ... وروعة بالذكاء مشتعلة
ونغمة بالشعور صادحة ... وصنعة بالفنون متصله
قدرته في البيان واسعة ... يتيه فيها السؤال والسَّأله
إذا المعاني بذهنه ازدحمت ... ما ربكت في انتقائها حيله
كم شاعر قد قفا له أثراً ... وناقد راح يبتغي زلله
فأخفقوا عاجزين عن درَك ... لبعض ما كُلُّهُ تيسر له
قل لابن عباد أي منقصة ... من أجلها كنت مكثراً عذَله
أطبُعه بالذكاء متقداً ... أم نفسه بالإباء مشتملة
أم شعره والعصور ما برحت ... تسعى بكل استجادة قِبَله
لكنما رمت من مدائحه ... ما لم تكن سالكاً له سبله
طَمَاعة منك غير واعية ... وهي لعمري حماقة وبَلَهْ
أكبر من أكبر القريض به ... وأكبر القائلين من قتله
يا قاتليه لو تعلمون به ... إذن قتلتم نفوسكم بدله
لكنكم تجهلون رتبته ... ماذا فعلتم يا أجهل الجهلة
قتلتم الشعر والإجادة والإ ... بداع فيه يا الأم القتلة
لستم بذا القتل من بني أسد ... بل انتموا فيه من بني ورَله
لم يزل الدهر بعد مقتله ... يضرب في الشعر للورى مثله
كان له عند كل بادهة ... بدائع في القريض مرتجله
يصطاد في الشعر كل شاردة ... من القوافي بفطنة عَجِله
فلا تقسه بغيره أدباً ... وهل تقاس العطار بالتفله
كم شاعر يدعى وليس له ... من شعره غير منطق الجهلة
إن أنت أنشدت شعره هزؤا ... رجعت منه كآكل البصله
ورب شعر إذا لفظت به ... من هجنة فيه تأنف السبلة
الشعر معنى ألفاظه حسنت ... فنسقت في بلاغة جمله
وكلما قصرت قوالبه ... عن حسن معناه أوسعت خلله
حسن المعاني بلفظها شوه ... كحسن حسناء ثوبها سمله
من ذاق في الشعر طعم معجزه ... فاحمد الشاعر الذي أكله
أي مقام هيجاؤه احتدمت ... بالشعر يوماً ولم يكن بطله
كان عزيزاً يأبى الهوان فما ... قر عليه يوماً ولا قبله

معروف الرصافي

القصص

من أساطير الإغريق

هيرو وليلندز

المأساة الغرامية المؤلمة

للأستاذ دريني خشبة

أرسلوها إلى الدير، طفلة بريئة النفس، طاهرة القلب، بسامة الثغر، وضاحة الجبين؛

كلما وضعت إبهامها في فمها تمصه، تمثلت فيها سذاجة الطفولة وجمالها ودعتها ونذروها لفينوس، فكانت ربة الحب تنسرق في القمراء الصافية لترعى طفلها، ولتنفث فيها من رقى السحر ما تعدها به لمستقبل غرامي ملئ. وكان الكهنة يتفرسون في شفتي هذه الوديعة الصغيرة ألغازاً لا يدركون لها كنها، وأسراراً لا يفقهون لها معنى، إلا كنه الصبابة الحمراء تنثال فوق الثنايا الأربع البراقة، وإلا معنى القبل الناضجة يختلسونها كلما افترنا عن ابتسامة، أو انفرجتا لدغدغة أو تخميش

وشبت هيرو

وتفتح الورد في خديها الناعمين، واستيقظ النرجس في عينيها الناعستين، وضحكت فينوس في شفتيها الحمراوين، ونبت الخمل الحريري يطري صباها الغض، وشبابها الفينان! وعينت راهبة لفينوس في سيستوس، المدينة الخالدة، التي تربض على شاطئ الهلسنت الأوربي، قبالة أبيدوس، مدينة الأحلام، على الشاطئ الأسيوي ولبثت الراهبة الرائعة تؤدي الطقوس والشعائر الدينية لربة الجمال والحب، في برج مشيد مشرف على البحر في قصر أبيها، ولبثت الشهرة تذيع محاسنها في المدينة الكبيرة، والصيت الرنان يتحدث عن جمالها بين الأهلين كما يتحدث الشذى عن ورده، والأرج عن رنده، حتى أصبح اسمها أغنية كل فم، وهتاف كل لسان

وسمع لياندر، فتى أبيدوس وأشجع شبابها، والذائد عنها في كل حومة، بهيرو الراهبة، فعجب أن تكون حقيقة كما يصفها الناس، وحسب أن المبالغة هي التي نفخت في شهرة هيرو، فلم يهتم لما سمع عن مفاتنها، وصرف ذهنه الشاب الفتى عن هذه الطوبى التي

سلبت ألباب الفتيان، وغدت حلماً ذهبياً لكل مدله ولهان

ولكنه كان يزداد تذكراً للفتاة كلما بالغ في نسيانها أو تناسيها، وإذا صح أن الأذن تعشق قبل العين أحياناً، فلقد كانت أذن لينادر عاشقة وامقة، وما برحت تلح على قلب صاحبها بالعشق والمقة، وما برح يعرض عنها ولا يصغي لها، حتى أعلن في سيستوس عن حفل ضخم يقام في هيكلها تكريماً لفينوس وتقديساً، وأن الشباب من الجنسين مدعوون للمشاركة في الاحتفال بربة الجمال والحب، وليس أولى من الشباب بتكريم الجمال والحب!

وترامى خبر الاحتفال حتى بلغ الشاطئ الأسيوي في أبيدوس وحتى سمع به لياندر، فابتسم، وشعر في سويدائه بأول قبس من نار الحب، فألهب إحساسه وأشتعل قلبه، وملأ ضالعه شوقاً إلى هيرو وتحنانا

واعتزم المشاركة في الاحتفال، لا تقديساً لفينوس، ولكن لينظر إلى الراهبة الحبيبة التي ملأت خياله، وأصبحت مثله الأعلى الذي ينجذب دائماً إليه، مدفوعاً بالقوة الخفية الخارقة، خاضعاً للسحر المطوي العميق

وإذ كان اليوم المنشود، ارتدى الفتى أبهى ملابسه، وانطلق يحدث نفسه أماني الحب، ويتغنى أغرودة الجمال، وظل يحلم في طريقه إلى سيستوس بهذا الأمل اللماح، الذي يشبه في تحجبه في ثنايا المستقبل، قمر ليلة مكفهرة قمطرير، ما يفتأ يتخايل في تضاعيف السحب!

وعبر الهلسبنت في زورق أبيض جميل، مخسر ما بين العدوتين في ساعة كانت في فؤاد العاشق المشتاق أطول من أحقاب وأحقاب!

وقصد إلى الهيكل، وطفق يدافع الجماعات، ويزاحم الجماهير، حتى كان بين يدي هيرو وكانت باقات الورد تتناثر من هنا وهناك تحت قدمي الراهبة الصغيرة التي استوت على منصة ترتفع قليلاً عن مقاعد المدعوين، مشرقة مؤنقة، كأنها زنبقة، ملتفعة بردها الحريري الأبيض، مكتثة بذراعها اللدنة الجميلة على سنادة المنصة، مقلبة عينيها الدعجاوين في الجماهير المتكبة حولها تلتمس البركات. . .

وكانت فينوس قد أقبلت من مملكة الأولمب تشهد المهرجان الحاشد، وتشيع خيلاءها باستملاء الشباب الهاتف باسمها، المترنم بعبادتها؛ وكان معها أبناؤها الغر الميامين، وفيهم

كيوبيد وهرمونيا، فاختبأ في أبراج الهيكل، ولبثوا ينظرون إلى الملأ ويعجبون.

وأرسلت فينوس عينها الفاحصة في الملأ، فرأت لياندر العاشق يرنو إلى هيرو الراهبة، وتكاد عيناه تلتهمانها التهاماً؛ ولاحظت أن هيرو منصرفة عن الفتى المسكين لا تكاد

تعيره نظرة، ولا تمنحه التفاتة، وهو مع ذاك مشرئب إليها، ينظر نظرات كلها عبادة وعيناه مغروقتان بدموع تكاد تنهمر
وتحرك حنان الحب في فؤاد ربة الحب، وأقسمت لتعاونني في هذا المشروع الغرامي العظيم!!
وذلك أن فينوس لم تكن تجيد الحب لنفسها فقط، بل كان يثلجها ويملؤها غبطةً أن ترى إلى عبرات المحبين، وتسمع إلى رنين القُبل في شفاه العاشقين؛ فأشارت إلى ولدها كيوبيد - رب الحب، وصاحب السهام الذهبية والقوس ذات الوتر العُرد - فأقبل عندها، وألقت إليه أوامرها. . .
فوتر كيزبيد قوسه، وتخيّر واحداً من سهامه، وأنتهز فرصةً من هيرو كان نظرها متجهاً فيها إلى ليانذر، وأرسل إلى قلبها السهم الذي يحمل رسالة الحب، فدخله غير مستأذن، وملأه لوعةً وصبابة. . . وجُنَّت للحظتها بالفتى. . .
وتخبر كيوبيد سهماً آخر، وأرسله هدية حارةً، دامية، إلى فؤاد ليانذر. وما كاد يستقر فيه، حتى أحس الفتى أنه لم يغد واحداً من هذه الأجسام الفانية الهالكة بعد، بل هو قد صار طيفاً نورانياً؛ وأحس مع ذاك بحب غمرٍ لم يكن له به عهد من قبل، جعله يفنى فناءً تاماً في هيرو الراهبة، التي نظر فألفاها تلتهمه هي الأخرى بعينيها وقلبها التهاماً!!. . .
لله يا حب ما أجملك، وما أبر فينوس بعبادتك!. . .
ودلف ليانذر نحو المنصة، وتمتم بكلماتٍ خافتةٍ، (كأنما هي بَثُّ الورد للمطر!) يفهمها المحبون وحدهم، حين يتكلمون بأطراف الشفاء والعيون؛ فعلمت هيرو أن حبيبها يُقرئها حبه، ويسرُّها هيامه، ويرجو منها أن تمنحه ميعاداً يلقاها فيه على حدة، ويعبدها خلاله على انفراد.
وارتبكت هيرو، وتصارع في نفسها الخوف والحب؛ الخوف من أن يلحظ أحد راهبة فينوس تصبو، وبذلك يهوى احترامها إلى حضيض السخرية، والحب الذي تكتمه في صميمها لليانذر، والذي أثاره فيها سهم كيوبيد، ولم إلا أن تنهر العاشق الملّح لينصرف، ولكنه ما يزداد إلا تعلقاً بها، وتشبثاً بما طلب إليها، ورجاها فيه، وتكون هيرو قد بلغت حالةً بين الهيام والإشفاق لا تحتمل، فتهمس إليه أن ينتظر حتى ينصرف الناس؛ فإذا انصرفوا، خلت إليه، وحدثته حديثاً موشى بالورد، مبللاً بدموع الحب، يختلط فيه أنين الآهات برنين الموسيقى. وتذكر له أن اتصالهما سيظل حباً في حب، وبكاءً في بكاء، ولوعةً في إثر لوعة، وزورة مختلسة تعقبها زورة مختلسة: (لأني راهبة كما تعلم، وأنا خادمة هذا لهيكل الفينوسي المقدس، وسأظل عذراء أبد الدهر، فلن ينتهي حبنا إلى هذا الزواج الذي أوثره وأتشهاه. فإذا كان الغسق يا حبيبي، وتألق النجم في كبد السماء يردد أنَّاتنا، فاقصد إلى شاطئ البحر عند أبيدوس، وأخلع ملابسك، ثم خض عباب الهلسبنت حين أعطيك إشارة من مصباحي، حيث أكون في برج قصرنا المشرف على البحر عند أقصى حدود سيستوس. فإذا وصلت، وستصل سالماً في رعاية فينوس، فهلم إليَّ فير البرج نلتذ آلام الحب، ونتغنّ أشجان الهوى، واضعة رأسي على صدرك أو واضعاً رأسك على صدري، شاكيين إلى الآلهة ما بنا من برحٍ حتى يطلع الفجر فنفترق، وتعود أدراجك إلى الشاطئ الأسيوي سابحاً، فإذا كان غدٍ، عدت إليَّ لأفني فيك وأغمرك بالقُبل ولأ قرأ نفسك، وتقرأ في نفسي، كتاب الحب وآي الطهر. . . وبوركت فينوس!).
ولقد آثرت هيرو خطة الحذر في صلتها الغرامية بليانذر، لأن شطئان الهلسبنت كانت حرماً على السفائن والزوارق وسائر الجواري بعد ساعة من غروب الشمس، فلو قدر كب زورقاً وعبر به البوغاز، لعرَّض نفسه لأخطار جسام من بينهما عقوبة الإعدام دون محاكمة! لذلك لم يكن بد من أن يقطع البحر سابحاً كما رسمت له هيرو
(معبودتي! سأخوض العباب في سبيلك)
(وأطوي بحار الجحيم لو أنها تحجزني عنك)
(فلا الموج جياشاً باللهب، ولا الأعماق تقذف باللحم)
(ولا الفزع الأكبر في الأرض أو في السماء؛ ولا هذا ولا)
(ذاك يحول دون لقائنا يا معبودتي!)

فلما كان غد، وتوارت الشمس بالحجاب، وأقبل ليل العاشقين بشكواه ونجواه، يم ليأندر
شطر البحر، ووقف فوق رمال الشاطئ كأنه يعدها، ولبث يرقب البرج على العدوة الأخرى، وفي قلبه أمل مضطرب، وفي نفسه قلق مستمر، وملء يديه منى تملأ العالم بأسره!
وظل يذرع الشاطئ جيئة وذهوباً، وهو حين يروح أو حين ينثني، يحملق في البرج المشيد لا تريه عيناه عنه. وكانت الرياح تدمدم في جنبات الآكام الممتدة على الساحلين، والموج يزخر في غيران طوروس الشامخة، والبحر يقذف سراطينه على الكثبان البعيدة النائية، والسحب تتجمع وتتفرق كأنها موج الظلماء في خضم السماء. . .
وفجأة لمح لياندر بصيص النور في كُوى البرج الشاهق، فانفلت من ثيابه كأن الشعاعة تجذبه، ولم يعنه أن يمزق هذا الكم ويشق ذاك الجيب، ولم يبال أن يقذف بالقميص هنا وبالبرد هناك؛ ثم ينقذف في الماء ويأخذ في سباحته، ترفعه موجه حتى يحسب أنه يمسك النجم ويلمس السماء، وتخفضه موجة حتى ليخال البحر ينشطر بحرين، وهو في أعماق يؤانس التريتون، ويجالس الأوسايند!!
وكانت فينوس تنظر من علياء الأولمب وتلهو. . .
وما برح يصارع البحر والبحر يصرعه، وما برح يتقدم إلى أمام ويسحبه التيار إلى الوراء، وكلما خانته قواه نظر إلى البرج يتزود من بدره قوة، ومن القُبل الحارة التي تنتظره ثمة دفئاً ونشاطاً مجدداً!
وبلغ الشاطئ. . .
ووجد هيرو تنتظره كأنه الأمل المرتقب، والمُنية المرتجاة، فهرعت إليه استقرت في حضنه، ولبثت تتسمَّع إلى دقات قلبه الواجف الذي يخفق لأول مرة بموسيقى الحب!. . .
وأمتد فم الفراشة المرتجف، يرشف رحيق القُبلة الأولى من الثغر الحبيب الذي (تفتحت عنه جلنارة الحب)
وتمزقت السحب وتكشفت السماء، وأطلت النجوم ترنو إلى العاشقين المدلهين يتباثان ويتشاكيان، ويأخذان في لذة الهوى الطاهر، ونعيم الحب البريء. . .
وكانت فينوس تنظر من علياء الأولمب وتلهو. . .
ونسمت في الأفق الشرقي أنفاس الفجر، فنهض الحبيبان يودع أحدهما الآخر، ويتزودان للنهار الطويل من زاد الهوى نظرات وقبلات!!
وفصل لياندر، وأطلت هيرو من الكوَّة الصغيرة تنظر إليه وهو يداعب الموج والموج يداعبه، والزبد يلبسه ويخلعه. .
وفينوس تنظر وتلهو. . .
أشرقت الشمس وتوارت، وأقبل الليل وتنفس الفجر؛ وعصفت الريح أو هبت رُخاءً، والتمعت الشعلة تضيء للعاشق ظلمات العباب. . . واطمأن البحر إلى صاحبه حتى خاله أيسر من ظهر الأرض، فكان يطويه إلى مُنية نفسه وهويَّة قلبه في كلِّ موعد منتظر، ثم يؤوب على متنه حين ينصدع عمود الظلماء، وكأنه يمتطي من ظهور الموج الصافنات الجياد. . .
وكان فجراً شاتياً يكاد سنا برقه يخطف الأبصار، وزمزمة رعوده تهد جوانب الأفق، وكان البحر يتقلب ويرتعد كأنه زلزلة تأخذه من أعماقه، فأوجست هيرو خيفة على حبيبها، وتعلقت به، وراحت تغمره بالقُبل متوسلة ضارعة، ترجو منه أن يبقى بجانبها ولا يجازف بحياته في هذا اليم المصطخب، وهي تدبر له مخبأ يأويه ذلك اليوم، حتى تسكن العاصفة، وينام الماء. . .
وثارت النخوة في نفس لياندر، وشاعت الكبرياء في جسمه القوي المفتول، وأنف أن يجبن أما الطبيعة الساخطة الضبى، فطمأن هيرو واحتملها كالحمامة في يديه الجبارتين، وطبع على شفتيها المرتعشتين قبلة تجمعت فيها روحه كلها؛ ثم انفتل من بين ذراعيها الضعيفتين، وهرع إلى البحر فخوض فيه، ملتفتاً بين برهة وأخرى البدر الصغير المشرف عليه من الشاطئ. .

. . .وفينوس البارة تنظر من الأولمب وتلهو
وأحس في منتصف الطريق برعشة وإعياء، ولكنه كان يهتف باسم هيرو مرة، وباسم فينوس أخرى، فتنشط الثمالات القليلة الباقية من قوته الفانية. . . ورثت لحالة ربة الحب، فنفخت في ذراعيه المجهودتين حتى وصل إلى شاطئ ابيدوس مهدوداً محطماً.
. . وتهالك على نفسه، فوصل إلى منزلة، وأوى إلى فراشه ليحلم بالموت المحقق الذي نجا منه منذ ساعة. . .
وغابت الشمس؛ ولكن العاصفة ما برحت تزداد شدة وعنفواناً، والبرق ما فتئ يطوي السماء، وكان كلُّ شيء ينذر ليأندر بسوء المنقلب؛ ومع ذاك فقد نهض غير مستيئس، وقصد الهلسبنت فوقف بشاطئه يبتسم للأهوال التي يضطرب بها بطنه، ثم لمح الضوء ينبعث من كوى الكوخ. . . فخلع ملابسه، وبدأ رحلته. . .
وكانت فينوس لا تنظر ولا تلهو. . .
لأنها كانت عند حبيبها أدونيس الراعي الجميل تستمتع به، بعد إذ فضحها أبوللو في حبيبها مارس.
ولم يبل ليأندر من البحر ما بلا هذه الليلة. . . فلقد كان الموج كأنه ألواح من الثلج تتكسر على ظهر الفتى المسكين، وتصدع ذراعيه، وترتطم برأسه. . .
ولقد كان الماء هذه الليلة كأن شيئاً من الصبر قد ذاب فيه؛ بعد إذ كانت ملوحته تستحيل شهداً في فمه، وعسلاً مصفى!
ولقد كان البرد ينهمل من السحب القاتمة والصقيع يساقط كندف القطن الأبيض، فيعلق بشعره ليأندر، وينسج فوقه قلنسوة - ولا نقول تاجاً؟. . - من برودة الموت. . .
وجاهد العاشق. . .
وسبح باسم هيرو بين موج كالجبال، وليل كله ظلمات وا أسفاه!!
لقد نظر المسكين إلى البرج يتزود من نوره، ولكنه لم يرَ الشعاعة تتألق كما عوَّدته. . .
لقد أطفأنها الرياح الهوج فأطفأت في قلبه بصيص الأمل. . واستولى عليه خور الفجر السابق، ودهاه القنوط في عضلاته، فيئس منها جميعاً. . . وضاعف النكبة شرقة بالماء حين أراد أن يهتف باسم هيرو. . .
فغاص!. . .
ولفظه أيم جثةً هامدة. . . ثم ابتلعه ثم لفظه. . .
ثم انتصف الليل، وهيرو المشوقة حاملةٌ مصباحها الخافت، بعد إذ أشعلته ثانية، ولكن الساعات تمضي. . . ولا يصل ليأندر. . .
وتنفس الصبح، فسارعت الراهبة الهيمانة إلى البحر، وحملقت في الماء. . . فأبصرت الجثة الحبيبة ترتطم بأصل البرج، كأنه حنين الجسم إلى أحلام الروح. . .
وصعقت هيرو. . .
ودارت بها الأرض، وانطفأت في عينيها مباهج الحياة بانطفاء أملها المشرق وبدرها البسام! فألقت بنفسها في الأعماق.
وما هي إلا لحظة، حتى كان الحبيبان مسجَّيين على سرير الماءُ مُلفَّفين في حرير الزبد!!

دريني خشبة
من الأدب الإيطالي
الليالي العشر
ترجمة اليوزباشي الأديب أحمد الطاهر
2
قصة حب سيمون وأيفيجينا
قال: سمعت من القصص شيئاً كثيراً وكان أحبها إلى نفسي قصة الحب التي ستسمعون. هي قصة تريكم متا للحب من قوة وبأس بالغين الغاية في العجب، موفيين على النهاية في الغرابة
كان يسكن جزيرة قبرص في الزمن الخالي رجل عظيم القدر بين الرجال، واسع الثراء بين أصحاب المال، وكان أسمه (استيبوس)؛ غير أن الرجل لم يكن مكتمل الحظ من السعادة، فقد كان له ابن طويل القامة وسيم الطلعة، ولكنه ضعيف الإدراك

سقيم الفهم مطبق الغباء. ولم يكن في وسع أبرع الأساتذة والمهذبين أن يوقظوا غفلته، أو يصقلوا طبيعته أو يهذبوا غلظته، فلم يجد الوالد بداً من أن يقصى هذا الفتى المنكود عن مرآه، ويبعده عن موطنه. فأرسله إلى منزل له في الريف يعيش فيه بين الأتباع والعبيد. ولقد كان الفتى أميل إلى طباع أولئك وأقرب: ففيه خشونتهم وجفاؤهم وغلظة طباعهم

- كان الفتى يوماً يمشي في المزرعة وقد أسند عصاه إلى كتفيه، واعتمد على طرفيها بذراعيه، فلقي فتاة بارعة الجمال مستغرقة في نوم عميق، قد اطمأنت إلى الحشائش الخضراء فراشاً وثيراً، ونام عند قدميها امرأتان وخادم. لم يكن لسيمون - وهذا أسم الفتى - عهد بوجوه النساء فاتكأ على عصاه، وحدق ببصره في وجه الفتاة، أن كانت بارعة الجمال في نومها، ساحرة الحسن في غمضها، هاج مرآها من نفسه شعوراً وإحساساً لا عهد له بهما ولا بأقل منهما، وكلما أمعن في النظر أزداد هذا الشعور وأسرف عليه هذا الأحساس، وإنهما ليغريانه بإطالة الوقوف وإمعان النظر فهو لا يريم، وينفرج جفنا الفتاة

عن عينين يقرأ فيهما هذا الغبي في طلاقه وسهولة معاني الجمال، ومن معانيه الحلاوة والرفق والبشر. ثم هذا فمها الصغير ينفرج عن كلمات يدرك الفتى الأبله ما صيغت فيه من جمال في اللفظ وعذوبة في الجرس:

- (لم ترمقني هكذا؟ أرجو أن تنصرف عني. يفزعني مرآك)

- قال الفتى: (لا أتنحى، بل لا أستطيع)

ودار بينهما حوار أنتهي عند الفتى فلم يغادرها حتى أبلغها دارها.

ثم أرتد إلى أبيه وقد فهم اليوم معنى من أدق معاني الحياة. ولم يكن قبل اليوم يفهم أن للحياة معنى. قال: (يا أبتِ إنني أود أن أحيا حياة الرجل المهذب، ولقد برمت بحياة المتأبدين)

كان عجباً للوالد أن رأى أبنه يفكر ويصيب في التفكير، ويريد ويحسن الإرادة، ويتكلم ويجيد التعبير، في صوت رقيق، ولفظ رفيع

وألبسه ثياباً تليق بقدر أسرته ومكانتها وبعث به إلى المعلمين والمهذبين فقضى بينهم أربعة أعوام كان الحب فيها قوام تهذيبه وعنصره المستساغ، فما أوفى الفتى على نهاية الأعوام الأربعة حتى كان أكمل فتيان الجزيرة أدباً وأحسنهم خلقاً

وخطب الفتاة إلى أبيها وكانت تدعى (ايفيجينا) ولكن أباها أعتذر أن كانت الفتاة مخطوبة إلى الفتى (باسيمونداس) من أشرف أسر رودس وأعرقها مجداً وإنهما نجز الزفاف.

وجم الفتى وضاق الكون في عينيه، وأصرها في نفسه ليصرحن للفتاة بحبه، وليشهدنها على هذا الحب وفعله في نفسه، وليطعنها على ما خلق الحب منه من خلق جديد، وما يستشرف إليه من سعادة ترفعه إلى مقام الآلهة وعظمتهم إذا نعم منها بالزواج؛ . (إما أن تكون الفتاة لي أو أكون من الهالكين)

وسار إلى أترابه من الفتيان الأشراف الأوفياء وائتمر معهم على أن يصنعوا سفينة قد استكملت عدتها من آلات الحرب والقتال، وتربص بها للسفينة التي تقل الفتاة إلى رودس مع زوجها باسيمونداس. فما أشرفت هذه عليها حتى رمى عليها مجذاباً ضمها إلى سفينته، وكان أول من ألقى بنفسه بين أعدائه وساقهم إلى الحرب ورداً حتى ألقوا سلاحهم واستسلموا خاضعين. قال لهم الفتى: (ما قصدت إليكم أبغي سلابكم ولكن لأنال هذه الفتاة

النبيلة التي أحبها حباً لا يعادله حب ولا يتطاول إليه محب. فإن أسلمتموها إليَّ ألقيت إليكم السلم، وما لي عليكم سبيل، وإلاّ فلن تجدوا عن الهلاك محيصاً)

فتقدمت إليه الفتاة وفي مآقيها دموع. قال: (لا تبكي يا فتاتي، فلقد ساقني إليك حبي ومناك. ولن يعدل هذا الحب ما يسوقه إليك باسيمونداس من أعز ما يساق إلى الأزواج). وفصلت عن وجه الفتاة ابتسامة شقت طريقها إلى قلب الفتى من بين الدموع. وأخذ بيدها إلى سفينته واتخذ سبيله في البحر سرباً، حتى أشرف على جزيرة كريت أن كان له فيها أخوان وخلان، ولكن تنكرت له الأقدار ولم ينعم بهذا النصر طويلاً. فما أقبل الليل حتى أقبلت معه عاصفة نكباء، ترسل حسباناً من السماء، وطوحت بالسفينة بين شطى اليأس والرجاء، حتى ألقت بها في أحضان خليج صغير

ينفرج عنه جزء من ساحل رودس على مرمى قوس من مستقر السفينة الرودسية، وما كادوا يستقرون حتى قدم باسيمونداس في فئة من أصحابه وفي أيديهم السلاح وهاجموا الفتى سيمون ومن معه وساقوهم أسرى إلى قاضي القضاة في رودس وحوكم الفتى على ما أقترف فحكم عليه قاضي القضاة بالسجن خالداً فيه أبداً وقيد إلى السجن ذليلاً حسيراً

هنا فتانا تبرح به الآلام، وتمزق جلده الأغلال، وهناك باسيمونداس غارق في بحار الآمال ينعم بتحقيق المنى، ويعد العدة لزفافه إلى ايفيجينا. ولنترك الخصمين الآن، أحدهما يشقى بآلامه، والآخر ينعم بآماله

وكان لباسيمونداس أخ أصغر منه (هرمسداس) وكان يعلل النفس بالزواج من فتاة موفورة الحظ من الجمال أسمها (كسندار) أغرم بحبها وأخذت بشغاف قلبه. وكان ينازعه في الحب قاضي القضاة قضى على فتى هذه القصة يسجن أبداً. ولقد حسب الأخوان أن سينعمان بزفافهما إلى عروسيهما في ليلة واحدة، وأعد العدة في ثقة واطمئنان لهذا الغرض. ولكن قاضي القضاة لا يهدأ له بال، ولا يزال يحتال للأمر من كلّ وجوهه وقد عقد العزم صادقاً على أن يحظى بالفتاة دون هذا الفتى (هرمسداس).

ولكن كيف السبيل؟ أيختطفها؟ وهو قاضي القضاة؟ هذه عزة منصبه، وهذا شرف مكانته، يأبيان عليه هذه الفعلة النكراء، أم يقهر في نفسه سلطان الحب ويكظم الغيظ ويصبر على الكمد؟ إن سلطان الحب لقوي، وإن بأسه لشديد، وإنه لغالب، وانتهى به التفكير إلى حيث لم يعصمه الشرف المغلوب من سرف الهوى الغالب، ومضى ينفذ عزمه باختطاف الفتاة

ولم يعوزه النصراء في هذه الفعلة الهوجاء، إذ ظهر سيمون مرة أخرى على مسرح القصة. وليس أيسر على القاضي من أن يصطنعه بإخلاء سبيله وفك إساره لينال غرضه على ساعديه القويين فيختطف الفتاة، وليس أحب من ذلك إلى نفس سيمون فهو سينال حريته المسلوبة - لا شك في ذلك ولا مراء - وهو سينتقم لنفسه بنفسه من قرنه العنيد وخصمه المناجز بفجيعة أخيه في محبوبته واختطافها من بين أحضانه

وجيء إلى قاضي القضاة بسيمون وأصدقائه فوضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، وزودهم بالسلاح وآلات الكفاح وأخفاهم في مسكنه حتى تحين ساعة العمل وأقبل يوم الزفاف: زفاف باسيمونداس إلى ايفيجينا وزفاف هرمسداس إلى كاسندار وأقبلت معه ساعة الانتقام وإشباع الشهوة: انتقام سيمون من باسيمونداس خصمه ومزاحمه، وإشباع شهوة قاضي القضاة من الفتك بهرمسداس مناوئه ومناجزه

وأحكم قاضي القضاة التدبير: فقسم أعوانه إلى فئات ثلاث: فئة اتخذت سبيلها إلى الشاطئ واجتسرت البحر بسفينة، وثانية كمنت عند باسيمونداس، وثالثة كانت تحت إمرة سيمون وقاضي القضاة اندفعت إلى مقصورتي العريسيين الأخوين فقتلتهما واختطفت الفتاتين وولت بهما الفرار

وكانت الفتاتان تبكيان، ولكنه كان بكاءً لا يدل على الأسى ولا على الحسرة فعيونهما كانت تنم عن رغبة ورضى

وسار الجماعة منتصرين مهللين إلى كريت وتزوج قاضي القضاة بفتاته كاسندار، وتزوج سيمون بمحبوته ايفيجينا، وأقبل عليهم أصحابهم وأوفيائهم يهنئون

وعاد سيمون بفتاته المحبوبة إلى قبرس، وحمل قاضي القضاة فتاته إلى رودس، وعاشوا في نعيم ورخاء، حتى أدركهم الفناء

(عن الإنجليزية)

اليوزباشي أحمد الطاهر

البريد الأدبي

نابغة عربي

المرحوم حسن كامل الصباح

في أول يوم من هذا الشهر احتفل في بيروت باستقبال جثمان الشاب العالم العربي النابغ حسن كامل الصباح، وقد علقته المنون بمدينة مالون بالولايات المتحدة يوم 31 مارس سنة 1935 في حادث طيارة. كان قد أشترها ليرحل بها إلى البلاد العربية.

فكان فقده خسارة للعلم والاختراع وفجيعة للعرب الذين يرجون بمثل هذا النبوغ البارع أن يثبتوا للناس أن حيويتهم لا تزال فاعلة، وأن خصائصهم لا تزال كاملة، وأن

مكانهم من المدينة الحديثة لا بد أن يشغلوه:
ولد الفقيد بالنبطية من جبل عامل في 16 أغسطس 1894 من أسرة تمت بنسبها لابن الصباح أمير الكويت، وشب مولعاً بالحساب والشعر والفلك، فدرس الجبر والهندسة بنفسه وهو في اليفاعة من سنه. ثم دخل المدرسة السلطانية ببيروت ثم الجامعة الأمريكية بها ولم يتم دراسته فيها لأنه دخل الجندية ونقل إلى الآستانة فعمل في قسم اللاسلكي تحت قيادة ضابط ألماني درس عليه الألمانية، وكان قد درس من قبل الفرنسية والإنكليزية، وظل يتبع دروس الرياضة في تلك اللغات حتى انتهت الحرب فعاد إلى دمشق وعين معلماً للرياضيات في المدرسة السلطانية، وفي عام 1921 تولى تدريس الحساب في الجامعة الأمريكية ببيروت، ثم بد له أن يهاجر إلى الولايات المتحدة فالتحق بمؤسسة (ماساتشوستس) الفنية وهي من أرقى مدارس الهندسة في العالم، ثم أنتقل إلى جامعة (النيويس)، ثم خرج إلى الحياة العاملة فعين في شركة الكهرباء العامة في (سكسنكندي) نيويورك، وهنالك أثمر نبوغه وأنتجت عبقريته، فأخذ يدهش الفنيين بابتكاره وإبداعه، فخصصت له الشركة مختبراً ومكتباً وجعلت تحت يده مهندسين يعملون بإرادته وإرشاده، وتوالت عليه - حين دوى ذكر اختراعاته في المقامات العلمية والشركات الكهربائية - شهادات العلماء وتهاني العظماء كرئيس المؤسسة الكهربائية في بوسطون، والأستاذ كاستلو فرانش أستاذ الكهرباء بجامعة ميلان، والأستاذ موريس لبلان العالم الفرنسي الكبير، والمستر هوفر رئيس الولايات المتحدة السابق؛ وسجلت شركة الكهرباء العامة جدول اختراعاته في دائرة السجلات في واشنطن، وقد بلغ ما سجل منها ثلاثة وأربعون اختراعاً أنفقت الشركة في تسجيلها مائة ألف ريال، أنفقت على اختراع واحد من تلك الاختراعات ربع مليون ريال، وهو اختراع في التلفزة يحول أشعة الشمس إلى نار وقوة كهربائية، وكان يطمع بهذا الاختراع أن يسخر أشعة الشمس المحرقة في الصحراء العربية لإنارة المدن والقرى، وفي سبيل ذلك اشترى الطيارة كانت من أسباب وفاته.

ومن اختراعاته المسجلة:

1 - طريقة لضبط القوة الصادرة من المقوم الكهربائي رقم الباتنت 1669502
2 - حوافظ وضوابط لحماية المقومات الكهربائية رقم الباتنت 1776189
3 - طريقة لمنع حدوث هزات عالية في القوة الكهربائية في المقومات الزئبقية 1817312
4 - ملتقط حديث لمنع حدوث انفجار كهربائي منعكس محول للعزائم الكهربائية العظيمة رقم الباتنت 1852205
5 - جهاز للتلفزة يحول أشعة الشمس لنار وقوة كهربائية هائلة 174962
6 - جهاز للتلفزة يستخدم الكهارب المنعكسة بفعل النور رقم الباتنت 169466
7 - جهاز للتلفزة يستخدم النور كضابط للتيار الكهربائي رقم الباتنت 1706165 الخ

ومما ذكره مدير شركة جنرال الكتريك في رسالته إلى والد الفقيد الجملة الآتية:
لقد برهن الأستاذ كامل الصباح أثناء خدمته لشركتنا على أنه من أعظم المفكرين (الرياضيين في البلاد الأمريكية، وأن وفاته خسارة كبيرة لعالم الاختراع)
وقد صرح جهابذة الفن الكهربائي الذين كانوا يلقبونه بأديسون الصغير أنه أو نسأ الله لعُد من أعظم المخترعين

كتاب عن ستالين

ستالين طاغية روسيا السوفيتية من أعظم وأغمض الشخصيات المعاصرة، إن لم يكن أعظمها وأغمضها جميعاً؛ فهو يمثل في شخصه أمة عظيمة وجيلاً بأسره، ورسالة اجتماعية جديدة. وقد صدر أخيراً كتاب عن ستالين بقلم الكاتب الفرنسي هنري باربيس، وهنري باربيس كاتب ثوري، بل من زعماء كتاب الثورة الاشتراكية، ومن أعرف الناس
بشؤون روسيا السوفيتية وزعيمها ستالين؛ منذ أكثر من عشرة أعوام لينين منشئ روسيا السوفيتية، واستمر يقودها حتى ذلك الوقت، ولكن شتان بين القائدين، فأن لينين ذهن غربي درس الماركسية (الاشتراكية) كمبدأ وعقيدة، وتلقاها في أجواء غريبة؛ ولكن ستالين أسيوي محض، فهو من بلاد الكرج، ولم يعرف الثورة ولا

الاشتراكية قبل الحرب، ثم أن لينين ذهن المبادئ والمنطق؛ ولكن ستالين ذهن عملي خشن فقد تلقى تراث لينين وعمل على حمايته واستمراره بحماسة؛ ولكنه لم ير بدا من مسايرة الظروف؛ فارتد إلى النظم (البرجوازية). (غير الاشتراكية) يأخذ منها يروق له وما يعتقد أنه معين له على توطيد النظم القائمة. وقد كان ستالين في حياة لينين يمثل الجانب العملي للتجربة الجديدة، وكان لينين يعجب بآرائه العملية على الرغم معارضتها لمبادئه؛ ولما توفي لينين واستأثر ستالين بالأمر ثارت بينه وبين أقران لينين وحملت تراثه أمثال تروتسكي وزينوفييف وغيرهما معركة شديدة؛ ولم يستطع ستالين أن يبطش بهؤلاء الخصوم الذين ينعون عليه سياسته العملية بادئ بدء، ولكنه استطاع بعد عامين أو ثلاثة أن يضع يده عليهم، وأن يشتتهم، وأن يباعد بينهم وبين الثورة.

ويصف لنا ميسو باربيس هذه المراحل في كتابه، ويدرس خلال شخصية ستالين تاريخ روسيا السوفيتية، وأطوار الثورة الاشتراكية؛ وهو يرى أن ستالين بعد لينين هو الشخصية التي تتمثل فيها روسيا السوفيتية؛ ويذيل عنوان كتابه العبارة: (عالم جديد يدرس في شخص رجل).

جائزة الرينصانص

اختتم موسم الجوائز الأدبية الكبرى في فرنسا بتخصيص جائزة (الرينصانص) لمسيو فرنان فليريه الكاتب الشاعر النرماندي؛ وفليريه من طبقة الكتَّاب والشعراء الكهول، وأصله من نورماندي، من ذلك الجيل الأدبي الخشن الذي يمتاز بقوة في أدبه؛ وقد ظهر قبل الحرب بكتاب اشترك في وضعه مع الشاعر (الكولس) ولوي برسو، عنوانه (جحيم المكتبة الوطنية) وفيه يدلل على اطلاع شاسع. بيد أنه مال إلى القريض بعد ذلك، وأخرج عدة قصائد ومنظومات قوية ساذجة تدل على تأثره بروح وطنه. ثم عالج القصة بعد ذلك فكتب منها: (ثلاث أقاصيص تاريخية)، (في عصر الحبيب)، (الملاذ الأخير)، (جيم كليك). بيد أن أعظم قصصه هي (قصة السعيدة راتون، الفتاة الطروب)، وهي قصة فتاة زلت، صورت بقوة ومهارة. وعنى فرنان فليريه أيضاً بالمسرح، وكتب له؛ فاشترك مع (روجيه ألار) في وضع (سلسلتين) و (مدرسة الأساتذة) ومع أمادوليجا في إخراج (كارافا كا، فنان ومصور)، وغيرها من القطع المسرحية؛ واشترك أيضاً لوي برسو في كتابه عدة قصص أخرى؛ ونشر في مجلة (مركير ده فرانس) عدة فصول وصور نقدية قوية؛ وقد روعي في منحه جائزة (الرينصانص) عمله الأدبي كله، ولم يمنحوه إياها من أجل كتاب معين

الكتب

أبو بكر الصديق

تأليف الأستاذ علي الطنطاوي

نشرته المكتبة العربية بدمشق في 360 صفحة من القطع المتوسط

الأستاذ علي الطنطاوي، أو الشيخ علي الطنطاوي كما يجب أن يُدعى، ثمرة ناضجة من ثمار الثقافة العربية الحديثة؛ ثقف علوم الدين وعلوم اللسان ثقافة محيطة، ثم درس القانون دراسة فقهيه عميقة، وشارك في إيقاظ النهضة الفكرية والدينية والاجتماعية في سوريا مشاركة منتجة؛ فله في قيادة الشباب محل، وفي توجيه الآداب طريقه، وفي سياسة الإصلاح مذهب؛ وهو نفر من صحابته يمثلون في سورية الناهضة الحلقة الواصلة بين عقيدة التنكر القديم، وعقلية تنكر التجدد. وليس الأستاذ الطنطاوي مجهولاً لدى قراء الرسالة، فهو يطالعهم الحين بعد الحين بالفصول الممتعة في الأدب والتاريخ والقصص، ينقله عن فكر خصب، واطلاع واسع، ومنطق سليم، وإيمان صادق، وعاطفة نبيلة

رغب إليه أصحاب المكتبة العربية بدمشق أن يكتب تاريخ الخليفة الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فتوفر على قراءة مائة كتاب في موضوعه بين مطبوع ومخطوط أثبت أسماءها في ثبت المصادر، ثم جمع منها أخبار هذا البطل العربي، وعارض بعض هذه الأخبار ببعض، ثم جمع ما صح عنده من الروايات الكثيرة وجعلها كالحديث الواحد منبهاً إلى مصدر كلِّ رواية ودرجة كلِّ حديث. وتلك هي الطريقة السلفية التي تعتمد على الحشد والرواية، أكثر مما تعتمد على التحليل والرأي، فهي

تعطيك أسباباً من غير حكم ومادة من غير صورة، وقد ركب الأستاذ هذه الطريقة الوعرة على قصد وعلم، فهو يقول: (وكان عليَّ أن أسألك في هذا الكتاب سبيل الدراسة التحليلية فأصف الحياة العقلية والاجتماعية والسياسية للعصر الذي عاش فيه أبو بكر رضي الله عنه والبيئة التي نشأ فيها، وما كان لذلك من الأثر فيه، وأدرس أخلاقه وسجاياه، وأبحث العوامل التي عملت في تكوينها، وأبين أثر الإسلام فيها، وأثرها في التاريخ الإسلامي، وما إلى ذلك من عناصر الدراسة التحليلية. ولكن (المكتبة العربية) ترى أن هذا الأسلوب لا يمثل إلا رأي صاحبه، وأن الرأي قد يخطئ الحقيقة وقد يصيبها، وهي لا تحب أن تخرج للناس (درساً) فيه الخطأ وفيه الصواب، بل تاريخاً صحيح السند مضبوط الرواية. . . . .

وقد كرهت بادي الرأي هذا الأسلوب. . . فكيف أجوز أصعب الشقتين، فأجمع المواد) وأفحصها وأنقحها وأسكبها وأؤلف بينها، ثم أثبتها في الكتاب كما هي فيأتي (آخر. . .) فيأخذها هينة لينة، فينشئ منها كتاباً تحليلياً تكون فاتحته انتقاصي وذمي بأني لم أنشأ منها كتاباً تحليلياً. . .

ثم بدا لي فقلت لا بأس، فأنه مهما يكن للأسلوب التحليلي من المزايا، ومهما يكن) للأسلوب العربي من العيوب (عند بعضهم) فأن الصحة ليس بغير الأسلوب العربي، وليس لأمة من الأمم ما للأمة العربية من الضبط في الرواية والتحقيق فيها والتثبت منها؛ ولا يدري أكثر من نعرف من الشبان من أمر هذه الراوية شيئاً، بل إنهم لا يجهلونها لمرة واحدة وينبزونها حماقة وجهلاً (بالكتب الصفراء) لما وضعوا في نفوسهم من أن الخير لا يكون خيراً لذاته، ولكن للطابع الغربي الذي يشترط أن يكون عليه. . . وإن الشر لا يكون شراً لذاته، ولكن للسمة الشرقية التي يتسم بها. . . وذكرت أن أتباع الأسلوب العربي - على ما سينالنا من لوم على اتباعه - خير لشبابنا (وهم جمهرة القراء) وأجدى عليهم، وأنه في طوق كثير من الشبان أن يكتبوا التاريخ التحليلي لأبي بكر إذا وجدوا الصحيح من أخباره مجموعاً في كتاب واحد، ولكنه يعجز الكثير منهم أن يجمعوا هذه الروايات ويفحصوها ويرتبوها. . .)

ولا ريب أن الأستاذ قد بلغ أقصى ما أراد في الجهة التي اختارها أو أختارها له الناشر، فقد أستوعب كتابه كلَّ ما أتصل بحياة الخليفة العظيم من الآيات والأحاديث والأخبار في سياق مطرد وترتيب محكم وأسلوب جذاب. ولكن من يقرأ تصدير الكتاب ويقف على أسلوب الكاتب في حسن التعليل، وصدق الوصف، وبراعة العرض، يتمنى لو أن الأستاذ كان قد وفق بين الطريقتين، فيجمع بين المزيتين، ويسلم من نقد القارئ المتعقب، واستغلال الكاتب الجحود

الشاطئ المجهول

نظم الشاعر سيد قطب

للأستاذ محمود الخفيف

في ذهني، عن شعراء الشباب عندنا فكرة عامة، تزداد وضوحاً، وأزداد بها تعلقاً كلما نشر أحدهم مجموعة شعره، ولقد أتيح لي أن أقرأ عدداً من تلك المجموعات في الأيام الأخيرة، فزادتني يقيناً بأن الشعر في مصر يسير الآن لي غير قصد، أو بعبارة أخرى لم تنشأ بعد عندنا في الشعر (مدرسة) لها لونها، ولها غايتها، ولها سبلها المختلفة، التي تنتهي بها إلى تلك الغاية. وعلة ذلك أن شعراءنا إلا أقلهم مقلدون، وقل أن تلمح لأحدهم أصالة أو تتبين له جهة، وكأني بالشاب منهم يتناول القلم والورق، ويجلس لينظم، لا لأن قلبه يخفق بمعنى يريد أن يفصح عنه، بل لأن شهوة النشر تملك زمامه، والرغبة في المحاكاة تصرفه في ذلك عن الصواب، ففي نفسه بقية مما قرأ ولم يحسن فهمه من المسائل، فهو يتطلع إلى التجديد والغموض والرمز والبحث عن المجهول والتشاؤم وما سوى ذلك من معانٍ يرددها دون أن يدري كنهها أو المقصود منها، وليت شعري، كيف نسمي إنتاجاً كهذا شعراً؟ وهل كان الشعر إلا الإحساس القوي ثم الإفصاح عنه في صورة تلائم الفن وترضي الذوق؟

وانك لتلتمس الدليل على ما أقول في هذا الديوان المسمى بالشاطئ المجهول، فأني على الرغم من عثوري فيه على بعض قطع أبهجتني قراءتها، قد عجزت تماماً عن استجلاء ما يريد الشاعر بما جاء في قسمه الأول الذي من أجله سماه بهذا الاسم بيد أني أحب أن أبدأ الكلام عن هذا الديوان من الناحية الشكلية، فقد استوقفتني فيه

ظاهرة أمضتني بقدر ما تولاني منها الدهش، ذلك أن الشاعر (سيد قطب)، قد مهد لديوانه بمقدمة نقدية بقلم الناقد (سيد قطب)، وراح في هذه المقدمة يمدح نفسه، ويطنب في هذا المدح في صورة يعروني لمجرد الإشارة إليها كثير من الخجل والحياء!
ففي الديوان نظريات علمية وفلسفية، والشاعر ملم بها. والشاعر متصل بالعوالم المجهولة، تربط قواه الروحية بالوحدة الكونية الكبرى. وللشاعر إحساس متيقظ بالزمن ومروره، ويملأ الشغف بكشف المجهول والحديث عن السر حيزاً كبيراً من ديوانه، والشاعر في هذا الديوان يقف موقف المصور في كثير من القصائد وفي الديوان ظاهرة تستحق التسجيل، وذلك أن لوناً من ألوان الموسيقى يتفشى فيه كله، كذلك تبدو في هذا الديوان صورة واضحة للتعبير الدقيق المصور للأفكار إلى ما سوى ذلك مما استحى لذكره من عبارات المدح والإطراء: وتالله لقد ترددت كثيراً أن أصدق أن الشاعر والناقد شخص واحد، واكتفي أن أقول له في احترام: إن مثل هذا أن أجاز في شيء فهو لا يجوز في الأدب وعلى الأخص في الشعر
وبعد فهل رأيت في الديوان ما يتفق مع هذه المقدمة؟ الحق أني إذا أردت الأنصاف مضطر إلى أن أخالفه في كثير مما قال بل في معظمه! فالجزء الأول من ديوانه المسمى (ظلال ورموز) عبارة عن سلسلة من الأفكار الغامضة يشملها جميعاً ذلك التعبير الذي شغف بتكراره الشاعر وهو (الوجوم الكئيب) فتلك الكآبة تخيم على معظم قصائده وعلى الأخص (الشعاع الخابي) و (خراب) و (في الصحراء) حيث (يطل الليل كالشيخ الكئيب) و (في خريف الحياة)، و (غريب). وليتنا نخرج بشيء من هذه الكآبة أو نتبين فيها شيئاً من فلسفة الحياة جديراً حقاً بهذا الأسم، ولست أدري لم أضطلع الشاعر هنا ببعض الموضوعات (كالإنسان الأخير) و (الشاعر في وادي الموت)، وهو لم يخرج منها بطائل، بله العجز عن التصور والتعبير في مثل هذه المواقف الغريبة!
أما بقية ديوانه فيشتمل على بعض قصائد ريفية، وقصائد غزلية، وقصائد وطنية، هي في الجملة جيدة، تحس أنها صادرة حقاً عن القلب، فليس فيها من تكلف والتعمل والتقليد مثل ما في سابقتها؛ ولقد أعجبني بنوع خاص قصائده (توارد خواطر) و (سر انتصار الحياة) و (المعجزة) و (الليلات المبعوثة) وطربت لها كثيراً. ولو نظر الشاعر أو الناقد سيد قطب معي نظرة حق لفهم السر في نجاحه في تلك القصائد التي يستحق من أجلها أطيب الثناء، ولولا هنات في بعض تعبيراته لعدت هذه من عيون الشعر والشاعر في قصائده الحديث أقوى على التعبير وأسلس عبارة منه في قصائده القديمة، ولقد لاحظت عليه كجمهرة شعراء الشباب مغرم ببعض الصور الغريبة. لا يتحرج في كثير من تعبيراته. ولا يتوخى فيها البلاغة والسير في مألوف التشبيه والاستعارة، وإلاّ فكيف يتفق مع الذوق مثل قوله (يدوي حوله صمت الفناء) والكون (مفقود القطيم) و (الهول الواجم) و (الرعب الحائم) و (الفناء الجاثم) و (ركام الفناء) و (شخوص الوهم) و (الحياء الوديع) و (الخشوع الوقور) و (العيلم المسجور) و (الصرخة الملتوية) و (الصمت في ظل الوجوم) و
و (الذهول الشريد) و (القنوط العقيم) و (الدلال (وقف الكون شاخصاً في سكون) الشرود) و (الرشاد الرزين) و (الفتور الشغوف) وغير ذلك من الصور الذهنية الغريبة وهي مع الأسف كثيرة في الديوان
هذا إلى أنه قليل العناية بانتقاء اللفظ وتجويد القوافي، وأنا على يقين بأني حين أصارحه بهذا أحسن إليه؛ فواجبنا جميعاً أن نتضافر على رفع مستوى الشعر بعد أن نحدده ونتبين وجهته، ولا سبيل لنا إلى ذلك إلا إذا توخينا الصراحة والصدق والإخلاص في كلّ ما نقول
الخفيف
العدد 102 - بتاريخ: 17 - 06 - 1935
صيف الأديب
زفرت جهنم زفرتها السنوية كما تزعم الأساطير، فعقدت على وجهي (الوادي) غشاء من سموم ودخن؛ فالطبيعة في غلافها الناري مكبوتة، والأرض من حماها الصلب مسبوتة، والناس من إلحاح القيظ متبلدون هامدون يقابلون لفحه بجلد المضطر،

ويعالجون برحه بصبر الشهيد! ولكن الجلد ينماع فهو عرق يقطر والصبر يرفض فهو بخار يتصاعد، وبين هذا التقطير وذلك التصعيد نفس تذوب، وجسم يذبل، وعزم يسرق، وفكر يضمحل؛ فليت شعري ماذا عسى أن يعمل من اضطر إلى أن يعمل؟ هذا مكتب الأديب الصحفي يشع الوهج كأتون الفرن، وينفث الضيق كحجرة السجن، ويبعث القلق كغرفة الانتظار؛ وهو مع ذلك مقضي عليه أن يفكر ويعبر، ويرتب ويهذب، ويقابل ويجادل، حتى يهن عصبه، وينقطع سببه، فيعود إلى منزله المعلق في الجو الأغبر على زحمة الشارع وضوضاء العامة، يطلب الهدوء فلا يجده، ويلتمس النوم فلا يناله!

ليس له وا أسفاه قصر يبسم بالنعيم، وينسم بالعطر، ويشرق بالجمال، ويموج بالزهر، وتطري بالماء، ويتمطى في الظل، ويتبسط بالسعة، ويسجوا بالخفض، ويغرق في السكون، ويضرب حواليه نطاقاً سحرياً من الأحلام واللذة، فيعود به من وقدة الجو، ويلوذ به من مشقة العمل

وليس له وا أسفاه يعبر عليه ثبج البحر، ويرد به مدن الماء، ويبلغ فوقه قرى الجبل، فيسرى عن نفسه بعض عناء العام وبلاء الأيام بما يرى من مفاتن الطبيعة على الربى، ومجالي الفردوس فوق السهول، ومباهج المدنية على الشواطئ

وليس له وا أسفاه ما للأديب الموظف من المؤتمرات العلمية، والسياحات التعليمية، يغشاه في منازه أوربا، أو خمائل لبنان، فينال من زهرة الدنيا ومتعة العيش على حساب الدولة وعلى حب العلم

الطالب يعود في العطلة إلى الريف، والموظف الصغير يذهب في الإجازة إلى المصيف، والموظف الكبير يجد من مرتبه فضلاً يشتري به السياحة والراحة والبهجة، والموظف الأكبر يجثم نفسه الكبرى (خدمة) للحكومة في (الخارج)، فيؤديها على أتمها نائماً فوق صدور الأماني، حالماً على هدهدة الأغاني، هائماً وراء الخدمة المنشودة في أودية الشعر

والسحر، ثم لا يكلف الخزينة العامرة إلا بضع مئات لمكافأته، وبضع كلمات لشكره؛ والكبراء الذين يعيشون علينا، ولا ينتسبون إلينا، يجمعون دم الفلاح الغالي في حقاق من ذهب، ويلفون لحمه اللذيذ في حقائب من حرير، ثم يرحلون بها إلى أسواق إبليس، في (مونت كار لو) و (نيس)، فيشترون بهما أبهة أشهر، وعربدة أسابيع، ومخازي عمر!

إذن لا يبقى لسعير الصيف إلا الطبقة التي تنسج لهؤلاء جميعاً برد السعادة: طبقة العمل التي لا تأخذه سنة ولا نوم، ولا يجدي على أهله إلا قوت يوم بيوم: طبقة الموظف الأصغر، والصانع المستذل، والعامل المستغل، والفلاح المهمل، والتاجر المدين، والأديب المسكين، فهم يعملون في عطلة الناس - أجرهم على الله - حتى لا تسكن الدنيا، وحتى لا يقف الفلك!!

أنشأت الأمة مصا يف لأطفال الفقراء، واعدت الدولة قطار (البحر) وقطار (النزهة) لأنصاف الأغنياء، فماذا أنشأت الأمة أو أعدت الدولة لمساكين الأدباء؟ أليسوا رسل الحق والخير والجمال والمعرفة إلى من زهتهم السطوة فلجوا في الباطل، أعمتهم الشهوة فتدفقوا في الشر، ولوثهم الطمع فطمأنوا إلى القبح، وركبهم الغرور فجنحوا للجهالة؟ أليسوا أحرياء بأن تقيم لهم الحكومة (جبل البرناس) على بقعة من ضفاف النيل، أو على رقعة من شواطئ البحر، يستجمون عليه من الإعياء، ويتصلون فيه بالسماء، وينشدون الأمة من روائع الوحي اجمل مما أنشدته (الموز) التسع الهات الأدب والفنون، على قيثارة إله الشعر والبلاغة أبولون. . . ولكن رويدك يا أشعب!! إن الحكومة التي لا تشترك في مجلة الصحفي إلا بعد طلب ورجاء، ولا تشتري نسخة من كتاب الأديب إلا بعد اخذ وعطاء، يشق عليها أن تقيم (جبل البرناس)، على مثل هذا الأساس! على أن الخيال عالم والحقيقة عالم أخر، والأديب حريص على أن لا يسبح في عالمه غيره، فلماذا يمد عينيه الرغيبتين إلى عالم الناس؟

إن في ليلي القاهرة الساحرة الرخية لرضى للنفس الشاعرة: سماء كصفحة الأمل المشرق تتألق بالأنوار، وفضاء كغيب الله يموج بالأفكار والأسرار، ونسيم كأجنحة الأملاك يذهب عن الأجسام رهق النهار، وجنات الجزيرة، وخلوات الجيزة، ومسرات الجسر، ومسارح النيل، تخلق في الذهن الخصيب والشعور الفتان، مالا تخلقه جنات سويسرا ولا رياض

!لبنان
أحمد حسن الزيات
الطائشة
للأستاذ مصطفى صادق الرافعي
:قال صاحبها وهو يحدثني من حديثها
كانت فتاة متعلمة حلوة المنظر، حلوة الكلام، رقيقة العاطفة، مرهفة الحس، في لسانها بيان، ولوجهها بيان غير الذي في لسانها تعرف فيه الكلام الذي لا تتكلم به. . .
ولها طبع شديد الطرب للحياة، مسترسل في مرحه خفيف طياش، لو أثقلته بجبل لخف بالجبل؛ تحسبها دائماً سكرى تتمايل من طربها، كان أفكارها المرحة هي في رأسها أفكار وفي دمها خمر. . .
وكان هذا الطبع السكران شباباً وجمالاً وطرباً - يعمل عملين متناقضين، فهو دلال متراجع منهزم، وهو أيضا جرأة مندفعة متهجمة. وهزيمة الدلال في المرأة إن هي إلا عمل حربي مضمرة فيه الكرة والهجوم؛ وكثيراً ما ترى فيها النظرة ذات المعنيين: نظرة واحدة تؤنبك بها المرأة على جرأتك معها، وتعذلك بها أيضا على انك لست معها أجرأ مما أنت. . .!
قلت: ويحك يا هذا! أتعرف ما تقول؟
قال: فمن يعرف ما يقول إذا أنا لم اعرف؟ لقد أحببت خمس عشرة فتاة، بل هن أحببنني وفرغن قلوبهن لي، ما اعتزت علي منهن واحدة، وقد ذهبن بي مذهباً ولكنني ذهبت بهن خمسة عشر!
قلت: فلا ريب انك تحمل الوسام الإبليسي الأول من رتبة الجمرة. . فكيف استهام بك خمس عشرة فتاة، أجاهلات هن، أعمياوات هن. . .؟
قال: بل متعلمات مبصرات يرين ويدركن، ولا تخطىء واحدة منهن في فهم أن رجلاً وامرأة قصة حب. . . . وما خمس عشرة فتاة؟ وما عشرون وثلاثون من فتيات هذا الزمن البائر، الذي كسد فيه الزواج، ورق فيه الدين، والتهبت العاطفة، وكثرت فنون الأغراء، واصطلح فيه إبليس والعلم يعملان معاً. .؛ وأطلقت الحرية للمرأة، وتوسعت المدارس فيما تقدم للفتيات، وأظهرت من الحفاوة بهن أمرا مفرطاً حتى أخذن ربع العلم. . .؟
قلت: وثلاثة أرباع العلم الباقية؟
قال: يأخذنها من الروايات والسيما. علم المدارس ما علم المدارس؟ أنهن لا يصنعن به شيئاً
إلا شهادات هي مكافأة الحفظ وإجازة النسيان من بعد؛ أما علم السيما والروايات فيصنعن به تاريخهن. . ورب منظر يشهده في السيما ألف فتاة بمرة واحدة، فإذا استقر في وعيهن وطافت به الخواطر والأحلام - سلبهن القرار والوقار فمثلنه ألف مرة بألف طريقة في ألف حادثة!
يظنون أننا في زمن إزاحة العقبات النسائية واحدة بعد واحدة، من حرية المرأة وعلمها؛ أما أنا فأرى حرية المرأة وعلمها لا يوجدان إلا العقبات النسائية عقبة بعد عقبة. وقد كان عيب الجاهلة المقصورة في دارها أن الرجل يحتال عليها، فصار عيب المتعلمة المفتوح لها الباب أنها هي تحتال على الرجل؛ فمرة بإبداع الحيلة عليه، ومرة بتلقينه الحيلة عليها. والغريب في أمر هذا العلم أنه هو الذي جعل الفتاة تبدأ الطريق المجهول بجهل. . .!
قلت: وما الطريق المجهول؟
قال: الطريق المجهول هو الرجل. وإطلاق الحرية للفتاة أطلق ثلاث حريات: حرية الفتاة، وحرية الحب؛ والأخرى حرية الزواج. ولما انطلق ثلاثتهن معاً تغير ثلاثتهن جميعاً إلى فساد واختلال. أما الفتاة فكانت في الأكثر للزواج فعادت للزواج في الأقل، وفي الأكثر للهو والغزل؛ وكان لها في النفوس وقار ألام وحرمة الزوجة، فاجترا عليها الشبان اجتراءهم على الخليعة والساقطة؛ وكانت مقصورة لا تنال بعيب ولا يتوجه عليها ذم، فمشت إلى عيوبها بقدميها، ومشت أليها العيوب بأقدام كثيرة. . . وكانت بحملها امرأة واحدة، فعادت مما ترى وتعرف وتكابد كأن جسمها امرأة، وقلبها امرأة أخرى وأعصابها امرأة ثالثة. . .

وأما الحب، فكان حباً تتعزف به الرجولة إلى الأنوثة في قيود وشروط، فلما صار حراً بين الرجولة والأنوثة، انقلب حيلة تغتر بها أحدهما الأخرى؛ ومتى صار الأمر إلى قانون الحيلة فقد خرج من قانون الشرف وعاد هذا الشرف نفسه وليس إلا كلمة يحتال بها

وأما الزواج، فلما صار حراً جاء الفتاة بشبه الزوج لا بالزوج، وضعفت منزلته وقل اتفاقه وطال ارتقاب الفتيات له، فضعف أثره في النفس المؤنثة؛ وكانت لفظتا الشاب والزوج شيئاً واحداً عند الفتاة وبمعنى واحد، فأصبحتا كلمتين متميزتين، في أحدهما القوة والكثرة والسهولة، وفي الأخرى الضعف والقلة والتعذر؛ فالكل شبان وقليل منهم الأزواج. وبهذا اصبح تأثير الشاب على الفتاة أقوى من تأثير الشرف، وعاد يقنعها منه أخس براهينه، لا

. . .بأنه هو مقنع، ولكن بأنها هي مهيأة للاقتناع

وفي تلك الأحوال لا يكون الرجل إلا مغفلاً في رأي المرأة إذا هو احبها ولم يكن محتالاً حيلة مثله على مثلها ويظل في رأيها مغفلاً حتى يخدعها ويستزلها، فإذا فعل كان عندها نذلاً لأنه فعل، وهذه حرية رابعة في لغة المرأة الحرة والزواج الحر والحب الحر!

وأنظر - بعيشك - ما فعلت الحرية بكلمة (التقاليد)، وكيف أصبحت هذه الكلمة السامية من مبذوء الكلام ومكروهة حتى صارت غير طبيعية في هذه الحضارة، ثم كيف أحالتها فجعلتها في هذا العصر اشهر كلمة في الألسنة يتهكم بها على الدين والشرف وقانون العرف الاجتماعي في خوف المعرة والدنيئة والتصاون من الرذائل والمبالاة بالفضائل؛ فكل ذلك (تقاليد). . وقد أخذت الفتيات المتعلمات هذه الكلمة بمعانيها تلك، واجرينها في اعتبارهن مكروهة وحشية، وأضفن أليها من المعاني حواشي أخرى، حتى ليكاد الأب والأم يكونان عند اكثر المتعلمات من (التقاليد). . أهي كلمة أبدعتها الحرية، أم أبدعها جهل العصر وحماقته وفجوره وإلحاده؛ أهي كلمة تعلقها الفتيات المتعلمات لأنها لغة من اللغة، أم لأنها من لغة ما يحببن. .؟

؟ فما هي المرأة بدون تقاليد؟. . أنها البلاد الجميلة بغير جيش، أنها الكنز . . .(تقاليد) المخبوء معرضاً لأعين اللصوص تحوطه الغفلة لا الرقابة. هب الناس جميعاً شرفاء متعففين، فإن معنى كلمة (كنز) متى تركت له الحرية واغفل من تقاليد الحراسة، . .أوجدت حريته هذه بنفسها معنى كلمة (لص)

قال صاحبنا: أما الفتاة المحررة من (التقاليد). . كما عرفتها فهي هذه التي أقص عليك قصتها، وهي التي جعلتني أعتقد أن لكل فتاة رشدين يثبت أحدهما بالسن ويثبت الآخر بالزواج. ولو أن عانساً ماتت في سن الخمسين أو الستين لوجب أن يقال: إنها ماتت نصف قاصر! ولعل هذا من حكمة الشريعة في اعتبار المرأة نصف الرجل، إذ تمام شرفها الاجتماعي أن يكون الرجل مضموماً إليها في نظام الاجتماع وقوانينه؛ فالزوج على هذا هو تمام رشد الفتاة بالغة ما بلغت

أساس المرأة في الطبيعة أساس بدني لا عقلي، ومن هذا كانت هي المصنع الذي تصنع فيه الحياة، وكانت دائماً ناقصة لا تتم ألا بالآخر الذي أساسه في الطبيعة شان عقله وشان قوته.

واعتبر ذلك بالمرأة تدرس وتتعلم وتنبغ، فلو انك ذهبت تمدحها بوفور عقلها وذكائها، وتقرضها بنبوغها وعبقريتها، ثم رأتك لم تلقي كلمة ولا إشارة ولا نظرة على جسمها ومحاسنها لتحول عندها كل مدحك ذماً وكل ثنائك سخرية، فإن النبوغ هاهنا في أعصاب امرأة تريد أن تعرف مع أسرار الكون أسرار كونها هي، هذا الكون البدني الفاتن أو الذي تزعمه هي فاتنا، أو الذي لا ترضاه ولا ترضى أن تكون صاحبته، ألا إذا وجدت من يزعم لها أنه كون فاتن بديع مزين بشمسه وقمره وطبيعته المتنضرة التي تجعل مسه مس ورق الزهر

مثل هذه إنما يكون الثناء عليها ثناء عندها حينما يكون اقله باللسان العلمي ولغته، وأكثره بالنظر الفني ولغته. وهذا على أنها عالمة الجنس ونابغته، ودليل شذوذه العقلي، والواحدة التي تجيء كالفلتة المفردة بين الملايين من النساء؛ فكيف من دونها، وكيف بالنساء فيما هن نساء به؟

دع جماعة من العلماء يمتحنون هذا الذي بينت لك، فيأتون بامرأة جميلة نابغة فيضعونها بين رجال لا تسمع من جميعهم ألا: ما اعقلها، ما اعقلها، ما اعقلها! ولا ترى

في عيني كل منهم من أنواع النظر وفنونه إلا نظرة التلميذ لمعلمة في سن جدته. . فهذه لن تكون بعد قريب إلا في حالة من اثنتين: إما أن يخرج عقلها من رأسها، أو. . . !. . .أو تخرج في وجهها لحية

كلمة حسنة عند النساء لا يأبينها ولا يذممنها، غير أن الكلمة البليغة (!ما أعقلها) العبقرية الساحرة هي عندهن كلمة أخرى هي: (ما أجملها!)، إن تلك تشبه الخبز القفار لاشيء معه على الخوان، أما هذه فهي المائدة مزينة كاملة بطعامها وشرابها وأزهارها وفكاهتها وضحكها أيضا

وكأن العقل الإنساني قد غضب لمهانة كلمته وما عرها به النساء، فأراد أن يثبت أنه عقل فاستطاع بحيلته العجيبة أن يجعل لكلمة (ما أعقلها) كل الشأن والخطر، وكل البلاغة والسحر عند. . . عند الطفلة. . . تفرح الطفلة اشد الفرح، إذا قيل: ما أعقلها. . !.

فقلت لمحدثي: كأنك صادق يا فتى! لقد جلست أنا ذات يوم إلى امرأة أديبة لها ظرف وجمال، وجاءت كبريائي فجلست معنا. . . وكانت (التقاليد) كالحاشية لي، فعلمت بعد أنها قالت لصاحبة لها: (لا أدري كيف استطاع أن ينسى جسمي وأنا ألي جانبه اذكره أني ألي جانبه! لكأنما كانت لقلبه أبواب يفتح ما شاء منها ويغلق)

قال محدثي: فهذا هذا؛ إن إحساس المرأة بالعالم وما فيه من حقائق الجمال والسرور، إنما هو في إحساسها بالرجل الذي اختارته لقلبها، أو تهم أن تختاره، أو تود أن تختاره؛ ثم إحساسها بعد ذلك بالصور الأخرى من رجلها في أولادها. وحياة المرأة لا أسرار فيها البتة حتى إذا دخلها الرجل عرفت بذلك أن فيها أسرارا، وتبينت أن هذا الجسم الأخر هو فلسفة عميقة لجسمها وعقلها

قال: وقد جلست مرة مع صاحب القصة، وأنا مغضب أو كالمغضب. . ثم تلاحينا وطال بيننا التلاحي؛ فقالت لي: أنت بجانبي وأنا أسال: أين أنت؟ فإنك لست كلك بجانبي!

قال: ومذهبي في الحب، الكبرياء، كما قلت أنت، غير أنها الكبرياء التي تدرك المرأة منها أني قوي لا أنا متكبر، كبرياء الرجل إما مهيب مرح يملك أفراح قلبها، وأما حزين مهيب يملك أحزان هذا القلب. إن المرأة لا تحب إلا رجلا يكون أول الحسن فيه حسن فهمها له، وأول القوة فيه قوة إعجابها به، وأول الكبرياء فيه كبرياءها هي بحبه وكبرياءها بأنه رجل. هذا هو الذي يجتمع فيه للمرأة اثنان: إنسانها الظريف، ووحشها الظريف!

قلت: لقد بعدنا عن القصة، فما كان خبر صاحبتك تلك؟ قال: كانت صاحبتي تلك تعلم أني متزوج، ولكن إحدى صديقاتها أنبأتها بكبريائي في الحب، ووصفتني لها صفة الإحساس لا وصف الكلام؛ فكأنما تنبهت فيها طبيعة زهوة الفتاة بأنها فتاة وغريزة افتتان الأنثى بأن تكون فاتنة؛ فرأت في إخضاعي لجمالها عملاً تعمله بجمالها.

ومتى كانت الفتاة مستخفة (بالتقاليد) كهذه الأديبة المتعلمة - رأت كلمة (الزوج) لفظاً على رجل كلفظ الحب عليه، فهما سواء عندها في المعنى، ولا يختلفان إلا في (التقاليد). .

وعرضت لي كما يعرض المصارع للمصارع؛ إذ كانت من الفتيات المغرورات اللواتي يحسبن أن في قوتهن العلمية تياراً زاخراً لنهرنا الاجتماعي الراكد، فتاة تخرجت في مدرسة أو كلية، أو جاءت من أوربا بالعالمية. . . أفتدري أية معجزة مصرية في هذا تباهي بها مصر؟

إن المعجزة أن هذه الفتاة صارت مدرسة، أو مفتشة، أو ناظرة في وزارة المعارف؛ أو مؤلفة كتب وروايات، أو محررة في صحيفة من الصحف. ولا يصغرن عندك شأن هذه المعجزة فهي والله معجزة مادام يتحقق بها خروج الفتاة من حكم الطبيعة عليها وبقاؤها في الاجتماع المصري امرأة بلا تأنيث، أو انقلابها فيه رجلا بلا تذكير! وكيف لا يكون من المعجزات أن تأليف رواية قد أغنى عن تأليف أسرة؛ وان فتاة تعيش وتموت ما ولدت للأمة ألا مقالات. . .؟

فقلت: يا صاحبي، دع هؤلاء وخذ الآن في حديث الطائشة الخارجة على التقاليد، وقد قلت إنها عرضت لك كما يعرض المصارع للمصارع. قال: عرضت لي تريد أن تصرفني كيف شاءت، فنبوت في يدها؛ فزادت إلى رغبتها إصرارها على هذه الرغبة، فالتويت عليها؛ فزادت أليهما خشية اليأس والخيبة، فتعسرت معها؛ فزادت إلى هذه كلها ثورة

كبريائها، فلم أتسهل؛ فأنهت من كل ذلك بعد الرغبة الخيالية التي هي أول العبث والدلال، إلى الرغبة الحقيقية التي هي أول الحب والهوى: رغبة تعذيبي بها لأنها متعذبة بي.

ثم ردتها الطبيعة صاغرة إلى حقائقها السلبية، فإذا الكبرياء فيها إنما كانت خضوعاً يتراءى بالعصيان، وإذا الرغبة في تعذيب الرجل إنما كانت التماسا لأن تنعم به، وإذا الإصرار على إخضاع الرجل وإذلاله إنما كان إصرارا على تجرئته ودفعه أن يستبد ويملك. وردتها الطبيعة إلى هذه الحقيقة النسوية الصريحة التي بنيت المرأة عليها شاءت أم أبت وهي أن تعاني وتصبر على ما تعاني!

أما أنا فأحببتها حباً عقلياً، وكان هذا يشتد عليها، لأنه إشفاق لا حب؛ وكانت إذا سألتني عن أمر ترتاب فيه قالت: اجبني بلسان الصدق لا بلسان الشفقة. وكانت تقول: إن في عينيها بكاء لا تستطيع أن تذيله مع الدمع، وسيقتلها هذا البكاء الذي لا يبكى، وقد اتخذت لها في دارها خلوة سمتها: محراب الدمع! قالت: لأنها تبكي فيها بكاء صلاة وحب، لا بكاء حب فقط! ثم طاشت الطيشة الكبرى. . .!

قلت: وما الطيشة الكبرى؟

قال: إنها كتبت ألي هذه الرسالة:

(عزيزي رغم أنفي) . . .

لقد أذللتني بشيئين: أحدهما أنك لم تذل لي، وجعلتني على تعليمي اشد جهلاً من (الجاهلة. وقد نسيت أن المرأة المتعلمة تعرف ثم تعرف مرتين -: تعرف كيف تخطئ إذا وجب أن تخطئ، أما المعرفة الثانية فتوهمها أنت فكأني قلتها لك. . .

اعلم (يا عزيزي رغم انفي)، أني إذا لم اكن غريزتك رغم انفك، فسآتي ما يجعلك سلفا ومثلا، وستكتب الصحف عنك أول حادث يقع في مصر عن أول رجل اختطفته فتاة!.

(وبعد، فقد أرسلت روحي تعانق روحك فهل تشعر بها؟

قال: فوجمت ساعة وتبينت لي خفتها، وظهر لي سفاهها وطيشها، فأسرعت إليها فجئتها فأجدها كالقاضي في محكمته، لا عقل له الأعقل الحكم القانوني الذي لا يتغير، ولا إنسان فيه ألا الإنسان المقيد بمادة كذا إذا حدث كذا، والمادة كذا حين يكون وصف المجرم كذا. . .!

فقلت لها أهذا هو العلم الذي تعلمته؟ ألا يكون علم المرأة خليقاً أن يجعل صاحبته ذات عقلين إذا كانت الجاهلة بعقل واحد؟

قالت: العلم؟

قلت: نعم، العلم

قالت: يا حبيبي، أن هذا العلم هو الذي وضع المسدس في يد المرأة الأوربية لعاشقها، أو معشوقها! ثم أطرقت قليلاً وتنهدت وقالت: والعلم هو الذي جعل الفتاة هناك تتزوج بإرشاد الرواية التي تقرؤها، ولو انقلب الزواج رواية. . . والعلم هو الذي كشف حجاب الفتاة عن وجهها، ثم عاد فكشف حياء وجهها، وأوجب عليها أن تواجه حقائق الجنس الأخر وتعرفها معرفة علمية. . . . والعلم هو الذي جعل خطأ المرأة الجنسي معفواً عنه مادام في سبيل مواجهة الحقائق لا في سبيل الهرب منها. . . والعلم هو الذي جعل المرأة مساوية للرجل، وأكد لها أن واحداً وواحداً هما واحد وكلاهما أول. . والعلم هو الذي عرى أجسام الرجال والنساء ببرهان أشعة الشمس. . . والعلم يا عزيزي هو العلم الذي محا من العالم لفظة أمس، لا يعرفها وان كانت فيها الأديان والتقاليد. . .

قال صاحبها: فقلت لها: كأن العلم إفساد للمرأة! وكأنه تعليم ممراتها ونقائصها، لا تعليم فضائلها ومحاسنها

قالت: لا، ولكن عقل المرأة هو عقل أنثى دائماً؛ ودائماً عقل أنثى؛ وفي رأسها دائماً جو قلبها، وجو قلبها دائما في رأسها. فإذا لم تكن مدرستها متممة لدارها وما في دارها، تممت فيها الشارع وما في الشارع

العلم للمرأة، ولكن بشرط أن يكون الأب وهيبة الأب أمرا مقرراً في العلم، والأخ وطاعة الأخ حقيقة من حقائق العلم، والزوج وسيادة الزوج شيئا ثابتاً في العلم، والاجتماع وزواجره الدينية والاجتماعية قضايا لا ينسخها العلم. بهذا وحده يكون النساء في كل أمة مصانع علمية للفضيلة والكمال والإنسانية، ويبدأ تاريخ الطفل بأسباب

الرجولة التامة، لأنه يبدأ من المرأة التامة
أما بغير هذا الشرط فالمرأة الفلاحة في حجرها طفل قذر، هي خير للأمة من اكبر أديبة تخرج ذرية من الكتب. . .
أنظر - (يا عزيزي رغم أنفي) - هذه الرسالة جاءتني اليوم من صديقتي فلانة الأديبة ال. . . فاسمع قولها:
وفي الحياة موت (. .وأنا أعيش اليوم في الجمال، لأني أعيش في بعض خفايا الحبيب) حلو لذيذ؛ عرفت ذلك حينما نسيت نفسي على صدره القوي، وحينما نسيت على صدره القوي صدري. . .)
أسمعت يا عزيزي؟ إن كنت لما تعلم أن هذا هو علم اكثر الفتيات المتعلمات حين يكسد الزواج - فاعلمه. ومتى عمى الشعب والحكومة هذا العمى، فإن حرية المرأة لا تكون أبدا إلا حرية الفكرة المحرمة!
قلت لصاحبنا: ثم ماذا؟
قال: ثم هذا. . . ودس يده في جيبه فأخرج أوراقاً كتب فيها رواية صغيرة أسماها:
(الطائشة)
(الرواية في العدد الآتي)
(طنطا)
مصطفى صادق الرافعي
لوكريسيا بورجيا
صور من عصر الأحياء
للأستاذ محمد عبد الله عنان
كانت لوكريسيا إلى جانب هذه الرعاية الأدبية التي تبذلها لأقطاب الشعر والأدب، تعاون زوجها في حكم ولايته معاونة قيمة؛ وكانت تتولى إدارة الشؤون العامة أثناء غيابه، وتبدي في تصريفها حزماً وبراعة
وكان زواجاً موفقاً في البنين، فقد رزقت لوكريسيا بغلامين أحدهما في سنة 1508 ويدعى هرقل، والثاني في العام التالي ويدعى ايبوليت، ورزقت بعد ذلك بعدة أعوام بابنة دعيت ألينور، فغلام ثالث يدعى فرنشيكسو
وخاضت إيطاليا مدى حين حروباً أهلية طاحنة، وحملت فيرارا قسطها من هذه المعارك، وتقلبت في صعاب وأزمات شديدة، ولكن لوكريسيا كانت في هذه الأعوام العصيبة مثال الثبات والجلد، وكانت تعمل على تخفيف آلام الشعب ما استطاعت، وكان الشعب يحبها ويعتبرها كالأم الرؤوم
وكانت لوكريسيا عندئذ في عقدها الرابع، أماً ناضجة، وكأنما طوت كل مراحل هذه الحياة فتية، وكانت قد اختتمت منذ بعيد هذا العهد الضاحك الذي كان قلبها يشع فيه مرحاً وغبطة، واستقبلت عهداً جديداً تسوده الرزانة والخطورة، ويسوده الزهد والترفع عن متاع هذه الحياة، فكانت في أعوامها الأخيرة في فيرارا تذهب كل صباح إلى (المعترف)
أجل، كانت لوكريسيا تقترب بسرعة من الخاتمة المحتومة، ففي 14 يونيه سنة 1519 وضعت لوكريسيا طفلة ميتة، وكانت في اشهر حملها الأخيرة تشكو آلاماً مبرحة؛ وكان الوضع هو الضربة القاضية، إذ اشتدت الآلام والمرض، وشعرت بقضائها يدنو؛ فأملت في يوم 22 يونيه خطاباً وجهته إلى البابا ليون العاشر، وفيه تلتمس من البابا أن يباركها في عبارات بليغة مؤثرة؛ وبعد ذلك بيومين فقط، كان القضاء المحتوم، وصعدت إلى بارئها تلك الروح الوثابة الساطعة، وأغلقت لوكريسيا بورجيا عينيها الساحرتين إلى الأبد، وقد أشرفت فقط على الأربعين من عمرها
هكذا كانت حياة تلك التي أثارت في عصرها بشخصيتها الساحرة وحياتها الساطعة كثيراً
من الحب والعطف، والنقمة والروع؛ ثم غدت سيرتها بعد ذلك على كل العصور مستقى لكثير من القصص الشائق المثير معاً
والآن، وقد فرغنا من تتبع هذه الحياة في أدوارها المختلفة، نعود فنحاول أن نتلمس فيها مواطن الحقيقة والخيال
هل كانت لوكريسيا بورجيا تلك التي تصفها الرواية المعاصرة شيطاناً للرذيلة والإثم؟

وهل كانت تلك البغي السافلة التي تتقلب بين اذرع أبيها وأخويها؟ أم هل كانت ضحية اتهام شائن تمليه الخصومة والحقد؟

إن هذه التهم الشائنة التي تنسبها الرواية والقصة إلى لوكريسيا بورجيا، والتي أشرنا أليها فيما تقدم ترجع إلى الروايات المعاصرة ذاتها، وهذا ما يسبغ عليها مسحة من القوة؛ وقد رأينا كيف أن بور كارت مدير التشريفات البابوية يثبتها في مذكراته كوقائع حقيقية، وقد كان بور كارت بمركزه واتصاله المستمر باسكندر السادس وأفراد أسرته، ممن يستطيعون الوقوف على الحقائق من مصادرها

وقد حذا حذو بور كارت عدة من المؤرخين والرواة المعاصرين مثل جويشارديني المؤرخ والسياسي البارع، وقد كان من أعلام العصر؛ فهو يردد في كتابه (تاريخ إيطاليا) معظم التهم والآثام التي نسبت إلى لوكريسيا وإلى إلهها

ومن أدلة الاتهام المعاصر أيضاً وثيقة خطيرة، هي خطاب كتب في سنة 1501، ووجهه كاتبه إلى سيلفيو سافيللي، وهو أحد النبلاء الإقطاعيين الذين نزع اسكندر السادس أملاكهم؛ وكان ذلك الحين يقيم في بلاط إمبراطور ألمانيا مستجيراً به؛ ولم يعرف كاتب الخطاب، ولكن ذكر في ختامه أنه حرر في تار انتو في المعسكر الملكي (الإسباني)

وفي هذا الخطاب يعدد الكاتب آثام اسكندر السادس وآل بورجيا، ويتحدث عن أطماعهم وجرائمهم السياسية والاجتماعية، وعما يرتكبونه من صنوف العيث والفجور والهتك، وعن انتهاكهم لكل الحرمات الدينية والاجتماعية وسحقهم لكل مبادئ الحياة والحشمة؛ ويتحدث بنوع خاص عن شيزاري بورجيا وجرائمه الدموية، وعن لوكريسيا وعلائقها الأثيمة مع أبيها أخويها، وعن الحفلات الخليعة الشائنة التي يقيمها البابا وأبناؤه، ويخص بالذكر حادثة الليلة العارية التي اجتمع فيها خمسون من غانيات رومة عراة أمام البابا وأولاده وارتكب

فيها من صنوف الفحش المثير ما ارتكب وما أشرنا إليه فيما تقدم؛ ويتحدث بوجه عام عن حالة المجتمع الروماني في ذلك الحين وما بثه إليه آل بورجيا من صنوف الفساد والآثم والروع؛ كل ذلك في إفاضة ومنطق قوي يدل على تمكن الكاتب من الشؤون التي يتناولها

وقد ترجم هذا الخطاب الذي يعرف بخطاب (سافيللي) إلى معظم اللغات الأوربية ونشر في سنة 1502 في جميع العواصم، وكان له وقع هائل في إيطاليا، وفي أوربا كلها؛ وسجلته أيضا جميع التواريخ والروايات المعاصرة

ويرى المؤرخ الألماني جريجوروفيوس في كتابه (تاريخ رومة في العصور الوسطى) في هذا الخطاب وثيقة حقيقية تمثل صورة رومة في عصر آل بورجيا، وأنه لا تفضلها وثيقة أخرى في تصوير سياستهم الفاجرة، وما بثوه من الروع في المدينة على يد أعوانهم وجواسيسهم

وترى هذه التهم ماثلة لا في الروايات المعاصرة فقط، ولكن في كثير من الكتب والرسائل السياسية المعاصرة، وفي شعر بعض أكابر الشعراء المعاصرين

ومازالت سيرة آل بورجيا، وسيرة لوكريسيا، بما يتخللها من تلك الصور المروعة المثيرة، حتى العصر الحديث مستقى القصص والشعر؛ وقلما يخترع القصص أو الشعر فيها شيئاً لم تدونه الروايات المعاصرة؛ ومع ذلك فإن هذه القطع القصصية أو الشعرية تقوم على كثير من الوقائع الغرقة أو الخيالية المحضة التي لا يستطيع المؤرخ أن يقف بها مثال ذلك ما كتبه اسكندر ديما عن (آل بورجيا) في كتابه (الجرائم الشهيرة)، فقد تناول سيرة آل بورجيا ولوكريسيا في فصل طويل فياض بالوقائع والصور المدهشة، وقدم لنا اسكندر السادس، وابنه شيزارى، وابنته لوكريسيا في أروع الصور وأسفلها: طغمة من الأبالسة، تسحق الحياة البشرية تحت أقدامها، وتبث الدمار والموت في أرجاء المدينة الخالدة، بالسم والخنجر وكل وسيلة آثمة؛ وقدم ألينا لوكريسيا في صورة بغي سافلة، تعاشر آباها وأخويها، وجمعاً كبيراً من الصحب والخلان

ووضع فكتور هو جر قطعته المسرحية الخالدة (لوكريسيا بورجيا) فجاءت خلاصة من تلك الروايات المغرقة المعاصرة، ولا بأس من أن نقدم خلاصتها ليرى القارئ كيف أن الشاعر لم يلحظ في مادته إلا أن تكون مثار السحر والروع:

هي قطعة نثرية في ثلاثة فصول، خلاصتها أن عدة سفراء فتيان من فلورنس شهدوا في مدينة البندقية (فينزيا) مرقصاً محجباً، كانت تمثل فيه لوكريسيا بورجيا محجبة؛ وكان معهم فتى يدعى جنارو، وهو فتى مجهول النشأة لا يعرف له أماً ولا أباً. وجلس الفتية الفلرنسيون يتحدثون عن آل بورجيا ويرددون ما يذاع عنهم من قصص القتل والأثام الشنيعة؛ وجلس جنارو إلى جانبهم وقد أخذته سنة من النوم؛ وبعد هنيهة قدمت امرأة محجبة، وهوت على جنارو تقبله فاستيقظ من نومه. من هي؟ هي لوكريسيا، وهي أمه، وهو ولدها الطبيعي؛ ولم تستطع حين رؤيته أن تقاوم هذه اللذة. ورفعت لوكريسيا قناعها خلسة؛ ولكن الفتية الفلرنسيين رأوها وعرفوها، وظنوها خليلته، واعتزموا زيارتها معه في فيرارا مقامها. وظن زوجها (دوق فيرارا) أن جنارو صاحبها، فأمر بالقبض عليه، وأراد أن يرغم لوكريسيا على إعدامه بيديها بحجة أنه أهان اسم آل بورجيا وذلك بإزالة بعض حروفه المنقوشة على شرفة القصر؛ ونفذ الدوق مشروعه فعلاً، فأرغم لوكريسيا على أن تضع السم في كأس جنارو، وان تقدمه أليه. ولما شرب الفتى الكأس المسمومة، تركهما الدوق؛ فبادرت لوكريسيا إلى إنقاذ جنارو، وقدمت له الترياق؛ فتردد الفتى لأنه كان يعتبرها اشد أجراما من الدوق، ولكنه شرب الترياق أخيرا ونجا من الموت أرادت لوكريسيا أن تنتقم من الفتيان الفلرنسيين الذين عرفوها وأذاعوا اسمها، فاحتالت لدعوتهم إلى العشاء عند إحدى صاحباتها، وبينما هم في ارق لحظات المرح، إذا بهم يسمعون أناشيد الحزن، ومن ورائهم صف من الرهبان والنعوش، فاعتقد الفتيان أنها مزحة مدبرة، ولكنها كانت الحقيقة الرائعة؛ ذلك أنهم تناولوا السم في الطعام والشراب، ولم يبق بينهم وبين الموت سوى لحظات، ولكن شاء نكد الطالع أن يكون بينهم جنارو! فتقدم إلى لوكريسيا يطلب نعشه؛ فذهلت لوكريسيا، وحاولت أن تبادر إلى إنقاذه، ولكنه لم يقبل، ولم يمهلها حتى اخرج خنجره، وما كاد يطعنها حتى صاحت: (إني أمك!)

هذه هي خلاصة قطعة هوجر المسرحية الخالدة التي مازالت منذ قرن تسحر ملايين النظارة، وهي كما ترى قطعة من الخيال المغرق لم يراع الشاعر فيها شيئاً من التاريخ الحق

ومع ذلك فإن ما كتبه اسكندر ديما وهو جر إنما هو أنموذج فقط لمئات السير والقصص

التي كتبت عن لوكريسيا بمختلف اللغات، وكلها نماذج للخيال المغرق والقصص المثيرة

بيد أننا نرى في عصرنا مؤرخاً بارعاً هو العلامة الفرنسي فرانز فونك برنتانو، يحاول في كتابه الذي أشرنا إليه من قبل اكثر من مرة أن ينتزع شخصية لوكريسيا بورجيا من تلك الغمر المروعة التي أحاطت بسيرتها، وان يمحص تلك الروايات المغرقة التي امتزجت بحياتها، وان يرد كثيراً من التهم التي نسبت إليها

وفي رأي هذا المؤرخ البارع، الذي يدعم عرضه في معظم الأحيان بمنطق خلاب، أن التاريخ قد ظلم لوكريسيا أشنع ظلم، وان هذه الفتاة التي صورتها الروايات المعاصرة بغياً فاجرة، لم تكن سوى ضحية وأداة ذلول في يد أبيها وأخيها، وأنها كانت تدفع دفعاً إلى مشاطرة هذه الحياة المثيرة التي كانت تنتظم في قصر الفاتيكان، ولكنه يرد عنها تهم الفجور الشنيعة التي نسبت إليها؛ ولاسيما تهمة عشرة أبيها وأخيها، ويرتاب في أقوال بور كارت وغيره من الرواة المعاصرين، ويرى أن هذه التهم ترجع في الأصل إلى الحملة القاذفة التي شهرها جان سفورزا زوج لوكريسيا الأول عليها انتقاماً لفصله منها، والى الحملات القاذفة التي دبرت أيضا ضدها وضد آلها في بلاط نابل على اثر مقتل زوجها الثاني الفونسو الأرجوني، وهي حملات ظهر أثرها في نظم الشعراء المعاصرين الذين يغذيهم بلاط نابل

ويصور لنا برنتانو لوكريسيا فتاة ناعمة وافرة السحر والرقة، وافرة الذكاء والحزم، ويصورها لنا في فيرارا أميرة رفيعة الخلال تحمي الأدب والفنون، ويكاد يصورها لنا في أعوامها الأخيرة قديسة فياضة الورع والتقوى

وكتاب برنتانو قطعة بديعة من التدليل التاريخي، وقد يدفع بدقة منطقه كثيراً من التهم التي نسبت إلى ابنة اسكندر السادس؛ ولكنه مع ذلك لم يستطع أن يهدم كثيراً من العناصر الأساسية التي تمثل في هذا الاتهام

ومع إننا بالرغم من محاولة برنتانو البديعة، مازلنا نؤثر ناحية الاتهام في سيرة لوكريسيا بورجيا، فأنا نميل مع برنتانو إلى الاعتقاد بأن كثيراً من الإغراق والمبالغة يشوب تلك الصور المروعة الآثمة التي تركتها لنا سير العصر، عن تلك الشخصية الباهرة المظلمة معاً

(تم البحث)

محمد عبد الله عنان المحامي

التربية الخلقية والاجتماعية في المدرسة

للأستاذ فخري أبو السعود

في كلمة سابقة بهذا العنوان ذكرت أن الوسيلة الوحيدة لتحقيق مدارسنا الغرض الأسمى من التربية - وهو التربية الخلقية الاجتماعية - هي خلق مجتمع راق في المدرسة يساهم فيه الطالب ويكتسب فيه من محمود الصفات الخلقية ومقتضيات الحياة الاجتماعية ما تخرجه إلى المجتمع عارفاً بمطالبه، مزوداً بالمؤهلات التي تساعده على الاندماج فيه والنجاح في معتركه

وأعود الآن إلى بيان مزايا هذا المجتمع الواجب خلقه في المدرسة، فمزاياه لا تقتصر على اختلاط الطلاب بعضهم ببعض لحميد الأغراض، بل تشمل أيضا اختلاطهم بالمعلمين، وهو أمر لازم للتربية الصحيحة؛ إذ من طبيعة الناشئين الاقتداء بمن اكبر منهم واخبر، ومن طبيعة المواهب الإنسانية العقلية والخلقية ألا تنمو وتسمو إلا بتقليد أولئك الذين ينظر إليهم الناشئ نظرة إكبار، ويحسن فيهم الاعتقاد، وتنزع نفسه إلى التشبه بهم وهذا الاختلاط الجم المزايا بين الطلاب ومعلمهم سائد في معاهد إنجلترا من المدارس الصغيرة إلى الجامعات الكبيرة، وأثره في تربية الناشئة الإنجليزية اعظم من اثر كل ما يلقى في حجرات الدراسة من معلومات؛ فالمعلمون يعاملون طلابهم معاملة الزملاء الصغار أو الأقرباء الناشئين، وبهذه الروح يناقشونهم في أوقات الدراسة، ويشاركونهم ألعابهم وحفلاتهم، ويكن المعلمين لطلابهم العطف، ويكن الطلاب لمعلميهم الاحترام، وتسود معاملة الفريقين البساطة التامة، واعظم بما لذلك من اثر في تربية الرجولة والصراحة والاعتداد بالنفس بين الناشئين.! أما في مدارسنا فالهوة بين المعلمين والطلاب سحيقة، والنفرة شديدة: لا يفهم المعلم من نفسية كل طالب شيئاً كثيراً، ولا يعطف ألا النادر منهم، ولا يعلم الطلاب عن معلمهم غير ما يثرثره عليهم من معلومات لا تنتهي إلا بانتهاء السنة المدرسية، ولا يضمرون له حباً ولا ميلاً، بل يستحكم العداء بين الفريقين أحيانا إذا كان الطلاب ضعفاء في مواد الدراسة، أو كان المدرس شديدا ملتزماً للجد، وقد استحال أن يسود الود الذي هو اجدر أن يسود بين المربي والمتربي، فمن معلمينا من يأبى من التبسط مع طلابه، ومنهم من يود لو فعل فيرده علمه بما يجر إليه ذلك من فساد درسه، إذ يندفع الطلاب وراء الهزل ويسيئون المسلك

وينسون الدرس، لان ناشئتنا من الجهل بآداب الاجتماع بحيث لا يعلمون معنى القصد في الأمور، ولا يقنعون إذا تركوا وشأنهم بما دون الإمعان في العبث

ونتيجة هذه الحال السائد في مدارسنا أن معظم الطلاب - سواء متقد موهم في العلوم ومتخلفوهم - يغادرون المدارس وهم مزيج من الخجل والتبجح والغرور والنفاق، إذا انفرد أحدهم رايته على جانب كبير من الخجل والعجز والحصر، وإذا اجتمعت فئة منهم ارتد خجلهم تبجحاً وحصرهم صخباً وعجزهم جرأة على الفساد؛ وبينما تؤدي العلاقة بين المعلم والمتعلم في إنجلترا إلى صداقة مثمرة في مستقبل الحياة تنبت الصلة بين المعلم والطالب عندنا بانتهاء العام الدراسي، حتى لقد يتقابل الاثنان فيتغاضى الطالب عن معلمه، أو يخاطبه في لهجة جريئة متطاولة، وفي كلتا الحالين لا يأسي المرء ألا على ما بهذا المسلك من دلالة على فشل التربية وعبث المجهود المنفق فيها.

والعلة في هذا ترجع إلى نظام مدارسنا التي تجعل ملء الرؤوس بالمعلومات الغاية الكبرى بل الوحيدة من التعليم، فتشغل كل أوقات المدرسة بها، فيرى المدرس - المرهق ببرنامج حافل - وقته أضيق من أن يصرف جانباً منه في مباسطة طلابه ومناقشتهم في شتى الشؤون العامة التي تمت إلى الحياة وتشغل بال كل ذي حظ من الإنسانية ونصيب من الثقافة، فتنقطع الصلة الإنسانية بين المعلم والطالب، ويترك

الطلبة وأنفسهم يشبعون تلك الرغبة الفطرية في التنافس وتبادل الأفكار بثرثرتهم في أوقات الفراغ - وأوقات الدروس إن استطاعوا - ولما كانوا قد عدموا إرشاد المدرس بفكره الذي هو أرقى وشخصيته التي هي أقوى من شخصياتهم وأفكارهم فإنهم يتجهون عادة إلى السفساف من الأمور، ويألفون الثرثرة الفارغة التي لا نهاية لها ولا غاية، ويختارون قدواتهم في الحياة من خارج المدرسة أخذيها عن شخصيات قد لا تكون جديرة بالإعجاب أو محمودة التقليد

أما مخالطة الطلاب لمعلميهم فأنها - فضلاً عن صقلها لآداب المعاملة وحسن الذوق بينهم وعما تنميه فيهم من صفات الرجولة - تفتق أذهانهم وتسمو بهم إلى درجات من التفكير عالية، وتلقي ضوءاً على مواهب كل منهم وميوله، وتفسح أمامهم المطامع، وتبعث فيهم شتى الغايات يجعلونها نصب أعينهم في الحياة، على حين لا تتجاوز مطامع ألا كثرين منهم اليوم اجتياز الامتحان ونيل الشهادة

ولقد عهد في السنوات الأخيرة إلى المعلمين بمدارسنا بمراقبة الجمعيات المدرسية، ولكن هذه الجمعيات أنشئت دون أن يفسح لها موضع من أوقات الطلاب والمدرسين المغلولي الأيدي في المناهج الطويلة، فلم تجتذب من الطلاب إلا القليلين، وزهد في رقابها المدرسون لأنها جاءت زيادة على أعمالهم المتراكمة، فلم تؤدي تلك الجمعيات الأغراض المنشودة، ولم تكن غير إرهاق على إرهاق، وستظل كذلك ما لم تزحزح المواد الدراسية عن مكانها القدسي الذي تتبوأه في مدارسنا

هذا، وليس أن يطلب من المدرس أن يكون مثلاً أعلى في الإنسانية، أو بحراً في العلم، أو نصف آله، لكي يؤدي مهمته في تربية الطلاب الخلقية والاجتماعية، بل يكفي لينهج بهم النهج القويم أن يكون مستقيم السيرة متنور الذهن مخلصاً في عمله، وهذا هو الغالب بين مدرسينا، وما يحتاج الأمر ألا إلى رفع عبء المواد الدراسية التي تثقل كواهل المعلمين والمتعلمين وتشغل كل أوقاتهم، وإفساح المكان لمجتمع في المدرسة يكون صورة صغيرة للمجتمع العام خارجها

إن إيجاد هذا المجتمع الحي الراقي بين جدران المدرسة هو الوسيلة الوحيدة لنجاح مهمتها، وإعداد الناشئين للمجتمع الأكبر خارجها، وترقية ذلك المجتمع الخارجي جيلاً بعد جيل، ولن تؤدي مدرسة مهمة التربية حتى يحيا الطلاب فيها حياة اجتماعية، ولن يؤدي المعلم واجبه حتى يمنح الفرصة لمخالطة طلابه مخالطة الإنسان المستنير للإنسان المستنير، ويحل هذا محل العلاقة الإلية الجافة القائمة بينهما اليوم، وبهذه الحياة الاجتماعية المدرسية يؤدي المدرس وظيفته (الروحية) التي أشار أليها تقرير معالي وزير المعارف

فخري أبو السعود

المدرس بالعباسية الثانوية

المنسوجات الإسلامية المصرية ومعرض جوبلان

بباريس

للدكتور زكي محمد حسن

الأمين العلمي لدار الآثار العربية

افتتح صاحب الفخامة رئيس الجمهورية الفرنسية في 17 من مايو معرضاً للمنسوجات الإسلامية المصرية أقامته متاحف جوبلان للقطع الأثرية التي بعثت بها إلى باريس دار الآثار العربية من مجموعتها النفسية، وزاد المعرض نجاحاً أن صاحب الجلالة مولانا الملك كان قد تفضل فأذن لجناب المسيو (فييت) أن يأخذ لهذا المعرض سبع عشرة قطعة من المجموعة الملكية الفاخرة، فأتيح للجمهور الباريسي أن يعجب ببدائع منتجات الفن الإسلامي، وان يرى من آيات صناعة النسج الإسلامية قطعاً منقطعة النظير ويعرف القراء أن صناعة النسيج كانت زاهرة على ضفاف النيل منذ العصور الأولى، وأنها سارت في سبيل التقدم بخطى واسعة، حتى جاء العصر القبطي فتأثرت بتيارين من المؤثرات البيزنطينية والساسانية

ثم فتح العرب مصر، واعتمدوا في أول الأمر على الصناع والفنانين الوطنيين، وأدى ذلك إلى خلق فن إسلامي جميل كان له ازدهار، وكانت له حياة طويلة على عكس التعاون بين الرومان ورعاياهم، ذلك التعاون الذي سار بالفن الهللنستي في طريق السقوط والاضمحلال

وظهر في صناعة النسج الإسلامية في مصر تطور منتظم بدا بالاستغناء شيئاً فشيئاً عن الرسوم الحيوانية والآدمية التي كان الكلف بها عظيماً في العصر القبطي، وأخذت الكتابة والزخرفة النباتية والهندسية تلعبان دوراً هاماً في تزيين الأقمشة الإسلامية على أن فن النسج لم يطبع في مصر بطابع إسلامي ظاهر ألا ابتداء من العصر الفاطمي، وفي المتاحف الكبيرة والمجموعات الأثرية كثير من القطع التي ترجع زخرفتها إلى عصر الانتقال من الطراز القطبي إلى الطراز الفاطمي، والتي قد يصعب في بعض الأحيان تمييزها من القطع القبطية. أما القطع التي عليها زخارف طولونية بحتة فإن وجودها نادر، وعلى عكس ذلك القطع التي ترجع إلى عصور الفاطميين والأيوبيين والمماليك

وصناعة النسج في مصر الإسلامية كانت على نوعين: صناعة ملكية في مصانع حكومية تسمى طرازاً، وصناعة أهلية عليها رقابة حكومية شديدة

أما المصانع الحكومية أو الطراز فإن وجودها منذ العصر العباسي يثبته ما وصل ألينا من مصنوعاتها. والمعروف أنه كان هناك نوعان من هذه المصانع الحكومية: الأول طراز الخاصة، وكان لا ينتج ألا للخليفة ورجال بلاطه وخاصته، والثاني طراز العامة، وكان بالرغم من تبعيته لبيت مال الدولة ينتج للتجارة العامة، فضلاً عن إنتاجه لبلاط الخليفة أو الأمير أن دعت الحال.

ولفظ طراز مشتق من الفارسية (ترازيدن) بمعنى التطريز وعمل المدبج؛ واصبح بعد ذلك يدل على الملابس الملكية وما يشبه (ملابس التشريفة)، ولاسيما إذا كان يحليها شيء من التطريز أو أشرطة من الكتابة. وما لبث مدلول هذا اللفظ إن اتسع حتى انتهى في العربية والفارسية إلى الدلالة على المصنع والمكان الذي تنسج فيه مثل هذه الأقمشة

واحتكار الحكومات لصناعة النسج قديم لسنا نعرف أوليته، ولسنا نستطيع أن نحدد تماماً أين بدأ نظام الطراز على النحو الذي نعرفه في الفنون الإسلامية. فالعلماء مختلفون في اصله، فريق يذهب إلى أنه نشا في بيزنطية، وفريق يظنه أيراني الأصل، كما يحسبه آخرون بابلياً آشوريا

على أن مصر عرفت في عهد الفراعنة شيئاً من احتكار صناعة النسج، فقد كانت المصانع ملحقة بالمعابد، وكانت منتجاتها مشهورة في الشرق الأدنى كله، وكانت تدر على المعابد أرباحا وافرة كان الفراعنة يستولون على جزء منها ويحتفظ كهنة المعابد بما يبقى

على أن نظام الطراز ما لبث أن انتشر في كافة الأقطار الإسلامية، كسورية والعراق وإيران واسيا الصغرى، وأسبانيا وجزيرة صقلية

وكان طراز الخاصة يعمل في نسج الأقمشة اللازمة للخليفة ولكبار رجال الدولة، وحاجة الخلفاء والأمراء إلى الكثير من تلك الأقمشة ناشئة من العادة القديمة التي اتخذوها في الخلع على رجال حاشيتهم وعلى غيرهم من أفراد الرعية مكافأة لهم وإظهارا لرضاهم عنهم

وفضلاً عن ذلك كان الخلفاء والأمراء يتبارون في إرسال الكسوة السنوية إلى الكعبة الشريفة من المنسوجات النفيسة التي كانت تصنع عادة في طراز الخاصة بمصر لذلك لم يكن غريباً أن يعنى الخلفاء والأمراء بكتابة أسمائهم على هذه الأقمشة الثمينة بلحمة من الذهب أو الفضة أو الخطوط المتعددة الألوان تخليداً لذكراهم ووثيقة لمن خلعت عليه إظهارا لرضاء الأمير، أو على تولي إحدى الوظائف الكبرى في الدولة وكانت الكتابة على الأقمشة تشمل اسم الخليفة وألقابه وبعض عبارات الأدعية، وكثيراً ما كان يذكر فيها اسم المدينة التي فيها الطراز، واسم الوزير، وصاحب الخراج، وناظر الطراز، ومثل ذلك ما كتب على قطعة نسجت للخليفة الأمين محفوظة الآن بدار الآثار العربية ونصه (باسم الله بركة من الله لعبد الله الآمين محمد أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، مما أمر بصنعته في الطراز العامة بمصر على يدي الفضل بن الربيع مولى أمير المؤمنين)

أما الصناعة الأهلية فكانت تحمل ضرائب فادحة وتعاني رقابة الحكومة في مراحلها المختلفة، فكان لزاماً أن تختم الأقمشة بالخاتم الرسمي، ولم يكن يتولى البيع أو التجارة ألا تجار تعينهم الحكومة، وعليهم تقييد ما يبيعونه في سجلات رسمية، كما كان

لف الأقمشة وحزمها وربطها وشحنها يقوم به عمال حكوميون يتناول كل منهم ضريبة معينة
وقد لوحظ أن المراكز الرئيسية لصناعة النسج في مصر كانت في اكثر الأحيان الجهات التي يكثر فيها الأقباط؛ وكان القطن والكتان ينسجان في البلاد المصرية المختلفة ولاسيما في الدلتا يتنيس والإسكندرية وشطا ودمياط ودابيق والفرما، كما اشتهرت أيضا بنسجها مدينة البهنسا
أما الأقمشة الحريرية فكانت تنسج في الإسكندرية وفي دابيق؛ وكانت هناك أيضا مصانع للنسج في مدينتي اخميم وأسيوط اللتين كانتا مركزين هامين لصناعة النسج في العصر القبطي، وكانتا تصدران إلى بيزنطة والى بابوات روما كثيراً من الأقمشة النفيسة التي كان يوهب جزء كبير منها إلى الكنائس والأديرة وأما الحرير الصافي فالظاهر أن المصانع المصرية لم تشتغل بنسجه قبل عصر المماليك
وقد كان متحف فكتوريا والبرت بلندن، والقسم الإسلامي من متاحف برلين، يفتخران بامتلاكهما اكبر مجموعتين من الأقمشة الإسلامية النفيسة، حتى كشفت دار الآثار العربية في السنين الأخيرة عددا كبيرا جدا من القطع في المقبرة القديمة بين عين الصيرة
والبساتين، إذ كانت الجثث في المقبرة المذكورة ملفوفة في أقمشة على بعضها أسماء خلفاء عباسيين أو فاطميين، وأصبحت دار الآثار العربية بعد هذه الاكتشافات أغنى متاحف العالم في الأقمشة الإسلامية، كما كانت أغناها في الخشب وفي مشكوات المساجد المموهة بالمينا
واكبر الظن أن اكثر ما وجد في الحفريات المصرية من منسوجات قد صنع في مصر نفسها؛ ولسنا نجهل أن الاتصال كان كبيراً بين سورية ومصر في العصور القديمة، وان هذا الاتصال لم يضعف في العصر الإسلامي ألا في فترات قصيرة، وان مقادير كبيرة من الزجاج المموه بالمينا ومن الأواني النحاسية المكفتة بالفضة نقلت إلى مصر، وأنه من المحتمل أن يكون ذلك قد قدر لبعض المنسوجات، لان مصر نفسها كانت من اكبر المراكز لصناعة المنسوجات في الشرق الأدنى
وكانت كذلك صقلية خاضعة للخلفاء الفاطميين في شمال أفريقية، ثم ضم الفاطميون إلى ملكهم مصر وسورية، وكانت صناعة النسج زاهرة في جزيرة صقلية حين حكمها العرب، حتى لقد يصعب كثيراً التمييز بين الأقمشة المنسوجة في مصانعها والأقمشة المنسوجة في مصر وسورية. وان صح ما ذكره المقريزي من أن ابنة المعز لدين الله تركت ثلاثين آلف قطعة من نسج صقلية فإن ذلك يدل على كثرة ما كانت تنتجه المصانع الصقلية، ويثبت أن مصر كانت تستورد منها بعض الأقمشة النفيسة، ولكنا نستبعد أن تكون الواردات من الأقمشة الأجنبية إلى مصر قد بلغت شيئاً كثيراً ومهما يكن من شيء فإن تطور صناعة النسج المصرية كان بطيئاً في القرون الثلاثة الأولى من الهجرة، وظلت الزخارف والتقاليد الفنية القبطية غالبة في العصر الإسلامي، فترة قطعاً كثيرة من الصوف أو الكتان ذات زخارف متعددة الألوان أكثرها طيور أو حيوانات أو أشكال آدمية صغيرة في جامات بيضيه الشكل أو متعددة الأضلاع وفيها أشكال هندسية أولية وخطوط متقاطعة ودوائر متماسة، وقد يكون على بعضها صور طيور متقابلة، أو يولي كل منها الأخر ظهره، وكل هذه القطع عليها مسحة قبطية ظاهرة، أكثرها منسوج بطريق (التابستري) - التي لا مجال هنا لشرح تفاصيلها الفنية وتظهر الكتابة على المنسوجات في القرن التاسع، بل هي تظهر في القرن الثامن، وان لم يكن لدينا من دليل يؤيد ذلك ألا القطعة المحفوظة بمتحف فكتوريا والبرت والتي عليها اسم (مرون أمير المو. .) وفي اعتقادنا أن المقصود هنا
مروان بن محمد أخر خلفاء بني أمية وقد أحصى الأستاذ فييت ما نعرفه في المتاحف والمجموعات الأثرية من قطع المنسوجات التي عليها أسماء الخلفاء العباسيين، فوجد أن هناك واحدة باسم مروان، وواحدة باسم هارون الرشيد، وواحدة باسم الآمين، واثنتين باسم المأمون، وواحدة باسم الواثق، واثنتين باسم المتوكل، واثنتين باسم المستعين، وواحدة باسم المعتز، وواحدة باسم المهتدي، وتسع عشرة قطعة باسم المعتمد، وإحدى وعشرين للمعتضد، وخمس عشرة للمكتفي، وتسعاً وثمانين ومائة للمقتدر، وإحدى عشرة للقاهر، وأربعا وخمسين للراضي، وسبعاً وعشرين للمتقي،

أربع قطع للمستكفي، وخمساً وأربعين ومائة للمطيع
وفي العصر الطولوني كانت التقاليد الزخرفية القديمة والقبطية لا تزال تسود صناعة النسج. على أن هناك بعض أقمشة عليها زخارف طولونية ظاهرة على النحو الذي نعرفه في زخارف الجامع الطولوني، والأخشاب التي ترجع إلى هذا العهد، وأوضح ما تكون هذه الزخارف على المنسوجات في قطعة بمتحف برلين نشرها الدكتور رسومها بما يسمونه الطراز الأول من زخارف سامرا، وبالزخارف الجصية في المنزل الذي كشف في حفريات دار الآثار العربية منذ ثلاث سنين. وليست هذه القطعة في حالة جيدة من الحفظ، فإن زخرفتها قد سقطت في بعض أجزائها، ولكن من حسن الحظ أن متحف ليزج يمتلك قطعة أخرى من القماش نفسه، زخرفتها احسن حفظاً، واكثر ظهوراً
وفي دار الآثار العربية قطع عليها رسوم شديدة الشبه بالزخارف الطولونية مما يجعلنا نرجع أنها ترجع إلى هذا العهد. واجمل هذه القطع معروض الآن في متحف جوبلان وتشمل مجموعة دار الآثار العربية عدداً من قطع النسج بأسماء الأمراء الطولونيين. والمعروف أن الجزية التي كانت ترسلها مصر إلى الخليفة العباسي، ثم الهدايا التي أرسلها ابن طولون إلى الخليفة المعتمد، والتي أرسلها خمارويه من بعده إلى المعتضد، كان فيها شيء كثير من المنسوجات النفيسة؛ ومن هذه القطع واحدة باسم الخليفة المعتمد تاريخها سنة 278هـ (891 م) وتشبه قطعة أخرى باسم المعتمد أيضا وجدتها البعثة الألمانية في سامرا وهي محفوظة الآن بالقسم الإسلامي من متاحف برلين. وهناك قطعة أخرى باسم الخليفة المكتفي بالله، والأمير الطولوني هارون بن خمار يه سنة 291هـ (904 م) وهي
السنة السابقة لسقوط الدولة الطولونية
وظل الخلفاء العباسيين في عهد الإخشيديين يستمدون من مصر اكثر ما يلزمهم من المنسوجات النفيسة المحلاة بكتابات كوفية فيها العبارات والأدعية المعروفة، بيد أن أسماء الوزراء لم تعد تظهر في تلك الكتابات
أما في عصر الدولة الفاطمية فقد عظم اهتمام الخلفاء بصناعة النسج، ويروي المقريزي أن دار يعقوب بن كلس وزير الخليفة العزيز بالله نزار حولت بعده إلى مصنع للنسج، وصارت تعرف باسم دار الديباج، وان وظيفة صاحب الطراز كان لا يتولاها ألا أعيان المستخدمين من أرباب العمائم والسيوف، وكانت تحت أمرته معاونون كثيرون ودار للضيافة تسمى (منظرة الغزالة) لا ينزل ألا فيها إذا ترك مقامه بدمياط أو يتنيس وقدم إلى القاهرة، (فتجري عليه الضيافة كالغرباء الواردين على الدولة فيتمثل بين يدي الخليفة بعد حمل الأسفاط المشدودة على تلك الكساوي العظيمة ويعرض جميع ما معه وهو ينبه على شيء فشيء. . . وله في بعض الأوقات التي لا يتسع له الانفصال نائب يصل عنه بذلك غير غريب منه، ولا يمكن أن يكون إلا ولداً أو أخا فإن الرتبة عظيمة. . .) (خطط المقريزي جزء أول ص 469 - 70)
وقصارى القول أن نظام الطراز بلغ من الجودة والدقة في العصر الفاطمي مبلغاً زاد كثيراً في كمية منتجاته وفي نفاسة نوعها. وقد كانت هناك أصناف من الأقمشة الغالية المشغولة بالحرير لا تنسج إلا للخليفة نفسه، ولكن أفراد الرعية كانوا يحصلون على قطع أخرى نفيسة جداً، فكانت الجلابيب والأقمصة والعمائم والأحزمة تصنع من أقمشة غالية تزينها أشرطة مشغولة بالحرير، اخذ حجمها في الزيادة حتى صارت في القرن الثاني عشر تغطي اكثر الأرضية الكتانية في الأقمشة
وكثيراً ما أمر الخلفاء بصناعة منسوجات فاخرة لإهدائها إلى الأمراء والملوك الذين كانوا يخطبون ودهم أو تربطهم بهم علاقات الصداقة وحسن الجوار
وقد بدأت بشائر العصر الفاطمي تظهر في صناعة المنسوجات الإسلامية في القرن العاشر، فاخذ الميل يزداد إلى الرقة في الزخارف والإبداع في تنسيقها، وسارت الألوان تزداد تدريجياً في الهدوء والتناسق، واصبح في الكتابة كثير من الرشاقة كما كبر حجم
الحروف وصارت سيقانها تتصل ببعضها وينتهي كثير منها في أعلاه بزخارف صغيرة على شكل وريقات شجر تقليدية
وقد زار ناصري خسرو الرحالة الفارسي مصر حوالي سنة 1040 ميلادية واعجب بما

ينسج في تنيس من قصب ملون تصنع منه ثياب النساء، وكذلك العمائم والقلنسوات وقال: إن مثل هذا القصب الجميل لا يصنع في أي مكان أخر، وأنه سمع أن أمير إقليم فارس من بلاد إيران أرسل عشرين ألف دينار إلى تنيس ليشتري بها النسج الملكي، ولكن وكلاءه أقاموا في مصر سنين عديدة دون أن يحصلوا على بغيتهم - وروى ناصري خسرو أن مصانع تنيس كانت تنتج نوعاً من القماش يسمى البوقلمون يتغير لونه باختلاف ساعات النهار ويصدره المصريون إلى بلاد المشرق والمغرب

وفي المتاحف والمجموعات الأثرية كثير من الأقمشة بأسماء الخلفاء الفاطميين وخاصة العزيز والظاهر والمستنصر. ولعل أبدعها من مجموعة صاحب الجلالة مولانا الملك باسم الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله: الأولى من شاش اسود وعليها كتابة كوفية بحروف كبيرة في سطرين متوازيين مقلوب أحدهما. ونص العلوي منهما (بسم الله الرحمن الرحيم نصر من الله لعبد. . .) والسفلي (الحاكم بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعا. . .) وتحت الكتابة شريط من حرير اصفر فيه رسم ازرق مكرر لطائرين متقابلين (شكل1) والثانية من شاش اسود أيضا وعليها كتابة نصها في كل من السطرين (الله الرحمن الرحيم نصر من الله لعبد الله ووليه المنصور أبى علي الأمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين) وفوق الكتابة شريط من حرير اصفر فيه أيضا رسم ازرق مكرر لطائرين أنظر (شكل2) ومما يلفت النظر في هاتين الطرفتين الملكيتين ما في كتابتهما من الأخطاء بالرغم من إبداع صناعتهما

ومن اكثر المنسوجات الفاطمية ذيوعاً ثلاثة أنواع أقدمها قوامة أشرطة من الطيور أو الحيوانات وسط جامات بيضة الشكل قد يتداخل بعضها في بعض

والنوع الثاني عظم الشغف به في القرن الحادي عشر، وألوانه باهتة ويسود أرضيته لون ذهبي، وتزينه أشرطة وجامات متداخلة قد يكثر عددها، وفيها أيضا رسوم حيوانات أو طيور تقليدية أو أشكال آدمية، أنظر (شكلي3، 4)

والنوع الثالث يمثل القرن الثاني عشر، ويسوده اللون الأزرق الغامض، وتبدأ فيه الحروف الكوفية في الاستدارة لتصبح حروفاً نسخية، كما تظهر في الزخارف الفروع النباتية والأرابسك والحروف النسخية التي لا تكون كلمات ذات معنى

ومن العبارات التي يكثر ورودها على الأقمشة الفاطمية: (الملك لله)، و (بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله محمد رسول الله، علي ولي الله)، و (نصر من الله)، و (العز من الله)

وأما في العصر الأيوبي فإن الزخارف الحيوانية يقل استعمالها وتكثر الكتابة النسخية المشغولة بالإبرة، وكذلك الأشكال الهندسية من مثلثات ومعينات ودوائر. وفي المنسوجات المعروضة بمتحف جوبلان من مجموعة جلالة الملك ومجموعة دار الآثار العربية قطع قد ترجع إلى العصر الأيوبي وان كان الجزم بصحة ذلك ليس من الحكمة، لان بين المنسوجات الأيوبية والمنسوجات التي صنعت في أخر العصر الفاطمي شبهاً كبيراً يجعل من الصعب التمييز بينها

وفي عصر المماليك في القرنين الثالث عشر والرابع عشر قضى على نظام الطراز وضعفت بالقضاء عليه صناعة نسج الكتان، واصبح الأمر يدور حول نسج الحرير وتطريزه، وتأثرت الصناعة بمنتجات الشرق الأقصى التي ادخلها عصر المغول في العالم الإسلامي. ولسنا نجهل شهرة الديباج الصيني الذي أشاد ماركوبولو بوصفه في رحلته المعروفة، ووجد بعضه في مصر، كما وجدت أنواع أخرى من الديباج فيها تأثير الصناعة الصينية لدرجة يستحيل معها الجزم بأنها من نسج عمال مصريين، ولاسيما إن تذكرنا ما نعرفه من المصادر التاريخية عن البعثات التي تبودلت بين الصين ومصر لتحمل ما خف حمله وغلا ثمنه من المنسوجات الحريرية النفيسة. ونلاحظ أن الرسوم في النسج المطرز المملوكي تميل إلى استدارة نظراً لأسباب فنية يطول شرحها، وأهمها نوع الغرزة التي يسمونها والتي أخذها الغرب بعد ذلك عن البلاد الإسلامية وكثيراً من الأقمشة المملوكية المعروفة عليها أسماء بعض السلاطين المماليك وبعض عبارات الأدعية نحو (عز لمولانا السلطان الناصر)، أو (السلطان الملك المظفر العالم العامل العادل)، (عز لمولانا السلطان الناصر، ناصر الدنيا والدين محمد بن قلاوون) أو (الشرف للأشراف)

وهناك شبه جلي بين زخارف هذه الأقمشة المملوكية وبين الكثير من الزخارف التي نراها على قطع الخزف والنحاس التي ترجع إلى العهد نفسه؛ كما أننا نرى في بعض الأقمشة المملوكية رسوماً تتكون من أشرطة قد تتعرج فتنظم بينها جامات بيضيه الشكل فيها صور طيور في مواقف مختلفة (شكلي6، 7)

بقي أن نشير إلى نوع من الأقمشة رسومه (مطبوعة) وليس منسوجة أو مشغولة في القماش نفسه، وترجع تقاليد هذه الصناعة إلى العصر القبطي، ولكن الظاهر أنها أهملت في العصر الإسلامي حتى أواخر حكم الفاطميين حين عاد القوم إلى استعمالها في الأقمشة الكتانية، وكانت الزخارف المطبوعة ذات لون واحد حتى جاء العهد العثماني فظهرت زخارف مطبوعة ذات لونين. ومهما يكن من شيء فإن صناعة هذه الأقمشة تشهد بدقة فائقة، وقد نقلها الغرب عن الشرق وانتشرت في أوربا ولا سيما في ألمانيا في حوض نهر الرين حيث يظهر تأثير الزخارف الشرقية في المنسوجات (المطبوعة). وفي دار الآثار العربية بعض أقمشة إسلامية مطبوعة، وفي اعتقادنا أنها من احسن الأمثلة المعروفة (شكل 8)

وهكذا يرى القارئ أن ما نفضل جلالة الملك بإعارته وما بعثت به دار الآثار العربية إلى جوبلان لتمثيل تطور صناعة النسج في مصر الإسلامية وسيلة جليلة لنشر الدعوة لمصر، وتعريف الأجانب بفنونها الجميلة

زكي محمد حسن

فريزر ودراسة الخرافة

للدكتور إبراهيم بيومي مدكور

خطت الدراسات الاجتماعية في الخمسين سنة الأخيرة خطوات فسيحة: فاتسعت سبلها، وتعددت فروعها، وتشعبت مناحيها، واستطاعت أن تثبت أن لها - كسائر العلوم - موضوعاً محدداً، وطرقاً معينة، ومبادئ ثابتة، ولا تكاد توجد مادة برهنت على خصبها برهان هذه المادة؛ كما لا يكاد يوجد علماء خلقوا فناً بأسره في مدى قصير مثل علماء الاجتماع المحدثين. فإن جملة ما كتبه أفلاطون وأرسطو في العصور القديمة، وما دونه المؤرخون وعلماء الجغرافية في القرون الوسطى لا يصح أن يسمى اجتماعاً بالمعنى الصحيح، ولا يحوي أراء علمية ناضجة. ولا ننكر أن عصر النهضة القي شعاعاً من الضوء على العلوم الاجتماعية ولفت الباحثين إلى فلسفة التاريخ ومقارنة الشعوب بعضها ببعض، وقد بدا أثره الواضح في القرن الثامن عشر إذ ظهرت مؤلفات مونتيسكييه وفولتير وروسو. ثم جاءت الثورة الفرنسية التي قلبت النظم المألوفة رأسا على عقب واستبدلت بأساليب الحكم والسياسة العتيقة طرقاً مستحدثة، أنتجت بهذا ثورة أخرى في الأفكار والآراء الاجتماعية كان من أبطالها سان سيمون وأوجست كونت. بيد أن تكوين علم الاجتماع في شكله الحاضر يرجع إلى أخريات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. فمدرسة ميل وسبنسر في إنجلترة، وفونت وفجنر في ألمانيا، ودركيم وليفي بريل في فرنسا، وأعمال السائحين والرحالة من إنجليز وأمريكان وألمان أضافت إلى هذا العلم ثروة طائلة، بل خلقته من عدم لم تقنع هذه المدارس بطريقة واحدة، ولم تقف في بحثها عن حد. فلجا بعضها إلى تاريخ يشرح به ما غمض من أعمال الجمعية وأقوالها، واحساساتها، وعقائدها. واتخذ بعضهم من الإحصاء والتعداد وسيلة لتوضيح الظواهر الاجتماعية واستنتاج القوانين المسيطرة عليها. وأبت طائفة إلا أن تصعد بالاجتماع إلى مستوى العلوم الواقعية فبنته على المشاهدة والملاحظات الدقيقة. لذلك عمدت إلى دراسة الشعوب الهمجية المعاصرة وتتبع عوائدها وتقاليدها، وتوصلت من ذلك إلى نتائج سارة وشيقة للغاية. ومن أهم من عنوا بهذه الطريقة اجتماعيان إنجليزيان معاصران، وهما فريزر وتيلور اللذان كتبا في خصائص الشعوب مجموعة أبحاث قيمة

يضيق بنا المقام من أن نترجم ترجمة كاملة لفريزر تلميذ جامعة جلسجو، وأستاذ الاجتماع في ليفربول وكمبرج، وأحد رجال القانون والمحاماة في لندن. نشأ هذا العالم متشبعاً - ككل اتباع ميل وسبنسر - بفكرة أن الظواهر الاجتماعية خاضعة لقوانين ثابتة، وزاد على أساتذته أن هذه القوانين ممكنة الصوغ والتحديد إذا درست خصائص

الشعوب المختلفة، ولاسيما الهمجي منها. فعلى ضوء هذه الدراسة الموازنة يمكننا أن نبين الأدوار المتتالية التي مرت بها فكرة من أفكار الجمعية، وان نقف على منشأ هذه الفكرة وكيفية تطورها. وقد تخصص فريزر في هذا النوع من البحث، وتناوله من نواح شتى في أسلوب جذاب، وعبارة عذبة، وخيال رائع، ومادة غزيرة تشهد بإطلاع واسع وعمق كبير، لهذا يعد اليوم - في حق - من اكبر العلماء المبرزين في خصائص الشعوب ويدور بحثه بوجه خاص حول الديانات في رسومها وطقوسها لدى الشعوب القديمة والحديثة؛ وله في ذلك مؤلفات عديدة أهمها: التوتيمسم والغصن الذهبي ذلك الكتاب العظيم الذي ترجم كله أو أجزاء منه إلى الألمانية والفرنسية والإيطالية. وغني عن البيان أن أبحاثا كهذه تتصل اتصالاً وثيقاً بالخرافة التي لبست ثوب الدين في كثير من الجمعيات الإنسانية.

نستطيع أن نقول - دون أن نخشى أية معارضة - إن فريزر أضحى أستاذاً غير منازع في موضوع الخرافة، درسه في رغبة أكيدة فأجاد درسه، وقلبه على وجوهه العديدة فلم يدع مجالاً لمن جاء بعده. لم يعن بالخرافات المشهورة فحسب، بل تعداها إلى خرافات ثانوية مقصورة على بعض الشعوب؛ فهو إلى جانب دراسته للسحر والشعوذة وصكوك الغفران وما أشبهها، يعرض لبعض الأعمال الخرافية المتصلة بالطعام والشراب. وبالجملة ليس ثمت كتاب من كتبه إلا وفيه تحليل لخرافة من الخرافات وشرح لسلطانها على المجتمع. ولئن كان قد أعلن أعلانا كافياً عن مضار الخرافة وسيئاتها، فهو لم ينس نفعها وحسناتها؛

ولا ريب في أنه أول اجتماعي أبان في وضوح اثر الخرافة الصالح في الجمعيات الإنسانية. وقد وضع في هذا - فضلاً عن أبحاث جزئية مختلفة - كتاباً مستقلاً سماه: محامي الشيطان. ' ولهذا الكتاب من اسمه نصيب كبير؛ فإن مؤلفه يبدو فيه المحامي الدرة الذي يدافع عن الخرافة دفاع الأبطال، ويبين مالها من يد في تكوين بعض الأسس الاجتماعية. فرجل الدفاع في محاكم لندن يزج بنفسه في محكمة الآراء والنظريات لينصر فكرة اجمع الناس على شرها وذاقوا منها الأمرين. مهمة شاقة، وموقف دقيق للغاية، وكيف لا وفريزر يشذ عن الرأي السائد، ويخرج عن المألوف المسلم به. غير أنه قد وفق إلى حد كبير فيما حاوله، ونهض بالخرافة من كبوتها، واثبت ما فيها من نواحي الخير. وما ابلغه حين يقول: (نحن مدفوعون إلى اعتبار الخرافة خطأ في ذاتها، وشراً لا خير فيه، وضرراً محقق النتائج. وفي الحق أنها اصل كثير من الآم هذا العالم، فقد بددت ذخائر هائلة، وضحت بأرواح لا حصر لها، أثارت حروباً شعواء، أوقعت الشحناء بين الأصدقاء، وفرقت بين المرء وزوجه، والأب وابنه، مقطعة علاقتهم بحراب حادة، أو بما هو اضر منها، وملأت السجون بالأبرياء، والمستوصفان والملاجئ بالعجزة والمعتوهين، وسحقت قلوباً عديدة، وبلبلت نفوساً مطمئنة. ولما لم تقنع بإيذاء الأحياء جاوزتهم إلى الأموات، فهتكت سترهم، ونبشت قبورهم، وأوقعت بهم من العذاب والنكال ما أدمى قلوب الأبناء والأعقاب؛ صنعت الخرافة كل ذلك واكثر منه، بيد أن في مقدورنا أن نقدمها في صورة أليق، وتحت ضوء انسب. لا ندعي إنا أهل للدفاع عن هذا (الشيطان)، والظهور أمام هذا اللهيب الأزرق والغاز الخانق، وإنما نحاول فقط أن نكون ما يصح أن يسميه الرجال السمحاء دفاعاً مقبولاً عن اكبر الخصوم شبهة، على ترجيح هذه القضية. قامت طائفة من الأنظمة الاجتماعية الصالحة باعتراف الجميع أو اغلب الناس على أساس من الخرافة لدى بعض الشعوب وفي بعض مراحل التاريخ)

تخير فريزر بين هذه الأنظمة أربعة من أهمها، وهي الحكومة، والملكية الشخصية، والزواج، واحترام الحياة الإنسانية وبذل غاية الجهد في إثبات أن الخرافة ساعدت على تكوينها ودعمها مستعيناً في كل ذلك بالواقع والتاريخ. فلاحظ في دقة أن مهمة الحكومة ذللت لدى كثير من القبائل الهمجية المعاصرة بسبب الرأي القائل إن الحكام ينتسبون إلى

طبقات سامية، وينعمون بسلطان سحري خارق للعادة؛ وأذ كانوا كذلك وجب على المحكومين أن يخضعوا لهم دون إبداء آية ملاحظة. فلدى سكان جزائر السود في أفريقية يزعم الناس أن الرؤساء قوى غير طبيعية استمدها من الملائكة والجن المتصلة بهم اتصالاً وثيقاً. وفي هذا سر نفوذهم؛ فمتى ضعفت هذه العقيدة فقد

الرئيس كثيراً من سلطانه. ويعتقدون كذلك أن الحاكم أو الوالي يستمر بعد موته في سهره على رعاياه، ويعاقب بالجدب والغرق والصواعق إن أخطئوا ولم يقدموا القرابين لجدثه. ويعتبر الرؤساء السياسيون في زيلندة الجديدة كآلهة أحياء مقدسة في مختلف أجزائها بحيث لا يستطيع أحد الاعتداء عليها، وإذا قدر لمحارب أن يقتل أحد هؤلاء الرؤساء، سارع إلى عينيه فاقتلعهما وابتلعهما ليأمن شر ما يحيط به من أرواح خفية، ذلك لأنه يظن أن هذه القوى تسكن هذين العضوين ويقول بعض الأمراء الزيلندين. . (لتظن أني رجل وأني من هذا العالم الأرضي، كلا فأني نزلت من السماء حيث يسكن آبائي الآلهة، وسأعود إليهم يوماً). ويروون إنه بينما زيلندية تتذوق خوخة جميلة انتزعتها من سلة تحملها، علمت إنها نبتت في مكان مقدس، فاسقط في يديها وصاحت بالويل والثبور وأنها لابد هالكة لغضب الآلهة عليها وحكام ذلك المكان المقدس؛ وما اصبح الصباح إلا وقبضت روحها. ويعتقد سكان أفريقية الغربية أن حياتهم وأموالهم ملك لأمرائهم يتصرفون فيها كما يشاءون. وفي مقدور هؤلاء الأمراء أن يكسفوا الشمس ويخسفوا القمر وينزلوا المطر من السماء، لذلك يلجأ الأهلون إليهم إن ضاقت بهم الحال أو أقفرت عليهم الأرض

لم يقف أمر هذه العقائد الخرافية عند القبائل البدوية الموجودة في أفريقيا وأستراليا وأمريكا، فقد اعتنقها من قبل الشعوب المتحضرة القديمة. فقدماء المصريين كانوا يقدسون ملوكهم ويصعدون بهم إلى اصل سماوي، وإذا نقصت حاصلاتهم أرجعوا ذلك إلى غضب المليك عليهم. وفي قوانين مانو الهندية كتبت العبارة الآتية (إن الملك بفضل سره الخارق للعادة، نار وهواء، وشمس وقمر). وكان اليونان في عهد هومير يعدون ملوكهم ورؤساءهم آلهة أو كالآلهة. وما لنا نذهب بعيداً وفي التاريخ الحديث ما يؤيد بعض هذه الخرافات؟ فقد كان عامة الإنجليز يستشفون بملوكهم إلى عهد قريب، فإذا لمس الملك مريضهم برئ لساعته، واستمرت هذه الخرافة إلى أخريات القرن الثامن عشر إذ كان يعالج روبير

الصالح، وإدوارد المعترف، بعض المرضى بهذه الطريقة. ونرى في فرنسا شيئاً من ذلك في فجر الثورة وبعدها بعشرات السنين، فإن لويس الخامس عشر ولويس السادس عشر وشارل العاشر لمسوا آلاف المرضى لشفائهم. هذه الأمثلة القليلة تكفي للبرهنة على أن عدداً من القبائل والشعوب نظروا إلى قادتهم ورؤسائهم وملوكهم نظرهم إلى موجودات ممتازة مزودة بقوى عظيمة ترغم الرعية على اتباعهم والتعلق بأهدابهم، وإذا فقد ساعدت الخرافة، في بعض الشعوب وفي بعض الأزمنة، على احترام الحكومة وخاصة الاستبدادية؛ وفي هذا ما أعان على تثبيت دعائم النظام الجمعي بوجه عام

يتبع

إبراهيم بيومي مدكور دكتور في الآداب والفلسفة

أثر خطير

كنيس الصالحية

للأستاذ عز الدين التنوخي كاتب سر المجمع العلمي العربي

دوى في دمشق تلهج به الألسنة ويردده الهواء بين الأحياء، وصدى الدهر يثير من النفوس روائع الدهشة، ويبعث فيها نوازع الاستطلاع، ويعين على تمكين ذلك من النفس التاريخ بابتعاده، والتخيل بامتداده، مئات من السنين، ومئات من الشعوب والقبائل والأجيال تمر وتنطوي على كنيس الصالحية ما بين دير الزور وأبي كمال، وهو (منذ أسس بنيانه سنة 244 ب. م) لا يزال قائماً بفارع جدرانه، وماثلاً بروائع ألوانه، يعرب بلسان الزمن عما مر بالبشر من أيام هناء وبلاء، مخبراً عن أمم زالت، ودول دالت، وأحوال حالت، مما يمحص به أبناء العصر الحاضر حقائق الدهر الغابر، فينقلب به ما كان حقيقة وهماً، وما كان وهماً حقيقة

كنيس الصالحية، وما أدراك ما كنيس الصالحية، رأيت ألواحه الجبسية المقطوعة بالمنشار متفرقة، وهي أوصاله بل أشلاؤه الممزقة، فراعني - لعمر الحق - منظرها، وأكبرت بعد التأمل الطويل مخبرها، ثم تصورت هذا الكنيس الأثري النفيس، وقد التأمت بجوار السليمانية غداً أجزاؤه، والتحمت بعد طول الشتات والبلى أشلاؤه، فملك بتصوره القلب قبل الطرف، والهج اللسان بما لا يحيط به الوصف البارع

واللسان المبين: ذلك أن صورة تلك الألواح لا ينقصها لأتقنها ألا الأرواح المثيرة والقوة المجيرة، فتغمزك بعيونها، وترمز إليك بشفافها، وتحدثك بأفواهها عن جلية أحوالها، وأخبار رجالها ونسائها وأطفالها، ولو أنها استطاعت ذلك لأغنت المنقبين والمؤرخين عن كثير من التنقيب والاستقراء والأنفاق المستمر الفادح، والعناء المتواصل المنهك اجل، هذه الألواح لا ينقصها ألا الأرواح، فإن لكل منها جهارة رائعة، وشارة جميلة، إلى وجه سامي مسنون، وانف اقنى، وعينين ناطقتين في صورة إنسان سبط القوام، متناسب الأعضاء، تلمح عليه دلائل القوة والفتوة وتلمع في عينيه شواهد النبل والفضل ففي لوح مستطيل منها ترى صورة موسى النبي بيده الألواح وهو بوجه المخروطي الصبيح، يشبه السيد المسيح، تحيط به هالة قاتمة اللون من شعر رأسه الفاحم ولحيته السوداء، وكان لآلهة الإغريق لحى تزيد في هيبة الوجوه ووقارها

وفي لوح آخر تشاهد صورة السموءل وهو النبي (صموئيل) يمسح بالزيت راس النبي داود الواقف بين اخوته الستة قابضاً بيمناه يسراه كما يقبض المصلى إذا صلى

وفي لوح ثالث آخر صورة احشويروش (الملك الأسد) ملك فارس وبابل وزوج استير وقد استوى على عرشه المخمس الدرجات، وعلى يساره الملكة استير منقذة إسرائيل، وهي على عرشها؛ وعلى جانب كل عرش صورة أسد أو نسر من ذهب، وعلى واجهة إحدى الدرجات قد نقش اسم الملك (احشويروش) فإذا أراد الملك الصعود على عرشه وقف على الدرجة السفلى فترتفع به حتى تساوي الثانية التي فوقها، فينتقل أليها فترتفع به إلى الثالثة، والثالثة ترفعه إلى الرابعة، وهذه إلى الخامسة، فيستوي هنالك على عرشه العظيم، وبذلك يشبه هذا الدرج العجيب مصعده (أسانسور) هذا العصر؛ ويقال أن هذا العرش هو عرش سليمان مسلوباً من بيت المقدس، إذ وجد فوقه لوح آخر يمثل سليمان الحكيم على عرش لا يختلف بشيء عن العرش البابلي مما يرجح القول بنقله إلى بابل، وعلى يسار هذا اللوح لوح آخر يمثل ابن عم الملكة استير وهو مردخاي ممتطياً صهوة جواد أشهب مطهم يقوده هامان الوزير قصاصاً له وانتقاماً

وهنالك لوح آخر مؤلف من سبع قطع، تمثل إلياس النبي مع أسباط إسرائيل، وهو يدعي الله أن يحي ثلاثة من الموتى فيبعث الله لإنعاشهم أرواحا ثلاثاً، والروح منها ممثلة بشكل امرأة تطير بجناحيها، وتهبط هذه الأرواح على أجسادها فتهب من رقادها، وعلى راس أحدهم يد بمعصمها ترفع الميت المنتشر من وفرة رأسه

ومن تلك الألواح ما يمثل موسى عليه السلام طفلاً تخرجه من اليم ابنة فرعون وقد ذهبت مع جواريها تغتسل في النيل فوجدته عائماً في سفط يتغلغل بين أوراق البردي، والى جانبها جاريتان تحمل أحدهما صندوقة صغيرة تشتمل من أدوات الطيب على مالا غنى للمغتسل عنها، وهي عادة مصرية قديمة

كانت كنائس اليهود قبل عهد هذا الكنيس لا تستوعب اكثر من 45 مصلياً، ولكن قاعة هذا الكنيس المستطيلة تستوعب ضعف هذا العدد، أي نحو مائة من المصلين، فقد كانت أبعادها (13. 5 متراً طولاً في 7. 5 عرضاً في 7. 5 ارتفاعاً)

ومما يدل على أبهة هذا الكنيس النفيس إن محرابه القائم في صدره قد كان يزهو بطنافس فارس الجميلة، وتبصر على جانبه صورة شمعدان من الذهب ذي سبع شعب، في كل شعبة منها شمعة تبدد بعض ظلام الكنيس؟ وكانت مقاعد المصلين مغشاة أيضا بالطنافس كما استدل علماء الآثار على أن سماءه (سقفه) كانت مشيدة بالقرمد المزين المنقوش، وكانت أرضه مفروشة أيضا بنفائس الطنافس

هذا ولئن كانت الأمم تقاس برجالها، والرجال توزن بأعمالها، فقد حق علينا أن نختم هذه الكلمة بكلمة أخرى عادلة في شكر من كان سبباً لحفظ هذا الكنيس في بلادنا ولإعادة بناءه في دمشق غداً، وهو صاحب المعالي وزير معارفنا الهمام السيد حسني البرازي، فقد حاولت بعثة الحفر والتنقيب الأمريكية أن تستأثر به وتحرم من الانتفاع به تلك الأمة التي نبش من ترابها، لينبئ عن عمرانها وأحوال أديانها وآدابها، وكادت تفلح لولا جهاده الميمون وحسن مساعيه لدى المفوضية التي حققت بأخرة أمنيته، فخدم بذلك اجل خدمة بلاده أمته: ذلك لان هذا الكنيس المنقطع القرين لم تفتح العين على مثله بعد، ولهذا يقدر بعض علماء الآثار ثمنه بأكثر من مليون جنيه، ويعدونه استثناء اثرياً لقواعد الكنائس اليهودية التي تحرم التصوير، وما كانت صورة هذه المحرمة

بعظيمة الخطورة لدارسي تاريخ الشريعة فحسب، إذ هي لدارسي تاريخ الفن اعظم خطراً، وابلغ لعمري آثرا
دمشق
عز الدين التوخي
كاتب سر المجمع العلمي العربي
قصة المكروب - 16
كيف كشفه رجاله
ترجمة الدكتور احمد زكي وكيل كلية العلوم
بستور
صلة حديثة
وذهب (جرنيه) إلى الشمال يدرس دود القز في مدينة فالنسين فكتب إليه بستور أن يعيد أجراء التجربة الفائتة. سأله هذا ولم يدر لم سأله، وكان جرنيه قد حصل على مجموعة طيبة من الدود السليم، وكان يعتقد على الرغم من تشكك أستاذ هـ أن تلك الكريات في باطن الدود ليست أحياء تتطفل عليه فتقتله. فاخذ أربعين دودة سليمة وغذاها بأوراق من التوت لم يمسها أبداً دود مريض، فخرج من هذه الأربعين سبع وعشرون دودة نسجت سبعاً وعشرين شرنقة. وخرج الفراش من الشانق خلواً من الكريات، فعندئذ عمد إلى فراشات مريضة فسحقها ولوث بسحيقها أوراقا من التوت، وغذى بهذه الأوراق دويدات سليمة صغيرة، عمرها يوم واحد، فلم تلبث هذه الدويدات أن مرضت وهزلت وماتت موتة بطيئة. وتغطى جلدها بالبقع السوداء، وامتلأ جسمها بكريات الداء. وبعد هذا لوث أوراقا أخرى بسحيق الفراش المريض وغذى بها دوداً سليماً نامياً بالغاً كان على وشك أن ينسج الشرانق. فهذا الدود عاش حتى أتم نسج ثوبه الحريري، ولكنه لما استحال إلى فراش خرج هذا الفراش وبجسمه الكريات اللعينة، وباض فكان البيض فاسداً. فسر (جرنيه) وثار، وزاد سروره وزادت ثورته في الليالي التي أكب فيها على مكروسكوبه كلما رأى هذه الكريات تزيد في الدود كلما زاد إضمارا قارب الفناء
وأسرع (جرنيه) إلى بستور يصرخ له: (حلت المسالة! فهذه الكريات حية! إنها طفيليات، وهي التي تمرض الدود!)
واستغرق بستور ستة اشهر ليقتنع بمقالة (جرنيه). ولكنه لما اقتنع وقع على العمل وقوعاً. وجمع أعضاء اللجنة مرة أخرى وخطب فيهم: (إن الكريات التي بالدود ليست عرضاً من أعراض الداء فحسب، بل هي سببه، وهذه الكريات حية، وهي تتزايد، وهي تسير في
جسم الفراش المريض اغتصاباً حتى تعم نواحيه. وإنما كان خطانا الأول لأننا طلبنا هذه الكريات في جزء صغير من جسم الفراش فنظرنا تحت جلد البطن وحده، أما الآن فلابد من سحق الفراش كله وفحصه من بعد ذلك، فإذا نظرنا بالمجهر إلى سحيقة فلم نجد به تلك الكريات المجهرية حكمنا بسلامته واتخذنا بيضه للتفريخ في الربيع المقبل)
وتفرق رجال اللجنة واتبعوا تعاليم بستور فنجحت التجربة، ودار العام فأفرخ البيض دوداً صحيحاً قوياً نامياً أعطاهم غلة من الحرير وافرة
استيقن بستور أن هذه الكريات الطفيلية سبب الداء وأنها لا تنشأ داخل الدود، وإنما تأتيه من الخارج. فطاف في الريف يعلم الناس كيف يمنعون نسل الدود السليم من أن يمس أوراقا مسها دود سقيم، وبينما هو في هذا أصابه نزيف في المخ فكاد يموت. ولكنه سمع أنهم أوقفوا بناء معمله اقتصاداً وفي انتظار موته، فأغضبه ذلك وأصر على أن يعيش. فشل أحد نصفيه شللاً لم يشف منه تماماً في مستقبل أيامه، ولكنه قرأ كتاب الدكتور (سمايلز) في الاعتداد بالنفس، فاعتزم اعتزاماً قوياً أن يعمل بالرغم من عجزه، فبدل أن يرقد في فراشه، أو يستشفي على البحر، نهض في عسر على قدميه، وحجل إلى القطار، وسافر إلى جنوب فرنسا وهو يصيح غاضباً: (إن من الأجرام القعود عن تخليص الدود من الوباء، بينما الكثير من أربابه يطلبون القوت فلا يجدونه)
فاعجب به الفرنسيون وأكبروه إلا نفراً قليلاً يحبون الأذى؛ فهؤلاء قالوا: إنما صيحة قصد بها الدعاية لنفسه لا لخير الناس
وقضى بستور ست سنوات يجاهد أدواء هذا الدود المسكين، فإنه لم ينته من علاج

ندوته حتى ظهر به مرض جديد، ولكن بستور كان قد درب على هذا النوع من البحث فكشف عن مكروب الداء سريعاً، وجاءه دوماس الشيخ يشكره وقد امتلاءت عيناه بالدموع. وتحث عمدة (إلياس) عن إقامة تمثال من الذهب لبستور العظيم

وبلغت سنة الخامسة والأربعين، فاخذ ينعم حيناً بالمجد الذي كسبه من تخليص صناعة الحرير مما حاق بها، وذلك بعون الله وعون (جرنيه). ثم رفع عينيه إلى مجد أسمى، وأمل اسنى، وحلم مستحيل براق، حلم من تلك الأحلام التي ارتأتها نفسه الشاعرة، حلم من تلك الأحلام المستحيلة التي لا تضن الأقدار ببعض تحقيقها أحيانا؛ نعم رفع عينه الفنانة من

أمراض الديدان إلى أحزان الإنسان، ونفخ في البوق نفخة داوية يبشر المرضى البائسين بقرب بلوغ دار الأمان، قال: (إن في مقدور الإنسان أن يمسح عن وجه الأرض كل الأدواء التي يسببها تطفل الأحياء عليه، هذا على فرض أن نظرية باطلة، وأنا واثق من بطلانها)

وجاء عام 1870 بحصار باريس في ذلك الشتاء القارس، فخرج عنها تاركاً أعماله، تاركاً معامله، وذهب إلى قريته القديمة في جبال (الجورا). ثم ذهب إلى ميدان القتال يبحث بين الأشلاء عن جثة ابنه الصريع، وقد كان جاويشا في الجيش الفرنسي. وعلى هذه الأرض، وبين هذه الدماء، نشأ فيه كره للألمان ولكل شيء ألماني اخذ ينمو فيه ثم ينمو ويفيض حتى تشرب به كل عصب من أعصابه، وبقي معه بقية حياته. واتخذ من اجل ذلك الوطنية صناعة. واخذ يصرخ في الناس: (إن كل مؤلف من مؤلفاتي سيطالعكم عنوانه بكراهة بروسيا، وينشكم الثأر والانتقام.) وبسخافة فاخرة بدأ بحثه الأول فجعله للثأر والانتقام. واعترف أن بيرة فرنسا دون بيرة الألمان، فنهض يبحث ليجعل بيرة فرنسا فوق بيرة الألمان، بل فوق بيرات الأمم جمعاء

وقام برحلات كثيرة واسعة المدى إلى مخامر فرنسا الشهيرة، واخذ يلقى الأسئلة على كل من يلقى فيها، من رئيس الخمارين في معمله، إلى غسال الأواني البسيط في مغسلة. وذهب إلى إنجلترا فأسدى النصائح إلى الرجال الفنانين ذوي الوجوه الحمر الذين يحذقون صنع النبيذ الإنجليزي، والى الخمارين الذين يخرجون تلك الجعات القدسية بمدينة برتن وحرر مجهره إلى الألوف من البيرات، ورقب الخمائر وهي تنقسم وتصنع الكحول. وكان يقع أحيانا فيها على هذا الحي اللعين الذي وجده فيها أعواما مضى وأثبت أنه سبب فسادها، وكان ينصح لأصحابها بتسخين البيرة لقتل هذه الحييات، ويؤكد لهم أنهم لو فعلوا إذن لزادت بيرتهم جودة وطابت مذاقا، وإذن لاستطاعوا تسفيرها مسافات بعيدة وهى صالحة. وكان يسال أصحاب المخامر مالاً لمعمله، ويذكر لهم أن ما يجودون به اليوم يعود عليهم بالنفع في الغد إضعافا مضاعفة. وبهذا المال قلب معمله بمدرسة النرمال إلى مصنع صغير للبيرة، لمعت فيه البراميل النحاسية الجميلة، ووهجت الغلايات الصقيلة

وبدأ عملاً مجهداً متواصلاً، ولكنه لم يلبث أن سئمه، لأنه كان يكره طعم البيرة كما يكره

رائحة الطباق. وزاد منه سالماً أنه وجد أن الباحث العالم في البيرة لابد له من أن يكون ذواقاً حكيماً لها. ووجد كذلك البيرة الجيدة تحتاج في صناعتها إلى أمور أخرى غير منع المكروب من دخولها. وكان لعلم الفيزياء أستاذ يدعى برتان كاد يضحك من بستور لكراهيته إياها. كان بستور كلما أراد مذاقها جعد من انفه الأفطس، وغاص بشاربه في كوزها الراغي، وبلغ في عسر وكآبة ما تحتم بلعه من جرعاتها. كره البيرة ما فسد منها وما طاب. أما صديقه الفيزيائي فكان يلعق شفتيه بعد شربها ويصفقهما، ويتهلل وجه بشرا وتمتلئ أساريره خبثاً وهو يضاحك بستور فيها، لأنها بيرة ذاقها بستور وحكم عليها بالفساد. حتى لضحك منه مساعده الشاب، ولكنه لم يجرؤ بالطبع أن يضحك في وجهه. مسكين بستور! كان باحثاً قديراً، ولم يكن فيه جمود، ولم يكن فيه ركود، وكان سريع التحول، سريع التشكل للظروف، سريع الألفة لكل جديد - إلا البيرة. فحب البيرة كأنه يخلق ولا يكتسب. واللسان الذواق للبيرة تجود به الطبيعة على قليل من الناس، كالأذن الموسيقية ليست متاعاً لكل أحد

ومع هذا فلست أنكر أن بستور أعان صناعة البيرة الفرنسية إعانة كبيرة، وقد شهد

بهذا الخمارون أنفسهم، أما الذي أتشكك فيه فهو الذي يقول به أحبابه ومريدوه وعباده من إنه رفع البيرة الفرنسية فجعلها ند الألمانية. على أني لا أنكر ذلك عليه، ولكني أود لو عرضت هذه الدعوى على لجنة تحكيم من تلك اللجان العادلة الدولية الوقورة، من تلك اللجان الذي كان بستور نفسه يقترح على الدنيا أن تلجأ إليها كلما أزمته خصومة لتقضي له أو لخصمائه اللعينين. . .

(يتبع)

أحمد زكي

محاورت أفلاطون - 25

الحوار الثالث

فيدون أو خلود الروح

ترجمة الأستاذ زكي نجيب محمود

- كذلك كلما ازدادت البرودة على النار فإما أن تتراجع أو تفنى وإذ أن تكون النار تحت تأثير البرودة، فلن يلبثا ناراً وبرودة، كما كانت الحال من قبل

قال: هذا حق

- وفي بعض الحالات لا يكون أسم المثال مقصوراً على المثال، بل إن لكل شئ آخر حق المشاركة في الاسم، ما دام موجوداً في صورة المثال، من غير أن يكون هو المثال، وسأسوق إليك مثلاً لعل أوضح هذا القول: أليس يطلق دائماً أسم الفردي على العدد الفردي؟

- جد صحيح

- ولكن هل هذا وحده هو الذي يسمى بالفردي؟ أليس ثمت أشياء أخرى لها أسماؤها الخاصة بها، ويطلق عليها رغم ذلك اسم الضروري، لأنها وان كانت ليست هي الفردية ذاتها، غير إنها لا تخلو من الفردية قطعاً؟ - هذا ما أريد أن أستجيب عنه - أليست الأعداد، كرقم ثلاثة مثلاً، من نوع الفردي: وهناك غير هذا كثير من الأمثلة: الست تقول مثلاً أنه يجوز أن يدعى رقم الثلاثة باسمه الأصلي، ثم يطلق كذلك اسم الفردي، وليس الفردي هو الثلاثة ذاتها؟ وليس يقال هذا عن العدد ثلاثة فقط، بل إنه جائز أيضاً على خمسة، وعلى كل الأعداد المتعاقبة - كل منها فردي دون أن يكون هو الفردية؛ وهكذا قل في اثنين وأربعة وسائر سلسلة الأعداد المتعاقبة، كل عدد زوجي دون أن يكون هو الزوجية. هل تسلم بهذا؟

قال: نعم، وهل إلي إنكاره من سبيل؟

- الق بالك إذن إلى الغاية التي انشدها؛ ليست الأضداد المعنوية وحدها هي التي يطرد بعضها بعضاً، بل كذلك الأشياء المجسدة التي ولن لم تكن متضادة في ذاتها إلا أنها تحتوي أضداداً؛ وأنا أزعم إن هذه الأشياء أيضا ترفض المثال الذي يكون مضاداً لما تحويه في داخلها، وهي إذا ما تقدم ذلك فأما أن تنسحب أو تفنى. خذ عدد ثلاثة مثلاً، أليس يصبر على التلاشي أو أي شيء آخر، أهون عليه من أن يتحول إلى عدد زوجي مع بقائه ثلاثة؟

فقال سيبس: جد صحيح.

قال: ومع ذلك فلا ريب في أن العدد اثنين ليس مضاداً للعدد ثلاثة؟

- إنه لا يضاده

- إذن ليست المثل المتضادة وحدها هي التي يقاوم بعضها تقدم بعض، ولكن ثمة أشياء أخرى تقاوم كذلك اقتراب الأضداد؟

- فقال: هذا جد صحيح

قال: هبنا نحاول تحديد ماهية هذه (الأشياء) إن أمكن ذلك

- لا ريب في هذا

- أليست هذه يا سيبيس ترغم الأشياء التي في حوزتها على أن تتخذ شكل بعض الأضداد فضلاً عن شكلها هي؟

- ماذا تعني؟

- أعني، كما كنت أقول تواً، وما ليس بي حاجة لأعادته إليك، إن الأشياء التي يملكها العدد ثلاثة، لا يلزم فقط أن تكون ثلاثة في عددها، بل ينبغي كذلك أن تكون فردية

- جد صحيح
- ويستحيل على المثال المضاد أن يعتدي على هذه الفردية التي انطبع العدد ثلاثة بطباعها؟
- كلا
- وهو إنما استمد هذا الطابع من عنصر الفردي؟
- نعم
- والزوجي والفردي ضدان؟
- حقاً
- إذن فمثال العدد الزوجي لن يلحق بثلاثة أبدا؟
- كلا
- وإذن فليس لثلاثة في الزوجي من نصيب؟
- كلا
- إذن فالثلاثي أو العدد ثلاثة غير زوجي
- جد صحيح
لا عد إذن إلى ما زعمته من تمييز بين الطبائع التي ليست أضدادا وهي مع ذلك لا تقبل أضدادا. فكما في هذا المثال: على الرغم من أن ثلاثة ليست مضادة للزوجي أبدا، ولكنها دائماً تعرض الضد في الجانب الأخر أو كما أن اثنين لا تتقبل الفردي، أو النار البرودة. ومن هذه الأمثلة (ومنها كثير غير هذا) ربما استطعت أن تصل إلى نتيجة عامة أنه ليست فقط الأضداد هي التي لا تتقبل أضدادا، بل كذلك لاشيء مما يسوق الضد يقبل ضد ما يسوقه فيما سيق إليه. واسمح لي هنا أن ألخص ما سبق من قول - فليس في التكرار من ضرر، لن يقبل العدد خمسة طبيعة الزوجي، اكثر مما تقبل عشرة، وهي ضعف الخمسة، طبيعة الفردي - ولو أن الضعف ليس مضاداً للفردي تضاداً دقيقاً، غير أنه يرفض الفردي أجمالا. ولن تقبل أجزاء النسبة 2: 3 فكرة الكل، وكذلك أي كسر يكون فيه نصف، لا بل والذي يكون فيه ثلث، ولو إنها ليست مضادة الكل، هل تسلم بذلك؟
فقال: نعم أنى متفق تماماً، وذاهب معك إلى ذلك
قال: أظنني الآن أستطيع أن أبدأ ثانياً، وأني لأرجوكم أن تدلوا إلي عن هذا السؤال الذي أوشك أن ألقيه، بجواب غير الجواب القديم المأمون، وسأقدم لكم لما أريد مثالاً، وعسى أن تجدوا أساسا أخر فيما قيل الساعة تواً يكون مأمونا كذلك، أعني أنه لو سألكم أحد: (ما هو الشيء الذي يجعل الجسم حاراً بحلوله فيه؟) فستجيبون أنه ليس الحرارة (وهذا ما ادعوه بالجواب المأمون)
ولكنه النار، وهو جواب يفضل ذلك كثيراً، ونحن الآن مهيئون للإدلاء به. أو لو سألكم أحد: (لماذا يعتل الجسد؟) فلن تقولوا من المرض بل من الحمى، وفي مكان القول بان الفردية هي سبب الأعداد الفردية ستقولون إن الجوهر الفرد هو سببها. وهكذا في الأشياء بصفة عامة. احسب انك ستفهم ذلك فهماً جيداً بغير أن أسوق إليك أمثلة أخرى؟
فقال: نعم أني افهم ما تقول فهماً جيداً -
(يتبع)
زكي نجيب محمود
شاعرنا العالمي أبو العتاهية - 5
للأستاذ عبد المتعال الصعيدي
وكان أبو العتاهية في عهد المهدي يلازم ابنه هارون، وكان ابنه وولي عهده موسى الهادي يجد على أبي العتاهية لملازمته أخاه، فلما ولي العهد الهادي بعد المهدي أراد أن يقصيه عن أخيه هارون فلم يطعه، ثم أمره أن يخرج معه إلى الري فأبى ذلك، ولكنه لم يلبث أن خافه وتهيب بطشه به، وكانت الملوك في عهده لا تحتمل مثل هذا النوع من المخالفة، والاعتداد بالكرامة النفسية، والمحافظة على العهد في حالتي الأمن والخوف، فقال يستعطفه:
ألا شافع عند الخليفة يشفع ... فيدفع عنا شر ما يُتَوَقَّعُ
وإني على عظم الرجاء لخائف ... كأني على راس الأسنة تشرع

يرَوَّعني موسى على غير عثرة ... ومالي أرى موسى من العفو أوسع
وما آمنُ يمسي ويصبح عائداً ... بعفو أمير المؤمنين يرَوعُ
وإنك لترى أبا العتاهية لا ينزل في هذا الاستعطاف إلى الاستخذاء والخنوع، ونسيان الكرامة وعزة النفس، فلا يقول في ذلك ما قال النابغة الذبياني قبله للنعمان بن المنذر:
فإن أك مظلوماً فعبد ظلمتَهُ ... وإن تك ذا عتبى فمثلك يُعتِبوا
بل يقول له هذا القول (يروعني موسى على غير عثرة)، فينصف نفسه في هذا الموقف الذي تجحد فيه النفوس، ولا يرى حقاً للهادي في ترويعه على غير ذنب جناه، كما يرى النابغة للنعمان أن يظلمه لأنه عبده.
وقد روى صاحب الأغاني بعد ذلك أنه ولد الهادي ولد في أول يوم ولي الخلافة، فدخل أبو العتاهية فأنشده:
اكثر موسى غيْظَ حساده ... وزين الأرض بأولاده
وجاءنا من صلبه سيد ... أصْيدُ في تقطيع أجداده
فاكتست الأرض به بهجة ... واستبشر المُلْكُ بميلاده
وابتسم المنبر عن فرحة ... علت بها ذروة أعواده
كأنني بعد قليل به ... بين مواليه وقواده
في مَحفِلٍ تخفق راياته ... قد طَبّق الأرض بأجناده
فأمر له الهادي بألف دينار، وطيب كثير، وكان سخطاً عليه فرضى عنه
فذا صحت هذه الرواية فلابد أنه عاد فسخط عليه حين رآه لم ينقطع عن أخيه هارون، وحين أمر أن يخرج معه إلى الري أبى ذلك، وبهذا تتفق هذه الرواية مع ما قبلها، ولا تكون متنافية معها، وإن كنا نستبعد أن يعنى مثل أبي العتاهية بتهنئة الهادي بذلك المولود في ذلك اليوم، ولا يعنى بتهنئته بهذا الملك الذي صار إليه فيه، فلعل حادثة ذلك المولود كانت بعد يوم ولاية الهادي وبعد رضاه عن أبي العتاهية
وقد عاد مع الهادي بعد رضاه عنه إلى مثل ما كان عليه في عهد المهدي، واتصلت فيه مدائحه، واتصلت من الهادي له صلاته وجوائزه. ومما مدحه به على مذهب أبي نواس في بدء المديح بذكر الخمر ووصف محاسنها:
لهفي على الزمن القصير ... بين الخَوَرْنقِ والسَّدير
إذ نحن في غُرفِ الجنا ... ن نعوم في بحر السرور
في فتية ملكوا عِنَا ... ن الدهر أمثال الصُّقُور
ما منهم إلا الجسو ... ر على الهوى غير الحَصور
يتعاورون مُدامة ... صهباَء من حلب العصير
عذراَء رباها شعا ... ع الشمس في حرَّ الهجير
لم تَدْنُ من نار ولم ... يعلق بها وَضرُ القُدور
ومُقرْطقٍ يمشي أما ... م القوم كالرشأ الغرير
بزجاجة تستخرج الس ... ر الدفين من الضمير
زهراء مثل الكوكب الدُّ ... رِّيِّ في كف المدير
تدع الكريم وليس يد ... ري ما قَبيلُ من دَبير
ومخصّراتٍ زرننا ... بعد الهدو من الخدور
رياً روادفهن يل ... بسن الخواتم في الخصور
غُرُّ الوجوه محجبا ... ت قاصرات الطرف حور
متنعمات في النعي ... م مضمخات بالْعَبير
يرفلن في حلل المحا ... سن والمجاسد والحرير
ما إن يرين الشمس إلا ... القرط من خَلَل الستور
والى أمين الله مه ... ربنا من الدهر العثور
وإليه أتعبنا المطا ... يا بالرّواح وبالبكور
صُعر الخدود كأنما ... جُنَّحن أجنحة النسور
متسربلات بالظلا ... م على السهولة والوعور
حتى وصلن بنا إلى ... ربَّ المدائن والقصور
ما زال قبل فطامه ... في من مكتهل كبير

ثم انتهى عهد الهادي وحال أبى العتاهية معه مستقيمة كحاله مع المهدي؛ فلما جاء عهد هارون الرشيد كان الظنون أن يكون حاله معه اكثر استقامة من حاله مع أبيه وأخيه، لما سبق من ملازمته له، وانقطاعه إليه انقطاعاً كان يحسده الهادي عليه، ولكن حاله في هذا العهد جاءت على خلاف ما كان يقدر لها. وهنا تضطرب الروايات عن أبى العتاهية بقدر اضطراب أمره، وتغير حاله

روى صاحب الأغاني أنه لما مات الهادي قال الرشيد لأبي العتاهية: قل شعراً في الغزل، فقال: لا أقول شعراً بعد موسى أبدا، فحبسه وأمر إبراهيم الموصلي أن يغني، فقال لا اغني بعد موسى أبدا - وكان محسناً إليهما - فحبسه. فلما شخص إلى الرقة حفر لهما حفرة واسعة وقطع بينهما بحائط، وقال: كونا بهذا المكان لا تخرجا منه، حتى تشعر أنت ويغني هذا، فصبرا على ذلك مدة حتى قال أبو العتاهية لإبراهيم: إلى كم يا هذا نلاج الخلفاء؟ هلم اقل شعراً وتغني فيه، فقال أبو العتاهية:

بأبي من كان في قلبي له ... مرة حبُّ قليل فَسُرِقْ
يا بني العباس فيكم ملك ... شُعَب الإحسان منه تفترق
إنما هارون خيرٌ كله ... مات كل الشر مذ يوم خلق

وغنى فيه إبراهيم، فدعا بهما الرشيد فأنشده أبو العتاهية وغناه إبراهيم، فأعطى كل واحد منهما مائة ألف درهم ومائة ثوب

وروي مرة ثانية عن محمد بن أبي العتاهية قال: كان أبي لا يفارق الرشيد في سفر ولا حضر إلا في طريق الحج، وكان يجري عليه في كل سنة خمسين ألف درهم، فلما قدم الرشيد الرقة لبس أبي الصوف وتزهد، وترك حضور المنادمة، والقول في الغزل وأمر الرشيد بحبسه، فلم يزل يكتب إليه الشعر يستعطفه حتى كتب إليه:

وكلفتَني ما حلت بيني وبينه ... وقلت سابغي ما تريد وما تهْوى
فلو كان لي قلبان كلفت واحدا ... هواكَ وكلفت الخليَّ لما يهوى

وروي مرة ثالثة عن محمد بن أبي العتاهية قال: لبس أبو العتاهية كساء صوف ودراعة، وإلى على نفسه أن لا يقول شعراً في الغزل، وأمر الرشيد بحبسه والتضييق عليه فقال:

يابن عم النبي سمعاً وطاعة ... قد خلعنا الكساء والدُّرّاعة
ورجعنا إلى الصناعة لما ... كان سخط الأمام ترك الصناعة

فلم يزل الرشيد متوانياً في إخراجه إلى أن قال:

أما والله إن الظلم لومُ ... وما زال المسيء هو الظَّلوم
إلى ديان يوم الدين نمضي ... وعند الله تجتمع الخصوم
لأمر ما تصرفت الليالي ... وأمر ما توليت النجوم
تموت غداً وأنت قريرُ عين ... من الغفلات في لجج تعوم
تنام ولم تنم عنك المنايا ... تنبه للمنية يا نَؤوم
سل الأيام عن أمم تقضت ... ستخبرك المعالم والرُّسوم
تروم الخلد في دار المنايا ... وكم قد رام غيرك ما تروم
ألا يا أيها الملك المرجيّ ... لميه نواهض الدنيا تحوم
أقلني زَلةً لم اجر منها ... إلى لوم وما مثلي مَلوم
وخلّصني تُخلّص يوم بعث ... إذا للناس بُرِّزتِ الجحيم

وسنستوفي فيما بقي من هذه الروايات في هذا الشأن الجديد الذي صار إليه مع الرشيد، ونعمل على التوفيق بينهما، ونرد هذه الحال الجديدة في أبي العتاهية إلى أسبابها الحقيقية

عبد المتعال الصعيدي

قبر الغريبة

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

قالها على لسان أحدهم يخاطب قبر حبيبته التي ماتت غريبة

قبرَ الغريبة لا باكٍ ولا ناع ... سوى محبٍّ من حزنه داع
قبر الغريبة لا ماء ولا زَهَرُ ... إلاّ دموعي وأشعاري وأسجاعي
والشعر من عنصر الراديوم جوهرُه ... فليس ينفكّ ذا ومضٍ وإشعاع
ماتت وصورتها في العين ماثلة ... أخِلَّتي لم تمت أم لستُ بالواعي

كأنها من شقوق القبر ناظرة ... إليّ نظرةً مُلتاعٍ لملتاع
نزيلةَ القبر قولي: لستُ ميّتةً ... وقد تنبهت أرنو بعد تهجاع
أم ليس ما أنا راء في حقيقته ... سوى خيالٍ لمن أراه خدَاع
فأنت ميّتة أودعتُها بيدي ... قبراً وبالرغم عني كان إبداعي
حزني شديد وأوجاعي مبرّحة ... ماذا يخفف أحزاني وأوجاعي؟
دع الدفينة تحت القاع راقدة ... فالقاع ليس لما فيه بمضياع
تحفّ بالميت أشياع لتدفنه ... أمّا الغريب فلا يحظى بأشياع
ما كان حادث هذا الموت في بلدي ... لغير قلبيَ في صدري بصدّاع
في كل عمريَ قد أحببتُ واحدة ... وهذه ارتاحت في آخر الساع
ألمعت للركب استبقيه ملتمساً ... فلم يردّ إليَ الركبَ إلماعي
ما الأرض وهي لنا أمٌّ بمشفقة ... فطالما أوقعت بي شر إيقاعي
ولم اكن هابطاً منها لأودية ... ولم اكن لثناياها بطلاّع
ما كنت احسب أن الدهر يفجعني ... بمن أحَبَّ فؤادي شر أفجاع
والدهر مازال منّاعاً لنائله ... عن بعضهم ولبعضٍ غير منّاع
كانت محاسنها اللائي فُتِنتُ بها ... يملأن قلبي وأبصاري وأسماعي
كنت السعيد بماضٍ كان يجمعنا ... معاً لو أن إليه جاز إرجاعي
في الحب تُسطاع أشياءٌ وان عسرت ... إلاّ السلوّ فهذا غير مسطاع
ما أن ذكرتكِ في سري وفي علني ... إلاّ توثَّب قلبي تحت أضلاعي
أحِسّ في حين طرفي لا يراكِ إلى ... جنبي بوخزٍ كحرّ النارِ لذّاع
لهفي على أعين وقّادة طفِئت ... بعاصفٍ هبّ يسفي الموتَّ زعزاع
قد كنتِ يوم اجتماع الغيد مفردةً ... ككوكبٍ في سماء الحسن لمّاع
سمراء فاتنة العينين خالقُها ... قد أبدع الحسنَ فيها أيّ إبداع
ما قيمة العيش في معزولة شطنت ... ما إن بها لنفوسٍ أوذيت راع
أتأذنين بدفني إن هلكتُ إلى ... جوار قبركِ في جوفٍ من القاع
فتلتقي في الثرى منا الجسومُ وإن ... كنا ولا أحدٌ منا به واع
إن انتظارك فيه لا يطول فبي ... تدنو إلى القبر أدوائي وأوجاعي
أما دنوّيَ من حتفي فيُفرحني ... كأنما أنا من نفسي له ساع
موتُ الحبيبة في دنياي زهّدني ... فلستُ إلاّ إلى حَيني بنزّاع
بكِ التحاقي أكيدٌ لا ارتياب به ... فلا يضيركِ إبطائي وإسراعي
وسوف نسبح في هذا الفضاء معاً ... وقد نطوف بشمس ذات أتباع
لا يُفزعنّكِ بحرٌ للأثير طمى ... وما هنالك من موجٍ ودفّاع
(بغداد)

جميل صدقي الزهاوي

نشيد المجد

بقلم إلياس قنصل

من ديوان (السهام) الذي يصدر قريباً

إلى المجد سرْ، واغنم أكاليل غاه ... بهمّةِ جبارٍ له الخلد مأربُ
وكن قوةً يَعنو الجلالُ لبأسها ... ويسبقها من سؤدد الفضل موكب
وإن ناصبتْك الحربَ دنياك كلها ... وحفّكَ من ليل الحوادث غيهب
فلا تشكُ فالشكوى احتضارُ مخيّبٍ ... ولن يستحقّ النور شاكٍ مخيبُ
بل استلّ من عالي أباك مهنّدا ... تغلغل فيه من مضائك كهرب
وكافحْ به صرف الزمان وقل له ... سأبعث فيك الرعب من حيث تهرب
أورِ زناد الكدّ واخلق أشعةً ... من الحزم لا ينتابُها الدهر مُغرب
وشقّ بها درباً إلى كل غايةٍ ... سناها على عطر الثنا يتغلّب
وإن بتَّ مهضومَ الحقوق ولم تثرْ ... فلستَ بذي نفسٍ إلى الله تُنسب
- براها، ورقاها لتغدو على الثرى ... خليفتَه - وهْوَ العزيز المغلّوب
وما الموت إلا الضعف والجبن والونى ... وما العيش إلا نيل ما أنت ترغب
وما النفس إلاَّ عزة وكرامة ... يظلّها من طارف النبل مذهبُ

عاصمة الأرجنتين
إلياس قنصل
ذكرى محمد في عيد ميلاده
للأستاذ محمود غنيم

هو عيدُ ميلادِ ابنِ منافِ ... لا عيدُ مخترعٍ ولا كشافِ
أكبرتُ قدرَك يا ابنَ عبدِ الإلَه عن ... تأليف أوزانٍ ونحتِ قواف
ما أنت إلا عيلمٌ لم يُكتشف ... يَطغَي بلجَّتِه على الوصَّاف
بحرٌ خضمَّ غير أن جُمانَه ... مازال سرَّاً داخل الأصداف
لولاك لانقطع الزمان فلم تكن ... حلقاتُه موصولةَ الأطراف
دجت القرونُ فقام دينُك حارساً ... يحمي ذمار حضارةِ الأسلاف
هزَّ الوجودَ في بكفَّه في مهده ... طفلٌ يتيمٌ من كنانةَ عاف
جادت به الفلواتُ أصفى طينةً ... وطويةً من جوَّهنَّ الصَّافي
وأشدَّ من هَضَبَاتِهِنَّ صلابةً ... وأهبَّ من إعصارهن السَّافي
فإذا الأكاسرُ خاضعون لحكمه ... وإذا القياصرُ مرغمو الأناف
فتحت مبادئُه الحصونَ أمامَه ... قبل الصوارم والقَنَا الرعَّاف
غزت القلوب بسحرها فكأنها ... قد لامست منهنَّ كل شِغاف
أين الذي يغزو القلوبَ من الذي ... يغزو الرقاب بحدَّة الأسياف؟
تلك المبادئُ - وهي شتى - جمعت ... في مبدأين: الحقَّ والإنصاف
آخَى ابنُ عبدِ اللهِ بين معاشرٍ ... يتناحرون تناحرَ الأخْيَاف
لانت قناتُهمو لدعوته وما ... لانت قناتُهمو لغمزِ ثِقاف
ولقد يروض الأسَد رائضُها ولا ... يتغيَّر الطبعُ الغليظُ الجافي
هذا هو الأعجازُ لا بحرُ ولا ... بدرٌ قد انشقَّا إلى أنصاف
آيٌ من الذكر الحكيم أتى بها ... فإذا القلوب تلين بعد جَفاف
ولو أن ألقَيْ دوحةٍ سجداً له ... ما كان ذلك بالدليل الكافي
عجباً! أجاء محمد بالسحر في ... آياته أم شابها بسلاف؟
أم كان تنويماً خضوعهمو له ... ما ذلك السر العويصُ الخافي؟
أسرت قريشٌ مسلماً في غزوة ... فمضى بلا وجل إلى السياف
سألوه هل يرضيك أنك سالم ... ولك النبي فدًى من الإتلاف
فأجاب كلا لا سلمت من الردى ... ويُصابَ أنفُ محمدٍ برعاف
أقسمتُ ما كان النبي محمدٌ ... بمشَعْوذٍ كلا ولا عرَّاف
ليس النبي بساحرٍ يتلو الرُّقى ... ويُخيف بالأشباحِ والأطياف
لكنه الأيمان من يظفْر به ... يَلْقَ المفاوزَ سهلة الاكْناف
لو آمن الجبلُ ارتقى فوق السُّهى ... بقوادمٍ من ريشة وخواف
هذا الذي جعل النبيَّ ورهطَه ... إن حاربوا انتصروا على الأضْعَاف
يزداد في ساح الوغى إيمانُهم ... فيقابلون الموت باستخفاف
يُسْتَضْعَفُون لقلَّة لكنهم ... بوثوقهم في الله غيرُ ضعاف
فإذا دُعُوا للحرب هُبُّوا أو دُعُوا ... للمال عفُّوا عنه أيَّ عفاف
قم سائل الأعرابَ أيةَ دولة ... نهضوا بها حملاً على الأكتاف
بزَّت أثينا في الحضارة أمة ... لم تأوِ غيرَ مضاربٍ وفياف
شُغلوا بفلسفةٍ وعلم بعدما ... شُغلوا بوصف منازلٍ وأثاف
تخذوا القصور مساكناً وتسربلوا ... بالخز لا الأوبار والأصواف
فإذا الجزيرة بعد جَدْب جنةٌ ... مياسةٌ مهتزةُ الأعطاف
يا رُبَّ أسطولٍ بنَوْءَ كأنه ... بحرٌ خضمٌّ فوق آخَرَ طاف
السُّوقةُ الأجلافُ قد حكموا الورى ... أنْعم بحكم السوقة الأجلاف
ما شئت من عدل وتسوية ومن ... شورى فيا لثلاثة الأحْلاف
يا شرق يا مهدَ الشرائع رحمةً ... لك، ما لأهلك فيك كالأضياف؟
يا شرق أنت لكل شمس مطلعٌ ... ما بال أفقك حالك الأسْداف
أعْزِزْ علينا أن نراك تئنُّ من ... تقييد أقدام وشدِّ كِتَاف

بدأت من الشرق الحضارةُ سيرها ... أفما لرحلتها من استئناف؟
محمود غنيم
القصص
من أساطير الإغريق
هرقل
مولده. نشأته. قوته الخرافية. مجازفاته
للأستاذ دريني خشبة
كان قلب الإله الأكبر شيوعية في دولة الحب. . . ولم يكن يقصر هواه على ربات الأولمب فحسب، بل كان يفتتن بكل حسناء من بنات حواء وطالما وصل أسبابه بأسباب الغيد الأماليد من ظباء دار الفناء. . هذه الحياة الدنيا. . .
ولقد كانت زوجه حيرا تقعد له بالمرصاد، لما تعرف من تصابيه، ولقلة ثقتها فيه، فلما علق الفتاة الفاتنة، ألكمين، إحدى أميرات هيلاس، كان يبالغ في الحذر حتى لا تفجأه زوجه معها كما فجأته مع الحسناء يو من قبل
ونعم الحبيبان بحياة راضية، ووضعت ألكمين طفلها العاتية الجبار هرقل، وما كاد النبأ يذيع في دولة الأولمب حتى ثارت ثائرة حيرا واسقط في يدها. . . لأنها لم تعد تستطيع الانتقام لكبريائها من منافستها في قلب زوجها (زيوس) تلك المنافسة التي ارتفعت إلى مرتبة الآلهة بعد إذ وضعت غلامها ابناً لسيد أرباب الأولمب
ولكنها، وهي المجبولة على الشر دائماً، آلت إلا أن يرتد نور الحياة المتلألئ ظلاماً في عيني ألام، وذلك بالفتك بوليدها المحبوب، فأمرت حيتين رقطاوين من أبالستها أن تسعيا إلى مهد الطفل، وان تندسا فيه، حتى إذا سنحت لهما فرصة أودتا بحياته، وعادتا بإثارة منه تشهد على إنفاذ ما أمرتا به
وسعت الحيتان حتى استقرتا في المهاد الوثير، وانتهزتا غفلة من الخدم فانقضتا على الفريسة الصغيرة، وأوشكتا أن تظفرا بها. . .
ولكن هرقل الصغير الهادئ، افتر عن ثغر شتيت مشرق، وقبض بأصابيعه الصغيرة الدودية على راس كل من الحيتين، وبضغطتين هائلتين حطم عظامهما جميعاً. وكان الخدم قد اقبلوا، فلما شهدوا الأفعوانين صرخوا وأعولوا، بيد أنهم بهتوا وطار الصواب من
أدمغتهم حينما رأوا أن الصغير، المنبطح على ظهره يضرب بظهره ها هنا وها هنا، قد قضى على الحيتين العظيمتين وألقاهما ضحيتين غير مباركتين على مذبح قوته الخرافية!!
وقدمت الكمين إلى صدرها الهائل! فرحة مستبشرة، وطبعت على جبينه الضاحك قبلة حملت أسمى معاني الأمومة
وذهلت حيرة عندما سمعت بما صنع الغلام بشيطانيها، وأيقنت ألا سبيل إلى القضاء عليه، ولكنها لم تيأس، وأقسمت أن تنثر الشوك في مستقبله القريب، وثبت العراقيل في حياته الجائية
وشب هرقل. . .
ونشأه مؤدبه، شيرون، زعيم السنتور، تنشئة حربية حافلة، ولقنه كل ما تحتاج إليه حياة الفرسان من تقشف وخشيشان؛ فمهر هرقل في زمن قصير في استعمال الأسلحة بأنواعها، ونبغ في جميع صنوف الرياضة والعاب الفروسية والقوى وكان شيرون نفسه يعجب بهذا الجسم الحديدي، يمسكه العضل البارز، ويزينه الكيان المفتول. . . وكان إذا أراد تدريبه على المصارعة والعاب القوة، آثر أن يشركه في نزال مع الثيران والعجول، والضخم ذو الأيد من بهيمة الأرض. وكان هرقل لا يخشى شيئاً من خصومه العجماوات، بل كان يقبل على مصارعتها بثغر بسام وقلب طروب، فلا يدعها معفرة بالتراب! وخشيته الحيوانات جميعاً، فكانت تجفل من طريقه كلما رأته مقبلاً نحوها، لطول ما جربت من بطشه وشديد بلائه!
وكان الفتى كلما ازداد قوة، وذاب الحديد في عضلاته، ازدادت حيرا تغيضاً وهاجت في فؤادها الأحقاد!
ولم تعد تطيق صبراً على هذا الخصم العنيد، ومادت بها الأرض، وأصبحت كأن يعاسيب العداوة تظن في رأسها تغريها بهرقل، ومن يلوذ بهرقل، فانطلقت إلى زوجها ولم تزل

به حتى اصدر إرادة أولمبية تقضي أن يصبح هرقل خادماً لابن عمه، النذل الخسيس، يوريذوس أمير ارجوس، وأن يظل في خدمته بضع سنين. . .
وانتهى هرقل من تلمذته على شيرون وانطلق يكابد كفن قاس ملئ بالرغائب، مفعم بالمجازفات. فبينما كان يعبر طريقاً معروشاً بفروع السنديان، بين غابتين عظيمتين، إذا
غانيتان جميلتان تعترضانه وتأخذان على سبيله. . . فأشاح عنهما، يحسبهما من المسكينات ملفوظات البغاء، أو من أولئك اللائي يتخذن الفسوق حرفة قذرة إلى عيش وضيع. ولكن الفتاتين تشبثا به، وأبتا إلى أن يقف معهما هنيهة، يتخير منهما واحدة تكون رائدته في هذه الحياة، تهديه وترشده وتأخذ بيده في سبلها المتشعبة وكانت إحدى الفتاتين، (كاكيا)، شيطان الأثم، وإبليس الفجور في هذه الأرض. فتقدمت إليه متبرجة متهتكة، تغمز بهذا الطرف، وتبسم بذاك الثغر، وتهز ما سكن من الجيد، وتمط ما أشرب من العنق، وتحسر عن الساقين، وتكشف عن الذراعين، ثم هي تقرقع بضحكات مخنثة تثير الاشتهاء في نفس الشاب، وتستولي بها على مشاعره: (أنا، حبيبتك كاكيا، أجمل غادات هيلاس ومفتحة الورود في خدود العذارى، أضع قلبي وجسمي بين قدميك يا هرقل العزيز، مطية إلى الفردوس التي تجد فيها ما شئت من نعيم وما تمنيت من لذة. . . فاتبعني اجعل الدنيا كلها من حولك سعادة، وأصير طريقك أني ذهبت في الحياة منضورة بالورد، زاهرة بالرياحين. . . هلم ألي نحي حياة كالحلم، بعيدين من عناء العالم، نائمين عن شقاء الدنيا، لانفتح عينينا إلا متعة، ولا نرهف سمعينا إلا لموسيقى، ولا نغلق قلبينا إلا على نعيم. . .
مالك ولشد ارداد وجه الحياة يا حبيبي هرقل؟ إن الدنيا فرصة سانحة فانتهزها، وان العمر قصير ألا تلق به بخوراً في نار البأساء، وأن الأيام لتخب بنا دون أن نشعر بها، فلم نحاول أن نلبسها بالجد فيها هذا اللبوس الأسود الحزين القاتم؟ ولم لا نرسلها في وشي وافواف، لم لا نسمع دائماً لما توحيه ألينا قلوبنا ونفوسنا ما دامت الدنيا مخلوقة لها؟ لم تطرق هكذا يا حبيبي؟ أمتعب أنت؟ هات رأسك إذن، ودعه ملقى على صدري الجميل الخصب. . .)
ولكن الفتى نفر نفرة بادية، وأرسل نظرة فاحصة إلى (اريتيه)، الفتاة الأخرى، التي كانت تقف عن كثب، مصغية إلى حديث كاكيا، مشفقة على الشاب المسكين. أما اريتيه هذه فربة الفضيلة، ونفحة السماء، وهادية البشر ومنقذتهم من شرور كاكيا. . .
وسألها هرقل: (وأنت أيتها الفتاة، بم تشيرين؟) وقالت اريتيه، وهي تكفكف عبرة غالية: (انا؟ لا أشير عليك بشيء أيها الصديق إلا بالحذر من هذه الغادة! أنها توشك أنا تظلك وترديك!) فغضبت كاكيا وأخذها الحنق، وأجابت في غلظة ومخاشنة: (أضله وأرديه؟
هاها. . . وأنت أتسلكين به سبيل الفضيلة الذي زرعت أرضه قتاداً، وبرزت فيها أنياب الذئاب؟ اسمع يا هرقل، أصغ ألي يا حبيبي، دعك من هذه الفتاة المحتشمة. . إليك عنها. . . إنها تغطش حياتك لو تبعتها. . .)
وتبتسم اريتيه ابتسامة هادئة وتقول: (أن الآلهة يا هرقل قد زودتك بهذه القوة الكامنة في بنيانك لغرض أسمى من جميع الأغراض الحيوانية، وقد كان أجدى للخير العام أن تخلق ثوراً ذا خوار من أن تودع كل هذا الحديد في عضلاتك، لو لم تكن قد أعدتك لفعال جسام لن يؤديها غيرك. اجل! أن طريقي لا ينمو بها غير الشوك، وأنها تدمي الأقدام وتجهد السائرين، ولن ترى فيها زهرة ولا ريحانة، بل لن تسمع بها عصفوراً يغني ولا بلبلاً يغرد، وبالعكس، قد تقتتل فيها مع السباع والضواري والثعابين، ولكنك في أخر كل نصر، وعقبى كل ظفر، ترى جنة من الرضى تحفك بالزهر، وترقص بين يديك بالغواني والقيان. أما هذه. أما ما تغريك به هذه الأنثى الهلوك، ففيه حتفك، فحذاري. وليس احب إليك كرجل كان له الشرف أن يكون ابن إله من أن تثبت للإله انك جدير بما انتدبتك له)
وسكتت اريتية ولكن كاكيا لبثت تدل وتتيه وتتبرج تحاول الفوز بهذا القنص العزيز. غير أن نخوة الرجولة ثارت في قلب هرقل فانتهر الغانية الغاوية واغلظ لها ثم تقدم إلى اريتية فتناول يدها الصغير الحلوة وطبع عليها قبلة تفيض وقاراً واحتراماً ثم قال لها بصوت متهدج خافت: (هلمي بنا يا فتاة فلن أخشى في سبيلك بأساً ولا رهقا)

. . .وانطلقا. . . وغابا في ظلام الغابة
ولم يبرح هرقل معينا للضعفاء مغيثاً للملهوفين إذا رأى مظلوماً انتصف له من ظالمه وإذا لقي جائعاً نزل له عن زاده؛ ولم يبرح ينصر الفضيلة أنى سار، ولم تبرح الفضيلة تمشي في أثره أيان، ولى حتى ضاقت الدنيا بحيرا ولم تعد تحتمل هذا الغار من المجد يكلل هامة خصمها العظيم، ولاسيما بعد أن اتصل بالملك كريون ملك طيبة وزواجه من ابنته الجميلة ميجارا
لقد أحب هرقل زوجته حباً جما وأحبته هي كذلك وأخلصت له وكانا يذهبان إلى الغابة القريبة يتناجيان نجوى الحب ويرشفان كؤوس الهوى ويعودان مع الأصيل فيسامران الملك الشيخ ويدبران معه أمور المملكة. ثم مكرت حيرا مكرها. . .!
لقد صممت على أن تسلب هرقل رشده وتتركه يهيم في الأرض ينطح برأسه الصخر كما يفعل الضلال المجانين. فبينما كان غاراً في أحلام السعادة إلى جانب زوجته آمنين مطمئنين إذا حيرا الآثمة تندس في ظلام المخدع وتنفث سحرها الفظيع في أذني هرقل وتمضي لشانها فتختبئ في الحديقة خلف دوحة كبيرة من دوح الشاهبلوط. . . وتنظر ثمة ريثما يصحو الزوج المسكين فتشهد المأساة التي تتفزع من هولها الأرض وتميد الجبال. . .!
وأشرقت الشمس!
واستيقظ هرقل ونهضت ميجارا ولكن ناراً كانت تقدح الشرر في عيني البطل! وزبداً حاراً كان ينقذف من فمه المخوف! وأصواتا كأصوات الشياطين كانت تدوي في رأسه الضخم. . .
والدم. . .!
لقد كان ينبثق من كل جارحة في جسمه الأرجواني فيصبغ اللحف والأرائك ويسيل على أديم الغرفة المغطى بالدمقس! وذعرت ميجارا وصرخت صرخات راجفة تدعو أباها. . ولكن هرقل المسحور ينتفض انتفاضة تزلزل أركان القصر وينقض على زوجته التعسة كأنه ضبع: (تعالي يا خائنة! أين كنت طيلة الليلة الفائتة؟ آه! أجل! كنت تتمرغين بين ذراعي عشيقك الجبان! الويل لكما! شرف هرقل تلغ فيه الكلاب!) وبضغطة قوية من يديه الصارمتين على عنق الفتاة المنكودة يتركها جثة هامدة قرباناً لموت في عنفوان الصبا وضحية للردى في ريعان الشباب. . .
وانطلق يصرخ في ردهات القصر وهرول يزمجر في حنيات الحديقة ثم أطلق ساقيه للريح. . .
وفي قنة جبل تزمزم الأعاصير في جنباته جلس هرقل المسكين ليثوب إليه رشده وليذكر أنه قتل زوجته المحبوبة في نوبة جنونية فينشج ويبكي. .
وتكون غمامة فوق رأسه تظله من وهج الشمس فتنشق عن آله كريم هو هرمز رسول السماء، حمل إلى هرقل تلك الإرادة الأولمبية القاسية التي أصدرها زيوس، متأثراً بإلحاح زوجته الآثمة حيرا التي تقضي أن يظل هرقل في خدمة ابن عمه يوريذوس اثني عشر
شهراً يصدع خلالها بما يؤمر!
- (لقد كان عليك أن تظل في خدمته بضع سنين ولكننا ألحفنا على رب الأرباب فقصر المدة وأختزلها إلى ما ترى!)
(يختزلها أو لا يختزلها، لقد أصبحت الحياة سجناً بدون ميجارا!)
- (. . .عليك بالصبر يا صديقي، فقد تفيدك طاعة الإله)
- (الإله التي لا تحسن عملاً غير هذا العبث!)
- (. . .صه صه. . هلم إلي يوريذوس، وستكون حراً بعد سنة واحدة)
وجن جنون هرقل لهذا القضاء الأولمبي الأعمى، وفر من هرمز في مسارب المياه، ولجأ إلى الوحوش يلتمس لديه الصبر الجميل والقلب الرحيم؛ ولكنه عبثاً حاول الفرار مم كتبت السماء عليه، وهنا، بدت له صديقته ربة الفضيلة أربيته، فنصحته، ولم تزل به حتى أقنعته بخدمة يوريذوس، فذهب إليه كسير القلب مهيض الجناح، وكان جبلاً من الهم والسخط مستقر على رأسه
وقال له يوريذوس: - (وأخيراً وصلت إلي آخر الدرب يا هرقل!. . . إن أمامك أموراً فأعد لها عدتك، فما أحسب دموعك على ميجارا بمجدية عليك شيئاً. . . .)

وحدجه هرقل بنظرة يشتعل فيها الغضب وقال له: (أجل؛ لقد وصلت أخر الدرب. . ولكن ليس لك شأن بدموع أذرفها من أجل ميجارا. . . ألا فاذكر حاجتك التي أرسلتني الآلهة لأقضيها لك، وأقصر!)

وضحك يوريذوس حتى كاد الرعد يخرج من بين شدقيه، وقال: (حاجتي! إن لي لحاجات ما أحسبك تستطيع قضاء واحدة منها. وكيف تصبر مثلاً على سبع نيميا الذي يقطع الطريق إلى غاباتها ذات الكنوز والأذخار؟)

وقال هرقل: (سبع نيميا أو ألف سبع كسبع نيميا، عليك أن تكلفني ولو بهدم السماء أفعل ما تكلفني به. . والآن، أإذا جئتك برأس هذا السبع أكون طليقاً؟)

- تكون طليقاً؟ إن أمامك اثنتي عشرة مسألة، رأس سبع نيميا أولها وأيسرها يا) هرقل، فهلم إذن، وسنرى. . .)

(لها بقية)

دريني خشبة

من الأدب الإيطالي

الليالي العشر

ترجمة الأديب أحمد الطاهر

- 3 -

قصة صداقة جيزيبوس وتيتوس

قالت فيلو مينا: (لقد سمعتم من بامفيلو قصة رائعة تظهركم على قوة الحب وأثره في النفوس؛ وأنا ذاكرة لكم قصة أخرى تكشف عن قوة الصداقة وفعلها في الناس: وقعت حوادثها في عهد أوكتافيوس قيصر إذ كان حاكماً لروما

فصل من روما إلى أثينا شاب يدعى تيتوس ليدرس الفلسفة، وهناك عربي شاباً أثينياً شريفاً أسمه جيزيبوس، واتصلت بين الفتيين أسباب الصداقة والمحبة. ومضت سنون ثلاث تعمل على توثيق هذه الأسباب، والفتيان لا يفترقان في مسكن أو مأكل أو درس

وقدر لجيزيبوس الأثيني أن أغرم بفتاة جميلة من بنات جنسه تدعى (سوفرونيا)، وحببت إليه الفتاة، وحبب الفتى إليها، واتفق المحبان على الزواج

ورأى جيزيبوس قبل الزواج ببضعة أيام أن يصحب صديقه الروماني تيتوس إلى بيت الفتاة لزيارتها، وهو يعهد فيه نبلاً في الطبع، وشرفاً في النفس لا سبيل إلى الشك فيهما، وما أن رأى تيتوس الفتاة حتى أقصده حبها بسهم مصيب، واشتدت به تباريح الهوى، فما يغمض له جفن، ولا يهنأ له طعام. وما زال الحب يلح عليه حتى أضناه، ويسرف في النيل منه حتى أضواء، وأصبح الفتى سقيما عليلاً لا يرجى شفاؤه، ولا يرحم داؤه، وساءت به الحال، حتى أشفى على الزوال

وعز على صاحبه ما أصابه، وذهبت به الظنون كل مذهب في سبب علته، وأخذ يسائله عن مصدر أحزانه، ومبعث أشجانه، والفتى لا يستطيع جواباً بغير الدمع ينهمر من مآقيه، والصمت لا يبرح على فيه؛ ولما أسرف عليه صاحبه في السؤال وألح، قال: (يا صديقي،

لقد أحسست بخستي ودناءتي؛ فما احسبني بعد اليوم خليقاً بصداقتك، وما أطمع منك إلا في عفوك وصفحك، أما عند الله فسيصيبني بما أجرمت صغار وعذاب شديد، وما يوم القصاص ببعيد. ولا أكتمك أن مبعث علتي، ومصدر شقائي هو حبي لفتاتك سوفرنيا. أعترف لك بهذا الأثم الشنيع الذي فارقت رحضاً لسبة الخيانة، ومعرة الإنكار، واستعداد لقضاء العادل الجبار)

وجم صاحبه لحظة، واستولت عليه حيرة، وتزاحمت عليه خواطر شتى: هذا وفاؤه لتيتوس يكبره ويقدسه، ويذود عنه بعقله وحكمته، وهذا حبه لسوفرينا يملك عواطفه ويتحكم في شعوره ويملأ قلبه. فماذا يصنع؟ والى أي العاملين يخضع؟ ثم ليست هي الصداقة وحدها تتراءى له فيقع في حيرة وتردد، بل هو الصديق نفسه قد أشفى على الهلاك والتلف، وتصرمت بينه وبين الحياة أسبابها. أطال جيزيبوس الصمت، وأغرق في التفكير، ثم استقر، ورضى، وطابت نفسه أن ينزل عن سعادته في الحب لينجو صديقه من الموت، وتنجو صداقتهما من أن يعتورها كلل أو فتور

ومضت بضعة أيام، وأقبلت سوفرنيا إلى منزل العريس، وقد أعد العدة لليلة الزفاف. وما وافت ساعته حتى انسل إلى مقصورتها، وأطفأ شموعها وقفل راجعاً إلى صديقه

تيتوس في حيرة لا قبل له بها، وتزاحم عليه الخجل، والحب، ولرغبة، والأباء، والوفاء: تتنازع هذه النفس المعذبة المحطمة وتتركها شعثاً لا يرجى له اجتماع، وتضطرب في هذا القلب المتداعي حتى ليكاد ينفجر الصدر، وتنقض الأضلاع. ولم يسعه إلا أن يرفض ما عرض عليه جيزيبوس، وألح هذا الصديق الوفي في قبول ما عرض، حتى نزل تيتوس على إرادة صديقه وقبل رجائه، وأسترق الخطى إلى مقصورة العروس، فلما دنا منها تحت غلس الليل قال لها: (أتطيبين نفساً بزواجي؟) فحسبته الفتاة زوجها الموعود جيزيبوس، وأجابت (بنعم). فتناول خاتماً ثميناً ووضعه في إصبعها وقال لها شاكراً (وسأكون زوجك) ولما تنفس الصبح وافتضح التدبير أدركت سوفرونيا أن في الأمر خدعة ودلساً. فتسللت من بيت عرسها وانصرفت إلى أمها وأبيها، تشكو إليهما خدعة وقعت فيها، وذاع الخبر في أثينا، وكان حديثاً تلوكه ألسنة الناس ساخطة على فعلة جيزيبوس وخديعته لفتاة انحدرت من أطهر الأصلاب وأعرق الأنساب، ولكن لا مفر مما وقع، ولا تبديل لحكم القضاء. ولم يجد والدا الفتاة حيلة في هذه الكارثة المخزية إلا أن يستر الفضيحة ويكتما العار. فطلبا إلى تيتوس أن يرحل بالفتاة إلى روما حيث لا يعلم الناس من أمرهما شيئاً.

وما كاد الفتى يفصل عن أثينا بزوجته حتى تحركت في نفوس الملأ سورة الغضب والانتقام من جيزيبوس جزاءً بما فعل بهذه الأسرة الكريمة، واشتدوا على الرجل ونكلوا به تنكيلاً، وجردوه من كل ما يملك، وشردوه من أثينا تشريداً أبدياً، فخرج منها مذموماً مدحوراً

وركب نعليه إلى روما، ومشى إليها مكباً على وجهه، كاسف البال، عليه من الثياب أسمال، لا رفيق له إلا أحزانه وأشجانه، تبطئ خطاه حيناً، وتسرع أحياناً. ولقى في سفره هذا عناءً ونصباً. وأشرف على المدينة فتلمس دار صديقه الذي لقى ما لقى في سبيل الوفاء له والإبقاء على صداقته فهداه السابلة إلى طريق اتخذ سمته فيه إلى قصر شامخ عليه مظاهر النعيم واليسار، تجري عليه من السعادة أنهار، وإذا هو قصر صاحبه تيتوس.

وتنسم أخباره فإذا هو في نعمة سابغة، وسطوة بالغة، وإذا هو في المدينة من ذوي السلطان والحول، والقوة والطول، لا يدفع له أمر، ولا يرد له قول أن كان في المقربين من أمير البلاد أوكتافيوس قيصر من الخاصة الخلصاء. وأختلس الفتى من أعين الحراس موقفاً إلى جوار الباب خفياً، وأسنده ظهره إلى الحائط وأطرق يفكر ملياً

وا رحمتاه لهذا البائس المنكود! يسبح في بحار من الأحزان والآلام لو سلطت على هذا القصر لدكته على من فيه دكاً. ترى ما الذي يختلج في هذا الصدر من لوا عج الأسى؟ وما الذي يضطرب في هذه النفس من شتى المشاعر؟. هذا صديقه الذي نزل عن سعادته في الدنيا لينعم بها دونه ولقى في سبيل الوفاء له شر ما يلقى الناس من عنت الدهر، وتجرد له من حطام الدنيا وما ملكت يداه، وأفزع من وطنه شريداً طريداً لينعم بخفض العيش ويستقر في مهاد النعمة. . أإذا خرج ورآه، يعطف عليه ويرق لمرآه؟ أيذكر له سابق فضله ويسبغ عليه من فيئه؟ وكيف السبيل إليه، ودونه من الحراس والحجاب والأبواب ما يصد الناس عن الوصول إليه ولو كانوا من ذوي المكانة. فكيف به وهو على ما نعلم من المذلة والمهانة؟

وبدت في القصر حركة تدل على أن صاحب القصر قد آذن بالخروج، فتحرك الفتى من موضعه، واحتبست أنفاسه، وخرجت من صدره نفثات، ومن عينه عبرات، ومر صاحب القصر به ولم يعن بشأنه ولم يلتفت إليه كأن لم يكن شيئاً موجوداً وأنصرف الفتى يتعثر في أذيال الخيبة ويهيم في الطرقات، لا يقصد غاية، ولا ينتهي إلى نهاية. كأنما وكل بسبل المدينة يذرعها ذرعاً. وأدركه الليل. وبسط عليه جناحين من سواد، فأوى إلى كهف يتخذه اللصوص مثابة فألقى عنده عصا الترحال وأسند رأسه إلى الأرض يلتمس فيها راحة البدن؛ وقد أيأسته راحة النفس، وحاول أن يغمض عينيه، ولم يجد النوم سبيلاً إليهما بين هذه العبرات الحارة المنهمرة انهماراً. ودخل إلى الكهف لصان يحملان أسلاباً، ونزع الشيطان بينهما فاختلفا في قسمة الغنيمة فهم أحدهما وضرب الآخر فأرداه قتيلاً

تنفس الصبح وطاف بالكهف بعض العسس فألفوا القتيل مضرجاً بدمائه وفتى القصة

راقداً إلى جواره. فاقتادوه إلى دار الشرطة والقضاء ليتبينوا منه الأمر وهنا دفع اليأس فتانا لأن يلتمس مخرجاً من هذه الكوارث فألقى بنفسه إلى التهلكة وترامى في أحضان الموت وقال: (أنا القاتل!) وفي نفسه بارقة من الأمل، ولكنه أمل في الموت وفي أن يخرج من عناء الدنيا إلى راحة الأخرى

قال القاضي (ولقد حكمنا عليك بالإعدام صلباً) وكذلك كان يجزي القاتلون

وساقت الأقدار تيتوس ذا الحلول والطول إلى ساحة القضاء ليزجى دفاعاً عن أحد الأبرياء، فحانت منه نظرة إلى فتانا جيزيبوس فأنكره، ثم تأمله فتبينه وعرفه، فساءته حاله وأشفق عليه وعقد العزم على أن يخرجه من بأسائه إلى نعيم، وأن يبعث في حواشي هذه النفس الحالكة شعاعً من الأمل لا يخبو. ولم يكن من سبيل إلى هذه الغاية إلا أن يدحض اعتراف جيزيبوس باعتراف آخر، فمثل أمام القاضي وقال: (مهلاً أيها القاضي! أنا القاتل! وهذا الرجل برئ مما يدين به نفسه!)

وقع القاضي في حيرة يصعب الخلاص منها، وأدرك تيتوس أن صديقه يسعى لإخراجه من فم الأسد الذي أقحم نفسه بين فكيه. وهو لا يريد الفرار من بؤس الحياة إلى الحياة، وإنما وجد في الموت منجاة من عذاب الحياة. وفصل جيزيبوس من مجلسه إلى القاضي ودفع صاحبه وقال: (لا! بل أنا القاتل يا سيدي ولا ترفع قصاصك إلا عليّ!) قال القاضي في نفسه: (أكان الصلب شرفاً يتزاحم عليه هذان المأفونان؟) وفيما هما يتدافعان إلى الردى برز من بين النظارة لص هصور وقال: (لقد رأيت هذين الرجلين يدفع أحدهما الآخر بما وسعه من الجهد عن حياض الردى، فما وجدت خيراً من أن أعترف لك يا سيدي القاضي بكل شيء فأريحك وأنقذ الرجلين وأريح نفسي. ما شأن تيتوس - وهو على ما علمتم من الشرف - وما سدة اللصوص يأوي إليها أو يتخذ إليها السبيل؟ وهذا الرجل ذو الثوب الخلق كان حقاً في إحدى زوايا الكهف نائماً، ودخلنا الكهف أنا وزميل لي ونزغ الشيطان بيننا فاختلفنا في قسمة الأسلاب - واللصوص كما تعلمون تدب بينهم الشحناء لخير العدالة والقضاء، ففضضت النزاع بأن سلت مديتي وأزهقت روح زميلي كما أسل اليوم لساني لأنقذ روحيّ هذين السيدين)

هذا خصم ثالث يطالب بنصيبه في الموت كاملاً، فما أشد حيرة القاضي ووجوم النظارة!

ورجع القاضي إلى ملاذ القضاة، وهو أوكتافيوس قيصر، أمير البلاد، ودفع إليه بثلاثة الرجال، فألقى السمع إلى حديثهم وعرف ما كان من أمر تيتوس وجيزيبوس منذ جمعت بينهما الصداقة، وفرق بينهما الحب، وجمعتهما الأقدار، إلى أن مثلا في مجلسه فقضى بحكمه العادل ببراءة الصديقين، والعفو عن اللص المعترف إكراما المعترف إكراماً لهذه الصداقة وإكباراً لنفسه الأبية

وخلا الصديقان أحدهما إلى الآخر في قصر تيتوس، ولما اطمأن بهما المجلس نزل تيتوس عن نصف ثروته إلى صديقه وزوجه من أخته وكانت فتاة بارعة الحسن نبيلة واقدموا جميعاً في القصر، وزادهم الله بسطة في الرزق، وسعة في العيش.

(عن الإنجليزية)

يوزباشي أحمد الطاهر

البريد الأدبي

مكتبة لوي بارنو

منذ أيام قلائل بيعت في باريس مكتبة لوي بارنو المؤرخ والسياسي الفرنسي الكبير الذي قتل في أكتوبر الماضي إلى جانب الملك اسكندر السربي؛ وكان بارنو من م أعظم هواة المكتب والتحف الأدبية، وقد قضى حياته وأنفق ثروته كلها في اقتناء نفائس التحف والكتب الأدبية، وجمع منها مكتبة عظيمة كانت من أشهر مكاتب فرنسا الخاصة. وقد أوصى بارتو بمكتبته النفيسة قبل وفاته إلى الأكاديمية الفرنسية التي كان عضواً فيها؛ وقررت الأكاديمية أن تعرضها للبيع بالمزاد؛ ووقع هذا البيع أخيراً؛ وكانت أيام البيع من أيام باريس المشهودة لما لهذه المكتبة العظيمة من شهرة ذائعة. وكتبت جميع الصحف الفرنسية عن مكتبة بارتو وعن تبدد هذا التراث البديع الذي أنفق فيه المفكر الكبير حياة بأسرها. ومما احتوته هذه المكتبة الفريدة مجموعات نفيسة من الطبعات الأولى لأشهر الكتب الفرنسية منذ القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر، ومنها مؤلفات لمونتاني ورونسار وبوالو وبوسيويه وفنيلون وموليير وغيرهم؛ ثم

مجموعات نفيسة لبلزاك وبودلير، وجوتييه وموسيه وسانت بيف وهوجو وغيرهم. ومن التحف رسائل بخط نابليون بونابرت وتوقيعه، وكتب عديدة عليها شعار الإمبراطور، ونسخة خطية من معاهدة الصلح (فرساي) موقعاً عليها من لويد جورج وفوش وكليمنصو. وقد حققت مكتبة بارنو من البيع مئات الألوف من الفرنكات؛ ومما يذكر أن نسخة من ديوان بولدير المشهور (فلير دي مال) بيعت بمبلغ سبعة وخمسين ألف فرنك، بينما بيعت مخطوطات معاهدة فرساي بواحد وأربعين ألف فرنك، وهكذا بددت مكتبة لوي بارتو بين أيدي الهواة؛ وهذا مصير معظم المجموعات والذخائر الخاصة

السياحة على طريقة العصور الوسطى

تطورت وسائل الدرس والسياحة في عصرنا، واستطاع العامل أن يسخر البحر والهواء، وغدا الطواف حول العالم أيسر الأمور. ولكن ما زال يوجد من الرحل والباحثين في عصرنا من يفضل الطواف على طريقة السائح الهروي وابن بطوطة وماركوبولو وغيرهم من أكابر الرحلة في العصور الوسطى. فمنذ عامين فكر ضابطان بحريان فرنسيان هما

الكابتن بيشوف وجوزيف ثاثبويه في جوب بحار العالم في قارب شراعي؛ ونفذا مشروعهما الجريء، وقطعا إلى اليوم زهاء ستة آلاف ميل، وغرقا أكثر من مرة، وسلباهما اللصوص أكثر من مرة، واعتقلا كجاسوسين وعاشا شهوراً طويلة على الحشائش والأسماك، مما يذكرنا برحلات السندباد العجيبة

خرج هذان السائحان من ثغر تونجهاي في الهند الصينية في مركب شراعي، وسارا شرقاً في عرض المحيط الهادئ إلى جزائر كارولين، وهناك كسر قاربهما، فعادا إلى الصين، وجهزا سفينة شراعية أخرى؛ وسارا فيها إلى جزيرة فرموزا اليابانية، وهنالك سطا عليهما اللصوص فجرداهما من كل شيء حتى أوراقهما الشخصية، ثم قبضت عليهما سلطات الجزيرة بتهمة التجسس، وأبعدا من فورموزا. ولكنهما لم يعدلا عن مشروعهما؛ فجهزا مركباً ثالثاً؛ وخرجا من ثغر أموي، واخترقا بحر تيمور قاصدين إلى جنوب استراليا؛ وفي أثناء الطريق هاجمتهما كلاب البحر، ومزقت العواصف شراع المركب، فلبثا عشرة أيام تحت رحمة الموج لا يعرفان لهما مستقراً، حتى لمحا في عرض البحر سفينة نرويجية، فأغاثتهما، وأمدتهما بالمؤن، وأصلحا الشراع؛ واستمروا في رحلتهما حتى وصلا إلى ثغر بروم في استراليا الغربية، ثم عبرا بوغاز توريس حتى بور مورسي، ووصلا إلى شواطئ جزائر بابوازي بعد رحلة مروعة، وهنالك أنكسر قاربهما مرة أخرى؛ فعاشا في تلك الأرض زهاء سبعة أشهر يأكلان قواقع البحر ويشربان ألبان جوز الهند، ويدرسان أحوال هذه الجزر وأحوال أهلها المتوحشين، ولما استطاعا أخيراً أن يصلحا قاربهما، ارتدا إلى البحر كرة أخرى؛ وجاسا خلال جزائر (أوشنيا) القاصية التي اكتشفها الكبتن كوك ثم لقى حتفه فيها، وفي عزمهما بعد طواف المحيط الهادئ أن يرتدا إلى الجنوب، ثم يعبرا المحيط غرباً إلى الأطلانطيق، حيث يزمعان اختراقه إلى فرنسا. ولكن هل يستطيعان تنفيذ هذا المشروع الجريء؟

ذكرى الشاعر تاسوني

أحتفل أخيراً في مودينا بإيطاليا بذكرى الشاعر الإيطالي الكبير الساندرو تاسوني، لمناسبة مرور ثلثمائة عام على وفاته؛ وكان تاسوني من أكابر شعراء القرن السادس عشر، ومن ذلك الجيل الذي تأثرت عبقريته بتراث عصر الأحياء؛ وكان مولده بمدينة مودينا سنة

1565، يوم أن كانت ما تزال إمارة زاهرة؛ وتلقى تاسوني تربية حسنة، وظهر في الشعر والحياة العامة شاباً؛ وأشتغل منذ سنة 1599 سكرتيراً للكردينال اسكانيو كولونا من أقطاب الفاتيكان، وقام وهو في هذا المنصب، بعدة مهام سياسية خطيرة؛ واستمر في منصبه حتى سنة 1608. ثم غادر رومة والتحق بخدمة دوق سافوا، واشتغل هنالك أيضاً بالمهام السياسية؛ ولكنه مع ذلك كان يطلق العنان لميوله الأدبية والشعرية؛ ولم ينفك أثناء ذلك عن الكتابة والنظم؛ ومن أشهر آثاره أو (اغتصاب الدلو) وهي قصة شعرية من نوع الخيال المعروف؛ ومجموعة مختلفة بعنوان (أفكار منوعة) وكتاب عن بترارك وشعره عنوانه (تأملات عن بترارك) وله قطع ومجموعات أخرى شعرية ونثرية

تكريم مستشرق روسي

احتفل المستشرقون الروسيون في 14 يونيو بتكريم المستشرق الروسي الأستاذ أغناطيوس كرنشكوفسكي لمرور ثلاثين عاماً قضاها في خدمة اللغة العربية، ألف في أثنائها ما ينيف على ثلثمائة رسالة في تأريخها وآدابها القديمة والحديثة، وهو يشتغل الآن بنشر كتاب أبن المعتز مع شرحه والتعليق عليه باللغة الإنكليزية، وقد أشترك في هذا التكريم المجمع العلمي العربي بدمشق بخطاب أرسله رئيسه ليتلى فيه

عيد ألفي لابن سينا

في بريد سورية أن الجامعة السورية تفكر في إقامة عيد ألفي لذكرى الطبيب العربي الكبير الرئيس أبن سينا

وقد فوضت إلى لجنة من أساتذة المعهد دراسة هذه الفكرة وإعداد الوسائل اللازمة لجعل هذه الذكرى متناسبة مع جلال الخدمة العظيمة التي أداها الرئيس للطب

اللغة العربية في جامعة لندن

روت جريدة البالستين بوست بالقدس أنه لمناسبة اليوبيل الفضي لجلالة ملك الإنكليز فكر السر دنسن روس أن يؤسس لهذه الذكرى مقعداً جديداً مجانياً لتعليم اللغة العربية في جامعة لندن

وقد أختار السر دنسن روس اللغة العربية لهذه الذكرى لأن الإمبراطورية البريطانية تضم

تحت (جناحيها) أكبر عدد من الشعوب العربية، والمتكلمين باللغة العربية ولا تفوقها في ذلك دولة أوربية أخرى

الكتب

أنظار في كتاب (حياة محمد)

بقلم الأستاذ محمد علي النجار

قرأت هذا الكتاب الجليل الغني عن التقريظ فمن لي حين قراءته أنظار راجعة إلى ألفاظه وأخرى إلى معانيه، فأحببت أن أدونها بادئاً بالأولى في هذه العجالة، وإني أعلم أن معظمها آت من القائمين بالطبع؛ غير أن حرصي على سلامة ما في الكتاب مع ما قدر له من هذه السيرورة والانتشار في الأقطار بعثني على ما فعلت، وسأنبه بالرقم الأول على الصفحة وبالثاني على السطر منها، والله الموفق للصواب

21: 33 كان الذين يعبرونها. . . قليلون. صوابه: قليلين

13: 35 صمدت لقسوة الزمان. يريد ثبتت ولم تنل منها عوادي الدهر وصروف الحدثان، وقد تكرر استعمال الصمد في الكتاب بهذا المعنى وأرى أن هذا لا يكون إلا على ضرب من المجاز، فإن الصمد القصد، ولم تذكر المعاجم من معانيه ما أراد المؤلف، والتجوز فيه أن يعتبر الثابت على حوادث الدهر متعرضاً لها، قاصداً مغالبتها، استهانة وعدم مبالاة بها، وأقرب نص لهذا المعنى قول معاذ بن عمرو بن الجموح في قتل أبي جهل: فصمدت له حتى أمكنني منه غرة، فقد قال أبن الأثير في النهاية: أي ثبت له (وفي التاج واللسان: وثبت له) وقصدته وانتظرت غفلته

3: 35 فحوروا اتجاهه الطبيعي. استعمل التحوير في التغيير، وهو استعمال شائع ولكن لا يوجد هذا المعنى فيما وقفت عليه المناجم، فالتحوير فيها الترجيع والتبييض ففيه تحويل وتبديل فتوسع فيه وأطلق على مطلق التغيير

17: 56 قصي بن كلاب هو الجد الخامس للنبي (صلى الله عليه وسلم): معروف أن قصياً هو الجد الرابع

20: 56 دراجا. صوابه رزاحا: تراجع سيرة أبن هشام والقاموس - 11: 76 بحيرا (الراهب) ضبط يلفظ المصغر، والصواب: فتح بائه وكسر حائه كما نص عليه المواهب

14: 93 فما هذه الكواكب إلا أفلاكاً: تكرر مثل هذا وهو إعمال ما مع انتقاض النفي بالا، والواجب في هذه الحالة رفع الجزأين - 7: 103 عبيدة بن الجراح. ظاهر أن هذا خطأ

مطبعي صوابه: أبو عبيدة، وقد ورد على الصفحة فيما بعد

5: 104 إساف منعه من الصرف، ولا وجه فيما أعلم لذلك، فالواجب كتابته إسافاً - 6: 109 فوقف باهتاً يقول صاحب القاموس: هو مبهوت، لا باهت ولا بهيت

1: 109، 2 لخير له أن يموت مؤمناً. . . على أن يخذله؛ الصواب: من أن يخذله، فإن خيراً هنا أفعل تفضيل وهو إنما يقرن بمن، وقد يكون وجه ما هنا أن يضمن خير معنى

مفضّل وهو بعيد - 15: 114 بنو عبد المطلب. صوابه بنو المطلب
وإن كان هذا الذي يأتيك رأياً تراه. صوابه: رئيا كما في السير، وقد قال 115 :15
السهبلي الرئي فعيل بمعنى مفعول، ولا يكون إلا من الجن - 20: 121 نعيم بن عبد
الله؛ ضبط بفتح النون وصوابه ضم النون، فأنه نعيم النحام وقد ضبطه النووي في
التهذيب كما ذكرت - 4: 136 مبيعة. الظاهر ضبطها بفتح الياء على مفعلة وقد ضبطها
السهبلي بزنة معيشة
شعاب الجبل. الذي في السير أن الاحتماء كان في شعب بني هاشم، والذي :146
يظهر أنه كان محلة في مكة وفي الزرقاني على المواهب أن الشعب كان لهاشم
فقسمه عبد المطلب بين بنيه حين ضعف بصره - 12: 147 أبي النجتري. صوابه: أبو
النختري، وفي السطر 18 أبي البختري
يتصالح وقريشاً، نصب قريشاً على أنه مفعول معه ومثل هذا لا يجيزه النحاة، 148 :3
فالواجب يتصالح هو وقريش
تحديق ابنا ربيعة. صوابه: أبني ربيعة 151 :20
عبد الله بن محمد. كأن هذا سبق قلم، والأصل عبد الله بن أبي وهو أبن 166 :8
سلول - 12: 166 إن نبياً مبعوثاً الأظهر مبعوث بالرفع كما في السير، فإن الأخبار
ببعثته مقصود
وإن غشني. ضبط بفتح الغين والشين المثقلة، والصواب كسر الشين ليكون 167 :3
على زنة ترضى
مسلموه وخاذلوه. صوابه مسلميه وخاذليه 169 :8
إنا بيننا. صوابه: إن بيننا - 9: 170 نهكة الأموال. ضبط بالتحريك والذي في 22 :)
القاموس بسكون الهاء وإن كان يجوز فتحها بوجه عام - 1: 176 برده: 1. صوابه
ببرده
فإذا عبد الله بن أبي بكر من عندهما إلى مكة. سقط هنا لفظ والأصل: فإذا 178 :7
عبد الله بن أبي بكر غدا من عندهما كما في سيرة أبن هشام - 17: 179 فقد أقبل
على قريش رجل. قضية هذا أن الأخبار كان لقريش وأن سراقة كان حاضراً بينهم
والذي في السير أن ذلك كان في نادي بني مدلج قوم سراقة
فيه أن بريدة جاء يحييهما، والذي في الزرقاني نقلاً عن البيهقي أن بريدة 180 :20
جاء طامعاً فيما طمع فيه سراقة فانتهى الأمر بإسلامه - 8: 181 فبلغ نبأهما سعد.
الصواب: في الرسم نبؤهما إذ هو فاعل بلغ فهو مرفوع - 19: 196 فخيماً. الذي في
المعاجم فخماً - 22: 197 وهذا هو أقوى من هؤلاء. قد يكون الصواب في هذا
الأسلوب: وها هو ذا أقوى من هؤلاء
مكان حجيجهم. الحجيج جمع الحاج ولا معنى له هنا فالأول مكان حجهم - 204 :7
214: 4 عمر بن الحضرمي صوابه عمرو - 215: 4 الحكم بن كيثان. صوابه كيسان
تهرق الدماء. صوابه تهريق الدماء 218 :4
كشد الجهني: الذي في الإصابة كسد 221 :3
أبا لهب. صوابه أبو لهب - 5: 223 مرثد ابن مرثد. صوابه مرثد بن أبي مرثد 222 :16
- 223: 10 عرق الظبية. ضبط بفتح الظاء وفي القاموس: عرق الظبية بالضم
المقداد بن عمر. صوابه عمرو 224 :2
عمراه. الصواب عمراه 228 :13
العاص. صوابه أبو العاص 241 :7
على. صوابه عليّا - 9: 255 أبو كعب. صوابه أبي بن كعب وقد كان من 252 :13
كتاب الرسول عليه الصلاة والسلام
يخمش الناس. الرواية يحمس أو يحمش بالحاء المهملة فيهما وإن تبع 260 :19
المؤلف في ذلك طبعة وستنفلد
أبا دجانة. صوابه أبو دجانة - 9: 283 يسار قد يكون صوابه ميسرة وهو غلام 278 :8
خديجة عليها الرضوان
ابنتا وزيريه. صوابه ابنتي وزيريه 288 :1
النضري. ضبط بسكون الضاد والصواب فتحها إذ هو نسبة إلى النضير - 1: 306 :12
335 أذن محمد في الناس بالحج. الأولى التعبير في هذا المقام بالعمرة فإن الذي وقع

الحرام بالعمرة والعمرة قد تسمى الحج الأصغر ولكن الحج إذا أطلق أنصرف إلى ما يقابلها - 2: 375 هرقلاً. صوابه هرقل لمنعه من الصرف
نابت بن أرقم. صوابه أقرم وقد تبع المؤلف نسخة وستنفلد - 12: 386 إذ. 9: 377 صوابه إذا
حكيم بن حكيم. صوابه حكيم بن حزام 22: 386
سلام بني مشكم. صوابه سلام بن مشكم 20: 360
بازان. يكتب في الكتب العربية باذام 11: 363
عسكر. صوابه عسكراً - 13: 395 قبيساً. صوابه أبا قبيس - 22: 395 1: 387
جذيمة. ضبط بصيغة المصغر والصواب فتح الجيم وكسر الذال كما في الزرقاني على المواهب
بدأت محمد. صوابه بدأ محمد 3: 401
في العلالة. الرواية اللعاعة. وهي في الأصل نبات ناعم في أول ما ينبت - 22: 408
410: أسيد والد ضبط مصغراً والصواب ضبطه كأمير - 15: 414 أأتمره. كذا رسم وقد يكون الصواب آتمره على قاعدة الإبدال
فيه أن زكاة العشر تدفع من الإبل والأموال وإنما يدفع العشر عن بعض 5: 424
الزروع فأما الإبل فلها مقادير محدودة في الفقه غير العشر - 23: 426 ضبط فيها سلمة بفتح اللام والصواب كسرها وهم بطن من الأنصار
عمان. ضبط بتشديد الميم والذي في الجنوب عمان على زنة غراب، فأما 20: 436
عمّان بتشديد الميم فهي بالبلقاء بأطراف الشام - 21: 467 زيد. صوابه أسامة بن زيد كما في السطر قبله وإني أختم كتابتي بإعجابي بالكتاب وتحيتي لمؤلفه العظيم
محمد علي النجار
العدد 103 - بتاريخ: 24 - 06 - 1935
بين والد وولده
مثل من الشباب الصالح
عرفت منذ أيام فتى غريض الشباب رقيق الإهاب وضيء الطلمة؛ يتكلم فيشع عقله في معانيه، ويشيع ذكاؤه في مراميه، ويسيل شعوره على ألفاظه؛ وهو لا يتكلم إلا عن العمل، ولا يناقش إلا في الواقع، ولا يرمي إلا إلى غرض؛ طموح النفس فلا يحصر أفقه يأس، ولا يحد غايته مطلب؛ بعيد الهمة فلا يضله شارد الخيال، ولا يغره خادع الأمل؛ رفيع الهوى فلا يشوب غرضه سوء، ولا يفسد طموحه أثره. نبت في أكرم المنابت من إقليم الغربية، فأبوه عميد أسرته، وزعيم بلدته، وسريّ نابه من سراة إقليمه؛ رباه في مهد النعيم، ونشأه في ظلال الغنى، وقلبه في أحضان الترف، فكان خليقاً أن يمسه الغباء وهو داء الغنى، وأن يصبه الخمول وهو بلية الترف، ولكنه لقوة الطبع واستعداد الفطرة شب ذكى الفؤاد إلى درجة الحكمة، مشبوب العزم إلى حد المغامرة؛ يذهب نفسه غالباً إلى الاعتداء الواثق، ويميل بحياته أحياناً إلى الجرأة المؤدبة، وينظر إلى غاية الحياة - وهو لا يزال في بدايتها - نظر الكيّس اللبيب المجرب، فيهاجم السياسيين من ناحية استخفافهم بالخلق، والموظفين من ناحية استهانتهم بالواجب، والفلاحين من حيث اعتمادهم في الإنتاج على القديم الرث، وفي العلاج على القدر والمصادفة. على أنه أمام أبيه - وهو قرة عينه - مثال البر ورمز الطاعة، فلا يفند له رأياً، ولا يعصى له أمراً، ولا يخالف له نصيحة.
تخرج منذ أسبوع في إحدى المدارس العالية، وكان الثاني في ترتيب الناجحين، وإن شئت فقل الأول، لأن الفرق بينه وبين سابقه لا يقدم لضآلته ولا يؤخر، فالوظيفة بحكم أوليته في النجاح ومعونة أسرته بالنفوذ، تنتظر في كل مكان وتطلبه في كل وزارة، ولكنه زارني منذ يومين فوجدته على غير عادته مشغول القلب منقبض الصدر مشترك الخاطر، لا أثر عليه لنشوة الفوز، ولا للذة الراحة، ولا لفرحة المنصب، كأنما هو آخر الدبلوم أو فقير متقدم من غير وسيلة!!
- مالك ساهم الوجه، مكروب النفس يا فهمي؟ هنيئاً لك الدبلوم والأولوية! فقال ولأسى يبين في صوته ولهجته: ليتني لم أنل هذه الدبلوم، ولم أحز خطر هذا السبق؛ فلقد كان في لذة المدارسة، وشهوة المنافسة، وترقب النجاح، وانتظار الحرية، رضىً لنفس الطامحة،

وكفاية لقلبي الرغيب. أما الآن فالفراغ يثقل حتى يقتل نفسي، والوقت يطول حتى يمك روحي، والأمل يضيق حتى يظلم حياتي! أريد أن أعمل فيمنعني أبي، لأنه يضن بصحتي على مخاطر الفلاحة، وبراحتي على متاعب الفلاحين، وبسعادتي على هموم المسؤولية

- إذن ماذا يريد لك أبوك؟

- يريد لي الوظيفة! والوظيفة سجن لنفسي الطليقة، وتعطيل لملكاتي الموهوبة، ومحو لمعارفي المكسوبة، وقتل لآمالي الناشئة، وتوجيه لميولي الطبيعية إلى الغرض الذي لا أحب والقصد الذي لا أريد.

إن في مزارعنا الواسعة مجالاً فسيحاً لنشاطي، ومراداً بعيداً لعلمي، ومختبراً صالحاً لتجاربي، ومغرساً كريماً لآمالي فأنا أوثر أن أحمل عبء العمل عن والدي، وأستغل علمي وعملي في تحقيق مقاصدي، فأحافظ بالاستقلال الذاتي على خلقي وحريتي، وأساهم بالعمل المنتج في نفع أمتي وإسعاد أسرتي.

ماذا تجدي عليّ الوظيفة؟ عشرة جنيهات في الشهر؟ لقد كان أبي ينفق عليّ خمسة وعشرين وأنا طالب، فكم جنيهاً ينفقها عليّ وأنا موظف؟ إذن سينفق عليّ أضعاف مرتبي لأخدم غيره، وأفارق بيته، وأظل السنين الطوال موظفاً وضيع المكانة، مسلوب الإرادة، محدود الرزق، خامل الحياة!

إن شهادتي في فن الزراعة؛ والوظيفة الفنية كالوظيفة العلمية لا تصلح طريقاً إلى السلطان، ولا وسيلة للجاه، ولا أداة للثروة؛ إنما الفن مجده في استقلاله، وخيره في حريته. على أن وظائف الحكومة - بعد أن خفضوا أجرها، وأخسّوا قدرها، وحفوا طريقها بالمكارة، وهددوا معاشها بالنقص، وزعزعوا ضمانها بالكيد، ورعوا أمنها بالسياسة - أصبحت مطلباً لقصار الآمال، ومذهباً لصغار النفوس، وملجأً لضعاف الحيلة. فأما الذي يجد في نفسه شعور القدرة، وفي بيته رأس المال، وفي أرضه مكان العمل، ثم يتشوف إلى قيد الوظيفة وذل التبعية، فلا أدري بما أعتذر له أمام النبّل والرجولة؟

فقلت له وأنا موزع النفس بين الإعجاب به والرثاء له والحدب عليه: كلامك هذا يا بني عنوان عقلك وبرهان فضلك ودليل دعواك. وليت شعري ما حجة أبيك الكريم أمام هذا الخلق العظيم والمنطق الواضح! لعله من أولئك الذين يعتقدون أن الولد إذا دخل المدرسة،

ثم خرج بالشهادة، ثم لم يوظف، كان ما أنفقه خسارة لا تعوض، وما تعلمه عبثاً لا يفيد فقال: كلا! إن أبي من أرجح الناس عقلاً، وأسدهم رأياً وأعلمهم بمزايا العمل الحر، ولكنها التقاليد الموروثة، والعواطف الغالبة، وسأنتهي آخر الأمر على هواي ومناي إلى رأيه فقلت له إذن دعني على الأقل أنقل عنك هذا الحديث ليكون خطاباً إلى أبيك، ودرساً لإخوانك، وموضوعاً للرسالة!

أحمد حسن الزيات

الطائشة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

تتمة

وهذا محصّل رواية (الطائشة) نقلناه من خط الكاتب على مساق ما دونه في أوراقه، وعلى سرده الذي قصّ به الخبر. وقد أعطانا من البرهان ما نطمئن إليه أن هذه (الطائشة) هي من تأليف الحياة لا من تأليفه، وأنه لم يخترع منها حادثة، ولم يأتفك حديثاً، ولم يزدها بفضيلة، ولم ينقصها بمعرّة؛ وأشهد على قوله كتب صاحبته الأديبة المستهترة التي لا تبالي ما قالت ولا ما قيل فيها. وهذه الكتب رسائل منها الموجز ومنها المستفيض، وهي بجملتها تنزل من الرواية منزلة الشروح المفتنة، وتنزل منها الرواية منزلة اللمع المقتضبة؛ وكل ذلك يشبه بعضه بعضاً، فكل ذلك بعضه شاهد على بعض

قال كاتب (الطائشة):

كنت رجلاً غزلاً ولم أكن فاسقاً، ولست كهؤلاء الشبّان الذين أصيبوا في إيمانهم بالله فأصيبوا بإيمانهم بكل فضيلة، وذهبوا يحققون المدنية فحققوا كل شيء إلا المدنية ترى أحدهم شريفاً يأنف أن يكون لصاً وأن يسمى لصاً، ثم لا يعمل إلا عمل اللص في

استلاب العفاف وسرقة الفتيات من تاريخهنّ. وتراه نجداً يستنكف أن يكون في أوصاف قاطع الطريق، ثم لا يأبى إلا أن يقطع الطريق في حياة العذارى وشرف النساء.

أكثر أولئك الشبان المتعلمين يعرضون للفتيات المتعلمات بوجوه مصقولة تحتمل شيئين: الحب والصفع. . . ولكن أكثر هؤلاء المتعلمات يضعن القبلة في مكان الصفعة، إذ كان العلم قد حلل الغريزة التي فيهن فعادت بقايا لا تستمسك، وبصّرهنّ بأشياء تزيد قوة الحياة فيهن خطراً وتوحي إليهنّ وحيها من حيث يشعرن ولا يشعرن، وصوّر في أوهامهم صوراً محل الصور التي كانت في عقائدهن، وأخرجهن من السلب الطبيعي الذي حماهن الله به؛ فلهنّ العفة والحياء ولكن ليس لهنّ ذلك العقل الغريزيّ الذي يجيء به الحياء والعفة، وكثيرات منهن يخشين العار وسمته الإجماعية ولكن خشية فقهاء الحيل الشرعية قد أرصدوا لكل وجه من التحريم وجهاً من التحليل، فأصبح امتناع الإثم هو ألا تكون إليه حاجة. . . .

والعقل الذي به التفكير يكون أحياناً غير العقل الذي به العمل؛ ففي بعض الجاهلات يكون العقل الحياء والعفة والشرف والدين ـ غريزة كغرائز الوحش، هي الفكرة وهي العمل جميعاً، وهي أبداً الفكرة والعمل جميعاً لا تتغير ولا تتبدّل ولا يقع فيها التنقيح الشعريّ ولا الفلسفي. . . . وما غريزة الوحش إلا إيمانه بمن خلقه وحشاً؛ وكذلك غريزة الشرف في الأنثى هي عندي حقيقة إيمانها بمن خلقها أنثى.

وشرف المرأة رأس مال للمرأة، ومن ذلك كان له في أوهام العلم اشتراكية بحسبه تنظر فيه نظرها وتزيغ زيغها وتقضي حكمها، وأكثر من عرفت من المتعلمين والمتعلمات قد انتهوا بطبيعتهم العلمية إلى الرضى بهذه الاشتراكية، وإلى التسامح في كثير، وإلى وضع الاعتذار فيما لا يقبل عذراً، ومن هاهنا كان بعض الجاهلات كالحصن المغلق في قمّة الجبل الوعر، وكان بعض المتعلمات دون الحصن، ودون القمّة، ودون الجبل، حتى تنزل إلى السهل فتراهنّ ثمّة.

لقد غفلت الحكومات عن معنى الدين وحقيقته، فلو عرفت لعرفت الإنسانية لا تقوم إلا بالدين والعلم كليهما؛ فإن في الرجل إنساناً عاماً ونوعاً خاصاً مذكراً، وفي المرأة إنسان عام كذلك ونوع خاص مؤنث. والدين وحده هو الذي يصلح النوع بتحقيق الفضيلة وتقرير الغاية الأخلاقية، وهو الذي يحاجز بين الغريزتين وهو الذي يضع القوة الروحية في طبيعة المتعلم؛ فإن كانت طبيعة التعليم قوية كانت الروحية زيادة في القوة، وإن كانت ضعيفة كما هي الحال في هذه المدنية لم تجمع على التعلم ضعفين يبتلي كلاهما الآخر ويزيده.

فلان وفلان تعلّقا فتاتين جاهلة ومتعلمة؛ وكلتاهما قد صدّت صاحبها وامتنعت منه؛ فأما الجاهلة فيقول (فلانها) إنها كالوحش وإن صدودها ليس صدوداً حسب، بل هو ثورة من فضيلتها وإيمانها، فيها المعنى الحربيّ مجاهداً ومتحفّزاً للقتل. . . .

وأما المتعلمة فيقول (فلانها) إنها ككل امرأة وإن صدودها ثورة ولكن من دلالها ترضى بها أول ما ترضى وآخر ما ترضى كبرياء الجمال فيها لا الإيمان ولا الفضيلة. فكأنها إيحاء للطامع أن يزيد طمعاً أو يزيد احتيالاً

وفلان هذا يقول لي: إن ضعفاء الإيمان من الشبان المتعلمين - وأكثرهم ضعفاء الإيمان - لو حققت أمرهم وبلوت سرائرهم، لتبيّنت أنهم جميعاً لا يرون قلب الفتاة المتعلمة إلا كالدار

الخالية كتب عليها: (للإيجار). .

يقول كاتب (الطائشة):

أما أنا فقد صحّ عندي أن سياسة أكثر المتعلمات هي سياسة فتح العين حذراً من الشبّان جميعاً وإغماض العين لواحد فقط. . . .

وهذا الواحد هو البلاء كله على الفتاة فإنها بطبيعتها تتقيد ولا تنفصل إلا مكرهة، وهو بطبيعته قيده لذّته فيتصل وينفصل، غير أنها لا بد لها من هذا الواحد، ففكرها المتعلم يوحي إليها بالحياة لا يجعل في ذلك للتنكير عندها، والحياة نصف معانيها النفسية في الصديق؛ فالأنوثة بغيره مظلمة في حياتها راكدة في طباعها ثقيلة على نفسها ما دام (الشعاع) لا يلمسها. .

والدين يأبى أن يكون ذلك الصديق إلا الزوج في شروطه وعهوده كيلا تتقيد المرأة إلا

بمن يتقيد بها، والعلم لا يأبى أن يكون الصديق هو الحب؛ والفن يوجب أن يكون هو الحب، وليس في الحب شروط ولا عهود إلا وسائل تختلق لوقتها وأكثرها من الكذب والنفاق والخديعة. ولفظ الحب نفسه لصّ لغويّ خبيث يسرق المعاني التي ليست له وينفق مما يسرق. وليس من امرأة يخادعها عاشق إلا انكشف لها حبه كما ينكشف اللص.

يقول كاتب (الطائشة):

تلك فلسفة لا بد منها في التوطئة للكتابة عن (عزيزتي رغم أنفي). ومن كانت مثلها في أفكارها واستدلالها وحججها وطريقتها ـ كان خليقاً بمن يكتب قصتها أن يجعل القصة من أولها مسلحة. .

لقد تكارهت على بعض ما أرادت مني ما دام الحب (رغم أنفي)، وما دامت السياسة أن أداريها وأتبع محبتها؛ غير إني صارحتها بكلمة شمسية تلمع تحت الشمس؛ إنها الصداقة لا الحب، وإنما هو اللهو البريء لا غيره، وأن ذلك جهد ما أنا قويّ عليه وفيّ به. قالت: فليكن، ولكن صداقة أعلى قليلاً من الصداقة. . . ولو من هذا الحب المتكبر الذي لا يصدق كيلا يكذب. . . إن هذا النوع من الحب يطيش بعقل المرأة ولكنه هو أول ما يستهيمها ويعجبها ويورثها التياع الحنين.

كتبت لي: أنا لا أتألم في هواك بالألم، ولكن بأشياء منك أقلها الألم، ولا أحزن بالحزن، ولكن بهموم بعضها الحزن، إنك صنعت لي بكاءً ودموعاً وتنهدات، وجعلت لي ظلاماً منك ونوراً منك، يا نهاري وليلي. ترى ما أسم هذا النوع من الصداقة؟

اسمه الحب؟ لا

اسمه الكبرياء؟ لا

اسمه الحنان؟ لا

اسمه حبك أنت، أنت أيها الغامض المتقلب. ألا ترى ألفاظي تبكي، ألا تسمع قلبي يصرخ، بأيّ عدل لك أو بأيّ عدل للناس تريد أن أحيا في عالم شمسه باردة. . . هذا قتل، هذا قتل

فكتبت إليها: إن لم يكن هذا جنوناً إنه لقريب منه

فردّت على هذه الرسالة:

أتكاتبني بأسلوب التلغراف. . . لو أهديت إليّ عقداً من الزمرد حبّاته بعدد من الكلمات لكنت بخيلاً، فكيف وهي ألفاظه؟ إني لأبكي في غمضة واحدة بدموع أكثر عدداً من كلماتك، وهي دموع من آلامي وأحزاني؛ وتلك ألفاظ من لهوك وعبثك.

ما كان ضرّك لو كتبت لي بضعة أسطر من تلغرافات روتر. . . ما دمت تسخر مني أأنت الشباب وأنا الكهولة، فليس لك بالطبيعة إلا الانصراف عني، وليس لي بالطبيعة إلا الحنين إليك؟

لا أدري كيف أحببتها ولا كيف دعتني إليها نفسي، ولكن الذي أعلمه أني تخادعت لها وقلت أن المستحيل هو منع هذا الشر، والممكن هو تخفيفه؛ ثم أقبلت أرثى لها، وأخفف عنها، وأقبلت هي تضاعف لي مكرها وخديعتها، وكان الأمر بيننا كما قالت: في الحب والحرب لا يكون الهجوم هجوماً وفيه رفق أو تراجع.

إن المرأة وحدها هي التي تعرف كيف تقاتل بالصبر والأناة؛ ولا يشبهها في ذلك إلا دهاة المستبدّين

سألتني أن أهدي إليها رسمي؛ فاعتللت عليها بأن قلت لها: إن هذا الرسم سيكون تحت عينيك أنت رسم حبيب، ولكنه تحت الأعين الأخرى سيكون رسم متهم وظننتني أبلغت في الحجة وقطعتها عني؛ فجاءتني من الغد بالبرد المفحم، جاءتني بإحدى صديقاتها لتظهر في الرسم إلى جانبي كأنني من ذوي قرابتها. . . فيكون الرسم رسم صديقتها، ويكون مهدى

منها لا مني، وكأنني فيه حاشية جاءت من عمة أو خالة. . . .

وأصررت على الإباء، ونافرتني القول في ذلك، تردّ عليّ وأردّ عليها، وتغاضبنا وانكسرت حزناً وذهبت باكية؛ ثم تسببت إلى رضاي فرضيت.

حدّثتني أن صديقتها فلانة استطاعت أن تستزير صاحبها فلاناً في مخدعها في دارها بين أهلها منتصف الليل؛ قلت وكيف كان ذلك؟

قالت إنها تحمل شهادة. . . وهي تلتمس عملاً وقد طال عليها؛ فزعمت لذويها أنها

عثرت في كتاب كذا رقية من رقي السحر، فتريد أن تتعاطى تجربتها بعد نصف الليل إذا محق القمر؛ وأنها ستطلق البخور وتبقى تحت ضبابته إلى الفجر تهمهم بالأسماء والكلمات، ثم إنها اتّعدت وصاحبها ليوم وأجافت باب دارها ولم تغلقه، وأطلقت البخور في مجمر كبير أثار عاصفة من الدخان المعطّر وجعل مخدعها كمخدع عروس من ملكات التاريخ القديم، وبقي صاحبها تحت الضبابة يهمهم وتهمهم. . ثم خرج في أغباش السحر.

هكذا قالت؛ وما أدري أهو خبر عن تلك الصديقة وفلانها أم هو اقتراح عليّ أنا من (فلانة) لأكون لها عفريت الضبابة. . .؟

لم يخف عليها لذعة حبها وقعت في قلبي، وأن صبرها قد غلب كبريائي، وأن كثرة التلاقي بين رجل وامرأة يطمع أحدهما في الآخر. لا بد أن ينقل روايتهما إلى فصلها الثاني، ويجعل في التأليف شيئاً منتظراً بطبيعة السياق. . . وإلحاح امرأة على رجل قد خلها وجفا عن صلتها، إنما هو تعرضها للتعقيد الذي في طبيعته الإنسانية. فإن هي صابرته وأمعنت فقلّما يدعها هذا التعقيد من حلّ لمعضلتها. وبمثل هذه العجيبة كان تعقيداً وكان غير مفهوم ولا واضح، وقد ينقلب فيه أشد البغض إلى أشد الحب وقد تعمل فيه حالة من حالات النفس ما لا يعمل السحر. وكذلك يقع للرجل إذا أحب المرأة فنبت عن مودته فعرض للتعقيد الذي في طبيعتها وأمعن وثبت.

رأت الحمرة الأولى في قلبي فأضمرت فيه الثانية حين جاءتني اليوم بكتاب زعمت أن فلاناً أرسله إليها يطارحها الهوى ويبثها له الحنين والتياع الحب، ويقول لها في هذا الكتاب: أنا لم أشرب خمراً قط ولكني لا أراني أنظر إلى مفاتنك ومحاسنك إلا وفي عينيّ الخمر، وفي عقلي السّكر، وفي قلبي العربدة. جعلت لي نظرة سكّير فيها نسيان الدنيا وما

في الدنيا ما عدا الزجاجة. . . ويختمه بهذه العبارة:

آه لو استطعت أن أجعل كلامي في نفسك ناعماً، ساحراً، مسكراً، مثل كلام الشفة للشفة حين تقبلّها. . .

عند هذا وقع الشيء المنتظر في الفصل الثاني من الرواية، وختم هذا الفصل بأول قبلة على شفتي (الممثلة).

قالت: هذه القبلة كانت (غلطة مطبعية) ومضت تسميها كذلك واستمرت الطبعة تغلط. . . وما علمت إلا من بعد أن ذلك الكتاب الذي استوقدت به غيرتي، إنما كان من عملها ومكرها.

وجاءتني اليوم بآبدة من أوابدها، قالت:

أنت رجعي محافظ على التقاليد، قلت لأني أرى هذه التقاليد كالصباح الذي يتكرر كل يوم وهو في كل يوم ضياء ونور

قالت: أو كالمساء الذي يتكرر وهو في كل يوم ظلام وسواد

قلت: ليس هذا إليّ ولا إليك، بل الحكم فيه للنفع أو الضرر

قالت: بل هو إلى الحياة، والحياة اليوم علمية أوربية، والزمن حثيث في تقدمه، وأصحاب (التقاليد) جامدون في موضعهم قد فاتهم الزمن، ولذلك يسمونهم (متأخرين). أما علمت أن الفضيلة قد أصبحت في أوربا زياً قديماً فأخذ المقص يعمل في تهذيبها، يقطع من هنا ويشق من هنا. .

أسمع أيها (المتأخر) وتأمل هذا الرهان الأوربي العصري أخبرتني صديقتي فلانة حاملة شهادة. . . أنها كانت في القطار بين الإسكندرية والقاهرة وكانت معها فتاة من جيرتها تحمل الشهادة الابتدائية؛ فجمعهما السفر بشاب وسيم ظريف يشارك في الأدب، غير أنه رجعيّ (متأخر). وصديقتي تعرف من كل شيء شيئاً، وتأخذ من كل فن بطرف؛ فجرى الحديث بينهما مجراه، وتركت الصديقة نفسها لدواعيها وانطلقت على سجيّتها الظريفة، ووضعت فن لسانها في الكلام فجعلت فيه روح التقبيل، ولم تبلغ إلى القاهرة حتى كانت قد سحرت ذلك (المتأخر) ووقعت من نفسه ودفعته إلى الزمن الذي هو فيه. فلما همت بوداعه سألهما: أين تذهبان؟

فأغضت صاحبة الشهادة الابتدائية، وأطرقت حياء ورأت في السؤال تهمة وريبة، فأنّبتها الصديقة وأيقظتها من حيائها، وقالت لها: ألا تزالين شرقية متأخرة. إن لم يسعدنا الحظ أن تكون لنا حرية المرأة الأوربية في المجتمع وفي أنفسنا؛ أفلا يسعنا أن تكون

لنا هذه الحرية ولو في أنفسنا؟
ثمّ ردّت على الشاب فأنبأته بمكانها وعنوانها، فأطمعه ردّها فسألها أن تتنزه معه في بعض الحدائق، فأبت صاحبته الابتدائية ولجت عمايتها الشرقية المتأخرة، ورأت في ذلك مسقطة لها، فلوت إلى دارها وتركتهما إنساناً وإنساناً لا فتى وفتاة، وتنزّها معاً، وعرف الشاب الرجعيّ الحب والخمر التي هي تحية الحب
ولم تستطع الفتاة الماكرة أن ترجع إلى دارها وهي سكرى فأوت إلى فندق، وختمت روايتها بأعراض من الشاب أجابت هي عليه بقولها: ألا زلت (متأخراً). . . . .؟
قالت (الطائشة):
نعم يا عزيزي (المتأخر) إن مذهب المرأة الحرة. . . في الفرق بين الزوج وغير الزوج، أن الأول رجل ثابت، والآخر رجل طارئ. والثابت ثابت معها بحقه هو؛ والطارئ طارئ عليها بحقها هي. . . . فإن كانت حرة فلها حقها. . .
قال كاتب الطائشة: وهنا كاد الشيطان يرفع الستار عن فصل ثالث في هذه الرواية، رواية (الطائشة). . .
نقول نحن: وإلى هنا ينتهي نصف الرواية؛ أما النصف الآخر فيكاد يكون قصة أخرى أسمها: (الطائش والطائشة).
(طنطا)
مصطفى صادق الرافعي
كيمياء الأفكار والعواطف
للأستاذ أحمد أمين
كان القدماء يفهمون من (الكيمياء) الإكسير المنشود، الذي إذا عثر عليه وأضيف إلى الزئبق أو الفضة بكمية محدودة، تحت حرارة معينة، انقلب الزئبق أو الفضة ذهباً إبريزاً، وليس يعنينا هنا أن نبين ما أنفق الناس من جهد في الوصول إليه، ولا ما أنفقوا من مال وزمان في سبيل العثور عليه، ولا ما ملئت به كتب الفلسفة الإسلامية من جدل في إمكان ذلك أو إستحالته، إنما يعنينا هنا أن نقول إن العلماء والأدباء نقلوا استعمال هذه الكلمة إلى المعاني بعد أن كانت قاصرة على المادة، فسمى (الغزالي) كتاباً من كتبه (كيمياء السعادة) يعني بذلك الإكسير الروحي الذي إذا عثر عليه الإنسان حظي بسعادة، وقد استعملها ابن الرومي استعمالاً ظريفاً في معنى قريب من هذا، فقال يهجو أبا الصّقر
عَجبَ الناس ' مِنْ أبي الصّقْ ... رِ إذولّي - بعد الإجارة - الديوانا
إنّ للجَدّ كيمياَء إذا مَا ... مَسّ كلباً أحاله إنسانا
يفعل الله ما يشاء ' كما شا ... ء متى شاء كائناً ما كانا
ثم سار الزمن الذي يغير كل شيء، فغيّر - فيما غيره - مدلول كلمة (الكيمياء) وجعله قسيماً للطبيعة، فكما أن الطبيعة اختصت بالظواهر التي تغير صفات الأشياء ولا تغير جوهرها، اختصت الكيمياء بدراسة الظواهر التي تغير جوهر الأشياء، فاتسع مدلولها، وصار آخر ما تفكر فيه تحويل المعادن إلى ذهب إن كانت تفكر فيه، والذي أريد أن ألفت إليه النظر في مقالي أن هناك كيمياء في الأفكار والعواطف تشبه تلك التي في المادة، إلا أنها أعقد منها، وأصعب حلاً، وأغمض اكتشافاً - وإلى الآن لم توضع كتب - على ما أعلم - في كيمياء المعاني على كثرة ما وضع في كيمياء المادة - وإن كانت كتب علم النفس أحياناً تمس هذا الموضوع مسّاً رفيقاً.
فلكيمياء الأفكار والعواطف فصول وأبواب لا عداد لها، قد ينطبق عليها في كثير من الأحيان فصول الكيمياء المادية وأبوابها، ففي كيمياء المعاني ترشيح وتبخير وذوبان كالتي في كيمياء المادة، وفيها تبلور وتقطير، وفيها عناصر ومركبات ومخاليط، وفيها أحماض وأملاح وقواعد، وفيها جزيئات وذرات لها أوزان وكثافات - ولها رموز وقوانين أدق من
رموز الكيمياء المادية وقوانينها، ولها معادلات أصعب حلاً وابعد منالاً
هل علمت - مثلا - أن الماء يتكون من غاز الأوكسجين والأيدروجين بنسبة واحد من الأول واثنين من الثاني باعتبار الحجم - فكذلك الشأن في الأفكار والعواطف، فقد يكون لديك فكرة من نوع ما، أو عاطفة من نوع ما، ثم تسمع فكرة من محدث أو تقرأ فكرة في كتاب، وتكون فكرتك من وزن خاص، والفكرة التي سمعتها أو قرأتها من

وزن آخر، فتتحد هاتان الفكرتان، وتتولد منها فكرة جديد لا هي من النوع الأول وحده، ولا من النوع الثاني وحده، بل هي نوع خاص، علاقته بالفكرتين كعلاقة الماء بالأوكسجين والأيدروجين

وهل علمت أنك إذا ملأت قارورة ثلثها بالأوكسجين وثلثيها بالهيدروجين ثم قربت فوهتها من لهب تسمع لذلك دوياً هائلاً؟ كذلك الشأن في العواطف، فقد يكون لديك عاطفة من نوع خاص، ثم تسمع خطبة من نوع يناسبها فتنفجر نفسك لهذا الاتحاد انفجاراً هائلاً، وتحس ناراً تملأ نفسك، وتذكى حسك - أو ليس الغضب يحمر وجه صاحبه وتنقدح عيناه، ويجعله يقذف بالكلمات الحادة العنيفة، ولا تهدأ ثائرته حتى ينتقم - ضرباً من ضروب هذا التفاعل الذي يشبه تفاعل الغازين؟ أو ليست الحماسة تدفع الجندي ليرمي بنفسه في خط المار، ولا يقيم للحياة وزناً، أثراً من آثار ما يسمع من كلمات القائد وما يشعر من جو وبيئة؟ أو ليس الحب يذيب النفس، ويرهف الحس، ويملأ القلب أسى حيناً، وفرحاً وغبطة حيناً إلا نوعاً من هذا التفاعل دونه التفاعل المادي، والاتحاد الكيماوي؟

وكل ما تدرك من فرق بين التفاعل المادي والتفاعل الروحي أنا استطعنا أن نخضع المادة لبساطتها فنحلل أجزائها بالكهرباء أو ما أشبهها ونقيس مقدار العنصرين أو العناصر المتحدة، ونعرف مقدار كل منها، ونرصد أثر التفاعل. أما في الأفكار والعواطف فليس الأمر بهذه السهولة، فلكل إنسان آراءه وعواطفه وهي تختلف فيما بينها كل الاختلاف، في جوهرها، وفي قابليتها لأفكار الآخرين وعواطفهم، فقد نلقي الكلمة على عدد محدود من الناس فنشعر بأن أثرها عند كل إنسان يخالف أثرها عند الباقين، كضوء النهار يفتح أعيننا ويغمض عين الخفاش، وقد يقرأ أحد كتاباً فيزعم أنه غيّر مجرى حياته، وقلّب تفكيره رأساً على عقب، وألهمه من المعاني ما استحال بها إنساناً آخر، وأحدث في نفسه ثورة فكرية لم يحدثها أي كتاب غيره، ويقرؤه إنسان آخر فلا يشعر هذا الشعور ولا قريباً منه ولا يحس له ميزة ولا يجد له طعماً، وهذا بعينه ما يحدث في الأجسام، تقرب عود ثقاب مشتعل من ورق فيشتعل، وتقربه من ثلج فيذوب، وتقربه من رخام فلا يشتعل ولا يذوب، وأؤكد لك أن الرواية تعرض في السينما أو تمثل في المسرح على عدد كبير من الناس تؤثر في كل راء بمقدار لا يتفق تماماً وأثر الباقين، وأن تأثر المشاهدين متعدد بتعدد رؤوسهم. ذلك [ان الرواية وإن كانت واحدة وممثلوها متحدين فإن هناك عاملاً آخر من عوامل الوزن مختلفاً كل الاختلاف، وهو عواطف الرائي وآراؤه، وأن نتيجة التفاعل تختلف دائماً باختلاف أحد الممزوجين المتفاعلين.

إن أردت التوسع في تطبيق هذه النظرية وجدت القول ذا سعة، فالبائع الناجح في المتجر ليس هو الذي يكثر الكلام أو يقل الكلام، وليس هو الخفيف الحركة، ولا هو المهندم الثياب، وإنما هو الذي يعرف شيئاً واحداً ويتقنه وهو (قانون التفاعل) ينظر إلى المشتري نظرة نافذة فيعلم نفسه، ويعلم نواحيها، ويعرف المواضع الحساسة منه، ويعرف في مهارة نقط التأثر عنده، ومقدار الأثر، ثم يستعمل في هذا العرض والكلام وما يتفق وما درسه من نفس المشتري، وإذا بما يصدر من البائع منسب لنفس المشتري ومنفعل معها على نحو خاص، وإذا الصفقة قد تمت في سهولة ويسر، على حين إن زميله ومن بجواره لا يبيع مثل بيعه لأنه يخطأ في فهم نفسية المشتري فيتفاعل تصرفه تفاعلاً عكسياً مع نفسية المشتري، فينتج من ذلك نوع من الغضب أو نوع من الكراهية أو نوع من الغضاضة ينتهي عادة بالأعراض عن الشراء، فإن سألت كيف جهل هذا وعلم ذاك، وأين درس أحدهما ولم يدرس الآخر فنجح الدارس وفشل الجاهل؟ قلت إن هذا الدرس لا يتعلم في المدرسة وإنما يتعلم في السوق، ويتعلمه من حسن استعداده الفطري وغريزته الطبيعية، بل إن شئت طبقة هذه النظرية على كل ناجح وفاشل في الحياة، فالمدرس الناجح من استطاع أن يتعرف نواحي تلاميذه ويعرف ما يلقى وما لا يلقى، وما يقال وما لا يقال، ويصدر منه ما يتفاعل وهذه النفوس، فيصدر من ذلك التفاعل عطف وحنان وحب، ورغبة في المعلم، ورغبة في علمه، ورغبة في ما يقول، وتأثر بما يشير إليه.

وما الأسرة السعيدة؟ وما الأسرة الشقية؟ أليست السعيدة من عرفت فيها الزوجة

نفسية زوجها والزوج نفسية زوجته وعمل كل منهما على أن يصدر منه ما يتفاعل ونفس الآخر
حتى ينتج هذا التفاعل تآلفاً، فإذا انحرف أحدهما عن هذا الوجه عن جهل أو عن علم ساء البيت ونشأ تفاعل من جنس آخر نتج عن البغض والكراهية والشقاق. الحق إن هذه كلها معادلات في الكيمياء النفسية تشبه تمام الشبه المعادلات الكيماوية التي تجرب في المعمل، ومع الأسف لم يصل الناس إلى حد بعيد في دراسة هذه الكيمياء النفسية ولم ينشئوا لها المعامل الناجحة نجاح المعامل للكيمياء المادية، والخطأ في النفس كثير الوقوع لصعوبة تعرف الذرّات النفسية وتكوين المعادلات الدقيقة. وإذا أدرك الإنسان هذا التفاعل واختلافه ودقته أدرك خطورته، وخاصة فيمن يتصل مركزه بنفوس كثيرين كالصحفي والأديب، والمعلم والخطيب، والزعيم، فقد يصدر عنه ما ينفعل ونفوس الناس فيكون سماً ناقعاً، وقد ينتج عنه ما يكون دواء ناجعاً.
أحمد أمين
النهضة التركية الأخيرة - 2
للدكتور عبد الوهاب عزّام
ويقول آخرون أن الترك احتفظوا بالخلافة ما استطاعت قوتهم، ووسعت ثروتهم. فلما نكبتهم الأحداث بما نكبتهم، وضاقت رقعة دولتهم، عجزوا عن الاضطلاع بهذا العبء الثقيل، والتمسك بهذه الأمانة العظيمة فتركوها كارهين.
وجوابنا أن بعض زعماء الترك أشاروا بأن يدعى المسلمون إلى مؤتمر عام ويقال لهم هاكم خلافتكم قد عجزنا عن حملها، فتشاوروا بينكم، وتبينوا أمركم، وسنّوا للخلافة سنة تلائم زمانكم، وتؤاتي أحوالكم. واتفق رجال الحكومة التركية على هذا وأعلموا به عصمت باشا وهو في لوزان. فلماذا نقض أولو الحول منهم ما أبرموه، وسارعوا فنفضوا أيديهم من المسلمين وخلافتهم وآذنوهم أن لا أخوة بيننا وبينكم؟
المسلمون والتقليد
إذا نقدت أمة أمورها، ونظرت في أحوالها، فنفذت إلى بواطنها جهد النظر الثاقب، والروية والفكر، ثم هداها نظرها إلى أن تستبدل سنة بسنة، وحالاً بحال، فتلك أمة رشيدة حميدة وإن أخطأتا الصواب - وقل أن يخطئها - لأنها بذلت جهد الإنسان في تبين الحق، واجتهدت وسعها في إيثار الرشد، ولم تأل في التريث والتمحيص والنقد المتثبت والنظر الصحيح
وإذا أخذت أمة بأسباب التقليد، وأغرمت بالمحاكاة، كلما لاح لها لألاء من أمة عشت إليه، وكلما سمعت نغمة قوم هامت بها، فتلك أمة ضالة وإن نقلت عن غيرها هدى، مخطئة وإن أخذت عن غيرها صواباً. ذلكم بأنها حقرت عقولها، وأغمضت عيونها، وأسلمت إلى يد غيرها أزمّتها؛ لم تنظر لنفسها فتأخذ وتدع ولم تختر بعقلها فتستحسن وتستقبح، بل خبطت خبط عشواء، وانطلقت كالحاطب في الظلماء. هي في ذلك قد أهدرت إنسانيتها بما ألغت إرادتها واختيارها. وإن استمسكت في ظاهرها بما أخذت من نظام، واعتصمت قي رأي العين بما نسخت عن غيرها من سنن، فذلكم ظاهر ليس وراءه باطن، ورواء ليس وراءه حقيقة. تلكم أمة ممسوخة. وقد سمعنا إن أمماً مسخت فأنكرنا، وقيل إنها مسخت قروداً فعجبنا، ثم رأينا عمل بعض الناس في هذا العصر فصدّقنا
قد ابتلى كثير من المسلمين في هذا العصر بداء التقليد، وفشا فيهم خلق العبيد، وحرموا النظرة النقّادة، والعزيمة النفّاذة، والهمّة الخلاقة. رأوا سلاحهم أضعف من سلاح أوربا، وعلمهم أقل، ونظامهم أوهن، فجعلوا ذلك تعلّة إلى نبذ ما عندهم من خلق ودين وحضارة لتتحلل النفس من تكاليف الإنسانية، وتنطلق في بحبوحة هذه المدنية. وزيّن لهم الهوى أن يقيسوا الدين والأخلاق على العلوم والصناعات، فمضوا يرون كل شيء عندهم باطلاً، وكل شيء في أوربا حقاً، فاستحسنوا أن ينبذوا كل ما عندهم ويأخذوا كل ما عند الأوربيين، وخافوا أن يؤخذ عليهم الاستمساك بدينهم وأخلاقهم، فتنافسوا في هجرها وتحقيرها، فما يحافظون على رأي أو خلق إلا أن تأتيهم شهادة عليه من عالم أو كاتب أوربي، بل هم مدينون لأهل أوربا بما عندهم من ظن حسن في حضارة الإسلام وتاريخه، ومن زيّن منهم داره بفرش عربية فإنما يسميها (أربسكا) ويحاكي فيها أهل أوربا وهلم جرا، حتى الأزهريون وهم أبعد الناس عن أوربا آثروا أن

يسموا الجامع الأزهر جامعة ليترجموا كلمة وسمّوا كل قسم من أقسامه كلية ليوافقوا كلمة

وكم قلت وقال غيري أن المدنية الخلقية والدينية ليست كالمدنية الصناعية، فالصناعات قائمة على علوم طبيعية لا تختلف فيها الأمم، ولا يمتاز فيها الشرق من الغرب؛ ليست مشتقة من نفس الإنسان، ولا صلة لها بقلبه، فتستطيع أمة أن تأخذ عن غيرها علوم الطبيعة والكيمياء والحساب والفلك ونتائج هذه العلوم في الصناعات دون أن تغير دينها أو تبدل أخلاقها؛ ويستطيع زنجي من السنغال أن يذهب إلى فرنسا فيتعلم الطيران أو يدخل في زمرة الجند فيصير عما قليل في البصر بآلات الطائرات، والدربة على نظام الجيش كالفرنسي، ولكنه لا يستطيع أن يغير أخلاقه وعاداته ويكون فرنسياً في خمسين سنة؛ والحضارة النفسية هي الإنسانية حقاً، والمدنية في صميمها وهي مشتقة من نفوس الأمة تفسد بفسادها وتصلح بصلاحها ذلكم ما ينبغي أن نفكر فيه، ونتوفر على درسه، فإن الأمم لا تصلح على الفوضى، ولا تسيّر بالأهواء والشهوات؛ ذلكم ما يجب أن يعنى به أولو الرأي من المسلمين ليأخذوا بحجز أممهم أن تتهافت في هذا التقليد، وتتردّى في هذه المهالك؛ ذلكم ما يجب أن ينهض به الشعراء والكتّاب، ليضروا في النفوس الذليلة عزة تمنعها المحاكاة العمياء، وكرامة تعصمها أن تسير كالعجماء. من لي في المسلمين بعشرين

رجلاً من كبار النفوس عظماء الهمم، البصيرين بالمدنية الحاضرة، ظاهرها وباطنها، العالمين بحضارة الإسلام جليّها وخفيها، العارفين بأدواء الأمم وأدويتها، لينيروا الطريق في هذه الضلالات المظلمة، والفتن المدلهمة؟ من لي فيهم بعشرين رجلاً كهذا العالم الكبير والشاعر المبدع الذي تنفخ أنفاسه الروح في الأجسام الهامدة، والأمل في القلوب اليائسة، الرجل المبارك محمد إقبال الذي انبعث صوته في الشرق بالحياة والهدى والعزة والكرامة، والطموح إلى العلياء، والسمو بالنفس إلى أعلى درجاتها، تلك النفس الكريمة التي تسيل في شعرها حسرات، وتتطاير في كلماتها زفرات، فما تزال تقدح قلبها لتبعث شرارة بعد أخرى تنير الطريق الحالكة، وتشعل النفوس الخامدة، ذلك الرجل الحر الذي وقف من حضارة أوربا وفلسفتها موقف الناقد البصير، يكشف عن زيوفها ويبين عن بهرجها

كم رأينا فينا علماء وأدباء وشعراء ومتفلسفين، ولكن أكثرهم لا يفكرون ولا ينطقون إلا بما سمعوا وما قرءوا، وهم لا يسمعون ولا يقرأون إلا عن أوربا. ليس فيهم رجل حر يفجر في قلبه من الحياة ينبوعاً، أو يضرم فيه من الغيرة ناراً، ليلقي على كل قلب نضحة من هذا الماء، وفي كل نفس جذوة من هذه النار، إيه يا ضلال التقليد! وعبّاد الأصنام في القرن العشرين!

إن عند المسلمين كنوزاً سفت عليها أعاصير الزمان فترت هممهم، وانطفأت نار الغيرة في نفوسهم، فآثروا الدعة حتى يأتي أهل أوربا يدلونهم عليها ويستخرجونها لهم! وإن عندهم لنفائس تنادي هممهم وعزائمهم، ولكنهم يؤثرون أن يتلقوا عن أوربا أشياء مهيأة في علب مذهّبة! ومن ركن إلى الدعة ذلّ، ومن آثر اليسير من الأمور وأشفق من لقاء المصاعب فهو حيّ أشبه بميت؛ وإليكم مثلاً من مئات:

لنا شريعة جاء بها القرآن والسنة وعملت فيها قرائح المسلمين بحثاً واستنباطاً ثلاثة عشر قرناً. فما بقيت واقعة إنسانية إلا اشتق لها حكم يلائم الزمان والمكان، فصارت هذه الشريعة جماع تجارب الأمم في عصور مختلفة وبلاد كثيرة. فلما أراد المصريّون أن ينظموا القضاء عجزوا عن النظر في هذه الكنوز المدخرة، وأشفقوا من الاضطلاع بهذا العبء الثقيل، فأجلسوا نفراً يترجمون لهم قانون نابليون، فتهيأ لنا قانون مختصر مرتب مفصل، وأصبحنا نجاري فرنسا في نظامها، فقد طوينا مسألة القرون في أشهر قليلة. وماذا علينا

بعد ذلك أن يكون هذا القانون في دين الأمة نكراً، وفي أخلاقها شذوذاً، وفي أفكارها أعجوبة، وفي جسمها شللاً، وفي نفسها موتاً؟ لا ضير فقد أخذنا قانون نابليون وناهيك بذلك فخراً وتمدناً. . .

لو أن في المسلمين أناسّ يستوحون عقولهم ويستفتون قلوبهم لخلقوا لأنفسهم نظاماً، وشرعوا لأنفسهم من دينهم قانوناً، لو أنهم أصحاب همم لسلطوا هممهم على الزمان فأسرته، ثم صرفته طوع المشيئة، ورهن الإرادة، ولما لبثوا يتعللون بالعصر

ومقتضياته والزمان وفرائضه، فإن الرجل الحر سيد الزمان والمكان يسخرهما ولا يذل لهما. أين العزائم التي تلقي الزمان بملء خطوبه هيبة، وترد أحداثه بأشد منها صولة؟ آمين ثم آمين. . .

ومما أخذ فيه المسلمون بتقليد أوربا غلوهم في النعرات القومية، والتكاثر بالمفاخر التاريخية، واعتزاز كل فريق بمآثره الجاهلية، كأنهم لم يكونوا على الأحداث أعواناً، ولم يلبثوا أربعة عشر قرناً إخواناً!! قيل للمصريين: أنتم أبناء الفراعين فارجعوا إلى حضارة المصريين القدماء، واعبدوا العجل لتكونوا بذلك شهداء. وقيل لأهل الشام: وأنتم يا بني الفينيقيين تمسكوا بتاريخ الأقدمين، وائتوا بآبائكم إن كنتم صادقين! وقيل للفرس: يا بني الأكاسرة لقد فتح العرب بلادكم، وأزالوا ملككم، وفرضوا دينهم عليكم فانقضوا أيديكم من أخونهم، وردّوا إليهم دينهم، وارجعوا إلى زردشت وإن لم تعرفوه، واقرءوا كتابه وإن لم تفهموه، فالباطل الإيراني خير من الحق العربي! وقيل للترك! وأنتم يا سلالة جنكيز المقدس، وعبدة الذئب الأطلس، قد كانت لكم في سيبريه حضارة، ثم كانت لكم في قره قروم دولة، فارتدوا إلى حضارتكم الأولى، وانزعوا إلى وثنياتكم القدامى، ودعوا مجدكم في الإسلام، واكفروا بمآثره عليكم، ومآثر آبائكم في تاريخه

دعيت كل أمة إلى جاهليتها، فذهب المسلمون ينبشون القبور ليعتزوا بحجر قديم وعظم رميم، ويفخروا بعلامة من حضارة، أو آثارة من مدنية، وغفلوا عن مجدهم في الإسلام يرجف به المشرق والمغرب، وتضيء به الشمس والقمر. وليس أمة إسلامية ذات مجد في الجاهلية إلا مجدها في الإسلام أبهى وأبهر، وأعلى وأعظم، ولكنها عصبيات الجاهلية، والفتن الأوربية، تركس الإنسان في بهيميّته، وتردّه إلى وحشيته بينما يجهد عقلاء المسلمون لإيقاظهم من رقدتهم، ويحرقون أنفسهم لإشعال الحياة فيهم، إذا (النهضة التركية الأخيرة) فقلنا حياة في المسلمين جديدة، ويقظة لا تلبث أن تصير شاملة. قلنا أولئك إخواننا زعماء المسلمين ينفخون في الصور، ليبعثوهم من القبور؛ لعل هذه النفوس الكبيرة تخلق أمة جديدة، أو تخترع لنا سنّة رشيدة، تصل عزة الماضي بمجد المستقبل وتذهب بذل الحاضر؛ إن يخلقوا فالرجل الحر خلاق، وإن يسبقوا فالكريم إلى المعالي سباق - لا ريب إننا سنرى فيهم عمر بن الخطاب، وهارون الرشيد، وعبد الرحمن الناصر، وصلاح الدين الأيوبي، وسليمان القانوني، ولكن في القرن العشرين يفتحون صدورهم لعلومه، ويتوسلون بوسائله إلى الغايات الشريفة والمثل العليا التي سعى إليها المسلمون من قبل. ثم نظرنا فإذا نفخة الصور، لا تدعوا إلى النشور، وإذا الهمم العالية تسف، والعزائم الماضية تهن، وإذا حياة تجفل من نفسها وتعتز بغيرها، وإذا نهضة من المحاكاة عليلة، وخطة من التقليد ذليلة، قصاراها: (اقطع كل من يربطك بالإسلام وأممه، وأحكم كل ما يصلك بأوربا وسننها) فانظر ماذا صنعوا إنفاذاً لهذه الخطة:

(له بقية)

عبد الوهاب عزام

شمس الدين السخاوي - 1

حياته وتراثه

للأستاذ محمد عبد الله عنان

أتيحت لي في الأعوام الأخيرة فرصة لدراسة شخصية بارزة تتبوأ مكانة رفيعة في آداب مصر الإسلامية، وفي الآداب العربية بوجه عام، وتمثل وحدها مدرسة فكرية زاهرة، وتمتد عبقريتها الشاملة إلى عدة نواح وفنون مختلفة، وما زال تراثها إلى اليوم يكون مجموعة قوية حافلة في تراث الأدب العربي والتفكير الإسلامي

أريد بتلك الشخصية، شمس الدين السخاوي الذي تملأ شخصيته الحركة الأدبية المصرية زهاء نصف قرن

كان السخاوي إحدى هذه العبقريات الأدبية التي تفتحت بمصر في القرن التاسع الهجري (القرن الخامس عشر الميلادي) واختتمت بها مصر الإسلامية حياة أدبية باهرة سطعت مدى قرنين؛ وكان ظهوره في النصف الأخير من هذا القرن، حينما أخذت عوامل الانحلال تفت في هذا الصرح الباذخ الذي شادته دول السلاطين بمصر، وأخذت الحركة الأدبية التي كانت في النصف الأول من القرن التاسع في أوج عنفها وازدهارها، تميل إلى الضعف والسقم، وتستبدل ألوانها القوية الساطعة بألوان سطحية باهتة؛

فكان ظهور السخاوي وتلميذه ومنافسه السيوطي في أواخر هذا القرن نفثة أخيرة من نفثات هذه الحركة القوية التي لم تلبث أن خبت بعد ذلك وانهارت أمام الفتح العثماني

ومن حسن الطالع إننا نستطيع أن ندرس شخصية السخاوي على ضوء حسن؛ فلدينا أولاً معظم آثاره نقرأ فيها خواص تفكيره وأدبه؛ ولدينا ترجمته لنفسه وعدة أخرى من التراجم المعاصرة، نتتبع فيها حوادث حياته وظروف تكوينه

ولد السخاوي، كما يحدثنا في ترجمته لنفسه، بمدينة القاهرة، بحارة بهاء الدين، في ربيع الأول سنة831 هـ (1428م) في أسرة أصلها من بلدة سخا من أعمال الغربية، واستقرت في القاهرة قبل ذلك بجيلين. وهو محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان،

شمس الدين أبو الخير السخاوي؛ ولما بلغ الرابعة من عمره تحولت أسرته إلى منزل جديد في نفس الحي اشتراه أبوه؛ وكان موقعه بجوار دار علامة العصر الحافظ ابن حجر العسقلاني؛ وكان لهذا الجوار أكبر أثر في حياة السخاوي، كما سنرى. وأنفق السخاوي بضعة أعوام في المكتب وحفظ القرآن؛ ثم أخذ يطوف بأشياخ العصر يتلقى عنهم مختلف العلوم والفنون؛ ودرس النحو والعروض واللغة والفقه والحساب والميقات والأصول والبيان والتفسير والمنطق؛ وهنا يعدد لنا السخاوي ثبت أساتذته وما أخذه عن كل منهم، وما درسه من مختلف الكتب؛ وتجلت مواهبه ومقدرته بسرعة مدهشة؛ وأجاز له الكثيرون من شيوخه، بل أجازوا له الإفتاء ولما يبلغ العشرين بعد وقد كان ابن حجر في مقدمة أساتذته؛ وكان ذلك الجوار الذي رتبته ظروف الحياة مبعث هذه الصلة الوثيقة التي استمرت مدى الحياة بين الأستاذ وتلميذه، والتي بثت غير بعيد إلى نفس الفتى نوعاً من العبادة الروحية لهذا الذي كان يعتبر يومئذ إمام الأئمة وقطب العلماء والباحثين. والواقع إن ابن حجر كان يتبوأ يومئذ مركز الزاعمة العلمية في مصر الإسلامية، وكان في ذروة نضجه ومجده، وقد انتهت إليه الرياسة في معظم علوم العصر، ولا سيما الحديث والشريعة. وكان بدء اتصال السخاوي بأستاذه في سنة 838هـ، أعني وهو طفل لم يجاوز الثامنة؛ وكان يذهب مع أبيه ليلاً إلى مجالس الشيخ فيستمع إلى دروسه في الحديث. ويصف لنا السخاوي علاقته بأستاذه في عبارات مؤثرة تنم عما كان لهذه العلاقة من عظيم الأثر في تكوينه فيقول متحدثاً عن نفسه: (وقبل ذلك كله سمع مع والده ليلاً الكثير من الحديث على شيخه إمام الأئمة الشهاب ابن حجر، فكان أول ما وقف عليه من ذلك في سنة ثمان وثلاثين، وأوقع الله في قلبه محبته، فلازم مجلسه، وعادت عليه بركته في هذا الشأن. وأقبل عليه بكليته إقبالاً يزيد على الوصف بحيث تقلل ما عداه. . . وداوم الملازمة لشيخه حتى حمل عنه علماً جماً، واختص به كثيراً بحيث كان من أكثر الآخذين عنه؛ وأعانه على ذلك قرب منزله منه، فكان لا يفوته مما يقرأ عليه إلا النادر. . . وينفرد عن سائر الجماعة بأشياء. وعلم شدّة حرصه على ذلك فكان يرسل خلفه أحياناً بعض خدمه لمنزله؛ يأمره للمجيء للقراءة)

وهنا يفيض السخاوي في ذكر الكتب والمتون التي قرأها ودرسها على شيخه ابن حجر، سواء من تصنيفه أو تصنيف غيره، ومعظمها في الحديث، ودرس عليه أيضاً التاريخ والتراجم؛ ودرس في الوقت نفسه على كثير من شيوخ العصر؛ ويعدد لنا السخاوي كثيراً من شيوخه ويقول لنا انهم بلغوا أكثر من أربعمائة؛ بيد أن ابن حجر كان دائماً إمامه وشيخه المفضل، وقد أذن له غير بعيد في الإقراء والإفادة والتصنيف؛ ويقول لنا السخاوي إنه لم ينفك عن ملازمة أستاذه، ولا عدل له بملازمة غيره من علماء الفنون خوفاً على نقده، ولا ارتحل إلى الأماكن النائية بل ولا حج إلا بعد وفاته؛ لكنه حمل عن شيوخ مصر الواردين إليها كثيراً، وفي الأوقات التي لا تعارض وأوقاته سيما حين اشتغاله بالقضاء وتوابعه). وقد لبثت هذه العلاقة الوثيقة بين التلميذ وشيخه حتى توفى ابن حجر في أواخر سنة 852هـ

وهنا تبدأ المرحلة الثانية في حياة السخاوي؛ وهي مرحلة درس وتحصيل أيضاً ولكن خارج مصر. وكان السخاوي يومئذ في الثانية والعشرين من عمره؛ ولكنه كان رغم حداثته قد برز في كثير من العلوم التي تلقاها؛ وكان قد استأثر في هذه الأعوام

الطويلة التي قضاها إلى جانب ابن حجر بكثير من علمه ومعارفه، وتأثر أعظم تأثير بأساليبه ومناهجه؛ بل نستطيع أن نقول أن السخاوي كان بعد ابن حجر، مستودع علمه وتراثه، وكان أشد تلاميذه تمثيلاً لمدرسته؛ بل كان بعد شيخه زعيم هذه المدرسة وأستاذها القوي يرفع لواءها ويحمل مناهجها حتى خاتمة القرن التاسع؛ وقد أشار ابن حجر نفسه في أواخر أيامه إلى تلك الحقيقة، وكثيرا ما وصف السخاوي بأنه (أمثل جماعته) أو (ممثل جماعته)

وسافر السخاوي عقب وفاة أستاذه إلى دمياط ودرس على شيوخها حيناً؛ ثم سافر مع والدته بحراً إلى مكة ليؤدّي فريضة الحج؛ وانتهز هذه الفرصة فدرس على شيوخ مكة والمدينة، وطاف بالبقاع والمشاهد المقدسة كلها؛ ثم عاد إلى مصر، وسافر إلى الإسكندرية وقرأ بها مدى حين؛ وزار معظم عواصم الوجه البحري وقرأ على شيوخها الأعلام جميعاً، وحصل كثيراً من الفوائد والمعارف. ثم رأى أن يقوم برحلة إلى الشام ليزور معاهدها، ويتعرف بشيوخها؛ فسافر إلى فلسطين وطاف بيت المقدس والخليل ونابلس؛ ثم قصد إلى الشام، وزار دمشق وحمص وحماه، ثم استقر حيناً في حلب؛ كل ذلك وهو يدرس ويقرأ على أعلام هذه العواصم؛ ويقول لنا إنه (اجتمع له في هذه الرحلة من الروايات بالسماع

والقراءة ما يفوق الوصف)؛ ويبدو من تعداده للكتب التي درسها وقرأها في هذا الطواف، إنه كان يعنى بدراسة الحديث والقراءة والنحو والفقه وعلوم البلاغة والتصوّف. ولم يعين السخاوي لنا تواريخ تنقلاته في هذه الرحلة، ولكن الظاهر إنها استغرقت بضعة أعوام.

ولما عاد السخاوي إلى مصر، عكف على التدريس، ولا سيما تدريس الحديث، أحياناً بمنزله، وأحياناً بخانقاه (معهد) الصوفية المعروف بسعيد السعداء؛ وكذا انتدب في أوقات مختلفة للتدريس في أعظم مدارس القاهرة كدار الحديث الكاملية والصرغتمشية، والظاهرية، والبرقوقية، والفاضلية وغيرها، وذاع صيته وأقبل عليه الطلاب من كل صوب. وفي سنة 870 هـ - سافر مع أسرته - وكان قد تزوج يومئذ ورزق بعض الأولاد كما يفهم ذلك من إشارته إلى مولد ولده أحمد - ومع والده وأكبر أخويه إلى الحج للمرة الثانية؛ وصحبه أيضاً في تلك الرحلة صديقه وأستاذه والنجم بن فهد الهاشمي - وكان من أعلام العصر. ودرس بمكة مدى حين، وقرأ بالمسجد الحرام بعض تصانيفه وتصانيف غيره. ولما عاد إلى القاهرة استأنف دروسه وإملاءاته؛ وتبوأ مركز الزعامة يومئذ في علم الحديث، وشغل فيه نفس المركز الذي كان يشغله فيه أستاذه ابن حجر قبل ذلك بثلاثين عاماً

ثم حج السخاوي للمرة الثالثة في سنة 885هـ، وقضى بمكة عاماً في التدريس والدرس؛ ثم حج سنة 87 وقضى ثمة حين في الدرس والإقراء؛ وحج للمرة الخامسة في سنة 92هـ وقضى ثمة عاماً آخر في الدرس والإقراء؛ ثمّ حج في سنة 94، وقرأ الكثير من دروسه وتصانيفه، وغدت مكة وطناً ثانياً له؛ وكتب بها كثيراً من مؤلفاته كما سنرى

ولما عاد إلى القاهرة في سنة ثمان وتسعين (898هـ) استقر بمنزله، وأبى الدرس والإقراء في المعاهد والحلقات العامة (ترفعاً عن مزاحمة الأدعياء) حسب قوله، وترك الإفتاء أيضاً واكتفى بالإقراء في منزله لخاصة تلاميذه؛ وكان السخاوي قد اشرف يومئذ على السبعين من عمره، ولكنه استمر منكباً على الدرس والتأليف؛ وكانت قد انتهت إليه الرياسة يومئذ في معظم علوم عصره، ولا سيما الحديث، حتى قيل أنه فاق شيخه ابن حجر في ميدانه، وانتهى إليه فن الجرح والتعذيب، حتى قيل لم يبلغ أحد مكانته فيه منذ الحافظ الذهبي؛ وكانت شهرته قد تعدت حدود مصر منذ بعيد وذاعت في أنحاء العالم الإسلامي،

ولا سيما في الشام والحجاز حيث تلقى عليه مئات العلماء والطلاب؛ ولبث السخاوي رغم مكانته العلمية الرفيعة ونفوذه القوي بعيداً عن ميدان السياسة ودسائس البلاط والمناصب الرسمية؛ واقترح عليه صديقه الأمير يشبك الداوادار أن يقرأ التاريخ بمجلس السلطان الظاهر خشقدم فأبى؛ ثم عرض عليه أن يتولّى القضاء بعد ذلك، فاعتذر وأشار بتعيين خصمه ومنافسه السيوطي رغم ما كان بينهما من الخصومات الأدبية الشهيرة

وأقام السخاوي حيناً في القاهرة؛ ثم سافر إلى مكة ليحج للمرة السابعة؛ وعكف بعد أداء الفريضة على الإقراء والدرس، وتردد حيناً بين مكة والمدينة؛ ثم استقر أخيراً بالمدينة؛ واستمر في الإقراء بها حتى توفّى في 13ذي القعدة سنة 902هـ (1497م) في الحادية والسبعين من عمره.

(للبحث بقية)

محمد عبد الله عنان المحامي

مكتبتي

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

مكتبتي شيء عظيم جداً - ولست أعني إنها كبيرة ضخمة، وإن في خزاناتي آلافاً مؤلفة من المطبوع والمخطوط، فما عندي مخطوط واحد، ولا ولوع لي بجمع هذا الضرب من الكتب، وما يمكن أن تبلغ كتبي الآلاف بعد أن احتجت أن أبيع منها مرات، وإني لمجنون بالكتب، ولكن جنوني بما فيها لا بأشكالها وألوانها على رفوفها. وقد اعتدت ألا أبالي أن يبقى الكتاب عندي بعد أن أقرأه أو أن يذهب، ولم أكن كذلك، ولكن المرء مما تعود. على أنه سيان أن أتحفظ بالكتاب وأن أبيعه كما اشتريته، أو أهبه، فما إلى الوصول إليه سبيل في هذه الخزانات، ولأهون عليّ أن أشتري منه نسخة أخرى من أن أهتدي إلى موضعه وأعرف أين اختبأ. ومتى كان هذا هكذا، فما حرصي على كتاب يحاورني ويهرب مني وأنا أدور بعيني على الرفوف؟؟ وليس أثقل عليّ، ولا أشقّ على نفسي من الإقامة في بيت واحد زمناً طويلاً، ولو وكل الأمر لاختياري لاتخذت كل يوم بيتاً، ولكن الكتب راضتني على السكون وردتني على مكروهي، فأنا الآن كالمقعد لا أكاد أتحول، إلا أن أحمل على انتقالي حملاً؛ ذلك إني كلما سكنت بيتاً أروح أتخير للكتب أوسع الحجرات وأكثرها شمساً وهواء، ثم أقول دعوا الصناديق والغرارات حتى افتحها وأخرج ما فيها وأرتبه بنفسي، فتترك شهوراً، تنقلب الحجرة في خلالها مزبلة، فيتبرم أهلي ويلحون عليّ على أن أفرغ الصناديق، فأقول: (لا بأس. موافق)

فتسألني زوجتي: (ومتى تفعل؟)

فأعدها خيراً، فتلح عليّ، فأؤكد لها إني فاعل ذلك غداً إن شاء الله

فتقول: (إن شاء الله معناها عندك إنك لن تفعل أبداً)

فأقول: (أستغفر الله يا امرأة! إن شاء الله يعني إن شاء الله، أليس كذلك؟)

فتقول: (ولكني أريد تنظيف الغرفة! ألا ترى هذا التراب؟)

فأقول: (صحيح! كثير) لأني أحب أن أقرأ بالحق وأكره المكابرة، فتهمل الثناء على ذلك وتقول: (وهذه الصراصير؟ والفئران؟ لا. لم يعد هذا بيتاً يسكن)

فأقول: (ألا أقول لك وأريحك؟)

فتقبل عليّ مسرورة وتسألني: (ماذا؟)

فأقول: (أفرغي أنت الصناديق، ورصي الكتب على الرفوف - عليّ أي ترتيب - وارفعي التراب، واقتلي الصراصير، وطاردي الفيران - وعلى الجملة نظفي الغرفة - هيه؟ ما قولك؟)

فتوافق، وأعود من عملي فألقي المكان نظيفاً، فلا فيران ولا صراصير ولا تراب، ولا صناديق، ولكني أحتاج إلى أن أرجع إلى كتاب، فأفتح خزانة بعد أخرى وأنظر إلى ما تكدّس على رفوفها فأرتد يائساً وأصيح بزوجتي: (يا امرأة! أين وضعت ابن الرومي؟) مثلاً!

فتقول: (عندك بالطرد) فأسألها: (أواثقة أنت أنك لم تضعيه في المطبخ؟)

فتقول محتجّة: (المطبخ؟ كيف تقول هذا؟ أهذا جزاءي على تعبي؟)

فأقول: (معذرة، ولكني لا أراه هنا) فتقول: (ابحث عنه) فأبحث - أعني إني أروح أخرج من الخزانة صفاً بعد صف، وأضع ما أخرج على الأرض هنا وههنا، حتى تخور قواي، وينفذ صبري، ويهي جلدي، وأنظر إلى ما فرشت به الأرض فأجزع، وأغافلها - أعني زوجتي - وأتسلل خارجاً، وأرد الباب ورائي حتى لا ترى شيئاً وأعود في الليل، وفي ظنّي إنها نائمة، وفي عزمي أن أعيد الكتب إلى الرفوف، فأفتح الباب برفق، فإذا الكتب قد وثبت بقدرة ربك، وصفت نفسها على الرفوف، وتزاحمت، ودخل بعضها في بعض - خوفاً من الفئران ولا شك! فأتنفس الصعداء وأفرك كفّي، وأقول: (الحمد لله!

يا ما أكرمك يا رب!)
وإذا بزوجتي تقول: (وأخرتها معاك! ألا يمكن أن تعيد كتاباً إلى موضعه بعد إخراجه؟ ألا بدء أن ينشف ريقي كل يوم بسبب هذه الكتب؟ شيء غريب والله! كيف ومتى يمكن أن أفرغ للبيت إذا كانت هذه الغرفة همّاً لا ينقضي؟ وأحب مرة أخرى أن أقرأ في كتاب، فأدخل الغرفة، فتدخل ورائي تجري، وتتناول ذراعي وتشدني فأستغرب وأسالها (ماذا؟)
فتقول بحدة (ماذا أنت؟) فيزيد عجبي وقول: (ماذا أنا؟ ألا تعرفين ماذا أنا؟ سيدك يا ستي!)
فتقول وهي تجاهد أن تعبّس، والضحك يغالبها: (دع المزاح الآن! ماذا تريد أن تصنع؟)
فأقول: (شيء جميل! وكيف يعنيك هذا يا امرأة؟)
فتقول: (يعنيني مصير الغرفة - هذا ما يعنيني يا سيدي - ولست أنوي أن أدعك تقلبها مزبلة فقد ورمت كفاي من العمل فيها)
فأقول: (وماذا تصنع هذه العجوز؟ تأكل وتشرب فقط وتقبض أجرها آخر الشهر؛ وهذه الفتاة الخفيفة لماذا لا أراها تعمل شيئاً غير اللعب مع الأولاد؟ وتلك الثالثة. . . أهو بيت أم دكّان مخدم؟ أريد أن أعرف هذا أولاً)
،فتقول: (لا تحاور. إن الكتب لا يمسّها غيري، فإني أخاف عليها التمزيق. .) فأشكرها فتقول: (العفو! ولكني أخاف منك على الغرفة فاصنع معروفاً وارجع عنها)
فأسألها: (ولكن كيف أرجع وأنا أريد كتاباً؟)
فتقول: (لا تتعبني. . . من فضلك. . . أرجوك) فأشعر لها برقّة وأقول: (يا امرأة! هل استطعت قط أن أرفض لك رجاء!؟) وأتبعها، وأنصرف عن الكتب والقراءة، وأعزي نفسي بأني كنت سأنصرف لا محال عن ذلك مرغماً، فما أطمع أن أجد كتاباً أطلبه من هنا صار المعقول إني إذا اشتهيت أن أقرأ كتاباً أو أرد أن أراجعه، أن أشتريه، وقد أشتريه، وأضعه على المكتب إلى المساء، فتراه زوجتي فتفتح خزانة وتدسه في صف، وأعرف ما صنعت به، فأشتري نسخة أخرى، ومن أجل هذا أيضاً صار عندي من بعض الكتب ثلاث نسخ أو أكثر.
وقال لي أخي مرة: (يحسن أن ترتب هذه الكتب)
قلت: (يا أخي، كيف أصنع؟)
قال: (أجيئك ببطاقات، تكتب فيها أسماء الكتب مرتبة على حروف المعجم، فإذا طلبت كتاباً، راجعت البطاقات، فسهل عليك إخراجه)
قلت: (رأي سديد - هات البطاقات) فجاءني ببضع مئات منها، ودفع بها إليّ، فنظرت إليها وشكرته ثم قلت له: (أما البطاقات فجاءت، وأما الكتابة فيها فأحسبها تقتضي أن أخرج الكتب واحداً واحداً، وأقيّد أسماؤها، ثم. . .)
فصاحت زوجتي: (لا لا لا لا! أرجو. . . أرجو ألا تفعل. . .)
فالتفت إليها وقلت: (يا امرأة! كيف ترضين عن هذه الفوضى؟ بل لا بد من الترتيب)
فقالت: (أنا واثقة أن الكتب لن ترتّب. وكل ما يحصل هو أن تخرجها وتكوّمها على الأرض وتتركها، فيغطّيها التراب، وتجتمع عليها الصراصير، فأعود إلى نفض التراب وطرد الصراصير. . . لا يا سيّدي! لن أسمح بهذا أبداً!) فنظرت إلى أخي وقلت: (أتسمع؟ إنها لا تسمح! فما رأيك؟)
قال: (الحق معها. ولو كنت أنا مكانها. . .) فلم أدعه يتم الجملة وصحت به: (أعوذ بالله!) فشكرني، وقال (إنما أعني. . .) فعدت إلى مقاطعته وقلت: (دع ما تعنيه، من فضلك، وحسبك إنك نغصت علي حياتي!) فدهش وقال: (كيف؟)
قلت: (سأرى وجهك بعد الآن كلما نظرت إلى امرأتي. . . أعوذ بالله. . . يا ساتر يا رب. لطفك اللهم!) وقد حرصت على البطاقات، لأقيّد فيها أسماء الكتب مرتّبة على حروف المعجم، فما من هذا مفر، ولكن العقدة إن زوجتي تؤثّر الترتيب الحالي، وقد بلغ من رضاها عنه وخوفها عليه أن يضطرب أو يفسد، إنها أخفت مفاتيح الخزانات لا أدري أين؟ بارك الله فيها - أعني لا الخزانات.
إبراهيم عبد القادر المازني
ساعة في البقيع
للأستاذ علي الطنطاوي

خرجنا إليه في صفرة الطفل، وقد سكرت الريح، وسجى المساء. وكان اليوم روحاً، فما تجاوزنا أزقّة المدينة الضيّقة الملتوية وبدا لنا سور البقيع الهائل الذي أقاموه في وجه مدينة الموت كيلا تبتلع مدينة الحياة. . . حتى هبّت الرياح لواقح، فأنشأت سحاباً ما لبث أن أكفهر وتطخطخ وعمّ السماء، فأظلمت الأرض واسودّت، وعادت كئيبة تملأ النفس غمّاً. وكنّا قد بلغنا البقيع، فرأيته موحّشاً مظلماً رهيباً: (قاتم الأعماق خاوي المخترق) وشممت منه رائحة الموت، فتهيبت دخوله في هذه الأمسية، وأزمعت العودة، ولكن صاحبي أصرّ عليّ وشجّعني، ثم أخذ بيدي فإذا أنا وراء السور، وإذا ساح فسيحة، ممتدّة الجوانب، مظلمة الأرجاء، ساكنة سكون الموت، ليس فيها بناء ولا قبّة ولا تابوت، كأنما لم يسمح لبشر أن ينصّب في حرم الموت معالم الحياة، أو يدنس دار البقاء بشارات الفناء. . . فأغمضت عيني، وشددت على ذراع صاحبي، وجعلت أدنو منه لما أجد من الوحشة وأحس من الجزع، وما عاهدتني من قبل أعرف الخوف أو أدري ما الجزع، فسار بي يقودني حتى هبط بي غوراً عميقاً، حال بيني وبين الفضاء، وحجب عنّي السور الذي كنت أراه فأنس برؤيته، وأذكر إنها لا تزال وراءه دنيا حافلة بالنور والجمال والحياة. . . فلم أعد أرى شيئاً، وأمحت من خيالي كل صورة، وطارت من رأسي كل فكرة، إلا فكرة الفناء، وصورة الموت، وأحسست وأنا أهبطه إني هابط إلى القبر! وخيّل إلى إن أشباح الموتى ترقص من حولي، وتدنو مني وتمسّني وتهم بعناقي، فتقف كل شعرة في جسمي، ويزداد قلبي خفقاناً، وتتخاذل ركبتاي حتى أهم بالسقوط، ويطن في أذني صوت رهيب مستطيل يلقى في روعي إنه نشيد الفناء. . . وكان كل ما يحف بي مخيفاً رائعاً، فالقبور، والظلام الشامل، والسكون العميق، والسماء التي لا تطرف فيها من النجم عين، والمكان الذي لا تبلغه نسمة من نسمات الحياة، وجلال الموت، كل أولئك كان يخيفني، ويصب في قلبي الوحشة والفزع. . . ثم صاحت بومة على سور المقبرة. . . فاستمسكت بصاحبي وقلت: عد ويحك!

قال: كيف أعود وقد بدأت الزيارة. . . هذا قبر عثمان! وكأن ذكر عثمان قد رجّع إلي نفسي، فنظرت فلم أجد قبراً ولا شيئاً يشبه القبر، وإنما وجدت حجارة صغيرة قد صففت على وجه الأرض، وفرشت من حولها رمال حمراء ناعمة، كحوض أعدّ لزرع فيه الورود، فقلت: أتهزأ بي يا . . .

قال: لا والله. ولكنّي أقول الحق. هذا قبر عثمان

قلت: يا لسخرية القدر! أتحرثون موضع قبر عثمان أمير المؤمنين لتزرعوا فيه الورود؟

قال: أي ورود؟ كل القبور هكذا . . .

قلت: لعلّك أخطأت القبر. اذهب فاقرأ اسمه

قال: قد طمست الأسماء، فما عليه من أسم. ولكن ثق إنه هو. أعرفه من هذه الغضاة!، أشار إلى غضاة قريبة منه لا أدري كيف دخلت حرم الموت فأنست بها. وذكرني الغضى دنيا مليئة بالصور، مترعة بالحياة نفت عني بعض ما أنا فيه من الغربة والجزع، فقلت: وكيف تعرف غيره من القبور؟

قال: ما أعرف إلا قبور آل البيت، وقد كنت أعرف قبر مالك فاختلط علي ونبيسته، ولكن يعرفه إذا شئت (العم حمد) خادم المقبرة، وبعض الشيوخ من أهل المدينة . . .

وانقطع الحديث فقد استشرى البرق وائتلق، ورعدت السماء، ثم هطلت بمطر بعاق قشرة وجه الأرض. وجعل فيها بركاً وأنهاراً، فلم نجد شيئاً يعصمنا من الماء نأوي إليه، إلا هذه الغضاة وما تكاد تعصمنا. . . والمطر في الحجاز أعجب شيء رأيته: فبيّنا الشمس طالعة، والأرض متسعرة، واليوم خدر عصب، وإذا السماء قد تلبّدت بالغيوم، ودوت بالرعد، والأمطار قد نزلت كأفواه القرب، واليوم قد عاد قرّاً بارداً، ثم لا تلبث حتى تنجلي السحب، وتصحو السماء، فتنظر فإذا الأرض قد بدّلت غير الأرض، وإذا السيول قد جرفت البيوت، وخرّبت الطرق، وطمّست المعالم، كما يطمس سطر سال عليه ماء. . . ولقد ضنناها سحابة صيف ولكنّها لم تنقشع، ولم تزدد الأمطار إلا شدّة وتهطّلاً، ولم يزدد الرعد إلا قعقعة وقصيفاً، حتى كأن الدنيا مجنونة، عاودتها نوبتها، فهي تصرخ وتقفز وتمزّق ثوبها بيدها، وتشق حنجرتها بصراخها. . . بيد إني لم أكن أحفل بالبرد ولا بالمطر، ولم أكن أذكر الخوف ولا الجزع، ولم أكن أفكر إلا في هؤلاء الأبطال الذين فتحوا الدنيا، وملكوا العالم، ثم ظنّوا عليها بقبر يعرف، أو اسم يقرأ، أفكر في هؤلاء العظماء. . .

كم انحنت تحت أقدامهم هام الجلاميد الصم حتى وطئوها، كم استكانت لهم هذه الرمال الهائلة حتى قطعوها، كم دانت لهم البادية المهلكة حتى جابوها، ليخرجوا منها فاتحين إلى أرض الرياض والعيون، فيبلغوها رسالة الصحراء، وينشروا فيها دين الصحراء! لقد انتصروا على البادية المهلكة، والشمس المحرقة، والجوع القاتل، والعطش المميت، والعدو الجبار، والجيش الجرار، ثم انتصر عليهم البقيع، فإذا هم مستقرّون في أحشاءه، وإذا هم قد ناموا فيها إلى الأبد، فلن يذهبوا إلى الحرم ليقيموا الصلاة، ولن يمتطوا ظهور جيادهم ليمشوا إلى الجهاد، ولن يحملوا الراية الإسلامية لينصبوها إلى أقصى العالم، ولن تستقبلهم زوجاتهم وأولادهم وإذا عادوا ظافرين، بل هم لا يرون طلعة الشمس ولا يبصرون صفحة القمر، ولا يسيرون على وجه الأرض. . .

انتصرت أيّها البقيع؛ فما وفّيت ولا أنصفت. . . جاءك الأبطال الذين فتحوا الدنيا، ونشروا راية العدل على الأرض، وأضاءوا طريق الهدى للناس، ليستريحوا في إرجائك، ويناموا في حماك، فحرمتهم قبراً يعرف لهم، وحجراً تكتب عليه أسماؤهم ما نريد منك أن تنقش على قبورهم آيات التبجيل والثناء. فإن لهم من أسماؤهم الكبيرة، غنيّة عن كل تبجيل وثناء لكنّا نريد ألا تنسى هذه الأسماء

سيموت الشيوخ الذين يعرفون هذه القبور، أف يرضيك أيها البقيع أن يأتي الجيل الجديد، فيفتّش عن هذه القبور فلا يجدها، فيقول: هاتوا المعول، هاتوا الأحجار. . . أبنوا هنا ملعباً! لا نجد في هذه المدينة خيراً من هذه الساحة، إنها لا تترك أرض سدى! ثم بينما هم يتقاذفون الكرة، إذا بهم يخطئون فيتقاذفون واحدة من هذه الجماجم. . .

أنسيت أيها البقيع إن كل مسلم يحس إنه يملك في هؤلاء الأبطال ملكاً، وإن هذا الرفات ليس من حقّك وحدك، ولكنه حق لكل مسلم ولد أو يولد إلى يوم القيامة. . .

وإنك إن طمست هذه الأسماء، حتى يجهلها المسلمون، أسأت إلى كل المسلمين؟

أنسيت أن أضيافك عظماء البشر، أف تستحق العظمة هذا الإهمال الشائن، وهذا النسيان المخزي، أم ذنبهم إنهم لم يكونوا فرنجة ولا إنكليز؟! أف يكون البانتيون لأبنائه أوفى منك لأبنائك أيّها البقيع؟ إنه لم ينقص من مجدهم إنها لم تشيّد لهم القبور، ولم تنقش أسماؤهم على صفائح الحجر، وحسبهم إنهم شيّدوا مجداً وبنوا أمة وكتبوا تاريخاً، فإذا نسى التأريخ أبطاله ومنشئيه، فقدماً نسى التاريخ الأبطال! وهل ذكر التاريخ أولئك الجنود الذين سقوا

الأرض بدمائهم حتى أنبتت مجد نابليون فأقتطفه؟. . هل ذكر أولئك القصاص الذين أهدوا إلى شكسبير قصصهم الرائعة فرواها؟ هل ذكر أولئك الملاحين الذين غامروا بأرواحهم حتى أوصلوا كولومب إلى الساحل الجديد وأمسكوا بيده حتى نزل إليه؟. .

ماذا كان نابليون وشكسبير وكولومب لولا أولئك الأبطال المجهولون الذين نسيهم التاريخ؟ لا بأس أيها البقيع فإن البطل الحق هو الذي لا يعرفه أحد!

وازداد الرعد قرقرة وهزيماً، وعقّ البرق وتكلّح، وأغدقت السماء وجادت، وعصفت الريح وأعجّت وجنت الدنيا جنونها، فنظرت فإذا السيل قد جرف قبر عثمان فلم يبق له من اثر .!

فقلت: أطبقي يا سماء، وتشقّقي يا أرض، وتصدّعي يا جبال. . . إن من ملكوا العالم لا يجدون القبور. . .

علي الطنطاوي

القاضي النسوي

للأستاذ قدري حافظ طوقان

ما أكثر الذين لم يوفّهم التاريخ حقّهم من البحث والتنقيب وقد أحاط بهم الغموض والإبهام وراحوا ضحية الإهمال فلا ترى لهم اسماً في الكتب التاريخية ولا ذكراً في معاجم الأعلام والعلماء! من هؤلاء الذين كاد يطغى عليهم النسيان أبو الحسن علي أحمد النسوي، فهو من رياضي القرن الخامس للهجرة من بلدة نسا بخرا سان، لم يكتب عنه إلا ما لا يشفي غلة المنقب، وقد أهملته المصادر إهمالاً معيباً، وإذا أطلعت على تاريخ الرياضيات (لسمث) وجدت عنه نبذة لا تتجاوز عشرة كلمات، وهي أن النسوي ألف في الحساب الهندي وشرح بعض المؤلفات لأرشميدس؛ وتجد أيضاً في كتاب آخر يبحث في الأرقام الهندية العربية تأليف سمث وكاربنسكي: إن النسوي من الذين استعملوا كلمة الهندي لتدل على الحساب في القرن الحادي عشر قبل الميلاد.

وأما كتاب الآثار الباقية فيقول عن النسوي إنه لم يتمكّن من العثور على شيء عن حياته، ومع ذلك فقد استطاع أن يكتب عنه بصورة أوسع من غيره من المؤلفين معتمداً في ذلك مقدمة كتاب المقنع لصاحب الترجمة. ومن هذه الترجمة يفهم إن النسوي ينتسب لمجد الدولة بن فخر الدولة حاكم العراق الفارسي. ويقال إن مجد الدولة هذا طلب من النسوي أن يؤلّف له كتاباً في اللغة الفارسية يبحث في الحساب الهندي على أن يكون موافقاً لديوان محاسبته يمكن الانتفاع منه، قد كان ما أراد الحاكم وخرج الكتاب إلى الناس فانتفع منه وعنه اخذوا الشيء الكثير لمعاملاتهم؛ وقد اطّلع شرف الدولة أمير بغداد على هذا الكتاب، ويظهر أنه رأى فيه فائدة وانتفاعاً فأمر النسوي بأن يؤلّف له كتاباً باللغة العربية يكون على نمط الكتاب المذكور، وقد كان لشرف الدولة ما أراد، فأخرج النسوي كتاباً سمّاه (المقنع) وقد وفّق فيه كثيراً، فيقول عنه صالح ذكي: (إن المقنع هو نموذج حقيقي يدلّنا على المرتبة التي بلغها الحساب الهندي في العراقيين العربي والفارسي في أوائل القرن الحادي عشر للميلاد. .) ولهذا الكتاب مقدمة ينتقد فيها الذين تقدّموه من المؤلّفين الرياضيين وينتقد فيها أيضاً معاصريه من واضعي كتب الحساب، وينحى باللائمة على كل هؤلاء ويقول إنه وجد تشويشاً وتطويلاً في الكتب الحسابية التي وضعها الكندي والانطاكي، كما أنه وجد في مؤلّفات علي بن أبي نصر في الحساب تفصيلاً لا لروم له، وإنه هناك كتباً أخرى (في الحساب) للكلوازي فيها صعوبة وفيها التواء وفيها تعقيداً لا تعود على القارئين بالفائدة المتوخّاة. ويقول أيضاً إنه لا يريد أن يجعل بحوثه في كتابه تدور على موضوع واحد، وإنه لا يريد أيضاً أن يحذو حذو الدينوري الذي ألّف كتاباً عنوانه يدل على إنه كتاب يتناول موضوعات الحساب المختلفة بينما هو في الحقيقة يتناول حساب النجوم فقط وليس فيه تعرّض لأي فرع من فروع علم الحساب، وهذا (على رأيه) ما لا يجيب أن يكون؛ والنسوي لا يريد أيضاً أن يكون في كتابه هذا مثل كوشيار الجبلي الذي وضع كتاباً في الحساب تعب منه الإيجاز وعنوانه لا يدل بحال من الأحوال على ما تضمنه من بحوث حسابية وأعمال رياضية ولهذا كله (يقول النسوي): فقد رأى الضرورة تدعوه أن يخرج إلى الناس كتاباً يتجنّب فيه الأغلاط التي وقع فيها غيره من إيجاز يجعل المادة صعبة غير واضحة، ومن إطناب يدخل إلى نفوس القارئين السائم والملل. وبالفعل أخرج للناس كتاباً كان فريداً في بابه جمع فيه أحسن ما في كتب المتقدّمين والمعاصرين، وقد أضاف إليه كثيراً نظريّاته ومبتكراته، ووضع كل ذلك في قالب سهل المأخذ لا صعوبة فيه ولا تطويل، يمكن للطالب والتاجر والراصد ولكل من يريد الوقوف على أصول المعاملات المتنوّعة في الأمور الحسابية أن يستفيد منه؛ ولقد جعل النسوي هذا الكتاب في أربع مقالات، تبحث الأولى في الأعمال الصحيحة، والثانية في الكسور، والثالثة في الأعمال الصحيحة مع الكسرية، والرابعة في حساب الدرج والدقائق. فالمقالة الأولى تتناول الموضوعات التالية: أشكال الأرقام وترقيم الأعداد، جمع الأعداد الصحيحة، ميزان جمع الأعداد الصحيحة، تضعيف الأعداد، طرح الأعداد الصحيحة، ميزان طرح الأعداد الصحيحة، تنصيف الأعداد الصحيحة وميزانها، ضرب الأعداد الصحيحة وأنواعه، ميزان ضرب الأعداد الصحيحة، تقسيم الأعداد الصحيحة وأنواعه، ميزان تقسيم الأعداد الصحيحة، استخراج الجذر التربيعي للأعداد الصحيحة، ميزان استخراج الجذر التربيعي للأعداد الصحيحة، استخراج الجذر التكعيبي للأعداد الصحيحة وميزان استخراج الجذر التكعيبي للأعداد الصحيحة. وأما المقالة الثانية فتبحث في الأبواب الآتية: ترقيم الكسور، جمع الكسور، طرح الكسور، ضرب الكسور، تقسيم الكسور، استخراج الجذر التربيعي للكسور واستخراج الجذر التكعيبي للكسور.

وتتناول المقالة الثالثة البحوث الآتية: الكسور المركّبة وترقيمها، جمع الكسور المركبة وطرحها وضربها وتقسيمها وكيفية استخراج الجذرين التربيعي والتكعيبي لها. وأما الرابعة فتتضمّن ما يلي: أصول ترقيم الكسور الستينية وكيفية جمعها وطرحها وضربها وتقسيمها، واستخراج الجذرين التربيعي والتكعيبي لها. ومن الإطلاع على محتويات هذا الكتاب يتبيّن للقارئ إن الكتاب قيّم وفيه بحوث تفيد الناس على مختلف طبقاتهم في متنوّع معاملاتهم. ومما يدل على طول باع النسوي في الرياضيات وعلو كعبه فيها اعتراف الطوسي بفضله وعلمه، فقد كان يلقّب النسوي بالأستاذ، ولهذا اللقب أهمّيته

عند الطوسي، ولا سيما إنه من الذين يعرفون قيمة العلماء ومن الذين لا يخلعون الألقاب على الناس بدون إستحقاق؛ ولا عجب في أن يكون من المعجبين بالنسوي المقدّرين لنبوغه وعبقريّته، فلقد استفاد كثيراً من كتاب (تفسير كتاب المأخوذات لأرشميدس) في مؤلفه (المتوسّطات) وهذا الكتاب أي (كتاب التفسير) من الكتب التي كان لها أهميتها الكبيرة في تاريخ الرياضيات، وقد ترجمها إلى العربية ثبت بن قرة. قال صاحب كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون: (مأخوذات أرشميدس مقالة ترجمة منها ثابت بن قرة خمسة عشر شكلاً وقد أضافها المحدثون إلى جملة المتوسّطات التي يلزم قراءتها فيما بين اقليدس والمجسطي. . .) وكان للنسوي فخر تفسيرها وشرحها شرحاً دلّ على مقدرته وقوّة عقله. . .

نابلس

قدري حافظ طوقان

عرائس المولد النبوي في الأدب الفرنسي

للأستاذ م. هداية

أليس غريباً هذا العنوان؟ أو ليس فيه إشارة لطيفة إلى تقصير أدبائنا؟ هنري تويل أديب فرنسي أقام في مصر ردحاً من الزمن حتى جعلها في أشعاره وطنه الثاني. وقد هام بجمال مصر وتقاليدها، وسجّل كثيراً من أعيادها القومية والدينية، ووصف كثيراً من شوارعها وجوامعها الأثرية أبرع وصف. وله ديوان مطبوع باسم (شرق وأدب) حوى الكثير من الأسرار الساحرة في مصر، أحس بها هو ولم نحس بها نحن! ولست هنا في صدد تعريف هذا الشاعر الثائر أو تحليله، وإنما قصدت أن أنقل إلى القرّاء (الرسالة) جزءاً نم قطعة له كتبها سنة 1923 وعلى أثر جولة جالها ليلاً بشارع الموسكي في مولد سيّدنا الحسين - قال:

(. . . وعلى جانبي الجامع كانت الأنوار المنبعثة من دكاكين الحلوى تشع في الليل المتأخر فتجعل منه ظهراً. وكانت هذه الحوانيت متقاربة متلاصقة: اتصل بعضها ببعض اتصالاً لا تقطعه ثغرة، حتى لا ترى من مجموعها سوى نضد واحد ممتد. وقد غطيت كلّها بأنواع شتّى من الحلوى: فمنها (الحمصية) وهي حلاوة رصعت بالحمّص، و (السمسمية) وهي مثلها إلا أنها بالسمسم - وهذه كثيراً ما يتهافت عليها صغار التلاميذ في الأيام العادية، فيقبلون على شرائها من الباعة المتجوّلين كل يوم منجذبين إليها بلذاذة طعمها وبجمال النداءات ذات النغمة الساحرة التي يغنّيها الباعة، مع الملبن الملفوف حول خيوط رفيعة. . . ثم (الجوزية) وهي نوع تتلاشى أمامه (النوجا) الفرنسية وتحسدها عليه مدينة مونتلمار. . . يلي ذلك صفوف طويلة من (العرائس) تكاد تتشابك أذرعتها فتخالها في مجموعها كأنها في موكب!

عرائس جذّابة، عذارى نم الحلوى! أبكار توشك أن تزف إلى عرسها قد صبوها صباً من السكر المذاب! وقد صبغوا لهن. . . خدودهن الصغيرة بشيء من (الأحمر. . .)، وكحّلوا عيونهن بالكحل الشرقي الساحر، ثم ألبسوهن فساتين ساذجة لوّنت بألوان زاهية من أصباغ اليمن. وأما الشعر فقد رصع بأنواع برّاقة من الخرز الفضّي الملوّن، وحجاب رقيق من الشاش المهلهل النسج زيّن أيضاً بفتائل من القصب الوهّاج، وأشرطة من الورق المذهّب،

قد أسدل بلباقة وكياسة على رأسها، ثم تدلّى بعضه إلى الأمام ليحجب عنك أيها المحب الشغوف وجهها الحلو الباسم، فلن ترى جمال تقاطيعه إلا حين تكشف عنه بيدك - يوم الزفاف!

(كم حدّثتني نفسي في هذه الساعة أن أحمل واحدة من هذه العرائس المصرية الصغيرة فأضمها إلى قلبي، ثم اذهب بها هنالك، في ركن منعزل، نائياً عن أعين الناس، بعيداً عن كل ضوضاء، وفي هدوء وراحة نفس، أسبل عيني ثم أضع شفتي على شفتيها الحمراوين فأتذوّق منهما شيئاً. . .!)

هكذا الشاعر يخلق من كل شيء جمالاً

وبينما أنا أمر ليلة المولد بهذه (العرائس) تذكّرت خيال هذا الشاعر فوقفت سابحاً في أحلامي. . .

ولكن جدة تقتاد حفيدين لها قد دفعتني على غير قصد واقتحمت الزحام. وبعد مساومة ليست بالطويلة خرجت تحمل (سريراً) صغيراً زيّن بأستار هفهافة من القماش الملوّن

بالأحمر والمذهّب والمفضض، وأبت الطفلة إلا أن تحمل (عروستها) بنفسها، وأما الطفل فقد حمل حصاناً أحمر عليه فارس. . .
وهذا الثالوث المزاحم قد أخرجني من حلم ليدخلني في حلم آخر:
الجدة فخورة لأنها أنجزت تقليداً تعتبره مقدّساً، وهي مسرورة لأنها عاشت واشتركت في ذكرى الرسول للمرة السبعين
أما الطفلة فأي سرور يملأ قلبها! أنظر إليها وهي تجذب جدّتها من ملاءتها لتسرع الخطى. . . فهي تريد أن تصل البيت أسرع ما يمكن لترى أمّها عروستها الجميلة وسريرها البديع، وهي تريد أن تقابل صويحباتها زكية وتفيدة وإحسان لتقنعهنّ بأن عروستها أكبر. . وإنها تملك سريراً. .
وقد بلغ الثلاثة البيت؛ فالجدّة متذمّرة لأنها لم تجد الدكاكين مزدانة بالثريات والبيارق الحمر والخضر والصفر مثل (زمان). . ومحمود الصغير أقتنع مسافة الطريق بأن حصانه لا يستحق الاحتفاظ به طويلاً. . وانه لا يحقق له أملاً واحداً من آماله: هل أستطيع أن أركبه وأضربه بالسوط؟. . إذن. . . وبقضمة واحدة يطير رأس الفارس بأسنانه! ثم أبتدأ في
رأس الجواد. . . أما فاطمة فعروستها سنحيا عندها طول حياتها، لأنها صورة منها، ولأنها تمثّل أحلامها الحلوة، فهي قطعة من نفسها! أنظر إليها الآن قد عادت فرحة بعد أن قابلت صويحيباتها، أنظر إليها قد جلست في انهماك ترتّب السرير (لعروستها) أستمع إليها الآن وهي تغنّي لها بصوتها العذب الحلو غير الفصيح أنشودة من أناشيد الزفاف!
انهض يا شاعري العزيز وتعال مسرعاً، ثم أنصت في جلال. تعال يا شاعري (فهاهنا سحر وجمال!)
م. هداية
قصة المكروب
كيف كشفه رجاله
ترجمة الدكتور أحمد زكي وكيل كلية العلوم
صلة حديثه
وأخذت حياة بستور تصير إلى غير ما عهد العلماء من حياة قابعة قاسية. وأصبح يجري تجاربه ليجيب بها على ما قام حول نظريته الجرثومية من اعتراضات كثيرة، فكانت إجابات قوية مفحّمة رنّانة دوت أصداؤها في الجماهير، لأنها أجريت لتنقع غلّة الجماهير أكثر مما تنقع غلّة العلم الهادئ والبحث الرزين. ولكن على الرغم من استدراجه العلم إلى الأسواق وسحبه إلى غمار العامة، كانت تجاربه رائعة الصنع محذوفة الأجراء، وكانت كأقباس من نار مسّت خيالات الناس فألهبتها، وآمالهم فأحييتها وجلب على نفسه خصوماً صخابة أقامه بينه وبين رجلين فرنسيين طبيعيين يدعى أحدهما إتريكل دارت حول الخمائر والطريقة التي بها تحيل عصير العنب خمراً. فأقرّ (إفريمي) بأن الخمائر لا بد منها لهذه الإحالة، ولكنه أدّعى إن هذه الخمائر تنشأ من ذات نفسها في باطن العنب، وأقام في الأكاديمية يناقش هذه الدعاوى في جهالة فسخر أعضاؤها منه وضحكوا جميعاً، إلا بستور فكان من المحنقين
إفريمي يقول إن هذه الخمائر تنشأ داخل العنب من ذات نفسها! إذن فلأصنع له (وأخذ بستور عدّة قوارير مستديرة، ووضع فيها شيئاً من عصير .(تجربة تقطع لسانه العنب، ثم مطّ رقابها ولواها كأعناق الإوز، ثم أغلاها دقائق وتركها أياماً ثم أسابيع، فلم تظهر في العصير فقاقيع، ولم يعله رغاء، ولم يختمر أصلاً؛ ثم ذهب إلى كرمه فقطف منها بضع عنبات بلغت النضج ولم تعده، وغسل ظاهرها بماء نقي بقلم من الشعر عقّمه بالتسخين قبلاً، وأخذ قطرات من ماء الغسول ونظرها تحت المجهر فوجد بها قليل من كريات الخمائر المعهودة. وعندئذ أخذ عشراً من تلك القبابات الملتوية الأعناق، وبمهارة فائقة لحم في جانبها أنبوبة مستقيمة طويلة، ومن هذه الأنبوبة أسقط قطرات من ماء الغسول ذي
الخمائر. ولما جاء القبابات بعد أيام وجدها جميعاً مرغية إلى عنقها رغوة تضرب إلى الحمرة دليل اختمار طيب مرضي. وتبقى من ماء الغسول بقية، فأغلاها وأسقط قطرات منها في عشر قبابات أخرى فلن يحدث فيها اختمار لأن الإغلاء قتل الخمائر

قال بستور: (الآن وقد أثبت أن الخمائر توجد على ظاهر العنب، سأثبت لهذا الجاهل إفريمي بتجربة رائعة إن هذه الخمائر لا توجد في باطن العنب)، وأخذ أنبوبة جوفاء رفيعة كان قد أسخنها في النار ليقتل ما قد يكون علق بها من أحياء، ثم سدّ طرفها، وكان رفيعاً حاداً، فرفعه برفق إلى داخل عنبة خارقاً جلدها، ثم كسر هذا الطرف داخل العنبة فاندفع بعض عصيرها في الأنبوبة، وبمهارة ولباقة لا تباري نقل هذا العصير إلى قبابة بها عصير عنب كان قد عقّم بالتسخين. ورجع إليها بعد أيّام فما وقع بصره عليها حتى صاح: (لا حياة لإفريمي بعد اليوم، فعصير العنب بالقبابة لم يختمر، وبطن العنب خلو من الخمائر). ثم أستطرد فنطق بقضية جامعة شاملة؛ قال: (إن المكروبات لا تنشأ من ذات نفسها في بطون الأعناب وديدان الخز وأجسام الحيوانات الصحيحة، وهي لا توجد في دم الحيوان ولا في بوله. فإن هي وجدت في شيء من ذلك فإنما دخلت إليه من الخارج) ولكأني بك تسمعه يتحدّث إلى نفسه: (وستعلم الدنيا قريباً ما تؤدّي إليه هذه التجربة البسيطة من إحداث معجزات بليغة)

- 8 -

ولم يمضي وقت طويل على هذا حتى ظهر أن أحلام بستور لم تكن أضغاثاً، وإنما خاله من إمحاء الأمراض على ظهر الأرض لم يكن أملاً جامحاً. فجاءه كتاب من الجرّاح الاسكتلندي (لستر) يذكر فيه إعجابه الشديد به وسروره الكثير بأعماله، ويصف له فيه طريقة جديدة لفتح أجسام المرضى وإجراء العمليات الجراحية في نجوى من ذلك الوباء الخفي الذي أعتاد أن يذهب في المستشفيات بحياة ثمانية من كل عشرة من الرجال والنساء. كتب له لستر يقول: (فأنا أستمحيك في أن أشكرك شكراً خالصاً إذ هديتني بأبحاثك المجيدة إلى الحق في أمر هذه الجراثيم التي تسبب التعفّن والفساد، وأثرت لي السبيل إلى النظرية الوحيدة التي لا ينجح تعقيم إلا بها. وإذا أنت تحملت المشقّة فزرتنا في أدنبرة فسوف لا تأسف على هذه الزيارة إن شاء الله، لأنك سترى بعينك في مستشفياتنا

(كثيراً من الخلق المساكين قد استفادوا استفادة كبرى من أعمالك

ففرح بستور بهذا الخطاب فرح الطفل أنجز تركيب قاطرة فدار بها على إخوانه يريهم ما صنعت يداه. ولم يكتف بهذا بل نشر الكتاب بكل مديحه في المجالات العلمية، وزاد فنشره في كتاب له عن البيرة!! ولم يشاء أن ينقضي هذا الحادث دون أن يلكم إفريمي المسكين لكمة أخيرة، وقد يحسب حاسب أن تجارب بستور كان فيها لإفريمي لكمات مشبعات كافيات. ولم ينل من إفريمي نيلته الأخيرة بذمه، وإنما نالها بمدح نفسه وتمجيد تجاربه والثناء على نظرياته. قال: (إن محك النظريات مقدار أثمارها وكمية نفعها). وصمت إفريمي فلم يحر جواباً

وشغل حديث المكروب أوربا كلها، وعلم بستور إنه هو الذي وجه نظار الناس إلى المكروب وإلى خطورته فلم يعودوا ينظرون إليه نظرتهم إلى اللعبة الغريبة المسلّية، بل عرفوا مقدار نفعه لبني الإنسان واستيقنوا من ذلك، وكانوا على وشك أن يعرفوا مقدار ضرره لبني الإنسان كذلك، وكيف إنه على صغره يعيث فيهم تلصصاً واغتيالاً. وأوّلت فرنسا بستور شرفاً كبيراً إذ نصّبته أول رعاياه. وشرّفته الأمم - حتى بلاد الدانمارك أقام خمارها له التماثيل في معاملهم وأثنوا عليه خيراً ومات فجأة (كلود برنار) فقام أصدقاء هذا الرجل الكبير بنشر مؤلف له لم يبلغ تمامه، وكان مؤلفاً في تخمّر عصير العنب، ختمه برنار بدحض نظرية بستور كلها وعزز دعواه بأسباب عدة، وبلغ بستور الخبر فلم يصدّق أذنيه. برنار يفعل هذه الفعلة! برنار العظيم، جليسه في الأكاديمية ومطريه ومطري أعماله دائماً! برنار الذي سارقه الضحكات وبادله الغمزات وناقله الفكاهات في أكاديمية الطب عن أولئك الأطباء ذوي الثياب الزرقاء، والأزرار النحاسية الصفراء، والأنوف الوارمة والرؤوس الجوفاء، أولئك الأطباء الذين قاموا حجر عثرة في سبيل التجربة الصحيحة إلى الطب والتطبيب! وأخذ بستور يتمم لنفسه: (ناقضني هؤلاء الأطباء الأغبياء، وناهضني أولئك الطبيعيون الحمقى، وكان في هذا من السوء ما فيه. ووازرني العلماء، ومجد إعمالي الكبراء، فما بال برنار يأتي اليوم بالذي أتاه. .؟)

ذهل بستور، ولكن لم يطل به الذهول. وقام يطلب أصول المؤلّف والأوراق ذاتها التي خطّها برنار بيده، فأعطوه إيّاها. فقعد يجمع أشتات فكره لدراستها، فوجد إن ما صنعه

برنار لم يكن إلا مبادئ تجريبية ومحاولات تقريبية. وسرّه أبهجه أن كشف إن أصدقاء برنار لم ينشروا ما كتبه بنصّه كاملاً، بل زادوا وحذفوا، فأحكموا الحذف وحذقوا الزيادة، كي يستقيم الكتاب ويصح لدى القارئين. وذات يوم قام في الأكاديمية فعرّ أعضاءها، وأساء إلى رجالات فرنسا إذ أنحى باللوم اللاذع القبيح على أصدقاء برنار لتهجّمهم بنشر كتاب يجرؤ على التشكك في نظرياته، وإذ صرخ صرخات عنيفة مرذولة إلى برنار، وبرنار في قبره لا يستطيع دفعاً عن نفسه، وعقّب على هذا بنشر رسالة في نقل أبحاث صديقه القديم، رسالة أعوزها الذوق السليم، رسالة تهتم برنار - وهو رجل عالم من قمّة رأسه إلى أخمصه - باقتباسه الخرافة من كثرة صحبته للأدباء النابهين من أعضاء الأكاديمية، رسالة تحاول أن تثبت أن برنار في آخر أبحاثه كلّ بصره فلم يعد يرى الأشياء، وتهزأ به فتقول احتمالاً إن بصره طال طولاً لم يعد معه يرى الخمائر القريبة. وألحّ بستور في هذا النقد حتى ترك العامة تحسب إن برنار أصابه خرف الشيخوخة في آخر أيامه عندما كتب كتابه هذا. وفقد بستور الحس بالحسن والقبيح، وفقد مقاييس اللياقات، فأخذ في ثروته يدق بقدميه على قبر برنار دقّات ثقيلة كادت تقلق جثّته تحت التراب

وأخيراً ثاب إلى رشده، وسلك في ردّه على برنار السبيل التي يؤثرها كل عاقل على مقالة السوء ولغو الكلام. تلك سبيل التجربة. فأجرى تجارب غاية في الإبداع. وجرى على طريقة الأمريكيين إذ إذا هم أرادوا بناء ناطحة من ناطحات سحابهم في ستة أيام. فهرع إلى مخازن البيع فاشترى قطعاً من الزجاج عظيمة، وهرع إلى النجّارين، وطلب إليهم أن يصنعوا من هذا الزجاج بيوتاً كمرابي النبات يسهل حملها ويستطاع نقلها وتركيبها. وقام على أعوانه يستحثهم في إنجاز قبابات وتجهيز ميكروسكوبات وتعقيم لفّافات من القطن، فنسوا الطعام وعزّهم النوم. وفي وقت بالغ القصر جمع كل هذه الأشياء وسافر بها إلى بيته العتيق في جبال الجورا. ونفض يده في أثناء ذلك من كل عمل، وأشاح بوجهه عن كل اعتبار، واتجه بكل نفسه قدماً إلى إثبات إن نظريته في التخمّر نظرية صحيحة

وما بلغ بلدته أربوا حتى ذهب إلى كرمته، ولم يضع وقتاً سدى، فقام على بيوت الزجاج التي جاء بها فنصبها على بعض أعنابها فحجبتها عن الهواء الخارج حجباً محكماً. وأخذ يفكّر: (هذا الصيف قد تنصف، والعنب لا يزال فجّاً، وأنا أعرف إن العنب في هذا الوقت

لا يحمل على جلده خمائر أصلاً). وأراد أن يزيد وثوقاً من ذلك، فلفّ بعض العناقيد في بيوت الزجاج بلفَات القطن التي كان سخنّها مساعدوه ليقتلوا ما علق بها من الأحياء. وأسرع في العودة إلى باريس واصطبر بها على أحرّ من الجمر حتى ينضج العنب، ونفذ صبره يوماً فجاء أربوا وكله أمل أن يثبت أن برنار كان خاطئاً، ولكنه وجد العنب لا يزال فجّاً فعاد خائباً. ونضج العنب أخيراً، فأخذ يمتحن جلود العنب ببيوت الزجاج تحت المجهر، فلم يجد عليها خميرة واحدة. وقام من على المجهر ثائراً، فأخذ شيئاً من هذا العنب فعصره في قبابات أجاد تسخينها لتعقيمها، وتركها فلم تظهر في عصيرها فقاعة للتخمر واحدة. وعصر عنباً من كرمة خارج بيت الزجاج، فهذا استحال عصيره إلى خمر سريعاً. وما انتهى من هذا حتى جمع بعض تلك العناقيد الطهور الخالصة من الخمائر، واعتزم ليحملنها إلى الأكاديمية ويهدي كل عضو أحب عنقوداً ثم يتحدّاهم أجمعين أن يخرجوا من هذه العناقيد المصونة خمراً. . . وقد أيقن إن هذا محال إلا إذا هم أدخلوا الخمائر إليها. . . وأمل من وراء كل هذا أن يثبت لهم إن برنار خانه الحظ في الذي قال، وركبوا القطار إلى باريس، وظلّت مدام بستور المسكينة في جلستها الطويلة مستقيمة الظهر تحمل أمامها عناقيد العنب حذر أن تسقط لفائف القطن عنها.

وجاء موعد انعقاد الأكاديمية، فقام بستور يصف لرجالها كيف صان عنبه من الخمائر فلم تنلها. وصاح فيهم: (أليس عجيباً إن أرض كرمتي يوم بدأت تجاربي لم تكن بها حصوة إلا استطاعت أن تخمّر عصير العنب! وما يصدّق على كرمتي يصدق على كروم الدنيا الواسعة. ثم أليس عجيباً بعد هذا إن بيوت الزجاج التي نصبتها خلت أرضها من الخمائر فلم تستطيع لعصير العنب تخميراً! ثم أتدرون لماذا؟ لأنّي في الوقت المناسب حجبت هذه الأرض عن الهواء بتلك البيوت من الزجاج!. . .)

وخرج من هذا إلى نبوءات عجيبة، إلا أنها على غرابتها قد تحققت اليوم. نبوءات

كالوحي، وخيالات كالشعر، تجعلك تنسى خصومته القبيحة المرذولة التي أثارها على برنار. قال: (أفلا يجوز لنا بعد هذا أن نؤمن بيوم هو لا بد آت يستطيع فيه الإنسان أن يحمي نفسه من الوباء حماية أرض هذه الكرمة من خمائر الهواء). وكانت الحمّى الصفراء أصابت أرليانزة الجديدة فتركت عامرها خراباً، فقام يصوّر لهم تلك النازلة الفادحة
تصوير فنان ماهر، وصوّر لهم كذلك فعل الطاعون الأسود على شواطئ الفلجا، فلما روّعهم وقشعر أجسامهم، ضرب نغمة جديدة سرّت فيهم بالرجاء
وفي هذه الأثناء، في قرية صغيرة في شرق ألمانيا كان طبيب بروسي صغير السن، مدوّر الرأس، حرون، آخذ في ترسم الطريق الذي يؤدي به إلى نفس تلك النبوءات التي تنبأ بها بستور هذا الدكتور الشاب كان يسارق مرضاه الوقت ليفرغ لتجارب يجريها على الفئران، وليستخرج طرائق في معالجة المكروب يتعرف بها شخصية كل نوع فلا تختلط عليه أجناسها، وليأتي بأمر لم يستطع بستور إتيانه على رغم حذقه وعلو كعبه
والآن، فلندع بستور إلى حين، ولنقف عند هذه المرحلة من حياته، ولو إنها مرحلة ستأتي من بعدها تجارب قام بها بستور كانت من أروع ما قام به في حياته، ومناقشات أثارها كانت نم أفكه المناقشات؛ لندع ذلك لنعرج إلى روبرت كوخ لنرى كيف غزا دولة المكروب وقد كانت وقفاً على بستور سنين طوالاً
(يتبع)
أحمد زكي
محاورات أفلاطون
الحوار الثالث
فيدون أو خلود الروح
ترجمة الأستاذ زكي نجيب محمود
- حدّثني إذن ما هو الشيء الذي يجعل الجسم حيّاً بحلوله فيه؟
فأجاب: هو الروح
- أهذه هي الحال دائماً؟
فقال: نعم، بالطبع
- إذن فمهما يكن ما تملكه الروح، فإنها إذا تأتيه تحمل إليه الحياة؟
- نعم، يقيناً
- وهل ثمة ضد للحياة؟
فقال: نعم هناك
- وما هو ذاك؟
- الموت
إذن فلن تقبل الروح أبداً، كما اعترفنا، ضد ذلك الذي نسوقه. ثم قال: والآن، بماذا سمّينا ذلك العنصر الذي يقاوم الزوجي؟
- الفردي
- والعنصر الذي يقاوم الموسيقيّ أو العادل؟
فقال: غير الموسيقيّ وغير العادل
- وبماذا نسمّي ذلك العنصر الذي لا يقبل الموت
فقال: الخالد
- وهل تقبل الروح الموت
- كلا
- إذن فالروح خالدة؟
فقال: نعم
- أيحق لنا القول بأن ذلك قد ثبت بالدليل؟
فأجاب: نعم يا سقراط، لقد ثبت بأدلّة كثيرة
- وإذا فرضنا أن الفرديّ لا يخضع للفناء، أليس يلزم أن ثلاثة غير قابلة للفناء؟
- طبعاً
- وإذا كان الشيء البارد غير قابل للفناء، ثم جاء العنصر الدافئ يهاجم الثلج، أفلا

ينبغي أن يتراجع متماسكاً متجمّداً لأنه عندئذ يستحيل عليه أن يفنى كما كان يستحيل عليه أن يبقى مع قبوله للحرارة؟
فقال: حقاً
- وكذلك لو كان العنصر الذي لا يبعث لبرودة، أي الدافئ، مستعصياً على الفناء، لما فنيت النار وما انطفأت حين تغير عليها البرودة، ولكنها تنأى بغير أن تتأثر؟
فقال: يقيناً
- ويمكن أن يقال هذا القول نفسه عن الخالد: لو كان الخالد مستعصياً كذلك على الفناء، لاستحال فناء الروح حين يهاجمها الموت، إذ يدخل البرهان السابق على أن الروح لن تكون قط ميتة، فلن تقبل الموت أكثر مما تقبل ثلاثة أو العدد الفردي الزوجي، أو النار، أو الحرارة التي في النار، البرودة، ومع ذلك فرب أحد يقول: (ولكن على الرغم من أن الفردي لن يصير زوجياً حين يقترب الزوجي منه، فلماذا لا يجوز أن يفنى الفردي وأن يحل مكانه الزوجي؟) ونحن لا نستطيع أن نجيب من يتقدم بهذا الاعتراض بأن العنصر الفردي مستعصياً على الفناء لأن ذلك لم يعترف به بعد، فلو قد اعترف بهذا لما أشكل علينا الزعم بأن العنصر الفردي والعدد ثلاثة يهمان بالرحيل حين يقترب الزوجي، وهذا البرهان بعينه كان يصح عن النار وعن الحرارة وعن أي شيء آخر
- جداً صحيح
- ويجوز هذا القول نفسه عن الخالد: لو كان الخالد مستعصياً كذلك عن الفناء، إذن لكانت الروح مستعصية على الفناء كالخالد سواء بسواء، فإن لم يكن، وجب أن يقام برهان آخر على استحالة فناءها
فقال: ليس بنا من حاجة إلى برهان آخر، إذ لو كان الخالد - وهو سر مدى - عرضة للفناء، للزم ألا يستحيل الفناء على شيء
فأجاب سقراط: نعم، فكل الناس مسلّون بأن الفناء مستحيل على الله وعلى صورة الحياة الروحية وعلى الخالد بصفة عامة
قال: نعم، كل الناس بذلك مسلمون - هذا صحيح، وأكثر من هذا، فهم مجمعون - إن لم أكن مخطئاً - على أن الآلهة كالناس في ذلك
- وإذن فما دمنا قد رأينا أن الخالد لا يناله التخريب، أفلا يلزم أن تكون الروح مستعصية على الفناء كذلك - ما دامت خالدة؟
بكل تأكيد
- إذن فحين يهاجم الموت إنساناً، فقد يتعرض الجزء الفاني منه للموت، أما الخالد فينأى عن طريق الموت حين يحفظ مصوناً سليماً؟
- حقاً
- إذن يا سيبيس فالروح خالدة بغير شك، وهي مستعصية على الفناء، وستحيا أرواحنا حقاً في عالم آخر!
فقال سيبيس: إني مقتنع يا سقراط، وليس لدي بعد ذلك ما اعتراض عليه. فإن كان عند صديقي سمياس، أو عند أحد سواء اعتراض آخر، فيجمل به ألا يلتزم الصمت وأن يعلنه. اللهم إن كان لديه شيء يريد أن يدلي به، أو كان يود لو أدلى به، فلست أرى أن يجود عليه الدهر بأنسب من هذه اللحظة، حتى يجوز له أن يرجئ إليه الحديث
فأجاب سمياس: ولكن ليس عندي ما أقوله بعد ذلك، بل لست أرى مجالا للشك، إلا ما ينشا حتماً عن ضخامة الموضوع وضعف الإنسان، فذلك ما لم يسعني إلا أن أشعر به
فأجاب سقراط: نعم يا سمياس فقد أحسنت قولاً: أضف إلى ذلك أن المبادئ الأولى يجب أن تبسط للبحث الدقيق حتى وإن كانت تبدو يقيناً، فإذا ما استوثقنا منها وثوقاً مرضياً، استطعنا بعدئذ، فيما أضن، في شيء من الإيمان المزعزع بالعقل البشري، أن نتتبّع مجرى البرهان، فإن ألقيناه واضحاً لم يكن بنا بعد ذلك حاجة لسؤال
فقال: ذلك صحيح
(يتبع)
زكي نجيب محمود
أبو العباس أحمد المقّري
هـ - 1631م1041

بقلم عبد الهادي الشرايبي
تتمة
هذا ولا نثني عنان القلم دون أن نشير إلى تلك القصة الشعرية استعراضية لحوادث الدهر وأيام الأول، وهي طويلة نجتزئ منها ببعض فقرات يقول في فاتحها:
سبحانَ مَن قَسّمَ الحظو ... ظ فلا عتابَ ولا ملامه
أعمى وأعشى ثمَّ ذو ... بَصَر، وزرقاءُ اليمامه
ومسدد، أو جائر ... أو حائر يشكو ظلامه
لولا استقامة مِن هدا ... هـ لما تَبَيَّنت العلامه
فالعَيش في الدنيا الدنيّة ... غير مَرجو الإدامه . . .
مَن أرضعَته ثَديَها ... في سرعَة تبدي فطامه
مَن عزَّ جانبِه بها ... تنوي على الفورِ اهتضامه
وإذا نظَرت فأين مَن ... منعَته أو منحَت مرامه
أينَ الذين قلوبهم ... كانت بها ذاتَ استهامه
أينَ الذين تفيئوا ... ظلّ السيادَةِ والزعامه
أينَ الملوكِ ذو الريا ... سةِ والسياسةِ والصرامه
أم أينَ عنترة الشجاع ... وذو الجدا كعب بن منامه
والزاعِمونَ بجهلِهِم ... أنّ القبورَ صَدى وهَامه
والمكثِرونَ مِنَ المجو ... نِ إذا شَكا الفِكرُ اغتمامه
أينَ الغَريض ' ومعبد ... أو أشعب وأبو دلامه
أينَ الألى هاموا بسعدي ... أو بثينَة أو أمامه
وبَكوا لفرط جواهم ... والليلُ قَد أرخى ظَلامه
وتَتَبّعوا آثارَ مَن ... عَشَقوا بِنَجدٍ أو تهامه
وتَعَلّلوا، والشَوقُ يَغلِبُ ... بالأراكةِ والبِشامَه
وسَقاتها المتَلاعِبونَ بلَب ... مَن أعطوهُ جامه
مِن كلِّ أهيفٍ يزدري ... بالغصنِ إن يَهزز قِوامه
ذي غَرَّةٍ لألاؤها ... يمحو عَنِ النادي ظَلامَه
فالشمسُ في أزرارِه ... والبدرُ في يَدِهِ قَلامَه
يصمي القلوبُ إذا رَمى ... عَن قوسِ حاجِبَهُ سِهامَه
وَيَروقُ حَسَناً إن رَنا ... وَيَفوقُ آراماً بِرامه
ثم يشكو صروف الدهر وفجائعه بفخر الأدب (ذي الوزارتين لسان الدين بن الخطيب):
راعَت صروفُ الدّهرِ دو ... لته، وما راعَت ذمامه
حتى ثَوى إثرُ التَوى ... في حفرَةٍ نثِرَت عِظامه
مَن زارها في أرض (فا ... س) أذهَبَت شَجوا منامه
إذ نَبهَته لِكلّ شَملٍ ... شَتّتَ الموتُ التئامه
هذا لِسانُ الدينِ أسكَتَهُ ... وأسكَتَهُ رجامه
ومَحا عِبارَتِه فمَن ... حَياهُ لَم يردد سَلامه
فَكَأنّهُ ما أمسَكَ ال ... قَلَم المطاع ولا حسامه
وَكَأنّه لَم يعلُ مَت ... ن مطهم باري النَعامَه
وَكَأنّهُ لَم يرق غا ... رب الاعتزاز ولا سنامه
مذ فارَقَ الدنيا وقَو ... م ض عن مَنازِلَها خِيامه . . .
أمسى بِقَبرٍ مفرَداً ... والتربُ قَد جَمَعَت عِظامه
مِن بَعدِ تَثنِية الوزا ... رة، جاده صَوبُ الغَمامه
لَم يَبقَ إلا ذِكرُهُ ... كالزهرِ مفتَرِ الكمامه

وله في الشعر المنثور رسائل بليغة، ومساجلات أدبية رائقة؛ ويكفي أن نلقي نظرة على كتابه الحافل (نفح الطيب) الذي هو سجل لألوان الأدب الأندلسي، وديوان لأخبارهم وطرائفهم، والذي تدين له العروبة والتاريخ والأدب والفن بأكبر الفضل في جمع أشتاتها،

ونظم متناثرها، فخلد بعمله ذاك صوراً حية من الحضارة الأندلسية، ومدنية العرب في أوربا (من مطلع فجرها حتى مغرب شمسها)!. . .

وإليك ما يقول في وصف البحر حين نزوحه عن مسقط رأسه إلى ديار الشرق والحجاز:

(. . . ثم جد بنا السير في البر أياماً، ونأينا عن الأوطان التي أطنبنا في الحديث حبالها وهياماً، وكنا عن تفاعيل فضلها نياماً، إلى أن ركبنا البحر، وحللنا منه بين السحر والنحر، وشاهدنا من أهواله، وتنافي أحوالها، مالا يعبر عنه، ولا يبلغ له كنة. فكم استقبلتنا أمواجه بوجوه بواسر، وطارت إلينا من شراعه عقبان كواسر، قد أزعجتها أكف الرياح من وكرها، كما نبهت اللجج من كسرها، فلم تبق شيئاً من قوتها ومكرها، فسمعنا للجبال صفيراً، وللرياح دوياً عظيماً وزفيراً، وتيقناً أنا لا نجد من ذلك إلا فضل الله مجيراً، وإذا مسّكم الضر في البحر ضلّ ما تدعون إلا إيّاه، وأيّسنا من الحياة لصوت تلك العواصف والمياه، فلا حيا الله ذلك الهول المزعج ولا بياه، والموج يصفق لسماع أصوات الرياح فيطرب بل ويضطرب، فكأنه من كأس الجنون يشرب أو شرب، فيبتعد أو يقترب، وفرقه تلتطم وتصطفق، وتختلف ولا تكاد تتفق، فتخال الجو يأخذ بنواصيها، وتجذبها أيديه من قواصيها، حتى كاد سطح الأرض يكشف من خلالها، وعنان السحب يخطف في استقلالها، وقد أشرفت النفوس على التلف من خوفها واعتلالها، وأذنت الأحوال بعد انتظامها باختلالها، وساءت الظنون، وتراءت في صورها المنون،. . . . ونحن قعود، كدود على عود، ما بين فرادى وأزواج، وقد نبت بنا من القلق أمكنتنا، وخرست من الفرق ألسنتنا، وتوهمنا إنه ليس في الوجود، أغوار ولا نجود، إلا السماء والماء، وذلك السفين، ومن في قبر جوفه دفين، مع ترقب هجوم العدو، في الرواح والغدو، لاجتيازه على عدة من بلاد العدو. . لاسيما مالطا الملعونة، التي يتحقق من خلص من معرتها أنه أمد بتأييد إلهي ومعونة. فقد اعترضت في لهوات البحر الشامي شجا. وقل من ركبه فأفلت من كيدها ونجا،. . . وتشتت أفكارنا فرقا، وذبنا أسى وندماً وفرقا، إذ البحر وحده لا كميّ يقارعه، ولا قويّ يصارعه، ولا شكل يضارعه؛ لا يؤمن على كل حال، ولا يفرق بين عاطل وحال، ولا بين أعزل وشاكي، ومتباكي وباكي، فكيف وقد انظمّ إليه خوف العدو الغادر الخائن، إلى أن قضى الله بالنجاة وكل ما أراد فهو الكائن.) فترى الأنفاس إلى أن يقول:

تعثر في زفرة الأشواق، والأجسام قد زرت عليها من التعب الأطواق، وتساوي في السير نهار مشرق، وليل مقمر أو داج. . ثم وصلنا بعد خوض بحار، يدهش فيها الفكر وبحار، وجوب فياف مجاهل، يضل فيها القطا عن المناهل، إلى (مصر) المحروسة فشفينا برؤيتها من الأوجاع، وشاهدنا كثيراً من محاسنها التي تعجز عن وصفها القوافي والأسجاع، وتمثلنا في بدائعها التي لا نستوفيها، بقول ابن ناهض فيها:

شاطئُ مصر جَنّة ... ما مِثلها في بَلَد
لا سيما مذ زخرِفَت ... بِنَيلِها المطرد
وللرِياحِ فَوقِه ... سَوابِغُ من زرد
مَسرودَة ما مَسَّها ... داودَها بِمبرد
سائلة، وَهوَ بها ... يَرعدُ عاري الجسد
والفلكُ كالأفلاكِ بي ... ن حادر ومصعد

- 5 -

وبعد فلعل هذه الكلمة تكون حافزاً لأدباء العرب إلى دراسة هذا الأديب الكبير والاهتمام بآثاره القيمة، وتوفيها حقها من البحث والاستنتاج، ومن هاتيك الخدمة إعادة طبع كتابيه الكبيرين (نفح الطيب) و (أزهار الرياض) في شكل يلائم قيمتها الأدبية والتاريخية مع مراجعتها على الأصول وتتميم النقص الذي بهما

(فاس)

عبد الهادي الشرايبي

أجدّ ' وأمزح

اندفاعات

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

أنا ما بَرِحتُ ولا أراني أبرَحُ ... بينَ الضلالةِ والهدى أترَجّح

طوراً بإبليسِ المسوّسِ أقتَدي ... طَرباً وطوراً للإله أُسَبّح
إنّي أرى إن السلامة في التّقى ... لو كانَ شَيطاني بذلكَ يَسمَح
إبليسُ يغويني فإن لم يهدني ... رَبّي فإنّ به مَصابي يفدح
وإذا استقرت في الحياة عَقيدَة ... يوماً فبالبرهانِ لا تتزَحزَح
في الشكِّ وَخز واليَقينِ قناعَة ... فانظر لأيّ المَسلَكَينِ ترَجّح
لم أطمَئِنّ إلى الحياة فإنها ... عبء وتحتَ العِبءِ ناس ترزح
تَبكي اليتامى ثمّ إنّي لا أرى ... لِدموعهم مَذروفة مَن يمسَح
سألَ القطيع المالكيه راعياً ... فأجيبُ هاكَ الذئبُ فهو الأصلح
إن كانَ في ذِكرِ الحقيقة جَهرةً ... قبح فكتمان الحقيقةِ أقبَح
مَن لي بصبحٍ أهتدي في ضوئِهِ ... فالليلُ داج والكواكبُ جنّح
ما كلُّ أقوالي بَناتُ عقيدَتي ... إني لفي شِعري أجد وأمزح
وإذا ذَمَمتُ فلا أذمّ سوى الذي ... يأتي من الأفعالِ ما استقبح
إنّا بعهدٍ للعروبةِ حاجة ... فيه لإصلاح وأين المصلح
لم يَكتبُ اللّه البَقاءُ بأرضهِ ... إلا لمن هو للوغى يتسلّح
أمّا الطبيعةُ فهي خَرساء إذا ... ساءلتها عن أمرها لا تفصح
ما زالَ هذا الكونُسِرّاً غامِضاً ... ولَعَلّ ما هوَ غامِض يتوَضّح
إن الحياةَ رواية قد أحسنوا ... تمثيلها والأرضُ نِعمَ المَسرَح
دهري تربّاني ودهري هَدّني ... أأذمّ دهري أم لدهري أمدَح
ذهبَ الشبابُ مخلّفاً أغلاطهِ ... ووددت لو أن المشيبُ يصَحّح
عمر بمختلف الحوادثِ حافل ... وَليّ فما للنفس فيه مَطمح
قد ذقتُ حلوَ العيشِ فيه ومرّه ... وخلت يدي حينا وكانت تطفح
كم بائسٍ يطوي سجلّ حياته ... يأساً كما يتطوّح المتطوّح
وأرى الكآبَة للسرورِ ذريعةً ... من لا يلاقي غَمّةً لا يفرح
قد كنتُ في عهدٍ مضت أيامهُ ... أمسي على ضوءٍ كأني أصبِح
لم امتدحُ عهد الشبابِ وطيبهِ ... حتى علتني كبرة لا تمدح
بقيت بنفسي في الحياةِ لبانة ... أدنو إليها وهيَ عنّي تنزح
في الصبحِ غرّد يا هزار فإنما ... قبل الصباحِ الوردُ لا يتفتّح
وأشممهُ وألثم ثغرهِ قبل الضحى ... فالورد إن جاء الضحى يتصوّح
صاحَ الغرابُ على كراهة صوتِهِ ... في الروضِ واختارَ الصّموتَ الصيدح
ودّوا لو إني قد جنحت عن الهوى ... في كبرتي لكنني لا أجنح
إن كنت ' شيخاً قد كَبرتُ عن الصّبا ... فالقلبُ لم يكبرُ وروحي تمرح
شقّوا فؤادي وانزَعوا منه الهوى ... ولعلّها عملّية لا تنجح
إني بأوطاني التي أحبَبتها ... بالشعرِ للآتي البعيد ألوح
يا حبّذا لو إنّ روحي بعدما ... تلقي المنيّة في المجرةِ تسبح
(بغداد)

جميل صدقي الزهاوي

فصول ملخصة عن الفلسفة الألمانية

11 - تطور الحركة الفلسفية في ألمانية

فرديريك نيتشه

للأستاذ خليل هنداوي

- 2 -

وهنالك علاقته مع المرأة تبدي ناحية من نواحي نفسه، فقد زعم أناس إن نيتشه كان يذهب مع المرأة مذهب معلمه (شوبنهاور) كاره المرأة، ويستشهدون على ذلك بقوله: (أيها الذاهب إلى المرأة! لا تنس عصاك وسوطك) ولكن هذا الحكم يسهل نقضه على المدقق في تعاليم نيتشه، فالمرأة التي طعنها نيتشه في الصميم هي المرأة المترجّلة التي تريد أن تزاحم الرجل في علمه وجهاده واقتصاده، أما غير هذه المرأة فهو مقدر لها محترم لفضلها، مقدس لمعنى المرأة فيها؛ ولقد كان له من هنّ صديقات وصاحبات فضليات، وهو - وإن لم يتذوّق من امرأة ذلك الهوى العاصف والحب اللاعج فقد تذوّق عطفها الرقيق وعاطفتها الخالصة. وقد ذكرت شقيقته في مذكراتها (إن أخاها كان

يجهل الحب العادي. . . وإنما كان همه الشاغل له التفتيش عن الحقيقة). على إن هذا الفيلسوف السئم (المنطوي على نفسه) الذي لم يستسلم للأهواء المصطخبة والميول الملتهبة، قد تذوّق في أيام نكبته من عطف المرأة ما لم ينعم بمثله إلا قليل. . . فهو صاحب مثل أعلى في الحب كما كان في الصداقة

وهنالك نشأته المدرسية فقد دلّت على طبعه (الأرستقراطي) الذي ينفر من كل شيء مبتذل شائع، ولا يميل إلا إلى كل جميل لامع، وطبعه هذا هو الذي حمله على اعتزال رفاقه الذين يدرسون معه، وذوقه هذا الجانح إلى محبة الأشكال الجميلة هفا به إلى عشق الجمال القديم وحب العبقرية الفرنسية الغابرة والحاضرة. ونفوره هذا من السوقة والعامة جعله ينفر من المسيحية، ويصفها ويصف أصحابها ورسلها وصفاً قاسياً، ويكره كل المبادئ التي تبشّر بها الديمقراطية والإنسانية الاشتراكية. وكل تعاليمه الأخلاقية إنما تؤول إلى هذه الغاية: (هل هذه العاطفة شريفة أو غير شريفة؟) ولعلّ نيتشه كان يمثّل نفسه الجبارة في

هذه الكلمة التي يرددها (زرادشت) حين يقول: (تسألونني لماذا؟ أنا لست ممن يسألون حين يعملون لماذا؟) وهذه صفة نفس لا تعتمد إلا على إرادتها، تحتمل الألم وتصدمه ثم تهزمه، وتقابل القدر وتعلن سيادتها عليه

أطوار حياته

كان هوى نيتشه الراسخ في صدره هو العثور على الحقيقة، فلننظر أي طريق ركب إليها، وما هي الدوافع التي هيمنت عليه؟

كان نيتشه يمت بنسب قوي إلى أسرة مغرقة في دينها، متشددة متعصبة، مع ميل إلى الدراسة العلمية، قرن والده العلم إلى الدين؛ وما كان لنيتشه أن يبدل هذا السبيل الذي اختاره له والده واختارته طبيعته، وقد عرفه أصدقاء حداثته مغالياً في دينه وفي تقواه، ولا عجب إذا أطلقوا علي - وهو في السادسة من عمره - أسم العابد الصغير؛ حتى إذا ما أتم دراسته الأولى خرج إلى الحياة وهو لا يزال يفكر في ربّه، ولا يفكر بنعمته، ولا يجحد وجوده. وما هي إلا أعوام كرت حتى أخذ يرتاب في الدين الملاصق للعلم، لأن ما في الدين من إيمان لا يلائم في رأيه ما في العلم من حرية وانطلاق! وهو عندما يعمل على درس الطبيعة والتاريخ متوخياً الحقيقة من وراء دراساته يجد في عمله هذا ما يسمح له بأن يكون طليقاً حراً لا يسترقه شيء. ومنذ ذلك الحين بدأ يطمع في الحقيقة العلمية التي يقتفي أثرها فكره الضائع دون أن يفقد الله الساكن في أحناء صدره. ولكن ناشد الحقيقة العلمية لا يتسنى له أن يوفق زمناً طويلاً بين حقيقته المنشودة وبين إيمانه الموروث. فهما حقيقتان متضادتان، إذا تلائمتا في أول الطريق فنزاعهما حقيق في وسطه، وإذا توافقتا في وسطه فالخلاف ناشب في منتهاه. وهاهو ذا نيتشه يفصل الآن بين هاتين الحقيقتين، ويكتب عام 1862 تجربة فلسفية على القدر والتاريخ، يحدثنا إنه قاس بعقله (أوقيانوس الأفكار الواسع، وهم بأن يجازف بنفسه في بحر الشك، ولكنه وجد إن مجازفة مثل روحه الضعيفة تجاربها ضرب من الجنون وهي لا تملك عدة، ولا تحمل سلاحاً) ومنذ تلك اللحظة ألقى إن الديانة المسيحية مبنية على افتراضات وهمية. إما وجود الله والخلود والوحي فستبقى جميعها مسائل لا حل لها. (إنني جربت أن أكفر بكل هذا، وما أيسر الهدم! ولكن الهدم يستلزم البناء. . . على إن الهدم والتخريب هما أصعب مما تتمثله عقولنا، فنحن في الحقيقة لا نعيش لأنفسنا ولا نملك أنفسنا وقفاً علينا. فهناك أوهام الطفولة وأساطيرها تحتل مكاناً منا، وهناك تعاليم الآباء والمعلمين تؤثر فينا، وكلها عوامل مترابطة متلاحمة لا يسهل على العقل أن يخترق سياجها، ولا يمكن المنطق أن يقوم اعوجاجها.

إن قوة العادة المتوارثة وتسامينا إلى الكمال وانفصالنا عن العالم الحالي، وحل كل عقد المجتمع، والشك في حقائق الوجود، كلها نوازع تتنازعنا وتملك علينا إرادتنا، والنكبات المفجعة، والتجارب المؤلمة، هي التي تسوق قلوبنا إلى الإيمان الذي ولد مع (طفولتنا، وصاحب حداثتنا)

وبعد ثلاثة أعوام ألقينا (نيتشة) يخطو خطوته الأخيرة، ويعلن إن الإنسان بين حالتين لا ثالث لهما: فهو إما أن ينتخب الإيمان وما في الإيمان من هدوء ووقار واستقرار، وإما أن يمشي على طريق محفوفة بالأخطار: هي طريق الباحثين عن الحقيقة، الذين لا يتّخذون الهدوء والسكينة مأرباً لهم، وإنما يجدون مأربهم في نجدان الحقيقة. يمشي

الباحث منهم وحده مضطرب النفس قلق الضمير، ممزق القلب، نحو ضالّته المقصودة، نحو ما يتجلى له من حق وجمال وخير، وهو إذا غادر طريق الباحثين ورضى لنفسه ذلك الهدوء فقد قتل البطولة في نفسه، وحكم على رجولته بالموت.
انفصل (نيتشه) عن المسيحية التي كان يؤمن بها قبل عهد الانفصال إيمانه بشيء رمزي قائم على قواعد رمزية، شأن الحقائق السامية تكون رموزاً لحقائق أسمى منها وأعلى. وظل يدرك خطر العمل الذي أقدم عليه، ويتكلّم في كل فصوله (عن موت الآلهة) كأن موته - عنده - حادث عظيم في تاريخ البشرية أو عمل نفّذ اليوم أوله والأجيال الآتية ستتممه. ولكن (نيتشه) اعدم هذه الآلهة ليبعث إله الحقيقة. (هذا الإله (الأدبي)، قد مات ليعيش الإله العلمي) وهكذا حمله حنينه الهاجع في أحناء نفسه للدين إلى الإيمان بآلهة الحقيقة. وعندما وجد نفسه يتنازعها إلهان سلطانهما نافذ: الإله الذي ورثه، والإله الذي لقيه، رأى أن يضحي بالأول ويبقى على الثاني. وهذا الإله هو الذي يسيطر وحده على كل تعاليم نيتشه ومبادئه، ولم يعش مع إلهه هذا كما يعيش أولئك مع آلهتهم مستسلمين قانعين بما نزل على قلوبهم من برد اليقين، فهو يهب عاملاً على تحطيم كل عمارة مشيدة على الإيمان بذلك الإله الأول، وهو - الآن - لم يعد يؤمن بنظام الطبيعة ولا بجمالها. ولا يميل إلى محاسنها، ولم يعد يرى في صفحات التاريخ ذلك القضاء الإلهي والنظام السماوي الذين يقودان الإنسانية إلى مرابعها التي خلقت لها، ولم يعد يستسلم لذلك القدر الذي يذهب بحياتنا ما يشاء، ولا لتلك الإرادة الإلهية التي تود أن تهدينا إلى سبيل النجاة والسلام.
بحث (نيتشه) جميع الأديان والشرائع منذ العصور الأولى والمذاهب التي نزلت لتخرج الناس من الظلمات إلى النور. وبعد أن شكك في هذه المذاهب وارتاب في حقائقها وأغرق في الإنكار عاد إلى هذه الفكرة التي قالها جازماً، وزعم إنه بهذه الفكرة حلّ مسألة الوجود: (إلا أن الآلهة جميعهم قد ماتوا! والآن نريد أن يحيا الإنسان الكامل. . السوبرمان) وهكذا أضاع نيتشه إلهه ووجد نفس.
بحث الناقدون كثيراً في فكرة نيتشه التي كانت تتطور وتتبدل تبعاً لما يحيط بحياته. وهو قبل بلوغه هذا المرفأ خاض بحاراً كثيرة وجاز شواطئ كثيرة. وقد أدرك بذاته تطور ذاته فشبه نفسه بالأفعى التي تنسلخ من جلدها أو النسر الذي ينسل ريشه. والحياة - عنده - ليست بواجب يلقى ولا بعمل يفرض ولا بوهم يحسب، وإنما هي مادة شأنها شأن المواد التي تقع بين يدي الباحث. وكان ينظر نفسه كالمتنقل بدون انتهاء. همّه النضال تهذبه انكساراته تهذبه كما انتصاراته، أو كالقافز بين الصخور يكاد يذهب بنفسه ضحية على رؤوس الصخور الشاهقة. وهو - بلا كلل ولا فتور - يصعد من عال إلى أعلى، ومن قمّة إلى قمّة، مبدّلاً كل لحظة أفقه عازما على ألا يقف أبداً ولا ينثني أبداً. رداؤه الشجاعة والصرامة، لا يروعه البرد ولا تخيفه الهاوية. ولا يجزع من العزلة التي يتنفس فيها ريح الثلج المنهمر. . . هو دائما في صعود وارتقاء. وهكذا يعتقد نيتشه الذي فهم الحياة إنها تفوق بعضها على بعض؛ يعتقد إن التطور لا غنى عنه، ولا بدّ منه لأنه مادة ضرورية في تحول الحياة. يعتقد نيتشه ذلك ويدأب على أن يوفق بين حياته وإرادته مع هذا المثل الذي اعتقد به، وقد كان توفيقاً كاملاً وكان تلائماً كاملاً، وصارت مسألته في الحياة هذه المسألة: (ما عسى يكون عندي معنى الحياة إذ لم يكن إله؟) ويجيب على هذه المسالة بهذه الكلمة: (إن اللاشخصية ليس لها قيمة على الأرض ولا في السماء. إن الحب الأكبر هو جوهر ضروري وجوده في كل مساء الوجود الكبرى. وهذا الحب وحده جدير بالأرواح القوية النشيطة ذات اليقين الراسخ. هنالك فرق كبير بين المفكر الذي يقابل مسائل الوجود بشخصيته، يرى فيها قدره وفاقته كما يرى فيها سعادته، وبين المفكر الذي يتوجه إليها مجرّداً عن شخصيته. لا يعرف أن يلمسها إلا بفكره البارد الغريب. إن هذا المفكر لا يستطيع أن يلمس شيئاً. وهب أن مسائل الوجود قد أمكن لمسها فلن يقدر للضفادع أن تلمسها ولا للدجاج المسترخية أن تحسها. .
ونيتشه وجد في المسألة الكبرى شقاءه وسعادته. وقد ناضلها بدون ضعف ولا هوادة، ونازلها جسداً لجسد دون أن ينفذ إلى قلبه الوهن. حتى إذا أصابه الجنون وقضى على شعوره أعلن نشيد الانتصار. أو ليس هذا بعد ذلك كله قدراً جميلاً بين الأقدار؟

(يتبع)
خليل هنداوي
القصص
من أساطير الأغريق
مجازفات هِرَ قل
للأستاذ دريني خشبة
إلى غابة نيميا - 1
كانت الغابة تثير الرعب في قلوب الجن، وكانت الظلمات تضرب في أنحائها فتجعلها تيهاً يعج بالأفاعي، ويضج بالتنانين
وكان ملكها الضرغامة يربض في المغارة المفزعة، المنشقة كالقبر في أول الطريق المؤدي إليها؛ وكان يخرج في أول الليل فيصول في القرى المجاورة ويجول؛ وكان الأهلون التعساء يلقون من بطشه وشدة أذاه الشيء الكثير؛ فلم يكن يبقى على دابة في الأرض، ولا إنسان في الطريق. ينقض كالقضاء على فريسته فيجندلها، ثم يحتملها إلى كهفه فيلتهم منها، وينبذ الباقي لخدمه وعبيده الكثيرين من سائر السباع
ولم يكن كهذه الأسود الضئيلة التي يتحدث عنها السودان هذه الأيام، بل كان أسداً في جرم الفيل وقوته، ورشاقة النمر وخفته، وخباثة الثعلب وحيلته. . . يثور فينقدح الشرر من مقلتيه، وتمور الأرض وتسجد الجبال بين يديه. وكانت له لبدة نسجتها له الآلهة من أشواك الجحيم، وبطنّها بحمّى المنية!
وكان زئيره يقصف كالرعد فيزلزل شعاف الجبل؛ ويهز جوانب السماء، ويهيج الجنون والفزع في رؤوس الوحوش، فترى إلى الغابة كأنها ترقص على فوهة بركان!!
ولقى هرقل أصدقاءه فنصحوا له ألا يلقى هذا الأسد، وأن يضنّ بشبابه. . . على أنيابه؛ وبماء الحياة المتدفق في بردتيه، على جمر الغضى المتأجج في حدقتيه. . .
ولكنه أبى!! وانطلق كالعاصفة إلى حيث يربض أبو أسامة. . . وإنه لعلى خطوات من الكهف، وإنه لينظر إلى السيف الذي كان إلى هذه اللحظة في يمينه فلا يجده!!
أين؟ أين سيفي؟. . . آه! ها ها. . . لقد سرقته حيرا!! أرادت الخبيثة أن تجردني من) السلاح الذي أنازل به خصمي! خاب فألك يا حيرا!! سأنازله بغير ما سلاح. . . سأحطمه.
سأشدّ لسانه حتى أنتزعه من غلاصمه. . . إليّ يا سبع نيميا. . . إليّ يا ملك الغابة (. . . . . .!وسيد وحوشها. . . الساعة ساعتك. . . لا مفر لك يا أبا لبدة
وطفق هرقل يرعد كالمجنون؛ وكان سبع نيميا نائماً فاستيقض على هذه الصيحات الداويات، ووثب وثبة هائلة كان بها أمام هرقل، وجهاً لوجه. . . وبدأت الزوبعة. . .
والتقى الجبل بالجبل، وتصارع الجبّاران ساعة، لا هذا ينال من ذاك، ولا ذاك يصل إلى وطر من هذا. . . وأقبلت وحوش الغابة تشهد المعركة وتتعجب. . . وغضب أبو أسامة، وهالة ألا يقوى على رجل بمفرده يكاد يصرعه. . .
وتعب هرقل. . . ونال منه الجهد، ورأى أن لا بد من آلة، فدار دورة اقترب بها من شجرة باسقة، فانتزعها، وألقى بجذعها في شدقي الأسد، ثم أسرع فقبض على لسانه العظيم فانتزعه، وانقذف الدم يتدفق من هنا وهناك. . . وتسيل به أودية الأرض!!
وكأن نشوة الظفر قد ضاعفت قوة هرقل، فقبض على فكّي الأسد، وشدّ على الرأس الكبير فتحطّمت عظام المخ، وخرّ ملك الغابة يتقلّب في لجة من دمه الغزير!.
وهمهمت الوحوش مشدوهة!
لقد قتل ملكها. . . فلا خوف عليها بعد اليوم! ستكون حرة طليقة، تجيء وتروح، وتقتات لنفسها غير منتظرة ما كان ينبذه لها أبو أسامه!! ونظر هرقل، فرأى سيفه وراء ظهره!!
لقد جاءت به حيرا بعد إذ شهدت من جبروت البطل ما بهرها وتناول السيف باسماً، ثم تقدم إلى الأسد فسلخ جلده الكبير، وأبقى على اللبدة الهائلة، وعاد أدراجه إلى يوريذوس، ملتفعاً دثاره الغريب الذي كان إلى لحظة قريبة يضم جثمان ملك الغابة وسيد وحوشها.
مع الأفعوان الهائل (هيدرا) - 2

ولقي صديقه يولوس، وتحدث عما كان من أمره مع سبع نيميا، فأخذه العجب، ونذر ليصحبن هرقل في جميع مجازفاته.

ثم فصلا، وما كاد يفعلان حتى قابلهما رسول الملك برسالة تأمر هرقل بالتوجه إلى مستنقعات ليرنا حيث الأفعوان الأرقم هيدرا: (. . . فإذا لقيته ثمّة فعليك به، ولا تعودن إلا برأسه. فقد حدثنا من عرفه إنه لا يبقي على دابة ولا بهيمة، ولا يعفي من القتل أحداً. . .

(. . .ونحن أرفق برعايانا من أن ندعهم فرائس لهذا الأفعوان

وانطلقا، حتى إذا كانا عند المستنقعات المترامية، شهد هرقل حيواناً ضخم الجثة فضيع المنظر، يتقلب فوق صفحة الماء المغطاة بزهرات اللوتس وأوراقه العريضة النامية.

وأيقن إنه هيدرا، فتناول قوسه الكبيرة، وأرسل إلى الوحش سهماً يهيجه به، ليخرج من الماء، وليأخذ معه في نزال وقتال. . . وتم له ما أراد. وخرج هيدرا الفظيع يقلب رؤوسه السبعة.

ويقلب في كل فم لساناً طوله ذراعان، وبرزت أنيابه تنفث سمها الزعاف، وأرسلت العيون الصغيرة البراقة شررها، وشرع الفحيح المرعب يصم أذني هرقل وأذني صاحبه. . . وبدأت المعركة.

وامتشق هرقل سيفه الكبير المرهف، وبضربة قاضية أطاح رأساً من الرؤوس السبعة. . .

ولكن. . . يا للعجب!! لقد نبتت في لحظات قليلة، في مكان الرأس المقطوع، رؤوس سبعة أخرى، أخذت تنمو بسرعة فائقة، حتى أوشكت أن تساوي الرؤوس الكبيرة في حجمها. . .

وريع هرقل، وهتف بصاحبه يولوس قائلاً: (أوقد النار يا صاح، وأجج هذا الجذع فاكو به كل رأس يطيح. . . إنني أخشى أن ينبت لهيدرا ألف رأس!)

ونفخ في النار وأجج الجذع؛ وأخذ كلما طاح رأس كوى مكانه بالنار وحدث ما لم يكن بالحسبان. . . لقد أرسلت حيرا سرطانا بحرياً يعض قدما هرقل وهو يحارب هيدرا، تود بذلك لو تشغله فيستطيع الأفعوان الظفر بخصمها العنيد. . . ولكن هرقل تنبه للسرطان فوطأه، وسحق عظامه سحقاً وانتصر هرقل. . .

وطفق يغمس سهامه في دم الأفعوان ليسممها، حتى إذا أصابت رمية لم تفلتها من الموت. وعاد إلى يوريذوس ثملاً بخمرة النصر

3 - ظبي سيرينيا

وأسقط في يد يوريذوس حين رأى هرقل يختال في بردة السبع ويتيه، وفي قبضته القوية رؤوس هيدرا هامدة خامدة

وكان في مقاطعة سيرينيا ظبي له قرنان من ذهب، وأيطلان من نحاس، وساقان من معدن ليس له فيما نعرف من المعادن من ضريب. وكان الملوك إذ أرادوا إعجاز أحد من الناس ليقتلوه، كلّفوه باقتفاء ظبي سيرينيا وإمساكه؛ فإن لم يفعل، ولن يستطيع أحد أن يفعل، لشدة

عدو هذا الظبي، كان جزاءه القتل. وقد أراد ملك أرجوس أن يعجز هرقل هذه المرة، فأمره باقتفاء ظبي سيرينيا: (. . . فإن لم تعد إلينا به، فأنت أعلم بما ينتظرك من الموت الزؤام. . . .)

ولم يستطع هرقل أن يمسك الظبي، لأنه كان يعدو كزوبعة، فما تكاد حوافره تلمس الأرض إلا كما تلمس السماء كف سكران، فلجأ إلى الحيلة؛ واحتفر في طريق الحيوان حفرة عميقة غطّاها بوشائج رقيقة من الثلج، وطارد الظبي حتى ألجأه إلى الحفرة، ووقع فيها، فنزل إليه واحتمله، ومضى به إلى الملك الغاشم

4 - خنزير أرمنثيا

ثم أمره بقتل خنزير بري مخرب، كان يأوي إلى غابات أرمنثيا، ويقطع الطريق على القبائل الرحل، ويقتل كل من تحدثه نفسه بمحاربته أو الوقوف معه في ميدان. وكان ذلك الخنزير لا يبالي شيئاً في الأرض أو في السماء، وكانت بينه وبين قبائل السنتور مودّة في الشر، وتحالف على إيذاء الناس. فلما اشتبك هرقل وإياه في نزال تشيب من هوله الولدان، وشعر الخنزير إنه مقضي عليه لا محال، خار خواراً عالياً يستنجد حلفاؤه السنتور، ولكنهم لم يصلوا إلى مكان المعركة إلا بعد أن أجهز هرقل على

خنزيرهم العزيز، فنشب قتال مروع بينهما، وأخذ هرقل البطل يسدد سهامه التي كان قد غمسها في دم هيدرا، إلى صدور أعدائه حتى كادوا يبيدون جميعاً. وأقبل شيرون - وهو كما علمنا مؤدّب هرقل وأستاذه - ليحسم النزاع بين قبيله وبين تلميذه، ولكن وا أسفاه! لقد أصماه هرقل بسهم مسموم فأراده وهو لا يعرفه! فلما أدرك إنه أستاذه، أقبل عليه، وعنى به، وجمع من الأعشاب الطبية ما حسب إنه ينقذ أستاذه من براثن الموت، ولكن بلا جدوى! ومات شيرون، وأهوى عليه هرقل يقبله، وفي عينيه دموع المحبة والاعزاز

وتعاون هرقل ومن بقي من السنتور فدفنوا القتلى، ثم أقاموا قبراً مشيّداً دفنوا في ثراه شيرون، ومضى كل لطّيته. .

5 - زرائب أوجياس ملك اليس

كان ملك أوجياس، ملك إليس، يقتني عدداً عظيماً من الماشية والخيل والغنم، تزدحم في

زرائب متجاورة مع آلاف من الخنازير مؤلفة. وكانت النظافة في هذه الزرائب مهملة إهمالاً تاماً، حتى لكانت الروائح الخبيثة تنتشر منها فتصدم أنف عابر السبيل على فرسخ أو فرسخين، وأنتن الروث فأحدث طاعوناً مروعاً أوشك أن يأتي على جميع الأهلين، وقرر الأطباء أن لا سبيل إلى مقاومته إلا إذا عنى بتنظيف زرائب الملك. . .

وعلم يوريذوس بما شغل بال صديقه ملك إليس، فابتسم ابتسامة صفراء، وقال لهرقل وهو يحدثه حديث السينتور:

إذن فعليك أن تتوجه إلى صديقي أوجياس، ملك إليس، فتنظّف زرائبه مما بها من (خبث، وتكون بذلك قد أديت خمساً من المسائل الاثنتي عشرة، التي كتبتها عليك الآلهة)

وامتعض هرقل في أعماقه وعبس عبوسة كادت تنفجر بالسخط على هذا المالك الغبي؛ ولكنه ذكر نصيحة أريتية، فصدع بالأمر، وذهب من فوره إلى إليس، ليرى كيف ينظف زرائب الملك. . .

وثمة، رأى مجرى عظيماً من الماء، يتدفق من الجبل الشاهق إلى يمين الزرائب وينحدر انحداراً شديداً حتى ينتهي إلى البحر؛ فبدا له أن يغير مجرى الماء؛ بحيث ينصب في الزرائب نفسها، فيكتسح الروث، وينجو الناس من هذا الرهق الشديد وأنقذ هرقل مدينة الملك وثروته وحياة الأهلين!

وحاول ملك إليس أن يستبقيه ليجزيه، ولكن هرقل أبى شاكراً، وقصد إلى يوريذوس يتلقى أوامره

6 - عجل مينوس

وكان نيتيون إله البحار قد أهدى عجلاً جسداً لصديقه مينوس ملك كريد، كي يقدمه قربانا للآلهة في العيد الأكبر الذي يحتفل فيه بميلاد نيتيون؛ ولكن العجل راق مينوس الملك فانتقى من عجوله أحسنها، وضحّى به مكان هذا العجل الإلهي السمين، واستبقى لنفسه هدية الإله وغضب نيتيون، وأقسم ليكونن هذا العجل نقمة على مينوس وقومه، فسخّر عليه طائفاً من الجنون، فطفق العجل يخرّب ويدمّر، ويقتّل الناس تقتيلا. . .

وعلم يوريذوس بما كان من مصيبة صديقه ملك كريد في عجله، فلما قدم هرقل أرسله ليقتل العجل، أو على الأقل ليقيده فيرتفع عن الناس أذاه. . .

وأبحر هرقل، ولقيه مينوس فرحاً متهللاً، وذهب من فوره لينازل العجل، فكانت معمعة وكانت حرب عوان! لقد كان هرقل يحمل العجل فيرفعه، فيخبط به الأرض فتندك، مع ذاك ما استطاع أن يقتله! وأخيراً اكتفى بأن صفّده بسلاسل وأغلال، وعاد أدراجه إلى أرجوس، وودعته كريد كلها

(لها بقية)

دريني خشبة

من الأدب الإيطالي

الليالي العشر

ترجمة الأديب أحمد الطاهر

قصة زوجة صبور
جريزلدا
ذلك ما يقوله الرجال وما يعتقدون. (النساء لا يقمن على العهد، ولا يثبتن على الولاء)
ولكن هذه القصة التي سأذكر تنقض هذا الرأي وتدل على ولاء المرأة مع غلظة الرجل، وثباتها مع جفوته، وما أحسبكم إلا تشتهون سماع هذه القصة:
جالتيري كان أميراً على دوقية سالوزو، وكان من زعماء الرأي الظالم للمرأة، لا يؤمن بوفائها ولا يثق بإخلاصها. وحال هذا الرأي بينه وبين الزواج، فصد عنه، وانصرف إلى صيد الوحش واقتناص الطير، يجد في ذلك ملهاة ولذة وسلوه. ولكن رعية هذا الأمير كانت مشفقة على البلاد أن يموت أميرها وليس ورائه من يجلس على العرش، وذهب مسعاهم في حمله على الزواج أدراج الرياح، واتخذوا له كل وسيلة فلم يزد إلا صداً ونفوراً
قال الملأ من قومه: (إنا لنراك في وحدة وسأم شديد، وهذه أجمل فتياتنا نقدمها إليك راضين، وإنا لأمرك لمنتظرون) قال:
لو كانت بي إلى الزواج رغبة لاخترت شريكتي في الحياة لنفسي، لا أكلفكم في ذلك) عناء ونصبا، وهذه الفتاة التي تقدمون إليّ مهما يكن من شأنها في أصالة الحسب، وعزة النسب - أرفضها مع احترامي لقدرها، وإجلالي لشرفها؛ وإني لأحذركم عاقبة ما يقع بي من حسرة، وما أجد من غضاضة إذا حملتموني كرهاً على أن أتخذ زوجة لي لا أرضاها ولا أبغي السبيل إليها .)
وانصرف القوم خائبين نادمين
خرج هذا الأمير يوماً يدور حول قصره، فأبصر إحدى راعيات الغنم: فتاة بهية الطلعة، ساحرة الجمال، وكانت تحمل في جرتها ماء إلى منزل أبيها، فسألها: (ما اسمك أيتها الفتاة؟) قالت: (جريزلدا)، قال: (إنني يا فتاتي أبحث عن زوجة تشاطرني النعيم، فهل إذا اتخذتك زوجة لي تعملين على هناءتي ولا تعصين لي أمراً بالغاً ما يبلغ من الشدة دون أن يكون في صدرك حرج مما تؤمرين؟). قالت الفتاة: (نعم يا مولاي) وأرسل الأمير إلى المدينة رسولاً فأحضر للفتاة من الثياب أغلاها ومن الحلل أبهاها؛ وعقد على ناصيتها تاجاً من الزهر، وأركبها جواداً وسار بها إلى قصره، وأقام للزفاف ليلة كانت غرة في جبين الدهر، ودرة في تاج الليالي
وسكن الأمير إلى زوجه الصالحة فوجد في طبعها الهدوء والسكينة، وفي شمائلها العذوبة والطمأنينة، وألفاها رفيعة الحاشية كريمة الأخلاق حتى لقد رأى نفسه في الدنيا أكمل الناس سعادة وأتمهم توفيقاً. ولم يكن الشعب أقل سروراً بهذا الزواج. فقد تجلى حبهم وولاؤهم للأميرة وإكبارهم لأخلاقهم وصفاتها ودانوا لها بالمحبة وعقدوا لها القلوب على الولاء
ومضت الأشهر ثم وضعت الأميرة، ولكن وضعتها أنثى! وعادت إلى الأمير عقيدته العتيقة، ولعبت برأسه الهواجس وركبه الشيطان فصد عن سواء السبيل وقال في نفسه: (ما كان لهذه الفتاة أن تبغي عن سواء السبيل حولاً وهي في نعمة سابغة وهناء مقيم. فلو إنني أسأت إليها وبلوتها بشيء من الشدة والبأساء لبرزت طبيعتها الخبيثة وصدق رأيي في النساء)
واستدعاها إلى مجلسه. فلما مثلت بين يديه قال لها: (إن وضاعت أصلك وخسة منبتك كانتا سبباً لسخط الشعب واستيائه، وزاد هذا السخط إنك وضعت أنثى لا تصلح لأن أستخلفها على العرش)
قالت الأميرة: (مولاي! إني أعلم خسة منبتي وإنني أقل من أحط أوزاع الناس شأناً. وما هذه المنزلة التي رفعتني إليها إلا فضل لا أستحقه ونعمة لم أكن أتسامى إلى التطلع إليها. فاتخذ معي فيما بيني وبينك من شأن ما يزكو بشرفك ويرضى نفسك غير آبه لإحساسي وشعوري، فما أنا من المنزلة بحيث أشغل بال مولاي أو أستحق رعايته)
وانصرفت الأميرة المبتئسة وفيما هي مطرقة كاسفة البال إذ دخل عليها أحد وصفاء الأمير قال: (مولاتي: إنني بين أمرين أحدهما مر: إما الموت ينزل بي لا راد له ولا دافع، وإما أن آخذ منك ابنتك) وما كاد يتم رسالته حتى أدركت الأميرة أن الملك قد ساقه البغي إلى الأمر يقتل أبنتها. فنهضت إلى مهد الطفلة البريئة وقبلتها قبلة الوداع، وأسلمتها إلى الرسول في رفق وأسى والتياع، وفي العينين عبرات، وفي النفس حسرات، ولكن

الأمير بعث بالطفلة إلى بولونيا أن كان له فيها أقرباء يقومون على تربيتها وتنشئتها ومضت سنون والأميرة تحمل بين جنبيها فؤاداً كليماً ونفساً تتنزى ألماً، ولكنها لا تظهر الأمير على ما تحمل، ثم أدركت أنها أصبحت جفن سلاح فتعزت بعض العزاء، ثم وضعت غلاماً وحسبت أن الأمير ستهدأ ثورته، وتذهب عنه حدّته، وقد وضعت له ذكراً يرث العرش من بعده

ولكنه استدعاها مرة أخرى، وقال لها في غلظة وجفاء: (لقد أصبحت لا أطيق الصبر على ما ألقى بسببك من مذلة ومهانة يصبهما عليّ الشعب صباً. فلقد أثار سخطهم وألّبهم على أن رأوا هذا العرش الذي أجلس عليه وأحكم بسلطانه سيؤول بعدي إلى غلام ينتسب إلى رعاة الأغنام أهون الناس شأناً وأقلهم مكاناً. ولقد تدبرت الأمر فلم أجد خيراً من أن أريح نفسي من هذا الغلام كما أرحتها من أخته) واقتطع الغلام من قلب أمه كما اقتطعت أخته من قبله

قالت الأميرة: (مولاي! لك الأمر وعلي الطاعة. ولا أحبّ إليّ من أن تعمل ما يشفي صدرك، ويضع الهمّ عن نفسك، ويحمل إليك السعادة بأوفى كيل، فما أجد سعادتي إلا حيث تجدها ولا تطمئن نفسي إلا حيث ترضى، وانكفأت إلى مقصورتها وقد بضع الهمّ من فؤادها بضعة

وبعث الأمير بالغلام إلى حيث كانت أخته

وشاع في الملأ أن الطفلين قد قتلا، واضطربت النفوس بالحقد على هذا الأمير الطاغي الذي غالى في الضلالة، وتبسط في الأثم، والعدوان، وأفعمت القلوب حباً وعطفاً على هذه الأميرة المنكودة التي صبرت حتى ملها الصبر، وبالغت في الرضا بالمذلة والهوان، ووصل صدى النفوس والقلوب إلى سمع الأميرة فأنكرت على الشعب أن يثور على مولاه، ودافعت عن مسلكه ما وسعها الجهد، على أن هذا كله لم يكن ليحمل الأمير على الثقة بولائها ووفائها وأربت سنو العشرة بين الأمير وزوجته على الستة عشر عاماً وهي تصابر القضاء، وتعاني البلاء. وبقدر ما أقامت على الصبر، كان الأمير يمعن في الغدر

ثم أراد أن يبلوها مرة أخرى:

قال لها: (أيتها الأميرة: لقد عزمت على أن أتخذ لي زوجة غيرك، وسأردك إلى أهلك الذين نشأت بينهم، وإلى كوخك الذي درجت فيه، لتعودي إلى ما كنت فيه من بؤس وفاقة. فما يزكو بمن كان في مكاني من الشرف والعظمة أن تتسامى إلى الاقتران به فتاة وضيعة مثلك، وإني لواجد بين بنات الأشراف والنبلاء من تصلح لهذه المكانة العليا.)

قالت الأميرة وهي تكظم الغيظ وتحبس الدمع: (سمعاً وطاعة يا مولاي طبت نفساً ورضيت الطلاق مخرجاً)

ثم جاء الوصفاء وجردوها من فاخر الثياب وسني الحلل وألبسوها من الثياب رديماً قديماً وبعثوا بها إلى كوخ أبيها وأعلن الأمير أنه سيبني بابنة أحد النبلاء

ثم بعث إلى جريزلدا زوجه المشردة من قال لها: (إن الأمير على نجز الزفاف إلى عروسه النبيلة الجديدة، وهو في حاجة إلى فتاة تعد له مقاصير الزفاف والاستقبال، وتقوم على شؤون الوليمة والاحتفال. ولم يجد من هو أبصر منك بهذه الغاية وأقدر على هذا الشأن لسابق خبرتك بالقصر وما فيه، وهو يأمرك أن تعودي إلى القصر كخادم تعمل بضعة أيام تقوم فيها بما يحتاج إليه الزفاف من دعوة المدعوات، فإذا انتهيت من هذا الأمر تعودين إلى كوخ أبيك كما كنت فيه.)

هذه نصال تحز في قلب الفتاة حزاً، وتمزقه تمزيقاً، وهي لا تستطيع للبلاء رداً، ولا للأمر رفضاً. فسمعت وأطاعت وهي تكاد تنشق غيظاً وكمداً. ولم يكن هيناً عليها أن تنزل عن حب زوجها والوفاء له، وقد هان عليها أن تنزل عن النعيم الذي كانت فيه، والترف الذي تقلبت بين أعطافه وحواشيه

مضت إلى القصر في خفة ونشاط وعليها ثيابها البالية، وعملت مع الخدم في تنظيف المقاصير وإعدادها، ثم خلت إلى نفسها وأعدت الدعوات لسيدات البلاد ليشهدن العرس العظيم

وأقبل يوم الزفاف فاستقبلت المدعوات في ثيابها الخشنة، وابتسامتها الناعمة! ثم مد سماط العشاء وأقبل الأمير وزوجه الجديدة وكانت بارعة الحسن رائعة الجمال.

وأقبل عليها الناس رجالاً ونساءً يقدمون إليه وإلى الزوجة ولاؤهم وطاعتهم وإعجابهم، وطوعت
لهم الزلفى أن يهنئوه على ما وفق إليه من استبدال زوجه الجديدة بزوجه القديمة
ثم نادى الأمير زوجه القديمة جريزلدا وقال لها في غير خجل ولا رعاية لإحساسها:
(ماذا تقولين في زوجي الجديدة؟)
قالت: (مولاي! إني لأشعر لها بالحب من أعماق قلبي. وأرجو أن يكون نصيبها من
رجحان العقل وسعة الإدراك بقدر نصيبها من الجمال. إذا تتم السعادة لمولاي الذي
أتوسّل إليه بكل عزيز لديه ألا يكسر قلبها، وألا يثلم فؤادها، ولا يقرح كبدها، ولا يجرح
عزتها، كما كان يفعل بزوجه القديمة. فهذه يا مولاي فتاة صغيرة نبتت في أعطاف
النعمة، ودرجت في حواشي العز والترف، وأما أنا فقد تعودت منذ نشأتي شظف
العيش وقسوة الدهر ونكد الحياة.)
قال الأمير وقد خلق الليلة خلقاً جديداً: (عفواً أيتها الفتاة وصفحاً جميلاً، لقد بلوتك في
البأساء والضراء فما زادك بلائي إلا صبراً على البلاء، واعتصاماً بالولاء؛ ولقد كنت
أحسب النساء لا يقمن على العهد ولا يدن بالصبر. وما صدفت عن هذا الرأي إلا بعد
أن خبرتك فسلبتك سعادتك وهناءك: دعيني الليلة أرد عليك في لحظة واحدة هذه
السعادة التي حرمتك إياها مدى ستة عشر عاماً: هذه الفتاة التي أحببتها الليلة والتي
يحسبها الناس جميعاً زوجي الجديدة هي ابنتك وابنتي التي انتزعتها منك منذ كانت في
المهد، وهذا الواقف إلى جوارها هو ابننا الذي حرمتك إياه رضيعاً. أقبلي يا زوجتي على
ولديك وقبليهما ما وسعك الحب لهما.)
واستوت على الوجوه دهشة شادهة، ووجوم يشبه البله! ثم تقدم النساء إلى جريزلدا
وقدنها إلى مقصورة فاخرة وألبسنها ثياباً لم يطل بينها وبينها العهد، وجلسن يحدثها
في إكبار لقدرها وإجلال لنفسها
وأقيمت في القصر ليال غر، وشمل الفرح والسرور كافة الشعب، وطابت نفوس
وقرت عيون
وبعث الأمير إلى والد جريزلدا وأتم نعمته عليه، فاقطعه من القصر جناحاً يقيم فيه،
وعاش الأمير وزوجه الصبور، ووالدها الطيب، وولداها الطاهران في سعادة ونعيم،
حتى فرق بينهم الدهر كما يفرق بين كل الأحياء.
(عن الإنجليزية)
يوزباشي أحمد الطاهر
البريد الأدبي
كتاب في تاريخ الإسلام: (فرسان الله)
أصدر الكاتبان الفرنسيان الأخوان جيروم وجان ثارو كتاباً بعنوان (فرسان الله) , هو
الجزء الأول من كتب ثلاثة يزعمان إصدارها تحت عنوان (ألف يوم ويوم في تاريخ
الإسلام)؛ وسيكون عنوان الجزء الثاني (حبوب الرمانة)، والثالث (الشعاع الأخضر).
وسيعنى الكاتبان في هذه السلسلة بوصف أولئك الذين يسميانهم (فرسان الله) وهم
المسلمون (أتباع محمد)، أولئك الذين حملوا راية الإسلام (إلى بلاد الكفر النائية)، وإلى
(بحر الظلمات) (المحيط الأطلانطيقي)
ويحتوي الجزء الأول (فرسان الله) على تاريخ موجز لمكة وقت أن ولد بها (محمد بن
عبد الله) (صلعم)، وموجز لتاريخ الدعوة الإسلامية والإسلام حتى قيام ملك الأدارسة
بالمغرب الأقصى؛ وقد اظهر الكاتبان على رغم هذا الإيجاز، قوة في الوصف، ولا سيما
حين استعرضا الدولة الأموية، ويتخذ هذا العرض صورة القصة. ولم يبرأ الكاتبان من
ذلك التحامل الذي نراه مائلاً في كل تاريخ غربي يكتب عن نبي الإسلام
وللمؤلفين عناية خاصة بوصف نفسية الشعوب المغلوبة ولا سيما البربر، وكيف غلب
عليهم (ذوق الوثنية) أحقاباً
الأستاذ محمد عبد الله عنان
قرر مجلس الوزراء تعيين صديقنا الكاتب المؤرخ والصحفي البارع الأستاذ محمد عبد
الله عنان للعمل في قلم المطبوعات بعد إقراره على النظام الجديد. واختيار الأستاذ
لهذا المنصب توفيق من الله يضمن اطراد الإصلاح والنجاح في هذا القلم بعد أن أصبح
اختصاصه يتناول الإدارة والسياسة والصحافة والتاريخ. ويكاد الأستاذ عنان يكون بلغاته

العربية والإنجليزية والألمانية والفرنسية حركة متصلة للإطلاع والبحث والتأليف والتحرير؛ فقد تخرج في مدرسة الحقوق الملكية سنة 1918، واشتغل بالمحاماة حيناً من الدهر، ثم عالج منذ سنة 1924 التحرير في الصحافة السياسية والأدبية، وتوفر على دراسة التاريخ السياسي والمسائل الدولية، وعكف في أثناء ذلك على فقه التاريخ الإسلامي في مصر وإسبانيا، فألف: ديوان التحقيق والمحاكاة الكبرى؛ ومواقف حاسمة في تاريخ
الإسلام، ومصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية، وابن خلدون: حياته وتراثه الفكري، وتاريخ العرب في إسبانيا، وتاريخ الجمعيات السرية، وتاريخ المؤامرات السياسية، ذلك عدا المقالات القيمة والدراسات الممتعة في التاريخ والسياسة والأدب التي نشرها في (الرسالة) وفي غيرها من المجلات؛ وكلها تنم عن صبر شديد، وعقل سديد، وفهم ذكي، وثقافة شاملة. وإنا لنرجو أن يجد الأستاذ في عمله الجديد ما يساعده على المضي في خطته، ومواصلة هذا الجهاد المخلص في نفع أمته

عيد الأكاديمية الفرنسية

في يوم الاثنين 17 يونيه بدأ الاحتفال الرسمي الكبير بعيد الأكاديمية الفرنسية الثلاثمائة، وهو العيد الذي تقرر إحياؤه منذ شهر يناير الماضي، واستعدّت الحكومة الفرنسية، والأكاديمية وجميع الهيئات العلمية والأدبية لإحيائه بما يليق به العظمة والفخامة. وقد افتتح هذا الاحتفال بإقامة قدّاس رسمي في كنيسة نوتردام عن روح الكردينال ريشليو وزير لويس الثالث عشر ومؤسس هذه الهيئة الأدبية الخالدة؛ ثم أقيمت في عصر ذلك اليوم حفلة رسمية شائقة حضرها رئيس الجمهورية ورجال الحكومة، وأعضاء الأكاديمية ومائتا مندوب يمثلون مختلف الهيئات والمجامع العلمية في أنحاء العالم، (ومنهم رئيس مجمع اللغة العربية الملكي ممثلاً له)؛ وألقيت الخطب الرسمية المعتادة؛ وأقيمت في الأيام التالية حفلات رسمية أخرى

وقد سبق أن أتينا على تاريخ تلك الهيئة الأدبية الشهيرة التي تضم دائماً أربعين من (الخالدين) صفوة ما تخرجه عبقرية فرنسا الأدبية؛ وبينا كيف نشأت متواضعة جداً منذ ثلثمائة عام في منزل سيد يدعى فالنتان كونراد كان من أمناء لويس الثالث عشر، وكان أديباً يجمع حوله عدة من الأصدقاء الأدباء والشعراء، وكان ذلك في سنة 1629؛ ولبث أولئك السادة يجتمعون من آن لآخر مدى خمسة أعوام، ويتجاذبون في اجتماعهم شتى المحادثات الأدبية، حتى علم الكردينال ريشيلو بخبرهم؛ ففكر في إخضاع هذه الجماعة الأدبية لنفوذه، وفي أن ينظمها ويجعل منها (أكاديمية)؛ وانتهى الأمر بأن صدرت الأوامر الملكية بإنشائها في يناير سنة 1635، وصودق عليها من البرلمان في يوليو سنة 1635

واستمرت (الأكاديمية) تنمو وتترعرع، وتجمع في سلكها أكابر النثر والشعر حتى كانت الثورة الفرنسية، فألغيت مع باقي الهيئات العلمية الأخرى في سنة 1793، وأنشأ مكانها (المجمع العلمي الوطني)، وفي سنة 1803 قسم هذا المجمع إلى أربعة أقسام منها (الأكاديمية الفرنسية) التي استردت اسمها الأصلي بعد ذلك في عهد لويس الثامن عشر (سنة 1816)، وقامت إلى جانبها (أكاديمية النقوش والآداب) و (أكاديمية العلوم) و (أكاديمية الفنون الجميلة). وفي سنة 1832 أنشأت أكاديمية خامسة هي أكاديمية العلوم الأخلاقية

وهذه هي الفترة الوحيدة التي اعترضت حياة الأكاديمية الفرنسية وما زالت الأكاديمية تقوم خلال هذه القرون الثلاثة بدورها التاريخي في الأشراف على الآداب الفرنسية، وإن كانت مهمتها الأصلية التي حددت في الأوامر الملكية أن تشرف على (تحسين اللغة وتوسيعها)؛ وما زال الظفر بالانخراط في سلكها أسمى ما يطمح إليه كاتب أو شاعر، وما زال الانتماء إليها عنوان (الخلود)

ذكرى شومان أستاذ النقد الموسيقي

احتفلت الدوائر الفنية الألمانية في الثامن من يونيه الجاري بالذكرى الخامسة والعشرين بعد المائة لمولد الموسيقي الألماني الأشهر روبرت شومان، ونظمت لهذه المناسبة حفلات موسيقية عظيمة في أنحاء ألمانية عزفت فيها قطع شومان وأذاعت المحطات اللاسلكية مختارات موسيقية من آثاره في برلين وفينا. ويعرف شومان في عالم الموسيقى بأنه (روح الإبداع الموسيقي). وكان مولد شومان في زفيكاو من

أعمال سكسونيا. ودرس الحقوق أولاً، ولكنه رغب عنها إلى دراسة الموسيقى. ودرس العزف على (البيانو) في ليبزج على يد فيكس وهو من أبرع أساتذة العصر؛ ولكنه أصيب بإصابة في يده اضطرته إلى ترك العزف والاشتغال بالتأليف الموسيقي؛ ودرس هذا الفن على دورن أولاً. وفي سنة 1843 عيّن أستاذاً في معهد ليبزج، ثم عين بعد ذلك قائداً موسيقياً في دوسلدورف سنة 1850، واستمر في هذا المنصب نحو أربعة اعوام، وأنفق شومان معظم حياته يطوف المدن الألمانية مع زوجه كلارا

وبدأ شومان حياته كمؤلف موسيقي في سنة 1834 إذ بدأ تحرير (المجلة الموسيقية الجديدة) وكان ينشر فيها فصولاً نقديةً قويةً تلفت الأنظار بحسن أسلوبها وقوة منطقها؛ وقد

وصل شومان في هذه الناحية النقدية إلى ذروة البراعة حتى اعتبر أستاذ النقد الموسيقي. وكان شوبين وبراهمس وهما يومئذ من أعلام الموسيقى ينوهان بنبوغه وتفوقه في هذا المضمار؛ وأعظم آثاره في التأليف الموسيقي قطعه الخاصة بالمعزف (البيانو) ومنها رباعيات ومقطوعات بديعة للقيثارة. وألف أيضاً قطعة أوبرا عنوانها (جينوفيزا)، وعدة أوبرات موسيقية

وكان لجهود شومان وطرائقه أثر كبير في تطور الموسيقى الألمانية المعاصرة. وقد كتب ترجمة حياته عدة من الكتاب والفنانين الأكابر، ومنهم باترسون وريزمان. وخصص له فاسليفسكي ترجمة كبيرة وكذلك فولر ميثلاند وغيرهما

تخليد ذكرى شاعرة فرنسية

وضعت بلدية مدينة نانت لوحة تذكارية باسم الشاعرة أليزا ماركير التي توفيت منذ مائة عام في الخامسة والعشرين من عمرها، على المنزل الذي كانت تسكنه هذه الشاعرة الفنية التي بلغت رغم حداثتها في الشعر مرتبة كبيرة حتى كان لامرتين يقول عنها (إني أتوقع أن تمحونا هذه الصغيرة جميعاً)

وفاة فكتور هوجو - صورة خبرية واقعية

ما زالت فرنسا تحتفل بالذكرى الخمسينية لوفاة شاعرها الأكبر فيكتور هوجو حسب ما ذكرنا في فرصة سابقة وقد قرأنا أخيراً في إحدى المجلات الفرنسية الكبرى بقلم مسيو (ارمان برافيل) وصفاً بديعاً للظروف التي أحاطت بوفاة الشاعر الكبير صيغت في قالب رواية خبرية، ونحن ننقله لقراء (الرسالة) في ما يلي: باريس في 22 مايو سنة 1885

اليوم في الساعة الأولى والدقيقة السابعة والعشرين بعد الظهر توفي المسيو فيكتور هوجو عضو الأكاديمية الفرنسية، متأثراً بالالتهاب الرئوي الذي اشتد عليه منذ أيام وكان يثير في نفس أسرته والمحيطين به انزعاجاً وقلقاً. وقد أشار الدكتور زي وزميله الدكتور فولبيان في تقريرهما هذا الصباح إلى أن (الحالة في منتهى الخطورة). وكان الشاعر الكبير في الثالثة والثمانين من عمره وقد أسلم الشاعر الروح يحيط به حفيداه جان وجورج، ومسيو لوكروي ومسيو فيكتوريان ساردو، ومسيو اسكندر ديماس، وبعض شخصيات أخرى.

ويروي بعضهم أنه قال حين فاضت روحه: (وداعاً يا جان)، وبعضهم يروي أنه قال: (هاهنا معركة النهار والليل) أو أنه قال: (ليس هذا هو النور، ولكن ليس هو الظل أيضاً).

وعرض المونسنيور جيبر أسقف باريس أن يقوم بالرسوم القدسية الأخيرة للشاعر الأكبر، ولكن أسرته اضطرت إلى الرفض عملاً بوصية فيكتور هوجو نفسه، إذ قال: (إنني أرفض رثاء كل الكنائس، وأطلب صلاة لكل الأرواح).

ومنذ 19 مايو كان قد فقد كل أمل في إعادة الصحة والحياة إليه؛ وقد أصابه بالليل إغماء طويل، وبالأمس بدأ النزع الأخير وما ذاع النبأ المحزن حتى هرع الجمهور إلى منزل شارع إيلاو وما زال في ازدياد مستمر، وبدأت الزيارات الرسمية، وكان أول القادمين مسيو بريسون رئيس الوزراء، ولحق به مسيو فلوكيه رئيس مجلس النواب وبعد بضع دقائق ألقى مسيو لي روايه رئيس مجلس الشيوخ في المجلس. كلمة مؤثرة حين أعلن وفاة (شيخ) الميسرة المتطرفة وشاعر الجمهورية والديمقراطية الأكبر؛ ولا ريب أن جميع السلطات الكبرى ستشترك في تكريمه؛ وقد طلب مجلس باريس البلدي أن تنقل رفات الشاعر إلى (البانتيون)؛ ومن المحقق إن الجناز سيكون

قومياً تحفه أعظم مظاهر الجلال، وسوف يكون مناقضاً لرغبة الميت الذي أوصى بأن يتقل إلى مقره الأخير في نعش الفقراء؛ وهي الرغبة الوحيدة التي ستحترم.

السبت 23 يوليو

حفلت كل الصحف بفصول مؤثرة تذيلها أعظم الأسماء؛ وقد نشرت (الفيجارو) قصيدة لمسيو الكونت دي ليل عنوانها (التحية الأخيرة)، وقد دهش لقرائتها الذين يعرفون خصومة الشاعرين، وما تبادلا قبل من قارس اللفظ؛ بل يرى أن دي ليل قال حينما وقف على مرض هوجو: (لقد شرب المجد وأكله، فعليه الآن أن يهضمه)، فرثاؤه اليوم لا يمكن أن يعتبر بعد هذه الشماتة إلا بطاقة زيارة تودع عند باب الأكاديمية وقد هرع عدد من الكتاب الشبان إلى سرير الميت ليسهروا إلى جانبه، وبين هؤلاء حفيد الشاعر، وليون دوديه، وكاتيل مانديس، وبول آرين، وجان إيكار، وأميل بليمون. وقدم مسيو ليو بولد هوجو في منتصف الليل ليصور عمه في فراش موته

مايو 26

نشرت الجريدة الرسمية ما يأتي: (سيدفن جثمان فيكتور هوجو في البانتيون، والبانتيون ليس بناءً كنسياً ولا يتبع أية دائرة كنسية، وإنما هو من أملاك الدولة؛ وقد رأت الوزارة أن تحقق رغبة البرلمان في هذا الشأن)

وسوف يحدث هذا المرسوم استياء في الدوائر الكنسية التي ما زالت تعتبر البانتيون من توابعها وأنه في حرم كنسية سانت جنفياف. وسيكون جناز شاعر البؤساء بلونه المدني مقوياً لصفة البانتيون المدنية؛ وسوف يثور هذا الجدل حول تابوت الشاعر وما زالت صفوة فرنسا تنحني أمام الميت العظيم؛ وقد حنطت جثته بمنتهى العناية؛ وما زال كل يعجب برأسه الشاحب الجميل الذي يكاد يضارع بياضه بياض لحيته

الجمعة 30 مايو

وضع المسيو فيكتور هوجو في ناووسه ووضعت إلى جانبه باقة من الورد قدمها فلكييه وبعض تذكارات شخصية، وقد قرر برنامج الجناز وخلاصته أن ينقل الجثمان في نعش يوضع تحت قوس النصر، ويترك هناك يوماً وليلة في حراسة الشعراء، والسلطات المدنية والجيش وشعب باريس، ثم يحمل في حفل ظافر إلى البانتيون، وستلقى بعض الخطب عند مبدأ سير الجناز وعند مقدمه

الأحد أول يونيه

منذ صبيحة الأمس بدأ حفل الشاعر النبيل مؤلف (سير الدهور) و (التأملات)، وسار وراء تابوته إلى (الاتوال) عمد باريس العشرون، والصحفيون، والكتاب، وكلهم بالثوب الرسمي والربطة البيضاء، وحولهم من الجانبين جموع حاشدة لبثت تحيط طول الليل بمنزل الميت؛ وكان قوس النصر قد جلل بغطاء أسود رهيب، وحول إلى محراب يحرسه حرس شرف من الجند والفرسان وطلبة المدارس، والشعراء الشبان، ولم ينقطع سيل الناس طوال اليوم، يحملون الباقات والأزهار؛ وهكذا ظهر أن فيكتور هوجو ما زال يغزو جميع الأرواح والقلوب

الاثنين 2 يونيه

خصص يوم الأمس كله لظفر فيكتور هوجو؛ ولم يحتفل قبل قط بجناز شاعر لمثل هذا الجلال. ولعل كاتباً لم يمثل من قبل قط تطور عصره كما تمثل؛ فقد مثلت في شخصه الديمقراطية التي استطاعت أن تصل إلى الحكم بعد طول النضال؛ وهو شاعرها ولسان حماستها الغنائية، وهو يتنفس آمالها ومخاوفها في كتابه (البؤساء)، ويتنفس غضبها وأحقادها في كتابه (العقوبات) وكان الجو بديعاً فاتراً؛ وفي نحو الساعة التاسعة أتى الموظفون وممثلوا مسيو جرافي رئيس الجمهورية، ومجلس الوزراء بكامل هيئته، وأعضاء الأكاديمية الفرنسية، والجنرال سوسييه حاكم باريس وأركان حربه، واجتمعت الوفود في شارع (الجيش الأكبر) وقد احتلوا شارع نيبي بأكمله

وألقيت طائفة من الخطب منذ الساعة العاشرة؛ منها خطاب مسيو لي روييه باسم مجلس الشيوخ، وفلوكيه باسم مجلس النواب، وجوبليه وزير الداخلية باسم الحكومة، وأميل أوجييه باسم الأكاديمية؛ وكان أروع الخطباء جميعاً ولا سيما حينما صاح بصوت قوي: (ليس هذا دفناً، وإنما هو تقديس).

ثم تحرك الموكب بعد نشيد المارسليز، وعزفت موسيقى الجيش لحناً محزناً لشوبان وإليك ترتيب الموكب: سارت في الطليعة فرقة من الحرس الجمهوري، ثم سرية من

الفرسان، ثم حاكم باريس وحاشيته، ثم الموسيقى العسكرية، فطلبة المدارس، فإحدى عشر عربة تحمل أكاليل الزهر، ثم أربعة من عمال الكوميدي فرانسيز، يحملون وسادة عليها أوسمة المتوفي، ثم نعش المتوفى وهو نعش الفقراء، وإلى جانبه أفراد أسرته وخاصة أصدقائه، مثل جورج هوجو، وأوجست فاكيري، وليو بولد هوجو، وبول فويت، وكاميل بيلاتان، والفونس دوديه، واميل زولا وغيرهم، ثم أعضاء المجمع العلمي في أثوابهم الخضر، ثم أعضاء مجلسي الشيوخ والنواب بشاراتهم المثلثة اللون، ثم أساتذة الجامعة بأثوابهم الرسمية المختلفة، وأعضاء جمعية الكتاب، وسيل لا نهاية له من الوفود المختلفة

وكانت جوانب الطرق تغص بالجماهير الحاشدة، وكانت النوافذ والأشجار والأسطحة حافلة بالنظارة

وبلغ الموكب البانتيون من شارع سوفلو في منتصف الساعة الثالثة، وقد جلله السواد والأعلام القومية، وهنالك ابتدأت الخطب الختامية، فألقى منها إحدى عشرة؛ وكانت بين الخطباء مسيو أوديه باسم مدينة بيزانصون مسقط رأس الشاعر، ومسيو ماديه باسم

المنفيين في يوم 2 ديسمبر ومسيو جورد باسم نقابة الصحافة الباريسية، وهنري دي بورنييه باسم كتاب المسرح وبعض الأجانب باسم بعض المعاهد العلمية الأجنبية

ثم عزفت الموسيقى لحن فيكتور هوجو الذي وضعه مسيو سان ساينس، وعلى أنغامه أودع التابوت في مثواه الأخير إلى جانب توابيت فولتير وروسو وغيرهم من العظماء الخالدين

واستمر تعاقب الوفود حتى مغيب الشمس، وانتهى فيكتور هوجو إلى أن يرقد هادئاً في عالم الخلود

العدد 104 - بتاريخ: 01 - 07 - 1935

كلكم حواريون

فمن يهوذا؟

لا تسمع من أي إنسان في أي مكان إلا تذمراً على حال المجتمع، وتضجراً من نظام العيش، وتضوراً من فساد الحكم، وتحسراً على أخلاق الناس! فما من سياسي تلقاه إلا رأيته لهيف الجوانح، ذاهب القلب، لا يملك عينه من الدمع، ولا قلبه من الوجد، ولا لسانه من هذه الشكاة: أضاعوا استقلال البلاد، ووأدوا دستور الأمة، ونشروا بخطلهم على الشعب سوء النبأ! فقد كان لنا بجانب (الاحتلال) مكان، ومع (دار الاستشارة) رأي، وقبل نفاذ الأمور كلمة، وفوق كل اعتبار كرامة؛ وكان لهذا كله على ضآلته وهزاله ثمن فادح مرهق، أديناه ضحايا برة من أرواح الشباب في ساحة الجهاد، وملايين تسعة من أموال الأمة في (قانون التضمينات)، ثم أصبحنا وإذا المكان خلاء، والإشارة أمر، والكرامة ضراعة، والكلمة رجاء!!

أجل! يقول كل سياسي هذا الكلام، ويلوم هذا الملام، حتى أولئك الذين قتلوا بأيديهم الدستور أمس، يبكون عليه اليوم بأربعة آماق، لأن الإنجليز أكرموه فدفنوه!!

وما من موظف تراه إلا حدثك والهم يعتلج في صدره، والأسى يتلضى على وجهه، كيف تحكمت المحاباة في دوائر الحكم، وفشا التواكل في دواوين الحكومة! (فالشهادة العالية) في التعيين زور مع التوصية، والكفاية البارعة في الترقية خرق مع الهوى، وحسن العمل في سبيل الحظوة جناية مع سوء الحظ؛ ثم ترى (الأقلام) غاصة بالكتبة، والمكاتب مكتضة بالأضابير، والوزارات مزدحمة بالسائلين، والمستعجلين، والأوراق الحائرة تنتقل من يد إلى يد، وتخرج من مكتب إلى مكتب، وترحل من بلد إلى بلد، لأن (التواكل) الماهر قضى على كل كاتب أو حاسب أن يزيح همها عن نفسه، ويخرج حكمها من اختصاصه، فتلبث

على هذه الحال بين الحال والترحال شهوراً وسنين، وهي مع الجد لا تستغرق تفكير لحظة وعمل ساعة!

يقول كل موظف هذا الكلام، ويتهم هذا الاتهام، حتى أولئك الطفيليون الذين عينوا لقبض المرتب، وظلوا على الشيوع من غير عمل ولا مكتب!!

وما من أديب تخلوا إليه إلا نثر عليك دموع الخنساء، ونظم في مسمعيك تشاؤم أبى العلاء، وسألك وهو متبلد من الحيرة، متلدد من الدهش: متى كان البذاء من الأدب، والهجاء من النقد، والإدعاء من الفن، والتقليد البهيم من العبقرية، والكيد اللئيم من الصحافة؟؟

كان الأدب سبيلاً بين الله والنفس، وسلاماً بين الروح والجسم، ولساناً بين الجمال والحس، ودليلاً بين الهوى والخير، ونسباً بين القرابة والبعد، فأصبح كما ترى سبباً من أسباب العداوة، وسبيلاً من سبل الفرقة، وبوقاً من أبواق الفتنة، ومظهراً من مظاهر الجهالة!

يقول كل أديب هذا الكلام، ويلقي عليك هذا الاستفهام، حتى أولئك السفهاء الذين يلبسون ظلماً مسوح الأدب، ثم يلتمسون الظهور بالوقيعة في كل من كتب!!

وما من رجل من رجال الدين تجلس إليه إلا قال لك ودموع الحسنين تنهل على ردنه العريض انهلال القطر: لم يبق للدين في هذه الدنيا سلطان، ولا للخلق في هذه الفوضى مكان، ولا للفضيلة في هذه المادية قيمة! ولقد استشرى فساد العصر حتى نال من تقوى العلماء فأصبحوا يأنفون من الورع، وينفرون من البساطة، ويتأبهون عن العامة، ويمدون أعينهم لشهوة الحياة، ويذهبون أنفسهم على فتنة الحكم، ويتخلون عن الدعوة إلى سبيل الله إلى الدعوة إلى أهواء الفرد!!

يقول كل عالم هذا الكلام، ويهتم هذا الاهتمام، حتى أولئك الضعفاء الذين اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، وجعلوا من نفوسهم إلى الباطل سبيلا ودليلا!

وما من تاجر تعامله، أو صانع تقاوله، إلا ابتدرك بالزراية على الذين نفقوا على الغش، وآثروا على الخداع، وسلبوا ثقة الشعب باسم الاخوة، وسرقوا مال الجمهور باسم الوطن، حتى جعلوا التجارة والصناعة فيما بينهم وبين الناس معنى من معاني النهب، وحيلة من حيل الشطارة؛ فأنت تدخل المتجر أو المصنع وفي حسك لا محالة انك مغبون في السعر، أو مخدوع في النوع، أو مظلوم في التقدير!

يقول ذلك كل تاجر وكل صانع حتى أولئك الذين قضى عليهم موت الضمير أن يصدقوك في البيع ويكذبوك في التسليم، ويعاهدوك على نوع فيغيروه ولا يزيد رجعهم من غشه على مليم!

وهكذا تسمع هذا السخط الحاقد والنقد اللاذع والتعريض الممضّ والزراية الساخرة من كل لسان في أي طبقة، وفي كل حديث في أي مجلس، فتقف موقف المشدوه بين العجب والغضب وتسأل:

إذا كنتم يا قوم جميعاً حواريين، فمن الذي خان الوطن بدوانقه الثلاثين؟؟ كلكم يلوم فمن الملوم؟ وكلكم يتهم فمن المجرم؟ وعظ مالك بن دينار عظةً تقاطرت عليها دموع أصحابه، ثم افتقد مصحفه! فنظر إليهم وكلهم من اثر كلامه لا يملك عينه! وقال ويحكم! كلكم يبكي فمن سرق المصحف؟؟

أحمد حسن الزيات

دموع

من رسائل (الطائشة)

للأستاذ مصطفي صادق الرافعي

ورسائل هذه الطائشة إلى صاحبها، تقرأ في ظاهرها على أنها رسائل حب، قد كتبت في الفنون التي يترسل بها العشاق؛ ولكن وراء كلامها كلاماً آخر، تقرأ به على أنها تاريخ نفس ملتاعة لا تزال شعلة النار فيها تتنمى وترتفع؛ وقد فدحتها الحياة إذ حصرتها في فن واحد لا يتغير، وأوقعتها تحت شرط واحد لا يتحقق، وصرفتها بفكرة واحدة لا تزال تخيب

وأشدّ سجون الحياة فكرة خائبة يسجن الحي فيها، لا هو مستطيع أن يدعها، ولا هو قادر أن يحققها؛ فهذا يمتد شقاؤه ما يمتد ولا يزال كأنه على أوله لا يتقدم إلى نهاية؛ ويتألم ما يتألم ولا تزال تشعره الحياة أن كل ما فات من العذاب إنما هو بدأ العذاب والسعادة في جملتها وتفصيلها أن يكون لك فكر غير مقيد بمعنى تتألم منه، ولا بمعنى تخاف منه، ولا بمعنى تحذر منه. والشقاء في تفصيله وجملته انحباس الفكر في معاني الألم والخوف والاضطراب

وقد اخترنا من رسائل (الطائشة) هذه الرسالة المصورة التي يبرق شعاعها وتكاد

تقوم بازاء نفسها كالمرآة بازاء الوجه. وهي فيها عذبة الكلام من أنها مرّة الشعور، متسقة الفكر من أنها مختلة القلب، مسددة النطق من أنها طائشة النفس. وتلك إحدى عجائب الحب؛ كلما كان قفراً ممحلاً اخضرت في البلاغة وتفننت والتفت، وعلى قلة المتعة من لذاته تزيد فيه المتعة من أوصافه. ولكأن هذا الحب طبيعة تروى بالنار فتخصب عليها وتتفتق بمعانيها، كما تروى الأرض بالماء فتخصب وتتغطى بنباتها؛ فإن روى الحب من لذاته وبرد عليها، لم ينبت من البلاغة إلا أخفها وزناً وأقلها معاني، كأول ما يبدو النبات حين يتفطر الثرى عنه؛ تراه فتحسبه على الأرض مسحة لون أخضر؛ أو لم ينبت إلا القليل القليل كالتعاشيب في الأرض السبخة

إن قصة الحب كالرواية التمثيلية، أبلغ ما فيها وأحسنه وأعجبه ما كان قبل (العقدة) فإذا انحلت هذه العقدة فأنت في بقايا مفسرة مشروحة تريد أن تنتهي، ولا تحتمل من الفن إلا ذلك القليل الذي بينها وبين النهاية

وهذه هي رسالة الطائشة إلى صاحبها:

. . .

ماذا أكتب لك غير ألفاظ حقيقتي وحقيقتك؟

يخيل إلى أن ألفاظ خضوعي وتضرعي متى انتهت إليك انقلبت إلى ألفاظ شجار ونزاع!

أي عدل أن تلمسك حياتي لمسة الزهرة الناعمة بأطراف البنان، وتقذفني أنت قذف الحجر بملء اليد الصلبة متمطية فيها قوة الجسم؟

جعلتني في الحب كآلة خاضعة تدار فتدور، ثم عبثت بها فصارت متمردة توقف ولا تقف؛ والنهاية - لا ريب فيها - اختلال أو تحطيم!

وجعلت لي عالماً، أما ليله فأنت والظلام والبكاء، وأما نهاره فأنت والضياء والأمل الخائب. هذا هو عالمي: أنت أنت. . .! سمائي كأنها رقعة أطبقت عليها كل غيوم السماء، وأرضى كأنها بقعة اجتمعت فيها كل زلازل الأرض! لأنك غيمة في حياتي، وزلزلة في أيامي

يا بعد ما بين الدنيا التي حولي وبين الدنيا التي في قلبي!

ما يجمل منك أن تلزمني لوم خطأ أنت المخطئ فيه

سلني عن حبي أجبك عن نكبتي، وسلني عن نكبتي أجبك عن حبي

كان ينبغي أن تكون لي الكبرياء في الحب، ولكن ماذا أصنع وأنت منصرف عني؟ ويلاه من هذا الانصراف الذي يجعل كبريائي رضى مني بأن تنسى!

ليس لي من وسيلة تعطفك إلا هذا الحب الشديد الذي هو يصدك، فكأن الأسباب مقلوبة معي منذ انقلبت أنت

ويخيل إلي من طغيان آلامي أن كل ذي حزن فعندي أنا تمام حزنه!

ويخيل إلي أني أفصح من نطق بآه!

عذابي عذاب الصادق الذي لا يعرف الكذب، بالكاذب الذي لا يعرف الصدق

كم يقول الرجال في النساء، وكم يصفونهن بالكيد والغدر والمكر؛ فهل جئت أنت لتعاقب الجنس كله فيّ أنا وحدي. . .

ما لكلامي يتقطع كأنما هو أيضاً مختنق؟

لشد ما أتمنى أن أشتري انتصاري، ولكن انتصاري، عليك هو عندي أن تنتصر أنت إن المرأة تطلب الحرية وتلج في طلبها، ولكن الحياة تنتهي بها إلى يقين لاشك فيه، هو أن ألطف أنواع حريتها في ألطف أنواع استعبادها

حتى في خيالي أرى لك هيئة الآمر الناهي أيها القاسي. لا أحب منك هذا، ولكن لا يعجبني منك إلا هذا. . .!

ويزيدك رفعةً في عيني أنك لم تحاول قط أن تزيد رفعة في عيني

فالمرأة لا تحب الرجل الذي يعمل على أن يلفتها دائماً ليرفع من شأنه عندها

إن الطبيعة قد جعلت الأنوثة في الإنسان هي التي تلفت إلى نفسها بالتصنع والتزيد، وعرض ما فيها وتكلف ما ليس فيها؛ فإن يصنع الرجل صنيعها فما هو في شيء إلا تزيين احتقاره!

التزيد في الأنوثة زيادة في الأنثى عند الرجل، ولكن التزيد في الرجولة نقص في الرجل عند الأنثى!

ارفع صوتك بكلماتي تسمع فيها اثنين: صوتك وقلبي ليست هي كلماتي لديك أكثر مما هي أعمالك لدي وليس هو حبي لك أكبر مما هو ظلمك لي!
ما أشد تعسي إذا كنت أخاطب منك نائماً يسمع أحلامه ولا يسمعني!
ما أتعس من تبكيه الحياة بكائها المفاجئ على ميت لا يرجع، أو بكائها المألوف على حبيب لا ينال!
ولكن فلأصبر ولأصبر على الأيام التي لا طعم لها، لأن فيها الحبيب الذي لا وفاء له!
إن المصاب بالعمى اللوني يرى الأحمر أخضر، والمصاب بعمى الحب يرى الشخص القفر كله أزهار
عمى مركب أن تكون أزهاراً من الأوهام ولها مع ذلك رائحة تعبق
وعمى في الزمن أيضاً أن ينظر إلى الساعة الأولى من ساعة الحب، فيرى الأيام كلها في حكم هذه الساعة
وعمى في الدم، أن يشعر بالحبيب يوماً فلا يزال من بعدها يحي خياله ويغذيه أكثر مما يحي جسم صاحبه
وعمى في العقل، أن يجعل وجه إنسان واحد كوجه النهار على الدنيا، تظهر الأشياء في
لونه، وبغير لونه تنطفئ الأشياء وعمى في قلبي أنا، هذا الحب الذي في قلبي!
ليس الظلام إلا فقدان النور، وليس الظلم في الناس إلا فقدان المساواة بينهم
وظلم الرجال للنساء عمل فقدان المساواة لا عمل الرجال
كيف تسخر الدنيا من متعلمةٍ مثلي، فتضعها موضعاً من الهوان والضعف بحيث لو سئلت أن تكتب (وظيفتها) على بطاقة، لما كتبت تحت اسمها إلا هذه الكلمة: (عاشقة فلان). . .؟
وحتى في ضعف المرأة لا مساواة بين النساء في الاجتماع، فكل متزوجة وظيفتها الاجتماعية أنها زوجة؛ ولكن ليس لعاشقة أن تقول إن عشقها وظيفتها. . .
وحتى في الكلام عن الحب لا مساواة، فهذه فتاة تحب فتتكلم عن حبها فيقال: فاجرة وطائشة، ولا ذنب غير أنها تكلمت؛ وأخرى تحب وتكتم فيقال: طاهرة وعفيفة، ولا فضيلة فيها إلا أنها سكتت
أول المساواة بين الرجال والنساء أن يتساوى الكل في حرية الكلمة المخبوءة. . .
لا لا، قد رجعت عن هذا الرأي. . .
إن القلق إذا استمر على النفس انتهى بها آخر الأمر إلى الأخذ بالشاذ من قوانين الحياة
والنساء يقلقن الكون الآن مما استقر في نفوسهن من الاضطراب، وسيخربنه أشنع تخريب
ويل للاجتماع من المرأة العصرية التي أنشأها ضعف الرجل! إن الشيطان لو خير في غير شكله لما اختار إلا أن يكون امرأة حرة متعلمة خيالية كاسدة لا تجد الزوج. . .!
ويل للاجتماع من عذراء بائرة خيالية، تريد أن تفر من أنها عذراء! لقد امتلأت الأرض من هذه القنابل. . . ولكن ما من امرأة تفرط في فضيلتها إلا وهي ذنب رجل قد أهمل في واجبه
هل تملك الفتاة عرضها أو لا تملك؟ هذه هي المسألة. . . إن كانت تملك، فلها أن تتصرف وتعطي، أو لا، فلماذا لا يتقدم المالك. . .؟
هذه المدنية ستنقلب إلى الحيوانية بعينها، فالحيوان الذي لا يعرف النسب لا تعرف أنثاه العرض
وهل كان عبثاً أن يفرض الدين في الزواج شروطاً وحقوقاً للرجل والمرأة والنسل؟ ولكن أين الدين؟ وا أسفاه! لقد مدنوه هو أيضا. . .! طالت رسالتي إليك يا عزيزي، بل طاشت،
فأني حين أجدك أفقد اللغة، وحين أفقدك أجدها.
ولقد تكلمت عن الدين لأني أراك أنت بنصف دين. . .
فلو كنت ذا دين كامل لتزوجت اثنتين. . . . لا لا، قد رجعت عن هذا الرأي. . .
(طنطا)
طبق الأصل

مصطفى صادق الرافعي
إلى (ب) في دمشق
خير ما أرى لك أن تدع للغد حل مشكلة اليوم، وليس بين اليوم والغد إلا أن تصبر، وأنت كالذي رأى نفسه في غبش الفجر ويزعم أنه أمسى. .
(الرافعي)
2 - شمس الدين السخاوي
حياته وتراثه
للأستاذ محمد عبد الله عنان
ولنستعرض الآن تراث السخاوي وآثاره، بعد أن أتينا على حوادث حياته وظروف تكوينه؛ وللسخاوي تراث حافل ينم عن غزير مادته ونشاطه؛ ولقد تلقينا منه الكثير، وتلقينا بالأخص أهمه وأقيمه. ويعني السخاوي في ترجمة نفسه بتعداد رسائله ومؤلفاته؛ ويستغرق تعدادها عدة صفحات من ترجمته؛ ويضم هذا الثبت الحافل كتباً ورسائل في عدة فنون مختلفة؛ ولكنا نستطيع بوجه عام أن نقسم آثاره إلى قسمين: قسم الحديث، وقسم التاريخ
وقد كان السخاوي كما رأينا محدثاً كبيراً، انتهى إليه علم الحديث في عصره؛ بيد أنه كان أيضاً مؤرخاً بارعاً، ونقادة لايجاري؛ والجمع بين الحديث والتاريخ خاصة لكثير من أقطاب المؤرخين المسلمين مثل كتاب السيرة، والطبري، والذهبي؛ وعلم الحديث بما يحتويه من قواعد الإسناد وتمحيص الرواية، والجرح والتعديل، خير معوان للمؤرخ الناقد على تحري الحقائق؛ وهكذا كان السخاوي محدثاً ومؤرخاً؛ وكانت براعته النقدية في التاريخ ترجع في كثير من الوجوه إلى براعته في الجرح والتعديل كمحدث؛ وهذه الصبغة النقدية البارزة هي التي تسبغ على آثاره التاريخية قوتها وطرافتها
ويحدثنا السخاوي في ترجمته بأنه شرع في التأليف (قبل الخمسين)؛ ولكن هنالك ما يدل على أنه وضع بعض التصانيف قبل سنة 870هـ، أعني وهو في نحو الأربعين من عمره؛ فهو يحدثنا أنه لما حج للمرة الأولى سنة 70، قرأ بعض تصانيفه في مكة، وإذا فهو قد بدأ التأليف في سن متقدمة؛ بيد أنه أنفق شبابه في استيعاب النصوص والمراجع، ونزل ميدان التأليف مزوداً بمادة غزيرة؛ ولبث مدى الثلاثين عاماً التالية يخرج الكتب والرسائل تباعاً، ولم ينقطع عن الكتابة حتى أعوام حياته الأخيرة
وبدأ السخاوي التأليف في ميدان الحديث، فوضع فيه عدة كتب ورسائل يعنى بتعدادها في ترجمته، ولكنا لم نتلق منها سوى القليل؛ وأشهرها كتاب (المقاصد الحسنة في الأحاديث المشتهرة)، وهو من كتب الحديث المتداولة، ومنها (فتح المغيث بشرح ألفية الحديث) و (الغاية في شرح الهداية) و (الأخبار المكللة في الأحاديث المسلسلة) و (شرح الشمائل
النبوية للترمذي) و (التحفة المنيفة فيما وقع من حديث أبي حنيفة)، وعدة كتب ورسائل أخرى في شرح متون الحديث، وعدة حواش وذيول لبعض كتب الحديث المعتبرة يذكرها كلها في ترجمته، ولا يتسع هذا المقام لذكرها
وكتب السخاوي في هذه الفترة الأولى أيضاً عدة رسائل عن رحلاته المختلفة؛ منها الرحلة السكندرية وتراجمها؛ الرحلة الحلبية وتراجمها؛ الرحلة المكية؛ والثبت المصري؛ وفيها يصف تجواله ودراساته في تلك الأنحاء؛ ووضع كتاباً في تراجم شيوخه وأساتذته اسمه (بغية الراوي فيمن أخذ عنه السخاوي)
على أن أهم ما في تراث السخاوي هو مجهوده التاريخي والأدبي، ففيه يرتفع السخاوي إلى ذروة القوة، وفيه تبدو شخصيته في أبرز خواصها ومواهبها؛ وقد انتهت إلينا نخبة من هذا التراث القيم. ومن الصعب أن نتتبع الترتيب الزمني في استعراض هذه الآثار؛ ولكن يلوح لنا أن السخاوي قد استهل مجهوده التاريخي بوضع كتاب (التبر المسبوك في ذيل السلوك) والسلوك الذي وضع هذا الكتاب ذيلاً له هو كتاب (السلوك في دول الملوك) لتلقي الدين المقريزي، وقد تناول فيه تاريخ دول المماليك المصرية حتى سنة844 هـ؛ وتناول السخاوي في كتابه تاريخ مصر الإسلامية من سنة 845 - 857هـ؛ وكتبه كما يقرر في مقدمته نزولاً على رغبة الداوادار يشبك المهدي وزير السلطان الظاهر خشقدم؛ وعني السخاوي بتدوين حوادث هذه الفترة المعاصرة بإسهاب، وذيل كل عام بوفيات أعيانه، واتبع فيه طريقة الترتيب الزمني؛ وكتب

السخاوي أيضاً ذيلاً لكتاب شيخه ابن حجر (رفع الأصر عن قضاة مصر) وهو الذي يتناول فيه تراجم القضاة المصريين حتى عصره، وسماه (ذيل رفع الأصر)، وفيه يتناول تراجم القضاة المصريين حيث وقف شيخه ابن حجر وأعظم آثار السخاوي بلا ريب هو كتابه الضخم (الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع)، وهو موسوعة حافلة تقع في عدة مجلدات وينم عنوانها عن موضوعها، ويبسط لنا السخاوي موضوع كتابه في ديباجته على النحو الآتي: (فهذا كتاب. . . جمعت فيه من علمته من هذا القرن الذي أوله سنة إحدى وثمانمائة، ختم بالحسنى، من سائر العلماء والقضاة والصلحاء والرواة والأدباء والشعراء، والخلفاء والملوك والأمراء، والمباشرين والوزراء، مصرياً كان أو شامياً، حجازياً أو يمنياً، رومياً أو هندياً، مشرقياً أو مغربياً، بل وذكرت فيه بعض المذكورين بفضل ونحوه من أهل الذمة. . .) وقد هيأت حياة السخاوي نفسه وتجواله في مصر والشام والحجاز؛ ولقاؤه لمئات العلماء والأدباء في عواصم هذه الأقطار، وما قيده عنهم في مختلف رحلاته، مادة حسنة لكتابة المستقبل. وأنفق السخاوي بلا ريب أعواماً طويلة في إعداد مواده وتنظيمها واستكمالها؛ والظاهر أنه لم يبدأ في كتابة معجمه إلا في أواخر القرن التاسع حوالي 890هـ وأستمر في الكتابة فيه حتى سنة 897هـ أو 898هـ؛ يدل على ذلك أنه يصل في ترجمة نفسه حوادث حياته حتى سنة 897هـ، وأنه يذكر ضمن كتبه (كتاب التوبيخ لمن ذم أهل التاريخ) وقد كتبه حسبما يقرر في خاتمته بمكة سنة 897هـ؛ هذا فضلاً عن أنه يترجم لكثيرين توفوا سنة 897هـ

ويمتاز (الضوء اللامع) بقوة فائقة في التصوير ليس لها نظير في كتب التراجم الإسلامية، ويمتاز بالأخص بروحه النقدية اللاذعة؛ وهنا يبدو السخاوي في أعظم خواصه وكفاياته الأديبة نقاده لا يجارى؛ بيد أن هذه النزعة النقدية تحمله بعيداً في مواطن كثيرة، فينزع عندئذ إلى التجريح والهدم بقسوة، ويطبع نقده تحامل بين؛ وقد ترجم السخاوي كثيراً من أقطاب العصر، ولكن أحداً منهم - إلا شيخه ابن حجر - لم ينج من تجريحه اللاذع؛ وتراجم المقريزي وابن خلدون وابن تغري بردى والسيوطي أمثلة واضحة لهذه النزعة الهدامة، ففيها يبدو شغف السخاوي بالتجريح والانتقاص ظاهراً؛ وهو لا يكاد يطيق عبقرية بارزة من عبقريات هذا القرن إلا هاجمها بشدة؛ وهو يبدو في أحيان كثيرة في حملاته قوياً صارم الوطأة، غير أنه يبدو في أحيان أخرى سقيما تعوزه الحجة فينحدر عندئذ إلى ما يشبه القذف المجرد؛ وقد كان السخاوي أشد الناس شعوراً بقوته ومضاء قلمه، وكان كثير الاعتداد بهذه القوة، يشيد بها في مقدمة الضوء اللامع فيما يأتي: (ولكني لم آل في التحري جهداً، ولا عدلت عن الاعتدال فيما أرجو قصداً، ولذا لم يزل الأكابر يتلقون ما أبديه بالتسليم، ويتوقون الاعتراض عما ألقيه والتأثيم، حتى كان العز الحنبلي والبرهان بن ظهيرة المعتلي يقولان، انك منظور إليك فيما تقول، مسطور كلامك المنعش للعقول، وقال غير واحد ممن يعتد بكلامه وتمتد إليه الأعناق في سفره ومقامه، من زكيته فهو العدل، ومن مرضته فالضعيف المعلل. . . بل كان بعض الفضلاء المعتبرين يتمنى الموت في حياتي لا ترجمه بما لعله يخفي عن كثيرين. . .). ويفرد السخاوي لنفسه في كتابه، كما رأينا، ترجمة ضافية؛ ويذيلها بنبذ عديدة من أقوال شيوخ العصر وأعلامه في مديحه والإشادة بغزير علمه، والتنويه بنبوءة مركز الرياسة والزعامة في علم الحديث، ومنها ما خصه به بعض خصومه كالبقاعي قبل أن تنشب بينهما الخصومة، ثم يتبع ذلك بإيراد بعض القريض الذي قيل في مديحه وتقديره. وقد كان كتاب (الضوء اللامع) حادثاً أدبياً عظيماً؛ تردد في كثير من مواطنه أصداء تلك المعارك الأدبية الشهيرة التي نشبت مدى حين بين السخاوي وبين بعض أقرانه وتلاميذه ولا سيما البقاعي والسيوطي؛ واتخذت صوراً من العنف لم تعرفها الآداب العربية من قبل؛ وأستمر صداها يدوي مدى حين بعد وفاة السخاوي وخصومه، وكانت من أهم وأغرب الحوادث الأدبية في هذا العصر. وكتب السخاوي إلى جانب الضوء اللامع كتباً أخرى في التراجم منها حسبما يذكر كتاب (الشافي من الألم في وفيات الأمم) وهو ثبت لوفيات الأعيان في القرنين الثامن والتاسع مرتب حسب السنين، وعدة تراجم مطولة لبعض الأئمة؛ بيد أنه لم يصلنا من هذه الكتب سوى ترجمة شيخه ابن حجر في مجلد ضخم أسماه (كتاب الجوهر والدرر)، وقد حصلت دار الكتب أخيراً على نسخة فوتوغرافية لهذا الكتاب،

وفي خاتمته ما يفيد أن السخاوي كتبه في مكة سنة 871هـ؛ وفيه يتحدث بإفاضة عن نشأة أبن حجر، وتربيته، وصفاته، ومواهبه، وعن حلقاته ودروسه وتصانيفه، ثم يورد مختاراته من كلامه وفتاويه، وما قيل في رثائه من نثر ونظم

وهناك عدة مؤلفات تاريخية أخرى يذكر السخاوي أنه كتبها، ولكنها لم تصل إلينا مثل (التاريخ المحيط) الذي يشغل ثلاثمائة رزمة، وتاريخ المدنيين، وتلخيص تاريخ اليمن، ومنتقى تاريخ مكة، ثم طائفة أخرى منوعة منها: ختم السيرة النبوية لأبن هشام، القول النافع في بيان المساجد والجوامع، القول التام في فضل الرمي بالسهام، عمدة المحتج في حكم الشطرنج، الكنز المدخر في فتأوي شيخه أبن حجر، القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع؛ ومن هذا الأخير نسخة بدار الكتب

ونجد أخيراً في تراث السخاوي أثرين من نوع خاص ولهما أهمية خاصة، وقد انتهى كلاهما إلينا؛ أولهما كتاب (تحفة الأحباب، وبغية الطلاب، في الخطط والمزارات والبقاع المباركات) وهو دليل لخطط المشاهد والمزارات والبقاع المقدسة، ولا سيما مصر القاهرة؛

وفيه وصف لأحياء مصر القاهرة التي تقع فيها هذه المشاهد في أواخر القرن التاسع؛ وذكر لكثير من المشاهد والمدافن التي لم يمن بها المقريزي في خططه، ولا يزال الكثير منها باقياً إلى اليوم؛ ومن ثم كانت أهمية الكتاب في تاريخ الخطط المصرية، إذ نستطيع بالرجوع إلى معالمه أن نحدد كثيراً من مواقع القاهرة القديمة وأحيائها وشوارعها في القرن التاسع الهجري

وأما الثاني، فهو كتاب (الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ) وهو رسالة نقدية قيمة، يعرف السخاوي فيها علم التاريخ ويشيد بفضله؛ ويتناول طائفة كبيرة من المسائل والمباحث النقدية التي تدخل في حيز التاريخ؛ ثم يذيلها ببيانات ضافية لجميع المؤلفات التاريخية الإسلامية التي ظهرت في مختلف أبواب التاريخ وعصوره، مثل كتب السيرة، وكتب التراجم المختلفة، وما ألف في تواريخ الطوائف والجماعات المختلفة، مثل تواريخ القضاة والحفاظ والشعراء واللغويين والأطباء والأشراف والأدباء والعشاق والصوفية وغيرهم؛ فهو بذلك فهرس بديع شامل لأمهات الكتب التي وضعت في هذه النواحي المختلفة، ويتخلل ذلك مواقف نقدية كثيرة تجعل لهذا الأثر قيمة خاصة. هذا هو استعراض موجز لتراث السخاوي وآثاره، ولا ريب أن مجال البحث والقول يتسع لأضعاف هذا العرض الموجز، إذا أردنا أن نفي شخصية السخاوي ونواحيه الأدبية والنقدية المتعددة حقها من التحليل والبحث؛ وقد كان السخاوي بلا ريب من أعظم شخصيات مصر الإسلامية والعالم الإسلامي في القرن التاسع الهجري

(تم البحث)

محمد عبد الله عنان

فريزر ودراسة الخرافة - 2

للدكتور إبراهيم بيومي مدكور

ثبتت الخرافة كذلك دعائم الملكية الشخصية وحفظتها، إذ مما لاشك فيه إن هذه الملكية متأخرة في الوجود عن الملكية العامة، فالناس عرفوا متاع الجمعية ومال القبيلة قبل أن يعرفوا مال زيد وعمرو. والملكية العامة نفسها ظهرت في شكلها الأول على صور الملكية المقدسة، فنشأت في أعمال الخرافة وتربت على حسابها. وقد كان التقديس ولا يزال وسيلة من وسائل احترام الملكية والمحافظة عليها. وللخرافة يد أخرى في الدفاع عن الملكية، فقد حاربت السرقة والسراق، وحمت مال الفرد والجماعة، وقضت على عامل كبير من عوامل الاضطراب. وإذا تتبعنا عقائد وتقاليد الأمم الهمجية المعاصرة، وجدنا فيها خير برهان على هذه القضايا

ففي البولينيز أحد أقسام الأقيانوسية، لا يجرؤ أحد على الاعتداء على أملاك الشيوخ والرؤساء والمحاربين لما لها من صفة مقدسة تبعاً لأصحابها، فحرام على أي شخص أن يعدو عليها بالسرقة أو النهب أو التبديد؛ ومن اقترف إثما من ذلك استوجب غضب الآلهة ولعنة الملائكة والناس أجمعين، وجر على قبيلته بوجه خاص السخط والنكال لهذا كان عدوّ الجماعة التي تعمل على محاربته ورد المال المسلوب إلى أهله. يقول براون: (إن كل ما يملكه السيد أو يحيط به مقدس في نظر عبيده من سكان زيلنده الجديدة. لذلك لا يستطيع أحدهم - برغم حبه للتبغ - أن يمس ورقه منه علم أنها من

مال السيد. وقد حدث مرة أن أعطى صديق لي حفنة من التبغ إلى عبد لم يكد يمضغها حتى علم أنها أخذت من منزل سيده، فأسقط في يده، وسارع المسكين إلى مولاه يقص عليه القصص، ويسأله المغفرة وإباحة التبغ الذي مضغه، خشية أن يجر عليه صنعه نتائج مهلكة) فبيت السيد إذا حرم آمن لا يستطيع مخلوق أن ينتهك حرمته. وكثيراً ما ترك رؤساء القبائل التي نتحدث عنها أموالهم وأمتعتهم معرضة للجمهور دون أن تصاب بسوء. وإذا أراد فرد عادي أن يحمي ماله، اكتفي بأن يميزه بشارة من الشارات المقدسة. ووسائل التقديس كثيرة: منها أن يقام في الحقل شاخص على هيئة صليب أو سمك نهري خاص أو أن يوضع تحت شجرة الفاكهة صورة فأرة إذا رآها السارق ولى مدبراً، أو أن يربط في عنق الشخص خيط أحمر علق فيه رمز لتمساح أو قطة أو وطواط، تلك الحيوانات التي تثير في نفوس القبائل الهمجية عوامل الخوف والرعب، أو التقديس والاحترام، وقد تحمى قرية بأسرها بواسطة عزيمة أو رقية معلقة في رجل دجاجة، فالخرافة حلت محل القوانين والشرائع المختلفة في حماية الملكية الفردية والعامة لدى بعض الشعوب المتوحشة، وربما كان لها على نفوس معتنقيها سلطان لا يعد له سلطان قوانيننا المنظمة. فكثير من البدو تأنف نفوسهم من الإذعان لأمر، اللهم إلا ما أملته تقاليدهم الخرافية أو قيودهم الجمعية. يقول بعض الرحالة: (أنه ما كان يمكن حكم الزيلنديين بمجموعة من القوانين غير تلك التي جاءت بها خرافتهم. ذلك لأن هؤلاء القوم الحربيين يأبون أن يخضعوا اللوائح ومراسيم لم تصدر عن الآلهة، ولا يترددون لحظة في أن يرفضوا في احتقار أي أمر بشري، وفوق هذا فأنه من الخير أن يقاد شعب قيادة هينة بواسطة خرافة يدين بها بدل أن ترغمه القوة الغاشمة إرغاماً). وقد حاربت الخرافة السرقة بشكل يدعو إلى التقدير والإعجاب، فكان مدغشقر يعتقدون أن من سرق بيضة أصيب بالجرب، ومن سرق قطعة من الحديد حلت به عاهة جسمية أخرى. وكي يحمي أهل صيام حقولهم ينصبون فيها راية خافقة، فإذا ما جرؤ لص واعتدى على هذه الحقول أصيب برعدة وأضطرب إضطراب العلم الخافق ولم يقو على الهرب. ويقال أن صياداً كان يفقد كل يوم جزءاً كبيراً من صيده، فرأى أن يحصن شباكه وفخاخه بتلك الراية الآنفة الذكر، فلم يدن اللص منها في الغد إلا وارتعدت فرائصه، ولم يبرح مكانه حتى قبض عليه. وجرت عادة السومطريين (سكان سومطرة) أن يبتهلوا إلى آلهتهم ويستنزلوا لعنات السماء على من سرق شيئاً من أمتعتهم، فلا يلبث السارق أن يعلن عن نفسه وعما سرق. ويروى أنه سرق مره أرز سومطرية، فأخذت تدعو علناً على السارق، وفي الصباح وجدت الأرز المسروق قد وضع خفية أمام بابها. وهاك نموذجاً من هذه الأدعية الغريبة: (شياطين الماء وملوك الأرض والسماء، أسألكم المعونة والثأر لي ممن اعتدي عليّ. فأن كان السارق رجلاً فيخفق في جميع مشروعاته، وليصب بمرض يعذبه عذاباً أليماً دون أن يقتله، ولتخنه زوجه، وليعصه ولده، وإن ذهب إلى الحرب فليقتل، وإن ركب سفينة فليغرق دون أن يعثر له على أثر، وإن قطع شجرة فلتسقط عليه، ولتصب الآلهة عليه جام غضبها فتهلك زرعه ولا تمن عليه بشيء يأكله حتى يضطر أن يتكفف الناس ولا يجيبون سؤاله فيموت جوعاً. وأن كان السارق امرأة فلتبق عاقراً إلى الأبد، وليسيء زوجها معاملتها، وليهجرها بنوها، ولتصب بأمراض لا شفاء منها.) ويظهر قدماء الإغريق كانوا يلجئون إلى أمثال هذه الأدعية والابتهالات لحفظ أموالهم، فكانوا يكتبونها على ألواح خاصة يضعونها في الأمكنة التي يراد حمايتها، ولا يزال بعض هذه الألواح باقياً إلى اليوم. وقد استخدموا هذه الأدعية كذلك في إرغام السارق على الاعتراف بسرقته، وهذا ضرب من وسائل التحقيق أن عيب بخرافته فهو يمتاز بسهولته. أما الرومان فقد ذهبوا إلى ما هو ابعد من ذلك، واعتقدوا أن هناك آلهاً خاصاً يتولى حراسة الحدود بين الحقول المتجاورة، فكل من اعتدى على جاره كان عرضة لسخط هذا الإله العظيم. ويخيل إلينا أن إله الحدود هذا يفسر ما كان عليه الرومان الأول من عناية بالزراعة وشؤونها. وجملة القول أن الخوف الناشئ عن أسباب خرافية صرف الناس عن السرقة في كثير من الشعوب القديمة ولدى القبائل الهمجية المعاصرة، فنتج عن هذا احترام للملكية الفردية وأمن مكمن المالك من الانتفاع بها. ولا يفوتنا أن نضم إلى الملاحظات السابقة ما نشاهده بيننا من أثر الخرافة في حفظ المال والمتاع. فالعجل

إن قيل أنه (للسيد) قضى الليل والنهار في الحقل وخارج الدار دون أن يصاب بأذى، وأن كان من عجول عباد الله الآخرين أضحى عرضة للسرقة والنهب والسم والذبح. وكيف لا (والسيد) الذي جاء بالأسير من بلاده كفيل بأن يحمي ماله غائباً أو شاهداً، حيا أو ميتاً! ولا أضننا نجهل الأحلام المتواترة والقائلة بأن فلاناً رأى (الإمام) مثلاً يطارده طوال الليل، لأنه، فيما يزعمون، لم يوف بنذر نذره له من قبل. وما أشنع هذا الزعم الذي يناقض أصلاً من أصول الدين، ويسمح بالتقرب إلى غير الله، وقد وصل الأمر ببعضهم أن ادعوا أن هذا البلد بلد (الدسوقي)، والآخر ملك (البهنساوي)، والثالث من نصيب (العريان)، ويعنون بذلك أن كل واحد من هذه الأمكنة دخل في حوزة حارس أمين وحام عظيم. فلم يكن بدعاً أن تلجأ طائفة من الناس إلى نقل ملكيتهم - إن صح هذا التعبير - ولو ادعاء إلى بعض الأولياء والمقربين ليحفظ مالهم من الضياع. أما التمائم والرقى فتعمل فيها ما شئت، وحدث عنها ولا حرج. فتارة يقال أن هذه التميمة تحفظ من السرقة والغرق والحرق، وأخرى يظن أن هذه الرقية ما تلبث في دار إلا أمنت كل مكروه، وعلى عادة وضع التماسيح على الأبواب تعتمد على خرافة من الخرافات
التي ترمي إلى حماية المال والمتاع.

إبراهيم بيومي مدكور دكتوراه في الأدب والفلسفة

التربية عند الإنكليز

التعاون في سبيل تربية الطفل بين المدرسة والمنزل

للأستاذ محمد عطية الأبرشي المفتش بوزارة المعارف

من مظاهر التربية الحديثة أن التعاون في المدرسة يجب أن يحل بالتدريج محل المنافسة، وأن المدرسة والمنزل يجب أن يعملا يداً بيد في سبيل تربية يصلح بها للحياة التي تنتظره، تربية اجتماعية كاملة، بحيث يتعود التعاون مع غيره من الصغر، حتى يستطيع أن يقوم بأعمال جليلة في الكبر. قد لا يستطع الآباء في المنزل أن يروا الغرض من الحياة، أو معنى الحياة، وقد يكونون محبين لأنفسهم، يأخذون ولا يعطون. وهنا تبدو الحاجة إلى المدرسة، فأنها تأخذ وتعطي، وتدرك معنى الحياة، وتستطيع القيام بمساعدة المنزل في تربية الطفل تربية عملية علمية صحية، تتفق والبيئة التي ينسب إليها. وأحسن الوسائل التي بها يستطيع المنزل والمدرسة معاً إعداد الطفل للحياة الكاملة هي: (1) العناية بالدور الأول من الحياة وهو دور الطفولة، فأنه هو الأساس الذي يبنى عليه مستقبل الطفل وحياته. وقد بلغت بالإنجليز العناية بالطفل لدرجة أنهم يفكرون فيه حتى قبل أن يولد بخمسين سنة على الأقل، فالطبقة الراقية منهم تفكر في أثر الوراثة، فلا يتزوج أحد من هذه الطبقة بمن به أو بها مرض من الأمراض العقلية أو العصبية أو الرئوية؛ خوفاً من التسبب في إيجاد طفل معتوه أو مجنون أو مستعد للسل مثلاً
أن يعطى الطفل حرية كبيرة لتنمية مواهبه وقواه التي تعد هبة للحياة الاجتماعية، (2) ولا نقصد بذلك أن ندع الطفل يفعل كل ما يشاء، بل نعطيه فرصة في أن يعمل ويجرب، ونراقبه عن بعد حتى يظهر خطؤه، وندعه يحاول إصلاحه بنفسه، ونساعده عند الحاجة، ونعمل على أن يعرف نفسه، ويعتاد ضبط شعوره وعواطفه، والصبر، والتجربة والمثابرة، والتفكير في الجماعة، وفي روح الجماعة، بحيث تضحي في سبيله بكل شيء آخر؛ فلا تفكر إلا في الطفل وفي تقويمه وتهذيبه ليكون المثل الأعلى في الحياة
الاهتمام بالألعاب الرياضية؛ فأنها أحسن وسيلة لتقويم خلق الطفل وتقوية جسمه؛ (3) بها نبث فيه حب العمل والتفكير لا في نفسه بل في الفرقة التي يشترك فيها، وبذلك نميت فيه ذلك المرض النفسي: مرض حب الذات والتفكير في النفس ليس غير
الحاجة إلى معرفة أن الطفل يحتاج أحياناً إلى الهدوء والصمت (4)
العمل على الإصلاح دائماً. والتفاهم بالمحادثة الودية خير طريقة للعلاج والإصلاح. (5) وأن المراقبة في دور البلوغ، والمراهقة واجبة، لان هذا الدور أكثر أدوار الحياة خطراً
العناية بالفنون والأعمال اليدوية كوسيلة للنمو العقلي والخلقي وكسب المهارة (6)
يجب أن يتم التعاون بين المدرسة والمنزل، للوصول بالطفل إلى الكمال. فإذا لم (7) يكن هناك تعاون بينهما فمن المحال أن نصل إلى الغرض الأسمى من التربية

وفي الأمم المتدينة، وبخاصة إنجلترا والولايات المتحدة بأمريكا تجد الثقة متبادلة بين المدرسة والمنزل، والرابطة بينهما كبيرة، يتعاون كل منهما على تثقيف الطفل وأفادته، فليست المدرسة في وادٍ والمنزل في آخر نقطة وإني آسف لان أقول أن المدرسة وحدها في مصر هي التي تجاهد منفردة في سبيل تربية الطفل؛ فالمنزل في الغالب منفصل عنها كل الانفصال، وقد يهدم ما تبنيه أحياناً. ولا سبب لذلك إلا انتشار الجهل والأمية وحبذا الأمر لو قامت المدرسة بدعوة المتعلمين من الآباء في وقت معين كل ثلاثة أشهر مثلاً للتفاهم والبحث معهم في الأمور التي تتعلق بشؤون الأطفال، والنظر في أحوال التعليم، ومستقبل التلاميذ، والعمل على رفع مستواهم العلمي والخلقي والصحي والاجتماعي وفي (نيويورك) مثلاً تجد المدرسة تعمل على التقريب بينها وبين المنزل؛ فالآباء في الولايات المتحدة بأمريكا أعضاء عاملون في الحياة المدرسية يذهبون إلى المحاضرات العامة التي تلقى في المدرسة، ويشتركون في مناظراتها، ويساعدون في مقاصفها، ويعاونون في محافلها الاجتماعية وبأمريكا الآن جمعيات للآباء والمدرسين في كل مكان تلقى فيها محاضرات عن: أعمال المدرسة، والغرض من المدرسة، والطفل، ونفسيته، وتربيته، ومعاملته

والكل يفكر في الطفل ثقة بأن طفل اليوم هو رجل الغد، وأثر التربية اليوم يظهر في الغد، وما تزرعه اليوم تجني ثماره غداً. وأن غداً لناظره قريب. والوسيلة الوحيدة لإصلاح الجيل المقبل وترقيته هي العناية بالجيل الحاضر. فإذا عنينا بأطفال اليوم وتربيتهم تربية صالحة في المدرسة والمنزل، والملعب، انتظرنا ثمرة طيبة وشعباً راقياً في المستقبل

وفي مدارس الأطفال في (ونتكا) بأمريكا يشترط لقبول التلاميذ أن يقبل الآباء معاونة المدرسة والاشتراك مع موظفيها في العمل، وبغير ذلك لا تقبل الأطفال. وفي إنجلترا قد بذلت جهود كبيرة في السنوات العشر الماضية للتوحيد بين هذين العاملين: المدرسة والمنزل، وتوثيق عرى الرابطة بينهما. ولقد نجحت هذه المجهودات وأصبح الآباء يعنون بأمور التعليم، يسترشدون برأي المدرسة، ويستعيرون من مكتبتها إذا شاءوا، ويدعون للمجتمعات الموسيقية والتمثيلية والرياضية لكي يروا أبنائهم يغنون أو يمثلون أو يلعبون، ويشاهدوهم كرجال يقومون خير القيام بكثير من الأعمال من إدارة مطعم، وتنظيف فصول، وتنظيم حديقة، ومراقبة ألعاب رياضية، وإدارة مكتبات، وتوزيع الأدوات وجمعها بعد الانتهاء منها، وإصلاح كل ما يحتاج إلى الإصلاح في المدرسة. فالطفل عضو عامل في المدرسة يعوّد من صغره الاعتماد على نفسه، والاستعداد للحياة العملية العالمية باشتراكه مع رفقائه في الفصل والمعمل والمصنع والمحفل والملعب الرياضي

وفي المنزل يجد الطفل الإنجليزي مدرسة أخرى صغيرة؛ فالبيئة علمية، والجو علمي؛ أم تعلمه، وأب يرشده، وخادمه تقرأ له. فالكل يفكر فيه صباحاً ومساءً. في الصباح يأتي الطفل إلى أمه بالصحيفة اليومية فتقرأ له الجزء الخاص به من الصحيفة عن الفيل والنمر مثلاً، فيعرف ما تم من أمرهما. ثم تقطع له هذا الجزء فيضعه بين كتبه الخاصة، في حجرته الخاصة بكتبه ولعبه، وفي الساعة السابعة مساءً يتناول كوباً من اللبن أو فنجاناً من المرق بعد الاستحمام، ثم تأخذه إلى فراشه، وتقرأ له بعض الحكايات السارة، وتنشده شعر الطفولة، وتغني له بعض الأغاني بصوت هاديّ جميل حتى ينام، فتتركه إلى الصباح

وترحب المدرسة الإنجليزية بالآباء، وتريهم الأعمال التي يقوم بها أولادهم فيها، وتعمل على إيجاد روح التعاون بينها وبين المنزل

والمدرس الحازم يستطيع أن يساعد الآباء في معرفة أن الحياة لا تقصد طفلاً واحداً، أو أسرة واحدة، أو مدرسة واحدة ليس غير، بل تقصد المجتمع الذي ينسب إليه الفرد، والذي يجب أن يقوم الكل بواجبه نحوه؛ حتى نزول الأثرة التي تظهر في بعض الآباء الذين لا يفكرون إلا في أبنائهم وبناتهم. فالمدرسة تستطيع بمعاضدة المنزل أن تقوم بجلائل الأعمال نحو الأخلاق والإنسانية وتحسين المستوى الصحي والاجتماعي والعلمي والخلقي. ولسنا في حاجة إلى تكرار القول بأن التعاون بين المدرسة والمنزل هو الوسيلة الوحيدة لنجاح

التعليم. وبالمنتديات يمكن الجمع بين الآباء والمدرسين لاستماع روايات أو مناظرات مثلاً يقوم بها الطلبة والمدرسون، وبهذه الطريقة تتم الرابطة، ويلم الشعث، ويعمل الجميع لإسعاد الطفل وتربيته تربية حسنة

ولقد أوحت روح (بستالونزي) إلى المدرسين بأن يكسبوا تقدير الآباء، فأن هذا التقدير هو العامل الأول لنجاح الإدارة المدرسية، وان كانت المدرسة في حادة فإنها في حاجة إلى مساعدة المنزل؛ فالمدرسة هي التي تتسلم البضاعة التالفة؛ يأتي الطفل إليها يتكلم لغة غير لغتها، ويتخلق بأخلاق سيئة، وحينئذ نجد عمل المدرسة مضاعفاً؛ فتبتدئ تعلمه لغة جديدة أو لغتين، وبجانب بث الأخلاق الفاضلة فيه تعمل على تقويم المعوج منها

وإني أعتقد أن الطفل يتمنى أن يأخذ والده في إحدى يديه، وأستاذه في يده الأخرى؛ حتى يعمل الكل وحدة (ثلاثية) متينة الاتصال تعمل لشيّ واحد هو رقي المجتمع، والوصول إلى الحياة الكاملة.

محمد عطية ألابراشي

النهضة التركية الأخيرة - 3

للدكتور عبد الوهاب عزام

شذرات من كلام محمد إقبال

أقفى على ما كتبته في المقال السابق عن موقف المسلمين من تقليد أوربا بشذرات من الفيلسوف الشاعر الهندي محمد إقبال تؤيد ما قلت. وهي شذرات من كتابه جاويدنامه، وهو رحلة خيالية في الأفلاك والجنة تضمنت آراء إقبال في الإسلام والمسلمين، وسأتكلم عنها في مقالات أخرى، وإن تكن هذه الشذرات طويلة فالحق لا يضره الطول. قال على لسان سعيد باشا حليم حينما لقيه في فلك عطارد مخاطباً المسلم: (قم فصوّر بنفسك عالماً آخر، وامزج العشق بالذكاء الباهر. إن شعلة الإفرنج أصابها الماء فهي خامدة، فالعيون ناظرة والقلوب هامدة؛ أصابت سيوفهم منهم المقاتل، فسقطوا كصيدهم في المجاهل. فلا تطلب الحرقة والنشوة من كرومهم، ولا ترجّ عصراً جديداً في أفلاكهم. في نارك أنت حرقة الحياة ونورها، وعليك أنت بعثها ونشورها قال مصطفى وهو يتغنى بالتجديد: (لابد أن كل قديم عتيد.) إن الكعبة لا تجد فيها الحياة، إذا جاءها من أوربا اللات ومناة. وا أسفا ليس في رباب التركي نغمة جديدة، جديدة قديم أوربا الغالبة. لم يكن غير هذا النفس في صدره، ولم يكن سوى هذا العلم في ضميره. فلا جرم سكن إلى العالم الموجود، وذاب كالشمع في حرقة العلم المشهود. وكم في طباع الكائنات من طريف وجديد، ليس في تقويم الحياة هذا التقليد، إن القلب الحي يخلق العصور، وينفر من التقليد أي نفور

إن يكن لك قلب المسلم الولهان، فأنظر في ضميرك والقرآن، كم عالم جديد في آياته. وحسب العصر الحاضر واحد من عوالمه، إن نفذ قلبك إلى بواطنه، إن المؤمن من آيات الله الوهاب، يابس العوالم لبس الثياب. كلما قدم عليه عالم منحه القرآن عالماً آخر. . . الخ

وهذا حديث من الكتاب نفسه بين نادر شاه ملك إيران وزنده رود (محمد إقبال) حينما التقيا في الجنة:

نادر:

مرحباً بالشاعر المشرقيّ، الذي يجدر به اللسان الفارسيّ، إني محرم للأسرار فأفش أسرارك، ماذا عندك عن إيران الوطن المبارك؟

زنده رود:

فتح عينه على نفسه حيناً، ثم وقع في الشرك سريعاً. هو صريع دلال أوربا الفاتنة هام بها فأتبعها، وفتن بزينتها فقلدها، همّه اليوم الملك والنسب، وذكر سابور وتحقير العرب، أوقاته من الواردات خاليه، يطلب الحياة من القبور البالية. تحدث بالوطن مذهل عن نفسه، وترك حيدراً وهام برستمه! الخ

ويقول على لسان إبدالي ملك الأفغان في القرن الثاني عشر حينما لقيه في الجنة أبدالي:

ذهل الشرق عن نفسه بما قلد الغرب واتبعه، ولابد للشرق أن ينقد الغرب فيفهمه، ليست قوة الغرب من العود والرباب، ولا من رقص الفتيات بغير حجاب، ولا من سحر

ورديات الخدود، ولا من الساق العارية والشعر المجدود. وليست هيبة الغرب من نبذ الدين، ولا بهاؤه من حرف اللاتيني. ما قوة الإفرنج إلا العلوم والفنون، وما ضوء مصباحهم إلا من هذه النار. ما الحكمة صورة من الزي واللباس، وما تمنع العلم والفضل عمامة على الرأس؛ إن للعلم والفن أيها الشاب النافر، سراً وراء هذه الظواهر؛ وإنما يغنى في هذه السبيل العين النظارة، لا هذه العمارة أو تلك العمارة؛ حسبك الفكر النفاذ، وناهيك بالطبع الدرّاك. إن ملك المعنى لم يحجره أحد، ولا يناله إلا الجهاد والجلد، لقد غفل التركي عن نفسه، وسكر من الإفرنج رأسه، فشرب من يدهم السم حلو المذاق، وترك عامداً ترياق العراق، ولست أدعو له إلا بالهداية والسداد. إن عبد الإفرنج قد أولع بالظهور، فأخذ عنهم الغناء والفجور، يضني روحه في اللهو والفتون، ويستصعب الجد فيركن إلى المجون. يؤثر السهل إيثاراً لراحته، ويرى في السهل كفاء لفطرته. وإنما طلب السهل في هذه المحن إيذان بأن الروح قد فارق البدن)

ويقول في خاتمة كتابه خطاباً للجيل الجديد:

آسيا موطن الشمس ومشرقها ترى غيرها وتحتجب عن نفسها، قلبها محروم من) الواردات الجديدة، فهي اليوم لاتزن شعيرة؛ وقتها في معترك هذه الدار جامد ساكن لا يلذ التسيار. هي صيد الشيوخ وقنيص الملوك، وغزال فكرها ظالع منهوك. العقل فيها والدين والعلم والشرف والعار من ربقة السادة الإفرنج في إسار. هجمت على عالم أفكارها، ومزقت

. . . .حجاب أسرارها، وجعلت قلبي في صدري دماً حتى صبغت عالمها لوناً آخر شباب عطاش كؤوسهم فارغة، ووجوههم نضرة، ورؤوسهم مضيئة، وأرواحهم مظلمة، ضعاف البصر قد حرموا اليقين والأمل، لم تدرك أعينهم شيئاً في هذا العالم، يكفرون (بأنفسهم ويؤمنون بغيرهم؛ إن منكر الحق عند الشيوخ كافر، ومنكر نفسه عندي أكفر ثم أعود إلى الكلام فيما فعله الكماليون فيما يسمى (النهضة التركية الأخيرة)، وأقدم قبل الكلام ترجمة البلاغ الذي أذيع على الناس قبل فتح المجلس الكبير بأنقرة ليتبين القارئ أين ابتدأت هذه النهضة وأين انتهت:

نشرت الهيئة التمثيلية التي مهدت لاجتماع مجلس الأمة الكبير بأنقرة هذا البيان قبل فتح المجلس:

1 - بمنة الكريم سيفتح مجلس الأمة الكبير في أنقرة يوم الجمعة الثالث والعشرين من نيسان بعد صلاة الجمعة

2 - اختير يوم الجمعة لفتح مجلس الأمة الكبير الذي سيؤدي الوظائف الحيوية الخطيرة مثل إنقاذ مقام السلطنة، والخلافة، واستقلال الوطن. ويستفاد من بركة هذا اليوم فتؤدى صلاة الجمعة في جامع الحاج بايرام ويحضرها المبعوثون كلهم، للتيمن بأنوار القرآن والصلاة. وبعد الصلاة يسار باللحية المباركة واللواء الشريف إلى الدائرة المخصوصة

وقبل الدخول إلى الدائرة يتلى دعاء وتذبح الذبائح. وفي هذه المراسم تنظم الفرق العسكرية، من الجامع إلى الدائرة المخصوصة.

3 - لأجل تأكيد قدسية اليوم المذكور يبدأ اليوم بتلاوة الختمة الشريفة والبخاري في مركز الولاية بترتيب الوالي، وتؤخر الأجزاء الأخيرة من الختمة الشريفة لتتلى أمام الدائرة يوم الجمعة بعد الصلاة

4 - لأجل تأكيد قدسية اليوم المذكور يشرع منذ اليوم (في كل الجهات) في قراءة الختمات الشريفة والبخاري، وتقرأ الصلوات الشريفة على المنارات يوم الجمعة قبل الآذان. وحينما يذكر أثناء الخطبة الاسم الهمايوني العظيم أسم حضرة صاحب الخلافة سلطاننا يدعى بصاحب الشوكة ولممالكه الشاهانية ولرعاياه بالخلاص والسعادة. وبعد أداء الصلاة يكمل الختم وتلقى المواعظ في تبيين خطر وقداسة المساعي الملية التي يراد بها خلاص مقام

الخلافة المعلى والسلطنة وأقسام الوطن كلها، وفيما يجب على كل فرد من المؤازرة في تأدية الوظائف الملية التي يقوم بها المجلس الكبير المؤلف من نواب الأمة. ثم يدعى بالخلاص والسلامة والاستقلال لخليفتنا وسلطاننا، وديننا ودولتنا، ووطننا وملتنا، وبعد إيفاء هذه المراسيم الدينية، والخروج من الجامع، يجتمع الناس في مركز

الحكومة في كل البلاد العثمانية، للتهنئة بفتح المجلس. ويقرأ المولد الشريف في كل جهة قبل صلاة الجمعة بصورة مناسبة
5 - وتتخذ كل الوسائل لاذعة هذا البيان، ويبلغ سريعاً إلى أبعد القرى، وأصغر الفرق العسكرية، وكل مؤسسات الدولة، ويعمل في لوحات مخصوصة، ويطبع ويوزع مجاناً حيث ما أمكن ذلك
6 - نضرع إلى جناب الحق أن يهبنا التوفيق الكامل
باسم الهيئة التمثيلية
مصطفى كمال

ذلك ما أفتتح به الكماليون عملهم؛ فلما أتيح لهم النصر شرع القادة منهم يتنكرون للإسلام. وكان أشدهم إفراطاً في ذلك الغازي مصطفى كمال باشا الذي كان المسلمون جميعهم يعدونه بطل أبطالهم غير مدافع. ولست أدري أيعود الكماليون فيتوسلون بالدين إذا وقعوا في محنة أخرى. ولست أود لهم المحن بل ادعوا لهم بالعافية والهدى. حدثني من أثق به عن الشيخ عبد العزيز جاويش رحمه الله أن الغازي قال له مشيراً إلى القرآن الكريم: (لن تفلحوا ما دام هذا الكتاب البالي أمامكم) وحدثني آخر من كبار الرجال أن الغازي رمى بالمصحف ساخراً؛ وكان يأمر فتترجم له بعض آياته ليتخذها هزواً. ألم يكن للنهضة التركية بدّ من هذا؟ لقد سبقنا الأوربيون في كل سبيل وما سمعنا عن ملك من ملوكهم أو زعيم من زعمائهم أنه فعل هذا بالتورات والإنجيل. ولو فعله بعضهم لكان فعلة شنعاء لا يقتدي بها العقلاء. وقد قرأت في إحدى الجرائد الإنكليزية منذ سنين بعداأن ملك الإنكليز يواظب على قراءة فصول من التورات منذ أربعين سنة لأن أمه أوصته بهذا

وقد كتب الكماليون في دستورهم أول الأمر أن دين الدولة الإسلام، ثم عادوا فمحوا ذلك

منادين بأن الدولة لا دين لها. ثم عمدوا إلى القوانين المدنية، وهي مستنبطة من الشريعة الإسلامية فنبذوها واستبدلوا بها قانون سويسرا. وليسوا أول من يلام على ذلك، فقد سبقهم المصريون فسنوا للمسلمين هذه السنة السيئة، ولكن الكماليين كانوا بدعاً من الأمم في اختيار قانونهم الجديد. فما كان هذا القانون وليد عاداتهم، ولا نتيجة حاجاتهم، ولا منتهى ما رآه أولو الأمر منهم، بل أتوا بالقانون السويسري مجموعاً مطبوعاً مجلداً، وعرض على المجلس هذا المجلد مطبقاً، وأخذت الآراء فأجمع عليه الأعضاء، فأنتقل قانون سويسرا إلى الأناظول في ساعة، وصار الأناظول سويسرا، وصار أهله سويسريين، وأنجاهم الله من القوانين الإسلامية البالية، إذ أنزل عليهم قانوناً جديداً مطبوعاً مجلداً، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء!

ومما ابتدعه الكماليون التأذين باللغة التركية. وقد ترجموا القرآن من قبل إلى لغتهم فعذرناهم وقلنا لابد للمسلم أن يفهم قرآنه، والتركي لا يستطيع أن يفهم القرآن بالعربية فلا مناص من ترجمته إلى لغته؛ والأمر في الأذان غير هذا، فهو تسع كلمات ممدودات صارت شعاراً للمسلمين في أقطار الأرض كلها يفهمونها على اختلاف لغاتهم؛ ليس في الأرض مسلم لا يعرف معنى الله أكبر ومحمد رسول الله، والصلات والفلاح، وأن يكن في الأرض مسلم لا يفهمها وجب عليه أن يفهمها احتفاظاً بهذا الشعار، واستمساكاً بهذه الكلمات الجامعة بين المسلمين. فما بال الكماليين أصروا على التأذين بالتركية؟ ذلك بأنهم لا يبالون بالرابطة الإسلامية، وما أحسبهم إن استمرت لهم هذه السيرة إلا سيلغون الأذان كله فيستريح السادة المترفون من هذه الضوضاء. ذهبت مرة إلى جامعة أكسفورد فتعشيت في إحدى كلياتها مع الطلبة. فلما جلسنا على الموائد أقبل جماعة من الأساتذة إلى مائدة تسمى المائدة العالية، فوقف الطلبة، وتلا أحد الأساتذة دعاء باللاتينية. ولما انتهى الطعام وقف الطلبة خاشعين فاستمعوا إلى دعاء آخر باللاتينية. وهناك شواهد كثيرة على احتفاظ الأمم في بعض أمورها بكلمات من لغات غير لغاتها احتفاظاً بذكرى تاريخية أو إبقاء على سنة دينية. وأذكر هنا أن في أكسفورد تسع عشرة كلية مع كل واحدة منها كنيسة، والطلبة ملزمون بالتناوب على الصلات في أوقات معينة، فهل منع هذه الإمبراطورية البريطانية من أن تسود العالم؟ أو كان هذا بعض الأسباب التي مكنت لها في الأرض؟

ولا ننسى هنا أن الجامعة المصرية حينما شيد بناؤها على طراز أوربي لا مصري ولا عربي لم يتم بنائها التقليد ببناء المساجد، ييسر للطالب المصلي تأدية الصلاة، فكأنه أكره على ترك الصلات إكراهاً. وقد تكلمت في هذا فقيل لي أن في تخطيط الجامعة م سجداً. ولست أدري متى يشيّد هذا المسجد المخطط؟ لماذا نؤمن ببعض سنن الأوربيين ونفكر في بعض؟ ولماذا يا قوم نقلدهم في المراقص ولا نقلدهم في بناء المعابد في الجامعات؟ وقد كان لنا مصليات في مدارسنا، وكان لها أئمة يصلون بالطلبة، ولكنا شعرنا بتوغلنا في المدينة وتقدمنا في العلوم والفنون فخجلنا من الإبقاء على هذه السنن القديمة فأهمناها فدرست ونسيت!

ومما فعله الكماليون آخراً تحويل جامع آيا صوفيا كنيسة بمحو ما فيه من آيات قرآنية وأحاديث، والكشف عما ستره المسلمون من صور القديسين والملائكة والصلبان ونحوها من نقوش المسيحية؛ وقد أحتج لهم من يدافع عنهم بالحق وبالباطل بأن بناء المسجد وهي، ولم يبق صالحاً لإقامة الصلوات فجعلوه متحفاً وكشفوا عن هذه الصور الأثرية. فهل معنى هذا أن الكماليون أشفقوا على المصلين أن يخرّ عليهم المسجد فأرادوا أن يفدوهم بروّاد المتاحف لا يبالون أن يسقط عليهم المتحف أو لا يسقط؟ هل بلغ الولع بالآثار القديمة عندهم أن يمحوا الآيات القرآنية ليكشفوا عن الرهبان والصلبان؟ على أن هذه الآيات قد كتبت بخط جميل يجعلها من الفنون الجميلة، ومضت عليها عصور تجعلها من الآثار القديمة

لست أرى في ما صنعه الكماليون بآيا صوفيا إلا إنفاذاً للمنهاج الذي وضعوه. فهذا جامع كان كنيسة معظمة عند النصارى، وقد فتح المسلمون القسطنطينية فجعلوا من آيات الفتح والظفر تحويل الكنيسة إلى جامع فطمسوا نقوش النصرانية فيها، وبنوا لها منارتين، ونصبوا أمامها لوحاً كتبوا فيه حديثاً مروياً عندهم: (لتفتحن القسطنطينية! ولنعم الجيش جيشها، ونعم الأمير أميرها!) ولا يزال التركي كلما مرّ بهذا الجامع ذكر الفتح والفاتح، وغلبت الإسلام في هذه المدينة ونحو هذا مما لا يلائم (النهضة التركية الأخيرة) ولا يساير المدنية الحديثة. ثم لا يزال هذا الجامع حسرةً في نفوس النصارى، ما نسوه قط، وقد أعربوا عن أملهم في تحويله إلى كنيسة يوم احتل الحلفاء الآستانة في الحرب الكبرى

فتجمع الروم حول آيا صوفيا ليستولوا عليه فيعود سيرته الأولى. فكان لزاماً أن يمحوا الكماليون هذه الآية من نفوس الترك وغيرهم من المسلمين، لينسوا الماضي وينظروا إلى الحاضر. وليتقربوا إلى أوربا النصرانية التي التزموا محاكاتها في كل شيء. وما بالكم أيها المسلمون تكرهون هذا التسامح في الدين وأنتم تزعمون إن دينكم دين التسامح؟ ستقولون أن أوربا النصرانية لا تتسامح معنا فنجزيها تسامحاً بتسامح، ولا يزال كثير من مساجدنا في الأندلس والبلقان كنائس في أيدي النصرانية. وفاتكم أيها المسلمون أننا أولى بالتسامح منهم فلماذا لا نبدؤهم به!!!

وقلد بلغني أخيراً أن الحكومة التركية هدمة المسجد الجميل مسجد المدرسة البحرية هيبه لي أطه، هذا المسجد الذي كان يشرف على بحر مرمرة يوحي إلى المسلم أن دينه ينبغي أن يعز في البر والبحر، فأن صدق هذا الخبر، ولست على يقين منه، فهو حلقة من هذه السلسلة

(له بقية)

(عبد الوهاب عزام

الديمقراطية والانتخاب

في التربية

للأستاذ فخري أبو السعود

مبدأ التعليم العام حديث العهد وليد الديمقراطية في نظم الحكم الحديثة، إذا اقتضت الديمقراطية المساواة بين جميع أفراد الأمة في الفرصة التي تتاح لهم لتقويم طباعهم واستثمار مواهبهم؛ ففي نصف القرن الأخير جعلت مرحلة التعليم الأولى في دول الغرب الراقية عامة إجبارية مجانية، لينال كل فرد حظاً من التعليم، وعاونت الحكومات ذوي المواهب من أبناء الطبقة الفقيرة على المضي إلى غايات التعليم دون أن يكون فقرهم عائقاً لهم عن ذلك، وبذا انتشر النور وأطلقت المواهب التي كانت من قبل معقولة

على أن التعليم العام لم يخل انتشاره من مساوئ: من ذاك أن معظم أبناء الطبقة السفلى يغادرون المدرسة تواً عقبة إنهاء مرحلة الدراسة الأولى ويعودون إلى مزاولة مهن آبائهم وينسون ما تعلموه في المدارس إلا النزر اليسير الذي لا يساعدهم إلا على قراءة غث الكتب وفارغ القصص؛ ومن ثم انتشر الأدب الرخيص وطغى على الأدب العالي، وتدلت الصحف، وكثر الكتاب المرتزقون الذين لا يتوخون سوى إرضاء تلك العقلية المنحطة، وقد آذى هذا الأدب المنحط الثقافة الرفيعة: إذ اجتذب غير قليل من المتعلمين تعلماً راقياً، لأن من طبيعة الإنسان أن يؤثر الهين من الأبحاث على الصعب منها، إلا أن يكون له وازع من نفسه شديد يقسره على التسامي عن الفضول؛ وما من وسيلة من وسائل التثقيف الحديثة كالراديو والسينما والمحاضرات إلا أسئ استعمالها كما أسئ استعمال الكتابة إرضاءً لفضول أشباه المتعلمين، وكانت النتيجة أن التعليم العام حين رفع مستوى الطبقة السفلى درجة هبط بعقلية الطبقة العليا مثلها

على أننا إذا فرضنا أن التعليم العام كان خيراً كله في بلاد الغرب التي سبقتنا إليه فهل هو كذلك في مصر؟ لقد أخذنا مبدأ التعليم العام فيما أخذنا عن أمم الغرب؟ وقلنا: ما دمنا نطلب الديمقراطية في السياسة والحكم فلابد من اتباعها في التعليم؟ وما دمنا نريد النهوض ببلادنا فلننشر فيها العلم لننقيها من خرافات الجهل وجموده، وأغرقنا وتسرعنا في تطبيق ذلك المبدأ شأننا في كل ما ننقل عن الغربيين: فأنشأنا عشرات المدارس وزججنا الناشئين من

كل صوب، وأنفقنا على ذلك الأموال الطائلة، وتخرج من معاهدنا ألوف الشبان، فماذا كانت النتيجة؟ النتيجة فشل لم يكن في الحسبان: فأولئك الشبان يزيدون على حاجة البلاد، وتعليمهم ناقص مشوّه، وأخلاقهم لا تحمد، والتعليم عامة يتقدم في طريق الضعف والانحلال سنة بعد سنة باطراد

ذلك بأننا أخذنا بمبدأ الديمقراطية في التربية مطلقاً غير محدود، وهو مبدأ غير طبيعي ولا يصلح به وحده مجتمع ولا نظام، وإنما المبدأ الساري في الطبيعة هو مبدأ الانتخاب: فالأصلح في الطبيعة هو الذي يرقى ويسود؛ وقد فطن إلى ذلك أول الشعوب أخذاً بالديمقراطية في حياتهم الاجتماعية ونظمهم الحكومية، وهم اليونان: فديمقراطية أثينا لم تكن في الواقع إلا أرستقراطية إذ تذكرنا أنه كانت بها دائماً طبقتان ممتازتان غير متساويتين في الحقوق والواجبات: طبقة الأحرار وطبقة العبيد. ولما بحث فلاسفة اليونان الكبار في النظم الحكومية لم يؤثر واحد منهم الديمقراطية المطلقة، ومالوا إلى الأرستقراطية لأنها هي النظام الطبيعي؛ وحين عالج أفلاطون التربية وضع لها نظاماً أرستقراطيا قائماً على مبدأ انتخاب الأصلح، لا ديمقراطياً على مبدأ المساواة التامة: فجعل التعليم على ثلاثة مراحل يتمتع الجميع بالأولى منها ولا يرتقى إلى الثانية فالثالثة إلا من أظهروا استعداداً طبيعياً لذلك، ومن المرحلة الأولى يتخرج أرباب المهن اليدوية، ومن الثانية يتخرج المقاتلون، ومن الأخيرة الفلاسفة والحكام

فالطبيعة لم تجعل أبناءها متساوين في المواهب، بل هي ترفع بعضهم فوق بعض درجات، ومادام هذا كذلك فسيظل في كل مجتمع في كل عصر طبقات متفاوتة، ولن ترقى أمة إلى أن تعترف ضمناً بالتفاوت بين هذه الطبقات، والغفلة عن هذا التفاوت خطأ قاتل

وأشهر الشعوب بالديمقراطية في العصر الحديث الإنجليز، ولكن من يتأمل في حياتهم يرى أن ديمقراطيتهم أرستقراطية كديمقراطية أثينا: فالفوارق بين طبقات النبلاء والأوساط والسوقة قائمة محددة يشعر بها أفراد كل طبقة، والنبلاء يترفعون على من عداهم ترفعاً شديداً، والآخرون ينظرون إليهم نظرة رهبة وإكبار، حتى لتكاد تكون طبقة النبلاء هذه أمة داخل أمة؛ وهذا الشعور باختلاف الطبقات والتسليم به والاعتراف بالأمر الواقع دليل على نزعة الإنجليز العملية، وهو هو سر صلابة بنيان نظامهم الاجتماعي والحكومي، وخلوّ تاريخهم من زعازع التقلبات

وهو أيضاً أكبر أسرار نجاح نظم التربية عندهم: فالنظام الأرستقراطي يتمثل في المدرسة الإنجليزية كما يتمثل في المجتمع الإنجليزي: فالتعليم عام مباح للجميع، ولكن هناك مدارس للخاصة قاصرة على أبناء من يأبون لأبنائهم مخالطة أبناء السوقة، ومعظم أبناء الطبقة السفلى ينقطعون عن المدرسة بمجرد إنهاء المرحلة الإجبارية

وينزلون إلى ميدان الحياة العملية، ونظم المدارس من الشدة والدقة وجوهاً من النقاء بحيث لا يسمح بالاستمرار في مراحل التعليم إلا لمن حسنت أخلاقهم ونضجت مداركهم، والحكومة ومجالس الأقاليم والجماعات الخيرية لا تنفق أموالها إلا على النابغين المتفوقين، وهكذا يبدأ التعليم في أول مراحله ديمقراطياً عاماً ثم تتناوله يد الانتخاب بالتهذيب والتنقية فلا يبلغ القمة إلا الأكفاء خلقاً وموهبةً، ولا يصل إلى مراتب الإدارة والحكم وقيادة مصالح البلاد وتوجيه مصايرها إلا صفوة أبنائها، ويظل الأوشاب في أسفل

أما في مصر فأننا لطول لهفتنا إلى الديمقراطية والعلم - بعد أن عصف بنا الاستبداد والجهل أجيالاً - اندفعنا إلى مبدأ التعليم العام اندفاعاً، وأخذنا بمبدأ الديمقراطية وحده، وهو مبدأ كما تقدم غير طبيعي ما لم يماشه جنباً لجنب مبدأ الانتخاب، وما لم يراع معه قيام الفوارق بين الطبقات، فأدى هذا الاندفاع إلى هبوط مستوى التعليم هبوطاً ذريعاً: فكثر عدد المتعلمين ولكن قلت قيمة الواحد منهم بما يحمله من علم وخلق، والجانب الخلقي هو الذي يعنينا هنا أكثر من غيره، وقصارى ما يقال في أخلاق أبناء مدارسنا وخريجيها أن النفس تمتلئ أسى ويأساً من مستقبل قضية الوطن العزيزة حين تذكر أن هؤلاء هم ذخر البلاد لغدها، وما جنى على أخلاق متعلمينا هذه الجناية إلا حشد التلاميذ في المدارس من جميع الطبقات بلا تمييز

في كل أمة في العالم طبقة سفلى، فلا ضير علينا في الاعتراف بوجود هذه الطبقة بيننا، بل يجب علينا ونحن نلتمس موضع الداء ونحاول إصلاح عيوب التربية أن نذكر أن الطبقة الدنيا في بلادنا كبراً يفوق ما بالبلاد الراقية، وأن أخلاق يلك الطبقة في منتهى الضعة، لأنها ما تزال تحمل بين أطوائها آثار عصور الاستبداد والجهل التي أوهنت الأخلاق وبثت الكذب والنفاق والغش والخيانة والخشونة والوقاحة، وما يزال أبناء الطبقة

الوضيعة عندنا متسمين بهذه الصفات، وهم لا يرون بها بأساً ولا يعدونها إلا إمارات مهارة وحنكة ووسائل اختيال للعيش وانتهاز للفرص

ومن سوء حظ التعليم في مصر أن أبناء تلك الطبقة أقبلوا على التعليم في السنين الأخيرة إقبالاً شديداً، لا لقدرهم العلم قدره ومعرفتهم بفضل الخلق الكريم العالي، بل طمعاً من الآباء في أن يروا أبناءهم يرفلون في أزياء الأفندية والبكوات، ويترشحون لعالي المناصب والمرتبات، فوجد أبناء السائقين والإسكافيين والخدم والبوابين ومن إليهم أبواب المدارس مفتحة لهم على مصايعها فجلسوا على أرائكها بجانب أبناء الأسر الطيبة الذين نشئوا في بيوتهم على حسن الذوق ولطف الخطاب وطهارة الطوية، فبثوا في جو المدرسة خشوتة طبائعهم وجلافة خطابهم، وسفالة أفكارهم، وضعة نفوسهم ولم تكن إلى سنون حتى تسمم جو كل مدارسنا، وصارت تطبع كل من أمها من التلاميذ - سوقهم وراقيهم - على غرار واحد لا يتصف بصفة حميدة واحدة والذي أراه أن مدارسنا لن تقال من كبوتها، وأخلاق ناشئتنا لن ترفع من حطتها، حتى يصد هذا الذي يحق أن نسميه (غارة السوقة على المدارس) ويفصل بين أبناء السوقة وأبناء الأسرات الطيبة في معاهد العلم، ومادام هذا الزج الذي لا تمييز فيه فستظل أخلاق سوقتنا تطغى على أخلاق عليتنا ونحن نمكن لهذا الطغيان بأيدينا في مدارسنا في الأمة سوقة وفيها أسرات طيبة، ونحن الذين نريد الرقي ببلادنا نبني الخير للجميع بلا نزاع، ولكن هذا المزج بين الفريقين بدعوى الديمقراطية لا يؤدي إلى غرضنا المنشود، هو يهبط بأخلاق العلية ولا يرفع السفلى، كالذي يمزج قليلاً من الماء النقي بكثير من الماء العكر لن يحصل إلا على ماء عكر، والأجدر بنا ألا نتعجل الأمر فنحاول ترقية الأمة جميعاً وتعليمها وتهذيبها دفعةً واحدة

إن الأجدر بنا أن نصرف عنايتنا أول الأمر إلى أبناء الطبقة المهذبة فنمدهم بالتعليم الذي ينشرونه وهم بمنأى عن مخالطة السوقة والتطبع بطباعهم، فهؤلاء صفوة أبناء الأمة، ومتى خلص لنا تعليمهم وتهذيبهم فقد أهدينا إلى البلاد طبقة من أبنائها الأكفاء ذوي الخلق العظيم القادرين على تدبير أمورها وقيادة نواحي النشاط العام في حياتها، ولنا أن نلتفت بعد ذلك - أو مع ذلك - إلى أبناء السوقة فنفسح لهم في مجال التعليم والتربية بما يؤدي

إلى ترقية أخلاقهم ورفع مستواهم، ولكن على أن يظلوا بنجوة لا يبثون السموم في بيئة أرفع من بيئتهم، وان رفع مستواهم لأمر يحتاج إلى أجيال، كما أنهم إنما هبطوا إلى دركهم ذاك في أجيال، فجدير بنا أن ننبذ التسرع جانباً

ومن ثم نرى ضرورة إنشاء مدارس منفصلة لأبناء الطبقة المهذبة والأسرات الطيبة كما أشرت إليه في كلمة سابقة، يقبل بها التلاميذ على أساس الانتخاب الخلقي والعقلي لا على أساس الديمقراطية العمياء، فمما لا نزاع فيه أن بالبلاد أسرات طيبة ينشأ أبناؤها في بيوتهم نشأة طيبة، فلننتخب أبناء هذه الطبقات - بخير الطرق المستطاعة - ولنفرد لهم مدارس تمدهم بالثقافة ولا تفسد أخلاقهم بمخالطة الدون ولا شك أن اليسر المالي من دواعي رقي الأسرة ورقي المجتمع كله. فالأسرة التي تشعر باليسر وترى امتيازها المالي على غيرها تسعى ليكون لها امتياز خلقي أيضاً، فتنزع إلى الحياة المنظمة النظيفة وتتسامى عن الشرور وعن السفساف، وتسود فيها رقة الحاشية وسلامة الذوق، والأخلاق الطيبة تبدأ تطبعاً وتستحيل طبعاً وتبتدئ بالمظهر ثم تأخذ بالجوهر. أما الأسرة السوقية المدقعة فيورثها كفاحها في طلب القوت وضيع الرذائل وقذر العادات، ومن ثم يمكن أن يتخذ اليسر المالي مقياساً لرقي أسرة الطالب وسموها عن أدران السوقية كما تتخذ مهنة والده مقياساً لذلك أيضاً، ويجب بعد أن يقبل الطالب في المدرسة أن تستمر الرقابة المدرسية الصارمة، فمن ثبت عدم استحقاقه للبقاء في بيئتها الراقية فصل على الفور ليظل جو المدرسة دائماً نقياً يسمو بأخلاق أبنائها

كذلك يجب أن تسمو المدارس بالعقول: بأن يرفع مستوى الامتحانات التي يتوقف عليها تقدم الطالب في مراحل العلم - أياً كان نوعها وكيفما أدخلت على أنظمتها الإصلاحات - حتى لا يسمح باجتياز مراحل التعليم المختلفة إلا لمن هيأتهم الطبيعة بالمواهب الصحيحة، فيسمح للجميع بطرق مرحلة التعليم الأولي، ولكن لا ينال الإجازات العلمية إلا من هم جديرون بها

هكذا يطبق مبدأ الانتخاب في التربية بناحيتيها الخلقية والعقلية؛ وبأتباع هذا المبدأ ترقى أخلاق المتعلمين ويرتفع مستوى الحاصلين منهم على الإجازات العلمية ويقل عددهم فلا يزيد على حاجة البلاد ولا يكونون طبقة عاطلة، ومن تخلفت به مواهبه منهم عن أدراك

غايات العلم الصحيح يعرج على ما يناسبه من مهن وأعمال

فمبدأ الانتخاب، مبدأ الاعتراف بالتفاوت بين الأفراد والطبقات، مبدأ اختيار الأصلح، الذي هو المبدأ الطبيعي، هو المبدأ الذي به تصلح نظم التربية عندنا وتبرأ من عللها الكثيرة؛ أما مبدأ الديمقراطية المطلقة، مبدأ فرض المساواة التامة بين الجميع في كل شيء، مبدأ إفساح المجال لكل من هب ودب، فهو مبعث آفات التعليم، وهو الذي أدى إلى حشد التلاميذ في المدارس، ذلك الحشد الذي عزا إليه تقرير معالي وزير المعارف معظم مساوئ التعليم في مدارسنا

فخري أبو السعود المدرس بالعباسية الثانوية

!. . .إبليس يتوب

للأستاذ محمد سعيد العريان

ليس أسمج من الرذيلة تكون وجدها في الأرض، إلا الفضيلة)

(!. . .تكون وحدها

الرافعي

اطلع إبليس ذات مساء على الأرض؛ يستروح من نسمات الليل والدنيا نائمة - روح الفردوس الذي طردته الكبرياء من رحمته. وانبث زبانيته ينفثون الشر عن أمره في أوكار الظلام؛ ففي كل منعطف شيطان صغير يتربص، وبين كل اثنين ثالث لا يريانه. . .

وسمع إبليس في هدأة الليل عابداً يتهجد، ما يبدأ ولا ينتهي من سجدة إلا لعن الشيطان. . .!

وأحس إبليس لعنات الشيخ العابد تنصب عليه كما ينهال التراب على نار تتلهب، أو ينصب الماء على جمرة تؤجج

وصرت أسنان الشيطان من الغيظ، وانقدح من حجاجيه شرار كاللهب، أن عجز

وعجزت زبانيته معه عن فتنة مثل هذا الشيخ الزاهد وإرادته على أن يتعلق بحظه من الدنيا وشهوات النفس، على حين لم يعجز الشيطان أن يطرد أباه من الجنة!

أفكان يعصم الشيطان من اللعنات أن يسلط على الناس جميعاً شهواتهم ويغري بهم أنفسهم؟ فكيف وإن عباده من أهل الغواية والمعصية ليذكرونه باللعنة على مقدار ما ييسر لهم شهواتهم ويضاعف لهم من مسراتها؛ وإنهم ليسرعون إلى لعنته إسراعهم إلى طاعته. . .؟

وهبّت نسمة السحر تعطر الدنيا بأنفاس الجنة، فاستروح منها إبليس روح الماضي يذكره أيامه كلها منذ بدء الخليقة ويلقي التاريخ بين يديه. وتغشه الذكرى وعاد الزمان القهقري أمام عينيه؛ فإذا هو ملك بين الملائكة يسبحون بحمد ربهم حافين من حول العرش؛ ثم إذا هو يفسق عن أمر ربه أبياً مستكبراً أن يسجد لبشر من طين؛ وإذا هو من بعد مطرود من رحمة الله، مذموم مدحور يلعنه الفضاء ويسبُّه الأبد؛ ثم ينفث نفثته في صدر حواء فينزلها وزوجها عن الجنة فيخرجهما مما كانا فيه، ويتعقب أبناءهما من بعدهما على الأرض

. . .يصنع منهم حطب جهنم، فما بشر من الناس إلا شيطانه يسعى بين يديه ثم هو في موقفه ذاك تتناثر من حوله لعنات الناس سواء منهم طائعه وعاصيه. وتصك أذنيه من مكان سحيق زفرات عباده في نار جهنم تكوى جباههم وجنوبهم بما أغواهم الشيطان وأضلهم سواء السبيل!

. . .ولأول مرة استشعر إبليس لذع الندم فدمعت عيناه!

. . . إبليس يتوب. . .! لقد كفاه ما اقترف منذ هبط من السماء يا لها من سخرية. انتقاماً لكبريائه التي زعمها ديست يوم أمر أن يسجد لصلصال من حمأ مسنون!

أكانت توبة نصوحاً، أم مبالغة في الانتقام، أم هو يشتهي أن يعيش بشراً بين البشر عمراً من عمره، ليذوق بعض لذّات البشرية، ويرى بعيني حسه كيف يفتتن بها الناس جميعاً منذ كانوا فتسرع بهم شهواتهم إلى طاعة الشيطان. . .؟

وطلع إبليس على الأرض فتى وسيماً يمشي على قدمين مشي الناس. وشعر لأول ما لبسته البشرية أنه جائع، فعاجَ على ندى ساهر له به عهد، لأنه هو الذي أنشأه وأقامه حجراً على حجر، وطالما قضى الليالي ذوات العدد من حيث لا يراه الناس؛ ينفث . . .الشر، ويبذر بذور الخطيئة، ويفتن في وسائل الإغواء

كانت مصابيح الندى ترمي أضوائها إلى بعيد، وتمد من أشعتها شركاً بصيد الناس ويأخذ عليهم طريقهم؛ وكان كل ما ينبعث منه يشعر أن هناك حركة وعملاً يغريان من يلتمس . . .إرضاء شهواته

ولكن. . . ولكن ها هو ذا إبليس يصعد الدرج في أناة ورفق، ويدفع الباب في هدوء وخفة، ويخطو إلى البهو في سكون وحذر، فيرى، ولكنه يرى أجساداً لا تكاد تتحرك، ويسمع، ولكنه لا يسمع إلا مثل أنفاس النائمين؛ ويشهد، ولكنه لا يشهد إلا عيوناً محدقة في الفضاء تتأمل. لم يكونوا سكارى ولا مغيبين، ولكن فكرة واحدة كانت تسيطر عليهم جميعاً، فكرة بين السخط والرضى، وبين الندم والاستغفار!

وجلس الشيطان إلى مائدة وحده وطلب طعاماً، وراح يدير عينيه فيما حوله ومن حوله، ويتسمع نجوى الضمائر الخفية تهمس في أعماق أصحابها

ورأى مائدة خضراء مبسوطة، قد تناثر عليها هنا وهاهنا نقد وورق، ورأى كؤوساً فارغة وممتلئة، ورجالاً ونساء قد تحلقوا حول المائدة، ذراعاً إلى ذراع، وامرأة بين كل . . .رجلين. . . ولكن يداً واحدة لا تمتد إلى شيء، وفماً واحداً لا ينبس بكلمة

وأبصر رجلاً يهتز في موضعه هزة خفية وهو يتحدث إلى نفسه: كيف يصنع وقد فقد كل ما كان معه من نقد، إنه ليرى ماله أمامه على المائدة ولكنه ليس من حقه، لأن حظه في اللعب قضى به لغيره، وهو قضاء غير مشروع ولكنه حكم العرف فما عليه إلا الطاعة؛ وقالت له نفسه: ما أنت والقمار؟ شد ما نهيتك فلم تنته! الآن فذُق ألم . . .الحرمان مما تملك، فلعلك من بعد ألا تستمع إلى إغواء الشيطان

واختلج إبليس حين ذكر أسمه اختلاجه كادت تنم عليه؛ وهمّ أن ينهض، لولا أن أقبل النادل عليه بالطعام

وشُغل إبليس لحظة بالأكل، يزدرد اللقمة بعد اللقمة يكاد لا يحرّك بها فكيه؛ وعرف . . .لأوّل ما ذاق الطعام - لماذا كانت شهوة البطن أول هم الإنسان!

وعاد ينظر إلى وجوه الناس وضمائرهم، فما راعه إلا هذا المقامر الرابح محدقاً في الفضاء يتفكر، وإن وجهه لتتعاقب عليه شتى ألوان الندم والخزي والحياء. . . ثم لم يلبث أن نهض يجمع المال على المائدة فيفرقه في سماره وهو يقول: معذرة يا صحابتي، فإنما هو مالكم ليس لي حق منه في شيء، وما لعبت لأسلبكم ما تملكون، إنما أردت السلوة وإزجاء الفراغ. وعضّ على شفته واحمر وجهه، إذ كان يعلم أنه يكذب في اعتذاره؛ فما كان ليقامر إلا مؤملاً أن يربح، وما كان ليربح مرة إلا وهو يعلم أنه يأخذ ما لا يملك؛ وقد ربح الليلة، ولكنه حين ضمّ يديه على المال أحسّ كأنه يقبض على جمر؛ ورفت به سانحة من الخير، فتعفف أن يأكل مال الناس فخرج عنه لأهله. . .!

ونظر الرجل إلى يمين، فإذا صاحبته مطرقة قد تغرغرت عيناها، فمال عليها وهو يهمس:

(أيكون قد أغضبك ما فعلت يا سيدتي؟)

قالت المرأة: (عفواً ليس لي شأن بذاك، ولكن أمراً يقتضيني أن أعود مسرعة إلى الدار. . .!)

وهبت واقفة، فقال الرجل: (خير. . . .! أتأذنين لي أن أصحبك؟)

قالت: (شكراً. . .!)

وسارت في طريقها فما ألح الرجل ولا تعوقت المرأة، ومالت إلى غرفة في الندى تأخذ زينتها في المرآة فأدركتها صديقة، ونظرت كل منهما في وجه صاحبتها فأطالت النظر ثم أطرقتا. .

منذ بعيد تقارف هاتان المرأتان الإثم في غير حذر ولا تذمم؛ أما إحداهما فضحية شاب غوى أغراها حتى نال منها ثم اختفى من وجهها وخلّف بين أحشائها بضعة منه، ففرّت بجريمتها من قانون الجماعة إلى حيث تشفي قلبها بالانتقام من الرجال

وأما الأخرى فزوج كالأيم، أو هي أيم وإن تك ذات بعل؛ فما شعرت يوماً أن لها حقاً على رجلها، وإنه لذائب التجوال بين البلاد، ولا تستقر به الدار في حضن زوجته أياماً حتى تعرض له الأماني تغريه أن يضرب في الأرض يطلب المجد بالثمن الغالي. . . بشرف زوجته. . .!

لم تحس المرأتان قبل الليلة معنى من معاني الندم؛ فمالها الليلة مطرقتين لا تنبسان؟

أرأيت إلى المجرم إذ يفجَأ وهو يقارف جريمة منكرة، فليس يملك أن ينكر ولا أن يعتذر؟

وعاد نظر المرأتين فالتقيا فإذا هما تتعانقان وقد أجهشتا باكيتين، وأطفأت دموع الاستغفار وقد النار ولذع الندم، فكأنما حلت في جسد كل منهما روح جديدة قد خرجت من الجنة لساعتها لم تتعلق إنما ولم تجترح معصية

وتلفت إبليس فإذا الندى مقفر خالٍ ليس فيه إلا الندل يسعون بين الموائد الخالية، يرفعون الأوراق والأقداح ويصففون الكراسي والمناضد

وتنفّس الصبح فأبدل إبليس ثياباً بثياب، وانطلق تبانه وبرنسه إلى سيف البحر، يستمتع به ما يستمتع البشر، ويملأ عينيه وقلبه من مفاتن دنيا الناس. لقد كان له في البحر معهد يرتاده زبانيته يعلمون الناس السحر وينصبون شرك الفتنة؛ وهو ذا البحر، فأين فتنته وسحره، وأين مباهجه التي كانت؛ أين الأجسام البضة، والأذرع الغضة، والسيقان اللفاء، والصدور النواهد؛ وأين العيون التي ترمي فتصمي، وأين لآلي البحر تغوص وتطفو، وأين الزبد الأبيض يلاطم الزبد الأبيض

لقد خلا البحر من عرائسه، إلا عجوزاً مقرورة مستلقية على الشاطئ، ما يبدو منها إلا عينان كصدفتين ملقاتين في كومة رمل!

وهذه فتاة تمشي على استحياء مستندة إلى ذراع أخيها، فما تعرت من برنسها إلا ليسترها الماء. وهذا رأس رجل يبدو سابحاً من بعيد، ما يكاد يرى الفتاة حتى يتنكّب عن الطريق لئلا تتأذى منه الحسناء السبوح

وأحس إبليس أول آلام البشرية في الوحدة والفراغ والضجر، فمضى على وجهه ممتلئ النفس فارغ الفؤاد. لقد ودّع عالمه الموحش تحت الرغام ليظفر بالأنس في عالم البشرية، فما ظفر إلا بالوحشة وألم الشعور بالحرمان؛ وخلع عنه شيطانيته تائباً

ليهب للناس الاستقرار والسلام، فما لقي هو في بشريته إلا الاضطراب والألم واطمأنت الحياة بالناس، فاجتمعوا على الرضى والطاعة في حالٍ شر منها السخط والعصيان؛ إذ لم يكن ثمَّت عدوان يدعو إلى المقاومة، أو تربُّص ينبه إلى الحذر، أو كيد يستتبع الحرص واليقظة؛ وعاد كل فرد أمة وحده، يعيش في رضى وقناعة على أكمل ما يكون الإنسان صلاحاً وحباً في الخير، ولكن الجماعة لم تجد ما يشد وحدتها ويربطها آصرة إلى آصرة. ودب النعاس إلى أجفان الحياة: فمات الطموح لأنه باب من التكبر؛ وخمد النشاط، لأنه جهاد في غير عدو؛ واستنام الناس إلى القدر، لأن التمني ضرب من الأثرة؛ وعاش نصف الناس عيالاً على نصف الناس؛ فليس ثمت عمل للشرطة والجيش ورجال الحكم؛ وأنى لهم أن يعملوا ما دام لا سرقة ولا قتال ولا عدوان؟ وكسدت سوق القفال والزراد والصيقل والرماح؛ وما حاجة الناس إلى الأقفال والدروع والسيوف والرماح؟

وقال فتى لصاحبه: تعال نلتمس نزهة في غير ساحة (المولد)؛ فما لنا ولهذه المهرجانات التي لا تجتمع إلا على شر ولا تحشد الناس إلا لمعصية؛ حسبي أن أعمر قلبي بذكر الله وأتخذ أولياءه قدوتي وإمامي. . .

وأمن صاحبه على قوله؛ ولكن البدال، والبقال، والبزاز، وبائع الحمص، وصانع الحلوى، ومدير الملهى - لم يعرفوا لماذا هجر الناس المولد؛ فمضى الموسم ما باعوا ولا اشتروا ولا تعوضوا، وقوض كل منهم خيمته ومضى غير مأجور على جهاده!

وقال بعضهم لبعض: (أترون الناس قد نسوا أولياءهم فتمردوا على ما اعتادوا؟)

فأجاب شيخ كبير: (ذلك من عمل الشيطان. . .!)

وأراق الخمار أحمره وأصفره وهو يقول: (ليت خمري كانت خلاً. . . .!)

وجلس قاضيان يداولان بينهما الرأي:

أيهما خير: أن تعيش الفضيلة وحدها على الأرض، أو أن تنبت بين أشواك الرذيلة (والمنكر والشر، فيكون للإنسانية منها أفراح ثلاثة: فرح النفس المؤمنة بها، وفرحها بالصبر على المجاهدة لها، وفرحها بالظفر بعد مشقة الجهاد. . .؟)

ونظر الشيخ الزاهد في صحيفة أعماله، فإذا هي بيضاء أو كالبيضاء؛ فليس يضاعف الأجر إلا المقاومة. ولو أن عابداً قضى الدهر كله راكعاً ساجداً، ما عدل أجر عبادته كلها ثواب ساعة لشاب تتجاذبه شهوات الدنيا، كلما هفت نفسه إلى معصية رده عنها الأيمان والتقى، فهو أبداً في مجاهدة لا يهدأ، وهو أبداً مأجور أجراً لا ينتهي!

وإنما يقظة الحياة في الجهاد والمقاومة وتوقع ما يأتي به الند على شتى ألوانه؛ فإذا عدم الجهاد، وفقدت دواعي المقاومة، وعاش الإنسان لساعته التي هو فيها - أعمى أو كالأعمى لا يبصر ما أمام - فقدت الحياة معناها الأسمى، وعاش الناس في هدى أشبه بالضلال، وفي فضيلة شر من الإثم والفسوق والعصيان!

ليتك تدري أيها الزاري على القدر. . .! هل تستوقد النار إلا بالحطب؟ فمن أين لك ما دمت تشفق على الغصن اليابس والهشيم الجاف!

وهل يعلم الفسّاق والعصاة من بني آدم، أنهم قبل أن يكونوا في أخراهم حطب جهنم ـ كانوا في دنياهم سلم البشرية إلى مثلها الأعلى. . .؟

وتثاءب الشيطان وتمطى إذ أدركه النعاس الذي ضرب على عيون البشر؛ وإذا هو وقد خضع لناموس البشرية قد ناله ما ينال الناس من الضيق والملل وتقلب الرأي؛ إذا تقلقلت دنياه طلب الاستقرار، فإذا استقر عاد ينشد الحركة ويتبرم بالسكون. . .!

وقلب وجهه في السماء كاسفاً محزوناً، ثم أسند رأسه إلى راحته وجلس يتفكر. . .

أي خير كان يقدم هو للجماعة البشرية على حين كان لا ينبغي إلا الكيد والانتقام؟ هذه الدنيا تنام بعد يقظة، وتسكن بعد حركة، وتسترخي بعد نشاط، لأنه هو قد بطل سحره، وإذ لم يعد في الدنيا شر، مات في الجماعة روح الانبعاث إلى الخير. .!

أيها الخالق العظيم، ما أعجب تدبيرك وأدق حكمتك! خلقت الشر والخير يصطرعان في هذا العالم لتوجد منهما الخير الأعظم، وأنا - أنا الشيطان المشئوم - حسبتني يوماً أكبر مما أنا، حين ذهبت أهدم ما تبني، وأعصي ما تأمر، وأدعو إلى ما تنهي، فلما آذنت أن تذل كبريائي، أريتني نفسي إلى جانب عظمتك، فإذا أنا، أنا الذي زين له الغرور يوماً أنه أكبر من أمرك، إذا أنا أعصى عصياني في طاعتك، وأفسد إفسادي لإصلاح عبادك

على قدر منك وتدبير حكيم. . . .!
وشعر الشيطان بالخيبة تلاحقه في كل مكان، فلا هو هناك - في عالمه الشيطاني - كان موفقاً فيما يحاول الانتقام من بني آدم، ولا هو هنا. . .
وعاودته نزعة شيطانية لم يلبث أن قمعها في صدره وانطلق في سبيله وانتهى إلى البستان المعشوشب المخضل وقد نال منه الإعياء فارتمى على العشب الرطب يستريح في ظل وارفة لفاء، وطلع له من بين ملتف الحدائق حسناء وضاءة، تمشي كما يهتز الغصن وترنو كما يبتسم الزهر
وأحس إبليس مرة أخرى أن قانون البشرية يعمل في دمه وأعصابه، وأطال النظر إلى الحسناء الفاتنة ثم أطبق عينيه وهو يتنهد، كأنما قد توهم أنه قد احتوتها أجفانه، وشعر بمس الحب في قلبه فأشرق وجهه بابتسامة فيها لمحة من السرور وغير قليل من الألم
وجلست الحسناء جلستها على العشب غير بعيد، وضمت إليها أطراف ثوبها يستر شيئاً ويكشف عن شيء، مستأمنة مطمئنة
وخطا إبليس خطوتين إلى حيث جلست يسألها شيئاً، فاستحيت حواء الصغيرة وأرخت فضل ثوبها على الوجه الفاتن، ووقف إبليس ينشد قصيدة غزل طويلة، وعتها حواء كلمة كلمة ومعنى معنى، ولكنها لم تنبس، ومد إليها يداً يستنهضها فما نهضت وازورت عنه معرضة، وسكت ولكن عينيه ظلتا تتحدثان حديثهما
وأربد وجه المرأة من غضب، فما رأى إبليس غضبتها إلا فناً جديداً من فنون جمالها، فقالت وقد ضاقت به: (إليك عني يا فتى وخل سبيلي. . . .!)
وضاق صدر الشيطان بهذه الإنسانة العنيدة، وثقل عليه أن يعجز عن نيلها وهو هو! كم فتاة وامرأة قبل صاحبته تلك كانت من عباده وأتباعه ما تأبت واحدة منهم على ما أراد لها؛ على أنه اليوم يريدها لنفسه هو، فليس به اليوم حاجة لأن يسعى لغيره وقد خلع شيطا
نيته!
ماذا. . .! أيعيش هذه الآلاف من سنيه الماضية يتحكم في البشرية كلها، وعلى إرادته، ويسعى بين الناس، ويصل بين الأحباب، ويقدم الثمرة لكل من يشتهيها؛ حتى إذا اشتهى هو أن يذوق تلك الثمرة أعجزه أن ينالها. . .؟
وللمرة الثانية منذ خلق شعر أن كبرياءه جريح. . .!
لقد أبى أن يسجد لأبي البشرية كلها وفسق عن أمر ربه، أفتفسق عن إرادته امرأة؟ وما هو إن لم ينلها؟ وما هي حتى تتأبى عليه كل هذا الإباء؟
وعاود احتياله يستجدي الحسناء بعض الرضى، فولّت عنه معرضة مستكبرة، ومضت تدوس بقدميها الصغيرتين قلب إبليس. . .!
وعاد إلى نفسه يستلهمها الحيلة فما أمدته بشيء، وبدا إبليس في بشريته إنساناً ضعيفاً قليل الحول، لا قدرة له على التصرف ولا طاقة له بالاحتمال. . .
ووجدت له شغلاً من فراغ. . . وعدا خلف المرأة يحاول أن يدركها ما يبالي نظرات الناس؛ فإذا زوجها يلقاها على الطريق فيصحبها إلى الدار يداً في يد وجنباً إلى جنب!
وأحس إبليس فوق ألم الحب الذي يجد ألماً جديداً من آلام البشرية، وقذف منظر الزوجين المتحابين في قلبه الحسد. . .!
وآده العجز والشعور بالحرمان، فعاودته شيطانيته ثائرة محنقة على أنه وقد ذاق بعض لذات البشرية في آلامها لم يكن يريد أن يرتد إلى عالمه، إنما كان حسبه أن يستمد الحيلة من طبيعته الأولى بمن يحب وهو باق في بشريته!
ولكنه - وا أسفاه! - لم يستطع أن يكون شيطاناً ورجلاً في وقت معاً؛ وحين ألهمته طبيعته الأزلية بالرأي فقذف بالفكرة المحرمة في قلب المرأة - كان خلقاً آخر ليس من البشرية ولاحظ له من المرأة. ونظرت الحسناء إلى وراء تفتقد عاشقها المد نف فما رأته، وما كان لها أن تراه وقد عاد شيطاناً لا يخضع لنواميس هذا العالم؛ ورآها هو تنظر متلهفة مشتاقة، فما نالته نظرتها ولا مسّت قلبه؛ لأن إحساس البشرية ونوازعها كانت قد فارقته حين لبس جناحي شيطان. . .!
وكتب في تاريخ الأرض، أن إبليس قد تاب مرة، ولكن ردته إلى شيطا نيته امرأة. . . .!

(طنطا)
محمد سعيد العريان
شاعرنا العالمي - 6
أبو العتاهية
للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

وروى مخارق أن أبا العتاهية جاءه فقال: قد عزمت على أن أتزود منك يوماً تهبه لي فمتى تنشط؟ فقلت متى شئت! فقال: يكون ذلك في غد؛ فجئته فأدخلني بيتاً له نظيفاً، ودعا بطعام وفاكهة فأكلنا، ودعا بألوان من الأنبذة فقال اختر ما يصلح لك منها، فاخترت وشربت، ثم صب قدحاً وقال: غنني في قولي:

أحمدٌ قال لي ولم يَدرِ ما بي ... أتحب الغداة عُتبَةَ حقاً

فغنيته، فشرب قدحاً وهو يبكي أحر بكاء، ثم قال: غنني في قولي:

ليس لمن ليست له حيلةٌ ... موجودةٌ خيرٌ من الصّبر

فغنيته وهو يبكي وينشج، ثم شرب قدحاً آخر، ثم قال: غنني فديتك في قولي:

خليلي ما لي لا تزال مضرتي ... تكون مع الأقدار حتماً من الحتم

فغنيته إياه؛ وما زال يقترح علي كل صوت غنى به في شعره، فأغنيه ويشرب ويبكي، حتى صارت العتمة، فقال أحب أن تصبر حتى ترى ما أصنع، فجلست، فأمر ابنه وغلامه فكسرا كل ما بين يدينا من النبيذ وآلته والملاهي، ثم نزع ثيابه واغتسل، ثم لبس ثياباً بيضاء من صوف، ثم عانقني وبكى، ثم قال: السلام عليك يا حبيبي وفرحي من الناس كلهم، سلام الفراق الذي لا لقاء بعده؛ وجعل يبكي، فانصرفت وما لقيته زماناً

وروى أبو سلمة الغنوي أنه قال لأبي العتاهية: ما الذي صرفك عن قول الغزل إلى قول الزهد؟ فقال: إذن والله أخبرك، إني لما قلت:

الله بيني وبين مولاتي ... أهدتْ لي الصد والْملاَلاَتِ

منحتها مهجتي وخالصتي ... فكان هجرانها مكافأتي

هَيَّمني حبها وصَيّرني ... أحدوثة في جميع جاراتي

رأيت في المنام في تلك الليلة كأن آتياً أتاني فقال: ما أصبت أحداً تدخله بينك وبين عتبة يحكم لك عليها بالمعصية إلا الله تعالى، فانتبهت مذعوراً، وتبت إلى الله تعالى من ساعتي من قول الغزل

فإذا كانت هذه الروايات كلها في حادثة واحدة فهي متضاربة متدافعة ينقض بعضها بعضاً؛ وإذا كان الرشيد هو الذي كان يأخذ على أبي نؤاس اندفاعه في اللهو ويحاسبه على ذلك في شعره، ويحبسه عليه مرة بعد مرة ويزج به في سجنه، فكيف يتفق هذا مع ذلك المسلك الذي كان يسلكه مع أبي العتاهية، وهو لم يكن أرق غزلاً من أبي نؤاس ولا غيره من جمهور الشعراء الذين كانوا يلتفون بالرشيد، وكان لهم من رقيق الغزل ما يغنيه عن غزل أبي العتاهية؟ وليس هذا وذاك كل ما يعنينا من هذه الروايات، بل يعنينا منها أيضاً أنها لا تصل بنا إلى غور نفس أبي العتاهية وصلتها بتلك النزعة الصوفية التي صارت أليها، وقد كان في ظاهر أمره أبعد الناس منها، فلا تبين لنا تلك الروايات إلا أنها حالة طرأت عليه في بغداد، ولا تتصل إلى سابق أمره بصلة، وتردها الرواية الأخيرة إلى تلك الرؤيا المنامية السابقة، وهي إذا صحت لا تكفي وحدها في الأخذ به إلى كل ما أخذ به من ذلك الغلو في أمره؛ فإذا أمكننا أن نصل إلى هذه النواحي الغامضة من أمر أبي العتاهية أمكننا أن نفهم من أمره ما لم يفهمه الناس منه إلى الآن. وسنجلو من أمر ذلك ما نحتاج إليه هنا، ونترك ما بقي من ذلك إلى موضعه من هذه الدراسة لأبي العتاهية، ليكون لنا منها دراسة منظمة لا يسبق شيء منها على موضعه ولا يتأخر عنه

وإنه ليهمنا في الأول أن ننفي ما يفيده ظاهر تلك الروايات من أن تلك النزعة الصوفية في أبي العتاهية كانت نزعة طارئة عليه في بغداد، والحقيقة أنها كانت نزعة قديمة عنده، وأن أمرها يرجع إلى مبدأ أمره بالكوفة، وأنه كان يخفي ذلك في نفسه ليظهر به في الفرصة التي يكون له فيها أثره في الناس جميعاً، لا في نفسه وحده. ودليلنا في هذا هذه الرواية التي تنطق بأن القول في الزهد كان أول ما أخذ به في شعره روى محمد بن عبد الجبار الفزاري أن أبا العتاهية اجتاز في أول أمره وعلى ظهره قفص فيه فخار يدور به في الكوفة ويبيع منه، فمر بفتيان جلوس يتذاكرون الشعر

ويتناشد ونه، فسلم ووضع القفص على ظهره، ثم قال: يا فتيان! أراكم تذاكرون الشعر، فأقول شيئاً منه فتجيزونه، فإن فعلتم فلكم عشرة دراهم، وإن لم تفعلوا فعليكم عشرة دراهم، فهزئوا به وسخروا منه، وقالوا نعم، قال: لا بد أن يشتري بأحد القمرين رطب يؤكل، فانه قمر حاصل، وجعل رهنه تحت يد أحدهم، ففعلوا، فقال أجيزوا:

(ساكني الأجداث أنتم)

وجعل بينه وبينهم وقتاً في ذلك الموضع إذا بلغته الشمس، ولما لم يجيزوا البيت غرموا الخطر، وجعل يهزأ بهم وتممه:

ساكني الأجداث أنتم ... مثلنا بالأمس كنتم
لين شعري ما صنعتم ... أربحتم أم خسرتم

وهي قصيدة طويلة في شعره

فهذه نزعة أبي العتاهية في الزهد والتصوف ظاهرة فيه تمام الظهور من أول أمره، ولا شك أنه رأى بعد هذا أن يتصل بشعراء الكوفة ليظهر بينهم أمره في الشعر، وأنه في سبيل هذه الغاية أخفى هذه النزعة في نفسه، وأخذ يسلك في اللهو والشعر مسلك هؤلاء الشعراء، ثم تركهم إلى بغداد عاصمة المملكة العباسية لينال من ظهور الشأن بالاتصال ببني العباس ما لا يناله لو بقي بالكوفة، فنال من ذلك بغيته وأكثر من بغيته، وأخذت نفسه تنازعه ميلها إلى الزهد، والى الظهور بمظهره الحقيقي الذي يريد أن يعكر فيه صفو هؤلاء الملوك، ويطلع الرعية على إسرافهم في الحياة، وغفلتهم عن الآخرة، وانصرافهم عن مناهج الخلفاء الراشدين، وسبل الملوك الصالحين، ويخدم في ذلك بمهارة فائقة أغراضاً سياسية له، سنبينها بعد في موضعها أيضا

ولا غرابة بعد هذا في أن يهتم الرشيد بأمر أبي العتاهية في هذه الحال الجديدة، ويعرف سوء أثر شعره في الزهد وما إليه في نفوس الرعية بالنسبة إليهم، وقد كان يشاهد افتتان الناس بأبي العتاهية وشغفهم بشعره الذي قرب إليهم ألفاظه ومعانيه، وفتح لهم من أبوابه ما أغلقه الشعراء السابقون، فصار يلهج به العابد في خلوته، والراهب في صومعته، والملاح في سفينته، والفلاح في حقله، والراعي في غدوه ورواحه، والعامل في شغله وفراغه، حتى صار شاعر الشعب بحق، ولسان الرعية الناطق بالصدق. وأنا نسوق من ذلك ما يدل على مقدار تعلق الناس بشعر أبي العتاهية وافتتانهم به:

قال يحيى بن سعيد الأنصاري: مات شيخ لنا ببغداد، فلما دفناه أقبل الناس على أخيه يعزونه، فجاء أبو العتاهية إليه وبه جزع شديد فعزاه ثم أنشده:

لا تأمن الدهر والبَس ... لكل حين لباساً
لَيَدْفِنَنَّا أناس ... كما دفنا أناساً

وانصرف الناس وما حفظوا غير قول أبي العتاهية

وقال محمد بن صالح العلوي أخبرني أبو العتاهية قال: كان الرشيد مما يعجبه غناء الفلاحين في الزلالات إذا ركبها، وكان يتأذى بفساد كلامهم ولحنهم، فقال قولوا لمن معنا من الشعراء يعملوا لهؤلاء شعراً يغنون فيه، فقيل ليس أحد أقدر على هذا من أبي العتاهية، وهو في الحبس، قال فوجه إليّ الرشيد: قل شعراً حتى أسمعه منهم، ولم يأمر بإطلاقي، فغاظني ذلك فقلت: والله لأقولن شعراً يحزنه ولا يسره، فعملت شعراً ودفعته إلى من حفظه من الملاحين، فلما ركب الحراقة سمعه وهو:

خانك الطَّرْفُ الطَّموحُ ... أيها القلبُ الجُموحُ
لدواعي الخير والش ... ر دُنُوٌّ ونُزُوح
هل لمطلوب بذنب ... توبة منه نَصُوح
كيف إصلاحُ قلوب ... إنما هُنّ قُرُوح
أحسن الله بنا أ ... ن الخطايا لا تفوح
فإذا المستور منا ... بين ثوبيه فُضُوح
كم رأينا من عزيز ... طُويتْ عنه الكُشوح
صاح منه برحيل ... صائحُ الدهر الصّدُوح
موتُ بعض الناس في الأر ... ض على قوم فُتُوح
سيصير المرء يوماً ... جسداً ما فيه روح

بين عيني كل حيٍّ ... عَلَمُ الموت يلوح
كلنا في غفلة وال ... موتُ يغدو ويروح
لبني الدنيا من الدن ... يا غبوق وصَبُوح
رُحْنَ في الوشي وأصبح ... ن عليهن المُسُوح
كل نَطَّاحٍ من الده ... ر له يوم نَطوح
نُحْ على نفسك يا مس ... كين إن كنت تنوح
لَتَمُوتَنّ وإن عُمَّ ... رْتَ ما عُمِّرَ نُوح

فلما سمع الرشيد ذلك جعل يبكي وينتحب، وكان الرشيد من أغزر الناس دموعاً وقت الموعظة، وأشدهم عسفاً في وقت الغضب والغلظة؛ فلما رأى الفضل بن الربيع كثرة بكائه أومأ إلى الملاحين أن يسكتوا

وقد اختار أبو العتاهية عهد الرشيد لإظهار ما كان يخفيه في نفسه من ذلك لأنه كان أقل غلظة من أبيه المهدي، وأخيه الهادي، وأخف منهما عسفاً وبطشاً. وقد ذكر ابن خلكان أنه أراد أن يظهر بذلك في عهد المهدي، فأمر المهدي بحبسه في سجن الجرائم، فلما دخله دهش ورأى منظراً هاله، فطلب موضعاً يأوي فيه، فإذا هو بكهل حسن البزة والوجه، عليه سيما الخير، فقصده وجلس من غير سلام عليه، لما هو فيه من الجزع والحيرة والفكر، فمكث كذلك ملياً وإذا بالرجل ينشد:

تعودتُ مسّ الضر حتى ألفته ... وأسلمني حسن العزاء إلى الصبر
وصيرني يأسي من الناس واثقاً ... بحسن صنيع الله من حيث لا أدري

فاستحسن أبو العتاهية البيتين وثاب إليه عقله، فقال له: تفضل أعزك الله عليّ بإعادتهما، فقال: يا إسماعيل ويحك! ما أسوأ أدبك وأقل عقلك ومروءتك! دخلت فلم تسلم عليّ تسليم المسلم على المسلم، ولا سألتني الوارد على المقيم! فقال له: اعذرني متفضلاً! فدون ما أنا فيه يدهش! قال: وفيم أنت تركت الشعر الذي هو جاهك عندهم، وسببك إليهم؟ ولا بد أن تقوله فتطلق، وأنا يدعى الساعة بي فأطلب بعيسى بن زيد بن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن دللت عليه لقيت الله تعالى بدمه، وإلا قتلت، فأنا أولى بالحيرة منك؛ ثم دعى بهما فطولب الرجل بأن يدل على عيسى بن زيد فأبى، فأمر المهدي بضرب عنقه. ثم قال لأبي العتاهية: أتقول الشعر أو ألحقك به؟ قال بل أقول، فأمر به فأطلق

وقد كان الرشيد أشفق بكثير مع أبي العتاهية في ذلك من أبيه. والذي أراه أن الرشيد كان يحبسه في ذلك ثم يعفو عنه، وأن ذلك تكرر منهما بقدر ما حدثتنا به تلك الروايات السابقة

عبد المتعال الصعيدي

محاورات أفلاطون - 27

الحوار الثالث

فيدون أو خلود الروح

ترجمة الأستاذ زكي نجيب محمود

قال: أما إن كانت الروح يا أصدقائي خالدة حقاً، فما أوجب العناية بها، ليس في حدود هذه الفترة من الزمن التي تسمى بالحياة وكفى، بل في حدود الأبدية! وما أهول الخطر الذي ينجم عن إهمالها بناء على هذه الوجهة من النظر. لو كان الموت خاتمة كل شيء، لكانت صفقة الأشقياء في الموت راجحة، لأنهم سيغتبطون بخلاصهم، لا من أجسادهم فحسب، بل من شرهم ومن أرواحهم معاً. أما وقد اتضح في جلاء أن الروح خالدة، فليس من الشر نجاة أو خلاص إلا بالحصول على الفضيلة السامية والحكمة العليا، لأن الروح لا تستصحب معها شيئاً في ارتقائها إلى العالم السفلي، اللهم إلا التهذيب والتثقيف، اللذين يقال عنهما بحق إنهما ينفعان الراحل أكبر النفع أو يؤذيانه أكبر الأذى، إذا ما بدأ حجته إلى العالم الآخر

فبعد الموت، كما يقولون، يقود كل امرئ شيطانه الذي كان تابعاً له في الحياة، إلى مكان معين يتلاقى فيه الموتى جميعاً للحساب، ومن ثم يأخذون سمتهم نحو العالم السفلي، يقودهم دليل نيطت به قيادتهم من هذا العالم إلى العالم الآخر، فإذا ما لقوا هناك جزاءهم ولبثوا أجلهم، رجع بهم ثانية بعد كر الدهور المتعاقبة دليل آخر، وليست هذه الرحلة للعالم الآخر، كما يقول اسكيلوس في (التلفوس) طريقاً واحدة مستقيمة،

وإلا لما احتاج الأمر إلى دليل، فلم يكن أحد ليضل في طريق واحدة، ولكن الطريق كثيرة الشعب والحنايا، وإني لأستنتج ذلك مما يقدم إلى آلهة العالم السفلي من الشعائر والقرابين، في أمكنة من الأرض تتلاقى عندها سبل ثلاث. فالروح الحكيمة المنظمة تكون عالمة بموقفها وتسير في سبيلها على هدى، أما الروح الراغبة في الجسد، والتي لبثت أمداً طويلاً - كما سبق لي القول - ترفرف حول الهيكل الذي لا حياة فيه، وحول عالم الرؤية، فيحملها شيطانها الملازم لها في عنف وعسر، وبعد عراك متصل وعناء كثير، حتى تبلغ ذلك المكان الذي تجتمع فيه سائر الأرواح. فإن كانت روحاً دنسة، خبيثة الصنيع بأن انغمست في الفتك المنكر، وفي أخوات الفتك من الجرائم الأخرى، وتلوثت بهذه السلسلة من الآثام - فإن كل إنسان يفر من تلك الروح وينصرف عنها، فلن يكون أحد لها رفيقاً أو دليلاً، بل تظل تخبط وحدها في أرذل الشر، حتى ينقضي أجل معلوم، فإذا ما انقضى ذاك الأجل، حملت خانعة إلى مستقرها الملائم؛ كذلك لكل روح طاهرة مستقيمة، مضت في حياتها مرافقة للآلهة مترسمة خطوهم، مقامها الخاص

هذا وإن في الأرض لربوعاً مختلفة عجيبة، تختلف في حقيقة أمرها - كما اعتقد معتمداً على رأي ثقة لن أذكر اسمه - تمام الاختلاف عن آراء الجغرافيين من حيث طبيعتها ومداها. فقال سمياس: ماذا تعني يا سقراط؟ لقد سمعت للأرض أوصافاً كثيرة ولست أدري مع أيها تذهب، وأحب أن أعلم ذلك

فأجاب سقراط: حسناً يا سمياس، لا أظن أن حكاية تروى تستلزم لروايتها فن جلوكس ولست أرى أن فن جلوكس يستطيع أن يقيم الدليل على صدق حكايتي، التي أنا عاجز تمام العجز عن إثباتها بالدليل، وحتى لو استطعت ذلك، لخشيت يا سمياس أن أختتم حياتي قبل أن يكمل الدليل، ومع ذلك فقد أستطيع أن أصف لك صورة الأرض وربوعها كما أتصورها!

قال سمياس: حسبي منك ذلك

قال: حسناً، إذن فيقيني أن الأرض جسم مستدير، وهو من السماوات في مركزها. لهذا لم يكن بها حاجة إلى الهواء أو ما إلى الهواء من قوة أخرى، ليكون لها عماداً، بل هي قائمة هنالك، تحول موازنة السماء المحيطة بها، وتوازنها هي نفسها، بينها وبين السقوط أو الانحراف في أية ناحية، ذلك لأن الشيء الذي يكون في مركز شيء آخر منتشر انتشاراً متوازناً، ويكون هو نفسه متزناً، لن ينحرف بأية درجة في أي اتجاه، بل سيظل ملازماً لحالة بعينها دون أن يحيد. ذلك هو أول رأي لي

فقال سمياس: وهو بغير شك رأي صحيح

كذلك أعتقد أن الأرض فسيحة جداً؛ وإننا، نحن الذين نقيم في المنطقة التي تمتد من - نهر فاسيس إلى أعمدة هرقليس وبمحاذاة البحر، إنما نشبه النمل أو الضفادع احتشدت حول

مستنقع، فلسنا نأهل إلا جزءاً ضئيلاً، وأعتقد أن كثيراً من الناس يقيمون في أمكنة كثيرة كهذه. فلا بد من القول بأن هنالك فجوات في أنحاء الأرض جميعاً، مختلفاً أشكالها وحجومها، يتجمع فيها الماء والضباب والهواء، وأن الأرض الحقيقية أرض نقية تقيم في السماء النقية حيث سائر النجوم - تلك هي السماء التي يجري عنها الحديث عادة بأنها أثير، وليس الأثير منها إلا أر سابا يتجمع في فجواتها، وأما نحن الذين نقيم في هذه الفجوات، فنظن مخدوعين بأننا إنما نقيم على سطح الأرض، كما يخيل للكائن الذي في قاع البحر بأنه على سطح الماء، وبأن البحر هو السماء التي يرى خلالها الشمس وسائر النجوم - فهو لم يطف على سطح الماء قط لوهنه وفتوره، ولم يرفع رأسه ليرى، ولا سمع دهره ممن شهد تلك المنطقة الثانية، وهي أشد نقاء وجمالاً من منطقتنا. والآن، فتلك حالنا تماماً: فنحن مقيمون من الأرض في فجوة، ونخيل لأنفسنا أننا على السطح، ونطلق على الهواء اسم السماء ثم نتوهم أن النجوم سابحة في تلك السماء. ولكن ذلك أيضاً يرجع لما بنا من ضعف وفتور، فهما اللذان يحولان بيننا وبين الصعود إلى سطح الهواء: فلو استطاع إنسان أن يبلغ الحد الخارجي، أو أن يستعير جناحي طائر ليطير بهما صُعُداً، فيكون كالسمكة التي تطل برأسها لتشهد هذا العالم، إذن لرأى عالماً قاصياً، ولاعترف الإنسان، إذا ما شحذت طبيعته من بصره، بأن ذلك هو مكان السماء الحق والضوء الحق والنجوم الحق، لأن هذه التربة وهذه الصخور، بل

وكل هذه المنطقة التي تحيط بنا قد فسدت وتآكلت كما يتآكل ما في البحر من أشياء بفعل الأجاج. فيندر في البحر أن ينمو شيء نمواً رفيعاً كاملاً، فكل ما فيه شقوق ورمال وحمأة لا نهاية لها من الطين، لا بل يجوز أن نقرن البر بما في ذلك العالم من مناظر هي أروع في جمالها، فالعالم الآخر أسمى بدرجة عظيمة جداً. والآن أستطيع أن أقص عليك يا سمياس حكاية رائعة عن تلك الأرض العليا التي تحت السماء، وهي جد جديرة بالإنصات

فأجاب سمياس ونحن يا سقراط يسرنا أن نصغي

(يتبع)

زكي نجيب محمود

الكاظمي

للأستاذ معروف الرصافي

ليس من غاية الحياة البقاء ... فإذا خاب في الخلود الرجاء //
غير أن الحياة بالعز عند الرَّ ... جُل الحر غاية غراء
أي فخر للناعمين بعيش ... لم تجلله عزة قعساء
حسب من رام في الحياة خلوداً ... أنه بعد موته علواء
وكفى المرء بعد موت حياةً ... أن ذكراه حلوة حسناء
قد قضى الكاظمي وهو جدير ... أن تعزى في موته الشعراء
عاش منسيَّ عارفيه ولما ... مات فاضت بنعيه الأنباء
ذكرته نعاته بنعوت ... قبله حاز مثلها العظماء
فلئن كان ما يقولون حقاً ... إنهم بالذي نسوا لؤماء
كيف ينسون في الحياة أديباً ... عبقرياً عَنَتْ له الأدباء
أَفَيُنْسى حياً ويُذْكر ميتاً ... إن هذا ما تنكر العقلاء
إن هذا أمر يتيه ضلالاً ... في بوادي تفسيره الحكماء
ضحكوا منه في الحياة ومذ ما ... ت تعالى نحيبهم والبكاء
أيها النادبون غيريَ غُروا ... بَرَح اليوم للبيب الخفاء
يُكرم الميت بالثناء وتحيا ... عندكم في المهانة الأحياء
كل من يخبر الأناسِيَّ خُبْرِي ... لا يبالي أأحسنوا أم أساؤا
أنا جربتهم إلى أن تساوى الْ ... يَوم عندي سبابهم والثناء
قد تمادى في القائلين غلوٌّ ... وتوالى في الفاعلين رياء
أيها الكاظمي نم مستريحاً ... حيث لا مبغض ولا إيذاء
عشت في مصر باحترام يؤدي ... هـ إليك الأماثل الفضلاء
إن للنيل من جرائك شكراً ... ستؤديه دجلة الْسناء
لم تعش عيشة الرفاه ولكن ... لك في العيش عزة وعلاء
أي حرفي الشرق عاش سعيداً ... لم تشب صفو عيشه الأقذاء
وهنيئاً إن لم تعش في العراقيي ... ن مضاعاً تنتابك الأرزاء
من شقاء العراق إن ذوي النعْ ... مة فيه أجانب غرباء
إن جَفَتنا بلادنا فهي حب ... ومن الحب يستلذ الجفاء
لم نحل عن عهودها مذ جفتنا ... بل لها الود عندنا والوفاء
قد بكينا شجواً عليها ومنها ... وعناناً سقامها والشفاء
كم أردنا سخطاً عليها ولكن ... غلب السخطَ في القلوب الرضاء
إنما هذه المواطن أمٌّ ... مستحق لها علينا الولاء
إن خدمنا فلا نريد جزاءً ... ومن الأم هل يراد جزاء؟
إنما نحن مصلحون وما إنْ ... غاية المصلحين إلا الرفاء
نحن كالشمع حين ذاب اشتعالاً ... فهدى الظالمين منه الضياء

بغداد

معروف الرصافي

البقاء

بقلم الياس قنصل

أزهدُ الناسِ في الحياةِ يُمنّي ... نفسه بالبقاءِ رغم شكاتِهْ

والذي أفنت الليالي صباه ... ورماه زمانُه بأذاتِهْ
يطلب الموتَ وهو أمّا أتاه ... ردَّه عنه ملغياً كلماته
وإذا خاضَ قائدهٌ غمرةً ير ... سبُ فيها بسيفه وقناته
حدّثَ النفسَ بالرجوع سليماً ... وسماتُ النجاح في قسماته
وإذا قامَ رائدٌ يطلبُ المرّ ... يخ حيث الحِمام بعض هداته
ودّعَ الأرضَ آمناً مطمئناً ... واثقاً من معادِه ونجاته
كلّنا يعشقُ الحياةَ ويهوى الم ... عيشَ فوق الثرى على عِلاّته
ربّ ساعٍ إلى الخلود مجدِّ ... يغلبُ الناس والقضا بثباته
ليس يسعى وإن يُرَقْ دمُه إلاّ ... ليحيا مكرَّماً في حياتِهْ

عاصمة الأرجنتين

الياس قنصل

فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية

تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا - 12

فرديريك نيتشه

للأستاذ خليل هنداوي

حاسته الفنية

لم يكن نيتشه مفكراً فحسب، بل كان فناناً ذا حاسة فنية عميقة، يدل على ذلك ميله خلال طفولته الأولى إلى الموسيقى وعشقه لأربابها. وهل كان إلا غرامه بها الذي جعله ينظر إلى (فاجنر) كمثل أعلى لموسيقى عصره؟ وقد انكب على تلقن أصولها ومبادئها في صباه الأول، ودفعته حاسته إلى نظم بعض المقاطيع الموسيقية. وما هي إلا خطوة واحدة لو خطاها نيتشه لأشرف على عالم غير عالمه، ولأشفى على وجود قد يبدل كل أفكاره وكل آرائه. وهو يقول عن نفسه (لو لم ترجح كفة التفكير عندي لكنت الآن موسيقياً!) على أن ذوقه الموسيقي لبث حياً في طوايا نفسه. يرتاح للموسيقى أينما صدحت، ويغيب في عوالمها حيث تفتحت عوالمها. وهو أكثر ما يطمئن لتلك العوالم الفنية المظلمة التي تذهل فيها النفس وتدرج إلى أعماقها حيث يلتقي الفيلسوف والفنان. وقد يؤاخي هذه الحاسة - عنده - حاسته الشعرية. فهو شاعر بالفطرة، يبدي آراءه الفلسفية بطريق الشعر؛ وله في الشعر جولات صادقة تدل على فن عميق وابتكار رائع. وهو وان صدف عن عالم الشعر فإن حاسته الشعرية لم تخمد، بل ظلت تعاوده في كل ما كتب وسطر. وإنشاؤه يغلب عليه الشعر والعاطفة. لا يرى قارئه في تأملاته عقل نيتشه وحده، وإنما هو واجد كل كيانه يفكر ويكتب، يطلع عليك بوجوده كله لا بفكره وحده

الانعتاق

تكاد تكون تفاصيل حياته الشخصية محدودة. فهو قد ولد عام (1844) في (روكن، حيث كان أبوه قسيساً. وقد تيتم في الخامسة من عمره. فأتم دروسه الثانوية وتوجه إلى الدروس العالية. وبينما كان يتهيأ للموضوع الذي ينال به (الدكتوراه) في (ليبزيج) دُعي ليكون أستاذاً في جامعة (بال) وقد مُنح (الدكتوراه) بدون أن يعرض موضوعه قضى ستة أعوام هادئ النفس في الجامعة يقوم بتدريس اليونانية، وهو خلال هذه الأعوام كالمقيد بصحبة أصدقائه لا يخرج من حلقتهم، وهؤلاء الأصدقاء هم زملاؤه وبعض رفاقه، أضف إلى ذلك بعض زيارات متتالية إلى منزل الفنان (فاجنر). وقد كان يختلس بعض الفرص فيذهب في بعض سياحاته القصيرة إلى البحيرات والجبال، ولم يعكر عليه هذا الهدوء إلا إعلان الحرب السبعينية، فهجر الجامعة وتطوع في الجيش الألماني، ولكن صحته خانته، فاضطر إلى العودة مريضاً، وأعظم ما قام به من الآثار الأدبية خلال هذه الفترة كتابه (نشوء المأساة) ونقده للحضارة الحديثة. في الكتاب الأول يعالج نبوغ اليونان وعبقريتهم المختلفة في الفنون، وفي الكتاب الثاني يعرض (تأملات في غير حينها) وهو ينطوي على أجزاء: في الجزء الأول يحمل على (دافيد ستراوس)، وفي الجزء الثاني يبحث فائدة التاريخ وأخطاره، وفي الجزأين الأخيرين يبسط عبقرية الفيلسوف (شوبنهاور) وعبقرية الفنان (فاجنر) معتقداً أن في إمكان هذين النابغتين أن يقودا الإنسانية إلى مثلها الأعلى

وفي سنة 1876 عرا حياته الداخلية ما عرا حياته الخارجية من تطور وتبدل، وأعظم ما

نزل به نزاعه مع صديقه (فاجنر) أضف إلى هذا ما حاق بصحته من سوء واعتلال، حتى منحته الجامعة فرصة يقضيها إذا شاء في إيطاليا أو على هضاب سويسرا. وبعد هذه الراحة عاد إلى بذل الجهود برغم أن صحته كانت تنذر ولا تبشر. فجمع سنة 1878 كتابه (أشياء إنسانية، إنسانية جداً) وكتاباً آخر يضم (آراء مختلفة) و (المسافر وظله) فزادت صحته ضعفاً حال بينه وبين التعليم، فاعتزل الجامعة لكي يجد المجال الفسيح والقوة الكافية لتتميم رسالته الفلسفية

وها هنا بدل القدر صفحة حياته، ومنحه حياة جديدة يغمرها الاعتزال، وحرية التفكير والانفصال، يكمل تحت ظلها هذه الرسالة التي خُلق لها

لم يكن ميل نيتشه إلى دراسة اللغات القديمة مجرد هوى أو هيجان ابن ساعة ثم ينطفئ. فقد مال نيتشه إلى هذه الدراسة بقلبه وعقله، ذلك لأنه يريد أن يظهر أمره في علم ضيق المساحة ليدرك العلم فضله. وهو أكثر الناس علماً بقيمة العلماء الناقصين الذين يعلمون كل شيء ولا يعلمون شيئاً. وها هو ذا الآن لا يريد أن يعرف كل شيء، وإنما يريد أن يعرف

شيئاً معرفة متقنة، فبذل ما بذل من صبر وجهد بذل الأمين الراعي لأمانته. مدرعاً بالأناة التي لا غنى عنها للذاهب مذهبه. راضياً بأن يزهق روحه في سبيل العلم وخدمته. ولكنه سالك فيه مسلكاً جديداً لا أثر فيه للتعاليم الدراسة، وللتقاليد التي لا تجدي شيئاً. وهو يمزج هذه الدراسة مع الفلسفة والفن ويجعل من هذا المزج مزجاً جديدا

يعتقد نيتشه بأن المثل (الكلاسيكي) سيبقى خالداً لا يهدده الفناء. فلا العلم ولا الخلق ولا التثقيف بمستطيعة أن تنقذنا من البربرية إذا سلخنا المثل الكلاسيكي، وكفرنا بالبساطة الشريفة التي تتجلى في الفن اليوناني والبراعة اليونانية. وإذا شاء رسل العلم أن يجحدوا هذه البراعة وينكرونها على اليونان، فإنها براعة سائدة خالدة مسيطرة على براعتنا، تدل على أن اليونان كانوا أكثر توفيقاً منا في حل مسائل الوجود

وهكذا تظهر مهنة (دارس علم اللغات) مهنة جميلة سامية هو لا يعنى بإحياء الآثار العافية، والنصوص البالية، ولكنه كادح دائب على إحياء روح اليونان القديمة، يريد أن يتفهم كيف قدر لهذه الروح أن تتسامى وتتعالى في الآثار التي تركتها، والفنون التي أنجبتها، والمؤثرات التي تركت تأثيرهم بادياً في أدبنا وفلسفتنا، فجعلت منهم أساتذة لا يزال الغرب يتلقن عنهم. هذا هو أدب نيتشه يوم دخل جامعة (بال) مدرساً. يقول في إحدى محاضراته (إن دراسة علم اللغات ليست بآلهة شعر ولا بنبية رحمة، لكنها رسولة الآلهة، والآلهة، والآلهة في القديم كانت تهبط على القرويين المحزونين. واليوم تهبط هذه الرسولة على عالمنا القاتم الألوان، المظلم الرسوم، المفعم بالآلام والشقاء الذي لا يشفى، حاملة إلينا بلسم العزاء، عارضة علينا بأحاديثها تلك الوجوه الجميلة المتألقة في قطر خصب أزرق سعيد)

(يتبع)

خليل هنداوي

القصص

من أساطير الأغر يق

هرقل في سبيل التفاحات الذهبية

للأستاذ دريني خشبة

خيول ديوميديز - 7

وكان للملك ديوميديز، ملك تراقيه، يقتني مجموعة طيبة من خيول السباق التي لا يشق لها غبار، ولا تباريها خيول في مضمار؛ ولكنها لم تكن كهذه الخيول التي يقتنيها الناس، بل كانت بالوحوش أشبه، والى السباع أقرب، لأنها لم تكن تذوق الحشيش ولا تُسيغ النبات، بل بالعكس، كانت لا تأكل إلا اللحم تنهشه نهشاً. .

وكانت تأبى لحم الحيوان والبهائم، وتستطيب لحم الإنسان وتستلذه، ولم يكن الملك القاسي يبخل عليها به. ولكي يوفر لها هذا الغذاء الغريب، أصدر أمره بالقبض على كل أجنبي تطأ قدماه أرض البلاد بدون إذن من الملك! فلما نمى الخبر إلى يوريدوس، أرسل هرقل لمعاقبة ديوميديز ولتخليص الناس منه ومن خيوله

وشد هرقل رحله إلى أرض تراقيه، ودخلها غير مستأذن ولا مستأنس، فلما سأله ديوميديز في ذلك، انقض عليه كأنه الحتف، واقتلعه من عرشه كأنه نبتة ومضى به إلى خيوله فألقاه إليها. . .

وانقضت الخيول على الملك فمزقته تمزيقاً، واغتذت بلحمه الملكي الفاخر!! وطرب الشعب لتخلصه من حاكمه الظالم، ونثر الورد والريحان تحت قدمي هرقل، ومضى البطل فألجم الخيول كلها، وساقها هدية غير مبرورة إلى يوريذوس!!

منطقة هيبوليت مليكة الأمازون - 8

وكانت ليوريذوس ابنة ذات كبرياء وذات خيلاء، مشغوفة باقتناء الحلي والجواهر النادرة، تضحي في سبيلها بسلام المملكة وأرواح البرايا، إذا اقتضت الحال حرباً من أجل ياقوتة أو زبرجدة!!

وكان أبوها الأفين يلبي رغباتها ولا يكاد يرفض لها أمراً، فلما وصفت لها منطقة هيبوليت،

مليكة الأمازون، وما رصّعت به من اللآلئ، ثار في نفسها فضول الذهب، وألم بها مرض الحصول عليه. فانطلقت إلى أبيها تبكي، وتشكو العطل وقلة الحلية، ولو أن خزائنها تحوي نصف ثروة المملكة

وسألها أبوها ما بكاؤها؟ فتاهت قليلاً ودلّت، ثم ذكرت منطقة هيبوليت!!

وربت الملك على كتفي ابنته، ودعا إليه هرقل، وأمره بالذهاب إلى الأمازون والحصول على منطقة الملكة ولو أدّى دمه ثمناً لها!!

أما الأمازون، فقبيل عظيم من النساء المحاربات، يحيين حياة عسكرية حافلة بضروب من الشجاعة تحيّر الألباب وتذهل العقول. فمنهن فريق يعمل في الحصون ويسهر على قلاع المملكة، وفريق للغزو ومناوشة الأعداء، وثالث يقوم بمهمة الشرطة والعسس، ورابع للعمل في الأسطول الذي يلقي الرعب في الشواطئ. . . . . لإ إلخ

ولا يعيش بين شعب الأمازون أحد من الرجال، فإذا جازف رجل، وانسرق بينهن، ترصّده الموت في كل مكان!

وكانت مملكتهن في جزيرة نائية قاصية، ذهب هرقل في البحث عنها كل مذهب، واستعان بأقربائه من الآلهة ليرشدوها إليها

ونصح له أحدهم أن يدع هذه الرحلة القاسية إلى مملكة الأمازون، ولكنه أبى، لأن مجازفاته التي يتعرض بها للهلاك، إن هي إلا ثمن الحرية التي ينشدها ويحلم دائماً بها!

ووصل هرقل إلى المملكة، وتحايل حتى مثل بين يدي الملكة، فلقيته بما هو أهله من التجلة والإكرام، كابن إله عظيم. . وأبدى رغبته في الحصول على المنطقة الغالية التي تزين وسط الملكة، وتحلّي خصرها، ليقدمها ثمناً لحريته الضائعة، للفتاة المزهوة (أدميت) بنت ملك أرجوس. . .

وتبسمت الملكة، ووعدته أن تخلعها عليه، ليصنع بها بعد ذلك ما يشاء. ثم تفضلت فدعته إلى حفلة راقصة، وعشاء فاخر. . .

وهنا تبرز حيرا لتمثل دورها!!

لقد هالها هذا النجاح المطرّد الذي يظفر به خصمها في كل مكان، فتحولت إلى أمازونة

جميلة، واندست بين رعايا الملكة، وألقت في روعهن أن هرقل هو ألد أعدائهن، وأنه إنما أقبل لسبي الملكة، وليفر بها إلى ملك أرجوس، وأنه اتخذ المنطقة تعِلّة لذلك جميعاً، فثارت ثائرة الأمازون، وتجمهرن حول الملكة، وصارحنها بما قالت لهن حيرا. فأمرتهن بالحرب. . . ولكن هرقل، البطل الأعزل، انقض كالمنية على الأمازون ففرّق شملهن، وأظفرته شجاعته بهن، ثم هجم على الملكة فاختطف منطقتها، ونظر فرأى حيرا تشهد المعركة فوق رابية قريبة، فأشار إليها قائلاً: (وهنا أيضاً أنتصر عليك، وسأنتصر عليك دائماً!)

9 -

وطربت ابنة الملك بمنطقة هيبوليت أيما طرب، وكبرت في نفسها منزلة هرقل، فاستوصت به أباها خيراً.

واستجاب يوريذوس لشفاعة ابنته في هرقل، فلم يكلفه هذه المرة شططاً، بل اكتفى

أن أمره بالتوجه إلى بحيرة ستيمفالوس ليبيد طيورها ذوات المخالب النحاسية التي تدوم فوق الماء الآسن وتغطس فيه تصيد السمك، ثم تذهب فتأكله قريباً من القرى، فتنتشر بذلك الأمراض والطواعين. ولم يكن أيسر على هرقل من أن يبيد هذه الجوارح ومعه قوسه المرنان، وفي كنانته سهامه التي رويت من دم هيدرا

10 - قطعان الجريونز

وكان يأوي إلى سفوح الجبال في مقاطعة أريثيا مارد مخوف مرهوب الجانب يدعى جريونز. وكانت له قطعان كبيرة من الماشية والغنم عرفت في سائر هيلاس بجودة ألبانها ونعومة أوبارها، حتى لكان يضرب بها المثل كلما فاخر الرعاة بقطعانهم وطمع يوريذوس في نعم جريونز وشائه، فأمر هرقل أن ينصرف إلى أريثيا فلا يعود إلا بها

وأغذّ هرقل السير؛ وألقى المارد مُمداً في كهفه السحيق يغط في نوم عميق، فانقض عليه كأنه الشهاب الراصد، وقبض بيديه الحديديتين على عنقه الغليظ فلم يفلته إلا جثة لا نامة فيها ولا نفس! وساق القطعان، وتولى إلى ملك أرجوس بالثروة الطائلة، والوفر الكثير

وأرخى الليل سدوله، ولما يبلغ هرقل نصف الطريق، فأناخ في منحدر معشوشب، ولعبت سنة من النوم بعينيه فغفا، وأسكرته نسمات الربيع فاستسلم لأحلامه الخمرية الحلوة. . .

وكان يأوي إلى هذا الجبل، جبل آفنتين، مارد لص قاطع طريق، يدعى كاكوس، وجد هرقل غاراً في سبات ناعم، فذهب بنصف القطيع أو يزيد. . .

واستيقظ البطل على رُغاءٍ يتجاوب في حدود الأفق، فلما تفقد قطعانه انطلق في أثر اللص حتى لحق به، وحطمه تحطيماً!

وقبيل شروق الشمس، كانت مدينة أرجوس كلها عند الأبواب تستقبل الرزق والغنم، وتهتف باسم البطل الحلاحل الذي بهرها بشجاعته، وخلب ألبابها بما أبدى، وما ينفك يبدي، من ضروب القوة والاستبسال

وأحس يوريذوس بما انطوت عليه قلوب الأهالي من المحبة والافتتان بهرقل، فتسخّط وحنق، وبيَّت الشر المستطير

11 - تفاهات هسبريا الذهبية

وأدركت حيرا ما ينقم الملك من هرقل، فوسوست إليه أن يأمره بالحصول على تفاحات هسبريا الذهبية، وهيهات هيهات أن يستطيع أحد الحصول عليها!

ولقد أهديت هذه التفاحات إلى حيرا، ليلة زفافها إلى زيوس، رب الأرباب، فيما أهدى إليها من تقدمات وتحف؛ أهدتها إليها (جي) ربة الأرض، فكانت أثمن الهدايا جميعاً وأغلاها. لأنها فضلاً عن أنها من الذهب الخالص، فقد رصعت بأندر اللآلئ، وزينت بصور الآلهة، ونقشت فيها حدائق الأولمب؛ ثم تستقل بميزة ندر أن تكون لحلية مهما غلت: ذلك أنها إذا غابت الشمس، وأقبل الليل بظلامه، شعَّت أضواءً ولآلاء قل أن تصدر إلا عن كواكب درِّي، أو شمس وضاءة، فتنقشع الغياهب وتنجلي الدياجير!

وحسبك أن تعلم أن حيرا نفسها لم تأمن آلهة الأولمب وحُرّاسها الغلاظ على هذه القُنْية النادرة، فأرسلت بها إلى الهسبريد، بنات هسبروس إله الغرب العظيم، ليحرسنها. ولتكون عندهن في مأمن من كل سارب بليل، أو سارقٍ في نهار، وقد عرف الهسبريد لهذه التفاحات قيمتها، فعلَّقها في دوحة باسقةٍ في حديقة قصرهن المنيف، وأقمن على حراستها التنين الهائل لا دون، الذي قيل في صفته إن له سبعين ألف رأس في كل رأس سبعون ألف عين، وسبعون ألف ناب يتدفق السم منها جميعاً. ثم إنه يبلغ ألف ذراع طولاً وخمسين سُمكاً، وإن له لأظافر كأن كل واحد منها جراز هرمز، وإن له لفحيحاً تضيع فيه زمزمة الجن، ومُكاءُ الشياطين!!

وانقلب هرقل على وجهه في الأرض حيران!

أين هي تفاحات هسبريا هذه؟

(. . . .أفي الأرض أم في السماء؟ لأمض! فرب إله دلني إليها)

وشرّق وغرّب، وذرع الأرض من أقصاها إلى أقصاها، وانسرق إلى الكهوف والغيران،

وأوْقل في الجبال، وتحدّر في القيعان، ومر بكل حنيَّة، ووقف عند كل عين، حتى كان لدى نهر أريدانوس، ووقف بشاطئه يتناجى؛ فخرجت من الماء النمير عرائسه، ورُحن يُسرِّين عن هذا اللاجئ الحزين
وإنه ليسائلهن عن تفاحات هسبريا، فيحدثنه ويتلطفن معه، ثم ينصحن له أن يطلق إلى نريوس إله البحر، عسى أن يهديه إلى ما يريد
ويهيم في الأرض محاذياً سيف البحر، حتى يكون آخر الأمر أمام شيخ هرم، وخط الشيب رأسه، وتدلى شعر لحيته الكث فوق صدره العريض ذي النتوء؛ وبرزت أهدابه حتى لكادت تحجب عينين تزدحم فيهما السنون، وتطل من حدقتيهما الأحداث!
وجده جالساً القرفصاء مُقلِّباً ناظريه في مملكة الماء التي تتصل باللانهاية، فألقى عليه تحية هيّنة، رد عليها الشيخ بهذه العبارة:
(أيها الفتى لم قطعت عليّ تأملاتي؟!)
فقال هرقل: (أستحلفك بسيد الأرباب يا أبتاه إلاّ ما أخبرتني عن حدائق الهسبريد، فتكون لك عليّ يد أذكرها لك أبد الدهر وأشكرها!)
وتجهّم نريوس وقال: (حدائق الهسبريد! أوْه! أنت هرقل إذن!)
فبهت هرقل وأجاب: (أي وحقك أنا هو، فمن ذكرني عندك!؟)
- (ليس هذا من شأنك يا بني، ولكن لعلك تبتغي تفاحاتها الذهبية؟)
- (أي وزيوس يا أبتاه!)
- (بشراك إذن! فلن يحصل عليها إلا أنت، ولكنك لست أنت الذي ستنفذ إلى حدائق الهسبريد! اذهب إذن فالتمس المسكين بروميثيوس مكبلاً فوق جبال القوقاز، فأحسن إليه،
وسله حاجتك، فهو وحده الذي يستطيع إرشادك إلى ما تريد .. !)
وشكره هرقل، وحياه، وأطلق ساقيه يطوي الفيافي إلى القوقاز. وهناك وجد بروميثيوس والرخ ينوشه، بحيث يمزق كبده ويهر أه، ويغتذي به؛ فوتر قوسه، وسدد إلى الطير سهماً أصماه، وخلص إلى الإله البائس فأزال أصفاده، واحتمله إلى السفح، وما زال به حتى أقبل الليل والتأمت جراحه، ثم تحدث إليه عن حدائق الهسبريد وتفاحاتها الذهبية. فحدجه بروميثيوس بنظرة فاحصة، وقال له: (لكأنك هرقل إذن؟)
- (أجل أنا هرقل يا أبتاه!)
- (وأنت عدو حيرا يا بني؟)
- (عدوها المبين يا أبتاه!)
- (مسكين!!)
ولم يلبث الفتى أن انهمرت عبراته، وطار لونه وهاجت في فؤاده البلابل والأشجان؛ ثم اتصل الحديث، وقال بروميثيوس:
- انطلق يا بني إلى أخي أطلس؛ هناك. . . هناك في إفريقية المظلمة شمالاً بغرب؛ تجده على قمة جبل شامخ يحمل السماء على منكبيه، ويتشح بوشاح من اللازورد يرفرف بين المشرق والمغرب. فأقرئه سلامي، وزُفّ إليه بشرى خلاصي مما أوقع زيوس بي، ثم حدّثه بحاجتك يقضها لك، فهو وحده يعرف أين حدائق الهسبريد، وهو وحده يستطيع أن ينفذ إليها، وهو وحده يستطيع قتل لا دون التنين الهائل الذي يحرس تفاحات هسبريا الذهبية؛ فإذا أتاك بها، فاحذر أن يأخذك بشيء من مكره، فإني علمت أنه بدأ يتململ من حمله الثقيل، ويود لو ينجيه منه أحد، ولو انتثرت الكواكب، وانتقض نظام الكون!)
هرقل يصارع أنتيوس
وفي طريقه إلى أطلس، لقي من الأهوال والخطوب ما تفتأ تتحدث به الأيام إلى زماننا هذا. من ذلك أنه مرّ يقوم من الأقزام ضئال الأجسام قصارها؛ كانوا يؤجرون مارداً عظيم الجسم مفتول العضل: ليحميهم من جيرانهم الأعزّاء الأقوياء، وليدفع عنهم غائلة الغربان النحاسية التي كانت تتلف أعنابهم وتبيد زروعهم كلما تم نضجها في كل عام.
وكان ذلك المارد - أنتيوس - ذا حول وذا طول، حتى لكان يخشاه الوحش، ويتخوفه الجن، وترجف
من صولته أفعوانات البحار، فلما شهد هرقل يخبُّ في أفق البلاد كأنه جبل يتدهدى، أخذ أهبته لمنازلته، ولم تساوره ذرة من الشك أنه منتصر عليه

فلما وصل هرقل، حيا أحسن تحية، ولكن أنتيوس لم يجب، بل إنه سارع فأخذ بتلابيب البطل عابر السبيل!!
- (ماذا بك أيها الأخ! دعني فليست لي عندك حاجة!)
- (لا، لا نجوت إن نجوت! لا أرى إلا أن أصرعك!)
- (ولِمه؟!)
- (هذا ما لا أعرف، ولكن لا بد من أن أصرعك على أية حالة!)
وتصارع الخصمان، وأقبلت الأقزام ترى إلى هذين الجبلين يأخذ أحدهما بعناق الآخر فيلببه تلبيباً!
وكان أنتيوس كلما خانته قواه، وأيقن أن هرقل لا بد صارعه، وقف قليلاً على أديم الأرض يستمد منها قوة، ويستلهم الحول من أمه (جي) . . .
فهو ابن جي إذن، ولن يسر ربة الأرض أن يصرع ابنها أحد، إذن فلتمده بكل ما في سرها من قوة ليصرع هرقل!
وخارت قوى البطل! وراح يلهث من شدة النصب؛ بيد أنه تنبه إلى السر آخر الأمر، عندما لحظ أن أنتيوس يزداد قوة كلما مست قدماه الأرض؛ فرفعه رفعة هائلة، ولم يمكنه من الوقوف لحظة على قدميه؛ ثم أخذ يضغط عنقه الغليظ العبل، حتى شهق شهقة كانت هي شهقة الموت. .!
فألقى به. . . ومضى لشأنه!!
وتلفت فرأى عرائس ماء يلعبن على الشاطئ، ويترامين بلآلئ مما يعد لديهن من حصباء البحر؛ فوقف غير بعيد وهتف بهن:
يا عرائس الماء الجميلات! هل لكن أن تهدينني إلى أطلس الذي يحمل السماء، (ويمسك كواكبها أن تقع!؟)
وفزع عرائس الماء وهرعن إلى البحر، ولكن فتاة جريئة وقفت ترقص على رأس موجة وقالت: (امض أيها الرجل حتى إذا لقيت السد الذي يفصل البحر المحيط من مائنا هذا
(وكان البحر الأبيض)، فإذا استطعت أن تنفذ فانك تكون على فراسخ من أطلس. . .)
وشكرها هرقل، وانطلق. . .
وكان أمام السد؛ ولكنه كان جبلاً شامخاً ذا قُنن وقُلل وأحياد؛ فلما لم يستطع أن يتسلقه؛ ضربه بيمينه ضربة، وبشماله أخرى، ففتح ثغرات كبيرة نفذ منها، وترك الجبل وراءه أعمدة عالية، ما تزال تعرف إلى يومنا هذا بأعمدة هرقل!!
ونظر فما هاله إلا هذا الإله العظيم سامقاً في الأفق، يحمل على كتفيه العريضتين قبة السماء. والنجوم منتشرة حوله كأنها قطرات أمطار في يوم عاصف!
وتقدم هرقل فحيّا الإله الضخم، وحياه الإله الضخم بأحسن مما حيا هرقل، ثم أقرأه هذا تحية برومثيوس، وزف إليه بشرى خلاصه من الصخرة التي ظل مُكبّلاً فوقها أحقاباً وأحقاباً!
وطرب أطلس لهذه البشرى، وأفتر عن ثنايا كأنها قمم الجبال مُغطَّاة بالثلوج، ثم قال:
- (ومن أنقذه من عذابه الطويل يا صاح!)
- (أنا إن كان يسرك ذاك النبأ!)
- (أنت؟ أنت من المكرمين إّن! مرحباً بك أيها المخلص الأمين!)
- لقد كدت ألقي بهذا الحمل الذي ترى لأنقذ أخي، ولكني خفت أن يهلك العالم بمن فيه. . . و. . . على ذكر أخي، كيف هؤلاء الناس الذين خلق؟ أبخير هم؟ وهل يخبتون له حقاً؟ إن زيوس مغيظ منهم، وامرأته حيرا محنقة كذلك، أعندك من أخبار هؤلاء شيء؟
- (عندي أشياء يا أبتاه. . أنا ابن زيوس من الكمين، وقد نقمت حيرا على والدتي، فأرادت أن تفجعها فيّ، وقد أغرت رب الأرباب بي، فقضى أن أخدم النذل يوريذوس سنة بتمامها أصدع له خلالها بما يأمر، وقد أرسلني أجوب الآفاق وأذرع الأرض من أجل تفاحات هسبريا الذهبية، وقد ذكر لي أخوك، بعد إذ أطلقته، إنك وحدك تعرف مكان حدائق الهسبريد وإنك وحدك تستطيع الحصول على هذه التفاحات، فهل أسعد بأن تؤدي لي هذه اليد؟ لقد كادت حيرا كيدها هذا، وإلا تنصرفي أكن من الهالكين!)
وشاءت الخيلاء في أعطاف أطلس، وسرت حميّا الزهو في ظهره الشاسع، فقال:

(أجل يا صاح، لن يستطيع قتل لا دون غيري، ولن يدخل حدائق الهسبريد سواي، ولكن كيف أترك
(حملي هذا لآتيك بالتفاحات؟
ونظر هرقل إلى القبة الهائلة نظرة تفيض كبرياء وقال: (أنا أحمل عنك هذه القبة يا أبتاه، حتى تعود بالتفاحات!!)
وما كاد يتم كلمته، حتى تقدم فركز كتفيه تحت السماء، وانطلق أطلس لأول مرة منذ أحقاب وأدهار، يمتّع نفسه بمشية حرة طليقة في حدائق الأرض الغنّاء!!
وغبرت أيام. . .
ثم ذكر تفاحات هسبريا، فذهب إلى حدائق الهسبريد، واقتحم الأسوار، وانقض على التنين لا دون فزلزلت الأرض تحتهما، ولم يدعه يفلت، برغم مرونته في الوثب وسرعته في الالتفاف، حتى خرّ صريعاً
ومد يده إلى الأيكة الذاهبة في السماء فتناول التفاحات المتلألئة الوضاءة، وعاد يزهو ويختال إلى حيث هرقل المجهود المتعب
وما كاد أطلس يلمح الحمل الثقيل الذي يؤود هرقل، حتى ذكر الأدهار السحيقة التي لبث يتململ طوالها تحت عبئه؛ فارتعدت فرائصه لمجرد فكرة العود إلى حمله الشاق. . . وبدا له أن يدع هرقل ويمضي. . . ولكن هرقل المتعب فطن إلى ما وقر في قلب أطلس؛ فناداه: (أبتاه! لعمري أن حملك لأخف من الهواء؛ ولعمري أنني لأستطيع أن أصمد له إلى نهاية الأبد!)
وبهت أطلس وقال: (إذن لتمض في حملك مادام يسرك!)
فأجاب هرقل: (ليس أيسر من هذا! ولكن هل تسمح فتحمل مكاني برهة حتى أضع حوّية فوق كتفيّ، فإني أشعر بنتوء في أديم السماء!!)
وقبل أطلس المغفّل، فنثر التفاحات من يده على الكلأ الأخضر، وتقدم فحل محل هرقل!!
والتقط صاحبنا التفاحات، وانطلق لا يلوى على شيء!!
وبعد رحلة طويلة مضنية، دخل على يوريذوس بالقُنْية الغالية التي خلبت لب فتاته أدميت؛ وخرت مغشياً عليها حين وقع بصرها عليها
(لها بقية)
دريني خشبة
البريد الأدبي
لورد هيدلي عميد المسلمين الإنكليز
نعت إلينا أنباء لندن الأخيرة عظيماً من عظماء الإنكليز يعرفه المسلمون جيداً في مشارق الأرض ومغاربها هو لورد هيدلي زعيم المسلمين في إنكلترا
توفي لورد هيدلي في الثمانين من عمره بعد حياة حافلة متنوعة الأطوار والأوضاع وبعد أن لبث اسمه يرن في العالم الإسلامي أكثر من خمسة وعشرين عاماً، مذ اعتنق الإسلام، وكان أول من اعتنقه من أشراف إنكلترا
ولورد هيدلي من صميم الأرستقراطية الإنكليزية، ولد في سنة 1855؛ وأبوه الشريف النسون ون ابن بارون هيدلي
وتلقى تربية جامعية حسنة في وستمنستر وترنتي وكامبردج؛ وبرع في الرياضة منذ فتوته ولا سيما (البوكس) وألف في هذا الفن رسالة ذاعت في وقتها ذيوعاً كبيراً. ثم اشتغل حيناً بالتدريس، ثم بالصحافة حيث كان يحرر جريدة (سالسبوري)؛ ثم اشتغل بالأعمال الهندسية التي تخصص فيها، وعمل مدى حين سكرتيراً للسير هنت، وسافر بعد ذلك إلى الهند حيث تولى عدة أعمال ومشروعات هندسية هامة، ولا سيما في أعمال المواني، وذاعت شهرته الفنية يومئذ واعتبر من أعلام المهندسين
وفي سنة 1911 غدا ر. ح. النسون لورد هيدلي بعد وفاة عمه البارون هيدلي؛ وفي نفس هذا العام، في مأدبة عقدتها الجمعية الإسلامية بلندن، أعلن هيدلي الجديد أنه اعتنق الإسلام، وأنه لم يقطع علاقته مع ذلك بالكنيسة البروتستانتية التي نشأ في ظلها؛ وكان إسلام اللورد هيدلي حادثاً اجتماعياً عظيماً في إنكلترا، وثار حوله الجدل مدى حين، وحملت بعض الهيئات والصحف على اللورد المسلم حملات شديدة، ولكنه لم يحفل بها واستمر في طريقه يدعو إلى الإسلام ويفاخر باعتناقه

وفي سنة 1921 تزوج لورد هيدلي للمرة الثانية بعد أن توفيت زوجته الأولى في سنة 1919؛ وكانت زوجه في هذه المدة مسز بار بارا بانيتون، وكان قد بلغ السادسة والستين من عمره. وفي سنة 1923 انتخب اللورد هيدلي رئيساً للجمعية الإسلامية بلندن تنويهاً بخدماته للدعوة الإسلامية، وفي هذا العام سافر إلى مكة وأدى فريضة الحج، وأنعم عليه
الملك حسين ملك الحجاز يومئذ بوسام النهضة العربية؛ ولُقّب اللورد من ذلك الحين (بالحاج هيدلي) وغلب عليه اللقب الجديد
وفي سنة 1929، تزوج الحاج هيدلي للمرة الثالثة بأرملة الماجور باسفورد وكان يومئذ في الخامسة والسبعين
وكان اللورد هيدلي رجلاً وافر النشاط والذكاء يجمع بين مصالح كثيرة مختلفة، ويدير دفة طائفة متنوعة من الأعمال الهامة، ويسير بها جميعاً في طريق التقدم والنجاح وقد ترك اللورد المتوفى من زوجه الأولى أربعة أولاد؛ وورثه في لقب اللوردية ولده البكر رولاند باترك النسون ون
ونستطيع أن نذكر بهذه المناسبة أن هناك طائفة من مشاهير الإنكليز اعتنقوا الاسم في مختلف العصور، ومن هؤلاء رجل من اكستر يدعى يوسف بتس أسره القرصان المغاربة سنة 1678 وأرغم على اعتناق الإسلام، وأدى فريضة الحج مع سيده. ثم فر بعد ذلك إلى أزمير ونشر رسالة عن مغامراته؛ ومنهم توماس كابث الشهير الذي اعتنق الإسلام ووصل إلى منصب (الأغا) في بلاط السلطان باستنا بول، ثم انتهى بأن عين حاكماً للمدينة المنورة. ومن مشاهير الإنكليز الذين أسلموا في عصرنا الحاج عبد الله فيلبي (سنت جون فيلبي) مستشار الملك ابن السعود، واللايدي إيفلين كوبولد صاحبة كتاب (الحج إلى مكة) الذي ترجم أخيراً إلى العربية، ومنهم الدكتور نولان الذي كان مديراً للأمن العام، واعتنق الإسلام ثم سافر إلى تركيا، وهاجر بعدئذ إلى أمريكا، ومنهم كثيرون من المستشرقين الذين أسلموا لأغراض علمية وسياسية
ذكريات عن بيير لوئيس
منذ عشرة أعوام، في يونيه سنة 1925 توفي الكاتب والشاعر الفرنسي الكبير بيير لوئيس، في الرابعة والخمسين، بمنزله في شارع بولا نفلييه بباريس؛ وكان يعاني آلام المرض قبل وفاته بأعوام طويلة، والآن يحتفل أصدقاء الكاتب الكبير بذكرى وفاته، وهذه سنة مؤثرة في فرنسا، فقلما يودع هذه الحياة كاتب أو شاعر أو نابغة من نوابغ العلم أو الفن حتى تقوم جمعية من أصدقائه والمعجبين بنبوغه لتعمل على تكريم ذكراه في كل مناسبة، وتذكى في نفوس الخلف حب تراثه. وقد كان لبيير لوئيس مكانة خاصة في نفوس
الخاصة وذوي الشاعر الرفيعة؛ ذلك لأنه يثير بروعة بيانه ورقة أسلوبه شجناً لا تملك مغالبته، وقد بدأ بيير لوئيس حياته الأدبية بإنشاء مجلة صغيرة اسمها (لاكونك) في مارس سنة 1891، وكان يطبع منها مائة عدد فقط، ويعاونه في تحريرها كتاب تملأ اليوم أسماؤهم فرنسا، مثل أندريه جيد وبول فاليري وهنري دي رينيه
وكان أول من لفت الأنظار إلى بيير لوئيس ودفعه إلى طريق المجد، القصصي الشاعر الكبير فرانسوا كوبيه؛ ففي مارس سنة 1893 ظهرت قصة لوئيس المسماة (افروديت)، فلم تمض أسابيع قلائل حتى تناولها كوبيه بالنقد في جريدة (الجورنال) وكان مما قاله يومئذ ما يأتي: (انه لم يكتب مثلها في النثر الفرنسي منذ (قصة المومياء) و (سلامبو). ثم قال: إنها قصة خليعة جداً، فهو يوصي بقراءتها للفنانين، وللفنانين وحدهم، وكان ذلك كافياً لأن تلقى (افروديت) ذيوعاً عظيماً، وأن ينحدر بيير لوئيس بسرعة إلى طريق المجد
وما فعله فرانسوا كوبيه مع لوئيس، فعله لوئيس فيما بعد مع كلود فارير؛ فقد أصدر فارير كتابه (المتمدنون) سنة 1905، وتقدم لينال به جائزة جونكور؛ وكان بيير لوئيس أحد العشرة الذين يؤلفون المجلس، فأذاع بعد قراءتها في كل مكان أنها لا تقل في الروعة والإبداع عن قطع (مبرميه)؛ وهكذا نال فارير جائزة جونكور، وأضحى بفضل لوئيس علماً ذائع الصيت، ولم ينس فارير لبيير لوئيس هذا الفضل، فلبث طوال حياته يرعاه بحبه ورفيع تقديره
عناصر الحركة الهتلرية

ألقى المسيو هنري بيجه، وهو من أعضاء مجلس الدولة الفرنسي، في (أكاديمية العلوم الأخلاقية) محاضرة عنوانها (الدولة الألمانية الثالثة والنظريات الاشتراكية الوطنية)، وهي خلاصة بحث دقيق قام به لدرس خواص النظام الهتلري؛ وخلاصة رأي مسيو بيجه أن الحركة الهتلرية إنما هي ظفر حزب وظفر نظرية قاما على (تفاعل عناصر اليأس وعناصر الخرافة)؛ وأما مثل هذه الحركة فتنحصر في ثلاثة أشياء: نظرية الجنس أو الوحدة الشعبية ونظرية الزعيم ونظرية الاشتراك وتقوم الحركة من الوجهة النظامية على المزج بين الدولة والحزب والشعب واعتبارها أسماء ثلاثة لمسمى واحد؛ متعارضة بذلك كل التعارض مع النظام الديموقراطي الحر الذي يقوم على فكرة الفرد والدولة، ويفرق

بينهما أتم تفريق. ويرى مسيو بيجه أن الحركة الهتلرية رغم قوتها الحاضرة، تحمل عناصر فنائها، وأن هذا الفناء ليس بعيد الحدوث

كتاب جديد عن الملكة فكتوريا

صدر أخيراً بالإنكليزية كتاب عن الملكة فيكتوريا بقلم الكاتب الإنكليزي أ. بنسون. ومع أنه يقع في مجلد واحد، فقد ألم بحياة الملكة العظيمة إلماماً قوياً، ويستند مستر بنسون في معظم آرائه على خطابات الملكة ذاتها، ولا سيما في أعوامها الأخيرة. وهو لا يعنى بتحري الصور الشائقة أو المثيرة، ولكنه يسير في بحثه بهدوء واتزان، يحلل أخلاق الملكة وموقفها من الشخصيات الكبيرة التي كانت تعمل معها، ومما يدلل عليه مستر بنسون أن الملكة فيكتوريا أبدت مواهبها العظيمة في عصر متقدم جداً، فرسائلها وهي في الثالثة عشرة لا تختلف كثيراً عن رسائلها وهي في الخمسين من حيث القوة والاتزان وحسن التدليل، ومما هو جدير بالذكر ما يعرضه مستر بنسون عن معركة الملكة فكتوريا مع وزيرها الشهير جلاد ستون، فقد كانت ثمة بين الشخصيتين العظيمتين معركة ملأت أيام الملكة الأخيرة، وكان الحق فيها في جانب الوزير، ولكن الملكة صمدت فيها إلى النهاية

من روائع الشرق والغرب

المنصور

للشاعر الألماني هاينرخ هاينه

نقلها عن الألمانية الدكتور زكي محمد حسن الأمين العلمي

لدار الآثار العربية

هاينرخ هاينه شاعر غنائي وكاتب ألماني ولد من أبوين يهوديين بدسلدورف سنة 1797 ودرس الحقوق ولكنه هجرها إلى الأدب وذاع صيته فيه سنة 1826 وسنة 1827 حين ظهر كتابه (صور رحلة) عن طوافه في ألمانيا، وما لبث أن نشر أحسن شعره في ديوان سماه كتاب الأغاني قابله القراء في ألمانيا بحماسة تفوق الوصف واعتنق هاينه الدين المسيحي سنة 1825، ولكنه كان في الحقيقة متشككاً في كل شيء، إباحياً جد الإباحة، مستهتراً كل الاستهتار. وفي سنة 1830 هاجر هاينه إلى باريس فاستوطنها واشتهر في أنديتها حتى توفي سنة 1851 بعد أن أقعده الشلل في أواخر حياته

وظل الألمان يعدونه من أكابر كتابهم وشعرائهم حتى كان الانقلاب الأخير، فنعى الهتلريون عليه أصله اليهودي فانقلبوا على ذكراه وهدموا ما أقيم له في ألمانيا من أنصاب وتماثيل

وامتاز هاينه بأسلوبه التهكمي اللاذع ووصفه الدقيق المشرق، بيد أن أهم ما خلّد ذكراه حتى الآن وسوف يخلدها طويلاً إنما هي أغانيه في ديوانه الذي أشرنا إليه؛ وآنا ننقل منه إلى العربية القصيدة الآتية التي يعجب الألمان بها كثيراً على الرغم من تعريضه فيها بالمسيحية قال:

في الكنيسة الكبيرة بقرطبة

تقف أعمدةٌ ثلثمائة وألف،

ثلثمائة وألف من الأعمدة الشاهقة تحمل القبة العظيمة الضخمة

وعلى الأعمدة والقبة والجدران تجري وتنحدر في كل اتجاه

آيات القرآن العربية في حروف مشبكة مزهرة مزخرفة

قديماً بنى الملوك العرب هذا البيت تمجيداً لذكر الله،

بيد أن أشياء كثيرة قد تغيرت في هذا الدهر ذي الأحداث المظلمة!
فعلى المنارة حيث كان المؤذن يدعو الناس إلى الصلاة،
ترسل الآن أجراس المسيحية رنين دقاتها الحزينة
وعلى المنبر حيث كان المؤمنون يرتلون كلام النبي،
يعرض الآن القسس الصغار الصلع أعاجيب قداسهم المضجر!
وهناك دوران والتفاف، حول نساء كالعرائس المنقوشة
بالألوان المختلفة، وهناك ثغاء وتبخر وأصوات نواقيس،
بينما الشموع الغبية ترسل أضواءها
في الكنيسة الكبيرة بقرطبة، يقف المنصور بن عبد الله
يتأمل الأعمدة في سكون، ويغمغم بالكلمات الآتية:
إيه أيتها الأعمدة القوية الجبارة
التي ازَّينتْ ذات يوم تعظيماً لله
هاأنت ذي الآن مضطرة إلى أن تقدمي للمسيحية المشنوءة
فروض الطاعة في ذلة وخنوع
أنت على ممر العصور ترضين وتقنعين،
وأنت تحملين العبء بصبر واستسلام،
فكان جديراً بمن هو أضعف منك أن يكون أسهل انقياداً
وأسرع خضوعاً
ثم يطأطئ المنصور بن عبد الله رأسه ذا الوجه الطلق فوق
حوض المعمودية المزخرف في الكنيسة الكبيرة بقرطبة!
وهرول المنصور من الكنيسة مسرعاً،
فامتطى جواداً عتيقاً جموحاً انطلق به،
حتى صارت خصلات شعره المبللة
وريش قبعته تهتز في الريح
في الطريق إلى القليعة على ضفة الوادي الكبير
حيث تزهر شجيرات اللوز وشجيرات البرتقال ذات
الرائحة الزكية
هناك يسير الفارس المرح وهو يصفر ويغني ويضحك
والطيور تشاركه في شدوه
وخرير النهر يتابعه في طربه
وفي قصر القليعة تقطن (كلارا دي الفارس)
وولدها يحارب في نافار،
فهي تتمتع بحرية أوسع وأمَنة أوفر
ويسمع المنصور على بعد أصوات الدفوف والطبول،
ويرى أضواء القصر تتلألأ بين الأشجار والحقول
في قصر القليعة ترقص أثنتا عشرة سيدة بثيابهن المزركشة،
ويرقص اثنا عشر فارساً بحللهم المطرزة
ولكن أجملهم رقصاً وسمتا هو المنصور بن عبد الله!
كأن له جناحين من البهجة والسرور!
فهو يرفرف في القاعة هنا وهناك!
وهو يعرف كيف يقول لكل حسناء،
عبارات الملق والغزل والإطراء
فيدا (إيزابلاّ) الجميلتان يقبلهما بشغف، ثم يقفز مسرعاً
ويجلس إزاء (الفيرا) فيقبل عليها بوجهه الفرح
وهو يسأل (ليونورا) ضاحكاً:
هل كانت تحبه اليوم؟
وهو يريها الصليب الذهبي المطرّز في معطفه!
وهو يؤكد لكل سيدة أن صورتها مرسومة في قلبه

مقسماً ثلاثين مرة في تلك الليلة (ما أنا مسيحي!)
في قصر القليعة انتهى المرح وساد السكون
واختفى الرجال والنساء، وانطفأت الأنوار
وبقيت دونا كلارا والمنصور وحيدين في القاعة الكبرى
بينما كان آخر مصباح يبعث بضوئه في عزلة وانفراد
،فعلى المقعد الكبير تجلس السيدة
وعلى الكرسي الخشبي يجلس الفارس
ورأسه الذي أضناه التعب
يستريح على ركبتي حبيبته
وتصب دونا كلارا باحتراس وهي تفكر
عطراً من قنينة ذهبية فوق خصلات شعره الأسمر
وهو يتنهد من أعماق قلبه
وتطبع وهي غارقة في لجة التفكير قبلة حلوة من فم رقيق
على خصلات شعره الأسمر
فتعلو السحب جبهته
عبرات من عيون مضيئة
تسكبها الحسناء وهي تفكر
على خصلات شعره الأسمر
فيقبض سريعاً على شفتيه
ويحلم المنصور كأنه يقف ثانية مطأطئ الرأس والجبين
في كنيسة قرطبة الكبيرة
يسمع كثيراً من الأصوات العميقة
وكل الأعمدة الشاهقة يسمعها تتمتم محتجة متضجرة
فهي لا تريد أن تحتمل أكثر من هذا
وهي تميل وترتعد
وهي تتهدم مزمجرة، ويكفهر الشعب والقسس
وتهوى القبة في صوت عظيم
وتولول آلهة المسيحية
زكي محمد حسن
الكتب
1 - حياة محمد: للدكتور محمد حسين هيكل
2 - قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث
للأستاذ جمال الدين القاسمي
للأستاذ محمد بك كرد علي
عضو مجمع اللغة العربية الملكي
عضو مجمع اللغة العربية الملكي
- 1 -
مؤلف (حياة محمد) أشهر من أن يعرف، برع في تصوير الرجال وآخر ما كتبه سيرة أعظم رجل قام في الأرض، سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام. وقد وضع الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي مقدمة الكتاب وأبدع؛ وكاد الإجماع يتم على استحسان ما كتب المؤلف الذي قال إنه توخى الأسلوب العلمي الجديد، وما خلا كلامه من خطابيات تكررت معانيها، فخرج السفر عن الرسم الذي وضعه له صانعه أحياناً. ووقع له غير مرة أن مثل لبعض الظواهر في التاريخ المحمدي بحوادث عصرية لا دخل لها في الموضوع، فقد مثل في قصة زينب بنت جحش بمدام ركامبيه (ص291) ولا معنى لهذا الاستطراد

وأحسن المؤلف في تعليل بعض حوادث السيرة مما كان يتخذ منه من لا يقول بالإسلام سلاحاً يحاربه به على غير هدى، على حين اختلف أحبار الأمة في توجيهه، ومن ذلك مسألة تعدد زوجات الرسول. ووقع له (ص166) في الكلام على بيعة العقبة أن وجه صيغة بيعة النساء إلى الرجال، والآية الكريمة صريحة في أن الخطاب للنساء،

ولذلك سميت بيعة النساء (يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم)، وعن ابن عباس رضى الله عنهما في قوله تعالى (ولا يعصينك في معروف) قال إنما هو شرط شرطه الله
تعالى للنساء، ومعنى لا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن أي بولد ملقوط ينسبنه إلى الزوج فإن الأم إذا وضعت الولد سقط بين يديها ورجليها
وقد تابع بعض المؤرخين في دعوى أن الرسول اجتمع ببحيرا الراهب في بُصرى (ص 76) وأنه عليه السلام اتصل في رحلته الثانية إلى الشام (بنصرانية الشام وتحدث إلى رهبانها وأحبارها وتحدث إليه الراهب نسطور وسمع منه)، وهذه الرواية في اجتماع الرسول ببحيرا ونسطور لا تستند إلى أصل تاريخي صحيح، ولذلك أوردها ابن كثير في البداية والنهاية بصيغة الشك فقال: (زعموا) ولم يرد ذكر لبحيرا في كتب السريان؛ ومعنى بحيرا بالآرامية (المختار)، والذي يعنينا أن بحيرا اختلف الناس فيه: ومن قائل على ما في الروض الأنف أنه كان حبراً من يهود تيماء، ومن قائل على ما ورد في المسعودي أنه كان من عبد القيس واسمه سرجيس؛ وفي سيرة ابن هشام أن بحيرا كان إليه علم أهل النصرانية؛ ويقول ابن الجوزي في عيون التاريخ والسير إن أبا طالب لما ارتحل بالرسول تاجراً قَبِل الشام نزل تيماء فرآه حبر من اليهود، ويقال إنه بحيرا الراهب، فقال: من هذا الغلام معك؟ قال: هو ابن أخي، قال: أشفيق عليه أنت؟ قال: نعم، قال: فو الله لئن قدمت به الشام ليقتلنه اليهود. ويقول ابن كثير إن الذي يظهر من سياق قصة الراهب أنه كان راهباً نصرانياً. ويقول الزهري إنه كان حبراً من أحبار اليهود. واختلفوا في عمر الرسول يومئذ، منهم من قال إنه كان في الرحلة الأولى ابن سبع سنين، ومنهم من ادعى أنه كان لبن اثنتي عشرة سنة لما وافى بصرى في رواية، أو تيماء في أخرى. ويقول ابن سعد في الطبقات إن بحيرا قال لأبي طالب: احتفظ بهذا الغلام ولا تذهب به إلى الشام، إن اليهود حسد وإني أخشاهم عليه. وتناقض هذه الروايات في دين الراهب بحيرا أكان نصرانياً أم يهودياً، وتناقض الرواية في محل هذا الاجتماع: هل كان في تيماء أو في بصرى من أرض الشام يوقع الشك في أمرها، وكذلك الحال في الرحلة الثانية واجتماع الرسول بنسطور. والجواب لمن يريدون أن يتخذوا من هذه الرواية سنداً ليقولوا إن الرهبان كانوا يعرفون أنه سيظهر من العرب رسول تختم به الرسل ويدعو الناس إلى التوحيد؛ الجواب إن ذلك لا يتعلق به أمر كبير في إثبات نبوة الرسول؛ والجواب على أعداء دين الرسول من أنه أخذ عن هذه الرهابين أن ابن سبع سنين أو اثنتي عشرة وهو عابر سبيل مع أهله
لا يعرف الأخذ عن أحد، والرحلة الثانية إلى الشام لم تتجاوز مدتها الشهرين في أصح الروايات جيئةً وذهاباً، ونسطور هذا مجهول الهوية والمكان
وأهم ما فات المؤلف كونه لم يذكر أن المسلمين قوي أمرهم أول الإسلام بإسلام عمر بن الخطاب، وأنهم أخذوا يدعون إلى دينهم جهرة وكانوا يدعون إليه على تقية، ويصلون في دار الأرقم خائفين يترقبون أعدائهم من قريش، فأصبحوا يطوفون في الكعبة ظاهرين
- 2 -
يقول صاحب كشف الظنون إن التأليف على سبعة أقسام لا يؤلف عالم عاقل إلا فيها، وهي: إما شيء لم يسبق إليه فيخترعه، أو شيء ناقص يتممه، أو شيء مغلق يشرحه، أو شيء طويل يختصره، دون أن يخل بشيء من معانيه، أو شيء متفرق يجمعه، أو شيء مختلط يرتبه، أو شيء أخطأ فيه مصنفه فيصلحه. قال: وينبغي لكل مؤلف كتاب في فن قد سبق إليه ألا يخلو كتابه من خمس فوائد: استنباط شيء كان معضلاً، أو جمعه إن كان مفرقاً، أو شرحه إن كان غامضاً، أو حسن نظم وتأليف، أو إسقاط حشو وتطويل أهـ
وكتاب قواعد التحديث بأسلوبه في التأليف ينطبق عليه شرط الجمع فقط، جمعه مؤلفه من مظان كثيرة لعلماء ثقات في علوم الحديث ونسقه وجوّد النقل، ولا يكاد يثبت له فكراً ولا يرجح قولاً. فقد نقل في أول كتابه نحو مائة صفحة (الكتاب في أربعمائة صفحة) من أقوال القدماء، ثم أثبت له رأياً واحداً سُبق إليه (ص101) رجح

فيه رأي الجلال الدوّاني على رأي الشهاب الخفاجي في عدم التسامح بالأحاديث الضعيفة ولو كانت في شيء من الترغيب والفضائل

قدم الناشر للكتاب أربع مقدمات، ثلاثة لثلاثة من الأساتذة المعاصرين ورابعة للمؤلف، استغرقت كلها أكثر من عشرين صفحة، وما خرج الكلام في بعضها عن الدعابة والتمجيد. قلنا إن المؤلف اقتصر على نقل كلام غيره من أول الكتاب إلى آخره، ينقل عمن يروقه كلامهم من المحدثين وغيرهم، كما أخذ عن بعض المتصوفة ومَجّدَهم، وربما استشهد ببعض أقوال المعاصرين ونقل عن مجلات غاضاً عن ذكر أسمائها ترفعاً على ما يظهر

وكأن هذا السفر كان مجموعة من مفكرات يريد واضعها أن يضع كتاباً في هذا الفن ويقتبس أقوال المؤلفين الذين درجوا ثم بدا لبعضهم نشر هذه المفكرات في صورة مؤلف.

وكانت طريقة التأليف في عهود الاتقاء العلمي أن يأتي كلام المؤلف أكثر من شواهده، ولما ضعفت ملكة التأليف بعد عهد السيوطي أصبحت التأليفات عبارة عن نسخ أقوال من سلف، وقل أن تجد فيها جديداً للمؤلف، وربما كان الشيخ القاسمي رحمه الله، وهو من العلماء المنورين المكثرين من التأليف على هذه الطريقة في الجمع والنقل آخر من جرى على تلك الطريقة فاكتفى في أكثر تأليفه ببسط آراء غيره

أما طريقة التأليف اليوم فلإيجاز من دون إخلال بالمعاني، وإدماج آراء المتقدمين خلال تقرير المسائل، وإذا وقع للمؤلف بعض آراء متشابهة أشار إليها جملة واحدة، حتى لا يضيع على القارئ وقته وتملأ صفحات بلا داع. وعلى هذه الطريقة جرى المعاصرون من المصريين وغيرهم ممن كتبوا في موضوعات إسلامية أو عربية، تمثلوا ما وضعوه من المباحث أولاً ثم كتبوه في صحف لتنشر، مقتصرين على لباب ما قرأوا في موضوعهم، عازين ما لابد من عزوه لأصحابه تدعماً لأقوالهم من كتب القدماء أو المحدثين بأسلوب سهل سائغ خالٍ من الخطابيات والسجع، فجاءت مصنفاتهم كالسبيكة الذهبية، لا خلل في تضاعيفها ولا شقوق؛ وهم إذا اقتبسوا اقتصروا على محل الشاهد، وأعرضوا عن باقي ما قال المقتبس منه، لأن الكتاب ليس بكثرة أوراقه، بل بما حوى بين دفتيه؛ وكم من كتب للسلف وفت ورقاتها المعدودة بأكثر مما تفي المجلدات. وقد رأينا الكتب المنقحة عاشت أكثر من الكتب المطولة المنتشرة ولكل عصر ذوقه وطريقته

محمد كرد علي

العدد 105 - بتاريخ: 08 - 07 - 1935

الميت الذي لا يموت

الشيخ محمد عبده

بمناسبة ذكراه الثلاثين

عجب عجيب!! شيخ يلبس حلة مقطوعة الكم، ضيقة الردن، مبنقة الجيب، ويعتم) على طربوش كطرابيش الأفندية، وينتعل حذاء كأحذية الفرنجة، ثم يتكلم الفرنسية ويصاحب الخواجات، ويغشي بلاد الكفر، ويترجم كتب أوربا ويأخذ عن جمال الدين، ويدرس المنطق على رغم ابن الصلاح، ويريد أن يدخل في الأزهر علوم المدارس، ويشتغل بالأدب، وينشئ المقالات للصحف؛ ثم يحرم (الدوسة) وينكر الوسيلة ويحلل الموقوذة، ويسوغ لبس القبعة، ويجيز الربا في صناديق التوفير، ويحاول الاجتهاد، ويفسر القران على غير طريق السلف. . .!!

نعوذ بالله من شر هذه المحنة وعواقب هذه الفتنة، ونسأله أن يقبضها على منهج السنة وعقيدة الجماعة. . . .)

هكذا كان يقول جمهور (العلماء) في صحن الأزهر حين انبلج نور الإصلاح من جبين محمد عبده، كما كان يقول مشركو قريش في فناء الكعبة حين انبثق نور الهدى من غرة محمد رسول الله! لأن دعوة الدين فجأت الكعبة على دنيا مقلوبة الأوضاع، في الأخلاق والطباع، فقال الناس حين رأوا رجلاً رأسه في السماء ورءوسهم في الأرض: انظروا كيف يريد أن يبدل نظام الكون ويغير خلق الله؟! ولأن دعوة الإصلاح باغتت الأزهر على سكون كذهول البله، وخمود كغشية الموت، واستغراق كخدر الأفيون، من طول ما تنكرت له الأحداث، وطغت عليه البدع، وعثت فيه الجهالة، فارتد إلى مثل

تكايا الصوفية، أو صوامع الرهبان، يقطع أهله عن الناس، ويجري بهم إلى الخلف، ويعيش معهم في الماضي، ويجعل المثل الأعلى لرجل الدين أن يتوفر على مسائل الفقه، ويتقيد بآراء السلف، ويتعبد بألفاظ الموتى؛ فلما نبههم الإمام إلى أن الدين للدنيا، والعلم للعمل، والعلماء إنما يخلفون الأنبياء ليظل أثر الدعوة شديداً، وحبل الدين جديداً، وخلافة الله قائمة، فتحولت أعينهم على رجل يخالف سمته سمت البيئة، وزيه زي القوم، ورأيه رأي الحلقة، فاستوحشوا من ناحيته وأنكروه، ثم قالوا معتزلي مبتدع!

قال الأستاذ الإمام وهو ينفض باسماً ما حثوه على عطفيه من الظنون والتهم: لا صلاح للدين إلا بصلاح الأزهر، ولا قيامة للدنيا إلا بقيامة أهله! ثم استعان على خصومه بالإحسان والنصيحة والصبر حتى آمن من آمن، وهادن من هادن، فوضع يمناه في أيديهم، ويسراه في أيدي أولئك الذين فتنهم الغرب فانغضوا رءوسهم إلى مدينة الإسلام، وذووا وجوههم عن ثقافة العرب، يحاول أن يصل بين الثقافتين، ويوفق بين العقليتين، ويجعل من هؤلاء وهؤلاء وحدة متسقة الفكر، متفقة الهوى، متحدة الغرض، تؤلف بين الدين والعلم، وتقرب بين الشرق والغرب، وتصل بين الماضي والحاضر؛ فنجح على قدر ما ينجح الأنبياء والمصلحون في إبان الدعوة، يهيئون الأرض في رجف من الخصومة، ويبذرون البذر في عصف من المعارضة، ثم ينفثون في اتباعهم القليلين المخلصين أرواحهم الخالقة وقواهم الخارقة، ليكونوا من بعدهم أوصياء على الغراس، وشهوداً على الناس، وأدلاء على المحجة

لا ريب أن الإمام محمداً كان من أولئك الأعلام المصطفين الذين يوضح الله بهم طريق الإنسانية من قرن إلى قرن؛ وأخص ما تميزهم به الطبيعة متانة الخلق، وصلابة الرجولة، وشدة الأسر، وقوة الحيوية، وحدة الذهن، وصفاء الملكة. ورث عن أبيه وثاقة التركيب، وشجاعة القلب، فشب نابياً على الضعف، أبياً على السكون؛ يريد أبوه أن يكون تلميذاً كلداته في المكتب، فيأبى هو إلا أن يكون زارعاً كأخوته في الحقل! ويرسله أبوه إلى المعهد الأحمدي يطلب العلم، فيفر منه إلى مدارج السبل يطلب الفلاحة! لان حفظة القران وحملة الفقه كانوا موضع العطف من القلوب لقلة الكسب وضعف الحيلة؛ وحيويته تأنف الخمود، وحريته تأبى القيود، ورجولته تعاف الشفقة ثم لجأ إلى الشيخ درويش خال أبيه، وهو صوفي عالم من أهل البحيرة، سار في الأرض حتى بلغ طرابلس الغرب، فأخذ الشريعة والطريقة على السيد محمد المدني؛ والتصوف في المغرب يقوم على ذكر الله بالاستحضار، وتلاوة القران بالاستذكار، ورياضة النفس بالتأمل؛ فأخذ يروض جموح طبعه بالصلاة، ويلطف حميا شبابه بالذكر، ويطفئ غليل قلبه بالدرس، حتى فتح السبيل بين نفسه وبين الوجود الأبدي والكمال المطلق

ثم اتصل بالسيد جمال الدين فتولى عقله يثقفه بالمنطق، ويكلمه بالحكمة ويقويه بالملاحظة؛

فكان لهؤلاء الثلاثة: أبيه مربي جسمه، وشيخه مربي روحه، وأستاذه مربي عقله، أبلغ الأثر في تكوين صفاته وتوجيه حياته وتبليغ رسالته. . .

(للكلام بقية)

احمد حسن الزيات

كلمة وكليمة - 5 -

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

أرادوا مرة امتحان السياسيين في بلاغة السياسة، فطرحوا عليهم هذا الموضوع: سرقت حقوق أمة ضعيفة، فاكتب كيف تشكرها على هديتها. . .

عندما يشرب الضعفاء من السراب الذي تخيله السياسة لأعينهم - يقدمون لهم المناديل النظيفة ليمسحوا أفواههم. . .

لو سئل السياسي العظيم: أي شيء هو أثقل عليك؟ لقال: إنسانيتي

قد يبطل المنطق كل الحجج إلا اثنتين: حجة السياسي القوي حين يغتصب الضعيف، وأختها حجة اللص الفاتك حين يسأل من أين اشترى؟ فيقول: اشترت يميني من شمالي. . . . .

قالوا. نظم الصقر قصيدة من الغزل في عصفور جميل مصبغ الريش، فكان مطلعها:

(ما ألذ) ريشك أيها العصفور! هكذا لغة السياسة
مر فيلسوف برجل مصور بين يديه صورة امرأة قد صورها فاكثر عليها الحلي من الذهب والجوهر، فسأله في ذلك، فقال المصور: لم استطع أن اجعلها حسناء فجعلتها غنية. . . . كذلك أحزاننا السياسية لما عجزت عن حقيقة السياسة جعلتنا أغنى الناس بالكلام الفارغ
من تمام فضيلة الرجل السياسي أن يكون له كلامان: أحدهما سكوته
في الحب والسياسة لا يبدأ الإثم إلا كالفلتة المفردة؛ ولكن متى وقع الشاذ في السياسة والحب، صار هو القاعدة. . . .
إذا رأيت شباب أمة يتنبلون بالثياب والزينة، فاعلم أنها أمة كذب ونفاق: يغطون الحقيقة الرخيصة بالثوب الغالي، ويكذبون حتى على الأعين
فضيلة الملائكة عند الناس أنهم لا يكابدون ولا يحزنون؛ أفلا تكون فضيلة الناس عند الملائكة أنهم يكابدون ويحزنون؟
قالت العشرة للألف: أنت سرقت مني صفرين. . . . هكذا رأيت غرور بعض أدبائنا
يكبر بعض الأدباء من صغر المحيطين بهم؛ قالوا بعرت شاة حول قطعة من حجر، فنطقت بعرة فقالت للحجر: يا ما أعظمك أيها الجبل الشامخ. . .
يكون في بعض الأدباء في سخافة الحقد ما لا يكون مثله إلا في بعض النساء من دناءة الغيرة: لو ماتت ضرتها لبقى من ذنبها أنها كانت ضرة. . .
من فرض على الناس أن يعرفوه نابغة فقد فرض عليهم أن يعرفوه معتوهاً أو مغروراً
إذا أردت أن تتكلم عن ميت، فضع نفسك في موضعه ثم تكلم
من اكثر الشكوى إلى الناس، علمهم كيف يسمعون كلامه خالياً من الشكوى
إذا صدق الحب كانت بعض اللعنات فيه أحياناً ضرباً من التحايا (غيابياً). . .
كل معشوقة هي أعظم من عاشقها بحاجته إليها، ولو كان ملكاً وكانت خادماً؛ فما أحقر العظمة أحياناً
علمتني التجربة أنه لا يحسن استعمال البلاغة مع عجائز النساء، فإنهن يحسبنها غزلاً. . . .. فمن كتب لإحداهن فلا يجعلن كتابه متقدماً في الأدب بل متقدماً في السن
لا تكن صورة المرأة اجمل من الأصل إلا عند اثنين: العاشق، والمصور المكره على التزوير. . .
المرأة التي لا تعرف كيف تجعل كبرياءها وسيلة حب، لا تجعلها إلا وسيلة مقت
إذا أصبت زوجين يتمنى أحدهما موت الآخر، فلن تجد لهذا الآخر عملاً إلا أن يغيض صاحبه كل يوم بأنه لم يمت. .
اعظم الشعراء واعظم الفلاسفة من بلغ درجة الطفل. . . في جعل حكمه على الدنيا من الشعور لا من الفكر
تزول صفة الجمال عن الحبيب إذا لم يره محبه متصفاً بها؛ ولكن المشكلة هي: كيف يستطيع أن يراه غير جميل، وهو كأنما خلق من اجل عينيه خاصة؟
أيهما الذي تحبه المراة؟ الرجل القوي بأنواع القوة يعجبها فتراه سيدها وسيد قلبها، أم الرجل الضعيف أنواع الضعف ترى نفسها سيدته؟
هذا هو جواب طبيعة المرأة على طلب المساواة بين الرجال والنساء
من سخرية الحياة بالنابغة العبقري، أنه حين يؤخر عمله من عجز أو ضعف، يكون هذا هو كلما يستطيعه النابغة العبقري. . . .
لو اجتمع الذين ملأوا الدنيا بشهوتهم لما ملأوا داراً صغيرة؛ كأن منهم ممالك للتاريخ كممالك الأرض فلا يتسع إلا. لعدد محدود
لو كنت قاضياً ورفع إلي شاب تجرأ على امرأة فمسها أو احتك بها أو طاردها أو اسمعها، وتحقق عندي أن المرأة كانت سافرة مدهونة مصقولة متعطرة متبرجة - لعاقبت هذه المرأة عقوبتين: إحداهما بأنها اعتدت على عفة الشاب. . .، والثانية بأنها خرقاء كشفت اللحم للهر. . . .
لن يكون الإلحاد من العلم، فأساس العلم هو هذا: ما عرفته فقد عرفته، وما لم تعرفه فلا اقل من أن تقر بأنك لا تعرفه
إذا كنت قائداً عظيماً في أمة ذليلة فقيرة، استطعت أن تكون نبياً فيها بنصب شناقتين؛ وما أسرع ما يعتقدون أن الذي معه عزرائيل كالذي معه جبرائيل. . . .

ليس المصلح من استطاع أن يفسد عمل التاريخ فهذا سهل ميسر حتى للحمقى؛ ولكن المصلح من لم يستطع التاريخ أن يفسد عمله من بعد
. . . .كل أب يضرب أولاده المساكين هو نابليون، ولكنه نابليون داره فقط دجاجة القفص امرأة متحجبة في نظر الثعلب؛ وحجابها جهل وحماقة ورجعية وتخلف
. . . .عن زمن الثعالب
هنا مسالة اقتصادية: فهذا مسجد واسع مفتوح لا يؤجر بإيجار ينتفع به؛ وهذه كنيسة قائمة لا تستوفي الدولة عليها ضريبة. أفليس الإصلاح أن يحول المسجد دار صناعة مثلاً، وتنقلب الكنيسة مثلاً (خمارة)؟
بلى أيها الحاكم. إن هذا هو إصلاحك الطبيعي ما دام عقلك كيس دراهم، وما دامت
. . . .بلادك بلاد إفلاس
(طنطا)
مصطفى صادق الرافعي
دستور قناة السويس وهل نسخه ميثاق عصبة الأمم؟
للأستاذ محمد عبد الله عنان
منذ يناير الماضي تجوز السفن الإيطالية قناة السويس في كل يوم تقريباً، مشحونة بالجند والسلاح والذخيرة في طريقها إلى الإرترية والسومال؛ ولا تخفي إيطاليا الفاشستية بعد أن حشدت قواتها الزاخرة في شرق أفريقيا إنها مصممة على تنفيذ مشروعها الاستعماري الضخم في المنطقة الحبشية، وأنها لا تقبل ثمناً للعدول عن غزو الحبشة اقل من بسط حمايتها الفعلية عليها؛ إما الحبشة فأنها من جانبها تشهد جلدة متحفزة تلك الأهبة الضخمة التي تنظمها دولة قوية من دول الغرب المتمدين للبطش بها وسحقها من عداد الأمم الحرة، وزجها إلى حظيرة الأمم المستعبدة بعد أن لبثت آماد التاريخ دولة كاملة السيادة والاستقلال
وهذا المنظر الذي نشهده اليوم هو أحد هذه المناظر العديدة التي شهدها كثير من الأمم الشرقية والأفريقية الضعيفة منذ أواخر القرن الماضي، والتي تعرف في لغة الاستعمار الأوربي (بافتتاح أفريقية)؛ منظر الدول الغربية الكبرى تتسابق إلى بسط حمايتها على تلك الأمم، ثم تتقدم استعمارها واستبعادها خطوة فخطوة باسم المدنية والمصالح الاقتصادية والتهذيب الأوربي
ليس من موضوعنا أن نعرض إلى شيء من نواحي ذلك الصراع الذي سينشب في القريب العاجل في شرق أفريقيةوالذي تخوض فيه الحبشة معركة الحياة والموت؛ ولكنا نريد أن نعرض إلى مسالة يثيرها هذا الصراع في الوقت الحاضر، هي مسألة قناة السويس ونظامها الدولي في مثل هذا الظرف، وسنقتصر في بحثنا على الشرح الفقهي والتاريخي المحض
أبدى السير نورمان آنجل الكاتب الإنكليزي الكبير، واحد أقطاب الدعوة إلى السلام، رأيه أخيراً بأنه إذا نشبت الحرب بين إيطاليا والحبشة، فانه لا يجوز أن تبقى قناة السويس مفتوحة في وجه الفريقين المتنازعين، بل يجب أن تغلق دونهما، وإلا تمكن السفن الإيطالية من المرور فيها، كما أنه يجب إلا تمكن الحبشة من استيراد الذخائر عن طريقها؛ ويستند السير آنجل في رأيه إلى أن المعاهدات الدولية التي تكفل حرية الملاحة في القناة أثناء الحرب والسلم معاً قد نسختها نصوص ميثاق عصبة الأمم
ولبيان ذلك نقول إن النظام الذي تخضع له قناة السويس اليوم هو نظام الحيدة الدولية المطلقة، وهو النظام الذي كفلته معاهدة 29 أكتوبر سنة 1888 التي وقعت في استانبول بين الباب العالي، وبريطانيا العظمى، والمانيا، والنمسا والمجر، وفرنسا وإيطاليا، وأسبانيا، وهولنده، وروسيا؛ ونص في ديباجتها على أن الغرض من عقدها هو (الاتفاق الحر على نظام نهائي يكفل في كل الأوقات ولكل الدول حرية الملاحة في قناة السويس). وتحتوي المعاهدة على سبع عشرة مادة تنظم شروط الملاحة في القناة في أوقات السلم وفي أوقات الحرب
وهذه الحيدة المطلقة للقناة وقت الحرب تنص عليها المادة الرابعة من المعاهدة فيما يأتي: (تبقى القناة مفتوحة وقت الحرب. وقد اتفق المتعاقدون أعلاه على أنه لا تفرض أية ضريبة حربية أو يعمل أي عمل من شانه أن يخل بحرية الملاحة في القناة ذاتها أو في موانئ الوصول إليها، أو في قطاع من هذه الموانئ طوله ثلاثة أميال بحرية، وهذا

حتى لو كانت الدولة العثمانية هي إحدى الدول المتحاربة). وتنص المادة السادسة من المعاهدة على (أن قناة السويس تبقى مفتوحة في وقت الحرب شأنها وقت السلم، لكل سفينة تجارية أو حربية، لجميع الدول بلا تفريق. . . وتتعهد الدول الموقعة بأنها لا تقوم بأي عمل لعرقلة حرية الانتفاع بالقناة وقت الحرب، مثلما يجب ذلك وقت السلم؛ ويجب ألا تعرض القناة مطلقاً لمزاولة حق الحصار)

على أنه يحظر على سفن الدول المتحاربة المارة بالقناة وقت الحرب، بمقتضى نص المادة الرابعة أيضاً، أن تتزود من المؤن في القنال أو موانيه إلا بالقدر الضروري؛ ويجب عليها أن تخترق القناة بسرعة، وإلا تمكث في موانئ القناة اكثر من أربع وعشرين ساعة؛ ولا يسمح لها بان تنزل جنوداً أو ذخائر إلى البر. ويمكن أن يسمح لسفينتين حربيتين، كلتاهما بالبقاء في ميناء الوصول، ولكن لا يسمح لأي سفينة حربية بالبقاء في مياه القناة)

هذه هي خلاصة النصوص التي يقوم عليها نظام المرور في قناة السويس وقت السلم ووقت الحرب؛ وما تزال معاهدة سنة 1888 هي المرجع والحكم في هذا الشأن، وإن كانت بعض نصوصها الأخرى قد ألغيت بفعل الظروف والتطورات الدولية. مثال ذلك أنه قد نص في المعاهدة على أن تقوم الحكومة العثمانية باتخاذ ما يجب لتنفيذ المعاهدة؛ ولكن

الدولة العثمانية قد ذهبت واختفت من عالم الوجود، وفقدت تركيا كل حقوقها القديمة على مصر بمقتضى نصوص معاهدة الصلح (معاهدة سيفر) أولاً، ثم بمقتضى نصوص معاهدة لوزان (سنة 1923)؛ وهي حقوق يقضي المنطق والقانون بأن تؤول إلى مصر؛ ولكن مصر لم يعترف لها بهذا الحق؛ وينص تصريح فبراير سنة 1922 الذي تعترف فيه بريطانيا العظمى باستقلال مصر، على أن بريطانيا العظمى تحتفظ ضمن المسائل المعلقة بمقتضى التصريح بمسالة المواصلات الإمبراطورية، أو بعبارة أخرى بمسألة قناة السويس؛ ومن جهة أخرى فقد اختفت بعض الدول الأخرى التي اشتركت في عقد المعاهدة مثل إمبراطورية النمسا والمجر وروسيا القيصرية؛ وفقدت ألمانيا بمقتضى معاهدة الصلح كل حقوقها في مصر وفي جميع المعاهدات التي عقدتها مع مصر؛ وفيما عدا ذلك فنصوص معاهدة سنة 1888 ما تزال قائمة، وما تزال إلى اليوم دستور قناة السويس

والآن لنرى إلى أي مدى يمكن أن يتأثر هذا الدستور الذي يقضي بحرية الملاحة في القناة وقت الحرب، بنصوص ميثاق عصبة الأمم. وما يشير إليه السير أنجل من أن هذا الميثاق ينسخ دستور القناة نجده في المادة 20 من ميثاق العصبة؛ وهذا نصها؛ (يعترف أعضاء العصبة بان الميثاق الحالي يلغي كل التعهدات أو الاتفاقات الخاصة التي تتعارض مع نصوصه، وتتعهد بأنها لا تعقد في المستقبل أية معاهدة تتعارض مع هذه النصوص)، ولما كان دستور العصبة يقوم على فكرة السلام العام بين الامم، وعلى مبدأ التفاهم والتحكيم في تسوية المنازعات التي تقع بينهما، فان مثل هذا الدستور الذي وضع لقناة السويس منذ نحو نصف قرن، والذي يقضي بأن تسهل حرية المرور في القناة لسفن الدول المتحاربة، لا يتفق مع الغاية التي تعمل لها عصبة الأمم، وهي توثيق أواصر السلام بين الأمم، بل يغدو بالعكس عاملاً في تشجيع الحرب؛ ومثل هذه النصوص التي تتعارض مع روح ميثاق العصبة يجب أن تعتبر منسوخة لاغية

ولكنا نجد من جهة أخرى في ميثاق العصبة نصاً آخر ربما كان يناقض هذا الراي، فالمادة 21 من الميثاق تنص على (أن التعهدات الدولية مثل معاهدات التحكيم والاتفاقات الإقليمية مثل نظرية مونرو، وهي التي يقصد بها توطيد السلم، لا تعتبر متعارضة مع أي نص من نصوص هذا الميثاق). فإذا اعتبرنا معاهدة سنة 1888 داخلة في باب التعهدات الدولية أو

في باب الاتفاقات الإقليمية وهو الأرجح، فان ميثاق العصبة لا يمكن أن يؤثر على نصوص معاهدة سنة 1888. ونظرية مونرو كما نعلم هي قاعدة السياسة الأمريكية، وبمقتضاها تعتبر الولايات المتحدة الأمريكتين منطقة نفوذ معنوي خاص، لا يصح أن تمتد إليها يد أية دولة أوربية بالتدخل في شؤونها أو محاولة بسط نفوذها الاستعماري على أي جزء من أجزائها، وألا اعتبرت هذه المحاولة عملاً عدائياً موجهاً إلى الولايات المتحدة ذاتها. وكما أن النص هنا صراحة على استثناء نظرية مونرو الأمريكية قد وضع

نزولاً على رغبة السياسة الأمريكية، صاحبة الفكرة الأصلية في إنشاء عصبة الأمم، فكذلك قد يكون النص على استثناء الاتفاقات الإقليمية هنا تحقيقاً لرغبة السياسة البريطانية؛ وهي قد أصرت على اعتبار قناة السويس منطقة إقليمية تعلق عليها أهمية خاصة أولاً في تصريح فبراير سنة 1922 حيث احتفظت بمسالة المواصلات الإمبراطورية، وثانياً في التبليغ الذي اقترن بهذا التصريح إلى الدول، وفيه تعتبر أن التدخل في أمر العلائق المصرية الإنكليزية يعتبر عملاً غير ودي بالنسبة لإنكلترا على أن المعاهدات والنصوص وحدها لا تكفي، وهنالك الجانب العملي؛ واحترام هذه النصوص يتوقف دائماً على الظروف والاتجاهات السياسية. فمثلاً حينما قامت الحرب الروسية اليابانية سنة 1904، وكانت إنكلترا تميل فيها إلى جانب اليابان، لم تسمح إنكلترا بفتح قناة السويس في وجه الأسطول الروسي المسافر إلى الشرق الاقصى، واضطر هذا الأسطول أن يطوف حول إفريقية، وان يسير إلى الصين من طريق رأس الرجاء الصالح، وكان هذا السفر الطويل من عوامل إنهاكه وهزيمته بعد ذلك في موقعه تسوشيما (سنة 1905) وخسران روسيا للحرب، هذا مع أن روسيا إحدى الدول الموقعة على معاهدة سنة 1888 كما قدمنا. وفي الحرب الكبرى لم تحترم حيدة القناة ولم تحل المعاهدة الدولية دون تحصينها وإغلاقها في وجه الدول المعادية لإنكلترا ودول الحلفاء؛ وقد استأثرت إنكلترا وحلفاءها أثناء الحرب باستعمال القناة؛ ومن جهة أخرى فان ألمانيا وتركيا لم تحترما من جانبهما حيدة القناة؛ ونظمتا سنة 1915 أكثر من هجوم محلي على مصر من جهة القناة، وضربت شواطئها بالقنابل المخربة؛ واستمرت طوال الحرب منطقة حربية محضة تستأثر إنكلترا بالإشراف عليها وكذلك لا نستطيع في الظروف الحاضرة التي يحلق فيها شبح الحرب في شرق أفريقية أن تقف عند المعاهدات والنصوص في تقدير الدور الذي يمكن أن تؤديه قناة السويس في إذكاء هذه الحرب أو وقفها؛ فإيطاليا تستعمل القناة بملء الحرية لإرسال الجند والذخائر إلى شرق أفريقية؛ فإذا نشبت الحرب بينها وبين الحبشة فماذا يكون شأن القناة؟ هل تظل مفتوحة أثناء الحرب لمرور الإمداد الإيطالية، أو تغلق في وجهها؟ إن معاهدة سنة 1888 صريحة كما بينا في وجوب فتح القناة وضمان حرية الملاحة فيها أثناء الحرب بالنسبة للفريقين المتحاربين؛ ولكن النصوص وحدها لا تكفي هنا. وكل شيء يتوقف على ظروف العلائق بين إنكلترا وإيطاليا؛ فإذا كانت هذه العقائد مما يسمح بتأييد السياسة البريطانية لمشروع إيطاليا في غزو الحبشة، فان القناة ستبقى مفتوحة حرة؛ وإذا كان لدى السياسة البريطانية ما يحملها على الوقوف في وجه مشاريع ايطاليا، فقد تغلق القناة بالاستناد إلى ميثاق عصبة الأمم أو غيره من الأسانيد والنصوص.

وعلى أي حال فان المسالة في منتهى التعقيد والدقة، وأمرها مرهون بالظروف والمفآجات التي قد نثيرها الحوادث دون توقع أو تقدير

محمد عبد الله عنان

مات الشيخ بدر الدين!

للأستاذ على الطنطاوي

اليوم انقطعت رواية الحديث:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالا، فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا

أخرجه البخاري ومسلم والترمذي

كان أقل مزايا الشيخ بدر الدين الحسني أنه يحفظ صحيحي البخاري ومسلم بأسانيدهما، وموطأ مالك، ومسند أحمد، وسنن الترمذي وأبي داود والنسائي وأبن ماجة، ويروي لك منها ما تشاء كأنه ينظر في كتاب؛ وأنه يحفظ أسماء رجال الحديث وما قيل فيهم، وسني وفاتهم، ويجيبك عما شئته منها، وأنه يحفظ عشرين ألف بيت من متون العلوم المختلفة كالألفية والزبد والشاطبية والطيبة الخ. . . وأنه ألف نحواً من خمسين مؤلفاً قبل أن يتجاوز عمره الثلاثين؛ وأن له إطلاعاً في كافة العلوم حتى الرضيات العالية فقد أقرأها لطلاب شعبة الرياضيات في المدرسة التجهيزية فأدهشهم وأدهش بإطلاعه معلميهم؛ وأنه ما انقطع عن الدرس والتدريس يوماً واحداً منذ سبعين

سنة على زهادة عجيبة، وورع نادر، وترفع عن الدنيا ولذاذاتها مع الغنى الواسع والمال الكثير، وهو على الجملة آخر علماء السلف الصالح رضي الله عنهم
مر على دمشق في هذه السنين العشرين، من جليل الحوادث وفادح الخطوب، ما لو مر على الشامخات الرواسي لجعلها دكاً، أو وقع على الجلاميد الصم لصيرها هباء.
فأعدت له الإيمان الذي لا يزلزله رزء، والثبات الذي لا تزيله مصيبة، وصبرت عليه (صبر العظيم على العظيم). . . . حتى تعودت مس الضر، وألفت قوارع الدهر سهام ... تكسرت النِّصال على النصال (وصارت أن أصابتها)
وغدا أبناؤها لطول ما رأوا من البلاء، وما راضوا نفوسهم عليه من الصبر، لا يألمون لمصيبة، ولا يجزعون لنائبة، ويهتفون بالزمان كلما تعب من مساءتهم، فأقلع عن إيذائهم:
إن كان عندك يا زمان مصيبة ... مما تسوء به الكرام فهاتها
نكبت دمشق الحرب، فقلت الأقوات، حتى أكل الناس العشب. . . وباد الرجال: من لم يمت منهم برصاص الإنكليز والفرنسيين، ومن لم يمت من الجوع، مات على مشانق جمال باشا، حتى لم يبقى في دمشق إلا شيوخ ركع، ونساء جوع، وأطفال رضع. . . فشيعت دمشق من مات، وحدبت على من بقى، ما خارت ولا جزعت. . . (وصبرت دمشق)!
ثم كانت (ميسلون) فذبح (العمروط الأفاق) رب البيت، واستباح الحمى، وأراد أن يعدو على سليلة الشرف، وبنت الأكرمين، فصدته أروع صد، فأتى على الديار فجعلها حصيداً، كأن لم تغن بالأمس؛ وعادت دمشق من ميسلون، فإذا كل شيء قد انهار، وإذا الدار قواء، كأنما لم يشد فيها ملك، ولم تقم فيها دولة، ولم يكن لها استقلال. . . فدفنت دمشق بيدها أبناءها، وأقسمت على قبورهم (القسم الأحمر) وما بكت ولا شكت. . . (وصبرت دمشق)!
ثم كانت الثورة فهبت دمشق تعلن في أبنائها بأن قد جاء (الامتحان الأول) فاروني ماذا حفظتم من الدرس. . .
وكان الامتحان في دق الباب
فدقه الأبطال من أبناء دمشق دقاً ضوضى على جوانب السين، فثار الناس فزعون يقولون: ماذا؟
قيل: بردى يشتعل!. . . قالوا: أطفئوه بالنار!
فكانت المعركة بين الماء والنار. . . بين الدم والحديد. . . فرد الفتية العزل الجيش اللجب، فوقف سنتين دون نهر تورا لا يجتازه، وما عرضه بأكثر من (ستة أمتار)
ثم انتهى الامتحان، فدفنت دمشق أبناءها، وقامت دمشق المفجوعة على أنقاض دمشق المحرقة المهدمة فجددت القسم، وكانت ميسلون فصارتا ميسلون والغوطة. . . . (وصبرت دمشق)!.
ثم كان يوم (20) كانون، فأعلنت دمشق أن قد جاء الامتحان الثاني، وكان الامتحان في فتح الصندوق
فقالت القوة: لا! وقال الحق: نعم!
فكانت المعركة بين القوة والحق، فانتصرت نعم، وكسر الصندوق، ودفنت دمشق أبناءها، وجددت القسم، وصرن ثلاثة: ميسلون والغوطة والمرجة! (وصبرت دمشق)!
صبرت دمشق، ولم تجزع ولم تضطرب، ولم تقلقها هذه الحادثات ولم تبكها؛ ولكن كلمة واحدة سرت أمس في دمشق، فتقلقلت لها دمشق واضطربت، وخفت منها الأحلام، وضل عنها الصبر، فلم تعد تطيق صبراً، فانفجرت تبكي في نكبة اليوم النكبات كلها!
تلك هي الكلمة الرهيبة: مات الشيخ بدر الدين. . . .
كان الشيخ سر قوة دمشق، تلجأ إليه كلما دهمتها الخطوب، فتفئ منه إلى جنة وارفة الظلال، وتفزع إليه كلما حاق بها اليأس، فتجد عنده الأمل الباسم الذي يشق طريقاً للحياة وسط شعاب الموت، والثقة بالله التي تسمو بصاحبها حتى يجتاز العقبات كلها طائراً بجناحين من الشجاعة والثبات
وكانت كلمات الشيخ كأنما هي السحر، ينصب في أعصاب الشاميين إذ يسمعونها، فيقدمون لا يهابون شيئاً، كذلك الذي شرب ماء الحياة فلا يبالي - وهو لن يموت! - أي

أودية الموت سلك!
وكان الشيخ رمز العصور الذهبية الأولى، وصفحة حية من تاريخ المجد الإسلامي، وآية من آيات الله قامت في هذه الأيام المظلمة لتنيرها بنور الصدر الأول، كما ينير البدر الليل الداجي بنور الشمس المشرقة، ولكن ذاك بدر الدنيا، وهذا (بدر الدين)!
وكانت غرفة الشيخ في دار الحديث حمى قد حماه الله بهيبة العلم، وحجبه بجلال الإخلاص، فهي من دمشق الأموية أو العباسية، أو دمشق صلاح الدين، لا من دمشق (القرن العشرين)، وقفت عند عتبتها سطوة جمال باشا، وقوة الانتداب فلم يجتزها منهما شيء؛ وكان يجيئها أبداً العتاة الجبارون الذين يخشاهم البلد، ويجري حكمهم لا يرده أحد، فكانوا جميعاً من بشاوات وموسيوات. . . يخلعون نعالهم بأيديهم، ثم يدخلون مطأطئي رءوسهم حتى يجلسوا على ركبهم بين يدي الشيخ، خاشعة أبصارهم، ترهقهم ذلة، ثم لا يتكلمون إلا أن يسألهم، أو يأذن لهم بالكلام، وربما أعرض عنهم، وربما وعظهم أو علمهم، ولا يقول لهم إلا كلمة الحق، ولا يكلمهم إلا بلسان عالم من دمشق صلاح الدين!
فكان الشاميون حين يرون هذا لا يبالون، وفي دار الحديث هذا الجيش، بما كان في دمشق
من جيوش ودبابات وطيارات. . أفليس عجيباً أن هذا الشيخ ألهم أبن التسعين، قد سدّ الطريق على الزما ... ن وقام في وجه الخطوب!
والشيخ لا جرم نسيج وحده في هذا العصر، وهو بقية من المحدثين الأولين الذين ألفوا بسيرهم تاريخ المسلمين العلمي، أجل تاريخ علمي كتب أو يكتب إلى يوم القيامة. فقد لبث سبعين سنة، يشتغل بالدرس والتدريس والتقوى والعبادة، على خطة معروفة، وسنة مألوفة، ما تبدلت يوماً ولا تغيرت، إلا لمرض مقعد، أو أمر قاهر، أو سفر لازم؛ وقد بلغ من ثبات الشيخ وحسن ظنه بالله عز وجل أنه كان مرة في قطار الحجاز فوقف القطار في عرض البادية لشيء طرأ عليه، (وقد رأينا هذه البادية فإذا هي رمال ملتهبة، وشمس محرقة، ولا شيء سواهما) فنزل بعض القوم يصلون، ونزل الشيخ، فلما أحرموا بالصلاة وكادوا يركعون، صفر القطار، فانفضوا إليه فتعلقوا به وتركوا الشيخ قائماً. وسار القطار؛ (قال الراوي) فنظرت إليه فلا والله ما ألتفت ولا تحرك، فكدت والله أُجَنَّ، وأقبلت على من بيدهم أمر القطار فرجوتهم أن يقفوه فأبوا، فسقطت على قدمي كبيرهم حتى لان فأمر بالقطار فتقهقر حتى وقف على الشيخ فإذا هو جالس لم يسلم، فلما سلم قام فركب، وما يبالي بانقطاعه في البادية، ولا بالموت الذي يحوم حوله، ما دام قائماً بين يدي رب الأرض والسموات، ومن بيده الموت والحياة.
لبث سبعين سنة يفيق إذا عسعس الليل، فيصلي ما شاء الله أن يصلي، فيشعر بلذة العبادة، ويحس حلاوة الإيمان، ويسمو بنفسه عن الدنيا ولذاذتها حتى يحقرها وتهون عليه، فيصبح وهو يطير بنفسه في سموات الجنان والناس يمشون في حضيض الأرض ثم يمضي إلى الجامع الأموي فيصلي الصبح مع الجماعة، في مكانه الذي لم ينقطع عنه ثلاثة أرباع القرن، وربما ثبت عليه أكثر من ذلك، فقد جاوز رحمه الله التسعين، فإذا قضيت الصلاة عاد إلى غرفته، فلبث يقرأ ويقرئ إلى ما بعد العتمة، إلا أن يكون يوم الجمعة فيجلس للدرس العام يحدث الناس تحت قبة النسر من الظهر إلى العصر، لا يسكت ولا يتنحنح ولا يقف؛ يبدأ بحديث فيرويه مسنداً، ويستقري طرقه كلها، ويتحدث عن رواته، ثم يذكر شواهده من الكتاب والسنة، فلا يروي حديثاً إلا رفعه، ولا كلمة إلا عزاها، ثم يذكر ما أخذه منه الفقهاء من الأحكام ويوازن بينها، ويبسط الكلام فيما يتصل بذلك من
الفلسفة والتصوف والعلوم، وكان الشيخ في الفلسفة الإسلامية منقطع النظير وطالما حضر هذا الدرس جلة علماء دمشق ومن يزورها من علماء الأقطار، فخرجوا معجبين مُكْبرين؛ وطالما حضره الأطباء والمحامون وأهل الفلسفة والطبيعة، فخرج كل وقد امتلأ وطابه من وسائل الفن الذي يشتغل به، أو العلم الذي انقطع إليه وكان يمضي الدرسان والثلاثة ولم يتعد الشيخ شرح حديث واحد
ولم يكن يرد سائلاً، أو طالب علم؛ وكان يوليه ما شاء من وقته ووجهه؛ وكان إذا استفتى قال للسائل، أنظر كتاب كذا، وكتاب كذا؛ وربما دله على الصفحة التي يجد

فيها المسألة، لا يحب أن يفتيه هو
وكان يصوم الدهر، فإذا كان المساء أكل ما قدم إليه، ولم يعرف عنه في سفر ولا حضر أنه اشتهى طعاماً أو كرهه إلا مرة كان في سفر، فقيل له: ما نطبخ؟ فقال: ما شئتم!
قالوا: عندنا بامياء وفول وعدس. . . .
قال: هل قلتم إن عنكم فولاً؟
ففهموا أنه يشتهيه، ولم يرو عنه في هذا الباب أكثر من هذا. ولم يكن يشتم رجلاً أو يغتابه، ولم يكن يدع أحداً يغتاب في مجلسه وكان غاية تأنيبه إذا غضب أن يقول:
(يابا - وكانت تلك كلمته - لماذا أنتم هكذا؟) -
تواضع لله، فأناله الله رفعة ما أنالها سلطاناً ولا ملكا، وانصرف عن الدنيا فأقبلت عليه الدنيا، ودر عليه المال فما مسه ولا مد إليه يداً، واعتزل الناس ورغب عن الجاه، فأقبل عليه الناس، ورغب فيه الجاه، فما غيره ولا أقام للجاه وزناً، وابتعد عن الحكام، فتزلف إليه الحكام، ووضعوا بين أيديه دنياهم فما حاد عن دينه ولا رزأهم دنيا، ولا كتمهم نصحاً. . .
عاش فكانت حياته أعظم حياة، ومات فكان موته أفخم موت. وكيف لا يكون فخما، وقد كان الشيخ دولة وحده، وقد كان تاريخاً، وقد كان مجموعة كاملة من الفضائل كلها، تأكل وتشرب وتمشي؟
رحمك الله يا أيها الإمام العالم العظيم، ورزق دمشق الصبر على فقدك، وعوض منك المسلمين خيراً. . . .
فقد كنت تدراً للديانة مشرقاً ... وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر
علي الطنطاوي
الشعر الوطني في الأندلس
للأستاذ عبد الله كنون الحسني
كثر الشعر الوطني عند العرب في العصر الحديث كثرة عظيمة حتى طغى على غيره من الأغراض الشعرية، فأصبح لا يكاثره غرض آخر منها. وما ذلك إلا لأن البلاد العربية كلها قد مزق الاستعمار شملها، فأصبح أهلها خاضعين للنير الأجنبي يتشوقون ليوم الحرية تشوق الظمآن للماء البارد؛ فهم تارة يتغنون بالنصر الباهر الذي يكسبونه في موقعة ذلك اليوم، وتارة يستعرضون مواقف المجد والبطولة في تاريخهم الأدبي والحربي، فيثيرون بذلك شعور مواطنيهم للسعي إلى تقريب أمد ذلك اليوم الذي تشرق شمس الحرية فيه على ربوعهم فيعود إليها ما فقدته من العز والعظمة، وتارة ينعون على قومهم تخاذلهم وقعودهم عن حرب العدو المغير على أوطانهم، لافتين أنظارهم إلى ما يسومونهم من الخسف والعذاب، وما يبتزونه من أموالهم وخيرات بلادهم
وأخيراً، وعلى هذا المنوال، تكوَّن الشعر الوطني في العربية، وأصبح في المقام الأول من أغراضه الشعرية، فخلف بذلك المديح الذي كان يحتل هذا المقام من قبل
ونحن إذا رجعنا إلى ما قبل العصر الحديث من العصور المختلفة وقلبنا تطورات الشعر العربي في تلك العصور، لم نجد للشعر الوطني ذكراً ولا أثراً بين أقسام الشعر، ولم نعثر على ما يفيد أن هذه الظاهرة التي غلبت على الشعر العربي اليوم أمكنها في عصر من العصور أو طور من الأطوار أن تظهر، بَلْه أن تغلب على شعر شاعر من العرب أو من غير العرب فيمن نظم بالعربية، فتجرف غيرها من الظواهر وتكون هي المسيطرة على كثرة أشعار الشعراء كما هو الحال اليوم. ولذلك لما قال ابن الرومي أبياته المشهورة في هذا المعنى كانت عنقاءَ مُغرِب الشعر الوطني، فتداولتها الألسنة وأصبحت مثلاً يُضرب في طبيعة حب الناس لأوطانهم، وتلك الأبيات هي:
ولي وطن آليت ألا أبيعه ... وألا أرى غيري له الدهرَ مالكا
وحبب أوطانَ الرجال إليهمُ ... مآرب قضَّاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكَّرتهمُ ... عهود الصبا فيها، فجنوا لذالكا
ولا نعني بالشعر الوطني ما كان من قبيل العواطف المجردة عن المعاني المذكورة كهذا

الذي يكثر قوله في بلاد الغربة تشوقاً إلى معاهد الأحباب ومواطن الشباب، فإن هذا قد زخرت به العربية قديماً وحديثاً، ولم يخل عصر من أعصارها من لدن الجاهلية إلى الآن عن قوله والمكثرين منه. وما أشعار نجد والحجاز والعقيق ورامة وغيرها إلا بعض من كل، وقُل من جل، مما يتمثل فيه هذا اللون من الشعر العاطفي أحسن مثال.

ولكن ما نعني هو الشعر الوطني بمعناه الشائع الذي يصطبغ بالفكرة السياسية التي ألمعنا إليها من قبل؛ وهذا هو الذي يصح القول فيه أنه وليد التجديد الأدبي في العصر الحديث، وأنه لم يكن له وجود في العصور المتقدمة التي ازدهرت فيها الآداب العربية سواء في شبه الجزيرة نفسها، أو فيما اصطنع لغتها من البلدان بعد إشراق نور الإسلام فيها - اللهم إلا هذا القطر الأندلسي الذي عقمت الأيام أن تلد مثله في رقيه وحضارته، فإنه لابد أن يستثنى من العموم

ذلك أن عرب الأندلس الذين تقدموا الزمن بكثير في النضوج العلمي لم يجز أن يتخلفوا عنه في الإحياء الأدبي، فطلعوا على العالم العربي بالتوشيح الذي لم يستطع التجديد العصري حتى الآن أن يأتي بما يشبهه من حيث التأثير البليغ في تحرير الشعر من قيود البحور والقافية الثقيلة، وقد حاول المشارقة أن يأتوا بشيء في هذا الصدد فاستظهروا بالدوبيت، والكان وكان، والقوما وغيرها، ولكنه كان شيئاً غريباً عن الذوق العربي غرابة هذه الكلمات في اللغة العربية، وكذلك قالوا الشعر الوطني وأكثروا منه وتفننوا فيه، فانفردوا به عن سائر الشعوب العربية، وسبقوا إليه الأجيال الحديثة، وكان إحدى مأثراتهم الجليلة في النهوض بالأدب العربي من وجه عام

ولقد كان باعثهم عليه هو نفس ما بعث إخوانهم اليوم من تكالب دول النصرانية عليهم وإذلالها لهم في عقر بلادهم، ولذلك لم يوجد في عهد الفتح وعهد الأمويين إذ أمر العرب مقبلٌ وشملهم جميع، وإنما وُجد بعد أن ضعف لسانهم ودالت دولتهم وصاروا يشهدون سقوط ممالكهم الواحدة بعد الأخرى، وحصون بلادهم في قبضة العدو فلا ترجع إليهم أبداً؛ وعرفوا الغاية التي إليها يسيرون، والمصير الذي منه يقتربون، فاشتد رعبهم وهلعت قلوبهم، فبكوا واشتكوا ونظموا الأشعار الوطنية في تحميس الناس للدفاع عن حقيقتهم والاستماتة في صون كيانهم، معرضين بما يؤول إليه أمرهم هناك من الذل والاستكانة وطمس معالم الحضارة والدين

ولقائل أن يقول إن مثل هذه الأحوال قد صار في بلاد المشرق ولا سيما في عهود الحروب الصليبية يوم سلبت من الإمبراطورية العربية أثمن درة في تاجها: مصر وبلاد الشام، ومع ذلك فلم تتفق قرائح الشعراء هناك بالشعر الوطني ولم يظهر منهم من جال في ذلك الميدان، فما السبب في ذلك؟ لعل للعجمة التي كانت قد بدأت تعقل اللسان العربي في ذلك العهد من جراء ظهور سلطان الأعجام في بلاد العرب وضعف الإنتاج الأدبي تبعاً لذلك، تأثيراً مباشراً في عدم ظهور هذا النوع من الشعر في بلاد الشرق وإن وجدت البواعث. على أن هذه الأحوال وإن لم تبعث على قول الشعر الوطني كانت السبب في ظهور فن من فنون الأدب لا يقل خطراً عن الشعر مطلقاً وهو فن القصص، فان من المعلوم أن كثيراً من هذه القصص الحماسية كعنترة وسيف بن ذي يزن وغيرها إنما وضعت في هذا العهد الصليبي، وفي مصر بالخصوص، لتضرب للناس أمثلة من الشجاعة العربية يخلق بهم أن يحتذوها في صد هجمات المغيرين من ذئاب الغرب على بلاد الإسلام، وهي وإن كانت عامية التأليف تدل على أن المشرق لم يقف واجماً بازاء تلك الحوادث الكبرى وإن لم يهتد إلى الشعر الوطني كما اهتدت إليه الأندلس!

ونقفك الآن على نماذج من الشعر الوطني الأندلسي لترى أنه لا يكاد يتميز عن الشعر العصري الوطني في وصف من الأوصاف. ولا ننقل لك شيئاً من قصيدة صالح بن شريف الرندي في رثاء الأندلس، وإنما نشير إليها فأنها شهيرة لا تخفى على تلاميذ المدارس الابتدائية الإسلامية!

فانظر إلى هذه القطعة للأديب أبي عبد الله الفازاني يصف فيها الفوضى الغاشية على بلاد الأندلس وتخاذل أهلها عن الدفاع عنها بل وإعانة الأعيان منهم على خرابها! ويستشف من الغيب المآل الذي تؤول إليه إن دامت على تلك الحال، فيسأل الله تعالى أن يلطف بعباده ويرحمهم:

الرُّوم تضربُ في البلادِ وتغنمُ ... والجورُ يأخذُ ما بقى والمغرمُ

والمالُ يورد كله قشتالةً ... والجند يسقط والرعيةُ تسْلَمُ
وذوو التعيش ليس فيهمُ مسلمٌ ... إلا معين في الفساد مُسَلَّم
أسفي على تلك البلاد وأهلها ... الله يلطفُ بالجميع ويرحم
وانظر إلى هذه القطعة أيضاً لأبي المطرف بن عميرة يقف فيها موقف اليائس البائس يمتنع حتى عن الاستسقاء لبلاده، ويتساءل في حزن وحقد كيف يمكن أن يدوم وداده لهذه الديار، التي ألقت بطاعتها للأغيار:
زدنا عن النائبين عن أوطانهم ... وإن اشتركنا في الصبابة والجوى
أنا وجدناهم قد استسقوا لها ... من بعدما شطّت بهم عنها النوى
ويصدنا عن ذاك في أوطننا ... مع حبها، الشِّركُ الذي فيها ثوى
حسناء! طاعتها استقامت بعدنا ... لعدونا، أفيستقيم لها الهوى؟
وله أيضاً يشير إلى انتقاله من بلد إلى بلد لاستيلاء العدو على البلاد واحدة فواحدة، من قصيدة طويلة:
كفى حزناً أنَّا كأَهلِ مُحَصَّبٍ ... بكل طريق قد نفرنا وننفر
واستمع إلى هذين البيتين اللذين قيلا في أهل بلنسية، وما أكثر انطباقهما علينا اليوم:
لبس الحديدَ إلى الوغى ولبستمُ ... حلل الحرير عليكمو ألوانا
ما كان أقبحهم وأحسنكم بها ... لو لم يكن ببَصَرْنَهٍ ما كانا!. .
ولابن الأبار من قصيدة طويلة يخاطب بها السلطان أبا زكريا ابن أبي جعفر صاحب أفريقية:
أدرك بِخَيْلك خيل الله أندلسا ... إن السبيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست ... فلم يزل منك عز النصر ملتمسا
يا للجزيرة أضحى أهلها جَزراً ... للحادثات وأمسى جدّها تعسا
في كل شارقة إلمام بارقة ... يعود مأتمها عند العدا عُرُسا
يا للمساجد عادت للعدا بِيَعاً ... وللنداء غدا أثناءها جرسا
لهفي عليها إلى استرجاع فائتها ... مدارساً للمثاني أصبحت دُرُسا
وقصائد الاستنجاد بملوك العدوة كثيرة، يستدعي إيرادها أو الإشارة إليها فصولاً، ولكن لا بأس بإيراد شيء من قصيدة في هذا المعنى لإبراهيم بن سهل الإسرائيلي، وهي كافية للدلالة على قوة العاطفة الوطنية عند أهل الأندلس، لأن هذا الجنس من الناس ملموزٌ بضعف هذه العاطفة، فصدور هذه القصيدة عن فرد منه دليل على ما قلنا:
وِرْداً فمضونٌ نجاح المصدرِ ... هي عزة الدنيا وفوز المحشر
يا معشر العرب الذين توارثوا ... شيم الحميةِ كابراً عن أكبرَ
إن الإله قد اشترى أروحكم ... بيعوا! ويهنيكم وفاء المشترى
أنتم أحقُّ بنصر دين نبيكم ... وبكم تمهد في قديم الأعصر
أنتم بنيتم ركنه فلتدعموا ... ذاك البناء بكل لدن أسمر
لكم عزائم لو ركبتم بعضها ... أغنتكم عن كل طرف مضمر
الكفر ممتد المطامع والهدى ... متمسك بذناب عيش أغبر
والخيل تضجر في المرابط غيرة ... ألاَّ تجوس حريم رهط الأصفر
كم نكروا من معلم، كم دمّروا ... من معشر، كم غيروا من مشعر!
كم أبطلوا سنن النبي وعطلوا ... من حيلة التوحيد صهوة منبر!
أين الحفائظ مالها لم تنبعث؟ ... أين العزائم مالها لا تنبرى؟
أيهز منكم فارس في كفه ... سيفاً ودين محمد لم ينصر؟
ونختم هذه الكلمة بتنبيه قومنا إلى تاريخ هذه الفاجعة العظيمة فان فيها عبرة لمن يعتبر
(طنجة)
عبد الله كنون الحسني
عمل عظيم
للأستاذ محمد بك كرد علي
لو كل بلد إسلامي قام بواجبه قيام المسلمين في مدينة بيروت ثغر الشام، لاضمحلت الأمية علة العلل في هذا المجتمع، ولزاد في بنيه عدد المتعلمين وأرباب الصنائع، وعلى تلك النسبة كانت تزيد الثروة والرخاء، ولنجا المسلمون من مشاكل كثيرة،

وبرئوا مما يتهمهم به أعداؤهم من أن دينهم لا يفسح لهم مجالاُ للنور والثقافة
أسس المسلمون في بيروت في سنة 1296هـ جمعية دعوها جمعية المقاصد الخيرية
الإسلامية، وعنيت مدة بتعليم النشء الجديد يومئذ ثم طرأت عليها طوارئ شلت
حركتها، ومن أهمها أن الحكومة العثمانية ما كانت تحب استرسال المسلمين في سبل
التعليم، على حين كانت تتغافل عن المسيحيين يتعلمون في مدارسهم الطائفية
ومدارس المبشرين ما شاءوا وشاءت دول الاستعمار
ولما انتدبت فرنسا على الديار الشامية بعد الحرب العامة، كان أول ما فكر فيه
المسلون إعادة جمعية المقاصد الخيرية الملغاة، خصوصاً وقد رأوا كلمة التبشير تقوى،
فهبوا إلى التذرع لإحياء جمعيتهم في سنة 1338هـ وأخذوا يجمعون أموالاً، واستوهبوا
أرضاً عظيمة من الأوقاف أقاموا عليها مخازن وحوانيت ومقاهي، فكان لهم منها باخرة
ريع لا يقل عن عشرة آلاف ليرة عثمانية ذهباً في السنة يدخرون نحو ثلثها مالاً
احتياطياً، ولا يفتأون كل عام يجمعون مبلغاً تنتظم به مالية جمعيتهم
وجعل أولئك العاملون هدفهم الأسمى إنشاء مدارس لتربية البنين والبنات، وتثقيفهم
بالثقافة الحديثة التي تنطبق على التعاليم الإسلامية، وإعدادهم ليكونوا عاملين منورين
أقوياء في عقيدتهم الدينية والقومية؛ وزادوا في مناهج البنات على مناهج البنين -
والعلوم النظرية واحدة في جميع مدارسهم - دروساً عملية في تدبير المنزل، تتناول
الطبخ، والخياطة على اختلاف أنواعها، والأشغال اليدوية، والرسم، والموسيقى، وتربية
الأطفال
أصبح لهذه الجمعية في مدينة بيروت سبع مدارس للذكور والإناث، منها مدرستان
ثانويتان، إحداهما للصبيان والثانية للفتيات، أطلق على كل واحدة منهما اسم (كلية).
وقد نجح تلاميذها في السنة الغابرة نجاحاً باهراً، وكان فيهم ثلث من نجحوا في
الجمهورية
اللبنانية في إحراز شهادة البكلوريا؛ هذا وبيروت مدينة المدارس، ومنها ما يرد عهد
تأسسه إلى ستين أو سبعين سنة. وبلغ مجموع ما في مدارس البنين والبنات في
بيروت في سنة 1934 - 3130 طالباً وطالبة؛ وللجمعية عناية فائقة بمدارس رياض
الأطفال
ساهم المسلمون على اختلاف درجاتهم في الثروة في قيام هذه المدارس، يمدونها
بما تصل إليه أيديهم من المال كل سنة، وكانت مدارسهم في هذه الأزمة الخانقة أقل
دور العلم تأثراً بالحالة الاقتصادية والمالية، ذلك لأن مدارس الجمعية تدار بأيدٍ رشيدة،
لا يسرف في مالها أيام الرخاء، ويراعى في الإنفاق العام الحاضر كما تراعى الأعوام
المقبلة
ولما رأت الجمعية أن التبشير يسري بسرعة في القرى الإسلامية من عمل بيروت
هبت لجنة من أعضائها وغيرهم بمعاونة الجمعية نفسها، وكونت لها رأس مال وبدأت
بإنشاء المدارس في القرى في سنة 1340هـ فكان لها منها الآن ثنتان وأربعون
مدرسة فيها ما يربو على الألفي طالب وطالبة يتلقون التعليم الابتدائي الصحيح على
منهاج التعليم في الجمعية
ولم تكتف جمعية المقاصد بما أتت، بل عمرت لها في بيروت مستشفى ذا طبقتين
يحتوي على اثنتين وثلاثين غرفة، منها ما هو بمساحة مائة وعشرين ذراعاً مربعاً،
وجهزته بستة وسبعين سريراً، وبلغ ما أنفق على بنائه 2 , 311 , 159 غرشاً سورياً أو
نحو أربعة آلاف ومائتي جنيه عثماني ذهباً، ونشطت المدارس الأهلية الأخرى وعاونتها،
وتولت برجالها مراقبتها وإرشادها، ورممت بعض المساجد في الحاضرة والضاحية،
ومنحت معاونات لمن يريد التخصص في مدارس الشرق أو مدارس الغرب، وعاونت
حفظة القرآن وسهلت سبل إتقان حفظه، كما بسطت يد معونتها للمولعين بالفنون
الجميلة إلى غير ذلك
هذه الأعمال الجليلة قامت بقروش قليلة جمعت من أهل البر والخير جمعها الغُيُر على
أبناء دينهم، فتألف منها رأس مال لا يستهان به؛ وبهذه الصورة يكافح البيروتيون الأمية،
ويرجعون إلى حظيرة الدين من كانوا على وشك أن ينسلخوا منه، وكل ذلك بمعاونة
المستنيرين من المسلمين وفضل رئيس الجمعية عميد بيروت وعين أعيانها عمر بك

الداعوق الذي كانت طريقته وطريقة أعوانه أن يعملوا ولا يقولون، ويبذلون مالهم ووقتهم ولا يمنون ولا يتبجحون
قرت العيون بهذا العمل الخطير الذي كان سداه الإخلاص، ولحمته حب الدين والمدينة، فدفعت جمعية المقاصد الخيرية أبناء أمتها خطوة إلى الأمام، وغدا الأمل بالمستقبل أعظم من الماضي، في محيط تنفق فيه مدارس التبشير للأميركان والفرنسيين وغيرهم عن سعة؛ وقل في الشرق الأدنى بلد ظهر فيه نشاط المبشرين ظهوره في هذه القطعة الصغيرة من الديار الشامية؛ وقل أن كتب لبلد قاوم المبشرين بمثل سلاحهم كمدينة بيروت. ونعود فنؤكد لو أن كل بلدة حذت حذو النابهين من أبناء بيروت لقضى مع الزمن على الأمية في المسلمين. وجوهر كل نهضة في عقول الرجال، ولا نجاح في الأعمال لغير المخلصين المثابرين
دمشق
محمد كرد علي
دولة المماليك في حكم التاريخ
للأستاذ ظافر الدجاني
لعل تاريخ الشرق الأدنى في عهد الحكومة الإسلامية أحفل التواريخ بما يملك على النفس جوانب الفكر والخيال، ويوحي إليها أبلغ ضروب الحكمة والموعظة، لأنه كان مسرحاً لظهور بعض الدويلات الإسلامية الغريبة في نشوئها ومظاهر حكمها ومبلغ تأثيرها في مجرى تاريخه العام ولعل أغرب هذه الدويلات، دولة المماليك في مصر، التي اختلست من الدهر ما يزيد على خمسين ومائتي سنة، كان المملوك فيها مالكاً والمغلوب غالباً، فكان يتخللها من المؤامرات والدس وأهوال الاستبداد ما لا نظير له في تاريخ المجتمع البشري. على أنها والحق يقال ليست أول محاولات هذه الطائفة البشرية لاغتصاب الحكم والاستبداد به والانتقام من الجنس الإنساني عامة لما ألحقه بها من ضروب الفظاعة والقساوة، فقد شهد تاريخ رومة الخالد، قبل ظهور النصرانية، كثيراً من هذه المحاولات الجامحة التي باءت جميعها بالفشل والخذلان بعد أن روعت العالم وضربت له مثلاً صارماً فيما يستطيعه أبناء المماليك، بل أبناء كل طائفة مظلومة، في ميدان التمرد والانتقاض ومقايضة الجور والأذى الصاع منهما بصاعين. ولعل هذه الدولة كانت أكبر انتصار أحرزته هذه الطائفة، بل لعلها أروع مظهر لجموح أخلاقها، وتعدد الخوالج التي كانت تتجاذب نفوسها وتتنازعها إلى مسالك الخير والرجولة وجلائل الأعمال ومفاوز الشر والجريمة والآثام!
ففي الحق أن هذه الدولة لعبت دوراً خطيراً على مرسح الحياة السياسية العمرانية في الشرق الأدنى حتى ليعزى إليها أكبر الفضل في صد هجمة التتر المنبعثة من أعماق المشرق؛ قال ابن خلدون: (حتى إذا استغرقت الدولة في الحضارة والترف، ولبست أثواب البلاء والعجز، ورميت الدولة بكفرة التتر الذين أزالوا كرسي الخلافة وطمسوا رونق البلاد، وأدالوا بالكفر عن الإيمان بما أخذ أهلها عند الاستغراق في التنعم والتشاغل في اللذات والاسترسال في الترف من تكاسل الهمم، والقعود عن المفاخرة، والانسلاخ من جلدة البأس وشعار الرجولة؛ فكان من لطف الله سبحانه أن تدارك الإيمان بإحياء رمقه وتلافي شمل المسلمين بالديار المصرية بحفظ نظامه وحماية سياجه بأن بعث لهم من هذه الطائفة التركية وقبائلها العزيزة المتوافرة أمراء حامية وأنصاراً متوافية يجلبون من دار الحرب
إلى دار الإسلام في حقارة الرق) فكانت تنقضي أيام هذه الطائفة في التنقل من ميدان إلى ميدان، ومن حصن إلى حصن، في مختلف أنحاء سوريا وفلسطين، وقد اندحر التتر في أكثر من واقعة واحدة؛ كواقعة (عين الجالوت) التي كان النصر فيها حليف المسلمين، فهلك كتبوغا زعيم التتر، ومزقت جموعه كل ممزق كما هلك خليفته أيضاً وجموعه من بعده، عند ما حاربهم الملك الظاهر بيبرس، وردهم على أعقابهم خاسرين متعثرين في أذيال الهزيمة، وكانت سوريا في خلال ذلك ميداناً لجهاد هؤلاء المماليك العنيف ضد الحملات الصليبية فامتلأت بجيوشهم وزهرة فرسانهم، وما زالوا يذرعون أرضها صعوداً وصدوداً، متكاتفين متكالبين حتى انتزعوا السلطة من أيدي الصليبيين، واستخلصوا منهم القلاع والحصون، فافتتح الملك الظاهر بيبرس حصن صعد وسيس، وسيس هذه كانت كعبة المجاهدين من أبناء المماليك لأنها مدينة نصرانية،

فكان أهلها يظاهرون الأرض على جيوش المسلمين
وكان العلويون والحشاشون، وهم من الباطنية، أصحاب سلطة ونفوذ، وكان قد دوخهم هولاكو في حملته المشهورة، ودمر حصونهم وقلاعهم فاستأصل أبناء المماليك شأفتهم، وحرروا سوريا من ربقة مظالمهم في عهد الملك الظاهر بيبرس المذكور. وكان الملك الظاهر بيبرس هذا قد استقدم ابن الخليفة الظاهر بأمر الله آخر خلفاء الدولة العباسية في بغداد، فأكرمه وقلده الخلافة ولقبه (المستنصر بالله)، فأصبحت القاهرة مركز الخلافة الإسلامية بعد أن كان مركزها بغداد. وبقيت هنالك حتى مقدم العثمانيين. ولكن الواقع أن سلطة هؤلاء الخلفاء كانت مقيدة لا تعدو أمور الدين والزعامة الدينية. وإنما أكد حاجة المماليك إلى هذه الخلافة الوهمية رغبتهم في وسم حكومتهم بطابع ديني شرعي حتى تنهض حجتهم ويستقيم أمرهم بين جماعات المسلمين
وأخيراً لا ينبغي أن ننسى أن هؤلاء المماليك قد خلفوا كثيراً من الآثار والأبنية التي تشهد لهم بالتقدم في فن العمارة وفي الري والعمران، فقد شيدوا المساجد والمدارس والقصور والمستشفيات، وعمروا القناطر والترع، وحفروا الخلجان، ووسعوا الأوقاف من كل ناحية. وكانوا يتبارون في ذلك حتى عمر القطر المصري والبلدان المجاورة التي خضعت لحكم المماليك بجليل الآثار. فعمر الملك الظاهر الحرم النبوي، وقبة الصخرة، وقناطر شبرامنت
بالجيزة، وقلعة دمشق، وعمر المدرسة بين القصرين بالقاهرة، وحفر خليج الإسكندرية، وبنى قرية الظاهرية. وشيد الملك الناصر القصر الكبير الأبلق، وعمر الديوان الكبير والجامع الكبير الذي بالقلعة، وعمر المجراة وأجراها من بحر النيل إلى القلعة، وحفر الخليج الناصري، وعمر قناطر أم دينار
على أنه مهما قيل في حسنات هؤلاء المماليك فثمت ما يقال في سيئاتهم وفيما خلفوه من آثار البطش والجور والإرهاق، لخبث سيرتهم وعظيم جورهم، وغلبة القسوة وشهوة الاستبداد على طبائعهم، أولئك الذين كانوا في الأمس عبيداً أرقاء! فكان السلطان منهم مستبداً في أمره لا وازع يكفه عن عمل الموبقات؛ وكانوا فوق ذلك لا يعرفون (مبدأ الوراثة) في الحكم، فكان القوي منهم ينتهز الفرص للتفرد بالحكم والاستبداد بالضعيف، فكان ذلك الوقت وقت تشاغل وفرص، بل وقت مؤامرات تحاك في الخفاء، فلا يسلم منها الشعب، ويصيبه من جرائها كثير من الجور والإرهاق. وكانت الضرائب غير مقيدة بقانون أو وازع ديني أو إنساني، وإنما كانت تتفاوت في الزيادة والنقصان حسب الظروف والأحوال ومشيئة السلطان
ولم تكن مصر مع ما ذكرنا بأسوأ حالاً من سورية وفلسطين، ولا سيما وأن الأخيرتين كانتا ميداناً للحروب والمناحرات. وهكذا ضج الناس وعم الفقر، وانتشر الجهل والبلاء. وكان المجد العربي والعزة العربية والخلق العربي قد أمحت جميعها من أذهان العامة، فأصبح الناس لا يبالون بمن يولونه قيادهم، ويسلمون له زمام أمورهم، وإنما يطلبون العدل والإنصاف!
وفي وسعنا المضي في هذا السبيل القاتم، ولكننا نخشى ألا يكون في ذاك فائدة بعد أن دللنا بالقليل على الكثير، وهذه كتب التاريخ حفلة بمظاهر الجور بل بمشاهد الفقر والذل التي سادت الشرق العربي في ظل حكم المماليك
يافه
ظافر الدجاني
أ. ع
من مشاهير الشرق
طائفة البهرا في الهند ومجالسهم في عدن - 1
بقلم محمد نزيه
منذ عنيت الصحافة المصرية بأنباء الهند، وهي تذكر عن مكاتبيها في تلك البلاد النائية جماعة البهرا وشيخ البهرا بكثير من الإجلال والعناية، ولقد طالما رأيت مذ شهدت الشيخ ومسست حياة جماعته أيام رحلتي في الهند أنهما حقيقان بعدة فصول تجمع إلى طرافتها فائدة التعريف بجماعة من جماعات الإسلام لها خطرها في الهند، على الرغم من أنها قليلة العدد لا يكاد أفرادها يجاوزون الثلثمائة ألف هندي مسلم، إلا أن

التماسهم أرقى وسائل التعاون وأجدى أسباب الارتباط قد أغناهم عما يراد بالكثرة من قوة وعتاد

والبهرا طائفة من طوائف الشيعة يطلق عليها في العربية اسم (الشيعة الداوودية) نسبة إلى رئيسها الأول، وقد كان باليمن ثم انتهى به العزم إلى الهند، فحط الرحال في صحبة من أتباعه بمدينة كجرات، على ساعات بالقطار من (بمبي)، منذ نيف ومائة سنة، وبمبي إذ ذاك في عالم الغيب

وإذا كانت جماعات الشيعة قد عرفت بأوضاعها الخاصة وتقاليدها المستقلة في الدين والاجتماع، فإن شيعة البهرا أو شيعة الداوودية قد عرفت في جماعات الشيعة نفسها بعقائد وتقاليد تدير حولها سياجاً يفصلها عن غيرها فصلاً تاماً؛ فهي تعتقد أن المهدي المنتظر سيكون من سلالة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، وتذهب إلى تخصيص فرع معين من فروع الدوحة النبوية، على أن المهدي سيكون من ثمره، أو على أن نبوة المهدي تكمن فيه، وهي إذ كانت لا تعرف موعد ظهور الرسول الجديد، لا تفتأ تنتظره دون تعجل ولا ملالة، وتتمثله في واحد من الأحياء الذين ينتظمهم هذا الفرع المعين، فإذا حان حينه فقد استخلف على رسالة المهدي وريثاً من أبنائه، وما تزال أمانة النبوة تتنقل في صندوقها المقفل من وريث إلى وريث، ومن عصر إلى عصر، حتى يتهيأ الزمن لاستقبال هذه النبوة الجديدة، وحتى يرى الله أن قد استفحل الضلال فلا مناص من إنقاذ الدنيا، فيأمر فإذا بصاحب الصندوق قد فتحه وأصاب فيه عدة النبوة وخاتمها، وإذ ذاك يظهر المهدي المنتظر. أما هذا الذي تكمن فيه نبوة المهدي، فيظل نكرة لا يعرف سره من الناس إلا الشيخ الأعلى لجماعة

البهرا، يجتمع به كل ليلة في خلوة مهيئة بالمسجد الخاص، وما يزال هذا أمره حتى يقبل اليوم الذي يسفر فيه الناس

وشيخ البهرا هو همزة الوصل بين المهدي المنتظر وأتباعه، وهو مستودع سره ومثار نجواه، يستشيره ويستلهمه ويخرج بتعاليمه على الناس؛ وأما الطائفة فتنشر الدعوة إلى المهدي المنتظر، وتنشرها بأن تزين مبادئها للناس، وما تزال ماضية في مهمتها حثيثة السير حيناً ووئيدته حيناً حتى يدخل المسلمون جميعاً في طائفة البهرا، يقدسون مذهبها، ولا يحيدون عن عقائدها

وشيخ البهرا في العالم هو اليوم مولانا طاهر سيف الدين، وهو الذي يقيم على جماعاتها في كل بلد توجد بها شيخاً من قبله يأتمرون بأمره وينتهون بنواهيه - وقد رأيت أول من رأيت من أولئك الشيوخ، في عدن، بعد أن علمت أنه من أجل أهل الإقليم مقاماً، ومن أرفعهم شأناً، فإذا رجل يحف به الوقار، ويتهلل وجهه الذي استتر نصفه خلف لحيته البيضاء، بالبشاشة والأنس، حديد البصر، أخضر الأحداق، أبيض اللون، نحيل الجسم بعض النحول، يستر رأسه بعمامة بيضاء ويبتسم عن سنين أو ثلاث في فمه، فقد بلغ بالستين مبلغ الشيوخ - ولعل أبرز ما في الشيخ لحيته الطويلة ولسانه لعربي المبين: أما لحيته فكأنها قطن منقى، يتفرق على صدره خصلاً رقيقة منفوشة، إن تكلم اهتزت أطرافها، واتبعت في اهتزازها حركات فمه، كأن بين لسانه ولحيته صلة من فضل ومن وقار. وكأنما عاهد الشيخ نفسه على ألا ينطق بغير العربية الفصحى، فما سمعه الناس متكلماً إلا بها، وقد حاسب نفسه على الضمة والفتحة حساباً عسيراً

ولقد كنت في جملة من دعاهم الشيخ إلى مأدبة عشاء أقامها في دار البهرا بعدن، وهي من أفخم دور المدينة وأكثرها أناقة، تجمع بين منزل الشيخ والمسجد الخاص الذي لا يصلي فيه غير البهرا، ولا تصح صلواتهم في سواه. والشرفة الفسيحة التي يستقبل الشيخ فيها زواره، تحف بها حجرات كثيرة أعدت لشؤون الطائفة، وقد بنيت هذه الدار على نفقة (البهريين) المقيمين في عدن، وعددهم لا يجاوز الألف، كلهم ملتحون

كانت الشرفة الرحيبة التي هيئت ليستقبل الشيخ فيها ضيفه مفروشة بالحصير، وفي صدرها صفت الوسائد إلى الجدار، واتكأ على أوسطها صاحب الدار، ويطلق عليه في أساليب (البهرا) اسم (الداعي) لأنه أحد هؤلاء الدعاة العديدين الذين يكل الشيخ الأكبر إلى نشاطهم البارع، وذكائهم الخلاب أمر الدعوة إلى اعتناق هذا المذهب من مذاهب الشيعة في جهات كثيرة من أنحاء العالم، فكان الرجل لا ينهض من مجلسه إلا

ليستقبل المدعوين من غير جماعة (البهرا) بينما يقبل المدعوون من هذه الجماعة وفيهم من يدخلون في وجوه عدن وخير تجارها، فيقدمون على الشيخ وهو مستو في مجلسه، حتى إذا صار كل منهم قيد خطوة منه انحنى كانحناء المصلي، وكاد يلمس الأرض بيمينه، ثم رفعها إلى مفرقه، وتراجع إثر ذلك إلى مجلسه من المكان وطفق الشيخ يتحدث إلى خاصة مدعويه وأقربهم إلى مجلسه، وهو لا يفتر عن رعاية المدعوين جميعاً، يقسم بينهم بشاشة محياه، ويلقي عليهم من نظرات عينيه أشعة تحمل في حرارتها معاني الشكر والترحيب والرعاية، وإنك لتنظر إلى هاتين العينين فتلمح في إشراقهما عواطف الحدب والرفق والإشفاق

اكتمل المدعوون عداً في أربعة صفوف طوال ثم دار اثنان أو ثلاثة من البهرا بأباريق الماء بين الصفوف يصبون منها على الأيدي، وفي إثرهم حملة المناشف، وفي دقائق معدودة غسلت الأيدي جميعاً، وتهيأ القوم لاستقبال الطعام. وما هي إلا برهة يسيرة حتى مد المتطوعون للعمل من أبناء الطائفة سُمطاً طويلة من قماش أبيض على أديم المكان، ثم صفوا فوقها أطباقاً رحيبة من الليف، وثبتوا على كل طبق قاعدة أسطوانية جوفاء ترفع أخونة الطعام

انتظم المدعوون حول الموائد، وكنت في مائدة الشيخ، فلم نلبث أن توسط خواننا إناء صغير من البلور فيه ملح مجروش يضرب إلى الاحمرار، ولقد ماثلت جميع الأخونة خواننا فيما عليه، ولم يعسر على أن أدرك أن لابد للتقاليد البهرية من يصيب فيما يحتوي عليه هذا الإناء، ولم أتبين أنه الملح، وحرك الفضول يدي فتناولت أصابعي حصوات منه، فلم تكد تبلغ فمي حتى أحسست كأنما مسني عقرب

وقال الشيخ في صوت جهير بعد البدء بسم الله الرحمن الرحيم، وهو يضع سبابة يمناه وإبهامها في الإناء: (ليكن الملح فاتحة طعامنا حتى يكون بيننا) فإذا الجمع كله يذوقه. . . وجيء بجفان الأرز فكانت تقلب في الخوان جفنة تلو جفنة حتى اكتظ على سعته، ثم حملت صحاف الأطعمة إلى الشيخ، فكان يتناولها ويضعها بين يديه تحت المائدة، ثم يتولى سكب ما فيها على الأرز واحدة بعد واحدة، بين برهة وبرهة، وهو لا يفتأ يذكر الله ويذكر باسمه كلما فعل، فأما حرصه على أن يضع الطعام بيديه بين أيدي الطاعمين فلعل سببه أن أبناء طائفته يلتمسون في ذلك خيراً وبركة. . . بل لقد خيل إلي أنني أجد ما يلتمسون كلما رأيت الشيخ يخرج مما بينه وبين المائدة صحافاً من الطعام كان يشغلني ما أنا فيه، وربما شغل غيري عن رؤيته وهو يتناولها من الخدم المتطوعين. . . وكأنما كانت بسملته المرتفعة الرهيبة التي تصاحب يديه كلما ارتفعتا وبينهما لون من ألوان الطعام في طريقه إلى الأرز، توحي إلى الناس أنه يستنبته مما بينه وبين المائدة، وكان الطاعمون جميعاً يتناولون الأرز بأصابعهم إلا من طلب الملعقة من خاصة الضيوف

وما إن فرغنا من الطعام حتى عاد الناس إلى مجالسهم صفوفاً وطيف عليهم بأباريق الماء فغسلوا أيديهم، ثم بالمناشف فجففوها، ومرت دقائق معدودة، ثم أقبل الخدم يمرون بين الصفوف ينثرون عليها ماء الورد، ويبدون بعده زجاجات من عطر عربي فياح، فتمتد الأيدي، وتنال كل كف حظها منه، وفي إثر هذا وذاك يمضي حملة البخور في طريقهم وهم يديرون أوانيها حول الرؤوس ثم يدخلونها تحت الأثواب، فيتصاعد بخار المسك والعود من فتحاتها. . . وثم شيء اسمه (التمْبُل) وهو ورقة شجرة هندية تعرف بهذا الاسم، تطوى على مزيج من توابل مرة المذاق جميلة الرائحة، يقال إن بينها نوعاً مخدراً، يمر بهذا التمْبُل بين الصفوف رجال من البهرا، فيحبون كل مدعو بواحدة إلا من رفض، فما إن يطبق المرء عليها فكيه حتى تروعه منها مرارة بالغة، ولقد روعتني أكثر مما روعتني ملوحة الملح، فتلفت أبحث عن وسيلة للخلاص منها، ولما لم أجد حثثت أسناني على مضغها حتى أستطيع ازدرادها، وإن هي إلا دقيقة أو بعضها حتى خفت وطأتها على لساني، وما فتئت تخف حتى زالت، وهي تزدرد بعد ذلك فتتعطر بها روائح الأفواه، وتطيب أنفاسها. وغادرنا دار الشيخ وفي أثوابنا شذى المسك، والعود، وفي وجوهنا عبير ماء الورد، وفي أكفنا نفح الطيب، بل وفي أفواهنا أريج القرنفل. . . فكأنما لمسنا نسيماً رفيفاً من نسائم الجنة، يمضي في طريقه فيهمس في آذان أهل الأرض بما ينقله عن أهل السماء

ولقد كان لي مع الشيخ بعد ذلك في مجالس أخر حوار لعله لم يسغه، ولم يقبل على الاشتراك فيه راضياً؛ فقد كنت أتبين رغبته عنه في صعوبة خلال أدبه الجم. . . ولكن طالب العلم من السفر حريص على أن يطل بعقله على كل ما عسى أن تراه عيناه
القاهرة
محمد نزيه
من ذكريات مصر
ساعات مع الكاظمي
للأستاذ كمال إبراهيم

مات الكاظمي! فطويت بموته للعبقرية صفحة زاهرة، كانت سامية المثال، علوية الروح، عراقية النشأة؛ نمت نبتتها متسقة الأصول على دجلة المبارك، وعلت دوحتها مبسوطة الأفانين على ضفاف النيل السعيد؛ وما زالت تصوب إلى السماء صعداً حتى اجتاحها للمنية إعصار شديد، فجالدها أعواماً، وغالبها أياماً، حتى هوى بها من باسق الذرى إلى الأرض، حيث النهاية التي لا تراغم، والقدر غير المدفوع

مات الكاظمي! فسكت لسان عربي مبين، كان فخر لغة الضاد، وحادي الأبناء إلى المجد، وباعث العزائم في الخطوب السود؛ وكان لسان العروبة الناطق بحقها في حياتها، ومخذمها المذرب عند الخصام، فكم ذاد عن الحسب الكريم، ونافح عن الحق الهضيم، وتغنى بالمجد القديم، يوم لم نكن نجد في هذه الأمة إلا الخافر لذمتها، والمنتهك لحرمتها، والكافر بنعمتها، والمظاهر لأعدائها عليها

وا لهفتا على العروبة الهضيمة! لقد أخرس الردى شاعرها الصيداح، فاشتملت بالأسى أباطح الحجاز، وصوحت أزاهير اليمن الخصراء، وحالت ربى حائل والرياض، وجلل السواد سواد العراق، وفاضت عيون النيل، وجرت باكية معولة عيون الشام ومحاجر لبنان، ترجع أنغامها الحزينة بنات الهديل بين لفائف الأغصان. .

كان الشعر العربي قد بلغ من الإسفاف الحضيض، فعدت به عن مجاراة الحياة أثقال تلك الصناعة الممقوتة التي حملها إياه شعراء الفترة المظلمة، وضيقت عليه الخناق تلك القيود المحكمة من زخارف اللفظ وبهارج البديع وأفانين الصناعة، حتى أخرجته عن طبيعته، وزاغت به عن سمته، فجاء متكلفاً نابياً، وغثاً بالياً وجامداً بغير روح، لولا ذماء ضعيف يشعر ببقية الحياة. كان الشعر كذلك، وكانت البيئة الأدبية في العراق متأثرة كل التأثر بشعر (الأخرس، وصالح التميمي، والشاوي، والحبوبي، وأضرابهم) حتى أتاح القدر للشعر من نفخ فيه من روحه؛ فأطلقه من عقاله، وأنهضه من كبوته، وسما به صعداً إلى السماء يرف بجناحين من نور، بعد أن كاد يحثى عليه التراب في حفير مظلم عميق، وكفى

الكاظمي سبقاً أنه بذ المتأخرين ومعظم المتقدمين في ارتجال الشعر من غير كلفة في أي غرض، تستقيد له شوارد القوافي بديهة حاضرة، وذاكرة نادرة، وحافظة وعيت من شعر الأولين عيونه، وما أجدر شاعرنا أن يكون لسان حاله ما قال (ابن هانئ الأندلسي) عن نفسه:

ما ضرني إن لم أجئ متقدماً ... السبق يعرف آخر المضمار
وإذا اغتدى ربع البلاغة بلقعاً ... فلرب كنز في أساس جدار

وكما كان الكاظمي السابق في حلبة البيان، كان كذلك علو كعب في ميدان الجهاد والإصلاح. عرفت منه هذه النزعة وهو طرير لم يكتهل، وغرير لم يعجم حوادث الزمان، فكان صوته في الإصلاح يرن في مجتمعات بغداد، ولكنه كان قليل العائدة، حتى قدم الزوراء إذ ذاك رجل الإصلاح المشهور (الشيخ جمال الدين الأفغاني) فوجد شاعرنا فيه ضالته، فكان من أشياعه، فضاقت عليه البلاد بما رحبت، وقذفت به نوى شطون، شرق فيها وغرب، حتى احتضنته (مصر)؛ فألقى بها عصاه وبوادي النيل الجميل حيث القوة تصارع الحق، والظلم يناهض العدل، والحرية تنتحب، يأبى الكاظمي إلا الصدع بالحق، فيقارع الاستعمار، ويتغنى بالحرية، ويشيد بمجد العرب الضائع، حافزاً للأبناء على استرداد ذلك المجد؛ وخلصت له في مصر صفوة ممتازة من أعلام البيان وقادة الفكر وزعماء الأمة، عرفوا له فضله، فصدقوه الولاء، وأحلوه السويداء، واستوثقت الصلات بينه وبين (الوفد المصري) فكانا لساناً من ألسنته مشرعاً لا ضد حزب من الأحزاب، ولكن ضد سياسة الاستعمار فحسب. . .

عرفت الشيخ الكاظمي أول هبوطي مصر (عام 1929) فكنت أسأل عنه من أتعرف إليهم، حتى أرشدني (محرر بالأهرام) إلى داره في (مصر الجديدة) فذهبت إليه في لمة من الإخوان، جئنا إليه من بلده، ومسقط رأسه. فما كان أشد ابتهاجه بنا، وطربه بمقدمنا، لقد استعاد بتلك الزيارة ذكريات ماضيه حلوة في العراق. فكان رحمه الله يحدثنا عن أيامه تلك بشوق وإقبال ليس فوقهما مزيد

وقد كانت داره مصاقبة لدار أستاذنا المرحوم (الشيخ عبد المطلب) وكانت بينهما صلة وثيقة، وصداقة قل أن تعرف بين الأصدقاء، فكنت أقصد (مصر الجديدة) في الغالب لزيارة

الشيخين وتجديد العهد بهما؛ فأقضي ساعات هي أمتع ما تكون للنفس، وأشهى ما يلذ للعقل، ويقرأ عليّ شاعرنا ما استجد له من شعر

ما أنس لا أنس تلك الأيام السعيدة التي كنت أخرج فيها مولياً وجهي شطر (هليوبوليس) يحدوني الشوق إلى تلك العبقرية الفياضة، والصفحة النادرة، والشخصية الفذة، فأجلس إلى الشاعر، أتلقف من حكمته، والتقط من درر فوائده وجواهر فرائده، وشاعرنا محدث كما هو شاعر، يهدر كالسيل إن أفاض في الحديث، يصله ببعضه، ويزن مجلسه بطرائف الأخبار، وروائع الحكم، وأوابد الملح والمفاكهات؛ فلا تكاد تسأم له لهجة، ولا تمل منه لغة. وكان - رحمه الله - حريصاً على أن يكشف لنا عن صفحات القضية العربية في عهدها الأخير ويجردها بغير طلاء، ويجلو لنا حقائق التاريخ ناصعة غير مموهة، ويبعث فينا من روحه لمواصلة العمل والجهاد . . .

لقد كان شاعرنا ذخراً لأمته، ولكنه كان مضاعاً تنكر له وطنه الأول كما تنكر له دهره، وظل وفياً لهذا الوطن يلاحي عنه بمهجته، على حين لم يجد منه طوال حياته غير الجفاء ونكران الجميل، ظل وفياً له حتى قضى نحبه. فلما قضى نحبه جئنا بعده نذرف الدمع عليه نادمين . . .

فاذهب كما ذهب الوفاء فإنه ... عصفت به ريحاً صبا ودبور

(بغداد)

كمال إبراهيم

خريج دار العلوم

دراسات في الأدب الإنجليزي

المذهب الواقعي وفن الدرامة

بقلم محمد رشاد رشدي

في المسرح الأغريقي:

أول ما يتبادر إلى ذهن الباحث في هذا الموضوع أن ينقب عن الواقعية في عناصر الدرامة الثلاثة: في الموضوع والأشخاص والأسلوب. غير أن نسبة الواقعية في كل من هذه الأجزاء قد تختلف نظرياً - أي فيما يكتبه نقاد العصر عن الفن المسرحي - عما يباشر عملياً فوق مسرح العصر. ولذلك رأينا من الأوفق في معالجة هذا الموضوع أن نلقي نظرة سريعة على النقد المسرحي نتبعها بمطابقة هذا النقد للمسرح نفسه.

والناقد الوحيد الذي نستطيع الاعتماد عليه في حديثنا عن المسرح الإغريقي هو أرسطو. .

كتب (أرسطو) في رسالته عن الشعر يتحدث عن الواقعية في الموضوع قال: (يتضح مما سبق أن مهمة الشاعر هي أن يصف - لا الشيء الذي حدث - بل الشيء الذي من المحتمل وقوعه - أي مال قد يكون ممكناً أو ضرورياً). وعلى هذا فوحدة الموضوع إنما تنشأ من مبادئ الواقعية الأساسية؛ فحوادث القصة يجب أن يتصل بعضها ببعض اتصالاً ممكناً أو ضرورياً تحتمه ظروف القصة نفسها وجوها الخاص بها. وكتب هذا الناقد عن أسلوب القصة المسرحية، قال: (يمكننا الآن أن نرى أن على الكاتب أن يخفي نفسه حتى يستطيع أن يتحدث طبيعياً لا صناعياً). ومن الجدير بالذكر هنا أن الأثر الذي يحدثه أسلوب (شكسبير) على المسرح لا يختلف واقعياً عن الأثر الذي يحدثه أسلوب (أوسكار وايلد) - أو (كونجريف) أو (شريدان) أو (برنادشو). أما عن شخصيات الدرامة فقد قال أرسطو: (من البدهي أن أشخاص القصة إما أن يكونوا أشخاصاً صالحين أو طالحين - ويتبع هذا أن بطل القصة إما أن يكون فوق مستوانا الخلقي والاجتماعي، أو تحت هذا المستوى - أو في نفس المستوى ومثلنا تماماً - غير أن من يتأمل الدراسة

الإغريقية لا يجد فيها متسعاً لهذا الصنف الثالث من الشخصيات التي هي في مستوانا ومثلنا تماماً - على أن ذلك لا يمنع أن يكون للدرامة الإغريقية الحظ الأوفر من الواقعية، وان تكون بعيدة
بعداً شاسعاً عن كل ما هو رمزي أو مثالي. وقد يبدو هذا مخالفاً للمألوف - غريباً - غير أننا سنحاول بسطه وتفصيله
الإغريقية تعالج في مجموعها ماضي الإغريق واساطيرهم؛ وهي لذلك (فالتراجيدية) يمكن أن تعد في القصة التاريخية - ويتضح قولنا هذا أن استطعنا تصور جماعة المتفرجين في مسرح أثينا، عند ازدهار الدرامة وانتشارها. فقد كان هؤلاء القوم على قسط من البداوة يسمح لهم بان يعدوا كل ما نظمه الشعراء من قصص الآلهة وأنصاف الآلهة تاريخاً قومياً لبلدهم وشعبهم؛ وان ما نراه نحن اليوم غريباً خرافياً في شعر أولئك الشعراء مثل ظهور الآلهة على المسرح، أو انبعاث الأشباح من قبورها، لم يكن هكذا غريباً أو خرافياً عند الإغريق الأوائل، بل كانت حقيقة تروى وتاريخاً يقص - نسبة إلى دينهم وحياتهم وقوة خيالهم الطفل - أما أن الدرامة التاريخية هي اقرب أنواع هذا الفن إلى الواقع والحياة فهذا مما لا ريب فيه - وقد كتب الناقد الإنجليزي (كولريدج) يقول (لأجل أن تكون الدراسة حقيقة تاريخية يجب أن يعالج موضوعها تاريخ القوم الذين تمثل لهم وتقص عليهم، - ونحن إذا أنعمنا النظر قليلاً وجدنا أن من الصعب أو من المستحيل أن تنشأ لشعب عاطفة وطنية ما لم يكن هذا الشعب على علم - ولو خاطئاً - بتاريخه وتاريخ بله - ومن هذا ينتج أنه في الدرامة التاريخية تكون العلاقة بين حوادث القصة على المسرح وبين المتفرج على مقعده قوية متصلة أقوى منها في أي نوع آخر من الأدب المسرحي. ومن المشاهد أن الكاتب المسرحي يتوخى ذكر هزائم التاريخ وسقطات الأبطال وفشلهم، فان هو ذكرها فإنما يذكرها معكوسة فلا توحي إلى نفس المتفرج يائساً ولا خيبة، ولكن تشعلها حماسة ووطنية، وإنا لنذكر حظ الشاعر الأثيني البائس الذي بنى قصته على فشل (أثينا) البحري في حربها مع (إسبرطة)، فكانت النتيجة أن الزمه قومه بدفع قسط من المال كبير عقاباً له وتأديباً وظهاراً لاحتجاجهم وسخطهم. فخلال هذا الشعور الذي تتاجج به نفس المشاهد، وخلال إحساسه بوحدة بلده وقوميته واتصال ماضيه بحاضره تقوي حوادث القصة التاريخية على المسرح إحساسه هو بنفسه وكيانه كما يقوي وجوده هو حقيقة القصة وصحتها ولونها الواقعي. ومهما يكن في المسرحية التاريخية من شذوذ أو بعد عن الإمكانية فان لونها الواقعي يظل أقوى الألوان جميعاً مادام التاريخ يكسوها ويظللها بظله غير أن هناك مأخذاً واحداً، هو أن أبطال تلك المسرحية هم دائماً أبداً فوق المستوى الاجتماعي العادي

الدرامة الرومانية:

لم تتقدم (التراجيدية) عند الرومان عما كانت عليه عند أسلافهم الإغريق - إن لم تكن قد انحطت وضعفت؛ أما في (الكوميدية) فقد كتب الناقد اللاتيني (دوناتس) ما يدهش له أقطاب المذهب الواقعي الحديث، قال: (الكوميدي هي مرآة الحياة البشرية) - وهو يذكر في موضع آخر أن (الكوميدية) تصف أشخاصاً معينين تتكون حياتهم من حوادث بسيطة عادية، في حين أن (التراجيدية) تختار لمسرحها قاعات الملوك الذين تتكون حياتهم من حوادث جسام ذات أثر خطير. وقد أصبحت مطابقة (الكوميدية) الرومانية للحياة والواقع أمراً مشهوراً عند كل من قرأها، فأسلوب كاتبيها (ترنس) و (بلوتس) هو أقرب أساليب الآداب القديمة إلى اللغة اليومية، كما أن جل أبطالها هم من الطبقة الوسطى، وحوادثها بسيطة عادية قد تقع كثيراً للقارئ أو للمشاهد في حياته الخاصة إلى هذا الحد كانت (الكوميدية) الرومانية تطابق الواقع، غير أنا نشاهد فيها اتجاهاً غريباً يتنافى مع صبغتها الواقعية - وأعني به (تصنيف الشخصيات) - وينحو هذا الاتجاه نحو اختيار مثل خاص لكل شخصية من الشخصيات. فللابن مثل خاص معروف به لدى كل كتاب المسرح ورواده - كذلك لكل من العبد والأب والعاهر وكل شخصية يتكون منها المسرح مثل خاص؛ فلكل منهم أحاديث خاصة، وملابس خاصة، وصفات خاصة يعترف بها الجميع، حتى أن لونهم الإنساني وصبغتهم الواقعية تكاد تكون معدومة على المسرح

الدرامة الإنجليزية في عصر شكسبير:

ازدهرت الدرامة في هذا العصر بأنواعها الثلاثة: التاريخية والبيتية والشعرية أو الغرامية. أما النوع الأول فقد سبق أن تحدثنا عنه وسنتحدث الآن عن اللون الواقعي في كل من النوعين الآخرين

يحسب الكثير من الناس أن الشعر يتعارض مع الحياة والواقع، وأن القصة الشعرية يجب أن تكون بعيدة كل البعد عن الحياة، وخالية كل الخلو من اللون الواقعي؛ غير أن هذا الظن

- في رأيي - خاطئ كل الخطأ

وإن أوضح تعريف للشعر أن نقول أنه ترتيب تجارب الشاعر في الحياة ترتيباً خيالياً عكس كل ترتيب لآخر فكري أو فلسفي. والشعر على العموم يأخذ شكلاً من تعبيرين: فهو إما أن يأخذ شكل الأسطورة، أو شكل المجاز والصورة، أو شكل الأسطورة والمجاز معاً. فشعر (ملتون) مثلاً يأخذ شكل الأسطورة، وشعر (دن) يأخذ شكل المجاز والصورة. أما في مسرحيات (شكسبير) العظمى فالشعر في القصة نفسها - في الموضوع - قبل أن يكون في الكلام والصورة - ونحن إن قصرنا الشعر على الكلام والألفاظ وجردنا منه موضوع القصة فاخترناه موضوعاً نثرياً مما قد يقع كل ساعة وكل يوم كان الأثر الذي لابد أن تحدثه القصة أثراً ضعيفاً بعيداً عن الواقع والحقيقة؛ وليس معنى الواقعية أن تكون القصة خالية من الشعر، فوجود الشعر لا يمنع وجود هذا اللون، بل هو يقوه ويزيده نضرة ووضوحاً؛ ويكفي أن يفكر المشاهد في نفسه أنه لو حدث له مثل ما يرى في القصة أمامه، ولو كانت له من الصفات مثل ما للبطل نفسه فسيحدث الحادث بنفس الطريقة، ومثلما حدث للبطل تماماً . . .

وقد يعترض البعض بأن اللغة الشعرية تجرد الكلام من لونه الواقعي - ولكن من منا قد دهش لروميو يتحدث شعراً، أو (لهاملت) يناجي نفسه ويحدثها حديثاً؛ لو أن (شكسبير) صاغه صياغة غير الشعر لجاء باهتاً، وضعيفاً، لا يؤدي معنى، ولا يحمل صورة. وإن من يقرأ قصة شكسبير (أنطونيو وكيلوباتره) ثم يقرأ بعدها قصة شو (قيصر وكليوباترة)، والأولى شعر والثانية نثر - ليرى إلى أي حد استطاع شكسبير أن يكسو القصة بشعره لوناً واقعياً قوياً، في حين أنه لا يتمالك نفسه من الضحك أو ذوقه من النفور عندما يسمع (كليوباتره) تودع قيصر قائلة: ,

فلأجل أن يكون الشاعر واقعياً يجب أن يكون الشعر في عناصر قصته الثلاثة: في موضوعها وأبطالها وأسلوبها؛ وإن من يتأمل (شكسبير) من كل نواحيه يتضح له أن الشاعر الكبير كان إمام الواقعيين وسيدهم، فهو يسمعك شعراً ولكنه شعر يصف الحياة أدق وصف - حياة الجسم وحياة الروح - وأنت تحس وأنت تقرأه أن (ياجو) ما كان ليستطيع أن يقول غير ما قاله، أو يفعل (هملت) غير ما فعله

ولقد قرأت قصة (مكبث) مراراً، فكنت في كل مرة أقف مبهوتاً أمام هذه السطور يحادث بها (مكبث) نفسه بعد أن منته الساحرات أمانيهن الخلابة، فأصبح في حيرة من أمره وأضحى خياله ملتهباً، وعقله مشتتاً:

(المخاوف الحاضرة أقل عناء من التخيلات الواسعة البعيدة، وإن عقلي الذي لم يقتل بعد كل القتل - يعصف هكذا بكياني كله - حتى لقد قبر الفكر في الحلم والتخيل، ولم أقول إن شاعراً غير (شكسبير) ما كان يبق كائناً أمامي غير كل ما هو ليس بكائن).

يستطيع أن يعطينا وصفاً أدق من هذا، وأكثر مطابقة للواقع والحقيقة، لو استطعنا تأمل حالة (مكبث) الذهنية وهو يلفظ تلك الكلمات - و (شكسبير) دائم الجهد في أن يصبغ قصصه باللون الواقعي، فتراه في أعظم قصصه (التراجيدية) يدخل فصولاً وأشخاصاً مضحكة خفيفة، تقرب ما بين جو القصة وبين جو الحياة العادية - والأثر الواقعي الذي ينشأ من هذا لا ينتج من أن المضحك والمبكي يسيران جنباً إلى جنب في حياتنا، بل لأن اللون الواقعي في الشخصية المضحكة أشد وأظهر منه في شخصيات (التراجيدية)

فالشخصية المضحكة هي في الغالب تحت مستوانا الاجتماعي، ولذلك نميل نحن إلى تصديق صحتها والاعتقاد بوجودها أكثر من ميلنا إلى الاعتقاد بوجود شخصية أو شخصيات فوق مستوانا؛ ومن هذا كان (شكسبير) يستخدم أهل الطبقة الدنيا ليصبغ الكثير من قصصه بلون واقعي؛ خذ مثلاً شخصيتي حافري القبور في (هملت)، والبستاني في (ريبشارد الثاني)، وجماعة الممثلين القرويين في (حلم منتصف ليلة

صيف)، وظهور شخصية (فالستاف) الفكهة بعد كل من المعركتين في (هنري الرابع)، وظهور شخصية المهرج (النول) في منظر العاصفة في (الملك لير)؛ والأمثلة غير هذه كثيرة، كما أن (شكسبير) لا ينهي رواية بنهاية حوادث القصة الأساسية، بل يعرض عليك فصلاً، وربما عرض فصولاً لا قيمة لها في القصة، غير أنها تكسبها لوناً واقعياً يدلك على أن الحياة ما زالت كما هي بعد موت بطل الرواية أو بطلتها

محمد رشاد رشدي

بكالوريوس بامتياز في الأدب الإنجليزي

محاورات أفلاطون

الحوار الثالث

فيدون أو خلود الروح

ترجمة الأستاذ زكي نجيب محمود

قال: الحكاية يا صديقي هي كما يأتي: فأولاً إذا نظرت إلى الأرض من أعلى رايتها تشبه إحدى هذه الكور التي تكسوها أغشية من الجلد في اثنتي عشر قطعة، وهي مختلفة الألوان، فليس ما يصوره المصورون في هذه الدنيا من الألوان إلا مثال منها، أما هنالك فالأرض كلها مصبوغة بها، وهي اشد لمعاناً ونصاعة من ألواننا، فثم أرجواني عجيب الرونق، وثم ذهب يتألق، والأبيض في أرضها انصع من كل ثلج أو طباشير. تلك الأرض مصبوغة بهذه الألوان وغيرها، وهي اكثر عدداً وأروع جمالاً مما وقعت عليه عين الإنسان، والفجوات نفسها (التي كنت أتحدث عنها) يغمرها الهواء والماء، فتراها كالضوء الوامض بين سائر الألوان، ولها لون خاص بها يخلع على تباين ما في الأرض نوعا من التآلف، وكل شيء مما ينمو في هذه المنطقة الجميلة - أشجار وأزهار وفاكهة - اجمل - بنفس الدرجة - من إضرابه هنا؛ وثم تلال، صخورها اشد صقلاً، واكثر شفافية، واجمل لوناً - بنفس الدرجة - مما نغلو بقدره عندنا من زمرد وعقيق ويصب وسائر الجواهر التي أن هي إلا نثرات منها ضئيلة، فالأحجار كلها هنالك كأحجارنا الكريمة، بل أروع منها جمالاً؛ وعلة ذلك إنها نقية، وإنها لم تفسدها ولم تبرها العناصر الملحة الفاسدة، كما فعلت بأحجارنا الكريمة، تلك العناصر التي خثرت عندنا فتولد منها الدنس والمرض في التراب وفي الصخور على السواء، كما تولدا في الحيوان والنبات، تلك هي جواهر الأرض العليا، وفيها كذلك يسطع الذهب والفضة وما اليهما، وليست تلك الجواهر بخافية عن العين وهي كبيرة وكثيرة، وتوجد في مناطق الأرض جميعاً، فطوبى لمن يراها. ويعيش فوق الأرض ناس وحيوان، منهم من يستوطن إقليما داخلياً، ومنهم من يسكن حول الهواء، كما نسكن نحن حول البحر، ومنهم من يعيش في بلد يتاخم القارة، ويهب حوله الهواء. وجملة الأقول انهم يستخدمون الهواء كما نستخدم نحن الماء والبحر، وللأثير عندهم ما للهواء عندنا؛ هذا وحرارة فصولهم هي بحيث لا يعرفون معها مرضاً، فيعمرون أطول بكثير مما نعمر نحن، ولهم بصر وسمع وشم، وسائر الحواس كلها، وهي ابعد كمالاً من حواسنا بنفس الدرجة التي بها الهواء أنقى من الماء، أو الأثير أصفى من الهواء. كذلك لهم معابد وأماكن مقدسة فيها يقيم الإلهة حقاً، فهم يسمعون أصواتهم ويتلقون إجاباتهم، وهو يشعرون بهم ويديرون بينهم وبين أنفسهم أطراف الحديث، وهم يرون الشمس والقمر والنجوم كما هي في حقيقة امرها، وعلى هذا النحو كل ما هم فيه من أسباب النعيم تلك هي طبيعة الأرض كلها، وما حول الأرض من أشياء وفي الفجوات التي على ظهر الأرض أصقاع متباينة، بعضها اعمق وأوسع من فجوتنا التي نقيم فيها، وأخرى اعمق وأضيق فوهة منها، وبعضا أوسع واقل عمقاً، وتربطها جميعاً بعضها ببعض ثقوب عدة وممرات عريضة وضيقة في باطن الأرض. وهنالك يتدفق فيها ومنها - كما يتدفق في الأحواض - تيار عظيم من الماء، وثم مجار ضخمة لانهار تحت الأرض لا ينقطع جريانها، وينابيع حارة وباردة، ونار عظيمة، وانهار كبيرة من النار، ومجار من طين سائل، منها الرفيع والسميك (كأنهار الطين في صقلية وما يتبعها من مجاري الحمم) فتغمر المناطق التي تتدفق حولها. وهنالك في باطن الأرض نوع من الذبذبة يحرك هذا كله إلى أعلى والى اسفل، والحركة الآن في هذا الاتجاه. وبين الفجوات هوة هي أوسعها جميعا، تنفذ خلال الأرض كلها، وهي التي وصفها هوميروس بهذه الكلمات:

(أن أغور تحت الأرض جد سحيق)

وقد أطلق عليها في مواضع أخرى اسم جهنم، وكذلك فعل كثير غيره من الشعراء. وسبب الذبذبة هو تلك الأنهر التي تتدفق في هذه الهوة ومنها، ولكل منها طبيعة التربة التي تجري فيها، وإنما كانت تلك الأنهار دائمة التدفق دخولاً في الهوة وخروجاً منها لان عنصر الماء ليس له قاع ولا مستقر، وهو يعج ويهتز صعوداً وهبوطاً، وهكذا تفعل الريح والهواء المحيطان به، إذ هما يتبعان الماء في صعوده وهبوطه وفي اندفاعاته فوق الأرض هنا وهناك، مثل ذلك مثل الشهيق والزفير لا ينقطعان حين نتنفس الهواء، وباهتزاز الهواء تبعاً للماء دخولاً وخروجاً نشأت عنها العواصف المروعة القاصفة: فإذا ما تراجعت المياه مندفعة إلى الأجزاء السفلى من الأرض - كما تسمى - انسكبت في تلك المناطق خلال

الأرض وغمرتها، كما يحدث إذا تحركت مضخة الماء الحركة الثانية، فإذا ما خلفت تلك المناطق وراءها وكرت إلى هنا مندفعة، فأنها تملأ ما هنا من فجوات مرة أخرى، حتى إذا امتلأت هذه، فاضت تحت الأرض في قنوات لتلتمس سبيلها إلى أمكنتها العديدة؛ فتكون بذلك البحار والبحيرات والأنهار والينابيع، ومن ثم تفور في الأرض ثانية، فيدور بعضها دورة طويلة في أراض فسيحة، ويذهب بعضها إلى أمكنة قليلة وإلى المواضع القريبة، ثم تهبط مرة أخرى إلى جهنم، فيبلغ بعضها حداً دون ما كان ارتفع إليه بمقدار كبير، ولا يهبط بعضها الآخر دون ذلك الحد هبوطاً كثيراً، لكنها جميعاً تكون أوطأ من نقطة الانبثاق إلى حد ما، ثم ينهمر بعضها ثانياً في الجانب المقابل، وينهمر بعضها الأخر في الجانب نفسه، ويدور بعضه حول الأرض في ثنية واحدة أو في عدة ثنايا تشبه حنايا الثعبان، وتنزل ما استطاعت النزول، ولكنها دائماً تعود فتصب في البحيرة، إما الأنهار التي على كلا الجانبين فلا تستطيع النزول إلى ابعد من المركز، لان في الجانب المقابل لهذه الأنهار هاوية

(يتبع)

زكي نجيب محمود

على دار النيابة

للأستاذ فخري أبو السعود

يا دارُ قد عبثتْ بكِ الأقدارُ ... وبغى عليك المعشرَ الأشرار
عُطِّلْتِ في رَبْع الشباب وصُدَّ عن ... ناديك ظلماً رهطك الأبرار
وخَلَوْتِ حتى صرتِ ربعاً موحشاً ... يُشجي النفوسَ حِيَالة التذكار
لم يبقَ منكِ - وَلمْ يَطُلْ بِكِ عَهْدُنا - ... يا دارُ إلاَّ الرَّسْمُ والإخبار
غاضتْ بشاشَةُ صفحتَيكِ وإن تكُنْ ... حفَّتْ بكِ الأغصانُ والأزهار
وعَلَتْ لِوَاءكَ ذلةٌ وكآبة ... ولغَيْرِهِ التبجيلُ والإكبار
مهجورة في مواطنٍ عَمَرتْ به ... للظالمين الآثمين ديار
وُئِدَتْ بِكِ الآمالُ في إبَّانها ... وخبا ضياءٌ للهُدى ومَنَار
ما كان يبَغيكِ اللئَامُ بِريبةٍ ... لو صَدَّ عنكِ الجحفل الجرَّار
لله رهطُ فيكِ أَمْسِ تَجَمَّعُوا ... تَرْضى الكنانُة سَعْيَهم، أَخْيارُ
من كلِّ عال النفس أَرْوَعَ مالَهُ ... في الدَّهر إلاَّ مَجْدَ مِصْرَ شِعَارُ
لا يَطَّبيهِ زَيْفُ جاهٍ كاذبٍ ... كلا ولا يغتَرُّهُ الدينار
خُلصَاءُ مِصْرَ هُمُ وَصَفْوَةُ آلها ... والأوفياءُ لِعهدِها الأحرار
فَخَرتْ بِهِمْ مصرُ وعَزَّتْ في الورى ... وبمثلهم تتفاخر الأقطار
رهطٌ من الصِّيد الكرام إمامهم ... سعدُ الرئيسُ القائِدُ المغوار
كم رَنَّ في ناديكِ عالي صوته ... بالحقِّ يَستخِذى له الفُجَّار
ما كان أفْخَمَ ذاك مظهَر سُؤْدُدٍ ... لَوْ دَامَ منه سُؤْدُدٌ وفخار
غيظَ العداةُ له وكادوا كيدهم ... حتى عَلاَكِ الوهن والإِقْفَار
سَدُّوا الطريق إليك أو بعثوا بمن ... لا تترضي مصرٌ ولا تختار
يا دارُ أنت رجاءُ مصرَ وفي سوى ... ناديكِ ليستْ تُبْلَغُ الأوْطار
لن يستقيم لآل مصرَ بناؤُهم ... يوماً ورُكنُكِ بينهم مُنْهار
مادام ربعُكِ موحشاً قفراً فلن ... يَلْتاَمَ شَمْلٌ أو يعَّز ذمار
يَبقى بغيركِ أَمْرُهم فوضى به ... يلهو اللئاَمُ ويعبث الأغرار

لو يعلمون سَعَوْا إليكِ ومَّسحُوا ... إما سَعَى للكعبة الزُّوَّار
حتى يعودَ الحقُّ فيكِ لِحِصْنِهِ ... وَيَعِزَّ فيكِ ذمارُهم يا دار
فخري أبو السعود

فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية

تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا - 13

فرديريك نيتشه

للأستاذ خليل هنداوي

ونظرة واحدة إلى المواد التي شاء أن يلم بها ترينا ما بدل صاحبها من قلبه وعقله في التحليل والاستقراء، معالجاً الأدب اليوناني وتاريخ اليونانية القديمة، والفصاحة اليونانية وتاريخ الفلسفة اليونانية حتى أفلاطون. وبعض نظرات عميقة ينفذ بها إلى بعض فلاسفة أو شعراء. وقد قدر بنفسه أنه منجز خلال سبعة أعوام أو ثمانية درس كل ما يتعلق ببراعة اليونان. واقدم على المفادة بعشر سنوات من عمره ليكمل درس المسألة اليونانية من جميع وجوهها، ولكن - ويا للأسف - ظلت هذه الأفكار صوراً مقتضبة ومقاطيع صغيرة غير كاملة. لان صحته المختلة حالت بينه وبين تقديم ما ينبغي له لمثل هذا الامر، فانثنى عن عمله هذا، ولكن الصور التي تركها تكاد لا تخفى عنا الفكرة العامة التي أراد نيتشه أن يصورها وينشرها

يعتقد نيتشه بما اعتقد به معلمه (شوبنهاور) بان جوهر الوجود هو الإرادة، وهذه الإرادة واحدة عند كل الكائنات، وهي تتجلى بثباتها وقوتها في جثمان الخليفة؛ على أن هذه الإرادة هي شقية تفتقر إلى الرحمة لأنها تثابر على الجهاد والمقاومة في هذا الوجود، وهي موقنة عالمة أن نتيجة المعركة عليها لا لها. (وهل الحياة إلا أن تريد شيئاً بدون سبب، وان تتألم دائماً، ثم لا ينتهي الألم إلا بالموت. . . وهكذا تقابل الحياة الأحياء حتى يتفطر الكون ويعمر فساده). أن الوجود في نظر العقل غير كامل، لان نواقصه كثيرة، وعنصر الألم فيه غالب على السعادة والراحة، وبهذا يقضى على العقل أن يطوي الإرادة على نفسها ويسحقها من وجوده، وإذا أنعدمت الإرادة أنعدم الوجود نفسه، لان الوجود ما هو إلا الإرادة الفعالة، ولكن نيتشه لا يذهب إلى هذه النتيجة التي أدركها (شوبن هاور). فالوجود الذي لا يكمل في نظر العقل - عند (شوبنهاور) - فانه يكمل كأثر فني يحمل إلى صاحبه الغبطة الفنية. وفي مثل هذا الافتراض الذي يفترضه نيتشه يرى من واجب كل إنسان أن يستنفد وسعه ويبذل جهده في امتلاك نصيبه من هذا الجمال، باحتوائه على ما في نفسه من معنى الجمال، وبتأمله للوجود ولنفسه بعين الجمال

أننا في ساعة الإبداع الفني نشعر بغبطة لا تحد ولا تحس إذ هي غبطة المبدع. وإذا كان الإنسان في هذه الحياة فرداً قائماً بذاته، يحيا في عالم المادة، فهو فنان بطبيعة خياله المبدع الوثاب. يستطيع أن يبدع إبداع من يخلق ويصور - أن كان فناناً مبدعاً، ويقدر أن يكون مبدعاً في تفكيره في الأثر الفني الذي يبعث في نفسه خياله الباطني، لأنه يشاطر المبدع فنه ويتحد معه في تحليقه. وهو في كلتا الحالتين متخيل صوراً وألوانا جديدة تبعث فيه الغبطة الفنية، ولا يضر هذه الصور أن تكون أخيلة أو أحلاماً، لان أجزاءها مقتبسة من الوجود، ولا ينبغي لهذه الصور أن تكون صوراً ضاحكة تملأ الجو افراحاً، فقد تكون صوراً تملأ الأفئدة ذعراً والنفوس شقاء، وتكون بعد ذلك كله جميلة. . .

هذه الخاصة العاملة على إبداع الصور والأوهام، وتغليب الناحية الخيالية على الناحية الحقيقية يدعوها نيتشه (الخاصة الأبولونية: نسبة إلى (أبولون)، والفن الأبولوني عنده هو النحت والتصوير والشعر القصصي. أن الرجل الأبولوني يستنقذ نفسه من التشاؤم باستسلامه للجمال. يقول للحياة: أنا أريدك، لأن صورتك جميلة، يجدر بها أن تكون مادة للحلم والخيال. . .

ولكن الإنسان ليس بكائن يمكن تحديده بالذاتية، أو بالانفصال، فهو كائن يشعر بنفسه كإرادة متفوقة، ويحس أنه قطعة من هذه الإرادة المتوزعة في الوجود كله، ويدرك أنه متحد مع كل ما يحيا وما يتألم، تام الاتحاد مع الوجود. والإنسان - في حالة ذهول أو سكر ناشئ عن مادة مخدرة، أو إزاء حوادث طبيعية كعودة الربيع - يشعر بان هذا الحاجز الذاتي الذي يفصله عن الوجود قد وهى وزال، ويجد نفسه متحدة مع الطبيعة

كلها، وهذا الطور ما يدعوه نيتشه (الطور الديونيزوسي)، نسبة إلى الإلهة (ديونيزوس) ولغة الرجل الديونيزوسي هي الموسيقى التي يعتبرها شوبنهاور لغة الإرادة الخالدة بل صورة الرغبة الدائمة المستترة في باطن الوجود، والإنسان - في هذا الطور - يحس بالألم الشامل والوهم الباطل وشقاء الفردية، فكاد يجنح إلى التشاؤم، ولكنه يهتز قليلاً ويشعر بخلوده ويدرك أن إرادته المفصولة إنما هي جزء من إرادة الوجود، فتراه حيال كل مظهر من
مظاهر الفناء، أو مصرع بطل من الأبطال، تراه يشعر بان حياة الإرادة الباقية لم تطفأ بموت البطل. إن الرجل الديونونيزوسي ينقذ نفسه من التشاؤم لأنه يبصر خلود الإرادة، والحادثات تمر والتقلبات تستمر؛ هو يقول للحياة: أنا أريدك! لأنك أنت الحياة الخالدة
وبهذين المذهبين يرى نيتشه أن اليونان قد قهروا التشاؤم، وجعلوا الحياة جميلة زاهية؛ ويرى أن التفاؤل اليوناني لم يكن وليد الخفة والعبث، أو تجاهل لما يغمر الوجود من شقاء والم، ولكنه تفاؤل تولد من مثل أعلى وغاية أسمى؛ والمؤرخ الذي يستقرأ هذه التأثيرات في مطلع تاريخهم يتبين له أن القوم عرفوا الألم كما عرفناه؛ وتذوقوا الشقاء كما تذوقناه
سأل ملك (ميدا) الفيلسوف (سيلين) ما عساك تجد خير شيء للإنسان؟ فأجاب الفيلسوف: (يا ذرية التعس والألم، وأبناء المصادفات والمتاعب! لماذا تنقمون علي إذا جئتكم بما لا ترتاح له اذانكم؟ إن الخير الذي لا خير بعده هو إلا تكون - أيها الإنسان - مولوداً، وإلا تكون موجوداً، وإلا تصير شيئاً؛ والخير العاجل لك إن تلقى مصرعك الآن!)
فهذا الألم المنبعث من أعماق الروح الشاعرة بالأوجاع والشقاء الغامر الأرض، هو الذي أهاب باليونان ودعاهم إلى أن يكملوا معنى الحياة الناقصة بخلقهم آلهة هي آلهة جبال (أولمباوس)، هذه الإلهة هي نتيجة إبداع الروح (الأبولونية) وانتصارها. أرادوا أن يستنقذوا أرواحهم من حقيقة الوجود المروعة فعمدوا إلى خلق شعب من الإلهة وجملة أوهام طبقوها على الحياة التي يرونها صالحة للظهور؛ وهم مؤمنون بأن هذه الإلهة تعمل معهم على مجابهة التشاؤم. وهكذا لبست الحياة عندهم لباساً جديداً، وظهرت ظهوراً جديداً، وغدت جميلة في عيونهم لان إلهة جميلة تتصرف بها وتقبل بأقدارها؛ وهوميروس هو المثل الأعلى للروح الأبوبونية؛ ومقاطيعه وقصائده هي نشيد انتصار الحضارة اليونانية على سيئات الأجيال الغابرة، وهي التي خلقت هذه الروح التي تغلب اليونان بأوهامها وأخيلتها على كآبة الحياة الحقيقية وقبحها. وإزاء هذه البراعة الأبولونية نشأت البراعة (الديونيزوسية) أو براعة المأساة.
(يتبع)
خليل هنداوي
القصص
من أساطير الإغريق
نهاية هرقل
للأستاذ دريني خشبة
رحلة هرقل إلى الدار الآخرة - 12
لم تكن محفوفة بالمكاره هذه الرحلة إلى الدار الآخرة؛ فقد سلك هرقل سبلاً من قبل كان الموت يجثم له في كل خطوة فوقها، وكانت المنايا تتربص به، ثم تفر منه أخر الامر، كأنما كان هو موتاً للموت، ومنية للمنية، وفناء للفناء
اسقط في يد حيرا حين عاد هرقل بتفاحات هسبريا، واستولى عليها الجزع حين رأت إلى التنين لادون مضرجاً بدمه، فوسوست في صدر يوريذوس أن يأمر البطل فيحضر له سير بيروس من الدار الآخرة!!
وسير بيرسون هو ذلك الكلب الهائل ذو الرؤوس الثلاثة، الذي رأيناه يعدو في اثر بلوتو - إله الموتى - حينما زار هذه الدار الأولى ليخطف برسوفنيه، وهو أبدا يربض عند قدمي سيده الجالس فوق عرش هيدز، يقلب في غيهب السفل أعينه الستة، كأنها انجم تحترق في فحمه ليل بهيم، وهو أيضاً أداة تعذيب في دار الأبدية، ينشب أظفاره في أرواح المجرمين، ولا يفتأ يكرع من دمائهم حتى يروى!
وكانت الحرية تشيع بالآمال في قلب هرقل، وكان هو قد برم بهذا الرق الأسود الذي

كتبته عليه السماء؛ فانطلق يعدو إلى دار الموتى، وبين يديه طائفة من الآلهة تهديه وترشده؛ حتى إذا كان قاب قوسين من السدة القاتمة الدجوجية، ووجد سير بيرسو مقعياً يغط في نوم عميق، وإله الموتى مستلقياً يقلب في حضنه القوي برسفونيه الجميلة، انقض على الكلب فخنقه حتى لا يعوي فتعاويه كلاب الجحيم كلها وتكون هنالك الطامة. . .! وانتفتل من دار الظلمات وفي نفسه من الرحمة لهذه الأرواح الهائمة ما أسال دموع الحنان من عينيه الحزينتين!

وانخلع قلب يوريذوس حين لمح الكلب الهائل!

لقد كانت الظلماء تتدجى في أشداقه فتكسف الشمس الوضاءة، وترد نور النهار المتلألئ ديجورا يلج في ديجور!!

وكان الزبد ينتثر من أفواهه كأنه ندف يساقط من علٍ في ليل عاصف!

وكان ذيله الطويل الضخم يتلوى ويتثنى كأنه ذنب هيدرا أو ذيل لادون!

وكان يعوي وينبح فيقلقل الجبال المجاورة، ويزلزل قصور أرجوس!

وانظر إلى الملك الجبان!

لقد قفز من عرشه مما ألم به من الهلع، وانطلق إلى مخزن الغلال المجاور فاختبأ في خابية عظيمة أغلقها على نفسه حتى كاد يختنق، والى لا يخرج حتى يعود هرقل بسير بيروس إلى هيدز!

وهكذا أصبح هرقل حراً، وألقيت عن كاهله هذه الربقة التي أذلته طويلاً، وتلفت حوله فوجد الحياة تتبرج كأنها غانية، ووجد كل شيء بساماً ضاحكاً يدعوه إلى اللهو والمرح، والأخذ بنصيب مما تفيض به هذه العاجلة من مباهج ومغريات

وذهب في رهط من أصدقائه والمعجبين به من الإلهة إلى الأولمب ليلقى أباه وليقدم له طاعته، وليرى هل يتوب عليه من غضب لا يستحق منه كثيراً ولا قليلاً. . .

ولقيه أرباب الأولمب هاشين باشين، واخذوا يتندرون بمجازفاته العجيبة التي انتصر فيها على سبع نيميا والأفعوان هيدرا ومحاربات الأمازون. . . . .

واغرقوا في الضحك حين ذكر أطلس وما كان من أمر الحيوية!!. . . . واقترح هرمز على الإلهة أن يصارعوا هرقل ويلاكموه، ويباروه في العدو والسباحة والعاب القوى، لتتم بذلك بهجة لقائه، وليعبروا عما يكنونه له من حب، ويضمرون من إعجاب. فأقيم ملعب الأولمب الفخم، وشيدت على جوانبه المدرجات العجيبة التي تتسع لألف ألف من الإلهة وأنصاف الإلهة وكبار المدعوين من عباد بروميثيوس

وتم مهرجان الألعاب، وحاز هرقل قصب السبق في اكثر المباريات؛ وكان هذا هو الأولمبياد الأول الذي اخذ اليونان يحتفلون بمثله كل خمس سنوات

وتتابعت السنون. . .

ومر هرقل بقوم يبكون؛ وقيل له أن أدميتوس ملك تساليا مرض، فتمنى على الإلهة أن تمنحه الخلود في هذه الدار الدنيا، فأجيب إلى ما تمنى، بشرط أن يحل محله أحد أهل بيته إذا حضره الموت، وهنا تقدمت زوجه المخلصة ألسستيس فضحت بنفسها كي ينجو بعلها من الموت، وليخلد ما شاء له الخلود. وماتت الزوج الوفية فداء للملك.

وينظر أرميتوس إلى ملكه الشاسع فيراه بغيضاً لا خير فيه؛ ويكون في حاشيته فيشعر بوحشة وانقباض كأنه يعيش في صحراء؛ ويقدم إليه الطعام فلا يكاد يسيغه؛ وترقص القيان بين يديه فيثرن في نفسه الاشمئزاز كأنهن جنة تدمدم في ظلام غابة. . .

ويبغض الدنيا. . .

ويود لو كانت زوجه الجميلة المخلصة إلى جانبه لحظة واحدة وتتلاشى الحياة بكل من فيها. .!!

لذلك يبكي الملك، ويبكي حوله شعبه الأمين!

ويذكر هرقل أنه وحده يستطيع أن ينفذ إلى هيدز - دار الموتى - فيستنقذ ألسستيس من براثن الفناء، ويردها معززة مكرمة إلى زوجها المسكين فيهدأ قلبه، ويرقأ دمعه، وتستقر نفسه، ويفيء إلى أمر هذا الشعب الذي تكبكب حوله يعول وينتحب. . .

ونفذ البطل إلى ظلمات الدار الآخرة، وسأل الأرواح الهائمة فدلته على منامة ألسستيس؛ فتغفل حارسها الجبار وخنقه، واختطف الفتاة الناعسة وفر بها دون أن تشعر به زبانية بلوتو

وعادت الطمأنينة إلى قلب الملك، ورفرف السلام على المملكة

هرقل وأومفاليه
وذهب هرقل يذرع الأرض، واشترك في حملة الأرجونوت ضد السنتور، وأنضم إلى الإغريق في حصارهم الأول لطروادة
ولقي رجلاً ذا خيلاء وكبر فقتله ظالماً، وكان زيوس ينظر من علياء الأولمب، فعبث وبسر، وقضى أن يظل هرقل في خدمة أومفاليه ملكة ليديا بضع سنين
وتجهم هرقل، ولكنه لم يكد يبدأ خدماته التافهة للملكة، حتى راعه جمالها، واستهوته مفاتنها، وأحس للمرة الأولى في حياته المشحونة بالمخاطر أن قبساً يتأجج في قلبه يوشك أن يجعله ضارماً
وحلا في فمه ما مر من الذل، وطاب ما كره من العبودية، وود لو قضى الحياة في ظلال هذا الحب الأول مغموراً برضى الملكة، سعيداً بما أفاء عليه جمالها من هناء ونعيم وبال. ولكن الإلهة لم تقر بهذه السعادة فأرسلت بطلها لمآرب أخرى
زواج هرقل
وطوف هرقل في أقصى الأرض حتى انتهى إلى كاليدون، مملكة أونيوس، ولقي ابنته الناهد الهيفاء تجمع الزهور في خميلة غناء. وكان قلبه قد نهل من خمرة الحب، وكانت عيناه قد ثقفتا نظرات الغزل، وكان لسانه قد انحلت عقدته عن وحي الهوى، فانطلق يلاعب الفتاة ويداعبها، وينمق لها من الورد والرياحين باقات تتكلم بالشذى، وتهتف بالخضرة والحمرة، وتصافح الروح بالعبير الفياح
وأنست ابنته الملك بهرقل واطمأنت إليه، وبثها وبثته، وتشاكيا ما شاء لهما الغرام الروي، والحب الفتي، والدمع المسكوب!
وعلم منها أن أخيلوس، أحد إلهة الأنهار، قد خطبها إلى والدها، وان الملك قد أجابه إلى ما أراد:
(فهل اسعد بان تزيح هذا الكابوس عن قلبي؛)
(وتقف حائلاً بيني وبين الشقاء الذي يتربص بي؛)
(فنكون اهنأ زوجين ينعمان بلذة الحب، ويرفلان)
(في برد السعادة، ويتغنيان مع الطير الحان الهوى)
(والحياة!!. . . . . .)
هكذا بكت ديانيرا إلى هرقل، فهاجت في قلبه نخوة البطولة ونحيزة المغامرة، وأطلقت في كل عظلة من جسمه المكتنز كهرباء الحماسة والاستبسال:
(قري عيناً أيتها الحبيبة، فليس ايسر)
(على هرقل من حرب الإلهة. لقد صرعتهم)
(جميعاً في حفل الأولمب؛ وقد مر بي من المغامرات)
(ما ينخلع من بعضه من قلب أخيلوس. . . . . .)
وستأذن هرقل على الملك، وحيا احسن تحية، ثم طلب يد ديانيرا. . . وكان أونيوس يعرف من بأسس البطل وعظيم قوته ما يعرف كل ملوك هيلاس وأمرائها؛ وكان قد أجاب أخيلوس إلى خطبته وهو يعلم من سخط ابنته على هذا الزواج ما يعلم؛ فلما تقدم إليه هرقل استبشر وقال: (. . . . . لقد كنت يا بني وعدت أخيلوس أن يبني على ديانيرا، وهو من تعلم في الحول والطول والجبروت، ولكني مع ذاك لا أفضله عليك، بل نجعل لكما يوماً تلتقيان فيه؛ فمن يصرع صاحبه كان كفؤاً لديانيز)
وقبل هرقل، ورضى أخيلوس؛ واجتمع الناس من كل فج يشهدون الصراع العظيم بين الجبارين العنيدين. . . وكان كل واثقاً بنفسه، لا يخامره أدنى شك في أنه فائز على صاحبه. فلما تقابلا، ثار من حولهما النقع، وكانت أنظار الناس كالمتصلة بسواعدهما بأمراس شداد؛ وبعد قليل أخذت الأرض ترجف من تحتهما، وطفق الملعب يهتز بمن فيه من خلق كثير. . . وكانت ديانيرا تشرف من مقصورتها وتكاد تغص بريقها إشفاقاً على هرقل، وكان هو كذلك، كلما خارت قواه، نظر أليها النظرة تتجد بها روحه وتتضاعف مرنه ويمتلئ قلبه بالآمال. . . . . وكان أخيلوس قد فطن إلى جبروت هرقل، وكان يستطيع أن يتشكل بأي خلق اراد، فجعل يتقلب من ثعبان ضخم الجثة، إلى تنين عظيم الجرم، إلى أسد بادي النواجذ، إلى. . . ما شاء له سحره وقوة حيلته من أشكال وأوضاع. .: ثم انقلب إلى عجل جسد ذي قرنين كبيرين، وشرع ينطح هرقل، وهرقل يتقيه، حتى استطاع البطل أن يأخذ بقرنيه بكلتا قبضتيه، وجعل يخبط

برأسه الأرض في عنف وغل، حتى كسر أحد القرنين وفر أخيلوس من الميدان هارباً. .
. لا يلوي على شيء. . . ودوى الملعب بالتصفيق، واندلعت الحناجر بالهتاف، وتدفق
الناس نحو هرقل يحملونه على الأعناق. . . وتقدمت ديانيرا فحياها البطل بقبلة
فردوسية خالدة، ما يزال صداها يرن على شفاه المحبين. . وتم العرس. . . وانطلق
هرقل بزوجه يجوب الآفاق. .

وحدث أن اعترضه نهر عظيم لم يستطع أن يعبره ومعه ديانيرا. فبينما كان يعمل
فكرته كيف يقتحمه، إذا سنتور عظيم يعرض عليه أن يحمل زوجه فيعبر بها إلى العدوة
الثانية سالمة آمنة، ثم يرتد فيحمله إليها كذلك؛ وقبل هرقل، ونسى ما كان بينه وبين
السنتور من عداوة وبغضاء، وحرب قديمة تدمى لها قلوبهم، وتقرح نفوسهم، وأعان
هرقل زوجه فاستوت على ظهر السنتور، وخاض بها الماء وهو يطفر من الفرح، ويحلم
بالمنى
والآمال. فما كاد يبلغ الشاطئ الأخر حتى عدا عدواً شديداً ليكون بمنجاة من سهام
هرقل. ولكن ديانيرا صرخت صرخة داوية نبهت ما غفل من سمع زوجها؛ فلما فطن
إلى خيانة السنتور، شد قوسه العظيمة، وأرسل إلى دبر السنتور سهماً مراشاً كان قد
شرب من دم هيدرا حتى ارتوى!

وأحس السنتور بسم الموت يخترم حشاشته، وبرودة الفناء تشيع في جسمه البدين،
فاقسم ليكدن لهرقل، فيذقه من هذا السم الذي سقى به سهامه ما يودي به. فقال
لديانيرا: (أيتها الفتاة! لا تثقي أن حب هرقل دائم لك، بل اكبر الظن أنه منصرف عنك
إلى فتاة أخرى تكون أسبى وأصبى. وما أحسبك إلا ذاكرة كيف كان يتفانى في حب
أومفاليه. فخذي قميصي هذا فاحفظيه لديك، حتى إذا أحسست من زوجك جفوة، أو
رأيت فيه ازوراراً، فابعثي به إليه ليلبسه، والقي في روعه أنه يحفظه من أعدائه. فانه
أن فعل، عاد إليك بقلب مفعم بالحب، ونفس ملتاعة كلها شوق وتوق. . .) وخر
السنتور ميتاً!

وأخذت ديانيرا القميص المضرج بالدماء المسمومة، وفي نفسها من الهم شيء
عظيم! (من أومفاليه هذه؟! كان يحب أومفاليه؟ كان يحب فتاة غيري؟ وحق زيوس
لأسألنه! هاهو ذا قد سبح إلى الشاطئ!)

ولقيته فسالته، فاعترف لها بكل شيء، وطمأنها على محبته وإخلاصه. . . ولكن قلب
المرأة لا يعرف هذا الاستسلام المعسول للكلمات الناعمة! فقد ظل الوسواس يدب
في نفس ديانيرا، حتى كان هرقل في إحدى جولاته، وكانت هي عند أبيها ملك
كاليدون؛ فطالت غيبته، وذهبت بها الظنون من اجل ذلك كل مذهب

وذكرت القميص ورددت عبارات السنتور، فنهضت من توها وأرسلته مع إحدى
وصيفاتها إلى هرقل في منآه البعيد. وأوصت الوصيفة أن تذكر له من مآثر القميص ما
وسوس به السنتور. فلما لبسه هرقل، التصق به التصاقاً، واخذ السم يشيع في جسمه
الحديدي فيذيبه ويفتته. . .

وصرخ البطل بلا جدوى! وكلما حاول انتزاع القميص، كان جلده يتمزق، ولحمه يتهرأ،
ويتصبب الدم من فوق ومن تحت. . . ثم أخذت نفسه تساقط أنفساً. . . وطفقت
روحه تودع هذا الجثمان الهائل في دموع سخينة وآهات حارة. . .

ولفظ نفسه الأخيرة وهو يبكي ويقول: (فدى لك نفسي. . . يا. . . ديا. . . نيرا!)
(وهوى إلى الأرض ما كان من الأرض، ورفرفت)
(الروح الكبيرة في جمهرة من أرواح الإلهة التي أقبلت)
(من الأولمب تزف ابن زيوس العظيم. والكل ضاحك)
(مستبشر أن ألقى أخوهم حمله الثقيل، وخرج الأولمب)
(جميعاً يستقبل البطل ويهتف باسمه في عليين!. . .)

وحمل الجثمان الطاهر إلى جبل أوتيا، حيث دفن في إجلال وإعظام، وحيث وقفت
ديانيرا ترويه بدمعها العزيز.

دريني خشبة

قلب فتاة

للآنسة ابنة الشاطئ

لعلها حنقت على حينما تقدمت إليها في لوعة صامتة ثائرة ورجوتها أن تبكي وان

تسرف في البكاء؛ ولعلها أنكرت مني أن أفاجئها في وحدتها وقد استنامت إلى أحزانها وأسلمت أفكارها إلى ذلك الفضاء الرحب الواسع الذي نود لو نفر إليه، وان كنا نجهل أين مكانه منا وأين السبيل إليه! لقد كنت اعلم يقيناً أن هذه الكلمات التي اصطلحنا على تسميتها كلمات المواساة، والتي تعود المرء منا أن يلقيها على مسامع المحزون، لا تحمل عن هذه المسكينة شيئاً مما ترزح تحته من أعباء أثقال، وكنت اعتقد أنني إذا كنت لا املك إلا الوقوف بجانبها افرض عليها سماع كلمات المواساة المحفوظة، واحتم عليها أن تزدردها كلما تزدرد قطع الثلج، فخير لها أن تظل هكذا في ذهولها وأطرافها، لعلها واجدة من خداع الخيال ما ينسيها شيئاً من رهبة الحقيقة الواقعة، ولو إلى فترة قصيرة! لكني كنت احبها، وأتألم لها، وكان هذا الحب من القوة والعنف، بحيث ينكر علي أن أظل واجمة وهي تكاد تحترق أمامي في صمت، وان اقف مكتوفة الايدي، بينما أرى ذرات كيانها المضطرب تكاد تتبخر في الفضاء الأثيري المخلخل بعد العاصفة. . . آه! كم كنت أود أن احترم صمتها، وان اتركها في جلستها المفجعة ومكانها المنفرد؛ ولكني خشيت أن يهدمها الحزن المكتوم. وكان لابد لي أن أقول شيئاً، فلم أجد ما أقوله إلا أن اخذ رأسها بين يدي وألح عليها أن تمعن في البكاء لم تكن هذه الفتاة من أولئك الفتيات اللائى يحملن قلوبهن في اكفهن ويخرجن بها إلى الأسواق للبيع أو الاستئجار، وكان كل من يعرفها لا يكتم إعجابه بذكائها وجاذبيتها وسمو اخلاقها، ولكنها كانت لا تكترث لشيء من هذا إلا كما يكترث الغني ببضعة مليمات! كانت تعلم يقيناً أن اثمن شيء لديها، هو قلبها الحي الكبير، وكانت تعتز به اعتزاز الإنسان باثمن ما يملكه؛ وكلما أثنى الناس على ذكائها أو حسنها، ابتسمت ابتسامة يتجسم فيها عدم الاكتراث، وتساءلت في نفسها: إذا كان هذا هو مقدار احتفال الناس بتلك الظواهر المادية التافهة، فكم يكون مدى احتفالهم بالكنز الذي في صدرها؟! ذلك القلب المليء بالحياة، الشغوف بالتضحية، النزاع إلى المثل العليا، والذي يود لو تتاح له الفرصة لإسعاد الآخرين!

ولقد أحبت هذه الفتاة! أحبت بكل ما في طبيعتها من إسراف وغلو، وبكل ما في قلبها من قوة وحياة، وما في نفسها الشعرية من ثورة وحرارة! وكان حباً نبيلاً تسامى شيئاً فشيئاً حتى تخلص من أدران الماديات. . . ولعل الشاب الذي أحبته لم يكن بادئ ذي بدء يفهم معنى ذلك النوع من الحب، ولكنه أدرك على ممر الأيام أنها قدمت إليه قلباً من ذهب، وحباً نبيلاً أشبه بالخيال لغرابته وندرته، فهاله ما قدمت، وصمم على الاحتفاظ بحبها حتى يضمهما اللحد، وعلى أن يمهد لها حياة سعيدة ولو كلفه ذلك حياته. واستبد به بعد ذلك حب قوي غلاب جعله يرى الحياة بدونها جحيماً لا يطاق؛ وكان كلما تسامى إليها وتوغل في فمها ودراستها، اتضحت له قيمة ذلك الحب الذي لا يعرف الأثرة ولا الاستهتار، وغمرته لذة روحية تجعله في شبه ذهول. . . ذهول الحالمين السعداء

عرفته في أكتوبر سنة 1929، وكان لا يزال طالباً بالسنة الأولى بإحدى المدارس العليا، وكان تعارفهما طبيعياً ووليد المصادفة البحتة. فقد نزح والداه من الريف إلى القاهرة، ليحميا وحيدهما من بلدة المغامرة واللهو والفساد؛ واتخذت الأسرة مسكناً متواضعاً في بين كانت تسكن به أسرة الفتاة؛ ومرضت الأم مرضاً أقعدها عن مباشرة أعمال أسرتها الصغيرة، فتطوعت الفتاة لمساعدتها، لأنها جبلت على حب الخير؛ ثم كانت ساعة من تلك الساعات التي ينسى المرء فيها نفسه وتقاليده وأرادته، فتقابلت الفتاة المحتجبة الحريصة، بالفتى الشاب المثقف، ولم يكن لأحدهما يد في تلك المقابلة. كان ذلك في مساء ليلة ليلاء من ليالي الشتاء القاسية، وقد آوت الجنوب إلى المضاجع فراراً من ثورة الطبيعة؛ ولاذ الناس بالبيوت ينشدون الدفء في صمت وسكون. وكان هناك شعاع حائل ضئيل، ينبعث من نافذة الأم المريضة، ويفنى بعد قليل في جوف الظلام. وقد رقدت المسكينة حين استبدت بها نوبة قاسية أذهلتها عن كل ما حولها؛ وكان صوت الريح يذهب بأنات الأم العليلة، فلم يكن يسمعها أحد سوى الشبح الأبيض الواقف بجانب سريرها، كأنه ملاك هبط من السماء. كان هذا شبح الفتاة النبيلة الحنون التي قامت بتمريض العليلة. وفتح الباب فجأة، ودخل الابن الشاحب

المحزون يصحبه الطبيب، فلم تتمكن الفتاة من الخروج، فقد كان عليها أن تصغي إلى تعليمات الطبيب، وان تشرح له ملاحظاتها عن درجة حرارة
العليلة، وبصاقها وطعامها، ولم يتمكن الفتى من الخروج، فقد كان الممرض الليلي لامه، وكان عليه أن يصغي لما يقوله الطبيب، عن سير المرض؛ وهكذا جمعهما الحزن المشترك؛ وأنستها رهبة الموقف، وشدة تفجعها للمريضة وابنها، ما درجت عليه من تحفظ واحتجاب
وكان لابد للفتى بعد أن شفيت أمه أن يشكر تلك الإنسانية النبيلة، وكان لابد لها أن ترد على رسالته، لتؤكد له أن ما قامت إلا بواجبها الانساني، ثم اختفت تلك المراسلات الرسمية، لتفسح المجال للتراسل الأخوي والتفاهم الروحي، بين الشاب المعجب بنبل الفتاة، وبين الفتاة الثائرة الحنون؛ ووجد كلاهما لذة مبهمة في ذلك النوع من الإخاء والصداقة، ولذ لهما أن يفرجا عن أنفسهما بالكتابة، وكلاهما يفهم أخاه ويحيا في بيئة تكاد لا تسمح لهما باستنشاق الهواء
لم يكن مرض الأم الذي أصابها في شتاء عام 1929 والذي كان سبباً لتعارفهما، إلا نوبة من نوبات مرض صدري يرعى في رئتها ويأتي في مهل على ما احتازته المسكينة من جلد واصطبار، وهاقد تمكنت العلة منها وأصبحت شبحاً هزيلاً يدب إلى القبر، ويهدي أخر أنفاسه إلى حياتنا العاجلة
وقرر الأطباء أن تبادر العليلة إلى مصحة حلوان. . . وإلا عجل إليها الموت؛ ولكن كيف؟ أن الوالد الشيخ لا يملك إلا ما يسد به رمق أسرته الصغيرة، كان يملك بضعة فدادين في مديرية الشرقية، وكانت زوجته تملك شيئاً من الحلي، فبذلا كل ذلك عن طيب خاطر في تعليم وحيدهما، ولكنه نال شهادة التعليم ليعلقها على جدران الحجرة الحقيرة التي استأجروها أخيراً يقيموا بها. ثم قبع في كسر داره بجانب أمه العجوز المريضة، وأبيه الشيخ الفاني! وإلا فهل يجمع الصبيان في الطرق ليلقى عليهم الدروس، ويطبق مبادئ روسو وأراء فريدريك هربرت سبنسر مستعملاً (هدايا) فروبل و (جهاز) مدام منتسورى؟ أم يفتح مدرسة أهلية قد تراكمت المدارس في أحياء البلاد، وهو بعد لا يملك ما يشتري به الدواء لامه المصدورة العليلة؟
كان مرهف الحس مهذب الوجدان، وقد عز عليه أن يفقد أبوه ثروتهما في سبيله، حتى إذا ما بلغ مبلغ الرجال كان حميلة عليهما. كان يشعر بأنه مسئول عن كل ما أصاب ويصيب
والديه؛ وقد عذبه ذلك الخاطر وأمعن في إيلامه، فاخذ يبحث عن عمل كل يوم، ولكن ما الذي يستطيع حامل دبلوم المعلمين العليا أن يعمله، وهو لا يملك إلا تلك الثروة العلمية المخزونة في دماغه، لا يدري كيف يستغلها! ولقد صبر على الجوع حيناً وتحمل الضيق أحياناً، ولكنه الآن لا يستطيع الصبر، إذ يرى أمه التي غمرته بالعطف والحنان، تجود بحياتها مع أنفاسها الخافتة اللاهثة؛ ويرى أباه يجلس ذاهلاً مطرقاً، ينظر نظرات حزينة جوفاء إلى تلك الإنسانية المخلصة الراقدة، التي قاسمته حلو العيش ومره ثلاثين عاماً، غمرته فيها بكل حب وإيثار؟!
وقف الشاب يوماً بين أبويه وقد نفد صبره وعذبه عجزه فرفع يديه إلى السماء في حركة ضارعة مبتهلة، وتساءل بصوت متهدج حزين:
أبتاه.! ألا أستطيع أن اصنع شيئاً لها؟ حياتي يا أبي ما قيمتها إذا لم تكن لكما وفي) سبيلكما؟ إلا يمكنني فداؤها؟ (فابتسم الشيخ الحزين بعد أن تحجرت الابتسامة في شفتيه أعواما، وقام إلى ولده البار يضمه إلى صدره، ويغمره بقبلاته، ثم اسر إليه أن لا وسيلة لإنقاذ الأم المعذبة إلا بزواجه من ابنة عمه التي ورثت عن أبيها كثيراً من المال والعقار
طعنة أصابت قلب الفتى فأدمته! لقد كان مستعداً للتضحية بحياته لأنها ملك له؛ أما أن يضحي بقلبه وقد وهبه، وبفتاته وقد وثقت به واطمأنت اليه، فهذا ما لا طاقة له به. . يتزوج؟ ولمن إذن يترك الفتاة الصغيرة المثقفة؟ لقد تمكن الحب من قلبيهما ثلاث سنوات، وكانا من الاعتزاز بهذا الحب بحيث لم يلوثاه باباحة منكرة! كانا يخشيان على حبهما وهو الثوب الأبيض الناصع، أن يلوثه القليل من الغبار، ولم تعد لهما حيلة في التخلص من سلطان هذا الحب الذي نما مع الأيام، فكيف يفرض عليه أبوه ذلك الثمن الغالي؟ لا. . أنه لن يحطم قلبها ولن يكفر بالنعمة التي منحته إياها. . أنه بشر

ولاحتماله حد معقول؛ وقد احب بكل قواه؛ ولئن كان مسئولاً عن سعادة امه، فهو مسئول كذلك عن سعادة فتاته، فقد منحته الأولى حبها وحنانها لأن عاطفة الأمومة فيها أرادت ذلك، بينما منحته الثانية حبها منة منها وتفضلاً. . .

لقد يستطيع أن يخنق حبه ويحطم قلبه، ليشتري بذلك سعادة أمه، ولكنه لا يستطيع أن يحطم قلب فتاته الصغيرة النبيلة. . .

ولكن الفتاة كانت أقوى منه. . لقد أحبته حباً صادقاً، والمرأة إذا أحبت فعلت المستحيل في سبيل سعادة من تحب. . . لقد عجز عن السير في طريق التضحية الشائك، فلتحمله هي على كتفيها غير آبهة بالأشواك تمزق ثياب راحتها، وتسيل دماءها. ولقد أعماه الحب عن الواجب، فلتفتح بأناملها الرشيقة عينيه، وتوقظ شهامته ورجولته، وحسبهما سعادة بعد ذلك إنقاذ الأبوين الكريمين

ولكن كيف تقنعه بوجوب التضحية؟ حدثتها نفسها أن توهمه أنها تحب غيره، ولكنها رجعت عن تلك الفكرة الروائية التي فرضها (إسكندر ديماس) على المحبين، وعز عليها أن تلوث الحب العالي بمثل هذه الأفكار، وهو آخر ما تبقى لها من سعادة!

وأشفقت على فتاها أن تنهدم المثل العليا أمامه فيجزع وربما جحد الفضيلة وأنكر الحياة! ثم فكرت في أن توهمه أن أباها يفرض عليها الزواج من غيره، ولكن هذا لن يفيد في إيقاظ نخوته وشهامته، وإذن فلتتقدم إليه في صراحة وحزم، لتعلنه أن حبها وقد تنزه عن الماديات، أضعف من أن يحتمل تبعة موت الأم الحنون، وجنون الأب الشيخ، وأنها تحبه إلى الدرجة التي تخشى عليه فيها من فقد احترامها له إذا قتل أمه بأنانيته. إنها تحبه، ولكنت هذا الحب نفسه هو الذي يفرض عليها أن تتنكر له إذا لم يؤدي واجبه كرجل وكابن، فإذا ما سألها عما ستفعله بنفسها بعده، أجابته في رفق حازم أن لا شأن له بها، وأن عليه أن يتزوج من ابنة عمه. . .

لها الله!! ما كان أنبلها وهي توصي حبيبها الذي انتزعته الأقدار منها بالرفق بابنة عمه وإسعادها وتمهيد الراحة لها؟!

لها الله!! ما كان أنبلها وقد وقفت تهمس في أذنه ألا يحدث أمه عن تضحيته، وألا يقدم إليها الدواء مسموماً بإشعارها أن حياتها أنقذت بهذا الثمن الغالي. . .

ما كان أنبلها وقد وفقت تبعده عنها أشد ما تكون حباً له وشغفاً به!!

من يدري؟! ربما كان هول الموقف قد شغلها عن النظر إلى الأفق البعيد، حيث تتجمع قطع الظلام ويتصل بعضها ببعض! وربما كانت تجهل أن انتزاع الكلمات التي حرضت بها الفتى على الزواج من ابنة عمه، أقسى وأشد إيلاماً من قطع لحمها وهي حية. . .

ظنت نفسها سعيدة ساعة خضع الفتى لحكمها، وقامت تودعه وتشد على يده بكلتا يديها وهي

تبتسم ابتسامة شاحبة ذاهلة، حتى إذا ما تركته وتزودت منه بالنظرة الأخيرة، أحست بالألم يحز في قلبها، فهرعت إليَّ - وأنا صديقتها الواحدة - كالمجنونة، تشكو وتلتمس التشجيع؛ ثم ركنت إلى الصمت والهدوء، ولكنه كان الهدوء الذي يسبق العاصفة!

وكنت أعلم أن وراء مشيتها الميكانيكية المفجعة ما وراءها! وأن تلك البسمة الصفراء الباهتة المتحجرة على شفتيها، تخفي وراءها ناراً ترعى قلب الفتاة المسكينة. كان هدوؤها المصطنع يقتلني، وكنت ألمح عن كثب وميض النار تتأجج بين جوانحها وتختفي تحت رماد الحياء والمداراة، كزبد الأفران العالية، يبدو سطحه للعين ترابياً أدكن، حتى إذا انفرج الزبد نرى حممه!. ولم أكن أرجو شيئاً، إلا أن يمن الله عليها بنعمة البكاء!!

كان حبها من نار ونور، فلما حرمت نوره، رأت أن تحترق بناره في صمت! فقد كان عليها أن تظهر للناس بسّامة ضاحكة وإلا ولغت ألسنة السوء في سمعتها، ولوثت حبها الطاهر النبيل، وعبثت بمستقبل الحبيب النائي البعيد!

وكان عليَّ أنا، أن أتغنى بشهامتها، وأن أؤكد لها أنها ظفرت من الحياة بأوفى نصيب، حين اشترت بسعادتها سعادة ثلاثة آخرين!. وكانت تنصت لكلماتي أحياناً ثم يغلبها الضعف فتفر إلى حيث تختلي بنفسها لا لتبكي، فليتها كانت تفعل، وإنما لتحترق في صمت!

ولمحت عن بعد شبح العاصفة يقترب في بطء، فلازمت الفتاة وأنا أكاد أختنق من الحزن والألم؛ فلما أعلن أخوها أن فتاها تزوج بابنة عمه، أرسلت نظرات محمومة مبهمة جوفاء! وفي بطء حزين، قامت إلى حجرتها، فركضت وراءها، ولم أجد ما أقوله

إلا أن أطلب إليها أن تسرف في البكاء، فقد هالني تحجر الدمع في مقلتيها أشد مما يهولني الصراخ والنواح وانهمار الدموع!!

ابنة الشاطئ

البريد الأدبي

الرصافي في دينه

دفع إلي اليوم وأنا مار في سوق الحميدية أخ لنا من الوراقين الأدباء متدين غيور، كتاباً جديداً لأمين الريحاني اسمه: قلب العراق، صدر في هذه الأيام في بيروت، وأقرأني فيه الفقرة الآتية (ص 265)، ولست أعرف من الكتاب أكثر منها، فأحببت أن أنشرها ليقول فيها الرصافي كلمته، فهو المتهم فيها، وإليه تنسب هذه الآراء. . . وليطلع عليها فحولة الكتاب، وحماة الدين، وورثة البيان القرآني: الرافعي والزيات وعزام، ويروا رأيهم في هذه (الأفكار الجديدة)!

وهذه هي الكلمة بنصها وفصها:

قال:

إن للرصافي رأياً في الوحي الشعري غريباً: هو لا يؤمن بالوحي، أو بالحري الوحي) المنزل، إنما يعتقد أن القوة الشعرية في الإبداع تتعلق بقوة ألباه في الجماع، وأن الضعف الذي يعتري القوة الواحدة يتصل بالأخرى، إذن لابد من التوازن بينهما، بل هو ضروري. . . (إلى أن قال):

ثم ذكر النبي محمداً، وهو في نظر معروف شاعر عظيم على أن أجمل قصائد . . . النبي، أي أجمل السور القرآنية، إنما هي التي جاء بها في عهد الاعتدال الجنسي يوم لم يكن له غير خديجة زوجاً، أما بعد وفاة خديجة فقد أصبح محمد مزواجاً، وكانت القصائد - السور - في هذا العهد مثل نسائه (كذا) أي دون ما تقدم منها ومنهن فقد كتب الرصافي سيرة النبي محمد، وأطلعني عليها مخطوطة بيده، في سبعة دفاتر من الدفاتر المدرسية، فما أدهشني منها ما فيها من العلم والتحقيق لأن مصادر الموضوع متوفرة لمن شاء معالجته، وأحسن البحث والموازنة، إنما أدهشتني القوة النافذة والمقدرة على التحليل والاستخراج، والتفلسف في عقائد لا تستقيم بغير الإيمان والجرأة والصراحة مع الاتكال على العقل والعلم فيهما

فقد استخدم في (سيرته) المصباح الذي استخدمه العلماء الأوربيون في نقد التوراة، أي مصباح النقد الأعلى الذي ينير العلم بنور العقل والمقارنات التاريخية، ومما يزيدك إعجاباً

بالرصافي أنه لا يحسن لغة أجنبية، فقد ركن في كل ما حلل وأول واستخرج واستنتج إلى اجتهاده الخاص وإلى علومه الواحدة العربية

وإنك لتدرك الروح في مصنفه هذا إذا ما علمت رأيه بالله، فقد قال لي مرة: إن الآية لا إله إلا الله، لا معنى لها ويجب أن تبطل، أو تبدل بالآية، لا إله إلا الوجود، أي أن الكون هو الله، والله هو الكون، هي عقيدة البانيتزم أي الحلول وهو فيها على اتفاق والزهاوي، قد يهمل وينسى كثير من شعر الرصافي في المستقبل، وتظل سيرته النبوية من الكتب التي تقرأ وتكتنز

ذاك هو الرصافي في دينه) اهـ

. . .فما هو رأي الشاعر الكبير الأستاذ معروف الرصافي؟

دمشق

علي الطنطاوي

لم نقرأ كتاب الريحاني لأنه لم ينشر في مصر؛ ولكنا نعلم أن حكومة العراق (الرسالة) صادرته؛ وربما كان هذا الهتر من أسباب هذه المصادرة؛ على أن الرصافي قد يقول شيئاً من هذا الكلام في ساعة لهوه ليطوي في بساط الشراب، لا لينشر على الناس في كتاب! فذنب (الفيلسوف) الذي روى، أقبح من ذنب (الأديب) الذي تحدث! والكلمة قبل كل شيء للأستاذ الرصافي

إلى الدكتور عزام

في العدد 87 من (الرسالة) نشر الدكتور عبد الوهاب عزام (قصيدة تاريخية) خطيرة بعثها بعض أهل جزيرة الأندلس للسلطان بايزيد العثماني يستغيثون به مما حل بهم من القواصم والدواهي في دينهم ودنياهم بعد أن نقض الأسبان العهد والميثاق الذي

أخذ عليهم. وقد وصلت القصيدة للدكتور عزام بواسطة العلامة الشيخ الجليل الراوية خليل الخالدي الذي نقلها من نسختين بقلم مغربي رآهما بمدينة فاس، وختم الأستاذ عزام تمهيده للقصيدة النائية بقوله: ولسنا ندري ما كان جواب السلطان بايريد على (هذه الدعوة الملهوفة والقصيدة الباكية. فمن عرف شيئاً في هذا فليخبرنا مشكوراً وأنا اخبر الأستاذ الفاضل - ولا شكر - بان القصيدة النائية ذكرها كلها الشهاب احمد المقري صاحب نفح الطيب في كتابه: (أزهار الرياض. في أخبار القاضي عياض) (1: 94) وهو كتاب طبع جزؤه الأول بتونس سنة 1322 ويوجد بعض ثانيه خطأً؛ كما ذكر القصيدة ميمية بعثها أبو عبد الله بن الأحمر لسلطان المغرب يعتذر فيها عما فعل وذلك بعد نزوحه لفاس واستقراره بها حيث توفي وترك ذرية

إما جواب السلطان (أبا يزيد الثاني ابن محمد الفاتح ووالد سليم الأول) فيظهر أنه سعى لأغاثتهم بما أمكنه مع ما عرف به من الرغبة عن الحرب والإخلاد إلى السلم، فقد ذكر الأستاذ حسين لبيب في كتابه تاريخ الأتراك العثمانيين (3: 39) أن (كمال ريس) أول مشاهير أميرالات الترك، كان أول ما ظهر اسمه: (سنة 1483 لما جعل قائداً للأسطول الذي أرسله السلطان بايزيد غوثاً وإعانة لمسلمي غرناطة الذين أرسلوا لسلطان البحرين والبرين مستجيرين به من ظلم وتعدى نصارى أسبانيا) فيكون بذلك قد كاتب الأسبان في خطبهم أولاً:

وقد بلغ المكتوب منكم إليهم ... فلم يعملوا منه جميعاً بكلمة

وما زادهم إلا اعتداءً وجرأة ... علينا وأقداماً بكل مساءة

فلما لم يسمع له نداء أرسل أسطولاً لإغاثتهم وإعانتهم في (كما تقول القصيدة)

محنتهم ولكن الشمس كانت إلى الغروب

رباط الفتح (المغرب الأقصى)

عبد الكريم بن الحسن

تكريم الأزهر للأستاذ الأكبر

أقام الأزهر علماؤه وطلابه في مساء الأربعاء الماضي حفلة تكريمية للأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر الشيخ محمد مصطفى المراغي دُعي إليها ألوف، وألقيت فيها خطب، وأنشدت بها قصائد؛ وكانت الرسالة تود أن تسجل هذه الظاهرة الجديدة في حياة الأزهر لولا أن لجنة الاحتفال أغفلت دعوتها، لسبب ترجو أن يكون كل شيء غير المروق أو الفسوق. . . .!!

لوبي دي فيجا

تحتفل إسبانيا بذكرى شاعرها الأكبر لوبي دي فيجا بمناسبة مرور ثلثمائة علم على وفاته، وفي الأدب الإسباني اسمان خالدان يفوقان في العظمة والبهاء كل اسم آخر: هما سير فانتس دي سافدرا، ولوبي دي فيجا، الأول في النثر والخيال الرائع، والثاني في الشعر؛ وقد عاشا في عصر واحد، ولكن سير فانتس دي سافدرا قد غدا اسماً عالمياً، وغدا أثره الشهير (الدون كيشوتي) أثر من أعظم الأثر العالمية، هذا بينما يبقى لوبي دي فيجا إسبانياً فقط وينحصر صيته وأثره في الأدب الإسباني، ولك لوبي دي فيجا يبذ من هذه الناحية مواطنه ومعاصره، فهو عميد الأدب الإسباني الحديث وأعظم أقطابه، وهي لوبي فيلكس دي فيجا، ولد بمدريد في 25 نوفمبر سنة 1562، وربى تربية عسكرية، وانخرط في سلك الجيش بادئ ذي بدء، وفي سنة 1582 أشترك في الحملة التي بعثتها إسبانيا إلى جزائر الآزور، وبعد ذلك بأعوام أشترك في الحملة البحرية الكبرى التي جردتها إسبانيا لغزو إنكلترا وهي المعروفة بحملة (الأرمادا)، (سنة 1588)؛ ثم أنتقل إلى الحياة المدنية، وعمل سكرتيراً للدوق آلفا (دوق إلبه) وزير فيليب الثاني الشهير، وأشتغل بعد ذلك سكرتيراً للمركيز ملبيكا. وفي سنة 1613 دخل الرهبنة وأنقطع للنظم والكتابة حتى وفاته في 27 أغسطس سنة 1635

كان لوبي دي فيجا شاعراً عبقرياً ومؤلفاً مسرحياً عظيماً؛ وكان يضطرم ابتكاراً وطرافة، وكان ينثر في شعره كل العواطف البشرية وضاءة ملتهبة من الحب والأسف والغيرة والأمل والحزن والطمع وطموح المجد؛ وكان شاعر الحقيقة في الوقت نفسه يتنقل بين مراحل الحياة البشرية؛ وكان أنيقاً في لفظه يتخير التعبير المنسجم، فيجمع نظمه بين الفلسفة الحية والخيال الساحر والبيان الرائع. وكان تقلبه في ميادين الحياة المختلفة، من الجندي، إلى الحياة المدنية، ثم إلى حياة الكنسية، من أكبر عوامل

الخصب والتنوع في خياله؛ وكان يحب مسقط رأسه (مدريد) ويخصها ويخص مجتمعاتها بكثير من نظمه الممتع، بيد أن لوبي دي فيجا كان شاعر الخاصة، ولم يغز نفوس الكافة، ذلك لأنه كان يرتفع عن مستواهم في تفكيره وفي وحيه؛ أما معاصره وشريكه في الخلود، سير فانتيس، فقد كان أبعد صيتاً منه في نفوس الكافة، لأنه كان أكثر تنزلاً إليهم وأقرب إلى إفهامهم ومشاعرهم

وكتب لوبي دي فيجا كثيراً للمسرح الإسباني، وكان من أعظم عوامل مجده وإزدهاره؛ وقد بلغ ما كتبه من القطع المسرحية زهاء ألفي قطعة؛ ولم يتبوأ مكانه في الأدب الإسباني بقريضه وأناشيده قدر ما تبوأها بهذا التراث المسرحي الرائع، وله أيضاً كثير من المؤلفات القصصية، ونظم كثيراً من الأناشيد والشعر الخالص في مختلف الفنون والنواحي، وكان يتبوأ في عصره ذروة النفوذ، ويمكن أن نقارن نفوذه الروحي في عصره وفي أمته بنفوذ فولتير في فرنسا في القرن الثامن عشر

وفاة المحدث الأكبر الشيخ بدر الدين الحسني

استعز الله بمحدث الشام وعلامة الإسلام الأستاذ الأكبر الشيخ بدر الدين الحسني والد رئيس الحكومة السورية عن تسعين عاماً قضاها في الإقراء والإفتاء والعبادة. وقد عرا الشام من هول مصابه رجفة من الحزن لم تسكن على الصبر والعزاء بعد. وقد نشرنا عنه في هذا العدد مقالاً للأستاذ الطنطاوي يُبين عن فضله ويكشف عن عظم المصاب فيه

أربعون عاماً من السينما

في أواخر سنة 1895، أذاع لوي لوميير أنه قد أتم اختراع جهاز ضوئي جديد ينقل صور الأشخاص والكائنات في حركاتها الطبيعية. وفي شهر ديسمبر من هذا العام أقيمت التجربة العملية الأولى لهذا الاختراع في البهو الأسفل لمقهى يقع في البناء رقم 14 من شارع الكابوسين؛ وكل هذا الاختراع هو السينما، فأجتمع لشهوده ثلاثة وثلاثون شخصاً؛ ولم يكن المعروض (فلماً) شائقاً بالمعنى الصحيح، ولكن مناظر متقطعة من الأشخاص والأعمال

وقد عمل لوي لوميير وأخوه أوجست لوميير بعد ذلك على تحسين هذا الاختراع الذي درسه مخترعون آخرون قبل ولا سيما هنري ماريه العلامة الطبيعي الشهير. وعاش لوميير ليرى بعينه كيف نما اختراعه وأضحى أداة مدهشة من أدوات المتعة والثقافة العالمية. وقد تناوله أثناء هذه الحقبة مخترعون عظماء مثل أديسون وتعهدوه بطائفة من الابتكارات المدهشة حتى أضحى من أعظم مدهشات عصرنا

وفي الأنباء الأخيرة أن بلدية باريس قد احتفلت بمرور أربعين عاماً على اختراع لوي لوميير لآلة السينما؛ وشهد لويس لوميير الاحتفال بظفره بعد أربعين عاماً من تحقيقه؛ وألقيت خطب بديعة، وأنعم على المخترع خلالها بوسام الاستحقاق الذهبي

كتاب عن مصر

أخرجت شركة درلانجر للطباعة والنشر في إنجلترا كتاباً جديداً بعنوان (آخر بلاء لمصر) وهو يتضمن تاريخ حياة اللواء رسل باشا حكمدار القاهرة وقصة مكتب المخدرات

مؤتمر المستشرقين

سيعقد في مدينة روما مؤتمر المستشرقين التاسع عشر بين 23 و29 من شهر سبتمبر القادم، وسيمثل مصر فيه الأساتذة طه حسين وأحمد أمين ومصطفى عبد الرازق

وسيشهده طائفة أخرى من رجال الأدب واللغة في مصر وفلسطين وسورية، وقد أسندت وكالته إلى الدكتور كارلو نالينو أستاذ الأدب العربي بجامعة روما وعضو المجمع الملكي للغة العربية بالقاهرة

مجلة الفجر الفلسطينية

توفرت طائفة من شباب العرب في فلسطين على إخراج مجلة أدبية أسبوعية باسم (الفجر) تصدر عن مدينة يافا

ويقوم على تحريرها نخبة ممتازة من الكتاب في فلسطين؛ كالأساتذة محمود سيف الدين الإيراني، وعارف سليمان العزوني، والدكتور أبي غنيمة، وسامي السراج. يعاونهم في تحريرها من مصر الأساتذة محمود تيمور وإبراهيم المصري ومحمد أمين

حسونه؛ وقد صدر منها عددان دلاً على نزعة طيبة وجهد محمود

لإحياء ذكرى ليسنج

كانت قد ألفت في فينا قبل الحرب لجنة خاصة للنظر في إقامة أثر تذكاري كبير للكاتب والنقادة الألماني الكبير ليسنج ومرت اللجنة بأدوار وأحداث كثيرة، وتوقفت أعمالها أثناء الحرب، بيد أنها وفقت أخيراً إلى إتمام مهمتها بعد صعاب جمة، وأفتتح الأثر الذي صنعه المثال شارو برسم ليسنج في حفلة كبيرة جمعت رجال الفن والأدب وأساتذة الجامعة؛ وخطب رئيس أكاديمية الفنون وهو رئيس لجنة الذكرى الدكتور ردليخ فنوه بالعلائق

الفكرية التي تربط ليسنج بمدينة فينا إذ زارها مرتين، وأقام بها ردحاً من الزمن، وكان يحلم فيها بأن يغدو مديراً للمسرح الإمبراطوري حيث كانت تمثل رواياته بنجاح مستمر؛ وأشار إلى أن الأثر الذي يقام للكاتب في فينا إنما يراد به تحية الآراء والمبادئ التي كافح ليسنج من أجلها، وهي مبادئ الإنسانية والعدالة والتسامح؛ وهي مبادئ تخلو اليوم منها بعض المجتمعات (يشير إلى ألمانيا). وخطب وزير المعارف النمسوية الدكتور برنتر؛ فأتى على حياة ليسنج ومؤلفاته، وقل إن النمسا الحالية تكرم في شخصه ألمانيا العالمية، وتدلل على أنها ما زالت بلد الثقافة الروحية والفن الرفيع؛ وأنها على أهبة دائماً لأن تكرم النبوغ الفكري؛ وأعلن حاكم مدينة فينا أنه يضع يده على الأثر باسم المدنية؛ وأن الميدان الذي يقام فيه سيسمى قريباً بميدان ليسنج وليسنج كما هو معروف من أكبر كتاب ألمانيا المسرحيين في القرن الثامن عشر

أثر جديد لجان لوران

نشرت مجلة (الأخبار الأدبية) الفرنسية (نوفيل لترير) في أحد أعدادها الأخيرة فصلاً عنوانه (خاتمة مسيو دي بوجرلون) وهو أثر لم ينشر من قبل للكاتب الفرنسي جان لوران؛ وتتمة لكتاب قصصي بقلم لوران عنوانه (مسيو بوجرلون) ظهر في سنة 1897، ولقي في عصره نجاحاً عظيماً، وطبع مراراً في أعوام قليلة، ولآثار جان لوران قيمة خاصة، فهو كاتب اجتماعي وافر السحر والطرافة، وقلما تجد في الآداب الفرنسية نظيراً لأسلوبه المطبوع أو تصويره الدقيق. وقد أمتاز لوران بأنه يصف من المجتمع جوانبه الخفية، ومثالبه المروعة، فليس أبدع ولا أروع من قلمه في وصف أوكار البغاء والرذيلة، ومهابط الفجور والتدهور الاجتماعي، وصرعى المخدرات والشهوات السافلة. وقد توفي هذا الكاتب المبدع سنة 1906 بعد أن تبوأ في أدب عصره أرفع مكانة

نادي المثنى بن حارثة

في بريد العراق أن شباب بغداد أسسوا نادياً بهذا الأسم، غايته بث الثقافة العربية، وأحياء التقاليد القومية، وإذكاء روح الرجولة في الشبان بالطرق المشروعة، ومحاربة كل ما يضعف الأخلاق ويوهن الصحة

وفي النادي لجان مختلفة، منها لجنة الثقافة القومية، تعد المحاضرات والخطب والنشرات العلمية، وتقوم بأحياء الأيام والحوادث القومية، وتكافح الأمية، وتعنى بالآثار العربية، وتعد مكتبة منظمة تحوي الكتب العربية المختلفة، وتتصل بالحلقات العلمية في البلاد العربية

واللجنة الاجتماعية، ومهمتها الخدمة الاجتماعية: وتقوم بالإرشاد الصحي والاجتماعي والتهذيبي، وتعالج المرضى من الفقراء، وتعنى عناية خاصة بالفلاح والعامل وترقية شؤونهما

ولجنة الفنون الجملية، وهذه تعنى بالأناشيد العربية والموسيقى وتمثيل الروايات القومية والقيام بترقية الرسم والتصوير والنحت والاعتناء بالعربية

واللجنة الاقتصادية، تأخذ على عاتقها تشجيع المصنوعات الوطنية، والسعي إلى إيجاد مصانع وطنية تقوم بإحياء بعض الصناعات الوطنية التي كان لها الشأن الكبير فيما مضى، وهي تعمل كذلك على إيجاد صناديق للتوفير وغير ذلك من الأمور الاقتصادية التي تحتاج إليها البلاد

ولجنة محبي القرى، وهي تعني بإيجاد قرية عراقية عصرية كاملة من جميع الوجوه العمرانية والصحية

ثم اللجنة الرياضية، وتقوم بتشجيع الرياضة والألعاب على أتلاف أنواعها، من فروسية

ورماية وركوب خيل وصيد وسباحة، وتعنى بصورة خاصة بأحياء الألعاب القومية الموروثة ومثل هذا النادي المفيد يحتاج إلى عون الحكومة ليأمن عوادي الانحلال وجوائز الفوضى

الكتب

رسالة في الإسلام

بين هيجل ومحمد عبده

تأليف الأستاذ محمد محمد البهي

عضو بعثة تخليد ذكرى الأمام

من أولى نتائج الدرس الذي عكف عليه أعضاء بعثة تخليد ذكرى الأستاذ الإمام محمد عبده، كتيب قيم وضعه باللغة الألمانية الأستاذ محمد محمد البهي، الذي لازال يتابع دراسته في جامعة هامبورج بألمانيا

ويقول المؤلف في مقدمة كتيبه هذا إن الدافع له على إصداره هو ما رآه في ألمانيا من أن الناس فيها لا يفقهون الإسلام على حقيقته، وقد كوّن رأيه هذا بعد استماعه لأستاذه (نوك) في محاضراته عن (فلسفة التاريخ) لهيجل، وبعد اشتراكه في مساجلة الأستاذ شتروتمان لتلاميذه في عدد من المؤلفات عن الإسلام. وبذلك أتيحت له الفرصة ليوزان بين آراء (هيجل) في الإسلام، كما جاءت في كتابه (فلسفة التاريخ)، وأراء فيلسوف الإسلام الإمام محمد عبدة، كما جاءت في كتابه (الإسلام والنصرانية، والعلم والمدنية). وأراد الأستاذ البهي أن يتقدم برسالة في هذا الموضوع لينال بها الدكتوراه في الفلسفة، ولكن غيرته على العلم والدين لم تمهله حتى يستوفى البحث، فأصدر هذا الكتيب لينفس عن روحه وليطلق فكرته من عقالها، وكان حقاً موفقاً في سرد أهم آراء الفيلسوف الألماني هيجل الخاصة بالإسلام، وبرغم الإجمال الذي ألتزمه المؤلف فإنه ألم بتلك الآراء إلماماً حسناً. فذكر كيف أن الإسلام في نظر الفيلسوف هيجل، هو صورة صادقة للعقلية الشرقية، فهو يجمع بين المتناقضين: المسائل التجريدية والمسائل الواقعية. وأن فكرة الإله عند اليهود هي غيرها عند المسلمين - على حد ما يعتقده هيجل، فيهوا هو رب الشعب الإسرائيلي فقط، أما الله فرب العالمين؛ ويرى هيجل أن المسلمين يعيشون ويحيون من أجل دينهم وتحقيق مبادئه، وأن حياتهم الدنيوية ليست إلا وسيلة لبلوغ الآخرة وما فيها من متاع. ولهذا كانت فتوحاتهم العظيمة في آسيا وأفريقيا وأوربا. وكان التعصب ضد الكفرة على أشده في بادئ الأمر، إلا

أنه تراخي بعض الشيء، فأستعيض عن قتل الكافر بفرض جزية سنوية على شخصه؛ ومع ذلك لم يكن التعصب في الإسلام مدعاة تخريب وهدم، كما هي طبيعة التعصب، بل كان فوق ذلك مدعاة تشييد وبناء. ثم تدرج المؤلف إلى ذكر رأى هيجل في أن الإسلام كدين يبرر أعمال العنف والقوة لنشره، كما برر روبسبير أعمال العنف والقوة لبلوغ الحرية؛ وأن الفردية في الإسلام من التناقض بدرجة تجعل الحاكم الذي يبغي المجد والعظمة والسيطرة لا يتوانى في أن يضحي بها جميعاً في سبيل الدين، وقد لا يلبث إلا قليلاً حتى يستردها دون هوادة، وأن الخليفة عمر - على حد ما ذكره هيجل - هو الذي أمر بإحراق مكتبة الإسكندرية، بينما الخلفية المنصور كان يجمع العلماء في مجلسه ويغدق عليهم العطايا؛ وبحسن معاملته لهم أزدهر الأدب والعلم في أيامه. ثم ذكر بأن الحريات كانت مكفولة للناس كافة، لا فرق بين رجل وامرأة، ولا بين طبقة وأخرى، حتى كان الرجل من رعاع الناس يدخل على الخليفة في مجلسه فيحدثه مطمئناً عن كل ما يريد؛ ولكن عقب ذلك أعتكف الخلفاء والحكام في قصورهم وأبعدوا الشعب عنهم، فأنقلب الحال إلى الضد. ويرجع (هيجل) أسباب ذلك إلى أن التعصب الديني كانت قد بردت حرارته، فبدأت المفاسد تسود المجتمع، وأصبح الاستمتاع بملذات الحياة شهوة الناس في هذه الدنيا، ثم تراجع الإسلام كما يقول (هيجل) إلى أفريقيا وآسيا، ولم تطقه النصرانية إلا في ركن ضيق من أوربا. وتلاشى الإسلام كقوة مسيرة لتاريخ العالم. ويعترف هيجل بأن الغربيين أخذوا عن العرب مختلف العلوم والفنون والمعارف، وبخاصةً الفلسفة؛ ويقر فيلسوف الألمان أم الإسلام هو أكبر ظاهرة في تاريخ العالم

غير أن الأستاذ البهي يرى أن هيجل حكم على الإسلام من خلال أعمال بعض

المسلمين، وكان الأولى به أن يرجع إلى مصادر الإسلام وهي: القرآن والحديث وما أجمع عليه الأئمة. وعاب على هيجل طريقته في البحث، وقال بأنه (أي المؤلف) لن يكون عادلاً في حكمه إذا ما نسب إلى الدين المسيحي عداءه للعلم ومحاربته لحرية الفكر، مستنداً في ذلك إلى بعض الحوادث التي منها:

(1) إعدام (حيباتيا) المصرية وكانت سيدة من أفذاذ العلماء الرياضيين، عام 415 ميلادية أثناء تعقب النصارى للفلاسفة

(2) إحراق 1220 شخصاً بالنار فيما بين سنة 1481 و1499م، وهم أحياء تنفيذاً لأحكام الرقابة الموضوعة على الكتب وأصحابها

(3) إحراق جيوردانو بروفو الذي قال بالوحدانية الربانية

(4) إحراق الكردينال زيمنس 8000 مجلد من الكتب العلمية في غراناطة

إن كل هذه الأعمال لا تؤديها التعاليم الدينية المسيحية، وكل بحث يرتكن إلى مثل هذه الأشياء يكون خاطئاً. وهكذا كان هيجل في بحثه عن الإسلام؛ واستشهد المؤلف برأي الأستاذ هورتن الذي ذكر في أحد كتبه: (إن انحطاط المسلمين وعدم قيامهم بأعمال مجيدة سامية لا ترجع إلى روح الإسلام، ولكن إلى سوء تصرف الخلفاء وإلى غيره من الأمور، ونشأ عن ذلك أضرار عديدة بالدين والعادات وسمعة الإسلام)

ثم ناقش الأستاذ البهي ثماني مسائل من آراء الفيلسوف هيجل أولها: الفريدة في الإسلام. فهي ليست العمل للآخرة دون سواها، كما تصورها هيجل، ولكن العمل للدنيا أيضاً؛ وأستشهد بما جاء في الذكر الحكيم: (ولا تنس نصيبك من الدنيا)، وما جاء في الحديث: (أعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، وأعمل لأخرتك كأنك تموت غدا)

وتكلم في المسألة الثانية عن الصوم وأن الغرض منه ليس مجرد صحة الأبدان، بل له غرض معنوي آخر هو إشعار الصائم بوجوب العطف على الفقراء والمساكين

أما المسألة الثالثة فقد حاول فيها الأستاذ البهي أن يثبت بأن الإسلام لم يكن في كل الحروب التي خاضها إلا مدافعاً عن كيانه. أما فكرة الغزو لإجبار الناس على اعتناق الإسلام، فليس لها أصل في الدين. وقد أستشهد بآراء هورتن الذي ذكر في أحد كتبه بأن الحروب الدينية في الإسلام لم تكن إلا للدفاع عن هجمات الأعداء أو لإخماد فتنة. ولهذا كانت الفكرة القائلة بأن الدين الإسلامي يبرر أعمال العنف والقوة فكرة خاطئة

وعالج المؤلف في المسألة الرابعة مسألة الجزية على الذميين، وقال بأن الغرض منها لم يكن إجبار الناس على اعتناق الإسلام بل كانت مجرد ضريبة للمحافظة على أرواح الناس وأملاكهم

أما عن التعصب في الدين، وهي المسألة الخامسة فالإسلام لا يعارض العلم، ولا يعاقب الأحرار من العلماء أو يتعقبهم، بل دعا الدين الإسلامي إلى الدراسة، وإلى العلم والمعرفة،

وقد أحيا المسلمون العلماء أيا كانوا، وأشادوا بذكرهم واحترموهم ويجلوهم؛ ويكفي إن علماء اليهود في سورية وعلماء النصارى في مصر، كانوا يجلسون مع غيرهم من العلماء في مجالس الخلفاء والحكام. ولقد نقل المسلمون العلوم إلى بلاد الغرب، كما إن الإسلام لم يحظر على الناس حرية البحث، بل ضمن لهم الحرية الكاملة سواء أكانوا من الأولياء أم الأعداء

أما مسألة حرق العرب لمكتبة الإسكندرية، وهي النقطة السادسة، فإن هذه الدعوى لم تأت في أي كتاب علمي للتاريخ، وقد كذبتها دائرة المعارفة الإسلامية، كما كذبها الأستاذ موللر في كتابه (الإسلام في المشرق والمغرب)

وعالج المؤلف في النقطة السابعة عفاء الدولة الإسلامية، وقال إن ذلك يرجع إلى أسباب سياسية واقتصادية، مما ليس له علاقة بالدين، وأستشهد برأي الفيلسوف شبنجلر حيث يقول: (وإذا كان هيجل قد ختم بحثه عن الإسلام بقوله: (إن قوة الإسلام اختفت كعامل لتكييف تاريخ العالم. . .) فعلينا أن نتذكر بأنه يوجد اليوم ثلثمائة مليون مسلم في العالم)

وأعقب الأستاذ البهي ذلك البحث بآراء الأستاذ الأمام الشيخ محمد عبده في الإسلام، مستنداً في ذلك إلى كتابه (الإسلام والنصرانية، والعلم والمدنية) - كما ذكرنا في البدء. وإنا نكتفي هنا بالإشارة إليه، ليراجعه من يهمه الإطلاع عليه

إبراهيم إبراهيم يوسف

شرح الإيضاح
في علوم البلاغة
للأستاذ عبد المتعال الصعيدي
المدرس بكلية اللغة العربية

ذكر جلال الدين الخطيب أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن القزويني أنه ألف كتابه (الإيضاح) وجعله على ترتيب مختصره الذي سماه (تلخيص المفتاح) وبسط القول فيه ليكون كالشرح له، فأوضح فيه مواضعه المشكلة، وفصل معانيه المجملة، وعمد إلى ما خلا عنه المختصر مما تضمنه (مفتاح العلوم) للإمام السكاكي، وإلا ما خلا عنه المفتاح من كلام
الشيخ الإمام عبد القاهر في كتابيه (دلائل الأعجاز وأسرار البلاغة) وإلى ما تيسر النظر فيه من كلام غيرهما - فأستخرج من ذلك كله زبدته، وهذبه ورتبه حتى أستقر كل شيء منه في محله، ثم أضاف إلى ذلك ما أداه إليه فكره ولم يجده لغيره، فجمع بهذا أشتات هذه العلوم كلها، واستقامت له فيها هذه الطريقة البديعة التي فتن بها الناس بعده وجاراه فيها كل من كتب في علوم البلاغة الثلاثة إلى الآن

وهو يميل في مختصره (تلخيص المفتاح) إلى طريقة السكاكي في العناية بجمع القواعد دون إيراد الشواهد، ويميل في الإيضاح إلى الجمع بين طريقة السكاكي في ذلك، وطريقة عبد القاهر في العناية بإيراد الشواهد، وقد أمتاز في إيضاحه على السكاكي في طريقته بحسن الترتيب، وبوضوح العبارة وجريها على الأسلوب العربي، كما أمتاز على عبد القاهر بالقصد في إيضاح القواعد على ما يليق بأسلوب الكتابة العلمية

ولكن العلماء الذين أتوا بعد الخطيب لم تعجبهم طريقة (الإيضاح) على ما تمتاز به من هذه الميزات العظيمة، وفتنوا أيما فتنة بطريقة (التلخيص) في العناية بجمع القواعد، وإهمال إيراد الشواهد من منظوم العرب ومنثورهم، فوضعوا عليه من الشروح المبسوطة ما لا يحصى، ووضعوا على تلك الشروح شروحاً سموها حواشي، ووضعوا على تلك الحواشي شروحاً سموها تقارير، وجروا فيها كلها على إهمال ما أهمله الخطيب في تلخيصه من تلك الشواهد التي لا يستقيم النظر في هذه العلوم إلا بها، فجاء كل ما كتبوه على هذه الطريقة حشواً لا فائدة إلى في القليل منه، حتى أصبحت طريقة غاية في العقم، وغدت دراسة هذه العلوم بها خالية من الثمرة، عاجزة عن تربية الذوق البياني

وقد أحسنت كلية اللغة العربية من كليات الجامع الأزهر بالعدول عن درس هذه العلوم في التلخيص وشرحه للسعد التفتازاني إلى درسها في الإيضاح وحده، ولكن طلاب هذه الكلية يجدون أنفسهم في حاجة إلى الرجوع إلى هذه الشروح والحواشي والتقارير في كثير من مواضع الإيضاح في سائر أبوابه، فيضطرون بحكم هذه الحاجة إلى الرجوع إليها كلها، واستيعاب النظر فيها، وتضيع بذلك الفائدة المقصودة من إيثار درس الإيضاح عليها

ولا شك أن هؤلاء الطلاب وغيرهم من طلاب هذه العلوم في حاجة إلى شرح على الإيضاح يجاريه في طريقته، ويكمل من شواهد ما لم يكمله، ويزيد عليها ما تدعو الحاجة
إليه، وينظر في ذلك الحشو الكثير الذي أتخمت به هذه العلوم فيختار منه ما فيه فائدة تتصل بها وما أقل ذلك بينه، ويهمل ما لا اتصال له بها وما أكثره فيه، ويؤدي مع ذلك كله واجب النظر العلمي الحديث في بعض مسائلها، وقد وفق الله واضع هذا الشرح الجديد على الإيضاح إلى ما أراده من هذه الأغراض، فجزاه الله عنه خير الجزاء

(ص)

العدد 106 - بتاريخ: 15 - 07 - 1935

الميت الذي لا يموت
الشيخ محمد عبده - 2
بمناسبة ذكراه الثلاثين

تولدت حيوية الأمام القوية من جبله أبيه الحرة في (محلة نصر)، وتكونت نفسيته الدينية من صوفية خاله النقية في (كنيسة أورين)، وتفتحت عقليته العلمية في شمس

جمال الدين المشرقة بالقاهرة؛ فكان سر الوراثة يجريه في الاعتقاد على الإخلاص، وفي العزم على المضاء، وفي القول على الصراحة، وفي العمل على الجرأة، وفي الحياة على التمرد؛ فالقلق المقدس الذي يشبه في الحكماء، والإرهاص في الأنبياء، كان لا يفتأ منذ الحداثة يساوره في كل هم يحاوله، وعمل يزاوله، وموضع يستقر فيه؛ وذلك القلق مبعث في المصلح صفاء النفس ولطف الحس وحدة الفطنة، فهو وحدة يدرك النقص فيروم الكمال، ويلحظ الخطأ فيطلب الصواب، ويسام الركود فيبتغي التحول؛ ولذلك كان الأمام لا يكره طبعه على حال، ولا يلبس سمعه على رأي، ولا يملك لسانه عن نقد، ولا يكف عزمه عن تغيير، ولا يخزل جهده عن إصلاح

دخل المعهد الأحمدي فبرم بالتعلم لفساد الطريقة وسوء الكتب، فكان وَكْدُه طول عمره أن ينعش الدين من هذا الخمود، ويخرج الأزهر من هذه الفوضى، وينقذ الطلاب من هذا العنت؛ وظهرت مقالاته في (الأهرام) وهو لا يزال في صدر الطلب تحمل دعوة هذا العقل المتجدد المتمرد إلى العلوم العقلية، والمعارف العصرية، والأدب المنتج؛ ثم تولى رآسة المطبوعات وتحرير الجريدة الرسمية فثار على الأساليب الكتابية في الدواوين، والتقاليد الإدارية في الحكم، والبدع الفاشية في الدين، والعادات المنكرة في المجتمع؛ وكانت مقالاته في (الوقائع المصرية) دستوراً للغة، ونظاماً للكتابة، ومنهاجاً للفضيلة، قام على نفاذها سلطان من شجاعته وقوة من نفوذه

ثم شايع العرابيين في الغضبة المصرية الأولى مشايعة البصير الحازم، فأعقبته النفي إلى سورية؛ وهناك دله ذلك الشعور النبوي فيه إلى ما جره سوء سياسة السلطان، من انفراج الحال بين الأديان، وجفاف الثرى بين الأخوان، فوضع دستوراً لإصلاح التعليم الديني قدمه إلى شيخ الإسلام، ومشروعاً لإصلاح القطر السوري قدمه إلى والي بيروت، ولو أخذت

بهما الحكومة العثمانية لكان شأنها غير ذلك الشأن، وعاقبتها غير هذه العاقبة

ثم أتسع أفق تفكيره، وأنفسح مدى نظره، فراعه حال المسلمين من قناعتهم بالدون، واستنامتهم إلى الهُون، وقعودهم عن مسايرة التمدن، فوافي الأفغاني إلى باريس، ودعا في (العروة الوثقى) أشتات الأمة إلى الوحدة، وأموات الجهالة إلى البعث وأسرى العبودية إلى التحرير

ثم ولوه يعد العفو عنه القضاء، فلاءم بين الأحكام المدنية والدينية، وساوى في النظام بين المحاكم الأهلية والشرعية، وأرتحل لهذه من الإصلاح ما حقق من وجودها النفع، وجدد في قضاتها الثقة، وضمن لقضائها التنفيذ

ثم عاد فحصر إصلاحه الداخلي، الديني والمدني، في إصلاح الأزهر، لأنه منشأ الدعاة والهداة والقضاء والمعلمين في مصر وغير مصر، فإذا قلبه على الوضع الذي يريد فقد وضع المكواة على أصل العلة، وأختصر الطريق إلى بلوغ الغاية؛ ولكن أبا لهب وأشياعه في الجامع وفي القصر أرادوا وا أسفاه أن يطفئوا بأفواههم نور الله، فأطفأوا بكيدهم سراج حياته!!

ذلك سر الوراثة الفلسجية عن أبيه القروي الفقير الباسل، أما سر الوراثة الروحية عن خاله التقي العارف، فرجوعه إلى مشاريع الدين الصافية، وعقائد القرآن الأولى. قال ذات يوم لخاله: ما طريقتكم؟ قال: الإسلام، قال: وما وردْكم؟ قال القرآن. فلم يتبع منذ يومئذ غير سبيل المؤمنين ومنهاج الأئمة: أيقظ همه للإسلام فقرت عقائده من الأفهام، وقطع عنه ألسنة المبشرين والمستعمرين بالأدلة النواهض والحجج الملزمة؛ وجعل عزمه للقرآن ففاز منه برياض مونقه، وأعلام بينه: فبراهين قضاياه من قواعده، وبينات دعاواه من شواهده، ومضامين عبقرياته من هدية، وأفانين بلاغاته من وحيه، وعناوين مقالاته من آيه؛ فكأنه رسول الرسول ظهر في عصر العلم الشاك والمدنية الملحدة ليكشف عما غيب الله من نور الكتاب وسره!

أما سر الوراثة العقلية عن أستاذه الحكيم الثائر، فذلك النفوذ البعيد في علوم الفلسفة، والبصر الشديد بضروب المعرفة، والإلمام المحيط بثقافة العصر، والعلم الواسع بقواعد العمران وتاريخ الأديان وطباع الشعوب وأخبار الأمم! وسر النتائج في هذه الوراثات

الثلاث: طبع ذكي، ونبوغ فطري، ونفحه من روح الله ليعيد كلمته على لسنه، ويبعث شريعته عن قلبه

كان الأمام محمد عبقرية ثائرة ناقدة لا تعرف القيود ولا الحدود ولا السطحية، ولكنها انحصرت بحكم الظروف في الإصلاح الديني، فوقفت بين الدين الذي تأخر، والعلم الذي تقدم، موقف ابن رشد وابن سينا من قبل: تحاول التأليف بين القلب والعقل، والتوفيق بين الرأي والنقل، فذهب أكثر جهده باطلاً بين الجامدين الذين يرون في تجديده الدين بالعلم بدعة، وبين المسرفين الذين يرون في تقييده العلم بالدين رجعية! فلو أنه عالج الإصلاح الاجتماعي من طريق العلم، أو السياسي من طريق الحكم، لدفع الأمة إلى الأمام قرناً على الأقل

وبعد، فإن في ميدان الأزهر الجديد موضع التمثال العتيد لمجدد الإسلام ومصلح الأزهر! ولو كنا اقترحنا هذا الاقتراح في عهد (الفلان) وأشباهه لاستغفرنا الجهل سبعين مرة، ولكننا نقترحه اليوم في عهد المراغي تلميذ الأمام وخليفته! فهل يتحقق الظن ويصدق الأمل؟

أحمد حسن الزيات

فلسفة الطائشة

للأستاذ مصطفي صادق الرافعي

وهذا مجلس من مجالس الطائشة مع صاحبها، مما تسقّطَه من حديثها؛ فقد كان . . . يكتب عنها ما تصيبُ فيه وما تخطئ، كما يكتب أهل السياسة بعضُهم عن بعض إذا فاوض الحليف حليفه أو ناكر الخصمُ خصمه؛ فان كلام الحبيبِ والسياسيّ الداهية ليس كلام المتكلم وحده، بل فيه نطق الدولة. . . . وفيه الزمن يقبل أو يُدبر

وصاحب الطائشة كان يراها امرأة سياسية كهذه الدولة التي ترغم صديقاً على الصداقة لأنه طريقها أو طريق حوادثها. وكان يسميها (جيشَ احتلال)، إذ حطت في أيامه واحتلتها فتبوأت منها ما شاءت على رغمه، واستباحت ما أرادت مما كان يحميه أو يمنعه. وقد كان في مدافعته حبها واستمساكه بصداقتها كالذي رأى ظل شئ على الأرض فيحاول غسله أو كنسه أو تغطيته. . . فهذا ليس مما يغُسل بالماء ولا يكنس بالمكنسة ولا يغطى بالأغطية، إنما إزالته في إزالة الشبح الذي هو يلقيه أو إطفاء النور الذي هو يثبته

في كل شيء على الأرض سخرية من الحسن الفاتن الذي تقدسه، تأتي من اشتهاء هذا الحسن؛ فذاك إسقاطه سقوطاً مقدساً. . . أو ذاك تقديسه إلى أن يسقط، أو هو جعل تقديسه بابا من الحيلة في إسقاطه. لابد من سفل مع العلو يكون أحدهما كالسخرية من الآخر؛ فإذا قال رجل لامرأة قد فتنته أو وقعت من نفسه: (أحبك) أو قالتها المرأة لرجل وقع من نفسها أو استهامها، ففي هذه الكلمة الناعمة اللطيفة كل معاني الوقاحة الجنسية، وكل السخرية بالمحبوب سخرية بإجلال عظيم. . . وهي كلمة شاعر في تقديس الجمال والإعجاب به، غير أنها هي بعينها كلمة الجزار الذي يرى الخروف في جمال اللحميّ الدهنيّ، فيقول: (سمين. . .!)

لهذا يمنع الدين خلوة الرجل بالمرأة، ويحرم إظهار الفتنة من الجنس للجنس، ويفصل بمعاني الحجاب بين السالب والموجب، ثم يضع لأعين المؤمنين والمؤمنات حجاباً آخر من الأمر بغض البصر، إذ لا يكفي في ذلك حجاب واحد، فان الطبيعية الجنسية تنظر بالداخل والخارج معاً. ثم يطرد عن المرأة كلمة الحب إلا أن تكون من زوجها وعن الرجل إلا أن تكون من زوجته، إذ هي كلمة حيلةٍ في الطبيعة أكثر مما هي كلمة صدقٍ في الاجتماع، ولا

يؤكد في الدين صدقها الاجتماعي إلا العقد والشهود لربط الحقوق بها، وجعلها في حياطة القوة الاجتماعية التشريعية، وإقرارها في موضعها من النظام الإنساني؛ فليس ما يمنع أن يكون العاشقُ من معاني الزوج، أما أن يكون من معنى آخر أو يكون بلا معنى فلا؛ وكل ذلك لصيانة المرأة ما دامت هي وحدها التي تلد، وما دامت لا تلد للبيع. . . .

وفلسفة هذه الطائشة فلسفة امرأة ذكية مطلعةٍ محيطة مفكرة، تبصر بالكتب والعقل والحوادث جميعاً، وقد أصبحت بعد سقطةِ حبها ترى الصواب في شكلين لا شكل واحد؛ فتراه كما هو في نفسه، وكما هو في أغلاطها

وقد أسقطنا في رواية مجلسها ما كان من مطارحات العاشقة، واقتصرنا على ما هو كالإملاء من الأستاذة. . . .

قال صاحب الطائشة: ذكرت لها (قاسم أمين) وقلت: إنها خير تلاميذه. . . . حتى لكأنها تجربه ثلاثين سنة لآرائه في تحرير المرأة. فقالت إنما كان قاسم تلميذَ المرأة الأوربية، وهذه المرأة بأعيننا فما حاجتنا نحن إلى تلميذها القديم؟

قالت: وابلغ من يرد على قاسم اليوم هي أستاذته التي شبت بها أطوار الحياة بعده، فقد أثبت قاسم - غفر الله له - أنه انحصر في عهدٍ بعينه ولم يتبع الأيام نظره، ولم يستقرئ أطوار المدنية، فلم يقدر أن هذا الزمن المتمدن سيتقدم في رذائله بحكم الطبيعة أسرع وأقوى مما يتقدم في فضائله، وأن العلم لا يستطيع إلا أن يخدم الجهتين بقوة واحدة فأقواهما بالطبيعة وأقواهما بالعلم، وكأن الرجل كان يظن أنه ليس تحت الأرض زلازل ولا تحت الحياة مثلُها

مزق البرقع وقال: (إنه مما يزيد في الفتنة، وإن المرأة لو كانت مكشوفة الوجه لكان في مجموع خلْقها - على الغالب - ما يرد البصر عنها) فقد زال البرقع، ولكن هل قدر قاسم أن طبيعة المرأة منتصرة دائماً في الميدان الجنسي بالبرقع وبغير البرقع، وأنها تخترع لكل معركةٍ أسلحتها، وأنها إن كشفت برقع الخزّ فستضع في مكانه برقع الأبيض والأحمر. . . .؟

وزعم أن (النقاب والبرقع من أشد أعوان المرأة على إظهار ما تظهر وعمل ما تعمل لتحريك الرغبة، لأنهما يخفيان شخصيتها فلا تخاف أن يعرفها قريب أو بعيد فيقول: فلانة،

أو بنت فلان، أو زوج فلان كانت تفعل كذا. فهي تأتي كل ما تشتهيه من ذلك تحت حماية البرقع والنقاب) فقد زال البرقع والنقاب، ولكن هل قدر قاسم أن المرأة السافرة ستلجأ إلى حماية أخرى فتجعل ثيابها تعبيراً دقيقاً عن أعضائها، وبدلاً من تلبس جسمها ثوباً يكسوه تلبسه الثوب الذي يكسوه ويزينه ويظهره ويحركه في وقت معاً، حتى ليكاد الثوب يقول للناظر: هذا الموضوع أسمهُ. . وهذا الموضع اسمهُ. . وأنظر هنا وأنظر هاهنا. . ما زادت المدنية على أن فككت المرأة الطيبة ثم ركبتها في هذه الهندسة الفاحشة!

وأراد قاسم أن يعلمنا الحب لنرتبط به الزوج معنا، فلم يزد على جرأنا على الحب الذي فر به الزوج منا، وقد نسى أن المرأة التي تخالط الرجل ليعجبها وتعجبه فيصيرا زوجين - إنما تخالط في هذا الرجل غرائزه قبل إنسانيته، فتكون طبيعية وطبيعتها هي محل المخالطة قبل شخصيهما، أو تحت ستار شخصيهما؛ وهو رجل وهي امرأة، وبينهما مصارعة الدم. . . وكثيراً ما تكون المسكينة هي المذبوحة. وقد أتتينا إلى دهرٍ يصنع حبه ومجالس أحبابه في (هوليود) وغيرها من مدن السما، فإن رأي الشاب على الفتاة مظهر العفة والوقار قال: بلادة في الدم، وبلاهة في العقل، وثقل أي ثقل. وأن رأى غير ذلك قال: فجور وطيش واستهتار أي استهتار. فأين تستقر المرأة ولا مكان لها بين الضدين؟

اخطأ قاسم في إغفال عمل الزمن من حسابه، وهاجم الدين بالعرف؛ وكان من أفحش غلطه ظنه العرف مقصوراً على زمنه، وكأنه لم يدر أن الفرق بين الدين وبين العرف هو أن هذا الأخير دائم الاضطراب، فهو دائم التغير، فهو لا يصلح أبداً قاعدةً للفضيلة. وهانحن أولاء قد انتهينا إلى زمن العرى، وأصبحنا نجد لفيفاً من الأوربيين المتعلمين، رجالهم ونسائهم، إذا رأوا في جزيرتهم أو محلتهم أو ناديهم رجلاً يلبس في حقويه تبّاناً قصيراً كأنه ورق الشجر على موضعه ذاك من آدم وحواء، إذا رأوا هذا المتعفف بخرقه. . . أنكروا عليه وتساءلوا بينهم. من؛ من هذا الراهب. . . .؟

ونسى قاسم - غفر الله له - أن للثياب أخلاقا تتغير بتغيرها فالتي تفرغ الثوب على أعضائنا إفراغ الهندسة، وتلبس وجهها ألوان التصوير - لا تفعل ذلك إلا وهي قد تغير فهمها للفضائل، فتغيرت بذلك فضائلها، وتحولت من آيات دينية إلى آيات شعرية. وروح المسجد غير روح الحانة، وهذه غير روح المرقص، وهذه غير وروح المخدع، ولكل حالة

تلبس المرأة لبساً فتخفي منها وتبدي. وتحريك البيئة لتتقلب، هو بعينه تحريك النفس لتتغير صفاتها، وأين أخلاق الثياب العصرية في امرأة اليوم، من تلك الأخلاق التي كانت لها من الحجاب؟ تبدلت بمشاعر الطاعة والصبر والاستقرار والعناية بالنسل والتفرغ لإسعاد أهلها وذويها - مشاعر أخرى أو لها كراهية الدار والطاعة والنسل، وحسبك من

شر هذا أوله وأخفه!

كان قاسم كالمخدوع المغتر بآرائه، وكان مصلحاً فيه روح القاضي، والقاضي بحكم عمله مقلدٌ متبع، أليس عليه أن يسند رأيه دائماً إلى نص لم يكن له فيه شأن ولا عمل؟ من ثم كثرت أغلاط الرجل حتى جعل الفرق بين فساد الجاهلة وفساد المتعلمة أن الأولى (لا تكلف نفسها عناء البحث عن صفات الرجل الذي تريد أن تقدم له أفضل شيء لديها وهو نفسها؛ وعلى خلاف ذلك يكون النساء المتعلماتُ، إذا جرى القدر عليهن بأمر مما لا يحل لهن لم يكن ذلك إلا بعد محبة شديدة يسبقها علم تام بأحوال المحبوب (. . . .) وشمائله وصفاته، فتختاره من بين مئات وألوف ممن تراهم في كل وقت (!!!!) وهي تحاذر أن تضع ثقتها في شخص لا يكون أهلاً لها، ولا تسلم نفسها إلا بعد مناضلة يختلف زمنها وقوة الدفاع فيها حسب الأمزجة (؟؟؟؟) وهي في كل حال تستتر بظاهر من التعفف (؟؟؟؟). . .)

أليس هذا كلام قاض من القضاة المدنيين المتفلسفين على مذهب (لمبروزو) يقول لإحدى الفاجرتين: أيتها الجاهلة الحمقاء كيف لم تتحاشي ولم تتستري فلا يكون للقانون عليك سبيل؟

وحتى في هذا قد أثبت قاسم أنه لا يعرف الأرنب وأذنيها وإلا فمتى كان في الحب اختيار، ومتى كان الاختيار يقع فيما يجرى به القدر، ومتى كان نظر العاشقة إلى الرجال نظراً سيكولوجياً كنظر المعلمة إلى صبيانها. . . . فتدرس الصفات والشمائل في مئات وألوف ممن تراهم في كل وقت لتصفيها كلها في واحد تختاره من بينهم؟ هذا مضحك!

إليك خبراً واحداً مما تنشره الصحف في هذه الأيام: كفرار بنت فلان باشا خريجة مدرسة كذا مع سائق سيارتها، ففسر لي أنت كلام قاسم، وأفهمني كيف تكون اثنان واثنان خمسة وعشرين؟ وكيف يكون فرار متعلمة أصيلة مع سائق سيارة هو محاذرة وضع الثقة فيمن لا يكون أهلاً لها؟

لقد أغفل قاسم حساب الزمن في هذا أيضاً، فكثير من المنكرات والآثام قد أنحل منها المعنى الديني وثبت في مكانه معنى اجتماعي مقررٌ، فأصبحت المتعلمة لا تتخوف من ذلك على نفسها شيئاً، بل هي تقارفه وتستأثر به دون الجاهلة، وتلبس له (السواريه)، وتقدم فيه للرجال المهذبين مرة ذراعها، ومرة خصرها. . .

أقرأت (شهرزاد)؟ أن فيها سطراً يجعل كتاب قاسم كله ورقاً أبيض مغسولاً فيه شيء يقرأ:

قالت شهرزاد المتعلمة المتفلسفة، البيضاء البضة، الرشيقة الجميلة: للعبد الأسود الفظيع الدميم الذي تهواه: (ينبغي أن تكون أسود اللون؛ وضيع الأصل؛ قبيح الصورة، تلك صفاتك الخالدة التي أحبها. . . . . .)

فهذا كلام الطبيعة نفسها لا كلام التأليف والتلفيق والتزوير على الطبيعة

قال صاحب الطائشة:

فقلت لها: فإذا كان قاسم لا يرضيكِ، وكان الرجل مصلحاً دخلته روح القاضي، فخلط رأياً صالحاً وآخر سيئاً، فلعل (مصطفى كمال) همك من رجل في تحرير المرأة تحريراً مزق الحجاب وأل. . .؟

قالت إن مصطفى كمال هذا رجل ثائر، يسوق بين يديه الخطأ والصواب بعصا واحدة، ولا يمكن في طبيعة الثورة إلا هذا، ولا يبرح ثائراً حتى يتم انسلاخ أمته. وله عقل عسكري كان يمكر به مكر الألمان حين أكرههم الحلفاء على تحويل مصانع (كروب) فحولوها تحويلاً يردها بأيسر التغيير إلى صنع المدافع والمهلكات. وليس الرجل مصلحاً ألبتة، بل هو قائد زهاه النصر الذي أتفق له، فخرج من تلك الحرب الصغيرة وعلى شفتيه كلمة: (أريد. . .) وجعل بعد ذلك إذا غلط غلطة أرادها منتصرة، فيفرضها قانوناً على المساكين الذين يستطيع أن يفرض عليهم وهم اليوم لا يملأون قبضة دولته، فيقهرهم عليها ولا يناظرهم فيها، ويأخذ كيف شاء، ويدعهم كيف أحب؛ وبكلمة واحدة: هو مؤلف الرواية والقانون نفسه أحد الممثلين. . .

وحقده على الدين وأهل الدين هو الدليل على أنه ثائر لا مصلح؛ فإن أخص أخلاق

الثورة حقد الثائرين، وهذا الحقد في قوة حرب وحدها، فلا يكون إلا مادة للأفعال الكثيرة
المذمومة. والرجل يحتذي أوروبا ويعمل على أعمال الأوربيين في خيرها وشرها، ويجعل رذائلهم من فضائلهم على رغم أنفهم يتبرأون هم منها ويلحقها هو بقومه، فكأنه يعتنف الآراء ويأخذها أخذاً عسكرياً، ليس في الأمر إلا قوله أريد. فيكون ما يريد.
هو لم يحكم على شبر من أوروبا يجعله تركيا، ولكنه جعل رذائل أوروبا تتجنس بالجنسية التركية. . .
وتالله إنه لأيسر عليه أن يجئ بملائكة أو شياطين من المردة، ينفخون أرض تركيا فيمطونها مطاً فيجعلونها قارة من أن يكره أوروبا على اعتبار قومه أوربيين بلبس قبعة وهدم مسجد. إنه لا يزال في أول التاريخ، وهذا الشعب الذي أنتصر به لم تلده مبادئه ولا أنشأه هدم المساجد وشنق العلماء، بل هو الذي ولدته تلك الأمهات، وأخرجه أولئك الآباء، وما كان يعوزه إلا القائد الحازم المصمم، فلما ظفر بقائده جاء بالمعجزة؛ فإذا فتن القائد بنفسه وأبى إلا أن يتحول نبياً فهذا شيء آخر له أسم آخر ولنفرض (الأثير) كما يقول العلماء، لنستطيع أن نجعل مسألتنا هذه علمية، وأن نبحثها بحثاً علمياً، فليكن مصطفى كمال هو اللورد كتشنر في إنجلترا، فيكسب اللورد كتشنر تلك الحرب العظمى لا حرب الدويلة الصغيرة، وينتصر على البراكين من الجيوش لا على مثل براميل النبيذ. . . ثم يستعز الرجل بدالته على قومه ويدخله الغرور، فيتصنع لهم مرة ويتزين لهم مرة، ثم يأتيهم بالآبدة فيسفه دينهم، ويريدهم على تعطيل شعائرهم وهدم كنائسهم لأن هذا هو الإصلاح في رأيه. أفترى الإنجليز حينئذ يضوون إليه ويلتفتون حوله ويقولون: قائدنا في الحرب، ومصلحنا في السلم، وقد انتصرنا به على الناس فسننتصر به على الله، وظفرنا معه بيوم من التاريخ فسنظهر معه بالتاريخ كله. . .؟ أم تحسب كان كتشنر كان يجسر على هذا وهو كتشنر لم يتغير عقله؟
إنه والله ما يتدافع اثنان أن هدم كنيسة واحدة لا يكون إلا هدم كتشنر وتاريخ كتشنر، ولكن العجز ممهد من تلقاء نفسه، والأرض المنخسفة هي التي يستنقع فيها الماء فله فيها أسم ورسم؛ أما الجبل الصخري الأشم، فإذا صب هذا الماء عليه أرسله من كل جوانبه، وأفاضه إلى أسفل. . .!
قال صاحب الطائشة: فأقول لها: إذا كان هذا رأيك للنساء فكيف لا ترين مثل هذا لنفسك؟
فتضعضعت لهذه الكلمة ولجلجت قليلاً ثم قالت: أنت سلبتني الرأي لنفسي، ووضعتني في
الحقيقة التي لا تتقيد بقانون الخير والشر
قلت: فإذا كانت كل امرأة تغلط لنفسها في الرأي وتنصح بالرأي الصائب غيرها، فيوشك ألا يبقى في نساء الأرض فضيلة ولا يعود في المدرسة كلها عاقل إلا الكتاب
فتضاحكت وقالت: لهذا يشتد ديننا الإسلامي مع المرأة، فهو يخلق طبائع المقاومة في المرأة، ويخلقها فيما حولها، حتى ليخيل إليها أن السماء عيون تراها، وأن الأرض عقول تحصى عليها. وهل أعجب من أن هذا الدين يقضي قضاء مبرماً أن تكون ثياب المرأة أسلوب دفاع لا أسلوب أغراء، وأن يضعها من النفوس موضعاً يكون فيه حديثها بينها وبين نفسها كالحديث في الراديو له دوي في الدنيا، فيقيم عليها الحجاب وغيرة الرجل وشرف الأهل، ويؤاخذها بروح طبيعتها، فيجعل الهفوة منها كأنها جنين يكبر ولا يزال يكبر حتى يكون عار ماضيها وخزي مستقبلها
هذه كلها حجب مضروبة لا حجابٌ واحد، وهي كلها لخلق طباع المقاومة، ولتيسير المقاومة، ومتى جاء العلم مع هذه لم يكن أبداً إطلاقاً، ولم يكن أبداً إلا الحجاب الأخير كالسور حول القلعة. ولكن قبح الله المدنية وفنها؛ أنها أطلقت المرأة حرة ثم حاطتها بما يجعل حريتها هي الحرية في اختيار أثقل قيودها لا غير. أنت محمل بالذهب، وأنت حر، ولكن بين اللصوص، كأنك في هذا لست حراً إلا في اختيار من يجني عليك. . . .!
لم تعد المرأة العصرية انتصار الأمومة، ولا انتصار الخلق الفاضل، ولا انتصار التعزية في هموم الحياة؛ ولكن انتصار الفن، وانتصار اللهو، وانتصار الخلاعة
قال صاحب الطائشة: فضحكت وقلت: وانتصاري. . . .!

طبق الأصل (طنطا)
مصطفي صادق الرافعي
حول المسجد
للأستاذ أحمد أمين

ساقني حسن الحظ إلى الحديث مع سيدة إنجليزية فاضلة، وكان ذهني مستغرقاً في برنامج (الأخلاق والتربية الوطنية للمدارس الثانوية) والمتحدثون - عادة - يلونون حديثهم - ولو من غير شعور - بما يشغل أذهانهم ويستغرق أفكارهم - ومهما بعد المتحدث عن الموضوع يستولي عليه فسرعان ما يعود إليه، وينغمس فيه لقد بدأنا الحديث في الجو وانتقلنا إلى غيره، وإذا بنا نتكلم في (التربية والتعليم وشؤونهما) وإذا بي أسأل السيدة:

- ما برنامج الأخلاق والتربية الوطنية للمدارس الثانوية في إنجلترا؟

- ليس لهما في المدارس برنامج معين ولا دروس خاصة، ولكن تلقى فيهما محاضرات في مناسبات، وأهم ما يقوم بهذه المهمة (الكنيسة) فهي تنظم دروساً للشبان والشواب في هذا الموضوع، ويقوم بها رجالها، فيكفوننا بذلك مؤونة الدروس في المدارس؛ وإلقاؤها في الكنائس يجعل لها معنى أجمل، واحتراما أوفر، وطعماً أحلى

أنتقل ذهني في سرعة البرق من الكنيسة عندهم إلى المسجد عندنا، وساءلت نفسي:

ما الوظيفة الاجتماعية التي يؤديها المسجد للأمم الإسلامية؟

إني أفهم أن لمسجد الحي وظيفة هامّة بجانب وظيفته الدينية، هي الإشراف على تجلية الروح وتهذيب النفس بتنظيم المحاضرات في الموضوعات التي تمس العصر، والمشاكل التي تعرض في كل زمن، كما أن من وظيفته الإشراف على حالة الحي الاجتماعية، وما يصاب به بؤس وفقر وانغماس في المخدرات ونحو ذلك؛ ثم تنظيم الإحسان والقيام بالخدمة العامة بين الأغنياء والفقراء، وإسداء النصائح للأسر فيما يعرض لهم من متاعب وصعاب

إني أفهم من مسجد الحي أن يكون كمستشفي الحي، وغير أن المستشفي يداوي الأمراض الجسمية، والمسجد يداوي الأمراض الروحية والاجتماعية

إني أفهم أن يكون إمام المسجد رئيس المستشفي يعرف مرضى الحي، ويعرف علاجهم، ويكون صلة تآلف وتعارف بين أهل الحي، يأخذ من غنيهم لفقيرهم، ومن صحيحهم لمريضهم، ويقضي على المنازعات والخصومات ما استطاع، ويثقف الجهلاء، ويتخذ من المثقفين من أهل الحي أعواناً وأنصاراً، يخطبون ويعظون، ويعلمون ويثقفون - وإذ ذاك يشعر أهل الحي بأن المسجد ضرورة من ضروريات الحياة، يقوم لهم بما تقوم به المدرسة وبما تقوم به المحكمة، وبما تقوم به جمعيات الإحسان، وبما هو فوق هذا وذاك

بل لم لا يكون المسجد معهداً للمرأة كما يجب أن يكون معهداً للرجل، فيخصص مسجد كل حي وقتاً لنساء الحي تعلمّ فيه المرأة واجباتها الدينية والاجتماعية، وتفقه فيه في دينها ودنياها، وترشد فيه إلى طرق إسعاد البيت، وتثار همتها إلى العطف والإحسان وتنظيمهما

فالمرأة الآن محرومة من غذائها الروحي والديني، لأنها بعيدة عن المسجد، حرمت منه من غير حق، وهو سلوتها في الأزمات، وهو منهل عواطفها وغذاء روحها - لقد حرمت المرأة من المسجد، فحرم أبناؤها وبناتها من العاطفة الدينية، لأن الأم - غالباً - هي مصدر هذا الإيحاء، وإذا انحرفت مرة فلم تجد المسجد يهديها ويعزيها، جمحت وغوت؛ فهي الآن بين بيت وملهى ولا مسجد بينهما يذهب ملل البيت ويكسر من حدة الملاهي

هذا هو المسجد كما أتصوره، وكما ينبغي أن يكون - قوي الأثر في النواحي الروحية والاجتماعية والتعليمية، في الرجل والمرأة، قلوب الحي معلقة به، يغارون عليه، ويعملون على ترقيته من حيث نظامه ونظافته وإمامه وخطباؤه، ويرون أنه لهم وهم له، وأن منارته ينبعث منها الإصلاح في جميع نواحيه؛ متعلمو الحي جنوده في نشر الثقافة، وأغنياؤه جنوده في محاربة الفقر، ونساؤه دعاة أبنائهم وبناتهم إليه

هذا هو الوضع الصحيح للمسجد، فأين مسجدنا منا، وأين نحن من المسجد؟

لقد أعتزل الناس واعتزله الناسُ، ولم يشعر شعوراً قوياً بوجودهم، ولم يشعروا شعوراً

قوياً بوجوده
نظرت دار الآثار إلى بنائه فعدته (آثاراً) ونظر الناس إلى نظامه فعدوه كذلك (آثاراً) فليس يؤمه - مع الأسف - إلا الطبقة الفقيرة البائسة، أو الموظف الذي أحيل إلى المعاش، أو من تقدمت به السن من عامة الناس. أما الشباب المثقفون ومن أنعم الله عليهم بشيء من رغد العيش فلا يفكرون في المسجد ولا تحدثهم أنفسهم بزيارته، وإن دخلوا لا يعرفوا كيف تؤدى شعائره إلا القليل النادر، كأن السينما والمساجد أقتسما الناس، فخص المسجد بالشيوخ والعجائز والفقراء، وخص السينما بالفتيان والفتيات والأغنياء، وهي حال لا تشعر بأمل، ولا تبشر بخير
ووزارة الأوقاف كذلك عدت المساجد (آثاراً)، فهي تسير في تعيين أئمتها وخطبائها وفي مراقبتها سير القرون الخالية كأن الزمن لا يسير
والأئمة والخطباء يعاملون معاملة (الآثار) فهم يقرأون غالباً الخطب التي ألفت في القرون الماضية، فلا نفساً ولا تحيي همه - كل ما فيها (أتقو الله) إجمالا من غير تفصيل. أما ما يحدث بيننا من أحداث، وأما ما نشعر به من مصائب وما ينتابنا من كوارث، فلا دخل لهم فيه، لأن دواوين القدماء لم تنص عليه
ورحبت السياسة بهذا النظر الأثري إلى المساجد فاطمأنت إليه لأنه يخدمها، وإلا فما بالنا نرى المسجد بعيداً عن الناس هذا البعد، هل لو أراد الخطباء غير الإمام أن يخطبوا في المسجد في إصلاح الحالة الاجتماعية أجيب طلبهم؟ وهل لو نظمت محاضرات ثقافية في المسجد للشباب مرة والشواب مرة في الأخلاق والتربية الوطنية تسمح وزارة الأوقاف بذلك؟ أكبر الظن أن لا
الحق أن للناس بعض العذر في الانصراف عن المساجد، فلو عرف الخطباء كيف يكلمون الناس وعرف رجال الدين كيف يصلون إلى قلوبهم، وشعر الناس أنهم يجدون في المسجد متعة روحية وغذاء دينياً واجتماعياً، لتغير الحال وازدحم المسجد بالناس من جميع الطبقات
وقد كان المسجد في الإسلام يقوم بهذه النواحي التي ذكرنا، فالخلفاء ونوابهم كانوا يخطبون في المشاكل الحاضرة - وكانوا يخطبون كلما حز بهم أمر أو عرض لهم مهمّ، وكان المسجد مدرسة للعلماء والمتعلمين والشعراء والمتأدبين، وكان المسجد مكتبة للواردين والمترددين، وكان المسجد مجمع الناس في الأعياد والمواسم، وكان المسجد مكتب الصغار ومدرسة الكبار، ولو سار في طريقة وتأقلم مع الزمن لكان يؤدي كل الخدم الاجتماعية التي أشرنا إليها من قبل ولكن (خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة، وأتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً إلا من تاب)
هل للأزهر ووزارة أن يتعاونا على إصلاح المسجد ويضعا البرامج له على أنه مرفق اجتماعي كما هو مركز ديني؟؟. . إن إصلاحه على هذا الوضع تقوية للدين، وإصلاح للناس؟
في القطار إلى (رأس البر)
أحمد أمين
بين الأسطورة والتاريخ
هل أحرق فاتح الأندلس سفنه؟
للأستاذ محمد عبد الله عنان
تتخذ شخصية طارق بن زياد فاتح الأندلس مكانها بين عظماء الفاتحين، لا في التاريخ الإسلامي وحده، ولكن في تاريخ الأمم القديمة كلها؛ وتعتبر موقعة شذونه أو (مدينا سدونيا) من أعظم الوقائع الحاسمة في تاريخ الإنسانية، ففيها افتتح العرب أسبانيا وغنموا ملك القوط، وشادوا صرح تلك الدولة الأندلسية الزاهرة التي لبثت قروناً تبهر أمم الغرب بقوتها وفخامتها وراع حضارتها وفنونها. بيد أنه من الغريب أن شخصية الفاتح العظيم - طارق - بينما تبدو في بعض نواحيها وضاءة مشرقة، إذا بها تبدو في البعض الآخر خفية يكتنفها الغموض؛ فالرواية الإسلامية تختلف حول نشأة طارق وحول نسبته وجنسيته، وتكاد تسدل على مصيره بعد الفتح ستاراً من الصمت والنسيان
ولسنا نعرض في هذا البحث لشخصية طارق أو تاريخه أو اختلاف الرواية في شأنه، ولكنا نعرض لواقعة ترتبط باسمه، وقد يغلب عليها لون الأسطورة، وإن كانت مع ذلك

تعرض علينا في لون التاريخ الحق، تلك هي واقعة إحراق السفن التي نقل عليها طارق جيشه من الشاطئ الأفريقي إلى شاطئ الأندلس. ونحن نعرف أن فتح الأندلس قد تم بدعوة من الكونت يوليان القوطي حاكم سبتة والمضيق لخصومة سياسية وشخصية بينه وبين رودريك (لذريق) ملك القوط، وأنه عاون العرب بخدماته ونصحه، وأنه هو الذي قدم السفن التي عبر العرب عليها إلى الأندلس في بعثتهم الاستكشافية الأولى بقادة طريف بن مالك (رمضان سنة 91) ثم في حملتهم الغازية بقيادة طارق بن زياد (رجب سنة 92 - أبريل 711م). وهنا تذكر الرواية أن طارقاً ما كاد يعبر بجيشه إلى أسبانيا حتى أمر بإحراق السفن التي عبر عليها جيشه وذلك لكي يدفع جنده إلى الاستبسال أوالموت أو الظفر، ويقطع عليهم كل فكرة في التخاذل أو الارتداد. فما بلغ هذه الرواية من الصحة؟ إن جميع الروايات الإسلامية التي تحدثنا عن فتح الأندلس لا تذكر شيئاً عن هذه الواقعة، ولا تذكرها سوى بعض الروايات النصرانية المعاصرة أو المتأخرة؛ ولا تذكرها الرواية الإسلامية إلا في موطن واحدة، فقد ذكر الشريف الإدريسي في معجمه الجغرافي الشهير (نزهة المشتاق)

عند الكلام على جغرافية الأندلس أن طارقاً أحرق سفنه بعد العبور بجيشه إلى الأندلس؛ وقد نقلت الروايات النصرانية المتأخرة هذه الرواية عن الإدريسي فيما يرجح؛ وفيما عدا ذلك فان جميع الروايات الإسلامية تمر عليها بالصمت المطبق وهنالك وجه آخر لتأييد هذه الرواية هو الخطاب الذي يقال إن طارقاً ألقاه في جنده قبيل نشوب الموقعة الحاسمة بينه وبين القوط؛ ونحن نعرف هذا الخطاب الشهير الذي مازال يحفظه الطلاب كنموذج من إبداع نماذج البلاغة العربية؛ فقد أستهله طارق بقوله: (أيها الناس؛ أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم؛ وليس لكم والله إلا الصدق والصبر. . .) وفي ذلك ما يمكن أن يحمل على أن الجيش الفاتح قد جرد من وسائل الارتداد والرجعة إلى الشاطئ الأفريقي، أو بعبارة أخرى قد جرد من السفن التي حملته في عرض البحر إلى أسبانيا؛ ولكنا نلاحظ من جهة أخرى أن هذا الخطاب الحربي الشهير الذي تنسبه الرواية الإسلامية المتأخرة إلى طارق، لم يرد في روايات المؤرخين المتقدمين؛ فمثلاً لم يذكره ابن عبد الحكم والبلاذري وهما أقدم رواة الفتوحات الإسلامية؛ وذكره ابن قتيبة، ولم يشر إليه ابن الأثير وابن خلدون، ونقله المقري عن مؤرخ لم يذكر أسمه، وهو على العموم أكثر ظهوراً في كتب المؤرخين والأدباء المتأخرين؛ وعلى ذلك فليس في وسعنا أن نتخذه دليلاً مادياً على واقعة إحراق السفن؛ ولو صح أن طارقاً قد ألقى مثل هذا الخطاب فعلاً - وهو ما نراه موضع الشك - فانه يمكن تفسيره بأن السفن التي عبر عليها طارق وجيشه كانت ملكاً للكونت يوليان القوطي، ولم تكن سوى أربع، وقد عبر الجيش الإسلامي عليها تباعاً في مرات عدة، فمن المعقول إذا أن يعتبر طارق أنه في حالة الهزيمة لم تكن لديه وسيلة سريعة للارتداد وعبور البحر إلى إفريقية

على أنا نستطيع مع ذلك أن نأخذ برواية الشريف الإدريسي؛ وإذا كان احتراق السفن على هذا النحو لقطع الرجعة والارتداد على جيش فاتح عمل بطولة رائع، فانه لما يتفق مع بطولة فاتح الأندلس، وليس موقف قيصر في غالباً أو موقف بونابارت في إيطاليا فيما بعد بأدعى للإعجاب من موقف طارق في سهل شريش (مكان اللقاء الحاسم) والظاهر أن إقدام الغزاة على إحراق السفن على هذا النحو الذي تنسبه الرواية لفاتح الأندلس نوع من أساطير البطولة الخارقة التي ترجع إلى أقدم عصور التاريخ؛ ففي كثير

من مواطن التاريخ القديم الممزوج بخوارق الأسطورة تعرض مثل هذه الواقعة للتنويه بعمل بطولة خارق. على أننا لا نعدم أيضاً في التاريخ الحق أمثلة واقعة منها. ففي التاريخ الروماني مثل رائع لهذا الحدث هو مثل الإمبراطور يوليان في حملته الفارسية. وكان يوليان مذ جلس على عرش قسطنطينية، يتوق إلى غزو فارس وتحطيم تلك الدولة الشامخة التي مازالت منذ الحقب تناهض دولة القياصرة، وكان مثل الاسكندر المقدنوي يحفزه ويذكي عزمه؛ ففي سنة 363م، سار يوليان من إنطاكية حيث كان ينظم أهبته في جيش ضخم، واخترق صحراء الشام من جهة الشمال، ثم سار جنوباً بحذاء الفرات، وسار في نفس في الوقت الفرات أسطول روماني ضخم يحمل أقوات الجيش؛ ثم عبر يوليان نهر الفرات، واجتاح بلاد الآشوريين، واشرف على نهر دجلة

حيث كان الفرس في انتظاره في الضفة الأخرى؛ وحمل الرومان سفنهم المشحونة بالمؤن والذخيرة من الفرات إلى الدجلة بعد جهود ومشاق هائلة؛ واعتزم الإمبراطور أن يعبر الدجلة بجيشه ليقابل سابور ملك الفرس في قلب مملكته كما فعل الاسكندر من قبل حيث هاجم الفرس في عقر أرضهم؛ وهنا أعتزم الإمبراطور فجأة أن ينفذ فكرة جريئة جالت بخاطره وهي أن يحرق أسطوله الراسي في دجلة؛ وفي الحال نفذت الفكرة واحرق الأسطول الروماني الضخم ولم تنقذ منه سوى سفن قلائل استبقيت لاجتياز الأنهر، ولم يتزود الجيش الإمبراطوري إلا بمؤونة عشرين يوماً؛ وكان يوليان يرمي بذلك الأجراء إلى غاية حربية حكيمة هي ألا يمكن القوات الفارسية المحصورة في مدينة اكتسيفون قاعدة الجزيرة من انتهاز فرصة توغله في الداخل ومهاجمة أسطوله والاستيلاء عليه وعلى المؤن التي يحملها غنيمة باردة. وقد حكم التاريخ على يوليان ولم يحكم له، ذلك لأنه لم يكن موفقاً في غزوته، وقد لقي جزاء في نكبة جيشه أمام الفرس وفي مصرعه متأثراً بجراحه؛ وارتد الجيش الروماني مهزوماً ممزقاً ونجت فارس بحريتها واستقلالها مدى ثلاثة قرون أخرى حتى كان الفتح العربي

وفي التاريخ الحديث مثل واقعي رائع أعدمت فيه سفن الجيش الفاتح، هو مثل هرناندو كورتيز فاتح المكسيك؛ ومن غرائب القدر أن يكون أروع نموذج لهذا الضرب من البطولة أسباني يذكرنا بطارق فاتح أسبانيا وما ينسب إليه في هذا الصدد. ومن المرجح جداً أن يكون فاتح المكسيك قد تأثر بالمثل الرائع الذي تنسبه الرواية لفاتح الأندلس؛ وقد كان

طارق وكورتيز في الواقع كلاهما أمام ظروف متماثلة: مغامرة مجهولة الظروف والعواقب، ومحاولة جريئة لافتتاح أرض جديدة وعالم جديد، وجيش قليل العدد ليواجه جيوشاً زاخرة لا يعلم نوعها ولا مدى قوتها. بيد أن مغامرة كورتيز وقعت في ظروف أكثر دقة وخطورة؛ فقد كانت أسبانيا من أمم العالم القديم ولم تكن مجهولة تماماً من العرب وكان بها شعب قديم يتمتع بحضارة لا بأس بها؛ ولكن كورتيز كان أمام عالم مجهول تكتنفه الظلمات من كل ناحية، ولم يكن يعرف ما هي الأرض، وما هي الأمم التي يزمع اقتحامها بجنده القليل

وصل كورتيز في أسطوله المتواضع إلى مياه المكسيك في سنة 1519 لغزو إمبراطورية (الازتكيين) الهندية، ولم يكن يعرف الأسبان يومئذ عنها شيئاً إلا أنها إمبراطورية ضخمة غنية تفيض بالنعم والذهب والوهاج؛ وما كاد كورتيز وجنده يضعون أقدامهم في الأرض الجديدة، حتى فكر الفاتح الجريء في إعدام سفنه؛ وأعدمت في الحال بغراقها؛ وكان كورتيز يرمى بهذا الإجراء إلى غاية ظاهرة هي ألا يدع إلى قلوب جنده سبيلاً إلى الخور أو أملا في الارتداد. إما الظفر أو الموت: هكذا كان شعار كورتيز، وهكذا كان عزمه وخطته، وكان عملاً جريئاً، ولكن ضرورياً، حتى لا يجد الناقمون أي وسيلة لمغادرة إخوانهم، وحتى يرتمي الجميع في أحضان الموت لا يلتمسون به بديلاً سوى الظفر. ولا ريب أن عمل كورتيز عمل بطرق خارقة، وربما كان أعظم عمل من نوعه في التاريخ، لأن الفاتح الأسباني تقدم في جرأة مدهشة لافتتاح الإمبراطورية الهندية العظيمة بجيش لا يعدو عدة مئات، ولم يحجم مع ذلك عن إعدام أسطوله، وهو وسيلته الوحيدة للنجاة في حالة الهزيمة والفشل؛ وكان ظفره بافتتاح ذلك العالم الجديد عظيماً مدهشاً

ومثل هذه الحوادث تبدو في التاريخ كالأسطورة وقد تمتزج أحيانا بالأساطير؛ وكلما بعدت في ثنايا التاريخ كلما كان امتزاجها بالأسطورة أشد وأقوى. بيد أننا هنا أمام أمثلة واقعة. وفي التاريخ حوادث من نوع مماثل في شذوذه وروعته مازالت في عصرنا تبدو كالأعاجيب الخارقة، فمثلاً يذكر التاريخ أن محمداً الثاني سلطان الترك العثمانيين وفاتح قسطنطينية، حينما حاصر قسطنطينية من البر والبحر، ولم يستطع أسطوله أن يقتحم خليج القرن الذهبي الذي تقع عليه المدينة من البحر، اعتزم في الحال أن ينقل أسطوله إلى البر،

مما يلي مؤخرة القرن الذهبي، ونفذ مشروعه الخارق بالفعل ونقل أسطوله الضخم على طريق من الخشب المطلي بالدهن والشحم، ثم دفعه إلى داخل القرن الذهبي؛ وبذلك تم تطويق المدينة، ولم تلبث أن سقطت في أيدي الغزاة (1453م). بيد أن

هذه الحوادث والأعمال الخارقة لا تبدو في روعتها الحقيقية إلا إذا اصطبغت بألوان العصر الذي وقعت فيه، وقد ينتقص من قدرها إذا قدرت بمعيار عصرنا، وتفهمها بروح العصر الذي وقعت فيه هو وحده الذي يسبغ عليها هذا اللون القوى من البطولة الخارقة، وهذا السحر الذي تبثه إلينا أعمال تشبه الأساطير في روعتها

محمد عبد الله عنان

التشجيع. . . .

للأستاذ علي الطنطاوي

سيدي. . . . . صاحب الرسالة، أنت لا تحب الثناء، ولكن القراء يحبون الحقيقة، فأرجو أن تنشر لهم هذا الفصل (على)

قرأت ما كتب عنى وعن كتابي (أبو بكر الصديق) أستاذنا أديب العربية الأستاذ الزيات، فقرأت فيه صفحة من كرم السجايا، ونبل الأخلاق، والتشجيع الذي يتفضل به الكبير على الصغير، فيسدد به خطواته، ويأخذ بيده، ويصب من قوته في أعصابه، حتى يقوى ويشتد ويتقدم، فأحببت أن أعلق على هذا التقريظ بكلمة في التشجيع وماله من الأثر في العلوم والآداب، وأن أفي للحق والواجب، بأن أسجل للأستاذ وللرسالة، ماله علينا من منة، وما للرسالة علينا من يد؛ وأنا وأصحابي هنا مدينون للرسالة، بما نجد من قوة، وما نحس من نشاط، ما كنا لولا (الرسالة) نحس منه شيئاً؛ وما رأينا قبل الرسالة مجلة أدبية راقية، فتحت أبوابها لأدباء العربية جميعاً، لا تفرق بين أبناء قطر وقطر، وبلد وبلد، ولا تزن الأدباء بالشهرة الواسعة، ولكن بالإنتاج القيم، فكانت بذلك الرسالة ديوان العرب المشترك، وسجل الأدب الحديث، وجعلت من قرائها - وقراؤها كل الناطقين بالضاد - أسرة واحدة، تجمعها وحدة المبدأ، ووحدة الغاية. وهل أجمل في إثبات هذه الوحدة، من رجل يكتب مقالة عن الأوزاعي من فلسطين، فيعقب عليه آخر من الشام، ويجيبه ثالث من مصر، ويعلق عليها رابع من سنغافورة ثم يكتب في الموضوع خامس من دمشق؟. . . . كأن الرسالة قد محت بسحرها ما بين سنغافورة والشام من صحارى وبحار، وجبال وأنهار فغدت هذه من تلك، كالمقعد من المقعد في الصف الواحد، يخرج رأي من هنا، ورأي من هنا، ويسمع الأستاذ وهو على منبره الرأيين ليقول القول الفصل، وينطق بالكلمة الحاسمة

وما الأستاذ إلا الزيات وما المنبر إلا الرسالة!

أشكر للأستاذ هذه السنة التي يتبعها في تشجيع صغار الأدباء، والأخذ بأيديهم، لأن التشجيع مذ كان أصل التقدم، وسبب النجاح؛ وقد قرأت مرة أن مجلة إنكليزية كبيرة سألت الأدباء عن الأمر الذي يتوقف عليه نمو العلوم وازدهار الآداب، وجعلت لمن يحسن الجواب جائزة قيمة، فكانت الجائزة لكاتبة مشهورة قالت: إنه التشجيع!

وقالت: أنها في تلك السنّ، بعد تلك الشهرة والمكانة، تدفعها كلمة التشجيع حتى تمضى إلى الأمام وتقعد بها كلمة التثبيط عن المسير

وإن من أظهر الأسباب في ركود الأدب في الشام في القرن الماضي، وانقطاع سبيل التأليف، هو فقدان التشجيع، وذلك (الاحتكار العلمي) الذي قتل كثيراً من النفوس المستعدة للعلم، وخنق كثيراً من العبقريات المتهيئة للظهور، فقد كان العلم في الشام مقصوراً يومئذ على بيوت معروفة، لا يتعداها ولا يجوز أن يتعداها، هي: بيت العطار، والحمزاوي، والغزي، والطنطاوي، والشطي، والخاني، والكزبري، والاسطواني، والحلبي. . . وكانت كلها متجمعة حول المدرسة البادرائية؛ في القميرية والعمارة، وزقاق النقيب، حيث يسكن الأمير العالم المجاهد عبد القادر الجزائري رحمه الله عليه وعليهم؛ وكان لهذه البيوت كل معاني الامتياز و (الاحتكار العلمي)، فإذا سمع أن شاباً أشتغل بالعلم من غير هذه البيوت، وقدروا فيه النبوغ، وخافوا أن يزاحمهم على وظائفهم الموروثة، بذلوا الجهد في صرفه عن العلم، والعدول به إلى التجارة؛ أو ليست الوظائف العلمية وقفاً على هذه البيوت؟ أو ليس للولد ولاية العهد في وظيفة أبيه، تنحدر إليه الإمامة أو الخطابة أو التدريس عالماً كان أو جاهلاً، فكيف إذن يزاحمهم عليها أبناء التجار، وهم لا يزاحمون أبناء التجار على (حوانيتهم)؟ أولا يكفي أبناء التجار هذا القسط الضئيل من النحو والصرف والفقه والمنطق الذي يمن به عليهم هؤلاء العلماء؟. . .

حتى إنه لما نشأ محمد أمين (ابن عابدين) وأنسوا منه الميل إلى العلم، وعرفوا فيه الذكاء المتوقد، والعقل الراجح، خافوا منه فذهبوا يقنعون أباه - وكان أبوه امرأً تاجراً - ليسلك به سبيل التجارة، ويتنكب به طريق العلم، وجعلوا يكلمونه، ويرسلون إليه الرسل، ويكتبون إليه الكتب، ويستعينون عليه بأصحابه وخلصائه، ولكن الله أراد بالمسلمين خيراً، فثبت الوالد فكان من هذا الولد المبارك، ابن عابدين صاحب (الحاشية)، أوسع كتاب في فروع الفقه الحنفي

بل لقد أرادوا أن يصرفوا أستاذاً العلامة محمد بك كرد علي عن العلم، فبعثوا إليه بشقيقين من آلـ. . . بشقيقين قد ماتا فلست أسميهما، على رغم أنهما قطعاً عن العلم أكثر من أربعين طالباً - فمازالا بأبيه - ولم يكن أبوه من أهل العلم - ينصحانه أن يقطعه عن

العلم، ويعلمه مهنة يتكسب منها، فما في العلم نفع، ولا منه فائدة. . . ويلحان عليه ويلازمانه، حتى ضجر فصرفهما فكان من ولده هذا، الأستاذ كرد على أبو النهضة الفكرية في الشام وقائدها، ووزير معارف سورية ومفخرتها، والذي من مصنفاته: خطط الشام، وغرائب الغرب، والقديم والحديث، والمحاضرات، وغابر الأندلس وحاضرها، والإدارة الإسلامية، والإسلام والحضارة العربية. . . والمقتبس. . . ومن مصنفاته: (المجمع العلمي العربي بدمشق)، ومن مصنفاته هؤلاء: (الشعراء والكتاب من الشباب)!

ولعل في الناس كثيرين كانوا لولا الاحتكار والتثبيط كابن عابدين أو ككرد علي. وهاهو ذا العلامة المرحوم الشيخ سليم البخاري مات وما له مصنفٌ رسالة فما فوقها، على جلالة قدره، وكثرة علمه، وقوة قلمه، وشدة بيانه؛ وسبب ذلك أنه صنف لأول عهده بالطلب رسالة صغيرة في المنطق، كتبها بلغة سهلة عذبة، تنفي عن هذا العلم تعقيد العبارة، وصعوبة الفهم، وعرضها على شيخه، فسخر منه وأنبه، وقال له: أيها المغرور! ابلغ من قدرك أن تصنف، وأنت. . وأنت. . ثم أخذ الرسالة فسجر بها المدفأة. . فكانت هي أول مصنفات العلامة البخاري وآخرها!

وقد وقع لي أني كنت في المدرسة وكنت أحاول أن أنظم الشعر، فآخذ أبيات قديمة فأغير قوافيها، وأبدل كلماتها، وأدعيها لنفسي، كما يفعل اليوم بعض الأدباء (الترجمة) حين يترجمون الكلمة الإنكليزية أو الفرنسية حتى إذا بلغوا التوقيع ترجموه هو أيضاً، فكانت ترجمة أسم المؤلف أو الكاتب اسم الترجمان أو (السارق)! وكان الكتاب أو الفصل المترجم من وضع أديبنا البارع. . .

كنت أنظم أبياتاً من الشعر أو اسراقها، كما ينظم كل مبتدئ ويسرق، حتى إذا اجتمع عندي كثير من القطع، عرضته على أستاذ العربية، وكان لسوء الحظ تركياً يسمى إسماعيل حقي أفندى، يعلمنا النحو العربي باللسان التركي! فلما قرأه سخر منى وسبني وتهكم علي، وجاء من بعد أخي أنور العطار - فنظم كما كنت أنظم حتى إذا اجتمع عنده كثير من القطع، عرضه على الأستاذ كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي، فأقام له حفلة تكريمية!

فكانت النتيجة أنى عجزت عن الشعر، حتى لنقل البحر بفمي أهون علي من نظم خمسة أبيات، وأن أخي أنور العطار غدا شاعر الشباب السوري، وسيغدو شاعر شباب العرب!

وأول من سنّ سنة التشجيع في بلدنا هو العلامة المرحوم مربي الجيل الشيخ طاهر الجزائري، الفيلسوف المؤرخ الجدلي، الذي من آثاره المدارس الابتدائية النظامية في الشام، والمكتبة الظاهرية، والأستاذ محمد كرد علي بك، وخالي الأستاذ محب الدين الخطيب. . . . ومما كتب في ذم التثبيط:

(وقد عجبت من أولئك الذين يسعون في تثبيط الهمم، في هذا الوقت الذي يتنبه فيه الغافل. . .

وكان الأجدر بهم أن يشفقوا على أنفسهم ويشتغلوا بما يعود عليهم وعلى غيرهم بالنفع، ولم نرَ أحد من المثبطين قديماً أو حديثاً أتى بأمر مهم، فينبغي للجرائد الكبيرة، أن تكثر من التنبيه على ضرر هذه العادة، والتحذير منها، ليخلص منها من لم تستحكم فيه، وينتبه الناس لأربابها ليخلصوا من ضررهم)

وكان الشيخ في حياته يشجع كل عامل، ولا يثني أحداً عن غاية صالحة، حتى لقد

أخبرني أحد المقربين منه أنه قال له: إذا جاءك من يريد تعلم النحو في ثلاثة ايام، فلا تقل له إن هذا غير ممكن. فتفل عزيمته، وتكسر همته، ولكن أقرئه وحبب إليه النحو، فلعله إذا أنس به واظب على قراءته

ثم أن التشجيع يفتح الطريق للعبقريات المخبوءة حتى تظهر وتثمر ثمرها، وتؤتي أكلها؛ ورب ولد من أولاد الصناع أو التجار يكون إذا شجع وأخذ بيده عالماً من أكابر العلماء، أو أديباً من أعاظم الأدباء! وفي علماء القرن الماضي في الشام من ارتقى بالجد والدأب والتشجيع من منوال الحياكة، إلى منصب الإفتاء، وكرسي التدريس تحت القبة.

نشأ الشيخ محمد إسماعيل الحائك عامياً، ولكنه محب للعلم، محب للعلماء، فكان يحضر مجالسهم، ويجلس في حلقهم للتبرك والسماع، وكان يواظب على الدرس لا يفوته الجلوس في الصف الأول، فجعل الشيخ يؤنسه ويلطف به، لما يرى من دوامه وتبكيره، ويسأل عنه إذا غاب، فشدّ ذلك من عزمه، فاشترى الكتب يحيي ليله في مطالعة الدرس، ويستعين على ذلك بالنابهين من الطلبة، واستمر على ذلك دهراً حتى أتقن علوم الآلة، وصار واحد زمانه في الفقه والأصول، وهو عاكف على مهنته لم يتركها؛ وصار الناس يأتونه في محله يسألونه عن مشكلات المسائل، وعويصات الوقائع، فيجيبهم بما يعجز عنه فحولة العلماء.

وانقطع الناس عن المفتي من آل العمادي فساء ذلك العماديين وآلمهم، فتربصوا بالشيخ وأضمروا له الشرّ، ولكنهم لم يجدوا إليه سبيلاً، فقد كان يحيا من عمله، ويحيا الناس بعلمه، وكان يمر كل يوم بدار العماديين في (القيمرية) وهو على أتان له بيضاء، فيسلم فيردون عليه السلام، فمر يوماً كما كان يمر، فوجد على الباب أخا للمفتي، فردّ عليه السلام، وقال له ساخراً:

- إلى أين يا شيخ! أذهب أنت إلى (اسطبول) لتأتي بولاية الإفتاء؟ وضحك وضحك من حوله، أما الشيخ فلم يزد على أن قال:

- أن شاء الله!

وسار في طريقه حتى إذا ابتعد عنهم دار في الأزقة حتى عاد إلى داره، فودع أهله، وأعطاهم نفقتهم، وسافر!

ومازال يفارق بلداً، ويستقبل بلداً، حتى دخل القسطنطينية فنزل في خان قريب من دار المشيخة، وكان يجلس على الباب يطالع في كتاب، أو يكتب في صحيفة، فيعرف الناس من زيه أنه عربي فيحترمونه ويجلونه، ولم يكن الترك قد جنوا الجنة الكبرى بعدُ. . . فكانوا يعظمون العربي، لأنه من أمة الرسول الأعظم الذي اهتدوا به، وصاروا به وبقومه ناساً. . .

واتصلت أسباب الشيخ بأسباب طائفة منهم فكانوا يجلسون إليه يحدثونه، فقال له يوماً رجل منهم:

- إن السلطان سأل دار المشيخة عن قضية حيرت علماءها ولم يجدوا لها جواباً، والسلطان يستحثهم وهم حائرون، فهل لك في أن تراها لعل الله يفتح عليك بالجواب؟

قال: نعم

قال: سر معي إلى المشيخة

قال: باسم الله

ودخلوا على ناموس المشيخة (سكرتيرها)، فسأله الشيخ إسماعيل عن المسألة فرفع رأسه فقلب بصره فيه بازدراء، ولم تكن هيئة الشيخ بالتي ترضى، ثم ألقاها إليه وانصرف إلى عمله، فأخرج الشيخ نظارته فوضعها على عينه فقرأ المسألة ثم أخرج من منطقته هذه

الدواة النحاسية الطويلة التي كان يستعملها العلماء وطلبة العلم للكتابة وللدفاع عن النفس، فاستخرج منها قصبة فبراها، وأخذ المقط فقطها، وجلس يكتب الجواب بخط نسخي جميل حتى سود عشر صفحات ما رجع في كلمة منها إلى كتاب، ودفعها إلى الناموس، ودفع إليه عنوان منزله وذهب. فلما حملها الناموس إلى شيخ الإسلام وقرأها، كاد يقضى دهشة وسروراً

وقال له: ويحك! من كتب هذا الجواب؟ -

- قال: شيخ شامي من صفته كيت وكيت. . .

قال: علي به -
فدعوه وجعلوا يعلمونه كيف يسلم على شيخ الإسلام، وان عليه أن يشير بالتحية واضعاً يده على صدره، منحنياً، ثم يمشي متباطئاً حتى يقوم بين يديه. . . . إلى غير ذلك من هذه الأعمال الطويلة التي نسيها الشيخ، ولم يحفظ منها شيئاً
ودخل على شيخ الإسلام، فقال له:
- السلام عليكم ورحمة الله، وذهب فجلس في أقرب المجالس إليه. وعجب الحاضرون من عمله ولكن شيخ الإسلام سرّ بهذه التحية الإسلامية وأقبل عليه يسأله حتى قال له:
- سلني حاجتك
- قال: إفتاء الشام وتدريس القبة
- قال: هما لك. فاغدَ علي غداً!
فلما كان من الغد ذهب إليه فأعطاه فرمان التولية وكيساً فيه ألف دينار
وعاد الشيخ إلى دمشق فركب اتانه ودار حتى مرّ بدار العماديين فإذا صاحبنا على الباب، فسخر منه كما سخر وقال:
- من أين يا شيخ؟
- فقال الشيخ: من هنا، من اسطنبول. أتيت بتولية الإفتاء كما أمرتني
ثم ذهب إلى القصر فقابل الوالي بالفرمان، فركع له وسجد وسلم الشيخ عمله في حفلة حافلة
ومن هذا الباب قصة الشيخ علي كزبر، وقد كان خياطاً في سوق المسكية على باب الجامع
الأموي، فكان إذا فرغ من عمله ذهب فجلس في الحلقة التي تحت القبة فاستمع إلى الشيخ حتى يقوم فيلحق به فيخدمه، وكان الشيخ يعطف عليه لما يرى من خدمته إياه، فيشجعه ويحثه على القراءة فقرأ ودأب على المطالعة، حتى صار يقرأ بين يدي الشيخ في الحلقة، ولبث على ذلك أمدا وهو لا يفارق دكانه ولا يدع عمله، حتى صار مقدماً في كافة العلوم
فلما مات الشيخ حضر في الحلقة الوالي والأعيان والكبراء ليحضروا أول درس للمدرس الجديد، فافتقدوا المعيد فلم يجدوه. ففتشوا عليه فإذا هو في دكانه يخيط، فجاءوا به، فقرأ الدرس وشرحه شرحاً أعجب به الحاضرون وطربوا له. فعين مدرساً ولبث خمسة عشر عاماً يدرس تحت قبة النسر، وبقيت الخطبة في أحفاده إلى اليوم على أن للتشجيع عيباً واحداً هو الغرور، فأنا أعوذ بالله أن أغتر فأصدق أني أهل لكل ما تفضل به علي الأستاذ من النعوت، وأرجو أن أوفق إلى الجد والتقدم بتشجيع الأستاذ وفضله، وأشكر للأستاذ الزيات باسمي وأسم أخواني هنا، أياديه علينا وعلى الأدب العربي، الذي سمت وتسمو به (الرسالة)!
علي الطنطاوي
النهضة التركية الأخيرة - 4
للدكتور عبد الوهاب عزام
الحروف اللاتينية
أنتشر الإسلام بين الأمم فدخل الناس في الاخوة الإسلامية وصاروا أمة واحدة، واتخذوا اللغة العربية لسان الدين والعلم، لا يكتبون غيرها
ولما حيت لغاتهم على مرّ الزمان بجانب العربية كتبوها بالخط العربي الذي ألفوه، وترك من كان ذا كتاب منهم كتابته الأولى. ولم يخسروا في هذا شيئاً إذ كانت الكتابة العربية على علاتها أوضح وايسر مما كان عندهم
- 1 -
كان الفرس يكتبون بالخط الفهلوي، وهو مشتق من الخط الآرامي القديم، والخط الفهلوي مبهم مشكل. قال الأستاذ براون إنه يصدق فيه ما قاله أحد الفرنسيين عن الخطابة إنها فن إخفاء الأفكار، يعني أنه خط يخفي الألفاظ. ذلك بما تشابهت حروفه، وبما اشتركت الأصوات المختلفة في بعض الحروف. وقد أدى هذا اللبس إلى ما لم يعهده التاريخ في لغة أخرى. كان الكتاب يكتبون كلمة آرامية مكان كلمة فارسية خوفاً من اللبس، فإذا قرأوا نطقوا بالكلمة الفارسية غير المكتوبة، وتركوا الآرامية المكتوبة.

روي عن ابن المقفع أنه قال: إن في اللغة الفهلوية ألف كلمة تقرأ ولا تكتب. ورى ابن النديم في الفهرست من أمثلة هذا أنهم كانوا يكتبون كلمة (بسرا) الآرامية ويقرءون كوشت (لحم) بالفارسية، ويكتبون (لهما) الآرامية ويقرأون نان (خبز) بالفارسية ولم تكن الألفاظ الآرامية مقصورة على ما يستعار من لغة إلى أخرى من الأسماء، بل كان فيها أفعال وضمائر وإشارات. وكانوا يلحقون بالكلمات الآرامية خواتم فارسية الخ، ومن أجل صعوبة الخط الفهلوي ندر القارئون في ذلك العهد

فكان خيراً للفرس أن كتبوا لغتهم بالحروف العربية لهذا، وللأخوة العامة التي أدخلهم الإسلام بها حين مدّ ظله على الأمم وأراد أن يمحو الفروق بين بنى آدم

وأما الترك فكان أكثرهم قبائل أمية لا تعرف قراءة ولا كتابة، وتسربت إلى طوائف منهم كتابات الأمم المجاورة. كتبت بعض الأسماء والألقاب التركية بالهيروغليفية الصينية في القرنين السابع والثامن بعد الميلاد. ولما أريد تنصير الترك النازلين على بحر الخزر في القرن السادس ترجم لهم الكتاب المقدس، وكتب بالحروف اليونانية. وكذلك كتبت التركية بالحروف اليونانية في جهات الطونة، وكذلك كتبت التركية بالعبرية، والنسطورية، والهندية، والسلافية، والأرمنية الخ الخ

وقد أثر عن جماعات من الترك ضربان من الكتابة يمكن أن يعدا كتابة تركية. وهما الخط الأورخوني الذي دلت عليه الآثار التي عثر عليها حوالي نهر أورخون في سيبريا، والخط الأويغوري. والأول كتبت به تركيا الشمال، وبالثاني كتبت تركية الجنوب

فأما الخط الأورخوني فيرى أكثر العلماء أنه مشتق من الخط الآرامي القديم. وقد كتب به فئات من الترك من القرن الرابع الميلادي إلى القرن الثامن. وهو مؤلف من ثمانية وثلاثين حرفاً، أربعة منها حروف حركة، وثلاثة منها مركبة. ويوصل به غالباً كلمتان أو ثلاث معاً. وأحيانا يستغني بالحرف من الكلمة فتكتب (ت) للدلالة على آت (فرَس) و (ز) للدلالة على آز (قليل) وهكذا. ولا ريب أن هذا الخط لا يقاس بالخط العربي وضوحاً ويسراً وكمالاً

وأما الخط الأويغوري وهو أحدث الخطين، وأطولهما عهداً، وأوسعهما انتشارا، فيظن أنه حل محل الخط الأول منذ القرن الثامن الميلادي. كتبت به أول الأمر ترجمة الكتب البوذية، وبقى بين الأويغوريين وغيرهم من الترك، بعد أن دخلوا في الإسلام فكتبت به الدولة الخاقانية في كشغر (320 - 609هـ) والدولة الجنكيزية، والايلخانية (654 - 744) ودولة آلتون أوردو في قفجاق (621 - 907). وكتبت به بعض الكتب الإسلامية حتى القرن العاشر الهجري. وهذا الخط مشتق من الخط الصْغدي والصغْدي مأخوذ من الآرامية أيضاً، وهو أربعة عشر حرفاً يدل بعضها على أصوات مختلفة. وهو من اللبس والعسر بحيث لا يقاس بالخط العربي أيضاً

فكان من نعم الإسلام أن بدل بهذين الخطين الخط العربي الذي صار خط الأمم الإسلامية جمعاء. ثم الآثار القليلة التي أثرت في الخطين الأورخوني والأويغوري في بقاع ضيقة،

وموضوعات تافهة لا تقاس بما كتب باللغة التركية والحروف العربية في العهد الإسلامي إذ أفاد الترك من الحضارة الإسلامية، ودخلوا في جماعة المسلمين، وتمكن سلطانهم بينهم

والتركية العثمانية التي اختيرت لها الحروف اللاتينية أخيراً لم تعرف في تاريخها غير الحروف العربية، ولم تدوّن إلا في ظل الحضارة الإسلامية بعد سبعة قرون من الهجرة دخل السلاجقة في الإسلام ثم أقاموا دولتهم في القرن الرابع وفتحوا بغداد سنة 447، وامتد سلطانهم على آسيا الغربية من أفغانستان إلى البحر المتوسط. ثم تقسم الخلف ميراث السلف فكان من الدول السلجوقية المتعددة دولة سلاجقة الروم وهي التي نشأت في الأناطول وما يصاقبه

وكان الأدب الفارسي في القرن الخامس قد أزدهر بجانب الأدب العربي، فأخذ السلاجقة حضارة الإسلام باللغتين العربية والفارسية. فكانت العربية لغة العلم عند سلاجقة الروم والفارسية لغة الدواوين. وكان الأدب التركي مقصوراً على العامة، غير مدوّن

ولما نشأت إمارة قرمان بعد منتصف القرن السابع صارت التركية أول مرة لغة الدواوين وكتبت بالحروف العربية
وقد اشتملت هذه التركية المكتوبة على كثير من الكلمات العربية والفارسية

وكانت الكتابة التركية في عهدها الأول تقارب الأسلوب العربي لا تكتب فيها حروف الحركة إلا قليلاً. ثم أثبتت حروف العلة والهاء للدلالة على الحركات دون تعميم. ثم انتهى الأمر في العصر الأخير إلى أن كتبت حروف الحركة في كل كلمة فصارت الكتابة التركية كالكتابة اللاتينية: كل حرف صحيح يليه حرف معتل للدلالة على الحركة فإذا قرأنا مثلاً في ديوان سلطان ولد ابن مولانا جلال الدين الرومي وهو أول ناظم بالتركية العثمانية نجد رسم الكلمات الآتية على هذا النسق: أل (هذا) كُررُ (يرى) بقمز (لا ينظر) كنش (الشمس) ألرُ (يكون) أيقدا (في النوم) أجَر (يطير)، فإذا قرأنا في كتب المتأخرين وجدنا الرسم قد تغير على هذا النسق: أول، كوروو، باقماز، كونش، أولور، أويقوده،
أوجار
وإذا قرأنا في الكتب التي كتبت قبل ثلاثين سنة لا نجد حروف الحركة مثبتة في كل مقطع. فإذا نظرنا في الكتب التي كتبت من بعد وجدنا اطرد حروف الحركات في مقاطع الكلمة. كانت الكلمات الآتية ترسم كما ترى:
تميز (نظيف) آرقداش (أخ) كنيش (واسع) دها (أيضاً) كبى (مثل) قدر (مقدار) دكل (ليس) درين (عميق) كوزل (ظريف)
فصارت بعد كما يأتي:
ته ميز (الهاء علامة الفتحة الخفيفة) أرقاداش، كهنيش داها، كيبى، قادار، ده كيل، ده رين، كوزه ل
وكان يسع الكماليين أن يسيروا على هذه السيرة واصلين حديثهم بقديمهم مبقين على ما دوّن أسلافهم، ولكنهم آثروا، إنفاذا لخطتهم، أن ينبذوا الحروف العربية، وهي الحروف التي يكتب بها مسلمو العالم كافة، ولفقوا هجاء من الألمانية والفرنسية والإيطالية فبلغوا الكمال المطلوب ولحقوا بالسادة الأوروبيين. ولست أقول ما قاله أحد كبراء الفرس لأديب تركي يناظره في الحروف اللاتينية: (إنكم معشر الترك ليس لكم من آدابكم ما تفخرون به فآثرتم أن تسدلوا عليها ستراً من الحروف اللاتينية ولكن لنا من آدابنا ما نفخر به ونحرص على قراءته في كل جيل فلسنا نريد أن نغير كتابتنا).
لست أقول هذا ففي الأدب التركي القديم ما هو جدير بالرعاية، وقد أفتن الترك في تجويد الخط حتى صاروا أئمة فيه وصار لهم من آياته ما يجدر بكل أمة أن تحرص عليه مسألة الحروف اللاتينية ليست فيما أرى ضرورة أو إصلاحاً ولكنها فتنة من فتن تقليد أوربا التي ضربت الشرق عامة والمسلمين خاصة بالذلة والهوان، وقد بلغ الأمر أن يرى بعض الناس أن تكتب اللغة العربية أيضاً بالحروف اللاتينية. فإذا قلت لهم فما تصنعون بأحد عشر حرفاً من الهجاء العربي ليست في الحروف اللاتينية؟ قالوا نضع لها حروف لاتينية بالتركيب أو النقط. فياسبّة الأمم، وعار الأجيال، وموتى النفوس، لماذا تجعلون من أنفسكم واضعين مخترعين في حروف اللاتينية، ولا تكملون ما في حروفكم من نقص، وتصلحون ما بها من عيب؟ جرى الجدال بيني وبين واحد منهم فكان منه الحوار الآتي:
قلت: كيف تكتب، خاشعاً وخاضعاً، بالحروف اللاتينية؟
قال هكذا: , و , فأركب للدلالة على الخاء، وللشين واضع مدا على وأدل على العين بالحرف مفصولاً عما قبله بشولة كما يفعل المستشرقون
قلت فلماذا كل هذا العناء؟ لقد اضطررت أن تنقط وتشكل في الحروف اللاتينية، أترى هذا أيسر وأبين من خاشع وخاضع، قال: لا، ولكن الكلمتين بالخط العربي خاليتان من حروف الحركة
قلت: فضع كسرة تحت الشين والضاد. وهذا حسبك، بل لست في حاجة إلى هذه الكسرة فوزن الكلمة يعين حركتها. قال هذا صحيح في هذا المثال، فما بال الكلمات الأخرى. قلت: صدقت فهلم نتناول الموضوع على عمومه
- ماذا تنقمون من الكتابة العربية؟

- ننقم منها أنها كتابة لا تبين عن الألفاظ، فهذه الصورة (حسن) تقرأ حَسَن، وحُسْن، وحَسُن، وحَسّن، وحُسّن. . . . الخ
- قد كانت كتابتنا أول عهدها غير معجمة ولا مشكوله، مثلاً كانت الجيم والحاء والخاء ترسم بصورة واحدة فأعجم السلف الحروف فامتاز بعضها من بعض، ثم وجدوا الحرف الواحد في اكثر حالاته مبهم الحركة، فشكلوا الحروف فتعينت الحركات، واستبانت الألفاظ، وكان للحروف صور غير صورها الحاضرة، مازال بها الأختراع، والتجميل والتجويد حتى بلغت جمالها الحاضر، وتعددت الخطوط، وجعل لكل مقصد ضرب يواتيه، فكان خط الثلث والنسخ والرقعة وغيرها. فان كنتم يا رجال القرن العشرين أحياء قادرين على الإبداع، أباة آنفين من المحاكاة، وإن تكن عقولكم غير سقيمة، وقرائحكم غير عمقية، فانظروا في كتابتكم، فان رأيتم عيباً فأصلحوه، وأن آنستم نقصاً فأكملوه، ولا تكونوا في عصور العلم ضلالاً، وفي نور القرن العشرين ظلالاً، أدخلوا في الكتابة حروف الحركة إن شئتم، أو افعلوا غير ذلك إن استحسنتم، فأما أن تقولوا كتبت أوربا فنكتب مثلها فذلك ضلال العقول، وهوان النفوس، والموت الذي لا يستره باطن الأرض
- ثم تنسى يا أخي أن اللغة العربية لغة أوزان وصيغ، فليست كل كلمتها في حاجة إلى الشكل، ولو أتسع المجال لأبنت لك أن الكاتب العربي يستطيع أن يكتب سطوراً لا يحتاج فيها إلا إلى شكلات قليلة، وقد ضربت مثلاً من هذا في مقدمة الشاهنامه
- هب ما قلت صواباً، فماذا ترى في شكاوي أصحاب المطابع من كثرة صور الحروف العربية: للحرف صورة في أول الكلمة وأخرى في وسطها وثالثة في آخرها، على حين لا يرى الطابع الأوربي أمامه للحرف إلا صورة واحدة
- بل صورتين صغيرة وكبيرة
- أجل وهذه ميزة أخرى للحروف اللاتينية
- هذه الشكاوى هي شكاوى أصحاب المال من كثرة العمال؛ كل صاحب مطبعة يود أن يديرها عامل واحد، ليأخذ كثيراً ويعطي قليلاً، وأما القارئ فسيان عنده أن يكون الذين هيأوا الجريدة خمسة عمال أو مائة، ثم أخبرني: ما الذي جعل للحروف اللاتينية هذه الميزة؟
- صور هذه الحروف، ثم فصل بعضها عن بعض
- قد كانت الحروف اللاتينية كلها موصولة ولا تزال توصل في كتابة اليد، فلما كانت المطابع أستحسن الأوربيون أن يفصلوا بعضها من بعض، فما الذي يمنعكم أيها المقلدون أن تفصلوا حروفكم فلا يكون للحرف في المطبعة إلا صورة واحدة؟
- هذا يبدوا لي صواباً ولكنه عجيب غريب
- أعجب منه أن نفكر في كتابة لغتنا بالحروف اللاتينية. قد هانت علينا نفوسنا حتى صار التقليد يسيراً قريباً، والاختراع مهما قل عجيباً غريباً
- لا تنسى أن العلوم والمخترعات قربت بين الأمم وطوت المسافات بين أطراف الأرض. والأمم صائرة إلى التوحّد فلماذا لا تكتب لغات الأمم كلها بالحروف اللاتينية؟
- أجل قربت العلوم والمخترعات بين الأمم، ولكن أوربا لا تعرف الأخوة بين الناس، ولا تزال تفرق بينهم بأتفه الأشياء وهي الألوان. والتوحيد الذي تريده أوربا أن تكون هي آكلة ونحن مأكولين. وهذا حديث يضيق عنه مقامنا الآن. وبعد فلماذا يكون توحيد الكتابة بالحروف اللاتينية ولا يكون بالحروف العربية؟ أن أردت أن تمتحن صدق الداعين إلى التوحيد فادعهم إلى استعمال الحروف العربية فستبلغ بهم الكبرياء والازدراء والسخرية والعجب ألا يجيبوك بكلمة. ولن يكون ذلك لما عرفوا من فضل حروفهم على حروفنا، بل
لأن هذه حروفهم وتلك حروفنا. وسيشترك في السخرية من لم ير الحروف العربية قط. ثم هل اتفق الأوربيون على الكتابة بحروف واحدة؟ وهل استعملوا الحروف التي اتفقوا عليها بأسلوب واحد؟ أذكر أنه منذ ثلاث سنين جاء إلى أستاذ كبير في الجامعة المصرية كتاب من جماعة في أوربا يدعونه إلى العمل معهم على تعميم الحروف اللاتينية في العالم، فسألني رأيي فيما يجيبهم به فقلت إن كان لابد أن تجيب فاكتب إليهم أن ابدأوا بكتاباتكم فوحدوها فإذا صار الروسي واليوناني والألماني والفرنسي

والإنكليزي والأسباني الخ يكتبون بحروف واحدة، وأجمعوا في كتابة هذه الحروف على نمط واحد فاكتبوا إلينا لنفكر في الأمر

وبعد، فاللغات يا أخي مهما أحكمت كتابتها، لا تؤخذ من الكتب وحدها بل لابد لها من التلقين. تعرف الكلمة بالسماع ثم تدل الكتابة عليها دلالة تامة أو ناقصة. وكثيراً ما تكون الحروف كالرموز أو العلامات يلمحها الإنسان فيعرف ما وراءها من لفظ قبل أن يكمل قراءتها، ويدرك اللفظ من صورة الحروف مجتمعة بل كأنه يفهم المعاني من النقوش دون توسط الألفاظ. وإذا أسرع القارئ سلط عينية على المكتوب وقصّر لسانه عن مجاراة عينية، ثم يا أخي هل بلغت الحروف اللاتينية التي فتنتم بها درجة الكمال، وبرئت من العيوب؟ ألست ترى الصوت الواحد تدل عليه حروف عدة فصوت الكاف تدل عليه , , والحرف الواحد يدل على أصوات مختلفة فالحرف يلفظ مرة ك وأخرى س، ويكون حيناً س وحيناً ز وهلم جرا

والكتابة الفرنسية، وهي أدق الكتابات الأوربية، فيها عيوب كثيرة فاللفظ الواحد أو الألفاظ المتحدة في الصوت تكتب بصورة مختلفة مثل و , و , و , و , و ' , فالصوت وحده لا يدل على رسم الكلمة. وكم في الفرنسية من حروف تكتب ولا تلفظ أحياناً كما ترى في الكلمات السابقة

وأنت تعرف الكتابة الإنكليزية، ودلالتها على الألفاظ بالجملة لا التفصيل، وكم من حرف فيها يلفظ ولا يكتب وآخر يكتب ولا يلفظ وحسبك مثل و , ولو قرأ قارئ الكلمات الإنكليزية كما تدل عليها حروفها ما فهم عنه أحد، وقل أن تسأل رجلاً أو صبياً إنكليزيا عن أسمه أو أسم الشارع إلا أتبع الاسم بهجائه علماً بأن الصوت لا يدل على الحروف والإمبراطورية الإنكليزية، مع هذا، لم تضمحل بهذه الكتابة، والأساطيل البريطانية لم تصطدم بهذه الحروف وما رأيت مصرياً من العيابين الطعّانين في الحروف العربية جرؤ مرة على عيب الإملاء الإنكليزي أو تنبه إلى عيوبه. وذلك بأن الحروف العربية لا تحميها إمبراطورية ولا أساطيل، نعوذ بالله من ضعف الهمم، وذل الأمم

وإن للحروف العربية لمزايا عظيمة فهي أيسر كتابة. لا تملى على صبيّ كلمة فيخطئ كتابتها إلا الكلمات المهموزة. وهي كذلك أخصر رسماً يستطيع كاتبها أن يساير خطيباً أو مدرساً فيكتب كل ما يقول، وهي في جملتها أوضح من كتابة اليد في اللغات الأوربية. قال لي مستشرق ألماني كبير قد أتقن اللغات العربية والفارسية والتركية، وحذق كثيراً من لغات أوروبا: (ما أشكل علي قط قراءة رسالة عربية وقد أشكل علي وعلى غيري مرات كثيرة قراءة رسائل ألمانية)

هذا إلى ملاءمة الكتابة العربية للعين. قال لي طبيب كبير من أطباء العيون: إن الحروف اللاتينية بكثرة زواياها أشق على البصر من الحروف العربية

إن مجال القول يا صاحبي واسع. وما بكم صعوبة الحروف العربية، ولكن الغرام بمتابعة أوربا، والخجل من التمسك بما أورثكم آباؤكم. ما بكم علة الحروف العربية ولكن علل الذلة والمهانة، واحتقار أنفسكم وتعظيم غيركم. إن المريض يكثر التحدث عن صحته، ويكثر اتهام الأطعمة والأشربة، كلما أحس السقم ظن أن الماء الذي شربه قد أضرّ به، أو أن الطعام الذي طعمه لم يلائمه. فكذلك أنتم تخلعون علل أنفسكم على اللغة أو الكتابة أو غيرهما وإنما الداء الدوي في أنفسكم، والعلة القاتلة في سرائركم

(له بقية)

عبد الوهاب عزام

المؤتمر الثامن للجمعية الطبية المصرية بدمشق

للأستاذ عز الدين التنوخي

كاتب سر المجمع العلمي العربي

مطالب جليلة، ورغائب جميلة، وقلوب كبيرة نبيلة، إلى معارف شبيبة مثقفةٍ، ومدارك كهولةٍ ممحصة، وتجارب شيخوخة محنكة، مع كثيرٍ من الخيرات والبركات، قد حل دمشق أولئك جميعاً بحلول رجال المؤتمر الطبي الثامن فيها

أجل تغيرت بهم في دمشق أحوال المجتمع والحياة، فأصبح مؤتمرهم حديث الأندية وملهج الألسنة، فلم يبق في أحياء الفيحاء من لم يتحدث به من الرجال والنساء؛ وتبدلت كذلك فنادق دمشق بأبهائها وموائدها وبما قام فوق صروحها من خضر الأعلام

المصرية الزاهرة بأنجمها الثلاثة وهلالها خفاقة إلى جانب تلك الأعلام الشامية الزاهية بألوانها الأربعة وجمالها
ويا حبذا يوم نشاهد هذه الأعلام العربية بلغة أبنائها وبلدانها، تقر عيوننا بكثرة أنواعها وألوانها فيتماوج غداً على المؤتمرات العربية في دمشق: العلم المصري والشامي والعراقيّ والحجازي واليماني والبرقي والتونسي والجزائري والمراكشي، وتتمازج فيها لهجات العرب المنتشرة في أقطار هذه الأعلام، فيتألف من مجموعها لحن عربي نديّ يرتفع له حجاب السمع، ويهتز له شغاف القلب
بل قل ما أسعد ذلك اليوم الأغر المحجل الذي نرى فيه للأقطار العربية المتحدة - والقاهرة (وشنطونُها) يومئذ - علماً عربياً واحداً، ونسمع لها فيه نشيدا عربياً واحداً، كما يرى اليوم أبناء العالم الجديد لولاياتهم المتحدة الأمريكية لواءً وطنياً واحداً، ويسمعون في جميع أنحائها نشيداً قومياً واحداً!!
عيدان أظلاّ دمشق واجتمعا للدمشقيين في يوم واحد، وعلى صعيد واحد: عيدُ المولد النبويّ، وعيد المؤتمر الطبيّ، فكأنما اندمجت بذلك ولادة هذه الأمة الدينية الغابرة، بولادتها السياسية والدنيوية الحاضرة! فليس اليوم في الفيحاء إلا قلوب تخفق لذكرى ذلك النبيّ العربي العظيم الذي أحيا من هذه الأمة مواتها، وجمع بعد صدع النوى شتاتها؛ وليس فيها اليوم إلا قلوبٌ طاهرة وعقول ناضجة، تفكر في إحياء هذه الفصحى المحبوبة وإزالة بلبلتها
بتوحيد لغتها العلمية، وإعادة عزتها بجمع كلمة أبنائها؛ وليس فيها كذلك إلا حفلات وولائم متتابعات في قصر أمية والقصر الملكي، وردهة محاضرات الجامعة، وحديقة الأمة الرائعة، ورياض الغوطة الفيحاء، وربى بلودان الشماء
كذلك تبدلت بالمؤتمر الثامن في دمشق لهجة صحافتها، فذهلت بنشر أخباره جريدة (الأيام) عن صراحتها، و (القبس) عن معارضتها و (الجزيرة) عن ميثاقها، و (ألف باء) عن اعتدالها، و (فتى العرب) عن كفاحه، و (الشعب) عن طماحه، و (المضحك المبكي) عن ظريف هزله ومزاحه
إن هذا المؤتمر - وهو دليل يقظة الأمة العربية وبرهانُ رشدها الاجتماعي - ليرمز إلى شعورها بقوتها الكامنة اليوم، وبقدرتها الفاعلة غداً؛ ولذا ورد علي من خبر انعقاده في دمشق ما خفف من بث قلبي الملتاع بتشتت هذه الأمة، والمرتاع لمصيرها المظلم، فشعرت لعمري به شعور الأمل الحالم أغتبط بتوهم الحقيقة، والهائم الحائم على مواقع القطر ابتهج برؤية أمنيته فلمع نور البشر في غرته
ولمَ لا أغتبط - ليت شعري - ولا أبتهج، أو لا تغلبني نشوة الطرب، وبعيني رأيت حسن ذلك الخيال مجسماً، وبأذني سمعت لحن ذلك الوصال مرنماً، في بعض مجامع المؤتمر من عتاب الأحباب على الهجرْ، والأقرباء على الجفاء، وجيرة المنازل والديار، على تناسي حقوق الجوار؛ والجوار - عمرك الله - رحم شابكة وصلة واشجة؟ وكان مما استرقته الأذن من قول أديب شاميّ لطبيب مصري وهو يعاتبه:
- إن لم تنضموا إلينا فضمونا إليكم، فما كان لحواجز الاستعمار أن تقوى على فصم عرى الجوار؛ ألسنا نحن الشاميين نشارك إخواننا المصريين في أفراحهم وأتراحهم؛ أما كنا نفرح بالأمس لسعد، ولفوز سعد، وأنصار سعد؛ ألم ترمض جوانحنا (سيشل) بذكراها، وتقض مضاجعنا (دنشواي) ببلواها؛ أولسنا نشارككم اليوم في نعيم الواحي (الراديو) فنطرب أمثالكم لألحان أم كلثوم وعبد الوهاب، مثلما نساهمكم في العلوم والآداب بسماع الآيات والخطب والمحاضرات؟
أوليس علماؤكم في الأزهر والجامعة علماءنا، وأدباؤكم من الكتاب والشعراء أدباءنا، وتاريخ القطرين الشقيقين يكاد يكون واحداً، ومطالعاتنا اليوم في الكتب والمجلات والصحف المنتشرة، تكاد تكون واحدة أيضاً؟ أولا تعلم أن (الرسالة) يقرأها في دمشقنا (هذه جمهرة العلماء والأدباء من الجنسين العنيف واللطيف على السواء؟
وكان الطبيب المصري يجيبه على أسئلته هذه العذبة الرقيقة بقوله:
- بلى، بلى، ونحن لكم اليوم يا أخي كذلك، وفوق ذلك فهذا الحديث وأمثاله هو من بعض بركات المؤتمر المصري على العرب والعربية معاً. ومن أيمن تلك البركات المأثورة العزم على توحيد المصطلحات العلمية، ففي جلستها الخطيرة بحث الخطباء في تاريخها وطرق وضعها ووسائل توحيدها، وقد أشار كاتب سر المؤتمر الحكيم

الدكتور عبد الواحد الوكيل في فاتحة الجلسة إلى أن الجمعية الطبية المصرية قد اهتمت في جميع مؤتمراتها السابقة بتوحيد المصطلحات الطبية، فكان كل واضع يتعصب لوضعه فخرجنا من مؤتمراتنا كلها بدون فائدة؛ ويجب الآن بعد تكوين المجمع اللغويّ الملكي مع وجود المجع العلمي الشامي أن تخرج هذه القضية من أيدينا إلى المجمعين

وقد شجعت جمعيتنا الدكتور محمد شرف على وضع معجمه وآزرته الحكومة فوزعه على الجمعيات اللغوية في الممالك العربية، واقترحنا أن يجعل أساساً لأعمال المصطلحات الفنية، وأن يضاف إليه في كل طبعة ما يتمحص منها، وما يوضع من الألفاظ الجديدة فيتألف منه على الأيام معجمنا العربي المنشود

ثم بحث الخطباء في طرق الوضع وهي جمة، فذكروا منها قبول الأسماء الأعجمية الواردة على أوزان عربية، وليس في لغتنا ما يدل عليها، وقبول النحت عند الضرورة في الأسماء الأعجمية المركبة، وترجمة الأسماء التي لا يصح تعريبها؛ وفي الأسماء العلمية المركبة من جنس ونوع قد يجب تعريب الجنس، والنوع ذو المعنى مما يجب ترجمته لا تعريبه؛ وأما الأسماء المنسوبة إلى الأعلام والأماكن فلا يجوز غير تعريبها، إلى غير ذلك من الأساليب التي لا يجنح إليها إلا بعد التثبت من أن دواوين اللغة وكتب الطب والعلم لا تشتمل عليها، فإذا ظفرنا بمثل كلمة التعايش لكلمة وقد ذكرها الزمخشري، لم نحتج إلى نحتها أو ترجمتها أو تعريبها

وفي خلال المباحث حدث جدال قليل بين بعض الأطباء في الدفاع عن الأوضاع، لا محل لتفصيله، فانبرى لفصل الجدال بينهم الدكتور محجوب ثابت فرأينا منه خطيباً حلو النادرة،

طلق البادرة، يتدفق في إيراد بيناته وفكاهاته تدفق اليعبوب، فيملا الأسماع والقلوب، ومما قاله:

إن العمل المشوش (المهرجل) لا يثمر أبداً، والجمعيات الطبية العربية - وهي بحمد الله كثيرة في بلاد العرب - لا تثمر ولا تنتج إن لم تعمل كذلك بطريقة علمية منظمة، فلو أن شعبة المصطلحات الفنية في الجمعية الطبية المصرية أخذت مثل كتاب: وقسمت ألفاظه على عدد أعضاء الشعبة، وفي آخر كل شهر يعرضون ما وضعوه على الجمعية مجتمعين، وبعد تمحيصها وتحقيقها، ترسلها الجمعية إلى مجمع اللغة الملكي بمصر ليحكم لها أو عليها، فيعتبر حكمه عدلاً، وقوله فصلاً

لا جرم أن من الأنصاف والحصانة أن تجمع كلمة الأقطار العربية على مجمع مصر الملكي لأنه يمثلها بالأعضاء اللذين اختارهم من علمائها فإذا ما حكم بصحة لفظة فكأنما حكمت بها مجامع العرب كلها، إذ هي ممثلة فيه ومحكمة في ناديه؛ وأما مجامع اللغة في البلاد العربية فتعتبر روافد لمجمع مصر أو مؤتمرها اللغويّ، بما ترسله إليه من الأوضاع الجديدة، وأعضاء المجمع المرسل يبيّنون لإخوانهم في مصر توجيهاتها، وأسباب تعديلها وتفضيلها، وبذلك يكون الإنتاج خصيباً، والرأي على الأغلب مصيباً، وقديماً قيل: المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه، ومجمع اللغة المصري ضعيف بواحده، قويّ بروافده

إن هذا المؤتمر الطّبي الثامن لغزير النفع، كثير الرجع على الأمة العربية، فمن منافعه الجليلة تمهيدهُ السبيل إلى توحيد المصطلحات العلمية، وتمهيده السبيل إلى تعليم الطبّ في المدارس الطبية باللغة العربية وبهما يتمهّد السبيل إلى توحيد مناهج التربية والتعليم في بلاد العرب الذي هو لعمري من أقوى البواعث على توحيد الثقافة العربية المؤدي إلى توحيد الأمة العربية، وإلى سيادتها في العالم بتعارفها وتآلفها وتحالفها:

فنحن في الشرق والفُصحى بنور رحمٍ ... ونحن في الجُرح والآلام إخوانُ

عز الدين التنوخي

كاتب سر المجتمع العلمي

الدرامة في الأدب الإنجليزي

المذهب الواقعي وفن الدرامة

بقلم محمد رشاد رشدي

تتمه

الدرامة الإنجليزية في عهد (دريدق)

من أهم ما يميز هذا العصر - منتصف وأواخر القرن السابع عشر - انتشار عادة غريبة، هي محاولة حل كل شيء في الوجود بواسطة العقل والتفكير؛ وقد كان (بوالو) على حق حينما قال: (إن ديكارت قد ذبح الشعر) - على أن هذه العادة نشأت نتيجة لحضارة هذا العصر التي كانت قائمة على أكتاف الطبقة الوسطى - ونحن لا نجد عصراً من عصور إنجلترا كان نصيب الفلاح فيه أقل مما كان في ذلك العصر؛ مع أن مادة الفن الغزيرة تأتى دائماً من الفلاح حيث يعيش الرجل جنباً إلى جنب مع الطبيعة، ويواجه صعابها وشؤونها كل ساعة وكل يوم فيتحايل على فهمها وإدراك أسرارها لا بالعلم والتفكير بل بالدين والفن

في هذا العصر لبست الدرامة ثوب النثر وأخذت (الكوميدية) تنقد عادات الناس وأحوالهم، فهي تارة ساخرة وتارة مهذبة ناصحة، وأخرى مستهترة متهتكة - على أن حوادثها وشخصياتها كانت كثيرة المطابقة للواقع، حتى أن بعض الكتاب كان يبنى قصصه بناء تاماً على حوادث شخصية وقعت له أو لمن يعرفهم - وإن كان ثمة شيء ينقص من واقعية هذه (الكوميدية) فهو أن الكاتب كان كثير الحضور والظهور في قصته - فهو يكاد يكون دائم الحديث على ألسنة أبطاله، إما ناصحاً أو متفكهاً أو ناقداً أو جاعلاً هؤلاء الأبطال الذين لا يمتون للشعر بسبب - وللحياة اليومية بكل سبب - يتحدثون بلغة هي أبعد ما تكون عن لغة الحديث العادية. أما (التراجيدية) فقد اتجهت اتجاهاً آخر كان فيه القضاء عليها، فباتت تصور عالماً كله بطولة وحب وشجاعة، وأضحى أبطالها آلات تتغنى بالفضيلة والطهر والمروءة في كلام موزون مقفى ثقيل على الأذن لا مرونة فيه ولا عبقرية؛ وإنما كان هذا التصوير الخاطئ للحياة رد فعل للجو الإباحي المستهتر الذي كان يعيش فيه شعراء العصر وطبقته العليا - كما كانت الفضيلة والبطولة مثل الفروسية الأعلى في القرون الوسطى - رد فعل لخلو الحياة في ذلك العصر خلواً يكاد يكون تاماً من كل ما هو فاضل بريء

نهضة الدرامة في القرن التاسع عشر:

كانت حياة المسرح الإنجليزي في القرن الثامن عشر حياة خاملة لا نشاط فيها ولا جدة، ولو أن نجماً أو نجمين سطعا في سمائه ثم أفلا - وأعني بهما (شريدان) و (جولد سمث). والآن ونحن نريد أن نعالج نهضة القرن الفائت الحديثة يجدر بنا أن نذكر شيئاً عن كل من الاتباعية (الكلاسزم) مذهب العهد المنقرض، والإبتداعية (الرومانتسزم) مذهب العهد الناهض الجديد. والحق أن كلا من المذهبين ينشأ عن وجهة نظر خاصة نحو الطبيعة البشرية. (فالاتباعية) تعتبر الإنسان حيواناً حقيراً بطبيعته، وتعتبر أنه لا يستطيع أن يرقى وينهض إلا بالطاعة وحكم النفس والعمل الدائم. ومن هذا كانت الطاعة وضبط النفس أظهر مميزات هذا المذهب، وأنت تجدها تتجلى في الفن (الاتباعي) في دقة الأشكال والأوضاع، وفي صقلها صقلاً تاماً، ثم في خلوه من كل ما من شأنه التطرف والعنف. أما الإبتداعية فتعتبر الإنسان نبيلاً بطبيعته، غير أن الأوضاع والأنظمة التي وضعها لنفسه هي التي حطت من قيمته وجعلته ذليلاً ضعيفاً. ومثل هذه الأنظمة المجتمع نفسه - الأخلاق - والقانون وغيرها - وإن عبارة (روسو) الافتتاحية في كتابه العقد الاجتماعي: (الإنسان حر بطبيعته ولكنه يجد نفسه مكبلاً بالقيود أينما كان) هي أول تعبير صادق (للابتداعية) وهي تتجلى في الفن في نبذ متعمد لكل القواعد والتعاريف، وفي الاعتماد اعتماداً تاماً على قوة تعبير الفنان تعبيراً لا يقيده شكل ولا تحده قاعدة - فإن أراد الفنان (الابتداعى) أن يعالج الطبيعة لم يكن محتاجاً إلى الفلسفة تقوده وتهديه - كما كان يفعل شعراء وكتاب القرنين السابع والثامن عشر، بل إن عليه أن يلاحظ ظواهرها فقط، وأن يدون ملاحظاته دون تعديل ولا تهذيب ومن هذا يتضح قرب المذهب (الابتداعي) من المذهب الواقعي - أعني اتجاه (الابتداعية) اتجاهاً واقعياً قوياً بطبيعتها - واتصالها أساسياً بالحقيقة والواقع. وإن شعر الشاعر الإنجليزي (وردسورث) ونظريته في الأسلوب الشعري - أن يكون خليطاً من الأساليب والألفاظ التي يتحدث بها الناس في حياتهم العادية - لشاهد على ذلك ومما يشاهد في الدرامة في أواخر القرن التاسع عشر نبذ بعض كتابها - عن عقيدة وعمد كل ما هو شعري نبذاً تاماً كاملاً. ولقد نشأ هذا عن رغبة أصحاب المذهب الجديد في - إدخال طرق البحث العلمية في الأدب، إذ يجب أن تكون الملاحظة دقيقة لا تحيز فيها

كما يجب أن يكون الملاحظ مختفياً لا أثر لوجهة نظره الخاصة، بل يدوّن كل ما يلاحظه تدويناً صادقاً واضحاً. وقد كتب (زولا) يقول: (لقد ترك الكيميائيون اليوم البحث عن الذهب - على أنهم لو اهتدوا يوماً إلى صنعه، فسيكون دليلهم البحث العلمي الجديد، وإني أشبه نفسي بهم - فأنا أكدّوا وأبحث محولاً إتمام الطريقة الحديثة التي ستهدينا ولا ريب شيئاً فشيئاً إلى الحقيقة كاملة)؛ على أن (زولا) نفسه كان يدرك أن الدرامة لأجل أن تكون فناً، يجب أن تجمع عناصر أخرى غير عناصر العلم. وهو يذهب في كتابة أخرى له إلى أن للواقعية نفسها لوناً شعرياً فنياً لا يستطيع أحد إنكاره، إذ يقول: (من يستطيع أن ينكر أن في حجرة العامل الفقير شعراً أكثر مما في قصور التاريخ جميعاً؟)

ومن ظواهر هذه الواقعية العلمية التي ظلت تسود الدرامة منذ نهضتها في أواخر القرن الماضي إلى عهدنا الحالي ظاهرة التشاؤم والانقباض. والحق أن الواقع والتشاؤم يسيران دائماً جنباً إلى جنب، فالعقل الإنساني يميل إلى صبغ ما يخشى حدوثه بصبغة الحقيقة، وما يرجوه وما يأمله بصبغة الحلم والخيال؛ ولقد كانت آلهة الإنسان الفطري - وقد كان يخافها كل الخوف - أقوى في مخيلته وأوضح شكلاً من حوادث حياته اليومية

أقطاب النهضة الحديثة: أنتوق تشيكوف

تؤكد شخصية (تشيكوف) وجو مسرحياته الخاص وأسلوبها أنه أول الكتاب الحديثين الذي حقق المثل الأعلى للواقية؛ فتشاؤمه ونظرته الخاصة نحو الحياة تبدو كأنها ليست نظرة شخصية خاصة بل نظرة أهل عصره العامة - نظرة الروسي البائس الفقير الذي كان يعيش في روسيا في القرن الماضي. فأنت لا تجد (لتشيكوف) دعاية خاصة يدعو بها أو عقيدة يدافع عنها، بل هو يصور الحياة كما يراها، هادئاً قابعاً مختفياً وراء صورته. . .

هنريك ابسن:

كذلك مسرحيات هذا الكتاب النرويجي هي مثل أعلى للواقعية الحديثة؛ ولو أنها تختلف كثيراً عن كتابات (تشيكوف)، ولقد تبدو قصصه - لأول نظرة - قصصاً تعالج شئوناً اجتماعية مثل الزواج وتحرير المرأة وغير ذلك؛ ولقد يتبادر إلى ذهن القارئ أنه بزوال هذه الشؤون وحلها ستزول قيمة القصص وتقل أهميتها. على أن هذا الزعم خاطئ، فروح (إبسن) ليست بروح المصلح الاجتماعي فحسب، بل هي قبل كل شيء روح شاعر كان إذا ما فكر في مشكلة اجتماعية ملكت عليه كل حواسه فأصبح لا يرى للعيش قيمة إذا هو لم يهتد إلى حلها وإزالة خطرها

ومسرحيات (برنارد شو) تعالج هي الأخرى موضوعات اجتماعية؛ على أن الفرق بين الكاتبين عظيم، فمعالجة (شو) لموضاعته هي معالجة علمية بحتة، أعني أنها لا تهمه شخصياً بل اجتماعياً - أما مع (إبسن) فهي كما قدمت موضوعات شخصية قبل أن تكون اجتماعية أو عالمية - موضوعات تهمه مباشرة كأنما كان يتعلق بها كيانه ووجوده. وقد كتب (إبسن) مرة يقول: (كل ما أكتبه له علاقة وطيدة بكل ما أحيا خلاله؛ وفي كل قصة أو قصيدة أكتبها أبغي تحرير نفسي وصفاءها). ومن الجلي أن هذا يختلف كثيراً عن تفكير الكاتب الايرلندي الذي يهمه تحرير إنجلترا قبل تحرير نفسه هو؛ وقد كان تحرير النرويج يهم (إبسن) أيضاً، على أن الأهمية لم تأت مباشرة، بل أتت عن طريق نفسه وروحه. ولقد يبدو من حديثنا هذا أن مسرح (شو) أكثر مطابقة للواقع وللروح العلمية الجديدة من مسرح (إبسن)، على أن هذا خطأ وعكسه صحيح. والسبب في ذلك هو أن الناس يختلفون في آرائهم أكثر مما يختلفون في مشاعرهم واحساساتهم - (فبرنارد شو) الذي يعتمد اعتماداً كلياً على الفكرة والرأي، والذي يعيب مسرحياته من الجهة الواقعية كثرة ظهور المؤلف في القصة - سيهرم ويذوي عندما تهرم الموضوعات التي يعالجها وتموت - أما (إبسن) الذي لا يعتمد على الفكرة اعتماد (شو)، والذي لا يجعل من أبطال مسرحه ألاعيب ودمى لا قيمة لها إلا إظهار الفكرة والدعاية لها، بل يجعل منها أشخاصاً آدميين نافذاً إلى أعماق نفوسهم - مظهراً منها ما قد خفى ومضيئاً ما قد أظلم أو قتم - فسيظل حياً ما دام الإنسان والنفس البشرية حية على ما هي عليه

ويرينا (إبسن) أن أعلى أنواع الواقعية في الدرامة كما في كل فن آخر - إنما يعتمد

على الخيال القوى الوثاب الذي يستطيع أن يعالج مسائله الشخصية معالجة يفهمها الجميع وتصل إلى كل القلوب حتى لقد تبدو لها وكأنها مسائلها هي لا مسائل الشاعر، ونبضاتها
هي قد سجلت على الورق لا نبضات الكاتب النرويجي أو الروسي أو الإنجليزي؛ وعلى هذا ففي معنى أدق مما كان يقصده الفيلسوف الإغريقي (أرسطو) تكون شخصيات مثل هذه الدرامة (مثلنا تماماً)
فليست الواقعية وليدة بحث علمي أو مذهب أو عصر خاص، بل هي جزء لا ينفصل عن الشاعرية الفذة والخيال القوي الذي يصور لك ما يرسمه تصويراً حياً قوياً، يجعلك تراه وتؤمن به وتشترك فيه حساً وعاطفة وفكراً
محمد رشاد رشدي
بكالوريوس بامتياز في الأدب الإنجليزي
شاعرنا العالمي أبو العتاهية - 7
للأستاذ عبد المتعال الصعيدي
ومما يدل على أن أبا العتاهية كان يحمل نفسه من أسباب اللهو ما ليس من سجيتها في الزهد لأغراض له في ذلك - ما رواه صاحب الأغاني قال: حدثني أحمد بن عبيد الله بن عمار. قال حدثني أبن أبي الدنيا قال حدثني الحسين بن عبد ربه قال حدثني علي بن عبيدة الريحاني قال حدثني أبو الشمقمق أنه رأى أبا العتاهية يحمل زاملة المحنثين، فقلت له: أمثلك يضع نفسه هذا الموضع مع سنك وشعرك وقدرك؟ فقال له: أريد أن أتعلم كيادهم، وأتحفظ كلامهم
وهو في أخذه بما كان يأمره به الرشيد منه ليتقي به حبسه وسجنه إنما كان يأخذ بالتقية التي يأخذ بها الشيعة، وقد كان على ما سيأتي من رجالهم، فجرى بذلك مع الرشيد كما جرى به مع الهادي والمهدي، وكان إذا خرج من سجنه، وجرى على ما يهواه منه، مضى معه كأن لم يكن هناك شيء يخيفه منه في دخيلة نفسه ومدحه بشعره أحسن مدح، وأخذ عليه منه جزيل صلاته وجوائزه، حتى إذا غلبته نفسه نبا عليه، وأخذ في زهده ونسكه، وأخذ الرشيد في الغضب عليه وسجنه وحبسه، وأبو العتاهية رابح في الحالتن، قاض لنفسه غرضها من مال العباسيين، ولمذهبه السياسي الذي سنشرحه غرضه من ذم دنياهم، والنعي على ما في دولتهم من فساد ديني وسياسي واجتماعي
وقد أخبر أبن أبي العتاهية أن الرشيد لما أطلق أباه من الحبس لزم بيته وقطع الناس، فذكره الرشيد فعرف خبره، فقال: قولوا له صرت زير نساء، وحلْس بيت! فكتب إليه أبو العتاهية:
بَرِمتُ بالناس وأخلاقهم ... فصرت أستأنس بالوْحدَه
ما أكثر الناس لعمري وما ... أقلهم في منتهى العدَّهِ
ثم قال: لا ينبغي أن يمضي شعر إلى أمير المؤمنين ليس فيه مدح له، فقرن هذين البيتين بأربعة أبيات مدحه فيها وهي:
عاد لي من ذكره نَصَبُ ... فدموعُ العين تنسكبُ
وكذاك الحبُّ صاحبهُ ... يعتريه الهمُّ والوَصَبُ
خَيرُ من يُرْجىَ ومن يهَبُ ... مَلِكٌ دانت له العرب
وحقيق أن يُدَانَ له ... من أبوه للنبي أب
ولما عقد الرشيد ولاية العهد لبنيه الثلاثة: الأمين والمأمون والمؤتمن، قال أبو العتاهية:
رحَلْتُ عن الرّبع المحيل قَعودى ... إلى ذي زُحُوفٍ جمّةٍ وجنود
وراع يراعي الليل في حفظ أمة ... يدافع عنها الشر غير رَقود
بألوية جبريلُ يقدم أهلها ... ورايات نصر حوله وبُنُود
بَحَاَفيَ عن الدنيا وأيقن أنها ... مفارقةٌ لبست بدار خلود
وشدُّ عرى الإسلام منه بفتية ... ثلاثة أملاك وُلاةِ عهود
هُمُ خير أولاد لهم خير والد ... له خير آباء مضت وجدود
بنو المصطفى هارون حول سريره ... فَخيرُ قيامِ حوله وَقُعود
تقلّب ألَحاظَ المهابة بينهم ... عُيُونُ ظباء في قلوب أسود
خدودُهمُ شَمْسٌ أتت في أهلة ... تبدت لراءٍ في نجوم سُعُود

فوصله الرشيد بصلة ما وصل مثلها شاعراً قط
ثم أنقض عهد الرشيد وجاء بعده عهد أبنه الأمين، وحصل ما حصل من الخلاف بينه وبين المأمون، فاضطرب أمر الدولة، ووجد أبو العتاهية من ذلك ما يساعده على المضي في سبيله من الزهد، واستخدام شعره في دعوة الأمة إليه، وتهوين أمر الدنيا التي فتنوا بها عن الآخرة، ولم يعد يقول الشعر في التغزل والمجون وما إليهما؛ ولكن لم يقطع صلته بملوك العباسيين ولم يتحرج من مدحهم الحين بعد الحين طمعاً في أموالهم. وسنتكلم بعد في أمر ذلك الزهد
حدث عكرمة عن شيخ له من أهل الكوفة قال: دخلت مسجد المدنية ببغداد بعد أن بويع الأمين محمد بسنة فإذا شيخ عليه جماعة وهو ينشد:
لهفي على وَرَقِ الشباب ... وغصونه الخُضْرِ الرِّطابِ
ذهب الشَباب وبان عني ... غير مُنْتَظَرِ الإيابَ
فلأبكينّ على الشبا ... ب وَطيبِ أيام التصابي
ولأبكينّ من البِلىَ ... ولأبكينّ من الخِضَابِ
إني لآملُ أن أَخَلَّ ... دَ والمنية في طِلاَبي
قال فجعل ينشدها وإن دموعها لتسيل على خديه، فلما رأيت ذلك لم أصبر أن ملت فكتبتها، وسألت عن الشيخ، فقيل لي: هو أبو العتاهية
وحدث حبيب بن الجهم النميري قال: حضرت الفضل بن الربيع متنجزاً جائزتي وفرضي، فلم يدخل عليه أحد قبلي، فإذا عون حاجبه قد جاء فقال: هذا أبو العتاهية يسلم عليك، وقد قدم من مكة، فقال: أعفني منه الساعة يشغلني عن ركوبي، فخرج إليه عون فقال: إنه على الركوب إلى أمير المؤمنين، فأخرج من كمه نعلاً عليها شراك مكتوب عليه:
نعلٌ بعثت بها ليلبسها ... قرْمٌ بها يمشي إلى المجد
لو كان يصلح أن أشرِّكها ... خدِّي جعلت شراكها خدي
ثم قال لعون قل له أن أبا العتاهية أهداها إليك، فدخل بها عليه فقال له احملها معنا، فلما دخل على الأمين أخبره بها، وأنه رأى أن أمير المؤمنين أولى بلبسها لما وصف به لا بسها، فقرأ الأمين البيتين فقال: أجاد والله وما سبقه إلى هذا المعنى أحد، هبوا له عشرة آلاف درهم، فأخرجت والله في بدرة وهو راكب على حماره، فقبضها وأنصرف ولما تولى المأمون بعد أخيه الأمين حسن حال أبي العتاهية في عهده، وكان المأمون أحسن حالاً من الملوك العباسيين قبله، فقرب أبا العتاهية منه، وأكثر من بره وصلته والإحسان إليه بما لم يفعل مثله معه سلفه؛ ومن ذلك أن أبا العتاهية كان يحج كل سنة، فإذا قدم أهدى إلى المأمون برداً ومطرفاً ونعلاً سوداء ومساويك أراك، فيبعث إليه بعشرين ألف درهم
ودخل عليه مرة فأنشده:
ما أحسن الدنيا وإقبالَها ... إذا أطاع الله من نالها
من لم يؤاس الناس من فضلها ... عرّض للأدبار إقبالها
فقال له المأمون: ما أجود البيت الأول! فأما الثاني فما صنعت فيه شيئاً، الدنيا تدبر عمن واسى منها أو ضن بها، وإنما توجب السماحة بها الأجر، والضن بها الوزر. فقال: صدقت يا أمير المؤمنين، أهل الفضل أولى بالفضل، وأهل النقص أولى بالنقص، فأمر المأمون بأن يدفع إليه عشرة آلاف درهم لاعترافه بالحق. فلما كان بعد أيام عاد فأنشده:
كم غافل أوْدىَ به الموت ... لم يأخذ الأهْبة للفوت
من لم تزلْ نعمته قبلهُ ... زال من النعمة بالموت
فقال له: أحسنت، الآن طببت المعنى، وأمر له بعشرين ألف درهم
فإذا رأينا المأمون بعد ذلك يزهد في هذا الملك العظيم لأهله من بني العباس، ويؤثر به من بعده الإمام عليا الرضى من آل علي بن أبى طالب رضى الله عنه، فيزوجه بنته أم حبيب، ويجعله ولي عهده، ويضرب اسمه على الدينار والدرهم، فان لشعر أبي العتاهية أعظم الأثر في ذلك؛ وهذه هي النتيجة والثمرة التي جاهد به من أجلها، فقد سعى في تزهيد الناس في كل أسباب الدنيا والتكالب عليها، ليزهد العباسيين في التكالب على هذا الملك الذي يملكونه منها، ويعودوا به إلى سيرته الأولى، فيتولاه أصلح الناس له،

ولا يستأثر به أحد على غيره؛ وهذا هو ما فعله المأمون مع علي الرضا، فقد كان بمدينة مرو وفيها علي، فاستحضر أولاد العباس الرجال منهم والنساء، وكان عددهم ثلاثة وثلاثين ألفاً ما بين الكبار والصغار، وأستدعى علياً فأنزله أحسن منزلة، وجمع خواص الأولياء، وأخبرهم أنه نظر في أولاد العباس وأولاد علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، فلم يجد في وقته أحد أفضل ولا أحق بالأمر من علي الرضا، فبايعه وأمر بإزالة السواد من اللباس والأعلام؛ وقد قام بسبب ذلك تلك الفتنة المعروفة بينه وبين عمه إبراهيم بن المهدي، فقضت على تلك الفكرة الصالحة، ومضى العباسيون في أمرهم إلى أن ملكهم خولهم وجنودهم من الترك وغيرهم، وانتهى أمرهم بتلك النكبة التي انتهى بها، ولا يعلم إلا الله ماذا كان يعود من الخير على المسلمين لو تم للمأمون من ذلك ما أراده، ورجع أمر المسلمين إلى ما كانوا عليه من الشورى في عهد النبوة والخلافة

وقد بلغت سن أبي العتاهية في عهد المأمون تسعين سنة، وأدركه أجله في تلك السن سنة 209هـ ـ وقيل سنة 211هـ ـ.

وروى محمد بن أبي العتاهية قال: آخر شعر قاله أبي في مرضه الذي مات فيه:

إلهي لا تعذبني فأني ... مقرٌّ بالذي قد كان مني
فما لي حيلة إلا رجائي ... لعفوك إن عفوتَ وحسن ظني
وكم من زلة لي في الخطايا ... وأنت عليّ ذو فضل ومنِّ
إذا فكرتُ في ندمى عليها ... عضضتُ أناملي وقرعتُ سني
أجَنُّ بزهرة الدنيا جنوناً ... وأقطع طول عمري بالتمني
ولو أني صدقتُ الزهد عنها ... قلبتُ لأهلها ظهر المجنِّ
يظن الناس بي خيراً وإني ... لشر الخلق إن لم تعف عني

ثم أمر أن يكتب على قبره

أذْن حّي تسمعي ... أسمعي ثم عي وَعي
أنا رهنٌ بمضجعي ... فاحذري مثل مصرعي
عشت تسعين حجة ... أسلمتني لمضجعي
كم ترى الحيّ ثابتاً ... في ديار التزعزع
ليس زادٌ سوى التقى ... فخذي منه أوْ دعي

عبد المتعال الصعيدي

محاورات أفلاطون - 29

الحوار الثالث

فيدون أو خلود الروح

ترجمة الأستاذ زكي نجيب محمود

تتمة الحوار

فهذه الأنهار عديدة وقوية ومنوعة، منها أربعة رئيسية أعظمها وأقصاها نحو الخارج هو ذلك المسمى بالاقيانوس الذي يجرى في دائرة حول الأرض، ويسير في الاتجاه المضاد له نهر أشيرون يجرى تحت الأرض في ربوع جدباء حتى يصيب في بحيرة أشيروزيا هذه هي البحيرة التي تذهب إلى شواطئها أرواح الدهماء حين يدركهم الموت، حيث يلبثون أجلاً مضروباً، يكون طويلاً لبعضها قصيراً لبعضها الآخر، ثم تعود ثانية لتحل في جسوم الحيوان. وينبع النهر الثالث فيما بين ذينك النهرين، وهو يصب على مقربة من منبعه في منطقة شاسعة من النار، حيث يكوّن بحيرة أوسع من البحر الأبيض المتوسط، يغلي فيها الماء والطين، ثم يخرج منها عكراً مليئاً بالوحل، فيدور حول الأرض حتى يبلغ فيما يبلغ من مواضع أطراف بحيرة أشيروزيا، لكنه لا يختلط بمائها، وبعد أن يتحوى في عدة ثبايا حول الأرض، يغوص إلى جهنم أدنى مما كان مستوي. هذا هو نهر بيرفليجثون - كما يسمى - الذي يقذف في كل مكان بفوارات من النار. ويخرج النهر الرابع في الجهة المقابلة، ويسقط أول ما يسقط في منطقة همجية متوحشة، تصطبغ كلها باللون الأزرق القاتم الذي يشبه حجر اللازورد، وهذا النهر هو ما يسمى نهر ستيجيا وهو يصب في بحيرة ستكس التي يكوّنها، وبعد أن يصب في البحيرة ويستمد لمائه قوى عجيبة، يجري تحت الأرض، دائراً حولها في اتجاه يضاد نهر بيرفليجثون، ويلتقي به في بحيرة أشيروزيا من الجهة المقابلة، ولا يختلط ماء هذا

النهر أيضاً بغيره، بل يجري في دائرة ويتدفق في جهنم، مقابلاً لنهر بيرفليجثون ويسمى هذا النهر كوكيتوس كما يقول الشاعر
تلك هي طبيعة العالم الآخر، فلا يكاد الموتى يصلون إلى حيث تحملهم شياطينهم وحداناً حتى يقضي في أمرهم بادئ ذي بدء، إن كانوا أنفقوا الحياة في الخير والتقوى أم لا، فمن
ظهر منهم أن حياتهم لم تكن لا إلى الخير ولا إلى الشر، فانهم يذهبون إلى نهر أشيرون، ويركبون ما يصادفونه من وسائل النقل، فيُحملون فيها إلى البحيرة حيث يقيمون ويطهرون من أوزارهم ويعانون جزاء ما أساءوا به للناس من أخطاء، ثم يغتفر لهم وينالون جزاء وفاقاً بما قدمت أيديهم من خير. أما أولئك الذين لا يرجى لهم إصلاح، فيما يظهر، لفداحة ما أجرموا، أولئك الذين أتوا من الآثام المنكرة شيئاً كثيراً، كتدنيس المعابد وإزهاق الأنفس إزهاقاً خبيثاً عنيفاً أو ما أشبه ذلك - أولئك يلقى بهم في جهنم لا يخرجون منها أبداً، فهي لهم أنسب مصير. أما هؤلاء الذين أجرموا أجراماً لا يجل عن العفو على هوله - أولئك الذين قسوا على والد أو والدة مثلاً وهم في سورة من الغضب ثم أخذهم الندم مدى ما بقى من حياتهم، أو الذين قتلوا نفساً مدفوعين بظروف تخفف من جرمهم - هؤلاء يغمسون في جهنم، ولزام عليهم أن يصلوا عذابها حولاً، وفي نهايته تقذف بهم الموجة: أما قاتل النفس فتقذف به إلى مجرى نهر كوكيتس، وأما قتلة الآباء والأمهات فإلى نهر بيرفليجيثون - فيحملون إلى بحيرة أشيروزيا حيث يرفعون عقائرهم صائحين بضحاياهم القتلى، أو بمن نالتهم منهم إساءة، عسى أن تأخذهم بهم رحمة فيتقبلوهم ويسمحوا لهم بالخروج من النهر إلى البحيرة. فان نالتهم الرحمة من أولئك، خرجوا ونجوا من عذابهم، وأن لم يرحموهم حملوا إلى جهنم مرة أخرى، ومنها إلى الأنهار، وهكذا دواليك حتى يظفروا ممن أساءوا إليهم بالرأفة، فهكذا قضى عليهم قضاتهم. أما من امتازت حياتهم بالتقوى، فأولئك يطلق سراحهم من هذا السجن الأرضي، فينطلقون إلى عليين حيث يقيمون في مقامهم الطاهر ويعيشون على تلك الأرض وهي أنقى؛ وأما أولئك الذين طهروا أنفسهم حقاً بالفلسفة فهم يعيشون منذ الآن متحللين من أجسادهم في منازل أجمل من تلك، يعجز عنها الوصف ويضيق الوقت أن أحدثكم عنها
إذن ياسمياس، وقد رأيت هذه الأشياء كلها، فماذا ينبغي لنا ألا نفعله لكي نظفر بالفضيلة والحكمة في هذه الحياة؟ ألا إن الجزاء لجميل، والأمل لعظيم
لست أريد أن أقطع بصدق الوصف الذي قدمته عن الروح ومنازلها - فما ينبغي لرجل ذي فطنة أن يقطع بهذا، ولكنه في رأيي حقيق، وقد أتضح خلود الروح، أن يجازف بالظن، لا خاطئاً فيه ولا عابثاً، أن يكون الصواب شيئاً كهذا، وأنه منه لظن عظيم، ولابد له أن
يسري عن نفسه بمثل هذه الكلمات، فمن اجلها أطلت حكايتي، ولهذا أوصيكم ألا يأخذ أحد على روحه الأسى، مادام قد طرح زينة الجسد ولذائده، واعتبرها غريبة عنه، بل هي أدنى إلى إيذائه بما تجر وراءها من أثر، ومادام في هذه الحياة قد تعقب لذة المعرفة، إلا أن أولئك الذين يزينون أرواحهم بلآلئها الصحيحة، وهي: الاعتدال والعدل والشجاعة والنبل والحق - أولئك تكون أرواحهم، إذا ما ازينت بتلك اللآلئ، مهيأة للرحيل إلى العالم السفلي حين يدركها الموت. فأنتم، أي سمياس وسيبيس، ويا سائر الرجال، سترحلون في وقت قريب أو بعيد. أما أنا، فهاهو ذا يناديني صوت القدر على حد قول شاعر المأساة، ولابد أن أجرع السم عما قريب، ويجملُ بي فيما أظن أن أذهب أولا إلى الحمّام حتى لا يشق على الناس غسلُ جثماني بعد موتي
فلما أن فرغ من الحديث، قال كريتون: أعندك ما تشير علينا به يا سقراط؟ ألديك ما تقوله عن أطفالك، أو عن أي شيء آخر نستطيع أن نعينك في أمره؟
فقال: ليس عندي شيء بعينه: غير أني أحب لكم، كما كنت أحدثكم دائماً، أن تنظروا في أنفسكم، فذلك فضل تستطيعون أن تواصلوا أداءه من أجلي، وهو أيضاً فضل مني لكم. ولا ينبغي لكم أن تكونوا أدعياء فيما تقولون، لأنكم لو جهلتم أنفسكم وصدقتم عما أوصيتكم به، وليست هذه أول مرة أوصيكم فيها، فلن تجدي عليكم حماسة الادعاء شيئاً
قال كريتون: سنبذل جهدنا، ولكن كيف تريدنا أن نواريك الثرى؟

على أي وجه تشاءون، غير أنه لابد لكم أن تمسكوا بي، وان تحذروا فلا ألوذ منكم بالفرار. ثم التفت إلينا وأضاف باسماً: لا أستطيع أن أقنع كريتون أنني سقراط ذاته الذي كان يتحدث ويوجه الحوار، فهو يحسبني سقراط الآخر الذي سيشهده بعد حين جثة هامدة - وهو يسائل: ماذا عسى دفني أن يكون؟ مع أني قد أفضت في الحديث محاولاً إقامة الدليل على أني مخلّفكم حين أجرع السم، حيث أتوجه إلى لذائذ أصحاب النعيم - ويظهر أنه لم يكن لحديثي هذا الذي سرّيت به عن أنفسكم وعن نفسي، أثر في كريتون، لذلك أريدكم أن تكونوا لي الآن عنده كفلاء، كما كان هو كفيلي عند المحاكمة: على أن يختلف وعدكم عما وعد، فقد كان كفل للقضاة أني سابقى، ولكن عليكم أن تكفلوا له غير باق، بل إني ظاعن راحل، فتقل بهذا لوعته عند موتي، ولا يحزنه أن يرى جثماني يحترق أو يهال

عليه التراب. إني لا أحب له أن يتحسر على جدي العاثر، بأن يرتاع لدفني، فتأخذه الحيرة: على هذا النحو نكفن سقراط، أو هكذا نشيعه إلى القبر أو نواريه التراب. إن الأقوال الباطلة ليست شراً في ذاتها فحسب، بل إنها لتصيب الروح بشرها. لا تحزن إذن، أي عزيزي كريتون، وقل إنك لا تقبر منى إلا الجثمان، فاقبره على النحو الذي جرى به العرف، وكما تفضل أن يكون

ولما فرغ من هذه العبارة، نهض ودخل غرفة الحمام، يصحبه كريتون، الذي أشار إلينا بأن ننتظر، فانتظرنا نتحدث ونفكر في أمر الحوار وفي هول المصاب. لقد كنا كمن ثكل في أبيه، وأوشكنا أن نقضي ما بقي من أيامنا كالأيتام، فلما تم اغتساله جيء له بأبنائه - (وكانوا طفلين صغيرين ويافعاً) كما وفدت نساء أسرته، فحادثهن وأوصاهن ببعض نصحه، على مسمع من كريتون، ثم صرفهن وعاد إلينا

هاقد دنت ساعة الغروب، فقد قضى داخل الحمام وقتاً طويلاً، وعاد بعد اغتساله فجلس إلينا، ولكنا لم نفضْ في الحديث، وما هي إلا أن جاء السجان، وهو خادم الأحد عشر، ووقف إلى جانبه وقال: لست أتهمك يا سقراط بما عهدته في غيرك من الناس، من سورة الغضب، فقد كانوا يثورون ويصيحون في وجهي حينما آمرهم باجتراع السم، ولم أكن إلا صادعاً بأمر أولي الأمر. أما أنت فقد رأيتك أنبل وأرق وأفضل ممن جاءوا قبلك إلى هذا المكان، فليس يخامرني شك أنك لن تنقم عليّ، فليس الذنب ذنبي، كما تعلم، إنما جريرة سواي. وبعد، فوداعاً، وحاول أن تحتمل راضياً ما ليس من وقوعه بد، وإنك لعليم فيم قدومي إليك. ثم استدار فخرج منفجراً بالبكاء

فنظر إليه سقراط وقال: لك مني جميل لجميل. فسأصدع بما أمرتني به. ثم التفت إلينا وقال: ياله من فاتن! إنه ما أنفكّ يزورني في السجن، وكان يحادثني الحين بعد الحين، ويعاملني بالحسنى ما وسعته. انظروا إليه الآن كيف يدفعه فضله أن يحزن من أجلي فلزام علينا يا كريتون أن نفعل ما يريد. مر أحداً أن يجئ بالقدح إن كان قد تم إعداد السم، وإلا فقل للخادم أن يهيئ شيئاً منه

فقال كريتون: ولكن الشمس لا تزال ساطعة فوق التلاع؛ وكثير ممن سبقوك لم يجرعوا السم إلا في ساعة متأخرة بعد إنذارهم. إنهم كانوا يأكلون ويشربون وينغسون في لذائذ

الحس، فلا تتعجل إذن، إذ لا يزال في الوقت متسع

فقال سقراط: نعم يا كريتون، لقد أصاب من حدثتني عنهم فيما فعلوا، لأنهم يحسبون أن وراء التأجيل نفعاً يجنونه، وأني كذلك لعلى حق في ألا أفعل كما فعلوا، لأنني لا أظن أني منتفع من تأخير شراب السم ساعة قصيرة. أنني بذلك إنما أحتفظ وأبقي على حياة قد انقضى أجلها فعلاً، أني لو فعلت ذلك سخرت من نفسي. أرجو إذن أن تفعل بما أشرت به ولا تعص أمري

فلما سمع كريتون هذا، أشار إلى الخادم فدخل، ولم يلبث قليلاً أن عاد يصحبه السجان يحمل قدح السم، فقال سقراط: أي صديقي العزيز، أنك قد مرنت على هذا الأمر، فأرشدني كيف ابدأ. فأجاب الرجل: لا عليك إلا أن تجول حتى تثقل ساقاك ثم ترقد، فيسري السم، وهنا ناول سقراط القدح فحدق في الرجل بكل عينيه، يا أشكراتس، وأخذ القدح جريئاً وديعاً لم يرَع ولم يمتقع لون وجهه. هكذا تناول القدح وقال: ما قولك إذا سكبت هذا القدح لأحد الآلهة؟ أفيجوز هذا أم لا يجوز؟ فأجاب الرجل: أننا لا نعدُّ يا سقراط إلا بمقدار ما نظنه كافياً فقال: أني أفهم ما تقول، ومع ذلك فيحق لي بل

يجب علي أن أصلي للآلهة أن توفقني في رحلتي من هذا العالم إلى العالم الآخر - فلعل الآلهة تهبني هذا، فهو صلاتي لها. ثم رفع القدح إلى شفتيه وجرع السم حتى الثمالة رابط الجأش مغتبطاً، وقد استطاع معظمنا أن يكبح جماح حزنه حتى تلك الساعة، أما وقد رأيناه يشرب السم، وشهدناه يأتي على الجرعة كلها، فلم يعدْ في قوس الصبر منزع، وانهمر مني الدمع مدراراً على الرغم مني، فسترت وجهي، وأخذت أندب نفسي، حقاً أني لم أكن أبكيه بل أبكي فجيعتي فيه حين أفقد مثل هذا الرفيق. ولم أكن أول من فعل هذا، بل أن كريتون، وقد ألفى نفسه عاجزاً عن حبس عبراته، نهض وأبتعد، فتبعته، وهنا أنفجر أبولودورس الذي لم ينقطع بكاؤه طول الوقت، بصيحة عالية وضعتنا جميعاً موضع الجبناء، ولم يحتفظ بهدوئه منا إلا سقراط، فقال: ما هذه الصرخة العجيبة؟ لقد صرفت النسوة خاصة حتى لا يسئن صنيعاً على هذا النحو، فقد خبّرت أنه ينبغي للإنسان أن يسلم الروح في هدوء، فسكوناً وصبراً

فلما سمعنا ذلك، اعترنا الخجل وكفكفنا دموعنا، وأخذ سقراط يتجول حتى بدأت ساقاه تخوران - كما قال - ثم استلقى على ظهره، كما أشير له أن يفعل، وكان الرجل الذي

ناوله السم ينظر إلى قدميه وساقيه حيناً بعد حين، ثم ضغط بعد هنيهة على قدمه بقوة وسأله هل أحس فأجاب أن لا، ثم ضغط على ساقه وهكذا صعد ثم صعد، مشيراً لنا كيف أنه برد وتصلب، ثم لمس سقراط نفسه ساقيه وقال: ستكون الخاتمة حين يصل السم إلى القلب. فلما أخذت البرودة تتمشى في أعلى فخذيه كشف عن وجهه، إذ كان قد دثر نفسه بغطاء، وقال: (وكانت هذه آخر كلماته) إنني يا كريتون مدين بديك لاسكلبيوس فهل أنت ذاكر أن ترد هذا الدين؟ ولم يكن لهذا السؤال من جواب؛ وما هي إلا دقيقة أو دقيقتان حتى سمعت حركة، فكشف عنه الخدم، وكانت عيناه مفتوحتين، فأقفل كريتون فمه وعينه

هكذا يا اشكراتس قضى صديقنا الذي أدعوه بحق أحكم من قد عرفت من الناس، وأوسعهم عدلاً وأكثرهم فضلاً

تم الحوار

زكى نجيب محمود

زهرتي

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

قد تصوَّحتِ عند شرخ الشباب ... زهرتي بغتةً فجلَّ مصابي
زهرتي قد جاء الربيع بما ازدا ... ن به من نبتٍ ومن أعشاب
ولقد قام مهرجان على الأر ... ض جميعاً بطاحِها والهضاب
لعزيزٌ عليّ ألا تكوني ... طاقةً فوق الكالىء المعشاب
نبت الزهر كله فلماذا ... أنتِ يا زهرتي بجوف التراب
ضقتِ بالقبر فاخرجي من ظلام ال ... أرض للنور فوقها والرحاب
أخرجي من جوف الثرى وابسمي لي ... عن رضًى أو تجهّمي للعتاب
أخرجي من جوف الثرى من جديد ... واسحريني بلحظكِ الخلاَّب
وأعيدي إليّ أسعد عهدٍ ... كنتُ فيه وذاك عهدُ شبابي
قرِّبيني إذا أردتِ سلامي ... واصرميني إذا أردتِ خرابي
وافتحي العينَ والمسامعَ دوني ... واسمعي شدوي وانظري إعجابي
أنا يا زهرتي دعوتكِ للحبّ (م) ... مراراً فلم تردّى جوابي
لا تقولي إني هلكتُ فلا تر ... جُ لميتٍ ذاق الردى من مآب
أنتِ تحيين في فؤادي وعيني ... ودمي فائراً وفي أعصابي
أيقظي من هذا الرقاد فإن الشْ ... مسَ قد ذرَّت من وراء الحجاب
أنتِ للحب والغرام بوجه ال ... أرض لا للرقاد تحت التراب
أنتِ لا تخلقين يا زهرتي أن ... تختفي في غياهب الأحقاب
يتهاوى دمعُ الأسى من عيوني ... كشهابٍ ينقضّ إثرَ شهاب
متِّ قبلي فلو سبقتُكِ عاهد ... تِ دموع الأسى على التسكاب
لا سلامٌ على الربيع إذا ثا ... بَ ولم تصحبيه عند المثاب
ارجعي لي وقبّليني ولا تخ ... شَيْ رقيباً على الهوى لا يُحابى

ارجعي ارجعي كما كنتِ قبلا ... أو خذيني بأقرب الأسباب
إنني لم أزرْ أجَلْ بَعْدُ قبري ... غير أني منه على الأبواب
آهِ إن الحياة أعجزُ من أن ... تستطيعَ الرجوعَ بعد الذهاب
بين شعرٍ أقوله وأنيني ... شعبة من وشائج الأنساب
ذهبت زهرتي التي كنتُ أشدو ... باسمها خالياً وبين صحابي
زهرةٌ قد سقيتُها بدموعي ... مزَّقتها المنون بالأنياب
إنني كنت أعبد الحسن فيها ... ولقد كان وجهُها محرابي
خطفتها المنون منى كعاباً ... ما على الموت بعدها من عتاب
خطفتها منى ذئابُ المنايا ... وذئاب المنون شرُّ الذئاب
قلت أسلو فأستريح ولكن ... كيف أسلو والحب ملء أهابي
كل شيء مذكرٌ لي بليلَي ... ليْتَ شعري ماذا يذكرها بي
هدّدتني إذا تصديتُ عيني ... وفؤادي والنفس بالإضراب
وكأن الدنيا العريضةَ بحرٌ ... وكأنا عليه بعض الحباب
خضتُ بحرَ الهوى وكان خِضَمًّا ... ثم منه ركبت متنَ العباب
ثم صارعتُ الموج منه فما كن ... تُ سوى مغلوبٍ إلى غلاّب
عن يميني وعن شماليَ ماءٌ ... ثم إني أعدو وراءَ السراب
بغداد 4 تموز
جميل صدقي الزهاوي
فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية
تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا - 14
فرديريك نيتشه
للأستاذ خليل هنداوي
على أن الروح (الديونيزوسي) يكاد يكون فاشياً في كل أصقاع العالم القديم. وهو عند البرابرة كان يزجيهم إلى الانهماك في المنكرات، وإشباع البهيمية الإنسانية باللذائذ. واليونان برغم حضارتهم وبعدهم عن البربرية سرت إليهم العدوى، ومشى فيهم هذا الروح. ولكن انهماكهم لم يكن انهماكا بهيمياً. أقاموا الأعياد والأندية حيث تنطلق الطبيعة ويذهل الإنسان متحداً بعاطفته مع الوجود. ومن هذا الانهماك تولدت المأساة اليونانية. والمأساة اليونانية يرجع أصل نشأتها إلى فريق (الساتير) وهؤلاء عند اليونان هم أرواح من الطبيعة تحيا، ولا يتسرب إليها الفناء؛ تعيش بعيدة عن الحضارة، وظهورها في شعب متحضر يقضي على حضارته ويقذف بالحواجز التي تفصل الإنسان عن الطبيعة. وهم يظهرون أن الطبيعة ثابتة قوية مخصبة برغم تقلب الأمم وتبدل الشعوب. واليونان اعتقدوا أن هذا الفريق مخلوق طبيعي مجرد من كل براعة، ولكنه ليس بهيمي. يتجلى فيه شيء من السمو الإلهي، وهو رمز الغريزة الأكثر قوة وسيطرة على الإنسان. هو سريع الهيام يذهله تقرب الإله منه. كثير الإشفاق والعطف لأنه يقاسم (ديونيزوس) آلامه. وهو يسالم حكمة الطبيعة. وهو رمز خصب الحياة التي يعبدها اليونان عبادة دينية. كان هذا الفريق يبدو في بدء نشأته وهو نشوان (بالسكر الإلهي) ويرقصه، وموسيقاه تغادر روح الناظر في شبه ذهول عميق، يمحو من نفسه ذكر الحضارة، ويجرده عن ذاته حتى يرفعه إلى مرتبته، ويشركه في ذهوله وسكرته. حتى إذا وجبت القلوب واستسلمت النفوس يلوح وراء هذا الفريق خيال الإله (ديونيزوس). وهذا السكر الإلهي قد ولد خيالاً شعرياً لم يكن في حقيقته إلا تعبيراً خاصاً عن حالة نفسية واضحة ولدها هذا السكر الصوفي. فالمأساة اليونانية هي بحقيقتها موسيقية شعرية. وهي هتاف ظفر الإرادة التي تشعر بخلودها إزاء تقلب الكائنات وتحولها. بطل كل مأساة هو الإله (ديونيزوس)، وهي عاطفية لأنها نشأت لتكون أنشودة
في مدح الإله. ثم تطورت المأساة لتكون أشد تأثيراً في المخيلة، فأصبحت صورة رمزية لسحابات يلوح بينها الخيال الإلهي الذي يظهر على السكارى الهائمين في الوادي، السكارى بالإله. ولكن (ديونيزوس) لم يعد يظهر بشكله الإلهي. وإنما يظهر بهيئات الأبطال الذين يتمثل فيهم تحت قناع البطل (كيرومونى) أو (أوديب). و (ديونيزوس) هو البطل الحقيقي في كل مأساة، يبدو بأشكال مختلفة. وهو في ظهوره

هذا يشبه الإنسان في حياته، يتيه ويضل، يناضل ويتألم. (ديونيزوس) هو هذا الإله المتألم الذي تكلمت عنه الأساطير. هذا الإله الذي يحس في نفسه بآلام الفردية. هذا الإله الذي قالوا عنه إنهم جزأوه وهو صغير وعبدوه باسم الإله (زاكروس) ومن ابتسامته تولدت الآلهة، ومن دموعه نشأ الرجال

إن روح هذا الإله قد فتحت للعلم مجالاً عند اليونان. فهم بعد أن أطلقوا الأرواح من التشاؤم بتأملهم للجمال أو بشعورهم بخلود الإرادة، ذهبوا إلى طريقة ثالثة، هي المعرفة العقلية للوجود وأجزائه. فجاء العلم حليفاً ثالثاً معهم يناضل التشاؤم. فبينما يقول الفنان للحياة (يليق بنا أن نحياك، أيتها الحياة! لأن صورتك جميلة) يقول العالم لها (أنا أريدك أيتها الحياة! لأنك جديرة بأن تعرفي. . .) وهكذا وجد العالم في اكتشافاته العلمية من اللذة والبهجة ما يجده الفنان في أوهامه وأخيلته. وتآزرت هذه الأوهام كلها لتجعل وجه الحياة المشوه جميلاً. ويجب ألا نجحد أن فضيلة العلم إنما هي تتمثل في البحث الدائم والتنقيب المتواصل. لا في الحقائق التي يكتشفها. أو النتائج التي يبلغها. وخطيئة العلم القطعي هي أنه لا يقف عند معرفته للوجود واقتناعه بما أدرك وتفهم من أحاجيه وإنما يثب إلى إصلاحه وإتمامه، فتسعده حالتها الأولى مادام يبحث وينقب، ويشقى في الحالة الثانية مادام يطمح ويطمح إلى ما لا قبل له به. يعتقد ببساطة نفسه أن الوجود سهل فهمه بجملته وبأجزائه، وأن رأس كل فضيلة هي المعرفة، وأن الجهل هو مصدر كل بلاء، وبالعلم وحده يستطيع أن يبلغ الإنسان ما يشاء من أمهات الفضائل

جاء سقراط وهو أعظم مفكر يوناني جاحد للوحي، يؤمن بأن العقل وحده يقوم مقام الغريزة والفطرة في الحياة. والرجل العاقل له من عقله سلاح يدرأ عنه أخطاء الغريزة وضلال الفطرة. سلك سقراط طريقاً خالف به قومه واستطاع في النهاية أن يقهر معاصريه بسمو منطقه، وباختياره لمصرعه الذي لقيه. ترك الحياة هادئ النفس، لا يعضه أسى ولا يقرعه

ندم، كأنما كان يثبت بهذا المصرع إيمانه في الحياة إيماناً متفائلاً لا يتضعضع ولا يتزعزع هذا هو عقل سقراط الذي هزم (المأساة عند اليونان) وحق لهذه المأساة أن تتلاشى أمام مجلس العقل، لما يطغى عليها من تعاليم لا يجمع بينها قياس ولا منطق. يستند كل ما فيها من تأثير على الموسيقى. المأساة لا توحي ولا توضح عن أية حقيقة نافعة؛ وقد تجيء فاحشة المغزى، أو ليس يبدو بعد هذا أنها تعمل على تحطيم أجمل النماذج التي تخلقها الإنسانية. فإذا كان هنالك أواصر متينة بين العلم والفضيلة والسعادة الحقيقية - كما يريد العلم المتفائل - فان المغزى الفاجع يغدو بدعة خطرة

إن سقراط لم يهدم فن المأساة وحده، بل هدم كل البراعة اليونانية. كان المثال الذي تجسد فيه العقل يوم كان اليونان يتبعون بأهوائهم شريعة الفطرة والغريزة. كانوا يريدون الحياة قوية جميلة، وهو يريدها منطقية، تفقه نفسها بنفسها؛ كان مظهر سقراط مظهر المزدري لروح عصره، وهو وحده أعلن بين معاصريه أنه لا يدري شيئاً، وأنه على حق في خصامه معهم. يعرج على نوادي الشعراء والمفكرين والخطباء والمعلمين، فيقول: إن هؤلاء الواثقين بأنفسهم يفكرون ويجادلون بدافع الفطرة وحدها، وهم لا يفقهون ما يصنعون. تراه حيثما توجه وأينما أنطلق لا يبصر إلا وهماً باطلاً، وخطأ فاشلاً، مما أضطره أن يعلن أنه مقدم على إنشاء حضارة جديدة يديرها العقل وحده. فهدم الحضارة الأولى ولم يبق على شيء منها، فعل ذلك وهو لا يشعر بأن العالم الذي هدمه هو أسمى من العالم الذي راح يبنيه بعقله

هذا ملخص ما رآه نيتشه في (المأساة اليونانية) وهو جد آسف على ذهاب ذلك الماضي النبيل. وقد لا يغنينا أن ننظر إلى مذهب (نيتشه) من حيث تعلقه بالتاريخ. فهو ليس في الحقيقة إلا مذهباً يستخلصه من بعض نظراته المختلفة إلى أدب اليونان. وللعلم الحق وحده أن يتقبل هذه النظرات أو يأباها

يقول نيتشه عن شوبنهاور: (أنا بعيد جداً عن الاعتقاد بأني فهمت شوبنهاور، ولكني مؤمن جد الإيمان بأن شوبنهاور قد أعانني على تفهم نفسي) وحال نيتشه في درسه العبقرية اليونانية قد تشاكل هذه الحال، فهذه الدراسة قد كشفت عن تفكيره وأبانت عن منحاه في الحياة. وهذه الإرادة التي يذرع بها (ديونيزوس) مجابهاً أخطار الموت والشقاء والألم تعبر

عن عاطفة عميقة من أسمى عواطف (نيتشه)؛ ومهما كانت قيمة كتابه هذا فهو بعد هذا كله كتاب خالد يتلو علينا كيف شعر نتيشه بذاته حين درس براعة اليونان
(يتبع)
خليل هنداوي
القصص
من أساطير الإغريق
بسِيشِيهْ وكيوبيد
أروع قصص الحب في التاريخ القديم
للأستاذ دريني خشبة
كان الليل الهادئ المقمر أصفى من قلوب العذارى؛ وكان النسيم العليل الحلو يرف كالأماني في قلوب المحبين؛ وكالبدر العاشق المُسهَّدُ يرسل القبَلَ فتنطبع على خدود الورد، وتلثم أعواد الزنبق، ثم تنتشر بالشذى فتعطر أحلام المدنفين!
وكان كيوبيد الصغير يتميز من الغيظ حين أنطلق حاملاً سهامه ليقتل بسيشيه ابنة الملك، التي أهانت بجمالها كبرياء أمه فينوس!
كان الناس يعبدون ربة الجمال والحب حتى ترعرعت بسيشيه وتدفَّق ماء الشباب في جسمها الريان، فهويت إليها نفوسهم، وخفقت بحبها قلوبهم، وآثروها بعبادتهم من دون فينوس!
وكان للفتاة أختان حسناوان، ذواتا دلٍ وفتون، ولكنهما كانتا مع ذاك دونها قسامة ووسامةً ولانهائية!
أجل، كانتا دونها لا نهائية، فلقد كانت العيون تغرق من جمال بسيشيه في لجَّةٍ من الحسن الغامض ما لها من قرار؛ وكان غموض حسنها هو سر عبادة الناس لها، وافتتانهم بها، وانصرافهم إليها عن كل ربات الجمال!
ودعت إليها أبنها ربةُ الحب، فأثارت في قلبه العداوة لهذه الغادة وجسمت له ما يحيق به وبأمه من انصراف الناس عن عبادتهما إلى هذه المخلوقة التعسة:
أفيرضيك يا بني أن تكون من آلهة الأولمب نكرتين لا يخبت لهما شعب من العباد) المخلصين؟ أم يرضيك أن يتغامز بي الآلهة كلما مررت بهم، وهم كما تعلم مغيظون مني، فيقولون هاهي ذي فينوس التي هدمت كبرياءها امرأة، وصرفت الناس عن عبادتها غادة؟ اذهب إذن فتربص لها، وأنفذ إلى أغوار قلبها سهماً يودي بها إلى هيدزْ، وبئس القرار!
. . . . . وإنه لا ضير على أن تهيم بها أرواح الموتى، أو يفتتن بها بلوتو وملؤه.
ومضى كيوبيد إلى قصر الملك في طريق حفَّت بالورد:
وعبقت فيها أرواح البنفسج، وتأرج النرجس الغض، واختلط كل أولئك بالقمراء الفضية فرققت من غيظ الإله الأصغر، وجعلته يحس الجنة التي يخطر فيها ليقتل فتاة بريئة، كل ذنبها جمالها، وأقصى ما ارتكبته من وزر أن بدت للناس فشغفوا بها، وفنوا فيها. . .
وكبر في قلب كيوبيد أن تنتهي هذه الجنة إلى جحيم تعج بالجريمة؛ وتفيض بالآلام؛ فجلس تحت سوسنة نامية يتأمل، وكان ضوء القمر ينعكس على الأزهار ثم يرتد عنها شعراً وسحراً وموسيقى صامته؛ تنعزف ألحانها على أوتار قلبه الخفاق!
وصدح بلبل غرد في هدأة الليل الفضي، فانتفض الإله الأصغر وحمل قوسه وسهامه ومضى. . . . لا يأبه بجمال الطبيعة الساحرة، ولا يأسر لبه هذا البهاء الإلهي الذي يغمر الكون حوله، حتى كان عند أسوار القصر الملكي الراقدة في طوفان زاخر من أزهار الشيبر والياسمين والبابونيا
. . . وبرفتين من جناحيه الصغيرين كان في حديقة القصر.
. . . هاهو ذا يصعد على الدرج الرخاميّ، متبختراً، دون أن يلمحه الحرس وانفتل في غرفة بسيشية النائمة، واندس خلف الستائر الحريرية يوتر القوس الذهبية، وينتقي من كنانته سهماً تقطر المنية من سيته، ويرقص الموت على شباته!
. . . . . وتقدم نحو الفتاة.
يا للجمال النائم فوق الأريكة! ويا للفتنة العائمة ملْء السرير!
لقد كانت متجردة كلها! وكان نهدها البارز المثمر مجللاً بثديين ناضجيين، يتحلبان لذاذة ويلتهبان إغراءً!!

ونامت هذه الذراع هنا، واطمأنت تلك الذراع هناك؛ لدْنتان وإن كانتا كالمرمر؛ رخصتان وإن كانتا لتمثال معبود!!

وكان السحر يهمهم فوق الساقين الملفوفتين، ويهوم من تحتهما، كأنه يرقيهما من نفسه، أو ينفث فيها من روحه وبأسه. . .!

والرأس الصغير فوق الطنفسة الوردية، مستسلماً لأحلام الشباب الحلوة، متلألئاً في شعاعة

من ضوء القمر سقطت عليه من النافذة القريبة، رسولاً من لدن ديانا البارة، أقبل ليقول للإله الأصغر: (مكانك أيها الرامي الحبيب! ماذا جنى عليك هذا الحسن فتسلمه للردى، وتجرعه كأس المنون؟! افتح له ما انغلق من قلبك تنعم به، فأنك لن تجد في ربات الأولمب من تخلص لك الحب كما يخلصه لك هذا الهدف البريء. . .!)

وخطا كيوبيد خطوتين، وحملق في وجه بسيشيه. . . . . .

وبهره الجبين المشرق، والهدب الناعس، والخد الأسيل. . . . وأخذ بلبه هذا الشعر العسجدي تفضض حواشية أضواء القمر فتزيده بهاءً ورونقاً، فإلى لا يهدرن هذا الجمال البارع، وانثنى مسلوب اللب، مشدوه القلب، موزع الفكر؛ وانتزع السهم فألقى به في كنانته. . . وقبل أن يخرج يده الصغيرة الناعمة، شاء القدر أن يخدشها سهم ذهبي من سهام الحب، ملأ كيوبيد هوى وأفعم قلبه صبابة، فتقدم نحو بسيشيه لهفان، يتزود لأوبته من جفنها النعسان وجمالها الفينان

وطبع على الفم الدقيق قبلة دقيقة حلوةً، وعاد أدراجه عاشقاً وامقاً لا يبالي بسخط أمه فينوس!!

وأنصدع عمود الليل، وتنفس الصبح فهبت الأرواح النائمة، وأقبلت فينوس ربة الحب لتسمع إلى النادبات النائحات في قصر الملك. . . . . بيد أنها، بدلاً من ذلك، رأت بسيشيه، بسيشيه بعينها، تمرح في حدائق القصر، وقد برزت عرائس الماء من الغدران الصافية تحييها وتغني لها، وتضفر لها أفواف الزهر. . .!!

وحنقت ربة الجمال والحب، ونادت بالويل والثبور على ولدها كيوبيد، وأقسمت لتجعلن مباهج الحياة ووضاءتها ظلاماً في عيني الفتاة!!

فسلطت عليها الأشباح تروعها وتفزعها، وأغرت بها خفافيش سوداء جعلت تنوشها وتهاجمها، وسخرت عليها ريح السموم تلفحها وتصهر روحها، فانطلقت المسكينة مذعورة إلى داخل القصر، وطفقت تصرخ وتعول، ولا يدري أحد لماذا تصرخ ابنة الملك وتعول. . . وازدحم حولها أبواها وأخوتها والخدم والحشم ينظرون ويعجبون ولا يكادون يحيرون. . .

ومضوا بها إلى المعبد يستوحون الآلهة، ولكنها ما كانت لتزداد إلا شكاةً وأشجاناً!! وكرت الأيام. . .

وانسربت بسيشيه إلى الجبل القريب المشرف على البحر، وفي نفسها أن تلقي بحمل الحياة من شاهق، فتستريح مما يطيف بها من آلام!

ورآها كيوبيد. . .

وظلت هي ترقب الموج الهائج، وتشهد اليم المصطخب، وتلقي على البطاح نظرة مودع عجلان، وعلى المروج الخضر تحية مأخوذة القلب أسوان؛ ثم صرخت صرخة هائلة، وألقت بنفسها من علٍ. . . . . .

وكأن كيوبيد كان قد أحس بما تعتزمه حبيبته من الانتحار، فدعا إليه صديقه ونجيه زفيروس، آله الريح الجنوبية، وأطلعه على ما يكن من الحب: (لهذه الفتاة التي تكاد تلقي بنفسها من قمة الجبل يا صديقي زفيروس. فإن رأيت أن تكون لك على هذه اليد، أذكرها لك أبد الدهر، فخذ أهبتك، ولا تدعها تغوص في اليم، بل تلقها في يديك الرفيقتين، واذهب بها إلى الجزيرة المقابلة حيث الشاطئ المنظور بالرياحين؛ فدعها ثمة، فقد أعددت لها مستراداً وملعباً. . . . . .)

ولشد ما دهشت بسيشية إذ رأت طيفاً نورانياً كريماً يبرز من الماء فجأة فيلتقطها في يديه الكريمتين، ثم يترفق بها فيضعها على ظهره العريض الرْحب، كأنه أريكة من أرائك الجنة التي وعد المتقون، ويخوض بها اليم المضطرب فتعنو له الأمواج ويسجد من تحته الثبج، ويصير البحر في لمحةٍ كأنه مرآة صافية ملساء، كأنها صفحة السماء. . .

ويصل إلى الشاطئ المزدهر فيبسم للفتاة ثم يجيبها بتمتمةٍ، وينطلق في البحر الذي يعود إلى سابق اصطخابه واضطرابه. . .
وتجلس بسيشيه على الكلأ فتفرك عينيها مما استولى عليها من ذهول، لترى هل هذا الذي هي فيه حلم، أم هي قد ماتت فعلاً ولكنها دخلت الجنة؟!!
بيد أنها تذكر أن الأرواح فقط هي التي تنفذ إلى دار الموتى؛ وأنه ليس في دار الموتى شمس ولا إياء، وهي تتحسس نفسها فترى جسمها البض الجميل كما هو لم يتغير، وهي ترى أيضاً إلى الشمس مشرقة تغمر بآرادها البر والبحر، وتنشر إياءها في الأكوان جميعاً. . .
إذن هي لم تمت، وهذا الطيف الكريم الذي أنقذها من الموت، والذي ترفق فحملها إلى تلك الجزيرة هو رسول أحد الآلهة؛ وإذن فلتنهض ولتضرب في هذا الفردوس المنعزل حتى يكون أمر غير هذا الأمر. . .
ومضت في غياض وأرباض، ورأت في الأفق القريب قصراً باذخاً ذا شرفات وأحياد، فيممت إليه، ومًا كادت تدنو منه حتى فتحت بوابة السور الكبرى على مصراعيها، وامتدت منها أذرع نورانية تصافحها، وانبرت أصوات رقيقة موسيقية تحتفي بها وتحييَّ وتبيَي. . . . . .!
وفركت بسيشيه عينيها كذلك!
وظنت أنها تحلم، ولكن كل شيء حولها حدَّثها أنها ترى رؤيةً حقيقة، لا رؤيا منامية. . . . فدخلت القصر، وفي نفسها من الحيرة وشدة العجب ما أخذ يتضاعف في كل خطوة ويزداد. . .
وحاولت أن ترى أحداً ممن لهم هذا الصوت الرقيق. . . ولكن عبثاً. . . ليس هناك إلا أذرع من نور تمتد إليها محتفية بها، تقودها إلى المخدع الوثير الذي أعدته العناية لها. . .
ودار الحديث بينها وبين طيف لا تراه:
- (. . .) ويدهشني أنكم تحتفون بي. وتبالغون في إكرامي، وأنا لا أرى منكم أحداً، فهل كلكم يلبس قلنسوة هرمز؟)
- (. .كلا أيتها العزيزة؛ ولكنا أمرنا ألا ننكشف لك)
- (ومن ذا الذي أصدر إليكم هذا الأمر؟)
- (. . .ونهينا أيضاً عن ذكر أسمه)
- (. .أنتم كرام، ولكنكم تضايقونني إلى حد الإزعاج)
- (ليفرخ روعك أيتها العزيزة، ففي المساء، تلقين الآمر الكريم صاحب هذا القصر، وصاحب القصور الكثيرة في أطراف الأرض)
- (وهل لي أن أجول جولةً في قصركم المنيف عسى أن تذهب هذه الوحشة الجاثمة على قلبي. . .)
- (ولم لا. . . بسيشيه العزيزة؟)
- (بسيشيه؟!. . . ومن أنبأكم أسمى؟)
- (. . .رب هذا القصر أيتها العزيزة)
وجالت الفتاة في القصر الجميل المنسق، وكان مثار عجبها هذه الصور البارعة المرسومة على الجدران، كلما وقفت عند واحدة دبت فيها الحياة، وتحركت على الحائط متهللة مستبشرة، محيَّية بابتسامةٍ خفيفة، أو انحناءة مؤدبة. . .!!
وكانت التماثيل في زوايا الغرف، وأوساط الردهات، وفي حنايا الحديقة، وفوق الربى المكسوة بالسندس الرطب، تحيّي الضيفةَ، كأن حياة تدب في مرمرها كلما وقع بصر بسيشيه عليها، فتتحرك الأذرع، وتومئ الرؤوس، وتمر الفتاة وقد أخذ الدهش من نفسها كل مأخذ. . .
وكانت العنادل تهتف بها ترجوها أن تتلبَّث فتسمعها أنشودة الخلد، ولولا العجلة لوقفت بسيشيه عند كل حتى ينتهي من غنائه الحلو، وتغريده الرنان
وعادت إلى المخدع مع مغيب الشمس
(لها بقية)
دريني خشبه

أقصوصة عراقية:
بداي الفايز
للأستاذ محمود. أ. السيد
- 1 -
. . .كان اليوم العاشر من شهر مايو
كان الفرات فائضاً توشك أمواهه الطاغية أن تجرف السدود المقامة على ضفتيه.
وكان الفلاحون من أبناء القبائل المختلفة، في منطقة خضراء بين ذي الكفل والكوفة - كأمثالهم في مناطق الفرات الأخرى - ساهرين عليها، مقيمين حولها ليلاً ونهاراً وجلين، يخيفهم الخطر الجاثم حيالهم منذ شهر، وقد أشتد بعد أن كان ضعيفاً مبهماً
. . .وكان الصبح
وكان النسيم يهب بليلاً فينعش هؤلاء المساكين، ويحيي فيهم عنصر النشاط الذي كانوا في أشد الحاجة إليه؛ فقد أنهكهم النصب، وآذاهم الجهد الذي بذلوا مذ طغى الماء، وهم يصارعونه ليحولوا بينه وبين زرعهم - مع أنه جزء قليل من زرع الرؤساء المالكين - وماشيتهم؛ وهما لهم قوام الحياة
وكانت سنابل القمح المنتشرة المتكاثفة في الحقول على مقربة من بيوتهم - وهي من القصب البالي والحصر وجريد النخل - ومن النهر، مصفرة ناضجة تبهج الناظرين. وكان وقت حصادها جد قريب
وحان الضحى؛ فحانت ساعة العمل لتقوية السدود وتمكينها فانتشرت جموعهم كالنمل تحمل إلى المواقع الواهنة منها التراب من أطرافها، ثم تعود لتحمل إليها التراب كذلك والحطب والقصب والحصر والعَمدَ والحبال وما إليها؛ ثم تعود مرة أخرى، فأخرى، يسوقها المهندسون والرؤساء المالكون في غير ما لين ولا إمهال
وحان الظهر؛ فاستراحوا قليلاً ثم عادوا يعملون
وتغير الطقس، آنئذ، تغيراً مفاجئاً - ومثل هذا التغير مألوف ومعتاد في العراق - فحجبت وجهِ الشمس عاصفةٌ شديدة أثارت الموج في النهر، وعظم بها الخطر، لأن السدود قد كانت
احتملت من جريان المياه الطاغية وتيارها القوي أكثر مما تطيق احتماله، فكيف بها الآن وقد أخذ الموج يلطّمها فيوهنها ويكاد يهدّمها تهديماً
وكان الخطر أعظم ما يكون في الضفة اليسرى من النهر، لأن أهلها كانوا أقل عديداً من جيرانهم أهل الضفة اليمنى، وأرضهم أوطأ من أرضهم، وسدودهم أضعف من سدودهم
وكان الرؤساء جميعاً، هنا وهناك، مع وفرة غناهم، وامتلاكهم الدور والأحراز والأرضين دون الفلاحين، أحرص منهم على حفظ السدود لحفظ الزروع. فداروا حولهم يشجعونهم ويضربون المقصّر المتخلف منهم عن صحبه بالعصي والسياط
ونحن الآن في الضفة اليمنى
حان الأصيل، وبدأت قصتنا؛ فوقف فتى طويل القامة مفتول الساعدين، آدم اللون، يدعونه (بدَّاي الفايز) ويتميز بخنجر مفضض لا يفارق حزامه، أمام رئيس من رؤساء القبيلة التي ينتمي إليها، معتدلاً يعلوه الشمم، وتهز كيانه نخوة الأعراب؛ وقد أصابته منه ضربة عصا كما أصابت غيره ضربات، وسواء أكان لتلك الضربة سبب من تقصير في العمل أم لم يكن، فان (بداي) الذي كان شاذا في قبيلته في بعض خلاله، قوي الشكيمة، عزيز النفس، معتزاً بقوة جسمه، لم يحتملها؛ فوقف يغمغم متظلماً في شبه ثورة وعصيان
وبهت الرئيس، فنظر إليه مستغرباً مستنكراً: مستغرباً شممه ونخوته وقد حسبهما طيشاً ونزقاً وخنزوانة عبد، وحمله خنجره المفضض حتى في ساع العمل العسير، مستنكراً تظلمه، وكيف لم يحتمل منه ما احتمل الآخرون أذلة خاضعين
وأقبل عليه يريد أن يضربه مرة ثانية؛ ثم انثنى عنه في لحظة فانشأ يرميه بما هو عند القبائل شر من ضرب العصي وأنكى، قال يعيره:
ويلك يا جبان! هل يرفع أنفك فيميزك عن أخوتك الطائعين هؤلاء خنجرك المفضض) - هذا!؟ ولأي يوم كريهة تحمل هذا الخنجر وتلك البندقية التي تعلقها بالسدرة؟ وأين كان هذا السلاح يوم قتل جسام أخاك عباس؟ ولماذا لم تثأر له به حتى الآن أيها الجبان

(!الذليل؟
وإذ نطق باسم (جسام) شدّد (السين) تشديداً غريباً ومد (ألفه) وهو يشير بعصاه
إشارة ذات معنى إلى ضفة النهر المقابلة؛ ثم إذ أتم كلمته أبتسم ساخراً متهكماً
وتولى، وهو مدرك أية طعنة نجلاء طعن الفتى
وسمع بداي هذه الكلمة الطاعنة أمام الجمهور الحاشد من الفلاحين الذين كان يراهم
دونه شمماً وإباء للضيم ونخوة، وهو في أسوأ حال من الاضطراب النفسي والغيظ،
وعضّ على شفته إذ أخذته (العزة)؛ فصاح صيحة كاد ينفطر لها فؤاده:
- (!أخسأ! أنا أخو شمسة! ولأنتقمن ولأدفعنّ عني عاري)
وترك العمل وهو حانق غضبان. وشعر بأن حياته أضحت عبئاً ثقيلاً عليه. و (النار ولا
العار!) وهل يهمه بعد الزرع وغير الزرع؟ (لقد قتل جسام من أبناء القبيلة المجاورة
أخاه عباساً، في نزاع على دين قديم، منذ عهد قريب، وتلكأ عن أداء ديته. هذا ما كان
يعلمه؛ ولكنه لم يكن راضياً بالعار الذي خلع عليه هذا الحادث منه جلباباً أسود ضافياً.
لم يكن ساكتاً عن حقه، والثأر في القبائل كالدية، حقٌ. على أنه لم ير بداً من التريث
حتى تنجلي هذه المصيبة التي حلت بالقبائل الفراتية كافة: مصيبة الفيضان. فكان من
المروءة تركه وشأنه؛ أما وقد سبق السيف العذل؛ فعيرّ أمام الناس، فلا كانت الحياة
إن لم يثأر وينتقم. . . . .)
هذا ما فكر فيه في دقائق مسرعة كالثواني، ونفض عباءته ليزيل ما علق بها من تراب
حين العمل، ثم تناول بندقيته غير ملتفت وراءه، وتوارى عن الأنظار
- 2 -
ونحن الآن في الضفة اليسرى
أقبل الليل؛ وانقلب الفلاحون إلى بيوتهم، وهم يتوقعون الخطر الجاثم حيالهم، يتوقعون
أن تتدفق المياه عليهم في هذه الليلة إن لم تنقص قليلاً، وبقيت الريح العاصفة على
شدتها تثير أمواجها فتوهن السدود. وكان الإعياء آخذاً منهم مأخذه فرقدوا متوكلين
على الله؛ إلا الحراس منهم الذين أقاموا على السدود، فكانوا متحفزين للعمل،
يروحون ويجيئون كأشباح الجن؛ يلفهم نور القمر الضئيل الذي حجبت سطوعه الريح
الذارية وما كانت تحمله للقوم من غبار كثيف
وكان جسام القاتل واحداً من هؤلاء الحرس
وكان وهو في جماعته، مطمئناً غافلاً، لا يدري أن بداي قد أقسم لينتقمن لشرفه في
تلك الليلة؛ لا يدري أنه جاء دارة القوم خلسة وقد عبر الفرات على زورق من زوارق
الصيد
صغير، بعد لأي وجهد كبير؛ وأنه كان - وقد مضى الهزيع الأول من الليل - يكمن له وراء
نخلة في طرف حديقة مجاورة لبيوت القبيلة مما يلي مضرب الحرس ملثماً بكوفيته،
متلفعاً بعباءته السواء؛ مصمماً على قتله
وكان موقع الحارس جسام قريباً من الحديقة؛ وكان خصمه يتبينه؛ وكان يعرفه مستدلاً
عليه بصوته الذي كان يرتفع بين دقائق ودقائق إذ ينادي صحبه نداء الحذر والانتباه
وكان ينظر إليه وهو واقف في الظلام، ظلام الحديقة الذي كان يستره كالخنزير
الحانق على الصياد؛ ويقول بصوت خافت؛ وكأنه يتوعده:
- (. . . .اصبر لي قليلاً يا ابن الكلب)
ثم حشا بندقيته؛ وقد اشتدت ضربات قلبه؛ وبدت على وجهه سيماء الإنسان الوحشي
القديم؛ وثنى ركبتيه وأطال النظر في عدوه ليسدد الرمي؛ وكاد يطلق رصاصاته
الخمس التي أعدها لقتله، لولا أن رأى بجانبه حارساً آخر أقبل عليه مسرعاً. فكان
على بداي لقتل واحد منهما أن يقتل الاثنين معا، وهذا ما لم يكن يريده؛ لأن ثأره على
تلك الصورة يخلق له مشكلة يصعب عليه التخلص منها، فقد يغتفر له ذوو جسام وأبناء
قبيلته قتله لأنه قاتل أخيه، ولكنهم لا يغتفرون له قتل الثاني؛ ولابد لهم من قتله بعدئذ
ليثأروا به منه
وتملكته الحيرة فلم يدر ماذا يفعل
ثم بدا له أن يتوقع عودة القادم، لينفرد بفريسته، وبينما هو في موقفه هذا، ارتفعت
من جانب بعيدً قيدَ غلوة صيحة حارس يستغيث
لقد حم الأمر؛ وتفجرت المياه من ثلمة حدثت في السد المصاقب، ومضى الحرس

وفي طليعتهم جسام، يعدون مستبقين لسد الثلمة، فلم يتمكنوا من ذلك، ولم يكن دفع المياه المتدفقة المتحدرة تحدر السيل من أعالي الجبال مستطاعاً
واستيقظ أبناء القبيلة فروَّعهم الحادث، وشعروا بوقوع الكارثة، فأضاعوا رشدهم، كما أضاعوا من قبل جهودهم كلها في الزرع وفي إقامة السدود. وحاولوا كفاح المياه العرمة فحاولوا عبثاً، وراموا مستحيلا
وما كان أمامهم إلا الهرب، فكان النساء يولولن، والأطفال في خوف ورعب يتصارخون. وكان جسام ذا أسرة تتألف من زوج، وثلاثة أطفال، وأم عجوز، وأخت. وكان الرجل آخر
هارع إلى أمه وإلى أطفاله لينقذهم من الغرق، وقد خسر مع الخاسرين نصيبه في الزرع، ونسي بقرته وغنمه؛ وعلى هذه البقرة والغنم تقوم حياتهم بعد الزرع. . .
وأدركت الرحمة الطبيعة حينئذ، فسكنت الريح، وانقشع الغبار، فهذا القمر المنير زاهياً متلألئاً يطل على هذه الفاجعة في قسوة وجمود
- 3 -
وبعد ساعة أو أقل كانت الثلمة متسعةً، تنصب منها في السهل الكائن وراءها حيث البيوت ثم الحقول، مئات الألوف من الأمتار المكعبة من الماء. وكان بداي يشهد هذه الفاجعة التي فجعت بها القبيلة في دهش وتألم. وكانت نفسه ساكنة هادئة بعد أن أفلتت فريسته منه، وأحس شيئاً يتمزق في جوفه. ثم أستيقظ في نفسه شعور غريب جديد، هو غير الشعور بالضراوة والرغبة في الانتقام والثأر؛ وذهل عما جاء من أجله؛ فاقترب من بيوت القوم قليلاً، فرأى - مما رأى - أطفال جسام الثلاثة في صراخهم وعويلهم، والأب يحمل منهم الاثنين الكبيرين وكانا في الرابعة والخامسة، نحيفين واهنين من مرض أو جوع، وزوجه تحمل بعض المتاع وتقتاد البقرة، وأخته تريد أن تحمل أمها العجوز، والطفل الثالث، وهو في الثالثة من العمر ما يزال على الأرض متشبثاً بأذيال أمه يرتجف ويعول باكياً، والأم ذاهلة تحني فتتناوله لتحمله فوق المتاع، فيفلت منها زمام البقرة؛ ثم يذكر الأب، وهو دهش يحمل طفليه، غنمه فيذهب إليها حيث كانت في زريبة مجاورة ليسوقها أمامه. . . وأبناء القبيلة كل منهم مشغول ببلائه، وقد اختلط الحابل بالنابل؛ فكانوا في مثل يوم المحشر الموعود
وكانت الكلاب تنبح شاعرة بالخطر نباحاً صاخباً يملأ الجو
وحينئذ كان بداي يحكم لثامه شداً، ويتنكب بندقيته، ويشمر عن ساعديه؛ ويبادر لنجدة هذه الأسرة وعونها. وأقبل على الأم الذاهلة فتناول منها طفلها فخفف عنها حملها الثقيل. وحسبه جسام، وقد حانت منه التفاتة إليه في الزحام، واحداً من أبناء عمه، فخاطبه مرشداً ومشجعاً:
- (دونك السد)
وكان السد الممتد على طول النهر والمؤدي إلى قرية قريبه، الطريق الوحيد الذي لجأ إليه
القوم طلباً للنجاة من الغرق لقربه من بيوتهم وارتفاعه عن السهل المنبسط الذي أخذ الماء يغمره شيئاً فشيئاً. . .
وإذ تخلصت زوج جسام من وليدها، واطمأنت لنجاته، استطاعت سحب البقرة وراءها واستنقاذ ما حملت على ظهرها من متاع البيت. وحملت أخته أمها العجوز. وبلغوا يخوضون الماء المتدفق خوضاً، معه، وهو حامل طفليه. واستعدوا ليمشوا وراء قافلة القبيلة التي رحلت من مستقرها وقد مسها ضر أليم. وأقبل أثرهم الرجل الملثم حاملاً الطفل الصغير فأنزله إلى الأرض، واقترب حتى قابل جساماً فحل عنه لثامه، ونظر إليه، في ضوء القمر، محملقاً كأنه يقول له:
- (هلا عرفتني؟ فأنا خصيمك طالب ثأر عباس؟)
ولبثا دقيقة ينظر الواحد منهما إلى الآخر، وقد أوشكت أن تثور فيهما نوازع الرغبة في الاقتتال، هذا ليدافع، وهذا ليثأر وينتقم
ونحَّى جسام طفليه عنه في تأن وحذر، ومد يمناه إلى خنجر
بيد أن بداي أخلف ظنه فما زاد على أن هز رأسه، وقال له بصوت أجش:
(اذهب الآن!. . مع السلامة. . خلصت. . ولكن لا تنسى أن لك ساعة أخرى!)
وانكفأ إلى زورقه مسرعاً، تاركاً ثأره وزوجه التي انتبهت إليه آخر الأمر، في حيرة

واستغراب
وآب بداي الفايز إلى قبيلته ساكناً هادئاً، فخوراً بالفعلة التي لم يفعل مثلها أحد قبله، إذ أنجد أسرة حين لم يكن له من إنجادها بد، واستحيا لأجلها، ولو إلى حين، نفساً ما كان لها إلا أن تموت

ومر عام على هذا الحادث. فعادت قبيلة جسام إلى أرضها الأولى، بعد أن زال عنها الماء الذي غمرها أشهراً؛ وأنشأت لها سداً جديداً على ساحلها؛ فجاءها رسل من القبيلة الثانية يسعون بين بداي وجسام بالصلح، ويحملون دية القتيل مالاً وامرأة وهي أخت القاتل، فتزوجها بداي زواج (الفصل) على سنة القبائل الموروثة وتقاليدها ولم يعد أحد يجرؤ، بعد ذلك، أن يعير الفتى بأنه نام عن ثأره نوم الجبان الذليل
(العراق - الأعظمية)
محمود. أ. السيد
البريد الأدبي
تبسيط اللغة الإنكليزية واهتمام الإنكليز بنشرها
يبدي الإنكليز في الوقت الحاضر اهتماماً بنشر اللغة الإنكليزية، ويحاولون بمختلف الوسائل أن يجعلوا منها لغة دولية عامة، كاللغة الفرنسية في الشؤون والمعاملات الدولية والتجارية؛ ويرجع هذا الاهتمام إلى ما بعد الحرب الكبرى إذ أتسع نطاق الإمبراطورية البريطانية أتساعاً عظيماً، وضمت إليها شعوب وأمم جديدة، وزاد نفوذ إنكلترا الدولي تبعاً لذلك، واتسع نطاق تجارتها اتساعاً عظيماً. والإنكليز أقل الأمم اهتماماً بدرس اللغات الأجنبية، وقد حاولوا أن يتلافوا هذا النقص بفرض لغتهم على الشعوب التي تنضوي تحت لوائهم، ولكنهم يرغبون اليوم في التقدم خطوة أخرى، وذلك بالعمل لجعل اللغة الإنكليزية لغة دولية اختيارية. وقد رأوا أن أنجع وسيلة لتحقيق هذه الغاية هو تبسيط اللغة الإنكليزية إلى أبعد حد، وانتهوا فعلاً إلى عمل هذه التجربة. فقام الأستاذ أجدن أحد أعضاء المعهد اللغوي بجامعة كامبردج باختيار الألفاظ الإنكليزية التي تعبر عن أكبر عدد من المعاني المطلوبة، وانتهى إلى حصرها في 850 كلمة تكون وحدها لغة إنكليزية جامعة وافية بالتعبير عن كل ما يرغب، ويكفي لدرسها وحفظها ثلاثون ساعة، وليس فيها أي تضارب ولا تعقيد، وليس فيها من الأفعال سوى 18 فعلاً، وقد سميت هذه اللغة (بالإنكليزية الأساسية). ويعلق الإنكليز على هذا التبسيط المدهش للغة تبلغ كلماتها عشرين ألفا آمالاً كبيرة، وتنوه الصحف العلمية بهذه المناسبة بأن أحب الكتاب الإنكليز إلى الشعب الإنكليزي هم أبسطهم لغة وبياناً مثل سويفت وبرناد شو، ومن ينحو نحوهما في التعبير الجزل البسيط الذي لا يتخلله حشو ولا ترادف ولا تعقيد
أزمة الديموقراطية
تشغل أزمة الديموقراطية أذهان الساسة والكتاب الأحرار. وقد صدرت في موضوعها في الآونة الأخيرة مؤلفات عديدة ولا سيما مذ تولت عصبة الهتلريين الحكم في ألمانيا وسحقت كل أنواع الحقوق والحريات العامة؛ ومنذ أسابيع قلائل ظهر كتاب جديد في الموضوع بقلم مسيو دي روفيرا الكتاب والسياسي الأسباني عنوانه (تجربة سياسية) ومن رأي هذا الكتاب أن الديموقراطية تجتاز أزمة الموت، بيد أنه من المستحيل أن يظفر المؤرخ أو
السياسي المعاصر بجراثيم الداء التي تنخر أسس الديموقراطية؛ وأكبر الظن أن مؤرخ القرن الثاني والعشرين أو الثالث والعشرين سيكون أقدر منا على تفهم الصلات والحوادث التي تربط الثورة الفرنسية بالحركات الثورية الجديدة مثل الشيوعية والفاشستية، وأقدر منا على تفهم المراحل التي جازتها المبادئ الثورية السياسية حتى انتهت إلى نواحيها الاجتماعية؛ وقد يرون أن نحول العالم القديم إلى العالم الجديد قد أستهدف لسلسلة من النزعات والعوامل المضطربة. ثم يقول مسيو روفيرا: إننا نشعر الآن في جميع أوربا بضرورة الإرادة العاملة؛ ولنا أن نسميها (سلطة) أو (طغياناً) فان المهم هو أننا نريد أن نعمل. ويجب علينا إلا نحكم على آبائنا بالبله والعجز لأنهم لم يبتوا في المسائل بشيء. والواقع أنه يجب أن نعتبر خاتمة القرن التاسع عشر وفاتحة القرن العشرين مرحلة الهدم بالنسبة للعالم القديم، ومرحلة التجارب الهائلة؛ وليس

ثمة ما يدهش إذ نرى ما نرى من ذلك الاضطراب الهائل الذي يسود شؤون العالم اليوم. وقد أثارت ملاحظات المسيو دي روفيرا كثيراً من الاهتمام والجدل لأنها تتعلق بمسألة تعتبر مسألة العصر، سياسياً واقتصادياً واجتماعياً

رسائل جديدة لشارلس دكنز

صدر في لندن مجلد من رسائل جديدة لشاركس دكنز الكاتب الإنكليزي الفكه، محتوياً على جميع الرسائل التي كتبها دكنز لزوجته كاترين هوجارت من سنة 1835 إلى سنة 1867 وكانت مدام دكنز قد أوصت بهذه الرسائل لبناتها، وأودعتها ابنتها الثانية كات بيروجيني بالمتحف البريطاني وأوصت بأن تبقى في طي الكتمان بعيدة عن النشر والإذاعة حتى تموت هي، والسير هنري فلدنج دكنز آخر من بقي على قيد الحياة من نسل الكاتب الشهير. وقد عمل المتحف البريطاني بهذه الوصية ولم يسمح بإذاعة الرسائل حتى تحقيق شرط الانقراض. وليس في هذه الرسائل جديد مما لم يعرف عن حياة دكنز، ولكنها تلقي ضياء جديداً على ما كان بينه وبين زوجه من الخلاف وما كان بينهما من أسباب النفرة والاحتكاك مذ عرفها باسم كاترين هوجارت. والرسائل الجديدة على وجه العموم صورة حية من خواص دكنز ومواهبه الكتابية، وهي تسبغ على الحوادث والمسائل التي تتناولها حياة جديدة لم تتوفر في أية ترجمة من التراجم التي تناولت حياة الكاتب الكبير، وفيها يبدو

دكنز في ذروة براعته المعروفة في التصوير الفكه المبكي معاً. وقد تلقى الجمهور الإنكليزي الرسائل الجديدة لهذا الكاتب المحبوب بلهفة واشتياق. واللذين قرأوا من أبناء العربية شيئاً من قصص دكنز ولا سيما قصته الخالدة (دافيد كوبرفيلد) أو (نادى بكويك) أو (نيكوك س نيكلباي) أو غيرها يذكرون كيف يستطيع هذا الكاتب المبدع أن يصور حياة البؤس والتشريد في صور بسيطة مبكية معاً، وكيف يستطيع أن يهز أوتاراً القلوب بعرضه المؤثر وبيانه الخلاب

وليم كوبيت

تحتفل الدوائر الأدبية الإنكليزية الأدبية بذكرى كاتب مازالت كتابته تطبع أذهان النشء الإنكليزي بطابع قوي: ذلك هو وليم كوبيت الذي توفي منذ مائة عام. وقد ولد كوبيت سنة 1762 في فرنهام من أعمال سوري، في أسرة ريفية فقيرة، وقضى حداثته في فلاحة الأرض، ثم تقلب في مهن صغيرة مختلفة، فاشتغل كاتباً وجندياً ولما ترك الجندية سافر إلى أمريكا وقضى بها ردحا من الزمن ثم عاد إلى إنكلترا؛ واشتغل ذلك بالصحافة آنا وبالزراعة آناً آخر، ولقي في حياته العملية صعاباً جمة نظراً لمناوأته رجال الحكم؛ واستقر في إنكلترا منذ سنة 1800 وأخذ يعالج الصحافة السياسية أولاً إلى جانب حزب الأحرار، ثم إلى جانب المحافظين؛ وكانت صرامته وعنفه وشدة حملاته تثير عليه السخط في الجانبين، ولكنه مع ذلك كان يبدي براعة ظاهرة في حملاته، وكان مرهوب القلم. وفي سنة 1817 سافر إلى أمريكا مرة أخرى ومكث بها عامين ثم عاد إلى إنكلترا؛ ورشح نفسه للانتخاب النيابي فسقط لأول مرة، ثم عاود الكرة بعد ذلك ونجح في الانتخاب كنائب عن أولد هام. بيد أنه لم يبد في مجلس العموم مقدرة خطابية. ولم يلبث أن توفي بعد ثلاثة أعوام، في يونيه سنة 1835

وقد كان كوبيت من أعظم النقدة في عصره، وكان كاتباً وصفياً لا يجارى، وكان يملك زمام البيان بقوة مدهشة؛ وكان أشد تأثيره في شباب عصره؛ وأشهر مؤلفاته (نزهات ريفية) و (نصيحة إلى الشبان والشابات) وهو من خير ما كتب وخير ما ظهر في عصره؛ ثم رسائله السياسية الأسبوعية وهي تملأ مجلدات كثيرة

الذكرى الثلاثون للإمام محمد عبده

أقامت رابطة الشباب الأدبية في الساعة السادسة من مساء الخميس الماضي بالدار الجديدة لجمعية الشبان المسلمين احتفالاً رائعاً بذكرى مرور ثلاثين عاماً على وفاة المصلح الكبير الإمام محمد عبده، شهده صفوة من رجال العلم وجمهرة من شباب الأمة، وتكلم فيه الأستاذ عبد الوهاب النجار عن حياة الإمام، والأستاذ مصطفى عبد الرزاق عن الإمام في الأزهر، والدكتور محمد حسين هيكل عن الإمام في الصحافة، والأستاذ عبد الله عفيفي عن دفاع الإمام عن الإسلام، والأستاذ الهلباوي بك عن الإمام في القضاء؛ وكادت هذه الخطب الممتعة تؤلف للإمام ترجمة وافية لولا أن ضيق الوقت أعجل الأستاذين النجار والهلباوي عن لم الموضوع واستيفاء البحث

الكتب
1 - فتح العرب لمصر: للدكتور بتلر
ترجمة الأستاذ محمد فريد أبو حديد
2 - فنون الطهي الحديث
لمؤلفيه السيدين أبي زيد أمين وطغيان سعيد
للأستاذ محمد بك كرد علي

من الكتب كتاب واحد يغني عن عشرة، وقلما أغنى قط كتاب عن كتاب. وهذا الكتاب في فتح العرب مصر يدخل في باب ما لا يستغني عنه من الكتب لفائدته وطرافته. صرف مؤلفه في وضعه وقتاً طويلاً يدرس ويبحث، ثم يستقرئ ويستنتج، فجاء كتابه ناضجاً من كل وجه، حرياً بأن يتعلم بعض من يؤلفون بالعربية أصول التأليف المنقحة بالنظر إلى هذا الكتاب وكيف يدرس الغربيون أبحاثهم ليفيدوا العلم ويأتوا بالمتقن من صفحاته

استعان المؤلف في تأليفه بشذرات قليلة مما كتبه الروم ومؤرخو الكنيسة القبطية، وما كتبه أهم المؤرخين من العرب والإنجليز والفرنسيين والألمان، وما عثر من أوراق البردي في أرجاء مصر، وما كشف من عادياتها القديمة، ورجع إلى عالم عصره الشيخ محمد عبده فأعطاه بعض قطع اختارها أو كتبها، وكانت خاصة بالفتح، وساعده غير واحد من أعلام مصر في قراءة جمل من القبطية وغيرها فجلا تاريخ هذه الحقبة بأجمل أسلوب عصري، صوَّر لك ما وقع من حوادث الفتح العربي كأنك تشهدها قال: (ولعل القارئ يستطيع من مطالعة الملاحق التي ألحقناها في آخر الكتاب أن يتبين شيئاً من مقدار ما هنالك من خلط في التاريخ، ومقدار ما عانيناه من المشقة في ابتداع طريقة لضبط تواريخ الفتح الفارسي والفتح العربي، فالظاهر أن مؤرخي العرب لا يعرفون شيئاً عن تيودور القائد الأعلى لجيوش الروم، فهم يخلطونه ببعض أصاغر القواد، وهم كذلك يخلطون بين قيرس (المقوقس) وبنيامين، وبين فتح قطر مصر وفتح مدينة مصر، وفتح الإسكندرية، ولا يميزون بين فتح الإسكندرية الأول الذي كان صلحاً وبين

فتحها الثاني الذي كان عنوة، وكانوا يذهبون إلى أن القبط قد ساعدوا العرب ورحبوا بهم. وقد ظلم التاريخ القبط في ذلك ظلماً فاحشاً على نحو ما ظلم العرب ظلماً كثيراً بنسبة حريق خزانة كتب الإسكندرية إليهم) قال: وما كان لنا إلا قصد واحد وهو أن نصل إلى الحق، وقال إنه ممن يحمل لكل من الشعبين العربي والقبطي أكبر الإعجاب ومن براهينه في تبرئة العرب من حريق خزانة الإسكندرية أن هذه القصة لم تظهر إلا بعد نيف وخمسمائة عام من وقت الحادثة وقد فحص هذه الحكاية وحللها (شأن عشرات من علماء المشرقيات) فألفاها كما رأوها سخافات مستبعدة ينكرها العقل، وقال أن الرجل الذي ذكر أنه كان أكبر عامل فيها مات قبل غزو العرب بزمن طويل، وإن القصة قد تشير إلى واحدة من خزانتين: الأولى خزانة المتحف، وقد حرقت في حريق قيصر، وإذا لم تتلف كلها كان ضياعها فيما بعد في وقت لا يقل عن أربعمائة عام قبل فتح العرب. وأما الثانية وهي خزانة السرابيوم أما أن تكون تلفت قبل عام 391، وإما أن تكون قد ضاعت، وعلى كل فقد ضاعت أخبارها قبل فتح العرب بقرنين ونصف قرن، ولو كانت هذه الخزانة باقية عندما عقد قيرس صلحه مع العرب على تسليم الإسكندرية لنقلت الكتب، وقد أبيح ذلك في شروط الصلح الذي يسمح بنقل المتاع والأموال في مدة الهدنة وقدرها أحد عشر شهراً، وإن كتاب القرنين الخامس والسادس لا يذكرون شيئاً عن وجود الخزانة، كذلك كتاب أوائل القرن السابع، وأنه لو صح أن هذه الخزانة قد نقلت أو لو كان العرب قد أتلفوها حقيقة لما أغفل ذلك كاتب من أهل العلم وهو يوحنا النقيوسي، وكان قريب العهد من الفتح، ولما مرّ على ذلك بغير أن يكتب حرفاً الخ

وقال المؤلف في الحاشية إنه لم يقصد سوى إثبات الحقيقة، وما قصد الدفاع عن العرب، وليس الدفاع بضروري، ولو كان ضرورياً لما تعذر أن نجد شيئاً يليق الاعتذار به عن ذلك، ولا شك أن العرب عنوا فيما بعد بجمع كثير من الكتب القديمة وغيرها مما وقع في أيديهم، وعنوا بحفظها، وترجموا منها في كثير من الأحوال. قال: وفي الحق أنهم أقاموا مثلاً يجدر بفاتحي هذه الأيام أن يحذوا حذوه، فقد نقل سيديليو في تاريخ

العرب العام أن الفرنسيين عندما فتحوا مدينة قسطنطينية في شمال أفريقية أحرقوا كل الكتب والمخطوطات التي وقعت في أيديهم (كأنهم من صميم الهمج)؛ ووجد الإنجليز عند فتح مدينة مجدلة خزانة
كبرى من الكتب الحبشية فحملوها معهم، ولكنهم لم يلبثوا أن تركوا أكثرها في كنيسة على جانب الطريق إذ وجدوا في حملها عناءً. وقيمة الكتب التي نجت وحفظت تدل على فداحة الخسارة التي لحقت العلم بضياع ما ترك منها أهم
بهذا الإنصاف، وهذه العناية، وهذا الجهد، ألف المؤرخ الإنجليزي تاريخ الفتح العربي في مصر، فرسم صورة جميلة، وكان إعجابه بعمرو بن العاص لا يقل عن إعجابنا معاشر العرب به وبأمثاله من الصحابة الفاتحين. وعناية المترجم الفاضل شديدة بتجويد ترجمته على صعوبتها لما حوت من النقول العربية وغيرها من اللغات ليرد الوثائق إلى أصلها؛ وقد وقع له تحريف في بعض الأعلام، ومنها ترجمته اذاسا وهي الرُّها وأطلق عليها الترك (أورفه)؛ ومنها (افيسوس) وهي (إفسس) مدينة في آسيا الصغرى أطلالها قرب أزمير اليوم؛ ومنها (برجاموس) وهي (فرغاموس)، وفي قاموس الجغرافية القديمة للعلامة أحمد زكي باشا أن فرغامس هو الاسم الوارد في كتب العرب للدلالة على مملكة قديمة بآسيا الصغرى اسمها عند الإفرنج ومنه اشتقوا الكلمة التي يطلقونها على الرق (بفتح الراء) أي الجلود المستعملة للكتابة، لأنها أول ما صنعت بهذه المملكة، فيقول الطليانيون والفرنساويون الخ. وقال مدينة (بيرويه) وهي مدينة حلب ذاتها. هذا إلى هنات قليلة لا يكاد يخلو منها كتاب منقول إلى لغتنا من لغة أعجمية. أما الترجمة في مجموعها فيستحق عليها المترجم كل ثناء وشكر

- 2 -

أحسن مؤلفا فن الطهي الحديث على الطراز العربي والغربي وضعه. ألفاه بعد أن عانيا صناعة الطبخ بالعمل في مصر وبلاد الغرب سنين طويلة وعملا في قصور الملوك والأمراء وفنادق النبلاء والملآء، فجاء الكتاب نافعاً في بابه لا تستغني عنه ربة دار، ولا طاهٍ يروقه أن يزين خُوانه بشهيّ الألوان، ويتفنن في تلذيذ الآكلين بطعام صحي منوع.

جاء الكتاب في 1170صفحة كبيرة وصفت فيه الأطعمة والحلويات والمتبلات مشفوعة بالمقادير الواجب استعمالها وبصورة وضعها وصنعها بحيث لا يكاد يحتاج من يريد الاقتباس منها إلا إلى قليل من الدقة والعناية حتى يتفنن في طبخ الطعام ويجهز ألواناً رائعة شائقة شكلاً وطعماً. وكنا نتمنى لو دفع المؤلفان كتابهما إلى من يصقل عباراته ويترجم
أسماء بعض الألوان الإفرنجية بألفاظ عربية تدني مفهومها من ذهن من لا يحسن لغة من اللغات الأجنبية من أبناء العرب

وقديماً ألف أجدادنا في هذا الموضوع بما دل على رسوخهم في الرفاهية، وقرأنا في الكتب أن الخليفة الفلاني أو الملك الفلاني كان يقدم على مائدته عشرات بل مئات من ألوان الطعام. والتفنن في الطبخ دليل الحضارة، ولطالما كان بعض الأمراء يرسلون إلى الأقطار البعيدة بعض طهاتهم ليأخذوا عنها صنع أطعمة لا يعرفونها، والمطابخ الإفرنجية اليوم أرقى من المطابخ الشرقية؛ لأن طعامها يطهى على أساليب كيماوية صحية لا نزاع في خفتها وطرافتها. وحضارة الغرب أرقى من حضارة الشرق، اللهم إلا في مسائل يتفرد بها الشرقيون

فليس البحث في الأكل الجيد إذاً بالذي يعد انحطاطاً، ونحن لو أنعمنا النظر لا نفسر هذا الجدال القائم بين البشر اليوم وقبل اليوم وبعد اليوم إلا على الرفاهية، وما فلسفة الأمم إلا فلسفة خبز في الواقع. ودعوى خدمة المدنية والإنسانية صورة مبهرجة يراد بها غير ما تعطي ظواهرها. والأمة التي يكثر خبزها وتتلون أطعمة المتوسطين والموسرين فيها هي أمة راقية سعيدة، والعرب الذين عهدنا لهم تلك الخشونة في المطعم لما فتحوا الممالك وخرجوا من جزيرتهم أغرقوا في التنطع والتنوّق إغراق غيرهم من الأمم

محمد كرد على

العدد 107 - بتاريخ: 22 - 07 - 1935

محمد حافظ إبراهيم

بمناسبة ذكراه الثالثة

كان الجيل الماضي بمصر لا يزال يعيش على بقايا تخلفت من تقاليدنا الجميلة في الجماعات والأسر، فالناس يجرون على أثر من خلال الفتوة، يرتاحون للندى، ويتنافسون في العرف، ويهتزون للبطولة، ويطربون للبيان، ويجيزون على الشعر؛ و (مناظر) الدور وأبهاء القصور تأخذ في كل مساء زخرفها من أهل الأدب ورجال السياسة وأصحاب الجاه وأرباب الحكم؛ وكان مدار الحديث فيها على النكتة البارعة، والخبر الطريف، والمسألة الدقيقة، والبلاغة المأثورة، يتساقطها السامرون على محض المودة ووثوق الألفة، فتفتق الذهن، وتصقل الذوق، وتوجه الميل، وتنيل الحظوة؛ وكانت المواهب والملكات تتفتح في جوانب هذه الأندية فتدل على نفسها أهلَ النفوذ فيُشبلون عليها حتى تزهر وتثمر؛ وكانت النهضة الأدبية والحركة الفكرية يومئذ في طور الانتعاش، تتحركان للنمو والسمو على نفحات المرصفي والبارودي والأفغاني وعبده وسلمان وحمزة والشنقيطي واليازجي والمويلحي ونديم وسعد وفحتي ومصطفى وقاسم؛ فالمجالس تُشيع جر الكلام، والصحف تذيع بارع النقد، والخديويون يتخذون من الأدباء ندامى، ومن الشعراء بطانة، حتى قر في نفس حافظ وأنداده من ناشئ الشباب الطامحين أن الأدب كان سبيل الثراء (لليثي)، وسبب المجد (لسامي)، ووسيلة الزلفي (لشوقي)، فتجهز لهذه الغاية بجهاز هذه البيئة، فروى رقائق الشعر، وجمع مقطعات الحديث، وراض نفسه على معاناة القريض.

كان عمر حافظ سنتين حين توفى أبوه فقيراً في (ديروط)، فنشأ في مهد اليُتم والعُدم لا يجد حانياً غير أمه، ولا كافياً غير خاله، فجاز مرحلة التعليم الابتدائي في ضيق وشدة، ثم قضى بضع سنين في طنطا متبطلاً يُزَجِّى فراغه بالقراءة ويدفع ملاله بالقريض، ولم يستطع خاله لسبب ما أن يجلو عنه غمة البائس، وذلة اليتيم، فكان لا يفتأ متبرماً بالعيش، متأففاً من الناس، متجنياً على القدر، لا ينشئ الشعر إلا في ذاك؛ ثم دفعته الحاجة إلى مكاتب المحامين - وكانت يومئذ مفتحة الأبواب لكل داخل - فتبلغ من العمل بها حيناً، حتى أسعفته الفرص فدخل المدرسة الحربية، وهي مطمح بصره وحديث أمانيه؛ ثم خرج منها ضابطاً إلى السودان ليشهد صلف الإنجليز وضراعة المصريين، فيثور مع إخوانه الضباط على جور المحتل وفضول الدخيل، فينفى فيمن نفي من السودان والجيش.

عاد حافظ كما كان يضطرب في الحياة النابية المبهمة، لا يستريض لعمل، ولا يستقر على أمر، ولا يتشوف إلى غاية، لأن طفولته الشاردة المهملة طبعته على الكسل والملل والتشاؤم والوحشة؛ ولأن عقيدته التقليدية الخاطئة أن الشعر وحده يشغل الحياة، ويبسط الرزق، ويكسب الحقوق، أحيته على نمط مسلم ابن الوليد وأبي نواس وأضرابهما، ممن عاشوا صنائع للملوك، وحمائل على الجوائز، ووسائل للهو؛ فأبى الوظيفة وهي على حبل ذراعه، وآثر أن يعيش في ظلال الإمام محمد عبدة ينتفع بجاهه ويفئ إلى رفده، ويغشى مع ذلك أبهاء النعمة يسامر أهلها بعذل حديثه، وينادمهم برقيق شعره، ثم يتطلع الحين بعد الحين إلى صلات القصر فيحجبه عنها شاعر الأمير بحوله وقوله.

ومن أدب الشعراء الكاسبين بالشعر أن ينفقوا إلى حد السفه إذا عاشوا في الحاضر كصريع الغواني وابن هاني، وأن يمسكوا إلى حد الكزازة إذا عاشوا في المستقبل كأبي العتاهية والبحتري، ومن الأولين كان حافظ!

تمتلئ يداه بالمال اليوم فيعتريه حال من البرم والقلق لا تنفك عنه حتى كله قبل الغد على إخوانه الكثيرين من طرائد البؤس وصرعى الأدب، ثم يطارحهم بعد ذلك على مقاعد القهوة الشعر الباكي في لؤم الزمان، وظلم الإنسان، وشقاء الأديب.

قطع حافظ مراحل عمره على هذا المنهج البوهيمي لا يدخل في نظام، ولا يصبر على جهد، ولا يرغب في عمل، ولا يطمئن إلى تبعة، وإنما يضطرب نهاره من قهوة إلى قهوة، ويتقلب ليله من مجلس إلى مجلس؛ وأينما كان كان الأنس الشامل، والظرف الناصع، والأدب الغض، والحديث المشقق الذي يمتزج بالروح، ويغمر بالنشوة جوانب النفس.

تقوضت أسرة حافظ وهو في المهد، فشب وحشي الطبع معري الغريزة لا يتضح في نفسه معنى البيت، ولا يجري في حسه شعور الأسرة؛ ثم وقفت به قناعته الشاعرة عند الخد القريب من معالجة الأدب، فقصر جهده على صوغ الشعر في المناسبات،

وجمع النوادر للسمر، حتى بلغ من ذلك مكاناً لا يتعلق به درك. ولكنه حين أريد على ترجمة البؤساء، وكتاب الأخلاق، ووكالة دار الكتب، أدركته علة النشأة، فقعدت به عن التمام، وخذلته عن الاحادة، وشلته عن العمل. . .

(للكلام بقية)

أحمد حسن الزيات

كفر الذبابة. . .

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال كليلة وهو يعظ دمنة ويحذره ويقضي حق الله فيه؛ وكان دمنةُ قد داخله الغرور وزهاه النصر، وظهر منه الجفاء والغلظة، ولقى الثعالب من زيغه وإلحاده عنتاً شديداً: وأعلم يا دمنة أن ما زعمته من رأيك تاماً لا يعتريه النقص، هو بعينه الناقص الذي لم يتم، والغرور الذي تثبت به أن رأيك صحيح دون الآراء، لعله هو الذي يثبت أن غير رأيك في الآراء هو الصحيح. . .

ولو كان الأمر على ما يتخيل كل ذي خيال لصدق كل إنسان فيما يزعم، ولو صدق كل إنسان لكذب كل إنسان؛ وإنما يدفع الله الناس بعضهم ببعض، ليجيء حق الجميع من الجميع، ويبقى الصغير من الخطأ صغيراً فلا يكبر، ويثبت الكبير من الصواب على موضعه فلا ينتقص، ويصح الصحيح ما دامت الشهادة له، ويفسد الفاسد ما دامت الشهادة عليه، وما مثل هذا إلا مثل الأرنب والعلماء.

قال دمنة وكيف كان ذلك؟

قال: زعموا أن أرنباً سمعت العلماء يتكلمون في مصير هذه الدنيا، ومتى يتأذن الله بإنقراضها، وكيف تكون القارعة؛ فقالوا: إن في النجوم نجوماً مذنبة لو ألتف ذنب أحدها على جرم أرضنا هذه لطارت هواء كأنها نفخة النافخ، بل أضعف منها كأنها زفرة صدر مريض. فقالت الأرنب: ما أجهلكم أيها العلماء! قد والله خرفتم وتكذبتهم، ولا تزال الأرض بخير مع ذوات الأذناب، والدليل على جهلكم هذا -، قالوا: وأرتهم ذنبها. . .!

قال كليلة: وكم من مغرور ينزل نفسه من الأنبياء منزلة هذه الأرنب من أولئك العلماء؛ فيقول: (كذبوا وصدقت أنا، وأخطأوا جميعاً وأصبت، والتبس عليهم وانكشف لي، وهم زعموا وأنا المستيقن). ثم لا دليل له إلا مثل دليل الأرنب الخرقاء من هنة تتحرك في ذنبها. وكان يقال: إنه لا يجاهر بالكفر في قوم إلا رجل هان عليهم فلم يعبأوا به؛ فهو الأذل المستضعف؛ أو رجل هانوا عليه فلم يعبأ بهم، فهو الأعز الطاغية. ذاك لا يخشونه فيدعونه لنفسه وعليه شهادة حمقه، وهذا يخشونه فيتركون معارضته وعليه شهادة ظلمه؛ وما شر من هذا إلا هذا. وقالت العلماء: إن كنت حاكماً تشنق من يخالفك في الرأي، فليس

في رأسك إلا عقل اسمه الحبل؛ وإن كنت تقتل من ينكر عليك الخطأ، فليس لك إلا عقل اسمه الحديد؛ وإن كنت تحبس من يعارضك بالنظر، ففيك عقل اسمه الجدار. أما إن كنت تناظر وتجادل، وتُقنع وتقتنع، وتدعو الناس على بصيرة، ولا تأخذهم بالعمى - ففيك العقل الذي اسمه العقل.

قال كليلة: وأنا يا دمنة، فلو كنت قائداً مطاعاً، وأميراً متبعاً، لا يعصى لي أمر، ولا يرد عليّ رأي، ولا ينكر مني ما ينكر من المخلوق إذا أخطأ، ولا يقال لي دائماً إلا إحدى الكلمتين: أصبت أصبت؛ ولا يلقاني أحد من قومي بالكلمة الأخرى، رهبة من سخطي رهبة الجبناء، أو رغبة في رضاي رغبة المنافقين، وزعموا أنهم على ذلك قد خلص لي باطنهم جميعاً، وصحت نياتهم كلها - فلو كنت وكانوا على هذا، لأحالني نقصهم إلى نقص العقل بعد كماله، وردتني فسولتهم إلى فسولة الرأي بعد جودته، فأخلق بي أن أعتبر وضعهم إياي في موضع الآلهة هو إنزالهم إياي في منزلة الشياطين، وإلا كنت حقيقاً أن يصيبني ما أصاب العنز التي زعموا لها إنها أنثى الفيل. . .

قال دمنة: وكيف كان ذلك؟

قال: زعموا أنه كان في إحدى خرائب الهند جماعة من العظاء، وكان فيها عضرفوط كبير فملكته الجماعة وذهبت تأتمر عن أمره وتنتهي. فمر بهذه الخربة فيل جسيم من الفيلة، لم يحس بالعظاء، ولم يميز فرقاً بين هذه الأمة وبين الحصى منثوراً يلتمع في الأرض هنا وهنا؛ فنظر العضرفوط كيف يصنع به، وكان قائداً عظيماً، ثم تدبر أمر

الفيل، فرآه لا يتحرك إلا بأقدامه ينقلها واحدةً واحدة؛ فقدر عند نفسه أنه لو أزال قدم الفيل عن الأرض زال الفيل نفسه؛ فجاء فاعترض الطريق، ودب دبيبه إلى قدم الفيل؛ فلما رفع الفيل قدمه أهتبل هذه الغفلة منه. . . واندس تحتها، فأندس مقبوراً في التراب! ثم إن العظاء افتقدت أميرها. فلما مضى الفيل لسبيله، ورأت ما نزل بها نفرت إلى أحجارها وإستكنت فيها ترتقب وتررربص؛ فدخلت إلى الخربة عنز جعلت تتقمم منها وترتع فيها، ورأتها العظاء فاجتمعن يأتمرن. .

فقال منها قائل: هذه أنثى الفيل. فسألت عظاية منهن: وأين النابان العظيمان؟ قالت الأولى: إن الإناث دون الذكورة في خلقها، والأنثى هي الذكر مقلوباً أو مختصراً أو مشوهاً، ولذلك هن يقبلن الحياة أو يختصرنها أو يشوهنها. أفلا ترين النابين العظيمين البارزين في ذلك الفيل الجسيم، كيف نبتا صغيرين منقلبين فوق رأس أنثاه؟

فقالت واحدة: إن جاز قولك في الرأي فأين الخرطوم؟

قالت الأخرى: هو هذه الزَّنمة المتدلية من حلقها، وهو خرطوم على قدر أنوثة الأنثى. . .!

قالوا؛ ثم اجتمع رأيهن على أن يملكن أنثى الفيل هذه؛ وان يهبن لها الخربة وأمتها. وسمعت الماعزة كلامهن فقالت: لا جرم أن تكون العنز فيلة في أمة من العظاء، فقد قالت العلماء: إنه لا كبير إلا بصغير، ولا قوي إلا بضعيف، ولا طاغية إلا بذليل؛ وان العظمة أن هي شهادة الحقارة على نفسها، وانه رب عظيم طاغية متجبر ما قام في الناس إلا كما تقوم الحيلة، ولا عاش إلا كما يعيش الكذب، ولا حكم إلا كما يحكم الخداع. وهذه الدنيا للمحظوظ كأنها دنيا له وحده، فحتى جاءت إليه فقد جاءت، وإذا أدبرت عنه من ناحية رجعت من ناحية اخرى، ليثبت الحظ انه الحظ.

وتقدم العظاء إلى العنز فقلن لها: أيتها الفيلة العظيمة، إن قرينك العظيم قد مس أميرنا العضرفوط بقدمه فغيبه تحت سبع ارضين، واننا قد اخترناك ملكة علينا، ووهبنا لك الحربة وما فيها.

قالت العنز: فإني أتهب منكن هذه الهبة، ونعماً صنعتن؛ غير أن بينكن وبيني ما بين العظاية والفيل، وما بين الحصاة والجبل؛ فإذا أنا قلت؛ وإذا أنا أمرت، فأنا أمرت؛ وإذا أنا فعلت، فأنا فعلت. هنا في هذه الأمة كلها (أنا) واحدة ليس معها غيرها؛ لأنه هاهنا في هذا الرأس دماغ فيلة، وفي هذا الجسم قوة فيلة، وفي الخربة كلها فيلة واحدة؛ فلا اعر فن منكن على الصواب والخطأ إلا الطاعة، طاعة الأعمى للبصير. إلا وان أول الحقائق أنني فيلة وإنكن عظاء؛ ومتى بدأ اليقين من هنا سقط الخلاف من بيننا وبطل الاعتراض منكن، وقوتي حق لأنها قوة، وباطلي كذلك حق لأنه من قوتي؛ وقد قال حكماء الفيلة: إن القوي بين الضعفاء مشيئة مطلقة، فهو مصلح حتى بالافساد، حكم حتى بالحماقة، أمام حتى بالخرافة، عالم حتى بالجهالة، نبي حتى بالشعوذة. . . . .!

قالوا؛ وتنكر عليها عظاية صالحة عالمة كانت ذات رأي ودين في قومها، وكن يسمينها: لبياضها وصلاحها وطهارتها، فقالت: ولا كل هذا أيتها الفيلة؛ لقد تخرصت ،(العمامة) غير الحق فانك تحكمينا من أجلنا لا من اجلك، وما قولك إلا كلمات لا يحققها إلا أعمالنا نحن؛ فلك الطاعة فيما يصلحنا لا فيما يفسدنا، ورأيك شيء ينبغي أن تكون معه اراونا، لتتبين الأسباب أسباب الموافقة والمخالفة، فنأخذ عن بينه ونترك عن بينه؛ وقد كان يقال في قديم الحكمة: انه يجب على من يقدم رأياً للامة الحازمة كي تأخذ به، أو يضع لها شرعاً ليحملها عليه، أو يسن لها سنة لتتبعها - يجب على هذا المتقدم لتحويل الأمة وتحريرها أن يتقدم لأهل الشورى وفي راسة الرأي، وفي عنقه حبل؛ ثم يتكلم برأيه ويبسطه ويدفع عنه، ويجادله ويجادلونه؛ فان كان الرأي حقاً اخذوا الرأي، وان كان بطلاً اخذوا الحبل فشنقوا فيه هذا المتهور.

وفي ديننا أن الطاعة في المعصية معصية أخرى؛ ولقد كان لنا عضرفوط بحاثة في الأديان دراسة لكتبها؛ فكان مما علمنا إن المخلوق مبني على النقص إذ هو ماض إلى الفناء، فيجب إلا يتم منه شيء إلا بمقدار، وألا تكون القوة فيه إلا بمقدار؛ ولهذا كان العقل التام في الأرض هو مجموع العقول كلها، وكان أتم الآراء وأصحها ما أثبتت الآراء نفسها أنها أصحها وأتمها. فلا الدين أتبعت أيها الفيلة ولا أتبعت فينا العقل.

فلما سمعت العنز ذلك تنفشت وغضبت، وقالت: إياكم وهذه الترهات من ألسنتكم،

وهذه الأباطيل في عقولكم؛ لا اسمعن منكم كلمة الدين ولا كلمة الأنبياء ولا العضافيظ. . . فذلك وحي غير وحي أنا؛ وإذا كان غير وحيي أنا فأنا لست فيه، وإذا لم أكن أنا فيه فهو لا يصلح للحكم الذي شرطه أن الدولة ليس فيها إلا أنا واحدة. وذلك إن لم يجعلكم غرباء عني جعلني غريبة عنكم، ما بد من إحدى الغربتين، فهو أول القطيعة، والقطيعة أول الفساد. وما دام في الدين أمر غير أمري، ونهي غير نهيي، وتحليل وتحريم لا يتغيران على مشيئتي - فأنا مجنونة إن رضيت لكم هذا . . .!

فضحكت (العمامة) وقالت للماعزة: بل قولي: أنا مجنونة بـ. . . أنا. أفلا يجوز وأنت خلق من الخلق أن يعتري عقلك شيء مما يعتري العقول؟ ولسنا ننكر أنك قوية الرأي في ناحية القوة، حسنة التدبير في ناحية الشجاعة، متجاوزة المقدار في ناحية الحزم والحرص على مصالح الدولة؛ ولكن ألم يقل الحكماء: إن الزيادة المسرفة في جهة من العقل تأتي من النقص المتحيف لجهة أخرى، وإنه رب عقل كان تاماً عبقرياً في أمور لأنه ضعيف أبله في غيرها؛ يُحسن في تلك ما لا يُحسنه أحد، ويُحكم منها ما لا يُحكمه أحد؛ ثم يغلط في الأخرى ما لا يغلط أحد فيه؟

قالوا؛ فجاشت العنز وفارت من الغضب فورة الجبار، وخيل إليها من عمى الغيظ أنها ذهبت بين الأرض والسماء، وأن زنمتها أمتد منها خرطوم طويل، وأن قرنيها أنبعج منهما نابان عظيمان؛ وقالت: ويحكم! خذوا هذه (العمامة) فاشنقوها؛ فأنها كما قالت؛ تقدمت إلينا بالرأي والحبل . . .!

وكان في العظاء ضعاف ومهازيل وجبناء ومأكولون لكل آكل؛ فتشبح لهم أن أنثى الفيل هذه. . . ستخلقهم فيلة إن هم أطاعوها؛ فإذا مردوا عليها فأنها من صرامة البأس بحيث تجعل كل ظلف من أظلافها جبلاً فوقهم كأنه ظله فتسوخ بهم الأرض. ثم أنهم إنخزلوا وتراجعوا وأخذت (العمامة) الصالحة فشنقت، وخمد الرأي من بعدها وانقطع الخلاف والدين والعقل الحر. . .؛ وأقبلت دولة العظاء على العنز تجرر أذيالها. . .

قالوا؛ واغترت الماعزة وأحست لها وجوداً لم يكن، وعرفت لنفسها وهي ماعزة نباهة شأن الفيل القوي، فلجت في عمايتها وكفرت بجنسها، وقالت: لم يخلقني الله فيلةً وخلقت نفسي؛ فأنا لا هو . . .

وثبت عندها أنها ليست بعنز وإن أشبهتها كل عنز في الدنيا؛ وذهبت تقلد وتعيش على مذاهب الفيلة بين العظاء؛ فإذا مشت إرتجَّت وتخطَّرت كأنها بناء يتقلقل، وإذا إضطجعت أنذرت الأرض أن تتمسك لا تدكها بجنبها . . .!

ومر ذلك الفيل بهذا الخراب مرةً أخرى، فلاذت العظاء كلهن بالفيلة. . . وتأهبت هذه للقتال وتحصفت في المبارزة والمناجزة. . . والمعانزة فنصبت قرنيها، وحركت زنمتها، وطأطأت، وشدت أظلافها في الأرض، وثبتت قوائمها، وصلبت عظامها، ونفشت شعرها، وتشوكت كالقنفذ، وأصرت بكل ذلك إصرارها؛ وكانت عنزاً نطيحة منذ كانت تتبع أمها وتتلوها، فكيف بها وقد تفيلت. . . .؟

ثم إنها ثبتت في طريق الفيل ليرى بعينه هذا الهول الهائل. . . فأقبل، فمد خرطومه، فنالها به، فلفها فيه، فقبضه، فرفعه، فطوحها، فكأنما ذهبت في السماء . . .!

وتهاربت العظاء ولذن بأجحارهن، ثم غدون على رزقهن فإذا جيفة العنز غير بعيد، فذببن عليها وإرتعين فيها وعلمن أنها كانت ماعزة فيلها جنونها، وأدركن أن الكذب على الحقائق قد جعل الله له حقائق أخرى تقتله، وأن من غلب أمة العظاء على أمرها فليست الأيام والليالي عظاء فيغلبها؛ وأن تغيير المخلوقات إنما يكون بتحويل باطنها لا بتحويل ظاهرها، وإن الإناء الأحر يريك الماء مُحمراً والماء في نفسه لا حمرة فيه، حتى إذا انكسر الإناء ظهر كما هو في نفسه؛ وكل ما يخفي الحق هو كهذا الإناء: لون على الحق لا فيه؛ ثم أيقن أن محاولة إخراج أمةٍ كاملة من نزعات ماعزةٍ مأفونة، هي كمحاولة إستيلاد الفيل من الماعزة . . .!

قال كليلة: وأعلم يا دمنة، انه لولا أن هذه العنز الحمقاء قد كفرت كفر الذبابة لما أخذها الله أخذ الذبابة.

قال دمنة: وكيف كان ذلك؟

قال: زعموا أن ذبابة سوداء كانت من حمقى الذبان، قُدرت الحماقة عليها أبدية، فلو

انقلبت نقطة حبر لما كُتبتْ بها إلا كلمة سُخف.
ووقعت هذه الذبابة على وجه امرأة زنجية ضخمة، فجعلت تقابل بين نفسها وبين المرأة؛ وقالت: إن هذا لمن أدل الدليل على إن العالم فوضى لا نظام فيه، وإنه مرسل كيف يتفق على ما يتفق عبثاً في عبث، ولا ريب إن الأنبياء قد كذبوا الناس؛ إذ كيف يستوي في الحكمة خلقي (أنا) وخلق هذه الذبابة الضخمة التي أنا فوقها. . .؟
ثم نظرت ليلةً في السماء، فأبصرت نجومها يتلألأن وبينها القمر؛ فقالت: وهذا دليل آخر على ما تحقق عندي من فوضي العالم وكذب الأديان وعبث المصادفات؛ فما الإيمان بعينه، إلا الإلحاد بعينه، ووضع العقل في شيء هو إيجاد الألوهية فيه، وإلا فكيف يستوي في الحكمة وضعي (أنا) ورفع هذا الذبان الأبيض ويعسوبه الكبير إلى السماء. . .؟
ثم إنها وقعت في دار فلاح، فجعلت تمور فيها ذهاباً وجيئة حتى رجعت بقرة الفلاح من مرعاها؛ فبهتت الذبابة وجمدت على غرتها من أول النهار إلى آخره، كأنها تزاول عملاً؛ فلما أمست قالت: وهذا دليل أكبر الدليل على فوضى الأرزاق في الدنيا، فهاتان ذبابتان قد ثقبتا ثقبين في وجه هذه البقرة واكتفتا فيها تأكلان من شحمها فتعظمان سمها؛ والناس من جهلهم بالعلم الذبابي يسمونهما عينين. . . وأنا قضيت اليوم كله أخمش وأعض وألسع لأثقب لي ثقباً مثلهما فما انتزعت شعرة؛ فهل يستوي الحكمة في رزقي (أنا) ورزق هاتين الذبابتين في وجه البقرة. . .؟
ثم أنها رأت خنفساء تدب دبيبها في الأرواث والأقذار فنظرت إليها وقالت: هذه لا تصلح دليلاً على الكفر؛ فإني (أنا) خيرٌ منها؛ (أنا) لي أجنحة وليس لها (وأنا) خفيفة وهي ثقيلة؛ وما كأنها إلا ذبابة قديمة من ذباب القرون الأولى ذلك الذي كان بليداً لا يتحرك، فلم تجعل له الحركة جناحاً. ثم إنها أصغت فسمعت الخنسفاء تقول لأخرى وهي تحاورها: إذا لم يجد المخلوق أنه كما يشتهي فليكفر كما يشتهي؛ يا ويحنا! لِمَ لمْ نكن جاموساً كهذا الجاموس العظيم، وما بيننا وبينه فرق إلا أنه وجد من ينفخه ولم نجد. . .؟
فقالت الذبابة: إن هذا دليل العقل في هذه العاقلة، ولعمري إنها لا تمشي مثاقلة من أنها بطيئة مرهقة بعجزها، ولكن من أنها وقور مثقلة بأفكارها، وهي الدليل على أني (أنا) السابقة إلى كشف الحقيقة. . .!
وجعلت الذبابة لا يُسمع من دندنتها إلا: أنا، أنا، أنا. . . من كفرٍ إلى كفرٍ غيره إلا كفر غيرهما، حتى كأن السماوات كلها أصبحت في معركةٍ مع ذبابة. . .
ثم جاءت الحقيقة إلى هذا الإلحاد الأحمق تسعى سعيها؛ فبينا الذبابة على وجه حائط، وقد أكلت بعوضةً أو بعوضتين، وأعجبتها نفسها، فوقفت تحك ذراعها بذراعها - دنت بطةٌ صغيرة قد انفلت عنها البيضةُ أمس، فمدت منقارها، فالتقطتها. ولما انطبق المنقار عليها قالت: آمنت إنه لا إله إلا الذي خلق البطة. . . . . .!!

مسالك الأبصار
ومؤلفه الشهاب العمري
للأستاذ محمد عبد الله عنان

في سنة 1924 أخرجت دار الكتب المصرية الجزء الأول من أثر ضخم، هو كتاب (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) لشهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري، وذلك بإشارة المغفور له العلامة الأستاذ أحمد زكي باشا وبتحقيقه. ثم وقف مشروع إخراج الكتاب في مستهله لأسباب نجهلها حتى اليوم، ولكنا علمنا أخيراً أن دار الكتب قررت استئناف العمل في (مسالك الأبصار) وإخراجه تباعاً إلى جانب الآثار القديمة الأخرى التي تعنى بنشرها.
وهو نبأ يستقبله الباحثون والأدباء بمنتهى الغبطة. ذلك أن (مسالك الأبصار) من الآثار الإسلامية الضخمة التي تمتاز بغزارة مادتها وتنوع موضوعاتها ونفاسة معلوماتها؛ وهو ثالث ثلاثة من الموسوعات العربية المصرية الضخمة، التي كتبت في عصور متقاربة، وامتازت على جميع الآثار الإسلامية بضخامتها وتنوعها وطرافتها؛ وهي: مسالك الأبصار، ونهاية الأرب للنويري، وصبح الأعشى للقلقشندي. وقد أخرجت لنا دار الكتب (صبح الأعشى) كاملاً في أربعة عشر مجلداً، وأنجزت لنا من نهاية الأرب نحو ثلثه في

أحد عشر مجلداً، وما زالت ماضية في إخراجه، وبقي عليها أن تستأنف العمل في ثالثة هذه الموسوعات الكبرى، ونعني (مسالك الأبصار).

كان القرن الثامن الهجري في مصر عصر الموسوعات الأدبية والتاريخية العامة؛ وإذا لم تكن فكرة الموسوعات الجامعة في الأدب العربي مصرية محضة، فقد بلغت ذروتها على الأقل في مصر، وأخرج الكتاب المصريون أعظم وأبدع نماذجها. وكان شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري هو أول كتاب الموسوعات ورأس هذه المدرسة الغزيرة الباهرة (660 - 732هـ) وقد وضع لنا موسوعته الفريدة (نهاية الأرب في فنون الأدب) في أوائل القرن الثامن الهجري في أكثر من ثلاثين مجلداً كبيراً، فجاءت أثراً ضخماً لم تشهد مثله الآداب العربية من قبل في غزارة المادة وتنوع الموضوعات وطرافة الأوضاع؛ ثم تلاه العمري الذي نريد أن نتحدث اليوم عنه وعن مجهوده بوضع موسوعته (مسالك الأبصار)؛ وجاء القلقشندي ليختم هذا الثبت في أوائل القرن التاسع بوضع موسوعته (صبح الأعشى).

كان العمري دمشقي المولد؛ ولكن مصري التربية والموطن والتكوين؛ وهو شهاب الدين أبو العباس بن فضل الله أحمد بن يحيى؛ وينتهي نسبه إلى عمر بن الخطاب، ومن ثم كان تلقيبه بالعمري. ولد في ثالث شوال سنة سبعمائة (1300م)، وتلقى تربيته الأولى في دمشق؛ ثم وفد على القاهرة حدثاً ودرس بها واتخذها وطناً وموئلاً، ومال إلى التخصص في علوم الفقه واللغة، وبرع بالأخص في الكتابة والإنشاء، وتقلد في البلاط القاهري عدة مناصب هامة أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون في ولايته الثالثة (709 - 741هـ) وانتهى إلى تقلد ديوان الإنشاء والرسائل، فاستحدث فيه كثيراً من الأساليب والأوضاع البديعة، ووضع له دستوراً لبث عمدة الكتاب والسلاطين مدى عصور.

ولبث العمري إلى جانب اضطلاعه بأعباء المناصب العامة رجل البحث والدرس؛ وعني عناية خاصة بدرس الجغرافية الطبيعية والسياسية أو الممالك والمسالك وطبائعها وخواصها؛ ودرس تواريخ الأمم وأحوالها وعجائبها، ولا سيما أمم الشرق النائية مثل أمم التتار والهند والصين، ودرس الفلك أيضاً، ولم يكتف في درسه بقراءة المصادر والمصنفات القديمة، فتجول في أنحاء الشام والأناضول والحجاز وبعض الممالك الإسلامية الأخرى، حسبما يبدو ذلك في أكثر من موضع من سياق موسوعته، وحسبما يشير إجمالاً في مقدمته، واستعان في تعرف أحوال الأمم والممالك التي لم تتح له زيارتها بأقوال العارفين والثقاة ممن زاروها أو درسوا أحوالها دراسة خاصة، حتى اجتمعت له من ذلك مادة غزيرة تمتاز في كثير من الأحيان بدقتها وطرافتها.

وقد تبوأ العمري إمامة البلاغة والبيان والترسل في عصره حتى أن الصفدي معاصره وصديقه يفضله في هذا الفن على القاضي الفاضل، ويصف خلاله ومواهبه الأدبية في تلك العبارات البليغة: (يتدفق بحره بالجواهر كلاماً، ويتألق إنشاؤه بالبوارق المستعرة نظاماً، ويقطر كلامه فصاحة وبلاغة، وتندى عباراته انسجاماً وصياغة، وينظر إلى غيب المعاني من ستر رقيق، ويغوص في لجة البيان فيظفر بكبار اللؤلؤ من البحر العميق، قد استوت بديهته وارتجاله، وتأخر عن فروسيته من هذا الفن رجاله، يكتب من رأس قلمه بديها ما يعجز القاضي الفاضل أن يدانيه تشبيهاً، وينظم من المقطوع والقصيدة جوهراً يخجل الروض الذي باكره الحيا مزهراً، صرف الزمان أمراً ونهياً، ودبر الممالك تنفيذاً ورأياً، ووصل الأرزاق بقلمه، ورويت تواقيعه وهي سجلات لحكمه وحكمه، لا أرى أن اسم الكاتب يصدق على غيره ولا يطلق على سواه). ثم يصفه الصفدي بعد ذلك بالأديب (الكامل) وينوه بقوة ذاكرته، وحسن ذوقه، ويقول لنا إنه، أي العمري، كان آية في النثر والنظم والترسل البارع عن الملوك، وأنه (لم ير من يعرف تواريخ الملوك المغل من لدن جنكيزخان معرفته، وكذلك ملوك الهند والأتراك. وأما معرفته الممالك والمسالك، وخطوط الأقاليم والبلدان وخواصها، فأنه فيها إمام وقته).

ولأقوال الصفدي، وهو إمام النقد في عصره، قيمتها في التنويه بخلال العمري الأدبية، والعلمية الفائقة. بيد أن تراث العمري نفسه ما زال خير شاهد بعبقريته ولا سيما في فن الإنشاء والترسل، وقد كان العمري فوق ذلك شاعراً مجيداً؛ ومن رقيق شعره

قوله:
أأحبابنا والعذر منا اليكمو ... إذا ماشغلنا بالنوى أن نودعا
أبثَّكموا شوقاً أباري ببعضه ... حمام العشايا رنة وتوجعا
أبيت سمير البرق قلبي مثله ... أقضى به الليل التمام مروعاً
وما هو شوق مدة ثم ينقضي ... ولا أنه يلقي محباً مفجعا
ولكنه شوق على القرب والنوى ... أغص الأماقى مدمعاً ثم مدمعا
ومن فارق الأحباب في العمر ساعة ... كمن فارق الأحباب في العمر أجمعا
وقطع العمري حياة قصيرة ولكن باهرة؛ وتبوأ ذروة المناصب العامة، كما تبوأ إمامة التفكير والأدب، واستمرت حظوته لدى الملك الناصر طوال عهده؛ ثم توفى سنة 749 هـ (1348م) دون أن يبلغ الخمسين.

- 2 -

ترك لنا العمري تراثاً حافلاً ينم عن غزارة مادته ورفيع مواهبه، منه موسوعته الكبرى (مسالك الابصار في ممالك الأمطار) و (الدعوة المستجابة) و (صبابة المشتاق) وهو في المدائح النبوية و (سفرة السفرة) و (دمعة الباكي) و (يقظة الساهر) و (نفحة الروض) وكلها من كتب الأدب والبيان، وكتاب (فواصل السمر في فضائل آل عمر) وكتاب
وهو رسائل في الشتاء و (النبذة الكافية في معرفة الكتاب والقافية) (الشتويات) وكتاب (التعريف بالمصطلح الشريف) وهو مجموعة نماذج من الرسائل الملوكية والأميرية، وسنعود إليه؛ وطائفة كبيرة من القصائد والموشحات والتقاليد والمناشير.

وقد انتهى إلينا من هذا التراث أهمه وأنفسه؛ فلدينا أولاً كتاب (مسالك الأبصار) وهو أهم آثار العمري وأضخمها؛ وهو في الواقع موسوعة كبرى تملأ عشرين مجلداً كبيراً، ويقول لنا العمري إنه أثر الحياة وإنه (قطع فيه عمر الأيام والليالي) وإنه شرع فيه أيام التحاقه بخدمة الملك الناصر؛ وقد يكون ذلك حوالي سنة 730 هـ؛ ويبدو من مقدمته أيضاً ومن دعائه للملك الناصر بدوام أيامه، أنه أنجز نسخته الأولى قبل سنة 741هـ أعني قبل وفاة الناصر، بيد أنه يبدو من جهة أخرى أنه زاد فيه بعد ذلك لأنه يصل في رواية الحوادث إلى سنة 743 هـ.

ومن المحقق أن العمري تأثر في وضع موسوعته بمثل سلفه العظيم النويري صاحب موسوعة (نهاية الأرب) وهي أول موسوعة من نوعها. غير أنه ينحو في تقسيمها ومحتوياتها نوعاً آخر؛ وبينما يسبغ النويري على موسوعته صبغة علمية أدبية تاريخية، إذا بالعمري يسبغ على موسوعته صبغة جغرافية تاريخية، وهو يقسمها إلى قسمين كبيرين: الأول: (في الأرض) والثاني (في سكان الأرض)، ويشمل القسم الأول ذكر الأرض وما استملت عليه براً وبحراً، وهو نوعان كبيران: المسالك والممالك، ويدخل في النوع الأول الكلام على أحوال الأرض وصفاتها وعناصرها وما تحتويه من أنهار وجبال ثم الكلام على الأقاليم السبعة وهي أساس الجغرافية القديمة وما فيها من المدن والجزائر وما يؤثر عنها من العجائب، ثم الكلام عن الرياح والكواكب والأعراض الطبيعية؛ ويدخل في القسم الثاني الكلام عن ممالك العالم المعروف يومئذ مبتدئاً بممالك الهند والسند والتتار ثم الترك ومصر والشام والحجاز واليمن، ثم ممالك السودان والحبش وإفريقية والأندلس، وفيه بيانات ضافية عن أحوال هذه البلاد ونظمها وخواصها ومحصولها وحيوانها؛ ويبدي العمري هنا دقة البحث والتحري، ويقدم إلينا أسانيده ومصادره كلما شعر بمبالغة أو غرابة فيما يروي. ويختم هذا القسم بالكلام عن العرب الموجودين في عصره وأماكن وجودهم ولا سيما في مصر، وهو فصل له قيمته في تعرف الأصول والأنساب. ويشغل هذا القسم
الأول من الكتاب نحو عشرة مجلدات.

ويتناول القسم الثاني الكلام على سكان الأرض من طوائف الأمم وفيه حديث مستفيض عن طوائف العلماء في الشرق والغرب، ثم الكلام على الأديان والنحل المختلفة؛ وبعدئذ يجيء الكلام على التاريخ، وهو قسمان، تاريخ الدول التي كانت قبل الإسلام، ثم تاريخ الدول التي قامت بعد الإسلام حتى عصر المؤلف، ويستطرد فيه إلى ذكر الحوادث حتى سنة 743هـ أعني قبل وفاته بنحو خمسة أعوام.

ولم ينشر إلى يومنا من كتاب (مسالك الأبصار) سوى الجزء الأول كما قدمنا؛ غير أنه

قد نشرت منه بعض فصول ونبذ متفرقة منها فصل من فصول القسم الأول عنوانه (كلام إجمالي في أمر مشاهير ممالك عباد الصليب في البر دون البحر) نشره المستشرق أماري (سنة 1883) مقروناً بترجمة إيطالية، وهو فصل يمتاز بدقته وطرافته ويتناول الحديث عن أحوال الممالك النصرانية والجمهوريات الإيطالية في النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي، وينسب العمري ما أورده فيه من المعلومات إلى رجل إيطالي يدعى (بلبان الجنوي) عرفه في بعض رحلاته واستقى منه معلوماته وهي معلومات في منتهى الدقة ولا سيما ما تعلق منها بنظم الجمهوريات الإيطالية في ذلك العصر. وعني صديقنا العلامة السيد حسن حسني عبد الوهاب بنشر الفصل الخاص بوصف أفريقية والأندلس؛ ونشر أحد المستشرقين الألمان أخيراً الفصل الخاص بوصف بلاد الأناضول.

- 3 -

على أنه قد انتهى إلينا من تراث العمري اثر ذو أهمية خاصة هو كتاب (التعريف بالمصطلح الشريف) وقد كان العمري كما رأينا مدى أعوام طويلة ناظراً لديوان الإنشاء والرسائل، وقد استحدث في هذا الديوان الكثر من الأساليب والأوضاع الجديدة سواء في توجيه الرسائل والمخاطبات أو صيغها؛ ويجب أن نعلم أن ديوان الإنشاء كان في تلك العصور مجمع المراسلات الداخلية والخارجية، فمنه تصدر الرسائل والمناشير والأوامر والتواقيع إلى الأمراء والحكام وكبار الموظفين؛ ومنه توجه الرسائل الخارجية إلى مختلف الملوك والدول التي ترتبط بمصر بعلائق سياسية أو تجارية؛ وإذا فقد كان اختصاصه يتناول ما يسمى اليوم في لغة السياسة الحديثة بنظم (البروتوكول) وهي عبارة عن الرسوم

والإجراءات التي تجري عليها الدولة في تنظيم علائقها الخارجية، سواء في إجراء المفاوضات السياسية أم في عهد المعاهدات أو مخاطبة الدول الأخرى أو استقبال ممثليها ومعاملتهم أو في تحرير المكاتبات الدبلوماسية. وتسمى هذه الرسوم والنظم في الدولة الإسلامية 0بالمصطلح الشريف) وقد كان للعمري اكبر الفضل في تجديد هذه النظم، وعلى يده بلغت ذروتها من الافتنان والتناسق في الدقة؛ وللتعريف بهذه النظم وشروحها وضع العمري كتابه (التعريف بالمصطلح الشريف) وفيه يشرح رتب المكاتبات السلطانية وإجراءاتها، ويعرض نماذج من العهود والتقاليد والتفاويض والمراسيم والمناشير وكذلك نماذج عديدة من الوثائق والمكاتبات الدبلوماسية؛ ثم يتحدث عن أوضاع الممالك وتقاسيمها الإدارية، وعن مراكز البريد ووسائل المواصلة البحرية. ويعتبر كتاب العمري دستور المصطلح الشريف في مصر الإسلامية؛ ويعتبره القلقشندي صاحب صبح الأعشى أنفس الكتب المصنفة في هذا الباب. وقد انتفع به القلقشندي في موسوعته أعظم انتفاع، ونقل إلينا فوق ذلك طائفة كبيرة من الرسائل والمكاتبات السلطانية التي دبجت بقلم العمري في ظروف ومناسبات مختلفة، وكلها دليل على ما كان يتمتع به العمري من المواهب الإنشائية السامية.

وللعمري آثار ورسائل أخرى كما قدمنا، ولكن معظمها لم يصل إلينا، وما يزال بعضها بعيداً عن التداول في بعض المكاتب الأوربية. على أن (مسالك الأبصار) يبقى دائماً أعظم آثاره؛ ورجاؤنا أن تعمل دار الكتب لمصرية لإخراجه بهمة مضاعفة فلا تمضي أعوام قلائل حتى تضعه كاملاً بين أيدي الباحثين.

النقل ممنوع

محمد عبد الله عنان

خواطر وأفكار

للأستاذ أديب عباسي

يغلب أن يسيطر على الحياة في كلا عنصريها من السعادة والشقاء قانون المرجحات العام الذي يسيطر على جميع حوادث الطبيعة ويسير بها جميعاً، كلما امتد الزمن وتوالى الحدوث، إلى التعادل والاستواء، وما نرى من فروق شاسعة بين حظوظ الناس من السعادة والشقاء سببه - فيما نرى - قصر مدى التجربة والاختبار. واعتقد انه لو أتيح للأحياء من الناس عمر أطول أو لو كانت أمواج السعادة والشقاء وأصداء اللذة والألم اقل لبثاً واقصر مكثاً، لتداني من التعادل نصيب كل امرئ من حظي السعادة والشقاء.

حياة كل امرئ (متوالية) من الآمال والآلام والأحلام والأعمال ولست بمستطيع أن تجرد الحياة حلقة واحدة من هذه الحلقات: الآمال تثير الآلام والأحلام، والأحلام لابد مفضية في نهاية الأمر إلى الأعمال، والأعمال بدورها تبتعث آمالاً جديدة، والأمل الجديد يثور آلاماً وأحلاماً جديدة، وهكذا تظل تدور بين حدين من الأمل والعمل يتوسطهما واسطان هما ما نألم وما نحلم إلى أن تتلمأ علينا القبور، وترص علينا الجنادل والصخور.

ليس مما يُنقص قيمة العمل الطيب أن يكون حاديه ورائده اللذة منشودةً أو حاصلةً، بل نحن نعتقد أن من مصلحة الأخلاق، ومن الخير العميم للناس أن يتعلم الناس كيف يستشعرون السعادة ويتذوقون الغبطة في العمل الطيب بدءاً وختاماً، حساً وخيالاً.

كذلك نعتقد أن من مصلحة الأخلاق ونشر الفضيلة وتعميم الصلاح أن يشعر المرء أن عمل الخير مجزي عليه في هذه الحياة الدنيا، وأن ليس على المرء يصنع الخير أن ينتظر إلى اليوم الأخير ليثاب على عمله الصالح وينال جزاء ما قدم من خير وأسلف من صلاح.

يكاد يكون الإحساس بالحق ونصرة العدل من فطرة البشر ومن هنا نرانا - في الأحوال العادية - نهلل للعدل ونمقت الجور، سواء أكنا نحن المعنيين بالجور أم كان المعنى غيرنا.

من غرائب الطباع أمرؤ يثني عليك بما أنت أهله أو بما لست أهلاً له، ثم تراه لغير سبب واضح أو علة مقبولة ينقلب عليك، ولا يتعفف أن يهجوك بعكس ما كان يمتدحه فيك! هذا الصنف من الناس هم، في إعتقادي، من المتسولة الجبناء الذين يستجدون امتداح الناس

بامتداحهم الناس؛ فإذا خاب ما يؤملون، ولم يبادلهم ممدوحهم مدحاً بمدح انقلبوا قادحين مشنعين.

ما أشبه بناء الأمة ببناء الهرم؛ ما يزال قائماً ثابت الإتزان، ما شغل الرأس منه مكان الرأس، والقاعدة مكان القاعدة؛ وما أسرع ما ينهار الهرم ويتفكك حينما تنقلب الأوضاع فتسمو القاعدة إلى مكان الرأس، ويهبط الرأس إلى مكان القاعدة؛ ومن هنا أضحى الهرم المقلوب مضرب المثل في سخافة البناء ووهن الثبوت. . .

لست أدري أي خير وأية سعادة كانا يصيبان البشر لو أقصى من مجال الدين جميع المتجرين به. فليتق الله المتاجرون وليجعلوا في غير مجال الدين تجارتهم.

تظل تجربة المرء ناقصة ما لم تتكرر. . . .

خصومتك الصغير تورثك المهانة، سواء أكنت المنتصر في هذه الخصومة أم كنت الخاسر.

الأغراب والتكلف في أساليب الحياة والأخلاق دليل على فساد الطبع والتواء التكوين.

قد تكون المحافظة على القديم ناجمة من خوف الحديث وحسب، لا من حب للقديم صحيح.

ثم صنف غريب من الكُتاب والمفكرين يعمدون إلى الرأي الواهن الواهي، أو الفكرة الميتة يثيرون حولها حرباً شعواء ويوسعونها طعناً وضرباً، ثم يلتفتون إلى الناس ولسان الغرور يقول: انظروا ماذا صنعنا وإلى أي المقاتل قد نفذ سلاحنا؟ وقد نسوا - حفظهم الله وكلأهم - أن سلاحهم يُجرد على موتى ويُشرع على أشلاء.

قد يعيش الكاتب بشهرته الأدبية أعواماً بعد أن يُصفى. وهذا سرُّ ما نراه من مدح يكال وتقدير يُسرف في توزيعه على أناس لا يستحقون بعض أبعاضه. والحقيقة أن من الكتاب اليوم من يعيشون بقوة الاستمرار وحسب، لا بقوة العمل وصدق الإنتاج.

ما أسرع ما يلتفُّ صغار النفوس حول صغير النفس، أما كبير النفس فلا يسمح لهم بالدنو منه لئلا تعلق به من نتنهم عالقة. الاتجار بالوطنية في الشرق علة مستحكمة لا يزيلها إلا صرامة النقد، وصراحة المقت، وقسوة التشهير.

يموت العظيم في الغرب، ولكن ما أسرع ما تُسدُّ الثغرة ويقوم الخلف. ويموت العظيم الشرقي فيظل محله خالياً جيلاً أو أجيالاً. وذلك أن تربيتنا الاجتماعية الناقصة لا ترفع إلى

مستوى الزعامة الصحيحة القوية في الجيل الواحد إلا نفراً قليلاً جداً، فإذا أودي هذا النفر ظل محلهم خالياً إلى أن تتمخض الأمة بعد حمل طويل وآلام مبرحة وتجارب

شاقة فتلد المولود الجديد الذي يُقدَّر له أن يستأنف السير ويتولى القيادة.
قد يعمل الرجل الشرير إلى بعض الخير يصنعه ليتبين كيف يكون أثر ذلك، كما قد يسعى الرجل الطيب إلى بعض الشر يصنعه لمثل غرض الشرير في صنعه الخير. وإلى هذا قد يُردُّ بعض ما نراه من شذوذ في الخلق السوي.
قد يبدو الفكر العميق للقارئ السطحي الضحل متناقضاً، وذلك إن ذا الفكر العميق قد ينتهي إلى أغوار لا يستطيع أن ينفذ إليها ضحل التفكير، ويدرك من العلائق والوشائج الخفية بين الأشياء مالاً يدركه ذو الفكر الرقراق الذي لا غور له.
المصادفة بليغة الأثر في حياة الفرد، أما في حياة الأمة فهي ضئيلة الأثر أو لا أثر لها البتة.
ما من رأى إلا ودار في أكثر من ذهنٍ واحد، ولكن شخصاً واحداً يكتب له أن يخلِّد هذا الرأي.
الرأي يرتأي كالصدى بكثر تجاوبه كلما أستوعر طريقه.
الألم كالنار يصهر القوي ولكن لا بلاشيه، كما لا تلاشي النار الحديد، أما الضعيف فيحيله الألم دخاناً يصَّاعد.
قد يتصدى المرء أحياناً للرأي العام لا ليتحداه، إنما هو يتصدى له ليدرك مبلغ قوته ثم ليدرك مدى الرأي العام ومجراه، فيحول شراع العمل على هواه.
الرجل القوي حق القوة لا يخلق بهذه القوة عبيداً وآلات ناطقة، إنما يخلق بها رجالاً أقوياء. وكل مظهر من مظاهر القوة لا يفضي إلى هذه النتيجة يجب أن يشككنا في هذه القوة.
يجب أن ندخر خصومة الصراحة وجهد المقاومة للأمور الجسام والمسائل العظام. أما الصراحة العادية في كل ما يعرض للمرء من شؤون الحياة اليومية تافهها وجليلها على السواء فجهد غير مبرور وعمل غير مشكور، ولا يعود على المصارح منه إلا خصومات لا تنتهي وعدوات لا تنقضي.
ما تزال المرأة طفلة حتى تحب، وما يزال الرجل رجلاً حتى يحب. ومتى أحبت المرأة بلغت أوج الأنوثة؛ أما الرجل السليم القوي فيندر أن يجعل الحب آخر مرحلة من مراحل الحياة، وهو - أي الحب - عند الرجل مرحلة إلى رجولة أسمى. فالمرأة تتجه إلى الحب لا لتتعداه، أما الرجل فيحب ليكون الحب مرحلة من مراحل حياته. وهذا يشير إلى إن الحياة تريد من المرأة الحب فقط، وتريد من الرجل فضلاً عن الحب الجهاد والمغامرة.
يجب إلا يغر الشبان بيت شوقي (نظر فابتسامة. . .) ثم ما بعد ذلك. فبين النظرة والابتسامة - في كثير من الأحيان - وبين قلب الفتاة سبعُ قلاع بسبعة أسوار.
رُكِّب في طبيعة المرأة التلويح من بعيد والإغراء. فهي قد تتبذل أحياناً ولو لم تنو السقوط، وتدنو ولكن لا لتصل، وتقترب ولكن لا لتُنيل. فكأنها تعمد إلى ذلك لتقيس مقدار فتنها وتختبر قوة أنوثتها.
الرجولة لا تكون كاملة إلا إذا خالطها بعض طبائع الأنوثة. فكأن الطبيعة في ذلك لا تريد للرجل أن يتخلص من إرث الأنوثة الأقدم، حينما كانت الذكورة لا تزال في ضمير الغيب، وكانت الأنوثة كل ما في يد الطبيعة من مواد التجريب والاختبار.
ثورة الحب تفضي إلى أسر الزواج، وثورة الحقد والطمع تفضي إلى أسر السجن.
نداء الأمومة عند المرأة أقوى من نداء الحب. وكثيراً ما تضحي المرأة بحبها في سبيل الأمومة السالمة والنسل القوي القويم.
لا يستطيع إبليس - في كثير الأحيان - أن يتراءى للرجل إلا عن طريق المرأة. فهي - في أغلب الأحيان - سفيره إليه. وكثيراً ما تنجح هذه السفارة كما نجحت من قديم في جنات عدن.
حياة المرأة أنشودة يتناوب إنشادها الملائكة وإبليس.
حب الأم أشرف أنواع الحب وأعمقه وأدومه. وذلك أن فيه من حب الابنة وحب الأخت وحب العاشقة وحب العابدة. فالأم إذ تحب وليدها وترأمه كوليد فقط، إنما هي ترأمه وتحبه، ولو في غير شعور، حب الابنة أبويها، والأخت اخاها، والعاشقة عاشقها، والعابدة معبودها.
من مظاهر الفسولة وصغار الرجولة أن يتعشق الفتى فتاته، ثم لا يفتأ يعلن عن هذا

العشق وينبه إليه في كل مناسبة وعند كل حديث؛ فكأنه الكلب يلغ في الإناء أو يبول فيه لينفر منه بقية السباع!

في الزمان غير المحدود والمكان غير المحدود يكون احتمال الحدوث غير محدود أيضاً. ولا ادري لم يستبعد أو ينفى حدوث حادث يقدر أو يفترض بحجة بعد الاحتمال

أديب عباسي

النهضة التركية الأخيرة

للدكتور عبد الوهاب عزام

الحروف اللاتينية والألفاظ العربية

وقد عجل القانون في إنفاذ قانون الحروب اللاتينية، واشتدوا في ذلك لا يستثنون الكتب التي في المطابع، قد طبع بعضها بالحروف العربية ولما يتم طبعها، فسارع بعض المؤلفين إلى إكمال كتبهم قبل الموعد المحدود، ودون الكمال المنشود، ويئس آخرون أن يتموا كتبهم قبل الأجل المضروب وعجزوا بل كرهوا أن يكملوها بالحروف الجديدة فيجعلوها ذات خطين أعجمي وعربي، فوقفوا بها حيث وقف بهم القانون الجديد. واعجب ما في هذا أن أحد الأدباء الكبار كان يطبع معجماً كبيراً واخرج منه مجلدين، ولم يسوغ له القانون أن يكمله بالحروف العربية فيما يحتاج إليه من وقت، وعجز هو وعجز الفكر الإنساني أن يكمل هذا المعجم بالحروف اللاتينية على ترتيبها بعد أن طبع معظمه بالحروف العربية على ترتيبها فبقى ناقصاً حائراً بين القديم والجديد.

كأنما محا الترك العثمانيون من تاريخهم ستة قرون حين اختاروا للغتهم الحروف اللاتينية. فهل هم يعترفون، كما قال ذلك الأديب الفارسي، إن لهم تاريخاً لا يضيرهم أن يمحي منه ستة قرون؟ وليت شعري هل لهم في التاريخ غير هذه القرون الستة؟ مثل لنفسك صبياً تركياً ممن تعلموا القراءة بالحروف الجديدة يدخل اليوم جامع الفاتح أو سليمان فينظر إلى أسماء الصحابة فلا يدري ما هي وينظر إلى اسم الفاتح واسم سليمان القانوني فلا يدرك منهما حرفاً وتصوره في بروسه في اولو جامع (الجامع الكبير) الذي جعل الخطاطون الترك على مر العصور جدره معرضاً لبدائع الخط وفنونه، تصوره ينظر إلى آثار أسلافه فلا يتبين منها شيئاً ويودلو كتبت بالحروف اللاتينية. وتصوره كذلك أمام كل اثر عظيم من آثار المسلمين. وتصوره وقد شب وقوى على الدرس والبحث يذهب إلى مكتبات استانبول فيرى من آثار أسلافه، وكل المسلمين أسلافه أكداساً لا يفقه منها حرفاً إلا بدرس خاص. الست ترى هذا الناشئ مقطوعاً من تاريخه، غريباً عن قومه، الست تراه يتيماً حرم ميراث آبائه وجنى عليه سفه أوصيائه؟

وقد ذهب مع الحروف العربية فن جميل بلغ فيه الترك الغاية وتنافس في تجويده سلاطينهم

وأمراؤهم وكبراؤهم فأتوا فيه بآيات الجمال وحلى التاريخ؛ وشد ما يهيج الحسرة أن تسير في شوارع استانبول عند الباب العالي فترى الخطاط التركي الماهر وقد كدست بضاعته، وحاولت أن تجاري الزمان صناعته، فكتب على مكتبه بالحروف اللاتينية أي خطاط.

سيقول بعض الناس أن هذه العواطف لا ينبغي أن تعوق سير الامم، وانا أقول لو كان هذا سيراً ما اعترضناه، ولو كان إصلاحا ما عارضناه، ولكنه تقليد يعصف بتاريخ الآباء ويزلزل أقدام الأبناء، ويقطع سنن الأمة كما تقطع جذور الشجرة.

وقد وصل الكماليون عملهم في الحروف العربية باجتهادهم في نبذ الكلمات العربية والفارسية. زعموا أنهم يريدون إنقاء اللغة التركية من الكلمات الدخيلة، فما بالهم يخرجون كلمة عربية ليضعوا مكانها كلمة أوربية؟ كانوا يسمون معهد الأبحاث التركية (تركيات مؤسسه سنى) فمحوها وكتبوا (تركيات أنستيتوسي) فلماذا آثروا كلمة على مؤسسة، وهي كلمة هم واضعوها في العربية وعنهم أخذها العرب؛ وكم كان لهم من حذق وذوق سليم في وضع مصطلحات علمية باللغة العربية التي اتخذوها هم وسائر المسلمين كاللاتينية عند الأوربيين. وكانوا يسمون الجامعة (دار الفنون) فسموها وكذلك وضعوا مكان معلم ومدرس وغيرهما من ألقاب الجامعة ألقاباً أخرى أخذوها من الألمانية، ومثل هذا كثير. فليس بالقوم الإصلاح أو العصبية التركية، ولكنه بغض

العربية. وإذا تحكم البغض والحب في تصريف الأمور لم يبق للحق والهدى مكان.
وكان لهم في العام الماضي مؤتمر لغوي تكلم فيه أستاذ في الجامعة فقال: إن بين العربية والفارسية والتركية علائق يجب الإبقاء عليها، فطرد من المؤتمر ومن الجامعة، تقديساً للحرية التي يتغنى بها الكماليون! وسمعت أن حسين جاهد، وهو من الدعاة الأولين إلى العصبية التركية في اللغة، قال في المؤتمر: إن إنقاء اللغة يتم على مر الزمان، ولا تصلح فيه الطفرة. فشتم وأُسكت وأوذى، ولو كان الأمر بحثاً وإصلاحاً لا تسع للآراء المختلفة، وأخذ فيه بالنظر والرؤية. وقد سمعنا أن الفرس يريدون أن يحذوا حذو الترك في هذا. ونحن لا نكره أن يأخذ الشرقيون بعضهم عن بعض، وأن يزول العداء القديم بين الفرس والترك، وينسوا ما تصفه الشاهنامه من حروب إيران وتوران، وما يحدث به التاريخ من جلاد الصفويين والعثمانيين. أجل، أدعو الله أن يؤلف بين الأمتين، ولكن لا أحب أن يقلد
بعضهم بعضاً في هذه الترهات، وتتقيل إحداهما الأخرى في هذه الضلالات.
نحن لا ننكر على الترك والفرس أو يؤثروا الكلمات التركية والفارسية على الكلمات العربية حين يحسون الحاجة إلى ذلك، ويدعوهم إليه إصلاح اللغة وتجميلها، وإنما ننكر عليهم أن يفعلوا ذلك بغضاً للغة العربية، وإيثاراً لتقطيع الأوصال بين الأمم الإسلامية.
إن في الفارسية والتركية اصطلاحات علمية وأدبية كثيرة، بل تكاد تكون اصطلاحات الآداب والعلوم كلها عربية، وهذه الاصطلاحات هي من أعظم الروابط بين الأمم الإسلامية. وفي حذفها مفاسد كثيرة، منها إنهم يحرمون أنفسهم اصطلاحات وضعت واستقرت، وتحددت، وأحكمها الاستعمال في عصور متطاولة. وليس الاصطلاح على الكلمات، وخلق اللغة العلمية بالأمر اليسير، والثاني أنهم يباعدون بين اللغة العلمية القديمة واللغة العلمية الحديثة، وفي ذلك ما فيه من الفصل بين قديم الأمة وحديثها، والحيال بين المحدثين وما كتب أسلافهم، وبين مؤرخي الآداب وفقه أطوار الأدب الأولى.
والثالث أنهم يقطعون الوشائج بين آدابهم والآداب الإسلامية الأخرى التي شاركهم أهلها في تأليف حضارة واحدة، على حين يسعى الناس للتقريب بين الآداب واللغات ولا سيما اللغات العلمية، وهم أنفسهم من الساعين للتقرب إلى أهل أوربا أو الفناء فيهم. فلماذا الوصل من ناحية والقطع من ناحية أخرى، والتقرب إلى قوم والتباعد من آخرين؟ بل لماذا التقرب من الأعداء، والتباعد عن الأصدقاء، وحب الأمم الأوربية وبغض الشعوب الإسلامية؟ هل لذلك من تأويل؟
والرابع أنهم يعسرون لغتهم على طلابها من الأمم العربية خاصة والأمم الإسلامية عامة، والأمم تسعى اليوم لتيسير لغاتها وتسهيلها على طلابها.
لست أقول هذا إشفاقاً على اللغة العربية، أو عصبية لها، فليس يحس المتكلم بالعربية والقارئ فيها أن ألفاظاً منها مستعملة في الفارسية والتركية أو غير مستعملة، ولا يهتم بهذا إلا حين يدرس الفارسية والتركية، ودراسة هاتين اللغتين من شؤونهما لا من شؤون العربية، وإنما يعني إلا تقطع الصلات بين أمم عاشت دهوراً متآخية متعاونة كأنها أمة واحدة. وإنما يدعوني إلى الجدال أن الأخوة الإسلامية، والجامعة الإنسانية، تنفر من هذه العصبيات القاطعة، والنعرات المفرقة.
وفي اللغة العربية كثير من الكلمات الفارسية عُربت وأدمجت فيها، وصيغت على أوزانها، وما يفكر العرب في إخراجها من لغتهم؛ ثم إلا يرى الفرس أنهم إن ذهبوا مذهب الترك في أمر اللغة ثار عليهم الأفغان والهند المسلمون وأهل كثغر وما وراء النهر ثورة أدبية فنبذوا إليهم لغتهم التي اتخذوها لساناً أدبياً، ثم اجتهدوا في إخراج الكلمات الفارسية من لغاتهم؟
أضرب لإخواننا مثلا أوربياً، فأن الشرقيين لا يعرفون الحق إلا إذا شهدت به (ماركات) من أوربا:
هذه اللغة الإنكليزية، وهي ما هي انتشاراً بين الأمم، وذيوعاً في الشرق والغرب، فيها كثير من الألفاظ اللاتينية والجرمانية، ومعظم اصطلاحاتها في الآداب والعلوم لاتينية. وقد وقع ما وقع بين الأمم اللاتينية والإنكليز من حروب متمادية، وما فكر الإنكليز في أن يجمعوا الكلمات اللاتينية وينبذوها إلى اللاتين كراهة لهم، أو عصبية للغتهم، ما فعل القوم هذا، لأن لهم من جلائل الأعمال ما يشغلهم عن هذه السفاسف.

القوم يذهبون مع الحياة مذاهبها، ويتوسلون لها بخير وسائلها، فلا تتسع أوقاتهم للمناقشات في الحروف والألفاظ، ونحن نغمض أعيننا عن أواصر تجمعنا، وآلام وآمال تقرب بيننا، وتقلب تاريخنا لنعثر على عداوة قديمة، أو حرب ذهب الزمان بذكراها وآثارها، لنخلق منها قطيعة جديدة، ونثير بها خصومة جديدة. كاد الإنكليز والألمان يتفانون ويفنوا الأمم معهم منذ خمسة عشر عاماً؛ وهم الآن يمدون أيديهم للتعاون والتعاهد! فأين يذهب بكم أيها الشرقيون وإلى أين تساقون أيها المسلمون؟ ذلك كلام واسع الجوانب، بعيد الأغوار، لا يتسع له هذا المجال. ولعل لي إليه عودة إن شاء الله.

(له بقية)

عبد الوهاب عزام

من مشاهير الشرق

طائفة البهرا في الهند

في الطريق إلى داعي الرعاة

بقلم محمد نزيه

وأذن الله أن أبرح عدن إلى الهند، فلم تبرح النفس تواقة إلى رؤية الشيخ الأكبر لطائفة البهرا، ولم تزل تستنفر عزيمتي حتى عاهدت كل منهما صاحبتها على أن تكون زيارة الشيخ أول ما أتكاف له بعد مطالعة (بمبى)، فلم أكد أنيخ الراحلة في هذه المدينة، حتى طالعني أبناء هذه الطائفة زرافات ووحداناً! تموج بهم المدينة؛ فهم في شوارعها ودروبها وحوانيتها يعرفون بطول اللحى، وبالعمائم البيضاء، و (البنطلونات) تحت المعاطف القصيرة، وبالنشاط الذي لا يفتر، وبالوقار الذي لا يُذهل عنه؛ فأنهم قوم جبلوا على النشاط حتى لتحسبهم في سرعتهم إذا ساروا وفي دأبهم إذا عملوا، أضعاف أضعافهم، هم لا يتجاوزون العشرين ألفاً في مدينة تزخر بمليون وثلثمائة ألف نسمة؛ ولكن دأبهم جعل الواحد منهم عشرة أشخاص! لا تكاد تراه هنا حتى تشهده هناك، كأنه من عالم الأرواح. . هم كالموج المتلاطم على سطح المحيط، يضيق به الخضم وهو منه كالحصاة من الجبل، بل وتمضي السفن في طريقها تشق العباب ولا تحفل به، حتى إذا دوى الموج ارتعدت فرقاً، واهتزت رعباً، وكانت تهتز عجباً.

ليس من جماعة البهرا من لا يجمع إلى فصاحة الأردية طلاقة الكجراتية، ورطانة الإنجليزية؛ وليس فيهم من يعرب لباسه عن حاجة؛ أو ينم ضعفه على هوان، فكلهم عند نفسه كريم، وفي قومه عزيز.

كنت راغباً في زيارة الشيخ الأكبر، فلم يزدني ما تحققته من طوابع طائفته إلا رغبة أمست رؤى، وأصبحت هواجس - والشيخ لا يحظى بالاستئذان عليه إلا كل عظيم بارز في قومه، ولا مناص - لمن شاء - من رجاء يتقدم به إلى رئيس الوزارة البهرية، فإذا انتهى هذا به إلى الشيخ فأذن، حدد الموعد بحساب الدقائق فيما لا يستنفد من الساعة إلا أقلها، وعلى أن يذكر الزائر أن الدقيقة ستون ثانية، والثانية ستون ثالثة، فكأن دقات القلب لا تسعف في هذه الحساب.

وكان أن تفضل الشيخ الأكبر، فأذن لرئيس وزرائه أن يستقدمني، ضارباً للقاء موعداً من مساء يوم قريب. . فلما أن أقترب الموعد، ركبت إلى قصر الشيخ، وكعبة الحجيج من أبناء الطائفة، في (وال كيشر).

ووال كيشر، هو من ثغر بمبى حي الطبقة الرفيعة من سراة الإقليم، أقيم على ربوة عالية تطل على المحيط وتشرف على المدينة كلها - لكأنه نجم سها عن ذكره الفلكي - ليس بين قصوره وعمائره إلا متاحف تنطق بغنى الهند وتفصح عن جاهها وترفع النقاب عن فنونها - من شاء أن يعلم أين تنصب كنوزها ففي هذا الحي السعيد مصبها، وفيه يستحيل الذهب فنوناً، وتقوم الرياض على قنة الجبل كأنها البنود المرفوعة. أليس زرعها يتماوج من مداعبة النسيم كما تتماوج البنود، أليست مطرزة بألوان من الزهر مختلفات بين أحمر القرنفل وأبيض النرجس وأصفر الورد وأزرق البنفسج، على صفحة من خضرة مذهبة؛ ثم لعل ما ينفح الناس من طيبها فينبههم إلى تحيها إذا أغفلوا، إنما يقوم في موضع تلك القداسة المعنوية التي تنبه الناس إلى تحية العلم.

بلغت السيارة بنا حي وال كيشر، فتباطأت عند أقدامه وتهيأت للتصعيد في مراقيه، وأخذت تطوي مسالكه ونحن في داخلها كأننا تحت أجنحة طائرة وقد مهد الطريق على شدة صعوده وكثرة متعرجاته، وامتد الزرع على جانبيه، وقد امتزج سكون الليل

إذ ذاك وسكون العظمة يزدهي بها هذا الجبل الذي لا يحمل على أكتافه ولا يضم إلى صدره إلا العظماء وفنونهم؛ فإذا رهبة زاد بلوغها في النفس هذه الأضواء الخافقة التي تشع من مصابيح الطريق، ولا راجل في مراقي هذا الجبل بل سيارات تصعد بأهلها أو تهوي بهم فينة بعد فينة وفيم يقدم الراجل على ركوب هذا الجبل؟ وهو لا ناقة له فيه ولا جمل؟ أما خفوت الأضواء، فلعل له غاية لا تمت بسبب إلى مبادئ الاقتصاد، هذه المبادئ التي يلفظها هذا الجبل، بل لعله يرتفع بساكنيه معتصماً بالعلو من سيلها، وعاصما لهم منه إنما هي دعوة الجمال ومن آياتها إلا يطغي النور الصناعي على النور الطبيعي، على نور القمر وما أحاط به من كواكب.

كنا نجتلي مفاتن هذا المنظر السحري، والسيارة توغل فيه كأنما نسيت أنها تقصد بيتاً، فاندفعت على غير هدى تريد أن تصل إلى أعماق هذا الإبداع؛ أما أنا فقد مرت بي برهة ما شككت أثناءها في أنني اترك العالم، وفي أنني لن البث طويلاً حتى ابلغ ما وراء

الكون، واهتدي إلى أسرار الخلق وغوامض الحياة والموت. . ثم ليكن ما يكون، وما زالت أرواحنا تسمو ويخلص جوهرها من شوائب الدنيا وأعراضها وشهواتها حتى صارت كأنما فرغ الله من صنعها منذ طرفة عين، ذلك كله والسيارة تهتز في منعطفات الجبل كأنها سكرى. . . بل هي سكرى! ولم لا؟ وهي تسبح في خمر الطبيعة ثم لم لا؟ ومن شان هذا الجمال ان يشيع الحياة في الجماد.

انتهينا إلى بوابة رحيبة الجانبين مفتوحة المصراعين، وكلت حمايتها إلى حارسين عليهما أزياء الجند، ما إن نفذت سيارتنا منها ثم هوت خطوات في جادة القصر، حتى كنا في قلعة ذات أبراج تكاد تقطع بيننا وبين معالم الدنيا، وكأنما أعدت لتقارع الفناء وليمتنع بها الأبد.

ثم استقرت السيارة بنا في منتصف هذه الجادة عند ردهة على يمينها ذات ثلاثة أبواب وهنالك ابتذرنا خادمان ملتحيان هما من أبناء الطائفة بالسؤال، فاجبنا، وان هي إلا برهة حتى استقبلتنا غرفة الانتظار عن يمين الردهة فلما شرعت إليها ساقي، همس سائق السيارة في أذني بإنجليزيته المفهومة على أي حال، أن اخلع نعليك فذلك عند القوم سنة مؤكدة، وقد فعلت، ودخلت فإذا غرفة تتسع لنحو سبعة أمتار في نصفها، صفت إلى جدرانها كراسي نظيفة ليست بالوثيرة ولا بالخشنة، وكل أبهتها في سجادتها البيضاء المتسمة بأبهى الألوان في أبدع الشكول، وفي تلك الصور القليلة تحف بها إطاراتها الثمينة وقد ثبتت إلى الجدران وبينها صورة الحرم القدسي رصعت بالأصداف وقد علمت أنها كانت فيما حمله وفد المؤتمر الإسلامي إلى الهند من هدايا؛ فكانت نصيب هذه الغرفة

ظللت أتأمل محتويات الغرفة دقائق لعلها بلغت عشراً، حتى اقبل علي رجل معتدل القامة كريم الوجه، هو في ضحى العقد السادس من العمر، ينبئ الجد في ملامحه والنفوذ في عينيه خلف منظاره الأبيض، والانتصاب في قامته، والهدوء في نبرات صوته عن ان له في هذه الدنيا شأناً؛ طويل اللحية أسودها، يرتدي معطفاً قصيراً من أقمشة الصيف خفيف الاسمرار مشدوداً إلى عنقه، تحته بنطلون من القماش نفسه، وقد تعمم على طربوش، فحيا، ثم استوثق من أنني صاحب الموعد المضروب، فاقتداني إلى مجلس داعي الدعاة.

ذاك رئيس الوزارة البهرية، وكاتم سر إمامها، واقرب القوم إلى نفسه، وهو من وجوه المدينة واعلام رجال المال فيها، وهو ممن يلقي الحاكم إليهم سمعه، ولا يضن بالطاعة له

المحكوم. . . ثم هو قبل ذلك ومع ذلك وبعد ذلك، خادم للشيخ لا يعدل بمرتبته تلك مرتبة إلا أن تكون في السماء.

القاهرة

محمد نزيه

حافظ بك إبراهيم

اثر حياته في أخلاقه وشعره

بمناسبة ذكراه

بقلم السيد احمد العجان

تمهيد
لست أحاول التحدث عن نواحي الدراسات المختلفة في أدب حافظ، فان مباحث شعره المتعددة لا تأتى عليها لمحة سريعة ووقت قصير؛ ذلك لان العاطفة في رثائه موضوع دراسة، وتداعي المعاني في خمرياته موضوع دراسة، وظرفه وفكاهته ومدحه ووصفه كلها محل بحث وتناول وتحليل. ولقد تكلمنا عن حافظ (الشاعر الوفي لمصر) في ذكراه الثانية، وسنتكلم اليوم عن ناحية جديدة لها متين الصلة بالمجتمع، وكبير الأثر في حياتنا العامة، وهي اثر حياته في أخلاقه وشعره.

- 1 -

نشأ حافظ إبراهيم - رحمه الله - نشأة شعبية قد زخرت بألوان العيش تقلبت بين متع دنيا لم تشبعه، وبؤس زمان غلب عليه، وعاش مسكيناً وبائساً في مجموع حياته، لا نستطيع أن نحدد صفوه ونعيمه بشهر معلوم، ولا بسنة، ولا بفترة من الزمان طويلة؛ فانه قد يكون في اليوم الواحد شقياً وسعيداً، بائساً وغياً، إلا انه في المجموع متغلب البؤس، متداني الرزء، غير مجدود

وما النعيم لديه إلا فترات يخلقها ما فيه من ظرف ومرح، وتبعثها مداعباته وفكاهته، ويولدها تفاؤله بالمستقبل، ويقينه في الظفر، ثم ما يراه في العلم والفضيلة من تقريب للسعادة، وسمو بالروح.

وهذا القدر من الظرف والمرح هو الذي هيأ لحافظ عطفاً على فقره، وولد فيه حناناً من بؤسه، وحببه إلى الصحاب والعارفين، ودفعه إلى مواساة البائسين، ومشاركة المحزونين، فلئن صح ان في البؤس ذلة وانكساراً؛ فان في الحنان ميلاً إلى البر، واندفاعاً إلى الصدقة.

كان لهذه النشأة اكبر الأثر في صدق شعوره وإحساسه بالآلام، وتعبيره عنها أدق تعبير، ورسمه صوراً شفافة واضحة لألوان البؤس التي يكتوي بنارها الشعب، ويقاسي بسببها العذاب وجدير بنا أن نتساءل: أكان مدفوعاً إليه بنفسه، مطبوعاً في حنانه؟ أم هو البيان يثيره والشعر يحفزه؟ أجاب حافظ - رحمه الله - بما يقطع كل شك ويقضي على كل تأويل:

ذقت طعم الأسى وكابدت عيشاً ... دون شربي قذاه شرب الحمام
فتقلبت في الشقاء زماناً ... وتنقلت في الخطوب الجسام
ومشى الهم ثاقباً في فؤادي ... ومشى الحزن ناخراً في عظامي
فلهذا - وقفت استعطف النا ... س على البائسين في كل عام

ولقد عرف إحساسه خلق كثير: عرفه صديقه الجليل الأستاذ الشيخ عبد العزيز البشري، فقال في المرآة،: (على انه ما فتئ طوال أيامه يشكو البؤس. . . ولعل هذا من انه نضجت شاعريته في باب (شكوى الزمان)، وقال فيه ما لم يتعلق بغباره شاعر، فهو ما يبرح يطلب البؤس طلباً، ويتفقده تفقداً) ولا ينبئك مثل صديق وعرفه كل من خالطه وعاشره، بل عرفه كل من قرا شعره، وتصفح ديوانه الذي هو صورة من نفسه

(قد دروا أن الشعر في كل ارض ... هو من نفس أهلها منزوع)

- 3 -

إذن كان حافظ يتطلب البؤس والبائسين تطلباً، ويتفقدهم تفقداً، وكانت لديه رغبة قوية صادقة في مشاركة البائسين آلامهم، ومشاطرته احزانهم، (والرغبة الحق هي تلك القوة الروحية التي توحي إلى الشخص القيام بالشيء بهمة لا تعرف الكلل، ولا تقف دونها عقبة: رغب (ابراهام لنكولن) في تحرير العبيد يوم ذهب مع بعض العمال إلى السوق، فوجد جارية تباع وتشترى، فتألم لبيع الإنسانية وشرائها الألم كله، وتمنى أن لو أعطى سلطة حتى يضرب على الاسترقاق بيد من حديد، فأعطى الفرصة بعد زهاء ثلاثين عاماً، بانتخابه رئيساً للجمهورية في ولايات أمريكا المتحدة، فكان من أوائل اعماله، العمل على تحرير العبيد وان شدة الرغبة في الإصلاح الاجتماعي هي التي جعلت (شارلز ديكنز) اكبر كاتب ومصلح اجتماعي بانجلترة في القرن التاسع عشر.

وان الرغبة في أعمال الآلات هي التي جعلت (اديسون) اكبر مخترع في القرن العشرين. والأمثلة كثيرة لا حصر لها) وهذه الرغبة كانت قوية لدى الحافظ، تهزه ويجيش بها صدره، صادقة غاية الصدق، أراد بها إنقاذ الشعب من ذله، وتحريره من

إساره وعبوديته؛ فلست احسب رجلاً وهبه الله إشفاقاً على البائسين، وحناناً على صرعى الفقر، وضحايا الإملاق، ومنكوبي الزلازل والغرق والحريق كشاعرنا العظيم؛ فهو يرسم ببيانه الذي يطاوعه صوراً ناطقة تكاد تتجسم أمامك، وتمثل بين يديك، تسمعك أنينها وتوجعها، وتبثك آلامها وتفجعها، وتحرك فيك ما كمن من عطف واستتر من حنان. فما سنحت فرصة إلا غرد بالألم، ولا حانت مناسبة إلا دعا إلى الرحمة.

- 4 -

ولهذا نراه شديد الولوع بقصص المرزوئين وروايات المعدمين. شغف (بالبؤساء) فترجمها، وهام بها فنقلها إلى لغة قومه، لان فيها إرواء لعاطفته، وغذاء لنزعته، وتعبيراً صادقاً عن خلجات فؤاده، ولأنها منتجع خاطره، ومهوى قلبه. واختار لها من الألفاظ والأساليب ما يذيب قسوة الصلد رقة ولينا، ويخترق إذن الأصم فيضحى سميعاً. ولأنها تمثل لوناً من الإنسانية المعذبة، وطائفة من أسرى العوز، وضحية من ضحايا تتكرر على الدوام ولا تنقطع، تتكاءدها الهموم، وتمثل بها خطوب الزمن، وتنهشها أفاعي الضنك على مرأى من السراة وأولي الأمر؛ فلا يخلصها منقذ، ولا يدافع عنها نصير.

- 5 -

ثم لهذا نرى الغزل في شعره قد توارى واختبأ، ولا نستطيع أن ننسب حافظاً إليه، لأنه أحس بما يشغله عن تتبع المرأة، ويصرفه عن طلابها

وقد يكون ذلك لضيق اليد، وخلو الجيب، إذ من شان الاتصال أن يتطلب المال، والوقت، والثراء. ولكني ارجح الأول؛ لسمو غايته، ونبل مقصده، وموافقته لحياة شاعرنا ثم لهذا أيضاً بكى كل مصاب ومفجوع، وناح على كل ضائع وشريد، واستبكى المحسنين معه ليستدر عطفهم ويستميل قلوبهم

- 6 -

وإذ أحس أن كثيراً من أهل العسرة وضيق اليد يرمقون المال ويتشهونه، حتى إذا لم ينالوه

يئسوا من الدنيا، وسخطوا على الحياة، اخذ رحمه الله يعالج أدواءهم، ويهدم مذهبهم فهو مع فقره لم يتبرم بالحياة إلى حد القنوط، ولم يسخط عليها حتى اليأس. فليس التجرد من المال فقراً، وتكدس الخزائن به غنى، ولكنه وسيلة ترفيه وأداة رغد، فان لم يفد متاعاً ولم يكسب مغنماً، فلا خير فيه ولا منفعة منه. وانه كثيراً ما اجتمع له المال الوفر من كتب ألفها وترجمها ومقالات كتبها وسطرها، ووظيفة قبضها، فما استقر عنده، ولا عمل على إبقائه. قال الأستاذ البشري في المرأة: (وهو أجود من الريح المرسلة، ولو انه ادخر قسطاً من الأموال، لكان اليوم من أهل الثراء، على انه ما فتئ طوال أيامه يشكو البؤس، حتى إذا طالت يده الألف جن جنونه، أو ينفقها في يوم أن استطاع)

- 7 -

ثم امسك بأيديهم، ونهض بهم إلى حيث المجد يبتغي، والشرف ينال، وعزة النفس تكتسب: بالعلم، بالآباء، بالكرامة والرزق ووفرة المال، بالسعى، بالهجرة، فارض الله رحبة واسعة:

وفيها لمن رام الحياة سعادة ... وفيها لمن رام النعيم مقام

والتفت إلى الحاكمين والسراة يستثير عطفهم، ويحرك الشفقة والحنان نحو مساكين تنتابهم غير الدهر، وتتوالى عليهم أحداث الزمان، وبائسين يؤلمهم الفقر، ويؤذيهم العرى

- 8 -

وعاطفة المواساة ترتقي بحافظ: فلا تقتصر على مواساة الفقراء والمنكوبين، وأسرى الحروب والمملقين، ولكنها تنوح بالألم، على كل حالة يعتبرها صاحبها شقاء ويظنها تعساً. على كل حالة تصرع الرجل فيه الشدائد، وتضعضعه النوائب، وتهده العظائم والشوائب. على كل حالة يتبدل فيها شان الإنسان من رضى وسكون ودعة، إلى تبرم وسخط وكراهة، من شعور بالراحة والسعادة والهناء، إلى تذمر وامتعاض وموجدة، فنراه يواسي ملوكا غاب عن جبينهم التاج، وسلاطين خلت أيديهم من الملك، تواسى ملوكاً غاب عن جبينهم التاج، وسلاطين خلت أيديهم من الملك، وأصبحوا يحتمون بالقانون بعد أن كانوا مصدر القانون! ويخضعون للنظام وقد كانوا يصدرون النظام!

. .ويبتدئون بالتحايا العارفين وقد كانوا بها يبتدأون، ولهم مراسيم تقضى وواجبات تؤدى .!!
هذه الإمبراطورة (أوجيني) زوجة نابليون الثالث تقدم مصر بعد زوال ملكها، فيرفع لها حافظ تحيته، بل مشاطرته ومواساته:

إن يكن غاب عن جبينك تاج=كان بالغرب أشرف التيجان
فلقد زانك المشيب بتاج ... لإيدانيه في الجلال مداني
ذاك من صنعة الأنام وهذا ... من صنيع المهيمن الديان
فأعذرينا على القصور كلانا ... غيرته طوارئ الحدثان

وقال في فتنة الآستانة موجهاً إلى السلطان عبد الحميد صورة من التأسي والتصبر، مشفقاً عليه باكياً، بعد أن كان مغيظاً خانقاً، يعيب على الشامتين شماتهم، وينتقص رجولتهم، ويبين أنه لا زال خارج الحكم عبد الحميد كما كان مملكاً حاكماً:

كنت أبكي بالأمس منك فمالي ... بت أبكي عليك عبد الحميد
فرح المسلمون قبل النصارى في ... ك قبل الدروز قبل اليهود
شمتوا كلهم وليس من الهم ... ة أن يشمت الورى في طريد
ما عهدنا الملوك تبكي ولكن ... علها نزوة الفؤاد الجليد
شفح الدمع فيك عند البرايا ... ليس ذاك الشفيع بالمردود
دمعك اليوم مثل أمرك بالأم ... س مطاع في سيد ومسود

ولعل هذه الفواجع المتكررة، والأرزاء المتتابعة، التي يستوي فيها الفقير لا يجد قوتاً، والشريد لا يعثر على مأوى، والملك لا يأمن غدر الدهر وخيانة الزمن، والسلطان لا يستقر به الجاه، ولا تدوم له العزة - لعل هذه الفواجع - هي التي جعلت حافظاً ينحى باللائمة على حواء أمنا الأولى؛ لأنها ولدتنا ولم توص الزمان بنا خيراً، مع عرفانها بصروفه وأكدراه:

لم تلدنا حواء إلا لنشقى ... ليتها عاطل من الأولاد
سلمتنا إلى صروف زمان ... ثم لم توصها بحفظ وداد

ولكنه في غضبه هذا لم يذهب كما ذهب غيره: يدعو الموت ويتطلب مبارحة الحياة وفراق الدنيا، ولم يكن كمن قال: (فيا موت زر إن الحياة ذميمة)؛ ولا من قال: (ألا موت يباع فأشتريه)؛ بل فطن لما فرط منه، وأنتبه لما بدر، فنفض عن نفسه غبار الشجو، وكابوس الجزع، فهو يسوءه أن يضيق ذرعاً بدنياه، ويؤكد أن الاستسلام للألم مما يشينه، وقد يعوقه عن تأدية رسالته. فالمواساة ليست بكاء فقط، أو ألماً فحسب، ولكنها: تسرية هموم وتخفيف مصاب، ثم هي فوق ذلك جلب منفعة، وإكساب غنيمة، وليس في مقدوره أن يخدم الفقراء والبائسين إذا ضاق بالحياة وسخط على الدنيا، وأتروى بعيداً، لا يتصل بالحاكمين، ولا يتعرف ما عند المحسنين.

- 9 -

ولقد عرف أن تخليد الذكر إنما يكون بالإحسان، فهو أبقى على الزمن، وأدوم في التاريخ؛ فأخذ يغري الحاكمين بالعطف على أبناء الشعب والعمل على إسعاده، ولا سيما إن منصب الوزارة ليس دائماً، ولكنها الصالحات والمؤسسات الخيرية أبقى وأكثر دواماً:

إن المناصب في عزل وتولية ... غير المواهب في ذكر وتخليد

وأغرى السراة بالإنفاق على الفقراء، فلقد يكون منهم الزعيم السياسي يخلص الوطن وينقذ البلاد، أو الرئيس الديني يرعى الأخلاق ويحمي الشريعة، أو الشاعر النابغة يهز القلوب طرباً، ويثقف العقول بياناً وحكمة:

أيها المثرى إلا تكفل من ... بات محروماً يتيماً معسراً
أنت من يدريك لو أنبته ... ربما أطلعت بدراً نيراً
ربما أطلعت (سعداً) آخراً ... يحكم القول ويرقى المنبرا
ربما أطلعت منه شاعراً ... مثل (شوقي) نابها بين الورى
ربما أطلعت منه (عبده) ... من حمى الدين وزان الأزهرا
كم قضى البؤس على موهبة ... فتوارت تحت أطباق الثرى
كل من أحيا يتيما ضائعاً ... حسبه من ربه أن يؤجرا

ثم نراه يبين لأولئكم السراة أن لا قيمة للمال إذا لم يعصمنا من الفقر، ولم نؤسس به الملاجئ، ودور العلم، وبيوت الشفاء؛ فإن الدينار نفرح به ما دام في أيدينا، حتى إذا ما دخلنا به السوق كان والدرهم سواء. والمال الكثير إذا حل الغلاء؛ يكون قليلاً يمضي سريعاً.

نهش إلى الدينار حتى إذا مشى ... به ربه للسوق ألفاه درهما
فلا تحسبوا في وفرة العلم لم تفد ... متاعاً ولم تعصم من الفقر مغنما
فإن كثير المال والخفض وارف ... قليل إذا حل الغلاء وخيما

- 10 -

ولقد بصر بلذع السؤال ومرارته، وألم الاستجداء وحرقته فأهاب بالمحسنين أن يصدروا عن عاطفة، وألا يحرجوا المحروم؛ فأن خير الصنائع ما تنبو بحاملها عن الإهانة، وإن الذي يجود بعد إلحاح وطلب كثير؛ لهو المعدود من البخلاء:

خير الصنائع في الأنام صنيعة ... تنبو بحاملها عن الإذلال
وإذا السؤال أتى ولم يهرق له ... ماء الوجوه فذاك خير نوال
من جاد من بعد السؤال فإنه ... وهو الجواد يعد في البخال

وهو لذلك يربأ بنفسه أن تمديده لذي منة، وأن تبسط لمن يستعذب سؤال المحتاج، أو من يعتز بغناه ليسخر من مسهب معوز؛ فيعف ويود لها البلى قبل سؤال الدنيء اللئيم.

أيا يد ما كلفتك البسط مرةً ... لذى منه أولى الجميل وأنعما
فلله ما أحلاك في أنمل البلى ... وأن كنت أحلى في الطروس وأكرما

- 11 -

لحافظ - رحمه الله - مذهب في الإحسان، فهو يرى أنه ليس منة وفضلاً يفخر به ذووه، وتعلو به رؤوسهم وتشرف أقدارهم، وإنما هو واجب على المثري أن يؤديه، وحق للفقير يجب أن يوفيه، ودين لا يفر من قضائه إلا مماطل، ولا يهرب منه إلا نذل دنيء. والإحسان في نظره يستطيع كل إنسان أن يؤديه:

بالقول!! يخفف به الألم عن الشاكي، ويثير به همم أولي العزم والمروءة والنجدة.
وبالدمع!! مشاركة للمحزون فيما أحزنه، وللمهموم فيما أفجعه وللمصاب فيما أصابه.
وبالمال!! الذي هو العون في قضاء الصوالح، والجالب للنفع، والدافع للضر، به نقضي الرغبات ويؤدي المطلوب قال في زلزال إيطاليا:

سلام على الأول أكل الذئ ... ب وناشت جوارح العقبان
وسلام على امرئ جاد بالدم ... ع، وثني بالأصفر الرنان
ذاك حق الإنسان عند بني الإن ... سان. لم أدعكم إلى إحسان

(البقية في العدد القادم)

السيد محمد العجان

إلى الأستاذ أمين الخولي:

حول الفقه الإسلامي والفقه الروماني

للأستاذ صالح بن علي الحامد العلوي

قرأت ما كتبتم رداً على مقالي عن الفقه الإسلامي والروماني وأشكركم على حسن ما ظننتم بي من الغيرة الدينية وجميل الأدب في النقاش. وبما أنك أيها الأستاذ قد تنكبت في ردك جوهر الموضوع في مقالي إلى ناحية أسلوب التفكير وصحة الانتقال والاستنتاج - كما عبرت - مكتفياً ببيان أنك قد أطلعت على الموضوع نفسه وأنه قد نشر في مصر - وربما بنصه - منذ ربع قرن مضى الخ، وقلت إنك قرأته ولا تزال تذكره جيداً ومع ذلك قلت فيما قلت عن تأثر الأوزاعي بالفقه الروماني الخ.

فإني أقول لك - على تسليم ما ذكرت -: إني لم أكتب ما كتبت متهماً لك في معارفك ومعلوماتك، ولا لأن أقنعك أنت وحدك فقط دون الجم الغفير من قراء (الرسالة) الغراء الذين قد قرأوا ولا شك رأيك ورأي غيرك في الموضوع إلا لما كان الأمر في حاجة إلى نشره في صحيفة سيارة كا (لرسالة)، فالأمر قد صار أعم من أن يختص بي أو بك. أفليس من اللازم أن تجيب - ولو بإيجاز عن كل ما كتبت ونبسط للقراء رأيك مدعماً ببراهين لا تنقص - على الأقل - عن براهين مناظرك، وبذلك تكون قد أنرت السبيل للقراء لأن يهتدوا برأيك ويتفقوا معك على تأثر الفقه الإسلامي بالفقه

الروماني. وإلا فلا معنى لأن تفتح باب البحث مختاراً، ثم إذا دعيت إلى بسطه عمدت إلى سده متعللاً بضيق الوقت.

لا يا أستاذ! إن الوقت الذي تعتذر بضيقه الآن قد أتسع لدرس علوم وفنون وصنائع قد ضاق عن أقلها الزمن الماضي، فلماذا يضيق ذرعاً بالخوض في هذا البحث وحده؟ وإذا كان قراء الصحف الأسبوعية لا ينشطون للمناقشة الفنية كما قلت فإني اجل قراء (الرسالة) بخاصة عن ذلك فالرسالة في اعتقادي هي الصحيفة الأسبوعية الجدية الوحيدة التي ينبغي أن تضطلع برسالة العلم - كما يعبر اليوم - والأدب والفن، وارى أن قراءها كذلك يمتازون من قراء غيرها من الصحف على أن الصحيفة الراقية هي التي ترفع قراءها إليها لا التي تنزل إليهم والآن اخذ في ذكر ملاحظاتك على مقالي والرد عليها.

وابدأ أولاً بأخذك عليَّ قولي: إن الأخذ والتأثر يجريان إلى مدى واحد بقولك: (إن التأثر قد يكون سلبياً صرفاً، ثم استشهادك لذلك بان الوثنية العربية قد أثرت في الإسلام في تحريم التصوير والنحت الخ، والحق أيها الأديب أن تحريم التصوير ليس من موضوعنا في شيء، وليس إلا من باب سد الذرائع وهي القاعدة المعمول بها في الإسلام ولا تزال أصلاً في مذهب مالك؛ ومن أمثلة ذلك في الإسلام تحريم آلات اللهو سداً للذريعة في تعاطي الخمر، وضرب الحجاب على المرأة للذريعة في افتتان الرجل بها، كالعكس إلى غير ذلك، فلماذا أيها الأستاذ لا تجعل تلك من هذه؟ ولا تكون في حاجة لتكلف هذا التأثير السلبي غير المفهوم، اللهم إلا إذا كان كتأثير الشيء بضده في ظهوره ووضوحه عند المقابلة كالبياض مع السواد فيكون هذا من باب: وبضدها تتبين الأشياء

ثم اني أخشى أن يعد ما قلته أيها الأستاذ خطوة في التهرب من الموضوع والتملص منه، ذلك لان اصل البحث الذي نحن فيه انه وجد في الفقه الروماني تشابه مع الفقه الإسلامي فهم منه البعض وجود علاقة بين الفقهين، فادعى كولدزهير ومن قلده تأثر الفقه الإسلامي بالروماني، فقلنا كما قال غيرنا أيضاً: إن الأحرى والأنهض بالدليل أن يكون الروماني هو المتأثر. هذا هو حاصل الموضوع، فلو سلمنا صحة تقسيم التأثير إلى إيجابي وسلبي كما قلت أيها الأستاذ فما السلبي مما نحن فيه في قليل ولا كثير. وإذا كنت ترى تأثر الفقهاء بالفقه الروماني إنما هو تأثير سلبي بهذا المعنى فقد لا يبقى بيننا ما يستوجب النزاع والمناقشة

(2) وقلت أيها الأستاذ عند قولي: إن الإسلام في ذاته جاء خارقاً لقاعدة البيئة والثقافة، إذ قام به النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وهو النبي الأمي الذي نشأ ابعد الناس عن أن يطلع على قانون روماني أو حكمة منقولة، وإني بهذا الدين الأقدس مناقضاً كل المناقضة لما عليه قومه. . . الخ. قلت: (إن هذا القول غريب من. . . لأنه لا يصح إلا على تقدير أن هذا الدين من صنيع الرسول نفسه وهو أمي. . . الخ فعمله ناقض لقاعدة البيئة والثقافة، أما على أن الإسلام كما في حقيقته وحي إلهي فلا يستقيم هذا التمثيل مطلقاً في نقض قاعدة البيئة والثقافة الخ).

فلولا حسن ظني بسلامة نيتك أيها الأستاذ لعددت هذا منك مغالطة غير سائغة من مثلك؛ ذلك لأني لم أقل فيما كتبت إن الإسلام بظهوره بهذه الصفة ناقض لقاعدة البيئة والثقافة قط،

ولكني قلت: إن الإسلام في ذاته خارق لها، لأنه دين سماوي ووحي إلهي لا تتحكم فيه بيئة ولا تؤثر عليه ثقافة؛ على أن قولي خارق أحرى بأن يفهم منه إثبات قاعدة البيئة والثقافة؛ لأن الخارق ما خرق العادة وخالف مقتضاها، والغرض مما قلت بيان أن الإسلام في فقهه وعقائده وعباداته لا يتطرق إليه تأثير البيئة والثقافة، لأنه في كل ذلك جاء خارقاً لقانونها، ولم أقل قط إن الإسلام ناقض لقاعدة البيئة والثقافة كما فهمت أيها الأستاذ، بل قلت: إنه خارق؛ وفرق بين مدلولي اللفظين، فليشهد القراء وليحكموا!

(3) وقلت أيها الأستاذ عند قولي: إن الشريعة الإسلامية وجدت كاملة دفعة، أو بعبارة أصح جاءت في زمن واحد. . . الخ (إن هذه العبارة أوضح من أن تحتاج مخالفتها إلى دليل). فلماذا أيها الأديب الفاضل؟ فهل كنت تنكر أن الرسول صلى الله عليه وآله

وسلم لم يمت إلا وقد تركنا على المحجة البيضاء، حتى ترى أن بعض الشريعة لم يوجد إلا بعد زمنه؟ ألم يقل الله جل ذكره في كتابه العزيز: (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي)؟ ويقول ابن عباس السدي في تفسيرها: إن المعنى اليوم أكملت لكم حدودي وفرائضي وحلالي وحرامي تنزيل ما أنزلت وتبيين ما بينت لكم، فلا زيادة في ذلك ولا نقصان منه بالنسخ بعد هذا اليوم؟ حتى غال بعض نفاة القياس فأحتج بها على إنكاره.

(4) ثم ذكرت أيها الأستاذ قولي: وهيأ لنا شريعة كاملة، وقانوناً ربانياً منظماً يصلح لأن يطبق على أي جيل وعلى أية أمة، ولم يزد فيه الفقهاء شيئاً قط إلا تصنيفه ونقله. . . إلخ، فقلت: (إن هذا الكلام ليس أحسن حالاً من سابقه، فالفقهاء قد فهموا وطبقوا واستنتجوا واستنبطوا. . . الخ) ونحن لا ننكر هذا، وعبارتي لا تفيد نفيه إذ لست ظاهرياً، وقد شاء قلمك أيها الأديب أن يقتضب من عبارتي ما شاء فقط، وإلا ففي آخر الفقرة بيان المراد، فقد قلت في آخرها إنهم (أعني الفقهاء) فيما لم يجدوا فيه نصاً صريحاً يطبقونه على قواعده الأساسية، وهذا هو معنى الفهم والاستنباط، ولا يقال له زيادة ولا تعارض في العبارة، لأن المراد بما لم يزد فيه الفقهاء شيئاً أصوله وقواعده الأساسية، وهي التي لم يلحق المشرع الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم بالرفيق الأعلى إلا وقد تركنا منها على سبيل واضح وقانون رباني منظم وشريعة كاملة، فيحسن أن نقول هنا إننا والأستاذ الفاضل على خطة اتفاق.

(5) وقلت أيها الأستاذ إن قولي (. . . والنصوص الفقهية كلها صريحة بينة الأغراض واضحة المرامي، يناقضه قولي في القرآن: على إن الاختلاف في تفسيره ليس إلا لإيجازه المعجز مع بعد مراميه الغيبية، وقلت: (إن هذا الإيجاز المعجز لم يفت آيات الإحكام كذلك وبعد المرامي يشملها. وجوابي عليك أن آيات الإحكام قد جاءت مفسرة بالسنة إلا ما ندر منها كآية الربا، فلم يبق مجال للاختلاف فيما أوضحه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كما يمكن أن يكون في غيره مما لم يفسر بالسنة، وبهذا يتضح الفرق بين أدلة الإحكام والتفسير المختلف فيه، ويصح به لنا القول بألا يقاس بالفقه التفسير، وحسبك دليلاً على الفرق بين فهم الكتاب وفهم السنة ما صنع الإمام علي كرم الله وجهه عند إرساله ابن عباس رضي الله عنهما لجدال الخوارج، إذ أمره أن يتوخى جدالهم بالسنة حرصاً على إلا يخطئوا في فهم القرآن وتأويله، وما ذاك إلا لما ذكرنا.

(6) وتقول أيها الأستاذ (وإذا كانت النصوص صريحة بينة الأغراض ففيم أختلف فقهاء المذاهب الكثيرة المتعددة الخ.

وأقول لك إن سبب الخلاف بين فقهاء المذاهب ليس اختلاف البيئة والثقافة مع غموض الأدلة، ولكن السبب الأكبر هو اختلاف علمهم بالأدلة أولاً، ثم تفاوت مراتبها عندهم قوة وضعفاً، وقد كانت السنة آنئذ تتلقى من أفواه الشيوخ. وقد يبلغ الفقيه حديث لم يبلغ الآخر، أو يكون هذا سمعه بطريقة أقوى من طريق الآخر، وهذا عندي السبب الأكبر في اختلاف الفقهاء.

ولذلك قال الشافعي إذا صح الحديث فهو مذهبي. ونحن لا ننكر اختلاف الأفهام في الاستنباط أصالةً، ولكنا ننكر لزوم أن يكون ذلك من آثار البيئة والثقافة، فاختلاف الإفهام جار حتى بين أبناء المدرسة الواحدة والبيئة الواحدة كما هو مشاهد، فلا يصلح دليلاً لتأثر الفقه الإسلامي بالفقه الروماني.

(7) واستطرفت أيها الأستاذ الأديب تمثيلي للصراحة بقولنا مثلاً لا تكذب قائلاً: (إن هذه المسألة على وضوحها الشديد محل خلاف تعدى إلى كتب البلاغة) والكلام إنما هو تمثيل للصراحة لغة، وفرق بين رسوم الألفاظ وحدودها المنطقية وبين صرائح مؤدياتها اللغوية.

ثم إني لم أمثل بهذا إلا توضيحاً لكون الكلام العربي الصريح لا يختلف معناه على حسب

الأزمان والبيئات؛ ويدل على هذا قولي بعد ذلك: وأرى أننا لو نقلنا خطبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حجة الوداع مثلاً ونشرناها اليوم لما فهم منها، أي إجمالاً، من يعرف مدلولات الكلام العربي من مثقفي اليوم إلا ما فهمه عشرات الألوف من المسلمين حينما خطبهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك

الموقف الرهيب قبل ثلاثة عشر قرناً ونصف).
وهذه ميزة للغة الضاد يجب ذكرها على حين أن بعض اللغات سواها قد تغيرت وتطورت تطوراً كاد يجعلها مقطوعة الصلة بينها وبين ماضيها قبل مائتي سنة.
(8) وأما استغرابك لقولنا إن أغلب النصوص الفقهية من السنة، فيذهب إذا علمت إن آيات الأحكام جاءت جلها إن لم نقل كلها مفسرة موضحة بالسنة، فالسنة مع كونها مصدراً خاصاً لبعض الأحكام فهي في بعض واسطة بين الكتاب وبين الفقهاء في فهم آيات الأحكام، وبهذا تعلم أغلبية الأدلة الفقيهة التي من السنة وإن كان أغلبها في الحقيقة تفسير ما أجمل الكتاب، وهذا معنى التبيين في قوله تعالى (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما أنزل إليهم) آية.
(9) ثم قلت أيها الفاضل مستدلاً على تأثر الأوزاعي بالفقه الروماني: (إن الرومانية حكمت الشام قطعاً، وكان ذلك الحكم لقرون كثيرة قطعاً، وكانت الدولة الرومانية وحكمها الشام قبل الإسلام قطعاً. . . ثم قلت وكان الإسلام هو الذي خلف على ذلك بلا شك، وكان لهذا على طول الزمن أثره الذي تختلف به الشام عن الحجاز مثلاً، ولا بد والأوزاعي أبن هذه البيئة الحديثة العهد بهذه الحال الرومانية فلتلك البيئة وهاتيك الثقافية وأثرهما المحتوم في تكوين الأوزاعي الخ. فلو سلمنا جدلاً بصلاحية الفقه الإسلامي وقبوله للتأثر بالبيئة والثقافة كما تعتقد أيها الأستاذ الفاضل، فالشام لم يفتح في عهد الأوزاعي ولكنه فتح في عهد عمر رضي الله عنه، والأوزاعي - وهو من تابعي التابعين، ومن الطبقة السابعة من الرواة، ومن أهل القرن الثاني - لم يأت إلا وقد أنصرم، أو كاد ينصرم بعد رسوخ الإسلام في الشام جيل كامل. ثم إن الإسلام من شأنه أنه لم يفتح بلاداً وتطأها أقدام جنوده الأبطال إلا وينقل إليها معه حضارته وآدابه وأحكامه، وأصرح من ذلك أن أقول إن الإسلام لم يفتح البلاد ويتولى الشعوب إلا لينسخ أدياناً ويقر مكانها ديناً واحداً، ويهدم قوانين ويبني بدلها قانوناً جديداً مفرداً، ويجتث حضارات ويغرس محلها حضارة واحدة؛ فالإسلام لم يفتح أرضاً ولم يحكم شعباً إلا ليؤثر فيه - يا مولاي الأستاذ - لا ليتأثر به.
وقد تولى الإسلام الشام منذ عهد الخليفة الثاني وأسبغ عليه من روحه وثقافته وتعاليمه حتى غدا إسلامياً صبغةً وروحاً، ومضى على ذلك زمن، ولم يأت الأوزاعي إلا والشام في دينه وروحه وثقافته إسلامي صرف، ولم يبق به من ثقافة الرومان عين ولا أثر. فالأوزاعي وليد بيئة إسلامية وثقافة إسلامية، فتسرب الثقافة الرومانية إليه بعد أن اندثرت وسحب الدهر عليها ذيل النسيان وحل محلها ما هو خير ثقافة وأعدل حكما - من البعد بحيث لا يستسيغه عقل المتثبت الحازم.
(10) والعجيب أيها الأستاذ الفاضل أنك في آخر ردك على مقالي قلت لا أدع منه عبارة ختامية تلك هي. . . إن الفقه الروماني جديد لفقه جماعة من العلماء وتحقق أنهم أخذوه من الفقه الإسلامي، وهذا ما يجب إلا يعتقد خلافه كل مسلم، قائلاً بل أقول. . . لسنا في شيء من المطالبة بهذه العقيدة في الفقه الروماني، فليست أصول الإسلام ستة، تلك الخمسة المعروفة ثم سرقة الفقه الروماني من الفقه الإسلامي الخ).
ولا أدري ماذا أردت بأصول الإسلام الخمسة؟ فإن كنت تريد بها أركانه التي أولها الشهادتان وآخرها الحج، فالاستنتاج عجيب، لأنني لم أقل إن هذا الاعتقاد ركن من أركان الإسلام، بل غاية ما في الأمر إني قلت إنه واجب؛ وواجبات الإسلام يا مولاي الأستاذ أكثر من أن تكون ستاً أو ضعفها، فإذا ضممت إليها الواجبات الاعتقادية والأعمال والتروك صارت أكثر من أن تحصر! فبأي منطق استنتجت من قولي ما لم أقله، وألزمتني على هذا القول بأن أصول الإسلام ستة؟ ولا يفوتني هنا أن أقول لك أيها الأستاذ إن أدبك الجم قد سمح لك أن تنصحني بأن أعدل رأيي في هذه الأشياء قبل أن أهتم بمسألة الفقه الروماني وأخذه أصوله من الفقه الإسلامي أو تأثر الفقه الإسلامي فتلك مسائل متأخرة، ولكني هنا لم يطاوعني أدبي معك - مهما كان بالنسبة إلى أدبك - أن أقول لك مقال الناصح المشفق إنه يحسن أن تصلح منطقك أولاً قبل التعرض لتطبيقه على مثل هذه الأمور.
وفي الختام أقول لك إنه ليس من الخير أن يتذرع الكاتب للتغلب على مناظره بتحقيره أو مغالطته، وأعتقد أنك أعلم بأدب الحوار والمناقشة من أن أنبهك إليه

والسلام عليك.
سنغافوره
صالح بن علي الحامد العلوي
نهر النيل
كما ذكره العلامة أبن خلدون في مقدمة
بقلم رشوان أحمد صادق
جاء ذكر النيل في كثير من المؤلفات العربية التي وضعها جغرافيو العرب من أمثال الإدريسي وياقوت الحموي والإصطخري وابن سعيد الجيهاني وغيرهم كثير. على أن ابن خلدون وصف هذا النهر وصفاً بديعاً في مقدمته المشهورة.
وقبل أن نتحدث عن مقال أبن خلدون عن نهر النيل يحسن بنا أن نذكر الحقائق الآتية:
أولاً: أطلع ابن خلدون على أبحاث من سبقه إلى هذا الموضوع وحاول أن يوفق بينها وبين ما سمعه من الأحاديث المختلفة عن نهر النيل.
ثانياً: لم يذهب أبن خلدون إلى أعالي النيل ولكنه ربما زار بعض أجزاء النهر السفلى مثل الأراضي المصرية.
ثالثاً: ابن خلدون قد وصف بعض أجزاء نهر النيل بدقة جعلت الكثير من العلماء يهتم برسالة هذا الرجل الفيلسوف.
رابعاً: إن العهد الذي كتب فيه أبن خلدون كان عهد اجتهاد من حيث البحث عن منابع النيل، إذ كانت مسألة النيل من الأمور الغامضة، ولم تتح الفرص لفك لغزه أو الحصول على معلومات حقيقية عنه مبنية على أبحاث دقيقة إلا بعد أن وطد محمد علي الأمن في أعالي النيل، وبذلك سهلت مهمة من قام بهذا العمل.
والآن نذكر أقوال ابن خلدون عن نهر النيل ثم نعقب عليها.
قال: (فأما النيل فمبدؤه من جبل عظيم وراء خط الاستواء بست عشرة درجة على سمت الجزء الرابع من الإقليم الأول ويسمى جبل القمر ولا يعلم في الأرض جبل أعلى منه. تخرج منه عيون كثيرة فيصب بعضها في بحيرة هناك وبعضها في أخرى، ثم تخرج أنهار من البحيرتين فتصب كلها في بحيرة واحدة عند خط الاستواء على عشر مراحل من الجبل، ويخرج من هذه البحيرة نهران يذهب أحدهما إلى ناحية الشمال على سمته ويمر ببلاد النوبة ثم بلاد مصر، فإذا جاوزها تشعب في شعب متقاربة يسمى كل واحد منها خليجاً وتصب كلها في البحر الرومي عند الإسكندرية، ويسمى يبل مصر وعليه الصعيد
من شرقيه والواحات من غربيه. ويذهب الآخر منعطفاً إلى المغرب ثم يمر على سمته إلى أن يصب في البحر المحيط وهو نهر السودان وأممهم كلهم على ضفتيه).
من ذلك يتبين إلى أي حد كانت معلومات ابن خلدون عن هذا النهر. أما عن أعالي النهر فمعاوماته قاصرة على السماع وعلى ما وصل إلى علمه من كتب من سبقه إلى ذلك الموضوع. وعلى الأخص كتاب بطليموس الذي ذكر ذلك بوضوح ونقل عنه الإدريسي وغيره. ولكن في كلام ابن خلدون مسألة مهمة إلا وهي ذلك النهر الذي يتجه غرباً ويصب في البحر المحيط.
ما هو ذلك النهر الغربي؟
أكان ابن خلدون متأثراً بالآراء القديمة من أمثال رأي هيرودوت الذي يقول بأن النيل يتجه غرباً إلى المحيط؟ أم كانت عنده معلومات عن نهر الكنغو وظن أنه يتصل بالنيل كما كانت هذه الفكرة سائدة إلى زمن ليس ببعيد؟ أم كان يعرف نهر النيجر وظن أنه فرع من النيل لقرب منابع بعض نهيراته من منابع بعض نهيرات حوض تشاد القريبة من منابع بعض نهيرات النيل؟
ولكي نوضح هذه المسألة نقول: إن ابن خلدون ربما كان يقصد أحد هذه الآراء الثلاثة الآتية:
1. يقول أبن خلدون إن هناك نهيرات تنبع من جبل القمر ثم تصب في بحيرتين، ثم تخرج أنهار من البحيرتين فتصب كلها في بحيرة واحدة عند خط الاستواء، ويخرج من هذه البحيرة نهران يتجه أحدهما نحو الشمال والآخر نحو الغرب ويصب في المحيط.
لعله كان يقصد بحيرة فكتوريا وبحيرة أدورد، وإن البحيرة الثالثة هي بحيرة البرت، والنهر المتجه شمالاً هو بحر الحبل والمتجه غرباً هو الكنغو.

والقاعدة في هذا الفرض أن المنطقة بين النيل والكنغو غير محدودة تماماً، كذلك ليست شديدة الإرتفاع، وفي زمن الأمطار الشديدة قد تكون هذه المنطقة عبارة عن شبكة من المجاري المائية التي يصبح من المتعذر تتبعها خصوصاً وأن تلك الجهات كانت غير معروفة تماماً، وإن المعلومات عنها كانت منقولة عن التجار العرب والزنوج.
فإن كان ابن خلدون يقصد ذلك - وهو الأرجح - فذلك دليل على ذكاء ذلك الرجل الفيلسوف والعالم المحقق.
ولقد ظلت فكرة اتصال النيل بالكنغو زمناً طويلاً في عالم الوجود قبل أن يكشف تماماً عن نهر الكنغو.
2. أما عن الرأي الثاني فنقول إن أبن خلدون ربما قصد بالبحيرة الثالثة منخفض بحر الغزال (بحيرة نو وأقليم السدود ومنخفض بحر الغزال). فالواقع إننا عندما نتتبع هذه المنطقة على الخريطة قد لا نتبين تماماً مقدار عظمها، ولكن إذا ما اطلعنا على مذكرات بعض التجار الذين قطعوا هذه المسافات من أمثال الزبير باشا نتبين تماماً إن هذه المنطقة تظهر لأول وهلة كأنها مستنقع عظيم السعة. فلقد ذكر الزبير باشا في مذكراته أنه ضل الطريق وسط هذا المستنقع أثنى عشر يوماً حتى كاد يشرف على الهلاك.
فربما كان أبن خلدون يقصد بالبحيرة الثالثة هذا المستنقع العظيم. وإن النهر الذي يتجه غرباً هو بحر العرب وروافده. وربما وصلته أخبار عن النيجر وحوض تشاد فظن أن بحر العرب يتصل ببحيرة تشاد وهذه الأخيرة تتصل بالنيجر إلى (البحر) المحيط.
ولقد كان يظن أن النيل يتصل بنهيرات بحيرة تشاد وهذه تتصل بأعالي النيجر، وبقيت تلك الفكرة سائدة إلى إن ذهبت البعثة الفرنسية وطافت حول بحيرة تشاد وأثبتت أن حوض تشاد منفصل عن النيل وعن النيجر تماماً.
وربما كانت تلك الفكرة بعيدة عن ذهن أبن خلدون، ومع ذلك لا مانع من ذكرها خصوصاً وإن فكرة اتجاه النيل غرباً كانت سائدة في قديم الأزمنة.
3. أما عن الرأي الثالث فربما قصد ابن خلدون بالبحيرة الأولى، بحيرة رودلف، وظن أن نهر أومو الذي يتصل بها متصل بنهر أوكوبو أحد أفرع السوباط، وأن البحيرة الثانية هي فكتوريا، والبحيرة الثالثة هي نو (ومنخفض بحر الغزال وأقليم السدود)، وأن النهر الغربي هو بحر العرب ويتصل بحوض تشاد، ثم حوض تشاد يتصل بحوض النيجر، ثم ينصرف الأخير إلى المحيط كما سبق أن بينت ذلك في الرأي السابق.
ومما جعلنا نحتمل وجود هذا الرأي على الرغم من ضعفه هو قرب بحيرة رودلف من ساحل أفريقية الشرقي، إذ أنه معروف أن التجارة كانت تنقل من أعالي النيل إلى ساحل أفريقية الشرقي حيث يمكن تبادلها مع سكان الساحل الآسيوي المقابل لساحل أفريقية
الشرقي، وكانت الأخبار تنقل مع التجار العرب أو الزنوج، ومن ضمن هذه الأخبار المعلومات المختلفة عن منابع النيل وإقليم البحيرات.
ولما كانت بحيرة رودلف قريبة من ساحل أفريقية الشرقي فلا يبعد على الظن أن تكون ذكرت كمنبع للنيل.
ولعل تلك الفروض كانت راجعة إلى عدم معرفة هذه الجهات بالدقة أيام أن كتب ابن خلدون رسالته، وان كل ما ذكر عنها كان عن طريق النقل والسماع الذي لا يخلو من المبالغة والخطأ، زد على ذلك قلة المعدات العلمية وآلات الضبط والمقاييس المختلفة بعكس ما نحن عليه الآن من تقدم.
والآن ندخل في التفاصيل التي ذكرها الفيلسوف ابن خلدون عن بقية نهر النيل.
قال يصف البحيرة الثالثة: (في أسفلها جبل معترض يشق البحيرة من ناحية الشمال ويقسم ماءها إلى قسمين فيمر الغربي منه إلى بلاد السودان مغرباً حتى يصب في البحر المحيط).
وفي ذلك إشارة إلى خط تقسيم المياه بين النيل والكنغو، ونرجح ذلك إذا ما علمنا أن شاطئ بحيرة ألبرت من الجهة الغربية تحف به الجبال، ثم خلف هذه المرتفعات أي في الجهة الغربية منها توجد المجاري المائية التي تمد نهيرات الكونغو، فلا يبعد على الظن أن يكون ابن خلدون قد اعتبر منابع الكنغو وراء هذه الجبال المتاخمة لشاطئ بحيرة ألبرت الغربي جزءاً متمما لهذه البحيرة خصوصا وهذه المنطقة تحتوي على عدد

عظيم من النهيرات، فهي عبارة عن شبكة مائية يصعب تحديدها خصوصاً في أوقات الأمطار الشديدة والفيضانات حيث تظهر كمتسع عظيم من المياه.

وربما قصد ابن خلدون بهذه المرتفعات مرتفعات دارفور التي تفصل مياه وادي الكوه ووادي جندي المتصلين ببحر العرب عن وادي بحر السلامات المتصل بنهر شادي المتصل ببحيرة تشاد.

وربما قصد بهذه المرتفعات مرتفعات بندا التي تفصل بين مياه الغزال من جهة ونهر شادي المتصل ببحيرة تشاد من جهة أخرى. إذ أن نهري الجبل والغزال يكونان حوضا منخفضا في الوسط وحافاته مرتفعة، وما ارتفاع الجهات التي تفصل حوض الغزال عن حوض تشاد إلا لهبوط الانخفاضات المجاورة التي فيها بحر الغزال وحوض تشاد.

أما عن بقية نهر النيل فقد قال ابن خلدون: (ويخرج الشرقي منه ذاهباً إلى الشمال على بلاد الحبشة والنوبة وفيما بينهما. وينقسم في أعلى أرض مصر فيصب ثلاثة من جداوله في البحر الرومي عند الإسكندرية ورشيد ودمياط، ويصب واحد في بحيرة ملحة قبل أن يتصل بالبحر في وسط هذا الإقليم).

وفي ذلك إشارة إلى فروع النيل وتغيرها في عهد العرب وما بعده عما كانت عليه في عهد البطالسة، فقد زالت المصبات الشرقية كلها تقريباً.

ويقول أيضاً (وعلى هذا النيل بلاد النوبة والحبشة وبعض بلاد الواحات إلى أسوان، وحاضرة بلاد النوبة مدينة دنقلة وهي في غربي هذا النيل، وبعدها علوة وبلاق، وبعدهما جبل الجنادل على ست مراحل من بلاق في الشمال، وهو جبل عال من جهة مصر ومنخفض من جهة النوبة فينفذ فيه النيل ويصب في مهوى بعيد صبا مهولا فلا يمكن أن تسلكه المراكب بل يحول الوسق من مراكب السودان فيحمل على الظهر إلى بلد أسوان قاعدة الصعيد، وكذا وسق مراكب الصعيد إلى فوق الجنادل، وبين الجنادل وأسوان اثنتا عشرة مرحلة، والواحات في غربها عدوة النيل وهي الآن خراب وبها آثار العمارة القديمة).

وفي ذلك إشارة صريحة إلى الشلالات التي تعترض النيل قبيل أسوان والتي تكون بمثابة عقبة، إذ نجد الانحدار شديداً. ويظهر أن المنطقة التي يصفها ابن خلدون هي المنطقة المسماة الآن شلال حلفا، وتبدأ بعد سراسن، ومن بعدها بقليل نجد شلالات جيمي وأبكه وطولها معاً أكثر من 16 ك. م، وينحدر عندها النيل انحداراً شديداً. وهذه الجنادل هي التي يطلق عليها عادة شلال حلفاً وهي كغيرها من الشلالات السابق ذكرها يرجع تكوينها إلى اعتراض الصخور البلورية الشديدة الصلابة في مجرى النهر وتتكون منها الجزر.

وأما عند لفظ (واحات) فربما قصد بذلك بقايا المدن الأثرية التي قامت على أنقاضها المدن الحديثة، أو ربما أطلق هذا اللفظ على البلاد الموجودة في هذه المنطقة الجدبة والتي تعتمد على الآبار لبعدها عن النيل.

أما عن قوله إن الحبشة على النيل فربما قصد بذلك الفرع الذي يأتي من بلاد الحبشة وهو الأرجح، إذ يقول: (بلاد الحبشة على واد يأتي من وراء خط الاستواء ذاهباً إلى أرض النوبة فيصب هناك في النيل الهابط إلى مصر). ويقول (وقد وهم فيه كثير من الناس وزعموا أنه من نيل القمر، وبطليموس ذكره في كتاب الجغرافيا وذكر أنه ليس من هذا النيل).

وهذه إشارةً إلى أنه لم يكن يعرف هضبة الحبشة ولا منابع النيل الأزرق. على أنه يتفق مع بطليموس في أنه ينبع من جهات غير منابع النيل في جبل القمر. وهذه المسألة مدهشة، إذ أن النيل الأزرق كان معروفاً منذ أيام أراتستين، وأن هضبة الحبشة كانت مجاورة لبلاد اليمن وذات حضارة، فكيف لم يعلم شيئاً عن منابع النيل الأزرق بينما رسم كل من بطليموس والإدريسي بحيرة تسانا؟

ثم ذكر المحيط الهندي والبحر الأحمر والخليج الفارسي، وقال عنهما: البحران الهابطان، ثم ذكر بوغاز باب المندب والمنطقة المعروفة الآن باسم الأرتريا، ثم تكلم عن التجارة بين اليمن والسويس، وذكر سواكون، وتكلم عن الواحات الداخلة وعين مكانها، وذكر النيل في المنطقة بين المقطم (وجبل الواحات). وذكر بلدة اسنا وأرمنت وأسيوط وقوص وصول، وقال عند الأخيرة يتفرع النهر إلى فرعين: فرع يذهب إلى

اللاهون ويقصد بذلك بحر يوسف، ثم ذكر عيذاب.
من ذلك يتبين لنا أن معلومات ابن خلدون عن نهر النيل كانت مستمدة من كتابات من سبقوه إلى هذا الموضوع ومن الرواة كذلك، ولكن يجب أن نعترف بأن ذكاء هذا الرجل ومقدرته العلمية جعلاه يضع هذه المعلومات في قالب يقبل العقل الجزء الأكبر منه. فلقد ذكر بعض الجهات وعلل وجودها أحسن من غيره بكثير، ومع ذلك فإن له عذره، مقدرته العلمية جعلاه يضع هذه المعلومات في قالب يقبل العقل الجزء الأكبر منه. فلقد ذكر بعض الجهات وعلل وجودها أحسن من غيره بكثير، ومع ذلك فإن له عذره، إذ أن السياحة إلى مثل تلك الجهات كانتمن الصعوبة بمكان، ولم يكن هناك آلات دقيقة ولا معدات علمية تساعد على ضبط الأماكن بالدقة، زد على ذلك فان كتابات ابن خلدون جاءت معتدلة خالية من القصص الخرافية بعيدة عن المبالغة والخلط بين المعلومات والمعتقدات.

رشوان أحمد صادق

الجغرافيا

في أوطانهم غرباء

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

إنما في بلادنا الشعراء ... فئةٌ في أوطانهم غرباء
لا رخاءٌ ولا أمانٌ ولا ما ... لٌ ولا عزّة ولا سرّاء
ألمن يكذبون ذاك التملى؟ ... ولمن يصدقون هذا الشقاء؟
ما جروحٌ تدمى الجلود بها مث ... لُ جروح تدمى بها الأحشاء
ما شكوا أعباء الحياة وأن كا ... نت ثقالاً عليهم الأعباء
وإذا دافعوا عن الحق جهزا ... فهناك الولايات والأرزاء
لم أجد للجمهور عطفاً عليهم ... وكأن الجمهور منهم براء
إنهم لا يرون من قومهم بر ... اً ولا تقديراً وهم أحياء
وإذا مالقوا الردى فعليهم ... يكثر الحزن منهم والبكاء
تلك أخلاقهم وقد ورثتها ... سنناً من آبائها الأبناء
ليس هذا في يومنا وحده جا ... رٍ على الأيام طراً سواء
إنما دنيانا لقوم جحيم ... ولأقوامٍ جنة غناء
ولقد أخر الألي قرضوا الشع ... ر نفوسٌ لهم بها كبرياء
واجتناب الرياء منهم بعصر ... شاع من أجل العيش فيه الرياء
شعراء العراق كل سنيهم ... سنة فيها تخلف الأنواء
أنني أطلب العزاء لنفسي ... في أساها، وأين مني العزاء؟
لهف نفسي على القرين فقد هب ... ت عليه تشله النكباء
عبثت في الربيع بالروض حتى ... ملأته من زهره الأشلاء
وإذا الورد في الربيع تولى ... فعلى ذلك الربيع العفاء
جفت الدوحة التي كل صبح ... فوقها كانت تهتف الورقاء
وعلى الزهر قد تصوح عندي ... زفرة تصطلي بهاء الأحشاء
بسمت في ربيعها لذكاء ... كلما أشرقت عليها ذكاء
أيها البلبل الذي يتغنى ... لا يسمك الهوان هذا الغناء
أيها الشعر أنت أشجى أنين ... نزعته من نفسها الحوباء
أنت في أسماع الأشايب موسى ... قى في أعين الشباب ضياء
وإذا كنت الدهر للعشر أطرى ... فقليل مني له الإطراء
وكأن السماء ديوان شعر ... بعض أبياته النجوم الوضاء
وكأن المجر والليل صافٍ ... كدموعي قصيدة عصماء
لم يكن بالشعر الغرام قليلاً ... غير أن العراق منه خلاء
أحسن الشعر ما بنته على ما ... شعرت في حياتها الشعراء
غير أن التقليد فيه كثير ... وقليل على الشعور البناء
وأجل القريض ما استحسنته ... حين يتلى العقول والأهواء
ونصيب الكثير منه بوار ... ونصيب القليل منه البقاء

(بغداد)
جميل صدقي الزهاوي
المساء
بقلم أمجد الطرابلسي
هوَ ذا الليلُ قد أطَلَّ من الأف ... قِ فعمَّ الفضاَء صمتٌ رهيبُ
جاَء يختالُ في غَلائله السُّو ... دِ وفي وجهِه عُبوسٌ مِهيبُ
فتولتْ ذُكاء جازِعَةَ النُّو ... ر وفَرَّت وقد علاها الشُّحوبُ
بسطت للوَداَعِ أيَّ شُعاعٍ ... شاحبٍ قد أمَصَّه التأويبُ
ما تَرى الأُفْقَ قد تَوَرَّدَ حزناً ... إنَّهُ منْ دَمِ النهارِ خَضيبُ
كانَ ساحَ الوَغَى قد ظَفِرَ اللّي ... لُ كما يظفَرُ القوىُّ الغَضوبُ
وتولَّى النهارُ، أيَّ طعينٍ ... مُستضامٍ تسيلُ منهُ النُّدوبُ
مأتَم الشَّمسِ! هكذا الكونُ بغى ... ودِماء طليلة وحُروبُ
إن غَدَا الليلُ ظافراً فكذا النُّو ... رُ على الأرضِ عاجزٌ مغلوبُ
هكذا يَظْفَرُ الظلامُ ويخْبو ... لهب النورِ في الدُّنا ويَخيبُ
هكذا سُنَّةُ الحياةِ غِلابٌ ... وكذا الحَقُّ هَيِّنٌ مَغْصوب
وأطلَّ الرَّاعي ينوح على الشم ... س كما ناحَ في الرُّبى العندليب
هَبَطَ القريةَ الخزينة يبكي ... وتعالى حُداؤُهُ والنّحيب
أكذاك الأكواخُ يَغمرُهَا الصَّم ... تُ ويَعلو الحقولَ هذا القُطوب؟
أكذاك الطيورُ تَنْدُبُ شَجْوَاً ... وَيَعُمُّ الرُّبى الظلامُ الرحيب؟
أيْنَ سهلٌ يموجُ في لجج النو ... رِ ووادٍ جمّ الظلالِ عشيب
أينَ لَحنُ الحياةِ تَنشده القر ... يةُ؟ أينَ المِراحُ؟ أينَ الوُثُوب
فبكى والقَطيعُ بينُ يديهِ ... خافتُ الخطْوِ والثُّغاءِ، كئيب
ومشى في الظلامِ يبكي على النو ... رِ كَمَا سَارَ ثاكلٌ مَحْروب
يصرُخُ النَّايُ في يديه فتبكي ... لِبُكى الناي أعيُنٌ وقلوب
هي أُنشودةُ الوَدَاع يُغَنِّي ... ها وقد حانَ للضياءِ غُروب
هي أنَّاتُ شاعرٍ عَبقري ... عشقَ النّورَ واستبته الغيوب
أيُّهذا المساءُ فيكَ مِنَ المَو ... تِ دُجَاهُ وسِرُّهُ المَحجوب
العفاءُ الدجى مثلُكَ رَحبٌ ... وَشَبيهٌ بِكَ الفَنَاءُ الجديب
هكذا تَنْطَفِي الحياةُ وَيَغشا ... ها سُكونٌ مِنَ الفَناءِ مُريب
هكذا تَسْكُنُ الأمانيُّ لِلْمَوْ ... تِ وَيَبْلى ثوبُ الحياةِ القَشيب
وَتَغوصُ الرِّكابُ في ثَبَجِ الرَّمْ ... لِ وَتَخْفَى مَهامهٌ وسُهُوبُ
ويَضيع الضَّجيجُ في العَدَمِ القَفْ ... رِ وتثمْحى معالمٌ وَدُروب
نَامَتِ القَرْيةُ الحَزينةُ إلا ... ساهرا نومُهُ الهنيُّ سليب
لِمُنُاهُ بيْنَ الاضالعِ هَمْسٌ ... وَلِخفَّاقِهِ الملحِّ وجيب
ظلَّ سَهرانَ يَرْقب الأنجمَ الزُّ ... هْرَ تَهَادي كما تهادى حَبيب
عَلِقت عينُهُ السماَء ذُهولاً ... وإستباهُ هذا الفُتونُ العَجيب
في فِجاجِ السماءِ عُرْسٌ بَهيٌّ ... وعلى الأرْضِ مْأتَمٌ وكُروب
فَهُناك النجومُ تطفَحُ بِشْراً ... وهنا الليل حالِكٌ غريب
زَغردَتْ في السماءِ أنْجُمُها الفَرْ ... حى وَغنَّى بعيدها والقريب
وتَبدتْ تَختالُ عُجباً كما تَخْ ... تال بيْنَ الشُّفوفِ خُودٌ لعوب
هكذا تَضْحَكُ السماءُ منَ الأر ... ض كما يضحكُ الخلِيُّ الطروب
إيهِ يا لَيلُ رُفَّ فَوْقَ خِلي ... لم تُؤَرِّقْهُ لَوْعَةٌ وخُطوبُ
وانْشُرِ الحُلْمَ والطّيوفَ لِصَبٍّ ... لم يُنَغِّصْ نعيمَه تعذيب
لستَ يا لَيلُ للذي ألفَ السُّهْ ... دَ كما يألف الغَريبَ الغريبُ
أنا يا ليلُ ليس لي من سكونِ ال ... كون أو هَدْأةِ الظلامِ نصيب
حسبُ قلبي ظلامهُ ودُجاه ... وأساهُ المُبرَحُ المَشْبوبُ
لِيَ لَيْلانِ ساهرانِ وغيري ... ليلُهُ باسِمُ الطيوفِ خصيب
أنا أحيا الحياةَ ليلاً طويلاً ... أفَيَصْفو لِيَ الدُّجى ويطيب؟
إطْوِ يا ليلُ هذه السُّجُفَ السُّو ... دَ فكم تَحْتَ جُنْحِها مَكروب

كم قلوبٍ وجيعَةٍ ونفوسٍ ... تحت هَذا الدُّجى تكادُ تذوب
يا إلهي سئمْتُ هذي الدَّياجي ... إن في القلْبِ ظُلْمَةً لا تَغيب
أنا كَهفٌ مهدم مُستباحٌ ... فيه لِلْحُزْنِ والشكوكِ نَعيب
يَصفِرُ الَغمُّ في دُجاهُ كما تَصْ ... فِرُ في اللَّيلِ شَمْألٌ وجَنوب
أقطعُ الليلِ سَاهراً ذاهِلَ الفِكْ ... رِ وفي الصَّدْرِ لْلهُموم شُبوب
غارِقاً في هَواجسي وَذُهولي ... وعلى العَيْنِ لِلسُّهادِ رَقيب
شاقَني النورُ يا إلهي ولكنْ ... أيْنَ منى السنا وأيْنَ اللّهيب؟
شاقني الشَّدْوُ والغِناء ولكنْ ... أيْنَ منى اللّحونُ والتَّطريبُ؟
للضِّياءِ الحبيب يا نفس في الأر ... ضِ مغِيبٌ ولْلحياةِ مغيب
لا يَرُعْكِ الظلامُ إن ملأَ الكَوْ ... نَ فإِنَّ الصَّبَاحَ سوف يَؤوبُ

دمشق

أمجد الطرابلسي

ما يحنو به قانون العقوبات الألماني الجديد

نظريات جديدة

في فهم العقوبة والمجتمع

كانت الحكومة الألمانية قد انتدبت منذ حين لجنة من كبار المشترعين (الهتلريين) لبحث مبادئ العقوبة الجنائية التي يجب أن تتمشى مع مبادي الثورة الاشتراكية الوطنية ومبادي حزب (النازي)؛ وفي الأنباء الأخيرة أن التعديلات الجديدة لقانون العقوبات الألماني قد صدرت متضمنة لمبادي جديدة عجيبة في تعريف الجريمة وتحديد معنى العقوبة الجنائية لم يسمع بها من قبل في أي بلد متمدين. وقد قرأنا في هذا الموضوع مقالاً قيماً لكاتب فرنسي كبير، فرأينا أن نترجمه لقراء (الرسالة) فيما يلي: يقول زعماء الإمبراطورية الألمانية الثالثة (الزعماء الهتلريون) إن قانون العقوبات هو (مرآة صادقة للروح القومي).

ونحن في فرنسا نتأثر منذ قرون بالقانون الروماني القديم الذي اشتقت منه ثورة سنة 1789 (الثورة الفرنسية) مبادئه الجوهرية، ولكن الهتلريين يرفضون هذه المبادئ باشمئزاز، ويقولون ما معنى هذا الإجلال الخالد لقصاصة من الورق؟ إن التعلق بحرفية النصوص ينم عن ذهنية متأخرة وضيعة. والقانون يقوم على حقيقة حية هي (ضمير الشعب)، ولا غاية لقانون العقوبات إلا أن يحمي هذا الضمير.

ونحن في بلادنا ذات المبدأ الإنفرادي، نقدس ذلك المبدأ الأساسي العظيم: (لا عقوبة بغير نص) ولكن المشترعين الألمان الجدد يقولون: إنه لا يوجد قانون في العالم يمكن أن يتحوط بنصوصه العقابية لكل الأعمال البشرية الممكنة، وإذن يجب على قضاتنا أن يعاقبوا أيضاً على الأعمال التي لم ترد في القانون (متى كانت تثير الرأي السليم المتزن للمجتمع) وكذلك نبذ المشترعون النازيون مبدأ أساسياً آخر هو (عدم رجعية القوانين) (أو عدم سريانها على الماضي)، وعلى هذا فإن محكمة لايبزج العليا قد حكمت بالإعدام على فان درلوبي مع أنه في الوقت الذي وقع فيه حريق الريخستاج لم يكن القانون يعاقب على هذه الجريمة إلا بالأشغال الشاقة. وإذا كنا نحن نرى من المثير أن نطبق على المجرم قانوناً كان يستحيل عليه أن يعرفه، فإن المشترع الألماني يقول إنه يجب عليه (أي المجرم) أن يعرف إلى أي حد يمكن أن يثير بعمله السخط العام.

ونحن من جانبنا يصعب علينا أن نعترف بقانون عقوبات لا يعترف (بالحريات الفردية)، فإنه إذا عدمت هذه الحريات أضحى المشترع حكماً متعسفاً لا غير. وهذا ما حدا برجل مثل رامون فرنانديز أن يقول إن صوغ القانون الشيوعي الجديد، والقانون الفاشستي الجديد (لا يتميز فقط بسحق القانون القديم، وإنما يتميز بسحق الحقوق جميعاً)؛ بيد أنه يجب أن نعترف على رغم إشمئزازنا بأن الهتلريين يقومون بتحويل الحقوق. ذلك أن الشعب هو الذي يرفعونه فوق كل شيء؛ والشعب، لا الفرد، هو الذي يريدون حمايته بادئ ذي بدء؛ وهو تحويل في القيمة يتمشى مع استبدال المبادي الحرة القديمة (بمجتمع دولة عام).

ومن مبادئنا أننا نريد أن تحدث القوانين والظروف دائماً أثرها لصالح الفرد، فإذا عدل قانون، فإننا نطبق عليه أخف النصوص؛ فإذا تطرق الشك إلى ذهن القاضي وجب عليه

أن يحكم بالبراءة؛ وكل متهم يعتبر بريئاً حتى يفصل في قضيته، وهذه كلها مبادئ يمقتها الهتلريون.

فهم يصيحون: أليس فظيعاً أن نضع المجرم في ذروة قانون العقوبات؟ وأن نعكف بشغف على درس نفسيته باسم الدفاع عنه؟ لقد انحدر علماء الجنائيات في الأمم الديمقراطية إلى هذا الدرك، أعني إلى درك (الحق الزائف) أو (الحق المعدوم).

والواقع إن ميولنا الفردية تجنح إلى التساهل مع المجرم؛ فمتى حللنا البواعث التي دفعت المجرم إلى ارتكاب جرمه، فقد فهمناها، وعندئذ نعطف على المجرم عطف الإنسان على الإنسان، بل لقد انتهى مشترعونا الجنائيون شيئاً فشيئاً لا إلى تحديد العقوبة، ولكن إلا حب الإصلاح.

وهذه حالة ذهنية لا يسيغها مشرعو الإمبراطورية الألمانية الثالثة؛ فهم يرفضون، لا أن يحكم على بريء - ولكن أن يفلت مجرم من العقاب. وإذا القضاء لم يقدم ترضية كافية لسخط الشعب العادل حينما يطالب بالعقوبة، فإن النظام الاجتماعي يغدو في خطر، وتسري إلى الشعب عوامل الهياج العام.

ومن خواص هذه النظرية تقرير صنوف المشبوهين. وإذا كان القاضي يمثل الشعب حقاً، فإنه في زعم أولئك المشترعين لا يمكن أن يرتكب خطأ قضائياً، ويكفيه دون أن يفتح

القانون أو يرجع إلى ضميره الشخصي، أن يستشير ضمير الشعب، والشعب معصوم لا يخطئ، وهو يكاد يتكهن، وعواطفه هي التعبير عن العدالة ذاتها.

ويقرر قانون العقوبات الاشتراكي الوطني أنه يمكن معاقبة مجرم لم يتمم جريمته، ولكن (أراد أن يرتكبها). وفي رأيه أن الجريمة ليست هي عمل القتل في ذاته بل هي (اعتزام القتل) ونحن في فرنسا نعاقب على (الشروع) في بعض الأحوال؛ فلا يعاقب مثلاً ذلك الذي يجس جيب إنسان من الخارج بنية سرقته، ولكنه يقع تحت طائلة القانون إذا حاول أن يدخل يده في ذلك الجيب. فهذه الفروق القضائية الدقيقة يخشاها المشترع الألماني أيما خشية؛ ولهذا يتخذ الرأي المناقض ويرى أن يضع تحت نظرية (العزم المهدد) أقل حركة تمازجها الشبهة.

وهكذا نرى أن قانون العقوبات الألماني الجديد وكذلك الإجراءات الجنائية قد بسطت كل التبسيط. وقد ألغيت (الظروف المخففة) ولم يعترف (بسبق الإصرار) بحيث أضحت جريمة الهوى والجريمة التي دبرت طويلاً سواء في العقوبة، ذلك أن المجموع يجب أن ينتقم بسرعة وبلا هوادة من أولئك الذين يعكرون صفوه؛ وللقاضي أن يوقع عقوبات تبعية بعد تنفيذ العقوبة الأصلية مثل الجلد والصوم الجبري، ومصادرة الملك؛ وهكذا يراد أن يدفع الجانح الذهن إلى مرتبة إنسان منحط من الوجهة الجسمية والعقلية.

وقد ذهب المشترعون النازيون إلى حد اعتناق الروح الإسبارطي؛ فالدولة لها الحق (أن تقضي بصفة إدارية بالموت على بعض الأفراد الذين ليست لهم قيمة جوهرية) فرجل مثل بيرون (لورد بيرون شاعر الإنكليز) يمكن أن يلقي في الماء منذ مولده؛ ورجل مثل هلدرلن الشاعر الهائم يمكن أن يعدم؛ ويصرح قانون العقوبات الجديد للطبيب بأن يعدم المريض الذي لا يرجى برؤه متى طلب إليه ذلك. وبعكس ذلك فإنه لما كان الفرد السليم مديناً بحياته للمجتمع، يعتبر الانتحار جريمة، ويعاقب الشركاء في محاولته. ثم إنه لما كان الشرف أثمن من الحياة، فإن القانون يعترف بإجراء المبارزة بين المتخاصمين.

ويكشف لنا المشترعون الهتلريون عن غايتهم النهائية فيما يأتي: ليس المجتمع هو الذي يكون غاية في ذاته، ولكنه الجنس أو الأمة؛ والعمل لعظمتها يجب أن يكون هو غاية الحياة لكل فرد.

إن النزعة الفردية وحدها هي التي تدفع الفرد إلى حب الإنسانية. ولكن الهتلريين باعتمادهم على القيم الاجتماعية، يجنحون إلى أهم عناصرها، أعني (القومية).

وعلى هذا فإن قانون العقوبات عندهم يقرر صنوفاً جديدة للجرائم؛ فمثلاً يعتبر (خائناً للوطن) من يجرح الاشتراكيين الوطنيين في عزتهم، أو يهزأ بإحتفالاتهم، أو يسخر من أغنيتهم، أو من ينوه بأعمالهم الهمجية؛ وكذلك من يتنقص من أقدار الأبطال الماضين، أو من يهين المحاربين القدماء. وهكذا نقلت الحماية الشرعية لشخص الإنسان إلى

حماية الحزبوإلى حماية الأمة.
ثم إن الأمة عندهم تقوم على الجنس، ويجب أن يحتفظ الدم الشمالي القديم بنقائه وتفوقه. وعلى هذا فإنه ترتكب جريمة (خيانة الجنس) كلما امتزج الألماني (أو الألمانية) باليهود أو بالأجناس الملونة، أو إذا امتزج علناً بزنجي وجرح بذلك (العاطفة الجنسية) لأمته. ويعاقب الزنجي بعقاب أشد لاعتباره إنساناً منحطاً.
ونحن نعرف أن الهتلريين أصدروا في العام الماضي قانوناً للتجارة ينظم العلائق بين العمال وبين أصحاب الأعمال على أسس جديدة. وقانون العقوبات الجديد يتأثر بهذه الأسس؛ إذ المقصود أن ترتب بين المخدوم والعامل نفس العلائق التي كانت سائدة في العصور الوسطى بين السادة والأتباع. فالعامل يجب عليه الطاعة والإخلاص، ولا يستطيع بعد أن يتولى الدفاع عن نفسه بنفسه، بل يعتبر واقعاً تحت حماية المسيد، وعلى السيد أن يقوم بحماية مصالحه المادية والأدبية. صحيح أن قوانين العمل الاشتراكية (مثل قانون الثماني ساعات، وقانون التأمينات وغيرهما) لم تلغ، وصحيح إنها ما زالت تطبق، ولكن لا لحماية حقوق العامل، بل من وجهة اجتماعية مشتركة لأن القضاء على النزعات المتمردة يؤكد تعاون العمل ورأس المال.
فهل يعني ذلك كله إن حماية الفرد قد ألغيت بتاتاً؟ كلا؛ ولكن قانون العقوبات لا يهتم بشأن الفرد إلا باعتباره عضواً في
الجماعة، وعلى هذا فإن الملكية الفردية لا تجب حمايتها إلا بقدر ما يبديه المالك من السداد في إدارتها بحيث تعاون في تحقيق الخير العام. وفي القانون الفرنسي ما زالت تعرف الملكية بالتعريف الروماني القديم؛ فهي الحق في أن تتمتع بشيء وأن تستعمله أو تسيء
استعماله؛ والواقع أن هذا الحق قد قيد فيالعصر الأخير بقيود مازالت في ازدياد. ولكن الهتلريين يرون إلغاء المبدأ ذاته؛ فالملكية الفردية لا يعترف بها، وإنما يعترف بوضع اليد على الأملاك، بشرط إلا يتصرف الفرد فيها إلا في صالح الدولة.
وكذلك الأسرة تحميها نفس المبادئ العامة؛ فإنه يحظر على كل فرد (أن يتلف أو ينقص كفايته لإنتاج النسل).
وقد ذهب الهتلريون بعيداً في تحديد واجب الفرد نحو الأمة، فقرروا أن التضامن إجباري.
تلك هي الأسس الجديدة لهذا التشريع الهائل؛ وقد اتبع المشترعون الألمان إجراءات محاكم التحقيق (التفتيش) لكي يصلوا إلى غايتهم بأية وسيلة، وهي تحقيق خير الجماعة القومية وسيادتها، فجعلوا من القاضي شخصية مطلقة السلطة، وجعلوه مشرفاً دائماً على أخلاق الفرد، فمن يحاول غير الزعماء أن يميز نفسه من المجموع، كان عرضة للقبض والعقاب.
وإذا كان في هذه المبادئ ما يروع، فذلك لأننا منذ عصر الأحياء، ومنذ عصر الثورة الفرنسية بنوع خاص، قد شهدنا القوى الفردية تنمو وتتسع إلى أعظم حد، ولم يفعل الإصلاح الاشتراكي في عصرنا شيئاً لوقفها. واليوم وقد انتهت الفردية إلى هذا الإفراط، فإن الرجعة التي كانت تبدو مستحيلة بالأمس تصبح اليوم محتومة. ذلك أن الحرب، والأزمة الاقتصادية، وروح الأثرة المتسلطة على المنتجين، وكبرياء عظماء الفنانين، قد أدت إلى الرجعة الجماعية الحاضرة؛ وسوف تنتهي هذه النزعة بلا ريب إلى صنوف جديدة من الإفراط، وإلى تناسق لا يطاق. ولعلنا نرى الفردية والنزعة التعاونية وهما النزعتان الجوهريتان المتناقضتان اللتان تتجاذبان الإنسان، تنتعشان، وتشرفان بالتناوب على الحركات الاجتماعية، دون أن يتحقق بينهما توازن ما؛ والتوازن كمال يناقض الحياة ذاتها.
القصص
من أساطير الإغريق
بسيشيه وكيوبيد
للأستاذ دريني خشبة
(بقية ما نشر في العدد الماضي)
فلما كان الغسق سمعت إلى الباب ينتفح، ويدخل فتى خفيف الخطى، ويقبل عليها فيحيي أحسن تحية بأرق صوت، ثم يستأذن فيجلس إلى جانبها.

وكان الظلام شاملاً، فلم تستطع بسيشيه أن تتبين وجه الجالس إليها أو خلقه، ولكنها كانت تسمع إلى موسيقى تمتزج بصوته الحنون، وكانت تحس كأن عبرات تكاد تخنقه، واقترب منها . . .لأنه يريد أن يبوح بشيء يمنعه الخجل من البوح به. . .
وأخذا في حديث شهي، ولكن الحياء كان ما يزال يعقد لسانيهما . . .
وأقترب منها كذلك . . .
وتماست الأجسام المرتجفة، وليس كتماس الأجسام مفرجاً عن الحب!
وأخذ الحبيب يد حبيبته بين كفيه، فانتقلت الحرارة من هنا إلى هنا، ثم دنا الفم من الفم، واستراح الخد على الخدن، وبدأ طوفان القبل . . .
وتمتم كل من الحبيبين بهذه الكلمة السماوية الخالدة:
(. . .أنا. . . أحبك . . .)
- (!!كأنك أنت أيها الحبيب الصغير الذي أنقذتني من براثن الموت)
- (أجل يا منية النفس، ورجية القلب، بمعونة الإله الرفيق زفيروس).
- (أفأنت إله إذن؟)
- (. . .لا أستطيع أن أذكر لك من ذلك الآن شيئاً)
- (إذن ما اسمك؟)
- (!ولا هذا أيضاً)
- (أحب أن أراك، فهل تأذن بإيقاد المصباح؟)
- (!!إذا حاولت أن تريني، كان فراق بيني وبينك).
- (. . .أنت تزعجني أيها الحبيب الصغير)
- (ولم أزعجك؟. . . ألست قد أنقذتك من الموت، وأسكنتك هذا القصر المنيف، ولست أمن عليك!!).
- (. . .برغم هذا فأنك تزعجني)
- (. . .هاتي قبلة. . . ودعى هذا الحديث الشاجن)
- (. . . .؟. . . .)
وظل يزورها كلما أقبل الليل، فيمكث معها حتى مطلع الفجر آخذين في عناق وقبل، وحديث ألذ من قطع الروض، وأروح من رفيف النسيم؛ ثم يفصل على أن يعود لميعاده من اليوم التالي. . . وبسيشيه راضية قانعة، لا يضيرها إلا تعرف من هذا الحبيب الوفي. . . ولا ما يكون اسمه . . .
وذهبت تنشق أنفاس البحر فوق الشاطئ الطويل المزهر فلقيت أختيها فجأة تخرجان من زورق جميل، فتعانقهما عناقاً حاراً، ويغمرها للقائهما فرح كبير، وتعود بهم إلى القصر، وتطوف معهما حدائقه وغرفاته، وتقف عند الصور والتماثيل ونافورات الزئبق؛ وتدخلهما (هيكل الحب) كما إتفقت وحبيبها أن يسميا المخدع؛ ثم تقص عليهما قصتها منذ اعتزامها الإنتحار إلى أن تلقاهما . . .
وتكون الغيرة قد أنشبت أظفارها في فؤادي الفتاتين، ويكون الحسد قد شاع في نفسيهما الخبيثتين، فتضمران لها الشر المستطير.
- (ولكن كيف تطمئنين إلى هذا الحبيب يا أختاه؟ إلا تخافين أن يكون غولاً أو هولة أو سعلاة؟ لماذا إذن يأبي عليك أن تنظري إليه؟ أليس يخشى أن تفزعي من إذا رأيته على حقيقته؟ أيغرك منه كلامه الناعم الموشي؟ لا يا أختاه! نحن نخشى أن يقلاك يوماً أو يجفوك فيقتلك. . .! لابد أن تأخذي حذرك منه! ولابد أن تنتهزي فرصة يكون غاطاً في نوم عميق فتوقدي المصباح وتنظري إليه، فإن كان وحشاً أو هولة، فإليك هذا الخنجر المرهف فأغمديه في قلبه واستريحي منه، وعودي معنا إلى أبينا الملك فإنه جد مشتاق إليك . . .)
ودفعتا إليها الخنجر المسمم بغلهما، وولتا عنها تختبئان في أجمة دانية . . . .
وفعل كلامهما في قلب أختهما فعله، فلما كان الليل، وغفا الحبيب الصغير مما ألم به من سكرة الحب، نهضت بسيشيه إلى مصباحها فأوقدته، وإلى الخنجر فشرعته، وذهبت تنظر إلى العاشق البريء . . .
فماذا رأت؟
أجمل مخلوق على وجهك أيتها الأرض!. . .
لقد كان نائماً حالماً، فيه دعة وفيه فتون. . . وملأ الفتاة حباً. . . فارتجفت. . . واهتز

. . .المصباح فأيقظته. . . وفتح عينيه. . . فرأى إلى الخنجر المرهف في يمين بسيشيه
!!. . .يا للهول
لقد قفز الحبيب قفزة هائلة، ورف بجناحيه الصغيرين، وقال: (بسيشيه. . .!
ياشقية. . .! وداعاً. . .! فلن نلتقي بعد اليوم!!) وشاعت الحسرة في قلب الفتاة
. . .فسقطت على الأريكة من الجزع والإعياء
ما كاد كيوبيد يرف بجناحيه فيغادر القصر حتى امتلأ المخدع أرواحاً شريرة طفقت
تهاجم نفس بسيشيه في شدة وعنف، وكلما نظرت هنا أو هناك رأت أفعوانات هائلة
تنفث الموت الأسود من أنيابها البارزة الحواني، ثم أحست كأن القصر يرتجف ويميد،
ويكاد ينقض، فهرعت إلى الخارج مهرولة، وهرعت في أثرها المخاوف والأشجان،
يحدوها الذعر والفزع الشديد.
ونظرت في السماء فلم تجد قمرها المنشود تبثه وتشكو إليه، بل وجدت سحباً قاتمة
تنعقد في المشرقين والمغربين، والودق يخرج من بينها كما تخرج الزفرة من صدر
المكروب! وبدأت العاصفة الهوجاء تزلزل الجزيرة وتميد بالدوح وترفع شياطين الموج
!فتجرف العامر واليباب
وأخذت الرياح الهوج تلاحق الفتاة حيثما ذهبت، وترجم وجهها الكاسف المغضن
بجمرات البرد أيان ولت.
ووهنت أعصابها فراحت تصيح فوق الشاطئ كالذي يتخطفه الشيطان من المس، فلما
لم يلب نداءها أحد، انثنت نحو القصر، وأطوفت بالأسوار تتفقد الباب الكبير
الضخم. . . ولكن. . . هيهات! لقد كان السور كتلة واحدة ليس بها منفذ، ولم يكن
غارقاً هذه المرة في
الطوفان الزاخر من أزهار الشيبر والياسمين والبابونيا، وكان عالياً على غير عهدها به،
حتى كاد يستتر وراءه القصر الباذخ؛ فلما استيأست من الدخول، وشعرت بقلبها
يتحطم، وبنفسها تذهب شعاعاً، استلقت على الكلأ، واستسلمت لنوم ممتلي بالأشباح.
وأشرقت الشمس فاستيقظت بسيشيه، وتلفتت حولها فلم تر السور ولم تجد القصر،
وفركت عينها تخال أنها تحلم، ولكنها ترى الجزيرة جرداء إلا من شجرات قليلة من
. . .الشاهبلوط؛ وإلا من غدير صغير به بقية غير مباركة من الماء النمير
وبكون صوابها قد ثاب إليها، فتمم شطر الشاطئ تتفقد وروده ورياحينه، ولكنها لا تجد
إلا آلافاً من السراطين الميتة لفظها البحر فعل العاصفة، وإلا أكواماً من الودع والمحار
!تجلل كثبان الرمال الممتدة فوق الجزيرة، كأنها قوافل من آلام بسيشيه وأشجانها
!ويلاه)
لقد حملت إليك أيتها الجنة الصغيرة وبردك برد الشباب، وريعانك ريعان الصبي، وفي)
أعطافك تنهل سلافة الحب، وتحت شطئانك ترقص عرائس الماء، وفي غدرانك
تترقرق أمواه الهوى؛ وكل ما فيك تدب فيه حياة إلهية ناضرة.
أفهكذا يذبل شبابك، ويذوي ريعانك، ويغيض حبك وتفقر شطئانك، فليس يرف فوقك)
!إلا هامة، ولا يهتف فيك إلا صدى الوحشة، ولا تهب ريحك إلا كأنفاس الجحيم؟
!!ويلاه)
لقد كنت أفرك عيني أحسبني منك أيتها الجنة في حلم، الآن أفرك عيني أرى هل أنا)
!من خرابك اليوم في حلم؟
لقد نعمت بالحب فوقك أيتها الجزيرة، فلماذا لقيت أختيَّ؟! أين ذهبتا؟ 1 أحسبهما)
. . .!!ذعرتا من العاصفة، وفزعتا من الزلزال، ففرتا. . . فصبر جميل).
هكذا ظلت تبكي بسيشيه، وهكذا غبرت بها الأيام فوق الجزيرة تنظر أوبة حبيبها. . .
!!ولكن. . . بلا جدوى
وكانت تأكل ثمرات من الكستناء تذهب بها سغبها، وترشف من بقية الماء في الغدير
!!رشفات تبل بها أوامها، ثم تعدو في الجزيرة باحثةً عن. . . لا شيء
ووقفت يوماً عند ضفاف الغدير ترتوي، فما شدهها إلا أن ترى الماء يزداد ويزداد،
والغدير
يتسع ويستع، حتى تكون على عدوة نهر عظيم دافق، تزخر أمواجه وتجرجر أواذيه.
ويبدو لها أن تلقي بنفسها في أعماقه، لأنها لم تعد تحتمل هذا الألم المتصل والشجن
الطويل الممض. . . وإنها لتنظر إلى الماء فيجيش قلبها بالذكريات، وتفيض عيناها

بالدمع، ويشجب جبينها الكاسف الحزين، ثم يتأود غصنها اليابس الهش، فتنحدر إلى اليم، وتتلقفها اللجة.
ولكن رب النهر الذي كان واقفاً يسمع ويرى يسرع إلى الفتاة فينتشلها، ويصيح ببناته عرائس الماء فيأتين من كل فج عميق، ويترفق باللاجئة الشقية فيواسيها بكلمات تقطر حناناً وتفيض رحمة، ثم يتركها لبناته يداعبنها ويلاعنها.
وتأنس بسيشيه إلى العرائس الحلوة، ولا يخجلها أن تأخذ معهن في حديث حبها، فإذا سألنها عن صفة حبيبها، قالت: (كان صغيرا كالطفل إلا حين يكون في ذراعي، مسنداً رأسه على صدري، فيكون إذ ذاك أكبر من الدنيا بما فيها من مباهج ومفاتن. وكان طيب الأنفاس، فما قبلني أو قبلته إلا شممت عبق الورد في فمه، وأرج البنفسج في خده. وكان إذا عانقني أو عانقته، تحسست له جناحين على ظهره، صغيرين ناعمين، فإذا ساءلته عنهما، أنكر عليّ وصرفني برفق ودعة عن الحديث عنهما، فنأخذ في أمور أخر. وكان يحمل قوساً من ذهب ما تفارقه، وكنانتين من حرير فيهما سهام من رصاص وذهب. . . وما دهاني في الليلة المشؤومة إلا أن أراه يثب من النافذة، فيحلق في كبد السماء كأن له قصراً فيها. . . فبحق زيوس عليكن يا عرائس إلا ما أعلمتنني من هذا الحبيب، فأنتن بنات إله مبارك، ولابد أن يعرف أبو كف من أمره كل شيء).
وصمتت بسيشيه، ونظرت إلى العرائس فرأتهن يحدجنها نظرات دهشةٍ حائرة، ثم يتهامسن، ثم لا يحرن جواباً؛ فقالت لهن:
(أنتن تزعجنني يا عرائس، فهل هكذا يلقي الضيف لديكن؟)
فقالت كبراهن: (لا عليك يا فتاة، ولكنك كنت أتعس مخلوقة على وجه الأرض حين عصيتِ أمر كيوبيد!!)
- (كيوبيد؟ ومن كيوبيد تعنين؟!)
- (كيوبيد بن فينوس، فهو هو الذي كان يهواكِ وكنتِ تهوين!!؟)
- (. . . لابد أن يعود لي إلهي الجميل الحبيب. . . كيوبيد الإله! كيوبيد حبيبي! يا ويح لي. . . لن تحلو لي الحياة بدونك يا كيوبيد. . .)
هامت بسيشيه على وجهها في أقصى الأرض، وكلما مرت بروضة أو ميضة، وكلما وقفت عند ضفاف نهر أو ألمت بحفافي غدير، برزت لها عرائس الماء فشكت إليهن، وسألتهن إن كن يعرفين أين يأوي كيوبيد؟ وقالت لها عروس:
- (أترين يا فتاة إلى هذا الجبل البعيد الذي يحمل السماء بروقيه؟ إذا كنت عنده فتلبثي حتى يعود بان من صيده فتعلقي به، واذرفي من دموعك تحت قدميه، فإذا هش لك وبش، فاذكري له حاجتك يقضيها لك، أو يدلك على من عنده قضاؤها).
- (ومن عسى أن يكون بان يا أختاه؟).
- (رب المراعي، وإله الصيد، وحامي القنص. ألم تقربي له؟ ألم يفعل أبواك؟).
- (بل فعلنا. . . . .).
ونهدت إلى الجبل وكأنما بها عُقلٌ من الجنون، وجعلت تطوف به حتى مالت الشمس إلى الغروب، فرأت (بان) قادماً يدب بحافريه، ويردد في الآكام ناظريه؛ فلما لمحها أقبل عليها دهشاً متعجباً، ثم أخذ يتفرس فيها كأنما بهره حسنها، وسباه منظرها. . . وشكت إليه، فما هالها منه إلا قوله: (تعسة! أنت غريمة فينوس!!) فقالت، وفي عينها دموع تخنق منطقها: (غريمة فينوس؟ ومالي أنا ولفينوس؟) فقال بان: (جمالك هذا جنى عليك. . . لقد صرف الناس عن ربة الجمال والحب إلى عبادتك أنت أيتها الشقية، ولذلك حنقت عليك، وأصابك من الأذى ما أصابك. . . اسمعي يا فتاة. . . لقد مررت اليوم بربة الخيرات ديميتير؛ هل تعرفينها؟ أم برسفونيه، فتاة الربيع التي خطفها أخي بلوتو لتؤنسه في هيدز! مررت بها فسمعتها تتحدث عن كيوبيد وهيامه بك! بك أنت! أليس اسمك بسيشيه؟).
- (. . . . . ؟. . . . . .)
- (تحملي إليها إذن. . . . . إنها ليست بعيدة من هنا. . . إنها شفيقة رفيقة، وهي ترثى لأمثالك من العاشقات الوامقات؛ تحدثي إليها عن كيوبيد واستمعي إلى ما تقوله لك وتشير به عليك. . . أترين إلى هذه الغابة الملتفة الوارفة؟ إنها هناك تنتظر ابنتها في أوبتها من

(هيدز.
وعجلت إلى الغابة، ولقيت ديميتر الطيبة الوقور، فانحنت تحييها، وما كادت تسرد شاكتها حتى انهمر الدمع من عينيها الحزينتين، وتخاذلت فخرت مغشياً عليها!. وتقدت ربة الخير فباركت الفتاة، وطفقت ترش على وجهها الماء من غدير قريب، فكان الزهر ينبت حول بسيشيه كلما أنتثرت قطرات على الأرض فلما أفاقت، بهرها هذا السرير الربيعي من منضود الورد يحف بها، ويحنو عليها. . . حنو المرضعات على الفطيم!
وبسمت ديميتير، وواست الفتاة الوالهة وآنستها، ثم ذكرت لها إنها رأت كيوبيد بكرة ذلك اليوم، وفي كتفه جرح دامٍ أحدثته فيه أمه فينوس، لماذا؟ لا يدري أحد! - (. . . فإذا كان لابد لك من لقاء كيوبيد، فأذهبي إلى فينوس وتبتلي إليها، وأدخلي في خدمها وحشمها، وأثبتي لها بتفانيك في طاعتها أنك من عبادها المخلصين؛ عسى يا بُنية أن ترضى عنك، ويذهب عنك هذا الحزن. . .)
ثم قادتها إلى قصر فينوس، وزودتها بما ينبغي لها من النصح، وعادت إلى غابتها الوارفة تنتظر برسفونيه.
وبرهنت بسيشيه على حسن إخلاصها وجميل توبتها، وكانت ربة الحسن تسخرها فيما لا طاقة لبشر به، فكانت تقوم بما تُكلف به وتؤديه خير الأداء.
وأعجب ما حدث لها من ذلك أن أمرتها فينوس بالتوجه إلى هيدز - دار الموتى - وإقتحامها، ثم لقاء برسفونيه، ربة الربيع، وزوج بلوتو، وسؤالها صندوق الطيب الذي تدهن عنه العجوز الشمطاء فيرتد إليها صباها، ويتدفق ماء الشباب في أعطافها، وتعود كما كانت، شرخ صبى، وعنفوان شباب!
وأسقط في يد بسيشيه! ولم ترد كيف السبيل إلى هيدز!! ولكنها حين ذكرت برسفونيه، بدالها أن تذهب إلى فتستشير أمها ديميتير عسى أن ترشدها أو تزودها خالص نصيحتها. فذهبت إلى الغابة، ولقيت لحسن حظها ديميتير تودع أبنتها، لتعدو أدرجها إلى هيدز، إذ كان الربيع الحلو قد صوح، وأزف الشتاء ببرده وزمهريره. . .
وهشت لها ديميتير، وعقدت بينها وبين أبنتها أواصر الصداقة، ولما حان موعد الافتراق، أبدت بسيشيه رغبتها في أن تصحب ربة الربيع لتؤنسها في ظلمات دار الفناء. فلم تعارض الفتاة، بل أذنت لها راضية.
وسارا بين صفين من أرواح الموتى تغني وتنشد. . . وتبكي!! وكم كان عجب بلوتو شديداً حين لمح الفتاة الرشيقة الهيفاء تسير إلى جانب زوجته، وبلغ به التأثر مبلغه، فغادر لهما غرفة العرش المظلمة. . .
وتلطفت بسيشيه فسألت مليكة هيدز صندوق الطيب الثمين؛؛؛ فوجمت برسفونيه؛ وكانت على وشك أن ترفض هذا الطلب، لولا أن ذكرت الفتاة أن فينوس هي التي أرسلتها لتطلبه وتجيئها به. فنهضت برسفونيه إلى دولاب قريب، وعادت بالصندوق، ترتجف به يدها العاجية الجميلة، وقدمته للفتاة وهي تقول:
(لاتفتحيه. . . لا تفتحيه أيتها الصغيرة!!).
واستأذنت بسيشيه، وعادت أدراجها إلى. . . هذه الدار الأولى.
وفي طريقها إلى قصر فينوس، ذكرت كلمات ربة الجمال عما يحتويه الصندوق من دهان يرد القليل منه جمال الشباب وريعان الصبى. . . وذكرت كذلك تلك الليالي الطوال التي ظلت فيها مسهدة العينين تبكي كيوبيد وتحن إليه، حتى شفها الوجد، وأوهنها السقم، وبرح بها الهيام الشديد؛ فتحدثت إلى نفسها تقول: (فلم لا أدهن بقليل منه وجهي وبشرتي؟ ولم لا أرتد جميلة كما كنت، ما دمت أطمع في لقاء كيوبيد؟ أن ربة هيدز حذرتني من فتح الصندوق، لا أدري لماذا؟ فإذا كان ما به شر، فلم تريده فينوس الجميلة؟ لا! لابد أن أتطيب به، وليكن بعدها ما يكون!!).
وداعبت أناملها الصندوق ففتحته. . . ولكن. . . وا أسفاه!! لم يكن به غير هذا الروح الشرير المنكر. . . روح النوم. . . ولقد وثب في وجه بسيشيه فخلق في عينها الزرقاوين الصافتين، ثم ما هي إلا لحظة حتى انكفأت المسكينة على الحشيش المندى تغط في نوم عميق. . .!!
وكان كيوبيد يتنزه في الحدائق المجاورة، فما دهاه إلا أن يرى ملاكه المحبوب ممدداً على الكلأ، وصدره يعلو ويهبط، كأن كابوساً مستقر عليه.
ودنا إله الحب من بسيشيه، وسرعان ما هاجت به ذكريات غرامه الأول، وثار في قلبه

الحنين إلى الليالي المقمر الحلوة التي كان يقضيها إلى جانب الرشأ الغرير، الذي يترنح
أمامه في قبضة الروح الشرير. . . روح النوم!
ونظر كيوبيد بعينيه السحريتين، فرأى الروح يصارع بسيشيه صراعاً هائلاً. . . فثارت فيه نخوة الوفاء، وأنفذ إلى العدو سهاماً متتابعة متلاحقة، حتى قهره، واضطره إلى العودة من جديد إلى الصندوق الصغير، وما كاد يستقر فيه حتى أغلقه عليه، ودفنه في غور من الأرض.
ثم تقدم إلى حبيبته، وطفق يروح على وجهها، ثم أيقضها بقبلة أهتز لها الروض، وطرب الورد، وشاعت في الطبيعة الضاحكة أسراً وسحراً!!!
(أختاه!! أنهضي! انظري إليَّ! هأنذا كيوبيد! هلمي فلن نفترق بعد اليوم!!).
وأغذا السير، حتى إذا كانا في دولة الأولمب صاح كيوبيد في معشر الآلهة: (أن أشهدوا أيها الأرباب، لقد اخترت بسيشيه الجملية زوجة لي مباركة. . . .) وطرب الآلهة، وأقيم المهرجان الفخم؛ ورقصت ديانا ربة القمر، وعزف أبوللو على موسيقاه، وتقدمت فينوس فباركت الزوجين الحبيبين، ورسمت بسيشيه ربة للروح الخالدة التي لا تفنى. . ومنذ ذلك اليوم وهي ترف بأجنحة فراشة جميلة في جنة الأولمب، وإلى جنبها حبيبها كيوبيد.

دريني خشبة

البريد الأدبي

حول كتاب فتح العرب لمصر

عزيزي الأستاذ الفاضل صاحب (الرسالة)

قرأت اليوم في (الرسالة) الغراء صحيفة النقد التي تسميها (الرسالة) صحيفة (الكتب)، وقرأت فيها للأستاذ الجهبذ العلامة محمد بك كرد على كلمتين، إحداهما عن كتاب (فتح العرب لمصر)؛ والثانية عن كتاب (فنون الطهي الحديث).
ولقد عناني أن أقرأ ما كتبه الأستاذ الفاضل عن كتاب فتح العرب لمصر بنوع خاص، لأن ذلك الكتاب حبيب إلى نفسي لصيق بها. ورأيت الأستاذ الفاضل يذكر عن الكتاب بعض حسناته فشكرت له ذلك، فالكتاب جدير من الناطقين بالعربية بكل تقدير وإعجاب، إذ هو مثل عال من أمثلة البحث الدقيق العادل، فوق ما يمتاز به من قوة الأسلوب وجماله في لغته.
ثم عرج الأستاذ على الترجمة والمترجم، فتفضل بأن وصف المترجم بأنه أعتني عناية شديدة (بتجويد ترجمته على صعوبتها لما حوت من النقول العربية وغيرها من اللغات ليرد الوثائق إلى أصلها). ثم ذكر ما سماه تحريفاً في الأسماء، وذكر من ذلك أمثلة على إني وإن شكرت له قوله إن المترجم قد عنى بالترجمة عناية (شديدة) أرجو أن أراجعه في زعمه أن ترجمة تكون محرفة إذا قلنا هي (أذاسا)، فإن إطلاقي ذلك الاسم على المدينة كان مقصوداً، فالمدينة معروفة بالرها وبأذاسا، والاسم الثاني أقرب إلى التسمية العامة في اللغات المختلفة، فكان هذا سبباً في تفضيل (أذاسا) على الرها؛ وأما برجاموس أو فرغاموس فلا أدري وجه التحريف فيها، فإن الباء والفاء والجيم والغين كانت دائماً موضع اختلاف في وضع العرب للاسماء، ولا سيما المحدثين منهم، وقد آثرت أن أكتب الاسم بالعربية قريباً كل القرب من الاسم القديم الذي كان ولا يزال معروفاً يطلق على المدينة التي كانت في آسيا الصغرى. وأما (أفسس) و (أفيسوس) فلم أفطن إلى وجه التفرقة بينهما، ولا إلى وجه التحريف في الاسم الذي أوردته في الترجمة، فليس بين الكلمتين من فارق إلا إثبات حركات الكلمة على النحو الذي يسهل النطق بها.
على أن الأستاذ الفاضل لم يكتف بعد ذلك بتوجيه النظر إلى هذا التحريف الذي زعمه، بل
ذكر كلمة عامة عن (هنات قليلة) لا يخلو منها كتاب منقول إلى لغتنا من لغة أعجمية؛ وكنت أود أن يجعل حضرته من ذلك الوجه بحثاً قيماً يوجه فيه الترجمة وجهةً صالحة، غير أنه أكتفي بالتعميم والإشارة والإيجاز في موضع كان الأوجب فيه الإفاضة والإطناب، ذلك بأن عمل المترجم إن هو إلا النقل، وما يكون نقله جديراً بالتقدير إلا إذا سلم من العيوب التي تؤخذ على أساليب اللغات الأعجمية. ولعل اشتغال الأستاذ

الفاضل بالكتابة عن الكتاب الآخر (فن الطهي الحديث) في نفس اليوم قد جعله لا يجد الوقت لذكر شيء من تلك الهنات، فرجاؤنا أن يتفضل بإعادة الكرة وبيان ما أجمل؛ ورجاؤنا كذلك أن يبين وجه النقد حتى نكون على بصيرة من رأيه، نفعنا الله بعلمه وفضله وعلى أمثاله من أعلام العلماء.

محمد مزيد أبو حديد

وفاة دريفوس

من أنباء فرنسا الأخيرة أن الكولونل ألفرد دريفوس قد توفى في الخامسة والسبعين من عمره، ولم يشتهر في تاريخ فرنسا المعار اسم بقدر اسم دريفوس، ولم يقترن باسم آخر مثل ما أقترن به من الحوادث والحركات العظام؛ كان اسم دريفوس منذ أربعين عاماً ملء الأسماع في فرنسا والعالم بأسره، وكانت القضية الشهيرة التي ارتبطت باسمه، واتهم فيها ظلماً بالخيانة، أعظم قضية عرفها التاريخ من حيث أتساع مداها، وتشعب نواحيها، وتعقد إجراءاتها، وما أثارته مدى عشرة أعوام في فرنسا من الأحقاد والشهوات التي كادت تزلزل أسس الحياة العامة فيها وتثير ضرام الحرب الأهلية. وقد كان دريفوس يهودياً، وهو سر المسألة كلها؛ فقد كانت الخصومة السامية أو حركة العداء ضد اليهود يومئذ على أشدها في معظم البلاد الأوربية، وكانت الكنيسة والعسكرية في فرنسا تضطرمان بهذا العداء، وكانت قضية دريفوس نفثة من نفثات هذه الحركة التي أريد بها القضاء على اليهودية في السياسة والجيش فاتهم دريفوس الضابط اليهودي (سنة 1896) بالخيانة العليا، وبأنه يقدم إلى بعض البلاد الأجنبية (ألمانيا) معلومات عن الدفاع الفرنسي، وضبطت ورقة سميت فيما بعد (بالبردرو) نسبت إلى دريفوس، وحوكم الضابط البريء وقضي عليه ظلماً بالنفي إلى جزيرة الشيطان؛ ولكن العدالة لم تعدم أنصاراً؛ فقد أثار خصوم العسكرية وخصوم الكنيسة على هذا القضاء الظالم دعاية شديدة؛ وبذلت جهود قضائية وسياسية فادحة لتبيان براءة الضابط اليهودي، وتبين فيما بعد أن (البردرو) وقد زُور عليه؛ وما زالت المعركة بين (الدريفوسيين) وبين الوطنيين خصومهم تضطرم وتنتقل من دور إلى دور حتى تقرر إعادة النظر في القضية مرةً بعد مرة؛ ونزل إلى المعركة كتاب عظام مثل فرانسوا كوبيه في جانب الوطنيين، وأميل زولا في جانب (الدريفوسيين)؛ وأرسل أميل زولا صيحته الشهيرة: (إني أتهم!)؛ أي يتهم القضاء والعسكرية بالتآمر والتزوير، واستمرت المعركة نحو عشرة أعوام أعيد النظر خلالها في القضية عدة مرات، وانتهت أخيراً محكمة النقض بأن قضت ببراءة الضابط اليهودي (سنة 1906) وردت إليه مراتبه وحقوقه، وأسدل الستار على تلك المأساة الشهيرة التي هزت حياة فرنسا العامة أعواماً طوالاً.

هذا وسنفرد في فرصة قادمة فصلاً خاصاً لهذه القضية الشهيرة، التي تعتبر من أعظم قضايا التاريخ.

السخاوي

سيدي الأستاذ. . . قرأت بالرسالة بالعدد 104 كلمة الأستاذ البحاثة مقريزي هذا العصر محمد عبد الله عنان في ترجمة السخاوي ما لفظه: (ونجد أخيراً في تراث السخاوي أثرين من نوع خاص ولهما أهمية خاصة، وقد انتهى كلاهما إلينا: أولهما كتاب تحفة الأحبابا وبغية الطلاب. في الخطط والمزارات والبقاع المباركات) إلخ. . .

والواقع إن هذا الكتاب كما ذكر العلامة النبهاني في كتابه (جامع كرامات الأولياء) ليس للحافظ السخاوي إذ قال عاطفاً على ما إستمد من الكتب ما لفظه: (وتحفة الأحباب في الكلام على الأولياء المدفونين بمصر للسخاوي من أهل القرن التاسع وهو غير الحافظ السخاوي) أه وذلكلأنه ذكر في فاتحته أن اسمه محمد بن أحمد الحنفي، وقد ذكره ابن مخلوف في طبقات المالكية وأنه فرغ من تأليفه سنة ست وخمسين وتسعمائة، وأنه كان حياً سنة ستين وتسعمائة، فنسبة كتاب تحفة الأحباب للحافظ السخاوي المتوفي بالمدينة المنورة سنة تسعمائة واثنتين خطأ دخل على كثير من أهل العلم يجب إلا يضيع ولا يفوت على الباحثة عنان. . . فلذلك لزم التصحيح. وإني أحيل الأستاذ عنان على كتاب مصرع الإمام الحسين ليزداد علماً والسلام.

(جرجا)

محمود عسّاف أبو الشباب

منتدى النشر بالنجف

تألف في النجف هذا المنتدى من صفوة العلماء والأدباء للسعي إلى تعميم الثقافة الإسلامية والعلمية، وإحياء لغة الضاد، ونشر المعارف الدينية والأخلاقية في ربوع البلاد بكل ما لديه من شتى الوسائل المشروعة.

وهاهو ذا اليوم في أول أدواره يضع الخطط التي تساعده على إنجاز مهمته العالية وتحقيق رغبته المنشودة ومن بينها دعوة العلماء والمؤلفين إلى مشاركته ومساعدته بأقلامهم وثروتهم العلمية.

ويذيع مجلس إدارته أنه مستعد من الآن لتلقي كل سؤال أو استفتاء ديني أو علمي يرد عليه فيحيله إلى اللجنة المختصة للنظر فيه ولاستجواب العلماء ممن تشرف المنتدى بانتسابهم إليه ومن غيرهم من العلماء الأعلام.

المؤتمر الدولي السادس لتاريخ الأديان

قرر مجلس الوزراء اشتراك الحكومة المصرية في المؤتمر الدولي السادس لتاريخ الأديان الذي سيعقد بمدينة بروكسل بين 16 و21 من شهر سبتمبر سنة 1935، وندب الأستاذين مصطفى عبد الرزاق وأمين الخولي لتمثيل الحكومة في هذا المؤتمر؛ وربما مثلا الأزهر بعد ذلك في المهرجان الذي ستقيمه جامعة بودابست في أخريات شهر سبتمبر بمناسبة إحتفالها بالعيد المئوي الثالث على إنشائها.

أحب شاعرة إلى الإنكليز

احتفل أخيراً في إنكلترا بالذكرى المئوية لوفاة مسز (هيمانس) الشاعرة المؤثرة التي تعرف في الأدب الإنكليزي (بحبيبة إنكلترا) وكانت وفاتها في مايو سنة 1835. وهي شاعرة العواطف، وشاعرة الأمومة الرقيقة، ومسرات الأسرة والورع والرضى؛ وما زال شعرها الرقيق في كتابيها (كازابيانكا) و (قبور العائلة) مثالاً للنظم الأنيق المبدع الذي يملأ القلب سحراً وتأثراً. وكانت مسز هيمانس أستاذة للخيال الواضح والصور الرقيقة والانفعالات العميقة؛ وكانت تتبوأ في عصرها مقاماً عظيماً في الشعر، ولو أن أسلوبها اليوم قد عفا؛ وكانت ثقافتها الواسعة، ومواهبها الفنية موضع الإعجاب، وكانت تشتهر بالأخص بخلالها الرفيعة وجلدها ورقتها وتوضعها، حتى كانت تحمل عباقرة العصر مثل وردسورث وشيللي وبروننج وبيزون على إحترامها وإكبارها. وكانت ظروف حياتها المؤثرة تزيد في هذا التقدير، فقد كانت مسز هيمانس تنظم لتعيش، ولم يكن يهمها اختبار الجيد من الشعر، وإنما كان يهمها اختيار أكثر النظم قبولاً وانتشاراً.

وقد قطعت مسز هيمانس حياة قصيرة مؤثرة. فقد تزوجت الكبتن هيمانس في الثامنة عشرة، ولم تمض ستة أعوام حتى رزقت منه أربعة أولاد، ثم لم يلبث أن غادرها وحيدة. وهنا يبدو نبل هذه الشخصية، فقد احتملت كل أعباء الحياة صابرة جلدة، لا يضلها جمالها الباهر عن الطريق السوي؛ وسرعان ما ذبل هذا الجمال في حياة ملئها الشجن وهموم الأسرة؛ وفي سن الحادية والأربعين غادرت مسز هيمانس هذه الحياة بعد أن طبعت أمومة العصر بطابعها، وتركت لجنسها تراثاً ما زال يحمل على التقدير والإكبار.

استدراك

كتب إليّ جماعة يسألونني عن مؤلفات الشيخ بدر الدين الحسني رحمة الله عليه فحققت عنها فإذا هي قد أحترق مسوداتها حين احترقت مكتبة الشيخ. ولست أعرف للشيخ مؤلفاً باقياً. أما الفقرة التي سقتها بين يدي مقالتي عن الشيخ في (الرسالة) الخامسة بعد المائة فهي من ترجمة الشيخ المنشورة في جريدة ألف باء الدمشقية صبيحة وفاته مكتوبة بقلم أستاذ كبير من كبار تلاميذ الشيخ رحمه الله.

وقد كتبت هذا التنبيه كيلا يسجل في (الرسالة) ما يوهم غير الحقيقة. و (الرسالة) سجل خالد. ومن حق (الرسالة) على كتابها إلا يكتبوا فيها إلا حقيقة، ومن حق قرائها عليها إلا يجدوا فيها إلا حقيقة.

علي الطنطاوي

الكتب
مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين: لأبى الحسن الأشعري.
التيسير في القراءات السبع: لأبى عمرو عثمان بن سعيد
الداني
للأستاذ محمد بك كرد علي
في مطبعة الدولة في استانبول طبعت لجنة (النشريات الإسلامية لجمعية المستشرقين الألمانية) هذين الكتابين المعتبرين. نشر الكتاب الأول منهما: العلامة ريتر. وكتب الأشعري مفخرة أهل السنة والاستقامة على كثرتها لم يطبع منها سوى كتابين في الهند: (الإبانة عن أصول الدين) و (استحسان الخوض في الكلام) وهذا الكتاب في مقالات الإسلاميين، هو الذي عنى بتصحيحه والتعليق عليه، ووضع فهارسه السيد ريتر، وقال فيه: إنه مهم في بابه لمعرفة فرق أهل الإسلام، لان تأليفه أقدم من (الملل والنحل) للشهرستاني و (الفرق بين الفرق) لعبد القاهر البغدادي و (الفصل في الملل والأهواء والنحل) لابن حزم الظاهري، وأن الأشعري أدرك المتأخرين من المعتزلة وغيرهم من أهل المذاهب، فأضطر في نقل بعض ما ينقله عن أوائلهم إلى الأخذ من الكتب المؤلفة قبله في مقالات الناس مثل مقالات الكعبي والكرابيسي واليمان بن رباب وزرقان وغيرهم، وهذه قد ضاعت كلها.
وقد علل الناشر ضياع الكتب بقوله: إنه كلما كان الكتاب أقدم عهدا كانت نسخه أعزَّ وجودا واقل عددا، وذلك لعدة أسباب: منها استيلاء الفناء عليها بتقادم العهد، وجريان حكم الزمان عليها بالمحو والإفساد، ومنها ضياعها وتلفها عند استيلاء الإعداد على البلاد وجنايتهم على الكتب بالإحراق والانحراق، ومنها اعتداء بعض أهل المذاهب على كتب مخالفيهم، ومنها أن المعلمين والمدرسين الذين كان جلُّ همهم أن يضبطوا قواعد كل علم بأقصر لفظ، عمدوا إلى تهذيب مؤلفات من سبقهم، وتنسيق المباحث وترتيبها، ووصل كل بحث بما يجانسه، وضم كل فرع إلى اصله واختصروها إيثارا للإيضاح والتقريب، وتسهيلا للتعليم والتعلم، فاثر المحصلون كتبهم على الكتب القديمة من أجل ذلك فصارت المؤلفات السابقة
كأنها منسوخة باللاحقة فتركت ونسيت.
وكتاب مقالات الإسلاميين بحث مستوفى في المذاهب والفرق الإسلامية، لم يستعمل فيه مؤلفه السباب والمهاترة على ما وقع في مثل ذلك ابن حزم والبغدادي وغيرهما ممن كتبوا في مناقشة أهل الأهواء وأصحاب المقالات. فالأشعري عمد إلى لسان العلم يستخدمه في ذكر مقالات مخالفيه، وقد حوى كتابه فوائد تاريخية وسياسية ولاسيما في تدوين وقائع من طالبوا بالخلافة من العلويين في كل عصر، وفي أحكام الإمامة واعتقاد أهل الفرق فيها، وفي الحكمين والحكم عليهما بما فعلا. أطلق في كل ذلك العنان لقلمه حتى لا تكاد تستبين أن المؤلف خالف أصحابه المعتزلة في شيء، بل هو معتزلي تربية ومنشأ وربما جاءه الفيض من الأخذ عن علمائهم، وإلا ففيها عاديا من فقهاء عصره ومحدثيه.
وفي الكتاب وصف دقيق لمسائل علم الكلام وما أختلف فيه أرباب المذاهب، كتبه بلهجة سلسة يتفهما لأول وهلة حتى من ليس له أنسة بمثل هذه الأفكار والعبارات، وذلك لان المؤلف هضم ما تعلمه وتمثله، فوصفه بدقائقه وصفا قرَّبه من الأذهان. وهذه الموضوعات من أبحاث قدماء العلماء، واليوم لا يهتم لها إلا خواص الناس ومن هم بسبيلهم من طلاب العلم الديني.
والكتاب في مجلدين بلغا أكثر من ستمائة صفحة، هذا عدا الفهرس الذي وضعه الدكتور ريتر في أسماء الرجال والنساء، ذكر فيه المكان الذي وردت فيه تراجمهم تسهيلا على القارئ، وهناك فهرس بأسماء الفرق والطوائف، وثالث بأسماء البلدان والأماكن، وقد تجلى التوفيق والعناية في كل صفحة من صفحات هذا الكتاب الذي يعدُّ بلا جدال من الأمهات في هذا الموضوع.
الكتاب الثاني هو (التيسير) في القراءات السبع للإمام أبي عمرو عثمان بن سعيد الداني، نشره العلامة برتزل وقال في المقدمة التي وضعها له بالعربية: (إن علم قراءة القران أقدم العلوم الإسلامية نشأة وعهداً، وأشرفها منزلة ومحتدا، وكان أول ما تعلم الصحابة من علوم الدين حفظ القران وقراءته، ثم لما اختلف الناس في قراءة

القران وضبط ألفاظه مست الحاجة إلى علم يميز بينالصحيح المتواتر، والشاذ النادر، ويتقرر به ما يسوغ القراءة به وما لا يسوغ، وقاية لكلماته من التحريف، ودفعا للخلاف بين أهل القران، فكان ذلك العلم
علم القراءة الذي تصدر لتدوينه الأئمة الأعلام من المتقدمين.
قال وفي الحق إن تدوين علم القراءة أفاد المسلمين فائدة لم تحظ بها أمة سواهم، وذلك أن البحث في مخارج الحروف والاهتمام بضبطها على وجوهها الصحيحة لتيسير تلاوة كلمات القران على أفصح وجه وأبينه، كان من ابلغ العوامل في عناية الأمة بدقائق اللغة العربية الفصحى وأسرارها، وكانت ثمرة هذا الاجتهاد والجهد أن القراء تشربوا بمزايا اللغة العربية وقواعدها ودقائقها. ومما يؤيد ذلك أن الكثيرين من قدماء النحويين كانوا مبرزين في علم القراءة، كما كان الكثيرين من أئمة القراء كأبي عمرو والكسائي بارعين في علم النحو.
ويرى الناشر أن على كل من يتصدى للنظر في تاريخ اللغة العربية ودرس المسائل التي تتناولها كتب النحويين، أو للبحث في تنوع اللغات واختلافها بحسب الأقطار والأمصار، ينبغي له أن يتتبع علم القراءة والتجويد؛ ومن شرع في درس معاني القرآن، واستقصاء لطائفه واستخراج حقائقه، ثم اعتمد على القراءة الوحيدة التي يجدها في المصحف الذي بين يديه فقط من غير التفات إلى رواية الأئمة الآخرين؛ فقد غفل عن أمر ذي بال أه.
والمؤلف كان شيخ مشايخ المقرئين في الأندلس، رحل في أخذ القراءات عن الأئمة في الشرق (وكان هو من الأئمة في علم قراءة القرآن، وطرقه ورواياته وتفسيره ومعانيه وإعرابه، ولم يكن في عصره ولا بعده من يضاهيه في قوة حفظه وحسن تحقيقه، ونقل عنه أنه كان يقول: ما رأيت شيئاً قط إلا كتبته، وما كتبته إلا حفظته، ولا حفظته فنسيته؛ وكان أيضاً عارفاً بعلوم الحديث وطرقه وأسماء رجاله، وبارعاً في الفقه وسائراً أنواع العلوم) خلف فيما قيل مائة وعشرين مصنفاً، لا يزال بعضها محفوظاً في بعض خزائن الكتب في الغرب والشرق، واعتمد الناشر في طبع كتاب التيسير على ست نسخ منها ما هو في دار الكتب ببرلين وفي دار الكتب في مونيخ وفي خزانة ليدن وبعض خزائن إستانبول.
وكتاب التيسير كما قال فيه مصنفه مختصر في مذاهب القراء السبعة بالأمصار، يتضمن من الروايات والطرق ما أشتهر وأنتشر عند التالين، وصح وثبت عند المتصدرين من الأئمة المتقدمين. افتتح كتابه بذكر أسماء القراء والناقلين عنهم، وأنسابهم وكناهم وموتهم
وبلدانهم، واتصال قراءتهم وتسمية رجالهم، واتصال قراءتنا نحن بهم، وتسمية من أداها إلينا عنهم رواية وتلاوة وأتبع ذلك بذكر مذاهبهم واختلافهم.
دمشق
محمد كرد علي
العدد 108 - بتاريخ: 29 - 07 - 1935
محمد حافظ إبراهيم - 2
بمناسبة ذكراه الثالثة
كان حافظ في ميعة شبابه يطلب الثروة على قدر طموحه، والحظوة على قدر نبوغه؛ ولكنه طلبهما من طريق الحق الذي يدعيه كل شاعر على الناس، لا من طريق الواجب الذي يؤديه كل إنسان إلى المجتمع. فلما أخفق بالطبع لم يرد أن يعيش كما يعيش سائر الناس على العمل الميسور، وإنما ارتد ارتداد الأنوف المحتج إلى الفلاكة الشاعرة الصابرة، يحمل بؤسه على (حرفة الأدب) كما يحمل المؤمن رزءه على حكمة القدر؛ ثم عاش عيش الطائر الغرد: عمره ساعته، ودنياه روضته، وشريعته طبيعته، ودأبه أن يطير في الغيم والصحو، ويشدو في الطرب والشجو، ثم يسقط على الحب أينما انتثر!
ولقد كان من جريرة هذه الحياة النابية العقيم التي حيها حافظ أن قتلت فيه الطموح فلم ينشط إلى سعي، وأذهلته عن الغاية فلم يسر على مبدأ، ووقفته على الشاطئ فلم يتعمق في فلسفة، وشغلته عن الدرس فلم يتكمل بثقافة. كان مبدؤه الأدبي مبدأ اليوم، كما كانت حياته المادية حياة الساعة: رأى الآمال تتهافت حيناً من الدهر على

أريكة الخديويه في مصر، وعرش الخلافه في الآستانة، فجرى لسانه بالشعر المطبوع في مدح عباس وتمجيد عبد الحميد؛ ثم اتصل بالإمام وشيعته من سراة البلاد وشيوخ الأمة، ولهم يومئذ في الإنجليز رجاء موصول وظن حسن، فصدرت عنه في هذه الفترة قصيدة في رثاء الملكة فكتوريا، وقصيدة في تتويج الملك أدوار السابع، وقصيدتان في وداع اللورد كرومر، عبر بهما عن الرأي السياسي الأرستقراطي في ذلك الحين؛ ثم خلص للشعب فلابس دهماءه وخالط زعماءه، واندفع بقوة الوطنية الدافقة الشابة إلى لواء مصطفى، فمزج شكواه بشكوى البلاد، وضرب على أوتار القلوب أناشيد الجهاد، ونظم أماني الشباب من حبات قلبه، وترجم أحاديث النفوس ببيان شعره؛ ثم عطف عليه الوزير الأديب حشمت باشا فأكرمه بالعمل في (دار الكتب)، وأجزل له المرتب طمعاً في مواهبه، وثواباً على فضله؛ ولكن الشاعر حمل الوظيفة على باب المكافأة المفروضة فاستراح للخفض، واستنام للدعة، وفتر عن قول الشعر إلا مدفوعاً إليه من فترة إلى فترة؛ فلما خرج على (المعاش) انضوى إلى أعلام (الوفد)، واتصل بالزعيم اتصال النديم، وحاول أن يبعث في نفسه الشعر الوطني، ولكنه كان قد أصفى. . .

وكان فكر حافظ فيض الشعور وعفو البديهة، ينشأ في الكثير الغالب من آراء المجالس، وأقوال الصحف، ومخزون الحافظة، فلم تعنه حياته على التروية، ولم يدعه اضطرابه إلى التأمل، ولم تطلقه قيوده إلى الطبيعة، وإنما ظل صنيعه لوحي البيئة، وإلهام الفطرة، وتوجيه المناسبة؛ فهو في قصائده للإمام يذكر تعلق الناس بالأباطيل، وتهالكهم على عبادة الموتى، ولا يزيد في ذلك على نقد الإمام ونعيه؛ وفي قصائده لقاسم يذكر الحجاب والسفور بما لا يخرج عن مذهبه ورأيه؛ وفي قصيدته التي أنشدها في احتفال مدرسة البنات ببور سعيد يتكلم في تعليم الأم وسفور المرأة وعيوب الجماعة بما لا جديد فيه؛ وفي قصائده التي نظمها في مشروع الجامعة وافتتاحها يجمل ما فصلت الصحف من الموازنة بين الإكثار من الكتاتيب وإنشاء الجامعة؛ وفي رثائه لتولستوي يذكر السلم والحرب، والخير والشر، والغنى والفقر، بما لا يبعد عن متناول الناس، ولا يرتفع عن مستوى الجمهور؛ من اجل ذلك كان فكره مستقيما لا ينحرف، وواضحاً لا يلتبس، وسديداً لا يطيش، والسر فيه اعتماده على قوة الإجماع، لا على غرابة الإبداع

وكانت ثقافة حافظ ثقافة الشاعر العربي الأول: يتزود لمجالس الملوك بالإخبار والطرف، ولمحافل الأدباء بالأشعار واللغة، ويستعين على ذلك بسلامة الذوق، وصفاء الطبع، وقوة الحافظة، وكثرة الاطلاع، وجودة الاستماع، وإلحاح الحاجة؛ ولحافظ في كل أولئك موضع منفرد ومكان بارز

عكف منذ شب على دواوين الشعراء وأجزاء (الأغاني) يتنخلها، ويتمثلها، ويعاود النظر فيها، ويستكمل الحظ منها، حتى بلغ من مختار الرواية ومصطفى الكلام ما لا غاية بعده؛ ثم قنع من فروع الثقافة الأخرى بنتف من المسائل الأولية، ينقلها عن السماع ويأخذها عن الصحف إذا ظن أنها تدخل بوجه من الوجوه فيما يعنيه من ابتكار الأسمار وصوغ القريض؛ حتى لغته الفرنسية ظلت بكماء فلم يتقنها ولم يستفد منها لا بالقراءة ولا بالترجمة؛ وثقافة الشاعر المدني المجدد ثقافة محيطة شاملة تشارك في ضروب المعرفة مشاركة بصيرة، وتتابع تقدم الفكر متابعة حرة

أما صياغة حافظ فهي موهبته الأولى ومزيته الظاهرة، وهو في ذلك ثاني الخمسة الذين

تيقظت على دعوتهم نهضة الشعر، وتجددت على صنعتهم بلاغة القصيد. ولعله انفرد عن هؤلاء جميعاً بالصدق في تعبيره عن هموم قلبه، وتفسيره لأماني شعبه، وتصويره لمساوئ عصره

احمد حسن الزيات

في رأس البر

للأستاذ احمد أمين

يعجبني في رأس البر بساطة العيش والقرب من الديمقراطية. يعيش الناس - كما كان يعيش آباؤهم الأولون - في أكواخ من الحصر، لا فرق بين كبيرهم وصغيرهم، وغنيهم وفقيرهم؛ ويلبسون لباساً ساذجاً قريب الشبه بما كان يلبس آبائهم، ويسبحون

في البحر عراة، ويمشون على البر حفاة؛ ملوا المدنية وزخارفها، والحضارة وبهرجها، وهربوا من المدن وضوضائها، والأرستقراطية وأوضاعها وتقاليدها وتعقيداتها، وارتموا في أحضان الطبيعة فأفسحت لهم صدرها، ينزلون البحر فينفضون عنهم هموم الحياة، وينبطحون على الرمل ويذكرون قوله تعالى: (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى)

ليس فيها قصور شامخة بجانب أكواخ وضيعة، وليس فيها ثريات كهربائية بجانب أضواء زيتيه أو غازية، ولا ملابس أنيقة بجانب أثواب مهلهلة؛ يصعب عليك التمييز فيها بين الغني والفقير، والعالم والجاهل، إلا في الآنسات والسيدات فهن يأبين إلا الظهور، والتمسك بالفروق، وإلا في أمثالهن ممن حليتهم لباسهم، وقيمتهم مظهرهم خلف فيها الناس وراءهم المخترعات الحديثة بجلبتها ورذائلها؛ فلا سيارات تصم الآذان بأبواقها، وتأنف الأنوف من روائحها، وتربك السائرين لسرعتها وكثرتها واضطراب حركاتها؛ ولا تلفون يرن في الهجير وفي منتصف الليل فيوقظك من نومك الهادئ، ويحملك رجاء تنوء بحمله، أو يصلك بثقيل ينغص عليك الحياة بحديثه؛ ولا راديو يسمعك اللطيف والسخيف، ويأبى عليك النوم أحوج ما تكون إليه، وأشد ما تكون رغبة فيه، لأن جيرانك يأبون إلا أن ينتفعوا به كاملاً من بدء يمين - شمال، إلى سلام الملك!

حياة حرة طليقة، وجو مفتوح، وهواء جديد دائماً، لم تفسده الحضارة بدخانها وغازاتها، ولم تحبسه الأبنية الشامخة، ولم تحجزه الحيطان الأربعة، تتجدد النفس بتجدده، وتمتلئ نشاطاً من نشاطه، يغذي كل خلية غذاء حلواً طيباً، ويخلع على الجسم لوناً نجاشياً ظريفاً، وينعش العواطف والروح، فهي قوية حادة، شديدة التنبه، شديدة الإحساس؛ حتى عاطفة الدين، فهي أقوى ما تكون، واطهر ما تكون، وأصفى ما تكون، حينما تتجلى الطبيعة في ثوبها الفطري الجميل، في السماء والماء، والمزارع والحقول، فليس الإلحاد والزندقة والتعصب الذميم

وضيق النظر إلى وليد الحضارة المعقدة والجو الخانق، والفكر الراكد ودوران الفكر حول نفسه لا حول الطبيعة

في جو المدن لا يشعر الإنسان بالسماء إلا عند المطر، ولا بجمال الشمس ولا جمال القمر، ولا يلمس الطبيعة إلا إذا ساءت من شدة الحر أو شدة البرد! كل ما حوله من جمال جمال صناعي؛ قد استغنى بجمال طاقات الزهور عن الزهور في منابتها، واستغنى بثريا الكهرباء عن ثريا السماء، وبالحسن المجلوب عن جمال الفطرة وجمال الطبيعة وجمال الخلقة. وهيهات أن يتساوى منتحل وغير منتحل، فليس التكحل في العينين كالكحل!

إنما يشعر الإنسان بجمال الطبيعة يوم يخرج من المدينة إلى الريف، ويفرمن الحظر إلى البدو، فينكشف له الخلق بجماله القشيب، وتأخذ بلبه السماء في لا نهائيتها، والبحار في أبديتها، ويشعر شعوراً قوياً بأنه ذرة من ذرات العالم، وجزء صغير من أجزاءه، ضعيف بنفسه، قوي بكله، وأنه لاشيء يوم ينفصل عنه، وأنه نغمة من نغماته يوم يتصل به

لوددت أني خلعت نفسي في المدينة يوم فارقتها، فقد سئمت نفسي وسئمتني، ومللتها وملتني، وتمنيت أن تكون النفس كالثوب تخلعه حيناً، وتلبسه حيناً، ويبلى فتجدده، وتكرهه فتغيره - إذن لاستبدلت بنفسي - ولو إلى حين - نفساً مرحة تستغرق في الضحك من الشيء التافه ومن لا شيء، ولا تبكي على ما فات، ولا تحمل هماً لما هو آت

بل لتمنيت أن أكون كدودة القز تكون دودة حيناً، ثم تكون فراشة حيناً، أرشف من هذه الزهرة رشفة، ومن هذه رشفة، وأنشر جناحي في الشمس، أعيش في جمال وأغيب في جمال، كما تغيب الشمس الجميلة في الشفق الجميل، أو كما تغني النغمة الحلوة في رنات الآلات، أو كما تنداح الابتسامة العذبة في الوجه الصبوح، أو كما تندمج الموجة العظيمة في البحر العظيم! ولكن أنى لي هذا؟ ولو كان لشكوت وبكيت، فقد خلقت كما خلق المتنبي

خلقت الوفاً لو رجعت إلى الصبى ... لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

وخرجت مبكراً والناس نيام، أمشي على الشاطئ وأرقب الشمس في طلوعها؛ والشمس على الساحل أجمل من الشمس على غيره، فليس لها تلك القوة العاتية، ولا

الحرارة القاسية، ولا الأضواء المعشية؛ فيها شيء من الوداعة واللطف والحنان!
هاهي ذي قد طلعت، فأخذت الحياة تدب في النفوس، تلقي أشعتها على البحر فينعقد منه
سحاب فمطر فأنهار، فجميع ما لذلك من أعمال باهرة، وقوى ساحرة، وأفعال عجيبة!
أنظر يميناً فأرى النيل، وأنظر يساراً فأرى البحر، وقد عاد النيل إلى البحر بعد أن أتم دوريه، وأدى مهمته؛ قد خرج هذا العذب الفرات، من هذا الملح الأجاج، كما يخرج اللبن من بين الفرث والدم! قد سلسلوا النيل فعدا عليه البحر فأغتصب مجراه، وأملح ماءه،
ثم فكوا قيوده، فاسترد حقوقه، وأراد أن ينتقم من أبيه، فحاول أن يحتل شاطئه،
ويحلي ماءه، ولكن يعكر صفاءه، ثم ندم على العقوق فتاب وأناب وإذا هما مؤتلفان، بينهما برزخ لا يبغيان
ثم تسطع الشمس، ووددت أن تكون مذكرة في اللغة العربية، كما هي مذكرة فيما أعرف من اللغة الأوربية، لأنها تتزوج الأرض فتولدها ما شئت من أشكال وألوان وذكور وإناث، وكأن أشعة الشمس خمر معتقة تشربها الأرض فتنتشي وتبتهج، وتمتلئ قوة ونشاطاً وحركة
وتقع أشعتها على الطير فيسرح ويمرح ويتغنى، وتحل في قلب الإنسان فيهدأ روعه، ويذهب فزعه، ويطمئن إلى حياته، وتتحرك إرادته، وتنتعش آماله
دعني أتعر فالعراء على الساحل مباح، فأملأ جسمي بأشعتها، وأملأ شعوري ودمي بقوتها، وأملأ نفسي بعظمتها وسحرها.
ومشيت إلى قلعة في رأس البر كنت آنس بها قديماً، وكان في كل حجر من أحجارها
صفحة من العزة القومية، والحمية الوطنية؛ أقامتها الأمة يوم كانت تشعر بنفسها،
وتدافع بنفسها عن كيانها، وتحس بتبعاتها، وتدبر شؤونها، وتدير أمورها، كما يتراءى لها - فرأيتها وقد عدا عليها الزمان، وعلاها البلى ونقض أحجارها، وليس من يعتز بها فيقيم أنقاضها، ورأيت بها (مدفعاً) قد هزأ به الرمل فغطاه، وسخر به الصدأ فعلاه، دفن كما
يدفن عزيز أرداه الزمان بسهامه، وذل كما يذل السيد توالى عليه الدهر بأحداثه!
ورأيتهم أقاموا في وسطها صهريجاً يخزن الماء لرأس البر؛ فقلت: سبحانك ربي، جعلت من مستودع النار ماء، كما جعلت من الشجر الأخضر ناراً! لقد كان مكانك رمز
القوة واصبح رمزاً الرقة، وكان بك جن يقذفون بالنار فبدلت بهم ملائكة يوزعون
الرحمة، وكان بك دم يغلي، فأحاله الزمان القاهر زلالاً بارداً، وما أدرى ماذا جاش بنفسي فدمعت عيني
وقالوا قد جُننتَ فقلتُ كلا ... وربي ما جننتُ وما انتشيت
ولكني ظُلمتُ فكدت أبكي ... من الظُّلم المبيّن أو بكيتُ
فأن الماء ماء أبي وجدي ... وبئري ذو حفرت وذو طويت
ثم صحوت فقلت: أتندب كل طلل مررت به، وتبكي كل شيء رأيته، وتحزن في معاهد الفرح، وتنقبض في مغاني المرح؟ من أجل هذا تمنيت - قبلُ - أن أخلع نفسي، ووالله
لو أمكنتني الفرصة ثانية ما ترددت، ولسمحت وما حرصت، فقد برمت بها وعجزت عن حملها
هيا إلى البحر! فهناك الفرح والمرح، وهناك يضحك الناس له ويضحك لهم، ويداعبون
أمواجه وتداعبهم، وأحياناً ينسون جلاله فيصفعهم! فيه الحياة، وفيه القوة، وفيه
العظمة، وفيه اكبر مظهر لطاحون العالم، تطحن دائماً، وتطحن ناعماً!

رأس البر

أحمد أمين

قضايا التاريخ الكبرى

من قضايا السحرة

صفحة من الجرائم المروعة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

يعتبر عصر لويس الرابع عشر أعظم عصور التاريخ الفرنسي، لا من وجهة السلطان
الباذخ فقط، ولكن من الوجهة الاجتماعية والفكرية أيضاً؛ فكما أنه عصر الفتوحات العظيمة، فهو أيضاً عصر تقدم فكري واجتماعي ساطع؛ ولم تبد الملوكية الفرنسية من قبل قط بمثل ما بدت به في عصر لويس الرابع عشر من العظمة والبهاء، ولم يزدهر

المجتمع الفرنسي مثلما أزدهر في هذا العصر؛ وفيه تتفتح العبقرية الفكرية إلى الذروة، ويحتشد النبوغ الفكري أيما احتشاد، هو (القرن الأعظم) كما ينعت في التاريخ الفرنسي، وهو عصر (الملك الأعظم)؛ وهو عصر كورني وراسين وراسان ولافونتين وجمهرة كبيرة أخرى ممن يزدان بهم التاريخ الفرنسي

بيد أن هذا البهاء الساطع الذي يشع به (القرن الأعظم) تغشاه الظلمات في كثير من النواحي؛ ففيه يتكشف ذلك المجتمع الباهر عن ثغرات خطيرة من الانحلال الخلقي والاجتماعي؛ وفيه تزدهر الجريمة، وتنحط النفس البشرية إلى ضروب شائنة من الفساد والإثم تخلق بأشنع العصور

في سنة 1676 كشفت مأساة السموم الشهيرة التي أخذت فيها المركيزة دي برانفلييه بطائفة من الجرائم المروعة عن طرف من تلك الآثام الخفية التي تجثم وراء مجتمع زاهر؛ وكان ذلك الحدث المدهش مفاجأة مروعه لمجتمع ذلك العصر؛ فقد ظهر أن السم - ذلك السلاح الخفي الغادر - يحصد علية القوم حصداً، وأن كثيراً، وأن كثيراً من الوفيات الفجائية المريبة التي وقعت في تلك الفترة إنما هي جرائم قتل شائنة ترتكب في سبيل الانتقام والمال والهوى

بيد أن جرائم المركيزة دي برانفلييه كانت جرائم فردية، وكانت محدودة المدى، ولم تكن شيئاً يذكر إلى جانب ذلك الثبت الحافل من جرائم هائلة مثيرة معاً تبث الروع الخفي

الصامت إلى المجتمع الباريزي وتصمه بحمأة العار والاثم، ويدمغ شينها المثير أرفع الرؤوس والمقامات في ذلك المجتمع الأنيق الباهر

كانت جرائم (السحرة)، وذيوع الخرافات السحرية بين علية القوم، ومزاولة هذه الرسوم الوثنية الشائنة، والتماسها وسيلة لتحقيق أحط الشهوات البشرية، من ظواهر ذلك الانحلال الخفي الشامل الذي يغشى عظمة (العصر الأعظم)

كان السحر من الأمور التي طبعت أذهان العصور الوسطى بطابعها القوي؛ وكانت مزاولة السحر جريمة يعاقب عليها القانون في تلك العصور بأشد العقوبات؛ وكان يعتبر من السحر كل مالا تسيغه عقلية هذه العصور من الأمور المدهشة حتى ولو كانت مما يدخل في حيز الاكتشافات العلمية كمزاولة السيميا أو البحث عما يسمونه حجر الفلاسفة، والتجارب الكيميائية المدهشة؛ وكان السحر دائماً وسيلة الأجرام، ترتكب باسمه وفي ظله أشنع الجرائم الدموية والأخلاقية؛ وكان هذا النوع من السحر الملوث بحمأة الجريمة، والذي تخضب رسومه الفظيعة في معظم الأحوال بالدماء البشرية، يسمى (بالسحر الأسود) أو السحر الذي يقصد به وجه (الشيطان)

ولم تكن عقلية القرن السابع عشر بعيدة عن هذه الأوهام الشائنة، بل كانت تتأثر بها أيما تأثر؛ وكان المجتمع الرفيع الذي يحفزه حب المال أو لوعة الهوى أو ظمأ الانتقام أو غيرها من الشهوات البشرية أو المثالب الخلقية يجد في السحر ملاذه ويعتقد أن السحر مازال وسيلة لتحقيق هذه الأطماع والأهواء

في ظل هذا المعترك الذي تضطرم فيه الشهوات الوضيعة، ويملك الإيمان بالسحر عقول الخاصة فضلاً عن الكافة وتسري إلى المجتمع أسباب الانحلال الخلقي والاجتماعي، كان (السحرة) ومن إليهم من دعاة السيميا والكيمياء يبثون في المجتمع أباطيلهم، ويزاولون تلك الرسوم المروعة المثيرة التي تعرف (بالسحر الأسود) ويسلحون الأيدي الغادرة بالسموم المرهقة، وينظمون أشنع الجرائم الدموية والخلقية، ويستظلون للتمويه على الكافة بظل الخفاء والمقدرة على تنبؤ الغيب وتسخير القدر، وتوجيه الحظوظ

وقد بلغ الشغف بالخفاء والتماس السحر ذروته في ذلك العصر؛ وكان يتمخض بين آن وآخر عن طائفة من الجرائم الفظيعة التي يكتنفها خفاء السحر وروعته

وكانت جرائم السحرة الشهيرة التي اكتشفت فجأة في عصر (الملك الأعظم) من أروع هذه المفاجآت التي يرتجف المجتمع لهولها وشناعتها

في يوم من أواخر سنه 1678، اجتمع في باريس على مائدة سيدة تدعى (لافيجوريه) هي زوجة خياط للسيدات، محام متواضع هو الأستاذ بيران، وامرأة (عرافة) مشهورة في هذا الوقت تدعى ماري بوسي؛ ففي أثناء العشاء بدرت من العرافة تلميحات خطيرة حول جرائم ترتكب بالسم، ويشترك في ارتكابها رجال ونساء من علية القوم؛

فانزعج الأستاذ بيران، وأفضى بما سمعه إلى مدير البوليس (لاريني)
وكانت ذكريات جرائم المركيزة دي برانفلييه ما تزال حية رنانة، فأدراك (لاريني) أنه ربما كان أمام ثبت آخر من الجرائم المماثلة، فأمر بالقبض على مدام فيجوريه، وماري بوسي وابنتها مانون وولديها؛ وذلك في 4 يناير سنة 1679، وأفضت التحقيقات الأولى التي قام بها لاريني نفسه إلى أن قبض في 12 مارس على امرأة تدعى (لافوازان) أو مدام فوازان، وهي عرافة شهيرة في ذلك العصر تزاول السحر وأموراً خفية أخرى، وعلى ابنتها مرجريت، ثم على رجل يدعى (لي ساج) وهو شريك لافوازان وعشيقها، ثم على عشرات آخرين ممن ورد اسمهم في التحقيق ونسب إليهم قسط من الأعمال والجرائم المروعة التي كشفت عنها اعترافات المتهمين
كان لاريني مديراً للبوليس، يقف بحكم وظيفته على أخطر الأسرار وأفظع الجرائم، ولكنه لم يلبث أن رأى نفسه أمام معترك هائل من الجرائم التي ترتجف لهولها وروعتها أقسى القلوب وأصلبها؛ جرائم تمتد إلى النفس والعرض والمال بأشنع الآثام، وتتطاول إلى الملك وحياته ذاتها، ويشترك في تدبيرها وارتكابها نفر من العظماء نساء ورجالاً يزاولون (السحر الأسود) ويشتركون طوعاً في اجراءته المروعة المشينة، ويغمسون أيديهم في الدم البريء تقرباً إلى الشيطان، والتماساً لتحقيق أسفل الشهوات والغايات
وكانت لافوازان هي المحور الأكبر لذلك الثبت المروع من الجرائم التي سودت صحف (العصر الأعظم) وهي امرأة تدعى في الأصل كاترين ديزي، وزوجها يدعى مونفوازان، أو فوازان، ومن ثم كان اسمها. وقد بدأ الرجل حياته تاجراً في الحلي، ثم زاول أنواعاً أخرى من التجارة، ولكنه لم يفلح ولازمه النحس، فاعتزمت زوجته عندئذ أن تزاول مهنة
التنجيم والعرافة. وكانت لافوازان في الواقع ذات مقدرة خاصة في تفهم نفسية بعض الناس، وكانت قد درست شيئاً من الفلك وما يتعلق بالسحر من المسائل والرسوم التي كانت ذائعة في ذلك العصر فامتهنت العرافة والسحر، واستقرت في منزل تحيط به حديقة في فلنيف من ضواحي باريس. وأقبل عليها القوم من كل صوب يستوحون علمها ونصحها، وكانت تزاول كل ما يدخل في باب الخفاء من قراءة الكف وصنع التمائم والتعاويذ، والتنبؤ بالمستقبل بيد أنها كانت تزاول أعمالاً أخطر، فقد كانت تبيع السموم لزوجات يردن التخلص من أزواجهن، أو أقارب يترقبون وفاة المورث، وكانت تصف الأدوية لمختلف الأمراض، وتزاول التوليد وبالأخص الإجهاض؛ وكان بين قصادها سادة من الأكابر وسيدات من أرقى طبقات المجتمع
وكانت لافوازان، كما يصفها المعاصرون امرأة قصيرة القد، مليئة الجسم، وافرة الحسن، لها عينان ساطعتان ثاقبتان، وكانت بما ينهمر عليها من المال من كل صوب تعيش عيشة ترف ومتاع، تصطفي العشاق حسبما تهوى تحت سمع زوجها المسكين وبصره، وتقيم الحفلات الصاخبة، وكانت تعشق الشراب وتفرط فيه، فلا ترى دائماً إلا ثملة، تضرب زوجها أو عشاقها وهم عديدون وكانت تحيا هذه الحياة الحيوانية المحضة فوق أكداس من الإثم ترتكبها كل يوم، لا يزعجها شبح أولئك الذين ترسلهم بسمومها إلى الأبدية، ولا تلك الضحايا البشرية العديدة التي كانت تزهقها مع شركائها كلما أجرت رسوم القداس الأسود كما سنرى
وكان شريكها وساعدها الأيمن في تلك الحرفة الأثيمة رجل يدعى (ليساج) وكان أحب عشاقها إليها وأشدهم نفوذاً لديها، وكان ليساج يزاول أعمال السيميا ليكتشف ما يسمونه (حجر الفلاسفة) أو المادة التي يمكن أن تعاون في تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب، وتمده لافوازان كما تمد غيره من السيميائيين والمشعوذين بالأموال الوفيرة لأجراء التجارب المطلوبة. وكان هذا (الساحر) الخطر من أهل الجنوب واسمه الحقيقي آدم كيريه؛ وكان يشتغل بتجارة الصوف، ولكن غلبه شغف السحر والخفاء فاتصل بلافوازان ووثق الحب بينهما ذلك التحالف الأثيم، ووعد لافوازان بالزواج متى بدت أرملة. وفي سنة 1667 قبض عليه بتهمة (الاتصال بالشيطان) وقضي عليه بالأشغال الشاقة في الأسطول،
ولكن لافوازان سعت لإنقاذه بنفوذها واستطاعت أن تستصدر العفو عنه فعادت إلى باريس سنة 1672 وتسمى بليساج، واستأنف أعماله الأثيمة مع عشيقته

وكان ليساج وغداً سافلاً لا يحجم عن ارتكاب أية جريمة، وكان له أكبر نفوذ على لافوازان وزميلاتها، فكان يقتنص منهن الأموال الوفيرة بخبثه ودهائه؛ وكان يكتب التعاويذ للراغبين ويعقد صلاتهم بالشيطان بتمائم وأدعية مريبة، وأحياناً يتزيا بزي القسس ويقيم الصلوات والأقدسة؛ وكان منظره غريبا يضع على رأسه شعراً أحمر، ويرتدي ثوباً أشهب ومعطفاً غريباً، وكان القبض عليه للمرة الثانية عقب القبض على لافوازان في 17 مارس سنة 1679

كان اكتشافاً مروعاً ذلك الذي وقع به لاريني مدير البوليس من أعمال هذه الطغمة. ولم يكن أمر السحرة مجهولاً، وكان الهمس يسري حول آثامهم وجرائمهم في أرفع الأبهاء؛ ولكن لاريني لم يكن يتوقع قط أن يكشف التحقيق الذي أجراه وأشرف عليه مدى أشهر عن تلك الشبكة السوداء الهائلة التي تغمر العاصمة الفرنسية والتي تجذب شراكها الخطرة أعظم الرؤوس وأعظم المقامات. وقد أثبت لاريني في ملف التحقيق الذي أجراه أقوالاً ومعلومات مدهشة عن أعمال المتهمين وحياتهم الغريبة؛ ومما أثبته من أقوال لافوازان، إن أفضل ما يعمل هو أن يقبض على كل من يزاول قراءة الكف، فإن هذه الحرفة تكشف عن أمور مدهشة حيثما يمنى المحب بخيبة الأمل، وأن التسميم جرم ذائع، وأنه يدفع عن (العملية) الواحدة أحياناً عشرة آلاف جنيه (نحو خمسين ألف فرنك من العملة الحديثة)؛ وأيد ليساج هذه الأقوال، وزاد عليها أن كل أولئك الذين يزعمون أنهم يبحثون عن الكنوز أو حجر الفلاسفة أو غيرها إنما يزاولون أعمالاً خفيفة أخرى، وأولئك الذين يزاولون السحر إنما يتعاقدون على تسميم زوج أو زوجة أو أب وربما على تسميم طفل في المهد

بيد أن أروع ما سطره التحقيق أقوال المتهمين عن مزاولة (السحر الأسود) وإجراءاته الدموية المثيرة. وكانت هذه الإجراءات تقترن عادة بإزهاق طفل صغير يسرق أو يؤخذ من بين اللقطاء الذين تقذف بهم الأمومة الأثيمة. وكان يؤتى لهذه الغاية ببغي تمدد عارية بين هالة من الشموع السوداء؛ ثم يأتي الساحر في ثياب قس، وبعد أن يذبح الطفل، يلقي بعض التمائم والدعوات الشيطانية؛ وكان الساحرات يبحثن دائماً عن الأمهات الآثمات أو البغايا الحاملات فيجرين توليدهن ويأخذن المواليد برسم القربان؛ ويلقى بهذه الجثث الصغيرة في بعض الغابات أو تحرق في منزل الساحرة. وكانت لافوازان أنشط الساحرات في إجراء هذه الرسوم الهائلة! وكان يعاونها في إجرائها غير ليساج قس وغد يدعى الأب جيبورج؛ فيقوم بقراءة (القداس الأسود) أو قداس الشيطان على أجسام النسوة اللاتي يرغبن في هذا الإجراء وكن يتمددن عاريات فوق مائدة تؤدي وظيفة الهيكل، ويوضع الإناء المقدس على البطن العاري، ويذبح وقت القربان طفل يلقى دمه في الإناء، وقد اعترفت لافوازان أنها أحرقت في فرن منزلها أو أخفت في حديقتها نحو ألفين وخمسمائة جثة من هذه الضحايا الصغيرة البريئة!

هذا طرف مما دونه لاريني في تحقيقه من أقوال المتهمين أنفسهم. ويعلق لاريني على ذلك بقوله، أنه يستحيل أن يتصور الإنسان أن تكون هذه الجرائم حقيقية أو ممكنة إذا ما تأملناها. بيد أنها اعترافات أولئك الذين ارتكبوها أنفسهم؛ وتفاصيل الاعتراف لا تدع مجالاً للريب

(للبحث بقية)

(النقل ممنوع)

محمد عبد الله عنان

جندي الأدب المجهول

للأستاذ عبد الوهاب النجار

أقول جندي فقط لأنه لم يكن ضابطاً كريماً ولا ضابطاً عظيماً ولا ضابطاً صغيراً، بل كان جنديا. وكفى

والذي أتحدث إلى حضرات الأدباء عنه، أعتقد أن أحداً منهم لا يعرف عنه شيئاً. وهو المرحوم الشيخ المعمر محمد أفندي التميمي بن المرحوم احمد التميمي مفتي الديار المصرية

وكان والده المرحوم الشيخ أحمد التميمي من أهل مدينة الخليل بفلسطين ومن علمائها ومن ذرية تميم الداري. وقد آتى به إلى الديار المصرية ساكن الجنان إبراهيم

باشا جد مولانا الملك فؤاد، وعين مفتياً للديار المصرية. وظل بتلك بالوظيفة إلى ان عزل بالمرحوم الشيخ محمد العباسي الحفني المهدي - (وقد تولى الشيخ المهدي إفتاء الديار المصرية وهو طالب بالأزهر)

مات المرحوم الشيخ احمد التميمي عن ولديه عبد الرحمن أفندي ومحمد افدي؛ فإما عبد الرحمن فأسرع في تركة والده إسراعا شديداً، فانشأ له ذهبية في النيل وجعل مقابض مداريها من الذهب، والجزء الذي يغرز في الطين من الفظة، وجعل نعال خيله من الفضة! وكان أخوه محمد لا يعصي له أمراً، فكلما أراد بيع عمارة أو بيت أمضى محمد مع أخيه عبد الرحمن واعترف بقبض ثمن حصته، وهو في الواقع لا يناله من ذلك سوى النزر اليسير

فلما فرغت الراحة عمد محمد أفندي إلى اسطنبول ليجد واسطة من أصدقاء والده ليعين في وظيفة. ولست اعلم إن كان أخوه عبد الرحمن أفندي سافر إلى اسطنبول أولا

وآخر عهدي بعبد الرحمن أفندي أنه كان مأمور مركز؛ وكانت له ورشة نجارة بطنطا، لأنه أتقن فن النجارة أيام أن كان مهيمناً على عمارات والده

وأما محمد أفندي وهو أديبنا المجهول، فلما عاد بالوصية عين موظفاً بتفتيش السنطة والهياتم التابع لدائرة ثالثة زوجات المرحوم إسماعيل باشا

كان المرحوم محمد أفندي التميمي مغرماً بالتدخين في النرجيلة (الشيشة)، فلما كان في

اسطنبول خرج إلى متنزه اسمه (الكاغد خانه) ومعه النرجيلة يدخن فيها، وجاءت السيدات والأوانس من كل صوب وحدب إلى ذلك المكان النزه. ونظر فوجد بقربه سيدة جميلة رشيقة قد جلست ومعها سيدة أخرى. وحانت من السيدة التركية التفاتة فرأت ذلك الرجل الذي يلبس جبة وقفطاناً وعمة خليلية منهمكاً في كتابة شيء، فحزرت أنه يكتب عنها، فأرسلت السيدة الأخرى إليه وكانت تحذق العربية فسألته عما يكتب، فناولها ما كتبه فقرأت:

ظل قلبي في غزال ... من بنات الترك يُفكرْ

رمت منها الوصل قالت ... سن صقللي هيدا سكتَر

أي أنت ملتح، هلم فأذهب! فأسرعت إلى السيدة التركية وأرتها ما كتبه وترجمت لها بالتركية ما في الكتابة من ألفاظ عربية فسرها ما سمعت، وحلفت بالمحرجات من الأيمان إلا ما حل عندها ضيفاً الليلة

ولما كان بتفتيش السنطة ومركزه القرشية عين ناظراً لورشة التصليحات التي أنشأها المرحوم إسماعيل باشا لإصلاح الآلات المكانيكية. وكان بناؤها سنة بضع وسبعين ومائتين وألف هجرية؛ فمر التميمي بالحدادين يحمون الحديد إلى درجة الاحمرار ثم يفطحونه بمطارقهم. فقال موالياً أوله:

لان الحديد للمعلم والحبيب ما لان

وقد ند عن ذاكرتي باقيه

وله لطيفة وهو بالورشة، فأن المرحوم خلف الله باشا عين مفتشاً لتفتيش السنطة والهياتم؛ فلما استقر به المقام طلب إحصاء بالعمال الذين بالورشة ومرتب كل واحد منهم أو يوميته، فلما نظر في ذلك الإحصاء وجد (خوجة لتعليم العمال القراءة والكتابة وإرشادهم في أمر دينهم، ومرتبه جنيه في الشهر) فقال: هذا الخوجة لا لزوم له. فقال التميمي: إني فكرت فيما فكر فيه سعادة الباشا وأردت رفته ولكني وجدت الرجل يصلي بالناس الصلوات الخمس بالمسجد مجاناً، ويخطب الناس يوم الجمعة والأعياد بلا مقابل، فقلت أتركه الآن حتى يأتي (أبن الحلال) الذي يكون قطع رزق هذا الرجل على يده. والحمد لله سعادتكم، شرفتم ويمكنكم أن تعملوا ما لم أعمله. فقال خلف الباشا: والله لا أكون ابن الـ. . . الذي يقطع رزق هذا الرجل على يده. وبقى الرجل في هذه الوظيفة عشرات من السنين إلى أن توفى

وكان له صديق مثر من المال، علم أن التميمي اعتزم الزواج، وما بينهما من المودة يقضي عليه بتقديم المساعدة و (النقوط)، فاحدث غضباً لا أصل له، وفطن التميمي فكتب إليه:

إن قوماً أبغضونا ... خيفة من قول هاتِ
قل لهم في يوم عرسي ... نقوطنا بالسكاتِ
والأمثال لا تغير
ولما نقل المرحوم إبراهيم أدهم باشا من تفتيش السنطة والهياتم وعين مديراً للغربية، طلب أحد العمد، فخشي العمدة أن يعتريه الباشا المدير بسوء، وجاء إلى التميمي ليكتب إلى الباشا خطاب عناية به فكتب:
قد ظن هذا رجائي عندكم فأتى ... مستشفعاً بيَ فعلَ الطامع الراجي
قد ظن عكساً وقصدي من سعادتكم ... أن تضربوه جزاءً ألفَ كرباج
وأخذ الرجل الكتاب بعد أن ألصق جوانبه بالبرشام وهو يكاد يطير من الفرح، وقدم على الباشا وناوله إياه، فأغرق الباشا في الضحك وعفا عنه
وله رجز في الفلاح حين واتاه القطن في نحو سنة 1280 عقب حرب أمريكا، واقتنى الجواري البيض والعبيد، وتأنق في المأكل والملبس، أحفظ منه:
من بعدَ خضْرَا صار يَقْني كلفدان ... وطعامه قلدر وخادمه أمان
ولكم مصاغ علقه بعضهم ... من فوق زوجته الكئيبة ستهم
تلقاه يرمي اللفظ كالجالوس ... ويقول عندي نسخة الجاموس
وفي أيام اختفاء عبد الله أفندي النديم بالقرشية عند المرحوم أحمد باشا المنشاوي، وكان يسمي نفسه السيد علي الإدريسي اليمني، كان النديم يجالسه كل ليلة ولا يدري حقيقته. وكان المجلس يمتد بهما إلى ما بعد نصف الليل. ففي ليلة سأل المنشاوي باشا جليسيه عن أرباب الجرائد، فكان عبد الله النديم يسرع ويجيب ويسبق التميمي إلى الجواب، فقال المنشاوي باشا وما تقولان في صاحب الطائف؟ فسكت النديم أو السيد علي الإدريسي اليمنى وتكلم التميمي، وقد رابه شأن النديم ولم يقم من المجلس إلا وهو موقن بأن جليسه
في هذه السنوات هو عبد الله النديم
فلما رجع إلى بيته كتب إليه
يأيها الحبر الذي ... كالبحر يبعد ساحله
من كان مثله فاضلاً ... نمت عليه فضائله
وأرسل البيتين مع الخادم؛ فلما قرأهما النديم ارتاع وخشى على نفسه. فلما جن الليل وجاء محمد أفندي التميمي على عادته لقيه بالعناق، وكتم التميمي أمره إلى أن أعلنه الذي قال إنه علم بالنديم بالجميزة، وكان الواقع إن النديم أعلن نفسه لذلك المخبر بعد أن مضى على الحكم عشر سنوات شمسية وأحد عشر يوماً
وللتميمي قصائد لا احفضها ولا أجد من يقفني عليها الآن؛ وهو أول من أبرز رواية بالعربية وسماها أم حكيم، وقد مضى على إبرازها أكثر من خمسين سنة
وقولي انه معمر سببه أن التميمي كان قد تولى عمارة مسجد وضريح سيدي فخر الدين ببلدة طوخ مزيد في عهد المرحوم إسماعيل باشا، وكانت العمارة ينفق عليها من دائرة ثالثة أزواج الخديو إسماعيل، وأحيلت الكتابة على والدي رحمه الله وكانا قريبين في العمر. وكنت إذا سألت كلا منهما عن الآسن منهما اتهم كل منهما الآخر بأنه أسن منه، وقد توفي والدي سنة 1919 عن نحو مائة سنة، وعاش محمد أفندي التميمي بعده من أربع إلى خمس سنوات، واعتقادي انه أربى على المائة
فهذا الرجل في نظري هو جندي الأدب المجهول
عبد الوهاب النجار
النهضة التركية الأخيرة
للدكتور عبد الوهاب عزام
المرأة:
ومما أخذه على الكماليين خطتهم في تربية النساء، فقد أخذوا بيد المرأة التركية، ربة الدار الطاهرة، وأم الأشبال الباسلة، فقادوها إلى المراقص، والملاهي، ومجالس السمر أخذاً بسنن أوربا؛ وسموا هذا تحريراً للمرأة وإنصافاً لها وإعظاما، واعترافاً بقدرها، كأن المرأة لا تكون حرة إلا إذا هجرت الدار، وعمرت المراقص، وأهملت أطفالها لتجالس سمارها، وتركت سكينة الدار وسعادة الأسرة، إلى ضوضاء الملاهي ونزاع المحافل! لست آخذ على الكماليين أنهم تركوا المرأة تغشى المراقص اختياراً،

ولم يردوها إلى الدار قسراً، بل آخذ عليهم أنهم هم دعوها إلى ذلك، وحرضوها عليه، وزينوه لها، بل ألزموها به بعض الإلزام حين نظروا شزراً إلى الموظفين الذي لا يأخذون زوجاتهم بإتباع السنن الجديدة، ويريدونهن على مسايرة النهضة النسوية، ويروضونهن على أفانين المعيشة الأوربية

فعل الكماليون هذا تقليدا لأوربا وتقرباً إليها، واستحياء من الاستمساك بآداب لا يعرفها الغربيون، والإبقاء على سنن ينكرها السادة الأوربيون. ثم زادوا تقرباً حين أباحوا تزوج المسلمة من غير المسلم، وقد عاشت المرأة التركية حقبا ترى واجبها أن تربي أشبالها للدفاع عن قومها ودينها، وحماية تأريخ الإسلام والترك، وترى نفسها أعز وأرفع من أن يلي أمرها غير مسلم؛ وكانت هذه الكبرياء عصمة لها ولقومها في المحن التي انتابتهم، والفتن المحيطة بهم، وفي هذا النزاع، نزاع الحياة والموت الثائر بين الشرق والغرب. فذهبت هذه (النهضة) بكبريائها، ومحت ما أورثها الإسلام والتاريخ من عزة وأباء

وأتم الكماليون إعظام المرأة وتحريرها بأن فتحوا دوراً للبغايا فسايروا بعض الأمم الأوربية، وشاركوا مصر الإسلامية في وصمة العار، وسمة الخزي، التي تحاول اليوم أن تمحوها عن جبينها. وقد بلغ من اعتدادهم بما فعلوا، وافتخارهم بما اقترفوا ما تبين عنه القصة الآتية: حدثني من لا أرتاب في صدقه قال: كنت على ظهر سفينة من عابرات المحيط، ذاهباً إلى المؤتمر البرلماني في البرازيل، وكان على السفينة جماعة من ممثلي الدول يؤمون المؤتمر، وكان فيهم مندوبو الحكومة التركية، فجلسنا مرة نتحدث، وذهب بنا

الحديث مذاهب حتى قال مندوب تركي مفتخراً متبجحاً: لقد أنفقنا كذا وكذا في بناء دور فخمة رائعة للبغاء (وذكر مقداراً من المال عظيماً جداً، لا أذكره الآن)

قال محدثي: فلما قام صاحبنا نظر مندوبو الدول الأوربية بعضهم إلى بعض ساخرين متعجبين يقولون: ماذا يريد أن يقول هذا الرجل؟

لا يحسبني أحد مجادلا في سفور المرأة واحتجابها فيقولون فيم يجادل هذا الجاهل؟ لقد سبقته المدنية مراحل كثيرة فجدال الناس اليوم في اللبس والعرى. لا يقولون أحد هذا فأني لست أنكر على المرأة أن تأخذ طريقها طليقة رشيدة، تصرف أمورها وتقوم بقسطها في الأمور العامة والخاصة على قدر ما تمكنها أعمال الدار والقيام على الأسرة. ولست أنكر أن الإسلام منح المرأة من الحقوق ما لم تظفر به نساء أمم في أوربا حتى اليوم. لا أنكر هذا ولا أجادل فيه، ولكني أظن بالمرأة أن تنزل عن عرشها في أسرتها لتتبذل في الطرق والمسارح والمراقص، وأشفق عليها أن يخدعها الرجال لحاجات في أنفسهم فيزينوا لها كل ما تنزع إليه مآربهم، ثم يكذبون فيذكرون الحرية والحق والإصلاح والكرامة ونحو هذا من الكلمات الكاذبة الخادعة، الثائرة الرائجة في هذا العصر. أيها الناس لا تخدعوا أنفسكم ولا تجحدوا أن لهو المدينة الحاضرة يدور معظمه حول جسم المرأة في الطريق والمرقص والمسرح وشاطئ البحر. وحسب المرأة ذلاً وهواناً أن تكون ألعوبة الرجال حيثما شاءوا وكيف شاءوا. وبعد هذا أمر لا يعالج بكلمات، ولا ينفد بيانه في صفحات، فحسبي أن أتناوله مجملاً موجزاً لا معدداً

مناهج النهضة التركية الأخيرة

ويقتضي المقام هنا كلمة موجز عن نساء مصر: تغيرت المرأة المصرية في السنين الأخيرة تغيراً عظيماً. وبعض هذا التغير خير لا مراء فيه، فقد تعلمت وبصرت بمناهج الحياة، وهذا صلاح وخير؛ ولكن ما يسمى النهضة النسائية في مصر تشوبه شيات من الضلال، وألوان من أفن الرأي وخدعة الهوى، ويلتبس الخير والشر في كثير من جوانبها: في مصر جماعة تتكلم عن نساء مصر كل حين، وتدعى أنها تنطق بآلام المرأة المصرية وآمالها، وهي على ذلك لا تمثل إلا جماعة من النساء هن أقرب إلى أوربا من مصر، وأشبه بالأجنبيات منهن بالمصريات. وأما المرأة المصرية كما نراها وكما نود أن نراها فلا تمثلها هذه الجماعة إلا بزعمها؛ هي جماعة كثيرة القول والعمل في الجوانب اليسيرة

البراقة التي لا تكلفها إلا الكلام والاجتماع من حين إلى حين، وأما جوانب الإصلاح العسيرة التي تقتضي كد الفكر واليد وهجر الراحة والرفاهية: جوانب الإصلاح الخلقي والديني التي تحول بين الناس وبين كثير من رغائب المدنية الاوربية، فليس للجماعة

غرام بها، ولا صبر عليها. لا ريب أن للجماعة أعمالاً مشكورة في تربية الفقيرات والحدب عليهن، ولكن أبرز أعمالها أن تجمع الشواب من بنات الأسر الراقية للغناء والرقص وإمتاع النظارة بظروب من المناظر وهلم جرا. يضربن بذلك للمرأة المصرية أسوأ الأمثال، ويدعونها إلى شر الخطط، ويحطمن في ساعات ما وطدته الأمة في أجيال

كثيراً ما سألت أصحابي: لماذا لا تدعو هذه الجماعة إلى طريقة خلقية رشيدة، أو سنة دينية حميدة؟ لماذا لا يطلبن - مثلاً - أن يكون للنساء الحق في غشيان المساجد أحياناً ليوعظن ويعلمن ما منح الإسلام المرأة من حق، وما فرض عليها من واجب؟ وقد اطلعت في عدد الرسالة الأخيرة على كلمة للأستاذ أحمد أمين (حول المسجد) أخفف عن نفسي بنقل شذرة منها، قال (بل لم لا يكون المسجد معهداً للمرأة كما يجب أن يكون معهداً للرجل. فيخصص مسجد كل حي وقتاً لنساء الحي تعلم فيه المرأة واجباتها الدينية والاجتماعية، وتفقه فيه في دينها ودنياها، وترشد فيه إلى طرق إسعاد البيت، وتثار همتها إلى العطف والإحسان وتنظيمهما. فالمرأة الآن محرومة من غذائها الروحي والديني لأنها بعيدة من المسجد، حرمت منه من غير حق، وهو سلوتها في الأزمات، وهو منهل عواطفها وغذاء روحها. لقد حرمت المرأة من المسجد فحرم أبناؤها وبناتها من العاطفة الدينية. لأن الأم - غالباً - هي مصدر هذا الإيحاء. وإذا انحرفت مرة فلم تجد المسجد يهديها ويعزيها، جمحت وغوت. فهي الآن بين بيت وملهى ولا مسجد بينهما يذهب ملل البيت ويكسر من حدة الملاهي)

فليت شعري ما رأي سيداتنا في هذا الكلام؟ أليس الاهتمام بالمساجد في حالنا الحاضرة أولى من الأهتمام بالمؤتمرات التي يحرصن عليها ويحاولن فيها أن يسبقن نساء أوربا؟ أذكر أن وفداً من سيداتنا المصريات ذهب إلى مؤتمر نسائي كان في رومية - فيما أذكر - فهل تدري فيما تكلم الوفد؟ تكلم في (حقوق الطفل غير الشرعي)!!

وأنا أترك القارئ لنفسه هنا يبدي ما يشاء ويقول ما يريد في هذا الموضوع. وفي هذا العام

ذهب وفد للمشاركة في مؤتمر نسائي اجتمع في اسطنبول، فنادين باسم المرأة المصرية أنهن راضيات مغتبطات بما اختطه الكماليون للمرأة التركية، وبكل ما فعله الكماليون. وتطوعت زعيمتهن فقالت للغازي مصطفى كمال باشا: إنك تسميت (أتاتورك) وأنا اسميك (أتاشرق)

وليس يهمني هنا أنها منحت الغازي لقباً لا معنى له في اللغة التركية، فأن معنى أتاتورك: التركي الاب، فمعنى (أتاشرق) على هذا القياس الشرق الأب وهو كلام لا معنى له. ليس يهمني هذا الغلط اللغوي ولكني أقول إن الوفد النسائي ما كان يبين عن آراء المرأة المصرية، ومعظم المصريين من نساء ورجال لا يرضون مذاهب الكماليين في المرأة ولا غيرها. ومعظم الشرقيين لا يرضون لأنفسهم مذاهب الكماليين، بل معظم الترك لا يرضونها، فان كانت الزعيمة أرادت أن تقول إن الغازي صار بعمله أباً للشرق كله، فهى أبوة لا يعترف بها الشرق، وهي (أبوة غير شرعية) والكلام فيها كالكلام في الطفل غير الشرعي

لست، يعلم الله، أحاول بهذا توهين المساعي النسائية في مصر، ولا تهوين أمرها على الناس، ولا الزراية على أحد من المتصديات لها، وما أريد لهن إلا الكرامة والرشد، والنجح والظفر، ولكن علينا أن ننصح ما استطعنا وأن نبين الرشد والغي جهدنا، وأن ننادي بالرأي صريحاً في غير محاباة ولا مراءاة؛ فليس من الخير للأمة أن يدهن الناس في أمورها، وان يسلموا للضلال زمامها، وللفوضى قيادها؛ وليس من البر بالنساء المصريات أن ندعهن سائرات على غير هدى، فلا نعاونهن بالنصيحة المخلصة، ونسددهن بالرأي الصريح، فنخذلهن ونقعد عن نصرتهن بالفعل وبالقول، والله يهيئ لنا من امرنا رشداً

(له بقية)

عبد الوهاب عزام

إلى الدكتور إبراهيم مدكور

التابو

للأستاذ محمد روحي فيصل
قرأت مغتبطاً دراسة الدكتور للخرافة، وقوة أثرها في الجماعة؛ وأشهد لقد أحسن العرض وأتقن البحث، ثم وفق إلى كثير من الأمثلة الواقعية الجميلة التي استقامتها من أوثق المصادر، والتي تلقي ضوءاً على الموضوع؛ ولابد أن يكون القراء قد أعجبوا كما أعجبت بعمق ثقافته وسداد تفكيره
يقول الدكتور: (وللخرافة يد أخرى في الدفاع عن الملكية، فقد حاربت السرقة والسراق، وحمت مال الفرد والجماعة، وقضت على عامل كبير من عوامل الاضطراب. فالخرافة حلت محل القوانين والشرائع المختلفة في حماية الملكية الفردية والعامة لدى بعض الشعوب المتوحشة، وربما كان لها على نفوس معتنقيها سلطان لا يعدله سلطان قوانيننا المنظمة)
وهذا صحيح! فلقد شهدت فيمن شهد الرواية السينمائية الرائعة (ضحية المعبد) التي تصورت عادات القبائل المتوحشة في جزر البحار الجنوبية، وتبرز العقلية الأولية القاصرة في إطار وضيع مهين، وتتلخص في أن فتاة لا بأس بجمالها نذرت نفسها للرب وكرست حياتها لخدمته، فغدت عذراء مقدسة لا يتزوجها ولا يخاطبها ولا يمسها أحد من الناس. وشاء القدر العابث أن تعشق شاباً طويل القامة مفتول الذراعين، ويعشقها هو الآخر فيتغازلان ويجتمعان، ثم يهربان إلى جزيرة نائية خوفاً من عقاب (التابو)!! ذلك أن من يهاجم العذارى، أو يخرق حدودهن، وينتهك حرماتهن. جزاؤه الموت؛ أفلسن للإله وحده؟ فكيف يشركه في ذلك آدمي نجس؟. . . وراح رجال القبيلة يفتشون عن المجرم ويقتفون معالمه، وبعد لأي وجهد عثروا عليه فأوثقوه بالحبال ثم هووا به إلى قاع اليم فذهب ضحية المعبد. . .!!
والتابو وسم أو علامة يضعها المتوحش على باب داره مثلاً إن أراد حمايتها، وله بعد ذلك أن يهجرها ما شاء من السنين، فلن يجرؤ امرؤ على سرقتها أو دخولها. والتحريم الذي تخلعه هذه العلامة على الأشياء والأشخاص ليس كالتحريم الذي نعهده في شؤوننا الأخلاقية
من تحبيب في الخير وتبغيض في الشر، وإنما هو تحريم خاص، ملفف بالرهبة والتقديس، ومفعم بالأسرار والمساتير
فالأمراء البولينزيون الذين يزعمون أن نسبهم الكريم يتصل بالأرباب يطلق عليهم (آريي تابو) أي الأمراء المقدسون؛ أما كلمة (نوا) فأنها تفيد العموم والاشتراك. فالمرأة في بولينيزيا توصف قبل أن تتزوج بنوا، أي أنها حرة طليقة تتزوج من تشاء، وإذا تزوجت أسدل عليها ستار صفيق من التابو فتحرم على الناس جميعاً خلا زوجها وحدث أن رجلاً من (التونجا) مس جثة أمير ميت فحكم عليه بالحرمان التابوي عشرة أشهر قمرية لأن الأمراء مقدسون أحيا أو امواتاً، ومن يمس شعر أمير أو جسده أو عظمه أو يشترك في جنازته يطوق بالتابو. والمعروف في (نيوزيلاندة) أن القارب الذي ينقل جثة لا يجوز استعماله مرة أخرى، وإنما يطرح أبداً على الساحل بعد طلائه بالبياض
ويذكر الأستاذ ليفي برول في كتابه (العقلية الاولية) أن الرجل من قبائل (المركيزا) إذا ذبح عدوا له حكم عليه باللامساس عشرة أيام يحرم عليه في خلالها مس امرأته وإشعال ناره، فلا بد له إذن من طاه يطبخ له طعامه. والزاد الذي يحمله الشريف على ظهره يحرم على جميع الناس إلا على صاحبه! كأن التحريم أو (التتويب) قد انتقل من شخص الشريف إلى أشيائه! وشعور الأمراء محرم لمسها، ولو أن أميرا مس شعوره بإصبعه فعليه أن يدنيها من أنفه في سرعة ليستنشق رائحة القداسة التي علقت بها!
وفي الإصحاح السادس من سفر العدد من التوراة كلام مسهب عن شيء يدعى النذير، فقد أمر موسى أن يقول لبني إسرائيل: أنه إذا أنفرز رجل أو امرأة منهم لعمل نذر للرب. فالنذير يجتنب الخمر والخل ولا يشرب بمن نقيع العنب، ولا يمر موسى الحلاقة على رأسه؛ وينتهي النذر الإسرائيلي على نحو ما ينتهي التابو البولينزي، وذلك بأن يحلق النذير رأسه عند مدخل خيمة الاجتماع المقدسة فيأتي الكاهن إليه ويضع على يديه طعاماً
ومن عادات اليهود ألا يقسموا بالله الكريم، فهم يتورعون أشد الورع عن القسم باسم (يهوا) ومن يمس جثة ميت عد نجساً لمدة سبعة أيام، وتنتقل نجاسته إلى كل شيء

يلمسه، وفي ختام الأيام السبعة يغسل لباسه ويستحم بالماء الطهور؛ وكذلك النفساء فهي نجسة لا تجوز مقاربتها في حال من الأحوال

أما السبت فله عندهم قواعد خاصة تتعلق بالمحافظة عليه والاستراحة فيه. حرم عليهم فيه العمل، وإشعال النار في المنزل، وطبخ الطعام، والخروج من المنزل إلى مسافات معينة. والتاريخ يروي أن بومبي الكبير قد تغلب على اليهود في القدس لأنهم لم يسعوا إلى مقاومته يوم السبت، وأن انيتو كرس الرابع السلوقي افتتح القدس عنوة لأنهم راعوا حرمة السبت

ليست تخلو فكرة التابو من خير ونفع، وذلك أنها كما يقول فريزر في كتابه (عمل بسيشه) أساس الشعور بحق التملك واحترام الأوضاع الاجتماعية والرابطة الزوجية وما إلى ذلك كله مما يتصل به الناس في حياتهم الخاصة والعامة. ولكنها على ذلك إنما تدل على انحطاط العقل، وأخذه بالعنف في فعل الخير والشر، وحاجته إلى الحدود والحواجز، وتعليله الأمور والأحداث على الطريقة الدينية الميتافيزيكية

محمد روحي فيصل

حول الفقه الإسلامي والفقه الروماني

للأستاذ محمد محسن البرازي

الأستاذ بمعهد الحقوق في الجامعة السورية

صدفتني أشغال شاغلة عن قراءة (الرسالة) ومطالعة كتب الأدب عامة منذ شهر أو اكثر؛ ولما عدت، وبعد تحرري من قيود الموانع، إلى النظر فيما فاتني من أعداد مجلتنا المحبوبة، ألفيت فيها مقالين في موضوع الفقه الإسلامي والفقه الروماني، أحدهما لمواطننا السيد علي الطنطاوي بعنوان: (حول الأوزاعي أيضاً) (العدد الحادي والتسعون)، والآخر للسيد صالح بن علي الحامد العلوي السنغافوري بعنوان: (هل تأثر الفقه الإسلامي بالفقه الروماني أم الحقيقة هي العكس) (العدد السابع والتسعون)؛ فرأيت أن الواجب العلمي يدعوني إلى أن أقول كلمة في الموضوع الذي عالجاه. فجئت إلى صاحب (الرسالة) أرجو منه أن يكرم وفادة كلمتي هذه، وله الشكر خالصاً

يتلخص ما جاء في المقالين في مادتين اثنتين: (1) كون الفقه الإسلامي لم يؤخذ عن الفقه الروماني ولم يتأثر به (2) كون الفقه الروماني مأخوذاً عن الفقه الإسلامي

إنني لا أريد أن أبحث الآن في الشطر الأول من هذا الرأي، لأسباب منها أنه لا يجوز عندي الخوض في موضوع خطير كهذا بكلمة عجلى؛ وأما الشطر الثاني فلا أرى منتدحاً عن البحث فيه، وأعتقد أنه يحتمل الإيجاز

علم أصحاب المقلين أن الشريعة الرومانية هي أقدم عهداً من الشريعة الإسلامية، وأنه لا يمكن لعاقل أن يزعم ما زعماه بصورة بسيطة مجردة، ولذلك لجأ إلى تأييد دعواهما بدليل ليس بأقل منها غرابة، وهو أن الفقه الروماني المعروف اليوم هو - في نظرهما - فقه جديد (لفقه طائفة من العلماء بعد أن اندثر الفقه الروماني القديم) في كلمات لا تزيد على العشرين، وفي أقل من مدة قلم، يقضي الأستاذ الطنطاوي ببطلان ما أجمع علماء الحقوق والتاريخ بلا استثناء على صحته، وأنكر ما لم يختلف فيه اثنان منذ أن اشتغل الناس يدرس تاريخ الرومان وحقوقهم

ثم أيد الأستاذ العلوي دعوى زميله الطنطاوي، معتمداً على ما كانت نشرته مجلة حضرمية منذ ربع قرن لأحد السادة العلويين الحضارمة، فلم يخرج ما جاء به عن المناقضات

إن دعوى كهذه لا يعبأ بها في البيئات العلمية، لأنها تخالف حقيقة علمية تعد بمثابة البداهة؛ ولو أنها نشرت في صحيفة غير موثوق بها، أو مجلة من عامة المجلات، لما كنت حركت في موضوعها قلماً؛ ولكنها نشرت في مجلة لم يكتب لغيرها من المجلات العربية ما كتب لها من الحظوة عند ذوي العلم والأدب، وسعة الانتشار في مختلف الأمصار؛ تصدر عن عاصمة الأدب العربي والفكر الإسلامي في هذا العصر، وينظر الناس إلى ما يكتب فيها ممثلاً بصورة إجمالية لآراء عمدتها الذين هم من أركان النهضة الأدبية العربية الجديدة، ونزعة الإسلام الحديثة. لذلك خشيت أن يحسب علماء الغرب هذا الرأي العجيب معبراً عن اتجاه جدي للرأي العام الإسلامي المثقف، فيحكموا علينا بما لا نستحقه

أحس صاحب المقال الأول بوهن دليله، فنهج منهجاً غريباً بعد ذلك، إذ طلب التدليل

على عكس ما أدعى، أي على أن الفقه الروماني الحديث هو الفقه الروماني القديم قائلاً: (ليأتونا بالأسانيد الصحيحة والروايات المضبوطة)
الله! الله! أيطلب من أحبار العلم التدليل على ما أقرته أجيال من الأعلام المحققين لمجرد دعوى انفرد بها أدبينا الطنطاوي، وهو على الرغم من تفوقه على أكثر أقرانه بذكاء كان موضع إعجابنا، لم يتح له أن يدرس الحقوق الرومانية أكثر من غيره من الطلاب في معهد الحقوق بدمشق، ولم يتأت له النظر في تأريخ الحقوق، ولم يقيض له بعد أن يطلع على ما ظهر في العالم من مؤلفات في الحقوق الرومانية وما أكتشف من آثار تاريخية
أن من يقدم على الجزم بأمر كهذا يحدث - أن صح - انقلاباً في العالم العلمي لا يعادله أي انقلاب عرفه التاريخ في الدين والسياسة أو الاجتماع، لا يحق له أن يكتفي بأن يقول لهذا العالم العلمي: (دلل أيها العالم على صحة ما عكفت على دراسته باعتباره صحيحاً منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً)
البينة على من ادعى؛ فعلى من يقول أن الفقه الروماني الذي نعرفه الآن مختلق أن يثبت اختلاقه ويبين مختلقه، ويظهر مكنون الفقه الروماني القديم، أسوة بما يفعله العلماء إذ يكشفون القناع عن الوثائق التاريخية المزورة والكتب المنتحلة
لئن جاز في نظرنا لأحد من النصارى أو اليهود المتعصبين أن يجزم بأن القرآن الذي بأيدينا هو غير القرآن الذي أنزل على محمد (صلى الله عليه وسلم)، وأنه مختلق من جماعة من علماء المسلمين الحديثين، مكتفياً للتدليل على ذلك بأن يقول لنا: (هاتوا دليلكم) فقد حق كذلك لصاحبي المقالين المتحمسين للإسلام هذا التحمس أن يزعما ما زعماه
لقد جمع نصوص الشريعة الرومانية وآراء فقهائها حتى بدء القرن السادس المسيحي، تلك النصوص القانونية والآراء الحقوقية التي هي أساس لدرس الحقوق وبحثها في جامعات العالم، ذلك الإمبراطور المتشرع الروماني جوستنيان (المتوفى سنة 565 ب. م) في خلال ست سنين (528 - 534 ب. م) وأضاف إلى ذلك القوانين التي أصدرها؛ وقد عرفت هذه المجموعة الحقوقية منذ بدء القرون الوسطى بـ وكان بين العلماء الذين يشتغلون تحت رعاية الإمبراطور الفقيه أساتذة في معهد حقوق بيزانس: (القسطنطينية)، ومعهد حقوق بيروت
إن هذه المجموعة الحقوقية قد انتقلت إلينا بنصها وفصها، وهي مؤلفة من أربعة كتب أو مجموعات صغيرة: الـ والـ (ديجست والـ (انستيتود الـ (نوفل ولا تزال نسخ قديمة من هذه الكتب أو المجموعات القيمة محفوظة في المكاتب الكبرى في أوربا يرجع عهد بعضها إلى القرن السادس (ب. م)، أي إلى القرن الذي عاش فيه جامعها وواضعها الإمبراطور جوستنيان نفسه
ومن أجل هذه النسخ المخطوطة نسخة من الـ كتبها خطاطون إغريقيون في القرن السادس والقرن السابع (ب. م)، معرفة بالـ (فلورنسية لوجودها في مدينة (فلورنسة) منذ سنة 1406. وقد نشرت هذه المخطوطات مصورة تصويراً فوتوغرافياً، وحققها العلماء الاختصاصيون في المخطوطات، ولم يطعن عليها طاعن؛ وعثر على مخطوطات كثيرة من عصر (جوستنيان) مكتوبة في اللغة اليونانية على الورق البردي، نشر قسماً منها العالمان الألمانيان (ميتس و (ويلكن سنة 1912 ونشر الأستاذ (جان ماسبيرو عدداً كبيراً من هذه المخطوطات المدونة على ورق البردي في مجموعة متحف القاهرة ' (سنة 1910 - 1914) بل إن المتاحف والمكاتب تحفظ أيضاً نسخاً مخطوطة أصلية لمجموعات قانونية سابقة لعهد (جوستنيان) كالمجموعة القانونية للإمبراطور (ثيودوسيوس وكتاب المتشرع (غايوس المعروف بالـ ومؤلفات أخرى، منها مؤلف معروف في القرن الرابع (ب. م) وعثر عليه في مكتبة الفاتيكان سنة 1820
ثم أن الفقه الروماني هذا قد عمل به بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية في روما، وبعد وفاة الإمبراطور جوستنيان، وبعد سقوط الإمبراطورية البيزنطية، وهذا أمر لم يختلف فيه العلماء المؤرخون. فبلاد فرنسا الجنوبية ظلت خاضعة لأحكام الفقه الروماني بصفة حقوق عرفية حتى قبيل الثورة الفرنسية. هذا عدا البلاد التي تأثرت كثيراً أو قليلاً بالحقوق الرومانية، كأيطاليا وألمانيا، حتى إنكلترا بلاد العرف والتقاليد. وقد بقي الفقه الروماني معمولاً به في عصرنا هذا في بلاد جنوبي إفريقية الخاضعة

لأنكلترة
أما المناقضات التي وقع فيها السيد صالح العلوي نقلاً عن السيد العلوي الحضرمي، فأشير منها إلى ما جاء في السطر الثاني من الجانب الأول من الصفحة الـ (781) من الرسالة. فبعد أن قال أن الفقه الروماني (اختفى ثم اكتشف، ولم يظهر ويعمل به إلا في القرن الثاني عشر، وانه لم يكن معروفاً حتى عند الرومان أنفسهم قبل القرن الحادي عشر)؛ وقال في السطر (22) من الصفحة نفسها: (أن دعوى اختفائه أكذوبة)، ثم ما لبث أن استند إلى قول العلامة (سافنيه): (إن القوانين الرومانية لم تختف لأنها ظلت معمولاً بها إلى اليوم من غير انقطاع)
أما وقد صح لدى السيد العلوي قول (سافنيه) هذا، فهو مضطر إلى الاعتراف إذن بان الفقه الروماني المعروف لدينا الآن، هو تلك (القوانين الرومانية التي لم تختف لأنها ظلت معمولاً بها إلى اليوم)، ومرغم على التسليم بان تلك القوانين الرومانية القديمة التي هي أقدم عهداً من الفقه الاسلامي، لم تختلق اختلاقاً ولم تلفق تلفيقاً من قبل العلماء الحديثين، ولم تؤخذ عن الفقه الإسلامي، خلافاً لما ادعى. ولا أدري كيف يورد قول سافنيه هذا ويؤيده، ثم يحاول، بعد القول المستشهد به بسطر واحد أن يأتي بأدلة على اقتباس القوانين الرومانية من الحقوق الإسلامية
قلنا انه لا يجوز مبدئياً طلب التدليل على أن الفقه الروماني الحديث هو نفس الفقه الروماني القديم لمجرد دعوى وحيدة في بابها. ثم إذا قبلنا لزوم التدليل، فما هي وسائل البينة؟
إن السيد الطنطاوي يتطلب (الأسانيد الصحيحة، الروايات المضبوطة)
إن البينات تختلف بحسب الأمور المراد إثباتها؛ فإذا كانت هذه الأمور غير مدونة بنفسها،
كالحديث الشريف فلابد حينئذ من ذكر الأسانيد وسرد الروايات، وإقامة الدليل على صدق الرواة، إلى آخر ذلك مما هو معروف في أصول علم الحديث. أما إذا كان المراد إثباته مدوناً بنفسه، لم يعد مجال حينئذ إلى الأخذ بطريقة الرواية والإسناد، وصار لابد من التدليل عليه بنسخته الأصلية التي وضع بها، أو بالنسخة التي أخذت عن هذه. فالقرآن الكريم مثلاً، لما كان قد دون في العهد الذي نزل فيه، وجمعت صحفه المدونة في عهد الخليفة الأول، وانتقلت إلينا نسخ مخطوطة منه كتبت في عهد قريب من عهد نزوله، لم يلجأ إلى الرواية لإثبات صحته
وكذلك أيضاً شأن الشرع الروماني الذي دون وجمع في عهد جوستنيان، فهو لا يثبت بالروايات والأسانيد، ولكنه يثبت بنسخة المخطوطة القديمة التي هي من عصر جامعه ومصلحه جوستنيان. وهذه النسخ قد عثر عليها ولا تزال محفوظة؛ ولو لم يكن على الفرض، بأيدينا منها، إلا ما هو منذ القرون الوسطى، لوجب أيضاً إلا نشك في صحتها، لأن علماء تلك القرون المظلمة لم يكن لديهم من الكفاية والمقدرة العلمية ما يمكنهم من وضع حقوق راقية كالشرع الروماني، فالأولى ألا يشار الروايات والأسانيد في موضوع الحقوق الرومانية وغيرها من الحقوق التي دونت عند وضعها
هل بعد الوثائق الأثرية والنسخ المخطوطة القديمة حاجة لدليل على صحة؟ إن القوانين والأحكام الحقوقي الرومانية المعروفة في عهدنا هذا هي نفس القوانين والأحكام التي عرفها الرومان في القرن السادس الميلادي وقبله
قد يغضب صاحبا المقالين فيقولان إن النسخ المخطوطة القديمة نفسها مصطنعة لفقها الأوربيون؛ فإذا بلغت بهما الحماسة الدينية القومية هذا الحد من إنكار الحقائق العلمية التاريخية الراهنة لم يعد آنئذ مجال للبحث
ولكن هل يجوز لنا أن نتهم جميع علماء الغرب بلا استثناء بالتزوير؟ وما الذي يسوغ لنا ذلك؟ أولا نجد بينهم إناسا وضعوا الحقيقة في أعلى المنازل وجعلوها فوق كل شيء؟ ألا نرى بينهم عدداً غير قليل دافع عما يعتقد أنه الحقيقة مخاصماً بذلك رجال الدين، ومعادياً في هذا السبيل السلطان الجائر؟
ألم ينافح كثير من علماء المشرقيات عن ديننا الحنيف، ونبينا العربي، وحضارتنا الاسلامية، ومدنيتنا الشرقية، تجاه حملات المتعصبين من أبناء جلدتهم ودينهم؟
حسبنا أن نذكر على سبيل المثال أسماء الفرنسيين: (جوستاف لوبون) صاحب كتاب حضارة العرب و (وهوداس) و (منارسيه)، مترجمي صحيح البخاري للفرنسية، و

(درمنغيهم) صاحب كتاب حياة (محمد)، و (ماسينيون) مدرس العلوم الاجتماعية الإسلامية في كلية فرنسا، وصاحب المؤلفات الكثيرة عن الإسلام، ومدير مجلة المباحث الإسلامية؛ ويكفينا أن ننوه بتلك الوقفة الشريفة التي وقفها هذا الأستاذ الأخير سنة 1928 دفاعاً عن المدنية الإسلامية، ورده البليغ على المسيو (لويس برتران) الذي حمل على الإسلام والعرب في مقال نشرته في ذلك العام جريدة (الفيجارو) الباريسية

أيعقل ألا يوجد رجل واحد شريف منزه عن التزوير بين علماء أوربا من فرنسيين، وألمان، وإنكليز، ومجر، وإيطاليين وأسبان، وروس الخ.؟ فلو لم يوجد إلا عالم واحد صادق يقول الحق، لكان بلا ريب قد رفع صوته عالياً أمام هذه الفرية الفظيعة التي يتهم بها السيدان، الطنطاوي، والعلوي العالم في الغرب؛ ولكنا شهدنا قبل مقالي حضرتيهما حرباً قلمية دونها حرب البسوس، وخصاماً علمياً دونه خصام الملل والنحل، ودعاوى ذم وتزوير لا تجاريها دعاوى (آثار كلوزيل الحفرية. ونحن نعلم أن العلماء في أوروبا يتجادلون ويتناظرون في أمور نعدها فرعية وزهيدة

أضف إلى ذلك أن العلماء الاختصاصيين في الحقوق الرومانية ليسوا جميعاً من عرق لاتيني أو ثقافة لاتينية، بل هم من مختلف الأعراق والأمم؛ وثم علماء من الألمان هم جهابذة في الفقه الروماني، أمثال (سافيني و (ايهرينغ لا يمكن أن نتهمهم بتعصب للرومان، وقد ساروا جميعاً في ضوء الحقيقة التاريخية المقررة مطابقة الفقه الروماني المعروف في عصرنا للفقه الروماني القديم

لم يمنع العلماء الأوربيين عامة تفاخرهم بشرع الرومان الذي ورثوه من الإقرار باقتباس الرومان شيئاً غير يسير من شرائع الأمم الشرقية التي سلفتهم أو عاصرتهم مباشرة، أو عن طريق الإغريق، حتى أن عالماً عظيم القدر هو من أكابر الأثريين الأستاذ الفرنسي وضع كتاباً دلل فيه على اقتباس قسم عظيم من أحكام قانون (الأثني عشر لوحاً) الروماني، وهو اقدم قانون لدى الرومان من شريعة المصريين القدماء موردا للنص الروماني والنص

المصري، ومبيناً ما بينهما من شبه لا مراء فيه؛ وبهذه الطريقة العلمية، وبعد تنقيب وبحث مدة أعوام، عمد إلى إثبات دعوى الاقتباس والأخذ، لا بمجرد القول يثيره غرب الشباب

إن علماء يوجد بينهم أمثال (ريفيو)، وأمثال المستشرق الفرنسي (هوداس) الذي يقول: (إن القرآن ليحوي بصورة كامنة جميع ما يمكن أن يصل إليه العقل البشري من معارف) و (كولد زيهر) الذي يقول: (يجب على المرء إذا شاء أن يكون عادلاً إن يسلم بأن في نظريات الإسلام قوة فعالة متجهة نحو الخير، وبأن توافق هذه النظريات تستطيع أن تكون حياة لا تشوبها شائبة من الناحية الخلقية؛ فهي توجب الرحمة لمخلوقات الله جميعاً، وحسن النية في المعاملات، والمحبة والوفاء، وكبح غرائز الأثرة)، والبارون (كارادي فو) الذي يكتب صراحة عن ابن خلدون (انه لم يسبق قط لعقل من العقول أن يكون لديه فكرة في فلسفة التاريخ أكثر وضوحاً من فكرة ابن خلدون؛ وأن ابن خلدون هو سلف علمائنا الاجتماعيين الحديثين الخ). وعلماء آخرون هم في هذه المنزلة أو أسمى؛ إن علماء كهؤلاء لا يمكن أن يزوروا بداعي التعصب الديني شريعة يسمونها بالفقه الروماني ويقتبسونها عن الشرع الإسلامي؛ ولا يعقل أن يسكتوا أمام تزوير كهذا

ثم إن بين أحكام الحقوق الرومانية، وأحكام الشريعة الاسلامية، ولا سيما فيما له صلة بالأحوال الشخصية، وحقوق الأشياء (حق الملك وما يتفرع عنه) اختلافاً وتبايناً لا يدعان عدا الأدلة التي ذكرناها مجالاً للشك بأن دعوى اختلاق الفقه الروماني من قبل علماء حديثين اقتبسوه عن الفقه الإسلامي ضرب من الخيال

فأولى بشبابنا ألا يكونوا أسرى عواطفهم من تعصب للدين والقومية، وكره لأوربا والثقافة الغربية، فيسرفوا في القول حتى يجانبوا المنطق

إن لحقيقة فوق العاطفة والهوى، والعلم لا وطن له. ثم إن في دعاواهم الغربية وتهمهم الفظيعة، بنية خدمة الإسلام ما قد يضر بالإسلام ويسيء بثقافة المسلمين الظنون

محمد محسن البرازي
أستاذ في معهد الحقوق بالجامعة السورية
في الإصلاح العلمي:
الأزهر بين الجامعية والمدرسية
بقلم محمد طه الحاجري

تسيطر على الدراسة العالية في مصر روحان، مازالتا تصطرعان وتنتضلان، كما يصطرع الحق والباطل، في عنف وقسوة حيناً، وفي هدوء وهينة حيناً آخر. إحداهما روح جامعية تقوم على تمثيل العلم في أصح صوره أدق معانيه، وتهذيب العقل في أوسع باحاته وأكمل مجاليه، وتربية الملكات العالية التي يقوم بها ذلك العالم الصغير، وتطلب الحقيقة في مختلف أشكالها، وبشتى وسائلها؛ والأخرى روح مدرسية تعتمد على قشور من العلم لا تغني عن العلم شيئاً، وتلقين لبعض الحقائق المقررة كأنها حقائق مطلقة، وإغفال لحرمة العقل والملكات والإنسانية لأن الأمر أهون من ذلك فيما يزعمون

والأولى روح مطلقة تأبى التقيد، بعيدة الأفق لا يكاد يحدها حد، إلا ما اقتضته طبيعة العلم واستلزمته أساليب التفكير الصحيح.

والأخرى لا حياة لها إلا في أثقال من القيود المرهقة، واسداد من الحدود الضيقة، توقف الفكر، وتبلد العقل، وتعطل المواهب، وتجعل من الرجل آلة طيعة، وكأننا منفعلاً لا فاعلاً.

ففرق ما بين الروح الجامعية والروح المدرسية، هو فرق ما بين الروح الفاعلة المختارة، والآلة المنفعلة المنقادة. تلك توجه العلم للعلم، وتطلب الحقيقة من أجل الحقيقة، وتقدر المسائل العلمية تقديراً ذاتياً، لا يخضع للهوى، ولا يتكيف بغاية معينة مرسومة، ليست من العلم ولا من الحق ولا من الحياة الفاضلة. وهذه جعلت العلم مركباً إلى العيش، ووسيلة إلى نوع من الحياة الدنيا، وآلة صماء لتهيئة غرض محدود وإصابة هدف معين، فوضعت له المناهج والرسوم، وثقل بالأصفاد والقيود، وأقيمت من حوله الاسداد والحدود، وحصن من أن تصل إليه شعاعة من أشعة الروح الجامعية النفاذة، فتثير فيه طبيعة الثورة على تلك اليد الثقيلة الباطشة

وتتنازع الروحان الهيمنة على العلم، ولكن الغلبة للروح الجامعية مهما أقيمت في وجهها الصعاب، واكتأدت سبيلها العقاب؛ ذلك أن قوتها من قوة العلم، والعلم قوي غلاب، لا يصده صاد ولا يغلبه غالب. والروح المدرسية روح مصطنعة، أوجدها الضعف، ودعمها

الاستعمار، وقام من حولها دعاة الذلة والمسكنة يسندون ماوهي، ويرأبون ما تصدع، ويلونونها بألوان فاقعة تأخذ بأبصار الغفل السذج

هذا إلى أن الروح الجامعية روح عريقة في مصر تضرب إلى حدود بعيدة من تأريخنا العلمي، وتتمثل في ذلك التوثب الفكري المجيد الذي يبدو - في أروع مظهره - في ذلك التراث العلمي الذي خلفه أجدادنا من رجال الأزهر: جامعة العلم ومثابة العلماء مدة من القرون مديدة، جديرة أن تلبسنا ثوب الفخر، وتقوي في نفوسنا الاعتزاز بالروح الجامعية، وتبث فينا القوة على تعزيزها ودفع المعتدين عليها، دون أن تفرقنا في ذلك الأهواء المقيتة، وتوزعنا العصبيات الفارغة. بل كلنا أمام العلم والتاريخ جامعيون: نستمد من روحنا العلمية وتأريخنا الجامعي قوة على قوة وعزة فوق عزة، ونستمسك بجامعيتنا ونستعصم بها من عوامل الضعف أو التسفل، ومن منازعة أهواء الحياة، والتفريط في جانب العلم

فلست أذهب مذهب القائلين بأن الروح الجامعية في مصر وليدة الجامعة الأولى والثانية، أو أنها جاءت إلينا من أوربا مع العائدين إليها من المصريين، أو مع الأساتذة الأجانب القادمين أو المستقدمين؛ فلنا جامعيتنا الأصيلة المنبعثة عن أقدم الجامعات، ولنا تقاليدنا العلمية الصحيحة التي تشيع في أنفسنا الرغبة العلمية وترضي فيها العزة القومية، وتبعث فيها المضاء والحمية، وتعصمنا من مهاوي الروح المدرسية التي يتكاتف ربائب الاستعمار وأبواقه وأنصاره والمخدعون فيه والعمون عنه على تثبيت أقدامها، ونشر سمومها، وتزيينها في أعين الغفل الواقفين عند الظواهر، المفتونين عن الحقائق، في أسماء سمومها ما أنزل الله بها من سلطان: من النظام والجمال

ومراعاة الزمن ومسايرة الحياة ومطالب العيش، وما إلى ذلك من العبارات الخادعة وتلك هي الخدعة التي نخشى أبلغ الخشية وأعظمها أعتلاجاً في القلب أن يقع الأزهر في حبلتها، وأن يتردى في مهواتها. ونرجو أن لا يكون اندفاعه في سبيل الإصلاح والتجدد مغشياً على بصره أن يتنبه إليها، وألا تكون مسايرته لروح العصر صارفة له عن روح العلم وصبغته التي صبغ عليها، وإلا ينسيه جديده الذي يشتد عدواً في طلبه وتحقيقه عن تقاليده العلمية الأولى التي تفخر بها مصر والشرق العربي بله الأزهر نفسه

،وأنه لحقيق بالأزهر في وقاره ورزانته، وزمامه بيد الأستاذ المراغي في بصره وحكمته ألا يمنعه طلب الجديد من التمسك بتقاليده، وألا تخدعه مطالب الحياة عن روحه الجامعية التي قام عليها بناؤه، وارتفع بها مجده؛ ولعله لا يني في تعفية ما خلفه العهد المشئوم من آثار لتلك الروح المدرسية المشئومة، كانت هي القاضية عليه، لو طال بها الزمن فيه، في غفلة من هؤلاء وإغماض من أولئك، لولا لطف الله بنا ورحمته عليه إنما ينبغي أن يكون أساس الإصلاح الأزهر هو الأخذ بأساليب البحث الحديثة، ومجاراة الرقي العلمي في مجالاته العليا، ومسايرة الحركة العلمية فيما يتصل بنواحي دراسته، والاتصال بالحياة العصرية اتصالاً نبيلاً يعينه على تأدية رسالته، إذ يهيئ له وسائل الإصلاح الاجتماعي، ويعبد له سبل الدعوة إلى الحق والفضيلة والدين، مع الاحتفاظ بتلك الروح الجامعية التي تأبى أن تتعبد لما دون العلم من المطالب الدنيا، وتلك الصوفية العلمية التي تفرض على صاحبها الفناء في العلم، والاندماج في الدرس، والترفع عن الدنيات. وللأزهر من ديمه في ذلك شواهد باهرة وآيات ظاهرة: فليس في ذلك القول ما يسوغ لقائل أن يرميه بأنه خيال شاعر أو حلم نائم

لا! بل تأريخ العلم كله، وسير العلماء الغابرين والمعاصرين، شاهد بأن الروح العلمية الخالصة التي ترفع العلم فوق كل اعتبار، وتذهب به إلى منزلة من التقديس عالية، هي وحدها التي ينبغي أن تسود جامعات الدرس ومعاهد البحث، وهي وحدها التي تخلع على صاحبها ثوب المجد، وترفعه إلى منزلة الخلود

فليس (تعصير) الأزهر أن ينزل به إلى تلك الدركة الدنيا من الحياة حيث يضطرب الناس ويتعايشون، وأن يعد أهله لمرافق الحياة وقضاء ضرورات العيش ليس غير، ليصير أحدهم معلم صبيان، أو مأذون قرية، أو إمام مسجد، أو واعضاً في مدينة. وتصبح تلك الجامعة الكبرى ولا هم لها أن تخرج لها إلا تخريج أولئك وتزويدهم بما لابد منه لأمثالهم! ويا ضيعة التأريخ المجيد إذن، ويا هوان الاسم الكبير الضخم، ويل السخرية من تلك الصفة الجامعية التي وسموا بها تلك المدرسة!

كم يمتلئ صدري أسى وحسرة حتى ليكاد قلبي أن يتفطر حين أشعر بذلك المصير الذي أخشى أن يهوى إليه الأزهر في سبيله إلى الإصلاح، ومسراه نحو التجديد، لولا أمل يغمر قلبي في حكمة الأستاذ الأكبر وبصيرته، وروحه الجامعية التي تتجلى في أحاديثه وخطبه،

وفي أنه يترسم الأستاذ الإمام (قدس الله سره) في خطواته الإصلاحية، ومراميه العلمية

إن الضعف النفسي هو الثغرة التي تنفذ منها الروح المدرسية إلى الأزهر. فما اكثر ما تضيق النفوس بالكمال، وتنوء بتكاليف المثل الأعلى. ولكن الأمر في الإصلاح العلمي يجب ألا ينزل على حكم الضعف، فأن العلم يتطلب بطبيعته القوة المتحكمة، والعزيمة المصممة، كما يجب أن يسمو المصلح فوق الأهواء فلا يداهن فيها، وفوق شهوات النفوس فلا يتألف عليها أو يتملقها

أنا لا أقول إن (العلم زبال) كما كان يقال في الأزهر، فقد تطورت الحياة الاجتماعية تطوراً لا يسيغ ذلك القول؛ ولا أقول إن العالم يجب أن يعيش في صومعة يتابع فيها دراسته، ويوالي فيها تأملاته؛ أو يقنع بالدون من العيش في مقابل طموحه العلمي، فهذا ما لا سبيل إليه مطلقاً؛ ولكني أقول يجب ألا يكون العيش غاية العلم، فأنه متى صار أداة لمرافق الحياة وجب أن يتكيف بما تقتضيه، لا بما يقتضيه البحث العلمي والحقيقة المنشودة. وأي مسخ للعلم وتحويل له عن سبيله أشنع من هذا؟ وأني أعيذ بالأزهر - وله من ماضيه المجيد معاذ ومستعصم - أن يحقر تأريخه، وينكر ماضيه، ويكون صاحب هذه الجناية. ثم لعله مع هذا لا يوفق في تهيئة الترف والرفاهية والحياة

الكريمة لرجاله، ويالها من عثرة!
وما أحقه إذن بقول الله جل شأنه: خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين على أن الحياة لا تضن على الرجل الكريم الذي يبذل نفسه في سبيل العلم بما يضمن له راحة البال، وهدوء الضمير، وكرامة النفس، ومتاع العيش. ومن فوق ذلك كله ما يستشعره من سعادة لا تعد لها سعادة في كل لحظة من لحظات حياته العلمية الموفقة
ولقد أحس بأن الناس بدأوا يمجون ذلك الصنف من المعاهد التي تهيمن على الروح المدرسية. وبدأت الحياة تلفظ هؤلاء الذين أنطبعوا بطابع تلك الروح، فصاروا بالآلات التي تملأ لتفرغ أشبه منهم بالأحياء الذين حيويتهم دائبة على الخلق والإبداع. ولئن لم يتجل هذا المظهر اليوم تجلياً قاطعاً يمتلخ الشبهة، فأن الحياة صائرة إليه، ما من ذلك بد؛ وبين أيدينا مقدماته جلية
فليعرف الأزهر ذلك وليتدبره تدبر الحكيم البصير، ولا يصرفنه المتاع العاجل عن العاقبة القريبة، وعن حسن تفهم الأمور على وجهها الصحيح، وعن النظر في منطق الحياة الذي
لا يختلف؛ ولا تغرنه الحياة الدنيا عن الآخرة، فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل
محمد طه الحاجري
بكلية الآداب
الجو في القصة
بقلم محمود عزت مرسي
قبل أن استعرض بعض مسائل هذا البحث، نتقدم بسؤال صغير: هل يخلق جو القصة قبل تكوين القصة ذاتها، أي قبل الإلمام التام بكل أوضاعها وشخصياتها وحوادثها؟ أن الإجابة على هذا السؤال قد تبدو مربكة، كثيرة الشعاب، والواقع غير هذا، فان أول ما يجب أن نفهمه أن الجو هو الذي (يؤدي) أو هو الذي يساعد على تأدية عملية الخلق في الرواية أو القصة، ومعنى هذا أن القصة لا يمكن أن تخلق أو تتكون أجزاؤها بعضها إلى بعض، كما لا يمكن أن تمر على أدوار التكوين حتى تصب في قالبها الأخير قبل أن يسبق هذا وجود الجو الذي تقع فيه هذه العمليات، إذ أن القصة كأي شيء حي يحتاج إلى الجو الذي يؤهل له عملية الظهور في الحياة والنمو والاكتمال
ذكرت (آنا جريجو فنا) في مذكراتها عن زوجها فيدرو دوستويفسكي القصصي الروسي الخالد أنه لما كان في سويسرا، كان كثير الاضطراب والملل والسأم، وأنه لم يألف سويسرا ولا أهلها كثيراً، بل كان كثير التحنان إلى روسيا دائم الشوق إليها. وقد بدا هذا ظاهراً في رسائله التي كان يبعث بها إلى بعض خلصائه في روسيا، وقد كان دوستويفسكي في تلك الآونة التي قضاها في سويسرا يعاني ضيقاً مالياً خانقاً، وكانت الديون التي الزم نفسه أدائها بعدى وفاة أخيه ميشيل تجعله يرى في سويسرا مأمناً لو كان رجلاً يلوذ بالفرار من المسئوليات والدائنين الذين ينتظرون عودته إلى البلاد لمطالبته بسداد ديونهم أو زجه في سجن المدنيين حتى يوفي دينه. . لكن هذا الرجل العظيم لم يغفل قط يوماً أثناء إقامته في سويسرا إلى الحنين إلى روسيا حتى أتيح له ذلك بعد سنوات. فلم يكد يصل إلى وطنه حتى أحس بأن الحياة قد عادت تدب في عروقه قوية مشبوبة. . مع أن وفود الدائنين لم تكن لتنقطع عن زيارة بيته على أثر وصله!
كتب دستويفسكي في بعض رسائله (أنني احتاج إلى الجو الروسي حتى أستطيع أن اكتب كما أريد) وهذه العبارة الدقيقة تكاد تحل بنفسها موضوع هذا البحث. فان هذا القصصي على الرغم من انه عاش في روسيا طوال حياته إلا سنوات قليلة قضاها في الخارج، ومع انه استطاع أن يختزن في ذاكرته وقلبه وعقله الباطن كل الاحساسات والحوادث، وأن
يخلق الجو الروسي في كافة رواياته التي آلفها في سويسرا كنتيجة للاعتبارات السابقة، إلا انه مع هذا كله خشي أن هو ابتعد طويلاً عن وطنه أن يخف ويتضاءل مقدار الجو الذي اختزنه في حياته الماضية، وشعر بحاجته - على حد التعبير الأدبي - إلى أوكسجين روسي يملأ رئتيه. لأنه أستشعر بأنه مهما استنهض كل الذكريات في خلق الجو فأنه في حاجة إلى أن يكون دائماً في ذلك الجو ليطمئن على فنه من أن

يختلط بأجواء أخرى فيفسد وتضعف روعته. أو تشيع فيه الفوضى والاضطراب
إن الفنان العظيم لابد أن يكون له جو خاص، هذا الجو هو ذوب مواهبه، هو العالم الذي يضع فيه افكاره، ويخلق بين جنباته أعماله الفنية؛ فإذا رأينا رجلاً مثل دستويفسكي يحتاج إلى جو روسيا لتكوين إعماله الأدبية، فهو يعطي لهذا الجو شكلاً ولوناً ورائحة تختلف عن غيره من سائر القصصيين الروسيين وإن اتفقوا جميعاً في شيء واحد، وهو الجو العام لبلادهم، إلا أن لكل منهم جوه الخاص. ومن هذه النقطة تتفاوت أقدار الفنانين تبعاً لقدرة كل منهم وسمو فنه وحذقه عن الآخرين
والقصصي الذي لا تلمح في عمله جواً خاصاً به، ولا تحس بهذا الجو أو وجوده، أو ترى جوه خليطاً من تأثرت شتى؛ هذا القصصي لا يمكن أن يكون قصصياً صحيحاً. لأن التركيز ينقصه، بل هو قصصي (اكتسب) فن القصة اكتساباً، والتقط موهبته الفنية من مواهب الكثيرين، واستلب من كل الأجواء الأدبية التي عاش فيها شيئاً، ليعيش لحظات على التقليد أو المحاكاة. وهذا الفنان تبدو حياته الفنية مهددة دائماً بالموت والانتهاء، لأنه شائع بين كافة الفنانين، لا شخصية له بينهم
إن أهمية وجود الجو في القصة لا حد لها. فأن هذا الجو هو الذي تخلق فيه الشخصيات والحوادث، وكلما كان القصصي أو المصور، أو الموسيقي، أو الشاعر، مؤمناً بالجو الذي يعيش فيه ارتفع فنه إلى الذروة، واستطاع أن يبرع في إيضاح عمله الفني
قد تكون القصة - في موضوعها - بسيطة لا شذوذ في حوادثها، ولا مؤثرات مفتعلة كما نرى في القصص الرخيص، ومع هذا فأن القصصي يستطيع أن يسمو بالحادثة الصغيرة إلى أوج الفن القصصي؛ وذلك لان طريقة العرض والتقديم والجو الذي تنطلق فيه القصة هي التي تحيا بها القصة. ومن هنا فقط نستطيع أن نقارن ونفاضل بين القصصيين، فأن
القصصي لا يمتاز عن غيره بكثرة الأغراب في الحوادث، بل هو يمتاز بجوه، هذا الجو الذي تحيا فيه شخصيات قصصه؛ حتى ليشعر القارئ بأنه يعيش في مع تلك الشخصيات، وبهذا يحس القارئ أنه أمام عمل فني مجيد، جدير بالتأمل العميق، لا يمكن أن يذهب أو يضمحل بعد قليل كما تذهب صور الحوادث التي يقرأها الإنسان في الصحف، والتي يعتقد بعض الناس - خطأ - أن هذه الحوادث من القصص، وهذه الحوادث في المعنى الفني أحط أنواع القصة وأكثرها تفاهة
ولنقرب هذا، نقول أن كثيرين يسجنون مثلاً، فإذا خرج أحدهم من السجن وأحببت أن يورد لك شيئاً عما رآه وأحسه في المدة التي أمضاها في السجن اقتصر على ذكر الحوادث، وهذا شيء عادي يمكن لكل إنسان أن يفعله؛ بينما لا يعمد إلى ذلك الفنان الذي يعيش في جو السجن، فهو يرى الحوادث التي وقعت له في السجن في المكانة الثانية. أي أن جو السجن ساعد مواهبه على أن يكون شخصاً إيجابياً لخلق الاحساسات والتأملات والأفكار، بعد أن انعكست عليه حوادث السجن المختلفة، فأخرجها على النحو الذي أحس به، وهذه هي شخصية الفنان. إذ أن الحادثة تمر به فلا تعبر بسيطة كما تعبر بسائر الناس، ويرى المنظر، فلا يراه كما يراه غيره بصورته الظاهرة؛ بل يراه بعينه الفنية التي تنفذ إلى أبعاد شتى لا يمكن أن تخطر على ذهن عادي، أو تتلفت شعوره
إن ثقافة الفنان وسعة اطلاعه لا تكفيان لكي يكون القصصي كاتباً مجيداً، يستطيع أن يخلق الجو القصصي؛ وقد يبرع القصصي في تكوين القصة من كل جوانبها، ولكنه يفشل فشلاً تاماً في إيجاد الجو، ولنضرب المثل على هذا نقول: إن الأغاني الريفية تحس فيها حرارة الإيمان بالبيئة، وهي على الرغم من صراحتها وخلوها من الزخارف الكثيرة التي تفسد طبيعة الأغاني وتباعد بينها وبين الحقائق، وقربها من الطبيعة وتعبيرها المبين عن مشاعر إنسانية مأخوذة من البيئة هي في قيمتها الفنية أسمى من الأغاني التي لا تعتمد على الجو، بل تعتمد على اللامعان في التأثير بذكر الهجر، والوصال، والدموع، وما إلى ذلك من العواطف التي يمكن حشدها في كل أغنية في أي إقليم. وقد تكون الأغنية الأخيرة في تجويدها ورقتها وزخارفها، أحسن من الأولى صنعاً، إلا أنها مفقودة الطابع
وعلى هذا الوضع نقول بأن (الجو) لا يمكن أن يخلق عند الفنان إلا إذا كان مؤمناً كل

. . . .الأيمان بالبيئة، وحقيقة الفن الذي يعالجه
محمود عزت موسى
للتاريخ
الرافعي
بقلم تلميذه وصديقه الأستاذ محمد سعيد العريان
سعد زغلول (بيان كأنه تنزيل من التنزيل، أو قبس من نور الذكر الحكيم)
بيني وبين الأستاذ مصطفى صادق الرافعي عهد وذمة، وله علي حرمة المعلم والأب والصديق؛ أفترى كل أولئك يمنحني الحق أن أكتب عنه كما عرفته، وأخذت عنه، واستمعت إليه، واستمتعت بفنه وأدبه ومجلسه؛ أم تراه سيغضب إذ يراني أتناول حياته وأدبه فأنشر منهما على الناس، ثم لا أنبئه بما اعتزمت إلا حين تنبئه الصحائف المنشورة، على حين أجالسه كل مساء. . . .؟
وإني لحريص على رضاه، وما أعلم أنه يغضبه أن يحسن رأيي فيه أو يسوء؛ فانه ليعلم علمي أن ذلك حق الأدب، لا يمنع منه تفاوت المنازل أو تداني الرتب، ولا يؤثر فيه حق المعلم والأب والصديق، بل لعله إذ يغضب أن يكون غضبه من أنه يؤثر العيش في عزلته التي رضيها لنفسه، بعيداً من ضوضاء الحياة وصخب الناس، منعزلاً في (طنطا) الحبيبة إليه، عن مجالي الأدب ومزدحم المتأدبين في (القاهرة)
على أني إلى ذلك لا أستطيع أن أرد طلبة للأستاذ الزيات، وهو قد طلب إلي أن أكتب هذا الفصل عن الرافعي، على علم منزلته عندي ومنزلتي عنده؛ أفتشفع لي هذه المعذرة عند الأستاذ الرافعي أم سيشفع لي الأستاذ الزيات. .؟
تمهيد
سمعت اسم الرافعي لأول مرة مقترنا إلى نشيده الخالد: (اسلمي يا مصر. . .) في حفل حاشد بطنطا؛ وكان لاسمه يومئذ في أذني رنين عذل، امتزج بأنغام ذلك النشيد، وتألف لي منهما لحن علويٌّ ساحر، فيه جمال وعذوبة، وفيه اعتزام وقوة. على أني لم أكن أعرف يومئذ أهو الرافعي صاحب (الأخبار)، أم رافعي آخر، تجمع بينهما وحدة اللقب وشرعة الوطنية
ومضت سنوات، وشدوت من العلم ما شدوت، وإذا صديق يدفع إلى كتاب (رسائل الأحزان)
كنت يومئذ في بكرة الشباب، في تلك السن التي تدفع الفتى إلى الحياة بعينين مغمضتين، وفكر حالم، ورأس يزدحم بالأماني؛ وقلب مملوء بالثقة؛ ثم لا يكاد يفتح عينيه على حقائق هذا الوجود، حتى يعرف أن دنيه من دنيا الناس، ويحس الفرق بين علام قلبه وعالم حسه، وتسخر منه الدنيا سخريتها الأليمة؛ فيلجأ إلى وحدته الصامتة يذرف دمع عينيه ودمع قلبه، فلا يطرب إلا لأنغام الحزن، ولا يسري عنه إلا رسائل الأحزان. . .!
واستهواني عنوان الكتاب، فتناولته اقلب صفحاته، لا أكاد أفهم جملة إلى جملة. . حتى انتهيت إلى قصيدته (حيلة مرآتها) فإذا شعر عذب يخالط النفس، وينفذ في رفق إلى القلب؛ وإذا أنا أعيدها مرة ومرة، فلا أدع الكتاب حتى أستظهر القصيدة. وحبب إلي هذا الشعر الساحر أن أعود إلى الكتاب فأقرأه في روية ومهل لعلني أن استدرك ما فاتني من معانيه؛ وأدخر لنفسي قوة من سحر بيانه، وصدق عواطفه؛ وعدت إليه أقرؤه قراءة الشعر، أفهمه بفكري وشعوري، وأنظر فيه بعيني وقلبي؛ فإذا الكتاب يكشف لي عن معناه. .
وأحببت الرافعي من يومئذ، فرحت أتتبع آثاره في الصحف والكتب، لا يفوتني منها شيء. وأشهد، لقد كنت اجهد جهداً شديداً في فهم كتابة الرافعي؛ لأني لم يكن لي عهد بمثلها فيما أقرأ، وما كنت أقرأ من قبل إلا لإزجاء الفراغ، التمسه في ذلك النوع الهين من أدب القصص والصحف؛ على أنني كنت إلى جانب ذلك أحب الشعر، أقرؤه فأفهم ما أقرأ، فكان لي من ذلك ما أعنني على فهم الرافعي، ثم الإعجاب به من بعد، ثم ألا يعجبني إلا مثل ما يكتب. . .
صلتي بالرافعي:
كنت اعرفه واسمع عنه، على حين لا يعرفني ولا يسمع بي، وليس عجيباً؛ وكنت ألقاه في الطريق منطلقاً إلى غرض، يهز في يمناه العصا، ويتأبط بيسراه عديداً من الصحف

والمجلات والكتب، واسع الخطو لا يتمهل، ماشياً على حيد الطريق لا يميل، ناظراً إلى الأمام لا يتلفت إلا حين يهم باجتياز الشارع؛ فإذا ألقيت إليه تحية، رفع يمناه بالعصا إلى رأسه من غير أن ينظر يمنة أو يسرة أو تضيق خطاه؛ وكنت أرى ذلك فأحسبه نوعاً من الكبر وأرستقراطية العلماء، فباعد ذلك بيني وبينه إلى حين . . .

ففي خريف سنة 1932 اجتمع بطنطا طائفة من الشباب على تأليف رابطة أدبية باسم (جماعة الثقافة الإسلامية)، تقوم أغراضها على العناية بشؤون الأدب والاجتماع، والعمل على أحياء مجد العرب والإسلام. وتذاكر المجتمعون فيمن يمكن أن ينضم إلى الجماعة من أهل الرأي لتقوى به على تنفيذ أغراضها، فكان اسم الرافعي أول هذه الأسماء

وذهبت إليه عن أمر الجماعة في وفد ثلاثة، فلقينا الرجل مرحباً مبتسماً وقادنا إلى (دار كتبه)، ثم جلس وجلسنا؛ وفي تلك الغرفة التي تتنزل فيها عليه الحكمة ويلقى الوحي، جلسنا إليه ساعة يجاذبنا ونجاذبه الحديث ما نكاد نشعر أن الزمن يمر كان جالساً خلف مكتب تكاد تكون اكتب من فوقه تحجبه عن عيني محدثه؛ وعن يمينه وشماله مناضد قد ازدحمت عليها الكتب في غير ترتيب ولا نظام، تطل من بين صفحاتها المطوية قصاصات تنبئك أن قارئها لم يفرغ منها بعد، أو أن له وقفة عند هذا الموضع من الكتاب سيعود إليها؛ وعلى حيطان الغرفة أصونة الكتب المتراصة، لا يبدو من خلفها لون الجدار . . .

ومضى يتحدث إلينا حديث المعلم، وحديث الأب، وحديث الصديق؛ فما شئت من حكمة، وما أكبرت من عطف، وما استعذبت من فكاهة؛ وللرافعي فكاهة رائقة يخترعها لوقتها لا تملك معها إلا أن تضحك وتدع التوقر المصنوع؛ على أن له في فكاهته مذاهب عقلية بديعة، تحس فيها روحه الشاعرة، وفنه البكر، وحكمته المتزنه، وسخريته اللاذعة؛ ويكاد يكون كثير من مقالات الرافعي برهاناً على ذلك، فقلما تخلو إحداها من دعابة طريفة أو نكتة مبتكرة

وطال بنا المجلس وخشينا أن نكون قد أثقلنا عليه فهممنا بالانصراف، وإذا هو يطلب إلينا البقاء، ويلح علينا في تكرار الزيارة، ويكشف لنا عن سروره بألا نغب مجلسه، وعرفت الرافعي عرفاً تاماً من يومئذ فلزمته، وعرفني هو أيضاً فأصفاني عطفه ومودته

اختبار!

وجلست إليه في الزورة الثانية وبين يديه صحفه وكتبه، فدفع إلي صحيفة يومية كان منشوراً فيها يومئذ قصيدة لشاعر كبير، وطلب إلي رأيي في القصيدة. لم أتنبه ساعتئذ إلى غرضه، وحسبته يقصد إلى أن يشاركني في لذة عقلية أحسها في هذا الشعر؛ فتناولت الصحيفة وقرأت القصيدة، ثم دفعتها إليه وقد أشرت بالقلم إلى عيون أبياتها ورأيي فيها، وتناولها مني ليرى اختياري، فما عرفت إلا وقتئذ أنه كان يختبرني؛ ولكني - والحمد لله - نجحت في الامتحان قدراً من النجاح . . .!

وتكرر هذا الاختبار مرات وهو لا يحسبني أدرك ما يعني، على أن إدراكي هذا قد جعلني من بعد أكثر تدقيقاً في اختيار الحسن مما أقرأ. وأولاني ثقته على الأيام، فكان علي من بعد أن أقرأ أكثر ما يهدي إليه من الكتب، لأشير له إلى المواضع التي يصح أن يقرأها منها، وأدع ما لا جدوى عليه من قراءته ضناً بوقته؛ وكنت أنا أكثر ربحاً بذاك الشيخ الرافعي. . . .

كثير من الذين يقرأون للرافعي ويعجبون به، لا يعرفون عنه إلا هذا الأدب الحي الذي يقرأون؛ بل أن اكثر هؤلاء القراء ليتخيلونه شيخاً معتجر العمامة، مطلق العذبة، مسترسل اللحية، مما يقرأون له من بحوث في الدين، وآراء في التصوف، وحرص على تراث السلف، وفطنة في فهم القرآن، مما لا يدركه إلا الشيوخ، بل مما لا يدركه الشيوخ. . . وكثيراً ما تصل إليه الرسائل بعنوان: (صاحب الفضيلة الشيخ مصطفى صادق الرافعي. . .) أو (صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر. . .)

ومن طريف هذا الباب رسالة جاءته من (حلب) منذ قريب، يبدي كاتبها دهشته أن يرى صورة الرافعي منشورة في (الرسالة) إلى جانب مقالته في عدد الهجرة، مطربشاً، حليق اللحية، أنيق الثياب، على غير ما كان يحسب؛ ويتساءل كاتب الرسالة: لماذا يا

سيدي أبدلت ثياباً بثياب، وهجرت العمامة والجبة والقفطان، إلى الحلة والطربوش؟ ألك رأى في مدنية أوربا في المظاهر الأوربية غير الرأي الذي نقرؤه لك. . .؟) وما كان هذا السائل في حاجة إلى جواب، لو أنه عرف أن الرافعي لم يلبس العمامة قط، وهذا لباسه الذي نشأ عليه منذ كان صبياً يدرج في طربوشه وسراويله القصيرة، يوم كان تلميذاً يدرس الفرنسية إلى جانب العربية بمدرسة المنصورة. . .

نشأته:

على أن نشأة الرافعي كان لها أثر بالغ في الاتجاه العقلي الذي برز فيه وتفرد به؛ فهو قد نشأ في بيت له نسب عريق في الإسلام. وأنت إذا رجعت إلى تأريخ القضاء في مصر إلى قرن مضى، رأيت لاسم (الرافعي) تأريخاً في كل ديوان من دواوين القضاء والإفتاء. وقبل نزوح الشيخ محمد الرافعي الكبير من (طرابلس الشام) لم يكن معروفاً لمذهب أبي حنيفة أتباع في مصر؛ فهو شيخ الحنفية في هذه الديار غير منازع، وقد تخرج على يديه أكثر علماء الحنفية الذين نشروا المذهب، ومن تلاميذه المرحوم الشيخ محمد البحراوي الكبير؛ كما تخرج على يدي أخيه الشيخ عبد القادر الرافعي كثير منهم، ومن تلاميذ أخيه شيخ الشيوخ الآن فضيلة الأستاذ محمد بخيت مفتي الدولة السابق، مد الله في حياته. وقد مضى زمن كانت فيه وظائف الإفتاء كلها محبوسة على (آل الرافعي)، حتى ذكر اللورد كرومر في بعض تقاريره: (إن من هذه الأسرة أربعين قاضياً شرعياً). وأبو المترجم له (الشيخ عبد الرزاق الرافعي) كان رئيساً للمحاكم الشرعية في كثير من الأقاليم، وكان رجلاً ورعاً له صلابة في الدين، وشدة في الحق، ما برح يذكرها مع الإعجاب معاصروه من شيوخ طنطا. وبيت الرافعي في (طرابلس الشام) من البيوت الرفيعة وما يزال كعبة يحج إليها العلماء. وأسم (الرافعي) معروف في تأريخ الفقه الإسلامي منذ قرون. . .

فالأستاذ مصطفى صادق الرافعي وأن كان قد تربى تربية مدنية كالتي ينشأ عليها أكثر أبناء هذا الجيل لم يزل بعض أهله؛ وقد حمل عن آبائه الراية يقتحم بها في سبيل الدين، وينافح الشرك، ويدعو إلى الله. وما جهاده في ذلك - على تسلط أسباب الفتنة والزيغ في هذا الزمان إلا حلقة من سلسلة جهاد طويل، أفرغها آباؤه حلقة حلقة منذ انحدر أولهم من صلب الفاروق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. . .

الرافعي الشاعر

أفرأيت الرافعي وهذا منشؤه ونسبه يقنع بالقدر الضئيل من العلم لذا تلقاه في المدرسة؛ ومن أين للرافعي أن يعرف هذه القناعة. . .؟

فما هو إلا أن ترك المدرسة حتى انكب على كتب الدين والعربية يستبطن أسرارها وينبش عن دفائنها؛ فحصل ما حصل من علوم اللغة الدين، وبلغ ما بلغ من أساليب البلاغة وأسرار العربية. وكان في نفس الرافعي هوى قديم أن يكون شاعراً. . . فأخذ يقرض الشعر، أتم طبع الجزء الأول من ديوانه ولما يبلغ الثالثة والعشرين. . . وقدم بين يدي ديوانه مقدمة بليغة، كانت وحدها البرهان على أن هذا الشاب النحيل الضاوي الجسد يعرف أين موضعه بين أدباء العربية في غد. . . وما أحاول أن أتكلم عن الرافعي الشاعر الأديب في ديوانه وعن مقدمة ديوانه بأبلغ مما قال عنه العلامة الشيخ إبراهيم اليازجي، وهو يومئذ أديب العصر وأبلغ منشئ في العالم العربي؛ فقد كتب في عدد يونيو سنة 1903 من مجلة الضياء، في تقريظ الجزء الأول من ديوان الرافعي ما يأتي:

(وقد صدره الناظم بمقدمة طويلة في تعريف الشعر، ذهب فيها مذهباً عزيزاً في البلاغة، وتبسط ما شاء في وصف الشعر، وتقسيمه، وبيان مزيته، في كلام تضمن من فنون المجاز، وضروب الخيال، ما إذا تدبرته وجدته هو الشعر بعينه. . .

ثم انتقد الأستاذ اليازجي بعض ألفاظ في الديوان، وعقب عليها بقوله:

(على أن هذا لا ينزل من قدر الديوان وأن كان يستحب أن يخلو منه؛ لأن المرآة النقية لا تستر أدنى غبار، ومن كملت محاسنه ظهر في جنبها أقل العيوب؛ وما انتقدنا هذه المواضع إلا ضناً بمثل هذا النظم أن تتعلق به هذه الشوائب، ورجاء أن يتنبه إلى مثلها في المنتظر، فأن الناظم - كما بلغنا - لم يتجاوز الثالثة والعشرين سنيه؛ ولا ريب أن من أدرك هذه المنزلة في مثل هذه السن، سيكون من الأفراد المجلين في هذا

(. . .العصر، وممن سيحلون جيد البلاغة بقلائد النظم والنثر
الرافعي وحافظ
لم يكن الشيخ إبراهيم اليازجي وحده هو الذي تنبأ للرافعي الشاب بالمنزلة الرفيعة التي يتبوؤها اليوم؛ فقد نال يومئذ اكبر قسط من عناية الأدباء في عصره؛ وهذه أبيات لشاعر مصر الكبير المرحوم حافظ إبراهيم، بعث بها إلى الرافعي في سنة 1906 تدل بنفسها على مقدار احتفال أدباء العصر بهذا الناشئ الجبار:
أراك وأنت نبْت اليوم تمشي ... بشعرك فوق هام الأوّلينا
وأوتيت (النبوَّة) في المعاني ... وما جاوزتَ حدَّ (الأربعينا)
فزنْ تاج الرياسة بعد (سامي) ... كما زانتْ فرائدُه الجبينا
وهذا الصولجان فكن حريصاً ... على مُلْكِ القريض وكن أميناً
وحسبك أن مُطْرِيَك (ابن هاني) ... وأنك قد غدوت له قريناً
نبوءتان
لم يتناول الرافعي في الجزء الأول من ديوانه إلا ما يتناوله الشباب من فنون الشعر، ولم يكن معروفاً له اتجاه أدبي إلى غير هذا اللون من شعر الشباب؛ على أن نبوءة من وراء الغيب جاءت على لسان الأستاذ الإمام (محمد عبده)، في كتاب بعث به إلى الرافعي سنة 1321هـ (1903م) تدعو إلى العجب والتأمل؛ إذ ختم كتابه إلى الرافعي بهذه العبارة:
(. . . أسأل الله أن يجعل للحق من لسانك سيفاً يمحق به الباطل؛ وأن يقيمك في الأواخر مقام حسان في الأوائل.)
أفكان الشيخ محمد عبده يلقي الغيب، فيعلم من شأن الرافعي في غده مقامه في الدفاع عن الحق والذود عن لغة القرآن؛ أم استجاب الله دعاءه للرافعي كما استجاب دعاءه لحافظ. . .
وأشبه أن يكون نبوءة أخرى ما كتبه المرحوم الزعيم مصطفى كامل باشا من تقريظه ديوان الرافعي في جريدة اللواء: (وسيأتي يوم إذا ذكر فيه الرافعي قال الناس: هو الحكمة العالية مصوغة في أجمل قالب من البيان. . .)
ولما هم الكاظمي الشاعر أن يسافر إلى الأندلس في سنة 1905 كتب الرافعي: (ثق أني أسافر مطمئناً وأنت بقيتي في مصر. . .)
(للحديث بقية)
محمد سعيد العريان
حافظ بك إبراهيم
بمناسبة ذكراه
بقلم السيد أحمد العجان
تتمة
- 12 -
نصائحه إلى البائسين:
1 - الهجرة خير للفقير:
إن ضيق العيش لا يرضى به إلا ذليل خطمه الذل، وجبان أقعده الخوف؛ والكسل والعجز والخمول آفة المصري، وكثير من الشرقيين ضربوا في الأرض، وركبوا البحار، فأثروا
أليس خيراً للمعدم أن يجوس خلال البلاد، يطلب سعة ويبتغي سعادة؟ لقد سبقه في الهجرة كثير من أبناء الشام، ورجال الشرق:
ما عابهم أنهم من الأرض قد نثروا ... فالشهب منثورة مذ كانت الشهب
ولم يَضِرْهم سراء في مناكبها ... فكل حي له في الكون له مضطرب
رادوا المناهل في الدنيا ولو وجدوا ... إلى المجرة ركباً صاعداً ركبوا
أو قيل في الشمس للراجين منتجع ... مدوا لها سبباً في الجو وانتدبوا
وقديماً غادر هو الوطن، ونزح عن بلاده، يطلب عيشاً، ويروم رزقاً:
نزحت عن الديار أروم رزقي ... وأضرب في المهامه والتخوم
ولولا سورة للمجد عندي ... قنعت بعيشتي قنع الظليم
وكان في مقدوره أن يتقاعد لو كان يرتضي وجدان مواطنيه، ولكنه يأبى أن يكون

خاملاً:
فيا ليت لي وجدان قومي فأرتضي ... حياتي، ولا أشقى بما أنا طالبه
ينامون تحت الضيم والأرض رحبة ... لمن بات يأبى جانب الذل جانبه
يضيق على السوري رحب بلاده ... فيركب الأهوال ما هو راكبه
ويخرج بالرومي مذهب رزقه ... فتفرج في عرض البلاد مذاهبه
وعجيب أن يقيم بيننا الغربي فيثرى ويخصب، ونحن قعود عن منافسته وسبقه ومجاراته
سابق الغربي واسبق واعتصم ... بالمرؤات، وبالبأس اعتصاما
جانب الأطماع وانهج نهجه ... واجعل الرحمة والتقوى لزاما
ومتط العزم جوادا للعلا ... واجعل الحكمة للعزم زماما
ومع هذا الفقر الذي ساءل من اجله السراة والمترفين، والذي من أجله حبب الهجرة ودعا إلى الارتحال ابتغاء الرزق، ومع حاجته إلى الأنصار والأعوان يمدون له يد المساعدة، ويقدمون له العطايا، فانه جد حريص على كرامته، يحتفظ بها ويرعاها ولقد راق لديه ما فعل (فيكتور هيجو) بعد أن زج في السجن، وحشد في زمرة السفاكين والمجرمين، وأراد الولاة الغاصبون أن يمنوا عليه بالعفو، فأبى واستكبر أن تسدي إليه العفو يد مذنب أثيم:
عاف في منفاه أن يدنو به ... عفو ذاك القاهر المغتصب
بشروره بالتداني ونسوا ... انه ذاك العصامي الأبي
كتب المنفى سطراً للذي ... جاده بالعفو فأقر أو اعجب:
أبريء عنه يعفو مذنب؟ ... كيف تسدي العفو كف المذنب؟
وكثير من العلماء النابهين، والشعراء والكاتبين، والأئمة والزعماء، درجوا في منابت الفقر، وقاسوا محن العيش، فطلبوا الجاه في العلم، والشرف في الكرامة، والهيبة في الإباء، وخلقوا لأنفسهم مجداً لا يقاس به عرض الدنيا: فلقد كان بشار بن برد الشاعر النابه منى أوئلكم الفقراء، إذ كان أبوه طياناً يضرب اللبن، وكان أبو العتاهية يبيع الفخار بالكوفة، والجاحظ يبيع الخبز والسمك، وأبو تمام يسقي ماء بالجرة في جامع مصر، كما كان أبو حنيفة بزازاً، وكما هو مشاهد الآن في زعامة الأمم الراقية أمثال روزفلت، وهتلر، وموسوليني
إن الظروف القاسية تحطم عظماء الرجال ولكنها لا تجرؤ أن تحطم التفاؤل عند المتفائلين، وهؤلاء الذين يجالدون آلام الجوع والمسغبة، وفي قلوبهم إيمان وفي ضمائرهم حياة، ليس شيمتهم التفاؤل فقط، ولكنه التفاؤل الرخيص
وكان حافظ رحمه الله أحد هؤلاء المتفائلين، كما ينطق بذلك شعره صريحاً بينا:
على أنني لا أركب اليأس مركباً ... ولا أكبر البأساء حين تغير
نفسي برغم الحادثات فتية ... عودي على رغم الكوارث مورق
فيا قلب لا تجزع إذا عضك الأسى ... فإنك بعد اليوم لن تتألما
ولآن تتابعت عليه تارات الأحداث، وطوارق الغير، فإن ذلك لا يثنيه عن عزمه، ولا يقعده عن غايته، مادامت العلياء رائدة، وشرف الغاية مأربه:
مرحباً بالخطب يبلوني إذا ... كانت العلياء فيه السببا
عقني الدهر ولولا أنني ... أوثر الحسنى؛ عققت الأدباء

لقد مدح حافظ كل ذي جاه في الدولة، أو ذا تصريف في أمور البلاد، أو من أنس منه الخير يجلب والشر يتقى، وهو طبيعي في رجل كحافظ تجرد من القوة، وأصفر من المال، فركن إلى الولاة والحاكمين يتقي عواديهم ويأمن جورهم، وقد يناله خيرهم، ويدركه نفعهم
ولكنه في مدحه الذي من أجله عرض ألفاظ اللغة، (ونبش بطون الكتب وقلبا أحشاء القواميس، ثم أستخرج من الألفاظ أطلاها وأحلاها، ومن المعاني أسماها وأعلاها، وصاغ من كليهما مدحة تهز الممدوح وتطربه،) لم يخالف ضميره ولم يتجر بوطنيته، ولم يرق ماء وجهه ويمتهن كرامته. بل كان يقف عند دهاء السياسة وحزم الرجولة، ولين الجانب حيث لا مغمز ولا تجريح
مدح الخليفة وسلاطين الدولة العثمانية، وخديو مصر وأمرائها، ورجال مصر وسراتها،

بل مدح اللورد كرومر وملك الإنجليز ومندوب الإنجليز. ولكن ما كان يمدحهم تملقا ورياء، بل كان أشبه بالتشبيه يقدمه الشاعر لتصغي الأسماع إليه وتتعلق القلوب بما بعده، ثم يتناول مطالب الشعب يقدمها، وشكايات الوطن يلفت الأنظار إليها، وقد ينتقد في السياسة، ويتهكم بمسلك الحاكمين، كما حدث في قصيدته التي رفعها إلى عميد الدولة البريطانية بعد حادثة دنشواي

قصر الديارة هل أتاك حديثنا ... فالشرق ريع له وضج المغرب
أهلا بساكنك الكريم ومرحباً ... بعد التحية إنني أتعتب
ماذا أقول وأنت أصدق ناقل ... عنا ولكن السياسة تكذب
أنقمت منا أن نحس؟ وإنما ... هذا الذي تدعوا إليه وتندب
أنت الذي يعزى إليه صلاحنا ... فيما تقرره لديك وتكتب
أو كلما باح الحزين بأنةٍ ... أمست إلى معنى التعصب تنسب؟
فأجعل شعارك رحمة ومودة ... إن القلوب مع المودة تكسب

لقد طبع حافظ مدحه بطابع المصلحة للمجتمع، والنفع للوطن، والتعبير عن أحاسيسه وآلامه والذود عن شرفه وكرامته. وكان هذا المدح يتقدم به في قصائده كالتشبيب عند السابقين كما في قصيدته التي رفعها لسمو الأمير عباس الثاني في عيد رأس السنة الهجرية

قصرت عليك العمر وهو قصير ... وغالبت فيك الشوق وهو قدير
وأنشأت في صدري لحسنك دولة ... لها الحب جند والولاء سفير
فؤادي لها عرش وأنت مليكه ... ودونك من تلك الضلع ستور
وما انتفضت يوماً عليك جوانحي ... ولا حل في قلبي سواك أمير

ثم انتقل - بعد أن عرض للهوى والصبابة والغرام - إلى آمال الوطن ومطالبه:

أمولاي إن الشرق قد لاح نجمه ... وآن له بعد الممات نشور
مضى زمن والغرب يسطو بحوله ... علي ومالي في الأنام ظهير
إلى أن أتاح الله للصفر نهضة ... فقلت غرار الخطب وهو طرير
جرت أمة اليابان شوطاً إلى العلا ... ومصر على آثارها ستسير
وما يمنع المصري أدراك شأوها ... وأنت لطلاب العلا لنصير
فقف موقف الفاروق وانظر لأمة ... إليك بحبات القلوب تشير

1 - لهم حق التعليم حتى يرتفع مستواهم، وتعلو منازلهم وحتى يتضامنوا مع المجتمع في بناء مجده بوحي من الضمير ووازع من النفس، لا بطريق السخرة والاجبار، وحتى تكون العلاقة بين أفراده وهيئاته بعضهم مع بعض علاقة محبة وإخلاص وولاء، لا علاقة سيادة وغطرسة وكبرياء

2 - ولهم حق تيسير سبل الرزق؛ بفتح أبواب العمل امامهم، والسهر على صوالحهم، ورعاية شؤونهم؛ حتى يعيشوا وأسراتهم في مأمن من الجوع والخصاصة، وحتى لا يشغلوا المجتمع بسرقاتهم وسطوهم

3 - ولهم حق المعالجة في بيوت الشفاء والمصحات، حتى تسلم جسومهم من العلل، وتصح أبدانهم من الأسقام. فنحن في ميدان نهضة، وكل نهضة لابد لها من عدة، فلتكن عدتنا رجالاً أشداء البنية أصحاء الأجساد سليمي العقل، نابهين حازمين كي يكون منهم الجندي الباسل، والزارع النشيط، والصانع الحاذق، والوطني الغيور، إلى أخر ما يتطلبه الوطن ليسلم، وتستدعيه النهضة لتدوم.

4 - على أن منهم العاجز الضعيف، واليتامى الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا، كل أولئك في حاجة إلى ملاجئ يأوون إليها، ومدارس يتعلمون بها ما ينفع الجماعة ويدر عليهم الخير

5 - ثم من فوق ذلك، ومن قبل كل ذلك، لهم حق قد يعلو على كل الحقوق في جلال شانه وخطره، ذلك هو أن يشعروا بعطف ذوي الجاه وأرباب النفوذ وأولياء الأمور، حتى يشربوا في قلوبهم حبهم، ويولوهم الطاعة التي تحقق لهم رغباتهم

هذه حقوق الشعب المسكين كما يراها حافظ، فهو يرقب فرصة اعتلاء سعد منصة

الحكم فيتقدم إليه يقول:
يا سعد أن بمصر أيـ - تاماً تؤمل فيك سعدا
قد قام بينهم وبين العلـ - م ضيق الحال سدا
مازلت أرجو أن أر - اك أبا، وان ألقاك جداً
حتى غدوت أبا له ... أضحت عيال القطر وُلْدا
فاردد لنا عهد الأما - م وكن بنا الرجل المفدى
عليكم حقوق للبلاد أجلها ... تعهد روض العلم فالروض مقفر
قصارى مني أوطانكم أن ترى لكم ... يداً تبتني مجداً ورأساً يفكر
فتعلموا فالعلم مفتاح العلا ... لم يبق باباً للسعادة مغلقاً
وقصيدته في سبيل (الجامعة) تبين رأيه في التعليم، وأنه لا يقنع في الأوليات السطحية، بل بالثقافة الرشيدة والدراسة الحكيمة، وأن ألف كتاب لا تعدل مدرسة عالية أو جامعة منظمة؛
لأننا نستبدل بالكتاتيب داء الجهل بداء اشد خطراً وهو الغرور
ذر الكتاتيب منشيها بلا عدد ... ذر الرماد بعين الحاذق الإرب
فأنشأوا ألف كتاب وقد علموا ... أن المصابيح لا تغني عن الشهب
هبوا الأجيرة أو الحراث قد بلغا ... حد القراءة في صحف وفي كتب
من المداوي إذا ما علة عرضت؟ ... من المدافع عن عرض وعن نشب
ومن يروض مياه النيل أن جنحت ... وأنذرت مصر بالويلات والحر؟
ومنى يوكل بالقسطاس بينكم ... حتى يرى الحق ذا حول وذا غلب؟
ومن يميط ستار الجهل إن طمست ... معالم القصد بين الشك والريب؟
فما لكم أيها الأقوام جامعة ... إلا بجامعة موصولة السبب
والحق أن حافظاً صورة من النفسية المصرية العامة في هذه الفترة، فترة الانتقال والحيرة والاصطدام في جميع النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فهو على ذلك قد أدى رسالته في الحياة، وقام بواجبه نحو وطنه وشعبه، لأنه بصر بآلامه، وتغنى بالأمل المنشود، والمصلحة المرجوة، ووقع على قيثارة الحنان أناشيد الأسى وأنات البائسين، فجزاه الله كفاء وفائه الجنة وحسن المقام وخلود الذكر
السيد أحمد العجان
سود قمصانكم حمر غداً
للأستاذ فخري أبو السعود
أمةَ الأحباش يا أُسْدَ الحمى ... علِّمي الطليانَ عُقْبى من بغى
أنتِ لَقَّنتِهِمُ في عَدْوَةٍ ... غَالِيَ الدرس، وطُوبى من وعى
فَنَسوهُ، فَأَعيديه عسى ... يحفظون الدرس رنَّانَ الصدى
ويُميط القومُ عن أعينهم ... غرراً بات شبيهاً بالعمى
ويُقلِّونَ دَعاوى لَهُمُ ... مَلأُوا من إفكِها الأرضَ سُدَى
مثَّلُوا الذِّئْبَ ولكن لم يَرَوْا ... حَمَلاً يَرْهَبُ ذُؤبَانَ الفلا
هُمْ أرادُوا أن يُحاكُوا دولةً ... مُلكُها يجمع أطراف الدُّنى
أَمَةٌ قامت تُحاكي حُرَّةً ... ساخراً من جهلها هذا الورى
مِنْ سِويسْرَا الشَّرْقِ رَجَّوْا جَنَّةً ... لَهُمُ طابت مَعِيناً وجَنى
طَمعوا فيها ولكن دونها ... مربضُ الأساد مِنْ ذاك الشَّرى
حشدوا حولكِ من قمصانهم ... جحفلاً طبَّق أجواز الفضا
وأثاروا مُرْعِدَاتٍ فوقهم ... حائِماتٍ حجبتْ أُفْقَ السما
وأعَدُّوا من جحيم العلم ما ... يفلق الهام وما يبرى الصَّفَا
طالما بَدّدْتِ خصما عادياً ... في عصور الجهل قِدماً والدُّجى
فانْظُري اليومَ عدوَّاً باغياً ... صَالَ بالعلم وفي النُّور سَطَا
جَرَّدَ السَّمْرَ مِنَ الفَضْلِ وقد ... قَصَرَ الفضلَ عليه والحجى
أُمةَ الأحباش فَانْضِي عزمةً ... ما تَلَقَّتْ جحفلاً إلا أنثنى
وإذا جاءُوا فقُولي لهمُ ... قولةً فيها رشادٌ وهُدى:
نحن خَصَّبْنَا بكم في عَدْوَةٍ ... جانبَ السهل وأَفْوَادَ الرُّبى)
فأجمعوا أشلاَءكم مِنْ تُرْبِها ... قبل أن تَخْطُوا إلى هذا الحِمى

نحن إن لم نَقْرَأ العلمَ ولم ... نَحْذِق الفَنَّ ولا نَحْتَ الدُّمى
نمنَعُ الحوضَ ونَفْنى دونه ... ونعاف العيش في ظل العدى
يا عبيدَ الأمس إنا لم نَدِنْ ... أبَدَ الدهر لجبَّارٍ عَتَا
ما رَوَى التأريخ عنّا أبداً ... غيرَ عزٍّ باذخٍ فيما رَوَى
لم نُغِرْ يوماً على جارٍ لنا ... غير أنَّا كمْ رددنَا من طغى
فإذا ساءكُمُ في أرضنا ... - يا بني الصُّفْرِ - رقيقٌ يشترى
فغداً نَقْرِنُ منكمْ بهمُ ... كلَّ مفْتونٍ على الغاب اجترا!
تَدَّعُونَ الفضل ظلماً والعلا، ... والعلاَ منكم براءٌ والنَّدَى
لكُمُ في الغدر ماضٍ مظلم ... في طرابُلْسَ من الفضل خلا
كم غدرتم وفررتم هلعًا ... ما صبرتم مرَّة في الملتقى
عُمَرُ المختارُ قد جَلَّلكُمْ ... يومُه عاراً على طول المَدَى
فالبسوا العار عليكم سرمدًا ... وأنزلوا حيث نزلتم بالظُبى
مالكم غير ظُبانا من قِرى ... عبثاً منّيْتُم النفس المنى
(سود قمصانكم حمْرٌ غداً ... من نجيعٍ من لُهَاكم قد جرى!)
وتحايا - أُمةَ الأحباش - من ... كلِّ حُرٍ وَدَّ لو كان الفدا
لو دَرَى الحربَ لَلَبَّى ومضى ... في صفوف الحق لا يخشى الردى
إذ تَنَحَّى كلُّ شعبٍ طالما ... شاد بالسلم وبالحق شدا
مَلأَ الدنيا كلاماً فإذا ... قيل: مَن للسلم والحق؟ انزوى
أُمَمُ الغرب وما أدراك ما ... ما أمم الغرب وما رهط العلا
ذَلَّ من يطلُبُ نَصْفاً فيهمُ ... إنما يُطْلَبُ في ساح الوغى
فخري أبو السعود

النسيان

للدكتور إبراهيم ناجي

وحبيب كان دنْيا أَملي ... حُّبه المحرابُ والكعْبةُ بيتُهْ
منْ مشَى يوماً على الورْد لهُ ... فَطريقي كانَ شَوْكاً ومشيتُهْ
من سقى يوماً بماءٍ ظامئاً ... فأَنا مِنْ قدَحِ العُمْرِ سقَيتُهْ
خفِقَ القلبَ له مُخْتلِجاً ... خَفْقَةَ المصباحِ إذ ينضُبُ زيتُهْ
قدْ سلاني فتنكَّرْتُ لهُ ... وطَوَى صفحَةَ حُبِّي فطوَيتُهُ

إبراهيم ناجي

الطبيعة

بقلم رفيق فاخوري

تحنو على عهودها النفسُ ولا ... تسطيع أن تصبر عن لقائها
كأنما حَلّ بجسمي روحها ... وفي عروقي سابَ من دمائها
بكرٌ لها منها حُليً دانيةٌ ... لكل جسٍّ بينهنَّ مسلكُ
لي من مرائيها شخوصٌ أجتلي ... مَحْيايَ في وصالها وأدرك
مطبوعةٌ طبعَ الحياة العاريهْ ... غبطتُهَا وحزنها علانيهْ
تستقبل الأجيالَ في ثوبٍ إذا ... أبلته عادت فأرتدته ثانيه
قديمةٌ، آذارُ يُحْيها، ولا ... يمحو بِلَى الخريفِ من جلالها
يمشي عليه الدهرُ وهى عنه في ... شُغْلٍ فلا تُلْقي إليه بالها
لها البقاءُ حين نغدو رمَماً ... مَنْسِيَّةً لا تهتدي لها الذِكَرْ
يا ليت لي عيناً كمرآة الضُّحى ... ترعى مَجاليها إذا غابَ النظر
أَحْبِبْ بها خرساَء حُمَّتْ شمسُها ... فألهبتْ أنفاسَ كلِ ذي حَرَكْ
وهيمنَ الصمتُ على أرجائها ... كأنْ بِمَنْعى الكونِ قد دار الفلكْ
وأستحوذتْ على الورى إغماءةٌ ... ثقيلةٌ، سلطانُها لا يُدْفَعُ
وَعَرَتِ الأطيارَ سكتةٌ فما ... يَنْغَمُ في سُباته مرجِّعُ
والنهرُ لهبانُ وللماءِ به ... مَسَارِبُ يَسْبَحُ فيها الخاطرُ
والسهلُ في غيبوبةٍ مستغرقٌ ... مَيْتٌ وفيه تلتقي العناصر!
أحببْ بها كَسْلَى تولّى جسمَها ... بعد افترارٍ ومراحٍ خَدَرُ
واحتبسَ النسيمُ محروراً فما ... يَشيعُ في الفضاء عنها خَبَرُ

أُغْرِقُ في صحرائها كآبةً ... تَنْسُجُ في قلبي غَماماً أسودا
وأشتهي لُقْيانها سُوَيْعَةً ... أنْسى بها نفسي ولا أرعى غداً
حمص
رفيق فاخوري

فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية

تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا - 15

فريدريك نيتشة

للأستاذ خليل هنداوي

يؤمن نيتشة بأن حياة الإنسان هي نضال دائم لكل وهم ولكل خطأ. وينتظر إلى الوجود بعيني متشائم؛ فتبدو الطبيعة له صورة تبعث الخوف، والتاريخ وحشياً خالياً من المعاني؛ ينفر ممن يؤمن بأن كل شيء هو للأحسن! ولا يعتقد بأن في وسع الحياة أن تهب لنا لحظة فرح حقيقي. وإذا كانت هذه وهي الحقيقة فواجب الإنسان السامي أن يحارب بدون هدنة ولا هوادة كل ما هو سيئ، وأن يهدم كل القيم الخاطئة والتعاليم الفاسدة وألا يرحم أي مظهر من مظاهر الضعف والرياء والجبن في هذه الحضارة. (إنني أحلم برجال كاملين، مطلقي الإرادة، لا يدارون ولا يراءون. يدعون أنفسهم الهدامين. يخضعون كل شيء لنقدهم ويضحون بأنفسهم في سبيل الحقيقة. ألا ينبغي لكل سيئ ولكل كاذب أن يظهر تحت وضح النهار؟ نحن لا نريد أن نبني قبل الساعة الموقوتة، ونحن لا ندري إذا كان بإمكاننا أن نبني، أو إذا كان الأحسن لنا ألا نبني أبداً. هنالك متشائمون كسالى خاضعون مستسلمون؛ إننا لا نكون من هؤلاء. إن المثل الأعلى الذي نتبعه ونترسمه هو الإنسان الذي قال عنه شوبنهاور، من يعتقد بأن السعادة الحقيقية هي غير ممكنة، ومن يبغض ويمقت الوجود المادي الذي تتكامل فيه الإنسانية المنحطة، ومن يسحق كل ما ينبغي سحقه ولا يشعر بألم يحز في نفسه، أو ينتشر حوله؛ ويمشي بإرادة جبارة لا يلويه عن عزمه شيء، وكل إرادته أن يكون مع الحق والصدق في كل شأن من شؤونه)

يصل شوبنهاور بإنسانه إلى سلب الحياة منه والفناء المطلق، أما نيتشة فإنه يقدس (كاليوناني الديونوزوسي) هذه الإرادة التي تريد الحياة الخالدة وتعمل على تخليدها بأية الوسائل. فهو متشائم، لكن تشاؤمه لا يدفعه إلى الاستسلام، ولكن إلى البطولة المناضلة. فهو يرى الزهد علامة من علامات الانحطاط والذل. لأن التشاؤم - عنده - فكرة مستحيل تحقيقها، لا يقبل بها واقع ولا يثبتها منطق، ولن يكون الفناء غاية الوجود، وهكذا راح

نيتشة يمجد الحياة وآلاءها بدلاً من أن يبشر بالفناء وبغض الحياة كمعلمه؛ يقدس ما يقوي في الإنسان إرادته؛ ويضاعف عزيمته للوصول إلى الهدف الأسمى

ونيتشه في هذا شأنه شأن اليونان في مآسيهم، يفخر بذاته، ويطول بسموه، ويعجب بالحضارة اليونانية لأنها أنشأت جماعة من الرجال السامين، وهل غاية الحياة إلا مثل هذا التوليد؟ والإنسانية عنده تركض وتتألم وتتمخض لتلد هذا العدد الضئيل من هؤلاء الرجال السامين. (وإنما على الإنسانية أن تعمل لتحمل إلى الأرض رجال عبقرية، هذه غايتها، ليس لها من بعدها غاية! وإن علينا أن نوحي إليها أن تعجل بتوليد الفيلسوف والفنان فينا وفي غيرنا. وأن نسعى إلى إكمال معنى الطبيعة؛ وأن على الإنسان أن يحس بنفسه أنه صنع غير كامل من صنع يدها. ولكننا نوقظ فيه - برغم نقصه - هذه العبقرية الفنية حتى يساعد الطبيعة على إكمال ما جاء ناقصاً منها، وبهذا يكمل الإنسان الفنان صنع الطبيعة. وبهذا تغدو معرفة الإنسان نفسه وشعوره بصغرها هي أساس نهضته. . .

إلا أنني أرى فوقي شيءً يتألق؛ هو أسمى مني، فيه من معنى الإنسان أكثر مما فيَّ!) فساعدني على الوصول إلى مثل هذا المثل؛ كما أنني سأعمل على مساعدة من يفكر مثلي ويتألم مثلي. . . كل ذلك لنمهد الطريق أمام ذلك الإنسان المقبل، الشاعر بكماله ومعرفته الواسعة، ومحبته العميقة التي لا تحد، وقدرته المولدة وتأمله البعيد: فلا يجب والحالة (هذا الإنسان الذي سيحيا في الأرض حاكما، بيده مقياس كل شيء هذه أن نترك للمصادفات عمل هذا الإنسان، وإنما ينبغي للناس أن يجهدوا ويعملوا بالانتخاب على خلق هذه الذرية - ذرية الأبطال - على أن هذا المذهب قد يترك جحفلاً

من العبيد الذين شأنهم أن ينفذوا إرادة الأبطال. والعبودية - عند نيتشة - لازمة لتحقيق مثل هؤلاء الأبطال. إذ ليست غاية العلم والبراعة أن تخفف من نصب هؤلاء المتعبين. فعمال اليوم ليسوا بأكثر سعادة من عبيد الأمس. هؤلاء كانوا يخضعون لشرفاء ذوي غطرسة وخيلاء. وأولئك دائبون على خلق نخبة سامية من رجال العبقرية، فالبطل ليس دأبه بأن يحقد على المظلومين والمتخلفين فحسب، بل مما ينبغي له أن يقتل عامل الشفقة في صدره إذا هب لأنه عامل خطر. إذا ظفر عمل على قتل البراعة في سبيل السعادة المادية للإنسانية. وهو - هنالك - لابد مصطدم بالشريعة الغالبة التي تسيطر على الوجود. وكل من ود أن يحيا، أو حكم عليه بأن يحيا في وجود مشحون بالألم والفناء أفينبغي له أن تشتمل نفسه على هذه المضادة المؤلمة التي تعبر عن كنه الحياة، وسر كل تطور واستحالة. . . (كل لحظة تفترس الثانية. وكل ولادة هي موت كائنات لا عداد لها. الولادة والحياة والموت كنه ذو جوهر واحد. وهكذا نستطيع أن نشبه البراعة المنتصرة بالبطل الظافر الذي يسيل دمه من جراحه، ولكنه يجر خلفه قطيعاً من المغلوبين والعبيد المقيدين بعجلته) ينبغي لنا إذا أردنا الحقيقة أن نضرب بكل وهم باعث على التفاؤل عرض الحائط. فالرجل الغربي الذي يظن ببساطة نفسه أن العلم يبعث على السعادة، ويرى أن سعادة الجميع هي غاية الحضارة القصوى؛ هذا الرجل يجرب أن ينكر تعس (العبيد) هذا التعس اللازم للمجتمع البشري. وهو يموّه عليهم بقداسة العمل، زاعماً أن الآكل بعرق جبينه هو أشرف الناس. فياله من مذهب حقير أصبح لا يخدع أحداً! ولماذا لا نعترف بأن العبودية هي حقار وصغار، ولكنا نستطيع أن نخفف وقعها ونجعلها أقل شقاء، ونحتم على أصحابها القبول بها. . . فما ظل المجتمع الإنساني على هذا الوضع فان فيه الأقوياء الذين يرفعون عظمتهم على طائفة من المستضعفين في الأرض! كان المدفع يدوي في جوف أوربا، ونيتشه معتزل في أحد وديان (الألب) يعالج درس الروح اليونانية وفنهم وحياتهم. ولما استقر السلام أعلن أن عصر الأحزاب قد شارف النهاية. وأن روحاً حرة يجب أن تنهض وتعرف كيف تتعالى فوق هذه الحدود! (إن الشرق والغرب مفصولان بشحطة يرسمها قلم لأعيننا، هذه الشحطة هي التي تثير خوفنا. تقول النفس الفتية (أنا اجرب بأن أكون حرة) وحق لها أن تثور، لأنها ترى أن شعبين قد يهرقان دماؤهما لأن بحراً يفصل بينهما، أو لأن ديانتين مختلفتين عندهما لم تكونا قبل ألفى عام) وهكذا نرى نيتشة بكل ما أوتي من تفكير وقوة يريد أن يزعزع تقاليد عصره، ويشعر بنفسه بأنه لم يخلق لحاضره وإنما خلق للأجيال القادمة (يتبع)

خليل هنداوي

القصص

من أساطير الإغريق

أدونيس

للأستاذ دريني خشبة

كان جميلاً كالكأس المترعة. وجه أبيض كالحبب، ثم تتدفق الخمر في دمه، وتكمن في عينيه، وتنثال على لسانه

رأته فينوس يستحم في بحيرة مزهرة، فوقفت تنظر إلى هذا التمثال من بلور، يسبح في لجه من لجين! ولمحها الغلام فخجل وأستحيا، وطفق يخصف عليه من أوراق اللوتس. . . ولكن الحياء ورد وجنتيه، وصبغ خديه، وفتر ناظريه، وتصبب في شفتيه فاحمرتا! وبذلك أصبح فتنة تملأ البحيرة، وعجباً يشيع في الماء

وسبح إلى الشاطئ المقابل؛ بيد أن فينوس كانت عنده قبل أن يبلغه هو، فانثنى يريد الشاطئ الأخر، فكانت فينوس عنده كذلك؛ فأرتد يحسب أنه يسبقها إلى الشاطئ المقابل كرة أخرى، ولكن الإلهة العنيدة كانت تسابق الوهم في الوصول إلى أحد الشاطئين؛ فلما نال الجهد من أدونيس لم ير بداً من البروز إلى البر، وليكن من أمر هذه الغادة التي تهاجمه بحبها وهو لا يعرف من هي - ما يكون!

- (أدونيس. . . أليس كذلك؟)

- (. . . . .؟)

- (. . .ألا تتكلم؟)

وكانت قطرات الماء البلورية تتحدر على جسمه الرشيق، فمن يدري؟ أهي من البحيرة أم من ماء الخجل. . .!
- (. . .تكلم يا أدونيس! ألا تعرف من أنا؟)
- (. . . . . .؟؟)
- (أنا التي سجد عند إخمصيها مارس الجبار! لقد ألقى سلاحه لدى النظرة الأولى التي زلزلت بها أركان قلبه! ألا تصدق؟ أدونيس؟. . .!)
- (. . .أرجوك. . . إن رفاقي ينتظرونني، ونحن جميعاً نتخذ أهبتنا للصيد)
- (. . .صيد؟. . . . وماذا تصيدون في هذه البرية الموحشة؟)
- (. . .الخنازير يا غادة. . . إنها متوحشة جداً)
- (وهي خطرة أيضاً، وكل يوم لها ضحايا. . . أدونيس! ألست ترى إلى جمالك الفينان! ألا تشفق عليه أن يصيبه سفع من شمس هذه البرية المحرقة؟ ألا تقلع عن صيد الخنازير القتالة؟. . . تكلم لا تصمت هكذا؟)
- (أرجوك؟)
- (ترجوني؟ أنا التي أرجوك يا حبيبي!)
- (. . . .؟؟. . . .)
- (أراك ارتبكت إذ دعوتك حبيبي؟ وَيْ! ما للحياء يصبغك بأرجوانه هكذا يا أدونيس؟ تعال. . . هات قبلة!)
- (لا. . . لن يكون شيء من هذا! اسمعي! ها هي ذي سلوقياتي تنبح ولابد أن أسرع إليها. . . دعيني. . . دعيني!)
- (لن أدعك، ولو استجمعت شبابك كله وريعانك ما استطعت أن تفلت من ذراعي يا حبيبي!. . . . . هات قبلة قلت لك. . . .!)
- (. . . .؟. . . .)
- (إذن أنال بالقوة كل ما أشتهي تعجب! سأحرق شفتيك الباردتين بشفتي المشتعلتين!)
- (. . .أ. . . ر. . . جوك. . . أوه. . . حس. . . بك)
- (فمك جميل شهي، ولكن خديك جميلان كذلك. . . ألف قبلة على خديك وعارضيك أيها الغلام الفتان!. . .)
- (. . . . .؟؟. . . . .)
- (. . .أنفاسك تتضوع من فمك الرقيق، وأنفك الدقيق؛ فهل فيك حديقة من بنفسج؟)
- (. . .أر. . . جوك. . . كفى. . . كفى. . . سلوقياتي تنبح، ولا بد أن أذهب!. . .)
- (. . .تذهب؟ ولمن تترك هذا الصدر الدافئ الذي يضمك؟ حقاً غرير!. . .)
- (. . .أرجوك. . . قلت لك!. . .)
- (. . .كل هذه القبل أغمر بطوفانها فمك، ولا تحييها بقبلة؟. . . قبلني!. . .)
- (. . .لا. . . أقدر. . . أرسلي ذراعيك عن عنقي!. . .)
- (. . .أنت لا تقدر؟ آه يا ساذج؟ إنني لن أفلتك ما دمت تتباله علي!. . .)
- (. . .أرجوك، دعيني أذهب! أوه!. . .)
- (. . .قبلني قلت لك! لن يقهر كبريائي فتى غرير مثلك! إذا قبلتني أرسلتك!. . .)
- (أقبلك؟)
- (اجل، قبلني يا أدونيس!)
- (أقبلك كيف؟)
- (. . . . . .هكذا يا صغيري!)
- (. . .؟. . .؟. . . دعيني إذن. . .!)

وانتشت ربة الجمال بقبلة أدونيس اليافع، فارتجفت ارتجافة هائلة، وخرت إلى الأرض كأنما أغشي عليها؛ وأرتبك الفتى الذي لم يألف مثل هذا الموقف النادر من مواقف الحب، فأنف أن يغادر المكان قبل أن يعالج الغادة حتى تصحو، ثم يذهب إلى صيده بعد. ولكنه لم يدر ماذا يفعل؛ وعلى كل فق طفق يدلك قدميها، ويربت على صدرها، ويمر بيديه الناعمتين على خديها وجبينها، فلما لم تفق، أهوى على فمها الحلو يلثمه. . . ويرد إليه دينه من القبل! وكانت فينوس الخبيثة تحس وتصمت. . . ولا تأتي بحركة قد تطير بهذه الأحلام السعيدة التي تطيف بها، تنزل من السماء الصافية عليها،

ألم تكن تضرع إليه من أجل قبلة واحدة؟ فكيف بها تطرد العشرات والعشرات من القبل؟!

ولم تطق فينوس. . . ففينوس ربة ولكنها هلوك! لقد طوقت أدونيس بذراعيها، ثم أمطرت فمه الخمري، ووجهه العطري، آلافاً من القبل العِذاب، والنولات الرطاب حدثته عن الحب بلسان ينفث السحر، وعينان تتقدان اشتهاء، ولكنه كان يصم أذنيه ويغلق أبواب قلبه. وضمته بحرارة وعنفوان إلى ثدييها، فما زادته إلا شموساً وعناداً. . .

قالت له: (ألا تقبل عليّ إلا ميتة يا أدونيس؟ أيسرك أن اقضي نحبي أذن؟ ألست أعدل عندك خنزيراً برياً؟ أكلما خلعت عليك شبابي ونضرتي وحبي ألقيت بها في تراب كبريائك غير آبه لدموعي وتوسلاتي؟ افتح قلبك للحب قلبك يا صغيري!!. . .)

ولكن أدونيس يعبس عبوسة محنقة ويقول لها: (أهذا كله عندك هو الحب؟. .)

فتنظر في عينيه الساخرتين نظرة تستشف بها ما في قرارة نفسه وتسأله: (إذا ما هو يا أدونيس؟)

وينفجر الفتى بالحقيقة المرة فيقول لها: (إن كنت تجهلين ما هو، فالحب أجل من هذا وأقدس يا غادة. . . . . إنك قد أسلمت وأسلمت جسمك للشهوة وتصهره، وروحك للغلمة تحرقها وتذهب بها شعاعاً. . . دعيني أذهب إذن. . . دعيني. . . سلوقياتي تنبح ولابد أن أذهب إليها. . . . . .)

وكأن ثلجاً ذاب في أعصاب فينوس عندما سمعت أدونيس ينتهرها ويعيرها، فتقلص ذراعها، وفترت نفسها، وخمدت في قلبها تلك الشهوة الملحة التي سلطت عليها تعذبها وتضنيها. . . واستطاع الفتى بجهد بسيط أن يتخلص من أسرها، فأنطلق يعدو كالظليم إلى سلوقيلته التي كانت تناوش خنزيراً كبيراً بادي النواجذ بارز الأنياب. . . وجلست فينوس تنظر إلى أدونيس يعدو، وتجتر كلماته وتتعذب

وغفت إغفاءة قصيرة، ولكنها استيقظت فجأة على صرخة راجفة من جهة الشرق، حيث كان فتاها الحبيب يتلهى بالصيد، فهبت مروعة، لأن الصوت ككان بصوت أدونيس أشبه، وانطلقت تعدو حتى كانت عنده. . .

يا للهول!!

أدونيس مضرج بدمه، وعيناه مستسلمتان للموت، وسلوقياته تبكي حوله؟! لقد أنقض عليه الخنزير الضاري فمزق لحم الفخذة، وسر في الدم سم الكلب!

ووقفت فينوس ذاهلة تنظر إلى حبيبها الصغير، ثم أهوت على فمه تقبله وترشفه وتبكي. . . ثم أسندت الرأس الذابل إلى صدرها، وجعلت تقول:

(ألم يكن حباً حبيبي يا أدونيس؟! يا للقضاء؟! كنت أعرف هذه النهاية، وكنت أشفق عليك منها، ولذا كنت أتشبث بك، وأحاول أن أنسيك بقبلي ودموعي خنازير هذه البرية، ولكنك قلت أن حبي شهوة، وصبابتي غلمة، فجنيت على نفسك وعلي!! أوه! يا لبرودة الموت؟ أدونيس؟ أدونيس؟ رد علي يا حبيبي! لقد حسبتني غادة! أنا فينوس أكلمك. . . فرد علي. . . آه.)

وألقت على الكلأ السندسي، وانطلقت تبكي وتنتحب، حتى كانت عند عرش الأولمب فقالت تكلم رب الأرباب زيوس العظيم:

- (أدونيس يا أبي!!)
- (ماله؟. . .)
- (قتله الخنزير. . . قضى. . .)
- (وما لك مذعورة هكذا؟. . .)
- (مذعورة؟ وحقك إن لم تأمر برده إلى الحياة الدنيا لأذهبن معه إلى هيدز!!)

فوقف إله كان يجلس قريباً من السدة وقال: (تذهبين إلى هيدز؟! يا للهول! والجمال والحب أيذهبان في أثرك إلى دار الموتى؟ وهذه الدنيا يا فينوس؟)

- (لا . . . لا طير. . . لا شفق. . . لا زهر. . . تخرب. . . هذه الدنيا تنعى من بناها. . . لا حنين. . . لا غول. . . لا حب. . . لا خمر. . . لا موسيقى. . . لن تكون دنيا كم شيئاً إذا ذهبت إلى هيدز مع حبيبي أدونيس!!)

فسجد الإله الذي تكلم أمام زيوس، ثم نهض وقال له:

- (أنا بلسان الآلهة أضرع إلى مولاي أن يلبي طلبة فينوس ربة الحب. . .)

فتبسم إله خبيث كان قريباً منه، وغمز له وقال:
- (وربة الجمال يا أبن العم!!)
وأرسل زيوس العظيم إلى أخيه. . . بلوتو. . . إله هيدز، يرجوه عن أدونيس ويستأذنه فيه؛ ولكن بلوتو كان أحرص على الجمال من سكان هذه الحياة الدنيا، فأبى أن يلبي رجاء أخيه، فألح عليه، فلم يقبل. . .
ثم أتفق الأخوان، زيوس وبلوتو، على أن يجعلا حياة أدونيس مناصفة، فيقضي ستة أشهر في هيدز، أشهر الخريف والشتاء، وستة أشهر في الدنيا، حيث تأخذ زخرفها في الربيع وتؤتي أكلها في الصيف!!
ولما لقيت فينوس حبيبها عائداً أدراجه من دار الفناء قالت له: (أتستطيع اليوم تعريف الحب؟). فقال أدونيس: (هاتي قبلة يا فينوس. . . هاتي قبلة. . . هاتي ألف قبلة. . .)

دريني خشبة

قلعة الرمل

بقلم حسين شوقي

كانا يسيران على الشاطئ غير معنيين بما حولهما وهما يتبادلان هذا الحديث:
هو - عزيزي، إني آسف إذ تأخرت عن موعدك؛ ولكن صديقاً حميماً لم أره من زمان طويل اعترضني في الطريق استوقفني ملياً. . .
هي - لا عليك من ذلك، فثمة ما يدعو للاعتذار
هو - ولكن لماذا أجدك وحدك؟ لم لم تذهبي إلى السيدة (س) لتأنسي برفقتها؟
هي - أني أوثر العزلة، كي أشهد في سكون تلك الصفحة الزرقاء العجيبة المنبسطة أمامي. . .
هو - ولكن البحر ثائر اليوم، إني لا أحبه في مثل هذه الحال؛ إنه ليشبه وجه عجوز قد غضنته السنون
هي - أنت تراه كذلك؟. . . أحسبك زعمت لي مرة أنك تحب البحر وهو هائج، لأنه يشبه قطيعاً من الخراف البيضاء اللطيفة!. . .
هو (في حيرة) - هل. . . هل ينزل البحر؟
هي - نعم، وأنت؟. . .
هو أنا سأنتظرك في المقصف، لأني على موعد هناك؛ أتأذنين لي في الذهاب؟
هي - الآن؟. . .
هو - أجل. . . .
هي - لك ما تشاء!. . . (ثم افترقا)
الفتاة في هم شديد، لأن صاحبها لم يعد يحبها؛ إنها لا تشبهك في أنه بدأ يملها، فقديماً لم يكن يسمح لها أن تنزل إلى البحر وحدها وهو كذلك مضطرب مائج، وهو لم يلاحظ ثوب البحر الجديد الجميل الذي كانت تلبسه، مع انه نال إعجاب جميع الذين شاهدوها تخطر به على الشاطئ. . . تنهدت الفتاة قائلة: (آه! لماذا لم تخلق القلوب البشرية متشابهة كلها؟ لماذا خلق كل قلب يعيش من عواطفه في دنيا وحده؟)
وبينما الفتاة غارقة في هذا التفكير، إذ وقع نظرها على أطفال يبنون قلعة من الرمل، وهم يهللون ويلغطون فرحين. بدد هذا المنظر البهيج خواطر الحزن التي كانت تستبد بالفتاة، فوقفت ترقب في اهتمام عمل الصغار، ولما انتهى بناء القلعة وضع الأطفال في كل ناحية منها قطعة من الخشب على شكل مدفع، ثم اختلفوا على جنسية العلم الذي يرفع على القلعة، إذ كان كل منهم يحاول أن يرفع رايته؛ وبعد جدال ومداولة، اتفقوا على رفع راياتهم جميعاً عليها ونال كل منها حظه من المجد. عندئذ صاحت الفتاة في دهشة: ولكن ملك أي دولة هذه القلعة؟ فأجابوا ملك جميع الدول
فقالت الفتاة: آه ما أمهركم في السياسة أيها الصغار! لو أن آباءكم لم يعرفوا الأثرة لأراحوا العالم من مشاكل عدة! ليت رجال السياسة ظلوا أطفالاً. . .! ولكن، هاهي ذي موجة عظيمة تطغي على الشاطئ فتبتلع القلعة بمدافعها وراياتها؛ فوقف الأطفال لحظة واجمين، ولكن كم كانت دهشة الفتاة عظيمة حينما رأت هذا الوجوم ينقشع بغتة، ثم هو ينقلب إلى ضحك ومرح ونشاط، إذ استقر رأيهم على بناء قلعة أخرى من فورهم، تكون أروع وأفخم من القلعة الأولي. . كم كانت الفتاة تغبط هؤلاء الصغار

على تلك السرعة التي سلوا بها أشجانهم، أنها تعطي كل ما تملك لكي تتمكن نمن أن تستبدل بقلبها الكليم أحد هذه القلوب الغضة! ثم أخذت تتذكر طفولتها السعيدة أيام . .كانت آلامها النفسية لا تدوم أكثر من لحظة .

الفتاة حزينة، حزينة جداً، لأن حبها في دور النزع، فها هو ذا حبيبها يتأخر عن مواعيده، وهو ذا بدأ يتعلل بالمعاذير؛ فهل يكون ذلك إلا المقدمات المألوفة للفراق. . .؟ الفتاة تذكر في حسرة وألم مقدار ما كان تعلق حبيبها بها في بداية حبهما. . وتذكر كيف كان لا يقوى على فراقها لحظة، حتى أن أحد أقاربه الأعزاء قد مات فلم يشترك في جنازته حتى لا يفرق ذلك بينهما وقتاً ما. .! وكم زعم لها أن وجودها بجانبه ضروري له ضرورة الماء للسمك. . والآن، الآن، هو يتلمس الأعذار ليبتعد عنها .!.

ما أغلظ قلب هذا الفتى! إن هذه الأمواج الصاخبة لأرق قلباً منه، وإنها لترحب بالفتاة على حين يفرمنها! كم تود الأمواج أن تضم إلى صدرها تلك الدمية الجميلة ذات الجدائل الذهبية! أتذهب الفتاة إلى لقاء صاحبها في المقصف لا! إنه سوف يستقبلها بتلك الابتسامة المصطنعة البغيضة! وإن لقاء الأمواج لأحب إليها من لقاء هذا الحبيب. . اصبري أيتها الأمواج؟ إن الفتاة الجميلة ذات الجدائل الذهبية تراود نفسها أن تهب لك هذا الجسم الغض،

وما أراها ستمتنع عليك، وما أراها ستكون لغيرك. . . . . وكان انتظار الفتى صاحبته في هذا اليوم وبعد هذا اليوم عبثاً. . .

حسين شوقي

البريد الأدبي

استفتاء السلام

تألفت منذ حين في إنكلترا لجنة سميت (بلجنة التصريح القومي) عن عصبة الأمم ومسائل التسليح، ونظمت استفتاءعاماً للشعب البريطاني عن مسائل السلام الدولي ليعرف العالم إلى أي اتجاه يتجه بعواطفه وتأييده؛ وتولى رئاستها الفيكونت سسل، وأنفقت اللجنة مدى أشهر جهوداً عظيمة للدعوة إلى الاستفتاء وتنظيمه، وجمع الإجابات عن الأسئلة التي طرحتها على الجمهور البريطاني. وقد أصدرت أخيراً كتاباً شرحت فيه جهودها والنتائج التي وصلت إليها، وهذه هي الأسئلة الخمسة التي طرحت على الشعب البريطاني لإبداء رأيه فيها:

1 - هل يجب أن تبقى بريطانيا العظمى عضواً في عصبة الأمم؟

2 - هل تؤيد تخفيض التسليح تخفيضاً عاماً بمقتضى معاهدة دولية؟

3 - هل تؤيد إلغاء الخدمة القومية العسكرية والتسليح الجوي بمقتضى معاهدة دولية؟

4 - هل يحضر صنع الأسلحة وبيعها للفائدة الشخصية بمقتضى معاهدة دولية؟

5 - هل إذا أصرت أمة ما على مهاجمة أمة أخرى يجب على الأمم الأخرى أن ترغمها على وقف الاعتداء بالإجراءات الاقتصادية، وبالإجراءات العسكرية إذا اقتضى الحال؟

وقد عاونت اللجنة في عملها عدة من الصحف الكبرى، فطرحت هذه الأسئلة للاستفتاء؛ وقسمت اللجنة بريطانيا العظمى إلى مناطق توافق الدوائر الانتخابية؛ وكانت نتائج الاستفتاء التي نشرتها في كتابها كما يأتي:

السؤال الأول - أجاب عنه بالإيجاب 10 , 624 , 560 شخصاً، وبالنفي 337 , 964

السؤال الثاني - أجاب عنه بالإيجاب 10 , 058 , 526 شخصاً وبالنفي 815 , 365

السؤال الثالث - أيده بالإيجاب 9 , 157 , 145 شخصاً، وعارضة 1 , 614 , 159

السؤال الرابع - أيده بالإيجاب 10 , 002 , 849 شخصاً وعارضه 740 , 634

السؤال الخامس - أجاب عنه بالإيجاب عن الشطر الأول أكثر من تسعة ملايين، وبالإيجاب عن شطر الثاني أكثر من ستة ملايين، وأجاب بالنفي عن الشطر الأول نحو ستمائة ألف وعن الشطر الثاني أكثر من مليونين

ولمثل هذا الاستفتاء ونتائجه أهمية عظيمة في بلد كبريطانيا تتمتع بأعرق الأنظمة الديمقراطية، ويحسب فيه اكبر حساب للرأي العام، وتتجه السياسة الخارجية تحت مؤثرات الرأي العام ورغباته. ويتضح من مجموع الإجابات أن الشعب البريطاني يميل بصفة عامة إلى السلام والسياسة السلمية. وقد عقب الفيوكنت سسل على نتائج الاستفتاء بمقال عن حالة السياسة الدولية العامة قال فيه:

أن الموقف الأوربي قد ساء إلى اعظم حد، وقد أخذ العالم يتحرك نحو الحرب،)

وهزت الحوادث المخربة التي وقعت في الشرق الأقصى كل أنظمة السلام، وقامت أمة عسكرية (يريد اليابان) تتجاهل المعاهدات الدولية فاستولت على أراض شاسعة (من أملاك جارتها، وتحدت معارضة جنيف بكل نجاح)
وقد قبلت عدة أمم أوربية نظام الدكتاتورية الذي يدعو إلى استعمال القوة كأداة صالحة لتسوية المسائل الدولية، وأنذرت دولتان عظيمتان عصبة الأمم بالانسحاب، وعاونت القومية الاقتصادية التي نشأت عن الأزمة العالية، على إحياء نظريات العزلة القديمة؛ والخصومات الجنسية التي تخلق بأشنع العصور الوسطى، ولاح أن أوربا (تنحدر إلى حالة الطائفية القديمة التي أنقذتها منها المدنية النصرانية
تأريخ للصحافة
كانت جريدة (التيمس) قد أصدرت بمناسبة عيدها الخمسين بعد المائة وهو الذي احتفلت به في شهر يناير الماضي، عدداً بتاريخ الصحافة من سنة 1785 وهو عام إنشائها حتى يومنا. وقد لقي هذا العدد الخاص يومئذ رواجاً عظيماً وتفند بسرعة مدهشة حتى أن إدارة (التيمس) رأت أن تعيد طبعه ولكن في شكل كتاب يصلح للمكتبة. وقد صدر هذا المجلد أخيراً، وهو في نحو مائتين وعشرين صفحة، وهو يحتوي على تأريخ ضاف للصحافة وتطوراتها في مدى القرن ونصف القرن الذي عاشته الجريدة الإنكليزية الكبرى؛ وقد صدر بصورة فوتوغرافية لكتاب الملك جورج الخامس إلى التيمس وفيه يهنئها بعيدها؛ ونشرت صورة طريفة أخرى منها صورة تخطيطية لمدينة لندن منذ مائة وخمسين سنة حينما صدر العدد الأول من (التيمس) تحت عنوان (السجل اليومي العام). وقد طبع في ثوب قشيب في منتهى الأناقة، وجعلت منه نسخ مذهبة بديعة تناسب هذا التذكار الصحفي العظيم
آراء جديدة في التربية
تتحدث الصحف النمسوية في تلك الآونة عن العلامة المربي (البيدا جوجي) جاك دالكروزي وعن نظرياته في التربية، وذلك لمناسبة احتفاله ببلوغ السبعين من عمره. وجاك دالكروزي سويسري الأصل ولكنه ولد في فينا ونشأ بها في ذلك العهد السعيد، عهد شوبرت ويوهان شتراوس؛ ومال إلى الشعر والموسيقى، وظهر بطريف آرائه في التربية. وأنفق مدة الحرب في ألمانيا، ولكن نظرياته لم تلق هناك نجاحاً؛ ثم نزح إلى براج وهنالك ذاعت نظرياته، وأنشئت المدارس والبرامج الجديدة متأثرة بروحها، ويرى دالكروزي أن الموسيقى تولد مع الإنسان، وأن الإنسان ولا سيما الطفل يحملها في أعمق مشاعره؛ ومن ثم ابتكر دالكروزي نوعاً من الرياضة التوقيعية تتأثر بروح الموسيقى التي هي روح الإنسان. وتقوم نظرية دالكروزي الأساسية في التربية على أن الإنسان يستطيع الابتكار بطبيعته، وأن الإنسان هو الذي يخلق نفسه ويكونها، ولهذا يرى أنه يجب أن يعود الطفل الارتجال في القول والعمل؛ وهذه نظرية تخالف رأي بروكنر القائل بأن الإنسان لا يستطيع الابتكار إلا بعد التحصيل والمران الفني، ولكن جاك دالكروزي يبث روح الابتكار في تلاميذه، وينظمه كفن، ويرى أنه خير وسيلة لسرعة البت وتحقيق المجهود، وإدراك الآراء، وهو يصقل الشعور، ويوجد صلة مباشرة بين الروح الذي يتأثر ويوحي، وبين المخ الذي يفكر ويتصور؛ وقد دلت التجارب على أن الطفل يعشق الارتجال، وانه يتفوق في الابتكار أحياناً على الأحداث، وذلك لأن ذهنه لم يكن قد صفد بعد الأصول والقواعد الموضوعة، ولأن ذهنه يتمتع بالحرية الطبيعية ولنظريات دالكروزي في التربية وتكوين النشء أثر عميق في تربية الجيل الحاضر من الشباب في النمسا وتشكوسلوفاكيا.
الكتب
1 - المقنع في رسم مصاحف الأمصار مع كتاب النقط
لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني
2 - المختار من شعر بشار للخالديين
نشره وعلق حواشيه الأستاذ محمد بدر الدين العلوي
للأستاذ محمد بك كرد علي
تحدثنا في العدد الماضي عن كتاب التيسير في القراءات السبع للإمام أبي عمرو عثمان بن سعيد الداني الذي نشره العلامة برتزل. واليوم نتحدث عن كتابه الآخر وهو (المقنع) في رسم مصاحف الأمصار مع كتاب النقط نشره كذلك العلامة برتزل، قال

المؤلف في مقدمته: (هذا كتاب أذكر فيه إن شاء الله ما سمعته من مشيختي، ورويته عن أئمتي، من مرسوم خطوط مصاحف أهل الأمصار: المدينة ومكة والكوفة والبصرة والشام وسائر العراق، المصطلح عليها قديماً، مختلفاً فيه ومتفقاً عليه، وما انتهى إليّ من ذلك، وصح لدي منهم عن الإمام مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه، وعن سائر النسخ التي انتسخت منه الموجه بها إلى الكوفة والبصرة والشام. وذكر كيف جمع عثمان المصحف، وروى أن علياً قال: لو وليت لفعلت الذي فعل عثمان. وقال: إن أكثر العلماء على أن عثمان بن عفان لما كتب المصحف جعله على أربع نسخ، وبعث إلى كل ناحية من النواحي بواحدة منهن، فوجه إلى الكوفة إحداهن، وإلى البصرة أخرى، وإلى الشام الثالثة، وأمسك عند نفسه واحدة. ثم أفاض في رسم المصاحف وذكر ما حذفت منه الياء اجتزاءً بكسر ما قبلها منها، وما حذفت منه الواو اكتفاء بالضمة منها أو لمعنى غيره، وما رسم بإثبات الألف على اللفظ أو المعنى، وما رسم بإثبات الياء على الأصل؛ وما رسم بإثبات الياء زائدة أو لمعنى، إلى ما يتعلق بذلك، وختم هذا الكتاب بقوله: (فان قيل فلم خص زيد (بن ثابت) بأمر المصاحف، وقد كان في الصحابةمن هو أكبر منه كابن مسعود، وأبي موسى الأشعري وغيرهما من متقدمي الصحابة، قلت إنما كان ذلك لأشياء كانت فيه، ومناقب اجتمعت له، لم تجتمع لغيره، منها أنه كتب الوحي للنبي صلى الله عليه وسلم، وأنه جمع القرآن كله على عهد رسول الله (ص)، وأن قراءته كانت على آخر عرضة عرضها النبي على جبريل عليهما السلام، وهذه الأشياء توجب تقديمه لذلك وتخصيصه به، لامتناع اجتماعهما في غيره، وإن كان كل واحد من الصحابة رضوان الله عليهم له فضله وسابقته، فلذلك قدمه أبو بكر لكتابة المصاحف وخصه بها دون غيره، من سائر المهاجرين والأنصار؛ ثم سلك عثمان رضي الله عنه طريق أبي بكر في ذلك إذ لم يسعه غيره، وإذ كان النبي (ص) قد قال اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر فولاه ذلك أيضاً وجعل معه النفر من القرشيين ليكون القرآن مجموعاً على لغتهم، ويكون ما فيه من لغات ووجوه على مذهبهم، دون ما لا يصح من اللغات ولا يثبت من القراءات. . .)

وأتبع المؤلف كتاب المقنع في مرسوم المصاحف بكتاب نقط المصاحف وكيفية ضبطها على ألفاظ التلاوة، ومذاهب القراءة، بدأه بذكر من نقط المصاحف أولاً من التابعين ومن كره ذلك، ومن ترخص فيه من العلماء، ثم عرض لكل ما يتعلق بهذا الباب. وقد وضع الناشر فهرساً للآيات الواردة في كتاب التيسير وكتاب المقنع وكتاب النقط فجاء مسهلاً للمطالع والمراجع

هذه عناية علماء المشرقيات بكتب الإسلام، أما خاصة أهله اليوم فساهون لاهون. وليت سادتنا علماء الأزهر والمعاهد المماثلة له في القطر، وأساتذة دار العلوم وغيرهم يتروون في عمل هؤلاء الأعاجم، وقد كان عليهم هم أن يأخذوا باليمين آثار السلف ليحيوها قبل أن تنتظر في الخزائن عطف الغرب

أننا مدينون لعلماء المشرقيات من الهولانديين والجرمانيين والفرنسيين والبريطانيين والإيطاليين والأسبانيين، وغيرهم من شعوب أوربا وشمالي أمريكا، بما تفضلوا به علينا من نشر أسفارنا. أحسن الله إليهم بقدر ما أحسنوا لمدنيتنا وآدابنا.

- 2 -

عني السيد محمد بدر الدين العلوي من أساتذة جامعة عليكرة الإسلامية في الهند بتصحيح (المختار من شعر بشار) اختيار الخالدين وشرحه لأبي طاهر إسماعيل بن أحمد بن ذيادة الله النجيبي الرقي من أهل القرن الخامس، فوقع في 341 عدا فهارس قوافي الأبيات والمصاريع وأسماء الشعراء وأسماء الرجال والنساء والقبائل والأصنام والأفراس والجمال.

وهذا من الكتب التي يزيد أحياؤها مادة الأدب القديم، وتفيد في بث الجيد من الشعر والنثر وفصيح اللغة، وفيه جواب كاف شاف لمن حاولوا أن يحذفوا من كتب القدماء ما لم يروه منطبقاً بزعمهم على مصطلح هذا العصر في هزل الأدب ومضحكاته؛ فقد نقل من صفحة 201 إلى ما بعدها قصصاً وأشعاراً من هذا القبيل، أجاد الناشر ومعلق الفوائد على الكتاب السيد العلوي في إبقائها بحالها، على ما تقضي بذلك أمانة العلم، إذ الناس يحبون أن يروا الكتاب كما ألفه مؤلفه، لا كما راق ناشره، وقد يجوز هذا

لنفسه حذف مواضع لم ترقه، وعبارات لا يستحن إثباتها أصحاب الذوق الجديد، فيجيء الكتاب المشذب على هذا النحو كتاب الناشر لا كتاب المؤلف، ولو كانت هذه الطريقة من إثبات ما يسمونه الفحش اليوم مما يستنكر لما رأينا الراغب الأصفهاني في محاضراته، ولا ابن حزم الضاهري في طوق الحمامة، وهما ما هما من المكانة الدينية والعلمية، يجوزان أن ينقلا أشياء من هذا القبيل يعدها بعضهم في عصرنا نابية عن حد الادب؛ فالناشر المستعرب الهندي إذن جدير بكل احترام وإعجاب لعنايته بنشر مصنف قديم على النحو الذي وضعه واضعه

والشكر الكثير للجنة التأليف والترجمة والنشر على أحيائها هذه الكتب خدمة للمعارف والآداب سيذكرها التأريخ لجماعة متشاكلين في العلم والتربية تألفوا على غاية نبيلة واحدة، وهي خدمة العلم والأدب في مظاهره المنوعة.

محمد كرد علي

خواطر الخيال وإملاء الوجدان

تأليف محمد كامل حجاج

للدكتور عبد الوهاب عزام

الأديب الأريب محمد كامل حجاج له فضل قديم على قراء العربية بما عرفهم من الأدب الغربي في كتابه الكبير (بلاغة الغرب) وأنا اعترف أني عرفت الأدب الغربي أول ما عرفته، في هذا الكتاب، وأحسب كثيراً من المتأدبين يشاركونني في هذا الاعتراف وقد اخرج الأديب الفاضل عام أول كتاباً سماه (خواطر الخيال وإملاء الوجدان)، وهو كتاب من إنشائه يتضمن خمسة وسبعين مقالاً في موضوعات شتى. والكتاب أربعة أقسام.

وليست خواطر الخيال إلا القسم الأول منه الذي يحوي مقالات الربيع، والزمان، والزهرة، والشيطان الجميل، والأمل، والنور، والظلام ونحوها من الموضوعات الخيالية والوجدانية

والقسم الثاني فيه أبحاث فلسفية ونفسية مثل الموسيقى والحب، الموسيقى والسحر، الموسيقى والتربية، أغاني الحب عند هنود امريكا، وأكثر ما في هذا القسم يتصل بالموسيقى. وكاتبنا الفاضل له ولع بالموسيقى، وخبرة بها، واهتمام بتاريخها.

وقد ألف فيها كتاباً طبعه مؤتمر الموسيقى الذي اجتمع بالقاهرة منذ سنتين

والقسم الثالث من الكتاب باب النقد وفيه مقالات كثيرة منها (بين القديم والحديث) ورواية عائدة، وألف ليلة وليلة، وعلى ضفاف الكنج، ونابغة شرقي مجهول، وفيه تراجم جماعة من أدبائنا في القرن الماضي مثل عبد الله باشا فكري، ومحمود باشا قدري، ورفاعة بك، وعبد الله نديم، ومحمود صفوت الساعاتي

والقسم الرابع سماه الكاتب متفرقات وفيه أربع مقالات

والأديب الفاضل محمد كامل حجاج مولع بالجمال حيثما تجلى. فهو كلف بالجمال في الحدائق، ذو دراية ودربة في زراعة البساتين، وهو كلف بالجمال في الموسيقى يكثر التحدث بها والكتابة عنها، وله فيها ذوق سليم. وهو كلف بالجمال في التصوير وله فيه حسنات. وهو كلف بالجمال في الفضيلة والأخلاق الطيبة، كريم الخلق مولع بالتحدث عن الخلق الكريم والدعوة إليه الخ الخ

وهو إلى هذا كله واسع المعرفة بالأدب الفرنسي، حريص على إقناع قراء العربية بطرفه وروائعه

هذا الكلف بالجمال في مظاهره المختلفة والبصر بالأدب الفرنسي يتجلى في صفحات الكتاب. ولست أستطيع تفصيل ما في الكتاب هنا ولكني أدعو المتأدبين إلى أن يقرأوا في الكتاب تفصيل ما أجملت، وبرهان ما أدعيت، فالكتاب جدير بالقراءة خليق باهتمام الأدباء وكاتبه جدير منا بالشكر والثناء

عبد الوهاب عزام

العدد 109 - بتاريخ: 05 - 08 - 1935

أساليب الاستعمار

قضية الحبشة

قضية الشرق وقضية الحرية

للاستعمار الغربي تاريخ أسود، حافل بصنوف الاعتداءات الدموية على

حقوق الأمم الضعيفة، وعلى أرواح الشعوب الآمنة وحرياتها وأرزاقها؛ ولكن هذا الاستعمار الدموي الغادر، لم يبلغ في عصر من العصور، ولا في ظرف من الظروف، ما يبلغه اليوم من الجرأة والاستهتار، بل من الإجرام والتوحش، فهو لا يحاول حتى أن يستر نياته كما عهدناه في الماضي أو يسبغ على تصرفه أي لون مشروع أو معقول، بل يتقدم بكل بساطة، مسفرا عن براثنه، شاهراً سلاحه للقضاء على الفريسة، متغنياً في غير حياء ولا وجل بما يستطيع أن يغنم من وراء الدم المسفوك، والحريات المغصوبة، والبلد المباح

تلك هي الصورة التي يعرضها لنا النزاع الإيطالي الحبشي. ونقول النزاع من باب التجاوز، إذ أي نزاع هنالك؟ بلد حر مستقل منذ أحقاب التاريخ، وشعب آمن مطمئن في أرضه التي خصه الله بها، يريد الاستعمار الفاشستي الغاشم أن يلتهمه نهاراً جهاراً؛ ولا عذر له - إن صح التعبير - إلا أنه يريد أن يزيد في أرضه وفي ثرواته وفي سلطانه، وأن يحقق شهوة عرضت له في استباحة الهضاب الحبشية الغنية بكنوز الطبيعة، التي يضطرم جشعاً للحصول عليها. وأي طريق هذا الذي يلجأ إليه لتحقيق هذه الشهوة الوضيعة الغاشمة؟ هو القتل المنظم يسميه الحرب، والفتك الذريع يسميه الفتح؛ هو القرصنة المجردة، وهو السلب الجهر، وهو قطع الطريق؛ وهو أخيراً كل ما في الجريمة من عدوان وانتهاك وكل ذلك باسم المدنية الغربية والتهذيب الأوربي وأوربا المتمدينة، ما هو موقفها من ذلك العدوان الآثم؟ وشرائع الله وشرائع الأمم ما مصيرها؟ أما أوربا المتمدينة فهي تأتمر جمعاء مع هذه الفاشستية الدموية المتوحشة؛ وإذا شذت دولة فعرضت بعدوانها فإنما ذلك لغيرة أو منافسة؛ وإنما عصابة الاستعمار كلها يد واحدة تؤيد إيطاليا القوية الزاخرة بالجند والسلاح، لا باعتبارها دولة أوربية وقوة استعمارية فقط، ولكن باعتبارها دولة غربية تزمع أن تفترس أمة شرقية، وأمة بيضاء تزمع أن تفترس شعباً أسمر (ملوناً)؛ وكلها تأتمر مع القوي المعتدي ضد الضعيف المعتدى عليه، فتمتنع عن بيع السلاح للحبشة مصانعة لإيطاليا ومؤازرة لقضية الاستعمار المشتركة، لكي تعجز الحبشة عن الدفاع عن نفسها، ولكي يستطيع المعتدي أن يحصد أبنائها المدافعين عنها بأيسر أمر

وأما شرائع الله وشرائع الأمم، فإن هذا الاستعمار الباغي ينتهكها شر انتهاك؛ بل إنه ليتيه كبرياء إذ يستطيع انتهاكها دون وازع، ويزعم أنه يستطيع بما لديه من القوى والعدد أن يسخر من رأي العالم ومن الإنسانية كلها؛ فحقوق الأمم وحرياتها المقدسة، وأمن الشعوب وحياة الأمم والأفراد كلها لغو في نظره؛ ثم هو يطأ قانون الأمم (القانون الدولي) بقدميه ويسحقه سحقاً، فلا ترده عن مشروعه الآثم معاهدات سلم وتحكيم يرتبط بها، ولا يحترم معاهدات خاصة عقدها مع الأمة التي ينوي افتراسها يوم كان يخطب ودها

تلك هي إيطاليا الفاشستية، وذلك هو موقفها كما يعرضه ذلك الرجل! ذلك الطاغية الذي يزعم أنه بعدوانه الصارخ على حرية الأمم، يقود أمته في سبيل المجد والعظمة والثراء، وما يقودها إلا في سبيل الدمار والفناء

لقد كانت إيطاليا لأقل من قرن أمة ذليلة تصفدها أغلال الحكم الأجنبي، وكانت أوربا والعالم كله يعجب بكفاحها في سبيل حرياتها؛ وما زالت أسماء أولئك الزعماء الذين قادوها في سبيل الحرية أمثال مازيني وأورسيني وكافور وجاريبالدي تستثير إعجاب الخلف وتقديره. ولكن إيطاليا، ولكن ذلك الطاغية الذي يسيطر على مصايرها اليوم، يوشك أن يقضي بمعوله المخرب على ذلك الصرح النبيل الذي ما زالت تتخذه الأمم الطامحة إلى حرياته مثلا أعلى

إن هذا النزاع الذي تهتز له اليوم أرجاء العالم كله، ليس قضية إيطاليا والحبشة بل هو أجل شأناً من ذلك وأبعد مدى؛ هو قضية الغرب الظافر والشرق المغلوب، وهو قضية الاستعباد والحرية؛ وإذا كانت قوى الاستعمار تتضافر اليوم مع إيطاليا لتزيدها جرأة على جرأتها، وقوة على قوتها، فذلك لأنها ترى في سحق الحبشة سحق آخر معقل للحرية الأفريقية؛ وإذا كانت بعض الدول الاستعمارية تحاول أن تبذل باسم عصبة الأمم جهوداً لاتقاء الحرب الأفريقية، فليس ذلك حباً منها للسلام أو عطفاً على الحبشة، ولكن لأنها تشفق أن يثير هذا الفصل الجديد في الصراع بين الشرق والغرب، وبين

الاستعمار وفرائسه، اضطراباً في أملاكها ومستعمراتها، وأن يذكي في الأمم المستعبدة روح الانتقاص والثورة فتعمل على تقويض سلطانها المغصوب
إن فرصة تلوح في الأفق للأمم الشرقية، فهل تعنى الأمم الشرقية بمراقبة الحوادث، وهل تعد نفسها لانتهاز فرصتها؟
(. . .)

كلمات عن حافظ

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

ذهبت بقلبي إلى كل مكان فوجدت أمكنة الأشياء ولم أجد مكان قلبي؛ أيها القلب المسكين أين أذهب بك؟

هذا ما أجبت به (حافظ) حين سألني مرةً: ما لك لا ترضى ولا تهدأ ولا تستقر؟ وكان يخيل إلي أنه هو راضٍ مستقر هادئ، كأنما قضى من الحياة نهمته ولم يبق في نفسه ما تقول نفسه ليتٍ ذلك لي. وكنت أعجب لهذا الخلق فيه ولا أدري ما تعليله إلا أن يكون قد خلق مطبوعاً بطابع اليتم فلم يعرف منذ أدرك ألا أنه ابن القدر؛ تأتيه الأفراح والأحزان من يد واحدة مقبلة كما تنال الصبي ألطاف أبيه ولطمات أبيه. . . .

وقد قلت له مرة: كأنك يا حافظ تنام بلا أحلام؛ فضحك وقال. أو كأنني أحلم بغير نوم. . . .

ولقد عرفته منذ سنة 1900 إلى أن لحق بربه في سنة 1932 فما كنت أراه على كل أحواله إلا كاليتيم محكوماً بروح القبر، وفي القبر أوله. ولما أزمع السفر إلى اليونان قلت له: ألا تخشى أن تموت هناك فتموت يونانياً. . . . فقال: أو تراني لم أمت بعد في مصر. . .؟ إن الذي بقي هين

ومن عجائب هذا اليتيم الحزين أنه كان قوي الملكة في فن الضحك، كأن القدر عوضه به ليوجده في الناس عطف الآباء ومحبة الأخوة. ولم يخل مع فقره من ذريعة قوية إلى الجاه، ووسيلة مؤكدة إلى ما هو خير من الغنى؛ فكانت أسبابه إلى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، ثم حشمت باشا، ثم سعد باشا زغلول؛ وهذا نظام عجيب في زمن (حافظ) يقابل الاختلال العجيب في نفس حافظ؛ فالرجل كالسفينة المتكفئة تميل بها موجة وتعدلها موجة، وهي بهذه وبهذه تمر وتسير

وأولئك الرؤساء العظماء الذين جعلهم القدر نظاماً في زمن حافظ كانوا من أفقر الناس إلى الفكاهة والنادرة، فكان لهم كالثروة في هذا الباب، ووقع إصلاحاً في عيشهم وكانوا إصلاحاً في عيشه؛ ولو إن الأقدار تشبه بالمدارس المختلفة لقلنا إن (حافظ) تخرج منها في مدرسة التجارة العليا. . . . فهو كان أبرع من يتاجر بالنادرة وهذه النوادر كأنها هي أيضاً صنعت (حافظ) في شكل نادرة. فكان فقيراً، ومع هذا كان للمال عنده متمم هو إنفاقه وإخراجه من يده؛ وكان يتيماً، ولكنه دائماً متودد؛ وكان حزيناً، ولكنه أنيس الطلعة؛ وكان بائساً، ولكنه سليم الصدر، وكان في ضيق، ولكنه واسع الخلق؛ وتمام النادرة فيه أنه كان طوال عمره متبسطاً مهتزاً كأن له زمناً وحده غير زمن الناس، فتتراكم عليه الهموم وهو مستنيم إلى الراحة، ويعتريه من الجوع مثل مكسلة الشبع، ويسترسل إلى البطالة وكأنه مشمر للجد، ويستمكن الحزن منه في ساعة فيتهدد حزنه بالساعة التالي. . . .

رأيته في أحد أيام بؤسه الأولى قبل أن يتصل عيشه وكان يعد قروشاً في يده فقلت: ما أمر هذه القروش؟

قال: كنت أقامر الساعة فأضعت ثلاثين قرشاً ولم يبق لي غير هذه القروش الملعونة، فهلم نتعش. ودخل إلى مطعم كان وراء حديقة الأزبكية فزعمت له أني تعشيت. . . فأكل هو ودفع ثمن طعامه ثلاثة قروش. وكنت أطالع في وجهه وهو يأكل، فما أتذكره الآن إلا كما طالعته بعد عشرين سنةً من ذلك التاريخ حين دعاني (حافظ) إلى مطعم بار اللواء وقد فاضت أنامله ذهباً وفضة. وكان رحمه الله قد أصدر الجزء الثاني من (البؤساء) ورآني في القاهرة فأمسك بي حتى قرأت معه الكتاب كله فيما بين الظهر والمغرب؛ وركبنا في الأصيل عربة وخرجنا نتنزه أي خرجنا نقرأ. . .

وكان على وجه (حافظ) لون من الرضى لا يتغير في بؤس ولا نعيم كبياض الأبيض وسواد الأسود. وهذا من عجائب الرجل الذي كان في ذات نفسه فناً من الفوضى الإنسانية حتى لكأنه حلم شعري بدأ من أبويه ثم انقطع وترك لتتممه الطبيعة!

ومن نظر إلى (حافظ) على اعتبار أنه فن من الفوضى الإنسانية رآه جميلاً جمال الأشياء الطبيعية لا جمال الناس؛ ففيه من الصحراء والجبال والصخور والغياض والرياض والبرق والرعد وأشباهها. وكنت أنا أراه بهذه العين فأستجمله، ويبدو لي جزلاً مطهماً، وأرى في شكله هندسةً كهندسة الكون تتم محاسنها بمقابحها. وكم قلت له: إنك يا حافظ أجمل من القفر. . . . . .

أما هو فكان يرى نفسه دميماً شنيع المرآة متفاوت الخلق كأنه إنسان مغلوط في تركيبه. . .

وقد سألته مرة: هل أحب؟

فقال: النساء اثنتان: فأما جميلة تنفر من قبحي، وإما دميمة أنفر من قبحها؛ ولهذا لم يفلح في الغزل والنسيب، ولم يحسن من هذا الباب شيئاً يسمى شيئاً؛ وبقي شاعراً غير تام، فإن المرأة للشاعر كحواء لآدم، هي وحدها التي تعطيه بحبها عالماً جديداً لم يكن فيه. وكل شرها أنها تتخطى به السماوات نازلاً. . .

وتهدم حافظ في أواخر أيامه من أثر المرض والشيخوخة، وكان آخر العهد به أن جاء إلى إدارة (المقتطف) وأنا هناك فلم يرني حتى بادرني بقوله: ماذا ترى في هذا البيت في وصف الأمريكان:

وتخِذتُم مَوْج الأثير بَريداً ... حين خِلتُم أن البرُوق كُسالى

فنظرت إلى وجهه المعروق المتغضن وقلت له: لو كان فيك موضع قبلة لقبلتك لهذا البيت؛ فضحك وأدار لي خده؛ ولكن بقى خده بلا تقبيل. . .

وشهرة هذا الأديب العظيم بنوادره، ومحفوظاته من هذا الفن أمر مجمع عليه؛ وكان يتقصص النوادر والفكاهات ومطارحات السمر من مظانها في الكتب ورجال الأدب وأهل المجون، فإذا قصها على من يجالسه زاد في أسلوبها أسلوبه هو، وجعل يقلبها ويتصرف فيها ويبين عنها أحسن الإبانة بمنطقه ووجهه ونبرات في لسان ونبرات في يده

وهو أصمعي هذا الباب خاصة، يروي منه رواية عريضة، فإذا استهل سح بالنوادر سحاً كأنها قوافي قصيدة تدعو الواحدة منها أختها التي بعدها

وقد أذكرتني (القوافي) مجلساً حضرته قديماً في سنة 1901 أو 1900 وكان (مصباح الشرق) قد نشر قصيدة رائية لأبن الرومي، فتعجب المرحوم الشيخ محمد المهدي من بسطة أبن الرومي في قوافيه، فقال له (حافظ) هلم نتساجل في هذا الوزن حتى ينقطع أحدنا. وكانت القافية من وزن: قدرها، أحمرها، أخضرها الخ، وجعلت أنا أحصي عليهما؛ فلما ضاق الكلام كان الشيخ المهدي يفكر طويلاً ثم ينطق باللفظ ولا يكاد يفعل حتى يرميه حافظ على البديهة، فيعود الرجل إلى الإطراق والتفكير؛ ثم انقطع أخيراً وبقي حافظ يسرد له من حفظه الغريب

أما في لنوادر فالعجيبة التي اتفقت له في هذا الباب أنه جاء إلى طنطا في سنة 1912

ومديرها يومئذ المرحوم (محمد محب باشا) وكان داهية ذكياً وظريفاً لبقاً، وكنت أخالطه وأتصل به، فدعا (حافظ) إلى العشاء في داره؛ فلما مدت الأيدي قال الباشا: لي عليك شرط يا حافظ. قال وما هو؟ قال: كل لقمة بنادرة

فتهلل حافظ وقال: نعم لك علي ذلك. ثم أخذ يقص ويأكل، والعشاء حافل، وحافظ كان نهماً فما انقطع ولا أخل حتى وفى بالشرط. وهذا لا يمنع أن الباشا كان يتغافل ويتغاضى ويتشاغل بالضحك فيسرع حافظ ويغالط بفمه. . . .

ولكن هذه المضحكات أضحكت من (حافظ) مرة كما أضحكت به. فلما كان يترجم (مكبث) لشكسبير - وهي كأعماله الناقصة دائما - دعوه لإلقاء (محاضرة) في نادي المدارس العليا، والنادي يومئذ يجمع خير الشباب حميةً وعلماً، وكان صاحب السر فيه (السكرتير) زينة شباب الوطنية المرحوم أمين بك الرافعي. فقام حافظ فأنشدهم بعض ما ترجمه نظما عن شكسبير ومثله تمثيلاً أفرغ فيه جهده فأطرب وأعجب. ثم سألوه (المحاضرة) فأخذ يلقي عليهم من نوادره. وبدأ كلامه بهذه النادرة: عرضت على المعتصم جارية يشتريها، فسألها: أنت بكر أم ثيب؟ فقالت: كثرت الفتوح على عهد المعتصم. . .

ونظر حافظ إلى وجوه القوم فأنكرها. . . وبقيت هذه الوجوه إلى آخر المحاضرة كأنها

تقول له: إنك لم تفلح
ولقد كان هذا من أقوى الأسباب في تنبه (حافظ) إلى ما يجب للشباب عليه إن أراد أن يكون شاعره، فأقبل على القصائد السياسية التي كسبهم بها من بعد. ونادرة المعتصم كالعورة المكشوفة؛ ولست أدري أكان حافظ يعرف النادرة البديعة الأخرى أم لا. فقد عرضت جارية أديبة ظريفة على الرشيد فسألها: أنت بكر أم إيش؟ فقالت: أنا (أم إيش) يا أمير المؤمنين. . .
وفن (الشعر الاجتماعي الذي عرف به حافظ؛ لم يكن فنه من قبل ولا كان هو قد تنبه له أو تحراه في طريقته. فلما جاءت إلى مصر الإمبراطورة (أوجيني) نظم قصيدته النونية التي يقول فيها:
فاعذرينا على القصور كلانا ... غيرته طوارئ الحدثان
ولقيته بعدها فسألني رأيي في هذه القصيدة، وكان بها مدلاً معجباً شأنه في كل شعره؛
فانتقدت منها أشياء في ألفاظها ومعانيها وأشرت إلى الطريقة التي كان يحسن أن تخاطب بها الإمبراطورة. فكأنني أغضبته؛ فقال: إن الشيخ محمد عبده، وسعد زغلول، وقاسم أمين، أجمعوا على أن هذا النمط هو خير الشعر، وقالوا لي: إذا نظمت فانظم مثل هذا (الشعر الاجتماعي)، ثم كأنه تنبه إلى أنها طريقة يستطيع أن ينفرد بها فقال: إن كل قصائد شوقي الآن غزل ومدح، ولا أثر فيها لهذا الشعر، على أنه هو الشعر وتتابعت قصائده الاجتماعية، فلقيني بعدها مرة أخرى فقال لي: إن الشاعر الذي لا ينظم في الاجتماعيات ليس عندي بشاعر. وأردت أن أغيظه فقلت له: وما هي الاجتماعيات إلا جعل مقالات الصحف قصائد. . .؟
فالأستاذ الإمام وسعد زغلول وقاسم أمين: أحد هؤلاء أو جميعهم أصل هذا المذهب الذي ذهب إليه حافظ. وهو كثيراً ما كان يقتبس من الأفكار التي تعرض في مجلس الشيخ محمد عبده من حديثه أو حديث غيره فيبني عليها أو يدخلها في شعره. وهو أحياناً رديء الأخذ جداً حين يكون المعنى فلسفيا إذ كانت ملكة الفلسفة فيه كالمعطلة، وإنما هي في الشاعر من ملكة الحب، وإنما أولها وأصلها دخول المرأة في عالم الكلام بإبهامها وثرثرتها. . .
وكنت أول عهدي بالشعر نظمت قصيدة مدحت فيها الأستاذ الإمام وأنفذتها إليه، ثم قابلت حافظ بعدها فقال لي إنه هو تلاها على الإمام، وإنه استحسنها. قلت: فماذا كانت كلمته فيها؟ قال: إنه قال: لا بأس بها. . .
فاضطرب شيطاني من الغضب، وقلت له: إن الشيخ ليس بشاعر، فليس لرأيه في الشعر كبير معنى. قال: ويحك إن هذا مبلغ الاستحسان عنده
قلت: وماذا يقول لك أنت حين تنشده؟ قال: أعلى من ذلك قليلاً. . . فأرضاني والله أن يكون بيني وبين حافظ (قليل)، وطمعت من يومئذ
وأنا أرى أن (حافظ إبراهيم) إن هو إلا ديوان (الشيخ محمد عبده)، لولا أن هذا هذا، لما كان ذلك ذلك
ومن أثر الشيخ في حافظ أنه كان دائماً في حاجة إلى من يسمعه، فكان إذا عمل أبياتاً ركب إلى إسماعيل باشا صبري في القصر العيني، وطاف على القهوات والأندية يسمع الناس بالقوة. . . إذ كانت أذن الإمام هي التي ربت الملكة فيه، وقد بينا في مقالنا في (المقتطف)
وكان تمام الشعر الحافظي أن ينشده حافظ نفسه؛ وما سمعت في الإنشاد أعرب عربية من البارودي، ولا أعذب عذوبة من الكاظمي، ولا أفخم فخامة من حافظ؛ رحمهم الله جميعاً
وكان لأديبنا يجل البارودي إجلالاً عظيما، ولما قال في مدحه:
فمُرْ كلَّ معنى فارسيّ بطاعتي ... وكلَّ نَفور منه أن يتودَّدا
قلت له: ما معنى هذا؟ وكيف يأمر البارودي كل معنى فارسي وما هو بفارسي؟
قال: إنه يعرف الفارسية، وقد نظم فيها، وعنده مجموعة جمع فيها كل المعاني الفارسية البديعة التي وقف عليها. قلت: فكان الوجه أن تقول: أعرني المجموعة التي عندك. . .
أما الكاظمي فكان حافظ يجافيه ويباعده، حتى قال لي مرة وقد ذكرته به: (عققناه يا

مصطفى!)
وما أنس لا أنس فرح حافظ حين أعلمته أن الكاظمي يحفظ قصيدة من قصائده. وذلك أنهم في سنة 1901 - على ما أذكر - أعلنوا عن جوائز يمنحونها من يجيد في مدح الخديو، وجعلوا الحكم في ذلك إلى البارودي وصبري والكاظمي. ثم تخلى البارودي وصبري، وحكم الكاظمي وحده، فنال حافظ المدالية الذهبية ونال مثلها السيد توفيق البكري
ولما زرت الكاظمي وكنت يومئذ مبتدئاً في الشعر ولا أزال في الغرزمة قال: لماذا لم تدخل في هذه المباراة؟ قلت: وأين أنا من شوقي وحافظ وفلان وفلان؟ فقال: (ليه تخلي همتك ضعيفة؟) ثم أسمعني قصيدة حافظ وكان معجباً بها، فنقلت ذلك إلى حافظ فكاد يطير عن كرسيه في القهوة
وكان تعنت حافظ على الكاظمي لأنه غير مصري. ففي سنة 1903 كانت تصدر في القاهرة مجلة اسمها (الثريا) فظهر في أحد أعدادها مقال عن الشعراء بهذا التوقيع (*). وانفجر هذا المقال انفجار البركان، وقام به الشعراء وقعدوا، وكان له في الغارة عليهم كزفيف الجيش وقعقة السلاح، وتناولته الصحف اليومية، واستمرت رجفته الأدبية نحو الشهر؛ وانتهى إلى الخديو، وتكلم عنه الأستاذ الإمام في مجلسه، واجتمع له جماعة من كبار أساتذة العصر السوريين كالعلامة سليمان البستاني، وأديب عصره الشيخ إبراهيم اليازجي، والمؤرخ الكبير جورجي زيدان - إذ كان صاحب المجلة سورياً - وجعلوا ينفذون إلى صاحب المجلة دسيساً بعد دسيس ليعلموا من هو كاتب المقال وشاع يومئذ أني أنا الكاتب له؛ وكان الكاظمي على رأس الشعراء فيه، فغضب حافظ لذلك غضباً شديداً، وما كاد يراني في القاهرة حتى ابتدرني بقوله: ورب الكعبة أنت كاتب المقال؛ وذمة الإسلام أنت صاحبه
ثم دخلنا إلى (قهوة الشيشة) فقال في كلامه: إن الذي يغيظني أن يأتي كاتب المقال بشاعر من غير مصر فيضعه على رءوسنا نحن المصريين. فقلت: ولعل هذا قد غاظك بقدر ما سرك ألا يكون على رأسك هو شوقي. . .
وغضب السيد توفيق البكري غضباً من نوع آخر، فاستعان بالمرحوم السيد مصطفى المنفلوطي استعانة ذهبية. . . وشمر المنفلوطي فكتب مقالا في (مجلة سركيس) يعارض به مقال (الثريا)، وجعل فيه البكري على رأس الشعراء. . ومدحه مدحا يرن رنيناً
أما أنا فتناولني بما استطاع من الذم وجردني من الألفاظ والمعاني جميعاً، وعدني في الشعراء ليقول إني لست بشاعر. . . فكان هذا رد نفسه على نفسه
وتعلق مقال المنفلوطي على المقال الأول فاشتهر به لا بالمنفلوطي؛ وغضب حافظ مرة ثانية، فكتب إلي كتاباً يذكر فيه تعسف هذا الكاتب وتحامله، ويقول قد وكلت إليك أمر تأديبه
فكتبت مقالاً في جريدة (المنبر) وكان يصدرها الأستاذان محمد مسعود وحافظ عوض، ووضعت كلمة المنفلوطي التي ذمني بها في صدر مقالي أفاخر بها. . . وقلت: إني كذلك الفيلسوف الذي أرادوه أن يشفع إلى ملكه فأكب على قدم الملك حتى شفّعه؛ فلما عابوه بأنه أذل حرمة الفلسفة بانحنائه على قدم الملك وسجوده له، قال: ويحكم، فكيف أصنع إذا كان الملك قد جعل أذنيه في رجليه. . . . .
ولم يكن مضى لي في معالجة الشعر غير سنتين، حين ظهر مقال (الثريا)، ومع ذلك أصبح كل شاعر يريد أن يعرف رأيي فيه؛ فمررت ذات يوم (بحافظ) وهو في جماعة لا أعرفهم، فلما اطمأن بي المجلس قال حافظ: ما رأيك في شعر اليازجي؟ فأجبته؛ قال: فالبستاني، فنجيب الحداد، ففلان، ففلان؛ فداود بك عمون؟ قلت: هذا لم أقرأ له إلا قليلاً لا يسوغ معه الحكم على شعره. قال: فماذا قرأت له؟ قلت: رده على قصيدتك إليه: شجتنا مطالع أقمارها. قال فما رأيك في قصيدته هذه؟ قلت: هي من الشعر الوسط الذي لا يعلو ولا ينزل
فما راعني إلا رجل في المجلس يقول: أنصفت والله! فقال حافظ: أقدم لك داود بك عمون. . . . . رحم الله تلك الأيام
(طنطا)
مصطفى صادق الرافعي

قضايا التاريخ الكبرى
من قضايا السحرة - 2
صفحة من الجرائم المروعة
للأستاذ محمد عبد الله عنان

كان لظهور هذه الحقائق المروعة عن جرائم السحرة وقع عميق في باريس وفي فرنسا بأسرها؛ ولم يكن القضاء العادي ليكفي لسحق هذه الطغمة الآثمة وتطهير المجتمع من عيثها الذريع، فرأى لويس الرابع عشر ووزرائه أن يعهد بعقابها إلى القضاء الاستثنائي، وانتدبت لذلك محكمة خاصة هي (الغرفة الساطعة) الشهيرة في ذلك العصر، وسميت كذلك لأن المحاكم الخاصة التي تنتدب للنظر في الجرائم الكبرى كانت تجلس في غرفة تجلل جدرانها بالسواد وتنار بالمشاعل والمصابيح

وعقدت (الغرفة الساطعة) جلستها الأولى في العاشر من أبريل سنة 1679، وقررت أن تكون إجراءاتها وتحقيقاتها سرية حتى لا يقف الجمهور على شيء من الأعمال السحرية أو أسرار السموم؛ وتولى الرآسة المستشار لوي بوشرا كونت دي كومبان يعاونه عدة من أعضاء مجلس الدولة؛ وتولى لاريني مهمة القاضي المحقق؛ وكانت إجراءاتها تتلخص في أن كل من تقع عليه شبهة الاتهام يقبض عليه بأمر الملك أعني بواسطة (اللتر دي كاشيه) (أو رقعة السجن)، وتقدم نتيجة التحقيق الأول إلى النائب العام، وله وحده أن يقرر المواجهة بين الشركاء، وعند انتهاء التحقيق يرفع به تقرير ضاف إلى (الغرفة الساطعة)؛ وهي تقرر ما إذا كان يجب الاستمرار في اعتقال المتهم، فإذا قررت ذلك، أستمر التحقيق معه؛ وعند نهايته، ترفع أوراق الاتهام إلى المحكمة، فيقرؤها القضاة، ويقدم نائب الملك (النائب العمومي) طلباته سواء بتبرئة المتهم أو بالحكم عليه؛ ثم تسمع أقوال المتهم فوق منصة المحكمة وبعدها تصدر المحكمة حكمها غير قابل للاستئناف

وكانت (الغرفة الساطعة) تعقد في قصر (الأرسنال)؛ واستمر انعقادها باستمرار حتى يوليه سنة 1682 عدا فترة أشهر وقفت فيها جلساتها؛ وبلغ عدد المتهمين الذين قدموا إليها 442 متهماً، تقرر استمرار اعتقال 118 منهم؛ وحكم بالإعدام على ستة وثلاثين، وتقرر تعذيبهم

بالتحقيق العادي وبالتحقيق الاستثنائي، ثم أعدموا حرقاً كما سيجيء؛ ومات اثنان في السجن؛ وحكم على خمسة بالأشغال الشاقة، وبالنفي على ثلاثة وعشرين؛ وأطلق سراح الباقين لا لأنهم أبرياء، ولكن لأن لهم شركاء في التهم المسندة إليهم من أكابر الدولة والسادة وأرفع سيدات البلاط

يقول فولتير في كتابه (عصر لويس الرابع عشر) في حديثه عن قضية السحرة، إن أعظم رؤوس في المملكة استدعوا لإبداء أقوالهم أمام (الغرفة الساطعة) ومنهم ابنتا أخت الكردينال مازاران؛ والدوقة دي بويون، والكونتة دي سواسون والدة البرنس أوجين، والمارشال دي لوكسمبورج؛ وقد كان لهؤلاء جميعاً ولغيرهم من أكابر المملكة علائق ومعاملات مع السحرة

وقد كشف التحقيق عن واقعة أشنع وأفظع هي أن حياة الملك ذاتها كانت موضعاً لائتمار السحرة، وأن التحريض على اغتيالها لم يجيء إلا من أعماق القصر، ومن أقرب المقربين لشخص الملك ذاته

كانت مدام دي مونتسبان حظية لويس الرابع عشر الشهيرة، قد وصلت في ذلك العصر إلى ذروة القوة والنفوذ، وتبوأت في البلاط أرفع مكانة، وبسطت سلطانها على المليك المتيم على مدى أعوام طويلة؛ ولكن حل عهد السأم والهجران أخيراً، ومال الملك عن حظيته القديمة إلى حظية جديدة هي فتاة من وصيفات الشرف تدعى الآنسة دي فونتاج، فلما شعرت مدام مونتسبان بأفول نجمها اضطرمت سخطاً ويأساً، وفكرت في أن تنتقم من الملك وحظيته الجديدة معاً، واتصلت بالساحرة لافوازان وزميلة لها تدعى لاتريانون، فتعهدتا بتدبير مشروع لاغتيال الملك؛ وتعهد الساحران المسممان روماني وبرتران بقتل الآنسة دي فونتانج، وبذلت مدام دي مونتسبان للسحرة مالا وفيراً

وكانت مدام دي مونتسبان إبان نفوذها وسلطانها وثيقة الصلات بلافوازان وشركائها؛ وكانت تلجأ إلى السحرة التماسا لتوطيد نفوذها بفعل السحر والتمائم؛ وكانت هذه

الحسناء المتكبرة تنزل عند دجل السحرة، وتقبل الاشتراك في إجراءات السحر الأسود، فترقد عارية أمام أولئك الطغام، وتقوم لافوازان وزملاؤها بإجراء القربان الدموي والسحر الأسود، وتعتقد الحظية الهائمة أنها بذلك تذكي نار حبها في نفس الملك وتوطد دعائم نفوذها
وسلطانها

ويتلخص مشروع اغتيال الملك كما دونه لاريني من أقوال لافوازان وشركائها في أن الجناة فكروا أولاً في أن يزهقوا الملك بالسم، وذلك بأن ينثروه على ثيابه أو حيثما أعتاد أن يمر، فيستنشقه تباعاً ويموت ببطء، وتعهدت الآنسة ديزييه وصيفة مدام دي مونتسبان بتأدية هذه المهمة. ولكن لافوازان رأت بعد التفكير أن تلجأ إلى وسيلة أخرى. وذلك أن لويس الرابع عشر اعتاد طبقاً لعادة قديمة أن يتلقى بنفسه في أيام معينة العرائض التي يرفعها إليه رعاياه بالتظلم والالتماس، ويسمح لكل بالدخول عليه عندئذ دون فارق أو تمييز، ففكرت لافوازان أن تعد عريضة من هذا النوع تضمخها بنوع من السم الزعاف، فإذا تناولها الملك بين يديه سرى إليه السم وهلك؛ وتعهدت الساحرة لاتريانون بإعداد هذه العريضة، وتعهدت لافوازان بتقديمها إلى الملك. ورؤى أن يكون موضوعها طلب الغوث لشخص يشتغل بالسيميا ويدعى بلسيس ويعتقله المركيز دي ترم في قصره، وسعت لافوازان لدى وصيف بالقصر من معارفها ليسهل لها مهمة تقديم العريضة بنفسها

وارتاع الجناة لجرأة لافوازان، وتنبئوا لها بالوقوع بين براثن القضاة متهمة بجريمة دولة؛ ولم يكن الموت شر ما يخشاه السحرة في تلك العصور، بل كان التعذيب أشد ما يروعهم، بيد أن لافوازان كانت تخلبها وتغريها مائة ألف جعلتها مدام دي مونتسبان ثمناً للجريمة (نحو مليون فرنك من النقد المعاصر)، فقصدت إلى سان جرمان في يوم 5 مارس سنة 1679، ثم في التاسع منه، محاولة أن تصل إلى الملك فتقدم إليه العريضة المسمومة، ولكنها لم تفز ببغيتها، فعادت مكتئبة إلى باريس، ولكن مصممة على أن تعود في أول فرصة. بيد أن عين لاريني كانت ساهرة ترقب أعمال السحرة؛ وفي الثاني عشر من مارس قبض عليها وعلى أبنتها مرجريت، وعلى عدة من شركائها حسبما أسلفنا

ولما ذاع نبأ القبض على لافوازان وشركائها، ارتاعت مدام دي مونتسبان، وغادرت البلاط في الحال إلى الريف، فمكثت هنالك مدى حين

أنفقت المحكمة الخاصة أو (الغرفة الساطعة) أشهراً طويلة في تحقيقات وإجراءات يتسع نطاقها يوماً عن يوم، وكان التحقيق يمتد شيئاً فشيئاً إلى طائفة من الرؤوس الكبيرة، حتى أن المحقق لاريني اضطر أن يطلب حرساً خاصاً لمرافقته في زيارته لسجن فنسان حيث

اعتقل المتهمون، وكثر الهمس والوعيد حول قضاة الغرفة الساطعة، واهتم الملك ووزراؤه بالأمر، وكتب لوفوا رئيس الوزراء إلى رئيس المحكمة يقول له: إنه لمناسبة ما نمى إلى جلالته من الحديث حول (الغرفة) وإجراءاتها، فإن جلالته قد أمر بتبليغ القضاة أنه يؤكد لهم حمايته، وأنه يطلب إليهم أن يستمروا في إقامة العدالة بثبات. ثم زاد الملك على ذلك فاستدعى إليه قضاة المحكمة ليطمئنهم ويشجعهم؛ ويقول لنا لاريني تعليقاً على تلك المقابلة، إن جلالته قد أوصاه بتحقيق العدالة والواجب، وإنه يرجو تحقيقاً لخير المجموع أن ننفذ جهد الاستطاعة إلى أسرار جرائم السموم، وأن نجتث جذورها إذا استطعنا وذلك دون تفريق بين الأشخاص والمقامات

بيد أنه قد طلب إلى القضاة من جهة أخرى أن يلزموا التحفظ في بعض الأمور، وظهر أثر هذا التحفظ في الحرص على عدم إحالة لافوازان إلى التعذيب، وذلك خوفاً من أن ينطلق لسانها حين التعذيب بما لا يريد أن يذاع وأن يعرف؛ ومع ذلك فقد صرحت لافوازان في ساعاتها الأخيرة عقب الحكم عليها بالإعدام (أنها مضطرة لأن تقول إراحة لضميرها إن عدداً كبيراً من الناس من جميع الطوائف والطبقات قد لجأ إليها سعياً إلى إزهاق الكثيرين، وإن الباعث الأول لهذه الجرائم إنما هو الفجور)

ولما وقف لويس الرابع عشر على أقوال مرجريت مونفوازان ابنة لافوازان عقب إعدام أمها، كتب إلى لاريني يطلب إليه أن يدون اعترافاتها وما يترتب على هذه الاعترافات من مواجهات ومناقشات في ملف خاص، وكذلك أقوال الساحرين روماني

وبرتران، وهما من شركاء لافوازان. وقد كانت أقوال مرجريت مونفوازان ذات أهمية كبيرة لأنها تتعلق بمشروع تسميم الملك، ومن جهة أخرى فقد وعد لوفوا الساحر ليساج بأن ينقذ حياته إذا قال كل شيء، ولكنه لما ذهب في اعترافاته إلى حدود مروعة، رمي بالكذب ولم يقبل المحقق أن يصغي إليه بعد؛ وأدلت متهمة أخرى تدعى فرانسواز فيلاستر بمعلومات مثيرة مدهشة، فأمر الملك بأن تودع أقوالها في ملف خاص، وأن ترفع إلى مجلسه؛ وهكذا بلغ من اهتمام لويس الرابع عشر بهذه القضية أن لبث يتتبع كل أدوارها، وأن يسحب من أوراق التحقيق كل ما لا يرغب في إذاعته؛ والواقع أن لويس الرابع عشر تأثر أيما تأثر لما كشفت عنه التحقيقات من الوقائع والحقائق المؤلمة التي تصيبه في أعز عواطفه وفي كرامته الملوكية.

ألم تلجأ حظيته التي كان يعبدها إلى السحرة، وتلوث نفسها وجسمها في معاهدهم سعياً إلى إزهاقه؟ أليست مدام دي مونتسبان أم أولاده المحبوبين؟ ومع ذلك فقد كظم الملك العظيم ألمه وتأثره؛ ولبثت هذه الوثائق الهائلة التي تكشف عن عاره في خزائنه السرية أعواماً طويلة حتى أمر بإحراقها بعد ذلك في مدفئه في يوم من أيام سنة 1709، أعني بعد هذه الحوادث بثلاثين عاما

كانت (الغرفة الساطعة) حاسمة صارمة في أحكامها، فقد حكمت بالإعدام والتعذيب على ستة وثلاثين متهماً ثبتت إدانتهم في مزاولة التسميم والأعمال السحرية الإجرامية، وذلك من مجموع قدره مائة وثمانية عشر متهماً. ونفذ الإعدام في المحكوم عليهم تباعاً؛ وكان إعدام السحرة يجري بطريق الحرق دائماً. وكانت لافوازان ولافيجوريه ولبساج في مقدمة المحكوم عليهم بهذا الموت المروع. وقد احرقوا معاً في (ميدان جريف). وتصف لنا مدام دي سفينية الكاتبة الشهيرة منظر إحراق الساحرة لافوازان - وقد شهدته بنفسها - وتقول لنا (لقد أسلمت لافوازان روحها للشيطان في لطف). وينقل ألينا الكاهن الذي تولى مرافقة الساحرة إلى المحرقة كلماتها الأخيرة وهي: (إنني مثقلة بأكداس من الجرائم، ولست أدعو الله أن ينقذني من النار بمعجزة، لأن ما سألقاه من الجزاء لا يقاس بشيء مما ارتكبت)

ويقدم إلينا فوليتر في كتابه (عصر لويس الرابع عشر) خلاصة لهذه الحوادث والمحاكمات المثيرة ثم يعلق عليها بقوله: (نستطيع أن نتصور أية إشاعات مروعة أذيعت خارج باريس. بيد أن حكم الإعدام الذي قضي به على لافوازان وشركائها قد وضع في الحال حداً لهذه الأعمال وهذه الجرائم؛ وقد كانت هذه الحرفة المروعة محصورة في شرذمة من الناس، ولم تلوث أخلق الأمة كلها؛ بيد أنها طبعت أذهان الناس بميل سقيم إلى اعتبار الوفيات الطبيعية، نتيجة الجريمة)

والواقع أن هذا الثبت من الآثام والجرائم المروعة يلقي ضياء كبيراً على روح هذا العصر وخلاله - ويؤيد حقيقة تاريخية خالدة، هي أن عصور العظمة القومية، تتكشف في الغالب عن صنوف من الانحطاط المعنوي والاجتماعي تتناسب مع ما تبثه نعماء العصر وترفه من ألوان الفساد الروحي والأخلاقي، ومع ما يذكيه العصر من الشهوات الإنسانية الوضيعة. وقد كان عصر لويس الرابع عشر بلا ريب على ما بلغه من العظمة والبهاء

يعاني فعل هذه العناصر الهدامة التي انحدرت بالمجتمع الفرنسي غير بعيد إلى درك من التفكك والانحطاط، كان نذير الثورة الفرنسية الكبرى

تم البحث

محمد عبد الله عناق

وقفة بالعقيق!

للأستاذ علي الطنطاوي

وقفة بالعقيق نطرح ثقلا ... من دموع بوقفة في العقيق

مائل بين أربع مائلات ... ينزع الشوق من فؤاد علوق

(البحتري)

أصابتنا في المدينة عين من المطر، فحبستنا في الدار أياماً، وجاءت بعد محل من . . . الأرض، وشح من السماء، فروت الأرض، وأسالت الأودية. فاستبشر الناس بنا إذ كان قدومنا خيراً، وزيارتنا غيثاً، ومقامنا ربيعاً؛ وليس أجمل في أرض العرب من الربيع، ولا أجدى من الغيث؛ ثم انقشعت الغيوم بعد أيام، إلا جهاماً من السحاب هفاً رقيقاً، وأفتق

قرن الشمس فخلع على الدنيا حلةً نسجت من خيوط النور. . . وحلى اليوم وطاب، فخرجنا من دورنا نستمتع بجماله وطيبه، ونملأ صدورنا بهذا النسيم الناعش، وعيوننا بهذه المناظر الخلابة، وآنافنا بهذا الأرج يتضوع من هذه التربة المعطرة (بعطر السماء). . . وسرنا في (شارع العنبرية) نريد الحرم،، فلم نكد نتعدى (المناخة) حتى قيل: قد سال العقيق. . فإذا الوجوه تطفح بالبشر، وتفيض بالسرور، وإذا على كل لسان: قد سال العقيق. . . وإذا الناس يستعدون للخروج!

وهل يملك الناس نفوسهم، فيقعدون لا يخرجون إلى العقيق، وقد سال العقيق؟ وهل يذكر عربي العقيق ثم لا يذكر الحب والشعر، والفن والجمال، والحياة الناعمة والعيش الرغيد؟ أولم يكن وادي العقيق رمز الهوى والشباب، ومغنى الغنى والغناء، ومثابة الفن والأدب، ومجمع العشاق، وندى الشعراء؟ ألم يكن العقيق قلب المدينة حين كانت المدينة قلب العالم؟ ألم يولد على جنبات العقيق ديوان كامل من أبرع دواوين الأدب العربي وأحلاها؟ ألم تعش على أطراف العقيق العشرات من القصور الفخمة، والرياض النضرة، والمغاني التي فاض منها الشعر والسحر والعطر على الدنيا كلها؟ أليس لاسم العقيق حلاوة؟ أما عليه طلاوة؟ ألا يحلو في الأذن تكراره، ويلذ اللسان ترداده؟. . .

ألم يقرأ أحاديث العقيق، ويرو أشعار العقيق، من لم ير قط العقيق، فيهوى العقيق، ويحن إلى العقيق؟ فكيف يسيل العقيق ثم لا يخرج أهل المدينة إلى العقيق؟. . .

أولم يسمع عبد العزيز بن الماجشون أن قد سال العقيق، وهو خارج من صلاة الصبح، فلا يتريث ولا يمر بداره، ويمضي إليه من ساعته، فيلهو فيه بعض اللهو، ويسمع فيه الغناء، وهو هو في مكانته ووقاره؟ فكيف بعامة الناس وشبابهم؟

خرجنا مع من خرج، فلم نجاوز السور ونترك عن أيماننا المحطة العظيمة، الخالية الخاوية، الكابية الباكية، التي أضاعها أهلوها، وأهملوها حتى نسوها. . . حتى بدت لنا الحرة السوداء الواسعة فسلكنا طريقاً فيها جديدة، على يسار الطريق القديمة التي تهبط الحرة على سلم منقورة في الصخر، وهذه النقرة هي ثنية الوداع، التي طلع منها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستقبله الولائد بالدفوف ينشدن:

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع

والتي منها أشرق (البدر) على القلوب والعقول، فأنارها فهي منه في نور إلى يوم القيامة!

وسرنا في هذه الطريق نحواً من كيلين اثنين فانتهينا إلى بئر عروة، التي حفرها الإمام الزاهد العلم عروة بن الزبير، فكانت في قصره العظيم الذي اندثر، ولم يبق له من أثر، وهي أعذب بئر في المدينة وأطيبها، وكان ماؤها يحمل إلى الرشيد في قوارير وهو مقيم في الرقة؛ وإلى جانب البئر قهوة جديدة، قامت على جذوع النخل، فجلسنا فيها على كراسي مستطيلة، تتخذ في مقاهي الحجاز مجلساً وسريراً، تطل على الوادي العظيم

والوادي رغيب، بين عدوتيه أكثر من مائة متر، وعلى العدوة الأخرى جبال حمراء جميلة المنظر، وقد غنى الوادي وامتلأ، والسيل دفاع يلتطم آذيه، وتصطخب أمواجه، يرمي بالزبد، ويطوح بالفقاقيع، ويجري متكسراً وله خرخرة، وله دردرة، وعلى جانب الماء حصباء واسعة، قد جلس فيها المدنيون حلقاً، يحفون بـ (سماورات) الشاي البراقة العالية، ويغنون ويطربون، ما سمحت لهم (الحكومة) أن يغنوا ويطربوا. . .

جلس إخواننا يتجاذبون أطراف الحديث، فيذكرون بلادهم وأوطانهم، ويحنون إلى الغوطة الغناء، والعين الخضراء، والزبداني وبلودان، وتلك الجنان، وجلست أحدق في ماء العقيق، وأحن إلى أيامه الغر، وماضيه الفخم، وأفكر في حاضره الممض، ووداية القاحل، فأطيل التحديق، وأمضي في التفكير حتى أذهل عن نفسي، وأنسى مكاني، فأرى صفحة الماء

تضطرب وتهتز، وتختلط فيها الأنوار، وتمتزج فيها الأضواء، كأنما هي سبيكة ذهب، أو قطعة ياقوت، ألقي عليها نور وهاج، ثم أراها قد استقرت وسكنت، فإذا العقيق غير العقيق، وإذا هو غارق في العطر والنور، وإذا من حوله العشرات من القصور، تضيء كأنها الثريا في السماء، فتنعكس أنوارها في الماء، فتتوارى النجوم استحياء، وتغص

العين خجلاً، ثم تستتر ببرقع الغمام وتبكي، فيضحك العقيق لبكاء السماء، وتضحك الأرض لضحك العقيق!

وأرى قصر عروة العظيم، قد سطعت في شرفاته الأنوار، وحف به الشعراء والمغنون ينتظرون نزيله الجليل، الشاعر الغزل الفقيه المحدث عروة بن أذينة، ليأخذوا من شعره، ويحفظوا من حديثه، فإذا طال بهم الانتظار، وتصرم الليل، ولم يفوزا بطائل، ذهبوا إلى دورهم وقد أيسوا من لقائه تلك الليلة، وأزمعوا أن يباكروه من الغد. وسكن العقيق وخلا إلا من عاشق أرق (يناجي طيف من يهوى، ويبغي عنده السلوى) وخشع الليل، وأنصت الكون، فقام عروة على شرفة القصر، فراقه سكون الليل، وفتنه منظر العقيق، فهاج في نفسه الشوق، فاندفع ينشد:

إن التي زعمت فؤادك ملّها ... خلقت هواك كما خلقت هوى لها
فبك التي زعمت بها وكلاكما ... يبدي لصاحبه الصبابة كلها
ويبيت بين جوانحي حب لها ... لو كان تحت فراشها لأقلها
ولعمرها لو كان حبك فوقها ... يوماً وقد ضحيت إذن لأظلها
بيضاء باكرها النعيم فصاغها ... بلباقة فأدقها وأجلها
لما عرضت مسلماً لي حاجة ... أرجو معونتها وأخشى ذلها
منعت تحيتها فقلت لصاحبي ... ما كان أكثرها لنا وأقلها
فدنا فقال: لعلها معذورة ... من أجل رقبتها، فقلت: لعلها

فلما كان الصباح، غدا أبو السائب المخزومي علي عبد الله، فقال له: أسمعت أبيات عروة أمس؟ قال: وأية أبيات؟ قال: وهل يخفى القمر؟ قوله:

. . . .إن التي زعمت فؤادك ملّها

فأنشده إياها، فلما بلغ إلى قوله: لعلها، قال أبو السائب: أحسن والله، هذا والله الدائم العهد، الصادق الصبابة، لا الذي يقول:

إن كان أهلك يمنعونك رغبة ... عنيّ فأهلي بي أضنّ وأرغب

وإني لأرجو أن يغفر الله لصاحبك (يعني عروة) حسن ظنه بها، وطلبه العذر لها؛ ثم يعرض عليه عبد الله طعاماً فيقول: لا والله ما كنت لآكل بهذه الأبيات طعاماً إلى الليل!

وينتظر عبد الله حتى إذا حان المساء، وأثر الجوع في أبي السائب ذهب إليه فقال له: (جئت أنشدك وأحدثك) فيقول: (هات ما عندك)، فيحدثه وينشده، حتى ينشده بيتي العرجي:

باتا بأنعم ليلة حتى بدا ... صبح تلوّح كالأغرّ الأشقر
فتلازما عند الفراق صبابة ... أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر

فيقول أبو السائب: أعده عليّ، فيعيده أبو مصعب، فيستفز المخزومي الطرب فيحلف بالطلاق لا ينطق بحرف غيره حتى يرجع إلى بيته!

ويمرّ بهما عبد الله بن حسن بن حسن وهو منصرف من مال له يريد المدينة فيسلم عليه ويقول: كيف أمسيت أبا السائب؟

فيقول:

فتلازما عند الفراق صبابة ... أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر

فيقول أبن حسن: مالك يا أبا السائب، إني لا أكاد أفهم عنك

فيقول:

فتلازما عند الفراق صبابة ... أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر

فيقبل عبد الله بن حسن علي عبد الله، فيقول: متى أنكرت صاحبك؟ فيقول: منذ الليلة، فيقول: إنا لله! أي كهل أصيبت به قريش! ثم يمضي

ويمر بهما عمران بن محمد التميمي قاضي المدينة يريد مالاً له على بغلة له ومعه غلام على عنقه مخلاة فيها قيد البغلة، فيسلم ويقول: كيف أنت يا أبا السائب؟

فيقول:

فتلازما عند الفراق صبابة ... أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر

فيقول القاضي لعبد الله: متى أنكرت صاحبك؟ فيقول: آنفاً، فيسترجع القاضي ويهم بالمضي، فيمكر عبد الله بصاحبه ويقول: أفتدعه هكذا أيها القاضي وتمضي؟ والله ما

آمن أن يتدهور في بعض آبار العقيق، قال القاضي: صدقت، يا غلام! قيد البغلة، فيضع القيد
في رجله وهو يشير بيده ويصيح:
فتلازما عند الفراق صبابة ... أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر!
ثم يضطرب الماء ويموج، فتنطمس الصورة فلا أرى في الماء إلا أشباحاً مبهمة، مهتزة متداخلة، ثم تبين وتضح، فإذا أنا أرى قصر عروة، وقد هيئ وفرش، ودارت به الخدم والعبيد، واجتمع من حوله السراة والأعيان، وهم يتحدثون تبدو عليهم أمارات الملل والقلق، فعل الذي ينتظر شيئاً ويبطئ عليه، وأدنو منهم فأفهم من حديثهم أن القادم صاحب القصر عروة بن الزبير، أحد الفقهاء السبعة، وقد كان في دمشق فأصابته الأكلة في رجله، فأراده الأطباء على قطعها وإلا سرى الداء فأفسد عليه جسده، وقيل له نسقيك الخمر حتى لا تجد ألماً! فقال: لا أستعين بحرام الله على ما أرجو من عافية. قالوا: نسقيك المرقد. قال: ما أحب أن أسلب عضواً من أعضائي وأنا لا أجد ألم ذلك فاحتسبه
قالوا: فما تصنع إذن؟ فأخذ في التهليل والتكبير، وقال: شأنكم بها!
ودخل عليه قوم أنكرهم، فقال: ما هؤلاء؟ قالوا: يمسكونك. فإن الألم ربما عزب معه الصبر، وأنت شيخ كبير!
قال: أرجو أن أكفيكم ذلك من نفسي. فقطعت كعبه بالسكين، حتى إذا بلغ العظيم وضع عليه المنشار. . . فقطعت، وهو يهلل ويكبر. . . ثم أغلى له الزيت في مغارف الحديد، فحسم به. فغشى عليه ثم أفاق وهو يمسح العرق عن وجهه، فلما رأي القدم بأيديهم، دعا بها فقلبها في يده، ثم قال:
. . . .أما والذي حملني عليك، إنه ليعلم إني ما مشيت بك إلى حرام
وأسمعهم يتحدثون كيف دخل ابنه محمد - وهو فتى المدينة جمالاً وكمالاً، وأدباً ونسباً - كيف دخل اصطبل الوليد فرمحته دابة فقتلته، وما يعلم عروة بشيء من ذلك، وكان عروة رجلاً صالحاً قد عاف الدنيا، وانصرف عنه، ولم يرد منها إلا زاداً يقطع عليه الطريق إلى الجنة:
ذكر العتبي أن المسجد الحرام جمع مرة بين عبد الملك أبن مروان وعروة وأخويه عبد الله ومصعب، على عهد معاوية أبن أبي سفيان فقال بعضهم لبعض: هلم فلنمن
فقال عبد الله: منيتي أن أملك الحرمين، وأنال الخلافة
وقال مصعب: منيتي أن أملك العراقين، وأجمع بين عقيلتي قريش: سكينة بنت الحسين، وعائشة بنت طلحة
وقال عبد الملك: منيتي أن أخلف الأرض كلها - وأخلف معاوية
فقال عروة: لست في شيء مما أنتم فيه، منيتي الزهد في الدنيا، والفوز بالجنة بالآخرة، وأن أكون ممن يروى عنه هذا العلم
فصرف الدهر من صرفه - إلى أن بلغ كل واحد منهم إلى أمله - فكان عبد الملك يقول: من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة، فلينظر إلى عروة؟
(البقية في العدد القادم)
علي الطنطاوي
النهضة التركية الأخيرة
للدكتور عبد الوهاب عزام
تتمة
بقيت هنات مما اقترف الكماليون لا أبغي إحصاءها، بل اكتفي بواحدة منها هي: لبس القبعة. والأمر في نفسه هين. ولكل أمة أن تتخذ من اللباس ما يلائم هواها، ويواتي حاجاتها، وإن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم؛ ولكن الكماليين اتخذوا القبعة عمارة لهم سيراً على خطتهم في تقليد الأوربيين وإتماماً لسننهم في محاكاتهم، وإمعاناً في هجر ما يميزهم منهم فيحرمهم شرف الفناء فيهم. ولو أن القوم فكروا ثم فكروا فرأوا أن لا مناص لهم من لبس القبعة ضرورة يقتضيها الزمان والمكان لا بدعة يمليها التقليد لكان لهم في العقل مساغ، وفي العذر متسع، ولكان عليهم مع هذا أن يفهموا الأمة بالدليل، ويجادلوها بالحسنى، حتى ترى أن القبعة لباس اختاروه لأنفسهم، لا ذلة ضربت على رؤوسهم، فقد عاشت الأمة التركية أحقاباً ترى هذه القبعة شعار

مخالفي دينها، ولباس أعداء تاريخها. فلما أكره التركي في ثورة التقليد أن يضعها على رأسه أحسها ذلة طأطأ لها الرأس الأبي، وعاراً ذلت له النفس الكريمة. وحاولت رؤوس أن تنبذها فقطعت، وأرادت نفوس أن تستهجنها فقتلت. وإنك لتبصر رأس التركي الأصيد، وكأنه حمل من الذل ملء الأرض والتاريخ، وسيم من الخسف ما تنوء به عزته وعزة آبائه. وليس هينا على أمة أن تسام هذه الحطة، وتحمل على هذا العنت. وإن يكن بعض الترك لبس القبعة عزاً وفخاراً، فقد لبسها معظمهم خزياً وشناراً، تنطق بذلك أساريرهم وتبين عنه عيونهم؛ ولو أن القوم، إذ رأوا رأيهم، أخذوا به النشء الصغار، وخيروا فيه الكبار، لهان الأمر بعض الهوان. تصور الشيخ أبن السبعين أو الهم التسعين قد شابت لحيته في الإسلام، ونبتت نفسه وترعرعت ثم ذبلت في كره القبعة، يكره على أن يختم حياته بها، ويتوج شيبته بسوادها. وانظر ذلك الشيخ الجليل الذي كان يدرس العربية في جامعة استانبول فقيل له: البس القبعة وانزع العمامة. قال: أعانوني وعدوني من رجال الدين. قالوا: فاخرج من الجامعة إن لم يكن لك بد من عمامتك. فخرج منها وخلفه فيها معلم ألماني، فكان يأخذ عنه علم العربية ويعلم الطلبة، وكفى الله الطلبة عمامة الشيخ وعلمها، وأسعدهم بقبعة الألماني
وبركتها

وقد جاءت الأنباء بأن الإيرانيين حذوا حذو الترك في لبس القبعة، ولم يقنعوا بالبهلوية (التي ابتدعوها) فهنيئاً لهم تقليد المقلدين

فلو كان عبد الله مولى هجوتُه ... ولكنّ عبد الله مولى مواليا

وأعجب من هذا وأشأم صيحة سمعناها من العراق تدعو إلى الاقتداء بالفرس والترك فيما صنعوا. وهي دعوة إلى هذا التقليد الأشأم الذي يبدأ في ناحية فيسري سريان العلة في جميع النواحي؛ إذا ضل العرب في الضالين، وتهافتوا مع المتهافتين، فبأي وزر تعتصم الحضارة الإسلامية، وبأي ملاذ يلوذ التاريخ الإسلامي؟ وكيف تثبت الأمم الإسلامية في هذه الزعازع إذا مال العرب وهم العماد، وزلزلوا وهم الأوتاد؟ كيف وهم الحلماء إذا طاشت الأحلام، والراسخون إذا زالت الأقدام؟

ما أحسب العراقيين يستجيبون هذه الدعوة، فيسنوا للعرب أقبح سنة، أو يستبدوا دونهم برأي، وهم الدعاة إلى الأخوة العربية، الغلاة في الحماسة القومية؛ الأمر، كما قلت، هين إذا أدت إليه الروية والاختبار، فليجتمع وفود العرب أو وفود المسلمين كافة في مؤتمر عربي أو إسلامي، ولينظروا فيما يلائم كل إقليم من الأزياء، وما يوافق المدنية الحاضرة من ألبسة، ثم ليختاروا على بينة. وليكن ما يختارونه موافقاً لأزياء أوربا أو الشرق، أو مخالفاً لكل أزياء العالم، فلا حرج في هذا ولا بأس به

لقد لبس العراقيون منذ سنين عمارة سموها الفيصلية جمعت مزايا القبعة الأوربية والعقال العربي، يسهل خلعها ووضعها، وتحمي الرأس والرقبة والوجه عند الحاجة، وهج الشمس ولفح الهجير، وتفرغ على راس العربي جمالاً وجلالاً، وتتوجه بمجد الماضي والحاضر. فلماذا لا يدعى إلا تعميمها، ويحتج لها بمزاياها؟ ألا أنها اختراع لم تلده قرائح الأوربيين، ولباس لم تقره سننهم؟ إن لم يكن بد من شهادة أوربية فسلوا أهل أوربا العالمين بأحوال بلادكم فسيقولون إنها خير لكم من القبعة، وأجدى عليكم منها. ليت شعري إلام ندعو إلى اليقظة فتنامون، وإلى الحذر فتستسلمون، وإلى العزة فتهنون، وإلى الاستقلال فتتبعون، وإلى الاجتهاد فتقلدون؟

كفى يا قوم بالزمان واعظاً، وبالتجارب هادياً. إنكم في مهب العواصف، ومفترق الطرق،

فخذوا حذركم، ونبهوا عقولكم واشحذوا عزائمكم، ولا تصدروا إلا عن بينة، ولا تقولوا إلا عن رؤية، فأنه الحياة أو الموت، والبقاء أو الفناء

الخاتمة

رأى القراء مما قدمت أن الترك الكماليين لم يأتوا بجديد في هذه (النهضة التركية الأخيرة) ولكنهم ساروا على سنن أوربا فأحسنوا وأساءوا. أحسنوا بما أخذوا بأسباب الحياة فاجتهدوا في تعمير بلادهم وإسعاد أهلها، وتوسلوا لمعارك الحياة بعددها فدربوا الجيوش واستكثروا من السلاح وجعلوا أنفسهم سادة بلادهم. وأساءوا بما تبعوا أهل أوربا في أمور هي من نفايات الحضارة، وحثالات المدنية، وبما هجروا من أجل ذلك

كثيراً من سنن دينهم القويم، وأخلاقهم الكريمة، وتاريخهم المجيد. وأذكر في هذه الخاتمة ما قاله في أوربا بعض أولي الرأي منذ سنين: قال: (كأن الكماليين بما يفعلون اليوم يقولون يا أهل أوربا! معذرة، لا تؤاخذونا بما فعل آباؤنا فقد حاربوكم جهدهم، وجالدوكم ما استطاعوا، ودافعوكم جهد طاقتهم، وما كانوا ينشرون حضارة أو يدافعون عن حضارة. وهانحن أولاء نعترف بأن الخير في اتباعكم، والشر في مخالفتكم، وإن آباءنا أثموا إذ منعوا عنا خيركم، فاقبلوا الأبناء في جماعتكم، ولا تأخذوهم بذنب آبائهم. هانحن أولاء نحني رؤوسنا إكباراً لكم، ونلوم أجدادنا من أجلكم.)

وبعد. فهذه الكلمات التي كتبتها لا تفي بهذا الموضوع العظيم، ولا بد أن يتعاون الكتاب والمفكرون في هذه السبيل حتى يجلوا عن الأمة هذه الغمة، ويدفعوا عنها هذه الفتن المدلهمة، والشبه المضلة، ثم يسيروا بها على المحجة البيضاء إلى الغاية المجيدة. فإنما نحن في فتن لا عذر فيها لمقصر ولا حجة فيها لمتهاون

وما أردت بما كتبت إلا وجه الله، والله هو الحق المبين. وهو حسبنا ونعم الوكيل (إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.)

عبد الوهاب عزام

المدنية الأمريكية

كما يصفها أندريه موروا

للأستاذ محمد روحي فيصل

أندريه موروا كاتب فرنسي معاصر، وروائي واسع الشهرة؛ وهو الآن في الخمسين من عمره، يكتب كثيراً ويعمل كثيراً، ولعله (الحركة الدائمة) التي ينشدها علماء الطبيعة، والغريب أن إنتاج موروا على كثرته خصب عميق، فيه ملاحظات نفسية قيمة، وفيه وصف بارع طريف، وفيه حلاوة قل أن تجدها عند غيره من الكتاب والروائيين

قام بسياحة إلى أمريكا منذ حين، زار في خلالها مدن الشواطئ الشرقية، ورأى آثارها، وحاضر في جامعاتها، وفهم في شهرين حقيقة المدنية الأمريكية ومظاهرها الصحيحة، ثم عاد إلى وطنه وألقى محاضرة قيمة طويلة نقتطف منها ما يلي:

(وصلت باخرتنا إلى نيويورك في الصباح الباكر فراعتني المدينة العظيمة النائمة، وطغى علي شعور غريب جميل. والحق أن مرفأ نيويورك منظر لا أعرف أبهج منه ولا أروع ولا آخذ بلب الرائي الممعن! بقينا على الماء نسير خمسة أيام ثم طلعت علينا نيويورك بوجهها الضخم وهيكليها العريض كما يطلع الجبل الشاهق على المسافر العاني بعد طوال السير وطي الأميال. وجلنا في الشوارع نسير على غير هدى، فإذا المباني ضخمة بالغة الضخامة، متينة بالغة المتانة، تشق الفضاء طولاً وعرضاً واتساعاً. ونلاحظ أن الضخامة مظهر من مظاهر الجمال، وأعني أن جمال الشيء إنما يرجع أحياناً إلى ضخامته الناشزة؛ أرأيت إلى أهرام مصر أو قصر (بيتي) كيف أن علوهما خلع عليهما جمالاً خاصاً على جمال الفن والهندسة)

والأمريكيون شعب يعمل في جنون، فلا يريح جسده ولا يريح عقله، وإنما يجهدهما في التجارة والصناعة والاختراع؛ وهذه الظاهرة هي أقوى ما يلمح العابر السائح من الصور. ويل للمحاضر في أمريكا! إنه يخضع للحركة الأمريكية الطاغية، ففي الصباح يلقي محاضرة، وعند الظهر يرأس حفلة خطابية، ثم يحاضر في نادي النساء، وفي الساعة الخامسة يقول كلمة في جامعة كولمبيا أو الاتحاد الفرنسي؛ وأنى رحل يجد برنامجاً طويلاً سريعاً يبتدئ من الصباح وينتهي في منتصف الليل!)

(إن العقلية الأمريكية تتطلع إلى عرفان كل شيء، وتولع بالجديد الغريب؛ وهي عقلية فتية تؤمن سريعاً وتكفر كثيراً؛ وأنت لابد ناجح في أمريكا إن كنت روائياً طريفاً ناقداً متفلسفاً. والكاتب الناشئ يغدو معروفاً في أقل من شهرين، تقام له الحفلات الرائعة، وتتحدث إليه الصحف، وتطبع مؤلفاته مراراً ثم. . . ثم يموت في أذهان الجمهور، وينحدر إلى الخمول والنسيان، كأنما هي شهرة خاطفة تمتع بها قليلاً وحلم فيها كثيراً ثم عاد إلى الواقع المجهول يتفيأ ظلال الذكرى وبقايا المجد!)

(والشخصية الفردية لا أثر لها في أمريكا على الأطلاق، والسعادة الروحية لم يتمتع بها الأمريكي بعد لذاته؛ دائماً (خدمة الجمهور) هو المذهب السائد الذي يؤمن به الأمريكيون كافة، وهو مذهب، على قيمته، خطر كل الخطر، مفسد للشخصية والنبوغ، لأن المرء الذي لا يبالي بوجوده الفردي يعد آلة تعمل من غير شعور ولا تطور. والواقع

أن المصانع قامت مقام اليد العاملة، والآلة طغت على الفن، (والكثرة) هي المقياس الذي توزن به قيم الأعمال ونتائج الأشياء)
وهذه المساوئ التي نذكرها ويذكرها غيرنا ليست مساوئ النفس الأمريكية، وإنما هي) مساوئ المدنية الغربية الحاضرة. ولئن مات الفن اليدوي في أمريكا وعاشت الآلة فإنما يموت الفن وتحيا الآلة في فرنسا وإنجلترا وألمانيا وإيطاليا؛ ونستطيع أن نستثني مهنة النقوش والخياطة والفسيفساء التي يمارسها القليل من الخلائق البشرية؛ أما عامة الشعب فمحشود في المصانع يعمل مجتمعاً من غير تفكير في الذات؛ والأدب الأمريكي أدب الصناعة حقاً، يصور ميكانيكية المعمل وسرعة الحياة واضطراب المجتمع؛ أما أزمات النفس، وثوران العواطف، وانفعالات الأهواء، فهي غريبة نكرة في الأدب الأمريكي الحديث. . . . .
الواقع أن الحياة الحاضرة حياتان: حياة آسيوية أخروية متشائمة ساخطة، نظرت إلى الدنيا من خلال منظار أسود كئيب، فرأت جوعاً وفقراً ومرضاً وظلماً، فكرهت المجتمع الحافل، وانعكفت على التصوف وأحبت الأحلام، ثم قالت: إنما الدنيا متاع الغرور!. وحياة أمريكية دنيوية صناعية لا تبالي بالباطن العجيب، ولا تعنى إلا بالأرض؛ فالأمريكي قل أن يلتفت إلى نفسه يطالع فيها ويتأمل جوانبها على نحو ما يفعل الآسيوي الحالم، وإنما هو يطالع في
الآلة والمصنع والأرض، ثم يحاول أن يجد السعادة فيما يحيط به من الدنيا الواقعة المحسوسة
وعندي أن الحياتين على نفعهما لا تصلحان للبشرية، فالتطرف مذهب لا أحبه لنفسي ولا أرضاه لجنسي، وإنما أرجو حياة وسطاً بين الحياتين، قوامها الحس والتفكير، ومادتها الدنيا والنفس، وغايتها التقدم والمرح والإنتاج. ولعل الحياة الأوربية هي الحياة التي تجمع خصائص الحياتين المتطرفتين الآسيوية والأمريكية. .
وهنا قد يستطيع الفرنسيون أن يوفقوا بين هذه وتلك، وينشروا الاعتدال؛ فالمدنية الفرنسية مدنية قديمة ذات أدب خصب صحيح، لها أنصار كثيرون، ولها ماض جليل حافل، ولها صناعة قوية جميلة. وإنما المهم أن يعرف الفرنسيون أي سبيل يسلكون لذيوع الثقافة الفرنسية وتأثيرها في العقول. ولقد ينبغي قبل كل شيء أن نفتح أعيننا جيداً حين نطوف البلاد ونجول الأرجاء، ثم نرسل العقل حراً في البحث والتفكير، والمطالعة والاستنتاج)

محمد روحي فيصل

فرقة الخوارج

بقلم فريد مصطفى عز الدين

فرقة الخوارج من تلك الفرق الهدامة التي نشأت في مختلف مراحل التاريخ الإسلامي، وكانت حرباً على الدولة الإسلامية، وعقبة كأداء في طريق عزها وازدهارها. أما العوامل التي أدت إلى ظهور الخوارج فكانت في بادئ الأمر سياسية ثم ما لبثت ميولهم أن اتجهت إلى الناحية الدينية فأخذوا يحوكون حولها معتقداتهم ونظرياتهم تسميتهم
لا نجد في التاريخ الإسلامي كله فرقة تعددت أسماؤها كهذه الفرقة، غير أن اسم الخوارج قد غلب عليها. وقد سموا بالخوارج لخروجهم على الإمام علي بن أبي طالب في معركة صفين سنة 37 هجرية لقبوله التحكيم وقولهم: لا حكم إلا لله، لا حكم للرجال. ويقول بعض المؤرخين إنهم دعوا بالخوارج لخروجهم بعد ظهور نتيجة التحكيم في رمضان سنة 37 هجرية من الكوفة إلى النهروان. ثم تطور هذا الاسم فأصبح يطلق على كل جماعة خرجت على القانون والسلطة الحاكمة سواء في صدر الإسلام أو زمن التابعين
أما الخوارج أنفسهم فيقولون أنهم تسموا بهذا الاسم لخروجهم من بيوتهم طلباً للجهاد والاستشهاد في سبيل إعلاء كلمة الله والدين الحنيف، ويستندون في ذلك على قول الله تعالى: (وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفةٌ منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم، ولتأت طائفة أخرى لم يصلّوا فليصلّوا معك، وليأخذوا حِذرهم وأسلحتهم، وَدّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم مَيلةً واحدة، ولا جُناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى

أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعدّ للكافرين عذاباً مُهينا)
وهنالك اسم آخر يطلق على هذه الفرقة وهو اسم الشراة، ويقال إن الخوارج يفضلونه على الاسم الغالب عليهم، لأن هذه التسمية تعني أنهم اشتروا الجنة بالدنيا واستبدلوا الباقية بالفانية استناداً على الآية الكريمة: (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيَقلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا بِبيْعِكُم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم)
ودعيت هذه الفرقة أيضاً فرقة المحكمة، وذلك لأنها حكمت الله تعالى ورفضت تحكيم العبيد. ويميز المؤرخون الفرقة الأولى من الخوارج التي انشقت على عليّ بن أبي طالب في صفين عن الخوارج بدعوتها الفرقة المحكمة الأولى أو الحارورية نسبة إلى حارورا بقرب الكوفة، وهي المكان الذي خرجوا إليه، ويدعون بقية الخوارج فرقة المحكمة

نشأتهم

من الصعب أن نعين العلاقة بين ظهور الخوارج ومسألة التحكيم، فنقول إن هذه نتيجة لتلك وإنه لولا مسألة التحكيم لما اعترى جيش الإمام علي ذلك الانقسام ولما نشأت فرقة الخوارج؛ وقد عني البعض ببحث هذه النقطة فتبين لهم بعد دراسة عميقة أن نشوء الخوارج ومسألة التحكيم مستقلتان عن بعضهما استقلالاً تاماً. ويعتقد المستشرقون لامانس وكايتاني وولهاوسن أن فرقة الخوارج ظهرت قبل التحكيم مما يدل على صحة الرأي القائل باستقلال المسألتين بعضهما عن بعض. ولكن المستشرق ديلافيدا يخالف رأي لامانس ورفيقه، ويقول إن الخوارج ظهروا بعد التحكيم

معركة صفين

تولى علي بن أبي طالب الخلافة والعالم الإسلامي في غليان شديد من جراء مقتل الخليفة عثمان بن عفان وعواقب هذه الجريمة، فلم تكن مبايعته بالإجماع كأسلافه. وكان عدوه الأكبر معاوية بن أبي سفيان والي الشام الذي خرج طالباً للثأر من قاتلي قريبه الخليفة المغدور. فلما انتهى علي من أمر طلحة ابن عبد الله والزبير بن العوام في موقعة الجمل بالقرب من البصرة سار طالباً معاوية فالتقى الجيشان في سهل صفين وهو مكان قريب من بلدة الرقة في شمالي شرق الشام
وفي أول صفر من سنة 37 هجرية، ابتدأ القتال بين الفريقين فرجحت كفة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فخاف معاوية العاقبة، وعمد إلى الحيلة يساعده على إتقانها الداهية الأكبر عمرو أبن العاص. وبينما كانت الحرب مستمرة إذا بجنود الشام يرفعون المصاحف فجأة على أسنة الرماح طلباً للتحكيم. فلم يؤخذ علي بهذه الحيلة، وقرر الاستمرار في القتال إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولا. ولكن فريقاً كبيراً من جند علي قبل التحكيم وحمل
زعيمه على قبوله رغماً عنه. وبعد أن رضي الإمام بالتحكيم قام فريق آخر من جنده يندد بالتحكيم، ويصيح: لا حكم إلا لله، لا حكم للرجال، ويظهر أنه كان بين هذا الفريق بعض من أتباع الفريق الأول. فانقسم بذلك جيش علي إلى شطرين، ونجحت الحيلة التي قال فيها عمرو (إن قبل خصومنا التحكيم اختلفوا، وإن ردوه افترقوا)
ولما ظهرت نتيجة التحكيم التي تقضي بخلع علي عن الخلافة - ولا أقول معاوية، لأن إقرار عمرو بن العاص بخلع صاحبه لم يؤثر في مركز معاوية لأن خلعه كان وهمياً، إذ إن معاوية لم يكن خليفة ليخلع عن عرشها - رفض علي قبولها، وهكذا أضعفت نتيجة التحكيم مركز علي وقوت مركز معاوية
فقويت برفض علي لنتيجة التحكيم حجة الفريق القائل بعدم قبول التحكيم منذ بادئ الأمر، واكتسب إلى صفه جميع الموتورين من سياسة الإمام. وهكذا نرى أن فريق الخوارج كان مؤلفاً من جماعات متفككة العرى تجمعها مناوأة سياسة علي، إما لأنه لم يقبل التحكيم أولاً أو لأنه قبل التحكيم ثانياً، أو لأنه رفض قبول نتيجة ثالثاً. والقسم الأكبر من الخوارج هم الذين أخذوا على علي قبوله صارخين: لا حكم إلا لله. ثم انظم إلى هذه الفرق المختلفة كل من كان ناقماً على السلطة أو خارجاً على القانون، حتى أصبح معسكر الخوارج ملجأ لهؤلاء، أيام الراشدين والأمويين والعباسيين
وبعد انشقاقهم على جيش الخليفة ساروا إلى حارورا وانتخبوا عبد الله بن وهب

الراسبي خليفة عليهم. وقد اضطر علي أن يحمل عليهم قبل أن يسير لقتال معاوية ليأمن شرهم، فقاتلهم في معركة عظيمة تدعى معركة النهراوان في 8 يوليو سنة 658 ميلادية، وتغلب عليهم، غير انه دفع ثمن هذا النصر غالياً، لأن هذه المعركة أضعفت جيشه فأصبح عاجزاً عن المسير إلى سورية لحرب معاوية، وبقي بالكوفة إلى أن قتله ابن ملجم الخارجي سنة 661

الخوارج في عهد الدولة الأموية

اشتدت في عهد الدولة الأموية قوة الخوارج، وكانوا من العوامل الرئيسية التي طاحت بحكم الأمويين، فما من خليفة أموي إلا ثاروا عليه، غير أنهم ظهروا واشتهروا خصوصاً في زمن الخليفة عبد الملك بن مروان، وكانت ميادين القتال العراق وخراسان. وقد بدأ بقتال الخوارج مصعب بن الزبير - شقيق عبد الله بن الزبير منافس عبد الملك بن مروان في الخلافة - وكان قائده المهلب بن أبي صفرة. ولما تغلبت قوات عبد الملك على الزبيريين وقتل مصعب كان لا يزال المهلب يحارب الخوارج فبايع عبد الملك بالخلافة حالما بلغه نعي مصعب وتابع قتاله

ثم أرسل عبد الملك في سنة 75 هجرية الحجاج بن يوسف الثقفي والياً على العراق فتمكن بشدة بأسه من خضد شوكة الخوارج. وقد امتازت فرقة الأزارقة أتباع نافع بن الأزرق من فرق الخوارج ببسالتها وشدتها واستماتتها في ميادين القتال والنزال

الخوارج في عهد الدولة العباسية

ضعف أمر الخوارج في عهد الدولة العباسية ولم تعد فرقهم خطراً على الدولة الإسلامية كما كانت نشأتها في العصر الأموي، غير أنهم لم يعدموا أوقاتاً قاموا فيها ببعض الثورات والفتن. وقد اشتهرت من بين فرقهم في هذا العهد فرقة ألاباضية أتباع عبد الله بن أباض التي ظهرت في عمان وعلى الخليج الفارسي وفي أفريقيا الشمالية أي تونس الخضراء والجزائر والمغرب الأقصى

ولما غلب الخوارج على أمرهم في الناحية السياسية أخذوا ينصرفون إلى الناحية الدينية ويحوكون حولها نظرياتهم ومعتقداتهم الدينية

تصلب الخوارج وشدتهم في المعتقدات الدينية

عرفت فرق الخوارج واشتهرت بتصلبها الديني الشديد وتمسكها بالمعتقدات الدينية التي تدين بها، ولذا كانت كل جماعة منهم ترى أن زعيمها بدأ ينحرف عن المبادئ التي تعترف بها انشقت عنه وعن أفراد فرقتها وكونت لها فرقة خاصة، وهذا هو السبب في تعدد فرق الخوارج وتشعبها. ومن الفرق الفرقة ألاباضية والفرقة الصفارية والأزاردة والعجاردة والنجدات وغيرها. وكانت كل فرقة تنقسم إلى فرق صغيرة عديدة، وقد ذكر الشهرستاني في كتابه (الملل والنحل) ثماني فرق من الأزارقة. ولا ريب أن انقسام الخوارج إلى فرق متعددة كان عاملا قويا في إضعاف شأنهم وزوال هيبتهم

معتقدات الخوارج السياسية

قلنا في صدر هذا المقال إن حركة الخوارج بدأت حركة سياسية ثم تحولت بمضي الوقت إلى حركة دينية. ولذا فان معتقداتهم تدور على وجهين سياسي وديني. فأما معتقداتهم السياسية فتدور حول مسألة الخلافة، ولهم في هذه المسألة مواقف أساسية يخالفون بها السنة والشيعة. فهم مثلا لا يقيدون جنسية الخليفة ولا يمانعون في أن يكون حتى زنجياً، بينما أن السنيين لا يجيزون سوى انتخاب قرشي للخلافة. أما الشيعة فيذهبون إلى أبعد من ذلك ولا يعترفون إلا بالخليفة الذي هو من آل البيت

ولا يرى الخوارج أن من الضروري وجود خليفة على رأس الأمة إذا انتظمت أمور الرعية، بينما أن الشيعيين يقولون بوجوب بقاء الإمام في كل عصر ودهر. أما السنيون فليس عندهم إجماع عام على هذه المسائل

وليس الخليفة معصوماً عن الخطأ كما هو الحال عند الشيعة، فهم يجوزون القيام عليه حتى قتله إذا بدا منه اعوجاج أو عدل عن الصراط المستقيم الذي يتحتم على الخلفاء أن يتبعوه. وهم لا يعترفون من الخلفاء الراشدين إلا بالشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ولا يعترفون بالخلفاء الأمويين والعباسيين وأصحاب موقعة الجمل أي طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام

معتقدات الخوارج الدينية

أشرت آنفاً إلى التصلب الديني الشديد الذي اشتهر به الخوارج، فهم يطلبون من المؤمن أن يقرن إيمانه بالعمل الحسن إذا أراد الثواب، لأن الإيمان وحده غير كاف لدخول جنة الفردوس. ويكفر الخوارج صاحب الكبيرة، فهم بذلك على عكس فرقة المرجئة التي ترجئ تكفير المؤمن إلى يوم القيامة. ويذهب الأزارقة - ومذهبهم أشد مذاهب الخوارج تصلباً - إلى أن مخالفيهم مشركون، ودرجة الإشراك عندهم أشد وأدهى من درجة الكفر، فهم يستبيحون قتل مخالفيهم مع نسائهم وأولادهم

ومن الغريب أن هذه الفرقة المتعصبة لمذهبها، الصلبة في معتقداتها، القاسية على إخوانها من المسلمين متسامحة مع اليهود والنصارى وغيرهم من الذميين. والبعض من الأزارقة يعتبر غير المسلم مؤمناً إذا أعترف برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العالمين.

ويظهر تسامحهم نحو غير العرب في أنهم يجيزون خلافة كل مسلم سواء أكان حبشياً أم عبداً زنجياً

ويتردد بعض الخوارج في قبول سورة يوسف عليه السلام في القرآن الكريم لاعتقادهم أنها سورة غرامية، فلا يمكن أن يحويها كتاب الله. والبعض الآخر يتردد في قبول سورة أبي لهب

أما في الفقه فهم لا يعترفون من أصوله الأربعة إلا بالقرآن الكريم والسنة الشريفة وإجماعهم فقط لإجماع الأمة الإسلامية. أما القياس فلا يعترفون به ولا يقبلونه ركناً رابعاً للشريعة الإسلامية السمحاء التي سنها الله جل جلاله للمسلمين نبراساً ومعواناً.

أما التفسير فهم لا يقيدون أنفسهم به ولا يؤولون

ويظهر تصلبهم الديني بوضوح في فروض الصلاة، إذ لا يكفي في نظرهم أن يكون الجسم عند الصلاة طاهراً، بل يجب أن يكون الفكر كذلك، لاعتقادهم أن الفكر السيئ يبطل الصلاة كما أن الحسم الملوث يبطلها. ونظراً لتصلبهم الشديد في معتقداتهم السياسية والدينية دعاهم بعض المؤرخين الغربيين

فلسفة الخوارج وأدبهم

ويمثل الخوارج في إحدى فرقهم حركة فكرية لا يستهان بها جعلت المستشرق الكبير ديلافيدا يجزم بأنه يجب أن يكون من جراء ذلك علاقة وثيقة بين المعتزلة والخوارج. وتنحصر أهميتهم من الناحية الفلسفية في أثارتهم مسألة الإيمان والعمل وكان مجرد تطرف معتقداتهم يجذب إليهم أحياناً البعض من العلماء والأدباء والشعراء الذين تستهويهم المبادئ المتطرفة

وقد حفظت لنا كتب الأدب العربي كثيراً من أدبهم وشعرهم وحكمهم وخصوصاً آثار شاعرهم العظيم وخطيبهم المفوه قطري بن الفجاءة

الخوارج اليوم

لم يبق من فرق الخوارج إلى اليوم إلا فرقة الأباضية، وهي من الفرق المعتدلة، وقد نشأت في الأماكن الإسلامية النائية، في عمان ثم في شرقي أفريقيا الشرقية، ثم في أفريقيا

الشمالية. وتكون هذه الفرقة الآن دولة مستقلة في داخلية سلطنة عمان على الخليج الفارسي.

فريد مصطفى عز الدين

حديث

بقلم الأديب أحمد الطاهر

نفض يديه الشريفتين من غبار الحرب وجلس إلى أصحابه وقال: (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر.) قول على سهولة وضعه، وبساطة لفظه، يدل على فهم وثيق للحياة، وإدراك عميق لأسرارها، ووزن صحيح لحقيقتها. وهو يدل من ناحية على عظمة هذه النفس النبوية التي وازنت بين جهاد الغزو، وكفاح الحرب، - وفي ذلك ما فيه من كرب وبلاء - وبين جهاد الإنسان في الحياة تلقاء ما يلقى من خطوبها، وأحداثها، وصروفها، واعناتها، وما يفرض عليه فيها من حقوق لا مندوحة عن أدائها، فأدرك رسول الله وقال إن الحرب جهادها أصغر، وإن الحياة جهادها أكبر، وإن جهاد الأبدان هين يسير، وجهاد النفوس شاق عسير، وإن جهاد الغزو محدود بوقته قصر أو طال، وجهاد الحياة يبدأ بالحياة وينتهي بانتهاء الآجال

وفي كلمة رسول الله تحديد لما بين النفوس والأبدان من صلة تجعل للنفوس على الأبدان سيطرة وسلطاناً، وتسخر الأبدان للنفوس فيما توجهها إليه من غايات ومقاصد وإذا كانت النفوس كباراً ... تعبت في مرادها الأجسام

وكلما علت النفوس سمت أغراضها، وجلت مآربها، فاشتد الجهاد والنضال بينها وبين ما يتكاءدها في سبيل الحياة من عقبات وحوائل، حتى يصبح جهادها عنيفاً حاراً يهون إلى جانبه جهاد الغزو على ما فيه من سفك للدماء

ولا جدال في أن صاحب السلطان والأمر ومن اضطلع بتدبير شؤون الرعية والقيام على حقوقها، والذود عنها يلقى عناء ومشقة وعسراً، يتضاءل أمامها ما يلقاه أوزاع الناس وعامتهم ممن ليس عليهم من الأمر إلا أن يسخروا أبدانهم لنيل غرض أو بلوغ مقصد

أدرك رسول الله أنه وقد خرج من ميدان الغزو ونفض عن نفسه وعن أصحابه نقع الحرب، سيلقى ميدان جهاد أوسع وأرحب وأكثر عناء وأشد بلاء، أليس عليه بعد هذا الغزو من أعباء الدنيا والدين، ما لا يقوم به إلا أولو العزم المتين؟

أليس عليه أن يقر هذا النصر الذي أحرز، ويرجع الأمور إلى نصابها في السلم بعد أن نبت بها مواضعها في الحرب؟

أليس عليه أن يواصل السير في تبليغ الرسالة التي أؤتمن عليها، وأن يسوس بالعدل والرحمة الأمة التي بعث إليها، وأن يثبت بين الناس شرعة قد نشر لواءها، ويسلك بهم ديناً قد مسح غثاءها؟

أليس عليه أن يؤدي لله شكراً على هذا النصر والتأييد؟ وأداء هذا الشكر لا تعرفه إلا هذه النفس العظيمة التي لا ترضى فيه بما دون الغاية، ولا تنتهي فيه إلى نهاية؟

أليس في ذلك من العناء والجهد ما يهون بجانبه عناء الحرب وجهادها؟

وأهون ما يهون به عناء الحرب وجهادها أن رسول الله المؤيد بروح الله، ليس عليه إلا أن يستنفر الناس فيسعوا إليه زمراً تخضع لآرائه، وتنضوي تحت لوائه؛ وأما جهاد السلم الذي ألممنا ببعض نواحيه إلماماً فمكتوب عليه وحده، يضطلع بالأمر فيه، ويحيط بأسراره وخوافيه، وهو في هذا الجهاد أعزل أكشف لا عدة له إلا نفس عظيمة في صدره، ووعد من الله بنصره!

وسوق الناس إلى الحرب ليس بالأمر الشاق العسير: فساعة الحرب تسبقها أحداث وخطوب وإحن وحفائظ: تستنهض الهمم، وتستنفر النفوس، وتستثير العزائم. فما هو إلا أن يستنفروا فينفروا وينساقوا إلى الحرب ورداً، يؤزهم الحماس أزا، حتى إذا (حميت وشب ضرامها) رخصت الأرواح وهان الموت: فما ترى الناس يفكرون أو يترددون، ولكن إلى حياض الردى يتدافعون: لا يصدهم عنها صاد ولا يتكاءدهم في سبيلها عقبة، وأنى لهم أن يترددوا والحافز لا تفتر همته، والدافع لا تهن عزمته. وهم لا يستشعرون عناء للحرب، ولا يرون خطراً للقتال، ولا يفكرون في بلاء الغزو. لأنهم لا يجدون متسعاً لأن يشعروا أو يبصروا أو يفكروا

أما في السلم فما أشق الرسالة وما أخطر الجهاد! الناس هادئون وادعون، يجدون من الوقت والطمأنينة متسعاً للتخاذل والتفكير، والتردد والتدبير، والاختلاف والمحال، والتنكر والجدال، أليس شاقاً جهاد الرسول: وهو يدعوهم إلى دين لم يعرفه آباؤهم، وخلق لم تألفه طباعهم، وحياة غير التي ألفوها؟

على أن رسول الله حين أشار إلى الجهاد الأكبر جهاد الحياة، لم يكن يحدث الناس بما سيلقاه وحده من نصب وإعنات، وإنما أراد أن يذكرهم بما كتب عليهم جميعاً من جهاد في الحياة. فما كتب الجهاد على الزعماء دون الدهماء، ولا كتب على القواد دون الأجناد، ولا على الرعاة دون الرعية، ولا على الكبير دون الصغير، إنما جهاد الحياة فرض يستقبل الناس حين يستقبلون الحياة، ولا ينصرف عنهم حتى تنصرف عنهم الحياة

لما تؤذن الدنيا به من صروفها ... يكون بكاء الطفل ساعة يولد
إذا أبصر الدنيا استهل كأنه ... بما سوف يلقى من أذاها مهدد
وإلا فما يبكيه منها وإنها ... لأفسح مما كان فيه وأرغد

وهذا الطفل إذا اشتد جاهد في الحياة جهاداً يتسق مع شأنه في الحياة، ولا يزال ينمو ويخطو في حياته، ونصيبه من الجهاد ينمو ويخطو ألزم له من ظله حتى مماته. وجهاده

في مراحل حياته يعتريه من الأعراض والصور وما يعتري كل كائن حي في أطوار حياته من نمو وقوة ونشاط وضعف وعجز وفتور وغير ذلك
فالرضيع لا يجاهد إلا فيما يشعر به من ألم أو حاجة. ولذا يكون جهاده (ذاتياً) محدوداً، يستعين فيه بأعضاء بدنه؛ فإن ألح عليه الألم والحاجة استعان فيه بالبكاء حتى يغاث فيظفر، أو يعي فينام فيقهر. ثم ينمو الطفل فيدرك معنى (الملكية) فيجاهد في الاحتفاظ بما ملك ويسعى لملكية ملا يملك، فيزداد جهاده، ويشتد ويحول إلى غير ما كان عليه جهاد الرضيع
والشاب في شبابه يدرك معنى الحياة فيستشرف إلى نعيمها وملذاتها، وتتعدد حاجاته ومطامعه، ويسعى حثيثاً للاستمتاع بالنعيم واللذة، ويعد نفسه لما تفرضه عليه سنن الحياة، فيجاهد في ذلك جهادا عنيفاً، ويلقى في جهاده نصباً
والكهل يسعى وراء الرزق: يدبره لنفسه، ويدر أخلافه على أهله وأبنائه، ويدخر منه لعقبه وأخلافه. وإنه لواجد في سبيل الرزق عقبات وعوائق. وإنه لجاهد مجاهد في تذليلها، والتغلب عليها، وإن جهاده لشديد، وإنه لأكثر بلاء وعناءً
والشيخ الفاني الذي نفض يديه من الدنيا، تنتابه الأمراض والعلل، ويلح عليه الفناء، وتخذله قواه؛ فيجاهد في الحياة الباقية له جهادا عنيفاً جباراً، ولكنه خافت صامت؛ يكسر من حدته صبر الشيوخ وأناتهم، وضعف آمالهم واستسلامهم
أولئك جميعاً تفرض عليهم الحياة فروضاً، وتلوح لهم بمطامع وهم يبسطون إليها آمالاً: ثم
تقيم لهم في السبيل عقبات، وتنصب بينهم وبين مطامعهم حجاباً، وتجعل أمانيهم سراباً، وهم لا ينفكون يجاهدون: تنزل بهم البأساء، فيطمعهم الرجاء، وتنقطع بهم أسباب الأمل، فيغريهم طول الأجل
حتى الرجل الذي لا تشغله الدنيا بزخرفها. والذي يصدف عن مطامعها، والذي يؤثر الآخرة على الأولى: ذلك جهاده قوي حاد. فهو أبداً في جهاد مع نفسه ولنفسه: يروضها على الزهد والاستغناء، ويدفع عنها عوامل الأغراء، ويسوقها إلى الفضيلة، ويباعد بينها وبين الرذيلة، وهو جهاد لا يهون، ولا يصبر عليه إلا القليلون
وأهون الناس شأناً في الحياة وأقلهم تقديراً لشأنها وأكثرهم استخفافاً بها لا محيد له عن الجهاد فيها: أليس عليه أن يجاهد الحر والبرد والمطر والشمس والعلل والأمراض؟ ذلك جهاد على سذاجته شاق وعسير
ما أصدق رسول الله فيما قال، وما أبعد نظره فيما رأى.

اليوزباشي أحمد الطاهر

من مشاهد الشرق

طائفة البهرا في الهند - 3

في حضرة داعي الدعاة

بقلم محمد نزيه

مضى محمد علي بخش رئيس الوزارة البهرية وأنا في أثره، في بعض جادة القصر، حتى انتهى وانتهيت معه إلى باحة فسيحة أمام سلم مديد، ذي ست درجات من رخام أبيض يشف عن زرقة رقيقة، فلما أن درجناه كنا أمام بابين رحيبين، كلاهما سبيل إلى تلك الحجرة الرهيبة التي يستقبل داعي الدعاة زواره فيها؛ وإذا كانت غرفة الانتظار قد تقاضتنا خلع الأحذية قبل ولوجها، فأحر بغرفة الشيخ الأكبر أن تطالب قصادها بمثل ذلك وأكثر منه. وكذلك هتفت بي نفسي هذه المرة بما هتف به سائق السيارة من قبل، أن اخلع نعليك فإنك قادم على أنيس المهدي المنتظر وجليسه، وأمينه سرا وعلانية، وأبى بكره من دون الخلق أجمعين!
ولقد ظللت مذ أسري بي في غرفة الانتظار إلى غرفة الملتقى - وكلاهما حرام - منصرفاً عن كل ما عسى أن يتداول سمع المرء وبصره، إلى التفكير في ذلك الرجل الذي يتقاضى جميع الناس كل أسباب التقديس له، بين مؤمن بمذهبه ومستريب به ومنكر له، ثلاثتهم من تقديس الشيخ في أوضاع متشاكلة ما أرادوا لقاءه، بل وما يكون هذا التقديس من ثالث الثلاثة تكلفا ولا صناعة ولا زيفا، فقد كنت أحسبه كذلك من قبل، وهأنذا الآن في منتصف الطريق بين الحجرتين، مفعم النفس برهبة شديدة تكاد تطغى على الرغبة الشديدة في رؤية الشيخ، بل وما فتئت هذه الرهبة تشتد سريعاً،

حتى لقد بلغت شأوها في ثلاث من خطواتي، وإذا بالحواس الخمس قد رقت في بعض الدقيقة ودق إرهافها، فكأنما غادرت عالم الملموس والمحسوس إلى عالم الإلهام؛ ومادام هذا العالم الجديد لا يدرك مما يحيط بالمرء وإنما يدرك من باطنه، من دخائل نفسه، فقد انقلبت حواسي كلها إلى نفسي، وكأنني بت لا أعي من الوجود شيئاً، ولم تزل هذه النفس المرتهبة تتسع حتى تملأ كل فضاء داخل الجسد، وتشمل القلب كله، وتغير على ما فوقه وما تحته، وما عن يمينه وما عن يساره، وما أمامه وما خلفه، كل ذلك في خطى الكهرباء، فلم أكد أتم الخطوة الرابعة حتى كنت نفساً ولا جسد

وأخذت هذه القوة الجديدة تتخيل صورة الشيخ وتحاول رسمها، فإذا دأبت في هذا السبيل جاهدة، انبعثت ذرات الرهبة، فتوثبت على القلب فاختل نظام دقاته، وهنالك تضطرب النفس فلا تقوى على المضي في مهمتها، لذلك لم ترسم الصورة حتى صرت على قيد خطوات من صاحبها، فتقدمت إليه حتى استويت أمامه. لم يكن في وسعي ولا في وسع سواي أن يصافح الشيخ دون أن ينحني، إلا أن يركع، ما لم يكن قصيرا، ولست بقصير. ذلك أنه يجلس على كرسي لعل مقعده أدنى إلى الأرض مما يعهد في كل كرسي، ولم ينهض الشيخ عنه ليصافحني واقفاً، وربما كان لا يعرف الوقوف من أسباب التحية، فلا مناص لمن شاء مصافحته من الانحناء، ثم لا مناص لمن استأذن عليه من المصافحة، ومن يدري؟ لعل هذا الكرسي القصير إنما دبر تدبيراً، ثم إن هذا الكرسي قد عوض عن قصر أرجله رحابة في صدره، حتى لقد تبينت الشيخ من الكرسي ولم أتبين الكرسي من الشيخ

صافحت الشيخ منحنياً ولا بد، فإذا كف نحيل لعل الرف يؤذي عظمه، فلقد أحسست أنني أقبض على حزمة من الأقلام، بل أحسست أكثر من ذلك بالمفاصل الدقيقة لكل إصبع، وكأنما انفرطت عظامها في يدي فما يستعصي عدها علي! لكأن هذه الكف ترتفع من تلقاء نفسها إلى فمي، فلقد علمت إنني رففتها، ولعل ذلك إكبار ولعله رفق بالضعف، ولا سيما وهو ضعف الكبر؛ ولشد ما يحنو بعض القوة على بعض الضعف؛ إذن فقد انحنيت فصافحت ثم قبلت، وخطوت بعد ذلك إلى الكرسي الواحد الذي يشاطر الغرفة كرسي الشيخ، ثم تحركت حدقتا عيني فطافتا ببعض الحجرة وميضا حتى استقرتا لحظة على صاحبي محمد علي بخش وقد ألصق ظهره بالجدار، وأمال رأسه إلى الأمام قليلا، وشبك أصابع كفيه على صدره تحت لحيته؛ وجمد كذلك كأنه التمثال

سألني داعي الدعاة عن موقع المدينة من نفسي، ثم عن الصحافة المصرية وحظها من النهوض، فلما أن فرغ من أسئلته وحان دوري في السؤال، وكنت أعلم أن التحدث في مسائل الدين هو أشهى الأحاديث لدن رجاله، وأعلم إلى ذلك علماً ليس بالظن أن أقران الشيخ لا يفتأون ينعون على الناس تركهم أمر الآخرة، فكل امرئ عندهم مفرط مهما تخفف

من زخارف العاجلة وتولى يرتجي الآجلة، ما يألونه إذ يرونه ذلك النصح الممزوج بالتعنيف والاتهام، فهم متسخطون متبرمون رغما من رغم، أثرة بالكمال من دون الناس، فقد استهللت بالأسف لإهمال المسلمين أمور دينهم وأمور دنياهم معاً، وكأنما قلت للسيل انهمر، فقد تدفق الشيخ فلم يترك في معجم الألم كلمة إلا قالها، ولا حركة إلا أتاها، بعينيه وشفتيه وكفيه، قال بلسانه العربي المبين - وقد أسلفت أنه من سلالة عربية قريبة العهد بموطنها الأول، اليمن: (إن دولة الإسلام قد انهارت أركانها في كل مكان، ودكت حصون الدين وسقطت معاقله، حتى عادت أطلالاً نناجيها) ثم راح يبعث قول الشريف الرضي:

ولقد مررت على ديارهمُ ... وطلولها بيد البلى نهبُ
فبكيت حتى ضج من لغب ... نضوى ولج بعذلي الركب
وتلفتت عيني فمذ خفيت ... عني الطلول تلفت القلب

قلت: هل يرى مولانا أن تخلف العالم الإسلامي ناجم عن إهمال الدين؟ قال: (عن إهماله فقط، وليس في أداء فرائضه وحسب، بل في التأدب بآدابه، بل في الاستمساك بأسباب التعاون والمودة، وإطراح الخصومة والعداوة والبغضاء، وحدب الغني على الفقير، واطمئنان الفقير إلى الغني، وخشية الله والآخرة، واتقاء الخزي

والندامة، والحسرة والعذاب يوم القيامة)
قلت: وهل من أمل في إصلاح ما انهدم؟ فانبسطت أسرة الشيخ دفعة واحدة والتمعت عيناه، وطالعني منه صوت يتجلى فيه الحزم والعزم والإيمان والبأس الشديد وهو يقول: (نعم. إن الأمر لله في دين الله، وإنه ليحميه ويعلي كلمته حين يشاء، ولكنما يترك الأمر للناس حتى يسلموا بالفشل ويتئسوا من النهوض، وإذ ذاك يقضي الله فإذا الحق في الذروة والباطل في الرغام)
قلت: أفلا يحاسب رجال الدين على شيء مما نرى من أمر الدين.؟ فسكن الشيخ لحظة ثم قال: (أعلم أن كثيراً من الناس يقومون برجال الدين ويقعدون، ولكن ما لذي يسع رجال الدين أن يفعلوا إن كانوا في شعب متخاذل مستضعف؟ إنهم إذ ذاك لا يفضلون أبناء شعبهم، ولعلك تعلم أن الفساد جرثومة سريعة العدوى؛ وهب أن بين رجال الدين من امتنع من جرائم الفساد، فماذا يفعل وأهل أمته كلهم ذلك الحواري الذي شهد على عيسى بن
مريم؟!. أفتدري كيف تقهر الأمراض العصية في الأجساد، إن أحدث أسباب ذلك وأصدقها نتيجة أن يلقح الجسد المريض بعين الجراثيم التي تمرح فيه، ولم ينتبه الطب إلى ذلك إلا بعد قرون من تنبه الحكام إلى أثر هذه الوسيلة نفسها في أخلاق المحكومين، ولن يعدم زمن من الأزمان، ولن تبرأ جماعة من الجماعات، من أشرار وإن قلوا، وتلك سنة الحياة، وقد احتال الظلمة وافتنّوا في الاحتيال، حتى استكشفوا أن رجل الدين الصالح لا يقهر إلا برجل الدين الطالح، ثم هم يزودون صاحبهم بقوة المال وسطوة البطش والعدوان، ويذودون عنه بعد ذلك إن أحدق به خطر، فإذا سئلوا في ذلك قالوا، إنما نرفع كلمة الدين ونعيذه من الهوان
وتنفس الشيخ برهة ثم قال: (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، وقد نزل الدين سهلاً مفهوماً، فلنأخذ بمبادئه التي لا تحتاج إلى رجال الدين، فإذا استقرت هذه الأوليات في النفوس، سهل علينا أن نميز الصالح من الطالح من رجال الدين فنأخذ عن أولهما وندع الآخر. على الآباء والأمهات جميعاً بهذه المهمة، كل يؤدب أبناءه بأدب الدين منذ الصغر، قبل أن يبلغ الطفل أشده، فيصبح تحت رحمة القانون والبيئة والمطامع)
قلت: وهل من سبيل إلى تخفيف الفساد؟ قال: (نعم، ولكن أسباب التخفيف لا تعرض هكذا على بساط الريح، فلابد من البحث والروية والتثبت، ولا سيما ونحن نريد أن نعالج جماعات كثيرة مختلفة العلل، وقد يصلح لهذه من الدواء ما يزيد تلك علة على علة، ولذا وجب أن يجتمع أطباء الدين والأخلاق من كل جماعة أطباؤها، فإذا تذاكروا جميعاً حتى اهتدوا إلى العلة المشتركة، تذاكروا حتى يهتدوا إلى الدواء المشترك. المؤتمرات، على أن تكون خالصة لله وحده، نقية من الدخلاء، بريئة من الشبهات، حرة أكمل حرية، مطبوعة بإنكار الذات والإيثار دون الأثرة) وسكن الشيخ برهة وقد بدا على محياه أنه يطلب الراحة؛ ثم ضغط على جرس كهربائي مثبت على منضدة صغيرة أمامه، فإن هي إلا ثوان معدودة حتى أقبل من داخل الحجرة خادم يحمل بيمينه لفافة من قماش، تقدم بها إلى الشيخ فتناولها منه، ثم مد بها يده إلى ناحيتي، فخطوت إليه وأخذتها شاكراً، وودعت داعي الدعاة بعد أن ألقيت على سمعه ما واتاني به الله من كلمات الشكر والتقدير
أما لفافة القماش، فقد تبينت بعد أن باينت الغرفة أنها (شال) من الكشمير وسط في صنعته
وقيمته، ثم علمت أنه نفحة الشيخ لكل زائر غريب، وإنما تختلف قيمتها بقدر ما للزائر من مكانة في قومه، وأما غرفة الزيارة فرحيبة تكاد تتسع ثلاثين متراً من نصفها، يرتفع سقفها على عمد من رخام، عارية الجدران من الصور، حافلة الأديم ببساط أبيض عار من زهو النقوش، وقد أسلفت أنه لم يكن بها إلا كرسيان للشيخ ولي، ولعل هذه البساطة في مظاهرها والرحابة في اتساعها مما يزيدها رهبة ويزيد صاحبها إجلالاً. أما الشيخ فأنه من نحول الجسد ورقته كأنما إياه كان المتنبي يعني لما قال:
كفى بجسمي نحولاً أنني رجل ... لولا مخاطبتي إياك لم ترني
وهو على شدة نحوله ليس بالطويل القامة، كأنه غاندي، لولا أن وجهه المستطيل خفيف السمرة، مشرق الديباجة، متسع العينين حتى لتملأن نصف وجهه، حديد البصر،

كأنما تطل نفسه المطمئنة من عينه، ضاحك السن في وقار كثير، تنبئك مظاهره كلها بأنه رجل موطأ الأكناف حقا. وقد استتر رأسه تحت طاقية بيضاء، وغطى جسمه بجلباب أبيض، وهو في غرفته مثال نادر الأنداد للبساطة في الغنى، والتواضع في الجاه كررت إلى جادة القصر يصحبني محمد علي بخش، فمضينا إلى مسجد القصر متحدثين بالإنجليزية فأنه لا يعرف العربية، فإذا نحن حيال مسجد حديث البناء أنيقة، متوسط السعة، مفروش بالسجاد، ذي ثلاثة أبواب، اثنان منها لدخول المصلين من الرجال، والثالث لدخول المصليات من النساء، وقد فصل بينهن وبين الرجال في رواق المسجد جدار رقيق لا يتصل بسقفه، أما المنبر فمن الخشب الثمين المتين وقد خلا من كل زخرف، كل ما في المسجد ناطق ببساطته، خلا ثرياته الثمينة التي تؤلف في انتظامها أروع الشكول. فلما فرغنا من تفقد المسجد دعاني صاحبي إلى التدريج إلى أعلى القصر، حيث أعد به موضع يشرف على المدينة كلها، فترى منه واضحة المعالم جلية الرسوم، ولولا سدول الليل لاستطعت في هذه القمة إحصاء مساجد (بمبي) وعد حدائقها، وتبين أعلامها والتحديق في ميادينها، على أنك لا ترى المدينة وحدها من هذه القمة، بل ترى البحر وعبابه ينساب إلى عالم المجهول.

القاهرة

محمد نزيه

للأدب والتاريخ

الرافعي - 2

بقلم تلميذه وصديقه

الأستاذ محمد سعيد العريان

الرافعي الأديب

مضى الرافعي في قرض الشعر، معنياً به، متصرفاً في فنونه، ذاهباً فيه مذاهبه، إلى جانب عنايته بالتأليف والكتابة، وانكبابه على العلم والتحصيل، فوضع في سنة 1911 كتابه (تاريخ آداب العرب)، وحسبك به من كتاب أن يقضي الأستاذ الكبير أحمد لطفي السيد بك أسبوعاً يخطب عنه في مجالس العاصمة وقد كتب عنه الأمير شكيب أرسلان - وهو أشهر كتاب العربية في ذلك الوقت - مقالة في صدر (المؤيد) جاء فيها: (لو كان هذا الكتاب في بيت حرام إخراجه للناس منه، لكان جديراً بأن يحج إليه؛ ولو عكف على غير كتاب الله في نواشئ الأسحار، لكان جديراً بأن يعكف عليه. . .)

وقال عنه المقتطف: (إنه كتاب السنة. . .) وما كتب المقتطف مثل هذه الكلمة من قبل ومن بعد لغير هذا الكتاب

ومن يقرأ كتاب الرافعي (تاريخ آداب العرب) يعرفه عالماً عميق البحث، مرتب الفكر، واسع المعرفة؛ إلى جانب معرفته به شاعراً عربي الديباجة، مشرق المعنى، مشبوب العاطفة؛ على أنه كان يومئذ لم يجاوز الثلاثين. . .

ثم ألف الرافعي (كتاب المساكين) الذي يقول عنه فقيد العربية العلامة أحمد زكي باشا: (لقد جعلت لنا شكسبير كما للإنجليز شكسبير، وجوته كما للألمان جوته، وهوجو كما للفرنسيين هوجو.)

وتألق نجم الرافعي الشاعر العالم الأديب، وبرز اسمه بين عشرات الأسماء من أدباء عصره براقاً تلتمع أضواؤه وترمي أشعتها إلى بعيد؛ على أن هذه المنزلة الكريمة التي نالها الرافعي بين الكتاب إلى جانب منزلته في الشعر - لم تكن غريبة؛ فقد حدثني أديب فاضل كانت له صلة بالعلامة الشيخ إبراهيم اليازجي: أن الرافعي لما طبع الجزء الأول

من ديوانه سنة 1903 وأهدى منه نسخة إلى الأستاذ اليازجي - أبطأ في الكتابة عن الديوان؛ فسأله هذا الأديب الفاضل في ذلك الوقت فقال: لقد قرأت مقدمة الديوان فأكبرت أن يكون كاتبها من عصرنا؛ فأنا منذ أسبوعين أبحث عنها في مظانها من كتب العربية، مما أخادع نفسي في قدرة هذا الشيخ على كتابة مثلها. فقال له: إنه ليس بشيخ، بل هو فتى لم يبلغ الثالثة والعشرين. .

وليس عجيباً أن يكون هذا كلام اليازجي، فقد برهن الرافعي من بعد ألف برهان على ذاك. وإنما كتب هذه المقدمة وعني بها حتى جاءت ما جاءت، ليعارض بها مقدمة حافظ لديوانه الذي نشره قبل ذلك بقليل؛ وكان لمقدمة حافظ هذه حديث طويل،

حتى نسبها بعضهم يومئذ إلى المويلحي؛ ولكن مقدمة ديوان الرافعي جاءت بعدها تقطع قول كل خطيب؛ واحتفل بها (المؤيد) أيما احتفال فنشرها في صدره، والمؤيد يومئذ جريدة العالم العربي

بين الجديد والقديم:

ثم بدأ الرافعي يميل عن الشعر رويداً رويداً حتى هجره منذ عامين، لم ينظم فيهما غير قصديتين اثنتين نشرتا له في مجلة المقتطف. وإنها لخسارة كبيرة أن ينصرف الرافعي عن الشعر ويترك ميدانه خالياً. . على أنه لم يهجر غير الشعر المنظوم، وهذه كتاباته المنثورة ضرب من الشعر أفسح مدى وأبعد غاية، وإنه لينشئ بها أدباً جديداً في العربية على رغم ما يتهم بالتقليد والمحافظة على القديم؛ بل معانيه كما قال الأستاذ الدكتور منصور فهمي في تقريظه رسائل الأحزان: (إنها من آخر طراز بأني من أوروبا. . .) على أن الرافعي إلى ذلك ليس له حظ من لغةٍ أجنبية، ومعرفته الفرنسية لا تجدي عليه اليوم أكثر مما كانت تجدي عليه يوم كان يتعلمها بالمدرسة وهو غلام!

وللجديد والقديم حديث طويل في تاريخ الرافعي؛ فهو قد وقف نفسه على الدفاع عن الدين والحفاظ على لغة القرآن. ذلك مذهب درج عليه وأعانته عليه نشأته وتربيته؛ وهل يأخذ أحد عليه هذا المذهب أو ينكره؟. . فهو إنما (يحرص على اللغة من جهة الحرص على الدين، إذ لا يزال منهما شيء قائم كالأساس والبناء، لا منفعة فيهما معاً إلا بقيامهما معاً. . .) وإنه بسبيل ذلك ليسأل: ما الجديد وما القديم؟

لو أنهم يعنون بالجديد الابتداع والطرافة بمقدار ما يتطور الفكر، أو الإنشاء والابتكار على

مقدار ما ينفعل الزمن في احساسات أهله، أو التنويع والخلق على قياس ما يزيد في المعاني ويستجد من انفعالات النفس - لو أنهم يعنون بالجديد شيئا من ذلك، أو كل شيء من ذلك، لوجدوا الرافعي مجدداً مع المجدين؛ بل لما كان لشيء من هذا أن يسمى جديداً، لأنه حكم الزمن وسنة التطور من قديم. . أما أن يكون التجديد هو ابتداع لغة ليست من اللغة، وإنشاء دين من شهوات النفس لا من وحي السماء، والتزوير على التاريخ القديم باختراع تاريخ من الأحلام - أما أن يكون ذلك كذلك فما هو التجديد، ولكنه التبديد الذي يوشك أن يتبعه الفناء!. . .

في النقد:

هذا هو الرافعي في موقفه من الجديد والقديم؛ وما نحب أن ننتهي منه حتى نعرض لأسلوب الرافعي في النقد؛ فما نعرفه ناقداً عنيفاً إلا حين يتناول الجديد والقديم؛ وإذا نحن تدبرنا ما أسلفت من تلخيص رأيه في الجديد والقديم، ومن مقدار حماسته في الذود عن الدين والعربية - عرفنا لماذا يؤثر الرافعي ذلك الأسلوب العنيف في مهاجمة خصومة والطعن عليهم، إذ هو لا يعتبر حينئذ إلا شيئاً واحداً، هو الدفاع عن الدين وتراث السلف، مؤمناً بأنك (لن تجد ذا دخلة خبيثة لهذا الدين إلا وجدت له مثلها في اللغة. . .) وأنت لا ترى الرافعي مرة يأخذ في أسباب النقد ليدفع كيداً يراد باللغة والدين، إلا كما ترى البدوي الثائر لعرضه، يطرح كل اعتبار من دون هذا الشرف المثلوم؛ فمن ثم يكون في كلامه معنى الدم. . .

على أن الرافعي إلى شدته وعنفوانه، ناقد بصير بأساليب النقد، مم عالج من مختلف فنون الأدب، ووقف على أسرار العربية؛ من ذلك لما كتب المرحوم السيد مصطفى لطفي المنفلوطي مقالته عن الشعراء ونشرها في مجلة (سركيس) سنة 1903، كتب المرحوم حافظ إبراهيم إلى الرافعي يقول: (. . . . قد وكلت أمر تأديبه إليك. . .!) وقد تعجب أشد العجب أن ترى الرافعي ينسى حين يجرد قلمه للنقد كل اعتبار مما تقوم به الصلات بين الناس؛ ولكنه هو يعتذر من ذلك بقوله: (. . . إنما نعمل على إسقاط فكرة خطرة، إذا هي قامت اليوم بفلان الذي نعرفه، فقد تكون غدا فيمن لا نعرفه؛ ونحن نرد على هذا وعلى هذا برد سواء، لا جهلنا من نجهله يلطف منه، ولا معرفتنا من نعرفه تبالغ

فيه. . . فان كان في أسلوبنا من الشدة، أو العنف، أو القول المؤلم، أو التهكم، فما ذلك أردنا، ولكنا كالذي يصف الرجل الضال ليمنع المهتدي أن يضل، فما به زجر الأول، بل عظة الثاني. . .)

وقد خسر الرافعي كثيراً بالأمساك على مذهبه ذاك، ووضع نفسه بحيث تنوشه من كل

جانب سهام مسددة، وألب عليه كثيراً من الخصوم؛ ولكنك لن تسمع منه أبدا كلمة الندم، وتراه على تربص دائم لكل (ذي دخلة للدين والعربية. . .) وهو ضرب من التضحية والشجاعة يدعو إلى الإعجاب

وكما ترى هذا الموقف للرافعي من دعاة الجديد في الأدب، ترى له موقفاً قريباً منه من دعاة الجديد في الأخلاق والاجتماع؛ فله آراء في الاختلاط، والحجاب، والتعليم، والحرية، والحب والزواج؛ تراها منبثة في عديد الكتب والمقالات؛ ولكن قليلاً من القراء من يستطيع أن يفهمها بروح مجردة من هوى، ليعرف أي مذهب في الاجتماع يدعو إليه الرافعي؛ وله في هذه المقالات روح رفافة، وشعر ساحر، وحجة قوية؛ وهو فيها من أنصار المرأة عند من يعرف أين يكون انتصار المرأة؛ ولست واجدا أحداً يرد عليه رأيه في ذاك على قلة من تجد من أنصاره؛ وقد جلست مرة إلى أديب كبير ومرب فاضل، نداول الرأي في أدب الرافعي ومذهبه الاجتماعي، فقال لي: (إنك لن تجد أحداً من أنصار الجديد يرضي هذا المذهب، ولكنك لن تجد أحداً - أيضاً - يستطيع أن يصاول الرافعي في ميدانه بمثل حجته وقوة إقناعه. . .)

الرافعي والمرأة:

وإذ تكلمت عن مذهب الرافعي في الاجتماع، فإني أقف قليلاً لأتحدث عن الرافعي والمرأة

وعجيب أن يكون الرافعي صاحب (إعجاز القرآن، وأسرار الإعجاز، والبلاغة النبوية، والإنسانية العليا، وسمو الفقر؛ والمحدث، المفسر، المتصوف، الذي يصف عن عصر النبوة، ومجالس الأئمة، وكأنه يعيش في جوهم وينقل عن حديثهم؛ والذي تتصل روحه فيما يكتب من وراء القرون بروح الغزالي، والحسن البصري، وسعيد بن المسيب، وغيرهم وغيرهم من أئمة السلف - عجيب أن يكون هذا الرافعي هو صاحب (رسائل الأحزان، والسحاب الأحمر، وأوراق الورد، وسمو الحب، واليمامتان، وسحر المرأة، والطائشة،

وغيرها وغيرها؛ فيصف عن المرأة والحب، ويتحدث في ذلك حديث الرجل الذي عرف وذاق وجرب، ولبس المرأة ولبسته، واستبدل قلباً بقلب، وتقلب بين مجالس ومجالس، وسمع (لا) بمعنى (نعم)، و (إليك عني) في موضع (اتبعني يا حبيبي)؛ والذي يترجم معنى النظرة والابتسامة وما بعدهما. . .!

وإنك لتراه أحياناً يمزج بين حديث الحب وحديث الدين، ويصل بين وحي السماء ووحي العيون الدعج. . . . فتسأل: أي رجل هو؟

ولقد خالطته زماناً، فإني لأعرفه عرفاني لنفسي، فما وجدته في حاليه إلا الرجل العف الكريم، ولكن له عالماً من وراء هذا العالم، يصل إليه في سبحات فكرية لطيفة، ليستوحيه من معاني المرأة ما لا سبيل إلى معرفته في دنيا الناس. ولو أنك أردت أن تسأله مرة: أي رجل أنت؟ لما جاءك الجواب إلا أنه رجل وحسب. . .!

وتسأل نفسك: هل عرف الرافعي الحب فخف بجناحيه إلى تلك العوالم غير المنظورة ينقل عنها فلسفة الجمال والمرأة والحب. . .؟ فاستمع إليه يقرر: (إن النابغة في الأدب لا يتم تمامه إلا إذا أحب وعشق. . .!) ثم ارجع إلى كتبه الثلاثة: رسائل الأحزان، والسحاب الأحمر، وأوراق الورد؛ لتعرف (إنها كانت عواطف ثارت وقتاً ما، ليحدث منها تاريخ؛ وسكنت بعد ذلك ليحدث منها شعر وكتابة. . .)

ولكن، من تكون تلك الفتانة التي تيمها وتيمته زماناً، (هي بروعتها ودلالها وسحرها، وهو بأحزانه وقوته وفلسفته. . .؟)

ذلك سره هو، أو سرها هي. . .!

وطنيته:

وللرافعي رأي في معنى (الوطن الإسلامي)، والوطنية الإسلامية، تلمحه في كثير مما يكتب، قوامه (أن يظهر المسلم الأول بأخلاقه وفضائله في كل بقعة من الدنيا مكان إنسان هذه البقعة، لا كما نرى اليوم؛ فان كل أرض إسلامية يكاد لا يظهر فيها إلا إنسانها التاريخي بجهله وخرافاته وما ورث من القدم، فهنا المسلم الفرعوني، وفي ناحية المسلم الوثني، وفي بلد المسلم المجوسي، وفي جهة المسلم المعطل. . . وما يريد الإسلام إلا نفس المسلم الإنساني. . .)

فلا يمنع أن يكون إلى جانب إحساسه بمعنى (المصرية) إحساس آخر بمعنى (الإسلامية) على أنها الوطن الأكبر، كما لا يمنع الطنطاوي أن يكون إلى جانب حبه (طنطا) حب أعمق يشمل (مصر) كلها؛ فإذا تحدث الرافعي عن الشام، أو العراق، أو بقعة أخرى من الوطن الإسلامي، فما يعني ذلك أنه قد خلع مصريته والوطن عند الهمجي دار تؤويه، وحقل يغل عليه، وكلما زاد الإنسان في معنى الإنسانية انبسطت له رقعة الوطن، فمن ثم كان الوطن فيما يرى الإنسان المسلم هو كل أرض يخفق فيها لواء الإسلام، وما مصر، والعراق، والشام، والمغرب، وغيرها إلا أجزاء صغيرة من هذا الوطن الإسلامي الأكبر، كالأقاليم من الدولة، والمناطق من الأقاليم، والشوارع من المنطقة، والدور من الشارعن، والغرفتين من الدار، حين يتدابر الأخوان وتدب بينهما الشحناء التي توشك أن تنسيهما أنهما أخوان لأب وأم . . .!

(البقية في العدد القادم)

محمد سعيد العريان

دراسات في الأدب الإنكليزي

وليم وردزورث

بقلم جريس القسوس

نشأته وطفولته:

هو زعيم طائفة شعراء البحيرات وسيد شعراء الإنكليز بعد شكسبير وملتن. ولد هذا الشاعر في السابع من شهر أبريل سنة 1770 في كوكرموث في إقليم البحيرات من مقاطعة كمبر لند. وهو من أسرة متوسطة في الجاه والثروة، توفيت أمه وهو ابن ثماني سنين، وكانت تؤمل لو فسح لها في الأجل أن تشاهد الدور الذي سيمثله على مسرح الحياة، لأنها لمحت فيه طفلا حدة طبعه ورجاحة عقله يميزانه عن بقية أخواته الخمسة. ولقد كان والداه مرشديه، فهما اللذان تعهدا إنماء قواه العقلية، وتوجيه مداركه الشعرية في أقوم السبل وأرشد الطرق، وذلك بتلقيه أشعار القدماء والمحدثين، وإلى ذلك يشير وردزورث في قصيدته (الفاتحة)

كان مواطنه مزدانا بالمناظر الشعرية الخلابة التي استهوت فؤاده، ووجدت منفذاً إلى عقله فظهر أثرها في شعره

وبعيد وفاة والدته قصد مدرسة هوكشد حيث تلقى مبادئ العلوم والفنون. وكانت هذه المدرسة في محيط ريفي ساذج، تكتنفها المناظر الطبيعية من جميع الأطراف، مما أغوى شاعرنا وجعله يصرف أويقات فراغه في حضن الطبيعة. فتارة تلقاه يتمشى على شواطئ البحيرة، وأخرى تجده يصطاد الأسماك ويداعب العصافير في أعشاشها، أو يمرح بين التلال والشعاب يلاعب المعزى ويعبث بالحملان. وكثيراً ما كان يصطحب الكتب إلى تلك الحقول فيطالع منها ما يستسيغه ويبعث في نفسه أملا ورغبة في الحياة

في كمبردج:

توفي والده قبل أن يتم دروسه الابتدائية، ولكن أريحية عمه وليم كفلت له الالتحاق بكلية القديس يوحنا في جامعة كمبردج. وقد كره الشاعر هذه البيئة الجديدة، ومجت نفسه هذه الحياة المقيدة في بدء الأمر، إلا أنه عاد فألفها وتشبع بروح ذلك المكان بعد أن جالت في ذهنه صور الشعراء الذين قضوا قسما من حياتهم فيه. فقد أمده خياله الخصب بعالم روحي مطلق يعيش فيه ويستأنس بأهله لما لم تتح له الظروف أن يعيش طليقاً في الحياة. ولقد كان يتردد على أهله في بيرنث أو في هوكشد كلما سنحت له الفرص. وجرى له ذات يوم حادث غريب كان له أثر بعيد في حياته الأدبية، إذ بينما كان يتسلق أحد التلال في هوكشد رأى رؤيا غريبة ظن أنه أوحى إليه فيها بالعمل العظيم المعد له. وقد ورد ذكر هذا الحادث باختصار في قصيدته (الفاتحة) ولا نعلم عنه أكثر من ذلك

رحلته الأولى:

اتفق شاعرنا وصديقاً له على القيام برحلة كبيرة في جبال الألب في إحدى فرص الصيف، وكان ذلك على أثر انتشار الأخبار الأولية عن الثورة الفرنسية. أستأجر الصديقان سفينة وأبحرا فيها إلى ميناء كاليس ونزلا في اليوم الذي حلف فيه لويس

السادس عشر يمين الإخلاص للدستور الجديد. ومن ثم قصدا الجنوب إلى بحيرات إيطاليا وسويسرا، فصرفا على شواطئها بعض الوقت الممتع، ثم قطعا سمبلون ومن هناك كارا عائدين إلى الأوطان، وفي طريقهما لقيا جيوش الثوار ناشرين لواء الحرية ومنتضين سيف العصيان على الملكيين. ولقد كان لهذه الرحلة أثر كبير في نفس وردزورث، إذ أوحت إليه بروح شعرية وثابة ونفس متمردة تنزع إلى الحرية وتطلب التجديد، فلا غرو إن انتصر للثوار الفرنسيين ورفع صوته معهم منادياً بسقوط باستيل الاستعباد

في فرنسا مرة ثانية:

ما كاد الشاعر يتسلم شهادته من كمبردج حتى عن له أن يزور فرنسا مرة ثانية ليتصل بالثوار الذين تشبعت نفسه بمبادئهم في رحلته الأولى. شرع في ذلك ماشياً سنة 1790، فمر بباريس عش الثوار حيث قضى بضعة أيام يرصد في أثنائها حركات الثوار عن كثب، ومن ثم رحل إلى أورليان فبلوا حيث تعرف بابنة جراح فرنسي اسمها أنيت فالون وأقام هناك برهة يتعلم عليها مبادئ الفرنسية. ولقد كانت هذه الفتاة على حظ وافر من الجمال مما استهوى شاعرنا وأوقعه في الشرك، فوضعت على أثر ذلك طفلة. رأى وردزورث أن يمحو إثمه هذا بالزواج منها، لكن الظروف لم تسمح له بالبقاء طويلاً في أرض الثوار لنفاد دراهمه وقطع عمه المساعدة المالية عنه متوخياً بذلك إرغامه على الرجوع إلى بلاده لئلا يقع في حبائل الملكيين. وإننا لنحمد الأقدار التي أوحت إلى عمه ذلك، إذ لولاه لقضى شاعرنا كما قضى غيره من عباقرة الرجال أنصار الثورة الفرنسية، ولم يخلف لنا بعد تراثاً أدبياً يذكر

ولقد أثارت عليه فعلته حرباً عواناً في الأوضاع الاجتماعية والأدبية فبعد أن كان متصفاً بالفضيلة والكمال إلى حد القداسة أمسى اسمه مقروناً بالكفر والإثم خصوصاً بعد أن كشف لنا الدكتور هارير عن هذه الصحيفة السوداء من حياته في فرنسا في كتابه (حياة وردزورث). ولقد ظهر في سنة 1922 كتاب لأميل ليجوس اسمه (وليم وردزورث وأنيت فالون) يصف فيه علاقة الشاعر بمعشوقته المنكودة الحظ في بلوا. ولم يشر الشاعر إلى هذه الحادثة في جميع أشعاره أوكتاباته النثرية إلا بعض الإشارة والتلميح في قصيدته فودراكور وجوليا &

وفي أثناء إقامته في بلوا اتصل بفيلسوف وزعيم جمهوري كبير هو ميشيل بيوباي، فصرف معه طوال الليالي على ضفة اللوار في الجدل والبحث في حرية الإنسان السياسية والاجتماعية مما غذى عقيدة شاعرنا الثورية وأذكى في نفسه نار التمرد والخروج على المبادئ القديمة. ولقد سولت له نفسه الانخراط في عداد الثوار وحضهم على مهاجمة معاقل الملكيين. بيد أنه لم ينفذ رغبته هذه لنفاذ دراهمه كما بينا فعاد إلى إنكلترا وفي نفسه غصة وفي فؤاده حرقة لحبوط مسعاه وتلوث اسمه بذلك الفعل المنكر

شقيقته:

كان للشاعر شقيقة اسمها دورثي لا تقل عنه في توقد الذهن وحدة الذكاء ونفاذ البصر، وكثيراً ما كانت توجه نظره إلى أمور دقيقة، وحوادث غريبة، ومناظر بديعة فيتخذها مواضيع لقصائده. وقد أخذت على نفسها مرافقته في غدواته وروحاته منذ صباهما رغم معارضة أمها لها. فعند ما لمحت فيه وميض العبقرية وفيض الشاعرية هبت إلى مناصرته وتشجيعه على المضي في سبيله. وكانت في أكثر الأحيان تقرأ أشعاره وتنظر فيها قبيل إعدادها للنشر نظر الناقد الشفيق. وقد وجد في أخته هذه كل العزاء والأنس بعيد رجوعه

من فرنسا كاسف البال كسير القلب لما جنته يداه من إثم

في فورنست:

كانت أخته تقطن آنئذ فورنست فقصدها شاعرنا، وهناك نظم عدة قصائد جمعها في مؤلفين سماهما (سير في الليل) (ومقطعات وصفية) ولقد أعجب كولردج بهما وتكهن لناظمهما بمستقبل باهر في عالم الأدب رغم ما وجه إليه من نقد على صفحات (منثلي ريفيو) و (ادنبرج ريفيو). وفي تلك الأثناء خاض الشاعر المعامع السياسية فنادى بتحرير الزنوج ومعاضدة ثوار الفرنسيين، ويعالج في بحث له يرد به على أحد

أنصار الملكية مبادئ الحرية منادياً باتساع نطاق الديمقراطية على حين لم يكن فيه الرأي العام قابلاً للأخذ بهذه الآراء المبتسرة

فضى شاعرنا ردحاً من الزمن حائراً بين الكنيسة والأدب لضيق ذات يده. على أن المنية وافت صديقه الحميم ريسلي كالفرت فأوصى هذا قبيل مماته لوردزورث بتركته البالغة نحو 900 ج مما حداه إلى الانصراف بكليته إلى الأدب وقرض الشعر. ولقد كان لهذه المبرة أثر ظاهر في حياته، وقد أشار إليها في (الفاتحة) وفي قصيدة موضوعها (إلى كالفرت)

والظاهر أن شاعرنا لم يكن على وئام تام مع أقاربه. نستنتج هذا من رسالة بعثت بها شقيقته دوروثي إلى أحد أصدقائها تقول فيها: (إن أخي لناقم على أقاربه، ولا يصفو قلبه إلا لأخويه يوحنا وخريستو)

(يتبع)

جريس القسوس

شهداء الإنسانية

للأستاذ عبد الرحمن شكري

مقدمة

شهداء العلم والإصلاح يزدحمون على باب الحياة ويسألون كل هالك: هل تحقق الخير الذي بذلوا حياتهم من أجله؟ فتدركه الحيرة! أيكذب كي يدخل على قلوبهم الاطمئنان، أم يصدق فيفجعهم في آمالهم، أم يغريهم بالصبر الطويل كصبر الأحياء على الشر، أم يغريهم بالعودة إن استطاعوا إلى كفاح الحياة. وإذا استطاع أن يعزي الشهداء الموتى فماذا يقول للشهداء الأحياء:

الناظم

على باب الحياة أرى زحاَماً ... من الأشباح عجَّ بهم وسالا
من العهد القديم إلى زمان ... حديث قد مضوا زُمراً تَوالى
هُمُ ضَحَّوْا بهذا العيش كيما ... يطيبَ العيش للأحياءِ حالا
إذا ما هالك ألفوه ظلوا ... على شغف يعيدون السؤالا:
بربك هل مضى قدرُ بِشَرٍّ ... وخبث النفس هل أودى وزالا
وهل جفَّت دموع الناس طرا ... وهل بلغوا من العيش الكمالا
وذل الجوع هل قد زال عنهم ... وكان سوادهم هَمَلاً مُذالا
وجهل يغتدي بالناس بُهمْاً ... يُصَرَّفها يميناً أو شمالا
وهل غلبوا من الشهوات ما قد ... عدا سلطانه فيهم وغالا
أصار العيش من مِقَةٍ وأمن ... وكان العيش لؤماً واقتتالا
أعاد العيش عدلاً واعتدالا ... وكان العيش مكراً واغتيالا
بربك لا تقل إنّا غُبِنّا ... وإن هزأ الحِمامُ بنا وصالا
أيفجعهم بآمالٍ عِزَازٍ ... وما نال الردى منها منالا
يقول لهم: لقد رُمُتُمُ خيالا ... وأسديتم وضحيتم ضلالا
أيسكت والسكوت له معانٍ ... أيخدعهم وما ألفوا احتيالا
أيغريهم بصبر مثل صبرٍ ... لدى الأحياء دام لهم وطالا
أَيَأسَى أن مَوْتى لم ينالوا ... من العرفان ما يُرْجَى نوالا
أيغريهم بِبَخْعِ النفس يأساً ... إذا اسطاعوا عن الأخرى انتقالا
أيسخر أنهم - وهُمُ رفات - ... أبوا للعيش سقماً واعتلالا
فيا عيش الورى ماذا تراه ... يقول لهم إذا ألْفَى مقالا
يقول لهم إذا اسْطعُتمْ فعودوا ... دفاعاً للنوائب أو صيالا
إذا الأحياء لم يرعوا عهوداً ... لأحياءِ فلا تشكوا انخذالا
يقول لمعشر الأحياء منهم ... ليقضوا العيش صبراً أو نزالا
أيفدح أن تقاسوا العيش نحسا ... ليِسُعِد بعدكم صحباً وآلا
وكم من نعمة لولا شقاء ... قديماً لم تكن إلا وبالا
فكم خَبرَ الأوائلُ من شقاء ... فنلنا من شقائهم نوالا

عبد الرحمن شكري

مفتش بوزارة المعارف

خمر الرضا
للدكتور إبراهيم ناجي
يا حبيبي اسْقِيني الأمانِيَّ واشْرَبْ ... بوُرِكَتْ خموةُ الرضَا وَهْيَ تُسكَبْ
بُورِكَ الكَأسُ والحَبَابُ الذي يَرْ ... قُصُ في الكَأسِ والشُّعاعُ المُذَهَّبْ
نَضَبَتْ رَحمةُ الوجودِ جميعاً ... وَبِكَ الرحمةُ التي ليسِ تَنْضَبْ
وَلئن ضاقَتِ السماءُ بِشَجْوى ... فالسماءُ التي بِعَيْنيْكَ أرْحَبْ
وشَقَائي وسَادُ إذا نِمْ ... تُ وَمَرْساىَ حيثمُا أتَقَلَّبْ
كمْ تَمَنَّيتُ والصُّدُورُ تُجافي ... ني وَتَرْوَرُّ والوجوهُ تقَطَّبْ
كم تمنيْتُ صَدْرَكَ البَرَّ، يَرْتا ... حُ على خَفْقِهِ الطَّريدُ المَعَذَّبْ
هاتِ وَسّدنِيَ الحَنَانَ عليهِ ... جَسَدي مُتْعَبُ وَرُحىَ متَعبْ
إبراهيم ناجي
أياصوفيا
بقلم أمجد الطرابلسي
أياصوفيا حان التفرق فاذكري ... عهود كرام فيك صلوا وسلموا
حافظ إبراهيم
تُذْرِي الدُّموعَ وتَسفَحُ ... وتُمْسِي على مُرَّ الأنينِ وَتُصْبِحُ (أياصوفيا)
تتَكَّرَ أهلوها لها وأذاقَهَا ... فَوَادِحَهُ صَرْفُ الزمانِ المُفَدَّحُ
وهاتَتْ على مَنْ كانَ بالأمْسِ مُشفِقاً ... يُدافِعُ عنْهاَ الطامِعينَ وَيَنْفَحُ
فوا أسفا! ماذا أساءَتْ وأذْنَبَتْ ... وقد يُغْفَرُ الذَّنْبُ العظيمُ المُبَرَّحُ
أيَهجُرُها أبناؤها دونَ رحمةٍ ... وتتْرَكُ في أيدي الأسى تَتَصَوَّحُ
ألم تَكُ مِحْرَابَ الخِلافة أعصُراً ... يرفُّ عليها المجدُ والعِزُّ يَصْدَحُ
إذا سمعَ الناسُ الأذانَ رأيتَهَا ... تكادُ بأفْواجِ المصلّينَ تَطْفحُ
وإن تُلِيَ الفُرْقانُ فيها رأيتَهَا ... تمايَلُ مِنْ تَرْتيلِهِ وتَرَنَّحُ
فأصْحَتْ خَلاءً لا الحمائِمُ خُشَّعُ ... لديْهَا، ولا الدَّاعي المؤذِّنُ يُفصحُ
وُعُطِّلَ فيها الدينُ فَهْيَ وَجِيعةٌ ... تَضِجُّ شَكاةً وَالمَنابِرُ تُوَّحُ
لا يغْرِرْكَ أنكَ حاكمٌ ... مُطاعُ، تُرَدِّى إنْ أردتَ وتصفح (أتاتُورْكُ)
رُوَيْدَكَ إنَّ الدهْرَ - مذْ كان - قُلَّبٌ ... يَعُودُ فيستَقْضي الذي كان يمنح
لَعَمْرِكَ إنْ أمسيْتَ رَبَّا مُسَوَّداً ... أتعلمُ ما يُبدْي الصَّبَاحُ وَيفضح؟
إذ العينُ نامَتْ عَنْ أذى الدهْرِ غَفْلَةً ... تُفيقُ على الهَوْلِ الفظيعِ وتُفْتَحُ
وأنْتَ الذي يدعونَكَ اليومَ مُصْلحاً ... فَهلْ يَهْدِمُ التاريخَ والمجدَ مصلح
لئِنْ كانَ قُبحاً تَبْذكَ العُرْبَ جانباً ... فَتَبْذُكَ للدينِ المقَدَّسُ أقبح
حُقودٌ على الُرْبِ الِكرامِ صَبَبْتَها ... على الدينِ، ما تَنْفَكُّ تُورى وتُقْدَح
تبينَ فيها الغَدْرُ والّؤمُ والأذى ... (وكُلُّ إناءٍ بالذي فيهِ ينضح)
تَجَرّأتْ مغتراً على الدينِ أهْوَجاً ... ولكِنَّ دينَ اللهِ أسمى وأسمحُ
وشَمَّرتَ للدينِ الحنيفِ مغالباً ... فَوا عجَباَ! أنتَ الأجَمُّ وتنطَحُ
وما ناصَبَ الدينَ العداوَةَ أحمقٌ ... مِنَ الناسِ إلا عادَ وَهْوَ مُجرَّح
وَللهِ عيْنٌ تَكْلأُ الدينَ برَّةٌ ... وتدفَع عنه كلَّ من جاء ينبح
بَنيتم على الإسْلاَم شامخَ مُلكِكم ... فلَسْتَ إذَا هَدّمْتَهُ اليْومَ تُفْلِحُ
وإنَّ أيادِي العُربِ فيكم كثيرَةٌ ... وما ضَرَّها أنْ تُنكِرهَا وَتقْدَحُوا
ولوْلاَ تهاوِلُ الخِلافةِ لم يكُنْ ... (لعثمانَ) في ضَخْم المَملِكِ مَطمحُ
فإنْ تَهْجُرُوا الدِّينَ المقَدَّسَ فارْجِعُوا ... سَوَائِمَ ترْعَى في المُرُوجِ وَتَسرَحُ
حاذِرْ مِنْ بنِي الغَرْبِ وَثْبةً ... وإنْ غَرَّدُوا بالسِّلْمِ يوْماً ولَوَّحوا (أتاتُورْكُ)
فَحُبُّهُمُ حُبُّ الذِّئَابِ لنَعْجةٍ ... وسِلْمُهُمُ البرَّاقُ سِلْمٌ مُسَلَّحُ
فَصَمتَ عُرى الشَّرْقِ العزيزِ بِنزْوَةٍ ... من الْحمقِ مَا تَنْفكُّ تنْزُو وتَجْمحُ
وقَطَّعْتَ أسبابَ القرَابةِ عَامِداً ... وهذا الذي يُرضِي عِداكَ وَيفْرِحُ
أأنْتَ إذَا خُنْتَ القَرابةَ وَاجِدٌ ... من الأهْلِ من يَحنو عليكَ وَيَنْصحُ
وواللهِ لا يُبدى لك الغَرْبُ حُرْمةً ... ولوْ رُحْتَ في أذيالهِ تَتَمَّسحُ
يقولُ لَكَ الغَرْبُ المُدِلُّ بِنَابِهِ ... وقد جئْتَ تَستَجدِي رضاهُ وَتمدَحُ
مكانكَ ياشرْقيُّ وارْجعْ بِذلَّةٍ ... فمنْ ذَا رَأى الشَّرْقيَّ لِلعزِّ يَصْلُحُ

ومهمَا سَما الشَّرْقيُّ فالشرقُ نعجةٌ ... تُسمَّنُ لِلغْربِ النَّهُومِ وَتذْبَحُ
فلا تَلتمسْ عَطفاً من الغَرْبِ صَاغراً ... ذَليلاً فما يَحْنُو القويُّ ويَسْمَحُ
ولا تَعُبِد الغَربيَّ جَهْلاً فإنما ... ستكْسبُ منه كلَّ ذُلٍّ وتربح
ألستَ تراهُ رابِضاً متَربِّصاً ... يَودّ لَو أنّ الصيدَ يبدو ويسنحُ
دمشق
أمجد الطرابلسي
نجوى
أنت لحن الفؤاد في الخفقان ... يا نجيّ الضمير في كل آن
رافق القلب ذكرك العذب كالما ... ءِ رفيقاً لخاطر الضمآن
إن هذى الحياة - وهي شوؤن - ... ليس فيها سواك لي من شان
أنا من أجلك احتملت حياتي ... حين ظلّلت في الحياة مكاني
ربَّ ليل مضى عليك هنيئاً ... بتُّ فيه مؤرق الأشجان
طيفك العابث الكذوب يمني ... ني فأحيى ليلي سمير الأماني
وأرى عطفك البعيد قريباً ... فيفيض السرور في وجداني
ثم يحنو عليّ طيفك حتى ... تتهادى مواثق الرضوان
ونحلُّ الوصال لثما وضما ... وحديثاً باللحظ أو باللسان
ثم أصحو فلا أراك حيالي ... فيثور الدفين من أشجاني
أيها الظالم الجميل ترفق ... بأسير معذَّب ولهان
بغداد
ابن عباس
فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية
تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا - 16
فرديدريك نيتشه
للأستاذ خليل هنداوي
غزوات نيتشه
الغزوة الأولى
حمل نيتشه في الغزوة الأولى على الكاتب الألماني (دافيد ستراوس) وعلى كتابه الذي أخرجه في درس الدين والمدينة، والإيمان قديمه وحديثه. وقد يحتدم في نقده للجزء الثاني من الكتاب حيث يعلن (ستراوس) المثل الأعلى الذي يجده خير ما وجده لأبناء الأجيال القادمة. ونيتشه يصب سوط نقده على الرجل الذي لم يعل ولم يسفل، بل وقف وسطاً قانعاً بما آل إليه، يأخذ من كل علم بحزمة، ويقنع من كل فن بضمة، ويعتقد بأنه بلغ الدرجة القصوى من الكمال الإنساني
لا يؤمن (ستراوس) بجنة المسيح، ولا يرتاح لوجود الله، وإنما يعمل على أن يوحي إلى أنصاره أن العالم ما هو إلا رحى ميكانيكية لا تهدأ عن دورانها، وما على الإنسان إلا أن يسلم من الوقوع تحت ثفالها. وهو في الأخلاق كذلك، فلا يبشر بمذهب خطر، ولا يجرؤ على أن يطلب إلى الفرد أن يستخدم مواهبه وأن يكون كما تريد نفسه في الوجود. وإنما يقول هذه الجملة بعد تثبته من اختلاف الناس في حظوظهم ومواهبهم، (لا تنس أبداً أيها الإنسان أن الآخرين هم أناس مثلك، لهم نفس حاجاتك وذات مآربك) يحسب كل ما تجاوز حد الفهم الوسط قبيحاً، لأن العبقرية تتجلى في التوسط لا في التطرف. فالنشيد التاسع (لبتهوفن) لا يقع موقع الرضا إلا عند من يرون الغريب عبقرية، والخروج عن المألوف والوزن سمواً. وقد ظن بنفسه أنه قهر (شوبنهاور) ببرهانه الركيك الذي رآه (إذا كان الوجود قبيحاً، فالعقل الذي أوجده هو قبيح أيضاً، فالمتشائم إذن هو مفكر قبيح، والوجود هو حسن وجميل!. . .)
إن ستراوس في نظر نيتشه هو مثال العقل المتوسط الذي يدعى معرفة كل شيء، ويريد بفرض سلطته على الوجود. هو مفكر هياب لا يبلغ بفكره إلا منتصف الطريق، ولا يستطيع أن يقصد نهايته. إنه متفائل يغلق عينيه عن الآلام الضرورية للبشر خوفاً ورهبة. وهو مفكر يدعوا الناس إلى حياة قانعة خانعة، وبدلاً من أن يكرم رجال العبقرية يعمل على معاكستهم لأنهم - بزعمه - خالفوا نظامه ومثله الأعلى باختراقهم

حدود النبوغ المتوسط
الغزوة الثانية:
وتصدى نيتشه في تأملاته الثانية للتاريخ، وهو لا يجابه رجلاً معلوماً أو طائفة مشهورة، وإنما ينازل مذهباً حديثاً يهم بأن يشيع ويطبع الحضارة العصرية بطابعه، فالتاريخ هو خير راع للحضارة وناقل لها ما ظل يعمل على خدمة الحياة، وبحث الناس على نشدان الحياة السامية، فالتاريخ الموقوف على نشر المآثر يمثل للإنسان آثار الأقدمين الرائعة ويبعث في روحه الأمل الملتهب والعزم المتأجج لإكمال معنى هذه الآثار، ويعمل على رفع مثل الإنسانية الأعلى ناقضاً من قلبه التلهي بحب الحاضر والاستسلام لملذاته. أما التاريخ التقليدي الذي يوحي للإنسان احترام الأشياء الفانية، وحب الآثار الماضية، فهو خير حقير يحمل أصحابه على الرضا بالحاضر الممقوت، يسكرهم بذلك الماضي الذهبي البعيد ويسكب في وجودهم القاتم المستكين مخدراً شعرياً يبعثهم على الركود. وهنالك التاريخ الناقد المحاكم، يعرض الماضي كله على محكمة العقل ويبحث فيه ثم ينفيه، لأن كل ما كان من حقه أن يزول. - إن مثل هذا التاريخ هو سلاح محمود عند من أثقلت ظهورهم أعباء الماضي الثقيل، وهم يريدون أن يطرحوها عنهم ويمشوا قدماً إلى ما خطت لهم الحياة

ولقد يستحيل التاريخ إلى قوة غاشمة سيئة حين ينفصل في طريقه عن الحياة، وحين يود أن يفرض مذهباً خاصاً بعيداً عن مذاهبها، إنه يصبح رسول موت لا رسول حياة. ينشئ من الإنسان مجموعة محشوة علوماً ومعارف. ويقتل فيه القوة التي تسوقه إلى العمل. . . إنه مجموعة أثرية لاحظ فيها لسطر من سطور العمل. صاحبها ضعفت شخصيته، ونشأ في تفكيره عالة على غيره، وتعلم أن التاريخ يجب أن يتلقنه تلقيناً، وألا يضعه بنفسه. على أن المؤرخ الحقيقي الذي ينبغي لمثله أن يسطر التاريخ هو من يقف تجاه المسألة التي يدرسها وقفة الخلي، ويعمل دائباً على تشييد بناية الحاضر. رجل التجارب والسمو هو الذي يسطر التاريخ

وللتاريخ وجهة ثانية رائعة يستخلصها نيتشه: هي أن التاريخ يكرم من التفاؤل ما كان محفوفاً بالكدر والخطر. ويحترم الميول الفظة ويعبد الظفر. يعتقد المؤرخ أنه يرى في الحركة الإنسانية أثراً لا أعلم من أي سام منحدره. يجهد العقل ليدرك أنى بدأت هذه الحركة وأين يجب أن تنتهي؟ والإنسان لم يكن عظيماً إلا حين كان يشن الغارة على القدر ويعلن الحرب على القضاء الأهوج، ولكنه يفعل ذلك دون أن يخرج من نفسه ليس التاريخ الحقيقي بذلك التاريخ الذي يأتي على كل شيء وإنما هو تاريخ أبناء العبقرية، وسيأتي عصر تتبدل فيه صورة هذه الحركات التي ألف التاريخ تسجيلها. وسترسم هذه الصورة بصورة أدنى إلى الحقيقة، فلا يكتب التاريخ بعمومه وخصوصه، وإنما يقصر فيه على رجال العبقرية الذين أثروا في العالم؛ هم لا يأتون ويتعاقبون حسب شريعة تاريخية، ولكنهم يعيشون وراء الزمن! يمثل وجودهم المتصل المتماسك معبراً ترابطت أجزاؤه واستمكنت عقده فوق الأمواج العاصفة. ولنعمم هذا التاريخ الذي يرسم هذه الصورة ويخرج هذا المثل! وهذه هي جمهورية العباقرة التي تحدث عنها (شوبنهاور). عبقري ينادي عبقرياً في أثناء العصور وأهضام الأجيال. ووظيفة التاريخ أن يجمع شتاتهم، ويدني بعضهم من بعض، وأن يهيئ - في كل مهلة - ولادة جديدة لعبقري جديد. إذ ليست غاية الإنسانية من سيرها ذلك الغرض الذي تزحف إليه وإنما غايتها تتمثل في النماذج الكاملة التي تخرجها وتنشئها في الوجود
الغزوة الثالثة:
ولم يقف الأمر عند تهديم العمارة القديمة وتعاليمها المخطرة. فهو يقصد إلى تشييد عمارة المستقبل على دعائم جديدة، فتحرى عن عباقرة أحياء يستطيعون أن يذهبوا بالشباب إلى هذه العمارة وإلى هدف جديد، ينزع عنهم هذا التفاؤل المخدر ويعرضهم أمام أنفسهم مجردين. وسعى إلى أن يرى له معلمين يساعدونه على كشف نفسه ويعرفونه بنفسه؛ من أين نشأت وإلى أين تذهب؟

وقع - أو شاءت المصادفات - أن يقع نيتشه مصادفة على كتاب شوبنهاور (العالم إرادة وتمثيل) وما كان نيتشه ليقدر أن هذا الكتاب سيقلب كل أطوار حياته، ويترك ثورة مستعرة في نفسه، ثم تشتعل هذه الثورة وتزيدها الأيام ضراماً، فلا تهدأ إلا بعد أن تأكل نفسها،

وتمد ألسنة شواظها إلى نفسها فتهدأ الثورة بثورتها على ذاتها. . . فكان أول ما شغله من هذا الكتاب الجديد شخصية صاحبه المتجلية في كل حرف من حروفه؛ وهو الذي يقول: (أنا من قراء شوبنهاور، ممن يدركون أنهم سيتلون شوبنهاور من فاتحته إلى خاتمته، وسيصغون إلى كل حرف تهمسه شفتاه. إن ثقتي به ثقة عمياء ما زادها كر الأيام إلى ثباتاً)

(يتبع)

خليل هنداوي

القصص

من أساطير الإغريق

القرية الظالمة

للأستاذ دريني خشبة

ذهبا يدلجان في هدأة الليل، ويضربان في ظلام الوادي، ويتحدث أحدهما إلى الآخر حديث الآلهة؛ وكلما نال منهما الجهد، جلسا يتسامران، أو ينصت الشيخ ذو اللحية البيضاء المرتعشة، إلى السحر الذي تنفثه قيثارة الفتى اليافع

- (حسبك يا بني، فلقد كادت موسيقاك تبطل عمل العاصفة)

- (وفيم تريد أن تستيقظ العاصفة يا أبتاه؟)

- (أريد أن تستيقظ العاصفة لأريك عجباً هذه الليلة من طباع الناس. أترى إلى هذه القرية! النائمة في أكناف الجبل؟)

- (أين يا أبي؟)

- (أنظر جيداً)

- (. . .الظلام دامس، ويكاد الحلك يختلط بسواد الصخر فلا أرى شيئاً)

- (أنظر في الجهة التي تشير إليها يدي)

وأشار الشيخ بيده فانبعثت منها شعاعة من نور شديد، كشفت القرية للفتى

- (آه. هذه هي. عمش خفيف أصابني الليلة يا أبتاه!)

وكان الفتى حلو الدعابة رقيق النكتة، ثرثاراً، فقال له الشيخ يحذره:

- (إذا كنا عند القرية فلا تبدأ حديثاً، ولا تخاطبني إلا أن أخاطبك؛ وإياك أن تأتي بإشارة تسقط هيبتنا في أعين القوم، فانهم لؤماء سفهاء، وقد تفسد علينا ثرثرتك ما جئنا من أجله الليلة إلى هذه القرية. . .)

(نسيت القفل يا أبتاه!!)

- (أي قفل؟)

- (الذي أقفل به فمي فما يتحرك ببنت شفة)

- (يا خبيث. .: اصمت)

وأشار الشيخ بيده إلى السماء فأربدت وتكلحت وأورى برقها وقرقع رعدها، وانصبت ميازبها بماء منهمر. . . وانطلقا إلى القرية

ووقفا عند منزل فخم ضخم ذي شرفات، فقال الشيخ:

- (تشبث يا بني بأحياد الحائط حتى تكون عند النافذة، فانظر ماذا ترى)

وفعل الفتى، ونزل، وقال للشيخ:

- (أبتاه! نسوة عاريات يرقصن، وندامى وخمر، و. . . موسيقى. . . وفتيان وفتيات. . . . و. . .)

- (وماذا يا صغيري العزيز؟)

- (. . .ودعارة وعهر يا أبتاه. . . . لماذا جئنا هنا؟ لماذا جئنا هنا؟)

- (قلت لك جئنا لأريك عجباً هذه الليلة من طباع الناس، هلم إلى باب المنزل)

وطرقا الباب، فبرز لهما فتاىً غرانق وقال: ماذا؟ شحاذان قذران!) فقال الشيخ:

- (على رسلك يا بني. أنا رجل شيخ غريب، وهذا ابني، وقد دهمتنا العاصفة فلجأنا إليكم نرجو أن تضمنا غرفة صغيرة إلى الصباح، ونطمع أن نتبلغ لديكم بلقمات. . .)

- (غرفة ولقمات؟ ها ها. . . اذهبا اذهبا. . . لصوص! هذه حيل قطاع الطريق والسفاحين بلوناها من قبل)

ثم قذف بمصراع الباب في وجهيهما. فنظر الشيخ إلى ولده وقال: (أرأيت؟ سر إلى هذا البيت القريب)

وقال لابنه: (هلم إلى النافذة فانظر. . .)
وتسلق الفتى وحملق قليلاً، ثم قفز وقال: (أبتاه! أناس يخزنون الذهب في خواب عظيمة ويختمون عليها بالرصاص المذاب؛ من أين لهم هذا الذهب كله يا أبي؟. .)
فقال الشيخ: (هم لصوص يا بني، وإن كانوا لا يقطعون طريقاً، ولا يسطون على دار؛ ولكنهم يمتصون دم الفقير والمعتر، ويصهرونه ذهباً ويكنزونه هكذا؟! إنهم أصحاب هذه الضياع والبساتين! هلم إلى بابهم. . . . . .)
وطرقا الباب، وسألا طعاماً، ومبيت ليلة، فقالت لهم العجوز صاحبة الدار:
- إن هذا العام عام شدة، ولم تبق لنا المجاعة على زرع ولا ضرع، ماذا عندنا لنعطيكم؟ هيكل زيوس قريب من هنا ناما فيه، وكهنته أسخياء كرماء، وعندهم في كل آونة خمر. . . سيطعمونكما ويسقونكما! وربما قدموا لكل منكما غادة! فهم فساق عرابيد. . . اقصدا إليهم. . . اذهبا. . .)
وقذفت بالباب في وجهيهما. . . . . .
قال الشيخ: (أرأيت يا بني؟) فقال الفتى مداعباً:
- فقطب الرجل جبينه وقال: (مالنا (!نحن نستحق أضعاف هذا الهوان! ما لنا وللناس؟) وللناس؟ إذن ما نحن في هذه الدنيا يا بني؟ ولكن ليس الآن ما أعددت لك من عبرة هذه الليلة؛ سر بنا إلى ذلك القصر العتيق)
فلما كانا عنده، تطلع الفتى فرأى صحباً كثيراً ما يزال يتعشى، والموائد حافلة بالأشربات والأشواب، وبكل ما لذ وطاب. والندامى البيض كالنجوم رافلات، ورافلون، في وشى وأواف. وكأن الفتى استطير من العجب، فقال للشيخ: (كل الناس يا أبتاه هانئون هذه الليلة المقرورة إلا نحن!! الجميع يأخذ في نشوة ولذة ونحن نضرب في وحل وننشق من غيظ؟!)
قال أبوه: (ألم أقل لك ألا تبدأ حديثاً حتى أبدأك؟ هلم إلى الباب) وقرعا الباب فبرز لهما شاب مفتول العضل كأنه هرقل. فلما سألاه حاجتهما، قادهما إلى البهو الواسع حيث القوم فيما هم فيه من متاع
قال الشاب المفتول: (إليكم أيها الأخوان لصين من لصوص الدجاج عاثا كثيراً في قريتنا هذه، ولولا طول الحذر ما ذقتم الليلة رجل دجاجة. . . . . إنهما يطلبان مبيتاً وعشاءً، ولا أدري لِمَ لمْ يقصدا إلى هيكل الأب زيوس حيث المبيت الوثير والعشاء الكثير؟! وحيث أشياء أخرى. . . . . .)
وقهقه السمار وتكبكبوا حول الغريبين، ثم أخذوا معهما في ألوان غير محتشمة من المزاح الثقيل. هذا ينتف شعرات من ذقن الشيخ، وذلك يرفع ذيل الفتى مما وراء، وهذه تعانق الشيخ وتقبله وتقدم له كأساً من الخمر، وتلك تركب الفتى زقفونة!). . . . . .
ولما فاضت الكأس بالشيخ والفتى، نظر أحدهما إلى الآخر نظرات، ثم غابا عن أنظار الجماعة، كأنما تحولا إلى هواء. . .؟!
فشده القوم، وأوجسوا خيفة
لم يبرح الرجل وابنه يتنقلان في شوارع القرية الموحلة من بيت إلى بيت، وكلما طلبا المبيت والعشاء استهزئ بهما وطردا شر طردة وأخسها، حتى ضجر الفتى وبرم بحكمة والده في هذه الرحلة المضنية في ذلك البلد البخيل. . . فقال له: (اذهب أنت فسأنتظرك على هذه الصخرة الناتئة في حيد الجبل، وسأتسلى بموسيقاي حتى تعود)
فقال الشيخ: (وحكمتي التي أردتك أن تراها بعينيك؟ هلم، هلم. . . أترى ذلك الكوخ؟ لندلج نحوه وليكن آخر مطافنا)
وكانت في الكوخ كوة صغيرة ينبثق منها نور خافت. فلما نظر الفتى تمتم يقول: (أبتاه امرأة متهدمة وشيخ محطم! يا لبؤس الحياة، ويا لشظف العيش! لماذا أثرت العاصفة يا أبي؟ إن الماء ينز عليهما ويبلل فراشهما. . .)
- (سترى أن هذا الكوخ هو وحده الذي يبقى)
- (ماذا تعني يا أبي؟ هل تهدم القرية؟)
- (صه! هلم فاطرق باب الكوخ.)
- (قم يا فيلمون. إن بالباب طارقاً)
- (نامي يا بوسيز! إنه البرد ترجم به العاصفة)

- (لا. ليس برداً. إسمع! أناس ينادون. قد تكون بهم حاجة)
ونهض فيلمون متهالكاً على نفسه ففتح الباب. وما كاد الشيخ يذكر حاجته حتى هش صاحب الكوخ وبش، وتلقى الرجل وابنه أحسن لقاء
- (مرحباً مرحباً. . . أنتما في حاجة إلى دفء. بوسيز. انهضي يا امرأة فأوقدي ناراً. أنا أعرف أن الحطب مبلل، ولكن حاولي. . . مرحباً يا كرام معذرة، فنحن نستعين على الحياة هنا بالصبر. بوسيز، هاتي قربة النبيذ أولاً. ليس فيها إلا صبابة! لا بأس! سيبارك زيوس للضيفين فيها. . . هاتي شيئاً من المشمش الجاف يا امرأة!. . .)
وتأتي بوسيز بقربة النبيذ، وما يكون فيها إلا ثمالة، فيتناوله الشيخ ذو اللحية البيضاء، فيتمتم بكلمات فتمتلئ نبيذاً من خير ما عصر باخوس؛ وبعد أن يروي منها هو وابنه، يدفع بها إلى صاحب الكوخ ممتلئة كأن لم يمتد إليها فم! فيتولى الرجل دهش عظيم ويقول:
فيقول الشيخ: (أنا أيها العزيز رجل نقلة وأسفار وهذا ابني الموسيقي البارع. أتطرب للموسيقى؟ بحق زيوس إلا ما أخبرتني أيها الصفي الصالح من أنت؟)
ويهتز الرجل، ويوقع الفتى على قيثارته لحناً كأنه لسان العاصفة بما فيها من سنا برق وهزيم رعد ومكاء ريح وتنقير مطر، ثم هو مع ذاك لحن مشرق متألق يأسر اللب ولا يستأذن على القلب. . . وطرب فيلمون، ورقصت جوانج بوسيز، وأحضرت طبقاً به قليل من المشمش الجاف فقدمته للفتى، ناسية أن تقدمه للشيخ، وهذا من أثر الموسيقى على أعصابها، فقدمه هذا إلى أبيه في أدب واحترام. وما كادت اليد البيضاء الناصعة تمس الفاكهة حتى عادت إليها النضارة، وتأرجت عنها أنفاس الحديقة، وتضاعفت في الطبق حتى ملأته. فأكل الشيخ، وأكل ابنه، وأكل فيلمون وزوجه، وهما لا يصدقان ما يريان!
وظلا يقدمان للضيفين كل ما استطاعاه من خبز وأدم، فكان القليل يزداد والمشفوف يتضاعف. وكانت لديهما إوزة عجفاء حاولا أن يجريا عليها التجربة فهما بذبحها ليصنعا منها شواءً يقدمانه للضيفين، ليريا ماذا يكون من أمرها. ولكن الإوزة فزعت فزعاً شديداً، وانطلقت في ناحية الشيخ تستجير به كأنها تكلمه. فابتسم وربت على ريشها الناعم النظيف، وأجارها من سكين فيلمون
وكان نسيم السحر قد أخذ يهب في الأفق الشرقي، فقال الشيخ:
- (أيها العزيز فيلمون. أيتها التقية الكريمة بوسيز، من إلهكما!)
- (إلهنا زيوس تبارك في علياء الأولمب؟)
- (أو يسركما أن يكون معكما الآن؟)
- (معنا هو دائماً معنا!)
- (أجل. هو دائماً مع عباده المخلصين. ولكن، أيسركما أن تكونا الآن في حضرته يحدثكما وتحدثانه؟)
فيصيح فيلمون:
- (أنت هو زيوس. تقدست. تقدست)
ويسجد الرجل وزوجه، وما تفتأ تأخذهما رعدة شديدة
- (أجل. أنا زيوس. أتيت أبتلي هذه القرية. وهذا ولدي هرمز. انهضا. والآن. ستزلزل الأرض زلزالها فلا تنزعجا. . .)
ووقف زيوس، وأشار بيده إشارة خفيفة إلى الشرق، ثم إلى الغرب، ثم إلى الجنوب، ثم إلى الشمال؛؛؛ ثم نظر إلى فوق وتمتم بكلمات، وجلس
وما كاد يفعل حتى رقصت الأرض، وسمع كأن الجبل القريب يندك، وكأن الصواعق تنقض على المنازل فتقوضها، وتنقلب القرية إلى جحيم ملتهب، وكلما أطل فيلمون أو أطلت امرأته من الكوة سرت فيهما رجفة أروع من رجفة الزلزال، فيطمئنهما زيوس
- (الكوخ يا إلهي! أنا رجل فقير!)
- (مال كوخك يا فيلمون!)
- (إذا انهدم عشت في العراء!)
- (لا عليك! فلن تقوض الزلازل إلا قصور العتاة؟)
وأشرقت الشمس، فنهض الإله الأكبر، ونهض الجميع معه. وما كاد فيلمون يفتح باب كوخه الحقير حتى أخذه العجب وارتد على عقبيه مذعوراً:

- (مولاي! لمن هذا القصر المشيد؟)
- (هو لك يا فيلمون، أمرت الآلهة فبنى لك في ساعة السحر جزاء كرمكما. هلما نشهد غرفاته)
وانطلق الجميع يتنقلون في غرفات القصر وردهاته، وكلما مر فيلمون وزوجه بتمثال إله سجدا واخبتا، حتى إذا كانوا في أكبر ردهات القصر، وقف زيوس وقال: (فيلمون! هذا هيكلي! وقد جعلتك كاهني الأكبر، فتمن الآن علي، فسأجيبك إلى كل ما تطلب) فتبسم فيلمون وقال: (مولاي! الشباب يا مولاي! ليعد الشباب إلي وإلى زوجي بوسيز، ولنعش طويلاً فإذا جاء وعدك فلنمت في يوم واحد في ساعة واحدة!) وسجد يقبل الأرض بين قدمي الإله الأكبر!
فقال زيوس: (انهض يا فيلمون فطلبك مجاب، وستعيشان راغدين!)
وسلم الإلهان وغابا عن الأنظار، وخرج فيلمون وزوجه ليريا إلى القرية، فلم يشهدا شيئاً غير بحيرة تعج أمواجها، وجزيرة كبيرة خضراء في وسطها قصرهما المنيف! فآمنا بزيوس وسبحا له!
وعاشا طويلا، وماتا في يوم واحد وساعة واحدة، ونبتت دوحتان عظيمتان من أشجار السرو أمام باب القصر تخلدان ذكراهما في العصور
دريني خشبة
البريد الأدبي
المؤتمر المصري الثالث للطلبة المصريين بإنجلترا
أقام الطلبة المصريون في إنجلترا مؤتمرهم الثالث من مساء يوم الأربعاء 10 يوليه إلى يوم الاثنين 15 منه، فحاضر في اليوم الأول الملازم حسن بكير في البوليس المصري والأمن العام: حالتهما وما يجب أن يكونا عليه؛ وفي يوم الخميس ألقت الآنسة أسماء فهمي محاضرة عن (علاقة علم النفس بالتربية ومقاييس الذكاء)، وكذلك ألقى الأستاذ عبد العزيز أمين عبد المجيد محاضرة عن (عيوب النظام المدرسي الحالي بمصر ووسائل إصلاحه)؛ وفي يوم الجمعة تكلم الأستاذ يحيى نامق عن (حركات الشباب المصري وكيف يجب أن تتجه)، والأستاذ حسن محمد الشعراني عن (رقي الصناعة في مصر)، ثم تحدثت الآنسة حنينة خوري عن (الحبشة وعاداتها وعلاقتها بمصر)؛ وفي يوم السبت تكلم الأستاذ إبراهيم حسن الموجي عن (فضل الإسلام في رفع منزلة المرأة)؛ وفي يوم الأحد تكلم الأستاذ سليمان أحمد حزين عن (مشكلتي السكان والدفاع القومي ومكانتهما من سياستنا التعليمية)، والأستاذ يحيى عبد السلام العلايلي عن (علاقة الطلبة المصريين بإنجلترا وكيف يجب أن تكون) وفي يوم الاثنين انعقد المؤتمر بشكل جمعية عمومية لمراجعة النتائج التي وصل إليها في المحاضرات السابقة ولمناقشة شؤون المؤتمر الرابع المقبل وانتخاب اللجنة المعدة لإدارته
بين الرصافي والريحاني
نشرنا في عدد مضى ما رواه الريحاني عن الرصافي في كتابه الجديد (قلب العراق) وانتظرنا كلمة الأستاذ الرصافي في هذه الرواية. وقد قرأنا أخيراً في جريدة الاستقلال البغدادية كتاباً من الأستاذ الرصافي ينكر فيه كل ما عزاه الريحاني إليه إنكاراً يؤيد تعليقنا على هذا الخبر أو ذاك، وهذا كتاب الرصافي بنصه:
حضرة الأستاذ الفاضل صاحب جريدة الاستقلال الغراء أرجو نشر الكلمة التالية في جريدتكم ولكم الفضل والشكر:
أطلعني بعض معارفي على ما رواه الريحاني عني في كتابه قلب العراق فعجبت منه واستغربته كل الاستغراب. لقد اجتمعت بالريحاني عدة مرات في أزمنة مختلفة، ومجالس
مؤتلفة وغير مؤتلفة، تجاذبنا فيها أطراف الأحاديث من كل نوع، ولا أتذكرها اليوم لمرور الزمان ولاختلال ذاكرتي بالنسيان، فأنا من هذه الناحية لا أستطيع أن أناقشه في صحة تلك الأقوال التي أسندها إلي ورواها عني. ولكنني الآن أستطيع أن أنفي نفياً باتاً صحة كثير مما رواه في كتابه المذكور بدليل أن في تلك الأقوال ما لو قاله اليوم أحد غيري لأنكرته عليه أشد الإنكار. إذن فكيف أقول للريحاني ما أنكره لو قاله غيري؟ وفي الأخير أقول: إن كان كل ما يرويه الريحاني في كتبه من هذا القبيل فويل للحقيقة

منه، وويل له من الحقيقة!

معروف الرصافي

معهد شرقي في برلين

من أنباء برلين الأخيرة أن الحكومة الألمانية قررت إنشاء معهد جديد يسمى (المعهد الشرقي) يلحق بجامعة برلين ويعنى بدراسة اللغات الشرقية ومسائل الشرق وحضاراته. وسيدمج في هذا المعهد الجديد، معهد اللغات الشرقية القديم الذي كان ملحقا بجامعة برلين، ومعهد اللغات السامية والعلوم الإسلامية، والمعهد الصيني، والمعهد الهندي الألماني. أما المعهد الياباني المخصص لدراسة المسائل والحضارة اليابانية، فسيبقى مستقلاً كما هو الآن نظراً لمهمته الخاصة

وفي هذا النبأ ما يلفت النظر، لأن الحكومة الألمانية الحالية وهي الحكومة الهتلرية قد اضطهدت حركة الاستشراق، أعني المباحث الشرقية والإسلامية، اضطهاداً شديداً، لأن معظم أقطاب المباحث الشرقية والإسلامية من اليهود، وقد طاردت الحكومة الهتلرية العلماء اليهود أشد مطاردة وشردتهم من معاهدهم، وركدت بذلك حركة الاستشراق في ألمانيا؛ وكانت هذه الحركة زاهرة بألمانيا قبل الحرب لأنها كانت يومئذ كانت تجيش بالمطامع الاستعمارية في الشرق وتشجع المباحث الشرقية والإسلامية وتغذيها بالمال والبعوث؛ ثم ضعفت هذه الحركة بعد الحرب، وفترت همم العلماء المستشرقين لتخلي الحكومة عنهم وقصورها عن إمدادهم بالمال اللازم؛ فهل نفهم من إنشاء (المعهد الشرقي) الجديد أن الحكومة الهتلرية تزمع العودة إلى تشجيع المباحث الشرقية، وأن لهذه الخطوة علاقة بمطامعها السياسية والاقتصادية فيما وراء البحار؟ هذا ومن جهة أخرى فالمعروف أن

الحكومة الهتلرية تقيم سياستها على فكرة الجنس، وأنها تنادي بانحطاط الأجناس الشرقية وعدم كفايتها (لإنشاء الحضارات) وتعتبرها فرائس مشروعة لاستعمار الجنس الآري إلى آخر ما هنالك من مبادئ ومزاعم جديدة يعمل الهتلريون على بثها وتدعيمها؛ ولذا فإنا نجد ما يدعو إلى التأمل في اهتمام الحكومة الهتلرية بإنشاء (المعهد الشرقي)

عميد أطباء فرنسا

من أنباء فرنسا أن الدكتور الكسندر جنيو عميد الأطباء الفرنسيين سناً قد توفي في سن الثالثة بعد المائة؛ وأنه لبث محتفظاً بصفاء ذهنه وقوة حواسه حتى اللحظة الأخيرة. وقد كان مولد هذا الطبيب المعمر في سنة 1832؛ ودرس الطب، ونال أجازته سنة 1857؛ ثم نال شهادة العالمية الطبية سنة 1869، واشتهر بنبوغه في الجراحة؛ وانتخب عضواً في أكاديمية الطب، ثم رئيساً لها، وانتخب أيضاً رئيساً لجمعية الجراحين؛ وله مؤلفات قيمة في فن الجراحة ما زالت حجة في بابها. وقد كان الدكتور جنيو طوال حياته شهيراً ذائع الصيت لا كطبيب نابغ فقط، ولكن كرجل اجتماع جم الفكاهة، وقد اشتهر بالأخص برسالة ألفها في أواخر حياته عن (طول الحياة)، وما يجب على الإنسان أن يتبعه من نظم التغذية والرياضة إذا أراد أن يعيش مائة سنة، وخلاصة نصحه في ذلك أنه يجب الامتناع عن الإفراط في أي شيء، في العمل أو في الراحة أو في الطعام أو في الشراب؛ ويجب الامتناع بالأخص عن التدخين والخمر وغيرهما من المواد والعناصر المهلكة التي تبثها المدنية الحديثة

المرأة والاستكشاف

نظمت أخيراً في إنكلترا بعثة استكشافية جديدة لارتياد (الأرض الخضراء) (جرينلاند) في منطقة المنجمد الشمالي؛ ورحلت البعثة فوق السفينة القطبية الشهيرة (كوست) وهي سفينة السير أرنست شاكلتون الذي اشتهر باكتشافاته في تلك المناطق، وعهد برئاسة البعثة الجديدة إلى الأستاذ واجر؛ وبين أعضائها عدد ن العلماء القطبيين المعروفين بين إنكليز ودانماركيين ومنهم الأستاذ كورتولد الذي اشتهر بمخاطراته في الجزيرة الخضراء وقضى بها وحده شتاء كاملاً فوق الجليد في سنة 1931. ومما يلفت النظر أن هذه البعثة القطبية

ترافقها أربع سيدات هن زوجات أربعة من الأعضاء، وسيقضين الشتاء مع البعثة في الجليد، ويحتملن نفس المشاق التي يحتملها باقي الأعضاء. وقد سافرت البعثة من ثغر ابردين في اسكتلندا في أوائل شهر يوليه صوب البحار القطبية، ويتولى تسيير السفينة

بحارة من النروجيين الذين عرفوا بخبرتهم في هذه البحار، واحتمالهم لهذه الأجواء وعلى ذكر مخاطرة المرأة في ارتياد المجاهل والوهاد الخطرة في سبيل الغايات الاستكشافية نذكر أن امرأة بمفردها هي الدكتورة ماري آكلي أرملة المثال الشهير كارل آكلي تزمع السفر بمفردها إلى مناطق أفريقية الوسطى في روديسيا وفي سوالي لاند وزولولاند لدرس حياة الحيوان في تلك الأنحاء، ولتعرف رسوم القبائل وعاداتها الوثنية. وقد سبق أن قامت الدكتورة آكلي بمثل هذه الدراسات في بعض أنحاء أفريقية الجنوبية، وقامت أيضاً برحلات شاقة في الجبال الكندية بأمريكا، ولها اكتشافات معروفة في تلك الأنحاء استحقت من أجلها عدة أوسمة وتقديرات علمية

خليل بك مطران وفرقة التمثيل الحكومية

أصدرت وزارة المعارف قراراً بتعيين الشاعر الكبير الأستاذ خليل بك مطران مديراً للفرقة التمثيلية التي اعتزمت الحكومة إنشاءها تنفيذاً لاقتراح لجنة ترقية المسرح المصري بمرتب قدره خمسون جنيهاً في الشهر؛ وهو تعيين معناه الجد في إنهاض هذا الفن الذي عبثت به الأهواء والفوضى فخرجت به عن سبيل النهضة العامة

الكتب

قواعد التحديث

من فنون مصطلح الحديث

نشره (مكتب النشر العربي بدمشق)

للأستاذ الأمير شكيب أرسلان

اطلعت في مجلة (الرسالة) المصرية على كلام للأخ الأستاذ العلامة محمد بك كرد علي ينتقد فيه كتاب (قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث) للمرحوم العلامة الأستاذ الشيخ جمال القاسمي بأنه كتاب قد جمع جمعاً ولم يأت صاحبه فيه إلا برأي واحد وهو ترجيح قول الجلال الدواني على قول الشهاب الخفاجي في عدم التسامح بالأحاديث الضعيفة ولو كانت في مقام الترغيب في الفضائل. وقال: إن طريقة التأليف في عهد الارتقاء العلمي هي أن يأتي كلام المؤلف أكثر من شواهده، وأنه لما ضعفت ملكة التأليف أصبحت الكتب عبارة عن نسخ أقوال من سلف، وربما كان الشيخ جمال القاسمي آخر من جرى على هذهالطريقة وهي بسط أراء غيره؟ وأنه قد حدثت في التأليف طريقة جديدة اليوم وهي أن المؤلف في فن يقتصر على لباب ما قرأ فيه، ويدعم أقواله بشواهد من كتب القدماء أو المحدثين بأسلوب سهل سائغ خال من الخطابيات والسجع؟

فالأستاذ كرد علي ينتقد هذا التأليف رأساً من جهة أنه ليس على طريقة التأليف العصرية التي هي بزعمه إلا اكتفاء بالإشارة إلى ما كتبه القدماء أو التلخيص لأقوالهم بدون التزام النقل إلا ما جاء في سبيل التأييد والدعم. ثم أنه لم يكتف بنقد الكتاب نفسه بل أنتقد ناشره بأنه قدم له أربع مقدمات، ثلاثة لبعض المعاصرين ورابعة للمؤلف، وأن هذه المقدمات استغرقت أكثر من عشرين صفحة وما خرج الكلام في بعضها عن الدعاية والتمجيد؟ وكأن الأستاذ كرد علي يريد انتقاد أخيه هذا في المقدمة التي من قلمي والتي اذكر فيها ما أعرفه عن الشيخ جمال القاسمي رحمه الله. وبعبارة أخرى قد ثقل على أخينا الأستاذ ما صدرنا به كتاب (قواعد التحديث) من مناقب مؤلفه، ولقد كنت أتمنى ألا يكون الأستاذ كرد علي جعل من هذا موضعاً لنقده. وأنا أتمنى الآن أن أكون أسأت فهم كلامه. فأما من جهة مؤلف هذا الكتاب الشيخ جمال القاسمي فأنه من مفاخر الشام بالاتفاق، وممن سار ذكر فضائلهم في الآفاق، وليس محمد بك كرد علي بالذي يجهل ذلك أو يقدر أن يماري فيه، وأني لجد مستغرب منه ضيق صدره بثنائي على رجل لا يتمارى أثنين في دمشق الشام في كونه من أفذاذ هذا العصر ومن العلماء الذين تحتج بمثلهم دمشق في كل مقام مباهاة

فأنا لم أكتب عن الشيخ جمال القاسمي إلا ما أعلمه وأعتقده، وإذا كان أخونا كرد علي يسمي ذلك (تمجيداً) فأن التمجيد في محله لا يكون موضع نقد، فأن لم يمجد الإنسان مثل الشيخ جمال القاسمي في علمه وإحاطته، وقوة حجته، ودماثة خلقه، ورقة طبعه؛ وسائر ما أمتاز به من خلال الخير الكثيرة، فيكون هو المقصر، وهو الذي يستحق النقد. ما كنت أحب أن يغمز الأخ كرد علي بي في مسألة كهذه، ولا أعلم لماذا فعل ذلك؟

وأما من جهة التأليف نفسه فأن الأستاذ الأكبر السيد رشيد رضا قد أعطاه حقه في إحدى المقدمات الأربع التي أشار إليها حضرة الأخ، وقد ذكر كل ما يلزم من بيان مزايا الكتاب وقال أنه لا يعرف كتاباً مثله في موضوعه وسيلة ومقصداً ومبدأ وغاية، ونظن أن السيد رشيد رضا هو من يضع الهناء موضع النقب، ولا يكون مخالفاً للواقع إذا قلت أنني أنا والأخ كرد علي لا نقدر أن نتكلم في علم الحديث إذا كان السيد رشيد رضا قد تلقف فيه كرة البحث

وبعد هذا فلست أرى ما يراه الأخ من أن القاسمي جمع جمعاً، وان الجمع في التأليف هو خطة عهد التأخر، بل قد وجد الجمع في كل من عهدي التقدم والتأخر. وفي أوربا اليوم كتب كثيرة لا يزيد فيها أصحابها على الجمع، وهم يتركون الحكم لأرباب النظر، وقد يوجد الإنسان في ظروف زمانية أو مكانية تمنعه من التصريح برأيه ومن الترجيح والترجيح لاختلاف أذواق من يخاطبهم، فيكون الجمع حينئذ هو أمثل الطرق، ويكون كل قارئ قادراً أن يستقي من هذا الجمع ما يستعذبه. فالشيخ جمال القاسمي كان يعلم ما في عصره ومصره من طبقات مختلفة ومنازع متباينة، وكان هدفه ألا يصادم مشرباً خاصاً ولا يحكم لمذهب على مذهب، بل يجمعها جميعا تحت راية الهدى النبوي، وينظم كلام ابن تيمية مثلاً إلى كلام الشعراني والشيخ الأكبر بحيث يكون كل من الطبقتين السلفية والصوفية واجدين في هذا الكتاب طلبتهم. وقد نسى أخونا الأستاذ كرد علي محنة الشيخ جمال القاسمي عام 1313 عندما اتهم بالاجتهاد هو والمرحوم الشيخ عبد الرزاق البيطار وآخرين من رفاقهما

واعتقلوا من أجل ذلك وأهينوا. فأصبح مثل الشيخ جمال وقد عضته الصراحة بأنيابها يتجنب الخوض فيما يؤدي به إلى نكبة، ويجد الاكتفاء بعرض الآراء أسلم، وربما أعلم أيضاً، لأن مثل هذه الآراء لا ينتهي الخلاف فيها، ولا تزال كل طائفة تجادل في كونها على حق إلى يوم القيامة. ففي بعض المواقف يكون السكوت أفصح من البيان، وأبعد عن مثار الشبهات لا سيما عندما يكون العالم الخبير بأمور عصره وشؤون قطره واثقاً بأن المصلحة هي في جمع الكلمة، وأن جمع الكلمة تحت راية الهدى النبوي لا يتأتى بالترجيح والترجيح والقول بأن هذا فاسد وهذا صحيح إلا في المسائل التي لا خلاف فيها بين العلماء والتي إنما يختلف فيها العوام. . .

فكتاب (قواعد التحديث) لو كان يؤتي من هذه الجهة لما أطراه صاحب المنار هذا الإطراء كله وهو في علم الحديث الجبل الذي لا يطاول والبحر الذي لا يساجل، كما أنه يعلم من طرق التأليف القديمة والمتوسطة والعصرية ما لا يقدر أن ينكره العلامة الكرد علي. ثم إن هناك غمزاً بالسجع، وليس الأخ كرد علي وحده الذي بدأ بهذا الغمز، بل كان أحد الأصحاب أطلعني على كتاب للدكتور زكي مبارك لمحت فيه كلاماً يشبه أن يكون استصغاراً للسجع أو استكباراً لأتيانه؛ وهذا باب جديد عجيب إذا أردنا أن ندخل فيه يطول بنا الأمر. فنكثر بالقول إن السجع وجد في الجاهلية وجاءت منه أمثلة لأفصح فصحائها، ثم جاء في القرآن الكريم، بل القرآن الكريم كله سجع وهو أبلغ الكلام العربي وغير العربي، وجاء في كلام الصحيح والمخضرمين ثم في الطبقة التي تليهم، ثم في التي تليهم ثم في التي تليهم إلى يومنا هذا. ولم نعلم أحداً عاب السجع من حيث هو وإنما يعاب السجع بالنسبة إلى المقام الذي يستعمله فيه الكاتب أي إنه لما كان السجع تقييداً بفواصل كما هو الشعر تقييد بقوافي فلم يكن السجع مستحسناً في المواطن التي يجب أن ينطلق فيها عقال القلم لكمال تأدية المعاني على وجهها.

وأما في المواطن التي هي أقرب إلى الشعر منها إلى المباحث العلمية الصرفة، فليس السجع بالذي يعد سبة على العربية، بل هو من محاسن هذه اللغة. وإن كان يجب حذفه من هذه اللغة من أجل كونه طريقة قديمة ومن أجل أنه عبارة عن زينة كلامية فأن هذا يؤدي بنا إلى اقتراح حذف الشعر أيضاً، فأن الشعر هو من قبيل السجع طريقة قديمة وزينة كلام تتوخى فيها المحاسن اللفظية كما تتوخى المحاسن المعنوية ويراعى فيه الوزن والقافية وهو من قبيل الموسيقى. والموسيقى هي أيضاً قديمة والطبيعة البشرية تألفها بل تحتاج إليها بل تهتف بها. والشعر ضرب من الموسيقى، فهو إذن من مقتضيات الطبيعة البشرية. والسجع وإن لم يكن مقيداً بكل تقييد الشعر فهو مقيد أيضاً بقيود لها مواقع في النفوس، وهي في محلها مطربة مستعذبة ولا غبار عليها، ولا يقدر أحد أن يقول إنني أنا مفرط في هذا المذهب لأنه

ليس لأحد من الكلام المرسل أكثر مما لي، ولكني لا أزال أرى السجع حلية الكلام العربي عندما يكون في محله، وذلك مثل مقدمات الكتب ومثل الخطب التي تلقى على الجماهير. وإن العرب قد اصطلحوا على السجع في أسماء الكتب ولم يخطئوا في ذلك لأن الكلام المسجع أعلق في الذهن من غيره. وعسى كلامي هذا يكون مقبولاً عند أخي الأستاذ الكرد علي، ولا تتأثر به آصرة الإخاء القديم الذي بيننا والذي لا يمكن أن يطرأ عليها ما يوهنه مهما كان السبب ثقيلاً. فكيف إذا كان خفيفاً. وإن أدري فقد يكون أراد أن يداعبني ولا تكون هذه أول مداعبة بيننا

جنيف

شكيب أرسلان

العدد 110 - بتاريخ: 12 - 08 - 1935

مصر والشرق الإسلامي

إذا قلت إننا أمة من غير منهج ودولة من غير سياسة لا تبعد عن الصدق! فإن التبعية المثلثة التي ضربتها علينا الأقدار الخصيمة في السياسة والاقتصاد والأدب قتلت في عقولنا الرأي الأصيل، وفي نفوسنا العزم المستقل، وفي مواهبنا العمل المرتجل. فنحن في مجموع الناس أتباع وأوزاع ننظر إلى الأمم تعمل، وإلى العالم يسير، بعين بلهاء لا يجاوز بصرها مدى العجب! وعلتنا أن ساستنا وقادتنا كلهم من رجال القول لا من رجال الفعل، ومن أرباب القلم لا من أرباب السيف، ومن جنود القانون لا من جنود (الأوامر)؛ ربوا على مقاعد المدارس، وثقفوا على مباحث الكتب، ودربوا على مكاتب الدواوين، وحرموا التربية العسكرية وهي وحدها القائمة على الخطة والنظام والأمر والتنفيذ والشرف؛ فكانت سياستهم سياسة الترقب والتردد والخوف، لا يصدرون ولا يوردون إلا عن فتوى فقيه، أو تقرير خبير، أو إشارة (مندوب)، أو رغبة سلطان، أو إرادة حزب؛ وذلك هو الفرق بين ساسة مصر وفلسطين وسورية، وبين ساسة العراق وإيران وتركية؛ فبينما تجد الأولين - وهم رجال قانون - مشغولين بالمفاوضات والمعاهدات والاحتجاجات والشكوى، تجد الآخرين - وهم رجال حرب - لا يتبعون غير قانون الطبيعة، ولا يفهمون غير سطور الجيش، ولا يعبأون إلا بالواقع، ولا يمضون إلا على العزم ولا يأوون إلا إلى الأمة

ففي مجلس من مجالس الحكم، أو في ناد من أندية السمر، تجول في خواطرهم الفكرة، أو تجري في نفوسهم الأمنية، فما هي إلا صيحة القائد حتى تصبح قانوناً مرسوماً كالخطة، ماضيا كالنظام، شاملا كالتعبئة؛ والعسكري لا يتردد ولا يتلكأ، وإنما ينطلق ماضي الصريمة قدما إلى وجهه: مبدؤه الأمر، وطريقه المعركة، وغايته النصر!

تدبر ذلك ووازن بين هذه السياسة الدبلوماسية التي تضطرب ولا تستقر، وتدور ولا تتقدم، وتناقش ولا تنتج؛ وبين تلك السياسة العسكرية التي تهجم ولا تضطرب، وتقدم ولا تتقهقر، وتعمل ولا تناقش، فلعلك واجد في الموازنة تعليل هذا الشذوذ الذي نحن فيه: أمة لا تقل عن أكثر الأمم رجالا ولا مالا ولا قوة، يدفعها ماض مجيد، ويحفزها حاضر ملح، ويغريها مستقبل واعد؛ ثم موقعها من أعظم المواقع، ومغرسها من أكرم المغارس، وعدتها الممكنة من خير العدد، وتراها مع ذلك لا تزال صاغرة تعطي بالقهر، وقاصرة لا تملك التصرف!

هل تجد بربك علة خمودها ووناها في غير قيادتها الرخوة وسياستها المستكينة وإرادتها المعطلة؟ ما دستور سياستنا في الغرب؟ متابعة إنجلترا على هوى الاحتلال، ومصانعة الدول على حكم الامتيازات، وإطفاء هذه البقعة المشرقة في وجهه أفريقية بهذا المظهر الكاسف. وما دستور سياستنا في الشرق؟ إن كنت تسمي الإغفال سياسة والقطيعة خطة، فدستورهما ما ترى بيننا وبين الحجاز من تناكر لا يسوغه عرف ولا تقتضيه طبيعة ولا تجره منفعة، وما تشهد بيننا وبين جاراتنا الأخوات من تدابر لا يسلم عليه تضامن ولا يجري معه تعاون ولا تنتظم به وحدة، ثم ما تسمع بيننا وبين الشرق الإسلامي من تغاضب على التمثيل السياسي، وهو أقل ما توجبه الروابط الدينية والتاريخية والجنسية من التواصل والتعاطف والمجاملة

سخونا إلى حد السرف على تمثيلنا الخارجي في أوربا، حتى في العواصم التي لا تصلنا بها سياسة ولا تجارة ولا جالية؛ فلما نبهنا إخواننا في آسية إلى أنهم أمم كأولئك الأمم، لهم ما ليس لنا من استقلال صحيح وسيادة كاملة، فضلا عما بينهم وبيننا من أواصر

التاريخ ووشائج القربى، مثلنا أنفسنا هناك في الغالب بمن تنفيهم الأهواء لا بمن تدعوهم الحالة، وجعلنا للعراق وإيران وأفغانستان سفيرا واحدا يقيم في طهران! فمس ذلك من كبرياء الأمتين والأختين فتثاقلت العراق عن تعيين سفيرها في القاهرة، ونقلت الأفغان وزيرها المعين إلى مكة! ذلك الغرب كله يتحلب فوه إلى ازدراد الشرق، فهو يستعين عليه (بالعصبة)، ويحتال له بالتجارة، ويتدسس إليه بالعلم، ويدور من ورائه بالمعاهدات، ثم يرى أن العرب صلبه والإسلام روحه، فيهجم عليهما بالمودة، ويتسابق إليهما بالخديعة؛ ولكن الإسلام والعرب يريدان أن يظل الشرق مطلع النور ومصدر الحرية ومنبت العزة؛ وتحقيق هذه الإرادة موكول إلى اجتماع الكلمة واتحاد الوجهة وتساير الهوى في الأمم الإسلامية التي ألفت بين قلوبها العقيدة، وفرقت بين جسومها المطامع

ومن أحق من مصر إذا استقلت إرادتها وتقررت سياستها وتحررت كفايتها بجمع هذه القلوب المخلصة على جهاد الاستعمار، وقيادة هذه النفوس المؤمنة إلى نصرة الحق؟ إن وطننا يا قوم مترامي الحدود، فلماذا تحدونه على الضيق، وقومنا ضخام العديد، فلماذا تحصرونهم على القلة، وإخواننا كرام يصفون المودة ويولون المعونة، فلماذا تجعلون بيننا وبينهم سدا من الإهمال والغفلة؟ إن الأمم القوية الناضجة لترخص الأموال والأنفس في

التمكين لأدبها ونفوّها وتجارتها في الشرق، فكيف نعرض نحن عن ذلك وهو يأتينا عفوا عن طريق القرابة في البلد والنسب، والوحدة في اللغة والأدب، والمشابهة في الحظ والحالة؟!

أحمد حسن الزيات

محمد طاهر باشا نور

مثل نادر من المثل العليا في كرم الخلق وعفة الضمير وصدق النية؛ استأثر به الله وأمته وأسرته أحوج ما تكونان إلى كفايته ورعايته؛ فكان الأسى على فقده شاملا يتبين في كل وجه، ويحز في كل قلب؛ والمصيبة في الأخيار النوابغ مصيبة الإنسانية جمعاء، لأن كمالها قائم على كمالهم، وتقدمها سائر على أعمالهم، وسلامها معقود بما ينبعث عن فطرهم النبيلة من إلهام الجمال والخير والحق. كان رحمه الله على كرم أبوته وأمومته، وشرف منصبه وأسرته، متواضع النفس لين الجانب؛ وكان على هذا التواضع وذلك اللين أبي الطبع شديد الأنفة، لا يطمئن على مكروه ولا يصبر على غضاضة. ومن العجب النادر أنه استطاع على سلامة قلبه النفاق، وبراءة لسانه من الملق، ونزاهة نفسه عن الخنوع، أن يصعد في مناصب الدولة الخطيرة صعود الشمس في الفلك، فلم تعقه مكاره العزة والأباء عن بلوغ الغاية منها؛ وفي ذلك ولا ريب نجاح للكفاية في استقلالها، وانتصار للحق في ذاته

لم يكن طاهر باشا رجل حزب، ولكنه كان رجل أمة. حصر جهد في عمله، وحدد عمله بواجبه، وانطوى قلبه منذ نشأ على صراحة القانون ونزاهة القضاء ونصاعة العدل؛ فكان في كل عمل تولاه مظهرا لهذه الأخلاق وموئلا لأصحاب الحق

وفي سنة 1924 كان زعيم الأمة الخالد سعد باشا زغلول رئيسا للحكومة، وكان رضى الله عنه حريصا على أن يقيم حكومته على الإخلاص في العمل والنزاهة في التصرف والفناء في الواجب؛ فخلا يومئذ منصب النائب العمومي، وهو ألصق المناصب القضائية بسلامة الناس، لأنه يد القانون وعين العدالة ولسان الحق؛ فدار الزعيم الجليل بعينه وقلبه في رجال القانون وكبار الدولة يتوسم صفات النائب التي يريدها في الوجوه، ويتعرفها من الماضي، ويتجسسها من الأسئلة، فلم يقع اختياره الموفق إلا على طاهر نور مدير الإدارة القضائية، وهو من غير العاملين معه ولا المقربين إليه ولا المتصلين به. فقام النائب المختار بما حمل من أعباء العدل على ما تحققه فيه الزعيم من الفطانة والأمانة والذمة والحكمة، لا يضطرب في مهب الأهواء، ولا يسخر سلطانه لشهوات الرؤساء، ولا يعرض

أخلاق الناس وأعراضهم لهوان السياسة، حتى طغى في مصر الحكم وفشا في الناس الظلم، فلم يستطع في ذلك العهد البغيض أن يوفق بين جور الحاكم وعدل القانون، فنقل وكيلا لوزارة الحقانية سنة 1930، وظل فيه على عهد الناس به حتى قبضه الله

إليه. رحمه الله رحمة الله واسعة، وعوض أمته وأسرته منه خير العوض.

الزيات

الأدب والأديب

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

إذا اعتبرت الخيال في الذكاء الإنساني وأوليته دقة النظر وحسن التمييز، لم تجده في الحقيقة إلا تقليدا من النفس للألوهية بوسائل عاجزة منقطعة، قادرة على التصور والوهم بمقدار عجزها عن الإيجاد والتحقيق

وهذه النفس البشرية الآتية من المجهول في أول حياتها، والراجعة إليه آخر حياتها، والمسددة في طريقه مدة حياتها، لا يمكن أن يتقرر في خيالها أن الشيء الموجود قد انتهى بوجوده، ولا ترضى طبيعتها بما ينتهي؛ فهي لا تتعاطى الموجود فيما بينها وبين خيالها على أنه قد فرغ منه فما يبدأ، وتم فما يزاد، وخلد فلا يتحول؛ بل لا تزال تضرب ظنها وتصرف وهمها في كل ما تراه أو يتلجلج في خاطرها، فلا تبرح تتلمح في كل وجود غيبا، وتكشف من الغامض وتزيد في غموضه، وتجري دأبا على مجاريها الخيالية التي توثق صلتها بالمجهول. فمن ثم لابد في أمرها مع الموجود مما لا وجود له، تتعلق به وتسكن إليه؛ وعلى ذلك لابد في كل شيء - مع المعاني التي له الحق - من المعاني التي له في الخيال؛ وهاهنا موضع الأدب والبيان في طبيعة النفس الإنسانية؛ فكلاهما طبيعي فيها كما ترى

وإذا قيل الأدب، فاعلم أنه لابد معه من البيان؛ لأن النفس تخلق فتصور فتحسن الصورة؛ وإنما يكون تمام التركيب - في معرضه وجمال صورته ودقة لمحاته، بل ينزل البيان من المعنى الذي يلبسه منزلة النضج من الثمرة الحلوة، إذا كانت الثمرة وحدها قبل النضج شيئا مسمى أو متميزا بنفسه، فلن تكون بغير النضج شيئا تاما ولا صحيحا، وما بد من أن تستوفي كمال عمرها الأخضر الذي هو بيانها وبلاغتها

وهذه مسئلة كيفما تناولتها فهي هي حتى تمضيها على هذا الوجه الذي رأيت في الثمرة ونضجها؛ فإن البيان صناعة الجمال في شيء جماله هو فائدته، وفائدته من جماله؛ فإذا خلا من هذه الصناعة التحق بغيره، وعاد بابا من الاستعمال بعد أن كان بابا من التأثير؛ وصار الفرق بين حاليه كالفرق بين الفاكهة إذ هي باب من النبات، وبين الفاكهة إذ هي باب من الخمر. ولهذا كان الأصل في الأدب البيان والأسلوب في جمع لغات الفكر الإنساني، لأنه كذلك في طبيعة النفس الإنسانية

فالغرض الأول للأدب المبين أن يخلق للنفس دنيا المعاني الملائمة لتلك النزعة الثابتة فيها إلى المجهول وإلى مجاز الحقيقة، وأن يلقى الأسرار في الأمور المكشوفة بما يتخيل فيها، ويرد القليل من الحياة كثيرا وافيا بما يضاعف من معانيه، ويترك الماضي منها ثابتا قارا بما يخلد من وصفه، ويجعل المؤلم منها لذا خفيفا بما يبث فيه من العاطفة، والمملول ممتعا حلوا بما يكشف فيه من الجمال والحكمة. ومدار ذلك كله على إيتاء النفس لذة المجهول، التي هي نفسها لذة مجهولة أيضا؛ فإن هذه النفس طلعة متقلبة، لا تبتغي مجهولا صرفا ولا معلوما صرفا، كأنها مدركة بفطرتها أن ليس في الكون صريح مطلق ولا خفي مطلق؛ وإنما تبتغي حالة ملائمة بين هذين، يثور فيها قلق أو يسكن منها قلق

وأشواق النفس هي مادة الأدب؛ فليس يكون أدبا إلا إذا وضع المعنى في الحياة التي ليس لها معنى، أو كان متصلا بسر هذه الحياة فيكشف عنه أو يومي إليه من قريب، أو غير للنفس هذه الحياة تغييرا يجيء طباقا لغرضها وأشواقها؛ فانه كما يرحل الإنسان من جو إلى جو غيره، ينقله الأدب من حياته التي لا تختلف إلى حياة أخرى، فيها شعورها ولذتها وإن لم يكن لها مكان ولا زمان؛ حياة كملت فيها أشواق النفس، لأن فيها اللذات والآلام بغير ضرورات ولا تكاليف. ولعمري ما جاءت الجنة والنار في الأديان عبثا؛ فان خالق النفس بما ركبه فيها من العجائب، لا يحكم العقل أنه قد أتم خلقها إلا بخلق الجنة والنار معها؛ إذ هما الصورتان الدائمتان المتكافئتان لأشواقها الخالدة إن هي استقامت مسددة أو انعكست حائلة

وقد صح عندي أن النفس لا تحقق من حريتها ولا تنطلق انطلاقتها الخالدة فتحس وحدة الشعور ووحدة الكمال الأسمى - إلا في ساعات وفترات تنسل فيها من زمنها

وعيشها ونقائضها واضطرابها إلى (منطقة حياد) خارجة وراء الزمان والمكان؛ فإذا هبطنها النفس، فكأنما انتقلت إلى الجنة واستروحت الخلد؛ وهذه المنطقة السحرية لا تكون إلا في أربعة: حبيب فاتن معشوق أعطي قوة سحر النفس، فهي تنسى به؛ وصديق محبوب وفي أوتى قوة جذب النفس، فهي تنسى عنده؛ وقطعة أدبية آخذة، فهي ساحرة كالحبيب أو جاذبة كالصديق؛ ومنظر فني رائع، ففيه من كل شيء شيء وهذه كلها تنسي المرء زمنه مدة تطول وتقصر؛ وذلك فيها دليل على أن النفس الإنسانية تصيب منها أساليب روحية لاتصالها هنيهة بالروح الأزلي في لحظات من الشعور كأنها ليست من هذه الدنيا وكأنها من الأزلية. ومن ثم نستطيع أن نقرر أن أساس الفن على الإطلاق هو ثورة الخالد في الإنسان على الفاني فيه؛ وأن تصوير هذه الثورة في أوهامها وحقائقها بمثل اختلاجاتها في الشعور والتأثير - هو معنى الأدب وأسلوبه

ثم إن الاتساق والخير والحق والجمال - وهي التي تجعل للحياة الإنسانية أسرارها - أمور غير طبيعية في عالم يقوم على الاضطراب والأثرة والنزاع والشهوات؛ فمن ذلك يأتي الشاعر والأديب وذو الفن علاجا من حكمة الحياة للحياة، فيبدعون لتلك الصفات الإنسانية الجميلة عالمها الذي تكون طبيعية فيه، وهو عالم أركانه الاتساق في المعاني التي يجري فيها؛ والجمال في التعبير الذي يتأدى به؛ والحق في الفكر الذي يقوم عليه؛ والخير في الغرض الذي يساق له؛ ويكون في الأدب من النقص والكمال بحسب ما يجتمع له من هذه الأربعة، ولا معيار أدق منها إن ذهبت تعتبره بالنظر والرأي؛ ففي عمل الأديب تخرج الحقيقة مضافا إليها الفن، ويجيء التعبير مزيدا فيه الجمال، وتتمثل الطبيعة الجامدة خارجة من نفس حية، ويظهر الكلام وفيه رقة حياة القلب وحرارتها وشعورها وانتظامها ودقها الموسيقي؛ وتلبس الشهوات الإنسانية شكلها المهذب لتكون يسبب من تقرير المثل الأعلى، الذي هو السر في ثورة الخالد من الإنسان على الفاني، والذي هو الغاية الأخيرة من الأدب والفن معا؛ وبهذا يهب لك الأدب تلك القوة الغامضة، التي تتسع بك حتى تشعر بالدنيا وأحداثها مارة من خلال نفسك، وتحس الأشياء كأنها انتقلت إلى ذاتك من ذواتها. وذلك سر الأديب العبقري؛ فانه لا يرى الرأي بالإعتقاب والاجتهاد كما يراه الناس، وإنما يحس به؛ فلا يقع له رأيه بالفكر، بل يلهمه إلهاما؛ وليس يؤاتيه الإلهام إلا من كون الأشياء تمر فيه بمعانيها وتعبره كما تعبر السفن النهر، فيحس أثرها فيه فيلهم ما يلهم، ويحسبه الناس نافذا بفكره من خلال الكون، على حين أن حقائق الكون هي النافذة من خلاله

ولو أردت أن تعرف الأديب من هو، لما وجدت أجمع ولا أدق في معناه من أن تسميه الإنسان الكوني، وغيره هو الإنسان فقط؛ ومن ذلك ما يبلغ من عمق تأثره بجمال الأشياء ومعانيها، ثم ما يقع من اتصال الموجودات به بآلامها وأفراحها؛ إذ كانت فيه مع خاصية

الإنسان خاصية الكون الشامل. فالطبيعة تثبت بجمال فنه البديع أنه منها، وتدل السماء بما في صناعته من الوحي والأسرار أنه كذلك منها، وتبرهن الحياة بفلسفته وآرائه أنه هو أيضا منها، وهذا وذاك وذلك هو الشمول الذي لا حد له، والاتساع الذي كل آخر فيه لشيء، أول فيه لشيء

وهو إنسان يدله الجمال على نفسه ليدل غيره عليه، وبذلك زيد على معناه معنى، وأضيف إليه في إحساسه قوة إنشاء الإحساس في غيره؛ فأساس عمله دائما أن يزيد على كل فكرة صورة لها، ويزيد على كل صورة فكرة فيها، فهو يبدع المعاني للأشكال الجامدة فيوجد الحياة فيها، ويبدع الأشكال للمعاني المجردة فيوجدها هي في الحياة، فكأنه خلق ليتلقى الحقيقة ويعطيها للناس ويزيدهم فيها الشعور بجمالها الفني. وبالأدباء والعلماء تنمو معاني الحياة كأنما أوجدتهم الحكمة لتنقل بهم الدنيا من حالة إلى حالة؛ وكأن هذا الكون العظيم يمر في أدمغتهم ليحقق نفسه

ومشاركة العلماء للأدباء توجب أن يتميز الأديب بالأسلوب البياني، إذ هو كالطابع على العمل الفني، وكالشهادة من الحياة المعنوية لهذا الإنسان الموهوب الذي جاءت من طريقه، ثم لأن الأسلوب هو تخصيص لنوع من الذوق وطريقة من الإدراك، كأن الجمال يقول بالأسلوب: إن هذا هو عمل فلان

وفصل ما بين العالم والأديب، أن العالم فكرة، ولكن الأديب فكرة وأسلوبها؛ فالعلماء

هم أعمال متصلة متشابهة يشار إليهم جملة واحدة، على حين يقال في كل أديب عبقري: هذا هو، هذا وحده. وعلم الأديب هو النفس الإنسانية بأسرارها المتجهة إلى الطبيعية، والطبيعية بأسرارها المتجهة إلى النفس، ولذلك فموضع الأديب من الحياة موضع فكرة حدودها من كل نواحيها الأسرار

وإذا رأى الناس هذه الإنسانية تركيبا تاما قائما بحقائقه وأوصافه، فالأديب العبقري لا يراها إلا أجزاء، كأنما هو يشهد خلقها وتركيبها! وكأنما أمرها في (معمله)، أو كأن الله - سبحانه - دعاه ليرى فيها رأيه. . . . وبذلك يجيء النابغ من أدب العباقرة وبعضه كالمقترحات لتجميل الدنيا وتهذيب الإنسانية، وبعضه كالموافقة وإقرار الحكمة، وأساسه على كل هذه الأحوال النقد ثم النقد، ولا شيء غير النقد، كأن القوة الأزلية تقول لهذا الملهم: أنت كلمتي،

فقل كلمتك. . . .

وترى الجمال حيث أصبته شيئا واحدا لا يكبر ولا يصغر، ولكن الحس به يكبر في أناس ويصغر في أناس؛ وهاهنا يتأله الأدب، فهو خالق الجمال في الذهن، والممكن للأسباب المعينة على إدراكه وتبين صفاته ومعانيه، وهو الذي يقدر لهذا العالم قيمته الإنسانية بإضافة الصور الفكرية الجميلة إليه، ومحاولته إظهار النظام المجهول في متناقضات النفس البشرية، والارتفاع بهذه النفس عن الواقع المنحط المجتمع من غشاوة الفطرة، وصولة الغريزة، وغرارة الطبع الحيواني

وإذا كان الأمر في الأدب على ذلك، فباظطرار أن تتهذب فيه الحياة وتتأدب، وأن يكون تسلطه على بواعث النفس دربة لاصلاحها وإقامتها، لا لأفسادها والانحراف بها إلى الزيغ والضلالة؛ وباظطرار أن يكون الأديب مكلفا تصحيح النفس الإنسانية، ونفي التزوير عنها، وإخلاصها مما يلتبس بها على تتابع الضرورات؛ ثم تصحيح الفكرة الإنسانية في الوجود، ونفي الوثنية عن هذه الفكرة، والسمو بها إلى فوق، ثم إلى فوق، ودائما إلى فوق!

وإنما يكلف الأديب ذلك لأنه مستبصر من خصائصه التمييز وتقدم النظر وتسقط الإلهام، ولأن الأصل في عمله الفني ألا يبحث في الشيء نفسه، ولكن في البديع منه؛ وألا ينظر إلى وجوده، بل إلى سره، ولا يعنى بتركيبه، بل بالجمال في تركيبه، ولأن مادة عمله أحوال الناس، وأخلاقهم، وألوان معايشهم، وأحلامهم، ومذاهب أخيلتهم وأفكارهم في معنى الفن، وتفاوت إحساسهم به، وأسباب مغاويهم ومراشدهم، يسدد على كل ذلك رأيه، ويجيل فيه نظره، ويخلطه في نفسه، وينفذه من حواسه، كأنما له في السرائر القبض والبسط، وكأنه ولي الحكم على الجزء الخفي في الإنسان، يقوم على سياسته وتدبيره، ويهديه إلى المثل الأعلى. وهل يخلق العبقري إلا كالبرهان من الله لعباده على أن فيهم من يقدر على الذي هو أكمل والذي هو أبدع، حتى لا ييأس العقل الإنساني ولا ينخذل فيستمر دائبا في طلب الكمال والإبداع اللذين لا نهاية لهما؟ فالأديب يشرف على هذه الدنيا من بصيرته، فإذا وقائع الحياة في حذو واحد من النزاع والتناقض؛ وإذا هي دائبة في محق الشخصية الإنسانية، تاركة كل حي من الناس كأنه شخص قائم من عمله وحوادثه وأسباب عيشه؛ فإذا تلجلج ذلك في نفس الأديب اتجهت هذه

النفس العالية إلى أن تحفظ للدنيا حقائق الضمير والإنسانية والإيمان والفضيلة، وقامت حارسة على ما ضيع الناس، وسخرت في ذلك تسخيرا لا تملك معه أن تأبى منه ولا يستوي لها أن تغمض فيه، ونقلت الإنسانية كلها ووضعت على مجاز طريقها أين توجهت فتأكد الأمر فيها، ووصل بها، وعلمت أنها من خالصة الله، وأن رسالتها للعالم هي تقرير الحب للمتعادين، وبسط الرحمة للمتنازعين؛ وأن تجمع الكل على الجمال وهو لا يختلف في لذته؛ وتصل بينهم بالحقيقة وهي لا تتفرق في موعظتها؛ وتشعرهم الحكمة وهي لا تتنازع في مناحيها. فالأدب من هذه الناحية يشبه الدين، كلاهما يعين الإنسانية على الاستمرار في عملها، وكلاهما قريب من قريب؛ غير أن الدين يعرض للحالات النفسية ليأمر وينهي، والأدب يعرض لها ليجمع ويقابل، والدين يوجه الإنسان إلى ربه، والأدب يوجهه إلى نفسه، وذلك وحي الله إلى الملك إلى نبي مختار، وهذا وحي الله إلى البصيرةإلى إنسان مختار

فان لم يكن للأديب مثل أعلى يجهد في تحقيقه ويعمل في سبيله، فهو أديب حالة من

الحالات، لا أديب عصر ولا أديب جيل؛ وبذلك وحده كان أهل المثل الأعلى في كل عصر هم الأرقام الإنسانية التي يلقيها العصر في آخر أيامه ليحسب ربحه وخسارته. . ولا يخدعنك عن هذا أن ترى بعض العبقريين لا يؤتي في أدبه أو أكثره إلا إلى الرذائل، يتغلل فيهان ويتملأ بها، ويكون منها على ما ليس عليه أحد إلا السفلة والحشوة من طغام الناس ورعاعهم؛ فان هذا وأضرابه مسخرون لخدمة الفضيلة وتحقيقها من جهة ما فيها من النهي، ليكونوا مثلا وسلفا وعبرة؛ وكثيرا ما تكون الموعظة برذائلهم أقوى وأشد تأثيرا مما هي في الفضائل؛ بل هم عندي كبعض الأحوال النفسية الدقيقة التي يأمر فيها النهي أقوى مما يأمر الأمر، على نحو ما يكون من قراءتك موعظة الفضيلة الأدبية التي تأمرك أن تكون عفيفا طاهرا؛ ثم ما يكون من رؤيتك الفاجر المبتلى المشوه المتحطم الذي ينهاك بصورته أن تكون مثله. ولهذه الحقيقة القوية في أثره - حقيقة الأمر بالنهي - يعمد النوابغ في بعض أدبهم إلى صرف الطبيعة النفسية عن وجهها، بعكس نتيجة الموقف الذي يصورونه أو الإحالة في الحادثة التي يصفونها؛ فينتهي الراهب التقي في القصة ملحدا فاجرا، وترتد المرأة البغي قديسة، ويرجع الابن البر قاتلا مجنونا جنون الدم؛ إلى الكثير مما يجري في هذا النسق، كما تراه لأناطول فرانس، وشكسبير وغيرهما، وما كان ذلك عن غفلة منهم ولا شر، ولكنه أسلوب من الفن، يقابله أسلوب من الخلق، ليبدع أسلوبا من التأثير. وكل ذلك شاذ معدود ينبغي أن ينحصر ولا يتعدى، لأنه وصف لأحوال دقيقة طارئة على النفس، لا تعبير عن حقائق ثابتة مستقرة فيها

والشرط في العبقري الذي تلك صفته وذلك أدبه، أن يعلو بالرذيلة. . . في أسلوبه ومعانيهن آخذا بغاية الصنعة، متناهيا في حسن العبارة؛ حتى يصبح وكأن الرذائل هي اختارت منه مفسرها العبقري الشاذ الذي يكون في سمو فنه البياني هو وحده، الطرف المقابل لسمو العبارة عن الفضيلة؛ فيصنع الإلهام في هذا وفي هذا صنعه الفني بطريقة بديعة التأثير، أصلها في أديب الفضيلة ما يريده ويجاهد فيه، وفي أديب الرذيلة ما يقوده ويندفع إليه؛ كأن منهما إنسانا صار ملكا يكتب، وإنسانا عاد حيوانا يكتب. . .

وإذا أنت ميلت بين رذيلة الأديب العبقري في فنه، ورذيلة الأديب الفسل الذي يتشبه به - في التأليف والرأي والمتابعة والمذهب - رأيت الواحدة من الأخرى كبكاء الرجل الشاعر من بكاء الرجل الغليظ الجلف: هذا دموعه ألمه، وذاك دموعه ألمه وشعره. وفي كتابه هذه الطبقة من العبقريين خاصة يتحقق لك أن الأسلوب هو أساس الفن الأدبي، وأن اللذة به هي علامة الحياة فيه، إذ لا ترى غير قطعة أدبية فنية، شاهدها من نفسها على أنها بأسلوبها ليست في الحقيقة إلا نكتة نفسية لاهتياج البواعث في نفوس قرائها، وأنها على ذلك هي أيضا مسئلة من مسائل الإنسانية مطروحة للنظر والحل، بما فيها من جمال الفن، ودقائق التحليل

واللذة بالأدب غير التلهي به واتخاذه للعبث والبطالة فيجيء موضوعا على ذلك فيخرج إلى أن يكون ملهاة وسخفا ومضيعة؛ فان اللذة به آتية من جمال أسلوبه وبلاغة معانيه وتناوله الكون والحياة بالأساليب الشعرية التي في النفس، وهي الأصل في جمال الأسلوب؛ ثم هو بعد هذه اللذة منفعة كله كسائر ما ركب في طبيعة الحي إذ يحس الذوق لذة الطعام مثلا على أن يكون من فعلها الطبيعي استمراء التغذية لبناء الجسم وحفظ القوة وزيادتها. أما التلهي فيجيء من سخف الأدب، وفراغ معانيه، ومؤاتاته الشهوات الخسيسة، والتماسه الجوانب الضيقة من الحياة؛ وذلك حين لا يكون أدب الشعب ولا الإنسانية، بل أدب فئة

بعينها وأحوالها؛ فان أديب صناعته أو أديب جماعته، غير أديب قومه وأديب عصره: أحدهما إلى حد محدود من الحياة، والآخر عمل جامع مستمر متفنن، لأن عمله الأدبي هو وجوده، وكل شيء في قومه لا يبرح يقول له: اكتب. . .

ومن الأصول الاجتماعية التي لا تتخلف، أنه إذا كانت الدولة للشعب كان الأدب أدب الشعب في حياته وأفكاره ومطامحه وألوان عيشه، وزخر الأدب بذلك وتنوع وافتن وبني على الحياة الاجتماعية؛ فان كانت الدولة لغير الشعب، كان الأدب أدب الحاكمين وبني على النفاق والمداهنة والمبالغة الصناعية والكذب والتدليس، ونضب الأدب من ذلك وقل وتكرر من صورة واحدة؛ وفي الأولى يتسع الأديب من الإحساس بالحياة

وفنونها وأسرارها في كل من حوله إلى الإحساس بالكون ومجاليه وأسراره في كل ما حوله. أما الثانية فلا يحس فيها إلا أحوال نفسه وخليطه، فيصبح أدبه أشبه بمسافة محدودة من الكون الواسع، لا يزال يذهب فيها ويجيء حتى يمل ذهابه ومجيئه والعجب الذي لم يتنبه له أحد إلى اليوم من كل من درسوا الأدب العربي قديما وحديثا، أنك لا تجد تقرير المعنى الفلسفي الاجتماعي للأدب في أسمى معانيه إلا في اللغة العربية وحدها، ولم يغفل عنه مع ذلك إلا أهل هذه اللغة وحدهم!

فإذا أردت الأدب الذي يقرر الأسلوب شرطا فيه، ويأتي بقوة اللغة صورة لقوة الطباع، وبعظمة الأداء صورة لعظمة الأخلاق، وبرقة البيان صورة لرقة النفس، وبدقته المتناهية في العمق صورة لدقة النظرة إلى الحياة؛ ويريك أن الكلام أمة من الألفاظ عاملة في حياة أمة من الناس، ضابطة لها المقاييس التاريخية، محكمة لها الوضاع الإنسانية، مشترطة فيها المثل الأعلى، حاملة لها النور الإلهي على الأرض. . .

وإذا أردت الأدب الذي ينشئ الأمة إنشاء ساميا، ويدفعها إلى المعالي دفعا، ويردها عن سفاسف الحياة، ويوجهه بدقة الإبرة المغناطيسية إلى الآفاق الواسعة، ويسددها في أغراضها التاريخية العالية تسديد القنبلة خرجت من مدفعها الضخم المحرر المحكم، ويملأ سرائرها يقينا ونفوسها حزما وأبصارها نظرا وعقولها حكمة، وينفذ بها من مظاهر الكون إلى أسرار الألوهية. . .

إذا أردت الأدب على كل هذه الوجوه من الاعتبار - وجدت القرآن الحكيم قد وضع . . . الأصل الحي في ذلك كله. وأعجب ما فيه أنه جعل هذا الأصل مقدسا، وفرض هذا التقديس عقيدة، واعتبر هذه العقيدة ثابتة لن تتغير؛ ومع ذلك كله لم يتنبه له الأدباء ولم يحذوا بالأدب حذوه، وحسبوه دينا فقط، وذهبوا بأدبهم إلى العبث والمجون والنفاق؛ كأنه ليس منهم إلا بقايا تاريخ محتضر بالعلل القاتلة، ذاهب إلى الفناء الحتم!

والقرآن بأسلوبه ومعانيه وأغراضه، لا يستخرج منه الأدب إلا تعريف واحد هو هذا: إن الأدب هو السمو بضمير الأمة

ولا يستخرج منه للأديب إلا تعريف واحد وهو هذا: إن الأديب هو من كان لأمته وللغتها في مواهب قلمه لقب من ألقاب التاريخ.

(طنطا)

هما

للأستاذ أحمد أمين

إنسانان متباينان، لا يجمعهما إلا أني عرفتهما (هما)

أما (هو) الأول، فنظيف الثوب في غير أناقة، لا يعنيه من ثيابه إلا أنه لا يتأذى بقذارتها، ولا يتأذى من أنها زاهية تستلفت الأنظار - قد طبع على ما يود، فلا هو جميل يقيد النظر، ويغترق البصر؛ ولا هو قبيح الشكل سمج المنظر، تتفاداه العيون، ويلفظه الطرف، لو عهد إليه أن يخلق نفسه ما اختار غير صورته وشكله، لأنه يأبى تكاليف الجمال تكاليف القبح

كثير التفكير في نفسه، كأن الله لم يخلق في العالم إلا هي، وإن قد كان خلق أشياء فنفسه مركزها، دائم المحاسبة لنفسه على ما صدر منها للناس، ودائم المحاسبة للناس على ما صدر منهم لنفسه، ففي نفسه محكمة منعقدة باستمرار، تطول فيها المرافعة، ويشتد فيها الخصام، وتكثر منها الأحكام، والنقض والإبرام - حدثني أنه إذا جلس في مجلس استعرض بعد الفراغ منه كل ما دار فيه على الترتيب، كأن ذهنه (شريط ماركوني) ثم وقف عند كل كلمة صدرت منه يفحصها، هل مست شعور أحد، هل ظلمت أحدا، هل جرحت كرامة أحد، ألم يكن غيرها خيرا منها، أما كان يحسن أن يقال في مثل هذا الموقف غير هذا الكلام؟ ووقف عند كل كلمة قالها غيره يحللها، ماذا يريد منها، لقد جرح إحساسي بها، لقد كان يلتفت إلي عندما قولها، وما سبب ذلك والعلاقة بيني وبينه على خير ما يكون صديق لصديقه، لابد أن يكون قد تأثر من كذا وغضب من كذا، ولكن إن كان هذا فلا حق له لأنه لم يفهم قصدي ولم يتبين غرضي.

فإذا أتم ذلك وأوى إلى فراشه بدأ يعيد الشريط من جديد، ويعلق على الحوادث تعليقات جديدة، ويفسرها تفسيرا جديدا، حتى يدركه النوم، وقل ألا يحلم بما حدث، وقل ألا تأتيه الرؤيا بتفسيرات جديدة وتعليقات جديدة

من أجل هذا يفر من الناس، ويفر من المجتمعات، حتى لا تكثر الأشرطة فيكثر

عرضها، والتعليق عليها، فقل أن أجاب دعوة مع كثرة ما وجه إليه من دعوات، لأنه مع هذا ليس ثقيل الظل ولا جامد النسيم، فإذا أظطر إلى دعوة ذهب إليها كارها، وحسب حساب كل كلمة يتكلمها، وكل حركة يتحركها قبل أن يقدم عليها، تفضيلا للحساب العجل على الحساب

الآجل، فقل أن يأخذ الناس عليه غلطة مع كثرة ما يتوهمه هو من غلطات أداه التفكير الكثير في نفسه إلى أن يكون عميق التفكير في كل ما يعرض عليه، فإذا عرض أمر قلبه على جميع وجوهه، وغاص في نواحيه، واستخرج منها أدق الأفكار وأصعبها وأعقدها، وشغف بالعلم فكان دائب الدرس، كثير الاطلاع، تثقف بالثقافة الإنجليزية فهو يتكلمها ويقرؤها كأحد أبنائها، وسمع بعمق التفكير الألماني فعكف على اللغة الألمانية حتى حذقها، وحدثه الأدباء بالأدب الفرنسي وما فيه من دقة في تحليل العواطف وإجادة الوصف، فدرس اللغة الفرنسية حتى أجادها، وتضلع من آداب اللغات الثلاث، وعرف أشهر ما كتب فيها، فإذا حدثك في أية ناحية منها أبان لك عن علم واسع، ومعرفة دقيقة هذا إلى لغته العربية ومعرفته بها كأنه متخصص فيها - ثم هو بعد لا يرضى عن نفسه، فهو دائم الدرس، دائب العمل، كلما قطع شوطا طمح إلى ما هو أرقى منه؛ فكأنه ومطامحه كالفرس وظله يجري دائما ليسبقه؛ وهيهات أن يلحقه وهو مع كل علومه وكل لغاته وكل عمقه خامل مجهول، لا يعرف حقيقته إلا خلصاؤه، إن جلس مع غيرهم فعيي جهول لا يشاركهم في جدل، ولا يفضي إليهم بحديث، يعرف مواضع السخف من قولهم، ومواضع النقص في تفكيرهم، ويتظاهر بأنه لا يعي ما يقولون، ولا يرقى إلى ما يفكرون ويجادلون، يتغابى وهو الذكي، ويتعايى وهو الفصيح لا يعبأ بالمال إلا بمقدار ما يعيشه عيشة نظيفة من غير ما ترف ولا سرف. عرضت عليه يوم (وظيفة) يكاد ينال منها ضعف مرتبه فرفضها في غير تردد لأنه يرى أنه لا يصلح لها ولا تصلح له، ولا تتفق ونفسه، ولا يتقنها إتقان عمله الذي يقوم به ثم هو - غالبا - لا يحب رؤساءه ولا يحبه رؤساؤه، فهو لا يحبهم لأنه يتطلب فيهم كمالا لا تسمح به الدنيا إلا نادرا، ويقيس الكمال بمقياس محدود معين، مع أن للكمال مناحي مختلفة، وقد يتسامح في نقص يستره كمال، ويغتفر ضعف تسنده قوة، ولكنه في تقديره يجسم النقص، ويكبر الضعف، ويريد في رئيسه الكمال صرفا، والقوة خالصة، فكأنه يريده نبيا أو إلها، وأنى له بذلك؟ فهو في نقد له مستمر، وتجريح دائم - وأما هو فيكرهونه لأنه حنبلي في تصرفه - متزمت في خلقه، صريح لا يلطف صراحته بلباقة، شديد لا يمزج شدته برقة، التصرف عنده كالخط إما أن يكون مستقيما أو أعوج ولا وسط بينهما، ولا

يأتمر رئيسه ولا ينتهي بنهيه متى ما خالف قانونا - والقانون عنده هو القانون الحرفي الذي لا يحتمل تفسيرا ولا تأويلا - من أجل ذلك تعاقب عليه رؤساء مختلفون وتنقل من مصلحة إلى مصلحة والنتيجة واحدة دائما في نظرهم إليه ونظره إليهم - حتى لقد كان رئيسه يوما ما أقرب الناس إليه وأعرفهم به، ورجوت السعادة له أيام رياسته، فما لبثت أن رأيت الصداقة استحالت إلى فتور فكراهية، ثم كان أعدى له ممن لم يكن يعرفه

أما (هو) الآخر فجميل الصورة، ظريف الهيئة، حسن الحلية، ممتلئ البدن، ريان الجسم، واسع البطن، أنيق الملبس إلى آخر حد الأناقة، دقيق الذوق في تناسب الألوان، وتناسق الأشكال، حتى يعد حجة فيما يلبس وما لا يلبس، وما يتناسب وما لا يتناسب، لأنه خبير بأحدث الأزياء بل هو فيها مخترع فنان، يحدثك حديثا مستفيضا عن خير الخياطين ومزاياهم وعيوبهم، ومواضع الإجادة والعيب فيهم

وشيء آخر يجيد ذوقه، ويجيد التحدث فيه، ويجيد وصفه ويجيد نقده، وهو الطعام والشراب، فان أردت أن تعرف لونا من الطعام لا يناسب لونا أو أردت حديثا شهيا عن طعام شهي أو عن المائدة وكيف تنظم وعن بيوت مصر وما يجيده كل بيت من الأصناف فهو في ذلك الذي لا يبارى، وله فوق ذلك العلم الدقيق الواسع في صنوف الشراب، فأيها قبل الأكل وأيها على الأكل وأيها بعد الأكل، وأي ألوان الشراب يصح أن تجتمع وأيها لا يصح، وأي أنواع الشراب تجيده بلاد فرنسا وأيها تجيده ألمانيا وأيها أسبانيا - بل كل هذه معلومات أولية بالنسبة إليه فعنده ما هو أدق في ذلك وأعمق هذه هي الدنيا وهذه هي الحياة، وهل أنت آخذ من دنياك إلا ما طعمت وما شربت وما

لبست
وله كذلك حديث طريف عن النساء وأوصافهن فهو يجيد الحديث عن سحر العيون ورشاقة القد، ولطافة التكوين، وبراعة الشكل، وهيف القوام إلى آخر ما هنالك، ثم يتبع هذا بالكلام عن مغامراته وما شاهده في حياته، كأنه كان له في كل خطوة حادثة نسائية، وفي كل سفر عشق، وفي كل مجتمع غرام - والعشق العفيف، والهوى العذري والحب الأفلاطوني ألفاظ جوفاء لا تدل على شيء إلا على جنون قائلها أو ريائه، ينظر للمرأة نظر الأفعى للعصفور، وله من وسائل الأغراء ونصب الشباك، ورسم الخطط ما يعجز عنه القائد
الماهر، والصائد الحاذق، فما هو إلا أن يضع عينه على فريسته حتى يخلق من الحركات والأفاعيل والأحاديث ما يستلفت النظر، وإذا هو في حديث جذاب مع من أحب وإلى هنا ينتهي علمه الواسع وقدرته الفائقة
ثم ما الخلق وما الفضيلة وما الحق؟ ليست إلا كلمات اخترعها الأقوياء ليستغلوا بها الضعفاء. ولا بأس من استعمالها أحيانا متى جلبت خيرا أو دفعت ضيرا، ولم يخلق الله أسخف ممن يزعمون أنهم يتمسكون بمبدأ، فليس في الدنيا مبدأ صحيح إلا المبدأ القائل (الغاية تبرر الوسيلة) على أن تفسر الغاية بغايتي لا غية غيري فكن (وفديا) في دولة الوفد، و (شعبيا) في دولة حزب الشعب، و (حرا دستوريا) في دولة الأحرار الدستورين، والعن الكل في دولة أعداءها، وتغنى بمناقبها متى ما كان هذا ينيلك (درجة) أو على الأقل (علاوة)، وأجعل مبدأك مشايعة الزمان، تقبل على من أقبل عليه، وتدبر عمن أدبر عنه - ولا تأخذ شيئا (جدا) فما الحياة إلا لهو ولعب، فان استطعت أن تجعلها كلها (مزحة) أو (نكتة) فافعل فهكذا خلقها الله
صادفته يوما في فندق فلما نزل إلى البهو استلفت نظر الناس بشكله وأناقته ولباسه وأمره للخدم ونهيه، وتحدث بصوت عال قليلا، فإذا ضحك يتصاعد من هنا ومن هنا، وإذا الصوت يرتفع شيئا فشيئا والتفات الناس يزيد شيئا فشيئا وإذا الحديث جذاب، وإذا هو محور من في المجلس وقيد أبصارهم وآذانهم
وشأنه في (المصلحة) التي يعمل فيها شأنه في الفندق، كعبة القصاد ونجعة الرواد يقضي الحاجة لتقضى حاجته، وينفذ أغراض من هو أكبر منه لينفذ أغراضه من هو أصغر منه، وهكذا اتخذ (وظيفته) تجارة، يحسب فيها في دقة ما يشتري وما يبيع، وما يدخل وما يخرج، مقدار الرصيد، وبكم هو دائن وبكم هو مدين
لعل الذي جعل الإنسان ذكرا وأنثى، وجعل منه من يميل إلى الشعر والخيال، ومن يميل إلى الحقيقة والواقع جعل الناس كذلك أحد هذين الرجلين، وكل ما في الأمر أنه يكون (هو) الأول صرفا أو (هو) الثاني صرفا، وقد يكون خليطا منهما، مزيجا بينهما - هما رجل الآخرة ورجل الدنيا، ورجل الفلسفة ورجل المادة، ورجل الأخلاق والمبادئ، ورجل المصالح والمنافع
أحمد أمين
مأساة قضائية شهيرة
ذكريات عن قضية دريفوس
للأستاذ محمد عبد الله عنان
منذ أسابيع قلائل توفي في صمت وسكون، رجل كان أسمه قبل ثلاثين عاما يدوي في أرجاء العالم بأسره، ويقترن أسمه بأعظم وأشهر مأساة قضائية في عصرنا؛ ذلك هو الكولونل الفريد دريفوس الضابط الفرنسوي اليهودي، الذي أثار اتهامه ومحاكمته ومحنته في خاتمة القرن الماضي في فرنسا أعظم ضجة، وشغلت قضيته الأمة الفرنسية بأسرها زهاء عشرة أعوام، وأثارت فيها من الجدل القضائي، والشهوات والأحقاد القومية والجنسية، والعواطف السياسية ما كاد يدفعها إلى معترك الحرب الأهلية والفوضى
وقد طويت صفحة قضية دريفوس منذ بعيد، وأسدل الستار على آخر فصل من فصولها منذ ثلاثين عاما. ولكن هذه المأساة القضائية الهائلة، التي طبعت تاريخ العصر بطابعها القوي، وأثرت في كثير من نواحيه السياسية والاجتماعية، مازالت منذ ثلاثين عاما تثير اهتمام البحث التاريخي والقضائي، وتصدر عنها المؤلفات الحافلة بأقلام أكابر الكتاب والساسة، ومنهم من عاصروها واتصلوا بحوادثها وشخصياتها. وكان آخر ما صدر عنها

من المؤلفات الهامة كتاب بالألمانية حافل بالشهادات والوثائق الحاسمة، هي مذكرات الجنرال ماكس فون شفارتز كوبن، وهو الذي كان ملحقا عسكريا للسفارة الألمانية في باريس وقت انفجار العاصفة والقبض على دريفوس (سنة 1894) متهما بالخيانة العليا وبيع أسرار الجيش لدولة أجنبية؛ وكانت فرنسا بأسرها تتهم ألمانيا بأنها هي الدولة التي تحاول الوقوف على أسرار الدفاع الفرنسي، وتتهم الملحق الحربي الألماني بأنه هو الذي يعمل على ابتياع هذه الأسرار. ولم يكن في وسع الجانب الألماني أن يتكلم يومئذ وأن يفضي بما لديه لإظهار الحقيقة؛ وكانت المأساة القضائية تسير في طريقها، وينزل القضاء الحربي بالضابط البريء أقسى حكمه مستندا إلى طائفة من الوثائق والشهادات المزورة، وفرنسا تضطرب من أقصاها إلى أقصاها سخطا على الخائن وعلى اليهودية التي ينتمي إليها؛ وهناك في الظلام رجل واحد يعرف لب الحقيقة، ويستطيع أن ينقذ البريء، وأن يهتك هذه الحجب كلها بكلمة؛ ذلك الرجل هو فون شفارتز كوبن الملحق الحربي الألماني،

بطل المأساة الخفي؛ ولكن هذه الكلمة لم يستطع أن يقولها ولم يسمح له بقولها له بقولها يومئذ، وقضت الرسوم والاعتبارات السياسية أن ينوء بالسر حتى مرض موته؛ وعندئذ أفضى به إلى زوجه وأوصاها بنشر مذكراته ووثائقه، وقام بنشرها الكاتب الألماني برنهارد شفر تفجير تحت العنوان الذي اختاره صاحبها لها وهو (الحقيقة عن دريفوس)

ولم يك ثمة شك فيما سيقوله الرجل الذي اشترك بنفسه في حوادث المأساة، وعرف سرها في المهد؛ فقد أكد لنا شفارتز كوبن وهو على شفا القبر، ما كشفت عنه من قبل تطورات القضية الشهيرة، وما اضطر القضاء الأعلى لأن يثبته وأن يعلنه بعد تلك الجهود والمحاولات الفادحة التي بذلها أنصار البريء لإعادة النظر وتحقيق العدالة؛ أكد لنا براءة دريفوس مرة أخرى، وأوضح لنا بما يعرض من الناحية الخفية للحوادث كيف كان القضاء بعيدا عن الحقيقة، وكيف كان المجرم الحقيقي ظاهرا غير بعيد عن يد العدالة، ولكن يتمتع بحماية العسكرية المتعصبة المغرضة؛ ويقدم إلينا شفارتز كوبن فوق أقواله الخاصة طائفة هامة من المذكرات والوثائق الرسمية التي تبودلت بخصوص الحادث، ومنها رسائله إلى قلم أركان الحرب الألماني

وقد أتيحت لنا الفرصة منذ أعوام فرصة لدراسة قضية دريفوس من الناحيتين القضائية والتاريخية، وكتبنا عنها بحثا مستفيضا في كتابنا (ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى) وشرحنا أدوارها السياسية والقضائية المدهشة، وبينا كيف أنها كانت أثرا بارزا من آثار (خصومة السامية) أو حركة العداء ضد اليهودية، فإلى هذا البحث نحيل القارئ؛ ولكنا نرى أن نقدم هنا خلاصة موجزة لأهم وقائع القضية، لابد منها لفهم ما سيجيء من البيانات والتعليقات

في 15 أكتوبر سنة 1894 قبضت السلطات العسكرية على ضابط بقسم المدفعية هو الفريد دريفوس بتهمة الخيانة العليا، وذلك على أثر ضبط قلم التحريات السرية لوثيقة تتضمن التعريف ببعض أسرار الدفاع الفرنسي، قيل إنها بخطه وإنه قدمها إلى سفارة أجنبية، وقد عرفت هذه الوثيقة فيما بعد باسم (البردرو) وقدم دريفوس إلى المجلس الحربي، وحوكم سرا، وحكم عليه بالنفي المؤبد والتجريد (23 ديسمبر سنة 94)، وكان دريفوس يؤكد بكل قواه أنه بريء من كل تهمة؛ ولكن لم يصغ إليه أحد، وجرت محاكمته بسرعة وتحيز

ظاهر، ونفذ فيه الحكم بصرامة؛ وكان يؤمن ببراءته جماعة من أكابر المفكرين والساسة ويرونه ضحية الخصومة السامية؛ وكان من بين هؤلاء السياسي شويرر كستنر وكيل مجلس الشيوخ وطائفة من أعلام الكتاب مثل أميل زولا، وإيف جيو، وجوزف ريناخ، وجورج كليمنصو، وجوريس، وكاسنياك؛ فأثار هؤلاء دعوة شديدة ضد رجال العسكرية والقضاء الحربي، وطالبوا بإعادة النظر في القضية؛ وبذلت أسرة دريفوس جهودا كبيرة لإنقاذ وتبيان براءته؛ وكان الكولونيل بيكار من رجال العسكرية الذين يشكون في نزاهة القضاء الحربي، فانتهز فرصة انتدابه لرئاسة قلم التحريات السرية، ودرس القضية ومستنداتها المزعومة؛ فأيقن أن دريفوس كان بريئا وضحية واستطاع بعد البحث أن يعرف كاتب (البردرو) الحقيقي وهو ضابط يدعى (استر هازي). ولم تلبث هذه الحقيقة أن ذاعت رغم اضطهاد زعماء العسكرية لبيكار؛

واستغلها أنصار الإعادة؛ فاضطرت السلطات الحربية أن تقبض على استر هازي، وأن تحاكمه تهدئة لثورة الرأي العام، ولكن المجلس الحربي قضى ببراءته، فكانت هذه البراءة نذير فورة أشد من الأولى. وفي 13 يناير سنة 1898 نشر أميل زولا في صحيفة (الاورور) خطابه المشهور (إني أتهم!) موجها إلى رئيس الجمهورية، واتهم فيه القضاء الحربي في عبارات عنيفة ملتهبة بأنه انتهك قدس العدالة والقانون، وقضى عمدا على البريء، واستعمل الغش والتزوير في إجراءاته؛ فأحيل زولا على محكمة الجنايات بتهمة القذف، وحكم عليه بالحبس عاما وبالغرامة (3 فبراير سنة 98) ولكنه فر إلى إنكلترا تفاديا من تنفيذ الحكم؛ ولم تفتر جهود أنصار الإعادة مع ذلك؛ ولم تمض أشهر قلائل حتى اعترف الكولونل هنري وهو رئيس سابق لقلم التحريات، بأنه اشترك في صنع بعض الوثائق السرية التي قدمت كدليل على إدانة دريفوس فقبض عليه وسجن، ولكنه انتحر في سجنه، فزاد الشك في إجراءات القضاء الحربي واشتد سخط الرأي العام؛ واضطر عندئذ وزير الحربية أن يحيل الطلب الذي قدمه الضابط البريء بإعادة النظر إلى محكمة النقض؛ وقضت هذه بنقض الحكم (26 سبتمبر سنة 1899) وأحيل دريفوس إلى المجلس الحربي في رن، واستقدم من منفاه في جزيرة الشيطان في حالة يرثى لها؛ ولكن المجلس الحربي قضى ثانية بإدانته مع الظروف المخففة وحكم بسجنه عشرة أعوام؛ وأصدر مسيو لوبيه رئيس الجمهورية عفوا عن المحكوم عليه.

ولكن الضابط البريء وأسرته وأنصاره لم ترضهم هذه الخاتمة العرجاء، فضاعفوا جهودهم في سبيل الإعادة ومحو كل أثر للحكم؛ وانقسمت فرنسا عندئذ إلى شطرين، فريق وهو الأغلبية إلى جانب الإعادة وإنصاف البريء والحد من طغيان العسكرية؛ وفريق الوطنيين يؤازر الجيش ويقاوم الإعادة؛ وأشتد الجدل بين الفريقين، واتخذ مظهر سياسيا عنيفا يغشى كل الحياة العامة في فرنسا؛ وفي أثناء ذلك وقف أنصار الإعادة على وثائق وحقائق جديدة تؤيد البراءة، وقدم دريفوس طلبا ثانيا بإعادة النظر، ورأت الحكومة القائمة تهدئة للرأي العام أن تحيل طلبه ثانية إلى محكمة النقض؛ فقررت المحكمة أن تنظر فيه بنفسها، وأصدرت حكمها في 12 يوليه سنة 1906 بإلغاء محكمة رن وبراءة الضابط اليهودي؛ وفي الحال أعيد دريفوس إلى فرقته ومنح وسام الشرف، وأسدل الستار على تلك المأساة القضائية الهائلة، وهدأت العاصفة السياسية الكبرى التي أثارتها زهاء عشرة أعوام

يقول الكاتب الأشهر أميل زولا في كتابه الذي وضعه عن القضية بعنوان (الحقيقة تسير) (إن فون شفارتز كوبن وحده هو الذي يستطيع أن يذيع الحقيقة الناصعة)، وقد كان ذلك إبان اضطرام الصراع بين الحق والباطل وبين البريء وجلاديه؛ ولكن شفارتز كوبن كان يومئذ مرغما على الصمت كما أسلفنا. أما اليوم فبين يدينا أقواله وشهادته الحاسمة، وقد فاه شفارتز كوبن وهو على شفا الموت في أواخر ديسمبر سنة 1916 بهذه الألفاظ التي حرصت زوجه على تدوينها (أيها الفرنسيون؛ استمعوا إلي: إن الفريد دريفوس بريء، ولم يرتكب جرما قط؛ وكان الأمر كله دسائس وتزويرا، إن دريفوس بريء) وفي المذكرات والوثائق التي تركها شفارتز كوبن أدلة الحقيقة الناصعة التي طالب زولا بكشفها؛ فان (البردرو) الذي كان أساس الاتهام، والذي نسب زورا إلى دريفوس، كان من صنع استر هازي وبخطه، وكان المجرم الخائن هو استر هازي؛ وتلك حقيقة ثبتت إبان المأساة القضائية ذاتها؛ بيد أن شفارتز كوبن يفصل لنا علائقه بذلك الضابط المجرم، وكيف انه لبث في خدمته عامين يمده بأسرار الدفاع الفرنسي؛ ثم يقول لنا إن (البردرو) لم يصل إلى يده قط، ولم تلتقطه مدام بستيان خادمة السفارة الألمانية من سلة الأوراق المهملة، وتوصله إلى قلم التحريات الفرنسية، كما هو ذائع؛ ولكن المرجح أن استر هازي وضعه في صندوق الخطابات الخاص بالسفارة فاستلبه شخص ثالث لم يعرف قط؛ وهذه شهادة تهدم

الرأي الحديث الذي يقول به بعض الكتاب الفرنسيين، وهو أن شفارتز كوبن نفسه كانت (البردرو) مقلدا فيه خط استر هازي وأنه ألقاه في سلة الأوراق المهملة عمدا لكي يصل إلى قلم التحريات السرية عن يد مدام بستيان وتتم بذلك الدسيسة؛ والواقع أن شفارتز كوبن لم يقف على أمر (البردرو) إلا بعد القبض على دريفوس والحكم عليه بعامين حيث رأى صورة الوثيقة منشورة في جريدة (الماتان) فعرف لفوره أنها

من خط استر هازي، وأدرك في الحال روعة الخطأ القضائي الذي ارتكب
وفي الرسائل التي تبادلها شفارتز كوبن مع الكونت منستر سفير ألمانيا في باريس
وقتئذ ما يدل على التأثر العميق الذي كانت تتبع به السلطات الألمانية يومئذ تطورات
المأساة القضائية؛ وقد لبث الكونت منستر نفسه مدى حين بعيدا عن فهم الحقيقة
معتقدا مسؤولية شفارتز كوبن حتى أنه حمل عليه في بعض رسائله بقسوة، واتهمه
بأن تصرفاته المريبة كانت أكبر سبب في الحملات الصارمة التي شهرتها الصحافة
الفرنسية على ألمانيا، والتي اضطرت حكومة القيصر أن تسعى لدى الحكومة
الفرنسية لوقف هذه الحملات؛ وقد وقف الكونت منستر بعد ذلك على طرف من
الحقيقة؛ وكان أركان الحرب الألماني يعرفها منذ الساعة الأولى، ويعرفها القيصر أيضا.
وكان القيصر يعرف ويثق بأن السفارة الألمانية في باريس لم تتصل بدريفوس قط؛
ولما صرح له الكونت منستر حين مقابلته بأنه لا يشك لحظة في براءة دريفوس، أجابه
القيصر بأنه لا يشك فيها كذلك؛ ونجد تفصيل المحادثات والتقارير الرسمية الألمانية
المتعلقة بقضية دريفوس في المجلدين التاسع والثالث عشر من مجموعة الوثائق
الرسمية التي أصدرتها ألمانيا عن تاريخ ما قبل الحرب. هذا وفي مذكرات الجنرال
فون شفارتز كوبن كثير من الوثائق والتفاصيل التي تلقي أكبر ضوء على الحقائق
المأساة القضائية الكبرى، وتعرضها في كثير من نواحيها عرضا جديدا مؤثرا
ولقد كانت فورة الخصومة السامية التي بعثت قضية دريفوس، ضربة شديدة لليهودية،
استنفدت كثيرا من مواردها وقواها؛ ولكنها كانت لها نذير الخطر والكفاح؛ فقد لبثت
اليهودية مدى حين آمنة مطمئنة في ظل الديموقراطية الظافرة؛ ولكنها أفاقت
مذعورة من هذه الدعة الظاهرة، ونهضت تكافح طغيان القومية والعسكرية والكنسية
معا؛ وكانت هذه اليقظة اليهودية وقود الحركة الصهيونية التي أذكى تيودور هرتسل
الكاتب اليهودي
جذوتها. وكان هرتسل يشهد مأساة دريفوس وتطوراتها منذ البداية كمراسل لجريدة
(نوية فرايه بريسه) النمسوية، ويصور حوادث المأساة بقلمه الملتهب تصويرا قويا
مؤثرا يثير روح الكفاح والمقاومة في الملايين من بني جنسه؛ واستطاعت اليهودية غير
بعيدا أن تستجمع قواها؛ وغدا هرتسل روح الحركة الجديدة التي انتهت بتنظيم
الصهيونية السياسة؛ ثم الفت اليهودية فرصتها أثناء الحرب الكبرى، واتجهت صوب
فلسطين، وما زالت حتى ظفرت ببغيتها من الحلول بأرض الميعاد والاحتشاد فيها
وتحقيق حلمها القديم بالعودة إلى أرض سليمان
محمد عبد الله عنان
وقفة بالعقيق!
للأستاذ على الطنطاوي
وقفة بالعقيق تطرح ثقلاً ... من دموع بوقفة في العقيق
ماثل بين أربع ماثلات ... ينزع الشوق من فؤاد علوق
البحتري
تتمة ما نشر في العدد الماضي
وأرى عروة وقد أقبل من سفره، فدخل القصر، وحار الناس كيف ينعون إليه محمدا،
حتى جاء عيسى بن طلحة فدخل عليه، فقال عروة لبعض بنيه: اكشف لعمك عن
رجلي ينظر إليها، ففعل
فقال عيسى: إنا لله وإنا إليه راجعون، يا أبا عبد الله! ما أعددناك للصراع ولا للسباق،
ولقد أبقى الله لنا منك ما كنا يحتاج إليه: رأيك وعلمك
قال عروة: ما عزاني أحد عن رجلي مثلك
قال: فإني معزيك بمحمد!
فوثب فزعا يقول: ما له؟
قال: لقد لقي الله
فاصفر عروة ثم جلس يسترجع ويقول:
اللهم أخذت عضوا وتركت أعضاء، وأخذت ابنا وتركت أبناء، فإنك إن كنت أخذت لقد
أبقيت، وإن كنت ابتليت لقد عافيت!
ويتبدل المنظر فإذا أنا أرى قصر سعيد بن العاص الذي يقول فيه عمرو بن الوليد:

القصر فالنخل فالجماء بينهما ... أشهى إلى النفس من أبواب جيرون
وأرى فيه حركة وازدحاما، وأرى على الوجوه سحابة من غم، وعلى الجباه سطورا من كآبة، فأغشى القوم أسألهم وأعلم علمهم فإذا هم واجمون، لأن سعيد بن العاص يحتضر! وأي نبأ في المدينة أروع من موت سعيد؟ وفيه يقول الفرزدق:
ترى الغرّ الجحاجح من قريش ... إذا ما الأمر في الحدثان غالا
قياما ينظرون إلى سعيد ... كأنهمُ يرون به هلالا
وأدخل القصر فأسمع عمرا ابنه يقول له: لو نزلت إلى المدينة!
فيقول له سعيد: يا بني إن قومي لن يضنوا علي بأن يحملوني على أعناقهم ساعة من نهار، فإذا أنا مت فآذنهم؛ فإذا واريتني فانطلق إلى معاوية فانعني له، وانظر في ديني، واعلم أنه سيعرض قضاءه فلا تفعل، ولكن اعرض عليه قصري هذا، فإني إنما اتخذته نزهة وليس بمال
وما هي إلا أن يموت فيحمله الناس من قصره حتى يدفنوه في البقيع. ورواحل عمرو بن سعيد مناخة، فيعزيه الناس على فبره ويودعونه، ويمضي من ساعته إلى معاوية فيكون أول من ينعاه له. فيتوجع له معاوية ويقول: هل ترك دينا؟
فيقول: نعم، فيقول معاوية: هو علي
فيقول: قد ظن ذلك وأمرني ألا أقبله منك، وأن أعرض عليك بعض ماله فتبتاعه، فيكون قضاء دينه منه
فيقول: اعرض علي
فيقول: قصره بالعرصة
فيقول معاوية: قد أخذته بدينه
قال نوفل أبن عمارة: وكان دين سعيد ثلاثة آلاف ألف درهم، فاشترى معاوية القصر بألف ألف درهم، والمزارع بألف ألف، والنخيل بألف ألف درهم
فيقول عمرو: هو لك على أن تحمله إلى المدينة، وتجعلها بالوافية.
فيحملها له إلى المدينة، فيرقها عمرو في غرمائه، وكان أكثرها عدات وعدها سعيد، فيأتيه شاب بصك فيه عشرون ألف درهم بشهادة سعيد على نفسه، وشهادة مولى له عليه، فيرسل عمرو إلى المولى فيقرئه الصك، فيبكي حين يقرؤه ويقول: نعم، هذا خطه وهذه شهادتي عليه
فيقول عمرو: ومن أين لهذا الفتى عليه عشرون ألف درهم؟ وإنما هو صعلوك من صعاليك قريش!.
فيقول المولى: أنا أخبرك: مر سعيد بعد عزله فاعترض له هذا الفتى، ومشى معه حتى
صار إلى منزله، فوقف له سعيد وقال: ألك حاجة؟
قال: لا. إلا أني رأيتك تمشي وحدك، فأحببت أن أصل جناحك
فقال لي سعيد: ائتني بصحيفة، فأتيته بهذه، فكتب له على نفسه هذا الدين، وقال: إنك لن تصادف عندنا شيئا فخذ هذا، فإذا جاءنا شيء فأتنا
فيقول عمرو: لا جرم والله لا يأخذ إلا بالوفية، يا غلام! أعطه إياه، فيعطيه عشرين ألف درهم وافية
ويجيئه مولى لقريش فيقول: إني أتيت أباك بابن مولاي (فلان)، وقد هلك أبوه ليزوجه.
فقال: ما عندي، ولكن خذ ما شئت في أمانتي
فيقول له عمرو: كم أخذت؟ فيقول: عشرة آلاف
فيقبل عمرو على القوم فيقول: من رأى اعجز من هذا؟
يقول له سعيد: خذ ما شئت في أمانتي، فلا يأخذ إلا عشرة آلاف، والله لو أخذ مائة ألف لديتها
ويتبدل المنظر، فأرى العقيق قد ازدحم بالناس حتى كأنه المحشر، وانتقلت إليه المدينة حتى لم يبق فيها كهل ولا غلام، ذلك أن خبرا سرى في المدينة سريان الأمل في النفوس اليائسة، فترك الناس ما هم فيه وأقبلوا على قصر سعيد يسمعون منه ما يسمعوا. . وإذا ابن عائشة وهو أضن خلق الله بالغناء، وأسو الناس فيه خلقا، ومن إذا قيل له غن: قال: المثلي يقال هذا وإذا ابتدأ بغناء وقيل له أحسنت قطع الغناء مغضبا وقال: المثلي يقال أحسنت؟ وإذا هو يغني أطيب غناء وأطربه، فلا ينتهي من صوت

حتى يشرع في آخر، لا يسكت ولا يستريح، حتى عدوا عليه مائة صوت، وإذا خبره أن العقيق طغى وازداد ماؤه، فاعتصم ابن عائشة بقصر سعيد بن العاص فملأ الماء عرصة القصر، فصعد على قرن البئر ورآه الحسن بن الحسن، وكان قادما على بغلة له وخلفه غلامان أسودان كأنهما شيطانان، فقال لهم: امضيا رويدا حتى تقفا بأصل القرن الذي عليه ابن عائشة؛ فخرجا حتى فعل ذلك، ثم ناداه الحسن: كيف أصبحت يا ابن عائشة؟ قال بخير! فداك أبي وأمي، قال: انظر إلى من بجنبك، فنظر فإذا العبدان؛ قال: أما تعرفهما؟ قال: بلى، قال: فهما حران لئن لم تغني مائة صوت لآمرنهما بطرحك في البئر، وهما حران لئن لم يفعلا لأقطعن أيديهما. فغنى فلم ير الناس أحسن يوما منه

ثم أرى فتيانا من فتيان المدينة فهم يونس الكاتب وجماعة ممن يغني قد خرجوا إلى واد يقال له رومة من بطن العقيق، فغنوا، فأثار غناؤهم أهل الوادي، فاجتمع إليهم الرجال والنساء حتى كان حولهم مثل مراح الضأن؛ وأرى محمد بن عائشة مقبلا معه صاحب لهو، حتى يرى جماعة النساء عندهم فيأخذه الحسد، وتحز في نفسه الغيرة، فيقول لصاحبه: كيف بك إذا فرقت هذه الجماعة؟ فيسخر منه صاحبه، فيهيج ابن عائشة فيأتي قصرا من قصور العقيق فيعلو سطحه، ويلقي رداءه، فيتكئ عليه ويغني بشعر عبيد بن حنين:

هذا مقامُ مُطَرَّدٍ ... هدمت منازله ودوره
نمت عليه عداته ... كذباً فعاقبه أميره
ولقد قطعت الخرق بع_د الخرق معتسفاً أسيره
حتى أتيت خليفة الر - حمن ممهوداً سريره
حييته بتحيّة ... في مجلس حصرت صقوره

فلا ينقضي الصوت إلا والنساء كلهن تحت القصر الذي هو عليه، وقد تقوض مجلس يونس ولم يبقى فيه أحد!

وأرى غلاما خلاسيا، مديد القامة أحول، قد ارتقى صخرة في العقيق منفردة، فاضطجع عليها ضجعة خفيفة، ثم هب فزعا وهو يغني غناء ما سمع مثله السامعون، يزعم أن الشيطان أجراه في مسامعه وهو نائم، ويعيد الغناء وهو يتصيد الطير بحبالة في يده، فيمر به شيخا مغني مكة ابن سريج والغريض، وقد أقبلا على بعيرين لهما يزوران المدينة ويتعرضان لمعروف أهلها، ويلقيان من بها من صديقهما، فيسمعان ثم يستعيدان الصوت:

القصر فالنخل فالجماء بينهما ... أشهى إلى النفس من أبواب جيرون

فيعيده، وهو مشغول عنها بصيده، فيقبل أحدهما على صاحبه فيقول: هل سمعت كاليوم قط؟ فيقول: لا والله! فيقول: فما هو رأيك؟ فيقول: هذا غناء غلام يصيد الطير، فكيف بمن في الجوبة؟ أما أنا (فثكلته أمه) إن لم أرجع!

فكرا راجعين

وكان الغلام (معبد) سيد من غنى صوتا في الحجاز!

ويتبدل المنظر فأرى حميدة بنت عمر بن عبد الرحمن بن عوف، وقد خطبها رجل عبشمي من أهل الشام، فلما أزداد أن يرتحل بها وحف بهما الناس يودعونهما سمعت رجلا يغني بشعر أبي قطيفة:

لا ليت شعري هل تغير بعدنا ... جنوب المصلى أم كعهدي القرائن
وهل ادؤر حول البلاط عوامر ... من الحيّ أم هل بالمدينة ساكن
إذا برقت نحو الحجاز سحابة ... دعا الشوق منى برقها المتطامن
ولم أتركنها رغبة عن بلادها ... ولكنه ما قدر الله كائن

فتسقط وقد أغمي عليها، فيعالجونها كيما تفيق، فإذا أفاقت سمعته يغني:

ألا ليت شعري هل تغير بعدنا ... قباء وهل زال العقيق وحاضره
وهل برحت بطحاء قبر محمد ... أرهط غرّ من قريش تباركه
لهم منتهى حبي وصفو مودتي ... ومحض الهوى مني وللناس سائره

فتغشت بين النساء وسقطت ميتة. . . . . .

واضطربت الصورة وتضاءلت، ثم توارت واختفت، وإذا صفحة الماء بيضاء ليس فيها صورة، وإذا المجد والجلال، والعطر والنور، وإذا الدور والقصور، والأنس والحبور؛ . . .

كل أولئك قد غطى عليه الفناء، وابتلعه هذا السيل الدفاع، ثم عاد يجري بين الآكام الجرداء، وله خرخرة وله دردرة. . .
وإذا كل ما بقي من هذه الدنيا الواسعة، قهوة قامت على جذوع النخل، وبئر نصبت عليه سانية، وجماعة قد تحلقوا يشربون الشاي، ويطربون، وما بهم لو حققت من طرب؛ وإذا قصر سعيد أنقاض ماثلة، وإذا سائر القصور تلال من الرمل الأحمر. . . . .
وإذا المجد والجلالة والجا - هـ كما يطرس السطورَ البنان!
دمشق
علي الطنطاوي
عاقبة سليمة
للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني
لم يتفق الناس إلى الآن على وسيلة يدفع المرء بها عنه ثقيلا يتصدى له، ويلح عليه بما لا يسعه أن يجيبه إليه، فالأمر متروك إلى صدق الروية، وسرعة الخاطر، وحسن البديهة، ولكل موقف ما يقتضيه، ويدفع إليه ويغري به، والذي يلهمه الواحد في موقف لا يلهمه واحد آخر في الموقف عينه؛ فإذا بدا لي أو لك ما لجأ إليه (حامد) غريبا أو شاذا أو غير لائق، فلا تلمه ولا تنع ذلك عليه، فان عذره أنه لم يخطر له سواه، وأن الموقف كان يتطلب السرعة واتقاء الجدل، فقد كان - كما لا تعلم - في قهوة (الحمام) - بفتح الحاء - وكانت معه (فريدة) (وهي بنت عمه، وكان بينهما من الود أكبر مما يكون في العادة بين ذوي القربى؛ وكانت تنطوي له على حب هادئ، وتحس - بفطرتها الذكية - أنه يصبو إليها، ولكنها كانت تراه لا يصارحها بشيء ولا يبثها أمرا، ولا يدع لفظا أو عملا يشي بهواه هذا، فجنحت إلى الشك، ثم يئست. ولما تقدم أحد أغنياء الريف يخطبها، أغرت أباها بالتلكؤ، لعل حامدا يتحرك، ولكنه لم يفعل. فقالت لنفسها إذا لم أتزوج من أحب، فانه لا يبقى أمامي إلا زواج المال والوجاهة. . . وهكذا حدث، أعني أنه لم يحدث، وإنما احتفل بقبول هذا الوجيه الريفي، وبتقديم (الشبكة) إلى عروسه المستقبلة، على أن يكون العقد ليلة الجلوة
ومضت أيام، والتقى حامد بها خارجة من متجر كبير، فخفت إليه وهو يهم بركوب سيارته وسألته:
(لماذا هذه الجفوة؟)
فضحك وقال: (الجفوة؟ إنما أفسح لمن هو أحق مني)
فتلفتت ثم قالت: (سأصرف سيارتي وأركب معك، فهل تقبلني؟)
قال: (ليس لي خيار، أنك كهذا الهواء، لا غنى عنه)
قالت: (أشكرك) وصعدت إلى جانبه وأشارت إلى سائقها أن ينصرف. وسألها حامد: (إلى أين بنا؟)
قالت: (إلى مكان فيه هواء، وطعام، فإني جائعة وحرى)
فمضى بها إلى قهوة الحمام على النيل؛ فأكلا شيئا وشرب هو قدحا من البيرة - أو الجعة كما تسمى - وقالت له على الطعام (لماذا لم تهنئني؟)
قال: (أهنئك من أعماق قلبي، ولكن بأي شيء؟)
قالت: (بخطيبي - ثم إنك لم تحضر - لماذا؟)
قال: (آه صحيح، مبروك! لقد سمعت أنه غني جدا، ووجيه في بلده)
قالت: (نعم، إن غناه مضاف إلى غناي خليق أن يساعدني على ما يميل إليه طبعي من البذخ والترف. صحيح، فإني لا أطيق الفقر، ولا أستطيع أن أحيا حياة رقيقة الحال)
قال: (أعرف ذلك - أو أنا على الأصح قدرته)
فحدقت في وجهه فقال: (نعم، لقد انتهى كل شيء الآن فلا ضير من الصراحة، ومن الممكن أن أكاشفك بالحقيقة. . .)
فقاطعته وقالت: (هل تعني أنك. . . .)
ولم تتمها، فقال: (نعم، قدرت أن لا أمل لي، فأن عمي غني وأنا فقير، وقد عطفه علي أني ابن أخيه)
فقالت: (ولكنك لست بفقير!)
قال: (أعني نسبيا. . كل ما أكسب بعد الجهد والعناء ستون جنيها في الشهر. وما خير في ستين لمن تنفق وحدها - وهي فتاة في بيت أبيها - أكثر من هذا القدر؟)

فلم تقل شيئا، وفتر الحديث بعد ذلك، وصار متقطعا، وإن كان حامد لم يقصر في توجيهه إلى كل ناحية تخطر بالبال. ثم قاما، وإنهما ليتخطيان باب القهوة وإذا بفريدة تشد على ذراع حامد وتقول بصوت يكاد يكون همسا: (حامد! هذا هو!)

فتلفت وهو يسأل: (من؟) ولكنها ذهبت تعدو إلى السيارة وفتحت الباب الخلفي وأغلقته وراءها، وانطرحت على أرضها - لا مقعدها - فأهمل حامد السؤال والجواب، ودخل سيارته وأدر المحرك، ولم يفته أن يحكم إيصاد الأبواب حتى لا يفتحها أحد من الخارج، وأسدل الستائر الخلفية فاستحال أن يرى أحد فريدة وهي راقدة. ولم يكن حامد يعرف ممن تجري ولا كان يدري ما يخفيها ويدفعها إلى التخفي، وإنما كان يدري أنها تريد ذلك، فعليه أن يكون عونا لها

ومد يده إلى ناقل السرعة، يريد أن يضعه في المكان الأول، وإذا برجل ضخم هائل الأنحاء، ولكنه أنيق الثياب محبوكها يقول له:

(لحظة! لقد رأيت فتاة تدخل هذه السيارة، فافتح الباب من فضلك لتخرج)

فابتسم حامد وقال: (رأيت فتاة تدخل في هذه السيارة؟ أواثق أنت؟) ويلتفت وراءه ليطمئن

فقال الرجل بلهجة جافية: (أقول لك أفتح الباب)

فقال حامد: (معذرة، ولكنك مخطئ. . . . إني لست سائق سيارتك)

فاحتد الرجل وصاح به: (إنها. . . إنها. . . ألا تنوي أن تفتح؟)

وعالج الباب، ولكنه كان موصدا من الداخل، فأعياه فتحه، فارتد إلى نافذة حامد وقال بصوت اجتمع له الناس:

(افتح. . . أقول لك افتح. . . أخرج هذه الفتاة)

وصار المحتشدون على الرصيف جمعا حافلا، وأكثرهم من العامة والنوبيين، والصبيان، وسائقي السيارات المختلفة، وعلت أصواتهم بالنكات والضحك، فزاد الرجل حماقة، وجعل يدق الباب بجمع يده، وتهور فوضع قدمه على سلم السيارة وهم أن يدخل رأسه من نافذتها لينظر، فلم يبق مفر من عمل يعمله حامد ليدفعه عنه ويتخلص منه؛ ولو غيره في مكانه لكان الأرجح أن يلكمه، ولكن حامد لم ير أن يتقي شرا بشر، واكتفى بأن يطير له طربوشه عن رأسه، فطار عقله وراءه، وارتد عن السيارة لينقذه من التراب البليل - أو الوحل - وسر الناس هذا المنظر فضحكوا، وقهقهوا، واغتنمها الصبيان فرصة فاقبلوا على الطربوش يدفعونه بأرجلهم كأنه كرة ويصيحون ويصخبون، والرجل يسبهم ويلعنهم ويحاول أن يدرك واحدا منهم، ولكنه ثقيل وهم خفاف، فكف، وعاد إليه الرشد مع التعب، ونظر فإذا السيارة قد غابت!

وقالت فريدة لحامد في بيتها عصر يوم:

(هل تعرف لماذا دعاك عمك؟)

قال: (لا)

قالت: (ليسألك عما حصل في قهوة الحمام، وعلى بابها)

قال: (من أخبره؟ أنت؟)

قالت: (بل هو)

قال: (هو؟)

قالت: (نعم، ألا تعرفه؟ الخطيب! واتهمني بالسكر أيضا)

قال: (اتهمك أنت؟ ولكنك لم تذوقي شرابا سوى الماء. أنا الذي شربت بيرة)

قالت: (ولا أنت - فاهم؟)

قال مستغربا: (ولا أنا؟ ولكني شربت بيرة - ولم لا أشرب؟ وماذا يدعوني أن أقول غير الحق؟)

فهزت كتفيها وقالت: (كما تشاء! ولكني أنذرك إذا اعترفت)

فسألها متعجبا: (تنذرينني؟ لست فاهما؟)

قالت: (يا صاحبي، لا أستطيع أن أتزوج سكيرا - أنا هكذا - من الطراز القديم المحافظ)

فانتفض واقفا وصاح: (ماذا تقولين؟)

قالت بضحك: (أليس كلامي مفهوما؟)

قال: (ولكنك مخطوبة. . . .؟)

قالت: (كنت مخطوبة. . . أما بعد أن كشفت لي عن حبك المكتوم، فقد اغتنمت الفرصة وقذفت بالشبكة في وجهه)
قال: (ولكني فقير. . . .)
قالت: (وأنا أحب الفقر. . . ليس أمتع منه، لا تخف أن أجيء إليك بغناي الثقيل المنفر. . . والآن ألا تقبلني؟)
فدنا منها وهو يقول: (لم ألثم شفتيك منذ. . . .)
فقالت: (منذ يناير سنة 1927. . . دونت ذلك في مذكراتي. . . (اليوم لثم ثفتي. . . . .)

إبراهيم عبد القادر المازني

التطور والتقليد
في الأدبين العربي والإنجليزي
للأستاذ فخري أبو السعود

التطور والتقليد، أو التجديد والمحافظة، عملان خالدان يعملان جنبا لجنب ويتنازعان كل كائن حي من فرد أو مجتمع أو نظام أو نحوه. فهما يتنازعان كل أدب حي؛ وقد كان لكل من الأدبين العربي والإنجليزي نصيب من كليهما، غير أنا إذا دققنا النظر رأينا أن الأدب العربي كان أوفر حظا من التقليد أو المحافظة أو الاتباع، بينما كان الأدب الإنجليزي أوفى نصيبا من التطور والتجديد والابتداع

تطورت لغة الأدب الإنجليزي وأسلوبه: فهما اليوم يخالفان ما كانا عليه في عهد شكسبير مخالفة كبيرة، وتطورت أغراضه عامة: فصار اليوم أشد اتصالا بالمجتمع أخذا منه وتأثيرا فيه، وتطورت أشكاله: فظهرت فيه على التتابع المقالة الدورية والصورة والترجمة والقصة الطويلة والقصيرة

وتتابعت مذاهبه: فخلت المدرسة الرومانسية التي ازدهرت في عهد اليزابث، وكان شكسبير وسبنسر من أينع ثمراتها؛ وكان الخيال ووقاع البطولة وحياة الملوك والأمراء والقواد وقصص الأولين وخرافتهم مداد نظمها ونثرها؛ وتلتها المدرسة الدينية التي أطلعت ملتون وبنيان اللذين كانت أمور الدين وأخبار البعث والحساب والخلود مدار كتاباتهما؛ ثم كانت المدرسة الكلاسية في القرن الثامن عشر فافتتن زعماؤها في الشعر أمثال درايدن وبوب، وفي النثر أمثال أديسون وستيل، بمحاكاة الآثار الكلاسية القديمة من إغريقية ولاتينية في حسن الصياغة وإحكام الأسلوب؛ ثم أعقبت هذه مدرسة رومانسية أخرى في مستهل القرن التاسع عشر كان من أقطابها وردزورث وشلي وكيتس، فنبذت الاهتمام بتنميق الأسلوب وأطلقت لخيالها العنان؛ وفي أواسط ذلك القرن قامت المدرسة الواقعية تحد من ذلك الخيال الجامح وتربطه برباط الواقع، وكان من رجالها تنيسون ثم هاردي.

وكانت كل مدرسة من هذه المدارس الأدبية مرآة للحياة في عصرها: فمدرسة شكسبير كانت مرآة عصر الاستكشاف الجغرافي وكشف كنوز الأدب القديم، والمخاطرات والمغامرات في الكشف والقتال. ومدرسة ملتون الدينية كانت مرآة عصر التشدد الديني

الذي كان زعماؤه (المطهرين)؛ والمدرسة الكلاسية المنمقة الأسلوب كانت صدى لمجتمع القرن الثامن عشر المنمق الآداب والأقوال المتهافت على حياة المدن المزدري بمظاهر الطبيعة؛ والمدرسة الرومانسية في مستهل القرن التاسع عشر كانت تعبيرا في عالم الأدب عما عبرت عنه الثورة الفرنسية إذ ذاك في عالم السياسة: من نزعة إلى التحرر من قيود المجتمع وأغلال الفكر والعودة إلى الطبيعة ما أمكن؛ والمدرسة الواقعية التي تلت ذلك كانت متأثرة بالاستكشافات العلمية البعيدة المدى التي شهدها القرن الماضي. وقد تتابعت هذه المدارس جيلا بعد جيل وكانت كل واحدة منها ثورة على سابقتها تحاول إصلاح معايبها وتدارك ما أهملته

هكذا تطور الأدب الإنجليزي مع تطور السياسة والعلم والدين، وكذاك تطور الأدب العربي: فلغة الجاهلية الوعرة تلتها لغة صدر الإسلام الفحلة، فللغة الصدر العباسي الجزلة، ثم جاءت بعد ذلك لغة لينة مبالغة في اللين والأناقة، والأسلوب المرتجل المرسل تلاه الأسلوب الفني المتعمل المرصع الذي تزايد تعمله وترصيعه شيئا فشيئا؛ وتطورت أغراض الأدب وشملت من أسباب الحضارة ما لم تشمل قبل: من شؤون

الإمارة ومظاهر الترف وآثار العلم والفلسفة؛ وتطورت أشكاله: فظهرت كتب التراجم والأخبار والنقد والمقامات والرسائل المطولة. فالأدب العربي قد تطور تطورا عاما اتجه إلى ترقيق العبارة وتوسيع أغراض القول، وكان مرجع هذا التطور العام هو تحضر أبناء العربية واشتغالهم بالعلوم

ولكنه تطور عام غير محسوس كتلك التطورات السالف ذكرها في مجرى الأدب الإنجليزي؛ ومعظم أغراض الأدب العربي وصفاته توورثت جيلا عن جيل: فأغراض الفخر والمدح والهجاء والرثاء ونحوها في الشعر ظلت أبوابا ممتازة محددة يتبارى الشعراء في تناولها ولا تتم لأحدهم البراعة حتى يطرق كلا منها؛ وكتب الأخبار الأدبية والتاريخية المختلطة ظلت على وتيرة واحدة من أول ظهورها لا يختلف بعضها عن بعض في طريقة البحث والسرد وتهذيب الأبواب والفصول

ولا غرو فقد كانت تحيط بالأدب العربي ظروف كلها تدعوا إلى المحافظة والتقليد: فالمجتمع العربي ذاته كان مجتمعا محافظا لم يكد يطرأ عليه جديد من الأفكار والأنظمة بعد

تشبعه بحضارة الأقدمين وعلومهم، ولم يختلف عليه من الأحداث الاجتماعية والسياسية ما تترك صداها في الأدب: فقد كانت القصة من أولها إلى آخرها على وتيرة واحدة: أسر وأمراء يتوارثون الحكم ويتجاذبونه، وأمم مكفوفة عن شؤون الحكم إلا أن تثور ثائرتها في الفينة بعد الفينة فتقمع وتعود الأمور إلى وتيرتها، وما من نزعة جديدة أو اتجاه جديد يحول عنان الأمور إلى غير ما هي سائرة فيه

والأدباء أنفسهم كانوا منعزلين بآدابهم عن مجتمعهم قلما يعبرون عن أمانيه أو يحاولون قيادته، وكانوا أقرب مكانا إلى الأمراء منهم إلى صف الشعب، لأنهم كانوا يعتمدون على الأولين في معاشهم

ثم إن قيام الإمبراطورية الإسلامية أدى من بادئ الأمر إلى نتيجتين كانت كلتاهما ذات أثر بالغ في الأدب العربي، وكانتا عاملي محافظة وتقليد فيه: وهما فساد اللغة الفصحى تدريجيا، ودخول الأعاجم في اللسان العربي

فان فساد اللغة تدريجيا جعل الأدباء يحتذون دائما حذو المتقدمين من العرب الأقحاح، ويتخذون من كلامهم نماذج وشواهد، وصار حسب الشاعر المتأخر أن يجاري المتقدمين في جزالة القول وإحكام النسج ليكون قد بلغ مبالغ الشاعرية، ولا يكاد يخطر له أن يبرز على أولئك المتقدمين ويبتكر ما لم يعرفوا، وهو وإن لم يرد إلا محاكاة أسلوبهم إلا أن ذلك مؤديه حتما إلى محاكاة أفكارهم، ومن ثم التقليد والمحافظة

والأعجام الذين دخلوا في اللسان العربي انكبوا كذلك على دراسة المتقدمين وانصرفوا إلى محاكاتهم تقويما لعربيتهم وطلبا لأسرار اللغة وقواعدها؛ ولا يخفى أن كثيرا من أقطاب الأدب المتأخرين كانوا من هؤلاء الأعجام المستعربين، فكان تأثيرهم في الأدب تأثير محافظة وتقليد ونظر إلى القديم

وقد تزايد تبجيل كل ما ورد عن المتقدمين حتى قارب منزلة التقديس وإن قام من الأدباء من ينكره ويثبت الفضل للمتأخرين، وكان من آثار هذا التقديس وهذه المحاكاة الدائبة ما نرى في الأدب العربي دون غيره من الآداب من ظواهر بتراء ليست من التعبير عن الواقع ولا من الابتكار في شيء: كالغزل الاستهلالي، وذكر الإبل والحداء والبيد، ومعارضة القصائد المشهورة بمماثلاتها في الغرض والوزن والقافية

وهناك بابان من أبواب الشعر كان مجرد بقائهما عامل تقليد ومحافظة في الأدب: هما المدح والهجاء المتكلفان طلبا لصلات الممدوح أو لهبات خصم المهجو، فقد كان الشاعر مثلا يمدح قائد الخليفة أو وزيره مادام مرضيا عنه، فان نكب تقرب الشاعر إلى الخليفة بذمه؛ وقد كان أكثر المدح والهجاء من هذا النوع المتكلف المستمنح، وما لم يصدره الشاعر عن شعور حقيقي فسبيله فيه أن يحاكي ويأخذ ممن تقدم نقصا وزيادة وتخريجا وتوليدا، لذلك ظلت معاني المدح والهجاء وتشبيهاتهما في مختلف العصور تحوم حول أقوال المتقدمين، وأثر هذا جلى في جمود الأدب وتقيده بالقديم بدل اتجاهه إلى مناح جديدة

ثم هناك عامل كبير بين عوامل محافظة الأدب العربي، هو اعتزال ذلك الأدب غيره من الآداب، فالأدب ككل كائن حي يجمد ويتضاءل إذا لم يتصل بغيره، فتتجاوب

الاحساسات والأفكار، وقد كان من أكبر عوامل رقي الأدب الإنجليزي وتطوره اتصاله بالآداب المعاصرة ورجوه إلى الآداب الكلاسية، أما الأدب العربي فلم يكن له مرجع عدا ماضيه، فظل دائما ينظر إلى الخلف بدل أن ينظر إلى الأمام، ولو استفاد من الأدب الإغريقي مثلا لكان له تاريخ غير تاريخه المعروف

كل هذه عوامل سياسية واجتماعية وأدبية أدت إلى ضعف رغبة التجديد واستفحال نزعة التقليد في الأدب العربي، ومن ثم ظل طوال العصور يردد ألحانا بعينها حتى بلغ ما يمكن أن يبلغه مثله من الرقي، ثم انحدر في طور تدهوره الطويل، وكان من أكبر عوامل هذا التدهور تغلب نزعة التقليد فيه على نزعة التطور.

فخري أبو السعود

إلى الشباب الناهض

الأدب الاهي. . .

للأستاذ محمد روحي فيصل

قال صاحبي:

(والأدب لو تدبرت متعة تلهو بها النفوس، ولذة تنشط لها العقول، وفن جميل نقرؤه فتبرز الأحلام، وتتدافع الخواطر، وتخف الحياة، ثم نخلص إلى عالم حلو لا تجثم عليه أثقال السعي والعيش، ولا تحده قيود الجد والوقار. .)

وسكت هامسا قد انفجرت عيناه الصغيرتان تستطلعان في وجهي أثر الحديث، وتتبينان ما عسى أن أقول، فراعه أن أجمع الأنف وأزوي اللحظ وأقطب ما بين الحاجبين، ثم أقوم هادئا إلى مكتبتي المتواضعة فأنزع منها رسالة في مائة صفحة قد ألفت النظر إليها والإنعام فيها منذ سنوات، فما أتركها إلا لنوم أو طعام، أو شأن من شؤون الدنيا. وشرعت أتلو على صاحبي صفحة موجزة ليست جديدة في روحها ومعناها لدى القراء، ولكنها جديدة طريفة في عيني، أريد أن أذيعها اليوم في الناس ليتدبروها وليروا الرأي الذي يرتئون فيها

فافتح إن شئت أية مجلة عربية، فانك لا شك واجدها قد جردت كثيرا من صفحاتها للشعر، أو للشعر المنثور، أو لغير هذا من القطع الفنية مما يسمونه أدبا، وما هو من الأدب الصادق الصحيح في شيء! والظاهر أن اعتبار الأدب وسيلة للتعابث والمفاكهة، أو للتظرف والمنادمة، هو علة هذا الهراء والهذيان، وسبب قوي لكل ما يعتري الآداب والفنون من انحطاط وإسفاف، وما يتدسس إليها من ألوان المجانة وفضول الكلام.

ونحن في هذه العجالة إنما نبغي تبيان أوجه الخطأ في هذه النظرة اللاهية الهازلة، والكشف عن عقمها وفسادها، وعن نتائجها الخطيرة التي تقتل في الأدب روح الجد والصدق والطبع

وقبل أن نخوض في هذا الحديث الذي يستشرف له القلم اليوم نقرر أن النهضات القومية التي تحدو بالأمم في مدارج العظمة والمجد، وتنفث في الشعوب معنى القوة والاستقلال، لا تطلع عليها إلا إثر النهضات الأدبية التي تهتاج فيها النفوس، ويتيقظ الشعور، وتلتهب العواطف، ويتحرك الكامن من الهواجس والأماني، فيكون الأدب بمثابة ناقوس يهيب بالركب الغافي إلى المسير والعمل. فهذه ألمانيا لم يستطع بسمارك تأليف وحدتها وضم

دويلاتها بعضها إلى بعض إلا بعد أن تذوق الألمانيون آثار جوت وشيلر وهيني وليسنغ وهردر. وهذه فرنسا ما نهضت في الثورة الكبرى إلا بعد أن شاعت بين أبنائها مؤلفات روسو وفولتير ومونتسكيو. وشبيه بذلك إنجلترا في القرن السابع عشر يوم هبت للحياة العالية وللفتح والسيادة، فقد كان شكسبير وغير شكسبير نشروا قبل ذلك في الأمة الإنجليزية أرواحهم الحية ونفثاتهم القدسية

هذا ما تستفيده الجماعات من الأدب؛ ولعل ما يعود منه على الفرد أجل وأرفع، ذلك بأن الأدب باب كبير من أبواب السعادة، وطريق ناعم ناضر تشم من جوانبه روائح الورد، وتمتع باصريتك في مسالكه بأكمام الزهور، وتتسمع في أجوائه إلى أناشيد البلابل الثائرة الخافقة. انك بالأدب تحيا حياة طيبة راضية، تحيا حياة موسعة (مضاعفة) تحسها في أعماق قلبك، وفي رجع شهيقك وزفيرك!

إن العطف والألفة قوام الهيئة الإنسانية، فلا ينعم امرؤ بالانفراد ولا يهنأ بالوحدة، وأحسب لو أن الناس جميعا كانوا فجرة خسرة لا يجوز منهم إلى جنة الله غير رجل

واحد لكان هذا الرجل الصالح أنكد حظا وأسوا مقاما ممن هم على النار يتقلبون! كأني أراه في جنبات الفردوس وعلى ضفاف الأنهار يمشي على غير هدى وإلى غير غاية حتى تبلى قدماه، وينظر إلى أفاويق النعيم وألوان الجمال فتبدو له كئيبة محزونة، ثم يرتمي في الجحيم الصالي يفضله على هذا النعيم الذي لا يرى فيه من يقول له: ما أرغده! ويحب ذو النعمة الحسد، ولو نزع من الصدور لاشتراه وفرقه على الناس مجانا ليحسدوه على ما به من نعمة! ويرتاح العاشق إلى من يتحدث إليه عن فرحة حبيبة وغضبة عذولة. . . فالسعادة كما ترى لا تتم حتى تستجلي مثالها في المرآة، والإنسان لا يطرب حقا إلا إذا رأى كلا م النفس مسطورا على قطعة من طرس

فما دام التعاطف عماد الحياة فلن يوجد بغير تعبير، لأن الحياة لا يمكن أن تكون بغير أدب؛ تصور أمة تتملى في نفسها شعورا ساميا: هذا تطمح آماله إلى السيادة، وهذا يدفعه حب الخطر إلى جوب البحار ومجاهل الأرض، وذاك تترع قلبه بهجة الجمال وفتنة الحسن؛ تصور أمة تجيش في نفوس أبنائها مختلف الميول والأهواء ملحة قاسية، مكتظة دافقة؛ أفتستطيع أن تتمثلها حريبة من الأدب؟ أما أنا فلست أعرف أمة حية لم يكن لها أدب

جميل؛ فان أمة لا تعرف الشعور مكتوبا لا تعرفه محسوسا

فالأدب كما ترى ليس حلية تزين بها الأمة جيدها، وليس هو ألهية من الألاهي كما يزعم الأستاذ شفيق جبري لأنه لو كان كذلك لانتظم في سمط الكماليات، والأدب إنما هو ضرورة من ضرورات الحياة، وشرط لازم لها، لا يمكن تخيلها ولا تكمل سعادتها بدونه ما ينبغي أن يكون الأدب ألهية من الألاهي نعبث بها على ما تقتضيه المآرب وترتضيه الأهواء، فان الشر كل الشر في هذه النظرة الخاطئة، ذلك بأن الألهية تصدفنا عن جليل الحياة وعظيمها، وتدفعنا إلى عالم البطالة نلهو ونعبث؛ فإذا نحن رحنا نصور ذلك ظفرنا بما لا خطر فيه ولا قيمة له، ونكون كمن فاز بالقبض على الريح. واعتبار الأدب ألهية يهيب بالمتأدب إلى أن يتحرر من ربقة الجد واللمحة الصادقة، فيهذي لغوا تقرؤه العقول في ساع كلالها وفتورها، أو يستمع الناس إليه كما يستمع الوالدان إلى ولدهما المحبوب وهو يلثغ بالألفاظ والكلمات، فإذا كذب أو أخطأ أو مسخ الحقيقة أو شوه الفضيلة غفر له ذلك

ولعل في النظر إلى الأدب كألهية مدعاة إلى التزويق في البيان، والإكثار من المحسنات البديعية من جناس وتورية وطي ونشر، فينعدم الطبع ويغدو الشعر مجموعة من الألاعيب اللفظية والتهريج الكلامي. والحق أننا بلغنا في هذا غاية ننكرها ونأسف لها، فنحن ما نزال نخطئ في تقديرنا للشعر، وفهمنا للمعاني، ونقدنا لفنون القول والبيان، وما نزال بسطاء سذجا تخدعنا البهرجة الكاذبة والطلاوة العابثة، وتفتتنا الألاعيب اللفظية والأناقة الكلامية، وترانا على ثقافتنا وجلال نهضتنا نجهل كل الجهل مقاييس الأدب الصحيحة، وحدود الجودة والرداءة، ومواطن الجمال والدمامة، نستحسن ما تغثى منه النفس وما هو حقيق بالنبذ والإهمال، ثم نستقبح ما قد يكون في الذروة من البلاغة الرائعة! فما أحوجنا إلى إصلاح هذه النظرة العقيمة التي نزن بها الآثار الفنية، وتصحيح الذوق الأدبي المقلوب! وما أفقرنا إلى من يأخذ بأيدينا إلى النماذج الحية فيدلنا على قوتها وحسن تمثيلها، وإلى السخافة المرذولة فيرينا وجه ضعفها وعبثها! وعندي أن كل إنتاج في الأدب لم يبدأ بهذا الإصلاح على هذا النحو فإنما هو محاولة فاشلة فائلة، ومضيعة للجهود المبذولة في غير طائل. . .

لقد كنا إلى عهد قريب أمواتا نرتدي معالم الأحياء، أمواتا في حسنا وشعورنا وتفكيرنا، أمواتا في أهدافنا ومثلنا العليا، أمواتا في نظمنا ومراقفنا الاجتماعية، أمواتا في كل شيء لا يسمع لنا نبض ولا خفق حياة. كنا أحياء نعيش في العدم أو يعيش العدم فينا، كأن الغيب الجليل الهازل قد قذفنا من جوفه جثثا هامدة تغدو من المهد في لحد ومن اللحد في مهد! فأنت، إذ تدرس الأدب العربي في هذه الفترة الغافلة من الزمان التي دامت ما يقرب ألف عام، لا تجد أثرا لما يعتلج في النفوس الخافقة من ضروب العواطف وشتى الانفعالات، وما يجري في الهواجس من الأحلام والأوهام، وما ينتاب الضمائر من قلق أو يأس أو ألم، وإنما تلفي أدبا فارغا أجوف يفيض بالإحساس المعكوس والإسفاف المخل والصناعة البديعية أو التدجيل الذي يعتمد على الطباق والجناس والمقابلة وما إليها! وحسبك أن تقرأ شعر أبن نباتة وأبن معتوق والحلي لتلم

بطرف من شعر اللفظ البالي الهزيل الذي يحبس المعاني المشبوبة في أضيق الآفاق!
ثم اتصلنا بالغرب في يوم إسماعيل وبعده، وكان اتصالا وثيقا تناول بالتغيير بعضا من العادات والأوضاع المعيشية، وكثيرا من طرائق التفكير والتعليم؛ وكان للآداب من هذا التطور نصيب وافر، فإن المتأدبين الذين درسوا في معاهد أوربا عادوا إلى ديارهم بعد ذلك يحملون رؤوسا وقلوبا غير التي كانوا يحملون، ذلك بأنهم تذوقوا أشتاتا من الأدب الحي، وبلوا شخصيات من الشعر متمايزة، وفقهوا أساليب النقد الحديث، ولما أرادوا القيام برسالة (الحياة) شرعوا في الهدم وإزالة الأنقاض وتنبيه الأمة إلى مواطن النقص والهزل والكذب
هذا جماع ما يعتري الأدب في اعتباره ملهاة وتسلية؛ ولو أننا شئنا التمثيل لأتينا بهذا الغرض الوضيع الذي يكاد يكون كله غلوا وعبثا، ذلك هو المدح، ومن البديهي أن يكثر فيه الغلو البشع لأن الممدوح ليس يرضى إلا إذا خلعت عليه صورة ترفع من قدره وتعظم من شأنه، ولأن المادح إنما جل همه التكسب والاستجداء. فلا بد إذن من المبالغة والكذب في الإحساس والتوشية المموهة، ولذلك كان المدح من أنواع الأدب الرخيص
وإنما الأدب العالي الرفيع تصوير لما يتردد في أطواء النفس من النزعات والمشاعر، وترجمة لما يجول في الخاطر من الهواجس والأحلام، أو لغير هذا من صروف الحياة وأحداثها - يرسم الشاعر ذلك كله لا هازلا ولا عابثا وإنما جادا كل الجد، صادقا تمام الصدق مخلصا أوفي الإخلاص!
ارجع إلى نفسك حين تكتب، فخذ عنها واستوحها، وليكن لك من صدق إحساسك ودقة تأملك وصفاء بصيرتك ما تكشف به عن ألوان الحياة النامية الزاخرة التي تسعى في تلافيف قلبك وثنايا ضلوعك بحيث تجد لها صورتين: أولاهما في الضمير وأخراهما على القرطاس. فلن يكون الأدب أدبا إلا إذا صدر عن صاحبه كما تصدر الزفرة عن فؤاد المصدور والدمعة عن عين المحزون؛ وإذا بهرك أن الشاعر أو الكاتب يبدع في التصوير ويسمو في البيان فينبغي أن تؤمن أن الرجل إنما يذيب من لحمه وعصبه، ويريق من مائه ودمه في سبيل الفن والأدب! والاستحسان إنما يجب أن يكون في إطار هذا الأدب السامي الرفيع يرسله المبين لا خادعا ولا مشعوذا وإنما مصورا مشاعره البينة النيرة ونزواته الخفية المكبوتة. فأنا إذ أنقد أنظر إلى إحساس الشاعر هل كان نافذا عميقا؟ وإلى نظرته هل كانت عامة شاملة؟ ثم إلى تعبيره هل كان فيه مجيدا موفقا؟ فإذا تبين لي هذا كله على نحو ما أريد استحسنت وفضلت، وأنا محق فخور في استحساني وتفضيلي. وقد يكون من الخير أن نضرب لذلك مثلا نوضح فيه هذا الذي نزعم، فقد تغني الأمثلة عن تقرير القواعد النظرية والشروح المستفيضة ما اختلف عربي إلى جامع بني أمية في الشام إلا أخذته حالة نفسية خاصة ببقايا المجد والعظمة، يحسبها في أطوائه غامضة مبهمة، كئيبة متحسرة! فإن كان مبينا فصيحا وشاء نشرها وتوضيحها لم يزد على قول أمير الشعراء:
مررتُ بالمسجد المحزون أسأله ... هل في المصلى أو المحراب مروان
تغير المسجد المحزون واختلفت ... على المنابر أحرار وعبدان
فلا الأذان أذان في منارته ... إذا تعالى ولا الآذان آذان!
هذه أبيات صادقة لا تمويه فيها ولا تضليل، نظمها الشاعر في قالب رائع جميل، ولعل في بسط الحزن على المسجد ما يضاعف هذه الروعة التي لا تلمحها في الكلمات منفردة، وإنما تلحظها منبثقة من خلال الاتساق والانسجام. إنه ليحلو لي هذا التساؤل عن مروان، وهذا الترجيع للمحزون فاقبع في مكاني هامسا في خفوت (وا حسرتاه على شوقي!)
ولنتأمل - في روية وإنعام - صورة هذا العزيز المهان التي يعرضها علينا شوقي:
بنت فرعون في السلاسل تمشي ... أزعج الدهرَ عريُها والجفاءُ
وأبوها العظيم ينظر لما ... رُدِّيت مثلما تُردى الأماءُ
أُعطيتْ جرة وقيل إليك النهـ - ر قومي كما تقوم النساءُ
فمشت تظهر الأباء وتحمي الدمـ - عَ أن تَسترقه الضراءُ
فبكى رحمة وما كان من يبـ - كي، ولكنما أراد الوفاءُ!
ما أريد أن أتناول هذه الصورة الشعرية الرائعة بالتحليل أبين مواضع قوتها وجمالها،

فأنني إن لمستُها أخشى تشويهها والحط من شأنها، فحسبي وحسب القارئ تلاوتها في هدوء نتملى معا حلاوتها ونستشعر نضارتها. . إنما أطلب في رفق ولين، إلى الشباب الناهض، أن ينظر الأدب بعين الجد والصدق حتى ينتج مثل إنتاج شوقي الخالد

حمص (سورية)

محمد روحي فيصل

للأدب والتاريخ

الرافعي - 3

بقلم تلميذه وصديقه

الأستاذ محمد سعيد العريان

تتمة

أيمانه:

والرافعي رجل مؤمن إيمان فكر وعقيدة، تشرق قلبه وعقله حقائق هذا الدين، فهي كأنما تأتيه تلتمس في كتابته وشعره حياة تكون بها في الناس معنى يقدرون على فهمه، إذ لا يستطيعون أن يفهموه بأنفسهم، فمن ثم تراه حين يكتب عن الدين يتدفق تدفق البحر، وتتدافع معانيه تدافع الموج، وتزدحم أفكاره ازدحام اللجة؛ ومن هنا تغمض معانيه على بعض من لم تشرق حقائق هذا الدين على روحه وفكره

وما سهل أن تجد كاتبا غير الرافعي يكتب بهذا الأسلوب في هذه المعاني؛ فأنك لترى إيمان أكثر من تعرف، فكرة يستبد بها العقل المتقلب، فهو إيمان متقلقل يتنازعه الشك، لا يأخذ ولا يدع إلا بحذر؛ أو تراه إيمان عقيدة موروثة تستبد بصاحبها استبداد الجهل والتقليد، فهو إيمان جامد، لا يأخذ ولا يدع إلا ما أريد على أن يأخذ وأن يدع.

وقلما تجد غير هذين من يؤمن إيمان الفكر والعقيدة معا؛ ولو قد وجد من يؤمن هذا الأيمان، لرأيت الإسلام ينبعث اليوم كأوله، ولعادت المعجزة الإسلامية تكتب فصلا جديدا في تاريخ الإنسانية

والرافعي بأيمانه ذاك ينقاد للمقدور انقياد الطاعة، واثقا أن لا مفر للإنسان مما قدر عليه؛ فلا تراه يتبرم أو يتسخط لشيء يناله، وتسمعه يقول: (جئنا إلى هذه الحياة غير مخيرين، ونذهب غير مخيرين، إن طوعا وإن كرها؛ فمد يدك بالرضى والمتابعة للأقدار أو انزعها إن شئت، فأنك على الطاعة ما أنت على الكره، وعلى الرضى ما أنت على الغضب؛ ولن تعرف في مذاهب القدر، إذا أنت أقبلت أو أدبرت أي وجهيك هو الوجه؛ فقد تكون مقبلا والمنفعة من ورائك، أو مدبرا والمنفعة أمامك، والقدر مع ذلك يرمي بك في الجهتين أيهما شاء. وحري بمن يوقن أنه لم يولد بذاته، ألا يشك في أنه لم يولد لذاته، وإنما هي الغاية

المقدورة المتعينة، فلا الخلق يتركونك لنفسك، ولا الخالق تارك نفسك لك. . .) فمن ثم ترى الرافعي دائما يحسن الظن بالغد ويراه خير أيامه، فهو يحاول أن يجعل من كل ألم يناله لذة يشعر بها نفسه، ومن كل فادحة تنزل به خيرا يترقبه ويهيئ له، وهو يفصح عن ذلك المعنى في مقالاته: سمو الفقر، وحديث قطين، وبين خروفين، والانتحار، وكتاب المساكين، أدق إفصاح وأبلغه

ولعل أحدا لا يعرف أن الرافعي لا يرى في تلك العلة التي أودت بسمعه وهو غلام بعد، إلا نعمة هيأته لهذا النبوغ العقلي الذي يملي به في تاريخ الأدب فصلا لم يكتب مثله في العربية منذ قرون. ولا شيء غير الإيمان بحكمة القدر وقانون التعويض، يجعل الإنسان أقوى على مكافحة أحداث الزمن، فلا تأخذ منه النوازل بقدر ما تعطيه. . .

حياته الخاصة:

وبعد، فأنا قد رأيت الرافعي يكتب، وجالسته وهو يفكر، وجلست إليه ليملي علي، وصحبته في غدواته وروحاته، وأشركني في مطالعاته، وأخذ مني وأعطاني؛ فمن حق العربية علي أن أصف بعض ما أستطيع مما رأيت

وحياة الرافعي بسيطة كل البساطة؛ فهو في أشيائه بعيد كل البعد عن التأنق، ولا يعتد بالعرف اعتدادا كبيرا. تراه في الديوان، وفي البيت، وفي الشارع، وفي القهوة - رجلا كبعض من تعرف. ولو أنك ذهبت إليه في الديوان، ورأيته جالسا إلى مكتبه، يوقع على هذه الورقة، ويراجع تلك الحسبة، ويحادث الناس ويحادثونه. . . لشككت أن يكون هذا هو الرافعي؛ وقد يميز مكتبه عن مكاتب غيره من الموظفين بضع صحف مركومة إلى

جانب، أو كتاب جديد مستند إلى كتاب، على أنه في عمله معروف بشدته وعنفوانه، وكثرة دلاله أيضا. . .!

وفي البيت قلما تجد الرافعي إلا جالسا إلى مكتبه مطالعا أو كاتبا، وتكاد غرفة كتبه أن تكون كل نصيبه من الدار. . . وله صبرا عجيب على العمل؛ فهو حين يجلس للمطالعة قد يظل ثماني ساعات لا يزايل موضعه. ولا يسهر خارج الدار عادة إلا ليلة أو ليلتين في الأسبوع، وسائر لياليه عمل مستمر في الكتابة أو المطالعة؛ ويندر أن يأوي إلى فراشه ليلة قبل الثانية عشرة؛ وقد كان له عناية كبيرة بالرياضة البدنية إلى عهد قريب، وهو يحاول

معظم تمرينات (صاندو) الرياضي المشهور؛ وترى صورته قريبة من مكتبه، إلى جانب صورة محمد عبده، وجمال الدين، و. . . وملكة الجمال التركية كريمان هانم خالص. . .!

وهو لأولاده أخ أكبر، لا يدخل أحدهم إليه في مكتبه لأمر إلا داعبه بكلمة عذبة أو إشارة لطيفة، ولكنه قلما يدخل إليه أحد منهم إلا إذا دعاه، لتخلو له جلوته

وإذا أراد الرافعي أن يسهر ليلة خارج الدار؛ فليس إلا في السيما أو القهوة، وذهابه إلى السيما عمل أدبي أيضا. . . فهو لا يميل إلا لمشاهدة نوع خاص من الروايات الفنية، يكون له منها مادة وحي. . .

وحتى في القهوة لا يريد أن يمضي وقته عبثا؛ فلابد من صحف أو كتب أو مجلات، يمضي بها الوقت، أو يفرغ منها مع الوقت؛ فتراه مكبا على كتابه، وفي يمينه قلم يشير به إشاراته، وفي يساره لي الكركرة، وفمه إلى فمها يبادلها أنفاسا بأنفاس. . . فإذا فرغ من الكتاب ومن الكركرة أقبل على جليسه بحديث عذب، أكثره دعابة وأقله هزل. . . وإذا أردت أن تستمع إلى الجد الهازل، أو الهزل الجاد، فاجلس إلى الرافعي لحظات. . .

ولصوته رنة عذبة، كانت حبسة من مرض فعادت لحنا من الموسيقى؛ فأنت تميّز صوته بلهجته ورنينه بين مئات الأصوات. ولو سمعت الرافعي خطيبا لما حسبته هو الواقف أمامك يخطب؛ فإن صوته يعلو ويعلو، ويمتد امتداده في الجهات الأربع، ثم يعود إليك عود الصدى من مكان بعيد، أرن أغن مندفعا متحمسا ينسيك الزمان والمكان والناس، فإذا أنت حيث يريد أن ينقلك. ولكنك مع الأسف قلما تسمعه خطيبا، لأنه يجهد في الخطابة جهدا كبيرا يبلغ منه. فهو لا يخطب إلا حين يدعو نفسه أو يدعوه الموضوع، فيحمل نفسه على ما يكره. . . فإذا دعوته أنت أنكر على نفسه أنه خطيب؛ ومن أين له أن يعرف. . .؟

وفي الرافعي كثير من الاعتداد بالنفس بقدر ما فيه من التواضع، ولا أحسب أحدا يؤمن باجتماع هاتين الصفتين فيه من جلسة واحدة، فقد يستقبلك لأول ما يعرفك بدعابة أو نادرة، أو ينصرف عنك إلى كتابه، أو يقبل عليك في صمت وأنت تتحدث إليه، أو يأخذ عليك أشتات الحديث فلا يدع لك أن تتكلم، فتنصرف وما عرفت إلا لونا واحدا من أخلاقه. وجلساء الرافعي قليلون على كثرة من يعرفهم ويعرفونه.

كيف يكتب؟

وهو حين يهم أن يكتب، يختار موضوعه، ثم يتركه للفكر يعمل فيه عمله، وللواعية الباطنة أن تهيئ له مادته، ويدعه كذلك وقتا ما، يطول أو يقصر، يقيد في أثنائه خواطره؛ لا تكاد تفلت منه خاطرة؛ وهو في ذلك يستمد من كل شيء مادة وحي، فكأن في الموجود الذي يراه صوتا يسمعه، وكأن لما يسمعه لونا يراه، وكأن في كل شيء شيئا زائدا على حقيقته، يملي عليه معنى أو رأيا أو فكرة

فإذا اجتمع له من هذه الخواطر قدر كاف، يأخذ في ترتيبها معنى إلى معنى وجملة إلى جملة، وهذه هي الخطوط من هيكل المقالة

ثم يعود إلى هذه الخواطر المرتبة، ينظر فيها، ويزاوج بينها، ويكشف عما وراءها من معان جديدة وفكر جديد؛ ولا يزال هكذا يزاوج ويستولد، ويستنتج من كل معنى معنى، وينفلق له عن كل رأي رأي، حتى تستوي له المقالة فكرة تامة بعضها من بعض، فيكتبها

ولا تراه حين يكتب أو يملي ينظر إلى أصول المقالة بقدر ما ينظر في أعماق فكره إلى ما يتصل بمعنى ما يكتب؛ فقد يكون المملى منه صفحة أو صفحتين، فيملي

صفحات وصفحات

ومذهبه في الكتابة إعطاء العربية أكبر قسط من المعاني؛ فهو لا يكتب الكتابة الصحافية السوقية، لأن الهدف الذي يرمي إليه هو أن يضيف ثروة جديدة إلى اللغة. ولن تجد كاتبا غير الرافعي يجهد جهده فيما يكتب فلا يحاول مرة أن يسخر من قرائه أو يشعوذ عليهم ليملأ فراغا يريد أن يمتلئ

وميزة أخرى تراها في كتابة الرافعي، هي أنه لا ينحرف مرة واحدة عن مذهبه في المادة والموضوع، فهو هو منذ كان إلى اليوم، لم يرجع عن رأي رآه، أو يناقض نفسه في منهج ابتدعه، وهذا بعض أسرار الإيمان في هذا الرجل الذي لم يغالط نفسه قط وله فلسفة خاصة به، تعرف فيها طابعه وخلقه ومزاجه، على حين ترى أكثر فلسفة المتفلسفين من أدبائنا مزقا مرقعة من آراء فلان وفلان. . . وإني لأشهد أن هؤلاء أكبر من أي فيلسوف في الأرض، لأنهم وعوا في رءوسهم آراء كل فلاسفة الأرض. . . ثم لم يزيدوا .!

وحظ الرافعي من لغة العامة كحظه من الفرنسية. . . فأكثر لغته من الكتب، وقد استغنى بالاطلاع عن الرواية، وبالقراءة عن المدارسة والاستماع؛ وهو مع ذلك قد يصنع أغاني شعبية بديعة، بالغة الغاية في بلاغة العامية، من دون أن ينحرف في ذلك عن أسلوبه في البيان العربي وطريقته في توليد المعاني؛ ولعل قراء (الرسالة) لم يزالوا يذكرون له (أغنية الزبال!) وتراه إذ يحاول أن يصنع شيئا من ذلك يرجع إليّ ليسألني عن كلمة أو تعبير مما ينطق العامة؛ فأقوم حينئذ منه مقام قاموس العامية . .

وهو مع ذلك لا يرى أكثر ما تكتب الصحف إلا عامية راقية. . . فهو يشكو دائما الجو العامي الذي يحوطه، فكيف به لو كان يسمع لغو الناس. . .؟ ومن ثم لا يهم الرافعي أن يكتب إلا حاول جاهدا أن يتخلص من هذا الجو الذي كان فيه، فيرجع إلى بعض كتب العربية يقرأ منها صفحات كما تتفق، ليعيش لحظة قبل الكتابة في بيئة عربية فصيحة اللسان. وخير ما يقرأ في هذا الباب كتابات الجاحظ وابن المقفع. وأحب الكتب إليه من بعد، كتاب الأغاني لأبي الفرج

ولكتابة الرافعي جرس موسيقي خاص تتميز به، حتى ما يمليه على عجل بلا إعداد ولا توليد؛ وكثيرا ما يملي بلا إعداد صفحات وصفحات، وقد أملى عليّ مرة مقالاً طويلاً في الرد على بعض الأدباء، استغرق تسعة أعمدة من صحيفة يومية، على حين لم يستغرق إملاؤه ساعات؛ ولعل تعبي في كتابته كان أكثر من تعبه في إملائه . . .!

والرافعي على ما يبدع في كتابته، لا يرى ما كتبه يرضيه بعد الفراغ منه بساعات، فهو دائما يطلب الأعلى؛ وهو نوع من التواضع ونوع من الطموح في وقت معاً . . .!

ويتهم الرافعي بالغموض أحياناً؛ وليس ثمة غموض فيما يكتب إلا عند من لم يتزود من الأدب الصحيح، أو يتعود قراءة أدب الرافعي؛ على أن كتابته في مجموعها لاتصل إلى نفس قارئها إلا أن يقرأها قراءة الشعر، بعقله وروحه، لا قراءة القصص والروايات، يفتش بعينيه بين السطور عن معنى يسليه، أو حادثة يزجى بها الفراغ. . . ونصيحتي إلى الذين يطلبون التسلية في الأدب، ألا يقرءوا كتب الرافعي، فإنها لن تجدي عليهم شيئا. . .!

وقد يطلب إليه الكثير من ناشئة الأدب أن يجعل أدبه أهون مما هو أو أقل دسما، فيأبى أن ينزل إلى ذاك؛ ومذهبه أن يحاول جذب الجمهور إلى أعلى، بدل أن يتدلى هو إلى الجمهور، وأن يكتب ما يرضي الفن لا ما يرضي الناس. على أنه لو أراد الرافعي أن

ينزل لما استطاع أن ينزل إلا أن يصير شيئا غير الرافعي لأنه على مقدار عمق الفكرة، يكون عمق الصورة اللغوية التي تتأدى بها، ولن يستطيع كاتب من الكتاب - فيما أرى - أن يرضي الفن ويرضي الجمهور في وقت واحد، حتى لو كان يكتب بلغة العامة، فان الكتابة لغة وفكر، أفتراه أن كتب بلغة العامة، يكتب أيضا بأفكار العامة. . .؟

وقد أخذ الرافعي منذ أكثر من عام يكتب في (الرسالة) نوعا أحسبه جديدا في الأدب العربي، جمع إلى الرافعي طائفة من القراء لم يكونوا يقرؤون له، وعرفه إلى الذين لم يكونوا يعرفونه إلا من خلال ما يكتب عنه خصومه. ولا أدل على قيمة هذه المقالات، من ترجمة بعضها إلى غير العربية، على ما في ترجمة كتابة الرافعي من

عنف ومشقة!
وأذكر أن بعض المستشرقين في الألمان يعنى بوضع كتاب بالإنجليزية عن (زعماء الأدب العربي الحديث) بمعاونة الأستاذ طاهر الخميري المغربي، وقد وضع الجزء الأول منه عن خمسة من كبار كتابنا، فلما قرأ مقالات الأستاذ الرافعي في (الرسالة)، كتب إليه منذ قريب رسالة طويلة يثني عليه ثناء بالغا، ويعده بأن يصحح أغلاطه في الجزء الثاني من الكتاب. . . .!
الرافعي القصصي:
لم يكن الأستاذ الرافعي معروفا بكتابة القصة، حتى جاءت قصصه في (الرسالة) برهانا على نوع جديد من عبقريته، وهو يروي أكثرها عن السلف من الأئمة والخلفاء، فما منزلة هذه القصص من الحقائق التاريخية؟. . . هذا سؤال أحسب الكثير من القراء ينتظر الجواب عنه؛ ذلك لأن كثيرا منهم لا يرى للرافعي فيها يدا إلا أن يجليها لوقتها. وأي يد هذه. . .؟
وطريقة الرافعي في كتابة هذا القصص غريبة، فمعظمه لا أساس له من الواقع، أو أن له أساسا لا يلهم هذه القصص الطوال البديعة في خيالها وموضوعها وفنها، وإنما هو يفكر في موضوع الحكمة التي يريد أن يلقيها على ألسنة التاريخ - على طريقته في تأليف مقالاته - فإذا انتهى إلى ذلك تناول كتابا من كتب التراجم الكثيرة بين يديه، فيقرأ منها ما يتفق حتى يعثر باسم ما، فيدرس تاريخه، وبيئته، وخلانه، ومجالسه، ثم يصنع من ذلك قصة لا تزيد على سطور، يجعلها كالبدء والختام لموضوعه الذي أعده من قبل، وإنه ليلهم أحيانا
ويوفق في ذلك توفيقا عجيبا، حتى تأتي القصة وكأنها بنت التاريخ، وما للتاريخ فيها إلا سطور، أو إلا أسماء الرجال. . . .
على أن وجه الإبداع في ذلك، هو قدرة الرافعي على أن يعيش بخياله في كل عصور التاريخ، فيحس إحساسه ويتكلم بلسان أهله، حتى لا يشك من يقرؤها في أنها كلها صحيحة من الألف إلى الياء. . . .
فليزدنا الرافعي من هذا الباب ليعرف دعاة الجديد أي رجل هو من رجالات العربية، وما أشك أن هذا النوع من الأدب سيكون له فصل بعنوانه في تاريخ الأدب الحديث أراني قد أطلت وما استوفيت، على أني ما قصدت إلى دراسة الرافعي، وإنما هو إلمام سريع ببعض جوانبه، على مقدار ما يتهيأ في الذاكرة من الخواطر لوقتها، فمعذرة، وإلى اللقاء بعد جمام. . .
(طنطا)
محمد سعيد العريان
دراسات في الأدب الإنكليزي
وليم وردزورث - 2
بقلم جريس القسوس
- المتاخمون
وعلى أثر هذه الهبة أخلد وردزورث إلى السكينة في بيته الجديد في (راسيدوم لودج) في مقاطعة دور تشاير منقطعا عن العالم وعاكفا على المطالعة والإنتاج، وفي بيته هذا نظم مأساته الشعرية المشهورة (المتاخمون)، وقد ضمنها خلاصة عقيدته التي أقتبسها من (وليم فودون) وفيها يدعو إلى حل الشرائع والسنن الاجتماعية وهدم الفروق بين الطبقات البشرية والمناداة بتأسيس هيئة اجتماعية جديدة شعارها المساواة والديمقراطية، أما تأسيسا فعن طريق الدعاية والجدل، لا عن طريق العنف والشدة كما كان يؤمن في بدء حياته. ولعل هذه الفلسفة أقرب ما تكون لمبدأ الشيوعية الجديدة. بيد أن وردزورث لم يطل تمسكه بهذه العقيدة بل نبذها حالما تحقق صعوبة نجاحها وتنفيذها
كولردج ووردزورث
كان كولدرج الشاعر الشهير يقطن في بيت قريب من مسكن شاعرنا، فلما علم بوجود ناظم (المقطعات الوصفية) في جواره رأي أن يزوره. ولما التقيا كان أول ما فعلاه أن تبادلا قراءة منظوماتهما وخصوصا (الكوخ المتهدم) أو (مرغريت) وقد ضمت مؤخرا إلى قصيدته المشهورة (النزهة والمتاخمون لوردزورث ومأساة أوساريا

لكولردج
ولقد كتبت دوروثي رسالة إلى أحد أصدقائها تقول فيها: (لقد كانت خسارتك عظيمة في عدم مشاهدتك كولردج. إنه لرجل عظيم حقا، ولا ينطق إلا بحديث طلي عذب يشف عن سمو روحه وقوة إدراكه، وإنه لأسود الحاجب صلت الجبين) وعلى أثر زيارة كولردج له كتب عنه يقول: (أنني لأستصغر نفسي إذا ما قورنت به). وفي رسالة له يشير إلى دوروثي بأنها (امرأة حقا، وتتجلى أنوثتها في طبيعتها وفي روحها وعقلها. هي ساذجة الطبع، قوية العاطفة عفيفة النفس، ذات عين ثاقبة دقيقة الكشف والملاحظة). ويقول
وردزورث عن صديقه كولردج: (لم أر مثيلا بين الرجال)
فلا غرو إذن أن نجد شاعرنا وشقيقته بعد تبادل مثل هذه العواطف مع كولدرج ينزحان إلى قرية صديقهما غب زيارته لهما بشهر. هناك وجد كل منهما له في الآخر مكملا. فبينا كان كولدرج رجل خيال وأحلام، كان وردزورث شاعر الطبيعة والحقيقة. وليس أحوج من المصادقة بين الشعراء إلى التباين في الأهواء والأذواق الأدبية والفنية وما كاد يستتب أمرهما حتى شرعا في مراسلة (نيو منثلي مقزين)، فساهما في نظم قصة موضوعها (الملاح القديم أما مصدر هذه القصة فهو حلم قصة عليهما أحد الأصدقاء فرأيا أن يحوكاه في قصة شعرية. غير أنهما عدلا عن الاشتراك في نظمها لما لقياه من المشقة في اقتسام مواضيعها الرئيسية. فقد قررا أولا أن ينظم وردزورث الأجزاء التي تتجلى فيها الأشياء والحوادث عادية مألوفة، وأن يقتصر كولردج على ما يعتمد فيه على الخيال الرائع والتصوير الشائق. ولالتباسهما في التمييز ما بين هذين النوعين من الفن آثر كولدرج أن يختص بنظمها وحده، ففعل ذلك بعد أن نظم وردزورث بضعة أبيات منها. ويعزى إلى وردزورث استنباط الطائر الميمون أحد أبطال هذه القصة. أما الفلسفة التي تتضمنها هذه القصة فهي أن يحب الإنسان ما على الأرض على السواء حيوانا كان أو إنسانا أو جمادا، ما دامت كلها من خلقه تعالى
ولقد عزم الشاعران على دراسة اللغة الألمانية والإلمام بثقافتها ذريعة إلى تفهم فلسفتها الغنية. لهذا قررا السفر إلى ألمانيا، بيد أن أحوالهما المادية كانت مضعضعة إلى حد رأيا معه أن يسدا عوزهما عن طريق النشر. لهذا أصدرا في سبتمبر 1798 مجلدا جامعا لأشعارهما أسمياه (قصص شعرية غنائية) ولم يكن لكولدرج فيه غير ثلاث قصائد إحداها (الملاح القديم) ولسوء الحظ لم يصادف الكتاب رواجا كبيرا في بدء الأمر، كما يظهر من رسالة بعثت بها سار زوج كولدرج إليهما بعيد سفرهما إلى ألمانيا تقول فيها من ضمن ما كتبته لهما (لم يلق الكتاب الإقبال المرجو)
سافر الشاعران ودوروثي إلى ألمانيا مخلفين زوجة كولدرج وأطفالها في رعاية بول أحد أصدقائهم. وقد رأوا أنهم بانفصالهم يقلون من المحادثة باللغة الإنكليزية ويكثرون من ممارسة اللغة الألمانية، لهذا قصد كولدرج راتزبرج ليقضي هناك بقية الشتاء؛ أما وردزورث وشقيقته فآثرا البقاء في مدينة غوسلار حيث نظم قصائده في (الطفولة الإنكليزية). ولم يستفد وردزورث من هذه السياحة بقدر ما استفاده صديقه كولدرج، فقد أصبح كولدرج قادرا على النطق باللغة الألمانية كأبنائها، وعلى أثر رجوعه من ألمانيا ترجم كتاب (ولنشتين) للفيلسوف شيلر. إلا أن إلمام وردزورث اليسير بهذه اللغة لم يكن بعيد الأثر في حياته الأدبية. رجع وردزورث وشقيقته من ألمانيا يحدوهما الشوق والحنين إلى أرض الطفولة، وكان ذلك في ربيع سنة 1799، وفي طريقهما عرجا على سوكبرن ليزورا أصدقاءهما آل هتشنسن. وما كاد كولدرج يسمع بذلك حتى لحق بهما إلى سوكبرن في صيف تلك السنة
في إقليم البحيرات مرة ثانية
وفي هذه الزيارة أتيح لوردزورث أن يرود هو وكولردج ودوروثي وبعض الأصدقاء إقليم البحيرات مرة ثانية، وخصوصا مع عصبة كهذه دأبها التأمل، وفي حين اكتملت فيه عقلية وردزورث وأرهف حسه للتشبع من جمال الطبيعة في هذا الإقليم الذي ألفه منذ صباه. وإقليم البحيرات من أجمل البقاع في بلاد الإنكليزي على الإطلاق، وهو يقع على حدود سكوتلندا في مقاطعتي وستمولند وكمبولند حيث ولد شاعرنا. وفيه نحو ست بحيرات متقاربة، تحيط بها جبال شاهقة وتطوقها مناظر طبيعية رائعة. في هذا الإقليم قضى كل من كولدرج وسذي قسما من حياته، وفي هذا المحيط نشأ شاعرنا وترعرع،

فلا غرو إذا أمه بعيد رجوعه من ألمانيا. ولاستطابته المقام والعيش في هذه البقعة استأجر فيها بيتا سماه (كوخ الحمامة). وفي القسم الأول من قصيدته (المعتزل صورة رائعة لحياةأولئك الأدباء في ذلك البيت. ولقد ذاع صيت هذا الإقليم واشتهر باشتهار أصحابه الشعراء ورواده الأدباء فأصبح ولا يزال محجة لأهل الأدب والفن يقصدونه من جميع الأقطار الأوربية ليتعرفوا إلى البقعة التي خلدت أسماء شعراء البحيرة وخلدت في أشعارهم. وجعل مؤخرا من بيت وردزورث ورفاقه متحفا أودع فيه كل ما خلفه من آثار تظل تدل عليه وتنطق بنبوغه على مدى الأيام. ولقد وضع وردزورث سنة 1810 مقدمة لكتاب (مناظر منتخبة من كمبرلند) لولكنسن، وهو وصف بارع لهذه البيئة وسكانها

في تلك البقعة أخذ نجم وردزورث يسطع في سماء الشعر إذ ثم شرع ينظم قصائده الخالدة

التي تعد فتحا جديدا في الأدب الإنكليزي، كيف لا وقد أتيح له أن يحتك بزهرة الأدباء في ذلك العصر كسر هتشنسون ولامب ودي كونس وسكوت وسر همفري ديفي. فكانت عصبة دأبها البحث والتأمل والتحقيق والإنتاج الأدبي. وكثيرا ما كان يقوم بنزهات قصيرة مصطحبا شقيقته دورثي وأخاه يوحنا، فيرتادون شواطئ البحيرات ويتسلقون الجبال والآكام ويهبطون الوديان والمنعرجات وشاعرنا في تنقلاته هذه كثير التأمل دقيق الملاحظة والاستقراء، فلا يفوته منظر جميل دون أن يصفه، ولا خاطر رقيق إلا ويسجله. في ذلك الإقليم أتم قصائده الكبرى التي تمثل نزعته وتشرح فلسفته، أهمها (المعتزل والفصل الأول من (النزهة (والفاتحة وفي قصائده هذه وفي غيرها من منظومات هذا الأوان تلمح روحا وثابة ونفسا نزاعة مستعصية؛ وسنقول كلمة في (النزهة) و (الفاتحة) عند الكلام على شعره

(يتبع)

جريس القسوس

حول الفقه الإسلامي

والفقه الروماني

قرأنا في (الرسالة) الثامنة بعد المائة مقالة الأستاذ محسن البرازي، في الرد علينا، فإذا الأستاذ برغم تفوقه على أكثر أقرانه من الشباب الذين درسوا في أوربا بذكاء كان موضع إعجابنا، قد أخطأ فهم كلامنا، فأخذ منه بعضا وترك منه بعضا. وحمل كلامنا ما لا يحمل، وأخذ منه عبارة على غير الوجه الذي وضعناها عليه، ثم لم يدخر وسعا في ردها، ولم يتورع عن أن يسميها زعما لا يمكن لعاقل أن يزعمه، وما لم يمكن للعاقل يمكن للمجنون. . . فكان الجنون جزاؤنا لأنا لم نذهب إلى الأستاذ فنقرأ له كلمتنا كلها، التي لم يقرأ منها إلا ما فيه الرد علينا، فكان أمرنا معه كما قال المثل الفقهي: (. . .زَنَّاهُ فَحَّده)

لا يا أستاذ! أنا ما قلت: (إن الفقه الروماني جديد لفقه طائفة من العلماء الخ. . .) وسكت، ولكني أوردت هذه الجملة في معرض الفرض والتقدير، فقلت (وهذه عبارتي بالنص):

على حين أنه لا يمكن أن يقوم دليل علمي واحد على أن الفقه الإسلامي مأخوذ . . .) من الفقه الروماني، (وقد علق على هذه الكلمة أستاذنا الجليل الزيات بالتفريق بين الأخذ والتأثر) إلا إذا كان القرآن مترجما عن لغة الرومان، وكان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم رومانيا خرج من أبوين غير عربيين، والذي نقوله، (ولينتبه القراء للذي نقوله) إنه إذا كانت هناك علاقة بين الفقهين (إذا كانت) فإن الفقه الروماني هو المقتبس عن الفقه الإسلامي؛ ودليلنا على ذلك أن الفقه الروماني الحاضر جديد لفقه طائفة من العلماء بعد أن اندثر الفقه الروماني القديم، وهذا الدليل على علاته (تأمل قولنا على علاته) أقوى من دليلهم على دعواهم، فليثبتوا إن استطاعوا أن الفقه الروماني الحاضر هو القديم بذاته، وليأتونا بالأسانيد الصحيحة، والروايات المضبوطة، (كما نأتيهم نحن بأسانيد حديثنا، وروايات سنتنا

هذه هي الجملة، وليس معناها يا سيدي أنا نعتقد بأن الفقه الروماني جديد الخ. . ولم يكن موضوع مقالنا الفقه الروماني، ولكنها كلمة جاءت عرضا، ومعناها أن هذه الدعوى

على علاتها (أي مع اعترافنا بان فيها شيئا) أقوى من دليلهم على دعواهم أن الفقه الإسلامي
مأخوذ من الروماني، أي أن دليلهم ليس بشيء مطلقا، مادام دليلنا على هذه الدعوى الغريبة أصح منه، هذا هو المقصد، وهذا أسلوب من أساليب البيان يفهمه من كان من أهله!
ثم إن هذا كله على فرض أن هناك علاقة بين الفقهين، ووجود العلاقة هو المقدمة المنطقية اللازمة لهذه النتيجة، ونحن ننكر هذه العلاقة، والأستاذ قد أنكرها وبين أنه لا تشابه في أحكام الفقهين في الأحوال الشخصية الخ. . فنحن إذن متفقون على إسقاط هذه النتيجة
ولست أقول هذا الآن، ولكن يقوله كلامي المنشور في (الرسالة) الواحدة والتسعين منذ أربعة أشهر كاملة
. . .فهل يصح للأستاذ أن يقيم القيامة علينا، ويزلزل بنا الأرض، من أجل هذه الكلمة؟
هذا، وغن في مقال الأستاذ شيئا عن الموازنة بين رواية الحديث ونقل الفقه الروماني، قد يفهم منه أن الفقه الروماني أصح سندا، وأثبت نقلا، لأنه - كما يقول الأستاذ - قد دون في عصر جامعه ومصلحه جوستنيان، والحديث إنما شرع في تدوينه بعد زهاء قرن ونصف قرن من تاريخ الهجرة، ولأنه لا دليل على الصحة بعد الوثائق الأثرية، والنسخ المخطوطة القديمة. فنحن ننبه من قد يفهم منه هذا الأمر بأنه باطل وليس بشيء
ونحن نكرر وصية الأستاذ (الشاب) لشبابنا ألا يكونوا أسرى عواطفهم من تعصب للدين والقومية (ونزيد: أو تعصب عليهما)، وكره لأوربة والثقافة الغربية (ونزيد: أو موت في عشقهما) فيسرفوا في القول حتى يجانبوا المنطق
ونسأل الله أن يرينا الحق حقا ويرزقنا أتباعه، ويرينا الباطل باطلا ويرزقنا اجتنابه.
ونشكر للأستاذ الفاضل جهده وفضله
علي الطنطاوي
شاعرنا العالمي - 8
أبو العتاهية
للأستاذ عبد المتعال الصعيدي
عقيدته الدينية والسياسية: كان لنشأة أبي العتاهية بالكوفة أثر في عقيدته الدينية والسياسية، فقد كانت الكوفة مهد التشيع للعلويين من يوم أن اتخذها علي رضي الله عنه عاصمة خلافته، وآثرها بذلك على المدينة التي كانت عاصمة الخلافة قبله، فنشأ بها أبو العتاهية متشبعا بمذهب الزيدية البترية. لا يتنقص أحدا ولا يرى مع ذلك الخروج على السلطان؛ وكان مجبرا، يقول بالتوحيد، ويزعم أن الله خلق جوهرين متضادين لا من شيء، ثم بنى العالم هذه البنية منهما، وهو حادث العين والصنعة لا محدث له إلا الله تعالى، وسيرد الله كل شيء إلى الجوهرين المتضادين قبل أن تفنى الأعيان جميعا؛ وكان يذهب إلى أن المعارف واقعة بقدر الفكر والاستدلال والبحث طباعا، ويقول بالوعيد وتحريم المكاسب. ولما ظهر الخلاف في خلق القرآن كان ممن يقولون بخلقه، وقد حدث أبو شعيب صاحب أبن أبي دؤاد قال: قلت لأبي العتاهية: القرآن عندك مخلوق أم غير مخلوق؟ فقال: أسألتني عن الله أم عن غير الله؟ قلت عن غير الله، فامسك؛ واعدت عليه فأجابني هذا الجواب حتى فعل ذلك مرارا، فقلت له مالك لا تجيبيني؟ قال: قد أجبتك ولكنك حمار
فهذه هي عقيدة أبي العتاهية لا شيء فيها مما ينسبه إليه بعضهم من الزندقة، وإن كان يخالف فيها المعروف من مذهب الجماعة، ولكن بني العباس كانوا قد نقضوا ما اتفقوا عليه مع بني علي قبل قيام دولتهم، من جعل الأمر شورى بينهم، فاستأثروا به لأنفسهم، وثار بذلك بنو علي عليهم، وتحركت نفوس كثير من العلماء ووجوه الناس لنصرتهم، فلم ير بنو العباس حيلة تنفعهم في ذلك إلا أن يأخذوهم باسم الدين، ليخدعوا به العامة، ويرهبوا به الخاصة، وأحدثوا في ذلك ما لا يعرفه الإسلام من التجسس على الناس في أمور عقائدهم؛ وقد أمر الإسلام أن يؤخذ الناس في ذلك بما يظهر منهم، وأن يترك باطنهم لله تعالى وحده، وإنما السياسة وحدها هي التي أخذت من أخذت في ذلك العهد باسم الزندقة، والدين بريء من هذه الدماء التي سفكت

بالشبهة واستبحت بالظنة
فما انتقل أبو العتاهية من الكوفة إلى بغداد، وعرف العباسيون أخذه بالتشيع لأبناء علي،
حتى أسترابوا به، وأحاطوه بجواسيسهم الذين بثوهم في الناس لإرهابهم بإلصاق تهمة الزندقة بهم، إذا رأوا فيهم ميلا إلى أعدائهم، فعاش أبو العتاهية في بغداد تحوم حوله هذه الشبهة من أجل تلك الغاية السياسية، واغتر بها بعض الناس فطعنوا بها في عقيدته، وهو أبعد الناس من تلك التهمة الشائنة؛ وقد أمكنه مع هذا أن يقوم بتلك الدعاية الشعرية التي فهم العباسيون غرضه السياسي منها، وأنه يقصد محاربة دولتهم بذلك السلاح الذي أعياهم أمره، وجعل يفتح أعين الناس إلى عيوبهم فلا يعرفون كيف يكسرونه من غير أن يفتضح أمرهم، ولم يجدوا إلا أن يداوروا في أمره، ويأخذوا صاحبه بالشدة مرة وباللين أخرى، ويشككوا الناس في أمر عقيدته ليضعف أثر شعره فيهم، ولا يصل إلى ما يريده منهم، فكانت محاربة بارعة من الجانبين، قام فيها الدهاء السياسي مقام السيف، وأدى فيها أبو العتاهية رسالته الشعرية بدون أن يمكن سيف العباسين من رقبته، وعملوا هم على إفساد غايته بدون أن يفضحوا أمرهم أمام الناس بسفك دمه لأنه ينشر فيهم تلك الدعاية المحبوبة، ويحاول إصلاح نفوسهم بالزهد الذي بعدوا عنه كل البعد، وشغفوا بدنيا العباسيين كل الشغف، وإنا نسوق بعد هذا بعض ما كان يلقاه أبو العتاهية في ذلك لنعرف كيف كانوا يتكلفون إلصاق تلك التهمة به
ذكر النسائي عن محمد بن أبي العتاهية أنه كان لأبيه جارة تشرف عليه، فرأته ليلة يقنت فروت عنه أنه يكلم القمر، واتصل الخبر بحمدويه صاحب الزنادقة، فصار إلى منزلها ليلا وأشرف على أبي العتاهية فرآه يصلي، فلم يزل يرقبه حتى قنت وانصرف إلى مضجعه، وانصرف حمدويه خاسئا
ومن من كان يشنع على أبي العتاهية بهذا رجاء بن سلمة ومنصور ابن عمار، وقد حدث العباس بن ميمون عن رجاء قال: سمعت أبا العتاهية يقول: قرأت البارحة عم يتساءلون، ثم قلت قصيدة أحسن منها. قال وقد قيل إن منصور بن عمار شنع عليه بهذا. ولما قص منصور على الناس مجلس البعوضة قال أبو العتاهية إنما سرق منصور هذا الكلام من رجل كوفي، فبلغ قوله منصورا، فقال أبو العتاهية زنديق، أما ترونه لا يذكر في شعره الجنة ولا النار، وإنما يذكر الموت فقط، فبلغ ذلك أبا العتاهية فقال فيه:

يا واعظ الناس قد أصبحت متهماً ... إذ عبت منهم أموراً أنت تأتيها
كالملبس الثوبَ من عرى وعورته ... للناس بادية ما إن يُواريها
فأعظم الإثم بعد الشرك نعلمه ... في كل نفس عماها عن مساويها
عِرفانُها بعيوب الناس تُبصرها ... منهم ولا تبصر العيب الذي فيها

فلم تمض إلا أيام يسيرة حتى مات منصور، فوقف أبو العتاهية على قبره وقال: يغفر الله لك أبا السرى ما كنت رميتني به
وحدث الخليل بن أسد النوشجاني قال: جاءنا أبو العتاهية إلى منزلنا، فقال زعم الناس أني زنديق، والله ما ديني إلا التوحيد، فقلنا له فقل شيئا نتحدث به عنك، فقال:

ألا إننا كلُّنا بائد ... وأيُّ بني آدمٍ خالدُ
وبدؤهم كان من ربهم ... وكلٌّ إلى ربهِ عائد
فيا عجبا كيف يُعصي الالـ - هـ أم كيف يجحده الجاحد
ولله في كل تحريكة ... وفي كل تسكينة شاهد
وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه الواحد

وحدث محمد بن أبي العتاهية قال: لما قال أبي في عتبة:

كأنما عتبة من حسنها ... دُمية قَسٍّ فتنت قَسها
يا رب لو أنسيتنيها بما ... في جنة الفردوس لم أنسها

شنع عليه منصور بن عمار بالزندقة، وقال يتهاون بالجنة ويبتذل ذكراها في شعره بمثل هذا التهاون. وشنع عليه أيضا بقوله:

إن المليك رآك أحـ - سن خلقه ورأى جمالك
فحذ بقدرة نفسه ... حورَ الجنان على مثلك

وقال أيصور الحور على مثال امرأة آدمية والله لا يحتاج إلى مثال، وأوقع له هذا على

ألسنة العامة فلقي منهم بلاء
ولا تخفى سماجة هذا النقد، وأن الدين لا يصل في الحرج على الشعراء إلى هذا الحد، وأين ابن عمار في هذا من عبد الملك بن مروان وقد اجتمع ببابه عمر بن أبي ربيعة وكثير عزة وجميل بثينة، فقال لهم أنشدوني أرق ما قلتم في الغواني، فأنشده جميل:

حلفت يميناً يا بثينة صادقا ... فان كنت فيها كاذبا فعميتُ
إذا كان جلد غير جلدك مني ... وباشرني دون الشِّعار شربتُ
ولو أن راق الموت يرْقى جنازتي ... بمنطقها في الناطقين حييتُ

وأنشد كثير:

بأبي وأمي أنت من مظلومةٍ ... طَبِنَ العدوُّ لها فغير حالها
لو أن عزَّة خاصمت شمس الضحى ... في الحسن عند موفق لقضى لها
وسعى إليَّ بصرْم عزة نسوةٌ ... جعل المليك خدودوهن نعالها

وأنشد ابن أبي ربيعة:

ألا ليت قبري يوم تقضى منيتي ... بتلك التي من بين عينيك والفم
وليت طهوري كان ريقك كلَّهُ ... وليت حنوطي من مُشاشك والدَّم
ألا ليت أم الفضل كانت قرينتي ... هنا أو هنا في جنة أو جهنم

فقال عبد الملك لحاجبه: أعط كل واحد منهم ألفين، وأعط صاحب جهنم عشرة آلاف.
ولكن هذا عصر وذاك عصر، والناس في كل عصر دين ملوكهم، وإذا كان العباسيون قد تغالوا في أخذ الناس بالزندقة في عصرهم، فلماذا لا يتغالى ابن عمار وغيره في ذلك أيضا؟

عبد المتعال الصعيدي

دموعي وصباباتي

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

دموعيَ يا ليلىَ إليك رسائل ... أبثّ صباباتي بها أو أحاول
ومن فشلت آماله في حياته ... فليس له غير الدموع وسائل
من السَّبْح قد كلَّت يداي وأرجلي ... أما لك يا بحر المحبة ساحل
أقول لقلبي يوم مات رجاؤه ... عزاَءك يا قلبي فإنك ثاكل
وقد أتداعى للمنيَّة في غد ... كأني جدار ضعضعته الزلازل
على الأرض أيام الشقاء كثيرة ... تُمضّ وأيامُ السرور قلائل
تقرّبت يا نفسي من الهُلك بعدما ... تكلَّفتِ عمراً أفعمته الغوائل
دنا أنَ تكوني للمنايا فريسة ... فلا تجزعي مما بكِ الدهرُ فاعل
ولا تحزني إمَّا ألمَّ بكِ الردى ... فقبلكِ يا نفسي تردَّت فطاحل
وما قيمةُ القلب الذي تحت أضلعي ... فتُنصَبَ أشراكٌ له وحبائل
على الحق قد عَوَّلتَ يا قلب مؤثرا ... ومَن لك ألا يزُهِق الحق باطل
ومهما تزدني غيهباً فوق غيهبٍ ... فإنك عند الصبح يا ليلُ زائل
إذا كنتَ تستهدي بعقلك وحده ... فما أنت في يوم إلى الله واصل
وإن كان إيمان الفتى عن عقيدة ... فأضيعُ شيء في الحوار الدلائل
يلومونني في حب ليلى بشدة ... ومن حبّ ليلى لي عن النوم شاغل
لقاؤكِ يا ليلى لنفسي لبانةٌ ... فأيَّ رقيبٍ بيننا هو حائل
وإن تك روحي هذه ثمناً له ... فما أنا بالروح العزيزة باخل
ونفسي إذا فتَّشتِ نفسي وجدتِها ... كعصفورة قد هدّدتها الأجادل
ولِلْهَمَّ إمَّا جنّني الليل داجيا ... جحافلُ في آثارهن جحافل
إذا كان لي ذنبٌ به تأخذينني ... فإني لذاك الذنب بالدمع غاسل
سهامك يا دهرَ الأديبِ كثيرةٌ ... وكلّي إذا سدّدتَ سهماً مَقاتل
ويا طيف ليلى أنت أكرم من سرى ... إلي مغرم قد أعجزته الوسائل
ويا طيف ليلى أنت في الأرض صنوُها ... وأنت لها في كل شيء تماثل
ويا طيفها مالي شكاةٌ من النوى ... فإنك في عيني وقلبيَ ماثل
تمُاطلني ليلى إذا هي واعدت ... وأنت إذا واعدتني لا تُماطل
وإن بخلت ليلى فإنك محسنٌ ... وإن هجرت ليلى فإنك واصل
لقد جعل الدنيا إليّ حبيبةً ... هوًى هو في أعماق نفسيَ داخل

لئن كان يا نفسي شديداً بك الصدى ... لقد نضبت يا نفس تلك المناهل
وما هذه الدنيا سوى دارِ محنةٍ ... قليل بها مَن لم تصبه النوازل
إذا سلم الإنسان من غيظِ أرضهِ ... أصابته من صوب السماء القنابل
حياة إذا إنفَتْ تُزايل أهلَها ... وموتٌ إذا استولى فليس يزايل
ولا تحسبَ الأخرى أقل قساوةً ... فأكثرنا منها على النار نازل
أراك تخاف النارَ نارَ جنمٍ ... وإنك أنت المؤمن المتُفائل
يقولون شيطانُ القريض موسوسٌ ... وهل مصدر الوسواس إلا الخلاخل
وما منتدى الآداب إلا كروضة ... محبّبة أبكارها والأصائل
وكل امرئ يصبو لما اختاره ذوقهُ ... وفي الروض غربانٌ وفيه عنادل
وللعندليب الزهرُ في الروض باسمُ ... وللزهر فيه العندليبُ يُغازِل
وأكبرُ مَن حاك القريضَ هو الذي ... يهزّ جماهيراً بما هو قائل
وأكبر منه مَن إذا قال أصبحت ... تَنَاقَلُ أقوالَ الحكيم المحافل
وأكبرُ من هذا وذلك شاعرٌ ... عن الحق في نظم القوافي يُناضل
بغداد
جميل صدقي الزهاوي
العصر الذهبي
للأستاذ عبد الرحمن شكري
مقدمة:
أولع الناس من قديم الزمن بالتفكير في عصر الإنسانية السعيد: عصر الخير العميم الشامل؛ فبعضهم كان ينشده في الزمن القديم ويبكي انقضاءه، وبعضهم ينشده في المقبل من العصور، يدينه رقي الإنسان. وكثيرا ما استخدم شعاره أهل الحرص لنيل أطماعهم، واقتياد الناس لاستثماراتهم واستذلالهم؛ وكثيرا ما علق الأذلاء بكماله حتى إذا تحكموا ساروا على نهج الطغاة؛ وهو مثل عال ولا تحلو حياة الإنسان إلا به؛ ولئن صدق ما يقوله بعض المفكرين الذين يزعمون تحققه نذير الفناء، فمرحبا بالفناء يكون نذيره الخير كله والسعادة الشاملة والمثل العالي، وقد لا يصدق تشاؤمهم!
الناظم
عصرَ السلام تحية وسلام ... خلعتْ عليك رجاَءها الأقوام
من كل عصر في نسيجك لحْمَة ... ألأجل صنعك تدلفُ الأعوام
إمَّا دنوت وما عهدتك دانياً ... عَفَّى على نقص الأنام تمام
نستقبل الأيام وهي كوالح ... مستبشرين إذِ التمام إمام
خالوك في الماضي - ولم تك ماضياً - ... إذ زان منه البعد والأوهام
ويرون في غدهم سراباً نائياً ... فيطول نحس العيش والإجرام
تتغير المُثُلُ التي شاقتهمُ ... تتبدل الآمال والأحلام
حسب الورى من حسن عهدك قدوة ... علياء ما إنْ شانها استبهام
ما فاتهم طب الطبيب وإنما ... تتباين الأرواح والأفهام
ولاَنت في سير النفوس إذا صفت ... يدنى إليك البر والإكرام
عطف النفوس على النفوس ولن تُرَى ... أبداً ونفس في الأنام تضام
هيهات يكرم فاضلاً ذو خسة ... أو يغفر الجاني شآه كرام
استبطأوك وأنت بين جنوبهم ... وتَنَظَّروك ودأبك الإلمام
ورأوك في الدهر البعيد ولو دروا ... أنْ لو أرادوا كان منك لِمَام
لرأوا مشيئتهم تشاء ولا تشاء ... هاموا وتحسب أنهم ما هاموا
ومن المشيئة ما يجيء فجاءة ... ليست تجزئ أمره الأيام
ونأى بهم عن وِرْدِ خيرك أنهم ... للحرص حادٍ بينهم وزمام
أمباغتا بالخير بعد تمنع ... حب الأنام لعهدك استقدام
ولقد يتوب أخو المجانة بغتة ... من بعد عيش كله آثام
ويتوب هذا الخلق من شر ومن ... إثمٍ فتحمد خَبْرَك الأيامُ
كم فتنة أجحتَ نار جحيمها ... شوقاً لعهدك والأنام حُطام
وشعار حق كم غدا أُحْبُولة ... أثرى بحقك في الأنام لئام
وإذا العبيد تحكموا في فتنة ... ساروا على نهج الظَّلُوم وضاموا

أترى العبيد ببابلٍ وبطيبةٍ ... أغرتهمُ بكمالك الآلام
لو أنهم ملكوا لعافوا مسلكا ... يدني إليك وطاشت الأحلام
ولطالما حن اليهود لشرعه ... ودعا المسيح له وريمَ سلام
وتَنَظَّرَ المهديَّ قوم أمَّلوا ... ركباً له يحدو به الإسلام
ثار الفرنس وخيرهم يبغي له ... عهداً تدين لشرعه الأحكام
يبكي ويعتنق الغريب مُبَشَّراً ... بالشر زال وبالكمال يُشام
ما زال شر - لا - ولم يمهد به ... نهجَ السلام الحكمُ والحكام
أنَّى تكون وفي الأنام تفاوتٌ ... أُسْدٌ لها في الصاغرين سَوام
عِزٌّ وذو مكر فلست بكائن ... حتى تَساوَى في الأنام الْهَام
فمتى يدين لسُنَّةٍ لك جمعهم ... ويراك خيراً شَرُّهم فترام
لا يصدق الكُهّان إن هم أنبأوا ... بدوام ما لم يُلْف فيه دوام
كم من عهودٍ كان يحسب أهلها ... أنْ زل عنها النقض والإبرام
نَسِيَ الأنام عهودهم فعهودهم ... أقصى وأدنى منهمُ الأوهام
فقد الأنام صفاتِ أجداد لهم ... وتحولت وتبدلت أجسام
والطبع في غدد الجُسوم فَعَلَّها ... يوماً تصح فلا يكون أثام
وتعود من فرط الصفاء حياتهم ... ذهبيةً أيامها والعام
خير مَرَى الحرصُ الخسيسُ أقل من ... خير لديك تردوه الأحلام
والنحس عدوى ليس يُقصِى شرَّها ... إلا التضافر شاده الأقوام
كذبوا فما أبقى التقاتل بينهم ... إلا الضعيف وقد قَضَى المقدام
خلفت في سير النفوس مباهجاً ... وتجملت بجمالك الأيام
كغناء حادي الركب رَفهَ عنهمُ ... نعم النشيد ونعمت الأنغام
حُلُمٌ هو المثل الأجلُّ وإنهم ... لولا مثال كمالك الأنعام
ولعل عمر الشر ليس بدائم ... ينمو سناك فينمحي الإظلام
قالوا إذا ما جاء خيراً كله ... لم يبق خير في الحياة يشام
لولا جهاد في الشرور تعطلت ... سبل المكارم واستنام أنام
إن لم يكن نقص ففيم رجاحة ... وبضدها تتميز الأقوام
لا يطعم السعدُ الشَّهيّ وشُهْدَهُ ... من لا ترود فؤادَه الآلام
والوهن يسعى للفناء دنيبه ... إن لم يكن حذرٌ وعَمَّ سلام
لغز الحياة وليس يفقه لغزها ... بين الأنام مُفَهَّمٌ عَلاَّم
والشر أهون بعضه من بعضه ... فاطلب كمالاً كي يقل الذام
أهلاً بغائلة الفناء نذيرها ... عهد يَشُوق سلامُه وتمام
إن لم يصح العيش إلا أن ترى ... شرع التنافس في الأنام يقام
فعسى التنافس في المحامد ينثني ... طبعاً وإن قيل الأنام لئام
يدنوا إذا بطلت ضرورة كائدٍ ... يُرْجَي بها رزق له وحطام
إن نال كلٌّ مطمئناً رزقَه ... فعلام لؤم للورى وخصام
دِيْنُ التنافس في المكارم ربما ... أنماه نصح فيهمُ وحسام
فترى الورى دينَ الورى وصلاحُهم ... فرض يدين لشرعه الأقوام
عبد الرحمن شكري

القصص
من أساطير الإغريق
مأساة أم
للأستاذ دريني خشبة

رآها زيوس تقطف الزهر وتتيه في حدائق السوسن، وتنشد مع البلابل ألحان الشباب، فتنصت الطبيعة وتتفتح آذان الورود، وتحملق نواظر النرجس ترى إلى كليستو الرقيقة رقة النسيم، الحلوة كأنها حلم جميل في أجفان عاشق، الموسيقية التي يستطيل نغمها حتى يبلغ السماء، ويتسع حتى يغمر الكون، فيثوي بكل أذن، ويستقر في كل قلب، ويخفق مع نبضات المحبين، وينسكب ذوبا من دموع المدنفين المعذبين!

رآها زيوس فجن بها! وبالرغم مما أعطى على نفسه من ومواثيق لزوجه حيرا ألا يصبو إلى أنثى غير أزواجه اللائى كن إلى هذه اللحظة ستا أو أكثر من ست، فقد ذهب

يقتفي أثر كليستو، ويرهف سمعيه ليملأ بموسيقاها قلبه
كانت تمشي بين صفين من أعواد الزنبق، تنمقهما ورود ورياحين؛ وكانت تنثني وتميس، فيهتز الروض وينتشي الزهر، وكلما ترنمت بأغنية من أغانيها الساحرة، رددت الأزهار والأطيار ما تغنت، كأن كل شيء في تلك الطبيعة الرائعة الفنانة عضو في فرقة كليستو الموسيقية
وجلست تتفيأ ظل خوخة وارفة كانت تداعبها فتساقط عليها من ثمرها الجني، ورطبها الشهي، فتتذوقه كليستو وهي تبتسم
وأسكر النسيم الخمري عينها الساجيتين، فاستسلمت للكرى الطارئ والغفوة العارضة، وتمددت على البساط السندسي ليحسر الهواء عن ساقيها، ولتكون فتنة يضل في تيهها قلب زيوس، وتضرب في بيدائها نفسه. . . على غير هدى. . .!!
وبدا الإله الأكبر أن يرتد فتى موفور الشباب ريان الأهاب؛ ثم يسوق آلهة الأحلام فترقص في أجفان كليستو، تبهرج لها من الرؤى ما يشب في نفسها رغائب الهوى ولذائذ الحب، ويثير فيها حرارة الحياة
ونام الخبيث إلى جانبها، وطفق يروح على وجهها، ثم نثر ذراعه على جيدها الناهد، وراح يضغط قليلا. . . قليلا
ولقد فعلت الأحلام الحلوة فعلها في قلب كليستو، فلما استيقظت، ووجدت نفسها في حضن هذا الشاب اليافع الجميل، لم تنفر، بل خجلت خجلة زادتها جمالا، وضاعفت سحرها وفتونها؛ وفترت أهدابها فاسترخت، وفنيت في حبيبها المفاجئ. . . وفنى هو الآخر فيها
وجاءها المخاض!
ووضعت غلاما أحلى من القبلة الحارة على الثغر الحبيب، وأعذب من ابتسامة الزهرة طلها الندى
فلما زارها زيوس وبشرت به، اهتز الإله الأكبر وشاعت الكبرياء في أعطافه، وأخذ الغلام فباركه، وطبع على جبينه الوضاح قبلة أولمبية خالدة؛؛ ثم زف إلى كليستو تلك البشرى التي ظل يخفيها عنها طوال حبه لها، وذلك حينما أشار إلى ابنه بيمينه البيضاء هاتفا:
- (بوركت يا أركس! يا أجمل أطفال الأولمب!)
وقد اضطربت الأم الصغيرة حين سمعت هذا الدعاء ونظرت إلى حبيبها كأنها تستريب، وقالت له:
- (أجمل أطفال الأولمب؟ إذن من أنت أيها الحبيب؟)
ولم يسع كليستو إلا أن تسجد
- (بشرك يا كليستو! فأنا ربك وزوجك وحبيبك زيوس!)
لربها وهي ترتعد من الخوف؛ فقال لها:
- (انهضي! انهضي! ماذا تصنعين يا حبيبة! انهضي فقد رسمت ابننا أركس إلها، فاكفليه حتى يشب، وإياك أن تراكما حيرا فتسحقكما. . .)
وقبل الغلام وقبل الأم،،، وغاب في الأفق. . .
وكانت كليستو أحرص على فتاها من أن تدعه وحده لحظة واحدة، فإذا خرجت للصيد في الغابات القريبة، أقامت عليه حارسين من كلابها الكواسر، يكفي أحدهما لتشتيت شمل جيش بأكمله. وكانت تحمل إليه أثمار اللوز والبندق كلما عادت من الغابة؛ حتى إذا اشتد ساعده، علمته الرماية وألعاب الفروسية، مستعينة بذلك بالسنتور العظيم، شيرون، مؤدب هرقل ومدربه
وذاعت الأنباء في دولة الأولمب، أن لزيوس خليلة يختلف إليها في الفينة بعد الفينة، وأنه أولدها طفلا بارع الحسن، وسيما قسيما، يكاد يكون في مستقبله هرقل آخر، يضارع هذا الهرقل الهائل، ابن ألكمين، الذي كان يدوخ أبطال العالم في ذلك الوقت. . .
وقد مدت الأرض بحيرا حين علمت هذه الأنباء، لأنها كانت تغار من أزواج زيوس، وتخشى أن تلد إحداهن بطلا يكسف شمس ولديها مارس وفلكان. وكانت الحرب بينها وبين هرقل على أشدها، فكم نثرت في طريقه شوكا، وكم فجرت تحت قدميه ينابيع من نار. أفلا يحزنها إذن أن يبرز لها خصم آخر يغطش حياتها، ويراوحها بالأشجان والآلام!!

وكانت كليستو تصدح في أصيل يوم من أيام الربيع، فتستجيب لها الغابة، ويردد غنائها الطير، ويمشي في إثرها الدوح، وتهتز الأرض والسماء؛ وكانت حيرا قد عرفت أوصافها من شيرون، مدرب فتاها أركس؛ فلما سمعتها تغني، ويمشي وراءها العالم بأسره، عرفت أنها هي!!

وكاد قلب حيرا يصبو إلى كليستو، مسحورا بروعة الغناء، مأخوذا بترجيع البلابل. . . حتى لكانت تخال الورد نفسه يغني معها!! وكادت بذلك تنسى غيظها، بل كادت تنخرط في هذا الحشد الموسيقي الذي يصفق لكليستو ويستجيب لألحانها! ولكن!

لقد ذكرت ابنيها مارس وفلكان، وذكرت يوم صرعهما هرقل في حفل الأولمبياد، حتى لكانا ضحكة كل راء! فنسيت الغناء وأصمت أذنيها، وغرفت من ماء قريب بيديها غرفة جعلت تتمتم عليها بتعاويذ سحرية، ورقى في غيبية، ثم صاحت بالفتاة فسمرت مكانها دهشة مأخوذة، فنثرت حيرا في وجهها الماء وهي تقول: (شاهت دبة! شاهت دبة!) وا أسفاه!!

لقد أحست كليستو في ذراعيها الجميلتين بخدر شديد، ثم نظرت فرأت شعرا خشنا ينمو بسرعة فيغطي جسمها البض الجميل كله!

وأحست أظافر طويلة غليظة تنبت في أطارف أصابعها، ومخالب مرعبة تبرز من أصابع رجليها المعبودتين!

وشعرت بوجهها الوضاء المشرق يتغير ويتحول، ثم يتغير ويتحول حتى لقد ركب فيه أنف كبير أسود، وفم مغبر في منتهى القبح، يسيل على جنباته لعاب شائه كريه!

وخيل لها أن ذنبا ينبت وراءها، فتحسسته فأيقنت أنه ذيل خبيث. . . ما في ذلك ريب!

وفزعت كليستو، فأردت أن تصيح تستنصر الغابة، ولكن. . . يا للهول! لقد راحت تصرخ كما تصرخ الحيوانات، وتعوي كما تعوي الذئاب!!

وانخلع قلب الفتاة فحاولت أن تغادر هذا المكان الساحر، ولكنها لم تستطع أن تنهض على قدمين، بل انطلقت تعدو على أربع كأنها بهيمة من بهائم الأرض!

وأصابتها حيرا بظمأ كاد يصهر حلقها فذهبت إلى غدير ترتوي، ولما انحنت ترشف الماء رأت صورتها المفزعة تتقلب في صفحته، وأنها لم تعد كليستو الحسناء بعد، بل إنها قد انسحرت فصارت دبة قبيحة قذرة ذات أنف طويل أسود، وعينين رجراجتين تقدحان بالشرر

وانطلقت في الغابة تعدو وتعدو، وتتوارى بين الأشجار حتى لا يراها أحد، وكانت الحيوانات - حتى ضواريها - تفزع منها كلما مرت بها، وهكذا شاءت المقادير الظالمة ألا يكون لها صديق حتى من سباع الغابة الموحشة، التي كانت قبل لحظات ترقص بين يديها. . . وتنشد وتغني!!

وضربت في القفار والفلوات، مؤثرة ألا تعود إلى ابنها الحبيب أركس فتفزعه؛ وكانت تختلف إلى الغابة، فإذا مر بها بعض أصدقائها القدماء عرفتهم ولكنها تتوارى عنهم، وفي نفسها هموم وحسرات

خمس عشرة سنة!!

قضتها كليستو التاعسة في هذا الشقاء الطويل، لا تمر بها هنيهة دون أن تفكر في ابنها وتبكي. . . وتفكر في مآلها. . . وتبكي، وتفكر في ذكريات شبابها. . . وتبكي، وتذكر الموسيقى والغناء. . . وتبكي!!

واشتعل قلبها شوقا إلى أركس، فجلست إلى أيكة حزينة تتناجى:

ترى! ماذا تصنع الآن يا بني؟ أما تزال تنهل كأس هذه الحياة المرة؟ أم أنت قد طواك الردى ونسيك كبير الأولمب؟. هل أنت مريض يا أركس؟ هل في جنبك جرح يتفجر دما لبعد أمك عنك، كهذا الجرح الذي تنزف منه نفسي، وتنسكب حياتي؟ وهل إذا أصابك ضر، فأنت واجد قلبا يحنو عليك ويترفق بك. . . . ويرعاك؟ ومن هو صاحب هذا القلب الرقيق يا ترى؟

(!!. . .يا ولدي!!. . . يا حبة القلب يا أركس

وتبكي البائسة بكاء يذيب الصخر، ويحرق فحمة الليل، ويزلزل أركان الكهف المظلم الذي تعودت قضاء لياليها فيه. . .

أما أركس فقد كان هو الآخر يبكي أمه، حتى استطاع مؤدبه شيرون أن يفل بنصائحه غرب حزنه، ويطفئ بمواعظة نار أساه، فنسى، أو تسلى. . . أو تناسى. . .

واستد ساعده، وثقف الرماية حتى ما يطيش له سهم، ولا تخيب له رمية؛ وأحبه شيرون من سويدائه، ولازمه طويلا، حتى كانت حرب السنتور فودعه وعاش الفتى وحيدا. . . يحيا حياة هي بحياة أمه في شبابها الأول أشبه، فيختلف إلى الغابة يصيد منها الثعالب، وإلى البرية يرمي فيها الوعول، ويعود مع الغروب مثقلا بالصيد وفيما هو يرتاد الغابة في ضحى يوم شديد القيظ، إذا أمه المسكينة تلمحه فجأة، وتعرف فيه ابنها، وأعز الناس عليها. . .! فتذهل عن نفسها وتقف مشدوهة باهتة لا تنبس ولا تحير!

فهل عرفت هذا التماثيل المرمرية التي تقف صامتة كالألغاز في المتاحف ودور الآثار؟

لقد كانت كليستو أشد منها تحجرا عندما شاهدت ابنها بعد هذه السنين الطوال! ولقد خشيت أن تزعجه بوجودها، لأن الصيادين لا يرهبون من ضواري الغاب شيئا كما يرهبون الدباب، فحاولت أن تختبئ وراء شجرة أو نحوها، ولكن. . هيهات!! فلقد عجزت عن الحركة المجردة لما تولاها من الحيرة والارتباك!

والتفت أركس ففزع أيما فزع لوجود دبة متوحشة كبيرة الجرم على مقربة منه، وهو غير متهيئ للرماية، فارتبك حين تناول قوسه بيد مرتجفة، وأصابع مرتعشة. . . . ولكنه، ويا للعجب! أحس ببريق غريب ينبعث من عيني الدبة، وشعر بحنان وعطف يتحركان في صميمه من أجلها، وحاول أن يتعرف مصدر هذا الحنان فلم يستطع، وضاعف دهشته أن الدبة سمرت مكانها دون ما حراك، وأن دموعا حارة أخذت تنسكب بغزارة من عينيها اللتين ترنوان إليه، وما تريمان عنه!!

وكم كانت كليستو تتمنى لو تقدر الكلام فتقص حكايتها على ابنها، بيد أنها خافت أن تضاعف انزعاجه بصراخها الحيواني المخيف. . . فصمتت. . . وتكلمت عبراتها!! . . . . . .ثم

سدد أركس سهمه إلى رأس أمه، وكاد السهم المميت يمرق فيؤدي بحياة أعز الأمهات. . . . لولا أن زيوس. . . الإله الذي طال رقاده!. . . كان يسمع تلك الآونة ويرى، ولولا أن تحركت في قلبه الرحمة هذه المرة، فلم يبال التدخل في سحر زوجته حيرا الخبيثة - فأطلق لسان كليستو، وصاحت فجأة: (أركس!. . . بني العزيز!. . . أنا هي. . . أنا هي أمك. . .)

وسقطت القوس من يد أركس. . . وكانت مفاجأة مشجية! وظل الفتى يرمق الدبة عن كثب وهو لا يصدق!! وقال لها:

- (. . .ماذا تقولين؟ أدبة تتكلم؟ أم من؟. . . من أنا؟)

- أنا هي يا بني. . . أنا كليستو أمك البائسة. . . فعلت بي حيرا ما ترى. . . خمسة عشر عاما يا أركس وأنا أتعذب وأبكي من أجلك في هذه الغابة الموحشة (!. . .

ولم ينبس أركس ببنت شفة، بل تقدم مهدما من الهم، فعانق أمه. . . ووقفا لحظة يبكيان!!

- ثم تدفق حنان السماء، وأمطرت رحمة الإلهة، وأمر زيوس فحملا إلى الأولمب أركس وأمه - ومن ثمة أطلقها رب الأرباب في السماء الخالدة ليكونا برجين من أبراجها، ما نزال نراهما إلى اليوم، وما نزال نحتفظ لهما بعنوان المأساة المؤلمة، إذ نسمي الأم (الدب الأكبر)، ونسمي الابن، أركس الحبيب (الدب الأصغر. . .). . . وما تزال حيرا القاسية تنظر إليهما وتتميز من الغيظ

دريني خشبة

البريد الأدبي

موسم الثقافة الإسلامية

فكرت رابطة الإصلاح الاجتماعي في اجتماعها الأخير - في القيام بدعاية واسعة النطاق لتنظيم (موسم للثقافة الإسلامية) يبتدئ من 20 أغسطس وينتهي في 20 من سبتمبر القادم وإعداد برنامج حافل يشتمل على ما يأتي:

1 - إصدار أعداد خاصة من الصحف الأسبوعية الإسلامية، تدعوا لفكرة الجامعة الإسلامية وتتحدث عن التاريخ الإسلامي وتشرح الثقافة الإسلامية الحق

2 - إصدار صفحات خاصة من الصحف اليومية تحتوي على آراء الزعماء والقادة في الدعوة للوحدة الإسلامية وحث الشباب الإسلامي على القيام بنشر الثقافة الإسلامية في مختلف الأقطار

3 - إعداد محاضرات يومية تلقى في المساجد والجمعيات والأندية والروابط وفي المذياع
4 - إقامة حفلات تعارف وإخاء بين شبيبة العالم الإسلامي
اللغات الأجنبية في الأزهر
بحثت لجنة تعديل قانون الأزهر في تعليم اللغات الأجنبية فيه فرأت بالإجماع وجوب تعليمها في كلية أصول الدين لمختلف السنين الدراسية، ولطلبة التخصص جميعا، واختلف في تقريرها على طلاب كليتي اللغة العربية والشريعة، ويقال إن ذلك الخلاف قد انتهى بتقريرها عليهم كذلك بحجة أن العالم الذي يتخرج في الأزهر وفقا لنظامه الحديث يجب أن يعد إعدادا اجتماعيا يؤهله لطلب الرزق في كل ميدان من ميادين العمل، ولا يكون هذا الإعداد صحيحا إلا إذا ألم بلغة أو لغتين من اللغات الأجنبية، أما اللغات التي ستقرر دراستها في كليات الأزهر الثلاث فهي الإنجليزية والفرنسية والألمانية والفارسية واليابانية والصينية واللاتينية
نسبة بيتين
اطلعنا في العدد 105 من الرسالة: على مقال: (ساعات مع الكاظمي) للأستاذ كمال إبراهيم نسب فيه هذين البيتين: إلى ابن هانئ الأندلسي:
ما ضرني أن لم أجئ متقدماً ... السبق يعرف آخر المضمار
وإذا اغتدى ربع البلاغة بلقعا ... فلرب كنز في اسار جدار
وهذا سبق قلم من الكاتب؛ والبيتان هما خاتمة قصيدة لشاعر المغرب والأندلس في وقته غير مدافع أبي عبد الله لسان الدين ابن الخطيب: دفين فاس؛ وقد أثبتهما معزوزين إليه معاصره وصديقه أبو القاسم محمد الشريف الغرناطي في شرحه لمقصورة (حازم)؛ وكذلك أثبتهما له من المتأخرين أبو العباس المقري في النفح؛ وابن الخطيب هذا أحد مفاخر المغرب وشعرائه المكثرين، وله من الشعر ما يملأ الدنيا على سعتها، توقن بهذا إذا ما علمت أنه جمع مطولاته خاصة في ديوان أسماه (الصيب والجهام، والماضي والكهام) في سفرين، وجمع مقطوعاته خاصة في ديوان سماه (فتات الخوان، ولقط الصوان)، واختار من مطالع ماله من الشعر سفرا دعاه (أبيات الأبيات)، وجمع موشحاته وغيرها من الموشحات التي عرضها في سفر أسماه (جيش التوشيح)
وقد نقبت فيما أعلمه من المكاتب العامة والخاصة علني أعثر على كنز من هاته الكنوز الثمينة فلم أفلح!
ثم دعاني هذا إلى أن أزمعت منذ حين على جمع ما يمكنني الوصول إليه من شعر هذا الشاعر، فاجتمع لدي من ذلك - بعد إفراغ الجهد وطول المراجعة - نحو الثلاثة آلاف بيت، جمعتها مما أمكنني الإطلاع عليه من كتب لسان الدين وغيره من الذين عاصروه أو شغفوا به فعنوا بجمع أخباره، والتقاط كتاباته وأشعاره، ما بين مخطوط منها ومطبوع؛ وسأتربص طويلا علني أصل إلى ما لم يمكني الوصول إليه من شعر هذا الشاعر فأضيفه إلى ما جمعته، وأطبع الجميع مع مقدمة أقصر فيها القول على تحليل شاعرية لسان الدين، وبهذا نصل إلى معرفة شاعر كبير قد جهلناه زمنا طويلا. . . .
فاس (المغرب الأقصى)
أحمد بن المليح
أرنولد تسفايج
يقيم منذ عامين في فلسطين كاتب من أعظم كتاب ألمانيا المعاصرين هو القصصي الأشهر
أرنولد تسفايج وقد لجأ إلى فلسطين فرارا من عسف الطغيان الهتلري، لأنه يهودي تنكره ألمانيا الهتلرية؛ ونزل في ضيعة في جبل الكرمل على مقربة من حيفا، وكان مولد هذا الكتاب العظيم في كلوجاد سنة 1887؛ ودرس القانون وأمتهن المحاماة، ولكن جرفه تيار الأدب. وقد لفتت إليه الأنظار أولى قصصه: (مذكرات أسرة كلوبفر)، وهي تاريخ أسرة يهودية هاجرت من بولونيا إلى ألمانيا ويظن أنها أسرته الخاصة، ثم اتبعها برواية (أخبار كلوديا ثم هجر تسفايج القصة مدى حين وانقطع للتأليف المسرحي فنالت قطعه المسرحية نجاحا عظيما في ألمانيا والنمسا وفي كثير من الأمم الأخرى التي ترجمت قطعه إلى لغاتها. بيد أنه ترك التأليف للمسرح وعاد إلى القصة منذ

عشرة أعوام فنجح فيها نجاحا عظيما، وأعظم قصصه هي بلا ريب (الجاويش جريشا) التي يصف فيها مناظر الحرب الكبرى في الميادين الشرقية وصفا قويا رائعا ويصور فيه قائدا ألمانيا يظن أنه لوندورف في صور لاذعة، ثم اتبعها برواية (عذراء سنة 1914) 1914، والتربية في فردون

وقد عاد أرنولد تسفايج أخيرا إلى معالجة التأليف المسرحي، وأخرج قطعة مسرحية جديدة أوحت بها إليه إقامته في مروج فلسطين عنوانها (بونابارت في يافا) ويقول الكاتب الشهير تعليقا على عوده التأليف المسرحي أنه شعر أثناء اشتغاله بكتابة القصة بأن شهوة المسرح تضطرم فيه مرة أخرى، وأنه في فترة فراغ وعزلة وضع قطعته الأخيرة في خمس فصول، ثم يلخص موضوعها وظروف كتابتها فيما يلي:

وقفت بطريق المصادفة على رواية تتعلق بحملة بونابارت على مصر ومشروعه في) غزو فلسطين وسورية، والذي سحرني بنوع خاص هو المشروع الهائل بل الجنوني الذي تصوره نابليون، وهو أن يشق لنفسه طريقا من عكا وحلب واستانبول ثم البلقان إلى فينا ومن ثم فرنسا، وذلك بعد أن حطم الإنكليزي سفنه في أبي قير، ولقد قرأت قصة الغزوة الفلسطينية باهتمام كبير خصوصا وأن مسرح الحوادث كله يبدو أمام عيني، من شرفة منزلي. فأمامي خليج حيفا، ثم عكا على قيد أميال قليلة، ثم جبل تابور الذي اضطرمت فيه المعارك، حتى خيل إلي وأنا أكتب أنني أرقب حركات الجنود بكل تفاصيلها. وأما عن باعث القصة، فأنا نعرف أن نابليون قد أسر في يافا ثلاثة آلاف من الأتراك؛ ولما لم يستطع إطعامهم أمر بقتلهم، ولكن الواقع أن الفرنسيين غنموا من الجيش التركي الذي قدم من دمشق وهزم في جبل تابور نحو ستة آلف قدر من المؤن، وهذه تكفي لإطعام ثلاثة آلف أسير مدى عشرين يوما. فإذا كان نابليون قد تصرف طبقا للضرورات العسكرية فان عمله مع ذلك يبقى بعيدا عن كل عاطفة إنسانية

ولم اتبع في القطعة المسرحية التي وضعتها الأسلوب التاريخي؛ ولكني راعيت فيها) الأسلوب الواقعي وعالجت مسألة العمل الوحشي (غير الإنساني) وإذا لم يكن من شأنه أن يقع على عاتق ذلك الذي يرتكبه رغما عن كل البواعث الواقعية. وفي الفصل الأخير الذي تقع حوادثه في يافا كباقي فصول القطعة، ولكن بعد هزيمة عكا، أتناول باعث مقتل الثلاثة آلاف تركي في أسلوب ساخر أرمي به إلى تصوير شخصيات الرواية. وقد حاولت أيضا أن أكشف عن أنانية نابليون، وكيف أن هذه الأنانية كانت متأصلة في أعماق روحه؛ وإذا كنت قد وفقت في صوغ الخاتمة، فان النظارة لابد أن يذكروا واترلو، وفشل نابليون، وخاتمته المحزنة)

مكتبة لموسى بن ميمون

يذكر القراء أنه قد احتفل أخيرا في مصر وفي كثير من الجامعات والهيئات العلمية الأوربية بذكرى الطبيب الأندلسي اليهودي الأشهر موسى بن ميمون وذلك لمناسبة مرور ثمانمائة عام على وفاته. وقد عاش ابن ميمون في قرطبة وفي مصر، وكان طبيبا خاصا للسلطان صلاح الدين؛ وكتب مؤلفاته بالعبرية والعربية معا، وفي أنباء فلسطين الأخيرة أن بلدية مدينة تل أبيب اليهودية قد قررت أن تنشئ مكتبة خاصة بموسى بن ميمون تودع فيها ما انتهى إلينا من مؤلفاته سواء بالعربية أو بالعبرية أو تراجمها اللاتينية، وكذلك جميع المؤلفات التي كتبت عنه في جميع اللغات وفي مختلف العصور

الكتب

1 - تاريخ القرآن للأستاذ أبي عبد الله الزنجاني

2 - الخلق الكامل للأستاذ محمد أحمد جاد المولى بك

للأستاذ محمد بك كرد علي

- 1 -

تاريخ القرآن هو كما قال المؤلف وجيز في سيرة النبي الأكرم والقرآن الكريم والأدوار التي مرت به من كتابته وجمعه وترتيبه وترجمته إلى سائر اللغات، طبعته مؤخرا مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. وقد استند المؤلف، وهو من المستنيرين من علماء إيران ومن أسرة نبيلة بشرفها وعلمها في مدينة زنجان، في تأليفه على مصادر لكبار علماء السنة والشيعة وجود الكلام على ما تقتضيه بيئته، وربما تجاوزها إلى أبعد

غاية كان في مقدوره تجاوزها. وحبذا لو كان قد توسع في القراءات واستخدم لذلك مثلا كتاب النشر في القراءات العشر لأبن الجزري المتوفى سنة 833هـ والمطبوع في مدينة دمشق. وليته قال لنا شيئا في القراءات وما هي عليه اليوم في بلاد فارس والهند والصين وتركستان وجاوه والحجاز ومصر والعراق والشام وشمالي أفريقية، وتوسع في كلامه على ما قاله العلامة نولدكه في هذا المعنى ورد عليه؛ ومثله من يحسن عليه الرد؛ وبسط القول في الترجمات الإفرنجية وأيها أجدر بالعناية والقبول، إلى غير ذلك مما نرجو أن يتعرض له العلامة المؤلف في طبعة ثانية مزيدة

وقد صدر الكتاب الأستاذ أحمد أمين صاحب فجر الإسلام وضحى الإسلام بمقدمة موجزة قال فيها: ولئن ساغ في العقل أن يقتتل المسلمون أيام كان هناك نزاع على الخلافة، ومن أحق بها، ومن يتولاها؛ فليس يسوغ بحال أن يقتتلوا على خلاف أصبح في ذمة التاريخ، وأنه لولا ألاعيب السياسة، واستغفال الماكرين لعقول العامة، واحتفظ أرباب المطامع والشهوات بجاههم وسلطانهم، لا نمحى الخلاف بين الشيعي والسني، ولأصبحوا بنعمة الله أخوانا، ولنظر بعضهم إلى بعض كما ينظر حنفي إلى مالكي ومالكي إلى شافعي؛ ورجا أن يفكر عقلاء الفريقين في أحياء عوامل الألفة، وأن يترك للعلماء البحث حرا في التاريخ،

ويتلقوا النتائج بصدر رحب، كما يتلقون النتائج في أي بحث علمي وتاريخي

ورأى صديقي أحمد أمين هو رأي فريق كبير من علماء المسلمين اليوم، وفي مقدمتهم الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي، فقد قال في خطابه البديع الذي أجاب به من كرموه في الحفلة الأخيرة في القاهرة: إن من منهاجه العمل على إزالة الفروق المذهبية وتضييق شقة الخلاف بينها، فان الأمة في محنة من هذا التفرق، ومن العصبية لهذه الفرق، ومعلوم لدى العلماء أن الرجوع إلى أسباب الخلاف ودراستها دراسة بعيدة عن التعصب المذهبي، يهدي إلى الحق في أكثر الأوقات، وإن بعض هذه المذاهب والآراء قد أحدثتها السياسة في القرون الماضية لمناصرتها، ونشطت أهلها وخلفت فيهم تعصبا يساير التعصب السياسي، ثم انقرضت تلك المذاهب السياسية وبقيت تلك الآراء الدينية لا ترتكز إلا على ما يصوغه الخيال وما أفتراه أهلها. وهذه المذاهب فرقت الأمة التي وحدها القرآن الكريم وجعلتها شيعا في الأصول والفروع، ونتج عن ذلك التفرق حقد وبغضاء يلبسان ثوب الدين، ونتج سخف مثل ما يقال في فروع الفقه الصحيح أن ولد الشافعي كفء لبنت الحنفي، ومثل ما يرى في المساجد من تعدد صلاة الجماعة، وما يسمع اليوم من الخلاف العنيف في التوسل والوسيلة، وعذبات العمائم وطول اللحى، حتى أن بعض الطوائف لا تستحي اليوم من ترك مساجد جمهرة المسلمين وتسعى لإنشاء مساجد خاصة)

هذه أمنية عقلاء المسلمين، ويا حبذا لو عني بعض علماء الأزهر فكتبوا كتابا بل كتبا في منشأ هذا الخلاف بين السنة والشيعة، والطرق العملية لأزالته على ما يحب كل مسلم دراكة، ولا سبيل إلى ضم الشمل المبتوت، والخلاص من هذا الاختلاف الممقوت، بغير الرجوع إلى الكتاب وما صح من السنة، والقاء الخلافات جانبا بين أرباب المذاهب الإسلامية

طالعت بالأمس لمؤلف كتاب (الخلق الكامل) كتابا جميلا أسماه (محمد (ص) المثل الكامل) فأكبرت بحثه وغبطته على استخراج العبر من هذه السيرة الشريفة التي تدعو المؤمنين وغيرهم إلى التأسي بها. واليوم طالعت كتابه (الخلق الكامل) وهو في مجلدين ضخمين يتبعهما مجلد ثالث، فرأيت مؤلفا يجمع بين الثقافتين الإسلامية والغربية، ويكتب كتابه من

تمثل فنه، وأخذ به، ودعا إليه مخلصا مؤمنا. ولقد فزع في وضع كتابه إلى أصح المصادر الإسلامية: فزع إلى الكتاب والسنة وإلى آراء علماء الأخلاق من سلف هذه الأمة وبعض رجالها المعاصرين، وفزع إلى آراء علماء التربية وفلاسفة الغرب، واعتبر الإسلام جامعا لكل الفضائل النفسية والمدنية، لو تذوقه أهله حق تذوقه، وعملوا بكل ما أمر به لكانوا خير أمة أخرجت للناس في هذا العصر

عالج المؤلف كل ما يخطر بالبال من النقائص، وما يقابلها من الحسنات والمكارم، وهو يرى مثلا من نقائصنا الخلقية أن يضحك الوالد عند سماع السب والفحش من

طفله، واحتقار بعضهم الأعمال الحرة كالزراعة والصناعة والتجارة، ولطم الخدود والعويل على الشبان الذين يجندون لخدمة بلادهم والدفاع عنها، واحتقار كثير من عاداتنا القديمة وإن كانت حسنة، والتعلق بالعادات الغربية وإن كانت سيئة، والانغماس في الترف ومحاكاة الفقير الغني، وتطلع الشبان إلى الزوجات الغنيات وإن كن وضيعات الأخلاق، وتطلع الشابات إلى الأزواج الأغنياء وأن كانوا فاسدي الأخلاق، وشهادة الزور وحلف اليمين الغموس وإعانة الظالم على ظلمه، والإقبال على الروايات الهزلية الممقوتة والزهد في الكتب الجيدة المفيدة، والامتعاض من سماع الحق ومقت قائله، وازدراء المعتصم بدينه المحافظ على شعائره، وتقريب المستخفين والمستهزئين، وتكريم الزنادقة والملحدين إلى آخر ما عدد

ويتألف من كل باب من الأبواب التي عالجها رسالة جديرة بأن تقرأ ويستفاد منها.

ومما قال إن فلاسفة الغرب وإن كان يرجع إليهم فضل السبق في بحث أمهات الفضائل فهم لم يبينوا مناطها، ولم يضعوا لها حدا فاصلا بين ما يحقق الفضيلة ومالا يحققها، فانهم لم يذكروا متعلق العفة ولا أي شيء تكون ولا مقدارها الذي إذا تجاوزه المرء وقع في الفجور، وكذلك الحلم لم يذكروا مواقعه ومقداره، وأين يحسن وأين يقبح وكذلك الشجاعة. وأفاض في الفلسفة الخلقية وينابيع الخلق والعواطف والانفعالات النفسية وينابيع الأخلاق والعادة والبيئة ووسائل تقويم الخلق والموازين الخلقية ووجوه الخير ومظاهر التربية الخلقية في الأمم الغربية والشرقية ومظاهر الأخلاق الإسلامية ومظاهر الأخلاق الفردية ومظاهر الخلال الاجتماعي إلى غير ذلك من الأبحاث التي خاض عبابها وجزأها أجزاء،

ومزج فيها الكلام في القديم والحديث على النحو الذي تقبله النفوس، ولا يكون مثالا غير حي لا ينتفع به قارئه لبعده عن مستوى عقله وخلقه وعاده وحاجته

وعلى الجملة فان كتاب الخلق الكامل استجمع صفات التأليف النافع، وظهرت شخصية مؤلفة في صفحاته، وتحمسه لما يريد أن يدعو إليه ليستقيم حال هذا المجتمع الذي كثرت شروره ومفاسده على صورة لم تكن للمسلمين في الدهر السالف؛ دهمتهم سيئات الحضارة الجديدة فسهل عليهم قبولها أكثر من حسناتها التي صعب عليهم الأخذ بها كلها، ومن الغريب أننا بقدر ما يعلو مستوانا في العلم نزداد ضعة في الأخلاق إلا قليلا، وبعدا عن الجميل من حسنات الأجداد ولآباء، حتى لقد تجد في المتعلمين أخلاقا شاذة واستهتار رديئا قد لا تقع على مثله في العامة والأميين، وهذا من جملة سيئات المدنية المادية التي تجردت من عاطفة الدين وعاطفة الخلق، وقاست كل أمر على المادة والنفع العاجل

محمد كرد علي

تاريخ العرب

في الجاهلية وصدر الإسلام

تأليف الأستاذ عبد المتعال الصعيدي

المدرس بكلية اللغة العربية

اشتمل هذا الكتاب على تاريخ دول العرب الجاهلية، وعلى السيرة النبوية، وعلى تاريخ دولة الخلفاء الراشدين. وفي تاريخ العرب في تلك العهود الثلاثة مسائل كثيرة تحتاج إلى التمحيص، وشهادات للشعوبية في القديم والحديث، فعني هذا الكتاب بتمحيصها، وكشف أمر تلك الشبهات فيها، وسلك في دراسة السيرة النبوية منهجا جديدا كشف فيه غامضها، ورد بأقوى الأدلة كل ما يحاول به تشويه شيء منها، ومن ذلك غزوات النبي صلى الله عليه وسلم مع يهود المدينة، فقد أراد صاحب كتاب (تاريخ اليهود في بلاد العرب) أن يرجع أسبابها إلى طمع المسلمين في أموال أولئك اليهود، وذكر أنه من أجل ذلك تعرض النبي صلى الله عليه وسلم لدينهم، وكلفهم أن يعترفوا برسالته وهم لا يمكنهم أن يعترفوا

برسول من غير بني إسرائيل، ولو أنه اقتصر على محاربة الوثنية العربية وحدها لما وقع نزاع بينه وبين اليهود الذين يشاركونه في أمر تلك الوثنية

فأثبت له صاحب كتاب (تاريخ العرب في الجاهلية وصدر الإسلام) أن اليهود هم الذين بدءوا المسلمين في ذلك النزاع بعد أن جمع النبي صلى الله عليه وسلم بين الفريقين في حلف واحد، وجعل منهم أمة واحدة تجمع بينها رابطة الوطن، وإن اختلف دينها إلى

الإسلام واليهودية. أما ذلك المال فكان الإسلام يحرم أن ينظر إليه المسلمون في قتالهم، وكان الله جل شأنه يؤدبهم بالقول والفعل إذا خالف بعضهم ذلك كما حصل منهم في غزوة بدر وغزوة أحد، وإنما كان سبب قتال اليهود نقضهم ذلك الحلف، وكراهتهم أن ينهض العرب بذلك الدين الجديد وهم أصحاب البلاد، واليهود قوم طارئون عليهم، فكان شأنهم في ذلك شأن الأجانب الآن في بلادنا، وإذا كان من حق الأجنبي على صاحب الوطن أن يكرم جواره، فمن حق صاحب الوطن على الأجنبي أن يراعي ذلك منه فلا يكره الخير له، ولا يقف حجر عثرة في سبيل نهوضه، فإذا لم يراع ذلك له كان من حقه أن يخرجه من وطنه، وألا يكرم جواره كما لم يكرم جواره

ومن ذلك أيضا تلك الفتن التي حدثت بين الصحابة في عهد الخلفاء الراشدين، فقد أدى للتاريخ حقه فيها، كما أدى لأولئك الأصحاب حقهم في صحبتهم لصاحب الرسالة، وفي عظيم جهادهم في نشر تلك الديانة. وهكذا سار المؤلف في كتابه يعينه تحقيق مسائل التاريخ أكثر من عنايته بسرد أخبارها، ويشفي في ذلك غليل من يريد الوصول إلى الحق فيها.

(ص)

العدد 111 - بتاريخ: 19 - 08 - 1935

سعد باشا زغلول

بمناسبة ذكراه الثامنة

كان رحمه الله كالبحر! لا تطالعه من أي جهاته إلا غمر نفسك بجلال العظيم، وشغل رأسك بخيال الشاعر، وأخذ حسك بروعة المجهول! لم يكن إنساناً كسائر الناس عظمته موضع الشذوذ في بشريته، وعبقريته بعض الكمال في نقصه، وقوته عَرَض منتقل في ضعفه؛ إنما كانت العظمة أصلاً في طبعه، والعبقرية فطرة في خَلْقِه، والقوة جوهراً في إرادته. وإذا كان النبوغ قوة في مَلَكَةٍ على حساب ملَكات، وارتفاعاً في جهة بانخفاض جهات، فأن نبوغ سعد باشا كان نظاماً عدلا في نوعه: ظهر في كل موهبة من مواهبه بمقدار واحد، وبهر في كل أثر من آثاره بشعاع ممتاز. فهو في صرامة المنطق مثله في لطافة الشعر، وفي جرأة القلب مثله في رقة الشعور، وفي بلاغة اللسان مثله في براعة الذهن، وفي كيد الخصومة نفسه في شرف الرجولة، وفي قيادة الجمعية التشريعية عينه في قيادة الأمة المصرية!

سعد زغلول ومحمد عبده هما الآية الشاهدة على سمو الجنسية المصرية الخالصة، والحجة القائمة على فضل الثقافة العربية الصحيحة. نشأ كلاهما قرويين لم يَشُبْ دماءهما عنصر دخيل، أزهريين لم يشلَّ تفكيرهما تقليد عاجز؛ ثم مضيا على إلهام الجنس، ورسم التاريخ، وهدى العقيدة، يدعو أحدهما إلى إصلاح الدين، ويدعو الآخر إلى إصلاح الدنيا، برجولة الخلق، وفحولة التفكير، وبطولة التضحية؛ حتى كان من أثر جهادهما المباشر ما نحن والشرق فيه من انتباه العقل وانتعاش الوجدان وثورة الحميّة.

كانت معجزة الرجلين في رسالتهما الإنسانية، من نوع معجزة الرسول في رسالته الإلهية: رجولة قاهرة وفصاحة ساحرة وخلق عظيم. وتلك هي عناصر الشخصية الجبارة التي تأمرك وكأنها تستشيرك، وتقودك وكأنها تتابعك، وتتطامن إليك وأنت منها كما تكون من البحر أو الجبل أو العاصفة!!

إذا شئت أن تختصر رسالة في كلمة فهي (الدفاع عن الحق)؛ تطاوع له منذ شب بدافع من غريزته الحاكمة وطبيعته الناقدة؛ فكان في كل مرحلة من مراحل حياته يذود عنه طغيان القوة، وسلطان الهوى، وعدوان الرذيلة. عُيِّن بعد خروجه من الأزهر محرراً في الوقائع المصرية مع أستاذه الإمام، فكان يكتب في الاستبداد والشورى والأخلاق، وينتقد الأحكام

التي كانت تصدرها يومئذ (المجالس الملغاة)؛ ثم عين ناظراً لقلم قضايا الجيزة، وكان حكمه حكم القاضي الجزئي، فنزل الحق من عدله وعقله في حمى أمين؛ ثم أصغى لصرخة الحق في الغضبة العرابية ففصل من وظيفته، فزاول المحاماة، وهي يومئذ حيلة الباطل وخصيمة العدل وآفة الخلق؛ فأنقذها من هذه المراغة، وطهرها من ذلك الرجس، وردّها إلى طبيعتها مجلوة الصدر عفيفة الأديم، تساعد القانون وتؤيد الحق.

وكان سعد أفندي زغلول أول محام أقرته المحاكم الأهلية في مصر، فجعل دستور هذه

الحرفة النبيلة هذا الجواب الجامع الذي أجاب به ممتحنه وقد سأله عن واجبات المحامي فقال:
(درس القضية، والدفاع عن الحق، واحترام القضاء).
ثم اختير نائب قاض في محكمة الاستئناف، ويومئذ درس الفرنسية ونال إجازة الحقوق، فبرع القضاة الأوربيين بالذهن الغواص، والدرس المحيط، والتوجيه النزيه، والاستدلال الصحيح، والاستنباط الدقيق، والحكم الموفق. ثم انتقل من القضاء إلى وزارة المعارف، وكان لدنلوب فيها استبداد الطاغية، وفساد المستعمر، وعناد القدَر؛ وكان لهذا الفاجر صرعى كثيرون أولهم اللغة العربية والكرامة المصرية؛ فطأطأ سعد بسطوة الحق علو المستشار، وأعز جانب العربية في وطنها فجعلها لغة الثقافة، ووضع الأقدار في مواضعها فرفع بذلك من قدْر الكفاية. ثم انتخبته الأمة نائباً في (الجمعية التشريعية)، فكان بشخصيته الغلابة ولهجته الخلابة وحججه المُلزمة وأجوبته المفحمة رهبة الوزراء، ودهشة النواب، ومُتجه الأفئدة؛ وكان مناهجه فيها قوله المأثور:
(الحق فوق القوة، والأمة فوق الحكومة)
ثم أُعلنت الهدنة ووضعت الحرب العامة قضية العالم كله على مكاتب الغالبين في (فرساي)، فدوى في سمعه صوت الحق الصريع، وعصفت في رأسه نخوة الشعب المستذَل، فنهض للغاصب المزهوّ نهضته المعروفة، فحيّس بها أنف الجبار العنيد، وفتح بفصلها الدامي تاريخ مصر الجديد.
وهكذا اصطفى الله سعداً لرسالة الحق، في أمة سَفِهَتْه في نفسها فلا تأخذه ولا تعطيه، ثم ركَّبه على الصورة التي أرادها لتبليغ هذه الرسالة، ثم هدى به قافلة قومه إلى طريق
السلامة، وجعل الذين اتبعوه فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة!
(للكلام بقية)
أحمد حسن الزيات
أيها البحر!
للأستاذ مصطفى صادق الرافعي
إذا احْتَدَم الصيفُ، جعلتَ أنت أيُّها البحر للزمن فصلاً جديداً يسمى (الربيع المائي) وتنتقل إلى أيامك أرواح الحذائق، فتنبت في الزمن بعض الساعات الشهية، كأنها الثمر الحلو الناضج على شجرة
ويوحي لونك الأزرق إلى النفوس ما كان يوحيه لون الربيع الأخضر، إلا أنه أرق وألطف ويرى الشعراء في ساحلك مثلما يرون في أرض الربيع، أنوثة ظاهرة، غير أنها تلد المعاني لا النبات
. . . .ويحس العشاق عندك ما يحسونه في الربيع: أن الهواء يتأوَّه
في الربيع، يتحرك في الدم البشريِّ سرُّ هذه الأرض؛ وعند (الربيع المائي) يتحرك في الدم سرُّ هذه السحُب
نوعان من الخمر في هواء الربيع وهواء البحر، يكون منهما سكرٌ واحدٌ من الطرَب وبالربيعَيْن الأخضر والأزرق ينفتح بابان للعالم السحريِّ العجيب: عالم الجمال الأرضي الذي تدخله الروح الإنسانية كما يدخل القلب المحبُّ في شعاع ابتسامة ومعناها
في (الربيع المائي)، يجلس المرء وكأنه جالسٌ في سحابة لا في الأرض ويشعر كأنه لابسٌ ثياباً من الظل لا من القماش؛ ويجد الهواء قد تنزه عن أن يكون هواءَ التراب
وتخفُّ على نفسه الأشياء، كأن بعض المعاني الأرضية انتزعت من المادة. وهنا يدركُ الحقيقة، أن الشرور إن هو إلا تنبُّهُ معاني الطبيعة في القلب
وللشمس هنا معنى جديد ليس لها هناك في الدنيا (دنيا الرزق)
تُشرقُ الشمس هنا على الجسم؛ أما هناك فكأنما تطلُعُ وتغرب على الأعمال التي يعملُ الجسمُ فيها
تطلع هناك على ديوان الموظف لا الموظف، وعلى حانوت التاجر لا التاجر، وعلى مصنع العامل، ومدرسة التلميذ، ودار المرأة
. .تطلع الشمس هناك بالنور، ولكن الناسَ - وا أسفاه - يكونون في ساعاتهم المظلمة
.

الشمسُ هنا جديدة، تُثبت أن الجديد في الطبيعة هو الجديد في كيفية شعور النفس به
والقمر زاهٍ رفَّافٌ من الحسن؛ كأنه اغتسل وخرج من البحر
أو كأنه ليس قمراً، بل هو فجرٌ طلع في أوائل الليل؛ فحصرته السماءُ في مكانه ليستمرَّ الليل
فجرُ لا يوقظ العيونَ من أحلامها، ولكنه يوقظُ الأرواحَ لأحلامها
ويُلقي من سحره على النجوم فلا تظهر حوله إلا مُسْتبْهمة كأنها أحلامٌ معلّقة
للقمر هنا طريقةٌ في إبهاج النفس الشاعرة، كطريقة الوجه المعشوق حين تقبّله أول مرة
و (للربيع المائي) طيوره المغردة وفراشه المتنقِّل
أما الطيور فنساءٌ يتضاحكنَ، وأما الفراشُ فأطفالٌ يتواثبون
. . . .نساءٌ إذا انغمسن في البحر، خيِّلَ إليَّ أن الأمواجَ تتشاحنُ وتتخاصم على بعضهن
رأيت منهن زهراء فاتنة قد جلست على الرمل جلسة حواءَ قبل اختراع الثياب، فقال البحر: يا إلهي. قد انتقل معنى الغرق إلى الشاطئ. . . إن الغريق من غرق في موجة الرمل هذه
والأطفال يلعبون ويصرخون ويضجُّون كأنما اتسعت لهم الحياة والدنيا
وخيِّل إلي أنهم أقلقوا البحر كما يُقلقون الدار، فصاح بهم: ويحكم يا أسماكَ التراب. . .! ورأيتُ طفلاً منهم قد جاء فوَكَزَ البحر برجله! فضحك البحر وقال: انظروا يا بني آدم!!
أعَلى الله أن يَعْبأ بالمغرور منكم إذا كفرَ به؟ أعليَّ أن أعبأ بهذا الطفل كيلا يقول إنه ركلني برجله. . .؟
أيها البحر. قد ملأتك قوة الله لتُثبت فراغ الأرض لأهل الأرض
ليس فيك ممالك ولا حدود، وليس عليك سلطانٌ لهذا الإنسان المغرور
وتجيش بالناس وبالسفُن العظيمة، كأنك تحمل من هؤلاء وهؤلاء قشاً ترمي به
والاختراع الإنسانيُّ مهما عَظُم لا يغني الإنسان فيك عن إيمانه
وأنت تملأ ثلاثة أرباع الأرض بالعظَمَة والهول، رداً على عَظمة الإنسان وهوله في الربع الباقي؛ ما أعظمَ الإنسان وأصغره!
ينزلُ الناسُ في مائك فيتساوَوْن حتى لا يختلف ظاهرٌ عن ظاهر
ويركبون ظهرك في السفن فيحنُّ بعضهم إلى بعض حتى لا يختلف باطنٌ عن باطن
تُشعرهم جميعاً أنهم خرجوا من الكرة الأرضية ومن أحكامها الباطلة
وتُفرقهم إلى الحب والصداقة فقراً يُريهم النجوم نفسها كأنها أصدقاء، إذ عرفوها في الأرض
يا سحر الخوف. أنت أنت في البحر كما أنت أنت في جهنم
وإذا ركبك الملْحِدُ أيها البحر، فرجفت من تحته، وهدَرْتَ عليه وثُرت به، وأريته رأي العين كأنه بين سماءين ستنطبقُ إحداهما على الأخرى فتقفلان عليه، تركته يَتَطَأطأ
ويتواضع، كأنك تهزُّه وتهزُّ أفكاره معاً وتُدَحْرِجَهُ وتدحرجُها
وأطَرْتَ كل ما في عقله فيلجأ إلى الله بعقل طفل
وكشفتَ له عن الحقيقة أن نسيان الله ليس عمَل العقل، ولكنه عملُ الغفلة والأمن وطولِ السلامة
ألا ما أشبه الإنسان في الحياة بالسفينة في أمواج هذا البحر!
إن ارتفعت السفينةُ، أو انخفضت، أو مادت، فليس ذلك منها وحدها، بل مما حولها ولن تستطيع هذه السفينةُ أن تملك من قانون ما حولها شيئاً، ولكن قانونها هي الثبات، والتوازن، والاهتداء إلى قصدها. ونجاتُها في قانونها
فلا يعتبرنّ الإنسان على الدنيا وأحكامها، ولكن فليجتهد أن يحكم نفسه
كتبت في شاطئ سيدي بشر (إسكندرية)
مصطفى صادق الرافعي
مصر وقت الفتح الفاطمي
والعوامل التي مهدت لهذا الفتح
للأستاذ محمد عبد الله عنان
كانت مصر وقت الفتح الفاطمي، فريسة هينة للفاتح؛ بيد أنها لم تكن كذلك قبل الفتح

الفاطمي بنصف قرن فقط. وقد ثابت للفاطميين مذ شادوا ملكهم في إفريقية، نية في غزوها وامتلاكها، فغزوها أكثر من مرة، واستولوا على بعض نواحيها، ولكنهم ارتدوا عندئذ أمام جند الخلافة وجند مصر؛ ذلك أن مصر لم تكن فريسة هينة، وكان يشرف على مصايرها باسم الخلافة جماعة من الجند والزعماء الأقوياء ينظمون مواردها وقواها الدفاعية حين الخطر الداهم؛ وكان الفاطميون من جهة أخرى يغالبون في المغرب خطر الانتقاض المستمر، ويقوم ملكهم الفتي على بركان يضطرم بعناصر الخروج والثورة، حتى لقد كادت دولتهم الناشئة تنهار في المهد تحت ضربات القبائل البربرية الخصيمة وذلك في عهد ثاني خلفائهم القائم بأمر لله. على أن الخلافة العباسية التي استطاعت في فوره من القوة في عهد المكتفي بالله أن تسحق الدولة الطولونية وأن تسترد مصر منها، لم تستطع أن توطد سلطانها الفعلي في مصر، وإن كانت قد استعادت سلطانها السياسي والديني فيها، وكان الزعماء الأقوياء الذين يحكمونها باسم الخلافة مثل تكين الخزري، وذكا الرومي، وابن كيغلغ، وابن طغج، يتمتعون بكثير من الاستقلال، وربما نزع بعضهم إلى انتزاعها من يد الخلافة كما فعل أحمد بن طولون من قبل، وكما فعل محمد بن طغج (الأخشيد) فيما بعد، وكانت هذه النزعة الاستقلالية، ذاتها عاملاً في ضعف سلطان الخلافة في مصر، وفي المباعدة بينها وبين مصر، وقلة اهتمامها بشؤون هذا القطر النائي ومصايره؛ ولكنها كانت من جهة أخرى عاملاً في حرص أولئك الحكام والزعماء الطامحين على الدفاع عن مصر وحمايتها من غارات المعتدين عليها والمتطلعين إلى امتلاكها. وكان جل اهتمامهم في ذلك على جند مصر ذاته، ولكن الشعب المصري لم يكن يعطف دائماً على أولئك الحكام الأجانب خصوصاً ومعظمهم من الفرس أو الترك المستعمرين، فكان الزعماء المحليون ينزعون دائماً إلى منافستهم ومناوأتهم، وكان الجند كثير التمرد والثورة، يتبرم بأطماع أولئك الزعماء وجشعهم في استخلاص أرزاقه؛ فكان تعاقب الولاة ومنافساتهم في تلك

الفترة، وثورات الجند المتكررة، واضطراب الشؤون العامة، وفقدان الأمن، وغلبة الفوضى؛ هذه كلها تزيد مصر ضعفاً على ضعفها، وتدفعها إلى التطلع إلى مصير أفضل من هذا المصير

وبينما كانت الدولة العباسية تجوز مرحلة اضطراب وضعف، كانت دولة خصيمة فتية هي الدولة الفاطمية تسير مسرعة إلى النماء والتوطد؛ وكانت القبائل البربرية التي شدت أزر الفاطميين، وأقامت ملكهم فوق ملك الأغالبة، تحتفظ في هذا القفر بخشونتها وبأسها بعيدة عن تلك العوامل الرخوة التي تحمل عناصر الهرم والفناء إلى دول ومجتمعات يغمرها تيار الحضر والنعماء والترف؛ ولم تكن المعركة الهائلة التي اضطرمت مدى حين بين الدولة الفتية وبين القبائل الخصيمة، وكادت تسحقها في المهد، إلا لتذكى فيها رغبة الحياة وعزم النضال؛ وقد خرجت من المعركة ظافرة قوية، ولكنها أدركت في نفس الوقت فداحة الخطر الذي يهددها من تمرد أولئك الخوارج الأشداء؛ ومع أن الفاطميين استطاعوا فيما بعد أن يدوخوا قبائل المغرب كله وأن ينفذوا بفتوحاتهم في المغرب الأقصى حتى المحيط، فأنهم لم يطمئنوا إلى البقاء في تلك الوهاد الوعرة، ولم يعتبروا أنهم وصلوا بإقامة ملكهم في أفريقية إلى ذروة الأماني والغايات

كانت مصر تلوح لهم خلال هذا القفر النائي درة خضراء؛ وكانت مصر في نظرهم هي ميدان المعركة الحاسمة التي يضطرمون لخوضها مع الدولة العباسية - خصيمتهم السياسية والمذهبية - وقد حاولوا خوضها منذ الساعة الأولى، فزحفوا على مصر أكثر من مرة كما قدمنا، وكما سنفصل بعد؛ ولكن فرصة الظفر لم تكن قد سنحت بعد، واستطاعت مصر بجندها وجند الخلافة أن ترد الغزاة، وشغل الغزاة مدى حين بما يهددهم في أفريقية ذاتها من خطر الانتفاض والفناء. وفي تلك الفترة تطورت الحوادث في مصر وسارت إلى مرحلة جديدة من الاستقرار في ظل الخلافة أيضاً؛ وانتهت المنافسات والثورات العسكرية المتكررة بفوز محمد بن طغج الأخشيد بولاية مصر للمرة الثانية في سنة 323هـ (935م) من قبل الخليفة القاهر؛ وكان قد وليها لأول مرة قبل ذلك بعامين ولكنه لم يدخلها ولم تطل ولايته أكثر من شهر؛ فلما وليها من

قبل القاهر سار إليها من دمشق في قواته، فتعرض له أحمد بن كيغلغ حاكم مصر وقتئذ وحاول رده عن ولايتها بقوة السيف؛ ذلك لأن ابن كيغلغ كان من أولئك الزعماء الأقوياء الذين يطمحون إلى الاستقلال بمصر؛ ولكن ابن طغج هزمه ودخل مصر ظافراً وتقلد ولايتها، وأنعم عليه الخليفة بلقب الأخشيد أو (ملك الملوك)

وكان الأخشيد أميراً طموحاً، وافر الذكاء والشجاعة والعزم، فلم تقف همته عند استخلاص الولاية لنفسه على الشام ومصر؛ ولكنه رأى أن ينشئ فيهما لنفسه دولة مستقلة في ظل الخلافة، وأسرة ملوكية يتوارث السلطان من بعده، على مثل ما انتهى إليه ابن طولون بإنشاء الدولة الطولونية. وهكذا قامت بمصر دولة جديدة هي الدولة الأخشيدية؛ واستقرت الأحوال بمصر في ظل الدولة الجديدة، وانتظمت قواتها الدفاعية، واستطاعت أن ترد الغزاة الفاطميين كرة أخرى (سنة 332هـ) وسطعت الدولة الأخشيدية بمصر مدى حين، وكادت تتنافس في القوة والبهاء دولة بني العباس ذاتها، ولاح مدى حين أن أمل الفاطميين في فتح مصر قد خبا. ولكن قوة الدولة الجديدة كانت ترجع بالأخص إلى أهمية منشئها الأخشيد وإلى قوة خلاله؛ فلما توفي الأخشيد (سنة 334)، وخلفه ولده أنوجور على مصر والشام ثم أخوه علي بن الأخشيد (سنة 349)، وآل تدبير الأمور في عهدهما إلى كافور الأخشيدي خادم أبيهما، أخذ صرح الدولة الجديدة في التصدع؛ ولما توفي علي بن الأخشيد، انتزع كافور الإمارة لنفسه (سنة 355)؛ وقبض هذا الأسود الخصي مدى حين على مصاير مصر والشام؛ ومع أنه كان كثير الدهاء والعزم، فإنه لم يستطع لأن يحول دون تسرب العوامل المعنوية والاجتماعية الهدامة التي كانت تقضم أسس الدولة الأخشيدية، ولم تطل ولايته مع ذلك أكثر من عامين؛ وخلفه في الإمارة صبي حفيد للأخشيد هو أحمد بن علي بن الأخشيد، وتولى تدبير الأمور وزير مصر القوي جعفر بن الفرات؛ ولكن الأمور كانت قد ساءت يومئذ، فكثرت الأزمات واضطربت أحوال الجند والشعب، وظهرت امارات الذبول والهرم على الدولة الأخشيدية ولاح لها شبح الفناء جاثماً في الأفق وشغلت الدولة الفاطمية في تلك الفترة بشؤونها الخاصة، فلم تعاود كرة الهجوم على مصر منذ سنة 332هـ؛ ومع ذلك فقد لبثت ترقب سير الحوادث في مصر بمنتهى العناية؛ وكانت تعتمد في تنفيذ مشروعها على الشعب المصري ذاته وعلى زعمائه الناقمين على بني الأخشيد، وعلى تمرد الجند الساخط لانتقاص أعطيته؛ وقد كان فريق من أولئك الجند هم الذين دعوا الفاطميين إلى غزو مصر وقت أن غادرها ابن كيغلغ منهزماً أمام الأخشيد

لسحق الدولة الأخشيدية. ولما توفي كافور، واضطربت أحوال الدولة، وتعارضت الآراء في مسألة الولاية والحكم، وكثر التنافس على السلطة، وقلت أعطية الجند، كتب بعض زعمائه إلى الخليفة الفاطمي المعز لدين الله يدعوه إلى فتح مصر؛ واشترك في هذه الدعوة رجل من أكابر رجال الدولة في عهد كافور، هو يعقوب بن كلس؛ وكان الوزير جعفر بن الفرات قد قبض عليه عقب وفاة كافور وزجه إلى السجن وصادر أمواله فما زال يسعى حتى أفرج عنه؛ وفر من مصر إلى المغرب ودعا المعز إلى فتح مصر، ووصف له خصبها وغناها، وضعفها واضطرب أحوالها؛ وقد كان لابن كلس هذا فيما بعد أعظم شأن في الدولة الفاطمية بمصر في عهد المعز وولده العزيز

وقد رأى الفاطميون في موت كافور خاتمة لذلك الاستقرار الذي تمتعت به مصر في عهد بني الأخشيد، ولم يفتهم أن يلاحظوا عوامل الانحلال والوهن التي سرت سراعاً إلى قوى مصر المادية والمعنوية. والواقع أن مصر كانت تعاني من تقلب الزعماء والدول أسوأ الآثار في مواردها وفي نظمها الاجتماعية وأحوالها المعنوية، وكانت تلك القوة التي تسبغها الزعامة المؤقتة على مركزها خلباً، وكان الشعب مطية المتغلب يسوقه إلى الحرب والسلام طبق أهوائه، ويستنفد موارده وأرزاقه في بذخه ومشاريعه، وكانت العاطفة القومية تتبرم بهذه السيادة الأجنبية التي تمثلها قصور لا تصطبغ بصبغة قوية من العروبة أو الزعامة الدينية، كذلك كانت الأزمات الاقتصادية الخطيرة التي تنتهي غالباً بالغلاء والوباء تفعل فعلها في إذكاء عواطف السخط والاستكانة واليأس؛ وقد كانت مصر وقت الفتح الفاطمي (سنة 358هـ) تعاني مصائب الغلاء والوباء، ويقال إنها فقدت من أبنائها في تلك المحنة زهاء ستمائة ألف وكان ذلك

بلا ريب عاملاً في إضعاف قواها الدفاعية وفي زهدها في النضال والمقاومة. أضف إلى ذلك كله ما كانت تعانيه مصر يومئذ من ضروب الانحلال والفساد الاجتماعي الشامل؛ وقد انتهت إلينا في ذلك رواية إذا صحت فإنها تمثل ما كان لتلك الظاهرة يومئذ من أهمية في إذكاء همة لفاطميين لفتح مصر؛ وخلاصة هذه الرواية أن أم الأمراء (زوجة الخليفة المعز) أرسلت إلى مصر صبية للبيع فعرضها وكيلها في السوق وطلب فيها ألف دينار، فأقبلت إليه امرأة أنيقة فتية على حمار وساومته في ثمنها واشترتها منه بستمائة دينار، وعلم الوكيل أن هذه السيدة الأنيقة هي ابنة الأخشيد محمد بن

طغج وأنها اشترت الصبية لتستمتع بها لأنها تهوى الصبايا الحسان، فلما عاد إلى المغرب حدث المعز لدين الله بأمرها، فدعا المعز شيوخ القبائل، وروى الوكيل لهم حادث الصبية، وعندئذ قال المعز: يا إخواننا انهضوا إلى مصر فلن يحول بينكم وبينها شئ، فان القوم قد بلغ بهم الترف إلى أن صارت امرأة من بنات الملوك فيهم تخرج بنفسها وتشتري جارية لتتمتع بها، فقد ضعفت نفوس رجالهم وذهبت الغيرة منهم، فانهضوا بنا إليهم

وفي هذه الأقوال التي ينسب قولها عن مصر للمعز لدين الله صورة بارزة لما يسود المجتمع المترف الرخو من عناصر الهدم. وقد كان هذا شأن المجتمع المصري في خاتمة كل فترة من النهوض والقوة: ففي نهاية الدولة الطولونية انتهى المجتمع المصري، بعد فترة قصيرة من الفتوة والبهاء والقوة، إلى نوع من الانحلال والتفكك مهد لسقوط الدولة الطولونية وعود السيادة العباسية؛ وقد كان هذا شأنه في خاتمة الدولة الأخشيدية التي سطعت في عهد مؤسسها لمدى قصير فقط. وقد نشأت الدولة الفاطمية وترعرعت في قفار المغرب، في مهاد البساطة والخشونة والفتوة؛ وانتهت في هذا الوقت الذي أزمع الخليفة الفاطمي فيه فتح مصر، إلى ذروة القوة والفتوة والرجولة إذا صح التعبير. وإليك رواية عن المعز تقدم إلينا صورة قوية مؤثرة عن تلك الروح الخشنة الوثابة التي امتازت بها الدولة الفاطمية في تلك الفترة من حياتها:

استدعى المعز في يوم بارد إلى قصره بالمنصورية عدة من شيوخ كتامة، وأمر بإدخالهم إليه من باب خاص، فإذا هو في مجلس مربع كبير مفروش باللبود وحوله كساء وعليه جبة وحوله أبواب مفتحة تفضي إلى خزائن كتب وبين يديه دواة وكتب؛ فقال يا إخواننا أصبحت اليوم في مثل هذا الشتاء والبرد، فقلت لأم الأمراء، وإنها الآن بحيث تسمع كلامي: أترى إخواننا يظنون أنا في مثل هذا اليوم نأكل ونشرب ونتقلب في المثقل والديباج والحرير والفنك والسمور والمسك والخمر والقباء، كما يفعل، أرباب الدنيا، ثم رأيت أن أنفذ إليكم فأحضركم لتشاهدوا حالي إذا خلوت دونكم، واحتجبت عنكم؛ وإني لا أفضلكم في أحوالكم إلا بما لا بد لي منه من دنياكم وبما خصني الله به من إمامتكم؛ وإني مشغول بكتب ترد علي من المشرق والمغرب أجيب عنها بخطي؛ وإني لا أشتغل بشيء من ملاذ الدنيا إلا بما يصون أرواحكم ويعمر بلادكم ويذل أعدائكم ويقمع أضدادكم، فافعلوا يا شيوخ في خلواتكم مثلما أفعله، ولا تظهروا التكبر فينزع

الله النعمة عنكم وينقلها إلى غيركم، وتحننوا على من ورائكم ممن لا يصل إلي كتحنني عليكم ليتصل في الناس الجميل، ويكثر الخير، وينتشر العدل وأقبلوا بعدها على نسائكم، والزموا الواحدة التي تكون لكم، ولا تشرهوا إلى التكثر منهن، والرغبة فيهن، فيتنغص عيشكم، وتعود المضرة عليكم، وتنهكوا أبدانكم، وتذهب قوتكم، وتضعف نحائزكم، فحسب الرجال الواحد الواحدة؛ ونحن محتاجون إلى نصرتكم بأبدانكم وعقولكم. واعلموا أنكم إذا لزمتم ما آمركم به، رجوت أن يقرب الله علينا أمر المشرق كما قرب أمر المغرب بكم؛ انهضوا رحمكم الله ونصركم

(للبحث بقية)

محمد عبد الله عنان

(النقل ممنوع)

حول الأوزاعي (ثالثا)

للأستاذ أمين الخولي

ولا مفر لي من أن أعد قراء الرسالة ألا أعود إلى هذا الموضوع بعدها؛ ثم سلام . . .

على الأخ السيد السنغافوري، وانتصاحٌ خير انتصاح بنصيحته في أن أعدل منطقي؛ وجزاه الله عن هذه النصيحة خير الجزاء؛ ولعله يعمل معي على هذا الإصلاح الرشيد الذي أبادر عليه، فيدعني أضع بين يديه هذه النقط ليصلحها كما يشاء، وله أن يبعث إلى هذا الإصلاح بأي طريق يؤثره. وربما لا يكون لقراء الرسالة بهذا الإصلاح اهتمام فليجعله - إن كان ذلك - بيننا خاصاً

يا سيدي؛ فسرت في حديث عن الأوزاعي التأثر الروماني، بالتأثر بالثقافة والبيئة الذي لابد من تقديره؛ فكتبت تقول لي إن القانون الروماني الحديث مأخوذ من الفقه الإسلامي؛ وإذ ذاك قلت لك هذا الرأي قديم نشر في مصر ولا يؤثر في قولي؛ فقلت لي إني أكتب ذلك للقراء، لا لك وحدك. والذي نشر في الكتب المطبوعة منذ ربع قرن؟ أليس هو للقراء؟ أم مهمة الرسالة أن تذيع ما في الكتب؟ أم أين منطقي. . . وأقول لك لا يؤثر على قولي ولا يتصل به من قرب، فترى من اللازم أن أجيب عن كل ما كتبت أنت وأبسط للقراء رأيي مدعماً ببراهين لا تنقص - على الأقل - عن براهين مناظري؛ ولكن لم أكن مناظرك في هذا، ولا عرضت له؛ وعنونت كلمتي الثانية أيضاً كما عنونت هذه الثالثة، حول الأوزاعي؟ فلا أنا فتحت البحث ولا أنا أردت الخوض فيه؛ وستعرف آخر الأمر لماذا ذلك؛ فالآن أين منطقي. . وأقول لك وقتي - وقتي أنا - وعملي وواجبي ومصالحي، فتقول لي لماذا يضيق الوقت ذرعاً بالخوض في هذا البحث وحده، فبربك أين منطقي؟. . . وأقول لك حين تسوي بين الأخذ والتأثر أنهما متغايران والثاني منهما قد يكون حاداً قوياً، وهو متاركة ومجانبة واحتياط من المخالطة، فلا يعجبك ذلك. وتحدثني عن سد الذرائع، كأنك تريد أن أخوض معك مناظرة أصولية، ولما نفرغ من المناظرة في تاريخ القانون، التي تجبرني عليها، حين تزعم أن أصل البحث الذي نحن فيه أنه وجد في الفقه الروماني تشابه مع الفقه الإسلامي فهم منه البعض وجود علاقة بين الفقهين، وعلم الله أني أرد العلاقة إلى أبسط من هذا التشابه وذاك الأخذ الذي تحب أن تتكلم فيه، فتجبرني على المناظرة فيما لا أرى القول فيه أو أكون هارباً منك، فأين منطقي. . .؟

وأقول لك إن قانون البيئة والثقافة ينطبق على الإسلام تمام الانطباق، فتقول لي إنك تريد أنه خارق لا ناقض وتفرق لي بينهما، وفي منطقي - المريض - أن الناقض والخارق كلاهما مخالف وأنا أقول إنه موافق، فما التفريق بين الناقض والخارق؛ وأين منطقي. . .

وتقول إن الشريعة الإسلامية وجدت كاملة دفعة وفي زمن واحد. فأقول لك نمت وزادت وتغيرت بالزمان والمكان واختلف فيها اختلاف هائل؛ فتقول لي إنما أريد الأصول والحدود والفرائض؛ وهل وجود الأصول هو وجود فهم الأصول والاختلاف فيها، والتطبيق عليها؛ وأين منطقي. . .

وأقول لك إن بعد المرامي القرآنية سبب للاختلاف، فتحتج في الرد على هذا بأمر علي لابن عباس أن يتوخى الجدال بالسنة حرصاً على ألا يخطئوا في فهم القرآن وتأويله، وهو عين ما أقوله من تسبيب الاختلاف، فأين منطقي. . .

وأقول لك عدم صراحة النصوص من أسباب الاختلاف، فتقول السبب الأكبر هو كذا، وهذا عندي هو السبب الأكبر، وهل وجود السبب الأكبر - عندك - ينفي السبب، أو الأسباب الكبيرة، والصغيرة وو. . .، وأين منطقي

وأقول لك اختلف الأدباء في فهم معنى الكذب في القرآن واستعماله فيه، فتقول لي فرق بين رسوم الألفاظ وحدودها المنطقية وبين صرائح مؤدياتها اللغوية، وهل ليست مؤدياتها هذه هي معانيها وما يفهم منها، وهل ليس هذا هو ما يحدد ويقدر حين يراد التفريق الدقيق والفهم المحلل والمحرم، وإلا فما هذه الحدود المنطقية وما تلك المؤديات التي تختلف عند السيد. . . وأين منطقي. . .؟ إن منطقي لم يفهم مطلقاً أن خطبة حجة الوداع يفهمها المسلم اليوم بمثل ما فهمها المسلم سنة عشر من الهجرة دون خلاف، لأن الألفاظ يغيرها الاستعمال، وتوسعها وتضيقها الظروف الحيوية والأدبية وغيرها، وهذا معنى قاله قدماء أدبائنا وقاله أصوليونا حين طلبوا فهم القرآن بمثل ما كانت تفهم العرب وقت نزوله، لا بغير ذلك من المعاني؛ ثم منطقي هذا لم يفهم الكلام في التفريق بين العربية وما تطور من اللغات حتى كاد ينقطع عن أصله الأول

قبل مائتي سنة، لأنّا لم نكن بصدد دراسة مميزات العربية، بل بصدد صراحة آيات الأحكام ووضوح مراميها أو وقوع المشترك فيها، لا لبعد المرمى الدقيق الإعجاز فقط

وتقول إن أغلب النصوص الفقهية من السنة، فلا أفهم ذلك، فتحتج عليه بأن السنة مبينة للكتاب، فهل البيان يثبت الأغلبية والأكثرية وهي أمر إحصائي؟ ثم كيف غلبت وهي تابعة لأصل هو الكتاب لا تجئ بما ليس فيه، فكل ما فيها فيه، فما هذه الأغلبية، وأين منطقي. . . أصلح الله شأني وأصلح شأنك إن قبلت مني هذه الدعوة في غير غضب، وإلا فدع نصيبك منها لي كله

وأقول لك تتأثر الأمم بميراث بعضها؛ فتقول لي قد مضى على الرومان قرن وأكثر، ولم يبق من ثقافتهم عين ولا أثر؛ فرحم الله أسلافنا وعوضنا خير العوض في بعيد ماضينا الذي حالت عليه أحوال وتقلبت أزمان؛ ورحم الله منطقي مع هذا التراث، ما دام قرن أو أكثر لا يدع عيناً ولا أثراً، وما دامت الحياة في الدنيا جارية على القلع والغرس، بل ليتها جارية عند السيد على ذلك، فإن البرسيم يسمد الأرض عندنا للقطن؛ والغارس في مكان القلع مستفيد من المقلوع عند الفلاحين لا عند منطقي أنا. . .

وإذا رأيت أن الإسلام يؤثر ولا يتأثر، فتلك منك رغبة في إكرامه، لعله لا يحرص عليها، لأنه لا يحب أن يخالف سنن الله التي لا تتبدل

وقلت: (الواجب ألا يعتقد مسلم خلافه هو كذا وكذا) فقلت لك فهذا الاعتقاد أصل من أصول الإسلام لا يصح أن يجري فيه الخلاف إذن، فعجبت من ذلك، وسألتني بأي منطق استنتجت من قولك ذلك، وأقول لك إنه بهذا المنطق المحتاج إلى الإصلاح وقع هذا الكلام في عبارتك ففهمته، ثم كنت ذكرت يا سيدي في هذا المجال أول ما ذكرت: الضلال والزيغ ومحاربة الإسلام فتركت لك ذلك أولاً ثقة بجميل غيرتك؛ وأما الآن فأقول لك: إن هذا الكلام الذي كنت ذكرته عن عجبك من وزارة الأوقاف الإسلامية كيف تقول كذا وكذا في الفقه، ومني كيف أقرر هذه الضلالة وأفسرها؛ هذا الكلام كله هو الذي يجعلني أفهم - ولو لم تقل - أنك ترى هذا أصلاً من أصول الدين يكفر منكره؛ ولا تتأول للمخالف فيه حتى يهون أمره عليك ولا تغضب

وأخيراً أقول للسيد بجرأة المؤمن، وواجب النصح، ولو غضب أو قذف: أولى لي - أنا أولاً - ثم لحضرتك ثانياً، أن تدع المناقشة في تاريخ القانون الروماني لدراسة يحق لها أن تتكلم في هذا أو ترتئي فيه؛ لا لمقال ينشر في سنغافورة بعد خمسة وعشرين عاماً من نشره في مصر؛ وهو كل بضاعتنا وما تدور عليه مناقشتنا. والأمثل لنا أن ندرس فقهنا درساً جيداً، وندرس تاريخه درساً عميقاً؛ ويدرس قوم منا الرومان وتاريخ قانونهم، ثم نلتقي بعد ذلك لنبحث عن الحقيقة، ونتعاون على الوصول إليها، لا لنكفر كل قائل، ونتهم كل متكلم، ونتحدث عن الرومان والإسلام واليونان والعرب والفرنجة والمستشرقين والمبشرين في صفحة وبقطرة مداد واحدة. تلك نصيحتي إليك يا سيدي أكررها جزاء لك على خالص نصحك لي بأن أغير منطقي؛ وإني لعلى أتم استعداد لتغييره لو كان منطقي أنا، لكنما المنطق وحده عقلية إنسانية لا يد لي فيها ولا يد لك بتغييرها. فنبهني أصلحك الله إلى ما أحيد عنه من منطق الإنسانية، ولا تخلق لنا منطقاً خاصاً بنا فننعزل عن الدنيا؛ وكفانا ما كان من عزلة وانقطاع. وهذا الذي بينت هو الذي منعني من الخوض معك في مناقشة العلاقة بين القانونين - الروماني والإسلامي - وهو الذي تجنبته منذ كتبت أول ما كتبت وحين كتبت آخر ما كتبت وإذا كنت - وحق المنطق وكرامة العقل - لم أغالطك مطلقاً، فإني وحرمة الأخوة الإسلامية لم يدر بخلدي أن أحقرك بل أنا أحقر من ذلك، والحق أجلُّ مني ومنك.

والسلام عليك ورحمة الله

أمين الخولي

إلى الشيخ اللغوي. . . و (فلان)

الوظيفة والموظفون

للأستاذ علي الطنطاوي

اعلم - أعزّك الله - أن الوظيفة ليست غُلاًّ في العنق، ولا قيداً في الرجل، وليست

مقايضة أو مباددة، آخذ فيها الوظيفة باليمين، لأعطى الوجدان بالشمال؛ ولو أنها كانت كذلك، لعزفت عنها وأجوبتها، ونفضت يدي منها، ولآثرت أن أبيع خزانة كتبي كرّة أخرى، أو أقضي وأسرتي خمصا، على أن آكل خبزي مغموساً بدم الضمير. . . وعليّ أن أكفر بالفضيلة، وأومن بالمصلحة، فأزن كلّ شيء في الدنيا بميزان صنجاته الدنانير، وأبصر كلّ ما في الكون من ثقب القرش، وأفكر إذ أفكر بعقلي الذي في كيس نقودي، لا بعقلي الذي في رأسي، فاختزل المنطق كله في قضية واحدة، هي الأولى والأخرى، وهي الحق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهي الكتاب المعجز الذي لا يُفرط فيه من شيء، ولا يعجزه شيء، فيكون المنطق كله هذه القضية: تحصيل المال واجب، وفي هذا الأمر تحصيل مال، فهذا الأمر واجب. . وضَع مكان (هذا الأمر) ما تشاء من أفعال اللؤم والخسّة، والكذب والنّذُولة، والضّعة والفُسُولة، تنتظم القضية وتستقم، وتصح وتطرد. . . . . ولا يبقى في الدنيا رديء ولا فاسد، ولا منكر، ما دام معه المال!

لا - يا سيدي - لست أسلك هذه الطريق التي لا أزال أحذر منها من لم يسلكها، وأصرف عنها سالكيها، وإن كان السالكوها هم الكثرة من موظفينا وعلمائنا، ومن كل ذي وظيفة، أو صاحب صلة بالحكومة، حتى أن الرجل من هؤلاء ليأتي الأمر يعترف أنه مؤذٍ للأمة، منافٍ للفضيلة، مناقضٌ للشرف، فيحتج له بأن مصلحته تقتضيه، ومعيشته تستلزمه، وأنه رجل (عاوز يعيش. .) ولا يعيش من لا يساير وينافق، ويذل ويتزَلَّف، لا يدري الجاهل أن المعيشة على الصَّعتر مع الشرف، خير من حياة النعيم والترف، من غير فضيلة ولا شرف!

ومن أنبأك - أعزّك الله - أن الموظف لا يحق له أن يفكر إلا بعقل رؤسائه، ولا يرى إلا بعين امرأته، فلا يحقق من الآراء ما أبطلوا، ولا يقبل ما ردّوا، ولا يوقر ما سفّهوا، ولا يرى ما استقبحوا حسناً، ولا ما كتموا ظاهراً، ولا ما صغّروا كبيراً، ولا ما عظموا حقيراً؟ أو لو كان رؤساؤه مخطئين، أو لو كانوا لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون؟

ومن ذا حظر عليه ما أبيح للناس، ومنعه ما منحوا من حرية التفكير، وحرية الرأي، وحرية القول، ولماذا يشتهي من الطعام ما يعافه رئيسه، ويستحسن من أبيات الشعر وأصوات الغناء ما يستهجنه ويستثقله، ولا يكون عليه في ذلك من حرج، ثم لا يتخذ له من الآراء غير رأيه، ومن المذاهب غير مذهبه؟ ولماذا لا ينشر هذا الرأي، ويؤيد هذا المذهب، ما دام لا يأتي محرماً في الشرع، ولا ممنوعاً في القانون؟ . .

والوظيفة - يا سيدي - عقدٌ بين الدولة والموظف، على أن يعمل عملاً بعينه، على جُعْلٍ بذاته. أفهل يعمل الأجير في الدكان، والعامل في المصنع، والنادل في الفندق، والخادم في البيت، وكلُّ مأجور من الناس في عمل جلَّ أو قلَّ، علا أو سفل، فإذا أكمل عمله وجوّده، استحق الأجر، وانطلق حراً في وقته، يقضيه على ما أحب، حراً في ماله ينفقه على ما شاء، حراً في رأيه ينحو به النحو الذي أراد، ويسوقه المساق الذي اختار. . . ثم لا يكون الموظف حراً أبداً، ولا يملك من أمر نفسه شيئاً؟

وماذا عليّ وأنا مدرس إذا أنا أعددت درسي وألقيته، وقرأت وظائف تلاميذي وصحّحتها، وفعلت كل ما يوجب عليّ القانون أن أفعل وزدت على الواجب النوافل، أن أؤلّف وأكتب، وأنقد الأخلاق والكتب والعادات، وأساهم في الجهاد الإصلاحي، وأحمل القسط الذي أطيقه من أثقال الأمة، ومن ذا يحمله إذا لم أحمله أنا وأمثالي من الموظفين والمتعلمين؟ وكيف تتقدم الأمة وتسير في طريقها إلى غايتها، إذا لم تجد من أبنائها من يحمل أثقالها؟

أفهل يريد سيدي - أعزّه الله - أن أمحو ملكة الكتابة من رأسي، وأطمس نور البصيرة من قلبي، وأسدل على عيني حجاباً حتى لا أرى فأسرّ فأشكر، أو أبتئس فأنقد، وأهجر الكتب حتى لا أقرأ فيفتح على الكتاب طريقاً إلى مقالة، وأعتزّل الناس حتى لا أسمع حديثاً فأكتب هذا الحديث، أو قصة فأدون هذه القصة، وأدل على مكان العبرة منها، وموطن العظة فيها؟ أفهل يريد سيدي أن أذهب إلى غار في الجبل فأحبس نفسي فيه كيلا أكتب فأزعج حضرته؟

أو هل توجب الوظيفة على صاحبها أن يكون عبداً لرؤسائه، مسخراً لأغراضهم ساعياً في مصالحهم، ولو كانت الطريق إلى إرضائهم طريقاً ملتوية معوجة لا يسلكها رجل يعرف ما

هي الفضيلة، ويدري ما هو الشرف؟
وهل توجب الوظيفة على الموظف أن يكون مبتوراً من جسم الأمة، فلا يشعر بشعورها، ولا يألم لألمها، ولا يحس أنه منها، ولا يشاركها في شئ من عواطفها، في حين أن المفروض في الموظف أنه من أرقى أبناء الأمة فكراً، وأوسعهم اطلاعاً، وأشدهم شعوراً (بالواجب العام)؟
أو هل يأخذ الموظفون رواتبهم من صندوق الأمة، ثم ليناموا آمنين إذا هي خافت، ويضحكون فرحين إذا هي تألمت، وينعموا فارهين إذا هي شقيت، ويأكلوا مسرفين إذا هي جاعت؟
كلا! كلا يا سيدي، فالموظف من الأمة وإلى الأمة، وليس في البلد شعب وموظفون، ولكنّ فيه شعباً واحداً، يشعر بشعور واحد، ويصدر عن مبدأ واحد ويسعى إلى غاية واحدة، ولأن تعرف أنت هذه الحقيقة فتعمل بها، أولى من أن أنزل أنا على رأيك، وأخضع لإرادتك، فيما يؤذي الحقيقة وينافيها
كلا! لقد انقضى ذلك العهد كان الموظف فيه مسؤولا أمام رئيسه، وأصبحنا اليوم وكلنا مسئولون أمام الأمة والتاريخ؛ وليس هذا الراتب منحة منك حتى تمنّ به عليّ، ولكن راتبك أنت منحة من الأمة - التي أنا من أبنائها تمن هي بي - عليك!
وبعد؛ أفليس مما يجب على قادة الفكر، وأرباب الأقلام، أن يعرّفوا الناس حقيقة الوظيفة والموظفين، وحق الأمة عليهم، وأمل الأمة فيهم؟ أوليس يجب عليهم معالجة هذه النواحي من أخلاقنا، وبسط الكلام فيها، وتحذير السالمين منها، ومداواة المصابين بها؟. . .
علي الطنطاوي
إلى الأستاذ محمد كرد علي
أغراض الاستشراق
للأستاذ محمد روحي فيصل
العجالة التي أسوقها اليوم إنما كتبت منذ عهد بعيد، وهي كما ترى أو كما سترى تحكي أغراض المستشرقين الدينية والسياسية، وتبين البواعث النفسية التي قام عليها تاريخ الاستشراق، وتعدد ألوان التخاذل العلمي والوجداني التي خضعت لها هذه الطائفة منذ نشأتها الأولى! ولقد كنت أريدها دراسة قوية مستفيضة موفقة تشرح ما تتوغر به صدور القوم من الحقد والموجدة، وتفضح ما ألم بالقلوب من النزوات البشعة والأهواء المريضة؛ وأذكر أني ما قرأت كلمة في هذا الصدد لكاتب من الكتاب إلا أعادني الحنين إلى تكملة ما شرعت فيه قديماً، واستئناف تبيان ما عميت أو تعامت عنه البصائر والأفهام
كان يعوقني عن ذلك أمران، هما الدعامة التي ترتكز عليها أسباب الكتابة والنشر، أولهما فقدان الصحيفة العربية الإسلامية الشرقية التي ترحب ببحوث كهذه التي نعتزم إذاعتها في الناس، والتي تشجع الكاتب الباحث على المضي فيما أخذ به نفسه من الدراسة الحرة الخالصة؛ وثانيها غموض الحجة وهلهلة المنطق والتواء التاريخ للظهور على المستشرقين والتغلب على مزاعمهم ودحض آرائهم واثبات خطئهم؛ فليس يكفي عندنا أن نتهمهم في إبهام، ونبغضهم لغير سبب، ثم نحمل عليهم ونرشقهم بقارص الكلام وعنيف السباب؛ إذن لتجنينا عليهم فظلمناهم ظلماً كبيراً، ولكانت دعوانا التي نتقدم بها عاثرة خاسرة!!
أما الصحيفة العربية الإسلامية فقد عثرنا عليها واهتدينا إليها، و (الرسالة) السمحة لن تضيق أبداً بما تعتقد أنه الحق، أو تتبرم بنفي ما غشى العرب والإسلام من ضعة الخطأ والعدوان، وهي المجلة الراقية التي تعتز بالكرامة وتعتصم بالنبل ثم تصل الماضي بالحاضر وتربط الشرق بالغرب على هدى وبصيرة؛ وأما الحجة والمنطق والتاريخ فقد توفرت لدينا وأسلست عناصرها لنا واتضحت في ذهننا، وإنا لنرجو أن نؤثر في الأسلوب والعرض جانب الحق والإنصاف والهدوء على جانب التحامل والملامة والغضب
وأحب قبل كل شيء أن أقول لعلامة الشام الأكبر ومؤرخها البارع الأستاذ محمد كرد علي إنه إذا قدر أن ينشر المستشرق برتزل كتابي المقنع والنقط نشراً حسناً ويضع لهما فهرساً

خاصاً يسهل على المطالع أمر المراجعة والتنقيب، فما ينبغي أن توجه الشكر والثناء إلا للناشر الفاضل وحده، أما أن ترسل الكلام إرسالاً وتمتدح المستشرقين كافة فهذا ما ينكره العلم ولا يرضاه الحق، فتقول: (هذه عناية علماء المشرقيات بكتب الإسلام، أما خاصة أهله اليوم فساهون لاهون! وليت سادتنا علماء الأزهر والمعاهد المماثلة في القطر وأساتذة العلوم وغيرهم يتروون في عمل هؤلاء الأعاجم، وقد كان عليهم أن يأخذوا باليمين آثار السلف ليحيوها قبل أن تنتظر في الخزائن عطف الغرب. إننا مدينون لعلماء المشرقيات من الهولنديين والجرمانيين والفرنسيين والبريطانيين والإيطاليين والأسبانيين وغيرهم من شعوب أوربا وشمالي أمريكا بما تفضلوا به علينا من نشر أسفارنا، أحسن الله إليهم بقدر ما أحسنوا لمدنيتنا وآدابنا)

لقد تعودنا أن نكيل المديح للمستشرقين كيلاً، وأن ننعت جهودهم بأنها بذلت لخدمة لغتنا وأدبنا وتاريخنا، وأن ما نشروه من البحوث والمخطوطات إنما كان لذات العلم خالصاً، ونرانا نرجع إليهم كلما اختلفنا في رأي أو حزَّ بنا أمر لنستوحي منهم الحكمة وفصل الخطاب. هم يتمتعون منا بثقة لا حد لها، ولكن هل عرفنا أغراضهم وغاياتهم؟ هل تبينا حقيقة مقاصدهم؟ ذلك ما نحاول الكشف عنه اليوم، وسيتضح لكل ذي عينين باصرتين أن وراء الأكمة ما وراءها. . .!!

ولسنا ننكر أن بين المستشرقين طائفة معتدلة قد أخلصت في دراستها الإخلاص كله، فنظرت إلى الأدب العربي والتاريخ الإسلامي وإلى كل ما أنتجه الشرقيون من دين وعلم وفلسفة نظرة مجردة عن الهوى كما يتطلبها البحث العلمي الحديث، وهي لذلك تستحق أجزل الثناء، بل إنها لما ينبغي أن نفاخر به أبد الدهر، إلا أن أفراد هذه الطائفة إذا عدُّوا لا يتجاوزون عدد الأصابع، وهم إزاء هذه الكثرة الهائلة المغرضة من المستشرقين لا يذكرون شيئاً؛ وقد قيل إن النادر لا حكم له. فأنت لو تصفحت هذه الأسماء: مرجليوث، لامنس، ماسبرو، دي ساسي، فلوغل، كارليل، كولنبرك، جنستون، ستونتن، هوغتن، غابلنتس، سيدليو، كوسان دي برسفال، كلابروت، جيب، دي لاغرانج رينو، مونك، يرون، كازميرسكي، كسغارتن، برنستين، فتزر، وولف، بورغستال، جونس، غوتوالد، كريستيا نوفتش، خانيكوف، بوتجانوف، سيانكوفسكي، سافلياف، غريغورياف، تورنبرغ، دوزي، بروكلمان، غويدي، غولد زهير، هيار، فمبري، زترستين، نالينو، هوداس، موسل، بيكر، دي فو، ماسينيون، هرغروني، فولرس، ارنولد، مورتمان، لشالتييه، بوفا، كاباتون، هاليفي، مكدوبل، دوفال، بارت، ليفي، كازانوفا، شوفين، كولينيون، دافيدس، لامبروز، نافيل. لشككت في حسن الغاية من أعمال الكثير منها، ولحرصت على أن تقصر الثناء على بعضها في تحفظ واعتدال!!

كان الباعث الأصلي للأوربيين على تعلم اللغات الشرقية دينياً محضاً. فقد هالهم أمر العرب، وأدركوا سريعاً أن هؤلاء القوم الفاتحين إنما يريدون فيما يريدون الاستيلاء على أوربا بأسرها لنشر تعاليمهم الجديدة والقيام بما أوصاهم به سيدهم الأعلى ونبيهم الكريم محمد بن عبد الله، والتاريخ يحدثنا أنهم امتلكوا حقاً أسبانيا الواسعة، وأجتاحوا جزءاً كبيراً من جنوب فرنسا حتى مدينة بواتيه أو بلاط الشهداء كما يطلق عليها مؤرخو العرب، ثم احتلوا جزيرة صقلية وشرعوا في بسط نفوذهم الأدبي على إيطاليا. . . وإيطاليا كما تعلم معقل المسيحية الحصين، ومصدر أشعة الدين، فعزم الغربيون على أن يحاربوا الإسلام والشرق بكل قواهم متخذين جميع الوسائل الفعالة لجأوا إلى السيف أولاً فقاتلوا وقاتلوا حتى إذا لم يفلحوا كل الفلاح ولم ينالوا ما يبتغون عمدوا إلى وسيلة أخرى أمرُّ من تلك وأدهى! فقد عقدوا مؤتمراً كبيراً في فينا عام 1311 ميلادية ترأسه البابا كليمان الخامس، وقرروا أن تؤسس في باريس وبولون واكسفورد وسلمنكة مدارس خاصة تدرس فيها العربية والعبرانية والكلدانية لتخريج وعاظ أشداء يستطيعون تنصير المسلمين واليهود أو تشكيكهم فيما فيه مؤمنون. وأنشأ الدومينيكان والفرنسيسكان في أديارهم دروساً في هذه اللغات، فغدت إيطاليا في ذلك العهد موطن علم المشرقيات. على أنهم كانوا يعنون بصورة خاصة بالعربية والعبرية، يأخذون الأولى عن السوريين الموارنة كبني السمعاني، والثانية عن الأحبار الربانيين. فانتشرت العربية بين الطليان انتشاراً عظيماً، حتى أن تجار البندقية وجنوة وبيزا ونابولي كانوا ينظرون إلى أن تعلمها من الحاجات الماسة للحياة على نحو ما

ننظر اليوم إلى اللغة الفرنسية أو الإنجليزية. وعقيب اختراع الطباعة كان قانون ابن سينا أول كتاب عربي طبع في روما. ولما قامت الحركة البروتستانية في القرن الخامس عشر وأمدها لوثر بروحه ازدادت عناية الغربيين بالعبرية والسريانية والكلدانية للبحث عن النص الأصلي للتوراة، وتتبع ذلك قيام البابا غريغوار الثالث عشر وأُربان الثامن بتعليم اللهجات الشرقية عملياً ليستفيد منها المبشرون بالنصرانية. وفي عام 1627 أنشئت مدرسة (انتشار الإيمان) التي خرَّجت الألوف من علماء المشرقيات؛ وكذلك أنشئت في فرنسا على عهد الوزير كولبير مدرسة (الشبان) التي أذاعت الفارسية والتركية وكثيراً من القصص الشرقية كألف ليلة وليلة وغيرها من الرسائل. وفي نهاية القرن السابع عشر نشر اليسوعيون أتباع لوَيُّولا اللغتين اليابانية والصينية وثقافتهما

على أن الاستشراق بعد ذلك قد تبدلت بواعثه، فغدا يخدم السياسة بعد أن كان يخدم الدين، ذلك لأن في القرن الثامن عشر ظهرت طائفة من الكتاب كفولتير وغيره حملت على الدين ورجاله جملة منكرة، وتناولته بالسخرية والتهكم المر، غير مبقية على شيء من احترامه القديم وسلطانه النافذ؛ ولأنه قامت في ذلك الحين ضجة الاستعمار وثار الغرب على الشرق يريد استعباده. فوضع المستشرقون أنفسهم تحت تصرف رجال السياسة، يُدلون إليهم بما يعلمون عن الشرقيين لتتمكن أقدامهم في بلاد الشرق، وتكون لهم على أهله سلطة خالدة!!.

ونلاحظ في هذا الطور الجديد تأليف الجمعيات في مختلف المدن الشرقية، فقد أنشأ المستشرقون جمعية العلوم والفنون في باتافيا عام 1778، والجمعية الأسيوية في لبنغال عام 1784، والجمعية الأسيوية في بومباي عام 1805، والجمعية الأسيوية في باريس عام 1822؛ وقد بذلت هذه الأخيرة جهوداً جبارة في دراسة الشرق ولغاته وتاريخه لا سيما اللغة العربية والعقلية العربية والثقافة العربية وما يتصل بذلك كله من دين وفلسفة، وعلم وأدب، لتقدم للحكومة آخر السنة تقريرها المعروف الذي لا يضم بين جوانبه حقائق تمليها لعدالة ويبعثها الواقع، وإنما ينطوي على سموم من الحقد وأثر من المغالطة! وهذه المجلة الأسيوية التي ما تزال حتى الآن تصدر في باريس مرة كل شهرين إنما هي أثر من آثار هذه الجمعية. . .

لقد كان المستشرقون على اتصال دائم بوزارة الخارجية ووزارة المستعمرات، يترددون على رجالاتهما لمعرفة ما جدّ وتغير من القرارات، وأن هذه البعثات التي يقومون بها إلى بلاد الشرق بين حين وآخر ليست بعثات علمية كما يزعمون تقصد وجه العلم خالصاً؛

وإنما هي في الحقيقة بعثات سياسية مصدرها هذه الرؤوس المفكرة الماكرة الجاثمة في الوزارتين المذكورتين، تطوف أنحاء الشرق باسم منقبة باحثة، حتى إذا ما ملأت حقائبها بما تريد عادت إلى وزارة الخارجية ووزارة المستعمرات تصب فيهما معلوماتها طروبة فخورة! وكثيراً ما كانت هذه البعثات (العلمية) تمنع من دخول بعض البلاد الشرقية، وقد تطرد منها أحياناً على أسوأ حال!!

وبعد، فلو نظرنا إلى بحوث علماء المشرقيات التي خطوها عن الأدب العربي والعقلية العربية، وفلاسفة العرب لاستخرجنا من ثناياها براهين جمة تبين لنا بوضوح كيف تندفع هذه الطائفة وراء الهوى والغرض لتثبت قضية من القضايا على أساس تجاهل الواقع وطمس الحقيقة؛ هذه نظرية (السامية والآرية) التي يؤمن بها أغلب المستشرقين والتي تصبغ دراساتهم بلون خاص تصف العرب والجنس السامي على العموم بأنهم قوم غرباء عن العلم والفلسفة، لا يحسون بالجمال والفن، ولا يعرفون ما يسمى بالأنظمة السياسية والمدنية. يقول أرنست رينان في الفصل الأول من كتابه في تاريخ اللغات السامية: (إن اللفظين اللذين استعملا ولا يزال استعمالهما جارياً إلى الآن، للدلالة على سير العقل نحو الحقيقة، وهما علم وفلسفة، قد كانا غريبين عن الجنس السامي تقريباً. فالبحث التفكيري المستقل الدقيق العميق، أو بعبارة أخرى التفكير الفلسفي للبحث عن الحقيقة، يبدو أنه كان وقفاً على الجنس المسمى بالهندي الأوربي (الآري) الذي كان يبحث منذ أقدم العصور إلى الآن لتفسير الله والإنسان والعالم تفسيراً عقلياً، والذي ترك وراءه في كل مراحل تاريخه آثاراً فلسفية خاضعة لنواميس تطور منطقي، أما الساميون فإنهم بدون تفكير أو تدليل توصلوا إلى أصفى

صورة دينية عرفها التاريخ فالمدرسة الفلسفية موطنها اليونان والهند، في وسط قوم
طلعة يهتمون كثيراً بمعرفة أسرار الأشياء. أما المزامير والأناشيد والكتب المنزلة
والحكم الرمزية أو الموضوعة في شكل ألغاز فهي من نصيب الجنس السامي
والجنس السامي أدنى من الجنس الآري إذا قورن به، فهو - أي الجنس السامي -)
ليست له هذه الروحانية السامية التي عرفها الهنود والألمان فقط، وليس له الإحساس
بالجمال الذي بلغ حد الكمال عند اليونان، وليست له هذه الحساسية الرقيقة العميقة
التي هي الصفة الغالبة عند الكلتيين (فرنسا وجزء من البلجيك)، وإنما الساميون
بديهتهم ولكنها محدودة،
وهم يفهمون الوحدة بشكل غريب، فالتوحيد هو أهم خصائصهم وهو الذي يلخص
ويفسر جميع صفاتهم
من آثار التوحيد عند الساميين التعصب، فعدم التسامح الديني عند الساميين هو نتيجة)
ضرورية لمذهبهم التوحيد، ومسألة النبوات والوحي هي من المسائل التي الساميين،
حتى أن القرآن لم يجد تقسيماً للشعوب غير تقسيمهم إلى كتابيين وغير كتابيين
والساميون تنقصهم الدهشة التي تدعو إلى التساؤل والتفكير، والتي تدعو إلى البحث)
عن الحقيقة، لأن اعتقادهم في قدرة الله يجعلهم لا يدهشون لشيء، فإذا رأوا شيئاً
عجيباً قالوا: (ربنا قادر على كل شيء) كما أنهم في حالة الشك يختمون رأيهم بقولهم
(الله أعلم) فإذا اعترض على ذلك بظهور حركة علمية فلسفية عند العرب في عصر
العباسيين وجب أن يكون الجواب على ذلك إنه من الخطأ وسوء الاستعمال أن نسمي
فلسفة منقولة عن اليونان بالفلسفة العربية، مع أنه لم تظهر لها أي مبادئ أو مقدمات
في شبه جزيرة العرب مكتوبة بالعربية، وهذا هو كل ما في الأمر، كما أنها تزدهر إلا
في الجهات البعيدة عن العرب مثل أسبانيا ومراكش وسمرقند، وكان معظم القائمين
بها من غير الساميين وكثرتهم من الفرس
والتوحيد له تأثير أيضاً في الشعر العربي، لأن الشعر العربي يعوزه الاختلاف والتنويع،)
فموضوعات الشعر أي أغراضه محدودة قليلة العدد جداً عند الساميين؛ والواقع أن هذا
الجنس لم يعرف إلا نوعين من الشعر هما الشعر المجازي عند اليهود والشعر
الشخصي الغنائي عند العرب، والأبطال في هذا الشعر هم نفس منشئيه. وهذه الصفة
الشخصية إلى الغاية التي تجدها في الشعر العربي واليهودي ترجع إلى خصيصة أخرى
من خصائص النفس السامية وهي انعدام المخيلة الخالقة عندهم، وتبعاً لذلك عدم
القدرة على الاختراع. .!!
والساميون ينقصهم الإحساس بالتنويع، فالتشريع السامي البحت لم يعرف مطلقاً إلا)
نوعاً واحداً من القصاص هو الموت. وملكة الضحك معدومة عند الساميين، حتى إن
الفرنسيين وهم شعب ضحوك ينظر إليهم عرب الجزائر باستغراب، ويعتبرون ذلك
منهم موضع دهشة بالغة
والساميون عندهم نقص تام في كثير من الفنون الجميلة مثل صناعة التماثيل)
والتصوير،
وقد حال دون وجودهما عندهم تحريم الدين من جهة وانعدام الخيال والاختراع من جهة
أخرى وهما شرطان لازمان لهذين الفنين. والموسيقى وهي الفن الشخصي إلى الغاية
هي الفن الوحيد الذي عرفه الساميون
والأخلاق نفسها ينظر إليها الساميون نظرة تخالف نظرتنا إليها، فالسامي لا يعرف)
مطلقاً أن عليه واجبات إلا لنفسه، وإذا طلبت إليه أن يحافظ على كلمته ويبر بوعده
وأن يقيم العدل بلا تحيز فإنما طلبت إليه مستحيلاً، فالأنانية تتمثل فيهم بأجلى
مظهرها)
لن نناقش الآن هذه النظرية أو نقول فيها رأياً، لأن ذلك مما يطول بنا، وحسبنا أن ندل
على شيء مما يعتقد المستشرقون. ومع أن تسعين في المائة من هذه النظرية خطأ
واختلاق فقد أحلها الغربيون من نفوسهم المحل الأرفع لأنها توائم نزعاتهم وتتفق
وميولهم الطافرة إلى السيطرة والاستعمار
لست أدري ما الذي يرضينا في المستشرق!؟ العلم النزيه، وقد رأينا أنه إنما كان
لأراب آخر، أم الذوق الأدبي. وليس من شك عندنا أنه بعيد عنه بعد الأرض عن
السماء! فالمستشرق مهما تضلع من اللغة العربية، وأخذ من الثقافة الأدبية، وتغلغل

إلى الروح الإسلامية فلن يدرك أبداً غاية الأدب وأثره وحدوده ولن يستطيع بحال من الأحوال أن يتذوق جمال قطعة أدبية أو قصيدة فنية على نحو ما يتذوقها العربي! هو يفهم القرآن ولكنه لا يخشع عند سماعه أو تلاوته، ويشرح القصيدة العربية غريبها وبديعها وعروضها ولكن أذنه لا تطرب لهذه الرنة الموسيقية المبثوثة في أطواء الشعر العربي.

حمص

محمد روحي فيصل

صورة وصفية

عبد السميع

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

كان كل امرئ يعرفه - أهل الحي، وزوّار الأمام الشافعي، والأجانب السياح الذين يجيئون إلى هذه الناحية، ليروا مقابر الخلفاء والمماليك ومدافن (الباشوات). وكان (عبد السميع) - كاسمه - سميعاً، ولكنه غير بصير؛ وكان له حجر عال عريض يقعد عليه، ولا يريمه في الشتاء والصيف؛ ولم يكن يبالي لا الشمس ولا الرياح، ولا المطر ولا التراب؛ وكان يظل نهاره على هذا الحجر، فإذا غابت الشمس ودخل الليل، اختفى، كأنما ابتلعته الأرض، أو انشق له الحجر فغاب فيه، فكل ما يعرفه الناس من أمره أن هذا مكانه قبالة المسجد، وأن كل راكب يميل إليه ويترجل عنده، ويضع بين أصابعه زمام دابته، حتى يفرغ من الصلاة في المسجد أو غيرها مما جاء له، فينقده القرش أو المليم ويتناول منه العنان ويحييه ويمضي. وكان (عبد السميع) يعرف كل رجل وامرأة وطفل في الحي، وكل غريب ألقى إليه بزمام حماره أو بغلته أو فرسه أو مهره، من صوته؛ وكان من عجائبه أنه يعرف - وهو ممسك بالأعنة - حمار من الذي نهق، وأي هذه الدواب تعلك لجامها، وأي البغال مزنوقٌ فيرفه عنه ويرخي له الرباط الذي تحت حنكه، وأي حمار تفلتت الشكيمة من فمه، فينهض إليه ويردها إلى مكانها من فيه، وأي الأفراس انحل إبزيم منطقته فيعقده، أعني يدخل لسانه في طرفه الآخر. وكان كثيراً ما يشير على أصحاب الدواب باتخاذ المراشح تحت لبد السروج لتنشيف العرق، أو بتضمير الفرس إذا وجدها سمينة، أو برفع المهماز إذا أحس بيده آثار وخزه في جلدها، أو بتغيير السرج إذا وجد له عقراً بظهرها، فقد كان رحيماً رقيق القلب

وكان يأبى أن يتخذ عصاً يتوكأ عليها، ويجس بها الأرض ويقدر لرجله موضعها قبل الخطو، فكان يمشي مطمئناً واثقاً، كأنما يرى الطريق، ويلقي التحية إلى الناس بأسمائهم، في دكاكينهم حين يبلغها، بل كان يعرف المرء من دبة رجله على الأرض، فيقول له: (مالك مستعجلاً يا فلان؟ خيراً، إن شاء الله!) وكان - ولا يزال - هناك طريق أعلى من الميدان الذي أمام المسجد يؤدي إليه سلم، درجاته متهدمة، فكان إذا بلغها يرقى فيها كأنه

صبي في العاشرة من عمره؛ ولكن أعجب من هذا كله أنه كان يركب الخيل والحمير والبغال، ويركضها في الطرق والسكك التي ألفها، فإذا اعترضته زحام أو قطيع من الغنم، حبس الدابة، ثم أرخى لها اللجام، وتركها تتخلل الزحمة حتى إذا أحس خلو السكة نقرَ بها، ليزعجها ويستحثها؛ فقد كان كما أسلفت شديد الرفق بالحيوان، لا تطاوعه نفسه حتى على نَكْزه بقدمه العارية

وكان دائم البشر، لا يتجهم ولا يكتئب، ولا يبدو للناس إلا طلق المحيا، ضحوكاً، طيب النفس، حلو الدعابة؛ ولكن غزله كان فيه بعض العنف، فقد كان إذا داعب فتاة لا يحلو له إلا أن يقبض على شعرها ويجذبه إليه بقوة فينتف بعضه؛ وكانت الفتيات يحذرن ذلك ويتقين أن يكن منه بحيث تنالهن يده

وجاء الشتاء، وجاء معه طبيب عيون ألماني، فأدار عينه في الصحراء فرأى على جبل المقطم شيئاً كالبناء فأشار إليه وسأل عنه فقالوا هذا قبر الجيوشي - أمير الجيوش - فرجا منهم أن يكون أحدهم دليله إليه، فقالوا: (بل يكون دليلك عبد السميع) وجاءوه به، فتعجب، ولو كان يعرف العربية معرفتها لتمثل بقول القائل:

أعمى يقود بصيراً، لا أبالكم ... قد ضل من كانت العميان تهديه

ولكن عبد السميع لم يضله، ولم يندم الطبيب على ثقته به واطمئنانه إليه، ووجد في صحبة هذا الدليل الغريب كل ما طالعه به وجهه الصبيح من الأنس، فنشأت بينهما بعد

هذه الرحلة صداقة فريدة، فكان الطبيب يزوره كل بضعة أيام، ويجلس إلى جانبه على حجره العالي، ويراعيه وهو يحرس الخيل والحمير لأصحابها؛ ووقع من نفسه رفقه بها وحسن تعهده لها، فقال له يوماً - بعربيته المحطمة - إنه يريد أن يعمل له في عينيه شيئاً، وإنه يرجو أن يرد بذلك بصره عليه، فضحك (عبد السميع) وقبل. وكان قد ألف أن ينظر الأطباء في عينيه وأن يسمعهم يتلاغطون بما لا يفهم، ثم يمضون عنه ويبقى هو على حجره

وجاء يوم نظر فيه الناس فإذا الحجر خال، ولا (عبد السميع) هناك، فصارت الأعنة تلقى إلى صبيان يشدونها إلى مسامير في الحائط، وينامون ويتركون الحمير تترافس وكان (عبد السميع) راقداً على سرير نظيف في مستشفى، وعلى رأسه ووجهه - إلى أرنبة أنفه - الضمادات، وهو ساكن لا يقول شيئاً، ولا يبدي ألماً أو ضجراً، ولا يدع شكه يغلب

بشره أو شكره لصديقه، وكان من العسير أن يعرف أحد في أي شيء يفكر هذا الراقد المعصوب الرأس. ولعله - لطول صمته على خلاف عادته - كان يجاهد أن يتصور الدنيا الجديدة التي سيرثها حين يفتح عينيه عليها ويبصرها لأول مرة؛ ولعله كان يستهول أن يبصر كل ما عرفه وألفه بحواسه الأخرى، وكان كل ما يجيب به الطبيب حين يحدثه وهو يغير له الضمادات (إن شاء الله! إن شاء الله!) ثم يتحرك كالقلق المضطرب على هذا الفراش الناعم تحت الملاءة النظيفة

وكان الطبيب واثقاً من نجاحه، فجمع إخوانه - زملاءه - في صباح يوم، وحل الأربطة بعناية وحذر، ثم ترك ضوءاً خفيفاً يدخل في الغرفة، وتناول يد (عبد السميع) برفق، وهو أشد ما يكون اضطراباً وسأله (أترى شيئاً؟) فقال عبد السميع - وعلى فمه ابتسامته التي لا تزايله - (صبراً، صبراً)، فصبر الطبيب لحظة ثم فتح النوافذ فغمر النور الحجرة وملأتها الشمس ورقدت أشعتها على السرير والجالس عليه، والأطباء حافون به، منحنون إليه، يحدقون في وجهه وأنفاسهم مسرعة، وقلوبهم في حلوقهم، و (عبد السميع) ساكن، ووجهه الباهت من طول الرقاد، إلى النافذة التي تطل على النيل؛ ثم تحركت يداه، وارتفعت كفه إلى محياه، وجعلت أصابعه المرتعشة تتحسس عينيه، فأدرك القوم أن الطب أخفق، وتوجع الطبيب الألماني وارفض دمعه، فغطى وجهه بكفيه ليحبس عبراته أو يكتم نشيجه، وسمع (عبد السميع) ما يتردد من البكاء المكتوم فنهض، وعلى وجهه ابتسامة رزينة، وتحسس طريقه إلى صديقه المحزون، ومد يده الخشنة فلمست لحيته المبللة، فنقلها إلى كتفه وقال بصوت لا يشي بما عسى أن يكون مطوياً تحت ضلوعه

لا تبك يا صاحبي! ازجر عينيك، إنه قضاء الله، ولا حيلة لنا فيه، ومن نكون نحن حتى)

ثم تلفت، فأقبلوا عليه يسألونه هل يريد شيئاً؟ قال: (نعم - صبي (!ندفعه أو نغيره يعود بي)

وعاد إلى حجره، وخيله وحميره، فلم يغب عنها بعد ذلك مرة أخرى، ولم يقل لأحد أين كان

إبراهيم عبد القادر المازني

من مشاهد الشرق

طائفة البهرا في الهند - 4

ملاحظات في المجتمع البهري بقلم محمد نزيه

تتمة

يقول الكهل الوقور محمد علي بخش رئيس الوزارة البهرية في وصف طائفته، إنها (طائفة تجارية) لا يحيد عن سبيل التجارة واحد من أبنائها، فإذا تنكب أحدهم هذه الطريق أو ضلّها، فلاذ بكرسي للحكومة، أو زاول حرفة من الحرف لم تكن التجارة جل همه منها، فقد انحرف عن تقاليد الطائفة، وعق ديانتها، ورماها في أمنع حصونها، فأصاب منها منازل القدسية والحرية والجاه

هي جماعة أقسمت مذ وضعت في كف الحياة كفها، ألا تعرف خفض العبودية ولا يعرفها رق هذا الزمان، وإنهما ليقتحمان كل شيء إلا هذه الأمة التي أجمعت على ألا يكون الوطن المقدس رقعة من الأرض يهون امتلاكها، ولا يعز اغتصاب ما فيها ومن فيها، بل هم استغنوا عن الوطن المقدس بالعهد المقدس أن يكون صغيرهم ابن

كبيرهم، وكبيرهم أبا صغيرهم، وكل كبارهم أشقاء وكل صغارهم أشقاء، وأولئك وهؤلاء كأنما انتظم أرواحهم جميعاً سمط واحد من شعاع الشمس لا يقطع أبداً. وإذ كان لا بد لهذا الجوهر الأحد من معارف وبواطن تفرقُ بينه وبين سواه، فإن أجلى معارف البهري ابتعاده عن مخالطة أي امرئ من غير طائفته؛ ومعظم بواطنه الحب والمودة والأهبة الدائمة لمعاونة أخيه في مذهبه، دون تفريق بمختلف الأجناس والمراتب، فاستغنوا بقوادهم عن كل حاجة إلى سواهم، حتى (الحكومة) يعزفون عن أعمالها، ترفعاً بأنفسهم عن شعور الحاجة إليها يوماً من الأيام

يقدم البهري من أقاصي إفريقية على بمبي، فينزل من قلوب أبناء الطائفة هناك، منزلة من عاد إلى أمه وأبيه من سفر طويل، كل بيت من بيوتهم هو ملك يمينه حتى تقر نفسه وتذهب وحشته، فينفح بما يحتاج التجارة إليه من مال، يبدأ به عمله، فإذا لمح وجه الفشل، أسرع فوضع أمره بين يدي طائفته، فلا يكاد ذلك يضح لهم، حتى ينهالوا على بضاعته ابتياعاً، إلى أن تروج سوقه، وتبدو طلائع نجاحه، فلن تجده مهما نقبت عنه، ذلك البهري

الذي لم يفيء الله عليه بنعمة السعة واليسار

وإذ كانت شؤون هذه الأمة الواحدة في حاجة إلى الراعي، يصرفها ويسهر على تدبيرها، فلا بد لها من قاض يفرق بالعدل بين أبنائها جميعاً فيرضيهم جميعاً، وهذا القاضي هو داعي الدعاة في بمبي، وهو نائبه في كل بلد اتخذها بعض هذه الطائفة منزلاً، يخولونه أمرهم فيقضي بينهم بما شاء، لا يرد له حكم ولا يراجع في أمر؛ ملك لا يملك من أسباب السلطان إلا عدل القاضي، فكيف يبرم عدله ولا ينال للمظلوم من ظالمه، وإنما يحكم بالعدل ويأمر ضمير الظالم أن يجزي صاحبه وأن يردعه، بل لعل المظلوم لا يشكو، وإنما ظالمهم هو الذي يشكو أن ضميره يخزه ويشتد عليه مذ ظلم، فيادعي القوم اكفني عذاب الضمير فإنه ليوشك أن يكون كالموت لا يُعتِبُ. . . هذا قاض أمره عجيب، وقضاؤه أعجب، أتراه يمضي على شرعة مدونة؟ أتراه يستلهم قانوناً بعينه ماله عنه من محيد؟ كلا، وإنما يستلهم قوة روحه، وقد استُمِدت من معالم الشيعة وأعلام كتبهم

يعدل الداعي بقوة الروح، ومن مظاهرها أنها تسترقُّ الناس حولها، مرتغبين لا مرتهبين، بدافع الحب، ومظهر الحب الخضوع، يسمو حتى يصير تفانياً. تتجه القلوب إلى الداعي، لأنه عظيم من عظمة الله عظمته؛ ثم تتعلق القلوب به، لأنه مقدس من قدسية الله قدسيته، ثم تتقبل ظلمه قبول الرضا، لأنه ولي المالك المتصرف - في رأيها - فإذا عدل، تفانت فيه، فإذا أحب فنيت في روحه، وذاك داعي الدعاة عند طائفة البهرا هو فرد ولكنه الجماعة كلها، وهم جماعة ولكنهم فرد واحد يقل ويقل حتى تتسع له سويداء قلب واحد كبير، هو قلب هذا الرجل، يحدب عليهم وما يحدب إلا على نفسه، ويحدبون عليه فهم على أنفسهم يحدبون. ولقد علمت أن الحب شريعتهم، فأعلم أن أول أحكام هذه الشريعة أن ما يحوزه كل بهري هو للشيخ قبل أن يكون لصاحبه، يتصرف فيه متى شاء أينما شاء كيفما شاء، وما جار. أليس رب الدعوة إلى التعاون والتساند والتعاضد وهي التي أثمرت كل ما أوتيت الطائفة من مال أو أكثره؟ نعم فلكم أغنت هذه المبادئ عائلاً، وأعزت يتيماً، وروّت صادياً! وهل يكون ساقي البذرة إلا رب ثمارها. . . وفيم ينفق الأمين العادل المحب ماله إلا على الأمانة والعدل والحب؟ إنه ليأخذها صاعاً فيردها بأمانته وعدله وحبه عشرة

على أن الشيخ لا يَهْنِئُه طعامه إلا إذا كان من كد يمينه؛ ولهذا يشتغل بالتجارة، ولأمر آخر

هو القدوة، ويربي تجارته كأي من أبناء طائفته، ولا ينسى حادث ذلك الشيخ الذي عاش في المدينة على عهد رسول الله عليه الصلاة والسلام، فكان لا ينقطع عن العبادة في ليله أو نهاره، إلا ريثما يتأهب لرجع ما انقطع، وإنه لراقد بالعراء لا يحمل لدنياه هماً، وإن حمل لأخرته هموماً، يخف الناس إلى تزويده بالطعام سراعاً وهم يغبطونه على تزوده للآخرة، حتى مر النبي به في بعض غدواته، فدنا ممن أحاطوا به، وسألهم ما خطبكم حتى تكأكأوا على هذا الشيخ، قالوا: رجل صالح يا رسول الله، نهاره وليله صيام وقيام، فعجب النبي عليه الصلاة والسلام! وأسرع يسأل، ومن يقوم بطعامه؟. من يقوم بطعامه؟! رسول الله يسأل؟ فيا فخرنا عند رسول الله إن كنا

نطعم الشيخ الصالح، ويا حظنا من رضا رسول الله إن علم أننا نؤثره على أنفسنا بالطعام. . . لم يكد النبي يسأل، ومن يقوم بطعامه؟ حتى تسابقت أصوات كثيرة تقول، ترجو ثواب الله. . . كلنا نطعمه يا رسول الله، وأحاطت أبصارهم بوجه النبي ترصد ابتسامة الرضا، فإذا بالوجه المشرق الكريم يعبس، ويضطرب، ثم تجتمع في غضبته حكمة الأبد من قوله: (كلكم خير منه). داعي الدعاة الشيخ المسن لا ينسى هذا الحديث، وإن قومه ليقدسونه، وتطيب نفوسهم له بكل ما يملكون، ويبلغ من تقديسهم شخصه أن يستكبروا على الأرض أن تمسها قدماه، فيحملونه إذا أراد الانتقال من حجرة من قصره إلى أخرى، وهو على رغم ذلك كله حريص على أن يغدو إلى متجره كل يوم، فيقضي بعض نهاره عاملاً لدنياه، كأنه على شيخوخته وضعفه، يعيش أبدا إن الدين لله، فما يحفظ رجل الدين عليه حرمته، إذا وزن الدعوة إليه بالدرهم والدينار، إنما يسمو رجل الدين، وتخلص روحه، وتصقل نفسه فلا تمسها شائبة من أكدار الدنيا، إن يلتمس على جهده مثوبة الله وحده، مزدرياً للوظيفة تجري عليه فتذكره كلما أوشك أن ينسى، بأن دعوته رهن بوظيفته، ووظيفته رهن بدعوته. . . . فهل نوجب على رجل الدين أن يكون زاهداً؟ كلا بل نريده مع ذلك مكفول الرزق موفوره، بادي النعمة واليسار، عالي الكف يعطي ويتعفف أن يأخذ، وكيف السبيل؟ سبيل واحد يسلكه داعي الدعاة البهري، وعماله في مختلف البلاد، وقد سلكه من قبله أشرف البشر وسيد سادتهم محمد عليه الصلاة والسلام، إذ كان تاجراً؛ وفي التجارة وهي أم

ألوان من الخير والأمانة والصدق والاستقامة والقناعة والدأب، ومن كل ،(المعاملات) فضيلة في الأرض، وهي التي توجت (بالأمين) اسم محمد، و (بالصادق) أمانة محمد، فكانا شافعيه لدى الله في اختياره، ولدى الخلق في دعوته

وفي هامش هذا الحديث فلنذكر، أن داعي دعاة البهرا، أراد في العام الماضي، وكنت حينئذ في بمبي، أن يحج إلى كربلاء موطن قبر الحسين، ومفيض نفسه ودمه، وإذا سار الشيخ كانت الطائفة كلها تسير، فلا بد من مظاهر العظمة ومطالع الجلال، وأسباب التحدث بنعمة الله، وفي سبيل ذلك اكترى الشيخ باخرة من عظام البواخر، عبرت به إلى البصرة في ستمائة بهري، وما فتئ مذ وطئت قدماه أرض العراق يمجد الناس من عطاياه، بأكرم ما يتسع له كرم، وأكمل ما يفيض به جاه. . فمن أين؟ من تجارة الشيخ وكد يمينه وثانيهما

فلينته هذا الحديث الذي لا يفرغ منه، بأمرين، أولهما أن التعاون والمحبة هما روح الجماعة الصالحة المفلحة، وعلى قدر القلة في عدد الجماعة تكون قوة الروح، فكأن أجدادنا لم يخطئوا حين اتخذوا نظام القبيلة، وكأننا أحفادهم، لم نتقدم خطوة واحدة حين خلّفنا نظامها

وثانيهما أن التجارة أشرف حرفة وأعف حرفة، وأكفل حرفة بالنعمة واليسار، وأيسر حرفة مع الفضيلة، فإذا أهبنا برجل الدين، وإنه لأعظم الناس خطراً أن يعوّل عليها، ويلتمس شرفها، فأخلق بكل رجل أن يُحمِّلَها أمنيتيه من الغنى: غنى النفس وفي أعقابه غنى المال

القاهرة

محمد نزيه

النهضة التركية الأخيرة والموسيقى الشرقية

بقلم عبد الحميد رفعت شيحة

قرأت بشغف عظيم ما خطه يراع الأستاذ القدير الدكتور عبد الوهاب عزام عن (النهضة التركية الأخيرة) وما تناوله من بحث ونقد أبرز الإصلاحات الكمالية بقلم نزيه مخلص يظهر منه بجلاء الأسف الشديد الذي يشاركه فيه كل شرقي يعتز بشرقيته على ما قام به الترك من قطع كل ما يصلهم بالشرق، وتجنبهم كل ما يدنيهم منه كما يتجنب السليم الأجرب. .! معتقدين أنهم بذلك يضمنون عطف الغرب عليهم، في حين أنهم لن ينالوا إلا سخرية تلك الأمم التي تقدس الشخصية والجنس

ولما لم يشر حضرة الأستاذ الدكتور إلى حملة الكماليين على الموسيقى الشرقية رأيت أن أتناول هذه الناحية بهذه الكلمة:

للموسيقى الشرقية تاريخ مجيد لم يبق خافياً على أحد. إلا أنه من الإنصاف أن نعترف

بفضل الأتراك وخدمتهم لها. . فإننا لم نعد نقرأ فقط ما استحدثوه من علوم وفنون فيها، ومن اشتهر بينهم من أعلام الموسيقى، بل حفظوا لنا ثمارهم الفنية بتدوينهم لها بعد استعمالهم (النوتة الغربية)

وهم وإن كانوا إلى وقت قريب يستعملون التدوين الموسيقي على أخطاء كثيرة، إلا أنهم على كل حال قد صانوا ثروة فنية عظيمة يحق لنا أن نفخر بها أمام الموسيقى الغربية

هذب الأتراك الموسيقى الشرقية وأحدثوا بها فنوناً لم يكن للشرق عهد بها، وتبحروا في علم الأنغام ووضعوا لكل نغم شروطاً دقيقة تميزه وتظهر شخصيته بجلاء، ولهم في هذا الميدان جولات موفقة، حتى أنهم استنبطوا كثيراً من الأنغام الشائعة بيننا، ووجهوا عنايتهم كذلك إلى علم الإيقاع ووضعوا لأوزانه طريقة حديثة تدون بها، كما أن لهم فضلاً لا يستهان به في ابتكار جملة ضروب زادت من جمال الموسيقى الشرقية. هذا إلى اهتمامهم بضبط مسافات السلم الموسيقي الشرقي وعدم تركهم كبيرة ولا صغيرة في الموسيقى النظرية أو العملية إلا قتلوها بحثاً وتمحيصاً

إنه حق وفضل لا ينبغي إنكارهما. . وقد كنا إلى عهد قريب نعترف فخورين بزعامة تركيا للموسيقى الشرقية

فلما قامت (النهضة التركية الأخيرة) تهللنا بشراً وقلنا لا بد أن القوم لن يقنعوا بما وصلت إليه موسيقاهم من تقدم ونجاح، وسيدأبون على البلوغ بها إلى أوج المجد والعظمة. . ولكن أحلامنا اللذيذة لم تلبث طويلاً عندما فوجئنا بقرارات الكماليين القاسية التي منها: استعمال الحروف اللاتينية بدل العربية، وهجر ألفاظ لغة الضاد، والترحيب بالمصطلحات اللاتينية و. . . وأخيراً. . عدم استعمال الأرباع الشرقية، وإلغاء الموسيقى التركية وإحلال الغربية محلها .!. .

نزلت علينا تلك القرارات نزول الصاعقة وهدمت ما كنا نبنيه من آمال. . وظهر لنا ما يضمره الكماليون من إسراف في هجر الشرق والشرقيين، ومن رغبة في الفناء في الغرب والغربيين .!. .

تتأثر موسيقى كل أمة - كما يتأثر أي فن - بعوامل شتى: منها الجو والأخلاق والعادات وغير ذلك. فليس من السهل أن نبدل بقرار ذوق أمة في غمضة عين، لأنها لم تكتسب هذا الذوق إلا بمرور الزمن وبفعل مؤثرات البيئة التي تعيش فيها. فقرار التركي الأب (أتاتورك) إلغاء الموسيقى التركية لا محالة خاطئ لأنه يجبر الأتراك على موسيقى لم يتذوقوها ولن يتأثروا بها مطلقاً. . فإذا سمع التركي مثلاً قطعة حماسية غربية فلن تهز مشاعره بقدر ما تفعل فيها قطعة تركية، لأن الأولى لم تصل إلى طريقة استفزاز شعور التركي، ولم تصدق في التعبير عن نفسيته، بعكس الثانية؛ وإذا كان الألماني مثلاً لا يتأثر بموسيقى الفرنسي أو الروسي كما تؤثر موسيقاه، فكيف بالتركي، والفرق شاسع جداً بين تقارب أمزجة هؤلاء وبُعد هذا الأخير عنهما .!. .

كان الأجدر لو أريد قتل الموسيقى التركية أن تشجع الموسيقى الغربية ويشجع الاقتباس منها والتطعيم بها؛ فعلى مر الزمان تزول تلك الموسيقى التي لا نصير لها، بدل هذا التصرف الذي استعملت فيه الطفرة. ولكن من يجرؤ منهم على إعلان هذا الرأي يكون نصيبه شراً مما نال الأستاذ المدرس بالجامعة في المؤتمر اللغوي، وحسين جاهد، وقد أشار إليهما حضرة الدكتور عزام في إحدى مقالاته القيمة .!. .

من هذا نلاحظ أن الديوان الموسيقي الغربي مكون من أصوات كاملة وأنصافها؛ بينما الديوان الشرقي يتكون من أصوات كاملة وأنصافها وأرباعها أيضاً. . ولكنهم مع ذلك آثروا

الديوان الأول لأنه غربي قبل كل شيء .!. .

فإذا كان الديوان الغربي موجوداً بتمامه ضمن الديوان الشرقي، وبذا يتسنى عزف أية قطعة غربية على أية آلة موسيقية شرقية، مع أنه في كثير من الآلات الغربية لا يمكن عزف أغلب القطع الشرقية. . وإذا كانت الأرباع الشرقية تتيح ثروة جديدة في علم الأنغام زيادة على الثروة التي نحصل عليها من الأنصاف وحدها، وبذا يتسع المجال أمام الملحن ويمكنه أن يعبر بلحنه عما يشاء. . . . فهل من الحكمة أن نلجأ إلى الديوان الناقص ونترك الديوان الكامل. . .؟

إن كل مزايا الديوان الغربي موجودة في ديواننا الشرقي، وفوق ذلك فإن لديواننا مزايا

أخرى عندما نستعمل الأرباع الصوتية، فلا شك حينئذ في أن قرار الحكومة التركية إلغاء الأرباع الشرقية في الموسيقى لم يكن لعيب في هذه الأرباع بل إتماماً للخطة التي رسموها من البعد عن كل ما هو شرقي أو يمت للشرق بصلة. .
الآن. . وقد ظهر للملأ تصرف الحكومة الكمالية وتنصلها من كل ما يقربها من الشرق سواء كان ذلك في الدين أو العلم أو اللغة أو الفن أو الأخلاق والتقاليد، فليس من الخير أن يقتصر موقفنا على مراقبة أعمال هذه الحكومة وعلى مناشدة الكتاب والمفكرين أن يتعاونوا في هذه السبيل (حتى يجلوا عن الأمة هذه الغمة، ويدفعوا عنها هذه الفتن المدلهمة، والشُّبه المضلة، ثم يسيروا بها على المحجة البيضاء إلى الغاية المجيدة) كما يتمنى الأستاذ الفاضل الدكتور عزام، بل يجب أن نفكر تفكيراً جدياً في نقل الفنون الشرقية من تركيا كي نحافظ عليها قبل أن تعفو ويطويها البلى فإلى مفكري الشرق العربي أرسل هذه الصيحة راجياً أن يولوها حقها من الاهتمام، وأهيب بوزارة المعارف المصرية أن ترسل إلى تركية بعثة من طلبتنا النجباء كي يدرسوا فنون الموسيقى الشرقية الصميمة، وينقلوا لنا كل ما تصل إليه أيديهم قبل أن تتلاشى هذه الفنون ويتم حلول الموسيقى الغربية محلها، وذلك أسوة بالبعوث التي ترسها إلى أوربا؛ وهناك يتشبع الطلبة بالموسيقى الغربية ولا يكونون في المستقبل حرباً على الموسيقى الشرقية التي من العار أن تنهض على حساب الموسيقى الغربية أو تتلوث بدماء دخيلة فيتعكر صفاؤها. .

إسكندرية

عبد الحميد رفعت شيحة

دراسات في الأدب الإنكليزي

وليم وردزورث - 3

بقلم جرجيس القسوس

نظرة ونظرية في الأدب

ظهرت الطبعة الأولى من ديوانه سنة 1798 كما بينا سابقاً، أما الطبعة الثانية فقد نشرت سنة 1800 حاويةً مقدمته الشهيرة التي ضمنها نظريته في الأدب عامة وشعره خاصة دون خيفة أو تردد. ولكولردج في الطبعة الأولى من هذه المجموعة ثلاث قصائد. غير أنه أضاف إليها قصيدتين أخريين ظهرتا في الطبعة الثانية. وهذه القصائد الخمس هي (الملاح القديم، والعندليب، - والحبّ). وما كاد الأدباء والكتاب يطلعون على آراء وردزورث في مقدمة ديوانه ويقرأون أشعاره في ديوانه حتى تناولوه بأقلام نارية وألسنة حادة، فسخروا ما شاء الله لهم أن يسخروا بآرائه وأشعاره. ولم يبق ديوانه في شكل واحد بل ظهر في أوضاع شتى، وكان الشكل الأخير الذي ظهر فيه سنة 1845 جامعاً جزأين مع المقدمة ومذيلاً بملحق في (التعابير الشعرية)

أما النظرية التي أودعها المقدمة فتتلخص فيما يلي :-

(على الشاعر أن ينتزع موضوعاته من الحوادث العادية المألوفة، وأن يعبر عنها بلغة سهلة واضحة ليفهمها (الراعي والعالم) على السواء. أي لا تكون خلواً من البلاغة، ولا تهبط إلى درجة الركاكة والفهاهة. وعليه أيضاً أن يلبس الحوادث كساء من الخيال الرائع لكي تظهر وهي عادية مألوفة غير عادية ولا مألوفة، وأن يقف تجاه كل حادث موقف العالم المدقق المحقق، الذي يحلل الأمور تحليلاً علمياً منطقياً، فيبحث عن المسبَّبات ويرجعها إلى أسبابها، محكماً في كل حالة عقله في التحليل وعاطفته في التعبير. أما الشعر فهو الانبعاث الطبيعي للشعور القوي الزاخر؛ وما الشاعر إلا إنسان يخاطب بشراً، إنسان شديد الإحساس والغيرة متضلّع من درس الطبيعة البشرية، تنكشف له نواح في الحياة ومظاهر في الطبيعة تحتجب عن غيره، وهو يعبّر عن موضوعه بلغته ليتغنى بها الجميع. بهذا يمتاز الشاعر من سائر البشر عموماً ومن علماء الطبيعة بعض الامتياز خصوصاً)

ولقد نحا وردزورث في انتخاب موضوعات أشعاره منحى إسحاق ملتن ووليم بلايك وروبرت برنز وفراي وغيرهم، غير أنه لم يقتصر على أسلوب واحد في النظم، بل طرق معظم البحور والأوزان الشعرية التي سبقه إليها الشعراء قبله. أما سبكه اللفظي ففي غاية الدقة والبساطة، وتراكيبه خالية من الألفاظ اللاتينية التي يكتظ بها شعر ملتن، ومن قالكية بوب، أو إبهامية بروننج الناجمة عن تطرّفه في الإيجاز. ويندر

أن تجد في شعره رجوعاً إلى الأساطير الأولى أو اقتباساً من الأدب (الأصولي) الكلاسيكي أو تقليداً له، ولقد أكثر من دراسة الشعراء الذين سبقوه وخصوصاً شكسبير، وملتن وجوسر وسبنسر وكونز وفراي وتشبع بآرائهم وأساليبهم فنسج على منوالهم في بدء حياته، غير أنه عاد فابتدع له أداة للتعبير خاصة به. أما ميزات شعره فتتلخص فيما يلي:

بساطة الأسلوب وسهولة التعبير، ووضوح المعنى في أغلب الأحيان انتزاعه موضوعات أشعاره من الطبيعة والحوادث اليومية والأشياء العادية المألوفة. وقد ذكر هاتين الميزتين في الكلام على مقدمة ديوانه

تصوفه:

وهذه إحدى خصائص الحركة الأبتداعية التي كان يمثلها شاعرنا في بلاد الإنكليز أصدق التمثيل. ووردزورث يرى أن الله روحٌ تقطن في جميع مظاهر الكون أو الطبيعة الخارجية من هواء وجبال ورياح وصخور حتى الرعاة والحيوانات. وتظهر لنا هذه الفلسفة جليّة في قصيدته وتعرف عند أهل اللاهوت والصوفية (بشمول الألوهية) أو (وحدة الوجود) (أي أن الله إنما هو القوي والنواميس الطبيعية وأنه حال في كل شيء وليس مستقلاً). على أنه لم يتمسك بهذه العقيدة تمسكاً دينياً ذميماً كما يظن بعضهم، بل اتخذها عقيدة شعرية وقتية دفعته عاطفته وروحه الشعرية إلى إيرادها في سياق الكلام

ولعه بالطفولة والأطفال:

وهذا ظاهر في معظم قصائده مثل (نحن سبعة)، وفي القصائد التي ورد فيها ذكر الطفلة (لوسي). وتتجلى هذه الخاصية بوضوح في قصيدته (خواطر في الخلود من ذكريات الطفولة)؛ ففيها يرى أن الإنسان أقرب ما يكون إلى الله وإلى السماء في أوان الطفولة.

وهو يؤمن بسابق وجود الإنسان وأزليته أي أن الإنسان كان أصلاً في السماء فهجرتها روحه وظهرت في جسد بشري على الأرض. فالإنسان في عهد الطفولة يكون بحكم الطبع قريباً جداً من الزمن الذي قضته روحه في السماء، لهذا يفضل عهد الطفولة عهدي الكهولة والشيخوخة. إلا أنه يحسن بنا أن نرفق بالشاعر فلا نجري عليه الأحكام الجارفة في كل ما نعزوه إليه من العقائد. فهو - كما بينا سابقاً - لم يكن متعصباً لرأي أو لعقيدة واحدة منظمة شأن كبار الفلاسفة أو اللاهوتيين وإنما كان شاعراً يكتب عن عاطفة شديدة، فهو لا يستقر على رأي من الآراء ما دامت العاطفة لا العقل هي الدافع والمحرك له في أغلب منظوماته

الخيال الرائع

يمتاز وردزورث بإلباسه الأشياء الطبيعية المألوفة كساء من الخيال الراقي، وعنده أنه كلما ازداد الشاعر توسعاً وانطلاقاً في عالم الخيال ازداد لذة واستمتاعاً في الحياة. ويختلف عن كولردج باتخاذه عاديات الأشياء ومألوفها مواضيع تصويره وخياله متوخياً أن يبتدع مما هو عاديٌّ ومألوف شيئاً جديداً مبتكراً. فبينا كولردج يتدرج من عالم الروح والخيال إلى عالم المادة والحقيقة ترى وردزورث يشرع من عالم المادة وينتهي عند التصاوير الشائقة والأخيلة الرائعة

غموض معانيه

وهذه الميزة لا تلازم معظم أشعاره وإنما تصدق على البعض منها. وغموضه ناجم عن عجزه في بعض الأحيان عن التميز بين ما هو عادي مألوف وما يظنه غريباً نادراً؛ هذا عدا جنوحه إلى إلباس الأشياء العادية حلة من رائع الخيال مما يوقع القارئ في ارتباك شديد يجعله غير قادر على إدراك المعنى الصحيح وتفهم ما يتوخى الشاعر إفهامه وعدا هذا يمتاز وردزورث بوصفه الحيوانات والطيور الأهلية منها والبرية. ويؤخذ عليه ندور ورود النكتة في أشعاره، وأن أشعاره لا تلهب الحماسة في نفس القارئ

ولكي يتم لنا البحث في أشعاره لا بد لنا من أن نقول كلمة في قصيدتين كبيرتين من قصائده ألا وهما الفاتحة والنزهة أما (الفاتحة) فهي ترجمة وافية لحياة وردزورث الشعرية، ففيها يبحث عن تطور نفسه الشعري ونمو سليقته منذ عهد الطفولة. في هذه

القصيدة ملتقى حاضره وماضيه، وفي هذا الملتقى مبعث لشعوره. إذ أنه كلما ذكر أيام الصبى اللذيذة اختلجت في نفسه عاطفة قوية وتملكه شعور لذيذ لا يتمالك من بعثه شعراً حياً لا أثر للكلفة فيه. وللذاكرة المقام الأول والفضل الأكبر في تصويره أحلام الطفولة وأيام الصبى، إذ لولاها لنضب معين شعوره وإنحبس لسانه عن التعبير عما يجيش في صدره من مشاعر وفي نفسه من خلجات، ووقف قلمه عن وصف الأويقات العذبة الهنيئة التي قضاها تحت كنف أمه الرؤوم: الطبيعة بأبسط معانيها وأجلى مظاهرها. وهذه القصيدة مهداة إلى صديقه الشاعر كولردج، وتقع في عدة أبواب يختص الأول منها بحياة الطفولة، والثاني بحياة المدرسة، والثالث بالسنين التي صرفها في كمبرج، والرابع في حياة لندرة ومؤثراتها، والخامس بزيارته الأولى لفرنسا والألب وإقامته في فرنسا خلال الثورة الفرنسية، غير ذاكر شيئاً عن علاقته بأنيت فالون معشوقته المعهودة

أما (النزهة) ففيها يحلق الشاعر ويسمو في عالم الروحيات إذ هي مجلي تأملاته في الفلسفة والاجتماع وعلم النفس والصوفية، وفيها يطرق شتى الموضوعات العلمية البحتة، كتركيب العقل ونشوئه، وفلسفة العواطف، والتأمل؛ غير أنه يكسوها حلة من الخيال، ويعبر عنها بأبسط التراكيب وأسلس العبارات وأوضحها، هذا إذا ضربنا صفحاً عن جنوحه في بعض الأحيان إلى الغموض في المعنى. (والنزهة) تقع في تسعة أجزاء مقتضبة، كل فصل منها حاو لقسم من أقسام القصة التي يسردها ويجعلها هيكل هذه القصيدة الكبرى

وهو في جميع مباحثه هذه لا يتوخى غير الصدق وإظهار عظمة الخالق. أما مدار بحثه في هذه المواضيع فنفسه، لا لأنه صنع من جبلة غير التي صنع منها سائر البشر، بل لأنه أكثر علماً بنفسه من غيرها من النفوس

ولقد أثارت نظريته هذه وأشعاره جدلاً عنيفاً وبحثاً متواصلاً في البيئات الأدبية، فمن الأدباء من حمل عليه وطعن فيه، ومنهم من انتصر له. ومن الذين انتقدوه فرنسيس جفري وبيرون وهزلت، ومنهم أيضاً صديقه كولردج في فصل من كتابه (تراجم أدبية)، بيد أنه لم يكن هدّاماً في نقده ولا شديد التحامل عليه في تعليقه على آرائه كغيره من النقاد. أما إمرسن الكاتب الأمريكي الشهير فينتصر له، ويعدّ قصيدته (خواطر في الخلود من ذكريات الطفولة) التي تمثل عقيدة شاعرنا الفلسفية ونظريته الأدبية بعض التمثيل، من أروع بل

أروع ما خلّفه لنا أدباء القرن التاسع عشر من القصائد. ولقد كان ديوان وردزورث معواناً للفيلسوف الإنكليزي الشهير جون ستوارت مِلْ على تخلصه في ربيع حياته من السويداء التي كانت تلازمه من حين إلى آخر، إذ وجد في قراءة القصائد الفلسفية والدينية منها راحة وعزاء بل خير شفاء له من دائه النفساني

ومؤرخو الأدب الإنكليزي يجعلون السنة التي ظهر فيها ديوان وردزورث لأول مرة، أي سنة 1798، فاتحة العصر الأبتداعي، لأن أشعاره تمثل الحركة الأبتداعية من الناحية الأدبية خير تمثيل. ولكي يتضح لنا معنى هذا القول علينا أن ننظر بعض النظر في خواص هذه الحركة، وخصوصاً الناحية الأدبية منها

(البقية في العدد القادم)

جرجيس القسوس

في اللغة والأدب

المثنيات

للأستاذ محمد شفيق

إن من خصائص اللغة العربية التي امتازت بها على غيرها من اللغات الحية هذه المثنيات. وقلما يخلو علم من علوم لغة الضاد من مثنيات إن قليلة أو كثيرة. وقد رأيت أن أقدم إلى قراء (الرسالة الغراء) أمثلة منها مرتبة على العلوم، مبتدئاً بالأدب واللغة لشدة علاقتهما بالرسالة، وإن كانت هي حفية بالثقافات الإسلامية والعربية وغيرها:

المثنيات في اللغة والأدب والنحو والعروض

الغداة والعشيّ، والظل والفيء، وفي الصحاح: الأبردان: العصران. (الأبردان) (الأبيضان) اللبن والماء، أو الشحم واللبن، أو الشحم والبياض، أو الخبز والماء، أو الحنطة والماء، أو الملح والخبز، قال الشاعر:

ولكنه يأتي إلى الحول كاملاً ... وماليَ إلا الأبيضين شَرابُ
الليل والنهار، وكذلك الجديدان، والدائبان والطريدان، والعصران، والملوان، (الأجدّان)
والأحدثان، والأصرمان
الخمر واللحم، وفي المثل (أفسدَ الناسَ الأحمران)، قال الشاعر (الأحمران):
إن الأحامرة الثلاثةَ أهلكتْ ... مالي وكنت بهنَّ قدماً مولعا
الرَّاح واللحم السمين وأطّلي ... بالزعفران فلا أزال موَلعا
النباتان القريب والبعيد، لأن القريب أخضر حقيقةً، والبعيد كما قالوا أسود؛ (الأخضران)
والأسود عند العرب أخضر، يقال فلان أحرق الأخضرين: يراد المبالغة في ظلمه
وتعديه، كأنه يوصل الشرَّ إلى القريب والبعيد. وقيل الأخضران: النبات والإنسان من
العرب؛ قال الفضل بن العباس:
وأنا الأخضرُ من يعرفني ... أخضر الجلدةِ من نسل العربْ
الذئب والغراب لأنهما انصرما عن الناس، أي انقطعا، قال (الأصرمان):
ومومماة يحارُ الطرفُ فيها ... إذا امتنعتْ علاها الأصرمان
السيل والفجل، والسيل والحريق، والسيل والليل، والسيل والجمل الهائج: (الأعميان)
لأنها لا تتقي موضعاً ولا تتجنب شيئاً كالأعمى الذي لا يدري أين يسلك فهو يمشي حيث
ذهبت رجله
الأعشى وجرير. كان أبو عمرو بن العلاء يقول (البازيان):
الأعشى وجرير بازيان يصيدان ما بين العندليب إلى الكركي
الغداة والعشي، قال ابن خالويه: حدثنا ابن دريد عن أبي حاتم عن الأصمعي (البردان)
قال: دعا أعرابي لرجلٍ فقال: أذاقك الله البردين - يعني برد الغنى وبرد العافية -
وأماط عنك الأمَرَّين، يعني مرارة الفقر ومرارة العري، ووقاك شر الأجوفين، يعني
فرجه وبطنه
أبو تمام والمتنبي: سئل أبو العلاء عنهما وعن البحتري فقال: هما حكيمان (الحكيمان)
والشاعر البحتري، كأنه يريد أنهما ينتزعان المعاني من كلام الحكماء ويراعيان
الصناعات الشعرية التي أحدثها المتأخرون، وأما البحتري فإنه يجري على عادة العرب
في ترك التكلف واختراع المعاني
هما خالد بن نضلة بن الأشتر بن جحوان، وخالد بن قيس بن المضلل بن (الخالدان)
مالك، قال الشاعر:
فقبليَ مات الخالدان كلاهما ... عميدُ بني جحوان وابن المضللِ
هما أبو بكر وأبو عثمان ابنا هاشم الشاعران المشهوران، قال الصابي (الخالديّان):
أرى الشاعرين الخالديين نشَّرا ... قصائدَ يفنَى الدهرُ وهي تقيدُ
تنازع قومٌ فيهما وتناقضوا ... ومَرّ جدالٌ بينهم وتردُّدّ
فطائفةٌ قالتْ سعيدٌ مُقدم ... وطائفةٌ قالت لهم بل محمدُ
وصار إلى حكمي فأصلحتُ بينهم ... وما قلتُ إلا بالتي هي أرشدُ
هما لاجتماع الفضل روحٌ مؤلف ... ومعناهما من حيثُ ألفيت مفردُ
كما فرقدا الظلماء لما تشاكلا ... علاءً أشكا ذاك أم ذاك أمجدُ
فزوجهما ما مثله في اتفاقه ... وفردهما بين الكواكب أوحدُ
فقاموا على صلح وقام جميعهم ... رضياً وساوى فرقدَ الأرض فرقد
هما عند علماء العروض خفيف، وهو حرفان ثانيهما ساكن، وثقيل وهو (السّببان)
حرفان
متحركان
هما الصاحب بن عباد والصابي، قال أبو الحسن البنداري: أكتب أهل العصر (الصادان)
الصادان
هما قينتا معاوية بن بكر أحد العماليق واسمهما بعاد وثماد، وبهما ضرب (الجرادتان)
المثل (ألحن من الجرادتين)
هما عند الأدباء صناعة الشعر وصناعة النثر، وللبلغاء فيهما مؤلفات كثيرة، (الصناعتان)
وأما الصنعتان في قول الوراق يرثي أبا الحسين الجزار:
يا عيدنا الأضحى سقى ... صوبُ الغمام أبا الحسينِ
لو عاشَ فيك لقد غدا ... يشكو بوارَ الصنعتينِ

فالمراد بهما صنعة الجزارة لعدم من يتقدم إلى الله بالأضاحي، وصنعه الشعر لعدم الكرماء

هما عند العروضيين صغرى، وهي ثلاثة أحرف متحركات على التوالي (الفاصلتان) يعقبهن ساكن، وكبرى، وهي ما تجمع أربعة أحرف متحركة على التوالي يعقبهن ساكن

هو أبو العلاء المعري، سمى نفسه بذلك وكان لزم بيته فلم يخرج (رهين المحبسين) منه مطلقاً، فأراد بأحد المحبسين البيت وبالآخر العمى

هما امرؤ القيس وأبو فراس الحمداني، قال الصاحب بن عباد: بدئ (ملكا الشعراء) الشعر بملك وختم بملك، يعني امرأ القيس وأبا فراس

و (جمعا التصحيح) و (اجتماع الساكنين على حدة) و (اجتماع (فعلا المدح والذم) الساكنين على غير حدة) عند النحويين مشهورة

محمد شفيق

صور من التاريخ الإسلامي:

عبد الله بن الزبير (1 - 73هـ)

بقلم محمد حسني عبد الرحمن

كان القرن الهجري الأول عامراً بالأبطال الذين ترتكز بطولتهم على العقيدة، وتقوم شخصياتهم على العزائم الثابتة، والمبادئ الواضحة القويمة. ولو أن مؤرخاً إسلامياً أراد أن يسجل صفحة ثبتاً بأسماء النابغين من رجالات قريش، في الصدر الأول من الدولة الأموية، لكان خليقاً به أن يضع في طليعتهم بطلاً فذاً، كان لا ينفك شوكة في جنب هذه الدولة، لسموّ نفسه، وطمعه في الخلافة، وعمله لتحقيق غرضه؛ حتى كاد ينتزع اللقمة لنفسه من فم تلك الدولة الفتية؛ كان يطمع في النجم، وكان يؤيد مطامعه عزمٌ قوي، وبأس شديد، ولسان ذربٌ، وشرف واضح، وهمةٌ قعساء، تعضُدها الشهامة والبطولة، ولقد تمت له بكل هذا أدوات الرجولة. ذلك هو عبد الله بن الزبير الأسدي القرشي

أنجبه أبوان كريمان؛ أما أحدهما فالزبير بن العوام بن خويلد من بني أسد بن عبد العُزى، حواريّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته صفية؛ ولم يكن الزبير مغموراً ولا وسطاً في الناس، وإنما كان رجلاً من الطراز الأول، ومن ذوي المقامات الممتازة الذين تقوم الدول على أكتافهم، ولا يُبَتُّ في أمر هام إلا بعد مشورتهم وبذل نصحِهم؛ ولقد كانت له اليد الطويلة في نجدة الإسلام أيام كان المسلمون قلة، كما كانت له مواقف مشهودة وآراء سديدة، في فتح البلدان، ونشر الإسلام؛ أرسله أميرُ المؤمنين عمر إلى مصر نجدة لابن العاص وهو يحاول فتحها، وقال له: إني أرسلت إليك رجلاً بألف! ولقد برهن الزبير بسداد رأيه، ومجيد أعماله أنه أهل لهذا التقدير العظيم. وفي الحق أن الزبير كان يُعدّ في الصف الأول بين أمجاد قريش، وذوي الثروة فيها، وقد رشّحه مركزه ونباهة شأنه، وقوة شخصيته للخلافة؛ فكان أحد الستة الذين عهد إليهم ابن الخطاب، أن يختاروا خليفة منهم بعد وفاته للمسلمين

هذا هو الزبير أبوه؛ أما أمه فحسب القاريء أن يعرف أنها أسماء بنت أبي بكر الصديق، وأخت عائشة أم المؤمنين، وكانت مع شرف أرومتها، ذات حزم وفِكرٍ ثاقب، كما كانت صلبة العود، أبية النفس، لها عزمٌ جبّار؛ فلو أنها لم تكن أنثى، لكانت رجلاً ولا كالرجال!!!

من هذه الأنساب الواضحة، والدوحة الباسقة، خرج عبد الله وورَّثه آباؤه وأقرباؤه جُل الصفات الممتازة التي تغَذى الطموح وتذكيه؛ وساعدت بيئته التي نشأ فيها على تنمية خلال البطولة والإقدام في نفسه، فامتاز بالفصاحة، وذلاقة اللسان، وقوة الحجة، حتى كان يعد من خير خطباء الإسلام؛ واشتهر كذلك فضله وزهده، وطول صيامه وقيامه، بين الخاصة والكافّة. أما شجاعته فحدِّثْ عن الليث ولا حرج! فهو الذي يقول: (ما أبالي - إذا وجدت ثلثمائة من الرجال، يصبرون صبري - لو أجلب بهم على أهل الأرض!!) ويشهد له أبو عبيد بأكثر من هذا فيقول (إن عبد الله كان لا يُنازع في ثلاث: شجاعة، وبلاغة، وعبادة) وتلك عدةُ الرجولة الكاملة، وخاصة في ذاك العصر

كان عبد الله أول مولود للمهاجرين بالمدينة عام الهجرة، فدرج بها، ونشأ فيها، حتى نال من التعليم المنتشر في عصره ما أكسبه ثقافة دينيةً محضة، فعرف الكتابة والقراءة، على طريقة عصره، وحفظ الكتاب، وروى الأحاديث؛ واقتدى في حياته

وعبادته بمن كان يخالطهم ويعاشرهم من جلة الصحابة الكرام؛ فأثر هذا في أخلاقه تأثيراً كبيراً، كان من ثماره تلك النزعة، نزعة العبادة وطول القيام والتهجد التي غلبت عليه فيما بعد. وكان أهم ما يجذب النظر إليه وهو صغير، جراءته النادرة، وميله إلى العناد، مع الثقة بنفسه، والاعتداد بقوته؛ (كان ذات يوم يلعب مع الصبيان، فمرّ رجل فصاح بهم، ففروا ومشى عبد الله القهقري (بظهره) ثم قال: يا صبيان اجعلوني أميركم، وشدوا بنا عليه فنهزمه!). ومرّ به عمر بن الخطاب، وكان عبد الله مع صبيان يلعبون، ففروا وبقي هو؛ فقال له عمر: لماذا لم تفر مع رفاقك؟ فأجابه بجراءة وفصاحة: (لم أجرم فأخافك، وليست الطريق ضيقة فأوسع لك). هذه أمثلة صغيرة، ولكنا نلمس فيها روحاً متحركة وثابة، في زمن الطفولة والتنشئة، ونستنبط منها أن للعظمة بوادر تلوح في الحوادث الحقيرة، كأنها إرهاصاتٌ لظواهر أخرى كبيرة، تكون حينما تكون عظائم الأمور، ومن هذه المثل وأشباهها نعرف أيضاً مدى اعتداده بنفسه، وثقته بها؛ ولا ريب أن الحبّة الجيدة إذا صادفت أرضاً خصبة فإنها تشق الأرض شقاً، لتحيا على أنضر ما تكون النبتةُ الطيبةُ حياة وبهجة!

ولما بلغ أشده وأطاق حمل السلاح، ثقف صناعة الحرب، ثم صحب الجيوش الغازية، وأبلى في العدوّ بلاء محمودَ الأثر؛ روى الزبير بن بكّار (أنه - عبد الله - قتل بيده في فتح إفريقية أميرَ جيوش الروم) فأرسله عبد الله بن أبي سرح (وكان قائد جيش المسلمين) بشيراً إلى أمير المؤمنين عثمان، فلما سمع بشارته أعجبه كلامه وشجاعة قلبه، ثم سأله: أيمكنه أن يخطب الناس بمثل ما أخبره به؟ فأجابه: وما يمنعني من ذلك؟ ثم قام خطيباً، وتدفّقت من فيه آيات البلاغة، وأطنب في وصف الفتوح، وفصّل هزيمته العدو، حتى أسر القلوب، وأدهش السامعين، بفرط بلاغته وقوة عبارته، وتمكنه من ناصية القول والموقف؛ فقام أبوه وقبله بين عينيه، وانفضّ الجمع، وليس فيهم إلا معجبٌ ببيانه، مثنٍ على شجاعته

ولم أطلع في وصف عبد الله على عبارة وافية موجزة أبلغ من قولٍ أبي عمرو بن عبيد: (كان عبد الله شهماً ذَكَراً ذا أنَفَةٍ، وكان له لَسَنٌ وفصاحة، وكان كثير الصلاة والصوم والعبادة، شديد البأس، كريم الجدات والأمهات والخالات).

بهذا الوصف الكريم الجامع أستأهل ابن الزبير أن يكون في الطبقة العالية بين رجال عصره، وما فتئ عثمان يتفرس في مخايله قوة الشكيمة، وفرط النبوغ؛ ويرمقه بعين ملؤها الحبُّ والرضا، حتى كان يوم الدار، فاستخلفه عليها قبيل مصرعه . . .

ومن ثمَّ دبَّ الطمع إلى قلبه في طلب الخلافة لنفسه، وأبقى ذلك سراً مكتوماً، ولكنه لم يأل جهداً في تحقيق هذا الحلم الجميل، الذي يلائم طبعه ويشبع رغباته الكامنة؛ ولم لا يكون خليفة وقد استخلفه أمير المؤمنين عثمان على داره التي هي دار الخلافة؟ ولِمَ لا يكون خليفة وجدُّه أبو بكر أول الخلفاء؟ بمثل هذا تحّدث إلى نفسه، ولكن أنىَّ له هذا، وفي القوم كثيرٌ ممن يكُفُّونه بمجرد وجودهم عن ذلك المرتقى السامي؟؟ وإذن فليرتقب سنوح الفرصة، وليأخذ أهبته ريثما تواتيه الظروف المسعدة، عسى أن ينال ما يبتغيه!! وقد قضت عليه سياسة الترقب هذه أن يناوئ كل خليفة يلي الأمر من بعد عثمان، فما هو أن بويع عليٌّ بالخلافة حتى قام عبد الله يؤلب عليه أهل الحجاز بزعامة أبيه الزبير وطلحة بن عبيد الله، وتحت راية خالته عائشة، وما كانت أم المؤمنين لتخرج من تلقاء نفسها لملاقاة عليٍّ بالعراق، وإنما زجها عبد الله ودفع بها في هذا المأزق الحرج، بعد أن بين لها فظاعة الجريمة التي ارتكبها الثائرون ضد عثمان، وبعد أن هوّل ما بينها وبين علي من الأحن القديم، فاستجابت طبيعة المرأة لما ألقي إليها من دواعي الإغراء، وأجمعت أمرها على النزال، فقامت تخطب المسلمين، تحرضهم على الانتقام لعثمان. . . . حتى كان ما كان يوم الجمل. روى المسعودي (أن عائشة قالت يوماً: إذا مرَّ ابن عمر فأرونيه، فلما مرَّ قالوا هذا ابن عمر؛ فقالت: يا أبا عبد الرحمن، ما منعك أن تنهاني عن مسيري إلى العراق؟ قال: رأيت رجلاً قد غلب عليك، ورأيتك لا تخالفينه!! (يعني عبد الله بن الزبير) يؤخذ من هذا ومن قول الرواة أن عبد الله كان هو المحرك الخفي لجيش عائشة على علي، وأنه كان قطب الرحا يوم الجمل، والدافع له إلى هذا إنما هي نيته المستورة، ورغبته المكبوتة في أمر الخلافة

ثم تجري الأمور على قدر، ويتولى معاوية الأمر بعد مقتل علي، فيتمنى عبد الله أن لو

كان معه جند يشد أزره أمام الخليفة الجديد! ولكن أنى له ذلك الآن! وقد انقسم المسلمون فرقتين، ظفرت سياسة إحداهما بزعامة معاوية، وخذلت الأخرى بمصرع ابن أبي طالب، فلم يبق إلا الإذعان للواقع، والحزم إذن في المداورة لمن يبغي أمراً جللاً كهذا، ولا بد حينئذ من المبايعة، مع الترقّب من جديد لفرصةٍ أخرى أمثل من هذه بايع ابن الزبير معاوية، وفي نفسه غصة، ولقد كانت المطامع الكبيرة التي ينطوي عليها توقفه من معاوية موقف الند للند، بل موقف المشاكس المناقض، حتى ليهم الخليفة أن يبطش به، فلا يحجزه عن ذلك إلا مركز عبد الله من جهة، وخشية الانقلاب والفتنة من جهة أخرى، يروي أن معاوية حجّ سنة، ثم رحل إلى الشام ليلاً، فلم يعلم بسفره من غير خاصته إلا عبد الله، فقفا أثره على فرس ومعاوية نائم في هودجه، فانتبه على وقع الحافر، وقال من صاحب الفرس؟ قال أنا عبد الله! لو شئت يا معاوية قتلتك الآن!! (يمازحه بهذه الكلمة) قال معاوية لست هناك، ثم دار بينهما حوار طويل، وكان مما قال عبد الله: أفعلتها يا معاوية! أما إنا قد أعطيناك عهداً، ونحن وافون لك به مادمت حياً، ولكن ليعلمنَّ من بعدك!!! وفي هذا التهديد ما ينم عن ثورة عنيفة يتأجج بها صدر عبد الله، وإنما كان يكتمها إلى أجل؛ وكثيراً ما كان يضيق به معاوية فيغمز عليه عمرو بن العاص ليُحرجه ويستثير دفائنه، فيقع بينهما في مجلس الخلافة الجدال الشديد، والتفاخر بالآباء والأحساب، ولكن ابن الزبير كان يفحم عمراً بالقول الرادع، والحجة الدامغة. قال له مرة: (يا ابن العاص. إنما طال بي إلى الذُّرى مالا يطول بك مثله: أنفٌ حمي، وقلبٌ ذكي، وصارم مشرفي، في تليد فارع، وطريف مانع). فعبد الله - كما قلنا - يطوي نفسه على طلب الخلافة، ويستسر الأمر، ولم يكن هذا ليخفى على أحد، حتى على الخليفة نفسه؛ وتتضح نيته، وتظهر مطامعه لمعاوية حينما يطلب منه أن يبايع لابنه يزيد. يروي الرواة أنه لما طلب منه ذلك أطرق مفكراً، فقال معاوية مالي أراك مطرقاً إطراق الأفعوان في أصول الشجر؟ قال: (أنا أناديك ولا أناجيك؛ أخوك من صدقك، ففكِّر في الأمر قبل أن تندم) فهو لم يرض البيعة ليزيد، ولم يوافق معاوية على ما أراد لابنه من المُلك؛ وبهذه اللهجة الحازمة جابه خليفة المسلمين، مع قدرته على الفتك به. ولقد حذّر معاوية ابنه يزيد منه، إذ كان لا يخشى عليه أحداً سواه؛ قال لابنه: (إياك منه - ابن الزبير - إنه الثعلب الماكر، والليث يصول بالجراءة عند إطلاقه، فوجَّه إليه كلَّ جدك وعزمك، وأما ما بعد ذلك فقد وطّأت لك الأمم، وذللت لك أعناق المنابر. . .). فمعاوية السياسي الخطير، والداهية العظيم، لم يكن يخشى على خلافة ولده إلا عبد الله؛ وإنما كان يتوقع الشر والوثوب من جانبه، لما يعهده فيه من قوة الشكيمة، وصدق العزيمة، وأنه لا يستكين ولا يستخذي، وأن صدرَه مطويٌّ على أمور جسام

ويلحق معاوية بربه، فيتجلى نزوع ابن الزبير للخلافة بصورة واضحة قوية، حيث يتولى يزيد الأمر، ويميل إلى السرف في المتع والشهوات، وينغمس في ملاذه، حتى لينسيه ذلك أن يعني بأمور المسلمين على الوجه الذي يرضي جمهرتهم في سائر الأمصار، ويضمن التفافهم حوله. حينئذ يغلي صدر عبد الله بمكنوناته، فيتحفز، وتزداد حرارة نفسه، ثم ينطلق إلى منبر المدينة، فيلقى من أعلى ذروته على أهل الحجاز كلمة الثورة على الخليفة الأموي؛ يخطب القوم خطبة حماسية حارة، يسب فيها يزيد، ويذكر مقابحه وعيوبه، ثم يبلغ كلامه مسامع يزيد، فيؤدي هذا إلى وقعة الحرَّة، التي انتهك فيها جيش الخليفة حرمات المدينة، مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذه نقطة سوداء أثيمة، كان من شأنها تحويل قلوب كثيرة من مختلف الأقطار الإسلامية عن الخلافة الأموية، وساعدت ابن الزبير كثيراً على مطلبه؛ وقد قلنا إنه كان يتطلع إلى منصب الخلافة وزعامة المسلمين منذ زمن بعيد، وكانت نزعته هذه تعتمد على عدة أمور: منها أن عثمان استخلفه على الدار يوم حصارها، فتدخَّله من هذا الاستخفاف طموح إلى الأمر، ولذا كان يقول لئن أصبتُ بأبي فلقد أصبت بإمامي عثمان؛ وقوّاه على هذا أن طلحة والزبير قدّماه للصلاة بالناس أيام وقعة الجمل، وكأني به يقول لنفسه: لم لا أكون خليفة المسلمين، والأمر لا يجري على ميراث ولا يتبع قانوناً؟ ولم لا يؤسس أسرة زبيرية، كما أراد معاوية أن يقيم دولة سفيانية؟ وقد نمى عنده هذه الخواطر ما أنسه من قوة الشخصية، وشدة الاعتداد، مع شرفه وجراءة قلبه. سأله ابن عباس مرة: بماذا تروم هذا الأمر؟ قال بشرفي!، وقد

وجد في أهل الحجاز ضراماً لناره، فهم يؤيدونه على الأموية، ولذا اتخذ الحجاز مقراً لدعوته

(البقية في العدد القادم)

محمد حسني عبد الرحمن

الشباب

للأستاذ عبد الرحمن شكري

مقدمة

مستقبل الإنسانية رهن بطموح الشباب إلى المثل العليا وعزوفه عن حقيرات الأمور وإبائه الضيم للناس ولنفسه، وبألا يقنع من الحياة بما يرى، وبأن يحاول أن يبلغ من جليلات أمورها البعيد الداني إلى قلبه ونفسه، وبأن يحاول أن يقهر طاغوت الأمور وجبروتها، وأن يستنقذ الدهر من عبث العابثين الذين جعلوا الحياة مهزلة رخيصة ومأساة وضيعة

الناظم

إن الشباب حديقة الأزمان ... عَطِر الروائح ناصع الألوان
مثل الربيع إذا جلوت بسحره ... نَوْرَ الرُّبَى وأطايب البستان
روحٌ من الفردوس يُثمِل نَشْرُه ... تغدو الحياة به رياض جِنَان
ما راعه حكم الحِمَام وصَوْلُه ... إن الشباب من الخلود لَدَاني
لا اليأس يضنيه ولا جزع إذا ... كثر العثار وزلت القدمان
ينسى الذي يمضي لينشد مقبلاً ... مستأنفاً للعيش بالنسيان
ولو أن رفضا للقضاء يذيقه ... كأساً تذيب القلب من ذيفان
والشيب بالتسليم يكسر سمها ... حيث الشباب لِغِرَّة الأسوان
وهو المغامر في الحياة بنفسه ... نشوان لا من خمرة النشوان
نشوان من خمر الحياة وكأسها ... تغنيه عن نشوات بنت الحان
فكأنما فك الزمانُ قيودَه ... عنه وما للدهر من سلطان
ويصوغ من أحزانه نغماً له ... فكأنه خلْوٌ من الأحزان
يسمو إلى الغرض البعيد طموحه ... ويرد خطب الدهر بالإيمان
متحصن منه بأمنع معقل ... متكفِّل إيمانه بأمان
ويكاد من فرط الهناءة والهوى ... يدع الثرى ويهم بالطيران
والشيب يرسب في الحضيض تخلفاً ... وترى الشباب كذروة الأكوان
ما أرَّقته ذكرة من أشيب ... جم التردد خَطْوُهُ متداني
وله على إدبار دَهْرٍ عزةٌ ... تنأى به عن ذلة وهوان
كِبْرُ الشباب ولا اعتداد مُسَوَّدٍ ... بالجاه والأجناد والأعوان
إن كان صعلوكاً فليس بخانع ... فكأنه ذو التاج والإيوان
إن العزيز هو العزيز على الصِّبى ... والشيب مهما عز ذل جَنَان
ذل الجَنَان لوهن جثمان ولا ... ذل كذل الوهن في الأبدان
ورث المراح ذخيرةً لمبذر ... خال الحياة رخيصة الأثمان
لَذَّاتُه دَيْنٌ يؤديه إذا ... حل المشيب وهد من جثمان
تتعادل اللذات في ريعانه ... ولواعج للشيب في ميزان
عهد الصراحة والمروءة والندى ... وتَألُّفِ الخلان بالخلان
عهد المحبة والأخاء وربما ... تُلْفِيها في القلب يمتزجان
عهد إذا طلب الكرى لم يُعْيِه ... وكرى المشيب مؤرَّق الأحزان
عهد الصِّبى عهد المنى، فإذا مضى ... لم يبق الأمُرُّ سُؤْرِ دنان
وتكاد ذكراه إذا فات الصبى ... تحيي الصبى وترد غرب زمان
أطماعه عُلْوِيَّةٌ، أحلامه ... ذهبية الآمال كالعقيان
عهد الصيال ولا صيال لأشيب ... هاب الحياة وصولة العدوان
والخطب أن يَهْوِي المشيب بصائل ... ما كان يخشى جولة الحدثان
حتى تراه بالحياة مُرَوَّعاً ... قلق الضلوع مؤرَّق الأجفان
والخوف طبع في المشيب وقلما ... تلقى الشباب على غرار جبان
ولربما جمح الشباب بِسادر ... عَبَدَ الحياة عبادة الشيطان

ولربما عبد الحياة أخو النهى ... كعبادةٍ لله والأوطان
قال المشيب ورُبَّ قولة صامت ... تعظ المصيخ له بغير لسان
ما سَرَّني أني فطنت وإنني ... والحلم والتبيان في أكفان
ونسيت ما نَشْرُ الجنان وخلدُها ... وذكرت أن العيش مهلة فاني
ولقد علمت الآن ما عهد الصبى ... من بعد جهلي فيه والنسيان
والآن عالجت الحياة كما أرى ... لا ما أريد من البعيد الداني
وعددت من سُنَنِ الحياة وحكمها ... ما يفعل الإنسان بالإنسان
في حرصه أو قَسْوِهِ أو رِقَّهِ ... من فتكه بالروح والأبدانِ
وفزعت من ظُلْم الحياة وطالما ... ذَلَّلْتُ منها أيَّمَا طغيان
وتلوت في التاريخ آيات الأسى ... مسطورةً بمدامع الأحزان
فعسى الشباب بمقبل من دهره ... يبلو الحياة بعزمة وأماني
ويَسُنُّ للدنيا الوسيعة سُنَّةً ... لا سنة للحرص والحرمان
يستنقذ الأزمان من عبث الورى ... ويُطَهِّر الأحشاء من أضغان
ويُذِل طاغوت الأمور فيحتذي ... شرعُ الحياة شريعةَ الرحمن
ويُحيلُ ظلم العيش عدلاً سائغاً ... يُنسَى به ما كان من عدوان
عبد الرحمن شكري

ذكرى سعد

للأستاذ فخري أبو السعود

تهفُو لذكرِكَ أنْفُسٌ ومَشاعر ... وتجود أفئدةٌ له وخواطر
ويُضيءُ شِعرٌ من عَلائك قابِسٌ ... ويَتِيه فخراً في مديحك شاعر
وعلوتَ أنت فما يزيدك مادحٌ ... مجداً ولا يُعلى مكانك ذاكر
يا فخر مصرٍ في الشعوب على المدى ... ما قام فيها بالرجال مُفاخر
كانت حياتك صفحةً كم سُطِّرَتْ ... فيها لمصرَ محامدٌ ومآثر
أنت الذي أعلَيْتَ خافتَ صوتها ... والخصم يُرعِد والخطوبُ بوَاسِر
فَشَدَتْ بذكرك ألسُنُ وصحائفُ ... وبذكرِ مصرَ عواصمٌ وحواضر
رَوَّعْتَ عنها غاصباً متجبراً ... الموتُ من أسيافه متقاطر
ليثٌ يَرُوعُ العالمين مهابةً ... قد راعهُ مِن ليث مصر زَماجر
لما رأوك تُثير شعباً هامداً ... وتمُجُّ سِحرَ القول قالوا: ساحر
لو أنصفوا قالوا: نبيٌّ مرسل ... الوَحْيُ يَتْبَعُ خَطْوَهُ ويُساير
أدَّيْتَ أمس رسالةً عُلوِيَّةً ... العِزُّ أولُ آيِها والآخِر
في عهدك الزاهي الأغَرِّ - ولم يَطُل - ... يَتَعَتْ أمانٍ للبلاد زواهر
شَرَقَتْ لمصر سيادةٌ كانت خَبَت ... من عهد فرعون وعزٌّ باهر
وطَلَعْتَ في دست الرياسة قائداً ... في راحتيه أزمَّةٌ ومصائر
ومَثَلْتَ في دار النيابة مِدْرَهاً ... شَخَصَتْ إليه جوارحٌ ونواظر
أنَّى حَلَلْتَ سما بمجدك منصبٌ ... أن زانه سعد العظيمُ الكابر
اسُتقبِلتْ بك مصرُ سالفَ رفعةٍ ... وبدَتْ لمأمُول النهوض بشائر
فأتتْ ثمان بعد ذاك كأنها=دهرٌ على الوادي المروَّع داهر
وغُدَتْ بها الآمال في إبَّانِها ... وتَلَتْ سناك على البلاد دياجر
سَرَقتْ زمامَ الحكم فيها عصبةٌ ... لا عاد عهدهم الأثيم الدَّاثر
من كان قاعُ السجن مأوى مِثلِهِمْ ... عَمَرَتْ محافل باسمهم ومنابر
أجْرَوْا على الأهلين ما لم يُجْرِهِ ... في سالف الأحقاب غازٍ فاجر
وتحكموا والأجنبيُّ مُظاهرٌ ... لهمُ وجُندُ الأجنبيِّ مُناصر
أوْهَى وَأَوْهَنُ ما رأوه شرائعٌ ... عَبَثوا علانية بها ودساتر
أعداءُ مِصرَ همُ كواشحُ سعدِها ... قد شفَّهم حقدٌ عليه ساعر
نَقِمُوا عليه في النفوس مكانةً ... مَسعاتهم عن دَرْكها تتقاصر
ضنُّوا على سعدٍ بتمثال وقد ... ضَمَّتْ جوانحُ رَسْمَهُ وسرائر
في موطنٍ كم فاز بالأنصاب في ... ساحاته عِلْجٌ دخيل ماكر
وحَموْا بَقِيَّتَه ضريحاً شادَهُ ... لرُفاته الشعبُ الحفِيُّ الشاكر
ولو استطاعوا فوق ذاك لما ثَوَى ... في مِصرِهِ جسد الزعيم الطاهر

حَسَدٌ لعلياءِ الرئيس وفضلهِ ... حيّاً وميْتاً ما يزال، يُساور
إن يَمنعُوا عنه بناء حجارة ... فلهُ البناءُ المشمَخِرُّ الفاخر
بُنيان مجدٍ شادَهُ بيمينه ... هيهاتَ يَبلُغه الحسود الخاسر
يمضون في غدهم حُطاماً مُغْفَلاً ... وهو المخلَّدُ في العصور الظافر
فخري أبو السعود
راتبي
للأستاذ محمود غنيم
ولى راتبٌ كالماء تحويه راحتي ... فيُفلت من بين الأصابع هاربا
إذا استأذن الشهر التفتُّ فلم أجد ... إلى جانبي إلا غريماً مطالبا
فأمسيتُ أرجو نعيهُ يومَ وضعِه ... وليس الذي يمضي من العمر آيبا
لعمرك ما فوق المكاتب راحةٌ ... ولا تحتها كنز يدِرُّ المكاسبا
قضيت حياتي بين داري ومكتبي ... فألفيتُ وجهَ العيش أصفر شاحبا
تشابهت الأيام عندي كأنما ... مضى العمر يوماً واحداً متعاقبا
فقل لشباب النيل قالةَ ناصحٍ ... تعاف له أخلاقه أن يواربا
إذا مصرُ لم ترفعْ قواعد مجدها ... بساعدها لم تقض منه مأربا
وإن نَكُ في كل المرافق عالةً ... على غيرنا عشنا بمصرَ أجانبا
أما من سبيل للحياة وغيرُنا ... يرى سبلاً شتى ومذاهباً؟
محمود غنيم
فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية
تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا - 17
فرديدريك نيتشه للأستاذ خليل هنداوي
غزوات نيتشه
أثرت في نيتشة تعاليم شوبنهاور تأثيراً ظهر في كتابه (نشأة المأساة) وعنه اقتبس قواعد كتابه. فاتخذ الإرادة منه كشيء قائم بنفسه؛ والذاتية في الوجود مصدر كل ألم، والموسيقى كلغة أصيلة للإرادة. وفي الكتاب ذاته يرحب بشوبنهاور ويحييه تحية العبقرية، يرى فيه هاديه إلى الحقيقة، ويحلل تأثيره وما يمكن لهذا التأثير أن يفعله في الأرواح الحديثة. يقول: (إن الإنسان اليوم يتحرى عن ذاته، ولا يفتأ يتحرى حتى تهديه المصادفات إلى معلم نافع فيتبعه، لا يعمل هذا المعلم على تخطيط آثار وتعيين طريق من الطرق المختلفة، ولكنه يعمل على استنقاذه من كل ما يمسك عليه حريته ويحول بينه وبين الوصول إلى هذه (الذات) الغامضة المتوارية في أحناء كل إنسان)، ولم يكن معلمه إلا شوبنهاور
شاهد فيه للوهلة الأولى ذلك الفيلسوف الصادق المستقيم الذي يتحرى عن الحقيقة في كل ما حبر وسطر. وفي مدرسة شوبنهاور تعلم نيتشه أن يرى الحقيقة كما هي بما فيها من قبح وبما تنطوي عليه من ألم. وتعلم أن العبقرية يجب أن تناضل عصرها وأبناء عصرها حتى تحمل الناس على الاعتقاد بوجودها، فهي حين تناضل الضعف وتحارب الرذيلة، تحاول في هذا كله أن تطهر ذاتها من كل الأوضار التي دخلت عليها من مجتمعها
وأخيراً وجد نيتشه في شوبنهاور تعريفه لحياة البطولة؛ (أما الحياة السعيدة فهي ضرب من المحال. ولكن الذي يمسح الإنسان بمسحة الجلال هو أن يعتنق حياة البطولة، وأن يقضي وجوداً تزينه الرجولة. لا تحفل بأن تكافأ على حياتك، فخير ما تكافئ به نفسك أن تكون عظيماً ظافراً، ذكراك تبقى حية، وأنت تمجد تمجيد الأبطال؛ وإرادتك تثب من خطر إلى خطر. وتصعد من قدر إلى قدر، حتى تتلاشى في (النرفانا)) وهكذا خال نيتشه أنه وجد في شوبنهاور روح (ديونيزيوس) التي تعتمد على الإرادة وحدها
الغزوة الرابعة
وهناك صداقته القديمة للموسيقى الفنان (ريشادر فاجنر) هذه الصداقة التي يعود عهدها إلى أيام الحداثة، ما عمرها إلا إعجاب نيتشه بآثار هذا الفنان إعجاباً تسامى عن إعجاب فنان بفنان إلى امتزاج إنسان بإنسان؛ فقد تقاربا وتعاشرا ردحاً طويلاً من الزمن، كانا خلاله مثلين للثقة العمياء والمودة الراسخة؛ وظلا ثابتين على هذه الصداقة

حتى شاءت الظروف أن تفرق بينهما فمضى (فاجنر) إلى (بابروت) حيث أسس فيها داراً للتمثيل، فكان نيتشه يعوده بذات الإعجاب؛ وفي إحدى مطالعاته الأخيرة وصف (فاجنر) كبطل من أبطال العبقرية على النحو الذي ذهب إليه في معلمه (شوبنهاور)، ولكن هذا أدى رسالته عن طريق الفلسفة، وذاك يؤديها عن طريق الفن بأسلوب حي يمازجه شيء من الغموض، هو ذلك العبقري (الديونيزوسي) الذي لا يستطيع أن يعبر عن عالم عواطفه الزاخرة في نفسه بطريقة الكلام والبيان الناقص؛ فهو عبقري جمع إليه جملة فنون متصاحبة: فيه براعة الممثل، وعبقرية الموسيقى، وسمو الشعر؛ تساعده كلها على التعبير عما يخالج نفسه ويغشي حسه، وقد كان هدف (فاجنر) من افتتاحه لدار التمثيل أن يخلق درامة موسيقية يحي بها عهد المأساة عند اليونان؛ وإن تحقيق هذه الدرامة لَيُعد أول محاولة من نوعها في تاريخ أدب الغرب الحديث؛ لأنها محاولة لا ترمي في الحقيقة إلا إلى إحياء العبقرية اليونانية الهامدة، ولو أن هذا العمل قُدر له الانتصار والبقاء، لاعتبر طليعة صادقة من فجر جديد في تاريخ الإنسانية ولكن نيتشه بعد إنجازه ما كتب بأسابيع قفل راجعاً إلى أهله، وقد تراكم عليه اليأس والضجر، فجعته الأيام في أحلام صباه، وانتصر فيه إعجابه بفاجنر على كل شيء هذا نيتشه الذي كان قذفه كل خاطرة طفق يدنو من استقلاله الفكري الذي قهره عليه سلطة هذين المعلمين، وهو أحد المتعصبين لأفكارهما وآرائهما، وأحد العاملين على بثها، لأنهما في اعتقاده أكمل ما جاد به المثل الأعلى. ولكن نيتشه أخذ يعمل بينه وبين نفسه على الانفصال من قيودهما. وقد عرفنا كيف انفصل عن (شوبنهاور) في مسائل واضحة من مذهبه. فقد أصبح يرتاب في كل ما ينطوي عليه هذا المذهب من المسائل التصورية، وفي الخاصيات التي يعزوها صاحبها إلى الإرادة، وفي الإرادة التي يزعم صاحبها أنها كنه أكناه الكون، وفي الشيء القائم وجوده بنفسه. وبعد قليل حمل على التشاؤم الذي يدعو إليه

شوبنهاور، فأبى الخضوع والاستسلام ورفض الجنوح للسكون الفلسفي. وبهذا قضى على فلسفة الحكمة (الراكدة) اللابسة لباس اليأس. هو يريد الحقيقة مهما كان ثمنها. ولو كان للعلم فوز في تضحية بني البشر لفعل. ويمدح الحكمة الممزوجة بالمأساة، التي تكفر بعلم ما وراء الطبيعة ثم تخضع المعرفة لها لتخدم أجمل شكل في أشكال الحياة، ويعيد للفن حقوقه التي انتزعها العلم منه، هذه الحقوق التي تخول الإنسان حق التخيل وحق التوهم

ولم يكن حكم نيتشه على (فاجنر) أقل جرأة وقسوة. فقد أخذ يبدي فيه مواضع ضعف يحسبها الناظر ذخائر جمال، ويظهر ما يطغى على روحه من روح الفوضى والاضطراب. ويقارن بينه وبين (باخ وبيتهوفن) اللذين هما أصفى مزاجاً منه. وأصبح في شك من قيمته الفنية التي تدس فيه الموسيقى والشاعر والمفكر. وأخذ عليه تشبثه بالقديم وعودته إلى الآراء القديمة. منها توقانه إلى القرون الوسطى وميله إلى المسيحية والذهول البوذي، وحبه للأشياء الغريبة. أصبح في شك من أي تأثير يحمله (فاجنر) إلى الشعب الألماني

هذا نيتشه الذي كان يرى في موسيقى (فاجنر) المثل لأسمى قد انقلب عليها وجحد بها، فما هي علة هذا الانقلاب؟

يقول نيتشه جواباً على هذا السؤال أثناء تحدثه عن شوبنهاور (إننا نخاله فيلسوفاً: ثم نرى: إذا خدع في الأسلوب الذي أبدى به ملحوظاته فإن هذه الملحوظات لا يشوبها خلل. لأن منازل هذه الملاحظات لا خلاف فيها، فهو كفيلسوف يُعلِّم قد يكون مخطئاً مائة مرة. ولكن شخصيته ذاتها لا تظهر إلا على حقيقة، مرتدية أزياء الحقيقة. . . وههنا مجال النظر والتأمل؛ ففي الفيلسوف شيء لا تنطوي عليه الفلسفة، هذا الشيء هو الذي يخلد الفلسفة ويولد العبقرية)، وفي هذا الرأي يكاد يتبين لنا هوى نيتشه وميله لهذين الرجلين، فهو قد مال إليهما بآثارهما والتعصب لهما. ثم انقلب هذا الميل والتعصب إلى الآثار إلى إعجاب مجرد بالشخصية، فأحبهما كرجلين عبقريين منفصلين عن آثارهما. ثم عمل على أن يتجنب كل ما يعكر هذه الصداقة أو يشوش أسبابها، ولكنه اضطر إلى نقد مالا يوائم فكرته نقداً عاماً، وأخيراً اقتربت تلك لساعة التي وجد فيها أن الفواصل التي تفصله عنهما هي أكبر من أن تُخنق

وألفى أن في سكوته عنها خيانة لنفسه، فبدأ ينقد آثارهما ويظهر أخطاءهما. وهو في كل
ذلك لا يحاول أن يفهمهما بحقيقتها ولكنه عامل على تفهم نفسه بالاتصال بهما؛ وهو بدلاً من أن يصور نفسه بصورتها رأيناه قد حوّل صورتهما إلى صورته، وأذاب ذاتهما في ذاته، كالحر الذي يحول فيه الفرات أجاجاً. وصورة (شوبنهاور) التي رسمها نيتشه ليس بينها وبين صورة الفيلسوف الحقيقية مشابهة، وإنما هي صورة للمثل الأعلى للفيلسوف (التراجيدي) كما يتخيلها نيتشه. وهكذا قل في صورة (فاجنر). وهو دائماً لا يعبر في كل ما يصف ويصور إلا عن حلمه الباطن

(يتبع)

خليل هنداوي

القصَص

صور من هوميروس

حروب طروادة

التفاحة المشؤمة

للأستاذ دريني خشبة

نشيد الزمان!

وقصيدة الماضي!

وغناء السلف!

وحُداء القافلة التي لا تفتأ تخب في بيداء الأزل، إلى الواحة المفقودة في متاهة الأبد؛ رُكبانها الآلهة، وأبوللو وكيوبيد ومَلؤهما وِلدانها المخّلدون!

أنشد يا هوميروس!

واملأ الأحقاب موسيقى!

واللانهاية جمالاً وسحراً!

فالأرواح ظامئة، والقلوب متعبة، والإنسانية واجفة، والآذان مكدودة من دويّ العصر، فهي أبداً تحنّ إلى سكون الماضي!

لن تصمت يا هوميروس!

فالقيثارة الخالدة ما تزال بيديك!

والقلوب هي القلوب!

فدع أوتارها تملأ الدنيا رنيناً، فلقد أوسعتنا هذه الدنيا أنيناً؛ ورنينك العذب أذهب لأنين الشاكين الباكين!

- 1 -

رآها تخطر فوق الثبج، وتميس على رؤوس الموج؛ فهام بها، وشغلته زماناً عن أزواجه في قصور الأولمب، فكان يقضي عند شاطئ البحر أياماً يترقب الفرصة السانحة، ويفتش في كل موجة عن حبيبته (ذيتيس). . . عروس الماء الفاتنة، (ذات القدمين الفضيتين)،

ابنة نريوس، رب الأعماق؛ الثاوي مع زوجته الصالحة دوريس، في قصور المرجان. . . هناك. . . هناك تحت العُباب. . .

ورقت له الفتاة، حين علمت أنه رب الأرباب، وسيد آلهة الأولمب، زيوس العظيم، فوصلت بحبالها حباله، تطمع الخبيثة أن تصبح زوجة أولمبية عظيمة، تصاول حيرا أم مارس وفلكان، وتفاخر لاتونا أم ديانا وأبوللو، وتدِل على ديون أم فينوس. . . وعلى سائر ربات الأولمب!

وابتسم لهما الزمان، وتساقيا كؤوس الغرام دهاقاً؛ وأوشك الإله الأكبر أن يبني بها لولا وسواس خامر قلبه، فآثر أن يستشير ربات الأقدار قبل أن يبت في الأمر أو يقطع فيه بشيء

ولقد شاء حسن طالع الإله الأكبر أن يفعل؛ إذ أخبرنه أن ذيتيس الجميلة التي يهواها سيد الأولمب، تلد غلاماً ما يزال يقوى ويشتد حتى يخلع أباه ويستأثر بالملك من دونه؛ أو على الأقل، تكسف شمسُ عظمته شمس أبيه، فيعيش إلى جانبه إمَّعةً لا شأن له. وهَو لن فحدثنه عما يكون للغلام من مقام حين يثأر النقع، ويستحر القتال، بين شعبه (الإغريق) وجيرانه (الطرواديين). . .

وخفق قلب زيوس، وذكر تلك الحرب الضروس التي انتصر فيها على أبيه ساترن بعد فظائع وأهوال، فأشفق أن يكون له ولد يصنع به ما صنع هو بأبيه
لذلك قصر هواه، وأصدر على غفلة من كل آلهة الأولمب إرادة سامية تقضي أن تتزوج ذيتيس من بليوس ملك فيتيا، الذي كان هو الآخر مولعاً بها، مشغوفاً بجمالها حباً. . .
حتى لقد خطبها إلى أبيها غير مرة فرفض رب الأعماق أن تبني ابنته على بشريٍّ هالك
. . .واو كان ملكاً. بيد أنه صدع بأمر الإله الأكبر، وقبل بليوس لابنته بعلاً
وحزنت ذيتيس، وانعكفت في غرفتها المرصعة باللآلئ تشكو وتبكي؛ فلما علم زيوس ما حل بها، زارها من فوره، وطفق يلاطفها ويترضاها، حتى رضيت أن تكون زوجة لبليوس الملك: (على أن تحضر بنفسك، أنت وجميع الآلهة ليلة الزفاف، وليعزف أبوللو على موسيقاه، ولترقص ديانا ربة القمر. . .)
- 2 -
ودُقَّت البشائر، واضطرب بطن اليم، وانشق الماء عن طريق رحب يتهادى فيه موكب الآلهة إلى قصر نريوس في أعماق المحيط، ووقفت الأوسيانيد والنيريد وسائر عرائس الماء صفوفاً صفوفاً تحي الضيوف الأعزاء، الأودّاء الأحبّاء، وتغني وتنشد وترسل ألحانها الخالدة موقعة على الموسيقى المشجية
وانبرى أبوللو يوقع على قيثارته الذهبية. أبوللو!! الذي اشترك في بناء أسوار طروادة، فلم يكن يصنع شيئاً أكثر من أن يلعب بأنامله على أوتار القيثارة، فتقفز الحجارة مترنحةً من الطرب إلى مكانها من الأسوار!!
وانطلقت ديانا ترقص. . . فما علم أحد من الآلهة أخطرات نسيمتهبط من القمر الفضي، وتعلو في السماء، أم ديانا الهيفاء ترقص في القلوب والأحشاء!!
ونهض الجميع إلى المقصف الفاخر الذي تفننت في تنويع آكاله وأشرباته أيدٍ إلهية ماهرة، فأكلوا ما لذ، وشربوا ما طاب، وأخذوا في سمر جميل. وكان هرمز يرسل نكاته الطريفة فيقرقع المكان الحاشد بالضحك. وتُدَوّي الأكف بالتصفيق.!
وبينما الآلهة في قصفهم، لا يفكر أحدهم إلا في هناء العروسين، إذا بالرَّبَّة الخصيم أيريس تظهر فجأة في وسط الجماعة، ثم شرعت تقلب فيهم عينين تقدحان بالشرر، وتنفثان سم البغض، وعلى رأسها الفاحم الأسود تتلوى خِصَلٌ ثعبانية شائهة ذات فحيح وصلصلة، وعلى صدغيها الأبرصين يخشخش عقربان منكران لكل منهما دُنَابَي يقطر الموت الأسود منها ههنا وههنا
ظهرت إيريس غاضبة حانقة، لأن القائمين بالدعوة إلى العرس أغفلوها فلم يرسلوا إليها بالدعوة التي أرسلت إلى الأرباب جميعاً. وهم قد قصدوا إلى ذلك عن عمد، لأنهم خشوا على العروسين من أذاها الذي ما تفتأ تثيره في كل مكان وطئته قدماها. أليست هي ربة الخصام، النافخة في نار العداوة التي تتضرم منذ الأزل في الجوانح والقلوب؟ لكنها لم تنس لهم هذا الإهمال، بل أقبلت، وهي تتميز من الغيظ، لتقلب هذا العرس الكريم إلى مأتم أليم
ولقد أوجس الآلهة جميعاً خيفةً حين رأوا إليها تُقلّب فيهم ناظريها المشتعلين، غير أنهم اطمأنوا قليلاً، حين رأوها تنصرف بعد إذ ألقت على الخِوان الفخم تُفَّاحةً كبيرة من الذهب،
نُقشت عليها هذه الكلمة المقتضبة: (للأجمل!)
- 3 -
باريس:
درجت عادة القدماء أنه كلما ولد لأحدهم غلام توجه من تَوّه إلى الهيكل يقدم القرابين ويزف الهدى، ثم يستوحي المعبود عما يكون من مستقبل ولده وما يفيض به من سعادة أو شقاء، ليأخذ للأمر أهبته، وليعد لكل شيء عدته
فلما وضعت هيكيوبا، ملكة طروادة، غلامها باريس، حمله أبوه الملك، بريام، إلى هيكل أبوللو، ليرى رأي الإله فيه
واربدّ وجه الملك الشيخ، وتغضَّنت أساريره، حين قال له كاهن المعبد: إن ولده سيكون كارثةً على قومه وعلى بلده! يأتي من الإثم ما يجر إلى قتل إله وبني جلدته، ويُفضي إلى سقوط طروادة في يد أعدائها
وتحدث بريام إلى هيكيوبا في ذلك، فصمما على الخلاص من الطفل بتركه في العراء،

فوق واحدةٍ من جنبات الجبل، ينوشه طير جارح، أو تفترسه ذئاب البرية. وأنفذا فعلتهما الشنعاء! ولكن القضاء ينبغي أن يتم، والقدر يجب أن يأخذ مجراه! فلقد جاز بهذا المكان من الجبل أحد رعاة الأغنام فوجد الغلام وفرح به، واتخذه لنفسه ولداً؛ ثم سهر عليه واعتنى به، ونَشَّأه تنشئة الفروسية التي كانت أحب مزاولات الحياة هذا الزمن

وشب باريس فتى يافعاً، جميلاً ممشوقاً، فعمل مع الراعي الذي أنقذه. وكان مولعاً بالبحر، تشوقه أمواجه، وتفتنه أواذيه، فكان يختلف إليه ريثما تفيء الأغنام من الحر، يلهو بالسباحة، ويتربص بمصارعة الموج. وبدت له إحدى عرائس الماء - إيونونيه - وكانت قسيمةً وسيمة، فهويها وعلقها قلبه، وما لبثت أن أصبحت أعز شيء عليه في هذه الحياة

وعشقته إيونونيه، وأخلصت له الحب، وكانت تنتظر أوبته من رعي الغنم كما ينتظر الظمآن جرعة الماء، والعليل برد الشفاء

!وا أسفاه

!لقد قضت ربات الأقدار - كلوتو وأختاها - ألا يدوم هذا الحب طويلاً

- 4 -

اجتمع الغانيات حول التفاحة كل تريدها لنفسها، وكل تدعي أنها أجمل من في الحفل جميعاً. . . ثم ساد صمت عميق حين نهضت حيرا ومينرفا وفينوس، ميمماتٍ شطر الجهة التي يتنازع فيها الغانيات من سائر الربات على التفاحة الثمينة. . .

- (أنا حيرا العظيمة، مليكة الأولمب، وصاحبة الحول والطول فيه، وآثركنّ إلى قلب الإله الأكبر، أنا، أحقكن بهذه التفاحة العلوية، وأعرفكن بقدرها. . . سأضمها إلى تفاحات هسبريا، فهي بهن ألبق، وهن عليها أحفظ. . . سيعلقنها مع أخواتها الثلاث لتزدان بها حدائقهن. . .)

- (أنت تفاخرين بملك الأولمب، وبالجاه والسلطان؟ إذن أين جمال الحكمة، وأبهة الموعظة الحسنة، وجلال الرأي السديد؟ بل أنا. . . مينرفا. . . ربة الهدى والسبيل الحق. . . أحق منك بهذه التفاحة. . .)

- (فيم تختصمان يا أختي العزيزتين؟ أليس قد كتب الحكم على التفاحة نفسها؟ أليست هي للأجمل؟ أولست أنا. . . فينوس جميعاً. . . ربة الجمال؟ لِم تربعت على عرش الفتنة إذن؟ هي لي من دونكما. . .!)

واختلف الآلهة، وساد هرج ومرج، ولم يجسر أحد ممن احتشد حول الخوان أن يفوه بكلمةٍ يفضل بها إحدى الرَّبات الثلاث حتى لا يقع في سخط الأخريين، وحتى لا يكون أبداً عرضة لنقمتهما. . .

وتفرق الجميع بدداً

وقصدت الربات الثلاث جبلاً شامخاً يشرف على البحر فتلبَّثن به، واتفقن على أن يفصل أول عابر، مهما يكن شأنه بينهن في أمر التفاحة، وتعاهدن، بالإيمان المغلَّظة، أن يخضعن لحكمه، وأن تكون كلمته فصل الخطاب فيما اختلفن فيه

وتنظرن طويلاً؛ وكان البحر يضطرب من تحتهن فيقذف باللآلئ والمرجان، كأن إلهاً حاول أن يشبع نهم الربات بالجواهر الغالية فلا يتشاجرن من أجل تفاحة، ولكنهن ما كن يأبهن لحصباء الدر المنثور على الشاطئ، بل ما كانت أعينهن تريم عن لُقية إيريس!!

وكانت عروس فتانةٌ من عرائس الماء تعلو وتهبط مع الموج ولا تفتر تحدق ببصرها في الجهة التي جلست بها الربات يتربصن. . .

وكانت إيونونيه من غير ريب! وكان الجبل مُستراد باريس الذي يُريح فيه قُطعانه، ثم ينطلق للقاء حبيبته، فيتباثان ويتشاكيان

وأقبل باريس يشدو لشأنه ويغني، فزلزل قلب إيونيه، وهلعت نفسها، وفرقت على حبيبها فرقاً شديداً، ذلك أن أخبار النزاع الذي انتهى إليه يوم الزفاف من أجل تفاحة إيريس قد ذاعت وشاعت، وتسامع بها كل عرائس البحار؛ فلما عرفت إيونونيه ما اجتمع الربات في هذه الناحية من الجبل من أجله، اضطربت أيما اضطراب، وقلقت على باريس أيما قلق. لأنه وحده هو الذي يجوز بهذا الطريق، حين ينفذ إليها يحلمان ويتناجيان. وكان مصدر قلقها هو ما عساه أن يجره على نفسه - إذا قضى بينهن - من

. . .سخط الربتين اللتين لا يقضي لهما بالتفاحة
- 5 -
وصاحت حيرا: (قف أيها الراعي الجميل فاحكم بيننا فيما نحن مختلفون فيه. تلك تفاحة من الذهب ساقتها السماء إلينا منحة منها لأكثرنا جمالاً وأسطعنا رونقاً، وأنا - حيرا - مليكة الأولمب وذات الحول والطول فيه، وربة التاج والصولجان، وصاحبة القوة والسلطان، وآثر أزواج ربك، كبير الآلهة؛ واحبّهن إليه. . . أنا - حيرا ذات الجبروت - وولدي مارس إله الحرب، ورب الطعن والضرب، أقوى أبناء زيوس العظيم. . . وولدي فالكان كذلك، إذا شئت سرد لك الدروع من حديد فتصبح سيد أبطال لعالم، لا يشق لك غبار، ولا يجري معك في مضمار! إذا خضت حرباً حماك مارس وأيدك، ونصرك فلكان وآزرك. . . ألست ترى أيها الراعي الجميل أنني أحق من هاتين بتلك التفاحة؟ أنا - حيرا مليكة الأولمب - سأمنحك الثروة التي لا تفنى، والسلطان الذي لا يبيد. . . سأجعلك ملك هذه الديار التي ترى. . . ستكون صاحب عرش وتاج، وستستريح إلى الأبد من هذه الحياة الضنك التي تحياها. . . أنت جميل يا فتى. . . وأنت بعرش عظيم أولى منك بهذا القطيع الذي يثغو. . .)
وصمتت حيرا. . . وجع باريس يقلب في التفاحة ناظريه، وفي قلبه مما رأى وسمع فرَقٌ عظيم. . .
لقد كانت حيرا تختال في ثوبها الأولمبي الموشى، وكان طاووسها الجميل - الذي اتخذته
منذ الأزل رمزاً لها - يتشبث بناصيتها ويميس، فيزيدها جلالاً وكبرياء
وأوشك الفتى الراعي أن يقدم التفاحة لحيرا، لولا أن صاحت به مينرفا -:
- على رسلك أيها الشاب. . . اسمع منا جميعاً ثم اقض بيننا. . . أنا لن أزخرف عليك) بملك ولا سلطان، فأنت أعقل من أن تنخدع للعرض الزائل، وأعلى من أن يهيمن جسمك على عقلك، وهواك على قلبك. . . أنا مينرفا ربة الحكمة وإلهة الروح الأعلى المقدس. . . سأمنحك السداد، وسأكشف لك حجب الجهالة، وسيضيء مصباح المعرفة بين يديك فتكون أهدى الناس، وأعلم الناس، وأحكم الناس. . .)
وسكتت مينرفا؛ وسمع هاتف من جهة البحر يصيح -:
- (باريس! أعطها لمينرفا يا باريس. . .)، وكانت أيونونيه ما في ذلك شك!!
وكاد باريس يلقي بالتفاحة في يدي مينرفا. . . لولا أن تقدمت فينوس الصنّاع. . . فينوس الحلوة. . . فينوس الساحرة. . . فينوس ذات الدل. . . فينوس التي تكفي غمزة ماكرة من طرفها الفاتر الساجي لإذلال ألف قلب. . . . . لولا أن تقدمت فينوس كلها تطارد قلب باريس وتحاصر عينيه حتى ما يقعان إلا على عينيها. . . . . تقدمت فينوس ترنو وتبتسم، وتتبرّج وتهتز، وتشد هذا الثدي وتثني هذا الذراع، وتميل برأسها الذي كله خدود وعيون وأصداغ. . . تقدمت فينوس تبسم للراعي الجميل عن فم حلو رقيق، تتلألأ ثناياه، ويتضوع عبير خمره، وقالت: (باريس! هل لك عينان تعرفان الغزل، وقلب يعرف الحب؟. . . باريس! أنا فينوس التي صليت لها بالأمس، والتمست منها التوفيق. . . هاأنا ذي يا باريس. . . أليست التفاحة للأجمل! ألست تحب أن أهبك أجمل زوجة في العالم؟ ستكون زوجتك مثلي، تغمرك بجمال لا نهائي لا حدود له، ولن تشعر معها إلا أنك تعيش منها في جنة. . . قبل. . . نظرات حلوة. . . خدٌّ مورّد. . . أهدابٌ كظلال الخلد. . . ساق ملتفة عبلة. . . جسم ممشوق طوال. . . جيد مهتز ناضج. . . ثدي مثمر يتحلّب نعيما. . . . . هاتها يا باريس. . . هاتها يا حبيبي. . .)
وقبل أن تتم الخبيثة سحرها، كان الفتى البائس قد ألقى التفاحة في يديها الجميلتين، برغم الصيحات المتتالية التي كانت تهتف به من البحر: (لا يا باريس. . . لا يا باريس. . . أعطها لمينرفا يا باريس. . .!)
وجر على نفسه غضب حيرا ومينرفا، وكتبت التعاسة عليه وعلى قومه. . . ولم يلق إيونونيه بعدها!!
(لها بقية)
دريني خشبة

البريد الأدبيّ

نصوص سريانية عن العلوم الإسلامية في بغداد

صدرت أخيراً في إنكلترا موسوعة نفيسة للعلوم العربية وأحوالها في بغداد في أوائل القرن التاسع الميلادي (أوائل القرن الثالث الهجري) وعنوانها: (موسوعة للعلوم الفلسفية والطبيعية كما كانت تدرس في بغداد حوالي سنة 817م) أو (كتاب كنوز أيوب الرهاوي)، وقد نشرت هذه الموسوعة بالسريانية وهو نصها الأصلي مقرونة بترجمة إنكليزية وملاحظات نقدية بقلم العلامة الشهير الدكتور منجانا صاحب مكتبة (رينولدز) الشهيرة لتي تحتوي طائفة كبيرة من أنفس المخطوطات الئرقية؛ وقد سبق أن نشر الدكتور منجانا بعض هذه النصوص والتراجم نقلا عن المخطوطات السريانية والجرشونية التي تحتويها مكتبته. وهو يقول لنا في مقدمته إن هذا الجزء هو المجلد الأول في سلسلة جديدة علمية يراد إصدارها

وأهمية النصوص السريانية في تفهم أحوال العلوم الإسلامية الأولى تبدو جلية متى ذكرنا أن العرب حينما بدأوا ترجمة العلوم اليونانية، استعانوا في نقلها بالسريانية، فكانت تنقل أولاً إلى السريانية ثم تنقل بعد ذلك إلى العربية، وكان أعظم أولئك المترجمين كما هو معروف حنين بن إسحاق، أما أيوب الرهاوي هذا صاحب (الكنوز) التي أصدرها الدكتور منجانا، فهو من أشهر المترجمين الذين نقلوا المؤلفات اليونانية العلمية إلى السريانية، وقد ذكره ابن النديم في كتابه (الفهرست)، وعرفه العرب بالأخص من تراجمه للكتب اليونانية الطبية؛ وقد انتفع حنين بن إسحاق بترجمة الرهاوي لمؤلفات جالينوس، وترجم الرهاوي أيضاً بعض مؤلفات أرسطو، وألف رسالة دينية عنوانها (كتاب الإيمان). وقد ولد هذا لعلامة في مدينة إذيسا أو (الرها) حوالي سنة 760م وتوفي حوالي سنة 840

ولا شك أن المجلد الأول الذي أصدره الدكتور منجانا من النصوص السريانية التي اتخذت واسطة لنقل العلوم اليونانية إلى العربية سيكون له شأن يذكر في درس الحركة العلمية الإسلامية في بغداد في أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع أعني في أزهر عصور الدولة العباسية

لجنة الفتاوي في الأزهر والمعاهد الدينية

رأى فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر أن رسائل الاستفتاء عن مختلف المسائل الفقهية تنثال كل يوم على الرياسة الدينية من مصر ومن جميع الأقطار الإسلامية فأراد أن يجعل لهذا التثقيف المثمر جهة خاصة تتولى الفتوى على هذه الأسئلة وترجمتها إلى لغة المستفتى ثم عرضها على الرياسة العليا. فأصدر قراراً بتأليف لجنة تسمى (لجنة الفتاوي في الأزهر والمعاهد الدينية) وأسند رياستها إلى العالم الجليل الأستاذ حسين وإلى عضو هيئة كبار العلماء، وعضو مجمع اللغة العربية الملكي. وجعل أعضاءها أحد عشر عضواً يمثلون المذاهب الأربعة المشهورة، وسيكون دستورها في الفتوى أن تجب الطالب على المذهب أو المذاهب التي يريد الإجابة على مقتضاها. فإذا لم يعين المستفتى مذهباً أجابته بحكم الله المؤيد بالأدلة من غير تقيد بمذهب من المذاهب الشرعية

العارية الدولية للكتب

اجتمع في شهر مايو الماضي المؤتمر الدولي الثاني للمكتبات وفنونها بمدريد واشبيلية وسلمنكا وبرشلونة، وكان الغرض من اجتماعه إيجاد اتحاد أدبي بين الدول لنشر العلوم والثقافة بالتعاون بين مكتبات العالم. وكان من أهم ما نظر فيه مسألة (العارية الدولية للكتب) فاتخذ فيها قراراً ننقل خلاصته عن تقرير المندوب المصري فيما يلي:

1 - أن تكون المعاملة بين الدول في مسألة العارية الدولية للكتب على قاعدة المثل في أوسع معانيها

2 - أن تتعهد المكتبة المستعيرة بضمان كل ما ينشأ من ضياع أو تلف للكتب التي ترسل إليها

3 - تتعهد المكتبة المستعيرة بأن تتحمل كل نفقات الإرسال والتأمين

4 - أن تنفذ عملية الاستعارة بأسهل الطرق وأسرعها وبأقل النفقات الممكنة

5 - أن تكون الاستعارة بين الدول بطرقة مباشرة

6 - يجب على كل مكتبة قبل أن تطلب مؤلفات من الخارج أن تتأكد من عدم وجود

هذه المؤلفات في بلادها
7 - يحسن أن يعين في كل مكتبة موظف خاص باستعارة الكتب وهو الذي يرسل ويتسلم
الكتب المطلوب استعارتها
8 - وعلى المكاتب المنضمة إلى الاتحاد أن تعمل إحصائية عن الكتب التي أعارتها أو استعارتها كل عام
الإنكليز واللغات الأجنبية
المعروف عن الإنكليز أنهم أقل الشعوب الأوربية ميلا إلى تعلم اللغات الأجنبية، وقد يرجع ذلك من وجوه كثيرة إلى انتشار لغتهم في كثير من البلاد والأمم التي يبسطون عليها سيادتهم أو نفوذهم؛ ولكن الواقع أن الإنكليز يرغب بطبيعته عن بذل أي جهد لتعلم لغة أخرى؛ بيد أنه لوحظ منذ بداية هذا القرن أن الشباب الإنكليزي قد أخذ يميل إلى تعلم لغة أجنبية، وأنه يؤثر الفرنسية في ذلك على كل لغة أخرى، وتليها اللغة الألمانية؛ وقد أذاع أحد كبار الأساتذة الفرنسيين الذين يتولون التدريس في جامعة لندن أخيراً تقريراً عن تقدم اللغة الفرنسية في إنكلترا وفيه يقول إنها أصبحت اللغة الأجنبية الوحيدة التي تدرس في المدارس الابتدائية الممتازة في إنكلترا وعددها نحو خمسمائة مدرسة؛ وأنه يوجد زهاء خمسين ألفاً من الشبان الإنكليز يتعلمون الفرنسية في المدارس الليلية، وعشرين ألفاً يتعلمون الألمانية، وتسعة آلاف يتعلمون الأسبانية. ويغلب تعلم الفرنسية في المدارس الابتدائية الحرة وفي المدارس الثانوية. ويختار الفرنسية كلغة أجنبية إضافية نحو تسعين في المائة من تلاميذ هذه المدارس. غير أنه يلاحظ من جهة أخرى أن الطلبة بعد تعلم الفرنسية في المدارس لا يجرؤن على التكلم بها بعد تخرجهم، لأنهم يجدون صعوبة كبيرة في التحدث بها سواء من جهة النطق أو النحو؛ ويلاحظ من جهة أخرى أنهم لا يقرأون بها سوى القليل من الكتب والنشرات السخيفة. وإلى جانب ذلك التقدم يتعلم اللغة الألمانية خصوصاً في الأقسام العلمية للجامعات
جائزة نوبل للسلام
من المعروف أن معهد نوبل يخصص جائزة سنوية لسلام يمنحها للشخص أو الأشخاص الذين يقدمون أعظم خدمات لقضية السلام العالمي. وقد منحت هذه الجائزة في العام الماضي للمستر ارثور هندرسون الوزير الإنكليزي السابق ورئيس مؤتمر نزع السلاح،
والسير نورمان آنجل الكاتب الإنكليزي الذي اشتهر بمقالاته وكتبه لتأييد قضية السلام. وفي أنباء (أوسلو) الأخيرة أنهم يرشحون لنيل جائزة السلام عن سنة 1935، المسيو مازاريك رئيس جمهورية تشيكوسلوفاكيا، والهير كارل فون اسيوتسكي. والأول معروف بحبه وخدماته للسلام، وأما الثاني فهو كاتب ألماني ذو نزعة ديموقراطية، كان يحرر صحيفة (دي فلث بينه) (المسرح العالمي)، وقد اشتهر بحملاته على الجمعيات الوطنية النازية السرية. فلما تولى النازي الحكم في يناير سنة 1933، قبض عليه وأودع في معسكر الاعتقال. ولا يزال معتقلاً حتى اليوم
مشروع أدبي ضخم
وضع أحد كبار الناشرين في السويد مشروع مباراة أدبية ضخمة، خلاصتها أن يتقدم اثنا عشر ناشراً يمثلون كبرى الدول الأوربية، ويقدم كل ناشر منهم أنفس ما لديه من مخطوطات كبار المؤلفين المعدة للنشر إلى لجنة من المحكمين من أكابر المفكرين؛ وتنتخب كل لجنة مما يقدم إليها أنفس وأجمل رواية؛ ثم ترسل الروايات الاثنتا عشرة المختارة إلى السويد وتعرض هنالك على لجنة عليا من المحكمين، وهذه تختار أنفس وأجمل رواية من الجميع؛ ويمنح مؤلف هذه القصة المختارة مكافأة مالية قدرها ثلثمائة ألف فرنك (نحو أربعة آلاف جنيه). ثم تترجم إلى معظم اللغات الحية وتنشر في مختلف بلاد العالم؛ ويقدر واضع المشروع أنه يمكن أن يجتني من تنفيذه نحو مليون فرنك. بيد أن المهم في ذلك كله هو ما يصيب المؤلف الذي يسعده الحظ بأن تفوز قصته بالجائزة الكبرى، فهو يغدو بالحصول عليها من أصحاب الثراء
الكتب
روض الشقيق في الجزل الرقيق

ديوان المرحوم الأمير نسيب أرسلان 1284 - 1346هـ
للأستاذ محمد بك كرد علي

بيت الأمراء أرسلان في لبنان عريق في النسب والأدب، وأشهرهم في هذا العصر الأمير شكيب أرسلان أحد من انبغتهم الشام من أرباب الأقلام، ويليه في الشهرة الأديبة شقيقاه الأمير عادل والأمير نسيب صاحب هذا الديوان. طبعه في دمشق شقيقه الأمير شكيب وقدم له مقدمة التزم فيها السجع على عادة أهل القرن الماضي، وعلق عليه حواشي وأردفه بترجمة الناظم ونسب العائلة الأرسلانية التي تنتسب إلى الأمير عون المتوفى سنة 13هـ. وكان قد حضر وقعة أجنادين، حضر مع خالد بن الوليد من العراق إلى الشام لنجدة أبي عبيدة بن الجراح، وحضر الأمير مسعود المتوفى سنة 45هـ وقعة اليرموك بألف وخمسمائة من أصحابه، وشهد وقعة قِنَّسرين. وأرومة هذا البيت ترتقي بعد ذلك إلى المنذر بن الملك النعمان الشهير بأبي قابوس ممدوح النابغة الذبياني. وقد فصل الأمير شكيب كل ذلك تفصيلاً وافياً استغرق أكثر من نصف هذا الديوان، وهو في 270 صفحة متوسطة القطع، وترجم لمن ورد ذكرهم من القضاة والعدول وغيرهم ممن شهدوا لهذا النسب، وردّ على بعض المؤرخين الذين أغفلوا لمقاصد حزبية ذكر آل أرسلان في بعض المواضع والمواقع، وقديماً قالوا: الناس مصدّقون بأنسابهم.

سمى الأمير أرسلان ديوان أخيه بروض الشقيق، في الجَزْل الرقيق، وذلك لجمعه بين متانة التركيب، ورقة الشعور؛ وفي لفظة الشقيق من التورية ما لا يخفى. وقد أشار إلى أصحاب الأدب الجديد، وهو من أنصار الأدب القديم بقوله: (لا ينبغي لناشئة العرب أن يعدلوا بهذه الأم العربية البرة أماً، ولا يجوز أن يجعلوا لها من بين اللغات نِداً، بل يجب أن يجعلوها قطب رحى المثاقَنة، ويعلموا أنها نعم السند يوم المماتنة. فلا يرتبوا أفكارهم في لغة قبلها، ولا يضلوا في الأبانة عن ذات نفوسهم سبلها، حتى إذا صفت لهم مشارعها، وحنَت عليهم أجارعها، وصارت مَلَكتها جارية مجرى المهج من نفوسهم، نازلة منزلة الأدمغة من رءوسهم، كان لهم أن يستزيدوا من آداب الغرب والشرق ما شاءوا وتطالت إليه عزائمهم، وأن يضموا إلى البلاد العربي القديم طريف البضائع، وأن يضيفوا إلى الإرث العُدُملي الكريم حديث البدائع، مشروطاً في نقلها إلى خزانة العربية، لأجل تمام المقصد واجتناب الهجنة، أن يكون الأسلوب العربي الأصيل ظلها وماءها، وديباجة النطق بالضاد أرضها وسماءها، وأن تكون لغة الكتاب المنزل على أفصح العرب ألفها وياءها. .).

وهاكم نموذجاً من شعر هذا الأمير الشاعر من قصيدة يصف الفقير في ضنكه ويحث الموسر على إعانته، (وهي قصيدة فذة في بابها في وصف الفقر وشدته على المرء واستجلاب الرحمة والتحنان على الفقراء والتحذير من مغبة إرهاقهم):

رأيت سليل الفقر يعمل في الثرى ... مكباً على محراثه يتلهف
يخدُّ أديم الأرض خداً كأنه ... له قِبَل الغبراء ثار مخلف
كأني به نادته للحرب فاغتدى ... يكرُّ عليها بالحديد ويعطف
كأني به إذ فرق الترب والحصى ... يفتش هل في باطن الأرض منصف
كأني به إذ خط في الأرض قبره ... يهمُّ على جثمانه ثم يصدف
به آية الجهد الذي ليس ناهضاً ... بهِ بشر غض البنان مهفهف
جبين بمرفضِّ الصبيب مضمَّخٌ ... وشعر بملتصِّ الغبار مغلف
وجِيد خفوق الأخدعين كأنما ... تبينت من أوداجه الدم ينطف
رثيت لمكروب سحابة يومه ... إذا قرَّ منه معطف ماج معطف
إذا زلزلته سرعة الخطو أوشكت ... أضالعه في زوره تتقصف
كأن أزيز الجوف عند وجيبه ... حسيسُ هشيم والندى يتوكف
يشقق عنه الثوب فالريح قد غدت ... تصافح منه جلده حين تعصف
وأثبت حَمْئُ الشمس في أم رأسه ... نبالاً فراس العظم منها منقف
تبطن منثور الغبار جفونه ... فضرَّج منها مقلة تتحسف
كأن حماة الشوك في ذيل برده ... طراز حواه العبقري المفوَّف
يمدُّ إلى الجبار كفاً تكدحت ... أناملها والله بالعبد أرأف

ومنها:

وصفت لك الضراء يا صاحب الغنى ... وهل تعرف الضراء من حيث توصف
هي الفقر ما أدراك ما الفقر إنما ... لهاث الردى منه أخف وألطف
حياة بلا أنس وعيش بلا رضى ... فلا الرغد ميسور ولا العمر ينزف
بكيتك يا خلوَ اليدين بأدمعي ... فأنت صريع النائبات المذفف
يروح كثير المال يسحب ذيله ... وأنت المعَّني يا فقير المكلف
ألست الذي شاد الحصون بعزمه ... وناط نجاد السيف للحرب يزحف
وأجرى سفين البحر في اللج ينثني ... ومَّشى قطار النار في البيد يهذف
وقد ملأ الأنبار للخلق ميرةً ... وحاك لهم موشية تتغضف
بلى إن من هان العسير بكده ... على الأرض مفتول الشوى متقشف
أخو فاقة لم يدخل الطيب رأسه ... ولا مسَّ كفيه القضيب المعقف
أفي الحق أن يشقى الفقير بعيشه ... وذو المال في شر الغواية يسرف
وأن يدنف المثرى بأعقاب بطنه ... غداة خفيف الحاذ بالجوع يدنف
أما في كبود العالمين هوادةٌ ... ولا رحمة عند الشدائد تعطف
وهل فقدت بين الأنام قرابة ... يحثُّ بها منهم عديم ومترف
أرى المرء لا يأسو جراحة مملق ... ولو هزَّ فوْديه النصيح المعنف
أراه إذا ما نَعَّم الرغد جسمه ... غدا قلبه يقسو لديه ويصلف
إليكم بني غبرآء تدمى عيونهم ... وليس لهم إلا المياسير مسعف
يمدون نحو المحسنين أكفهم ... وما يستوي المكفيُّ والمتكفف
سألت عزيز المال حين يغوثهم ... من الرمل تحثو أم من البحر تغرف
ألا إنما الحسنى إليهم فريضةٌ ... وفي ذلك الآيات لا تتحرف
فإن طلبوا الإنصاف قيل سماحة ... ومن لك بالمظلوم لا يتنصف
عليكم بكشف العسر عنهم فإنما ... أخو الضر يمسي ضارياً حين يهجف
فلا ترهقوهم بالشقاوة والطوى ... فيبدو منهم بادر لا يكفكف
فإن لم ينالوا بالهوادة حقهم ... ينالوه يوماً والصوارم ترعف
ولا تهملوا حسن الخطاب ولينه ... فإن الخطاب العذب نعم المثقف
لكم عبرة في الغرب من كل فتنة ... تهز الجبال الراسيات وتخسف
فلو كان عيش للمفاليس طيب ... لما قام منهم قائم متطرف

وفي الديوان كسائر الدواوين الشعرية مديح وقصائد في التهنئات، ومقاطع في الغزل والنسيب، وكلها من الشعر الجزْل. رحم الله ناظم عقودها وأمد في حياة ناشرها.

إلى صديقي العلامة الأمير شكيب أرسلان

نعم شقّ عليّ يا أخي أن تلقى دلوك في الدلاء، وأن تكتب مقدمة كتاب (قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث) بهذا اللسان الذي ما عهده فيك من تأدبوا بأدبك، وأكبروا عظمة بيانك. بالأمس كتبت مقدمة (النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي) للأستاذ محمد أحمد الغمراوي، فمن منا لم يعجب بما كتبت وحبرت، وإن كنت أطلت وتوسعت؟ واليوم تكتب ما تكتب لقواعد التحديث، في فن لست منه ولا أنا في العير ولا في النفير، وجئت تغالي بكتاب ليس فيه من حديثه ولا أسلوبه أسلوب المؤلفين، ولا يستحق هذه العناية والدعاية وهذه الضجة؛ ولكل رأيه واجتهاده

أنا أجلك عن الدخول في هذه المآزق، لأنك في غنية عنها، ولست بحمد الله محتاجاً إلى مصانعة الناس، ولا نضبت أمامك الموضوعات، تحتاج لمعالجتها لتورثك شهرة وحسن ذكر؛ وما أخالك إلا كتبت ما طلب منك في غير وقت نشاطك، وليس لك من القول ما تقول فتبدع على عادتك. ومهما كانت منزلة الكتاب وكاتبه من نفسك، ما أرى لقلمك أن يجري إلا فيما يصلح أن ينسب إلى إحسانه؛ وحملة الأقلام مسؤولون إذا اقتصروا مع المؤلفين والطابعين على مقارضة الثناء، ولم يتعاودوهم بالنقد الصحيح؛ والإفراط في التقريظ شيمة المتأخرين من أهل عصور الانحطاط الأدبي في العرب؛ والنقد المفيد عادةُ نقاد الإفرنج في زماننا. ومن الأمانة للعلم والأدب أن يُدَلَّ كل كاتب على مواضيع الخطل من كلامه، إلا أن نغشه ونغش قراءه، فنجسم ما صغر حجمه في العيان، ولا يشول مهما نفخناه في الميزان

وأكتفي الآن بجملة من مقدمتك، وقد بدأتها بقولك: (لا يخفى على أهل الأدب، أن

الجمالَ والقسام في العربي (؟) واحد، وأن معنى القاسم هو الجميل، فلا يوجد إذن لتأدية هذا المعنى أحسن من قولنا (الجمال القاسمي) الذي جاء اسماً على مسمى، مع العلم بأن الجمال
الحقيقي هو الجمال المعنوي، لا الجمال الصوري، الذي هو جمال زائل؛ فالجمال المعنوي هو الذي ورد به الحديث الشريف: إن الله جميل ويحب الجمال. وعلى هذا يمكنني أن أقول إنه لم يُعط أحد شطر الجمال المعنوي الذي يحبه الله تعالى، ويشغف به عباد الله تعالى، بدرجة المرحوم الشيخ جمال الدين القاسمي الدمشقي، الذي كان في هذه الحقبة الأخيرة جمال دمشق، وجمال القطر الشامي بأسره، في غزارة فضله، وسعة علمه، وشفوف حسه، وزكاء نفسه، وكرم أخلاقه، وشرف منازعه، وجمعه بين الشمائل الباهية، والمعارف المتناهية، بحيث أن كل من كان يدخل دمشق، ويتعرف إلى ذاك الحبر الفاضل، والجهبذ الكامل، كان يرى أنه لم يكن فيها إلا تلك الذات البهية، المتحلية بتلك الشمائل السرية، والعلوم العبقرية؛ لكان ذلك كافياً في (إظهار مزيتها على سائر البلاد، واثبات أن أحاديث مجدها موصولة الإسناد. . . الخ
بأبي أنت وأمي يا شكيب! هل هذا بيانك الذي عرفته وعرفه فيك قومك؟ أنا لا أطلب غير حكمك، فلا أحتكم إلا إليك. أهذا كلام ترضاه لنفسك في كتاب يبقى؟ وما هذا القلق في المعاني والمباني؟ ربما أغتفر صدور مثل هذا الصدر من فتى يشدو في الأدب، ولكن من شيخ كتاب العرب لا ثم لا! وحديث السجع أنت عرفت رأيي فيه، ولعلك تذكر أني كنت لفت نظرك إلى ما أسميت به كتاب رحلتك إلى الحجاز: (الارتسامات اللطاف، في خاطر الحاج إلى أسمى مطاف) وقلت لك يومئذ إن القارئ مهما بلغ من ثقوب ذهنه لا يدرك لأول وهلة معنى هذا العنوان المسجوع، إلا بكثير من إجهاد الفكر؛ وهكذا كدت باستحسانك السجع في بعض المقامات والغلو في تقريظ من ترى تقريظه، أن تنسينا حسناتك علينا في كلامك المرسل الكثير، وأنا على ما تعلم من أحرص الناس على تخليده وتأبيده
بحقك، هل رأيت لأحد من بلغاء القرون الأولى سجعاً في شيء من أسماء كتبهم؟ وهذا الجاحظ وابن المقفع، وهذه أسماء كتبهما ورسائلهما، هل وجدت لهما سجعاً تتقزَّز منه كصاحبك أبي إسحاق الصابي الذي أفسد اللغة على علو مكانته في الأدب بما سجع ورصع؟ وأظنك موافقي على رأيي في أن التسجيع أضعف ملكات المؤلفين من عهد ابن العميد إلى زمن أستاذنا الإمام الشيخ محمد عبده الذي قضى بقوة حكومته على استعمال السجع في الصحف والرسائل الرسمية، فعدّ عمله هذا أكبر حسنة منحسانته؛ ولولا عمله ما
دخلت اللغة في هذا الأسلوب الممتع الذي نقرؤه اليوم للمنشئين والمؤلفين؛ ونرجو أن تعود به اللغة إلى رونقها السالف من الرشاقة والجزالة، على نحو ما كانت على عهد سهل بن هرون والجاحظ وعمرو بن مسعدة وأحمد بن يوسف الكاتب وابن المقفع وإضرابهم. وما أظنك تنكر عليّ أن رصف أبي حيان التوحيدي في القرن الرابع، وابن خلدون في القرن التاسع، أرفع وأمتع من تعسف الصابي والصاحب بن عباد وأبي بكر الخوارزمي والقاضي الفاضل والعماد الكاتب وابن الأثير إلى آخر أعيان ذاك المذهب المتكلف.
وأظنك موافقي أن في قولك: (وإن كان يجب حذفه (السجع) من هذه اللغة من أجل كونه في طريقة قديمة، ومن أجل أنه عبارة عن زينة كلامية، فإن هذا يؤدي بنا إلى اقتراح حذف الشعر أيضاً) - إن في قولك هذا مغالطة لطيفة، وفي علمك أكرمك الله أن النثر غير الشعر، والكراهة آتية من التزيد والتكلف
لو كنت على مقربة منك ما تركتك تقول في مقدمة الديوان الذي نشرته بأخَرةٍ ودعوته: (روض الشقيق، في الجزل الرقيق) ما قلته في فاتحته: (. . . الذي لا أجد لشعره وصفاً أو في من عرضه على الأنظار، ولا لديوانه حلية أجمل من نشره في الأقطار؛ وخير وصف الحسناء جلاؤها؛ والجواد عينه تُغني عن القُرار. ولعمري لو وصفته بأزهار الربيع، وأنواع البديع، وشققت في تحليته أصناف الأساجيع، وكان هو في الواقع دون ما أصف لما أغنيته فتيلاً، ولا رفعته عن درجته كثيراً ولا قليلاً؛ كما أني لو قدمته للقراء فريدة معطالاً، لا يرن له حجل ولا سوار، ولا يتلألأ عليه ياقوت ولا نضار، وكان هو في نفسه درا نظماً، وأمراً عظيماً، وديواناً تتأرج أرجاؤه ندّاً ولطيماً، لما خفي

أمره على ذوي الوجدان، ولا تعامى عن سبقه أحد ممن له عينان. .) ولو كنت مكانك لقلت وما باليت: (. . . الذي لا أجد لشعره وصفاً أوفى من عرضه على الأنظار؛ ولو وصفته بأزهار الربيع، وكان هو في الواقع دون ما أصف لما أغنيته فتيلاً؛ ولو قدمته للقراء فريدة معطالاً، وكان هو في نفسه دراً نظيماً، لما خفي أمره. .)

أليس هذا الإيجاز أوقع في النفس، وأجمل في أداء المعنى، وأدعى إلى الأفهام من أسجاع تثقل على الطباع؟ ونحن إنما نكتب لنُفهم، لا لنُعجم ونُبهم. وبعد فمالنا وللتقيد بما قاله بعض المتأخرين في معنى التعلق بأهداب السجع، ولدينا في أقوال المتقدمين والمأثور من

كتاباتهم ما يحملنا على تقليدهم في أساليبهم، يوم لا هذا الترصيع والتسجيع، ولا ذاك الضرب المستكره من أنواع البديع

محمد كرد علي

العدد 112 - بتاريخ: 26 - 08 - 1935

سعد باشا زغلول - 2

بمناسبة ذكراه الثامنة

كانت رسالة سعد كما رأيت (الدفاع عن الحق) في زمن خذل الحقَّ فانتهى فيه الحكم إلى الأثرة، وشعب جهل الحق فجرى به الأمر على الباطل. وكانت عُدة هذا المحامي المِدْره لذلك الدفاع البلاغة والمنطق والقانون: فالبلاغة للجمهور، والمنطق للخصوم، والقانون للحكومة؛ ولست أرمي بذلك إلى تقسيم كلام الزعيم إلى التأثير المحض، والإقناع المطلق، والتطبيق المجرد، فإن خطبته في كل موضع وفي أي موضوع لا تخلو من هذه العناصر الثلاثة، وإنما يظهر بعضها على بعض حين يقتضي المقام ذلك الظهور؛ فهو يوجه التأثير بالفكرة إلى الذهن إذا هاجم الإنكار والجهل، وبالعاطفة إلى النفس إذا عالج الخمود والغفلة، وبالنصوص إلى الذاكرة إذا عارض القوة والسلطة.

ولم ير التاريخ المصري بل الشرقي قبل سعد خطيباً بليل اللسان، نديَّ الصوت، طلق البديهة، دامغ الحجة، حافل الخاطر، رائع البيان، أنيق اللهجة، حسن السمت، يزاوج بين المنطق والشعر، ويعاقب بين الإقناع والإمتاع، ويراوح بين الجد والهزل، ويتصرف في فنون القول تصرف الشاعر برقة الأسلوب، والفيلسوف بدقة الفكر، والموسيقي بجمال الإيقاع؛ وكل ذلك في هالة من الشخصية المهيمنة الجذابة، تساعد بلاغة اللسان والعين واليد بشعاع إلهي باهر، ينفذ إلى النفوس المتكبرة فتَتَّضع، وإلى الأذهان المكابرة فتقتنع، وإلى القلوب اللينة فتنماع

كان سعد رجل جلاد وجدل؛ تمرس منذ الحداثة بشدائد الحياة ومكاره العمل، وراض نفسه منذ الدراسة على أدب اللسان والقلم، وتنفّس به العمر في ميادين الجهاد في الحق، فتكلمت عبقريته الموهوبة بالمعرفة، وتثقفت بالتجربة، وتقوت بالمران، حتى كان منه ذلك الخطيب المرتجل الذي يَهْضب بالكلام أربع ساعات متواليات لا يتلكأ، ولا يتلجلج، ولا يتكثر باللغو، ولا يستعين بالتكرار، ولا يطرد نشاط السامع؛ وكأنما كانت الخطابة لطول ما زاولها تصدر عنه كما يصدر الفعل عن الطبع الملازم والعادة المستحكمة؛ فالفكر عميق من غير إعنات، والأسلوب رشيق من غير تكلف، واللفظ متخير من غير قصد، والمعاني متساوقة تختلف باختلاف العقول والميول والحال، فتقع من قلوب سامعيها العشرين ألفاً موقع الأنداء من جفاف الأرض: هذا بالصورة الآخذة، وذاك بالفكرة النافذة، وذلك بالحجة الوثيقة، وأولئك جميعاً بالبيان الملهم، والأداء العجيب!

أكثر ما في خطب الخطباء حنجرة وإلقاء وحركة؛ فإذا قرأت بعد ذلك ما سمعت تبينت فيه الكلام الزائف والرأي المجازف والأسلوب المشوش؛ أما سعد فتسمعه وتقرأه فلا تجد بين الحالين إلا الفرق بين الخطيب الماثل بشخصه، والكاتب الماثل بروحه؛ ذلك لأنه يخطب كما يكتب ويكتب كما يخطب، متوخياً في الأمرين براعة التفكير، وبلاغة الأداء، وجمال الأخيلة، وصحة الأقيسة، وقوة الأدلة

كان سعد برد الله ثراه وخلد ذكراه يحب الكلام كما يحب العمل، وينشط بالجلاد كما ينشط بالجدل، ويطرب لِلَفتة الذهن كما يطرب لقهر الخصومة، ويقدس المنطق حتى ليأخذ به من نفسه لعدوه، ويقوى بالكفاح حتى ليركبه المرض والوهن إذا ما استجمَّ

دخلت ذات يوم بيت الأمة في وفد من قومي نجدد الثقة بالرئيس حين انصدع من

حوله الوفد، وائتمرت به الحكومة، وتخشَّنَ عليه الإنجليز، ودس له المراءون الغدر في الملق، ولم يبق معه إلا اعتداده بنفسه، واعتقاده بحقه، وثقة الشعب الأعزل به؛ وكان في ذلك اليوم عليلاً لا يخرج إلى أحد ولا يدخل عليه أحد، ولكن الوفد المسافر المشوق يأبى في إلحاح وإصرار إلا أن يرى رئيسه وإن لم ينزل، ويسمعه رأيه وإن لم يتكلم؛ فنزل الزعيم النبيل مدثَّراً بلفائف المرض يتحامل على نفسه ويتهالك على مقعده؛ وكان فناء الدار وشارع الدار وحجرات الدار قد انفجرت انفجار عرفات بالدعاء والتفدية حين لاح وجهه الشاحب من العلة

قدَّم وفدنا إلى الرئيس عرائض الثقة في غلاف حريري جميل، ثم تعاقبت الخطب على الأسماع ما بين سمين وهزيل، والخطيب المعجز جالس إلى مكتبه يصغي إلى كل خطيب ويصفق لكل خطبة، حتى انتهى القوم ووقف هو يقول كلمة الشكر، فبدأها بصوت خافت متهافت، ثم ما لبث أن شبا وجهه، واستقام عوده، وارتفع صوته، وتنوعت لهجته بالنبرات المؤثرة، وتحركت يده الإشارات المبينة، ثم تدفق تدفق السيل الهادر ساعة كاملة هتك فيها أستار الغلول والخديعة عن سياسة الحكومة والخصوم، فما سمع الناس كاليوم خطيباً ينطق عن الوحي، وأسلوباً يتسامى للإعجاز، وصوتاً يمتزج رنينه الفضي بأجزاء النفس، وخطبة لا يظفر بمثلها البيانيون نموذجاً كاملاً للفن! تلك صورة جانبية لناحية من نواحي فن الزعيم، جلوناها على قدر هذه الصفحة؛ ولعلنا نعود يوماً إلى هذا الإجمال فنفصله، وإلى هذا التركيب فنحلله

أحمد حسن الزيات

القومية العربية

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

كثيراً ما يسألني الذين لم يشهدوا الثورة المصرية - لأنهم كانوا أطفالاً - (هل كانت حقيقة رائعة؟)

فأقول: (لقد بلغت غاية الروعة - في حدودها. ولم يكن في الوسع أن تكون فوق ما كانت؛ ولكنها فشلت - مع الأسف - لأنا أحطنا قوميتنا بمثل سور الصين)

ذلك أني أؤمن بما أسميه (القومية العربية) وأعتقد أن من خطل السياسة وضلال الرأي أن تنفرد كل واحدة من الأمم العربية بسعيها غير عابئة بشقيقاتها، أو ناظرة إليها؛ ويحنقني ويستفزني أن أرى أحداً ينظر إلى مصر كأنها من أوربا وليست من الشرق. وعندي أن الجنسية الشرقية هي أساس حياتنا وتاريخنا، وأن هذه النظرة تفسد مزايانا الشرقية - إذا لم تفقدنا إياها - ولا تكسبنا مزية من مزايا الغرب؛ والعلم ينقل، وقد نقل من الشرق إلى الغرب، ومن اليسير أن ينقل من الغرب إلى الشرق من غير أن يحاول الشرق أن يغيّر جلده أو يخسر خصائصه

وقد اعترض عليّ شاب - ذات مرة - ونحن في حديث كهذا، فقال: (وما الرأي في القومية؟ أليست حقيقة تاريخية تفرّق بين هذه الشعوب والأمم التي تريد أن تجمعها وتربطها برباط واحد؟)

فقلت له: (إن هذه القوميات العنيفة الضيقة الحدود، حديثة من الوجهة التاريخية، وهي - بحدتها الحاضرة - بنت العصر الحديث، أو إذا شئت، فقل إنها وليدة الحرب العظمى، وإن كان صحيحاً أنها سبقت الحرب بنصف قرن تقريباً، بل إن فكرة الإمبراطورية البريطانية نفسها ليست إلا بنت القرن العشرين. ولعل أكبر مسئول عن بث هذه الفكرة هو الشاعر كبلنج. ما علينا من هذا، ولنرجع إلى حديث الشرق: لقد كانت هناك وحدة وثقافة إسلاميتان دان لهما الشرق، أو ما يعنينا منه، وظلت هذه الوحدة قائمة على الرغم من انحطاط الثقافة، ولم يمنعها أن تظل قائمة أنَّ ثورات شبت، وحروباً استعرت، فإن هذه أشبه بالفتن الداخلية والحروب الأهلية؛ وقد كان العلماء والأدباء والفقهاء يرحلون من بلد إلى بلد، ولا يحسون أنهم تركوا أوطانهم وتغرّبوا، ولا يشعرون أنهم اجتازوا حدوداً، وتخطوا تخوماً، تفصل بين أقطار، وتعزل أمة عن أمة. ولا يزال الحال كذلك؛ ولو جبتم هذا الشرق لما شعرتم أنكم في غير مصر - إلا من حيث التقدم المادي - وكانت اللغة العربية هي اللسان الذي لا يحتاجون إلى اتخاذ غيره في حيثما يكونون من هذا الشرق العظيم الذي تقسمونه اليوم أمماً وشعوباً وتقولون هذا مصري وذاك فلسطيني أو شامي أو حجازي. وعلى أن القومية هي اللغة لا سواها. ولتكن طبيعة البلاد ما يشاء الله أن تكون، ولتكن

الأصول البعيدة المتغلغلة في القدم ما شاءت، فما دام أن أقواماً لهم لغة واحدة فهم شعب واحد. ذلك أن الإنسان لا يستطيع أن يفكر - إلى الآن على الأقل - إلا بالألفاظ. هي وحدها أداة التفكير، فلا سبيل إليه بدونها؛ ومن المستحيل - الآن - أن نتمثل معنى مجرداً عن ألفاظ تعيّنه. ولكل لغة أساليبها وطرائقها، فأساليب التفكير وطريقة التصوّر خاضعة للأساليب التي يتألف على مقتضاها الكلام في اللغات المختلفة؛ ومن هنا يتفق ويتشابه أبناء كل لغة، ويختلفون عن أبناء كل لغة أخرى؛ وهذا فرق ما بين الإنكليزي والفرنسي، وما بين الإنكليزي والهندي؛ وهذه فيما أظن، حقيقة علمية، ومتى كان الأمر كذلك فكيف نكون إلا عرباً كالعراقيين، والسوريين، والفلسطينيين، والحجازيين، واليمانيين، مع اختلاف يسير تحدثه طبائع هذه البلاد؟)

فعاد الشاب يسألني: (وأصلنا المصري؟ وتاريخ الفراعنة ومدنيتهم؟)

فقلت له: (أكرم بهذا من أصل! وإنها لمدينة باهرة تلك التي كانت للفراعنة؛ وإن العالم كله لمدين بأكثر مما يعرف لهذه الحضارة القديمة، ولكنها بادت واندثرت، ولم يبق منها إلا الأثر المدفون في التراب، والذي لا يمكن أن يؤثر في حياتنا الحاضرة إلا من طريق واحد - هو إشعارنا العزة، وحثنا على استحقاق هذا الميراث الجليل، كما يكون الأب كريماً فيخجل الابن أن يكون كزاً لئيماً وأن يفعل ما ينافي كرم آبائه وطيب أرومتهم؛ ولكن المدينة العربية - أو قل الإسلامية إذا شئت - لم تفن، ولم تبد، ولم تندثر، ولم تفقد إلا القوة ومظاهر السلطان، وهذه تكتسب وتستفاد؛ ولكنها فيما عدا ذلك، بقيت حية، وأبقى ما بقي منها لغتها بكنوزها المختلفة، فهي - أي المدنية العربية - عاملٌ مؤثرٌ بوجوده - لا بذكراه كالعامل الفرعوني. ومن الممكن هدم هذه الحواجز المفتعلة التي يقيمها الغرب ويرفع منها سدوداً بيننا وبين إخواننا)

وكثير ممن أحدثهم هذا الحديث يقتنعون، ولكنهم يرون أنفسهم شباناً، ويستهولون أن يوكل إلى أسنانهم الغضة توثيق ما أوهنه تفريط الشيوخ أو ضيق إدراكهم، ولكني أنا أؤمن بقدرة الشباب على المعجزات، لأن خياله أنشط، وجرأته أعظم وعزيمته جديدة لم تنل منها الخطوب والخيبات، وآماله فسيحة. وإذا كان الشباب لا يقدم، فمن ذا عساه يفعل؟؟

ولو أن هذه القومية العربية لم تكن إلا وهماً لا سند له من حقائق الحياة والتاريخ، لوجب أن نخلقها خلقاً، فما للأمم الصغيرة أمل في حياة مأمونة، وما خير مليون من الناس مثلاً؟ ماذا يسعهم في دنيا تموج دولها بالخلق، وكيف يدخل في طوقهم أن يحملوا حقيقتهم ويذودوا عن حوضهم؟ إن أية دولة تتاح لها الفرصة تستطيع أن تثب عليهم وتأكلهم أكلاً بلحمهم وعظمهم. ولكن مليون فلسطين إذا أضيف إليهم مليونا الشام وملايين مصر والعراق مثلاً يصبحون شيئاً له بأس يتقى. وهذه البلاد ما انفكت زراعية على الأكثر، وجل اعتمادها على حاصلات الأرض، والصناعة فيها ساذجة محدودة، وضيقة النطاق، والزراعة لا تغني الأمم كما تغنيها الصناعة، والمال عصب الحياة وسر القوة، وأخلق بهذه الأقطار العربية أن تظل صناعاتها ضئيلة ما بقيت هي مقسمة موزعة، لأنه لا يوافق الدول الغربية التي لها فيها سلطان أو نفوذ أن تدع صناعاتها تنشط وتنهض، ولا سبيل إلى نشاطها إلا إذا فتحت أسواق مصر، لجاراتها الشرقية، وأسواق الجارات لمصر، ومعقول أن تشتري منا دول أوربا حاصلاتنا الزراعية أو ما يزيد على حاجتنا منها، ولكن صناعتنا لا يعقل أن تجد لها أسواقاً في أوربا، فما بها حاجة إلى ما نصنع بالغاً ما بلغ التجويد فيه، وإنما يتسع الميدان لصناعتنا إذا وجدت سبيلها إلى الشرق، ومثل هذا يقال عن البلاد العربية الشرقية

قد يقال ولكن هذا ليس إلا حلماً، فنقول نعم إنه الآن حلم، لا أكثر، ولعله لا يتراءى إلا لآحاد يعدون على الأصابع في كل بلد، وعسى أن تكون العقبات المعترضة والصعاب القائمة قد صرفت كثيرين عنه بعد أن دار زمناً في نفوسهم، ولكنه، على كونه حلماً، ليس أعز ولا أبعد منالاً مما تحلم به أمم أخرى في هذا العصر؛ وبالأمم حاجة إلى الأحلام، وإلى الإلحاح على نفسها بها حتى تخلد إليها وتتعلق بها ولا تعود ترى للحياة قيمة أو معنى إذا لم تسع لتحقيقها، وإلا فلأية غاية تسعى؟؟ ماذا تطلب من الدنيا؟ وماذا عسى أن يكون مرامها في الحياة إذا لم تحلم بأمل؟ أيكون كل ما تبغي أن تأكل هنيئاً، وتشرب مريئاً، وتنام ملء

جفونها؟؟ وهيهات أن يتيسر لها ذلك إذا هي أقصرت وكفت عن الأحلام والتأميل وما يغريان به من السعي، وغيرنا يحلم بنا إذا كنا نحن لا نحلم بشيء، وحقيق بنا إذا سلمنا إلى حين أن نعود فريسة لأمة من الأمم الطامعة الحالمة

والأحلام ضرورة من ضروريات الحياة، للأفراد والجماعات وبغيرها يمتنع السعي وتنقطع الحوافز، وتركد الدنيا ويأسن العيش، ومن لا حلم له، لا أمل له، ولا مستقبل، فلما يعيش إذن؟

إبراهيم عبد القادر المازني

مصر وقت الفتح الفاطمي والعوامل التي مهدت لهذا الفتح

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تتمة

- 3 -

كانت الدولة الفاطمية تضطرم بهذا الروح الوثاب، وهذه الخلال البدوية النقية حينما اعتزم المعز لدين الله فتح مصر، وكانت هذه الروح والخلال هي دعامة الدولة الجديدة؛ نشأت في مهدها، كما تنشأ معظم الدول المغامرة التي تجد في قفار المغرب خير ميدان لطالعها ونشاطها. وكانت هذه الإسبارطية الصارمة تطبع تصرفات الغزاة منذ البداية؛ وبينما كان أبو عبد الله الشيعي داعية الفاطميين وطليعة دولتهم يزحف بعصبته من البربر على بني الأغلب لينتزع ملكهم، كان زيادة الله بن الأغلب مكباً على لهوه ومسراته، ولم يك ثمة شك في مصير ملك يغشاه مثل هذا الانحلال في الروح وفي الخلال؛ ولما تم الظفر لأبي عبد الله ودخل رقادة عاصمة الأغالبة، واحتوى على تراث بني الأغلب، عرضت عليه جواري ابن الأغلب وفيهن عدة فائقات الحسن، فلم ينظر إلى واحدة منهن، وأمر لهن بما يصلح شأنهن وأقام على ما كان عليه من تقشف بالغ وخشونة في المأكل والملبس، ولم تزد إقامته في القصر الأنيق على إقامة القفر الساذج

ولما اعتزم المعز أن يحقق أمنية أسرته في افتتاح مصر، استعد لذلك استعداداً عظيماً، وحشد كل ما استطاع من جند وذخيرة ومال، وعهد بتلك الحملة الزاخرة إلى أعظم قواده جوهر الصقلي؛ ومع أن المعز كان قوي الأمل في التغلب على مصر، ومع أنه كان يعرف من طلائعه وعيونه مبلغ ما انتهت إليه من التفكك والضعف عقب موت كافور، فإنه لم يدخر عدة في الرجال أو المال، وإليك رواية توضح لنا ضخامة هذه الأهبة: استدعى المعز يوماً أبا جعفر حسين بن مهذب متولي بيت المال، وهو في وسط القصر، وقد جلس على صندوق وبين يديه ألوف صناديق مبددة، فقال له: هذه صناديق مال، وقد شذ عني ترتيبها، قال الحسين، فأخذت أجمعها حتى رتبت، وبين يديه جماعة من خدام بيت المال والفراشين،

فلما رتبت أمر برفعها في الخزائن على ترتيبها، وأن يغلق عليها ويختم بخاتمه، وقال: قد خرجت عن خاتمنا وصارت إليك، فكانت جملتها أربعة وعشرين ألف ألف دينار، وكان ذلك في سنة 357هـ؛ فأنفقت جميعها على الحملة التي سيرها إلى مصر؛ ويقال إن الحملة الفاطمية على مصر بلغت نيفاً ومائة ألف فارس، غير الجند المشاة، وهي قوة زاخرة تقتضي لكي تقطع هذا القفر الشاسع بين إفريقية ومصر بعددها وعددها جهوداً جبارة؛ ولقد أذكى منظر تلك القوى الجرارة وأهبتها الهائلة وقت خروجها من القيروان إلى مصر في يوم من أيام ربيع الأول سنة 358هـ خيال الشاعر المعاصر ابن هانئ، فأنشد في وصفها:

رأيت بعيني فوق ما كنت أسمع ... وقد راعني يوم من الحشر أروع
غداة كأن الأفق سد بمثله ... فعاد غروب الشمس من حيث تطلع
فلم أدر إذ ودعت كيف أودع ... ولم أدر إذ شيعت كيف أشيع
إلا أن هذا حشد من لم يذق له ... غرار الكرى جفن ولا بات يهجع
إذا حل في أرض بناها مدائناً ... وإن سار عن أرض غدت وهي بلقع
تحل بيوت المال حيث محله ... وجم العطايا والرواق المرفع
وكبرت الفرسان لله إذ بدا ... وظل السلاح المنتضى يتقعقع
وعب عباب الموكب الفخم حوله ... ورق كما رقَّ الصباح الملمع

فإن يك في مصر ظماء لمورد ... فقد جاءهم نيل سوى النيل يهرع

ولم تمض أسابيع قلائل حتى سرت الأنباء في مصر بمقدم العساكر الفاطمية؛ ولم يكن مشروع الفاطميين في فتح مصر مجهولاً؛ وكان للمعز بمصرَ دعاة يبثون دعوته خفية، ويبشرون بالفتح الفاطمي. ولم يك ثمة ما تخشاه الأمة المصرية من هذا الفتح، خصوصاً بعد الذي شهدته من عسف الجند العباسيين، وطغيان الولاة المستعربين، وما انتهت إليه شؤونها في أواخر عهد الدولة الأخشيدية من الاضطراب والفوضى، وما توالى عليها من محن الغلاء والوباء؛ ولقد كان من سخرية القدر أن يتولى حكم مصر أسود خصي هو كافور؛ وكان لهذا الحادث الفذ في تاريخ مصر الإسلامية، بلا ريب، وقع عميق في جرح الشعور القومي؛ وكانت الدولة الفاطمية تجذب إليها الأنظار بقوتها وغناها؛ وكان سواد الشعب المفكر يؤثر الانضواء تحت لواء دولة قوية فتية، تستظل بلواء الإمامة الإسلامية

كالدولة الفاطمية، على الاستمرار في معاناة هذه الفوضى السياسية والاجتماعية؛ وهكذا ألفى الفاطميون حين مقدمهم إلى مصر، جواً ممهداً يبشر بتحقيق الفتح المنشود على خير الوجوه

ولما ذاعت الأنباء بوصول العساكر الفاطمية إلى الأراضي المصرية، اشتد الاضطراب في مصر، وكثر الخلاف في الرأي، فرأى جماعة من الزعماء والجند من أنصار بني الأخشيد وكافور أن يحاولوا رد الغزاة بقوة السيف، وأخذوا يتأهبون للقتال؛ ولكن معظم الزعماء المصريين آثروا مهادنة الفاتحين والتفاهم معهم، وقر رأيهم على أن يتقدموا إلى جوهر بطلب الأمان والصلح، واتفقوا مع الوزير جعفر بن الفرات على أن يتولى تلك المهمة؛ وسألوا أبا جعفر مسلم بن عبد الله الحسيني أن يكون سفيرهم فأجابهم إلى ذلك؛ وسار على رأس جماعة من وجوه مصر إلى لقاء جوهر، فلقيه على مقربة من الإسكندرية، في قرية تعرف بأتروجه؛ (أواخر رجب سنة 358) فاغتبط جوهر بمقدمهم وأجابهم إلى ما طلبوا؛ وكتب لهم أماناً يعتبر وثيقة هامة في الكشف عن غايات السياسة الفاطمية وأصولها المذهبية؛ وفيه ينوه بمزايا الحماية الفاطمية على مصر (بعد أن تخطفتها الأيدي واستطال عليها المستذل؛ الممعنة نفسه بالاقتدار عليها، وأسر من فيها، والاحتواء على نعمها وأموالها، حسبما فعله في غيرها من بلدان المشرق) وأن أمير المؤمنين بادر بتسيير الجيوش المظفرة لمجاهدته وحماية المسلمين ببلدان المشرق مما شملهم من الذل واكتنفهم من المصائب والرزايا، ثم يشير جوهر إلى ما تطرق إلى شؤون الحكم من فساد وإلى ما يعانيه الشعب من مظالم ومتاعب، وإلى ما يزمعه أمير المؤمنين من إقامة العدل وتأييد الشريعة وإصلاح المرافق والشؤون، ويختتم ببيان بعض الأحكام الشرعية الفاطمية وتوكيد الطاعة لأمير المؤمنين

وفي هذا الأمان الذي أصدره جوهر لأهل مصر إشارة ظاهرة إلى خطر القرامطة الذين كانوا قد اجتاحوا الشام يومئذ، وأخذوا يهددون مصر؛ وقد كان الخطر حقيقياً لا ريب فيه، ولو لم يبادر الفاطميون إلى احتلال مصر، لسقطت قبل بعيد فريسة هينة في يد أولئك الغزاة السفاكين؛ بل لم يمض على وجود الفاطميين بمصر زهاء عامين حتى اضطروا إلى لقاء القرامطة في أرض مصر ذاتها ولم يردوهم عنها إلا بعد جهد جهيد

على أن جوهراً اضطر مع ذلك إلى خوض بعض المعارك قبل أن يفتتح مصر. ذلك أن فلول الأخشيدية والكافورية ومن والاهم من الجند لم يقبلوا الأمان وآثروا أن يقوموا بمحاولة أخيرة للدفاع عن سلطانهم الذاهب؛ فاختاروا لهم أميراً، واحتشدوا لقتال جوهر بالجيزة؛ ولما وصل الجيش الفاطمي إلى الجيزة ألفى القوى الخصيمة تتهيأ لرده عن عبور النيل، فدفع جوهر بعض قواته فاجتازت النيل خوضاً، ونشب القتال بين الفريقين، فانهزم الأخشيدية بعد أن قتل منهم عدد كبير، ولاذوا بالفرار وتم الفتح الفاطمي لمصر (منتصف شعبان سنة 358)

واستجاب جوهر إلى رغبة المصريين كرة أخرى، فجدد لهم الأمان؛ وذهب الوزير ابن الفرات، والشريف أبو جعفر إلى لقائه على رأس العلماء والكبراء؛ وسار جوهر في ركبه المظفر إلى عاصمة مصر في عصر يوم الثلاثاء 17 شعبان سنة 358هـ (7 يوليه سنة 960م) (وعليه ثوب ديباج مثقل، وتحته فرس أصفر)؛ وشق مدينة مصر

(الفسطاط) ونزل في المكان الذي غدا فيما بعد مدينة القاهرة، واختط العاصمة الجديدة في نفس الليلة إيذاناً بقيام الدولة الجديدة، وبعث البشرى إلى مولاه المعز بالفتح العظيم، فوصلته في منتصف رمضان، وأنشد ابن هانئ بهذه المناسبة قصيدة مطلعها:

يقول بنو العباس قد فتحت مصر ... فقل لبني العباس قد قضي الأمر
وقد جاوز الإسكندرية جوهر ... تصاحبه البشرى ويقدمه النصر

- 4 -

وقامت القاهرة عاصمة الدولة الجديدة بسرعة، وأعدت بقصورها ومسجدها (الجامع الأزهر) لتكون منزلاً ملوكياً لبني عبيد وعاصمة للخلافة الفاطمية، وبدأ الحكم الفاطمي بمصر على يد مبعوث الخليفة الفاطمي وقائده جوهر؛ وكان خطر القرامطة الذي أشار إليه جوهر في رسالته لأهل مصر يشتد ويتفاقم، ويهدد مصر بالويل والدمار، وملك الفاطميين بالفناء العاجل. وقد زحف القرامطة على مصر بالفعل في أوائل سنة 361هـ بقيادة زعيمهم الحسن الأعصم، ونشبت بينهم وبين الجيوش الفاطمية بقيادة جوهر، معارك هائلة في ظاهر الخندق (على مقربة من القاهرة) انتهت بهزيمتهم وارتدادهم نحو الشام. ولما رأى المعز أن ملكه الجديد قد توطد بمصر، سار من أفريقية إلى مصر بأهله وأمواله في

ركب هائل تفيض الرواية المعاصرة في وصف ضخامته وروعته، فوصل إلى الإسكندرية من طريق برقة، في 24 شعبان سنة 362؛ وهرع وفد من أكابر المصريين للقائه وتحيته عند المنارة، فقال لهم (إنه لم يسر إلى مصر لازدياد في الملك أو المال، وإنما سار رغبة في الجهاد ونصرة المسلمين وإقامة الحق والسنة). ودخل المعز القاهرة، عاصمته الجديدة في أوائل رمضان، ولما وصل إلى قصره خر ساجداً في مجلسه شكراً لله، ثم صلى ركعتين، وصلى بصلاته كل من دخل؛ وسطعت في الحال آيات من عظمة الملك الجديد

وبذا استقرت الخلافة الفاطمية في مصر، وبدأت زعامتها الدينية في المشرق؛ وكانت الإمامة الدينية أخص الصفات التي تبدو بها الخلافة الجديدة، وكان المعز لدين اله يحرص جد الحرص على صفة الإمامة ورسومها؛ بيد أن الفاطميين قدموا إلى مصر يحيط بنسبتهم وإمامتهم نفس الريب الذي أحاط بهما منذ قيام دولتهم في المغرب؛ وقد أثيرت هذه المسألة عند مقدم المعز إذ اجتمع به جماعة من الأشراف العلويين الذين ينتسبون إلى علي وفاطمة، فسأله الشريف عبد الله بن طباطبا عن نسبه، فأجابه المعز أنه سيعقد مجلساً ويتلو عليهم نسبه. ثم عقد المعز مجلسه بالقصر ودعا إليه الكبراء، وسل نصف سيفه من غمده وقال لهم هذا نسبي؛ ونثر عليهم ذهباً كثيراً، وقال هذا حسبي؛ فقالوا جميعاً سمعنا وأطعنا!، وفي ذلك ما يدل على اعتداد الدولة الجديدة بقوتها وجاهها، قبل اعتمادها على إمامتها وهيبة انتسابها لآل البيت، وإن كانت قد اتخذت الإمامة شعارها لدى الكافة منذ الساعة الأولى، وأقامت ملكها السياسي على أسس دعوتها الدينية

وكان عهد المعز بمصر عهد توطيد ودفاع عن الملك الفتي. وكان خطر القرامطة لا يزال جاثماً في الأفق ينذر دولة الفاطميين الجديدة بالمحو والفناء. ولم يمض بعيد حتى غزا القرامطة دمشق وانتزعوها من يد حاكمها الفاطمي. ثم زحفوا على مصر بقيادة الحسن الأعصم كرة أخرى، فلقيتهم جيوش المعز على مقربة من بلبيس في أواخر سنة 363هـ وأوقعت بهم هزيمة فادحة. بيد أنها لم تكن خاتمة النضال؛ فقد لبث المعز حتى وفاته في معارك مستمرة في الشأم مع القرامطة والروم؛ بيد أنه أتيح له قبيل وفاته أن يشهد ظفره؛ ولم يغادر هذه الحياة، (في ربيع الثاني سنة 365) حتى كانت الخلافة الفاطمية تبسط سلطانها وإمامتها على المغرب ومصر والشأم والحرمين

(تم البحث)

(النقل ممنوع)

محمد عبد الله عنان

فريزر ودراسة الخرافة - 3

الزواج

للدكتور إبراهيم بيومي مدكور

قد لا تكون الخرافة استولت على أية ظاهرة اجتماعية استيلاءها على الزواج وشؤونه؛ فرفعت قدره، ودعت الناس أليه، وحددت قيوده، ونظمت ما يحيط به من طقوس ورسوم؛ فلا يكاد المرء يفكر في أن يتزوج حتى تتسرب الخرافة مسرعة إلى تفكيره هذا، محاولة أن تعين له الزوجة التي تليق به، وباحثة عما إذا كان نجمها يتفق مع نجمه، وطالعها يتلاءم مع طالعه. وكثيراً ما أحيطت حفلات العقد والزفاف برقي وتعاويذ أملتها الخرافة وأحكمت وضعها. وبين ظهرانينا من هذه الخرافات الشيء الكثير؛ (فالتبييته)، وحساب الطالع، وقراءة الكف، (وضرب الرمل)، ترمي غالباً إلى اختيار الزوجة الصالحة والشريكة الملائمة في الحياة الأسرية؛ وإذا ما قر رأي الشاب والشابة على الزواج أسبغت عليهما الأحراز والتمائم التي تقيمها الساحر وضره والحاسد وشره. فتارة يكتب لهما بالألفة والمودة، وأخرى يحصنان مما يوقع بينهما الشحناء والبغضة. ولم تتعفف الخرافة عن التدخل في العلاقات الجنسية بين المرء وزوجه فتثيرها وتنشطها، أو تقف في طريقها وتقضي عليها. وكلنا يعرف خرافة (الحل والربط) السائدة في قرانا، والتي كانت ولا تزال مصدر رزق لجماعة السحرة والدجالين، وباب شر دائم وألم مستمر للزوجين ومن يتصل بهما من أهل وأصدقاء. طغت الخرافة كذلك على الأسرة المكونة فسولت لبعض الناس أنها قادرة على أن ترد العاقر ولوداً، وتسلب أم الأولاد نسلها وتقضي عليها بالحرمان والعقم لم يعن فريزر في كتابه (محامي الشيطان) بدراسة هذه الخرافات المتعددة؛ وإنما تفرغ لإيضاح نقطة واحدة هي موضوع كلمة اليوم. وتتلخص في أن الخرافة غرست في القلوب حب الحياة الزوجية وتقديسها، وحملت الناس على احترام القواعد الخلقية والقوانين الجمعية الخاصة بالعلاقات الجنسية بين العزب والمتزوجين. ذلك أنها أثارت على الزنا والفسق حرباً شعواء وصورتهما في أقبح صورة ممكنة، فأبعدت الناس عنهما بقدر ما قربتهم من الحياة الأسرية المنظمة. فالزنا واللواط وكل اختلاط جنسي غير مشروع كانت ولا تزال لدى كثير من القبائل الهمجية من أفحش الخطايا الخلقية التي لا يقع إثمها على مرتكبيها وذويهم فحسب، بل يتعداهم إلى الطبيعة فيقلب نظامها، وإلى الآلهة فيثير سخطها وغضبها. وربما أدت فعلة من هذه الفعال السيئة إلى هلاك الحرث والنسل، وموت الزرع، ويبس الضرع، وسقوط المطر، والرعد والبرق، ونزول الصواعق التي لا تبقي ولا تذر. ذلك أضحى الزنا وتوابعه جريمة شعبية تهدد المجتمع بأسره وتعدو عليه في أهم عناصر حياته من غذاء وماء وأمن وعافية

يزعم سكان برمانيا من أعمال الهند الصينية أن الزنا ذو أثر سيئ على الحاصلات المختلفة. فإذا ساء المحصول في قرية من القرى أو انقطع عنها المطر عاماً أو عامين متتاليين اعتقد الناس أن ذلك راجع إلى ارتكاب الفحشاء التي أغضبت الآلهة. وإذا وقف البرمانيون على حادثة من حوادث الزنا ألزموا الجناة بشراء خنزير صغير يكون في سكب دمه ما يغسل خطيئتهم الشنعاء؛ وقد جرت عادة المتقرب أن يبتهل إلى الله حين يقدم قربانه قائلاً: (إله الأرض والسماء والجبال والهضاب، قد أجدبت الأرض من أجلي، فلا تنزل عليَّ جام غضبك ونذير سخطك، وارأف بي وارحمني. هأنذا أصلح الجبال وأسوي الهضاب وأحفر الأرض وأشق الأنهار، فاللهم رد إلينا الحصَل المفقود، ولا تضيع علينا أي مجهود، وأخصب أرضنا، ونم زرعنا)

ويعتقد كذلك كثير من برابرة أفريقية الغربية أن الآلهة تعاقب بالجوع والخوف والقحط والجدب كل جماعة انتهك فيها عرض إذا اعتدي على محرم. ويروى أنه سنة 1898م انقطع المطر عن هذه الجهات زمناً طويلاً، فجفت الذرة، واحترقت أوراق البطاطس والنباتات الأخرى. فهرع الأهلون إلى قسسهم يرجونهم أن يستكشفوا سر هذا السخط العظيم. وبعد تضرع طويل وابتهال خالص تبين هؤلاء القسس أن آلهة السماء غاضبة على سكان الأرض لسوء سلوكهم. فجمع كل رئيس أتباعه، وأرسل فيهم العيون والأرصاد للبحث عن أصل هذه الجناية الكبرى. وقد أدى البحث الدقيق إلى إثبات أن ثلاث فتيات أبحن أعراضهن وأكلن بأثدائهن؛ وما إن همت القبائل بمعاقبتهن حتى نزل المطر مدراراً! ويزعم كثير من متوحشي سومطرة أن الزنا مجلبة للطاعون والأمراض المهلكة واعتداء الحيوانات المفترسة أمثال النمر والتمساح. وعلى الجملة فمعظم

القبائل الهمجية الباقية إلى اليوم يعتقد أن كل اعتداء على العرض أو مخالفة لقوانين الزواج مصدر عقوبات سماوية
كثيرة أخصها انقطاع المطر وجفاف الأرض ونقص الزرع
وليست هذه المعتقدات بمقصورة على القبائل المتوحشة، بل إن لها أثراً لدى بعض الشعوب المتمدينة. فالإغريق مثلاً يؤمنون ببعضها ويفسحون للخرافة المجال في العاقات الجنسية كما أفسحوا لها في شؤونهم الاجتماعية الأخرى. يروي سوفوكل أن بلاد تيبان أصيبت بالجدب والطاعون تحت حكم أوديب الملك الذي قتل عفواً أباه وتزوج أمه. فأصبحت القرى والحقول قفراء، وأضحى كثير من المدن خراباً يباباً. وأعلن وحي (دلف) أن لا سبيل لرفع هذه الطامة ورد الحياة إلى هذه الأرض الموات إلا بطرد المجرم. وفي شرائع بني إسرائيل ما يؤذن بأن ارتكاب الفحشاء يغير نظام الطبيعة، ويبدل سنة الله في خلقه. يقول أيوب: (الزنا جريمة شنعاء، وخطيئة تستوجب قصاصاً لا مفر منه وناراً تأكل الشحم واللحم وتقضي على الحاصلات كلها). وفي القرن الثالث الميلادي لم تؤت الحقول الأرلندية أكلها، فيما يزعمون، لأن أحد الملوك تزوج بأخته. وما لنا نذهب بعيداً وكثير منا يعتقد أن مرور الزاني بحقل أو وقوفه في بيدر يؤذي ثمره وينقص غلته ويذهب ببركته
أما أخطار الزنا المباشرة وأثره السيئ في مرتكبيه أنفسهم، فيكاد يسلم بها في مختلف الجمعيات الإنسانية. وكثيراً ما علل فقر الرجل وفشله في صناعته أو زراعته بفجوره وفسقه. وإذا أصاب المرء أمر أو حل به حادث، ظن الناس أن في هذا انتقاماً منه لجرم اقترفه أو عرض انتهكه. والأمثلة في هذا الباب كثيرة سواء لدى القبائل الهمجية أم في الأمم المتمدينة؛ وسنكتفي بعرض بعضها. فبدو روديسيا يلعنون كل امرأة تموت أثناء وضعها، ويتهمونها بالفجور والفسق وقتل روح بريئة لا إثم لها. وتزعم طائفة من سكان أفريقية الشرقية أن الطفل الذي يعدو على زوج أبيه يصاب بعاهة دائمة. وتقول طائفة أخرى إن المرأة تموت إن أتى زوجها الفاحشة أثناء حملها؛ وإذا لمس أب ابنه الصغير صبيحة ارتكابه المنكر مرض ولده على الأثر. وحدث مرة أن مات ثلاثة أخوة في فترة قصيرة، فاتهمت أمهم بالزنا مع رحم محرم. ويعتقد كثير من القبائل الهمجية أن خيانة الزوجة سبب محقق لفشل الزوج في صيده ورحلاته وحروبه؛ وربما أدى ذلك إلى موته. لهذا اعتاد كثير من الهنود، إن خرجوا إلى الحرب، أن يجمعوا نساءهم في صعيد واحد كي ترقب إحداهن الأخرى
فواضح إذن أن الزنا وما اتصل به، في نظر كثير من الشعوب البائدة والحاضرة، خطر يهدد الفرد والأسرة والجماعة؛ فليس شره مقصوراً على مرتكبيه وحدهم، بل يتعداهم إلى القبيلة جميعها والشعب بأسره؛ هو جناية عامة وجريمة شعبية تصيب الأمة في أموالها وأرواحها. لذلك قسا الناس في محاربته وأنزلوا بالزناة أشد العذاب. وإذا صح أن نقيس الجريمة بما قدر لها من قصاص، استطعنا أن نقول إن الزنا من أشنع الجرائم التي عرفها الإنسان، إن لم يكن أشنعها. وهذه القسوة الزائدة في مطاردة الزنا والزناة سهلة التعليل؛ فإن المسألة مسألة حياة وموت، مسألة دفاع عن مجتمع مهدد في أعز شيء لديه، فهو مدفوع بطبيعته إلى أن يحارب من يحاول الاعتداء عليه ومن هنا كانت العقوبات الصارمة التي أنزلتها الأمم والشرائع المختلفة بكل من استباح عرضاً أو جنى على عفاف امرأة. فقوانين (ماني) تقضي بأن ترسل على الزانية كلاب تنهشها جهرة تحت سمع الجمهور وبصره، وعلى الزاني بأن يوضع فوق حديدة محماة يقلى بها قلياً. وتعاقب قوانين حامورابي الزناة بالشنق والإغراق؛ وقد كان بنو إسرائيل يحكمون على الزاني غير المحصن بالرجم، وعلى المحصن بالقتل. ولا تزال بعض القبائل الهمجية تطبق هذه العقوبات على الزناة في غير ما شفقة. ففي أفريقية الوسطى يجلد الزاني وتهاجم حقوله ومنازله ويسلب ماله. وإذا تبين أحد الأحباش أن أخته أو ابنته ارتكبت الفاحشة قتلها جهرة وقتل عشيقها معها. ولدى الهوثيثوت قانون مشهور يحكم على الزناة بالقتل ضرباً بعصا غليظة. وقد اعتاد سكان الهند الشرقية أن يرموا الزناة في عرض النهر بعد أن يثقلوهم بالحجارة، فإذا استطاع أحدهم النجاة عفي عنه، وفي سومطرة يوأد الزاني ويقبر حياً
وهناك نوع خاص من الفحشاء اشتد هوله فقست الجمعية في محاربته، وهو ما كان بين أفراد الأسرة القريبين كالرجل وزوجة ابنه، والمرأة وأب زوجها. ولكي يُدرأ خطر

هذا المنكر وضعت في سبيله عقبات تحول دون وقوعه؛ وهذا هو السر في أن القبائل الهمجية تباعد بين الأقارب الأقربين، في حين أنها لا تجد غضاضة في أن يختلط الأجانب بعضهم ببعض، فجماعة البنتو في أفريقية الوسطى لا يسمحون مطلقاً للرجل بأن يتناول طعام العشاء مع حماته، ولا للمرأة بأن تتعشى مع حميها منفردين، ومن الجرم أن يرى رجل
حماته تأكل؛ وعليه أن يكفر عن هذا بمختلف القرابين، وليس له أن ينعم النظر فيها، وإذا خاطبها وجب عليه أن يطأطئ رأسه ويغض من طرفه، وإن صادفها على غرة أفسح لها الطريق، وسارع إلى الغابة مختفياً كي لا تراه ولا يراها تماماً. وأغرب من هذا أن أهل سومطرة لا يبيحون للرجل أن يأكل مع صهره عاري الوجه؛ وإذا رأى صهره فمه مفتوحاً أحس بخجل عظيم، وتوارى في الغابات المجاورة، فهذه العادات والتقاليد الغريبة يفسرها شيء واحد، وهو أن هذه القبائل تحول دون أي اختلاط يكون وراءه معصية الأقارب الأقربين
نرى بعد الذي تقدم أن الخرافة صورت الزنا والفسق بصورة شنعاء لدى كثير من الشعوب قديمها وحديثها، وأبرزتهما في مظهر عاملين خطرين من عوامل القضاء على الفرد والأسرة والجماعة، وبذا استطاعت إلى حد كبير محاربتها والقضاء عليهما. وإذا كانت الجمعية تنظر بعين السخط والمقت إلى كل اختلاط جنسي غير مشروع، فإنها تدفع الأفراد تبعاً إلى احترام الزواج والخضوع لقيوده. وكل رأي أو عقيدة أو تشريع يحارب الإباحية هو في الوقت نفسه سلاح قوي لتثبيت دعائم الحياة الأسرية.
(لها بقية)
إبراهيم بيومي مدكور
دكتور في الآداب والفلسفة
البدر الحسني
محدث ولغوي أيضاً
للأستاذ عبد القادر المغربي
عضو مجمع اللغة العربية الملكي
وهي الكلمة التي ألقاها الأستاذ المغربي رئيس المجمع العلمي في الحفلة الكبرى التي أقيمت على ذكر المحدث الأكبر الشيخ بدر الدين الحسني والد فخامة الشيخ تاج الدين رئيس الوزارة السورية، وذلك في يوم الثلاثاء 13 من أغسطس سنة 1935، وقد أقيمت الحفلة في مدرج الجامعة السورية
شيخُنا البدر، أشبه ما يكون بالبحر: فهو من أيّ النواحي أتيته وجدت علماً وفضلاً، ووجدتَ ورعاً وتقوى، ووجدت من جميل خصاله ومستحبّ أخباره مجالاً للقول، وموضعاً للعظة، وموضوعات للبحث
لكنني لضيق الموقت سأقتصرُ من ترجمة حياته على وصف طريقتنا في الدروس التي أخذناها عنه، تعرفون منها أنه كان رحمه الله نسخة طبق الأصل عن رجال سلفنا الصالح في وَرَعهم وتقواهم ووقوفهم عند حدود الشريعة
في شهر ذي الحجة سنة ألف وثلثمائة وأربع وثلاثين بدأت بقراءة صحيح مسلم على شيخنا رحمه الله في دار الحديث الأشرفية، وشاركني في هذه الدراسة قليلٌ من الإخوان، حتى إذا أتممت صحيح مسلم وشرعت في سنن الترمذي ازدحم علماء دمشق وفضلاؤها على غرفة الدرس؛ وكنت عدا ضبط الأحاديث والتعليق عليها، ألتقط من فم شيخنا بالمناسبة فوائد تتعلق بعلم الحديث، من ذلك قوله:
- كلُّ حديث فيه لفظ (الحميراء) مثل حديث (خذوا ثلثي دينكم عن هذه الحميراء) يعنون عائشة رضي الله عنها - فهو دليلٌ على ضعفه
- حديث (توسّلوا بجاهي الخ): قال شيخنا اشتهر على الألسنة وهو غيرُ صحيح
- حديث: إن جبريل كان يدسُّ الطين في فم فرعون كي لا ينطق بالشهادتين استبعدته أنا، وأقرني الشيخ قائلاً: (الله أعلم بصحة هذا الحديث)
- وسمعته مرة يروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ألهُو والعبوا فإني أكره أن أرى في دينكم غلظة) وبديهيٌّ أن المراد باللهو واللعب المباحان شرعاً
وبمناسبة حديث الأَمَةِ التي سألها النبي صلى الله عليه وسلم: أين ربك يا جارية؟ فأشارت إلى السماء - قال الشيخ: (مرّ عيسى عليه السلام برجلٍ يصلي وصنعته عمل

البراذع وهو يقول في سجوده: (دُلَّني يا ربّ على حمارك لأصنع له برذعه من ذهب) فاعترضه عيسى. فأوحى الله إليه: (دعهُ فإنه مَجّدَني بحسب عقله)

وكنا أحياناً نلمح في الحديث بصيصاً من معنى يتعلق بأحوالنا الاجتماعية، فنريد شيخنا على التوسع في شرح الحديث، فيأبى تورعاً وخشية أن نقعَ في باطل من القول:

جاء في حديث عائشة أن جبريل أراه صلى الله عليه وسلم صورتها في قطعة من جيّد الحرير. فتساءلنا في الدرس عما إذا كان هذا الحديث يدلُّ على جواز التصوير؟ أو على جواز أن يرى الرجلُ من يَوَدُّ خِطبتها من النساء: فيكون التصوير حاجةً من حاجات الاجتماع

فقال أحد الإخوان: ما دام للرجل الحقُّ أن يرى خطيبته نفسها فليس ثم حاجةٌ إلى رؤية صورتها. فرد عليه آخر بأنه قد يتفق أن يكون هو في بلد وهي في بلد آخر فيحملَ إليه البريدُ صورتها، كما حمل جبريلُ صورةَ السيدة عائشة

كان يجري هذا الحوارُ في الدرس وشيخنا ساكت وأردناه على أن يفيدنا ما عنده في هذا الموضوع فلم يفعل، وظل ساكتاً. واستدرجتُه مرةً إلى موضوع عصريّ طريف فأفتى به أو كاد. ثم عاد إلى الاعتصام بالسكوت:

ذلك أنه مرَّ معنا في حديث مسلم قوله: (لِمَ؟ أُصلي فأتيمم)، فقرأتها (لمْ أصلي فأتيمم) واستشكلت رفع (أصلي)، فقال الشيخ (لمَ) للاستفهام لا للجزم، وأصلي مستأنف مرفوع

فاغتنمت هذه الفرصة وقلت له: إنهم اليوم اصطلحوا على علامات يرقمونها بين الجمل، ويسمونها علامات التنقيط: وهي نقطة، ونقطتان، وواو صغيرة كالضمة، وخط صغير أفقي، وخط آخر عمودي، وغير ذلك مما يستعملونه في مقامات التعجب والاستفهام والوقف

فقولُ الحديث (لمَ أُصلّي فأتيمم)؛ لو وُضعتْ علامة الاستفهام بعد (لمَ) لقُرئت استفهاماً من أول الأمر

فهل يجوز لنا استعمالُ هذه العلامات المستحدثة في كتاباتنا كما استعمل السلف الصالح ما أحدثوه من النقط والتشكيل؟

قال الشيخ: يجوز، قلتُ ونستعملها في كتب الحديث؟ قال يجوز، قلت وفي القرآن. قال يجوز

ثم سألني قائلاً: ولكن لماذا لم تُرْقم هذه العلامات في كتابِ مسلمٍ المطبوع الذي نقرؤه؟ قلتُ لأنه كتابٌ دينيٌ. وطابعوه يخشون إنكار بعض العلماءِ عليهم فلا يباع الكتاب، فلم يضعوا هذه العلامات، واجتهدتُ أن لا أسميها له بأسمائها الإفرنجية مثل فلحظ الشيخُ أن في الأمر سراً، فتبسم وضرب على كتفي وقال: (الله يصلحك) ولم يُردْ أن يُفتي بشيءٍ جديدٍ قد يمكن أن تكون فيه شائبة بدعة

إلى هذا الحد كان شيخُنا رضي الله عنه يحرص على سلامة الدين ويحذَر أن يَتسرَّب إليه شيءٌ من البدع

ومن ذلك أيضاً أنه مرَّ معنا في الحديث نهيُ النبي صلى الله عليه وسلم عن تشييدِ المساجد، وفسر ابنُ عباسٍ التشييد بالزخرفة، فقال بعض الإخوان: المراد بالتشييد رفع بناء المساجد. فقلتُ بلَ الصحيحُ ما قاله ابنُ عباس من أن التشييد هو الزخرفة وهو مشتقٌّ من (الشيد) الذي معناه الجصّ، والجصّ عادة تزخرف به الأبنية. أما رفع بناءِ المساجد فأمرٌ مستحبٌ في عمارتها، وذلك لكي يتخلّلها الهواء ويَسْهُل التنفّسُ على المصلين، فالتفتَ إليَّ الشيخُ وقال مبتسماً: وما دخل الهواءِ والتنفس في الدين والتشريع؟ وعجبَ من قولي أشدَّ العجب

أما أن الشيخَ كان متوسعاً في اللغة العربية؛ فهذا يلحظُه منه كلُّ من أطالَ مجالسته، وراجعه القولُ في تفسيرِ غريبِ الحديث؛ ولكنه رحمه الله ما كان يُكثر من الاستشهاد بنصوص الأدباء، ولا بأقوالِ الشعراء، لما يقعُ فيها أحياناً من اللغوِ وعَبَثِ القول

وقد سمعتهُ مرةً يُنشد بنغمة حزينةٍ:

(أيا نجدُ لو كان النوى منك مرةً ... صَبَرنا ولكنَّ النوى منكَ دائم)

وأنشدني مرةً أُخرى:

صديقُ الصدقِ في الدنيا قليل ... فمنْ لكَ إنْ ظَفِرتَ به فمن لك

لحاجتهِ يَوَدُّكَ كلُ شخصٍ ... وذاكَ إذا قضاها منك ملك

صديقُكَ مَنْ إذا ما كنت منه ... طلبتَ الروحَ بالتمليكِ ملّك
وجاء يوماً ذكرُ طرابلس الشام وليمونها فسألني: ما معنى قولهم في المثلَ (مَنْ لم يجئ بشراب الليمون يجئ بشوكِهِ وحَطَبه) فتجاهلتُ الجواب لأسمع من فمه ولو مرةً تفسيرَ النصوص الأدبية - كما سمعتُ منه مراراً تفسير النصُوص الدينية
ففسره لي قائلاً:
المرادُ بشوكه وحَطَبه قُضبانُه وعيدانه. والمعنى من لم يجئ باللين واللطفْ، يجئ بالشدّة والعُنف
وأنشدني يوماً قولَ الراجز:
(التمرُ والسَمْنُ جميعاً والأقِط ... الحيْسُ إلاَّ أنه لم يختلط)
فاعترضتُ بأن الحيسَ هو حلوى للعرب تكون مختلطةً من التمر والسمن والأقِط الذي هو ضربٌ من الجبن فكيفَ يقولُ الشاعر (لم يختلطْ). ثم قلتُ للشيخ لعلَّ صحةَ الروايةِ في البيت هكذا: (لكنْ شرطهُ أن يختلط). ثم راجعت كُتُبَ اللغة فوجدتُ رواية البيت كما قال شيخنا رحمه الله ورأيتُ علماءَ اللغة استشكلوا البيتَ كما استشكلته أنا. وأجاب بعضهم على هذا الإشكال بجوابٍ لم يعجبني
ومن عادة شيخنا رحمه الله أنه إذا طَلَبَ منه أحدٌ إجازةً بالعلوم تمنَّعَ وتَمثَّل بقول القائل
(ولستُ بأهلٍ أن أُجازَ فكيفَ أنْ ... أُجيزَ ولكنَّ الحقائق قدْ تخفى)
وأنقُلُ من مذكّراتِ شاعرنا (خليل بك مردم) - وكان رفيقي في درس صحيح مسلم - هذا الخبرَ الذي يتعلَّقُ بي، وقد أنسيته أنا وهو: أنني قرأتُ يوماً على الشيخ عدةَ أحاديثَ يدلُّ ظاهرها على عَدَم إيمان أبي طالب. فأطبقتُ الكتابَ بين يَدَيَّ وسألت شيخنا عن حقيقة ذلك وأبيت إلا كلمةً صريحةً منه يطمئنُّ إليها القلبُ في إيمان عمَ النبي صلى الله عليه وسلم. فامتعضَ الشيخُ من إلحاحي، وقالَ سبحانَ الله يا شيخ عبد القادر أنت كاتبٌ وأديب، أما سمعتَ ما قاله (أبو طالب) مخاطباً النبيَّ صلى الله عليه وسلم
ودعوتني وزعمتَ أنك ناصحٌ ... ولقد صدقتَ وكنتَ ثمَّ أميناً
فأنتَ تسمعُ أبا طالبٍ يقولُ لابن أخيه (ولَقَدْ صَدقت) ثم تستشكل؟
فسررت يعلم الله بجواب شيخنا كما سرني استظهاره للشعر القديم واستحضاره له حين
الحاجة إليه
ولا عجبَ أن يكونَ شيخُنا لغوياً، فإنه لا يكادُ يوجد محّدِث إلا وهو لُغَوي، ولا لُغَوي إلا وهو محدّث؛ لأن المحّدِث لا يمكنه أن يفهم معانيَ أحاديثِ الرسول إلا بعد فهم معنى كلماتها اللغوية، واللغويُّ لا ترسخُ قدمه في اللغة ما لم يستظهر الجمَّ الكثيرَ من أحاديث الرسول، تكون له عُدّةً في الاستشهاد بها حين الحاجة فاللغويُّ المتقنُ محّدِث، والمحدث المتقنُ لُغوي
وشيخنا الذي يحفظُ على أقل تقدير خمسة آلاف حديث يحفظ على أقل تقدير ألف كلمة لغوية بشواهدها من كلام النُّبوة
فأنتم ترون أن بين شيخنا البدر، وبين مجمعنا العلمي العربي نسبةً موصولة السببْ في خدمة لغة العرب
هو (رحمه الله) كان ينشر اللغة العربية بواسطة دروسه المشهورة، ونحن ننشرها بوسائطنا المجمعية المعروفة
أذكرُ أنه زارني يوماً في دار المجمع العلمي، فأجلستُه في صحن المدرسة، خشية أن يرى في ردهتها صُوَرَ المتوفين من أعضاء المجمع، معلّقةً على جدرانها، فيمتنعَ عن الدخول كما هي عادته
وبعد أن استقرَّ به المجلس سألني: وماذا تصنعون هنا؟
قلت: إننا يا مولانا نشتغلُ في خدمة اللغة العربية ونشرِها وفي ذلك خدمة للدين الإسلامي ونشرِه
وإذا أحد تلاميذه (اللطفاء) يَلمَسُ كتفه من ورائه، ويشير إلى التماثيل الحجرية المنصوبة في أحد أركان المدرسة، فقال لي الشيخ: وما هذه التماثيل؟ وأشار إليها بإصبعه

فشعرتُ إذ ذاك بخطورة الموقف، وبصعوبة الاعتذار عن وجودِ تماثيلَ في صحن مدرسةٍ دينية إسلامية؛ غير أن الله ألهمني جواباً تضَّمن حقيقة معقولة، لكنها ويا للأسف منسيةٌ مجهولة

فقلت: إن هذه التماثيل تجْمعُ في دوْر الآثار للاستدلال بها على تاريخ الجاهلية الأولى، ويدخل في ذلك عبادة تلك الأمم للتماثيل، وإرسال الرسل لإنقاذهم من تلك العبادة، كما كان

من نبينا صلى الله عليه وسلم مذ أنقذَ أهلَ الجاهلية من الشرك، وصَقَلَ نفوسهم بصقالِ التوحيد

ولكنَّنا اليوم نرى الناسَ قد أغفلوا دراسة هذه الناحية من تاريخ الأمم القديمة، ونسوا نعمةَ الله عليهم بالبعثة المحمدية، حتى إذا رأوا هذه التماثيل في المتاحف تذَّكروا النعمة، وحمدوا الله عليها

قلتُ هذا وسكتُّ منتظراً ماذا يقول الشيخ؟ فلم يقل إلا خيراً وتبسم ودعا لي وللمجمع المغربي

. . . .رَحِمَ الله شيخَنا البَدرْ، وأثابه عن حياتهِ الصالحة بأجزل الأجر

استعطاف

بقلم رفيق فاخوري

هواكَ عن هذا الوجودِ شاغلي ... والوجدُ منذ غبتَ عني واصلي
إبعثْ مَوَاتَ خاطري بزورةٍ ... واخطُ خُطا الظلال في الخمائل
واحملْ إلى قلبي الكليم باسماً ... وشافياً من عَطفك الممنَّع
ما سَرّني أنَّ النعيم قسمتي ... إنْ لم تكن في ناظري ومسمعي
لأَنتَ حسبي مِنْ ضياءٍ إن دجا ... يومي، وحسبي من هُدًى في حَيرتي
رُدَّ على عيني جَلاَءها ومُرْ ... يَسطعْ مُحَيّاك على دُجُنَّتي
وينحسِرْ عن مقلتي سهادُها ... يا طالما منعتَها رقادَها!
عِدْني أعشْ إلى غدٍ بنظرةٍ ... عابثةٍ كم أخْلَفتْ ميعادَها!
وبَسْمةٍ تُفحمني ولم تَقُلْ ... شيئاً، وإنما البيانُ في الصُوَرْ
إذا عَلَتْ ثغرَكَ فَدّاها الحشا ... بِدَمِهِ ثم مشى على الأثر
وهمسةٍ أرقَّ من نَفْحِ الصَّبا ... تسكُنُ في أُذْنَيَّ ما عاش الهوى
تألفُها جوارحي فكُلُّها ... أُذْنٌ، وينزاح عن الصدر الجوى
يا منيةَ الولهان صِلْ بعد النَوى ... أوْ لاَ فَخُذْ قلبي وخُذْ لسانيا
هذا شغلتَهُ بذِكْرٍ دائمٍ ... وذاكَ قد أسهرتَه الليالياحمص

رفيق فاخوري

طموح

للأستاذ محمود غنيم

خليليَّ هل للمجد حدٌّ فأنتهي ... إليه لقد طال العبورُ ولم أُرْس
مآربُ تتري، كلما نلتُ مأرباً ... تنازعُني عنه إلى غيره نفسي
فلا النفسُ إن أبْلُغْ تقفْ عند غايةٍ ... ولا هي إن أُخفِقْ تُرحْنيَ باليأس
كذلك أشقى ما حييتُ فإن أمت ... فيا ليت شعري ما ورائيَ في رمسي

محمود غنيم

وراثة العبقرية

نشرت مجلة (الشهر) الفرنسية بحثاً طريفاً في وراثة العبقرية استعرض فيه كاتبه (أحدث النظريات العلمية في هذا الموضوع. فآثرنا نقله إلى قراء الرسالة)

شغلت مسألة وراثة العبقرية طائفة كبيرة من العلماء والفلاسفة منهم جالتون وموبياس وريبو ولمبروزو وكرتشمر وغيرهم من الباحثين

وهذه المعضلة تبدو في أشكال مختلفة. تبدو أولاً كحالة خاصة من معضلة الوراثة على العموم. إذ ما هي الآثار التي يتركها الآباء والأمهات؟ وبأي الأشكال تظهر؟ وما هي الآثار النسبية في تكوين الشخصية للوراثة المجردة من جهة، وللبيئة والتربية من جهة أخرى؟ وهل أثر الوراثة دائم أو غير دائم؟ وهناك وجهة نظر أخرى تعتبر العبقرية والذكاء شذوذاً إذا قورنا بحالة الشخص العادي. وكثيراً ما يصحب هذه العبقرية وهذا

الذكاء فقدان في التوازن الجسماني، وغالباً في التوازن النفسي. كذلك قد تصحبهما حالة جنون
ولأننا نعلم أن عدداً من هذه الأمراض ينتقل بالوراثة، كان لنا أن نتسائل عن صدى هذا الاتجاه المزدوج: وراثة العبقرية، ووراثة الاضطراب العصبي أو المرض
إن مما لا شك فيه أن (في بعض الحالات) تكون العبقرية أحياناً وراثية. وقد ظهر ذلك جلياً في كثير من رجال العلم والموسيقيين والمصورين والشعراء وكبار الكتاب
فبين العلماء استطاع جالتون أن يجد أسراً كان بها عالمان وأحيانا ثلاثة أو أربعة أو خمسة، وأحياناً أخرى أكثر من ذلك. ووجد موبياس 215 أسرة اتفق فيها أن كان الأب والابن وافري الاستعداد الرياضي، (بين هذا العدد ثلاثة وثلاثون والداً لكل منهم أكثر من ابن واحد موهوب). وقد وجد هذا الاستعداد في ثلاثة أجيال متتالية سبع عشرة مرة، وبين خال وابن أخته عشرين مرة: وبين أبناء العم مرتين، وبين أشقاء أو شقيقات 131 مرة، وبين أكثر من شقيقين ثلاثة وعشرين مرة. وكان العالم الفلكي الكبير (دومينيك فرانسوا آرجو) له ثلاثة أشقاء وولدان كلهم موهوبون في استعدادهم الرياضي. وكانت أسرة برنولي أعظم أسرة علمية عرفها التاريخ مما دفع الأستاذ دوبليه الفلكي بمرصد بوردو أن يخصص للكتابة عنها كتاب صدر عام 1929 وسماه هذا الكتاب ذكر الأستاذ دوبليه أن أسرة برنولي شغلت كرسي العلوم الرياضية في جامعة بال - مسقط رأسها - مائة عام وثلاثة دون انقطاع؛ وبقيت أكاديمية العلوم في باريس نحو أحد أفراد أسرة برنولي مدة واحد وتسعين عاماً متوالية
وكما نرى أثر الوراثة بين العلماء نراه أيضاً بين الشعراء. وقد وجد جالتون اثنين من العباقرة في الشعر بين أسر: بيرون وشنييه وجوته وهين وراسين. . . . وثلاثة أو أربعة في أسر: أسكيل وارستوفان وكورني وملتون. . . وخمسة أو ستة في أسرتي كولردج ووردثويرت. . .
ووجد جالتون اثنين من الكتاب والأدباء في كل أسرة من أسر بوسويه وشاتوبريان وشامبليون وادجاربون وملْ. . . الخ وثلاثة أو أربعة في أسر بنتام وبوالو وفينيلون ولِسِنْج وسفيني، وخمسة أو أكثر في أسر فيلينج وماكولي وشليجل وستايل وغيرها وبين الموسيقيين تجد أسرتي باخ وسترس هما الأسرتين اللتين ظهر فيهما أكبر عدد من الموسيقيين. ويبدأ تاريخ أسرة باخ عام 1550، واستمر يظهر منها الموسيقيون الموهوبين ثمانية أجيال متعاقبة؛ وكان من عادة هذه الأسرة أن يجتمع أعضاؤها المغرمين بالفنون مرة في كل عام؛ فكان يصل عدد المجتمعين أحياناً إلى مائة وعشرين فناناً؛ وقد ذكر فتيس أن هذه الأسرة حوت سبعة وخمسين موسيقياً منهم تسعة وعشرون كانوا في عداد النابغين
على أننا لا ينبغي أن نخرج من هذه الحقائق بأن العبقرية (دائماً) وراثية. إذ أن توارث العبقرية محدد ببضعة أجيال فقط، كما أنه ليست هنالك قاعدة عامة لتوارث العبقرية. بل بالأحرى هناك استثناء. ويمكن أن نقول أكثر من ذلك وهو أن العبقرية الحقيقة دائماً منعزلة، أو كما يقول لوردا (إن العباقرة هم أطفال لقطاء ورجال أعزاب) ويقصد بذلك أن الطبيعة تمحى حين يُخلق العبقري
ولو كانت العبقرية تنتقل بالوراثة دائماً لكان من الضروري أن توجد (أجناس) معينة من العباقرة. وهذا ما لا وجود له. (إن العبقرية حادث فجائي يكون أحياناً وراثياً) ,
وقد ذكر لومبروزو الملاحظة الآتية: (إذا وضعنا جانباً عدداً قليلاً من الحالات الاستثنائية كالتي نجدها في أُسَرْ داروِن وكاسّيني وبرنولي وسان هيلير وهيرشل، وجدنا أن العبقري لا ينقل إلى ذريته إلا اتجاهاً حقيقياً يُعظّمه في عيوننا الاسم المجيد!)
إن أبناء العباقرة هم في الغالب مخلوقات عادية بل أقل من العادية. ويقول ج. مورودوتوز: (إن الملاحظة العامة ترينا أن غالبية أبناء الرجال العباقرة ليسوا فقط أقل من آبائهم، بل هم كسائر الناس العاديين)، وقد أكد ألكسندر تاسوني أحد كتاب القرن السابع عشر أنه كثيراً ما يحدث أن ينجب آباءٌ عباقرة أبناءً عظيمي الغباوة، وآباءٌ شديدو الغباوة أبناءً علماء. واستشهد على النوع الأول بأبناء أفريكان الكبير وأنطوان وشيشرون ومارك أوريل وسقراط. ويعتقد أوسوالد الكيميائي الألماني الشهير أن أبناء الرجل العبقري لا

بد أن يكونوا أقل منه
وذكر تاسوني رأي أحد العلماء المعاصرين له وكان يفسر النقص في كثرة أبناء الرجال العباقرة بقوله: (في الرجال العظام تتجمع معظم القوى الحيوية في المخ كيما تقويه وتبعث الحياة والعنف في القوى الفكرية. ولهذا السبب يكون الدم والخلية باردين ضعيفين. والنتيجة أن يكون أبناء أولئك الرجال وخصوصاً الذكور أغبياء)
وهناك حقيقة أخرى هامة فيما يختص بوراثة العبقرية، وهي أن هناك ظواهر من الجنون والاضطراب العصبي تحول دون وراثة هذه العبقرية. ذلك أن العبقري تصحبه غالباً أنواع خاصة من الأمراض النفسية. وكثيراً ما يُلاحظ المرض العقلي عند سلف وخلف الرجل العبقري. ومن المعلوم أن الجنون ينتقل غالباً وبكثرة شديدة في الأجيال القريبة. وحالات الجنون الوراثي في ثلاثة أجيال متعاقبة عديدة جداً. وكان الجنون فيها في الغالب من نوع واحد. والآن، أليس هنا تشابه - وإن لم يكن كاملاً - بين وراثة العبقرية ووراثة الجنون؟
وقد ذكر مورو دوتور أن بين طبقات المجتمع التي تحوي أكبر عدد ممكن من الرجال الممتازين بذكائهم الشديد يوجد أيضاً أكبر عدد ممكن من المجانين. وقد لاحظ كل علماء النفس أن هناك عدداً من المجانين لهم أقارب يتميزون بذكاء تتفاوت درجاته. من ذلك أولبمبيا أم اسكندر الأكبر التي كانت امرأة فاسدة الخلق ظاهرة الوضاعة. وكان أب الاسكندر داعراً إلى أقصى حد. وكان الاسكندر نفسه مصاباً بحالة عصبية في كوعه. وكان شقيقه أريدوس - الذي قتل بأمر أولبمبيا - أبله معتوها
وكان ابن برناردين دوسانت بيير، وإحدى بنات فكتور هوجو، ووالد وأشقاء فيلمان، وشقيقة الفيلسوف كانت، وشقيقة هيجل، وغيرهم وغيرهم كانوا جميعاً مجانين. وكانت شقيقة ريشليو تتصور أن ظهرها من البلور، وكان شقيقه معتوهاً. وكان والد الموسيقى بيتهوفن مدمناً الخمر، وكان الشاعر بودلير نفسه نصف مجنون. وقد كتب يقول: (أن
والديّ اللذين كانا إما معتوهين أو مجنونين قد ماتا ضحيتي جنون فظيع) وكان والدا الشاعر الأمريكي الشهير ادجار بو شديدي الإدمان لتعاطي المشروبات الروحية وكانت تحدث لشاتوبريان حركات تشنجية في ذراعه، وكان دائم التفكير في الانتحار، وكان أخوه نصف مجنون؛ وكان والد بلزاك غريب الأطوار، وكذلك كان بلزاك نفسه. وكانت جورج صاند شديدة الانقباض والحسرة وهي في السابعة عشرة من عمرها، وقد حاولت الانتحار فيما بعد عدة مرات. وقد كان والدها يشبهها من هاتين الناحيتين. وكان كثير من أقارب هوفمان مجانين. أما هوفمان نفسه فقد أصابه الخَرَف لطول استسلامه للشراب، وكان يتصور أمام عينيه أشباحاً ويصيبه من جراء ذلك الرعب الشديد، فيطلب من أمه أن تجلس بجانبه. وكانت خالة هيرنر مجنونة وأخته شديدة الكآبة؛ وقد جن ابنها
وكان أثر الوراثة المرضية بارزا في لورد بيرون. إذ كان أبوه رجلاً فاسد الخلق وقحاً. وكانت أمه غريبة الأطوار متكبرة طائشة. كذلك كان شوبنهور وارثاً لما كان عليه من غرابة الميول واضطراب الأعصاب. فقد كانت خالة جدته وجدها مجنونين. وكان أبوه تنتابه نوبات قوية من الغضب المتزايد والهم الدفين الذي يكشف عن نفسه المريضة وكانت أسرة الفيلسوف رينان - الذي كان يعذبه اضطراب أعصابه - تسودها أنواع مختلفة من الجنون؛ وكان عمه مأفونا. وقد قضى حياته في التصعلك حتى وجد ذات ليلة ميتاً على قارعة الطريق. وكان جد رينان شديد الوطنية عظيم الإخلاص، ولكنه فقد عقله عام 1815م نتيجة همّ ألمّ به. وقد أصبحت بلدة تريجوبير التي ولد بها رينان ممتلئة بالمجانين وأنصاف المجانين نتيجة إكثار أهلها من زواج بعضهم ببعض فمما ذكرنا يظهر أن العبقرية ليست محدودة. وأنها لا تمتد إلا لأفراد مخصوصين. فلابد إذن من أن نعرف أن هناك شيئاً آخر غير الوراثة المجردة. إن العبقري يظهر في الأسرة في لحظة معينة ولا يمكن أن يظهر قبل ذلك. كذلك قد يتبعه وقد لا يتبعه عباقرة آخرون. والأب العبقري قد يكون له ابن عادي، وقد يكون هذا الابن غبياً. وإذا استمرت الأسرة في إنتاج عباقرة كثيرين فإن هذه الظاهرة تقف بعد بضعة أجيال كأن الطبيعة قد نالها الرهق والضنى. وأخيراً كثيراً ما يحدث أن يحل الجنون محل العبقرية ويكون ذلك راجعاً إلى نوع خاص من الوراثة متأثر بعوامل غير وراثية

وقد قال البعض: إن الوراثة والبيئة يتعاونان معاً بنشاط على إيجاد العبقري، إذ أن (الوراثة) لا تنتج في الرجل إلا (ما يمكن أن يكون) وليس ما سيكون، أما آثار الوسط وحدها فهي قادرة على تحويل الاحتمال إلى أمر واقع. على أن (الوسط) لا يكون تأثيره بعد الولادة فقط، بل إنه يؤثر في الشخصية المستقبلية قبل الولادة، وذلك بطرق مختلفة

ولقد عملت أبحاث في جلاسجو عن علاقة عدد المواليد بالذكاء فظهر أن عدد المواليد يزيد عند الرجال الأقل ذكاء، كذلك الأسر يتكاثر عددها كلما قلت الكفاءة العقلية عند أعضائها

إن العبقرية شذوذ وشرود عن الحالة العادية، وهي بلا شك اضطراب أكيد؛ هي حادث فجائي، وكذلك الجنون، وهذا الحادث الفجائي قد يرجع إلى حالة الوالدين قبل الحمل أو إلى اضطراب يصيب الجنين، فما يحدث للوالدين قد ينتج عند الطفل نوعاً من الشذوذ النافع، وقد ينتج تشويهاً في خلقته، أو يؤدي إلى التحام الجنينين ببعضهما إذا كانت الأم تحمل اثنين: وهذا الشذوذ قد ينتقل بدوره بالوراثة. على أن انتقاله يكون بدرجة محدودة ولبعض أجيال فقط، والاضطراب الذي يحدث في حالة عدم استمرار التحام الجنينين قد يكون أثره فيما بعد إما أن ينتج عبقرية وإما جنوناً، أو اضطراباً في الأعصاب؛ وقد تجتمع الحالتان معاً. وأخيراً قد تتبع كل منهما الأخرى، أي أن يجمع الشخص أحياناً صفات العبقري ومواهبه، وأحياناً أخرى اضطراباً في الأعصاب يجعله أشبه ما يكون بمجنون حقيقي

وهناك أنواع من الشذوذ تنتقل أحياناً بالوراثة، وأحياناً لا تنتقل، مثل الحوَل، وقصر النظر، وصغر أحد أعضاء الجسم أو كبره أكثر من الحد الطبيعي؛ وأحياناً يكون هناك اتجاه نحو مصادر الإنسان الأولى. وقد تكلم عن ذلك ريبو في كتابه عن (الوراثة) إذ ذكر أن أسرة كلبورن كان بها شذوذ الست أصابع (أي زيادة إصبع في اليد أو في القدم) وقد استمر هذا الشذوذ في الأسرة مدة أربعة أجيال

والآن، أليس هناك تشابه بين الشذوذ الجثماني والشذوذ العقلي الذي يسمى العبقرية والذي تكون فيه الوراثة أيضاً محدودة؟

ذكرت مدام ناجوت ولبو كفتش أن سيدة كانت تتبع عبثاً وسائل لإجهاض نفسها، فعندما وضعت الطفل في ميعاده المعتاد كان هذا الطفل قويّ البنية ولكنه كان أبله. وكانت والدة (كاردان) قد حاولت إجهاض نفسها أيضاً عدة مرات دون جدوى، وكانت النتيجة أن أصبح

الطفل الذي ولدته وهو (كاردان) عبقرياً فذاً؛ وقد تكون محاولة السيدتين كلتيهما إجهاض نفسيهما ليس هو السبب الحقيقي، ولكن هذا التشابه كاف لأن يرينا كيف تنتج حالات الشذوذ التي تسمى بالعبقرية. والتي هي وراثية ولكن إلى درجة محدودة

إذن ماذا عسى أن يكون قانون هذا الشذوذ؟ ذلك ما لا يعلمه أحد. ومنذ بضعة أعوام قال الأستاذ ج. هكسلي إنه قد يمكن في المستقبل أن يجعل كل طفل عبقرياً بتغيير بعض غدده، وقد يكون ذلك حلماً خيالياً. على أن مجموع الحقائق المعروفة تثبت أن في تكوين العبقرية قانوناً ينتج (شذوذاً) خاصاً. فمن يدري؟ قد يستطيع الإنسان في حالة فهم هذا القانون ودراسته أن يصنع العبقرية.

(. . .)

دراسات في الأدب الإنكليزي

وليم وردزورث - 4

بقلم جريس القسوس

تتمة

الحركة الإبتداعية

أما أبطال هذه الحركة فهم: الفيلسوف الشهير كانت في ألمانيا، والكردينال وسلي في بلاد الإنكليز، وروسو في فرنسا. ولا غرو في أن الأخير كان فارس هذه الحلبة وسيد زعمائها في مختلف البلدان. فقد نادى بالرجوع إلى الطبيعة، وبسيطرة العاطفة على أعمال الإنسان؛ ونظريته في التربية تتلخص فيما يلي: (ترك غريزة الإنسان وجسمه وقواه العقلية تنمو في مجراها الطبيعي، وذلك بنبذ قيود المدنية الحاضرة، والتقرب من الطبيعة)

وبعد مرور نحو ربع قرن على وفاة فيلسوف الثورة رجع شاعرنا صدى صوته في إقليم البحيرات، وأصبح حامل اللواء (الرومانتيكي) في بلاد الإنكليز. وتمتاز هذه الحركة بسمو مقام الرجل العادي، فقد أصبح موضوع الأدب بدل الرجل الأرستقراطي؛ وهذه الميزة تظهر بجلاء في قصص سرولتر سكوت، ودكنز، وفي معظم قصائد شعراء القرن التاسع عشر، وتشجع هذه الحركة حب الأطفال وتقليدهم لأنهم - كما أسلفنا - أقرب إلى الفضيلة من الشيوخ. ولقد رأينا شيئاً من هذا في أشعار وردزورث، وظهر شيء منه في نثر (لامب) وخصوصاً فصله المشهور: (أطفال الحلم)، وفي أشعار سونبرن أحد شعراء القرن التاسع عسر المتأخرين. وتمتاز أيضاً بالولع بالحيوانات الأهلية منها والبرية، وبحب القصص التي تدور حوادثها على الحب والحرب، خصوصاً ما كان منها شائعاً في العصور الوسطى؛ والتي بطلها الرجل العادي لا الأرستقراطي. ومن أهم مظاهرها شيوع الدين والتقوى، والتأمل والبحث في أسرار الكون، والخروج على العادات المألوفة، والتمرد على الهيئة البشرية. ولقد اتُخذ الأدب سلاحاً لمحاربة سخائف الحضارة وقيودها، ومن أهم أبطال هذا المظهر بيرون وشلي وكيتس. وتتميز هذه الحركة أيضاً بالتقرب إلى الطبيعة

وانتزاع الموضوعات الأدبية منها، والابتكار في اختيار الموضوع، والتفنن في التعبير عنه، لا النسج على منوال الأقدمين كما هو شائع في العصر الكلاسيكي

وإذا ما ألقينا نظرة على شعر وردذورث ألفيناه يمثل الأدب (الرومانتيكي) أصدق التمثيل، وما يصدق على شعره يصدق على آرائه ونزعاته، وخاصة في مستهل جهاده الأدبي، حينما كان من أنصار الثورة الفرنسية التي كانت ثمرة فلسفة روسو بطل الحركة الإبتداعية

زواجه، كهولته، منتهى حياته

تزوج وردزورث سنة 1802م من ماري هتشنسن، من تلك العائلة التي كان يكثر من الترداد عليها. ويُروى أنه أراد أن يغتفر زلّته مع خدينته (أنيت فالون) قبيل إقدامه على الزواج، لهذا شرع في استرضائها بشتّى الوسائل، والظاهر أنه نجح في ذلك. والذي نعلمه أن (أنيت) هذه لم تلاق جفاءً ومضضاً في عيشتها، وأن ابنتها زُوجت من أحد السراة. وفي قصيدة للشاعر موضوعها (على الشاطئ قرب كاليس) يخاطب ابنته هذه ويرحّم بها بكل وداد وتحنان. على أن هذه القصة لا تزال طيّ الخفاء ولم ينكشف لنا منها إلا الشيء القليل. والباحث في ترجمة حياة وردزورث وتحليل عبقريته يود لو أنه ذكر لنا تلك الحادثة بالتطويل شارحاً بذلك عواطفه نحوها وحبه لها قبل وبعد وقوعه في الجرم. لو فعل الشاعر ذلك لوفّر على الباحث الشيء الكثير من الحدس، ولأنار لنا هذه الناحية المهمة من حياته غير تارك مجالاً لتقوّل المتقولين، وإشاعات المشيعين

ولقد وجد في زوجته امرأة سامية الخلق عالية المدارك شديدة العطف والإحساس، لا تقلّ بذلك عن أخته دوروثي. فلا عجب أن رأينا دوروثي تخلد إلى الراحة بعد أن أدت واجبها إلى أخيها ونحو الأدب بكل أمانة وإخلاص، إذ رأت في امرأة أخيها خير خلف لها. ولقد خلّد الشاعر اسم زوجته هذه في قصيدة موضوعها (هي مثال الرضا)

وفي سنة 1808 ورده نعي أخيه يوحنا، فقد مات غرقاً في أحد المراكب التي كان يتولى إدارتها. فكان ذلك باعثاً للحزن والأسى في نفسه. وعلى أثر موت شقيقه نظم قصيدة خالدة عنوانها (أخلاق المجاهد السعيد) مشيراً فيها إلى أخيه وحياته الحافلة بجليل الأعمال؛ ولهذه القصيدة من الشهرة ما جعل الإنكليز والأمريكان يتلونها في مآتمهم، فيجدون في ذلك ما يعزّي النفوس ويسرّي عنها الأحزان

وفي تلك السنة أيضاً انتقل الشاعر وامرأته وأولاده الأربعة إلى ألان بارك إلى بيت رحب الفناء جميل الشكل حيث أتم قصيدته: (النزهة). هنالك افترق الشاعران الصديقان كولردج ووردزورث، وذلك على أثر تعريض وردزورث بصديقه ووصمه إياه بالجنون الناتج عن إدمانه الأفيون. فكان لهذا أثر بليغ في نفس كولردج لم يطق بعده العيش معه، وبانتهاء صداقتهما انتهت حياتهما الأدبية الخصبة، ويندر أن تجد بين عيون قصائد وردزورث واحدة نظمت بعد ذلك الافتراق

وفي سنة 1811 انتقل شاعرنا إلى بيت مجاور لإحدى الكنائس حيث توفي اثنان من أولاده، إلا أنه لم يمكث هناك طويلاً، بل رحل سنة 1817 إلى بيته الجميل في (كدل

ماونت) حيث أتيح له أن يلقى شخصيات ذات أدب جم ومكانة اجتماعية سامية؛ ولقد قام برحلات شتى أهمها إلى أواسط أوربا، وأخرى إلى سكوتلندا، وعلى أثر رحلته الأخيرة نظم خمس عشرة قصيدة تفيض بذكريات الطفولة وأحلام الشباب، منها قصيدته المشهورة (الحصاد المنعزل)

ولقد لبث طيلة هذه المدة مكلوم الفؤاد، حزين النفس، لما حل به من المصائب والويلات العديدة، ولما كان يلاقيه من جفاء وخصومة في الأوساط الأدبية. غير أنه حدث في سنة 1839 ما طيب نفسه وسرى عنه شجونه وهمومه، وشجعه في مبدئه، فقد عرّفه كيبل أحد كبار أساتذة كمبردج إلى إحدى الشخصيات الكبرى في البلاط، وأشاد بذكره أمام ذوي المناصب السامية، فذاع صيته بين الخاص والعام، وأحرز مركزاً رفيعاً في الأدب لا يقل عن مركز ملتن

وفي سنة 1842 منحته الدولة مرتباً سنوياً مقداره 300 جنيه تشجيعاً ومكافأة له؛ وبعد موت روبرت سذى سنة 1843 عرض عليه منصب شاعر الدولة، فرفضه في بدء الأمر لبلوغه الرابعة والسبعين، وقيل لأنه رأى صعوبة وعناء في نظم قصيدة في كل سنة يلقيها في عيد ميلاد الملكة كما جرت العادة قبله، غير أن رئيس الوزراء سر روبر بيل عاد وبعث إليه بكتاب نقتطف منه ما يلي:

(لما كانت صاحبة الجلالة توليك ثقتها الغالية فبادر بقبول هذا المنصب، وكن عند أملها فيك. وإنها لتتوخى بعملها هذا أن ترفعك إلى المركز الذي يليق بمقامك الأدبي والاجتماعي،

ما دمت في رأيها ورأي الجميع سيد الشعراء الأحياء على الإطلاق؛ فلا ترفض هذه النعمة)

وبعد ما اطلع وردزورث على هذا الكتاب الرقيق قبل هذا المنصب السامي فتُوّج بإكليل من غار، وأصبح خليفة ملتون الأوحد، ولم يُنتجْ بعد تبوئه هذا المركز الرفيع شيئاً خالداً، بل استولى عليه الخمول منذ زواجه، ومنذ أن بدأت الحكومة تمدّه بمعاش سنوي كاف. ومن القصائد المشهورة التي نظمها بعد ذلك الأوان واحدة ضمنّها ولاءه وشعوره نحو صاحبة الجلالة قدّمها إليها مع نسخة من ديوانه

وفي سنة 1847م تُوفيتْ ابنته (دورا) فعجلت بذلك وفاته. وكانت وفاته في الثالث والعشرين من أبريل (في اليوم الذي توفي فيه شكسبير) من سنة 1850م. وهكذا خمد ذلك النفس الذي كان يلتهب عاطفة وعطفاً على الفقراء وولعاً بالطبيعة

ولقد دُفن جثمانه في كنيسة في (قراسمير) - حسب طلبه - في حضن ذلك الوادي الذي نشأ فيه وترعرع، وبه تغّنى، وبذكره أشاد

ولقد أقيم له نصبٌ تذكاري من رخام في مقبرة الشعراء في (وست منستر أبى) تحيط به أنصاب تذكارية لكبلْ وأرنلد وكنجزلي وموريس، ونقش على هذا النصب الكلمات التالية:

(لذكرى وليم وردزورث الشاعر الملهم والفيلسوف الكبير الذي وُهبَ عقلاً نيّراً، ولساناً غنياً، ليتحدث إلى الطبيعة والبشر، الذي لم يألُ جهداً في نشر الفضيلة والكمال، والذي تغنّى وأشاد بذكر البسطاء والفقراء، فذاع صيته بين العام والخاص، وأصبح رسول الحقّ وربّ الشعر. لذكراه يشيد أصدقاؤه والمعجبون بأدبه هذا النصب التذكاري، لينطق بنبوغه على مدى الأيام)

الكرك - شرقي الأردن

جريس القسوس

صور من التاريخ الإسلامي

عبد الله بن الزبير (1 - 73هـ)

بقلم محمد حسني عبد الرحمن

تتمة ما نشر في العدد الماضي

وقد يكون من الإنصاف للحق والتاريخ أن نثبت هنا آراء غيره، ممن عاصروه، في أسباب طلبه هذا الأمر، وانهماكه فيه: يروي المسعودي أن ابن عباس كان يقول (أما والله ما عرفت عبد الله إلا صوّاماً قوّاماً؛ ولكني ما زلت أخاف عليه منذ رأيته تعجبه بغلاتُ معاوية الشهب؛ وكان معاوية قد حجّ فدخل المدينة وخلفه خمس عشرة بغلة شهباء، عليها رحائل الأرجوان، فيها الجواري الحسان، عليهن الثياب معصفرات، ففتن

الناس بموكبه)

وقال ابن الزبير لامرأة عبد الله بن عمر بن الخطاب: إنني لم أخرج ولم أطلب الخلافة إلا غضباً لله وللمسلمين من أثرة معاوية وابنه، فهم يستأثرون بالفيء دون الناس، ويستحلون محارمَ الله. قال هذا وسألها أن ترجو زوجَها في مبايعته؛ فلما جاء زوجها ذكرت له ابن الزبير وعبادته وجهاده، وأثنت عليه قائلة إنه يدعو إلى طاعة الله عز وجل وأطنبت في مدحه، ثم طلبت من زوجها أن يبايعه ويؤيده، فأجابها ابن عمر (ويحك! أما رأيت البغلات الشهب التي كان يحج عليها معاوية قادماً إلينا من الشام؟ قالت، بلى! قال والله ما يريد ابن الزبير بعبادته غيرهن!!)

فهذان اثنان من أقطاب الرجال في عصره، ومن ذوي الشرف والفضل والنزاهة في المسلمين، يقرّران أنه ما يبغي إلا الدنيا، وأنه يتّخذ من العبادة سلماً يرقى به إلى قلوب الناس، ليساعدوه على قضاء مأربه في الخلافة

والذي يمكن أن نستنبطه من ظروف الحوادث في ذلك العصر، أن سعيه وراء الخلافة كان مبنياً على طائفة من الأسباب إذا راعيناها جميعاً، أمكن التوفيق بين وجهات النظر المختلفة؛ فقد أراد أن يليَ أمور المسلمين، ليحقق نزعتَه ويشبع رغبته، وليعدل في المسلمين، فيردّ الأمور إلى حالتها الأولى، ويقيم الأمر بالقسط؛ فكأنه كان يبغي بذلك أمْري الدنيا والآخرة معاً

ومهما يكن الداعي إلى طلبه الخلافة، فإنه كان كفؤاً لها، وقد واتتْه الفرصة، التي لبث يترقبها زَمناً، بموت يزيد وابنه معاوية الثاني، ولم يبق في السفيانية من يقوى كاهله للقيام بأعباء الخلافة؛ وحينئذ نرى عبد الله يُهمّ بالعمل الجريء، فهو رجل الساعة، والظروف المهيَّأة تنتظر منه الوثوب والظهور، وقد كان ذلك؛ إذ دعا لنفسه على منبر الحجاز سنة 64هـ، ولم تلبث الدعوة الجديدة أن سرت في أنحاء العالم الإسلامي؛ فخطب له على كافة المنابر (بالعراق وخراسان والحجاز والشام) سوى بعض جهات بالشام كان هواها ما يزال أموياً

وهنا تقوم عقبة شاقة أمام الخليفة الجديد! فأهل الشام الذين لم يبايعوا قد أخذتهم نعرة العصبية لبلدهم، فيمشي بعضهم إلى بعض، وفيهم الرؤساء والقواد يتشاورون ويقلّبون الأمر على كافة وجوهه، حتى لا يُفلتَ الملك من أيديهم، ولا يخرج السلطان من بلدهم؛ ثم يسفر اجتماعهم وتشاورهم على أن يبايعوا لمرْوان، وإن لم يكن سفيانياً فإنه أموي؛ وهو بعدُ أرشد القوم وأحزمهم وخير من يسند إليه هذا المنصب من أهل هذا البيت، في مثل تيك الظروف؛ ولكن الضحاك بن قيس ومعه جنده يعارض هذه البيعة بشدة، يريد أن يتم الأمر لابن الزبير، فتقع الحرب بين الفريقين بالشام، وتلوح بشائر النصر للضحاك، فيعمد مروان الداهية إلى الحيلة (كما فعل معاوية مع علي سابقاً) ويطلب الهدنة، ثم ينقض بجنده على جيش عدوه بغتة، فيشتتهم، ويقتل قائدهم الضحاك (بمرج راهط). وبهذه الهزيمة تنطفئ دعوة ابن الزبير بالشام، وتقوم الراية المرْوانية تخفق في ربوعه

ولو أن الضحاك ساعده الحظ وانتصر في مرج راهط لتغير أمر الخلافة، ولمحيَت الدولة الأموية في أول عهدها، وانقلبت سلسلة التاريخ الإسلامي، فرويت على غير وجهها الذي تُروى عليه اليوم

بعد هذه الموقعة أضحى للمسلمين خليفتان؛ أحدُهما بالحجاز، والثاني بدمشق، ولكن مروان تعاجله المنيةُ بعد قليل، فيلي الأمر من بعده ابنه عبد الملك سنة 65هـ. وكان عبد الملك حازماً وفيه صرامة، وله عزيمةٌ ورأي سديد، ولكنه مع هذا كله نراه يتهيب ابن الزبير؛ لما ثبت له في قلوب الناس من المكانة، ولأن كثرة الأقطار الإسلامية تؤيده. فكّر عبد الملك في الأمر طويلاً، ثم طفق يُعد لحرب عدَّتها، فأخذ يحشد الجنود، ويعرضها بنفسه، وصمم أن

يحسم هذه المشكلة الخطيرة التي بينه وبين منافسيه؛ فيحسن بنا أن نتركه قليلاً يستقرّ في منصبه الجديد، وينظم جيوشه، ويرى رأيه، لننظر ماذا يفعل الخليفة الآخر مع الوفود التي كانت تأتيه من أنحاء البلدان وأقاصي الأمصار، لتُقرَّ بخلافته، وتجدّدَ بيعته، وتطلب منه العطاء وتظهر له حسن استعدادها لنُصرته وتأييده، ولنرى في الجملة سياسته مع جنده الذين هم عماد خلافته وسند دعوته

جاءه مصعب أخوه بجماعة من أعيان أهل العراق، بعد أن مهَّدها، وملك زمامها،

وخاطبه قائلاً: (لقد جئتُك بوجوه أهل العراق ورجالاتها، ليؤكدوا لك البيعة، وليأخذوا منك العطايا!) فيدعوه حرصه أن يمنعهم العطاء ويقول لأخيه: (إنما جئتني بعبيد أهل العراق، يستنزفون بيت المال؛ لوددت أن لي بهم صرفَ الدينار بالدرهم!!). وكان هذا الردّ طعنةً نجلاء أصابت قلوب أهل العراق، فزلزلت خلافته ولما تزل في مهدها؛ وما فتئ يجري على هذه السياسة، سياسة الحرص والشحّ بالمال، مع التأنيب والزجر، وعدم التشجيع بالكلمة الطيبة - ولقد بالغ في تقتيره على الجنود أيما مبالغة، فكان أحياناً يقتصر على إطعامهم التمر، مع التقتير في صرفه لهم، فإذا فرُّوا أنَّبهم بقوله: (أكلتم تمري، وعصيتم أمري!) حتى قال فيه شاعرهم:

ألم تر عبد الله، والله غالب ... على أمره، يبغي الخلافةَ بالتمر!؟

وكان يدعوه حرصهُ أن يقول: ماذا عسى أن أنتفع بالدنيا، وإنما بطني شبرٌ في شبرٍ؟ ويقول المسعودي: أظهر عبدُ الله الزهد وملازمة العبادة مع الحرص على الخلافة، وشبر بطنه. وليس من شك في أن سياسة التقتير التي نهجها هي سياسة عاجزة، لا تنتج إلا الهزيمة وسقوط الدعوة، وضياع الأمر، فلا يسعُنا إلا أن نقول إن هذا موطن ضعفٍ كبير، ما كان ليليق بطالب الخلافة، ولا سيما إذا وجد أمامه مزاحماً قوياً، وخصماً عنيداً كعبد الملك بن مروان!! إذ كيف يبذل الجنودُ في سبيله الدماء، ثم يضنّ عليهم بالعطاء؟ إن هي إلا الهزيمة الكبرى! وإذن فقد جنى على عبد الله بخله، حيث صرف عنه القلوب، فتحولت الوجوه إلى الخليفة الآخر، يجدون فيه ملكاً يكثر العطايا، ويكرم الوفود، ولا يُعزُّ الدرهم والدينار، بل يجود بالدنيا لتقبل عليه الدنيا؛ اتجهت قلوبُ الناس إلى عبد الملك، وشخصت أبصارهم إلى بريق نُضاره، فلما أنس بهذا، ووثق بضعف عدوّه من هذه الناحية، توجه

يقود جيشه الكبير إلى البصرة - وكانت لعبد الله مركز قوته، كما كانت الحجاز موطن دعوته - فلاقى بها أخاه مصعباً، ودارت بينهما رحا الحرب، ففُتل مصعب، وهُزم جنده، واستولى عبد الملك على العراق حصن الدعوة الزبيرية. وفي الحق أن عبد الملك ما قتل مصعباً، وإنما أرداه وهزم جيشه حرص أخيه على الدنيا، حرصاً نفر منه القلوب، فأسلمه أهل البصرة: وفروا إلى صفوف العدو، فقلّ ناصره، وراح ضحية التقتير وسوء التدبير

لم يبق بعد هذا إلا أن يلتقي القرنان ويتصادم الجيشان بالحجاز. فلندع عبد الملك ينظم أمر العراق الذي دخل في حوزته بعد النصر، ولنترك له فرصة يجهز فيها جيشاً آخر، تحت إمرة قائده الجبار الحجاج بن يوسف الثقفي، ليلقى به عبد الله في الحجاز. لندع كل هذا جانباً، لنشاهد موقف بني هاشم من خلافة ابن الزبير، وما صنع هو معهم بالحجاز!

كان ابن عباس وابن الحنفية وغيرهما يعلمون من قبلُ طموح عبد الله إلى الخلافة، وينكرون عليه في أنفسهم، بل كانوا يستكثرون عليه ذلك، ويرون أنه ليس أحق منهم بالأمر (وإن كان أحقّ من مروان وابنه). وكانوا يرون أن الذي يدفعه إلى هذا إنما هو الجشعُ والحرصُ على المظاهر الدنيوية (وقد ذكرنا حكاية البغلات الشهب عن ابن عمر وابن عباس) - لذلك لم يبايعوه، فحنق عليهم، وضيق خناقهم، حتى إنه فكر في الخلاص منهم، فحبسهم في شعب عارم، وجمع حولهم حطباً كثيراً، وهددهم بالإحراق، وكاد يقضي عليهم؛ ويقال إنه ما فعل هذا إلا خوفاً من تفوق الكلمة، واختلاف الناس، كما فعل عمر مع عليّ لما تأخر عن مبايعة أبي بكر، فقد هدده كثيراً

ولقد لجأ ابن الزبير إلى النفي عقاباً لمن تخلف عن بيعته، فأخرج محمد بن الحنفية من مكة والمدينة. ونفى ابن عباس إلى الطائف، وبهذا العمل العدائي مع بني هاشم، واضطهاده لهم، ضم سبباً جديداً قوياً إلى أسباب خذلانه، ولإفلات الأمر من يده، فكان بذلك مجانباً الحزم والسياسة الرشيدة

ويسير الحجاج ذلك القائد العنيد إلى الحجاز، فيستولي بعد مناوشات قليلة على جبل أبي قبيس الذي يطل على مكة ثم يحاصر البلد الحرام. فتتعطل مشاعر الحج، حتى إنه هو وجنوده وقفوا بعرفات ولم يطوفوا بالبيت ذلك العام، وطاف عبد الله ومن معه بالبيت ولم يقفوا بعرفات؛ وطال الحصار حتى سئم أهل مكة؛ ويقول الطبري إن الحجاج حصره

ثمانية شهور، ولم تزل الحرب بينهما حتى تفرّق عنه عامة أصحابه، وخرج أهل مكة إلى الحجاج بأمان، ولم يصبر مع ابن الزبير سوى نفرٍ قليل ممن بايعوه على الموت دونه

وفي يوم عصيب، من أيام الحصار الرهيب، يدخل عبد الله على أمه أسماء، فيدور بينه وبينها حوار رائع، يعرض عليها حاله وما آل إليه أمر أصحابه، ويطلب مشورتها، فتبذل له النصح، وتحثه على الاستمساك بما ولاّه المسلمون، وأن يدافع عن حقه إلى آخر قطرة من دمهِ، وألاّ يقبل من عدوه خطة يصحبها الذلُّ، وتقول له في عبارة حماسية مؤثرة: (والله يا بنيّ لضربةُ سيفٍ في عزّ، خيرٌ من ضربةِ سوطٍ في مذلةٍ) وتلهِبه هذه النصيحة، وتثير نخوته، فيخرج إلى العدو في قلة من صحبه، وفي كثير من جَلَدِه وإيمانهِ، وقوة عزمهِ؛ وحينئذ نقرأ في جهاده واستبساله أروع صفحة للبطولة الكريمة، والدفاع عن الحقّ الهضيم، صفحة يتجلى فيها البلاءُ الحسن، والصبر الجميل والاعتماد على قوة اليقين، مع ضعف العُدّة والعدد، ووفرة العدوّ وإحاطته، وتمكنه من ناصية الموقف. ملك الحجاجُ عليه أبواب المسجد الحرام، وحاصره فيه، فبات يصلي ليلته، ثم أغفى قليلاً، وقام يصلي الفجر، ولما انتقل من صلاته أخذ يستعد للنزال ليرمي آخر سهم في كنانته، وليموت بعده شهيد الوفاء لمبدئه، ثم قال لمن معه: (يا آل الزبير! لو طِبتم لي نفساً عن أنفسكم كنا أهل بيتٍ من العرب! أما بعد فلا يرعكم وقع السيوف. . . غضوا الأبصار عن البارقة، ولا يلهينكم السؤال عني، فلا يقولنَّ أحدكم أين عبد الله!. . . ألا من كان سائلاً عني فإني في الرعيل الأول، احملوا على بركة الله. .)

وبعد أن بثَّ الحميَّةَ في قلوب من حوله، وألهبهم حماسة، حمل على عدوه بسيفين صارمين، يضرب بهما معاً، فيهزم الداخلين عليه من هذا الباب، ثم لا يلبث أن يتكاثر الهاجمون على الباب الآخر، فيصمد لهم، حتى يولوا الأدبار، فيوقع بهم، وهو يقول: (يا له من نصرٍ، لو كان له رجالٌ!!)

!لو كان قرني واحداً أرديتُه ... أوردتُه الموتَ وقد ذكيتُه

ولم يزل يضرب القوم بصارميه ويشتت شملهم، حتى قُذِف بحجرٍ ضخم أصابه بين عينيه فخرَّ صريعاً، وتكاثر الجند على البطل المضرَّج بدمهِ الحرام، في المسجد الحرام، واحتزُّوا رأسه ولم يرْعَوا فيه ديناً ولا رَحماً

وكان مصرع البطل الشهيد سنة 73هـ بعد أن أدرك وطره وسلّم الناس عليه بالخلافة زهاءَ تسع سنوات، كانت كلُّها خُطباً واستعداداً، وحرباً وجهاداً

وبعد فهذا بطل صنديد، وخليفة شهيد، نرى في طلبه الخلافة، وتعريض نفسه للمخاطر، إبان تلك الظروف العصيبة حدباً على المسلمين، وأنفةً أن يساموا الخسف من بني أمية، ونوعاً من التضحية في سبيل الجماعة، كما نلمح في نفسه نزعةً ساميةً، وشرفاً وشجاعة، لا نجدها في كثير من رجالات عصره، فلقد كان هو رجل الوقت بلا منازع، لم يتوقع بنو أمية الوثوب الظافر عليهم من غيره؛ ولقد صدقت فيه فراسة معاوية

والحق أن خلال عبد الله منذ تنشئته كانت ترشحه وتعده للخلافة، ولكن لأية خلافة؟ للخلافة المتقشفة الحريصة على أموال المسلمين أن تنفق في غير وجهها، لا تلك الخلافة المترفة التي تنغمس في النعيم، وتغمرُها أبهة الملك ومظاهر السلطان؛ ولو لم يرْنُ عبد الله بطرفه إلى هذا المركز السامي، لكان ذلك غريباً عن طبعه، مناقضاً لنشأته، وعلو همته وطموحه؛ فلنسجل له ثورته العنيفة الدامية على من طلبوا الملك والدنيا باسم الخلافة الإسلامية العتيدة

(ميت غمر)

محمد حسني عبد الرحمن

نحو الفجر

للأستاذ عبد الرحمن شكري

المقدمة:

إن الذي يأمل للإنسانية فجراً تنجاب فيه ظلمة الضيم والشر، يرى في فجر كل نهار رمزاً له ووعداً به؛ فيتعلل بهذا الرمز ويتنظر إنجاز الوعد آملاً أن النومة التي يحدث فيها للإنسانية كابوس من الأضغان والأذى والتنابذ والكيد، والاستهتار في العبث بالحق، يكون فيها أيضاً نسيان لخصالها الوضيعة يدركها من طريق سنة النوم فتستيقظ في

خلق الحق والخير (الناظم)

أرقتُ فطال الليل أم طال بي عمري ... كأن انجياب الليل في موعد الحشر
كأنِيَ في لج من الليل غارق ... سوى هدأة لم تُلْفَ في لجج البحر
كأني غريب من حراك لواعجي ... بِعَلِم صمت غاله الصمت من سحر
كأن غصون الدوح في حندس الدجا ... رءوس ثكالى أرسلت أسود الشَّعر
كأن النجومَ الغانياتُ تَرَهَّبَتْ ... تبيت طوال الليل تعبد في دير
أو الفلُّ مزروعاً بحقل بنفسج ... وكاللازورد الأفق رُصِّع بالدر
أو أنَّ ثقوباً في جدار زبرجد ... تَطَلَّعُ منها الغيدُ يشرِفن من خدر
أُقَلب طرفي بينها مُتَفَهِّماً ... تَفَهُّمَ معنى اللفظ في صفحة السِّفر
كأن الدجا دَيْرٌ به البدر راهب ... جميل المُحَيَّا حوله هالة الحبر
كأن صقيعاً قد كسا الأرضَ نورُه ... أو أن عليها أبيض الطُهر ما يمْرِي
كأن فراشاً أبيضاً مَدَّ نُورُه ... مهاداً لروح أو شبا كامن السحر
أما يذهل الراؤون من سحر ضوئه ... وقد تحسب الأحلام تسري وما تسري
وإن تكُ أحلام فأوهام خاشع ... عراه جلال الحسن في الليل والبدر
أيحلم هذا الدوح في سحر ضوئه ... فقد خلته من هدأة النوم في أسر
كأن حفيف الدوح أضغاث حالم ... أو أنَّ حديثاً بينه خافت السر
أدور بعيني لا أرى غير ساكن ... فأين احتيال الناس بالغدر والمكر
وأين نشاط القوم للهو والهوى ... وأين مساعي الناس في الخير والشر
ألا ليت نسياناً كذا النوم ساقياً ... يدير لهم كأساً ألذ من الخمر
لتذهلهم عن كل شر وفتنة ... فيستيقظ النُّوّامُ في خلق الطهر
خواطر آمال أُسَلِّي بها الدجا ... وتمضي مُضيَّ الليل أو طيرة الطير
فلما تَقَضَّى الليل وانجاب جنحه ... رأيت صباحاً يصبغ النبت بالتبر
تَشُوب اخْضِرَارَ الروض صفرةُ ساطع ... من الضوء مثل الغيد في حلل خُضْر
كما تينع الأثمار شاب اخضرارَها ... لدى النضج لونٌ في غلائلها الصُّفْر
كأن نبات الزهر من نبت جنة ... رمى مَلَكٌ من أفقها الأرض بالبذر
أظل وطرفي في مدى الأفق ذاهل ... أحاك عليه الفجر وشياً من السحر
ويرنو إليَّ الفجر من خلف ظلمة ... بنور كما شَفَّ الرماد عن الجمر
كأن مَماتاً في الدجا أهلك الدُّنا ... فتبعث فيها الروح في وضح الفجر
كأن كيان الكون يخلق ثانياً ... فإن انفجار الفجر كالخلق والنشر
تخال تباشير الصباح أزاهراً ... إذا ما بدت فوق الشجيرات كالنَّوْرِ
فيختلط الزهران حسناً ومنظراً ... ويزداد نِظْرُ الحسن من مشهد النِّظْرِ
تحَدِّث أنباء السماء بمشرق ... من الضوء مثل الرُّسْل تُبْعَثُ بالخير
تبادهنا منها محاسن جمة ... كما باده الأذهان من حَسَن الفكر
تفض ختام النفس عن كل ذكرة ... وكم ذِكَرٍ في الضوء والزهر والعطر
تذكرنا الآمال والحب والصِّبَى ... كأن رواء الصبح ضرب من الشِّعر
كذلك يغدو منظر الحسن ذكرة ... وخاطرة في النفس تُسعِدُ في الضُّر
وتستيقظ الأرض النَّؤوم إذا حنا الص ... باح عليها يلمس الثغر بالثغر
كما استيقظ الطرف المُغَمَّضُ بعدما ... أريق عليه ساطع من سنا البدر
تحن إليه النفس من بعد ظلمة ... فتحكي حنين الطير تهفو إلى الوكر
ترى الصبح يجلو النهر كالقين سيفه ... ويذكي الندى فوق الشجيرات كالدر
أُطِلُّ بأفكاري على النهر مثلما ... لدُنْ هدأة يحنو النبات على النهر
تصب عليه الشمس رقراق عسجد ... فيعلو لجينَ النهر نهرٌ من التبر
ترى تارة في متنه الماء راجفاً ... كما ارتعدت أبشار غيدٍ من القُرِّ
وتحسب أن النهر يشعر بالذي ... يعالج من حاليْه في القر والحر
ترى النهر مثل العين سحراً وبهجة ... ويُمْلأُ مثل العين بالصُّور الكُثْرِ
يبوح بسر الحسن لونٌ مجدد ... ولولاه ما ألفيت في الكون ما يُغري
وأروعه ما كان منه فجاءةً ... فجاءة صبغ النهر من سُحُبٍ حُمْر
وليس رواء الكون في الصيف وحده ... فرب شتاء ناثر أيما ذُخر
جلال يريح النفس من بعد رونق ... نصيبك من سحرين في الحر والقر

على أن ذكرى الصيف فيه جلية ... ففي النهر من ذِكرٍ وفي الروض من ذكر
وقد يحلم المحروم باليسر واللهى ... كذلك حلم الأرض بالصيف واليسر
فلما تقضي الليل يحدو لواعجي ... وذكرى طيور الصيف تهزج في صدري
أخذت نصيباً من جَدَى الفجر وافراً ... فنهنهت آلامي وأرخيت من صبري
وأملت للدنيا صباحاً مؤجلا ... سيكشف عنها ظلمة الضيم والشر
فكل صباح رمزه ومثاله ... ووعد به يحدو إلى الزمن النضر
نسر بنعماه وإن لم تكن لنا ... وننشده فيما يكون من الدهر

عبد الرحمن شكري

المثل الأعلى في السينما

حياة عبقرية متألمة

اللحن الذي لم يتم

للأستاذ خليل هنداوي

- 1 -

قد يكون الإقبال على هذا الفلم الناطق بالألمانية ضعيفاً، لأن مخرجه لم يترك مجالاً للمادة تعبث بالفن، وللمصلحة تغلب على العاطفة، وللعبث تسطو يداه على (مثل أعلى) ألفته عبقرية - أقامت في الأرض عمرها - بمداد روحها ودماء قلبها. على أن هذه الحياة قد فسدت، ولم يبق خالصاً ظاهرها ولا باطنها، فالقوم قد لجوا من صراع المادة المستحوذة عليهم، وهم الذين تركوا لها مجال التسيطر، تفر منهم، وهم إليها يفرون! وقد آل بهم هذا الصراع الدائم إلى أن يعموا عن جوهر الحياة الذي وضعته الحياة على أبنائها يوم كانت، فهم من صراع إلى صراع، ومن نزاع إلى نزاع، لا ترتاح لهم جنوب ولا تستقر مضاجع. أحلامهم طافحة بالعراك كيقظاتهم، وليت شعري لِمَ هذا العراك، وليت فيه هذا النزوع إلى محجة الحياة، فهم مضطرون إلى تهدئة أعصابهم المجنونة وقلوبهم الثائرة باللهو واللعب، يطلبون اللهو متى انتهوا من جدهم، ويتوخون العبث متى خرجوا من دائرة عملهم. لهو كثير وجد كثير تذوب بينهما حياة شفافة في سبيل الحياة البهيمية! وقد شعرت السينما بتعب الإنسانية وأحست بضناها، فأحبت أن تسعفها في جهادها، وتريها ومضات تلمع وتخبو في جنبات (الشاشة البيضاء). فهي تتشبث بالألحان والحسان ومظاهر الخيال الذي لا ينطبق على حقيقة، لتفرِّج عن هذه الإنسانية المنكوبة، ولكنه دواء من ينقش الشوكة بشوكة، وينير للشمعة سبيلها بذوبها. لأن مثل هذه الألحان المضطربة والنجوم الساطعة الخابية سرعان ما تفقد تأثيرها لأنها لم تصب هدفاً معلوماً ولم تطرق نهجاً مرسوماً

قد تكون السينما للأدب حليفة وقد تكون عدوة، لأنها تريد أن تهضم (الأدب) وتبلع زاد العقل لتحمله للناظر عن طريق العين، فهي مساعدة للأدب على خلق (المثل الأعلى)؛ وباعثة في الأرواح مختلف الأشواق والحنين إلى ربوع (المثل الأعلى)، ولكن من المخرجين من لا يبالي بهذا المثل ولا يسمع صوته، لأنه يريد أن يقبض على عيون الناس وجيوبهم، وهذا هو الأديب التاجر، ومنهم من يؤمن بهذا المثل، ولكنه لا يجد الفرصة سانحة لمثل هذا النوع. فهو يُلقي الومضة إثر الومضة لأنه لا يقدر أن يتبرأ من كل ما يجيش في صدره، ولكن أكثر بضاعته بضاعة يرضى بها رؤساءه. ورؤساؤه يعرضونها ليكسبوا بها جنوداً ونقوداً، وهذا هو البائس المداري، ومنهم من بلغ إيمانه بالمثل الأعلى مبلغاً عظيماً، يخرج من الروايات ما تؤمن به روحه، ويخلق فيها شيئاً جديداً متدفقاً لأنه يعمل بقلبه لا بيده، وهذا هو من يشفق على هذه الإنسانية، ويريد أن يحملها على أجنحة صوره وألحانه - ولو ساعة - إلى عالم المثل الأعلى؛ يريها ما هنالك من نور طافح وأمل خافق. والجالس إلى أفلام هذا المخرج ليجد نفسه وقد انسلخت عنه بغير شعور منه إلى عالم شعري بعيد، ما كان حامله إليه إلا فكرة سامية نقلتها أشعة العين إلى القلب فهام واستُهيم. . . إن مثل هذا المخرج يعطي أكثر مما يأخذ، ويهمه من الناس قلوبهم قبل جيوبهم

مرّت بي هذه الخطرات وازّاحمت في نفسي يوم رنت عيناي وخشع قلبي لهذا (اللحن الذي لم يتم) أراه للمرة الثانية، وقد تجردت روحي عني لتتسامى في هذا اللحن ما شاء لها التسامي

- 2 -

هذا اللحن أو هذا (الفِلم) ترجمة دقيقة لفصل من حياة (شوبير) الموسيقي النمساوي الذي لم تفض عليه الحياة أجله (1797 - 1828) لكنه فصل مشحون بكل ما يتمثله فكر عن فنان. وسأعرض عليك هذا الفصل لتتلمس فيه هذا المثل الأعلى الذي نجح المخرج في إظهاره. وإنما هو حياة فنان يشق طريقه إلى المجد بأوتار قيثارته وأنامل (بَيانه) البيضاء، وتاريخ صراع هذا العبقري للمصادفات والأقدار التي انتصر عليها نحن الآن في منزل (رهون) تجتمع فيه البذلة الثمينة بجوار تمثال (نابليون) والقيثارة الجريح بقرب الحسون في قفصه (رهين المحبسين!) تتسلم هذه الأشياء فتاة جميلة، لامعة
العينين، لا تقدر قيمة الأشياء إلا بحسب قائمة عندها
يطل على النافذة فتى تكاد تيبس عضلات وجهه المتصلب، على عينيه نظارتان، يمد قيثارته التي طالما ملأت ألحاناً، وأشبعت وحدته أماناً، يقدمها بيد مرتعشة ليرهنها، يجد ثمن الرهن ضئيلاً فيراجع الفتاة الجالسة فتجيبه: هذا هو الثمن المحدد! ولكن صوتاً يهيب بها في داخلها، وإنما هو صوت الحنان على الفن الذبيح. . . فتزيد الثمن وتدعو الله أن يذهل والدها عما زادت، ليتسنى لصاحب القيثارة أن ينتفع ببدل قيثارته. فيأخذ الثمن ويحصيه بعد خروجه فيجده أكثر مما قالت، فيعود بقلبه البسيط، فيعثر بالفتاة خارجة وتخبره أنها شذت معه إكراماً لفنه؛ وإذ يسمع - شوبير - ألحاناً تأتي من بعيد فينطلق وراءها وهي تقودها إليه عاطفة غريبة، فتسأله سر ابتهاجه بهذه الألحان، فينبئها أنها ألحانه يرددها الصبايا الحانيات على الماء
- إن ألحانك ترددها (فينا)؟
- أجل! ترددها (فينا)
- أنت سعيد إذاً شوبير! ولابد أنك غني
- أما الغنى فلا
- ولماذا تثابر إذن على التلحين؟
- وما يكون عمل شوبير في الوجود إذا انصرف عن التلحين؟
- وهذه الأبيات الرقيقة التي أسمعها أهي من (جيته)؟
- لا!. ومن هو جيته؟ إنني لم أسمع به قبل اليوم
- إنها من نظم صديقي (موللر)
- عجيب، ألا تعرف (جيته)؟
وهنا يعودان على آثارهما فتثب إلى غرفتها وتقذف له على طريقه بديوان (لجيته) فيأخذ الكتاب، ويلتهم ما في الكتاب ويتلو ذاهلاً غافلاً؛ يخطر في الشوارع وعيناه شاخصتان في الكتاب، ويدخل قاعة الدرس وطلابه في حرب يعلنها بعضهم على بعض، سلاحها الأوراق والكتب وإهراق المداد! وقد تصيب دواة قبعته فتطير عن رأسه فلا يشعر: ولكنه لا يكاديستقر في مكانه حتى تهدأ الجلبة وتقر الحركة، فيعجبه هذا السكون ويشكر طلابه
عليه، فيبدأ درس الحساب ويكتب على اللوح الأسود بادئاً بجدول الضرب، ولكن هذه اليد تتحرك بغير وعي وتنتقل بغير إرادة. لأن القلب الموسيقي الذي أطل عليه من وراء (جيته) قد استولى عليه، فيده تسطر وقلبه يلحن، وما هي إلا لحظة حتى كان الطلاب من ورائه يرددون اللحن الذي سطره! وإذا بدرس الحساب يتحول إلى درس موسيقى! فيسمع الرئيس الألحان شائعة في الفناء، فيطرق غرفة (شوبير) فيجده لاهياً وطلابه بهذه الأغنية، فيطلب إليه أن يهرع إلى مقابلته، ولكن هذه المقابلة التي يتخيلها الناظر عثور جد وسوء طالع، قد هيأت لشوبير أن يقابل (مدير الأوبرا) في (فينا) المعجب ببراعته، وهو ينتظره في بهو الرئيس يحمل إليه دعوة إلى منزل الكونتس (دي رنسكي) ليعزف في إحدى سهراتها الموسيقية الحافلة التي تقيمها كل خميس وتجعل من منزلها ملتقى أرباب الفن وأنصاره. وجدير بمثل هذه المقابلة أن تفتح أمام (شوبير) مستقبلاً زاهياً مضموناً. ولكن أنى له أن يخشى هذه الحفلة وليس عنده رداؤها. وقد طرق بيت الرهون فرده صاحبه خائباً، لأنه لا يملك ما يفك به رهينة، ولكن الفتاة الهائمة بفنه أعادت إليه رداءه وقبعته لتحقق له ظفره في هذه الليلة كان بهو (الكونتس) يعج بالزائرين والزائرات ممن سما بأرواحهم الفن والموسيقى؛ وفجأة دخل (شوبير) منتفخ الرداء ساطع الوجه، يلمس غده بيده. ولكن نشوة السرور

قد أذهلته عن أن ينزع (علامة الرهن) عن ظهر الرداء. فمر وعيون القوم رانية إليه، تتغامز عليه. فقبل يد الكونتس وحطم بخيط (العلامة) تمثالاً عزيزاً علق به، ولكن الكونتس لم تزد إلا ترحيبا به

جاء دور (شوبير) ومرت أنامله على (البيان) أنشودة أبدعها لمثل هذه الساعة. وأودعها كل ما يختلج في صدره من أماني وأشجان. فترى القوم سكارى وما هم بسكارى! فتدخل - خلال ذلك - الكونتة استركاز الفتاة الحسناء وهي متأخرة، فتأخذ مقعدها وتصغي بروحها المرحة إلى هذه النغمات، فتسأل فتاها فيجيب همساً: إنه (شوبير) فلا تفهم. فيكتب على صفحة مرآتها بعد ذر (البودرة) أحرف (ش وب ي ر) فلا تفهم. . . وتنفخ على اسمه فيطير. ولكن أوضاع جلوس شوبير على البيان تهيب بها إلى الضحك فتملك نفسها فلا تقدر، فترسلها ضحكات عالية تنال من عزة (شوبير) فيرمقها شزراً، ويغلق البيان بعنف،

ويهب من مقعده لا يملك نفسه المهتاجة، فيدركه (مدير الأوبرا) فيجيبه بإباء وأنفة:

- أنا لست ممن يعزفون وهم يضحكون!

وانطلق وقد ترك في المنزل، زوبعة، وصاحبة المنزل تقول للفتاة (ومما يؤسف له أن المقطوعة لا تبعث على الضحك)

تلك عزة الفن دعته فأجاب، وهو يقدر أنه قاتل مستقبله، وداع البؤس إلى ساحته، ولكن ما همه بمستقبله وبغناه إذا كان الفن يحيا في منزله مهاناً ويرضى بهوانه؟ أليس هذا المثل يضرب لكل فنَّان معنى العزة ويبعث فيه الكبرياء؟

خرج (شوبير) دامي القلب، ولكنه عنيف الثورة شديد النقمة على هذه الغادة التي حالت بينه وبين إتمام لحنه. . . آب إلى غرفته بأمانيه المهزومة كالقائد المنكسر يعود بفلول جيشه وأوسمته القديمة، فألفى غادته الأولى في انتظاره، وهي لم تكن لتحب أن تراه مقطباً عابساً، جلس إلى البيان يعاود ذلك اللحن الطائر، فلا يكاد يشرف على المهوى الذي تعالت فيه ضحكة الساخرة، حتى يتمثل أن ضحكتها تملأ جو غرفته، فيهب مذعوراً يسد أذنيه، وكأن يداً سحرية تحول بينه وبين الانتقال إلى المهوى الثاني. وبعد محاولة غير مجدية غادر البيان والبيان يضحك، وجدران الغرفة تضحك، وهي في قرارة ضميره تضحك. . .

كلفه هذا الحادث كثيراً، فقد أخرجوه من المدرسة، وحرموه الخبز الذي يأكله، فألحف الدائنون في الطلب، ولج الأصدقاء في الهرب. وشفعت له (فتاته ايمي) عند (مدير الأوبرا) ولكن هذا قد قُدَّ قلبه من جماد!

- كن لطيفاً معه

- أنا لست بلطيف

- لا تهجر شوبير!

- إنه يستحق

- ولكن اذكر أن (فينا) تترنم بأغانيه، فأين أغانيك؟

بمثل هذه البساطة وهذه الحدة كانت تجادل (ايمي) مدير الأوبرا لاستمالته إلى معاضدة (شوبير) ولكن العبقرية كتب عليها القدر ألا تخط طريقها إلا بدماء القلب الجريح، والشقاء الدائم، فليمش (شوبير) على طريق العبقرية. . .

- 3 -

طلب أحد الأمراء الموسرين في (هونفريا) إلى شوبير أن يقدم عليه ليعلم فتاته الموسيقى، فارتاح لهذا الطلب وأيقن أن الأمل طفق يبسم له، فودع (ايمي) ووعدها بأن يكاتبها وسار وراء الأمل الجديد

دخل المنزل فاستقبله الوالد بابنتيه (ماريا وكارولين). نظر شوبير في وجه (كارولين) فأدرك أن هذا الوجه هو وجه الساخرة، فاربّد وجهه وتقلصت شفتاه. ولكنه هدأ نفسه وكظم غيظه. وغادر الوالد المكان، وعدت وراءه (ماريا) لأنها لا رغبة لها في الموسيقى، وخلا له ولها المكان

قالت كارولين باسمة:

- أريد أن أعرفك، لأنني جعلت درس الموسيقى سبباً!

- أتودين أن تسخري مني أيضاً؟

- لا يا شوبير! أريد منك أن تغلق هذا البيان

فدنا شوبير من البيان وأغلقه بهدوء، فضحكت كارولين وقالت:
- في إمكان الإنسان أن يغلقه بدون ضوضاء! قد شعرت بخطيئتي العظمى، وإني لأرجو أن تصفح عني. . .
- قد صفحتُ!
- إذا سنبدأ غداً. . .
وفي اليوم الثاني كان (شوبير) يلقي على تلميذته قواعد في الموسيقى وفي الإيقاع، ويبدي لها أن الإيقاع هو حياة الموسيقى وأصل توازن ألحانها؛ ويعرض عليها مقطوعة صغيرة له تتلوها بصوت عال، فتتلو السطر الأول والثاني ثم يتعالى صوتها شادية مرنمة يتلاشى أمام نغماتها ونبراتها عزف البيان ولحن القيثار، فيذهل شوبير وأي ذهول! ويتصاغر أمام جلال هذا اللحن المتناسق؛ حتى انتهت من تلاوتها وجاءت على هذه الكلمة (وهي مقطوعة مهداة إلى الفتاة ايمي) فثارت في نفسها غيرة عميقة، لأنها كانت تشعر بأن هذا الفنان يجب أن يكون لها وحدها، فطلبت إليه أن يقدم لها في المرة الثانية من أغانيه ما لا تشركها فيها امرأة! ولتكن تلك الأغنية التي لن تكمل. . . ولكن هذه الأغنية ظلت غير تامة لأنه لم يستطع أن يتمها
قالت له كارولين في إحدى خلواتها:
- سمعت بأنك تختلط بعمالنا في المزرعة في جلسات طربهم وأني لأربأ بأستاذي أن يغشى هذه المجامع الساقطة
ولكن شوبير كان يستوحي الفن حيثما كان، ويعتقد أن الفن يسكن في الأكواخ، وفي الجماعات المنحطة، وفي التراب. وظل يغشاها كعادته، حتى فجأته يوماً في مجلس لهؤلاء (الغجريين) الذين تخذوا الحياة عزفاً وطرباً، وقذفوا بهمومها من وراء ظهورهم. فجأته وهي ترتدي رداء (الغجريات) وعلى وجهها تطفو بهجتهن وسرورهن. فرقصت حتى بات المكان كله لا يتسع إلا لقدميها. رقصت حتى أعيت، ودنت منه تنشد مقطوعة رقيقة تدعو إلى الاستسلام الذي تولده الغبطة الكئيبة:
(قل انك تحبني؛ قل بدون انقطاع
قل انك تحبني قليلاً. . .
كلماتك هذه تبعث الغبطة في نفسي، والراحة في قلبي
عيناك هما السبيل الجميل حيث يتوارى حلمي
قل انك تحبني، واكذب إذا وجب الكذب. . .
قل ذلك. . . لأنك - إذا سكتَّ - تسلمني إلى الموت)
وجدير بمثل هذه الأغنية الرقيقة أن تذهلها عن نفسها، وأن تغيب أستاذها عن وعيه. فيلثم يدها، والزوبعة لا يزال هزيمها بين الأغصان. فغادرت المكان راكضة بين المروج الذهبية التي هي قبلة العشاق، ومرتجى أصحاب الوحدة، فتبعها ليرجع إليها نقابها
- قفي يا كارولين. . . لقد نسيت نقابك. ما عسى يقولون في القصر إذا عرفوا؟ لماذا جئت؟
- ألا تعرف أنت حتى الآن. . عانقني يا شوبير!
وهنا ضمتهما قبلة عميقة لم تشهدها إلا السماء. ولم تسمع همسها إلا الأزهار والأعشاب. . . . أذهلتها عن نقابها الذي سقط على الأرض فعادت بغير نقاب
- 4 -
أدرك الأمر والدها، ورأى في فتاته ميلاً إليه قد ينتهي بالزواج. فأحب أن يحول بينهما، فصرف (شوبير) صرفاً أدبياً ليعود إلى عزلته الأولى. وشوبير في كل غيبته لم يذكر (ايمي) بكتاب. لأن كفة (كارولين) رجحت على كفتها. فلم تستقبله (ايمي) ولكنها سمعت أنه يكاد يغدو مجنوناً. وهو في كل يوم يرتقب كتاباً من (كارولين) وهاقد دب اليأس في نفسه بعد انتظار ثلاثة أشهر، وهاقد أشفقت (ايمي) عليه فهرعت إليه بدون إرادة ولا عزيمة. . . . وفي لحظة حضورها وردت عليه بطاقة من القصر تأمره بالحضور العاجل. فما قابل (ايمي) إلا ليودعها وتودعه
- ايمي! كوني سعيدة إنني مسافر، سوف أبعث إليك بأنبائي
انطلق (شوبير) ولا يعرف ما كُتب له. فشاهد في القرية حالة غير معهودة؛ أجراس تدق، وثياب بيضاء ترف، وأغنٍ تتعالى. إنه عرس (كارولين) أجئتَ يا شوبير لتودع

كارولين؟
لم يكن صاحب البطاقة المرسلة إلا (ماريا) أخت (كارولين) دعت (شوبير) ليحضر حفلة زفاف أختها. وليصفح عنها لأنها كفَّرت عن وزرها بالبكاء الطويل، ولكنها أذعنت لوالدها مضطرة غير مختارة. . . وقد وقف (شوبير) بين الجموع يشهد مرورهما أمامه وقفت (ماريا) فجأة بين جموع المهنئين في بهو القصر، تعلن أن (شوبير) يريد أن يهنئ العروسين (فدخل شوبير وقد رنت العيون إيه، ومشى حتى بلغ موقف (كارولين) وقال لها: (يا سيدتي! هل تتفضلين بأن أقدم تتمة اللحن الذي لم يتم تقدمة لك في يوم عرسك؟) واختلف إلى البيان يردد اللحن الأول (وكارولين) بين الجموع تنتفض طوراً وتختلج تارة تحت تأثير الذكريات الهافية حولها. تفيض على قلبها مرارة، وعلى محجريها تطفح دمعتان. وما كاد ينتق (شوبير) إلى تتمة المقطع، وقد اختلفت النغمة، وامتزج الجلال بالجمال، ونطقت العاطفة، وغلب القلب على الأنامل، حتى سقطت (كارولين) مستخرطة في البكاء في الموقع الذي قاطعت شوبير بضحكتها. فانفض الجمع وأخذوا المريضة. وشوبير مُسمَّر في مكانه لا يتزحزح. وبعد برهة عاد إليه زوجها يقول له: (إنها تحسنت قليلاً وتود أن تقابلك). عادت كارولين ووجهها مقنع بكل ما رسمت على وجهها الحياة منذ طفولتها حتى الساعة. فالآمال مجاورة للآلام. واليأس مؤتلف مع القنوط: إنه وجه حياة كاملة

- شوبير! هذه مقطوعتك أرسلها إليّ

- ولِمَه؟ أنها مكتوبة للجميع

- عش سعيداً يا شوبير! ولا تحزن. إنك تملك شيئاً هو أسمى من كل شيء. . . هو الفن الذي يعطيك الخلود

طفرت من عينها دمعة، وانصرفت راكضة لأنها لا تستطيع أن تقف أمام هذه السحابة الجارفة التي يسوقها فن عميق سامٍ جارف

عاد (شوبير) إلى لحنه، فأبقى ما عزفه، ومزق تتمة اللحن، وكتب حول ما مزقه: (ليكون دليلاً على حبي الذي لا ينتهي، جعلتُه لحناً لا ينتهي). وخرج (شوبير) يسلك الطريق الذي أبصر أحلامه الواثبة، والآن يبصر نفسه المكتئبة؛ وما زال يقذف به السير حتى وقف على تمثال (مريم العذراء) وهنالك تمازج كل ما فيه من عوامل متضادة، من يأس ورجاء. من غبطة وكآبة، وفن ومثل أسمى، لتؤلف هذه العوامل (أنشودة السلام الملائكي) التي خلدت شوبير في عالم الموسيقى. .

(السلام الملائكي)

سلام عليك يا مريم! يا ملكة السماء
إليك ترتفع صلاتي، وأرى العطف في عينيك
وفيك أيتها الطاهرة أضع رجائي
ولدي كان مخفف بؤسي، ومعزى فاقتي
إنه تألم، وا أسفاه، إنه قضى
افهمي دموعي أنتِ، يا من كنتِ أماً
. . .وأعيدي إليّ طفلي البائس
سلام عليك يا مريم! إن ولدي جميل
. . .كنتُ به مختالة معجبة
. . .باركي سريره الصغير
إنه كان خيري، بل خيري الوحيد
إذا أصابني الله في غضبه
فاعطفي أنتِ على الصغير البريء
واستجيبي لي. . . إنني أم
تطلب الموت في سبيل ولدها
سلام عليك يا مريم
أرى طفلي ولد ثانية بالصلاة
كأنه الزهرة العاطرة، والمنحة الجميلة،
والجمال الجذاب، والسر المقدس،
انظري إليّ! أنت يا موضع أملي!

. . .ولدي! إن جبينك ليسطع نوراً
شكراً لك أيتها الأم الإلهية
أنتِ التي أنقذتِ ولدي
. . .سلام عليكِ يا مريم
هي مقطوعة تناجي بها أُم ثكلى (مريمَ) وتبثها شكواها. وقد برح بها الحزن وأمضها الألم. والآن تغلق قلبها المفتوح وتطوي ألمها المنشور، وتحس براحة نفسية، تصافح الألم فلا تراه شائكاً، بل هي الآن أوسع صدراً للألم لأنه لا يطغى على إيمانها. وقد تكون هذه الفكرة فكرة فنان شاعر يناجي مثله الأعلى الذي وجد فيه أمله الأسمى.
فهو يحمل نفسه المجرّحة يريد أن يلقى لها منزلاً تنزل فيه، فيجد الأبواب كلها مسدودة، وهاهو ذا الآن على طريق المثل الأعلى الذي سلخه عن الوجود قد تلاشى الحب في (شوبير) وانطفأت جذوته الملتهبة، وابتعدت ذكرياته العذبة. لا لأن شوبير محب كاذب يسهل عليه الاتصال والانفصال. ولكن شوبير قلبه قلب فنان، وقلب الفنان كبير، قد ارتسمت - على قلبه - كل أشواقه الماضية، وآلامه الغابرة وسرت معه لتؤلف (ذلك المثل الأعلى) بفنه الذي - كما قالت كارولين - إنه وحده يعطيه الخلود
وقد يتسائل القارئ: أما وقد عاد شوبير خائباً، فكيف التقت به (ايمي) فتاته الأولى؟
بقيت نقطة غامضة لم يعالجها المخرج ليترك المثل الأعلى منتصراً على كل شيء
- 5 -
قد لا تروق هذه النتيجة للبعض، لأنهم يتلقونها بعقولهم وعقولهم لا يرضيها شيء من غذاء العاطفة، ولا تقبل إلا بما فيه غذاء لمنطقها، ولا يغذى منطقها إلا عالم الواقع الملموس. . . ولكن فاتهم أن هذا العالم الواقعي قد بدأت تطفو عليه عوا الاضمحلال لأنهم قتلوا فيه كل مثل، سواء ذلك المثل الذي يوحيه الفن أو يوحيه الشعر
لا يحمل الناس من هذه الوهدة التي نزلوا فيها وهذه المادية التي استغرقوا فيها إلا الإيمان بالمثل الأعلى فهل نرى - السينما! - تقف يوماً أمام الفن والشعر جنباً لجنب، لتؤدي ما عليها من التبشير بهذا (المثل الأعلى)؟
خليل هنداوي
شاعرنا العالمي أبو العتاهية - 9
للأستاذ عبد المتعال الصعيدي
زهده وتكسبه بالشعر:
كان أبو العتاهية مع زهده لا يترك التكسب بشعره، وإذا رجعنا إلى حاله في ذلك وجدناه لم ينقطع عن بني العباس وقبول جوائزهم من عهد المهدي الذي ابتدأ اتصاله بهم فيه، إلى عهد المأمون الذي انتهت فيه حياته، وقد طعن عليه بذلك في زهده كثير من منافسيه في الشعر وغيره، وحملوا ذلك منه على الرياء والمخادعة، وقد أنشد المأمون بيت أبي العتاهية يخاطب سلماً الخاسر:
تعالى اللهُ يا سَلْم بن عمرو ... أذلَّ الحرص أعناق الرجال
فقال المأمون: إن الحرص لمفسد للدين والمروءة، والله ما عرفت من رجل قط حرصاً ولا شرها فرأيت فيه مصطنعاً. فبلغ ذلك سلماً فقال: ويلي على المخنث الجرار الزنديق، جمع الأموال وكنزها، وعبأ البدر في بيته، ثم تزهد مراآة ونفاقاً، فأخذ يهتف بي إذا تصديت للطلب. واجتمع أبو العتاهية مع جماعة عند قُثَم بن جعفر بن سليمان فأخذ ينشد في الزهد، فطلب قثم الجماز فأحضر إليه وأبو العتاهية ينشده، فأنشأ الجماز يقول:
ما أقبح التزهيد من واعظ ... يزهِّد الناس ولا يزهّد
لو كان في تزهيده صادقاً ... أضحى وأمسى بيته المسجد
يخاف أن تنفد أرزاقه ... والرزق عند الله لا ينفد
والرزق مقسوم على من ترى ... يناله الأبيض والأسود
فالتفت أبو العتاهية إليه فقال من هذا؟ قالوا الجماز، وهو ابن أخت سلم الخاسر، اقتص لخاله منك، فأقبل عليه وقال له: يا ابن أخي إني لم أذهب حيث ظننت ولا ظن خالك ولا أردت أن أهتف به، وإنما خاطبته كما يخاطب الرجل صديقه، فالله يغفر لكما، ثم قام
وحدث حبيب بن عبد الرحمن عن بعض أصحابه قال: كنت في مجلس خزيمة فجرى

حديث ما يسفك من الدماء، فقال والله ما لنا عند الله عذر ولا حجة إلا رجاء عفوه ومغفرته، ولولا عز السلطان وكراهة الذلة، وأن أصير بعد الرياسة سوقةً وتابعاً بعد ما كنت متبوعاً، ما كان في الأرض أزهد ولا أعبد مني، فإذا هو بالحاجب قد دخل عليه برقعة من أبي العتاهية فيها مكتوب:

أراك امرءاً ترجو من الله عفوه ... وأنت على ما لا يحب مقيم
ندل على التقوى وأنت مقصر ... أيا من يداوي الناس وهو سقيم
وإن امرءاً لم يلهه اليومُ عن غد ... تخوَّف ما يأتي به لحكيم
وإن امرءاً لم يجعل البر كنزه ... وإن كانت الدنيا له لعديمُ

فغضب خزيمة وقال: والله ما المعروف عند هذا المعتوه الملحف من كنوز البر فيرغب فيه حر. فقيل له وكيف ذاك؟ فقال لأنه من الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله

وقد كان أبو العتاهية يجمع إلى أخذه بهذا التكسب الذهاب في البخل إلى حد مكن منه خصومه فشوهوا به زهده أيضاً، وله في بخله نوادر كثيرة، وأخبار مأثورة، قال ثمامة بن أشرس أنشدني أبو العتاهية:

إذا المرء لم يعتق من المال نفسَهُ ... تملكه المال الذي هو مالكه
ألا إنما مالي الذي أنا منفق ... وليس لي المال الذي أنا تاركه
إذا كنتَ ذا مال فبادر به الذي ... يحق وإلا استهلكته مهالكه

فقلت من أين قضيت بهذا؟ فقال من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنما لك من مالك ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت. فقلت له أتؤمن بأن هذا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنه الحق؟ قال نعم، قلت فلم تحبس عندك سبعاً وعشرين بدرة في دارك ولا تأكل منها ولا تشرب ولا تزكي، ولا تقدمها ذخراً اليوم فقرك وفاقتك؟ فقال يا أبا معن والله إن ما قلت لهو الحق، ولكني أخاف الفقر والحاجة إلى الناس. فقلت وبم تزيد حال من افتقر على حالك وأنت دائم الحرص، دائم الجمع، شحيح على نفسك، لا تشتري اللحم إلا من عيد إلى عيد. فترك جواب كلامي كله، ثم قال لي والله لقد اشتريت في يوم عاشورا لحماً وتوابله وما يتبعه بخمسة دراهم، فلما قال لي هذا القول أضحكني حتى أذهلني عن جوابه ومعاتبته، فأمسكت عنه وعلمت أنه ليس ممن شرح الله صدره للإسلام

وحدث محمد بن عيسى الخزيمي وكان جار أبي العتاهية قال: كان لأبي العتاهية جار يلتقط النوى، ضعيف سيئ الحال، متجمل عليه ثياب، فكان يمر بأبي العتاهية طرفي النهار، فيقول أبو العتاهية اللهم أغنه عما هو بسبيله، شيخ ضعيف سيئ الحال عليه ثياب متجمل، اللهم أعنه، اصنع له، بارك فيه، فبقي على هذا إلى أن مات الشيخ نحواً من عشرين سنة، فقلت له يوماً يا أبا إسحاق إني أراك تكثر الدعاء لهذا الشيخ، وتزعم أنه فقير مقل، فلم لا تتصدق عليه بشيء؟ فقال أخشى أن يعتاد الصدقة، والصدقة آخر كسب العبد، وإن في الدعاء لخيراً كثيرا

وقال علي بن مهدي حدثني الحسين بن أبي السرى قال: قيل لأبي العتاهية مالك تبخل بما رزقك الله؟ قال والله ما بخلت بما رزقني الله قط، قيل وكيف ذاك وفي بيتك من المال ما لا يحصى؟ قال ليس ذلك رزقي، ولو كان رزقي لأنفقته

وقال محمد بن عيسى قلت لأبي العتاهية أتزكي مالك؟ فقال والله ما أنفق على عيالي إلا من زكاة مالي، فقلت سبحان الله، إنما ينبغي أن تخرج زكاة مالك إلى الفقراء والمساكين، فقال لو انقطعت عن عيالي زكاة مالي لم يكن في الأرض أفقر منهم

فأما تكسب أبي العتاهية بالشعر فلا شيء فيه عندي مع أخذه بذلك الزهد، لأن الزهد في الإسلام لا يمنع صاحبه من الأخذ بالأسباب والسعي في الحصول على الرزق، والتكسب بالشعر سبب من تلك الأسباب، والشعر فن من الفنون التي لا غنى للدولة عنها، فيجب أن يأخذ حظه من الأموال التي تجبي فيها، ويجب على أرباب الدولة أن يبسطوا أيديهم بالعطاء لرجاله، ليتوفروا على إجادته، ويتضافروا في النهوض به، وليس على الشعراء من حرج إذا لم يصل نصيبهم من ذلك إليهم أن يتلطفوا في الوصول إليه بمدح الملوك والوزراء، وكذا غيرهم ممن في أيديهم تلك الأموال، وإنما

يذم التكسب بالشعر إذا بالغ صاحبه في الإلحاح به، وجعله كل غايته من الشعر، فحمله ذلك على الالتواء في سبيله، واتخاذ الشعر أداة شر بين الناس، يقلب الحقائق بينهم، ويجعل في سبيل المال الباطل حقاً والحق باطلاً، والظلم عدلاً والعدل ظلماً؛ وقد تكسب الشعراء بشعرهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان له شعراء يمدحونه وينصرون دعوته، ويدافعون عنه أعداءه، ويردون عنه هجائهم بالحق إذا هجوه بالباطل

ولم يكن شاعرنا أبو العتاهية بحيث يصل به التكسب بالشعر إلى هذا الحد، وقد مضى لنا

في ترجمته ما يؤيد ذلك له، وكم له من مواقف مشهودة مع ملوك عصره وأمرائه، لم تنسه فيها جوائزهم أن ينكر عليهم ما يستحق الإنكار منهم، أو يغضب لنفسه إذا رأى منهم أقل تهاون به. حدث الحسين بن أبي السرى قال: مر القاسم بن الرشيد في موكب عظيم، وكان من أَتْيَهِ الناس، وأبو العتاهية جالس مع قوم على ظهر الطريق، فقام أبو العتاهية حين رآه إعظاماً له، فلم يزل قائماً حتى جاز فأجازه ولم يلتفت إليه، فقال أبو العتاهية:

يتيه ابنُ آدم من جهله ... كأن رحا الموت لا تطحنُهْ

فسمع بعض من كان في موكبه ذلك فأخبر به القاسم، فبعث إلى أبي العتاهية وضربه مائة مقرعة، وقال له: يا ابن الفاعلة أتعرض بي في مثل ذلك الموضع؟ وحبسه في داره، فدس أبو العتاهية إلى زبيدة بنت جعفر وكانت توجه له هذه الأبيات:

حتى متى ذو التَّيهِ في تيهه ... أصلحه الله وعافاهُ

يتيه أهل التيه من جهلهم ... وهم يموتون وإن تاهوا

من طلب العِزَّ ليبقى به ... فإن عز المرء تقواه

لم يعتصم بالله من خلقه ... من ليس يرجوه ويخشاه

وكتب إليها بحاله وضيق حبسه، وكانت مائلة إليه فرقت له، وأخبرت الرشيد بأمره وكلمته فيه، فأحضره وكساه ووصله، ولم يرض الرشيد عن القاسم حتى بر أبا العتاهية وأدناه واعتذر إليه

وحدث محمد بن عيسى قال: كنت جالساً مع أبي العتاهية إذ مر بنا حميد الطوسي في موكبه، وبين يديه الفرسان والرجالة، وكان بقرب أبي العتاهية سوادي على أتان، فضربوا وجه الأتان ونحُّوه عن الطريق، وحميد واضع طرفه على معرفة فرسه، والناس ينظرون إليه يعجبون منه وهو لا يلتفت تيهاً، فقال أبو العتاهية:

للموتِ أبناءٌ بهمْ ... ما شئت من صلف وتيه

وكأنني بالموت قد ... دارتْ رحاه على بنيهْ

فلما جاز حميد مع صاحب الأتان قال:

ما أذَلَّ المُقِلَّ في أعين النَّا ... س لإقلاله وما أقماهُ

إنما تنظر العيون من النَّا ... س إلى من ترجوه أو تخشاه

وقد كان أبو العتاهية في آخر أمره يحاول جهده أن يجعل جوائز الملوك وغيرهم إليه في نظير هدايا يتقدم بها إليهم، كما كان يفعل ذلك مع الأمين والمأمون فيما ذكرنا في ترجمته، وهو في ذلك يشعر بسمو منزلته إلى منزلتهم، ويترفع عن ذلك التكسب الذي كان يأخذ به في أول أمره، وإن كان على تلك الطريقة التي لم يكن لها أثر معيب في نفسه

وأما بخله فنعتقد أنه لم يصل فيه إلى ذلك الحد الذي يؤثر فيه ما أثر عنه من تلك النوادر وغيرها، وإنما ذلك من اختلاق خصومه ومنافسيه عليه، ليشوهوا منه تلك الصيحة المُدَوِّيَةَ في الزهد، ويظهروه في مظهر من يقول بما لا يفعل، فلا يتأثر الناس بدعوته، ولا ينظرون إلى أقواله، ولا شك أنه يشفع لأبي العتاهية في ضنه بماله أنه كان رجلاً شاعراً يجمع ماله من أيدي الملوك والعظماء، ويبذل في ذلك ماء وجهه على ما كانت عليه نفسه من عزة ورفعة، فإذا ضن به بعد هذا فإنما يحمله على ذلك أن يكون دائماً في غير حاجة ملحة إلى من يحاول أن يشتري شعره بها، فيسير فيه كما يشتهي هو لا كما يشتهي غيره، وقد كان أبو العتاهية دائماً مهدداً من أجل هذا بالحرمان، وعرضة للتضييق والسجن واستباحة المال، فهو يجمع من ذلك ما يجمع ليجده في وقت حرمانه، ويضن به على من لا يجده في ذلك الوقت إلا عدواً له أو شامتاً فيه، وقد

كان يجد من الناس ما ساء به ظنه فيهم، وآثر به العزلة عنهم، وكان له فيهم مذهب غريب يقضي بتبخيلهم كلهم، فهو يقارضهم بخلاً ببخل، ويضن عليهم ضناً بضن، قال مخارق: لقيت أبا العتاهية على الجسر، فقلت له: يا أبا إسحاق أتنشدني قولك في تبخيل الناس كلهم؟ فضحك وقال لي: هاهنا؟ قلت: نعم، فأنشدني:

إن كنت متخذاً خليلاً ... فَتَنَقَّ وانتقد الخليلا
من لم يكن لك منصفاً ... في الود فابغ به بَدِيلا
ولربما سئل البخي ... لُ الشيء لا يسوي فَتيلا
فيقول لا أجد السبي ... ل إليه بَكْرَهُ أن يُنِيلا
فلذاك لا جعل الإل ... هُ له إلى خير سبيلا
فاضرب بطرفك حيث شئ ... تَ فلن ترى إلا بخيلا

فقلت له: أفرطت يا أبا إسحاق، فقال: فديتك فأكذبني بجواد واحد؟ فأحببت موافقته، فالتفت يمينا وشمالاً، ثم قلت: ما أجد؛ فقبل بين عيني وقال: فديتك يا بني، لقد رفقت حتى كدت تسرف

وهكذا مضى أبو العتاهية عظيماً لم يزر به بخله ولا تكسبه بشعره، كما أزرى ذلك بغيره، ولو أن ذلك أزرى به كما زعمه خصومه لما كان لمنصور بن المهدي أن يمد إليه يده ليزوجه إحدى ابنتيه، وقد كان لأبي العتاهية بنتان: إحداهما (لله) والأخرى (بالله)، فخطب منصور منه (لله) فلم يزوجه، وقال: إنما طلبها لأنها بنت أبي العتاهية، وكأني به قد ملها فلم يكن لي إلى الانتصاف منه سبيل، وما كنت لأزوجها إلا بائع خزف وجرار؛ ولكني أختاره لها موسراً.

عبد المتعال الصعيدي

في اللغة والأدب

المثنيات في التاريخ والجغرافية والفلك - 2

للأستاذ محمد شفيق

(الأخشبان) هما جبلا مكة الملصقان بها: أبو قبيس والأحمر، وهو الجبل المشرف وجهه على قعيقعان، والأخشب في اللغة هو الجبل الخشن العظيم، ويقال هو الذي لا يرتقي علوه. وهما جبلا منى. وقيل هما الأخشب الشرقي والأخشب الغربي، فالشرقي أبو قبيس والغربي جبل الخُط من وادي إبراهيم. قال أبو عبيد: وأخشبا المدينة حرتاها

(البونان) بفتح الموحدة وسكون الواو: موضعان باليمن البون الأعلى والبون الأسفل، وهما متصلان من أعمال صنعاء، ويقال إن فيهما البئر المعطلة والقصر المشيد المذكوران في القرآن الكريم

(الخراتان) نجمان من كواكب الأسد، وقيل كوكبان بينهما قدر سوط وهما كتفا الأسد، وقيل سميا بذلك لنفوذهما إلى جوف الأسد

(الزبانيان) هما كوكبان نيران، وهما قرنا العقرب ينزلهما القمر، وهما مفترقان بينهما أكثر من قامة الرجل في رأي العين، ويسميهما أهل الشام يدي العقرب، ويقال لهما زباني الصيف، لأن سقوطهما في زمن تحرك الحر

(الشرَطان) نجمان من الحمل وهما قرناه

(الشرفان) بالوادي الأخضر من دمشق وهما الجانبان المتقابلان شرف أعلى وهو الشمالي وأدنى وهو القبلي، وبينهما الوادي والنهران بردى وبانياس. ويقال: فلان حاز الشرفين أي شرف الأب والأم

(الغوطتان) بدمشق معروفتان قبلية وشمالية

(الصفصافتان) معروفتان عند الدمشقيين، وهما: شجرتا صفصاف بالوادي التحتاني معدتان للتنزه ذكرهما الشعراء المتأخرون في أشعارهم فمنهم الأمير المنجكي حيث قال:

وبالصفصافتين مقام أنس ... عليل نسيمه يبري السقاما
إذا غنت حمائمه سكرنا ... بما تملي ولم نشرب مداما

(العزيزيتان) قريتان بمصر في ناحية الشرقية منسوبتان إلى العزيز بن المعز

(العسكريان) محمد بن علي والحسين بن رشيق، منسوبان إلى عسكر: محلة بمصر، وأبو الحسن علي بن محمد. . . بن جعفر وولده الحسن منسوبان إلى عسكر المعتصم

وهي مدينة سر من رأى (سامرا)، والعسكريان الأديبان أبو أحمد الحسن بن عبد الله العسكري وتلميذه أبو هلال الحسن بن عبد الله منسوبان إلى عسكر مكرم
نجمان منيران في بنات نعش يضرب المثل بهما في طول الصحبة في (الفرقدان) التساوي والتشاكل. قال البحتري:
كالفرقدين إذا تأمل ناظر ... لم يعد موضع فرقد عن فرقد
القرافة الصغرى والقرافة الكبرى، فيهما مقبرتا مصر، وكانتا من قبل (القرافتان) خطتين لقبيلة من اليمن ثم من المعافر ابن يعفر يقال لهم بنو قرافة
نجمان يطلعان قبل سهيل فيظن الناظر لكل منهما أنه سهيل، ويحلف آخر (المحلفان) أنه ليس به
ما يتعلق بالمنطق من المثنيات
الجنس القريب والجنس البعيد (الجنسان)
الحد التام والحد الناقص (الحدان)
صفتان وجوديتان يتعاقبان في موضع واحد يستحيل اجتماعهما كالسواد (الضدان) والبياض
بالعدم والملكة أمران أحدهما وجودي والآخر عدم ذلك الوجودي لا مطلقاً (المتقابلان) بل من موضع مقابل له كالبصر والعمى، والعلم والجهل، فإن العمى عدم البصر عما من شأنه البصر، والجهل عدم العلم عما من شأنه العلم
بالإيجاب والسلب هما أمران أحدهما عدم الآخر مطلقاً كالفروسية (المتقابلان) واللافروسية
هما المتقابلان الوجوديان اللذان يعقل كل منهما بالقياس إلى الآخر (المضافان) كالأبوة والبنوة
الحقيقي والإضافي: فالحقيقي الكلي المقول على واحد أو كثيرين متفقين (النوعان) في الحقائق في جواب ما هو، والإضافي ماهية يقال عليها وعلى غيرها الجنس قولاً أولياً أي بلا واسطة كالإنسان بالقياس إلى الحيوان
المثنيات المتعلقة بالتفسير والقراءات
هما الضلالة والهدى، في قوله تعالى (وهديناه النجدين) (النجدان)
هما في القرآن بمعنى سوداوين من شدة الخضرة من الري لأن العرب (مدهامتان) تسمي كل أخضر أسود
هما في الآية الكريمة جبلان متلاصقان، من المصادفة أي المقابلة، وقيل (الصدفان) من الصدف وهو الميل لأن كل واحد منهما منعزل عن الآخر
هما في قوله جل وعز (حتى إذا بلغ السدين) الجبلان المبني بينهما السدان (السدان) وهما جبلا أرمينيا وأذربيجان، وقيل هما جبلان منعيان في آخر بلاد الترك
هما في مصطلح أهل القراءات ابن كثير وابن عامر (الابنان)
هما أبو عمر وأبو بكر بن عاصم القارئان المشهوران (الأبوان)
هما حمزة والكسائي. (الحرميان) هما ابن كثير ونافع من القراء السبعة (الأخوان)
المثنيات المتعلقة بالحديث الشريف
أحدهما تدليس الإسناد وهو أن يروى عمن لقيه ولم يسمع منه موهماً أنه (التدليسان) لقيه أو سمع منه، والآخر تدليس الشيوخ وهو أن يروى حديثاً عن شيخ سمعه منه فيسميه أو يكنيه ويصفه بما لم يعرف به كيلا يعرف
هما عند الإطلاق أبو بكر وعمر، وعند المحدثين يراد بهما البخاري ومسلم (الشيخان)
في حديث (أنا ابن الذبيحين) اسمعيل أو إسحق وعبد الله أبو النبي صلى (الذبيحان) الله عليه وسلم. والمرجح أن الذبيح هو اسمعيل، وأما القول بأنه إسحق فمردود بأكثر من عشرين وجهاً
منبر النبي صلى الله عليه وسلم وعصاه، وقد ورد ذكر العودين في الحديث (العودان) وفسرا بذلك، وقال شمر في قول الفرزدق:
ومن ورث العودين والخاتم الذي ... له الملك والأرض الفضاء رحيبها
وكني بالعودين عن الشاهدين، قال شريح: القضاء جمرة فادفع الجمر عنك بعودين
الحية والعقرب، وفي الحديث (اقتلوا الأسودين) (الأسودان)
الإنس والجن سميا بذلك لثقلهما على الأرض ولرزانة رأيهم وقدرهم، أو لأنهم (الثقلان)

مثقلون بالتكليف، وفي الحديث (إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي) سماها ثقلين لأن الأخذ بهما والعمل بهما ثقيل إعظاماً لقدرهما وتضخيماً لشأنهما
محيسن ومحمد بن أحمد نسبة إلى أسوار - بالفتح - قرية بأصبهان، (الأسواريان) محدثان
محمد بن عبد الحبار ومحمد بن اسمعيل البسطامي محدثان (الأماميان)
المثنيات في الطب والكيمياء والنباتات
أبيض بياضه دقيق ظاهر البشرة لسوء مزاج العضو إلى البرودة وغلبة البلغم (البهقان) على الدم، وأسود يعتري الجلد إلى السواد لمخالطة المرة السوداء الدم
حلول سرياني وهو عبارة عن اتحاد الجنسين بحيث تكون الإشارة إلى (الحلولان) أحدهما إشارة إلى الآخر كحلول ماء الورد في الورد فسمي الساري حالاً والمسري محلاً، وحلول جواري وهو عبارة عن كون أحد الجسمين ظرفاً للآخر كحلول الماء في الكوز
أراد به الأطباء الزرنيخ الأحمر، والزرنيخ الأصفر (الزرنيخان)
نباتان أحمر ظاهره السواد وأبيض كذلك، وهما فارسيان معربان وكلاهما (البهمتان) يضران السفل ويصلحهما الأنيسون والكثيرا أو العناب
المثنيات المتصلة بالفلسفة والأخلاق والتصوف
هما على رأي الفلاسفة طبيعي واختراميّ فإنهم قالوا: الرطوبة الغريزية من (الأجلان) الحرارة الغريزية بمنزلة الدهن للفتيلة المشتعلة وكلما انتقص تتبعها الحرارة الغريزية في ذلك. . . . الخ ما ذكره المحبي في (جني الجنتين)
أدب الغريزة، وهو الأصل، وأدب الرواية وهو الفرع، ولا يتفرع شيء إلا بنمو (الأدبان) أصله، ولا ينمو الأصل إلا باتصال المادة، وقيل الأدبان أدب النفس وأدب الدرس
هما في اصطلاح أهل التصوف: الشخصان اللذان أحدهما عن يمين العرش (الإمامان) أي القطب ونظيره في الملكوت وهو مرآة ما يتوجه في المركز القطبي إلى العالم الروحاني من الإمدادات التي هي مادة الوجود والبقاء، وهذا الإمام مرآته، والآخر عن يساره ونظيره في الملك وهو مرآة ما يتوجه منه إلى المحسوسات من المادة الحيوانية وهذا مرآته ومحله أعلى من صاحبه وهو يخلف القطب إماماً إذا مات
أحدهما سقوط الأوصاف المذمومة، كما أن البقاء وجود الأوصاف المحمودة (الفناءان) وهو بكثرة الرياضة، والثاني عدم الإحساس بعالم الملك والملكوت، وهو بالاستغراق في عظمة الباري ومشاهدة الحق
النوعية والجسمية، وهما مجلهما الهيولي، وهي جوهر في الجسم قابل لما (الصورتان) يعرض له من الاتصال والانفصال
ما يتصل بالفقه والأصول من المثنيات
هما البائع والمشتري، وفي الحديث: (البيعان بالخيار ما لم يتفرقا) (البيِّعان)
مفهوم الموافقة ومفهوم المخالفة: فالأول ما يفهم من الكلام بطريق (المفهومان) المطابقة، والثاني ما يفهم من الكلام بطريق الالتزام، وقيل هو أن يثبت في السكوت على خلاف ما يثبت في المنطوق
هما الشريكان يخلط أحدهما ماله بمال الآخر، وفي الحديث: (وما كان من (الخليطان) خليطين فإنهما يتراجعان بينهما بالسوية
حنفي وشافعي: فالحنفي إسماعيل بن الحسن، والشافعي أحمد بن (البهيقان) الحسين
(يتبع)
محمد شفيق
القصص
صور من هوميروس
حروب طروادة - 2
باريس يعود
للأستاذ دريني خشبة
- (. . .ألست تحن إلى وطنك، وتتمنى لو ترى والديك يا باريس؟)
- (وطني ووالدي؟)

- (. . .؟. . .)
- (وهل لي وطن غير هذه المروج الخضر، ووالدان غير أبي الراعي وأمي المتداعية الفانية؟)
- (مسكين!!)
- (بل أسعد الناس بأن أكون ابنهما! ولمهْ؟ أليس أبي سيد هذه الفلوات، وأمي أعز الأمهات؟)
- (ذلك حق لو أن أباك هذا الراعي يا باريس!)
- (ماذا تعنين؟)
- (. . .أعني أنك لست ابنه؟)
- (وَيْ! لو لم تكوني فينوس لقتلتك!)
- (الحق أقول أيها العزيز!)
- (. . .أنت تعذبينني! ابن من إذن؟)
- (أترى إلى جمالك البارع، وجسمك الممشوق السمهري؟ أيكون هذا الخلق من نسل الرعاة الأجلاف؟)
- (. . . . . .؟. . . . . .)
- (. . .أتدور بك الأرض إذا علمت أنك ابن ملك؟)
- (سخرية وهزؤ. . . إلام تلذعين فؤادي يا ربة الحسن والحب؟ ألأنني أعطيتك التفاحة الخالدة؟. . . . . .)
- (الآلهة لا تكذب يا باريس!)
- (أنا؟. . . أبي. . . ملك؟. . . هذا الراعي؟! ملك ماذا؟)
- (ليس هذا الراعي قلت لك!! أنت لست ابنه! أنت سليل الملوك، الصيد!!. . . . . .)
- (. . . . . .إذن من عسى أن يكون أبي؟)
- (. . . . . .!!ملك طرودة)
- (. . . . . .!ملك طروادة أبي؟. . . بريام؟)
- (. . . . . .هو. . . هُوَ)
- (. . . . . .ها ها ها. . . . . ومن جاء بي هنا؟ سرقوني؟. . . أليس كذلك؟)
- (لا تنس يا باريس أنك في حضرة فينوس. . . وأقولها لك كرة أخرى: إن الآلهة لا تكذب. . . أجل أنت ابن بريام ملك طروادة. . . قيل له إنك تجر عليه ألواناً من العذاب فصدق، وأرسل بك من تركك فوق جبل بعيد، لتأكلك الذئاب. . . كل هذا إذ أنت طفل صغير. . . وليد. . . ولقد عثر بك ذلك الراعي الذي أباك ففرح بك وقال لامرأته: عسى أن يكون لنا منه ولد. . . والآن. . . لقد وعدتك زوجة جميلة. . . أجمل امرأة في العالم. . . فاذهب أولاً إلى طروادة، والق أباك فإنه سيعرفك. . . سيعرفك لأن له أبناء خلقهم كخلقك. . . وسيحدثه قلبه. . . وتكلمه روحه أنك ابنه. . . سيفرح بك بريام يا باريس، وسيخفق قلب هكيوبا. . . أمك التي تبكي من أجلك، وتتمناك بنصف ملكها!
فإذا اطمأنوا بك، ولبثت فيهم أياماً، فأبدِ لهم رغبتك في الإبحار إلى بلاد الإغريق في أسطول كبير. . . . . إن ثمة المرأة التي وعدتك. . . أجمل نساء العالم وغابت فينوس!.)
جلس باريس على صخرة تشرف على البحر المضطرب من جهة، وعلى السفح المعشوشب المصطخب بالحياة من جهة أخرى، ثم أخذ يفكر في كل كلمة انفرجت عنها شفتا فينوس. . .
(تُرى؟! أصحيح ما قالته فينوس؟ أصحيح أن بريام أبي؟ ألا أنادي أبي الراعي بعد اليوم؟
وأنت أيتها الشاء والنَّعم: أفراق لا لقاء بعده؟ وا أسفاه! لم لقيت فينوس؟ عزيز علي أن أهجرك إلى الأبد أيتها البطاح! وأنت أيتها السماء الحبيبة؟ بمَ أستبدل قلائدك الدرية في الليل، وشمسك الدافئة، وسحبك الموشاة بالذهب في النهار؟! . . . . . .)
الآلهة لا تكذب!! هكذا كانت تقول فينوس! أنا إذن ابن ملك! وأبي لا بد أن يكون غِرَّا ضيق العطن، وإلا فلم صدق ما ذكرته له الكهنة عني؟ طفل صغير يُنبذ بالعراء لتأكله

السباع! يا لقساوة القلوب، وتحجر الأكباد؟! وأمي؟ أين كانت أمي؟ وأين كان قلب الأم في هذه المرأة؟ كيف سهل عليها أن تدعني يُنطلق بي لأنبذ بالعراء، فريسة لا حول لها لكلاب الجبل، وطعمةً شقية لسباع البرية؟!. . . . . .)
لابد أن أذهب! لابد أن أعلم حقيقة أمري! وداعاً أيها البحر! وداعاً أيتها المروج! يا كل شيء هنا. . . وداعاً!)
. . .وانطلق لا يلوي على شيء
وكان أصدقاؤه الرعاة يلقونه في الطريق فينكرون منه كل شيء! ينكرون منه انقباضه وعهدهم به طلق المُحيّا لا يفارق المرح ثغره البسام، وينكرون منه صمته الطويل وهو الثرثار الذي لا يقف لسانه ولا تسكن شفتاه! وينكرون منه هذه النظرات العميقة الحزينة، وهو ذو العينين الضاحكتين والجبين المشرق الطروب. . .
وكان هو ينكرهم جميعاً كذلك! أليس قد عرف أنه ابن ملك؟ وابن أي ملوك العالم؟ ابن ملك طروادة! وهل أقوى وأعظم في ملوك العالم من ملك طروادة؟
وبرغم هذا الإنكار كان الرعاة ما يبرحون يحبون باريس ويعجبون به، وقد أحزنهم أن ينطلق فريداً وحيداً في فلوات تدمدم فيها السباع وتهمهم الوحوش، فذهبوا يقتصون أثره، وكانوا له حرساً شديداً في وحشة هذه البرية المخوفة. . .
. . .ووصل إلى طروادة
وجلس فوق هضبةٍ مرتفعةٍ قليلاً فنظر إلى المدينة الخالدة!
واجتمع حوله أصدقاءه الأمناء الأوفياء يسألونه فيم جاء إلى هذا البلد، ولم هجر قطعانه وأوطانه، وهل في أمره. . . حب. . .؟
وطمأنهم باريس، وزوّق لهم الأحلام والأماني، ووعدهم خيراً (لا ترى مثله عين، ولا يخطر على قلب بشر)
. . .ودخلوا المدينة
ويمموا ميدانها الرحب الفسيح، حيث اجتمع خلق كثير يشهدون المهرجان الرياضي، ويمتعون أنظارهم بشتى الألعاب التي يمارسها أبطال طروادة وما جاورها من القرى.
ولبث باريس وأصحابه ينظرون إلى المتبارين ساعة، ثم زهاههم الروح الرياضي فقدموا أنفسهم إلى الرئيس المشرف على الألعاب، فأشركهم في كثير من المباريات. . .
ولقد برّز باريس على أقرانه، وبدَّ كل من تبارى معهم في مضمار، حتى لفت إليه أعين النظّارة وأصبح موضع إعجاب الحاضرين. . .
وكانت الأسرة الملكية، الملك وزوجه وأبناؤه وحاشيته، يحدّقون في الفتى مشدوهين مأخوذين، وكانت الملكة خاصةً تحس كأن رباطاً روحانياً يجذبها إلى الناحية التي يجول باريس فيها ويصول؛ بل كانت تشعر كأن الحديد الذائب في عضلات البطل، إنما يتدفق من عضلاتها هي! وأعجب من ذلك جميعاً، ذلك الحنان المتفجر في قلبها، وذاك الحب الحزين السادر الذي يغمرها كلَّها من أجل هذا الغريب المفاجئ المجهول!
ولمحت كاسّنْدرا، ابنة الملك، ما كان ينتاب أمها من عواطف، وكانت فتاةً بارعة الحسن، مليحة الدل، فينانةً ريّانة؛ أعجب بها أبوللو فمنحها حبه، وهام بها حتى لكان يعبدها عبادةً، وهو الإله المعبود!
وكان ما يفتأ يباركها ويخلع عليها من نعمه؛ فمن ذلك أنه وهبها القدرة على كشف الغيب، والتنبؤ بما كان وما يكون؛ فكانت تخبر الناس بماضيهم وحاضرهم وما يكون من مستقبلهم وهم يسمعون ويعجبون. . .
ولكنها تاهت على أبوللو ودلّت، وكانت أبداً تمنحه الجفاء والصدود، وتُعرض عنه وهو المقبل عليها بروحه وقلبه وشعره وموسيقاه!
رجاها أبوللو أن تكون له، وأن ترتضيه لها بعلاً، ووعدها لقاء ذلك أن يبني لها القصور الشماء في قبة السماء، وأن يحملها معه أبداً في رحلاته العلوية فترى كل ما يدب على الأرض، وأغراها بالتوسط لدى كبير الآلهة زيوس الأعظم فيمنحها الخلود وربما رفعها إلى صفوف الآلهة أنفسهم. . . . . بيد أنها ما كانت لتزداد إلا شماساً وعناداً
ولما ضاق أبوللو بها ذرعاً، صب جام غضبه عليها، وسلّط عليها سخرية سامعيها، فما تقول شيئاً، ولا تتنبأ بشيء، ولا تكشف غيباً، إلا استهزأ بها الناس، وعيروها بأنها تكذب

. . .!وتهرف وتدعي
فلما شاهدت ما كان من فورة الإحساس التي تجرف قلب أمها من أجل باريس، ذكرت لها أن هذا الشاب إن هو إلا أخوها الذي نبذوه بالعراء فوق الجبل لتأكله السباع، وآيتها على ذلك هذا التشابه بينه وبين أخيها هكتور وبينه وبين أبيها الملك. وحاجها قومها فأحضروا باريس ليطابقوا بينه وبين هكتور. . . ولكن ما كادت المطابقة تتم حتى أخذته هكيوبا في حضنها الحنون المرتجف، صائحة مستعبرة: (ولدي باريس. . ابني باريس. . . ولدي. . . إليّ يا بني. . .!!). أما الملك فقد بكى هو الآخر، ونهض فعانق ابنه عناقاً طويلاً حاراً، غاسلاً جبينه المتلألئ المشرق بدموع الاعتذار عن الماضي البعيد المحزن
ولما أخبرهم باريس أن فينوس، ربة الحب والحسن، هي التي هدته إلى مولده ومنشئه وكريم أرومته، خر الملك وأهله لها ساجدين. . . إلا كاسندرا
لقد عبست عبوسةً قاتمة، وحدجت أخاها الغريب بنظرةٍ كالحةٍ!! ثم صاحت بالملك:
(أبي! لتحذر هذا الأخ. . لتحذر باريس. . . ولتذكر نبوءة الكهنة في معبد أبوللو. . . . . ابنك يجر الخراب على مملكتك، ويعرض شعبك للدمار، وينشر الموت في بيوت رعاياك!!)
وهنا ينتقم أبوللو، ويسخر من حبيبته الجافية!
لقد تضاحك الملك مستهزئاً، وغمزت الملكة ابنتها ولمزتها بكلام قارص. . . أما هكتور، فقد عبث بأخته ومازحها مزاحاً ثقيلاً. . .
مسكينة كاسندرا!
حتى الحاشية استهزأت بها وأشعرتها المذلة والهوان. . .!
كل ذلك والرعاة. . . أصدقاء باريس. . . ينظرون ويعجبون. . . ولا يفهمون!!
الآلهة لا تكذب!!
أفرخ روْع باريس إذن! وصدق كل ما ذكرته فينوس!
هاهو ذا يعيش في قصر منيف باذخ؛ وهاهو ذا، لأول مرة في حياته يخلع هذا الصوف الخشن الغليظ، ليلبس من سندسٍ أبيض وإستبرق! والولدان البيض كالتماثيل يطوفون عليه بأكواب الخمر من فضةٍ، وصحاف الآكال من ذهب! وشعب بأسره يطيع أباه ويطيعه، وجيوش تصدع بأمره، وأساطيل لجابٌ تملأ البحر، إذا شاء أقلعت وإذا شاء أرست؛؛؛ وملك وسلطان، وتاج وصولجان. . .!!
لا تنقصه الآن إلا أجمل فتاة في العالم. . .
تلك الفتاة التي وعدته فينوس! وما دامت الآلهة لا تكذب فأجمل فتاة في العالم هي من غير ريب في بلاد الإغريق. . . لأن فينوس أوصته بوجوب الإبحار إليها. . . وهل أجمل من حسان إسبرطة في بلاد الإغريق؟! إنهم قوم يعبدون الجمال واعتدال القوام إذن، فليبحر باريس إلى إسبرطة!!
(لها بقية)
دريني خشبة
البريد الأدبي
كتاب جديد عن ستالين
قرأنا في مجلة (لوروب نوفيل) وصفاً لمؤلف جديد عن (ستالين) بقلم مسيو بيير فريدريس. والظاهر أن شخصية ستالين (أو الرجل الصلبي) طاغية روسيا السوفيتية أضحت مستقر الاهتمام والدرس؛ فلأسابيع قلائل يصدر عن ستالين كتاب جديد بالفرنسية. وقد سبق أن أشرنا في هذا المكان إلى صدور الكتاب الأول وهو بقلم مسيو هنري باربيس الكاتب الفرنسي الثوري؛ وأما الكتاب الثاني فعنوانه ستالين أيضاً وهو بقلم مسيو بوريس سوفارين الكاتب الشيوعي؛ والكتاب الجديد بالفرنسية أيضاً مع أن مؤلفه مسيو سوفارين روسي الأصل نشأ في مهد الصحافة الروسية، ولكنه نزح إلى فرنسا منذ الثورة البلشفية، وغدا من أقطاب الشيوعيين في فرنسا، وكتابه يقع في مجلد ضخم يناهز الستمائة صفحة، وهو كما يسميه في عنوانه (خلاصة لتاريخ البلشفية) بيد أنها خلاصة ضافية جداً. ويبدأ مسيو سوفارين بالكلام عن ستالين ونشأته الأسيوية في بلاد الكرج في أسرة ريفية فقيرة؛ ثم يتناول تاريخ الحركات الثورية في روسيا منذ أواخر القرن الماضي بإفاضة، وتاريخ الأحزاب الثورية ومبادئها، وكيف

تمخضت عن قيام الحزب البلشفي في أوائل هذا القرن؛ ويتطرق من ذلك إلى الحديث عن مقدمات الثورة البلشفية التي انتهت بقيام الحكومة السوفيتية وقبض البلاشفة على أقدار روسيا إلى اليوم ويستعرض خلال ذلك كل ما سنه البلاشفة من القوانين أو النظم الجديدة الاقتصادية والاجتماعية؛ ويعنى عناية خاصة باستيعاب كل ما يتعلق بتلك الشخصية الغامضة - ستالين - وكل ما يمكن أن يلقي الضياء على خواصها الغريبة. ويبدو ستالين خلال هذا الدرس شخصية مدهشة، فبينما نراه في ثوب متواضع جداً رجلاً لا يتمتع بثقافة محترمة، إذا به رجل ذو إرادة حديدية مخيفة، وإذا به طاغية خطر، يتذرع بأقسى الوسائل لتحقيق سياسته وأهوائه، ثم إذا به لا يزال مطبوعاً بالنزعة والصفات الأسيوية القديمة في الشغف بالدس والعمل من وراء ستار. ثم لا ريب مع ذلك أن ستالين من أعظم شخصيات التاريخ الحديث، وهو بذلك جدير بأن يدرس دراسة عميقة واسعة كتلك التي يقدمها إلينا مسيو سوفارين بعد أعوام طويلة من البحث والدرس في جميع المصادر والمحفوظات الروسية والأجنبية

وفاة شاعر إنكليزي كبير

توفي أخيراً الشاعر الإنكليزي السير وليم وطسون في نحو السابعة والسبعين من عمره، وكان يعاني آلام المرض منذ أعوام؛ وولد السير وطسون في سنة 1858 في بلدة من أعمال يوركشير، وتلقى تربيته الأولى في ليفربول حيث كان أبوه يشتغل بالتجارة، ثم درس الحقوق في جامعة ابردين؛ وفي سنة 1880 نشر أولى قصائده في كتاب سماه (أمنية الأمير) وظهر فيه تأثره بنفوذ الشاعرين كيتس وتنيسون؛ وبعد بضعة أعوام أخرج كتابه (صور من الفن والحياة والطبيعة)، ولكنه لفت الأنظار لأول مرة حينما نشر في سنة 1890 قصيدته الشهيرة (قبر وردسورث) التي أثارت يومئذ إعجاب النقدة، واعتبرت دليلاً قاطعاً على مقدرته الشعرية؛ وأعقب السير وطسون ذلك بعدة قصائد وأناشيد شعرية؛ وظهر من ذلك الحين بمواهبه الأدبية، واشترك في تحرير كثير من الصحف الأدبية الشهيرة. ولما توفي الشاعر تنيسون رثاه بقصيدة رائعة ضم إليها قصيدة أخرى في الذكرى المئوية للشاعر شيللي (سنة 1893). وفي ذلك العام منحته الحكومة (معاش الأدب) الذي كان مخصصاً لتنيسون وقدره مائتا جنيه. ولما وقعت المذابح الأرمنية في تركيا في أواخر القرن الماضي، نشر السير وطسون عدة قصائد وأناشيد عنها في جريدة (الوستمنستر جازيت) ثم جمعت بعد ذلك في ديوان سمي (عام العار). وفي سنة 1909 نشر ديواناً سماه (القصائد الجديدة) فلقي نجاحاً عظيماً، ثم نشر (الشعر في المنفى)، وأنعم عليه بلقب (السير) سنة 1917؛ واستمر السير وطسون يعد ذلك يخرج مجموعات شعرية متعاقبة ويحمل شعر السير وطسون طابع المدرسة الروائية وميلها إلى البلاغة، بيد أنه يمتاز بالوضوح الجم والاحتشام الرفيع

ولما مرض السير وطسون منذ أعوام ولم تف موارده بحاجته للعلاج، أبدى مواطنوه له تقديرهم وإعجابهم بفتح اعتماد مالي شعبي يمكنه من إتمام علاجه وارتياد المصحات اللازمة؛ وقد نجح الاكتتاب نجاحاً عظيماً

وفاة السيد محمد رشيد رضا

استأثر الله في يوم الخميس الماضي بالعالم الكاتب والفقيه الحجة السيد محمد رشيد رضا

صاحب (المنار)؛ أدركه موت الفجاءة وهو في السيارة عائداً من توديع الأمير سعود في السويس. وليس في العالم الإسلامي مثقف يجهل تلميذ الأستاذ محمد عبده، وحامل لواء الإصلاح الديني من بعده؛ فإن أربعين سنة قضاها الفقيد الكريم في تحرير المنار يفسر كتاب الله على طريقة الإمام، ويبسط أحاديث الرسول على نهج السلف، ويحرر الفتاوى في المسائل الدينية المختلفة، ويقطع ألسنة المبشرين والملحدين بالأدلة النواهض، ويجلو عن الشريعة ظلام الشُبه بالعقل النير، ويزيد في ثروة الأدب الإسلامي بالمصنفات القيمة، حرية أن تحله من قلوب المؤمنين موضع التجلة، وتبوئه من صفحات التاريخ مكان الأئمة

ولد الفقيد في قرية (القلمون) إحدى قرى لبنان القريبة من طرابلس، فتلقى العلم طفلاً ويافعاً في هذه المدينة، ثم هاجر إلى مصر، فدخل الأزهر واتصل بالإمام محمد عبده اتصالاً وثيقاً، فأشار عليه أن يصدر (المنار) فكانت سجلاً لآراء الأستاذ الاجتهادية

في حياته، واستمرار لدعوته الإصلاحية بعد مماته. ثم ساهم في النهضة العربية واتصل بجمعياتها السرية في أطوارها المختلفة من سنة 1908 إلى قيام الحرب الكبرى. فلما أُعلنت الهدنة عاد إلى سورية فانتخب رئيساً للمؤتمر السوري الذي نادى بالأمير فيصل ملكاً؛ ثم ظل في خدمة هذه الدولة العربية الجديدة حتى ثل عرشها الفرنسيون سنة 1920، فارتد إلى القاهرة يحرر المنار ويعالج التأليف، فأصدر طائفة من الكتب القيمة أشهرها تكملة تفسير الإمام على هديه ووحيه، ثم الجزء الأول من تاريخ الإمام وكان قد أصدر منه جزءه الثاني فيما قاله، والثالث فيما قيل فيه، ثم كتابه الجليل (الوحي المحمدي) وهو من غير شك معجزة نبوغه وكتاب خلوده. رحمه الله رحمة واسعة وعوض فيه الإسلام والمسلمين خيراً

ذكرى أندرسن معبود الطفولة

احتفل أخيراً في كوبنهاجن عاصمة دانماركه بإحياء ذكرى الكاتب القصصي الكبير هانز كرستيان آندرسن، وذلك لمناسبة مرور ستين عاماً على وفاته. ويحق لدانماركه أن تفتخر أيما فخر بأن ينتسب إليها ذلك الذي يعتبر بحق معبود الطفولة في جميع أنحاء العالم. ذلك أن آندرسن هو أمير القصص الساذج الذي مازال سحر الطفولة المرحة منذ ثلثي قرن. وقد ولد آندرسن سنة 1805 في مدينة أودنسي من أعمال جزيرة فينن؛ وكان أبوه صانع أحذية شديد الفاقة فلم يتمكن من تربيته، ولكن جماعة من أصدقائه لاحظوا مواهب الطفل الخارقة

ولا سيما في الموسيقى؛ ولما بلغ هانز أشده أبدى مقدرة في قرض الشعر، وحاول أن ينتظم في سلك المسرح في كوبنهاجن؛ ولكن تربيته الساذجة حالت دون هذه الأمنية؛ وبلغ الملك خبر هذا الفتى العجيب ومواهبه الخارقة، فأمر بأن يلقن بعض ضروب الثقافة؛ وكان لذلك العامل الجديد أحسن الأثر في إبراز مواهبه الشعرية والفنية. وكان بدء شهرته ومجده قصيدته الخالدة (الطفل المحتضر). ثم تلاها بقطعة أدبية ساخرة اسمها (نزهة إلى آماك) وقد صدم آندرسن في بدء حياته الأدبية بمهاجمة النقدة؛ ولكنه لم يعبأ بهم؛ وأمر الملك بأن يسافر آندرسن في بعض الرحلات على نفقته. وكان أعظم ما أخرج آندرسن بعد رحلاته، قصصه الخالدة التي تعرف (بقصص الجن). ومنها (كتاب الصور الذي لا صور فيه) (سوق شاعر) (قصص من جتلندة) (البجعة المتوحشة) (العذراء الثلجية) (الجندي الشجاع) وغيرها؛ وهي جميعاً من القصص البريء الساذج الذي وضع للطفولة، ومن أبدع ما أخرج القلم في هذا الباب من القصص؛ ويمتاز آندرسون بخياله المبدع وأسلوبه الساحر، وخفة روحه التي تخلب لب قرائه الأطفال في جميع أنحاء العالم، وقد ترجمت قصصه إلى جميع اللغات الحية، بحيث أصبح بحق كاتباً عالمياً عظيماً.

قصور بيزنطية

من أنباء استانبول الأخيرة أن المباحث الأثرية التي يجريها العلامة الأثري الايكوسي الأستاذ باكستون للبحث عن مواقع بيزنطية القديمة قد أسفرت عن العثور على بعض آثار تحدد موقع القصر الإمبراطوري القديم أو قصر قياصرة الدولة الشرقية. وقد توفر على درس هذه المسألة عدد كبير من العلماء؛ ودرسوها على ضوء الخطط القديمة لعاصمة القياصرة؛ ولكن مباحثهم كانت نظرية في الغالب؛ وأشهر من قام بهذه الدراسات العالمان الأثريان ممبوري وفياند في رسالتين شهيرتين أثبتت بهما بعض الخرائط والخطط النظرية القديمة لعاصمة القياصرة. وقد استعان الأستاذ باكستر بهذه الدراسات التاريخية على إجراء مباحثه؛ وبدأ بالحفر على مقربة من جامع السلطان أحمد الذي تجتمع فيه عدة من أشهر الآثار البيزنطية مثل كنيسة أياصوفيا الشهيرة، وهي على مقربة منه، ومسرح الهيبدروم (مسرح الخيل)؛ وحصر الأستاذ حفرياته في المنحدر المتجه نحو البحر، فعثر على عمق مترين ونصف متر على ممشى من الرخام وعلى بعض الأساسات القديمة، ووجد بينها آثار أحجار وفسيفساء تدل على أنها من صنع الترك في القرن السادس عشر؛ ولما نظفت هذه الأسس وحفر حول الممشى الرخامي ظهرت فسيفساء أخرى، عرف في الحال أنها من بقايا القصر الإمبراطوري، فتوسع الأستاذ باكستر في الحفر في تلك المنطقة، فعثر على قطع أخرى من الفسيفساء البيزنطية القديمة، ولم يعرف بعد أي جزء من القصر الإمبراطوري هذا الذي أكتشف؛ على أن هذا الممر الرخامي يمتد نحو عشرين

متراً، وعرضه نحو عشرة أمتار، وتظلله أعمدة ترتفع نحو خمسة أمتار ونصف متر. والمظنون أن هذا الممر إنما هو أحد أروقة (الهيبدروم)؛ وقد كانت هذه الأورقة في العصور القديمة داخل القصر في الجناح المخصص لشخص الإمبراطور؛ وربما كان هذا الممر الرخامي وهذه الفسيفساء من بقايا كنيسة (ثانيا) وهي الكنيسة الإمبراطورية الخاصة، وربما كان من بقايا الجناح الصيفي الذي بناه الإمبراطور تيوفيلوس. ومهما كانت الآراء الخاصة بهذه الآثار، فإن الرأي مجمع على أنها على أعظم جانب من الأهمية في الكشف عن مواقع القصر الإمبراطوري القديم

نظريات الجنس والدم في ألمانيا

تتخذ نظريات الجنس والدم والسلالة في ألمانيا كل يوم صوراً مدهشة من الغلو والإغراق؛ ومازالت التفرقة بين الجنس الآري والجنس السامي (وبخاصة اليهود) عماد الفكرة الجنسية؛ ولكن تحدث أخيراً بعض غلاة الوطنيين الاشتراكيين (الهلتريين) فقال إن الطب الحديث هو من عوامل فساد الدم، ويجب أن يحذر الجنس الآري والجنس الجرماني بنوع خاص تجارب الطب الحديث لأنه يهودي المنشأ والصبغة؛ وقد تفنن أقطاب الأطباء والباحثين اليهود في اختراع نظريات الميكروبات وغيرها وأفسدوا بذلك نظام الطب الطبيعي الذي يجب أن يكون شعار الجرمانية إلى غير ذلك من الأقوال المغرقة التي تدل على غلوّ لا في التعصب فقط ولكن في تشويه العلم والحقيقة أيضاً. وثمة صيحة غريبة أخرى يلقيها غلاة الهتلريين، فهم يحذرون الألمان من أكل البقول والمنتجات الأجنبية، لأنه لا يصح أن يتكون الدم الألماني النقي إلا بالأغذية والبقول التي تنتجها الأرض الألمانية. وضربت جريدة (الفرانكيشه تسيتونج) مثلاً لذلك بالليمون الذي ارتفعت أسعاره أخيراً في ألمانيا، فقالت يجب على الألمان أن يصرفوا النظر عن الليمون الأجنبي لأنه يفسد دماءهم، وأن يستعيضوا عنه ببقل ألماني آخر يسمى (الرها بارب) وهو بقل حامض يزرع بكثرة في ألمانيا ويمكن استخراج حامضه واستعماله مكان الليمون؛ وهكذا يخلط القوم خلطاً غريباً في نظريات الدم والسلالة والقومية وغيرها من حميات التعصب المغرق التي تجرف ألمانيا الهتلرية

الرقص العاري ليس فناً

هل يعتبر الرقص العاري منافياً للحياء؟ لقد انتشر الرقص العاري أخيراً في فرنسا وأصبحت عدة من ملاهيها الشهيرة تخصص للرقص العاري في برنامجها أهم مكان. والمقصود بالرقص العاري هو العراء المطلق، ويقوم به راقصات حسان يرقصن أمام الجمهور عاريات تماماً، ولم يكن البوليس يتدخل في أمر هذا الرقص لاعتباره داخلاً في باب الفن، ولكن القضاء تدخل أخيراً بناء على شكوى قدمت إليه من أحد النظارة، فقد اصطحب رجل زوجه وابنته إلى أحد الملاهي الشهيرة، وبعد حين غادرت ابنته المكان لسبب ما، ولم يمض على خروجها برهة حتى ظهرت الراقصة الشهيرة جوان وارنر عارية تماماً وأدت رقصتها، وهتف لها الجمهور طويلاً. ولكن السيد المشار إليه ذهب تواً إلى إدارة البوليس وقدم شكواه ضد هذا المنظر المنافي للحياء والذي ينطوي على فسق بين. ورفع الأمر إلى القضاء، فقدمت الراقصة وصاحب الملهى متهمين بارتكاب عمل ينافي الحياء، وأخذت المحكمة بهذا الرأي، وقضت على الراقصة بغرامة قدرها خمسون فرنكاً، وعلى صاحب الملهى بمائة فرنك، وذلك برغم ما دفعت به الممثلة من أن رقصها العاري إنما هو رقص محتشم يدخل في باب الفن، وبرغم ما دفع به صاحب الملهى من أن برنامج الليلة كان مذكوراً فيه هذا المنظر، وقد كان على المشتكي أن يمتنع من الدخول

الكتب

كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك

للمقريزي

نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر

للأستاذ محمد بك كرد علي

المقريزي مؤرخ القرن التاسع غير مدافع (845هـ)، استفاضت شهرته بتآليفه في حياته وبعد مماته، وقد طبع له حتى الآن (كتاب التنازع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم) و (الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام) و (البيان

والإعراب عما في أرض مصر من الأعراب) و (الأوزان والمكاييل الشرعية) و (الطرفة الغريبة في أخبار حضرموت العجيبة). وأهم كتبه الذي حفظ به تاريخ عمران مصر كتابه (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) الذي يدعى تسهيلاً (الخطط) طبع غير مرة وعنى به علماء المشرقيات عناية خاصة ومنهم من اقتطع منه فصولاً نقلها إلى إحدى اللغات الأفرنجية، ومنهم من درسه في الجامعات وعلق عليه

ومن كتب المقريزي التي بقيت محفوظة في بعض دور الكتب العامة، واكتفى علماء الشرقيات بنقل ما يتعلق بغرضهم منها (كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك) وقد وفق الأستاذ محمد مصطفى زيادة المدرس بقسم التاريخ في كلية الآداب بالجامعة المصرية بإخراج هذا السفر الجليل على طريقة علماء المشرقيات في إحياء تراثنا الأدبي، معارضاً له على عدة نسخ مخطوطة وأهمها نسخة بخط المؤلف. وتجد في كل صفحة أثر العناية البالغة في هذا الجزء الأول - القسم الأول 261 صفحة من القطع الأخير

كتب المقريزي - كما جاء في تصدير الناشر - كتابه على نظام الحوليات الشائع في) مؤلفات المؤرخين الشرقيين في القرون الوسطى فسرد تاريخ كل سنة على حدته، ولم يحاول أن يصل بين سنة وأخرى أبداً، ولم يستوقف القارئ في وسط السنين إلا وقال المقريزي إنه لما أكمل كتاب (عقد جواهر الأسفاط من (عند حدوث عهد جديد أخبار مدينة الفسطاط) و (كتاب اتعاظ الحنفاء بأخبار الخلفاء) وهما يشتملان على ذكر من ملك مصر

من الأمراء والخلفاء منذ فتحت وإلى أن زالت الدولة الفاطمية. أحب أن يصل ذلك بذكر من ملك مصر بعدهم من الملوك الأكراد الأيوبية والسلاطين المماليك التركية والجركسية غير معتن فيه بالتراجم والوفيات لأنه أفرد لها تأليفاً آخر

وفي هذا الكتاب كما في أكثر ما خطته يد المقريزي يسقط الباحث على شذرات في التاريخ وآراء سديدة في نقد الحوادث، ما عرف عنه مثله في سائر كتبه المنقحة، فقد قال في دولة بني العباس وهو ما سبق له التصريح بمثله في كتابه النزاع والتخاصم: (وفيها افترقت كلمة الإسلام وسقط اسم العرب من الديوان، وأدخل الأتراك في الديوان، واستولت الديلم ثم الأتراك، وصار لهم دول عظيمة جداً، وانقسمت ممالك الأرض عدة أقسام، وصار بكل قطر قائم يأخذ الناس بالعسف ويملكهم بالقهر) وقال في المنصور إنه أول من أوقع الفرقة بين ولد العباس وولد علي بن أبي طالب وكان قبل ذلك أمرهم واحداً، وهو أول خليفة قرب المنجمين وعمل بأحكام النجوم، وأول خليفة ترجمت له الكتب من اللغات، وأول خليفة استعمل مواليه وغلمانه في أعماله وقدمهم على العرب، فاقتدى به من بعده من الخلفاء، حتى سقطت قيادات العرب وزالت رياستها وذهبت مراتبها، وكان قد نظر في العلم فكثرت في أيامه روايات الناس واتسعت علومهم

ومما دونه من حوادث سنة 594 أن معز الدين إسماعيل ابن سيف الإسلام طغتكين ملك اليمن ادعى الألوهية نصف نهار وكتب كتاباً وأرخه من مقر الألوهية ثم رجع عن ذلك، وادعى الخلافة، وزعم أنه من بني أمية ودعا لنفسه في سائر مملكته بالخلافة، وقطع الدعاء من الخطبة لبني العباس ولبس ثياباً خضراً وعمائم خضراً مذهبة، وأكره من كان في مملكته من أهل الذمة على الإسلام. . . وفي حوادث سنة 607 أن الملك الأوحد ابن العادل ظفر بملك الكرج ففدى هذا نفسه منه بمائة ألف دينار وخمسة آلاف أسير من المسلمين، وأنه يلتزم الصلح ثلاثين سنة وأن يزوجه ابنته بشرط ألا تفارق دينها. وفي حوادث 609 أنه كان في جهاز ضيفة خاتون ابنة العادل مائة مغنية يلعبن بأنواع الملهى، ومائة جارية يعملن أنواع الصنائع البديعة. وفي حوادث 626 أنه وقعت الحوطة على دار القاضي الأشرف أحمد بن القاضي الفاضل، وحملت خزائن الكتب جميعها إلى قلعة الجبل بمصر، وجملة الكتب ثمانية وستون ألف مجلدة، وحمل من داره خشب خزائن الكتب

مفصلة وحملها تسعة وأربعون جملاً، وإن عدة الكتب 11808 كتب، ومن جملة الكتب المأخوذة كتاب الأيك والغصون لأبي العلاء المعري في ستين مجلداً

وقال في الموفق العباسي إنه أول خليفة قُهر وحجر عليه ووكل به. وروى قول ابن مقلة: (إنني أزلت دولة بني العباس وأسلمتها إلى الديلم لأني كاتبت الديلم وقت

انفاذي إلى أصبهان وأطمعتهم في سرير الملك ببغداد فإن اجتنيت ثمرة ذلك في حياتي وإلا فهي تجتني بعد موتي.) وذكر أنه قلت الجباية في عهد العزيز من الأيوبيين بمصر فاتفقوا في دار السلطان على ما يصرف إلى عياله وما يقتات به أولاده، وأفضى الأمر إلى أن يؤخذ من الأسواق ما لا يوزن له ثمن وما يغصب من أربابه، وأفضى هذا إلى غلاء أسعار المأكولات، فإن المتعيشين من أرباب الدكاكين يزيدون في الأسعار العامة بقدر ما يؤخذ منهم للسلطان، فاقتضى ذلك النظر في المكاسب الخبيثة وضمن باب المزر باثني عشر ألف دينار، وفسح في إظهاره وبيعه في القاعات والحوانيت، ولم يقدر أحد على إنكار ذلك، وصار ما يؤخذ من هذا السحت ينفق في طعام السلطان وما يحتاج إليه، وصار مال الثغور والجوالي إلى من لا يبالي من أين أخذ المال. . . العزيز هو الذي منع من استخدام أهل الذمة في شيء من الخدم السلطانية، وألزموا لبس الغيار في عهده، وأعاد المكوس التي كان أبطلها أبوه صلاح الدين وزاد في شناعتها، وتجاهر بالمعاصي والمنكرات، وأباح أرباب الأمر والنهي الخمر والحشيش، وأقيمت عليها الضرائب الثقيلة، واضطربت أحوال الديار المصرية من قلة العدل وكثرة المعاصي والفسوق، وكثر اجتماع النساء والرجال على الخليج لما فتح، وعلى ساحل مصر، وتلوث النيل بمعاص قبيحة (وعدمت الأرزاق من جانب الديوان، وتعذرت وجوه المال حتى عم المرتزق الحرمان، واستبيح ما كان محظوراً من فتح أبواب التأويلات وأخذ ما بأيدي الناس بالمصادرات) ومع هذا قال المقريزي في هذا الملك لما مات: إنه كان ملكاً كريماً عادلاً رحيماً، حسن الأخلاق، شجاعاً، سريع الانقياد، مفرط السخاء، سمع الحديث من السلفي وابن عوف وابن بري، وحدث، وكانت الرعية تحبه محبة كثيرة، وكان يعطي العشرة آلاف دينار، ويعمل سماطاً عظيماً يجمع الناس لأكله، فإذا جلسوا للأكل كره منهم أكله، ولا يطيب له ذلك، وهذا من غرائب الأخلاق &

ووصف في حوادث سنة سبع وتسعين وخمسمائة الغلاء الذي حدث في مصر حتى أكل الناس الميتات وأكل بعضهم بعضاً وتبع ذلك فناءٌ عظيم، وتمادى الحال ثلاث سنين متوالية لا مدُّ النيل فيها إلا مداً يسيراً، وشنع الموت في الأغنياء والفقراء فبلغ من كفنه العادل من الأموات في مدة يسيرة نحواً من مائتي ألف إنسان وعشرين ألف إنسان، وأكلت الكلاب بأسرها، وأكل من الأطفال خلق كثير، وصار الناس يحتال بعضهم على بعض ويؤخذ من قُدر عليه فيؤكل، وإذا غلب القوي ضعيفاً ذبحه وأكله، وفقد كثير من الأطباء لكثرة من كان يستدعيهم إلى المرضى فإذا صار الطبيب إلى دار المريض ذُبح وأُكل. وهذا الوباء والغلاء يشبهان ما وقع من مثلهما في أواخر عهد الفاطميين في مصر والشام

ويطول بنا المقال إذا أردنا الاستكثار من الاقتباس من كتاب الملوك، وقد استفدنا منه أنهم كانوا يطلقون على النبيلات من ربات الحجال (الستر العالي الصاحبة فاطمة)، (الستر العالي الصاحبة غازية خاتون)، (الستر الرفيع فلانة) كما نقول اليوم (صاحبة العصمة)، وكنت قرأت على حائط فناء مدرسة الفردوس بحلب: (هذا ما أمرت بإنشائه ذات الستر الرفيع والجناب المنيع الملكة الرحيمة عصمة الدنيا والدين، ضيفة خاتون ابنة السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب. . .)

محمد كرد علي

العدد 113 - بتاريخ: 02 - 09 - 1935

مصر والأمم الشرقية

أثارت زيارة سمو الأمير سعود ولي عهد المملكة السعودية لمصر مسألة قديمة لا تزال منذ أعوام موضع الدهشة والتساؤل، هي مسألة العلائق الرسمية بين مصر والمملكة السعودية؛ فمصر لم تعترف حتى اليوم بصفة رسمية بالمملكة السعودية، أعني بحكومة نجد والحجاز، كما أن المملكة السعودية لا تعترف من جانبها بالدولة المصرية؛ ولا توجد دولة أخرى من دول العالم لا تعترف بها مصر سوى روسيا السوفيتية

وقد كشفت الحفاوة الودية الرائعة التي استقبل بها الأمير سعود في مصر، واشتركت فيها الحكومة بصفة غير رسمية، عن مبلغ ما يعتور العلائق بين مصر والمملكة السعودية من شذوذ ونقص؛ وكانت حماسة الأمة المصرية في استقبال ضيفها العظيم

أكبر دليل على ما تكنه مصر للأمة العربية الشقيقة من صادق الحب والإخاء، وعلى مبلغ ما تشعر به من بواعث الأسف لهذا الوضع الشاذ الذي ما زال يغشى صفاء العلائق الرسمية بين الدولتين

لماذا لا تبادر مصر بالاعتراف بالحكومة السعودية، وقد اعترفت بها دول العالم جميعاً؟ هذا ما نتساءل عنه منذ أعوام. إن مصر تستطيع أن تبرّر عدم اعترافها بروسيا السوفيتية، وهي الدولة الوحيدة الأخرى التي لا تعترف بها، بما شاءت من الحجج والمعاذير؛ ولكن موقفها من المملكة السعودية مما يصعب فهمه وتعليله. وإذا لم يكن ثمة موضع للتحدث عن التبعات في هذا المقام، فانه مما يجدر ذكره أن جلالة ابن السعود قد أبدى في كل فرصة استعداداً يحمد لتنظيم العلائق بين مملكته وبين المملكة المصرية. وقد تكون ثمة مسائل وتفاصيل لابد من تسويتها لإقامة الروابط الرسمية بين الحكومتين على أسس وطيدة مرضية؛ ولكنا لا نعتقد أن هذه المسائل من الخطورة بحيث يتعذر تذليلها وحلها

ولسنا في حاجة لأن تنوه في هذا المقام بما يجمع بين الأمتين من الروابط التاريخية القديمة، ولا بما يوثق بينهما من أواصر الدم والدين واللغة ومختلف المصالح المعنوية والمادية؛ وإذا كان مما يدعو إلى الغبطة أن الأمتين رغم هذا الشذوذ القائم في علائقهما الرسمية، تقدر كلتاهما واجبها نحو الأخرى، وتعاملها معاملة الأخت الشقيقة، بل وتبعث إليها بممثل غير رسمي يتمتع فعلاً بجميع المجاملات الممكنة، فإنه لابد من تتويج هذه الحالة الفعلية القائمة بالصبغة الرسمية الصريحة حتى يزول كل ريب والتباس في علائق الدولتين

وثمة ملاحظة أخرى في موقف مصر من الأمم الشرقية الشقيقة هي تصرفها في مسألة تبادل التمثيل السياسي مع أفغانستان؛ فقد أنشأت أفغانستان لها في مصر منذ أعوام مفوضية خاصة وبعثت إليها بوزير مفوض؛ ولبثت أفغانستان تنتظر مدى أعوام أن تعاملها مصر بالمثل، وأن تقوم في كابول مفوضية مصرية يتولى أمرها وزير مصري مفوض؛ ولكن الحكومة المصرية رأت أخيراً أن تكتفي بأن تنشئ في كابول مفوضية اسمية يتولى أمرها (قائم بالأعمال) وأن تسند إلى وزير مصر المفوض في طهران، فاضطرت الحكومة الأفغانية إزاء ذلك أن تلغى مفوضيتها في مصر، وأن تبعث بوزيرها المفوض إلى جهة أخرى، وأن تكتفي كالحكومة المصرية بمفوضية اسمية يتولاها (قائم بالأعمال) وتسند إلى وزير أفغانستان المفوض في تركيا

وهذه نتيجة يؤسف لها؛ خصوصاً إذا ذكرنا أن مصر في الوقت الذي تقدم فيه على هذا التصرف إزاء أفغانستان، وفي الوقت الذي تكتفي فيه بأن يمثلها في العراق (قائم بالأعمال)، تنشئ لها مفوضية جديدة في النمسا يتولاها وزير مفوض خاص

هذه مآخذ في سياسة مصر الخارجية نحو الأمم الشرقية، كنا نود أن تنزه عنها وأن ترتفع فوقها؛ فمصر وحدة بارزة في هذه الكتلة الشرقية التي تضطرم اليوم بروح جديدة، وتحفزها آمال وأماني مشتركة، وتجمع بينهما جميعاً صلات التاريخ والأجيال، وسياسة مصر نحو هذه الأمم الشقيقة يجب أن تقوم على اعتبارات معنوية سامية ترتفع فوق كل الاعتبارات المادية

ويجب أن تذكر مصر دائماً أنها تضطلع بتبعات خاصة نحو العربية والإسلام؛ فهي تحمل رسالة الثقافة العربية، وإليها تتجه أنظار الأمم العربية، تقفوا أثرها وتتعاون معها في إحياء

الآداب العربية، ثم هي تحمل زعامة الإسلام الدينية والاجتماعية، وإليها تتجه أنظار الأمم الإسلامية لتتعاون معها في حماية التراث الإسلامي المشترك؛ وفي تضامن مصر مع الأمم العربية والإسلامية في بصوره الممكنة قوة لا يستهان بها؛ وهذا المركز الخاص الذي تتبوأه مصر بين الأمم العربية والإسلامية يحتم عليها أن تكون قدوة في حسن التفاهم مع هذه الأمم الشقيقة التي تلتف حولها وتحبوها بعطفها وتقديرها

فهل لنا أن نؤمل أن تتجه سياسة مصر الخارجية إلى تقدير هذه العوامل والاعتبارات الخطيرة؟ وهل نشهد في القريب العاجل عقد معاهدة الصداقة المصرية الحجازية؟ هذا ما نرجو لخير مصر، وخير العروبة والإسلام

في الربيع الأزرق
خواطر مرسلة
للأستاذ مصطفى صادق الرفاعي

ما أجملَ الأرضَ على حاشيةِ الأزرقَيْن البحر والسماء؛ يكادُ الجالسُ يظنُّ نفسَه مرسوماً في صورة إلهية

نظرتُ إلى هذا البحر العظيم بعينَيْ طفلٍ يتخيل أن البحر قد مُلئَ بالأمس، وأن السماءَ كانت إناءً له، فانكفأ الإناء فاندفق البحر؛ وتَسرَّحْتُ مع هذا الخيال الطفليَّ الصغير فكأنما نالني رشاشٌ من الإناء. . .

إننا لن ندركَ رَوعةَ الجمال في الطبيعة إلا إذا كانت النفسُ قريبةً من طفولتها، ومرَح الطفولة، ولعبها، وهَذَيَانها

تبدو لك السماءُ على البحر أعظمَ مما هي، كما لو كنتَ تنظر إليها من سماءٍ أخرى لا من الأرض

إذا أنا سافرتُ فجئتُ إلى البحر، أو نزلتُ بالصحراء، أو حللتُ بالجبل؛ شعرتُ أولَ وهلةٍ من دهشة السرور بما كنت أشعر بمثله لو أن الجبلَ أو الصحراءَ أو البحرَ قد سافرت هي وجاءت إليّ

في جمال النفس يكون كلُّ شيء جميلا إذ تُلقي النفسُ عليه من ألوانها، فتنقلب الدارُ الصغيرةُ قصراً لأنها في سَعِة النفس لا في مساحتها، وتَعرفُ لنور النهار عذوبةً كعذوبة الماء على الظمأ، ويظهر الليل كأنه معرضُ جواهر أقيم للحُور العِين في السماوات، ويبدو الفجرُ بألوانه وأنواره ونسماته كأنه جنةٌ سابحة في الهواء

في جمال النفس ترى الجمالَ ضرورةً من ضرورات الخليقة وَيْ كأن الله أمرَ العالَم ألاَ يَعبسَ للقلب المبتسم

أيامُ الَمصِيف هي الأيامُ التي ينطلق فيها الإنسان الطبيعيُّ المحبوسُ في الانسان؛ فيرتدُّ إلى دهرِه الأول دهر الغابات والبحار والجبال

إن لم تكن أيامُ المصيف بمثل هذا المعنى، لم يكن فيها معنى

ليست اللذة في الراحة ولا الفراغ، ولكنها في التعب والكَدْح والمشقة حين تتحولُ أياماً إلى راحة وفراغ

لا تتمُّ فائدةُ الانتقال من بلد إلى بلد، إلا إذا انتقلت النفس من شعور إلى شعور؛ فإذا سافر معك الهمُّ فأنت مقيمٌ لم تَبرحْ

الحياةُ في المصيف تثبت للإنسان أنها إنما تكونُ حيث لا يُحْفَلُ بها كثيراً

يشعر المرءُ في المُدُن أنه بين آثار الإنسان وأعماله، فهو هناك في رُوح العَناء والكَدْح والنزاع؛ أما في الطبيعة فيحُسُّ أنه بين الجمال والعجائب الإلهية، فهو هنا في روُح اللذة والسرور والجلال

إذا كنت في أيام الطبيعة فاجعل فكرك خالياً وفَرِّغْه للنَّبت والشجر، والحجَر والمَدَر، والطير والحيوان، والزهر والعُشْب، والماءِ والسماء، ونورِ النهار وظلام الليل، حينئذ يفتح لك العالَم بابَه ويقول: ادخل

لطْفُ الجمال صورةٌ أخرى من عظَمَة الجمال؛ عرفتُ ذلك حينما أبصرتُ قطرةً من الماء تلمعُ في غصن، فخيِّل إليّ أن لها عظمة البحر لو صَغُر فعُلِّق على ورقة

في لحظة من لحظات الجسد الروحانية، حين يفورُ شِعرُ الجمال في الدم - أطلتُ النظرَ إلى وردة في غصنها زاهيةٍ، عطرة، متأنقة، متأنثة؛ فكدت أقول لها: أنتِ أيتها المرأة، أنت يا فلانة. . .

أليس عجيباً أن كل إنسان يرى في الأرض بعض الأمكنة كأنها أمكنةٌ للروح خاصة؛ فهل يدلّ هذا على شيء إلا أن خيالَ الجنة منذ آدمَ وحوَّاء، لا يزال يعمل في النفس الإنسانية؟

الحياةُ في المدينة كشرب الماء في كوب من الخزف؛ والحياة في الطبيعة كشرب الماء في كوب من البلّور الساطع؛ ذاك يحتوي الماءَ وهذا يحتويه، ويُبدي جمالَه للعين

وأسفاه، هذه هي الحقيقة: إن دقَّةَ الفهم للحياة تُفسدها على صاحبها كدقة الفهم للحب؛ وإن العقل الصغير في فهمه للحب والحياة، هو العقلُ الكاملُ في التذاذه بهما.

وأسفاه، هذه هي الحقيقة

في هذه الأيام الطبيعية التي يجعلها المصيفُ أيامَ سرورٍ ونسيان يشعرُ كلُّ إنسان أنه يستطيع أن يقول للدنيا كلمةَ هزلٍ ودُعابة. . .
من لم يرزق الفكرَ العاشقَ لم ير أشياءَ الطبيعة إلا في أسمائها وشِياتها، دون حقائقها ومعانيها؛ كالرجل إذا لم يعشق رأى النساء كلَّهن سواءً؛ فإذا عشق رأى فيهن نساءً غير من عرَف، وأصبحن عنده أدلةً على صفات الجمال الذي في قلبه
تقوم دنيا الرزق بما تحتاجُه الحياة؛ أما دنيا المصيف فقائمةٌ بما تلذُّه الحياة؛ وهذا هو الذي يغير الطبيعة ويجعلُ الجوَّ نفسه جوَّ مائدة ظُرفاء وظريفات. . .
تعمل أيام المصيف بعد انقضائها عملاً كبيراً، هو إدخالُ بعض الشعر في حقائق الحياة هذه السماءُ فوقنا في كل مكان، غير أن العجيبَ أن أكثر الناس يرحلون إلى المصايف ليروا أشياءَ منها السماء. . .
إذا استقبلتَ العالم بالنفس الواسعة رأيتَ حقائقَ السرور تزيد وتتسع، وحقائق الهموم تصغُرُ وتضيق، وأدركتَ أن دنياك إن ضاقت فأنت الضيَّقُ لا هي
في الساعة التاسعة أذهبُ إلى عملي، وفي العاشرة أعملُ كيت، وفي الحادية عشرةَ أعملُ كيتَ وكيت؛ وهنا في المصيف تفقد التاسعةُ وأخواتها معانيَها الزمنيةَ التي كانت تضعها الأيامُ فيها، وتستبدلُ منها المعانيَ التي تضعها فيها النفسُ الحرة
هذه هي الطريقة التي تُصنع بها السعادةُ أحياناً؛ وهي طريقة لا يقدر عليها أحدٌ في الدنيا كصغار الأطفال
إذا تلاقى الناسُ في مكان على حالة متشابهة من السرور وتوهمه والفكرة فيه؛ وكان هذا المكانُ مُعَداً بطبيعته الجميلة لنسيان الحياة ومكارهها - فتلك هي الرواية وممثلوها ومسرحها أما الموضوعُ فالسخريةُ من إنسان المدنية ومدنية الإنسان
ما أصدَق ما قالوه: إن المرئيَّ في الرائي. مرضتُ مدةً في المصيف، فانقلبت الطبيعةُ العروسُ التي كانت تتزينُ كل يوم إلى طبيعة عجوز تذهب كل يوم إلى الطبيب. . .
حول النزاع الإيطالي الحبشي
عصبة الأمم
وما تستطيع أن تفرضه من العقوبات
بقلم باحث دبلوماسي كبير
تعاني عصبة الأمم أزمة دقيقة من جراء تعرضها للنزاع بين إيطاليا والحبشة؛ ولم يكن في وسع العصبة أن تقف جامدة أو أن تتنحى عن بحث مشكل يقع في صميم اختصاصها بمقتضى (الميثاق) وتثيره دولتان كلتاهما عضو في العصبة، وعصبة الأمم تعرف من البداية أنها تواجه في المشكلة الإيطالية الحبشية أزمة خطيرة، بل تواجه محنة قد يقوض الفشل في درئها صرح العصبة، وكل المبادئ الدولية التي يقوم عليها، وتعرف منذ البداية أيضاً أنها لن تستطيع أن تقوم في معالجة هذه الأزمة بدور فعال، أو بإجراء حاسم، ولكنها أيقنت في نفس الوقت أن قليلاً من الشجاعة في مواجهة الموقف، وأن تطبيق بعض الإجراءات النظرية التي ينص عليها ميثاق العصبة في مثل هذه الأحوال، وأخيراً أن محاولة اكتساب الوقت في بعض المجادلات الفقهية قد ينتهي بإنقاذها من مأزق الحياة والموت
وقد أبدت العصبة هذا القليل من الشجاعة فاستمعت إلى نداء الحبشة في بحث النزاع، وإن لم تبحثه إلا في الحدود الضيقة التي ارتضتها إيطاليا، وسعت إلى تطبيق المادة الثالثة عشرة من الميثاق، واتفق الطرفان على محاولة إجراء نوع من التحكيم، وألفت بالفعل لجنة تحكيم مشتركة تمثل الفريقين المتنازعين؛ ولكن الحوادث تطورت بسرعة، وأكدت إيطاليا وما تزال تؤكد بمنتهى الصراحة أنها لا تبغي بديلا بافتتاح الحبشة والاستيلاء عليها، وأنها سوف تلجأ لتحقيق غايتها بالقوة القاهرة، وأنها لن تني عن مشروعها أمام أي تدخل أو أية قوة في العالم؛ وهكذا تحطمت جميع الآمال التي علقت على تدخل العصبة، وعلى لجنة التحكيم، ولن يحول دون اضطرام الحرب في شرق أفريقية سوى معجزة، أو تطور في الحوادث لا يخطر ببال إنسان، ولن تحدث هذه المعجزة أو هذا التطور الخارق
ونحن نعرف كيف حاولت السياسة البريطانية جهد استطاعتها أن تحول دون اضطرام الحرب في هذه المنطقة التي تجاور عدة من الأملاك البريطانية، ويهدد حلول إيطاليا فيها وادي النيل من منبعه إلى مصبه، ويضع السودان ومصر في مأزق خطر، ويجعلها

عرضة لأخطار النزعة الاستعمارية التي تضطرم في إيطاليا، ويهدد من جهة أخرى مواصلات الإمبراطورية البريطانية في البحر الأحمر، وفي عدن وباب المندب بصفة خاصة؛ ولكن السياسة البريطانية لم توافق رغم ما بذلته من الجهود وما عرضته من الحلول إلى إقناع السياسة الإيطالية الجامحة المتوثبة بالعدول عن مطامعها وأحلامها العريضة في إقامة إمبراطورية استعمارية ضخمة في شرق أفريقية

والآن، وقد فشلت كل محاولة للتسوية السلمية، ولم يبق سوى اضطرام هذه الحرب الهمجية التي تصر الفاشستية على إضرامها تحقيقاً لمطامعها ومشاريعها المثيرة في افتراس الشعوب الآمنة، تحاول السياسة البريطانية أن تجد سبيلاً لمقاومتها وتحطيم مشاريعها، لا حباً بالحبشة، أو نصرة لقضية السلام في ذاتها، ولكن توسلا إلى درء الأخطار التي تتهدد سيادتها ومصالحها الإمبراطورية في البحر الأبيض المتوسط وفي شرق أفريقية إذا استطاعت الفاشستية أن تفوز ببغيتها في افتتاح الحبشة. وقد تستطيع السياسة البريطانية أن تشل حركة الفاشستية ببعض الإجراءات والمساعي التمهيدية، وقد لا تحجم عن أن تخوض معها غمار الحرب إذا لم تجد مناصاً من خوضها

ومن هذه الإجراءات والمساعي التمهيدية التي تفكر إنكلترا في التذرع بها لرد الفاشستية عن عدوانها، محاولة توقيع العقوبات الدولية التي ينص عليها ميثاق الأمم.

وقد كثرت الإشارة أخيراً إلى هذه العقوبات ومداها ومبلغ ما ينتظر من تأثيرها إذا طبقت. ولهذا نرى مناسبة لأن نتناولها بشيء من الشرح والتفصيل، فنقول إن المادة (15) من ميثاق العصبة تنص على الإجراءات والقرارات التي يمكن اتخاذها لتسوية المنازعات الدولية التي قد تقع بين أعضاء العصبة عن يد العصبة ذاتها وما يمكن أن يقوم به مجلس العصبة في هذا السبيل. وتنص المادة التالية أي المادة (16) على العقوبات الدولية التي يمكن توقيعها على الدولة التي تخالف تعهداتها وتلتجئ إلى الحرب، وإلى القارئ نص هذه المادة الشهيرة كاملاً:

(إذا التجأ عضو من أعضاء العصبة إلى الحرب خلافاً للتعهدات المنصوص عليها في المادتين 12 و13 أو المادة 15، فانه يعتبر فعلاً قد ارتكب عملاً حربياً ضد كل أعضاء العصبة الآخرين. ويتعهد هؤلاء أن يقطعوا في الحال معه كل علائقهم التجارية والمالية، وأن يحظروا كل علائق بين رعاياهم وبين رعايا الدولة التي خرقت الميثاق، وأن يقطعوا كل المواصلات المالية والتجارية والشخصية بين رعايا هذه الدولة وبين رعايا أية دولة أخرى سواء أكانت عضواً في العصبة أم لا

وفي هذه الحالة يجب على المجلس (مجلس العصبة) أن يوصي إلى الحكومات المختلفة ذات الشأن بتقديم القوى العسكرية أو البحرية أو الجوية التي يساهم أعضاء العصبة في تقديمها للقوى المسلحة التي تقوم بالعمل على احترام تعهدات العصبة

ويتعهد أعضاء العصبة أيضاً أن يعاونوا بعضهم بعضاً في تطبيق الإجراءات الاقتصادية والمالية التي تتخذ طبقاً لهذه المادة والتي يراد بها أن تخفض إلى أدنى حد ما يمكن أن يترتب عليها من الخسائر والمضار. ويتعهدون بالتعاون أيضاً في مقاومة كل إجراء خاص يوجه إلى أحدهم من جانب الدولة التي خالفت الميثاق؛ ويتخذون الإجراءات اللازمة لكي يسهل المرور في أراضيهم لقوات أي عضو من أعضاء العصبة يساهم في العمل المشترك الذي يقصد به العمل على احترام تعهدات العصبة

ويمكن أن يفصل من العصبة كل عضو ينتهك أحد التعهدات المترتبة على هذا الميثاق. (ويصدر قرار الفصل بموافقة جميع أعضاء العصبة الآخرين الممثلين في المجلس

هذا هو مجمل الإجراءات التي سجلها ميثاق العصبة لتوقيع العقوبات الدولية على العضو المعتدي أو المنتهك لميثاق العصبة. وظاهر أن هذه العقوبات ذات صبغة اقتصادية محضة؛ ويمكن وصفها بأنها نوع من الحصار الاقتصادي. ولهذا الحصار الاقتصادي إذا طبق على دولة من الدول أكبر الأثر في الضغط عليها وشل مشاريعها العسكرية، خصوصاً إذا كانت مثل إيطاليا تعتمد على الخارج في كثير من المواد الأولية الأساسية. بيد أن هذه النصوص التي سجلتها عصبة الأمم في ميثاقها لا تزال نظرية محضة، ولم يجر تطبيقها حتى اليوم بصورة فعلية، وإن كان ذكرها قد جرى في بعض الأزمات الدولية، ولا تزال أكبر نقطة ضعف فيها خلوها من أي ضمان فعلي للتنفيذ؛ فليست لعصبة الأمم أية قوة أو أية سلطة فعلية تمكنها من تطبيق مثل هذه العقوبات، وليس في وسع مجلس العصبة إلا أن (يوصي)

إلى الحكومات ذات الشأن بتقديم القوى اللازمة، فإذا رفضت هذه الحكومات أن تقدم هذه القوى، فماذا عسى أن يستطيع مجلس العصبة إزاء الدولة (المعتدية)؟ هذا ومن جهة أخرى فان صفة (الاعتداء) لم تعرف حتى اليوم تعريفاً كافياً؛ وربما كان من الميسور أن يعرف (المعتدي) حالاً في مسألة النزاع الإيطالي الحبش، إذ لا ريب في أن (المعتدي) هو إيطاليا؛ ولكن ليس من السهل في كثير من المنازعات الدولية أن يقطع في أمر (المعتدي) قطعاً لا مرية فيه

وقد كان هذا النقص في ضمان التنفيذ وما زال أعظم نقط الضعف في مواثيق السلام والتحكيم الدولية، وهو أعظم نقط الضعف في ميثاق تحريم الحرب (ميثاق كلوج) الذي اغتبط اعقده أنصار السلام أيما اغتباط، ثم لم يلبث أن ظهر عقمه حين الحاجة إلى تطبيقه. وقد كان اعتداء اليابان على منشوريا أعظم صخرة ارتطم بها ميثاق عصبة الأمم وميثاق تحريم الحرب. والآن يبدو عقم هذه المواثيق الدولية مرة أخرى إزاء النزاع الإيطالي الحبشي؛ وحيثما كان الفريق الأقوى يعتبر المواثيق الدولية قصاصات لا قيمة لها، كما هو الشأن في حالة إيطاليا التي ترتبط مع الحبشة ومع فرنسا وإنكلترا بأكثر من معاهدة لاحترام استقلال الحبشة وسلامة أراضيها، فان المناقشات الفقهية في احترام مواثيق السلام لا تجدي ما لم تكن مؤيدة بالقوى الفعلية لتنفيذها

ولكن السياسة الإنكليزية ما زالت تعول على دستور عصبة الأمم في سعيها لرد عدوان السياسة الفاشستية. وهي تشير إلى مسألة العقوبات الاقتصادية التي نصت عليها المادة السادسة عشرة كوسيلة من وسائلها. والواقع أنه ربما كان لهذا السعي أثره المادي إذ أيدته الدول. فقد حدث في سنة 1921، حين غزت يوجوسلافيا الأراضي الألبانية، أن هددت عصبة الأمم بتطبيق العقوبات الاقتصادية. فكان ذلك كافياً لوقف الاعتداء. وقد عجزت العصبة في سنة 1923 أن ترد السنيور موسوليني عن احتلال جزيرة كورفو اليونانية تنفيذاً للبلاغ النهائي الذي وجهه إلى اليونان، ولكنها استطاعت بعد ذلك بعامين أن تحول دون اضطرام الحرب بين اليونان وبلغاريا من جراء النزاع بينهما على الحدود. وقد فطنت عصبة الأمم نفسها إلى هذا النقص الذي يعتور نص المادة (16)، وبحثت في أمره، وقررت في شأنه بعض التعديلات التي من شأنها أن تسهل الإجراءات في حالة الأزمات

الخطيرة؛ ويقضي هذا التعديل (بأنه يجب على مجلس العصبة أن يقرر ما إذا كانت قد ارتكبت مخالفة للميثاق) ولكن العصبة صرحت أيضاً أن المجلس لا يستطيع أن يفعل أكثر من أن يدعو الأعضاء إلى تطبيق العقوبات الاقتصادية، وقد يستطيع بعد ذلك أن يطالب الدول بتقديم المعاونة العسكرية التي يمكن استخدامها ضد الدولة المعتدية.

بيد أن هذا التعديل لم تصدقه عليه الأغلبية المطلوبة من الأعضاء حتى اليوم وقد تستطيع السياسة الإنكليزية أن تقنع عصبة الأمم بتوقيع العقوبات الاقتصادية على إيطاليا، وهذا الإقناع ميسور إذا استطاعت أن تجذب السياسة الفرنسية إلى جانبها وأن تقنعها بضرورة العمل معها لدرء الأخطار التي تهددها وتهدد أوربا من جراء الحرب التي تعمل الفاشستية لاضرامها. وعندئذ يمكن أن تؤدي إنكلترا في هذا الحصار الاقتصادي الذي ينص عليه ميثاق العصبة أكبر دور، هذا فضلاً عن الدور الذي تؤديه باقي الدول المؤيدة لإنكلترا ضد إيطاليا، وذلك بقطع المواد الأولية عن إيطاليا ورفض التعامل معها في كل ما يمكن أن يسهل استعداداتها الحربية؛ أما إنكلترا ففي وسعها أولاً أن تلجأ إلى إغلاق قناة السويس بالاستناد إلى نص المادة (20) من ميثاق العصبة، وهي التي تنص على إلغاء جميع المعاهدات السابقة التي لا تتفق مع نصوص الميثاق وغاياته، باعتبار أن معاهدة سنة 1888 التي تضمن حيدة القناة وفتحها في كل وقت من أوقات السلم أو الحرب ولسفن جميع الدول أضحت مناقضة لميثاق العصبة، وهذا ما تنكره إيطاليا على إنكلترا كل الانكار، لأن معاهدة سنة 1888 ما تزال قائمة في نظرها ويجب احترامها طبقاً لنص المادة 282 من معاهدة فرساي (بند 11)، حيث ينص على تعداد المعاهدات التي تبقى نافذة المفعول مع ألمانيا، وميثاق عصبة الأمم ليس إلا فصلا من فصول معاهدة فرساي. وفي وسع إنكلترا أن تلجأ أيضاً إلى إغلاق جبل طارق في وجه السفن الإيطالية، كما أنها تستطيع أن تغلق في وجهها بوغاز باب المندب فتقطع بذلك على إيطاليا كل سبيل للاتصال بالإرترية أو السومال. على أن إيطاليا ترى في هذه التصرفات كلها أعمالاً عدائية وإعلان حرب تقابله بالمثل، ومن

المحقق أن إنكلترا ستفكر طويلا قبل أن تقدم على شيء منها
وهناك مسألة تصدير السلاح إلى الحبشة، وهذه أيضاً وسيلة ناجعة في يد إنكلترا؛ وقد ألغي
تصدير السلاح إلى الحبشة مؤقتاً في انتظار نتيجة المساعي السلمية، فإذا أصرت إيطاليا على موقفها، وهو الأرجح، فان إنكلترا ستعود إلى تصدير السلاح إلى الحبشة؛ وتزويد الحبشة بالسلاح يطيل أمد الحرب، ويزيد في متاعب إيطاليا إلى حدود قد لا تقوى على مغالبتها
وسنرى على أي حال ما إذا كانت عصبة الأمم، أو بعبارة أخرى ما إذا كانت الدول التي تسيطر على مجلس العصبة، تستطيع في هذه الدورة القريبة التي ستعقد بعد يوم أو أثنين، أن تذهب في الشجاعة والحزم إلى حد المطالبة بتوقيع العقوبات على إيطاليا بين ثقافتين
يتَّجه الناقد الأدبي بنظره إلى مختلف النوازع الفكرية والمتَّجهات الأدبية في هذا البلد، فلا يلبث أن يرتدّ إليه الطرف حيران؛ فما نستطيع أن ندّعي عن يقين أن لهذا العصر اتجاهاً أدبياً يُنسب إليه ويعرف به ويتسم بطابعه. ولكنها تيارات مختلفة يتنازعها الضعف والوهن، وتتوزَّعها الأهواءُ والشِّيع؛ وبين دُعاة الجديد وأنصار القديم حرب مشبوبة ومعركة هدّامة، لا نراها سيُؤذن لها أن تهدأ فتستقر إلا أن نعرف مدى هذا الجديد، وماهية ذلك القديم
ولن يتأتى لنا أن نعرف ذلك أيضاً، مادامت مناهج الدراسة الأدبية في مصر لا تعرف لها مُتجهاً ومذهباً، وعندنا عديدٌ من معاهد الأدب، يذهب كل منها مذهباً في تخريج طُلابه، ويُمثل في منهاجه الدراسي صورة مصغرة للصراع الأدبي المختلف النزعة والاتجاه بين أدبائنا الكبار!
فعندنا الأزهر، قديمٌ موغلٌ في القدم، لا يرى العلم والأدب والثقافة إلا كما كان يراها القُدامى الأولون من علمائه؛ وهو مذهبٌ في الإعداد الأدبي له قيمته وأثره، ولكن له إلى جانب ذلك عيوبه وخطره - وما نعني الأزهر الجديد الذي يخطو اليوم إلى التجديد خُطاه الأولى، بحنكة شيوخه وهمة شبابه، فانه ما يزال على الطريق، ولا نعرف أين تستقر به الغاية من الهدف الذي يرمي إليه
ولو أنا تركنا الأزهر ووليناه النظر شطر الجهة الأخرى، لرأينا منهجاً جديداً في كلية الآداب، بينه وبين منهج الأزهر ما بين طرفيْ خيطٍ طويل يصل أول التاريخ بما بعد التاريخ؛ فهناك القديم الغارق في القدم، كأنما يحاول أن يقف خطْو الزمان، وهنا الجديد الغالي في الجدَّة، كأنما يحاول أن ينسلخ من ماضي التاريخ. وهناك في الأزهر يُدرس القديم ويُعنى بالقديم، بعيداً من روح العصر وسنة التطور؛ وهنا في كلية الآداب يُحاول الجديد من غير أن يستند إلى أساس من العلم القديم، وهو بذلك كذلك، بعيدٌ من روح العصر وسنة التطور؛ ومن ثم ترى في أكثر ما ينتج أدباؤنا لهذا العهد نوعين من الأدب، لو وضعت أولهما في الذروة من بلاغة الوضع وحسن الأداء، لوضعت ثانيهما في المنحدر؛ على أنك لو نظرت إليهما من ناحية الموضوع والفكرة لجعلت أعلاهما أسفل وصعدت بالثاني. . . ولكنك لن تجد في واحد منهما - على الأكثر - ما يبعثك على الإعجاب بالفكرة والأسلوب معاً، ومن هذا لا ترضى عن أحدهما في ناحية إلا أغضبك في الأخرى، ومنه جاءت الدَّعويان اللتان تسمعهما دائماً عند ما يستحرُّ الجدل بين دعاة الجديد وأنصار القديم: (هذا أدب فارغ أكثر عنايته بأسلوب الأداء دون المعنى) أو (هذا أدبٌ ساقط يتحيفُ اللغة ويُهمل الجمال الفني في اللفظ)
وكلتا هاتين الدعويين صادقة من وجه؛ لأن الأدب فكرةٌ وبيان، لا يتم تمامه إلا بهما معاً؛ وأنت قلما تجد بين الكاتبين والشعراء من أدبائنا من يجمع إلى جمالِ الفكرة جمال الأسلوب
ولو قد تركنا الأدب في ناحية وأردنا أن نعرف اتجاه الثقافة في مصر بوجهٍ عام، وأثر ذلك في أخلاق أبنائها وفي المثُل العليا التي ينشدونها - لوجدنا مثل هذا الاضطراب وتلك الفوضى، ففي الأزهر ثقافة دينية، ولكنها جامدة لا تتطور، واقفة لا تتحرك، مغلقة من دونها الأبواب فلا تؤثر تأثيرها إلا في أبناء الأزهر وحدهم، أو في المحيط الضيق الذي يضطربون فيه من قسُراهم
على أن في جمود الأزهر مدى طويلاً، قطعاً بين الأزهريين وبين عصرهم، ومن ثم

أخذت الثقافة الدينية تتقلص رويداً رويداً، حتى غدت مقصورة على طائفة قليلة من أبناء الريف، وبدأ تأثير الأخلاق ينحسر تبعاً لذلك حتى نوشك بعد قليل ألا نرى أثراً له في نفوس الكهولة والشباب منا

إلى جانب ذلك أخذت الثقافة المدنية في مدارس التعليم العام تفتن أبناءنا بالمناصب والوظائف والسلطان المرموق، فاتجهوا إليها بعقولهم وأفرغوا لها أنفسهم، حتى ما يكاد أبٌ يفكر في تعليم بنيه وبناته إلا ذهب إلى هذه المدارس المدنية

ومنهاج التعليم في هذه المدارس هو ما نعرف، وهو ما يشكو منه واضعوه والقائمون عليه، ولعل شر عيوبه انه لا يرمي إلى غرض عام من أغراض التربية الصالحة، وأنهُ يُعنى أكثر ما يُعنى بتلقين المعلومات وتحفيظ النظريات، فلا الدين، ولا القومية، ولا الأخلاق، ولا المثُل العُليا؛ ومن ثم كانت القومية مريضة، والدين الزائغ، والأخلاق المنحلة، والأمثلة الدُّنيا

هذان نوعان من التربية وأساليب التعليم في مصر، يكاد الشعب بهما أن يكون طائفتين مختلفتي الخلق والثقافة والتفكير كأنما تعيشان في عصرين مختلفين، وهاتان الطائفتان من

متعلمينا وهذان المذهبان في التربية المصرية، هما اللذان يكشفان عن سر الاضطراب في الثقافة المصرية، كما يكشفان عن مقدار الفوضى في اتجاهنا الأدبي

وإننا بسبيل هذا البحث لنُحاول أن نتعرف أي هذين المذهبين ستكون له الغلبة، وأي هاتين الثقافتين أجدر بالبقاء؟

إن تيار العصر يجرفنا في مسراه فما يدع لنا الفرصة أن نتلبث قليلاً لنعرف موقفنا، على أن كلتا التربيتين لا تجديان علينا الجدوى التي تقربنا إلى المثل الأعلى الذي ننشده؛ ولسنا بمستطيعين أن نظل أبداً نحلم بالماضي والحياةُ تتقدم، ولسنا بقادرين على أن ننسلخ من هذا الماضي ونخلع قوميتنا لنعدو في غبار الأوربيين، فلا غنى لنا عن المزاوجة بين هاتين الثقافتين والمزج بينهما، لنخرج من ذلك بمنهج تعليمي صالح، يحفظ علينا قوميتنا، ويصل بين ماضينا والعصر الذي نعيش فيه

على أن فوضى الأدب ودعوى الجديد والقديم، يجب أن ينتهيا إلى غاية؛ فما في اللغة والأدب جديد ولا قديم، وما حسن أن نتنكر لتراث أدباء العربية الماضين بدعوى التجديد، ولا أن ننكر حكم العصر وسنة التطور بالدعوة إلى القديم؛ فما ينهض هذا إلا بذاك، وما يستطيع بانٍ أن يبني على غير أساس، ولابد لمن يتهيأ لحمل رسالة الأدب لينشئ فيه الجديد الذي تُنصت له الدنيا ويفاخرُ به العصر، أن يأخذ لهُ عدته ويتزود بزاده: فيتوفر على دراسة الأدب القديم، ويستمع إلى أئمته، ويروى عيونه، ويستظهر من روائعه، ثم يأخذ بسببٍ من كل علمٍ وفن مما يعرفه عصرُه، فإذا اجتمعت له الأسبابُ واستكمل الأهبة، عادَ إلى دنياه التي يعيش فيها، وإلى عصر الذي يتصل به، وإلى الأحداث التي تنفعل بها نفسهُ، وإلى عواطفه التي انطبعت فيها صورة دنياه؛ ثم ليُنشئ ما ينشئ، فسيأتي بالجديد في الديباجة الصافية، وبالمعنى البكر في العبارة المستقيمة، وبالشعر الرائق في اللفظ الجزل، وبالفكر العميق في البيان الساحر ولكن أين نجد هذا مما يدرس هنا وهناك، وما نجد هنا وهناك إلا فكراً بلا بيان، أو بياناً بلا فكر؟ وما نرى هناك وهنا إلا رطانة مستعربة، أو عربية فارغة، نسميها الجديد والقديم!

على أن في مصر مدرسة نحمد أثرها، ونذكر يدها على الأدب والثقافة العربية، هي مدرسة دار العلوم، فهي الصلة بين الثقافتين، والملتقى بين الغريبين؛ جمع منهجها بين الثقافة العربية والإسلامية التي تدرس في الأزهر، والثقافة المدنية التي تدرس في المدارس العامة؛ فإلى جانب دراسة الدين، ونصوص اللغة، وتراث السلف من أدباء هذه الأمة وعلمائها - يدرس التاريخ، والفلسفة، وأشتات من الرياضة والعلوم والفنون والآداب؛ فمن أجل ذلك كان لدار العلوم هذا الأثر القوي في النهضة الأدبية الحاضرة، وكان لأبنائها السبق في كثير من ميادين الإنتاج؛ وأنت ترى فيما يبدعه الكتاب والشعراء من أبناء دار العلوم، طابعا خاصا قلما تراه فيما ينتجه غيرهم من الكتاب والشعراء؛ ذلك لأنهم درسوا القديم دراسة روية وفهم، وعاشوا في عصرهم كما يعيش أهله؛ فلم ينسلخوا عن ماضي أمتهم، ولم يتخلفوا عن عصرهم، فكانوا بذلك صلة التاريخ بين ماضيه وحاضره

تلك شهادة الحق لهذه الدار التي أنشأها إسماعيل منذ ستين عاماً ونيف، فنهضت بتبعاتها على أكمل وجه، وأدت أمانة العلم أحسن أداء، نذكرها لها منصفين في الوقت الذي تحاول فيه أحداث الزمان أن تنال منها وتنكر جدواها

على أن فضل هذه الدراسة ليس مقصوراً على أثرها في اللغة والدين؛ فلعلها المدرسة الوحِدة التي تخرج المدرس القومي، والمدرسُ في بلدنا - كمناهج التعليم في مدارسنا - لا يراد منه أن يمثل الروح القومي أكثر مما يراد منه أن يكون مدرس مادة بعينها، ولكن خريج دار العلوم بحكم ثقافته وتربيته، هو وحده يمثل الروح القومي أصدق تمثيل، بعربيته، ودينه، وخلقه، ومكانه من زمانه؛ فليت وزارة المعارف عرفت له ذلك فلا تدعه في هذه الدائرة الضيقة من برنامج عمله المحدود، فان مصر في حاجة إلى هذا الروح القوي ليبعث في التلاميذ من أبنائها معنى القومية وينشئهم التنشئة القويمة التي تؤهلهم لحمل تبعات الجهاد في المستقبل القريب

ونحن مستيقنون أن دار العلوم يوم ينفسح لها الميدان لتؤدي رسالتها ويمكن لها لتنهض بما استعدت له، ويزاد في مناهجها ما يؤهلها لأن تنظر في كل جديد فتتبع أحسنه - نكون قد عرفنا الاتجاه الأدبي الذي نسير إليه، ورسمنا لنا في الثقافة منهاجاً صالحا، لا يمكن للأجانب أن يغزونا في آدابنا وعقولنا، بعد أن نالوا منالهم من أرضنا وأموالنا.

من تراثنا العلمي

كتاب في البَيْزَرَة

وصف وتحليل لنسخة فريدة من كتاب مفقود، في علم ضائع،

لمؤلف مجهول

للأستاذ علي الطنطاوي

البَيْزَرَة (أو البَزْدَرَة): علم يبحث فيه عن أحوال الجوارح من حيث حفظ صحتها، وإزالة مرضها، ومعرفة العلامات الدالة على قوتها في الصيد، وضعفها فيه - قاله في كشف الظنون

والكلمة معرّبة، وهي من قولهم (بَيْزار) معّرب (بازْدّار) و (بازْيار)، أي حافظ البازي وصاحبه، والجمع (بيازرة) كما في التاج واللسان، قال الكُميْت:

كأن سوابقها في الغبار ... صقور تعارض بيزارها

وجاءت بالدال في قول أبي فراس:

ثمّ تقدمت إلى الفهّاد ... والبازداريين باستعداد

قال الشيخ داود الأنطاكي: وغايته اقتناص ما يشق اصطياده واللهو والرياضة، وشرح الصدور، وتسكين نحو الجذام والنقرس والمفاصل لتوالى الفرح، وسكون الغضب الخ

وقد سموه علم البزدرة (أو البيزرة)، إضافة له أشرف أنواعه وأخفها، وهي البزاة

ولخصه في (التذكرة) في مقدمة وثلاثة مباحث:

فالمقدمة في كيفية اهتداء الناس إلى اتخاذ الطيور، وأول متخذ لها، وما هو المعتبر منها

والمبحث الأول في كيفية الاستدلال على الجيّد منها باللون والصفة، وفي ذكر طرق التعليم

والمبحث الثاني في أوقات الإرسال وكيفية الصيد، واختلاف حال الطيور

والمبحث الثالث في علامات الصحة والمرض وطب الجوارح

وقد كان هذا العلم مزدهراً معروفاً أيام عز العرب وازدهار مدنيتهم، ثم ضاع فيما ضاع من تراث الأجداد، وفقدت كتبه كلها، ونسيه الناس، فلم يكد يذكره أحد ممن ألفّ في تاريخ الثقافة الاسلامية، ولم يبقى بين أيدينا من المراجع في هذا العلم إلا هذا الفصل الذي كتبه

الشيخ داود الانطاكي في كتابه تذكرة أولي الألباب وكلمة في كشف الظنون للحاج خليفة لا تعدو الأسطر الثلاثة، نقلا عن جامع السعادة لكاشكري زاده، وكلمة في مُعْلم البستاني تحت عنوان: بزدرة (دائرة معارف)

على أن للمتقدمين كتباً كثيرة في هذا العلم عدّ منها أبن النديم في الفهرست: كتاب الجوارح لمحمد بن عبد الله بن عمر البازيار، وكتاب البزاة للفرس، وكتاب البزاة للروم، وكتاب البزاة للترك، وكتاب البزاة للعرب، وكتاب البزاة واللعب بها لأبي دلف

العجلي وسماه أبن خلكان كتاب البزاة والصيد
ومن الكتب المؤلفة في هذا العلم كتاب (القانون الواضح) ذكره في كشف الظنون نقلا عن جامع السعادة لكاشكري زاده ووصفه بأنه كاف في هذا العلم ولم يسم مؤلفه
وذكر الشاعر الكبير الأستاذ الشيخ رضا الشبيبي (وزير المعارف العراقية اليوم) في مجلة المقتبس أن في الخزانة التيمورية كتاباً اسمه (القانون في البيزرة) ولعله هو
وذكر أن من كتب هذا العلم كتاب (أنس الملا بوحش الفلا) تأليف محمد بزمنكلي نقيب الجيش المصري في أواخر القرن الثامن، وهو في خزانة باريز تحت الرقم 2834،
والقواعد المحبرة في البيطرة والبزْدَرَة للأنطاكي
وهناك آثار تعم الصيد بالكلاب والنبل والنشاب وهي كثيرة منها: كتاب المصائد والمطارد لكشاجم ذكره أبن خلكان في الوفيات، وانتهاز الفرص في الصيد والقنص للشيخ تقي الدين الناثري ألفه بزبيد سنة 910، ذكره الحاج خليفة في كشف الظنون وغيرها
وقد تكلم في طباع الجوارح وأحوالها كثيرون منهم: الدّميري في حياة الحيوان.
والقزويني في عجائب المخلوقات وغيرهما
وفي الأدب العربي أدب للصيد قائم برأسه، يعرف بالطرديات نبغ فيه جماعة منهم: أبو نواس، وأبو فراس، وكشاجم، والحلي وغيرهم
وفي سنة 1332هـ وجد الأستاذ الشيخ رضا الشبيبي بين (نفيسات آثار شعثها الإهمال، وطمسها الابتذال، منبوذة في ناحية غامضة، نبذك سقط المتاع، ملقاة نالت منها الأرضة والحشرات، أضعاف ما اقتبسه منها العقول النيرات. قد علاها من الزبل وسلح الطيور ونحوها ما غير محاسنها، وأخلق كريم ديباجتها) وجد بين هذه الآثار كتاباً في البيزرة،
وأول شيء في هذا الكتاب إغفال تسمية مؤلفه فيه، وأنه خالٍ من البسملة والحمدلة، عار من تقديم مقدمة قبل الشروع في المقصود، وعلة ذلك انقطاع دابر هذا الفن وأهله حتى لم تتألف من مشاهيرهم إلا طبقة محدودة. . . وليس هذا الكتاب مما ألف للإسكندر الرومي ثم نقل إلى العربية كما يظهر مما جاء على ظهره وهذا نصه: (كتاب البيزرة صنفه الحكماء المتقدمين (كذا) للملك الاسكندر الرومي؛ وهو كتاب عجيب مما يصلح بالملوك إذ لابد لكل ملك من مسير إلى صيد بأحد هذه الطيور الجوارح)، والذي أوقع الوراقين في هذا الوهم ما ورد في نحر الكتاب من أن ثقات الروم من أهل المعرفة؛ ذكروا أن الاسكندر الرومي قال للحكماء المحتفين بخدمته: (أريد أن تعرفوني بطبيعة البازي وأمراضه وعلامة كل مرض ودائه وهل طبيعته تقارب طبيعة الآدمي أم لا؟) وأنت تعلم قصور هذه العبارة عما يدعون، كيف وفي الكتاب نقل كثير عن حكماء العرب والمستعربين، ومنهم من صحب الرشيد!! فالكتاب إذن من طرائف عصر عربي راقٍ كما يظهر أيضاً من أسلوب إنشائه السهل الممتنع البليغ. ولا يبعد أن يكون مؤلفه من رجال أواخر القرن الثالث أو الرابع للهجرة. يدلنا على ذلك أن المسعودي المتوفى سنة 346 أورد في مروج الذهب عن الجوارح فصلين ترجح - بقول الأستاذ - أنهما منقولان عن هذا الكتاب باختلاف يسير
وروى لنا خبير أن في خزانة باريز كتاباً رقمه 2831 بدون اسم إلا أنه كتب على ظهره بخط غير خطه: (كتاب الجوارح والبزدرة تصنيف الفيلسوف (أبو) بكر بن يوسف بن أبي بكر أبن حسن بن محمد القاسمي القرشي العلوي الأشعري) تاريخ كتابته سنة 848هـ
فاسم هذا الكتاب طبق المحز وأصاب المفصل من الكتاب المماثل أمامي الآن، لكن لا تزال حقيقة مؤلفه مبهمة مجهولة. هذا وكتابنا جزآن أو مقالتان، في المقالة الأولى 52 باباً في تاريخ الصيد بالجوارح وتقسيمها إلى أقسامها وكيفية ترتيبها وسياستها ثم إرسالها إلى غايتها
وفي المقالة الثانية 63 باباً في أدواء الجوارح وعللها وما يتخذ لعلاجها من المركبات فجملة الأبواب 115 باباً في حجم 145 قائمة أو 290 صحيفة صغيرة مخطوطة خطاً واضحاً متأخراً، أغاليطه يخطئها العد، وفي آخره: (وقع الفراغ من كتابة هذه البيزرة نهار السبت 12 جمادى الأخرى سنة 1201 من الهجرة على يد ملامط ابن عبد الله الطرفي) اهـ.

كلام الأستاذ الشبيبي
أما الكتاب الذي أصفه اليوم فقد وقع عليه صديقنا الوراق العالم الشيخ حمدي السفرجلاني في خزانة قديمة في دمشق فعرف قدره فاشتراه. ثم كانت له قصة انتهت بأن بيع الكتاب إلى أحد المولعين بالكتب القديمة من الإفرنج وبقيت منه النسخة الفوتوغرافية التي أصفها عند الأستاذ السفرجلاني
وكتابنا - وإن لم يعرف مؤلفه - من أقدم الكتب المصنفة في هذا العلم وأجلها. فقد وضع للعزيز بالله أبي منصور نزار بن المعز معد بن المنصور إسماعيل بن القائم بالله محمد بن المهدي العبيدي الفاطمي صاحب مصر والشام المتوفى في الحمام يوم الثلاثاء 28 رمضان سنة 386هـ
وكانُ مغرى بالصيد، يصيد بالحبل والجارح من الطير ويصيد بالسباع. وكان مؤلف الكتاب كما يتحدث عن نفسه من بيازرة العزيز والمقربين إليه، وكان غالباً في التشيع لا يذكر العزيز مرة إلا صلى عليه وسلم! ومن قوله وهو يتحدث عن بازٍ: (ولم أر في المدة التي لزمت فيها الصيد ومبلغها عشرون سنة إلى أن صنفت كتابي هذا في علم البيزرة مثل هذا البازي على كثرة ما رأيت منها. ولقد وصل إلينا في ليلة واحدة مائة باز من الشرق والغرب. فكم تراه يصل في كل سنة محمولاً إلى أمير المؤمنين صلوات الله عليه، مما لم يحمل إلى ملك قبله كثيرة وجوده، وكل ذلك أتولى تدبيره، وأمارس تضريته، والاصطياد به الخ)
وقال في آخر الكتاب:
وقد كان مؤلف هذا الكتاب في جملة البيازرة متقدماً عليهم - لا في جملة واحد منهم) لا يحسن شيئاً من البيزرة، ثم أفرده أمير المؤمنين صلى الله عليه عنهم، وله من العمر إحدى عشرة سنة، وعلمه وهو لا يملك عشرة دراهم وعليه ثواب - ثم خرج في صناعته إلى ما قد شاهده الناس وعرفوه، ورقى أمير المؤمنين صلى الله عليه منزلته إلى أن صار اقطاعه عشرين ألف دينار، وبلغ المنزلة التي لو رآها في النوم لما (صدقها، فلا يخْفى عن الناس ما كان فيه، وما صار إليه
والكتاب كله من النمط العالي في إنشائه وأسلوبه، وهو مشحون بالفوائد والأخبار الأدبية،
والأشعار المستملحة، والقصص اللطيفة، ويقع في 300 صفحة مكتوبة بخط قريب من النسخى، قليلة أخطاؤه، مشكول شكلاً لا يعتمد عليه دائماً، فيه إشارات خاصة كانت توضع على الحروف المهملة ثم أهملت، ومقدار المكتوب من الصفحة (18 - 10) سنتيمترا، وفيه 13 سطراً وفي آخره: (وقد وصينا بما فيه الصلاح لمن انتهى إليه وعمل به، وبالله نستعين وعليه نتوكل
تم الكتاب والحمد لله رب العالمين، كما هو أهله ومستحقه، وصلى الله على نبيه (محمد خاتم النبيين، وعلى الأئمة من عترته الطاهرين الأخيار وسلم تسليماً
وبعد ذلك ست صفحات يختلف خطها قليلاً عن خط الكتاب فيها:
باب النفقة على البيازرة وما يصل من أموال أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين إليهم في كل سنة
وباب في أحكام الصيد الشرعية وما يحل من ذلك وما يحرم في خمس صفحات في الثلاث الأخيرة منها خرم يصعب معه قراءتها وقد صرح بأن هذه الأحكام على المذهب الشيعي وعرض بالمذاهب الأخرى
وليس في أول الكتاب أو آخره ما يدل على تاريخ كتابته ولكني عثرت في وسطه على جملة مكتوبة تحت (باب ذكر ما يحتاج إليه البازي في القرنصة) بخط الناسخ هذا نصها:
وإذن فيكون عمر النسخة (وكتب هذا الكتاب تاريخ سنة خمسمائة في شهر شوال) التي نصفها أكثر من ثمانية قرون
هذا وسنعرض على القراء خلاصة أبواب الكتاب، ونماذج منه صالحة في مقالة أخرى، فقد طال بنا نفس الكلام، والله المستعان
علي الطنطاوي
في الكتب
ما كنت أتمنى أن أقرأ
للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

ليس أكثر من الكتب في الدنيا، ولعلها الشيء الوحيد الذي يزيد ولا ينقص، ولو أن ما كتبه الناس من أقدم العصور التي بقى لنا منها أثر - ودع ما نقل بعضهم عم بعض - جمع في مكان واحد، لملأ المدينة واسعة كالقاهرة ومعها ضواحيها التي تزحف بها على الريف من ناحية، وعلى الصحراء من نواح، وليس أشد شرها ممن يستقل ذلك، أو لا يرى فيه غناء، وهنا موضع التحرز أو التنبيه إلى وهم قد يسبق إلى بعض الأذهان، فما أعني أن في الموجود من الكتب ما يغني عن الاستزادة أو يصدّ عن التطلع؛ أو ما يكتفي به العقل الإنساني عن المضي في البحث والتقصي، وإنما أعني أنه حسب من شاء أن يقرأ، فما يتسع عمرٌ - مهما طال - للإلمام ببعض هذا الموجود من ثمار العقول، ولو أن أعمار الذين لا خير فيهم أضيفت إلى عمر الواحد منا (!!) وزيدت عليه، لما كانت كافية لتحصيل ذلك كله، ولكني، مع ذلك، أراني أحياناً - وأنا جالس بين ما بقى لي من كتبي - أتحسر وأتمنى: أتحسر لأن مطبوعاً من هؤلاء المؤلفين، على الشعر، أبى إلا أن يكون جاهلا نفسه، وتوهم أنه ناقد أو فيلسوف أو غير ذلك، وذهب يكتب. أو أن كاتباً فذاً غالط نفسه فراح يقرض الشعر، ويجئ بالغث ويحسب أنه صنع شيئاً، وأتمنى لو أن بعضهم نظم قصيدة في معنى يخطر لي، وأراه كان أقدر على صوغه، أو وضع كتاباً في بحث معين، أو كتب قصة مثلا، أو أردف ما كتب بشرح ما يعني، كأنما كل هذه الكتب لا تكتف ولا تقنع!

وأتساءل أحياناً - لو أن أبا العلاء لم ينظم أكثر سقط الزند وبعض اللزوميات، وزادنا من مثل رسالة الغفران، أكان هو ينقص شيئاً أم كان يزيد؟؟ وهل كنا نحن القراء نخسر أم نكسب؟؟ كنا نربح فيما أعتقد، ولم يكن يضيع علينا شيء من نظمه لا نهمله الآن، ولكن أبا العلاء غلط وآثر التكلف، ليرضي غروره، وليتعزى أيضاً بإظهار اقتداره. وإنه لفحل عظيم، وما يطيب لي أن يظن أحد أني أغمطه أو أنزله دون منزلته، وإني لأعلى به عيناً من أن يخطر لي أن في وسعي أن أظلمه، ولكني كنت أود لو زادنا من مثل الرسالة، وفي يقيني أنه لو كان فعل، لبلغ الذروة واستولى على الأمد

ويؤسفني أحياناً أن الجاحظ لم يكتب قصة. أما لو كان فعل!؟ أين بين كتاب العرب، من كان أقدر على ذلك منه، وأولى بأن يكون أبرع فيه، وأسحر وأفتن؟؟ من له مثل قدرته على الكتابة ووفاء التعبير بلغته؟ من له مثل فطنته ونفاذ نظره، وفكاهته، وحسن تأتيه، ولطف مداخله، وحذقه في التناول والعرض، ودقة في فهم الناس واستبطانهم، والإحاطة بجوانبهم المتخلفة، والتفطن إلى نواحي الجد والهزل فيهم، وإلى مبلغ اختلاط هذا بذاك، وإرباء ذاك على هذا؟؟

أوليت الجاحظ كان مصوراً!؟ أترى كان يستطيع - لو ساعفته الأحوال وتاحت لذلك فرصة - أن يحول مواهبه إلى هذه الجهة؟؟ أكان يسعه أن يسخر قدرته اللفظية على البيان إلى قدرة من نوع آخر، على الأداء، فيثبت ما يريد على اللوح ويدعه، وهو ساكن لا حركة فيه ولا تتابع للحظاته ومناظره، ينطق بما حمله من المعاني؟ ومن يدري؟ إن مطلب الكاتب غير مطلب المصور، وأداة هذا غير أداة ذاك، وأقل ما بينهما من الفروق ووجوه الاختلاف أن الكاتب يقوم أسلوبه على الحركة والتعاقب، وأن المصور لا يسعه إلا أن يثبت لحظة ويعرضها ساكنة، والسكون لا ينفي التعبير والنطق، وقد يكون أنطق وأبلغ في نطقه من الكلام. فهل كان بيان الجاحظ - وهو فيض لا تصده السدود - يستطيع أن يحتمل الحصر والتجمد والتجمع، والنطق بقوة الإبراز لا بفضل الانسياب أو التدفق؟ أعود فأقول، لا أدري؟

وتمنيت، وأنا أدير عيني في كتبي على رفوفها، لو أن هؤلاء الألمان الذين يتفلسفون علينا بما لا نفهم، بينوا لنا - أو لي أنا على الأقل - ماذا يريدون أن يقولوا. عجيب أمرهم والله! قرأت مرة لأحدهم - وأظنه (هجل) فما أذكر الآن بعد هذا الزمن كله - كتاباً في (فلسفة التاريخ) فخرجت منه كما دخلت، وقلت لنفسي: إما إني أنا حمار، وإما أن هذا الرجل لا يحسن العبارة عما في رأسه، ولكني أفهم عن غيره فلماذا أراني لا أفهم عنه؟؟ وكيف يعقل أن أعجز عن فهم ما أخرجه عقل إنسان مثلي؟ وكان في هذا الكتاب فصل عن المدنية الإسلامية أو عن تاريخ العرب - فقد نسيت - خيل إلى أني فهمت أقله، ودارت الأيام، ووقع في يدي كتاب لرجل أمريكي اسمه (دريبر) عن المدنية ونشوئها، يكتب كما يكتب

خلق الله - لا الألمان - فإذا فيه فصل طويل عن العرب يعد تطبيقاً لنظرية هجل التي لم أفهمها، فسألت نفسي: لماذا لم يكتب هجل كما يكتب هذا الرجل؟؟ ثم عدت أسألها وأتعجب: لماذا فهم (ديبر) عن (هجل) ولم أفهم أنا عنه؟ وأسأت الظن بنفسي واعتقدت أن بي نقصاً في التدريب العقلي، وراجعت (هجل) وكررت إلى هؤلاء الألمان المعوصين كرة المصمم المستميت، ولكن مضغ الجلاميد أعياني، فنفضت يدي منهم - ومن نفسي - يائساً، وقلت: يا هذا، لقد صدق القائل: كل ميسر لما خلق له، وأنت لم تخلق لتقرأ فلاسفة الألمان، فارجع عنهم، وانج بنفسك منهم

ولست أعرف أن للمتنبي نثراً، وإن شعره لحسبه، فما يحتاج بعد أن قال هذا الشعر أن يصنع شيئاً آخر، أو يجشم نفسه جهداً في باب غيره، ولكني مع هذا أحس بحسرة لأنه لم يشأ أن يترك لنا كتاباً عن مقامه في مصر ورحلته إلى (الأستاذ) كافور! ألا يشعر القارئ معي أن كنوز الأدب العربي ينقصها هذا الكتاب من قلم المتنبي في (كافور)؟ يا لها من تحفة نادرة، ضن بها علينا المتنبي؟؟ أتراه لم يخطر له هذا قط؟ فماذا كان يصنع يا ترى حين لا يعالج النظم؟؟ لقد كان مقلا، وليس ديوانه الذي خلفه بالذي يستنفذ عمر مثله أو جهده، فلماذا يا ترى لم يشغل فراغه الطويل بالكتابة؟ أكان الكلام الجيد لا يؤاتيه إلا منظوماً، لأن عواطفه لا تتدفق إلا على لحن؟ وخواطره لا تنتظم أو تتسق إلا على النغم؟ ربما

وينقص الأدب العربي - في رأيي - اعترافات رواته، فقد ملأوا عالمه بالدخيل والمنحول والمخترع؛ وتركوا لنا نخل ذلك كله وغربلته، فليت واحداً منهم كانت له جرأة (روسو) إذن لارتفعت عن الباحثين تكاليف ثقيلة، ولاستغنوا عن هذه الغرابيل التي لا نراها تغربل شيئاً، ولأمكن أن تنفق الأعمار التي تضيع في هذا البحث، فيما هو أجدى. لو أن الرواة كتبوا اعترافات لخلفوا لنا قصصاً من أمتع ما في الآداب، غربيها وشرقيها، ولكشفوا لنا عن خصائص، نفسية وعقلية، ينفع الناس العلم بها، ولتسنى أن نعلل هذه الفوضى التي أغرق فيها الرواة أدبنا، ولاسيما القديم منه. ومن الذي لا يشتاق أن يعرف لماذا كان الواحد منهم ينظم الأبيات ثم يحشرها في قصيدة لشاعر قديم، أو يخترع القصة أو النادرة ويعزوها إلى هذا أو ذاك من الأولين، ويصر على أن الأمر حق وأنه صادق، ويزعم أنه أخذ ذلك

عن فلان وعلان، أو تلقفه من أفواه البدو الضاربين في الصحراء؛ والغريب من أمرهم أنهم ينزلون عن مزية كبيرة في سبيل مزية أصغر منها، ذلك أن اختراعاتهم وتصنيفاتهم تدل على خصب في القريحة، وعلى قوة الخيال ونشاطه، بل على وجود ملكات كافية لأن يكون الواحد منهم شاعراً مجيداً أو قصاصاً بارعاً؛ ولكنهم يزهدون في ذلك، ويظلمون أنفسهم، ويقنعون بأن يكونوا رواة فحسب؛ أي حفاظاً ليس إلا؛ أي خزانة مفتاحها في لسانهم؛ وأغرب من ذلك أنهم لو قنعوا بما حفظوا، وتوخوا الأمانة في الحفظ والرواية، لعدوا علماء، ولكانوا محل الثقة والاطمئنان؛ ولكنهم يأبون لأنفسهم منازل الكرامة، ويروحون يزورون ويفترون ويلفقون، ويظهرون في ذلك من الحذق والبراعة ما لو أظهروا بعضه في غيره لرفعهم مقاماً عالياً. فلابد أن يكون هناك عوج في طباعهم والتواء في عقولهم يزينان لهم الطريق الذي سلكوا، ويعدلان بهم عن المنهج الأقوم، ويغريانهم بإهمال مواهبهم، أو سوء استخدامها

وعلى ذكر الاعترافات أقول إني لا أحب أن أقرأ اعترافات لذلك النواسي الفاجر، وليس هو بأفجر من سواه من أصحابه في زمانه، ولكنه أظهرهم لأنه أعلاهم لساناً وأقواهم بياناً، ومثل سيرته لا يزيد الناس فهماً للحياة وحسن إدراك لها، وما في الأمر إلا أنه كان أجرأ فلم يكتب نقائصه، كما يفعل غيره، ولم يحاول أن يستتر لما ابتلى، ولولا أنه شاعر لما شغل بقصصه أحد، والشهرة هي التي جنت عليه فأبرزت جانب السواء والاستهتاك من حياته، ولولا ذلك لكان شأنه كشأن سواه من أمثاله الذين لا يخلو منهم عصر أو شعب. فلو أنه كتب اعترافات لما كانت لها مزية يفيدها الناس، وماذا كان يمكن أن يكون في اعترافاته مما يجهله الناس، وإن كانوا لا يجاهرون بالعلم به. كل ما كنا خلقاء أن نستفيده هو صورة الحياة، كما عرفها وعاناها، فاسق عظيم وليت دعبلاً ترك لنا مذكرات! فانه متمرد ظريف، وليس أحب إلى المرء من الوقوف على مظاهر التمرد، ولكن التمرد صنيعه في حياته، وصنيع شعره معه - أو أكثره - فلو أنه كتب مذكرات لما أعوز خصومه الحطب

لو ذهبت أذكر ما كنت أتمنى أن أجد فيه كتاباً، لما فرغت، فما لهذا آخر، فحسبي ما بينت، وليكن كإشارة الفهرس
إبراهيم عبد القادر المازني
الدكتور محمد إقبال
أكبر شعراء الهند المسلمين في العصر الحاضر
إن صوتي قد أوقد النار القديمة في بلاد إيران ولكن العرب)
(لا يعرفون شيئاً عن نغماتي الشجية
(إقبال)
بقلم السيد أبو النصر أحمد الحسيني الهندي
شدا صديقنا المفضل الشاعر الفيلسوف الدكتور السر محمد إقبال بهذا البيت في ديوانه (بيام مشرق) (أي رسالة الشرق) منذ ثلاث عشرة سنة، ولكنه لم يسمع صدى المعرفة الحقيقة (لنغماته الشجية) من العرب إلى اليوم. وثلاث عشرة سنة مدة طويلة. لأن الشيء إذا مر عليه زمن قليل يقال إنه مضى ودخل في ذمة التاريخ، وليس كل ما دخل حصن الماضي نال رعاية التاريخ. لأن مخالب التاريخ الحديدية لا تقتطف إلا ما هو مؤثر مباشرة في الحوادث المادية ولا تهتم بوجود الكائن الحي بنفسه أياً كان، ولكن هناك أشياء خارجة عن وصول مخالب التاريخ ومؤثرات الزمن مع كونها مؤثرة في الحوادث المادية. وتلك الأشياء هي الحقائق الملهمة، ومنها الشعر أو (النغمات الشجية) كما عبر الدكتور. فالحقيقة الملهمة شيء خالد بعيد المرام عن تلاعب الزمن، وعزيز المنال من مخالب التاريخ، تظمأ الحياة الإنسانية إلى مناسمته في كل زمان، وتتطلع إلى مؤانسته في كل مكان
وعلى هذا أريد أن أعرف إخواني الناطقين بالضاد بتلك (النغمات الشجية) وأن أكون على الأقل ترجماناً لها إن لم أكن راوية، فأقدم اليوم إليهم على صفحات (الرسالة) ترجمة حياة الدكتور بالإيجاز، وسأتبع ذلك بحديث عن شعره وفلسفته وآرائه في نواحي الحياة المختلفة إذا وفقني الله لذلك
انحدر الدكتور السر محمد إقبال من سلالة وثنية عريقة في المجد والشرف من طبقة (بَنْدِتْ) القاطنة ببلاد كشمير في شمال الهند. و (بندت) لقب يلقب به أهل العلم والفضل من طبقة البراهمة التي هي أرفع الطبقات وأعلاها شرفاً وعلماً ونفوذاً في النظام
الاجتماعي الوثني في الهند، وقد أشار الدكتور إلى ذلك إذ قال:
مرا بنكركه درهند وستان ديكرنمي بينى
برهمن زاده رمزآ شناى روم وتبريزاست
انظر إلي لا تجد في الهند مثلي)
(من سلالة برهمن ولكنه يعرف رموز روم وتبريز
تشرفت عائلة الدكتور باعتناق الإسلام قبل مائتين وخمس وعشرين سنة. وذلك أن أحد أجداده اتصل بولي من أولياء الله من الصوفية المسلمين فأشرب قلبه حب الإسلام فأسلم. وكان من آثار تلك الحادثة أن حسن الاعتقاد في الصوفية المخلصين لا يزال من الأوصاف المميزة لعائلة الدكتور إلى اليوم
ولد الدكتور محمد إقبال في سنة 1876 ميلادية في بلدة سيالكوت مسقط رأس فيلسوف الإسلام العلامة الشهير عبد الحكيم السيالكوتي من إقليم بنجاب في شمال الهند. فلما بلغ سن التعليم أدخله أبوه في مكتب من المكاتب الإسلامية في تلك البلدة، ومن وهبه الله الذكاء المتوقد والحذق الحاد ظهرت بوادره منذ نعومة أظافره. كذلك الدكتور إقبال فانه لم تمض عليه مدة قليلة حتى أتم دراسة المكتب فأدخله أبوه في المدرسة، وفي المدرسة أيضاً بقى مثالاً لحدة الذهن وموضع الإعجاب من جميع أساتذته. فانه لم ينتقل من فصل إلى فصل ولم ينل شهادة بعد شهادة إلا بتفوق على أقرانه وباستحقاق مساعدة مالية شهرية من قبل الحكومة جائزة لنبوغه إلى أن أتم دراسته الثانوية، وبعد إتمام الدراسة الثانوية دخل الدكتور كلية في نفس البلدة، وكان في تلك الكلية أحد كبار العلماء الدين أستاذا للغة الفارسية والعربية وهو شمس العلماء مولانا مير حسن الذي كان يشار إليه بالبنان في الأدب الفارسي والعربي فتتلمذ له الدكتور ونبغ في الفارسية كما تعلم منه العربية أيضاً. وبعد إتمام دراسة

الكلية انتقل الدكتور إلى كلية الحكومة ببلدة لاهور حاضرة إقليم بنجاب ونال منها شهادة بتفوق حيث استحق مداليتين ذهبيتين والمساعدة المالية الشهرية من قبل الحكومة. وفي هذه الأثناء انتقلت خدمات المستشرق الشهير السر توماس آرنلد من كلية عليكره إلى كلية لاهور. وكان السر آرنلد هذا مشهوراً بسعة اطلاعه في علوم الفلسفة، وكان عند الدكتور إقبال أيضاً ميل غريزي إلى الفلسفة حيث لم يترك دراستها في نيل

جميع شهاداته الماضية فتتلمذ للسر آرنلد. فكان السر آرنلد يعترف دائماً بذكاء تلميذه المتوقد واستعداده للفلسفة ويفتخر به إلى أن أتم الدكتور دراسة الجامعة ونال شهادة مع مدالية ذهبية

عين الدكتور بعد إتمام دراسته مباشرة أستاذاً للفلسفة والسياسة المدنية في الكلية الشرقية بلاهور ثم أستاذاً للفلسفة واللغة الإنجليزية في كلية الحكومة بلاهور. فصنف في أيام تدريسه كتاباً في السياسة المدنية باللغة الأردية. وكان الدكتور طول مدة التدريس في الكليتين حسن الصيت في العلم والفضل عند أساتذتهما، وممدوح الخلال مأثور المحامد عند تلاميذه

لم يسمح للدكتور عشقه للعلوم وطموحه إلى التوسع فيها بأن يقنع بتلك الوظيفة؛ فهجر في سنة 1905 وطنه وأقاربه ثلاث سنوات طلباً للتوسع والمزيد في الفلسفة والقانون وللتحقيقات العلمية الأخرى إلى إنجلترا والتحق بجامعة كمبردج ونال منها شهادة في فلسفة الأخلاق، ثم انتقل إلى ألمانيا والتحق بجامعة مونيخ فيها ونال منها شهادة الدكتوراه في الفلسفة، ثم رجع إلى إنكلترا والتحق بجامعة لندن ونال منها - شهادة المحاماة

إن كثيراً من طلاب الشرق حينما يذهبون إلى الغرب يجدون أنفسهم في عالم جديد لم يخطر ببالهم ولا هجس في ضمائرهم، إذ الفوضى الأخلاقية قد استحكمت عراها، والإباحية قد شيدت وطائد رباها، وأبواب المفاسد المفتوحة، ودواعي الخلاعة مسروحة. فيندفعون في تياره ويضيعون فيه أوقات فراغهم حتى أوقات أشغالهم، ولكن الدكتور لم يضع أوقاته، بل كان يستغل حتى وقت فراغه فقد سعى فيه لخدمة الإسلام بتبليغه إلى العوام، إذ ألقى في غضون قيامه في إنجلترا ست محاضرات في الإسلام بين حشد الخاص والعام. وقد منح الله الدكتور العبقرية الشاملة وأسبغ عليه جميع مزايا النبوغ، فهو ناثر بليغ كما هو ناظم مطبوع، وكاتب بارع كما هو خطيب مصقع فكان لمحاضراته رنة بين الناس ووقع حسن في أوساط العلم والأدب وإذا كان غاية ما يبتغيه الأستاذ من تلميذه ويتمنى له، لعكوفه على تعليمه ومكابدته في تهذيب نفسه وتنوير عقله، أن يبلغ منزلة في العلم والأدب، وأن يقوم بمهمته أتم قيام، وأن ينوب عنه أحسن مناب لا يشوبه خلل، ولا يعتريه أود ولا يخالطه وهن ولا أمْت. فقد بلغ

فيه صديقنا الدكتور إقبال حيث لم تبلغ الآمال والهمم، إذ الدكتور بذكائه المتوقد، وفكره الحاد، وحصافة رأيه، وطول باعه في العلوم والصناعات نال أجل مكان وأخص محل في أنظار جميع أساتذته فكانوا يتباهون به في السر والعلن، ويذكرونه فخراً في مسامرات الأدب وأندية العلم. وهذا هو الذي حفز أستاذه السر توماس آرنلد أن يفوض إليه القيام بأعمال وظيفته بجامعة كمبردج لستة أشهر عند غيابه عنها فخلفه الدكتور أستاذاً بالجامعة، وقام بالمهمة خير قيام تناقلته ألسنة المديح وناطه الذكر الجميل

رجع الدكتور من أوربا إلى الهند في سنة 1908 مزوداً بالعلوم والصناعات ومتأهباً لخدمة وطنه وأبناء دينه. فاستقبله حشد كبير من جميع الأجناس والطبقات والأديان والملل. وأقيمت في تكريمه مأدبة فاخرة ليلة وصوله إلى لاهور هنأه فيها أعيان البلد ورؤساء القوم بسلامة وصوله إلى وطنه، كما اعترف غير واحد من الشعراء والأدباء والعلماء والفضلاء بالقصائد والخطب فيها بعلمه وفضله. ومن ذلك الحين اختار الدكتور لنفسه الحياة الحرة ولم يقبل مناصب الحكومة لكي يجد مجالاً واسعاً لبحوثه العلمية، وميداناً أوسع لخدمة إخوانه ودينه. فبدأ يمارس مهنة الإرشاد القانوني للطالبين والدكتور بنفسه رجل قنوع، نزيه، عزيز النفس؛ يقنع بالكفاف ويرضى بالميسور، كما عبر عن ذلك في بيت من ديوانه: (رسالة الشرق) قال:

ناز شهان نمى كشم ... زخم كرم نمى خورم

درنكَراى هوس فريب ... همت اين كَداى را
أنا لا أتحمل دلال الملوك، ولا جرح الإحسان)
(يا من انخدعت بالطمع! انظر إلى همة هذا الفقير
فقد رفض غير واحد من مناصب الحكومة التي قدمت إليه وآخرها منصب ممثل الحكومة الهندية لدى حكومة جنوب أفريقيا وهو منصب ذو مرتب باهظ وشرف عظيم
اشتغل الدكتور بعد رجوعه من أوربا في تصنيف ديوانين (أسرار خودي) و (رموز بيخودي) على الترتيب باللغة الفارسية. فنالا إعجاب الجميع من ذوي الفضل والعلم، وترجم الأول الدكتور نكلسن إلى الإنجليزية فذاع به صيت الدكتور في أوربا وأمريكا فمنحته الحكومة في سنة 1923 لقب (السير) اعترافاً بفضله في الشعر وطول باعه في
العلوم
وفي سنة 1926 أجبره أحبابه وأصدقاؤه وأهالي لاهور على أن يرشح نفسه لعضوية المجلس التشريعي في إقليم بنجاب. فلم يقبل أولاً. فلما ألحوا عليه كثيراً قبله. فانتخب عضواً بأكثرية ساحقة. فسعى الدكتور سعياً حثيثاً لتخفيف الضرائب الفادحة عن كاهل الفلاح الهندي، ولسن قانون العقاب لكل من يطعن في شارع الدين أو أحد رؤسائه من غير دينه هو، وقد سنّ فعلاً، ولتقرير غاية الإصلاح لإدمان الخمر عند الحكومة حرمتها التامة تنفذ في مدة خمس عشرة سنة. وفي سنة 1928 أثار الدكتور في مجلس بحثاً طريفاً استوقف الأنظار، وهو هل الأراضي من ملكية الحكومة أو ملكية الشعب؟ وفي سنة 1932 عند انتقاد ميزانية الحكومة أثبت بالدلائل الناطقة والشواهد الصادقة أن الأراضي ليست من ملكية الحكومة فلا يجوز للحكومة جمع المال بالضرائب الفادحة على أراضي الفلاح
وفي سنة 1931 انتخبه الحكومة عضواً في مجلس المائدة المستديرة المنعقدة في لندن لإصلاح الهند الدستوري فسافر إلى لندن وعند الرجوع لبى دعوة المؤتمر الإسلامي بالقدس وزار مصر أيضاً وألقى على طلبي منه محاضرة قيمة فلسفية دقيقة في جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة موضوعها (الإسلام كالتحول في التاريخ) باللغة الإنجليزية، ولكن من الأسف لم يقدر أحد من السامعين ولا من أركان إدارة الجمعية أن ينتقل تلك المحاضرة القيمة المفيدة إلى العربية للحاضرين أو يكتبها على الأقل وينشرها على صفحات الجرائد للإفادة
وفي أواخر سنة 1928 دعي الدكتور من قبل جمعية إسلامية ببلدة مدراس حاضرة إقليم جنوب الهند لإلقاء محاضرة في الإسلام، فلبى الدعوة، فلما وصل إلى مدراس احتفل به أهالي مدراس من جميع الأجناس والملل احتفالاً باهراً، وأقيمت في تكريمه مآدب كثيرة من قبل جمعيات مختلفة منها جمعية العلماء البراهمة وغيرها من جمعيات الوثنيين؛ ومن مدراس توجه الدكتور إلى حيدر آباد تلبية لدعوة صاحب السمو نظام حيدر آباد فمر بأمارة ميسور، وهي أمارة وثنية كبيرة في جنوب إمارة حيدر آباد، فلما وصل بنجلور بلدة من بلادها استقبله حشد كبير من الطلبة والعلماء والوجهاء، وكان بينهم رئيس الوزراء لأمارة ميسور أمين الملك ميرزا إسماعيل (وهو مسلم) فسافر معهم إلى بلدة ميسور حاضرة إمارة
ميسور، ونزل ضيفاً على الأمير الوثني مهراجا ميسور، وأقيمت في تكريمه مآدب كثيرة أهمها مأدبة جامعة ميسور التي خطب فيها الدكتور، وفي هذه المأدبة خطب عالم وثني كبير وهو أستاذ الفلسفة بالجامعة فقال: (إن المسلمين مهما قالوا إن الدكتور إقبال منهم، فان الحقيقة أنه منا جميعاً، هو ليس من ملك دين واحد أو جماعة واحدة، فان افتخر المسلمون بأنه من أبناء دينهم، فلسنا نحن الوثنيين بأقل فخراً منهم بأنه من أبناء وطننا الهند). ومن ميسور توجه الدكتور إلى حيدر آباد، فاستقبله جمع غفير من جميع الأجناس والملل، بينهم أركان الحكومة وأساتذة الجامعة وطلبتها وغيرهم من ذوي الجاه والشرف، وكان طلبة المدارس مصطفين في الشوارع والمحطة ويغنون بأصواتهم الشجية (نشيد المسلم) الذي صنفه الدكتور باللغة الأردية وأوله:
جين وعرب همارا، هندوستان همارا
مسلم هين هم وطن، هي سارا جهان همارا

إن الصين والعرب لنا، (كما) أن الهند لنا)
(إننا المسلمون، فالعالم كله وطننا
نزل الدكتور ضيفاً على سمو نظام حيدر آباد وحظي بالمثول في حضرة سموه، وألقى محاضرات عديدة بالجامعة العثمانية بحيدر آباد، ثم توجه من حيدر آباد إلى الجامعة الإسلامية بعلي قره تلبية لدعوتها، فألقى فيها أيضاً غير محاضرة؛ وجميع هذه المحاضرات التي ألقاها في مدراس، وحيدر آباد، وعلي قره، ست تحتوي على أعمق الأفكار وأدق المعاني، في فلسفة دين الإسلام، وقد سعى الدكتور فيها لتشكيل علم الكلام الجديد على ضوء الفلسفة الحديثة، وقد نشرت في شكل كتاب ونحن مستعدون أن نتحف قراء الرسالة بشيء منها لو تحملوا جفاف الفلسفة في جنب حلاوة الأدب
وفي سنة 1933 دعا الدكتور المغفور له جلالة الملك نادر شاه خان ملك أفغانستان مع عالمين كبيرين هنديين وهما الافوكاتو السيد راس مسعود رئيس الجامعة الإسلامية بعلي قره، وصديقي صاحب الفضيلة الشيخ السيد سليمان الندوي من كبار علماء الدين للاستشارة في تأسيس جامعة بكابل، وفي أمور تعليمية أخرى. فلبى الدكتور الدعوة، وفي هذا السفر صنف الدكتور ديوانه المسمى (مسافر) باللغة الفارسية
وفي سنة 1934 سافر الدكتور لزيارة البلاد الإسلامية في المغرب ولمشاهدة الآثار الإسلامية في الأندلس وصنف في هذا السفر ديواناً باللغة الأردية مسمى (بال جبريل) وفي أواخر نفس السنة دعي الدكتور إلى إنجلترا لإلقاء محاضرات في فلسفة الدين في سلسلة محاضرات هيبرت فلبى الدعوة
هذه هي ترجمة حياة الدكتور بالاختصار وموعدنا بالحديث عن شعره المقال الآتي إن شاء الله.
السيد أبو النصر أحمد الحسيني الهندي
من بدائع شكسبير
حلم منتصف ليلة صيف
'
بقلم محمد رشاد رشدي
يحملنا جو القصة أجيالاً عديدة إلى الوراء حيث (ثيزيوس) دوق أثينا يعد قصره للاحتفال بقرانه بملكة الأمازون الساحرة. أما أسلوب القصة فهو ملئ بالصور الخلابة التي تشيع في الذهن جواً يشبه جو الحلم الغريب. كذلك تنشر أشخاص الجن التي ما تزال تظهر ثم تختفي في القصة روحاً غريبة نائية حالمة. . . . والحب - سيد خالقي الأحلام والخيالات - هو موضوع القصة. . . بيد أن ليس بالحب المداعب اللاهي تحمله السطور في خفة ورشاقة مقبلاً حيناً مدبراً حيناً آخر. بل هو حب قوي قاهر يبهر النظر والسمع ويأبى إلا أن تعبر عنه الاستعارة والمجاز واللغة الشعرية الحارة. تبعثه من الصدر مثلما تبعث ليلة مقمرة هادئة من ليالي الصيف شعر شاعر من صدره، أو زفرة عاشق من حنايا ضلوعه
(ليساندر) و (هرميا) يتفاقان على اللقاء:
ليساندر: في مساء الغد عندما تبصر (نيبي) طلعتها في البحيرة ناشرة على العشب الأخضر لباساً من اللؤلؤ السيال - في ذلك الوقت قد اتفقنا على أن نجتاز أبواب أثينا ونمضي هاربين
هرميا: وفي نفس الغابة حيث اعتدنا اللقاء، وحيث كنا أحياناً نرقد على العشب اللين الرخص ونشم أنفاس الزهر الوحشي. هناك يلقى أحدنا الآخر، أي ليساندر!
ويضل كل من العاشقين سبيله وينهكهما البحث والفكر فيرقد كل تحت شجرة من أشجار الغاب ويغلب عليهما النعاس فما يدريان من أمرهما شيئاً، ويأتي (بَكْ) رسول ملك الجان فيهصر في عيني الفتى زهرة من أزهار الغاب سحرية تغير قلبه حتى إنه إذا ما صحا من نومه وقع في حب أول امرأة يلقاها. . . وفي نفس الوقت يهيم في الغاب الفسيح (يمثريوس) عاشق (هرميا) المنبوذ منها تتبعه (هيلينا) التي ينبذها هو ولا يصغي لما تريد أن تصل أذنه من ألفاظ الحب والتوسل. بيد أن (بَكْ) سرعان ما يأتيه هو الآخر بالزهرة

السحرية فيغير قلبه، ويصبح فإذا به مدله في حب (هيلينا)، ويهيم العشاق في الغاب كل يبحث عن أليفه تارة متباطئاً وأخرى مسرعاً. تراقبهم من علٍ أشجار البلوط الشاهقة ويظلهم الليل في ردائه الهادئ. ونبسم نحن إذ نرى كيف يتغيرون. كيف يشكون وكيف يتدلهون - على أننا لا يسعنا إلا الاشتراك في كل ما يفعلون

هذه العاطفة هي حلم، غير أنه حلم يحركنا، فان الشاعر يلعب بالعواطف فيخلطها ويمزجها سوياً ثم يثنيها ثم يعود فيفصلها ويقيم كلا منها على حدة كأنما هي خليات رقصة جميلة، ونشاهد نحن الوجوه الغضة الوديعة تمر سريعة إلى جوار الشجيرات الخضراء وتحت أبصار النجوم اللامعة، تبللها حيناً دموع الشوق والألم ويشيع فيها حيناً آخر بريق الحب والأمل. . .

أولئك قوم قد وهبوا أنفسهم للحب خالصة لا يبغون من عطائهم هذا جزاء ولا مقصداً، وإنما هي هبة نقية خالصة لأنها موجهة لله لا للشيطان، وللحب الخالص لا لشهوات البدن

هي - في الحق - هبة للجمال الذي يخالج مشاعرهم ويملك عليهم حسهم وفكرهم - وإن مرآهم يألمون ثم يسعدون - يشكون ثم يفرحون، يطربهم التافه من الخير، ويعصف بهم خالج الفكر البسيط، تحنو عليهم بنات الغاب ساعة مداعبات، ثم تسخرن بهم ساعة أخرى لاهيات - لهو نوع من السحر المبين. . .

ونشاهد بين الحين والآخر جماعة من القرويين يتدربون على تمثيل قطعة مسرحية يحيون بها حفل زواج أميرهم (تينريوس) - أولئك قوم بسطاء يعيشون مثل كل أهل الريف يعيشون عيشة طبيعية بسيطة لا يشغل فكرهم خاطر ولا يعذبهم شك لاهين قانعين مؤمنين كل الأيمان بالحياة، بعيدين كل البعد عن بحثها والتأمل فيها. ويفزعهم مرآى رفيقهم (بوتوم) وقد أتاهم يحمل فوق عنقه رأس حمار فيصيح أحدهم:

(يا للشيطان! يا للغرابة! لقد زارنا إبليس

صلّوا أيها الرفاق - اهربوا أيها الرفاق - المعونة!)

كان هؤلاء رجالاً من المحتمل أن يكون شكسبير قد رأى وخبر أمثالهم في بلدته، لأن الدرامة لم تعد بعد مقصورة على بلاط الملوك والأمراء، بل عمت البلاد والقرى جميعها، وأصبحت وكأنها ضرورة من ضروريات العيش ومرفقاً من مرافق الحياة لا ينفصل عنها،

ولقد كان كل عيد من أعيادهم مهرجاناً عظيماً يشترك فيه الصغير والكبير ويتعاون على إقامته الجميع، إذ أن القوم في ذلك العهد كانوا يعشقون التمثيل ويجيدونه بالطبيعة، لأن الروح إذا ما كانت ناضجة ممتلئة فهي لا تميل إلى التعبير عن خواطرها بالأرقام والمنطق، بل تعمد إلى تصويرها فتقصها وتقلدها، تلك هي لغة الأطفال، لغة الفن والخلق والسرور

وفوق كل هؤلاء العشاق والممثلين البسطاء تلهو وترفرف بأجنحتها جماعة الجنّ وبنات الغاب. هم أيضاً يعشقون (فتيتانيا) ملكتهم التي تحب صبياً صغيراً أتت به من بلاد الهند، ويغار زوجها (أوبرُن) منه فيريد أن يبتاع الصبي منها على أنها لن تنيله ما يريد:

تيتانيا: لو اجتمعت الجن كلها لما استطاعت أن تبتاع مني هذا الصبي، كانت أمه من أتباعي ولكم جلسنا جنباً إلى جنب على رمال نبتون الصفراء في الليل الهادئ، تهب علينا نسمات الهند العطرة، نرقب السفن يحملها الفيضان فوق تياره سريعة تتسابق - وكم كنا نضحك عندما نرى الشراع وقد حملت وانتفخت منها البطون، وكانت الريح العابثة هي الزواج أو العاشق المسئول

ويتشاجر (أوبرن) مع زوجته فتهرع الجن خائفة إلى أكمام الزهر تختبئ فيها وتتخذ منها ملجأ يقيها غضب الملك والملكة

ويريد (أوبرن) أن يثأر لنفسه، فيرسل خادمه (بَكْ) يلمس بالزهرة السحرية أجفان زوجه، حتى إذا ما صحت أجمل بنات الغاب وأرشقهن من سباتها وجدت نفسها مدلهة بحب مخلوق عجيب له رأس حمار وجسم رجل، هو (بوتوم) القروي الممثل

وتركع الملكة أمام المريض المسحور، وتضع فوق كتفه المليء بالشعر إكليلا من الزهر النضر، ثم تنادي أتباعها وتخاطبهم:

(ترفقوا بهذا الرجل وأحسنوا مثواه، غنوا له وارقصوا أمامه كلما مشى خطوة، أطعموه المشمش، والعنب، والتين الأخضر والتفاح)

كان لزماً على (تيتانيا) أن تفعل هذا، لأن حبيبها كان ينهق نهيقاً فاحشاً، وكان إذا ما قدمت له الزهور والفاكهة هز رأسه في طلب الهشيم والبرسيم!

أهناك أعذب وأمر من سخرية شكسبير هذه؟ أي هزء بالحب، وأي حدب عليه! العاطفة في

نفسها نبيلة، بيد أن موضوعها تافه حقير، هي فراش ذهبي لكنه يطير في الوحل، فراش أعمى لا يدري أين يسير

وشكسبير إذ يصف كل آلامها يحتفظ أيضاً بكل ما هو حلو وجميل فيها

تيتانيا: تعال نجلس فوق هذا الزهر، دعني ألمس وجنتيك الجميلتين وأرشق الورد في رأسك الناعم، وأقبل أذنيك الطويلتين الحلوتين

لقد طمس الحب عيني ملكة الغاب فباتت ترى في صدغي الحمار جمالاً، وتلمس في رأسه نعومة، وتحس في أذنيه حلاوة وطراوة

وينقضي الليل، ويأتي الصباح فيبطل السحر ويزول، وتفيق (تيتانيا) إلى نفسها فتبدو لها ذكريات الأمس (مثل أشياء صغيرة يصعب تمييزها، فكأنها رؤوس جبال نائية يراها الإنسان عن بعد كالسحب الكثيفة قد تجمعت فوق الأفق)

هذه هي القصة، فهل لنا أن نناقشها جدياً مثلما نناقش (هملت) أو (عطيل)؟ هل لنا أن نفرض منطق الحياة على حوادثها وأسلوبها وأشخاصها، أو أن نبحث عن الجمال والانسجام في كيانها وتركيبها؟

لا، فنحن إن فعلنا ذلك بعدنا عن الروح التي يجب أن نتفهمها فيها

هذه القصة لا تصور الحياة بل تمثلها - هي تمثل الناحية الحلوة الناعمة السهلة الهادئة من العيش مثلما تصور قصة (لير) الناحية الأخرى العاصفة، المظلمة، المريرة، الموحشة

على أن الحياة ليست دائماً عاصفة موحشة؛ كما أن القبرة لا تنشد كل يوم ألماً ونحيباً، فهناك في حياة الرجال لحظات يحسون فيها بجسومهم، وأرواحهم، وقد رقت وصفت وارتفعت فأصبحت في صفاء نسمات الخريف تهب عند الأصيل، وفي هذه اللحظات يكفي أن يثلج أفئدتهم ويملأها طرباً وحبوراً أن يشاهدوا زهرة جميلة قد تفتحت أكمامها، وتلألأ على أوراقها ندى الشروق، وأن يحرك مشاعرهم ويملأها عطفاً ورقة وحناناً، مرأى كلب بائس ينبح ألماً ويتضور جوعاً

ذلك لأن في النفس حينذاك لحناً ونشيداً يعزف، فإذا كل ما بالعيش قد أصبح بهياً جميلاً، وإذا كل ما يدب على الأرض قد أمسى طيباً وديعاً كالحمل، ذلك أن بالروح موسيقى تسبغ الدفء والسلام والحب على كل شيء خارج الروح: موسيقى (أحلى من نغم الكروان،

يسمعه الراعي وقد ترعرع قمحه ومشى النضوج في سنابله)؛ فهل نترك تلك الأوقات السعيدة دون أن نسجلها

إن أكثر الواقعيين تطرفاً، وأشدهم تشاؤماً وانقباضاً لا يستطيع أن ينكر وجود أمثال تلك اللحظات، فان هو فعل فقد ترك إنتاجه ناقصاً مبتوراً ونفسه ضيقة يعوزها الاتساع والبسطة، على أن شكسبير الكامل لم يكن يستطيع أن يكون ناقصاً، فلم تكن تلك الأوقات النادرة لتمر دون أن يرقبها ويسجلها معاً

لقد سجلها الشاعر كما يجب أن تسجل - أعني أنه لم يصورها كما هي في الحياة - لم يرسم لنا أحلام الشباب نفسها، يحلمها وهو يقظان فتسعده وتزكي خياله، بل صور لنا عالماً جميلاً غريباً حتى إذا ما تعرفنا إليه ودخلناه أحسسنا نفس ما يحسه الشباب الحالم من سعادة ودفء وسلام، وكانت المشاعر التي تختلج بها نفوسنا حينذاك هي نفس المشاعر التي تنتجها هذه الأوقات السعيدة في حياة الرجال

أقول إن شكسبير كان واقعياً حتى في أحلامه وخيالاته وقد يبدو هذا القول غريباً، على أنه شرحه سهل بسيط؛ فكثير من الناس يحسب أن الفنان ساعة الخلق يقلد مظاهر الطبيعة نفسها ويصورها فان هو قلد - في زعم هؤلاء - شيئاً لا يراه الجميع في الطبيعة ويحسونه - كان تقليده خاطئاً وخلقه وهماً باطلا، وعندي أن هذا الرأي خاطئ من أساسه؛ فالحق أن الفنان لا يقلد مظاهر الطبيعة نفسها، بل يدرس ويقلد السبيل الذي تسلكه الطبيعة في خلق مظاهرها، وإنما هي الآلة المصورة التي تعنى بتصوير هذه المظاهر دون أن يهمها تقليد السبيل الخالقة وتصويرها. ومن هذا يكون الحكم

على العمل الفني من حيث قربه من الواقع والحق لا يتعلق بمحتويات العمل نفسه بل بالإحساس الذي تنتجه هذه المحتويات على القارئ أو المشاهد أو المستمع
فشكسبير هنا لا يعطينا هذه اللحظات السعيدة في حياتنا نفسها بل ما قد تنتج هذه اللحظات أو ما يقرب منها
إن ما يعطينا الشاعر هو حلم حلمه ساعة منصف ليلة صيفية حيث يرق النسيم ويصفو، ويهدأ الفكر ويرتاح البدن، ذلك هو كائن دقيق يهيم وينتقل من حلم إلى حلم، له أجنحة فضية رقيقة تتكسر جميعها وتتلاشى إذا ما حاولنا أن نحبسه أسيراً في سجن العقل
والمنطق وأن نضيق الخناق عليه هناك. فليس من الواجب أن نخبر طبيعة هذا الكائن
ولا أن نديم البحث في حقيقته بل ندعه يمضي أمام أبصارنا ترفرف فوقه أجنحة الجميلة، فيبهر منا البصر ويحملنا معه إلى عالم الأحلام من حيث أتى. وهل هناك أحلى من أن نترك حياة الحقيقة هذه وراءنا لحظة لنريح الفكر في حياة اللاحقيقة؟
لقد يسعدنا أن نتحرر من أسر المنطق الثقيل لنمضي ونحيا حياة المغامرة والغرابة والشعر حيث لا قيد ولا شرط - مثل هذه الحياة للعقل تريحه وتجدد نشاطه، وللنفس تنقيها وتنضجها، ولكننا يجب أن نصدق ما نراه لكي نستمتع هذه المتعة ونستريح هذه الراحة
نعم. إن بالقصة ما لا يمكن تصديقه وما لا يمكن وقوعه في الحياة، لكن عدم الإمكانية هذا هو الذي قد يمد العقل بالراحة والهدوء إذ أنه يجرد العواطف من حرارتها فلا يجعل المشاهد يتألم أو يشقى؛ فإذا ما جاءت اللحظة التي يقوى فيها إحساسه بالقصة ويشتد عطفه يذكر نفسه بأن الموضوع كله حلم وخيال فقط، فتهدأ نفسه ويبدأ يرى حوادثها مثل أشياء بعيدة نائية يكسوها البعد لباساً من الهواء أزرق شفافاً
ولكن أترى ينقص عدم الإمكانية هذا من قيمة القصة أو يحط من مغزاها؟ ثم ترى هل الحياة خالية كل الخلو من الجني المداعب (بك) ورفقائه؟
لا! إن بنات الغاب يعشن فوق أرضنا هذه من وقت لآخر مداعبات حيناً نفوس الشباب وقلوبه، حدبات حيناً آخر على عقول رجال الأعمال الجامدة وأفئدتهم الصلدة، وأحياناً مشفقات منشدات للفقير والمكلوم أناشيد الراحة والأمل، ونحن نخشى (بك) الساحر ولكنا لا نراه - نحسه يسير معنا في حياتنا، ونحس سحره الفعال كما صوره شكسبير بغير رؤوس الرجال: إلى رؤوس الحمير والبغال - بيد أن سحره قوي لا يقاوم مرغوب من الناس محبوب من الشعراء. . .
أحب أن أقول إنه برغم كل ما بهذه القصة من شذوذ وغرابة فإنها تطابق الحياة والواقع، ولا تقل في هذا عن قصة (لير) أو (هملت) - تطابق الحياة فقط في أن الإحساس الذي تنتجه في النفس هو إحساس صادق حقيقي كثيراً ما نحسه في حياتنا، العادية ونحتاج إليه، ولو أن ما بالقصة نفسها يختلف عن الحياة وذلك نوع من أنواع الخلق الفني النادر، ومثل من أمثلة الفن الإيعازي الذي ما أحسب أحداً غير شكسبير يستطيعه بسهولة ووضوح
لقد نحلم أحياناً عند ما نسمع لحناً شجياً أو نرى وجهاً بهياً. بيد أن الشاعر هنا يدعونا لأن نحلم عندما نقرأ شعره. فهل نرفض الدعوة؟ إن الحلم الهادئ الجميل نادر في هذا العيش، وإن الإحساس بالراحة والطمأنينة وحلاوة الحياة الذي يعقب الحلم ويقطن النفس بعد رحيله عنها أندر من الحلم نفسه وأثمن. . .
فلزم علينا إذن أن نقبل دعوة الشاعر، وأن نقبلها فرحين شاكرين
محمد رشاد رشدي
بكالوريوس بامتياز في الأدب الإنجليزي
شاعرنا العالمي - 10
أبو العتاهية
للأستاذ عبد المتعال الصعيدي
حماقاته: روى صاحب الأغاني عن الحسن بن علي قال: حدثنا محمد أبن القاسم قال: حدثني إسماعيل بن عبد الله الكوفي قال: حدثني عمروس صاحب الطعام، وكان جار أبي العتاهية قال: كان أبو العتاهية من أقل الناس معرفة، سمعت بشراً المريسي يقول له: يا أبا إسحاق لا تصل خلف فلان جارك وإمام مسجدكم فانه مشبه، قال: كلا

إنه قرأ بنا البارحة في الصلاة (قل هو الله أحد)، وإذا هو يظن أن المشبه لا يقرأ قل هو الله أحد
وقد ذكرنا عن مخارق فيما سبق ما جرى لأبي العتاهية معه حينما دعاه فغناه وشرب معه ثم أمر غلامه فكسر كل ما بين أيديهم من النبيذ وآلته والملاهي، قال مخارق: فظننت أنها بعض حماقاته، فانصرفت وما لقيته زماناً، ثم تشوقته فأتيته فاستأذنت عليه فأذن لي، فدخلت فإذا هو قد أخذ قوصرتين وثقب إحداهما وأدخل رأسه ويديه فيها، وأقامها مقام القميص، وثقب أخرى وأخرج رجليه منها وأقامها مقام السراويل، فلما رأيته نسيت كل ما كان عندي من الغم عليه والوحشة لعشرته، وضحكت والله ضحكاً ما ضحكت مثله قط، فقال: من أي شيء تضحك؟ فقلت: أسخن الله عينك هذا أي شيء هو؟ من بلغك عنه أنه فعل مثل هذا من الأنبياء والزهاد والصحابة والمجانين؟ انزع عنك هذا يا سخين العين، فكأنه استحيا مني؛ ثم بلغني أنه جلس حجاماً، فجهدت أن أراه بتلك الحال فلم أره، ثم مرض فبلغني أنه اشتهى أن أغنيه، فأتيته عائداً، فخرج إلي رسوله يقول: إن دخلت إلي جددت لي حزناً، وتاقت نفسي من سماعك إلى ما قد غلبتها عليه، وأنا أستودعك الله وأعتذر إليك من ترك الالتقاء، ثم كان آخر عهدي به
وذكر بشر بن المعتمر أنه قال يوماً لأبي العتاهية: بلغني أنك لما نسكت جلست تحجم اليتامى والفقراء للسبيل، أكذلك كان؟ قال: نعم، قال له: فما أردت بذلك؟ قال: أردت أن أضع نفسي حسبما رفعتني الدنيا ليسقط عنها الكبر، وأكتسب بما فعلته الثواب، وكنت أحجم اليتامى والفقراء خاصة، فقال له بشر: دعني من تذليل نفسك بالحجامة، فانه ليس بحجة لك أن تؤديها وتصلحها بما لعلك تفسد به أمر غيرك، أحب أن تخبرني هل كنت
تعرف الوقت الذي كان يحتاج فيه من تحجمه إلى إخراج الدم؟ قال: لا، قال: هل كنت تعرف مقدار ما يحتاج كل واحد منهم إلى أن يخرجه على قدر طبعه مما إذا زادت فيه أو نقصة منه ضر المحجوم؟ قال: لا، قال: فما أراك إلا أردت أن تتعلم الحجامة على أقفاء اليتامى والمساكين
قالوا وإنه من أجل هذا وأشباهه غلب عليه هذا اللقب (أبو العتاهية) وقد أخبر ميمون بن هارون عن بعض مشايخه قال: كني بأبي العتاهية أن كان يحب الشهرة والمجون والتعته. وأخبر محمد بن موسى بن حماد قال: قال المهدي يوماً لأبي العتاهية أنت إنسان متحذلق معته، فاستوت له من ذلك كنية غلبت عليه دون اسمه وكنيته وسارت له في الناس، قال: ويقال للرجل المتحذلق عتاهية، كما يقال للرجل الطويل شناجية، ويقال أبو عتاهية بإسقاط الألف واللام
ومن المحتمل عندي أن يكون تلقيته بذلك من أجل ابنه عتاهية الذي روينا عنه فيما سبق بعض أخبار أبيه، وأن تلك الأمور التي نسب إليه من أجلها هذا الحمق كان يتحامق بها لأغراض له فيها، وقد تحمل الأغراض بعض ذوي العقول على هذا التحامق فلا يكون لهم منه بد، كما قال الشافعي رحمه الله وقد جرى بينه وبين بعض من صحبه مجانة:
وأنزلني طولُ النوى دارَ غربة ... إذا شئت لاقيتُ امرأ لا أشاكلهْ
أحامقه حتى يقال سجية ... ولو كان ذا عقل لكنت أعاقله
ويمكن أن يكون من تلك الأغراض التي حملت أبا العتاهية على ذلك اتقاء ما كان يدبر له من ضروب الكيد، ومحاولة الإيقاع به، وأخذه بتهمة الزندقة وما إليها، فان ظهوره بهذا المظهر يهون من أمره، ويجعله امرأ لا يخاف شره
ويؤيد هذا ما رواه أبو الفرج قال: أخبرني محمد بن الصولي قال: حدثنا أبو ذكوان قال: حدثنا العباس بن رستم قال: كان حمدويه صاحب الزنادقة قد أراد أن يأخذ أبا العتاهية ففزع من ذلك وقعد حجاماً
وإذا كان خوفه من حمدويه هو الذي حمله على أن يحترف هذه الحرفة التي ليست من شأنه، لا ما تظاهر به من إرادة تذليل نفسه، فيمكننا أن نحمل على ذلك كل تلك الحماقات التي تؤثر عنه، ونخرجها على ذلك التحامق الذي يقصد به مداراة أهل الظلم والحمق
وقد كان أبو العتاهية يعتمد في هذه الحياة المضطربة التي عاش فيها على ضروب من الحيلة كان يجيد تمثيلها، ولولاها لطاحت رقبته فيمن طاحت رقابهم ممن لم تساعفهم

الحيلة في تلك البيئة، ولأبي العتاهية في ذلك نوادر لطيفة كان يتوصل بها إلى ما يعجز عنه غيره، ويحوز بها القبول لدى أرباب الحل والعقد في عصره من رجاله ونسائه، ولنختم هذا الفصل بتلك النادرة الظريفة من نوادره

ذكر أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي أن أبا العتاهية لما ألح في أمر عتبة لأول دخوله بغداد ولم ينل منها شيئاً، وجدها يوماً قد جلست في أصحاب الجوهر، فمضى فلبس ثياب راهب، ودفع ثيابه إلى إنسان كان معه، وسأل عن رجل كبير من أهل السوق، فدل على شيخ صائغ، فجاء إليه فقال: إني قد رغبت في الإسلام على يدي هذه المرأة، فقام معه وجمع جماعة من أهل السوق وجاءها فقال: إن الله قد ساق إليك أجراً، هذا راهب قد رغب في الإسلام على يديك، فقالت هاتوه، فدنا منها فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمد عبده ورسوله، وقطع الزنار ودنا فقبل يدها، فلما فعل ذلك رفعت البرنس فعرفته، فقالت نَحُّوهُ لعنه الله، فقالوا لا تلعنيه فقد أسلم، فقالت إنما فعلت ذلك لقذره، فعرضوا عليه كسوة فقال ليس لي حاجة إلى هذه، وإنما أردت أن أشرف بولائها، فالحمد الله الذي من علي بحضوركم، وجلس فجعلوا يعلمونه الحمد وصلى معهم العصر، وهو في ذاك بين يديها ينظر إليها لا تقدر له على حيلة

عبد المتعال الصعيدي

أسطورة يونانية (اورفيوس وبوريديس)

الألم

(مهداة إلى شاعر يتألم: إلى الصديق محمد الفراتي)

للأستاذ خليل هنداوي

(أعيدوه إلى أرض الحياة وحده! إن عوده سيسكت إذا عادت معه، وان قيثارة الأرض ستنقص وتراً، إني أريده يغني فلا تعطوها له. نحن في السماء كما على الأرض نتلذذ بالآلام المولدة)

قد أَطرَبَ الطيرَ بأَنغامِهِ ... وسهَّدَ الوحشَ بألحانِهِ
يغيبُ عن إحساسهِ ذاهلاً ... منتقلاً في غير أوطانه
يشكو إلى القيثارِ أشجانَه ... فيملأُ الكونَ بأشجانِهِ
سكرانُ! لا يُدرك ما مسَّه ... نشوانُ! لا يَخرجُ من حانِه
البحر والأمواجُ تصغي له ... والليلُ إن أسبلَ أستارَه
يأوى إلى عزلتِه حائراً ... يُذيعُ في العزلةِ أسرارَه
ما باله يُعول قيثارُه ... فحطموا الليلةَ قيثارَه
هو الهوى امتدَّ إلى قلبه ... وأضرمَ الحبُّ به نارَه
وهذهِ من أيقظَتْ روحَه ... تسرَحُ في الغابةِ كالحالمه
خاليةُ القلبِ، تلاقي الفتى ... معرضةً عن حُبِّه، واجمه
لا تفهمُ اليومَ نداء الهوى ... لا توقظوها! إنها نائمه
. . .يا هائماً قد لجَّ منه الجوى=إنهَدْ إلى غانيةٍ هائمه
سيفُتح القيثارُ من نفسِها ... ما تعجِزُ الأزهارُ عن فتحِه
ويفتحُ الألحانُ محزونُها ... جرحا بها أعمقَ مِن جرحهِ
وينقلُ النَّغمُ إلى سمعِها ... ما راحَ يشكو الصبُّ من برحهِ
. . .لا تُنزلي الرأفة في قلبها! ... فانما الإبداعُ في نوحهِ
طفا على الكَون سكونُ الدجى ... وقد غفا غيرُ عيونِ الزهرْ
وخفَّ في الأجواءِ عبقُ الشذا ... ونامتِ الأكوانُ إلا القَدَرْ
هبَّا إلى الرقص يُحيِّيهما ... في صفحةِ المشرقِ ضوءُ القمر
من يُنبئ الإلفينِ أن القضا ... مُبدِّلٌ صفوَهما بالكدر؟
تسلَّل الصلُّ إلى جسمِها ... بوخزةٍ من وَخَزاتِ المنونْ
فلم يكن في عمرها فسحةٌ ... فخاطَبتْ محبوبَها بالسكونْ
!يا ليلةً ضلَّتْ مسراتُها! ... وما اهتدَتْ إلا عيونُ الشجونْ
زَفوا عروسَ الموتِ يا ويلتا! ... للموتِ، ما تُغني فتاها الشئون
استنطَقَ القيثارَ لكنما ... قيثارُه المحزونُ لا يُسعدُ
سعى إلى وادي الردى ذاهلاً ... لكي يناجي روحَ من يعبُد

أصغى إليه الموتُ في فترةٍ ... فجاَءه يسألُ ما يقصدُ؟
فقال: والقيثارُ في شجوِه ... لي عندكم محبوبةٌ ترقدُ
يأيها النادي إلى عالَمٍ! ... داخلُه المفقودُ لا يرجعُ
ليس شفيعٌ للذي جاءَنا ... بمهجةٍ محزونةٍ يشفعُ
أجابَ عندي لكَ أغنيةٌ ... أنشدَها قلبي، فهل تسمعُ؟
ثم انبرى يَنفُثُ من حزنهِ ... ما تنهمي حزناً له الأدمعُ
رقت له زوجُ الردى فانثنت ... تستعطفُ الموتَ على من نزلْ
قالت له: عطفاً على هائمٍ ... ليس له من بعدها من أملْ. . .
أرجع إليه من سَبت عقلَه ... نوَّارةَ الوادي، ونورَ المقل
قد أرعنَ الوادي برناته ... ألم يُلن قلبك هذا الغَزَلْ؟
قال له الموتُ وقد راقُه ... ورق، والقلبُ أسيرُ النغمْ
أُخرج من الوادي، ولا تلتفت! ... إني معيدٌ خلقها من عَدَمْ
فحطَّمَ القيثارَ من بشرِه ... وخفَّ جذلانَ، سريعَ القدمْ
يسبق من تسري بأعراقها الروحُ وتهتزُّ اهتزَازَ النَّسَمْ
مشى وئيداً مرهفاً سمعه ... لعله يُصغِي إلى جرسها
أصغى إلى الأزهار من حولهِ ... أصغى، فلم يسمع سوى همسها
الزهرُ والأعشابُ في يقظةٍ ... كأنها تمشي إلى عرسِها
أَوَقْعُها ألينْ من وقعِها؟ ... أم حُّسها أرفقُ من حسِّها؟
رنا إلى خلفُ على رقبةٍ ... وقد عراه الشكُّ من عودِها
إن لم تعد حيةً فلأعدْ! ... إنَّ الردى أهونُ من فقدِها
فأبصَرَ الغادةَ شفافةً ... كشعلةٍ تَسطعُ من وقدِها
ولمعةُ الأحلامِ في عينها ... وجذوةُ الأشواقِ في خدِّها
تقابلا! لكنَّ صوتَ الردى ... صاحَ، فحالَت كُتلةً من ترابْ
فلم يعانِقْ غير أحلامِه ... ولم يُشارِفْ غيرَ لمعِ السرابْ
وهاتفٍ صاح به: يا فتى ... عُدْ للهوى الباكي، وعُدْ للعذابْ
واحملْ بقايا العود، لا تمتهِلْ ... حَرَقْتَهَا: ليس لها من إيابْ
غداً إذا آبَ وآلامهُ ... هادئةٌ، يسكُتُ قيثارُه
غذوه بالآلام لا ترأفوا ... تَرِنُّ بالآلام أوتارُه
لا تقتلوا الأشجانَ في نفسِه ... تفيضُ بالأشجانِ أشعارُه
لولا الذي تسكُبُه يا ندى! ... ما ضحِكَتْ في الروضِ أزهارُه
لنا بآلامِ الورى لذةٌ ... وبالنَّدَى يُشرِقُ لونُ الزهَرْ
نريدُه يشدو لنا فليعدْ! ... حليفُه الهمُّ وطولُ الضجرْ
نريده يشدو فلا تَقطعوا ... من مِعزَف الألحانِ هذا الوترْ
قد يَطرَبُ اللهُ وأملاكُه ... لنكبةٍ تُنطِقُ قلبَ البشرْ
لِلأرضِ من قلب الفتى مِزقةٌ ... ومزقةٌ يرفعها للسماءْ
فوزعِ القلبَ على أهلهِ ... وامنحْ من الآلامِ معنى الهناءْ
خُلقتَ هتافاً فلا تبتئسْ=هل نتاجُ الطيرِ إلا غناءْ؟
إن تَبقَ منه بضعةٌ فلتكنْ=هديةً مشكورةً للفناءْ. . .
دمشق
خليل هنداوي
ظمأ على ظمأ
بقلم فريد عين شوكه
ظمأ على ظمأ وليس لمهجتي ... رِيٌّ سواك يَبُلُّ حَرَّ ظِمائي
يا مهد أحلامي ومُتعة خاطري ... ومناط آمالي وفيض رجائي
أنت الحياة ولا أزيدك بعدها ... وصفا، فذلك منتهى إيفائي
كم ذا تشعُّ بخاطري فأغيب عن ... صحبي ولا أصغي إلى خلصائي
وأظل أسبح في هواك وألتقي ... بك في الخيال وأنت عنيَ نائي
وأراجع العهد الحبيب المشتهَى ... فلعل في ذكراه بعض عزائي
والصحب من حولي عيون تجتلى ... حالي وتلحظني على استحياء

حتى إذا جمح الحنين ولج في ... خلدي وألهب بالأسى أحشائي
مدُّوا إليَّ عيونهم وتساءلوا ... عما يغُول بشاشتي وصفائي
فأجار ثم أجيب غيرَ موفَّق ... مع وفرة الأعذار في حوبائي
يا غائباً عن ناظريّ وليس في ... قلبي سواه يرِفُّ بين دمائي
كم أشتهي برح الضنى لتعودني ... وأراك رأي العين في جلسائي
يا مستريح البال من عبث الهوى ... لو كنت تعلم في نواك شقائي
الفرقة الهوجاء قد رانت على ... كبدي فيا للفرقة الهوجاء
شتان ما بيني وبينك في النوى ... كالبعد بين قراراتي وسمائي
ما أبعد الحالين! أنت منعَّم ... غافي العيون على رضىً وهناء
تسعى لك الدنيا وتحتشد المنى ... للقاك كل صبيحة ومساء
وتعيش في وادي الهوى متفيئاً ... أندى الظلال وأكرم الأفياء
!وأنا، وقاك الله من سَرَف الجوى ... وكفاك ما ألقى من الأعباء
وأنا - كما تدري - أهيم بمهمه ... قفر الجوانب موحش الأرجاء
حَرَّانُ تلفحني الهواجر باللظى ... حتى تذيب عزيمتي ومضائي
ظمآن أستسقي الغمام وإنه ... ليضن أن يهمى بقطرة ماء
حيران ما أرتاح لحظ بصيرة ... حتى أعاف إقامتي وثوائي
وا لوعة المهجور في وادي النوى ... مما يساوره من البرحاء
يا جنة السلوان، ناءت عزمتي ... من فادح الذكرى وخار بنائي
فمتى أفيء إلى ذَراك وأستقي ... بَرْد العزاء ونشوة التأساء
فريد عين شوكه
فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية
تطور الحركة الفلسفة في ألمانيا - 18
فريدريك نيتشه
للأستاذ خليل هنداوي
الآن تبين لنيتشه أن هاوية سحيقة تفصل بينه وبين شوبنهاور وفاجنر، وقد تقبل مذهب التشاؤم من قبل ليتخذه سلاحاً يصرع به التفاؤل الخادع، وقد بدا له أن نقد الوجود نقداً مصحوباً بالتشاؤم هو من واجب كل نفس خالصة، ولكنه لم يتقبل تلك النتائج السلبية التي استخلصها شوبنهاور من نظراته، ولم يتقبل العدم وسلب الحياة كغاية منشودة في الوجود. ولكن هذا المذهب العدمي الذي يستسر فيه الخطر، قد لا يكاد يقل مذهب التفاؤل المطلق عنه خطراً، فان جيلنا إذا نمت فيه الروح الراضية القانعة والذات الخانعة، كان هذا منه علامة الوهن والضعف والانحطاط. تنشأ في جيل تعب من الحياة وتصدع من الألم، ويرتاح إلى الراحة المتمثلة في العدم، وهكذا بدرت لنيتشه مسألة جديدة شغلته طيلة حياته. . . ما هو منشأ هذا الانحطاط الحديث؟ ما هي العلامات التي ساعدت على نشره. وما هو داء العدمية؟ وما هو دواؤه؟ ولم يكد يبلغ هذه النقطة حتى وجد أن حكمه على ذينك المعلمين قد تحول من الكل إلى الكل. وإذا برفيقيه اللذين كانا عدته في مكافحة التفاؤل يغدوان خصمين عنيفين له تثقل عداوتهما عليه وعلى المجتمع. وأدرك في النهاية أن ثباته على صداقتهما فيه خطر عليه كبير، فإذا لم يبرأ من هذه الصداقة ويخلص من تأثيرها ومرضها فانه لن يتاح له أن يقف أمام نفسه واعياً همسها فاهماً نجواها لابساً لباسها، ولن يتاح له أن يأتي الناس بإنسانه الكامل الذي أوحته إليه تعاليمه الجبارة فيما درس من عبقريات اليونان، فنفض عنه هذه الزخارف الصبيانية التي يتحلى بها أسلوب (فاجنر) ووجد فيه ذلك الدليل الأمين الذي ينفع المفكر الذي يبغي أن يدرس هذه النفس وينحدر إلى أعماقها. فهو اعتنق مذهب (فاجنر) بادئ ذي بدء ليصل إلى هذه النفس. والآن يحاول أن ينجو من حبائل هذا الساحر. (إن ما يشغلني الآن هو الشقاء. . . لم يكن (فاجنر) إلا علة من عللي). . على أن الأندية الأدبية قد ارتاعت لهذا الانقلاب وهذه المفاجأة. وأجمعت كلها
الحملة على نيتشه العقوق الذي رأت فيه الناكث للعهود. وأخذت الأندية تبعث بتآويل شتى لمعنى هذه الانفصال. وكلها أزمعت القول بأن نيتشه كان في الحالة الأولى خير من تفهم (فاجنر) ووقف على دقائق مذهبه، وكان تحليله الأول له خير ما أخرجه ناقد

محلل عن هذا الفنان. وعللت بأن ما عراه من مرضه العقلي الذي ساقه إلى قطع علاقاته مع المجتمع، هو الذي ساقه إلى التنكر لأصدقائه، ولكن هذا التعليل تعليل فاسد يفسد على الرجل كل فلسفة، وهو الذي كتب نظراته وأعطى مذهبه حراً مفكراً مختاراً. لم يكن مجنوناً ولا مخبولاً يوم طعن (فاجنر) ونال من مذهبه. أما أصدقاء نيتشه فهم يعزون ذلك إلى انخداع نيتشه بهذا الفنان. وهنالك آراء تقاربت تجئ طوراً مع نيتشه وتارة عليه. أما الذين يمقتونه فهم ينقمون منه هذه الشخصية أو هذه الأنانية التي قادته إلى نكران الصداقة، زاعمين أن شخصية نيتشه لا تود أن ترى ظلاً لشخصية غيرها، وشخصية نيتشه في الحقيقة شخصية ذاتية قوية، لأن الرجل يرى أن الشخصية هي كل شيء، يضحي في سبيلها بكل شيء ولا يضحي بها في سبيل أي شيء. فوجد نيتشه أن شخصيته تكاد تفنى في شخصية (فاجنر) وهو الذي التصق به واتصل لمجرد الوصول إلى نفسه وتفهمها. ولم يجعل منه رسولاً هادياً ولا مثلاً سامياً. . وهكذا أخذت هذه الشخصية الغالبة تضيق عليه ويضيق بها، وتخفي صوته الحقيقي، فليضح بكل شيء في سبيل ذاته. ولعل نيتشه أدرك أن القوم سيختلفون في تعليل هذا الانقلاب فكتب هذه الرسالة التي تنطوي على صفاته ولون تفكيره. (كنا صديقين غريبين. . . . كنا كمركبين. كلاهما له غايته وله سبيله. . . . قد نتلاقى ونرفع أعلام اللقاء كما فعلنا. . . وفي هذه اللحظة ذاتها قد رسا المركبان في مرفأ واحد، يغمرهما شعاع واحد، كأنهما مقدمان على هدفهما، وكأن هذا الهدف واحد عندهما، ولكن الضرورة التي لا تُدفع قد تقذف بمركبينا قذفة جديدة نحو بحار مختلفة وأنواء متباينة. وقد نتراءى ولكن لا نتلاقى. كم لوحتنا الشمس والأمواج! نظل غريبين لأن الشريعة الغالبة تريد ذلك. . ولكن صداقتنا القديمة تبقى شيئاً قدسياً. . . وهكذا نريد أن نؤمن بصداقتنا (في النجوم) حتى في العهد الذي يجب أن نكون فيه خصمين على الأرض)

أليس في هذه الكلمة ما يجعل نيتشه بريئاً شريفاً بازاء خصميه وأنصار خصميه؟

نيتشه الفيلسوف!

- 1 -

لم تكن نهاية عمر نيتشه إلا معركة متصلة الأسباب، يشنها صاحبها على الداء الذي خامره، يصرعه حيناً وحيناً يصرعه. وهو خلال ذلك يطول صراعه ويمتد نزاعه، يحول الداء بينه وبين إتمام عمله الذي تصدى له، ولا يشعر بالمجد الذي صار يركض إليه في أصقاع العالم

هذه الفلسفة الغريبة الشاذة قد شك عند مناقشتها النقاد الذين لم تتسع لها عقولهم، فقالوا عنها: إنها فلسفة طائشة جاء بها مجنون، قد تمخض بها الجنون فناً من قبل! وهؤلاء قد ظلموا الرجل ميتاً كما ظلمته الطبيعة حياً، على أن شذوذ هذه الفلسفة لا يدعو إلى حسبانها فلسفة مجنونة، فقد كتبها صاحبها واعياً وغالب بها ألمه قبل أن يستحيل إلى جنون، ومهما ذهب النقاد في تعليل جنون نيتشه: أهو جنون اكتسابي أم وراثي، فان الرجل قد استطاع بما أوتي من عبقرية سامية أن يحدث في صفحة الحياة أمواجاً عنيفة بالحجر الذي ألقاه. وبهذا لا ينبغي لنا أن نعتقد أن الجنون أثر في آثاره وهو الذي دل على وعي خارق في أحدِّ نوباته وأعنف آلامه

- 2 -

أراد نيتشه آلامه، وعمل على تحملها غير مستثقل ولا مستضعف، يحولها إلى الحاجة التي يريدها ويستخلص منها ما يلائم حياته. فإذا لم يكن هذا الرجل جديراً بالرأفة والشفقة لأنه لا يريدهما؛ فهو جدير بالاحترام. والبطل يحترم مستلئماً ومكفَّناً أول نعمة احتسبها للألم أنه أنقذه من مهنة التعليم ودراسة اللغات المندثرة، إذ أخذ يحس أن هذه المهنة برغم شرفها لا تتلاءم والغرض الذي تتوق إليه روحه. فهو فيلسوف قبل أن يكون عالماً بدراسة اللغات. وأخذ يشعر بأن وفاءه لهذه المهنة دفعه إلى قتل أزهى أيامه وتعطيل دراساته، فما أثقل اليوم على ظهره هذه الأعباء! فجاء الداء وأجبره على تحطيم كل حلقة تربطه بالماضي الذي أصبح يعده غريباً عنه وهو منه. جاء فبدل حياته بحياة ثانية تختلف مظاهرها، وألقاه في عزلة عميقة لا يقر فيها إلا إلى نفسه لأنها حرمت عليه الانكباب على المطالعة والانصراف إلى الدرس. فهو اليوم وحيد مع نفسه، أمام نفسه. يسمع نداء من كان في أذنه وقر عنها. فرحت اليوم نفسه بعودته إليها، بأوبته إلى العزلة

والراحة الخالدة: هذه النفس التي كادت تقتلها الحادثات وتطغي عليها جبلة المجتمع قد نفضت عنها الأكفان ورفعت صوتها الرنان (ما تذوق يوماً من السعادة ما تذوقه خلال أيام دائه لأنه عاد إلى نفسه. وهذه العودة إليها كانت شفاءه. وهذا الشفاء يتلوه شفاءه المادي)

على أن الداء لم يزد نيتشه إلا احترازاً في النظر إلى مسائل الكون والحياة، وهو عاكف على التطلع إلى هذه المبادئ الفلسفية، ولكن يراها بمجموعها جملة مبادئ هي حقائق بعينها؛ اطلع إليها كأنها ابنة طبع مبدع وشخصية مبدعة، ومما ينبغي أن ينظر إليه بعين الاعتبار مسألة تأثير الصحة والسقم في العقل البشري، فإذا تألم جسدنا - وهو العقل الأكبر - فالعقل الصغير لابد متأثر بما نزل بالعقل الكبير، وإذ ذاك يسأل السائل: هل هذا المذهب علامة من علامات صحة صاحبه أو انحطاطه؟ وقد أيقن نيتشه بأن السقم زاده احتراساً وانتباهاً من سلطة الأخلية والأوهام التي تتولد عادة عند من راقت لهم صفحة الحياة وبهجة الدنيا (بلى! إنني أدرك أن الألم لا يحمل الإنسان إلى المقام الأحسن، ولكن الألم ينحدر بنا إلى أعماقنا!)

والإنسان الذي يريد أن يناضل ما ينتابه من قلق جسماني متسيطر ينبغي له أن يفرض على نفسه قوة يقهر بها نفسه، تخرج منها إرادته المتمرنة ظافرة كما يصنع الهندي المستسلم لألوان من العذاب، أو أن يستسلم لزهد مطلق واعتزال كامل وهجر للإرادة، والإنسان الذي يتمكن من هذا الامتحان يقضيه من غير ضعف، يتعلم منه أن يتأمل مسائل الحياة بوضوح وجلاء، لا يخدعه عن حقيقتها شيء؛ فهو يأبى أن تصرفه عن حقيقة الوجود هذه التشابيه والخزعبلات المغرية، وكأن دافعاً للانتقام والثأر من الحياة يتحرك في طوايا نفسه، يريد أن يستبدل بها آلاماً تتولد له حين يقابلها وجها لوجه يميط عن وجهها النقاب. وينزع كل زينة خادعة تتبرج بها لإغواء الناس؛ وهو إذا أحب الحياة بعد ذلك فانه يحبها كالعاشق الغيور المتحرز، حبك لامرأة خدعتك وأصبحت مثار الشك عندك

يلاحظ نيتشه أن الألم هو الذي جعله متفائلاً، والسقم قد علمه ما يبلغ تأثير الانحطاط الجسماني في عقل المفكر، ولاحظ به كيف يسعى الألم إلى قهر عزة النفس العقل الفلسفي ورد هذه العزة ضعفا وذلة وحزناً وكآبة. وأدرك ما هي المواضيع والزوايا السماوية التي يلجأ إليها عقل المرضى والمنحطين سعياً وراء ما يخفف عنهم من فاقتهم وكآبتهم. وأدرك

بعد هذا كله أن كل فلسفة تضع السلم فوق الحرب، وكل فضيلة تعطي للسعادة تحديداً سلبياً، وكل علم من علوم ما وراء الطبيعة يرى أن في مراحل الاعتدال والراحة التامة والأمل الديني في عالم خير من هذا العالم، وفي برزخ غير هذا البرزخ، يرى في هذا كله حداً للرفعة والسمو؛ إن هذه الفلسفة مهما كانت مظاهرها فهي تحمل طابع الفساد والانحطاط؛ وآمن بأنه فهم أن كل هذه المذاهب الداعية إلى التشاؤم والركون المطلق تدل على أن أصحابها الواضعيها كانوا في حالة مرض عضوي؛ ولما أراد هذا المريض أن يشفى ركن إلى التفاؤل؛ وقد نفعته أيام البلاء بالوقوف على أسباب التشاؤم، فانصب على الداء بكل ما يحوي جسده ونفسه من عزم، يقاومه في معركة لا هوادة فيها ولا رحمة، وبقوة روحه قد انتصر في عالمي جسده ونفسه؛ عاد متفائلاً، وعادت إليه العافية، (ألا إنني اكتشفتُ حياة جديدة؛ اكتشفتُ نفسي. إنني قد جرعتُ الأشياء الكبيرة كما رشفت الصغيرة منها، وجعلتُ من رغبتي في الشفاء والحياة كل فلسفتي، حذار جميعاً؛ إن الأعوام التي انحطت فيها حيويتي، هي الأعوام التي طلقتُ فيها تشاؤمي، وغريزة الوقاية هي التي صرفت عني فلسفة اليأس والفاقة)

(يتبع)

خليل هنداوي

القصص

صور من هوميروس

حروب طَرْوَادَة - 3

إلى أسبارطه!

للأستاذ دريني خشبة

- (سمعت يا أبي قصة أختك المعذبة (هسيونيه) إذ أنا أرعى الشاه والبهم، فكان قلبي ينفطر أسى، كيف يسكت شعب عظيم كشعب طروادة على إهانة تصيبه في الصميم من شرفه، وعار ليس أيسر من دفعه، لكنه يغضي عليه، وينام عنه، كأن العزة القومية عند أهل هذا البلد ليست إلا أسطورة قديمة، أو حلماً لا يدور لهم بخلد!؟)
- (حسبك يا باريس! حسبك يا بني! إنها محنةٌ كتبت على طروادة،، صنعها جدك بيديه!)
- (جدي؟)
- (أجل! جدك. . . أبي. . . أبي لا يوميدون! هو الذي نكث بعهده لبطل الأبطال هرقل. . . الرجل العظيم الذي أنقذ هسيونيه من براثن هذا الوحش البحري الهائل. . . الوحش الذي فتك بعذارى طروادة. . . لقد أعلن أبي أن من يقتل هذا التنين فانه يتزوج هسيونيه. . . ولما قتله هرقل العظيم
- (رفض والدك أن يزوجها منه!)
- (هو ذاك!)
- (لم أسمع بهذا من قبل. . . ولكن كيف سمحتم لهرقل وملئِه أن يستبيحوا طروادة ويذهبوا ببعض الأعزاء من أفراد البيت الملكي!
- (كنت طفلاً. . . وقد كنت بعض هذا السبي. . . ثم من كان يستطيع دفع هرقل، أقوى أبناء زيوس، وصاحب المجازفات الخرافية! من كان يستطيع حماية طروادة منه، بعد أن نكث الملك بوعده؟
أنت كنت بعض السبي؟ أنت يا أبي؟
- (أجل يا باريس! وقضيت في أيدي أعدائنا الشرفاء أجمل حقبة من شبابي! لله كم كانوا كرماء حقاً؟ . . .)
- (وكيف عدت إلى طروادة إذن؟)
- (مات أبي بعد حياة مفعمة بالمتاعب، ولم يكن له ولي عهد غيري، فتوجه الطرواديون إلى الأعداء يطالبونني ملكا لهم، بأي ثمن. . . ولكن أعداءنا كانوا أكرم من أن يسترقوا الملوك أو يبيعوا الأمراء. . . لقد أعادوني معززاً مكرماً إلى وطني، بعد إذ أخمد خصومتهم موت هرقل. . .
- (ولم لم تعد عمتي هسيونيه يا أبتاه؟)
- (لقد تزوجها تيلامون يا بني، وأحسبها الآن أيما)
- (ذلك أدعى لعودتها. . . إنها لا شك تتعذب في دار غربتها. . . مسكينة!! إن حدائق الخلد لا تجدي نفعاً إذا كانت سجناً لأحدنا!
- (هذا حق يا بني. . . ومثله القفص من ذهب يحبس فيه البلبل المحزون!)
- (أنا حزين يا أبتاه. . . لابد أن تعود عمتي. . . أفتأذن لي في الإبحار إلى هيلاس؟ إذا أذنت، فلن أعود إلا بها
الآلهة لا تكذب!
هكذا قالت فينوس! وإذا كانت الآلهة لا تكذب، فلن يكذب أبوللو! لابد أن تصدق النبوءة القديمة؛ لابد أن يبحر باريس إلى هيلاس ليجر الخراب على طروادة، وليخيم الموت في داراتها جميعاً. . .
الآلهة لا تكذب!
لقد أبحر إلى إسبارطة في يوم عاصف؛ أسود من جبين الموت! وأبرد من بطون القبور! ولقد كان أسطوله اللجب يرقص على نواصي الموج، كما يرقص الطائر المذبوح في قبضة الفناء. . .
هيلين
ثمرة الحب الأولمبي الساحر. . . ابنة زيوس، الغزل، زير النساء؛ من ليدا الفاتنة، التي حولها حبيبها كبير الآلهة، وسيد أرباب الأولمب؛ إلى بجعة بيضاء تتهادى في مرايا المستنقعات والغدران، ليسهل عليه لقاؤها دون عزول. . . أو رقيب! ولقد ولدت له هذه
الطفلة التي كانت كقطرة المداد يمهر بها إعلان الحرب!
شبت هيلين وشبت في أثرها شياطين الفتنة؛ وكبرت، وكثرت تحت قدميها مصارع العشاق!

لقد كان جمالها أسطورةً مصورةً في السحب، موشاةً بذهب الأصيل! كانت نظراتها تغتذي بأرواح المحبين في غير شره، وترتوي بماء حياتهم في غير نهم. . . وإن كان محبوها يحصون بالآلاف. . .!

وهي لم تعمد يوماً إلى قتل هذه الأرواح المظلومة؛ ولم يكن ذنبها كذلك أن تنظر فتصرع، أو تنعس فتُصمي. . . ولكن القتل كان يذهب بأرواح عاشقيها عفواً كلما نظرت هنا أو هنا. . . وذاك هو القتل البريء. . .!

وكان لها فم شَتيتٌ حلو، أودعت فيه السماء أسرارها، وصبغته عرائس الفنون بحمرة القبل؛ فهو دائماً يبتسم، وكل ابتسامة منهُ تحي وتُميت!

وخداها الأسيلان كذلك! لقد كانت لهما نعومة ولمعة، و (نونةٌ) خلابة، هي ملتقى الفتنة بين الخد والفم والعين والأنف!!

ثم عنقها الطويل البلوري الشفاف، وجيدها الممتلئ الخصب! وجسدها الرخص المرمري! وساقاها الملتفتان، يختلط في بشرتهما بياض الندف بحمرة الورد هذه هي هيلين!

فإذا فترت العينين؛ وأرخيت الأهداب الكحيلة السوداء، ذات الوطف؛ وأرسلت نظراتك المذهولة ترف بالخد والجيد، والفم النضيد، فترتد إلى فؤادك بأحمال الحب، وأثقال الهوى. . . رأيت التمثال المعبود الذي خلب ألباب أمراء هيلاس، وأجج قلوبهم بالفتنة، وقرح أجفانهم بالسهاد!

لم تنشأ هيلين مع ذاك في حجور الآلهة، إذ تزوجت أمها، بعد أن هجرها زيوس، من تنداريوس، أحد أمراء هيلاس، فترعرعت الطفلة في مهاد النعمة، وسعدت بالهناءة والعيش المخفرج حتى كانت هيلين التي رأيت!؟

وقد تقدم إلى خطبتها كثير من سادة الإغريق ونبلائهم، ولكن أحداً منهم لم تقبله هيلين بعْلاً لها. . . لا لعيب فيهم. . . ولكن القلب!!

أجل، لم يكن يتفتح قلب هيلين الأولمبية الرائعة، إلا لكل جميل رائع! ولما لم يكن في كل من تقدموا لخطبتها من هو سليل الآلهة مثلها، فقد رفضتهم جميعاً، وعلة ذاك هذا الدم المتكبر الذي يتدفق في عروقها، وذلك الجمال المعبود الذي كان أكثر من أن يحصر في امرأة واحدة!!

وجرت الألسن في هيلين، وجمال هيلين، وعشاق هيلين. . والساخطين على هيلين ممن جرحت كبرياءهم لرفضها إياهم، ولقي زوج أمها من جراء ذلك هولاً شديداً ورهقاً. . .

تحدثوا أن عشاق هيلين، ومنهم أبطال هيلاس وشجعانها وذوو الصولة والجبروت فيها، كانوا يضربون معسكراتهم حول بيت زوج أمها، يطمع كل منهم أن يفوز هو بيد هذه الغادة ذات المفاتن، التي أذلت الأعناق العزيزة، ورغمت بها الأنوف الإغريقية الشماء!

وخشي تنداريوس أن تشب الحرب بينهم، لو أن هيلين قبلت أحدهم زوجاً لها دون الآخرين. . . وأسقط في يده حين تقدم منالايوس، ملك أسبارطة، وسليل الآلهة أيضاً، إلى هيلين يطلب يدها. . . فلما أسرت الفتاة إلى زوج أمها أنها ترضى ملك إسبارطة بعلاً لها، تضاعف فزعه، وازدادت خشيته، وأيقن أنه لو أنفذ من أمر ذلك الزواج شيئاً، فان أمراء هيلاس بأسرهم يصبحون له أعداء ألداء، وهو لا حول له بعداوة أحدهم بمفرده ولا طول!!

ولجأ تنداريوس إلى الحيلة. . .

لقد أقام حفلاً شائقاً دعا إليه كل من تقدموا لطلب يد هيلين، وبالغ في إكرامهم والاحتفاء بهم، ثم خطبهم فتحدث عن فتاته وما كان من أمر خطبتهم لها وعدم التوفيق في إنجاز شيء مما أقدموا له واختلفوا فيه. . .: (أفأن بدا لهيلين يا سادة أن تختار أحدكم ليكون لها زوجاً من دونكم انقلبتم على أعقابكم وثرتم بمن يقع عليه اختيار الفتاة فقتلتموه أو فضحتموه في عرضه، وجعلتم اسم هذا البيت الكريم مضغةً في أفواه الهيلانيين وجيرانهم؟؟ إنما نريد أن نتقي هذا الشر فلا يستطير، ونتدارك الأمر؛ فلا ندعه همجية بيننا؛ ولن أكلفكم في سبيل ذلك شططاً. . . يمين، يا سادة، صادقة، تقسمونها فتكون عهد الوفاء بيننا، أن ترتضوا جميعاً ما ترتضيه هيلين، وأن تكونوا يداً على من يحنث ولو كان أعزكم جانباً وأكثركم قوة. . . بل لنتفق جميعاً على

أمر يكون أعم مما أشرت إليه، أن نكون يداً على من تحدثه نفسه بالأضرار بهيلين أو بِسَبْيها، فقد تحدث إلي من عنده علم أن بعضكم ينتوي هذه النية السوداء. . . ينتوي أن يسرق هيلين إذا لم يكن من حظه أن يقع اختيارها عليه ليكون بعلاً لها، وأنتم السادة النُّجب من علية الإغريق وجيرة الأولمب، أفترضون أن يحدث هذا الحدث في أمر كلكم شاركتم فيه من قبل؟ . . .)

ويجيب المدعون في صوت واحد: (حاشا حاشا! لنقسم جميعاً. . .) وأشرقت هيلين على الملأ، وكادوا يفتتنون بعد إذ أقسموا، لولا أن أرسلت الفتاة صوتها الموسيقي الرنان. . . تختار ملك إسبارطة، الملك منلايوس، ليكون زوجها الوفي الأمين!!

وطأطئوا رؤوسهم. . . وانصرف أحدهم في إثر الآخر. . .

رسا أسطول باريس في مرفأ ليسديمونيا الأمين، وخرج الإسبارطيون وعلى رأسهم ملكهم ومليكتهم للقاء أبن بريام العظيم، حيث شاع أنه ينزل ضيفاً كريماً على صاحبي العرش، فيلبث أياماً في ضيافتهما، ثم يعود أدراجه إلى طروادة مصطحباً عمته الأيم هسيونيه!

وتقدم الملك والملكة فسلما على الضيف الشاب، وتحرك الموكب الكبير في طريق حُفت بالشعب الطروب، وفُرشت بأوراق الورد، وتأرجت في جنباتها أنواع الرياحين. وكانت فرق من الموسيقيين تعزف هنا وهناك، فتراقص ألحانها العذبة حبات القلوب. وكم كان جميلاً رائعاً إنشاد الجنود وقد وقفوا صفوفاً صفوفاً، كلما مر الموكب الملكي بفرقة منهم دوى هتافها حتى يبلغ عنان السماء. . . فإذا فرغوا وصلت هتافهم فرقة تالية. . . وهكذا. . .

وكان سرب من أجمل قيان اليونان وحسانها يحيط بالملكة الجميلة، وقد قصرن ثيابهن وأرسلن شعورهن، فبدون فتنة الركب، وكن سحر الموكب، ولفتن من باريس بصره وسمعه وفؤاده!

وكان الفتى يخالسهن نظرات مشغوفةً، وكن بدورهن يبسمن له ويتبرجن، حتى التقت عيناه بعيني الملكة. . . فنسي نفسه!!

لقد خُيل له أن قلبه انخلع من مكانه الذي بين جنبيه، ليتأرجح في مقلتيه! أين رأى هذه الملكة من قبل يا ترى؟ إنه لم يذهب إلى الأولمب قط، وهل لبشري أن تطأ قدماه أرض الأولمب فيرى مثل هذا الجمال الساحر، والحسن الفتان؟

الحق أن هيلين تعمدت أن تشك قلب باريس في قوة وعنف، حين أدركت رُسُل العيون تنتقل بسرعة بينه وبين قيانها وحسانها! فلما التقت عيناها بعينيه غمزت قلبه الضعيف الغض بسهمٍ مُراش من عينيها الساجيتين، انطلق إلى جوانحه في بروقٍ من بسماتها. . ورعود!.

لقد زلزل قلبه. . .

وأحس كأن قوى خفية تجذب روحه لتمرغها تحت قدمي هيلين! وطفق يفكر ويفكر أين رآها من قبل. . . ولكن بلا جدوى. . .

ثم بدت له فينوس بحيث لا يراها أحد غيره. . . وقالت له: (هِيَ. . . هي. . . كن شجاعاً!). . . ثم غابت ربة الحسن. . .

فذكر ماضيه القريب، وذكر ما وعدته به فينوس، وذكر أن هيلين إن هي إلا صورة أرضية. . . سماوية. . . من ربة الحب، وأنها مخلوقة كخلقها، عذوبة روح، ورقة نفس، ودفء دم، وسحر عيون. . .

فصمم على أن تكون له!!

ولبث باريس في ضيافة الملك أياماً كانت تتصرم كأطياف الأحلام! ثم حدث حادث جلل في أطراف المملكة استلزم وجود الملك نفسه ليرى رأيه فيه، فلما كان يوم السفر ودع منلايوس زوجته الحسناء، وأوصاها بإكرام ضيفه العظيم، باريس، (ابن صديقي ملك طروادة!). فطمأنته هيلين، وخرجت تودعه، حتى إذا كانت عند أسوار ليسديمونيا، حيته تحية فاترة. . . وعادت لترعى عصفورها الغِرّيد. . .!!

أقبلت هيلين على ضيفها غير هيابة، وأقبل هو عليها في غير وجل. أقبلت عليه تؤانسه كما أوصاها زوجها! وأقبل هو عليها يغازلها، ويبحث فيها عن أجمل امرأة في العالم كما وعدته فينوس!

وهكذا كانت تتردد هذه العبارة المقتضبة في أذني باريس (هيَ هيَ. . . كن شجاعا!).

كلما ذكر الوفاء وشكران الجميل؛ وكلما هم أن يبتعد بقلبه عن زوجة الملك الكريم المضياف الذي احتفى به وأكرم مثواه. . .
إذن فليكن باريس شجاعا كما أمرته فينوس! ليقترب من (!هيَ هيَ. . . كن شجاعاً) هيلين في هذه الخلوات الحلوة التي تمن عليه بها، فتستطيل كل مرة إلى ساعات وساعات؟
ليقترب منها، ولتصب هي سلسبيلاً من الموسيقى في أذنيه المرهفتين لكل كلمة من كلماتها. . . وليرشف هو هذه الخمر التي تتدفق من عينيها وأهدابها. . . ليرشف من هذه الخمر حتى تثمل روحه، ويسكر قلبه، وتزيغ عيناه!
ليقترب! ليقترب كثيراً! ليمس جسده المشتعل، جسدها المعطر الفينان! إنها لا ترفض أن يكون ذراعه فوق كاهلها! بل هي أيضاً تنثر ذراعها فوق كاهله؟ هاهما يتخاصران! الخبيث يضغط ثديها الأيسر بشدة! هل يبحث عما يكنه قلبها؟ أم يفتش عن شيء مفقود في نفسها؟ إن عينيه ما يتحولان عن عينيها! إنه يحملق فيهما بشراهة!
قُبلة. . .
هي القبلة الأولى من غير شك! هي الاعتراف الصريح بنضوج الحب!
وقبلة ثانية. . .
وهي القبلة المؤكدة لأختها الأولى! هي عدم المبالاة بما عساه أن يكون! هي أول شرط في عقد هذا الغرام الأثيم. . .! هي الاعتداء الصارخ على عرض منالايوس. . . منالايوس العظيم ملك إسبارطة. . . وسليل الآلهة!!
- (ألا يسرك يا هيلين أن نعيش سوياً أبد الدهر. . .!)
- (ألا يسرني! ما السرور إذن يا حبيبي باريس؟)
- (إذن فلنرحل في ظلام الفجر!)
- (إلى أين؟)
- (إلى طروادة؟)
وأقلع الأسطول في غبشة البكور يحمل. . .
هيلين!!
وعفا الحب عن عمة باريس! عفا الحب عن الأيم هسيرنيه!
(لها بقية)
دريني خشبة
من أساطير الإغريق
المحسن
(مهداة إلى الأستاذ دريني خشبة)
للأستاذ محمد روحي فيصل
منذ آلاف السنين، بينما الناس في اللهو والضلال كانوا منغمسين، سُمع من جانب السماء صوتٌ هائل كأنه الرعد القاصف قد اهتزت له أطباق الفضاء ومادت منه جوانب الأرض؛ فإذا بمبازيب النور تجف على أثر ذلك، والظلام يغمر الدنيا كلها؛ كأنما الشمس الحبيبة - أمُّ الحياة - قد غاضت أشعتها الزاهية وانطفأ معناها الحي، وإذا بالأنهار والينابيع والغدران تجمد وتكف عن السعي، وقد استحال خريرها المؤنس الجميل إلى صمت كئيب موحش كصمت القبور، وإذا بريح صرصر عاتية تهب مجنونة على الأرض فتقتلع الأشجار بأصولها وفروعها وتهيج الغبار، وتخطف المنازل من أماكنها، وإذا بالضواري المروعة تنفر من مكامنها هائجة غاضبة تزأر. . .!!
وريع الناس وجبنوا فما يدرون ماذا دهاهم من الخطوب، ثم أقبل بعضهم إلى بعض يتساءلون: أي ذنب اقترفناه، وأية فريضة لم نقم بها حتى صب علينا الإله العظيم غضبه وويله؟
وكانت قافلة الحياة يومئذ من الشر والضلال في منزلة لم يعرفها التاريخ في أدنى عهوده، تسير على غير هدى وإلى غير غاية في معمعةٍ من الفساد وطريق من الرذيلة، وكان رجال الفن أدق الناس شعوراً وأرهفهم إحساساً. فقال الشاعر: (إني نظمت في مديح الإله قصيدة رائعة منتزعة من النفس؛ لا صادرة عن اللسان، ما احسب أن أحداً من الشعراء سبقني إلى مثلها على كثرة المادحين، أودعت فيه قلبي ودمي، وحرقت لها مخي وكبدي، ثم صغتها في لفظ عذب جميل! فأنا أسبح بحمده ما نطقت، وأنشر

روحه أنى حللت ولقد أجثو في محرابه خاشعاً متصدعاً، أتلو آي التمجيد والاجلال، فكيف يغضب مني وينقم علي؟)
وقال الموسيقي: (وأنا أيضاً لحنت أنشودة قوية تحكي هديل الحمام وتغريد العنادل، ورجعتها ترجيع عاشق محزون، ثم قدمتها هدية حقيرة للإله الجبار، فلماذا غضب.؟)
وقال النحات: (أما أنا فقد صنعت له تمثالاً عظيماً يجمع إلى معاني الجبروت تهاويل الجمال، وإلى قوة البنية رشاقة القسمات تُرى أيغضب الإله مني وأنا مجسَّده؟)
وانتفض المصور وقال: (أأنا مغضب الإله إذن؟ لقد أخذت زرقة السماء وخضرة الأوراق واحمرار الشفق، ونزعت من الورود ألوانها، والتمست من ذلك كله صورة لألهنا الكبير فما زلت أعمل فيها وأنسقها حتى برزت حية ناطقة في إطار واضح مشرق. . .)
ويضطرب الناس، وتطغي عليهم حيرة جاهلة عمياء؛ تتبينها في الوجوه الواجمة، والنظرات الحائرة، والخطى الثقيلة! ويتداولون الأمر همسا ويلتمسون الخلاص من الخطب ويجمعون رأيهم على الذهاب إلى وادي عبقر، موطن الوحي والإلهام. فراحوا جميعاً إلى حيث يلاقون إلههم الغاضب، يتقدمهم الشاعر ساهم الوجه، تائه البصر، وحمل المصور لوحته وريشته العذراء، وتأبط الموسيقي قيثارته المشدودة الأوتار، وجمع النحات إزميله ومنقاشه وحجره. . .
وفي لمحة خاطفة، طلعت الشمس، وغردت الطيور، واستأنفت الأنهار سعيها، ثم لامست الوادي غيمة كبيرة بيضاء هبط منها الإله الجبار!!
وخر الناس من الخشية سُجداً يلتمسون البركة والضراعة والغفران! وكما يسمع الحالم في النوم سمعوا صوت إلههم يقول:
لقد بعثت فيكم رسولاً كريماً ينشر الرحمة ويعلمكم العطف والتقدير فتجاهلتموه! بعثته والإخلاص ملء برديه وفيض إهابه فلم تقدروه!
هو خادمكم الأمين يبذل عرق جبينه لصلاح مجتمعكم الواهي وينفق المال الذي بين يديه دون أجر غير أجري؛ لأنه يعطيكم أكثر مما يأخذ منكم، ويبني المستشفيات والملاجئ، ويقيم دوراً للعلم فنسيتموه أو تناسيتموه!
وحق عظمتي، لولا رحمتي التي وسعت كل شيء لجعلت الأرض فوقكم قاعاً صفصفاً. . .
عند ذلك صاح الساجدون كلهم:
ما اسم هذا الرسول الكريم؟
فأجاب الإله الجبار: المحسن

حمص

محمد روحي فيصل

الهدية

للأستاذ بشير الشريقي

حدثني صديق لي وهو في مقتبل عمره، وأول عهده بالوظيفة، قال:
في صباح أحد الأيام، وأنا متهيئ للخروج إلى عملي، إذا بباب غرفتي يطرق، وإذا بالطارق فتى جميل المحيا، يقظ الملامح، يحمل على يديه سفطاً مستطيل الشكل، كبير الحجم، فما وقع نظري على الفتى والسفط بين يديه حتى تولاني الانقباض، لأنني عرفته من هو؟ وأين يشتغل
تمتم الفتى: لقد عاد عمي الشيخ من دمشق مساء أمس وهو يهديك تحياته، وقد أرسلني بهذا السفط هديته من دمشق إليك
ولكن عقلي كان قد اهتدى إلى أني موظف، وأن لصاحب هذه الهدية مصالح كثيرة عندي يهمه قضاؤها
فبادرت الفتى بتؤدة: ما هذا؟ ليس من الضروري. . . . له مني الشكر. . . أعد السفط إليه. . . ليس من الضروري. . . ولكنه قاطعني بأدب: لقد بعث به الشيخ إليك. . وهو هديته من دمشق. . . وسيغضب علي إن رجعت به
قلت بلهجة الآمر: أرجعه. . . سوف لا آخذه
عاد الفتى بالسفط وهو لا يصدق أني رفضت قبوله؛ وعدت فأغلقت علي باب غرفتي أفكر في الذي صنعت: لولا أنه صاحب حاجة عندي لما خطرت هذه الهدية له على بال

ولما فكر في لحظة، إذ لا صداقة بيني وبينه، وأنا لا أراه إلا في الدائرة حين يريدني في أمر رسمي، أو في الطريق فنتبادل التحية من بعيد، وفوق ذلك فهو من التجار الذين يحاسبون على السحتوت والقطمير، والذين يعطون القرش ليستردوه قرشين؛ وهكذا كان الظاهر محاطاً كله بالريب فلم يدخل في نفسي أن هدية الشيخ منزهة عن الغرض

وبينا أنا على هذه الحال، إذ أرى الشيخ من نافذة غرفتي قادماً إلي، فأسرعت وفتحت له الباب:

أهلاً وسهلاً بحضرة الشيخ، الحمد لله على سلامتك، تفضل. . . جلس فإذا به قد تجاوز الخامسة والخمسين، ولكنه لا يزال محتفظاً بقوته ونشاطه، قد تدلت من ذقنه لحية كبيرة بيضاء، يرتدي سروالاً وجبه، نظيف البزة، وسيم الطلعة، حسن القيام على نفسه

- ماذا فعلت يا ابن أخي، لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية

قلت: ويرد الصدقة

قال: ويرد الصدقة؟! ولكن قسما بهذه اللحية - وقبض على لحيته - إن الهدية قد صنعت على اسمك وحملتها من دمشق إليك

قلت: أشكرك. . . أشكرك. . .

قال: ولا أزيدك علماً أنه يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم ما معناه: (من أهدي إليه شيء ورده فكأنما ردّه على الله)

قلت: صدق رسول الله الكريم. . أنا لا أشك في حسن نية الشيخ، ولكن القانون يا عم. . . هذا القانون المكلفون نحن قبل غيرنا بحفظه واحترامه ينهانا عن أخذ مثل هذه الهدية، فهي في عرفه رشوة والعياذ بالله، يستحق معطيها وآخذها شديد العقاب - إليك المواد - 67 و68 و69 و76 من قانون العقوبات العثماني - وقرأت له نصوصها - إنه لأمر خطير

وقلت له:

ولكي تثق بواسع علم المشرع الذي سن لنا قانون العقوبات وببعد نظره أروي لك هذا الحديث الشريف المثبت في الصحيحين عن أبي حميد الساعدي قال: استعمل النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً من الأزد يقال له ابن النبيه على الصدقة فلما قدم قال: هذا لكم وهذا أهدي إلي فقال النبي: ما بال الرجل نستعمله على العمل مما ولانا الله فيقول هذا لكم وهذا أهدي إلي فهل قعد في بيت أبيه أو بيت أمه فينظر أيهدى إليه أم لا!)

وهنا صمت الشيخ ولكن لسان حاله كان يقول:

- لقد عرفت كثيرين غيرك من الموظفين كباراً وصغاراً فلم يحدثني واحد منهم عن مواد قانون العقوبات ولا عن حراسة القانون، لم يذكر لي واحد منهم حديث النبي صلى الله عليه وسلم مع عامله على الصدقة بل كان أمري معهم ولا يزال على عكس تماما فأنا مكلف عند كل خطوة وعند كل حاجة أن أقدم الهدايا وألبي الطلبات. . .

وإلى هنا انتهى حديث الصديق فوجدته جديراً بالتدوين؛ فدونته في الحال؛ وهاهو كما سمعته بلا زيادة ولا نقصان.

(شرق الأردن)

بشير الشريقي

البريد الأدبي

جورج رسل عميد الشعر الارلندي

من أنباء ارلندة أن شاعرها الكبير جورج وليم رسل قد توفي في الثامنة والستين من عمره. وكان رسل عميد الشعراء الأرلنديين منذ أوائل هذا القرن، كما كان السير وليم وطسون عميد الشعراء الإنكليز، وقد توفي كلاهما هذا الصيف، ففقد الأدب الإنكليزي بذلك آخر زعماء المدرسة الشعرية القديمة؛ وكان مولد جورج رسل في لورجان سنة 1867؛ وتلقى تربيته في دبلن ودرس التصوير ومارسه؛ ثم غدا زعيما لحلقة أدبية كانت تنشر صحيفة عنوانها (الثيوسوفي الأرلندي)، وفيها نشر أشعاره الأولى التي جمعت بعد ذلك في ديوان سمي (أغنية وطنية متناثرة) (سنة 1894) وفي مجلد آخر سمي (أنفاس الثرى) (سنة 1897). وكان رسل إلى جانب مواطنه الشاعر ييتس

زعيما للأحياء الأدبي في أرلنده؛ ودرس رسل التصوف الشرقي، وتوثقت أواصره بزميله ييتس؛ وكان يعمل مدى أعوام طويلة كاتباً في شركة للأقمشة، فقدمه صديقه ييتس إلى الزعيم والمثري الأرلندي الكبير السير هوراس بلانكيت وأوصاه به خيراً، فألحقه بالشركة الزراعية الكبيرة التي ألفها لمعاونة المزارعين؛ وتولى رسل الطواف على دراجة في القرى الأرلندية يستفهم من السكان عن أحوالهم ورغباتهم. وفي سنة 1905 اختار السير بلانكيت لتحرير صحيفة الجمعية، وهي صحيفة سياسية تعاونية، فاستمر في تحريرها حتى سنة 1923. وفي ذلك العام أصدر رسل لنفسه صحيفة جديدة عنوانها (السياسي الأرلندي) فاستمرت حتى سنة 1930. وأصدر خلال هذه الفترة عدة مؤلفات شعرية ونثرية منها كتاب (لب المعرفة) (سنة 1903) ورواية مسرحية عنوانها (ديدري) (1907) وكتاب (مثل المجتمع الأرلندي الريفي) (1911) وقصيدة كبيرة عن ثورة سنة 1916 عنوانها (التحية)، وديوان عنوانه (السحر وقصائد أخرى) وغير ذلك مما يضيق بذكره المقام

وقد كان رسل وطنياً كبيراً، يشتغل بالسياسة إلى جانب الأدب، ويسخر الأدب لخدمة وطنه، وتأييد مثله العليا في الحرية والاستقلال، وكان أيضاً إنساناً عظيما يبذل وسعه لمعاونة البائس وغوثه، وانتشال الطبقات الدنيا من وهدتها

فكتور هوجو الصحفي

كان فكتور هوجو شاعر فرنسا الأشهر صحفياً كبيراً؛ وقد تناول هذه الناحية من حياة الكاتب الكبير، مسيو بول سوشون، بمناسبة الذكرى الخمسينية لوفاته، فقال: إن هوجو قد مارس خلال حياته ثلاثة أنواع من الصحافة: الصحافة الأدبية، والصحافة السياسية، والصحافة الخبرية. وقد بدأ هوجو حياته الصحفية في جريدة (كونس فاتير لترير)، وكان يكتب فيها فصولاً نقدية، أثارت إعجاب النقدة يومئذ، ووصف ادموند بيريه يومئذ كاتبها بما يأتي: (صحفي وناقد، كانت لذعاته الأولى لذعات أستاذ مبرز؛ وعند هذا الفتى الذي لم يجاوز الثامنة عشرة موهبة نثرية لا تقل عن موهبته الشعرية. ومما يلفت النظر لأول وهلة سعة معارفه الأدبية، فهو يكاد يستوعب كل شعراء العصر القديم. ثم الشباب! وهذا هو الذي يفيض على صحف (الكونسر فاتير لترير) سحراً لا يقاوم)

ولما صدرت في سنة 1809 أول طبعة من مؤلفات شينيه، كتب هوجو في التعليق عليها أن نزعة شعرية جديدة قد ولدت، ولما صدر ديوان (التأملات) استقبله بحماسه وترحاب

أما في الصحافة السياسة فان هوجو لم يرتفع إلى هذا المدى وقد أبان مسيو سوشون في بحثه وجوه الضعف التي كانت تغلب على الشاعر الكبير في هذا المضمار. بيد أن هوجو كان من الناحية الخبرية صحفياً لا يجارى. وقد كان يقدم أخباره للجمهور تحت عنوان (أشياء رؤيت). وقد ظهرت مجموعة منها بعد وفاته تحت هذا العنوان، وفيها يقيد الحوادث التي شهدها خلال حياته وخواص العظماء الذين لقيهم

تلك صفحة من حياة هوجو لم تأخذ حقها من التعريف في حياة الشاعر الكبير

آثار قديمة في سوريا

كشفت الحفريات الأثرية التي يقوم بها العلامة الأثري الفرنسي أندريه بيرو في سوريا على مقربة من بلدة أبي كمال عن آثار هامة ترجع إلى نحو ثلاثة آلاف عام قبل المسيح، وتدل على أن حضارة زاهرة قامت في ذلك العهد في تلك الانحناء، وتدل النصوص والنقوش التي عثر عليها أن هذه المنطقة كانت منزل الحيثيين الذين استطاعوا أن يقاوموا طويلاً غزوات البابليين والمصريين، أما الآثار المكتشفة فهي عبارة عن بقايا قصر تبدو منه مراكزه الوسطى، ويلوح أنه كان مقراً ملوكياً، وملاذاً للكبراء ومركزاً لبعض

الصناعات التي كانت زاهرة في ذلك العصر، وهنالك ما يدل على أن حصونه التي كانت محيطة به قد قوضت، وأن حمورابي زعيم البابليين قد اقتحمها وأحرق القصر ومن الآثار الغريبة التي اكتشفت فصل حقيقي من فصول التعليم بمقاعده وأدراجه، مما يدل على أنه كان مدرسة يؤمها الشباب. وتدل مواقع القصر في مجموعها على أن كبراء هذا العصر كانوا يتمتعون بضروب من الرفاهية والترف، لم تعرفها العصور الوسطى في أوربا؛ وتتخلله طرق مستقية ذات زوايا قائمة، وسلالم داخلية كبيرة،

ومخازن للمؤن، ومجار منظمة تحمل المياه والفضلات إلى خارج المدينة، ووجدت في معظم الأبنية المجاورة آثار حمامات وأحواض للاستحمام صنعت من الفخار المحروق

برناردشو في التاسعة والسبعين

احتفل الكاتب الإنكليزي الأشهر جورج برناردشو أخيراً ببلوغه التاسعة والسبعين من عمره، وذلك في بلده ومسقط رأسه هرتفوردشير. وفي يوم الاحتفال بمولده اعتكف الكاتب الشهير واحتجب طول الصباح في مكتبه؛ وعند الظهر أعلن انه قد انتهى من كتابة الفصل الأول من قطعة مسرحية جديدة، وقال انه سيعالج فيها موضوعا جديدا هو (الحب)

حول كتاب قواعد التحديث للقاسمي

أليس من الحق وقد كتب عن هذا الكتاب كاتبان من أكبر كتاب العربية في كبرى مجلاتها، وكان السبب في هذه الفصول الممتعة، وهذه المساجلات الأدبية الطريفة بين أمير البيان الأمير شكيب أرسلان، ومؤرخ الشام وكاتبها العلامة محمد بك كرد على أن ننوه في (الرسالة) بفضل هؤلاء الشباب الغير على الدين واللغة والثقافة الإسلامية الذين ألفوا (مكتب النشر العربي) ونشروا طائفة صالحة من كتب الفلسفة والحديث للغزالي وابن الطفيل والقاسمي وغيرهم، وأنجزوا في مدة قليلة ما لم ينجز مثله سواهم في برهة طويلة؟

أليس من الحق أن نشكر للسادة الأذكياء المثقفين العاملين: ظافر القاسمي، وداود التكريتي، وعصام الإنكليزي، أعضاء (مكتب النشر العربي) قيامهم بهذا الغرض الذي قصرنا جميعاً في القيام به؟ وثباتهم على تأدية على قلة التشجيع، ورقة الحال، وشدة الزمان؟

(متأدب)

ملكة الجمال في سوريا ولبنان

تقوم الزميلة جريدة ليزيكو الغراء بتنظيم مباراة الجمال التي كلفت القيام بهذه المهمة لتشترك ملكة الجمال في سورية ولبنان بمباراة الجمال في مدينة بروكسل وقد تقرر أن تقام حفلة كبرى في فندق بلودان يوم الخميس المقبل لهذه الغاية وتألفت لجنة من السيدة عقيلة رئيس الجمهورية والسيدة عقيلة وزير المعارف والسيدة عقيلة مدير البرق والبريد العام على أن يقوم بسكرتارية اللجنة السيد باسيل مكرديج مدير المطبوعات في وزارة الداخلية لانتخاب ثلاث أوانس واحدة من دمشق والثانية من حلب والثالثة من اللاذقية من بين المتباريات ثم تشترك الأوانس الثلاث في حفلة مباريات الجمال في صوفر مع الأوانس اللبنانيات اللواتي ينتخبن فيها الآنسة التي تتربع على عرش الجمال في سوريا ولبنان

وستكون هذه الحفلة تحت رعاية رئيس الجمهورية.

(الأيام)

أقول: هذا بعض ما أنشئ له فندق بلودان الذي لم يُعص الله في الشام بمثل إنشائه نبعث به إلى (الرسالة) بلا تعليق

(متأدب)

الكتب

كتاب الأموال

في 616 صفحة

لأبي عبيد القاسم بن سلام

للأستاذ محمد بك كرد علي

ولد أبو عبيد في هراة وأبوه مملوك رومي، وتخرج في بغداد على أئمة وقته وروى عنه أئمة مذكورون، وكان آية في النحو واللغة والحديث والفقه، وعدَّ أعلم رجال عصره بلغات العرب، قال إبراهيم الحربي:

رأيت ثلاثة تعجز النساء أن تلد مثلهم: رأيت أبا عبيد ما أمثله إلا بجبل نفخ فيه روح، ورأيت بشر بن الحرث فما شبهته إلا برجل عجن من قرنه إلى قدمه عقلاً، ورأيت أحمد بن حنبل فرأيت كأن الله قد جمع له علوم الأولين من كل صنف، يقول ما يشاء ويمسك ما يشاء. وروى الناس من الكتب المصنفة لأبي عبيد بضعة وعشرين كتاباً في القرآن والفقه وغريب الحديث والغريب المصنف والأمثال ومعاني الشعر وكتاب

الأموال، والغريب المصنف زعموا أنه أجل كتبه
كان أبو عبيد خاصاً بعبد الله بن طاهر الوزير المشهور أغناه بما أعطاه، ولقد بعث أبو دُلف إلى عبد الله بن طاهر يستهديه أبا عبيد شهرين، فأنفذه إليه فأقام شهرين، فلما أراد الانصراف وصله بثلاثين ألف درهم فلم يقبلها. وقال: أنا في جنبة رجل لم يحوجني إلى صلة غيره، فلما عاد إلى ابن طاهر وصله بثلاثين ألف دينار. فقال: أيها الأمير قد قبلتها، ولكن قد أغنيتني بمعروفك وبرك، وقد رأيت أن أشتري بها سلاحاً وخيلاً وأوجه بها إلى الثغر ليكون الثواب متوفراً على الأمير ففعل، وهذا من العلم الحقيقي والخلق الكامل، وعزة النفس إذا فقدت من العلماء خاصة صار العلم تهريجاً ومهزلة
قالوا: ولما عمل أبو عبيد كتاب الغريب عرضه على عبد الله ابن طاهر فاستحسنه وقال: إن عقلاً بعث صاحبه على عمل مثل هذا الكتاب لحقيق ألا يخرج عنا إلى طلب المعاش. فأجرى له عشرة آلاف درهم في كل شهر، قال أبو عبيد: كنت في تصنيف هذا الكتاب
أربعين سنة؛ وربما كنت أستفيد الفائدة من أفواه الرجال فأضعها في مواضعها من الكتاب، فأبيت ساهراً فرحاً مني بتلك الفائدة، وأحدكم يجيئني فيقيم عندي أربعة أشهر أو خمسة أشهر فيقول قد أقمت الكثير. وكان أبو عبيد يقسم الليل أثلاثا فيصلي ثلثه وينام ثلثه ويصنف ثلثه. وذكر من ترجموا له أنه كان فاضلاً في دينه وفي علمه، ربانياً متفننا في أصناف علوم الإسلام، صحيح النقل لم يطعن عليه في شيء من أمره ودينه غلب على أبي عبيد جمع المتفرق في الكتب وتفسيره وذكر الأسانيد، وصنف المسند على حدته، وأحاديث كل رجل من الصحابة والتابعين على حدته، وأجاد تصنيفه، فرغب فيه أهل الحديث والفقه واللغة لاجتماع ما يحتاجون إليه فيه، وكتابه الوحيد الذي ظهر بالطبع كتاب الأموال وهو كما وصفوه من أحسن ما صنف في الفقه وأجوده. جرى فيه على أسلوب قدماء المؤلفين من إيراد الرواية والسند في الأحاديث، لكنه لا يطيل في ذكر الرواة وينسب الحديث إلى آخر راوية معتمد، ثم يشرع في شرح ما أبهم وتفسير ما أعضل من الأحكام، يرجح ما هو أولى بالترجيح، ويبين عن رأيه بصراحة بأسلوب محكم سلس ينم عن إحاطته بالأقوال الصحيحة المأثورة عن صاحب الشرع، ثم يشير إلى عمل الصحابة والتابعين من بعده في أحكام الأموال وصنوفها والفيء والصدقات والجزية وفتوح الأرضين صلحاً أو عنوة، وما يتبع ذلك من الأحكام التي قال بها القرآن أو فسرتها السنة أو عدلها بعض الصحابة بحسب الحال
فقد ذكر في باب ما لا يجوز لأهل الذمة أن يحدثوا في أرض العنوة وفي أمصار المسلمين وما لا يجوز قول عمر (ض) (لا كنيسة في الإسلام ولا خصاء) وقول عمر بن عبد العزيز: (لا تهدموا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار، ولا تحدثوا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار)، فقال أبو عبيد: أراه يعني الكنائس والبيع وبيوت النيران يقول: لا ينبغي أن تكون مع المساجد في أمصار المسلمين. قال أبو عبيد، فهذا ما جاء في الكنائس والبيع وبيوت النار، وكذلك الخمر والخنازير قد جاء فيهما النهي عن عمر، ثم قال: وأما وجوه هذه الأحاديث التي منع فيها أهل الذمة من الكنائس والبيع وبيوت النيران والصليب والخنازير والخمر أن يكون ذلك في أمصار المسلمين خاصة، وبيانه في حديث ابن عباس. حدثنا أبو عبيد قال: سمعت علي بن عاصم يحدث عن أبي علي الرحبي عن عكرمة عن ابن عباس قال:
أيُّما مِصرٍ مَصّرَته العرب؛ فليس لأحد من أهل الذمة أن يبنوا فيه بيعة ولا يباع فيه خمر، ولا يقتنى فيه خنزير ولا يضرب فيه بنقوس، وما كان قبل ذلك فحق على المسلمين أن يوفوا لهم به. قال أبو عبيد: وقوله كل مصر مصرته العرب يكون التمصير على وجوه: فمنها البلاد التي يسلم عليها أهليها مثل المدينة والطائف واليمن، ومنها كل أرض لم يكن لها أهل فاختطها المسلمون اختطاطاً، ثم نزلوها مثل الكوفة والبصرة وكذلك الثغور، ومنها كل قرية افتتحت عنوة، فلم ير الإمام أب يردها إلى الذين أخذت منهم. ولكنه قسما بين الذين افتتحوها كفعل رسول الله (ص) بأهل خيبر. فهذه أمصار المسلمين التي لا حظَّ لأهل الذمة فيها، إلا أن الرسول كان أعطى أهل خيبر اليهود معاملة لحاجة المسلمين وكانت إليهم، فلما استغنى عنهم أجلاهم عمر وعادت كسائر بلاد السلام: فهذا حكم أمصار العرب، وإنما نرى أصل هذا من قول رسول الله (ص) أخرجوا المشركين من جزيرة العرب. وفي ذلك آثار ثم ساق

الأحاديث، والمأثور عن عمر في جلاء غير المسلمين من جزيرة العرب، وذكر بلاد الصلح كهَجر والبحرين وأيلة ودومة الجندل وأَذْرُح. وذكر أحكام البلاد التي فتحها عمر كالشام ومصر والعراق الخ

ومما ذكر، وهو ما نطيل بنقله إرادة الوقوف على طريقته في تأليفه، (ص 169) أن عمر بن الخطاب استعمل عُمَيْر ابن سعد أو سعد على طائفة الشام، فقدم عليه قَدمة فقال: يا أمير المؤمنين، إن بيننا وبين الروم مدينة يقال لها عرب السوس وإنهم لا يخفون على عدونا من عوراتنا شيئاً، ولا يظهروننا على عوراتهم، فقال له عمر: فإذا قدمت فخيرهم بين أن تعطيهم مكان كل شاة شاتين، ومكان كل بعير بعيرين، ومكان كل شيء شيئين فان رضوا بذلك فأعطهم وخَرّبها، فان أبو فانبذ إليهم وأجلهم سنة ثم خرّبها، فقال: اكتب لي عهداً بذلك فكتب له عهداً، فلما قدِم عمر عليهم عرض عليهم فأبوا، فأجلهم سنة ثم أخَرّبها. قال أبو عبيد: وهذه مدينة بالثغر من ناحية الحدث يقال لها عرب سوس وهي معروفة هناك - ومعروفة لعهدنا بهذا الاسم أيضاً - وقد كان لهم عهد فصاروا إلى هذا. وإنما نرى عمر عرض عليهم ما عرض من الجلاء، وأن يُعْطَوْا الضعف من أموالهم، لأنه لم يتحقق ذلك عنده من أمرهم، أو أن النكث كان من طوائف منهم دون إجماعهم، ولو أطبقت جماعتهم عليه ما أعطاهم من ذلك شيئاً إلا القتال والمحاربة، وقد كان نحوٌ من هذا قريباً الآن في

دهر الأوزاعي بموضع بالشام يقال له جبل لبنان، وكان ناس من أهل العهد فأحدثوا حدثاً، وعلى الشام يومئذ صالح بن علي فحاربهم وأجلاهم، فكتب الأوزاعي فيما ذكر لنا محمد بن كثير برسالة طويلة منها: (قد كان من إجلاء أهل الذمة من أهل جبل لبنان، مما لم يكن تمالأ عليه خروج من خرج منهم، ولم تُطبق عليه جماعتهم، فقتل منهم طائفة ورجع بقيتهم إلى قراهم. فكيف تأخذ عامة بعمل خاصة فيخرجون من ديارهم وأموالهم. وقد بلغنا أن من حكم الله جل وعز أنه لا يأخذ العامة بعمل الخاصة ولكن يأخذ الخاصة بعمل العامة، ثم يبعثهم على أعمالهم، فأحق ما اقتدى به ووقف عليه حكم الله تبارك وتعالى، وأحق الوصايا بأن تحفظ وصية رسول الله (ص)، وقوله: (من ظلم معاهداً أو كفله فوق طاقته فأنا حجيجه، ومن كانت له حرمة في دمه فله في ماله والعدل عليه مثلها، فانهم ليسوا بعبيد فتكونوا من تحويلهم من بلد إلى بلد في سعة، ولكنهم أحرار أهل ذمة الخ). وكتاب الأوزاعي هذا نقله البلاذري في فتوح البلدان مع اختلاف يسير

وهكذا يمضي المؤلف في تأليفه ومعالجة فصول كتابه الممتع. يأتي بالآثار المشهورة الصحيحة على مثل هذه الطريقة السهلة، وفيها جمل من الأحكام التي استخرجها الحكام بعد عهد صاحب الشرع الأعظم. وقد أورد كثيراً من الكتب والمعاهدات والعقود والاقطاع، وذكر فصولاً في الصدقات والغنائم والزكوات وثمار الأرضين وما يجبى منها وما لا يجنى والمعادن والركاز والمكاييل والمكوس والعشور ومخارج الصدقة وسبيلها التي توضع فيها والوقف، إلى غير ذلك من الأبواب بحيث لم يترك شيئاً مما يحتاج إليه من يريد الوقوف على أحكام كل ذلك في الإسلام، وإن كان أكثره، ويا للأسف أصبح يتلى اليوم للعلم به فقط، أو التربك بسيره السلف الصالح وترداده لمعرفة تاريخ تشريعهم

ومما قال في إسقاط الجزية عمن أسلم: وإنما احتاج الناس إلى هذه الآثار (عن الصحابة وغيرهم) في زمن بني أمية، لأنه يروى عنهم أو عن بعضهم أنهم كانوا يأخذونها منهم وقد أسلموا، يذهبون إلى أن الجزية بمنزلة الضرائب على العبيد، يقولون فلا يسقط إسلام العبد عنه ضريبته، ولهذا استجاز من استجاز من القراء الخروج عليهم، وقال إن عمر بن عبد العزيز فرض على رهبان الديارات على كل راهب دينارين، ولا أرى عمر فعل هذا إلا لعلمه بطاقتهم له، وأن أهل دينهم يتحملون ذلك لهم، كما أنهم يكفونهم جميع مؤوناتهم! وقال

إن رسول الله (ص) استحل دماء بني قريظة لمظاهرتهم الأحزاب عليه، وكانوا في عهد منه، فرأى ذلك نكثاً لعهدهم وإن كانوا لم يقتلوا من أصحابه أحدا، ونزل بذلك القرآن في سورة الأحزاب، قال وكذلك آل أبي الحقيق رأى كتمانهم إياه فاشترطوا له ألا يكتموه نكثاً، وقد حكم بمثل ذلك عمرو بن العاص بمصر

وقال في القريات التي أقطعها الرسول لتميم الداري في فلسطين: إنها أرض معمورة

لها أهل فإنما ذلك على وجه النفل له من رسول الله (ص)، لأن هذا كان قبل أن تفتح الشام، وقبل أن يملكها المسلمون، فجعلها له نفلا من أموال أهل الحرب إذا ظهر عليها، وهذا كفعلة بابن بقيلة عظيم الحيرة حين سأله إياها الشيباني، فجعلها له بمثل افتتاح الحيرة، فأمضاها له خالد ابن الوليد حين ظهر عليها، وكذلك إمضاء عمر لتميم حين افتتح فلسطين. ومما قال في الإقطاع: (وأما إقطاع أبي بكر طلحة وعيينة، وما كان من إنكار عمر ذلك وامتناعه من الختم عليه، فلا أعلم له مذهبا إلا أن يكون رأي عمر أنه كان يومئذ يكره الإقطاع ولا يراه، ألا تسمع قول طلحة: (أهذا لك دون الناس) ثم رأى بعد ما أفضى الأمر إليه غير ذلك، فقد علمنا أنه قد أقطع غير واحد في خلافته، وهذا كالرأي يراه الرجل ثم يتبين له الرشد في غيره فيرجع إليه، وهذا من أخلاق العلماء قديما وحديثا)

ومما قال في السبب الذي دعا إلى ضرب الدراهم: (قال أبو عبيد: سمعت شيخا من أهل العلم بأمر الناس، كان معنياً بهذا الشأن، يذكر قصة الدراهم وسبب ضربها في الإسلام، وقال: إن الدراهم التي كانت نقد الناس على وجه الدهر لم تزل نوعين: هذه السود الوافية، وهذه الطبرية العُتُق، فجاء الإسلام وهي كذلك، فلما كانت بنو أمية وأرادوا ضرب الدراهم نظروا في العواقب فقالوا: إن هذه تبقى مع الدهر، وقد جاء فرض الزكاة (إن في كل مائتين أو في خمس أواقيَّ خمسة دراهم) والأوقية أربعون، فأشفقوا إن جعلوها كلها على مثال السود؛ ثم فشا فشواً بعد لا يعرفون غيرها، أن يحملوا معنى الزكاة على أنها لا تجب حتى تبلغ تلك السود العظام، مائتين عدداً فصاعداً، فيكون في هذا بخس للزكاة؛ وأشفقوا إن جعلوها كلها على مثال الطبرية أن يحملوا المعنى على أنها إذا بلغت مائتين عدداً حلت فيها الزكاة، فيكون ذلك اشتطاطاً على رب المال، فأرادوا منزلة بينهما يكون فيها كمال الزكاة من غير إضرار بالناس، وأن يكون مع هذا موافقا لما وقت رسول الله (ص) في الزكاة؛

إلى أن قال بعد شرح ما عملوه بشأن الدراهم: فمضت سنة الدراهم على هذا واجتمعت عليه الأمة فلم تختلف أن الدرهم التام هو ستة دوانيق، فما زاد أو نقص قيل درهم زائد أو ناقص، فالناس في زكاتهم بحمد الله ونعمته على الأصل الذي هو السنة والهدى لم يزيغوا عنه ولا التباس فيه، وكذلك المبايعات والديات على أهل الورق، وكل (ما يحتاج إلى ذكرها فيه، هذا كما بلغنا، أو هذا معناه اهـ

ومما روي في صدقة الحلي من الذهب والفضة: (إن عبد الله ابن عمرو حَلّى ثلاث بنات له بستة آلاف دينار، فكان يبعث مولى له جليداً كل عام فيخرج زكاته منه)، ومما قال: (وشرائع الإسلام أُمهات لا يقاس بعضها ببعض، لأن لكل واحدة حكماً غيرُ الأخرى)، ونقل كثيراً من كتب عمر بن عبد العزيز تأييداً للأحكام التي وردت في القرآن وفسرتها السنة، وكان عمل الراشدين ومن بعدهم سنة متبعة في الأموال، ومنها كتب عمر بن عبد العزيز: أن اقضوا عن الغارمين، فكتب إليه: إنا نجد الرجل له المسكن والخادم والفرس والأثاث. فكتب عمر: لابد للمرء المسلم من مسكن يسكنه، وخادم يكفيه مهنته، وفرس يجاهد عليه عدوه، ومن أن يكون له الأثاث في بيته، نعم فاقضوا (عنه فانه غارم

ويغتبط قارئ كتاب الأموال أن يرى نور العقل يتخلل كلام أبي عبيد، وأن يقرأ فيه صورة جميلة من تأليف القوم في القرن الثاني وأوائل الثالث بهذه البلاغة الخالية من التكلف. ولو كتبت العلوم الإسلامية كلها على المثال الذي كتب به علماء القرون الأولى لاقتصرت على طالبها طرق التعليم. ولنجا الناس من استظهار تلك الدساتير التي جمد من اقتصر عليها، وسار من تفلت من قيودها سيراً متساوقاً وصل به إلى الغاية، ويشبه كتاب الأموال في تأليفه تأليف يحيى بن آدم في الخراج، ولا يشبه كتاب الخراج لأبي يوسف بأسلوبه، لأن هذا عبارة عن رسالة شرعية سياسية إدارية كتبها إمام عظيم لإمام عظيم في إصلاح مملكته، وأورد له الأحكام للتدليل على ما يقول، ولم يكتبها للتعليم والتفقيه، وفي كتاب الأموال كثير من الفصح والشوارد اللغوية وألفاظ يمكن إحياؤها وهي اليوم منسية أو في حكم المنسي

ويسرني أن ناشر كتاب الأموال الأستاذ محمد حامد الفقي هو من علماء الأزهر، وقد جوّد في التصحيح والتعليق عليه، وإيراد الروايات المختلفة، وطبعه على نسختين مصرية

وشامية، على ما كان وقف على طبع غيره مثل: (تيسير الوصول إلى جامع الأصول من حديث الرسول) لابن الديبع الشيباني (944هـ)، ويلاحظ أنه كان من المفيد للكتاب لو أن ناشره الأستاذ الفقي وضع له فهارس على نحو ما فعل الأستاذ أحمد محمد شاكر لما أعاد نشر كتاب الخراج ليحيى بن آدم القرشي، فانه حلاه بالفهارس على مثال علماء المشرقيات عندما يعانون نشر كتبنا، فيقربون فوائدها بما يؤلفون لها من فهارس بأسماء الرجال والبلدان وغير ذلك، وقد يضعون للكتاب الواحد خمساً أو سبعاً من الفهرستات المختلفة تيسيراً على القارئ، وهذا ما بدأت به دار الكتب المصرية في مطبوعاتها في الأمهات المعتبرة التي تتحف بها العالم العربي الحين بعد الآخر

محمد كرد علي

العدد 114 - بتاريخ: 09 - 09 - 1935

مصر وعصبة جنيف

تحدث بعض الكتاب لمناسبة الموقف الدقيق الذي تقفه مصر من النزاع الإيطالي الحبشي، عما كانت تجنيه مصر من المزايا لو أنها كانت عضواً في عصبة الأمم، وعما كانت تستطيع أن تؤديه في الظرف الحاضر لصون حقوقها لو أتيح لها أن تبسط وجهة نظرها أمام العصبة؛ وفي رأي هؤلاء أن مصر تخسر كثيراً إذ تحرم في هذه الآونة من رفع صوتها بطريق العصبة، وأن السياسة الإنكليزية هي التي عملت لإسكات صوتها وحالت بينها وبين جنيف.

ولسنا من رأي هؤلاء، ولسنا ممن يحسن الظن بالعصبة ولا ممن يؤمنون بوسائلها ومبادئها وغاياتها؛ ومن رأينا أن مصر لم تخسر شيئاً بابتعادها عن العصبة مهما كانت أسباب هذا الابتعاد.

ويكفي أن نتأمل هذا المنظر الذي تقدمه إلينا عصبة جنيف ونحن نكتبهذه السطور، لنقتنع بأن هذه الهيئة التي تزعم أنها رسول السلام والإخاء والحقوق الإنسانية، إنما هي شبح وستار فقط، تعمل وراءه قوى الاستعمار، فتأتمر وتتجاذب وتمثل مختلف الأدوار التي تمكنها من أعناق الفرائس؛ والفرائس هي الأمم الشرقية التي سلبت أو يراد أن تسلب حرياتها باسم المدنية الأوربية والتهذيب الأوربي.

فإيطاليا والحبشة كلتاهما عضو في عصبة الأمم، وبينهما نزاع أثارته السياسة الإيطالية عن عمد وإصرار سابق، وقد طرح النزاع أمام عصبة جنيف منذ يناير الماضي،، فماذا فعلت العصبة لتطبق نصوص ميثاقها؟ لقد أوصت بالعمل على حسم النزاع بطريق التحكيم، ولكنها ما زالت تصغي إلى وعيد السياسة الإيطالية، وتشهد نياتها وتصريحاتها الواضحة لغزو الحبشة وافتراسها؛ والحبشة تستغيث بالعصبة، والعصبة تسوف وتمد إيطاليا بالوقت اللازم لاستكمال أهبتها، وتفسح كل مجال لما تعرضه دول الاستعمار لاقتسام الحبشة أو فرض نوع من الحماية أو الانتداب عليها كوسيلة لإرضاء إيطاليا وحسم النزاع وتأييد السلام، وإيطاليا خلال ذلك تبرق وترعد وتصرح بأن العصبة إذا حاولت أن تنحرف ضد المطامع الإيطالية أو تنتقص من شرعيتها، فإنها تصفع العصبة وتجري مشيئتها بالعنف والقوة القاهرة

والدول الاستعمارية تحرك اليوم عصبة الأمم، وتوجهها علنا دون خفاء؛ وقد ابتدعت العصبة أو حملت أن تبتدع يوم قيامها نظام الانتداب خدعة غادرة تصفد بها عدداً من الأمم والشعوب التي وقعت في يد الحلفاء غداة النصر، والتي ما زالت ترزح تحت هذا الرياء الشفاف.

ولم نشهد عصبة الأمم تنتصر مرة لدولة شرقية أو أُمة مستضعفة مهما كان في جانبها الحق، ولا سيما إذا كانت هنالك مصلحة أو غاية لدولة من دول الاستعمار، سادة العصبة؛ ولم يغب عن الذاكرة بعد موقفها من النزاع بين إنكلترا وتركيا على مسألة كردستان، وموقفها من النزاع بين إنكلترا وإيران على مسألة جزائر البحرين، ثم موقفها من مسالة منشوريا وعجزها المطبق عن أن تعمل شيئاً لرد الاعتداء الياباني على الصين؛ بل لم يغب عن الذاكرة بعد موقفها من العراق يوم التحقت بها ويوم اشترطت عليها أفدح الشروط ثمناً لهذا الالتحاق

ولماذا نذهب بعيداً ونقلب صحف العصبة ونحن نشهد موقفها اليوم إزاء النزاع بين إيطاليا والحبشة؟ إن صفة الاعتداء الصارخ هنا تلحق إيطاليا بلا ريب، ومع ذلك فهل استطاعت العصبة أن ترفع صوتها ضد المعتدي؟ وهل استطاعت حتى اليوم أن تفعل

شيئاً ولو من الوجهة النظرية لغوث المجني عليه؟ وهو لن تفعل شيئاً بلا ريب حتى يقع المحتوم وتنقض إيطاليا على الفريسة تحاول التهامها، ولن ينفع الفريسة يومئذ إلا ما يتاح لها من وسائلها الخاصة للدفاع عن نفسها.

وبعد، فمن هم السادة في العصبة؟ ومن هم الذين يشرفون على مجلسها ويوجهونه؟ هم أقطاب الاستعمار ومنظموه، وهم المغيرون على حريات الأمم، وهم المستمرئون لاستغلالها وإذلالها واستلاب حقوقها المدنية الأوربية؛ هذه المدنية التي أضحت تلتمس ذريعة للسفك وافتراس الشعوب الآمنة

لقد كان قيام عصبة جنيف مهزلة وخديعة شائنة؛ مهزلة لأنها زعمت في ميثاقها أنها قامت لتحقق ما لم تستطع أن تحققه الأمم والإنسانية جميعاً مدى الأحقاب، أعني منع الحرب وتحقيق العدالة الدولية، وحماية الضعيف من القوى بالوسائل السلمية؛ وخديعة شائنة لأنها تبطن وراء هذه المظاهر الخلابة دستور الاستعمار المنظم والانتهاك المثير لحقوق الأمم باسم الانتداب والمدنية والتهذيب وما إليها.

فما الذي يمكن أن تجنيه مصر من الانتظام في عصبة جنيف؟ وأي ضير عليها إذ تبقى بعيدة عن هذه الهيئة المريبة العاجزة التي يفتضح أمرها اليوم؟ فعلى أولئك الذين يزعمون الغيرة على حقوق مصر - ومصر تعرفهم حق المعرفة - أن يفروا على أنفسهم أمثال هذه الدعاية التي تنم دائماً عما وراءها.

عربة اللُّقطَاء

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

جلستُ على ساحل الشاطئ (في إسكندرية) أتأملُ البحر، وقد ارتفع الضُّحى، ولكن النهار لدن ناعم رطيبٌ كأن الفجر ممتد فيه إلى الظهر

وجاءت عربة اللُّقَطاء فأشرفت على الساحل، وكأنها في منظرها غمامةٌ تتحرك إذ تعلوها ظُلَّةٌ كبيرة في لون الغيم. وهي كعربات النقل غير أنها مُسورة بألواحٍ من الخشب كجوانب النعش تُمسك من فيها من الصغار أن يتدحرجوا منها إذ هي تَدرُجُ وتتقلقل

ووقفت في الشارع لتُنزل ركبها إلى شاطئ البحر؛ أولئك ثلاثون صغيراً من كل سفيح ولقيط ومنبوذ، وقد انكمشوا وتضاغطوا إذ لا يمكن أن تُمط العربة فتسعهم، ولكن يمكن أن يُكبسوا ويتداخلوا حتى يشغل الثلاثةُ أو الأربعةُ منهم حيز اثنين. ومن منهم إذا تألم سيذهب فيشكو لأبيه. . .؟

وترى هؤلاء المساكين خليطاً مُلتبساً يشعرك اجتماعهم أنهم صيدٌ في شبكة لا أطفال في عربة، ويدلك منظرهم البائسُ الذليلُ أنهم ليسوا أولاد أمهات وآباء، ولكنهم كانوا وساوس آباء وأمهات. . . .

هذه العربةُ يجرها جوادان: أحدهما أدهمُ والآخر كُميْت. فلما وقفت لوى الأدهم عُنقه والتفت ينظر؛ أيُفرغون العربة أم يزيدون عليها. .؟ أما الكُمَيْتُ فحرك رأسه وعلك لجامه كأنه يقول لصاحبه: إن الفكر في تخفيف العبء الذي تحمله يجعله أثقل عليك مما هو إذ يضيف إليه الهم والهم أثقل ما حملت نفس؛ فما دمت في العمل فلا تتوهمن الراحة فان يوهن القوة، ويخذُلُ النشاط، ويجلبُ السأم، وإنما روحُ العمل الصبر، وإنما روح الصبر العزم.

ورآهم الأدهم ينزلون اللقطاء، فاستخفه الطرب، وحرك رأسه كأنما يسخر بالكميت وفلسفته، وكأنما يقول له: إنما هو النزوعُ إلى الحرية، فان لم تكن لك في ذاتها فلتكن لك في ذاتك. وإذا تعذرت اللذة عليك فاحتفظ بخيالها فانه وُصلتك بها إلى أن تمكن وتتسهل؛ ولا تجعلن كل طباعك طباعاً عاملة كادحةً وإلا فأنت أداة ليس فيها إلا الحياةُ كما تريدك؛ وليكن لك طبعٌ شاعر مع هذه الطباع العاملة فتكون لك الحياة كما تريدك وكما تريدها

إن الدنيا شيء واحد في الواقع، ولكن هذا الشيء الواحد هو في كل خيال جنيا وحدها وفي العربة امرأتان تقومان على اللقطاء؛ وكلتاهما تزويرٌ للأم على هؤلاء الأطفال المساكين؛ فلما سكنت العربة انحدرت منهما واحدة وقامت الأخرى تُناولها الصغار قائلةً: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة. . . إلى أن تم العدد وخلا قفصُ الدجاج من الدجاج. .!

ومشى الأطفالُ بوجوه يتيمة، يقرأ من يقرأ فيها أنها مستسلمةٌ، مستكينة، معترفة أن لا حق لها في شيء من هذا العالم إلا هذا الإحسان البخس القليل

جاءوا بهم لينظروا الطبيعة والبحر والشمس، فغفل الصغار عن كل ذلك وصرفوا أعينهم إلى الأطفال الذين لهم آباء وأمهات. . .

واكَبِدي أضنى الأسى كبدي، فقد ضاق صدري بعد انفساحه، ونالني وجع الفكر في هؤلاء التعساء، وعرتني منهم علة كدس الحمى في الدم. وانقلبت إلى مثواي، والعربة وأهلها ومكانها وزمانها في رأسي

فلما طاف بي النوم طاف كل ذلك بي، فرأيتني في موضعي ذاك وأبصرت العربة قد وقفت، وتحاور الأدهمُ والكميت. فلما أفرغوها وشعر الجوادان بخفتها التفتا معاً ثم جمعا رأسيهما يتحدثان!

قال الكُميت: كنتُ قبل هذا أجرُّ عربة الكلاب التي يقتلها الشرطة بالسم، فآخذ الموت لهذه الكلاب المسكينة. ثم أرجع بها موْتى؛ وكنتُ أذهب وأجئ في كل مرادٍ ومضطرب من شوارع المدينة وأزقتها وسككها ولا أشعر بغير الثقل الذي أجره؛ فلما ابتليت بعربة هؤلاء الصغار الذين يسمونهم اللقطاء، أحسست ثقلاً آخر وقع نفسي وما أدري ما هو، ولكن يخيل إلي أن ظل كل طفل منهم يُثقل وحده العربة

قال الأدهم: وأنا فقد كنت أجر عربة القمامة والأقذار، وما كان أقذرها وأنتنها، ولكنها على نفسي كانت أطهر من هؤلاء وأنظف، كنتُ أجدُ ريحها الخبيثة ما دمتُ أجرها؛ فإذا أنا تركتُ العربة استروحتُ النسيم واستطعمت الجو، أما الآن فالريحُ الخبيثةُ في الزمن نفسه كأن هذا الزمن قد أروح وأنتن منذُ قرنت بهؤلاء وعربتهم

قال الكميت: إن ابن الحيوان يستقبلُ الوجود بأمه إذ يكون وراءها كالقطعة المتممة لها، ولا تقبل أمُّه إلا هذا ولا يصرفها عنه صارف، فترغمُ الوجود على أن يتقبل ابنها وعلى أن

يعطيه قوانينه. أما هؤلاء الأطفالُ فقد طردهم الوجود منه كما يطرد الله آباءهم وأمهاتهم من رحمته. وقد هُديتُ الآن إلى أن هذا هو سر ما نشعر به؛ فلسنا نجر للناس ولكن للشياطين. .

وهنا وقف على حوذي العربة صديقٌ من أصدقائه فقال: من هؤلاء يا أبا علي؟

قال الحوذي: هؤلاء هؤلاء يا أبا هاشم

قال أبو هاشم: سبحان الله، أما تترك طبعك في النكتة يا شيخ؟

قال الحوذي: وهل أعرفهم أنا؟ هم بضاعة العربة والسلام. اركبوا يا أولاد، انزلوا يا أولاد , هذا كل ما أسمع

قال أبو هاشم: ولكن ما بالك ساخطاً عليهم، كأنهم أولاد أعدائك؟

قال الحوذي: ليت شعري من يدري أي رجل سيخرج من هذا الطفل، وأية امرأة ستكون من هذه الطفلة؟

انظر كيف تعلقت هذه البنتُ وعمرها سنتان، في عُنق هذا الولد الذي كان من سنتين ابن سنتين. . . . لا أراني أحمل في عربتي أطفالاً كالأطفال الذين تحملهم العربات إلى أبواب دوُرهم فان هؤلاء اللقطاء يُحملون إلى باب الملجأ، وهو بابٌ للحارات والسكك لا يأخذُ إلا منها، فلا يرسل إلا إليها

أنا والله يا أبا هاشم ضيقُ الصدر، كاسفُ البال من هذه المهنة، ويخيل إلي أني لا أحمل في عربتي إلا الجنون والفجور والسرقة والقتل والدعارة والسكر وعواصف وزوابع. . . .

قال أبو هاشم: ولكن هؤلاء الأطفال مساكين، ولا ذنب لهم

قال الحوذي: نعم لا ذنب لهم، غير أنهم في أنفسهم ذنوب. إن كل واحد من هؤلاء إن هو إلا جريمة تُثبت امتداد الإثم والشر في الدنيا. ولدتهم أمهاتهم لِغَيَّة

فقطع صاحبه عليه وقال: وهل ولدْنهُم إلا كما تلد سائر الأمهات أولادهن؟

قال: نعم إنه عمل واحد، غير أن أحواله في الجهتين مختلفة لا تتكافأ، وهل تستوي حالُ من يشتري المتاع، ومن يسرق المتاع؟

ههنا باعثٌ من الشهوة قد عجز أن يسمو سموه - وما سموه إلا الزواج - فتسفل وانحط، ورجع فسقاً، وعاد أوله على آخره. كان أوله حزماً فلا يزال إلى آخره حزماً، ولا يزال أبداً

يعود أوله على آخره. فلما حملت المرأة وفاءت إلى أمرها، وذهب عنها جنونُ الرجل والرجلُ معاً؛ انطوت للرجال على الثأر والحقد والضغينة؛ فلا يكون ابنُ العار إلا ابن

هذه الشرور أيضاً
والأمهاتُ يُعددن لأجنتهن الثياب والأكسية قبل أن يولدوا، ويهيئن لهم بالفكر آمالاً وأحلاماً في الحياة، فيكسبهم في بطونهن شعور الفرح والابتهاج وارتقب الحياة الهنيئة والرغبة في السمو بها؛ ولكن أمهات هؤلاء يعددن لهم الشوارع والأزقة منذ البدء، ولا تترقب إحداهن طول أشهر حملها أن يجيئها الوليد بل أن يتركها حياً أو مقتولاً؛ فيورثهم بذلك وهم أجنة شعور اللهفة والحسرة والبغض والمقت، ويطبعنهم على فكرة الخطيئة والرغبة في القتل، فلا يكون ابن العار إلا ابن هذه الرذائل أيضاً
وتظل الفاسقة مدة حملها تسعة أشهر في إحساس خائف، مترقب، منفرد بنفسه، منعزل عن الإنسانية، ناقم، متبرم، متستر، منافق. فلو كان السَّفيحُ من أبوين كريمين لجاء ثعباناً آدمياً فيه سمه من هذا الإحساس العنيف. ومتى ألقت الفاسقة ذا بطنها قطعته لتوه من روابط أهله وزمنه وتاريخه ورمت به ليموت؛ فان هلك فقد هلك، وإن عاش لمثل هذه الحياة فهو موت آخر شرٌ من ذاك؛ ومهما يتولهُ الناسُ والمحسنونُ، فلا يزال أوله يعود على آخره مما في دمه وطباعه الموروثة، ولا يبرحُ جريمةً ممتدةً متطاولة، ولا ينفكُّ قصةً فيها زانٍ وزانيةٌ، وفيها خطيئة ولعنة
فهؤلاء كما رأيت أولادُ الجرأة على الله، والتعدي على الناس والاستخفاف بالشرائع، والاستهزاء بالفضائل؛ وهم البغضُ الخارج من الحب، والوقاحةُ الآتيةُ من الخجل، والاستهتارُ المنبعث من الندامة؛ وكل منهم مسألة شر تطلب جلها أو تعقيدها من الدنيا، وفيهم دماءٌ فوارة تجمع سمومها شيئاً فشيئاً كلما كبروا سنة فسنة
قال أبو هاشم: ألا لعنة الله على ذلك الرجل الفاسق الذي اغتَرَّ تلك المرأة فاستزلها وهوَّرها في هذه المَهواة. أكان حقُّ الشهوة عليه أعظم من حق هذا الآدمي. أما كان ينبغي أن يكون هذا الآخرُ هو الأول في الاعتبار، فيعلم أن هذا اللقيط المسكين هو سبيله إلى صاحبه، وهو البلاغُ إلى ما يحاوله منها، فيكون كأنما دخل بين الاثنين ثالث يراهما. . . فلعلهما يستحيان
قال الحوذي الفيلسوف: لعنة الله على ذلك الرجل، ولعناتُ الله كلها، ولعناتُ الملائكة والناس أجمعين على تلك المرأة التي انقادت له واغترت به. إن الرجل ليس شيئاً في هذه الجريمة فقد كانت بصقةٌ واحدةٌ تغرفهُ، وكانت صفعةٌ واحدة تهزمه، وكان مع المرأة الحومةُ والشرائعُ والفضائلُ ومعها جهنم أيضاً
ألم تعلم الحمقاء أن الرجل الذي ليس زوجاً لها ليس رجلاً معها، وأن الشريعة لو أيقنت أنه رجل لما حرمت عليها أن تخالطه؟ إنه ليس الرجل هو الذي ساور هذه المرأة، بل هي مادة الحياة التي رأت في المرأة مُستودعها فتريد أن تقتحم إلى مقرها عنوة أو خداعاً أو رضى أو كما يتفق؛ إذ كان قانون هذه المادة أن توجد، ولا شيء إلا أن توجد؛ فلا تعرف خيراً ولا شراً ولا فضيلة ولا رذيلة
لأيهما يجب التحصين. أللصاعقة المنقضة، أم للمكان الذي يُخشى أن تنقض عليه؟ لقد أجابت الشريعة الإسلامية: حصنوا المكان؛ ولكن المدنية أجابت: حصنوا الصاعقة . . .!
وكانت المرأتان المصاحبتان لجماعة اللقطاء تتناجيان، فقالت الكبرى منهما:
يا حسرتا علي هؤلاء المساكين. إن حياة الأطفال فيما فوق مادة الحياة، أي في سرورهم وأفراحهم، وحياة هؤلاء البائسين فيما هو دون مادة الحياة، أي في وجودهم فقط
وكبرُ الأطفال منه إدخالهم في نظام الدنيا، وكبرُ هؤلاء إخراجهم من (الملجأ) وهو كل النظام في دنياهم، ليس بعده إلا التشريدُ والفقر وابتداء القصة المحزنة
فقالت الصغرى: ولم لا يفرحون كأولاد الناس. أليس الطبيعةُ لهم جميعاً، وهل تجمعُ الشمس أشعتها عن هؤلاء لتضاعفها لأولئك؟
قالت الأخرى: الطبيعة؟ تقولين الطبيعة؟ إنك يا ابنتي عذراء لم تبدأ في حياتك حياةٌ بعد، ولم تجاوبي بقلبك القلب الصغير الذي كان تحت قلبك تسعة أشهر. وإنما أنت مع هؤلاء (موظفة) لا تعرفين منهم إلا جانب النظام وقانون الملجأ
لقد ولدت يا ابنتي خمسة أطفال، وبالعين البليغة التي أنظر بها إليهم، أنظر إلى هؤلاء فما أراهم إلا منقطعين من صلة القلب الإنساني؛ يعبسُ لهم حتى الجو، ويُظلم عليهم حتى النور؛ ويبدو الطفل منهم على صغره كأنه يحملُ الغم المقبل عليه طول عمره
يا لهْفي على عودٍ أخضر ناعمٍ ريان كان للثمر فقيل له: كن للحطب

الفرحُ يا ابنتي هو شعورُ الحي بأنه حيٌ كما يهوى، ورؤيته نفسه على ما يشاء في الحياة
الخاصة به. وهؤلاء اللقطاءُ في حياةٍ عامة قد نُزعت منها الأمُّ والأب والدار فليس لهم ماضٍ كالأطفال وكأنهم يبدأون من أنفسهم لا من الآباء والأمهات
قالت الصغيرة: ولكنهم أطفال
قالت تلك: نعم يا ابنتي هم أطفال، غير أنهم طردوا من حقوق الطفولة كما طردوا من حقوق الأهل. وحسبك بشقاء الطفل الذي لم يعرف من جنان أمه أنها لم تقتله، ولا من شفقتها إلا أنها طرحته في الطريق
إن الطبيعة كلها عاجزة أن تعطي أحدهم مكاناً كالموضع الذي كان يتبوأه بين أمه وأبيه
ليس الأطفالُ يا ابنتي إلا صوراً مبهمة صغيرة من كل جمال العالم، تفسرها أعينُ ذويهم بكل التفاسير القلبية الجميلة؛ فأين أين العيون التي فيها تفسير هذه الصور اللقيطة؟
ألا لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين على أولئك الرجال الأنذال الطَّغاة الذين أولدوا النساء هؤلاء المنبوذين. يزعمون لأنفسهم الرجولة فهذه هي رجولتهم بين أيدينا، هذه هي شهامتهم، هذه هي عقولهم، هذه هي آدابُهم. . عجباً إن سيئات اللصوص والقتلة كلها يُنسى ويتلاشى، ولكن سيئات العشاق والمحبين تعيش وتكبر. . .
أكان ذنبُ المرأة أنها صادقةٌ فصدقت، وأنها مخلصةٌ فأخلصت، وأنها رقيقةٌ فلانت، وأنها محسنة فرحمت، وأنها سليمة القلب فانخدعت؟
واكبدي للمسكينة هل انخدعت إلا من ناحية الأمومة التي خلقت لها. هل انخدعت إلا الأم التي فيها، وهل خدعتها من ذلك اللئيم إلا الأبُ الذي فيه؟
واكبدي لمن تُفجع بالنكبة الواحدة ثلاث فجائع: في كرامتها التي ابتُذلت، وفي الحبيب الذي تبرأ منها، وفي طفلها الذي قطعته بيدها وتركته لما كتب عليه
إن هذا لا يعوضه في الطبيعة - إلا أن يكون لكل رجل من أولئك الأنذال ثلاثُ أرواح، فيُقتل ثلاث مرات، واحدة بالشنق، والثانية بالحرق، والثالثة بالرجم بالحجارة
وكان اللقطاءُ قد تبعثروا على الساحل جماعاتٍ وشتى، فوقف أحدهم على طفل صغير يلعب بما بين يديه، وأمه على كثب منه، وهي تتلهى بالمخرم تتلوى فيه أصابعُها فنظر الطفل إلى اللقيط وأومأ إلى جماعته ثم قال: أأنتم جميعاً أولاد هاتين المرأتين أم إحداهما؟
قال اللقيط: هما المراقبتان، وأنت أفليست هذه التي معك مراقبة؟
قال الطفل: ما معنى مراقبة؟ هذه ماما؟
قال الآخر: فما معنى ماما؟ هذه مراقبة
قال الطفل: وكلكم أهل دار واحدة؟
قال: نحن في الملجأ، ومتى كبرنا أخذونا إلى دُورنا
فقال الطفل: وهل تبكي في الملجأ إذا أردت شيئاً ليعطوك؛ ثم تغضب إذا أعطوك ليزيدوك، وهل يُسكتونك بالقرش والحلوى والقُبلة على هذا الخد وعلى هذا الخد؟ إن كان هذا فأنا أذهب معكم إلى الملجأ، فان أبي قد ضربني اليوم، وقد أمر (ماما) أن لا تعطيني شيئاً إذا بكيت، ولا تزيدني إذا غضبت، ولا. . . . . .
وهنا صاحت المراقبة الصغيرة: تعال يا رقم عشرة. . . .
فلوى اللقيط المسكينُ وجهه، وانصاع وأدبر
ومشى الأطفال بوجوه يتيمة، يقرأ من يقرأ فيها أنها مستسلمة، مستكينة، معترفة (أن لا حق لها في شيء من هذا العالم إلا الإحسان البخس القليل). . . .
(إسكندرية)
مصطفى صادق الرافعي
أقطاب الرواية المصرية
أبو عبد الله القضاعي
فقيه ومؤرخ وسياسي
للأستاذ محمد عبد الله عنان
عنيت منذ أعوام بدراسة طائفة من أقطاب الرواية التاريخية عن مصر الإسلامية ودرس آثارهم، ما دثر منها وما تبقى؛ وكتبت بالفعل عدة فصول عن ابن عبد الحكم

والكندي وابن زولاق استقصيت فيها حياتهم وآثارهم؛ ثم تناولت بعد ذلك عدة أخرى من مؤرخي مصر الإسلامية في عصور متأخرة، مثل النويري والمقريزي وابن تغري بردي والسخاوي وابن إياس؛ وقصدي بذلك أن أترجم لمؤرخي مصر الإسلامية كلما سنحت الفرص، وأن أستوعب مصادر التاريخ المصري

والآن نستأنف هذا الدرس، ونخصص هذا الفصل لأستاذ من أساتذة الرواية المصرية، هو أبو عبد الله القضاعي، وهو مؤرخ وفقيه وسياسي معاً، عاش في فترة من أدق الفترات التي جازتها مصر الاسلامية، وشهد الدولة الفاطمية في ذروة القوة والعظمة، ثم شهدها تنحدر سراعاً إلى دور من الانحلال والتفكك يكاد يؤذن بذهابها، وشهد محنة من أشنع المحن التي عانتها مصر الإسلامية، وانتدب أيام المحنة ليكون سفيراً لأمته في طلب العون والغوث؛ وكتب عن مصر الإسلامية وعن حوادث عصره آثاراً هامة، لم تصل للأسف كلها الينا، ولكن ما انتهى إلينا منها على يد المؤرخين المتأخرين يدل على أهميتها وقيمتها

وهو القاضي أبو عبد الله بن سلامة بن جعفر القضاعي الشافعي المصري؛ ولد بمصر في أواخر القرن الرابع الهجري، في عصر الحاكم بأمر الله، ودرس الحديث، والفقه على مذهب الشافعي وبرع فيه، وبرز في التاريخ والأدب؛ وبدأ حياته العامة بتولي القضاء، ولبث يليه حيناً بالنيابة كلما خلا منصب قاضي القضاة بالوفاة أو العزل، ثم تولى التوقيع (أو العلامة) لأبي القاسم الجرجائي المعروف بالقطع وزير الخليفة الظاهر لاعزاز الله ابن الحاكم بأمر الله، ثم وزير ولده المستنصر بالله من بعده. ولما توفي الوزير أبو القاسم (سنة 436هـ) تقلب القضاعي في عدة وظائف ومهام رسمية؛ وكان المستنصر بالله يقربه ويثق

بحكمته وحسن تصريفه للأمور؛ وتجول القضاعي ودرس في بغداد ومكة والشام؛ ووقف على أحوال الدول الإسلامية يومئذ، وجرى السياسة في القصور المختلفة، وتبوأ في البلاط المصري ذروة الثقة والنفوذ. ثم جاء ظرف عهد فيه إلى القضاعي بمهمة سياسية دقيقة. ذلك أن الأزمات والفتن الداخلية التي توالت على مصر في عهد المستنصر بالله لبثت تتفاقم حتى انتهت بوقوع الغلاء والقحط؛ ثم كانت الطامة الكبرى بوقوع الوباء في سنة 446 هـ 1053م؛ وعانت مصر يومئذ آلاماً ومحناً مروعة. وتعرف هذه النكبة في تاريخ مصر الإسلامية (بالشدة العظمى). وقد بدأت كالعادة بالغلاء وندرة الأقوات، وكان بين مصر والدولة البيزنطية يومئذ علائق حسنة، فأرسل المستنصر بالله في سنة 446 هـ إلى إمبراطور قسطنطينية، وهو يومئذ قسطنطين السابع، أن يمد يده بالغلال والمؤن؛ وكانت الدولة البيزنطية تواجه يومئذ خطر السلاجقة الذين أشرفوا على حدودها الشرقية وعاثوا في آسا الصغرى؛ وكانت ترى أن تقوي صداقتها وتحالفها مع مصر التي كانت تخشى غزواتها من الجنوب ومن البحر؛ فاستجاب قسطنطين لدعوة المستنصر، وتم الاتفاق على أن ترسل المؤن من قسطنطينية إلى مصر، وأعدت بالفعل لتلك الغاية مقادير وافرة من الغلال تقدرها الرواية الإسلامية بأربعمائة ألف أردب ولكن قسطنطين السابع توفي قبل تنفيذ الاتفاق، وخلفه على عرش قسطنطينية الإمبراطورة تيودورا، واشترطت لإرسال المؤن إلى مصر شروطاً أباها الستنصر، ومنها أن يمدها بالجند لمحاربة السلاجقة؛ فانقطعت المفاوضات بين الفريقين، وسير المستنصر جيوشه إلى الحدود الشمالية، ونشبت بين الفريقين معارك انتصر فيها المصريون بادئ ذي بدء. ولكن الأسطول البيزنطي غزا مياه الشام، وهزم المصريين في عدة مواقع؛ فكف المستنصر عن متابعة الحرب، وعاد إلى المهادنة والمفاوضة، وأرسل إلى بلاط قسطنطينية سفيراً مختاراً يسعى إلى عقد الصلح وتنظيم العلائق بين الفريقين

وكان ذلك السفير المصري إلى بلاط القياصرة، هو أبو عبد الله القضاعي الذي يحبوه المستنصر بثقته وتقديره. فقصد القضاعي إلى بيزنطية عن طريق الشام؛ وتضع الرواية الإسلامية تاريخ هذه السفارة الشهيرة في سنة (446 هـ 1055م) ويقع هذا التاريخ في عصر الإمبراطورة تيودورا التي جلست على العرش سنة 1545م وتوفيت في أغسطس

سنة 1075م؛ وعلى هذا فقد كانت سفارة المستنصر إلى الإمبراطورة تيودورا. وهذا ما يذكره ابن ميسر مؤرخ مصر بوضوح في حوادث سنة 447 هـ إذ يقول: (وفيها سير

المستنصر، فقبض على جميع ما في كنيسة القمامة؛ وسبب ذلك أن أبا عبد الله القضاعي كان قد توجه من مصر برسالة إلى القسطنطينية. فقدم إليها رسول طغرلبك يلتمس من ملكتها أن يصلي رسوله في جامع قسطنطينية، فأذنت له في ذلك؛ فدخل وصلى بجامعها، وخطب للخليفة القائم؛ فبعث القضاعي بذلك إلى المستنصر فأخذ ما كان بقمامة؛ وكان هذا من الأسباب الموجبة للفساد بين المصريين والروم) بيد أن هنالك من جهة أخرى ما يدل على أن الجالس على عرش قسطنطينية وقت مقدم القضاعي إليها لم يكن الإمبراطورة تيودورا، وأن الذي استقبل السفير المصري هو خلف تيودورا الإمبراطور ميخائيل السادس (ستراتيو تيكوس) الذي تولى عرش قسطنطينية في أغسطس سنة 1057م؛ فقد نقل المقريزي في كتابه (المقفى) في ترجمة القضاعي ما يأتي: (وقال أبو بكر محمد بن سامع الصنوبري، سمعت القاضي أبا عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي يقول: لما دخلت على ملك الروم اليون، رسولاً من قبل المستنصر بالله، وأحضرت المائدة، فلما رفعت جعلت ألتقط الفتات؛ فأمر الفراش أن يحضر أخرى، ففعل؛ فقال لي الملك أصبت منه وإنك لم تشبع، فقلت أنا والله مستكف؛ فقال لي لم أكلت الفتات؟ فقلت: بلغني مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: من التقط ما سقط من المائدة برئ من الحمق والفقر؛ فأمر الخازن في الحال بإحضار ألف دينار وإعطائها؛ فقلت صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستغنيت وبريت من الحمق)؛ وذكر المقريزي في الخطط أيضاً ما يؤيد هذه الرواية. على أننا نستطيع أن نوفق بين الروايتين فنفترض أن القضاعي وصل إلى قسطنطينية في أواخر عهد الإمبراطورة تيودورا؛ واستمر في أداء مهمته بعد وفاتها لدى الإمبراطور ميخائيل السادس؛ ومكث حيناً بقسطنطينية؛ ومما يؤيد طول مكث القضاعي بعاصمة القياصرة أنه عني هنالك بالدرس وجمع المواد التاريخية عن المدينة وخططها. أما مهمة السفير المصري لدى البلاط البيزنطي فلم تحددها الرواية الإسلامية تحديداً واضحاً، ولكنا نستنتج مما قدمنا من الظروف والحوادث أنها كانت تقوم على السعي في إقناع البلاط البيزنطي بالتحالف مع مصر ضد السلاجقة، وإعانة مصر بالأقوات والمؤن، تنفيذاً للعهود التي قطعها قسطنطين السابع للمستنصر وتوفي قبل الوفاء بها

ولكن القضاعي أخفق في مهمته. ذلك أن السياسة البيزنطية آثرت جانب السلاجقة، لأنهم كانوا يومئذ أشد خطراً على الدولة الشرقية من مصر، وآثر القيصرأن يتعاقد مع رسول طغرلبك؛ وبعث القضاعي بذلك إلى المستنصر، فرد المستنصر بالقبض على أحبار قمامة ومصادرة نفائسها، واضطربت العلائق بين مصر وبيزنطية كرة أخرى؛ وعاد القضاعي إلى مصر على أثر هذا الفشل، ونستطيع أن نضع تاريخ عودته في سنة 450 هـ (1058م) أعني بعد أن أنفق أكثر من عامين في رحلته. ثم توفي القضاعي بعد ذلك ببضعة أعوام، في 16 ذي القعدة سنة 454

كتب القضاعي عدة مصنفات في الفقه والتاريخ منها كتاب (الشهاب) وكتاب (مناقب الإمام الشافعي وأخباره) وكتاب (الأنباء عن الأنبياء وتواريخ الخلفاء) وكتاب (المختار في ذكر الخطط والآثار) وكتاب (عيون المعارف)، وقد دثر معظم هذه الآثار، ولم يصلنا منها سوى كتاب (الشهاب) و (مسند الشهاب) أو (مسند الصحابة) وهما في الحديث، وكلاهما بمكتبة الأسكوريال بمدريد؛ وانتهى إلينا أيضاً، كتاب (عيون المعارف) وهو على ما يصفه مؤلفه في مقدمته (موجز في ذكر الأنبياء وتاريخ الخلفاء وولايات الملوك والخلفاء إلى سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة من الهجرة)، وتوجد من عيون المعارف نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية، ولكنا نرتاب في أنها مختصر لكتاب أكبر ربما كان هو المعروف (بتاريخ القضاعي) وهو الذي يقتبس منه كثير من المؤرخين المتأخرين، والظاهر أيضاً أن (عيون المعارف) و (الأنباء عن الأنبياء وتواريخ الخلفاء) هما اسمان لمؤلف واحد حسبما يبدو من مقدمة (عيون المعارف) المشار أليها بيد أن أهم آثار القضاعي هو بلا ريب كتابه الشهير في الخطط وهو المسمى: (المختار في ذكر الخطط والآثار)؛ ولم يصلنا هذا الأثر، ولكن انتهت إلينا منه على يد الكتاب والمؤرخين المتأخرين، ولا سيما القلقشندي والمقريزي وابن تغري بردي والسيوطي شذور كثيرة تدل على قيمته وأهميته؛ وقد كان لمؤلف القضاعي في الخطط أهمية خاصة لأنه آخر رواية كتبت عن خطط مصر والقاهرة قبل أن تغير معالمها فترة الشدة

والخراب التي نزلت بمصر أيام المستنصر بالله، وقبل أن تبعث بعد ذلك خلقاً جديداً في معظم معالمها
وصروحها، وهي حقيقة ينوه بها المقريزي في مقدمة (الخطط) إذ يذكر كتاب القضاعي (المختار) ضمن مصادره ثم يقول: (ومات (أي القضاعي) في سنة سبع وخمسين وأربعمائة قبل سني الشدة فدثرا أكثر ما ذكر ولم يبق إلا يلمع وموضع بقلع) والظاهر مما نقل ألينا من كتاب القضاعي أنه أثر ضخم تناول فيه خطط مصر وآثارها وتاريخها منذ الفتح الإسلامي بإفاضة، وأضاف أليه ما انتهت إليه أحوال القاهرة المعزية حتى منتصف القرن الخامس والظاهر أيضاً أن كتاب (المختار) إنما هو المنعوت (بتاريخ القضاعي) لأن ما نقل إلينا منه من الشذوذ يمتاز بإفاضة واضحة، ولا وجود له في الموجز المسمى (عيون المعارف)
وقد كان القضاعي، كما يبدو من آثاره، مؤرخاً دقيقاً ثقة، يزن روايته ويمحصها، وكانت روايته عن مصر الإسلامية، ولاسيما عن حوادث عصره، مستقى خصباً لكثير من المؤرخين المتأخرين؛ وما زالت هذه الرواية ذائعة تتخذ مكانها بين مصادر التاريخ المصري حتى أواخر القرن التاسع حيث نرى السيوطي ينقل في حوادث فتح مصر عن كتاب (الخطط) للقضاعي مكتوباً بخطه، وفي ذلك ما يؤيد أيضاً أن الكتاب المنعوت (بتاريخ القضاعي) إنما هو كتاب يحتجب عنا هذا الأثر الهام بين مصادر التاريخ المصري، ولاسيما بين مصادر العصر الفاطمي الأول، الذي احتجب عنا معظم الآثار الخاصة به، والتي غدت كالحلقة المفقودة في مصادر تاريخ مصر الإسلامية
(النقل ممنوع)
محمد عبد الله عنان
في اللغة والألفاظ
الدعوة إلى اختصارها لتسهيلها
للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني
اللغة تتبع الدولة، وتسير في ظلها، ولا سبيل إلى انتشار لغةٍ يُغلب أهلها على أمرهم، وبعيدٌ أن تُصد عن الذيوع لغةٌ يتسع سلطان أبنائها وتنبسط رقعة ملكهم أو نفوذهم، ولا عبرة في هذا الأمر بما في اللغة نفسها من سهولة أو عسر في التحصيل، والمعول على القوة والسلطان، لا على أن اللغة قريبة المنال أو بعيدته، ويسير المطلب أو عميقة المغاص، وقد استطاعت اللغة الإنجليزية أن تنتشر في الأرض وأن تنفذ إلى مجاهلها، وأن تزحزح الفرنسية وتحطمها عن عرشها، لأن سلطان هذه الدولة امتد شرقاً غربياً، وليست الإنجليزية أسهل من الفرنسية أو العربية، ولكن قوة أهلها أكبر، ونشاطهم أعظم؛ وهذه (الاسبرانتو) التي اخترعوها لتكون اللغة المشتركة بين الأمم ماذا كان مآلها؟ يعرفها آحاد راقتهم الفكرة، ولا يعبأ بها أحد فيما عدا هؤلاء النفر القليلين، لأنه ليس وراءها ولا قدامها دولة لها سطوة، وفي الهند لغات لا رجاء لا حداها حتى في أن تصبح لغة الهند كلها ما دامت إنجلترا تحكمها، وفي مصر جالية أجنبية ليس أنشط منها ولا أكثر عدداً، هي الجالية اليونانية، ولكنه يندر أن يعني مصري بتعلم لغتها، على حين نتعلم الإنجليزية في مدارسنا ونعدها لغتنا الثانية
ولا آخر لما يمكن أن نضربه من الأمثال ونسوقه من الشواهد، فحسبنا هذا القدر، فالذين يقولون إن المستر اوجدن قد تخير من اللغة الإنجليزية خمسين وثمانمائة لفظ رآها كافية وافية بحاجات التعبير كلها، وأن مثل هذا الاختصار أو الاختزال ميسور في اللغة العربية، وإنه يعين على نشر اللغة ويفضي إلى ذيوعها، ويتيح لها أن تصبح (عالمية) - أقول إن الذين يذهبون هذا المذهب، ويفكرون على هذا النحو، يغلظون ويقلبون المسألة، وذلك أن هذه الألفاظ الثمانمائة ليست الإنجليزية، ولا فيها لأبنائها وعلمائها وكتابها وساستهاأي كفاية، وإنما هي حسب الأجنبي الذي يريد أن يتصل بأهلها اتصال تجارة أو ما هو من هذا بسبيل، وقد ابتكر المستر اوجدن هذه الوسيلة ليمكن للغته ويزيدها ذيوعاً، لا لينشرها، فقد تكلفت بنشرها الإمبراطورية الطويلة العريضة من قبل أن يخلق المستر اوجدن؛ ولو أنك
عمدت إلى مثل ذلك في لغة الفرس أو إحدى لغات البلقان الكثيرة، لما أجدى ذلك شيئاً، ولما جاوز بها هذا التسهيل صبغتها المحلية
وشيء آخر يغلط فيه أصحابنا الذين افتتنوا بالتسهيل، ذلك أن السهولة مرجعها إلى

العقل، لا إلى الألفاظ، فلو أنك قصرت اللغة على ثمانين لفظاً، لا ثمانمائة، لما أختلف الحال، ولبقيت المسألة حيث كانت، لأن المعول في التعبير على الكاتب؛ وليس على عدد الألفاظ، وما من كاتب أو شاعر في الدنيا يستعمل كل ما في لغته من كلمات، والسهولة مردها إلى أمور لا علاقة لها باللفظ في ذاته ومن حيث هو، منها أن يكون المعنى الذي يلتمس المرء العبارة عنه، واضحاً في الذهن، ومنها أن يحسن الكاتب بعد ذلك إنتقاء الألفاظ التي يؤدي بها المعاني، وكثيراً ما يحدث أن يكون المعنى غائماً، أو غامضاً، أو غير واضح على العموم، في ذهن المرء، فيحاول العبارة عنه قبل أن يدركه هو نفسه أو يحيط به، فيجئ الكلام مضطرباً غير مفهوم، لأنه لا سبيل إلى البيان إلا بعد أن يعرف المرء ماذا يريد أن يقول، وقد يكون المرء عارفاً بما في نفسه؛ مدركاً للمعاني الدائرة فيها، ولكنه لا يعرف كيف يعبر عنها ويبرزها في صورة واضحة، فيسئ الأداء؛ وإن كان قد أحسن التفكير، ويقصر في العبارة؛ وإن لم يقصر في فهم ما يرد على خاطره ويتمثل له من الخوالج. وفي وسعي أن أكتب لك سطوراً ليس فيها كلمة واحدة غير مألوفة، أو لا يعرفها العامة والأميون ومع ذلك لا يستطيع أن يفهمها أحد، وفي مقدوري كذلك أن أعبر عن أدق الاحساسات وأعمق المعاني وأعوصها تعبيراً يحمل القارئ على الظن بأن هذه كلها من البدائه، لأن العبرة كما قلت ليست بالألفاظ ولا بكونها غريبة أو مألوفة، وحوشيّة أو مأنوسة، بل بالكاتب نفسه، أي بوضوح المعنى الذي في رأسه أو غموضه، وبقدرته على أدائه أو عجزه عن ذلك. وقد يتفق لك أن تحادث رجلاً عامياً لا يقرأ ولا يكتب، فتسمع منه كلاماً كالتخليط أو الهذيان لا تستطيع أن تتبين منه مراده، فهذا العامي الأمي لم يرجع إلى الغريب من ألفاظ اللغة ولم يستعمل المهجور والدارس منها، وإنما استعمل ألفاظاً يعرفها الأطفال والباعة والجهلة والمتعلمون، ومع ذلك أعياك أن تفهم كلامه. فلو أن الألفاظ هي التي يرجع إليها أمر الغموض أو البيان، والصعوبة أو السهولة، لوجب أن تفهم عنه، ولما كنت معذوراً إذا لم تفهم

فلا قيمة إذن لعدد الألفاظ التي في اللغة، ولتكن ألفاً لا أكثر، أو مائة ألف، أو أقل من ذلك أو أكثر، فلن يختلف الأمر في الحالتين، والأمر من حيث الأداء في اللغة مثله في التصوير، ذلك أن الألوان التي يستعملها المصور قليلة العدد جداً، وهي أداة المصورين جميعاً كما أن الألفاظ أداة الكتاب. ولسنا نظن أن أحداً سيزعم أن قلة الألوان التي يستخدمها المصور جعلت التصوير أسهل، وما من مصور إلا وهو عارف بالألوان وكيف يستعملها وكيف يزاوج بينها، ومع ذلك يجئ آخر بغير شيء، ولا نحتاج أن نقول إن الألوان لا ذنب لها، وإن المصور نفسه هو الذي يستطيع أن يؤدي بها ما أراد أن يبرزه أو يثبته أو يدل عليه أو يرمز له، وكذلك في الكتابة: لا ذنب للألفاظ، فإنها - وهي مفردة - لا تؤدي شيئاً، ولا فرق بينها، ولا فضل لواحدة على واحدة، وإنما تصير كلاماً بعد أن يحدث فيها الكاتب نظما أي بعد أن يؤلف بينها، كذلك الألوان ليست هي الصورة، وإنما تصبح صورة بعد المزج والمزاوجة والتأليف

وسواء أقلت الألفاظ المستعملة أم كثرت، فسيظل هناك كتاب مشرقون واضحون يسهل ورود كلامهم ويحسن وقعه، وآخرون غامضون أو معوصون، يحطمون رؤوس القراء لأنهم يكتبون قبل أن يتبنوا ما في نفوسهم من الخواطر أو الاحساسات أو لأنهم لم يرزقوا القدرة على أداء الحسن الواضح، أو لأن في أسلوب تفكيرهم التواء، أو لأن في طريقة تناولهم للموضوع عوجاً، أو لغير ذلك من الأسباب الراجعة - في مرد أمرها - إلى المرء نفسه لا إلى الألفاظ. ولو كان الأمر رهناً باللفظ وحده لهان الخطب، وما على الإنسان حينئذ إلا أن يفتح معجما - إذا اعترضه لفظ غريب

وعلى أن الواقع أن عدد الكلمات التي يستعملها الكتاب، قليل جداً إذا قيس إلى ما في اللغة، وهو لا يزيد على بضع مئات، ومن هذه المئات القليلة يحدث كل كاتب أو شاعر آلافاً من الصور، وبها يؤدي ما لا يستطيعأن يحسبه الحاسب من المعاني والخواطر والاحساسات، كما يستطيع المصور - ببضعة ألوان - أن يرسم مئات من الصور لا تشبه واحدة منها أختها، فلا معنى إذن لهذه الضجة التي يثيرها بعض إخواننا الكتاب حول اللغة ووجوب الاقتصار على المألوف من ألفاظها، وهجر المهجور منها، لأن هذا حاصل من تلقاء نفسه، والكاتب الذي يؤثر الأغراب ويلجأ إلى الميت والدارس من الألفاظ، يجني على نفسه بذلك،

وكثيراً ما يحدث أن يضطر أمثاله إلى تنكب هذا الطريق الأعوج والرجوع إلى النهج المستقيم
وبعد، فانه لا يصح أن يقال إن لغةمن اللغات عيبها كثرة ألفاظها، فان الألفاظ تنشأ، وتحيا، وتموت، على حسب الحاجة، والناس لا يشتقونها أو ينحتونها، أو يضعونها، أو يستعيرونها من اللغات الأخرى، للترف، بل للضرورة في وقتها، وللألفاظ حياتها كما للناس، وهي - مثلهم - أجيال، حتى معانيها تتطور على الأيام، ويجري عليها من الحظوظ ما يجري على كل كائن حي، وإنما الذي يصح أن يقال، والذي يقبل من قائله، هو أننا نسيء تعليم لغتنا، ونجعلها بسوء طريقتنا في تعليمها وبتقصيرنا في حقها، أعوص مطلباً مما هي في الحقيقة وأشق في التحصيل على أبنائها - فضلا عن الغرباء - من اللغات الأجنبية التي أحسن أهلها القيام على خدمتها وذللوا لطلابها ما فيها من صعوبات لا تخلو منها لغة
وما عدا ذلك خلط لا قيمة له
إبراهيم عبد القادر المازني
كيف ارتاد الشيخ رشيد مصر
رسالة تاريخية قيمة
من المرحوم السيد رشيد رضا إلى صديقه الأستاذ المغربي
كان السيد رشيد رحمه الله أشار في مصنفاته الأخيرة إلى مبلغ الود الذي توثقت . . . بيننا في عهد طلبنا العلم في طرابلس الشام، وقد استمرت هذه المودة زهاء عشرين سنة، حتى سافر إلى مصر، واتصل الأستاذ الإمام، وأنشأ المنار. وكانت هذه الرحلة إلى مصر نتيجة الدراسة العلمية الحرة المشتركة بيننا خلال تلك المدة. ولا أدل على ذلك من هذه الرسالة المرسلة إليكم. وكان السيد رشيد كتبها بعد أن وصل مصر سنة 1898م والرسالة المذكورة تدخل في نحو 200 رسالة مثلها أرسلها إلى السيد رشيد خلال تسع سنوات (من 1898 - 1906) حتى جئت مصر وحررت في المؤيد والرسائل المذكورة محفوظة لدي لا يعوزها إلا حذف بعض (الخصوصيات) فتتمثل كتاباً يحتوي على مذكرات في مواضيع مختلفة هامة، لما فيها من وصف الحالة الاجتماعية والأدبية في مصر خلال تسع سنوات
(المغربي)
الرسالة
أخي وسيدي:
سلام وتحية - وأشواق قلبية
لقد امتلأت المخيلة ولا سعة في الوقت لشرح ما ينبغي شرحه بل ولا لكتابته موجزاً بعبارة بسيطة. ولكن لابد من الأيماء إلى بعض بما يحتمله الوقت من البيان
(1) في بيروت: رغب إلي الوطني الفاضل عبد القادر أفندي القباني أن أحرر جريدة الثمرات، وأعلم في المدرسة التي أنشأها مع الشيخ أحمد عباس فإنها تحتاج لمثلي ولم يجداه
(2) حدثني المومأ إليه عن السيد محمد بيرم حديثاً طويلا يتضمن حالته في بيروت والآستانة ورجوعه إلى تونس ثم إقامته في مصر: أهمه أنه في بيروت جرى له مع قاضيها يومئذ مذاكرة علمية طويلة ما كان أحد غيرهما يفهم ما يقولان. وبعد الانصراف سأل عبد القادر أفندي السيد بيرم عن القاضي فقال إنه أعلم من رأى، ثم سأل القاضي عنه فقال انه زنديق فلم يسلم له باطناً. وأن جريدته (الإعلام) ذكرتهم بكلام القاضي بعد زمان، لأنها كانت خادمة للإنكليز، وأنه رأى عدداً يتكلم فيه على الكمال ويقول فيه إن الكمال موجود عند الإنكليز، فيجب أن نأخذه عنهم بعد ما قدم مقدمه أنه يجب أخذ الكمال حيثما كان
(3) حدثني أيضاً عن ترجمة فانديك، وأن أطباء الإفرنج لا يعترفون له بأنه طبيب ماهر ولا علماءهم بأنه عالم وإنما كان مترجماً. وحزبه - ومنهم جماعة المقتطف - الذين تحزبوا له يوم أخرجته الجمعية الأمريكانية من المدرسة بناء على أنه ليس لديه من العلم ما يؤهله لها - يسمونه فيلسوفاً
(4) اجتماعاتي مع الأمير شكيب وحديثه لي عن شؤونه في الآستانة لاسيما مع إبراهيم بك المويلحي وترددهما بين السيد جمال الدين (الأفغاني) وبين أبي الهدى أفندي

وقضيت العجب مما ذكر لي من خبث المويلحي
اجتماعاتي مع وجوه الجبل (لبنان) متصرفه فمن دونه أمور شخصية ليس فيها (5)
فائدة تاريخية أو علمية إلا مسألة توليه نسيب بك جنبلاط قائم مقامية صيدا بإرادة
سنية وذهابه بأمر الوالي إليها وما كان من الاحتفال الغريب من أهلها به وإرسال
الوالي تلغرافا صبيحة ليلة وصوله بطلبه لبيروت وإقامة وكيل لصيدا مكانه بحيث لم
ينم في صيدا إلا ليلة واحدة
بور سعيد والإسكندرية ومرفأ كل منهما ومبانيهما وشوارعهما لا سعة للكلام في (6)
ذلك
مدرسة جمعية العروة الوثقى بالإسكندرية وتعليمها ورئيسها عبد القادر أفندي (7)
سري
اجتمعنا بالسيد عبد الفتاح النديم بداره في الإسكندرية وأهداني نسخة من الجزء (8)
الأول من سلافة النديم وأخبرني أن كتب أخيه (عبد الله نديم) لم تول في الآستانة
وهي عند الشيخ ظافر، ولم يعطوها له بناء على صدور الأمر بفحصها، وأن كتاب
المسامير الذي ألفه بالطعن في أبي الهدى أفندي توجد نسخة منه عند أخ لجورجي
كان يتردد بين السيدين الأفغاني والنديم في الآستانة وأخو جورجي الآن في مصر لكنه
يطلب في مقابلة الكتاب مئات من الجنيهات
مولد السيد البدوي الرجبي في طنطا وما يقام في ذلك المسجد العظيم في أيامه (9)
من الأذكار والنوبات واجتماع الألوف من النساء والرجال وطوافهم بقفص قبر السيد
كما يطاف بالكعبة، وتقبيلهم وتمسحهم به، بل وتقبيل عتبة باب مقصورته
بحيرة الإسكندرية، الملاحة. أراضي مصر وفيها سباخ كثير، أشجارها، النيل، (10)
عظمتها لاسيما في كفر الزيات والمنصورة ودمياط، الطرق الحديدية والترام
الكهربائي - أمور عمومية
ذهبت إلى دمياط عن طريق المنصورة ومعنا أبو النهي والشيخ أبو النصر (11)
(القاوقجيان) فنمنا بالمنصورة عند صديقنا الشيخ عبد الرزاق أفندي الرافعي القاضي
ولم يكن ثمة، لكن تلقانا ولده محمد أفندي بالترحاب وهو لطيف جداً، وسهر عندنا
المفتي والنائب وبعض أهل العلم، ولما سمعوا حديث أخيكم أعجبوا به، ودعانا المفتي
للغداء في اليوم التالي فسافرنا إلى دمياط ولم نجب دعوته
الجمعية الأدبية للخطابة في المنصورة وكلام المقطم فيها (12)
اجتماعنا بالعلماء في دمياط وكثرة سؤالهم لي عن المسائل الدينية والصوفية (13)
والفلسفية، وبفضل الله لم أتوقف في جواب. وقد تمنى الكثير منهم أن أبقى عندهم
وبعضهم أن يكون معي
فريد بك (وجدي) ابن وكيل محافظ دمياط بحالة الإسلام والوقت وجهته مثلنا (14)
دينية، يطالع الأحياء، وله اعتناء بالفلسفة، ألف كتاباً صغيراً سماه الفلسفة الحقة
أهداني نسخة منه، وهو الآن يستعد لتأليف كتاب بالفرنسيةفي الديانة الإسلامية
ويعرضه في معرض باريز الآتي، وهو منفرد بهذه الأفكار في دمياط، لأن دمياط بلدة
إسلامية لا مداخلة للنصارى والإفرنج فيها، ومن ثم هي ضعيفة في العمران، قوية في
التمسك بالدين، لا نظير لها في مدن مصر. زرت فريد بك وزارني، وقد أعجب بي كل
الإعجاب، وتمنى أن أكون معه دائما، ونشط على إنشاء الجريدة (المنار) وسيكتب فيها
فاتني أن أذكر لكم عند ذكر الإسكندرية أنني اجتمعت هناك برجل يدعى السيد (15)
حسن أنين وهو رجل باقعة أصله بيروتي ودخل النصرانية وتعلم اللاهوتي البرتستانتي
ثم رجع للإسلام، وهو متقن الإنكليزية ومتزوج بإفرنجية، وقد ساح في البلاد كثيراً وأكثر
إقامته في
عدن يتعاطى الأعمال التجارية، وله مداخلة مع جميع طبقات الناس، ويعاشر كلاً على
مشربه خيراً أو شراً، يجتمع باللورد كرومر وبمختار باشا (الغازي) وبسائر الوزراء
والكبراء وكتاب الجرائد، وله صحبة مع أصحاب المقطم أثنوا عليه يوم جاء مصر، وفي
هذه المدة الأخيرة أقامه الشيخ الميرغني الشهير خليفة على تلاميذه في شرقي
أفريقيا إلى رأس الرجاء، ولا نعلم ما يكون من أمره، وقد وعدنا بالمساعدة في أمر
الجريدة (المنار)
مصر وما أدراك ما مصر!! وصلنا إليها قبيل العصر يوم السبت الماضي، وأتينا تواً (16)

للأزهر؛ فتلقانا الشيخ إسماعيل (الحافظ) وغيره، وشربنا الشاي في غرفة الشيخ بدر الغزي - يظهر أنه بابي على مذهب شيخه - وفي ضحوة يوم الأحد ذهبت لزيارة المصلح العظيم الأستاذ الشيخ محمد عبده ومعي الشيخ إسماعيل والشيخ أبو النهي. قعدنا في المندرة وأعطيت العبد بطاقة الزيارة فأوصلها إليه في الحريم. فلم يلبث أن نزل وهي في يده ولم يتركها مدة جلوسنا، بل جعل يقلبها بيده ويتكلم

سألنا أولاً عن أستاذنا الشيخ حسين أفندي (الجسر) ثم عن عزيز أفندي سلطان ومحمد باشا المحمد، ثم عن طلبة العلم وشيوخهم وتعليمهم. ومما قلنا إن الطلبة نحو مائتين والمستفيد المجتهد نحو اثنين

ثم أنشأ يتكلم عن حالة الأزهر والأمة. فعلمنا أن ما كنا نعتقده فيه من أنه موجه كل همه وسعيه للأزهر صحيح. ومن جملة كلامه أن سعادة هذه الأمة في الأزهر، وأن شقاءها من إهمال الأزهر. وإنه لا يرى نفسه سعيداً إلا إذا نجحت مساعيه في إصلاح التعليم فيه. وإنه إذا رأى انتظامه قبل موته يموت قرير العين ويرى أنه ملك عظيم، وحدثنا بأمر الامتحان في الأزهر حديثاً كله تنديد بشيوخه وبتعليمهم، بل قال إن الكثير من مدرسي الأزهر لا قابلية فيه الآن لأن يكون طالب علم: ومنهم من يصلح اليوم لأن يطلب العلم من طريقه

قال: كنت في الامتحان أسأل أحد الطلبة عن عبارة فيحل ألفاظها المفردة بإرجاع ضمائرها وبيان متعلق ظروفها - هذا إن أحسن الجواب - فأسأله عن المراد بهذه العبارة فلا يحير جواباً. قال لأحدهم مرة: ما مراد المصنف من هذه العبارات - ثلاث مرات - وهو يعيد له الحل السابق. فقال له في الأخير: إن مراده كذا، فقل مثلما قلت؛ فلم يحسن ذلك. وقال - بمناسبة ذم كتبهم: - سألت أحدهم في المنطق فأجاب بما يبعد عن الصواب. قال: فقلت:

من أين لك هذا الكلام. فقال: من حاشية الصبان على السلم. قال: فلم أصدقه فنظرت في الكتاب فرأيتها كما قال. فقلت للشيوخ كيف يعرف المنطق وشارحه لا يعرف المنطق ومحشّيه (الصبان) لا يعرف المنطق

قال: كان مراده من العام الماضي قلب هيئة الأزهر دفعة واحدة، لكن قيل له إن الشيوخ يصعب عليهم ذلك، ولابد من أخذهم بالتدريج

وقال: إن مداخلته بالحكومة إنما هي لأجل الأزهر لأنه لولا مركزه في الحكومة لا يقبل له قول ولا يستطيع أن يعمل شيئاً فيه. وانه يعلم أن كثيراً من الشيوخ الذين ينقادون له الآن ساخطون عليه في نفوسهم، مع أنه سعى لعلماء الأزهر بمبلغ خمسة آلاف جنيه بعضها من الحكومة وبعضها من الأوقاف، وكانوا في غاية الضيق

مما ينقمون عليه أنه لا يطول أكمامه، مثلهم، وأنه يركب الحصان ويلبس الجزمة عند ركوبه كما فهمت من الشيخ إسماعيل فتأمل. وقال: لما ولاه الخديو السابق القضاء قال لناظر الحقانية: أنا خلقت لأن أكون معلماً لا لأن أكون حاكماً: أقول حكمت على فلان بكذا وعلى فلان بكذا. فقل للخديو يجعلني في دار العلوم، فلم يرض الخديو، وقال: إن الحكومة أرادت الإصلاح بكذا وكذا

قال: وإن المصريين منهم من يعتمد على فرنسا وعلى. . . وعلى. . . وكل هذا أوهام، والصحيح أنه لا يضمن لنا الاستقلال والحياة للأمة إلا شيء واحد وهو التربية والتعليم الصحيح

ثم تكلم عن ضعفنا وقوة أوربا: إن جميع ما حولنا - لاسيما حكامنا وعلماءنا - يدل على اليأس، ومع هذا فان لي أملاً كاملاً، ويوجد رجل آخر في مصر له نصف أمل سأسأله عنه، ثم بكلام تاريخي عن حالة أوربا في ضعفها وكيف قويت

سألته عن الكتاب المعهود، فقال: إنه لم يتمه وأنه لابد منه ومن كتب أخرى. لكنه يحتاج إلى مساعد حاذق أمين: يفحص له عن النصوص؛ فان جميع أرباب التآليف الكثيرة كالغزالي وغيره كانوا كذلك، وإلا فان الوقت لا يتسع لتلك المؤلفات. وإنه لم يجد ذلك المساعد ولا بالمال. فقلت له: (ستجدني إن شاء الله من الصالحين) وربما يحصل بيني وبينه ارتباط عظيم. ولو جئت مصر غير متعلق بغيري ربما كان أولى؛ فإني أجد قبولاً

عظيما عند الكبراء والوجهاء من أهل العلم وأهل الدنيا: ما تكلمت أمام أحد إلا اعتبرني اعتباراً زائداً. وقد تبين لي صحة قول من كان يقول لي: إنك ضائع في بلادك

ولو كان في الوقت سعة لأخبرتك بما يسرك جداً من التفصيل
أخبرنا الأستاذ (الإمام) أيضاً أنه كان شرع في تأليف رسالة في التوحيد منذ كان في بيروت، وانه سيتمها ويقرؤها درساً في الأزهر في أول السنة الآتية، ويقرأ كتاب السيرة المعهود أيضاً إذ قراءته تدعو إلى إتمامه
وقال بمناسبة صعوبة التآليف المهمة في العربية - إن بعض الكتب التاريخية وغيرها ربما لا يوجد فيه من العبارات المفيدة إلا عبارة واحد أو اثنتان والباقي لا أهمية له. فاستخراج المفيد صعب، ومثل مثلاً فقال: إذا أردنا أن نكتب في تاريخ علم الكلام فمن أين نستفيد: كيف كان هذا العلم في عصر الصحابة ومن بعدهم؟ وكيف اعتزل واصل بن عطاء مجلس الحسن البصري؟ ومن أين جاءه ذلك الفكر في المخالفة؟ وهل كان غيره على رأيه؟ وما الذي حمل أبا الحسن الأشعري على القول بأن الوجود عين الموجود مثلا؟ وما غرضه من ذلك؟ ومتى دخلت الفلسفة ونحوها من الفنون في هذا العلم؟ وما غرض العلماء من جعل الفلسفة تدخل على العقول مع عقائد الدين في وقت واحد؟ مسائل لم يشرحها أحد من علماء الإسلام. وقال: إن لعلماء الإفرنج ومؤرخيهم كلاماً في الدين الإسلامي لم يهتد له أحد من المسلمين، وذكر لنا بعض تلك الكتب ومؤلفيها وكيفية أبحاثها
وقال: إن الأمم تتقدم إلى الأمام ونحن نرى من سعادتنا في تقدم الأمة أن ترجع للوراء تسعمائة سنة. وأن تكون كتبنا وتعاليمنا كما كانت منذ تسعمائة سنة
وذكر في معرض الانتقاد ابن عابدين وانتقد عليه وقال: كان يمكن جعل الكتاب مجلدين بذكر ما يفيد والسكوت عما لا يفيد، وذكر الإحياء وأنه ينبغي اختصاره، وأنه رأى له مختصراً في مجلدين في المكتبة الخديوية مدحه كثيراً، ولولا أنه مخروم لسعى في نشره، وقد تعجبت لرضائه عنه رضاءً تاماً، ولعله لا يعجبه غير كذلك
أما سيرة الأستاذ (الإمام) في مصر فكلٌ يعلم أن بيده زمام الأزهر، وأنه هو الساعي في انتظامه. وشيخ الإسلام فمن دونه تبع له، وفي إنشاء الرواق الجديد الذي أنشأه الخديو ويسمى بالرواق العباسي وهو حسن جداً، وقد سعى بمبلغ من النقود ليوزع على النابغين
في الامتحان من الطلبة، وسيوزع قريباً في احتفال يخطب هو فيه الخ
وأما من حيث المحكمة فقد سمعت أنه يأتي الساعة واحدة فيحل المشاكل ويفصل الدعاوي المتراكمة. وينقلون عنه حكايات لطيفة في بيان الحيل وكشف الدسائس
ذكرت له: أن غرضي الأول تلقي الحكمة منه في أوقات الفراغ؛ فسر لذلك وعهد إلي أن أجيء لبيته صباح يوم الجمعة (نهار غد) وأنه يأخذني حيث يذهب
فإنني أن أكتب لكم عند ذكر التربية أنه قال للسيد جمال الدين (الأفغاني) عند ما كانا في فرنسا، دعنا من السياسة ولنختر لنا مكانا مهملا لا اعتبار له في نظر الحكام (أو ما معناه) ونعلم به ونربي بعض الأولاد، فلا تمضي عشر سنسن إلا ويبرع منهم جماعة على رأينا يقلدوننا في ترك أوطانهم والهجرة في نشر العلم والدين فنرسلهم للجهات، وأن السيد (الأفغاني) أبى عليه هذا وقال له: أنت مثبط فلم يكن مندوحة عن الانصياع له. وقال: لو أن السيد ترك السياسة والتفت إلى التعليم لأصلح إصلاحا عظيماً
ذكرت له بمناسبة ما شاهدته من طواف الناس بقبر السيد البدوي ولثم أعتابه، فحدثنا أن بعض الوجهاء كان عنده في يوم مولد السيدة زينب وأنه قام ليحضر المولد. فسأله الأستاذ أين تذهب؟ قال: لزيارة السيدة. فقال: لأي شيء خصصت زيارتها بهذا اليوم. قال: لأنه يوم المولد. فقال له: ما هو يوم المولد؟ أنا لا أفهم معنى هذا اللفظ. هل هو عبارة عن يوم تقوم فيه من قبرها وتستقبل الزائرين، وطفق يندد بهذا الأمر. فقال له الرجل إن كثير من العلماء والفضلاء يحضرون هذه الموالد وتهيأ للقيام. فقال الأستاذ: أنا لا أعتبرك وأعتبر هؤلاء الذين تسميهم فضلاء إلا وثنيين، لأن هذه الأعمال أعمال الوثنيين؛ إن كل آيات الكتاب ونصوص السنة تذم هذا (أو ما معنى هذا) بل الفاتحة التي تصححون بها عبادتكم تنهاكم عن هذا وتعده خلاف العقيدة، أنتم في كل ركعة من الصلاة تقولون: (إياك نعبد وإياك نستعين) فكيف تصدقون بهذا وأنتم تطلبون الإعانة من هؤلاء الأموات، أفعالكم متناقضة، لأن قراءتكم الفاتحة له يدل على أنهم محتاجون إليكم بهذا العمل الذي تهدونه لهم ليكون في ثواب أعمالهم ثم تطلبون منهم الحوائج الخ

أهل مصر عموماً لاسيما العلماء الوجهاء وأركان الحزب الوطني يلعنون أبا فلان في المجالس ويكفرونه، ويقولون إنه هادم لأساس الدولة وإنه موقع الفتنة بين السلطان والخديو، حيث أوهم الأول أن الثاني طالب للخلافة ويساعده على هذا العمل توفيق البكري الإنكليزي المشرب

ما كنت أتخيل أني أكتب هذا المقدار لضيق الوقت علي ولا أراك تؤاخذني على قبح الخط وعدم انتظام الكلام، واقرأه على الشيخ محمد (كامل) أفندي الرفاعي لأني أود أن يطلع عليه، وكنت عازماً أن أكتب له بمثل هذا فلم يساعدني الوقت.

أخوكم

محمد رشيد رضا

المعنى والأسلوب

في الأدبين العربي والإنجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

المعنى الصادق الرفيع والأسلوب المحكم الجميل هما قوام كل أدب جديد بهذا الاسم؛ لا يغني أحدهما إذا غاب الثاني، ولا يرتفع الأديب إلى الذروة العليا في الأدب إلا باجتماعهما له

وقد كان كبار شعراء الإنجليزية - كشكسبير وملتون ووردزورث وتنيسون - يجمعون إلى خصب شعورهم بصيرة باللغة بعيدة ومقدرة على التصرف بمفرداتها وتراكيبها تصرفاً يبرز معانيهم في أحسن صورة، أما توماس هاردي فقصر به عن بلوغ ذروتهم - رغم خصوبة شاعريته - إعواز الرصانة في أسلوب شعره الذي هو أشبه بالنثر الجيد، وقصوره عن أولئك وتعابيرها، ومن ثم ينزله النقاد الإنجليز المرتبة الثانية بين شعرائهم وقد كان للمعنى - المعنى الصادق الجدير بالتعبير عنه - المنزلة الأولى عند كبار الأدباء الإنجليز دائماً، وكان الأسلوب يحل عندهم في المحل الثاني، ويأتي لأداء المعنى لا ليحل محله أو يتحيَّفه، ولم يشتد الولع بالأسلوب إلى حد الإغراق إلا في عهد قصير في القرن الثامن عشر ما يزال يُعد أحط أزمان الشعر الإنجليزي، وسرعان ما تحرر الأدب من قيوده، وعاد كما كان تعبيراً صحيحاً عن الشعور الصادق في أسلوب طبيعي مستقيم

أما الأدب العربي فطغى الأسلوب على جانب كبير منه في مختلف عصوره وتحيف المعنى أو ألغاه: ففي الأدب العربي شعر ونثر كثيران يروع أسلوبهما والمعنى فيهما ضئيل هزيل أو مصطنع كاذب غير معبر عن شعور صحيح أو تفكير سليم، لأن الأديب قدم براعة الأسلوب على التعبير عن حقيقة خواطره أو الإتيان بمعنى جديد يستحق عناء الإنشاء

لقد كان العرب شعراء السليقة لا شك، يُحِلُّون الشعر أو الأدب عامة مكانة عالية ويحتفون به ويطربون له، حتى أوشك أن يكون فهم الجميل الوحيد، ولكن من العجيب بل من المؤسف أن الأدب العربي أحاطت به ظروف أزاغت نظرة كثير من أدبائه إلى الأدب أو وظيفته أو رسالته، وقد أشرت في كلمات سابقة إلى بعض تلك الظروف، ومنها دخول الأعاجم في اللسان العربي، واعتزال الأدباء مجتمعهم واعتمادهم على صلات الكبراء،

وتغلب نزعة التقليد على نزعة التطور في الأدب العربي، واعتزاله غيره من الآداب القديمة والمعاصرة له إلى حد كبير

زاغت نظرة كثير من الأدباء إلى الأدب فحسبوه صنعة لا فناً جميلاً، وظنوا الغرض منه إظهار البراعة لا التعبير عن الشعور والفكر الصادقين، فجاءت آثارهم صناعة وبراعة خالية من المعاني الصادقة العالية والشعور العميق الصحيح: فالمقامات ورسائل الدواوين وأشعار النسيب الاستهلالي والمدح والهجاء المأجورين والفخر الأجوف، والمنثورُ والمنظومُ المرصعان بغرائب السجع والجناس والزِّواج والمقابلة وهلم جراً، كل هذه آثار أدبية قليلة الحظ من الصدق والحياة وعمق الفكرة، وإن تكن لها مزية فهي الأسلوب إن كان مُنشئها بارعاً

وهناك عدا ذلك آثار أدبية لم يقدم أصحابها الأسلوب على المعنى، ولكن المعنى فيها تافه بذاته غير ذي بال. فالأدب الرفيع هو ما تحدث عن مشاعر النفس العميقة وتأثراتها بأسباب الحياة، ومشاهد الكون، وتناول حياة الإنسانية على الإطلاق ناظراً في

ماضيها وحاضرها ومستقبلها، معبراً عن آمالها وآلامها، فأين من هذا خمريات أبي نواس ومقذعات جرير والفرزدق ومجونيات بشار؟ لقد كان هؤلاء شعراء صادقي المعاني في كثير مما قالوا رائعي الديباجة، ولكن شعرهم لتفاهة المواضيع التي سخروه فيها أو حطتها لا يرتفع إلى الطراز الأول من الشعر الإنساني، ولا تبقى له قيمة إذا جردته من أسلوبه الجزل

فإذا نظرت إلى كثير من منتجات أولئك الأدباء طالباً تلك النظرة الإنسانية العامة، وراغباً في شيء من الثقافة تضيفه إلى ما عندك، ومنتظراً أن ترى نفسية الأديب وشخصيته مرتسمتين في آثاره لم تصب من ذلك شيئاً، ولم تزدد علماً من دواوين وكتب كاملة بغير فائدة لغوية أو براعة لفظية أو تعبير جديد عن معنى متداول قديم

فإذا ألغيت من آداب اللغة كل الآثار التي لا تتعدى مزيتُها أسلوبها، والتي هزلت معانيها أو كذبت أو لم تزد على التمحل والمبالغة والتخريج والأغراب، لم يبق لك إلا القليل من الأدب السامي الذي اجتمعت له مزايا المعنى القيم والموضوع المهم المفيد والأسلوب المحكم، كأشعار الفحول في الحكمة والوصف الطبيعي والتعبير الصادق عن الوجدان والنسيب الحقيقي والحماسة وما إلى ذلك، وتلك دون غيرها هي الجديرة أن تسمى أدبا

وهذه الآثار - وأحسن نماذجها حكمة المتنبي وأوصاف أبن الرومي وأبي تمام والبحتري ونظرات المعري ووجدانيات الشريف الرضى، ورسائل الجاحظ - هي خلاصة الثقافة هو بلا شك دون المحصول الذي يظفر به مطالع الأدب الإنجليزي، الذي أوسع أقطابه النفس الإنسانية والحياة البشرية والمحاسن الطبيعية درساً ووصفاً ومناجاة

لقد أشرت إلى الظروف التي أحاطت بالأدب العربي فأدخلت فيه كثيراً من زيف الصنعة وكاذب القول وغلَّبَتْ الأسلوب في كثير منه على المعنى، ولعل طبيعة اللغة العربية قد ساعدت على هذا التغليب، وأمدت لمن انصرفوا بكلياتهم إلى الأسلوب وجمعت حولهم المستجيدين: لما للغة العربية من بلاغة أصلية، وموسيقى فخمة، وما لألفاظها وتراكيبها في الآذان والنفوس من روعة وفتنة، وما لأوزان الشعر العربي وقوافيه من رصانة واتساق بحيث يستطيع المتمكن من كل هذا أن يستولي على الألباب دون أن يبتدع في المعنى، كما يصرفك جمال اللحن الموسيقي عن تفاهة المعنى المتغنى به أحياناً

وقد زالت اليوم الظروف التي لابست الأدب العربي قديماً، فهبطت بمعاني الكثير منه وأدخلت عليه الزيف والصنعة وزيغ النظرة إلى الغرض منه، وما زالت للغة سعتها ومقدرتها وجمالها وموسيقاها، فإذا اجتمع صدقُ النظرة إلى الأدب ومطاوعةُ أداته وهي اللغة، إذا قرنت المعاني المبتكرة السامية إلى اللغة الفنية المساعدة، فما أجدر الأدب العربي أن يتبوأ منزلة عالية بين الآداب، وما أقوى الأمل في أن يفوق مستقبله كل ما عرف ماضيه

فخري أبو السعود

من تراثنا العلمي

كتاب في البَيْزَرَة - 2

وصف وتحليل لنسخة فريدة من كتاب مفقود، في علم ضائع،

لمؤلف مجهول

للأستاذ علي الطنطاوي

(أبواب الكتاب)

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد الله الذي له في كل لطيف من خلقه مُعجز يُتفكرُ فيه، وخفي من صُنعهُ يتنبهُ به عليه، ونعم تقتضي مواصلة حمده، ومننٌ تحث على متابعة شكره. والذي ميز كل نوع من حيوان خلقه على حدته، وأبانه بشكله وصورته، وجعل له من الآلة ما يلائم طبعه ومُركبه، ويسره للأمر الذي خلق له، ويُؤديه إلى مصلحته، وقوام جسمه. وجعلنا من أشرف ذلك كله نوعاً، وأتمه معرفة، وجمع فينا بالقوة ما فرقه في تلك الأصناف بالآلة، فليس منها شيء مخصوص بحالٍ له فيها مصلحة إلا ونحن قادرون على مثلها؛ كذوات الأوبار التي جعلت لها وقاءً وكسوة تلزمها ولا تعدمها، فإنا بفضل حيلة العقل نستعمل

مثل ذلك إذا احتجنا إليه، ونفارقه إذا استغنينا عنه؛ وكذوات الحد والشوكة من صدف أو مخلب، فان له مكان ما نستعمله من السيوف والرماح وسائر الأسلحة؛ وكذوات الحافر والظلف فإن لنا أمثال ذلك مما ننتعله ونتقي أذى الأرض به. وجعل لنا خدماً وأعواناً، وزينة وجمالاً، وأكلاً وأقواتاً؛ فبعض نمتطيه، وبعض نقتنيه، وبعض نغتذيه. وأحل لنا صيد البر والبحر والهواء؛ نقتنص الوحش من كناسها، ونحطمها من معاقلها، ونستنزل الطير من الهواء، ونستخرج الحوت من الماء. ولم يكلنا في ذلك إلى مبلغ حيلتنا حتى عضدنا عليه، وسهل السبيل إليه، بأن خلق لنا من تلك الأنواع أشخاصاً أغراها بغير من سائر أجناسها، ووصلها من آلة الخلْقَه وسلاح البنية، وقبول التأديب والتضْرية، والانطباع على الأكفّ، والاستجابة فدلنا على موضع الصنع فيها، وموقع الانتفاع بها، كالفهد والكلب وسائر الضواري، والبازي والشاهين وسائر الجوارح كلما يحويه من ذلك لنا كاسب وعلينا كادح، وبمصلحتنا عائد؛ نستوزعه جل جلاله الشكر على ما منحناه من هذه الموهبة، وفضلنا به من هذه المكرمة، وفوائد قسمه؛ ونرغب إليه جل جلاله في العون على طاعته، ومقابلة إحسانه باستحقاقه. وصلى الله على محمد نبيه الصادق الأمين، البشير النذير، وعلى آله الطيبين الأخيار وسلم تسليما، وعلى الأئمة من ولد الحسين بن علي بن أبي طالب حتى تنتهي إلى العزيز بالله أمير المؤمنين فتشمله ونسله إلى يوم الدين

إن للصيد فوائد جمة، وملاذ ممتعة، ومحاسن بينة، وخصائص في ظلف النفس ونزاهتها وجلالة المكاسب وطيبها كثيرة؛ فيه يستفاد النشاط والأريحية، والمنافع الظاهرة والباطنة والمران والرياضة، والخفوف والحركة، وانبعاث الشهوة واتساع الخطوة، وخفة الركاب، وأمن من الأوصاب؛ مع ما فيه من الآداب البارعة، والأمثال السائرة، ومسائل الفقه الدقيقة، والأخبار المأثورة ما نحن مجتهدون في شرحه وتلخيصه، وتفصيله وتبويبه في هذا الكتاب المترجم بكتاب (البَيزرة) على مبلغ حفظنا، ومنتهى وسعنا، وبحسب ما يحضرنا، وينتظم لنا اتباعاً فيما لا يجوز الابتداع فيه، وابتداعاً فيما أغفله من تقدمنا ممن يدعيه، ونحن مقدمون ذكر الأبواب التي تشتمل على ذلك ليتأتى كل باب منها في معناه، وبالله الحول والقوة، ومنه عز وجل التوفيق والمعونة

من كانت له رغبة في الصيد وعنده شيء من آلته من الأنبياء صلوات الله (باب) عليهم، وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن الأشراف

تمرين الخيل بالصيد والضراءة، وجرأة الفارس على ركوبها باقتحام العقاب، (باب) وتسنّم الهضاب، والحدور والانصباب

ما قيل في طرد كل صنف من وحش وطير (باب)

فضائل الصيد، وأنه لا يكاد يحب الصيد ويؤثره إلا رجلان متباينان في الحال، (باب) متقاربان في علو الهمة: إما ملك ذو ثروة، أو زاهد ذو قناعة، وكلاهما يرمي إليه من طريق الهمة إما لما تداوله الملوك من الطلب وحب الغلبة الخ. . . والفقير الزاهد لظلف نفسه عن دنيء المكاسب، ورغبتها الخ، فمن هذه الطبقة من يقتات من صيده ما يكفيه،

ويتصدق بما يفضل عنه توقياً من المعاملة والمبايعة، ونهم من يبيع ما فضل عن قوته، ويعود بثمنه في سائر مصلحته، وكانت هذه حال الخليل بن أحمد الفرهودي مع فضله وأدبه وكمال علمه وآلاته الخ. . . وكان جلة الناس في عصره يجتذبونه الخ. . . فأحد من كاتبه سليمان بن علي الهاشمي، فكتب الخليل بن أحمد إليه:

أبلغ سليمان إني عنه في سعة ... وفي غنى غير أني لست ذا مال

شحي بنفسي أني لا أرى أحداً ... يموت هزلاً ولا يبقى على حال

وقلما رأيت صائداً إلا تبينت فيه من سيما القناعة الخ. . . وقال أرسطا طاليس: (قال) أول الصناعات الضرورية الصيد، ثم البناء ثم الفلاحة. ولو أن رجلاً سقط إلى بلدة ليس بها أنيس ولا زرع لم تكن له همة إلا حفظ جسمه ونفسه بالغذاء الخ. . . ويغدو للصيد اثنان متفاوتان: صعلوك متسحق الأطمار. وملك جبار، فينكفئ الصعلوك غانماً، وينكفئ الملك غارماً، وإنما يشتركان في لذة الظفر الخ. . . وقال أبو العباس السفاح لأبي دلامة سل!. . . فقال: كلباً، قال: ويلك وما تصنع بكلب؟ قال: قلت سل، والكلب حاجتي، قال: هو لك، قال: ودابة تكون للصيد، قال: ودابة! قال: وغلام يركبها ويتصيد عليها، قال: وغلام! قال: وجارية تصلح لنا صيدنا وتعالج طعامنا، قال: وجارية! قال أبو

دلامة: كلب ودابة وغلام وجارية! هؤلاء عيال! لابد من دار! قال: ودار! قال: ولابد من غلة وضيعة لهؤلاء، قال: قد أقطعناك مائة جريب عامرة ومائة جريب غامرة قال: ما الغامرة؟ قال: التي لا نبات فيها، قال: أنا أقطعك خمسمائة جريب في فيافي بني أسد، قال: قد جعلنا لك المائتين عامرة بقى لك شيء؟ قال: أقبل يدك، قال: أما هذه فدعها! قال: ما منعت عيالي شيئاً أهون عليهم فقدا من هذا

وقيل لبعض من كان مدمناً على الصيد من حكماء الملوك الخ. . . وقيل للزاهد المشغوف بالصيد الخ. . . وهذا كتاب كليلة ودمنة الخ. . . وكانت ملوك الأعاجم تجمع أصنافها (أي الحيوانات)، وتدخل أصاغر أولادها عليها وتعرفها الخ. . .

وأشرف الغذاء الذي يحفظ به الأعضاء، وليس شيء أشبه بها وأسرع استحالة إليها من اللحم، وأفضل اللحمان ما استدعته الشهوة، وتقبلته الطبيعة بقوة عليه، ولا لحم أسرع انهضاماً وأخص بالشهوة موقعاً من لحم الصيد المكدود، لأن ذلك ينضجه الخ. . .

وإن كان الحيوان غليظاً، عكست هذه الأسباب طبعه، ونفت ضرره، وقمعت كيموسه؛ وربما أكل اللطيف الخفيف على تعنف وتكره، فكان إلى أن يأخذ من الأعضاء، أقرب من أن تأخذ منه الأعضاء

وتأول الرواة امرئ القيس في قوله:

رُبَّ رامٍ من بني ثُعَلٍ ... مخرِجٍ كَفَّيْه من سُتَرهِ
فأتَتْه الوحشُ واردَةً ... فَتمّتى النزْعَ من يَسرِهِ
فَرَماها في فرائصِها ... من إزاء الحوض أو عُقَرِهِ
مطعمٌ للصيد ليسَ لهُ ... غيرها كسبٌ على كبرِهِ

على المدح بإدمان الصيد، ويمن الطائر فيه؛ واستثناؤه بقوله على كبره زائد عندهم في المدح لوصفه أنه يتكلف من ذلك مع فدح السن وأخذها منه شيئاً لا يعجزه مع هذه الحال، ولا يلحقه فيها ما يعرض للمسن من الفتور والكلال؛ وبنو ثعل بنو عمه لأنهم فخذ من طيء، وكندة فخذ من مرّة، ومرّة أخو طيء فلم يرد غير المدح؛ وهذا الرامي عمرو الثعلي، وكان من أرمى الناس الخ. . .

وفي أبيات امرئ القيس هذه، أدب من أدب الصيد، ولطائف حيله، وهو قوله: فتمتى النزع من يسره، وتمتى وتمطى واحد، أبدلت التاء من الطاء، وفي تمتى معنيان: أحدهما الاعتماد والتوسط من قولهم حصلته في متى كمى، فتمتاه بمعنى تعمد متاه (كذا) والآخر بمعنى إبدال التاء من الطاء يريد التمطي وهو أن مريد الصيد بالرمي يتمطى بيساره نحو الأرض مرات حتى يؤنس الطريدة فتألف ذلك منه ولا تذعر له، ثم حينئذ يستغرق نزعه ويمضي سهمه

ولا يزال امرؤ القيس في كثير من شعره يفخر بالصيد، وأكل لحمه، كقوله الخ. . .

ومن فضائل الصيد ما فيه من التبريز على ركوب الخيل صعوداً، وحدوراً، وكراً، وانكفاء، وتعطفاً، وانثناء الخ. . .

وقال بعض الحكماء: قلما يعمش ناظر زهرة، أو يزمن مريغ طريدة، يعني بذلك الخ. . .

وليس يكبر الملك الرئيس العظيم الوقور، إذا أثيرت الطريدة أن يستخف نفسه في اراغتها، ويستحفز فرسه في أثرها الخ. . . وحكي عن عظماء الأكاسرة الخ. . . وعن الخلفاء الراشدين الخ. . .

ومنها ما يسنح فيه من النشاط والأريحية الخ. . . وربما قويت النفس حينئذ، وانبسطت الحرارة الغريزية فعملت في كوامن العلل. أخبرني غير واحد ممن شاهد مثل ذلك: أنه رأى من غدا إلى الصيد وهو يجد صداعاً مزمناً، فظفر فعرض له رعاف حلل ما كان في رأسه، وآخر كانت به سلعة يجبن عن بطها قويت عليها الطبيعة فانبطت، وآخر كان في بدنه جرح الخ. . . وربما عكس ما يعرض له من ذلك ذميم حالاته، فآلت إلى ضدها من الخيرية حتى يتشجع إن كان جباناً، ويجود وإن كان بخيلاً، ويتطلق وجه وإن كان عبوساً

أخبرني بعض الأدباء، عن رجل من الشعراء، قصد بعض الكبراء فتعذر عليه ما أمله عنده، وحال بينه وبينه الحجاب وكان آلفاً للصيد، مغري به، فعمد الشاعر إلى رقاع لطاف، فكتب فيها ما قاله من الشعر في مديحه، وصاد عدة من الظباء والأرانب

والثعالب، وشد تلك الرقاع في أذناب بعضها وآذان بعض، وراعى خروجه إلى الصيد، فلما خرج كمن له في مظانه ثم أطلقها فلما ظفر بها واستبشر، ورأى تلك الرقاع ووقف عليها زاد في طربه واستظرف الرجل واستلطفه وتنبه على رعي ذمامه، وأمر بطلبه فأحضر ونال منه خيراً كثيراً

ومن شأن النفس أن تتبع ما عزها، وبعد من إدراكها الخ. . . وهذا شبيه بما تأوله يحي . . .بن خالد البرمكي في توصية ولده بتقديم العدات أمام الهبات فانه قال لهم الخ

ولو أن محاول حرب، أو مقارع جيش، ملك عدوه قبل مكافحته إياه حتف أنفه، أو انفل جيشه من سوء تدبيره فانصرف، أو جاءه ضارعاً طالباً لأمانه، لما كان مقدار السرور بذلك كمقداره لو نازله فقهره، أو بارزه فأسره، وهذا بين في الملاعب بالشطرنج الخ. . .

لا أستلذ العيش لم أدأب له ... طلباً وسعياً في الهواجر والغلس

وأرى حراماً أن يواتيني الغنى ... حتى يحاول بالعناء ويلتمس

فاحبس نوالك عن أخيك موقراً ... فالليث ليس يسيغ إلا ما افترس

ومن فضل العلم بالصيد ما حكاه لي أبي عن إسحاق بن إبراهيم السندي عن عبد الملك بن صالح الهاشمي عن خالد بن برمك؛ أنه كان نظر وهو على سطح قرية نازل مع قحطبة حين فصلوا من خراسان وبينهم وبين عدوهم مسيرة أيام إلى أقاطيع ظباء مقبلة من البر

حتى كادت تخالط العسكر، فقال لقحطبة: ناد في الناس بالإسراج والإلجام وأخذ الأهبة، فتشوف قحطبة فلم ير شيئاً يروعه، فقال لخالد: ما هذا الرأي؟ فقال: أما ترى الوحش قد أقبلت، إن وراءها لجمعاً يكشفها؛ فما تمالك الناس أن يتأهبوا حتى رأوا الطليعة، ولولا علم خالد بالصيد لكان ذلك العسكر قد اصطلم

وعذل بعض أبناء الملوك في الاستهتار بالصيد والشغف به الخ

ولما شهد أبو علقمة المرى عند سوار أو غيره من القضاة؛ وقف في قبول شهادته، فقال له أبو علقمة: الخ

. . .ومن فضائل الصيد أنه كان الملك من ملوك فارس الخ

. . .وكانت لبهرام شوبين حظية الخ

. . .وذكر الأصمعي عن الحارث بن مصرف الخ

ووقف بعض الملوك بصومعة حكيم من الرهبان فناداه فاستجاب له فقال له: ما اللذة فقال له: كبائر اللذات أربع، فعن أيهن تسأل؟ فقال: صفهن لي، فقال: هل تصيدت قط؟ قال: لا (وسأله عن خصال) قال: لا، قال: فما بقى لك من اللذات؟

يتبع

علي الطنطاوي

إلى الأستاذ البرازي

حول الفقه الإسلامي والفقه الروماني

للأستاذ صالح بن علي الحامد العلوي

قرأت ما سطره قلمكم أيها الأستاذ الفاضل في العدد 108 من الرسالة الغراء رداً عليّ وعلى الأستاذ علي الطنطاوي وما كدت أوغل في أسطره حتى أرسلت زفرة حارة تتخللها آهة من أعماق صدري لا لأنك خالفتني في رأيي أو لأنك أتيت لتدافع عن الفقه الروماني أو غيره. ولكن لتلك الروح التي تبدو من خلال سطوره، وروح الافتتان بأوربا وما تقوله أوربا والاستماتة في سبيل الدفاع عنها والفناء فيها وعدم الاستقلال أمام ما تمليه من الآراء والتقريرات، ثم الوقوف مع الإسلام بروح ميتة تزعمونها روح العدل وإنصاف البحث العلمي كما سماها لكم الشيوخ المحنكون، والحقيقة غير ذلك.

ويا ليت الأمر وقف عند هذا الحد فقط ولكنه تعدى إلى الإزراء بالعصبية الدينية واستهجان العاطفة القومية ودعوة الشباب المسلم إلى هذا التقليد الأعمى الذي تسمونه الإنصاف لأوربا، وإلى الاقتداء بأئمة أوربا الأبرار الذين لا ينطقون عندكم عن الهوى بل عن علم وبحث وإنصاف. هذه النزعة الغالية جعلتني أرسل الآهة تلو الآهة على الشباب المسلم المتعلم منا معاشر العرب ممن يفدون على أوربا القوية المادية بقلوب فارغة وطباع فطيرة غير مجهزين من سلاح الإسلام إلا بوراثة اسمه، يأتون ليكرعوا من غمار موارد أوربا ويتشبعوا من علومها وثقافتها. فتنفحهم من فتونها وحبها

وتملأ صدورهم الفارغة مما تشاء هي لا ما يشاء الآباء. فيعودون وقد تشبعوا بثقافة أوربا وأخلاق أوربا والتعصب لأوربا أيضاً. وقد يكونون مزودين من كل شيء إلا من تعاليم الإسلام والحماس للإسلام، وماذا يصنعون أمام أوربا وقد أتاهم هواها قبل أن يعرفوا الهوى؟ إن أمثال هؤلاء لا يعدون عندي إلا جرائم لآبائهم تتكرر بتكرر أنفاسهم

ووالله إننا لا نكره ذات أروبا ولا علوم أروبا ولا ثقافة أروبا وكنا نكره هذه النزفة الغالية، وهذه الثقافة الببغاوية الصورية التي يتمشدق بها بعض الشبان المتطرفين. أما علومها وأما ثقافتها الجدية وصناعاتها النافعة فإننا في مقدمة من يحبذها ويدعو إليها ولكن بعد غرس العصبية الدينية والعاطفة القومية في نفوس الناشئة حذراً من هذا الفناء وهذا الإدغام

المشين

ولست أدعي انطباق كل ما قلت عليك يا حضرة مناظري الأديب! كلا! ولكني أقوله بمناسبة ما رأيته ملموساً في مقالك من نزعة الافتتان بأروبا وتقليدها ودفاعك عنها دفاع المستميت، ثم تظلمك لعلمائها بعبارات جعلتني أتخيل أننا صرنا في عصر صار فيه الشرق رب الصولة والدولة وكان الغرب على عكس ذلك، وكأنك قمت محتسباً تستعطف العالم لإنصاف الغرب الضعيف المظلوم من بني الشرق وعنت الشباب

وماذا صنعنا سوى أننا أنكرنا أن يكون الفقه الإسلامي متأثراً بالقوانين الرومانية، وأنه إذا كان بين الفقهين تشابه فليس الحكم على أن الفقه الإسلامي هو المتأثر بأولى من العكس، فأدلة الفقه الإسلامي صريحة والمستنبطون منها وهم مؤسسو المذاهب لا يجوز أن يقال بتأثرهم بالقانون الروماني إذا لم يتصلوا بالرومان ولم يعرفوا لغتهم ونشأوا ودرجوا في محيط إسلامي وفي ثقافة إسلامية محضة، ومن خطل الرأي وعدم الإنصاف أن يقال لمجرد وجود التشابه بين الفقهين إن الفقه الإسلامي هو المتأثر أو الآخذ مع فقد الدليل وتوفر القرائن على ضده، ولم لا يقول زاعمو التأثر إن هذا التشابه وليد المصادفة؛ إذا أن الدين الإسلامي أتى في أحكامه بما يوافق العقل السليم من العدل والانصاف، وهو دين حسن الحسن وقبح القبيح، فما أمرنا بأمر فقال العقل السليم ليته نهي عنه، ولا نهى عن أمر فقال العقل السليم ليته أمر به، هكذا وصفه بعض الصحابة، وعن هذا نشأ الخلاف بين الأشاعرة والمعتزلة في مسئلة الوجوب بالعقل أو بالشرع والقول بالتحسين والتقبيح العقليين؛ فلا يبعد أن تكون العقول التي عنت بوضع القوانين لتحديد الحقوق وفصل الخصومات، قد صادفت بعض ما قرر الفقه الإسلامي الملازم لمطابقة العقل في قضائه وأحكامه، وقد نقلنا حكاية اختفاء القوانين الرومانية وزعم ظهورها بعد، وأن تاريخ ظهورها بزعمهم كان بعد تأسيس المذاهب وانصرام عصر أئمتها ومن المستحيل تأثرهم بشيء لما يظهر بعدُ من اختفائه، وإذا كنا رجحنا أن القوانين الرومانية هي الآخذة عن الفقه الإسلامي فلم نقل ذلك اعتباطاً ولكن ببراهين نعتقدها كافية في ذلك، وأخذ أروبا عن علوم العرب غير مجهول كما تكرره المجلات العلمية عند كل مناسبة

القول باختفاء القوانين الرومانية ثم ظهورها

أما القول بأن القوانين الرومانية قد اختفت ودرست ثم ظهرت فجأة؛ فلسنا نحن منحليه وإنما قاله علماء غربيون، فقد حكى جيبون أن هذه القوانين - أي قوانين الإثنتي عشرة لوحة - بقيت إلى زمان جستنيان ثم فقدت، ونقل العلامة موسهيم الجرمني في تاريخ الكنيسة في حوادث القرن الثاني عشر في العدد 5 من الفصل الأول من القسم الثاني من الكتاب الثالث: إن الملك لوثاريوس اكتشف في افتتاح أمْلَغي سنة 1137 نسخة مجموع الشريعة الشهيرة التي كانت مجهولة على أجيال كثيرة؛ فأتى بها الملك الآن إلى مدينة بيزا. . . الخ

ولا شك أن القوانين المعمول بها قبل ظهور هذه القوانين كانت مغايرة لها أي مغايرة كما سيأتي. وأول من ابتدع هذه الحكاية أي حكاية اختفائها واكتشافها هولود فيكوس سنة 1501م، ثم راجت هذه الحكاية وانتشرت في القرون الوسطى إلى الآن (انظر جيبون جزء 4 صفحة 555)، وقال اللورد ماكنزي في كتابه على القانون الروماني صحيفة 6 إن هذا القانون (يعني قانون الإثنتي عشرة لوحة) لم يصل إلى أيدينا وغاية معلوماتنا فيه تستند على بعض أوراق مفرقة وبعض ملاحظات تاريخية مما فقدت آثاره. . . الخ

القوانين الرومانية القديمة

أما القوانين الرومانية القديمة؛ فهذه نماذج منها ذكرها الأستاذ عبد الجليل سعد قال: إن فقه الرومانيين الأولين كان أشبه شيء بالفصول المضحكة (انظر تاريخ الدولة الرومانية للعلامة جيبون جزء 4 صفحة 527) وذلك لأن جميع معاملاتهم كانت لا تخلو من الحركات والطقوس، وكانوا لا يفرقون بين المعاملات والأحوال الشخصية، بل كانت الصيغة المستعملة واحدة للجميع وهي ما يسمونه: (مانسيباشيو) فإذا أراد أي إنسان إجراء أي عمل قانوني سواء كان زواجاً أو بيعاً أو وصية أو غيره، فعليه أن يحضر القباني ومعه الميزان، وعليه أن يحضر الشهود الذين يشترط ألا يقل عددهم عن خمسة، وعندئذٍ يبتدئون في عمل الطقوس المفروضة؛ فيتلون بعض العبارات ويصنعون بعض الإشارات أو الحركات، ثم يمسك المشتري أو الموصى إليه أو الموهوب له قطعة من النحاس ويضرب بها في كفة الميزان ليقلد الطريقة القديمة المتبعة في وزن البدل، ثم بعد ذلك يتفوه الطرف

الثاني بجُمَلٍ معلومة تدل على أنه قابل ومقر على هذا العمل (انظر ماين على القوانين القديمة صحفية 295 و305) فلم يكن إذن لدى الرومانيين القدماء عقود مختلفة تتوقف على النية، بل كان من الضروري إجراء حركات معينة، فكان الخصمان في الدعوى يتكافحان أمام القاضي، وكان المتظلم يمسك بخصمه من قفاه ويتضرع إلى إخوانه أن يساعدوه، وكان الموصي إليه لا بد وأن يخلع لباسه ويقفز ويرقص! وكان الأب هو الحاكم والقاضي في أسرته. وجميع أفرادها داخلون في ملكه يتصرف فيهم كما يتصرف الإنسان في ملكه المنقول، فله بيعهم كالعبيد سواء كانوا نساء أو رجالاً (راجع جيبون صحيفة 563 جزء 4) ولم يكن حق الملكية معروفاً لديهم على النسق الذي نعرفه، بل كان الملوك يقطعون الإقطاعاتللضباط والعساكر، وهؤلاء يجبون الخراج من أصحابها المزارعين (ماين صحيفة 265)، ومن أراد الزواج يذهب ويشتري زوجته من والدها على الصورة المتقدمة مع إحضار القباني والميزان والشهود، ثم قال: ومن يطلع على أحكام هذا القانون يجد بعضها في غاية الشدة والقسوة كمعاملة المدين المفلس، فانه كان يمهل ثلاثين يوماً وهو مسجون مكبل بالحديد والقيود والسلاسل التي لا تقل وزنها عن خمسة عشر رطلا ثم يعرض ثلاث مرات في السوق العمومي لاستجداء الأصحاب والأقارب، وبعد انتهاء الثلاثين يوماً إما أن يعدم أو يصير عبداً للدائن يبيعه ويقضي دينه، وإذا كان له جملة دائنين حق لهم أن يجزئوا لحمه قطعاً وينتقم كل منهم لنفسه بتقسيم بدنه هذا التقسيم الشنيع (انظر جيبون جزء 4 صحيفة 589 إلى600) وكانت أحكام الرومان الجنائية قاسية للغاية، فكانوا يلقون المذنب لافتراس الوحوش الكاسرة في محل يسمى: الأنفتياتر. . . الخ ما ذكره

هذا بعض ما قاله العلماء الغربيون عن الفقه الروماني القديم ومخالفته للجديد، وهو كاف - بلا شك - في خرق الإجماع الذي ادعيته عندهم يا حضرة الأستاذ على استمرار القانون المعهود بينهم من ذلك العهد، ولا نناقشك الآن في أصل احتجاجاتك بسكوت الأوربيين عن جرح القانون الروماني المعهود لديكم أو تلفيقه إلا بهذا، ولا نعيد لك ما قاله العلامة ابن تيمية، ولا أبو الوليد ابن خيره؛ فقد يكون كل كلام لا يروج لديكم إلا إذا كان عليه الطابع الأوربي، فذاك عند بعض قضاء لا يرد قائله، غير أننا سنمهلكم وننتظر حتى يأتي يوم تصيح بكم فيه أوربا الحبيبة: أن أصلحوا معلوماتكم، وغيروا مُذكراتكم، فعند ذلك تخفون

لصوتها قائلين: غطى هواك وما ألقى علي بصري!

سقوط قياس القانون الروماني بالقرآن

قلت أيها الأستاذ في الصفحة 1216 من الرسالة: (إن البينات تختلف بحسب الأمور المراد إثباتها، فإذا كانت هذه الأمور غير مدونة بنفسها كالحديث الشريف فلابد حينئذ من ذكر الأسانيد وسرد الروايات، أما إذا كان المراد إثباته مدوناً بنفسه لم يعد مجال حينئذ إلى الأخذ بطريق الرواية والإسناد، وصار لا بد من التدليل عليه بنسخه الأصلية، التي وضع بها، أو بالنسخة التي أخذت من هذه، فالقرآن الكريم مثلاً لما كان قد دون في العهد الذي نزل فيه وجمعت صحفه المدونة في عهد الخليفة الأول، وانتقلت إلينا نسخ مخطوطة منه كتبت في عهد قريب من عهد نزوله، لم يلجأ إلى الرواية لثبات

صحته؛ وكذلك أيضاً شأن الشرع الروماني الخ) وقلت في صفحة 1215: (لئن جاز في نظرنا لأحد من النصارى أو اليهود المتعصبين أن يجزم بأن القرآن الذي بأيدينا هو غير القرآن الذي أنزل على محمد (صلى الله عليه وسلم)، وأنه مختلف من جماعة من علماء المسلمين الحديثين، مكتفياً للتدليل على ذلك بأن يقول لنا: هاتوا دليلكم، فقد حق كذلك لصاحبي المقالين المتحمسين أن يزعما ما زعماه) فما أغناك أيها الأستاذ عن قياس القانون الروماني بالقرآن الكريم؛ وزعمك أن الاستناد في إثبات كونه هو المنزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنما هي نسخة المخطوطة القديمة الموجودة، لا روايته الصحيحة، فحينئذ هو عندك في نسبته إلى الشارع (كنسبة القانون الروماني المعروف إلى جوستنيان؛ وهذا تقرير لا أعلم مسلماً قاله قبلك أيها الأستاذ الفاضل، فالعمدة في إثبات القرآن الكريم ليست نسخة المخطوطة فحسب، بل المقرر حتى عند تلاميذ المدارس الابتدائية أن العمدة في إثبات القرآن الكريم إنما هو التواتر، والتواتر أقوى الأسانيد وقد تلقاه الجيل عن الجيل؛ ورواه الخلف عن السلف بالتواتر في كل عصر من عهد نزوله إلى اليوم، ولم يقل أحد بأن العمدة في ثبات القرآن إنما هي نسخة المخطوطة القديمة فقط. وكيف يقاس القانون الروماني الذي لا يعلمه إلا الأفراد من المتعلمين بكتاب يتلى في كل مسجد وزاوية، بل في كل بيت في بلاد الإسلام، وفرض على كل فرد من المسلمين تلاوة شيء منه في كل يوم خمس مرات، ذلك بعد أن حفظه الجم الغفير عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم في عصره، حتى ثبت أنه

قتل في يوم اليمامة فقط سبعون قارئاً، وروته الألوف عن الألوف من ذلك العصر، وهكذا دواليك إلى اليوم، ولا يبلغ الطفل المسلم سن التميز إلا ويوجه لتعلم القرآن الكريم قبل دراسته لأي شيء كان

أين يكون قانون لا يعرفه إلا الأفراد من المتصدين لدراسة الحقوق من كتاب يدرسه العابد في محرابه، والتاجر في سوقه، والزارع في ريفه؛ ويشترك في تلاوته الشريف والوضيع، والذكر والأنثى من الطفل الصغير إلى الشيخ الكبير، حتى أننا لو فرضنا أن المدنية العصرية قد عمت العالم وتخللت أوساطه الرفيعة والمنحطة، وأريد أن يتلى القرآن بالمذياع على كل ذي مصحف لانفتحت عند سماعه مائة مليون مصحف في شرق الأرض وغربها، ولو أخطأ القارئ في فاتحته لرد عليه عند ذلك فوق ثلثمائة مليون صوت من أنحاء الدنيا!

هل يقاس هذا إلى ذاك إلا إذا قيست الذبالة بالغزالة؟

وقلت: أما المناقضات التي وقع فيها. . . صالح العلوي. . . فأشير منها إلى ما جاء في السطر الثاني من الجانب الأول من الصفحة الـ 781 من الرسالة، فبعد أن قال: إن الفقه الروماني اختفى ثم اكتشف ولم يظهر ولم يعمل به إلا في القرن الثاني عشر وأنه لم يكن معروفاً حتى عند الرومان أنفسهم قبل القرن الحادي عشر) وقال في السطر 22 من الصفحة نفسها (إن دعوى اختفائه أكذوبة) ثم ما لبث أن استند إلى قول العلامة سافنيه: (إن القوانين الرومانية لم تختف لأنها ظلت معمولاً بها إلى اليوم من غير انقطاع الخ

ومحصل ما نسبته إلي أيها الأستاذ أنني أؤيد دعوى اختفاء القوانين ثم اكتشافها ثم أدعي أنها لم تختف بل بقيت معمولاً بها وأستند لذلك بقول سافنيه:

هكذا شاء قلمك يا أستاذ الحقوق أن يصنع، وهكذا أراد أن يمسخ الحق ليصوره باطلاً فيقطع من عباراتي ما شاء ويصل، ولا يتورع من أن يبلع بعض الكلمات بلعاً؛ ذلك ليبني مما قلته تناقضاً

وانظروا أيها القراء ثم احكموا، أما ما قلته في السطر الثاني من الصفحة 781 فهذا نصه بالحرف: (ثم إن الفقه الروماني - على زعم أنه اختفى ثم اكتشف - لم يظهر ولم يعمل به إلا في القرن الثاني عشر أو الثالث عشر بعد الميلاد، أما قبل الحادي عشر فانه لم يكن معروفاً حتى عند الرومان أنفسهم، ولا شك أن الفقه الإسلامي قد قرر وصنف الخ) فقلت

هنا على زعم أنه اكتشف الخ، لأبين أن تأثير الفقه الإسلامي بالفقه الروماني غير معقول حتى على زعم أن الفقه الروماني الموجود هو القديم نفسه وأنه اختفى ثم اكتشف لأنه على هذا الزعم لم يظهر بزعمهم إلا بعد الحادي عشر وقد وجد فقهاء

الإسلام وألفوا وصنفوا قبل ذلك بزمن طويل وهناك قلت: وما قيمة زعم تأثر الفقهاء بالقوانين الرومانية إذا كان مصنفو الفقهاء وأئمتهم ومنهم: مالك والشافعي وأحمد وأبو حنيفة والثوري والأوزاعي الخ. درسوا وألفوا وصنفوا قبل أن توجد أو تعرف القوانين الرومانية للرومان أنفسهم. أليست هذه مهزلة مضحكة؟

وقلت إنني قلت في السطر 22 من الصفحة نفسها (إن دعوى اختفائه أكذوبة) وجعلتها بين قوسين، وهذا يفهم أنها بالحرف، وأصلها بالنص: (إن دعوى اختفاء الفقه الروماني ثم ظهوره بعد ستة قرون أكذوبة لا مرية فيها، وقد كان الفقه الروماني معروفاً وهو أشبه بالفصول المضحكة)، ولكن قلمك يا أستاذ الحقوق أدى منها هذه الكلمات الثلاث أو الأربع وذهبت الكلمات الباقية ضحية في سبيل خلق التناقض الموهوم!

وأما العبارة الأخيرة فلم تذكر سطرها ولا جانبها، وقد يكون ذلك لكونها تبعد عما قبلها بأسطر والغرض إيهام القراء وجود التناقض في عبارة متصلة وقد ذكرتها أعني العبارة الأخيرة بنصها ولك الشكر، غير إنك اختزلتها اختزالاً كي تجعلني أمام القراء ملزماً بها بزعمك بالاعتراف بأن الفقه الروماني الحديث هو القديم، والعبارة (ثم إن حكاية اختفائها وبروزها في القرن الحادي عشر لم يقل بها غير هولود فيكوس سنة 1501 م ثم راجت. أنظر جيبون 4 صفحة 555، وقد اعتبرها بعض العلماء إذ ذاك غير حقيقة فقد قال القانوني الشهير سافنيه إن القوانين الرومانية لم تختلف لأنها ظلت معمولاً بها إلى اليوم من غير انقطاع. اهـ، ويعني بها القوانين القديمة المقدم ذكرها) هذه عباراتي حرفياً، وبهذا وذاك ينكشف للقارئ الكريم أنني لم أقل إن الفقه الروماني اختفى ثم اكتشف إلا وأنا مبين بأن مبين ذلك زعم، وقلت إن للرومان قانوناً معروفاً كله همجية وقسوة، وهو الذي لم يختف وهو المعنى بقوله سافنيه، وكلامي صريح في ذلك وبهذا يتضح ألا تناقض وإن كان فإنما هو في مخيلة الكاتب الأديب!

يا حبذا العصبية والعاطفة القومية!

وتقول أيها الأستاذ: فأولى بشبابنا ألا يكونوا أسرى عواطفهم من تعصب للدين ثم تقول: (إن في دعاواهم ما يضر بالإسلام ويسئ بثقافته الظنون) فيا عجباً لك أيها الأستاذ أدفاعنا عن الإسلام بالبرهان والمنطق يضر بالإسلاموتعصبنا لديننا يسيء بثقافتنا الظنون؟ هكذا تعصبنا نحن فقط يضر بديننا؟ لماذا يضر التعصب (على فرض وجوده) بنا وبديننا ولم يضر بأروبا ولا بدينها وقد ضربت فيه الرقم القياسي وبلغت النهاية؟ ألم تتقول أروبا على الإسلام بما ليس فيه وتقذف أهله بما يندى له جبين الشرف، وترمي نبينا العربي صلى الله عليه وآله وسلم بفري تصرخ منها الحقيقة ويضج لها التاريخ؟ فعلت ذاك ولا تزال تفعل إلى اليوم. فهل أضر بها لديكم فتيلاً؟ لقد أشبع الأوربيون ديننا زوراً وأوسعوا تاريخنا مسخاً وتشويهاً مما لو جمعنا بازائه كل ما قاله متعصبو المسلمين فيهم لما كانت نسبته إليه إلا كنسبة التأفيف إلى حرب البسوس؛ وهاهم أولاء يملأون الدنيا تبشيراً بدينهم، ودعاية لهم غير آبهين عند ذلك بأن يسفهوا الأديان ويكيلوا أنواع الأفك على مشرعيها. فهل أضر ذلك أيها الأستاذ بمسيحيتهم؟ وهل أساء بثقافتهم لديكم الظنون؟ أو هنيئاً مريئاً غير داء مخامر لعزة من أعراضنا ما استحلت

أما إذا قمنا لندافع عن ديننا بالتي هي أحسن ونظهر فضل تشريعه على العالم ببراهين كافية وأدلة وافية متذرعين بأقوال بعض الأروبيين أنفسهم غير قاذفين لأحد ولا متهجمين على أحد قلتم إننا متعصبون نسرف في القول على علماء أروبا الذين لا يمكن أن يزوروا، وأنهم وضعوا الحقيقة في أعلى المنازل وجعلوها فوق كل شيء لأن فلاناً ألف كتاباً عن النبي صلى الله عليه وعليه وآله وسلم، وفلاناً قال كلمات تعتبر ثناء على الاسلام، والآخر مدح فلاناً المؤرخ العربي وقال إنه من سلف علمائنا، فأولئك قوم رضى الله عنهم ورضوا عنه، فاصمتوا فلن يقولوا إلا حقاً، ولن يخبروا إلا صدقاً. ومعنى هذا أغلقوا أبواب البحث عن أروبا وتلقوا كل ما تلقيه عليكم بالتسليم. هكذا احتججتم وبهذا قضيتم؛ فما لكم كيف تحكمون؟

أما العصبية أيها الأستاذ فما أعظم رزء قومنا بفقدها. وأما العاطفة القومية فما أحوج أمتنا إلى الشعور بها فإننا الآن في زمان لا ملاذ فيه إلا للقوة ولا صولة فيه إلا للعصبية.

فنحن في عهد تنشد فيه العصبية وتحمد فيه العاطفة الدينية، ومن لا يتعصب لدينه لا يتعصب
لقومه ولا وطنه؛ وهل تلتمس القومية عند من لا عصبية له إلا كما تلتمس عند الديوث خلال الشرف. إنني أنصحكم أيها الشباب عن هذا الضعف وأحذركم عن هذا التلاشي والاندماج في أروبا، إنكم في حاجة لغير هذا
فيا شباب العرب! كونوا في عصبيتكم لدينكم ناراً تتلهب، وكونوا في عواطفكم أعاصير تلوي بكل ما هو أمامها من باطل وبغي. وكونوا في مبادئكم جبالاً لا تعبأ بالزلازل ولا تحركها هوج العواصف
إن المجد والحرية يدعوانكم من وراء القرون أن تتقدموا إلى الأمام. فتجهزوا يا أبناء جنود الفتوح وسلالة فوارس بدر. فحيا الله عصبية العروبة وعاطفة الإسلام، وسلام على صدور امتلأت أحناؤها بنور الإسلام، وفي سبيل الله نفوس للآباء أزهقت طعناً بالرماح وقعصاً بالسيوف ضحايا على أعتاب الإسلام!
سنغافورة
صالح بن علي الحامد العلوي
المصيف
للأستاذ محمود خيرت
خلا الرّبعُ في الصيف من ربّه ... فهلاَّ خلا الدمعُ من غَربه
وكم ضاق ربعٌ بسُكانِه ... فولَّوا فراراً على رَحبه
وحَسْبهمُ القيظ عذراً فمَن ... يُؤاوى الجحيمَ إلى جَنبه
ترى الناس في زُمَرٍ يركُضون ... منازيحَ كالطَّير في سِربه
إذا سعَّر الحرُّ رطْبَ النَّسيم ... تنقَّلَ يبحثُ عَن رَطبِه
وليْس السِّفارُ ووعثاؤه ... بِصارفِه عن جَني طلْبه
ومْهما تمرَّرَ طعْمُ الدواء ... فإنَّ السلامة في شرْبِه
وأما المصيف فمن ذا الذي ... تعلَّلَ منهُ ولم يُصبِه
هناكَ الطَّبيعةُ فتَّانةٌ ... ترِفُّ من الحْسن في ثوبِه
هناك الجمال وسُلطانه ... هناك الهوى بأساليبه
إذا ما الغواني رمى لحظهنّ ... شرِبتَ الدموعَ على نخْبِه
وهَمَّ الخليُّ ثقيلَ الهموم ... يُسِرُّ إلى جاره ما بِه
وقد سبَقَتْ وعْيَهُ كفُّهُ ... إلى موضعِ الجُرح من قَلبِه
وتخطرُ في الشَّطّ أغصانُهنَّ ... دلالاً فيُوغِلُ في عُجبه
وعُجْبُ المليحات مِن دأبهنَّ ... وما كان للشطِّ مِن دأبه
ويَجلِسْن تحت مظلاّتهنَّ ... نَشاوى وكلٌ إلى صحْبِه
يطوف الحديث بأرجائهنَّ ... ألذَّ مِنَ الصفو في ذَوْبه
إذا حل أذْنَ نَزيلِ الشباب ... لواهُ وزعزع مِن لُبِّه
وإن حلَّ أذْن المشِيب ... أعاد الشَّباب إلى شَيْبه
ويسمعُه الطير في روضهِ ... فيهتزُّ الأنوفَ شَذا طيبِه
ومهُنَّ مَن راقَها في العُبَاب ... زئير الضَّراغمِ مِن صَخْبِه
فوافَتْه تَسْبحُ جبَّارةً ... فهلْ خرَجتْ فيهِ من صُلبه
فما راعَها هوْلُ أمْواجِهَ ... ولا راعها الهول في حُبِّه
ومَن كان في الخَطْب ذا مِرَّةٍ ... أصاب المَقاتل من خَطْبه
فهذا المصيفُ ولذَّاته ... وهذا هو السِّرُّ في حُبِّه
فشتان بين لهيب الجحيم ... وطيب النعيم وأسبابه
إسكندرية
محمود خيرت
تحية مصر
بقلم الياس قنصل
أبليتُ كلّ تصلُّبي وعُرامي ... - قال الزمانُ - وما بلغت مرامي
جمعتْهما بيضُ الخلال ووثَّقتْ ... تلك العرى لغُة الكتاب
يتسابقان إلى العُلا بأُخُوَّةٍ ... وشّى سناها صفحةَ الأرحامِ

قطران في عقدِ العروبةِ برّزا ... أرضُ الشآم وموطن الأهرامِ
يا مصرُ (سعدُكِ) كان أيضاً سعدنا ... في دفع شر الظلِم والظلامِ
وجهادُ فتيةِ جلّق لكِ حصَّة ... منه، تخلخل أضلع الأخصامِ
من يخبر الغربَّي أنَّ رجاءه ... في شرقنا وهمٍ من الأوهامِ
يحظى بنيل الحقِّ شعبٌ صادَفتْ ... أسيافُه دعماً من الأقلامِ
يا مصرُ يا أُمَّ الحضاراتِ التي ... مهدتْ سبيل الحقِّ للأفهامِ
ما دشَّن التاريخَ قبلكِ للورى ... شعبٌ بآي السؤدد المترامي
أنتِ التي نطق الجمادُ بمجدِها ... من غير ماعَيٍ ولا إبهامِ
في كلِّ تمثالٍ هناك عضارة ... من عزّكِ المبنيِّ بالاقدامِ
في أيِّ عصرٍ لم تكوني معقلاً ... من كلّ نائبةٍ لكلِّ مُضامِ
لجأ المسيحُ إليكِ فانَّصعتْ له ... بعد الهياج عواصفُ الأيامِ
وأتاكِ أعلامُ فأمِّنوا ... من شرَّةِ الحكَّامِ والأحكامِ
خلقٌ لنيلكِ ما تضاءل فضلُه ... بل عزّزتْه فضائلُ الإسلامِ
للشعرِ فيكِ بلابلٌ صدَّاحة ... علويّة الألحانِ والأنغامِ
قبستْ من الروض الجمال فكان في ... إنشادِها بسنائه التَّمامِ
لا ترتضي لخيالها يوماً سوى ... مغنى الأثيرِ ومسرح الأجرامِ
قلبُ العروبة منصت لنشيدها ... إنصاته للوحي والإلهامِ!
كم في سجلّ الفنّ عندكِ من فتي ... بلغ النبوغُ به أجلَّ مقامِ
إن كان فخركِ بالممثّلِ رائعاً ... ما القول في النحَّاتِ والرسامِ؟
في كلِّ ميدانٍ لأهلكِ جولةٌ ... محفوفةٌ بالفوز والإعظامِ
أنتِ المليكةُ والفنون لآلئٌ ... في تاجكِ المتألق البسَّامِ
يا مصرُ لم أنبس بذكركِ مرَّة ... إلاّ وروح الشوقِ طيّ كلامي
إن كانت الأقدارُ تأبى أن أرى ... فيكِ البهاَء فأنتِ في أحلامي
هذى مناجاتي لنيلكِ اكبرتْ ... ببني الكنانِة حكمةَ الأعوامِ
لا زلتِ للمجدِ المؤثَّل شارةً ... وعليكِ منِّي ألف ألف سلامِ!

عاصمة الأرجنتين

الياس قنصل

فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية

تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا - 19

فريدريك نيتشه

للأستاذ خليل هنداوي

كانت أولى مآثر نيتشه للامعة في الفلسفة (نشأة المأساة)، فهي المثل الأعلى الذي وجده في البطل (ايشيل) والفيلسوف (شوبهناور) والفنان (فاجنر)، وفي أخريات أيامه جدد نيتشه العهد لمثله الأعلى الذي تكرر في (السوبرمان - الإنسان الكامل)، وبين هذين العصرين تمتد هاوية عميقة تفصل بين هاتين القمتين: عصر سلب ونقد مفرط. إن نيتشه قد عجل بالبناء وكأني به قد شعر بأن مواد بنائه لم تكن صلبة بالمقدار الذي يجب أن تكون عليه. ألم يحس في نشأته الأولى أن في أصول (شوبهناور وفاجنر) ما لا يمت بأصوله ولا يلتقي مع فكرته، فعمل على اقتلاع ما لا يتصل به واستخلاص ما داخل فكرته مما لا يوائمها. وفي العصر الثاني رأيناه يقتفي سبيله الذي انتهجه في البدء بعد أن حطم ما حطم من قيم فاسدة ونظم معفنة دون ما رأفة ولا شفقة. وبهذا انتقل من مرحلة السلب إلى مرحلة الاثبات، واستبدل جرأة الناقد بذهول النبي. وكان من آثار ذلك العهد الأول (أشياء إنسانية) و (آراء مختلفة) و (المسافر وظله) و (فجر)، وكلها سطرت يوم كانت الحادثات تهد صحة نيتشه، وكلها وليدة ذلك الحذر الأعمى من الوجود، هذا الحذر الذي ولده الداء في نفسه، فالريح الذي يخفق حوله بارد قاتم، ونيتشه يلوح كالمهدم العابث الذي زال من صدره عامل الإشفاق، يعمل على تهديم أسوار الشرائع وتحطيم أبراج الأخلاق، ففي كتابه (أشياء إنسانية) يحارب التشاؤم ويسطو على معلمه (شوبنهاور) جاحداً مذهبه، كافراً بتعاليمه، لا يؤمن بأن الإرادة شيء قائم بذاته، نافياً القول بإمكان (شيء يقوم بذاته)، يقاتل عاطفة الرأفة والشفقة، ويرذل فضيلة الزهد، هذه الفضيلة التي تجرد الإنسان من شخصيته وأنانيته،

وفي هذا الكتاب أصبح لا يرى غاية الإنسانية توليد العبقرية كما جهر من قبل؛ ولكنها بمجموعها تمشي ولا غاية تسعى إليها. وفي كتاب (المسافر وظله)، يعلن ذلك الظل الذي يلحق الأشياء حين تشرق عليها شمس المعرفة، ويعتقد بأن الأشياء لا تدرس واضحة
جلية عندما يحدد دارسوها دراستها على ضوء المعرفة (المثالية) لأنه لا يبدو إذ ذاك من الأشياء إلا أجزاؤها المضيئة، أما الأجزاء القاتمة فتبقى بعيدة عن نظر المجتلي، وهكذا ينبغي للمفكر الحقيقي الذي يرغب بأن تكون له فكرة تامة عن الحقيقة أن يتأملها من وجهها الخفي. وفي كتابه (فجر) يُخضع نيتشه لنقده مسألة (القيم والنظم الأخلاقية) التي يقدسها الناس ويحترمون قواعدها، هو يرى أن الأيمان بالواجب ليس بنظام سماوي ولا بتعليم أوحته السماء على البشر، وليس هنالك قاعدة خالدة لتمييز الخير من الشر، وهذه الشريعة الأخلاقية التي تجبر الإنسان على أن يكون صادقاً أمام نفسه في كل شأن، قد تنتهي بالاضمحلال، فقد يغدو الإنسان بالأخلاق ردئ الأخلاق، كما يغدو بالدين زنديقاً، لأن إخلاصه لعقله يزجيه إلى أن يقذف بنقده الأخلاق ذاتها، وأن يكون في ريب من نظمها
والمثل الذي استخلصه نيتشه من الوجود أصبح يدنو الآن من المثل الواقعي، فقد يرى أن كل كائن في الثلاثين من أعوامه الأولى تتولد فيه حركة قد تحتاج الإنسانية إلى ثلاثين ألف سنة لتحقيقها. الإنسان الأول ينشأ في حداثته مؤمناً متديناً، ثم فاقداً لإيمانه في الله والخلود، مأخوذاً بما يزين له العلم النظري، ثم يفقد العلم النظري تأثيره، حين يمسي لا يشبع نفسه ولا يكفي عقله. وفي النهاية تستيقظ فيه الروح العلمية فتقوده إلى دراسة التاريخ والطبيعة درساً صحيحاً. وفي إنسان العلم وفي الروح الحر المفلت من كل وهم زائل والمنعتق من كل اعتقاد باطل، في هذا الإنسان يرى نيتشه الإنسانية المتسامية، فالروح الحر هو متشائم يعتمد على عقله، وهو مفتقر إلى صحة أدبية قوية لا غش فيها، تعمل على الحيلولة بينه وبين الاستسلام إلى اليأس والفناء، وليس من السهل على الإنسان أن يمزق عن جسده أثواب الخطأ الملتفة عليه في كل جانب ليرى الحقيقة ماثلة أمام عينيه، (فالحياة الإنسانية غارقة بأكملها في الأخطاء، وليس في استطاعة الفرد أن ينتشل نفسه من هذه الهاوية إذا لم يكن خصماً قاسياً على ماضيه، كثير السخرية من الإهواء التي تدفعنا إلى الإيمان بالمستقبل وبالسعادة الآتية)، وبهذا يستطيع إذا كان جريئاً صافي الطبع أن يجد في العلم ما يعمل على استنقاذ روحه من اليأس، فان المعرفة المبطنة بالتشاؤم تنقذه من السأم الذي يأكل قلوب سواد الناس. حتى إذا قدر أن يتحرر من كل ما يحترمه الناس زاده تمتعه بالأشياء طرباً وجمالاً، فهو يهوى أن يحلق فوق الاضطراب البشري لا يخفق قلبه رعباً فوق العادات
والأوهام والعقائد، هو يحيا لكي يفهم فهماً صحيحاً، وإن أسمى مكافأة عنده هي أن يتفهم في نفسه وفي غيره من الأكوان هذه النواميس الضرورية المتجلية في حركات الكون، وأن يستدل - كالمنجم - على مستقبل الذرية البشرية
وهل تعتقد بأن مثل هذه الحياة المتجلببة بمثل هذه الغاية باعثة للفناء خالية من) اللذة؟. . . إنك لم تدرك أن السحب الثقيلة، سحب الأحزان هي أثداء ضخمة ترضع منها أفاويق عذبة حلوة، لتقبل الشيخوخة فتفهم بنفسك كيف تلبي نداء الطبيعة، نداء هذه الطبيعة التي توجه العالم إلى السرور. هذه الحياة التي اتخذت الشيخوخة سنامها اتخذت الحكمة ذروتها. . . وهل الحكمة إلا ذلك الشعاع المنبثق من الفرح العقلي. . . الحكمة والشيخوخة عنصران نراهما على قمة طود واحد - هكذا شاءت الطبيعة - قد تقترب الساعة فلا تهتج! ولتكن حركتك الأخيرة - حين يتراكم ضباب الموت - جهداً (تبذله وتوقاناً نزاعاً إلى النور، لتكن تنهداتك الأخيرة أنشودة انتصار الحكمة
ومنذ عام 1882 بدأت تتبدل لهجة نيتشه تبدلاً محسوساً على أنه ثابر على نضاله ومحاربته لعقائد جيله حتى النهاية. فكتبه الأخيرة إنما هي غارة شعواء ضد المسيحية وما تحمله من زهد وتقشف. ولكن هذه الصيحات التي يرسلها قوية عالية أصبح يمازجها قليل من الألحان العاطفية؛ ألحان نشيد الانتصار
عاد نيتشه إلى صحته بعد أن قضى أيام علة وسأم، يرتقب الموت في كل فجر يتنفس، وفي كل ليل يتعسعس. عاد إليه رجاء جديد وتنفس جديد، - والأرض أرحب بكثير من

كفة الحابل. . .! - يقول في فاتحة كتابه (العلم الطرب): (إن هذا الكتاب هو صيحة طرب بعد أيام طويلة مكفنة بالبؤس والعجز. هو إغنية مرح تتهادى فيها أصوات قوى بعثت بعثاً جديداً وألحان إيمان واسع في الغد وما بعده، في مستقبل مفتوح لي يحمل طيه حوادث قريبة، ينطوي على بحار حرة وغابات جديدة تجذبني نحو ما أستطيع أن أبلغه وأقدر أن أومن به) وهكذا تقشع من سماء نيتشه سحاب اليأس القاتم، فبانت له سماء صافية مضيئة. رحل الشتاء المتجمد وخفق قلب ربيع جديد.

وفي هذه الخطرات الجديدة التي هيمنت عليه عادة الشك في قيمة ذلك الروح الحر الذي بشر به وجعل منه مثالاً عالياً. إن هذا الروح الحر عابس ينقصه روح الطرب، قد جعل منه الألم كائناً كئيباً وهذا الروح لا يزال ثقيلاً لم يتعلم أن يرقص وأن يلعب ويفرح حراً طرباً وثاباً على أمواج الحياة، إن هذه الفكرة خلقت لنيتشه خيالاً جديداً انطوى على الصورة الرائعة التي وجدها في نبيه (زرادشت) هذا النبي الذي قضى في الصحراء عشرة أعوام، مرتاحاً لعزلته وفكرته، ثم نزل إلى الناس يلقنهم الديانة الجديدة، ديانة السوبرمان والعودة الخالدة، وهو يجمع حوله في مناراته المنعزلة نماذج متقاربة صافية للإنسانية المتألمة السامية. إن رجال الرغبة الكبيرة والاحتقار الكبير والسأم الكبير؛ هؤلاء الرجال يجب أن يفسحوا مكاناً للسوبرمان الذي يشفيهم من تشاؤمهم ويضيء لأعينهم آفاق المستقبل، ثم يموت في اللحظة التي يبلغ فيها أعلى ذروة الحكمة، في اللحظة التي تبلغ فيها شمس وجوده سمتها الأعلى في الهاجرة الكبرى، معلناً بموته انتصار مذهبه

وقد رأينا توصلاً إلى تحليل فلسفة نيتشه تحليلاً منطقياً أن نقسمها إلى قسمين: الناحية السلبية، وهي تنطوي على نقد الإنسان الحالي ونقد إيمانه وغريزته، والناحية الإيجابية، يبحث فيها السوبرمان وعودته الخالدة، وبهذا تبدو أفكار نيتشه مرصوفة ضمن نظام مذهبي لم تعرف به من قبل. لأن هذه الأفكار في الآونة الأخيرة لم تثبت على حال معهودة فهي سريعة التبدل وسريعة التنقل. ونتشه نفسه لا يريد أن يكون فيلسوف مدرسة. . . لأن الحقيقة عنده لا خلاف فيها. على أنه لم يحجم عن مهاجمة الآراء التي يراها فاسدة بأدلة باهرة وحجة منطقية (إلا أن غريزتي تريني في هذا الإنسان أو في هذه الكتلة من الناس جماعة منحطة تدعو إلى الاحتقار. . . وفي هذا المذهب أو في هذا الإيمان جرثومة مرض. . . إنني أحاربهم وأكافحهم كما يكافح الخطر والمرض. فإذا صح أنني أنصر مذهباً حياً وخصومي ينصرون مذهباً فاسداً فالنصر لا ريب معاودي، وفي الحالة المعاكسة لا يأتيني إلا الخسران! وبما أنني لا أريد إلا شيئاً واحداً هو انتصار الحياة، أراني أطرب بانكساراتي كما أطرب بانتصاراتي وكل ما وراء ذلك عندي سواء

أو ليس من الغباوة أن نشيد مذهباً منطقياً لفلسفة نيتشه ضمن هذه البوادر، شأن فلسفة (كانت) وشوبنهاور، وليس للمنطق كبير شأن في هذه الفلسفة؟. على أن نيتشه إذا صح حدسي كان يأتي المسألة ويدرسها من جوانب مختلفة، يتلقنها ثم يدرسها ثم يفحصها حتى تحين اللحظة التي يطلق فيها حكمه الأخير. فإذا درست آثاره أثراً أثراً ألفيت أن المواضيع نفسها تطوي وتنشر ومن وراء ذلك عقل نيتشه العظيم. وإذا لم يأخذ نيتشه بالمنطق ونظامه الدقيق كما يأخذ به أرباب الفلسفة فليس معنى ذلك أن الرجل خلت أحكامه منها، أو أن عقله لم يكن منطقياً. فالرجل حاد الفكر، وفلسفته - من حيث المجموع - يربط بينهما نظام منطقي دقيق. ولكن صحته السيئة حالت بينه وبين ترتيبها ترتيباً فنياً، فجاءت مقاطيع متفككة بأجزائها كاملة بكليتها. مقاطيع أودع فيها صاحبها كل نفسه وقلبه

(يتبع)

خليل هنداوي

القصص

صور من هوميروس

حروب طَرْوَادَة - 4

التعبئة

للأستاذ دريني خشبة

عاد منالايوس من رحلته في الحدود، وليته لم يعد!

لقد جُن جنونه حينما علم من أمر زوجه وضيفه ما علم!

علام إذن كانت كل هذه الضجة التي أحدثتها تلك اللعينة قُبيل زواجها؟ لقد تركت) عشاقها الكثيرين صرعى حول قصر أبيها، وظلت تتيه وتدل وتتأبى وترفض، وفيهم شجعان هيلاس وحماتها وأباتها، وملوكها الصيد، وفرسانها المذاويد!

فيم إذن كانت كل هذه الضجة؟

هل منحتني جسمها فقط، يوم اختارتني بعلاً لها؟ وهل ذخرت قلبها للعشق الأثيم، والهوى الفاجر، حتى ترزقها شياطين الفتنة هذا الشاب الغرانقاللاهي المستهتر، فراحت تقدمه فوق مذبح جمالها قرباناً للذاتها النجسة، وتقدمه لشبابه الذميم؟ واحربا! هل اختارتني بعلاً لها، لا لشيءٍ إلا أنني ملك وسليل آلهة؟!

يا للفاجرة!

أفي ذلك البيت الرفيع الذرى، ظلت تتقلب التاعسة في ذراعي هذا الخائن، شبقةً متلذذة؟ هل ظل هو يضمها إلى صدره الثائر في شدة وعنف؟! هل كانت تستزيده؟ أيتها الجدران الحزينة! كم قبلةٍ دنسة أصمت آذانك، وكم صرخةٍ فاجرة دوت كالرعد في حناياك؟ حدثيني أيها الهواء المسمم عما كنت تشهد في صميمهما، حين كانا ينفثانك من صدريهما سماً قتالاً! خبري أيتها الستائر، أيتها المصابيح، يا شموع قصري، أيتها الأرض الملوثة، أيها العرش المهين، أيها التاج الذليل. . . أيتها الكؤوس المتناثرة، والأكواب المقلوبة. . . تحدثي إلي!!

حدثيني يا كل شيءٍ هنا عن مهازل الفسق ومذابح الشرف!

آه! الشرف؟! الخرافة الكبرى!

الحرب!. . . الحرب!. . . الانتقام!. . . الانتقام من الفاجرة. . . اقتلوا الخائن. . . يا حلفائي. . . تندرايوس. . . أدعُ حلفاءك. . . لقد أقسموا جمعياً. . . لقد كنت تتوقع هذه النهاية تنداريوس. . . استيقظ. . . استيقظي يا أسبارطة. . . جنودي. . . شعبي. . . هلموا إلي. . .)

وهكذا أرسلها منالايوس صرخةً داوية تجاوبت أصداؤها في جميع أجواء هيلاس، واستجاب لها كل قادر على الحرب فيها. . . إلا القليل

لقد عجب عشاق هيلين حين وصلتهم صيحة تنداروس، وصدقوا يمينهم التي أقسموا، فلبوا سراعاً؛ وانتفضت هيلاس كلها فصارت ثكنة عسكرية تعج بالجند وتضج بآلات الحرب، واضطربت البحار بالأساطيل تيمم شطر أوليس، حيث اتفقت الكلمة على أن يبحر منها الأسطول المتحد؛ فلا يرسو إلا في مياه طروادة لبى الصيحة كل عشاق هيلين الذين أقسموا اليمين فهرعوا من المشارق والمغارب بخيلهم ورجلهم. . . إلا ملك إيتاكا. . . أوليسيز

أوليسيز

كبر في نفس أوليسيز أن يتقدم لخطبة هيلين فترفضه فيمن رفضت، وهو مع ذاك ملك إيتاكا وبطلها الحلاحل، وفارس هيلاس الذي لا يشق له غبار. وكبر في نفسه أن تؤثر عليه منالايوس، وهو مع ذاك دونه شجاعة وأقل منه إقداماً حين يثار النقع وتستحر الحرب العوان؛ وكبر في نفسه أيضاً ألا تكون له زوجة يفاخر بها هيلين، وأتراب هيلين، وآل هيلين، فذهب من فوره إلى عمها فتزوج أبنته الجميلة الرائعة بنلوب: (الزهرة التي تهتز للندى، وترقص لخيوط الشمس الذهبية، وتُغني مع الأطيار، ويسكر النسيم إذا داعب خديها. . . قُبلة الحب الخالد على خدود الجمال الطليق، وابتسامة السماء الضاحكة في قلوب المحبين المعذبين. . . بنلوب. . . الوديعة كالأطفال، الحلوة كالرضى، الصافية كقطرة الندى في أوراق الورد، المرحة كسطور الغرام في خطاب الحب. . . بنلوب. . . التي تفخر الأرض بأنها تحملها. . . والهواء بأنها تستنشقه. . . والسماء بأنها تظللها وتشرف عليها. . . والجبل بأنها تنظر إليه. . . والبحر بأنه يغسل قدميها المعبودتين!

بنلوب! ذات الفم العطري، والخد اللامع المورد، والجبين الناصع الوضاح، والعنق الناهضة الجَيْداء. . . ربيبة الآلهة، ولمحة الأولب، وبندورا الثانية. . .)

تزوج أوليسيز من بنلوب هذه، فأخلصت له الحب، وأصفاها المودة والغرام؛ وولدت

طفله الجميل المتلألئ تليماخوس (تلماك)، فزادت محبتها له، وتضاعفت عبادته لها، بعد هذا الرباط القدسي الكريم
عز على أوليسيز أن ينأى عن زوجته الجميلة وطفله العزيز المحبوب، لا لشيءٍ يجر عليه مغنماً أو رفعة، ولكن ليحارب حرباً لا تعلم إلا الآلهة كيف تنتهي؛ فقد تكون عقباها القتل أو الغرق أو الأسر، فتعيش الزوجة الجميلة أيما محزونة، ويحيا الطفل يتيماً مُفجعاً. . . وثمن ماذا كل هذه المصائب وتلك الآلام؟ ثمن امرأة أذلت سادة هيلاس، وجرحت كبرياء زوجها، وفضحت أباها. . . ثم. . . هتكت عرضها، إذا كان لها عرض، بفرارها مع هذا العاشق الفاجر الأثيم!!
لم يشأ أوليسيز أن يقامر بسعادته وحياته في هذه الحرب إذن، ولو كان في ذلك، كله أو بعضه، الحنث العظيم. . . فما يمين شرفٍ هذه التي يتمسك بها ملك كملك إيتاكا، من أجل امرأة ليس لها شرف؟!
ليقعد إذن عن هذه الحرب، وليصم أذنيه دون صيحتها الكبرى، فإذا ألح عليه الملحون. . . فهو مجنون مأفون مخبول. . . لا تهيمن عليه مسكةٌ من عقل ولا ترشده أثارة من تفكير
أرسلوا إليه رسولهم السياسي الكبير بالاميديز يحضه على الحرب ويذكره بيمينه التي آلاها، ويحرضه على (الطرواديين اللؤماء، الذين يوشكون أن يفضحوا الهيلانيين في أعراضهم) ولكنه ألفاه يحرث شاطئ البحر بمحراثٍ هائل يجره ثورٌ ذو خوار. . . وحصانٍ عربي أصيل!!
- (. . .عم صباحاً أيها الملك)
- (. . .!. . .)
- (ماذا يصنع مولاي؟)
- (أحرث هذا الحقل الخصيب!)
- (أي حقل؟)
- (الحقل الذي ترى. . . أليس لك عينان تسمع بهما، وأذنان تريان ما أفعل؟)
- (. . .عينان تسمعان، وأذنان تريان؟)
- (اذهب. . . لا تشغلني. . . أريد أن أبذر حقلي هذا الصباح)
- (وماذا عساك أن تبذر أيها الملك)
- (لست ملكاً لا تهزأ بي. . . نحن الفلاحين نطعمكم ونسمنكم ثم يكون جزاؤنا أن تسخروا بنا. . . اذهب. . . اذهب. . .)
- (ماذا تحاول أن تزرع هنا؟)
- (سأزرع مِلْحاً؟!)
- (تزرع ملحاً؟! وتحصد ماذا؟)
- (أزرع ملحاً، وأحصد. . . سمكا. . . ها ها. . . لالا. . . سأحصد باذنجاناً. . . . . ولكن لماذا تقف هكذا جنباً مني؟ لماذا لا تذهب؟)
- (ألا تعرفني يا مولاي؟)
- (أرجوك! أنا لست مولاك ولا مولى أحد! اذهب ودعني اشتغل)
- (أنا بالاميديز يا مولاي! واأسفاه! إن هيلاس كلها تنتظرك ليومها المشهود!)
- (تنتظرني؟!. . . إنها لابد جائعة يا بالا. . . يا باما. . . يا بالاديز!!)
- (لست بالاديز يا مولاي!. . . أنا بالاميديز!)
- (. . . . . .بالاميديز! هذا عجيب! تعال إذن فاعمل معي. . . سَأَسَأ)
- (الحرب يا مولاي! الأساطيل في أوليس!)
- (أي حرب، وأي أساطيل يا رجل؟)
- (سنحارب طروادة!)
- (ولم لم تذهبوا بعد؟)
- (نريد أن تكون معنا، فالكل يهتف بك ويدعوك؟)
- (أنا؟ يدعوني أنا؟. . . أنت يا رجل لا تريد أن أزرع هذا الحقل ملحاً؟ وماذا أصنع في الحرب؟ هلى أخبروك أنني فارس؟. . . اذهب اذهب. . . سأسأ. . . . . سأسأ. . .)
- (ألا تعرف من أنت يا مولاي؟)
- (وهل تعرف أنت من أنت؟)

- (أنا بالاميديز، وأنت؟)
- (أنا؟ أتريد أن ترسل اسمي إلى الميدان؟. . . أتتركني بغير اسم يا رجل؟)
لم يستطع بالاميديز أن يفوز من أوليسيز بطائل، فقد مثل ملك إيتاكادور مجنون تمثيلاً متقناً، يحاول أن يفلت من هذه الحرب التي لا شاة له فيها ولا جمل، والتي قد يقتل فيها أو يؤسر من أجل زوجة خائنة لا شرف لها ولا عرض. بيد أن بالاميديز لم ييأس حين ما شدهه من جنون الملك، فان وسواساً وقر في قلبه أن هذا البله قد يكون تبالهاً، وأن ما بالملك من مس إن هو إلا حيلة يحاول أن يفلت بها من أرزاء الحرب وأهوالها، ثم هو حيلة كذلك للتحلل من اليمين التي أقسمت عشاق هيلين لذلك لجأ بالاميديز إلى الحيلة هو الآخر، فانقطع أياماً ظل يرقب الملك فيها عن كثب، بحيث لا يراه أوليسيز، ولكن الجواسيس كانت تحمل أخبار السياسي الداهية أولاً فأولاً إلى رئيس البلاط، وهذا يحملها بدوره إلى مولاه. . . الذي يفطن إلى مكر بالاميديز فيبالغ في ادعاء الجنون، وينزل إلى البحر يحرث موجه. . . بعد إذ فرغ من حرث شاطئه!. . .
. . .ويسقط في يد بالاميديز فيطلق آخر سهم في كنانته
ذلك أنه تحايل فسرق تليماخوس الصغير، ولي عهد أوليسيز، والأعز عليه من نفسه، ومن الدنيا وما فيها. . . . . سرقه فذهب به إلى حيث والده يحرث الشاطئ ويحرث البحر، فطفق يضع الغلام أمام المحراث ليرى ما يكون جنون الملك، هل يقتل ابنه، ويكون بذلك مجنوناً حقاً، أم يتفاداه، ويكون جنونه محض ادعاء وبلهه تلفيقاً؟!
ولكن الملك كان أحرص على ولي عهده، وقرة عينه، من أن يتم فيه حيلة بالاميديز الداهية! فكان كلما تعرض ابنه لخطر الموت، لوى عنان الثور، وذاد الفرس، متفادياً الطفل إلى الناحية التي لا يكون عليه فيها خطر. . .
فتضاحك بالاميديز، وفضح جنون الملك، وأخجل حيلته. . ثم لم يزل به حاضاً محرضاً حتى أقنعه بوجوب خوض هذه الحرب مع إخوانه الهيلانيين
ازدحمت جحافل الهيلانيين في أوليس، وانعقد المجلس الحربي لانتخاب القائد الأعلى، فاختير ابن الشمس البكر، أجامنون، شقيق منالايوس وصفيه، بالإجماع
اختير أجاممنون للقيادة العامة ولو لم يكن خير أعضاء المجلس الحربي. وكيف يكون كذلك
ومن أعضاء هذا المجلس أوليسيز العظيم ملك إيتاكا، وأجاكس بطل الأبطال وفارس كل نزال، ونسطور أحكم من أشار بخطة في معمعان، وديوميديز المحارب الصنديد. . . إلى آخر هذه العصبة المختارة من جيرة الأولمب، والسادة النجب من فرسان هيلاس
اختير أجاممنون إذن لأنه شقيق منالايوس وممثله في هذه الحرب، ثم لأنه أكبر أعضاء المجلس الحربي سناً، وهو هو ذاك أحد شجعان هيلاس المعدودين
انتظمت صفوف الجند، وأخذوا في مران عنيف أياماً معدودات، ركبوا بعدها في سفائن أسطولهم العظيم، وظلوا ينتظرون إذن القائد الأعلى، أمير البر والبحر، بالإقلاع، فتجري بهم الجواري المنشآت في موج كالجبال. . . إلى. . . طروادة!. . . يحملون إليها المنايا الصفز، والغوائل السود، في شفار المشرفيات البيض!
. . .ولكن أمير البحر والبر لم يأذن لهم بالإقلاع
ذلك أن بعض أعضاء المجلس الحربي أشار بوجوب إستيحاء الآلهة عما إذا كانت حملتهم العظيمة هذه قد كتب لها الظفر والانتصار، أم الهزيمة والانكسار؟ ليكونوا من أمرهم على بينة، وليكونوا أيضاً قد استخاروا أربابهم فتخير لهم، واستشاروها فتخلص لهم المشورة، ويمضون بعد ذلك على بركتها وفي حراستها
. . .وارتقبوا نبوءة الآلهة بقلوب فارغة، ونفوس مبتهلة. . . ومضت أيام
ثم رأوا إلى كاهن المعبد يدلف نحوهم في هدأة فجر صامت، فشخصت أبصارهم، وظنوا فيه الظنون
وجلس الكاهن المسن يقلب في القادة عينيه الكبيرتين، وصمت لحظة ثم قال: (أين ابن بليوس أيها الملأ. . .؟)
. . .ونظر القادة بعضهم إلى بعض ولم يحيروا
فقال الكاهن: (ابن بليوس رب الأعماق، من زوجته ذيتيس! أليس فيكم أخيل؟!. . .)

فأجاب أجاممنون: (ومن أخيل أيها الأب المقدس؟!)
فقال الكاهن: (هو ابن ذيتيس التي قالت فيها ربات الأقدار إنها تلد غلاماً يكسف مجده مجد أبيه. . . ابحثوا عنه، فلن تفتح طروادة إلا على يديه. . . لن ينفعكم أن تذهبوا بدونه. . . هكذا قالت الآلهة. . .)
(لها بقية)

دريني خشبة

النقد والمثال

للأستاذ أحمد الزين

كتبت إلي - أعزك الله، وأمتع الأدباء ببقائك - أنه قد بعد عهدك بمطالعة ما كنت أكتبه في الصحف من فصول في النقد، ممتعةٍ في حسن ظنك بأخيك، وبحوثٍ ضافيةٍ دقيقةٍ فيما تنظره عين رضاك عن صديقك، وقلت: إنها لامست موضع هواك، وحققت غاية مناك، وشفت من صدرك غلة لم يكن ليشفيها ما طالعت أو سمعت من فصولٍ غيرها في النقد مما ملئت به صدور الصحف والمجلات، وحشيت به بطون المؤلفات، وأفاض فيه أساتذة النقد الأدبي في الدروس والمحاضرات، إذ كان أكثرها بل كلها من إملاء الغرض ووحي الهوى، وليس للفن فيها من الحظ إلا بمقدار ما يبرر الناقد به تفضيل صاحبه على غيره، واتهام الآخر بالعي والقصور في نثره أو شعره؛ يغفلون الأذواق والعقول، ويحكمون النزعات والميول، ويتبعون القلوب على ما يعرفون من تقلبها، ويستلمون العواطف الخادعة على تحولها وعدم استقرارها؛ فتخرج بحوثهم مختلة السياق، مضطربة الآراء، لا تحمل قارئاً على احترامها، ولا باحثاً على الاعتماد عليها.

فهي بقصائد المدح والهجاء، أشبهُ منها ببحوث الأدباء والعلماء، حتى إن الشعراء والكتاب أنفسهم لم يعودوا يأبهون لما ينشره هؤلاء النقاد من ثمرات قرائحهم، إذ كان نقدهم إما مدحاً تمليه مودة أو منفعة، وإما هجاءٌ تبعثهم عليه عداوة أو حسد، ولقد قلتُ مرة لبعض الشعراء المجيدين: إن فلاناً الناقد المعروف قد كتب فصلاً طويلاً في صحيفة كذا يثني فيه على بعض قصائدك ثناء لو قرأته لسررت به، وهششت له؛ وطفقت أطيل في ذكر ما كتب؛ فقال صاحبي: بعض هذا يا أخي، فما مدح هؤلاء مما أرجو، ولا نقدهم مما أخشى، فما أيسر الوسائل التي ينال بها مدح هؤلاء ورضاهم، وإن ثناءهم لأشبه شيء بالشهادة للميت حين يحمل إلى قبره، ويقال: (ما تشهدون في هذا الرجل؟) فيقول المشيعون: (صالح وابن صالح) ولعله كان على خلاف ما شهدوا به في حياته، وقد أراح الله البلاد والعباد بمماته. ولم تقتصر متابعة الغرض ومسايرة الهوى في النقد الأدبي على صغار النقاد في هذا البلد، بل شمل ذلك أساتذة النقد وذوى الكلمة الفاصلة منهم، ومن يرتقب رأيه في كل أثر فني، كما يرتقب المتهم حكم القضاء العادل الذي لا مرد له، ولا جدال فيه، فطغى على الجميع سيلُ الغرض، واندفعوا

في تيار الهوى، ولم يبال واحد منهم بمكانه في الأدب، ولا بمنزلته الرفيعة في نفوس الأدباء، وآيةُ ذلك أنك لا تجد اثنين من الناقدين يتفقان في الشاعر الواحد على رأيٍ واحدٍ في شعره، ويضعانه في المنزلة التي يستحقها مع غيره، بل تختلف الآراء فيه - بل في البيت الواحد من شعره - اختلافاً ظاهراً إلى حد التناقض، فبينا أحدهم يرى في الشاعر أنه شاعر العربية، إذا بالآخر يقول: (إنه ليس بالشاعر ولا شبه الشاعر)، وهكذا ترى المبالغة والإغراق في طرفي الرأي، مما أسقط النقد الأدبي وأضاع الغرض منه في تهذيب الفن، وأضعف أثره في نفوس الكتاب والشعراء. مع أنه مما لا نزاع فيه أن للذوق الأدبي مقياساً عاماً لا يختلف في أصله؛ وإن اختلف في بعض الفروع التي لا تقدم ولا تؤخر في الحكم على الشاعر في جملته، ولا في منزلته الشعرية بين أبناء جلدته

وثمة أمر آخر هو أمر نكاية في الأدب، وأبلغ في هدمه، وهو أن أكثر هؤلاء النقاد يقيسون الأدب العربي بمقاييس الأدب الغربي، فيطلبون إلى الشاعر المصري العربي أن يحاكي شعراء الغرب في أغراضهم ومعانيهم، وإن كان أكثرها لا يلائم بيئته، ولا يجري مع قانون حياته، ولا يتفق بوجه مع الطبيعة الشرقية؛ وأطالوا في اتهام من خالفهم بالجمود، وضيق الأفق الفكري حتى حاول بعض الشعراء الناشئين تكلف هذه المحاكاة مراغمةً لشعور القلب وإحساس الفؤاد، وإرضاءً لهؤلاء النقاد فخرجت

قصائدهم لا شرقية ولا غربية، مشوهة الصور ضعيفة الأثر، كالحة الظاهر، جوفاء الباطن، لم تصور إحساساً في فرد ولا في جماعة، ولم تعبر عن شعور في الأمة ولا في الشاعر نفسه، فلم تسترع هذه القصائد سمعاً، ولم تجتذب إليها قلباً؛ ولولا طائفة قليلة أمسكت بسلسلة البيان أن تنقطع، وآوت إليها طرائد الشعر العربي، وصبرت وصابرت في مدافعة هؤلاء المستغربين في شرقهم، وصانت ذخائر العرب - وأخصها اللغة - حتى تسلمها إلى طائفة أخرى مثلها ممن قوى في نفوسهم شعور القومية ونظروا في الأدب العربي نظرةً واسعةً منصفة، فعرفوا من نفائسه ما لم يعرفه سواهم؛ لولا هؤلاء لأفل نجم البيان العربي عن هذه البلاد، ومات الشعر أو كاد

وقلت: إن آثر النقاد عندك وأجداهم بحثاً على طالب الشعر والكتابة من يعني بالبحث في آثار الكتاب والشعراء واختبار ثمرات قرائحهم، فيميز جيدها من رديئها، وناضجها من فجها، ويُرى القارئ أسباب الإجادة فيما يستجيد من شعر أو نثر فيأخذ بها ومواضع الزلل

والمؤاخذة فيما لا يستجيد منهما فيجتنب الوقوع فيها

أما البحث في تحليل حياة الشعراء وكيف نشأوا والعصور التي يعيشون فيها، والبيئات المحيطة بهم فذلك أولى بالمؤرخ الأدبي منه بالناقد الفني، على أن تلك البحوث لا تفيد طالب الشعر فائدة قليلة ولا كثيرة في الإجادة الفنية، وإن إفادته في توسيع ثقافته العلمية

ثم سألتني أيها الأخ الكريم أن أعود إلى محادثة الأدباء والمتأدبين فيما قرأتُ وأقرأ من جيد الكلام ورديئه، وتبيين سبب الإجادة في الأول، وموضع المؤاخذة في الآخر، والترجيح بين المتساويين في أول النظر على صاحبه، ثم لا أذكر بيتاً فيه زلةٌ لشاعر إلا عقبته ببيت قد سلم منها لمعاصر أو غير معاصر، مفاضلاً بين البيتين، موازناً بين الشعرين، ليكون ذلك مثالاً يتبع، وقياساً ينتهج، فان لم أجد فيما أحفظ من الشعر ما يصلح مثالاً، ويتخذ قياساً، غيرتُ من البيت نظمه، وداويتُ سقمه، وذهبتُ بشكله، وأبقيت على أصله، وذلك هو ما انتهجته في البحوث السابقة، وشرحته في أول بحث كتبته، وإنا لسؤالك لباذلون، ولدعوتك لملبون؛ نسأل الذي فطر الفطرة، ووهب القدرة أن يعصمنا من هوى لا نستطيع غلابه، وأن يعيذنا من خطأ لا نعرف صوابه، ولست أعد قراء (الرسالة) بأن تحمل حديثي إليهم في كل أسبوع، بل قد تطول الفترة بين الحديثين، وقد تقتصر، إذ لم أتعود فيما أكتب التقيد بالوقت، فان هذه القيود الصحفية مما يحمل الكتاب في بعض الأحيان على أن يملأوا الصحائف بالسطور، وإن خلت من فائدة الجمهور

أحمد الزين

البريد الأدبي

هنري باربيس

توفي في أواخر شهر أغسطس المنصرم كاتب وشاعر من أعظم كتاب فرنسا وشعرائها المعاصرين، هو هنري باربيس؛ وكان باربيس زعيم المدرسة الثورية وأعظم كتابها، ولم نمض أشهر قلائل على صدور كتابه الأخير الذي كتبه عن ستالين طاغية روسيا البلشفية، وعن تاريخ الحركات الثورية في روسيا القيصرية، وهو الكتاب الذي أشرنا إليه وقت صدوره في هذا المكان من (الرسالة)

وقد ولد هنري باربيس في ازنيير في سنة 1874، وتلقى تربية جامعية حسنة، ونظم الشعر القوي منذ شبابه، وكتب القصص؛ وظهر لأول مرة في أفق الأدب بصدور ديوانه المسمى (الباكيات في سنة 1895. وفي سنة 1903م نشر قصته (المتضرعون ثم أخرج قصته (جهنم ' في سنة 1908، وامتهن باربيس الصحافة وبرز فيها؛ وفي سنة 1910 تولى تحرير صحيفة الشهيرة ولما نشبت الحرب الكبرى انخرط في سلك الجيش العامل كجندي في المشاة، وأبدى شجاعة فائقة في الذود عن وطنه استحق من أجلها وسام (صليب الحرب)، وفي أثناء الحرب أخرج باربيس أعظم قصصه وهي: (النار وهي مذكرات فرقة محاربة والشعلة وبهما يرتفع باربيس إلى صف أعظم كتاب العصر ويصل إلى ذروة قوته، ولما انتهت الحرب وقع تحول عظيم في تفكير باربيس وفي مبادئه فاعتنق المذهب الشيوعي، وتولى التحرير في جريدة (لومانتيه) الشيوعية التي أنشأها جان جوريس واشتهر بكتاباته الملتهبة، وفي سنة 1920 أصدر باربيس

قصته (النور في الهاوية ' وفي العام التالي أخرج قصة قوية أخرى عنوانها: (بعض زوايا القلب ثم أصدر كتاب (الأغلال وفي سنة 1927 أصدر كتابه (بيان إلى العقلاء ومنذ أشهر قلائل أخرج كتابه عن ستالين. وكان باربيس في أعوامه الأخيرة دائم التردد على موسكو وثيق الصلة بزعمائها، وكانت وفاته في موسكو في مستشفى الكرملين بعد مرض قصير. ومما ذكره أنه تزوج من ابنة كاتيل مانديس الكاتب والفنان الشهير، وهي أيضاً كاتبة وأديبة معروفة

قوانين الملكية في روسيا

يخطئ من يعتقد أن روسيا البلشفية تعيش في ظل النظم الشيوعية؛ والحقيقة أنها لا تكاد تطبق اليوم نوعاً من اشتراكية الدولة أو الاشتراكية المخففة؛ وقد اقتنع البلاشفة بعد تجارب شائكة أن الحياة الاقتصادية والاجتماعية المنظمة في ظل الشيوعية ضرب من الخيال. ومما يدل على أن روسيا السوفيتية تعود شيئاً فشيئاً الى النظم الفردية، أن الحكومة البلشفية قد أصدرت أخيراً قانوناً جديداً بتحديد ملكية الأراضي في مختلف الولايات الروسية، ولاسيما في جمهوريات التركمان وأزبكستان وأزربيجان وقازاقستان، وبعض مناطق سيبريا الزراعية، وفيه تفصيل لما يمكن أن يملكه المزارع من الأرض أو الماشية لاستعماله الشخصي؛ والقانون الجديد يتحدث عن وضع اليد والحيازة فقط، على أن تلحقه قوانين أخرى بتثبيت الملكية متى استقر تقسيم الأراضي نهائياً. وليس القانون جديداً في الواقع، فان المزارع (الكولاك) يتمتع منذ أعوام بحق ملكية حديقته وبعض الماشية، ولكن القانون الجديد يزيد في نسبة الملكية إلى حدود لم تعرف من قبل في ظل النظام البلشفي، هذا فضلاً عما يتضمنه من الوعد بتثبيت الملكية وتطمين المزارعين بذلك على مصير أراضيهم ومواشيهم.

وبمقتضى هذا القانون يصبح للمزارعين في سيبيريا الحق في امتلاك أرض تبلغ مساحتها إلى هكتار واحد حسب منطقة الأرض، وفي امتلاك الماشية من خمسين رأساً من الرندير إلى مائتي رأس، ومن الكلاب ما شاء. وفي جمهوريات أزربيجان وأزبكستان وما إليها يستطيع المزارع أن يمتلك من 20 إلى 30 في المائة من الهكتار أرضاً زراعية، ومن الماشية جواداً وحماراً وخمس عشرة إلى ثلاثين رأساً من الغنم

وفي هذه القوانين الجديدة دليل قاطع على ما انتهت إليه سياسة السوفييت من التطور نحو الفلاحين. وقد كان لتنفيذ المشاريع الاقتصادية الجديدة أثر كبير في هذا التطور، لأنها أقنعت زعماء البلاشفة بأن الترويج عن المزارعين وتحريرهم من قيود الإنتاج الإجماعي مما يضاعف أسباب الإنتاج والرخاء الزراعي

أعمدة سبعة من الحكمة

لم يمض على وفاة الكولونل لورنس زهاء أربعة أشهر، ومع ذلك فان آثاره وذكرياته تشغل اليوم فراغاً كبيراً في الأدب الإنكليزي، فقد صدرت أول طبعة جديدة تذكارية من كتابه

الشهير (سبعة أعمدة من الحكمة وهذه الأعمدة السبعة هي: القاهرة وأزمير وقسطنطينية وحلب وبيروت ودمشق والمدينة. وكان الكولونل لورنس قد بدأ في كتابته منذ سنة 1921، وفيه يقص سيرة أعماله المدهشة في بلاد العرب، وما اشترك في تدبيره من الثورات والانقلابات والوقائع الغريبة التي انتهت بتمكين الإنكليز من الاستيلاء على فلسطين والعراق، وسيرة مغامراته الشخصية، وفيه روايات وأسرار خطيرة عن كثير من القادة والزعماء الذين عملوا مع لورنس. وفي سنة 1926 ظهر كتاب (أعمدة الحكمة السبعة) وظهرت منه فقط مائة وعشرون نسخة باسم المشتركين، فكأنه لم يطبع ولم يذع في الواقع إلا في دائرة خاصة جدا، ثم لخص منه لورنس كتاباً آخر هو (الثورة في الصحراء) وهو الذي طبع وأذيع بكثرة، وقد كان من أكبر أماني أصدقاء لورنس والمعجبين به، أن يخرج كتابه الشهير في طبعة جديدة ذائعة، والآن تتحقق هذه الأمنية بعد وفاته، ويصبح كتاب (أعمدة الحكمة السبعة) في متناول كثيرين ممن لم يحظوا باقتنائه

مآسي التاريخ

صدر أخيراً كتاب جديد للمؤرخ الفرنسي ح. لينوتر الذي توفي منذ أشهر قلائل، عنوانه: (مآسي التاريخ وقد اشتهر لينوتر بنوع خاص من التاريخ لبث يكتبه أعواماً طويلة في جريدة الطان تحت عنوان: (التاريخ الصغير) وفيه يتناول من حوادث التاريخ المنسية

ومآسيه الطريفة ما يفوق في الحقيقة كثيراً من وقائع الخيال، وتوفر لينوتر على دراسة هذا النوع، حتى أصبح أستاذه الحقيقي، وكانت الثورة الفرنسية وحوادثها العجيبة أعظم مصادره، فتناول كثيراً من حوادثها الخفية وتفاصيلها العجيبة التي يغفل عنها المؤرخ العام وأخرج فيها كتباً ورسائل ساحرة، ومن مؤلفاته الشهيرة في هذا الباب: (من ثورة إلى أخرى) و (من السجن إلى النطع) و (ملك بلا مملكة) و (باريس الثائرة) وغيرها، وأما كتابه الأخير (مآسي التاريخ) فقد كتبه في أواخر حياته، وتناول فيه عدة مآس شهيرة مثل سقوط الجيرونديين، ومصرع الدوق دنجين، ومقتل الكاتب بول لوي كوريه وغيرها، وكتبها بأسلوبه القوي الساحر، الذي يدنو في تفاصيله من الرواية، ويجمع في جوهره عناصر التاريخ المنسية، وقد كانت فصول لينوتر التي تنشرها (الطان) مثلا بديعاً لهذا النوع الشعبي من التاريخ، وكان لينوتر دائب التوفر على إخراجها حتى أواخر أيامه، بل

نذكر أن الفصل الأخير الذي كتبه فيها لم ينسر في الطان إلا بعد وفاته بيوم أو اثنين، وقد فاز لينوتر قبل وفاته بنحو عامين بكرسي الأكاديمية، وكان من الخالدين

لقب جديد لربات الجمال

كان لفوز الإسبانية الحسناء كاناريني أليشا نافارو في مباراة الجمال الأوربية العامة وفوزها بلقب (مس أوربا) وقع عميق في أسبانيا حيث يبدي الشعب الأسباني حماسة عظيمة لهذا الفوز لاسيما وانه أول حادث من نوعه في أسبانيا؛ ويؤمل الأسبان أن تفوز فتاتهم بتاج الجمال العالمي. بيد أن بعض المفكرين الأسبان رأوا أن الجمال المادي وحده لا يكفي لأن تتبوأ الفتاة مركزها الممتاز في المجتمع؛ ولابد أن تتحلى إلى جانبه بالصفات الأدبية والمنزلية التي يجب أن تختص بها المرأة، ولذلك أقيمت في مدريد مباراة من نوع خاص بين لفيف من الفتيات الحسان يتبارين للفوز بلقب (ربة الدار)؛ وتضمنت هذه المباراة امتحان الفتيات في أعمال الطهي والكي والخياطة وغيرها من الأعمال المنزلية، ففازت بهذا اللقب الآنسة كونشيتا مانسيجوي دي لارا. ونالت أول لقب من نوعه بين الحسان وهو (ربة الدار)

أغراض المستشرقين

قرأت في (الرسالة) ما كتبه الأستاذ محمد روحي فيصل في أن علماء المشرقيات أبعد الناس عن البحث العلمي المجرد يوم يخوضون الأبحاث الإسلامية، وأنهم يقصدون من الاستشراق خدمة دينهم وسياسة دولهم. وقد لامني لقولي من مقالة في الرسالة إن علماء المشرقيات يحمدون لنشرهم كتب العرب، وإنه كان على سادتنا العلماء أن يأخذوا باليمين آثار السلف يحيونها، حتى لا يطول مقامها في تزييف بعض من تعلموا لغات الشرق واختصوا في علومه، إلا أنني لا أغمط حق العاملين منهم، لتفضلهم بنشر كتبنا. وأرجوا ولا أزال أرجو أن ينقطع فريق من علمائنا وأدبائنا لمساهمة علماء المشرقيات هذه الخدمة الجليلة؛ لأن الكتب كتبنا، والمدنية مدنيتنا، وصاحب البيت أحق الخلائق بالعطف عليه وعلى ما فيه

وقد وقع لصديقي العلامة الشيخ عبد العزيز جاويش، يوم ألقيت في دار المعلمين العليا

بالقاهرة (5 مايو سنة 1927) محاضرة في (أثر المستعربين من علماء المشرقيات في الحضارة العربية) وعددت ما نشره علماء المشرقيات في كل أمة غربية من كتبنا، أن قام رحمه الله يعدد أغراض علماء المشرقيات من الغربيين في الدين والسياسة، وما كان موضوع المحاضرة غير التنويه بفضل من خدموا آثار أمتنا فاستفدنا نحن بالعرض. وأذكر أن بعض أساتذة مصر ممن حضروا المجلس تبرموا بكلام الأستاذ جاويش وعدوه خروجا عن الموضوع، لأني لم أمتدح المستشرقين إلا من الوجهة التي أفادوا بها حضارتنا، حتى إن الأستاذ علي الشمسي باشا (وزير المعارف المصري يومئذ) كان ممن حضر فقال: سامح الله الأستاذ جاويش، إن صاحب المحاضرة لم يتعرض لمدح المستشرقين في السياسة والدين، وإنما ذكر افضالهم على لغتنا وحضارتنا بنشر كتبنا. قال ذلك للأستاذ سيد كامل رحمه الله، (راجع المحاضرة في مجلة المجمع العلمي العربي م7 ص 433)

فأنا والحالة هذه إذا امتدحت من علماء المشرقيات، وأعجبت بعلمهم في خدمة آدابنا، فإنما تنويهي بهم من هذه الناحية فقط. وأعلم أن كثيرين منهم يعملون لسياسة بلادهم

أولا، وأن منهم دعاة دين متعصبين يتخذون الاستشراق سلماً لخدمة دينهم على نحو ما كان أسلافهم في القرون الوسطى، ومن أحب أن يقف على تخريف المخرفين من المستشرقين، وإنصاف المنصفين منهم في أحكامهم على الإسلام والعرب فليرجع إلى كتابي الأخير (الآلام والحضارة العربية) فمعظم هذا السفر يدور على هذا المحور، وأحب مع هذا ألا يفوتنا أنه ليس من المعقول أن نكلف من لم يتأدبوا بأدبنا، ولم تعمل فيهم أحاسيسنا، ولا دانوا ديننا، أن يعتقدوا ما نعتقد، ويكتبوا فينا ما نحب. فلكل جنس تفكيره، ولكل جيل مدنيته، ولكل إنسان أهواؤه وأغراضه.

محمد كردي علي

الكتب

1 - حياة الوزان الفاسي وآثاره

تأليف الأستاذ محمد المهدي الحجوي

2 - تاريخ الصحافة (الجزء الرابع)

للفيكونت فليب دي طرازي

3 - تاريخ الأمير فخر الدين المعنى الثاني

تأليف الأستاذ عيسى إسكندر المعلوف

للأستاذ محمد بك كرد علي

في شمالي أفريقية اليوم حركة مباركة في التأليف تدل على انتباه فكري يبشر بخير كثير لتلك البلاد الإسلامية العربية؛ ما ينشرون؛ ويضعون أسفارهم على النمط العصري الحديث، ومما طالعناه مؤخراً (التذكار فيمن ملك طرابلس، وما كان بها من الأخبار) لابن غلبون الطرابلسي نشره وعلق عليه الأستاذ الطاهر أحمد الزواوي، و (كشف الحجب عن مدنية العرب) للأستاذ محمد بن عمار الوارثتاني التونسي، و (رسائل الرحالة) العالم عبد العزيز الثعالبي، وبعض تآليف في الأدب والشريعة للأستاذ طاهر بن عاشور؛ وتآليف عالم أفريقية حسن حسني عبد الوهاب معروفة مشهورة، وكذلك تآليف العلامة الشيخ محمد بن أبن شنب رحمه الله في الجزائر فانها من الممتع الجيد و (كتاب الجزائر) للأستاذ أحمد توفيق المدني من أجود ما كتب في تاريخ الجزائر وتقويم بلدانها وحالتها الاجتماعية والإدارية والسياسية والاقتصادية. هذه بعض ما وصل إلينا من تآليف أهل المغرب الأدنى والأوسط، أما المغرب الأقصى، فقد ظهر أربعة مجلدات ضخمة من كتاب (اتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس) للمؤرخ المدقق مولاي عبد الرحمن ابن زيدان، وهو في تاريخ مراكش في السياسة والاجتماع والأدب، أبان واضعه عن نفس طويل ومادة واسعة ظهرت منها عظمة تلك الديار في الدهر السالف، ونشر في فاس الأستاذ عبد الحي الكتاني كتباً نفيسة وعلق عليها فأحسن؛ ونشر العلامة سيدي محمد بن الحسن الحجوي الفاسي في فاس والرباط (رباط الفتح) كتاب (الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي) في أربعة مجلدات، دل على علو كعبه في الشريعة وتاريخها وأدبها، وله غير ذلك من المصنفات والأبحاث والمحاضرات والمسامرات، وها هو نجله الأستاذ أبو عبد الله محمد المهدي يطالعنا ببحث طريف في حياة الوزان الفاسي وآثاره، فكان النجيب ابن النجيب. زادنا الله في أفريقية من أنباء نجباء الأبناء

هو بحث قدمه المؤلف لمؤتمر المستشرقين الثامن الذي أقامه معهد المباحث العليا المغربي بفاس يوم 20 أغسطس سنة 1922 في ترجمة أبي علي الحسن الوزان الفاسي المعروف عند الإفرنج باسم ليون الأفريقي , وكان هذا الرجل العظيم من أصل أدلسي، نشأ في فاس وتجلى فيه الذكاء منذ الصغر، فتعلم العلوم الدينية والأدبية ثم ساح في بلاد المغرب الأقصى أوائل المائة العاشرة وكتب رحلات ومفكرات في جغرافية تلك البلاد بناها على مشاهداته، ورحل إلى الروم ومصر والحجاز، وكان في بعض رحلاته سفيراً عن بعض ملوك المغرب الأقصى في زمن الدولة الوطاسية، وارثة الدولة المرينية (دولة العلم والعرفان والفن الرائق الفتان) وقيام الدولة السعدية في الجنوب، ووقع للوزان أن أسره قرصان البحر من الطليان فأتوا به هدية لطيفة إلى البابا ليون العاشر في رومية، وكانت إيطاليا آخذة بنهضتها في عهد ذاك البابا العظيم حامي المعارف والآداب فوجد في الرحلة الوزان ضالته المنشودة لخدمة المعارف، وبعد موت البابا سنة 1521م 927هـ دخل الوزان تحت حماية الكردينال (جيل دي

فيطرب) وكان يعلمه العربية، ثم تولى مدة تدريس العربية في كلية بوبونيا في إيطاليا؛ وبذلك تعلم الإيطالية واللاتينية، وكان من قبل يعرف الأسبانية والعبرانية. وألف هناك قاموسه الطبي بأمر البابا كتابه في وصف أفريقية، وقد جود في هذا الكتاب من وراء الغاية حتى جعله الغربيون أعظم مرجع لهم للوقوف على تلك الأرجاء الشاسعة. وصف فيه كل ما رآه من طبيعتها وأجوائها وحاصلاتها وعالمها وأخلاقها وعاداتها وقد طبع كتاب الوزّان من القديم في إيطاليا وفرنسا غير مرة؛ وعلق عليه ناشروه شروحاً كثيرة واستفادوا منه. فصل كل ذلك الأستاذ المؤلف تفصيل باحث محيط بأطراف موضوعه. وأجاب من اعترضوا عليه مستغربين نبوغ المترجم له في سن الفتوة فقال: دخل الوزّان معترك الحياة دخول أبطال الرجال على حداثته سنّ فجلى وأبلى بلاء تجده

غريباً في حياة الرجال. نعم ذاك غريب إذا قيس بسنه، ولكن لا بدع هناك في حق الشباب المغربي، فقد حفظ له التاريخ أعمال كثير من أفراده المبكرين في النبوغ العلمي والسياسي، وذلك باب فتحه المولى إدريس رمز الشباب المغربي والعربي بما فيه من نبوغ وكفاءة، ومثال الفضيلة المحمدية، والشمم الهاشمي، والعبقرية القرشية. فقد بويع وهو ابن إحدى عشرة سنة وقام بالملك أحسن قيام وأسس دولة من أفخر الدول تأسيساً ونظاماً، وأسس لمملكته عاصمة من أفخر العواصم، وهو ابن خمس عشرة سنة، لم يؤسس العرب مدينة أحسن منها مناخاً ولا أليق منها بقعة للعمران، ومات بعد أن بلغت دولته العنفوان، وهو ابن ست وثلاثين سنة، وله نظائر في تاريخ المغرب نبغوا مبكرين في مختلف نظاهر الحياة لا نطيل بهم، ومنهم المترجم)

هذا هو الجزء الأخير من تاريخ الصحافة تصنيف الأستاذ فيليب طرزاي أمين داري الكتب والآثار في بيروت، وقد اشتغل في هذا الموضوع الطريف أربعاً وأربعين سنة وصرف فيه مالاً ووقتاً وجهداً حتى تسنى له اقتناء مجموعة من الصحف والمجلات العربية التي صدرت في القارات الخمس منذ عام 1800م إلى عام 1929 وبلغ عدد ما لديه من أعداد هذه الصحف والمجلات وهو يحرص على العدد الأول منها في الغالب - نيفا وثلاثة آلاف ومائتين وخمسين جريدة ومجلة، فكان عدد ما صدر من المجلات في المملكة المصرية منذ تكوين الصحافة إلى سنة 1929: 1398 جريدة ومجلة وعدد ما صدر في بلاد الشام 779 كان من حصة الجمهورية اللبنانية 426 الخ واتضح (أن بعض المدن النائية في أوربا وأمريكا والتي لا ينطق سكانها بالضاد فاقت بعدد جرائدها ومجلاتها كثيراً من عواصم الدول وشهيرات المدن الواقعة في صميم البلدان العربية ويعزى ذلك الى هجرة العدد الوافر من الكتاب في عهد الدولة العثمانية. فقد كانت هذه الدولة تضطهد المفكرين والمثقفين من سكان بلادها وتشدد عليهم وتخاف صرير أقلامهم. ويرجع أكثر الفضل في هذه النهضة الصحافية الميمونة إلى أدباء لبنان الذي نزح منه مئات الألوف إلى تلك الديار العامرة ولاسيما إلى العالم الجديد، ويقع هذا الجزء في 545 صفحة وقد ترجمت أكثر فصوله إلى الإنجليزية ليعمم الانتفاع بهذا الاحصاء، ويستفيد الغربي كما يستفيد

العربي من مضامين الكتاب عند ما يراد الكشف عن جريدة ومعرفة منشئها الأول وتاريخ صدورها والمدنية التي صدرت فيها الى غير ذلك من الفوائد. وفي الحقيقة إن اللبنانيين الأثر المحمود في إصدار الصحف في الشرق والغرب باللغة العربية، وكان للمؤلف الفضل الأوفر في تدوين أعمالهم والتدليل عليها بإحصاءاته المدققة، فله الشكر على هذه العناية وهذا الدؤوب

الأمير فخر الدين المعنى الثاني أعظم أمير عربي قام في النصف الأول من القرن الحادي عشر من الهجرة في جبل لبنان وما إليه من بلاد الشام. وكان واسع المدارك محباً للعمران والحضارة، انتفع بكل قوة وجدها أمامه، وإذ كان حكمه يتناول الدروز والشيعة والسنة والموارنة والروم الأرثوذكس وغريهم من النحل في الساحل الشامي، ويريد أن يرضي كل فريق تبعاً للسياسة التي جرى عليها، اتهمه بعضهم بأنه كان يذهب مذهب الدروز، وفريق بأنه كان نصرانياً، والحقيقة أنه كان مسلماً يرى رأي أهل السنة والجماعة، وكان قد لجأ إلى إيطاليا في أخريات أيامه فأخذ معه إمامه وأنشأ مسجداً ومنارة في البلد الذي نزله حتى أن فتاة له ماتت هناك لم يرض أن يدفنها في أرض

إيطاليا، وحملها معه إلى الشام لما عاد إليها لتدفن في أرض إسلامية. وأهل لبنان يتمجدون بالأمير المعني لأنه حكم النصارى فأحسن إليهم ما وسعه الاحسان، واعتمد في الحكم على بعض نبهائهم يومئذ. ولذلك كان من الواجب تدوين تاريخه، والجمهورية اللبنانية الصغيرة في إبان نشأتها تحاول أن تجعل لها تاريخاً تعتز به، وقد تخلقه خلقاً، فكيف بتاريخ رجل جدير من كل وجه بالتخليد؟ وهذا ما تمحض له زمناً الأستاذ عيسى إسكندر المعلوف، واستطرد في كتابته استطرادات كثيرة حتى جاء كتابه في 446 صفحة، مستنداً فيه إلى مصادر لبنانية وغيرها، باحثاً عما يهم وما لا يهم من الحوادث التي لها مساس بحاكم حكم لبنان من سنة 1590 إلى سنة 1635م، وكان قضى في الآستانة مقتولاً سنة 1045هـ. وقد حَلَّى المؤلف كتابه بصور أثرية قديمة تمثل حالة البلاد في عصر الأمير المعني، وشرح كل ما رآه جديراً بالشرح في الحواشي، فاستحق شكر الباحثين في تاريخ هذا الجزء الصغير من الديار الشامية

محمد كرد علي

العدد 115 - بتاريخ: 16 - 09 - 1935

المسرح المصري

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

أخفق المسرح المصري، أو لم يقم، وهذا أصح، لأن الذين حاولوا هذا الأمر لم يجدوا من يسدد خطاهم، ويأخذ بيدهم، ويشد أزرهم، فخابت مساعيهم، وضاعت عليهم جهودهم وأموالهم، وتخبطوا حيناً، ثم يئسوا وانصرفوا عن أمر لا طائل تحته، ولا محصول وراءه، ولا خير فيه لا لهم ولا للأدب ولا للناس.

ويخطئ من يظن أن الذنب للحكومة وحدها، وأن تقصيرها في بذل العون للمسرح قعد به ثم قضى عليه، ولا ريب أن الحكومة أهملته وتركته للأقدار، حتى طار في النزع، ثم حاولت أن تدركه، ولكن بعد أن تفاقمت العلة وتعضَّلت المداوى، فلم ينفذه المال الذي بذل له، بل أزلفه إلى البوار الذي لم يبق منه مفر، ذلك أن المال لم يكن كل ما بالمسرح فقر إليه، فقد بدأ مستغنياً بنفسه عن مثل هذه المعونة، وكان في أول عهده يلقى من الإقبال والتشجيع ما ينفى عنه الشعور بوجود خلة تتطلب أن تسدّ، ثم فتر الإقبال وانصرف الناس لأنهم لم يجدوا ما يطلبون، وما كان خليقاً أن يؤدي إلى قيام مسرح مصري بالمعنى الصحيح، فقد كان المسرح معنياً بالترجمة والنقل والتمصير، فكان صدى للمسارح الغربية، ولم تكن له صبغة مصرية، وليس عندنا ممثلون في وزن ممثلي الغرب، والحياة المصرية لا تشبه الحياة الغربية إلا في بعض المظاهر المنقولة، ومجتمعنا يقوم على نظم تغاير نظم الغرب من وجوده شتى، على الرغم من كثرة ما أخذنا عنه واقتبسنا منه، وكذلك تختلف الروح والمزاج والطبائع والنزعات. فإنا شرقيون على فرط ما نحاول أن نتغرّب، ومازال صحيحاً أن الشرق شرقٌ، والغرب غربٌ، وأنهما لا يكادان يلتقيان، والشرق مهبط الأديان، والغرب مصانع آلات، والأديان لا تهبط الآن في شرق أو غرب، ولكن مزاج النفوس هو هو، كما كان، في الناحيتين، وتهيؤها واستعدادها واتجاهها، وأسلوبها في تلقي الحياة وتناولها، ولا عبرة بالتعليم أو الجهل في هذا الباب، وإنما العبرة بالروح العامة، قد يزوّرها التعليم ويخفيها أو يسترها، ولكنه لا يستطيع أن يغيرها.

لهذا كان ما يمثل على المسرح المصري من الروايات المترجمة أو الممصرة، لا يستولي على هوى الجمهور، ولا يشعره أن ما يراه يصور حياته كما بدت للكاتب، وبعد أن أفرغ

عليها صبغة الفن، فبقى المسرح غريباً أو أجنبياً وإن كانت لغته العربية حيناً، والعامية أحياناً، صار المرء يؤثر أن يقرأ هذه القصص في الأصل أو بإحدى اللغات التي نقلت إليها، أو أن يشاهد ما يعرض منها في دور السينما.

وقد قطع المسرح - أو باعد على الأقل - ما بينه وبين الأدب، فكانت تلك جناية ليس كمثلها جناية، ألوت به أشد الإلواء، وأتت عليه من قواعده، ولسنا نفرد رجال المسرح أو الأدباء باللوم، فان كلا من هؤلاء يحمل نصيبه، ولعل رجال الأدب قصراً في الاتصال بالمسرح، وعسى أن يكون الذنب للاتجاه العام الذي سار فيه الأدب المصري بعد نهضته الحديثة، فقد كانت العناية كلها - أو جلها - بالشعر والبحث والنقد، ولم تكن القصة تشغل حيزاً في هذه الحلبة الواسعة، ولكن رجال المسرح كانوا أشد تقصيراً،

فقد كانوا يستطيعون أن يحولوا إليهم جدولاً من ذلك النهر الفياض، غير أنهم تهيبوه وأشفقوا من مطالبه، وظنوا في مقدورهم أن يستغنوا عنه، واجروا سفينتهم على العامية فجنحت بهم ولزقت بالأرض، وتحطمت على الصخر.

والعامية لفظة نطلقها هنا على اللغة وعلى أسلوب التناول أيضاً، فنحن نعنى بها الجمل باللغة، والجهل بالروح التي كان يجب أن يستوحيها المسرح، وهو توسع في التعبير نجيزه لأنفسنا في هذا المقام ولا نرى منه بأساً، ولا نخشى معه التباساً، والأدب وحده هو الذي يدخل في وسعه أن يهتدي إلى اللغة المرافقة لقصة المسرح، وهو وحده الذي يستطيع أن يستلهم روح الجماعة، فأما أنه هو الذي يقدر على الأداء الموافق، فلأن الأدب ذوق وبصر وسليقة وعلم وفن، فان لم يكن هذه فهو ليس بأدب، وأما قدرته على الاستيحاء فذاك لأنه فن، والفن ملكة يحصل بها إدراك الحقائق وإبرازها على نحو يصدق على العموم وإن كان يبدو أنه في أمر على الخصوص، ومن هنا فرق ما بينه وبين التجربة، فإنها معرفة بأحوال معينة وخبرة بها تقتصر عليها ولا تتسع حتى تكون شاملة، أما الفن فيتعاق بالحقائق العامة، وهو فطنة، لا علم، وملكة قد تساعدها الخبرة ولكنها لا تخلقها، وذوق تصقله وترهفه المرانة غير أنه لا يكتسب بها، وإن كانت المرانة تفيد الحذق والبراعة.

ولا يقل أحد إن الجماهير لا تقدر الأدب، وإنها يشق عليها أن ترتفع إلى طبقته كما يتعذر عليه أن ترتفع إلى طبقته كما يتعذر عليه هو أن ينزل إليها، فان القول بهذا اجهل وغفلة،

والذي يذهب إلى هذا الرأي إنما ينظر إلى الشكل والعبارة لا إلى الجوهر والموضوع، ثم هو يخلط بين ضروب متباينة من الأدب. نعم، يعسر على الجماهير غير المثقفة أن تنتفع أو تستمتع ببحث أو درس، أو أن تدرك القيمة الحقيقية لقصيدة، وأن تفطن إلى عناصر الجمال أو الجلال أو القوة فيها، ويعييها أن تبين لماذا يطربها الشعر أو يروقها الكلام ويطيب موقعه من نفوسها، أو يؤثر فيها، ولكنها تميز بغريزتها وإن لم تميز بعقلها، وتحس بروحها وإن عزها الاهتداء إلى السبب، والقصة، بعد، شيء لا عناء عليها في فهمه، لأنها حوادث ووقائع قد يكون أو لا يكون وراءها معنى عويص أو فكرة عميقة، على أن الوقوع على المراد لا يعجز الجمهور إذا سيق مساق القصة، وللناس نفوس، وفيهم نظر ولهم إدراك وإحساس إذا لم يكن لهم علم. وأسلوب القصة يسهل التلقف، ويقرب المغاص، وفي وسع القارئ أو المشاهد أن يعرف مبلغ الصدق في التصوير إذا لم يستطيع أن يقطن إلى دقائق الفن، كما يعجب بالصورة ويشهد لها بالصدق في التعبير، والقوة في النطق، وإن غابت عنه المزايا الفنية التي لا يراها أولا يستطيع الحكم عليها إلا أهل هذا الفن والعارفون به.

وقد تم هدم المسرح لما ظهرت السينما الناطقة، لأن مجالها أرحب، وميدانها لا تكاد تحصره الحدود، وقد تضعضع المسرح في أوربا من جرائها، فلا بدع أن قوضته في مصر، وهو هناك يعانى منها البرح، فغير مستغرب أن يدركه هنا الفناء، وعسير بعد السينما الناطقة أن يقوم في مصر مسرح إلا في ظل الحكومة وبمالها ورعايتها، ولكنه لا خير في هذه الرعاية إذا لم يقض عليه القائمون به الصبغة المصرية، ولم يخلعوا عنه ذلك الثوب المستعار الذي انتهى بأن صار كفناً له، وقد صار أمل المسرح المصري معقوداً الآن برجلين أثنين يتوليانه: حافظ عفيفي باشا، والشاعر خليل مطران، فإذا خاب هذان، فلست أرى أملاً للمسرح وراءهما.

وقد كانت عناية الحكومة - إلى الآن - بالأوبرا دون غيرها، وصحيح أنها اعتادت في السنوات الأخيرة أن تمنح الفرق إعانات، وأن تبذل للممثلين مكافآت، ولكن الإعانة كانت ضئيلة لا تغنى، والمكافأة كانت زرية، وكان الأسلوب الذي تجري عليه وزارة المعارف في منحها لا يخلو من استهان لكرامة الممثل. على أن هذا كله لم يكن إلا ستراً لجودها

على الأوبرا، وليست الأوبرا مصرية، ولا التمثيل فيها بلغتنا، ولعل مصر هي الدولة الوحيدة التي تبنى داراً للأوبرا لتستقدم إليها فرقاً من أمم شتى تمثل بلغاتها ويضمن لها الربح، وإن كان أبناء البلاد لا يذهبون إليها ولا يشهدون ما يمثل على ملعبها. وهو تكلف شديد انفرادنا به، ولا غاية منه إلا أن تجد السياح حين يفدون داراً للأوبرا، عامرة بمثل ما ألقوه في ديارهم، ولو أن هذه الأوبرا كانت مصرية والتمثيل فيها كذلك، لكان

هذا أبعث على سرور السياح، لأنهم لا يجيئون إلى بلادنا ليروا فيها ما يرون في بلادهم، بل ليطلعوا على ما عندنا نحن، مما لعنا تميزّنا به وخالفناهم فيه، ولو وثقوا أن ما عندنا ليس إلا صورة لما تركوه لما جشموا أنفسهم عناء السفر ومشقات الرحلة ونفقاتها.

وليت الفرق التي نبذل لها المال لنفاخر بها من الطراز الأول! والغريب بعد ذلك أن الفرق المصرية كانت تذاد عن دار الأوبرا إلا في الندرة القليلة والفلتات المفرده. وهذا حال يجب أن يقلب ليعتدل، وعار ينبغي أن يغسل عنا، ومهزلة يجب أن تقصر الحكومة عنها، وإلا صح فينا بعد ألف سنة أننا أمة تضحك من جهلها الأمم.

إبراهيم عبد القادر المازني

ثباتُ الأخلاق

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

لو أنني سئلت أن أُجمل فلسفة الدين الإسلاميَّ كلها في لفظين، لقلتُ أنها: ثبات الأخلاق، ولو سئل أكبر فلاسفة الدنيا أن يوجز علاج الإنسانية كله في حرفين، لما زاد على القول إنه ثباتُ الأخلاق، ولو أجتمع كلُّ علماء أوربا ليدرسوا المدنية الأوربية ويحصروا ما يعوزها في كلمتين لقالوا: ثباتُ الأخلاق.

فليس ينتظرُ العالمُ أنبياء ولا فلاسفةً ولا مصلحين ولا علماء يبدعون له بدعاً جديداً، وإنما هو يترقب من يستطيع أن يفسر له الإسلام هذا التفسير، ويثبتَ للدنيا أن كل العبادات الإسلامية هي وسائل عمليةٌ تمنع الأخلاقَ الإنسانية أن تتبدّل في الحي فيخلع منها ويلبس، إذا تبدلت أحوال الحياة فصعدت بإنسانها أو نزلت، وأن الإسلام يأبى على كل مسلم أن يكون إنسان حالته التي هو فيها من الثروة أو العلوم، ومن الارتفاع أو الضعة، ومن خمول المنزلة أو نباهتها، ويوجب على كل مسلم أن يكون إنسان الدرجة التي انتهى إليها الكونُ في سموّه وكماله، وفي تقلبه على منازلة بعد أن صفى في شريعة بعد شريعة، وتجربة بعد تجربة، وعلم بعد علم.

انتهت المدنيةُ إلى الأخلاق بتبدل أحوال الحياة، فمن كان تقياً على الفقرة والإملاق وحرمه الإعسارُ فنون اللذة، ثم أيسر من بعدُ، جاز له أن يكون فاجراً على الغنى، وأن يتسمح لفجوره على مدَّ ما يتطوع به المال، وإن أصبح في كل دينار من ماله شقاءُ نفس إنسانيةٍ أو فسادُها.

ومن ولد في بطن كوخ، أو على ظهر الطريق، وجب أن يبقى أرضاً إنسانية، كأن الله سبحانه لم يبن من عظامه ولحمه وأعصابه إلا خربة آدمية من غير هندسة ولا نظام ولا فن. . . ثم يقابله من ولد في القصر أو شبه القصر فله حكم آخر، كأن الله سبحانه قد ركب من عظمه ودمه وتكوينه آية هندسة، وأعجوبة فن، وطرفة تدبير، وشيئاً مع شيء، وطبقة على طبقة ولكن الإسلام يقر ثبات الحلق ويوجبه وينشئ النفس عليه، ويجعله في حياطة المجتمع وحراسته، لأن هناك حدوداً في الإنسانية تتميز بحدود في الحياة، ولا بد من الضبط في هذه وهذه، حتى لا يكون وضعٌ إلا وراءه تقدير، ولا تقديرٌ إلا معه حكمة، ولا

حكمة إلا فيها مصلحة، وحتى لا تعلوا الحياة ولا تنزل إلا بمثل ما ترى من كفتى ميزان شدَّتا في علاقة تجمعهما وتحركهما معاً، فهي بذاتها هي التي تنزلُ بالنازل لتدلَّ عليه وتشيل بالعالي لتبين عنه. فالإسلام من المدنية، هو مدنية هذه المدينة.

إنها لن تتغيرَ مادة العظم واللحم ولدم في الإنسان فهي ثابتة مقدَّرة عليه، ولن تتبدل السنن الإلهية التي توجدها وتفنيها فهي مصرَّفة لها قاضيةٌ عليها، وبين عمل هذه المادة وعمل قانونها فيها، تكون أسرارُ التكوين، وفي هذه الأسرار تجد تاريخ الإنسانية كلة سابحاً في الدم.

هي الغرائز تعمل في الإنسانية عملَها الإلهي، وهي محدَّدة محكمةٌ على ما يكون من تعاديها واختلاف بينها، وكأنها خُلقت بمجموعها لمجموعها. ومن ثم يكون الخلق الصحيح في معناه قانوناً إلهياً على قوة كقوة الكون وضبط كضبطه. وبهذه القوة وهذا الضبط يستطيع الخلق أن يحوَّل المادة التي تعارضه إذا هو أشتد وصلب، ولكنه يتحول معها إذا هو قوةُ الفصل بين ضعف. فهو قدرٌ إلا أنه في طاعتك، إذ هو قوة الفصل بين إنسانيتك وحيوانيتك، كما أنه قوة المزج بينهما، كما أنه قوة التعديل فيهما. وقد سوَّع القدرة على هذه الأحوال جميعاً، ولولا أنه بهذه المثابة لعاش الإنسان طول التاريخ قبل التاريخ، إذ لن يكون له حينئذ كونٌ تؤرخ فضائله أو رذائله بمدح أو ذم.

فلا عبرة بمظهر الحياة في الفرد، إذ الفردُ مقيدٌ في ذات نفسه بمجموع وليس له وحده. فانك ترى الغرائز دائبة في إيجاد هذا الفرد لنوعه بسننٍ من أعمالها، ودائبةً كذلك في إهلاكه في النوع نفسه بسنن أخرى. فليس قانونُ الفرد إلا أمراً كما ترى، وبهذا يمكن أن يتحول الفرد على أسباب مختلفة. ثم تبقى الأخلاق التي بينه وبين المجموع ثابتةً على صورتها. فالأخلاقُ على أنها في الأفراد هي في حقيقتها حكمُ المجتمع على أفراده، فقوامها بالاعتبار الاجتماعيّ لا غير.

وحين يقع الفسادُ في المجْمع عليه من آداب الناس، ويلتوي ما كان مستقيماً، وتشتبه العاليةُ والسافلة، وتطرحُ المبالاة بالضمير الاجتماعي، ويقوم وزن الحكم في اجتماعهم على القبيح والمنكر، وتجري العبرة فيما يعتبرونه بالرذائل والمحزمات، ولا يعجبُ الناسَ إلا ما يفسدهم، ويقع ذلك منهم بموقع القانون ويحلَّ في محل العادة، فهناك لا مساكَ للخلق السليم.

على الفرد، ولا بد من تحول الفرد في حقيقة إذ كان لا يجئ أبداً إلا متصدعاً في كل مظاهره الاجتماعية، فأينما وقع من أعمال الناس جاء مكسوراً أو مثلوماً، وكأنه منتقلٌ من عالم إلى عالم ثانٍ بغير نواميس الأول.

وما شذّ من هذه القاعدة إلا الأنبياء وأفراد من الحكماء، فأما أولئك فهم قوة التحويل في تأريخ الإنسانية لا يبعث أحدهم إلا ليهيج به الهيج في التاريخ، ويتطرق به الناس إلى سبل جديدة كأنما تطردهم إليها العواصف والزلازل والبراكين، لا شريعته ومبادئه وآدابه. وأما الحكماء الناضجون فهم دائماً في هذه الإنسانية أمكنةٌ بشريةٌ محصنة لحفظ كنوزها وإحرازها في أنفسهم، فلهم في ذات أنفسهم عصمةٌ ومنصة كالجبال في ذات الأرض.

الأخلاقُ في رأي هي الطريقة لتنظيم الشخصية الفردة على مقتضى الواجبات العامة، فإصلاح فيها إنما يكون فيها من عمل هذه الواجبات، أي من ناحية المجتمع والقائمين على حكمه. وعندي أن للشعب ظاهراً وباطناً، فباطنه هو الدينُ الذي يحكم الفرد، وظاهره هو القانونُ الذي يحكم الجميع، ولن يصلح للباطن المتصل بالغيب، إلا ذلك الحكم الديني المتصلُ بالغيب مثله، ومن هنا تتبينُ مواضع الاختلال في المدينة الأوربية الجديدة، فهي في ظاهر الشعب دون باطنه، والفردُ فاسدٌ بها في ذات نفسه إذا هو تحليل من الدين، ولكنه مع ذلك يبدو صالحاً منتظماً في ظاهره الاجتماعيّ بالقوانين وبالآداب العامة التي تفرضها القوانين، فلا يبرح هازئا من الأخلاق ساخراً بها لأنها غير ثابتة فيه، ثم لا تكون عنده أخلاقاً يعتدَّ بها إلا إذا درت بها منافعه وإلا فهي ضارةٌ إذا كانت منها مضرة، وهي مؤلمة إذا حالت دون اللذات. ولا ينفكُّ هذا الفرد يتحول لأنه مطلق في باطنه غير مقيدُ إلا بأهوائه ونزعاته، وكلمتا الفضيلة والرذيلة معدومتان في لغة الأهواء والنزعات إذ الغايةُ المتاعُ واللذة والنجاحُ، وليكن السببُ ما هو كائن. . . .

وبهذا فلن تقوم القوانين في أوربا إذا فني المؤمنون بالأديان فيها أو كاثرهم الملحدون، وهم اليوم يبصرون بأعينهم ما فعلت عقلية الحرب العظمى في طوائف منهم قد خرجت أنفسهم من إيمانها فتحولوا ذلك التحول الذي أومأنا إليه، فإذا أعصابهم بعد الحرب ما تزال محاربةً مقاتلة ترمى في كل شيء بروح الدم والأشلاء والقبور والتعفُّن والبلى. . . . وانتهت الحربُ بين أمم وأمم، ولكنها بدأت بين أخلاق وأخلاق.

وقديماً حارب المسلمون، وفتحوا العالم، ودوّخوا الأمم، فأثبتوا في كل أرض هدى دينهم وقوة أخلاقهم الثابتة، وكان من وراء أنفسهم في الحرب ما هو ورائها في السَّلم، وذلك بثبات باطنهم الذي لا يتحول، ولا تستخفه الحياةُ بنزقها، ولا تتسفّهُه المدنيات فتحمله على الطيش.

ولو كانوا هم أهل هذه الحرب الأخيرة بكل ما قذفت به الدنيا، لبقيت لهم العقليةُ المؤمنةُ القوية، لأن كل مسلم فإنما هو وعقليتهُ في سلطان باطنه الثابت القارَّ على حدود بينةٍ محصلة مقسومة تحوطُها وتمسكها أعمال الأيمان التي أحكمها الإسلام أشد إحكام بفرْضها على النفوس منوعة مكررة كالصلاة والصوم والزكاة ليمنع بها تغيراً ويحدث بها تغيراً آخر، ويجعلها كالحارسة للإرادة ما تزال تمرُّ بها وتتعهدها بين الساعة والساعة.

إنما الظاهرُ والباطنُ كالموج والساحل، فإذا جنَّ الموج فلن يضيره ما بقى الساحلُ

رَكيناً هادئاً مشدوداً بإعضاده في طبقات الأرض. أما إذا ماج الساحل. . . فذلك أسلوب آخر غير أسلوب البحار والأعاصير، ولا جرمَ ألا يكون إلا خسْفاً بالأرض والماء وما يتصل بهما.

في الكون أصلٌ لا يتغير ولا يتبدل، هو قانون ضبط القوة وتصريفها وتوجيهها على مقتضى الحكمة. ويقابلهُ في الإنسان قانون مثله لا بد منه لضبط معاني الإنسان وتصريفها وتوجيهها على مقتضى الكمال. وكل فروض الدين الإسلاميّ وواجباته وآدابه، إن هي إلا حركةُ هذا القانون في عمله، فما تلك إلا طرقُ ثابتة لخلق الحسّ الأدبيّ. وتثبيته بالتكرار، وإدخاله في ناموس طبيعيّ بإجرائه في الأنفس مجرى العادة، وجعله بكل ذلك قوة في باطنها، فتسمى الواجبات والآداب فروضاً دينية، وما هي في الواقع إلا عناصرُ تكوين النفس العالية، وتكون أوامر وهي حقائق.

من ذلك أرانا نحن الشرقيين نمتاز على الأوربيين بأننا أقربُ منهم إلى قوانين الكون، ففي أنفسنا ضوابطُ قوية متينة إذا نحن أقررنا مدنيتهم فيها - وهي بطبيعتها لا تقبل إلا محاسنَ هذه المدنية - سبقناهم وتركنا غبارَ أقدامنا في وجوههم، وكنا الطبقة المصفاةَ التي ينشدونها في إنسانيتهم الراهنة ولا يجدونها، ونمتاز عنهم من جهة أخرى بأننا لم ننشئ هذه المدينة ولم تنشئنا، فليس حقاً علينا أن نأخذ سيئاتها في حسناتها، وحماقتها في حكمتها، وتزويرها في حقيقتها، وأن نسيغ منها الحلوة والمرة، والناضجة والفجةُ، وإنما نحن نحصّلها ونقتبسها

ونرتجع منها الرجعةَ الحسنة، فلا نأخذ إلا الشيء الصالح مكان الشيء قد كان عندنا وندع ما سوى ذلك، ثم لا نأخذ ولا ندع إلا على الأصول الضابطة في أدياننا وآدابنا، ولسنا مثلهم متصلين من حاضر مدنيتهم بمثل ماضيهم. بيد أن العجب الذي ما يفرغ عجبي منه أم الموسومين منا بالتجديد لا يحاولون أول وهلةٍ وآخرها غلا هدمَ تلك الضوابط التي هي كل ما نمتازُ به، والتي هي كذلك كل ما تحتاج إليه أوربا لضبط مدينتها، ويسمون ذلك تجديداً، ولهو بأن يسمى حماقةً وجهلاً أولى وأحق.

أقول ولا أبالي: إننا ابتلينا في نهضتنا هذه بقوم من المترجمين قد احترفوا النقلَ من لغات أوربا، ولا عقل لهم إلا عقلُ ما ينقلونه، فصنعتهم الترجمة من حيث يدرون أو لا يدرون صنعة تقليدٍ محضٍ ومتابعةٍ مستعبدةٍ، وأصبح عقلهم بحكم العادة والطبيعة، إذا فكرَّ انجذب إلى ذلك الأصل لا يخرج عليه ولا يتحول عنه. وإذا صح أن أعمالنا هي التي تعلمنا كما يقول بعض الحكماء، فهم بذلك خطر أي خطر على الشعب وقوميته وذاتيته وخصائصه، ويوشك هو أطاعهم إلى كل ما يدعون إليه أن. . . أن يترجموه إلى شعب آخر. . . .

إن أوربا ومدنيتها لا تساوى عندنا شيئاً إلا بمقدار ما تحقق فينا من اتساع الذاتية بعلومها وفنونها، فإنما الذاتية وحدها هي أساس قوتنا في النزاع العالميّ بكل مظاهره أيها كان؛ ولها وحدها، وباعتبار منها دون سواها، نأخذ ما نأخذه من مدنية أوربا ونهمل ما نهمل، ولا يجوز أن نترك التثبت في هذا ولا أن نتسامح في دقة المحاسبة عليه.

فالمحافظة على الضوابط الإنسانية القوية التي هي مظاهر الأديان فينا، ثم إدخالُ الواجبات الاجتماعية الحديثة في هذه الضوابط لربطها بالعصر وحضارته، ثم تنسيق مظهر الأمة على مقتضى هذه الواجبات والضوابط، ثم العملُ على اتحاد المشاعر وتمازجها لتقويم هذا المظهر الشعبيّ في جملته بتقويم أجزائه. هذه هي الأركانُ الأربعة التي لا يقوم على غيرها بناءُ الشرق.

والحاد والنزعات السافلة وتخانيث المدنية الأوربية التي لا عمل لها إلا أن تظهر الخطر في أجمل أشكاله. . . ثم الجهلُ بعلومالقوة الحديثة وبأصول التدبير وحياطة الاجتماع وما جرى في هذا المجرى. ثم التدليس على الأمة بآراء المقلدين والزائفين والمستعمرين لمحق الأخلاق الشعبية القوية، وما اتصل بذلك. ثم التخاذل والشقاق وتدابر الطوائف وما كان

بسبيلها. تلك هي المعاول الأربعة التي لا يهدم غيرُها بناءَ الشرق.

فليكن دائماً شعارنا نحن الشرقيين هذه الكلمة: أخلاقنا قبل مدنيتهم

(طنطا)

مصطفى صادق الرافعي

طب النفس

للأستاذ أحمد أمين

لست أدري لماذا يؤمن الناس أشد الأيمان بمرض أجسامهم، ولا يؤمنون بمرض نفوسهم، فإذا شعر أحدهم بمرض جسمي أسرع إلى الطبيب يصف له أعراضه، ويستوصفه دواءه، وينفذ أوامر مهما دقت، ويبذل في ذلك الأموال مهما جلّت، ثم هو يمرض نفسياً، فلا يأبه لذلك، ولا يعيره عناية، ولا يستشير طبيباً نفسياً، ولا يعني بدرس الأعراض ومعرفة الأسباب، وقد يلح عليه مرض النفس، ويصل به إلى اليأس، فلا يسمى لعلاج، ولا تجد في معرفة دواء، كأن نفسه أهون عليه من جسمه، وروحه أتفه من بدنه.

ومن أجل عناية الناس بأجسامهم دون نفوسهم، كان لدينا نظام شامل واف لطب الأجسام دون طب النفوس، فمدرسة لتخريج الأطباء حتى للطب البيطري، ومعاهد للتشريح والتجارب، وتخصصُ في الأمراض، فهذا طبيب عين، وهذا طبيب أنف وحنجرة، وهذا طبيب أسنان، وهذا طبيب باطني الخ، وكان لكل حيَّ طبيب أو أطباء، ولكل مدرسة طبيب، وفي الأمم الراقية لكل أسرة طبيب، ووجدت المستشفيات في أنحاء الأقطار، وعدها الناس عملاً خيرياً يتبرعون لها بأموالهم، كما عدتها الحكومة ضرورة اجتماعية ترصد لها الأموال في ميزانياتها، وأنشئت الصيدليات في كل حي وكل شارع لتلبية طلبات الأطباء والجماهير في كل وقت إسعافاً للجسم في مرضه وفي ترفه.

وخضعت هذه النظم لسنة الارتقاء، فهي تساير الزمان، وتستفيد مما يؤدي إليه البحث والعلم، وتتكيّف حسب ما تقتضيه الأحوال، وتجهز بأحدث المخترعات.

والعقل عنى بعض هذه العناية، فكان أطباء للأعصاب، ومستشفيات للمجاذيب، وبحوث وتجارب في أمراض العقل وعلاجه أما النفس فحظها من ذلك كله حظ الأرنب بجانب الأسد، فلا الناس يقدرون خطورة أمراظها، ولا تنشأ المدارس لأطبائها، ولا تؤسس المستشفيات لعلاجها.

مع أني أعتقد أن آلام الناس مكن نفوسهم أكثر من آلامهم من جسومهم، وإضرار المجتمعات من مرضى النفوس تفوق أضرارها من مرضى الجسوم، وللنفس أمراض لا حصر لها، تختلف كاختلاف أمراض الجسم إلى مرض عين ومرض معدة ومرض أمعاء،

فهناك حميات نفسية متعددة كحميات الأجسام، وهناك تسمم نفسي يشبه التسمم الجسمي، وهناك ميكروبات نفسية كالميكروبات المادية، وهناك عدوى بها تصيب النفوس كعدوى الأجسام - وهناك انفعالات تحرق النفس وتضني البدن إلى آخر ما هنالك، ولكل هذه الأمراض علاجات تختلف باختلاف المرض وباختلاف الشخص ولها أدوية من جنسها، منها ما يسكن الألم، ومنها ما يشفي المرض - وهي في دراستها وتشخيصها وعلاجها أدق وأصعب منالاً وأغمض كشفاً، والفرق بينها وبين أمراض الجسم وعلاجه كالفرق بين الجسم والنفس.

فما أحوجها إلى أطباء مهرة، ومستشفيات صالحة معدة ودراسات عميقة منتجة، ونظم في ذلك ترقى مع الزمان رقي طب الأجسام.

لعل الذي صرف الناس عن علاج نفوسهم إلى علاج جسومهم أنهم أو الكثير منهم لا يزالون يسبحون في دائرة الحس وحده، ولم يرتقوا إلى ملاحظة النفوس وشؤونها، فإذا جرح الإنسان جرحاً بسيطاً في جسمه هرع إلى الطبيب يعالجه ويحتاط له، وإذا كسر عظمه ذهب إلى الطبيب ليجبر كسره، ولكن إذا جرحت نفسه ولو جرحاً عميقاً، وكسرت ولو كسراً خطيراً احتمل الألم من غير بحث عن علته أو نتائجه أو طرق مداواته لأنه لا يزال مادياً في إدراكه أولياً في تفكيره.

أو لعل السبب أن الناس لا يؤمنون بأطباء النفوس إيمانهم بأطباء الأجسام، فهم لا يعتقدون في صلاحيتهم، ويشكون كل الشك في قدرتهم على علاجهم، فيستسلمون للمرض النفسي كما يستسلمون لمرض جسمي استحال شفاؤه، ولم يستكشف دواؤه، إن كان هذا فعلى الطب النفسي أن يثبت أن قدرته، ويبرهن على نجاحه حتى يقبل الناس عليه ويؤمنوا به.

وقد يكون السبب أن الناس يؤمنون بسهولة أمراض النفس وقدرتهم على علاجها

والإشتفاء من غير طبيب، فما عليه إن كان حزيناً إلا يضحك، أو منقبضاً إلا أن يتسلى، وهذا خطأ بين؛ فأمراض النفوس كأمراض الجسم فيها ما يداوى بحمية وفيها ما يستعصي على الطبيب الماهر والخبير الحاذق.

لعلك تزعم أن هذه الناحية من طب النفوس لم تهمل بتاتاً فهنالك المدارس للتهذيب، فيها إصلاح النفوس وفيها دروس الدين والأخلاق لمعالجة الأمراض، وهناك الوعّاظ لإرشاد

الناس وعلاج النفس، وهناك العرف والقوانين توجه الناس إلى الخير وتجذرهم من الشر، وفي تهذيب لنفسهم وإصلاح لجوانب الشر فيهم.

ولكن يظهر لي أنها كلها مع فائدتها لا تكفي، لأنها - من ناحية - تكاد تكون علاجاً عاماً يقال لكل الأشخاص، وتخاطب بها كل النفوس، كالطبيب يذكر ضرر الإفراط في الأكل، وأضرار كثيرة التدخين، وفائدة الرياضة البدنية، وفائدة الاعتدال في المأكل والمشرب، وهي قل أن تتعرض للأزمات النفسية الخاصة بكل نفس وما أحاط بها من ظروف خاصة، ونوع النفس وما يلزم لها من علاج خاص بها، هي أقرب ما تكون إلى الوقاية لا إلى العلاج، وللاحتياط من الوقوع في المرض لا لعلاج المرض، فإن تعرضت لعلاج وصفت علاجاً عاماً للناس على السواء، إذ ليس في استطاعتها - غالباً - أكثر من ذلك.

ومن ناحية أخرى أكثر ما بأيدينا منها اليوم يؤسس على ما وصل إليه العلم الحديث، ولم يبن على ما أستكشف من قوانين علم النفس على قلة ما أستكشف منها، فالدراسة الحديثة أبانت عن اتجاهات كانت غامضة، وأخطاء كانت ترتكب في تصور النفس وإدراكها وجرائمها وطرق تهذيبها، ولا يزال علماء النفس يقومون في أول مراحلهم، ولم يقولوا في النفس إلا الكلمة الأولى، فكان من المعقول أن يساير التهذيب ودراسة الأخلاق وعلاج النفس ما وصل إليه علم النفس وعلم الاجتماع، كما يساير علم طب الأجسام ما يستكشف من مخترعات. فآلات الجراحة اليوم غيرها بالأمس، والمادة الطبية اليوم غيرها بالأمس، والمادة الطبية اليوم غيرها بالأمس وهكذا ولكن ذلك لم يكن.

وربما كان أقرب المناحي إلى طب النفس منحى الصوفية، فقد كان لكل مريد شيخه يفضي إليه بدخائل قلبه وأزمات نفسه، ووسائسه وخطراته وآلامه وتوجهاته، والشيخ يصف لكل مريد ما يراه أنسب له وأقرب لعلاجه، ويصف له طرقاً يسلكها واتجاهات يتجهها وأوراداً يتلوها، يرى أنها تشفى مرضه، وتبرئ نفسه، وله في كل مريد نظرته وفراسته، بها يشخص وبها يصف، ولكن تكاد تقتصر هذه الحالة بين المريد والشيخ على الأزمات الدينية، أما ما عدا ذلك من أزمات دنيوية واجتماعية، فقلما يتناولها المريد والشيخ، على أنه، من لكل مريد بهذا الشيخ الدقيق النظر الصائب الفكر الصادق الفراسة الموفق في تبيُّن المرض ومعرفة العلاج.

وإذا عدمنا مثل هذا الشيخ وحرمت مجتمعاتنا من نظم وافية شاملة للطب النفسي كالنظم الوافية الشاملة للطب الجسمي فلا أقل من أن نوجه النظر إلى أن يعنى كل شخص بناحيته النفسية عناية لا تقل عن عنايته الجسمية. فضحايا أمراض النفوس كثيرون، وصرعى المرض لا يحصون، والالتفات إلى فتك هذا النوع من الأمراض ضعيف فاتر - فهناك صرعى الخوف من الموت ومن الفقر ومن الرؤساء، وهناك صرعى الشك في الدين وفي الحياة وقيمتها وفي كل ما يحيط بهم مما في الأرض وما في السماء، وهناك صرعى الحزن لا يسرهم شيء في الحياة، ويودون أن يبكوا دائماً ويسودون كل منظر يرونه، ويحزنون عند ما يحزن الناس ويحزنون عند ما يضحك الناس، فإذا عدموا أسباب الحزن حلقوها حتى من أعمق منابع السرور - وهكذا تتعدد الصرعى كصرعى السل والسرطان وما إليها - يبدوا فيهم مكروب النفس صغيراً ثم ينمو شيئاً فشيئاً حتى يفترسهم، ثم من العجيب ألا يتوجهوا قليلاً ولا كثيراً إلى قتلها قبل أن تقتلهم وهزيمتها قبل أن تهزمهم، كأنهم يظنون أن المرض فوق أن يعالج والأمر أيأس من أن يفكر فيه.

لأمراض النفس أسباب عدة: من حالة صحية، وبيئة اجتماعية، وبذور ميكوربات تسرب إليها من كتب قرأتها، ومقالات طالعتها، وأحاديث سمعتها، ومناظر رأتها إلى غير ذلك، ولعل أهم مرض نفسي يصيب طائفة المثقفين سببه أنهم لا يريدون أن يكونوا أنفسهم

ويريدون أن يكونوا غيرهم.
لقد خلقت النفوس البشرية متشابهة في بعض جهاتها، مختلفة في بعض جهاتها، شأنها في ذلك شأن الوجوه، فكل وجه فيه عينان وأنف بين العينين وفم تحت الأنف وذقن تحت الفم ولكن مع هذا الاشتراك لكل إنسان وجهه الخاص به لا يشاركه فيه غيره، وكذلك النفوس تشترك في اللذة والألم، وتشترك في أهم منابع اللذة ومنابع الألم وتشترك في الغرائز الأساسية وما إلى ذلك، ومع هذا فلكل إنسان نفسه الخاصة، لا يساويها في جميع وجوهها غيرها.
ومما ألاحظه أن كل إنسان إن سارت على فطرتها، وعرفت أن تتغذى بما يناسبها، وطلبت لها مثلاً أعلى يتفق وطبيعتها، عاشت في الأغلب راضية مطمئنة، فان فطرتها وحاولت أن تكون غيرها أظلمت وأصابها الحزن والقلق والاضطراب، وفقدت سعادتها وهناءها،
واطمئنانها ورضاءها، ومحال أن تنال ما يخالف فطرتها، كما هو محال أن يكون الوجه الأسود أبيض، أو الأبيض أسود، أو الطويل قصيراً، أو القصير طويلاً.
يسعد الإنسان إذا عرف طبيعته وحدوده التي يستطيع أن يصل إليها، ونوع الرقى الذي يمكن أن يبلغه، فان حاول أن يكون غير ذلك كان في الحياة (ممثلاً) لا يعيش عيشته الطبيعية، فهو فقير يمثل دور ملك، وصعلوك يمثل دور وزير، وطفل يمثل شيخاً هرماً، ورجل يمثل دور امرأة، ومحال أن يوائم بين نفسه الحقيقية والدور الذي يمثله إلا بمقدار ما يظهر على المسرح، فان هو حاول أن يطيل ذلك بعد دوره فجزاؤه الهزؤبه، والسخرية منه، وقلق نفسه، واضطراب شأنه.
فأكثر أسباب اضطراب المثقف ناشئ من أنه غبي يريد أن يكون ذكياً، أو ميال بطبعه إلى العزلة والانكماش، يريد أن يكون وجيهاً شهيراً، أو عالم يريد أن يكون أديباً، أو أديب يريد أن يكون وقحاً، أو متزن نواحي العقل يريد أن يكون نابغاً شاذاً الخ. فهو يحاول، ثم يفشل ويفشل، لأنه يكلف النفس ضد طباعها، وهذا الفشل يهز نفسه هزة عنيفة تسبب له القلق الروحي والاضطراب النفسي، هو بذلك يريد أن يكون إنساناً صناعياً وهو مخلوق إنساناً طبيعياً، فالتوفيق محال، فخير نصيحة لهذا وأمثاله أن تقول له: (كن نفسك، ولا تنشُد إلا مثلك).
أحمد أمين
أقطاب الرواية المصرية
عز الملك المسبحي جندي ومؤرخ وسياسي
للأستاذ محمد عبد الله عنان
كان المسبحي رجل حرب ورجل قلم، وكان سيل أسرة حّرانية نزحت إلى مصر قبل قيام الدولة الفاطمية، واستوطنت مصر وسطعت فيها؛ وكان إحدى هاته الشخصيات القوية البارزة التي كانت الدولة الفاطمية أبان قوتها وفتوتها تحشدها حولها، وتوليها ثقتها وعطفها، وتؤثر أن تختارها من غير المصريين البلديين. بيد أن المسبحي كان مصرياً بمولده، مصرياً بتربيته وبيئته، وقد خصص حياته ومواهبه الممتازة لدراسة مصر وأحوالها وتاريخها، ولو لم يذهب الزمن بآثاره ولا سيما بموسوعته الضخمة عن تاريخ مصر، لكان بين يدينا الآن أعظم أثر عن مصر وتاريخها في المرحلة الأولى من الحكم الفاطمي، أعني مرحلة العظمة والبهاء.
ولد المسبحي بمصر حسبما ذكر في تاريخه ونقل إلينا الرواة المتأخرون في العاشر من رجب سنة ست وستين وثلثمائة (977م)، وهو الأمير المختار عز الملك محمد بن عبد الله ابن أحمد بن إسماعيل المعروف بالمسبحي، ولم نعثر على تفاصيل عن حياته الأولى ولا تربيته وتكوينه، ولكن يبدو لنا من آثاره التي نسبت إليه، والتي انتهت إلينا شذور منها أنه تلقى ثقافة أدبية علمية واسعة متعددة النواحي، كذلك يظهر أن المسبحي بدأ حياته العامة جندياً ورجل ادارة، لأنه كان يرتدي زي الجند، ولأنه تقلد بعض المناصب الإدارية الهامة، وقد ذكر لنا المسبحي في تاريخه أيضاً، أن اتصاله بخدمة الحاكم بأمر الله يرجع إلى سنة 398هـ، بيد أنه تقلب قبل ذلك في بعض الوظائف الهامة، فتقلد أعمال القيس والبهنسا من أعمال الصعيد ثم تولى ديوان الترتيب وهو يومئذ من مناصب الوزارة الهامة، ثم اصطفاه الحاكم بأمر الله وعينه في بطانته الشخصية في سنة 398هـ وكان الحاكم يومئذ فتى في نحو الثالثة والعشرين

من عمره، ولكنه كان في ذروة القوة والسلطان والبطش، وكانت هذه الفترة بالذات من أروع فترات حكمه، وفيها فتك بكثير من الوزراء ورجال الدولة (سنة 395 - 400هـ) ويروى لنا المسبحي نفسه في تاريخه طائفة من الحوادث الدموية التي شهدها في هذا العهد، وكان الحاكم دائم الفتك بالزعماء والكبراء لأسباب تتصل بسياسته العامة أو لريب ومخاوف تساوره، ولكن المسبحي تبوأ لدى الحاكم مركزاً من النفوذ والثقة لا تتطاول إليه الشكوك والريب، ولا تتجه إليه النقمة الغادرة، بل يظهر أن المسبحي كان من أخص خواص الحاكم، حسبما تدلى به الواقعة الآتية التي يرونها لنا في تاريخه، قال:

قال لي الحاكم، وقد جرى والده العزيز: يا مختار، استدعاني والدي قبل موته، وهو) عاري الجسم، وعليه الخرق والضماد، قال فاستدعاني وقبلني وضمني إليه وقال: وأغمى عليك يا حبيب قلبي ودمعت عيناه، ثم قال: امض يا سيدي فالعب فأنا في عافية. قال الحاكم: فمضيت والتهيت بما يلتهي به الصبيان من اللعب إلى أن نقل الله (تعالى العزيز إليه.

ويقول لنا ابن خلكان إن المسبحي نال لدى الحاكم حظوة وسعادة، وإنه كانت له مع الحاكم مجالس ومحاضرات حسبما يشهد بها تاريخه الكبير، وتبدو دلائل هذه الصداقة التي توثقت عراها بين الحاكم والمسبحي في كثير مما يرونه المؤرخ في تاريخه وينقله عنه الكتاب المتأخرون مثل المقريزي وابن تغرى بردى عن عصر الحكام بأمر الله، وعن أحواله وتصرفاته الشخصية، ففي كثير من هذه المواطن يبدو المسبحي الصديق المخلص والمستشار الأمين.

وهذه حقيقة تلفت النظر، فإن الحاكم كان أميراً خطر النزعات عنيف الأهواء، وقلما نجا من نقمته أحد من رجال الدولة الذين خدموه. بيد أن الذهبي يقدم إلينا في تاريخه تعليلاً لهذه الظاهرة، هو أن المسبحي كان رافضياً. والروافض فرقة من غلاة الشيعة تغلو في حب علي بن أبي طالب وفي بغض أبي بكر وعثمان ومعاوية ومن إليهم، وقد اختلفت في سبب تسميتهم بالروافض. وهنا نلمس سر هذه الصداقة التي توثقت بين المؤرخ وأميره، فقد كان الحاكم، جرياً على سنة آبائه، يصطفى غلاة الشيعة أبناء مذهبه ويوليهم مناصب النفوذ والثقة، وكان المسبحي يتمتع فوق صفته المذهبية بخلال باهرة تضاعف مكانته، فقد كان عارفاً بعلوم عصره، وكان راوية ومحدثاً ساحراً، وكان أيضاً شغوفاً بعلم النجوم الذي يشغف به الحاكم بأمر الله، وقد وضع فيه أكثر من مؤلف، وهذه كلها عوامل وظروف تلقي أكبر الضياء على طبيعة هذه الحظوة التي نالها المؤرخ في بلاط الحاكم بأمر الله.

وقد استطاعت هذه الخطوة حتى وفاة الحاكم بأمر الله سنة 411هـ، ولا نعرف ماذا كانت صلة المسبحي بالبلاط الفاطمي في الأعوام التالية، والظاهر أنه اعتزل الحياة العامة.

وانقطع للبحث والكتابة، ووضع كثيراً من مؤلفاته في هذه الفترة التي استطاعت تسعة أعوام أخرى حتى وفاته في شهر ربيع الثاني سنة 420هـ (1029م).

- 2 -

يقدم إلينا ابن خلكان ثبتاً حافلاً من مصنفات المسبحي، وفي هذا الثبت القوى المتباين معاً ما يدل على ما كان يتمتع به هذا الذهن الممتاز من نواحي التفكير والثقافة المتعددة، فقد ألف المسبحي في التاريخ والجغرافيا والأدب والاجتماع والفلك كتباً بل موسوعات ضخمة، وإليك مفردات هذا الثبت الذي يقدمة إلينا ابن خلكان: كتاب التاريخ الكبير في ثلاث عشرة ألف ورقة، كتاب التلويح والتصريح في معاني الشعر وغيره في ألف ورقة، كتاب الراح والارتياح في ألف وخمسمائة ورقة، كتاب الغرق والشرق في ذكر من مات غرقاً وشرقاً في مائتي ورقة، كتاب الطعام والأدام في ألف ورقة، كتاب درك البغية في وصف الأديار والعبادات ثلاث آلاف وخمسمائة ورقة، قصص الأنبياء عليهم السلام وأحوالهم ألف وخمسمائة ورقة، كتاب المفاتحة والمناكحة في أصناف الجماع ألف ومائتا ورقة، كتاب الأمثلة للدول المقبلة وهو في النجوم والحساب خمسمائة ورقة، كتاب القضايا الصائبة في معاني أحكام النجوم ثلاثة آلاف ورقة، ورقة، كتاب جونة الماشطة في غرائب الأخبار والأشعار والنوادر ألف وخمسمائة

ورقة، كتاب الشحن في أخبار أهل الهوى وما يلقاه أربابه ألفان وخمسمائة ورقة، كتاب الشجن في أخبارأهل الهوى وما يلقاه أربابه ألفان وخمسمائة ورقة؛ كتاب السؤال والجواب ثلاثمائة ورقة؛ وكتاب مختار الأغاني ومعانيها، وغير ذلك من الكتب؛ ويقول لنا ابن خلكان أيضاً إن مصنفات المسبحي بلغت نحو الثلاثين وهو تراث حافل ضخم ينم عن غزارة مدهشة ويشهد من حيث تنوعه لصاحبه بطرافة يندر توفرها في آداب هذا العصر؛ بيد أننا لم نتلق من هذا التراث شيئاً يذكر، ولا نكاد نظفر في عصرنا للمسبحي بأثر تام أو فصل تام، وقد اشتهر المسبحي بالأخص بتاريخه الكبير، الذي يصف لنا محتوياته في مقدمته فيما يلي: (هو أخبار مصر ومن حلها من الولاة والأمراء والأئمة والخلفاء، وما بها من العجائب والأبنية واختلاف أصناف الأطعمة، وذكر نيلها، وأحوال من حل بها إلى الوقت الذي كتب فيه، وأشعار الشعراء، وأخبار المغنين، ومجالس القضاة والحكام والمعدلين والأدباء والمتغزلين وغيرهم)، وإذن فقد كان تاريخ المسبحي، سواء من حيث حجمه أو موضوعاته موسوعة قوية شاسعة؛ ولم يصلنا هذا الأثر الضخم الذي يلقى بلا ريب أعظم الضياء على تاريخ الدولة الفاطمية في عصرها الأول، ولا سيما عصر الحاكم بأمر الله، وشخصيته الغريبة الفذة التي درسها المسبحي عن كثب، ولكن الشذور القوية الممتعة التي وصلتنا منه على يد المقريزي وغيره من المؤرخين المتأخرين عن أحوال الدولة الفاطمية وقصورها وخزائنها وصروحها وبذخها وبهائها، تنوه بقيمة هذا الأثر ونفاسته وطرافته، وتدل أيضاً على أن مؤلفه قد تناول خطط وآثارها ومعاهدها في كثير من الإفاضة.

وقد لبث تاريخ المسبحي مستقى خصباً لمؤرخي مصر الإسلامية حتى عصر متأخر جداً؛ فالمقريزي وابن تغري بردي والسخاوي والسيوطي وغيرهم يقتبسون منه ويشيرون إلى وجوده؛ وكذلك يذكره حاجي خلفية في (كشف الظنون) بما يأتي: (ومنها تاريخ مصر لعز الملك محمد بن عبد الله المسبحي الحراني المتوفى سنة 420هـ، وهو كبير في اثني عشر مجلداً؛ واختصره تقي الدين الفاسي والذيل عليه لابن مُيَسّر)؛

وفي ذلك ما يدلي بأن تاريخ المسبحي كان موجوداً حتى القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي)؛ بل هنالك ما يدل على أنه كان موجوداً كله أو بعضه حتى القرن الثاني عشر (الثامن عشر)؛ فقد ورد في معجم مخطوطات الأسكوريال الذي وضعه الغزيري اللبناني باللاتينية في سنة 1770 بأنه يوجد في مكتبة الأسكوريال العربية (أربعة مجلدات من تاريخ مصر وأرضها وعجائبها مرتب حسب السنين لغاية سنة 414هـ، تصنيف محمد بن عبد الله بن عبد العزيز المسيحي (كذا) (معجم الأسكوريال رقم 531 فقرة 2)، وليس من شك في أن المقصود هو تاريخ مصر للمسبحي، وذلك رغم تحريف الاسم. على أننا عند مراجعة فهرس الأسكوريال الحديث الذي وضعه ديرنبورج، ثم ليفي بروفنسال (سنة 1928) لم نجد في كتب التاريخ ذكراً لكتاب المسبحي، مما يدل على أن ما كان موجوداً منه بقصر السكوريال في القرن الثامن عشر قد ضاع شأن كثير من الآثار التي اثبت الغزيري وجودها في معجمه بيد أنه

يبدو من هذا الوصف الذي أثبته الغزيري في معجمه أن المسبحي أستمر في تتبع حوادث مصر وحوادث عصره حتى سنة 414هـ، وربما أستمر إلى ما قبل وفاته في سنة 420هـ إذا لم يكن الغزيري قد وقف على نهاية كتابه. وهذا وقد كتب ابن ميسر المصري المتوفى سنة 677هـ ذيلاً لتاريخ المسبحي، يبدأ فيه من حيث انتهى المسبحي، وسماه (أخبار مصر)، وانتهى الينا منه قسم يبدأ في سنة 439هـ وينتهي سنة 553هـ، وهذا الذيل هو الذي أشار إليه صاحب كشف الظنون فيما تقدم

هذا وقد كان المسبحي شاعراً رقيقاً وله شعر جيد نقل إلينا ابن خلكان شيئاً منه، ومن قوله يرثي أم ولده:

ألا في سبيل الله قلب تقطعا ... وفادحة لم تبق للعين مدمعا
أصبراً وقد حل الثرى من أوده ... فلله هم ما أشد وأوجعا
فيا ليتني للموت وقد قبلها ... وإلا فليت الموت أذهبنا معاً

وقوله من قصيدة يرثى بها والده:
بأبي فجعت فأي ثكل مثله ... ثكل الأبوة في الشباب أليم
قد كنت أجزع أن يلم به الردى ... أو يعتريه من الزمان هموم
وقد رأينا أن المسبحي كتب فيما كتب كتاب (التلويح والتصريح في معاني الشعر وغيره) مما يدل على انه كان راسخ القدم في فنون الشعر رسوخه في النثر
(النقل ممنوع)
محمد عبد الله عنان
من تراثنا العلمي
كتاب في البيزرة - 3
وصف وتحليل نسخة من كتاب مفقود، في علم ضائع، لمؤلف مجهول
للأستاذ علي الطنطاوي
تتمة
وللصيد لذة مشتركة موجودة في طباع الأمم، وكأنها في سكان البدو والأطراف أقوى لمصاقبتهم ومنازلتهم إياها، فلا تزال تراهم ذاكرين وبها متمثلين، ومنها طاعمين، حتى أن نساءهم ليتصيدن على الخيل، ذكر ذلك بعض الرواة فقال: أتيت مكة فجلست في حلقة فيها عمر بن عبد الله بن غبي ربيعه المخزومي وإذاهم يتذاكرون العذريين وعشقهم وصبابتهم، فقال عمر: أحدثكم بعض ذلك: إنه كان لي خليل من بني عذرة (وقصّ قصة الدوحة، وهي على طولها، وعلى أنها أخذت من الكتاب نحواً من عشر صفحات من أجمل قصص الحب في الأدب العربي، وهي مشهورة لم نروها لطولها).
وربما ألث السحاب وجرت الأدوية وتتابع السيل، وثلجت الصحراء، حتى يعم ذلك معاقل الأروَ، وكناس الظباء، ومرابض المها، ومفاحص القطا، ومسالك الطير من الهواء، فلتجأ الصوار والسّرب والعانة والرعيل والرف إلى العمارة، فتؤخذ قبضاً وتكون حالها في استسلامها، وضعف من يقدر عليها في تلك الصورة كقول علي بن الجهم في وصف غيث:
وحتى رأينا الطير في جنباتها ... تكاد أكف الغانيات تصيدها
ولا يكون لصيدها ذلك الموقع، على أن ناساً قد أمكنهم مثل ذلك فرأوا تركه، وقالوا إنما لجأت إلينا وعاذت بجوارنا، فنؤمنها ولا نروعها ولا نجور عليها، وفعل مثل ذلك مجبر الجراد واسمه حارثة بن حنبل من طيء، وكان الجراد قد وقع في أرضه، فبدأ بالوقوع حول خبائه، فخرج أهل الحي ليصيدوه، فركب فرسه واشرع إليهم صدر قناعة وقال: ما كنت لأمكنكم من جاري وفخر بذلك قومه، فقال هلال بن معاوية التغلبي:
ومنا الكريم أبو حنبل ... أجار من الناس رجل الجراد
وزيد لنا ولنا حاتم=غياث الورى في السنين الشداد
وفعله رجل من بني عبد الله كلاب يقال له همام، وبات بأرض خلاء ليس معه أحد، فأوقد ناراً، وقد كان صاد صيداً، فلما رأى الذئب النار أتاها، وذلك من شأنه إذا رأى النار، فلما قرب الذئب منه وهو غرثان أقبل يتقرش ما يرميه همّام من العظام ولا يراه، فلما تبينه رمى إليه بقية صيده ولم يرعه، وأنشأ يقول:
يارب ذئب باسل مقدام ... منجرد في الليل والأظلام
عاود أكل الشاء والأنعام ... قد ضافني في الليل ذي التمام
في ليلة دانية الأرزام ... يقرش ما ألقى من العظام
فبات في أمنى وفي ذمامي ... مستدفئاً من لهب الضرام
آثرته بالقسم من طعامي ... ولا يخف نبلى ولا سهامى
ولو أني غيري من الأقدام ... من اللئام لا من الكرام
إذن للأقي عاجل الحمام
وأخبرني من وثقت بصدقه عن رجل من جله أهل همذان أن الثلج كثر في ضياعه حتى لجأت إليها عانات كثيرة، فأخذنا وكلاؤه ولم يحدثوا فيها حدثاً وكتبوا إليه بخبرها، فكتب إليهم أن أقيموا لها قضيماً وعلفاً إلى أن ينحسر الثلج، فإذا أنحسر الثلج فخلوا سبيلها واحموها حتى تصل إلى أبعد موضوع من العمارة ففعلوا ذلك.
وتلجأ أيضاً إلى الأنس والعمارة إذا أجدبت السنة وعدمت الكلآ، وذكر هذا المعنى

إبراهيم الموصلى في قوله يرثى أخاه اسمعيل بن جامع المغنى، فقال:
وإني واسمعيل يوم فراقه ... لكالغمد يوم الروع فارقه النصل
فان أغش قوماً بعده أوازورهم ... فكالوحوش يدنيها من الأنس المحل
يذكرنيك الخير والشر والتقى ... وقول الخنا والحلم والعلم والجهل
فألقاك عن مذمومها متزهاً ... وألقاك في محمودها ولك الفضل
وقد زعم قوم أن هذا الشعر لمسلم بن الوليد الأنصاري
ومثله لآخر:
تخرم الدهر أشكالي فأفردنى ... منهم وكنت أراهم خير جلاس
وصرت أصحب قوماً لا أشاكلهم ... والوحوش تانس عند المحل بالناس
وأخبرني مخبر عن أبي العباس الخ ... عن المعتصم أنه أوغل يوماً في الصيد وحده، فبصر بقاض يصيد ظباءً فاستدناه وقال حدثني أعجب ما رأيت في صيدك، فقال:
خربقت المشارع التي تردها الظباء، فلما شمت الخريق صدرت عطاشاً، ثم عادت من غد فانصرفت أيضاً عطاشاً، ثم عادت في اليوم الثالث بأجمعها، فلما جهدها العطش رفعت رؤوسها إلى السماء فأتاها الغيث فما انصرفت حتى رويت وخاضت في الماء.
وذكرت العلماء بطبائع الحيوان أن الوحش ربما انحازت إلى العمران عن مواضعها من الجبال والبر الذي يتصل بفصل الشتاء، فيستدل برده وثلجه لأنها تحس في الجبال بتغير الهواء وبرد شديد، فتستدل بذلك على ما بعده من قوة البرد وتخاف الهلاك فتلجأ إلى العمارة.
(باب) من كان مستهتراً بالصيد من الأشراف: إسماعيل غبن إبراهيم الخ. . وحمزة بن عبد المطلب الخ. . ومن خلفاء بني العباس الخ. . الخ. . (وهو باب طويل حافل بالأخبار الممتعة، والأشعار المستملحة).
(باب) صفة البواشق وذكر ألوانها وشياتها وأوزانها وصفة الفاره منها: فالأحمر الأسود الظهر جيد صبور على الكد، والأحمر الظهر والبطن رخو ماله جلد الخ. . .
وأكثر ما رأيناه من أوزانها مائة وثلاثون درهماً، وأقله خمسة وتسعون الخ. . .
(باب) في ضراءة الباشق وفراهته وما يصيد من الطرائد المعجزة التي هي من صيد البازي وذكر علاجات البواشق وعللها وما خلص منها من العلل ونجب، وذكر القرنصة وذكر ما عاش عندي منها بالقاهرة حرسها الله، وذكر ما يحتاج إليه في القرصنة من الخدمة، وذكر السبب الذي استحقت به التقدمة على البزاة إذا كان مؤلفو الكتب يقدمون البازي على سائر الجوارح.
(فصل) صفة ضراءة الباشق وهو وحشي، يحتاج الباشق إلى أن يكون على يد رقيق من البيازرة يعرف ما يعمل هو، وهو أن يخيط عينه إلى أن يكلب على الطعم ومقدار ذلك سبعة أيام الخ. . . فإذا كلب كلباً تاماً على الطعم فأفتحه وأطعمه الخ. . . فإذا لم يبق عليك
من إجابته شيء على ما وصفنا، فخذ له من طير الماء الفرافير ولقفه إياها الخ. . . الخ. . .
(فصل) ذكر الضراءة على البيضاني والمكحل
إذا أردت أن يصيد الباشق البيضاني والمكحل الخ. . . وقد رأيت من فراهة البواشق ثلاثة لم يسمع بمثلها قط الخ. . . وكان لنا باشق وحشي الخ. . . ولم أر مثله إلا باشقاً قط الخ. . . وكان لنا باشق وحشي الخ. . . ولم أر مثله إلا باشقاً كان لمولانا صلوات الله عليه (يعنى العزيز الفاطمي)، فانه أمرني في بعض الليالي أن أشبعه وشغل هو صلى الله عليه بطير الماء الخ. . . وإنه كان لنا باشق يعرف بباشق ابن حوفية، وكان يكون على يد أمير المؤمنين صلى الله عليه الخ. . . وهذا لم أر مثله إلا من باشق كان الخ. . . وقد كان عندي باشق حوام الخ. . . الخ.
(فصل) صفة علاج القرنصة وذكر ما تحتاج إليه من آلتها.
(فصل) ذكر علاج القرح في جناح الباشق وكيف يخرج
(فصل) صفة علاج اللدود.
(باب) في صفة البزاة وذكر شياتها وألوانها وأوزانها وضراءتها والحوادث التي تحدث لها وعلاجاتها وما تحتاج إليه من الخدمة في قرنصتها.

(فصل) صفة شياتها
(فصل) ذكر أوزانها.
(فصل) صفة ضراءة البازي: إذا وقع البازي إلى الصياد فسبيله أن يخيط عينيه الخ. . .
(فصل) وقد كان لي باز، وكان الخ. . .
وكان عندنا باز حمل إلينا من دمشق الخ. . .
ولقد بلغنا في صيد البازي خبر عجيب، لم نسمع مثله، وذلك أن مسلماً دخل إلى بلد الروم الخ. . .
(فصل) ذكر ما يحتاج إليه البازي في القرنصة.
(فصل) ذكر سياسة الذرق.
(فصل) ذكر الأدوية والعلاجات وما يستدل به من الذرق على كل علة.
(فصل) ذكر ما يحدث الجص وصفة علاجه
(فصل) ذكر علاج النفَس.
(فصل) ذكر علاج البشم.
(فصل) ذكر علاج البياض إذا أصاب عين البازي
(فصل) ذكر ما يولد القمل في البازي وصفة علاجه.
(فصل) ذكر علاج المسمار إذا أصاب كف الجارح
(فصل) ذكر ما يحدث الورم في الكفين وصفة علاجه.
(فصل) ذكر علاج القلاّع
(فصل) ذكر ما يتبين به كون الدود في البازي وصفة علاجه.
(فصل) صفة علاج الحرّ.
(فصل) صفة علاج مخاليب الجارح إذا تقلعت
(فصل) صفة علاج البرد.
(فصل) صفة علاج اعوجاج ريش الجناح
(فصل) صفة علاج العقر إذا أصاب كف البازي.
(فصل) ذكر ما يحدث السدة في المنخرين وصفة علاجهما.
(باب) في تفضيل الصقور على الشواهين لما فيها من الفراهة وهو السبب الموجب لتقديمها وذكر ألوانها وأوزانها وصفة ضراءتها، (وفي فصول طويلة كالذي مرّ في باب البواشق وباب البزاة).
(باب) في صفة الشواهق وذكر ألوانها وأوزانها وصفة ضراءتها.
(باب) السقاوات وذكر ألوانها وأوزانها وضراءتها، وما تصيده من الوبر والريش، وذكر ما يستدل به على جبدها ورديئها.
(باب) العقبان الخ. . .
(باب) الزمامجة الخ. . .
(باب) ما قيل في العقاب من الشعر المستحسن.
(باب) صيد الفهد الخ. . .
(ذكر) الصيد بالفهد وما يستحسن منه الخ. . . وقال بعض الشعراء الخ. . . (وفي هذا الفصل كثير من الأشعار والأشعار والأخبار الجيدة).
(ذكر) ما قيل في ابتذال الملك نفسه في الصيد بهذا الضاري ومباشرته له الخ. . . (وفي هذا الفصل أشعار كثيرة).
(باب) في صفة الظباء وذكر مواضعها التي تأويها وصيدها وما فيها من المنافع، وما قيل في ذلك من الشعر.
(باب) في ذكر كلاب سلوق وخصائصها وصيدها وعللها ودوائها، وما قيل فيها من الشعر (وفيه فصول وقد أورد المؤلف في بعضها طائفة صالحة من الشعر).
(باب) ذكر ما قيل في الجوارح وما وصفت به من الشعر المستحسن لمتقدم ومتأخر، (وفيه فصول).
(باب) صيد طير الماء في القمر بالبازي والباشق، وهو باب تفردنا دون غيرنا ولم نعلم أحداً سبقنا إليه من مؤلفي كتب البيزرة من المتقدمين (وهو آخر أبواب الكتاب) ثم تأتي الزيادات التي أشرنا إليها في صدر مقالنا السابق.
وهذا وصف موجز، وبيان لقيمة هذا الكتاب الجليل، وإنا لنرجو أن يهيء الله له ناشراً،

يسرع إلى طبعه ليستفيد منه أهل الأدب، وأصحاب هذه الصناعة، ويأخذ مكانه في المكتبة العربية، فان مكانه لا يزال خالياً، ولا يسده اليوم في الدنيا كتاب غيره، وإنا لنرجو أن تعنى بأمره (لجنة التأليف والترجمة والنشر) ويكون لها في نشرة مأثورة جديدة، تضم إلى مآثرها الجمة وأياديها الكثيرة على الثقافة والأدب.

علي الطنطاوي

دراسيات في النقد

طريقة أرسطو في النقد الأدبي

بقلم محمد رشاد رشدي

كتب (أوسكار وايلد) مرة يقول: إن أنواع النقد هو سجل الروح. فالناقد لا يرى في العمل الفني أكثر من وحي يوحي إليه بعمل جديد شخصي قد لا يكون بينه وبين العمل المنتقد أي وجه من وجوه الشبه، هذا الرأي (لأوسكار وايلد) يصف لنا مدرسة بأجمعها من مدارس النقد - أعني بها مدرسة الشعوريين. وفي ضوء هذه المدرسة سأحاول أن أستخلص طريقة (أرسطو) في النقد ومدرسته. فإذا ما فرغت من هذا حاولت أن أناقش هاتين المدرستين مع أي مدرسة أخرى قد تمت إليها بسبب.

ولأجل أن يكون المناقشة جلية واضحة سأبدأ الآن بأن أقتطف من بعض النقاد نبذاً عن شكسبير.

كتب الناقد الفرنسي (تين) عن الشاعر الكبير فقال: (أظهر ما في شكسبير خياله القوى الذي لا يعرف قناعة أو راحة، فهو يبعثر الاستعارات فوق كل ما يكتبه، وفي كل لحظة تتغير خواطره إلى صور قوية واضحة، ويعرض لنا عقله رسومات وأشكالاً متتابعة، وشكسبير لا يرى الأشياء أبداً في هدوء. بل إن قوى عقله جميعاً تتركز في الصورة أو الخاطر الذي يعالجه تركيزاً يملك عليه كل نفسه ويمتص كل قواه الأخرى. إن كتابنا المتوسطين يجعلون كل همهم في أن تكون كتاباتهم منطقية واضحة جلية وهم في الغالب يصيبون ما يقصدون، بيد أن شيئاً واحداً يبقى بعيداً عن متناولهم. ألا وهو الحياة.

أما شكسبير فهو على عكس هذا يدع الوضوح والمنطق لنفسيهما ويجعل كل همه أن يصيب ما يكتبه الحياة والحركة. ولهذا السبب يبدو شكسبير لنا غريباً وقوياً، ومبدعاً وخالقاً أكثر من أي شاعر من شعراء عصره أو غير عصره. أبدع من وصف النفس البشرية، وأبعد الشعراء عن المنطق وتفكير القدماء المتزن، وأقدرهم على أن يثير في النفس دنيا من الأشكال والصور الحية التي لا تموت).

وكتب (كارليل) عن نفس الشاعر يقول: (إنه لفيما اسمه رسم الصورة - معالجة الرجال والأشياء تكون عظمة شكسبير. فعظمة الرجل تأتي يقيناً من هذه الناحية - من العين

المبصرة! تلك هي العين التي تكشف لنا عن الموسيقى الكامنة في الخلق. عن الفكرة الجليلة التي قد ضمنها الطبيعة مخلوقاتها جميعاً. على أن الشاعر لأجل أن تكون لديه هذه الهبة يجب أن يكون عنده من العقلية القوية ما فيه الكفاية. فان امتلك الرجل عقلية قوية كان شاعراً في كلامه. فان لم يستطيع هذا كان - وذلك أفضل وأجدى - شاعراً في أفعاله.

وكتب (سير والتر رولي) عن شكسبير فقال: (إن القوة خياله لا تسمح له بأن يجد الراحة في فكرة أو ناحية واحدة فهو في استطاعة أن يدرس حياة الرجال مثلما يدرس المرء الحياة على ظهر باخرة. وهو دائم الاهتمام بما يحدث يومياً بين أفراد العائلة الإنسانية، غير أن للصورة دائماً في عقله أساس واحدة تركيز عليه، ذلك أنه دائم التفكير في البحر - البحر الذي لا يعرف لقوته حداً والذي لا يسره عقل أو منطق، والآن من الواضح أن النقاد الثلاثة مشتركون جميعاً في تحديد الصفات الأساسية التي تكون عظمة شكسبير كما أنه من الواضح أيضاً أنهم يختلفون كل الاختلاف في الطرق التي سلكوها في نقدهم. فمع (تين) نرى أن شاعرية شكسبير إنما من أنه أبعد الناس عن المنطق العادي وتفكير القدماء المتزن، ومن (كارليل) نعلم أن ميزة الشاعر الأساسية في أن تكون عقليته ممتلئة ناضجة، ويبدو من هذا أن كلا من الناقدين يعتقد أن النقد إنما هو سجل روح الناقد ونفسه، (فتين) العاطفي القوى الخيال يزدري المنطق العادي، ويرى فيه عقبة في سبيل الشعر، و (كارليل) الذي كان اعتماده في

حياته على فكره دون عاطفته يرى أن العقل وحده جدير بأن يخلق الشاعر وأن يجعله مبدعاً عظيماً.

أما (رولي) فهو لا يفعل شيئاً من هذا، فهو يهتم فقط بأن يوضح ويعلق، وأن يشرح ويعلل دون أن يعنى بالمدح أو بالخط من قيمة الأشياء، ونحن في الواقع لا نستطيع أن نحكم ما إذا كان تفكير شكسبير الدائم في البحر، البحر الذي لا يعرف لقوته حداً والذي لا يسيره عقل أو منطق، يزيد في شاعرية الشاعر أو ينقص منها. ونحن لا نرى النقد هنا سجلاً لروح الناقد ومشاعره، وإنما ما نراه هو وضوح في الأسلوب ودقة في الوصف وقوة في المنطق، وتلك هي مدرسة أخرى من مدارس النقد تختلف عن مدرسة (أوسكار وايلد) ينحو النقد فيها منحى البحث العلمي حيث لا نجد لمشاعر الناقد نفسه أو لإحساسه الشخصي إزاء ما ينتقده أثراً من الآثار.

تلك هي المدرسة الفكرية أو الاتباعية، وقد كان أول من أسسها الفيلسوف الأغريقي (أرسطو).

ونحن لا نحسن هنا أثراً لذات الناقد، فهو بعيد كل البعد لا نراه إلا كما نرى الرجل العلمي من خلال بحثه - الفكر والمنطق - ذلك هو الأساس الذي بنى عليه (أرسطو) طريقته في النقد، كان الرجل دقيق الملاحظة للطبيعة والفنّ، وإنه لمن هذين الينبوعين فقط نراه يستقى كل آرائه، يبنى كل نظرياته ويستنتج كل إستقراءاته.

وليس (لأرسطو) آراء شخصية يفرضها على القارئ، فهو إن مدح شيئاً فليس يمدحه لأن نفسه تتعشقه أو تميل إليه، ولكن لأن التجارب قد أثبتت أن هذا الشيء صحيح جدير بالتقدير. خذ مثلاً حديثه عن الشعر القصصي غذ يقول:

أما عن البحر الذي يكتبه فيه هذا الشعر فهو (بحر الأبطال)، فان أراد شاعر أن ينظم) قصيدة قصصية في غير هذا البحر، كان شعره شاذاً غير مألوف. إذ أن التجربة والطبيعة نفسها قد وقفت هذا النوع من الشعر على ذلك البحر).

(وأرسطو) لا يسمح لنفسه مطلقاً بأن تتمسك برأي من الآراء أو أن تمدح شيئاً أو تذم دون ذمّة، وأن يظهر الجميل دون مدحه، شانه في هذا شأن أصحاب المدرسة النظرية في النقد التي كتب عنها (أرنولد) يقول: (هي جماعة من النقاد ذات لون فلسفي باطل خداع، تجيش بنفوسها بعض الآراء الخاطئة التي لم تبنها التجربة والفكر، بل بنتها الأوهام والعواطف الذاتية تريد أن تفرضها على كل ما يقع في يدها من شعر أو فن.

والناقد من اتباع تلك المدرسة لا يمدح عملاً إلا إذا صادف هوى في نفسه وسدّ حاجة من حاجياتها، فان هو لم يفعل كان العمل باطلاً زائفاً، وكذلك من مميزات هذا الصنف من النقاد أنهم يعنون بمحتويات العمل الفني أكثر من عنايتهم بالفن نفسه - أعنى بالأسلوب والطريقة والجمال - كما انك كثير ما تسمعهم يقولون: (حبذا لو ترك الشاعر هذا الموضوع وكتب في موضوع كذا وكيت)، وذلك كما لا يخفى أردأ أنواع النقد وأحطها قدراً، إذ أن واجب الناقد الأول أن يفحص ويحكم على العمل الذيأمامه داخل دائرة العمل نفسه وحدوده لا خارجها محاولاً أن يتفهم ما يقصده الشاعر ويرمى إليه، والى أي مدى استطاع أن يبلغ قصده وأن يبرز فكرته للقارئ.

وقد يجدى أن نعطى هنا مثلاً من أمثلة هذه المدرسة النظرة الخاطئة لنرى إلى أي حدّ يبعد (أرسطو) عنها ويرتفع.

كتب (أوسكار وايلد) أحد نقاد هذه المدرسة - رأيي - يقول: (لأن نمضي من فن عصر من العصور إلى العصر نفسه هو أكبر خطأ يرتكبه المؤرخون جميعاً، فالفن الرديء الزائف كله إنما يأتي من الرجوع إلى الحياة والطبيعة والتساهل بهما إلى مراتب المثل العليا!).

من هذا النبذة نستطيع أن نحكم بأن (أوسكار وايلد) كان يدين بهذا الرأي الذي يعطينا إياه - ولكننا لا نستطيع القول بأن شيئاً أو سبباً معيناً أدى به إلى هذا الاعتقاد - أننا لا نستطيع أيضاً أن تحكم ما إذا كان هذا الرأي خاطئاً صحيحاً؟ وذلك لأن الناقد نفسه لم يخبرنا ولم يعلل ما يقوله: لم يكن (أرسطو) ليسمح لنفسه بأن ينفد بهذه الطريقة، ولكن تعال معي نرى كيف كان (أرسطو) يعالج مثل هذا الرأي لو أنه كان يدين به مثلما كان يدين الناقد الإنجليزي، فانه إذا قال إن الفن الزائف إنما يأتي من الرجوع إلى الطبيعة والحياة أتبع قوله: ذلك صحيح لأن (هوميروس) لم يذهب إلى الحياة في البحث عن مادته (هذه أمثلة فقط ولا تعتبر صحيحة)، وأن كل روعة فن (إيسكلس)

إنما تأتي من اعتماده على أساطير الآلهة كمادة لفن وأن فن (أريستوفانيس) كان أحط وأقل قيمة لأنه كان يصور الحياة ويستمد منها. ذلك أن (أرسطو) لا يسمح لنفسه بأن يكون نظرياً، بل يجب أن يعطيك براهين وأمثلة وأسباباً تعليل ما يقول خذ مثلاً آخر حديثة عن طول القصيدة القصصية إذ يقول: (يمكن في هذا الصنف من الشعر أن تعالج جميع أجزاء القصة معالجة مناسبة من حيث الزمن يأخذه سير حوادثها في الحياة، أما في القصة المسرحية فالأمر يختلف إذ أنك لو عالجت حوادث القصة في مثل ما تعالجها من الطول في القصيدة القصصية، كان الأثر الذي تحدثه في النفس أثراً سيئاً يجلب الملل والسأم، قد يبدو هذا القول نظرياً ولكنه يتبعه بأن يقول: (إن صحة ما نقوله واضحة لأن كل من حاول أن يصوغ قصة سقوط (ترواده) صياغة مسرحية، ولم بأن يختصر في الحوادث أو يركزها قد فشل فشلاً تاماً).

كان (أرسطو) سريع الملاحظة، حاضر الذهن، يمقت النوع من القضايا الذي لا يبرزه سبب أو يشرحه مثال، كما أن المنطق كان دائماً رائده في البحث والنقد - ذلك لأن طبيعة عقله كانت طبيعة عملية واقعية مثل طبيعة أهله وقومه الإغريق. وهو إن سرد لك قضية من القضايا، أو نظرية من النظريات سردها في بساطة وغير كلفة تشعرك بأنك كنت تعلمها من قبل، وأن عكس هذه القضية لا يمكن أن يوجد أو أن يكون صحيحاً، كما أن قضاياه تمتاز بأنها يمكن أن تستخلص منها قضايا أخرى صغيرة، وأن تبني عليها نظريات أكبر وأوسع أفقاً في رأي أرسطو كناقد أن الشعر نوع من التقليد والمحاكاة - تقليد الحياة والطبيعة - وفي رأي (شلي) كناقد أيضاً أن (الشعر هو ما يحيل الأشياء كلها جمالاً - فهو يزيد الجميل جمالاً ويزين القبيح ويجمله) - كلنا يعرف أن قول (شلي) هذا صحيح، وأن الشعر فعلاً يؤدي كل هذا، ولكن هل نستطيع أن نسمي هذا القول تعريفاً للشعر؟ هنا نشعر بالفارق بين الناقد الشعوري والناقد الفكري، فكلاهما يعبّر عن أشياء صحيحة حقيقية، ولكن الثاني يجعلك تلمس ما يقول وتبصره، بينما يسحر الأول سمعك ثم يتركك ويمض - وقد لا يكون تعريف أرسطو للشعر في جمال أو حلاوة تعريف (شلي) لكنه ملموس محسوس نستطيع أن نبصره في وضوح وأن نبني ونعتمد عليه.

وهناك فارق آخر بين الناقدين يبدو لنا أيضاً من خلال تعريفهما للشعر، فواضح من سطور شلي أن الناقد لا يعني فقط بطبيعة ما ينقده وماهيته، بل يعنى أيضاً بالغرض والرسالة التي عليه أن يؤديها الشعر - مما يجعل البحث بعيداً عن روح العلم - في حين أن (أرسطو) لا يتساءل مطلقاً عن رسالة الفن أو الشعر في الحياة، بل كل ما يهمه أن يهمه أن يبحث طبيعتهما وأن يشرحهما لنا - شان العالم الكيميائي أو الطبيعي -.

وقد كان (لأرسطو) وجهة نظر في نقده خاصة به، وأعنى بها أنه كان يرى أن لكل فنّ من الفنون، قصصاً كان أم شعراً غنائياً، نهاية طبيعية لا بد أن يصل إليها وألا يتعداها، فان أراد صاحب الفن أن يتعدى بفنه نهايته كان مآله الفشل ومصيره السقوط الذي لا نجاة منه، فقد يصل شعر شاعر مثلاً مرتبة النضوج والكمال، وهو في سن الثلاثين، غير أنه مهما عمّر الشاعر بعد ذلك من سنين ومهما زاده العمر من حكمه وتجارب، فان شعره لن يزيد ولن ينضج أكثر مما نضج - وقد لا يرى البعض هذا الرأي غير أنه - في اعتقادي - رأي لا باس به، ساعد على تكوينه لدى (أرسطو) حب الإغريق الغريزي للاعتدال

والوسيط، وخوفهم من بطش الآلهة وغيرتها إن اشتدَّ الرجل منهم أو زها وعظم أكثر من اللازم. وقد كان التوسط والاعتدال رائد الإغريق في كل شيء، ولم يكن التطرف عندهم ذنباً فحسب بل جريمة كبرى، ولذلك نرى الاعتدال أظهر ما يميز أدبهم وفهم، ولذلك أيضاً كان (أرسطو) مؤسس المدرسة الفكرية التي تمنح نفسها للمنطق والعقل وتحاذر كل الحذر من الشعور والعاطفة.

والآن واحسبني قد بسطت طريقة (أرسطو) في النقد وقارنتها بالطريقة الشعورية الأخرى أحب أن أقول كلمة عن المذهبين.

إن كل ما يفعله (أرسطو) هو أن يشرح ويفصل ويرتب ويصنف ليعطينا في النهاية مجموعة من القوانين والقضايا ما أحسبها تخلق فناناً أو تصلح من شأن فنان آخر. وهو في هذا يخاطب الفكر لا العاطفة، وإني كلما تصورته يعالج (شكسبير) يضيق بي

الخيال ولا أدري كيف كان يتيسر (لأرسطو) أن يفعل هذا.
قد كنا نفهم بعض صفات فن شكسبير ومميزاته من نقد (أرسطو) له. على أني أشك كثيراً في أنه كان يجعلنا نتفهم الشاعر نفسه ونعشقه مثلما فعل (كولريدج) و (هزلت) و (تين) وفي رأيي أن أعلى أنواع النقد ما كان يؤثر في النفس ويوحي إليها النقد الذي يشرح ويفصل دون أن يزج في دائرة الفن ودون أن يصبح علماً من العلوم. ذلك هو النقد الذي يعالج الأدب مثلما يعالج الأدب نفسه الحياة، أعني عن طريق الخيال والعاطفة.
كتب (تشارلس لام) يقول:
وفي يقيني أن كل من له صلة بالأدب ولا يفعل (لام) (إني أفضل العاطفة على العلم) يكون مخطئاً في حق نفسه وفي حق صناعته أو فنه.
محمد رشاد رشدي
بكلوريس بامتياز في الأدب الإنجليزي
الدكتور محمد إقبال - 2
أكبر شعراء الهند المسلمين في العصر الحاضر
أن صوتي قد أوقد النار القديمة في بلاد إيران ولكن العرب)
(لا يعرفون شيئاً عن نغماتي الشجية
(إقبال)
بقلم السيد أبو النصر أحمد الحسيني الهندي
حينما ننعم النظر في شعر إقبال واتصافه بمميزات خاصة في الأزمان المختلفة نجد أنه يتمتع الآن بدور ثالث. فقد قطع قبله دورين: أولهما دور نشأته، حين كان إقبال لا يزال فتى يافعاً وطالباً بالمدرسة. فقد بدأ إقبال يقول الشعر باللغة الأردية وهو في صباه، فكان ينال به استحسان زملائه الطلبة، ويجمعهم حوله اغتباطهم بحدة ذكائه وتفوقه عليهم في الشعر. فكانت شهرة إقبال في الشعر بادئ ذي بدء محصورة بين أترابه وأقرانه، فلما انتقل من كلية سيالكوت إلى كلية الحكومة بلاهور بدأ يشترك في مجالس الشعراء ويقول القصائد للاحتفالات السنوية لجمعية حماية الإسلام الشهيرة بلاهور، فذاع صيته بين الخاص والعام.
ينتهي هذا الدور لشعر إقبال سنة 1905، أي قبل سفره إلى أوربا، ويمتاز شعره فيه بسعة الخيال، وابتكار المعاني، ولكنه مجرد عن دقة الفكر والتعمق بالنسبة إلى شعره في أدوار أخرى، ومعظمه باللغة الأردية، تتجلى فيه روح الحب وطلب الجمال وترحيب العشق، وأكبر ميزة لهذا الدور أنه دور أمل لشيء غير معلوم، ففيه تتوق روح الشاعر إلى المجهول، وتنزع إلى الغائب، وتضطرب، كما يظهر لك من ترجمته بيت من أبيات هذا الدور فيما يلي، قال:
أنا طالب النور، أنا قلق في معمورة هذا العالم أنا مثل الطفل الصغير في ظلام) الوجود الحالك مضطرب كالزئبق).
وأما الدور الثاني فهو الزمن الذي قضاه الدكتور في أوربا أي من سنة 1905 إلى سنة 1908. وهذا الدور من شعر الدكتور أقل إنتاجاً من الدورين الآخرين، ويمتاز من الأول بأن أثر مشاهدات أوربا بادٍ فيه، ولكن روح الحب، وطلب الجمال، وترحيب العشق لا تزال متجلية فيه كما كانت في الدور الأول. وقد حدثت فيه حادثة، وهي أن الأبحاث العلمية سطت مرة بنفسية الشاعر، فأراد أن يترك الشعر ويتوب عنه وينصرف إلى العلم، فمنعه عن ذلك صديق قديم له كان حينئذ في لندن، وحاول إقناعه فلم يقتنع، وأخيراً اتفقا على أن يستشيرا فيه أستاذه السر آرنلد. فأيد آرنلد رأى صديقه فعدل عن إرادته. وأكبر ميزة لهذا الدور أن بدأت أفكاره الشعرية تعلو وتتسع حتى ضاق عنها نطاق اللغة الأردية الحديثة السن فمال إلى الفارسية وبدأ يعبر بها عن إلهامه الشعري.
وأما الدور الثالث فيبتدئ من بعد رجوع الدكتور من أوربا إلى الهند، أي من سنة 1908 إلى الآن، وهو الأهم، إذ فيه تدرج شعره في معارج الكمال وتسم سنام المجد وبلغ من دقة المعاني وعمق الفكر وحسن البيان غاية لم تبلغها الآمال ولا نالتها الأماني. وفيه حلت السكينة والطمأنينة في روح الشاعر محل التوقان والاضطراب، كأنها أدركت ذلك الغائب المجهول الذي حنت إليه طويلاً ونزعت إليه سنين، وفيه خف عن نفسيه

الشاعر سلطان المحبة والجمال، وقام مقامه توقان الحكمة والكمال، وفيه جادت قريحة الشاعر بما لم تجد في الدورين السابقين، إذ ظهرت إلى الآن سبعة دواوين، ونحن ندعو الله أن يمد في حياته ويوفقه أكثر من ذلك، وفي هذا الدور أيضاً تمكن الشاعر من إبراز معالم فلسفته في شعره للعالم، وفيه تحققت رسالة شعره للعالم الإسلامي والشرق إذ كان في نفسه تتساجل روحان: روح المحب للجمال والمحبذ للعشق، وروح المسلم الشرفي المتحمس الثائر. فكان في الدورين الأولين الحظ الأوفر وفي هذا الدور للثانية.

حينما نحاول البحث عن العناصر التي تكونت منها نفسية الشاعر وشعره نجد أنهما قد تكونان من عناصر جمة، منها ما هو هبة من الله كالعبقرية والذكاء، ومنها ما هو وراثي غير كسبي، ومنها ما هو ثقافي كسبي، ومنها ما يرجع إلى البيئة سواء كانت جغرافية أم اجتماعية. فهذه الأصناف الأربعة من العناصر هي دعائم نفسية الشاعر ووطائد شعره.

أما العناصر الموهوبة مثل العبقرية وغيرها فلا يقدر الإنسان على الكشف عن حقائقها، ولا الفحص عن دقائقها، وما يقدر عليه هو وصف ظواهرها بالمقارنة. فإذا قارنا ظواهر عبقرية الدكتور وذكائه بالشعراء الآخرين نجد أنه فريد زمانه، وقريع دهره، قد أوتى عبقرية شاملة لا يدرك شأوها ولا يلحق غبارها، وذكاءً متوقداً لا يجاري، وقلباً عقولاً لا يباري، وحذقاً حاداً مساماته وفكراً نافذاً مجاراته، وبصيرة قوية لا يجري في مضمارها.

أما العناصر الوراثية فالدكتور من نسل آرى. والآريون يمتازون بدقة الفكر وسموا الخيال عن الشعوب الإنسانية الأخرى. ثم الدكتور ينتسب إلى طبقة البراهمة منهم، وهي طبقة قد سادت ولا تزال تسود بحدة ذكاءها ورحابة عقلها وحصافة رأيها جميع الطبقات الاجتماعية الأخرى في الهند منذ آلاف من السنين، فدقة الفكر وسمو الخيال بالقوة عنصران وراثيان هامان في نفسية الدكتور وشعره.

وأما العناصر الثقافية الكسبية فهي التي يكسبها الإنسان بواسطة التربية والتعليم. فقد بلغ فيهما الدكتور رفعة لا تسامى ومنزلة لا تغالب، إذ تعلم في معاهد الشرق والغرب ونال منها أرقى الشهادات وأعلاها بالتفوق والامتياز وهضم الثقافتين - الشرقية والغربية - في معناها الحقيقي. فهو على اطلاع تام بالفكر الشرقي - الهند والإيراني - بجلبه وخفية وتأريخه وتقدمه، كما هو عالم متجر في الفكر الغربي بجميع أدواره وتحولاته، سواء كان عند اليونان أو الرومان، أو الإنجليز أو الألمان، أو فرنسا أو أمريكا. وقد سبر الدكتور غور الفكر السامي العربي أيضاً وبخاصة الإسلامي منه كما تميط اللثام عن ذلك مصنفاته، وقد أشار إليه هو أيضاً في خطاب حيث قال:

(أنا قد صرفت معظم حياتي في دراسة فقه الإسلام وسياسته وحضارته ومدنيته وأدبه، فبناءً على دراستي الطويلة هذه وعلى العلاقة الخاصة التي لي بروح تعليم الإسلام اعتقد أنني على بصيرة أقدر بها أن أحكم على منزلة الإسلام في العالم من حيث الحقيقة العامة).

والدكتور حائز في جميع هذه العلوم والمعارف درجة الاجتهاد وأما العناصر التي ترجع إلى البيئة فهي صنفان: الاجتماعية والجغرافية. أما الاجتماعية فقد ولد الدكتور في مجتمع إسلامي وتربي فيه ودرس حاضره وماضيه، فهو كأحد أركانه من محبيه الأوفياء، وعشاقه الصادقين، ومن أكبر الطامحين إلى خيره ومجده، كما هو من كبار العارفين بحقيقته وصلاحيته. وهذا الحب، والعشق، والطموح، والمعرفة كعناصر البيئة الاجتماعية متجلية في نفسه الشاعر وشعره، وليس هذا التجلي عن عاطفة وتعصب، بل عن علم وعقل، كما سيظهر لك من المقال الذي سنخصصه لذلك في المستقبل إن شاء الله.

وأما عناصر البيئة الجغرافية، فقد ولد الدكتور في مقاطعة بنجاب وتربي فيها. وبنجاب أخصب المقاطعات الهندية في سفح جبال همالايا تجرى من تحتها خمسة أنهار. فهي بهوائها المعتدل ومناظرها الجميلة التي تفرح قلوب الشاهدين وتؤنس أبصار المبصرين، تملأ النفس بالمؤثرات القوية التي تربي الذوق وتقوى ملكة الشعر، وتغذي الفكر. فحسن الذوق، وحب الجمال، والتصرف فنون الشعر، وجولات الفكر المتجلية في شعر الدكتور ونفسيته فيها أثر للبيئة الجغرافية.

أما شعر إقبال من حيث الفن فسنتحدث عنه في مقال تال

السيد أبو النصر أحمد الحسني الهندي

فلسفة الأسماء

بقلم ظافر الدجاني

إذا كانت اللغات من ألوان الفكرية الصريحة التي يتسم بها الإنسان وتميزه من سائر الكائنات الحية، فان الأسماء - أو ما يعبر عنه الصرفيون بأنه ما دل على معنى في نفسه غير مقترن وضعاً بأحد الأزمنة الثلاثة المعروفة - من وظاهر بيئاته الاجتماعية والطبيعية. فلسنا نبالغ إذن إذا بأن لعنصر الأسماء في اللغات فلسفة خاصة مستقلة، استطاع العلم الحديث مؤخراً أن يقتبسها ويستزيد منها بل يستغلها استغلالاً بالغاً يستحق عليه كل ثناء وإعجاب وإكبار. ومن الحق علينا القول بأن أقطاب اللغات في العالم لا يتفقون على أقدمية الأسماء وأسبقيتها في اللغة، فمنهم من يذهب إلى أنها أسبق مرتبة في الوضع والاستعمال من الحروف والأفعال، لأن منزلتها في النفس من حيث القوة والاعتقاد أن تكون قبل الفعل، والفعل قبل الحرف، ومنهم من يذهب - وهؤلاء معظمهم من أصحاب التوقيت ودعاة الإلهام - إلى أن جميع الأصول اللغوية إنما وقع الوضع فيها معاً فلا يجوز لك الاعتقاد بسبق الاسم على الفعل أو سبق الفعل على الحرف.

ومهما يكن من شيء فان بعض الأسماء - أعني أسماء الأعلام والأجناس بوجه خاص - تمتاز على سائر الأصول اللغوية بأنها وضعت للدلالة على الأشياء المحيطة بالإنسان في بيئتيه الطبيعية ولاجتماعية، وما عساه ينجم عنهما في حياته الفكرية، بعكس الحروف والأفعال - مثلاً - التي إنما وضعت لتدخيل بها (الأسماء في المعاني والأحوال)، أو بعبارة أخرى لتربط ما بين الأسماء في جمل مستقلة بدلالاتها اللفظية. ومعنى ذلك أنه يتعذر على الإنسان مثلاً أن يستدل بالأفعال والحروف العربية على نوع الحياة الطبيعية والاجتماعية التي كان يحياها العرب قبل الإسلام، إن لم يكن ذلك مستحيلاً عليه، في حين أن استدلاله بالأسماء يكاد يكون في حكم الواجب الذي لا عدول عنه، لأنها تعكس لنا ألوانهً من البيئات المتنوعة التي كان العربي عرضة لها آنئذ، كأسماء الكائنات الحية وغير الحية التي كان على اتصال بها، وأنواع الأسلحة التي كان يستعملها في حروبه وغاراته، والموازين والأثقال التي كان يصطنعها في بيعه وشرائه ونحوه. كما أنها تعكس لنا أيضاً شيئاً من أثر البيئة الطبيعية في نفسه وإحساساته، ففي ميسورك مثلاً أن

تقربإحصاء الأسماء التي تعبر في العربية عن ضروب المصائب والرزايا من ناحية، والأسماء التي تعبر عن مظاهر اللهو والعبث من ناحية أخرى، ثم الموازنة بينها، وما إذا كانت بيئة العرب قبل بيئة قاسية مظلمة قاحلة أم بيئة مشرقة سمحة خصبة.

وليس ذلك وحسب، بل ميسورك الاستدلال بالأسماء العربية (العاربة) منها و (المعرّبة)، الأصيلة والدخيلة، على مختلف التقلبات السياسية التي طرأت على الوسط الإسلامي في غضون تاريخه الطويل الحافل، وبالتالي الاستدلال على مختلف الأدوار الاجتماعية التي تقلب عليه، ومقدار نفوذ كل من العناصر الفلسفية والجنسية فيه، فإذا كانت الأسماء الفارسية مثلاً في الآداب والفنون أغزر من الأسماء اليونانية دل ذلك على أن نفوذ الفرس من هذه الناحية كان أبعد من نفوذ اليونان، وإذا كانت الأسماء اليونانية في ميدان الفلسفة أوفر من الأسماء الفارسية والهندية دل ذلك على أن العرب قد تأثروا بالفلسفة اليونانية أكثر من تأثرهم بفلسفة الفرس والهند. بيد أنه بالأسف ليس الوصول إلى هذا الاستدلال باليسير الهين لأن المعجم العربي ناقص من وجوه كثيرة، أهمها الوجه التاريخي المدعم بالشواهد والأدلة مما لا يتسع المقام لذكره.

هذا إلى عثورك خلال أزمنة التيقظ الفكري والنهضات الدينية الحافلة على بعض أسماء الإعلام الذائعة بين الأوساط العامة لأنها غالباً هي أسماء بعض الزعماء أو القادة أو الأنبياء الذين لهم الفضل كل الفضل في بعث هذه النهضات وإحيائها، بحيث يستدل منها على ما لهؤلاء المصلحين من حظوة لدى الجمهور، وما لتلك النهضات من سحر في أفئدة العامة. ومن ثم كانت لبعض الملل أسماء خاصة تعرف بها ولا يصطنعها غيرها كعزرا وإسرائيل في اليهودية، وحنا وبطرس في المسيحية، ومحمد والحسين في الإسلام.

بل ترى في بعض أزمنة الاضطهاد والغلو الديني أن لفظ المولى عز وجل يشترك عادة

في أسماء الملوك والأمراء من أولي الحل والعقد في تلك الأعصر الرهيبة. يتضح ذلك من أسماء الخلفاء من ولد العباس في أواخر أيامهم حين أمست الخلافة رمزاً للنفوذ الديني مجرداً عن السلطة الزمنية، وفي خلفاء الفاطميين وغير الفاطميين من السلالات الملكية التي قامت على الدعايات الدينية.

ومن ناحية أخرى ترى أن بعض الأسماء قد تضيع في زوايا الإهمال والنسيان، ولو إلى حين، لأنها تكون عادة أسماء بعض الأفراد أو الجماعات المضطهدة، بحيث يستدل من ذلك على مبلغ غلو الدولة القائمة وشدتها على الفرق المناوئة فمثلاً إذا علم القارئ أن العلويين والشيعة كانوا مضطهدين في الدولة الأموية، فانه يستطيع أن يستدل على مقدار هذا الاضطهاد إذا ذكر أن الناس في أيامها كانوا كما يقول المستشرق (مارجليوث) يتحاشون تسمية الأبناء والأحفاد بأسماء علوية كعلي والحسن والحسين وأشباهها.

وبعد فقد أوردنا لك بعض فلسفة الأسماء موضحة بالأمثلة النظرية، ولكننا لم نشرح لك كيف كان استغلال العلم الحديث لها، لأن هذه الأمثلة على وفرتها قليلة النفع من ناحية عملية تطبيقية إن لم تكن عديمته، لأن الحياة العربية الجاهلية من الأزمنة التاريخية التي تتوفر فيها النصوص والوثائق والآثار. ومن هنا قطعنا بأن الحاجة غير ماسة إلى استيضاح الأسماء العربية وتفصيل ما تنطوي عليه من ألوان هذه الحياة المتنوعة.

وإنما تتبين فلسفة الأسماء الخاصة وترجح قيمتها العملية المحسوسة في الأبحاث الدقيقة المنعقدة حول حياة الإنسان الأولى، التي لا تجد لدرسها من المصادر الأولية سوى اللغات وبعض الآثار الجيولوجية التي نراها نكتشف بين حين وحين، وينفض الغبار عنها فتقيم المعوج من هذه الدراسات وتنير المهم المستغلين.

فمن ذلك أن اصل اللغات الأوروبية ظل إلى عهد قريب مجهولاً أو في حكم المجهول، فنشأت حول ذلك نظريات عديدة متباينة، لكل نظرية أنصار متحزبون وعلماء محققون، ثم إن بعض الثقات حاولوا درس هذه اللغات بطريق القياس والمقابلة فخرجوا من هذا الدرس بنتائج باهرة لم يتسق للمنطق والتاريخ أن يتوصلا إليها. إذ وجدوا أن بين اللغات الأوروبية على اختلافها من ناحية واللغة السنسكريتية - اقدم اللغات الهندية الموجودة - من ناحية أخرى كثيراً من الشبه في القواعد والأوضاع اللغوية، كما وجدوا أن فيها بعض الأسماء المشتركة كبعض أسماء الأعداد والأجناس ونحوها، فاستخلصوا من ذلك أنه لا بد من أن تكون اللغات الأوربية والهندية من فصيلة واحدة دعوها باللغات (الأندو أوروبية) -

وإذ انتهوا من ذلك فانهم حاولوا أن يستدلوا بهذه الأسماء على مواطن (الأندو أوروبين) الأصلي ووصف بيئتهم الطبيعية والاجتماعية، وما إذا كانوا يعرفون البحر والأحراج والأنهار، وأي أنواع الحيوانات كانوا على اتصال وثيق بها، وهل عرفوا الحديد والبرونز قبل شتاتهم وانقسامهم قبائل وشعوباً، ثم هل كانوا على درجة كبيرة من التمدن والحضارة؟ أم كانوا بعد في طور الفطرة الإنسانية العريقة في البداوة، ولهم في ذلك أبحاث مطولة دقيقة تنطوى على كثير من قوة التحقيق والتحليل ورجاحة الفكر والنظر.

وقس عليه محاولات المستشرقين في الاستدلال ببعض الأسماء المشتركة بين الأقوام السامية على مواطن الساميين الأول ونوعه، وحضارة الساميين ومقدارها، بل قس عليه أبحاث المحققين في مختلف نواحي الحياة الإنسانية قبل الأعصر التاريخية حيث تنعدم الآثار والمنقولات، فلا تكاد تجد من مصادر درسها إلا اللغات التي نشأت مع الإنسان وسايرته في تطوره واستوائه.

فالعجب من العلم الحديث ونشاطه ومؤهلات البالغة التي لم تترك كبيرة ولا صغيرة من صامت الكون أو ناطقة دون أن تحاول استقراءها ونبش عسى أن يكون فيها ما ينير سبل القوم في تفهم أسرار الكون ومظاهر الحياة الإنسانية.

ظافر الدجاني

شكوى الشيخ إلى ابنه

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

أبوك بان يردى بنيَّ مهدُ ... كأن الردى سيف عليه مجرد

ويشكو تباريحاً تكاد تهده ... وشيخوخة ليست عن الموت تبعد
أحسُّ بقرٍ في عروقي وأعظمي ... يكاد دمي منه بجسميَ يجمد
أقادُ إذا رمتُ المضيَّ لحاجة ... وأمشي كما يمشي الأسير المقيد
كأنك بي شلواً على النعش سائراً ... وعما قليل في التراب يوسَّد
وليس مخيفي الموت إن هو زارني ... ولكن وراء الموتِ شملٌ مبدَّد
تعال فقبلني بني مودَّعا ... فانّ فراقي عنك يا ابني مؤبَّد
ولي من حياتي يا بُني بقيةٌ ... ولكنها عما قليل ستَنْفُذ
بنيَّ أقم حيناً بجنبي فإنني ... على غير ما قد كنتَ من قبل تعد
أبوكَ من الآمال جرَّد نفسه ... وأنت فتى فيه المنى تتجدد
ولم يك حظاًنا من الدَّهر واحداً ... فلي الأمس من أيامه ولك الغد
أنا اليوم أشقى بالمشيب ووهنه ... وأنت بشرح من شبابك تسعد
لعمرك لا عهد المشيب الذي به ... برمت ولا عهد الشبيبة سرمد
وما نحن إلا كالسيوف بحومةٍ ... نجردُ حيناً للوغى ثم نغمد
ستحدثُ فوق الأرض أشياء جمةٌ ... وأنت لها بعدي بنيَّ ستشهد
خلقت لعهد غير عهدي فلا تكن ... جباناً إذا ما ضيمَ لا يتمرد
وما الشيب شعرٌ أبيض فوق مفرقي ... ولكنه نار على الرأس توقد
وليست حياة بالأياس شقيةٌ ... كأخرى بادراك الأمانيَّ ترغد
تفتح ورد السؤل إلا بروضتي ... وما قيمة الروض الذي لا يورد؟
أغرّد في روض الحياة كبلبلٍ ... ومن بعد حين موشك لا أغرّد
سأرحل عن دنيا إليّ حبيبةٍ ... بها هام حتى الزاهدُ المتعبد
تحاول نفسي بالحياة تمسكاً ... ولكنما خيط الحياة معقَّد
بنيَّ وإني ذاهب غير أيبٍ ... إلى حيث يبلى الجسم منى ويفسد
وما أنا وحدي هالك فيثور بي ... على الموت حب للحياة موطَّد
فقبلي أجيالٌ ألمَّ بها الردى ... وبعديَ أجيال ستَرْديَ كما ردؤا
نجئ ونمى زمرة بعد زمرة ... ونَبْتُ مثل العشب والموت يحص
مقيدةٌ منا الجسومُ بأرضها ... ولكنما الأرواح لا تتقيدَّ
ستذهب ذراتٌ لجسمي ألفت ... بداد وعلَّ الروح لا يتبدد
وقد تسبح الأرواح في ضوء أنجم ... فيجمعها جنحٌ من الليل أسود
وما هذه الدنيا بدار سعادة وإن طاب فيها الأثرياء وأرغدوا
ففي كل يوم للتعاسة لوحة ... وفي كل يوم للشقاوة مشهد
وإن فؤاداً لا يرقَّ لزفرة ... يصعدّها قلب كسير لجلمد
ومن كان في بيداء يشكو لهاثه ... فليس له غير المنية مورد
سئمت مِرَاس الحرب فالسلم بغيتي ... ولكن باب السلم دونيَ موصد
بني لقد كانت حياتي شقية ... وعلّك من بعدي بني ستسعد
قضيت حياتي كلها في تمردٍ ... ومن ذا يرى خسفاً ولا يتمردَّ
لقد وُلدَ الإنسانُ حرَّا بطبعه ... ولكنه للنفس منه مقيدَّ
أناخ عليها بالخرافات مثقلاً ... وقيدها بالوهم والوهم مفسد
يلوذ بمن أثرى ويعنو لمن طغى ... فيصبح عبداً صاغراً وهو سيد
تداولت الدنيا شعوبٌ كثيرة ... وقد حبّذوا تلك القيود وأيدوا
أمَن كان حمّاداً لها فهو مؤمن ... ومن كان نقاداً لها فهو ملحد؟
وإنك مني يابُني بقيَّة ... أعيش بها في الموت أو أتجدد
بني أرى مستقبلي فيك ماثلاً ... وفيك أقول الشعر غضًّا وأنشد
إذا متُّ فاذكرني بنيّ مكرراً ... فبالذكر أحيا ثم بالذكر أخلد
(بغداد)
جميل صدقي الزهاوي
المساء
للدكتورابراهيم ناجي
يا غلَّة المتلهف الصادق ... يا آيتي وقَصِيدَتِي الكبْرَى
زادي لقاؤك: طاب من زاد ... وإذا نأيْتِ أعيِشُ بالذكرَى

يلْقي خَيَالَكِ كيفما باتا ... صبٌ له لفَتَاتُ مسحوُرِ
يرْوَي ويشبَع منكِ هيهاتا ... لا يرتوي بصر من النورِ
بعد الأوَارِ في الغرس ... لاَ يرْتوِي عودٌ من الطلّ
ومن احْتسى من لفحة الشمس ... لا يرتوي أبداً من الظّلّ
ذقْتُ المنايا عدّ أنْفَاسي ... والبعثُ كانَ شبابَكِ الزاهي
زمن ارْتوى من سخَط الناس ... لم يرْوِه غير رضا اللهّ!
يا للمساء العبقريّ وما ... مَنَحَتْ من النّفَحَات عيناكِ
أو كان رؤيا واهم حلما ... ما كان أقدسَهُ وأسناكِ
يا للنسائم من مُسَبّحةٍ ... خَشعت بهيكل ذلك الوادي
فحفيفها همساتُ أجنحة ... ورفيفُها صلواتُ عبّاد
نمشى وقد طال الطّريق بنا ... ونودّ لو نمشي إلى الأبدِ
ونود لو خلَتِ الحياة لنا ... كطريقنا وغدتْ بلاَ أحدِ
نَبْني على أنقْاَضِ ماضينا ... قصراً من الأوهام عِمْلاقاً
ونظلّ ننشد مِنَ أمانينا ... وشياً من الأحلاَمِ برَّاقاً
وأظل أسقيها وتملأ لي ... من منبع فوقِ الظّنون خَفِي
حتى إذا سكِرَت من الأمل ... وترنّحتْ مالتْ على كتفِي
حَلَفتْ بأنّي أغْتدي معها ... حيث اغتدت وهواي في دمها
فَمسحْتُ بالقُبلاتِ أدمعها ... وطبْعتُ أقْسامي على فَمِها
إنّا لقومٌ أنكَروا الجَسَدا ... فاعجب لمفترقَيْنِ ما افترقاَ
أو ما ترى روحيهما اتحّدا ... أو ما ترى ظلّيْهما اعتنقا
إبراهيم ناجي
حياة الأحلام
بقلم الياس قنصل
لستُ أرثى لمن يكونُ طَموحاَ ... ذا أمانيَّ شِبهةٍ بالمحالِ
إن يُفْته تحقيقها لدواعٍ ... تصرف العزمَ عن طلاب المعالي
لم يفْته تمثيل تحقيقها في ... عالم الفكرِ تحت جوَّ الخيالِ
يقطع العمرَ بين رؤيا وحلمٍ ... ليس فيها وفيه غير الظلالِ
خالقاً من أوهامه ما تمنّى ... جاعلاً منها مسرحاً للكمالِ
لستُ أرثى لحالمٍ ليس يدري ... رغم طول البقاءِ معنى الملالِ
إنما أرثى للذي يبتغي (الملمو ... س) في دنيا أبدعتْ للزوالِ
كل شيء - مهما غلا - إن ينَلْه ال ... مرء أمسى في عرفه غير غالِ
أين من عاش نائلاً كلَّ ما ... يطلبه ممن عاش بالآمالِ!
عاصمة الأرجنتين
الياس قنصل
شاعرنا العالمي أبو العتاهية - 11
للأستاذ عبد العال الصعيدي
منزلته في الشعر:
قد يكفى أبا العتاهية عندنا توجيهه الشعر هذه الوجهة الصالحة، وذهابه به في الحياة نحو تربية الشعوب وهدايتها، وإنارة السبيل أمامها، وتقويم عوجها؛ وهذا أبو نواس وهو من أعلام الشعر في عصره يشهد له بهذا الفضل، ويفضله به على نفسه. حدث هرون بن سعدان قال: كنت جالساً مع أبي نواس في بعض طرق بغداد، وجعل الناس يمرون به وهو ممدود الرجل، بين بني هاشم وفتيانهم، والقواد وأبنائهم، ووجوه أهل بغداد، فكل يسلم عليه فلا يقوم إلى أحد منهم، ولا يقبض رجله إليه، إذ قيل شيخ راكباً على حمار مريسي، وعليه ثوبان ديبقيان، قميص ورداء قد تقنع ورده على أذنيه، فوثب إليه أبو نواس، وأمسك الشيخ عليه حماره واعتنقا، وجعل أبو نواس يحادثه وهو قائم على رجليه، فمكثا بذلك ملياً، حتى رأيت أبا نواس يرفع إحدى رجليه ويضعها على الأخرى، مستريحاً من الأعياء، ثم انصرف الشيخ وأقبل أبو نواس، فجلس في مكانه، فقال له بعض من بالحضرة: من هذا الشيخ الذي رأيتك تعظمه هذا الإعظام، وتجله هذا الإجلال؟ فقال: هذا إسماعيل بن القاسك أبو العتاهية. فقال له السائل: لم أجللته هذا

الإجلال؟ وساعة منك عند الناس أكثر منه. قال: ويحك لا تفعل، فوالله ما رأيته قط إلا توهمت أنه سماوي وأنا أرضي.

وقد يكفى أبا العتاهية أيضاً أنه هو الشاعر الشعبي الذي أمكنه أن يدنو بالشعر العربي إلى إفهام العامة، فوردوا مناهله العذبة بعد أن حرموا منها زمناً طويلاً بنزول لغتهم عن لغته، وانصراف الشعراء عنهم كأنهم عجماوات لا حظ لها من علم وأدب، وهذا كله مع احتفاظه للشعر بما يتطلبه منه الخاصة أيضاً، فأرضى بشعره الفريقين، ولم ينزل به عن مرتبة فحول الشعر في عصره وقبل عصره، وقد قلنا إنه يقصد إلى ذلك قصداً، ويثور به على الطريقة القديمة عامداً، وسقنا من قصته في ذلك مع سلم الخاسر ما يؤيده، وهذه هي قصته معه كاملة:

قال أبو الفرج: حدثني على بن مهدي، قال: حدثني أحمد بن عيسى. قال حدثني الجماز. قال: قال سلم الخاسر: صار إلى أبو العتاهية، فقال: جئتك زائراً، فقلت: مقبول منك

ومشكور أنت عليه فأقم، فقال إن هذا مما يشتد عليَّ، قلت: ولم يشتد عليك ما يسهل على أهل الأدب؟ فقال لمعرفتي بضيق صدرك، فقلت له وأنا أضحك وأعجب من مكابرته: (رمتني بدائها وانسلت)، فقال: دعني من هذا واسمع مني أبياتاً، فقلت: هات، فأنشدني:

نغَّص الموتُ كلَّ لذة عيش ... يا لقومي للموت ما أوْحَاه
عجباً إنه إذا مات ميْتٌ ... صدَّ عنه حَبيبُه وجفاه
حيثما وجَّهَ أمرؤٌ ليفوتَ ال ... موتَ فالموتُ واقفٍ بحذاه
إنما الشيب لابن آدم ناعٍ ... قام في عارضيه ثم نعاه
من تمّنى المُنَى فأغرق فيها ... مات من قبل أن ينال مُنَاه
ما أذلَّ المقِلَّ في أعين النا ... س لا قلاله وما أقْمَاه
إنما تنظر العيون من النا ... س إلى من ترجوه أو تخشاه

ثم قال لي: كيف رأيتها؟ فقلت له: لقد جودتها لو لم تكن ألفاظها سوقية. فقال: والله ما يرغبني فيها إلا الذي زهدك فيها

وقد ذكر ابن رشيق القيرواني أبا العتاهية فيمن كان يذهب إلى سهولة اللفظ، ويعني بها مع الإجادة وملاحة القصد، وأنه اجتمع يوماً مع أبي نواس والحسين بن الضحّاك الخليع، فقال أبو نواس: لينشد كل واحد منكم قصيدة لنفسه في مراده من غير مدح ولا هجاء، فأنشد أبو العتاهية:

يا إخوتي إن الهوى قاتلي ... فسيَّروا الأكفانَ من عاجل
ولا تلوموا في اتباعِ الهوى ... فإنني في شُغُلٍ شاغل
عيني على عُتْبَةَ منهلٌّة ... بدمعها المنسكب السائل
يا من رأى قبلي قتيلاً بَكى ... من شدة الوجد على القاتل
بسطت كَفّي نحوكم سائلاً ... ماذا تردُّون على السائل
إن لمْ تنيلُوُه فقولوا له ... قولاً جميلاً بَدَلَ النائل
أو كُنْتُم العام على عُسرةٍ ... منه فمُنُّوه إلى قابل

فسلما له وامتنعا من الإنشاد بعده، وقالا له: أما مع سهولة هذه الألفاظ، وملاحة هذا القصد، وحسن هذه الأشارات، فلا ننشد شيئاً. قال ابن رشيق: وذلك في بابه من الغزل جيد أيضاً لا يفضله غيره.

ولم يكن أبو العتاهية في ذلك يتكلف شيئاً لا تواتيه فيه سجيته، بل كان يجري فيه على سجية مواتية، وشعر مطبوع لا تكلف فيه ولا تصنع، وقد بلغ من سهولة الشعر عليه أنه كان يقول: لو شئت أن أجعل كلامي كله شعراً لفعلت، وقيل له: كيف تقول الشعر؟ قال: ما أردته قط إلا مثل لي، فأقول ما أريد، وأترك ما لا أريد. وحدث عبد الله بن الحسن قال: جاءني أبو العتاهية وأنا في الديوان؛ فجلس إليّ، فقلت: يا أبا إسحاق، أما يصعب عليك شيء من الألفاظ فتحتاج فيه إلى استعمال الغريب كما يحتاج إليه سائر من يقول الشعر، أو إلى ألفاظ مستكرهة؟ قال: لا، فقلت له: إني لأحسب ذلك من كثيرة ركوبك القوافي السهلة، قال: فاعرض عليّ ما شئت من القوافي الصعبة، فقلت: قل أبياتاً على مثل البلاغ، فقال من ساعته:

أيُّ عيش يكون أبلغ من عي ... شٍ كَفافٍ قوتٍ بقدرِ البلاغِ
صاحبُ البغي ليس يسلم منه ... وعَلى نفسه بَغَى كلُّ باغي
ربَّ ذي نعمة تَعرَّض منها ... حائلٌ بينه وبين المساغ
أبلغَ الدهرُ في مواعظه بل ... زاد فيهنَّ لي على الإبلاغ
غبنتني الأيامُ عقلي ومالي ... وشبابي وصحتي وفراغي

وكان أبو العتاهية مع هذا أراد تفخيم لفظة ومعناه لم يقصر به ذلك عن غيره، ومضى فيه كأنه من أولئك الشعراء الجاهلين أو المخضرمين أو الإسلاميين، وقد قال مسعود بن بشر المازني: لقيت ابن مناذر بمكة، فقلت له: من أشعر أهل الإسلام؟ فقال: أترى من إذا شئت هزل، وإذا شئت جد؟ قلت: من؟ قال: جرير حين يقول في النسيب:

إن الذين غَدَوْا بلبك غادروا ... وشلاً بعينك ما يزال معينا
غَيَضْن من عَبراتهنَّ وقلن لي ... ماذا لقيتَ من الهوى ولقينا

ثم قال حين جد:

إن الذي حَرمَ المكارمَ تَغْلباً ... جعل النبوةَ والخلافة فينا
مضرٌ أبي وأبو الملوك فهل لكم ... يا آل تَغلبَ من أب كأبينا
هذا ابن عمي في دمشق خليفة ... لو شئتُ ساقكمُ إلي قطينا

ومن المحدثين هذا الخبيث الذي يتناول شعره من كمه، فقلت: من؟ قال: أبو العتاهية، فقلت فيماذا؟ قال قوله:

الله بيني وبين مولاتي ... أبدتْ لي الصدَّ والملاَلاتِ
لا تغفر الذنب إن أسائت ولا ... تقبل عذري ولا مُواتاتي
منحتُها مهجتي وخالصتي ... فكان هجرانها مكافاتي
أقلقني حبُّها وصّيرني ... أحْدُوثة في جميع جاراتي

ثم قال حين جد:

ومهمة قد قطعتُ طامسه ... قَفرٍ على الهول والمحاماةِ
بحُرَّةٍ جسرةٍ عُذا فِرَةٍ ... خوْصاء عَيْرَانهٍ عَلَنَدَاة
تبادِرُ الشمس كلما طلعتْ ... بالسير تبغي بذاك مرضاتي
ياناق حُبَّي ولا تَعِدي ... نفسك مما ترَيْنَ راحات
حتى تُناخِي بنا إلى ملك ... تَوَّجه الله بالمهابات
عليه تاجان فوق مَفْرقه ... تاج جِلال وتاج إخبات
يقول للريح كلما عصفت ... هل لكِ يا ريح في مباراتي
مَنْ من عمُّه الرسول ومن ... أخواله أكرم الخؤولات

وإذا كنت فيما سبق قد جعلت أبا العتاهية زعيم شعراء عصره، فهذا ابن مناذر يقضي له أيضاً بهذا السبق، وهذا بشار قد سئل من أشعر أهل زمانه؟ فقال: مخنث أهل بغداد، يعني أبا العتاهية، وكذلك كان يرى فيه هذا الرأي كثيرون مثل الفراء وجعفر بن يحيى وأبي نواس، قد وازن الحرمازي بينه وبين أبي نواس، فقال: شهدت أبا العتاهية وأبا نواس في مجلس، فكان أبو العتاهية أسرع الرجلين جواباً عند البديهة، وكان أبو نواس أسرعهما في قول الشعر، فإذا تعاطيا جميعاً السرعة فضله أبو العتاهية وإذا توقفا وتمهلا فضله أبو نواس، وقد يرجع هذا عندي إلى ما كان لأبي نواس من دراسة واسعة في اللغة وغيرها من العلوم، فلا يخفى أن مثل هذه الدراسة لم يتح مثلها لأبي العتاهية.

ولكنه يبقى بعد هذا ما قد يفيده ظاهر بعض ما رواه صاحب الأغاني من أن أبا العتاهية لم يكن يرى في شعره هذا الرأي، قال: نسخت من كتاب هرون بن علي، قال حدثني علي بن مهدي، قال: حدثني ابن أبي الأبيض، قال: أتيت أبا العتاهية فقلت له: إني رجل أقول الشعر في الزهد، ولي فيه أشعار كثيرة، وهو مذهب استحسنه لأني أرجو ألا آثم فيه، وسمعت شعرك في هذا المعنى فأحببت أن أستزيد منه، فأحب أن تنشدني من جيد ما قلت، فقال: أعلم أن ما قلته ردئ، قلت: وكيف؟ قال: لأن الشعر ينبغي أن يكون مثل أشعار الفحول المتقدمين، أو مثل شعر بشار وغبي هرمة، فان لم يكن كذلك فالصواب لقائله أن تكون ألفاظه مما لا يخفى على جمهور الناس مثل شعري، ولا سيما الأشعار التي في الزهد، فان الزهد ليس من مذاهب الملوك، ولا من مذاهب

رواة الشعر، ولا طلاب الغريب، وهو مذهب أشغف الناس به، الزهاد وأصحاب الحديث والفقهاء وأصحاب الرياء والعامة، وأعجب الأشياء ما فهموه، فقلت: صدقت، ثم أنشدني قصيدته:

لِدوا للموت وابنوا للخراب ... فَكلُّكُم يصير إلى تَباب
ألا يا موتُ لم أر منك بُدَّاً ... أتيتَ وما تحيفُ وما تحابي
كأنك قد هجمت على مشيبي ... كما هجم المشيب على شبابي

قال: فصرت إلى أبي نواس فأعلمته ما دار بيننا، فقال: والله ما احسب في شعره مثل ما أنشدك بيتاً آخر، فصرت إليه فأخبرته بقول أبي نواس، فأنشدني قصيدته التي يقول فيها:

طولُ التعاشرَّ بين الناس محلول ... ما لابن آدمَ إن فتشتَ معقولُ
يا راعِيَ الشاءِ لا تغفل رعايتها ... فأنت عن كل ما أسترعيت مسئول
إني لفي منزل أعمره ... على يقين بأني عنه منقول
وليس من موضوع يأتيه ذو نفَسٍ ... إلا وللموت سيفٌ فيه مسلول
لمُ يشغَل الموتُ عنا مذ أعَدَّ لنا ... وكلَّنا عنه بالذات مشغول
ومن يمت فهو مقطوع ومجتنب ... والحيُّ ما عاش مَغشيٌ وموصول
كلْ ما بدا لك فالآكال فانية ... وكلُّ ذي أكل لا بد مأكول

قال: ثم أنشدني عدة قصائد ما هي بدون هذه، فصرت إلى أبي نواس فأخبرته فتغير لونه، وقال: لم أخبرته بما قلت؟ قد والله أجاد، ولم يقل فيه سواءاً.

والذي أراه في ذلك أن أبا العتاهية كان يريد بهذا صرف هذا الرجل عنع، لأنه كان معتزا بشعره معتدا به، وقد قارع به بشاراً وغيره لدى الملوك والأمراء فخار به قصب السبق،

ونال من صلاتهم وجوائزهم ما لم ينله غيره، ولو كان يراه دون غيره من الشعر لقعد به في بيته، ولم يقو أن يقارع أحداً به.

عبد المتعال الصعيدي

فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية

تطوير الحركة الفلسفية في ألمانيا - 20

الناحية السلبية من مذهب نيتش

الإنسان

للأستاذ خليل هنداوي

كل جيل أو كل حضارة مرتبطة بسلسة من القيم الاجتماعية تؤمن بأن هنالك شيئاً أسمى من شيء، وأن عملاً أفضل من عمل، وترى أن الحقيقة أسمى من الضلال، وأن عاطفة الرأفة أفضل من عاطفة القسوة، وواجب التاريخ البشري هو تعيين هذه المقامات والفصل بينها، لأن هذه المقامات المنطوية على التقاليد الاجتماعية هي التي تسيطر على حياة الأفراد والجماعات، وتؤثر في كل أحكامنا ومناقشاتنا. وجدير بها والحالة هذه أن تشغل عقل الفيلسوف وأن تستبد بأكثر عقله وفراغه.

نظر نيتشه إلى هذه المقامات وتأملها ملياً، فجاءت نتيجة تأمله أن هذه المقامات التي تتعاقب عليها الحياة الأوروبية اليوم لهي مقامات فاسدة يجب تنكيسها لأنها لا تصلح للبقاء، وبهذا يتبدل مجرى حياتنا، وتبيد هذه العكازات التي تتوكأ عليها أحكامنا وأفكارنا. وقد نرى نيتشه - في أحد نوبات ألمه العنيف قبل ضياع عقله - ينذر بخراب مروع لهذه البشرية: (إنني أحلف لكم بأن الأرض ستتلوى متشنجة خلال عامين أثنين. . . إنني بنفسي قضاء وقدر)

إن الإنسان الحالي يضع في قائمة (القيم الاجتماعية) عدداً من القيم المطلقة العالية التي لا يمسها سوء ولا يشرف عليها عقل، ولا يتطاول إليها نقاش، وبواسطة هذه القيم يسعى إلى تبيين الحقيقة. من هذه القيم المعروفة مثلاً عنصرا الخير والحقيقة. وقديماً وحديثاً نرى أن تعبد الحقيقة والصدق هو رأس عقائدنا وإيماننا. ناهيك أن المفكرين أنفسهم وقفوا متهيبين إزاء مسألة الخير والشر حين عرضت لهم، وقد ظلموا مترددين أمامها، راعين للتقاليد التي توارثوها عنها. (فكانت) قد افترض وجودها.

وشوبنهاور وجد أن العقدة الأخلاقية إنما عقدة عامة، جميع الناس فيها سواء. (فلا تسئ
لأخيك، وأغث إخوانك ما استطعت). وهكذا تطامن الفلاسفة على هذه العقدة ولم يهزوا شجرتها. وكلهم تجمهروا ليدرسوا رأس الأخلاق وهذا الضمير الخلقي الذي أصطلح البشر عامتهم على احترامه والذي لا يزال يسيطر على الأجيال الحالية.
أعلن نيتشه الحرب على هذا التعبد للحقيقة وهذه العبادة لشريعة الأخلاق. وبدلاً من أن يتقبلها قبولاً لا مفر منه ولا وجه لمقابلته بجدل. رأيناه يقابلها كمسألة يدرس وجوهها ويحل مبهمها ويفترض ما يفترض في سبيل تفهمها. أليس من حقه أن يتساءل (ولماذا كانت الحقيقة خيراً وأحرى؟: ولماذا كان الخير أجدر من الشر بالأخذ؟) ثم حلّ هذه المسألة بذات الجرأة التي ظهر بها جاعلاً قاعدة الإنسان الحر هذه الكلمة المأثورة (لا شيء حقيقي في الوجود، كل شيء حلٌ للإنسان).
وما هذه الكلمات النظرية التي تتردد بحروف مختلفة وأسماء متباينة دون أن يخرج معناها بخروج مبناها إلا كلمات ابتدعها الخيال وثبتها الوهم. أما الحقيقة الجدير بالنظر، الحقيقة التي ينبغي لنا أن نعرفها فهي حقيقة عالم رغائبنا وأهوائنا. فكل ما تحتوي عليه حياتنا وإرادتنا وفكرتنا هو في الحقيقة نتاج ما فينا من الغرائز الحاكمة. وهذه الغرائز المتفرقة إنما تتشعب بها السبل إلى غريرة واحد، لا ترد إلا أليها ولا تصدر إلا عنها. هذه الغريزة هي إرادة القوة، هذه الإرادة التي تغنينا - لو رجعنا إليها في تحليل جميع مظاهر الحياة التي تحيط بنا ونحيط بها. فكل كائن - سواء كان من عالم الحيوان أو النبات أو الإنسان - يسعى إلى بسط سلطانه على غيره من الكائنات حتى يخضع له ما يخضع منها. وإن الحرب القائمة وهذه الجهود الدائمة، حيث لا تستقر حياة موجود إلا ببسط نفوذها ونشر قواها، هي الشريعة الأساسية في الوجود، وفي كل مظاهر الحياة - أنى كانت - ترى الغزيرة قائدها وهاديها: فإذا رأيت إنساناً ما يجنح بطبعه إلى حب الفضيلة والفن والحقيقة فهذا الجنوح إنما قام بفضل هذه الغريزة الطبيعية التي رأت من خيرها أن تسلك هذا السبيل، وهكذا قل في الفضيلة الدينية التي تجد بها بعض النفوس أقواتها وطعام غرائزها. وفي الحقيقة التي يضحي العالم في سبيلها بأزهى عمره تسوقه إليها إرادة القوة التي تعمل على بسط سلطانها، ولكن الإنسان مال إلى عبادة ما ابتدعه بنفسه (كمثل أعلى) ليشبع حاجة فيه من حاجاته. فبدلاً من أن يقول: سأحيا أنا لإشباع غرائزي، وسأتحرى عن الخير
والحقيقة تبعاً لهذه الشريعة حيث تدفعني إرادة قوتي: قال: إنما الخير والحقيقة شيئان ينبغي أن يطلبا لنفسيهما. . . يجب صنع الخير لأنه الخير. ويجب نشدان الحقيقة حباً للحقيقة. وحياة الإنسان ليس لها قيمة إلا بقدر ما تنكر من أنانيتها وذاتيتها في سبيل خدمة هذا المثل الأعلى، فلتقُتل إذن كل ميولها الغريزية في سبيل هذا الإنسان نفسه الذي قدر هذا التقدير إنما تسوقه غريزة - لأن الغريزة هي سائقة النفوس إلى ما تعمل - ولكن هذه الغريزة غريزة فاسدة.
على أن هذه الغرائز ليست في الناس سواء، فبعضها، فبعضها معتدلة تعمل على تغذية حياتها وصيانة نموها، وبعضها فاسدة معتلة تعمل على إخفاء مادتها الحيوية. وللعلل الجسدية تأثير كبير فيها قد يتداركها الطبيب قبل أن تضوي الجسد. وهنالك علل (الشخصية) ولهذه العلل أسباب طبيعية. وبحسب هذه الغرائز المختلفة المتسيطرة على الإنسان يأتي صاحبها صالحاً أو طالحاً، مثلاً عالياً أو مثلاً سافلاً.
إن - هنالك - رجالاً خالصي الأجسام والأرواح يقولون (نعم) للوجود! هم سعداء ناعمون بحياتهم، وهم ممن يجدر بالحياة أن تخلد لهم. وهنالك رجال منحطون ضعفاء مرضى قد أظلمت غريزتهم وماتت حيويتهم، يقولون (لا) للوجود! يجنحون إلى الموت والفناء، لا غاية لهم يتحرون عنها، وليس لهم - والحالة هذه - أن يتحروا عن بقائهم في الوجود، وهذه سنة طبيعية تنطبق على الحياة التي لا تتمرد، والحياة - في كل صقع - سائرة في طريق التقدم أو في طريق الانحطاط، والإنسان فيها مثل غرسة، طوراً تحيا ذابلة يائسة، وطوراً تتفتح مشرفة زاهية، تسمو منها فروع عالية.
يتبع
خليل هنداوي

القصص
صور من هوميروس
حروب طَرْوَادَة - 5
أخيل
للأستاذ دريني خشبة

شده القوم، ونظر بعضهم إلى بعض، ونهض الكاهن الوقور ذو اللحية المرتعشة يضرب في غَبْشَةِ الصبح، متكئاً على عكازه الذي أحنته وأحنتْ صاحبه السنون، ولم يكد يتسم ذروة الجبل حتى أشرقت ذُكاء، فاختلط ذهب أشعتها بفضة لحيته، فزادته رهْبةً، وزاده البعد وقاراً، وملأ بهامته السامقة وطيلسانه القشيب، قلوب العسكر، وعيون القادة، ألغازاً وأسراراً. . .

عاشت ذيتيس في كنف بليوز قانعة راضيةً، لا يعنيها من هذا العالم الرحب إلا الجنين الحبيب الذي يتقلب في أحشائها، فتتقلب معه أكبر الآمال.

ومضت شهور. . . ووضعته غلاماً بكاءً كثير الصخب، يضرب الهواء برجليه الصغيرتين، فكأنما يضرب المشرقين والمغربين، وينظر في السماء العميقة بعينيه الزرقاوين، وكأنما يبحث في أغوارها عن جده. . ومجده! وترى إليه أمة وتبتسم!

وشبّ الغلام وأيفع؛ وتحدَّثت إلى أمه العرَّافات والكاشفاتُ الغيب أنه سيكون محارباً عظيماً، تتحدث بذكره الركبان، وتتعطر باسمة المحافل في كل زمن ومكان؛ وأن لا بد من رحلةٍ به إلى الدار الآخرة - هيدز مملكة بلوتو - حيث تستطيع الأم غَسلَ ابنها في أمواه ستيكس، نهر الخلود الزاخر، الذي أودعته الآلهة أسرارها، ونظمت فيه شعراء الأولمب أشعارها واشتهرت بركاته في العالمين.

حدثنها أنها إذا غسلت أبنها في أمواه ستيكس، فانها تكسب جسمة مناعةً ضد الموت، وحِفَاظاً من الفناء؛ لأن جلده يصبح كالدرعِ المسرودة من حديد، لا تنفذ فيه السهام، ولا يؤثر فيه طعن القنا، ولا ضرب المشرفيات البيض.

ووقفت به على شواطئ ستيكس!.

وهالها أن تنظر فترى إلى المنايا تقفز على غوارب الموج، وتثب فوق نواصي الثبج؛ تدمدم كأنها الذئاب، وتهوم كأنها البواشق، وترقص ظلالاً سوداء كأنها الجن!.

لقد ريعت الأم المسكينة، وكادت تنثني بطفلها المعبود، إشفاقاً عليه من هول ما شاهدت. . . بيد أن الطفل. . . بيد أن أخيل الصغير، كان يصرخ وينتحب كلما بعدت به أمه عن شواطئ النهر، في حين كان يهدأ ويتسم كلما اقتربت به منها. فتعجبت ذيتيس، وجلست ترقب من النهر فرصة هادئة فتغمر ابنها في مائه لحظةً وتمضى لشأنها. . .

وكأن الآلهة قد استجابت لتوسّلاتها. . . . فقد نامت الآمواج، واستقر سطح الماء، وقالت شياطين النهر المصطخب؛ فتقدمت الأم المضطربة، حاملة ولدها من إحدى رجليه، وذكرت أربابها، متبهلةٍ إليهم، وغمست أخيل في الماء الهادئ في أقل من لمح البصر، وعادت أدراجها فرحة متهللة. . .

جزء واد من جسم أخيل لم يغمره الماء!!

ذلك هو عقب قدمه اليسرى! فيا للهول!

لقد أسلمت ذيتيس ولدها الحبيب للسنتور العظيم شيرون، مؤدب هرقل ومدربه، يلقنه الفنون الحربية، وينشئه على أعمال الفروسية، ويبث فيه من ذلك الروح الكبير، الذي بثه في سائر تلاميذه من قبل، فكانوا فرسان كل حلْبة، وصناديد كل ميدان، ولقد نبغ أخيل في استعمال السيف، والعب بالرمح وتوتير القسِي، وثقف حِيل المصارعة والملاكمة. . . . وقصارى القول، أصبح فتى زمانه، والهلع الملقى في قلوب أنداده وأقرانه. . . إن كان له أنداد وأقران.

وعاد إلى أمه فاحتفت به، وذهبت من فوْرها هذا إلى العرافات القُدامى، وكهنة المعبد، فاستوحتهم ما عسى أن يكون في كتاب الغيب من حظ لابنها في الميدان. . .

ولكنها حزنت، ودهاها من الهم ما دهاها، حين قال لها الكاهن الأكبر، مؤمَّناً على ما تنبأت به العرَّافات، إن أخيل سيدعى للقتال في صفوف الإغريق، وأنه سيلقى حتفه تحت أسوار طرواده، بسهم يرميه يع ألد أعدائه، يصيب منه مقتلاً في موضع دقيق من جسمه، هو، واأسفاه، عَقِبُ قدمه اليسرى، التي لم تغمرها مياه ستيكس!!.

حزنت ذيتيس، وتجهمت للحياة المشرقة، وتجهمت الحياة المشرقة لها، وآلت إلا أن تحول
بين أبنها وبين الحملة على طرواده التي كانت الصيحة لها تجوب آفاق هيلاس في تلك الآونة. . .
وجلست تفكر. . .
وبدالها أن ترسل بأخيل حيث يحل ضيفاً على ليقوميدس ملك سيروس الكريم المضياف، وان تنتحل الأعذار الواهية، فتعرض على الملك أن يسمح لولده بالتنكر، بأن يصفَّف طرته ويرسل غدائره، ويزجج عينيه وحاجبيه، ويصبغ خذيه وشفتيه ويضفي عليه من وشي العرئس، وأفواف الاناث، وحِبَرَ القيان الغيد، ما يبدو به كأنه واحدة من بنات الملك أو إحدى سراريه! تحسب المسكينة أنها تعفيه مما قدر له، وأينما كان يدركه القتل، ولو كان في برج مشيد!!.
واشتد طلب الإغريق لأخيل، ولبث الأسطول الضخم يرقب مجيئه في كل لحظةٍ عدة أيام، وخشى اجاممنون إن هو أقلع بالفلك، ورسا عند شطئان طرواده أن ترسل الآلهة ريحاً صرصراً تسخرها عليه فتأتي على أسطوله، أو يظل تحت أسوار أعدائه مرابطاً أبداً، لا يتقدّم. . . ولا يتأخر؛ وتكون إقامته ثمة بالهزيمة أشبه، وإلى الانخذال أقرب.
فأخذ يبعث الرسول يتلو الرسول للبحث عن أخيل، الذي أنبأت الآلهة أن فتح طرواده مستحيل بدونه؛ ولكن عبثاً حاول أحد من الرسل العثور بأخيل أو بظل أخيل؛ بل كانوا يعودون جميعاً وهم يتعثرون في أذيال الخيبة، ويلملمون أطراف الفشل!.
وهنا، نهض البطل الملك، أوليسيز، فتى إيتاكا، وندب نفسه للبحث عن أخيل، وأقسم لا يعودن إلا به!.
ومع أن بعض القادة من أعضاء المجلس الحربي، أوجس خيفةً من أن يفر أوليسيز، وأن يكون ندبه لنفسه بحجة البحث عن أخيل، إن هو إلا حيلة يريد بها أن يفلت من تبعات الحرب وأهوالها، إلا أن أجا ممنون نفسه، وهو القائد الأعلى للجيوش والأساطيل، قبل أن يذهب أوليسيز كيما يقص أثر أخيل، بعد أن أخذ عليه (يميناً على حَدَّ الحسام المهنّد!).
استطاع اوليسيز أن ينفذ إلى مملكة بليوز في أعماق المحيط واستطاع أيضاً أن يختلط بالخدم والخول وحاشية القصر، وأمكنه أن يستدرج بعض الأمراء المقربين من رجال الأسرة المالكة فيعلم منهم أين يختبي أخيل، وكيف يمارس حياة العذارى في بلاط
ليقوميدس، ملك سيروس، كأنه إحداهن، وعلم أيضاً أن أخيل نشأ نشأة عسكرية على يدي شيرون العظيم، ومن كان تلميذ شيرون فأخلق به إلا يستنيم لهذه الحياة الناعمة التي لا تليق إلا بأبكار الخدور، وربات الحجال، لا بالأبطال وصناديد الرجال. . . . . فانطلق إلى سيروس من فوره!.
انطلق أوليسيز إلى سيروس النائية، التي تكاد تكون منقطعة عن العالم، وقد حمل على ظهره العريض، وكاهله القوي حقيبة كبيرة جمع فيها من كتان مصر واصباغها، وعطورها وحِبَرَ الشام، وحريره وممُّوره، وتصاوير فارس، وقاقمها وسنجابها، ومشرفيات الهند، وتحف السند، وطرق الصقلب. . . . . ومن كل ما غلا وارتفع ثمنه من أدق صناعات العالم جميعاً.
فلما كان في حاضرة المملكة، يمم شطر قصر الملك. . . وكان الوقت ضحى؛ ثم إنه طفق يصيح باللهجة السيروسية، معدَّداً أسماء السلع التي: (استحضرناها حديثاً من مصر الجميلة المتفننة، والهند العظيمة، والسند ال. . . ونحن لا نبيع إلا للملوك وأبناء الملوك، لأن الشعب فقير لا يقدَّر بضائعنا الغالية. . . ونحن معروفون في مصر، لا يشتري فرعون إلا منا، وفي الشام، وفي فارس، وفي الهند، حيث الأقيال العظام وال. ..)
وأرسلت بنات الملك فأحضرن هذا التاجر المفاخر بما معه واجتمعن حوله يتفرّجن ويتلُّهيْن؛ هذه تختار منديلاً من حرير الهند، أو منطقة من خز الشام، وتلك تشتري من أصباغ مصر وعطورها وخرزها، وثالثة تفتن بتصاوير فارس، فتشتري كل ما مع الرجل منها. . . . . .
ولكن فتاةً مُلَّثمة. . . وقفت وحدها ترمق سائر الفتيات بنظرات ساخرة، ولا تكاد تبين

إلا عن عينين زرقاوين متألقتين، تقدمت في خطوات متزنة، ومشية منتظمة، وأخذت الحقيبة من الرجال فقلبتها، وما كادت ترى إلى المشرفيات الرقاق الظّبي، حتى تهللت، وبدا البْشر في عينيها، وتناولت حساماً مرهفاً وشرعت تلعب به في الهواء، ههنا وههنا، كأنما تطيح به رؤوس أعدائها الذين تتصورهم في لوحة الخيال البعيد، المنطبع على أسوار طروادة!!. . .
وشُده أوليسيز مما رأى!.
إنه هو نفسه لا يستطيع أن يلاعب السيف كما تلاعبه هذه الفتاة!.
وإن فتاة تغازل السيف هكذا، لا يستطيع عشرة آلاف فارس أن يقفوا في وجهها؛ إذا جمعتهم وإياها حلبَةٌ للوغى!.
إنها تأخذ على الهواء مسلكه، فالهواء نفسه ذبيح هذه الضربات القاسيات!
وانقشع الشك من نفس أوليسيز، وأيقن أنه أمام البطل المنشود، فصاح بصوته الجهوري، وكأن الرعد ينبري من بين شدقيه:
(أخيل!. . . . . .).
وكأن كل ما في الأرض والسماء راح يردد صيحة أوليسيز:
(أخيل. . . أخيل. . . أخيل. . .).
ووقف أخيل لحظة جامداً، شارد اللب، زائغ العينين، كأنه مستيقظ من حلم كريه مفزع؛ ثم ما هو إلا أن نثر لثامه ومزق الغلالة الحريرية التي تحبس جسمه العظيم في سجن امرأة، وصاح بأوليسيز وقد بدا في بُرْد الأسد.
(أنا هو. . . أنا أخيل. . . فمرحى يا رجل!).
- (أنت هو. . . ؟!)
- (أجل. . . أخيل بن بليوز. . . أبي إله عظيم وأمي بنت إله عظيم، فلبيك وسعديك!)
- (وأنت مختبئ هنا في خدور النساء خشية الحرب التي احتشد لها قومك دفاعاً عن الوطن؟)
- (أية حرب يا رجل؟)
- (بين هيلاس وبين طرواده!)
- (ومن أثارها؟)
- (لقد سرق باريس بن بريام، هيلين ملكة أسباطة)
- (سرقها؟ ولم لم تقتله الفاجرة؟)
- (فرَّت معه، ولم يُعنها أن تلقي شرف هيلاس في الوحل)
- (ولم لم تذهب أنت إلى الصفوف، ويبدو لي أنك محارب كبير؟)
- (بل أقبلت من الصفوف لا بحث عنك!!)
- (ومن أنت حتى ينتدبك الجيش للبحث عن أخيل؟)
- (ومن أنا؟ وماذا أسرك أن أكون؟)
- (ومن أنت يا رجل؟)
- (أيسرك أن ملكاً هو الذي يبحث عنك يا أخيل أبن بليوز؟)
- (ماذا تعني؟ أأنت ملك إذن؟ ملك ماذا؟)
- (ملكإيتاكا يا أخيل!!).
- (أنت ملك إيتاكا؟ أنت أوليسيز؟ هاها. . . وما تلك الحقيبة إذن؟)
- (هي وسيلتي اليك، لقد مزقت بها خمارك؛ وهتكت بما فيها براقعك!)
- (أنت تهيني!)
- (لا عليك، مادام محدثك أوليسيز!)
- (أفي الحق انك هو. . . . . ؟؟)
- (أقسم لك بالكُناس الذي آواك. . .)
- (وفيم كنت تحرث شاطئ البحر إذن؟ لقد ذُكر أنك زرعته ملحاً، فهل حصدت سردينا يا أوليسيز؟.)
- (أخيل! الأسطول ينتظرنا، ألف ألفٍ يتحرقون شوقاً لرؤياك، وأنت أكرم من أن تفر من حرب. . . فهلم!.)
- (هلم إلى أين؟.)
- (إلى أوليس أيها العزيز. . إلى حياة البطولة والمجد والشرف!)

- (البطولة والمجد والشرف!! ماذا تقول؟.)
-) لم يخلق تلاميذ شيرون للتقلب في الراحة، في قصور الراحة، والتلذذ بما في العيش من طراوةٍ ونعومة. . . هلم يا أخيل نخض المعمعة، ونلق طروادة العاتية، ونُلَقّنْها درساً دامياً في الذود عن كرامة الوطن! لا تقتل وقتنا فقد حرصنا جميعاً على أن تكون معنا، وتحدثت إلينا آلهتنا أن طروادة لا تُفْتَح إلا عليك، ولا تعنو إلا لك، وقد اتفقت المقادير أن ترميها بك. . . لا تترك لخصومك فرصة أن يقولوا فر أخيل وتقاعس، فأين أبطال هيلاس!! هلم هلم، فقومك بنو الكريهة وقروم الحرب وحتوف الأقران. . . لو رأيت إليهم مستلْئمين في سلاحهم، مُقَنّعين في حديدهم، مُلملمين في سفينهم، لزهاك عسكرهم الجرار، وبهرك خميسُهم العرمرم! وتمنيت أن تكون أحدهم بالدنيا وما فيها.
دع الغيد يفاخرون بالقلائد والعقود، وتعال نحن ما في أجسامنا من ضربات السيوف، ووخزات الرماح، ومواقع السهام، فهذه أعز مفاخر الرجال يا أخيل!.
أخيل! ردّ عليّ! قل سأحضر معك! كلنا ننتظرك يا أخيل! لن تفتح طروادة إلا عليك! فأي فخر ينتظرك تحت أسوارها، وأي مجد يكلل هامتك يا بطلها الصنديد!.
تكلم، ولا تصمت هكذا. . . إن ملك إيتاكا يتوسل إليك أنا أوليسيز كله! سأكون خدنك في الحوْمة، وصديقك في المعمعة! وأجا ممنون! إنه قائدنا إلى الفخار، وصاحبنا في مصارع الشرف! وديوميديز! بطل الأبطال وفارس كل كريهة وقتال! سينسى شجاعته حين ينظر إليك تلاعب الأسنَّة، وتقّبل مراشف الرقاق البيض! وأجاكس يا أخيل! لقد بهره ما سمعه عنك، وهو يتمنى أن يراك، ويحارب تحت بند خفاق من بنودك! أجاكس نفسه، يود أن يكون جندياً من جنودك وهو أقوى وأبسل جنودنا جميعاً. . .!
ماذا؟ تبكي؟. . . لا لا يا أخيل. . . لترقأ دموعك فهي أغلى من أن تنسكب هكذا! أكرم بك هيلانياً رقيق القلب، باراً ببلادك، مناضلاً عن رايتها في ساحة المجد!.
لتشربْ من دموع أخيل يا ثري الوطن!
(لتروك هذه العبرات الغاليات، فهي ترياقك إذا حزبك أمر، أو ادلهمت بك الخطوب!.
وهكذا كان أوليسيز ماهراً في إثارة النخوة في قلب البطل!
وهل أحلى من كلمات البطولة، وأوقع من حديث المجد، في نفس شاب مثل أخيل؟
لقد تقدم مختاراً طائعاً فقبل جبين أوليسيز، ولثم سيفه، ثم ودّع بنات الملك، وحيا القصر، وتزود من الحدائق نظرات
وأنطلق في إثر أوليسيز!
إلى. . .
أوليس!
(لها بقية)
دريني خشبة
أشكر الأستاذ الأديب محمد روحي فيصل، وأدع للرسالة أن تجزيه عني دريني
من الفن القصصي الحديث
المشعوذ
للقصصي الألماني أريش كستنر
ترجمة علي كامل
في ليلة من ليالي الصيف الماضي شوهد على شرفة مقهى (مجلس الوصاية) الواقع على رصيف مون بلان بجنيف منظر كان حقاً غير عادي، إذ قبل أن ينتصف الليل بقليل كان المقهى يفيض بالزبائن الوجهاء الذين كانوا يشربون قبل أن يذهبوا للنوم مختلف المشروبات المثلجة. فقد كان الجو ثقيلاً، ثقيلاً لدرجة أن رياح البحيرة لم تستطيع إحداث أقل إنعاش أو تخفيف.
وكان الأغنياء البرجوازيون من أهل جنيف يوقفون عرباتهم أمام الفندق ثم يبحثون بعد أن ينزلوا منها عن مكان وسط ذلك الجمع المختلف الأجناس المحتشد في ذلك المكان.
وكان فريق الأوركسترا يعزف في الهواء الطلق بضع مقطوعات من أوبرات شهيرة، وكان كل الجالسين يشعرون بأنه يحيط بهم جو على أتم ما يرام. فجوازات السفر تامة من كل الوجوه، والحقائب مهيأة للغاية، وأربطة الرقبة متفقة مع (البدل)،

والقهوة المثلجة في درجة الحرارة التي يرغبونها، وأمواج الأوبرات التي يعزفونها جيداً تفتن جميع الآذان.

وفي هذا الجو المفعم بالنعيم والفخامة برز مرة واحدة وسط الشارع أحد حمالي البواخر، وكان أشبه ما يكون بمصارع، وكان جسمه كله برنزي اللون من أثر الشمس. وبدل القميص كلن يلبس (مايوه) بنفسجياً وحول فخذيه بنطلون أحمر متسخ. وكان يلّوح بيديه بكوبه من الجعة نصفها فارغ. محيياً - وهو يضحك - الجالسين في المقهى الذين لم يكن من السهل لعينيه أن تراهم جميعاً. ولقد كان يبدو من منظره أن الشراب قد أسكره قليلاً. وكانت ابتسامته تبدو غريبة، وبعد أن عبر شرفة المقهى عاد أدراجه وبدا على وجهه كأنه يريد أن يشرب في صحة الحاضرين. ثم أفرغ ببطء ما تحتويه كوبته ولم يظهر على من بالمقهى أنهم وجدوا في هذا المنظر تسلية كبيرة جداً، وأفرغ الرجل ما تبقى من الجعة على الرصيف دون أن يبدو عليه أي أرتباك، ثم مسك الكوب بكلتا يديه وحطمها كاملاً بين أسنانه كإنسان عضه الجوع. وكان بالقرب منه فتاة أمريكية من اعظم الموجودات رشاقة فصرخت حين رأته يفعل ذلك وأصفر لونها مرة واحدة. أما جارتها ملكها الفزع وضعت منديلها سريعاً على فمها. ووقف عدد من الزبائن ودفعوا كراسيهم إلى الوراء وجروَا بأقصى سرعة. أما أفراد الأوركسترا أنفسهم فقد تحولت أنظارهم عن النوت إلى أمامهم وطاشت أنغام كل منهم

وفي أثناء كل ذلك الوقت كان الرجل يسحق قطع الزجاج بصوت مرتفع دون أن يتحرك من مكانه متابعاً بعينيه بكل هدوء عصبية المتفرجين المتزايدة، وكان صوت مضغ الزجاج - ذلك الأمر العجيب النادر - هو وحده الذي يزعج ذلك السكون الشامل. ثم أحنى الرجل رأسه كأنه يتحدث سراً مع أحد من الناس وتأرجح على ركبتيه ثم أتجه إلى مناضد أكثر بعداً وهز من جديد كوبه ونظر بهدوء شديد إلى الوجوه الخائفة وحطم قطعة أخرى بين أسنانه. وهرب هذه المرة أيضاً عدد من الجالسين بينما طلب عدد آخر - وقد أثارهم ذلك المنظر الغريب - من خدم المقهى أن يطردوا ذلك الرجل. على أن الخدم اكتفوا بهز أكتافهم، فقد كانوا على جانب من التعب الشديد غير قادرين حتى على جمع الحساب الذي لهم عند الزبائن. كما أن الفزع كان قد أخذ منهم كل مأخذ. ومن الحق القول أيضاً بأنهم كانوا لا يودون مطلقاً أن يتشاجروا مع (آكل الزجاج) وطلب رجل فرنسي - كان قد أصبح وجهه رمادي اللون من هول الرعب - مدير المحل كيما يوجه إليه اللوم الشديد. ووعد مدير المحل بأن يقدم مساعدته وتقدم خطوات نحو حمال البواخر، لكن شجاعته خانته حالاً فتقهقر. ذلك لأن المشعوذ لم ينقطع عن التردد بين طرفي المقهى وهو يمضغ على مهل بقايا كوبه الجعة، وبعد أن ازدرد جزءاً منها لفظ البقية على الأرض.

وبدا على جانب شفتيه مجرى رفيع من الدم انساب حتى ذقنه دون أن يشعر هو نفسه بذلك إذ كان منشغلاً تماماً بمضغ غذائه الوحيد.

ومر بالمكان مصادفة أحد رجال البوليس قادماً من رصيف و. ولسن وكان يرتدي (بدلة) زرقاء بأشرطة بيضاء، فعندما رأى ذلك المنظر الغريب انسل بهدوء إلى شارع الناقوس، واختفى دون أن يصرخ آمراً بعودة النظام.

ووقفت السيارات في عرض الطريق بينما جلس السائحون صامتين من الذهول، وقد اتجهت أنظارهم - دون أن تتحول مطلقاً - صوب النوافذ الزجاجية.

لقد فقد زبائن المقهى وعيهم كلية، وملكهم الرعب من جراء شجاعة ذلك الرجل الخارقة، ولقد دفعهم الخوف لأن يضعوا أيديهم على حقائبهم، فقد تكون هي احسن وسيلة لأبعاد ذلك الحمال الذي حمل إليهم الألم والأذى.

على أنه لم تكن هناك وسيلة ما!.

لم يبق من الكوبة شيء يذكر، كان الرجل يمضغ بهدوء البقايا الأخيرة ولم يقاومه إلا القاعدة لأن زجاجها أكثر سمكاً فلوح بها في الهواء وعليه إمارات النصر الممتلئ بالاحتقار.

كان السكون التام يسود المكان كله ولم يكن هناك إلا فتاة صغيرة - عيناها نصف مقفولتين - تبكي بوداعة. وفي تلك اللحظة اقترب رجلنا من المنضدة المجاورة وقبض - دون أن ينطق بكلمة واحدة - على آنية السكر المعدنية وأدارها على المنضدة ثم

قدمها وهي فارغة مما كانت تحويه طالباً المعونة، وقد علت وجهه إمارات التهديد.
وفي الحال انفتحت حقائب النقود كأن قوة سحرية فعلت بها ذلك. وتراكمت قطعه النقود في آنية السكر كأنها قطرات مطر هاطل، وتنقل الرجل من منضدة إلى أخرى وهو مالك نفسه أكثر من رجل مسلح من رجال العصابات. ماداً آنية السكر كأنه يصوت مسدساً. إنه لم يستجد بلسانه مطلقاً، كما أنه لم يشكر من أعطوه، على أنه لم يكن يغادر المنضدة إلا بعد أن يعطيه الجالسون عليها نقوداً.
وفي الطريق وقف المارون ينظرون في صمت ما يفعله الرجل وقد ظهر عليهم السرور واضحاً. لاحظ مدير المحل - ولكن بعد أن فات الأوان - أن سمعته في خطر كبير فانحنى يطلب بأدب جم إلى العامل أن يوقف هذه الشحاذة، لكن الرجل أبعد ذلك الشخص الذي يضايقه بأن هز كتفه هزة خفيفة ثم استمر في تكديس النقود كأن شيئاً لم يحدث قط، فقد كان يعتبر الجالسين في المقهى كأنهم أكياس منتفخة من الذهب.
لقد جاء إلى المكان وأطاعوه بسهولة! وفي اللحظة التي شعر فيها بأنه حصل على ما يريد أفرغ ما تحتويه آنية السكر في جيبه وألقى على الأرض - دون أي مراعاة - قاع الكوبة
الذي لم ينقطع عن التلويح به في الهواء حتى تلك اللحظة، ثم ارتدى بنطلونه بإهمال، كما هي حال الطبقات الدنيا، وسار في طريقه باحتقار وازدراء.
وبقي الزبائن المساكين جالسين في أماكنهم ذاهلين، أشبه ما يكونون بمرضى في دور النقاهة، محطمين من التعب والإرهاق والآن ما الذي حدث؟
الذي حدث أن رجلاً لا يلبس ياقة ولا رباطاً للرقبة ازدرد الزجاج. بيد أن وقع الحادث على المتفرجين كان أكثر من ذلك هولاً ورهبة.
وابتداء فريق الأوركسترا يعزف مقطوعات للموسيقي فيردي بينما كان أحد خدم المقهى يمسح جبهته خفية.
البريد الأدبي
مستعرب عظيم
يلومني بعضهم لتنويهي في كل مناسبة بفضل علماء المشرقيات في الغرب على حضارتنا وآدابنا، ولقولي إننا كنا نجهل كثيراً من علم أمتنا ومدنيتها لو لم يقم الغربيون يحيون كتب العرب منذ القرن السادس عشر من الميلاد؛ حتى طبعوا منها خزانة عظيمة بإتقان وضبط، مل برحت الدارسين والباحثين، وإذا أشرت إلى علماء أمتي بالجري في طريقة أولئك العاملين، فهناك الامتعاض، وهناك الغمز واللمز، وهناك الأعذار التي لا مبرر لها.
أنا لا أجادل إلا بإيراد مثال واحد على صحة مدعاي، والأمثلة متوفرة كثيرة. هذا الأستاذ كرنكو الألماني لم يجد منشطاً من دولة، ولا من جامعة، ولا من جماعة؛ ومع هذا طبع نيفاً وعشرين كتاباً من كتبنا لخدمة العلم والحضارة العربية. وترجمة الرجل طريفة عسى أن يكون في نشر طرف منها بعض العبرة لقومي، وألا يثقل عليهم إذا قلنا إنهم مقصرون عن اللحاق بغيرهم
ولد (فريتس كرنكو) أو (سالم الكرينكوي)، كما سمى نفسه بعد في قرية شونبرغ في شمال ألمانيا، وتعلم مع لغته الألمانية، وكان شاعراً، اللغات الإنجليزية والفرنسية واللاتينية واليونانية، فأتقنها اتقاناً جيداً، ثم بدأ وهو صبي يافع يتعلم اللغات الأوربية الأخرى واللغة الفارسية، وتعلم طرفاً صالحاً من الحميرية والعبرية والآرامية والتركية، ثم رحل إلى إنجلترا واشتغل بالتجارة حتى أسس مصنعاً للأقمشة في (لستر) كان يشغل فيه أكثر من ألف عامل وعاملة، ولم تفته مع كثرة أشغاله العقلية ساعة إلا طالع فيها الكتب العلمية، وسما له شوق إلى درس آداب العربية والحضارة الإسلامية، ولا سيما ما كان له علاقة بأوائل الإسلام والقرون التي سبقته، فتعلمها وأتقنها حتى أصبح يكتب فيها ويؤلف مثل أبناء العرب.
وفي الحرب نكب بفقد وحيده، ثم بخسارة كبرى في تجارته حدث به إلى تركها في سنة 1927. وتفرغ بعد ذلك للعلم، وهو اليوم يعرف لغات أوربا وثلاث لغات من لغات الشرق: العربية والفارسية والهندية معرفة جيدة، ودروس اللغات الأخيرة في الكتب من أستاذ، وهو اليوم لا منصف له يعيش براتبه، وماله مال أمثاله ممن يحترف الأدب، ولما

اشتدت به الضائقة كتب إليه أحد أصدقائه من مسلمي الهند أن ينسخ له من الكتب العربية ما يراه جديراً بالطبع من خزانة المتحف البريطاني في لندرا، وجعل له جعلاً سنوياً مناسباً. وقال لي الأستاذ: إني الآن أعيش بفضل لغتكم.
هذه جملة حاله، أما إنتاجه فكثير جداً، لا تكاد تقوم بمثله المجامع العلمية الكبرى، ورجائي أن يقتدي بسيرته رجالنا، فهي غريبة في بابها.
طبع الأستاذ كرنكو مجموعة من كتب العرب أعرف منها الكتب التالية:
(1) قصيدة طفيل الغنوي البائية مع ترجمة إنجليزية
(2) قصيدة بانت سعاد لكعب بن زهير مع مقدمة ألمانية
(3) شعر أبي ذهبل الجمحي رواية الزبيري بكار مع زيادة وحواش وملاحظات
(4) طبقات النحاة لأبي بكر الزُّبيدي مع مقدمة وشروح عليها باللغة الإيطالية
(5) ديوان مزاحم العُقيلي بترجمة إنجليزية
(6) كتاب المجتبي لأبي بكر بن دريد
(7) ديوان النعمان بن بشير الأنصاري وفي ذيله ديوان بكر بن العزيز العجلي
(8) حماسة هبة الله بن الشجري
(9) ديوان طفيل الغنوي وديوان الطُّرماح بن حكيم مع مقدمة وترجمة وشروح وفهارس مطولة بالإنجليزية
(10) الكتاب المأثور لأبي العميْثل الأعرابي عن نسخة قديمة كتبت سنة 280 مع مقدمة ألمانية وفهارس
(11) جمهرة ابن دريد في ثلاثة مجلدات مع فهارس له في مجلد كبير
(12) تنقيح المناظر لكمال الدين الشيرازي شرح كتاب المناظر لأبي الهيثم البصري
(13) كتاب التيجان في تواريخ ملوك حمير لعبد الملك ابن هشام عن وهب بن منبَّه التابعي وفي ذيله ما بقي من رواية عبيد بن سَنْرِيةَ عن الأمم البائدة، وقد كتب في مجلة (مدنية الإسلام) الألمانية أن هذين الكتابين من أقدم الآثار المدونة باللغة العربية
(14) لابن حجر العسقلاني في أربعة مجلدات. (الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة) ويطبع الآن ويصحح كتاب (معاني الشعر الكبير) لأبن قتيبة، وهو في ألف صفحة و والمجلدات الثلاثة الأخيرة من (التاريخ المنتظم) (إعراب ثلاثين سورة لأبن خالوية) لأبن الجوزي، و (المؤتلف والمختلف) للآمدي، وكتاب (نجاة البصرة) للسيرافي، و (الجماهر في معرفة الجواهر) لأبي الرَّيحْان البيروني، إلى غير ذلك مما يطبعه من كتبنا في الهند ومصر والشام والجزائر وأوربا.
وبعد هذا ألا نرى من الواجب أن نرسل من هذه الأقطار العربية تحيتنا إلى هذا العالم العامل الكامل في الديار الغربية، وندعو بطول بقائه ليخدمنا بعقله ونبوغه، وندعو أن يهيئ الله لأمتنا أمثلة من العلماء العاملين.
محمد كرد علي

كتاب الذخيرة لأبن بسام

تألفت أخيراً برياسة العلامة المستشرق الفرنسي الأستاذ ليفي بروفنسال لجنة من أفضل المستشرقين لتعني بإخراج أثر إسلامي أندلسي ضخم هو كتاب: (الذخيرة في التعريف بمحاسن أهل الجزيرة) لابن بسام، وهو من أكابر أدباء الأندلس في أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجري. ولم يكن موجوداً ولا معروفاً قبل بضعة أعوام من كتاب ابن بسام غير أجراء أو نسخ ناقصة، ولكن الأستاذ ليفي بروفنسال، وهو من خيرة المستشرقين الذين وقفوا على استقصاء تاريخ الأندلس المسلمة وآدابها وحضارتها، لبث يبحث وينقب أعواماً طويلة في خفايا المكاتب المغربية حتى ظفر بنسخة حسنة كاملة من كتاب: (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة)؛ وساعده على ذلك وجوده بالمغرب الأقصى، مدى أعوام طويلة، مديراً لمعهد المباحث الإسلامية في رباط الفتح (مراكش)، وتجوله الدائم في أنحاء مراكش والجزائر، وتمكنه من معرفة الآثار والمخطوطات الأندلسية؛ وهو صاحب القسم الثاني من فهرس المكتبة العربية في الأسكوريال، وله عن أسبانيا المسلمة مؤلفات عديدة. منها: (أسبانيا في القرن العاشر) و (النقوش الإسلامية في أسبانيا المسلمة) و (وثائق جديدة عن تاريخ الموحدين) و (وصف لمدينة سبتة في القرن الخامس عشر) الخ. وقد

طبع كتاب دوزي عن الأندلس طبعه جديدة منظمة منقحة؛ وكتاب الذخيرة الذي يعني الآن بإخراجه، أثر أدبي تاريخي ضخم ينقسم إلى أربعة أقسام: الأول خاص بقرطبة وأعيانها، والثاني خاص بغرب الأندلس وأعيانها، وأخبار اشبيلية وبني عباد؛ والثالث خاص بشرق الأندلس وبلنسية وأعيانها، والرابع بأخبار الجزيرة وأعيانها. وهو يلقي أعظم الضياء على تاريخ أسبانيا المسلمة وآدابها وأحوالها الاجتماعية في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) أيام دول الطوائف. ويوجد بدار الكتب المصرية نسخة ناقصة من كتاب الذخيرة في مجلدين كبيرين، تحتوي على القسمين الأول والثاني فقط من الكتاب. ومن المحقق أن دوائر البحث الإسلامي سوف تنتظر بفارغ الصبر ثمرة الجهود المحمودة التي يبذلها الأستاذ ليفي بروفنسال وزملاؤه الأفاضل لإخراج هذا الأثر النفيس.

من آثار نابوليون

كشف البحث في مكتبة خاركوف العامة (روسيا) عن وجود اثر نفيس من آثار نابوليون، وهو عبارة عن كتاب منه بخطه إلى صديقه وعامله يوسف فوشيه، والكتاب مؤرخ في 11 مايو سنة 1811، وفيه يدعو الإمبراطور فوشية ليتولى إدارة شؤون بروسيا، ويحثه على القدوم إلى درسدن مع عدة من معاونيه الذين يعرفون اللغة الألمانية، وكان نابوليون في ذلك الحين قد غلب على بروسيا ومزقها، وأخذ يستعد لغزوته الروسية الشهيرة. أما يوسف فوشيه الذي يوجه إليه هذا الخطاب، فهو من اشهر الشخصيات في تاريخ نابوليون وتاريخ فرنسا في هذا العصر؛ وقد كان أقطاب الثورة وزعماء اليعاقبة، ولما بزغ نجم نابوليون عين مديراً لبوليس باريس، واستمر في هذا المنصب أعواماً طويلة ثم تولى بعد ذلك عدة مناصب في الإدارة وفي البطانة، واشتهر فوشية بدسائسه الكثيرة التي جعلت منه شخصية روائية مدهشة، وكان داهية وافر الذكاء والخبث، وقلما تجد قصة من قصص هذا العصر لا تحتل فيها فوشية أعظم مكانة، وكان نابوليون يثق به وينتدبه لأخطر المهام السرية، ولكنه في أواخر أيامه أخذ يرتاب فيه ويقصيه عنه، وكان فوشية أديباً كاتباً، وقد ترك لنا عدة آثار ورسائل، وكتب عنه الكثيرون مؤلفات ضخمة، ولا سيما شتيفان زفايج الكاتب النمسوي، ولوي مادلين الكاتب الفرنسي.

وفاة فنان نمسوي

من أبناء فينا أن المهندس والفنان الأشهر الأستاذ أوسكار شترناد قد توفي في السادسة والخمسين من عمره في مصيفه في (أو سنري)، وقد كان الأستاذ شترناد أعظم أخصائي في فنه، وهو الهندسة الزخرفية، واشتهر منذ أواخر عهد القيصرية، وتولي زخرفة كثير من المنشآت الشهيرة، ومنها (الأوبرا) النمسوية. ولبث مدى أعوام طويلة أستاذ هذا الفن في مدرسة الزخارف الفنية.

الرقابة الأدبية في روسيا

تفرض روسيا السوفيتية على الكتب والصحف رقابة صارمة؛ وكما أنها ترعى هذه الرقابة وتنظمها داخل روسيا، فلا يكتب أو ينشر شيء ينافي المبادئ الشيوعية أو يتوجه إلى نقدها والطعن فيها، فكذلك تنظم هذه الرقابة على الحدود تنظيماً دقيقاً فلا يتسرب إلى الأرض الروسية من الكتب أو الصحف شيء يخشى منه على عقول النشء الروسي الذي نشأ وترعرع في ظل الثورة الشيوعية، وآخر نوع من أنواع هذا الحجر قانون أصدرته وكالة الشؤون التجارية الخارجية، يقضي بأنه لا يجوز لشخص داخل روسيا أن يستورد من الخارج كتباً أو صحفاً أجنبية إلا بتصريح خاص من المكاتب التي ستنشأ لهذا الغرض، وكل صحيفة أو كتاب لم يؤذن باستيراده يعتبر مهرباً ويحاكم محرزه ولا سيما إذا كان فيه طعن على الحكومة السوفيتية أو مبادئها أو وسائلها، وقد حملت السلطات السوفيتية على تشديد الرقابة على هذا النحو بما لاحظته في الأعوام الأخيرة من اشتداد الحملة على روسيا السوفيتية، وتصور نظمها وأحوالها في معظم البلدان الأجنبية، سواء بطريق الكتب أو الصحف، تصويراً منفراً تقشعر منه القلوب.

إلى صديقي الشاعر الدكتور إبراهيم ناجي

كنت شديد الإعجاب بقصيدتك (عاصفة روح) التي سمعتك تنشدها قبل نشرها في العدد الأخير من (مجلتي) الصادرة في أول سبتمبر، ولكني لما خلوت إلى نفسي كنت كمن يفتش على مهل عن شيء ضائع في ذاكرتي!.. وأخيراً لقيت هذا الشيء الضائع.

. . لقيت مطلع قصيدة من ذات العنوان والوزن، بل لقيت القصيدة كلها من نظم الشاعر الدمشقي مشيل عفلق منشورة في العدد السابع من مجلة الدهور الصادر في شهر سبتمبر سنة 1934 مطلعها:

أعصفي يا رياح ... واهزئي يا سماء
من يكن ذا جناح ... هل يهاب الفضاء؟

ولقيتك في المقطع الثاني من قصيدتك تقول:

أعولي يا جراح ... اسمعي الديان
لا يهم الرياح ... زورق غضبان

لقد أوغلت في قراءة قصيدتك، ووازنت بين أقوالك ومعانيك، وبين الأقوال والمعاني الواردة في قصيدة الشاعر الدمشقي، وأخيراً لقيت الأليق أن أسألك عما إذا كان هذا مجرد توارد خواطر، وقد ألفنا تعليل الاغارات الأدبية بتوارد الخواطر.

أريد أن أمضي معك في تعليلك، وأن أكتفي بنشر مقطع واحد من قصيدة ذلك الشاعر الدمشقي يتفق مع مقطع من قصيدتك، أريد ذلك حتى لا أضيف خسارة صديق جديدة إلى قائمة أولئك الضعفاء غير المأسوف على صداقتهم، فهل من تعليل؟. . . . إني لمنتظر.

حبيب الزحلاوي

الكتب

ثلاث رسائل

بخط ياقوت الحموي الرومي

للأديب الفارسي عباس إقبال

ترجمها الدكتور عبد الوهاب عزام

عند كاتب هذا المقال مجموعة صغيرة في ثمان وأربعين ورقة صفراء، طول ورقة 15 سنتيمتراً وعرضها 10، وهي بخط نسخ جميل، كتبها كلها الأديب العالم الكبير شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي، المؤلف ذائع الصيت صاحب معجم البلدان، ومعجم الأدباء، المولودة سنة 575 والمتوفىسنة 626.

في هذه المجموعة أربع رسائل صغيرة كتبها ياقوت نفسه في أوقات مختلفة، ثم جمعها في مجلد واحد. وهي كما يأتي:

1 - كتاب الفصيح: لأبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب الشبابي (200 - 291) وهو 28 ورقة. وقد طبع مرات.

2 - كتاب تمام الفصيح: لأبي الحسين أحمد بن فارس أبن زكريا اللغوي المتوفى سنة 395. وفيه 11 ورقة.

3 - و 4 - كتابان لأبي الحسن عليَّ بن عيسى الرمَّاني الوراق (276 - 384) الأول منهما، لسوء الحظ، سقط من المجموعة. ومحي عنوانه من الغلاف. والكتاب الثاني كتاب الحروف. وقد سقط أوله، وبقي معظمه في 9 ورقات.

ولا شبهة في صحة نسبة هذه النسخة إلى ياقوت الحموي وأصالتها. فالخط والورق والتاريخ يؤيدها. ثم ياقوت نفسه يكتب هذا خمس مرات بالخط الذي كتبت به النسخة نفسها. ولدينا شواهد تاريخية أخرى نحصيها فيما يلي:

على غلاف هذه المجموعة، كما يظهر من الصورة هذه الكلمات:

كتاب الفصيح

تأليف أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب وكتاب تمام الفصيح

تأليف أبي الحسين أحمد بن فارس

وفيه كتاب. . . . . وكتاب الحروف

كلاهما عن عليّ بن عيسى بن علي الرماني

وفي الحاشية اليسرى إزاء اسم كتاب الرماني (ملك لكاتبه ياقوت الحموي عفا الله عنه) ثم في أسفل صفحة الغلاف كتب ياقوت نفسه في سطور رأسية رواة كتاب الفصيح إلى زمانه وبين كيف نسخ هذه النسخة من الفصيح وصحيحها. ونحن ننقل هنا بعض ما كتب:

وصاحب هذا الكتاب عبد الله الفقير إليه ياقوت ابن عبد الله الرومي الحموي، . . . . .

بعد أن عارض بأصله هذا نسخة السماع وكتب ما كان فيها من. . . . . وما كان في هذه النسخة من الزوايد مخالفاً للأصل ضرب عليه بالحمرة. وذلك بأعلى. . . الآخر سنة عشرين وستمائة. وهذا خط صاحب الكتاب ياقوت الحموي عفا الله عنه. . .

وفي آخر نسخة كتاب الفصيح: (منقول من خط أبي الحسين عليّ بن عبيد الله السمسمي اللغوي بحواشيه حرفاً حرفاً، وكان على وجه نسخته، وفي الحاشية اليمنى بجانب هذه العبارة كتب بخط أحمر: (قوبل بالأصل المنقول عنه؛ فصح والحمد لله رب العالمين، وقوبل ثانياً وصح)

وكتب في هذه النسخة، كما يقول ياقوت في حاشية الغلاف: اختلافات النسخ فوق الكلمات بمداد أحمر، وزيدت في الحواشي زيادات وتصحيحات. وهذا برهان بمقابلة النسخة بنسخ أخرى وليس في الرسالة تاريخ نسخها، ولكن يؤخذ من حاشية الغلاف المكتوبة في ربيع الآخر سنة 620: أن مقابلة هذه النسخة بنسخة أخرى كان في هذا التاريخ، وقد حمل ياقوت هذه المجموعة معه حين فرّ من متوحشي التتار بين سنتي 617، 618. وكان من بركة هذا الفرار أن بقيت لنا هذه النسخة ولم يصيبها من أيدي هذه الجماعة الوحشية ما أصاب نفائس الكتاب فيما وراء النهر وخوارزم وخراسان.

وقد كتب على ظهر الورقة الأولى من كتاب تمام الفصيح لأحمد بن فارس: (كتاب تمام الفصيح تأليف الإمام أبي الحسين

احمد بن فارس بن زكريا رحمه الله. ومن خطه نقل)، وفي أول الكتاب (نقلت من خط أبي الحسين احمد بن فارس مصنف الكتاب) وتنتهي النسخة بهذه العبارة:

وكتب احمد بن فارس بن زكريا بخطه في شهر رمضان سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة) بالمحمّدية. قال ناسخ هذه النسخة هذه جميعه صورة خط الإمام أبي الحسين بن فارس رحمه الله. فأما أنا فإني فرغت من نسخ هذه النسخة بكرة الأحد سابع ربيع الآخر سنة ست عشرة وستمائة بمرو الشاهجان حامداً لله ومصلياً على نبيه المصطفى محمد وآله وصحبه الكرام، وكتب ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي).

وكتب في الحاشية مقابل كلمة المحمدية: (قلت المحمدية محلة بالري هي بين السور البرّاني والسور الداخلاني)، وهذه العبارة التي كتبها ياقوت في آخر نسخة تمام الفصيح علاوة على تصريحه بأن هذه النسخة خط يده، وأنه ختمها يوم الأحد سابع ربيع الآخر سنة 616 في مرو الشاهجان، ونقلها من نسخة المصنف التي كتبها بخطه في رمضان سنة 393 في المحمدية ترينا تدقيق ياقوت في ضبط أسماء البلدان. فإن هذا العالم الكبير الذي أمضى شطراً من عمره في تحقيق أسماء البلاد وتعيين مواقعها، وجمع المعلومات التي مكنته من تأليف كتابه البديع الخالد معجم البلدان رأى في نسخته حتى أبان عنه، وكان من قبل خفياً عليه نفسه كما يتبين مما يأتي:

وقد ذكر ياقوت في معجم البلدان، بمناسبة كلمة المحمدية، نسخة كتاب تمام الفصيح التي كتبها بخطه المصنف أحمد بن فارس، ووقعت في يده بمرو الشاهجان، ونقل العبارة التي ذكرها أحمد بن فارس في آخر نسخته ونقلناها هنا، وهذه من أقوى الأدلة على صحة نسبة النسخة الحاضرة إلى ياقوت، وهذه عبارته في معجم البلدان (ووقع لي بمرو كتاب أسمه تمام الفصيح لابن فارس وبخطه. وقد كتب في آخره: وكتب أحمد بن فارس بن زكريا بخطه في شهر رمضان سنة 395 (كذا بالرقم في النسخة المطبوعة في لايبسيك) بالمحمدية فغبرت دهراً أسائل عن موضوع بنواحي الجبال يعرف بهذا الاسم فلم أجده لان ابن فارس في هذه الأيام هناك كان حياً حتى وقعت على كتاب محمد بن أحمد بن الفقيه فذكر فيه. قال جعفر بن محمد الرازي: لما قدم المهدي الرّي في خلافة المنصور بنى مدينة الرّي التي بها الناس اليوم، وجعل حولها خندقاً، وبنى فيها مسجداً جامعاً، وجرى ذلك على يد عمار بن الخصيب. وكتب اسمه على حائطها، وتم عملها سنة 158. وجعل لها فصيلاً يطيف به فارقين آخر، وسماها المحمدية. فأهل الري يدعونه المدينة الداخلة المدينة،

ويسمون الفصيل المدينة الخارجة، والحصن المعروف بالزبيدية في داخل المدينة بالمحمدية.

(له بقية)

عبد الوهاب عزام

مطبوعات دار الكتب المصرية
للأستاذ محمد بك كرد علي

أصدرت دار الكتب المصرية الجزء الخامس من (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) لجمال الدين أبي المحاسن يوسف ابن تغري بردى الأتابكي في سنة 467 صفحة كبيرة، مشفوعاً بفهرس الولاة الذين تولوا مصر من سنة 428هـ إلى سنة 566هـ، وفهرس الأعلام، وفهرس الأمم والقبائل والبطون والعشائر والأرهاط، وفهرس أسماء البلاد والجبال والأودية والأنهار وغير ذلك. وفهرس وفاء النيل من سنة 428 إلى 566 وهي الأعوام التي استغرق هذا الجزء الكلام عليها. وأصدرت أيضاً الجزء الثاني من (الجامع لأحكام القرآن) لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي الأندلسي المتوفى بمنية ابن خُصَيب في الصعيد الأدنى سنة 617هـ، وهو تفسير جليل (أسقط منه القصص والتواريخ، وأثبت عوضها أحكام القرآن، واستنباط الأدلة، وذكر القراءات والإعراب والناسخ والمنسوخ). وقد جاء الجزء الأول في 396 صفحة والثاني في 436، مصححاً بمعرفة الأستاذ السيد محمد الببلاوي مراقب إحياء الآداب العربية.

والدار آخذة في إتمام طبع كتاب (الأغاني) لأبي الفرج الأصبهاني، وقد أنجزت إلى الآن جزأه السابع. و (نهاية الأرب في فنون الأدب) للنويري، وقد أتمت طبع السفر الحادي عشر منه. وانتهت منذ مدة من طبع (صبح الأعشى) للقلقشندي في أربعة عشر مجلداً، ولا ينقصه إلا الفهارس التي تحلى بها كل من النجوم الزاهرة والأغاني ونهاية الأرب. وأتمت طبع (عيون الأخبار) لابن قتيبة، في أربعة مجلدات، ويحمل الرابع منها الفهارس المنوعة. وطبعت ديوان مهيار الديلمي في أربعة مجلدات، وديوان صرَّدُرّ، وديوان نابغة بني شيبان، وديوان علم الدين أيدمر المحيوي، وديوان جران العود النميري، إلى غير ذلك مما أحيته في عهدها الأخير على نفقتها وبعناية رجالها. كما طبعت في خمسة مجلدات قائمة الكتب العربية المطبوعة والمخطوطة التي دخلت الدار

وكانت طبعت طائفة من الكتب الجليلة، منها (الطراز) لأمير المؤمنين يحيى بن حمزة العلوي اليمني في ثلاث مجلدات، و (الاعتصام) للشاطبي في ثلاث مجلدات، و (الأحكام) للآمدي في أربعة مجلدات وغير ذلك. جرى طبع هذه الكتب بإشرافها قبل أن تنشئ الغنية

المتقنة، وكانت طبعت في دور آخر من أدوارها الماضية تاريخ مصر لابن إياس في ثلاثة مجلدات مع الفهارس، و (التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية) لابن جيعان، و (تاريخ الفيوم وبلادها) للنابلسي الصفدي و (الانتصار لواسطة عقد الأمصار) لابن دقماق وغيرها.

هذا عمل دار الكتب اليوم وأمس، ورأيت بعض الغيورين على العلم ينتقدون عليها بطأها في إخراج الكتب للناس، وما عمل هذه الدار بما تنشر من الأسفار الممتعة إلا عمل علمي محض يراد منه إحياء ما قد يتعذر على الأفراد إحياؤه من الأمهات العربية، على غاية من العناية بالتصحيح، مع معارضة النسخ المختلفة بعضها ببعض، والتعليق على محال الإشكال من النسخ الأصلية المعتمدة، وشرح ما يجب شرحه من المشكلات اللغوية والأدبية والتاريخية والجغرافية وغيرها، وهو عمل شاق لا يدرك مبلغ خطورته إلا من عاناه؛ فقد يتوقف الناشر في صفحة محيت بعض كلماتها، أو طمست بعض سطورها أياماً كثيرة ويتقاضاه إثبات الرواية الصحيحة أوقاتاً، لو كان له أن يصفها كما يشاء لكتب رسالة مطولة في فن من الفنون. فإحياء كتاب من هذا الطراز، فيه ما فيه من الغموض واللبس أصعب من تأليف كتاب، ذلك لأن مصححه مقيداً بالنص ومقيد بالرسم والخط ومقيداً بالأمانة، ليس له أن يبدل على هواه كلمة بكلمة، ولو رأى ما ذهب إلى ذهنه أحق بالاتباع والإثبات. ولو كان عمل الدار تجارياً لأخرجت كل شهر بضعة مجلدات، ولكن ماذا تكون قيمتها العلمية؟

أما من يتبجحون بأن بعض منشورات الدار لا تخلو، مع هذه الغاية البالغة، من أغلاط وتهاون، فجوابنا لهم أن يتفضلوا وينشروا لنا رسالة صغيرة للقدماء، في مثل هذه الصورة اللائقة التي تصدر بها مطبوعات دار الكتب، وعندئذ يحكم العارفون لهم أو عليهم. والدعوى الطويلة العريضة في خلوة غير العمل السديد، والنقد سهل والصعوبة

في الإبداع.
وأي خدمة أعظم من الخدمات التي تقوم بها دار الكتب المصرية للآداب العربية، وكثير مما طبعته مَعْلمات أو إنسيكلوبيذيات في الأدب والإنشاء والعلوم. فالشكر للأستاذ المربي محمد أسعد بك برادة مدير دار الكتب على عنايته بالدقيق والجليل في ديوانه، ولإخوانه ومعاونيه الأساتذة المحققون: السيد محمد الببلاوي، وزكي العدوي، والشيخ محمد عبد الرسول، والشيخ أحمد الزين وغيرهم من الناظرين في الكتب. والشكر الكثير لمجلس دار
الكتب الذي ما برح يقرر نشر كل مفيد من آثار السلف.
محمد كرد علي
العدد 116 - بتاريخ: 23 - 09 - 1935
ملكة الجمال
للدكتور عبد الوهاب عزام
للأقلام محن تقضي عليها أن تسف إلى ما لا تود الكتابة فيه، وتكره على أن تخط ما تريد الترفع عنه. وقلمي مكره على الكتابة في هذه الحماقات، مرغم على أن يعنى بهذه الترهات
- 1 -
كنت أحادث جماعة من الأصدقاء، فسارت بنا شجون الحديث إلى أن تكلمنا في المدينة الحاضرة حسنها وقبيحها، وجليلها وسفسافها. قلت: أحسب أن المسيطرين على أخلاق الناس في كثير من مناحي المعيشة الحاضرة جماعة من التجار المفسدين. قال صديق: كيف ذلك؟ قلت: في طبع الإنسان الكلف بالذات، والاستهتار بالشهوات، وقد سار العالم آلاف السنين على هدى التجاريب، وتعليم الأنبياء والحكماء، يزن آلامه ولذاته، ويعدل بين مصالحه وشهواته، ويضع شرائع، ويسن سنناً ليعيش الإنسان على شريعة تعرف وتنكر، وتستحسن وتستقبح، وتقول هذا حلال وهذا حرام، حتى استقامت للإنسان خطة في سياسة نفسه ومعاملة الناس. وصار يجاهد نفسه ليمنعها لذاتها، علما بأن وراء اللذة العاجلة شراً أعظم منها، ويصبر نفسه على ما يكره إيثاراً للعافية في العقبى، واستمساكا بالفضيلة التي سكن إليها، ومكنتها في نفسه سيرة الآباء
قال صديقي: هذا حق فما وراءه؟ قلت: أرى العصر الحاضر مفتوناً كل الفتنة بالأهواء، مستكلباً على الشهوات، قد فتحت له من الملاهي أبواب، ومدت له إلى الغي أسباب؛ فشغلت من الحياة جانباً. هذه الملاهي والمراقص والحانات والمواخير. ورأى كثير من الناس هذه الدور مجلبة ربح عظيم، ووسيلة مال وفير، فأقبلوا عليها إقبالاً، وافتنوا فيها افتناناً، واستعانوا على تزينها وجلب الناس إليها بكل ما أنتجت الحضارة من علم وفن، ولم يدعوا حيلة في الاستهواء إلا اتخذوها، ولا وسيلة إلى تهافت الناس عليها إلا توسلوا بها. امتن كل فيما يعرض، وتؤدي المنافسة والطمع في المال إلى استباحة المحظورات، فينظر الناس أول الأمر ثم يسكنون، ويخدعون أنفسهم فيما يرون، بما تصبو إليه غرائزهم وتغرم به شهواتهم حتى يصير هذا أمراً معروفاً وعملاً مألوفاً. ثم يحدوهم حب الربح والمنافسة إلى أن يثيروا شهوات الناس بأفانين أخرى وهلم جرا، حتى لا يصدهم وازع من فضيلة أو
عادة، وعبثاً يحاول القانون أن يصد التيار، أو يقيم الجرف المنهار، وهكذا تقاد الأمم بأذنابها، وتأتم بضلالها. وقس يا صاحبي على هذا أزياء النساء. فتنافس التجار فيها هو الذي يطيلها ويقصرها، ويطلع كل يومين ببدعة تبين عما دق من المرأة وجل، وما ظهر وما بطن. ولست أجد بداً من ذكر الحقيقة (العارية)، وهي أن النساء الخليعات هن القدوة في هذه السبيل، يلبسن ما يلفت النظر إليهن، ويميزهن من غيرهن، فيروق النساء الأخر هذا الزي، والمرأة لا تحب أن تغلب في زينتها وتجملها. فيصير هذا الخروج على السنن سنة مألوفة وطرافة (مودة) معروفة. وما ترى في ألبسة البحر من تغير مستمر غايته أن تبرز المرأة عارية متزينة؛ فهذه سبيله، تبدأ به الخليعات الجريئات فتتهافت عليه الأخريات
ووراء هذه جماعة من تجار الكتاب، والفسقة المفسدين؛ يريدون أن ينالوا رغائبهم بشريعة، ويفسدوا في الأرض على علم فيكذبون على الجمال والفن والحرية ما شاءت

مآربهم، ويحرفون الكلم عن مواضعه، ويسمون الرذائل بغير أسمائها، فالفسق إعجاب بالجمال، وكل خليعة فنانة، وكل خليع أستاذ، ويتنافس أصحاب المجلات في كتابة ما تحبه النفوس المريضة، وعرض الصور التي يهفو إليها الشبان، لا يبالون في سبيل المال أن تصلح الأمة وأن تفسد، وتعمل التجارة عملها حتى تجد الرجل الحريص على الفضيلة، الداعي إليها إذا ابتلى بمجلة أغضى عن مفاسدها، فصار له رأي في نفسه، وفي غير مجلته، وعمل آخر تجاري في المجلة. وقد عجبت لبعض الكتاب المعروفين بالغيرة على الأخلاق، والتنديد بالخلاعة والمجون، وبدع العصر الحاضر، إذ رأيت المجلة التي يشرف عليها تنشر من الصور والكلام ما لا يلائم آراءه، ويوافق مواعظه

- 2 -

قال صديقي: والشيء بالشيء يذكر، وملكات الجمال ما ترى فيهن؟ لقد سرت البدعة إلينا، قلت استمع: كنت في الصيف الماضي ذاهباً إلى إيران فعرجت على لبنان أياماً. وبينا أنا في ظهور الشوير، رأيت الناس يزدحمون، ويستبقون إلى بعض الفنادق وسمعت أن هذه الجموع وتلك الوفود تتزاحم لتشهد اختيار ملكة الجمال في لبنان. قال رفيق لي: قد سرت العدوى إلى البلاد العربية، فقلت غاضباً: كلا. قال ألست ترى وتسمع؟ قلت لا أكذبك، لست أرى في هذه الأزياء ولا أسمع في هذه الرطانات عروبة، فلا تعد هؤلاء من العرب

وقرأت منذ أيام أن ناساً اجتمعوا في حمانا من لبنان لاختيار امرأة يسمونها ملكة الجمال، وأن قنصل مصر ببيروت رأس هذا الجمع فأسفت أن شغل القنصل الفاضل نفسه بهذه السفاسف، وشارك في هذه المخازي. وقرأت عن انتخاب آخر في بكفيا. وحمدت الله، إذ لم أجد من المنتخبات اسماً يدل على عربية أو إسلام

وقرأت من بعد في الجرائد عن حماقات كهذه في الإسكندرية، فرأيت الداعين إليها بين صاحب ملهى يريد أن يجذب الناس إليه، وصاحب جريدة غير عربية يبغي رواج جريدته، وأمثال هذين. وبعد قليل رأيت صورة الملكة وقرأت أحاديث عنها، فعلمت أن فتاة أسمها شارلوت سماها بعض ذوي المآرب ملكة الجمال في مصر، ولقبوها مس إيجبت ورشحوها للذهاب إلى بروكسل لتشارك في مباراة الجمال. قلت شارلوت ليس اسماً مصرياً، ومس إيجبت لا تعرفها مصر، فما اهتمامك بجماعة من الحمقى أرادوا أن يشهروا فتاة، أو يشهروا بها، أو يتملقوا إليها، أو ينالوا مالاً أو لهم مآرب أخرى. ثم تذكرت ما سطرت في أول هذا المقال، تذكرت أن زمام الأخلاق في هذا العصر بأيدي هذه الطغمات وأشباهها، وأن هذا الذي تستنكره اليوم سيصبح إذا سكتنا عليه، عادة تعد المجادلة فيها ضرباً من الأفن. وفكرت أن مس إيجبت هذه ستذهب إلى أوربا باسم مصر، وتشارك في سوق الرقيق هناك، وتبوء مصر بكل ما في ذلك من عار وحماقة. فرأيت أن الأمر جدير بالاهتمام، وأنه إن سكت عنه عقلاء الأمة صار سنة، وظن المفسدون، كما تسول لهم مآربهم، أنها سنة حسنة ينبغي ألا تحرم منها مدينة أو قرية، وقد وفدت على مصر من قبل ملكة الجمال في تركيا فلم يستح بعض الوقحين من طلبة الجامعة أن يقترحوا أن يحتفل بها في نادي الجامعة. من مبلغ عنا هذه الفتاة، أنا لا نعرفها ولا نعرف جمالها ولا ملكها، وأن القحة البليغة أن تذهب إلى أوربا مدعية أن مصر أرسلتها، ومصر بريئة منها وممن يرسلونها. ليت شعري أرضى المصريون: الحكومة والأمة بهذه السبة. هل رضوا أن تنوب عنهم على رغم أنوفهم فتاة تذهب إلى بروكسل زاعمة أن مصر أرسلتها

كنت أحسب أن موقف مصر الحاضر بين دولة مستعبدة، ودولة مهددة سيخرج بطلاً أو بطلة، تهيب بالمصريين ليغسلوا العار، ويحموا الديار، أو نرسل وفداً يدفع عن حقوق مصر عند عصبة الأمم؛ فإذا السفهاء في شغل عما يحيط بهم باختيار امرأة يرسلونها إلى بروكسل!

وقد أجاب أهل دمشق داعي العروبة والكرامة والفضيلة، فاجتمعوا حين سمعوا أن امرأة ستذهب إلى سوق الرقيق باسم سورية، واستنكروا ذلك، وأجمعوا على مطالبة الحكومة بأخذ الطريق على هذه السنة السيئة، فأجابت الحكومة دعوة العقلاء ومنعت اجتماع السفهاء لاختيار ملكة للجمال، وفي ذلك للمصريين وغيرهم أسوة حسنة سيقول السفهاء: جماعة لا يعرفون الجمال، ولا يقدرونه، ولا يميزون الحسن من

القبيح، فهم ساخطون ثائرون. والله يعلم أن الجمال يعبد قلوبنا، ويملك مشاعرنا، وتهفو إليه أفئدتنا حيثما تجلى في السماء أو في الأرض، ولكنا لا نعرف الجمال في الأسواق، يصفق حوله الفساق، ولا نعرف الجمال تسأل فيه الآراء، وتعرض المرأة كما تعرض العجماء

عبد الوهاب عزام

الجمال البائس

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

كيف يشعب صدع الحب؟ .(وكيف يشعب صدع الحب في كبدي)

لعمري ما رأيت الجمال مرة إلا كان عندي هو الألم في أجمل صوره وإبداعها؛ أتراني مخلوقاً بجرح في القلب؟

ولا تكون المرأة الجميلة في عيني إلا إذا أحسست حين أنظر إليها - أن في نفسي شيئاً قد عرفها، وأن في عيني لحظاتٍ موجهة إلي، وإن لم تنظر هي إلي

فإثبات الجمال نفسه لعيني، أن يثبت صداقته لروحي باللمحة التي تدل وتتكلم؛ تدل نفسي وتتكلم في قلبي

كنت أجلس في (إسكندرية) بين الضحى والظهر في مكان على شاطئ البحر، ومعي صديقي الأستاذ (ح) من أفاضل رجال السلك السياسي، وهو كاتب من ذوي الرأي، له أدب غض ونوادر وظرائف؛ وفي قلبه إيمان لا أعرف مثله في مثله قد بلغ ما شاء الله قوة وتمكنا، حتى لأحسب أنه رجل من أولياء الله قد عوقب فحكم عليه أن يكون محامياً، ثم زيد في الحكم فجعل قاضياً، ثم ضوعفت العقوبة فجعل سياسياً . . .

وهذا المكان ينقلب في الليل مسرحاً ومرقصاً وما بينهما. . . فيتغاوى فيه الجمال والحب، ويعرض الشيطان مصنوعاته في الهزل والرقص والغناء، فإذا دخلته في النهار رأيت نور النهار كأنه يغسله ويغسلك معه، فتحس للنور هناك عملاً في نفسك ويرى المكان صدراً من النهار كأنه نائم بعد سهر الليل، فما تجيئه من ساعةٍ بين الصبح والظهر إلا وجدته ساكناً هادئاً كالجسم المستثقل نوماً، ولهذا كنت كثيراً ما أكتب فيه، بل لا أذهب إليه إلا للكتابة. فإذا كان الظهر أقبل نساء المسرح ومعهن من يطارحهن الأناشيد وألحانها، ومن يثقفهن في الرقص، ومن يرويهن ما يمثلن، إلى غير ذلك مما ابتلتهن به الحياة لتساقط عليهن الليالي بالموت ليلة بعد ليلة

وكن إذا جئن رأينني على تلك الحال من الكتابة والتفكير، فينصرفن إلى شأنهن، إلا واحدة كانت أجملهن. وأكثر هؤلاء المسكينات يظهرن لعين المتأمل، كأن المرأة منهن مثل العنز التي كسر أحد قرنيها، فهي تحمل على رأسها علامة الضعف والذلة والنقص، ولو أن امرأة

تتبدد حيناً فلا تكون شيئاً، وتجمع حيناً فتكون مرة شيئاً مقلوباً، وأخرى شكلاً ناقصاً، وتارة هيئة مشوهة لكانت هي كل امرأة من هؤلاء المسكينات اللواتي يمشين في المسرات إلى المخاوف، ويعشن بمقدمات الموت، ويجدن في المال معنى الفقر، ويتلقين الكرامة فيها الاستهزاء، ثم لا يعرفن شاباً ولا رجلاً إلا وقعت عليهن من أجله لعنة أبٍ أو أم أو زوجة

وتلك الواحدة التي أومأت إليها كانت حزينة متسلبة فكأنما جذبها حزنها إلي، وكانت مفكرة فكأنما هداها إلي فكرها، وكانت جميلةً فدلها علي الحب، وما أدري والله أي نفسينا بدأت فقالت للأخرى أهلاً. . . ورأيتها لا تصرف نظرها عني إلا لترده إلي ثم لا ترده إلا لتصرفه، ثم رأيتها قد جال بها الغزل جولةً في معركته. . . فتشاغلت عنها لا أريها أني أنا الخصم الآخر في المعركة. . .

بيد أني جعلت آخذها في مطارح النظر وأتأملها خلسةً بعد خلسةٍ في ثوبها الحريري الأسود، فإذا هو يشب لونها فيجعلها يتلألأ، ويظهر وجهها بلون البدر في تمه، ويبديه لعيني أرق من الورد تحت نور الفجر

ورأيت لها وجهاً فيه المرأة كلها باختصار، يشرق على جسم بض ألين من خمل النعام، تعرض فيه الأنوثة فنها الكامل؛ فلو خلق الدلال امرأة لكانتها

وتلوح للرأي من بعيد كأنها وضعت في فمها (زر ورد) أحمر منضما على نفسه. شفتان تكاد ابتسامتها تكون نداءً لشفتي محب ظمآن

أما عيناها فما رأيت مثلهما عيني امرأةٍ ولا ظبية؛ سوادهما أشد سواداً من عيون

الظباء؛ وقد خلقتا في هيئة تثبت وجود السحر وفعله في النفس؛ فيهما القوة الواثقة أنها النافذة الأمر، يمازجها حنان أكثر مما في صدر أم على طفلها. وتمام الملاحة أنهما بهذا التكحيل، في هذه الهيئة، في هذا الوجه القمري
يا خالق هاتين العينين! سباحنك سبحانك!
قال الراوي:
وأتغافل عنها أياماً، وطال ذلك مني وشق عليها، وكأني صغرت إليها نفسها، وأرهقتها بمعنى الخضوع، بيد أن كبرياءها التي أبت لها أن تقدم، أبت عليها كذلك أن تنهزم وأنا على كل أحوالي إنما أنظر إلى الجمال كما أستنشي العطر يكون متضوعاً في الهواء،
لا أنا أستطيع أن أمسه ولا أحد يستطيع أن يقول أخذت مني. ثم لا تدفعني إليه إلا فطرة الشعر والإحساس الروحاني دون فطرة الشر والحيوانية، ومتى أحسست جمال المرأة أحسست فيه بمعنى اكبر من المرأة. أكبر منها؛ غير أنه هو منها
قال الراوي:
فإني لجالس ذات يوم وقد أقبلت على شأني من الكتابة وبازائي فتى ريق الشباب في العمر الذي ترى فيه الأعين بالحماسة والعاطفة اكثر مما ترى بالعقل والبصيرة، ناعم أملد تم شبابه ولم تتم قوته كأنما نكصت الرجولة عنه إذ وافته فلم تجده رجلا. . . أو تلك هي شيمة أهل الظرف والقصف من شبان اليوم، ترى الواحد منهم فتعرف النضج في ثيابه أكثر مما تعرفه في جسمه، وتأبى الطبيعة عليه أن يكون أنثى فيجاهد ليكون ضرباً من الأنثى. . . - إني لجالس إذ وافت الحسناء فأومأت إلى الفتى بتحيتها، ثم ذهبت فاعتلت المنصة مع الباقيات، ورقصت فأحسنت ما شاءت، وكأن في رقصها تعبيراً عن أهواء ونزعات تريد إثارتها في رجلٍ ما. . . فقلت لصاحبنا الأستاذ (ح): إن كلمة الرقص إنما هي استعارة على مثل هذا كما يستعرن كلمة الحب لجمع المال. ولا رقص ولا حب إلا فجور وطمع
ثم إنها فرغت من شأنها فمرت تتهادى حتى جاءت فجلست إلى الفتى. . . فقال الأستاذ (ح) وكان قد ألم بما في نفسها: أتراها جعلته ههنا محطة. . .؟
قال الراوي: أما أنا فقلت في نفسي لقد جاء الموضوع. . . وإني لفي حاجةٍ أشد الحاجة إلى مقالة من المكحولات، فتفرغت لها أنظر ماذا تصنع، وأنا أعلم أن مثل هذه قليلاً ما يكون لها فكر أو فلسفة؛ غير أن الفكر والفلسفة والمعاني كلها تكون في نظرها وابتساماتها وعلى جسمها كله
وكان فتاها قد وضع طربوشه على يده؛ فقد انتهينا إلى عهد رجع حكم الطربوش فيه على رأس الشاب الجميل، كحكم البرقع على وجه الفتاة الجميلة. . . فأسفر ذاك من طربوشه وأسفرت هذه من نقابها. قال الراوي: فما جلست إلى الفتى حتى أدنت رأسها من الطربوش. . . . فاستنامت إليه، فألصقت به خدها
ثم التفت إلينا التفاتة الخشف المذعور استروح السبع ووجد مقدماته في الهواء، ثم أرخت
عينيها في حياء لا يستحي. . .
وأنشأت تتكلم وهي في ذلك تسارقنا النظر كأن في ناحيتنا بعض معاني كلامها. . . .
ثم لا أدري ما الذي تضاحكت له، غير أن ضحكتها انشقت نصفين رأينا نحن أجملهما في ثغرها. . . .
ثم تزعزت في كرسيها كأنما تهم أن تنقلب لتمتد إليها يد فتمسكها أن تنقلب. . . .
ثم تساندت على نفسها كالمريضة النائمة تتناهض من فراشها فيكاد يئن بعضها من بعضها، وقامت فمشت، فحاذتنا، وتجاوزتنا غير بعيد، ثم رجعت إلى موضعها متكسرة متخاذلة كأن فيها قوة تعلن أنها انتهت. . . .
قال الراوي:
ونظرت إليها نظرة حزن، فتغضبت واغتاظت وشاجرت هذه النظرة من عينيها الدعجاوين بنظرات متهكمة لا أدري أهي توبخنا بها، أم تتهمنا بأننا أخذنا من حسنها مجاناً. . . .
فقلت للأستاذ (ح)، وأنا أجهر بالكلام ليبلغها:
أما ترى أن الدنيا قد انتكست في انتكاسها، وأن الدهر قد فسد فساده، وأن البلاء قد

ضوعف على الناس، وأن بقية من الخير كانت في الشر القديم فانتزعت؟
قال: وهل كان في الشر القديم بقية خير وليس مثلها في الشر الحديث؟
قلت: ههنا في هذا المسرح قيان لو كانت إحداهن. . . في الزمن القديم لتنافس في شرائها الملوك والأمراء وسراة الناس وأعيانهم، فكان لها في عهارة الزمن صون وكرامة، وتتقلب في القصور فتجعل القصور لها حرمة تمنعها ابتذال فنها لكل من يدفع خمسة غروش، حتى لرذال الناس وغوغائهم وسفلتهم؛ ثم هي حين يدبر شبابها تكون في دار مولاها حميلة على كرم يحملها، وعلى مروءة تعيش بها
وقديماً أخذت سلامة الزرقاء في قبلتها لؤلؤتين بأربعين ألف درهم تبلغ ألفي جنيه.
فهل تأخذ القينة من هؤلاء إلا دخينة بمليمين. . .؟
قال الأستاذ (ح): ما أبعدك يا أخي عن (بورصة) القبلة وأسعارها. . . ولكن ما خبر اللؤلؤتين؟
قال الراوي: كانت سلامة هذه جاريةً لابن رامين وكانت من الجمال بحيث قيل في وصفها:
كأن الشمس طالعة من بين رأسها وكتفيها؛ فاستأذن عليها في مجلس غنائها الصيرفي الملقب بالماجن، فلما أذنت له دخل فأقعى بين يديها، ثم أدخل يده في ثوبه فأخرج لؤلؤتين وقال: انظري يا زرقاء جعلت فداك، ثم حلف إنه نقد فيهما بالأمس أربعين ألف درهم. قالت: فما أصنع بذاك؟ قال: أردت أن تعلمي
ثم غنت صوتاً وقالت: يا ماجن هبهما لي ويحك. قال: إن شئت والله فعلت؛ قالت: قد شئت. قال: واليمين التي حلفت بها لازمة لي إن أخذتهما إلا بشفتيك من شفتي. . . .
قال الراوي: ورأيتها قد أذنت لي وأنصتت لكلامي وكأنما كانت تسمعني أعتذر إليها، واستيقنت أن ليس بي إلا الحزن عليها والرثاء لها، فبدت أشد حياءً من العذراء في أيام الخدر. . . . . .
ثم قالت: نعم كان ذلك الزمن سفيهاً ولكنها سفاهة فن لا سفاهة عربدةٍ وتصعلك كما هي اليوم
فنظرت إلي نظرةً لن أنساها؛ نظرة كأنها تدمع، نظرة تقول بها: ألست إنسانة؟ فلم أملك أن قلت لها: تعالي تعالي
وجاءت أحلى من الأمل المعترض سنحت به الفرصة، ولكن ماذا قلت لها وماذا قالت؟.
. . .
(لها بقية)
مصطفى صادق الرافعي

مصر وقناة السويس
دستور القناة وحق السيادة المصرية
لباحث دبلوماسي كبير

كان إنشاء قناة السويس في أرض مصر نذير سوء لمصر، كما كان نذير الخير والرخاء لتجارة الغرب وصناعته؛ ولم تجن مصر من إنشاء القناة في أرضها سوى المتاعب الخالدة، وما زالت بسبب هذه القناة عرضة لفروض مؤلمة من الاستعباد الأجنبي، كما أنها ما تزال عرضة لعدوان الاستعمار ووثباته؛ وقد شعرت مصر مرة أخرى بما يمكن أن يجره عليها وجود هذه القناة في أرضها من ضروب الشر والأذى، في الآونة الحاضرة التي يوشك أن يضطرم فيها النضال بين دولتين من دول الاستعمار، هما إيطاليا المتوثبة السابحة في أحلام عظمتها الجديدة، وبريطانيا العظمى التي تسيطر فعلاً على قناة السويس وتدعي عليها لنفسها حقوقاً خاصة ما تزال مصر تنازع فيها ولما كانت مصر ما تزال ترتبط بحكم الظروف في شؤونها ومصايرها الحيوية بتطورات السياسة الإنكليزية، فإنها تجد نفسها اليوم عرضة لأخطار هذه الحرب الاستعمارية التي تصر إيطاليا على إضرامها في شرق أفريقية؛ وإذا كانت إنكلترا تلمح شبح الخطر من جراء هذه الفورة الفاشستية على إمبراطوريتها الاستعمارية، وعلى سيادتها في البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر، وتزمع على ما يبدو أن تقاوم هذا الخطر، وأن تسحق المطامع الإيطالية إذا اقتضى الأمر بقوة النار والسيف، فان مصر تجد نفسها من جراء ارتباطها بإنكلترا، ومن جراء موقعها الجغرافي وحراستها الاسمية لقناة السويس في أحرج مركز وأدقه. ماذا يكون موقف مصر إذا أصرت إيطاليا على

مشروعها الاستعماري وأعلنت الحرب على الحبشة، وماذا يكون مصير قناة السويس طريق إيطاليا الوحيد إلى ميدان القتال؟ بل ماذا يكون موقف مصر إذا تفاقم الأمر، ونشبت الحرب بين إنكلترا وإيطاليا، ومصر تجاور إيطاليا من جهة الغرب، وثغورها لا تبتعد أكثر من سبعين ساعة عن مراكز الأسطول الإيطالي؟ هذه فروض خطيرة مزعجة، ولكنها أضحت تلوح في الجو قوية تكاد تنقض صواعقها بين آونة وأخرى؛ ومن ثم كانت موضع الاهتمام من جانب السياسة الإنكليزية ومن جانب ولاة الأمر في مصر وأول ما يشغل مصر في الآونة الحاضرة مسألة قناة السويس، ومدى ما يمكن أن يكون لمصر، سواء بمفردها أو بالاتحاد مع إنكلترا من حق في إغلاقها وقت نشوب الحرب الأفريقية، وهذا بفرض أن الحرب لم تتعد طرفي النزاع الأصليين: أعني إيطاليا والحبشة؛ ففي هذه الحالة تعتبر مصر من الوجهة الدولية في حالة حياد بالنسبة للدولتين، ولكنها لن تكون كذلك في الواقع لأن قناة السويس تغدو في هذه الحالة طريقاً حربياً لإيطاليا، وفتحها في وجه السفن والقوات الإيطالية لا يمكن أن يحقق معنى الحيدة، بل يكون وسيلة لمعاونة إيطاليا على افتراس الحبشة التي ترتبط مصر بها بروابط تاريخية ودينية وثيقة، ولمصر كما لإنكلترا مصلحة حيوية في ألا تقع منطقة تانا والنيل الأزرق في يد دولة قوية كإيطاليا يكون وجودها في تلك المنطقة خطراً على ماء النيل

وقد قيل لنا أخيراً إن فقهاء الدولة المصرية بحثوا مسألة قناة السويس ومدى ما لمصر من حق في إغلاقها إذا اقتضت الضرورات الدولية، وقيل لنا انهم انتهوا إلى تقرير حق مصر في إغلاقها في وجه الفريقين المتحاربين إذا نشبت حرب إيطالية حبشية. ونحن ممن يأخذون بحق مصر في إغلاق القناة سواء من الوجهة الدولية أو الوجهة الواقعية كما سنفصل بعد، ولكن الذي لفت نظرنا في مباحث فقهاء الدولة المصرية هو أنهم انتهوا إلى تقرير حق مصر في إغلاق القناة من طريق لا نعتقد أنه خير الطرق ولا خير الأسانيد لتدعيم هذا الحق. ذلك أنهم استندوا على ما قيل لنا في تقريره إلى ميثاق تحريم الحرب الأمريكي أو ميثاق كلوج الذي عقد في باريس في أغسطس سنة 1928 وانضمت مصر إليه إلى جانب الدول الموقعة عليه. وميثاق تحريم الحرب كما نذكر، ينص على استنكار الدول الموقعة للحرب كأداة للسياسة القومية، وعلى تعهدها ألا تلجأ لحل المنازعات الدولية مهما كانت أنواعها وأسبابها إلا للوسائل السلمية. وقد وقع ميثاق تحريم الحرب في باريس في 27 أغسطس سنة 1928، وفي 4 سبتمبر التالي أبلغت مصر حكومة الولايات المتحدة الأمريكية بأنها تقرر انضمامها للميثاق بصيغته الأصلية دون التسليم بأي تحفظ أبدي بشأنه، والمقصود بالتحفظات هنا ما أبدته بعض الدول الاستعمارية مثل بريطانيا من الاحتفاظ في ردودها بحقوق وتحفظات معينة في تسوية علائقها مع الدول التي تعتبرها واقعة تحت سيطرتها أو نفوذها

ويلوح لنا أن ميثاق تحريم الحرب لا يمكن أن يعتبر سنداً كافياً لما نراه من حق مصر في إغلاق القناة. وفي رأينا أن هذا الحق يمكن إسناده من جانب مصر إلى حقوق السيادة القومية. ذلك أن مصر قد حلت بمقتضى التطورات الدولية منذ الحرب محل الدولة العثمانية الذاهبة واستعادت سيادتها القومية كاملة بانتهاء التبعية العثمانية الاسمية، وأضحت لها من الوجهة الدولية ما لأية دولة من حقوق السيادة الأرضية. هذا من الوجهة العامة. وأما من حيث مركز القناة الدولي، فقد وضعت معاهدة استانبول التي عقدت في 29 أكتوبر سنة 1888 بين الباب العالي، وبريطانيا العظمى، والنمسا والمجر، وألمانيا، وفرنسا، وإيطاليا، وإسبانيا، وهولندا، وروسيا، لقناة السويس دستوراً خاصاً من سبع عشرة مادة، أساسه حيدة القناة التامة وحرية الملاحة المطلقة فيها وقت الحرب والسلم. وقد نص في ديباجتها على أن الغرض من عقدها هو (الاتفاق الحر على نظام نهائي يكفل في كل الأوقات ولكل الدول حرية الملاحة في قناة السويس). وكفلت المادتان الأولى والرابعة هذه الحرية فيما يأتي:

المادة الأولى - (تبقى قناة السويس حرة مفتوحة دائماً أيام الحرب والسلم سواء لجميع السفن التجارية أو الحربية دون أي تفريق في جنسياتها

وعلى هذا فالدول الموقعة متفقة فيما بينها على ألا تمس حرية المرور في القناة أثناء الحرب أو السلم

(ولا تخضع القناة مطلقاً إلى مزاولة حق الحصار
المادة الرابعة - (تبقى القناة مفتوحة وقت الحرب ممراً حراً حتى لسفن الدول المتحاربة وفقاً لنص المادة الأولى. وقد اتفق المتعاقدون أعلاه على ألا تعرض القناة لمزاولة أي عمل حربي أو أي عمل من شأنه أن يخل بحرية الملاحة في القناة ذاتها أو في مواني الوصول إليها، أو في قطاع من هذه المواني طوله ثلاثة أميال بحرية، وهذا حتى لو كانت الدولة العثمانية هي إحدى الدول المتحاربة
ولا يجوز لسفن الدول المتحاربة المارة بالقناة وقت الحرب أن تتزود من المؤن في القنال أو موانيه إلا بالقدر الضروري؛ ويجب عليها أن تخترق القناة بسرعة؛ ويجب أن تمضي أربع وعشرون ساعة بين خروج سفينة حربية من أحد ثغور القناة وبين قيام سفينة تابعة
(سفينة تابعة لدولة معادية
ففي هاتين المادتين جوهر دستور قناة السويس، وعليهما يستند أنصار الدعاية الإيطالية في القول بأن مصر لا تستطيع إغلاق القناة مطلقاً حتى ولو أعلنت إيطاليا الحرب على الحبشة، واتخذت القناة أثناء الحرب ممراً لأساطيلها وجنودها
بيد أن هنالك في معاهدة استانبول نصاً هاماً تضمنه المادة الثالثة عشرة، وهو أنه (فيما عدا التبعات المنصوص عليها صراحة في مواد هذه المعاهدة، فان ما لجلالة السلطان من حقوق السيادة، وما لسمو الخديو من حقوق بمقتضى الفرمانات لا يمس بأي حال) ففي هذا النص ما يؤيد حقوق السيادة المصرية التي نرجع إليها حق مصر في إغلاق القناة. ذلك أن حقوق السيادة التي كانت للدولة العثمانية على مصر قد آلت إلى مصر ذاتها بمقتضى معاهدة الصلح (معاهدة سيفر) أولا، ثم بمقتضى معاهدة لوزان (سنة 1923)؛ فمصر من الوجهة الدولية هي صاحبة السيادة الأرضية على قناة السويس، ولا يحد من هذه السيادة سوى حقوق الامتياز الممنوح لشركة القناة وهي حقوق استغلال تجارية فقط؛ ولكن يحده من الوجهة الفعلية ما تدعيه إنكلترا لنفسها في تصريح فبراير سنة 1922 من تحفظات يتعلق أحدها بحق إنكلترا في الدفاع عن الموصلات الإمبراطورية، والقناة في نظر إنكلترا شريان من شرايينها الهامة
وفي وسع مصر أن تدعم حقها في إغلاق قناة، باعتباره حقاً من حقوق السيادة القومية، أولاً بميثاق عصبة الأمم حيث ينص في المادة العشرين على ما يأتي: (يعترف أعضاء العصبة بأن الميثاق الحالي يلغي كل التعهدات أو الاتفاقات الخاصة التي تتعارض مع نصوصه، وتتعهد بألا تعقد في المستقبل أية معاهدة تتعارض مع هذه النصوص)، ولما كان دستور العصبة يقوم على فكرة السلام العام بين الأمم، وعلى مبدأ حسم المنازعات الدولية بالوسائل السلمية، فان هذا الدستور الذي يجعل من قناة السويس وقت الحرب، طريق حرب يزيد في ضرامها وأخطارها، يجب أن يعتبر وثيقة قديمة تنافي روح العصر ونصوص الميثاق. وثانياً بميثاق تحريم الحرب حيث ينص في المادة الثانية منه على أن الدول الموقعة عليه تقرر بأن تسوية المشاكل والمنازعات الدولية أيا كان نوعها وأسبابها يجب ألا يعالج إلا بالوسائل السلمية ومصر طرف في هذا الميثاق مثل إيطاليا
ونذكر أن السنيور موسوليني قد أدلى في بعض أحاديثه الأخيرة، أن مصر وإنكلترا لا تستطيعان إغلاق قناة السويس لأن المادة 282 من معاهدة الصلح (معاهدة فرساي)، وهي التي تنص على المعاهدات والاتفاقات التي يبقى مفعولها بين ألمانيا والحلفاء، قد ذكرت معاهدة أكتوبر سنة 1888 الخاصة بدستور القناة ضمن المعاهدات النافذة الباقية (فقرة 11 من المادة المذكورة)؛ وميثاق عصبة الأمم هو جزء من معاهدة فرساي، فليس فيه إذاً ما يمكن أن يتخذ سنداً لإلغاء معاهدة سنة 1888، وهذا اعتراض له قيمته من الوجهة الفقهية لو لم تكن معاهدة سنة 1888 قد غيرت في كثير من أجزائها بفعل التطورات الدولية؛ وليس المقصود هنا إلغاء المعاهدة برمتها، وإنما المقصود نسخ حق حرية الملاحة المطلق الذي قررته المعاهدة، لأنه يغدو في مثل هذه الظروف الحاضرة خطراً على سلام العالم، فضلاً عن أنه خطر على مصر ذاتها
هذا من جهة أخرى فان هنالك حالة فعلية لا يمكن إغفالها، هي أن القناة تقع فعلاً تحت سيطرة القوات الإنكليزية، وإنكلترا تدعي عليها بمقتضى تصريح فبراير سنة 1923

حقوقاً تؤيدها هذه الحالة الفعلية، ومهما كان من اعتراض مصر على المسائل المحتفظ بها في تصريح فبراير، فانه لا شك أن هذه الحالة الفعلية هي لب المسألة كلها، وإذا كانت مصر تفكر حقاً في إغلاق القناة إذا أقدمت إيطاليا على إضرام نار الحرب، فإنها سوف تفعل ذلك بالتفاهم التام مع إنكلترا؛ وقد يؤيد تصرف الدولتين في ذلك قرار يصدر من عصبة الأمم بتوقيع العقوبات الاقتصادية المنصوص عليها في الميثاق ضد إيطاليا، ويكون إغلاق القناة وقتئذ ذات صبغة دولية محضة، ويكون في عرف العالم كله وسيلة من وسائل التي تتذرع بها مصر وإنكلترا لصون السلام العالمي الذي تصر إيطاليا الفاشستية على تكديره تحقيقاً لشهواتها الاستعمارية

فريزر ودراسة الخرافة - 4

احترام الحياة الإنسانية

للدكتور إبراهيم بيومي مدكور

المدرس بالجامعة المصرية

أسلفنا القول في بيان أثر الخرافة في تثبيت دعائم الحكومة والملكية الشخصية والزواج. وها نحن أولاء نشرح ما غرسته في النفوس من تقديس للإنسان واحترام لحياته! وبذا نكون قد أتممنا سلسلة النظم الاجتماعية التي شاء فريزر أن يبين مقدار تدخل الخرافة في نشأتها وتكوينها

بديهي أن معيشة البادية المبنية على حب الانتقام، والأخذ بالثأر، وحماية الجار، والدفاع المستميت عن المال والعرض، والمملوءة بالأضغان والأحقاد أدعى لإراقة الدماء واعتداء المرء على أخيه. فالإنسان الأول الذي عاش هذه العيشة المضطربة ما كان ينعم بضمانات كافية لحفظ روحه. فلم يكن له عسس منظم يسهر على حراسته، ولا قانون واضح يهدد بالعقوبة كل من اعتدى عليه، ولا محاكم محترمة تشهر بالجناة وسفاكي الدماء. ولا زلنا نشاهد إلى اليوم أن القتل وإزهاق الأرواح البريئة ينتشر حيث تسود الفوضى والاضطراب وفي الأوساط البدوية والقبائل الهمجية بوجه خاص. بيد أن الجمعية تعالج نفسها بنفسها وتعد لكل داء ما يناسبه من دواء. ولئن فات الإنسان المتوحش شرطتنا المنظمة، وجندنا الشاكي السلاح فانه لم تفته وسائل أخرى من وسائل الدفاع عن نفسه وحقن دمه. ومن بين هذه الوسائل خرافة الأشباح وأرواح الموتى التي تتمثل في صورة شياطين ومردة تنتقم ممن اعتدى عليها

قد لا تكون هناك خرافة سادت العالم سيادة هذه الخرافة. ظهرت مع الإنسان منذ نشأته، ولازمته في مراحل التاريخ المختلفة: تبدو في العصور القديمة والقرون الوسطى والأزمنة الحديثة، بين البدو والهمج ولدى الأمم المتمدينة. ويكفي أن نشير إلى أن كثيرين منا لا يجرؤن على السير ليلا - بل نهاراً - بجوار دار قتل فيها قتيل زعماً منهم بأن روحه الثائرة ستفتك بهم. وعل عادة تغيير المسكن السائدة بيننا على أثر حريق أو وفاة مما ترجع

إلى هذه الخرافة، كما هو الشأن لدى بعض القبائل الهمجية. ويقص علينا عامتنا وسكان قرانا أغرب القصص عن المردة الذين لا قوهم في طريقهم ودار بينهم ما دار من حوار ونقاش؛ والماهر منهم من استطاع أن ينجو من المارد الذي اعترضه بجواب لبق أو حيلة ماكرة! وحديث (القرينة) والعفاريت ملأ قرانا ومدننا، وأصبح أشهر من أن يعرف عنه، وله طب خاص وقوامون على أمره يتعهدونه بالبخور (والدقة) وما إلى ذلك من علاج كله ضلال وبطلان

ليس بعسير على الباحث أن يثبت أن خرافة الأشباح هذه جنت على الإنسانية جنايات شنعاء، فبلت بعض الأشخاص بالخوف حتى من ظلهم، وقضت على أخرين بالجنون والصرع وكثير من المصائب والآفات. وقعدت بكثيرين عن السعي وراء أرزاقهم خشية أن يعدو عليهم شبح من الأشباح أو روح من الأرواح. وفي بعض القبائل المتوحشة لا يستطيع شخص أن ينتفع بمال أبيه وأهله وذويه بعد موتهم، لأن أرواحهم تنتقم منه أشد الانتقام غيرة على هذا الحرم المباح والمال المعتدى عليه، فكل يعيش ليومه، ولا يعمل شيئاً لغده؛ وعلى هذا كانت فكرة المستقبل التي هي أساس التقدم الصناعي والتجاري والاقتصادي ضائعة لدى هذه القبائل؛ وفي ضياع هذه الفكرة ما يتنافى وتكوين الثروة والمتاع، وكيف تكون الثروة عند قوم كل همهم من الدنيا عشرات السنين يعيشونها؛ فإذا ماتوا انقرضت أمتعتهم معهم وبددت أموالهم؟ يقول أحد كبار

الرحالة: (إنه ليس لدى البتاجون (من سكان أمريكا الجنوبية) أي قانون ولا أية عقوبة ضد المجرمين. كل يعيش على حسب هواه، والسارق الماهر هو الجدير بالتقدير. وليس هناك ما يمنعهم من السرقة وإقامة الأبنية الثابتة إلا العقيدة السائدة من أنه إذا مات أحدهم وجب أن تبدد أملاكه. فكل بتاجوني حصل على ثروة طوال حياته بالسرقة أو الصيد أو التعامل مع القبائل المجاورة لا يفيد ورثته في شيء، ذلك لان كل ما أدخره يبلى معه، وعلى أبنائه أن يكونوا ثروتهم بمجهودهم الخاص. . . وقوم هذه معتقداتهم وتقاليدهم يقنعون بحاجاتهم العاجلة ولا يتعلقون برغبة حقيقية، ولا يصوبون نحو غاية بعيدة؛ وهذا سر كسلهم وتواكلهم ورضاهم بالقليل الذي يتنافى مع التقدم والحضارة، وعلام التعلق بالمستقبل الذي لا يرجى منه خير أو شر؟ الحاضر هو كل شيء في أعينهم، والمنفعة الذاتية مبدؤهم؛ فالابن لا يتعهد قطيع أبيه لعلمه أنه لا يعود عليه بطائل، وإنما يكد ويكدح وحده ليحصل على ثروة شخصية) فخرافة الأشباح والعفاريت والمردة سبب من أسباب الضعف السياسي والاقتصادي لدى بعض الشعوب الناشئة والجاهلة

غير أن هذه الخرافة ليست شراً كلها، بل كانت عاملا من عوامل الخير والدفاع عن الإنسان في الجمعيات التي سادت فيها، فالخوف من الأشباح وعدوانها والأرواح وانتقامها ساعد على حقن دماء كثيرة واحترام الحياة الإنسانية. وذلك أن طائفة من الشعوب تعتقد أن أرواح الموتى والقتلى ذات نفوذ عظيم وقوة هائلة تستطيع بها أن تعكر على الأحياء صفوهم وتعترضهم في طريقهم وتتقمص أجسامهم. وأرواح القتلى بوجه خاص مفطورة على الثأر ممن اعتدى عليها في شخصه أو في أهله وعشيرته. لهذا يضطر الأفراد والجماعات لترضيتها بالهدايا والقرابين، فيذبحون المعز والضأن والديكة والخنازير التي يغسل القاتل بدمها أقذار خطيئته. وأحياناً يحاربون هذه الأرواح ويطاردونها بمختلف الوسائل ويهجرون القرى والمساكن من جرائها. وكم من قرية كانت آهلة بالسكان صباحاً، ثم قتل فيها قتيل ظهراً فأضحت في المساء خراباً يباباً!

وقد يمثل بالمقتول أشنع تمثيل لتبقى روحه كامنة في جسمه وعاجزة عن الثأر له فالإغريق الأول كانوا يعتقدون أن روح القتيل تتأجج غيظاً ممن اعتدى عليها وتتابعه في حقله ومسكنه ولا ينجيه منها إلا فراره خارج الديار عاماً كاملاً يرجى فيه أن تهدأ هذه الروح من ثورتها. وإذا عاد إلى وطنه سارع إلى التقديم الضحايا والقرابين تكفيراً عن أثمه. وقاتل هذا شأنه يعد شراً يتقي وخطراً تخشاه الجمعية لما يحيط به من أرواح ثائرة قد تؤذي كل من حام حوله، فكان طبيعياً أن تحكم القبيلة على القاتل بمفارقة البلاد الزمن اللازم لتكفير خطيئته وإرضاء الروح التي جنى عليها والصينيون كانوا ولا يزالون يؤمنون ببقاء الأرواح وقدرتها على مكافأة المحسنين والانتقام من المسيئين؛ فهي تتدخل من غير انقطاع في عالم الأحياء وتتصرف فيه تمام التصرف. نعم إن هناك فرقاً بين الأشخاص والأرواح، بين الأحياء والأموات، بيد أن هذا الفرق طفيف والمسافة بين هذه الأطراف قصيرة للغاية. وما الديانة الصينية إلا مجموعة أفكار تدور حول الأرواح وما يتصل بها. وقوم يذعنون للأرواح هذا الإذعان لا يجرئون على الاعتداء عليها ويقدسون

الحياة الإنسانية تمام التقديس ويعتقد سكان أفريقية الوسطى أن القاتل إذا قاسم قوماً في طعامهم أو بات في كوخهم أحل بهم غضب الله وربما كان سبباً في هلاكهم، اللهم إلا إن تداركهم القسس والكهنة بأدعيتهم وتضرعاتهم، ويزعم بعض القبائل الهندية أن الرجل إذا قتل عدوه لا يسلم من شر روحه إلا أن أراق دم خنزير أو جدي صغير، ومع أن البانتو يعدون الفوز في المعارك الحربية مفخرة عظيمة وشرفاً لا يعدله شرف فأنهم يخشون أرواح القتلى خشية تصل بهم أحياناً إلى الجنون والصرع. ولدرء هذا الخطر يبقى المحارب الظافر في العاصمة بضعة أيام لابساً خرقاً بالية آكلاً في أواني وبملاعق خاصة، وحرام عليه أن يشرب الماء وان يقرب النساء وأن يتناول أي طعام دافئ. وإذا قتل أحد سكان الكونغو قتيلاً حمل على رأسه بعض أرياش الببغاء وغطى جبهته بلون أحمر، وكأنما يريد ذلك أن يستتر عن أعين الروح التي تطارده. وفي غانا الجديدة تسارع القبيلة المحاربة بعد إنجازها هجوماً أو معركة ما بالعودة إلى مساكنها أو إلى قرية محالفة قبل أن يدخل الليل الذي تهيج فيه الأرواح وتتشبث بالقتلة والمحاربين. وفي مقدور الروح أن تتعرف من اعتدى عليها بما لصق بجسمه

من دم القتيل أو أي أثر من آثاره. لذلك يطهر المحارب جسمه وحريته بعد أن يتم مهمته، وإذا وصل إلى قريته حيل بينه وبين أهله وذويه وبقي منعزلاً فترة من الزمن، وفي اليوم الثالث من وصوله يحتفل به أصدقاؤه احتفالاً مناسباً، وفي اليوم الرابع يلبس أجمل ثيابه وعدة حربه ويخرج شاكي السلاح مخترقاً شوارع القرية؛ وعله يرمي بهذا إلى استرداد قوته وشجاعته. وإذا شكا أحد أبناء القرية ألماً في معدته ظن أن ذلك راجع إلى أنه جلس في مكان شغله محارب من قبل؛ وإذا أصيب بأذى في أسنانه عزا هذا إلى أنه أكل فاكهة لمسها محارب

وأرواح الآباء والأقارب القتلى بوجه خاص شديدة الهول وعظيمة الخطر، لأنها تجد وسائل كثيرة للثأر لنفسها وأعرف بدخائل القاتل من الأرواح الأخرى. وقد يكون في هذا ما يفسر قسوة الجمهور إلى اليوم على قاتل أبيه أو أمه أو أخيه. والقوانين الجنائية نفسها مشربة بهذا المعنى في مختلف الأمم والشرائع، ولأبناء القرية الواحدة من الجلال والحرمة ما للأهل والأقارب، فلئن استساغ همجي إزهاق روح أجنبية لا يستطيع أن يخفي ذعره من اعتدائه على روح جاره ومواطنه. فسكان الكونغو مثلاً لا يرون غضاضة عليهم في

العدوان على القرى المجاورة في حين أن عدوانهم على أبناء قبيلتهم وقريتهم يملؤهم خوفاً ورعباً، ولا يتردد القاتل في أن يلبس السواد على من قتله ويحزن عليه حزناً شديداً كأنه أحد أقاربه أو أصدقائه ولا يشرب ولا يأكل ويبكي بكاء مراً

وليس خطر الأرواح والأشباح بمقصور على الأفراد وحدهم بل يتعداهم إلى الجمعية بأسرها، لأن الأرواح الثائرة ربما تعدو على من صادفها دون أن تميز الجاني من غيره. لذلك تضطر الجمعية إلى تهدئة ثورة هذه الأرواح بشتى الوسائل أو إلى محاربتها والفرار منها. ومن الأمثلة على ذلك أن أهل برمانيا يزعمون أن أرواح القتلى لا تصعد إلى عالم السعادة ولا تنزل إلى عالم الشقاء، وإنما تبقى دائماً حائرة في الأرض تفزع من تلقى، ولترضية هذه الأرواح تقدم لها في الغابات المجاورة قرابين من الأرز مصحوبة بالأدعية الآتية: (أرواح من سقطوا من شجرة، أو من ماتوا جوعا وعطشاً، أو من أكلهم النمر والثعبان، أو من عدا عليهم الإنسان، أو من أهلكهم الطاعون والجرب، لا تسيئوا معاملتنا، ولا تؤذونا ولا تثوروا علينا، امكثوا هنا في هذه الغابة حيث الأرز اللازم لطعامكم) وقد لا تقف الجمعية عند القرابين والهدايا للتكفير عن خطيئة القتل وتهدئة الأرواح المضطربة، بل تعمل على مطاردة هذه الأرواح بطرق أخرى. فهنود أمريكا الشمالية إذا عادوا من معركة صاحوا صيحات عالية وأحدثوا جلبة وضوضاء يراد بها منع الأرواح من أن تدخل قراهم، ومن الغريب أنا نجد نفس هذه التقاليد لدى سكان غانا الجديدة الهولندية والألمانية، وفي استراليا. ويقطع جماعة الإسكيمو المقيمون في مضيق بيرنج عضلات ذراع وجنب القتيل ليحول ذلك دون سيره إن عادت روحه إلى جسمه طلباً للثأر. وفي أفريقية الجنوبية يهشم العمود الفقري تهشيماً منعاً للقتيل من الحركة. وتملأ طائفة أخرى عين القتيل بالفلفل كي تضل روحه السبيل

فخرافة الأرواح والأشباح ملأت الناس أفراداً وجماعات ذعراً وهولاً، ودفعتهم إلى احترام الحياة الإنسانية وتقديسها. وما القوانين الجنائية المنظمة؛ والمحاكم القائمة بين الناس بالعدل والإنصاف إلا أثر صالح من آثار هذه الخرافة. خشي الفرد القاتل الأرواح وعدوانها فلم يسرف في القتل حباً لذاته وتعلقاً بشخصه، ورأت الجماعة في هذه الأرواح خطراً يهدد كيانها فأنزلت بالقتلة صارم العقاب، وسنت ما سنت من حدود تروع الجناة وسفاكي الدماء،

وبذا أضحت الحياة الإنسانية محفوظة بعاملين: داخلي وخارجي، فردي وجمعي، ومحمية بسلاح الأخلاق والقانون

يجهد الفقهاء والمشرعون أنفسهم اليوم في مناقشة النظرية القائلة بأن الحدود جوابر أو زواجر. ويختلف علماء القانون الجنائي في أثر العقوبة: فطائفة تقول إن الغرض منها إصلاح المجرم، وأخرى ترى فيها القصاص الملائم للمجني عليه، وثالثة تعدها ترضية لازمة لعاطفة الجمهور الثائرة والمعتدى عليها. وما هذه الآراء المتباينة والنظريات المختلفة إلا منطق مهذب ندخله في تقاليد القبائل الهمجية وتعليل منمق نصبغ به خرافات الشعوب الأولى. وهكذا تسير الإنسانية من الخيال إلى الحقيقة، ومن بحر الخرافة العميق إلى صخور العقل الثابتة، ومن الخارق للعادة إلى الطبيعي، ومن

المسلم به إلى المنطقي
إبراهيم بيومي مدكور
دكتور في الآداب والفلسفة
الشعر
في صدر الإسلام وعهد بني أمية
بقلم أحمد حسن الزيات

ظهر الإسلام وقد تحكم في حياة العرب جاهلية قاسية وعقلية جافية وعصبية مفرقة، فكان الشعر مظهر هذه الصفات وباعثها؛ فلما أعلن الرسول الحرب على هذه الأخلاق تمهيداً لألفة القلوب ووحدة العرب، كان من الطبيعي أن ينغض رأسه إليه، وألا يشجع الناس عليه، ففي القرآن: (والشعراء يتَّبعهم الغاوُون. وما علمناه الشعر وما ينبغي له)، وفي الحديث: (لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً حتى يريه خير له من أن يمتلئ فمه شعراً). فازور جانب المسلمين عن قرض الشعر وروايته، على علمهم بأن الدين لم يكرهه على إطلاقه، وإنما كره منه ذلك النوع الذي يمزق الشمل ويثير دفائن القلوب. ثم شغل العرب جميعاً بالدعوة العظمى، فمن مؤيد ومن معارض، واشتدت الخصومة بين الرسول وبين قريش، فجردوا عليه الأسنة والألسنة، ولكن شعراء العرب وقفوا موقف الحياد والتربص ينتظرون نتيجة المعركة بين التوحيد والوثنية، وبين الديمقراطية والأرستقراطية، وبين محمد وقريش. فلم يغامر في الخصومة إلا الشعراء القرشيون وقد كانوا قلالاً قبل الإسلام لشواغل الحضارة والتجارة، فصاروا كثاراً بعده لدواعي النزاع والمعارضة. بدأ هذه الحملة منهم عبد الله بن الزبعري وعمرو بن العاص وأبو سفيان، فآذوا الرسول وأتباعه بقوارص الهجاء، فهاج ذلك من شاعرية المسلمين وودوا لو يأذن لهم الرسول بمجالستهم، فما هو إلا أن قال لهم: (ماذا يمنع الذين نصروا الله ورسوله بأسلحتهم أن ينصروه بألسنتهم؟) حتى صمد للقرشيين نفر من الصحابة، فيهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة، وشبهوها حرباً كلامية جاهلية لم يهاجم المهاجمون فيها بفضائل الوثنية، ولم يدافع المدافعون بفضائل الإسلام، حتى نقول إن الشعر قد خطأ في مذاهب الفن خطوة جديدة، بل كانوا يتهاجون على النمط المعروف من الفخر بالأنساب والتبجح بالسؤدد؛ يدل على ذلك قول الرسول لحسان: (أذهب إلى أبي بكر فهو أعلم بمثالب القوم)، وقوله: (كيف تهجو قريشاً وأنا منها؟) فقال: أسلك كما أسل الشعرة من العجين

فليس من شك في أن الشعر ظل على عهد الرسول جاهلياً. وخضعت قريش وسائر العرب للدين الجديد بعد لأي، فخرست الألسنة اللاذعة، وفر الشعر الجاهلي ثانية إلى البادية، وانصرف المسلمون إلى حفظ القرآن ورواية الحديث وجهاد الشرك، فخفت صوت الشعر لقلة الدواعي إليه، فما كان يظهر إلا الحين بعد الحين في صادق المدح والرثاء؛ وتساهل الرسول في سماعه حتى أثاب عليه، وحتى قال فيه: (إن من الشعر لحكمة) تلك كانت حالة الشعر في عهد النبوة، وأما حاله بعدها فأقل شأناً وأحط مكانة لذهاب المعارضة ولشدة الخلفاء في تأديب الشعراء، وانصراف هم العرب إلى الفتوح؛ ولكن الدين قد بدأ يفعل في النفوس، ومظاهر الحضارة قد أخذت تؤثر في الأذهان، فظهر أثر ذلك ضئيلاً في شعر المخضرمين ككعب بن زهير والحطيئة ومعن بن أوس والنابغة الجعدي، ولكنه أثر لا يتعدى بعض الألفاظ الإسلامية كالمعروف والمنكر والصلاة والزكاة والجنة والنار والمهاجرين والأنصار. ولذلك نرى من المبالغة جعل المخضرمين طبقة ممتازة، فان شعرهم استمرار للمذهب الجاهلي لم يتأثر بالإسلام إلا تأثراً عرضياً كضعف الأسلوب في شعر حسان، أو قلة الإنتاج في قريحة لبيد، أو كثرته في الحطيئة والنابغة الجعدي مثلاً؛ والأشبه بالحق أن نقرر ما أشرنا إليه من قبل، وهو أن الشعر العربي ظل في الجاهلية والإسلام واحداً في مظهره وجوهرة ونوعه حتى أواخر عهد بني أمية؛ والتأثير الذي ناله من الموالي والسياسة والحضارة والدين لم يعطفه إلى طرق جديدة، وإنما وسع في معانيه ومناحيه، فقوى بعض أغراضه كالهجاء، وميز بعضاً أخر كالغزل وهل يمكن التجديد في الشعر وجل الشعراء إنما يأتون من البادية، والخلفاء يتعصبون للبادية، والرواة والأدباء واللغويون يطلبون اللغة والشعر في البادية، والعرب بطبيعتهم يميلون إلى التقليد ويجلون القديم المأثور من سؤدد وخلق وأدب؟

فليس من سبيلنا أن نتكلف البحث العقيم في القرن الأول عن مذهب شعري جديد يصبح أن يكون أساساً لأدب عربي جديد، فأن مذهب عمر بن أبي ربيعة في الغزل لا يختلف عن مذهب امرئ القيس إلا في المعاني الحضرية؛ ومذهب جرير والفرزدق في الهجاء لا يختلف عن مذهب الحطيئة والشماخ إلا في المعاني الأساسية، فلنقصر الجهد على تحليل نهضة الشعر في العراق والحجاز على عهد بين أمية وبيان خطرها وأثرها في الإنتاج العقلي للعرب

كانت القحطانية والعدنانية، والعلوية والبكرية، والهاشمية والأموية، والعروبة والشعوبية، تضطرم في نفوس المسلمين اضطرام البركان قبيل أن يثور، ولكنها كانت تضعف حيناً وتشد حيناً تبعاً لسياسة القائم بالأمر ونظام حكمه؛ فالقبائل كانت تنزل منزلها في البلاد على هذه الفكرة، والبصرة والكوفة تخططان على هذه الفكرة، والخلاف ينجم في فارس والشام والعراق والأندلس من هذه الفكرة، وكلها تدور على الزعامة والإمامة؛ فمن كان سيداً في الجاهلية أن يكون سيداً في الإسلام، كأن العرب لم يفهموا من الدين الجديد إلا أنه طريق إلى السلطان وسبيل إلى الغلبة والثروة والحكم ليس غير. ولعلك تذكر أن بعضاً من شيوخ القبائل كقيس بن عاصم والأحنف بن قيس كانوا يعرضون على الرسول أن يدخلوا في دين الله لا على أنه دين الحق، بل ليكون لهم من بعده

ظلت هذه الروح العصبية مكبوتة في عهد الشيخين لأخذهما الأمور بالحزم والعدل، ولانصراف العرب إلى المغنم من طريق الجهاد والفتح، فلما ولي الأمر عثمان وهنت اليد المصرفة فسندتها يد أخرى، وتشتت الرأي فلم يصدر عن الخليفة وحده، وحكم إله الناس بعصبيتهم الأموية لا بقوميتهم العربية؛ وكان المسلمون يومئذ قد أفاءت عليهم الفتوح والغنائم بالثراء إلى حد البطر، فاستيقظت الفتنة وقامت الثورة وانتهت بمقتل عثمان، وتجددت الخصومة على أثر ذلك بين علي ومعاوية، وقتل الإمام فتحرج الأمر وانشقت العصا، وانصرف العرب إلى جهاد العدو عن جهاد أنفسهم باللسان والسيف، وتفرقوا أحزاباً وشيعاً بعضها للدين وبعضها للدنيا. ففي الشام حزب يشايع بني أمية، يريض لهم الأمر، ويمكنهم في الملك. وفي الحجاز حزب يناصر أبن الزبير، يؤيده في دعواه وينصره في دعوته؛ وفي العراق حزب يشايع أهل البيت ويطلب لهم بحقهم في الخلافة؛ وهنالك حزب ديمقراطي ينكر الأحزاب ويكفر الزعماء ويقول بالشورى في الخلافة. وفي هذه الأحزاب الأربعة توزعت أهواء المسلمين وآراؤهم إلا طائفة قليلة لزمت الحياد وأرجأت الحكم بين المختلفين إلى قضاء الله يوم الدين، وهم المرجئة؛ واتصلت بين الأحزاب الخصومة، وأعنف فيها الخصوم، ولكن معاوية بعد أن تم له الأمر كان يصانع معارضيه بالدهاء والعطاء والإغضاء والحزم حتى أستوثق له الأمر طيلة حياته إلا من جهة الخوارج، فلما مات أفاق خصومه من خدر سياسته فزعزعوا عرشه، حتى إذا وهي أدركه مروان وبنوه فسنده واقتعدوه. وفي زمن عبد الملك أشتد المعارضة واستعرت الحروب، وكثر المطالبون بالخلافة، وأنبسط سلطان العرب، وزخرت موارد الفيء، وأكتمل شباب الجيل الذي نشأ في الإسلام واغتذى بثمرة الفتوح واستمتع بجمال الحضارة وأختلط بأنماط شتى من الناس وساهم بيده ولسانه في هذه الفتن، فبلغ الأدب العربي غاية ما قدر له أن يبلغ. فهل يمكن أن يظل الشعر بنجوة عن هذه الحياة الصاخبة، والعصبية الغالبة، والأحزاب المتحاربة، والأهواء المتضاربة، والشعر العربي ربيب الخصومة والجدل، تبعثه الحزبية ويقويه الهراش وتوحيه شيطان الفرقة؟ الواقع أنه كان وقود هذه الفتن ولسان هذه الأحزاب، يصطنعونه كما نصطنع نحن الصحف اليوم، فيناضل عن زعمائه، ويدافع عن آرائهم، ويصطبغ بصبغة العقيدة التي يدعو إليها وينافح عنها. وإذا علمت أن العرب جميعاً ساهموا في هذه الخصومات، وأن أكثرهم يقول الشعر وخصوصاً في هذه الأزمات، وأن الأمويين استمالوا بالمال هوى الشعراء، وأوقدوا بينهم نار التنافس والهجاء وأن الشعر أصبح صناعة متميزة يعيش عليها بعض الناس، أدركت سبب وفرة الشعر وكثرة الشعراء في عصر عبد الملك، إذ بلغ عدد الفحول المائة. وليس من شك في أن الشعر وأن حافظ على طريقته وطبيعته قد تأثر بهذه الحياة الجديدة تأثراً ظاهراً في معانيه وأغراضه؛ ولكن هذه الحياة لم تكن كلها نزاعاً سياسياً وجدالاً دينياً

حتى يقف تأثيره عند هذا الحد، وإنما كان لها مظاهر أخرى يحسن أن نشير إليها قبل أن ندل على أثارها في الشعر

كان من الطبيعي تختلف مظاهر هذه الحياة في العواصم العربية لاختلاف الأحوال السياسية والاجتماعية فيها. فالعراق كان منذ القدم منتجع الخواطر العربية لخصبه ونمائه، ووفرة ظله ومائه؛ وقد لاذ العرب قبل الإسلام بأطرافه وأريافه واللسان واليد فيه للفرس، فأنشئوا إمارة المناذرة؛ فلما فتحوه في عهد عمر نزحوا إليه وأنشئوا على حدود البادية البصرة والكوفة. وكان في العراق ميراث وفر من العلم والأدب والدين خلفته الأمم الغابرة، ولم يؤت العراق ما أوتيت مصر من قوة الهضم والتمثيل حتى يحيل سكانه إلى جنسية واحدة وعقلية واحدة، فانطبعت الأهواء فيه على الفرقة، والنفوس على التنافر؛ وأتى إليه العرب بالعصبية اليمينية والنزارية، ووقعت فيه الأحداث الإسلامية الجلى كوقعة الجمل ومصرع الأئمة والقادة، وما نجم عن ذلك من قيام الشيعة والخوارج، واشتداد المعارضة لبني أمية، واستحكام الخلاف بين البصريين والكوفيين في السياسة والدين والعلم، فكانت البصرة

عثمانية، والكوفة بعد استقرار الإمام بها علوية، والجزيرة الفراتية إما نصرانية وإما خارجية، لأنها مسكن ربيعة، وهم كما قال الأصمعي رأس كل فتنة؛ ومن ربيعة بنو تغلب الذين قال فيهم الإمام علي: (يا خنازير العرب والله لئن صار هذا الأمر إلي لأضعن عليكم الجزية). فكان الشعر العراقي صورة لهذه الحياة الثائرة المتنافرة؛ فهو قوي عنيف يكثر فيه الهجاء والفخر، وتتلون فيه العصبية القبلية ألواناً شتى من التحزب للمكان والعقيدة والجنس، وتتغلب فيه النزعات الجاهلية على التعاليم الإسلامية، وتغذيه نفحات بدوية وصلات أموية، فيزدهر وينتشر حتى يشغل كل لسان ويحتل كل مكان ويعبر عن كل مبدأ

والحجاز منبع الإسلام كان أشبه بينابيع النهر: يفيض منه الماء الصافي في سكون ورفق، حتى إذا بعد مجراه اعترضته الشلالات وتقسمته التيارات فتكدر نميره واشتد هديره، وتوزعته الجداول والأقنية، فبعضه في سباخ الأرض، وبعضه في الرياض، فروى بعضاً وأغرق بعضاً. انتقلت منه الخلافة والمعارضة والعلم إلى العراق والشام، وبقى هو كما كان وكما هو الآن يقبل المال والمعونة من كل قطر، واقتضت سياسة الأمويين أن يعتقلوا فيه شباب الهاشميين فلا يتركونه إلا بإذن، وسلطوا عليهم الترف، وشغلوهم بالمال عن الملك، وخلوا بينهم وبين الفراغ، وقد ورثوا مع ذلك عن آبائهم المجاهدين مغانم الفتح من أموال ورقيق، وفي أهل الحجاز ملاحة ظرف ووداعة نفس ولطافة حس وفصاحة لسان ومحبة لهو، فتبسطوا على النعيم وعكفوا على اللذة، وقطعوا أيامهم بالمنادرة والمنادمة، وذهبوا في حياة المجون كل مذهب؛ ووصل الحج بينهم وبين الحسان والقيان، واستهوت هذه الحال المغنين فوفدوا إلى مكة والمدينة من أقطار الدولة حتى اجتمع منهم في وقت واحد كما يقول أبو الفرج: (ابن سريج، والغريض، ومعبد، وحنين، وابن محرز، وجميلة، وهيت، وطويس، والدلال، وبرد الفؤاد، ونومة الضحى، ورحمة، وهبة الله، ومالك، وابن عائشة، وابن طنبورة، وعزة الميلاء، وحبابة، وسلامة، وبلبلة، ولذة العيش، وسعيدة، والزرقاء، وابن مسجح) وحتى غلب الغناء على أعمال الناس وميولهم؛ فقد حدث الإمام مالك عن نفسه قال: (نشأت وأنا غلام أتتبع المغنين وآخذ عنهم، فقالت لي أمي: يا بني إن المغنى إذا كان قبيح الوجه لا يلتفت إلى غنائه، فدع الغناء وأطلب الفقه فانه لا يضر معه قبح الوجه؛ فتركت المغنين وأتبعت الفقهاء فبلغ الله بي عز وجل ما ترى). من ذلك شاع الحب في مدن الحجاز ورقت عواطف بنيه، فسلكوا في الشعر مسالك الغزل الحضري الرقيق الصادق، حتى كاد هذا الفن لافتنانهم فيه يبتدئ بهم وينتهي إليهم

وأما الشام فكان بنجوة من الثورات النفسية والأزمات السياسية لخضوعه لبني أمية وإخلاصه لهم وانصرافه إلى تأييدهم، فلا هو مضطرم العواطف كالحجاز، ولا هو مضطرب الأهواء كالعراق، وقد أمن الخلفاء جانبه فتركوه لشأنه دون أن يثيروا عصبية لخلاف، أو يهجوا طماعيته لمغنم، فبقى الشعر من جراء ذلك راكداً في نفوس أهله لا يبعثه باعث، ولا يتوافر على دراسته وروايته باحث؛ وأكثر ما كان فيه من ذلك إنما كان يفد إليه من العراق والحجاز مع الشعراء الذين يجذبهم سخاء القصر أو دهاؤه، والأدباء الذين يطلبهم الخلفاء من البصرة كلما أعضلتهم مسألة في اللغة والنحو والأدب

(يتبع)
الزيات
إلى الدكتور طه حسين
نزيل حمص
للأستاذ محمد روحي فيصل
هو العبد الحبشي الماكر، ومولى السيد جبير بن مطعم، (وحشي). نزل حمص واستقر بها فيمن نزلها من المسلمين الفاتحين في صدر الإسلام، واتخذوها لهم مقاماً ومستقراً، وكان وحشي في الجاهلية، فتى شجاع رقيقاً يخضع على كره منه لما يخضع إليه الرق من ضعة الذل والعبودية، فلما كانت غزوة أحد وقامت الحرب التي لابد منها بين النبي وخصومه، صاح به مولاه جبير وقال:
- هذا العداء دائر بيننا وبين محمد، وأنت باسل طموح، فلئن قتلت حمزة عبد المطلب عم النبي وثأرت لي منه، فأنت حر طليق
- سمعاً وطاعة يا مولاي
وتشب النار، ويضطرب الناس، وتتساقط القتلى من الفريقين، ووحشي الماكر كامن أثناء المعركة وراء شجرة يستتر بها عن الأعين ويرقب الفرصة السانحة، فلما رأى أسد الله حمزة يجول في الميدان ويصول على جواده، رماه بحربة من هذه الحربات القاتلة التي لا تخطئ موضع الخطر في الإنسان، ولا تحيد عما قصد بها من غاية !!. وينطلق العبد إلى مولاه جذلان مرحاً، ويظفر بحريته الحبيبة، (ولكنه لم يعد إلى بلده، وكيف سبيل العودة إليها؟ ولم يسد في مكة، وكيف السبيل إلى السيادة فيها؟ إنما عاش بين قريش حراً كالعبد وطليقاً كالأسير)
ثم ينتشر الإسلام، وتنهار الوثنية، ويدخل المسلمون الظافرون مكة الكافرة، فتضيق الدنيا على رحبها بالعبد القاتل، ويفكر كثيراً في نجاته، فيفزع آخر الأمر مضطراً إلى الإسلام، ويقصد خائفاً وجه النبي، ولكن النبي لم يقتل قط رجلاً جاءه مسلماً. ويحزن النبي عليه السلام حين رآه، ويسترجع بالذكرى والخيال عمل وحشي المنكر الماضي، فيقول له: غيب وجهك عني! فخضع التائب للأمر الواقع، وندم على ما فعل (وعاش وحشي في المدينة حراً كالعبد؛ وطليقاً كالأسير، وجعل الندم يحز في قلبه حزاً، ويمزق فؤاده تمزيقاً، يؤرقه إذا دنا الليل، ويعذبه إذا أقبل النهار!)
ويلهو العبد النادم بالجهاد، ويشترك في حروب الردة، فيبلو فيها البلاء الجميل، ويقتل مسيلمة الكذاب، ثم يمعن في جهاده ويغزو مع من غزا بلاد الروم، فينزل حمص ويستقر بها فيمن نزلها من المسلمين الفاتحين، واتخذوها لهم مقاماً ومستقراً؛ ولكن الندم على هذا الجهاد المتصل لا يزال قوياً واضحاً يفعل أفاعيله في نفس وحشي المسلم، يقلق عليه مضجعه، ويشغله عن كل شيء، ويعذبه عذاباً أليماً
ويمضي على عادته أديب العربية الكبير الدكتور طه حسين في تحليل النفس النادمة، ووصف ما تعاني من الآلام، فإذا وحشي (يستعين على الندم بالخمر، وإذا هو يشرب ويسرف في الشرب، وإذا هو يضرب في الشراب فلا يمنعه الحد من معاودة الشراب، وإذا هو المعروف في أهل حمص بما قدم من خير وشر، وإذا هو معروف في أهل حمص بسكره إذا سكر، وبصحوه إذا صحا، وإذا هو يسكر حتى يصبح مخوفاً على من يدنو منه، ويصحو حتى يصبح عاقلاً حلو الحديث. والندم يلح عليه حتى يبغضه إلى نفسه تبغيضاً، ويصرفه عن الصحو صرفاً، وكلما مضت عليه الأيام ازداد إمعاناً في الشراب، والسن تتقدم به، وجسمه يضعف شيئاً فشيئاً، وعقله يذهب قليلاً قليلاً، والندم ماثل مع ذلك في نفسه، ملم بداره، يأخذه من كل وجه، وهو لا يجد سبيلاً إلى الفرار منه إلا إلى الشراب، وهو يضرب في الشراب، وقد ضعف وفني، فلا يحتمل الضرب فيموت
وقفت خاشعاً بالأمس على قبر وحشي المجاهد السكير، وهو قبر متواضع متهدم لا يزال قائماً في شرق حمص يزوره الناس كل يوم، أسترجع الجهاد العظيم الذي أبلاه صاحبه، وأتمثل مصرع حمزة (خير الناس) ومسيلمة (شر الناس) على يده، وأسأله هل شرب فأسرف في الشرب؟ وضرب على ذلك فلم يمتنع عن السكر؟ وهل كان حقاً لا يجد سبيلاً إلى الفرار من الندم إلا إلى الشراب، وهل ختم حياته الصالحة بهذا الشر المنكر؟ وما عهدتني قط في حياتي أقف على الأرماس البالية المتداعية، أخشع حيالها وأسكن إلى صمتها وأستنطقها تاريخ أصحابها كما يسجله الدهر، وتمليه الحقيقة،

ويقتضيه المنطق، وخرس القبر الأبكم الأصم فلم يجب السائل ولم يتحدث إلى الواقف، ولكن معناً واضحاً أشرق على قلبي وتمدد في نفسي، يقول أن وحشي المجاهد قد ظلم ظلماً كبيراً، ونسب إليه ما هو منه براء، ولم يكن كما وصف مدمناً يفزع الخمر ليقتل ندمه الماثل وينسى ألمه
الرازح
ورجعت إلى الكتب أستنطقها هي الأخرى عن حياة وحشي، فإذا بها تتحدث إلي عن كل شيء، وتقص لي ما تعرف في هدوء المنطق وجمال الحقيقة، ولكنها تنكر هذا الشرب المتصل الذي ختم به وحشي حياته وضرب من أجله مرات، والإسلام يمحو ما قبله، فكيف اشتد الندم بالصحابي هذا الاشتداد، حتى لجأ إلى الخمر يعاقرها ويلهو بها، وهو يعلم أن الله قد رضى عنه وغفر له حين دخل في الإسلام؟
أن الكاتب الأديب الروائي غير مطالب بالدقة التاريخية، ولا هو مسؤول حين يعمم القول ويرسله إرسالاً، مادام قوله لا يناقض وجه التاريخ ولا يهدم ظاهر الرواية؛ ولكنه مطالب مسؤول حين يقرر شيئاً يخالف المأثور الواقع أو لا يقره التاريخ عليه ولا يؤيده الحق فيه
وما أرى إلا أن عظام الصحابي الجليل قد اهتزت في قبره، وضج الحمصيون لما نسب إلى نزيلهم الكريم. ونحن خبيرون بثقافة الدكتور الواسعة العميقة، وشدة تحريه في كتب التاريخ الإسلامي، واستقامة منطقه ونظرته، فهل يدلنا الدكتور أو تحيلنا (الرسالة) على مصدر الرواية التي يصورها الأديب المثقف فيحسن تصويرها ويبدع في سردها، والتي لم نعثر عليها فيما بين أيدينا من كتب التاريخ ومراجع البحث؟
(حمص)
محمد روحي فيصل
حب الاستعمار والجشع سيقضيان على الحضارة
مؤتمر الكتاب في باريس لحفظ الثقافة
(الماركسية حلقة من سلسلة الثورات التي قام بها البشر)
(كهينو)
بقلم ماجد شيخ الأرض
احتشد نيف ومائة كاتب أموا باريس من جميع أقطار المعمورة في قاعة (قصر التواليه) وجلس وراءهم حشد عظيم من النظارة أتوا يشاركون الكتاب عواطفهم نحو المدنية التي يبحث عن درء الخطر الذي يتهددها، ويستمعون إلى أقوال كبار الكتاب وآرائهم في المحافظة على مخلفات الثقافة التي ينعم الإنسان بثمارها اليانعة ويحس بشهوتها إذا غمرت فضيلة العلم فؤاده، وتفتحت أمام عينيه بعض أسرار هذا الكون العجيب المغلقة
هبت عاصفة من التصفيق الشديد، وعلت أصوات الحضور بالهتافات لسير الثقافة مرفوعة الجبين بالرغم من معارضة الرجعيين عندما انتهى أندره جيد من خطابه الذي أفتتح به المؤتمر وأتى على ذكر غايته وبيان أبحاثه، وكأن الجمهور أحس بالواجب المقدس الذي حدا بفنان مثل جيد إلى الظهور من عزلته التي اعتادها طيلة خمسة وستين عاماً مسافراً يجوب البلدان والأقطار، أو منزويا في بيته يدون آراءه وأفكاره في كتب لا يطبع منها إلا عدداً محدوداً، كأن الجمهور شعر بالخطر المداهم الذي يحتم على كل فرد له ميزة من العقل والإحساس أن ينتبه فيصمد في جملة الصامدين. لم يكتف الجمهور بالهتاف، وما كاد جيد ينتهي من خطابه حتى تقدم إليه رهط من الشباب المثقف بلغ بهم الحماس مبلغه يريدون رفعه على الأيدي لولا أن حال دون بغيتهم الاعتذار وتطبيق النظام المؤتمر، ثم تلبث عاطفة الحماس أن هبت من جديد لكن في هذه المرة كان يعلوها حزن عميق ارتسم على الوجوه عندما قام إلى المنبر عضو المؤتمر الكاتب (اراغون) يؤبن بعبارات رقيقة الكاتب الثوري (رنيه كريفيل) الذي قضى في منتصف الطريق التي يعمل فيها للحرية وإحقاق الحق، وقد دمعت عيون بعض الفتيات إذا أتى الخطيب على فقرات مؤتمر للكاتب الراحل
كان انعقاد المؤتمر في مساء اليوم الحادي والعشرين من شهر يونيو الفائت، ودامت الجلسات تتري بعضها في النهار وبعضها في المساء حتى الخامس والعشرين، وقد قسمت الأبحاث على عشر جلسات تناوب بعض الأعضاء رياستها، وتعين لكل جلسة

مقررين منهم. أما الأبحاث التي تنوقش فيها وجرى إقرار ما يجب عمله بشأنها فهي:
تراث الثقافة. موقف الكاتب في المجتمع الإنساني. الشخصية. الإنسانية. الشعب والثقافة. الإبداع عند الكاتب وقيمة الفكر. تنظيم مقررات المؤتمر. الدفاع عن الثقافة
ولمعرفة أهمية هذا المؤتمر يكفينا أن نذكر جيد ومالرو وكوتوريه وارغون ونيزان وكهينو وبندا من الفرنسويين، وتولر وهنريخ مان من الألمان، وفرانك من الأمريكان، وإهر مبورغ وكولتسوف وتيخانوف والشاعر باسترنيك من السوفيت، والسيدة كارن ميكائيليس الدانماركية، والسيدة واديا ولعل اسمها وديعة الهندية وهكسلي وفوستر من الإنكليز
بدت الجلسة الأولى جدية أكثر من أخواتها لأن بعض المؤتمرين لم يكونوا بعد قد تعارفوا وإن سبق تعارفهم روحياً منذ زمن طويل، أو لأن الموضوع الذي طرحه المسيو بندا في هذه الجلسة كان دقيقاً وكان خطيراً احتدم حوله النقاش مع أن أكثر هذه الخطب كانت مهيأة من قبل ليتسنى لهم ترجمتها، ولوحظ أن الخطب التي تطرق أصحابها فيها إلى السياسة هي الخطب التي تحمس لها الجمهور وأظهر إعجابه بها إلى حد كاد يخرجه عن المألوف في مثل هذه الاجتماعات، حتى بتنا نقول إن في كل يوم مظاهرة، تارة ضد الرأسمالية، وتارة للحرية المهددة بالفاشستية، وطوراً للطبقات العاملة التي لا تستفيد من الوضع الحاضر غير دفع الغرم. بل كيف لا يتحمس الجمهور وهو يرى الكتاب وقد وفدوا من أقصى الجهات وتحملوا أعباء السفر على اختلاف نزعاتهم وتباين آرائهم ليضعوا لهم نظاماً يحفظون به تراث الثقافة الذي خلقته لنا حضارة الإنسان وليدة دمه المهراق وعراكه المستمر
قال جوليان بندا ما خلاصته: (إن نظرة أمم أوربا للآداب والفنون تختلف اختلافاً بيناً مع النظرة الشيوعية من حيث علاقة الحياة الفكرية بالحياة الاقتصادية
فان الأولى تعتقد باستقلال وسمو الحياة الفكرية عن الحياة الاقتصادية، أما الثانية فإنها تعتقد بتضامن الحياتين. فالاختلاف يبدو لنا أساسياً مما يجعل التسوية بينهما مستحيلة لابد لها من حرب
ثم هناك مسألة أخرى اختلف فيها الناس كثيراً: هل وجهة النظر الشيوعية المذكورة شيء فجائي من شأنه أن يقضي على وجهة النظر السائدة في الغرب، ويقطع عليها الطريق، أو أنها نتيجة سير وجهة النظر الثانية وتطورها؟
فبعضهم يقول بأنها وليدة التطور والاتساع العام للمدارك عند الأمم الغربية، يشبهونها بمذهب (الرومانتيسم) الذي كان وليد الاتساع الخاص للمدارك الأدبية
لكن الأمر على غير ما يتصورون، فأن الرومانتيسم برغم ما أدخله من العناصر الجديدة في الأدب لم يكف أصحابه عن الاعتقاد باستقلال الرجل الموهوب وبعده عن المؤثرات والأوضاع الاقتصادية
فبين وجهتي النظر الغربية والشيوعية إذاً تباين ليس في المرتبة أو المسافة، بل في (الروح والتكوين
لم يكد ينتهي المسيو بندا من خطابه حتى قفز إلى المنبر العضوان الفرنسيان المسيو كهينو والمسيو نيزان، وإليك خلاصة ما قاله الأول:
إن الأمر أهون بكثير مما يتوهمه المسيو بندا، فحسب رأيه إذا أنتقل واحدنا من هذه) البلاد إلى بلاد الاتحاد السوفيتي فلابد أن تستقيم له غير هذه الروح وغير هذا الدماغ للتفكير
لا حاجة عندي لكل هذا التغيير وإذا لم يكن بد من شيء فهو اتباع العقل في مجرى تدرجه الطبيعي
وليست الثورة البلشفية الأخيرة عن بواعث دينية أو إقليمية محلية، بل هي حلقة من سلسلة الثورات الإنسانية التي ابتدأت منذ أن دب الإنسان على الأرض
ولست أرى في كارل ماركس غير مفكر من هؤلاء المفكرين الذي يظهر أمثالهم كل يوم في الغرب، وليس هنالك من شيء في رأي يدفع بنا إلى مقاومة الماركسية ونبذها ومن العبث والسذاجة أن نقابل هذا الخط الطويل من الآراء المثالية بخط مثله من الآراء الاقتصادية التي لا تقل في قدمها وفي تدرج حركتها عن الآراء الأولى
أما إنجاح الماركسية، فمتوقف على الفئة التي تهتدي قلوبهم إليها وعلى مقدار إخلاصهم وتضامنهم، ولا أظن أن هنالك فريقاً من البشر يلحقه خيرها وفريقاً آخر

يلحقه شرها؛ مادام الناس في هذا العالم متشابهين من أكثر الوجوه، وذلك ما يقوله لنا إحساسنا الداخلي في كل
ساعة: أننا متشابهون. فان مصير الناس كلهم واحد، كما يقول هوجو، ومقدراتهم متشابهة سواء أكان الإنسان عالماً أم عاملاً. أليست الحياة والموت محتمين! ومشاكل العيشة العامة والخاصة تنتابهم بدون استثناء، وكل ما عمله الذين سبقونا وما نعمله لكشف خبايا هذه الأسرار المحيطة بنا، ومازال ويا للأسف ابتدائياً، وهذا ما يشجع فينا الشعور بالتشابه، والشعور بالتشابه يجعل الاحساسات الشائعة بيننا واحدة، وكلاهما يدفع بنا إلى إنشاء الجمعية المشتركة في النفع والضرر، بل نحن نعمل على إنشائها (بدافع طبيعي فينا ونريدها من صميم أفئدتنا
وإليك خلاصة ما قاله المسيو نيزان:
لا أستطيع الكلام بدون الاعتماد على التاريخ لأن ما جاء به الفيلسوف بندا يتضمن شيئاً كثيراً منه)
لقد صور لنا المسيو بندا العالم الغربي في صورة متناسبة متناسقة تجمع شتى الأقوام وشتى الطبقات، وأكثر ظني أن هذه الصورة لا تتفق مع صحائف التاريخ، ومن المستحيل أن تكون لهذا العالم صورة جامعة متناسقة فيها مختلف العناصر البشرية الغربية ما دامت مراجعها وينابيع حياتها مستقاة من مدنية الإغريق والنصرانية ثم النهضة الأوربية (الرينسانس) وعهد الإصلاح (الريفورم) والثورات البرجوازية المختلفة. فأستطرد وأؤكد إن المدنية الإغريقية نفسها لم تكن في أيامها السوالف عمل جميع الإغريق
ينظر المسيو بندا إلى الغرب نظرة أفلاطونية، نظرة إيجابية، لا تتطلع إلا إلى الآثار الثمينة وإلى الأفكار من حيث هي أفكار رفيعة، نظرة محدودة لا تعبأ بما تحت هذه الآثار من دوافع واحتمالات غامضة، ولا تهتم بالحوادث البارزة التي سهلت تلك النتائج صحيح أن هذه النظرة سادت برهة عند اليونان القدماء، ثم أصبحت فيما بعد قوام التفكير النظري عند الأمم الأوربية البرجوازية
لكن مذهب أفلاطون ليس كل ما عند الإغريق من مذاهب للتفكير
أتى المسيو كهينو فيمن ذكرهم على اسم أبيقور الذي كان يوجه كلامه إلى العبيد الأرقاء، وهو الرجل الذي ما كان يتوخى تطهير جمهرة مختارة من البشر، ولا كان يستنسب جلساته بين طائفة متميزة منهم، وإليكم الآن مجمل ردي على المسيو بندا:
إن هذه الطائفة المثقفة التي شاء أن نسميها بالعالم الغربي نقبل كل انتقاد يمكن أن يوجه إليها، أو إلى الأوضاع التي تعيش فيها، ونرحب بكل تحوير ممكن لهذه الأوضاع يكون في جانب الطبقات التي تحيى وتفكر، وتجوع وتموت. ونقبل في آن واحد أن نؤمن ونشك في كفاءة الإنسان وقدرته، كما قبل ذلك كارل ماركس في كلامه عن الإنسان (الذي اكتفى حاجاته) ونحن قبل كل شيء نرفض المعتقدات الدينية، والصفات الإلهية رفضاً باتاً ونعتبرها - كما أعتبرها أبيقور وكتاب فرنسا في القرن الثامن عشر - أشياء تتمثل فيها مخاوف الإنسان وأثر اضطهاده
أما موقفنا من وجهة النظر الغربية فهو ليس قطعاً لها وانفصالاً عنها، بل هو موقف المنور الهادي الذي يقبل الحالين معاً فيتسع إلى أقصى حد ويضيق إلى أقصى حد ونحطم بالحجة الدامغة هذه الميثولوجيا الإنسانية التي تريد منا أن نعبد ونمجد إنساناً غامضاً نجهل وجوده، وتحملنا على أن ننسى أو نتناسى أننا للآن لم نكن متساوين في (الآلام، وفي الانتصارات، وحتى في الموت
يتبين لنا من خلال الخطب الثالث التي تخيرنا تلخيصها في هذا المقال، المنطق الذي جرى عليه الخطباء في نقشاهم، فلا سبيل إلى الحشو والتنميق، وكانت الأبحاث على بساطة إنشاءها دقيقة إلى حد كبير، يقرأها القارئ الفطن بدون عناء، فتتجلى أمامه المشاكل الكبرى التي طالما دوخه التفكير فيها محلوله فيها لا تحتاج لغير التنفيذ، وكأنما العالم مريض أصيب بداء عضال عالجه هؤلاء الكتاب فأحسنوا التشخيص وأحسنوا الدواء
ولعل أكثر جلسات المؤتمر حماسة هي الجلسة التي بحث فيها الكتاب موقفهم من المجتمع، فكانت مظاهرة علمية قامت ضد الظلم والجور والاضطهاد، وكيف لا يتظاهر الكتاب للحرية المغتصبة، والحق المضاع، وهم رسل الحرية ورواد الحقيقة، بل كيف لا

يثورون وبينهم قسم كبير طردوا من بلادهم بعد أن أحرقت كتبهم وسيموا أنواع العذاب والتنكيل، لكن هذا الحماس ما لبث دقائق حتى عاد الكتاب يبينون آراءهم في جو مشبع بالهدوء والسكينة

شكت كارن ميكائيليس مندوبة الدانمارك من أن الكتاب لا يأبهون كثيراً إلى المهمة التي خلقوا لها، ولا يقدرون الدور الذي يجب أن يلعبوه على مسرح الحياة حق قدره فيؤدوه خير

أداء. إن الكتاب بحكم وظيفتهم إدلاء، ومن واجب الدليل أن يكون في الطليعة، لكنهم يخشون العزلة، وتراهم يفتشون عمن يحل محلهم، ثم يلتجئون إلى حلقة منزوية من أصحابهم وزملائهم، يصوبون جامات الغضب على القادة المضلين لكن همسهم هذا ويا للأسف لا تسمعه غير آذانهم. . . .

وشكا جيد من قلة إخلاص الكتاب فيما يكتبون. . . وشكا مالروا من تدجيلهم لينيل المال والجاه. . . .

والخلاصة قد أوضح الكتاب أن المجتمع البرجوازي لا يمكن الكاتب من أن يخلص فيه لفنه وأدبه، وقد شذ بعض القصصيين الإنكليز، إذ أطروا الحرية التي تمنحهم إياها النظام الديمقراطي القائم في بلادهم، لكن وجد من بينهم من تصدى لهذه الفكرة، وأبان لهم أن هذه الديمقراطية البرجوازية التي يتبجحون بها لا تشمل غير طبقتها وهي مع ذلك صائرة إلى الزوال يتآمر عليها أبناءها البرجوازيون

نشطت حركة الحاضرين في إحدى الجلسات نشاطاً زائداً واشرأبت الأعناق وحملقت العيون وأخذوا يتهامسون بكثير من الدهشة: (مندوبو السوفيت) كأنما هؤلاء هبطوا عليهم من جرم سماوي لم يأتوهم من بلاد تدعى الاتحاد السوفييتي فوق هذه البسيطة، يريدون استطلاع ما ظهر من هيئتهم وما استتر. ثم ساد سكون رهيب استعداداً لسماع الرد المستمد من التجربة الصحيحة على ما جاء في خطاب المسيو بندا، غير أن مندوبي السوفيت خيبوا هذا الظن واكتفوا برد المسيو كهينو والمسيو نيزان، وأتوا على وصف بعض مناحي الأدب السوفييتي الجديد

وقال إهرمبورغ صاحب كتاب (ثاني أيام الخليقة) ما خلاصته:

(إذا كان الكاتب في المجتمع البرجوازي يكرم ويمجد باعتبار إنه قام بخدمة وطنية تعادل الخدمات التي يقوم بها أمثاله في البلاد الأخرى، ويقرأ كتبه من أراد أن تسمو مداركه أو أن يجد لذة يملأ بها أوقات فراغه - والقراء في هذا المجتمع من توفرت أسباب حياتهم قليلون - وإذا كان القراء لا يقرئون الأدب بقصد أن يستعينوا بما يقرئونه في حياتهم الخاصة والعامة وأن يجدوا فيها هدياً لقلوبهم وسموا لنفوسهم وما يضمرون، فلا يكون لما يشاهدونه في ليلتهم من عواطف نبيلة على أحد المسارح أو لما يقرئونه في إحدى القصص، من تأثير فيما يعملونه في نهارهم. وكثيراً ما تخالف أعمالهم ما اختلجت في الليل قلوبهم له. إذا كانت هذه قيمة الأدباء في المجتمع الأوروبي فإني أقول بكل فخر:

(إننا توصلنا إلى أن يكرم الكاتب والشاعر في الاتحاد السوفييتي على أنهما يؤديان عملاً مثل سائر الأعمال الحيوية التي لا يستغنى عنها بحال من الأحوال. فقراءة الأدب للمزارع والعامل ولأي شخص آخر مثل قمحه ولبنه وثوبه ومأواه. يقرأه فيلتذ، لكنه لا يقتصر على هذه اللذة، فانه يفتح قلبه له فتهديه هذه العواطف النبيلة التي للأدب في حياته وفي عمله اليومي

(هذا هو تأثير الأدب السوفييتي، مع أنه لا يزال طفلاً لا يحسن الكلام بدون تمتمة

كانت خطب مندوبي السوفييت على هذا النمط: استعراض للموضوع في المجتمع البورجوازي، ومقارنة ما أستجد في بلادهم بشأنه مع بيان اوجه الانتقاد، وما حدا إلى نبذ الأسلوب القديم

لا عجب أن نرى الكتاب في العالم المتمدن يهبون للدفاع عن الثقافة من عاديات الزمان، وهي حملتها ورفعوا لواء مجدها، بل ومن حقهم قبل كل إنسان آخر أن يهتموا لهذا الأمر في مثل هذا الوقت العصيب الذي ينذر العالم بالشر وسوء المصير، ألم نر المدنيات القديمة التي لو بقيت لكانت للإنسان مدنية تفوق مدنيته الغربية بمراتب - كيف اندثرت وعنقها الحروب والمنازعات والوهن الذي إذا دب إلى جسم أمة قضي عليها بالتفسخ والانحلال

وليست أوروبا اليوم بأحسن مما أشرنا إليه، فان النزاع على الممتلكات الاستعمارية، والتفاخر بالقومية، وتفاقم جشع الناس، وتفشي الأثرة بينهم أرزاء تنوء تحتها الثقافة وستؤدي إلى أوخم العواقب

ماجد شيخ الأرض

عرض لإحدى مشاكل الأدب الإنكليزي

هل ألف شكسبير رواياته؟

بقلم جريس القسوس

أخي ح. ش.

كتبت إلي تسألني أن أجلو لك حقيقة هذا النابغة، الذي على سعة شهرته وذيوع اسمه في مختلف الأزمان والبلدان، مازال مبهم الشخصية، مجهول الهوية؛ وما فتئ الكثيرون من الأدباء في إنكلترا وفي أمريكا يرتابون في أمر تأليفه الروايات المنسوبة إليه؛ فتراهم في كل حين يكتشفون لهم مؤلفاً جديداً غير شكسبير، مؤيدين آراءهم باقطع البراهين وأقواها

ولقد بلغت هذه المسألة من الأهمية وخطورة الشأن ما جعل الأدباء ينقسمون إلى مدرستين، الأولى تنتصر لشكسبير وتعضده وتعرف هذه بمدرسة مستقيمي الرأي (أورثوذكس) بينما الثانية وهي - نسبة إلى ستراتفورد قرية شكسبير ومسقط رأسه - تجرده من كل صبغة أدبية، وتتهمه بضعف الإرادة والجهل، فهي لا تود أن تنسب هذه المؤلفات الرائعة إلى امرئ كشكسبير وضيع النسب، نشأ نشأة الوضعاء من عامة البشر، فلم يلتحق بمعهد عال أو يتفقه على مدرب كبير

أنه لمن العار بل من الحرام - على رأيهم - أن تنشأ العبقرية في الأكواخ؛ وإنه لمن الشائن المزري إذن أن تعزى هذه الروايات على فيها من روعة وجلال إلى شكسبير العامي القروي. في ذلك يتفق أصحاب هذه المدرسة، غير أنهم يختلفون في أمر مؤلفها

أما أول الأدباء الذي نسب إليهم تأليف روايات شكسبير ففرنسيس (1561 - 1626) الفيلسوف الإنكليزي الشهير، وأول واضع أسس النظرية فهربرت إذ ألف سنة 1769 كتاباً سماه (مجازفات في الذوق السليم) بيد أن هذه الآراء لم تثر اهتمام الأدباء ولم تحرك لهم ساكناً مدة نصف قرن أو أكثر. بعد ذلك لقيت لها أنصاراً عضدوها بالمؤلفات العديدة، منهم ج. س. في كتاب ألفه سنة 1848، وفي مقالة موضوعها (من ألف روايات شكسبير؟) نشرت في التشمبرز ' ومنهم و. هـ. سمث في رسالة بعث بها إلى لورد اليسمير موضوعها (هل ألف بيكون روايات شكسبير؟) ومنهم أيضاً الكاتبة ديليا في كتاب اسمه (كشف القناع عن فلسفة روايات شكسبير)

وقد ظهر مؤخراً غير هؤلاء في إنكلترا وفي أمريكا كاللورد بنرانس وسر. ت. مارتن، وج. قرينود وغيرهم من مشاهير الأدباء وكبار النقدة ممن عززوا النظرية البيكونية، وحملوا على شكسبير كادت أن تمحو أسمه محواً؛ وتدحر جيش أنصاره دحراً

ويبني معظم أنصار بيكون حجتهم على النقط التالية:

(1) إن سر توبي ماتيوس سنة 1621 برسالة إلى بيكون يمتدحه فيما ويعده (أنبغ من أنجبت إنكلترا، ومن عاش على هذا الجانب من البحر، في العصر الحاضر)

(2) إن في روايات شكسبير بعض فقرات ومفردات تدل على تبحر مؤلفها في العلم وتعمقه في الفلسفة والقانون مما لا يمكن أن يعزى إلى شكسبير كما يظهر في ترجمة حياته المعروفة

(3) إن في روايات شكسبير مشاهد وأبياتاً تشهد بأن ناظم عقدها أرستقراطي النزعة والنشأة. مثال ذلك أنه: يسخر بالرعاع، ويزدري عامة البشر في كل من (يوليوس قيصر) و (كور يولانس) سخرية وازدراء لا يمكن أن يصدرا من شكسبير القروي الوضيع النسب، إن ذلك إلا مظهر عن مظاهر نبذ الأرستقراطية للعامة وكراهيتها لها، واعتزازها برجالها، وفي مقدمتهم بيكون

(4) أما أخر هذه البراهين، والذي عليه يبني جميع خصوم شكسبير، على اختلاف أشخاصهم، آراءهم واعتقادهم الراسخ في أن شكسبير على ما في نسبه من ضعةٍ، وفي نشأته من حقارة، وفي علمه من نقص، وفي خلقه من مغمز، وفي حياته من غموض وإبهام، لا يمكن أن يكون مؤلف تلك الروايات الخالدة، التي تشهد لصاحبها

بعبقرية تفوق كل عبقرية، ونبوغ هو فوق كل نبوغ، كيف يمكن هذا، مادام هناك بيكون الفيلسوف الكبير، والنابغة الفذ الذي شغل أهل زمانه، وملأ أسماعهم وأبصارهم؟
ويأخذ أنصار شكسبير هذه الحجج ويفدونها واحدةً واحدة. فيقولون - مثلاً في الرد على الحجة الأولى إن (سر توبي ماتيوس) لم يعن في رسالته بيكون الفيلسوف، وإنما عني راهباً يسوعياً آخر اسمه طوماس كان يعرف بلقب بيكون. مع كل هذا يرى أنصار شكسبير - مسلمين جدلاً بأني سر توبي يعني الفيلسوف بيكون - أن ليس في هذا ما يدل كل الدلالة على إن بيكون إنما هو مؤلف روايات شكسبير. إن هي إلا العاطفة، عاطفة
الصداقة العمياء هذه ذات التعليمات والأحكام الجارفة
أما فيما يخص الأشعار فليس في البقية الباقية من شعر الفيلسوف بيكون ما يدل على أنه شاعر بالمعنى الصحيح؛ ذلك الشاعر الفذ الذي يمكن أن يعزى إليه نظم تلك القطع الرائعة التي تتخلل معظم رواياته وخاصة الأخيرة منها
هذا أما المفردات أو الفقرات العديدة الواردة في روايات شكسبير والدالة على تبصر في العلم وتبحر في الفلسفة والقانون وإلمام بأغلب الفنون فلم تكن مقصورة على شكسبير أو على بيكون وحدهما. فقد كانت بحق ملك جميع المؤلفين في عصر اليصابات وبالأخص الأخير منه. إذ شاع فيه التقليد والنسج على منوال الأولين. فالذي يجوز لنا الارتياب في أمر تأليف شكسبير لهذه الروايات على هذا الأساس الواهي، يجوز لنا أيضاً الاشتباه في غيرهم من الكتاب والشعراء
وعلاوة على هذا يرى أنصار شكسبير أن ليس في هذه الروايات ما يدل على إلمام واسع بالعلوم والفنون أو تعمق في الفلسفة والقانون، إلماماً وتعمقاً يصح معهما أن ينسب تأليفها إلى بيكون صاحب النظريات الفلسفية الخالدة والنثر الأدبي الرائع
أما القول بأن مؤلف هذه الروايات لابد أن يكون أرستقراطي النسب والنزعة كما يظهر من شعوره نحو الرعاع وخصوصاً في (يوليوس قيصر) و (كور يولانوس) فليس بالقول الذي يعتمد عليه بنيان مثل هذه النظرية وتحقيقها. إذ ما روايات شكسبير إلا مملكة كبيرة، فيها الملوك والنبلاء، والرعاع والعلماء، وفيها الجنود والصناع، والأرواح والآلهة، كل منهم يفكر ويقول ويعمل حسب طبيعته ونزعته، وعلى قدر قوته ومعرفته، غير مقيد برأي الشاعر أو عقيدته الخاصة. بذا يمتاز شكسبير عن (برونتج) خاصة وعن باقي الشعراء والكتاب عامة. فما الرعاع في الحقيقة إلا من هذا البشر الذي توخى شكسبير في تصوير طبيعته ونفسيته الصدق والعدل
هذا بعض مما يقوله أنصار شكسبير في الرد على خصومه، غير أنهم لا يقفون عند هذا الحد، بل يوردون الحجج الإيجابية الدامغة التي تؤيد آراءهم كل التأييد. من ذلك قولهم إن حياة شكسبير ليست محاطة بالإبهام كما يظن خصومه. فلو استعرضنا تراجم معاصريه من الأدباء لألفينا في جميعها - اللهم إلا من اتصل منهم بالسياسة أو القانون وكان له فيها شأن
كبير - غموضاً وإبهاماً يساويان، إن لم يزيدا، ما في ترجمة حياة شكسبير من غموض وإبهام
ويرى أنصار شكسبير أيضاً أن لديهم تقارير عديدة تدل على اتصال الشاعر بالمسرح وانشغاله بأموره مدة ليست باليسيرة. وفي بعض رواياته نلمح ما يدل على إلمام الشاعر بفن المسرح ودقائقه. يحضرنا على ذلك - على سبيل التمثيل - ما جاء على لسان هملت في تلقينه الغلمان سبل الإلقاء والتمثيل تلقيناً يشهد له - أي لشكسبير - بطول الباع في هذا الفن. وليس في ترجمة حياة بيكون الضافية، ما يدل على ولوعه بالتمثيل أو كلفه بالمسرح.
أما ادعاء خصوم شكسبير إن ما في رواياته من مفردات في القانون، يكفل لبيكون - وهو بالطبع قانوني - تأليفه الروايات لحجة واهية، من السهل دحضها. فقد كانت لندن في عصر اليصابات تكتظ بالطلاب الحقوق هواة المسرح، فكان لشكسبير في ذلك فرصة سانحة لمجالستهم والاستماع إلى أحاديثهم التي تدور، في أغلب الأحيان، حول القانون. هذا عدا تجاربه واختباراته في هذا الفرع كابن أحد الملاك أو التجار
ومن البيانات الواضحة التي يعتمدها أنصار شكسبير في الرد على خصومه، ورود اسم شكسبير مع التعليق على فنه في بعض النسخ الأولى من رواياته مفردة مجموعة

معاصريه، وخاصةً فرنسيس في كتابه (بلادس تيميا وروبرت جرين تهكمه اللاذع على شكسبير، وفي قصيدة بن جونسون التي فيها يخلد (وزة
وقد ظهر مؤخراً غير بيكون مرشحون آخرون لروايات شكسبير، منهم (لورد تلند الخامس عشر ومنهم كونت أحدثهم ظهوراً وأشدهم خطراً على الممثل الستراتفوردي ديفر ايرل اوف اوكسفورد السابع عشر. فقد وضع ج. طوماس سنة 1920 كتاباً في هذا الموضوع سماه (إثبات شخصية شكسبير في دي فير ايرل أوف أوكسفورد) وآخر كتاب ظهر في هذا الموضوع هو لمونتاجو رئيس جمعية أدبية أخذت على نفسها معاضدة دي فير ودحض آراء أنصار شكسبير. فقد وضع كتاب (ايرل أوف أوكسفورد لشكسبير وهو يجمع باختصار كل ما يمكن أن يقال في هذا الأديب كمؤلف للروايات المنسوبة لشكسبير
أما النظرية الشيخزبيرية فما هي في الحقيقة بنظرية، وإنما هي خرافة أكبر عامل في خلقها التشابه الظاهر بين اسمي الشيخ زبير وشكسبير. ليس هذا فحسب، بل إن علاقة شكسبير الغرامية مع (السيدة السمراء) ويظن بعضهم أنها مصرية - وحبه للخيول وخاصة خيول رواد المسرح وما في رواياتها من امتداح لجزيرة العرب وتغن بسمائها وطيرها (فونكس وزهرها وشجرها، كل هذه بعض من الشواهد التي قد يتخذها هواة النظريات أساساً للنظرية الشيخزبيرية
ولقد غرب عن بالي ن أذكر لك أن من الأدباء من يعزو إلى شكسبير تأليف نحو أربعين رواية أخرى، ومنهم من يرى أن شكسبير لم يؤلف كل رواياته، بل شاركه في ذلك كتاب آخرون كبيمونت وفليتشر، وخاصة في (تيطس ادرونيكس) وثلاثة أجزاء: (هنري السادس)، و (تيمون أثينا)، و (بيركليس)، و (هنري الثامن)
هذا عرض موجز لما يمكن أن أخبرك به في هذا الموضوع، ولا أنكر عليك أنني بعد دراسة حجج الفريقين وتمحيصها بكل دقة - أراني ميالاً كل الميل إلى المدرسة الستراتفوردية. ولا أشك في أن النجاح سيحالفها، مهما وجه إليها من نقد لاذع، ولشكسبير من تهم هو بريء منها
الكرك: شرق الأردن
جريس القسوس
تبتغي أمها
للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي
دفنوا في حفيرة أمَّ سلمى ... ثم عادوا يجرّرون الذيولا
كتموا عن سلمى الصغيرة موتَ ال ... أمّ حقاً وآثروا التضليلا
سألتهم والعينُ بالدمع شَكْرَي ... غير مخدوعة بما قد قيلا
أين أمّي عودوا إليّ بأمّي ... أنا لا أبتغي بأمّي بديلا
أنا إن لم ألعب بجانب أمّي ... لم يجد للأفراح قلبي سبيلا
أنا إن عشُت وهي تبعد عني ... كان عيشي عليّ عبئاً ثقيلا
إنها لي تُنيم في الحضن منها ... وتغنّي لي بكرةً وأصيلا
وإذا ما بكيتُ تمسح دمعي ... بيديها منعاً له أن يسيلا
ثم من حبها تقبّلني في ... وجناتي فتُحسن التقبيلا
ثم تعطيني دُميةً هي ما أص ... بو إليه حُبَّ الخليل الخليلا
دُميتي بنتي مثلما أنا بنتٌ ... لإمُيمي التي رعتني طويلا
ثم تُهدي إليّ شيئاً من الحل ... وى فيغدو الحلوى لهمّي مزيلا
أرجعوا لي أميّ الحنونَ فإن لم ... تُرجعوها يكون خطبي جليلا
وإذا ما لم تُرجعوا ليَ أميّ ... أملا الأرضَ والسماء عويلا
أنا في حاجة إلى عطف أميّ ... أيها الناس فارحموني قليلا
هي أميّ التي فتحتُ عيوني ... أجتلي وجهَها فكان جميلا
ورضعتُ اللبانَ منها فكان الث ... ديُ منها لي منهلاً معسولا
إنني عند غيبة الأمّ عني ... لا حناناً أرى ولا تدليلا
أرجعوا لي أمي ولا تخدعوني ... بالأباطيل إن صبريَ عيلا
وإذا صَّح أن أمّيَ أوْدَت ... فاجعلوني لقبرها إكليلا

(بغداد)
جميل صدقي الزهاوي
مناجاة الأمل
للأستاذ عبد الرحمن شكري
أَلا عِدْ وأخلف أنت بالوعد مانح ... فمطلك مغفور وخيرك راجح
ولم تك مثلَ الآلِ فالآلُ مهلك ... ووحيك اسخى ما تضم الجوانح
وكم ناقمٍ من خلف وعدك لا غنىً ... له عنك أو تغني المنايا اللوافح
وأعشَقُ مَنْ يهواك من هو ناقم ... وأمدحُ مَن يرجوكَ منهو قادح
نَشاوَى همومٍ قد تُدِيرُ عليهمُ ... كؤوساً فتفترُّ الثغور الكوالح
سلام على الدنيا ورضوان راحم ... إذا ضاء نجم منك في الأفق لائح
عَفَاءٌ على الدنيا وهُلْكٌ ونقمةٌ ... إذا لم تكن والمرء بالعيش رازح
وكم في ثنايا اليأس منك كوامن ... إذا فنِيتْ فالعيش فان وطائح
أيا بهجة العمران لولاك لم يكن ... فلا شَيَّدَ الباني ولا كَدَّ كادح
إذا اشتدت اللأْواءُ زدت تألقاً ... كذلك سواد الليل للنجم قادح
وليس بعيب أن تُراد لمحنة ... فمن ذا يريد النجم والصبح واضح
أيا بلسم الأحزان لولاك لم يعش ... على عَنت الدنيا لهيفٌ ونائح
معين على البلوى معين على الضنى ... إذا لم يكن فيه معين وناصح
ويا حادي الركبان في العيش مثلما ... حدا الركبَ في الصحراء حادٍ وصادح
ويا رحمة الله التي عمت الورى ... ولم يخل منها جارم النفس جامح
على صاحب الكوخ المهدم مشرق ... ببشرى ورب القصر راجٍ وَطامح
وأسعد ما تُلْفَى إذا كنت ماطلاً ... فكل طليب شائق وهو نازحُ
رست بك في لج الحياة نفوسنا ... فلم تتقاذفها الهموم السوارحُ
لشيَّدت للإيمان في قلب آملٍ ... معابد قد ضمت عليها الجوانحُ
ثبات وصبر واعتزام وهمة ... فضائل نفس كلها أنت مانح
ولولا مساعٍ أنت عاقد أمرها ... لآثر عقر الدار غادٍ ورائح
تكاد تنير الليلَ إمَّا توقدت ... أمانيُّ تذكو حين تخبو المصابح
تأرج من ذكراك نفحة خاطر ... أأنت أريج من شذا الزهر فائح
وإن غَنِيَّ الناس من أنت ذخره ... وأيُ غِنى يغني وضوؤك نازح
وسائل من جدواك أنت استثرتها ... وتُفْتَقُ إن لحتَ النهى والقرائح
وكم لك دون النفس وحي وهمسة ... إذا نطقت تَعْيَا اللغاتُ الفصائح
وكم من غريق أسقط الجهد كفه ... فما لحت إلا وهو في اليَمِّ سابح
منحت حياة مرة بعد مرة ... وتبخل بالعيش النفوس الشحائح
ورب حبيس أنزل السجن ظلمة ... عليه ونور منك في السجن لائح
أيا طائراً يشدو وفي النفس أَيْكُهُ ... فيخفت فيها يأسها المتناوح
ويا آسِيَ الأحزان والظلم والضنى ... ولولاك أعْيَا الطب مودٍ وطائح
تَخَلَّلُ أَنَّات الشقاء ونوحه ... فتعذب في الأسماع حتى المنائح
خلعت على الأيام أحسن خلعة ... فيخفي بعيش شره والمقابح
سقيت فأنسيت المؤجل من ضنى ... ومن وخط شيب في غد وهو واضح
وأنسيت أن الشر حتم مقدر ... وأن المنايا غاديات روائح
تضاحك في يأس ونحس وكربة ... كأن الرزايا عابثات موازح
بها مؤنس من طيب عهدك عامر ... بشائر في لأوائها ومفارح
وتخلق منك النفس دنيا سنية ... وفي أفق منها النجوم اللوائح
مباديك شتى كالأزهر جمة ... ففي كل حال موطن منك صالح
أيا سحر إنْ لم تُغْنِ فالسحر كاذب ... مغاليقه فيما تريد مفاتح
تعللنا بالسعد من بعد ميتة ... فتحسن في مرآك حتى الضرائح
عبد الرحمن شكري
ذهب الشباب
للأستاذ فخري أبو السعود
ذهب الشبابُ وغاض ذلك الرونقُ ... لم يبقَ إلا حسرة وتحرُّقُ

لم يبق إلا ذكر عهد زائل ... إذ أنت أملَحُ مَن يُحَبُّ ويُعْلَقُ
حالَ الجمالُ فلا قَوامٌ مرهفٌ ... يصبي النفوسَ ولا محيًّا مُشرِق
ما أنت إلا الروض صُوِّحَ بعد إذ ... هو مثمرٌ نضر الأزاهر مورِق
ولقد يُجاد الروضُ بعد جفافه ... ويَجِدُّ من أبراده ما يَخْلَق
وأرى جمالك ليس يَبْعَثُ مَيْتَهُ ... شمسٌ تضئ ولا غمامٌ يُغدِق
ولقد يروق الزهرُ بعد ذبوله ... وتَظَلُّ منه ريحة تتَنَشَّقُ
ورأيتُ حُسنَك حين أدبَرَ لم يَذَرْ ... إلا قذى يُؤْذي العيونَ ويُوبق
إلا مَقَاَبحَ كم تحاول سَتْرَها ... فتَنُمُّ من دون الطلاء وتنطق
قد جّفَّ عودُك والصِّبا مازال في ... أعطاف غيرك ناضراً يترقرق
ألْوَتْ بِقَدِّكَ بعد لين مَهَزَّهِ ... غِيَرُ الزمانِ وما عليها موثق
رَهَّلْنَهُ في حيث تَجْمُلُ دِقَّةٌ ... وهَزَلْنَهُ حيث الجزالةُ أخْلَق
فَغَدَتْ تَفَحَّمُهُ العيونُ وطالما ... قد راعها منه الرُّواء المونق
وتبدلَّ الطبعُ المحبَّب لم يَعُدْ ... دَلٌ يَشُوق ولا شمائلُ تُعْشَقُ
وتَطَامَنَ القلبُ الأبيُّ وإنَّهُ ... بالأمس لَلْحِصْنُ المنيعُ المغلق
ومضى شِمَاسٌ كان فيك سجيةً ... فاليوم فيك وداعةٌ وتَرَفُق
واليوم فيك تلطُّفٌ وموَدَّة ... كم كان يخطبها المحبُّ الشَّيِّق
وتخلفَتْ بك في الهوى أسبابُهُ ... ولقد عَهِدْتُك سابقاً لا يُلْحَقُ
ولقد عَلِمتْك في الملاحة مُفْرَداً ... ما لاحَ من حُسْنٍ جِوَارَك يُمْحَق
كانت لحُسْنِك دولةٌ فتفرقَتْ ... هيهات يجُمع شملُها المتفرق
نُثِرَتْ كِنانةُ عابديك وكلُّهم ... سالٍ لعهدِك أو لحالك مُشفِق
وانفضَّ منهم مخِلصٌ ومُنافِقٌ ... وأقَلَّ مَدْحَكَ صادقٌ ومُمَلِّق
وغَدَوْتَ بعضَ الناسِ حيث تسير لا ... مجِدٌ يَحُفُّ ولا جَلاَلٌ يُحْدِقُ
تبدو، فلا حَدَقُ العيونِ مُبَادِرُ ... لهفاً إليك ولا الجوانح تخفق
وتبينُ، لا قلبٌ لبينك مُدْنَفٌ ... عانٍ ولا جفنٌ لذكرك يأرق
نَبَتِ القُلوبُ وكنتَ قبلُ مُحَكماً ... فيهنَّ تأسر ما تشاء وتعُتِق
وإذا القلوبُ تغيَّرتْ وتفرقت ... عَيَّ الحليمُ بجمعها والأخرق
سكنتْ نفوسٌ كنتَ أمس عناءها ... ولعلك اليوم المُعَنَّى المُقْلَق
ولئَّ جمالُك والطبيعةُ لم تزل ... تزهو وترفل في الضياء وتَعْبَق
تمضي على عادتها ما راعَها ... حُسْنٌ تَصَوَّحَ أو شبابٌ يَنْفق

فخري أبو السعود

فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية

تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا - 21

الناحية السلبية من مذهب نيتشه

الإنسان

للأستاذ خليل هنداوي

يقول نيتشه مبيناً نظرته في مجموعة القيم الاجتماعية: أنا لا أدري إذا كانت الحياة بذاتها جميلة أو قبيحة. لا شيء عندي باطل إلا هذا النزاع المستمر بين المتفائلين والمتشائمين. وأي إنسان في الوجود يحق له أن يقدر قيمة الحياة؟ أما الأحياء فلا يقدرون لأنهم فريق من المتجادلين المتخاصمين. والأموات - وإنهم لأجدر بألا يجيبوا - لأنهم أموات. فلا أحد بقادر على إبداء قيمة الحياة، وإنني لأجهل كل الجهل إذا كان وجودي خيراً أو عدمي؟ ولكني في اللحظة التي أحيا فيها الآن أريد بأن تكون الحياة فياضة مضيئة لامعة في نفسي وخارج نفسي. فأقول إذ ذاك - نعم - لكل ما يجمل الحياة ويجعلها جديرة بأن تحيى. وإذا تبين لي أن الضلال والوهم يساعدانني على تذوق الحياة أقول - نعم - للضلال والأوهام. وإذا بدا لي أن الصفات السيئة مهما كانت ألوانها تساعدني على انتصار حيوية الإنسان أقول - نعم - للخطيئة والشر، وإذا اتضح لي أن الألم هو أنجع من السرور في تهذيب النوع الإنساني أقول - نعم - للألم وأقول - لا - لكل ما يمسخ حيوية الشجرة الإنسانية. وإذا اكتشفت أن الحقيقة والفضيلة والخير وكل ما اصطلح البشر على احترامه من تقاليد وشرائع تضر بالحياة أقول - لا - للعلم والمعرفة والخير

- 2 -

يبحث الآن نيتشه كيف نشأت بين الناس هذه القيم الاجتماعية ويصور التأثير الذي تركته في روح الرجل الغربي الحديث، نقب نيتشه في أصول المذاهب الخلقية التي تواضع عليها البشر فألفى أن أصولها المتشابهة تعود إلى فضيلتين اثنتين توزعت عنهما كل الفضائل: فضيلة الأسياد والسلالات القوية الحاكمة، وفضيلة العبيد والضعفاء الأذلاء وإنك لواجد في منشأ الحضارة الأوروبية هذا العمل الذي ولد هذين المذهبين. فهناك طائفة محبة للقتال، وعصابة من الرجال المفترسين الذين يسطون على طائفة جانحة للسلم، نافرة من الحرب كما هو الأمر في الحضارة اليونانية الرومانية، التي تلاشت إزاء هجمات الأقوام الجرمانية. إن الرجل الشديد المعتمد على نفسه، تموج في صدره رغبته بتعيين قيم الناس والأشياء بنفسه. وليست فضيلته إلا بهجته الراقصة بشعوره بقوته وكماله. يدعو (حسناً) من كان يماثله شرفاً وسيادة، ويدعو (رديئاً) من يختلف عنه. الخير عنده ما هو إلا مجموعة تلك الصفات الطيبة والخلقية التي يقدرها في نفسه وفي أقرانه. يبهج نفسه أن يكون قوياً وقديراً. يعرف أن يخضع غيره ويخضع نفسه. يقسو على نفسه كما يقسو على سواه. يقدس هذه الصفات عند الآخرين ويحتقر الضعف والجبن حيث ظهرا، يسخر من عاطفة الشفقة والنزاهة؛ ومن كل الفضائل السائدة اليوم، لأنه لا يراها صفات تليق بسيد. يعجب بالقوة والقسوة والخداع، لأن هذه الصفات تحقق له ظفره في النضال، يحترم الميثاق عند أمثاله الأقوياء، ويجد نفسه في حل مع العبيد الضعفاء، ينكل بهم إذا أراد نكالاً، ويسعدهم إذا أراد إسعادهم. له الأمر في أمرهم. يبذل روحه في سبيل قائده وأميره، ويكرم شيخ قبيلته، ويحترم تقاليد أهله

ألا أن الفضيلة الأرستقراطية لفضيلة قاسية متعصبة، ولما كان الشرفاء أقلية ضئيلة في جحافل كثيرة تتمنى الإيقاع بها، فعليهم أن يصونوا صفاتهم الخاصة التي تضمن لهم الفوز. وتقاليدهم التي اصطلحوا عليها في زواجهم وتربية أبنائهم وارتباط بعضهم ببعض هي من التقاليد العاملة على صيانة ذريتهم من الأخطار. لهذه الذرية الأرستقراطية إلهها الذي تتجسد فيه كل فضائلها التي قادتها إلى القوة وإلى هذا المظهر الذي بدت به، إن هذا الإله هو - إرادة القوة - التي ساقت الزعماء إلى السلطة، وجعلت منهم أقوياء سعداء، والعبادة التي يقومون له بها هي تفسير ابتهاجهم بالحياة على النمط الذي يفهمون منه أنهم جميلون أقوياء

هذه الفضيلة تختلف جد الاختلاف عن فضيلة العبيد، والضعفاء الأذلاء، وإذا كانت الكبرياء والبهجة بالحياة، هي العاطفة التي تموج في صدور الأسياد، فلا عجب إذا نما في صدور الضعفاء التشاؤم، ومقت الحياة، وكره الأقوياء. الأقوياء يكيد بعضهم لبعض. أما الضعيف

الغريب الذي يتصدى لهم فويل له، لأن غريزتهم في البأس والقوة لا تشبع إلا بسحقه! لأنهم يعتقدون أنهم بما فعلوا أتوا عملاً جليلاً يحق لهم به أن يغدوا على أفواه الشعراء أسماء مرددة، وهم - في ناظر هذا الغريب المغلوب على أمره - شياطين وقردة؛ تحمل الرعب والهول للآمنين. إن جرأة هذه الطائفة وجنونها وقسوتها، واحتقارها للأمان والحياة واغتباطها العميق بالتهديم وظفرها. كل هذه الصفات ينعتها أولئك المقهورون بالبربر والبربرية. وهكذا رجل القوة والبأس والرجولة في مذهب فضيلة الأسياد يصبح رجل اللؤم والرداءة في مذهب فضيلة العبيد. والرديء الشرير - في عرف الضعيف - هو كل من ارتدى رداء القسوة والعنف والرعب، والجميل عنده كل هذه الفضائل التي يحتقرها الأسياد؛ الفضائل التي تخفف من شدة الظلم، وتمنع إرهاق المظلومين، وترأف بالبائسين المتألمين؛ فضائل الشفقة والرقة والصبر والتواضع والإحسان فضائله. إن العظيم الذي كان محارباً مخيفاً قوياً في شريعة الأسياد، يحول في شريعة العبيد هادئاً حليماً، ويصبح جديراً بالصغار، لأنه بالغ في توانيه عن القتال، وبالغ في لبسه ثوب المساكين

- 3 -

والآن لننظر في هذه القيم الاجتماعية التي أنشأها العبيد، فان الشريعة المسيحية وفضائلها تولدت في تلك البيئة. وعصابة العبيد والضعفاء والمنحطين وجدت زعيمها في الكاهن، ومن هو الكائن؟ ينبغي للكاهن أن يكون (منحطاً) ليمكنه تفهم رغائب

شعبه المريض، وهو بعد هذا يجب أن يصون سلطته وزعامته لتتجه إليه ثقة المتألمين، ويكون حارسهم الأمين المسيطر عليهم، وإلههم الذي منه يخشون. وهي مهنة تستلزم منه أن يحرس الضعفاء من الأقوياء، ويعلن العداوة بينه وبين الأسياد. عداوة سلاحها سلاح الضعيف: مراوغة وكذب ورياء. فيحول بنفسه حيواناً مفترساً مروعاً كالحيوانات المفترسة التي يحاربها، ولا تقف مهنته عند هذا فحسب، فهو مضطر إلى أن يحرس الشعب من نفسه ومن النوازع السيئة التي تتمشى عادة في الشعوب المريضة، يقاتل بحكمة وقسوة كل ما يخيل إليه فيه فوضى أو تفسخ أو انحلال، يلمس هذه النوازع الملتهبة ويزيدها ضراماً دون أن يعود ضرر منها على القطيع وعلى راعي القطيع. قد تكون هذه المهنة نافعة من وجه، لأنها تهذب بعض الفاسد، وضارة من وجهه لأنها تقف عثرة في سبيل حركة التقدم الطبيعي

ألا نجد (المرفأ) المرفأ الأمين الذي تأوي إليه هذه السفن المشحونة بالمرضى والمتألمين، هو الموت. . . الموت الذي يسكن كل الآلام ويذهب بكل الأوجاع؟ وهؤلاء الذين أظلمت في نفوسهم قوة الحياة تبقى قوة الإرادة عندهم متيقظة تعارك الفناء وتناضل العدم، وهي التي شوهت معنى الحياة عندهم، أمست تمدهم بقواعد للحياة جديدة، وحيل تعمل على تسكين آلامهم، تخدعهم عن حقيقة ألمهم، فيحس الكاهن انتفاعاً بهذه الغريزة الطبيعية، فيسوقها ويديرها ويثيرها حتى يجعل منها آلة سلطته وزعامتها، فيصبح زعيم جماعة لا تحصى من المرضى والمنحطين. وما هو الثمن يا ترى؟

(يتبع)

خليل هنداوي

القصص

صور من هوميروس

حروب طروادة - 6

للأستاذ دريني خشبة

لم يبق إذن على الأسطول إلا أن يقلع إلى طروادة فيدمرها تدميراً! ولكن البحر هادئ، والرياح نائمة، ولابد لهذه السفن المثقلة بالعدة والعديد من قوة هائلة تدفعها في هذا الخضم الساخر!

الأيام تمضي دون أن تستيقظ الريح!

والملال يدب في قلوب الجند من طول ما لبثوا في تلك الجهة من شاطئ العابس المتجهم لا يريمون!

والميرة تكاد تنفذ!. . . . .

والخيل تعلك حديدها كأنها برمت بهذا الركود!

- (كالخاس!)
- (مولاي!)
- (أذهب يا رجل فاستوح لنا أربابك ماذا تنبغي لتطلق الرياح؟؟. . . . . .)
- (لبيك يا مولاي)

وانطلق عراف الحملة إلى المعبد القريب فمكث غير قليل، وعاد بقلبٍ موهون، وجسمٍ مضعضع، ووجه مغبر، وجبين كاسفٍ معقد

- (ما ورائك يا كالخاس؟!)
- (مولاي!. . . . . .)
- (تكلم! تكلم يا كالخاس!)
- (الآلهة! الآلهة عطشى يا مولاي!)

ولم يتمالك العراف الشيخ أن سقط على نفسه من الإعياء، ومما يخترم فؤاده من الهم! وأسقط في أيدي القادة. . . وعالجوا كالخاس بالماء، ودهنوه بالطيوب، حتى أفاق

وقال العراف مخاطباً أجاممنون:

- (مولاي؛ ابنتك يا مولاي!)
- (ابنتي؟! ابنتي من؟)
- (إفجينيا!. . .)

- (ماذا؟ افجينيا مالها؟)
- (لابد من تقديمها قرباناً! لابد من أن يطل دمها على مذبح الإله الأكبر!)
- (ولمه؟)
- (لكي تطلق الرياح من عقالها، ولكي تكون فدى للجيش كله، ولهيلاس جميعاً!!!)
- (يا للهول! لا كانت هذه الحرب!)
وما كاد يقولها حتى تكبكب القواد حوله، وطفقوا يترضونه: (من أجل الآلهة، وفي سبيل الوطن!)، والرجل يبكي وينشج، ويذهب نفسه شعاعاً!!
وأمرهم أن يتركوه وحده ليرى رأيه. . . .
فلما انصرفوا دعا إليه كالخاس، وأخذ معه في حوار طويل، ثم رجاه أن يذهب إلى المعبد فيضرع إلى الآلهة، عسى أن تقبل قرباناً آخر غير هذه الفتاة الحبيبة المنكودة، مهما غلت قيمة هذا القربان!
وعاد كالخاس، وأخبر أن الآلهة لا تبتغي بافجنيا بديلا!
وانهزم أجاممنون الأب، وانتصر أجاممنون المؤمن التقي الورع، الذي يقدس الآلهة، ويعرف لها قدرها، فأمر بقرطاس وقلم، وكتب إلى زوجه كليتمنسترا:
(بشراك يا حبيبتي!
أتعرفين أخيل؟
أخيل الذي أصبح ملء الأسماع والأفواه والقلوب! بطل هيلاس الذي وعدتنا الآلهة طروادة على يديه! الشاب الوسيم القسيم القوي الأبي الشجاع! يتقدم أخيل لخطبة إفجنيا - ابنتنا المحبوبة - ويود لو تزف إليه قبل أن يقلع الأسطول لتدمير طروادة! إنه لاشك سيرى في مرآة إفجنيا وطنه، وحينئذ يكون حرباً على الأعداء، ونقمة عليهم من السماء!
أرسليها أيتها العزيزة، وأحب إلى أن تسرعي بإرسالها من دون ما جلبة ولا عناد، فالوقت
ضيق ونحن على وشك الإبحار)
(أجاممنون)
وانطلق رقيق عجوز بالخطاب إلى آرجوس. . . حيث تثوى كليتمنسترا في قصرها المنيف (أتريدي) مع أبنتها أفجنيا، وأبنائها الآخرين!
وخفق قلب الفتاة حينما أخبرتها أمها أن أخيل يريد يدها. فقد كانت هيلاس كلها تتحدث باسم الفتى، وتصلي للآلهة التي وفقته للانضمام إلى الجيوش الغازية
خفق قلب إفجنيا. . . وكأنما غرقت في لجة من الأحلام التي تجيش عادةً في قلوب العذارى، حين يمر بهن هذا الطور الناعم الجميل من أطوار الحياة. . .
ولكن ما الذي أوحى إلى أجاممنون بهذا التدبير؟ ولم أختار هذه الحيلة المكشوفة لاستدعاء ابنته التاعسة؟ لا ندري!
لقد مرت أيام دون أن تحضر إفجنيا. ولم يكن الطريق طويلاً أو شاقاً بين أوليس وآرجوس حتى تتأخر كل هذه المدة. . . فهل حدث شيء؟. . .
وكأنما طول الانتظار قد أثار العاصفة من جديد في قلب أجاممنون الأب! فبدا له ألا يصدع لهذا الظلم الأولمبي، ولو صار بعدها زنديقاً ملحداً مطروداً من جنة الآلهة، مغضوباً عليه من قلب الوطن!!
قد كان!
فانه استدعي الرقيق العجوز، الذي كان يحمل دائماً بريد القائد العام إلى آرجوس، ودفع إليه برقعة أمر فيها ألا تحضر إفجنيا!! وأمره أن يسرع بها إلى زوجه، قبل أن تكون قد أخذت أهبتها للسفر!
وا أسفاه!
لقد لقي منالايوس - شقيق أجاممنون وزوج هيلين وملك إسبارطة؛ والذي من أجله شبت هذه الحرب - الرقيق العجوز حامل الرسالة، فاستوقفه وقرأها!
ودارت الدنيا بالملك المحزون، واحلولكت الحياة في عينيه وقصد من فوره إلى أخيه فانتهره، ونشبت بينهما معركة حامية من السباب والتعيير. يدفع أجاممنون عن ابنته، وفلذة كبده، ويفتديها بنفسه وبالدنيا وما فيها، ويعيره منالايوس بالمروق من الدين، وعصيان

الآلهة، وشق عصا الطاعة على السماء!
وإنهما لكذلك، إذا برسول بعلنهما أن كليتمنسترا، زوجة أجاممنون وابنتها إفجنيا، تستأذنان في المثول بين يدي الملك، ويدي القائد العام!!
يا لسخرية المقادير؟
يتفجر الحنان في قلب منالايوس المتحجر، ويرق لأخيه البائس الملتاع، فيقول له:
(أخي! أنقذها يا أخي! إنها ابنتي كما هي ابنتك، فأنقذها كما يحلو لك!!)
ويبهت أجاممنون لهول الموقف، ولا يدري ماذا يقدم أو يؤخر؛ ثم يراه واقفاً وحده يبكي. . . كما يبكي الأطفال. . . بعد إذ غادره أخوه
ويلمح زوجه مقبلة، فيصلح من شأنه، ويتكلف البشاشة والتبسم، وإنها لبشاشة باكية، وإنه لتبسم حزين!!
- (أهلاً أهلا إفجنيا!! مرحباً مرحبا كليتمنسترا! سفر حميد ورحلة طيبة!!)
- (أين أخيل، وماذا أعددتم للاحتفال بالعروسين؟)
- (أ. . . أ. . . أجل. ولكن لابد أن تعودي أنت إلى آرجوس!)
- (أعود إلى آرجوس! أعود واترك ابنتي!)
- (أجل! تعودين وتتركين إفجنيا!)
- (والعرس! وإعلان الخطبة على الأقل؟ ألا أحضر شيئاً من ذلك؟ هذا لا يكون! لن أعود حتى أشهد كل شيء!)
وتصر كليتمنسترا على بقائها حتى تحتفل بابنتها، وحتى ترى إلى هذا العسكر المجر والأساطيل المنتشرة في البحر كالدبى، تحي ابنتها وتحي أخيل، وترقص طرباً للعروسين!!
ثم يحدث ما ليس في حسبان أحد!!
يحضر أخيل ليقابل القائد العام، وليبدي له سخطه وسخط جنوده (الميرميدون) من طول هذا الانتظار الذي يبدو أن ليس له آخر. . . ويلح لديه في وجوب الإقلاع إلى طروادة مهما كلفهم الأمر!
وما تكاد كليتمنسترا تسمع كلام أخيل، وتسمعه يذكر فرقة الميرميدون المشهورة في جميع الآفاق ببسالتها وكلفها الخارق بالحروب، حتى تعرفه أنه أخيل. . . أخيل بعينه. . . خطب ابنتها. . . وزوج إفجنيا الحبيب!
فتتقدم إليه هاشةً محيية، حتى إذا أنس إليها، بدهته بالسؤال عن العرس!
- (عرس؟ عرس ماذا؟)
- (عرس ماذا؟ ألست أخيل! ألست قد تقدمت إلى أجاممنون، أمير آرجوس، تطلب أن تكون إفجنيا زوجة لك؟ ألم تطلب يد إفجنيا؟ تكلم!. . .)
ولكن أخيل يسمر مكانه باهتا، لا يدري ماذا يقول، لأنه لا يعرف مما قالت السيدة شيئاً!! وتحملق الملكة في أخيل طويلاً، ويتصبب العرق من جبين إفجنيا، الفتاة البريئة، لما ترى من حيرة أمها، وارتباك هذا الجندي الباسق الجميل، الذي كانت تحلم به زوجاً كريماً لها؟!
وكأن هذا الموقف لم يرض أحداً. . . حتى الرقيق العجوز، حامل بريد القائد العام؛ فقد انفجر هذا الخادم الأمين من شدة الحنق، فباح بكل شيء. . . . . .! باح بكل ما سمع من تحاور منالايوس الملك، وأجاممنون القائد الأعلى، بخصوص هذا الزواج المفترى:
(مولاتي الملكة! خذي حذرك لفتاتك المسكينة، إنها ستذبح! إن الكهنة الأشرار سيذبحونها اليوم ليسقوا أربابهم الظامئة من دمها الثمين! إن أخيل الكريم لم يتقدم ليطلب يد إفجنيا! بل هو لا يعرف من أمر ذلك قليلاً أو كثيراً! هاهو أمامك فاسأليه!. . .)
وكأن صواعق السماء جميعاً نزلت على قلوب القوم!
لقد تحطمت كليتمنسترا!
وذاب الثلج في عروق إفجنيا!
وزلزل أجاممنون!
أما أخيل! فقد شده، وحجبت ناظريه سحابة كثيفة من الذهول! ثم ما هو إلا أن أفيق فاضطربت به الأرض، وأحنقه أن يتخذ مطية لهذا العبث العابث، والسخرية المهينة!

وصاح الشاب كأنه أسد مهيج، وانقدح شرر الغضب من عينيه، حتى خيف أن يبطش بأجاممنون وجنوده،. . . كيما يثأر لاسمه، ويطهر كرامته. . .
وانتهزتها الملكة فرصة غالية لتنقذ ابنتها من القتل، فانبطحت عند قدمي أخيل تقبلهما، وتغسلهما بدموعها، متوسلة إليه أن يدفع عن إفجنيا، ويحول بينها وبين الموت!
(- فان لم يكن بحسبك أن أمرغ خدي تحت قدميك لتكون حامي ابنتي، فإنها هي أيضاً تفعل مثلي يا أخيل! إنها تمرغ حر جبينها عند موطئ هذه القدم الطاهرة لتكون حاميها وحارسها!!)
(- قفي يا سيدتي! وكلمي أباها في شأنها، فان لم يحل بينها وبين الموت، فإني سأقتتل من دونها حتى أنقذها من الهلاك، ولو حاربت هيلاس جميعاً!!)
وترجو الأم زوجها أن يحول بين ابنته وبين هذه القتلة الشنيعة؛ ويتصدع قلب أجاممنون، وتنهمر دموعه شفقة على الفتاة التعسة. . . فيعد! ولكن. . . لآت حين موعد!!
لقد نمى إلى العسكر أن أخيل أنذر أن سيقف دون الدم الذي أمرت الآلهة أن يراق فغيظوا وأحنقوا، وذهبوا إليه يتحسسون جلية الأمر، فصارحهم به، فانقضوا عليه يرشقونه بألسنتهم الحداد، ويرجمونه بحجارة الشاطئ. . . فولى مدبرا!!
وريعت الأم حين رأت إلى الميرميدون - جنود أخيل الأمناء - يرجمون سيدهم فيمن يرجمه من الجنود الآخرين، فعولت على أن تحمل السلاح وتقف إلى جانبه، تذود هؤلاء الوحوش!!
ولكن إفجنيا الصغيرة! إفجنيا الفتاة! إفجنيا العظيمة! وقفت في وجه أمها، وصرخت قائلة:
(مكانك يا أماه! لن يموت أخيل من أجل فتاة!)
من أنا حتى يفتديني هذا البطل العظيم؟ وما حياتي التافهة في حياته المذخورة الغالية؟. . . إن رجلاً يحارب من أجل هيلاس، أجدر بالحياة من عشرة آلاف امرأة لا يستطعن إلى حرب من سبيل؟
أيها الجنود!
خلوا سبيل سيدكم، فلن تفتح طروادة إلا عليه، كما أخبرت بذلك آلهتكم! ومادام النصر معلقاً بحياتي، فكم يبهجني أن أفتدى الوطن، وأرضى أربابي!! أن هيلاس كلها تنظر إلي اليوم! فهل فخر أكثر من أن أكون عند حسن ظنها بي!! أنا لها! أنا أفديك يا وطني! أماه! لا تحزني! انظري إلي! هأنا أبتسم للموت. . . . للقتل. . . . للذبح. . . . (. .!هلموا يا سادة. . . . هلموا. . . أين المذبح. . . صلوا من أجلي. . . تحيى هيلاس
وفي هذه اللحظة فقط، تكبر إفجنيا في عيني أخيل، فيتمنى لو أجلت في حياتها لتكون زوجة كريمة له. . . ويعرض استعداده للمنافحة عنها بسيفه، ولكنها تنهاه، وتوصيه أن يعيش لوطنه، ويذب عن بيضته، ويعلي كلمته. . .
وتنسكب دموع أخيل. . .
ويسير الجميع وراء إفجنيا العظيمة. . . إلى. . . المذبح!!
فيا للفتاة. . .
ويا للأم. . .
ويا لأخيل البطل!
وتضع إفجنيا رأسها على رخامة المذبح، ويرهف الكاهن مديته. . . ولكن؟. . . لقد شده القوم. . .! ونظر بعضهم إلى بعض. . .!
انهم ينظرون فلا يرون إفجنيا!!
بل يرون مكانها ظبياً. . . رشاً غريراً!!
إذن هي المعجزة!!
لقد تفطر قلب ديانا الكريمة من أجل الفتاة، فهبطت من ذرى الأولمب لتنقذها. . . فرفعتها إلى السماء. . . ثم أرسلتها لتكون راهبة معبدها العظيم في مملكة توريس!!
وارتفعت أغاني الغواني. . .
يسبحن للآلهة العطشى!!
(لها بقية)
دريني خشبة

أقصوصة عراقية
نكتة العمامة
للأستاذ محمود. أ. السيد

على الشرفة الغربية الكبرى، في فندق دجلة الكبير، المشرف على الصالحية وجسرها، في ذات ليلة قمراء من ليالي صيف عام 1935، كنا جماعة صغيرة من أخوان الصفاء، فيها طبيب وكيميائي وصحافي وأديب؛ نحف بسيدة فاضلة، وافدة من بلاد المجر للسياحة ودراسة تقاليد العرب، وأطوار سكان البادية، وأحوال العامة، والأدب الشعبي غير المكتوب في العراق نكرمها مكبرين همتها القعساء التي جشمتها عناء السفر إلى بلادنا، في هذا الفصل الذي يشتد حره؛ فهرب منه كثير من أهلها المترفين إلى مصائف لبنان وغير لبنان، فراحت تتنقل بين القبائل أياماً وأسابيع، ثم تعود إلى هذا القصر الذي أعده أصحابه نزلاً للتجار والسياح والسياسيين والعلماء الأجانب من الأوربيين وأمريكيين وغيرهم، لتدون مذكراتها العلمية، وتسجل ما تقف عليه من قصص وأساطير، وما يحكي لها الرواة من حكايات وروايات تستعين بها على أداء مهمتها العلمية، ولتستريح يوماً أو أياماً قليلة ثم تعود إلى زيارة القبائل والتنقل في القرى والمدن باحثة مدونة ثم تعود . . .

ومع أنها كانت تبدو للرائي في أقل من الأربعين من العمر، فقد كان يعلوها جلال الشيوخ. وهي تنتمي إلى (عصبة علمية) تضم رجالاً أفذاذاً من الباحثين وعلماء المشرقيات. طويلة القامة، مغولية الملامح، لأنها من سلالة الهون. عالمة بخمس لغات ومنها التركية الحديثة التي تعلمتها في أستانبول. وقد عرفناها في ذلك الفندق مصادفة. وكنا نؤمه كل ليلة - في الشتاء والصيف - لنزجي فيه بعض أوقات فراغنا بالحديث والمسامرة، واستطلاع طلع (الغربيين) الكثيرين الذين نراهم فيه، فنتقرب إليهم متشوفين، متبينين نواياهم ونوايا حكوماتهم في بلادنا، منافحين عنها، ذاكرين لهم ما يخفى عليهم من محاسنها، وما في طبيعة قطينها وقطين الشرق كله، وقرارات نفوسهم من سمو في الخلق والعاطفة وقرب إلى الإنسانية والحق والخير، ناعين على الغرب ماديته وحضارته الرأسمالية الاستعمارية. وكثيراً ما كنا نجادلهم عن إيمان بحقنا وبحق الشعوب المظلومة في الحياة، فننتصر عليهم أحياناً بقوة الحجة، وينتصرون علينا أحياناً بالعناد والمغالطة والمكابرة وما إليها مما يتسلح الغربي به في مناضلة الشرقي اليوم

وكان اسم هذه السيدة المجرية ماجدا

قالت ماجدا تخاطبنا في شيء من الاستغراب: - (إليكم حادثة من حوادث قطركم هذا ما كان أغربها عندي إذ تلوتها مجملة في هذه الجريدة الإنكليزية التي تصدر عن عاصمتكم دار السلام بل التي كانت يوماً ما دار السلام)

وأخرجت جريدة (التيمس) البغدادية من حقيبتها فألقتها على المائدة التي كانت في وسط مجلسنا مغطاة بأقداح الشاي وعدته. ثم ابتسمت ابتسمنا مدركين المعنى المقصود بقولها عن بغدادنا (التي كانت دار السلام) لأنها أصبحت دار الحرب منذ سنة 1917: الحرب النارية الدامية أولاً، والحرب السياسية ثانياً، وقالت:

- (هل يصدق أحد منا نحن معشر الأوربيين لو سمع هذا الخبر في بلده، إذا كان يجهل حقيقة الحياة الاجتماعية في بلادكم: أن صبياً في الحادية عشرة من العمر وأخاً له أصغر منه يقتلان أختاً لهما لأنها انحرفت عن صراط العفاف. هذا ما تقوله هذه الصحيفة - اليوم - عن صبيين من حي (باب الشيخ). فواعجبا! حتى الصبيان تجعل منهم النخوة البدوية والغيرة قساة ذابحين؟)

قلت وقد بدا لي أن أهون عليها ما سمعت:

- (لقد نقلت هذا الخبر جريدة أخرى وقالت عن الصبين القاتلين إنهما يحترفان نحر الجزور لدى جزار. وربما كان احترافهما هذه الحرفة التي ألفا فيها رؤية الدماء والضحايا من الخراف وغيرها صباح مساء ذا أثر عميق في نفسيهما، فهان عليهما ما فعلا. وأرجو ألا ترى سيدتي الفاضلة في ذلك دليلاً على وجود ميل طبيعي في مواطنينا إلى التوحش وقتل الإنسان. . . وأردت أن أعلل الدوافع التي دفعت الصبيين إلى إتيان هذا الأمر، فلم تدع لي مجالاً للكلام، بل قالت، وقد مضت ترتشف الشاي وتبدي إعجاباً خارجاً عن موضوعنا بالقمر الزاهر المضيء فوق دجلة، في سماء معروفة بجمالها لدى

كل غربي ساح في البلاد العربية وبلغ بغداد:
- (كلا لم يخطر ببالي أن أتهم العرب العراقيين بالميل إلى التوحش وقتل الإنسان لعين الأسباب التي تدفع غيرهم من أبناء البلاد المتأخرة إلى القتل وإزهاق الأرواح ظلماً وعدواناً. ولكنني استغربت أن تقع في مثل هذه الآونة مثل هذه الحادثة التي تدل على روح قديم وعادات، كنا نقرأ في الكتب الباحثة في أحوال العرب وعاداتهم وأخلاقهم وتاريخهم أنها كانت، وحسبنا أنها زالت من جراء الاحتكاك والاتصال بالغرب، بعد دخول البريطانيين هذه الأقطار، منذ أكثر من ثمانية عشر عاماً، الاتصال الذي له حكمه في تغيير العادات والأخلاق)
قال طبيب من أصحابنا باريسي التحصيل لاتيني الثقافة:
- (لاشك في أنه كان لدخول الإنكليز بلادنا واتصال الغربيين بنا واتصالنا بهم اتصالاً لم يكن من قبل، تأثير في تغيير بعض العادات والأخلاق في المدن الكبرى ولا سيما العاصمة؛ ولكننا لو نظرنا ملياً في التغيير الذي حدث لوجدناه منحصراً لدى الطبقة العليا، وبعض أبناء الطبقات الأخرى، في الأسر التي تعددت فيها الدماء واختلف ميراث السلالات المختلفة المتواشجة بالتزاوج. فكانت النتيجة حدوث انحلال أخلاقي في أفرادها، لا نرى له مثيلاً في أبناء القبائل والأرياف والبوادي والعامة في المدن - الذين هم في الأصل القديم من أبناء القبائل - والذين ينتسب إليهم هذان الصبيان. ألا تؤيدونني في هذا الرأي يا رفاقي؟)
سكت بعضنا، وقال بعضنا:
- (بلى)
وقال أحدنا وهو الصحافي:
- (أن أكثر عاداتنا تقاليدنا - وقولي تقاليدنا أصح من قول السيدة الفاضلة والأخ الطبيب - أخلاقنا - لم يتغير بعد. وأعني بتلك العادات والتقاليد ما كان متأصلاً في روح الشعب ممتزجاً بدمائه منذ قرون وأزمان. فالعراقي العربي الخالص في الزمن القديم الذي كان يقتل زوجه أو أية امرأة من آل بيته وذوي قرباه إذا ما حادت عن طريق العفاف واستزلها شيطان من الإنس وعبث بها فأثمت معه، هو هذا العراقي العربي - سواء أكان خالصاً في عروبته أم لم يكن وهو يدعيها - الذي يعيش في القرن العشرين، والذي يمثله خير تمثيل بطلا الحادثة التي أتاحت لنا الفرصة لهذا الحوار، إلا ما شذ من الناس. وهؤلاء الشاذون ممقوتون مكروهون يلبسون ثياب الخزي والعار أنى حلوا وأقاموا. وقد يوجد فارق بين رجل الأمس الذي كان يقدم على القتل وسفك الدم في بيته لدرء العار عنه، على الشبهة والظن، ورجل اليوم الذي يتبين ويتريث حتى يأتيه اليقين بما يصح أن يدعوه إلى ما لابد له منه لكي يجري حكم التقاليد، ويحيا في قومه عزيزاً شريفاً لا يطأطأ رأسه العار ولا يذله، ولكن هذا الفارق طفيف)
قالت وقد لذها الحديث وزادها الولع بتدوين الحكايات والروايات عن تقاليدنا وعاداتنا شوقاً إلى استماع شيء جديد مما يدخل فيما خضنا فيه:
- (ألا تحدثوني بحادثة من حوادث العهد السابق لعهدكم الحديث، أسجلها إلى جانب هذه الحادثة التي سوف أستقصيها وأدونها بتفاصيلها، فإنها تغني عن كثير مما يصح أن يروى عن قوة التقاليد - على ما يسميها السيد الصحافي - وشرف العامة وغيرتهم وحرصهم على المرأة من أن تمتد إليها يد الغريب بما يشينها ويدنسها؟)
قلت:
- (أي عهد تعنين؟)
- (العهد الذي ختمته نهاية القرن التاسع عشر؛ إذ أننا نعتبر تلك النهاية آخر خيط من الليل السابق لعهد اليقظة في بلادكم، وبداية الاتصال بالعالم المتمدن)
قلت:
- (سأقص عليك قصة البطل الغيور عبد الحميد، وهي قصة لحادثة واقعة في النصف أو الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، مما حكى لنا مشايخنا من حوادث بلدنا هذا،
قالوا:
نكتة سوداء من سخام القدر كانت في عمامته ذات يوم، لم يفطن إليها، وقد جاء

القهوة كما كان يجيئها كل يوم، مرفوعاً رأسه على الرؤوس، مفعمة نفسه بخيلاء
الفحولة وكبرياء البطولة، البطولة التي اعتلى عرشها المكين في البلد بحق، فهابه
الناس على اختلاف طبقاتهم، وتناول الرواة في الأحياء أخباره في كثير من الواقع
الخطيرة التي صادف والأحداث التي شهد
وكان الشطب - وهو آلة التدخين عند القوم في ذلك الزمن - المفضض الطويل في
يسراه يدخن به مفكراً صامتاً ساهما، والدخان ينبعث من بين شدقيه كثيفاً
لقد قال له صاحبه أحمد العلوي، وقد لقيه في الطريق قادما من بيته قبيل ساعة: (إن
وسخا
أو سخاماً على رأسه)، وانصرف لطيته. . . . وكان الناظر إلى وجهه يرى الشر عليه
بادياً في وضوح
وما عتم أن قام إلى بيته متثاقل الخطى، قابضاً بيده اليمنى على خنجره، رسول
الموت الذي طالما أزهق الأرواح
. . .وعاد بعد قليل، فاقتعد مكانه الأول من القهوة، وجعل يدخن، كما كان
ومر به صاحبه، وكانت القهوة حافلة بالكهول والشيوخ ذوي النظرات القاسية والعمائم
الكبيرة، فنظر إليه قليلاً، ثم أقبل عليه، فجلس إلى جانبه، ومال إليه برأسه يكلمه
همساً:
(أن في عمامتك لنكتة سوداء نبهتك إليها فلم تزلها بعد)
كان الجواب نظرة تطاير منها الشرر، ولكن أحمد لم يفقه لها معنى
وكان سكوت، ثم قام الرجل تاركاً صاحبه جالساً في مكانه، دهشاً، ومشى إلى بيته
متثاقل الخطى، قابضاً بيمينه على خنجره ذلك الذي طالما أزهق الأرواح
وعاد بعد قليل فاقتعد مكانه الأول من القهوة، بجانب صاحبه، ثم جعل يدخن كما
كان. . .
قال له أحمد:
- (غريب هذا الذي أرى منك أيها الأخ! هل أنت آت من بيتك؟ كيف غفلت كذلك عن
إزالة النكتة من السخام التي في عمامتك؟)
وهنا أنفجر الرجل من شدة الغيظ، وقام على قدميه مرتجفاً، وقد دارت به الأرض
الفضاء:
- (ويلك لم تبقى إلا أمي العجوز!)
تلك هي القصة التي قصها علينا المشايخ فيما قصوا وحفظوا من حكايات بغداد في
زمن قديم خلا
لقد نحر عبد الحميد زوجه وأخته بيده، واحدة تلو أخرى، كما ينحر الجزار الخراف
والبقر، ليزيل السخام من عمامته. فعمامته هي التاج، تاج الشرف والعرض والكرامة
فوق هامته في هذه الحياة، وشرفه وعرضه وكرامته شرف أسرته وعرضها وكرامتها،
وكل أولئك من شرف قبيلته وحيه وعرضهما وكرامتهما، فان وسخ العار ذلك التاج
ودنسه فلا يطهره منه إلا الدم والموت. ولم يلم الرجل على ما فعل أحد، لأنه فهم ما
قال له صاحبه على غير حقيقته، بل لاموا صاحبه الذي لم يستطع إيضاح ما قصد
بعبارته التي توهم سامعها
الإشارة والرمز إلى العاب والعار. فعبد الحميد كان يمثل العربي العراقي ابن الشعب
والقبائل بالأمس، وإن كان يسكن داراً في بلد لا خيمة في بادية؛ وهذان الصبيان
يمثلانه اليوم أتم تمثيل. فهما وذاك في الحقيقة واحد في ثلاثة، وإن تباعد بينهما وبينه
زمانهما وزمانه)
قالت وكأنها استدرجتني إلى استعلام رأي لي فيما كنا نتحدث فيه:
- (وما رأيك أنت في هذا العقاب الذي كانت تعاقب به المرأة عندكم إذا ما زلت بها
القدم، وما زالت تعاقب به؟)
- (لا يسمي الناس قتل المرأة عندنا إذا أثمت عقاباً، بل يسمونه - بحكم العادات
والتقاليد الموروثة - محوا للعار وتطهيراً للعرض من الدنس. وإذا كنا نعتقد أن حياة
الشعب المادية هي التي تملي عليه منهاج أخلاقه وتقرر له عاداته وتقاليده.)
- (. . .بلى. أعتقد ذلك)
- (فان الحياة المادية لشعبنا الفقير المسكين لم تتغير بعد تغيراً جوهرياً بالاتصال . . .)

بالغرب لكي تتغير تلك العادات والتقاليد لديه، بل تغيرت الحياة المادية في القصور، ولدى بعض المتفرنجين من الموظفين، وقولي هذا تعليل متمم لما كان قاله أخونا الطبيب. . .)
(العراق، الأعظمية)
محمود. أ. السيد
البريد الأدبي
جوابي لأخي محمد سيكون قصيراً كما تراه
إنني في كتاباتي عن الشيخ جمال القاسمي رحمه الله لم أدخل في علم الحديث دخول من تصدى لترجيح أو تجريح وخاض في الحديث خوض من يعلمه، بل بقيت واقفاً على الشاطئ، على حين أخي محمداً الكرد علي دخل في الموضوع وحكم فيه حكمه، وهو مع ذلك يقول إنني أنا وإياه لسنا من هذا العلم في وردٍ ولا صدر. فإذا كان الأمر كذلك فما كان أحراه بأن يترك انتقاد كتاب مؤلف في الحديث الشريف، وقد أطنب في وصفه مثل الأستاذ الأكبر السيد رشيد رضا رحمه الله الذي إذا تكلم في هذا الفن يقال: القول ما قالت حذام
أنا كان أكثر كلامي في محاسن الأستاذ الكبير الشيخ جمال القاسمي تغمده الله برحمته؛ فان كنت لست من علماء الحديث فأني لست جاهلاً معرفة الرجال، ولا مسلوباً مزية التمييز بينهم، ولولا حسن فراستي ما كان الأستاذ كرد على عظيماً في عيني، وقد اخترته لأخائي منذ اثنتين وربعين سنة
أما السجع وما أدراك ما السجع، فالكلام العربي ينقسم إلى مرسل ومسجع، وموزون ومقفى، ولكل نوع من هذه الأنواع الثلاثة مقام يحسن فيه أكثر من غيره، والمرسل هو الكلام المعتاد الطبيعي الذي به أكثر تفاهم الناطقين بالضاد. والموزون المقفى هو الشهر الذي لا رونق للغات بدونه. والسجع وسط بين المرسل والموزون، وله وقع في النفوس لا جدال فيه، ويكفيه من الشرف أن كتاب الله تعالى قد نزل بهذه الطريقة، وأن نهج البلاغة وكثيراً من كلام أفصح العرب هو من النوع المسجع. ولا يقال في بديع الزمان والخوارزمي والصاحب والصابي والقاضي الفاضل وأمثالهم إنهم لم يحسنوا القول. فان كانت اللغات الأوربية ليس فيها سجع إلا ما ندر، فليس هذا بحجة على اللغة العربية، فلكل لغة خواص تمتاز هي بها، وقد خلق الله الناس أذواقاً مختلفة، وجعل لكل أناس مشربهم، والعرب غير العجم، والشرق غير الغرب
جنيف 10 جمادى الآخرة
شكيب أرسلان
إلى الأديب الزحلاوي
اطلعت على كلمتكم المنشورة بعدد (الرسالة) الأخير الخاصة بقصيدتي المنشورة في (مجلتي) ولما كنت لم يسبق لي التشرف بقراءة شيء، ولم أسمع مطلقاً قبل اليوم عن شاعركم الدمشقي عفلق أفندي؛ فإني أرجوكم أن تتكرموا بنشر قصيدتي وقصيدته معاً. وأعتقد أن الأستاذ صاحب (الرسالة) لا يمانع في ذلك مادام قد سمح لك أن توجه ما كتبت إلي
والفت نظر زحلاوي أفندي إلى أن المقطعين الذين انتخبهما لي ولعفلق أفندي ليس فيهما ذرة من التشابه، فما الشبه، بين (أعولي يا جراح) و (اعصفي يا رياح)، وما الشبه بين (أسمعي الديان) وبين (اهزئي بالسماء)!! إن هذا لفهم عجيب
ختاماً لك وللأستاذ صاحب الرسالة تحياتي.
الدكتور إبراهيم ناجي
حول مستعرب عظيم
اطلعت في العدد الخامس عشر بعد المائة من (الرسالة) الغراء على مقالة الأستاذ المؤرخ محمد كرد بك التي يترجم فيها للأستاذ المستشرق الدكتور ف. كرنكو، ويثني على خدماته لأدب العرب
وقد رأيت من الواجب أن أستدرك على الأستاذ كرد علي بك بعض ما أعرفه عن هذا المستشرق المخلص. فقد كان أستاذاً للآداب الإسلامية في جامعة في ألمانيا، وكان مما يدرسه هنالك (كتاب علوم الحديث لابن الصلاح)، كما هو من أعضاء بعض المجامع العلمية

ومن عظيم خدماته تحقيقه لمعجم الشعراء للمرزباني الذي طبع في القاهرة في هذا العام؛ وفي مقدمته (المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء وألقابهم وأنسابهم، ومختار أشعارهم للآمدى)

ومما صححه كتاب (من يسمى عمراً من الشعراء)، وهي رسالة بعث بها محمد بن داود بن الجراح إلى أبي أحمد يحيى بن علي ابن يحيى بن أبي المنصور المنجم. ترجم فيها لما يزيد على مائتي شاعر ممن يسمى عمراً

وصحح أيضاً التاريخ الكبير للبخاري، وهو تحت الطبع في الهند. . . إلى غير ذلك مما يستحق عليه شكر العلماء والأدباء من أهل الشرق والغرب

محمد شفيق

النونة

تابع الأستاذ (دريني خشبة) في مقالة في (الرسالة) (العدد 113) بعض الكتاب في إطلاق لفظ (النّونة) على الخط الذي يلي الأنف في الخد البارز المستدير، وسأل الرسالة رأيها في صحة هذا الإطلاق

والمعروف أن (النونة) هي النقرة في ذقن الصبي، كما جاء في اللسان والقاموس والتاج والنهاية وغيرها، وفي حديث عثمان أنه رأى صبياً مليحاً فقال: (دسموا نونته كي لا تصيبها العين) أي سودوها. وقال الأزهري: هي الخنعبة والثومة والهزمة والوهدة والقلدة والهرتمة والعرتمة والحثرمة

على أن الخنعبة والثومة ليست النقرة في الذقن كما قال الأزهري، ولكنها مشق ما بين الشاربين، أي إنما هي هذه الوهدة التي تمتد من وترة الأنف إلى منتصف الشفة العليا

والهزمة كل نقرة في الجسد، وتخص بالنقرة التي في أعلى الصدر مما تحت العنق والهرتمة والحثرمة والعرتمة: الدائرة التي في أعلى الشفة العليا، وليس في ذلك ما يصح إطلاقه على الخط الذي يلي الأنف، وإنما ذلك الخط هو القسمة، والله أعلم.

علي الطنطاوي

سيرة تيمورلنك

سألني أحد أدباء الخرطوم عن كتاب عربي يقرأ فيه سيرة الفاتح التتري الكبير تيمورلنك، فأجيبه على صفحات الرسالة بأن أنفس مصدر في هذا الموضوع هو كتاب (عجائب المقدور في أخبار تيمور) لشهاب الدين المعروف بابن عربشاه الدمشقي؛ وهو قطعة فذة من الأدب التاريخي والبيان الرائع؛ وقد كتبه مؤلفه بعد وفاة تيمور بنحو جيل فقط، واستقصى أخباره من مصادرها ومواطنها، وشهد غزوه لدمشق صغيراً، وقد طبع هذا الكتاب مراراً بمصر وأوربا وترجم إلى اللاتينية منذ القرن السابع عشر ويستطيع الأديب الفاضل أن يقرأ طرفاً من أخبار تيمور أيضاً في تاريخ مصر لابن اياس (ج1 ص326 وما بعدها) وفي النجوم الزاهرة في حوادث سنة 801 و802 و803 و 804هـ؛ وفي السلوك في دول الملوك للمقريزي (مخطوط) في الأجزاء الأخيرة؛ وبالإنكليزية في كتاب جيبون (الفصل الخامس والستون)، ويستطيع أن يقرأ عن ابن عربشاه مؤرخ تيمور وعن بعض المصادر المتعلقة به في كتابي (مصر الإسلامية) (الفصل الخامس من الكتاب الثاني)؛ وفي كتابي أبن خلدون (ص80 - 86)

م. ع. ع

كتاب عين النقد المصري

لفت نظرنا فصل نشرته جريدة (تسيرشر تسيتونج) السويسرية الألمانية في صحيفتها التجارية في عددها الصادر في 5 سبتمبر عن كتاب اقتصادي ألفه أحد مواطنيها المصريين بالإنكليزية، ونشرته إحدى شركات النشر في لندن، وعنوان الكتاب هو: (النظام النقدي في مصر) ومؤلفه هو الأستاذ محمد علي رفعت. وفي هذا الفصل عرض دقيق ممتع لما احتواه الكتاب، فهو يتضمن تاريخ النقد المصري من سنة 1834، أي منذ عهد الإصلاح أيام محمد علي إلى سنة 1885، أي إلى بدء الاحتلال الإنكليزي، ثم إلى سنة 1914؛ وشرحاً وافياً لنظام النقد في مصر؛ ويخصص المؤلف فراغاً كبيراً للتحدث عن المؤسسة المصرية الاقتصادية الكبرى أعني بنك مصر، ونموه السريع المدهش، ونشاطه المشعب الذي يحمل على الإعجاب، وشركاته العديدة التي شغلت أعظم ركن في النهضة الاقتصادية، وأثره القوي في تطور الاقتصادي المصري، ويعتبر

المؤلف إنشاء بنك مصر، بحق فاتحة النهضة الاقتصادية المصرية وعمادها الحصين. ويحدثنا أيضاً عن أحوال البنوك في مصر بصفة عامة، وعما للمال الأجنبي من أثر كبير في شؤوننا الاقتصادية وغير ذلك مما يتعلق بموضوع مؤلفه

هذا هو ملخص الفصل الذي قرأناه في جريدة (تسيرشر تسيتونج)، ولم نحط برؤية كتاب الأستاذ رفعت، ولكنا اغتبطنا أن تهتم جريدة سويسرية نائية بنقد كتاب لمواطن فاضل. والذي يدعو إلى الأسف في ذلك هو أنه بينما نجد مثل هذا الاهتمام من جانب الصحافة

الأجنبية بالجهود العلمية أيا كان مصدرها، إذا بنا نجد الصحافة المصرية على النقيض من ذلك لا تكاد تهتم باستعراض أي مجهود علمي محلي، ولولا أنها نلزم هذا الركود النقدي المؤلم، لكنا قرأنا عن كتاب الأستاذ رفعت وكتب غيره من مواطنينا الفضلاء، فصولا وفصولا قبل أن نقرأ عنه في الجريدة السويسرية. فمتى تعنى صحافتنا بهذا الجانب المنسي من مهمتها؟ ومتى تعنى بالنقد العلمي الصحيح، وتحله منها المكان اللائق؟

شعر الزهاوي يترجم إلى الألمانية

ترجم الأستاذ الدكتور ودمر أستاذ فلسفة في جامعة برن إلى اللغة الألمانية شعراً ملحمة الأستاذ الزهاوي التي عنوانها: (ثورة في الجحيم) مع خمسين قصيدة وثلاث وخمسين رباعية، ونشر كل ذلك في كتاب جعل عنوانه: (جميل صدقي الزهاوي) وقد صدر الجزء الأول منه

الابتذال الرفيع

اشتهر الأمريكيون بالشذوذ في كثير من الأمور؛ ولكن لم يكن من المتصور أن يطغى هذا الشذوذ حتى على الاعتبارات والتقاليد العلمية التي ترتفع في كل البلاد المتمدينة عن كل ابتذال. فقد قرأنا في بعض الأنباء الأخيرة أن الأمريكيين ينتظرون عودة الممثلة السينمائية الشهيرة جريتا جاربو إلى أمريكا بفارغ الصبر، وأنهم اعتزموا أن يظهروا إعجابهم بها وبمواهبها بطريقة جديدة لم تكن تخطر على البال. وذلك أن (جامعة جنوب كاليفورنيا) قد أصدرت قراراً خلاصته أن تدعى جريتا جاربو من هوليود إلى حفلة استقبال تقيمها الجامعة وتمنح فيها الممثلة الشهيرة إجازة (الدكتوراه الفخرية) تقديراً لمواهبها الفنية، وينتظر أن يكون هذا الاحتفال الأول من نوعه فريداً في فخامته وطرافته، وفيه تلقي جريتا محاضرة في موضوع فني. ويقال فوق ذلك إن الممثل الهزلي الشهير شارلي تشابلن، سيدعى إلى الجامعة لنفس الغرض وسيمنح إجازة فخرية لنفس الاعتبارات، تقول، وهكذا يبتذل كل شيء في أمريكا، حتى التقاليد العلمية التي تتخذ في كثير من الأمم والجامعات العريقة لوناً من القدسية؛ ولكن أمريكا ليست بلداً عريقاً في المدنية ولا التقاليد، والعلم فيها بضاعة مزجاة، والإجازات الجامعية فيها لا اعتبار لها، وهي تنثر على الطالبين بأيسر أمر

ذكرى لوبي دي فيجا

احتفلت أسبانيا احتفالاً قومياً شائقاً بذكرى شاعرها الأكبر لوبي دي فيجا لمناسبة مرور ثلاثمائة عام على وفاته. وقد سبق أن ترجمنا الشاعر الأشهر في هذا المكان من الرسالة، وقدمنا خلاصة نقدية عن حياته وخواصه الشعرية والأدبية. والآن نقول إن العاصمة الأسبانية قد احتفلت بذكرى الشاعر أعظم احتفال؛ وخصصت الأيام الأخيرة من أغسطس لإقامة الحفلات والمآدب الشائقة. وكان من أظهر خواص هذه الاحتفالات المسارح العديدة التي أقيمت في العراء لتمثيل روايات لوبي دي فيجا؛ وقد أراد الشعب الأسباني بذلك أن يحي أيام الشاعر وصور عصره، وسار الممثلون إلى هذه المسارح الريفية، في عربات النقل كما كان يحدث أيام الشاعر. وقد كان التأليف للمسرح أحد كفايات لوبي دي فيجا؛ فقد كان شاعراً وجندياً وقساً، وباحثاً، وقد كان أيضاً شريداً وخليعاً وصعلوكاً؛ وقد خدم في حملة (الارمادا) الشهيرة التي جردت على إنكلترا، وقضى معظم وقته على ظهر السفينة يقرض الشعر. وقد هذب المسرح الأسباني ووهبه أثمن تراث وأجله

غرفة الكتب

من الأنظمة الغريبة التي أنشأت في روسيا السوفيتية إدارة تسمى (غرفة الكتاب المركزية) فلا يصدر في روسيا السوفيتية وجميع الجمهوريات الملحقة بها كتاب أو

مجلة أو جريدة لا تسجل في هذه الإدارة، وقد أصدرت الحكومة قانوناً يحتم على الناشر أن يقدم إليها خمسين نسخة من الكتاب أو الصحيفة التي ينشرها، وتستخدم الغرفة المركزية من هذا العدد خمس نسخ لأجراء المبادلة الدولية في الكتب التي تصدر في الدول الأخرى ثم تدرس كل كتاب أو صحيفة من الوجهة الفهرسية، وتصدر عن ذلك مجموعات دورية مصنفة حسب أنواع الفنون والعلوم، وقد بلغت فهارس هذه الغرفة حتى اليوم نحو ستين ألف مجلد، وفي وسع المعاهد العلمية والمكاتب العامة وكذلك الأفراد أن ينتفعوا بمحتوياتها النفيسة

الذكرى المئوية لوزارة المعارف

تألفت لجنة برياسة صاحب السعادة وزير المعارف العمومية وعضوية كل من وكيل الوزارة، ومدير الجامعة المصرية، ومرقص سميكة باشا، وأمين سامي باشا، ومحمد أسعد براده بك، ومحمد خالد حسنين بك، وإبراهيم درويش بك، ومحمد نصار بك، والأستاذ الخليل مطران لتحضير ما يلزم للاحتفال بالذكرى المئوية لإنشاء ديوان المعارف التي تقع في غضون شهر فبراير سنة 1937 ووضع كتاب ذهبي تستعرض فيه سياسة التعليم ونظمه المختلفة في مصر منذ العصور الأولى

النشيد القومي الرسمي

أصدر حضرة صاحب السعادة الأستاذ أحمد نجيب الهلالي بك وزير المعارف القرار التالي:

نظراً لما للأناشيد القومية من الأثر القوي في إظهار جلال الأمة، والتنويه بعظمتها، وإيقاظ شعور الشعب حين يتناشدها، والحاجة إلى نشيد من هذا النوع يلقى في المناسبات القومية والدولية، أسوة بالدول المتحضرة

وبما أنه لا يوجد لمصر في الوقت الحاضر نشيد قومي معترف به رسمياً مما يتعين معه المبادرة لسد هذا النقص بتشكيل هيئة يعهد إليها وضع شروط مباراة عامة لاختيار نشيد يحقق أغراض الأناشيد القومية أصدرنا القرار الآتي:

المادة الأولى - تشكل لجنة من:

حضرة صاحب العزة أحمد لطفي السيد بك مدير الجامعة المصرية رئيساً

حضرات: الأستاذ خليل مطران، الأستاذ علي الجارم المفتش بالوزارة، الدكتور محمود أحمد الحفني مفتش الموسيقى بالوزارة، عبد الله سلامة أفندي مفتش التربية البدنية بالوزارة، أعضاء

المادة الثانية - تكون مهمة اللجنة وضع شروط مباراة عامة بين الشعراء والموسيقيين لنظم وتلحين نشيد قومي يكون صالحاً للاعتراف به رسمياً

المادة الثالثة - تعين جوائز مالية تمنح على الوجه الآتي:

(أ) 50 جنيهاً مصرياً يمنحها الفائز الأول في نظم النشيد الذي يعترف به رسمياً

(ب) 30 جنيهاً مصرياً يمنحها الفائز الثاني

(جـ) 20 جنيهاً مصرياً يمنحها الفائز الثالث

(د) 50 جنيهاً مصرياً يمنحها الفائز الأول في تلحين النشيد الذي يعترف به رسمياً

(هـ) 30 جنيهاً مصرياً يمنحها الفائز الثاني

(و) 20 جنيهاً مصرياً يمنحها الفائز الثالث

المادة الرابعة - على وكيل الوزارة تنفيذ هذا القرار

الكتب

الجبل الملهم

لناظمه الشاعر اللبناني (شارل القرم)

للأستاذ خليل هنداوي

ألفت ألا أكتب عن كتاب إلا بعد ركود الضجة التي تقوم حوله، سواء عندي أكانت ضجة استحسان أم ضجة استهجان، ثقة مني بأن النسمة الهادئة تكن ما لا تكن الريح العاتية.

والآن وقد هدأت الضجة حول ديوان الجبل الملهم، وقر ضمير صاحبه بعد أن أحرز على جائزة (ادغاريو) الفرنسية، واطمأن وجدانه للحفلة الرائعة التي سيخطب فيها أدباء لبنان، مرحبين بشاعر تغني بجمال لبنان! وخلاصة تلك الضجة التي قامت والتي ستقوم عبارات ثناء بدون كيل، وجمل ولاء بلا وزن، ترفع (شارل القرم) إلى ذروة

دونها الذرى التي تغني بها وتحدث بجمالها، وكيف لا يرفع النبوغ أصحابه في بلاد يعرف أهلها معنى النبوغ ويرعون حق النبوغ ويقدرون قدر النبوغ؟

تناولت ديوان (الجبل الملهم) من بين دواوين كلها عيون رانية إلي، يستنجز أصحابها مني وعداً بالكتابة عنها، فآثرت الالتذاذ بديوان يحدثني - في الصيف - عن الجبل الملهم، فأهملت من هم أدنى إلي وعكفت على الجبل الملهم أتلوه بشوق وغبطة ولذة. وقد شغلت نفسي بتأمل الأمثلة الفنية فيه، كاملة هنا متوسطة هناك ناقصة هنالك، وأنا برغم هذا التفاوت في مراحله لم أدع لغبطتي مجالاً لهزيمة

هنالك أجزاء متفككة عملت على وصلها بخيالي، وهناك اضطراب كثير في ألحان بعض الأوزان التي جاءت كثرة تنوعها زيادة في التشويش، فلا تكاد تهدأ الأذن إلى لحن حتى يطلع لحن آخر تنبو عنه. فحملت ذلك إلى نقص في الكفاءة الفنية التي تحتاج إلى تمرين كبير، وهنالك بعض تشابيه تمجها آذان أهل البلاد أنفسهم، لأنها لا تمازج روح لغتهم، ولا توائم نفس عبقريتهم، كتشبيه الشمس (بصابون السحاب)، وهنالك ضياع المثل الأعلى الذي يتبعه الشاعر بحيرة، يتبعه بقلب موزع مضطرب، فلا يدرك ما هو هذا المثل ولا

يدري أين يجده. لا يعتمد على عقله ولا يثق بروحه. يحارب بعض التقاليد ويؤمن ببعضها إيماناً أعمى: يتطرف في كل شيء يحبه أو ينفر منه. كأنما قلبه لا يغلب عليه اعتدال ولا استقرار

هذه بعض الصفات تطالعك من الديوان وددت أن أتوسع فيها توسعاً فنياً، ووددت أن يكون بحثي متعلقاً بها، وقفاً عليها، لولا ظاهرة خطرة غريبة كامنة في إحدى الثنايا، ما وقعت عليها حتى ارتعشت وعاودني ألم عفيف وشك في المستقبل. فتركت تلك التعليقات الفنية التي تتعلق بأصحابها وجابهت هذه الظاهرة الاجتماعية التي لها خطرها في حياتنا وبيئتنا وقوميتنا

تلوت هذه الأبيات التي يتحدث بها عن اللغة العربية:

(إننا ننطق اليوم لغة جاءت من آسيا
قد فرضها علينا القتل والرعب
وباطلاً نضع فيها الفن والشعر
والعلم والإيمان)!

(إننا لن ننظر إلى العربية
نظرنا إلى أخ يدعى إلى منزل أبيه
إن هذه الزهرة الصحراوية قد تقبلتها حدائقنا
تحت ضغط حكومة قاسية)
قبلناها وهذبناها
وأدعمناها باعتنائنا الشديد

(ولكن الإسلام لا يرضى بأن تكون هذه اللغة المرفوعة على جباهنا - لنا
أن هذه الكلمات الغريبة (اللغة السريانية) التي يتلقنها أبناؤنا)
لم تكن يوماً غريبة عنا
بل يكاد يخيل إلينا أن قلوبنا
تذكر يوماً نحتتها فيه)

(ولكن هؤلاء الذين يجحدون أصلنا اللاصق بنا. . .
هؤلاء المنفصلين عنا، المسلوخين من أذرعنا
الأغنياء بالنفي. . .
هؤلاء يحتقرون أصلهم. كما يفعل الأعزاء العاقون الناكرون الإحسان)

تلوت هذه الفقرات وأنا أكذب نفسي وأتهمها. أحقاً أرى صاحب الجبل الملهم يتنصل من اللغة العربية، ويعتبرها زهرة غريبة نبتت طفيلية في حدائق لبنان؟ أحقاً يرى صاحب الجبل الملهم أن هذه اللغة قد فرضت على أهل لبنان بالسيف والدم؟ فإذا كان الشاعر لم يكتب له نصيب ولا سهم في هذه اللغة لا في نطق ولا كتابة، فما له يعمل على التنكر منها وضربها في الصميم! وما بال أصحابنا اللبنانيين يشايعونه على هذا. وهم علموا ما للعربية من فضل ومآثر. وعلموا أن الإسلام لم يفرضها عليهم بالقتل والضرب. وإنما فرضت نفسها وعملت على فرض نفسها. ومتى كانت اللغات

تلين لإرادات الأفراد؟ وهل السريانية أخت العربية لو كان في أجلها فسحة تذوقت رداها؟ وماذا في السريانية من أدب وفن يتعلق بأحشاء لبنان، ويصطبغ بدم لبنان؟ وأما أن الشاعر لا يريد الكتابة بالعربية لأنه لا يراها جديرة بأن تكون وعاء حكمته وفنه وشعره، فهل عجزت اللغة عن ضم شتات أفكاره؟ وهي التي لم تعجز ولن تعجز عن أفكار من كان لهم شأنهم وخطرهم، إلا أن تكون أفكاره مما لا تحيل به العقول. ولكن هو الشأن

كنا نريد أيها الشاعر وأنت لا تنطق بهذه اللغة أن تحترم على الأقل كيانها، ولا تدس عليها دساً يسخر منه الأجانب أنفسهم. كنا نريد أن يكون لك بأدباء المهجر أسوة حسنة: أولئك الأدباء الذين اصطلحت عليهم عوامل الغربة والانقطاع. وظلوا راعين للغتهم حافظين لحرمتها عاملين على رفع ألويتها. وقد علمت منهم المجيد السباق في لغته واللغة الأجنبية التي اصطنعها. كجبران ونعيمة والرياحاني وكثير من أمثال هؤلاء في المهجر وغير المهجر ممن تفتحت لهم من الآفاق ما تفتح لك، ولان لهم من عبقرية غيرهم ما لان لك

وأما أن الشاعر يود العودة إلى إحياء الروح الأولى الروح الفينيقية، شأن المصرية الفرعونية. فالمصريون والفرعونيون أنفسهم لم يفكروا يوماً في نفي اللغة العربية من بين ظهرانيهم، ولم يجدوا في بقاء العربية ما يحول بينهم وبين التمصر الذي أرادوه اضطراب - في لبنان - في المثل العليا والتفكير، واختلاف في الثقافة والمنحى. كأنما بيئة

تفككت أجزاؤها وانطوى جزء على نفسه بدون وحدة منتظمة ولا جامعة ملتئمة، كل حزب يمشي ولا يدري أين يمشي وأي هدف يقصد

وحدوا يا قوم تفكيركم واعرفوا ما تطلبون، فإننا حتى اليوم لا ندري مثلكم الأعلى ولا ندري أي منهج تقصدون؛ وأنقذوا لبنان قبل أن تقتله محبتكم، فالمحبة المنقسمة على نفسها هي أشد خطراً من الكره والنفور. وليكن لكم مثل أعلى تحجون إليه وتعملون على إظهاره في بيوتكم ومدارسكم، وفي مجامع جدكم ولهوكم، ينشأ عليه صغاركم ويشب عليه فتيانكم

أما أولئك الذين ينتظرون أن يهيموا غداً في الحفلة التكريمية لصاحب الجبل الملهم، أينظرون أي إكليل يحمله إليهم، وأي إكليل يحملونه إليه؟ إكليله لهم إكليل احتقار اللغة العربية، وإكليلهم له مبايعته على ذلك. إكليله (قبلات لبنانية على شفاه اللغة الفرنسية)، وإكليلهم الدعاء لمحب لبنان ورافع جبهة لبنان والمبشر بنبوغ لبنان. أحبوك يا لبنان وادعوا محبتك لأنفسهم حتى خنقوك بالأقماط وأدرجوك بالأكفان!

لبنان الذي يشبه اليوم (برج بابل) بأديانه ولهجاته ومذاهبه، لا يوحد بين أجزائه إلا هذه العربية، وإنما توحد بينها توحيداً تقليدياً لا يعمل على الإيمان به قلب ولا يؤمن به دم. فإذا إنهارت هذه السارية التي تتحد عليها أجزاء لبنان تعم الفوضى داره ويفشو فيه الروح التمزق. وأصحابنا بعد هذا كله يريدون أن يجمع بينهم هذا النشيد: (كلنا للوطن. . . كلنا للعلا. . . كلنا للعلم). وقد علم العلم والعلا والوطن أن لا مكان لهم في المكان الذي تتقلص فيه اللغة ولا يحترم لها كيان، وتهان فلا يهب لنصرتها أعوان

تفرقوا ما استطعتم في ثقافتكم ومثلكم، فما أشبه الليلة بالبارحة

خليل هنداوي

العدد 117 - بتاريخ: 30 - 09 - 1935

عبرة الحادثات

للدكتور عبد الوهاب عزام

المدنية الأوربية، على خيراتها وما أجدت على الناس من علمها ورفاهيتها، مدنية مادية دعائمها المعادن والأحجار، يصاغ قلبها من الذهب والحديد وأشباههما، ويغذى بالفحم والنفط وأخواتهما، وتدور بهما دواليب المصانع والمغازل والمناسج. قد استحكمت فيها الآلات، وأتقنت الصناعات حتى أغنت عن الإنسان أدواتها، ونافسه عتادها، فثارت العداوة بين الآلات وصانعيه وعمالها ومالكيها. وقد أوحى ذلك إلى بعض الأمريكيين فاخترعوا إنسانا آليا يخدم خدمة الإنسان ويتحرك حركاته، وهل الإنسان في المصانع إلا آلة سريعة العطب؟

طبع إنسان هذا العصر آليا دائراً لا يألف الاستقرار ولا يعرف السلام، ولا تتمكن في

قلبه المحبة، ولا تستقر في سريرته الشفقة. وأستكبلت هذه الآلات على غذائها، وتنافست في أقواتها، وأحس كل أنها القوة لا العدل، والغلبة لا الإنصاف، فنفخوا في الأمم روح العصبية، وغرور العنجهية، وزعم كل قبيل أن أوله خير الأولين، وأنه سيد الحاضرين، وأن بنيه سادة الآتين، وأن الأرض كلها له، وأن الويل لمن جادله. ثم ما شئت من أناشيد مثيرة، وتربية هائجة، وإيقاظ الوحشية في النفوس، وإشعال البغضاء في الأفئدة، حتى صار الناس على رغم العلم والفلسفة وعلى ما قربت بينهم الوسائل الحديثة أميل إلى الحرب والجلاد، وأحب للتخريب والتدمير من أناسي القرون الخالية؛ فبينا تراهم في ظاهر من السلام والوئام، يتغنون بحضارتهم، ويعكفون على دراستهم، ويتكلمون في العدل والحرية والاخوة، إذ تحكهم التجارب قدح الزناد، فإذا النار تحت الرماد؛ تغلب عليهم الطباع الحربية، وتسيطر عليهم الحياة الآلية، فإذا الأمم كلها جنود ومصانع للسلاح والمدمرات، وإذا الأوربي كالذئب الذي لبس جلد الشاة ثم خلعه

ومهما يكن حظ القوم من العدل والنصفة، ونصيبهم من المودة والألفة، فذلك فيما يشجر بينهم من خلاف. فأما أهل الشرق سكان آسيا وأفريقية من الأمم الملونة فليس لهم في العدل حماية، ولا في القانون نصفه، (ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل). وما يزال صدى الأحداث يدوي في آذاننا، وحسبك حروب طرابلس والبلقان والريف. فان ساغ

الأوربي أن يطمئن إلى عدل أوربا وانصفها، وقوانينها وجماعة أممها، فليس للشرقي أن يسكن إلى ذلك، فهو مال مباح ودم مهدور

وتلك أمة ينفخ قادتها فيها المغرور والعجب، ويذكرونها مجد الرومان وغابر الزمان، حتى انتفخت أوداجها وورمت أنوفها. ثم صاحوا فيها قد بطشنا بطرابلس عشرين عاماً حتى دوخناها، وذللنا دانيها وقاصيها، ولكنها لا تفي بحاجتنا ولا تسد مطامعنا. ونظروا فإذا في أفريقية دولة واحدة مستقلة حفظ عليها استقلالها من دون أمم أفريقية أنها دولة نصرانية لم يستبيح المغيرون أن يجعلوها كالمسلمين، ولكنها على نصرانيتها أمة سوداء ضعيفة تسكن أرضاً واسعة، صاح زعيمهم هلم إلى الحبشة! فانبرت العقول تخترع الأوهام والتعلات، والألسن تفتري الكذب، والأقلام تخط الأباطيل. وطفقوا يعيدون قصة الذئب والحمل حيناً، ويصرحون بمكنون ضمائرهم حيناً. وسار الشر الحبشة في جيوشه ومفترياته

ويشفق بعض الدول من هذه الغارات ويخاف عقباها فيستغيث الحق والعدل، وحماية الضعيف، والاقتصاص من القوي. وتتوالى نذر الحرب، وتطيف بمصر مقدماتها، وتقف مصر بين دولة محتلة، وأخرى مجاورة، تشقها الطريق بين الحبشة وإيطاليا. تهيب مصر بجيشها فإذا جيش ضئيل، وسلاح كليل! وتدعو بينها فإذا نفوس أبية، وسواعد قوية، ولكنها لم تدرب للقتال، ولم تعد للنضال، ولم تشهد الزحوف، ولم تعتد التعرض للحتوف، ولم تحمل السلاح، ولم تتمرس بآلات الكفاح؛ أنفس عزيزة وأمة ذليلة! ويقول من أبى على الأمة أن تأخذ للأيام أهبتها. وتعد للخطوب عدتها: لا ترعوا، هأنذا أدفع عنكم! فاشكروني ولا تكفروني. ولو ترك لنا من قبل أن نعبئ جيوشنا ونعد سلاحنا لكان شكرنا أعظم وأجدى، وكنا في أنفسنا أعز وأقوى، وأني يعز من يدفع عنه في عقر داره، ولا يعول عليه في حماية نفسه:

ودرى من أعزه الدفع عنه ... فيهما أنه العزيز الذليل

هذا موقف الذلة والمهانة، والضعة والاستكانة، موقف من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، ولا يجلب لها خيراً ولا شراً - رب عيش أخف منه الحمام!

ذلكم درس للحادثات مبين، وعظة للخطوب بليغة، فعلى المصريين راعيهم ورعيتهم، ودهائهم وقادتهم، أن يفهموا الدرس ويعوه، ويتدبر الموعظة وينتفعوا بها. ومهما تنجل عنه

السحب المكفهرة، وتتكشف عنه الحادثات المنذرة، فليعملوا برأي واحد ويد واحدة، ويتوسلوا بالعزم والحكمة حتى لا يقفهم الزمان هذا الموقف مرة أخرى، (إن في ذلك لذكرى)

عبد الوهاب عزام

نظرة في النجوم

للأستاذ أحمد أمين

مما أرثى له أن أرى الشرقيين وخاصة سكان المدن لا ينتفعون بسطوح منازلهم الانتفاع الواجب، فهم قلما يصعدون إليها إلا عند تركيب قوائم الراديو أو حبال الغسيل أو تخزين ما يستغنى عنه في حجر السطح، وهم يحبون أن يلتصقوا بالأرض ولا يحلقوا في السماء، وينزلوا بحضيض المنازل ولا يسموا إلى أوجها

وفاتهم أن من خير متع الحياة (سطوح المنازل) لا سيما في جو بديع كجونا، تصفو فيه السماء في أكثر أشهر السنة، ويهب فيه النسيم العليل ليلا، ويمتد فيه البصر، وتنشرح فيه النفس، ولياليه بين ليال مقمرة بديعة لا تمل العين جمالها، وليال غاب فيها القمر فقامت النجوم مقامه تناغيك وتحدثك وتملأ قلبك روعة ونفسك حياة

تبا للأعين التي تنظر دائماً إلى تحت، ولا تنظر إلى فوق، وإلى الأسفل لا إلى الأعلى، ويلذ لها أن تنظر إلى المسافات القريبة وإلى ما تلمس، ولا تنظر إلى البعد السحيق والمنظر البعيد. إن العين إذا اعتادت ذلك قلدتها النفس فلم تنظر إلى الأمل البعيد ولم تلتذ بالطموح، ولم تسعد بالأمل، وقنعت بما هي فيه ورضيت بالدون وتشاغلت به، وصدها ذلك عن أن تنشد الكمال، للارتباط الشديد بين عالم الحس وعالم العقل وعالم الروح

ولقد كان آباؤنا الأولون أكثر منا عناية بالسماء، حتى العرب في بداوتهم أطالوا النظر في النجوم وانتفعوا بجوهم المفتوح، وسمائهم الصافية، فعرفوا كثيرا منها، ووضعوا لها أسماءها، وكان لهم فيها ملاحظات دقيقة، وأشعار رقيقة؛ أما نحن فقل أن نعرف من أسماء النجوم إلا الشمس والقمر، وجهلنا بأسماء مشاهيرها جهل فاضح لا يتفق وسماءنا البديعة. وأما شعراؤنا - سماحهم الله - فأكثرهم لا يشعر في السماء والنجوم إلا تقليدا، وقد يبرح به ألم الهجر في غرفته المسقوفة وقد أغلقت شبابيكها وأسدلت ستائرها ومع ذلك يشكو النجوم وثباتها وهو لا يرى سماء ولا نجوما

لو كان في أوروبا جو مكشوف دافئ كجونا، لعرفوا كيف ينتفعون بالسماء كما انتفعوا بالأرض، ولاتخذوا من سطوح منازلهم مقاماً للسمر الحلو والتأمل اللذيذ، ولاتخذوا منها منديات ومقاه ومسارح للسينما والتمثيل وأماكن للمحاضرات فانتفعوا بجمال الجو وجمال

منظر السماء وجمال منظر السينما والتمثيل وجمال الحديث معاً، ولو فعلنا لارتحنا من عناء المتسولين والمتجولين وما سحي الأحذية إلا أن يصعدوا إلينا في السماء

نعمت هذا الشهر بسطح منزلنا، وأكثرت من التحدث إلى النجوم، والإصغاء إلى حديثها، وملت إلى قراءة شيء من أخبارها، فملأت قلبي حياة، وعقلي هدوءا، وأعصابي راحة

وكنت كلما شكوت من شيء بثثت شكواي إلى النجوم فتبخرت، وكلما تدنست في جو الأرض تطهرت في جو السماء، فان آلمتني السياسة بألاعيبها وخداعها، والأولاد بمضايقاتهم ومتاعبهم، والخدم برذائلهم، والبيئة بمشاكلها وصغائرها، علوت إلى السطح وانسطحت على سجادة، ووصلت أسباب ما بيني وبين النجوم فزال كل ألم، واحتقرت كل ما ضايقني، وعشت في عالم جديد لذيذ مريح، ورأيت أني غسلت نفسي كما يغسل الثوب في البحر الواسع

عظيمة هذه النجوم وجميلة وجليلة! فان رأيت نجوم المجرة وعلمت أنها تبلغ عدتها الملايين، وأنها تسير بسرعة هائلة، وأن بعض النجوم يقطع نحو 240 كيلو مترا في الثانية، وبعضها يقطع نحو 410 كيلو في الثانية، وأن بعضها بلغ من البعد عنا ما لا يصل إلينا ضوؤه إلا في آلاف السنين، أيقنت بهذه العظمة؛ وشعرت في أعماق نفسك بحقارتك وحقارة مشاغلك وحقارة أرضك كلها - وإن علمت أن في السماء آلافاً من الشموس تكون كل شمس منها مجموعة من النجوم كمجموعتنا الشمسية، سبحت في عالم من العظمة لا حد له، وتساءلت في كثير من الحيرة والإعجاب إلى أي طريق هي مسوقة وإلى أي طريق نحن مسوقون معها؟ وقلت كما قال أبو الشبل البغدادي:

بربك أيها الفلك المدارُ ... أقصدُ ذا المسيرُ أم اضطرار

مَدارُك قل لنا في أي شيء ... ففي إفهامنا منك انبهار

وفيك نرى الفضاء وهل فضاء ... سوى هذا الفضاء به تدار؟

ثم رددت الطرف خاسئاً وهو حسير؛ ولكنها حسرة لذيذة لا ترضى بها بديلاً أيتها النجوم. كم من الناس نظروا إليك فأعجبوا بعظمتك وجمالك وجلالك، وكم من

الشعراء تغنوا بك، وتفننوا في الإشادة بذكرك، وعابوا عليك سرعتك أيام الوصال، وبطئك أو وقوفك أيام الهجران
وكم حارت فيك العقول فظنوك آلهة وعبدوك من دون الله، وأقاموا لك الهياكل والتماثيل، ثم تقدموا قليلاً فأنزلوك من مقام الألوهية قليلاً، وجعلوا لك أثراً كبيراً في أحداث الأرض، فلك أثر في الرياح والأمطار والسعادة والشقاء، وربطوا مواليد الناس بك، وجعلوا سعادتهم وشقاءهم من أجلك، وحتى الفلاسفة العظام أمثال أرسطوا أعمتهم عظمتك عن أن يدركوا حقيقتك فأسندوا إليك عقولاً كباراً وجعلوا منزلتك في الفكر والعقل فوق منزلة الإنسان، وسبحوا في الخيال فأسسوا نظاماً وهمياً للأفلاك وتدرجها في الأثر حتى تصل إلى عالمنا - وخدع الناس بك فبنيت لك المراصد لمراقبة حركتك، وأقنع المنجمون الناس بتأثيرك فسمعوا لقولهم، واتخذ الملوك المنجمين يعتمدون عليهم في تدبير مملكتهم، كما يتخذون الأطباء لتدبير أجسامهم، فلا يضعون بناء إلا بعد رصدهم لك وإشارتهم بأنك ستمنحين السعادة لبنائهم، ولا يحاربون إلا برأي رجالك وتخير أوقات رضائك
وكم شغل الناس بطوالعك، وتخيروا أوقات زواجهم محسوبة بحسابك، وتنبأوا - بمعونتك - بموت فلان وحياة فلان وأنت أنت فوق ذلك كله لا تعبئين به ولا تلتفتين إليه. كأن أمرهم لا يعنيك، وشؤونهم لا تهمك، وتتابعت الأجيال ومرت السنون، وفنيت أقوام وجدت أقوام وكلهم يمنحونك إعجابهم وأنت في علاك وسيرك وسرعتك دائبة أبداً وأتى العلم الحديث فغير فيك الأفكار، وساواك بالأحجار، وجعل قمرك الجميل كأرضنا غير الجميلة، وسلب عنك العقل والفكر وأخضعك لنواميس الطبيعة وأبان خرافات الأقدمين فيك - ومع ذلك أقر بجلالك وأخذ بدقة نظامك، وأقر بجهله أن يحيط بك، وأن يتعرف كل قوانينك - فأنت أنت أيام الجهل وأيام العلم، وأيامنا وأيام آبائنا
وبينا أنا في ذلك كله، وفوق ذلك كله، إذا دعاني الخادم إذا دعاني الخادم إلى التلفون فنزلت من السماء إلى الأرض
- آلو
- فلان - لعلك تذكرني
- أهلاً وسهلاً
- أريد أن أقابلك
- هل من شيء؟
- لقد تخرجت من كلية الآداب واشتغلت في عمل لا يناسبني، وماهية لا تليق بي، وأخواني كلهم خير مني، فلي سنوات لم آخذ علاوة ولم أرق إلى درجة
- نعم
- والآن هناك حركة ترقية وأريد مساعدتك
ثم حوار طويل، ورجاء مستمر، وشكوى بؤس، وعائلة يعولها، وماهية لا تكفيها، ودنيا ضاقت به وبها
في أي تفكير كنت، وإلى أين صرت، هذه السماء وهذه الأرض، أين هذا العالم العظيم السعيد الذي كنت أحلم به من هذا العالم الحقير التافه الذي نقلني إليه التلفون والذي يمضي فيه أكثر الناس أكثر أعمارهم، لقد غطسني بحديثه في ماء مثلج، فلأصعد ثانية إلى السماء ولأعاود ما كنت فيه. . . لا - لم تعد للفكر لذته ولا حديث النجم متعته
لقد قلب علم الفلك عقلية الإنسان رأسا على عقب، فقد كان يظن أنه سيد العالم، وأن أرضه هذه هي مركز العالم، وأن الشمس والقمر والنجوم تدور حولها فأبان له العلم أن أرضه ليست إلا هنة تسبح في الفضاء، وأنها شيء تافه في المجموعة الشمسية التي تدور حول الشمس، وأن كل العالم من أرض ونجوم خاضعة لقوانين واحدة كقوانين الجذب وما إليها، وأنه إن كانت أرضه هنة فكيف به هو - كل هذا غير عقلية الإنسان وأنزله من شامخة وسلبه غروره فأخذ يفكر تفكيراً جديداً وينظر لنفسه وللعلم نظراً جديداً ويربط نفسه بالعالم، ويرى أنه هو والعالم وحدة، وأن هذه الوحدة تخضع لقوانين ثابتة استكشف أقلها وغاب عنه أكثرها، ما استكشف منها يدل على عظمة باقيها وعمومها وسيطرتها - ولكن شيئا واحدا لم يتغير في الإنسان وهو ارتباط عواطفه بالنجوم، وأنها تجد السبيل دائما لقلبه، وتوحي إليه بعظمة ربها وربه
أحمد أمين

الجمال البائس - 2
للأستاذ مصطفى صادق الرافعي
جاءت أحلى من الأمل المعترض سنحت به فرصة؛ وعلى أنها لم تخط إلينا إلا خطوة وتمامها، فقد كانت تجد في نفسها ما تجده لو أنها سافرت من أرض إلى أرض، ونقلها البعد النازح من أمة إلى أمة
يا عجباً! إن جلوس إنسان إلى إنسان بازائه قد يكون أحيانا سفرا طويلا في عالم النفس؛ فهذه الحسناء تعيش في دنيا فارغة من خلال كثيرة، كالتقوى، والحياء، والكرامة، وسمو الروح، وغيرها؛ فإذا عرض لها من يشعرها بعض هذه الخلال، وينتزعها من دنيا اضطرارها وأخلاق عيشها ولو ساعة - فما تكون قد وجدت شخصا بل كشفت عالما تدخله بنفس غير النفس التي تدبرها في عالم رزقها. . .
ولا عجب من سحر الحب في هذا المعنى؛ فأن العاشق يكون حبيبه إلى جانبه، ثم لا يحس إلا أنه طوى الأرض والسماوات ودخل جنة الخلد في قبلة. . .
جلست ألينا كما تجلس المرأة الكريمة الخفرة، تعطيك وجهها وتبتعد عنك بسائرها، وتريك الغصن وتخبأ عنك أزهاره. فرأيناها لم تستقبل الرجل منا بالأنثى منها كما اعتادت؛ بل استقبلت واجبا برعاية، وتلطفاً بحنان، وأدباً من فن بأدب من فن آخر؛ وكان هذا عجيبا منها، فكلمها في ذلك الأستاذ (ح) فقالت: أما واحدة فإننا نتبع دائما محبة من نجالسهم وهذه هي القاعدة. وأما الثانية فإننا لا نجد الرجل إلا في الندرة؛ وإنما نحن مع هؤلاء الذين يتسومون بسيما الرجال - كحيلة المحتال على غفلة المغفل، وهم معنا كالقدرة بالثمن على ما يشتريه الثمن؛ ليسوا علينا إلا قهرا من القهر؛ ولسنا عليهم إلا سلباً من السلب، مادة مع مادة؛ وشر على شر؛ أما الإنسانية منا ومنهم فقد ذهبت أو هي ذاهبة. . .
قال (ح): ولكن
فلم تدعه يستدرك، بل قالت: إن (لكن) هذه غائبة الآن. . . فلا تجيء في كلامنا. أتريد دليلا على هذا الانقلاب؟ إن كل إنسان يعلم أن الخط المستقيم هو أقرب مسافة بين نقطتين؛ ولكن امرأة منا تعلم أن الخط المعوج هو وحدة أقرب مسافة بينها وبين الرجل. . .
قالت: فإذا وجدت إحدانا رجلاً بأخلاقه لا بأخلاقها. . . ردتها أخلاقه إلى المرأة التي كانت
فيها من قبل، وزادتها طبيعتها الزهو بهذا الرجل، فتكون معه في حالة كحالة أكمل امرأة؛ بيد أن كمال الحلم الذي يستيقظ وشيكا، فأن الرجل الكامل يكمل بأشياء، منها ما أسفاه! منها ابتعاده عنا
ثم قالت: وصاحبك هذا منذ رأيته، رأيته كالكتاب يشغل قارئه عن معاني نفسه بمعانيه هو. . . .
وضحكت أنا لهذا التشبيه، فمتى كان الكتاب عند هذه كتاباً يشغل بمعانيه؟ غير أني رأيتها قد تكلمت واحتفلت، وأحسنت وأصابت، فتركتها تتحدث مع الأستاذ (ح) وغبت عنهما غيبت فكر؛ وأنا إذا فكرت انطبق علي قولهم: خل رجلا وشأنه، فلا يتصل بي شيء مما حولي. وكأن كلامها يسطع لي كالمصباح الكهربائي المتوقد، فقدمها فكرها إلي غير ما قدمت إلي نفسها، ورأيت لها صورتين في وقت معا، إحداهما تعتذر من الأخرى. . . . .
وكنت قبل ذلك بساعة قد كتبت في تذكرة خواطري هذه الكلمة التي استوحيتها منها: لأضعها في مقالة عنها وعن أمثالها وهي هذه الكلمة:
إذا خرجت المرأة من حدود الأسرة وشريعتها، فهل بقي منها إلا الأنثى مجردة تجريدها الحيواني المتكشف المتعرض للقوة التي تناله أو ترغب فيه؟ وهل تعمل هذه المرأة إلا أعمال هذه الأنثى؟
وما الذي استرعاها الاجتماع حينئذ فترعاه منه وتحفظه له، إلا ما استرعى أهل المال أهل السرقة؟ إن الليل ينطوي على آمتين: أولئك اللصوص، وهؤلاء النساء
وكيف ترى هذه المرأة نفسها إلا مشوهة مادامت رذائلها دائما وراء عينيها، وما دام بازاء عينيها دائما الأمهات والمحصنات من النساء، وليس شأنها من شأنهن؟ إن خيالها يحرز في وعيه صورتها الماضية من قبل أن تزل، فإذا خلت إلى نفسها كانت فيها اثنان

إحداهما تلعن الأخرى، فترى نفسها من ذلك على ما ترى
وهي حين تطالع مرآتها لتتبرج وتحتفل في زينتها، تنظر إلى خيالها في المرآة بأهواء الرجال لا بعيني نفسها، ولهذا تبالغ أشد المبالغة؛ فلا تعنى بأن تظهر جميلة كالمرأة، بل مثمرة كالتاجر. . . وتكسبها بجمالها يكون أول ما تفكر فيه، ومن ذلك لا يكون سرورها بهذا الجمال إلا على قدر ما تكسب منه؛ بخلاف الطبع الذي في المرأة، فان سرورها
بمسحة الجمال عليها هو أول فكرها وآخره
إن الساقطة لا تنظر في المرآة - أكثر ما تنظر - إلا ابتغاء أن تتعهد من جمالها ومن جسمها مواقع نظرات الفجور وأسباب الفتنة، وما يستهوي الرجل وما يفسد العفة عليه، فكأن الساقطة وخيالها في المرآة رجل فاسق ينظر إلى امرأة لا امرأة تنظر إلى نفسها. . .
ذهبت أفكر في هذه الكلمة التي كتبتها قبل ساعة، ولم أستطع أن ألبس في هذه القضية وجه القاضي؛ فدخلتني رقة شديدة لهذا الجمال الفاتن الذي أراه يبتسم، وحوله الأقدار العابسة، ويلهو، وبين يديه أيام الدموع، ويجتهد في اجتذاب الرجال إليه، والوقت آت بالرجال الذين سيجتهدون في طرده عن أنفسهم
وتغشاني الحزن ورأت هي ذلك وعرفته؛ فأخرجت منديلها المعطر ومسحت وجهها به، ثم هزته في الهواء فإذا الهواء منديل معطر آخر مسحت به وجهي. . .
وقال الأستاذ (ح): آه من العطر! إن منه نوعا لا أستنشيه مرة إلا ردني إلى حيث كنت من عشرين سنة خلت، كأنما هو مسجل بزمانه ومكانه في دماغي. . .
فضحكت هي وقالت: إن عطرنا نحن النساء ليس عطرا، بل هو شعور نثبته في شعور آخر
فقلت أنا: لا ريب أن لهذه الحقيقة الجميلة وجها غير هذا؛ قالت: وما هو؟
قلت: إن المرأة المعطرة المتزينة هي امرأة مسلحة بأسلحتها، أفي ذلك ريب؟
قالت: لا
قلت: فلماذا لا يسمى هذا العطر بالغازات الخانقة الغرامية. . .؟
فضحكت فنونا؛ ثم قالت: وتسمي (البودرة) بالديناميت الغرامي. .
ونقلني ذلك إلى نفسي مرة أخرى، فأطرقت إطراقة؛ فقالت ما بك؟
قلت: بي كلمة الأستاذ (ح)، إنها ألهبت في قلبي جمرة كانت خامدة
قالت: أو حركت نقطة عطر كانت ساكنة. . .
فقلت: إن الحب يضع روحانيته في كل أشيائه، وهو يغير الحالة النفسية للإنسان فتتغير بذلك الحالة العقلية للأشياء في وهم المحب. (فعطر كذا) مثلا. . . . هو نوع شذي من العطر، طيب الشميم، عاصف النشوة، حاد الرائحة، لكأنه ينشر في الجو روضة قد ملئت
بأزهاره تشم ولا ترى؟ وإنه ليجعل الزمن نفسه عبقاً بريحه وانه ليفعم كل ما حوله طيباً وانه ليسحر النفس فيتحول فيها. . .
وهنا ضحكت وقطعت علي الكلام قائلة: يظهر لي أن (عطر كذا) هاجرا أو مخاصم. . .
قلت: كلا، بل خرج من الدنيا وما نتشقت أرجه مرة إلا حسبته ينفح من الجنة
فما أسرع ما تلاشى من وجهها الضحك وهيئته، وجاءت دمعة وهيئتها. ولمحت في وجهها معنى بكيت له بكاء قلبي
جمالها، فتنتها، سحرها، حديثها، لهوها؛ آه حين لا يبقى لهذا كله عين ولا أثر، آه حين لا يبقى من هذا كله إلا ذنوب وذنوب، وذنوب
وأردنا أنا و (ح) بكلامنا عن الحب وما إليه ألا نوحشها من إنسانيتنا، وأن نبل شوقها إلى ما حرمته من قدرها قدر إنسانة فيما نتعاطاه بيننا. والمرأة من هذا النوع إذا طمعت فيما هو أغلى عندها من الذهب والجوهر والمتاع - طمعت في الاحترام من رجل شريف متعفف، ولو احترام نظرةٍ، أو كلمة. تقنع بأقل ذلك وترضى به، فالقليل مما لا يدرك قليله هو عند النفس أكثر من الكثير الذي ينال كثيره
ومثل هذه المرأة، لا تدري أنت أطافت بالذنب أم طاف الذنب بها؟ فاحترامها عندنا ليس احتراما بمعناه، وإنما هو كالوجوه أمام المصيبة في لحظة من لحظات رهبة القدر وخشوع الإيمان

وليست امرأة من هؤلاء إلا وفي نفسها التندم والحسرة واللهفة مما هي فيه، وهذا هو جانبهن الإنساني الذي ينظر إليه من النفس الرقيقة بلهفة أخرى، وحسرة أخرى، وندم آخر. كم يرحم الإنسان تلك الزوجة الكارهة المرغمة على أن تعاشر من تكرهه فلا يزال يغلي دمها بوساوس وآلام من البغض لا تنقطع! وكم يرثي الإنسان للزوجة الغيور، يغلي دمها أيضاً ولكن بوساوس وآلام من الحب! ألا فاعلم أن كل امرأة من مثل هذه الحسناء تحمل على قلبها مثل هم مائة زوجة كارهة مرغمة مستعبدة، يخالطه مثل هم مائة زوجة غيور مكابدة منافسة، ولقد تكون المرأة منهن في العشرين من سنها وهي مما يكابد قلبها في السبعين من عمر قلبها

وهذه التي جاءتنا إنما جاءتنا في ساعة منا نحن لا منها هي، ولم تكن معنا لا في زمانها ولا في مكانها ولا في أسبابها، وقد فتحت الباب الذي كان مغلقا في قلبها على الخفر والحياء، وحولت جمالها من جمال طابعه الرذيلة إلى جمال طابعه الفن، وأشعرت أفراحها التي إعتادتها روح الحزن من أجلنا فأدخلت بذلك على أحزانها التي إعتادتها روح الفرح بنا

من ذا الذي يعرف أن أدبه يكون إحساناً على نفس مثل هذه ثم لا يحسن به؟ تتجدد الحياة متى وجد المرء حالةً نفسيةً تكون جديدةً في سرورها. وهذه المرأة المسكينة التي لا يعنيها من الرجل من هو؟ ولكن كم هو. . .؟ لم تر فينا نحن الرجل الذي هو (كم) بل الذي هو (من). وقد كانت من نفسها الأولى على بعد قصي كالذي يمد يده في بئر عميقة ليتناول شيئا قد سقط منه؛ فلما جلست إلينا اتصلت بتلك النفس من قرب، إذ وجدت في زمانها الساعة التي تصلح جسر على الزمن

قال الراوي: كذلك رأيتها جديدة بعد قليل، فقلت للأستاذ (ح): أما ترى ما أراه؟

قال: وماذا ترى؟ فأومأت إليها وقلت: هذه التي جاءت من هذه. إن قلبها ينشر الآن حولها نورا كالمصباح إذا أضيء، وأراها كالزهرة التي تفتحت؛ هي هي التي كانت، ولكنها بغير ما كانت

فقالت هي: إني أحسبك تحبني؛ بل أراك تحبني؛ بل أنت تحبني. . . لم يخف على هذا منذ رأيتك ورأيتني

قلت: هبيه صحيحا فكيف عرفته ولم أصانعك، ولم أتملق لك، ولم أزد على أن أجيء إلى هنا لأكتب؟

. .قالت: عرفته من أنك لم تصانعني، ولم تتملق لي، ولم تزد على أن تجيء هنا لتكتب .

قلت: ويحك لو كحلت عين (المكرسكوب) لكانت عيناك. وضحكنا جميعاً؛ ثم أقبلت على الأستاذ (ح) فقلت له: إن القضايا إذا كثر ورودها على القاضي جعلت له عيناً باحثة.

قال الراوي: وانظر إليها فإذا وجهها القمري الأزهر قد شرق لونه وظهر فيه من الحياء ما يظهر مثله على وجه العذراء المخدرة إذا أنت مستها بريبة؛ فما شككت أنها الساعة امرأة جديدة قد اصطلح وجهها وحياؤها، وهما أبدا متعاديان في كل امرأة مكشوفة العفة. . .

وذهبت أستدرك وأتأول، فقلت لها: ما ذلك أردت، ولا حدست على هذا الظن، وإنما أنا مشفق عليك متألم بك؛ وهل يعرض لك إلا الطبقة النظيفة. . . من المجرمين والخبثاء وأهل الشر؛ أولئك الذين أعاليهم في دور الخلاعة والمسارح وأسافلهم في دور القضاء والسجون؟

فقالت: اعترف بأنك لم تحسن قلب الثوب فظهر لكل عين أنه مقلوب؛ ولكنك تحبني. . . وهذا كاف أن ينهض منه عذر

قال الأستاذ (ح): إنه يحبك، ولكن أتعرفين كيف حبه؟ هذا باب يضع عليه دائماً عدة من الأقفال

. . .قالت: فما أيسر أن تجد المرأة عدة من المفاتيح

قال: ولكنه عاشق ينير العشق بين يديه، فكأنه هو وحبيبته تحت أعين الناس، ما تطمع إلا أن تراه وما يطمع إلا أن يراها، ولا شيء غير ذلك. ثم لا يزال حسنها عليه ولا يزال هواه إليها، وليس إلا هذا

قالت: إن هذا لعجيب

قال: والذي هو أعجب أن ليس في حبه شيء نهائي، فلا هجر ولا وصل؛ ينساك بعد ساعة ولكنك أبدا باقية بكل جمالك في نفسه. والصغائر التي تبكي الناس وتتلذع في قلوبهم كالنار ليجعلوها كبيرة في همهم ويطفئوها وينتهوا منها ككل شهوات الحب - تبكيه هو أيضا وتعتلج في قلبه، ولكنها تظل عنده صغائر ولا يعرفها إلا صغائر؛ وهذا هو تجبره على جبار الحب

قال الراوي: ونظرت إليها ونظرت، وعاتبت نفس نفساً في أعينهما، وسألت السائلة وأجابت المجيبة، ولكن ماذا قلت لها وماذا قالت؟

(طنطا)

مصطفى صادق الرافعي

لأحياء الآداب العربية والتراث القومي

ومهمة دار الكتب المصرية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

يستطيع الذين درسوا الآداب التاريخية الغربية، وقرأوا تواريخ الأمم الغربية في تلك الموسوعات والآثار الجليلة التي تمتاز بطابعها العلمي الدقيق، أن يقولوا بحق تاريخ الإسلام والأمم الإسلامية لم يكتب حتى عصرنا

إن الآداب العربية تزخر بالموسوعات والآثار التاريخية في كل عصر، وكل قطر؛ ومنها بلا ريب آثار كثيرة تمتاز بدقتها ونفاستها؛ ولكن هذه الآثار تقف أولاً منذ عصر بعيد، فلا تكاد تجد في العربية موسوعة أو مؤلفاً تاريخياً جليلاً منذ القرن العاشر الهجري، وهي من جهة أخرى لا يمكن أن تعتبر أكثر من مادة لتغذية المؤرخ الحديث بما يحتاج إليه من التفاصيل والوثائق، ومن الأنصاف أن نقول إن هذه المادة تمتاز بغزارتها في عصور كثيرة، ولكن من الأسف أن أغلبها ما زال يحتجب عن أعيننا في أروقة المكاتب والمجموعات الخاصة، فلا يصل إليها الباحث إلا بعد الجهد المضني

وهذه مسألة تستحق الاهتمام من كل أولئك الذين يتصلون بالمباحث الإسلامية والتاريخية، وأولئك الذين يشرفون على توجيه الثقافة القومية، وفي مقدمتهم وزارة المعارف العمومية والجامعة المصرية. فإلى الآن لم يكتب تاريخ مصر الإسلامية، ولا مصر الحديثة بما يجب من دقة وإفاضة، وإلى الآن لم تعرف مصادر التاريخ المصري معرفة حسنة حتى من كثير من أولئك الذين يعنون بكتابته أو بتدريسه؛ وإنه لما يبعث إلى الدهشة كما يبعث إلى الأسف أن نجد الكتب الدراسية التي يعتمد عليها الشباب في دراسة التاريخ المصري أو الإسلامي بوجه عام، خلاصة مشوهة اشتق معظمها من المؤلفات الأجنبية، وهي لذلك تفيض بالأخطاء والمثالب، وينقصها روح الأنصاف والتمحيص؛ هذا بينما تلقى الكتب التي تعنى بتواريخ الأمم الأجنبية عناية أوفر لأنها تعتمد في مادتها على المصادر القومية المنظمة، ويجد فيها الشباب من التبسط والتمحيص ما لا يجده في كتب التاريخ المصري أو الإسلامي

إن دار الكتب المصرية تزخر بمئات وألوف من مصادر التاريخ الإسلامي وتاريخ مصر الإسلامية بنوع خاص، وبين هذه المصادر موسوعات جليلة في مختلف العصور، ومنها ما كتبته أقلام معاصرة قديرة؛ وفيها من المواد والتفاصيل والوثائق ما يغتبط له الباحث ويحقق غايته. ولكن كم من هذه المصادر الجليلة أتيح له أن يرى الضياء حتى يومنا؟ ومع ذلك فأن هذه الآثار التي أخرجت حتى اليوم لم تلفت أنظار الباحثين والقراء لأنها لم تنل حقها من التعريف أولاً، وثانياً لأن معظمها ما زال فريسة الناشرين المتجرين الجهلة، يخرجونه في أثواب عتيقة منفرة يقبل عليها الباحث مرغماً ويلقى في مراجعتها من المشقة ما يلقاه في مراجعة المخطوطات القديمة ذاتها

هذا وما زالت المراجع والموسوعات القديمة التي وضعت بين أيدي الباحثين والكتاب مستقى خصباً لنقل النصوص والروايات كما كتبت منذ مئات السنين؛ وما زال معظم المؤلفات التاريخية المعاصرة يقوم على هذا النقل المجرد؛ ومثل هذه المؤلفات لا قيمة له من الوجهة العلمية، لأن عصر النقل المجرد انتهى منذ بعيد، وأصبح التاريخ في عصرنا علماً جليلاً يقوم على المباحث والمقارنات العلمية والنقدية والاستنباط المسند، وأصبح وثيق الصلة بكثير من العلوم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية؛ فمن المؤلم أن يرغم الشباب في هذا العصر الذي يعتبر فيه التاريخ مرآة الحضارة ودعامة للعاطفة القومية، على أن يقرأ التاريخ الإسلامي والتاريخ القومي في هذه الكتب الممسوخة

التي استخرجت دون بحث أو تمحيص من الروايات القديمة، ولا فضل لمصنفيها - إن كان ثمة فضل - إلا في الاختصار والتبويب والطبع الأنيق

وقد آن أن نتحرر من هذا الجمود الذي يشل ثقافتنا التاريخية، ويحجب عنا تراث الماضي الزاخر، وأن نستخرج من هذا التراث نفائسه، ونقدمها لجيل العصر في أثوب العصر وأساليبه. وأول ما يجب لتحقيق هذه الغاية في رأينا هو أن يبذل جهد صادق للتعريف بهذا التراث وقيمته وأمكنة وجوده. وهذه مهمة تستطيع دار الكتب المصرية أن تؤدي فيها أعظم دور. ولقد عكفت منذ أعوام على دراسة هذا الجانب من تراثنا القومي، فكتبت عدة دراسات ومباحث عن أقطاب الرواية المصرية مثل ابن عبد الحكم والكندي وابن زولاق والمسبحي والقضاعي والنويري والعمري والقلقشندي والمقريزي وابن تغري بردى والسخاوي وابن اياس، استعرضت فيها تراجمهم وجهودهم وآثارهم المنشورة والمخطوطة

استعراضاً وافياً، وعنيت فيها عناية خاصة بالتعريف بعشرات بل مئات من الآثار والمصادر الجليلة التي تتعلق بتاريخ مصر الإسلامية، والتي ما زالت مخطوطة بعيدة عن التعريف والتداول تحجبها ضلمات النسيان في أروقة دار الكتب. بيد أن مثل هذه المجهودات الفردية لا يمكن أن تحقق الغاية المنشودة. وعندنا أن دار الكتب المصرية يجب عليها أن تعتني بوضع فهرس خاص لمصادر التاريخ المصري العربية المنشورة والمخطوطة بنوع خاص، تتحرى في وضعه أحدث الطرق العلمية وتصنف المصادر فيه حسب العصور، وتوصف محتوياتها وصفاً علمياً دقيقاً؛ ولا تقتصر في ذلك على المصادر الموجودة، بل تضمنه أيضاً ذكر المصادر والآثار المخطوطة المحفوظة في مختلف المكاتب الأجنبية بالاعتماد على فهارس هذه المكاتب أو بإرسال مندوب أو أكثر للخارج لدراستها وتدوين أوصافها وتصوير ما يجب تصويره منها. ثم يوضع إلى جانب هذا الفهرس العربي، فهرس آخر يتضمن جميع المصادر والآثار الأجنبية المتعلقة بمصادر التاريخ المصري في جميع العصور، وفي جميع اللغات الحية، ويصنف تصنيفا علميا دقيقا؛ وتبذل دار الكتب جهدها لاستكمال ما نقصها من هذه المؤلفات، وينشر الفهرسان، ويصبح كل منهما مرجعاً نفيساً لمصادر التاريخ المصري ووثائقه؛ وبذلك تحظى آثارنا المحجوبة بشيء من التعريف، ويسهل سبيل البحث على الباحثين، ويفتتح عهد جديد لدراسة التاريخ المصري وكتابته

ثم يجب إلى جانب ذلك أن تدرس جميع الوثائق المتعلقة بتاريخ مصر وأنظمتها الإدارية والاجتماعية والاقتصادية مما تحتفظ به دار الكتب ذاتها، أو الدفتر خانة المصرية، أو وزارة الأوقاف أو غيرها؛ ومن المعروف أنه توجد لدينا طائفة كبيرة من هذه الوثائق، ولا سيما مما يتعلق بالعصر التركي، وفيها الكثير مما يلقي الضياء على طبيعة الأنظمة الإدارية والاجتماعية والثقافية في مصر في هذا العصر. ومعظم هذه الوثائق التي تحتفظ الدفتر خانة المصرية بكثير منها محررة بالغة التركية، ويقتضي ترجمته أو تلخيصه. ونذكر أن الأنظار اتجهت منذ أعوام إلى هذه الوثائق، وعرفت أهميتها وقيمتها التاريخية، وقيل لنا إنه سيعنى بترجمتها وتنسيقها، ولا نعلم ماذا تم بعد ذلك في شأنها. بيد أنه لا ريب أن هذه الوثائق المختلفة، ومنها بوزارة الأوقاف حجج أوقاف قديمة ترجع إلى القرن التاسع

الهجري؛ إذا نظمت ولخصت في فهرس دقيق جامع، تكون مرجعاً نفيساً لتاريخ مصر الإداري والاجتماعي والاقتصادي والقضائي في هذه العصور

وتوجد ثمة في هذا الميدان مهمة علمية أخرى تستطيع دار الكتب والجامعة المصرية والجامعة الأزهرية أن تضطلع بها، هي نشر طائفة من الآثار والمصادر الإسلامية والمصرية الجليلة مما تغص به دار الكتب المصرية. ولقد أخرجت لنا مطبعة بولاق ثبتا حافلا من هذه الآثار الجامعة في أواخر القرن التاسع عشر، فكانت مأثرة علمية جليلة لولاها لبقيت المكتبة العربية عاطلة حتى يومنا من أمهات المصادر والمراجع الكبرى؛ وقد أرادت دار الكتب أن تستمر في الاضطلاع بهذه المهمة، وما زالت تعمل لإخراج بعض الموسوعات والآثار الجليلة؛ وقد أخرجت بعض هذه الآثار، ولا سيما موسوعة (صبح الأعشى) للقلقشندي، ولكن عملها في ذلك بطيء جدا، ينقصه الطابع العلمي قبل كل شيء؛ ومن الواجب أن تنظم هذه المهمة تنظيما علميا، وأن تشرف على أدائها هيئة فنية قديرة، ومن الواجب أن تضاعف الجهود لإخراج هذه الآثار

والموسوعات في فترات معقولة، إذا ما زلنا نتلقى أجزائها في فترات متباعدة، وقد يستغرق إخراج الجزء الواحد عامين أو ثلاثة. ثم إن الجامعة المصرية والجامعة الأزهرية تستطيع كلتاهما أن تقوم في هذا السبيل بمجهود قيم؛ ولا نعلم أن إحدى الجامعتين قامت إلى اليوم بإخراج شيء يذكر من الآثار الإسلامية المخطوطة، هذا بينما ترى الجامعات والهيئات العلمية الأوربية والأمريكية تشرف باستمرار إلى إخراج الكثير من هذه الآثار؛ ويكفي أن نذكر في هذا الصدد أن كتاب (النجوم الزاهرة) لأبي المحاسن بن تغري بردى الذي تقوم الآن بإخراجه دار الكتب المصرية، قد أشرفت على إخراجه منذ أكثر من عشرين عاما جامعة كاليفورنيا الأمريكية، وقد تولى نشره وتحقيقه المستشرق الأمريكي وليم بوير؛ وان الجزء الفاقد من تاريخ مصر لابن اياس الذي أخرجته مطبعة بولاق منذ أربعين عاما، تولى إخراجه الأستاذ باول كاله الألماني بإشراف جمعية المستشرقين الألمانية وهكذا. ومن واجب مصر، باعتبارها زعيمة الثقافة العربية والإسلامية أن تأخذ بنصيبها من حركة أحياء الآثار الإسلامية على يد هيئاتها العلمية الكبرى، وفي مقدمتها الجامعتان المصرية والأزهرية. ولا ريب أن إشراف الجامعتين الكبيرتين على هذه الحركة يسبغ عليها قسطا من الطابع العلمي الذي ننشده

لآثارنا وموسوعاتنا؛ ذلك أن ما ينشر منها اليوم على أيدي الناشرين المتجرين يخرج في صور يرثى لها من المسخ والتحريف؛ وليس من المبالغة أن نطلب بهذه المناسبة إلى دار الكتب المصرية أن تسن من القواعد والقيود لاستنساخ المخطوطات ثم لنشرها ما يكفل إخراجها على أيدي ناشرين من الطراز الأول، يقدرون قيمتها العلمية ويخرجونها في أثواب محترمة، ويعرضونها للبيع بأثمان لا تخرج عن حد الاعتدال

هذه خواطر واقتراحات نعتقد أنها تجول في أذهان كثير ممن يعنون بالمباحث الإسلامية وحركة إحياء الآداب العربية، بل نعتقد أنها ليست بعيدة عن أذهان المشرفين على مصاير تعليمنا وثقافتنا. وإذا كنا نخص ثقافتنا التاريخية القومية وإحياء تراثها ومراجعها بشيء من الاهتمام، فذلك لأننا عكفنا على دراسة هذه الناحية من حركتنا العلمية والأدبية مدى أعوام طويلة، ولمسنا فيها أوجه النقص والعمل بصورة واضحة؛ وقد كنا ومازلنا نعتقد دائما أن دار الكتب المصرية، وهي أعظم مستودع لتراثنا المنسي، هي أول وأولى هيئاتنا بالعمل لتحقيق هذه الغاية، ذلك لأنها تضطلع بالفعل بناحية مهمة من هذه المهمة الجليلة؛ وكل ما يتطلب إليها هو أن تعمل لتنظيمها وتوسيع مداها على أسس علمية فنية تكفل أداءها بصورة مرضية؛ ولو عنيت جامعتنا المصرية، وجامعتنا الأزهرية بأن تأخذ كلتاهما بنصيبها من هذه الحركة لاكتملت لدينا أسباب النهضة، ولاستطاعت مصر أن تضطلع برسالتها في إحياء الآداب العربية والإسلامية وواجبها في إحياء تراثها القومي.

محمد عبد الله عنان

حول 14 سبتمبر

للأستاذ محمد محمود جلال

أرأيت كيف غير (الكورنيش) من الرمل وكيف حكم في حظوظ البقاع؟! هكذا سألت نفسي وبدأت الحديث مع صديق رافقني إلى سيدي بشر في أول سبتمبر نبحث عن دار ننزلها تحت حكم ظروف طارئة - بعد أن هجرت الإسكندرية كمصيف منذ خمس سنوات

وكأن الله يريد أن يقفنا على المزيد من آياته في تطور الكون وأنه جل شأنه قد انفرد بالدوام، فما تحدثنا حتى دلفت بنا السيارة إلى اليمين تقطع شارعاً ضيقاً قصيراً لم أره من قبل، قام على أحد جوانبه خلاء وعلى الآخر بناء ضخم يوشك على التمام، وقد كدت أنكر الربوع وكأنها غير تلك التي قضيت بها الصيف أعواماً ثلاث متواليات. وما وصلنا آخر الشارع حتى طالعنا منزل يتصل بالماضي ببنائه وموقعه اتصاله بذكرياته، ويجفوه بلونه الجديد، وبهذا اللون وحده يتقرب إلى الحياة الجديدة وما طرأ على (سيدي بشر)

هذا منزل (لافرلا) ثالث الأبنية بتلك المحلة نزلناه أول مرة منذ تسع سنين يوم كان (سيدي بشر) في الصف الأخير بين المصايف لا تسمع له بينها ذكرا، فإذا ضمك مجلس مع المقبلين على التصييف شاقك ما تسمع عن (سان استفانو) وفخامة المنازل حوله،

وطيب الهواء في (كارلتون)، وسهولة المواصلات في (سان جورج)، وتحس كأن البلدية ائتمرت مع الزمان القلب فحبت الأسماء الأجنبية بخير الأمكنة، وخصت هذه بالعناية البالغة بينما تركت الجهات الوطنية بلا ميزة، وعطلتها من كل حيلة!

غير أني أحسست لأول سكناي ظاهرة غريبة في (سيدي بشر)، فالرطوبة أقل كثيرا من جميع المحطات. والرطوبة شر ما يرهقني في الإسكندرية صيفاً، وهذه ميزة تعدل في نظري جميع المزايا الأخرى. ميزة تغلب أثرها على ما كنت أرى من دهشة حين أذكر بين أخواني أين أقضي الصيف وكأنهم لم يسمعوا بمحطة تدعى (سيدي بشر) ومازلت أذكر من فكاهات تتصل بهذا المعنى أن المرحوم محمد نافع باشا، وكان قطباً للحلقة الأولى بالكازينو - وكنا ندعوه المصطبة - كان يدعوني سيدي بشر إذا ناداني إشارة إلى انفرادي بينهم بهذا المصيف، أو إلى اكتشافي له إذا شئت الحق و (سيدي بشر) ذاته هو المحلة المزدحمة اليوم، وهو الكعبة للطبقة التي كانت تنفر منه

وتعده شيئاً غير الرمل وشيئاً غير المصيف منذ تسع سنوات، فثم منازل أنيقة على شاطئه الجميل، وهذه أفواج تختص (البلاج) بخير ساعاتها، وأفواج أخرى تسارع بسيارتها تتصيد المقاعد الخالية فيما انتثر فيه من مقاهٍ ومجالٍ للسرور

وإذا نظرت إلى (الربوع) وجدتها ... تَشقي كما تَشقى العباد وتسعد

أما يوم نزلنا سيدي بشر فلم يكن به غير ثلاثة أبنية وبضعة حوانيت في بناء مستقل - ولم يكن في الجيرة ما ينغص إلا تلك الأكشاك الخشبية وقد صفت على نظام في أجمل بقعة تشرف على شاطئه، وقد خصصت لأسر الضباط الإنكليز يقوم على حراستها نفر من أولئك الذين استحلوا الكل فلم يعفوا عن الأجزاء

ولم يكن للإنجليز أن يختاروا إلا خير البقاع، وأحسن المواقع، فهذه النقطة السوداء شهادة لسيدي بشر بامتيازه

وقد استتبعت هذه الجيرة الممضة أن يأوي إلى الجوار نفر من أخلاط الدخلاء يبيعون الجنود الخمور وأخرى الحاجات، يبجلونهم ويختصونهم بخير ما حوت حوانيتهم حتى ليمنعون المصري ما يطلب بأي ثمن

ولم تكن الحراسة بين المصريين عبئاً ولا ذات مشقة، فهؤلاء الحراس يودعون كرم الخلق المصري: العرض والحياة والمال. وينفقون ليلهم في تلك الحوانيت يشربون إلى السكر، ويسهرون إلى الصبح

بعد أسبوعين، وفي ليلة واحدة انعكست الآية وسمعنا بمختلف الرطانات إشادة بالخلق المصري والكرم المصري والنبل الوطني بين الجزع والفزع مما حدث، فقد استطاب الجند الضيافة، وأساغ الشرب ما لا يسوغ، وذاق المحتفون من الأخلاط بعض آثار الاحتلال في عتادهم وفي أنفسهم، وشهدنا آية الصبر في لحظة، وكسبنا للقضية الوطنية أنصاراً حتى بين الأقداح وفي أحقر الحوانيت

ومن صحب الدنيا طويلاً تقلبت ... على عينه حتى يرى صدقها كذباً

سألني بكر أولادي ذات صباح لمن هذه الأرض التي يقوم عليها (الكامبو)؟ قلت للبلدية. قال وما هي البلدية؟ أجبت تقريبا للمعنى من ذهن الطفل: هي للحكومة. قال وهل يؤدون أجرتها كما أدينا للخواجه (لافرلا)؟

قلت يا بني لم هذا الإلحاف؟ وفيم الإعنات؟ وما أريد أن أبكر بالغصص إلى قلبك. أعلم أن هؤلاء الإنجليز دخلوا مصر بحجة الدفاع عن عرش الخديو وحمايته، ولم يكن ثمة تهديد لعرش ولا هدر لحياة؛ وما زالوا يجدون في كل يوم سبباً لأطالة الضيافة، فهم يأخذون هذه الأرض بلا أجر كما احتلوا البلاد. قال، لو أننا نشتري منها قطعة صغيرة ونبني بيتاً صغيراً فلا نؤدي أجرة في كل عام. قلت: فكرة اقتصادية وجيهة، ولكن الإنجليز؟ قال: سأخرجهم حين أصبح ضابطاً. ألم تقل بالأمس إنك ستدخلني المدرسة الحربية؟

قلت: صدقت! ولقد قلت وأسأل الله إذا امتد الأجل أن توفق لخدمة البلاد، وادعوا الله لك ولإخوانك بحياة حرة في جو حر

وأردت أن ينقطع الحديث المشؤوم وعملت على تغيير مجراه فاستعجلته لنخرج على نية شراء بعض ما يلزمه، وسرنا نقصد محطة الترام فوجدنا حانوتاً مغلقاً وقد تأخر عني خطوة وانشغل به بصره، فلما ذكرته بالسير قال: ألم تر؟ قلت ماذا؟ قال دكان

الخواجه (خ)، والله يا بابا لقد بكيت أمس إذ قلت لعسكري البوليس صباح أمس حين وقف صاحب الدكان يحكي له ما جرى - خذ العساكر إلى القرقول فلم يفعل!!
سأني أن يستمر الحديث على هذه الوتيرة وقلت يا بني لقد تردد الدمع في مآقي الوزير شريف باشا من قبل حين رأى صفوف الاحتلال في طريق الخديو من المحطة إلى عابدين! ولا شك أنهم سيخرجون يوما بأذن الله، ولن ترى من ذلك شيئاً؛ ولقد رأى أجدادك أبشع من ذلك وأشنع، فقد روى (هنس زيزنر) أنهم كانوا يقتلون جرحى المصريين في التل الكبير؛ وما زلنا نرى من أحفادهم من يحتمعون بهم ومن يثقون.
فيوم لا ترى واحداً من هذا الفريق لا ترى على أرض الوطن محتلاً، ولولاه ما لحق القاهرة ذلة 14 سبتمبر سنة 1882
دارت الأيام، وعدت إلى سيدي بشر وفي مكتبي الأول أكتب رسالتي وأشخص بين الفينة والفينة إلى البحر فلا أرى معسكراً يحجب، ولا علامة تثير الغصص وتذكي الألم، قلت مع الرسول الأمين عليه صلاة الله وسلامه: (ويعجبني الفأل)
لعل ما ترى من استنامة للرفاهية أشبه بهذا الطلاء الزائل الذي كاد يغير من منزل (لافرلا) - لعل الجفوة التي ترى بين رجالنا وشبابنا للمبادئ القويمة أشبه بتلك التي كنا نرى
ونسمع عن سيدي بشر منذ تسع سنين، ولعل ما يحجب عنا محاسن الخلق الوطني أشبه بخشبات المعسكر التي تكسرت وزالت، ولعل القوة الخارقة الطارئة التي اعتبرها علماء الاجتماع وأساطين التاريخ ميزة الخلق المصري حين هب بعد قمبيز، ومثلت الحكم الإسلامي بالطابع الخاص في الدول الطولونية. والأخشدية والأيوبية، وحكمت القومية المصرية في عهد المماليك ومحمد علي وحررت البلاد من الإنجليز في 19 سبتمبر سنة 1807، لعلها بأذن الله قريب منا! ولعلها على الأبواب! ومع اليوم غد، ولكل أجل كتاب

(سيدي بشر)

محمد محمود جلال المحامي

صور حجازية (طبق الأصل)

الإعدام!

للأستاذ علي الطنطاوي

سيقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض: هذه وحشية، هذه همجية، هذا لا يكون في القرن العشرين، قرن الحرية والنور، هذا يأباه فلاسفة العالم المتمدن؛ المسيو فلان، والمستر علان، والهر جرمان، والسنيور إيطاليان
ويقول الحق: هذا واجب، هذا حسن، هذا دواء القرن العشرين، قرن الاستعمار والاستعباد، وإبادة الضعفاء، واغتصاب الحريات، هذا ما أمر به الله، وجاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم فلينظر امرؤ مسلم: أيتبع أمر الله، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أم يتبع رأي المسيووات والمساتير، والهررة والسنانير؟ . . .!
سمعت - وأنا في مكة - أن أمراً سيقع بعد صلاة الجمعة (آخر المحرم سنة 1354) فجعلت أرقب وأنتظر، لا أحب أن أسأل أحداً، كيلا تفوتني لذة المفاجأة وروعة الحدث.
ثم إن الرجل في الحرم كالسائح في أرض الله، لا يدري من يسأل؛ ولا يعرف من يخاطب، وبينا هو في (الهند) يسمع لغة الهنود ويرى أزياء الهنود، ويبصر عادات الهنود، إذا به ينتقل بعد خطوات إلى (نجد) فإذا هو بين النجديين، وإذا كل شيء من حوله عربي نجدي، ثم يخطو فإذا هو في مصر، بين المصريين، يسمع حديث مصر. في لهجة مصر. . . فكأن الدنيا كلها قد استقرت في الحرم، تستظل بالبيت العتيق، وتطوف به، وتجثو خاشعة من حوله، فلا يحس الرجل وهو فيه بأن وراءه دنيا، أو ظاهر جدرانه حبا من الناس، أو عامراً من الأرض
حتى إذا قضيت الصلاة، وانفتل الإمام، ابتدر الناس أبواب الحرم يستبقون إلى شارع الحكومة - وهو في أسفل أجياد، يمتد من شمال الصفا حتى يجاوز باب إبراهيم - فلم تكن إلا هنيات حتى امتلأ الشارع على سعته بالناس، ولم يبق فيه موطئ قدم، فجعلت أزاحم الناس لأخلص إلى الساحة، فلا أتقدم خطوة؛ ومن لي باختراق هذا السد الهائل من الأجساد، واجتياز هذا الخضم من الناس؟ فأيست واحتسبت مصيبتي في فوت

المشهد عند الله، وهممت بالعودة إلى الحرم، وإذا أنا بالشيخ يوسف ياسين (سعادة سكرتير جلالة الملك)
فتعلقت به وقلت:
- والله لا أدعك حتى تبلغ بي الساحة
فأعتذر وتملص، فما نجا ولا تخلص، وكيف يتملص مني وقد كنت كالغريق وجد سفينة النجاة، أفيدعها بعدما وجدها؟ فأجاب على كره وسار وأنا أتبعه، والبحر ينشق له كأن بيده عصا موسى. . . وما للناس لا يتفرقون من بين يديه حذرين خائفين، وهو سكرتير الملك؟ حتى إذا بلغ بي درج القصر عاد لشأنه وتركني، فصعدت فلم أجد مكاناً أقف فيه، ووجدت الغرف كلها ملأى بالموظفين والمقربين والحاشية فقادوني إلى غرفة فخمة أعدت للأمير فيصل (ابن الملك ونائبه على الحجاز) ولأهل البيت: بيت الملك ولم لا يفعلون وأنا ممن يكتب في الصحف، والإكرام إنما يكون لمن يكتب في الصحف، أو يملك سبيلاً من سبل الدعاية، والحذر إنما يكون من هؤلاء. فذكرت قالون وزير لويس السادس عشر، حين رأى أن خير طريقة لتقوية الحكومة الضعيفة، وإغناء الخزانة الفقيرة، أن تقيم الحكومة الولائم الفخمة وتنفق الأموال الطائلة، تشتري ألسنة المادحين، وأقلام الكاتبين حتى يقال: إنها غنية. . فقالوا: إنها غنية، لأنهم أكلوا خبزها ولكن الخزانة قالت: إني فقيرة! وقال التاريخ: إن قالون رقيع . . .
وقفت في النافذة بين فتية من آل البيت؛ فيهم ابن للأمير فيصل في نحو الثانية عشرة من عمره، ما رأيت في لداته أثقب منه ذهناً، ولا أصح جواباً، ولا أحد ذكاء؛ وأطللت على الناس، وإذا هم أخلاط من كل جنس ولغة وزي، فمن رجل عباية على رأسه عقال أسود على صماد أحمر قد التحف بعباية رقيقة على ثوب أبيض، وقد حلق لحيته كلها إلا نقطة واحدة من العثنون، وهلالاً دقيقا من تحتها، نما فيه صف واحد من الشعر كأنما هو مروحة تدلت على صدره: سنة يتبعونها ما أنزل الله بها من سلطان. . . وهذا هو النجدي
ومن رجل يلبس ثوباً رقيقاً فوقه رداء قصير (جاكيتة) من قماش هفهاف، وعلى رأسه قلنسية (طاقية) بيضاء، إذا مشى في الشمس تعمم عليها بملحفة بثقل الفراش، يتقي بها شمس مكة الحادة المخيفة وهو حليق اللحية صغير الشاربين. . . وهذا هو الحجازي
ومن رجل وسخ الثياب، ممزقها، لا تدري عن ثيابه ما لونهما وما هي، وعلى رأسه حبل قد وضعه مكان العقال. . . وهذا هو الأعرابي
ومن رجل يلبس ثوباً متقن الصنع، عليه عباءة جميلة شفافة وعلى رأسه عقال مذهب، أو يلبس بدل الثوب حلة (بدلة) بيضاء وهو حليق اللحية، إلا قليلاً منها يبقيه بمثابة الدلالة على أنه ملتح. . . وهذا هو السوري. وأكثر السوريين في الحجاز موظفون في الوظائف الفنية، وأقلهم تجار
ومن رجل على رأسه عمة ضخمة فخمة كعمائم السلاطين من آل عثمان - يوم كان لآل عثمان سلاطين، وكان لسلاطينهم عمائم - وقد أرخى بين كتفيه عذبة طويلة، وله لحية كثة مستديرة، وشاربان طويلان، أما ثيابه فقميص تحته سراويل بيض، تبلغ الكعبين. . . وهذا هو الهندي
ومن شاب حليق الوجه كله (على الأسلوب الأمريكاني) نظيف الثياب مهفهف قد ائتزر بمئزر (فوطة) لفها على خصره النحيل لفاً محكماً، واجتزأ بها عن السراويلات، وارتدى عليها رداء قصيراً رقيقاً، وربما بلغ ثمن المئزر من هذه المآزر خمسة الجنيهات أو أكثر. وهذا هو الطالب الجاوي، وما أكثر هؤلاء الطلاب في مكة . .
ومن عبد أسود، جعد الشعر، أفطس الأنف، ضخم الشفة، عار إلا من خرقة تستر عورته أو بعض عورته. . . وهذا هو الأفريقي الأسود
ومن. . . ومن أمم ربنا التي لا تعد ولا تحصى
وكان القوم مختلفين في أزيائهم ولغاتهم وأجناسهم، ولكنهم تجمع بينهم هذه القبلة التي قطعوا السباسب، وخاضوا البحار، ليواجهوها، ويقفوا أمامها، ويتعلقوا بأستارها ثم أقبل الجند، وهم بثياب عربية. قد تمنطقوا عليها بمناطق الرصاص، فاصطفوا من حول الساحة، ثم أقبل الأمير فيصل في موكبه، يحف به طائفة من عبيده الأمناء الأشداء الأوفياء، فصعد إلى الغرفة التي نحن فيها فجلس في شرفتها الكبرى ثم جيء بالرجل؛ وهو قصير كز ساهم، ما عليه إلا قميص واحد مشقوق الجيب، وكان

أصفر قد دمع وامتقع لونه، وغاض من وجهه الدم، مجموعة يداه إلى قفاه، قد مات من قبل الممات. يقوده جندي آخذاً بتلابيبه، حتى إذا بلغ به الساحة خلاه فهوى جاثياً على ركبتيه، فلبث لحظة ما يفتح عينيه من الجزع، ثم ارتدت إليه نفسه بعد حين، فجعل يقلب عينيه في الناس فيرى كل شيء من حوله ميتاً لا حياة فيه، فكأن الدنيا قد أظلمت في ناظريه حين
يئس من الحياة، كبيت أطفئ فيه المصباح في ليل داج
وجعل يرى الشمس مشرقة، ويرى الجند جائين ذاهبين، يدلون بشاراتهم وسلاحهم، ويرى القصر قائماً يحمل سطوة الحكومة وهيبة السلطان. . . ولكنه لا يرى من ذلك كله إلا صوراً مطموسة، تطلع عليه من خلال حلم عميق. . . ثم تضاءلت هذه الصور واختلطت، ولم يبقى قيد ناظريه إلا الكعبة، يبصرها من باب الحرم، فجعل يحرك شفتيه بالتوبة والاستغفار ويشير بسبابته إشارة التوحيد، ثم أغمض عينيه وجرفه سيل من العواطف المتباينة فغاب في ذهول عميق، ولم يعد يفكر في شيء
وجيء بالمجرم الآخر، وهو عبد أسود، ضخم الجثة، غليظ الشفتين، كثير الشعر، كأنه غول هائل، أو وحش مروع، وقد قيده الجند، وجمعوا يديه إلى عنقه وأقبلوا يمسك به ستة منهم وهو يصاولهم ويقاومهم، ويزمجر ويصرخ صراخا شديداً، وهم يزبرونه ويقرعونه حتى انتهوا به إلى الساحة، فاجتمعوا عليه فأضجعوه على سرير من الخشب وشدوه إليه شداً وثيقاً، وأقاموه بحيث يرى رفيقه ويبصر مقتله
وكأن العبد قد اهتجمت نفسه، وأدركه الخور، فسكت وسكت الناس وعلقوا أنفاسهم وشخصوا بأبصارهم
وجعلت أطل من الشباك أبحث عن الجلاد فلا أرى أحداً، وأفتش عمن يتلو حكم الإعدام فلا أجده. وأرى سمو الأمير يشير بيده، فإذا عبد ضخم يبرز من بين الصفوف، وبيده سيف صقيل مسلول، فيأتي الأعرابي من ورائه وينخسه بالسيف، فينتبه ويمد عنقه مستطلعاً، فيهوي العبد بالسيف على قذاله، ثم يحز به الرأس حزّا، فلا تمضي ثوان إلا والرأس قد بتر عن الجسد، من القذال إلى أعلى الصدر، وطاح ثلاثة أمتار قبل أن تند من المقتول صرخة، ونفر الدم من عنقه كأنه نافورة، ومال الجسد قليلاً قليلاً ثم هوى، وهويت أنا قبل هويه وكفاي على عيني، ولم أعد أشعر بشيء
ولما صحوت قيل قد فاتك المشهد الهائل: قطعت يد العبد ورجله من خلاف
قلت: ويحكم، ماذا تقولون؟
قالوا: قطعت يده ورجله، ألم تتل قول الله عز وجل:
إنَّما جَزَاءُ الذّين يُحاربُونَ الله ورَسولَه ويَسعْونَ في الأرض فَساداً أنْ يُقَتَّلُوا أو يُصَلَّبوا) أو
تُقَطّعَ أيدْيهم وأَرْجُلُهم من خِلاف أو يُنْفَوْا مِنَ الأرض). أما إنه لولا هذا ما بلغتم أرض الحجاز سالمين. وما العهد السابق ببعيد، أفلا نستحيي بقتل واحد أو أثنين الناس جميعاً؟ قلت: بلى والله! صدق الله العظيم: (ولكم في القِصاص حياة)
دمشق
علي الطنطاوي
الشعر في صدر الإسلام وعهد بني أمية - 2
بقلم أحمد حسن الزيات
خصائص الشعر في العراق
لعل الشعر العراقي الإسلامي أصدق ما يصور حياة البادية، وأصح ما يعبر عن نفسية العرب؛ فانه - وإن كان كما قلنا استمراراً للشعر الجاهلي يصدر عن دوافعه، وينبع من منابعه - أنقى جملة وأبين علة وأصح نسبة، لقربه من عصر التدوين واتصاله بأسباب السياسة وأحداث التاريخ. وهو مظهر لتلك الحياة المدنية الأولية التي هيأها الإسلام للعرب لأول مرة، فجعل من الأشتات وحدة ظاهرها الجماعة والألفة، وباطنها العداوة والفرقة؛ فهو مهاجاة بين الأفراد، ومساجلة بين الأحزاب، ومفاخرة بين القبائل، ومدح للزعماء والخلفاء؛ وهذه الموضوعات بطبيعتها تقتضي اللفظ الجزل والأسلوب الرصين والعروض الطويل والصور البدوية، وتعتمد في الهجاء على مثالب الآباء من جبن وبخل وقلة وذلة، وفي المدح والفخر على ذكر أيامهم الدامية الماضية وما ظفر فيها أسلافهم من الغلب والسلب. فالهجاء في هذا العهد بأنواعه الخاصة والعامة يكاد يكون

مظهره العراق، لتكالب القبائل المتعادية عليه، وظهور المذاهب المتباينة فيه، وغلبة البداوة والأنفة والبطر على أهله. فشعراؤه يبتدئون به ويفتنون فيه ويعيشون عليه، وهو ينتحل الأسباب المختلفة، ويرتدي الأثواب المتعددة، فيكون فرديا وقبليا ووطنيا ودينيا وسياسيا، ولكنه في الواقع إنما يصدر من باعث واحد هو العصبية الموروثة والأحقاد القديمة

وقد ينبت المرعى على دِ مَن الثرى ... وتبقى حزازات النفوس كما هيا

فقائل هذا البيت غياث بن غوث الأخطل صوت الجزيرة ولسان التغلبية وأديب النصرانية وشاعر الأموية. كان أول ما غرم به من شعر الهجاء، هجا امرأة أبيه وهو صغير، وهجا كعب بن جعيل شاعر تغلب، فأهمله وهو يافع، وعلق به لقب الأخطل منذ شب لسفاهته. ثم مضى يقرض الشعر فيما يشجر من الخصومة بينه وبين الناس، أو بين قبيلته وبين القبائل، حتى كان بين يزيد بن معاوية وهو ولي العهد وبين عبد الرحمن بن حسان الأنصاري تقاول وجدل، فطلب من كعب بن جعيل أن يهجو الأنصار، فتحرج أن يذم قوما آووا رسول الله ونصروه، وقال له: أدلك على الشاعر الفاجر الماهر (يريد الأخطل): فهجا الأخطل الأنصار بالفلاحة واللؤم والخمر، وفضل عليهم قريشاً في قصيدته الرائية، وكاد يشفى من ذلك على الخطر لولا عون يزيد؛ وبالغ الأمويين في إيثاره وإكرامه، وأمعن هو في النفح عنهم، فناضل الزبيريين بعد الأنصار، وصمد إلى القبائل القيسية فهتك عنها حجاب الشرف قبيلة قبيلة بقصيدته التي مطلعها:

ألا يا اسملي يا هندُ هندَ بني بكر ... وإن كان حيَّاناً عِدَي آخر الدهر

لمناصبته الأمويين العداء من جهة، ولا قتحامها الجزيرة على قومه من جهة أخرى، ثم ختم حياته بممالأة الفرزدق ومهاجاة جرير. والأخطل وإن كان شديد التمسك بنصرانيته، على وثيق صلاته بالخلفاء، لم يشذ عن طبيعة العرب في التدين، فقد قال الأب لامنس في فصل كتبه عنه: (إن أثر النصرانية في دين الأخطل ضئيل، ونصرانيته سطحية ككل العقائد الدينية عند البدو)، فهو يدمن الخمر في حمى الدين، ويكثر الهجاء في حمى الخليفة، ويهاجم القبائل في حمى تغلب؛ ولكن هجاءه كان عفيف اللفظ لا يركب فيه متن الشطط ولا يتجاوز به حدود الخلق

وأبو فراس همام بن غالب الفرزدق الدرامي ثم التميمي نشأ كذلك بالبصرة على قول الهجاء مع شرف أسرته وغنى قبيلته وعزة نفسه؛ فكان يهجو بني قومه لحدة طبعه وشراسة خلقه، فيشكونه إلى أبيه فيضربه؛ ثم لج في هجاء الناس حتى استعدوا عليه زياداً والي العراق لمعاوية، فطلبه ففر منه في مدن العراق وقبائله، ثم لجأ إلى المدينة واستجار بواليها سعيد بن العاص من زياد فأجاره؛ فلما مات زياد عاد الشاعر إلى وطنه فساهم فيما وقع فيه من حروب وفتن بعد موت معاوية ويزيد، حتى مني بمهاجاة جرير فشغلت وملأت عمره وصقلت شعره، وظلت هذه المهاجاة أربعين سنة ونيفاً كان منها للناس مشغلة، وللوسواس مهزلة، وللأدب العربي ثروة ضخمة من الشعر لا تخلو على سفاهتها وبذاءتها من حكمة. وكان جرير بن عطية الخطفي التميمي قد قال الشعر كصاحبه في الحداثة الباكرة، وقاله مثلها في الهجاء، ولكنه بدأ بالرجز على نحو ما يكون من الرعاة وهو منهم. وكان خمول عشيرته وضعة أسرته وفقر أبيه وحدة خلقه من العوامل التي ساعدت الطبع على نبوغه في الشعر وتفوقه في الهجاء؛ وكان أول من نازله وأفحمه غسان السليطي حين هجا قومه، فاستغاث السليطي بالبعيث فأغاثه وهجا جرير، فنقض جرير قوله بالهجاء اللاذع، فناضل عنه الفرزدق لموجدة في نفسه على جرير، وتهاجى الشاعران التميميان من أجل ذلك. وفضل الأخطل الفرزدق على جرير إما لدفاعه عن قيس، وإما لرشوة محمد بن عمير إياه، فهجاه جرير، ثم نبحه الهجاء من كل مكان حتى نصب له من الأقران ثمانون شاعراً ظهر عليهم جميعاً إلا الفرزدق والأخطل فانهما ثبتا له ونازعاه الغلبة. وانشعب الناس في أمر جرير والفرزدق شعبتين تناصر كل منهما أحد الشاعرين؛ وكان بين الفرزدقيين والجريريين ما بين العلويين والأمويين، يطلب كل منهما الغلبة لصاحبه بالدعاية والنكاية والرغبة والرهبة والحلف، يقوم الأولون بالمربد والآخرون بمقبرة بني حصن، وقد وقف الشاعران كل بين أتباعه وأشياعه ينشدهم شعره وهم يكتبونه، والرواة ينشرونه، والأدباء والأمراء يتناولون ما يروى بالموازنة

والنقد والحكم، والأنصار يحاولون رشوة الشعراء واستمالة العلماء ليحكموا لصاحبهم على خصمه؛ فقد روى الأغاني أن أحدهم تبرع بأربعة آلاف درهم وبفرس لمن يفضل الفرزدق على جرير. وليس أدل على اهتمام الناس بأمرهما واختلافهم في الحكم على شعرهما من أن يتهادن الجيشان المتقاتلان ساعة ليحكم أحد الخوارج الأدباء بين رجلين من رجال المهلب تنازعا في أمر جرير والفرزدق، فقد ذكر ابن سلام أن رجلين تنازعا في عسكر المهلب في جرير والفرزدق وهو بازاء الخوارج، فصار إليه فقال لا أقول فيهما شيئاً، وكره أن يعرض نفسه لشرهما، ولكن أدلكما على من يهون عليه سخطهما: عبيد بن هلال، وهو يومئذ في عسكر قطري بن الفجاءة، فأتيا فوقفا حيال المعسكر فدعواه فخرج يجر رمحه، وظن أنه دعي إلى المبارزة، فقالا له: آلفرزدق أشعر أم جرير؟ فقال: عليكما وعليهما لعنة الله! فقالا: نحب أن تخبرنا ثم نصير إلى ما تريد، فقال من يقول

وطوى القيادُ مع الطراد بطونها ... طي التَّجار بحضرموت بُرُوَدا

قالا: جرير. قال: هو أشعرهما

وهناك طائفة أخرى من شعراء العراق كعبيد الراعي وأبي النجم العجلي والراجز اتخذوا من الشعر ظفراً وباباً مزقوا بهما الأعراض وأشاعوا هجر القول في الناس، ولكن أحدهم لم يبلغ من سطوة الشعر ونباهة الذكر ما بلغ جرير والفرزدق والأخطل، لأنهم كما قال أبو عبيدة: (أعطوا حظاً من الشعر لم يعطه أحد في الإسلام: مدحوا قوماً فرفعوهم، وذموا قوماً

فوضعوهم، وهجاهم قوم فردوا عليهم فأنهضوهم، وهجاهم آخرون فرغبوا بأنفسهم عن جوابهم فأسقطوهم)

مذهبهم في الهجاء

مذهبهم في الهجاء هو المذهب المتبع والطراز الغالب؛ على أنهم يتفاوتون فيه تفاوتهم في الطبقة والبيئة والطبع

فالأخطل سيد في قومه، كريم في نسبه، نبيل في نفسه، يعاقر الخمر ويجلس الملوك ويحترم الدين ويحتمل في سبيله ضرب الأسقف وأذى السجن وإن كان لا يتعبد ولا يتزهد. ومن أجل ذلك كانت لغته في الهجاء كما ذكرنا من قبل لغة الخاصة، لا يسف إلى القبيح ولا يستعين بالمخازي، وإنما يهاجم القرن في صفات الرجولة فينفي عنه الكرم والبأس والمجد والصدق كقوله في تيم:

وكنت إذا لقيت عبيد تيمٍ ... وتيما قلت أيهما العبيد!

لئيم العالمين يسود تيماً ... وسيدهم وإن كرهوا مسود

وكقوله في كليب بن يربوع:

بئس الصحاب وبئس الشرب شربهم ... إذا جرى فيهم المزَّاء والسكَر

قوم تناهت إليهم كل مخزية ... وكل فاحشة سُبَّت بها مضر

الآكلون خبيث الزاد وحدهمُ ... والسائلون بظهر الغيب ما الخبر

وأقسم المجد حقاً لا يحالفهم ... حتى يحالف بطنَ الراحة الشعَر

ولعل أفحش هجائه قوله في قوم جرير:

قوم إذا استنبح الضيفان كلبُهم ... قالوا لأمهمُ بولي على النار

فتمنع البول شحاً أن تجود به ... ولا تجود به إلا بمقدار

والخبز كالعنبر الهندي عندهُم ... والقمح خمسون إردباً بدينار

فترى أنه حتى في إقذاعه وإيجاعه لا يتدلى إلى ذكر المثالب الخاصة والمعايب الفردية، وإنما يهاجم قبيلة الخصم كلها فيقايس بينها وبين قبيلته في السمو إلى المعالي والسبق إلى الغايات، وفي ذلك يجد بلاغه ومدده، فلا يضطر اضطرار جرير إلى ذكر الصغائر التماساً للغلبة الدنيئة من أقرب طريق. انظر إلى قوله لجرير:

يا ابن المراغة إن عَمَّيَّ اللذا ... قتلا الملوك وفككا الأغلالا

وأخوهم السفاح ظمَّأ خيله ... حتى وردن حبى الكلاب نهالا

فانعقْ بضأنك يا جرير فإنما ... منتك نفسك في الخلاء ضلالا

منتك نفسك أن تكون كدارم ... أو أن توازي حاجباً وعقالا

وإلى قوله له:

ولقد شددتَ على المراغة سرجها ... حتى نزعت وأنت غير مجيد

وعصرت نطفتها لتدرك دارماً ... هيهات من أمل عليك بعيد
وإذا تعاظمت الأمور لدارم ... طأطأت رأسك عن قبائلِ صيد
وإذا عددت بيوت قومك لم تجد ... بيتاً كبيت عطاردَ ولبيد

تجد أن هجاءه أقرب ما يكون إلى المنافرة والفخر. ومن الواضح أن هذا الهجاء العفيف المترفع وإن أمض لا يجري مع هجاء جرير في ميدان، ولا يستوي وإياه عند العامة في ميزان، فكيف إذا اجتمع إلى ذلك خمود الشيخوخة في الأخطل وحدة الشبيبة في جرير؟ إن جريراً نفسه قد علل وناء خصمه عنه في آخر الشوط بكبر سنه، فقد قال: (أدركته وله ناب واحد، ولو أدركته وله نابان لأكلني). وقال في قصيدته النونية التي هجا بها الأخطل على أثر تفضيله الفرزدق عليه:

جاريت مُطّلع الرهان بنابهِ ... رَوْقُ شبيبته وعمرك فان

وإذا استثنينا هجاء الأخطل لجرير وجدنا أشهر أهاجيه إنما قالها في أغراض قومية أو سياسية. ومن تلك الأهاجي المأثورة قصيدتان تلخصان مذهبه وتصوران فنه: الأولى في هجاء القبائل القيسية ومطلعها:

ألا يا اسلمي يا هند هند بني بكر ... وإن كان حيّانا عِدَي آخر الدهر

والأخرى في مدح عبد الملك بن مروان وذم خصومه ومطلعها:

خف القطين فراحوا منك أو بَكَروا ... وأزعجتهم نوى في صرفها غِيَرُ

ومنها:

بني أمية إني ناصح لكم ... فلا يبيتن منكم آمن زُفَرِ
فان مشهده كفر وغائلة ... وما يُغيَّب من أخلاقه وعرِ
إن العداوة تلقاها وإن كمنت ... كالعُر يكمن حينا ثم ينتشر
بني أمية قد ناضلت دونكم ... أبناء قوم همُ آووا وهم نصروا
وقيسَ عيلان حتى أقبلوا رُقُصاً ... فبايعوك جهاراً بعد ما كفروا
ضجوا من الحرب إذ عضت غواربهم ... وقيس عيلان من أخلاقها الضجر

والأخطل لنصرانيته لم يستطع أن يتخذ من الإسلام سبيل للفخر ولا مادة للهجاء، فاكتفى بذكر مناقب آبائه ومثالب أعدائه، على أن يستغل أحيانا بعض ما أنكر الإسلام فيهجوا وإن كان هو يستبيحه، كقوله في الأنصار يرميهم بشرب الخمر:

قوم إذا هدر العصير رأيتهم ... حمراً عيونهمُ من المسطار

وكقوله في كليب بن يربوع:

بئس الصحاب وبئس الشرب شربهم ... إذا جرت فيهمُ المزَّاء والسكَر

يتبع

الزيات

في مؤتمر الكتاب الأوربيين لحفظ الثقافة

خطاب أندريه جيد

نحن قليل في هذا المكان بعددنا، كثير إذا اقتصر الأفراد منا على حب بلادهم، وكثير كثير إذا أضمر هؤلاء الأفراد للبلاد الأخرى ضغينة وحقداً: إذا ما حدثتكم عن شعوري أيها السادة أقول بأني إنساني النزعة في الوقت الذي ما أزال فيه فرنسياً صميما، وأقول أني فردي من أنصار الفردية مع الاعتقاد الراسخ بأني شيوعي صميم، لا أجد في الشيوعية غير نصرة لفرديتي وكل تأييد، لقد كانت رسالتي التي حملتها طوال خمسة وستين عاماً: أنه بمقدار ما تكون شخصية الإنسان قوية وأصيلة فيهن تكون خدماته للمجتمع أجل وأحسن، وقد أضفت في السنوات الأخيرة إلى هذه الرسالة رسالة جديدة هي من الأولى بمثابة البنت للأم، هي أن الجمعية الشيوعية تترك المجال الوسيع لكل شخصية وللخصائص التي تتميز بها كل شخصية تنمو وتزدهر على وجهها الأكمل؛ وحسبي أن أتمثل بعبارة لأندره مالرو ساقها في مقدمة أحد الكتب وقد أصبحت مثلا يجري على كل لسان (إن الجمعية الشيوعية ترد إلى كل شخصية نتاجها الخصيب)

وأذكر اسم رابليه في هذا الكلام لأن النشاط الذي تركه في آدابنا الفرنسية الجميلة لم يتركه أديب من بعده، ولأني أعتبره خير ممثل للأديب الفرنسي العريق، ولربما كان فيما كتب بين معاصريه خير ممثل للعصر الذي عاش فيه، لقد أخذت الآداب الفرنسية بعد رابليه تهدأ ثورتها، تتوخى الطريق المطمئنة المسالمة التي لا صعاب فيها ولا

عراقيل، تجنح إلى الغموض والإبهام غير مكترثة بالمادة مشيحة بوجهها عنها
أعني بالآداب الفرنسية التي سميت (كلاسيكية) كل ما يدخل تحتها من كتاب وقراء ونظارة وأبطال للرواية والقصة، أعني بأن كل هؤلاء قد كفوا مؤونة السعي والجد طلباً للعيش؛ وعلى هذا الأساس كانت وظيفة الأديب أن يحدث أناساً موفورين عن أناس موفورين، وإذا لم يكن منعماً هذا الذي يحدث عنه الأدب، فليس من شأننا أن نعرف ذلك وليس من شأننا أن نعرف لماذا كان أكثر هؤلاء الذين يحدث عنهم أغنياء مغتبطين؟ وعلام يستندون في جمع ثرواتهم؟ إن الأدب لا تعنيه كل هذه الأسئلة الممضة! فهؤلاء الأبطال يصورهم لنا راسين في مآسيه الرائعة وقد خلوا من تكاليف الحياة ليس لهم إلا أن يندفعوا مع أهوائهم
مرخين العنان لقلوبهم تعشق وتحب، ولرؤوسهم تحلم وتفكر. إن هؤلاء الأبطال لا يعيشون في غير أسطر ضمت في كتاب أو على خشبة مسرح يتقمص أفعالهم الممثلون
لست هنا في معرض دعوى أدافع بها مطالباً بحكم على هذه الآداب الكلاسيكية، فأني من أكثر الناس حباً لها وإعجاباً بها وبكل ما هو رائع وجميل، بل أقول إن الأدب لم يشهد منذ الإغريق الأقدمين عهداً رائعاً مثل عهد هذه الآداب. ولرب قائل يقول: إن هؤلاء الملوك والملكات وهؤلاء الأمراء والكبراء الذين لا تخلو منهم رواية مسرحية ألفت في القرن السابع عشر هم الذين ينبو عنهم ذوقنا؛ واكبر ظني أن ليس هناك أحد يستسيغ الحديث عن أناس نسبت إليهم أفعال حميدة وكلام مزوق معسول، وقد جعلوا في جو من الأبهة والملك يشفعان لهم إذا لم يأت كل ما نسب إليهم مطابقاً للواقع صادراً عن ميولهم ومجرد احساساتهم؛ وإذا استساغ البعض حديثاً من هذا النوع فانهم لا يجدون فيه صورة منقولة عن عالم الأحياء الذي يعيشون فيه. فليس كل من يدبون على الأرض مترفين ولا أصحاب امتيازات
لعمري أن آدابناً تلك سمتها لا تعبأ بغير هذا النمط من الناس ولا تهتم بغير الرؤوس والقلوب منهم، لا يرجى لهم مستقبل تأمن فيه من أن تزل قدمها فتهوي إلى أعماق البحر الذي تمشي على شطآنه
إن الآداب والفنون إذا لم تكن مرآة للحياة وصدى للحقيقة فأنها أشياء مصطنعة لا تلبث أن تفقد قيمتها، وإننا إذ استثنينا الآداب اللاتينية لا نجد آداباً أوربية أخرى أكثر من الفرنسية إيغالاً في الخيال وتعلقًا به، ما تزال إلى الآن تعتمد عليه اعتماداً كبيراً. إن الآداب لا تسمو ولا تقوى ولا تتجدد إلا بالمقدار الذي تستمده من الشعب الذي يعتبر بحق دعامة المجتمع وأساس بنيانه، وما أشبه حال الأدب ببطل الأسطورة الإغريقية ذات المغزى البليغ التي تحكي أن أنتيوس يفقد قواه وتفل عزيمته كلما ارتفعت رجلاه على عن أن تمس الأرض
يتساءلون عن الكاتب الذي غذى الآداب الفرنسية في غضون القرن الثامن عشر وجدد في حيوتها! ليس هو فولتير ولا هو مونتسكيو على عبقريتهما وما قدماه لهذه الآداب من البدائع. إن هذا الكاتب رجل خرج من بين الرعاع لا حسب له ولا نسب: هو ديدرو وهو روسو
يقول كاتب في جريدة (الاكسيون فرانسيز) منذ عهد قريب: (إن المدينة هي الكذب ومحض الاختلاق، وظيفتها إقامة رجل متصنع في شؤونه متكلف في أحواله مكان الرجل الطبيعي العادي، شبهها شبه الرجل الذي يبرز مرتدياً ثيابه مصففاً شعره بعد أن يكون عارياً في حجرته الخاصة) ثم يختم المقال بقوله (على المرء أن يختار بين أن يكون متمدناً لا يعرف للإخلاص معنى وبين أن يكون غير متمدن مخلص لذاته)
كلا ليس من المحتم على المدنية أن تتجرد من صفة الإخلاص، وليس من اللازم على الإنسان إذا أراد التميدن أن يكون كاذباً أفاكا، بل إذا لم يكن للمدنية بد من شيء تتصف به وتحمل طابعه فأنه الصدق. إني لست من الذين يلقون تبعة الكذب والتزييف البادين على كل مظهر من مظاهر حياتنا على عاتق الفرد، فأن الجاني هو المجتمع كلما أراد أن يخنق صوت الشعب، وكلما حاول أن يتركه على حاله من الغباوة والجهل والاستعباد، لا يعرف ما يجيش في فؤاده فيعبر لنا عنه ولا يدرك ما تستفيده الثقافة منه إذا جهر بما هو دائر في خلده حائم بمخيلته
وقفت نفسي مذ كنت شاباً احترفت حرفة الكتابة على دحض الزعم القائل (قال

الإنسان كل ما يمكن أن يقوله وليس في استطاعة أحد أن يقول غير ما قيل) وقد اتخذ هذا الزعم وطنيو ذاك العهد شعاراً لهم يتمثلون به
أليس من دواعي العجب والغبطة وقد مضى عصران كاملان على الكلمة التي كان يعتز بها لابروبير: (جئت في الزمن الأخير) أن نرى أنفسنا أمام عالم حافل بالعجائب والغرائب لم نصل بعد إلى كثير أو قليل من أسراره، أمام عالم يقظ في إبان فتوته يطلع علينا كل يوم بجديد
من يقل أدب قوم فكأنه عنى بذلك خصالهم وأحوال مجتمعهم، لكن هذه القاعدة كثيراً ما تشذ، وقد كثر شذوذها في الآداب الفرنسية، فإن لدينا طائفة كبيرة من الكتاب العظام لم يحظوا في حياتهم بعطف الجمهور وتقديره، فيقال بأنهم يكتبون لأنفسهم؛ لكن هذه الطائفة لم تعدم بعد حين الأنصار الذين رفعوها إلى المكان اللائق بها؛ وقد فطنوا للنظرات العجلى التي لم يستطع إدراكها المعاصرون. وكأني بذلك أعود بالمخيلة إلى بودلير وإلى رامبو وإلى ستاندال أيضاً الذي كان يكتب لعدد ضئيل من محبي أدبه، ويقول بأن قراءه الحقيقيين
لم تلدهم أمهاتهم بعد. . بل وأتخيل نيتشه ووليام بلاك ومكفيل الذين لم يكن حالهم بأحسن من حال الأولين. هذا وإني لم أذكر إلا الكبار
نشهد اليوم حادثاً لم يسبق للتاريخ مثله، عظيم الأهمية، لا تقاس به الأحداث، ذاك هو النظام الجديد القائم في روسيا السوفيتية. ولست مبالغاً إذا قلت بأنه عمل (نموذجي) ينسج على منواله؛ إن بلادا يجري فيها مثل هذا النظام تجعل الكاتب يتحسس بيئته ويتصل بقرائه اتصالاً مباشراً، لا يدور حولهم كالتائه يفتش عن ضالته كما هي حالنا معشر الكتاب، فيستمد من الحقيقة التي تحيط به مادته، ويستلهم منها أخيلته، ويستمع إلى صداه بأذنه. إن بلادا مثل هذه يؤدي فيها الأديب رسالته كما يجب أن تؤدى، جديرة منا بكل إعجاب. بيد أن ذلك كله لا يفيد. إن الطريق كلها سليمة لا تعتورها الأشواك، وكيف تجتنب الأخطار جميعها ما دام العمل الفني في طبيعته ضعيف المقاومة، قليل التأثير بادئ ذي بدء. ولعل الكلام عن مثل هذه الأخطار التي هي من طراز جديد ستحين له فرصة ثانية، لقد رأيت في النتاج الأدبي السوفيتي آثاراً أثارت مني كل إعجاب، لكنها ما تزال بعيدة عن أن يتمثل فيها الإنسان المنتظر، الذي ما برح هذا الأدب يعمل على إيجاده، وهو ما يزال في مراحله الأولى يصور لنا أدوار التكون والتمخض والولادة، وأني لشديد الأمل برؤية الآداب السوفيتية قد كبرت واشتد ساعدها، فأصبح الكاتب في كنف الحقيقة الماثلة، فاتحة له صدرها يضمها بكلتا يديه
إن الأدب الخالد الذي تقبله النفوس وتقدم عليه بشغف يتجدد في كل حين، لا ينقطع لسد حاجة وقتية تنبعث عند طبقة من الناس، في وقت من الأوقات، وعلى هذا الأساس، فان حكومة السوفيت، لم تقتصر على طبع الآثار والمؤلفات التي جادت بها قرائح كتابها وشعرائها، فإنها عنيت عناية فائقة بنشر أشعار بوشكين، وتمثيل مسرحيات شكسبير؛ ولم تقل قط بأن أدب كتابها مرسوم له الخلود، ولا هي تستبعد أن يكون نتاج هؤلاء الكتاب صائراً إلى الزوال بزوال الحاجة التي دفعت إليه، ما دام الزمن لم يحكم حكمه عليه، وإذا كان هنالك من شيء يمسخ الفائدة التي يمكن أن يجنيها الناس من قراءة الكتب وإنشاء الأشعار، فما هي إلا أن ترسم لهم الأمثولة ويحدد لهم المغزى، وفي التدليل الكثير على العظة التي تتضمنها الكتب ضياع لمسحة الجمال التي تتميز بها الأدب، ويصبح بذلك
ضرباً من ضروب الوعظ الجافة
ليس مما يضير القراء ألا يوفقوا كلهم إلى غاية واحدة، فان في استطلاعهم إياها في أجواء مختلفة فائدة لا تقدر، وفي ذهابهم مناحي متباينة بعد أن تكون هناك سلطة يستهذون بها. وهذا والثقافة كانت لجلاء الذهن وإطلاق الفكر قبل أن تكون عامل إرشاد وتهذيب
تتوجه أنظار المفكرين، في هذا الزمن، إلى انتشال الإنسانية من وهاد الاضطهادات التي ترددت فيها، وأني لا أقدر لهؤلاء المفكرين أن يظل الإنسان موضع اهتمامهم يوم يفلت من قيده وينطلق حراً شريفاً، فلا يعنون به إلا خانعاً ذليلاً أو غرا جهولا، بل ولقد أسبغ على نفوسنا طول تحدثنا عن البؤس وتغنينا بمحامده ومزاياه حلة من الخنوع والاستكانة لا تليق بها

جميل أن نحلم بمجتمع تعم نعماؤه الأفراد، وأجمل منه أن نوقن بقرب قيام هذا المجتمع.

ترجمة وتلخيص

ماجد شيخ الأرض

الدكتور محمد إقبال

أكبر شعراء الهند المسلمين في العصر الحاضر

إن صوتي قد أوقد النار القديمة في بلاد إيران ولكن العرب)

(لا يعرفون شيئا عن نغماتي الشجية

(إقبال)

لأبي النصر أحمد الحسيني الهندي

بدأ الدكتور يقول الشعر في أول الأمر من نوع الغزل ثم باشر أنواع الشعر الأخرى مثل: (مثنوي) و (قصيدة) و (رباعي) و (قطعة) و (مسدس) فأجادها إجادة تخلب القلوب، غير أن كمال شعره ليس في هذه الأشكال والقيود الظاهرية، بل في ابتكار المعاني، وإبداع البيان، ودقة الفكر، وسمو الخيال، وحسن التركيب والتشبيه، وقوة الكلام التي يشتمل عليها شعره. فأنت ترى كيف تلك الصفات أورثت التصوير حسناً ورونقاً في قصيدته (الأمنية) التي طلب فيها من الله أن يخرجه من ضوضاء هذا العالم ويسكنه محلاً هادئاً ذا منظر بهيج. قال في وصف ذلك المنظر:

فلتكن (في ذلك المحل) الأشجار مصطفة في جانبين يرسم صورتها ماء النهر . . .) الصافي، وليكن منظر الجبال فيه فتاناً إلى درجة أن يقوم الماء في شكل الأمواج لرؤيته، ويمس الماء فرع الورد مائلاً كأن حسناء ترى وجهها في المرآة، وعندما تحني الشمس عروس الليل تلبس الأزهار كساء ذهبياً مشرباً حمرة. . . الخ)

وقال في وصف الحباحب الطائرة ليلاً في الحديقة:

إن نور الحباحب يلمع في معمورة الحديقة كأن الشمع منور في محفل الأزهار، أو) نجمة قد جاءت طائرة من السماء، أو شعاع القمر قد نفخ فيه الروح، أو سفير النهار قد جاء في سلطنة الليل فكان خاملا في وطنه وبرز في الغربة. أوزر قد وقع من قباء القمر أو ذرة قد ظهرت من قميص الشمس. إن في هذا القمر الصغير نوراً وظلمة فكأنه يخرج من الخسوف حيناً ويدخل فيه حيناً. . . الخ)

إن الدكتور إقبال ليس بشاعر فقط بل هو مفكر وفيلسوف أيضاً من الطراز الأول، وهذا الأمر يزيد شعره حسناً وجمالاً ورونقاً وكمالاً: فقد قال كوليريج الشاعر المفلق الناقد الأديب الإنجليزي الشهير: (لم يكن ولم يكون أحد شاعراً كبيراً مجيداً بغير أن يكون في نفس الوقت فيلسوفاً ومفكراً دقيقاً. لأن الشعر أرج علم الإنسان وأفكاره وشعوره وعواطفه ولغته قاطبة.) ففي الشعر يقدر الشاعر الفيلسوف أن يعالج أمراً من أمور الفلسفة الدقيقة، وعر الملتمس منيع المطلب ببيت واحد، في حين أنه لا يقدر على معالجته بصفحات من النثر. فأنت ترى كيف أن إقبالاً بين لك وفي بيت واحد فلسفة الحياة، ثم نبهك على مواضع الضعف فيك، وفي هذا التنبيه منه لك تحريض أيضاً على الأعراض عما أنت فيه قال:

حيات جبست جهان را أسير جان كردن

توخود أسير جهاني كجاتواني كرد

ما هي الحياة؟ هي ان تستأسر العالم لنفسك (ولكن مادمت أنت أسيراً للعالم فكيف) يمكن لك ذلك)

وقال في بيت آخر ما ترجمته:

(إن الحياة هي أن تخلق اللؤلؤ في صدفك وأن تنفذ في قلب اللهيب ولا تذوب)

وقال في فلسفة الحياة أيضاً مخاطباً قلبه ما ترجمته:

أيها القلب تعلم من البرعوم سر الحياة، فان الحقيقة ليست بمحجوبة في مجازه فانه (قد نبت من التربة المظلمة، ولكن نظره (دائماً) إلى شعاع الشمس)

يجيد الدكتور الإنجليزية والفرنسية والألمانية والفارسية والأردية، ويعرف السنسكريتية والعربية أيضاً، ويقول الشعر بالفارسية والأردية. وجميع مصنفاته التي ظهرت إلى الآن هي كما يلي:

1 - مصنفاته شعرا:

1 - بابك درا (أي صوت الجرس): وهو ديوان باللغة الأردية يحتوي على أنواع الشعر المختلفة من باكورة شعره
2 - أسرار خودى (أي أسرار الأنانية): وهو أول دواوينه باللغة الفارسية وشعره من النوع المثنوي. نشره في سنة 1916، ويحتوي على مباحث إسلامية فلسفية دقيقة للتربية
الأنانية. وقد ترجمه المستشرق الشهير الدكتور نكلسن إلى اللغة الإنجليزية
3 - رموز بيخودي (أي رموز إنكار الأنانية): وهو الديوان الثاني باللغة الفارسية وشعره من نوع المثنوي نشره في سنة 1918، وهو كالتكملة للأول لتكوين الأنانية العليا وتربيتها
4 - بيام مشرق (أي رسالة الشرق): وهو ديوان باللغة الفارسية يحتوي على أنواع الشعر المختلفة، نشره في سنة 1923 وقد صنفه رداً على (الديوان الغربي) للشاعر الفيلسوف الألماني الشهير جوتيه. وقد ترجمه الدكتور نكلسن إلى الإنجليزية
5 - زبور عجم: ديوان باللغة الفارسية وشعره من الأنواع المختلفة، ويحتوي على أرق العواطف وأدق الأفكار الفلسفية. نشره في سنة 1926
6 - جاويد نامه (أي كتاب جاويد): وهو ديوان باللغة الفارسية نهج فيه الشاعر منهج فاوست لجوتيه، ويحتوي على أدق الأفكار الفلسفية الإسلامية. وقد نسبه إلى أصغر أبنائه المسمى (جاويد). نشره في سنة 1932
7 - مسافر: وهو ديوان صغير باللغة الفارسية، شعره من نوع المثنوي، يحتوي على ما جادت به قريحته حين سافر إلى أفغانستان تلبية لدعوة المغفور له جلالة الملك نادرشاه خان ملك أفغانستان في سنة 1933
8 - بال جبريل: ديوان باللغة الأردوية، يشتمل على ما جادت به قريحته عند زيارته الآثار الإسلامية في الأندلس ونشر سنة 1935
2 - مصنفاته نثرا:
1 - السياسة المدنية: صنفه باللغة الأردية وهو أول مصنفات الدكتور
2 - تاريخ التقدم الفكري في بلاد إيران: وقد نال بتقديم هذا الكتاب شهادة الدكتوراه من ألمانيا
3 - المحاضرات الستة: وهي التي ألقاه في الجامعة الهندية، وتحتوي على فلسفة الإلهيات الإسلامية

لقد طال بنا الحديث ونحب أن نختمه بكلمتين وجيزتين: منزلة شعر إقبال في الهند: وصداه في العالم، فأما منزلة شعر إقبال في الهند، فلشعره رسالة ستعرفها حين نفرد لها مقالاً في المستقبل إن شاء الله. والرسالة إذا قامت لابد أن تجذب ما حولها إلى نفسها كذلك شعر إقبال، ولا يتسع المجال هنا لأن نستقصي رأي جمع طبقات الهيئة الاجتماعية الهندية في شعر إقبال لإبانة جاذبيته ومنزلته. وإنما نكتفي برأي طبقة الشعراء لأنهم أدرى بحقيقة فنه ودقائقه

إن الشعراء في الهند كثيرون فمنهم من يجيد الشعر بالأردية ومنهم من ينشئه بالفارسية، ومنهم من يتقنه بالاثنين، ولكن إقبال أسبقهم غير مدافع، وأفضلهم غير معارض، ولشعره بينهم القدح المعلى، فقد اتفقوا جميعاً على أنه هو شهابهم الساطع، وبدرهم الطالع ولقبوه (بترجمان حقيقت) (أي المعبر عن الحقائق) وقد شدا غير واحد منهم ناشراً طراز محاسنه في المجالس، وناثرا لآلئ وصفه في المحافل بالأبيات والقصائد نقتطف بعضها هنا. قال مولانا غلام قادر كرامي وهو من كبار شعراء الهند ويقول الشعر بالفارسية:

در ديده معنى نكهان حضرت إقبال
پيغمبري كردو بيمبر نتوان كفت
(إن في رأي أرباب النظر قد قام حضرة
إقبال بعمل النبوة ولا يمكن أن يقال له نبي)

وقال الشاعر فكار - وهو من مسقط رأس إقبال ويقول الشعر بالفارسية والأردية - وهذه ترجمته:

(إنك قد جئت بكأس من الحانة القديمة وبنغمة داودية من وتر الرباب)

(يا طبيب روح الأمة! أنت قد جئت بعهد الشباب في دين إبراهيم بدواء الفلسفة)
وقد كشفت عن نفسك بواسطة (رموز إنكار الأنانية) يا أبا الحكمة أنت قد جئت بالنهر)
(من السراب
وقال السيد بشير أحمد اخكر - وهو من كبار الشعراء باللغة الأردية - وهذه ترجمته:
(إن وجودك لي سبب الحياة. إن أسرار أنانيتك لي باعث زيادة الهمة)
(إن رموز (إنكار الأنانية) قد حل العقد. إن (صوت الجرس) قد أصبح لي دليل الطريق)
عن روح (غالب) وحنو (مير) في قلبك يا إقبال إن حسن ليلى الشعر مخفي في)
(محملك هذا
أما صدى شعر إقبال في العالم، فلشعر إقبال في أفغانستان مرتبة لا يشق غبارها وعزة لا
يدرك شأوها، إذ لا تقام حفلة من حفلات الحكومة إلا وتهز فيه فرق الموسيقى
الحكومية قلوب الحاضرين بأناشيد إقبال وبخاصة (نشيد المسلم) منها. وقد نشر أقا
هادي حسن وزير التجارة مقالات في شعر إقبال. وبخاصة عن ديوانه (رسالة الشرق)
في مجلة (أمان أفغان) التي تصدر بكابل
ولم تأل الجرائد والمجلات في إيران تنويها بشعر إقبال، كما أن أهل العلم والأدب
يحيطون به خبراً، ويثنون عليه أطيب الثناء
وفي تركيا ترجم كثيراً من شعر إقبال إلى اللغة التركية الكاتب المفكر الكبير حسين
دانش، وكتب مقالات عديدة عن ديوانه (رسالة الشرق) وبسط نظرياته فيها
وسافر أحد علماء روسيا إلى الهند ليلتقي بالدكتور إقبال فقط، ثم نقل إلى اللغة
الروسية نظريات الدكتور التي في ديوانه (أسرار الأنانية)
وفي مصر نشر غير مرة صديقنا المفضال الدكتور عبد الوهاب عزام ترجمة بعض
المقتطفات من شعر إقبال
وفي ألمانيا ترجم الأستاذ دايشو مقدمة ديوانه (رسالة الشرق إلى اللغة الألمانية، كما
أن الدكتور فيشر الأستاذ بجامعة ليبزيج وصاحب مجلة (اسلاميكا) كتب مقالات عن
الديوان (رسالة الشرق)، وقارن فيها شعر إقبال بشعر الشاعر الألماني الشهير جوتيه،
وترجم الشاعر الفيلسوف الألماني هانسي مائنيكه قطعة من ديوانه (رسالة الشرق)
إلى ألمانية ثم كتبها بيده وجلدها تجليداً جميلاً على الطراز الشرقي موشى بالذهب
والفضة أهداها إلى الدكتور إقبال تقديراً لشعره وإظهاراً لحسن اعتقاده فيه. وقد
أنشئت أخيراً جمعية باسم إقبال لتعريف شعره ونشر مباديه في ألمانيا. وتترجم في
ألمانيا الآن محاضرات الدكتور التي ألقاه في الجامعات الهندية في فلسفة الإلهيات
إلى اللغة الألمانية
وفي إيطاليا نشر العالم الطلياني الكبير الدكتور اسكاريا الذي زار أفغانستان والهند
وقابل الدكتور إقبال مقالات عن شعر إقبال في مجلة أدبية إيطالية
وفي إنجلترا ترجم الدكتور نكلسون ديوانه (أسرار الأنانية) وجزأ من ديوانه (رسالة
الشرق) إلى الإنجليزية ونشرهما فذاع بهما صيت الدكتور في أمريكا وبلاد أخرى أيضاً،
ونوهت أندية العلم والأدب والجرائد والمجلات العلمية والأدبية بشعره، وكتب عن
(أسرار
الأنانية) المرحوم الدكتور براون المستشرق الإنجليزي الشهير في مجلة الجمعية
الأسيوية الملكية، وأيضاً نوه بإقبال وشعره في تصنيفه تاريخ الأدب الفارسي في
المجلد الرابع منه
وفي أمريكا صنف العالم الأمريكي الجليل ميكنزي كتاباً أسماه (يقظة الهند) فنوه فيه
بإقبال وشعره ونظرياته وفلسفته
السيد أبو النصر أحمد الحسيني الهندي
في الأدب الإنجليزي
الكائنات الغيبية في شعر شكسبير
بقلم خيري حماد
مقدمة
لا شك في أن عبقرية شكسبير ظهرت في مناحي عدة وصور مختلفة، وليس من
السهل على أي شخص مهما كانت نزعته ومهما تباينت عقليته أن ينكر أن شكسبير هو

شاعر بريطانيا الأعظم وكبير من كبار الشعراء العالميين، ولكن ويا للأسف اختلف النقاد في إنكلترا وفي غيرها من بلدان العالم في تحديد الدرجة الممتازة التي وصل إليها هذا الشاعر. فأعتبره البعض أعظم شاعر بزغ نجمه على هذه البسيطة لا في عصره فحسب، بل في العصور التي سبقته أو تلته. وأنكر البعض الآخر هذا الادعاء وتحاملوا عليه تحاملاً ظاهراً، معتقدين أن عظمته لا تفوق في أي ناحية من نواحيها عظمة جوتي الألماني ودانتي الإيطالي

إن من الصعب أن أبرهن في هذه العجالة على عظمة شكسبير وتبريزه على غيره من شعراء العالم، ولم أقصد فيها إلا البحث في ناحية واحدة من مناحي تفكيره العميق وخياله المبدع الذي تناول بواسطته جميع نواحي الحياة من عقائد وتقاليد فدونها في شعره ورواياته. نعم كان من الصعب عليه أن يوفق بين عقائده الشخصية وبين عقائد مجتمعه البشري، ولكنه خرج من هذا الميدان مكللاً بأكاليل من الغار وتيجان من الظفر

لم تكن الخرافات والغيبيات عقيدة راسخة في تفكير شاعرنا؛ فقد كان دائم الاضطراب والشك في هذه الناحية من مناحي الغموض والخفاء العقليين. لقد حاول في رواياته أن يبتعد عن العقائد الشائعة العامة، ولكنه لم يستطع ذلك لتخوفه من الرأي العام السائد في تلك الأيام الرهيبة

عقائده الدينية:

ولد شكسبير سنة 1564 إبان الدور الأول من حكم الملكة اليصابات في عصر أشتد فيه

النزاع الديني واختلفت فيه العقائد، حتى أصبحت مصدر شقاء وينبوع استبداد ساد إنكلترا قرناً من الزمان. ولنراجع في الفقرات التالية صفحات التاريخ فنرى كيف انتشرت البروتستنتية في إنكلترا، وبأية صورة كان نشوءها وتطورها

كلنا يعرف أن الملك هنري الثامن أراد طلاق امرأته الأسبانية كاترين لعشقه غادة من غادات البلاط، كانوا يسمونها (آن بولين) ولم يكن في الإمكان في ذلك العصر تحقيق تلك الرغبة الجامحة، فما وسع هنري إلا أن يحدث نزاعاً أشتد أمره مع رئيس الكنيسة الأعلى وحامي حماها في الشرق والغرب. طغت عليه الروح الاستبدادية روح العظمة والتفوق، فحدثته نفسه بالانفصال عن كنيسة رومة، ولم يلبث أن أعلن ذلك الانفصال ونصب نفسه رئيساً أعلى للكنيسة الإنكليزية

ولم تكن هذه الحركة في بدء أمرها إلا حركة سياسية محضة لم يشبها شائب من الدين والعقائد، ولكن ما لبث أن فارق هنري دنياه ونصب ولده الطفل أدوارد ملكاً على عرش بريطانيا، فكان له من الأنصار والمساعدين نفر أشبعت نفوسهم بروح البروتستنتية فأعلنوا أن الكنيسة الإنكليزية قد غدت منفصلة تمام الانفصال عن الكنيسة الكاثوليكية ووضعوا كتابين من كتب الصلاة ليقرأ في الكنائس بدلاً من الكتب القديمة

حركة جريئة أعقبتها فترة إحجام ورد فعل. مات إدوارد فتبوأت ماري تيودور العرش وكان لتربيتها الكاثوليكية اثر عظيم في نفسها ما لبث أن دفعها للإعلان عن فساد جميع القوانين التي ظهرت في عهد سلفها، وعن رجوع الكنيسة الإنكليزية إلى الحظيرة الكاثوليكية. ولتحقيق تلك الرغبة في نفسها سنت قانوناً تحتم فيه على كل قس أو راهب أن يرجع إلى الحظيرة القديمة وإلا كان جزاؤه الموت والعذاب

أخيراً انتقلت تلك الملكة الغاشمة إلى جوار ربها وارتقت اليصابات العرش. ونظراً لروحها الاستقلالية ولميلها إلى الطموح والعظمة لم تلبث أن أعلنت بعد مرور سنة من تسنمها العرش الانفصال التام عن الكنيسة البابوية وتنصيبها نفسها رئيسة عليا للكنيسة الإنكليزية

لو أتيح لنا الاطلاع على كثير من الرسائل الشخصية التي كتابها الشاعر العظيم لأصدقائه وأخدانه لأمكننا الوقوف على عقائده وأفكاره الدينية، هناك أمور عدة تحملنا على الاعتقاد بأن شكسبير كان رجلاً ديناً خيراً، ولكن حرية فكره كانت سبباً دائماً في انشغاله بأسئلة لا

حد لها عن الموت والحياة غير متأثر بالعقائد الدينية السائدة في عصره. كان والده بروتستنتياً متطرفاً، فلا بدع أن نراه متأثراً أثر والده، متحاملاً على البابوية والكثلكة

أشد التحامل وأقساه. وبرغم هذا التحامل الظاهر فأن الكنيسة البابوية ادعته في كثير من الظروف والأحيان ابناً باراً من أبنائها وعلماً من أبرز أعلامها. واستندوا في ادعاءاتهم هذه على كثير من البراهين والحجج التي إن لم تكن ضعيفة في حد ذاتها، فلا تصل إلى تلك الدرجة من الإقناع التي يتوخونها ويطلبونها
قد نستطيع من دراستنا لروايات هذا الشاعر أن نحدد العقائد التي كان يؤمن بها. فلقد صور في هذه الروايات عدداً كبيراً من رجال الدين أمثال الراهب فرنسيس والراهب لورنس، وكان في كل صورة من أمثال هذه الصور يتوخى التبجيل والاحترام لرجال الأكليروس. إلا أن هذه النظرة وهذا الاحترام لم يتجاوزا طبقة الرهبان إلى طبقة البابوات؛ فروايته التاريخية التي تتناول سيرة الملك يوحنا تعد في حد ذاتها أكثر الروايات تحاملاً على البابوية والكثلكة. وعلى الرغم من ازدياد نفوذ البابوية في هذه الأيام وتفوقها على السلطة الزمنية نرى عدداً قليلاً من الملوك يضربون بسلطتها عرض الحائط ويحاولون نزع نير العبودية عن عواتقهم، فكثيراً ما تعرضوا لوكلاء البابا وممثليه وأفحشوا لهم القول غير هيابين ولا وجلين. دعنا نعرض الأقوال الجريئة التي فاه بها الملك يوحنا مجيباً على تدخل البابا في مسائل سياسية لا تعنيه شيئاً فهو يقول:
هل يمكن لأي رجل دنيوي مهما علت سلطته وارتفعت منزلته أن يعارض إرادة الملوك المقدسة؟ فليس باستطاعتك أيها الكردينال أن تضطرني إلى إطاعة رجل حقير لا يسعني إلا الاستهزاء به. اذهب إلى سيدك البابا وأخبره ما أسمعتك من قارص الكلم وزد على ذلك أن ليس لأي قسيس إيطالي أن يتدخل في المسائل الإنكليزية، ومادمنا بمشيئة الله وإرادته قد وجدنا رؤساء لهذه الأمة فلنا الحق وحدنا في السير بها حسبما نشاء ونرغب دون أية مساعدة من إنسان. قل له إن ذلك الاحترام وإن تلك السلطة الغاشمة قد تقلص ظلهما منذ مدة
وفي خطاب آخر من نفس الرواية يعدد الملك يوحنا المساوئ الكثيرة التي كانت الكنيسة تتصف بها في هذه العصور. فالبابا أصبح رجلاً مأجوراً يمكن للملوك أن يستخدموه إذا
رشوه بالكثير من الأموال، فليس من واجب الملوك أن يطيعوا رجلاً كهذا الرجل، وهذه النظرية تتبين لنا في مواضع عدة من روايات شكسبير فهو يتخذ من البابا أداة للسخرية والهزء في رواية تيتس أندرونيكس إذ يقول:
إني لأعلم تمام العلم أنك رجل وفي ورع تحمل بين جنبيك نفساً طاهرة وضميراً حياً،) وأن لك حيلاً تماثل الحيل العديدة التي يتبعها البابا في بسط نفوذه وجمع ثروته (
يتبع
خيري حماد
فن الحياة
للأستاذ عبد الرحمن شكري
مقدمة:
إن للإنسان في الحياة نشوة كنشوة الفنان عند الصنع، أو كنشوة المطلع على الفن عند الاطلاع عليه، فإذا عدم هذه النشوة صعب عليه أن يسوغ الحياة وأن يلتذها، ولا يمنع عده الحياة فنا جميلا من نقدها أو الرغبة في إصلاحها، كما ينقد المطلع على الفن ما يشاهده من الفن؛ وكذلك لا تمنع الرغبة في إصلاح الحياة من النظر إليها كأنها ممثلة حسناء تمثل الخير والشر فلا يكرها من أجل تمثيلها الشر، وهذا خير من أن يظل يبكي ويندب لأن نمر الشر الذي في كل نفس لم يتحول هرة وديعة كالتي تراها في المنازل، وهو لو تحول ما تجاوز أصله ولا فصيلته، إذ النمر والهرة من فصيلة واحدة
(الناظم)
أيا حسن هذا العيش لو كان قصة ... يُسُرُّ بها ساري الورى وهو يسمرُ
على ما بها من ضجة بين شقوة ... وكم عاشق للنقص يهوى ويُنكر
فليت الفتى يبدو له صرف عيشه ... كعيش غريب قصةً تُتَدَبَّرُ
ويا رُبَّ مأساة إذا ما بدت له ... تُمَثَّلَ إنْ يحزن لها فهو يصبر
وفي فنها ملهى وحسن وسلوة ... لولا فنون العيش ما كان يُعذَر
وإن كان رب الناس يقضي اقتتالهم ... فما شأن مثلى وهو أعلى وأقدَر

وما قَصَّرَت بي رغبةٌ عن محاسن ... أريدها لها عيشاً سوى العيش يُقْدَر
حياة كحسناء المسارح يشرها ... إذا ما حكته عاد بالفن يبهر
ممثلة حسناء كم مثلت أذى ... وغدراً أجادت فنها وهي تغدر
فما زادها إلا بهاءً وحظوةً ... لدى عاشقيها وهي بالفن تأسر
تَمَلَّيْتَها لما ولعتَ بفنها ... ولولاه تُزْرِي بالحياة فَتَكْدُر
حنانيك إن العيش فن فلا تُرَع ... وإن ناب خطب فهو مَحْكَي ومَخْبَر
تُعَانُ بهذا الرأي إن كنت قادراً ... وأن أمكن الإصلاح لم تَكُ تُقْصِر
يمثل كلٌّ دوره في حياته ... فإنْ راق فن فهو شأوٌ ومَظْهر
أَإِنْ في النفس لم يُمْس هِرَّةً ... تظل على الأسقام تبكي وتسخر
وما نَمِرُ عن هِرَّةٍ بِمبُاَعَدٍ ... ويطغي وديعُ حين يبغي ويقدِرُ
عبد الرحمن شكري
كأس تفيض
للأستاذ محمود غنيم
لكَ اللهُ لا تشكو ولا تتبرَّمُ ... فؤادكَ فيَّاضٌ وثغرك مُلجَمُ
يفيض لسانُ المرء إن ضاق صدرُه ... ويطفحُ زيتُ الكيل والكيلُ مفَعم
وهل يُطبق العصفورُ فاهُ على الشجى ... ويمتلئُ الحاكي فلا يترنَّمُ؟
تعللتُ دهراً بالمنى فإذا بها ... قواريرُ من مسِّ الصَّبا تتحطَّم
لعمرك ما أدري على أيِّ منطق ... أشاهدُ في مصرَ الحظوظَ تقسَّمُ
حملنا على الأقدار وهي بريئة ... وقلنا: هي الأقدارُ تُعطي وتَحرِم
فمن يَكُ ذا قُرْبى وصهر فأنني ... بمصرَ وحيدٌ لا شقيقٌ ولا حَم
فلا غروَ أني قد سكنتُ بأرضها ... كما سكنت أهرامُها والمقطَّم
وقفت مكاني لا أريم وإخْمَصي ... على الشوك من طول السُّرَى تتورّم
كأني إطارُ دائرٌ حولَ محور ... يسير بلا بطءٍ ولا يتقدَّم
وما أنا ممن تخطئ العينُ مثلَه ... ولكن تعامى القومُ عنيَ أو عَمُوا
أيذوي شبابي بين جدران قرية ... يبابٍ كأنَّ الصمتَ فيها مخيِّم
أكادُ من الصمت الذي هو شاملي ... إذا حُسِبَ الأحياءُ لم أك منهمُ
وعاشرتُ أهليها سنين وإنني ... غريبٌ بإحساسي وروحيَ عنهمُ
يقولون: خضراءُ المرابع نضرَةٌ ... فقلتُ: هبوها لستُ شاة تسَوِّمُ
على رسلِكم إني أقيمُ بقفرةٍ ... يجوز على الأحياءِ فيها الترحُّم
سئمتُ بها لوناً من العيش واحداً ... فداري بها داري وصحبي همُ همُ
حياةٌ كسطح الماء والماءُ راكدٌ ... فليس بها شيءٌ يَسُرُّ وُيؤلم
وما أبتغي إلا حياةً عنيفةً ... تسرّ فأرضى أو تسوءُ فأنقِم
حياةٌ كلجِّ البحر والبحرُ زاخرٌ ... تدُوِّي بها الأنواءُ والرعد يَهزِم
حياةٌ بها جِدٌّ ولهوٌ، بها رضاً ... وسُخْطٌ، لها طعمان: شهدٌ وعلقَم
فمن مبلغٌ بنت المعز بأن لي ... فؤاداً عليها كالطيور يحوِّم؟
وأَنيَ من سبعٍ خلَوْنَ محافظٌ ... على العهد إن خان العهودَ مثيَّم
فان تجفني مصرُ فحسبيَ أنني ... أحُج إليها كلَّ عام وأُحرم
حنانيك إني قد برمتُ بفتيةٍ ... أروحُ وأغدو كلَّ يومٍ إليهمُ
صغارُ نربيهم بمثل عقولهم ... ونبنيهمو لكنَّنا نتهدَّم
لأُوشِكُ أن أرتدَّ طفلاً لطولِ ما ... أُمَثِّل دورَ الطفل بين يديهمُ
فصولٌ بدأناها وسوف نعيدها ... دواليكَ، واللحنُ المكرَّر يُسأم
وما كنت أُعْنَى بالنتيجة طالباً ... فصرت بها في هدأة الليل أحلُم
فمن كان يرثى قلبُه لمعذَّبٍ ... فأجدر شخص بالرثاء المعلِّم
على كتفيهِ يبلغُ المجدَ غيرُهُ ... فما هو إلا للتسلُّق سُلَّمُ
وَدِدْتُ لَوَ أنّي عدت للدرس ناشئاً ... أسيرُ وفي يمناي لوحٌ ومِرقم
يقولون: منطيقٌ أغرُّ بيانهُ ... فقلت لهم: لكنَّ حظِّي أبكم
أرى الحظَّ مُنقاداً لكل مهرِّج ... فأما على الأكفاء فهْو مُحرَّم
يفوز به من يقطع السْبل مُلحفاً ... ويغشى بيوتَ الناس والناسُ نوَّم
ورُب أمور يخجل الحرَّ ذكرُها ... وبعضُ الذيُ يرْوَى عن الناس يُكتم

وكائن ترى الحرَّ الأبيّةَ نفسُه ... يضيع له حقُ وآخرُ يُهضم
فيا ليتني أغضيتُ جفني على القذَى ... وعلّمت نفسي بعضّ ما ليس تَعلم
فلو أن نفسي طاوعتني فرضتها ... على الهوْن لم أخسَرْ وغيريَ يغنم
ألا فليَسُدْ من شاء حسبيَ أنني ... ضَنَنْتُ بماء الوجه حين تكرَّموا
نظمتُ فما أطريت غيري تزلّفا ... ولكن لنفسي لا لغيريَ أنظم
ولم أتغزَّل في الكرام وفضلهم ... وغيري بهم لا بالكواعبِ مُغرم
وإني لمغبونُ إذا صرتُ قيصراً ... وطوَّق بالنعماء جيديَ منْعم
(كوم حماده)
محمود غنيم
الجامعة الأمريكية والصحافة
تفتح الجامعة الأمريكية بالقاهرة أبوابها هذا العام عن قسم خاص بالصحافة، على نحو ما تعنى به الجامعات الأوربية والأمريكية لإعداد طالب الصحافة إعدادا جامعياً دقيقاً يتناول دراسة اللغات وعلوم الاجتماع والاقتصاد وعلم النفس والتاريخ والفلسفة والعلوم السياسية ونظام الحكومات والتربية المقارنة، وكذلك الفنون المرتبطة بمزاولة العمل الصحفي في نواحيه جميعاً كالأسلوب، وتحرير المقال، والتصحيح، ومهمة الأخبار، والتبويب وما إليها
وتبدو مهمة الجامعة الأمريكية في هذا الباب عظيمة الشأن، شأنها في عديد من أقسامها الأخرى كقسم المعلمين والقسم الإعدادي، واضطلاعهم بمسائل الطالب الحيوية وإعداده للحياة كما يجب أن يحيا. ولكن طالب الصحافة الجامعي وعناية الجامعة الأمريكية به وتمثل هذا النوع من التعليم في مصر أو في الشرق عل وجه العموم يكون له من عظم الشأن ما يجعله في مركز ممتاز دونه في المعاهد الأخرى نظراً لاعتبارات خاصة لها من الأهمية هي الأخرى مالها، لأنه:
أولا: مركز مصر من الشرق في مقام الزعيمة لا يسمح بأن يدانيها بلد آخر في مضمار الصحافة أو العناية بدراستها
ثانياً: جعل تعليم الصحافة بنوع خاص في دائرة حرة بعيداً عن الإدارة الحكومية والضغط السياسي
ثالثاً: الشعور السائد الذي يتناوب القراء والصحف، شعور بالحاجة إلى توسيع المعارف والمعارف الصحفية وتكثير نسلها
رابعاً: فتح أبواب جديدة أمام طلبة التعليم العالي في مصر والشرق بعد أن ضاقت بهم صناعات ووظائف أخرى كالمحاماة والطب والهندسة وغيرها
خامساً: تغذية الصحف بعنصر صالح لإدارة أعمالها بمهارة ولباقة، فضلاً عن أن الصحف تعتبر أداة هامة في نشر المعارف وفتق الأذهان وخدمة الوطنية، وملاحظة مثل هذه الاعتبارات مجتمعة أو منفردة لمما بجعل للجامعة الأمريكية أولاً وأخيراً حق السبق وحق العناية فيما لو فكرت حكومة في الشرق في مثل هذا النوع من التعليم، وإن كان ذلك، وإنن، فما هو اليوم البعيد الذي نرى فيه الصحفي الأمريكي بمعنى الكلمة أول ثمار الجامعة الأمريكية في مصر والشرق.
ا. ت
فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية
22 - تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا
الناحية السلبية من مذهب نيتشه
الإنسان
للأستاذ خليل هنداوي
بين اليهود نشأت ذرية الكهان، وبينهم هبت ثورة العبيد، واندلعت نيرانه على المبادئ الأرستقراطية. نقموا على المبادئ القائلة بأن الصالح والشريف والقوي والجميل والسعيد هم الذين تحبهم الآلهة، وعملوا على دحضها بمنطق قوي. قالوا إن الضعفاء والعجزة والأشقياء والبؤساء هم الصالحون وحدهم. . . وإن المتألمين والتعساء والمرضى والقبيحين هم وحدهم المقربون إلى الله، ولهم وحدهم أعدت مساكن النعيم. أما النبلاء والجبارون الأقوياء فهم الجاحدون القاسون، وهم في تلك الدار المخذولون والأشقون

جاءت المسيحية فورثت عن اليهودية هذا الميراث. وأكمل الكاهن المسيحي ما بشر به الكاهن اليهودي. وها غبرت عشرون قرناً وهو الظافر المنتصر. فكان أول مشهد من ذلك الانقلاب مسألة النفس والإرادة الحرة المختارة. وفي الحقيقة لا نفس منسلخة عن جسد، ولا وجود للإرادة الحرة، وقد تكون إرادة بلا حرية ولا اختيار. وإنما هنالك إرادات قوية تقوم بأعمال ذات قيمة، وإرادات ضعيفة عملها ضئيل، آراء كالرعد يقصف، هي في الحقيقة فكرة واحدة ترتدي أثواباً مختلفة. فالرعد ليس بشيء ذاتي يقدر على القصف وعلى غير القصف. إنه رعد حين يقصف؛ كذلك شأن مجموعة القوات المتجلية في الرجل القوي لا تبدو ولا تظهر إلا بهذه المظاهر. والعقل الشعبي استطاع بواسطة الافتراض الاختياري أن يفرق بين الكائن والحادث بين الإرادة ومظاهرها، وافتراض أن وراء أعمال البشر ووراء ما تأتيه إرادة القوة كائناً أو نفساً هي علة هذه الأعمال. وهذه النفس هي جوهر حر يظهر كيفما يشاء، ويعمل كما يشاء. وهذا الذي تمثلوه (حراً مختاراً) أصبح العبد يساوي بالسيد، بل يجعله متفوقاً عليه. وهكذا أصبحت قيمة الفرد لا تتوقف على ما يتكون فيه من مجموعة قواته. وبذا زال عندهم تفضيل القوي على الضعيف بفضل منطقهم (لأن القوي يعمل بحسب قواه وهو خاطئ لأن عمله بحسب قواه عمل سيئ. والضعيف يعمل بحسب ضعفه وهو ذو حق، لأن عمله بضعف عمل حسن. فالضعيف إذن هو خير من القوي،) ويصف نيتشه وصفاً مؤثراً تلك العوامل التي لجأ إليها العبيد الذين تغلي صدورهم غيظاً وموجدة، ليحطوا من قدر الأسياد، وليحولوا أنفسهم إلى شهداء وقديسين

هذا هو المثل الأعلى للعبد. فهو يحيا بتلك الدعوات المعزية التي ابتدعها. ولكن أثقال ضعفه الراسية على ظهره لينوء بحملها فيتألم ويشكو ويتململ، فيجئ الكاهن لا ليبرئه من دائه، ولا ليقطع أسبابه كما يصنع الطبيب. يجيء لينسى الصابر ما يحسه من ألم وشقاء، وليبث فيه (مواد مخدرة) ترقد الألم ولا تمحوه. يغفى مريضه ويعطيه مادة تضعف فيه القوة الحيوية والعقلية يلقى الزهد والتقشف والبلاهة في نفسه وجسده خدراً إلى حين، فيذهل عن ألمه بل يوشك أن ينفك عن كل إحساس فيه. فيغدو هذا الرجل المنحط (قديساً)، وقد يحيط الكاهن بالرجل فيجعل منه آلة تستغرق كل انتباهه وتجعل منه شيئاً يتحرك بذاته، ويصرفه عن التأمل في نفسه والتفكير فيها، ويلهيه بالانكباب على بهجة حقيرة يسهل عليه نيلها محبة القريب والمحبة والمساعدة المتبادلة، ثم يعمل الكاهن على أن يصرف (قطعانه المريضة) عن آلامهم الذاتية وإزاء هذه العوامل التي أختلقها عوامل أخرى أبتدعها لمصلحته الخاصة. عوامل خطرة مؤثرة، تنطوي على سموم تنسي المتألم آلامه وتفني فيه قوته الحيوية. وهذا السم هو (الإيمان بالخطيئة)

أما أصل الخطيئة فسببه دافعان ولدا اختياراً في قلب الإنسانية. وهما الضمير الفاسد، والإيمان بدين مكتوب على الإنسان لله. والضمير الفاسد - عند نيتشه - هو نتيجة تشويش في النفس عميق. تسيطر على الإنسان يوم كان وحشاً معتزلاً، ثم انقلب عضواً رئيسياً في قطيع الأحياء، والحكومة هل هي إلى - كما يحتمل الذهن - ظلم مرعب فرضه الأقوياء على الضعفاء، وفجأة وجد المغلوبون على أمرهم أن أسباب الوجود عندهم مقلوبة رأساً على عقب، وألفوا أنهم أصبحوا لا يستطيعون أن يتبعوا بحرية واختيار تلك الغريزة الطبيعية التي كانت تسوقهم. فظلوا يبذلون جهودهم بينهم وبين أنفسهم ليقودوا أنفسهم بفطنة، ويضغطون على إرادتهم خشية أن تجازف بالإساءةإلى الأسياد، ويعملون بتعقل وتأمل. ولكن هذه الغرائز هي جزء من قوة لابد لها أن تبدو مظاهرها وآثارها. فإذا كتب على هذه القوة أن يضغط عليها حينا حتى لا تخرج عن نفسها بأي دافع ما، فهي ولابد مستحيلة إلى قوة خفية تعمل عملها في الباطن. ويمثل هذا التبدل وعلى مثل هذا التحول ولد (الضمير الفاسد). فهو وليد هذا الضغط الباطني الذي تصير عليه الغريزة الطبيعية في الإنسان. وهو كالوحش السجين الذي عضته الوحشة ونازعه حنينه إلى العرين والحرية والصحراء، ينهش جسمه بين قضبان القفص. كذلك الإنسان الابتدائي الأهلي السجين يتألم بنفسه، وغريزة الحياة الكامنة فيه المقيدة بمظاهرها الخارجية أمست تبدو بحالة هيجان باطني

وفكرة الدين المكتوب لله على الإنسان هي فكرة قديمة مترددة في الشرائع القديمة.
ففي العصور الأولى كانت كل قبيلة تؤمن بأنها مدينة بخيراتها الحاضرة للذريات السابقة. وأن الأجداد الذين قضوا يصيرون بعد الموت أروحاً قوية تتابع تأثيرها في الأحياء وتواصل إحسانها إليهم. ولكن كل إحسان لابد أن يبذل ثمنه. وهكذا تولد في عقول الناس أنهم مدينون بشيء لآبائهم وأجدادهم. وهم مضطرون إلى تقديم الضحايا لهم جزاء وفاقاً على دفعهم للأذى والضر عنهم. ومن هنا نشأت عبادة الأجداد في فجر كل مدينة، ثم تطورت هذه العبادة قليلاً قليلاً. فالاحترام الذي كان يكنه الإنسان لأجداده جميعاً ما فتئ ينقبض حتى أرتكز في الجد الأصلي للسلالة، ثم نزل هذا الجد بدوره منزلة الإله. وكلما كان الإله قوياً مخيفاً كان شعبه الذي يجله ويعبده أكثر فلاحاً وتقدماً، وفي الظروف التي تنمو فيها عظمة الإله ينمو أيضاً الشعور بذلك الدين المفروض في سبيل احترامه وتزداد خشية الإنسان من قصوره في العمل لربه.
وبواسطة هذا المنطق ألفينا أن عاطفة خضوع الإنسان لله بلغت الدرجة القصوى يوم ظفر إله المسيحية بالأوثان. ودانت له الأرباب وعسكر في مناطق بارزة من أوروبا. فآمن الإنسان إذ ذاك بأن الدين قد تضخم. حتى أصبح أجل من أن يوفى. وجد نفسه أنه مدين عاجز لا يملك شيئاً والدائن هو الله. فهو والحالة هذه هدف للقصاص الفظيع.
والإنسان في شدته هذه تحرى عن وسائل كثيرة ليطرح عن ظهره هذا الدين الثقيل. فلام الإنسان الأول الذي استحق لعنة الإله. فابتدع (الخطيئة الأصلية) وجرم الطبيعة، وأنكر الغرائز الكامنة فيه، ونظر إليها كجراثيم شر وشقاء، ولعن الوجود نفسه.
وجعل رجاءه كله في العدم وفي حياة ثانية. وفي النهاية أعطى المسألة التي ناء بها ظهره طويلاً هذا الحل الغريب، إن الدين المفروض على الإنسان من قبل الله هو دين لن يقدر على أدائه الإنسان، والإله وحده يفي عن الإله. فوجد الإله أن يضحي بنفسه في سبيل حبه للإنسان واستنقاذه من دين مكتوب عليه، فتمثل إنساناً وقرب نفسه قرباناً. وبهذا الفصل الذي أداه اشترى نفوس الذين يراهم جديرين برحمته ورأفته
يتبع
خليل هنداوي
القصص
صور من هوميروس
حروب طروادة - 7
الفدائي الأول
للأستاذ دريني خشبة
رويت الإلهة إذن وشفت ما في أنفسها من ظمأ إلى دماء الضحايا، وإن لم تغفر لديانا البارة، ديانا ربة القمر، إنقاذها للفتاة التعسة إفجنيا، وهي على قاب قوسين من خناجر الكهنة والربيين القساة
لقد أبت الإلهة إلا أن تشرب من ماء الحياة القرمزي المتدفق في عروق عبادها المخلصين من أبناء هيلاس؛ فلما ذهب كالخاس، عراف الحملة، يستوحي أربابه في معبد دلفى هل لها مطلب آخر في ضحية أو قربان بعد تقدمه إفجنيا، ارتفع الصوت الخافت المنبعث من صميم مقصورة الإله الأكبر يقول: (لا. . . . ولكم أن تقلعوا اليوم. . . . فإذا كنتم عند شطئان طروادة، فان لنا دم الفارس الأول الذي تطأ قدماه رمال الشاطئ. . . سيقتل، وسيكون لنا عوض من إفجنيا!)
ودعا إليه أبناءه ايولوس رب الرياح الست فأمرهم أن يكونوا جميعاً في خدمة الأسطول الهيلاني، حتى يصل إلى طروادة. . . . (وأنا أعرفك يا بوريس حين تعصف وتزف، وتصبح ويلا على الجواري أي ويل؛ وأنت يا كوروس، إياك وهذه البوارح التي تصلي بها سفائن القوم، وأنت يا أكويلو؛ وأنت أيضاً يا نيتوس، إن ريحك مجفل، وهبتك هوجاء، ولفحاتك حرور، وأنفاسك سموم، فان لم تترفق بالقوم، وتجر بين أيديهم رخاء، فلأسجننك في الكهف الأسود حتى حين، أما أنت يا ولدي إيودوس، فأحذر أنت تصيب الناس سوافيك أو يسوء فألهم فيك؛ بل كن لهم خادماً أميناً، تدفع ركبهم في رفق، وتملأ شراعهم في أناة. . . . ويسرني أن تسمعوا لنصيحة زفيروس، فهو ألينكم عريكة، وأكثركم صفاء. . . ألقوا إليه بزمامكم، ولا تختلفوا في أمر يلقيه إليكم، أصلح لكم زيوس أحوالكم. . . .)

وهبت الريح فخفقت أفئدة العسكر، وابتهجت أنفس القادة، واجتمع الميرميدون حول أخيل
يترضونه ويعتذرون عن رجمهم إياه يوم القربان المشئوم، ثم انتشرت الشراع ورفعت المراسي، وهمت الفلك فاحتواه البحر اللجي، وما عتمت أن صارت من الماء والسماء في خضرتين، ومن دروع الجند وزبد الموج في لبدتين، ومن قلوب الشعب الهاتف فوق الشاطئ الشاحب في بحر من الآمال!

واضطرب البحر بعرائس الماء وأبكاره، أسرعن من كل فج يحيين أبطال هيلاس، يخفين الوشائح السوداء التي ادخرنها لأيام الفصل، إن أيام الفصل كانت ميقاتاً

وتوارت الشمس بالحجاب، وبزغ القمر يفضض حواشي الماء، وحملقت النجوم ترى إلى هذا الأسطول اللجب يمخر عباباً من خلفه عباب، ويطوي لجة من ورائها لجة،

والملاحون دائبون ما ينون، مرسلين في اللانهاية ألحانهم، مرددةً الرياح أغانيهم وأنغامهم؛ والقادة متكبكبون حول القائد الأعلى، حول أجاممنون، يدرسون تلك الخطة، وينقدون هذه الفكرة، ويدبرون من أمرهم ما يصل بهم إلى نصر عزيز

وتنفس صبح اليوم الثالث. . .

وبدت طروادة العاتية في الأفق الشرقي، متشحةً بالشفق النحاسي، الذي صبغ سماءها بالبنفسج الرائع، تتفجر منه أنهار من الدم!!

طروادة!

ذات الأبراج المشيدة، والقباب المنيفة!

إليوم!!

بنية نبتيون إله البحار يوم نفاه زيوس من جنة الأولمب، ونفي معه أبوللو، فساعده في بنائها بموسيقاه!!

يا ما أروعه منظراً أن ترى إلى أبوللو العظيم يعزف على قيثارة المرنة، فتثب الحجارة وتتراقص، وتقفز إلى مكانها من أسوارك يا إليوم!!

طروادة يا ذات الحول!

أين تنام هيلين الساعة سالمة حالمة، وأيان تتقلب ترب فينوس ملء ذراعي باريس!!

ويحك يا منالاويس!

إنه ينظر بعينين مشدوهتين إلى أسوار طروادة، يتمنى لو تندك على العاشقين الآثمين!!

أهو الآن يقبلها، ويجني جنا خديها بفمه النهم المشتعل؟ أم هو يضمها إليه في . . .)

(. . . . . .!عنف، غير آبه لقلبي الخافق المضطرب

. . .منالايوس! لابد مما ليس منه بد

لقد ترامت أخبار الحملة الهيلانية إلى طروادة فهب أهلها البواسل يستعدون ويستعدون جيرانهم فنصروهم ولبو نداءهم، وهرعوا إليهم من كل فج عميق، وهاهي مشارف الجبال وقننها وسفوحها، ونتوء الشاطئ وصخوره ومغاوره، وهاهي ليديا المتيقظة، وإيوليا المتحفزة، وإيونيا الرابضة. . . هاهي البلاد جميعاً تضج بالجند، وتعج بالسلاح، وتقعقع بآلة الحرب، وتدق طبول الوغى، وتذكي نيران الحراسة في قمم الجبال، فلا تغفل عين ولا تهمد همة، ولا يتسرب إلى النفوس كلال

واقترب الأسطول من الشاطئ. . .

ولكن أحداً لم يجسر أن يجازف بنفسه، لأن القتيل الأول، هو أول من يهبط إلى الأرض، كما أخبرت النبوة في معبد دلفى!

ومرت أيام: والهيلانيون في سفائنهم ينظرون إلى أبراج طروادة وفجاجها، ويتحرقون شوقاً إلى لقاء جنودها، ومنالايوس يحرق الأرم هو الآخر؛ ولكن أحداً لا يرضى أن يكون الفدائي الأول. . . (لأني إذا نزلت إلى هذا البر المخوف فسيكون الموت محتوماً علي، دون أن أستطيع إلى قتل أحد من هذا الجند من سبيل، وأنا لم أحظر إلى هنا لأكون قرباناً للإلهة، ولكن لأزاحم وأنافح وأصول، فان قتلت بعدها، فبعشرات وعشرات، لا كما يقتل كلب البرية غير مفدى. . .)

برتسيلوس البطل

بيد أن هيلانياً مقاحماً، هيلانياً واحداً، من خيرة القادة ومذاويدهم، عز عليه ألا يكون في هذا الجيش العرمرم، على ما جمع من صناديد اليونان ومغاويرهم، فدائي واحد يتلقى

الطعنة الأولى النجلاء، بثغر باسم، وقلب لا يجزع ونفس مؤمنة مطمئنة لا تهلع في موقف الموت، ولا تفرق إذا حم القضاء!

كبر على بروتسيلوس أن يرمي قومه بجبن ليست لهم يد فيه، وكبر عليه أن يقف ألف ألف لو شاءوا دكوا الجبال وزلزلو السماوات، من دون هذا البلد الذي لا يتقدمون ولا يتأخرون،

كأنما حربهم هزل، ونفيرهم مكاء، وعزمهم تلفيق. أو كأنما ملأو الدنيا وعيد لتمتلئ عليهم سخرية وضحكاً!

كبر على برتسيلوس ألا يكون هو شهيد هذا الموقف فارتخص نفسهن وهانت عليه الحياة، وتفهت في عينيه لذائذ هذا العيش الذليل؛ ثم استخار أربابه، واستعاذ بسيد الأولمب وما هو إلا أن لمح الشمس يذر قرنها في خدر الشرق، فوق جبين طروادة، حتى قذف بنفسه على الشاطئ، وأرسل في الخافقين صيحة الحرب كأنها رعد يميد به جانب الجبل، وتهم من قصفه أسوار المدينة؛ ثم جال جولة هنا وجولة هناك، وإذ بالسهام ترشقه من كل مكان، وإذا هو ملقى على أديم الثرى مضرجاً بدمه، معفر بأول نقع الوغى

رحلة من الدار الآخرة

وذاع خبر مقتله حتى انتهى إلى تساليا، حيث زوجته المفجعة، فحزنت عليه حزناً أمض قلبها، وشف جسمها، وأقض مضجعها، وصير الحياة في عينيها حلكاً شديداً وظلاماً قائماً؛. . . . (برتسيلوس! أهكذا يا حبيبي ذكرت كل شيء في ميدان المجد والشرف، ونسيت فيه كل شيء؟ أهكذا يا حبيبي ذكرت التضحية والأقدام حين تخاذل مواطنوك عن مواطن التضحية والأقدام، فغامرت بنفسك في هذا المعترك المضطرب، ونسيت أن ورائك قلباً ينعقد رجاؤه بك، ونفساً ترف من خلف البحار فوقك، وروحاً لا سكن لها إلا صدرك الحنون، وعينين لا يعرفان جمال الحياة إلا في وجهك المشرق، وأذنين ما التذتا إلا الموسيقى المنسكبة من فمك!! برتسيلوس! ما قيمة الحياة بعدك يا حبيبي! من لزوجتك التعسة يوم يفخر النساء بأزواجهن؟ من للمحزونة الكاسفة لاؤوداميا؟ ما أشق الحياة علي بعدك يا رجلي ومن كنت كل شيء لي!

لا أسخط عليكم يا أربابي!

بل أنا أصلي لكم، أصلي لكم بدموعي وقلبي! أصلي لكم بأحشائي التي تتمزق، ورأسي الذي يحترق! أصلي لكم بلساني الذي يجف من شرق في حلقي، وكان حديث برتسيلوس يرطبه ويندیه! أصلي لكم يا أرباب الأولمب عسى أن تلين قلوبكم لي، فأرى حبيبي وأموت!!

رجية يسيرة على مقدرتكم يا أرباب الأولمب! إما أن أقضي فأستريح من هذا الكمد الممض، والبث المؤلم، وإما أن تأذنوا فيعود برتسيلوس، فأراه وأموت!

أتمنى عليكم أن يعود فأكلمه. . . أملأ أذني وقلبي من موسيقاه! أناديه باسمه ويناديني باسمي! يعانقني وأعانقه! يرى إلى عبراتي وأنظر إلى عبراته! يبتسم لي في رضاه وفرحه، وابتسم له في انكساري ولوعتي!

ائذنوا يا أرباب الأولمب، فأنا ما أفتأ أصلي لكم، وأتوسل إليكم بدمه الزكي، وروحه الأبي، وقلبه الكبير!

(. . . . . .!ارحموا ذلي، ورقوا لهواني، وارثوا لحالي

وصيرت بنواحيها إشراق الصباح ظلمة من الحزن لا أول لها ولا آخر؛ وأرسلت في الليل البهيم أناتها المؤلمة، وزفراتها الحارة؛ ووصلت بكاءها الطويل بصلاتها الخاشعة، حتى ارتجفت قواعد الأولمب، واهتزت عروشه الذهبية، وانعقدت بينه وبين لاؤوداميا قنطرة من الحزن، عبرت عليها بركات الآلهة إلى فؤادها المكلوم، فمسحت عبراتها، وهدأت من روعها، وبشرتها بعودة برتسيلوس!

وفي هادئة ليلة مقمرة، سكن هواؤها وصدح بلبلها، وأنشد البدر لحنه الصافي على آراده الفضية ليغمرها بهاءً وروعة، خرجت لاؤوداميا المحزونة من قصرها المنيف، لتلقى روح برتسيلوس يهدهده هرمز الكريم بين يديه، حتى يكون تلقاء زوجته فترتمي بين ذراعيه!

ويغرقان في طوفان من القبل!

ويغرقان في لجة من العبرات!

ويقص عليها برتسيلوس أنباء مقتله. . . فتبكي. . . وتبكي. . . وتعاتبه لاؤوداميا. . . وتعذله. . . ولكن الساعات الثلاثة التي سمحت بها الآلهة للقائهما تمر كاللمح. . . فينبههما هرمز إلى انقضائها. . . وما تكاد تسمع نذير هرمز، وتعرف أن زوجها عائد أدراجه إلى هيز، فيظل فيها إلى الأبد، حتى تصعق مكانها، وتخر مغشياً عليها. . . وتموتّ!

فوا رحمتاً للزوجين السعيدين

(لها بقية)

دريني خشبة

الباقي على قيد الحياة

للقصصي الفرنسي بلزاك

ترجمة حسن محمد حبشي

حين دقت ساعة مدينة (مندا) الصغيرة مؤذنة بانتصاف الليل، كان ضابط فرنسي شاب متكئاً على حافة سياج طويل يحيط بالقلعة، غارقاً في لجة التفكير العميق، وذلك أمر غير مألوف بالنسبة لما يحيط به، ولكنه كان منصرفاً عن كل ما هو فيه من وقت وليل ومكان إلى التفكير القوي، وكانت سماء أسبانيا الجميلة تمتد في زرقة صافية فوق رأسه، وقد رصعت بالنجوم الألاءة، وضوء القمر الساطع ينير هذا الوادي الجميل الممتد تحت قدميه، وهو يشرف على مدينة (مندا) ويعلوها بمائة قدم؛ وكأن الطبيعة قد هيأتها هكذا لتكون في مأمن من رياح الشمال الآتية من هذه الصخرة الكبيرة التي تقوم عليها القلعة، وإذ أدار الضابط رأسه، أبصر البحر يكتنف البلدة بأمواهه الفضية، وكأنه قد استحال إلى قطعة من اللجين الذائب، وكأن القلعة كوكب أو جوهرة ضوء وهاج، وكان وهو في مكانه، يسمع صدى رنات الموسيقى، وعربدة الضباط في الحفلة الراقصة، وقد اختلط ذلك بهمهمة الأمواج الآتية من بعد، وكأن نسيم البحر والليل جددا نشاطه المنهوك، زد على ذلك ما حوله من حدائق فيحاء، وزهور عطرية الشذا، نفاحة الأريج. فكأنه مغموس في حمام من العطر الزكي

وكانت قلعة (مندا) في حوزة شريف أسباني، اتخذها وأسرته دار إقامة، وكانت ابنته الكبرى (كلارا) الجميلة ترمق الضابط الفرنسي الشاب بنظرات مبهمة، وإن كانت تنم عن حزن عميق

وكانت كلارا هذه فتانة رائعة الحسن، فوقع جمالها في قلب الضابط الفرنسي موقع الماء من ذي الغلة الصادى، فوقف واجماً يفكر في هذا الجمال، وبالرغم من أن ثروة أبيها كانت طائلة، وموزعة بينها وبين أخواتها الثلاثة وأختيها، فقد رأى فكتور مارشاند (الضابط) أن فيها الكفاية لأن تكون الدوطة كبيرة، ولكن كيف يتسنى له أن يخطب يد (كلارا) ابنة الشريف الأسباني، وهو ابن تاجر صغير في باريس، أضف إلى ذلك ما بين الأسبان والفرنسيس من إحن

وكان الجنرال (ج) قد علم من مصدر سري أن المركيز يحاول أن يوقد مشعل الثورة لنصرة فرناند السابع، ولذا أرسل مرشاند ليعسكر في مدينة (مندا) حتى يكون على علم تام بما ينويه الثوار، ولكي يخمد أي حركة يقومون بها ضد الفرنسيس، وفي ذلك الوقت وصلت إشارة بأن المركيز يتصل سراً بالإدارة الإنكليزية في لندن، وليس من البعيد أن يرسل الإنكليز مدداً؛ ومما حير لب فكتور مارشاند أن المركيز قد استقبله وعائلته استقبالاً لا يدل إلا على منتهى الهدوء؛ ووقع بين أمرين. إذ كيف يوفق بين هذا الهدوء الذي يتجلى في المركيز وأعماله، وبين إشارة الجنرال من وجود مفاوضات سرية؟ ولكن سرعان ما تلاشت هذه الخواطر من ذاكرته، حينما مد بصره إلى الأمام، فأبصر عدة مصابيح مضاءة في المدينة، مع أنه أصدر أمره، بأن تطفأ الأنوار كلها في ساعة معينة، على رغم أن الليلة ليلة عيد ميلاد القديس سنت جون، ولم يسمح بالإنارة إلا للقصر فحسب، ومما أحال الشك يقيناً عنده، وبأن هناك يداً تعمل في الخفاء أن رأى ساريات عدة مراكب وسط مياه البحر، تحت أضواء القمر الفضية. وبينما هو سابح في تيار التفكير العميق إذ سمع وقع أقدام خلفه، ولما تبينه وجده أحد رجاله يلهث، وحين رآه قال له:

- أهو أنت يا سيدي الضابط؟

- نعم هو أنا. . . ماذا تريد؟

- إن هؤلاء الوحوش يزحفون زحف الديدان
- ثم ماذا؟
- لقد رأيت رجلاً يخرج من القصر وفي يده مصباح مضاء، وهذا مما أثار الشك في نفسي، وبعثني على أن أقتفي آثاره، وأظل قريباً منه جهد ما أمكنني؛ أجل! قد يكون مسيحياً محافظاً على التقاليد، غير أن الحالة التي هو فيها، ومخالفة أمرك، كل ذلك مما يجعل الشك يحوك في نفسي. وثم أمر آخر يا سيدي الضابط، ذلك أني اكتشفت على قيد خطوات منك، عرمة من الحطب

ولم يكد الجندي يصل إلى هذا الحد من الكلام حتى دوت في المكان صرخة صدعت السكون العميق، وانفجرت قنبلة أودت شظية منها بالجندي لساعته، واندلع لهيب النيران على بعد عشر خطوات فحسب، من الضابط الذي أسقط في يده، وتبين له أن في الأمر

دسيسة، وأن الثوار قد تأهبوا للفتك بالأعداء، واضطرب في مكانه، إذ لم يكن معه حسامه؛ وهاهو ذا يرى رجاله وقد تردوا في ساحة المدينة، وصمتت الموسيقى، وتلاشت ضحكات الضباط، ومر على مخيلته ما سيلاقيه - إذا هو ظل حياً - من محاكمة وإهانة، فلم يجد أمامه من وسيلة للنجاة إلا أن يلقي بنفسه في سفح هذا الوادي، حيث يتحطم جسمه على صخوره الجاثمة هناك:

وإذ كان على أهبة تنفيذ ما اعتزم، أحس يداً أعاقته عما هو قادم عليه، فاشرأب إلى صاحبها، فإذا به (كلارا) تهيب به، أم أسرع فان أخوتي على آثاري قادمون. . . . للفتك. . . بك؛ وامض إلى الصخرة القائمة عند سفح التل، وستجد حصان أخي (جوانيتو) فامتطه ولا تتريث لحظة، وإلا فقدت حياتك

فحدق الفتى فيها دقيقة، وقد فاضت نفسه بالدهشة، ولكنه تنبه أخيراً، إذ ثارت في نفسه غريزة حب الحياة، تلك الغريزة التي تتمثل في الجميع على السواء، في حيوان أو إنسان، وحمل إليه الريح صدى صوت (كلارا) تهيب بأخوتها، ألا يتريثوا في اقتفاء آثاره، كما سمع وقع حوافر دوابهم تسابق الريح، وهم على صهواتها يرسلون عليه وابلاً من الرصاص الذي يمر بجانب رأسه، ولم يتمهل هو الآخر لحظة في الطريق بل أسرع بالجواد، وبعد بضع ساعات كان في حضرة الجنرال، كان في ثلة من إخوانه يتناولون طعامهم، فارتمى أمامه قائلاً:

- (مولاي. إن حياتي بين يديك، افعل بها ما تشاء؟)

ثم أخذ يقص على الجنرال قصته، فإذا الجميع ينصتون إليه وكأن على رؤوسهم الطير، وعلى وجوههم غبرة، ترهقها قترة، وألجم الخبر أفواههم، وجعلهم آذاناً فحسب، فلما أتمها قال له القائد العام:

- (يا هذا إني أراك سيئ الحظ، أكثر من أن تكون مذنباً، لا تثريب عليك، وإني لأبرئ ساحتك، إلا إذا رأى المرشال غير هذا)

فسأله الضابط: (وإذا سمع الإمبراطور بالحادثة!؟)

فأجابه الجنرال: (سيكون القتل نصيبك، ولكن دعنا الآن من هذا، وهيا ندبر خطة ننتقم بها من هؤلاء الأوغاد، أوشاب الإنسانية، لابد أن يكون الثأر شديداً، حتى تخمد في نفوسهم الوحشية والدناءة)

وفي ساعة من الزمن، شدت فرقة من الجند رحالها، على رأسها الجنرال، بصحبة الضابط فكتور، وإذا الجنود بمصير زملائهم الذين أخذوا على غرة، ثارت في عروقهم دماء الانتقام واستحلوا شعلة تتأجج لحرق الأسبان، وأقسموا أن ينتقموا لإخوانهم أشد انتقام، وسرعان ما قطعوا المسافة بين مدينة مندا، وبين مركز القيادة العليا ورأى الأسبان أنفسهم محاصرين، وعلموا أن الجنرال لا يتردد لحظة في الفتك بأهل المدينة، لا تأخذه في ذلك شفقة ولا رحمة، فبعثوا إليه رسل المهادنة، ورضى هو أن يسلم كل من في القصر أنفسهم إليه، من أحقر الخدم إلى المركيز نفسه، واتخذ القصر مركزاً للقيادة؛ وأمر كل فرد من أفراد الأسرة الحاكمة، وخدمها أن يقيد، ونكل بالثوار أشد تنكيل، ولم يرحم رجلاً ولا امرأة ولا طفلاً، بل ثارت فيه غريزته الوحشية، وبينما هو في مجلس من رجاله إذ أقبل عليه فكتور ماشاند، وقال له:

- أسألك يا مولاي أن تجيب لي طلباً، هو أن المركيز يرجوك أن تفرق بين الأشراف

والعامة، وذلك بأن تطيح رقابهم بيد الجلاد لا بالمشنقة، وأن تفك قيودهم التي كبلوا بها، ولن يحاولوا الهرب، وذلك عهد قد قطعوه على أنفسهم، وإنه ليتخلى لك عن جميع أملاكه وأمواله إذا عفوت عن أحد أبنائه ووهبته الحياة

فقال الجنرال: إن أمواله قد أصبحت تبعاً للملك جوزيف، ولكني سأهبه ما طلب، وإن كنت أعرف علة رجائه، في أن يبقى اسم الأسرة، ببقاء أحد أفرادها؛ سأهبه ذلك، لمن يرضى أن يكون جلادهم، ويطيح برقابهم، والآن لا تذكر لي شيئاً عنهم البتة

اجتمع الضباط في الغرفة التالية يتناولون غداءهم، وكانوا في نهم شديد إثر ما كابدوه من نصب وتعب، فأقبلوا على الطعام كالوحوش الضارية قد أنشبت مخالبها في فريسة دسمة بعد طول سغب، وتفقدوا الضابط فكتور، فلم يجدوه بينهم، ذلك لأنه مضى إلى الحجرة التي فيها عائلة المركيز وآلمه أن يرى سادة الأمس مقيدين كالعبيد، قد ارتسمت على وجوههم دلائل الأسى الشديد، واللوعة المرة؛ وأي لوعة أشد على النفس من أن المرء أن يرى عبدا حقيرا يتحكم فيه وهو السيد الحاكم؟ وسرت رعشة في جسد الضابط حين فكر في هذه الرؤوس الجميلة، وأنها ستهوي على أقدام الجلاد مصبوغة بالدماء، وكأنما هم كانوا

يفكرون في هذا الأمر نفسه، فقد بعثروا حولهم تنهدات الألم والحزن التي ملأت جو الغرفة، وإذ أبصروا فكتور يدخل حجرتهم اشرأبت أعناقهم، طمعاً في أن يكون حاملا إليهم بشرى العفو، فأمر الجند أن يفكوا قيود السادة، ومضى هو بنفسه يحل وثاق (كلارا) فقابلته على صنيعه هذا بابتسامة اغتصبتها اغتصاباً، ومس في رفق ذراعها البضة الناعمة، وأعجبته خصلات شعرها الفاحم، المتهدل على جبينها الوضاء، وفتنة قدها الممشوق الجميل، وخصرها الأهيف، فسألته هل نجح في مهمته، فهمهم همهمة حزينة، وجال ببصره في وجهها ووجه أخوتها الثلاثة، وكان (جوانيتو) أكبر الأبناء يبلغ من العمر ثلاثين عاماً، وأخوه (فيليب) عشرين ربيعاً، وكان (عمانويل) يبلغ ثمانية أعوام، ذا أنف روماني وطلعة جميلة؛ ثم جمع أطراف شجاعته، وأخبرها برأي الجنرال، فسرت رعدة الرهبة في أوصالها، ولكنها تشجعت ومضت تخبر أباها بما أسره إليها فكتور، وزادت عليه قولها: - أبى عليك أن تأمر (جوانيتو) وعليه أن يصدع بأمرك إذا كان مخلصاً لك، ففي طاعته إياك، وتلبيته لرغبتك إسعادنا! فلما سمعت الأم ذلك، أحست بالأمل يعاودها، وظنت أن نجاتهم أصبحت قوسين، وما علمت أن المركيز إذ ذاك يطلب من ولده أمراً، تنهد له الجبال هدا، وإذ تبينت حقيقة الأمر واطلب ارتدت إلى الوراء، تعلوها صفرة اليأس، وعرف جوانيتو السر فثارت دماء الغضب حارة في عروقه، وهب ثائراً كالأسد، قد ألفى نفسه أسير قفص من الحديد، بعد أن كان يطأ الثرى، في زهو الأمير، ويرى الغابة كلها تكاد تضيق عن خطى أقدامه، ولكن الأب هدأ كل ذلك، بأن قال: (جوانيتو)

فكانت إجابة جوانيتو هزة الرفض من رأسه، وارتمى خائراً على مقعده، يصعد ناظريه في أبويه، وقد تجلت الدهشة والأسى والغضب في عينيه الحائرتين، فلما رأت (كلارا) إصرار أخيها على الرفض، تركت مكانها إلى حيث جوانيتو، وطوقت عنقه بذراعيها الغضتين، وجثت أمامه وقبلته في عينيه قائلة:

أي جوانيتو: يا أعز ما أملك، آه!. . . ما ألذ الموت إذا كان من يدك!. . . إنك لا تدري) - حلاوته. . . كما أشعر بها الآن. . . أنقذني. . يا جوانيتو. . من يدي السفاح. . الملوث اليدين. . . حتى لا يقال. . . إن جلاداً حقيراً. . . أطاح رقاب العائلة الحاكمة. . وأنقذني (من بين براثنه. . وبراثن رجل آخر

ثم نظرت شزرا إلى فكتور، نظرت إليه نظرة تفيض حقداً وكراهية واحتقاراً، وكأنها بذلك تثير في نفس أخيها الحقارة للفرنسيس، وتشعل الضغينة في نفسه عليهم،. . . ثم قال له أخوه فيليب متوسلاً: (كن شجاعاً صنديداً وإلا محوت عائلتنا الشريفة من العالم)

وأمره الأب، فلم يلب طلبه، فجثا أمامه، هو وأخوته جميعاً ورفعوا أكفهم متوسلين إليه أن يضع المصلحة العامة فوق المصلحة الخاصة، وأن ينقذ اسم العائلة من أن يدنس، وعرف الأب من أين تؤكل الكتف، فأهاب به قائلاً: (أي بني. أغادرتك شجاعة الإسباني، وإحساسه الشريف؟ أأجثو أمامك. . . وأتوسل إليك. . . ولا ترد طلبي إلا خائباً؟ أتفكر في ألمك فحسب. . ولا تزنه بآلامنا جميعا. . إذا أصررت على المكابرة) ثم التفت إلى

زوجته قائلا: أهذا ولدي يا زوجتي؟
فصاحت به الأم في يأس: (سيلبي طلبك. . أيها المركيز!!) ولمحت جبين جوانيتو ينعقد أكثر، وتبينت أنه يألم لها أكثر من الجميع وحينذاك كانت الثانية (ماركينا) قد تعلقت بأطراف ذيل أمها، بقبضتيها الضعيفتين، وأخذت تذرف الدموع، فلما شاهدها (فيليب) انتهرها ولامها، وإذ ذاك دخل الحجرة كاهن المدينة، فالتفوا حوله كصغار الطير، ومضوا به إلى جوانيتو الصامت، فلم يستطع مرشاند، أن يرى هذا المنظر الأليم، فبارح الغرفة إلى حيث اجتمع الجنرال مع بعض قواده يجرعون الخمر، وقد أصدر أمره بإحضار فرقة من الجند تذب الناس عن أن يقربوا من جثث الخدم المشنوقين، مدلاة أمام أعين السابلة، ووقف الجلاد بهيئته المفزعة ليحل مكان جوانيتو إذا خانته شجاعته، ولم يستطع أن يقوم بتنفيذ ما عهد إليه، وصدع هذا السكون الضارب أطنابه على المكان وقع أقدام عائلة المركيز، يحيط بهم الجند مشهرين سيوفهم، يلمع في ظباها الردى، ولم تفارق الهيبة أفراد الأسرة، وكانوا يتقدمون إلى حيث النطع ممدود في خطوات هادئة، لا أثر للخوف أو الاضطراب فيها، غير أن أحدهم قد علته صفرة الأموات، متكئاً على ذراع الكاهن الذي أخذ يهدئ روعه المضطرب، بترانيم دينية، فعرف الجميع حينئذ أن (جوانيتو) سيقوم بمهمة الجلاد في إطاحة الرقاب، وجثا الجميع قريبين من المقصلة، وأي مشهد آلم للنفس من أن ترى عزيز قوم ذل؟ لقد كان المركيز وزوجته وابنتاه، وولداه أمام جوانيتو، الذي أسر إليه الجلاد بعض الكلمات
حينذاك اقتربت (كلارا) من أخيها، وصاحت به: جوانيتو، ابدأ بي إذا أردت أن ترفق. . . بشجاعتي المنهوكة. . . هيا. . أطح رأسي أولاً!!
وساعتئذ أبصر الناس الضابط (فيكتور مارشاند) مسرعاً نحو (كلارا) التي جثت على ركبتيها تتأهب للأمر الواقع، وتستعد لأن يطاح رأسها، فلما حاذاها تماماً قال لها في أذنها: (إن الجنرال ليعفو عنك ويهبك الحياة إذا رضيت بي زوجاً!)
فصوبت إليه نظرة ملؤها الكبرياء بنفسها، والازدراء له، ثم صاحت بأخيها، كأنها اللبؤة الضارية: (هيا، يا جوانيتو. . فإني. . . على أتم الاستعداد. . . .) وإذ ذاك أبصر الناس رأسها الجميل يتدحرج تحت قدمي أخيها، وقد انفصل عن جسدها، وسرت الرعشة في جسد أمها، ولكنها ملكت عواطفها، وتقدم أخوه عمانويل وسأله: (أتراني في مكاني تماماً. . أيها العزيز جوانيتو؟)
ثم أقبلت إليه أخته الصغيرة (ماركينا) والدموع تنهمر من عينيها، فسألها: (أتبكين يا أختاه؟)
فقالت: نعم يا حبيبي جوانيتو، إني أبكي من أجلك. . . . لشد ما يؤلمني أن تظل وحيداً حين تتفقدنا جميعاً فلا تجدنا معك)
ولكنه رفع السيف وأهوى به على رقبته الصغيرة، وإذ ذاك تقدم منه أبوه المركيز، فصوب ناظريه، وصعدهما، في دماء أبنائه الجارية تحت قدميه، كأنها المياه المتدفقة شاهدة على ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، ثم التفت ناحية الجماهير الذين عقدت الدهشة ألسنتهم، فكانوا أصناماً لا تتكلم، أو تتحرك تأثراً من هذا المشهد المروع، ثم مد يده إلى جوانيتو، وصاح في صوت قوي النبرات حادها، وقال:
أيها الإسبانيون! إني أبارك ولدي، وأهبه دعوات الأبوة والآن هيا أيها المركيز. أطح) رأسي، ولا يأخذك الخوف أو الرعب، هيا. لا تثريب عليك)
فلبى نداء أبيه صامتاً حزيناً، وإذ ذاك أقبلت أمه، منهوكة القوى، خائرة الأوصال، كيف لا وقد رأت أبناءها جميعاً، وزوجها المركيز، تطاح رقابهم، كأنهم الماشية بل أحقر، ذلك قلب الأم الذي:
لا ربة النسيان تر ... حم حزنه وترى بكاء
كلا ولا الأيام تب ... لى في أناملها أساه
إلا إذا ضفرت له ال ... أقدار إكليل الجنون
وغدا شقياً ضاحكاً ... تلهو بمرآه السنون
أقبلت أمه متكئة على ذراع الكاهن، ونظرت إليه نظرة الوداع ممزوجة بأحر الألم، فما رآها حتى تنبهت حواسه الخامدة وثار غاضباً، وقال:
- (إن ثدييها هذين قد أرضعاني صغيراً)
فانتفض الجميع، حين سماعهم هذا، وانتزعت تلك الكلمات صرخة الفزع من قلوبهم

جميعاً، وسكنت ضحكات الضباط، وعرفت المركيزة وقتئذ أن شجاعة جوانيتو ولت، ولم يعد ذلك القوي، فجمعت ما تبقى من شجاعتها المبعثرة، ثم قفزت من فوق قمة المنحدر فهوت إلى القاع، وقد مزقتها الصخور الجاثمة في أسفله شر ممزق، فهتف الجمهور المشاهد هتاف الإعجاب، أما جوانيتو فقد رقد مسجى مغمى عليه، فحملوه إلى الخارج حيث عاش وقد أسموه (الجلاد)

حسن محمد حبشي

البريد الأدبي

سرقة أدبية!؟

قرأت كلمة في بريد الرسالة (115) بتوقيع (حبيب زحلاوي) يتهم فيها (الشاعر الدكتور إبراهيم ناجي) بأنه سرق قصيدته (عاصفة روح) من قصيدة الشاعر الدمشقي ميشيل عفلق (؟) ونحن لم نقرأ قصيدة (عاصفة روح) ولا قصيدة (عفلق) ولا نعتد بهذا الشعر، لأنا لا نجد فيه روحاً كالتي نريد، ولا لغة كالتي نرتضي، ولكنا مع هذا نعلم أن الدكتور ناجي من نابغي الشعراء الشباب في مصر، ونعرف له أشياء بالغة في بابها حد الجودة. فأحببنا أن نطمئن الدكتور إلى أنه ليس في دمشق شاعر يسمى ميشيل عفلق ألبتة، وربما كان فيها كاتب صحف، أو ترجمان قصص، بهذا الاسم، أما شاعر فلا. . .

وقد سألنا عن القصيدتين صديقنا الشاعر أنور العطار، فأكد لنا أن قصيدة عفلق مسروقة من قصيدة لشاعر من شعراء سورية في المهجر، وأن هذا هو السر في أنه لم ينظم في حياته غيرها!

على أن هذا المذهب الأدبي الجديد لا ينكر فيما نظن السرقات الأدبية. لأنه لو أنكرها وحرمها، لسقط سقوطاً لا قيام له من بعده، لأن في كل قصيدة أو مقالة من هذا الأدب الجديد ضميراً مستتراً يعود إلى شاعر أو كاتب إنكليزي أو فرنسي. ثم إن هذا الأدب لم يكتب بلغة عربية، تضمن له البقاء، وتكفل له الخلود، وليس فيه إلا معناه؛ فإذا خسره فقد خسر كل شيء، وماذا يبقى من أدب معناه مسروق، ولغته مرذولة ساقطة؟. . .

ولعل الله يوفقنا إلى تبيان هذا في مقال آخر، نرد فيه هذه البدعة المنكرة في الأدب، بدعة أقوام سرقوا المعاني والأفكار، ثم لم يقدروا أن يصوغوها صياغة عربية فقالوا: إنه لا شأن للألفاظ، ولكن الِشأن للمعاني والأفكار

علي الطنطاوي

حول سيرة تيمورلنك

قرأت في العدد السادس عشر بعد المائة من (الرسالة) الغراء ما كتبه الأديب الباحث م. ع. ع عن مصادر ترجمة تيمورلنك وابن عربشاه، ولعل من المفيد أن أذكر بعض المراجع

التي ترجمت لهما مما لم يذكر الأديب الكاتب، فقد ترجم له ابن العماد في كتابه (شذرات الذهب في أخبار من ذهب) في نحو خمس صفحات كبيرة من الجزء السابع، وكذلك السخاوي في (الضوء اللامع)؛ فقد ترجم له أربع صفحات كبيرة من الجزء الثالث بتحقيق دقيق، ولابن عربشاه ترجمة واسعة أيضاً في الشذرات في أربع صفحات وكذلك في الضوء اللامع

محمد شفيق

مكانة الفن في نظم التربية

منذ بضعة أعوام عني ولاة الأمر في إنكلترا بتوسيع دائرة التعليم الفني في بعض درجات التعليم، ولاحظ الخبراء أن هذه الخطوة أثمرت ثمراً حسناً، وارتفع معيار الذوق الفني لدى الجمهور، وقد رأى مجلس الفن والصناعة أن يتقدم إلى (ديوان التربية) (أو مجلس المعارف الأعلى) باقتراحات جديدة لترقية التعليم الفني؛ وخلاصة هذه الاقتراحات هو أن يدخل في برامج التعليم في المدارس الثانوية والمتوسطة والعالية نظام ثابت للتعليم الفني، وأن يخصص فيها لهذا النوع من التعليم من العناية قدر ما يخصص لتعليم اللغات أو العلوم أو رياضيات، وأن الفن يجب أن يكون مادة إجبارية في برنامج مدارس المعلمين، وأنه يجب تشجيع استخدام المعلمين الأخصائيين في الفن. وتبوؤ الفن هذه المكانة في نظم التعليم يبث في أذهان الشباب حب الجمال في جميع

مطالب الحياة
ويقول مجلس الفن إن دراسة الفن يجب ألا تكون لقصد الفن ذاته، وإنما يجب أن يكون التعليم الفني أداة للرخاء الاقتصادي. وذلك انه إذا مزج الفن والصناعة فإن معيار الصناعة يرتفع ارتفاعاً محسوساً. ولهذه النقطة أهمية خاصة، لأن أبناء الأمة إذا درجوا على تقدير الفن والنماذج الفنية، فأنهم كمستهلكين لابد أن يطالبوا بمنتجات تتفق مع أذواقهم الفنية، ولهذا يضطر أصحاب المصانع لاستخدام الفنيين لسد حاجاتهم، وهذه خطوة هامة في ترقية الصناعة
ويرى مجلس الفن أيضاً ألا يقتصر على تعليم الفن داخل المدارس، وإنما يجب أن يسهل السبيل للمتطوعين خارج المدرسة، ويجب أن يكون للفن أثره في الخط، وفي شرح دروس
التاريخ والجغرافيا والآداب والطبيعيات والتدبير المنزلي. هذا ولما كانت المدارس الحديثة تبني جامعة لكل أسباب الراحة والصحة، فأنه يجب أيضاً أن يعنى بزخرفتها عناية خاصة حتى يعيش النشء بين مناظر الفن والجمال
وليس الفن الإنشائي خاصة لأقلية صغيرة من الناس؛ فقد دلت معارض الأطفال الفنية على مقدرة لم تكن للنشء من قبل. وقد آن الأوان لأن يشغل التعليم الفني مكانته في جميع درجات الدراسة، وأن يكون من أهم العناصر في نظم التربية وبرامج التعليم
هجرة الكتاب والعلماء من ألمانيا
ليس من ريب في أن قيام طغيان الوطنية الاشتراكية في ألمانيا ضربة للعلوم والآداب والفنون الألمانية، وقد ظهرت آثار السياسة الهتلرية في انحطاط مستوى الدراسات العلمية والفنية في ألمانيا انحطاطاً ظاهراً، وفي تدهور الصحافة الألمانية إلى الحضيض بعد أن كانت في مقدمة صحافات العالم، وفي انحلال النهضة الأدبية الألمانية؛ ومن المعروف أن معظم العلماء الألمان قد اضطروا إلى الفرار من ألمانيا لأنهم من اليهود أو لأنهم لا يناصرون النظام الهتلري. وقد أثيرت هجرة العلماء الألمان في مؤتمر استقلال المباحث العلمية الذي عقد أخيراً في اكسفورد، وتلا الستاذ نورمان بنتوتش الإنكليزي على المؤتمر تقريراً ضافياً عن الاضطهادات التي وقعت في ألمانيا على العلماء الذين رفضوا مناصرة السياسة النازية، ويبدو من الإحصاءات التي تلاها أن العلماء الألمان الذين فقدوا مناصبهم في ظل الحكم الهتلري يبلغ عددهم زهاء ألف ومائتين، وعلق الأستاذ على ذلك بقوله إن مطاردة العلماء على الجملة إلى مثل هذا الحد ليس لها نظير في التاريخ منذ فتح الأتراك القسطنطينية في سنة 1453م، وهو فتح أعقبه هجرة العلماء البيزنطيين إلى غرب أوربا. ومما يجدر ذكره أن نحو خمسين من هؤلاء العلماء المشردين قد استخدمتهم الحكومة التركية في معاهد استانبول وأنقرة
هذا وأما الكتاب الألمان فيكفي أن تعرف أن أكابرهم يعيشون الآن في المنفى في سويسرة وإنكلترا، ومنهم كثير من الكتاب الآريين (غير اليهود) مثل توماس مان عميد الأدب الألماني المعاصر والحائز على جائزة نوبل، وأخوه هنيرش مان وولده كلاوزه، وقد جرد معظم أولئك الكتاب من أملاكهم وأموالهم في ألمانيا وحظر على المطابع الألمانية أن تخرج
كتبهم كما حظر دخولها في ألمانيا، ومعظمهم الآن يخرج كتبه مترجمة إلى الإنكليزية أو الفرنسية
وأما الصحافة الألمانية، فإن أولئك الذين عرفوها أيام ازدهارها وعظمتها أعني قبل ثلاثة أعوام، يدهشون اليوم حينما يرون ما انتهت إليه الصحف الألمانية من ضآلة في الحجم والمادة، ومن تشابه ممل فيما تكتب وتعرض وتناقش
الرياضة والمخدرات
يفتك وباء الأفيون ببلاد الملايو التي يسيطر عليها الإنكليز كما يفتك بالصين وكل الشعوب التي تنتمي إليها من الوجهة الجنسية أو من وجهة الحضارة. وقد قرأت السيدة هرسبروج عضو مجلس العموم الإنكليزي ومندوبة إنكلترا في اللجنة الخاصة بمكافحة الأفيون في عصبة الأمم، تقريراً في اللجنة عن الوسائل التي تجري عليها السلطات الإنكليزية في بلاد الملايو في محاربة وباء المخدرات، قالت فيه إن هذا الكفاح لا يجري فقط بالرقابة والحظر، ولكنه يجري بوسائل اجتماعية يراد بها إضعاف

الرغبة في تذوق المخدرات وخصوصاً بين الشباب. ومما يلاحظ في بلاد الملايو أن عادات الشعب قد تغيرت تغيراً كبيراً عما كانت عليه منذ عشرة أعوام، ولا سيما بين الطبقات الصينية. ذلك أن اللعاب تستغرق الآن اهتمام الشباب من الجنسين. وقد أنشئت ملاعب كبيرة في المدن والقرى للعب الكرة، وهي تجذب جماهير كبيرة، وأنشئت متنزهات عامة في المدن الكبرى يؤمها الصينيون من مختلف الطبقات، واتخذت إجراءات ووسائل صحية كثيرة ساعدت على ارتفاع المعيار الصحي في البلاد، وأنشئت مستشفيات عديدة لمعالجة المرضى والمدمنين، وقد ظهر أثر التيار الرياضي واضحاً في الجيل الحالي، فهو أقل ميلا إلى الانصراف إلى لذة المخدرات وأكثر شغفاً بوجوه التسلية القائمة على ترويض الجسم والذهن

الكتب

ثلاث رسائل - 2

بخط ياقوت الحموي الرومي

للأديب الفارسي عباس إقبال

ترجمها الدكتور عبد الوهاب عزام

قياس عبارات معجم البلدان هذه بما خطوه ياقوت في آخر النسخة التي بيد الكاتب نقلاً عن خط ابن فارس، لا يدع ريبة في أن هذه النسخة هي عين النسخة التي كتبها ياقوت لنفسه من نسخة ابن فارس

ختمت هذه النسخة من تمام الفصيح، كما يقول ياقوت في آخرها، يوم الأحد سابع ربيع الآخر سنة 616 في مرو الشاهجان، ويصرح ياقوت نفسه في معجم البلدان أنه كان في مرو الشاهجان سنة 616، وكان يفيد من خزائن الكتب النفسية في هذه المدينة، وأنه في السنة نفسها ترك المدينة خوفاً من التتار وبلغ خوارزم (الجرجانية) بعد قليل. وكذلك يصرح في معجم البلدان ومعجم الأدباء أنه كان بخوارزم في ذي القعدة من هذه السنة. ثم تركها هرباً من التتار أيضاً. ومن هذا يتبين أن ختم هذه النسخة في ربيع الآخر سنة 616 وقع قبل فرار ياقوت من مرو الشاهجان بشهرين أو ثلاثة

وأما كتابا الرماني فلسوء الحظ سقط أولهما من هذه النسخة كما سقط قسم من أول الكتاب الثاني، كتاب الحروف كما قلنا آنفاً

بين كتاب تمام الفصيح والقسم الباقي من كتاب الحروف ورقة واحدة بخط ياقوت لا صلة بينها وبين هذين الكتابين. والظاهر أنها خاتمة كتاب الرماني الذي سقط من نسختنا، وأول هذه الورقة:

(قابلت به نسخة أبي الفتح محمد بن أحمد بن أشرس النيسابوري التي قرأها على أبي محمد عبيد الله بن محمد الكاتب المعروف بابن الجراذي عن ابن الأنباري، وعلى أبي محمد بن يوسف ابن الحسين التراقي في سنة تسع وثمانين وثلثمائة. وصححته على اختلاف نضد هذه النسخة ونسخة السماع عن ابن الأنباري في تقديم بعض الكلام في مواضع وتأخيره. وعلقت الحواشي من نسخته. وفرغ من انتساخه بمرو الشاهجان في عشية الأحد لثمان عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة 615 ياقوت بن عبد الله الحموي المولى الرومي الأصل، حامداً الله ومصلياً على سيدنا محمد وآله الطاهرين ومسلماً تسليما)

ثم يتبع هذا بنقل فصل من كتاب لحن العامة لابن حاتم السجستاني. وقد سطر في آخر كتاب الحروف للرماني: (آخر كتاب الحروف. والحمد لله رب العالمين. وصلواته على سيدنا محمد وآله. وفرغت من نقله من خط أبي الحسن عمر بن أبي عمر السجستاني بمرو الشاهجان في محرم سنة ست عشرة وستمائة. وكتب ياقوت بن عبد الله الحموي حامداً الله على سوابغ نعمه)

يتبين مما قلناه من أوائل وأواخر النسخ التي خطها ياقوت في هذه المجموعة، ومن الشواهد التي أوردناها من معجم البلدان ومعجم الأدباء - ا - أن ياقوت صرح في خمسة مواضع من هذه النسخ بأن هذه المجموعة خط يده وملكه - ب - وأن ياقوت كتبها في تواريخ رمضان سنة 615، والمحرم سنة 616، وربيع الآخر سنة616 - ج - وأنه كتبها في مرو الشاهجان الحاضرة المشهورة للسلطان أبي الحارث معز الدين سنجر بن ملكشاه السلجوقي التي يقول عنها ياقوت في معجم البلدان إنه عاش فيها قرير العين مستفيداً من مكاتبها الكثيرة، وأن حبها تمكن في قلبه حتى أنساه الأهل

والعيال وسائر البلدان، وأنها لو لم تقع في أيدي التتار فسيطر عليها الدمار ما فارقها حتى الممات
والحق أن من العجيب أن تنجو هذه المجموعة الصغيرة التي هي من أنفس ذكريات القرون السالفة، ومن أعز ما ملكه عالم عظيم مثل ياقوت الحموي، من نيران التتار المستعرة، وغير الزمان المدمرة، فها هي الآن بعد سبعة قرون ونصف على مكتبي ذكرى من عظمة المدنية الإسلامية في تلك العصور، ومذكرة برجل من مفاخر هذه المدينة الوضاءة: شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي
عباس إقبال
باريس 6 جمادى الأولى سنة 1354
الإسلام الصحيح
للأستاذ إسعاف النشاشيبي
للأستاذ محمد بك كرد علي
الإسلام الصحيح هو آخر كتاب عني بتأليفه أديب فلسطين السيد إسعاف النشاشيبي على أسلوب طريف في الوضع، استكثر له من المادة، راجعاً في استقائها إلى الأمهات المعتبرة في الأكثر، مستخدماً الخطابيات للتأثير في ذهن السامع وقلبه، ولكن خطابياته مدعومة بالنص المقبول والشاهد والمثل، وتتخللها أنواع من البلاغات، وفصح وشوارد من اللغة يحاول الأديب احياءها، يعرضها على القارئ في خلال كلامه شارحاً لها في أسفل الصفحة
وموضع هذا التأليف يدور على مسائل: منها أن صاحبه يدعوا إلى الأخذ بالقرآن، ويهيب بفرق الإسلام إلى الالتفاف حول رايته الجامعة، وتكلم على الوهابية والزيدية وبين منشأهما وعلى الإمامة، وأثبت من كتب الثقات أن عترة النبي هم أسرته وأن جماعة النبي إنما هم المسلمون كلهم أجمعون، فليس للنبي قرباء ولا بعداء، وبرهن على أنه ليس في الإسلام طبقات وان بعضهم أبوا إلا أن يكون المسلمون طبقات كمثل الهنادك في الهند (فجماعة تنوقت في طغيانها وإلحادها فألهت من ألهت، وما هذا (والله) بطغيان ولا ضلال، لكنه فنون من الجنون. . . وجماعة أنزلت رجالاً من هاشم غير منزلتهم، وأعطتهم ما ليس في الدين لهم، ومشايعتك المرء على الباطل إنما هو خذلان، والتقريظ والتمجيد بغير الصدق وغير الحق زور وبهتان. وقد جاء الإسلام ليحرر فأبى معتاد الاستعباد في الدين والدنيا من قبل إلا استعباده، وإلا أن يشرك بعبادة ربه عباده)، وأفاض في مراد الشريعة من المودة في القربى وتفسير آية التطهير، وفي الصلاة على النبي، وفي نشأة نقابة الأشراف، وفي الحديث والمحدثين وجناية هؤلاء كفعل بعض المفسرين على الدين يوم قالوا: إن من الآيات ما له ظاهر ومنها ماله باطن إلى غير ذلك مما نقض فيه صراحاً ما يذهب إليه بعض فرق الإسلام. وأثبت أن نهج البلاغة المنسوب لعلي ابن أبي طالب يحمل كثيراً من الصفحات التي لا يعرفها صاحبه، وأن في تلقين الأحداث كل ما في هذا الكتاب على أنه صح عمن نسب إليه رضي الله عنه لا يخلوا من ضرر على الأحداث، إلى غير ذلك من المطالب التي حل بها ما رآه أولى بالتقديم والمعالجة لرفع الخلاف من صفوف من كانت قبلتهم واحدة، ومورده الذي يستقون منه هم فيه شركاء لا تباغض بينهم، والكتاب مفيد لمن يطالعه تدبر وتفكر.
محمد كرد علي
العدد 118 - بتاريخ: 07 - 10 - 1935
المثنى بن حارثة
على ذكر (نادي المثنى) ببغداد
للدكتور عبد الوهاب عزام
كانت قبائل ربيعة ضاربة شرقي نجد، موغلة إلى الشمال حتى أعلي الفرات. . وكانت الوقائع تثور بينهم وبين الفرس في الحين بعد الحين، فكانوا أجرأ العرب على فارس، وكان العرب يسمون فارس الأسد، فسموا ربيعة (ربيعة الأسد)
وكان بنو شيبان من هامات ربيعة في الجاهلية، وهم كانوا أبطال (ذي قار)، وامتد بهم المجد في الإسلام فكان منهم بيتوتات لها في الحرب والمكارم مآثر. يقول أبو تمام:
أُولاك بنو الأفضال لولا فعالهم ... دَرجن فلم يوجد لمكرمة عقْب

لهم يوم ذي قار مضى وهو مفرد ... وحيد من الأشباه ليس له صحب
به علمت صُهب الأعاجم أنه ... به أعربت عن ذات أنفسها العُرب
هو المشهد الفرد الذي ما نجا به ... لكسرى بن كسرى لا سنام ولا صُلْب
- 2 -
وقد امتدت أحقاد ذي قار بين الفرس وبني شيبان خاصة، وقبائل بكر عامة؛ حتى كان بنو شيبان طلائع الفتح الإسلامي في العراق: لما عم الإسلام الجزيرة وتوطد سلطانه سمع أبو بكر بوقائع سيد من شيبان في سواد العراق فقال: من هذا الذي تأتينا وقائعه قبل معرفة نسبه؟ قال قيس بن عاصم المنقري: (هذا رجل غير خامل الذكر، ولا مجهول النسب، ولا ذليل العماد؛ هذا المثنى بن حارثة الشيباني)
ثم قدم المثنى على أبي بكر يسأله أن يؤمره على قومه ففعل. وكان المثنى من قبل على قومه أميرا، وبقي من بعد أميرا يستعينه الأمراء إذا حضروا، ويستخلفونه إذا غابوا، حتى مات بين مآثر مشكورة، ومناقب محمودة. وقد صدق عمر حين سماه: (مؤمر نفسه)
وبعث المثنى أخاه مسعودا إلى الخليفة يستمده فأرسل خالدا إلى العراق؛ فلما نزل خالد النباج كتب إلى المثنى وهو معسكر بخفان ليأتيه، وبعث إليه بكتاب من أبي بكر يأمره بطاعته. قال الطبري: (فانقض إليه جوادا حتى لحق به). فانظر إلى الرجولة كيف تسارع
إلى الطاعة!
ولما توجه خالد إلى الشام استبد المثنى بأمرة العراق، وكان بطل موقعة بابل وفيها قتل الفيل
قال الفرزدق يعدد بيوتات بكر:
وبيت المثنى قاتلِ الفيل عَنوة ... ببابل إذ في فارسٍ مُلك بابل
ثم سار المثنى إلى أبي بكر ليخبره بجلية الأمر في العراق، فوفاه مريضا قد أشفى، فأوصى أبو بكر عمر قال: (فان أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى.)
وسار الناس إلى العراق وأميرهم أبو عبيد الثقفي. فلما كانت موقعة الجسر التي زلزل فيها السلمون وقطع جسر الفرات وراءهم فتهافتوا في الماء وقف المثنى في أنجاد من العرب ينادي: (أيها الناس! إنا دونكم فاعبروا على هينتكم، ولا تدهشوا، فأنا لن نزايل حتى نراكم في ذلك الجانب). وحمى المثنى الناس حتى عبروا. ثم خلق المثنى من الفلول المهزومة يوم الجسر نصرا بهرا في موقعة البويب برأيه وسياسته وشجاعته، واحتسب فيها أخاه مسعودا؛ ثم تكاثر الفرس عليه فكتب إلى عمر، فأمره أن يتنحى بالناس حتى يأتيه أمره. ثم أرسل عمر سعد بن أبي وقاص في حشد عظيم، وانحاز المثنى إلى ذي قار. وقدم سعد إلى زرود ينتظر المثنى، ولكن الأسد المرزأ، والمسعر المجرب، انتفضت به جراحات يوم الجسر. فبينما سعد يرجو مقدمه جاءته وصيته تحملها امرأته سلمى وأخوه المعنى. عمل سعد بوصية المثنى وأمر أخاه مكانه، ثم تزوج امرأته. وقد شهدت سلمى وقعة القادسية، فلما حمى الوطيس؛ واستكلبت الموت على الأبطال، نظرت فلم تجد المثنى يسوس الأنجاد، ويقود الجلاد، فصاحت: (وامثنياه! ولا مثنى اليوم للخيل). مات المثنى وشهد له التاريخ أنه (كان شهما شجاعا ميمون النقيبة حسن الرأي. أبلى في حروب العراق بلاء لم يبله أحد)
- 3 -
فيا شباب بغداد الذين أنشأوا نادي المثنى ليحيوا ذكره! اذكروا فيه الرجولة الكاملة، والشجاعة البالغة، والمجد والسؤدد، والعمل المخلد. اذكروه قائدا مقداما، وأميرا حازما، وسيدا مطاعا، وجنديا مطيعا. اذكروه حرا أبيا، ومثلا عربيا، وخلقا عاليا. واستمدوا من ذكراه وذكرى أمثاله أخلاقا صلبة تقيكم رخاوة الحضارة، وعزيمة ماضية ترفعكم عن ذلة
الرفاهية، وتقتحم بكم الأهوال إلى الغاية البعيدة ولأمل العظيم. ثم اذكروا أن المثنى فتح العراق جنديا مسلما، فاذكروا الإسلام ومجده، واعتصموا بأخلاقه، واستمسكوا بمعاليه. وسيروا قدما في عزة العروبة، وهداية الإسلام، وأنتم الأعلون والله معكم
عبد الوهاب عزام

الجمال البائس - 3
للأستاذ مصطفى صادق الرافعي
قال الراوي:
نظرت إليها ونظرت. أما هي، فرنت إلي في سكون، وكانت نظراتها معاتبة طويلة فيها التملق والتوجع، وفيها الانكسار والفتور، وفيها الاسترخاء والدلال
وبينا كان طرفها ساجيا فاترا كأنه ينظر أحلامه، إذ حددته إلي فجأة ونظرت نظرة مدهوش، فبدت عيناها فزعتين ولكن في وجهها مطمئن
ثم لم تكد تفعل حتى ضيقت أجفانها وحدقت النظر متلألئا بمعانيه، فبدت عيناها ضاحكتين ولكن في وجه متألم
ثم ابتسمت بوجهها وعينيها معا، وأتممت بذلك أجمل أساليب المرأة الجميلة المحبوبة في اعتراضها على من تحبه، وجدالها مع فكره، وكسر حجته في كبريائه، وانتزاع الفكرة المستقلة من نفسه
وأما أنا؛ فكان نظري إليها ساكنا متألما يقر أنه عجز عن جواب عينيها، وسيبقى عاجزا عن جواب عينيها. . . .
إن وجهها هو الابتسام وروح الابتسام، وجسمها هو الإغراء وروح الإغراء، وفنها هو الفتنة وروح الفتنة، وهي بهذا كله، هي الحب وروح الحب. غير أن فهمها على حقيقتها في الناس يجعل ابتسامها عداوة من وجهها، وإغراءها جريمة لجسمها، وفنها رذيلة في جمالها، وهي بهذا كله، هي الشقاء وروح الشقاء
أما إني أحب فنعم ونعما، بل أراه حبا فالقا كبدي، وليس يخلو فؤادي أبداً من سوالف حب مضى؛ وأما إني أسترذل في الحب وأمتهن فضيلتي وأنزل بها - فلا وأبدا
إن ذلك الحب هو عندي عمل فني من أعمال النفس، ولكن الفضيلة هي النفس ذاتها؛ والحب أيام جميلة عابرة في زمني، أما الفضيلة فهي زمني كله؛ وذلك الجمال هو قوة من جاذبية الأرض في مدتها القصيرة، ولكن الفضيلة جاذبية السماء في خلودها الأبدي
على أنه لا منافرة بين الحب والفضيلة في رأيي، فان أقوى الحب وأملأه بفلسفة الفرح والحزن لا يكون إلا في النفس الفاضلة المتورعة عن مقارفة الإثم. وههنا يتحول الحب
إلى ملكة سامية في إدراك معاني الجمال، فيكون الوجه المعشوق مصدر وحي للنفس العاشقة. وبهذا الوحي والاستمداد منه ينزل المحب من المحبوب منزلة من يرتفع بالآدمية إلى الملائكة ليتلقى النور منها فنا بعد فن، والفرح معنى بعد معنى، والحزن السماوي فضيلة بعد فضيلة
فهذا الحب هو طريقة نفسية لاتساع بعض العقول المهيأة للإلهام كي تحيط بأفراح الحياة وأحزانها، فتبدع للدنيا صورة من صور التعبير الجميلة التي تثير أشواق النفس. كأن كل محب وحبيبته من هؤلاء الملهمين، هما صورة جديدة من آدم وحواء، في حالة جديدة من معنى ترك الجنة، لإيجاد الصورة الجديدة من الفرح الأرضي والحزن السماوي
والخطر في الحب ألا يكون فيه خطر. . . . فهو حينئذ نداء الجنس، لا يكون إلا دنيئا ساقطا مبذولا فلا قيمة له ولا وحي فيه، إذ يكون احتيالا من عمل الغريزة جاءت فيه لابسة ثوبها النوراني من شوق الروح لتخدع النفس الأخرى فيتصل بينهما، حتى إذا اتصل بينهما خلعت الغريزة هذا الثوب واستعلنت أنها الغريزة فانحصر الحب في حيوانيته وبطلت أشواقه الخيالية أجمع
قال الراوي: وعرفت الحسناء هذا كله من عرضها نظرة وتلقيها نظرة غيرها، فقالت للأستاذ (ح): أما أن يكون مع أثر الشعر والفكر في الجمال ودعوى الحب أثر الزهد في الجسم الجميل وادعاء الفضيلة - فان بعيدا أن يجتمعا
قال (ح): وأين تبعدينه ويحك عن هذه المنزلة؟ إني لأعرف من هو اعجب من هذا
قالت: وماذا بقي من العجب فتعرفه؟
قال: أعرف رجلا متزوجا أحب أشد الحب وأمضه حتى إستهام وتدله، فكان مع هذا لا يكتب رسالة إلى حبيبته حتى يستأذن فيها زوجته كيلا يعتدي على شيء من حقها. وزوجته كانت أعرف بقلبه وبحب هذا القلب، وهي كانت أعلم أن حبه وسلوانه إنما هما طريقتان في الأخذ والترك بين قلبه وبين المعاني، تارة في سبيل المرأة وجمالها،

وتارة من سبيل الطبيعة ومحاسنها
فتنهدت وقالت: يا عجبا! وفي الدنيا مثل هذا الزوج الطاهر، وفي الدنيا مثل هذه الزوجة الكريمة؟
ثم إنها وجمت هنيهة تجتمع في نفسها اجتماع السحابة، ثم استدمعت، ثم أرسلت عينيها تبكي. فبدرت أنا أرفه عنها حتى كفكفت من دمعها، وكأن (ح) قد وخزها في قلبها وخزة أليمة بذكره لها الزوجة، ثم الزوجة الطاهرة، ثم الطاهرة حتى في وسوسة شيطان الغيرة. ارتفعت ثلاث مرات بالزوجة، لترى هذه المسكينة أنها سافلة ثلاث مرات، وكأنه بهذا لم يكلمها بل رسم لها صورتها في عيشها المخزي وقال لها: انظري. . . .
ويا ما كان أجملها يترقرق الدمع في عينيها الفاتنتين الكحيلتين فيبث منهما حزنا يخيل لمن رآه، أنه من أجلها سيحزن الوجود كله
ليس البكاء من هاتين العينين بكاء عند من يراه إذا كان من العاشقين، بل هو فن الحزن يضع مجالا جديد في فن الحسن. وأكاد أعجب كيف وجد الدمع مكانا بين المعاني الضاحكة في وجهها - لو لم يكن هذا الدمع قد جاء ليظهر على وجهها الفن الآخر من جمال المعاني الباكية
وسألتها: ما الذي خامر قلبك من كلام الأستاذ (ح) فأبكاك، وأنت كما أرى يتألق النور على جدران المكان الذي تحلين به، فيظهر المكان وكأنه يضحك لك؟
فتشككت لحظة ثم قالت: أبك ما تقول أم أنت تتهكم بي؟
قلت: كيف يخطر لك هذا وأنا احترم فيك ثلاث حقائق: الجمال، والحب، والألم الإنساني؟
قالت: لا تثريب عليك، ولكن صور لي ببلاغتك كيف أحببتك وأنت غير متحبب إلي، وكيف جادلت نفسي فيك وداورتها عنك، وكلما عزمت انحل عزمي؟ فهذا ما لا أكاد أعرف كيف وقع، ولكنه وقع، هذه قطرة من الماء الصافي العذب فضع عليها (المكرسكوب) يا سيدي وقل لأي ماذا ترى؟
قلت: إنك تخرجين من السؤال سؤالا. فما الذي خامر قلبك من كلام (ح) فبكيت له؟
قالت: إذن فليست هي قطرة من الماء بل تلك دمعة من دموعي، فضع عليها المكرسكوب يا سيدي
قال الراوي: وكانت حزينة كأنها لم تسكت عن البكاء إلا بوجهها وبقيت روحها تبكي في داخلها. فأراد الأستاذ (ح) أن يستدرك لغلطته الأولى فقال: إنك الآن تسألينه حقا من حقوقك عليه، فكل امرأة يحبها هي عروس قلمه ولها على هذا القلم حق النفقة. . . . . .
فضحكت نوعا ظريفا من الضحك الفاتر كأنما ابتكره ثغرها الجميل لساعة حزنها، ونظرت إلي. فقلت: إن كان الأمر من نفقة العروس على قلم فما أشبه هذا (بلا شيء) جحا
فضحكت أظرف من قبل، وخيل إلي أن ثغرها انطبق بعد افتراره على قبلة أفلتت منه فأمسكها من آخرها. . .
ثم قالت: ما هو (لا شيء) جحا؟
قلت: زعموا أن جحا ذهب يحتطب، وحمل فوق ما يطيق، فبهظه الحمل وبلغ به المشقة، ثم رأى في طريقه رجلا أبله فاستعان به، فقال الرجل: كم تعطيني إذا أنا حملت عنك؟ قال: أعطيك (لا شيء). قال: رضيت
ثم حمل الأبله وانطلق معه حتى بلغ الدار، فقال: أعطيني أجري: قال جحا: لقد أخذته. واختلفا هذا يقول أعطني، وهذا يقول أخذت؛ فلببه الرجل ومضى يرفعه إلى القاضي، وكانت بالقاضي لوثة وعلى وجهه رواة الحمق تخبرك عنه قبل أن يخبرك عن نفسه. فلما سمع الدعوى قال لجحا: أنت في الحبس أو تعطيه (اللا شيء). . .
قال جحا في نفسه: لقد احتجت لعقلي بين هذين الأبلهين؛ ثم أنه أدخل يده في جيبه وأخرجها مطبقة، وقال للرجل: تقدم وافتح يدي. فتقدم وفتحها. قال جحا: ماذا فيها؟ قال الرجل: (لا شيء)
فقال له جحا: خذ (لا شيئك) وامض فقد برئت ذمتي
قالوا: فذهب الرجل يحتج، فقال له القاضي: مه؟ أنت أقررت أنك رأيت في يده (لا

. . .شيء) وهو أجرك؛ فخذه ولا تطمع في أزيد من حقك
وضحكت وضحكنا، ثم قالت: أنا راضية أن أكون عروس القلم، فلجر علي القلم نفقتي، وليصور لي كيف أحببت، وكيف آمرت نفسي وجادلتها؟
قلت: لا أتكلم عنك أنت ولا أستطيعه- بيد أنني لو صنفت رواية يكون فيها هذا الموقف لوضعت على لساني العاشقة هذا الكلام تحدث به نفسها -
تقول: كيف كنت وكيف صرت. لقد رأيتني أعاشر مائة رجل فاخلطهم في شتى أحوالهم وأصرفهم في هواي وكلهم يجهد جهده في استمالتي، وكلهم أهل مودة وبذل، وما منهم إلا جميل مخلص قد أنق وتجمل وراع حسنه كأنما هرب إلي في ثياب عرسه ليلة زفافه وترك
من أجلي عروسا تبكي وتصيح بويلها. ثم أنا مع ذلك مغلقة القلب دونهم جميعا أصدقهم المودة والصحبة، وأكذبهم الحب والهوى؛ فلست أحبهم إلا بما أنال منهم ولست أتحبب إليهم إلا ما أنولهم مني، وهم بين عقلي وحيلتي رجال لا عقول لهم، وأنا بين أهوائهم وحماقاتهم امرأة لا ذات لها
ثم أرى بغتة رجلا فردا فلا أكاد أنظر إليه وينظر إلي حتى يضع في قلبي مسئلة تحتاج إلى الحل. . .
وأرتاع لذلك فأحاول تناسيه والإغضاء عنه، فتلج المسئلة في طلب حلها وتشغل خاطري وتتمدد في قلبي وهو هو المسئلة. . .
فأفزع لذلك وأهتم له وأجهد جهدي أن أكون مرة حازمة بصيرة كرجال المال في حق الثروة عليهم، ومرة قاسية عنيدة كرجال الحرب في واجبها عندهم، ومرة خبيثة منكرة كرجال السياسة في عملها بهم؛ ولكني أرى المسئلة تلين لي وتتشكل معي وتحتمل هذه الوجوه كلها لتبقى حيث هي في قلبي فانه هو هو المسئلة. . .
وأغتم لذلك غما شديدا وأراني سأسقط بعد سقوطي الأول وأقبح منه، إذ الحياة عندنا قائمة بالخداع وهذا يفسده الإخلاص؛ وبالمكر وهذا يعطله الوفاء، وبالنسيان وهذا يبطله الحب. وإذ عواطفنا كلها متجردة لغرض واحد هو كسب المال وجمعه وادخاره، وفضيلتنا عميلة لا تتخيل، حسابية لا تختل، فيستوي عندنا الرجل بلغ جماله القمر في سمائه، والرجل بلغت دمامته الذباب في أقذاره؛ والحب معنا هو كم في كم ويبقى ماذا. . . أو كما يقول أهل السياسة هو (النقطة العملية في المسئلة). ولكن المسئلة التي في قلبي لا ترى هذا حلا لها، لأنه هو هو المسئلة. . .
فيزيد بي الكرب، ويشتد علي البلاء وأحتال لقلبي، وأدبر في خنقه وأذهب أقنعه أن الرجل إذا كان شريفا لم يحب المرأة الساقطة إذ يعاب بصحبتها والاختلاف إليها، فإذا كان ساقطا لم تحبه هي، فإنما هو صيدها وفريستها وموضع نقمتها من هذا الجنس، وأسرف على قلبي في الملامة والتعذيل فأقول له: ويحك يا قلبي! إن المرأة منا إذا تفتح قلبها لحبيب تفتح كالجرح لينزف دماءه لا غير، فيقتنع القلب ويجمع على أن ينسى وأن يرجع عن طلبه الحب؛ وأرى المسئلة قد بطلت وكان بطلانها أحسن حل لها، وأنام وادعة مطمئنة، فيأتي
هو في نومي ويدخل في قلبي ويعيد المسئلة إلى وضعها الأول فما أستيقظ إلا رأيته هو هو المسئلة. . . .
فأتناهى في الخوف على نفسي من هذا الحب وأراه سجنها وعاقبها، وقهرها وإذلالها، فأقول لها: ويلك يا نفسي! إنما همك في الحياة وسائل الفوز والغلب، فأنت بهذا عدوة مسماة في غفلة الرجال صديقة، وقد وضعت في موضع تعيشين فيه بإهانات من الرجال يسمونها في نذالتهم بالحب. فأنت عدوة الرجال بمعنى من الدهاء والخبث، وعدوة الزوجات بمعنى من الحقد والضغينة، وعدوة البغايا أيضا بمعنى من المغالبة والمنافسة، وكل ما يستطيع الدهاء أن يعمله فهو الذي علي أنا أن اعمله، فماذا أصنع وأنا أحب؟ وكيف انجح وأنا أحب؟ ولكن النفس تجيبني على كل هذا بأن هذا كله بعيد عن المسئلة ما دام هو هو المسئلة. .
قال الراوي: وكانت كالذاهلة مما سمعت، ثم قالت: ألك شيطان في قلبي؟ فهذا كله هو الذي حدث في سبعة أيام
قال (ح): ولكن كيف يقع هذا الحب. وهبك صنفت تلك الرواية ووضعت على لسان العاشقة ذلك الكلام، فبماذا كنت تنطقها في وصف حبها، وما اجتذبها من رجل فاز

بقلبها ولم يداورها، بعد مائة رجل كلهم داورها ولم يفز منهم أحد. أتكون في وجه هذا الرجل أنوار كتباشير الصبح تدل على النهار الكامن فيه؟

قالت هي: نعم نعم. بماذا كنت تنطقها؟

قلت: كنت أضع في لسانها هذا الكلام تجيب به عاذلة تعذلها:

تقول: لا أدري كيف أحببته، ولكن هذه الشخصية البارزة منه جذبتني إليه، وجعلت الهواء فيما بيني وبينه مفعما بالمغناطيس مصدره هو، ومعناه هو، ولا شيء فيه إلا هو عرضته لي شخصيته ظاهرا لأن جواب شخصيته في، وأصبح في عيني كبيرا لأن جواب شخصيتي فيه، ومن ذلك صارت أفكاري نفسها تزيده كل يوم ظهورا وتزيدني كل يوم بصرا، وأعطاه حقه في الكمال عندي حقه في الحب مني؛ وبتلك الشخصية التي جوابها في نفسي أصبح ضرورة من ضرورات نفسي

قال الراوي:

ولما رأيتها في جوي نسميه وعاصفته، أردتها على قصتها وشأنها، فماذا قلت لها وماذا قالت؟

(في العدد القادم بقيتها)

(طنطا)

مصطفى صادق الرافعي

افتتاح إفريقية

وكيف غزاها الاستعمار الأوربي

بقلم مؤرخ كبير

ليست المشكلة الإيطالية الحبشية التي تكدر اليوم سلام العالم سوى نفثة جديدة من نفثات الاستعمار الغربي، وطموح أمة أوربية قوية إلى غزوا أمة إفريقية ضعيفة تزخر أرضها بالثروات الطبيعية الدفينة التي ما فتئت تحفز الاستعمار إلى الغزو والتغلب، وإلى اجتياح الأمم الضعيفة الآمنة؛ فهي ليست بذلك مشكلة دولية بالمعنى المعروف، وإنما هي محاولة أوربية جديدة لاجتياح آخر أرض في إفريقية استطاعت أن تنجو حتى اليوم من عدوان الاستعمار

كانت القارة الإفريقية منذ قرن فقط، منطقة بكرا، لا يكاد الغرب يعرف شيئا إلا عن أممها الشمالية التي تحتل الضفة الأخرى من البحر الأبيض المتوسط، والتي كانت تتمتع مدى الأحقاب بحضارات زاهرة؛ وكانت هذه الأمم المتمدنة الزاهرة - مصر وبلاد المغرب - تكاد تحجب ما وراءها من أمم القارة السمراء، وتكون دون اجتياحها سداً منيعاً يحميها من مطامع الاستعمار الغربي الذي استطاع منذ القرن السادس عشر أن يجتاح الأمريكيتين، وأن ينفذ إلى الشرق الأقصى، واستطاع منذ القرن الثامن عشر أن يستقر في الهند. ومنذ أواخر هذا القرن أيضا توالت بعوث الاستعمار إلى إفريقية، فنفذت إليها من الشرق والغرب والشمال، وأثارت اكتشافات الرحل مثل منجو بارك ودنهام وكلابرتون ورنيه كاييه وستانلي ولفنجستون وغيرهم في الأمم الأوربية مطامع وآمالا جديدة، وبعثت النهضة الصناعية إليها رغبة قوية في استعمار تلك المناطق الجديدة واستغلال ثرواتها الدفينة، واستعباد شعوبها المتأخرة وتسخيرها في سبيل الغايات الاستعمارية

وكانت أمم إفريقية الشمالية، وهي مفتاح القارة، بالطبع محط المشروعات والمحاولات الأولى؛ وكانت أسبانيا أسبق الأمم الأوربية إلى التطلع إلى تلك الأمم المغربية التي تواجهها في الضفة الأخرى من البحر والتي خاضت معها من قبل كثيرا من المعارك، والتي استطاعت أيام قوتها وازدهارها - أيام المرابطين والموحدين - أن تغزوا أسبانيا وأن تحتل قسمها الجنوبي أعني أسبانيا المسلمة؛ ومنذ أيام الإمبراطور شارلكان وولده فيليب

الثاني (القرن السادس عشر) بذلت أسبانيا - وهي يومئذ في إبان قوتها وعظمتها - عدة محاولات لافتتاح الجزائر وثغور المغرب، ولكنها لم تستطع أن تظفر في تلك الوهاد الوعرة بفتوح مستقرة؛ واستطاعت تلك الأمم المغربية أن تحافظ على استقلالها في ظل طائفة من الحكام المغامرين الذين يرجعون إلى أصل تركي حتى فاتحة القرن التاسع عشر. وكانت أسبانيا قد انحدرت في ذلك الحين إلى عداد الدول الثانوية، وأخذت دولة أوربية أخرى هي فرنسا تتطلع إلى افتتاح تلك الأمم واستعمارها؛

وكانت حمى افتتاح إفريقية قد أخذت تسري إلى الدول الأوربية، على أثر الاكتشافات الجغرافية العديدة التي كشفت عن غنى تلك المجاهل بالثروات الطبيعية المدهشة؛ وخشيت فرنسا أن تسبقها أمة أوربية أخرى إلى غزو أمم المغرب التي تواجهها في الضفة الأخرى من البحر ولا تبعد عن ثغورها الجنوبية سوى يومين؛ ولم يكن يعوز الاستعمار أو تعجزه حجج التدخل والعدوان. ففي سنة 1830، في عصر الملك شارل العاشر، جهزت فرنسا أسطولا ضخما، وحملة قوية إلى ثغر الجزائر؛ واستولى الفرنسيون على الثغر الحصين بعد قتال رائع، وانسحب الحاكم التركي (الداي) بأمواله وأسرته؛ واتخذ الفرنسيون من الجزائر قاعدة لغزو المغرب الأوسط كله؛ وكانت بتوسطها ومناعتها أصلح القواعد؛ ولكن فرنسا لقيت خصما صلباً عنيدا في عبد القادر زعيم الجزائر وبطلها الأشهر؛ وقد استطاع هذا الوطني الكبير والجندي الباسل أن ينظم الدفاع عن وطنه زهاء خمسة عشر عاما هزم خلالها عدة حملات فرنسية قوية، وكبد فرنسا خسائر فادحة في الرجال والمال؛ ولكن السياسة الاستعمارية لم ترتد أمام هذا النضال الوطني الرائع، ولم تحجم في سبيل غايتها أية تضحية؛ فما زالت فرنسا تبعث الحملات المختلفة، وتستولي تباعا على قواعد الجزائر، وتخوض مع عبد القادر معارك مضطرمة مستمرة، حتى أتمت فتح الجزائر؛ وأسر عبد القادر بعد خطوب وأحداث جمة (سنة 1847)، وارتد الزعيم الباسل بعد أعوام من الأسر بأسرته إلى دمشق ليقضي بقية أيامه فيها

وهكذا كانت الجزائر أول قطر أفريقي سقط في يد الاستعمار الأوربي، وكان سقوطها فاتحة تلك الحركة الاستعمارية الهائلة التي تعرف (بافتتاح إفريقية) والتي اشتركت فيها معظم الدول الأوربية الكبرى، طورا متحدة وطورا منفردة، واستمرت طوال القرن التاسع عشر،

وانتهت بتقسيم إفريقية، وسقوط أقطارها تباعا في يد الدول الاستعمارية الكبرى ولما استقرت فرنسا في الجزائر أخذت تتطلع إلى تونس ومراكش؛ وكانت تونس بما يسودها من الضعف والتفكك فريسة هينة، فما زال الفرنسيون بها حتى جردوا عليها حملة غازية في سنة 1881 ثم جردوا عليها أسطولا رسا في بيزرت، وزحفوا على تونس في مايو سنة 1885 وأرغموا (الباي) صاحب تونس على أن يعترف بالحماية الفرنسية على القطر التونسي. أما مراكش فقد استطاعت لمنعتها ووعورتها أن تقف في وجه الاستعمار مدى حين، وعاونتها السياسة الألمانية على مقاومة فرنسا وإحباط محاولاتها حتى أوائل القرن الحالي

وفي الوقت الذي سقطت فيه تونس في يد الفرنسيين كانت إنكلترا قد نظمت مشروعها لاحتلال مصر، وألفت فرصتها في اختلال الأحوال المالية، وفي قيام الثورة العرابية، فبعثت حملتها المعروفة إلى مصر في صيف سنة 1882، واحتلت عاصمتها في سبتمبر، في ظروف مازالت معروفة ماثلة في جميع الأذهان، ومازال الاحتلال الإنكليزي قائما في مصر، ومازالت المسألة المصرية تنتظر حلا شريفا عادلا يحقق أماني مصر في استرداد حرياتها واستقلالها

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر كانت البعثات الاستكشافية العديدة قد ألقت برحلاتها ومباحثها كثيرا من الضياء على إفريقية ومجاهلها ووهادها الغنية، وثرواتها الطبيعية، المتنوعة، ولم تمض أعوام أخرى حتى اكتشفت منابع أنهارها العظيمة مثل النيل والنيجر والكونغو، وحققت مجاريها وأحواضها، وأخذت روعة الثروات العظيمة التي اختصت بها القارة السمراء تحفز الاستعمار الأوربي وتذكي أطماعه، واشتدت المنافسة بين الدول الكبرى لاقتسام هذه الأقطار الغنية واحتلالها. عندئذ اتفقت الدول على عقد مؤتمر ينظم اقتسام إفريقية، ويحدد مناطق النفوذ والنشاط لكل دولة، وكان بسمارك المستشار الألماني هو صاحب الفكرة، فعقد المؤتمر في برلين في أواخر سنة 1884، واتفق على أن تكفل الحرية التجارية المطلقة لجميع الدول في حوض الكونغو، وأن تكفل حرية الملاحة في نهري النيجر والكونغو، وألا يعتبر الاحتلال النظري قائما في منطقة من المناطق حتى يؤيد بالاحتلال الفعلي، واعترف المؤتمر أيضا بقيام دولة مستقلة في الكونغو وأنها ملك شخصي لملك البلجيك وهي التي أضحت في يومين مستعمرة عظيمة تملكها دولة أوربية صغيرة هي البلجيك

على أن قرارات مؤتمر برلين لم يكن لها أثر فعلي ظاهر فيما تلا من تقسيم إفريقية. وكانت فرنسا قد وضعت يدها على الجزائر وتونس والسنغال، ووضعت إنكلترا يدها على مصر، ومنطقة الرأس (الكاب) وبدأت ألمانيا احتلالها في نفس الوقت للكمرون وتوجولاند وشرق إفريقية؛ ولم يكن ثمة بد من أن تتفاهم هذه الدول الاستعمارية الكبرى فيما بينها بمعاهدات واتفاقات خاصة على تحديد المناطق التي تطمح كل إلى امتلاكها، وكانت كل دولة قد شادت بما احتلته أسس إمبراطوريتها الاستعمارية في إفريقية. وكانت فرنسا أنشطها في بناء هذا الصرح الاستعماري، فلم تأت أواخر القرن التاسع عشر حتى كانت قد احتلت معظم إفريقية الغربية، واستولت على السنغال وأعلي النيجر، وساحل العاج، وداهومي، ونفذت في قلب إفريقية إلى السودان الأوسط حتى بحيرة تشاد، ووطدت أقدامها في الشمال في تونس والجزائر، وافتتحت جزيرة مدغشقر في سنة 1895

أما إنكلترا فإنها وطدت أقدامها في وادي النيل، في مصر والسودان، وفي شرق إفريقية البريطاني، واحتلت زنجبار، وأخذت في بناء إمبراطوريتها الاستعمارية العظيمة في أواسط إفريقية وجنوبها. وكانت منذ أوائل القرن التاسع عشر قد احتلت منطق الرأس (الكاب) كما قدمنا، وكان البوير (وهم سلالة المستعمرين الهولنديين الأوائل) قد استقروا في منطقة (الأورانج) وفي (ناتال)، فاستولى الإنكليز على ناتال، وهاجر البوير منها، وأسسوا لهم مستعمرة جديدة هي (الترنسفال) واعترفت إنكلترا باستقلالها سنة 1852، ولكن إنكلترا ما فتئت تبسط سلطانه نحو الشمال تباعا، فاستولت على أرض الكفر وباسوتولاند؛ وفي أواخر القرن التاسع عشر أنشأ سسل رودس شركة استعمارية على مثال الشركة التي أسست من قبل في الهند، وعضدت الحكومة الإنكليزية مشروعه في فتح الأراضي الواقعة حول حوض الزمبيزي وأمدته بالمال والجند، وهكذا افتتحت روديسا، وأصبحت إنكلترا تسيطر على أواسط إفريقية الجنوبية من منابع الكونغو حتى الكاب، ولم يبق خارجا عن سلطانها سوى الترنسفال ومستعمرة الأورانج حيث استقر البوير. وكانت إنكلترا تطمح دائماً إلى ضم هاتين المستعمرتين إليها لتوحد إمبراطوريتها في إفريقية الجنوبية، وكان البوير من جهة أخرى بزعامة رئيسهم الشهير (كروجر) يناوئون كثيرا من مشاريعها الاستعمارية، ويقاومون تدخلها بشدة؛ وأخيرا لم تر إنكلترا بدا من إعلان الحرب لتحقيق غايتها، فاضطرمت الحرب بينها وبين البوير (أكتوبر سنة 1899) وأبدى البوير بسالة عظيمة، واستطال دفاعهم زهاء ثلاثة أعوام؛ وأخيرا اضطروا إلى الاعتراف بسيادة إنكلترا ولكنهم احتفظوا باستقلالهم الداخلي، ونالوا من إنكلترا تعويضا ضخما عما أصابهم من التخريب والخسائر، وكبدت هذه الحرب الشهيرة إنكلترا خسائر فادحة في المال والرجال، ولكنها استطاعت أخيرا أن تحقق مشروعها في توحيد إمبراطوريتها في جنوب إفريقية

وفي أواخر القرن التاسع عشر اشتدت المنافسة بين الدول الاستعمارية ولا سيما بين ألمانيا وإنكلترا من جهة، وبينها وبين فرنسا من جهة أخرى. وانتهت إنكلترا وألمانيا أخيرا إلى التفاهم وعقدتا في سنة 1890 معاهدة لتخطيط الحدود بين أملاكهما في إفريقية. وعقدت بين إنكلترا وفرنسا في سنة 1898 معاهدة لتحديد أملاكهما في حوض النيجر وغرب إفريقية، ثم عقدت بينهما معاهدة أخرى في سنة 1899 على أثر حادثة فاشودة المشهورة وفيها تنازلت فرنسا عن دعاويها في أعالي النيل؛ وأخيرا عقد (الاتفاق الوادي) بين الدولتين في سنة 1904، وفيه تعهدت فرنسا بأن تطلق يد إنكلترا في مصر وألا تناوئ سياستها فيها؛ وتعهدت إنكلترا من جانبها أن تطلق يد فرنسا في مراكش وألا تناوئ سياستها فيها

وثارت بين ألمانيا وفرنسا من أجل مراكش خصومة مضطرمة كادت أن تنفجر غير مرة؛ وكانت فرنسا تحرص على أن تضم مراكش إلى إمبراطوريتها الإفريقية، وتحرص ألمانيا من جانبها على أن تضع في سبيل فرنسا كل عقبة ممكنة؛ وفي سنة 1905، زار الإمبراطور ولهلم الثاني ثغر طنجة وألقى خطابا رنانا حمل فيه على السياسة الفرنسية؛ واضطرت فرنسا أن تقبل بحث المسألة المراكشية في مؤتمر دولي؛ وعقد المؤتمر في الجزيرة (بأسبانيا) سنة 1906 من الدول الكبرى؛ وأصدر قرارا بإعلان استقلال السلطان، ووجوب المحافظة على وحدة الأراضي المراكشية، مع الاعتراف

بحقوق إسبانيا وفرنسا ومصالحهما الخاصة في هذه المنطقة. ولم تغنم ألمانيا شيئا.
وفي سنة 1911 جردت فرنسا حملة على فاس، وانتهزت ألمانيا هذه الفرصة فأرسلت سفينة حربية إلى أغادير، ووقعت
بين الدولتين مشادة حادة كادت تنتهي باضطرام الحرب بينهما؛ ولكن الخلاف انتهى بعقد معاهدة اعترفت فيها ألمانيا بحقوق فرنسا في مراكش مقابل مزايا استعمارية كبيرة في أفريقية الوسطى. وعلى أثر ذلك انتهزت فرنسا الفرصة وعملت على إرغام مراكش على قبول حمايتها بمعاهدة عقدت مع السلطان في سنة 1912
أما إيطاليا، وهي رابع الدول الاستعمارية الكبرى التي اشتركت في اقتسام أفريقية، فكان نصيبها طرابلس في الشمال، وإرترية وشطرا من بلاد السومال في الشرق.
وسنعرض في فصل قادم إلى تفصيل هذه الغزوات الاستعمارية، وسنعرض بوجه أخص إلى موقف الحبشة من هذه الحركة الأوربية الاستعمارية الشاملة وكيف نجت من عواقبها، واستطاعت أن تحتفظ باستقلالها إلى يومنا.
للبحث بقية
(. . .)
3 - الشعر في صدر الإسلام وعهد بني أمية
بقلم أحمد حسن الزيات
2 - خصائص الشعر في العراق
أما الفرزدق فهو كالأخطل في الذؤابة من قومه، إلا أنه كان صريح العداوة فلا يوارى، فاحش الدعابة فلا يحتشم، شديد الدعارة فلا يتعفف، حاد البادرة فلا يتلطف؛ فهو في هجائه يذكر العورات ويعلن المخزيات بألفاظها العارية وأسمائها الصريحة حتى ليستحي الشاب أن ينشدها، بله الفتاة الخفرة.
وما أظن البداوة وضيق الخلق وسلاطة اللسان وفجور النفس هي كل الأسباب التي أوجدت هذا الهجاء السوقي الوقح، فإن الحطيئة ومن سبقه على اتصافهم بهذه الأوصاف لم يسفوا هذا الإسفاف، فلابد أن يكون لحياة العراق في ذلك العهد أثر قوي في ذلك: فالخلق العربي القوي قد وهت أواصره باتصال البدو بالحضر واختلاط العرب بالعجم، والوازع الديني قد ضعف بتغلب الأحزاب وضعف العصبية، والسلطان السياسي يغمض جفنيه ويضحك ملئ شدقيه من هذه المهازل التي يمثلها الشعراء والقبائل بالبصرة. أقول القبائل لأن القبيلة كانت من وراء شاعرها تحتال لانتصاره بالمال والقتال والدعاية، وربما أتى كل رجل منهم بالبيتين والثلاثة فيرفد بها الشاعر كما فعلت تيم في مهاجاة شاعرها عمر بن لجأ لجرير. وكان أحش الهجاء هجاء الفرزدق في جرير، فهو يرمي قومه بضعة النسب، وضعف الحيلة، واتخاذ الغنم، ورعي الإبل، وإتيان الأتن، ويفتن في هذه المعاني افتنانا عجيبا: يرددها في كل قصيدة على صور مختلفة وأساليب شتى، ولا يتحرج أحيانا من افتعال الحوادث المضحكة إمعانا في السخر من المهجو والنيل منه
وهذا غاية ما وصل إليه الهجاؤون وأهل التنادر في عصور الترف والخلاعة. وأدهى من ذلك أن يقذف خصمه بنوع من السباب الدنيء الذي لا يعتقده ولا يصدقه الناس، إنما يعمد إليه مبالغة في التحقير والتشهير على نحو ما يعمل الرعاع في الطبقات الوضيعة، وذلك ما لم نعهده في الهجاء من قبل، إذ كان الشاعر يرى جهة المحاسن في المريء فيمدح، أو جهة المساوئ فيه فيذم، وهو في كلتا الحالتين صادق
وقد يتدلى الفرزدق في الهجاء إلى الدرك الذي لا تسيغه رجولة، فينقض رثاء جرير لامرأته بهجائها المقذع، دون أن يرعى للميت حرمة ولا للمرأة كرامة، كقوله:
كانت منافقة الحياة وموتها ... خزي علانية عليك وعار
فلئن بكيت على الأتان لقد بكى ... جزعا غداة فراقها الأعيار
تبكي على امرأةٍ وعندك مثلها ... قَعساءُ ليس لها عليك خِمار
وليكفينك فقدَ زوجتك التي ... هلكت موقعة الظهور قصار
إن الزيارة في الحياة ولا أرى ... ميتا إذا دخل القبور يُزار
ورأي الفرزدق في المرأة يدل على جفاء طبع وسوء أنفة، وربما دل أيضا على منزلتها في المجتمع العربي في ذلك العهد؛ ولا نستنبط ذلك من قوله في زوجة جرير، فقد يكون للخصومة بعض الأثر في سوئه، وإنما نستنبطه من قوله في زوجته هو حين

ماتت:

يقولون زُر حدراء والترب دونها ... وكيف بشيء وصله قد تقطعا
ولست وإن عزت عليَّ بزائرٍ ... ترابا على مرموسه قد تضعضعا
وأهون مفقود إذا الموت ناله ... على المرء في أصحابه من تقنعا
يقول ابن خنزيرٍ بكيْتَ ولم تكن ... على امرأة عيني أخال لتدمعا
وأهون رزء لامرئ غير عاجز ... رزية مرتج الروادف أفرعا

على أن طبيعة المهاجاة مع جرير، وشهوة الغلبة عند العامة، ونفاد المعاني السامية في الهجاء على طول المدة، وبلادة الحس وهوان النفس باعتياد الذم، قد دعت الفرزدق كما دعت جريرا إلى التدرج في الإقذاع والبذاء، حتى خرج شعرهما في النقائض على قوته وجودته عن الحد المألوف بين السفلة. ولكن الفرزدق مع تبذله كان يصيخ أحيانا إلى وازع الدين لتشيعه، فيتوب عن قرض الشعر، ويكف عن هجاء الناس، ويقيد نفسه ليحفظ القرآن ويقول:

ألم ترني عاهدت ربي وأنني ... لَبَينَ رتاج قائما ومقام
على قسم لا أشتم الدهر مسلما ... ولا خارجا من فيَّ سوء كلام

أو يجيب إلى داعي الشرف لحسبه فيصدر في الهجاء عن طبع أبي ونفس كريمة، فتسمو معانيه وتعف ألفاظه، كقوله في معاوية وقد حبس عنده مالاً لأحد أعمامه بعد وفاته:

أبوك وعمي يا معاويَ أورثا ... تراثاً فيحتاز التراثَ أقاربه
فما بال ميراث الحُتاتِ أخذته ... وميراث حرب جامد لك ذائبه
فلو كان هذا الأمر في جاهلية ... علمتَ من المرء القليل حلائبه

إلا أن يقول:

وما ولدت بعد النبي وأهلهِ ... كمثليَ حصانٌ في الرجال يقاربه
وكم من أب لي يا معاوي لم يزل ... أغر يباري الريح ما أزوَّر جانبه
نَمتهُ فروع المالكين ولم يكن ... أبوك الذي من عبد شمس يخاطبه

أما الطامة الكبرى فهي جرير، لأنه كان مرسل العنان مطلق اللسان لا يعوقه قيد ولا تكبحه شكيمة؛ فلا هو صاحب سياسة كالأخطل، ولا صاحب نحلة كالفرزدق، ولا وارث مجادة كالاثنين، وإنما كان سوقيا ترعية رزقه الله حدة الذهن، ورقة الأسلوب، وخبث اللسان، وزاده الهراش صلابة عود، وغزارة فكر، ومتانة شعر، وسهولة قافية، فبلغ بالهجاء الفردي والقبلي غايته في الإقذاع والإقناع والقوة؛ وربما كان أول من أكره الشعر على قبول الأساليب العامية المبتذلة في الهجاء كذكر العورات، وهتك المحارم، فاضطر خصومه إلى أن يكلموه باصطلاحه، ويقاتلوه بسلاحه، وأصبح بعده الهجاء في العراق لا يفعل في النفوس إلا مشوبا بهذا القذر؛ وما مهاجاة بشار وحماد إلا صورة من هجاء جرير والفرزدق

كان جرير لعاميته وبيئته، وللأسباب التي ذكرناها من قبل في معرض الكلام عن الفرزدق، يصطنع في الهجاء أساليب الدهماء، فيعير الأخطل بالقلف والخنزير والسكر، ويقذف البعيث في أمه وهي أمة سجستانية، ويهاجم الفرزدق في جدته فيتهمها بجبير القين، وفي أخته جعثن فيرميها بابتذال بني منقر إياها على أثر حادثته مع ظمياء بنت طلبة حفيدة قيس بن عاصم، ويشهر بقومه في اخفار عمرو بن جرموز لذمتهم في قتل الزبير، ثم يتسقط عيوبه الصغيرة وهفواته الدنيا، فيجسمها بالمبالغة والتزيد كضربته النابية للرومي، وزيجته القالية من نوار

وكان الفرزدق يذهب في هجائه مذهب الفخر بآبائه، فيعدد أيامهم الظافرة، ويجدد مفاخرهم الغابرة، فلا يستطيع جرير مجاراته في هذا المظمار، فيعمد إلى نقض الفخر الصلف بالسخرية اللذعة والفحش الموجع؛ وإذا أخذ جرير هذا المأخذ لا يقام له. أقرأ على سبيل المثال قصيدة الفرزدق التي مطلعها:

إن الذي سمك السماء بنى لنا ... بيتا دعائمه أعز وأطول

تجده يقول بعد هذا البيت:

بيتا زرارة محتبٍ بفنائه ... ومجاشع وأبو الفوارس نهشل
لا يحتبي بفناء بيتك مثلهم ... أبدا إذا عد الفَعال الأفضل

فيجيبه جرير في نقيضته له:

أخزى الذي سمك السماء مجاشعاً ... وبنى بناءك في الحضيض الأسفل
بيتاً يحممّ قَيْنكم بفنائه ... دنسا مقاعدهُ خبيثَ المدخل
قُتل الزبير وأنت عاقدُ حبوةٍ ... تبًّا لحبوتك التي لم تحلل
وافاك غدرُكَ بالزبير على منىً ... ومَجرُّ جعثِنِكم بذات الحرمل
بات الفرزدق يستجير لنفسه ... وعجان جعثنن كالطريق المُعملِ
ويقول الفرزدق:
حلل الملوك لباسُنا في أهلنا ... والسابغاتِ إلى الوغى نتسرْبلُ
فيجيبه جرير:
لا تذكروا حلل الملوك فأنكم ... بعد الزبير كحائض لم تَغْسل
ويقول الفرزدق:
أحلامنا تزن الجبال رزانةً ... وتخالنا جناً إذا ما نجهلُ
فارفع بكفك إن أردت بناءنا ... ثهلانُ ذو الهضبات هل يتحلحل؟
خالي الذي غصب الملوك نفوسهم ... وإليه كان حباء جفنةَ ينقل
إنا لنضرب رأس كل قبيلة ... وأبوك خلفَ أتانه يتقمل
فيجيبه جرير:
كان الفرزدق إذ يعوذ بخاله ... مثل الذَليل يعوذ تحت القرمل
وافخر بضبة إن أمك منهمُ ... ليس ابن ضبة بالمعمم المخول
أبلغ بني وقبانَ إن حلومهم ... خفتْ فلا يزنون حبة خردل
أذري بحلمهمُ الفِياش فأنتمُ ... مثل الفَراش عشين نار المصطلي
ويقول الفرزدق:
وهب القصائدَ لي النوابغُ إذ مضوا ... وأبو يزيد وذو القروح وجرول
ثم يمضي يعدد الشعراء الفحول ويقول:
دفعوا إليَّ كتابهن وصية ... فورثتهن كأنهن الجندل
فيجيبه جرير:
أعددت للشعراء سماً ناقعاً ... فسقيت آخرهم بكأس الأول
لما وضعت على الفرزدق ميسمي ... وصغى البعيث جدعت أنف الأخطل
حسب الفرزدق أن يسب مجاشعاً ... ويعد شعر مرقش ومهلل
فأنت تلاحظ أن جرير يرغب في الطريق السهل، ويطفئ حرارة الجد ببرودة الهزل، ويقابل الكمي الهاجم في سلاحه ولأمته، وهو في ثوب المهرج وبزته وضحكته ولجرير قدرة بارعة على تتبع الخصم في حياته الخاصة والعامة، فيتسقط أخباره ويتلقط حوادثه، ثم يعلنها في شعره تشهيرا به وفضيحة له:
يتزوج الفرزدق من حدراء بنت زيق بن بسطام على حكم أبيها، فيقول جرير:
يا زيق قد كنت من شيبان في حسب ... يا زيق ويحك من أنكحت يا زيق
أنكحت ويلك قيناً في استه حمم ... يا زيق ويحك هل بارت بك السوق
يا رب قائلة بعد البناء بها: ... لا الصهر راضٍ ولا ابن القين معشوق
فيقبل أهلها عليه ويقولون له: ماتت، كراهة أن يهتك أعراضهم جرير، فيأبى جرير إلا أن يعلن الحقيقة في قوله:
وأقسم ما ماتت ولكنما التوى ... بحرداء قوم لم يروك لها أهلا
ويعبث الفرزدق في المدينة عبث الشباب، ويعترف بذلك في قوله:
هما دلتاني من ثمانين قامةً ... كما انقض باز أقتم الريش كاسرهُ
فيقول له جرير:
تدليت تزني من ثمانين قامة ... وقصرت عن باع العلا والمكرم
ويضرب الرومي في حضرة سليمان بن عبد الملك فينبو عنه سيفه فيقول له جرير:
بسيف أبي روغان سيف مجاشع ... ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم
ومثل هذه الأخبار لطرافتها وجدتها تعلق بالنفوس وتسير على الألسنة، كصحف الأحزاب
تجعل من حياة خصومها اليومية مادة لجدالها، وموضوعا لنقدها ونضالها؛ وجرير لطول ما تمرس بالهجاء وغامر في الخصومة، لاذع السخرية، فاحش الدعابة، مر التهكم، ومن ذلك كان يتضور الفرزدق ويمتقع لونه كلما وردت المربد قصيدة لجرير. وأي تهكم

أمض وآلم من مثل قوله:
يا تْيمُ إن بيوتكم تيمية ... قُعس العماد قصيرة الأطناب
قوم إذا حضر الملوكَ وفودُهم ... نُتفت شواربهم على الأبواب
وقوله:
زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً ... أبشر بطول سلامة يا مربع!
وقوله:
والتغلبي إذا تنحنح للقِرى ... حك استه وتمثل الأمثالا
وقوله:
فخلِّ الفخر يا ابن أبي خليد ... وأدِّ خراج رأسك كل عام
لقد علقت يمينك رأس ثور ... وما علقت يمينك باللجام
(يتبع)
الزيات
السنيون والشيعة وموقفهما اليوم
للأستاذ محمد رضا المظفر
أتيح لي أن أتناول (تاريخ القرآن) للأستاذ الزجاني أبي عبد الله، فأقرأ في مقدمته كلمة الأستاذ (أحمد أمين) القيمة في بابها. أقرأها، فيطربني ما فيها من نغمة متواضعة على وتر من إحساس جديد، نعرفه في أستاذ اليوم
ولا أكتم الأستاذ أني رجعت إلى ذكريات اختزنت عنه من قراءتي لفجر الإسلام وضحاه. ما آلم هذه الذكرى! فقد خلقت للأستاذ عندي شخصيتين، تباعدتا على قرب العهد بينهما، وكادت تدفعني يومئذ إلى مقالة أضعها بين يديه في (الرسالة) أوفي غيرها: لا تخرج عن عتاب بريء على كتابيه، وعن تشجيع على كلمته الأخيرة وتأييد لها، وهي التي أطمعتني فيه، لننشد صراط الإصلاح المستقيم، ولكني تلكأت لا لشيء، وما أدري لماذا كان؟ ولعله لصلاح!
ومنذ أيام كان عدد الرسالة الـ (110) في يدي، فقرأت كلمة الأستاذ محمد بك كرد علي، عن تاريخ القرآن ومقدمته، فطابت لي النبرة وجريت عليها حتى تناولت القلم، وهاأنا ذا أحدثك وأنا شيعي أجري مع سنيين في ميدان الإصلاح لحظيرة الوحدة التي أقامها لنا نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم
شهد الله والنبي الأكرم أن من أثقل الأشياء على قلمي أن يقرن بين كلمتي سني وشيعي: يتقارنان تقارن افتراق، ويتصلان اتصال تنافر، كقطبي المغناطيس المتماثلين، وقد خلفت لهما السياسة الغاشمة هذا التنافر الشائن يوم خلقت، وآن لنا أن نخجل أمام الله ورسوله من استمرارنا على هذا الشنآن بين أعداء تستمر على مطاردتنا وتستغل افتراقنا. وما أجدرنا اليوم أن نضرب على هاتين الكلمتين في قاموس اللغة، فنستريح ونريح، ونعود أمة إسلامية واحدة كما أرادها الرسول، أو كما أرادها الله آمنة مطمئنة خير أمة أخرجت للناس!
يرجو الأستاذ (أحمد أمين) في مقدمته - بعد أن ألمع إلى بعض أسباب الخلاف - (أن يفكر عقلاء الفريقين في سبيل الوئام، ويعملوا على إحياء عوامل الألفة وإماتة الخصام، ويتركوا للعلماء البحث حرا في التاريخ، ويتلقوا النتائج بصدر رحب) ويتابعه الأستاذ (محمد بك
كرد علي) فيقول: (ورأي صديقي هو رأي فريق كبير من علماء المسلمين اليوم) ثم ينقل لنا خطاب العلامة شيخ الجامع الأزهر، ويقترح أخيرا أن يكتبوا كتابا في منشأ هذا الخلاف بين السنة والشيعة والطرق العملية لإزالته
وأنا أقترح هذا الاقتراح نفسه على علماء النجف الأشرف عاصمة الشيعة الدينية والعلمية، ونقترح جميعا على الفريقين أن يتفاهموا جميعا قبل كل شيء، ولكن كيف نحقق هذا الاقتراح ونفرضه عليهم فرضا؟ يجب أن نعمل له! فهل نستطيعه ولا نجعله مثار نزاع جديد؟
وأؤكد لك أن نشدان علماء الشيعة هو هذه الوحدة المضاعة، يسعون لها ما سنحت الفرصة، وما عرض لها الزمن، احتفاظا بجامعة الإسلام العليا، وتوحيدا لكلمة المسلمين
في إبان تأسيس الحكم الوطني في العراق (والشيعة أكثرية العراق) نادى علماء

النجف بالوحدة عاليا، وغالوا في ذلك إلى أبعد حد، وبذلك استطاعت الأمة العراقية أن تجعل من نفسها شعبا حيا وحكومة صادقة

ولم يكن أبناء الأقطار العربية الأخرى - وخاصة في مصر - يحسون بواجبهم إزاء العراق الفتي المتطلع إلى سحق العهد التركي البالي، فكانت لهجات متتابعة، ووخزات نافذة تلقتها صدور الشيعة من مصر وسوريا، تلح عليها إلحاحا، وتكدر عليها صفو الاتفاق أيما تكدير، وكان من بينها فجر الإسلام وضحاه (وأرجو ألا تخدش هذه الكلمة عواطف الأستاذ مؤلفهما، فإنها الصراحة نريد أن نتبعها) تعززها الأقلام المستأجرة في العراق، وبعبارة أصرح أقلام الاستعمار، بينما العراق في ضرورة ملحة إلى الاتفاق بين سنيه وشيعيه، ليرتقي سلم الاستقلال المنشود

إنما هي واحدة تجب رعايتها اليوم على كل باحث عن الشيعة من إخوانهم السنيين، غفل عنها في فجر الإسلام وغيره. هي واحدة تحل كثيرا من الشغب اليوم نحن نفهم من كلمة الشيعة إذا قلناها: الإمامية الأثنى عشرية خاصة، لأنهم الأكثرية من بين فرق شتى، وذوو المؤلفات والمعارف التي يقال عنها مؤلفات الشيعة ومعارفها، ولأنهم اليوم شيعة العراق وسوريا وإيران والإمارات العربية على الخليج الفارسي والهند وأفغانستان، وما إلى ذلك، وهناك الزيدية في اليمن والبهرة في الهند. أما الفرق الأخرى التي يعددها

مثل الشهرستاني في الملل والنحل وغيره، فقد أصبحت في خبر كان ولا يعرف لها أي أثر في هذه البلاد المترامية الأطراف، إلا بعض فرق لا يسمع لها حسيس في المجتمع الشيعي ولا غيره كالغالية

فإذا طوح القلم بالكاتب اليوم عن الشيعة، وقرأ ما كتبه السلف عنهم، خلط الحابل بالنابل، وألصق عقائد تلك الفرق البائدة بعامة الشيعة، وعلى الأصح بالشيعة بالمعنى المفهوم الآن، فكانوا في نظره مرجئة، وغالية، ومجسمة، ومجبرة، وسبئية، وزركشية، وما إلى ذلك

وهذا ما ينعى على الباحث المتتبع، وهذا ما يثير غضب أولئك الشيعة الأحياء، من غير ما حاجة تدعو الكاتب ولا ضرورة، وما أجدر الكتاب أن ينتبهوا اليوم لهذه الناحية، فلا يثيروا كوامن أحقاد شائنة بذرتها السياسية لأغراضها في زمن بعيد لسنا أبناءه، فلا يصطدم بآراء أفراد - لا فرق - لا نعرف عنهم كثيرا، ولا يصح أن يدخلوا تحت هذا الاسم. وعند ذلك قد نوفق إلى التفاهم فالتقارب حيث تفرضه الاخوة الإسلامية، ويكون بحثنا نزيها يتطلب الحقيقة ليس إلا، ليتلقى الطرفان بصدر رحب - على ما يقوله الأستاذ أحمد أمين - كما يتلقون النتائج في أي بحث علمي وتاريخي، وكما يقع البحث بين علماء الشيعة أنفسهم، وبين مذاهب السنة أنفسها، ما دامت السياسة بعيدة عنه ومادام بعيدا عنها

وإذا لم نستطع أن نصل إلى ما نتمناه من حمل علماء الأزهر وعلماء النجف على هذه الطريقة الحميدة، وعلى هذا العمل المبرور، فأكبر الظن أن من السهل علينا أن لا نذهب بعيدا، فنقترح على (الرسالة) الهادية أن تفتح لنا بين أعمدتها سبيلا للبحث النزيه، وتعززنا بشجاعتها الأدبية، فلا تصغي إلى سخط العامة - إذا ما كان - لنستطيع أن نلقي من أطمار الماضي ما رث وبلى

وفي النجف عندنا جمعية دينية علمية أسست هذا العام باسم (منتدى النشر) تسعى لهذا الواجب وتدعو إليه، (وهي تضم طبقة صالحة من علماء النجف وفضلائها)، وبصفتي كاتبها العام أذيع عنها هذه النية المحمودة، وأذيع عنها استعدادها للعمل في هذا السبيل. ولقد كان لما كتبه الأستاذان (أحمد أمين) و (محمد بك كرد علي) الوقع الجميل في نفوس أفرادها، ورحبوا بهذا التفكير العالي الكبير

وفي مصر (لجنة التأليف والترجمة والنشر) الموقرة، ففي استطاعة الجمعيتين أن يقفا في

ملتقى الطريقين، ليأخذا بأيدي الباحثين إلى الحد المعقول، ويتلقيا النتائج للعمل عليها ونشرها في بلاد الله، كما نريد أن نقترحه على علماء الأزهر والنجف

ندعو إلى هذا عقلاء قومنا ليضعوا حد لهذه المهازل، وليقاروا على خطة واحدة لحل الخلاف. وعندي أن يسدل حجاب كثيف على الماضي البعيد، فيما يعود إلى الحوادث التاريخية التي لا تمس حياتنا العملية اليوم، فينحصر البحث في نقطة عملية لا غنى لنا

عنها
كل ما عند الشيعة أنها تتمسك بعترة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، لأنهم سفينة النجاة، ولكن ليس كعقيدة وموالاة فحسب، فإن هذه عقيدة كل مسلم اعتنق دين الإسلام مصدقا لما جاء به النبي (ص)؛ وإنما تعني من التمسك بهم أن تأخذ بأقوالهم في أحكام الفقه وترجع إليهم في دين الإسلام، ولا تعرف للتمسك بهم معنى غير هذا، وتدلل على أن ما جاء به النبي ورثوه عنه، وعلمه مكنوز عندهم وهم أمناء عليه معصومون، لا كسائر الرواة عنه وعنهم، يروون الأحاديث كنقال يخطئون في النقل ويصيبون، ويصدقون ويكذبون
وبهذا بعدت الشقة العملية بينهم وبين إخوانهم أهل السنة، وكثر الخلاف في الفروع الفقهية؛ فكان وضوء السنة وكان وضوء الشيعة، وكانت صلاة السنة وكانت صلاة الشيعة، وكان وكان
فان استطعنا أن نتفق ونحل هذا اللغز بيننا حلا مرضيا، فقد وفقنا إلى كل شيء، واستطعنا أن نوجه جبهة الإسلام، كما يشاء لنا ديننا دين القيمة، وما هذا على الرجال المخلصين بعزيز
النجف الأشرف
محمد رضا المظفر
كاتب (منتدى النشر) العام
النقد والمثال
لغة الشعر
للأستاذ أحمد الزين
من أهم ما تتفاوت به منازل الشعراء، وتتمايز درجاتهم في الشعر، وتتفاضل به أذواقهم الفنية في أداء المعنى وبلوغ الغرض، ويختبر به مدى ثقافاتهم البيانية، ويعرف منه مقدار مطالعاتهم الأدبية، ونفوذ كل منهم إلى حر الكلام وخالصه، وارتوائه من صفو البيان وصريحه، وحفظه لأحسن ما قرأ، وحسن استعماله أحسن ما حفظ من الكلمات والعبارات، هو ذلك الثوب البياني الذي يلبسه الشعراء معانيهم، وتلك الصورة اللفظية التي يبرزون فيها أغراضهم، فبحسب ما يكون ذلك الثوب مقدرا على المعنى، محيطا بأطرافه، مقيسا على أجزائه، وتكون تلك الصورة اللفظية مظهرة للغرض، مبرزة لخفايا المعنى، مصورة لدقائق الفكرة، وما يودعه الشاعر بفنه في تلك الصورة من الحياة والسحر، وما يترقرق في الكلمات والعبارات من ماء الجمال، ورونق الحسن، وطلاوة المنطق، أقول: بحسب ذلك كله يكون أثر الشاعر في القلوب، وسلطان شعره على قرائه، ومنزلته في الفن بين نظرائه. وليس المراد بتحسين الألفاظ وتجميل العبارات هو مجرد جريانها على قواعد اللغة، وموافقتها لنصوص المعجمات، فليس كل ما تبيحه اللغة وقواعدها يباح في الشعر استعماله، ويسوغ للشعراء التعبير به، إذ الشاعر إنما يقصد في شعره إلى الروعة والجمال وعدم الابتذال أكثر من قصده إلى مجرد جواز الاستعمال. وقد سبق أن أوضحت ذلك في بعض الفصول التي كتبتها من زمن بعيد فقلت ما نصه: إنه مما لا ينازع فيه ذو ذوق أدبي دقيق أن للشعر لغة خاصة يتميز بها عن غيره، إذا فقدها لا يسمى شعرا بل يسمى كلاما عروضيا، أي أنه يشبه الشعر في وزنه وقافيته، دون ألفاظه ولغته، كما أن لكل من الكتابة والخطابة ألفاظا خاصة يتميز بها كل منهما عن صاحبه، ويتميزان بها عن الشعر؛ والفروق الدقيقة بين ألفاظ هذه الصناعات الثلاث وعباراتها لا يدركها إلا من له ذوق صحيح وملكة فنية في إحدى هذه الصناعات أو في جميعها. وقد كان بعض النقاد في العصور الأولى يسمع الشعر الجيد فيفطن بجودة حسه إلى ما فيه من ألفاظ غير شعرية، فيحكم بأنه شعر شاعر أو شعر كاتب؛ وكتب الأدب ملأى بهذه الطرائف. وقد فطن علماء الأدب المتقدمون
إلى هذه الفروق فأفردوا ألفاظ الكتاب وعباراتهم بمعجمات خاصة، منها كتاب الألفاظ الكتابية لعبد الرحمن بن عيسى الهمذاني، وجواهر الألفاظ لأبي الفرج قدامة بن جعفر وغيرهما؛ وفي كتاب زهر الآداب للقيرواني فصول كثيرة خاصة بألفاظ الكتاب وعباراتهم في كل غرض من أغراض الكتاب والمنشئين في ذلك العهد. ولم أجد من العلماء فيما راجعت من أفراد ألفاظ الشعر والخطابة بمعجم خاص، وذلك يرجع فيما

أظن إلى أن ألفاظ كل صناعة من هذه الصناعات الثلاث لا تتيسر معرفتها معرفة صحيحة إلا لأهلها المشتغلين بها، والمتوفرين عليها، بل فحولها المبرزين، وأعلامها المتميزين، لا لكل من أشتغل بها، فلا يمكن الكتاب أن يدركوا من أسرار لغة الشعر والخطابة ما يدرك الشعراء والخطباء أنفسهم منها، وكذلك الشعراء لا يدركون من دقائق ألفاظ الكتابة وألفاظ الخطابة ما يدركه الكتاب والخطباء أنفسهم من ذلك.

وإذن فلا يستطيع تدوين لغة الشعر ولغة الخطابة غير الشعراء والخطباء أنفسهم؛ ولما كان أكثر الشعراء والخطباء لا يعنون بتأليف الكتب وتصنيف الرسائل عناية الكتاب بذلك لقلة حذقهم بصناعة التأليف فقدت المكتبة اللغوية العربية قسمين عظيمين من هذا النوع الطريف المفيد من المعجمات

وإنك لتجد فقدان اللغة الشعرية في شعر كثير من شعراء عصرنا ممن لا يرون للبيان اللفظي أية قيمة في الشعر، ويرون المعاني هي كل شيء، ولو أديت بأسوأ لفظ وأضعف بيان

وقد سبق في بعض الفصول أن ذكرت للقراء قول بعضهم في حسن النظم والصياغة اللفظية ما نصه: إنه كمال أدنى إلى النقص، وإحسان أقرب إلى الإساءة. وقول الآخر في حسن الصياغة اللفظية أيضا: لقد انقضى عهد الثرثرة والصياغة اللفظية ولن يكون الشعر الجديد شرابا يسقى بالملعقة في غير جهد لمتناوله! فتراه يسمي حسن البيان والصياغة اللفظية ثرثرة، ويقول: أن عهد ذلك قد انقضى! كبرت كلمة يقولها هذان الكاتبان وأمثالهما، إن يقولون إلا خطأ يمليه العجز والغرض

والغريب أن نسمع ذلك في عصر يتعاون فيه الأدباء والعلماء والمفكرون مع أولي الأمر في جميع الأقطار العربية على ترقية اللغة ونشر الثقافة البيانية بإنشاء المجامع اللغوية، وطبع أمهات الكتب الأدبية، ودواوين فحول الشعراء المتقدمين

فلا أدري بعد ذلك أي الأمرين أحق بأن ينقضي عهده، ويمحى أثره، هل هو التكلف والإبهام والتعقيد المحير للإفهام، أو هو البيان المشرق، والأسلوب المستقيم السمح، والصياغة الصافية الواضحة؟

أحمد الزين

العامية والعربية

ألفاظ صحيحة فلماذا لا تستعمل؟

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

يتوهم كثيرون من الناس أن اللغة العامية ليست من العربية في شيء، ولهذا يحرصون، حين يكتبون، على الفرار من ألفاظها، ويذهبون يتكلفون، فتكون النتيجة الأغراب والمباعدة ما بين الكاتب والقارئ؛ ومن أجل هذا استفاض الاعتقاد بأن لغة الكتابة غير طبيعية، ومن هنا ظهرت الدعوة إلى اتخاذ العامية في الكتابة، ليفهم الناس بغير مشقة، ولو أن العامية درست لما كان لهذا كله محل، وقد سمعت أن المرحوم أحمد تيمور باشا وضع معجما للغة العامية ردها فيه إلى أصولها العربية، ولكنه لم ينشر، ولا علم لي بما كان من أمره

وقد عثرت في مطالعاتي على مئات ومئات من الألفاظ العربية يستعملها العامة وإن كانوا يحرفونها قليلا في النطق، وسأورد في هذا الفصل طائفة منها بلا ترتيب على سبيل التمثيل ليرى القراء أن اللغة العامية جديرة بالعناية، وأن اتقاء ألفاظها كلها خطأ، أو جهل، وقد جريت فيما أكتب، على استعمال الصحيح من الألفاظ العامية، واكتفيت بذلك ولكني أرى الآن أن التنبيه واجب، مخافة أن يعتقد بعض القراء أن هذا مني عن خطأ لا عن عمد

فمن ألفاظ الطعام وما إليه:

الدُّقة - الملح مع ما خلط به من الأبزار أو الملح المدقوق

العُجة - الدقيق المعجون بالسمن ثم يشوى أو يقلى، والعامة على عجة البيض

الكباب - اللحم المشرح

الوجبة - الأكلة

السُّفرة - المائدة

القصعة - الجفنة

السُّخام - السواد الذي يكون على آنية الطبخ من فعل النار

الطاجن - إناء من خزف، يقلى فيه الطعام
العصيدة - طعام معروف في مصر، من دقيق وسمن
البرمة - والبرام - قدر وهو مشهور
عقد السكر - طبخه حتى ثخن
الشريحة - اللحمة المرققة
الهبرة - من اللحم البضعة لا عظم فيها، وهبر اللحم اقتطع منه قطعة كبيرة
التسميط - في رأس الخروف وغيره، كشط الشعر عن الجلد لطبخه في الماء
اللَّهوَجةُ - لهوجت الطعام لم أنضجه، والعامة تستعمل اللفظ مجازيا
شاط الطعام وشاطت آنية الطبخ، احترق
سغسغت الطعام أوسعته دسما وأكثرت من السمن فيه
سلق اللحم - طبخه في الماء
طبخ ومشتقاته معروفة
وهذه كلها ألفاظ عربية، يستعملها أعرق الناس في العامية.
ومن قبيلها أيضا في غير هذا الباب:
الحلوان - ما تجعله للرجل من الأجر على عمل يؤديه لك
الممصوصة - الفتاة المهزولة
الزغزغة - الدغدغة
الزّعر - قلة الشعر، فهو أزعر، ويستعمل للذيل عند العوام
صوفة القفا - الشعر السائل في نقرته
الشعر المفلفل - إذا كان شديد الجعودة
المدرك - الغلام بعد الاحتلام
فروة الرأس - الجلدة
لبد شعره - ألزقه بشيء
تكرش الوجه - تقبض جلده
العمش - ضعف البصر، والرجل أعمش
عظمة اللسان - ما فوق أصله
الحنك - سقف أعلى الفم
الورك كالورك - معروف
الحق - مغرز رأس الفخذ في الورك
الركبة - ملتقى الساق والفخذ
تشيطن الرجل - فعل فعل الشيطان
الديوث - الذي يغضي على ما يرى من هنات أهله
الدردبة - الجري الذي فيه دب
الموالسة - المخادعة
المذاع - الكذاب، والعامة تستعملها بالزاي
البرطمة - كلام الغضبان
البرجمة - غلظ الكلام
الدندنة - الكلام أو الغناء بصوت خفيض
الدبدبة - صوت كوقع الحوافر على الصلب من الأرض
الطقطقة - الاسم من طق، حكاية لصوت الحجر
بجم - سكت من عيّ أو فزع أو هيبة
فَرشح الرجل - أصله أن يثب وثبا متقاربا، وصار يستعمل للمباعدة بين الساقين
نَهَجَ - تتابع نفسه من الإعياء والتعب
السكة - الطريق
اكتن الرجل - صار في كُن
تربع - جمع قدميه في جلوسه ووضع إحداهما تحت الأخرى
السلفتان - امرأتان تتزوجان أخوين
تفرعن - صار ذا فرعنة، أي نكر
جهاز العروس - ما تحتاج إليه في زواجها

العزبة - التي لا زوج لها
سبَّع - أقام سبعا
الخيش - نسيج خيوطه غلاظ، ويكون من مشاقة الكتان، والمشاقة أيضا صحيحة
تلفع - بمعنى تلحف، والتفع أيضا، والعامة تستعمله على حقيقته وعلى المجاز
العباية - كالعبائة تماما
الاذة - تكون من الحرير، والعامة تستعملها للقطعة من الحرير يلفونها على الرأس
الكنار - للثوب شقة منه تكون في طرفه
القطيفة - هي المخمل
الملاءة والملاية - الربطة التي تستتر بها المرأة في خروجها
البرنس - ما يلبسه المرء بعد الاستحمام
الفوطة - وجمعها فوط، معروفة
المنديل - معروف أيضا
الطرطور - القلنسوة الطويلة
التكَّة - رباط السراويل، وجمعها تِكك
قوَّر القميص - جعل له جيبا
الدرابزين - للسلم، معروف
البطانة - للثوب خلاف الظهارة
الخياطة - للثياب
الشَّكُّ - الخياطة الخفيفة، في أول الأمر
كفَّ الثوب - خاط حاشيته
الكُفَّة - ما استدار حول الذيل
ثوب مهندم - مظبوط
الهدم، والجمع هدوم - الأكسية
دَعَك الثوب - ألان خشونته، والعامة تستعمله على المجاز
السخْتيان - جلد الماعز
القبقاب - نعل من خشب، والعامة تضم أوله
الصندل والصندلة - شبه حذاء، والفعل تصندل
الشيء المسيخ - الذي لا حقيقة لطعمه
الفطور - ما يفطر عليه المرء في العادة أو بعد الصيام
القرن - ناحية الهامة
المفرطح - العريض
السِّقط - الولد يوضع لغير تمام
الطلق - وجع الولادة
الأجرد - الذي لا شعر عليه، والعامة تقول الأجرود
نَسَل الشعر والصوف والريش وغيره - سقط
البعبعة - تتابع الكلام في عجلة وبصوت أجش
الصُفارة - كالزمارة
كركر - وقرقر - رفع صوته بالضحك
هأهأ - قهقه

وهناك آلاف من الألفاظ أهملتها لأنه لا خلاف على صحتها، مثل، المرود، والمكحلة، والمشط، والضفيرة، واللحاف، والزر، والعروة، والكم، والإبرة الخ الخ، وقد أهملت هذا الضرب لأني أردت أن أسوق الألفاظ التي يتوهم الناس أنها غير عربية وسأورد طائفة أخرى في فصل غير هذا. ولو عني رجال المجمع الملكي للغة العربية بمثل هذا البحث لأراحوا أنفسهم من عناء شديد يكابدونه، ولكان هذا أولى مما يعالجونه من النحت وما إليه وليسروا الأمر على الناس.

إبراهيم عبد القادر المازني

في بلاد اليونان

قدر

للأديب أحمد الطاهر

وقفنا خاشعين صامتين مطرقين، وأنصتنا إلى الكاهن يتكلم في وناء وتؤدة ووقار: يقص علينا من التاريخ قصصا. وما كنا نفهم من يونانيته ونحن مصريون شيئا، ولكن ظلمة المكان، ورهبة المعبد، وخشوع السامعين من أهل اليونان، وصوت الكاهن يرن تحت هذه القبة العتيقة، كل ذلك قد استولى علينا فأنصتنا كالسامعين وأطرقنا كالفاهمين، وتتبعنا حديثه كما لو كان يتكلم بلسان عربي مبين

وانتهى الكاهن من قصصه وصافحناه، وشكرنا له فضله وخرجنا وعلى وجوه اليونانيين بما سمعوا من الكاهن آثار مقروءة من السرور والألم، والرضا والسخط، والفخار والحسرة، مجتمع بعضها إلى بعض

قلت لصاحبي اليوناني المتمصر: (عجل فأنني جدا مشتاق إلى فهم حديث الكاهن، وما أحسبه إلا لذيذا ممتعا) قال: (إنه حقا لذيذ ممتع، وسأقصه عليك كما سمعته من فمه. (وسكت برهة كأنما يستجمع ذكريات، ثم قال: (أنظر إلى هذه الشجرة العتيقة القائمة في فناء الدير!) فنظرت إليها وقلت: (ليست إلا شجرة عتيقة قائمة في فناء الدير!) قال: إنها صفحة من صفحات التاريخ قرأها لنا الكاهن، وقرأ لنا صفحات أخرى منها دير آخر يسمى ميفاسبليون ممرنا عليه في طريقنا من أثينا إلى دير أجيالافرا الذي نحن فيه. ولا تنس قبل أن أقص عليك الحديث أننا على قمة جبل رفع هامته في الفضاء ألف متر، ثم استقر ثم اكتسى رداء أخضر من شجر الصنوبر، وطاول به جبال سويسرا وازدهى به من بين بقاع العالم التي خلعت عليها الطبيعة جمالها. واعلم أن هذا المكان. . .) قلت: (يا صاحبي! حنانيك لا تطل علي ولا تباعد بيني وبين الحديث فما طلبت وصف ما رأيت وما رأيت، وأنا وأنت مهما حاولنا وصف المكان فلن نجعل له من ألفاظنا صورة تصلح لأن تدنو من حقيقته، وحسبي وحسبك أننا متفقان على أن الله قد خلق هذا المكان فيما خلق فأبدع خلقه، وصوره فيما صور فأحسن تصويره، وجعل في الناس صدق النظر وحسن التمييز فتراموا عليه من كل حدب وصوب ينعمون بجماله ويسبحون بحمد خالقه) قال: (ولكنك لا تفهم كلام الكاهن ولا تتذوق حديثه إلا بعد مقدمتي الطويلة فأصبر على ما لم تحط به خبرا. . . إن هذا المكان لم يكن الوصول إليه في الزمن السالف يسيرا كما هو الآن: فهذه الجبال التي يزحف عليها قطار السكة الحديدية جاهدا كالأسير يرسف في الأغلال، ولا يصل إلى عليائها إلا بأمراس من حديد وأسنان كأسنان المشط ترفده كلما ارتفع، وتصده كلما ارتد أو هم أن يقع، هذه الجبال لم يكن من السهل أن يرقى إليها الإنسان، ولا أن يخترق جوفها كما يفعل الآن، ولا أن تطأ هاماتها الأقدام، ولا أن تفسد جمالها هذه المدينة القائمة على الحديد والنار، ولا أن يعكر صمتها ويغض من جلالها صخب الناس في الليل والنهار. ولذلك اتخذها الرهبان مثابة، ولجأوا إليها يتعبدون، وما أحسب الجبال قد برمت بهم وقد وجدت بينها وبينهم صلة وشيجة من الصمت والوقار والرهبة والتنزه عن هوان المدنية، إذا علمت هذا فأعلم أن الجبال والرهبان قد أنس بعضهم ببعض وقطعت الطبيعة ما بينهم وبين سائر الخلق من أسباب، واتخذ بعضهم اجيالافرا التي نحن فيها مثابة ومتعبدا، أقاموا فيها ديرهم وبيعتهم الصغيرة التي سمعت فيها حديث الكاهن، واتخذ بعضهم ميفاسبليون التي مررنا بها مثابة ومتعبدا آخرين وأقاموا فيها ديرهم وبيعتهم الصغيرة؛ وسكن الرهبان إلى الجبل، وسكن الجبل إلى الرهبان

ولكن ظلم الإنسان للإنسان لا تنقطع أسبابه، ولا تنسد أبوابه، ففي عام 1821 الذي بدأ الكاهن منه حديثه كان أهل اليونان قد أضناهم الضيق، وأعيتهم الحيل، وأمضهم الظلم، مما يلقون من عسف الترك وحكمهم الجائر. ففي غسق الليل مشى رؤساء القبائل وكبار الرهبان بعضهم إلى بعض يهمسون بالثورة والتمرد، وما كانوا ليستطيعوا إعلان الثورة أو الاصحار بالتمرد، بل ما كانوا ليستطيعوا أن يعلنوا ما دون الثورة والتمرد مما يسمى شكوى أو رجاء أو استرحاما أو ما دون ذلك من ألفاظ الذلة والهوان. ولقيت الدعوة الخافتة من النفوس استعدادا. واجتمعوا تحت ستار العبادة في هذا المكان ليدبروا أمرا. قال الأحبار: (نحن قادة الثورة وحاملو لوائها باسم الأمة واسم الدين.) وقالت العشائر: (آمين!) وقال كل حبر من الأحبار: (أنا قائد القواد ولوائي هذا هو اللواء الأعظم بمالي من المكانة بين الحاضرين)، فدبت بينهم الشحناء

وانقسموا شيعا بعضهم لبعض عدو
:ثم خرج إليهم كاهن هذا الدير وفي يده لواء واحد وقال: (لا لواء إلا هذا اللواء الأعظم
عليه صورة المسيح، أتجدون خيرا منه تستظلون بظله وترتدون إلى فيئه؟) قالوا: (إنا
معك وإنا لك لأجناد مخلصون) وانضموا إليه خاضعين يستظلون بلوائه الكنسي، وهذا
هو اللواء الذي كان الكاهن يشير إليه وهو يحدثنا، وهذا النصب الذي تقيمه الحكومة
اليوم إنما يقام تمجيدا لهذا المكان وتخليدا لهذه الذكرى؛ فهنا اشتعلت نار الثورة
الأولى، وهنا اتحدت القبائل والأحبار، وهنا وضع أساس استقلال البلاد، وجاهد القوم
أعواما ذاقوا فيها حلاوة النصر ومرارة الخذلان حتى استنجدت الدولة العثمانية ببطل
مصر إبراهيم باشا؛ وما هي إلا أيام حتى بدا القائد العظيم من فوق هذه الجبال، ثم
انصب على هذا الدير ووقف بجواده تحت ظل هذه الشجرة العتيقة، وقد انتشرت
جيوشه على الجبال في سفحها وعلى قممها وفي وديانها، وأحاطوا بالمكان إحاطة
السوار بالمعصم. قال إبراهيم باشا: (احرقوا هذه البيعة حتى يخضع من فيها من
الثوار) فحرقوها وخضع من فيها من الثوار، وارتد ميمما البيعة التي في ميفاسبليون،
وكأنه عز عليه أن يمضي في حرق البيع والأديرة، فأرسل إلى رهبانها كتابا قال فيه:
(إما أن تخضعوا أو أحرق بيعتكم كما أحرقت بيعة اجيالافرا) واجتمع الأحبار يتشاورون،
ثم دفعوا إليه بكتاب يقولون فيه: (إنك إذا حاربتنا ثم انتصرت علينا فما في النصر ما
يدعوا إلى الزهو والفخار، فما انتصرت إلا على بضعة نفر من الرهبان والأحبار، وأنت
ذو حول وقوة بما جمعت من جيوش جرارة، وخيل كرارة، وأسلحة ممشوقة، ودروع
محبوكة، وأما نحن فعددنا خفيف، وشأننا ضعيف، ليس بأيدينا من سلاح إلا هذه
المسابح نسبح الله عليها في همس ووناء، وليس على أجسامنا إلا هذه المسوح
السوداء، نحمي بها أجسامنا من قر الشتاء، ولا مركب لنا في هذه الجبال إلا أقدامنا
الكليلة أو بغالنا الهزيلة، وإن قدر لنا أن ننتصر عليك، ونحن على ما ترى من ضعف
وهوان، فما أشده من عار، وما أمره من انكسار، فتدبر أمرك وأمرنا، واقض بالرأي
الأصيل)
قرأ إبراهيم خطاب الأحبار فاستشاط غضبا وأمر بالجزيرة أن تحرق كلها بما وسعت.
وأشعل الجند فيها النار، والنار إذا امتدت في هذه الجبال وغابتها لا تبقي على شيء
بعدها ولا يصدها شيء. إلا أن يرسل الله من السماء أمطارا، أو يجري الوديان أنهارا.
واحترقت الجزيرة وكل ما في الجزيرة: إلا هذه الدير الذي يسكنه هؤلاء الأحبار، فما
امتدت إليه
شرارة من نار، وبقي معتصما بمكانه العالي، يهزأ من فعل النار ولا يبالي! وقال
الناس: (حقا تلك إحدى المعجزات!)، مضى على هذا الحادث مائة سنة وعشر سنين
حتى كان عام 1934، وإذا بالدير وبيعته تندلع منهما النار، لا يعرف لها سببا، ولا يصد
لها لهب، وأصبح الناس فما وجدوا إلا هشيما تذروه الرياح. وفزعوا يحاولون إنقاذ بعض
ما حوى الدير من تحف ونفائس فأنقذوا شيئا قليلا. وبحثوا عن كتاب إبراهيم إلى
الأحبار وصورة كتاب الأحبار إلى إبراهيم فإذا النار لم تبق على واحد منهما. وماذا تغني
كتب القواد والأحبار، إذا حم القضاء واشتعلت النار؟ أليس حديث الراهب لذيذا
(وعجيبا؟
قلت: (وأعجب ما فيه هذه النار: أشعلها بالأمس إبراهيم فكانت على الدير بردا
وسلاما، وأشعلها اليوم القدر فتركته حطاما.)
اليوزباشي أحمد الطاهر
في الأدب الإنجليزي
الكائنات الغيبية في شعر شكسبير - 2
بقلم خيري حماد
يجب علينا لفهم هذه الروح في شعر شكسبير أن نطلع على الحالة العقلية التي كانت
تسود عصره والعصور التي سبقته. قال كلارك: (لقد كان هناك عدد عظيم من
الملحدين والمشككين وجدوا في عصر كان بمثابة الخطوة الأولى في ترقية العلوم
المعروفة لدينا الآن. فقد كان تلاميذ كوبرنيكس الفلكي يتساءلون ويتجادلون في كل
ما عرف من النظريات الفلكية من قبل، وكان هناك نفر آخر من الكيميائيين دحضوا
حجج مدعي الكيمياء القدماء، ولكن النضال لم يكن مقتصرا على جماعة المجددين

فحسب، بل وجد هناك نفر آخر من القدماء المقلدين الذين كانت أقصى غايتهم مقاومة هذا التيار الجارف. وإن من الغرابة أن نجد الملكة اليصابات تستشير المنجمين والدجالين في تعين الوقت المناسب للاحتفال بتتويجها ملكة على إنكلترا)

ومن حسن حظ العلم قيام عدد من المفكرين أثبتوا فساد كثير من النظريات القديمة المألوفة فبزغ نجم رينولد سكوت لما هاجم عددا من العقائد الدينية المألوفة، ولم يقتصر هذا التجدد على المفكرين من رجال العلم بل تعداه إلى رجال الكنيسة أنفسهم فظهر هناك من رجال الكهنوت عدد حاول إصلاح الديانة مما طرأ عليها من الخرافات والأباطيل

أما الخرافات فكانت تسيطر على جميع مناحي الحياة في ذلك العصر. فكان السحر بطرقه المختلفة مهنة تمتهنها النساء اللواتي كانت تغلب عليهن صفة الذبول والكبر وبشاعة المنظر. وكان معظم هؤلاء النسوة من الشريرات القذرات ممن كان أقصى غايتهن إيقاع الضرر وبذر المساوئ في المجتمع البشري. غير أنه وجد في نفس العصر بعض ساحرات كان همهن شفاء المرضى والقيام بخدمات حسنة للمحتاجين والمهددين بالأخطار

قام الناس على اختلاف طبقاتهم يناوئون السحر والسحرة فهاجموا الساحرات في عقر دورهن وكانوا يأخذونهن راسفات في الأغلال إلى السجون حيث ينتظرن محاكمتهن أمام

مجلس من القضاة الذين كرهوا السحر وما يأتي به أمثال هؤلاء الشريرات من موبقات وآثام. فكانوا يعذبونهن بأشد أنواع العذاب. فمنهن من ربطن إلى جذ الأشجار حيث ذقن الموت جوعا، ومنهن من كان يطلب إليهن إعادة الصلوات قبل إلقائهن في النار المضطرمة

وكان من السائد على أهل ذلك العصر أن ينظروا إلى السحرة كأنهم على اتصال بالشيطان. قال كلارك في كتابه: (أن من أبغض الأمور التي كان يتعاطاها السحرة في عصر اليصابات وما قبله ذلك النوع من السحر الذي كان يعرف بالعين الشريرة فكان من جملة معتقداتهم أن في استطاعة الساحرة أن توقع الضرر أو تميت الناس بمجرد إلقائها عليهم نظرة من نظراتها النارية؛ فكان العمل الذي كان يعتبر من أشد أنواع السحر ضررا هو بمثابة الحجر الأساسي في بناء علم التنويم المغناطيسي المعروف لدينا الآن)

وكان هناك نوع آخر من السحرة أقل ضررا وخطرا، ذلكم هو نوع العرافين أو المنجمين الذين كان الناس يقصدونهم كما يقصدون قارئي الكف في يومنا هذا. فكانوا يوهمون قاصديهم باتصالهم بالسماء والعالم العلوي فيقرأون المستقبل في الماء والهواء، في النار والدخان. وكثيرا ما كانوا يضطرون إلى استشارة أرواح الأموات أو تأويل صياح الديكة في تفسير ما يرونه من حقائق وأحلام

أما العفاريت فكان الناس يؤمنون بوجودهم الإيمان كله، وما هم إلا بقايا الأشخاص الخرافيين الذين عاشوا في عصر من العصور السالفة وأصبح في استطاعتهم بعد ذلك أن يهيمنوا على الإنسان فيحولوا أعماله حسبما يريدون وأنى يشاءون. نعم كان هذا الاعتقاد سائدا لدرجة أن أصبحت الكنيسة تعلم أبناءها أن لكل رجل في هذا العالم رفيقا من عالم آخر يحميه ويقيه غائلة الشر

وكان هنالك نوع آخر من الخرافة هو عالم الأشباح والخيالات. فما الشبح إلا روح غادرت جسدها المائت وانتقلت من عالم الأموات إلى عالمنا هذا ترفرف في الفضاء لتحقيق غاية من الغايات شريرة كالانتقام والقتل، أو خيرة كحماية البشر وصد الآلام عنهم. أشباح مرئية وأشباح غير مرئية محلقة بأجنحتها في الفضاء فتملأ العالم خيالات لا يحصر عددها ولا يعرف مقدارها

عصر كله خرافات تتسلط على عقول أبنائه الأوهام، ذلكم هو عصر اليصابات الذي يصفه كلارك بقوله: (على الرغم أن ذلك العصر كان عصر بداءة وتمهيد للعلوم المعروفة لدينا الآن، إلا أن معرفة الحقيقة والطبيعة لم تكن متقدمة للدرجة التي يستطاع بواسطتها القضاء على الخرافات السائدة؛ فكان الناس يؤمنون بالسحرة والدجالين، بالفلكين والمنجمين، بالحوريات والجنيات، بالرقي والعزائم، بالأحلام والاتصال بالأرواح. هذا الاعتقاد السائد كان أكبر عامل في وجود هذه العوالم في

روايات المؤلفين الذين لم يستطيعوا بأي حال من الأحوال أن يخرجوا عن محيطهم وبيئتهم)

شكسبير والعقائد العامة:

شأن الشاعر أن يدون شعره كل ما كان معروفا في عصره من العقائد العامة، وهكذا كانت حال شاعرنا شكسبير، فقد عرف تمام المعرفة أن الخرافات القديمة كانت مواضع خلابة استعملها شعراء الإغريق والرومان في صوغ عبارتهم وتفسير معانيهم ودقائقهم. ولم تكد العصور القديمة تنطوي في عالم السجلات والتاريخ حتى ظهر هناك عالم خرافي جديد كان في حد ذاته خليفة للعصور التي سبقته، ذلك العصر هو عصر القرون الوسطى التي لم يستطع الشعراء الاستغناء عن خرافتهم في لغتهم بما نقله السلف عمن سبقهم

ومما لا شك فيه أن شاعرنا قد تأثر بعدد غير قليل من العوامل: كالجنس والمحيط والبيئة، فكان أفراد جنسه (يعتقدون أن كل ما هو غير مرئي حقيقة لا شك فيها ولا نقض)، ولم تكن الخرافات في عصره قد حوول مهاجمتها محاولة صادقة. نعم كان الإصلاح الديني أخذ في الانتشار في البلاد الإنكليزية إلا أنه كان مقصورا على المدن. أما القرى فلم تكن قد تأثرت بهذا الإصلاح أي تأثير

عاش شكسبير في عصر اضطربت فيه العقائد وتضاربت فيه الآراء، فاعتقد بعض الرجال المتعلمين اعتقادات كانت بعيدة كل البعد عن عقول غيرهم من الناس؛ وإن من حسن الحظ أن شكسبير يحاول في بعض رواياته أن يظهر لقارئيه عقائده وآراءه الشخصية. فهو يعتقد في الخرافات، ولكنه يتساءل عن أصلها وكيفية ظهورها، فهو يقول على لسان الأمير هملت:

(هل من الممكن أن نحسب ذلك الشخص الذي يقضي أوقاته كلها في الأكل والنوم رجلا؟

كلا إنه لا يتعدى أن يكون حيوانا فقط. إن من المؤكد أن ذلك الإله الذي وضع فينا قوة المجادلة والتمييز بين ما نعمله وما لا نعمله لم يضع فينا هذه المقدرة لنتركها دون أي استعمال أو ممارسة، أما الآن فسيان عندي إن كان هذا الفكر مجرد وهم أو غموض سماوي. فالفكر لا يحوي في حد ذاته إلا جزءا من أربعة من الحكم والصواب، بينما أجزاؤه الثلاثة الأخرى لا تخرج عن كونها من عوامل الجبن والخوف، فلا يمكنني الجزم فيما إذا كنت قد خلقت لأقول مجرد القول في أن هذه الأمور يجب علي أن أعملها، في حين أني قد أوتيت القوة والإرادة والحق في عملها والقيام بها)

إن من الصعب على الشاعر أن يستطيع البحث في موضوع سماوي بطريقة جدية ترتكز على تفكر وبحث عميقين دون أن يكون له أدنى اعتقاد في هذه الأمور التي يبحث فيها؛ وبنظرة عميقة لروايات شكسبير يمكنك أن تحصل على نتيجة لبحثه في مثل هذه المسائل. وقد قال روف في كتابه (شكسبير وعقيدته في الأشباح): (لم يستطع شكسبير أن يجعل أشخاص رواياته ينطقون عن عقائده، ولكنه استطاع أن يظهرها في رواياته)

(يتبع)

خيري حماد

الدكتور محمد إقبال - 4

اكبر شعراء الهند المسلمين في العصر الحاضر

لأبي نصر أحمد الحسيني الهندي

فلسفته

إن كل شيء في هذا العالم متصف بالفردية، حتى الحياة أيضا لا تخلو من ذلك؛ ولا وجود في الخارج للحياة الكلية التي ينشدها بعض المذاهب الفلسفية والصوفية، فالله أيضا فرد واحد ليس كمثله شيء؛ وأما الكائنات فهي عبارة عن مجموعة الأفراد، ولكن النظام، والنسق، والتوافق والتطابق الموجودة فيها ليست بنفسها كاملة. ومهما كانت فهي نتيجة سعي الأفراد الغريزي، وعلى هذا فنحن نتقدم بالتدريج من الفوضى إلى النظام، ومن النقص إلى الكمال. وعدد أفراد هذه المجموعة غير محدود ولا معين، فانه يزداد كل يوم ويتضاعف. فالأفراد الحديثو الولادة يشاركوننا بدورهم ويساعدوننا للبلوغ إلى هذه الغاية العظمى - الكمال، ولذلك كان عمل الكائنات غير متناه، لأنها لا

تزال تتدرج في مدارج الكمال وتترقى إلى ذرى المجد. وعلى أن الكائنات لم تنال الكمال المنشود بتمامه بعد، وما تفتأ تستنفد وسعها وتفرغ مجهودها في بلوغه فلا يمكن أن يقال في شأنها الكلمة الأخيرة، وما يمكن أن يقال فيها هو أنها ليست بحقيقة كاملة. وعملية الخلق فيها جارية يقوم فيها الإنسان بنصيبه، ويشترك فيها إلى أن يقدر أن يوجد النظام على الأقل في جزء من فوضاها؛ والقرآن قد أشار إلى هذا الخلق في الآية: (فتبارك الله أحسن الخالقين)

فنظرية إقبال هذه في الإنسان والكائنات خلاف ما يراه الإنجليز من أتباع مذهب الهيجلية الحديثة أو الصوفية في مسئلة وحدة الوجود من أن الغاية القصوى لحياة الإنسان ونجاتها في أن تندمج في الحياة الكلية كما تندمج القطرة في البحر وتفقد فرديتها

ليست الغاية الأخلاقية للإنسان ولا مرمى دينه أن يبيد وجوده بإتلاف فرديته وإفناء أنانيته، بل أن يحافظ على فرديته وأنانيته، وذلك بالحصول على أمثل الصفات وأعلاها التي تجعله فريدا وحيدا. والنبي عليه الصلاة والسلام قد أبانه بقوله: (تخلقوا بأخلاق الله)، أي اتصفوا بصفات الله، لذلك كلما كانت صفات الإنسان أشبه بصفات الله كان فريد زمانه وواحد عصره

أما الحياة فيرى إقبال أنها اسم آخر للفرد. وأسمى صورة لها تحققت إلى الآن هي الأنانية التي بها يصبح الفرد مركزا مستقلا؛ فالإنسان مركز مستقل من كلا الجهتين، أي الجسمانية والروحانية، لكنه ليس بفرد كامل. والفرد كلما كان بعيدا عن الله كانت فرديته ناقصة وأحط درجة، وكلما كان قريبا من الله كانت فرديته كاملة وأرفع منزلة. وليس معنى القرب هذا أن تكون نهايته الفناء في الله أو الاندماج فيه كما قرره بعض الصوفية والفلاسفة؛ بل خلافا لذلك هو يجذب الله إليه، أي يتصف بصفاته وأخلاقه؛ وإلى هذا أشار إقبال في بيت من ديوانه (بيام مشرق) التبس مفهومه على البعض، قال:

(دردشت جنون من جبريل زبون صيدى
يزدان بكمند آور آي همت مردانه!
إن في صحراء جنوني جبريل صيد تافه
يا همتي الشماء ائتي في أنشوطتك بالله.)

يريد به أن الاتصاف بأوصاف الملائكة عنده شيء تافه بل هو يتوخى بهمته الشماء صفات الله

إن الحياة شيء متقدم. هي حركة تجذب الكائنات إلى نفسها بالغلبة على مشاكلها ومعضلاتها العائقة لها عن سيرها وتقدمها، وجوهر وظيفتها خلق الأماني والأغراض الجديدة بالاستمرار والتقدم ولصون نفسها قد أوجدت الحياة الوسائل، أو هي ظهرت طوعا لشريعة الارتقاء، وهذه الوسائل هي الحواس الخمس والقوة المدركة التي بها تغلب المشاكل والمعضلات، وإن كان أكبر العوائق في طريقها الطبيعة أو المادة، لكنها في ذاتها ليست بشر، إذ هي تمكنها من إبراز قواها الخفية واستعداداتها المكنونة إن الأنانية حينما تستولي على المشاكل والمعضلات ويبين شأوها عليها تنتقل من الجبر إلى الاختيار فأنها إلى حد ما مجبرة وإلى حد ما مختارة كما ورد في الأثر أن (الإيمان بين الجبر والاختيار)، ومتى نالت النهاية القصوى من زلفى الأنانية العظمى (أي الله) التي ليس كمثلها شيء في الحرية والاختيار تمتعت بأقصى مدى من الاختيار والحرية، وعلى هذا فالحياة عبارة عن الجهد المستمر للوصول إلى ذلك المدى من الاختيار والحرية

قلنا إن مركز الحياة في الإنسان الأنانية التي تملى شخصيته على صفحة الوجود، والشخصية هذه عبارة عن حالة الجهد المستمر، فإذا احتفظ بتلك الحالة، بقيت الشخصية ثابتة البناء مشيدة الأركان، وإذا فقدت، ضعفت قواعدها وانتكثت مرائرها، وبما أن الشخصية أو حالة الجد المستمر أبعد الغايات للإنسان وأثمنها، فينبغي له ألا يدعها ترث قواها فتضعف، وتنحل عراها فتفنى. لأن بقاءها هو الذي يسبغ عليه الدوام والخلود، ثم فكرة الإبقاء هذه تعطى له أيضا معيارا للخير والشر أو الحسن والقبح. فإن كل ما يقويها خير وحسن، وكل ما يضعفها شر وقبيح، سواء أكان من نوع الفن أم

الدين أم الأخلاق
على ضوء هذه الآراء انتقد إقبال فلسفة أفلاطون فدحض حجج جميع المذاهب الفلسفية التي تعتبر غاية الإنسان الموت بدل الحياة، فتلقنه الجبن والوهن وذلك بحمله على الأعراض عن المادة التي هي أكبر العوائق في طريق حياته، والابتعاد عن مقاومتها، مع أن جوهر الإنسانية في الاستيلاء عليها واستخدامها لنفسها بالبطولة والفحولة
وكما أن الاستيلاء على المادة ضروري لنيل الحرية والاختيار كذلك الغلبة على الزمن لازمة للحصول على الخلود والدوام؛ و (برجسون) قد علمنا أن الزمان ليس الخط اللامتناهي (في مفهوم الخط المكاني) الذي لابد أن نجتازه سواء رضينا به أم لم نرض. ولكن هذا المفهوم للزمن ليس بصحيح فإن مفهوم الزمن البحت لا يشمل مفهوم الطول
إن الخلود غاية الإنسانية وأمنيتها، يحوزه كل من يسعى لذلك، وحيازته تتوقف على تلك الأعمال والأفكار من حياتنا التي تقدر أن توطد أساس الأنانية على حالة الجد المستمر وتشيد أركانها، فديانة بوذا وتصوف إيران وأمثالهما من نظريات فلسفة الأخلاق لا تصلح لمأربنا وإن احتوت على بعض الفوائد وهو أننا بعد إجهاد أنفسنا واستغراق وسعنا بالاستمرار نحتاج إلى راحة قليلة لتجديد قوانا، فكأن تلك الطرق للأعمال والأفكار كالليالي لأيام حياتنا
وعلى كل حال فمتى تمكنت أعمالنا وأفكارنا من توطيد حالة الجد المستمر في الأنانية، فالأرجح أن الموت لا يؤثر عليها، بل محتمل أن تكون الفترة بين حياتنا الحاضرة وحياتنا الأخرى هي فترة الراحة، وتلك الفترة هي التي عبر عنها القرآن بعالم البرزخ الذي يبقى إلى يوم البعث، فتلك الأنانية وحدها يمكن ألا تتأثر من الموت وتخرج من الفترة فائزة،
التي قد اعتنت بالحياة الحاضرة اعتناء جيدا، وإن كانت الحياة تأبى الإعادة والتكرار في مدارج الارتقاء، ولكن على حسب مبادئ فلسفة برجسون، كما يقول لنا الأستاذ ولدن كار، حشر الأجساد أيضا في حيز الإمكان التام. إننا نوزع الزمن في اللمحات لذلك نربطها بالمكان فيصعب علينا عبره، ولكننا ندرك حقيقته حين نغوص في أنفسنا لأن الزمن الحقيقي هو حياتنا، تلك التي توطدت فيها الأنانية بحالة الجد المستمر، أننا محكومون بالزمن إلى أن نراه مربوطا بالمكان، إن الزمن المقيد بالمكان سلسلة لفتها الحياة حول نفسها لتجذب ما حولها إلى نفسها، وإلا فنحن مجردون على الزمن، وهذا التجرد يمكن أن نشعر به حتى في حياتنا الحاضرة وإن كان لدقيقة
إن الشيء الذي يقوي الأنانية هو العشق في مفهومه المطلق ومعناه جذبك الشيء أو طلبك إياه لتجعله جزءا من نفسك، وأسمى صورة له هو ما يمكن صاحبه من خلق القيم والغايات، ويدفعه إلى السعي في تحقيقها وبلوغها، ثم العشق يجعل العاشق فريدا كما يجعل المعشوق، وذلك أن طلب الفرد المعين الأوحد يوجد شأن الانفراد في الطالب عن غيره كما يوجد في المطلوب، فأنه لا شيء غيره يرضي طلب الطالب، وكما أن العشق يقوي الأنانية، كذلك الاستجداء يضعفها، فكل شيء نيل بغير المجهود الشخصي هو من قبيل الاستجداء، فالابن الذي يرث ثروة أبيه من دون مجهوده الشخصي مستجد، ومثله ذلك الذي يفكر بفكر الآخرين ويرى برأي غيره. وبناء عليه ينبغي لنا أن نوجد ونربي في أنفسنا العشق أي قوة الجذب ونجتنب جميع أنواع الاستجداء، وإليه أشار إقبال في بيت ترجمته:
(إن المملكة التي لم تشتر بالدم
هي عار على المسلم)
بقي أن نسأل كيف نوجد العشق، فيقول إقبال: إن للمسلمين على الأقل في حياة النبي عليه الصلاة والسلام ردا على ذلك، فأنه عليه الصلاة والسلام قد وضح بأعماله وحياته ما هو العشق، وكيف يمكن القيام به، لذلك ينبغي للمسلمين أن يختاروا حياته عليه الصلاة والسلام أسوة لأنفسهم وأن يحبوه، وإليه أشار إقبال في بيت قال:
(هركة عشق مصطفى سامان اوست
بحر وبردر كوشه دامان اوست

كل من يكون متاعه عشق المصطفى
(يكون البحر والبر في طرف ذيله

إن الأنانية في صعودها إلى فروع العلى، وبلوغها إلى رفعة الكمال حيث تتمتع بفردية كاملة بنيل زلفى الأنانية العظمى لابد أن تجتاز ثلاث مراحل: مرحلة الخضوع للشريعة، ومرحلة ضبط النفس وهي الصورة العليا للشعور الذاتي، ومرحلة الخلافة الإلهية ففي مرحلة الخضوع يفسر لنا إقبال أنه للتقدم لابد من مسلك يسلك، ومن مشروع يورد، ومن قانون يخضع له. لذلك كل من يصبو لمعارج الكمال، ويطمح إلى سنام المجد ينبغي له أن يطيع الشريعة. وفي بيان مرحلة ضبط النفس يقول إقبال إن النفس الإنسانية لأمارة بالسوء، فهي معجبة بذاتها، أبية، عنيدة، لا تهتم إلا بأمر نفسها. لذلك هي محتاجة إلى الضبط والتهذيب. فخير طريق لذلك هو إقامة أحكام الشريعة. فالصلاة تنقذها من الفحشاء والمنكر، والصوم يقتل غلمتها وترفها، والحج يذيقها لذة الهجر ويخفف عنها سلطان الحب للوطن ويضمها إلى الاجتماع الإسلامي العام فيجعلها تشعر بجنسية الإسلام، والزكاة تبيد حبها للمال وتعلمها المساواة

أما الخلافة الإلهية فهي النهاية القصوى للتقدم الإنساني على سطح الأرض، هي الأنانية الكاملة والغاية العليا للإنسانية، وقمة الحياة من حيث العقل والجسم. ففيها يتحول تشتت الأفكار في الحياة الذهنية واختلافاتها وتنافرها إلى التناسق والتوافق، فتقدر حينئذ على حل جميع العقد المنيعة المطلب والصعبة المرام. هي ملتقى الكمال للعلم والقوة، ونقطة الاتصال بين الفكر والعمل، والعاطفة والعقل. ومن استحقها كان آخر ثمرة لدوحة الإنسانية، وظهوره يبرر جميع آلام الارتقاء ومحنه لأنها كانت قائمة لأجله. هو يكون حاكما حقيقيا على البشر وحكومته تكون حكومة إلهية على الأرض. هو يسبغ من خصب طبعه على الآخرين بحبوحة الحياة ويقربهم إلى نفسه فكلما يتقربون إليه تتدرج حياتهم في مدارج التقدم والكمال

إن بلوغ الإنسانية إلى أقصى مدى من التقدم عقلا وجسما شرط ضروري لولادة ذلك المستحق للخلافة. لذلك كان وجوده في الحال في عالم المثال، ولكن تقدم الإنسانية سائر إلى إنتاج طبقة الأفراد المنفردين في أوصافهم الحميدة قلة أو كثرة؛ فهؤلاء سيكونون أجداده

أما الحكومة الإلهية فمعناها الديموقراطية المكونة من الأفراد المنفردين في أوصافهم الحميدة قلة أو كثرة يرأسهم الفرد الوحيد الذي لا نظير له على وجه الأرض. كانت أشباح هؤلاء الأفراد تجول في فكر الفيلسوف الألماني نيتشه؛ ولكن إلحاده وتعصبه الأرستقراطي شوهها تماما

هذا ما عن لنا من فلسفة إقبال الآن؛ وسنقدم إليك معالم الاتفاق والاختلاف بينه وبين فلاسفة الغرب في المقال الآتي إن شاء الله.

السيد أبو النصر أحمد الحسيني الهندي

الذكر

للأستاذ فخري أبو السعود

صوتٌ مِنَ الأمس ما أنْفَكُّ أسمعُهُ ... مُرَدَّدُ اللحن في بالي مُرَجَّعُهُ
لحنُ شجيٌّ لطيف الوقع ساحرُهُ ... يَدُ الليالي على قلبي تُوَقِّعه
إذا تَرَدَّدَ منه في الضلوع صِدًى ... ثار الحنينُ ونَدَّ الجَفْنَ مدمعه
نهرُ يَظَلُّ بنفس المرءِ مُنْسَرِباً ... وفي مجاهِل ماضي العيش منبعه
طيفُ مدى العمرِ مِن ماضيَّ يتبعني ... وَدِدْتُ لو أنني ما شاء أَتْبَعُهُ
مَنْ أَنْتَ يا مَنْ مِنَ الماضي يخاطبني ... وَمِنْ قرارةِ نفسي بِتُّ أسمعه؟
تَظَلُّ تُحي الذي قد مات من عُمُري ... وما تَشَتَّتَ مِنْ ماضيَّ تَجْمَعُهُ
نعَمْ وتَحْكِي لقلبي من مآربه ... ما كان يَنْشُدُهُ قِدْماً ويُزْمِعُهُ
حديثُك العذبُ مها طال يُؤنِسهُ ... وبالزمان الذي قد مَرَّ يولعه
يا رُبَّ عهدٍ غضيرِ الحُسن رائِقِه ... قد راح وهْو حثيثُ الخطو مسرعه
مرَّتْ عليه بَنَانُ منك ساحرةُ ... فهاج بي الشَّوْقَ مغناه ومربعه
وهام قلبي على آثارِهِ لهِجاً ... يَوَدُّ لو أنَّ هذا الدهرَ يُرْجِعُهُ
وَرُبَّ وادٍ بنفسي مُزْهِرٍ نَضِرٍ ... صَوَّرْتَهُ فَهْوَ حالِي النبت مُمْرِعه
ومنظرٍ مِنْ طُيُوفٍ أَنْتَ رَاسِمُهُ ... ومِنْ حنينٍ خَفِيّ أَنْتَ مُبْدِعه

وصورة لِذُكاءِ وهْيَ غاربةُ ... هفاَ لها الكونُ إذْ هَمَّتْ تُوَدِّعه
ومَشْرِقٍ حَيِّتِ الأرْوَاحَ غُرَّتُهُ ... ونَبَّهَ الطيرَ والأزهارَ مطلَعُه
هذا ادِّكاريَ: ملءُ القلبِ من صُوَرٍ ... مِنَ الطبيعةِ تَشْجُوهُ وتُمتِّعِه
وسالفاتِ عهودي في مباهجها ... يُظِلُّني ثَمَّ نادِى الزهر مُونِعُهُ
حُسْنُ الطبيعةإلُفُ في الفؤادِ له ... عهدُ بِقَلْبيَ باقٍ لا أُضَيِّعُهُ
وليس بالقلب ذِكْرُ مِنْ أخي مِقَةٍ ... يبقَى بقَلْبي مَدَى الأيامِ موْضِعُهُ
فَكُلُّ ثَوْبِ وَدَادٍ كنتُ أَلْبَسُهُ ... يَرَثُّ وَهْوَ جَديدُ ثُمَّ أَخْلَعُهُ
فكيف أهفو إلى رَثَ ومُنْخَرِق ... من العهود وَبالٍ لستُ أرْقَعُهُ؟
مَنْ رام صافِيَ وُدٍّ غير ذي كدر ... ففي الطبيعة للوُرَّادِ مَشْرَعُهُ
أليفُهَا حيثما راقتْه صُحبتُها ... مُمَتَّع النفس راوي الطرف مُترعه
أصْفَى الوداد وُرُوداً ثُمَّ أدْوَمُهُ ... عهداً وأعْذَبُهُ ذِكْراً وأنْقَعُهُ
فخري أبو السعود
بين الهدى والهوى
للشاعر الحضرمي علي أحمد باكثير
في طلوع الفجر الوليد على الكو ... ن، وإيذان ليله بالهروبِ
وهبوب الأنفاس من رُدْنَى الصب - ح برَوْح يحي النفوس وطيب
رنْ في مسمع السكون أذانُ ... قُدُسيّ الترجيع والتثويب
سال - حتى عم الفَضَاء - حَناناً ... ذائباً في شعاعه المسكوب!
خلِقاً عالَماً من النور والفت ... نة والسحر والجمال الغريب
رَعَشَاتُ من الغناء السماويّ (م) ... تَخطَّي الأسماعَ نحو القلوب!
إنما الدين الحقّ فنُّ طهور ... قد سما في معناه والأسلوب!
وقف (الشاعر) التقيّ يصلّي ... في خشوع لذي الجلال المهيب
فرِحاً قلبه يطير استناناً ... في مجال من الأماني رحيب
مطمئناً لو أنه احترق الكو ... نُ جميعاً ما مسه بلهيب!
عامراً بالهدى يكْاد يرى الله (م) ... بعينيه فهو جدّ قريب
ربّ! لِمْ لا تراك عيني؟ ألاَ تب ... دو لعينَيْ عبدٍ إليك منيب
كَلِفٍ بالجمال يصبو إلى من ... بع بعد الأنبوب فالأنبوب!
فاطْوِ عني الحجاب تشهدْ جفوني ... لمحةً من جمالك المحبوب
مرَّ في سمعه حَفيفُ لِسَهمٍ ... ناشبٍ في فؤاده المنكوب
ما وعى السمعُ أودرى القلبُ إلاَّ ... بعد حين من وقعه والنشوب
مَنْ رماه؟ وأيَّ نصل وعن أيّ (م) ... ةِ قوس رمى؟ وفي أيّ حُوب؟
ولوَى الجيدَ يَسْرةً فإذا هُو ... بمثال من الجمال النجيب
قمر طالع عليه من الشّر ... فة يرنو إليه كالمذهوب
لفَتَتْهُ الصلاة نحو المصَلّى ... فادَّرَاهُ بكل سهم مصيب
ربّ! ماذا أرى؟ ألمحة نور ... منك، أم وهْم ناظرٍ مكذوب؟
أم مَلاكاً بعثَته بقبولي ... ونجاح المؤمّل المطلوب
ربّ! قلبي صبا إليه! كأنْ لم ... أكُ في موقف الصلاة الرهيب
أين وَلّى اطمئنان نفسي؟ ومَنْ لي ... بخشوعي إليك والترحيب؟
ربّ! حل الهوى محل الهدى في ال ... قلب، ويلاه! ربّ عافِ الذي بي!
وانتهى من صلاته وهو يهذي ... بضلالات شعره والنسيب:
ألهمِيني وحي الجمال! فعهدي ... بشهود الجمال غير قريب)
إن تكن نظرتي لوجهك ذنباً ... فالْتِاعي كفّارة لذنوبي
وابعثي لي - لتدفئي بُرَدَائي - ... وقدةً من ذراعكِ المشبوب!
وأصبَحيني من خمر عينيك كأساً ... تنفِ عني متاعبي ولُغوبي
وابسمي لي - والابتسام يسير - ... تبتسمْ لي الحياةُ بعد قطوب)
هي لغز يحلو التأمل فيه ... لحكيم وشاعر وأديب)
هي في لِبْسة التفضل حُسْنُ ... من يد الله، ليس بالمجلوب
يا لَها حلوةً عليها من النو ... م بقايا تثاؤب محبوب!!
وبأهدابها خيوط ضياءٍ ... عَلِقت من أحلام ليل عجيب!

مُرسَلاً شَعرُها على غير ترتي ... ب ولكن أحلى من الترتيب!
خطَّ في خدها الوِساد - سعيدا - ... آيةً من بدائع التذهيب!
وأذاع النسيم عنها بلاغا ... أفعم الجو من أريج وطيب
إن طيباً في الحُق ليس كطيب ... مرسل من غلائل وجيوب
بكرت تنضح الشجيرات بالما ... ء فيَنْعمْنَ بالبنان الخضيب
وفؤادي أحق بالريّ منهن (م) ... فهلاَّ تمدّه بذَنوب!
وقفت وقْفة الدَّلال أمامي ... تتلهَّى في كفّها بقضيب!
أرسلت كهرباءها فتمشت ... في عروقي بهزة ولهيب
فكأنا (قُطْبا عمودٍ) ترمي التّيْ ... يَار فيه من جيئه وذهوب
فما إنْ تكفّ عن تعذيبي (بين جهدي وجهدها أبداً فر ... قُ)
(أيها (السالب) الجميل حناني ... ك ترفّق بمهجة المسلوب
واستهل الصبح الجديد على الكو ... ن مُلَقِّي بالبشر والترحيب
وأتى (الشاعر) الصلاةَ بقلب ... شاعر بالملام والتثريب
مستنيب إلى الإله يُرَجّى ... عفوه عن ضلاله والحوب
فدوى في أعماقه رَجْعُ صوتٍ ... كصدى الرعد أو دويّ النُّوبِ
كيف يقوَى على سنا (الربّ) قلب ... جُنَّ لما رأى سنا (المربوب)؟
والكمالات لا تَنَاهى لدى الل ... هـ فلابد من بقاء الغيوب
علي أحمد باكثير
القرية
للأستاذ بشاره الخوري
أيتها الفتانة الصغيرة ... أنت بتاج مَلك جديره
من القِرى اشتقوا لك اسم القرية ... وعطّل السفحُ فكنت الحلية
شاعرك البلبل ذو الإلهام ... وعُودك الجدول ذو الأنغام
والغيمة البيضاء مثل القبة ... كأنها من الحرير جبه
تضم أعناق الربى وتلثمُ ... فليس إلا شَفةٌ ومبسم
كم طربت شمس لهذا المشهدِ ... فمسحت جبهته بالعسجد
حتى إذا الليل سجا ومدا ... على الورى جناحه المسودَّا
مشى إليه البدر مشيَ الصائدِ ... يهتبل الغفلة من مطارد
حتى رمى بخردق النجومِ ... صدر الدجى فسِلن كالكلوم
مآتم لكنها أعراس ... يدار عندها الهوى والكاس
توحي بها القرية في رأس الجبل ... وأروح العيش خيال وأمل
وساعِدٍ عند الضحى مفتولُ ... تغمره بالقبل الحقول
أسمر مما لذعته الشمس ... في كفه لكل جسم نفس
يقوم في الأرض مقام الخالق ... فيغدق الرزق على الخلائق
هذا الذي يحاولون قتله ... والعدل يقضي أن يموتوا قبله
بشاره الخوري
بين ناقد وشاعر
علم قراء الرسالة من عدد مضى أن الأديب حبيب الزحلاوي اتهم الدكتور الشاعر إبراهيم ناجي بأنه استعان في قصيدته (عاصفة الروح) بقصيدة الشاعر الدمشقي ميشيل عفلق (عاصفة)، وقد دفع الدكتور ناجي ذلك الاتهام، وتحدى متهمه أن ينشر القصيدتين في الرسالة. وأمس أرسل إلينا الناقد نص القصيدتين ومعها نقد لاذع، واليوم بعث إلينا الشاعر بنصهما أيضا ومعهما تعليق ساخر، فآثرنا أن نطوي النقد والتعليق لخروجهما عن خطة الرسالة، واكتفينا بنشر القصيدتين، ليحكم القراء بين الرجلين
عاصفة روح
للدكتور إبراهيم ناجي
أين شطُّ الرجاءْ ... يا عُباب الهموم
ليلتي أنواء ... ونهاري غيوم
اعْوِلي يا جراح ... أَسْمِعِي الديان

لا يهم الرياح ... زورق غضبان
البِلى والثقوب ... في صميم الشراع
والضنى والشحوب ... وخيال الوداع
في احتدام النار ... واصطخاب الأنين
تضحك الأقدار ... ترقص السكين
كل يوم يروح ... في احمرارِ الجروح
كل صبح يلوح ... فجره مذبوح
اسخري يا حياه ... قهقهي بالرعود
الصِّبَى لن أراه ... والهوى لن يعود
الأماني غرور ... في لظى البركان
الدجى مخمور ... والردى سكران
وخليع العباب ... موجه العربيد
دار بالأكواب ... ويل هذا العيد
راحت الأيام ... بابتسام الثغور
وتقضى الظلام ... في عناق الصخور
كان رؤيا منام ... كأسك المسحور
يا ضفاف السلام ... تحت عرش النور
اطحني يا سنين ... مزقي يا حراب
كل برق يبين ... ومضه كذاب
اسخري يا حياه ... قهقهي يا غيوب
الصِّبَى لن أراه ... والهوى لن يؤوب
عاصفة!
لمشيل عفلق
اعصفي يا رياح! ... واهزئي بالسماء
من يكن ذا جناح ... هل يهاب الفضاء؟
عبس الغاب وادلهم، فما يب ... سم إلا عن الرعود البوارق
فمشى السر موغلاً في ثنايا ... هُ مصوناً من الدجى بفيالق
وتداعت جهم الغيوم ثقيلا ... ت حبالى بشائبات الصواعق
ذعرت في الفلاة آمنة الوح ... ش فراحت تمشي كمشية سارق
وسرى الماء لائذاً بحمى الظل (م) ... ملماً ببعضه متعانق
أمعنت في الغناء ... قاصفات الرعود
ذاك ضحك القضاء ... من قيود العبيد. .
اعصفي اعصفي أيا ريح حتى ... تُرقصي من دويِّك الأجيالا
واضحكي كم يثير ضحكك عند ال ... حشرات النواح والأعوالا
أوصدت وكرها الثعالب حسرى ... لابسات من ضعفها أغلالا
وانبرى الليث ناعم البال يمشي ... حاشداً تحت نابه الآجالا
ودعاك النسر احميلني أيا ري ... ح إلى حيث لا جناح تعالى!
اغسلي يا سيول ... زائف الأصباغ
السما كالطبول ... زمرت بالفراغ
يا سيول افتحي لنفسي مجرى ... أنا نهر حيران لم يلق بحرا
تهت عن غايتي ولكن تيهي ... ينبت الخصب كلما حلّ قفرا
أنا برق في قوتي والتهابي ... في وميضٍ أحيا وأدفن عمرا
أنا ليل يفني اشتعالاً وحباً ... لتوشي دماؤه الحمر فجرا
أنا زهر أطارت الريح أورا ... قي فأفعمت واسع الجو عطرا
أعطشتني الرغاب ... فشربت النجوم
وحداني الشباب ... فامتطيت الغيوم
مِن ذرى هذه السحائب ارمي ... فوق هام الورى رفيع ازدرائي
قدما في السماء أركز جذلا ... ن وأخرى على جبين الفضاء
لم يعد لي في الأرض منزل جرّ ... واسعُ مطلبي وعالٍ إبائي

أحرقت بيتي الصواعق لكن ... غسلت لي قلبي بذوب الضياء
مزقت ثوبيَ الرياح ولكن ... نسجت من دم الشموس ردائي
إعصفي يا رياح! ... واهزئي بالسماء
من يكن ذا جناح ... هل يهاب الفضاء
فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية
23 - تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا
الناحية السلبية من مذهب نيتشه
الإنسان
للأستاذ خليل هنداوي
الرجل ذو الضمير الفاسد يحس في نفسه حاجة مرضية للتألم، وهو لا يشعر بأن الحاجة تبعثها علة حقيقية هي وليدة هذا الضغط القاسي على إرادة قوته، وإنما يدرك فقط أنه متعاقد مع الألوهية على دين لا يمكن أداؤه. ومن الحق أن يبدو له أن هذا الدين شديد تهون في سبيله الآلام. فهو يحتمل الشقاء ليهدي غيظ دائنه العنيف، وليكفر عن خطيئته. وهاهو ذا الآن يلتمس العذاب يتذوقه ألوانا ليفي بدين يزعم أن لا نهاية له. يحمل الألم ولا غاية له إلا الأم ليطفئ في نفسه رغبة التفكير عن ذنبه. وهيهات أن تشبع هذه الرغبة أو تطفأ!
فكرة الخطيئة بعثت مرة ثانية، وأصبحت الآلة التي يتوعد بها الكاهن، وبها يسيطر على الأرواح، وبها انقادت له جموع الأشقياء ووضع يده على النعاج المتألمة التي أبصرها في الطريق. مضى قدما إلى أولئك المنحطين العاملين بشقاء يجهلون علته، يتحرون عن العلة أو الواحد المسئول عن انحطاطهم الغارقين فيه. فيوحي إلى هؤلاء بأنهم هم أنسهم كانوا سبب شقائهم الحقيقي، وأنهم ينبغي لهم أن ينظروا إلى هذه الآلام كتضحية صغيرة عن خطيئاتهم التي اجترحوها، فليتقبلوها - بطرب - كامتحان أراده الله، فآمنوا به وقبلوا بهذا الحل منه، وتلقحوا برضا بهذه الفكرة المسممة عن الإيمان بالخطيئة. وفي أوروبا اليوم مذهب يضم هؤلاء الخاطئين التوابين الذين يمشون بأجساد مريضة وأعصاب ساكنة ونفوس ذاهلة، فرائس لليأس والهذيان. جوعهم دائم للعذاب، تستولي عليهم فكرة الخطيئة والهلاك الأبدي
وفي النهاية يجد نيتشه أن التعاليم المسيحية كديانة وكمثل أعلى، لا تقود إلا إلى العدمية يجد أنها خلقت عالما مفعما بالأوهام المجردة، وتخيلت عللا خيالية وأعمالا خيالية، وروابط بين الأكوان خيالية. أسست علما طبيعيا وهميا مؤسسا على إنكار الأسباب الطبيعية
والعلاقات الطبيعية بين الأشياء، وأسست علم نفس خيالي يرتكز على تفسير خاطئ للحوادث الطبيعية وعلى فلسفة خيالية، وبينا كان الرجل المسيحي دائبا في بناء وجود خيالي كان يهدم الوجود الحقيقي، يقاوم الطبيعة (أصل كل بلاء) في سبيل الإله (أصل كل خير وهناء)، فولدت الأوهام المسيحية من بغض الحقيقة، فهي نتيجة إنسانية منحطة، تربو فيها كمية الشقاء على كمية الفرح، إنسانية تعبة سائمة، متألمة، تميل إلى التشاؤم وعدم الحياة، ولا تجد راحتها إلا في أحضان العدم
- 4 -
إن عمل التاريخ الأوربي هو ظفر شريعة العبيد على شريعة الأسياد، لأنه قبل تلك الشريعة وعمل على اعتناقها وكفر بهذه الشريعة. . . وإنها لمعركة لا تزال مشبوبة محتدمة عشرين قرنا بين (روما) وارثة الحضارة اليونانية ومثلها الأعلى الأرستقراطي، الذي هو أقوى مثل وأسمى مثل تحت الشمس، واليهودية موطن البغض ومنزل الروح (الكهنوتي)، انتصرت اليهودية والنهضة الحديثة التي شبت في أوروبا قامت في وجهها عثرات وعقبات، كثورة (لوثر) والبروتستانت، وكثورة الباستيل في فرنسا، وانهزام نابليون، هذه نائبات تتالت فحالت بين بلوغ النهضة غايتها، فآلت إلى انتصار شريعة العبيد، فأوروبا الآن غارقة في انحطاط عميق، يقضي على ما تبقى في عروقها من حياة، حتى ليخشى أن يتقهقر النوع الإنساني إلى الوراء، فلا يورث بعد اليوم إلا صورا من الخزي والعار
هذه هي شريعة العبيد التي تسيطر على العالم تحت اسم (ديانة الألم الإنساني)، فلنفصل الآن هذه الديانة وما تنطوي عليه

إن تحليلنا لعاطفة الشفقة التي يتبجح بها اليوم معلمو الجيل الحاضر يثبت لنا أن هذه العاطفة ليست من العدل والجمال على المثال الذي يرون. إن عاطفة الشفقة - في الحقيقة - يتولد منها سرور أناني. إذ نحن نصنع مع الآخرين الخير كما نصنع الشر. غايتنا من ذلك أن نظهر شعورنا بقوتنا، ونخضعهم لسلطتنا. أما الرجل القوي الشريف فهو يفتش عن كفء له ليبادله النضال ويحني هامته بازاء قوته، وتراه يحتقر الفريسة الذليلة السهل انقيادها، وتراه ينحرف عن الخصوم الذين لا يجد فيهم أكفاء وأمثاله. أما الضعيف فهو يميل إلى الظفر السهل، والفريسة الخانعة، وهل كان ضعيف أو شقي يوما مهيبا؟ وإن

الإنسان بطبيعته وإرادته يجنح إلى إحسان لا إلى شقاء

إن الشفقة هي فضيلة الأنفس المتوسطة، تتدرب عليها دون وازع ولا مانع، حتى إذا نزلت هذه الشفقة ساحة النبيل أصبحت علامة الانحطاط، وذهاب الكرامة، وخساسة الأصل. إن النبيل يكتم آلامه وهمومه ولا يبوح بها. يصرف عن نفسه الإرادة الحسنة كما يصرف الإرادة السيئة، والإنسان المتألم القبيح قد يكون على حق في كرهه للشهود الذين يبوحون بسر فاقته وقبحه وتعاسته. هؤلاء الشهود الذين لا يستحون من أن ينظروا إلى ما كان ينبغي له أن يظل خفيا عن العيون، فيحملون هذا الشقي منه شفقة ما طلبها وما تمناها

إن الشفقة ليست بعاطفة مفيدة فحسب، بل هي عاطفة منحطة أيضا. لنتصور أن ديانة الألم قد انتشرت بين الناس فما هي النتيجة؟ إن كمية الألم تزيد بدل من أن تنقص، ويصبح الإنسان مجبرا على حمل آلامه الخاصة وجزء من آلام الغير، حملا على حمل، وبهذا تضعف الشفقة من حيوية الحياة، وتجعل من الألم داء ساريا. ناهيك بأن ديانة الشفقة تضاد المذهب الطبيعي السائد حكمه في الأحياء، وهو بقاء الإصلاح والأنسب الذي يقضي بفناء الكائنات التي لا يصلح تركيبها للحياة، وقد أتاها حظ بخروجها ظافرة من معركة الحياة، وكل ديانة ترمي إلى الشفقة هي ديانة تعمل على وقاية العناصر المنحطة، وعملها هذا هو ما يسوق إليها الفوز في كل جيل، لأن الضعفاء والمرضى هم في الحقيقة الفريق الغالب، بينا أن الإنسان الخالص الصافي من كل شائبة هو نادرة من نوادر الوجود؛ وقد ثبت في كل الأنواع الحية العالية أن الأغلبية فيها هي كائنات منحطة التركيب، سيئة الخلق، مستسلمة للألم، والإنسان لا استثناء له من هذا الحكم. والإنسان - بالنظر إلى الحيوانات - هو سلالة عالية راقية، قابلة للتطور، وهو لما يبلغ آخر مرحلة من مراحل التطور في الكمال، وهو لما يزل عرضة للحوادث التي تؤثر فيه وتبدل منه. كما أن معدل الانحطاط في النوع الإنساني هو أبرز وأكثر منه في سائر الأنواع. وديانة الشفقة تغدو عاملا كبيرا في الإبقاء على فريق كبير من الأحياء لا فائدة منه، لأن انتخاب النوع لا يرى غاية له إلا الفناء. هي تحفظ مظاهر الفاقة والبؤس. فتجعل الوجود أكثر قبحا، والحياة أكثر ميلا إلى العدم.

إن هذه الديانة هي جزء من العدمية. إنها مهددة للوجود وللنماذج العليا من إنسان الوجود. فان مرأى البؤس والألم والانحطاط والقبح يدعوا الرائي إلى رجاء العدم، إما بعامل اليأس من هذا المرأى أو بعامل الشفقة، حتى ليغدو مذهب الشفقة مرضا شديدا يقضي على طبيعة كريمة، ويقتل منها قوة نضالها ودفاعها، هذا المرض الدائب على تذليل الذرية الأوربية، وتقييد اصطفاء الأنواع السامية، والحيلولة بين الإنسان والسوبرمان

(يتبع)

خليل هنداوي

القصص

صور من هوميروس

حروب طروادة - 8

من السماء

للأستاذ دريني خشبة

قضى بروتسيلوس نحبه، وعادت روحه الكريمة إلى هيدز مصطحبة روح زوجته البارة، وغرست عرائس الفنون فسائل الدردار فوق قبر الراحلين فنمت وترعرعت، ونعم بفيئها الوارف ماء الهلسبنت ورتعت في ظلها أترابه. . .

ولكن. . .!
لقد كانت روح بروتسيلوس الجذوة التي أججت نيران الحرب فجعلتها ضراما!! فانه ما كاد يرمى بالسهام فيصمى، فيسيل دمه أنهارا، حتى تدفقت جيوش الهيلانيين على الشاطئ الأسيوي، غير مبالين بالموت الأحمر الذي كانت تمطرهم به سهام الطرواديين، والمنية السوداء التي كانت تقطر من سيوفهم، فتحصد صفوف الغازين حصدا. لا. لم يبال الهيلانيون بهذا الهول الأكبر، بل انقضوا على الشاطئ شكاكا في سلاحهم، مقنعين في دروعهم، مرهفين سيوفهم، تفيض عليهم عدة الحرب كأنهم جنة ترقص في زوبعة، أو ظلال من الذعر تجول في معمعة
وتبعهم قادتهم العظماء فانطلقوا يبوئونهم مواقف للقتال، ويلقون عليهم من كلمات الحماسة وخطب الاستبسال، ما أضرموا به جوانحهم شوقا إلى خوض الكريهة، وحنينا إلى اقتحام الوغى، وصبوة إلى تقبيل الرقاق البيض
ودقت الطبول فكانت إيذانا بهجوم الهيلانيين
فانظر الآن إلى البحر يلتطم بالبحر، والموج يساور الموج، والموت يصاول الموت، والحياة الحلوة تأخذ بتلابيب الحياة الحلوة، وصيحات الهيلانيين تردها صيحات الطرواديين؛ وليل الآخرة يغطش نهار الدنيا، وظلام القبور يكشر لهذه الدور، والفزع يمشي في صفوف هؤلاء وهؤلاء، واليتم يجرح هذا الكبد، ويقرح ذلك القلب، والحزن يفيض على هذا السهل، ويجوب ذاك الوادي، ويرف على قلل تلك الجبال، وأنين الجرحى يطن في فضاء الساحة الحمراء، فيملأ الآذان بالهلع، والنفوس بالجزع، والدماء تتفجر هنا، وتتحدر هناك، والرؤوس منتثرة فوق الأديم المضرج، زائغة أبصارها، مفغورة أفواهها، معفرة بالتراب أنوفها التي عزت على العالمين. . .
ثم انظر إلى أخيل يرعد بين الصفوف ويقصف، ومن ورائه الميرميدون يوزعون المنايا ويهدهدون الحتوف ويقربون الآجال!
وأوليسيز المغوار وتلك العجاجة المنعقدة فوق رأسه من خبار الحرب، وهذه الصعدة السمراء بيمينه تنفث الموت في صدور الأعداء!
وأجاكس وجنوده! الكرار الفرار، المذاويد الأحرار!
وبنليوس! قائد العسكر البووطية، القروم البواسل، والليوث الكواسر!
وديوميد! نبعة أرومته، وسيد عشيرته، ووجه قومه، وفارس كتيبته!
وأجابينور! فتى أركاديا، وملاك أمرها، وشمس ضحاها!
وميجيز! النجد الباسل، والبطل الحلاحل!
وإيدومينيز! ملك كريد وقائد جنودها؛ أباة الذل، وكماة الوغى، ومرادي الحروب!
وتليبوليموس بن هرقل بطل المجازفات، المقدم أخو الغمرات! ثم انظر إلى الصيد الصناديد من أبناء طروادة، وجيرانهم الكماة الأباة الحماة!
هاك هكتور العظيم بن بريام الملك، عضد طروادة وسندها وليث عرينها؛ الثبت الصابر المصابر؛ رابط الجأش شديد البطش؛ قوي الشكيمة الفارس المقدام!
هاك هكتور الأسد، يرغى في أسود الشرى ويزبد، ويوقل في بطاح طروادة وينجد!
وهاك إينياس الهائل، يقود (الدردان) الأبطال إلى كرائم الفعال في ساحة القتال!
وهاك بنداروس! تلميذ أبوللو وربيبه، يقود فرسانه الفحول ورجاله البهاليل!
وهاهما ولدا ميروبس الكبير ملك أبيسوس، يصولان في الحومة ويجولان!
وهاك آسيوس بن ملك أبيدوس، يتقدم رعيل فرسانه، ويداعب أعداءه بمرانه!
وهاهم أشبال تراقية، يقودهم يوفيموس المقدام، ويقتحم بهم أيما اقتحام!
وهاهم نسور أميدون البواشق؛ أقبلوا من هناك. . . من جنات سيحون وجيحون ليخوضوا
الجحيم، في ذلك اليوم العظيم، وليذودوا عن طروادة، حليفتهم؛ ويدفعوا. . .!
وهاهم أمراء ميديا، أقبلوا في عدة وعديد، وكل جبار مريد!
أنظر إذن إلى الجيشين في مد وجزر، تبسم لأحدهما الآمال، وتعبس للآخر المنايا؛ تدور الدائرة، فيفلذ المنهزم، ويتأخر المتقدم، وهكذا دواليك
وتغيب الشمس وتشرق. . . . .
ويبزغ القمر. . . ويغرب
وتكر الأيام، وتمر السنون!

وكلما لاحت للطرواديين غفلة من أعدائهم خرجوا إليهم وهم ألوف فنالوا منهم، حتى إذا كروا عليهم عادوا إلى معاقلهم فلاذوا بحصونها، واعتصموا بأبراجها، وتلبثوا هناك حتى تتاح لهم فرصة أخرى
!!أعوام تسعة
مليئة بالتعب، مشحونة بالنصب، مفعمة بالخطوب والأهوال
وكان الهيلانيون يرسلون البعوث والسرايا، فتجوب الريف، وتؤب بالغنائم والفيء، والأسلاب والسبي، فيقتسمها القادة، ويفيضون منها على الجند
وهاجموا مرة إحدى القرى، فكان من جملة السبي فتاتان ذواتا رقة وفتون. أما أحدهما فكانت من نصيب أجاممنون، واسمها خريسيز، وهي ابنة كاهن القرية الورع، حبيب أبوللو وخليله وصفيه، القديس خريسز. وكانت فتاة لعوب حلوة الدل رشيقة الروح، وكان أبوها يحبها حبا جما لا تعدل بعضه كل مباهج الحياة!!
أما الأخرى فقد خلصت لأخيل وأخلصت له الود، وصافاها هو المحبة، فكان أحدهما للآخر في هذه المحنة القاسية الصدر الحنون، والقلب النجي، والملاذ الأمين. اسمها بريسيز، وأبوها شريف من أشراف هذه الناحية التي نكبت بتلك الحرب الضروس، فصليت لظاها، وطحنتها رحاها
وعلم كاهن القرية بما كان من أمر ابنته، فازدحمت على قلبه هموم الحياة، وأحس في أعماقه بثقل البلية، وشعر كأنه جرد من كل شيء حتى من نفسه
وبدا له أن يذهب إلى قائد الجند الهيلاني فيفتدي خريسيز، ولو نزل لأجاممنون عن كل ما
يملك. وحذره صحبه من المخاطرة بنفسه في هذا الطريق الشائك، ولكنه لم يعرهم التفاتة واحدة، بل دهن نفسه بالطيب الكهنوتي المقدس، ولبس مسوحه، وعقد زناره، وتناول مسبحة أبوللو العظيم، ثم توكأ على عصاه العتيدة، وذهب يتهالك على نفسه، ويتعثر في خطاه، حتى كان تلقاء المعسكر الضخم
وسأل عن خيمة القائد العام، فقيل له إنها هي الفسطاط الأكبر الذي تبدو قبته هناك. . . . هناك عند شاطئ الهلسبنت، بين الجيش وبين الأسطول
وانطلق الكاهن الجليل والدمع ينحدر من قلبه قطرات من الدم. . . عن طريق عينيه، فيعلق بلحيته البيضاء، فيصبغها بأرجوانه، كأنه آية السماء الباكية، نذيرا لهذه القلوب القاسية، والغزاة الأقوياء!!
وبلغ الفسطاط بعد لأي. . .
واستأذن على القائد العام فلم يؤذن له. . . . فاستأذن ثانية فهدد بالضرب وبالعقوبة!. . . ولكنه أب مفئود، وحزين منكود، فتنظر قليلا واستأذن في أدب ولين واستكانة، فأذن له. . . .
ووقف أمام القائد الأكبر واهي الجسم موهن القلب، محزونا متصدعا، وحاول الكلام فكانت العبرات تخنقه، والأسى يعقد لسانه، والنار المندلعة في رأسه تنسيه كل شيء وثار به أجاممنون!
لأنه على ما يبدو فوت عليه لذة طارئة، وسكرة مواتية، بمجيئه في تلك اللحظة الهانئة القريرة، وإلحافه الشديد بضرورة لقاء القائد. . . .
واحتشد القادة ورؤساء الجند حول فسطاط القائد، وسمعوا إلى الكاهن الكبير يقول: (مولاي!
سعيت إليك عائذا بكن داعيا أبوللو العظيم لك، أن يفيء عليكم من النصر والفتح المبين، وأن يهبكم من الرعاية والمنن ما تشتهي أنسكم، وتقر به أعينكم، وما تترفعون به عن ظلم الضعفاء، والجور على الملهوفين. فقد يغني القليل الذي ترضى عنه الإلهة، عن الكثير الذي يثير سخطها، ويستنزل غضبها. .
ابنتي يا مولاي!
خريسيز العزيزة! ردها علي يبارك لك أبوللو، وينر لك سبيلك، ببركة دعوات قديسه الحزين الواقف أمامك، المبتهل إليك، المستعد لأن يفتديها بكل ما يملك، وبكل ما يقدر عليه مما يرضي الملك!)
لكن الملك أشاح بوجهه، وكبر عليه أن يجرؤ هذا الكاهن على التفوه بهذه الطلبة العزيزة أمامه! خريسيز! أينزل أجاممنون عن خريسيز وقد احتلت من قلبه مكانة

زوجه كليتمنسترا؟ واستحوذت على لبه حتى نسي الحرب، وعزف عن الطعن والضرب، واستقر معها في فسطاطه آخذين في لهو وحب، وغناء وشرب!!
أينزل أجاممنون عن خريسيز الجميلة الفاتنة، ولو استحالت عينا الكاهن بئرين تنزفان الدمع، وتفيضان بالدم؟
كلا! لن ينزل أجاممنون عن خريسيز!
إصغ يا رجل! ليس بي أن تكون قديس أبوللو، وحامل صولجانه، وحامي مسبحته، وعاقد زناره!)
ستعود خريسيز معي. . . إلى آرجوس. . . وسيذوي جمالها هناك، وتذبل محاسنها بين ذراعي، وسأكل إليها منزلي تخدم فيه، وتصير أم بنين، وسيكون بها قصري جنة خلد ونعيما لا يفنى. . . اذهب، فاسفح دموعك في صومعة أبوللو، وصعد زفراتك في هيكله، وبين يدي صنمه. . . اذهب، وانج بنفسك من عذاب أليم. . .
خريسيز تعود معك!؟
(. . .إنك تثير النقمة في نفسي، فانج بنفسك. . . انج
وتصدع صدر الرجل، وكاد قلبه يقف، فتقف أنفاسه!!
وانثنى والدنيا المظلمة تحجب ناظريه، وكلمات القائد الظالم تردد في مسمعيه، فما كاد يبلغ قريته حتى خلا إلى أبوللو، وجلس يبكي ويصلي!!
(أبوللو!!
يا إلهي!! أسمعت؟ لقد استهزأ بك أجاممنون، وفجعني في بنتي، وفلذة كبدي، وقطعة قلبي، وحياة روحي!!
أبوللو!!
هل سمعت يا رب النور!؟ أرأيت إلى ذلك العاتي المتجبر كيف ثار بقديسك الضعيف المسن الذي أحنت ظهره السنون في عبادتك، والصلاة لك، والتسبيح من أجلك، والهتاف باسمك.!؟
ألا فلتنتقم لعبدك يا أبوللو العظيم، وليحل على الطغاة غضبك، ولتسحتهم بعذاب واصب، ليس له من قدرتك من دافع. . .
أبوللو. . .!
(. . .!!استجب يا رب الهيكل الخالد، وحامي المعبد الأمين
وسقط الكاهن أمام المذبح ينتحب، والشموع الموقدة تذري دموعها معه!
فثار في عليائه أبوللو. . .!
انتفض الإله العظيم انتفاضة رجف من هولها الأولمب، ورف في السماء كأنه سحابة مظلمة في ليل بهيم؛ وفوق كاهله الكبير قوسه الفضي المرنان، وعلى ظهره كنانته الواسعة الشاسعة، يسمع لسهامها صليل أي صليل. . . وأشرف من سمائه المضطربة على سفائن الأسطول المطمئن، وما هو إلا أن تميزها حتى عبس وبسر، ووتر قوسه فانهمرت منها سهام كالمطر، صبها على السفن حاملات الخيل والبغال أولا، ثم لوى فأصلى سفائن الجنود وابلا منها بعد ذلك. . . فلا تسمع إلا أنينا وبكاء، ولا ترى إلا صرعى يضجون ويعولون، ولا تحس إلا زفير جهنم وشهيقها يأخذ القوم من هنا وهنا فيقعون إلى أذقانهم سجدا وبكيا. . .
أمطر يا طعون. . .
ولا حنانيك يا أبوللو. . .
واستمر هذا البلاء تسعة أيام طوال كأنها دهر بأكمله. . .
وفي اليوم العاشر أوحى إلى أخيل أن يدعوا مجلس الجيش ليرى رأيه في هذه النكبة التي دهتهم بها ميازيب السماء. فلما التأم شمل القادة، اجتمع الرأي على أن يذهب كالخاس فيستوحي أربابه لتكشف هذه الغمة، أو ليرى بماذا ترضى من التضحيات والقرابين!
وعاد كالخاس، كعادته كلما حمل أخبار الشؤم من لدن أربابه كاسف الوجه، كالح الجبين، يحبس في صدره شجون الأرض، وهموم السماء!!
(خريسيز يا سادة!)
خريسيز تعود إلى أبيها القديس، وإلا فتلك مقابركم جميعا فوق هذا الشاطئ المظلم، المضرج بدمائكم، ودماء أعدائكم. . .!)

هكذا تتفق كلمة الإلهة من أجل أبوللو. . . فويل لنا جميعا إن لم نهدئ ثورة صاحب) القوس، ورب النور، وسيد الشمس.!)
(. . .اسجدوا لأبوللو، واخشعوا)
ونهض القوم من صلاتهم مشدوهين لا يحيرون، ينظر بعضهم إلى بعض، ولا تنفرج شفة بكلمة، ولا يتحرك لسان بقول!
ولكن أخيل شعر في صميمه أن القدر يسخره هذه المرة أيضا لتفريج الأزمة، وكشف البلاء، فنهض غير هباب، وأرسل قوله الحق في غير وجل، وصرح بضرورة إرسال خريسيز إلى والدها القديس معززة مكرمة، ثم تقديم القرابين من لحم العجول وشحم الأوعال إلى معبد أبوللو، وإطعام الحاضر من شوائها والباد
وزلزلت الأرض زلزالها، وهوت السماء فوق رأس أجاممنون!
ونشبت ملحمة هائلة بينه وبين أخيل، أوشك البطل أن يغمد سيفه من جرائها في صدر القائد العام، الذي طلب بكل صفاقة أن ينزل له أخيل عن غادته بريسيز: (إذا كان لابد من نزولي عن خريسيز ليسلم الجند من هذا الوباء!! وليسكن غضب أبوللو، وترضى السماء!)
وتأججت نيران العداوة بينهما، ذاك يحرص على فتاته الهيفاء وذاك يحض على إنقاذ الجنود بتضحية الذات وإنكارها في سبيل ما هو أسمى وأرفع، ولكن أجاممنون عمى عن هذا المثل العالي، فتشبث وأصر إلا ما نزل له أخيل عن بريسيز، لينزل هو عن خريسيز!!
وهنا تتنزل الإلهة لتحكم بين الخصمين!
تبدو مينرفا، ربة الحكمة والموعظة الحسنة، رسولا من لدن حيرا، سيدة ربات الأولمب، للبطل أخيل، بحيث لا يراها غيره، فتعظه أن يضحي بفتاته، ما دام هذا الفظ يتأبى إلا أن يكون ذلك. . .
ويصدع أخيل بأمر السماء. . .
ويذهب أوليسيز بابنة القديس إلى أبيها حيث يلقاه في معبده يبكي. . . ويصلي! فيبشره بها، ويسأله الصفح والمغفرة فيهش الكاهن ويبش، وتنهمر من عينيه دموع الفرح
وتقدم القرابين باسم الجيش الهيلاني إلى معبد أبوللو
فينكشف البلاء. . . . . وترضى السماء. . . ويدفن الهيلانيون موتاهم!
أما أخيل. . .
فينقطع عن المعركة، وينعزل في معسكره، لا يشترك في الحرب، ولا يشترك فيها جنوده الميرميدون!
وتحس أمه بما يلم به من الحزن، فتزوره، وتعده خيرا على يد الإله الأكبر، زيوس، سيد أرباب الأولمب!
(لها بقية)
دريني خشبة
من الأدب الأمريكي:
قيصر
للقصصي الأمريكي بول بورك
تألق نجم مؤلف هذه القصة في العام المنصرم إذ تفوق بقصته (أخلاق) على جميع القصصيين الأمريكيين وأحرز من أجلها (جائزة أمريكا الأدبية لعام 1934)
بدأت المسألة بمعطف مطر. . .
وإذ خرج (قيصر سمث) في مساء يوم من أيام السبت المعهودة من جمعية رماية القرص التي يترأسها وسار على قدميه برغم المطر المدرار شاقا طريقه إلى منزله، رأى في تسياره الآنسة (شيلا) منزوية في مدخل لأحد المنازل غير حاملة مظلة ولا متدثرة بمعطف، وكانت تعمل جهدها للمحافظة على ثوبها الجديد من الماء الذي يتدفق منحدرا من سطح المنزل. . .
وإلى اليوم لم يدرك قيصر، وهو الرجل الخجول، كيف تسنى له أن يبدأ بحديث مع سيدة غريبة عنه، ولكن لعل فوزه في رماية القرص عصر ذلك اليوم أحيا فيه النشوة. والخلاصة أنه خلع معطفه وقدمه إلى تلك الآنسة، وارتبك في القول

ودهشت الآنسة من قوله (أنت هنا عرضة للتبلل بالماء. . . ارتدى هذا المعطف) -
ونظرت إليه في عجب وقالت:
ولحظ قيصر أن لها عيونا ناعسة (ولكن كيف لي أن أقبل منك ذلك؟. . . وأنت؟) -
ساحرة، ولم يكن تبينها من قبل وقال لها:
(لم يبق لي أن أسير طويلا، فنهاية سيري عند منعطف الشارع) -
وكان ذلك منه اختلاقا، وترددت الآنسة بادئ ذي بدء، وكان من الواضح أن حرصها على ثوبها الجديد جعلها تتقبل في النهاية تلك التضحية. وأجابت
حقا إن ذلك لعطف منك عظيم. لقد انهالت الأمطار فجأة ويلوح لي أنها لن تحتبس) -
(قريبا. إنني مدينة لك بالشكر
فأجابها قيصر وفي نبرات صوته شجاعة الكرام
(إنه أمر لا يستحق أن ينوه به) -
وكان قد اعتزم المسير، فسألته الآنسة:
(ولكن إلى أي مكان أرده؟) -
فقال: (اسمي قيصر سمث)
وسرعان ما حدقت فيه الآنسة وقالت:
(ما أروعه اسما! قيصر؟) -
وأجاب في تواضع القنوع: (أي، ولماذا؟)
ثم فاه بكلام كبير المغزى إذ قال:
(لا تكلفي نفسك مشقة إرجاع المعطف) -
ثم سكت برهة وقال:
(سأحضر بنفسي لآخذه) -
فترددت الآنسة لحظة ثم قالت:
(حسنا. إني أدعى شيلا هيرست وأسكن في شارع مونرو رقم 114) -
وأسرع في ارتشاف ابتسامتها العذبة واستمر يتابعها بنظراته حتى أدركه جارف من الماء انساق إليه من حافة قبعته، فذكره بأن الوقت قد حان ليرجع إلى المنزل
وفي المساء التالي ذهب ليسترجع معطفه؛ فتعرف إلى المستر هيرست وزوجته، وقد استبقياه لتناول الشاي. وفي خلال ذلك تعرف إلى (المستر راند) الذي كانت له حظوة عند كل فرد من عائلة هيرست. وتراءى لقيصر أن تلك الحظوة وذلك العطف فيهما الكثير من المبالغة التي لا مبرر لها. وكان للمستر راند سيارة اتفق المجتمعون على أن يستقلوها إلى الشاطئ. وهنالك لم يجد قيصر من يتحدث إليه غير المستر هيرست، إذ أن راند كان يسير في صحبة (شيلا) على بضع خطوات خلفهما. ثم دعوا قيصر إلى العشاء في ذلك اليوم، وفي خلاله اختصته شيلا بابتسامة عذبة
وانتهى الأمر بقيصر إلى هذا الحد. ومنذ ذلك اليوم وهو يحمل وجها عبوسا، وما ذلك إلا لتأكده من أن مشاعره تحمل الحب لشيلا، ولكن أي أمل له - وهو الموظف البسيط ذو الأجر الضئيل - في آنسة يبتغيها لنفسه رجل مثل (راند) الثري. وبالمال الوفير تستهوى كل آنسة؛ ثم ماذا يقدمه لها عوضا عن المال؟ أيقدم اسمه العظيم الذي لم يحسن حتى اليوم
صيانته؟ أم يقدم لقبه كرئيس لجمعية رماية القرص؟ لا شك أن هذا وذاك لا يغري، وليس ثمة من فائدة ترتجى أما لو كنت رئيسا أو وكيلا لرئيس أو على الأقل سكرتيرا لإحدى المؤسسات الكبرى، وكان لدى ما فيه الكفاية من المال لما توانيت عن نقش اسمي ووظيفتي على قبعتي، ولأمكنني إذن أن أفصح عما يخالج نفسي، ولعرفت كيف أرفع من شأن اسمي.
ولكن أي حال عليها أنا الآن؟ قيصر!! لاشك أنه هزؤ وسخرية. وما دمت موظفا بسيطا في (محل دولتل وشركائه) فلست قيصرا بل مجرد (أنت يا سمث) أو (أي. أنت الذي هنالك) ذلك إذا ما أريد مني شيء
وانطوى على أفكاره، ثم تذكر موعده فسار إلى منزل شيلا، ولاحت له من بعد سيارة (راند) مستقرة أمام المنزل. والأولى أن نتغاضى عما تمتم به ساعة أن رآها
وسألها (راند) أثناء تناول الطعام:
إذن فستحضرين يوم السبت إلى ملعب كرة القدم، حيث تشاهدينني في الحفلة التي -

(تقام ضد فرقة الأبطال الأقدمين
وأجابت شيلا: (نعم)
ونظرت إلى قيصر وقالت:
- (ولعلك تحضر أنت أيضا!)
وهز هذا رأسه وقال:
- (إنني آسف، إذ أني سأشترك في اللعب)
وسأله (راند): (أي شيء، كرة القدم؟) ثم نظر إلى قيصر متعجبا من ضآلة جسمه وحقارة مظهره الذي لا ينم عن بطولة
واحمر وجه قيصر خجلا وقال:
- (كلا، بل رماية القرص)
فقال (راند) هازئا:
- (أي، إنكم ترمون بذلك الطبق الصغير هنا وهنالك، أليس كذلك؟ لقد فعلت هذا يوم أن كنت صبيا. أما الآن فأني أجدها لعبة مملة)
وأجاب قيصر لفوره:
- (وكذا شأني وكرة القدم. لقد كنت أبحث دائما عن لعبة تتجلى فيها المهارة. ولا شك أن قرصا يرمي ليصيب هدفا أدعى للمهارة والدقة من كرة تدفع بالأرجل لتتقدم في السير)
وتدخلت شيلا في ذلك الحديث الذي أخذ يشتد وقالت:
- (ألم نذكر شيئا عن النزهة بالسيارة؟)
وتحمس (راند) وقال:
- (بلى، دعينا نذهب إلى الشاطئ)
والتفتت شيلا لقيصر وقالت له:
- (وستكون بالطبع معنا)
وما أن وصلوا إلى الشاطئ حتى نزل ثلاثتهم من السيارة، وأخذوا يتريضون في طريق البحر، وقد خلا من الناس أو كاد، ولم يبقى إلا بضعة أفراد متفرقين يستمتعون بالاستحمام في البحر
وأرادت شيلا أن تطرق حديثا لا يجر إلى المشادة، فسألت:
- (هل يمكنك السباحة؟)
ولم يعرف كلاهما لمن وجه السؤال، إلا إن قيصر بادر بالإجابة فقال:
- (قليلا، إذ لم أتدرب عليها التدريب الكافي)
ثم قال (راند):
- (وكذلك حالي، إن لعب كرة القدم يستولي على كل وقتي، ولهذا كانت معرفتي بالسباحة ليست عظيمة للغاية)
وسألته شيلا ثانية:
- (وماذا أنت فاعل إذا رأيت رجلا يغرق؟ وليكن على سبيل المثال ذلك الرجل)
وأشارت بإصبعها إلى رجل يسبح على بعد غير كبير من الشاطئ
وأجاب (راند) في لهجة الواثق من نفسه:
- (بالطبع أقذف نفسي في الماء وأعود به إلى الشاطئ)
ونظرت شيلا إلى قيصر وقالت:
- (وهذا ما أنت فاعله أيضا، أليس كذلك؟)
وتردد قيصر في الجواب ورنا ببصره إلى ما وراءه فوجد قائمة في مدخل البحر معلقا بها (حزام النجاة) مشدودا بحبل إلى القائمة. فقال:
- (كلا، إنني لا أقذف بنفسي في اليم إذ أني لا أجيد السباحة، ولا يمكنني أن أسدي للغريق نفعا)
وصاح راند بصاحبه: (أي جبان!) ضمنها شيء من السخرية
وحدقت شيلا في قيصر الذي يحمل اسما كثير الوعود والآمال. وسألته مرة أخرى:
- (إذن تتركه يغرق؟)
فأجاب قيصر: (كلا)
وقبل أن يتم حديثه أخذ السابح - وقد كان على وشك النسيان منهم - في أن يثير

المسألة بنفسه. وكانت مفاجأة عجلى ساعة أن رفع السابح ذراعيه في الهواء وصرخ مستغيثا.
فنزع راند معطفه. ثم تردد وقال في نفسه: هل من الأنصاف أن أضحي بحياتي؟ ولاشك أنه رأى في هذه اللحظة الماء في تلك البقعة أعمق منه في المحيط، ثم هو أصقع من ثلج القطب.
وحثته شيلا، وقد بدأ القلق ينتابها:
- (أسرع إنه يشرف على الغرق)
وصاح الرجل من الماء في صوت يكاد يختنق:
- النجدة، النجدة!!
وصاحت شيلا مرة أخرى:
- (أسرع، أسرع وإلا ذهبت أنا بنفسي إليه)
وقال قيصر بينما كان منافسه يتباطأ بشكل مزر ليخلع حذاءه:
- (قفي مكانك!)
ثم انتزع (حزام النجاة) واتخذ موقفا كالذي اعتاد أن يقفه في عصر كل يوم سبت لرماية القرص. ثم رمى رميته فتطاير الحزام مع الهواء ورسم في الفضاء قوسا عاليا، ثم انبطح دفعة على الماء. وقد كاد يسقط على رأس المشرف على الغرق وقال قيصر وقد تملكته السكينة والثقة بالنفس:
- (. .مصيب!. . . يقدر بنقطتين)
وكانت شيلا ترقب رميته وتتابعها بنظرات وجلة. فلما أن اقتيد الرجل الذي نجا وجيء به إلى الشاطئ وأفرغ زفيره وتأوهاته، سأل عمن رمى إليه بحزام النجاة، فأشارت شيلا إلى قيصر وقد تملكها الفخار
وحدق الرجل الذي نجا من الغرق في قيصر وقال له:
- (ظننت حقا أن حياتي قد انقضت، إذ أصبت بتصلب في الشرايين فجأة. . . لقد كانت رمية متقنة)
وأفصحت شيلا عن قيصر بقولها:
إنه رئيس جمعية رماية القرص
وقال الرجل وقد أدرك سر الأمر:
- (آه، لهذا كانت تلك الرماية محكمة. والآن اسمح لي أن أقول لك إنك أستاذ ماهر. ولو أنك لم تكن هنا لكنت الآن في ناحية ما من قاع البحر. . . إنني أود من صميم فؤادي أن أقدم لك خدمة بأي حال، فعرفني ماذا تريد)
وما فرغ من كلامه حتى أخذ ينظر إلى قيصر من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، ثم سأله:
- أين تعمل؟
فأجاب قيصر:
- (في محل دولتل وشركائه)
- (واسمك؟)
- (قيصر سمث)
وقال الآخر بصوت خافت:
- (واسمي بلوارك) وأعقبه قيصر متسائلا (إن قيصر اسم بديع)
ثم أفصح وقال:
- (من مصنع ينيفرسال للسيارات؟) فقد كان اسم بلوارك معروفا للجميع، حتى لصبية الشارع
فقال هذا: - (نعم، وإن لم تعلق أهمية خاصة على وظيفتك الحالية فإني أتقبلك في محل عملي بكل ارتياح إنني دائما في حاجة إلى شاب له قدرة على العمل في الوقت المناسب والرجل العملي يجد عندي الطريق مفتوحا أمامه.)
وأبرقت عينا قيصر وتمتم:
- (إذا فلا أقل من سكرتير!)
واتجه ببصره نحو شيلا التي كانت تحدق فيه طوال هذه المدة والإعجاب به قد تملكها

واندفع قيصر قائلا وكأنه قد استقر على أمر
ليس من طبعي أن أستخلص الحوادث فأستثمرها لنفسي، ولكن إن كنت حقا في) -
حاجة إلي فأني أبحث عن وظيفة تمكنني من الزواج.(
ثم أخذ يد شيلا في يده، فما تراجعت ولا وهنت، وكان ذلك أمام سمع (راند) وبصره
الذي تبلبل وانطفأ منذ اللحظة الأولى لتلك الواقعة
وهكذا جاوز قيصر كل تقدير
نقلها عن الإنجليزية
ا. ا. ي
البريد الأدبي
نظرية النشوء بعد مائة عام
احتفلت جمعية علماء الزولوجيا (علم الحيوان) في لندن أخيرا بالذكرى المئوية لرحلة العلامة تشارلس داروين إلى أمريكا الجنوبية وجزائر المحيط الهادي؛ وقد أصبح اسم داروين في عصرنا علما على نظرية النشوء والتطور التي تذهب إلى تسلسل الإنسان من سلالة أحط من الحيوان، وأضحت النظريات الداروينية في ذلك علما راسخا، وكانت رحلة داروين الشهيرة التي كانت أساس مباحثه في (أصول الأنواع) في سنة 1831؛ وكان داروين يومئذ في الثانية والعشرين، وقد أتم دراسته الجامعية وملكه حب المباحث النباتية والحيوانية، فانتخب باحثا طبيعيا مع جماعة من العلماء جهزتها جامعة كمبردج، واستقلت السفينة الشهيرة المسماة (بيجل) إلى أمريكا الجنوبية، ولبثت السفينة بيجل تطوف أرجاء المياه الأمريكية، ومياه المحيط الهادي حتى بلغت أقصى جزائرها المسماة (جلاباجوس)، وقطعت في هذه المرحلة نحو خمسة أعوام، ولم تعد إلى إنكلترا إلا في سنة 1836، وفي أثناء هذا الطواف كان داروين يجمع المعلومات والملاحظات الدقيقة عما يراه من الحيوان والنبات. وإليك ما يقوله لنا عن هذه المباحث في مقدمته لكتابه الشهير في (أصول الأنواع):
لما ركبت السفينة بيجل كباحث طبيعي، لفتت نظري بعض الحقائق الخاصة بتوزيع) المخلوقات التي تسكن أمريكا الجنوبية بالعلائق الجيولوجية بين سكان هذه القارة في عصرنا وبينهم في الماضي. وقد لاح لي أن هذه الحقائق قد تلقي بعض الضياء على (أصول الأنواع) أو مسالة المسائل كما سماها فيلسوف من أعظم فلاسفتنا؛ ولما عدت إلى الوطن سنة 1837، فكرت أنه قد يمكن استخراج شيء في هذا الموضوع بجمع هذه الحقائق وتأملها، وبعد دراسة خمسة أعوام، سمحت لنفسي أن أتناول الموضوع وأن أكتب عنه بعض مذكرات، ثم استخرجت النتائج التي لاحت لي وجاهتها، وما زلت من وقتها إلى يومنا أتابع مباحثي في الموضوع(
وقد ضمن داروين مباحثه الأولى كتابا سماه (رحلة السفينة بيجل) وفي سنة 1859 أخرج كتابه الشهير الذي يعتبر فاتحة عصر في المباحث الطبيعية، وهو كتاب (أصول الأنواع) فأثار ظهوره أعظم اهتمام في الأوساط العلمية، وما زال داروين يشتغل بنظرياته ومباحثه في هذا الميدان لا يتحول عنها قط حتى أخرج في سنة 1871 كتابه عن (سلالة الإنسان)؛ يتناول أصل الإنسان ونشأته وتسلسله، ومن ذلك الحين اشتهر مذهب النشوء والتسلسل، وأثارت نظريات داروين في طبقات الكافة سخطا واشمئزازا لأنها لم تفهم على حقيقتها، بل فهمت على أنها تذهب إلى تسلسل الإنسان من القرد. ولداروين مباحث وكتب أخرى في هذا الباب يضيق عن ذكرها المقام
قاموس الأكاديمية الفرنسية
من المعروف أن الأكاديمية الفرنسية قد أنشئت في الأصل منذ ثلثمائة عام لتعنى (بتوسيع اللغة الفرنسية وتجميلها) حسبما ورد في قانونها التأسيسي. ومع أن الأكاديمية قد استحالت بمضي الزمن إلى هيئة أدبية كبرى تقود الآداب الفرنسية وتجمع صفوة زعمائها، فأنها لبثت مع ذلك تحرص على أداء المهمة الأصلية التي خلقت من أجلها، وهي تنقية اللغة وتحسينها وصقلها. وجهود الأكاديمية في هذا السبيل تبدو في القاموس الجامع الذي وضعته عن اللغة الفرنسية؛ وقد ظهر هذا القاموس في الصيف الماضي لمناسبة الاحتفال بمضي ثلثمائة عام على تأسيس الأكاديمية، والطبعة الحالية من القاموس هي الطبعة الثامنة، وقد بدأ في وضعها منذ سبعة وخمسين عاما! ولولا أن لجنة القاموس ضاعفت جهودها في الأعوام الأخيرة لما ظهر هذا القاموس

الشهير. على أن الأكاديمية لقيت في وضعه صعابا لا نهاية لها، وخصوصا في العصر الأخير حيث كثرت الاختراعات العلمية، وتغيرت أوضاع الحياة، وتغلغلت في اللغة تعبيرات وكلمات جديدة لا نهاية لها. ومع ذلك فان إصداره بعد هذه الحقبة الطويلة يعد عملا من أعمال الأكاديمية نظرا لغزارته ودقته وجدته وبديع تصنيفه

وفات كاتب إنجليزي

في الأنباء الأخيرة أن الكاتب القصصي الإنكليزي الكبير سيلاس هوكنج قد توفي في الخامسة والثمانين من عمره، وكان هوكنج من رجال الدين، وتولى عدة مناصب دينية في شبابه؛ ولكنه منذ سنة 1896، نبذ حياة الكنيسة، وخاض غمار الحركة السياسية، ودخل

البرلمان عضوا من حزب الأحرار، وفي أثناء ذلك ظهر هوكنج بكتاباته، واشتهرت قصصه، وكان معاصرا لعدة من أكابر كتاب القصص مثل كونان دويل، وجالز ويرثي، والسير هاجارد، وجوزيف كونراد، وستانلي ويمان وغيرهم، ولكنه لم يبلغ من القوة والشهرة مبلغ هؤلاء؛ بيد أنه من كتاب هذه المدرسة البارزين. ومن قصصه الشهيرة: (آلك جرين) (رغم القدر) (ضوء الساحر) (الرجل الصامت) (المراقبون في الفجر) (يقظة أنتوني وير) وغيرها

ترجمة لانسبوري بقلمه

المستر جورج لانسبوري زعيم حزب العمال البريطاني شخصية عظيمة في السياسة الإنكليزية، وفي المجتمع الإنكليزي؛ وقد نشأ عصاميا، في أوضع البيئات والأوساط، فاشتغل حمالا للفحم، وعاملا، وذاق شظف العيش والحياة الشاقة، وهو اليوم في السادسة والسبعين من عمره، ولكنه ما زال جم النشاط يتزعم حركة المعارضة في البرلمان، ويتزعم حزب العمال، ويشرف على تحرير جريدة الحزب (الديلي هرالد)، وقد أخرج أخيرا كتابا يحتوي ترجمة حياته؛ وفيه يصف حياة الأحياء والمجتمعات الفقيرة في مدينة لندن منذ ستين أو سبعين عاما حينما كان يطوفها صبيا عاري القدمين؛ ثم يصف أدوار حياته، وكفاحه في سبيل رفاهة العمال، ومثابرته على خدمة القضية التي مازال يخدمها. ويبدو مستر لا نسبوري في كتابه رقيق العاطفة فياض الرحمة والإنسانية، والعطف على الفقير والبائس

مؤتمر للصحافة

عقد في منتصف شهر سبتمبر بمدينة لندن مؤتمر للصحافة بأشراف معهد لندن الصحفي؛ وأرسل مستر بلدوين رئيس الوزارة إلى المؤتمر رسالة نوه فيها بأهمية الصحافة ومسئوليتها العظيمة، وتأثيرها القوي في تسيير الرأي العام وتقديره للشؤون العامة. وألقيت في المؤتمر خطب عديدة نوه فيها بأهمية الصحافة الحرة، وحاجتها إلى قانون تنظم فيه هذه الحرية؛ ولما كان في القانون الجديد الذي صدر خاصا بنشر ما يتعارض مع هذه الأمنية، فقد أعرب المؤتمر عن أمله في أن يترك للصحفيين حق تنظيم شؤونهم الخاصة، وقرر

السعي لدى البرلمان لحمله على تحقيق هذه الأمنية بإصدار قانون جديد، وقرر المؤتمر أيضا أن ينشئ نظاما للمعاش يغذي الصحفيين العاطلين والمعوزين

أوتوكار أوسترشيل

توفي أخيرا في براج عاصمة تشيكوسلوفاكيا الموسيقي الشهير أوتكار أوسترشيل مدير المسرح الوطني ببراج، وقد كان أسترشيل زعيم المدرسة الموسيقية الحديثة في تشيكوسلفاكيا؛ ودرس في النمسا وألمانيا، وظهر منذ شبابه بالبراعة في التأليف الموسيقي، وله مؤلفات عديدة في الموسيقى وقطع موسيقية شهيرة ما تزال تحتفظ بروعتها وجدتها، وكانت وفاته في عنفوان قوته وشهرته إذ لم يجاوز العقد الخامس إلا بأعوام قلائل

الكتب

وادي النطرون

وتاريخ الأديرة البحرية

للأمير عمر طوسون

للأستاذ محمد بك كرد علي

وضع الأمير تآليفه لخدمة مصر والسودان، فهي الآن تملأ قمطرا جميلا من قماطر

التاريخ والاجتماع والاقتصاد والمالية وغيرها. ومنها ما كتبه بالفرنسية (1) كمذكراته في فروع النيل في القديم وعلى العهد العربي (مجلدان)، و (2) مذكرات في مالية مصر منذ عهد الفراعنة إلى أيامنا هذه (مجلد واحد)، و (3) مذكرات في تاريخ النيل (ثلاثة مجلدات)، و (4) كتاب في جغرافية مصر في عهد العرب (مجلد واحد)، و (5) عاقبة أمر المماليك، و (6) بحث في وادي النطرون ورهبانه وأدياره وغير ذلك. ومن تآليفه بالعربية (7) كتاب مالية مصر من عهد الفراعنة إلى الآن (مجلد ضخم)، و (8) بطولة الأورطة السودانية المصرية في حرب المكسيك، و (9) الصنائع والمدارس العربية والبعثات العلمية في عهد محمد علي باشا، و (10) الجيش المصري، و (11) البحرية المصرية، و (12) كتاب البعثات العلمية في عهدي عباس الأول وسعيد، و (13) يوم 11 يوليه سنة 1882؛ وغير ذلك من أبحاثه ومقالاته بالعربية والفرنسية مما ينشره في الصحف والمجلات بالمناسبات

وآخر ما صدر من قلم الأمير بالعربية (14) (وادي النطرون ورهبانه وأديرته ومختصر تاريخ البطاركة) مذيلا بكتاب (تاريخ الأديرة البحرية)، و (15) كتاب للباحث المطلع (المحزون) في (ضحايا مصر في السودان وخفايا السياسة الإنجليزية) (طبعة ثالثة) طبع على نفقة دائرة سمو الأمير في مطبعة السفير بإسكندرية، وقد قد الأمير كتاب وادي النطرون إلى صاحب الغبطة الانبا يؤانس (بابا وبطريرك الكرازة المرقسية الثالث عشر بعد المائة) ودل المؤلف فيه على كثرة بحثه ودرسه وأنه خادم أمين لمصر وسودانها، في جميع المظاهر النافعة، وأنه حسنة من حسنات مصر الحديثة، ما أحرز شهرته العالمية إلا من طريق العلم والعمل والإخلاص لمصر خاصة، والمسلمين في الأرض عامة. فجزاه الله

عن العلم أفضل ما يجازي من أخلصوا في خدمته، ونفع بثمرات اجتهاده مصر والمصريين

من أفلاطون إلى ابن سينا

للأستاذ جميل صليبا

نشر مكتب النشر العربي بدمشق ست محاضرات في تلخيص فلسفة أفلاطون والفلسفة العربية وفي الفارابي والجمع بين رأيي الحكيمين أفلاطون وأرسطو، وفي جمهورية أفلاطون والمدينة الفاضلة، وفي نظرية الفيض عند ابن سينا، أو صدور الموجودات عن الخالق، وفي نظرية النفس عند ابن سينا، وفي نظرية ابن سينا في السعادة. قال المؤلف: إذا درسنا فلسفة ابن سينا رأينا أنها تختلف عن فلسفة أرسطو في كثير من المسائل، كفكرة الفيض، وفكرة خلود النفس وغيرهما، وأن ابن سينا متفق مع أرسطو في الطرائق والوسائل، ومختلف عنه في الغايات والمقاصد، ولعله لم يبتعد عن أرسطو في بعض المسائل إلا لتأثره بالوسط الاجتماعي، ورغبته كالفارابي في الجمع بين الدين والفلسفة، فقد كان الفارابي يعتقد أن الفلسفة واحدة، وأن مقاصدها الحقيقية لا تختلف عن مقاصد الدين. وكان ابن سينا يرى كابن الطفيل أن النبوة حالة طبيعية من أحوال النفس، لا فرق بين الدين والفلسفة إلا من حيث الظاهر. وقال إن الجمع بين الدين والفلسفة كان من أكبر العوامل التي حدت بالفارابي وابن سينا أن يعرضا أحيانا عن أرسطو ويتبعا أفلاطون، وقد سارا في ذلك على طريقة فلاسفة الإسكندرية؛ ووجدا في ترجمة كتب أفلاطون خير معين على ذلك. وقد بسط صاحب هذه المحاضرات هذه المباحث بسطا يقربه من الأذهان معتمدا على مصادر عربية وغربية، فالشكر لعنايته وأدبه

كتاب محاسن أصفهان

تأليف مفضل بن سعد بن الحسين المافروخي الأصفهاني

ويليه رسالة الإرشاد في أحوال الصاحب الكافي إسمعيل بن عباد

صاحب كتاب محاسن أصفهان من علماء القرن الخامس للهجرة، فارسي أصفهاني استعمل السجع في كلامه حتى كادت تضيع المعاني، وكتب كتابه على بلده كتابة مبالغة وتمدح، وفيه فوائد لمن تهمه أحوال تلك الديار في تلك العصور. ومما نقله المؤلف كتاب للحجاج. قيل إنه كتبه لوهزاذين يزداذ بن الأنباري، وكان قريبا لكاتبه المجوسي الأصفهاني جاء فيه: أما بعد فإني استعملتك على أصفهان، أوسع الأرض

رقعة وعملا، وأكثرها خراجا وأزكاها أرضا، حشيشها الزعفران والورد، وجبلها الفضة والكحل، وأشجارها الجوز واللوز والجلوز وما أشبهها، والتين والزيتون والكروم الكريمة، والفواكه العذبة، وطيورها عوامل العسل. وماؤها الفرات، وخيلها الماذيانات الجياد. . . فايم الله لتبعثن إلي بخراج أصفهان كلها أو لأجعلنك طوابيق على باب مدينتها، فاختر أوفق الأمرين لك، فقد عظمت جنايتك علي وأسأت إلى نفسك. . .) وساق المؤلف حديث (لو كان الإيمان يناط بالثريا لتناوله رجال من الفرس أو قال من هؤلاء). وذكر في جملة فلاسفتها ومهندسيها ومنجميها وأطبائها جماعة من اليهود منهم: يوسف اليهودي، ويعقوب اليهودي، والفرج بن سهل اليهودي، إلى غيرهم من المسلمين والمجوس؛ وذكر في شعرائهم طائفة من الشعراء بالعربية وأخرى من شعراء الفارسية، وكذلك من كتاب العاصمة على اختلاف لغتهم

وذكر المؤلف ما في داخل أصفهان من الدور السرية وأن منها ما يصلح لأمير كبير، وأن في أسواقها طرائف بغداد، وخزوز الكوفة، وديباج الروم وتستر، وبز مصر وقباطيها، وجواهر البحرين، وآبنوس عمان، ونوادر الصين، وفراء خراسان، وخشب طبرستان، وأكسية آذربيجان وأصوافها، وفرش إرمينية، وما يقاربها من الظروف والأواني والفرش والأمتعة والأثاث والعقاقير والأدوية والأخلاط والأبازير التي مساقطها من البلدان المتطارحة والأوطان المتنازحة، ووصف جوامع أصفهان ومنها جامع الخصيب بن مسلم لا يصلي فيه في الصلوات الخمس أقل من خمسة آلاف رجل (وتحت كل اسطوانة منه شيخ مستند ينتابه جماعة من أهلها بوظيفة درس، أو رياضة نفس، تزيد بمناظرة الفقهاء، ومطارحة العلماء، ومجادلة المتكلمين، ومناصحة الواعظين، ومحاورات المتصوفين، وإشارات العارفين، وملازمة المعتكفين، إلى ما يتصل به وينظم إليه من خانكاهات قوراء مرتفعة، وخانات عامرة متسعة، قد وقفت لأبناء السبيل من الغرباء والمساكين والفقراء،

وبحذائه دار الكتب وحجرها وخزائنها اللواتي قد بناهن الأستاذ الرئيس أبو العباس أحمد الضبي ونضد فيها من الكتب عيونا، وخلدها من العلوم فنونا. ويشتمل فهرستها على ثلاثة مجلدات كبيرة من المصنفات في أسرار التفاسير وغرائب الأحاديث، ومن المؤلفات في النحو واللغة والتصريف والأبنية، ومن المدونات من غرر الأشعار، وعيون الأخبار، ومن الملتقطات من سنن الأنبياء والخلفاء، وسير الملوك والأمراء، ومن المجموعات من علوم الأوائل من المنطقيات والرياضيات والطبيعيات والإلهيات، وبذلك أدركنا أن الجامع الأعظم ودار الكتب في أصفهان هما من إنشاء العرب أيضا وفي الكتاب شعر كثير، ومسائل أقرب إلى أن تعد في باب الأساطير والخرافات منها إلى أن تعد في التاريخ والأدب. وما كتاب محاسن أصفهان إلا صورة صحيحة من تأليف الفرس في ذلك العصر، والمؤلف نفسه كثير المادة من الألفاظ، ضعيف في السبك، تقرأ العجمة في كل سطرين من كلامه. وقد طبع الكتاب في طهران الأستاذ السيد جلال الدين الحسيني الطهراني عن نسخة الميرزا جسنخان وثوق الدولة أحد زعماء السياسة في إيران، كتبت سنة خمس وثلاثين وسبعمائة، وقدم له مقدمة عربية وختمها بقوله: (وإني مع قلة بضاعتي في الفنون الأدبية، وكثرة اشتغالي بالعلوم الرياضية والفلكية، أرجو من مطالعي هذا الكتاب العفو عن زلتي في تصحيح بعض مواقعه) وقد وضع للكتابين فهارس الإعلام والأماكن والقبائل وطبعته (مكتبة الإقبال) في عاصمة إيران. أما رسالة الإرشاد فهي في مدح الصاحب بن عباد الوزير الكاتب المشهور تأليف أبي القاسم أحمد بن محمد الحسني الحسيني القوبائي الاصبهاني من علماء القرن الثالث عشر من الهجرة. فللناشر أطيب الشكر على عنايته

محمد كرد علي

العدد 119 - بتاريخ: 14 - 10 - 1935

خزائن الكتب في القاهرة

على ذكر الخزانة الزكية

للدكتور عبد الوهاب عزام

قرأت في إحدى الجرائد أن وزارة المعارف عزمت على نقل الخزانة الزكية - مكتبة أحمد زكي باشا رحمه الله - من مكانها في قبة الغوري إلى دار الكتب العامة. ويرحم الله زكي باشا؛ لو كان حياً لصال بلسانه وقلمه، وملأ الدنيا حجاجاً، وشغل رجال

الحكومة بزياراته وأحاديثه، ليدافع عن كتبه العزيزة عليه التي أنفق عمره في جمعها، وأقامها مقام الأولاد فمنحها فكره وقلبه، فيمنعها أن تنقل من مكانها الذي اختاره في قبة السلطان الغوري. وكان رحمه الله معجباً بالغوري إعجاباً طوى ما بينهما من عصور، فكان إذا تحدث عنه قال: (صديقي السلطان الغوري). لكن شيخ العروبة الذي كان نشاطاً لا يفتر، وحركة لا تسكن، وعملاً لا يمل؛ قد طواه الردى، فأصبحت (الخزانة الزكية) الخزانة اليتيمة

ومن قبل نقلت إلى دار الكتب الخزانة التيمورية التي جمعها من أقطار الأرض العلامة التقي النقي أحمد تيمور باشا رحمه الله وليست هذه سنة رشيدة؛ ليس سنة رشيدة أن تجمع الكتب في مكان واحد، وتحرم القاهرة المعزية إلا من مكتبة واحدة يزدحم فيها القراء من كل قبيل، ويلتقي فيها الباحث المدقق الذي يستقصي المخطوطات القديمة، والقارئ الذي يزجي وقته بقصة ملهية، ويفد إليها أهل القاهرة من المحلات الدانية والقاصية

لا بد لنا من مكتبة عامة جامعة كدار الكتب، ولكن لابد لنا معها من مكتبات خاصة كالخزانة التيمورية والخزانة الزكية، يقصدها الباحثون المنقبون، ويؤمها خاصة المطالعين، فيجدون مكاناً ساكناً يسكنون إليه ويتعارفون فيه، ثم تكون لكل مكتبة خصائص معروفة تجذب إليها صفاً من الباحثين؛ ولابد لنا، إلى هذه وهذه من مكتبات محلية، يستفيد منها أهل كل محلة في القاهرة، يجدونها قريبة إليهم، ويلفون كتبها ميسرة لهم

كان من سنن الحضارة الإسلامية الإكثار من خزائن الكتب الكبيرة والصغيرة في كل مدينة، وكان لكل مسجد كبير خزانة كتب، فكانت القراءة ميسورة لكل طالب في كل حي وفي كل مسجد، وليس يتسع المجال هنا للحديث عن خزائن الكتب في المدن الإسلامية القديمة في المشرق والمغرب فهو حديث طويل، وحسبك أن أبو تمام عوقه البرد في همذان

فوجد في إحدى خزائنها ما يسر له اختيار حماسته، وأن ياقوتاً الحموي أقام في مرو الشاهجان فأفاد من اثنتي عشرة خزانة بها، في كل واحدة آلاف المجلدات. وهو يقول في معجم البلدان: (فكنت أرتع بها، وأقبس من فوائدها. وأنساني حبها كل بلد، وألهاني عن الأهل والولد. وأكثر فوائد هذا الكتاب وغيره مما جمعته فهو من تلك الخزائن).

هذه مرو الشاهجان، فما ظنك ببغداد والقاهرة وقرطبة؟ كانت قرطبة لا تخلو دار كبيرة فيها من خزانة كتب

وكان في الآستانة إلى عهد قريب زهاء أربعين خزانة، في كل جامع كبير واحدة، وكثير منها يشرف على حدائق، وتتهدل الأشجار عند منافذها. فليس يمل القارئ الجلوس بها، ولا يزعجه عن القراءة لغو ولا جلبة. وقد يجلس المطلع في مكتبة الفاتح فيود أن لا تنتهي القراءة ولا ينتهي الوقت. وقارئ الكتب أحوج الناس إلى المكان النزه الهادئ، يوحي السكينة إلى نفسه، ويجمع للمعرفة فكره، ويحبب إليه المثابرة والدأب. فأين من هذا دور الكتب الكبيرة المطبقة على المطالع بجدرانها، وجلبتها، والتي تقطع عليه فكره بمناظر الداخلين والخارجين. يود قاصدها أن يحصل أقل ما يريد في أقصر وقت فيسارع إلى الخروج. وكم ينتظر حتى يظفر بالكتاب المطلوب؟

وقد كان في القاهرة خزائن فرقتها يد الزمان العسراء، ولعبت بها غيره الهوجاء، ثم جمعت بقية الأحداث منها في دار الكتب المصرية؛ وقد رأينا وزارة الأوقاف إلى عهد قريب تجمع الكتب من المساجد فتضعها في الخزائن الزكية. لقد أحسنت الحكومة بما فعلت حينما كانت الكتب عرضة للضياع، غير مهيأة للانتفاع، ولكن الأحوال تغيرت، ودار الكتب ضاقت بما فيها، وغصت بزائريها. فعلينا أن نتدارك اليوم ما عجزنا عنه بالأمس، فنعنى بتجهيز القاهرة بخزائن الكتب المختلفة في المحلات المختلفة. ونحتفظ بما في المساجد من الكتب إن كان لها بقية لنجعلها نواة لمكتبات كبيرة

ولم لا يكون لنا خزانة في الجامع العتيق، وكان مثابة العلم في مصر زمناً طويلاً؟ ولم لا يكون لنا خزائن في جامع ابن طولون، والجامع الأقمر، وخانقاة سعيد السعداء التي كانت مأوى كبار العلماء، ومساجد المؤيد، وبرقوق، والسلطان حسن، وكانت هذه المساجد معاهد للدرس، وقد اتخذنا بعضها اليوم مدارس أيضاً، فلماذا لا نتخذها معاهد لمطالعة الكتب؟

لماذا لا ننتفع بهذه الأبنية الواسعة الشاهقة فنفسر أموالنا، ونعرف آثارنا، ونصل ماضينا بحاضرنا؟ وليت خزائن الكتب تتقسم العلوم فيقصد الباحثون الجامع العتيق ليقرأوا الفقه والحديث وكل ما كتب عن الفسطاط ومصر في عهد الفسطاط، ويذهبون إلى الجامع المؤيد ليقرأوا ما كتب عن المماليك، ويقصدون خانقاة سعيد السعداء أو تكية المولوية لقراءة التصوف، وهلم جرا

هذه آراء يلقاها بالاستهزاء الذين خلعوا أنفسهم من تاريخنا وسننا، ولكني أرجو أن يكون لها من تفكير المفكرين نصيب

وبعد، فينبغي أن تبقى الخزانة الزكية في مكانها إبقاء على السنن الصالحة، وتيسيراً للقراءة على طلابها، واحتفاظاً برغبة صاحب الكتب الذي بذل في جمعها من ماله وعمره، ولبث حياته يحنو عليها حنو الأب الشفيق على أولاده. ولا يزال أمام وزارة المعارف سعة للتفكير والعدول عن الخطأ الذي همت به.

عبد الوهاب عزام

الجمال البائس - 4

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قلت لها: أن قلبي وقلبك يتجاليان في هذه الساعة ويتباكيان؛ أتدرين ماذا يقول لك قلبي؟

إنه ليقول عني: أعزز علي بأن تكوني ههنا، وأن تتألف منك هذه القصة التي تبدأ بالوصمة وتنتهي بالاستخذاء فتنطلق المرأة في متالفها ومهاويها ليبلغ بها القدر ما هو بالغ؛ وليس إلا الضرورة وسطوتها بها، والإذلال ومهانته لها، والاجتماع وتهكمه عليها، والابتذال واستعباده إياها. ومهما يأت في القصة من معناً فليس فيها معنى الشرف؛ ومهما يكن من موقف فليس فيها موقف الحياء؛ ومهما يجر من كلام فليس فيها كلمة الزوجة. وأعزز علي بأن أرى المصباح الجميل المشبوب الذي وضع ليضيء ما حوله، قد أنقلب فجعل يحرق ما حوله؛ وكان يتلألأ ويتوقد، فارتد يتسعر ويتضرم ويجني على ما يتصل به وسقط بذلك سقطة حمراء. . . .

أفتدرين ماذا يقول لي قلبك؟

إنه يقول عنك: يا بؤسنا من نساء! لقد وضعنا وضعاً مقلوباً فلا تستقيم الإنسانية معنا أبداً، وكل شيء منقلب لنا متنكر؛ والشفقة علينا تنقلب من تلقاء نفسها تهكماً بنا، فنبكي من شفقة بعض الناس كما نبكي من ازدراء بعض الناس. يا بؤسنا من نساء!

قالت صدقت، وكذلك تنقلب أسباب الحياة معنا أسباباً للمرض والموت، فاليقظة ليس لها عندنا النهار بل الليل، والصحو لا يكون فينا بالوعي بل بالسكر، والراحة لا تكون لنا في السكون بل والانفراد في الاجتماع والتبذل؛ وما يرد العيش على امرأة من واجباتها السهر، والسكرة والعربدة، والتبذل، وتدريب الطباع بالوقاحة، وتضرية النفس على الاستغواء والتصدي بالجمال للكسب من رذائل الفساق وأمراضهم، والتعرض لمعروفهم بأساليب أخرها الهوان والمذلة، واستماحتهم بأساليب أولها الخداع والمكر؟

إن حياةً هذه هي واجباتها، لا يكون البكاء والهم إلا من طبيعية من يحياها، وكثيراً ما نعالج الضحك لنفتح لأنفسنا طرقاً تتهارب فيها معاني البكاء؛ فإذا أثقلنا الهم وجل عن الضحك وعجزنا عن تكلف السرور، ختلنا العقل نفسه بالخمر؛ فما تسكر المرأة منا للسكر أو النشوة، بل للنسيان، وللقدرة على المرح والضحك، ولأمداد محاسنها بالأخلاق الفاجرة من الطيش والخلاعة والسفه وهذيان الجمال الذي هو شعره البليغ. . . . عند بلغاء الفساق

قال الأستاذ (ح): أهذا وحاضر الغادة منكن هو الشباب والصبى والجمال وإقبال العيش، فكيف بها فيما تستقبل؟

قالت: إن المستقبل هو أخوف ما نخافه على أنفسنا، وليس من امرأة في هذه الصناعة إلا وهي معدة لمستقبلها إما نوعاً من الانتحار، وإما ضرباً من ضروب الاحتمال للذل والخسف. وليس مستقبلنا هذا إلا كمستقبل الثمار النضرة إذا بقيت بعد أوانها، فهو الأيام العفنة بطبيعة ما مضى. . بلى إن مستقبل المرأة البغي هو عقاب الشر

قال (ح): هذا كلام ينبغي أن تعلمه الزوجات؛ فالمرأة منهن قد تتبرم بزوجها وتضجر وتغتم، وتزعم أنها معذبة فتتسخط الحياة، وتندب نفسها؛ ثم لا تعلم أنه عذاب واحد برجل واحد تألفه فتعتاده فترزق من اعتياده الصبر عليه فيسكن بهذا نفارها. وتلك

نعمة واجبها أن تحمد الله عليها ما دام في النساء مثل الشهيدات تتعذب الواحدة منهن فنوناً من العذاب بمائة رجل وبألف رجل، وهم مع ذلك يتبلون روحها بعددهم من الذنوب والآثام

وقد تستثقل الزوجة واجباتها بين الزوج والنسل والدار، فتغتاظ وتشكو من هذه الرجرجة اليومية في الحياة، ثم لا تعلم أن نساءً غيرها قد انقلبت بهن الحياة في مثل الخسف بالأرض

وقد تجزع للمستقبل وتنسى أنها في أمان شرفها، ثم لا تعلم أن نساء يترقبن هذا الآتي كما يترقب المجرم غد الجريمة من يوم فيه الشرطة والنيابة والمحكمة وما وراء هذا كله

فقلت: وهناك حقيقة أخرى فيها العزاء كل العزاء للزوجات، وهي أن الزوجة امرأة شاعرة بوجود ذاتها، والأخرى لا تشعر إلا بضياع ذاتها

والزوجة امرأة تجد الأشياء التي تتوزع حبها وحنان قلبها، فلا يزال قلبها إنسانياً على طبيعته، يفيض بالحب ويستمد من الحب. والأخرى لا تجد من هذا شيئاً، فتنقلب وحشية القلب، يفيض قلبها برذائل ويستمد من رذائل، إذ كان لا يجد شيئاً مما هيأته الطبيعة ليتعلق به من الزوج والدار والنسل

والزوجة امرأة هي امرأة خالصة إنسانية، أما الأخرى فمن امرأة ومن حيوان ومن مادة مهلكة

وتما السعادة أن النسل لا يكون طبيعياً مستقراً في قانونه إلا للزوجات وحدهن، فهو نعمتهن الكبرى، وثواب مستقبلهن وماضيهن، وبركتهن على الدنيا؛ ومهما تكن الزوجة شقيةً بزوجها فان زوجها قد أولدها سعادتها، وهذه وحدها مزية ونعمة. أما أولئك فليس لهن عاقبة إذ النسل قلب لحلتهن كلها؛ وهو غنىً إنساني ولكنه عندهن لا يكون إلا فقراً، وهو رحمة ولكنها لا تكون إلا لعنة عليهن وعلى ماضيهن. وقد وضعت الطبيعة في موضع حب الولد الجديد من قلوبهن، حب الرجل الجديد، فكانت هذه نقمةً أخرى

قال (ح): أتريد من الرجل الجديد من يكون عندهن الثاني بعد الأول، أو الثالث بعد الثاني، أو الرابع بعد الثالث؟

قلت: ليس الجديد عليهن هو الواحد بعد الواحد إلى آخر العدد؛ ولكنه الرجل الذي يكون وحده بالعدد جميعاً إذ هو عندهن يشبه الزوج في الاختصاص وفي شرف الحب، فهو الحبيب الشريف الذي تتعلقه إحداهن وتريد أن تكون معه شريفة؛ ولكن من نقمة الطبيعة أن من وجدته منهن لا تجده إلا لتعاني آلم فقده

يا عجبا! كل شيء في الحياة يلقي شيئاً من الهم أو النكد أو البؤس على هؤلاء المسكينات، كأن الطبيعة كلها ترجمهن بالحجارة. .

قالت هي: وليست الحجارة هي الحجارة فقط، بل منها ألفاظ ترجم بها المسكينة كألفاظك هذه. . . وكتسمية الناس لها (بالساقطة) فهذه الكلمة وحدها صخرة لا حجر ثم تنهدت وقالت: من عسى يعرف خطر الأسرة والنسل والفضيلة كما تعرفها المرأة التي فقدتها؟ إننا نحسها بطبيعة المرأة، ثم بالحنين إليها، ثم بالحسرة على فقدها، ثم برؤيتها في غيرنا، نعرفها أربعة أنواع من المعرفة إذ عرفتها الزوجة نوعاً واحداً. ولكن هل ينصفنا الرجال وهم يتدافعوننا؟ هل يرضون أن يتزوجوا منا؟

قلت: ولكن الأسرة لا تقوم على سواد عيني المرأة وحمرة خديها، بل على أخلاقها وطباعها. فهذا هو السبب في بقاء المرأة حيث ارتطمت. وهي متى سقطت كان أول أعدائها قانون النسل

ومن ثم كانت الزلة الأولى ممتدةً متسحبةً إلى الآخر، إذ الفتاة ليست شخصاً إلا في اعتبارها هي، أما في اعتبار غيرها فهي تاريخ للنسل إن وقعت فيه غلطة فسد كله وكذب
كله فلا يوثق به

وهذه الزلة الأولى هي بدء الانهيار في طباع رقيقة متداخلة متساندة لا يقيمها إلا تماسكها جملةً، وما لم يتماسك إلا بجملته فأول السقوط فيه هو استمرار السقوط فيه. ولهذا لا يعرف الناس جريمةً واحدةً تعد سلسلة جرائم لا تنتهي إلا سقطة المرأة. فهي جريمة مجنونة كالإعصار الثائر يلف لفاً، إذ تتناول المرأة في ذاتها، وترجع على أهلها وذويها، وترتمي إلى مستقبلها ونسلها، فيهتكها الناس هي وسائر أهلها، من جاءت

منهم ومن جاءوا منها
والمرأة التي لا يحميها الشرف لا يحميها شيء. وكل شريفة تعرف أن لها حياتين: إحداهما العفة، وكما تدافع عن حياتها الهلاك، تدافع السقوط عن عفتها، إذ هو الهلاك حقيقتها الاجتماعية. وكل عاقلة تعرف أن لها عقلين تحتمي بأحدهما من نزوات الآخر، وما عقلها الثاني إلا شرف عرضها
قال الأستاذ (ح): إن هذه هي الحقيقة، فما تسامح الرجال في شرف العرض إلا جعلوا المرأة كأنها بنصف عقل فاندفعت إلى الطيش والفجور والخلاعة، أرادوا ذلك أم لم يريدوه
قلت: وهذا هو معنى الحديث: (عفوا تعف نساؤكم) فان عفاف المرأة لا تحفظه المرأة بنفسها ما لم تتهيأ لها الوسائل والأحوال التي تعين نفسها على ذلك. وأهم وسائلها وأقواها وأعظمها، تشدد الرجال في قانون العرض والشرف
فإذا تراخى الرجال ضعفت الوسائل، ومن بين هذا التراخي وهذا الضعف تنبثق حرية المرأة متوجهةً بالمرأة إلى الخير أو للشر على ما تكون أحوالها وأسبابها في الحياة. وهذه الحرية في المدنية الأوربية قد عودت الرجال أن يغضوا ويتسمحوا، فتهافت النساء عندهم تنال كل منهن حكم قلبها ويخضع الرجل. . . .
على أن هذا الذي يسميه القوم حرية المرأة ليس حريةً إلا في التسمية، أما في المعنى فهو كما ترى:
إما شرود المرأة في التماس الرزق حين لم تجد الزوج الذي يعولها أو يكفيها ويقيم لها ما تحتاج إليه، فمثل هذه هي حرة حرية النكد في عيشها، وليس بها الحرية بل هي مستعبدة للعمل شر ما تستعبده امرأة
وإما انطلاق المرأة في عبثاتها وشهواتها مستجيبةً بذلك إلى انطلاق حرية الاستمتاع في
الرجل، بمقدار ما يشتريه من المال، أو تعين عليه القوة، أو يسوغه الطيش، أو يجلبه التهتك، أو تدعوا إليه الفنون. فمثل هذه هي حرة حرية سقوطها وما بها الحرية بل يستعبدها التمتع
والثالثة حرية المرأة في انسلاخها من الدين وفضائله، فان هذه المدنية قد نسخت حرام الأديان وحلالها بحرام قانوني وحلال قانوني، فلا مسقطة للمرأة ولا غضاضة عليها قانوناً. . . فيما كان يعد من قبل خزياً أقبح الخزي وعاراً أشد العار، فمثل هذه هي حرة حرية فسادها، وليس بها الحرية ولكن تستعبدها الفوضى
والرابعة غطرسة المرأة المتعلمة وكبرياؤها على الأنوثة والذكورة معاً، فترى أن الرجل لم يبلغ بعد أن يكون الزوج الناعم كقفاز الحرير في يدها، ولا الزوج المؤنث الذي يقول لها نحن امرأتان. . . . فهي من أجل ذلك مطلقة مخلاة كيلا يكون عليها سلطان ولا إمرة. فمثل هذه حرة بانقلاب طبيعتها وزيغها، وهي مستعبدة لهوسها وشذوذها وضلالتها
حرية المرأة في هذه المدنية أولها ما شئت من أوصاف وأسماء، ولكن آخرها دائما إما ضياع المرأة وإما فساد المرأة
والدليل على التواء الطبيعة في المدنية استواء الطبيعة في البادية، فالرجال هناك قوامون على النساء، والنساء بهذا قوامات على أنفسهن، إذ ينتقمون للمنكر انتقاماً يفور دماً وبهذه الوحشية يقررون شرف العرض في الطبيعة الإنسانية ويجعلونها فيها كالغريزة، فيحاجزون بين الرجال والنساء أول شيء بالضمير الشريف الذي يجد وسائله قائمةً من حوله
قال الراوي: وغطت وجهها بيديها وقالت: إنك لا تزال ترجم بالحجارة. . . إن فيك متوحشاً
قلت بل متوحشة. . .
إنك أنت قد تكلمت في، فجمالك الذي يضع الإنسان في ساعة مجنونة ليمتعه بطيشها، فقد وضعنا نحن في ساعة مفكرة وأمتعنا بعقلها؛ وإذا قلت جمالك، فقد قلت وحيك، إذ لا جمال عندي إلا ما فيه وحي
أما قلت: إنك لو خيرت في وجودك لما اخترت إلا أن تكوني رجلاً نابغةً يكتب ويفكر ويتلقى الوحي من الوجوه الجميلة؟

فدقت صدرها بيدها وقالت: أنا؟ أنا لم أقل هذا. ثم أفكرت لحظة وقالت: إذ كنت أنت تزعم أنني قلته، فأظن أنني قلته. . .
قال (ح): رجل؛ ويكتب؛ ويفكر؛ ولم تقل هي شيئاً من هذا. أربع غلطات شنيعة من فساد الذوق
قالت: بل قل أربع غلطات جميلة من فن الذوق. إن الرجل الظريف القوي الرجولة، يجب عليه أن يغلط إذا حدث المرأة
قال (ح): لتضحك منه؟
قالت: لا بل لتضحك له. . . . .
قلت: فلي إليك رجاء
قالت: إن صوتك يأمر، فقل
فماذا قلت لها وماذا قالت؟
(لها تتمة)
(طنطا)
مصطفى صادق الرافعي
فقدان الثقة
للأستاذ أحمد أمين
لعل أسوأ ما تمنى به أمة أن يفقد أفرادها الثقة بعضهم ببعض؛ ففقدان الثقة يجعل الأمة فرداً، والثقة تجعل الفرد أمة؛ الثقة تجعل الأجزاء كتلة، وفقدانها يجعل الكتلة أجزاء غير صالحة للالتئام، بل يجعل أجزاءها متنافرة متعادية توجه كل قوتها للوقاية والنكاية
كم من الزمن ومن المال ومن النظم ومن الخطط تنفق إذا فقدت الثقة؟ ثم هي لا تغني شيئاً ولا تعيد الثقة
تصور أسرة فقد الزوج فيها ثقته بزوجته، والزوجة بزوجها، ثم تصور كيف تكون حياتها: نزاع دائم، وسوء ظن متبادل، وانتظار للزمن ليتم الخراب
وهكذا الشأن في كل مجتمع: في المدرسة، في الجيش، في الحزب، في القرية، في الأمة
بل ما لنا نذهب بعيداً والإنسان نفسه إذا فقد الثقة بنفسه فقد نفسه، فلا يستطيع الكاتب أن يكون كاتباً مجيداً ولا الشاعر أن يكون شاعراً متفوقاً ولا أي عالم وصانع يجيد علمه وصناعته إلا إذا وثق بنفسه لدرجة ما؛ وكم من الكفايات ضاعت هباء لأن ذويها فقدوا ثقتهم بأنفسهم، واعتقدوا أنهم لا يحسنون صنعا ولا يجيدون عملا
وكل ما ترى من أعراض الفشل في أمة سببه فقدان الثقة؛ فالحزب ينهار يوم يفقد الأعضاء ثقتهم بعضهم ببعض، والشركة تنهار يوم يتعامل أفرادها على أساس فقدان الثقة، والمدرسة تفشل يوم لا يثق الطلبة بأساتذتهم والأساتذة بطلبتهم، وكل جماعة تفنى يوم يتم فيها فقدان الثقة
كل نظمن - على ما يظهر - مبنية على فقدان الثقة، فوظائف (المفتشين) في جميع مصالح الحكومة والشركات أصبحت مؤسسة على فقدان الثقة، فالمفتش في الترام والسيارات العامة مبناه ضعف الثقة (بالكمساري)، ومفتش المالية ليراقب حركات مرءوسيه حتى لا يختلسوا أو يزوروا، ومفتشو الوزارات ليروا إلى أي حد يطبق الموظفون تعاليم الوزارة
قد كان الظن بالمفتشين أن يؤدوا عملا آخر غير هذا، وهو أن يشرفوا على عمل المرءوسين ليوجهوهم وجهة الصالحة، ويتعاونوا معهم على رسم الخطة القويمة، ويصححوا الخطأ، ويكملوا النقص، ولكنهم - في الأغلب - وقفوا فقط موقف الضابط يضبط الجريمة، والصائد يرقب الفريسة، لا موقف الهادي المرشد والناصح الأمين
فان أردت (بنداً) واحداً من (بنود) ما ينفق من الأموال في سبيل عدم الثقة فاجمع مرتبات المفتشين في جميع مصالح الحكومة
وليس الأمر مقصوراً على هؤلاء، فالمراجعون ومراجعو المراجعين؛ والأوراق تمر من يد إلى يد، ومن قلم إلى قلم، ومن مصلحة إلى مصلحة، ومن وزارة إلى وزارة. كل ذلك له أسباب، أهمها (فقدان الثقة)
وإن شئت حصر ما يستهلك من الأموال لفقدان الثقة فلا تكتف بمرتبات المفتشين، بل

أضف إليها مرتبات كل هؤلاء الذين ذكرنا، فلو قلنا إن نصف مرتبات الموظفين ينفق في سبيل فقدان الثقة لم نبعد
وليست المصيبة كلها في الأموال، فلو كنا نقدر للزمن قيمة كغيرنا من ألمم لاستفظعنا ما يستوجبه فقدان الثقة من أيام وشهور وسنين تضيع في إجراءات وتدقيقات ومراجعات ومناقضات وتعليقات مبناها كلها (فقدان الثقة)
ثم هناك عقول للنابغين وكبار أولي الأمر في الأمة تفكر ثم تفكر، وتقدر ثم تقدر، وتضع الخطط تلو الخطط، والقوانين واللوائح والمنشورات تلو القوانين واللوائح والمنشورات، ويخيل إليها أنها بما فعلت تأمن الخيانة والسرقة والتزوير، وتظن بذلك أنها تعالج ما فسد وتصلح ما اختل، وهي إنما تزيد بذلك في (فقدان الثقة)
أضف إلى هذا ما تسبغه هذه المظاهر كلها على نفسية الموظف، فهو يرى كل هذه النظم واللوائح والقوانين والمراجعات والمناقضات فيشعر أنها إنما شرعت له ومن أجله وبسبب فقدان الثقة به، وأنها كلها تنظر إليه كلص وكمجرم وكمزور؛ فيفقد الثقة بنفسه، ويعمل في حدود ما رسم له، ويشعر بالسلطات المختلفة عليه؛ فلا يجرؤ على التفكير بعقله، ولا يجرؤ على تحمل تبعة، ويفر من البت في الأمور ما وسعه الفرار، حتى يكون بمأمن دائم من الأسئلة والمناقضات - وهذا هو سر ما نراه من بطء في العمل، وركود في الحركة، وضياع لمصالح الناس، إذ لا شيء يبعث الثقة في المرءوس مثل أن يثق به الرئيس، ولا شيء يبعث الحيرة والارتباك والاضطراب إلا ما يشعر به من (فقدان الثقة)
أنا كفيل بأنا لو قلبنا كل هذه النظم رأسا على عقب وهدمناها من أسسها وأزلنا أنقاضها، ثم بنيناها على أسس جديدة من الثقة البحتة، ما خسرنا من الأموال وما خسرنا من الأزمان والأنفس ما نخسر الآن ولو كثرت اللصوص وكثر الخائنون والمزورون
هب أنا فتحنا مكتبة وأسسنا نظامها على الثقة بالموظفين والمترددين من المطالعين فاستغنينا عن مراقب واستغنينا عن مراجع واستغنينا عن مفتش وهكذا، واكتفينا بمعير للكتب و (فتى) يضع الكتب كل يوم في أماكنها، فماذا يكون الشأن وماذا يكون حسابنا في المكسب والخسارة؟ لا شك أننا سنفقد كتبا يسرقها بعض المترددين، وهذا هو كل الخسارة، ولكنا بجانب ذلك نوفر مرتبات كاتب ومراقب ومفتش، ونوفر أزمانا طويلة تصرف في عمليات الجرد والحصر، وننشر الثقة بين المطالعين، ونشعرهم بأن المكتبة في حمايتهم هم وتحت إشرافهم، فننمي فيهم الشعور بالتبعة؛ فإذا كان هذا مكسبنا وهذه كل خسارتنا، فإلى النار هذه الكتب المفقودة، وخسئت عين كل من ينظر في عمليات الحساب إليها وحدها، ولا ينظر إلى كل هذه الأرباح التي ربحناها
وهذا المثل الصغير يمكن تطبيقه تمام التطبيق على الأعمال الكبيرة في المصالح المختلفة، بل إني أشتري نشر الثقة بين الناس وتسهيل الأعمال، وشعور الناس بالطمأنينة بأي ثمن، بل لو أن التجارب دلت على أن ما نفقد من الأموال أكثر مما نربح إذا أسسنا النظم على أساس الثقة لاستمررت في تجربتي ونظريتي، وآمنت بوجوب الانتظار على هذا الأساس الجديد حتى يذهب هذا الجيل الذي أفسده النظام القديم، وقضى على نفسه وعلى شعوره، ولأنتظر جيلا جديدا نشأ في أحضان (الثقة) والشعور بالواجب وبالتبعة وبالحرية في العمل في دائرة ضيقة من القوانين المعقولة وهكذا الشأن في جميع الأمور السياسية والاجتماعية، فثقة أفراد الحزب بعضهم ببعض - ولو مراعاة للمصلحة - أضمن للنجاح، وأقرب لتحقيق الغرض؛ وثقة الجمعية برئيسها، والرئيس بأعضائها - ولو تصنعا - أقرب لأن ينقلب التصنع خلقا وقد رأينا - دائما - أن العدوى في المعاني كالعدوى في المحسات، فكما أن التثاؤب يبعث التثاؤب، والضحك يبعث الضحك، فكذلك الثقة تبعث الثقة وعدمها يبعث عدمها.
وبعد، فلا تزال ترن في أذني كلمة سمعتها من أستاذ إنجليزي كان في الجامعة: (إذا كنتم لا تريدون
(أن تولوا أموركم الأجنبي، ولا تمنحون ثقتكم المصري، فكيف تعيشون؟
أحمد أمين
افتتاح إفريقية وكيف غزاها الاستعمار الأوربي
بقلم مؤرخ كبير

تتمة

لم يبق اليوم في إفريقية من الأمم المستقلة سوى الحبشة، وجمهورية ليبيريا؛ ولكن ليبيريا ليست في الواقع سوى منطقة للنفوذ الأمريكي، وقد أنشئها الزنوج الأمريكيون الأحرار؛ ومع أنها جمهورية مستقلة وعضو في عصبة الأمم، فأن السياسة الأمريكية هي التي تشرف على شؤونها العليا؛ وعلى هذا فليس في أفريقية اليوم أمة تتمتع باستقلالها الصحيح سوى إمبراطورية الحبشة؛ وهي تتمتع بهذا الاستقلال منذ فجر التاريخ. وقد حاول الاستعمار الأوربي غير مرة أن يحطم استقلالها، ولكنها استطاعت لأن تسحق مشروعاته ومحاولاته؛ والآن يعيد التاريخ دورته ويتربص الاستعمار الأوربي بالحبشة مرة أخرى، ويحشد كل قواه وعدده المدمرة، ويطالب علنا بافتراسها والقضاء على استقلالها تحقيقا لشهوة الفتح والتوسع؛ وهانحن أولاء نشهد العاصفة وقد انقضت، فهل تستطيع مملكة سبأ الخالدة أن ترد عنها عادية هذا الغزو المبيت؟ وهل تستطيع الفوز بهذا الاستقلال الذي حافظت عليه منذ الأحقاب؟ وهل تبقى الحبشة آخر حصن للاستقلال الأفريقي، أم تسقط صريعة الاعتداء، فيجهز الاستعمار بذلك على آخر ملاذ لهذا الاستقلال؟ هذا ما سيكشف عنه المستقبل القريب

وقد رأينا فيما تقدم كيف اقتسمت الدول الأوربية إفريقية فيما بينها، واستقرت كل منها في بعض مناطقها وأراضيها، وأنشأت الدول الكبرى - إنكلترا وفرنسا وألمانيا - كل منها في أفريقية إمبراطورية استعمارية شاسعة. وكانت إيطاليا إحدى الدول التي شاركت في افتتاح إفريقية، غير أنها خرجت منها بصفقة يسيرة. ويرجع ذلك إلى أنها كانت في أواخر القرن الماضي، حين بدأ افتتاح إفريقية، ما تزال دولة ثانوية، حديثة عهد باستقلالها ووحدتها القومية؛ هذا إلى أنها لقيت خلال غزواتها الاستعمارية نكبة لم تلقها أية دولة أوربية، إذ هزمت جيوشها وسحقت في موقعة (عدوة) الشهيرة حسبما نفصل بعد، فوضعت هذه الهزيمة الساحقة حدا لمشاريعها الاستعمارية مدى حين

بدأت إيطاليا محاولاتها الاستعمارية في سنة 1882، إذ أرسلت إلى بلاد إرترية حملة احتلت خليج عصب وما يليه جنوبا؛ واحتلت ثغر مصوع وما يليه من الساحل شمالا (سنة 1885)؛ وأرسلت حملة أخرى إلى بلاد الصومال مما يلي المحيط الهندي، فاحتلت شقة ضيقة طويلة على الساحل، من نهر جوبا حتى رأس جردفوي، وهي التي تعرف اليوم بالصومال الإيطالي (سنة 1888). وكانت إيطاليا يومئذ دولة ناشئة فتية تجيش بآمال كبيرة، وكان وزيرها الشهير (كرسبي) روح هذه المغامرات الاستعمارية؛ وكان يحلم بإنشاء إمبراطورية استعمارية إيطالية ضخمة في شرق إفريقية تضم الحبشة، وتصل ما بين الإرترية والصومال؛ وكان تفاهم الدول الأوربية على اقتسام إفريقية يخول لإيطاليا حرية العمل في تلك المنطقة. فلما تم احتلال الإرترية والصومال، اعتقد كرسبي أن الفرصة قد سنحت لغزو الحبشة، والعمل لإنشاء الإمبراطورية الاستعمارية التي يتوق إلى إنشائها

وكانت الحبشة منذ منتصف القرن التاسع عشر تجوز فترة من الضعف والتفرق؛ وكان ملكها يومئذ الإمبراطور تيودور، وهو أمير من أمهرا يدعى كاساي، اغتصب العرش من الرأس (علي) ملك الحبشة المسلم، وأقام نفسه إمبراطورا، وبسط على الحبشة حكمه المطلق، وأثار بشدته وعنفه في معاملة الأجانب سخط الدول الأوربية، وقبض على عدد من المرسلين والنزلاء الإنكليز وأبى أن يطلق سراحهم، فجهزت إنكلترا حملة لغزو الحبشة بقيادة السير نابيير؛ ونفذت هذه الحملة إلى الحبشة في سنة 1868، وهزمت جيش الإمبراطور، فاضطر تيودور أن يطلب الصلح، ثم أنتحر يأسا وغما؛ وانسحب الإنكليز، وعادت الحرب الأهلية في الحبشة، واستولى على العرش كاسي أمير تجرى، ونصب نفسه إمبراطورا باسم يوحنا الثاني؛ ولبثت الحبشة في حالة اضطراب وفوضى؛ واحتل الإيطاليون في تلك الفترة ساحل إرترية والصومال؛ وكانت الجيوش المصرية قد نفذت قبل ذلك بأعوام إلى بعض مناطق الحبشة مما يلي السودان فاستطاع الإمبراطور يوحنا أن يوقع بها هزيمة فادحة وأن يرغمها على الجلاء عن الحبشة (سنة 1876)، ولما توفي يوحنا سنة 1889 خلفه على العرش منليك أمير شوا، باسم الإمبراطور منليك الثاني. وبدأ منليك حكمه في ظروف صعبة؛ وكانت إيطاليا قد استطاعت أن تتقرب إلى الحبشة، وأن تبسط عليها نفوذها شيئا فشيئا تحت ستار المعاونات والصلات الودية، وما زالت حتى استطاعت

بسياسة الضغط والوعيد أن تحمل منليك على أن يعقد معها معاهدة حماية مقنعة هي التي تعرف بمعاهدة أوشالي (مايو سنة 1889)، وبها وضعت الحبشة تحت نوع من الوصاية الإيطالية؛ وحاولت إيطاليا خلال الأعوام التالية أن تتدخل في شؤون الحبشة تدخلا قويا، وأن تفرض عليها إرادتها، واستطاعت أن تحتل بعض أنحائها المجاورة الإرترية، ولكن الشعب الحبشي لم يلبث أن ثار لهذا الاعتداء على أرضه وحرياته؛ وقاد منليك هذه الثورة الوطنية، فجردت عليه إيطاليا جيشا ضخما قوامه خمسون ألف مقاتل بقيادة الجنرال باراتيري؛ ولكن الوطنية الحبشية غمرت كل شيء وسحقت الجيوش الإيطالية في موقعه عدوة الشهيرة من أعمال ولاية تجرى (2 مارس سنة 1896)، ولم تبق منها سوى فلول ممزقة، وحطمت آمال إيطاليا ومشاريعها الاستعمارية، وأرغمت على الاعتراف باستقلال الحبشة؛ واستمر منليك الثاني أو منليك الأكبر محرر الحبشة أعواما طويلة يقودها في سبيل الإصلاح والتقدم؛ وفي عهده نظمت الحبشة علائقها مع الدول الأوربية، واستطاعت أن ترغمها جميعا على احترام استقلالها. وفي سنة 1906 عقد تحالف ثلاثي بين بريطانيا العظمى وفرنسا وإيطاليا يقضي بالعمل المشترك بينها لحماية أراضيها ومصالحها في تلك المنطقة، وينص على وحدة الحبشة واستقلالها، وينص أيضا على تفوق المصالح الإيطالية في الحبشة. ولما توفي منليك الأكبر سنة 1913 خلفه حفيده (ليجي ياسو) بعهد منه؛ ولكن عوامل التفرق عادت تعمل عملها، واضطرمت الحرب الأهلية مرة أخرى، وعزل (ليجي ياسو) بعد خطوب وحوادث جمة، وتولت العرش (زوديتو) كبرى بنات منليك، وعين الرأس تفري وصيا للعرش ووليا للعهد، فاستأثر بكل سلطة حقيقة. ولم تمض أعوام قلائل حتى أعلن نفسه إمبراطورا إلى جانب (زوديتو) ولما توفيت الإمبراطورة سنة 1930، انفرد بالملك تلقب باسم (هيلا سلاسي)، وفي عهده قطعت الحبشة مراحل كبيرة في سبيلا التقدم والاتحاد والإصلاح الوطني، والتحقت بعصبة الأمم (سنة 1923)، وزار الإمبراطور إيطاليا سنة 1925 فاستقبل في رومة بحفاوة كبيرة، وعقدت على أثر ذلك بين البلدين معاهدة صداقة وتحكيم واعتقدت الحبشة أنها في ظل عصبة الأمم، وظل الصداقة الإيطالية الجديدة، قد أمنت مطامع الاستعمار ومشاريعه الغادرة

وكانت إيطاليا منذ نكبة (عدوة) قد وجهت مطامعها الاستعمارية شطرا آخر. وكانت طرابلس، هي المنطقة الوحيدة التي بقيت من شمال إفريقية بعيدة عن الاحتلال الأوربي؛ وطرابلس تواجه إيطاليا في الضفة الأخرى من البحر، وفيها مناطق منبسطة شاسعة تصلح للحرث والاستعمار؛ ومنذ فاتحة هذا القرن تعمل إيطاليا لانتزاع طرابلس من قبضة تركيا الضعيفة، ولم تلق إيطاليا اعتراضا من إنكلترا أو فرنسا إذ كانتا تؤثران أن تحل في طرابلس دولة ثانوية مثل إيطاليا وتخشيان أن تحتلها منافستها القوية ألمانيا. وهكذا استطاعت إيطاليا بموافقة إنكلترا وفرنسا أن تعد عدتها لاحتلال طرابلس. وفي أواخر سنة 1911 وجهت إيطاليا إلى تركيا بلاغا نهائيا تزعم فيه أن مصالحها في طرابلس قد عبث بها، وأتبعت ذلك في الحال باحتلال ثغري طرابلس وبنغازي، وتركت تركيا كعادتها طرابلس لمصيرها، ولم يتقدم للدفاع عنها سوى حاميتها الصغيرة؛ ولكن ذمرة من الضباط البواسل بين ترك ومصريين استطاعوا أن يحشدوا رجال القبائل لقتال العدو المغير، واستطالت الحرب الطرابلسية زهاء عام (حتى أكتوبر سنة 1912) وانتصر الإيطاليون في النهاية وعقدوا الصلح مع تركيا، واعترفت تركيا بالحماية الإيطالية على طرابلس. ولكن إيطاليا اشترت ظفرها غاليا بالمال والرجال، ولم تتقدم مع ذلك كثيرا داخل طرابلس، لأن رجال القبائل واصلوا الدفاع عن وطنهم، واستمرت إيطاليا تعاني أشد المتاعب في طرابلس مدى أعوام طويلة. ولم توفق إلى إخماد القبائل إلا منذ سنة 1925، إذ جردت عليها قوى جرارة. واستعانت بأشنع وسائل الفتك الحديثة. ومع ذلك فإنها تقيم في طرابلس على بركان من الحفيظة والبغض قد ينفجر لأول فرصة

ومنذ قيام الطغيان الفاشستي في إيطاليا، تضطرم إيطاليا الفاشستية بآمال وأطماع جديدة، وتساورها حمى التوسع والفكرة الإمبراطورية. وكانت إيطاليا قد حصلت منذ سنة 1915 بمقتضى معاهدة لندن السرية على وعود من فرنسا وإنكلترا بأن تعوض عند دخولها في الحرب بمنح استعمارية في إفريقية، ولكن الحلفاء نكثوا وعودهم في مؤتمر الصلح، واكتفوا بما استولت عليه إيطاليا في أوربا من تراث النمسا. ولكن

إيطاليا الفاشستية شددت في طلب الوفاء بالعهود المقطوعة، واستطاعت أن تحصل على مزايا استعمارية جديدة في إفريقية، مثل استيلائها على واحة جغبوب المصرية وواحة العوينات السودانية بفضل نفوذ إنكلترا، واستيلائها على منطقة شاسعة من السودان الفرنسي بمقتضى المعاهدة الفرنسية
الإيطالية الأخيرة. ولما اعتقد موسوليني أنه سما بإيطاليا وقواها العسكرية والمعنوية إلى أرفع مكانة، اتجه بأنظاره إلى الحبشة، ورأى أنه بغزوها واحتلالها يمحو وصمة الماضي المؤلم، ويحقق حلم إيطاليا المحطم في إنشاء إمبراطورية استعمارية كبيرة تشمل الإرترية والصومال والحبشة. وهانحن أولاء نشهد منذ أشهر قوى الفاشستية تتدفق بواسطة قناة السويس إلى شرق إفريقية، وهاهي تغزو أراضي الحبشة؛ وهكذا يزمع الاستعمار الأوربي أن ينقض على آخر وحدة مستقلة في إفريقية ليفترسها كما افترس أخواتها من قبل، وليعمم الاستعباد جميع أرجاء القارة السمراء
وليس من موضوعنا أن نتحدث هنا عن مصاير هذه الحرب الاستعمارية الجديدة، فان في الحبشة شعبا باسلا استطاع منذ فجر التاريخ أن يذود عن حرياته واستقلاله، واستطاع حتى في العصر الحديث أن يلقي على أولئك الذين يتربصون به اليوم درسا عميق الأثر، ولكنا نلاحظ بهذه المناسبة أن إيطاليا الفاشستية تذهب بعيدا في أحلامها القيصرية. أجل إن موسوليني يتشح اليوم بثياب قيصر، ويفكر على طريقة الدولة الرومانية، ويتصور أنه يستطيع بما اكتمل له من الاستعداد الحربي أن يخلق دولة القياصرة من جديد، وأن يجعل من البحر الأبيض المتوسط بحيرة رومانية، وأن يرد مصر - بعد الاستيلاء على الحبشة - إلى حظيرة الإمبراطورية الجديدة؛ ولكن موسوليني ليس بقيصر، وليست إيطاليا الفاشستية بالدولة الرومانية، وهيهات أن يسمح العالم الحديث لهذه الفاشستية المحمومة بأن تضع لمحة من أحلامها العريضة موضع التنفيذ. ولقد كانت إيطاليا منذ جيلين فقط أمة مستعبدة ممزقة تجاهد لاستقلالها ووحدتها، ولكنها اليوم، وهي حديثة عهد بنعمة الاستقلال، لا ترى بأسا من أن تجني على استقلال شعب حر باسل، لأنها فقط تحلم بافتتاحه واغتيال أرزاقه؛ ولكنا نحن الذين لا يؤمنون بعظمة الفاشستية، ولا بخلالها ووسائلها المثيرة، نتوقع أن تكون هذه المغامرة الذميمة - وقد اجترأت الفاشستية على تنفيذ مشروعها - قبر الفاشستية وقبر مطامعها وأحلامها الدموية الأثيمة
(تم البحث)
الشعر في صدر الإسلام وعهد بني أمية
بقلم أحمد حسن الزيات
خصائص الشعر في العراق - 3
وكأن الهجاء كان في جرير غريزة يرمي الناس عنها لأدنى سبب وعلى غير معرفة، فقد دخل على الوليد بن عبد الملك وعنده عدي بن الرقاع العاملي، فقال له الخليفة: أتعرف هذا؟ قال: لا يا أمير المؤمنين. فقال: هذا رجل من عاملة، قال جرير: التي يقول فيها الله: (عاملةٌ ناصبة تصلى ناراً حامية)، ثم قال بيتا قبيحا ورد عليه عدي بمثله، فهجاه جرير بقصيدة منها ذلك البيت المشهور:
وابنُ اللبون إذا ما لُزَّ في قَرَنٍ ... لم يستطع صولةَ البُزل القناعيس
ولعل ذلك راجع إلى ميل في طبع أمه إلى هذا الضرب من البذاء والإيذاء. فاشتهت أن تراه فيه، حتى صورت لها تلك الأمنية في الحلم، فرأت وهي حامل به أن حبلا نزل منها فصار يثب على الناس فيخنقهم واحد بعد واحد، فلما تأولت رؤياها قيل لها: إنك تلدين ولدا يكون شديدا الهجاء والبلاء على الناس والشعراء، فسمته لذلك جريرا. وسواء أرأت أمه هذه الرؤيا أم افتراتها، فقد كان لها ولا ريب أثر قوي في توجيه قريحته منذ طفولته
وهجاء جرير على الجملة ضعيف الفخر لبعد مستقاه فيه، وما استطاع الفرزدق أن يعجزه إلا في مشواره، فهو يقول له بحق:
غلبتك بالمفقّأ والمعّنى ... وبيت المحتبي والخافقات
يريد بالمفقا أو المفقئ قوله:
ولست ولو فقأت عينيك واجداً ... أباً لك إن عُد المساعي كدرام
وبالمعنى قوله:

وإنك إن تسعى لتدرك دارماً ... لأنت المعّنى يا جرير المكلَّف
وبالمحتبى قوله:
بيتاً زؤرارة محتب بفنائه ... ومجاشع وأبو الفوارس نهشل
وبالخافقات قوله:
وأين تُقضى المالكات أمورها ... بحق وأين الخافقات اللوامع
والفرزدق يريد بهذه الأبيات الإشارة إلى القصائد التي تضمنتها وهي من عيون شعره ومتين فخره
وضعف جرير في الفخر إنما يرجع إلى الموضوع لا إلى الأسلوب، فانه أجمل خصومه صياغة، وأوفرهم بلاغة، وأرقهم لفظا، وألطفهم مدخلا، وأكثرهم افتنانا. ولسهولة شعره وقلة غريبه نفق عند العامة الشعراء، دون الرواة والعلماء
وهجاء هؤلاء الأقران الثلاثة إذا استثنينا منه المعاني الجديدة واللهجة الشديدة والتصوير البارع، لم يخرج عن سمت الهاجئين الفحول كالمخبل الفريعي، وحسان بن ثابت، والحطيئة، في الابتداء بوصف الطلل والغزل، والاعتماد على المفاخرة والمنافرة، وتلمس العيوب من خبايا الماضي، والانتقال المقتضب من معنى إلى معنى. وأشد ما يعيب هجاء جرير والفرزدق كثرة التكرار، فأن كلا الرجلين إنما يهجو صاحبه بطائفة من الحوادث والصفات ذكرناها من قبل، فلا نراه يعدل عنها، ولا يكاد يزيد عليها، وإنما يرددها في كل قصيدة أو نقيضة في أساليب شتى وقواف مختلفة، فإذا قرأنا لكل واحد منهما واحدة منهن لا يضيرنا بعدها ألا نقرأ غيرها. كذلك إذا ألممنا بهجاء الأخطل والفرزدق وجرير فقد ألممنا بسائر الهجاء في هذا الطور، لأنه مصوغ من مادته ومضروب على مثاله
على أن أساليب شعراء العراق في الهجاء الحزبي تختلف عنها في الهجاء الفردي، فبينما هم في هذا لا يترفعون عن الهجر ولا يتورعون عن الكذب تراهم في ذلك يذهبون مذهب الجاهليين، فيفاخرون بالنسب، ويكاثرون بالعدد والمال، ويؤثرون اللفظ الشريف والأسلوب العف، بيد أنهم يغلون في الفخر حتى ليجعلونه في الدين والحكم والعلم والموطن
قال أعشى همدان وهو من أنصار ابن الأشعث:
اكسع البصري إن لاقيته ... إنما يُكسع من قل وذل
واجعل الكوفي في الخيل ولا ... تجعل البصري إلا في النفل
وإذا فاخرتمونا فاذكروا ... ما فعلنا بكُم يوم الجمل
بين شيخ خاضب عثنونه ... وفتى أبيض وضاح رِفَلْ
جاءنا يخطر في سابغة ... فذبحناه ضحّى ذبح الحمل
وعفونا فنسيتم عفونا ... وكفرتم نعمة الله الأجل
ومن هجائه السياسي الديني قوله مرتجزا في الحجاج:
شطتْ نوى مَن دارُهُ بالإيوان ... إيوان كسرى ذي القرى والريحان
إن ثقيفا منهمُ الكذابان ... كذابها الماضي وكذابٌ ثان
أمكن ربي من ثقيف همدان ... إنا سمونا للكفور الفتان
حين طغى بالكفر بعد الأيمان ... بالسيد الغطريف عبد الرحمن
سار بجمع كالدبى منقحطان ... فقل لحجاج ولي الشيطان
يثبتْ لجمع مذحج وهمدان ... فإنهم ساقوه كأس الذيفان
وملحقوه بقرى ابن مروان
وهذا النوع من الهجاء قليل النفوق والبقاء، كثير النفاق والرياء، لطمع الشعراء في حباء الخلفاء وإيثارهم في الغالب سلامة البدن على سلامة العقيدة. وليس الهجاء الحزبي إلا صورة من صور الشعر السياسي الذي نفق في هذا العصر؛ وما نزعهم بهذه التسمية أن الإسلاميين قد وقعوا على مذهب في الشعر جديد القصد والغاية، فأن مساجلة الخصوم بالشعر كانت مألوفة في عصر الجهالة مشروعة في عهد النبوة، إنما نقصد بالشعر السياسي طائفة من المعاني الجديدة استوحتها خواطر الشعراء من اختلاف الأحزاب في الرأي، وتنازع الزعماء في الحكم. جاءت هذه المعاني الجديدة على النهج القديم في صور مختلفة، نستطيع أن نردها إلى أربع: فقد أتت في صورة المدح المشوب بالتحريض والتعريض كقول أبي العباس الأعمى:

أبني أُمية لا أرى لكُم ... شبهاً إذا ما التفَّت الشيعُ
سعة وأحلاما إذا نزعت ... أهل الحلوم فضرَّها النزع
،أبني أمية غير أنكُم، ... والناس فيما أطعموا طمعوا
أطمعتمو فيكم عدوكم ... فسما بهم في ذاكم الطمع
فلو أنكم كنتم لقومكم ... مثل الذي كانوا لكم رجعوا
عما كرهتم أو لَرَدهم ... حذرُ العقوبة، إنها تزع
وكقول الكميت:
بني هاشم رهط النبي فأنني ... بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب
خفضت لهم مني جناحيْ مودة ... إلى كنف عطفاه أهلٌ ومرحب
وأرمِي وأُرمي بالعداوة أهلها ... وإني لأوذَى فيهم وأُؤَنَّب
وكفة الأمويين في هذا الباب أرجح، لما تجمَّع لهم من الترغيب في المال، والترهيب بالملك، والتمليق لهوى النفوس، فمدحهم ونصرهم أكثر الشعراء في عصرهم، إما دفعا لشرهم وإما طمعا في خيرهم، حتى الذين شايعوا خصومهم من الزبيريين والعلويين لم يستطيعوا حبس لعابهم عن عطايا القصر
وقد يأتي الشعر السياسي في صورة الهجاء كما مر، وكما قال أعشى ربيعة لعبد الملك:
آل الزبير من الخلافة كالتي ... عجل النتاج بحملها فأحالها
أو كالضعاف من الحمولة حملت ... ما لا تطيق فضيعت أحمالها
قوموا إليهم لا تناموا عنهم ... كم للغواة أطلتم أمهالها
إن الخلافة فيكمو لا فيهمُ ... ما زلتمُ أركانها وثمالها
أمسوا على الخيرات قفلاً مغلقاً ... فانهض بيمينك فافتتح أقفالها
وقد يكون اقتراحا لسياسة واستطلاعا لرأي، كقول مسكين الدارمي، وقد أوعز إليه معاوية أن يقترح البيعة من بعده لابنه يزيد ليعلم رأي قومه في ذلك:
إليك أمير المؤمنين رحلتها ... تثير القطا ليلاً وهن هجود
ألا ليت شعري ما يقول ابن عامر ... ومروان أم ماذا يقول سعيد
بني خلفاء الله مهلاً فإنما ... يبوئها الرحمن حيث يريد
إذا المنبر الغربي خلاه ربُّه ... فإن أمير المؤمنين يزيد
فلما أتم إنشاده قال معاوية: ننظر فيما قلت يا مسكين ونستخير الله
ومثل ذلك حدث من عبد الملك، فقد أراد أن ينقل ولايته العهد من أخيه عبد العزيز إلى أبنه الوليد، فأمر النابغة الشيباني أن يقترح ذلك في حضرة الناس فقال:
لابنك أولى بملك والده ... ونجم من قد عصاك مُطَّرح
داودُ عدْل فاحكم بسيرته ... ثم ابن حَرْب فأنهم نصحوا
وهم خيار فاعمل بسنتهمْ ... واحيَ بخير واكدح كما كدحوا
فابتسم عبد الملك ولم يتكلم، فعلم الناس أن ذلك أمره
ثم يكون أحيانا جدلا في رأى أو بيانا لمذهب؛ فمن الجدل السياسي ما وقع بين كعب بن جعيل والنجاشي في المفاضلة بين علي ومعاوية. فقد قال كعب:
أرى الشام تكره ملك العرا ... ق وأهلَ العراق لهم كارهينا
وكل لصاحبه مبغض ... يرى كل ما كان من ذاك دينا
وقالوا عليٌّ إمام لنا ... فقلنا رضينا ابن هند رضينا
وقالوا نرى أن تدينوا لهم ... فقلنا لهم لا نرى أن ندينا
وكلُ يسر بما عنده ... يرى غث ما في يديه سمينا
وما في عليّ بمستعتبي ... ينال سوى ضمه المحديثنا
وليس براض ولا ساخط ... ولا في النهاة ولا الآمرينا
ولا هو ساء ولا هو سرَّ ... ولابد من بعد ذا أن يكونا
فلما بلغ ذلك الإمام علياً النجاشي أن يجيبه فقال:
دَعنْ معاوي ما لم يكونا ... لقد حقق الله ما تحذرونا
أتاكم عليٌّ بأهل العراق ... وأهل الحجاز فما تصنعونا؟
يرون الطعان خلال العجاج ... وضرب الفوارس في النقع دينا
همو هزموا الجمع جمع الزبير ... وطلحة والمعشر الناكثينا

فان يكره القوم ملك العراق ... فقِدماً رضينا الذي تكروهنا
فقالوا لكعب أخي وائل ... ومن جعل الغث يوماً سمينا:
جعلتم علياً وأشياعه ... نظير ابن هند ألا تستحونا؟
ومن البيان المذهبي قول كثير عزة يشرح عقيدة الشيعة في الإمامة:
ألا إن الأئمة من قريش ... ولاةَ الحق أربعة سواء:
عليٌّ والثلاثةِ من بنيه ... هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبطُ سبط إيمان وبر ... وسبط غيبته كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى ... يقود الخيل يقدمها اللواء
تغيب لا يرى فيهم زمانا ... برضوى عنده عسل وماء
وكقول ثابت قطنة، وهو من شعراء الأمويين، يفصل مذهب الأرجاء:
يا هند فاستمعي لي إن سيرتنا ... أن نعبد الله لم نشرك به أحدا
نرجي الأمور إذا كانت مشبهة ... ونصدق القول فيمن جار أو عندا
المسلمون على الإسلام كلهم ... والمشركون استبوا في دينهم قدرا
ولا أرى أن ذنباً بالغ أحداً ... في الناس شركاً إذا ما وحدوا الصمدا
إلى أن قال:
كل الخوارج مخطئ في مقالته ... ولو تعبد فيما قال واجتهدا
أما عليٌّ وعثمان فانهما ... عبدان لم يشركا بالله مذ عبدا
الله اعلم ما قد يحضران به ... وكل عبد سيلقي الله منفردا
هذه جملة المعاريض التي عرضت بها المعاني السياسية، ولعلك تلاحظ من هذه الأمثلة أنها في الغالب مهلهلة النسج، نابية القافية، بادية التكلف، تشبه من بعض الوجوه نظم المتون. وعلة ذلك أن اتصالها بالوجدان ضعيف، وأن أكثرها إنما يصدر عن طبع مكره، أو شعور ممالق، أو قريحة كابية؛ والفرق بين شعر الأخطل والفرزدق وجرير، وبين شعر هؤلاء الذين ذكرنا كالفرق بين من يعبر عن شعوره وحسه، ويدافع عن قبيله ونفسه، وبين من يتصل لسانه بقلب غير قلبه، ويدفعه طمعه إلى ممالأة حزب غير حزبه
على أن من شعراء الأحزاب من قالوا الشعر عن عقائد دينية وعواطف نفسية، ونوازع عصبية، فكان لشعرهم جمال الإخلاص وروعة اليقين، وقوة الحقيقة، أولئك هم شعراء الشيعة والخوارج، فحق علينا ونحن في مقام البحث في شعر العراق أن نديم النظر ساعة في أشعارهم، لنستشف من خلالها صور مذاهبهم وأفكارهم
(يتبع)
الزيات
يوم افتتاح المدارس
صور دمشقية سوداء طبق الأصل. . .
للأستاذ علي الطنطاوي
ذهبت أمس إلى المدرسة الأمينية، وهي المدرسة الإسلامية التي انحطمت على جدرانها ثمانية قرون وهي قائمة، وماتت من حولها ثمانمائة سنة وهي حية، ونشأت دول وانقرضت، وبدئت تواريخ وختمت، وتبدلت الأرض وتغيرت، وهي ماضية في سبيلها، عاكفة على عملها، قد انقطعت عن الأرض من حولها، واتصلت بالسماء من فوقها، فعاشت في سماء العلم والناس يعيشون في أرض المادة. . .
دخلتها فإذا هي صامتة ساكنة، لا يسمع في أبهائها صوت مدرس بدرس، أو دارسين بتلاوة، وإذا في كل فصل من فصولها رهط من التلاميذ، متفرقون في زوايا الفصل، لا تنفرج شفاههم عن بسمة السرور، ولا تلمع عيونهم ببريق الجذل، وإذا الأستاذ صاحب المدرسة قابع في غرفته، يفكر حزينا، وينظر آسفا؛ وهو الذي لم يأل العمل جهدا، ولم يسيء بالله ظنا؛ فلما رآني قام إلي يحدثني عن المدرسة، ويعلمني علمها، فإذا المدرسة قد زلزلت في مطلع هذا العام المدرسي، لأن الناس قد مالوا عن المدارس الإسلامية وزهدوا فيها، وزاغوا إلى المدارس الأجنبية وأقبلوا عليها، وضنوا على مدارسنا بدينار واحد في العام، ليمنحوا تلك ثلاثة أرباع الدينار في الشهر. .
وأفاض الأستاذ في البيان، حتى امتلأت نفسي حزنا، فخرجت حزينا فمررت على (الكاملية) فإذا هي في خطب أشد، ومصيبة أفدح، فجزت بـ (الجوهرية) فإذا هي ماتت

بعد شيخ الشام، الشيخ عيد السفر جلال، وإذا فيها بنات يقرأن ويصحن ويلعبن، فسلكت على (التجارية) فإذا دارها الكبيرة في زقاق الفخر الرازي، خلاء قواء، وإذا هي قد انتقلت إلى الخيضرية فاتخذت فيها دارا، ورأيت (الجقمقية) القاعة التاريخية الجميلة، والمدرسة الأثرية الجليلة، فإذا هي قد اتخذت دارا. . .

فذهبت وأنا أحس الألم يقطع في كبدي، والأسى يحز في قلبي، ووددت لو أن الله قبضني إليه قبل أن أرى مدارسنا الإسلامية، لا تستطيع أن تعيش في البلد الإسلامي، ولا تجد من يشد أزرها، ويأخذ بيدها. . . وأممت شارع بغداد أروح عن نفسي بخضرة البساتين،

وجمال الكون، وانطلاق الهواء، ومنظر الجبل، فما راعني إلا أفواج من الناس قد ازدحمت على باب بناء كبير، كأنه قلعة من القلاع، أو قصر من القصور، حتى لقد كادت تسد بكثرتها الشارع العريض: ما راعني إلا الناس على باب (مدرسة اللاييك)، يتدافعون ويتزاحمون، كأنهم على باب الجنة، فكل يطمع أن يسبق إليها، وكلما فتح الباب لواحد، لحظته العيون بالغيظ، ورمقته بالحسد. . . فسألت قوما أعرفهم ينظرون كما أنظر، ماذا هناك؟ فقالوا: هم المسلمون يريدون يسلموا أبناءهم إلى رجال اللابيك ليصبوا في قلوبهم ما يشاؤون من عقائد باطلة في الدين، وعواطف زائفة في الوطنية، وزهادة في اللغة، وكره للتاريخ الإسلامي، والقومية العربية، ويدفعون إليهم الأموال الطائلة، وما يشترون بها إلا الكفر لأبنائهم، والزيغ والإلحاد، وحب الغريب، وبغض القريب، وما يشترون بها إلا أعداء لهم ولأوطانهم، يحاربونهم في دورهم، ويغزونهم في أخلاقهم وعقائدهم، وهم قد انحدروا من أصلابهم، وخرجوا من ظهورهم؛ أفرأيت بلاء أشد، وخزيا أكبر، من أن يحاربونا بأبنائنا، ويأخذوا على ذلك أموالنا؟. . .

فقلت: لا والله! وسرت، أخشى أن يتمزق والله من الألم كبدي، فمررت على (مدرسة الفرير) فإذا الجموع أكثر، والازدحام أشد، والمسلمون يرجون الخوري. . . أن ينسي أبناءهم القرآن، ليحفظهم الإنجيل، ويبغض إليهم محمدا وأبا بكر وعمر، ويحبب إليهم بطرس ولويس ونابليون. . . فسرت مسرعا، لا يطول بي وقوف فتحرقني نار الحزن، وأخذت طريقي إلى مدرستي، أسلك إليها سارع البرلمان، فإذا على باب (مدرسة الفرنسيسكان) أمام الكنيسة الفخمة، جمهور من المسلمين لا يحصيهم عد، يأخذون بأيدي بناتهم، ليدخلوهن إليها. . . فعدت أدراجي إلى شارع الصالحية فأخذت حافلة (الترامواي) إلى مدرستي في حي المهاجرين، في لحف جبل قاسيون

ولم يستقر بي في المدرسة مقام، حتى أقبل علينا شيخ من مشايخ المسلمين، على رأسه عمة بيضاء كأنها برج، وحول يده كم كأنه خرج، تتدلى منه سبحة لا يفتأ يعد حباتها ويلعب بها، وقد يخطئ مرة فيسبح عليها، يجر بيده ولدا، فخذاه مكشوفان وعلى رأسه كمة فقلت له:

- ما هذا يا شيخ؟ أعورة من أعلى، وعورة من أسفل؟

- قال: وما ذاك؟

- قلت: ألم يكفك تكشف عورته، وأنت تذكر الله، وتتلو كتابه، وتظهر منه ما أمر الله بستره، حتى تضم إلى العورة عورة أخرى تجئ فوق رأسهن فتلبسه القبعة؟

- فقال (ولوى لسانه وتفيهق وتشدق): ما هي بعورة في مذهبنا

- قلت: وما مذهبك يا مولانا؟

- قال: مذهب الإمام مالك

- قلت: ذاك لمن لا يفرق بين عورة الملتحي وعورة الأمرد، هذا الذي في مذهب مالك، لا مع مثل ابنك الذي لا تؤمن معه الفتنة

وإذا أنت فهمت مذهب مالك بهذا الفهم الأعوج، أفليس في الناس فساق، يأكلون عرض ابنك على مذهب مالك، ما دام مذهب مالك حجة يحتج بها كل ما جن وفاسق. . . رحم الله مالكا وجعل افتراءكم عليه حسنات له

وتركته وقمت إلى قسم الشهادة الابتدائية، أرى التلاميذ. . . فإذا أكثرهم لا يستر إلا نصفه الأعلى، وإذا هم متأنثون مائلون مميلون، فجعلت أسألهم من هنا وهناك، فقلت:

- ما شروط الصلاة؟ من يعرفها منكم؟

- قالوا: لا نعرفها، درس الديانة ليس من دروس الامتحان فلا نحفظه

- قلت: فماذا قرأتم في السنة الماضية؟

- . . .قالوا: وماذا نقرأ، عندنا ساعة واحدة في الأسبوع
- قلت: فلنبحث في التاريخ، من يحدثنا عن وقعة اليرموك، أو القادسية؟
- قالوا: ما قرأناها. . . نحدثك عن سيرة نابليون، ووقعة واترلو. . . هذا ما قرأناه
. . .وسنقرؤه في هذا العام
!وبعد. . . فهذا طرف من الحقيقة، وقليل من كثير من الواقع، نسوقه بلا تعليق
(دمشق)
علي الطنطاوي
من تراثنا الأدبي
أبو العيناء - 1
بقلم محمود محمود خليل
أبو العيناء ونسبه
أبو العيناء كاتب منشئ من كتاب القرن الثالث الهجري الحافل بأساطين الأدب وجلة العلماء، ولكنه كاتب ضرير البصر من العباقرة الذين سجل لهم التاريخ الذكر الحسن، أمثال أبي العلاء المعري وبشار بن برد وأضرابهما، وكأن سنة الله قد جرت في الخلق أن يقترن فقد البصر بالنبوغ غالبا والعبقرية، ولن تجد لسنة الله تبديلا. وإذا كان القدر قد أتاح لشاعر المعرة فطاحل الكتاب والأدباء يدرسونه ويمحصونه، ويستخلصون فلسفته من شعره، فلا أقل من أن يدرس أبا العيناء الضرير شخص مثلي، وفي اعتقادي أن شخصية أبي العيناء جذابة فكهة كما سترى، وهي تفضل شاعر المعرة العبوس المتبرمة من هذه الناحية
يحدثنا الرواة أنا أبا العيناء اسمه أبو عبد الله محمد بن القاسم ابن خلاد بن ياسر بن سليمان، وأصل قومه من بني حنيفة من أهل اليمامة، ولحقهم سباء في خلافة المنصور العباسي، فلما صار ياسر في يد المنصور أعتقه، فهم موالي بني هاشم
مولده ونشأته
ولد أبو العيناء بالأهواز في آخر المائة الثانية للهجرة، ونشأ بالبصرة، وبها طلب الحديث وكسب الأدب؛ وكان على استعداد تام للحرص على كل ما يلقي عليه فأثمرت فيه تربيته بالبصرة الثمر الطيب، وأخرجته رجلا فذا في الحياة، مثقفا إلى درجة حسنة، ولقد هيأته تلك الثقافة إلى رواية الأخبار الطريفة، والملح اللطيفة، والأشعار الجيدة، حتى لقد بلغ الأمر أن يعرض عليه المتوكل العباسي أن يكون نديمه على شرابه، ويتمنى عليه لو يجيبه، فيمنعه عمى بصره عن الوصول إلى تلك المرتبة السنية، وإن كان قد حاز منزلة سامية من قلب المتوكل. ونرى الأصفهاني في كتابه الأغاني يجعله من رجال سنده في جملة أخبار أتى بها في كتابه، يقول في سند له: أخبرني قدامة عن أبي العيناء عن العتبي
ويمضي أبو الفرج فيروي لنا حديثا طويلا بهذا السند في أمر زواج ليلى العامرية برجل من ثقيف وشعر مجنون بني عامر حين بلغه ذلك، وسند آخر أتى به أبو الفرج. قال أخبرني محمد بن خلف، قال حدثنا أبو العيناء عن القحذمي عن أبي صالح السعدي، ثم يمضي في رواية خبر طويل يتعلق بعمر بن أبي ربيعة، وكذلك ينقل عنه الأبشيهي صاحب كتاب المستطرف، وغير هذين المؤلفين كثير، وعد المؤلفين لأبي العيناء من الرجال الذين يعتمد عليهم في رواية الأخبار والأشعار ما هيأه لذلك إلا نشأته بين أولئك الفطاحل من البصريين الذين تغذى بلب علومهم، واستصفى ثمار عقولهم
كان أبو العيناء إذا يتردد على علماء البصرة يأخذ عنهم. فهل كان في هذا الوقت أعمى أم بصيراً؟ يقول الرواة إنه ما عمى إلا بعد أربعين عاما من عمره، وهو زمن ليس بالقليل يكون أبو العيناء قد أخذ فيه بحظ وافر من متعته ببصره، والغريب في هذا حقا أن الرواة يسيطرون لنا أسطورة عن سبب عماه؛ وهي أن جده الأكبر لقي علي بن أبي طالب (ض) فأساء مخاطبته. فدعا عليه وعلى ولده بالعمى، فكل من عمى منهم فهو صحيح النسب، فهذا الخبر إن صح ينبثق منه شعاع من الحقيقة يتحكم فيه قانون الوراثة، فقد ورث عن آبائه سلاطة اللسان
قال أبو العيناء حاكيا عن نفسه: أنا أول من أظهر العقوق لوالديه بالبصرة، قال لي أبي إن الله قد قرن طاعته بطاعتي، فقال تعالى: (أن أشكر لي ولوالديك) فقلت يا أبت إن الله تعالى قد أمنني عليك ولم يأمنك علي. فقال: (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق

نحن نرزقهم وإياكم)، ولم يقف بسلاطته تلك على أهله وذويه، فان الناس كلهم كانوا يخافون معرة لسانه، والسهام التي يقذفها في كلامه، وتستطيع أن تجد له أخبارا كثيرة في كتب الأدب تؤيد ما ذهبنا إليه، فهذا موقفه مع فتى ماجن أراد العبث به مرة. فقال له يا أبا العيناء متى أسلمت؟ قال حين أسلم أهلك وأبوك الذين لم يؤدبوك. . . الخ ذلك الخبر، وموقف آخر مع عيسى بن فرخان شاه الذي يتولى الوزارة ويتيه فيها على أبي العيناء، فلما عزل لقيه أبو العيناء في الطريق فسلم عليه وأحفى فقال له: والله لقد كنت أقنع بإيمائك دون بيانك، وبلحظك دون لفظك، فالحمد لله على ما آلت إليه حالك، فلئن كانت أخطأت فيك النعمة، فلقد أصابت فيك النقمة، ولئن كانت الدنيا أبدت مقابحها بالإقبال عليك، فلقد أظهرت محاسنها بالانصراف عنك، ولله المنة إذ أغنانا عن الكذب عليك، ونزهنا عن قول الزور فيك، فقد والله أسأت حمل النعم، وما شكرت حق المنعم

وموقف ثالث يقفه أبو العيناء مع بعض الوزراء في مجلسه إذ يمدح البرامكة ويذكر سخاءهم وجودهم فيقول الوزير إنما هذا من تصنيف الوراقين، وكذب المؤلفين، فقال أبو العيناء: فلم لا يكذب الوراقون عليك أيها الوزير؟ فأسكته وعجب الحاضرون من إقدامه عليه

فهذه الأخبار وغيرها كثير تعطينا فكرة صحيحة عن سلاطة لسانه التي امتاز بها بين الأدباء المعاصرين له، حتى كان الوزراء وأرباب المناصب وغيرهم يخافونه ويتقون لسانه بل يدارونه، وتلك اللسانة كما قلت كانت موروثة عن آبائه، فقد علمنا كيف أقدم جده الأكبر على علي بن أبي طالب (ض)، وأساء مخاطبته حتى دعا عليه، وحتى أستجيبت دعوته فيه وفي أحفاده من بعده. ولكن أبا العيناء يعتذر عن بذاءة لسانه حين سأله المتوكل على الله بقوله بلغني عنك شر. فقال يا أمير المؤمنين إن يكن الشر ذكر المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، فقد زكى الله وذم، فقال في التزكية: (نعم العبد إنه أواب)، وقال في الذم: (هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم) وقال الشاعر:

إذا أنا لم أمدح على الخير أهله ... ولم اذمم الجبْس اللئيم المذمما
ففيم عرفت الخير والشر باسمه ... وشقّ لي الله المسامعَ والفما

وإن كان الشر كفعل العقرب التي تلسع السني والدنيء بطبع لا يتميز فقد صان الله عبدك عن ذلك

وفي الحق إن أبا العيناء لم يكن يسفه على أحد من الناس إلا على من يتعرض له بإساءة، فإذا تجرأ على هذا شخص فويل له من لسانه، ولقد أجاب المتوكل إذ قال له كم تمدح الناس وتذمهم فقال ما دام المحسن يحسن والمسيء يسيء، وغرضه بهذا أنه يعطي كل إنسان ما يستحقه من مدح أو ذم، ولقد مدح أناسا كثيرين ولكنه ذم أكثر ممن مدح، وإنا وإن كنا نعتقد أن أبا العيناء قد أسرف في الذم إسرافا كثيرا، فان من الحق علينا أن نعترف أن هناك عوامل أخرى جعلته يسرف هذا الإسراف، وسنعرف بعد ما هي هذه العوامل

(يتبع)

محمود محمود خليل

في الأدب الإنجليزي

الكائنات الغيبية في شعر شكسبير - 3

بقلم خيري حماد

لم يحاول شكسبير إظهار شخصيته من خلال رواياته، ولكن كارليل يقول عنه: (إن روايات شكسبير هي كنوافذ متعددة يظهر من خلالها ما كان يدور في نفسه من الأفكار والخواطر). ومن كل رواية من رواياته يمكننا أن نتبين الحالة العقلية التي كان فيها لما أنشأها وكتبها. ففي هملت لم يكن تفكيره محصورا إلا في البحث في الأشباح، بينما كان في مكبث مشتغلا بالسحر والسحرة

وفي كل من روايتيه تتحقق النبوءات التي تتنبأ بها الأشباح والساحرات. ولكن هناك ثمة فرقا ضئيلا بين كل من الروايتين، وذلك الفرق هو أن نبوءات الشيخ في هملت هي من أمور الماضي بينما هي في مكبث أمور المستقبل

وقد قال جبسن عند كلامه عن العاصفة ما يؤكد هذه النظرية، فهو يقول: (هل كان في

استطاعة شكسبير أن يجعل من جميع هذه النبوءات الخيالية حقائق راهنة إن لم يكن يعتقد الاعتقاد كله بهذه الأمور من عالم الخيالات والأشباح؟)

وفي رواية الملك هنري الرابع نرى هتسبر يعارض اعتقاده جلندرو أن في استطاعته أن يسخر الأرواح والشياطين في مهامه الخصوصية، فهو يتحداه بقوله: (إنك تعتقد أن في إمكانك مخاطبة الأرواح ولكن هذا في استطاعتي أنا وفي استطاعة أي رجل آخر. وقد فاتك يا هذا أنها لا تجيبنا عند ما ندعوها أو نخاطبها)

وهذا الشك لا يلبث أن يزول عندما يقدم جلندور البرهان الكافي فتخاطبه الأرواح كأنه فرد من جنسيتها؛ وهذا الاعتقاد بالخرافات كان مستوليا على شكسبير لدرجة عظيمة حتى أنه كان يضع المحبين والمجانين والشعراء في مصاف من يستطيعون الاتصال بالعالم العلوي، وفي رواية هنري السادس نراه يجمع بين ما هو في عالم العقائد وما هو في عالم الخرافة، وقد لخص عقيدته في رواية هملت إذ يقول: إن هناك في السماء أمورا عدة يا هوراثيو

(مما ليس في استطاعة العالم البشري فهمها أو التفكير فيها

أو حين يقول في رواية أخرى:

(يقولون إن زمن المعجزات قد انتهى وآن لنا أن نفكر في كياننا الفلسفي فقط فنجعل من الخرافات مسائل عصرية يقبلها العقل ويسيغها المنطق. ولما كنا نستهزئ بالمخاوف والأشباح متسترين برداء من العلم والمعرفة فعلينا ألا نكون عرضة لمخاوف (غير مرئية وهذا مما لا يتأتى لنا

إن في استطاعتنا أن نستنتج من هاتين الفقرتين السابقتين أن شكسبير كان يؤمن بالخرافات والغيبيات، فهناك عدد غير قليل من الأمور التي ليس في استطاعتنا فهمها أو التعبير عنها. فلا يمكن مثلا إنكار وجود عدد من المعجزات التي يكثر حدوثها فوق ظهر هذه البسيطة، وما العالم العلوي إلا محيط لا يمكننا حل ألغازه وتفهم معانيه. فإن من طبيعة البشر أن يكونوا خاضعين لعالم غير عالمهم يجهلونه ويخافونه، وما المحاولات التي يقوم بها العلماء لإسناد كل ظاهرة طبيعية إلى عاملها العلمي إلا محاولات خالية من الإقناع وعن طريق البرهان

قلنا إن شكسبير كان يؤمن بعدد من المخلوقات المغيبة، وقد جمعها في رواياته محاولا إظهارها بصورة رائعة من الخيال والسمو الفكري، وأولى هذه الأنواع وأهمها هي ظاهرة الجنيات

الجنيات

إن هذه الجنيات هي بقايا العبودات والآلهة المحلية التي كانت سائدة على القرى الإنكليزية في عصر من العصور، وما العقيدة الشائعة أن هذه الجنيات قد تسلسلت من الآلهة اليونانية والرومانية القديمة إلا حديث خرافة لا أصل له من الصحة والصدق. وهناك نفر غير قليل من النقاد يرجعونهن إلى أصل بشري، فما هن إلا ذرية سكان بريطانيا الأقدمين الذين طردهم الكلت عند استيلائهم على البلاد، فلم يجدن غير الغابات ملجأ يلجأن إليه ومكانا يستطعن العيش فيه مدة حياتهن القادمة، وأصبحن يعرفن فيما بعد بالجنيات

وهذه المخلوقات العجيبة كانت على أنواع عدة، فمنها ما هو أسود اللون، ومنها ما هو أخضره آو أبيضه أو رماديه، وفي كثير من الروايات يصفهن شكسبير، فهو يقول في موضع من روايته (نساء وندسور المرحات) واصفا إياهن بقوله: إنهن سوداوات اللون أو رمادياته أو خضراوته أو بيضاوته

وكن لا يخرجن إلا في غسق الليل، فيعقدن مجالس الأنس والطرب تحت ظلال الأشجار، بينا أهل الأرض نيام. وفي (العاصفة) نرى بروسبيرو يخاطب إحدى هذه الجنيات قائلا: (ستخرجين الليلة ويصيبك فيها برد شديد، قد يؤدي إلى تشنج في أعصابك فتألمين منه أشد الألم، وستحيط بك الجنيات في الليل فينفذن فيك مالهن من قوة)

تعيش الجنيات في الحقول المغطاة بالأزهار والرياحين، أو في الأماكن الخلوية من اليابسة والماء، سيان عندهن التلال والوديان، الغابات والمروج؛ وكثيرا ما تراهن بجوار الينابيع وضفاف الأنهار؛ أو في أعماق المحيطات والبحار، وقد وصف الشاعر أحد هذه الأمكنة بقوله: (إني لأعرف شاطئا تهب عليه الرياح، وتنبت فيه أزهار الياسمين

والزنبق محاطة بالورود الجميلة المنظر) أما الملكة فهي تود الاجتماع في جميع الأماكن التي اعتدن فيها اللقيا، فهي تلقي الأوامر على أفراد رعيتها قائلة: (لنلتقي على التلال أو في الوديان، بجانب الينابيع المرصوفة، وعلى شواطئ الأنهار الذهبية، أو في أعماق البحار الرملية، وهناك نحتفل برقصنا على موسيقى الرياح الهائجة)

إن أشهر أسماء هذه الجنيات التي ذكرها شكسبير في رواياته ثلاثة أولها أبيرون الذي يعتبر ملكا على هذه الطائفة من المخلوقات؛ أما تيتانيا فكثيرا ما يطلق عليها اسم الملكة ماب وهي تعتبر باعثة للأحلام كما يظهر في رواية روميو وجوليت: (أني لأعتقد أن الملكة ماب كانت معك فهي وسيطة الجنيات وملكتهن لا يزيد حجمها على حجر صغير أو إصبع من أصابع الرجال، وكثيرا ما تصبح بشكل ذرة ترتكز على أنوف الناس عند نومهم) فهي تبعث الأحلام والأخيلة اللذيذة، ولكنها لسوء حظ البشر في صراع دائم مع زوجها الملك أبيرون، ومن هذا الصراع قد يتأتى من الشرور والأضرار لبني البشر. أما آخر هذه الأسماء وهو بك فهو رسول الملك وحامل أوامره

في الفقرة السابقة رأينا الملكة ماب بحجم صغير، ومن هذا يمكننا أن نستنتج أن الجنيات ذوات حجم ضئيل، وقد وصفهن شكسبير في رواية العاصفة بقوله (حيثما تهبط النحل أهبط أنا وفي استطاعتي أن أنام دخل جرس من الأجراس فأتخلص من نعيق الغربان

والبوم). وقد يتمكن من الظهور بحجم أصغر فيختفين داخل كؤوس الشراب ولا ينتظر من هذه المخلوقات الضئيلة إحداث أمر سيئ للبشرية لولا أنها في نزاع دائم مستمر. نعم إن صفاء نيتهن كان سببا في خلق بعض الآلام إلا أنهن كن لا يلبثن أن يزلن ما أحدثن بمهارة وروية. وكثيرا ما نراهن يتعاطين المزاح فيروعن فتيات القرية ويخفنهن فرأينا إيموجن في سمبالين تخاف هذه المخلوقات وتسأل وصيفتها أن تلازمها لتحميها منهن فهي ترجوها قائلة (أرجوك حمايتي من الجنيات ودلاج الليل) ولكنا نراهن في الغالب يحفزهن حب الخير وعمله فيقمن بأعمال جمة لفائدة البشرية ونفعها ولا يعد روبن هود إلا فاعلا من فعلة الخير ومريده. فهو يتلقى الأوامر من مليكه ويعرضها على أفراد الشعب وهو يستمع إلى أبيرون حين يقول: (على كل جني أن يقف بالباب المعين له، وعليه أن يبارك من في الغرفة ويدعوا لهم بالسلام والطمأنينة). وكثيرا ما دعت الجنيات للأزواج الحديثي العهد بالسرور والبركة وتلقفن أطفالهم بعين الرعاية والعطف حتى يشبوا ولم يعرفوا الألم قط. وهاهو أبيرون يقول (دعنا نذهب إلى فراش كل عروس جديدة فنباركها فتلد غلاما يلازمه السرور وترعاه العناية)

(يتبع)

خيري حماد

كتب ابن المقفع

للأستاذ بشير الشريقي

1 - أبو محمد عبد الله بن المقفع كاتب بليغ مشهور امتاز بأسلوبه الجميل السهل الرشيق، لا أعرف بين أدبائنا القدماء والمحدثين من هو أقدر منه على الكتابة والتعبير إلا عمرو بن بحر الجاحظ. كان ماهرا في تصور طبائع الناس وأهوائهم وميولهم، احتوت كتبه الحكمة والأدب والأمثال، كما احتوت قواعد عامة في الإدارة والسياسة والأخلاق

2 - وهو فارسي الأصل اسمه في الفارسية (روزبة) ولد في (خوز) من أعمال خراسان حوالي سنة 106 هجرية. ونشأ في البصرة، وقد ظل يدين بالمجوسية دين آبائه حقبة من الزمن، ثم اعتنق الإسلام وقد بلغ السابعة والعشرين من عمره، قال الهيثم بن عدي يذكر قصة إسلامه: (جاء ابن المقفع إلى عيسى بن علي عم المنصور، فقال له: قد دخل الإسلام في قلبي وأريد أن أسلم على يدك، فقال له عيسى: ليكن ذلك بمحضر من القواد ووجوه الناس، فإذا كان الغد فاحضر؛ ثم حضر طعام عيسى عشية ذلك اليوم، فجلس ابن المقفع يزمزم على عادة المجوس فقال له عيسى: أتزمزم وأنت على عزم الإسلام؟ قال: أكره أن أبيت على غير دين)

3 - وكما اشتهر عبد الله أنه كاتب كبير، فقد اشتهر أنه مترجم قدير لا تلمح في ترجمته أثر العجمية. فهو أول من اعتنى في الإسلام بترجمة الكتب القيمة، ترجم كتب

أرسطو الثلاثة في المنطق، ونقل كتاب (التاج في سيرة أنوشروان)، وقيل إن كتاب (كليلة ودمنة) كان باللغة الفارسية فنقله إلى اللغة العربية. قال الباقلاني: (ابن المقفع ينحط إذا كتب ويعلو إذا ترجم، لأن في الأولى عقله وفي الثانية كل العقول)
وقال الجاحظ: (كان ابن المقفع مقدما في بلاغة اللسان والقلم والترجمة)
4 - لابن المقفع من الكتب كتابا (الأدب الصغير والكبير) وكتاب (الدرة اليتيمة)، وكتاب (التاج في سيرة أنوشروان)، وكتاب (كليلة ودمنة)؛ وكتب في المنطق. وهذه الكتب منها الموضوع ومنها المنقول، فكتابا (الأدب الصغير والكبير) و (الدرة اليتيمة) من تأليف ابن المقفع؛ أما كتب المنطق وكتاب (التاج) فهي منقولة عن الفارسية التي يجيدها الكاتب إجادة عجيبة، واختلف أهل الأدب في حقيقة كتاب (كليلة ودمنة)، فمنهم من قال إن ابن المقفع
هو الذي وضعه، وأنه نحله الهند القدماء لترغيب أهل زمانه بمطالعته، ومنهم من قال إنه لم يضعه، وإنما كان باللغة الفارسية ونقله إلى العربية
5 - وبعد فأرى أن أحداث القارئ عن أشهر كتب ابن المقفع وأكثرها متعة قيمة، وهي كتاب (الدرة اليتيمة) وكتاب (الأدب الصغير) وكتاب (كليلة ودمنة)، وسيقتصر بحثي على تعريف القارئ بهذه الكتب تعريفا إجماليا، ثم على عرض اجمل ما فيها من صور أدبية واجتماعية مع شرح موجز:
6 - الدرة اليتيمة التي لم يصنف في فنها مثلها تقع في ثمانين صفحة، وتشتمل على فصلين كبيرين، الأول منهما خاص بعلم السياسة ويحتوي على آراء قيمة حكيمة في إدارة الحكومة، وواجبات الحاكم، وعلى وصف دقيق لما يجب أن يكون عليه الأمير من القوة والعدل، والبطش والحلم، والتثبيت والعلم؛ والثاني خاص بعلم الأخلاق، يشتمل على قواعد دقيقة في التربية والاجتماع، وعلم النفس وعلى نظرات صادقة في الناس وشؤونهم
حل ابن المقفع في (درته اليتيمة) مسألة كبيرة تلخص في كيف يتسنى للأمير أن يحفظ ملكه ويثبت سلطانه، نقول: إن هذه المسألة قد لفتت نظر كاتب فلورنسي يدعى (ميكافيللي) في القرن الخامس عشر 1469 - 1527، فوضع كتاب سماه (الأمير) شرح فيه هذه المسألة شرحا لا يكاد يختلف في أصوله ومعانيه عن شرح ابن المقفع؛ وكانت ضجة عظيمة حول الكتاب في الدوائر العلمية والسياسية الأوربية، وكان أصبح مكيافيللي بفضل كتابه الذي اعتبره الغربيون أول كتاب في العلم السياسي، من أعاظم رجال التاريخ؛ ولما كان المجال لا يسمع الكلام بإسهاب اكتفي بقولي: إن من يطلع على (الدرة اليتيمة) يرى أن ابن المقفع بحث في أصول سياسة الملك بحثا مستفيضا ممتعا، وإلى القارئ صورا من (الدرة اليتيمة):
7 - قال ابن المقفع:
أحق الناس بالتوقير الملك الحليم العالم بالأمور وفرض الأعمال ومواضع الشدة واللين والغضب والرضاء والمعالجة والأناة الناظر في الأمر يومه وغده وعواقب أعماله
اعلم أن الملك اثنان: ملك حزم وملك هوى، أما ملك الحزم فانه يقوم به الأمر ولا يسلم من الطعن ولن يضر طعن الذليل مع حزم القوي، وأما ملك الهوى فلعب ساعة ودمار دهر لا
يضيعن الوالي التثبت عند ما يقول وعندما يعطي وعندما يفعل، فان الرجوع عن الصمت أحسن من الرجوع عن الكلام، وإن العطية بعد المنع أجمل من المنع بعد الإعطاء، وإن الإقدام على العمل بعد التأني فيه أحسن من الإمساك عند بعد الإقدام عليه؛ وكل الناس محتاج إلى التثبت، وأحوجهم إليه ملوكهم الذين ليس لقولهم وفعلهم دافع، وليس عليهم مستحث
إن الوالي لا علم له بالناس إلا ما قد علم قبل ولايته، فأما إذا ولي فكل الناس يلقاه بالتزين والتصنع، وكلهم يحتال لأن يثني عليه عنده بما ليس فيه
لا يمتنع الوالي وإن كان بليغ الرأي والنظر من أن ينزل عنده كثير من الأشرار بمنزلة الأخيار، وكثير من الخانة بمنزلة الأمناء، وكثير من الغدرة بمنزلة الأوفياء، ويغطى عليه أمر كثير من أهل الفضل الذين يصونون أنفسهم عن التصنع والتمحل
لتعرف رعيتك أبوابك التي لا ينال ما عندك من الخير إلا بها، والأبواب التي لا يخافك خائف إلا من قبلها

احرص الحرص كله على أن تكون خبيرا بأمور عمالك فان المسيء يفرق من خبرتك
قبل أن تصيبه عقوبتك، وإن المحسن يستبشر بعلمك قبل أن يأتيه معروفك
ليعلم الوالي أن الناس يصفون الولاة بسوء العهد ونسيان الود، فليكابد نقض قولهم
وليبطل عن نفسه وعن الملوك صفات السوء التي يوصفون بها
لا يولعن الوالي بسوء الظن لقول الناس، وليجعل لحسن الظن من نفسه نصيبا
موفورا يروح به عن قلبه ويصدر به أعماله
من صحب السلطان لم يزل مروعا. فساد الملك أضر على الرعية من جدب الزمان
8 - رسالة قيمة في علم تهذيب الأخلاق، تقع في أربعين صفحة كتبت (الأدب الصغير)
بأسلوب جميل ساحر، أسلوب فيه حلاوة وعليه وطلاوة، أسلوب تتجلى فيه الألفاظ
العذبة والمخارج السهلة والديباجة الكريمة والمعاني التي إذا طرقت الصدور عمرتها،
وهي ممتلئة بأصدق الأنباء عن الروح الإنسانية تبرهن على مقدرة ابن المقفع العجيبة
في تصوير طبائع الناس قال:
على العاقل ألا يحزن على شيء فاته من الدنيا أو تولى وأن ينزل ما أصاب من ذلك
ثم
انقطع عنه منزلة ما لم يصب، وينزل ما طلب من ذلك ثم لم يدركه منزلة ما لم يطلب
وعلى العاقل أن يجبن عن الرأي الذي لا يجد عليه موافقا وإن ظن أنه على اليقين
وعلى العاقل إن اشتبه عليه أمران فلم يدر في أيهما الصواب أن ينظر أهواهما عنده
فيحذره
من نصب نفسه للناس إمام في الدين فعليه أن يبدأ في تعليم نفسه وتقويمها في
السيرة والطعمة والرأي واللفظ والأخدان. معلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال
والتفضيل من معلم الناس ومؤدبهم
الناس إلا قليلا ممن عصم الله مدخولون في أمورهم، فقائلهم باغ، وسامعهم عياب،
وسائلهم متعنت، ومجيبهم متكلف، وواعظهم غير محقق لقوله بالفعل، وموعوظهم
غير سليم من الاستخفاف، يترقبون الدوال، ويتعاطون القبيح، ويتعاينون بالفخر
لا يمنعك صغر شأن امرئ من اجتباء ما رأيت من رأيه صوابا، واصطفاء ما رأيت من
أخلاقه كريما، فان اللؤلؤة الفائقة لا تهان لهوان غائصها الذي استخرجها
أعدل السير أن تقيس الناس بنفسك، فلا تأتي إليهم إلا ما ترضى أن يؤتي إليك
ومن روع الرجل ألا يقول ما لا يعلم، ومن الأرب أن يتثبت فيما يعلم
إقدام المرء على ما لا يدري أصواب هو أم خطأ جماح، والجماح آفة العقل
خمول الذكر أجمل من الذكر الذميم
لا يوجد الفخور محمودا، ولا الغضوب مسرورا، ولا الحر حريصا، ولا الكريم حسودا، ولا
الشره غنيا، ولا الملول ذا إخوان
ما التبع والأعوان والصديق والحشم إلا للمال، ولا يظهر المروءة إلا المال، ولا الرأي
والقوة إلا بالمال؛ ومن لا إخوان له فلا أهل له، ومن لا ولد له فلا ذكر له، ومن لا عقل
له فلا دنيا ولا آخرة له، ومن لا مال له فلا شيء له. والفقر داعية إلى صاحبه مقت
الناس، وهو مسلبة للعقل والمروءة، ومذهبة للعلم والأدب، ومعدن للتهمة، ومجمعة
للبلايا، ومن نزل به الفقر والفاقة لم يجد بدا من ترك الحياء، ومن ذهب حياؤه ذهب
سروره، ومن ذهب سروره مقت، ومن مقت أوذي، ومن أوذي حزن، ومن حزن ذهب
عقله واستنكر حفظه وفهمه، ومن أصيب في عقله وفهمه وحفظه كان أكثر قوله
وعمله فيما يكون عليه لا
له
9 - كتاب بليغ يتضمن الجد والهزل، واللهو والحكمة، ألفه بيدبا (كليلة ودمنة)
الفيلسوف الهندي رأس البراهمة، ونقله إلى العربية عن الترجمة الفارسية، في صدر
الدولة العباسية (عبد الله ابن المقفع) رأس الكتاب، وقيل إن ابن المقفع هو الذي
وضعه وأنه نحله الهند القدماء لترغيب أهل زمانه في مطالعة كتب الحكمة والفلسفة
التي لم يكونوا يأبهون لها إلا إذا أسندت للقدماء، وهو موضوع على ألسن البهائم
والسباع والطير ليكون ظاهره لهو للعوام وباطنه رياضة لعقول الخاصة، وهو معروف
متداول فلا داعي للإفاضة في بحثه
10 - ونتساءل: كيف كانت صورة عبد الله بن المقفع وهيئته؟ كيف كان شكله وطراز

جسمه! هل كان جميلا ظريفا قويا أم على العكس قبيحا دميما ضعيفا! ماذا كان يلبس؟ هل كان يهتم بنظافة ثيابه وحسن هندامه، كيف كانت حياته الخاصة كيف كان يعيش مع نفسه وأهله وخلصائه؟ هل كان يميل إلى المرح والمداعبة والهزل؟ هل أحب ما هي قصة حبه؟ هل كان له زوجات وأولاد؟ ما درجة اتصاله بأهله وذوي قرباه؟ أي متاع الدنيا آثر عنده؟

هذه أسئلة عظيمة الفائدة المتعة لابد وأن تعرض لذهن من يود أن يعرف ابن المقفع ويفهم أدبه، ولكن أليس عجيبا إلا نستطيع أن نجيب على سؤال واحد منها وأن نكون على جهل تام بحياة أديبنا الخاصة؟

ليس الذنب في ذلك ذنبنا، وإنما هو ذنب مترجمي أدبنا القدماء فهم قل أن اهتموا أثناء ترجمتهم لأديب أو شاعر بحياته النفسية الخاصة ثم بحياة محيطه، هذه الحياة التي تكون الأديب وتطبع آثاره الأدبية بطابع الشخصية والذاتية

11 - كل ما ذكره المترجمون عن حياة ابن المقفع الخاصة كان جملة واحدة أوردوها عرضا أثناء تحدثهم عن شعوره الديني أوردها صاحب الأغاني نقلا عن الجاحظ قال: كان ابن الحباب ومطيع بن إياس، ومنقذ بن عبد الرحمن الهلالي، وحفص بن أبي وردة، وابن المقفع، ويونس بن أبي فروة، وحماد عجرد، وعلي بن خليل، وحماد بن أبي ليلى الراوية، وابن الزبرقان، وعمارة ابن حمزة، وجميل بن محفوظ وبشار المرعش، ندماء يجتمعون على الشراب وقول الشعر ولا يكادون يفترقون، ويهجو بعضهم بعضا هزلا وعمدا، وكلهم متهم في دينه)

نقول إن صحت رواية الجاحظ كان هؤلاء الشعراء والأدباء الذين كانوا يجتمعون على الشراب لقول الشعر ولا يكادون يفترقون هم الذين يمثلون الطبقة الخاصة من الناس التي ذكرها ابن المقفع في قوله (وعلى العاقل أن يجعل الناس طبقتين متباينتين ويلبس لهم لباسين مختلفين فطبقة من العامة يلبس لهم لباس انقباض وانحجاز وتحرز وتحفظ في كل كلمة وخطوة، وطبقة من الخاصة يخلع عندهم لباس التشدد ويلبس لباس الأنسة واللطف والبذلة والمفاوضة ولا يدخل في هذه الطبقة إلا واحد من ألف كلهم ذو فضل في الرأي وثقة في المودة وأمانة في السر ووفاء بالإخاء

12 - مات ابن المقفع باكرا، لم يمتع بالحياة؛ كان عمره ستة وثلاثين عاما يوم قتلوه؛ نعم لم يمت المسكين بل قتل حرقا بالنار. يا لهول الجريمة!!

أجمع مترجمو ابن المقفع على أن سبب مقتله كتابته أمانا لعبد الله عم المنصور قال فيه:

(. . . ومتى غدر أمير المؤمنين بعمه عبد الله؛ فنساؤه طوالق، ودوابه حبس، وعبيده أحرار، والمسلمون في حل من بيعته)، فلما وقف عليه المنصور عظم عليه ذلك وقال: من كتب هذا، فقالوا له: رجل يقال له عبد الله بن المقفع يكتب لأعمامك؛ فكتب إلى سفيان بن معاوية بن مهلب بن أبي صفرة متولي البصرة يأمره بقتله، ذكروا أن سفيان كان شديد الحنق على ابن المقفع لأنه كان يعبث به وينال من أمه ولا يسميه إلا (بابن المغتلمة)

وإنها لخسارة لا تعوض، وإنها لجريمة لا تغتفر، ورحم الله ابن المقفع

شرقي الأردن

بشير الشريقي

شاعرنا العالمي أبو العتاهية

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

فنونه الشعرية: تناول أبو العتاهية لأول أمره من فنون الشعر الغزل والمدح والرثاء والهجاء والعتاب والاستعطاف وما إلى ذلك مما كان يتناوله غيره من الشعراء، ثم استفرغ بعد ذلك جل شعره في الزهد والوعظ والحكمة والمثل، فأعطى الشعر العربي من ذلك ثروة عظيمة كانت تنقصه

فأما غزله فكان يذهب فيه مذهب الشعراء العشاق كجميل بثينة وغيره، وإن كنا قد ذكرنا في ترجمته أنه لم يكن صادق العشق مثلهم، ولكن سجيته التي كانت تنازعه من أول أمره إلى قول الزهد، لم تكن لترضى له أن يذهب في غزله مذهب فساق الشعراء كامرئ القيس وعمر بن أبي ربيعة وغيرهما، فجاء غزله عفيفا بعيدا عن الفحش والفجور، ليس فيه إلا شكوى الصبابة وألم الصد وعذاب الفراق ونحو ذلك من

وجدانات أهل العشق؛ ولعل هذا أيضا مما كان يرغب المهدي والرشيد في غزل أبي العتاهية ويجعلهما يغضبان عليه إذا أراد أن يتركه إلى الزهد، مع أنهما كانا لا ينظران إلى غزل أحد غيره بتلك العين التي نظرا بها إلى غزله، وأمر المهدي مع بشار في غزله معلوم، وكذلك أمر الرشيد مع أبي نواس؛ وقد شاع الغزل بالمذكر في عصر أبي العتاهية فصان نفسه عنه، ولم يدنس شعره به، وهذه شهادة مسلم بن الوليد في غزل أبي العتاهية. ذكر أبو الفرج أن مسلما قال: كنت مستخفا بشعر أبي العتاهية فلقيني يوما فسألني أن أصير إليه: فجاءني بلون واحد فأكلنا، وأحضرني تمرا فأكلناه، وجلسنا نتحدث، وأنشدته أشعارا في الغزل، وسألته أن ينشدني، فأنشدني قوله:

بالله يا قُرة العينين زوريني ... قبل الممات وإلا فاستزيريني
إني لأعجب من حبٍّ يقربني ... ممن يباعدني منه ويعصيني
أما الكثير فما أرجوه منك ولو ... أطمعتني في قليل كان يكفيني

ثم أنشدني أيضا:

أخلايَ بي شجو وليس بكم شجو ... وكل امرئ عن شجو صاحبه خِلْوُ
وما من محبٍّ نال ممن يحبه ... هوًى صادقاً إلا سيدخله زهو
بليتُ وكان المزحُ بدء بليتي ... فأحببت حقاً والبلاءُ له بِدْو
وُعلِّقْتُ من يزهو على تجبراً ... وإنيَ في كل الخصال له كُفو
رأيتُ الهوى جمر الغضا غير أنه ... على كل حال عند صاحبه حلو

ثم أنشدني:

خليلي مالي لا تزال مضرتي ... تكون مع الأقدار حتما من الحتم
يصاب فؤادي حين أرمي ورميتي ... تعود إلى نحري ويسلم من أرمي
صبرت ولا والله ما بي جلادة ... على الصبر لكني صبرت على رغمي
ألا في سبيل الله جسمي وقوتي ... ألا مسعد حتى أنوح على جسمي
تُعدُّ عظامي واحداً بعد واحد ... بمحني من العذال عظما على عظم
كفاكِ بحق الله ما قد ظلمتني ... فهذا مقام المستجير من الظلم

قال مسلم: فقلت له لا والله يا أبا إسحاق ما يبالي من أحسن أن يقول مثل هذا الشعر ما فاته من الدنيا؛ فقال يا أبن أخي لا تقولن مثل هذا، فان الشعر أيضا من بعض مصايد الدنيا

وأما مدحه فقد كان مدحا تجاريا لم ينطق فيه عن عقيدة، بل كان يمدح به قوما يخالفونه في عقيدته الشيعية، ولا يقصد من ذلك إلا الحصول على المال الذي أباح الشيعة أخذه من المتملك لأنه حق لهم، فسار أبو العتاهية في مدحه بقدر ما يصل به إلى هذا الغرض، ولم يدخل به في الخصومة السياسية التي كانت قائمة في عصره بين العباسيين والعلويين، وذهب فيها كثير من الشعراء مذاهب باطلة، ودفعهم حب مال العباسيين إلى أن يجعلوا حقهم في ملك المسلمين بالإرث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا يشاركهم فيه العلويون ولا غيرهم من المسلمين، وفي هذا يقول قائلهم:

أنَّى يكون وليس ذاك بكائن ... لبني البنات وِراثةُ الأعمام

ولم يفرح العباسيون بشيء فرحهم بهذه الفكرة الخاطئة، فعدوها أكبر نصر لهم على خصومهم من العلويين، وأغدقوا على من أبتكرها لهم شعرا ما لا يحصى من الأموال، وحملوا الشعراء على التفنن فيها، وتصريف الشعر في تأييدها ونشرها

فلم يصل مدح أبي العتاهية للعباسيين إلى هذا الحد، ولم يبع عقيدته بأموالهم فيفضلهم على العلويين أو يذمهم من أجلهم، بل كان على حبه للمال وبخله به يعرف كيف يرفضه إذا كان في قبوله إهانة له، أو حطا من كرامته؛ ويمكننا أن نسوق على ذلك شواهد كثيرة، ذكر أبو الفرج أن أبا العتاهية كان منقطعا إلى صالح المسكين، وهو ابن أبي جعفر المنصور، فأصاب في ناحيته مائة ألف درهم، وكان له ودودا وصديقا، فجاءه يوما وكان له في مجلسه مرتبة لا يجلس فيها غيره، فنظر إليه قد قصر به عنها، وعاوده ثانية فكانت حاله تلك، ورأى نظره إليه ثقيلا، فنهض وقال:

أراني صالحٌ بُغضًا ... فأظهرتُ له بُغضًا
ولا والله لا ينق ... ض إلا زدتهُ نقضًا

وإلا زدته مقتا ... وإلا زدته رفضا
ألا يا مفسد الوُدَّ ... وقد كان له محضا
تغضبتَ من الريح ... فما أطلب أن ترضى
لئن كان لك المال ال ... مصّفى إن لي عِرْضا
فنمى الكلام إلى صالح فنادى بعداوته فقال فيه:
مَدَدتُ لمعرض حبلا طويلا ... كأطول ما يكون من الحبال
حبالٌ بالصريمة ليس تفنى ... موَصَّلةٌ على عدد الرمال
فلا تنظرْ إليَّ ولا ترِدْني ... ولا تَقَربْ حبالكَ من حبالي
فليت الرّدمَ من يأجوج بيني ... وبينك مُثبتاً أخرى الليالي
فَكرْشٌ إن أردتَ لنا كلاما ... ونقطع قحفَ رأسك بالقتال
وذكر أيضا أنه قدم يوما منزل يحي بن خاقان، فلما قام بادر له الحاجب فانصرف، وأتاه يوما آخر فصادفه حين نزل فسلم عليه ودخل إلى منزله ولم يأذن له، فأخذ قرطاسا وكتب إليه:
أراك ترَاعُ حين ترى خيالي ... فما هذا يرُوعكَ من خيالي
لعلك خائف مني سؤالي ... ألا فلك الأمانُ من السؤال
كفيتُكَ إن حالك لم تمِل بي ... لأطلب مثلها بدَلا بحالي
وإن اليسر مثل العسر عندي ... بأيهما مُنيتُ فلا أُبالي
ولا شك أن هذه النفس في إبائها وعقيدتها المخالفة لعقيدة ممدوحيها لو كانت لغير أبي العتاهية لصعب عليها في الشعر مقام المدح، ولكن طبع أبي العتاهية في الشعر سهل عليه كل شيء، وجعله يأتي في ذلك من المدح بما أرضى ممدوحيه غاية الرضى، وكان على ما ذكرنا في ترجمته يقصر التشبيب أمام المدح ولا يطوله حتى يكون كأنه هو مقصوده من شعره، كما كان يفعل ذلك غيره
وكان ابن الإعرابي يتعصب لأبي العتاهية فتنقصه رجل أمامه ورمى شعره بالضعف، فقال له: الضعيف والله عقلك لا شعر أبي العتاهية، ألأبي العتاهية تقول إنه ضعيف الشعر؟ فوالله ما رأيت شاعرا قط أطبع ولا أقدر على بيت منه، وما أحسب مذهبه إلا ضربا من السحر؛ ثم أنشده قصيدته في الزهد:
قَطَّعْتُ منك حبائل الآمال ... وحَطَطْتُ عن ظهر المطيَّ رحالي
ثم قال للرجل هل تعرف أحدا يحسن أن يقول مثل هذا الشعر؟ فقال له الرجل: يا أبا عبد الله جعلني الله فداءك، إني لم أردد عليك ما قلت، ولكن الزهد مذهب أبي العتاهية، وشعره في المديح ليس كشعره في الزهد، فقال: أفليس الذي يقول في المديح:
وهرونُ ماء المُزْنِ يُشفي به الصَّدى ... إذا ما الصدِى بالريق غُصَّت حَناجرُه
وأوْسط بيتٍ في قريش لَبَيتُه ... وأول عز في قريش وآخره
وَزحْفٌ له تحكى البُرُوقَ سيوفُهُ ... وتحكي الرعودَ القاصفات حوافره
إذا حَمِيَتْ شمسُ النهار تضاحكت ... إلى الشمس فيه بِيضُهُ ومَغافره
إذا نكِب الإسلام يوماً بنكبة ... فهرون من بين البرية ثائره
ومن ذا يفوت الموتَ والموتُ مُدْرِكٌ ... كذا لم يَفُتْ هرونَ ضِدٌّ ينافره
قال: فتخلص الرجل من شر ابن الإعرابي بأن قال له: القول ما قلت، وما كنت سمعت له مثل هذين الشعرين، وكتبهما عنه:
وأما رثاؤه فكان يذهب فيه مذهبه في الزهد والحكمة، لقرب مقامه من مقامهما، ومن ذلك رثاؤه في علي بن ثابت، وكان صديقا له، وبينهما مجاوبات كثيرة في الزهد والحكمة، فحضره أبو العتاهية وهو يجود بنفسه، فلم يزل ملتزمه حتى فاض، فلما شُدَّ لحياه بكى طويلا، ثم أنشد يقول:
يا شريكي في الخير قَرَّبكَ الل ... هُ فنعم الشريك في الخير كُنتا
قد لعمري حكيت لي غُصص المو ... ت فحركتني لها وسكنتا
ولما دفن وقف على قبره يبكي طويلا أحر بكاء ويردد هذه الأبيات:
ألا من لي بأنسك يا أخيَّا ... ومن لي أن أبثك ما لَدَيَّا
طَوَتْكَ خطوبُ دهرك بعد نشر ... كذاك خطوبه نشراً وَطَيَّا

فلو نَشَرَتْ قُواكَ لي المنايا ... شكوتُ إليك ما صنعت إليَّا
بكيتك ياعَليُّ بدمع عيني ... فما أغنى البكاءُ عليك شَيَّا
وكانت في حياتك لي عظاتٌ ... فأنت اليوم أوعظ منك حيَّا
وهذه المعاني كما قال أبو الفرج أخذها كلها من كلام الفلاسفة لما حضروا الإسكندرية، وقد أخرج ليدفن، قال بعضهم: كان الملك أمس أهيب من اليوم، وهو اليوم أوعظ منه أمس؛ وقال آخر: سكنت حركة الملك في لذاته، وقد حركنا اليوم في سكونه جزعا لفقده. وهذان المعنيان هما اللذان ذكرهما أبو العتاهية في هذه الأشعار
وذكر أبو العتاهية أنه ماتت بنت للمهدي، فحزن عليها حزنا شديدا حتى أمتنع عن الطعام والشراب، فقلت أبياتا أعزيه بها، فوافيته، وقد سلا وضحك وأكل وهو يقول: لابد من الصبر على ما لابد منه، ولئن سلونا عمن فقدنا، ليسلون عنا من يفقدنا، وما يأتي الليل والنهار على شيء إلا أبلياه، فاستأذنته في إنشاد ما قلت فأذن:
ما للجديدين لا يَبْلىَ اختلافهما ... وكل غَضٍّ جديد فيهما بَالي
يا من سلا عن حبيب بعد مَيْتَتِهِ ... كمْ بعد موتك أيضاً عنك مِن سال
كأن كلّ نعيم أنت ذائقُهُ ... مِن لذة العيش يحكي لَمعَة الآل
لا تلعبنَّ بك الدنيا وأنت ترى ... ما شئتَ من عبرٍ فيها وأمثال
ما حيلةُ الموت إلا كلُّ صالحةٍ ... أوْلا فما حيلةٌ فيه لمحتال
وأما الهجاء فكان أبو العتاهية يترفع عنه ولا يقوله إلا مضطرا، فإذا قاله لم يفحش فيه كغيره، وكانت بينه وبين والبة بن الحباب مهاجاة حينما قصد والبة بغداد وهو كوفي مثله، فحسده على أن بلغ في بغداد ما لم يبلغه، وأخذ يهجوه ويذمه. وقد حدّث محمد ابن عمر الجرجاني قال: رأيت أبا العتاهية جاء إلى أبي فقال له: أن والبة بن الحباب قد هجاني، ومن أنا منه؟ أنا جرار مسكين - وجعل يرفع من والبة ويضع من نفسه - فأحب أن تكلمه
أن يمسك عني، فكلم أبي والبة فلم يقبل، وجعل يشتم أبا العتاهية فتركه، ثم جاءه أبو العتاهية فسأله عما فعل في حاجته، فأخبره بما رد عليه والبة، فقال لأبي لي الآن عليك حاجة، قال وماهي؟ قال لا تكلمني في أمره، فقال هذا أول ما يجب لك، فقال أو العتاهية يهجوه:
أوالبُ أنت في العرب ... كمثل الشيص في الرُّطب
هَلمّ إلى الموالي الصِّ ... يد في سَعةٍ وفي رَحب
فأنت بنا لَعمرُ الل ... هـ أشبهُ منك بالعرب
غضبتُ عليك ثم رأي ... تُ وجهك فانجلى غضبي
لِما ذكَّرْتني من لو ... نِ أجدادي ولون أبي
فقل ما شئت أقبَلهُ ... وإن أطنبتَ في الكذب
لقد أُخبرْتُ عنك وعن ... أبيك الخالص العرب
فقال العارفون به ... مُصاصٌ غيرُ مؤتَشب
أتانا من بلاد الرو ... م مُعتجِراً على قَتب
خفيف الحاذِ كالصمصا ... م أطلسُ غير ذي نشب
أوَالب ما دهاك وأن ... ت في الأعراب ذو نسب
أراك وُلِدْتَ بالمري ... خ يا ابن سبائك الذهب
فجئتَ أقيشرَ الخدين ... أزرق عارمَ الذنب
لقد أخطأتَ في شتمي ... فَخبَّرني ألم أُصِب
وقال فيه أيضا غير ذلك، فبلغ والبة، فجاء أبي فقال قد كلمتني في أبي العتاهية وقد رغبت في الصلح، فأخبره بما أخذه أبو العتاهية عليه، فقال له والبة فما الرأي عندك؟ قال تنحدر إلى الكوفة، فركب زورقا ومضى من بغداد إلى الكوفة، وكان هجاء والبة فيه ضعيفا سخيفا لا يقوى على هذا الهجاء، وفيه من الفحش ما نروى بعضه ليعلم بعد ما بين الهجائين:
قل لابن بائعة القِصارِ ... وابن الدَّوارِق والجِرَارِ
. . . .
. . . .

تهجو مواليك الأولى ... فكوكَ من ذُلَّ الاسار
هذا مثل من هجوه وإن الشعر لأعلى مقاما من هذا القبح الذي أتي به، وإنه لينال من نفسه بذلك قبل أن ينال ممن يهاجيه
عبد المتعال الصعيدي
أمام المشنقة
(على لسان أحد الشبان المحكوم عليهم بالشنق لجريمة أتاها)
للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي
قسا عليّ الفلكُ ... بعد قليلٍ أهلكُ
ما باختياري في شبا ... بي للحياة أترك
أين مضت صحابتي ... وايَّةً قد سلكوا
مَن ذا إذا متُّ سَيَبْ ... كيني ومَن ذا يضحك
قد نصبوا لي شركا ... فما عداني الشرك
ما بال شمسي أخذت ... عند الشروق تَدْلك
قد استوى ضوء الضحى ... في أعيني والحلَك
لم أجْنِ لو كانت يدُ ال ... مقدور لا تشترك
بالدم قد خضَّب كفّ ... ي القدَرُ المُحَرِّك
قد أفرحَ النُظَّارَ بي ... أنَّ دمي ينسفك
ازدحموا حولي ولِلْ ... أنفاس منهم أمسكوا
ليبصروا كيف حيا ... تي حبلُها ينبتك
ما هي إلاَّ رجفةٌ ... وبعدها لا أحرك
أفي قلوبهم عليّ ... عند موتي حَسَك
إنيَ إنسانٌ له ... أخطاؤه لا مَلَك
كم ليَ من مثل لو أنّ (م) ... سرّه ينهتك
خذوا حياتي إنها ... أثمنُ ما أمتلك
لا تحبسوا الرحمة عمَّ ... ن قد قضوا أو أوشكوا
ولو تجسّم الأسى ... لكان دمعاً يُسفَك
كل البقاع للحيا ... ة فوقها مُعَتَرك
أمَّا الحياة فهي إن ... وَلّت فلا تُستَدرك
والموتُ بالإنسان إلاَّ ... مرّةً لا يفتك
إذا أتت ساعته ... فكلُّ شيء مُهلك
تعقده الحياة وال ... موت له يُفكّك
قد يُدفَن المرءُ على ... أخيه ثم يُترَك
بعد البلى تَعانَقُ ال ... عظامُ أو تشتبك
إن البلى لكل مَن ... حواه قبرٌ يعرك
نهارُه وليلُه ... كلاهما مُحلولِك
مشنقتي هي التي ... أودّها وأفرك
وعلَّني إذا ركب ... تُها فلا أرتبك
فأعتلي كأنني ... أدركتُ مالا يُدرَك
إني سلكتُ مسلكا ... صعباً وبئس المسلك
والحقُّ خير ما يقو ... ل المرء حين يهلك
هذا جزاء مجرمٍ ... بالأبرياء يفتك
بغداد
جميل صدقي الزهاوي
سر الحياة
للأستاذ عبد الرحمن شكري
عبء لغز الحياة يا قلب ما أف ... دح عبئاً يُحنَي عليك وثقلا
لغز عيشٍ ولغز عقل وما أع ... جب لغزاً يروم للغزِ حلا
كلما رمتَ بالمجاهل خُبْراً ... زادك العيش بالمعالم جهلا
عَبَثُ العيشِ كلما قال لا سِ ... رَّ أعدتَ السؤال جداً وهزلا

قد خبرتَ الأنامَ يا قلب هل تن ... شد سراً من بعد ذاك وسُؤلا
وحياة بالسر أحجى حياة ... هي أحلى مما تراه وأعلى
خُدْعَةُ العيش أن يُلوِّحَ بالس ... ر إذا عاف عائشوه ومُلاَّ
فتزيد الحياةُ حسناً ومأمو ... لاً وتغوي الحياة نشأ وكهلا
مثلما حُجِّبتْ فتاة لِيُرْجَى ... سر حسن لها استسر وقَلاَّ
لو بدت عاطلاً لما خبلت لُ ... بَّ ولا استبعدت عشيقاً وخِلاَّ
كم سعيد يلهو ويعمل لا ين ... قض فعلاً وليس ينكر قولا
وعلى غدرها أحب حياة ... وحباها في الحب أهلاً ونسلا
عاشقاً للحياة بعضاً وكلا ... راضياً بالحياة فرعاً وأصلا
فإذا شاكه من العيش هَمٌّ ... قال قولاً ورام للغز حَلاً
عبء لغز الحياة يا قلب ما أف ... دح عبثاً يحُنَّي عليك وثقلا
سِرُّها أنك السعيد إذا لم ... تَدْرِ أن لا سراً لديها فيُجْلَى
ضلةٌ ما أقول كم لاح من كَشْ ... فٍ وقد كان خافيَ السر قبلا
ولعل الحياة أكبر لولا ... مُعْظِمٌ للحياة غالي وأغلى
فهي من فرط رَفْعه في انخفاض ... تلك عُلياً إن يُعِلها فَهْيَ سُفلى
باء باليأس من عُلاها وقد غا ... لى فقال الحياة بالحط أولى
ويعيد الحياة فرضاً وحسناً ... ومتاعاً من يأخذ العيش سهلا
عبد الرحمن شكري
يا كون!
للأستاذ فخري أبو السعود
يا كَونُ كُنْ لي جميلاً ... على الدوام جديدا
أبغِي لديك طريفاً ... إذا هجرتُ تليدا
لا تَبْلَ، لا تَغْدُ شيئاً ... أَلِفتُهُ معهودا
بل أُبدُ دوماً عجاباً ... مُستَطرَفاً منشودا
لا تَبدُ فرداً ولكن ... كُنْ أنتَ جمَّا عديدا
جَدِّد لحسنك هذا ... بعد البرُود بُرُودا
ولا تضِقْ بيَ أفقاً ... ولا تَدانَ حدودا
لا زال أُفقُك لي يا ... كَوني رحيباً بعيدا
أَشيم في كل يوم ... مرمىً به مقصودا
لا تبدُ يوماً فراغاً ... ولا تبدُ يوماً زهيدا
لِتَبقَ حَفلاً نفيساً ... أُريغ منك المزيدا
جدِّد صُرُفَك وابعث ... بعد النحوس سعودا
ابعث أسًى أو سروراً ... لكن حذارِ الجمودا
أُريد يا كونُ عمراً ... في كل يوم مديدا
من عاش في كل يوم ... عمراً أصابَ الخلودا
لا أبتغي العمرَ يوماً ... مُرَجَّعاً مردودا
أُريدُ في كل يوم ... أرودُ هذا الوجودا
في كل يوم أراني ... في عالمٍ مولودا
أُريد أكشفُ معنًى ... في كل يومٍ شرودا
منه أغذِّي شعوري ... وأستجِدُّ قصيدا
فخري أبو السعود
عرش الجمال
(إلى مس مصر، ملكة الجمال العالمي)
للأستاذ محمود غنيم
يا ربَّةَ المُلك الذي انتظم الورَى ... مُلكُ البسيطة ما أتيح لقيصرا
خضعت لحكمك دولةٌ عزَّة على ... (دَارَا) وأعيا عرشُها (الاسكندرا)
لكِ دولةٌ لم ترهفي من أجلها ... حدَّ الحسام ولم تقودي عسكرا
لِتُودِّع الأُسدُ الغضابُ عروشَها ... قد أصبح المَلِكُ المتَّوجُ جؤذَرا
من كان يمتلكُ الرقابَ فإنما ... عرشُ الجمال على القلوب تسيطرا

كم عاهل ذي سطوة لم يفتتحْ ... قلباً وإن فتح المدائنَ والقُرى
مُلْكُ الفراعِنة الشِّدادِ أعدْتِهِ ... بيدٍ مخصَّبةٍ وطرفٍ أحوَرا
ما للمها في مصرَ تحكُم عالماً ... والليثُ يعَجزُ أنْ يعيش مجَّررا
ملكتْ يمينُك كلَّ صدرٍ ناهدٍ ... وأطاع أمرَك كلُّ خدٍّ أحمرا
كم كاعبٍ ملكت قلوباً أصبحت ... أمَةً تُباع إذا أرَدْتِ وتُشترى
كم تحت حكمِكِ ذاتُ لَحْظٍ إن رنا ... تَرَكَ المهنَّد لا يساوي خِنجرا
جُنْدٌ أغرُّ من الحسان الحور لو ... لاقيتِ أسطولاً به لتقهقرا
أقسمت ما بين الملوك أعزُّ مِنْ ... مَلِكِ على عرش الملاح تَأمَّرا
كوم حماده

محمود غنيم

فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية

تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا - 24

الناحية السلبية من مذهب نيتشه

الإنسان

للأستاذ خليل هنداوي

إن انتشار مذهب الشفقة - في هذا الجيل - دليل على أن الإنسان أصبح يزداد خوفه من الألم. أصبح متراخيا، مخنثا يخشى من كل ما يعكر عليه طمأنينته ووجوده، لا يحمل الفرار من الألم وحده، بل لا يستطيع أن يتصور فكرة الألم عند الآخرين، حتى لا يقدر أن يؤلم الغير عندما يطلب العدل منه ذلك باسم العدل. الرحيم يبسط شفقته حتى على المجرمين والمسيئين (وقريبا يأتي ذلك اليوم الذي يتراخى فيه المجتمع الإنساني ويقعد عن معاقبة المجرم الذي يضره. لماذا يعاقب المجرم؟ إن المعاقبة يرى فيها ضربا من ضروب الجور. فكرة القصاص وضرورة القصاص تسوؤه. أليس في إقصاء المجرم وغل يديه عن عمل السوء ما يغني؟ فلماذا القصاص إذن؟ إن القصاص يضني. أما المثل الأعلى الذي يطلبه (وحش القطيع) فهو جزء ضئيل من السعادة المحققة لكل إنسان، يرافقه شيء ضئيل من الألم. إن الشقاء - عندهم - شيء يجب محقه إن نيتشه - في هذا الفصل وهو خير فصوله - يعتقد أن الجبن والخوف من الألم هما من الصغار والحقار بمكان، إن الألم هو في الحق معلم الإنسانية وهو الذي يحقق أحسن نماذج شريفة. (أنتم تريدون سحق الألم ونحن نريد أن تكون الحياة أكثر قسوة وأشد رداءة. إن الكائن السامي الذي تفهمونه، نرى فيه (غاية) ولا نرى فيه (نهاية). نرى فيه مرحلة يبدو الإنسان من ورائها شيئا حقيرا مزريا حتى يدرك آخر عهده، بلى! في مدرسة الألم الكبير، في مدرسة هذا المعلم القاسي يتم الإنسان مراحل تطوره، أليس التضييق على هذه النفس الساقطة تحت أعباء الشقاء يزيدها قوة وصلابة! أليست هذه الرجفة التي تنتابها بازاء الحادثات الكبرى تزيد قوة احتمالها وصبرها وثباتها وتحويل المصائب إلى دروس مفيدة. كل هذا ألم يؤول بالنفس - في مدرسة الألم - إلى خروجها مهذبة نقية؟ إن في الإنسان

في الإنسان شيء هو مادة وطين ووحل، لا شعور له، فضاء، وفي (خليقة وخالقا) الإنسان شيء هو خالق مبدع، ونقاش، بهجة فنان وصلابة ومطرقة، أأدركتم هذه المقارنة؟ ألا تزال شفقتكم تذهب إلى ما في الإنسان من مادة ينبغي سحقه وحرقه في النار حتى يتطهر، وإلى كل ما يجب عليه أن يتألم بالضرورة؟

وشفقتنا هل تدرون موقعها! إنها شفقة علينا حين نقاتل شفقتكم كما نقاتل كل ظاهرة من ظواهر الضعف والجبن، وهكذا: شفقة ضد شفقة

ويرى نيتشه أن المذهب الديموقراطي علامة من علامات الانحطاط، لأنه مهما تباعدت أصوله وتبدلت مناهجه متفق مع المذهب الديني، ففي الشريعة المسيحية وفي ديانة الألم الإنساني يتمثل ما يتمثل في مذهب المساواة. . . مقت الضعيف للقوي، وجنوح قوى إلى حياة لا ألم فيها. إن المسيحية تجعل الناس متساوين أكفاء أمام الله، وتعدعهم في بسعادة كاملة في الحياة الثانية، كذلك الديموقراطية جعلت الناس متساوين أكفاء أمام الشريعة والحق، وعملت على تحقيق سعادتهم في هذه الدار، ورجت أن تخلق مجتمعا يموت فيه التفاوت ويكون أهله في الحق سواء؛ لا يتمتع أحدهم بما لا يتمتع به آخر. حيث لا أمر ولا طاعة، ولا استبداد ولا استئثار، ولا سيادة ولا

عبودية، ولا غنى ولا فقر
هذا هو المثل الذي تنهض إليه الديموقراطية، ويدعو إليه أصحابها على اختلاف مللهم ونحلهم. . . كلهم يعملون على رفض كل سلطة ذاتية، ليملكوا لأنفسهم كل امتياز. وكلهم يؤمنون بأن كل فرد يقدر بل ينبغي له أن يجد سعادته الخاصة في سعادة المجتمع بأسره، وهذه السعادة الاجتماعية يمكن تحقيقها بإشفاق كل فرد على المجتمع، وبالمحبة العامة السائدة. هذه الأفكار غرست في عقول أبناء الحاضر غرسا متينا، حتى أصبح لا يقوم - في أوربا - رجال تقوى فيهم روح السلطة والزعامة. ولن تجد في عصرنا هذا من يمثل روح نابليون الذي كان ينضوي تحت لوائه الألوف، يمشي فيمشون لا يسألونه أين يمشي، وهؤلاء من بأيديهم الحكومة اليوم لا يملكون من الحكم إلا قليلا، لأن شريعة العبيد رافعة رأسها في كل مكان، فهم يستمدون الحكم من هذه الشريعة، لا يحيدون عنها ولا يجدون عنها مصرفا، فهم خادمو هذا البلد، هم الجلادون فيه، وهم منفذو القانون
وقد بحث نيتشه علاقة الرجل والمرأة، وهو يرى أن المرأة ليس لها حق المساواة مع الرجل، دل على ذلك الحب الذي تنغمس في حمأته الكائنات. فوظيفة الحب - عند الرجل - غيرها - عند المرأة، ومكانة الحب عند المرأة غيرها عند الرجل. فالحب عند الرجل إن هو إلا حادث بسيط أو غريزة ضعيفة. أما الغريزة العنيفة فيه فهي غريزة القوة، هذه الغريزة التي تدفعه إلى بسط سلطانه إلى أقصى ما يقدر عليه. إن مناضلة القوى الطبيعية والقوى البشرية في سبيل تحقيق شخصيته هي ما يتطلب منه عصره وجهوده. فإذا أسلم نفسه إلى الحب، ووهب حياته وأفكاره للمرأة التي يهواها يصبح عبدا مقهورا وجبانا ذليلا، تسلخ عنه الرجولة الحقة والحب الحق
يقول زرادشت (كل ما في حياة المرأة هو لغز، وكل ما في المرأة له حل واحد وهو التوليد) فالحب إذن هو أبرز ما في حياة المرأة، وإنما مجدها وشرفها يدفعانها إلى أن تمثل دور (الأولى) في الحب، وأن تهب كيانها كله جسدا وروحا للرجل الذي تصطفيه، وأن تفتش عن سعادتها في الانسلاخ عن أرادتها الخاصة. يقول زرادشت: إن سعادة الرجل (أنا أريد) وسعادة المرأة (هو يريد!) إن المرأة التي تحب ينبغي لها أن تسلم نفسها إلى الرجل الذي يجب عليه أن يتقبل هذه المنحة. . . هذه هي شريعة الحب التي تجعل بين الرجل والمرأة حاجزا حائلا وفرقا بعيدا. خلقت المرأة للحب والطاعة، وويل لها إذا سئم الرجل من ظفره عليها وألفى أن هذه المنحة حقيرة بالنسبة إليه، وركض يسعى وراء غرام جديد. ينبغي للرجل أن يحكم وأن يحرس. يجب عليه أن يكون قادرا على أن يحيا حياتين، ليحقق سعادته لنفسه، وسعادة من وقفت عليه رجاءها. ولكن تعسا له إذا ضل تحت أثقال هذا العمل، وإذا أدرك حبه وعجز عن إضرام نار هذا الحب، فإن هذا الحب ليحور بغضا، وتنقلب المرأة به عليه، حتى لا ترى فيه إلا موضع ازدراء واحتقار
ولكن جيلنا هذا لن يقبل هذه الآراء. . . فالجيل الذي قدس العبد يجرب أن يؤله المرأة. . . لا يرى في المرأة عنصرا ساميا يستطيع أن يساعد الإنسانية في تقدمها. الرجل وحده يتعلق عليه ذلك لأنه السيد، وهو سيد ذو القوة الراجحة والعقل الأرجح والقلب الأمثل والإرادة الأشد نفاذا. والمرأة قد تكون نبيهة، ذكية تضارع الرجل نباهة وذكاء، تتفهم المسائل وتفصل أمهات الأمور الدقيقة وتحاكم وتجادل ولكن طبيعتها أقل عمقا وأقل غنى من طبيعة الرجل. إنها تبقى دائما طافية على سطوح الأشياء. إنها شيء لا يذكر. . . إنها
مسكينة مزهوة بنفسها
يقول زرداشت (يعلم الرجل للحرب، والمرأة لتسلية المحارب. . . وما دون ذلك فهو جنون) ليست المرأة صنما وإنما هي لعبة سريعة العطب لكنها ثمينة وقد تكون خطرة. هي رقة في طبع الرجل. تغدو خطرة مرعبة حين يضرمها الهوى والحب والبغض، لأن طبيعتها لا تزال أكثر احتواء من طبيعة الرجل على وحشية الغرائز الأولى. ففيها رقة ملمس الهرة وفظاعة مخالب النمرة، فيها طبيعة نابية ثائرة، وأهواء جامحة لا تعرف منطقا، ورغاب قلقة. . . وكل هذا يجعل المرأة فقيرة إلى سيد يكبح جماحها ويقودها ويميت فيها جنونها، حتى إذا استشعرت الوجل أمست رقيقة ناعمة بفضل طبيعتها وزينتها وتبرجها وفضيلتها اللابسة ألف ثوب. فيعرو - إذ ذاك - قلب سيدها الإشفاق

عليها، الإشفاق الكثير لأنها أكثر عرضة للألم. إنها مفتقرة إلى حبه، وقد قضى عليها بأن تكون أقل الخلائق وهما
أن نيتشه ينقم على المرأة التي تريد أن تتحرر من قيودها، وتهجر احترامها للرجل وتزعم بأنها قرينة مساوية، تريد أن تدخل معه فيما تطلب الحياة من نضال. أن نيتشه يبغض النساء اللواتي يمشين في صفوف الرجال، لأنهن يفقدن تأثيرهن ونفوذهن واعتبار المجتمع لهن. وإنما همهن أن يظهرن للرجال بطبيعة مباينة لطبيعتهم وجبلة مخالفة لجبلتهم، يصعب فهمها ويعسر حكمها. وهاهي المرأة المزاحمة للرجل أضاعت ما خصتها الطبيعة به وأهملت مهنتها التي تقضي عليها بوضع الأطفال
وفي النهاية يرى نيتشه أن أوروبا تتشوه وتزداد تشققا، قد استحالت إلى معتزل تسكنه طائفة من الناس توقوق - لا أحزان كبيرة ولا أفراح كبيرة - طائفة من رجال ونسوة تساووا في العجز والضعف والانحطاط، يقضون على الأرض حياة متشحة بالسواد، لا أمل فها ولا غاية لها.
(يتبع)
خليل هنداوي
القصص
صور من هوميروس
حروب طروادة - 9
فتنة. . .
للأستاذ دريني خشبة
انتظرت ذيتيس - أم أخيل، وحبيبة زيوس من قبل - حتى عاد الإله الأكبر من حفل أولمبي دعي إليه حينما شبت السخيمة بين أجاممنون وبين ابنها، فأسرعت إليه لتكلمه في الإهانة التي لحقت أخيل العظيم، وأزرت بكبريائه، كسيد جنود هيلاس. . . . .
عجلت ذيتيس إلى زيوس. . . . .
وكانت ذكريات غرام الإله الأكبر ما تزال تتدفق في قلبه؛ وكان رنين القبل فوق شفتيه القرمزيتين ما يزال تتجاوب أصداؤه الموسيقية على شفتيه المنهومتين الملتهبتين؛ وكان هذا الجمال الفتي ما يزال له رجع في كل جوارحه. . . وجوانحه. . .
وقفت أمام زيوس!. . . .
وكأن حلما لذيذا طوف بعينيه، فرأى إلى قصة حبه تتمثل بكل ماضيها الحافل أمامه؛ ورأى إلى هذه الأويقات الحلوة التي التذ فيها فتنة ذيتيس، تثب فجأة من الأيام الخوالي فتغمره بسحرها وأسرها؛ ورأى إلى ذراعيه المرتجفتين ملتفتين حول خصرها النحيل، وطرفه الساهم الباكي يجول في طرفها الناعس الكحيل، ورأى إلى هذا المرمر الطروب المنصب في تمثالها يكاد يكلمه. . . فيروي له من أخبار العناق، وسكرات الهوى ما يفيض له دمعه، ويجب قلبه، وترتعد من ذكره فرائصه. . . .
- (. . . . . !ذيتيس؟)
- (. . . ؟؟. . .)
- (. . . . !مالك؟. . . تبكين)
- (. . . . !!. . . .)
- (!لا. . . لا. . . إلي يا حبيبتي)
وكانت كلما ألحت في الصمت والبكاء، ألح هو في التلطف والرجاء، وكانت ذيتيس تدرك ما أثارته في قلبه من غرامه القديم، فدلت وتاهت، حتى أيقنت أنه منقاد لما تطلب، ولو كلفته بهدم الأولمب، وثل عروش السماء!
- (!. . . .أ. . . . أخيل)
- (. . .أخيل؟. . . ماله؟)
- (!ما كفاني أن يذهب ليلقى حتفه تحت أسوار طروادة، حتى يهينه أجاممنون)
- (. . .يهينه أجاممنون؟ يهينه كيف؟)
- (أغضب قديس أبوللو وكاهنه الأكبر، ولم يقبل أن يرد عليه ابنته خريسيز؛ فغضب الراهب الشيخ ودعا ربه، فسخر الطاعون على الهيلانيين، حتى كاد يبيدهم، فلما طلب إليه أن يرد ابنة القديس على أبيها الشيخ، أبى، وأخذته العزة بالإثم فلما ألح عليه أخيل، ولدي البائس، إنقاذا للجيش، وإبقاء على أبناء هيلاس، رضى أن ينزل عن الفتاة،

. . .إذا نزل له أخيل عن بريسيز
(. . .وآثر أخيل حياة المحاربين ونجاتهم، فنزل عن الفتاة للقائد الغاشم
- (. . .ثم . . .)
ثم هو الآن يحترق بينه وبين نفسه، وقد اعتزل الحرب، وخلا وحده في معسكره،) -
(. . .يهضم أحزانه، وتهضمه الآلام
لا عليك يا ذيتيس! لا عليك يا حبيبتي! قري عينا. . . قري عينا. . . فبما أخذه الناس) -
(. . .!بغير ما ينبغي له، لأذيقنه وجنوده البلاء المبين
وعادت ذيتيس جذلانة بعد أن طبع على جبينها المتلألئ قبلة. . . كم كان يشتهي أن
!. . .يطبعها على فمها الخمري. . . لولا أن ذكر أنها زوجة
زلزلت ذيتيس قلب الإله الأكبر بدلالها وقوة فتونها، وأرق طيفها الرائع جفنيه، فلم يذق
طعم الكرى تلك الليلة بطولها. . . فهب من مضجعه السندسي فوق سدة الأولمب،
واستدعى إليه إله الأحلام، فأمره بالذهاب من فوره إلى معسكر الهيلانيين
فإذا كنت ثمة فانطلق إلى فسطاط أجاممنون، فداعب عينيه، واجثم على قلبه، . . .)
وقل له، وهو يغط في نومه العميق، إن الإلهة تأمرك أن تصبح فتنفخ في بوق الحرب،
حاضا
عساكرك على اقتحام طروادة. . . فان زيوس يبشرك بالمدينة الخالدة، ولا يكاد النهار
(. . .ينتصف حتى تكون جنودك في شوارع إليوم ظافرة منتصرة بإذنه
وصدع إله الأحلام بما أمره سيد الأولمب، وانطلق إلى معسكر أجاممنون في أقل من
لمحة، فداعب عينيه، وألقى في روعه الحلم الكاذب، وعاد أدراجه إلى مولاه
فلما تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، هب أجاممنون من نومه
مذعورا، وأرسل رسله إلى رؤساء الجند فاجتمعوا لديه قبيل الشروق، وأعلن انعقاد
المجلس الحربي؛ فصمت الجميع، ونظر بعضهم إلى بعض، وكل يظن أن لابد من أمر
جلل، استدعى انعقاد المجلس في هذه الساعة من بكرة اليوم
ونهض أجاممنون فتحدث إلى القادة، وأخبرهم برؤياه. ولما فرغ؛ نهض نسطور الحكيم
المحنك، فسبح باسم زيوس وأثنى عليه وقال:
لو أن أحدا غير القائد الأعلى رأى تلك الرؤيا لأثار استهزاء الجميع، ولرماه، الجميع)
بجنة أو مس، ولكنه قائدنا وملكنا، وسليل الإلهة العظام، أجاممنون، هو الذي رآها،
وهي لا شك موحاة إليه من لدن ربنا وسيدنا ومولانا مليك الأولمب، وهو لابد ناصرنا
على أعدائنا الظالمين. فهلموا أيها الأخوان إلى رجالكم فأيقظوهم، وانفخوا فيهم
الحمية والحماسة، فإذا أشرقت ذكاء فسووا صفوفهم، واشحذوا عزائمهم، ولنتوكل
(. . .على أربابنا، وليهتف الجميع؛ باسم زيوس، ولنصل له؛ ولنسبح تسبيحا كبيرا
فلما كان الصبح، ارتجف السهل والجبل، ودوى المشرقان والمغربان بجلبة الجند،
وصار كل معسكر كأنه خلية صخابة من النحل. . . تطن وتطن. . . وصارت الساحة
الحمراء كأنها سماء معتكرة، لرعدها هزيم ولريحها هزيز، ولبرقها خطف يذهب سناه
. . .بالأبصار
وشرعت الرماح وأرهفت السيوف، وحملقت المنايا كأنها الأغربة السود فوق الفرائس،
!. . .وتدوم فوق الجيف
ولم يكن أجاممنون قد انخدع بالحلم الكاذب، فشدهه أن يرى استعداد الجيش ونفرته
نفرة واحدة. . . ولم يخدعه كذلك هذا العدد العديد من الجنود، طالما أن ليس فيهم
!أخيل وشياطينه المقاتلة. . . الميرميدون
فأوجس في نفسه خيفة، وهاله أن يكون في الأمر سر، ووقر في قلبه أن غضبة أخيل
لابد أن تغضب السماء، واستقر في نفسه أن هذا الجيش العرمرم سائر إلى الهزيمة
!المؤكدة، ووارد موارد الردى
!. . .وهكذا جبن القائد العام. . . وندم على أن عقد المجلس الحربي
فما أن متع النهار، ونظر إلى الجند فرآهم يغمرون الأودية، ويربضون في مشارق
الجبال، ورأى إلى طروادة المنيعة تهزأ بكواكب الهيلانيين وجيوشهم، حتى نهض فوق
يفاع من الأرض، وهتف بجنوده يقول:
- (يا أبناء هيلاس! يا بني قومي!
لست أدري إلام تمتد بنا هذه الحرب، وحتام ننفى هنا في هذا المكان السحيق من

الأرض؟!
تسعة أعوام يا قوم، ونحن هنا بمعزل عن العالم؛ ننام في الخيام، ونأوي إلى السفائن، تلفحنا الرياح، ويثور بنا البحر وتتخطفنا المنايا!
وعبثا ينتظرنا أبناؤنا ونساؤنا في هيلاس العزيزة! ومن يدري؟ فقد يكون بعض أبنائنا أو آبائنا انتقلوا إلى هيدز، ونحن هنا نتصارع مع الموت، من أجل امرأة آبقة لا عرض لها ولا شرف!
أبناء وطني!
ألا أقولها لكم كلمة سواء صريحة!؟ هلموا فاغمدوا هذه الرقاق البيض، ولنعقد مع الطرواديين هدنة يعقبها صلح شريف، ثم لنركب أسطولنا الذي نخر السوس في أخشابه أو كاد، ثم لنعد أدراجنا إلى هيلاس سالمين!
حرب!. . .
أية حرب هذه التي اشتعلت من هولها الرؤوس شيبا!!
أية حرب هذه التي تودي بأعز المهج، وتذهب بأغلى الضحايا من نفوس الشباب!؟ بل أية حرب هذه التي توقع العداوة والبغضاء بين أخوين من أعز أبناء هيلاس، فيتراشقان بالفحش من القول، ويتبادلان الهجر من الكلام، ويوشكان أن يلتحما في نزال يودي بحياة أحدهما من أجل امرأة؟!
أنا - أجاممنون - أغضب أخيل أخي من أجل لذة طارئة، ومتاع غير مقيم!!
يا للهول!
(. . . . .لتنته هذه الحرب، لتنته هذه الحرب. . . ولنعد إلى هيلاس
وأرسلها أجاممنون خطبة طويلة تفيض بالحقيقة وتعترف بالواقع. . . فصادفت من قلوب الجند المعذبين هوى، ولقيت منهم استحسانا وتحبيذا، وطربت لها نفوسهم التي أضناها الحنين إلى الأوطان، وشفها التوق إلى لقاء الأهل، ونبذ نير هذه الغربة الطويلة التي أنهكت قواهم وأوهنت شبابهم
وفكر كل في أبنائه وأبويه وأحبائه، فهفت نفسه إلى الارتحال عن هذه الساحة المشجية، عسى أن يقضي الحقبة القصيرة الباقية من حياته الخريفية في راحة قلب وهناءة بال بين أهله وذويه. . .
لكن الآلهة لا تريد هذا!!
وكيف تنتهي حرب أثارها باريس بين ربات الأولمب في البدء؟!
أليس هو قد قضى في التفاحة لفينوس؟
إذن ففينوس تنصره، وهي لذلك تقيه هوان الهزيمة وذل الانكسار! ولكنه أين يهرب من حيرا سيدة الأولمب، التي وعدته نعيما وملكا كبيرا، إذا هو كان قد أعطاها التفاحة؟ لقد أسخطها بما لم يسخطها أحد به من قبل، وهي لذلك تصل ليلها بنهارها في تدبير السوء له، والكيد لوطنه وعشيرته وكل من يلوذ بهما!
ثم أيان يهرب من سخط مينرفا كذلك؟!
أليست مينرفا كذلك قد وعدته الحكمة التي لم يؤتها أحد من قبل، إذا كان قد قضى لها في التفاحة؟. . .
إن مينرفا هي الأخرى تتربص به السوء، وتود لو أظفرت به أعداءه فينكلون به، ويسقونه عذاب الهون، بما قضائه في التفاحة لفينوس!!
سمعت حيرا خطبة أجاممنون من علياء الأولمب، فأفزعها أن ينقاد الجند له، وهالها أن يستعد الجميع للرحيل!
فاستدعت إليها مينرفا، وخاطبتها بصدد ما قال قائد الهيلانيين، ثم اتفقتا على أن تذهب مينرفا إلى معسكر القوم فتلقى البطل المغوار أوليسيز، فما تنفك تحضه وتحرضه حتى
يقوم هو بألهاب عاطفة الجند، وتفتيح عيونهم على العار الأبدي الذي ينتظرهم في بلادهم، إذا عادوا إليها من غير أن يظفرهم أربابهم بأعدائهم، قانعين من الغنيمة بالاياب!. . . بعد تسعة أعوام في دار الغربة. . .
وانطلقت مينرفا إلى ساحة الحرب، وكانت ترف كالسحابة البيضاء في دجنة الليل فيما بين جبل إيدا وشواطئ الهلسبنت، حتى إذا شارفت المعسكر أطلت على القوم فوجدت رؤوسهم يتحاورون فيما قال أجاممنون، ورأت إلى أوليسيز متجهما منقبض

النفس مثقل الروح، يكاد ينشق من الغيظ، مما سمع من كلام القائد العام الدال على الخور واليأس، واستبشرت مينرفا بما رأت من هياج أوليسيز، فهبطت عليه رحمة من السماء، وكلمته قائلة، بحيث لا يراها إلا هو:
(أوليسيز فتى إيتاكا وبطل هيلاس!!)
أسرعت إليك - إليك أنت - إليك يا أشجع جندي هنا، لأحذرك أن تنخدع بكلام أجاممنون! إنها خدعة يا أوليسيز! إن القائد العام يحاول أن يسبر عزائمكم، ويخبر هممكم، فلا تنطل عليك كلماته
إنكم لم تنفروا إلى طروادة خفافا وثقالا لتغتربوا عن أوطانكم تسعة أعوام طوال ثم لتعدوا كما أتيتم! بل أضل سبيلا!
أوليسيز! ما ذنب القتلى الأجرياء الذين خضبت دماؤهم ثرى هذه الساحة، تتركونهم في حمرتين من مقابرهم: حمرة الدم. . . وحمرة الخجل مما فرطتم في حقوقهم وتهاونتم في كرامتهم
وما خطب السنين التسع يا أوليسيز؟
أكنتم تلعبون يوم ضحيتم بأفجنيا؟ . . .
أكنتم تلهون يوم أهدر بروتسيلوس دمه.؟
وشرفكم الذي يذبح كل يوم في قصور طروادة!!
واستهزاء الأمم بكم، وضحك القبائل عليكم؟!
(. . .لا يا أوليسيز! هلم فحرض القادة، وانفخ من روحك في قلوب الجند
وسمع أوليسيز إلى ربة الحكمة، فخفق قلبه، وثارت نخوته، والتهبت نحيزته؛ وعاهدها على إضرام المعمعة، وتأجيج لظى الحرب
وانطلق بين الصفوف فلقى نسطور وأجاكس وبالاميدز وغيرهم وغيرهم من زعماء الجيش ورؤوس فيالقه، فحذرهم (من الانخداع بكلمات اجاممنون، لأنها حيلة يريد بها القائد سبر عزائمهم، واختبار هممهم، كما تحدثت إليه مينرفا!!
وحضهم على التضحية والصبر، وحرضهم على الجلد والاستبسال، وذكرهم بعهودهم ونظر الدنيا جميعا إليهم، ثم حذرهم من العار السرمدي الذي يتربص بهم إذا عادوا من دون أن يفتحوا طروادة!. . .
وتغيرت الحال!
وتجددت روح الحرب، وفتح كل جندي عينيه على مجد الوطن! ونجح أوليسيز ونجحت مينرفا!
ودهش أجاممنون لهذا التحول المفاجئ في نفسية الجيش، تلك النفسية التي كانت منذ لحظة، فقط، مزيجا من القنوط واليأس، وخليطا من السرور المخامر لمجرد الأيذان بالعود إلى الوطن؛ فصارت تضطرم تشوقا إلى الحرب، وتتحرق شوقا إلى امتشاق السمهريات الظوامي!
وما وسعه إلا أن يثني على شجاعة الجنود، و. . . عدم استسلامهم، و. . . ترفعهم عن الاستكانة والاستخذاء!!
فكان تحوله أعجب. . . وموقفه بين عشية أو ضحاها أغرب!
ونظر الطرواديون من كوى أبراجهم فراعهم التفاف الهيلانيين بمدينتهم، وإحاطتهم بها من كل جانب، وسر الرعب في قلوبهم، ودعوا ثبورا كثيرا!!
وكان يحنقهم أن باريس الذي جر عليهم كل ذلك الكرب وكان السبب العقيم لهذه الحرب، يقر في مخدعه الوثير يداعب هيلين المنحوسة ويلاعبها، ويساقيه كؤوس الهوى والغرام غير آبه لما يغص به قومه من كؤوس الردى والحمام!
وخرج باريس لشأن من شؤون لهوه، وعبث باطل من أغراض غرامه الدنيء، فسمع الناس يلغطون ويلمزون، ويلوكو اسمه بألسنة الهوان والتحقير، فثار ثائره، وفارت حماسته وأقسم ليرين من ضروب شجاعته ما تنخلع له قلوبهم وتطير من هوله ألبابهم. . .
وذهب من فوره إلى أخيه هيكتور فطلب إليه أن يرفع الراية البيضاء، ويخترق الصفوف حتى يكون في وسط ميدان، ويناقش قائد القوم ليتفق معه على أن يستريح الجيشان طيلة هذا اليوم ثم لتكون مبارزة بين باريس، على أن يمثل الطرواديين، ومنالايوس على أن يمثل الهيلانيين، فإذا فاز أحدهما بصاحبه، وأظهرته الآلهة عليه، عاد إلى قومه

فرحا مسرورا!!
وطرب منالايوس لما اقترحه غريمة الذي كان كالساعي إلى حتفه بظلفه؛ وصمتت الأفواه وحملقت الأنظار، وتلمس كل جندي في الجيشين قلبه من شدة الخفق وثورة الوجيب؛ وبرز ومنالايوس وبرز إليه باريس؛ ومرت الأحداث سراعا أمام عين ملك إسبارطة؛ فذكر عشاق هيلين وصدود هيلين؛ وذكر الخيرة الكبرى يوم رضيته من عشاقها الكثيرين كريما لها؛ وذكر يوم احتفائه بباريس واحتفال إسبارطة به، كضيف عظيم لملكها؛ وذكر أن هذا الفارس الذي تزل من تحته الأرض إن هو إلا الغادر الختال الذي اعتدى كأعتدى الجبناء على عرضه، ولطخ بوحل الفضيحة شرفه. . . ثم ذكر كيف فرت زوجه معه تحت جنح الليل. . . ذليلة للذتها، أسيرة هواها. . . فثارت في قبله زوبعة من الجنون، وأنفجر في رأسه بركان من الغضب، واتقدت في عينيه جحيم بأكملها من النقمة، واندفق الدم يغلى في ساعديه، وانقض خصمه فأوشك أن يحطمه. . . لولا أن هاله هذا الطيف. الغريب. الذي كان يحمي باريس منه، واقفا إلى جانبه. . . وخلفه وأمامه. . . ومن فوقه، ومن كل جهة جاءه منالايوس منها، يذود عنه، ويتلقى الضربات الإسبرطية فوق درعه المسرودة، الإضاءة، ذات الحلقات!!
ماذا؟
آه! إنها!! هي بعينها!! هي فينوس!! لقد أسرعت إلى باريس تحميه في ذلك الروع الأكبر! فلما أوشك أن يستسلم عز عليها ألا تنقذ حياته وهو هو الذي حكم لها بالتفاحة. . .
لقد رفعته إلى عل!
وطفق منالايوس يبحث عنه هنا وهنا. . . ولكنه لم يعثر له على أثر!
لقد ذهبت به ربة الحب، إلى مخدع الحب!
إلى هيلين!
ولكن ويل له من هيلين! لقد كانت تطلع على الساحة فترى إلى مبارزة البطلين، فهالها أن يبطش ملك إسبارطة بحبيبها، لولا هذه السحابة البيضاء التي كانت تحميه دائما من خصمه وتقيه. . . . .
وعذلته هيلين على هذا الفرار المشين فكان عذلها له أشد على نفسه من ضربات منالايوس!. . .
(لها بقية)
دريني خشبة
أقصوصة عراقية:
رصاصة في الفضاء
عن كتاب (الدفتر الأزرق) للكاتب، الذي سوف يطبع وينشر
(في المستقبل القريب)
بقلم محمود. ا. السيد
- 1 -
حادثة غريبة حدثت في مرقص الهلال في بغداد
كان أول من استقر عليه نظري في ذلك المرقص، ليلة حدثت هذه الحادثة التي أروي لكم، وهي من ليالي صيف 1928، ثلاثة حسبتهم من طلبة المدارس العليا أو صغار الكتبة في الدواوين؛ على مقربة منى يقصفون وينظرون إلى من حولهم من النظارة مستكبرين، ناقدين المرسح نقد راغب في إصلاحه: إصلاح الرقص الخليع فيه والغناء المحزن القديم
وكان النظارة تجارا صغارا وذوي حرف، وعمالا، رأيتهم أخوانا متقابلين في حلقات صغيرة من الكراسي الخيزرانية حول موائد مربعة مكسوة بقماش الكتان؛ تفعم كل مائدة منها أطباق النقل والأقداح وزجاجات الخمور، وأنوار المصابيح الكهربائية المعلقة فوق رؤوسهم، الملونة بألوان العلم العراقي، تبدد الظلام. . .
وكان (جماعة) من الشباب (العوام الأريحيين)، ذوي العباءات الرقيقة السوداء التي تشف عما تحتها، والعمائم (العصفورية) المرقشة باللون الأزرق، يتراشقون بالنكات والفكاهات من وراء حوض مبلط بالقاشاني الأحمر كائن في وسط المرقص تجلله الأعلام وسعف النخيل، وأصواتهم وكلماتهم الشعبية الظريفة تثير الضحك، وتحي في

نفوسه القوم اللذة والسرور
وكانت الراقصة المغنية الأولى، تلقي فاتحة الأغاني، التي أعدت للقوم في تلك الليلة - وهي عامية مشجية - جذلى، أو متظاهرة بالجذل، واثقة بنفسها كما كان يبدو من حركاتها، معتقدة بأنها تجيد الغناء. ثم أنشدت هذه الأبيات من الشعر الشعبي الجديد:
(عن قص الشعر لاتلومونا ... والوقت هذي فنونه)
(قص الشعر صار بوطننا ... على الموده شحلو فنّه)
(قص الشعر لنا زينه ... شبه الذهب بالخزينه)
(كل من يمشي بخياله ... والمحب تنظر عيونه)
وقال واحد من الثلاثة - أولئك الذين حسبتهم من الطلبة أو صغار الكتبة - وهو مبدن ذو وجه مربع كأنه مصنوع بفأس النجار، يخاطب أحد صاحبيه مشيرا إليها:
- إنها لذات وجه صغيرا جدا، وقد صبغت وجنتيها بالصبغ الأحمر لتستر اصفراره ولا شك، فما أقبحها!)
ورفع إلى فمه كأسه، ولم يستمر في انتقاده. أجاب الذي خاطبه وهو أشقر اللون حسن البزة:
- كلا يا أخي. إنها لجميلة يجملها شعرها الفاحم المقصوص طبقا للطريقة العصرية) التي شاعت في الأيام الأخيرة)
وراح ثالثهما، وهو فتى غرانق، طلق المحيا باسم الثغر، يشعل طرف سيكارته ويدخن صامت، والتفت إليه ذو الوجه المربع يسأله:
- (هل سليمان قادم إلينا؟)
- سوف يأتي. ولكنه لن يأتيانا بقلب مفتوح السرور، أنهم ظلموه حقا إذ استلوب منه) وظيفته، على ما تعلمون)
قال الأول: وقد احتسى آخر حسوة من كأسه!
- ليس في خدمة الحكومة شرف للإنسان، فان كان سليمان فتى (وطنيا) مخلصا في) عقيدته السياسية فأمامه سبل العمل المطلق كثيرة، والجهاد. إن خوض المعركة في ساحة الجهاد الوطني قد اقتربت ساعته؛ فالشعب قد أرهقته الضرائب، والاستقلال الذي وعدونا صار مجموعة من المناصب العالية، وعمت في نظمنا الفوضى، فماذا نريد أكثر من ذلك لكي نسوغ خروجنا ونهوضنا نحن الشباب؟ وإلى متى نحسب أن سبل العيش مسدودة أمامنا، فلا نعرف من طرائق الارتزاق والتكسب إلا الوظيفة؟)
قال له صاحباه:
- (صدقت. . هذا صحيح)
وبعد حوار قصير سكتوا، وكانت فترة بين فصلين
- 2 -
أقبل الفتى الذي عرفت من بعد أنه هو سليمان على صحبه في بداية الفصل التالي عجلا يلهث، فحيا، وألقي على المائدةجريدة كان يحمل، ونزع سدارته، ثم جلس، وكانت آثار التعب بادية عليه، واستغرب صحبه حاله، وناوله ذو الوجه المربع سيكارة ثم سأله:
- (هل حدث حادث غير الذي نعلم؟ وهل كان اليوم أيضا تظاهر سياسي؟)
- تظاهر سياسي؟ كيف؟ تظاهر سياسي مرة أخرى؟ أولم يكفنا ما لقينا أمس في) تظاهرنا من ضرب الشرطة إخواننا المتظاهرين بالعصي وإرهاقهم؟ وما الفائدة؟)
وكان يجيب صاحبه وهو يتكلف الهدوء، ولكنه كرر (ما الفائدة) مرتين ثم انفجر صاخبا وكان العواد والكماني يطربان الحاضرين بقطعة موسيقية من مبتكرات سامي الشوا إيذانا بانتهاء دور الراقصة المغنية الأولى
- (. . .لم يبق أمل)
نطق بهذه العبارة حانقا، يائسا، وضرب المائدة بقبضة يده ثم قال:
- (. . . البلاد مقيدة بالمعاهدة، والمناصب الكبرى للأجانب وذوي العقول القديمة، وفتيان العراق لا يجدون واسطة لأعلان شعورهم ضد الاستعمار؛ وهم إذا ما تظاهروا معلنين سخطهم على الصهيونية مثلا كما فعلوا أمس، سحقوهم بسنابك الخيل. . . قبض الشرطة الآن على عبد الكريم، وأحمد حسن وطاهر، ولطفي. . . وواحد من المتظاهرين في المستشفى جريح. .)

واشتد صخبه وصراخه. وكان صحبه، مع ترحيبهم به؛ وتقبلهم آراءه، يتلقون نظرات المحيطين بهم الدالة على استغرابهم هذه الخطبة، التي لم يسمع أحد مثلها في المراقص، في شيء من الارتباك. وناد الفتى الغرانق الخادم ليأتي ضيفهم الثائر بربع من الخمر الأبيض

ثم أقبل صاحب المرقص على سليمان متلطفا يسكته، وينبهه إلى أن فيما قاله الكفاية، وأن الخوض في شؤون الوطن وسياسته في المرقص بين الكأس والعود ضرب من العبث؛ (واليوم خمر وغدا أمر)؛ وكان الرجل أديبا ظريفا، فأفض على الجماعة بجملة من النوادر قبل أن يتولى عنهم وينصرف

وتركت النظر إليهم، واستماع أحاديثهم منصرفا إلى دراسة المرسح!

وكما كان الجاحظ وهو من أئمة الدين يؤلف الرسائل في القيان، كنت عازما على كتابة فصل في نقد مغنيات بغداد اللائي يطربن أبناء الشعب في ساعات لهوهم ومرحهم. فقلت أخاطب نفسي: (إليك المادة الأولى من مواد الموضوع)، ثم أخرجت قلمي ودفتر مذكراتي فكتبت:

(كانت المغنية الراقصة الأولى التي يسمونها جميلة العودية معتدلة القامة، نحيفة ترتدي ثوبا قصيرا بنفسجي اللون، يتوج رأسها تاج من اللؤلؤ المزيف. وجهها مستطيل. نظراتها تدل على غباء. تضاحك الناس بين حين وآخر. . . وأما غناؤها. . .)

وكتبت صفحة أو صفحتين من دفتري في ذكر غنائها؛ وطريقة إنشادها، ثم انتقلت إلى وصف الثانية، وقد جاء دورها وحانت مني التفاتة إلى أشخاص قصتي؛ فألفيتهم عاكفين على مائدتهم يأكلون ويشربون ويتحادثون، وكان سليمان يفرغ الثمالة من زجاجة (الربع) التي كانت أمامه في كأسه، ثم يطلب من الخادم زجاجة (ربع) ثانية، وعجبت له كيف سكن بعد هياجه، ثم سمعته يقول لصاحبه:

(إنني أكرهها. . أكره تلك المغنية الهزيلة. . أكره تاجها المزيف. . أكره وجهها المستطيل. . أكره نظراتها. . وأحب زهراء وإن لم تكن مغنية من ذوات الفن ولا ذات شرف في هذا المجتمع)

وجاءه الخادم بزجاجة؛ ولم يجبه أحد. وفتح الجريدة التي كان ألقاه ساعة أقبل على المائدة وأشار إلى مقالة فيها وقال:

(صرت منذ اليوم أعلن حبي لها على رءوس الأشهاد، فهذه المقالة بل هذه الفلسفة الجديدة قد غيرت رأيي)

وقرأ:

(. . . . .لا تحتقروا أحدا من النساء، فبنو الإنسانية سواسية في هذه الدنيا)

ولم أستغرب هذه (الفلسفة الجديدة) - على ما وصفها - ولم أعرف صاحبها، التي راح يؤيدها سليمان في حماسة شديدة. وخيل إلي من عينيه المحملقتين وصوته الراعد، أن الثورة الكامنة في أعماق نفسه على وشك الظهور مرة أخرى. ولكنه كان مضطربا قلقا، فلم

يكمل قراءة المقالة. ورنا إلى المسرح معجبا برقص الراقصة الثانية؛ وكانت فنانة رومية مستتركة وافدة من استانبول. وهز رأسه، ثم هز رأسه إذ أطربه صوتها الرفيع العذب وأناشيدها التركية الرقيقة. وانشغلت عنه بكتابة وصفها:

(. . .طويلة بيضاء في صفرة كلون الذهب -

واستمررت في الكتابة غير منتبه إلى ما يجري حولي، نحو ساعة أو أكثر أو أقل، لا أدري. وقبل أن ألقي القلم جانبا رنت في أذني قرقعة أحداثها سقوط أطباق على الأرض، وصرخة صارخ يقول:

(!أنت خاطئ يا أخي! أنت خاطئ ومخطئ كل الخطأ) -

وكان الصارخ سليمان. قلت: (حقا لقد ثار صاحبنا). ورفعت رأسي لأنظر إليه، فألفيته واقفا منفوشا شعر رأسه يعربد، ويقول مخاطبا رجلا غريبا لم أره من قبل، كان واقفا أمامه ينظر إليه نظرة شامت مستهزئ:

(أنا شجاع، شجاع! لقد طردوني لأنني أبيت أن أخدمهم لتحقيق غاياتهم) -

هذا حق، ولكنني لم أثر لحرماني من الوظيفة. . . ما أنا بسكران!ـ . . لست ثائرا لأني أصبحت محروما من الوظيفة يا كامل، بل لأن الوطن يريد رجاله. انظر يا كامل! ويلك! أنا رجل أقابل ألف رجل من هؤلاء المخانيث لو دعت الحاجة؛ وهاكم البرهان:

والتفت إلى صحبه مهتاجا، وكانوا حيارى واجمين ثم قال:
- (رصاصة لأجل الحرية!)
وسرعان ما أخرج من جيبه مسدسا فأطلق رصاصة في الفضاء
وهرع بعض النظارة إليه ليمنعه من الاستمرار في إطلاق الرصاص، وبعضهم إلى باب المرقص لينجو بنفسه، إذ أدرك في هذه الحادثة بادرة للجريمة. وجاء شرطي يعدو ويشق لنفسه طريقا إلى سليمان في الزحام. . . ولم أعد أفهم من الحوادث المتتالية شيئا. . .
- 3 -
بعد يومين أو ثلاثة ذكرت الصحف: (أن محكمة الجزاء حكمت على سليمان بن محمود وهو موظف سابق معزول، بأن يسجن عقابا له على إطلاق الرصاص من مسدسه وهو سكران في مرقص الهلال)
ولم أسمع له ذكرا بعد ذلك
العراق - الأعظمية
محمود. أ. السيد
البريد الأدبي
حول النزاع الأدبي
لم أعتد الرد على من يهاجمون شخصي لأني أعتبر واجب الأديب أن يقوم بقسطه من الإنتاج، لا أن يضيع وقته في المشاحنات الفارغة، ولكن أراني الآن مضطرا إلى أن أقول كلمة (ستكون الأولى والأخيرة لي في الموضوع) إظهارا للحقيقة، وخشية أن تمسي (الرسالة)، وهي المجلة الأدبية الرصينة، ميدانا لمجادلات هي في نظري ابعد ما تكون عن الأدب:
لا شك أن الغيرة الأدبية هي التي دفعت صديقي الأستاذ الزحلاوي إلى فتح هذا النقاش لاعتقاده أن ثمة تشابه كبير بين قصيدة الدكتور (ناجي) وبين قصيدتي (عاصفة) المنشورة في مجلة (الدهور) منذ عام ونيف. على أنني أرى هذا التشابه ضئيلا جدا، ولا يجوز أن يعزى إلا إلى توارد الخواطر
أما من جهة رد الأستاذ الطنطاوي فهو ادعاء لا تدعمه حجة ولا يؤيده برهان. لقد ادعى هذا الأديب أن صديقه أنور العطار قال له إن قصيدتي مسروقة من أحد شعراء المهجر، ثم أردف أنه لا يعرف عن سري سوى أني (ترجمان قصصي!) فهل (للرسالة) أن تطلب منه أن ينشر على صفحاتها اسم الشاعر وقصيدته التي يقول إن قصيدتي سرقت منها، وأصل القصص التي يدعي أني أترجمها؟
وليعلم الأديب الطنطاوي أخيرا أن من يكتب للناس ما يفيدهم بلغة سهلة بسيطة لهو خير من الذي يسب ويشتم بلغة العرب الأقحاح!
(دمشق)
ميشيل عفلق
وفاة رحالة كبير
من أنباء روسيا أن الرحالة المكتشف الشهير بيتر كوزلوف قد توفي في لننجراد في الثانية والسبعين من عمره. وقد اشتهر الأستاذ كوزلوف قبل الحرب باكتشافاته العلمية في مجاهل آسيا ولا سيما في صحراء جوبي. وقد بدأ حياته الكشفية بالاشتراك في بعض الحملات والبعثات الرسمية في أواخر القرن الماضي. وفي سنة 1899 جهز حملته الأولى إلى أواسط آسيا؛ ثم أعقبها برحلات أخرى، ولكنه وفق إلى أعظم اكتشافاته بين سنتي 1907 و1909 حينما اكتشف في صحراء جوبي في أعماق آسيا مدينة مجهولة تسمى خاراخوتو. وكانت بها بقايا أبنية ظاهرة، وآثار جنس بشري غير معروف. ووجدت ضمن الآثار المكتشفة نقوش وكتابات كثيرة بلغة مجهولة، ولكن الأستاذ كوزولف استطاع قراءتها بفضل نوع من الدليل المكتوب وجده بين الأشياء المكتشفة. واستمرت حكومة البلاشفة بعد الحكومة القيصرية على تشجيع كوزلوف والإنفاق على بعثاته؛ فقام في العهد الأخيرة بعدة رحلات إلى صحراء جوبي كانت أخراها في سنة 1926. وعاونته الحكومة أيضا على نشر كتاب ضخم عن جوبي وآثارها وعن منطقة خاراخوتو التي اكتشفتها. ونشر كوزلوف أيضا كتبا أخرى كلها بالروسية،

ولكنها لم تترجم إلى لغات أخرى فلم يعرف العالم الخارجي عنها كثيرا، غير أنه نشر منذ أعوام كتابا بالإنكليزية عنوانه (عصافير منغوليا)
وكان الأستاذ كوزلوف عضوا في جمعيات علمية كثيرة. وكان يعيش في منزل منعزل في غابة بالقرب من نوفجرود مدى أعوام طويلة يرتب المواد والآثار التي جمعها؛ وكان من آن لآخر يحضر إلى لننجراد ليلقي فيها بعض المحضرات. وقررت له الحكومة البلشفية معاشا حسنا، وقد رافقته زوجه في عدة من حملاته الكشفية
عميد الموسيقى الإنكليزية
نعت الأنباء الأخيرة السير فردريك كوين المؤلف الموسيقي المشهور وعميد الموسيقى الإنكليزية منذ أواخر القرن الماضي. توفي في الثالثة والثمانين من عمره؛ وكان مولده بجزيرة جاميكا في سنة 1852، وأخذ إلى إنكلترا صغيرا حيث كان أبوه يشغل وظيفة (بمسرح الملكة). وتلقى كوين دروسه الأولى في الموسيقى وهو طفل على يد هنري رسل، وكتب أول قطعة موسيقية وهو في الخامسة. ودرس المعزف (البيانو) على بندكت،
والتأليف على جوس. وفي سنة 1885 ذهب إلى لايبزج ودرس هنالك على أقطاب الفن. ثم عاد إلى إنكلترا، وظهر ببراعته في التأليف والموسيقى، وعهد إليه برياسة الحفلات الموسيقية الملكية؛ ولكنه كان أكثر براعة في التأليف منه في العزف. وكانت أولى قطعه الشهيرة (عذراء الورد)، ظهرت وعزفت في لندن سنة 1870؛ وأتبعها بقطعة تسمى (القرصان). ومن ذلك التاريخ عكف السير كوين على إخراج القطع والاوبرات والأغاني حتى بلغ ما أخرجه منها مئات عدة. وقد انتخب السير كوين مرارا ليكون رئيسا للفرقة الموسيقية التابعة لجمعية الموسيقى الملكية. وفي سنة 1911، أنعم عليه بلقب الفارس
وللسير كوين قطع موسيقية راقصة بديعة. ولما بلغ الثمانين من عمره منذ ثلاثة أعوام، صرح في حديث له أنه لا يدري ماذا حدث في الموسيقى العصرية، وأنه يلاحظ أن الموسيقى المعاصرة ملأى بالمفارقات والمتناقضات مع أن من شرط الموسيقى أن تكون فياضة التناسق
مؤتمر لتاريخ الطب:
عقد أخيرا في مدريد مؤتمر لمؤرخي الطب، وهو المؤتمر العاشر من نوعه يعقد كل عام في عاصمة من عواصم العالم، وقد شهده جمهرة كبيرة من علماء مختلف الدول، وعقد تحت رعاية رئيس الجمهورية الإسبانية، ولم يقتصر أعضاء المؤتمر على المناقشات العلمية والتاريخية المتعلقة بتاريخ الطب والجراحة منذ غابر الأزمان، ولكن لجنة المؤتمر قامت بتنظيم معرض هام للمخطوطات والوثائق الطبية من أقدم العصور، وكذلك لعرض الأدوات الطبية والجراحية التي كان يستعملها الأطباء في العصور القديمة والوسطى، ومن ذلك صور ونماذج للأدوات الطبية والجراحية العربية نقلت من مخطوطات ترجع إلى القرن الرابع عشر، وصور من مخطوطات موسى بن ميمون الطبية والفلسفية وهو الطبيب اليهودي الأندلسي الذي نبغ في القرن الثاني عشر ويعرف عند الإفرنج باسم (ميمونيدس) ومجموعة من آثار اندريس لاجونا طبيب الإمبراطور شارلكان، وأدوات طبية هندية ومصرية ترجع إلى العصور الوسطى، ونماذج تشريحية وغيرها، وقد لفت الأنظار بنوع خاص نموذج معروض لحانوت صيدلي مسلم في قرطبة في القرن الثالث عشر، ونموذج لمستشفى (سانتا كروز) القديم في طليطلة كما كان عليه في القرن السادس عشر
ملكة التراجيديا
صدر أخيرا كتاب بالإنجليزية عنوانه (راشيل الخالدة) للكاتب الإنكليزي برنارد فوك، وهو ترجمة مستفيضة مؤثرة للممثلة الكبيرة راشيل التي سطعت في النصف الأول من القرن الماضي، وتركت أثرها الخالد في المسرح الفرنسي، وكانت راشيل مثل سان برنهرت وسان سيدون يهودية الأصل، ولدت سنة 1821 في أسرة فقيرة جدا، وكانت في طفولتها تغني وترقص في شوارع ليون وتجمع الفلوس لتعيش، ولكنها لم تبلغ السابعة عشرة حتى ظهرت على مسرح (الكوميدي فرانسيز) ولم تمض أسابيع على ظهورها حتى ارتفع صيتها إلى السماكين، ولم تبلغ العشرين حتى غدت غنية ترتع في بحبوحة الثراء والترف، والتف حولها أكثر من أمير وشريف يرغبون في ودها،

وكانت مثال العبقرية الساطعة، ولكنها لم تكن مثالا للأخلاق الرفيعة، وكانت لها مبادئ وتصرفات خاصة تعدو مجتمعها وعصرها، وقد خاضت حياة مضطرمة فياضة بالعمل واللهو العنيف، وتوفيت فتية في زهرة العمر، في الثامنة والثلاثين من عمرها ويستعرض المؤلف حياة هذه الممثلة الباهرة في قوة وصراحة ويكشف لنا كثيرا من خواص الحياة المسرحية في القرن الماضي ويوضح لنا كيف كانت راشيل من أعظم ممثلات التاريخ، ومن أعظم كواكب الفن والمسرح

ترشيح النجاشي لجائزة نوبل

من الأنباء الطريفة التي وقفنا عليها في البريد الأخير أن صحيفة سويدية هي جريدة (سوسيال ديموكراتني) التي تصدر في ستوكهلم ترشح الإمبراطور هيلى سلاسي لنيل جائزة نوبل للسلام هذا العام؛ وتؤيد الجريدة هذا الترشيح بمواقف الإمبراطور السلمية المشهورة وأحاديثه التي أفضى بها إلى مختلف المكاتبين الأوربيين، وترى أنه أجدر من وقف إلى جانب السلام هذا العام بنيل الجائزة الشهيرة. ونذكر أن الذي فاز بهذه الجائزة في العام الماضي هو المستر هندرسون رئيس مؤتمر نزع السلاح، والسير نورمان آنجل الكاتب الإنكليزي وداعية السلام الشهير. ولا ريب أن ترشيح النجاشي سيقابل بالتأييد والارتياح من جميع أنصار السلام، والمعروف أن السويد تعطف على النجاشي عطفا خاصا، وأن معظم مستشاريه العسكريين والسياسيين هم من رجال السويد

الكتب

علم الدولة

للأستاذ أحمد وفيق

(لمناسبة صدور الجزء الثالث)

بقلم الدكتور محمد توفيق يونس

صدر حديثا الجزء الثالث من الكتاب الضخم الذي يضعه الكاتب النابه الأستاذ أحمد وفيق في (علم الدولة)، وهذا الجزء كسابقيه من حيث طريقة البحث وسياق الحديث، وإذا كان قد فاتنا أن نتحدث عن الجزأين الأول والثاني حين صدورهما فلا يفوتنا وقد صدر الجزء الثالث أن نتحدث عن الكتاب جملة

من العسير بل المستحيل أن تكون (الدولة) بجميع مظاهرها وتطوراتها موضوعا لبحث واحد جامع، إذ أن لها وجوها مختلفة يتطلب كل منها بحثا خاصا، فهناك الوجه الدستوري الذي يعنى بهيئات الدولة العليا، وهناك الوجه الإداري الذي ينظر إلى التفاصيل التنفيذية للحياة العامة، أو بمعنى آخر إلى مجموع المصالح العامة التي تكفل سير الدولة العملي، وهناك الوجه المالي الذي يبحث في إيرادات الدولة ونفقاتها، ثم هناك دراسة الدولة من ناحية القانون الدولي العام باعتبارها من أشخاصه وبصفتها عضوا في الأسرة الدولية، الخ

ولكل دراسة من هاته الدراسات ناحيتان أساسيتان: ناحيتها القانونية وناحيتها السياسية، وأهمية الاستئناس بالأخيرة في تحليل المسائل الفقهية لا تحتاج إلى بيان. وإذا أضفنا إلى كل ذلك نصيب التاريخ تبين لنا إي دائرة واسعة من المعارف يمكن أن تدخل تحت هذا الموضوع

ولكن المؤلف الفاضل وإن كان قد سمى كتابه (علم الدولة) لم يقصد إلا دراسة فكرة الدولة أو نظرية الدولة كما أوضح ذلك في مقدمة الجزء الأول (ص47 - 49) لهذا كان أجمل به أن يجعل عنوان الكتاب أكثر تحديدا لما فيه بأن يسميه مثلا (فكرة الدولة) أو (نظرية الدولة) أو (علم في الدولة) إذا لم يرد تحديدا دقيقا على أن الموضوع الذي فرضه المؤلف على نفسه يبقي بعد هذا التحديد فسيح الأطراف متشعب النواحي متعدد الوجوه إلى حد يجعل من الصعب استيعابها جميعا ودراستها معا دراسة مستفيضة، ويضطر المؤلف إلى الإيجاز وإهمال التفاصيل، ويخشى معه ضعف الارتباط وتشتت البحث وتوزع المجهود. والمؤلف نفسه يكتفي في الواقع (بدراسة عامة إجمالية) (ص47 من الجزء الأول)

ولقد صبغ المؤلف هذه الدراسة بالصبغة التاريخية فجعل التاريخ العنصر الغالب في أجزاء كتابه الثلاثة بل قوامها جميعا.

وموجز بسيط للموضوعات التي تناولها المؤلف تساعد على إدراك ما قدمنا
قسم المؤلف الجزء الأول من كتابه إلى ثلاثة أبواب خصص الباب الأول منها بأصول الدولة، فتكلم في الفصل الأول عن ضرورة البحث في هذا الموضوع، وقدم لذلك مثلين هما: فرض الضرائب على الأجانب والنظام الفاشي. ثم انتقل إلى الكلام في الفصول التالية عن مختلف النظريات التي تناولتها عارضا ناقدا محللا، فتكلم في الفصل الثاني عن نظرية الطبيعة، وفي الثالث عن الأسرة، وفي الرابع عن العقد الاجتماعي، وفي الخامس عن القوة، وفي السادس عن الإرادة الفردية؛ وبعد أن انتهى المؤلف من الكلام على أصول الدولة في الباب الأول أخذ يتكلم في البابين الثاني والثالث عن التطور التاريخي لفكرة الدولة، فتناول في الباب الثاني الأفكار القديمة من الدولة مستعرضا إياها في الهند وفارس والصين ومصر، وعند اليهود واليونان والرومان، وتناول في الباب الثالث فكرة الدولة في القرون الوسطى وفي عهدي الأحياء والإصلاح
وفي الجزء الثاني من الكتاب تابع المؤلف بحثه في التطور التاريخي لفكرة الدولة؛ فتكلم عنها من عهد الإصلاح الذي ختم به الجزء الأول حتى سقوط نابليون النهائي بعد أن عرج في طريقه على الدستور البريطاني، فشرح أطواره منذ نشأته حتى نهاية القرن الثامن عشر
واستمر هذا البحث التاريخي في الجزء الثالث، إذ تناول المؤلف أطوار فكرة الدولة ابتداء من سقوط نابليون حتى اليوم - تناولها من ثلاث نواحي في ثلاثة أبواب؛ خص الباب الأول منها بتطور فكرة الدولة من ناحية سياجها الخارجي، أو بعبارة أخرى من ناحية القانون الدولي، وخص الباب الثاني بأهم أطوار العنصر التاريخي للدولة عارضا لمختلف الحركات الشعبية منذ سنة 1815، أي بعد سقوط نابليون النهائي، وخص الباب الثالث
بأهم أطوار العنصر القانوني للدولة منذ ذلك الحين كذلك واصلا ما انقطع في نهاية الجزء الثاني من الكلام عن الحركة الدستورية والنظام البرلماني في فرنسا، خاتما إياه بكلمة واحدة وجيزة عن بعض المبادئ الدستورية الحديثة
والحق أن المؤلف الفاضل - مع ما سبق أن قدمنا - قد عالج هذه الأبواب التي تناولها في أجزاء كتابه الثلاثة معالجة الملم بموضوعه، الواسع الاطلاع، الدقيق الملاحظة، القوي العبارة، الجزل الأسلوب
على أننا مع الثناء الخالص على المؤلف والتقدير العظيم للكتاب نأخذ على الأستاذ أنه لم يبين في صدر الكتاب منهاج بحثه، وتقسيم عمله، وتسلسل موضوعه، البيان الكافي الذي ينير أمام القارئ السبيل إلى الغاية
كذلك نأخذ عليه عدم ذكره المراجع كاملة في الثبت الذي ذيل به كل جزء من أجزاء كتابه فلم يذكر أمام كل كتاب بعد اسم المؤلف والعنوان الكامل لكتابه الجزء الخاص بالموضوع إذا كان للكتاب عدة أجزاء، وعدد الطبعة إذا كان له أكثر من طبعة، والمدينة والسنة التي طبع فيها. ففي هذه البيانات ما يساعد محبي البحث والاستقصاء
كما أنه أهمل هذه البيانات عندما كان ينقل أو يوجز أقوال بعض العلماء في صلب الكتاب، فهو كثيرا ما يكتفي بالإشارة إلى اسم المؤلف ورقم الصفحة دون ذكر لعدد الطبعة، وقد تكون الطبعة التي يرجع إليها القارئ غير الطبعة التي كانت في يد الكاتب، والصفحات تتغير في مختلف الطبعات، بل هو أحيانا لا يذكر الصفحة التي نقل عنها فيصعب على القارئ الرجوع إلى العبارة المنقولة والتثبت منها
وجملة الرأي في الكتاب أنه لم يوجه وجهة علمية صرفة، بل قصد منه التثقيف والتهذيب، وأنه من هذه الناحية، أي ناحية الثقافة العامة عمل ضخم ثمين، أدى به مؤلفه الكريم إلى قراء العربية خدمة جليلة، كلفته جهودا مضنية من الطاقة والوقت، فمن حقه أن يقابل بالشكر الوافر والتعضيد الصحيح
محمد توفيق يونس
العدد 120 - بتاريخ: 21 - 10 - 1935
أحمد شوقي
بمناسبة ذكراه الثالثة
اجتمع رأي الناس - ما عدا الشعراء - على أن شوقي طيب الله ذكره، كان تعويضاً

عادلاً عن عشرة قرون خلت من تاريخ العرب لم يظهر فيها شاعر موهوب يصل ما انقطع من وحي الشعر، ويجدد ما اندرس من نهج الأدب، ويحفظ للبيان العربي قسطه المأثور من التعبير الملهم عن كلمة الله المنبثة في الكون، وأسرار الجمال المضمرة في الطبيعة، ومعاني الخير الغامضة في الحياة؛ وأن فقده كان فقداً للوجدان الفني في الشعب الذي علمه كيف يتذوق الأدب ويستسيغ الشعر وينضح عواطفه الجافة بفيض هذه القريحة النابغة النَّرَّة؛ فالأعوام تعقب الأعوام، والذكرى تخلف الذكرى، والأسى لا يزال يُرمض الجوانح لامتناع الصبر عليه واعواز العوض منه؛ فسيبقى شوقي كما وضعه القدر كمالاً في نقص كان، وهيهات أن يصير نقصاً في كمال سيكون؛ وسيدور الفلك ويدور، ويقصد النقد ويجور، ويتطور الذوق ويسمو، وشعر شوقي ثابت ما ثبت الحق، خالد ما خلد القرآن، مقروء ما بقي العرب!

ذلك لأن الطبيعة اختارته لرسالة الشعر بعد فترة موئسة من الرسل، ثم آثرته بالنصيب الأوفى من الفكر والخيال والعاطفة، وهن الملكات الثلاث التي ترفد القريحة وتمد الطبع، وعلى تفاوتها في القوة والضعف يتفاوت الفنان في السبق والتخلف؛ ثم زوّدته بالأذن الموسيقية والقريحة السخية والأداة الطيعة، فشب عبقرياً بالفطرة، لا شأن للبيئة في تنشئته، ولا للمدرسة في إعداده، ولا للفرصة في توجيهه؛ وهل كان أثر البيئة وقفاً عليه، وتعليم المدرسة خاصاً به، ومواتاة الفرص امتياز له؟ إنما كان مثله في رسالة الشعر كمثل الأنبياء في رسالة الدين، يختارهم الله من الضعفاء والفقراء والأميين ليكون جلاله عليهم أبهر، ومعجزته فيهم أظهر، وحجته منهم أبلغ

وشوقي رجل روحه أقوى من فنه، وشعره أوسع من علمه، وحكمته أمتن من خلقه، وقدرته أكبر من استعداده، فلا يشك قارئه في أنه وسيط لروح خفية تقوده، ورسول لقوة إلهية تلهمه؛ وما اكتسب من القراءة والأسفار إلا إرهاف الذوق، وتحصيل المادة، وتوسيع الخبرة؛ والذوق في الفن كالعقل في العلم إنما يحصلان بالدرس والتجربة والسن؛ والطبيعة

تصنع صاحب العبقرية، ولكنها تبدأ صاحب الذوق

الشاعر المطبوع رجل يتأثر خياله بقوة، وينفعل قلبه بسرعة، ثم يكون بين خياله وقلبه تجاوب سريع مستمر؛ له أذن مرهفة الحس تفطن للإيقاع وتطرب للنغم، وذوق سليم الإدراك يعرف جمال الشعر ويعلم مواقع الكلم، ونفس ترى المُثُل الروائع فتحمَى وتتحمس، ثم يدفعها السمو الفني فيها إلى المنافسة الحرة والمعارضة النبيلة؛ وإذا تناول الفكرة الأساسية الأولية لموضوع ما، لا يلبث أن يراها في دخيلة نفسه تنمو وتتسع وتتركب وتتشعب وتتلون، ثم تغدو ولوداً خصبة؛ ثم لا ينفك شاعراً بالحاجة الملحة إلى الإنتاج الناشئ عن غزارة الفيض وحرارة العاطفة؛ ثم يدرك في يسر ما بين المعاني المجردة والمواد المحسَّة من علاقة، فيتخذ من هذه ألواناً لتلك، بحيث تولد هذه الأفكار في الذهن مكسوة بهذه الصور؛ تتمثل في خاطره المواد من ذات نفسها على الوجه الأنسب للتصوير والوضع الأجمل في النظم، فإذا كان الموضوع مؤثراً انثالت عليه العواطف معجلة تريد أن تظهر، مزدحمة تحاول أن تفيض

ذلك هو الشاعر المطبوع، وذلك هو شوقي؛ علمناه بالدرس، وعرفناه بالصحبة، فما انخزل يوماً في تحليقه وإسفافه عن مواقف العبقرية. ولئن كان في شعر شبابه مأسور الفكر، محصور الخيال، محدود النظر، لا يعبر إلا عن رأي القصر، ولا يصور إلا بألوان البيئة، لقد كانت هذه الحقبة الرسمية غيبة للشاعر عن نفسه، وذهولاً منه عن وجوده؛ وقديماً كانت صلات الشعراء بالملوك والخلفاء عاهة الشعر وآفة العبقرية، فلما أعتقته الحرب من رق الوظيفة، وأطلقته إنجلترا بالنفي إلى الأندلس، تيقظ فيه الرسول الشاعر والحكيم المصلح، فحلق بخياله في كل جو، وسطح بعقله في كل أفق، وشدا بالإسلام والعروبة والمصرية شدوا ردده كل لسان واهتز له كل قلب؛ ثم زاد في القيثارة العربية الأوتار الناقصة، فأضاف الشعر القصصي والشعر التمثيلي إلى شعرنا الغنائي؛ فكان بذلك وحده الشاعر الكامل!

شوقي كله من صنع الطبيعة، ولد منشداً كما ولد البلبل مغرداً؛ فالحكم على شعره بقوانين النقد الوضيعة، وآراء الناقدين الشخصية، لا يضعه في مكانه، ولا يزنه بميزانه. اقرأه ثم راجع فيه نفسك، واستشر في أثره حسك، فإذا وجدت ذهنك يشتغل، وشعورك يشتعل،

وروحك تتصل بروحه، وذوقك يرتاح لذوقه، فثق أنك بازاء شاعر علت مزاياه على النقد، وسخرت مواهبه بالقيود:
إن شوقي سيظل على رغم الهتاف به مغموط الحق مادام الشعر العربي للخاصة، لأن الخواص أكثرهم لا ينصفونه، والعوام كلهم لا يفهمونه، فمتى زالت معرّة الأمية عن الأمة العربية أصبح لشعره يومئذ شأن وأي شأن
أحمد حسن الزيات
الجمال البائس - 5
للأستاذ مصطفى صادق الرافعي
تتمة
قلت لها: إن كلمة الكفر لا تكون كافرة إذا أُكره عليها من أُكره وقلبُه مطمئنٌّ بالإيمان، وكلمة الفجور أهون منها وأخف وزناً وشأناً، ثم لا تكون إلا فاجرة أبداً، إذ لا إكراه على هذه الدَّعارة إكراها لا خيار فيه. وما أول الدَّعارة إلا أن تمد المرأة طرفها من غير حياء، كما يمد اللص يده من غير أمانة
ومن اضطُر إلى الكفر استطاع أن يخبأ محراب المسجد في أعماقه فيصلي ثمة، ولكن الفجور لا يترك في النفس موضعاً لدين ولا إيمان، إذ هو دائب في إثارة الغرائز الطبيعية الحيوانية المسترسلة بلا ضابط، فيجعل المرأة تحيا بعيدة عن ضميرها، فيضعف منها أول ما يضعف آثار الآداب والأخلاق، فيهلك فيها أول ما يهلك إحساسها بمعنى المرأة الإنسانية وشعورها بمجد هذا المعنى
فإذا انتهت المرأة إلى هذا لم يكن لها مبدأ ولا عقيدة إلا أنَّ على غيرها أن يتحمل عواقب أعمالها، وهذه بعينها هي حالة المجنون جنون عقله؛ أفلا تكون المرأة حينئذ مجنونة جنون جسمها. . .؟
فساءها ذلك وبان فيها، ولكنها أمسكت على ما في نفسها؛ والمرأة من هؤلاء لا يمشي أمرها في الناس ولا يتصل عيشها إلا إذا كثرت طباعها كثرة ثيابها، فهي تخلع وتلبس من هذه وتلك لكل يوم ولكل حالة ولكل رجل، فينبعث منها الغضب وهي في أنعم الرضى، كما ينبعث الرضى وهي في أشد الغيظ، وكأن لم تغضب ولم ترض لأنها ليست لأحد ولا لنفسها
وتساير غضبها ثم قالت: كان كلامك أن لك رجاء إليَّ، فأنا أحب. . . . أحب أن أعلم
قلت: وأنا كذلك أحب. . . أحب أن أعلم
فضحكت وسرِّى عنها، وثبتت على شفتيها ابتسامة لو جاء ملكٌ من السماء ليضع في ثغرها ابتسامة أجمل منها لما وجد أجمل منها
ثم قالت: تحب أن تعلم ماذا؟
قلت: أحب أن أعلم منك قصة هذه الحياة ما كان أولها؟
قالت: لقد قضيت من حكمك فينا، ولكنك أخطأت، فلكل ليل مظلم كوكبه؛ والكوكب الوقاد المعلَّق فوق ليل المرأة منا هو إيمانها. نعم إنه ليس كإيمان الناس في واجباته ولكنه كإيمان الناس في تعزيته، والله ربُّنا وربُّكم
قلت: لو أطيع الله بمعصيته لاستقام لك هذا. وإنما أنت تصفين الإيمان الأول الذي كان عملاً فصار ذكرى، فصارت الذكرى أملاً، فظننتِ الأمل هو الإيمان
قالت: ثم إننا جميعاً مكرهات على هذه الحياة فما نحن إلا صرعى المصادمة بين الإرادة الإنسانية وبين القدر
قلت: ولكن لم تهف واحدة منكن في غلطتها الأولى وهي مستكرهة على غلطة؛ بل وهي راغبة في لذة، أو مبادرة لشهوة، أو طالبة لمنفعة
قالت: هذا أحد الوجهين؛ أما الآخر فالتماس الرزق وصلاح العيش. فالرجل مع الرجل رأس ماله قوَّته، وعمله بقوته؛ ولكن المرأة مع الرجل رأس مالها أنوثتها، وعمل أنوثتها. وفي الوجه الأول وجه اللذة والمنفعة، تحتال كلمة الفجور على المرأة بكلمات رقيقة ساحرة، منها الحبُّ والزواج والسعادة، فتستسلم المرأة مضطرة ليقع شيء من هذا. وفي الوجه الثاني وجه الرزق والعيش، تحتال الكلمة الخبيثة الفاجرة على المرأة المسكينة المستضعفة بكلمات رهيبة قاتلة، منها الجوع والفقر والشقاء، فتسقط المرأة مضطرة خيفة أن يقع شيء من هذا؛ وفي أحد الوجهين يكون الرجل هو الفاجر لفساد آدابه، وفي الوجه الآخر يكون الفاجر هو المجتمع لفساد مبادئه

قلت: أنا لا أنكر أن المرأة إذا سقطت في هذه المدينة لم تقع أبداً إلا في موضع غلطة من غلطات القوانين، وآفة هذه القوانين إنها لم تسن لمنع الجريمة أن تقع، ولكن للعقاب عليها بعد وقوعها. وبهذا عجزت عن صيانة المرأة وحفظها، وتركتها لقانون الغريزة الوحشي في هؤلاء الوحوش الآدميين الذين يأخذهم السعار من هذه الرائحة التي لا يعرفها إلا في اثنين: المرأة الجميلة، والذهب. فما ألجأت امرأة حاجتها أو فقرها إلى أحدهم ورأى عليها جمالاً إلا ضربه ذلك السعار، فإن استخفَّت بنزواته وتعسّرت عليه طردها إلى الموت ومنعها أن تعيش من قبله، وإن صلحت له وتيسرت، آواها هي وطرد شرفها. . .

وذلك بخلاف الدين، فإنه قائم على منع الجريمة، وإبطال أسبابها؛ فهو في أمر المرأة يلزم الرجل واجبات، ويلزم المجتمع واجبات غيرها، ويلزم الحكومة واجبات أخرى. فأما الرجل فينبغي له أن يتزوج، ويتحصن، ويغار على المرأة، ويعمل لها؛ وأما المجتمع فيجب عليه أن يتأدب، ويستقيم، ويعين الفرد على واجبات الفضيلة، ويتدامج ويشد بعضه بعضاً؛ وأما الحكومة فعليها أن تحمي المرأة فتعاقب على إسقاطها عقاب الموت والألم والتشهير، لتقيم من الثلاثة حراساً جبابرة، من لا يخش الله خشيها.

فليس يمكن أبداً أن يكون في ديننا موضع غلطة تسقط فيه المرأة

قال الأستاذ (ح): صدقت، فالحقيقة التي لا مِراء فيها أن فكرة الفجور فكرة قانونية. وما دام القانون هو أباحها بشروط فهو هو الذي قررها في المجتمع بهذه الشروط، ومن هذا التقرير يقدم عليها الرجل والمرأة كلاهما على ثقة واطمئنان. ومن ثم تأتي الجرأة على اندفاع الناس إلى ما وراء حدود القانون؛ ومن هذا الاندفاع تأتي الساقطة بآخر معانيها وأقبح معانيها

وتقرير سيادة المرأة في الاجتماع الأوربي وتقديمها على الرجال والتأدب معها، كل ذلك يجعل جراءة السفهاء عليها جراءة متأدبة حتى كأن المتحكك منهم في امرأة يقول لها: من فضلك كوني ساقطة. . . أما هنا فجراءة السفهاء جراءةٌ وقحةٌ معاً، وذلك هو سرُّها

القانون كأنما يقول للرجال: احتالوا على رضا النساء فإن رضين الجريمة فلا جريمة، ومن هذا فكأنه يعلمهم أن براعة الرجل الفاسق إنما هي في الحيلة على المرأة وإيقاظ الفطرة في نفسها بأساليب من الملق والرياء والمكر تتركها عاجزة لا تملك إلا أن تذعن وترضى. وبهذا ينصرف كل فاجر إلى إبداع هذه الأساليب التي تطلق تلك الفطرة من حيائها، وتخرجها من عفتها (تطبيقاً للقانون). . .

ولا سيادة في اجتماعنا للمرأة، ولكن القانون جعلها سيدة نفسها، وجعلها فوق الآداب كلها، وفوق عقوبة القانون نفسه إذا رضيت؛ إذا رضيت ماذا. . .؟

قلت: فإذا كان القانون هنا في مسألتنا هذه يعدل بالظلم، ويحمي الفضيلة بإطلاق حرية الرذيلة، فهو إنما يفسد الدين؛ ويصرف الناس عن خوف الله إلى خوف ما يخاف من الحكومة وحدها. وبهذا لا يكون عمله إلا في تصحيح الظاهر من الرجل والمرأة، ويدع الباطن يسر ما شاء من خبثه وحيلته وفساده، فكأنه ليس قانوناً إلا لتنظيم النفاق وإحكام الخديعة. فلا جرم كان قانوناً لحالة الجريمة لا للجريمة نفسها، فإذا أخذت المرأة ملاينة ورضى فهذا فجور قانوني. . . وإن كانت الملاينة هي عمل الحيلة والتدبير، وإن كان الرضى هو أثر الخداع والمكر، وإن ضاعت المرأة وسقطت وذهب شرفها باطلاً وألحقه الناس بما لا يكون من توبة إبليس فلا يكون أبداً. أما إذا أخذت مكارهة وغصباً، فهذه هي الجريمة في القانون؛ ويسميها القانون جريمة الاعتداء على العرض، وهي بأن تسمى جريمة العجز عن إرضاء المرأة أحق وأولى

على أن المسكينة لم تؤخذ في الحالتين إلا غصباً ولكن اختلفت طريقة الرجل الغاصب، فإن كلتا الحالتين لم تتأدَّ بالمرأة إلا إلى نتيجة واحدة هي إخراجها من شرفها، وحرمانها حقوق إنسانيتها في الأسرة، وطردها وراء حدود الاعتبار الاجتماعي، وتركها ثمة مخلاة لمجاري أمورها، فلا يتيسر لها العيش إلا من مثل ذلك الرجل الفاجر، فلا تكون لها بيئة إلا من أمثاله وأمثالها كما يجتمع في الموضع الواحد أهل المصير الواحد على طريقة القطيع في المجزرة. . . .

فقالت هي: الحق أن هذه الجريمة أولها الحب؛ وهي لا تقع إلا من بين نقيضين

يجتمعان في المرأة معاً: كبر حبها إلى ما يفوت العقل، وصغر عقلها إلى ما ينزل عن الحب. والمرأة تظل هادئة ساكنة رزينة حتى تصادفها اللحاظ النارية من العين المقدرة لها فلا يكون إلا أن تملأها لهباً. ولتكن المرأة من هي كائنة فإنها حينئذ كمستودع البارود يهول عظمه وكبره، وهو لا شيء إذا اتصلت به تلك الشرارة المهاجمة

وليست حراسة المرأة شيئاً يؤبه له أو يعتد به أو يسمى حراسة، إلا إذا كانت كالتحفظ على مستودع البارود من النار؛ فيستوي في وسائلها الخوف من الشرارة الصغيرة والفزع من الحريق الأعظم، فيحتاط لاثنيهما بوسائل واحدة في قدر واحد واعتبار واحد وإذا تركت المرأة لنفسها تحرسها بعقلها وأدبها وفضلها وحريتها، فقد ترك لنفسه مستودع البارود تحرسه جدرانه الأربعة القوية. . . .

والرجال يعلمون أن للمرأة مظاهر طبيعية من الخيلاء والكبرياء والاعتداد بالنفس والمباهاة بالعفة؛ ولكن هؤلاء الرجال أنفسهم يعلمون كذلك أن هذا الظاهر مخلوق مع المرأة كجلد

جسمها الناعم، وأن تحته أشياء غير هذه تعمل عملها وتصنع البارود النسائي الذي سينفجر. . . .

قلت: إذا كان هذا فقبح الله هذه الحرية التي يريدونها للمرأة. هل تعيش المرأة إلا في انتظار الكلمة التي تحكمها بلطف، وفي انتظار صاحب هذه الكلمة؟

قالت: إن هذا حق لا ريب فيه، وأوسع النساء حرية أضيعهن في الناس؛ وهل كالمومس في حريتها في نفسها؟

ولكن يا شؤمها على الدنيا. إنها هي بعينها كما قلت أنت حرية المخلوق الذي يترك حراً كالشريد لتجرِّب فيه الحياة تجاريبها المؤلمة. وماذا في يد المرأة من حرية هي حرية القدر فيها؟

قلت: ولهذا لا أرجع عن رأيي أبداً، وهو أنه لا حرية للمرأة في أمة من الأمم إلا إذا شعر كل رجل في هذه الأمة بكرامة كل امرأة فيها، بحيث لو أهينت واحدة ثار الكل فاستقادوا لها، كأن كرامات الرجال أجمعين قد أهينت في هذه الواحدة. يومئذ تصبح المرأة حرة، لا بحريتها هي، ولكن بأنها محروسة بملايين من الرجال. . . .

فضحكت وقالت: (يومئذٍ) هذا اسم زمان أو اسم مكان. . . .؟

قال الأستاذ (ح): ولكنا أبعدنا عن قصة هذه الحياة، ما كان أولها؟

قالت: إن الشبان والرجال علمٌ يجب أن تعلمه الفتاة قبل أوان الحاجة إليه. ويجب أن تقرَّ في ذهن كل فتاة أن هذه الدنيا ليست كالدار فيها الحب، ولا كالمدرسة فيها الصداقة، ولا كالمحل الذي تبتاع منه منديلاً من الحرير أو زجاجة من العطر فيه إكرامها وخدمتها

وأساس الفضيلة في الأنوثة الحياء. فيجب أن تعلم الفتاة أن الأنثى متى خرجت من حيائها وتهجمت، أي توقحت، أي تبذلت، استوى عندها أن تذهب يميناً أو تذهب شمالاً، وتهيأت لكل منهما ولأيهما اتفق. وصاحبات اليمين في كنف الزوج وظل الأسرة وشرف الحياة. وصاحبات الشمال ما صاحبات الشمال. . . . .؟

قلت: هذا هذا؛ إنه الحياء، الحياء لا غيره. فهل هو إلا وسيلة أعانت الطبيعة بها المرأة لتسمو على غريزتها متى وجب أن تسمو فلا تلقى رجلاً إلا وفي دمها حارس لا يغفل. وهل هو إلا سلب جمعته الطبيعة إلى ذلك الإيجاب الذي لو انطلق وحده في نفس المرأة

لاندفعت في التبرج والإغراء وعرض أسرار أنوثتها في المعرض العام. . . .؟

قالت: ذاك أردت، فكل ما تراه من أساليب التجميل والزينة على وجوه الفتيات وأجسامهن في الطرق، فلا تعدنه من فرط الجمال بل من قلة الحياء

واعلم أن المرأة لا تخضع حق الخضوع في نفسها إلا لشيئين: حيائها وغريزتها

قلت: يا عجباً! هذا أدق تفسير لقول تلك المرأة العربية: تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها. فإن اختضعت المرأة للحياء كفت غريزتها

قالت: وجعلها الحياء صادقة في نفسها وفي ضميرها، فكانت هي المرأة الحقيقية الجديرة بالزوج والنسل وتوريث الأخلاق الكريمة وحفظها للإنسانية

قلت: ومن هذا يكون الإسراف في الأنوثة والتبرج أمام الرجال كذباً من ضمير المرأة

قالت: ومن أخلاقها أيضاً. ألا ترى أن أشد الإسراف في هذه الأنوثة وفي هذا التبرج لا يكون إلا في المرأة العامة. . .؟

قلت: والمرأة العامة امرأة تجارية القلب. فكأن المسرفة في أنوثتها وتبرجها، هذه سبيلها فهي لا تؤمن على نفسها

قالت: قد تؤمن على نفسها، ولكنها أبداً مومس الفكر في الرجال فيوشك ألا تؤمن. وهي رهن بأحوالها وبما يقع لها، فقد يتقدم إليها الجريء وقد لا يتقدم، ولكنها بذلك كأنها معلنة عن نفسها أنها (مستعدة ألا تُؤْمَن) . . . .

قال (ح): لكن يقال إن المرأة قد تتبرج وتتأنث لترى نفسها جميلة فاتنة، فيعجبها حسنها، فيسرها إعجابها

قالت: هذا كالقول إن أستاذ الرقص الذي رأيته هنا، ينظر إلى نفسه كما ينظر رجل إلى راقصة تتأود وتهتز وتترجرج. إن هذا الرقاص فيه الحركة الفنية كما هي حركة ليس غير؛ فهو كالميزان أو القياس أو أي آلات الضبط. أما فتنة الحركة وسحرها ومعناها من المرأة الفاتنة في وهم الرجل المفتون بها؛ فهذا كله لا يكون منه شيء في أستاذ الرقص وإن كان أستاذ الرقص

إن أجمل امرأة تبصق بفمها على وجهها في المرآة، إذا محي الرجل من ذهنها، أو لم يطل بعينيه من وراء عينيها، أو لم تكن ممتلئة الحواس به، أو بإعجابه، أو بالرغبة في إعجابه.

. . .فمهما يكن من جمال هذه فإنها لا ترى وجهها حينئذ إلا كالدنيا إذا خلت من العدل

قلت: ولكنا أبعدنا عن (قصة هذه الحياة ما كان أولها؟)

قالت: سأفعل ذلك لموضعك عندي. إن قصتي في الفصل الأول منها هي قصة جمالي؛ وفي الفصل الثاني هي قصة مرض العذراء؛ وفي الفصل الثالث هي قصة الغفلة والتهاون في الحراسة؛ وفي الفصل الرابع هي قصة انخداع الطبيعة النسوية المبنية على الرقة وإيجاد الحب وتلقيه والرغبة في تنويعه أنواعاً للأهل والزوج والولد؛ ثم في الفصل الخامس هي قصة لؤم الرجل. كان محباً شريفاً يقسم بالله جهد أيمانه، فإذا هو كالمزور والمحتال واللص وأمثالهم ممن لا يعرفون إلا بعد وقوع الجريمة.

. . .ثم سكتت هنيهة، فكان سكوتها يتم كلامها

وقال (ح): فما هو مرض العذراء الذي كان منه الفصل الثاني في الرواية؟

قالت: كل عذراء فهي مريضة إلى أن تتزوج؛ فيجب أن يعلمها أهلها أن العلاج قد يكون مسموماً؛ وينبغي أن يحوطوها بقريب من العناية التي يحاط المريض بها، فلا يجعل ما حوله إلا ملائماً له، ويمنع أشياء وإن أحبها ورغب فيها، ويكره على أشياء وإن عافها وصدف عنها

قال (ح): فيكون القانون الاجتماعي تصديقاً للقانون الديني من أن الذكورة هي في نفسها عداوة للأنوثة، وأن كل رجل ليس ذا رحم محرم يجب أن يكون مرفوضاً إلا في الحالة الواحدة المشروعة وهي الزواج

قالت: فتكون المشكلة الاجتماعية هي: من ذا يرغم الذكورة على هذه الحالة الواحدة المشروعة كيلا تضيع الأنوثة؟

قال: ولكن إذا كان سقوط الفتاة هو جناية (الزواج المزور) فما عسى أن يكون سقوط بعض المتزوجات؟

قالت: هو جناية (الزواج المنقح). . . . تريد أنفسهن الخبيثة تنقيح الزوج؛ والمومسات أشرف منهن إذ لا يعتدين على حق ولا يخن أمانة

ورف على وجهها في هذه اللحظة شعاع من الشمس كان على جبينها كصفاء اللؤلؤ، ثم تحول على خدها كإشراق الياقوت؛ ورأتني أتأمله فقالت: أنا منتشية بحظي في هذه

الساعات؛ وهذا الشعاع إنما جاء يختم نورها

ثم كانت السخرية العجيبة أنها لم تتم كلمة النور حتى جاء حظها الحقيقي من حياتها. . . . وهو رجل يتحظّاها؛ فلما أخذته عينها ابتسمت له ابتساماً من الذل لو لم تجعله هي ابتساماً لكان دموعاً. ثم وقفت وما تتماسك من الهم، كأنها تمثال (للجمال البائس). ثم سلّمت وودعت. وبعد (واواتٍ) أخرى. . . مشت ساكنة ومرآها يضج ويبكي

فوداعاً يا أوهام الذكاء التي تلمس الحقائق بقوة خالقة تزيد فيها!

ووداعاً يا أحلام الفكر التي تضع مع كل شيء شيئاً بغيره!
ووداعاً يا حبها. . . . . .
(طنطا)
مصطفى صادق الرافعي
أحلام السلام
وكيف انهارت في خمسة عشر عاماً؟
للأستاذ محمد عبد الله عنان
كان حلماً لم يطل أمده أكثر من خمسة عشر عاماً؛ ذلك هو حلم السلام الذي توهمت أوربا وتوهم العالم أنه سينعم في ظله حقبة من الزمن تكفي لبرء ما أثخنه من جراح، وما أصابه من استنفاد وتخريب وتحطيم. وقد لاح للإنسانية مدى حين أنها تستقبل عصراً جديداً من السلام والإخاء الدولي والتفاهم الحسن، واعتقدت الشعوب مدى حين أن قيام عصبة الأمم، وعقد مواثيق التحكيم، والتبشير بنزع السلاح، إنما هي عناصر جديدة في بناء العالم الجديد، وإنها الدعائم الأولى لصرح سلام جديد لا تزعزعه الشهوات القومية والنزعات الحربية؛ واستمر هذا الحلم يسطع حيناً ويخبو حيناً، زهاء عشرة أعوام، وبلغ ذروة قوته وروعته حينما عقد ميثاق تحريم الحرب الأمريكي، ونص فيه على أن الحرب قد حرمت كأداة للسياسة القومية، وتعهدت الدول بألا تلجأ في تسوية منازعاتها لغير التفاهم والتحكيم

ولكن حلم السلام تبدد فجأة، فرفعت عصبة الأمم قناعها المموه، وانهار مؤتمر نزع السلاح، وظهر أن ميثاق تحريم الحرب لم يكن أكثر من قصاصة ورق، واختفت أصوات الساسة الذين يستظلون بأحاديث السلام، وعلت كلمة الداعين إلى التسليح، وإلى تحطيم المعاهدات القديمة، وإلى الانتصاف القومي، وإلى تحقيق المطامع الاستعمارية. ولم يكن هذا التحول مفاجأة لأولئك الذين يعرفون سير التاريخ، ويستشفون طرف الحقيقة من وراء المظاهر الخادعة، ولكنه كان بالطبع مفاجأة أليمة للشعوب الآمنة التي ما زالت تحتمل على كاهلها كل عبء وكل تضحية في سبيل الشهوات السياسية والقومية، والتي ما زالت ترتجف فرقاً لذكريات الحرب الكبرى

كان مؤتمر الصلح الذي عقد في فرساي بين مارس ويونيه سنة 1919، أعظم مؤتمر دولي شهده التاريخ، وكانت معاهدة الصلح التي تمخض عنها هذا المؤتمر أعظم معاهدة عقدت بين الأمم، وأوسعها مدى، وأبعدها أثراً في سير التاريخ وفي تغيير أوضاع العالم الحديث؛ بل كانت معاهدة فرساي في الواقع دستوراً جديداً للعالم، تغير كثيراً من معالمه الجغرافية والتاريخية، وتقرر حدوداً جديدة، وتنشئ أمماً ودولاً جديدة، وتقضي على أمم ودول أخرى

بالاختفاء من خريطة أوربا. ولم يكن ذلك لأن هذه الدول الجديدة أكثر حقاً في الحياة من الدول المختفية، أو لأن قيامها يكون أكثر تحقيقاً للعدالة الدولية وسير التاريخ، ولكن لأن قيامها يحقق شهوات عسكرية وسياسة للدول الظافرة، ولأن اختفاء الأمم القديمة يقضي على وحدات سياسية وعسكرية ضخمة كانت تخشاها الدول الظافرة. وقد عرف التاريخ الحديث كثيراً من هذه المعاهدات والمؤتمرات الدولية الكبرى التي كانت تغير معالم أوربا، وتفتتح في تاريخها عصراً جديداً، فمعاهدة وستفاليا التي اختتمت بها حرب الثلاثين في سنة 1648، ومؤتمر فينا الذي عقد في سنة 1814 لتسوية المشاكل والتغييرات التي أحدثتها الحروب النابوليونية، ومؤتمر برلين الذي عقد على أثر الحرب التركية الروسية (سنة 1878)، والذي أسفر عن تمزيق الدولة العثمانية القديمة، وسلخ معظم أملاكها الأوربية، كلها أمثلة من هذه المؤتمرات الشهيرة الحاسمة ذات الأثر البعيد في مصاير التاريخ والأمم؛ ولكن مؤتمر فرساي كان أعظمها جميعاً وأبعدها أثراً

وقد ظن العالم بعد أن شهد مصائب الحرب وويلاتها المروعة مدى أربعة أعوام، إنه يستطيع أن يعتصم من خطر الحرب بدروسها وعبرها الأليمة، وإن ما لقيته من فظائعها وأهوالها في هذه الفترة السوداء من تاريخ الإنسانية، كفيل بأن يزهدها في الحرب وخوضها أمداً طويلاً؛ وقامت عصبة الأمم لتكون أداة صلح وتفاهم بين الدول المتنازعة، ونظم مؤتمر نزع السلاح ليعمل على تحديد التسليح إلى الحد الذي يتفق مع السلامة القومية، وعقد ميثاق لوكارنو ليكون دعامة في صرح التفاهم بين أعداء

الأمس، ولقرب ما بين فرنسا وألمانيا، وعقدت بين مختلف الدول مواثيق بعدم الاعتداء، وكللت دعوة السلام بعقد ميثاق تحريم الحرب، وغمرت صيحة السلام والتفاهم جو السياسة العالمية مدى حين؛ ولكن هذه المظاهر الخلابة لم تك إلا ستاراً خادعاً تضطرم من ورائه ضرام الأحقاد والمنافسات القومية الخالدة؛ فقد كانت الأمم الظافرة والمغلوبة معاً تجد في مضاعفة تسليحها وأهبتها العسكرية، وكانت المعاهدات والمحالفات السرية تعقد كما كانت تعقد من قبل، وتؤلف من الدول جماعات وكتل خصيمة مثلما كانت بالأمس؛ وكانت عصبة الأمم أثناء ذلك تنحدر شيئاً فشيئاً إلى أداة لينة في يد الدول الكبرى توجهها لتحقيق مآربها السياسية أو الاستعمارية؛ وهكذا وقف العالم فجأة على الحقيقة المرة، وهي أن هذه الخمسة عشر عاماً التي انقضت على خاتمة الحرب الكبرى لم تكن إلا فترة استعداد واستجمام، تستعيد فيها الدول نشاطها وتنظم أهباتها ومواردها، تحفزاً لحرب أخرى

وكما أن الحرب الكبرى كانت فورة المطامع والأهواء الاستعمارية والمنافسات التجارية والصناعية، فكذلك ستكون حرب الغد؛ وقد ظهرت بوادرها الأولى، بل لقد أضرمت شرارتها الأولى بذلك الهجوم البربري الذي نظمته إيطاليا عن عمد وسبق إصرار لغزو الحبشة؛ وليس في تاريخ الاستعمار كله اعتداء دبر بمثل هذا الإصرار الآثم والصراحة المثيرة، وإن كان تاريخ الاستعمار كله يقوم على العدوان والجريمة؛ وهذه الشرارة التي تضرمها إيطاليا الفاشستية تسطع الآن في أرجاء أوربا، وقد يندلع لهيبها بين آونة وأخرى؛ ولكن إيطاليا الفاشستية تتحدى أوربا كلها والعالم كله، ولن يضيرها أن تضطرم أوربا غداً بنار حرب عامة؛ ذلك أنها تذهب بعيداً في الاعتداد بقوتها واستعدادها وما تثيره فكرة الحرب من الذعر والروع، وقد أخذت بنفس الأحلام القيصرية التي أخذت بها العسكرية البروسية في الحرب الكبرى. ولقد كانت الفاشستية منذ قيامها بالنسبة للمثل الإنسانية العليا عاملاً من عوامل الدمار والهدم، فقد هدمت صرح الديموقراطية والنظم الحرة والكرامة الفردية ومبادئ العدالة الخالدة، وجعلت من الشعب كتلة مصفدة مسوقة، تدفعها إرادة الطغيان المسلح إلى حيث لا تعلم ولا تبغي؛ والفاشستية تنزع بطبيعتها إلى العنف والعدوان ولا تعتمد إلا على القوة الهمجية، كما أنها لا تخضع لغير هذه القوة؛ وهي تجوز الآن في إيطاليا - وفي ألمانيا - ذروة تجاربها ومغامراتها؛ وسنرى ما إذا كان هذا الاندفاع الدموي الذي تصوره عقلية الفاشستية العنيفة في صور العظمة والمجد القيصري، سيغدو قبراً للفاشستية أم سيحقق شيئاً من مطامعها وأحلامها

وهكذا تطورت فكرة الحرب والسلام بسرعة، وعادت فكرة الحرب كأداة للسياسة القومية تتخذ مكانتها الخالدة في تفكير الأمم القوية؛ ولم تكن فكرة السلام العام سوى حلم وخدعة، استظلت بها الدول الظافرة حتى تستر نصرها وتفوقها المسلح، واستظلت بها الدول المغلوبة حتى تستأنف استعدادها وتسلحها؛ ولم يكن من المعقول أن يبقى الظافر متغلباً إلى الأبد، ولم يكن من الممكن أن يبقى المغلوب ضعيفاً مهيضاً إلى الأبد؛ والآن نجد أعداء الأمس - الغالب والمغلوب - وجهاً لوجه، يلوح كل منهما بقوته واستعداده، ويفصح عن مطامعه وغاياته التي كان يسترها بالأمس لضعف في أهبته؛ نرى ألمانيا بعد أن استعادت حريتها في التسليح وأخذت تستأنف أهبتها العسكرية، تطالب بتعديل حدودها واسترداد مستعمراتها؛ ونرى فرنسا تعمل بكل ما وسعت لمضاعفة أهباتها وتوطيد الجبهة التي حشدتها ضد ألمانيا، ونراها لا تحجم في هذا السبيل عن مناصرة إيطاليا في مشروعها الدموي لافتراس الحبشة، لكي تستبقي صداقتها وعونها ضد ألمانيا في الغد المرتقب، ونرى حمى الحرب تسري إلى جميع أرجاء أوربا، والدول جميعاً تأخذ أهبتها لمعركة عامة لم يبق على نشوبها إلا مسألة زمنية، وقد تنشب في أية لحظة في أسابيع أو أشهر قلائل

والخلاصة أن العالم، بعد أن تبدد حلم السلام الزائف يجد نفسه في نفس الحالة النفسية والواقعية التي كانت في سنة 1914؛ وبعد أن كان حديث الحرب قبل عامين أو ثلاثة يعتبر مسألة بغيضة بعيدة الاحتمال، إذا بشبح الحرب الأوربية يحلق في الأفق واضحاً قوي النذير، وليس من ريب في أن الفاشستية تحمل كثيراً من تبعة هذا التطور الدولي الخطر؛ ولقد كان انهيار الديموقراطية في إيطاليا وألمانيا وغيرهما محنة بعيدة

الأثر؛ ذلك أن الديموقراطية أكثر إيماناً بمبادئ السلام والإنسانية؛ وأما الفاشستية وزعامتها الغاشمة فلا تؤمن إلا بالقوة العنيفة، ولا تؤمن بحق الفرد أو الأمة، ولا تسيرها سوى العوامل والشهوات الحزبية والمذهبية الضيقة؛ وقد عملت الفاشستية باستمرار على إذكاء الأحقاد الجنسية والقومية، وعلى إضرام روح العدوان والحرب، وإضرام المطامع والمنافسات القديمة التي كانت من أكبر العوامل في إثارة الحرب الكبرى، فهي اليوم تحمل أكبر تبعة في خلق هذه العقلية العسكرية المتحفزة التي تعمل لإشعال نار الحرب بكل ما وسعت من جرأة واستهتار بكل مبادئ الحق والسلام إن التاريخ يعيد نفسه بصورة واضحة؛ ولقد كانت القوة وما زالت خلال العصور عماد السياسة القومية؛ وليس التاريخ كله سوى مراحل متعاقبة من نضال قومي لا تفوَّق فيه لغير القوة الغاشمة، ولم يتقدم العالم خطوة في هذا المعنى عما كان عليه في العصور الوسطى؛ ولقد كان ممكناً أن تكون عصبة الأمم ومبادئها رمزاً للتقدم في تقدير الحقوق القومية والسلام العالمي، لو لم تعرض العصبة منذ بدايتها لتأثير نفس الأهواء بوسائل وأسماء أخرى،، ولو لم تنابذها دول قوية كاليابان وألمانيا، لأنها لم تستطع أن تؤثر في توجيهها؛

وهاهي ذي عصبة الأمم تواجه قدرها المحتوم، فإما أن تستطيع بكثير من الشجاعة والجرأة أن تضرب على أيدي أولئك الذين عبثوا بمبادئها واجترأو على تعكير السلم، وأن تنفذ ما اتخذته أخيراً من القرارات الحازمة، وعندئذ تسترد كل ما فقدت من هيبة، وترد إلى الشعوب الضعيفة شيئاً من الأمل، وكثيراً من الثقة؛ وإما أن يخونها التوفيق مرة أخرى، فينهار آخر حجر في صرح التفاهم الدولي، وتنطلق الشهوات القومية من عقالها سريعة لا تلوي على شيء، وعندئذ يضطرم العالم مرة أخرى بضرام حرب يعلم الله وحده مداها ومبلغ هولها وروعتها

محمد عبد الله عنان

فريزر ودراسة الخرافة

للدكتور إبراهيم بيومي مدكور

مدرس الفلسفة بكلية الآداب

تتمة

تخير فريزر أربعة من النظم الاجتماعية ليبين ما للخرافة من أثر في نشأتها وتكوينها. وهي: الحكومة، والملكية الفردية، والزواج، واحترام الحياة الإنسانية. فأثبت في وضوح أن الخرافة ساعدت على تأييد الحكومة وبسط نفوذها، وكانت عاملاً قوياً من عوامل الأمن والنظام. وثبتت كذلك دعائم الملكية الشخصية وصيرتها مقدسة بحيث أصبحت في مأمن من السلب والعدوان، واستطاع أصحابها أن ينتفعوا بها تمام الانتفاع. وحاربت الزنا والزناة فدفعت الناس إلى الزواج وحببتهم في الحياة الأسرية. ثم صورت الخرافة أخيراً الموتى والقتلى في صورة أشباح عظيمة الهول وأرواح تنتقم ممن اعتدى عليها، فكان في هذا ما صرف الناس عن سفك الدماء ودفعهم إلى احترام الحياة الإنسانية؛ وهذه النظم الأربعة هي عماد البناء الاجتماعي بأسره، إذا اضطرب واحد منها اضطربت له الجمعية كلها. فكأن الخرافة لم تؤثر في بعض النظم الاجتماعية فحسب، بل أثرت في عناصر الحضارة والتقدم على اختلافها. هي شر جاء من طريقه خير كثير، وخطأ في ذاتها إلا أنها هدت الناس إلى صواب عظيم. وليس يعني الجمعية أن تكون مدفوعة إلى الخير ببواعث خيرة بقدر ما يعنيها أن تصل إلى هذا الخير من أي طريق كان وكيفما كانت الدوافع. والأفراد أنفسهم لا يخرجون عن هذا القانون ولا يتعدون هذا النظام، إذ ما دامت أعمالنا طيبة، فليس يعني الغير كثيراً أن تكون نوايانا صالحة. ولئن ملأت الخرافة أدمغة الناس بخزعبلات لا حصر لها وقادتهم إلى أخطر الويلات، لمن الظلم أن ننسى أياديها في الترفيه عن الإنسانية والدفاع عن المجتمع. وكفاها إحساناً أنها هيأت للعجزة، والضعفاء، والجهلة، وناقصي العقول وسيلة من وسائل العمل الصالح وسلكت بهم سبل الخير. فهي كالعود قد ينقذ غريقاً، أو كالفنار الضئيل الذي، وإن لم يتجاوز ضوءه ظله، يهدي كثيراً من المارة وعابري السبيل

تابعنا فريزر في المقالات السابقة، وسرنا وراءه خطوة خطوة رجاء أن نعرض صورة كاملة من آرائه وأبحاثه. وعلّ القارئ قد تبين في هذه الصورة غزارة مادة العالم

الإنجليزي وسعة إطلاعه وتمكنه من موضوعه. فهو لا يكتفي بأن يدرس ظاهرة من الظاهر الاجتماعية لدى قبيلة أو شعب أو طائفة، وإنما يستقري الشعوب ويتتبع الجمعيات على اختلافها: فمن زنوج إفريقية إلى هنود أمريكا، ومن متوحشي استراليا إلى سكان الهند والصين، ومن القبائل الهمجية إلى الأمم المتحضرة، ومن العصور القديمة إلى التاريخ المتوسط والحديث. تشهد أمثلته، فوق غزارتها، وحسن اختيارها، بدقة الملاحظة والتعمق في البحث. هذا إلى خيال رائع، وأسلوب جذاب، وأحكام متواضعة لا زهو فيها ولا ادعاء، ولا مبالغة، ولا تهويل، قد أملتها دراسة هادئة، واستنبطتها عقلية متزنة. ويكفي للبرهنة على ذلك أن نسرد الفقرة التالية التي ختم بها فريزر بحثه إذ يقول: (هاكم، سيداتي وسادتي، دفاعي عن الخرافة الذي قد يعرض تخفيفاً عن هذا المتهم الساقط حين يقف بين يدي القضاة، ومع هذا سيحكم عليه بالإعدام لا محالة؛ غير أن هذا الحكم لن ينفذ في جيلنا الحاضر، وسيبقى موقوف التنفيذ إلى أجل بعيد. وما أنا إلا محام - لا خصم - يتقدم إليكم الليلة. وقد كانت محكمة أثينا العليا لا تقضي في الجنايات إلا ليلاً، لهذا تخيرت الليل للدفاع عن سلطان الظلام. والآن، ونحن في ساعة متأخرة، يجدر بي أن أختفي مع موكلي الأشأم قبل أن يصيح الديك، ويبدو ضوء الفجر الرمادي في الأفق)

وفي دراسة فريزر للخرافة ناحية أخرى جديرة بالتقدير، ذلك أنه أخذ على عاتقه نصرة قضية يتبادر إلى الذهن بطلانها. يكاد يجمع الناس على أن الخرافة مبعث شر ومثار فتنة؛ ويأبى فريزر إلا أن يخرج على هذا الإجماع معلناً أن في باطن هذا الشر خيراً عظيماً وأن الخرافة أساس النظم الاجتماعية الهامة. وقد نجح نجاحاً كبيراً في إثبات دعواه والبرهنة على ما كان يرمي إليه. بيد أنه لا يفوتنا أن نلاحظ أن ما يسميه فريزر خرافة هو في رأى معتنقيه دين وعقيدة. فالهمجي يخضع للملوك والحكام خضوع الموقن بسلطانهم الخارق للعادة وهيبتهم الصادرة عن السماء، ويؤمن بأن مال سيده ورئيسه مقدس فلا يمسه بسوء، ويعتقد أن الزنا مجلبة للصواعق والجدب والقحط فلا يقربه، ويخشى الأرواح والأشباح خشية الواثق من وجودها فلا يقتل نفساً ولا يسفك دماً. ولو خالجه الشك يوماً في هذه المعتقدات ما انقاد لها، ولو جال بخاطره أنها تمت إلى الخرافة بصلة لنبذها نبذ النواة. نعم إن من الديانات ما هو حق ومنها ما هو باطل؛ ولكن الفكرة، صواباً كانت أم خطأ، متى اكتست بكساء الدين أضحت قوة هائلة وأثرت في المجتمع تأثيراً نافعاً. ولو لم يكن للأديان إلا هذا النفوذ في قيادة الشعوب والتأثير في الجماهير لكفى في نصرتها والاستمساك بها

ونستطيع أن نأخذ على فريزر - فوق هذا - عنايته بالأمثلة وتعلقه بالحوادث الجزئية أكثر من بحثه عن القواعد الشاملة والقوانين العامة. وهذا نقد يصدق على مدرسة الاجتماع الإنجليزية الحديثة بأسرها التي قامت أعمالها أولا وبالذات على الرحلة والمشاهدة دون أن تعير النظريات والضوابط اهتماماً كبيراً، وقد جارها فريزر في هذا التيار. انظر أي كتاب من كتب سبنسر أو وسترمرك أو تيلور الاجتماعية مثلاً تجد أنك تنتقل من مشاهدة إلى مشاهدة ومن مثال إلى آخر، وقل أن تظفر بقضية عامة أو أصل ثابت. نحن لا ننكر أن هذه الطريقة أفادت علم الاجتماع مادة غزيرة وثروة طائلة، إلا أن هذه المادة لم تهيأ بعد للتغذية، وهذه الثروة لما تستثمر. هي مادة أولية (خام)، إن صح هذا التعبير، في حاجة إلى من يستخلص منها روحها وما حوت من أسرار. وقد فطن علماء الاجتماع الفرنسيون - وهم أبعد الناس عن السفر وأرغبهم عن الرحلة - إلى هذا النقص فكملوه، واستغلوا التجارب والمشاهدات الإنجليزية استغلالاً حسناً، وصاغوا المعلومات الاجتماعية في القوالب العلمية الحق. فإذا كان علم الاجتماع مديناً لرحالة الإنجليز والأمريكان بما فيه من مشاهدات جزئية وحوادث واقعية، فإن الفضل في كثير من نظرياته وقوانينه يرجع إلى المدارس الفرنسية ومهما يكن فهناك نقطتان هامتان نخرج بهما من أبحاثنا السابقة في الخرافة، أولاهما خاصة بمصر والشرق في جملته، وتتلخص في أنه يسود هذه الديار قدر وفير من الخرافات أشرنا إليها سلفاً. فالخرافة متوغلة في كثير من معتقداتنا وعباداتنا، في عاداتنا وتقاليدنا، في آرائنا وأفكارنا. وليس معنى هذا أن أوربا خالية من أية خرافة؛ كلا فللغرب خرافات كما للشرق، والجمعيات على اختلافها لا تستطيع أن تتخلى عن

مجموعة من الخرافات ترى فيها غذاء لميولها وأحلامها. ولكن مما لا شك فيه أن الخرافة وجدت بين ظهرانينا مرتعاً خصيباً فنمت وترعرعت. وما أجدرنا بأن ندرس خرافاتنا لنعرف أصلها ونشأتها وصلتها
بالخرافات العالمية الأخرى؛ وبذا نستطيع معالجتها أو مطاردتها والتخلص منها. فخرافة (الزار) مثلاً ظاهرة اجتماعية تتطلب دراسة تاريخية مقارنة فيها كثير من بواعث السرور ووسائل التشويق. وما تخيرنا الخرافة بين الأبحاث الاجتماعية الكثيرة إلا لنلفت الأنظار إلى هذه الأرض الخصبة التي لم تستكشف وهذا العمل لم يبدأ فيه بعد وقد لاحظنا من قبل إجماع بعض القبائل على اعتناق خرافة ما؛ وفي هذا ما يؤذن أن للإنسانية، وإن تنوعت بتنوع البيئة والوسط، تراثاً عاماً يأخذه الخلف عن السلف؛ وأن الإنسان المتحضر ليس إلا صورة مهذبة للإنسان المتوحش. نحن في كثير من آرائنا وعادنا وتقاليدنا عالة على من كان قبلنا، بل تكاد تكون شخصيتنا ونظام تفكيرنا من صنع القرون الغابرة. فلندرس إذن النظم الاجتماعية على ضوء التاريخ إن كنا نريد فهمها على وجهها الصحيح، لا سيما ونحن مخدوعون غالباً بما ألفناه. فكثيراً ما يلبس الشيء في أعيننا لباس العقل والمنطق في حين أنه يعتمد على أساس خرافي وأصل ضعيف. وكم من عمل عادي فردي أو جمعي نقوم به اليوم دون أن نعيره أية أهمية في حين أنه كان بالأمس ذا صلة بعقيدة خاصة أو عبادة محترمة. وقد تنبه علماء الاجتماع المحدثون إلى هذا فشرحوا لنا أموراً ما كنا نفكر في سردها وتعليلها. وعلى الجملة فالإنسانية أشبه ما تكون بشجرة ممتدة الأغصان مترامية الأطراف قد مرت عليها عصور طويلة وأجيال كثيرة، ولا يمكن فهم طبيعتها وفصيلتها والمؤثرات في ثمرتها إلا إن بدأنا بجذورها الأولى وعرفنا كيف نمت وتكونت

إبراهيم بيومي مدكور
دكتور في الآداب والفلسفة

العامية والعربية أيضاً
ألفاظ صحيحة لم لا نستعملها؟
للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

لما فتح العرب مصر لم تكن العربية لغة البلاد، وإنما كانت لغة القوم خليطاً من المصرية القديمة والإغريقية والرومانية وغيرها، ثم أخذت العربية تحل محل هذا المزيج، وبدأت مصر بعد رسوخ الإسلام فيها تساهم بحظ في النشاط الذي كانت بغداد مصدره، على خلاف الحال في إفريقية الشمالية، حيث كان انتشار العربية بطيئاً جداً، حتى أنه - إلى القرنين التاسع والعاشر - لم تكن ثم دائرة أدبية تستحق الذكر إلا في القيروان بتونس، على حين كانت مصر قد صارت في القرن التاسع مركزاً لمدرسة تاريخ مستقلة في العالم الإسلامي. ومما ساعد على رسوخ اللغة العربية في مصر ونجاتها من العوامل التي كانت تحدث أثرها في هذه اللغة في آسيا، دخول الفاطميين وقيام دولتهم في مصر، فقد كانوا أنصاراً للعلم والثقافة، ومن أجل آثارهم هذا الأزهر الذي ظل بعد خراب نظائره في أسيا أكبر جامعة إسلامية، ولا يزال كذلك إلى الآن؛ فلا عجب إذا كانت عامية مصر أصح من عاميات الأمم العربية الأخرى وأقرب إلى الفصيح وقد سقت أمثلة في فصل سابق، وإلى القراء طائفة أخرى من الألفاظ التي يتوهم الكثيرون أنها عامية، وهي صحيحة لا عيب فيها
فمن ألفاظ الطعام والآكال وما إلى ذلك:

النّشا - شيء يعمل به الفالوذج
القطائف - دقيق يعجن قريباً من الميوعة ويخمر ويحشى بالفستق وما إليه ويقلى
المُرَبَّي - معروفة
القَرَاصيا - الثمر المعروف
الزَّلاَبْيَةُ - حلواء معروفة
البَسيسة - دقيق يُلتُّ بالسمن ويؤكل ولا يطبخ، أو يطبخ
الكُرُنب، أو الكَرْنَبُ، والقُنَّبيط (تلفظه العامة قرنبيط) والخس، واللفت، والفجل، والكراث، والإسفاناخ، والفول، والحمص، والباذنجان، والعدس، والثوم، والرّجلة، والشبث،

والجرجير، والسلق، واللوبيا، والقلقاس، والكرفس، والقرفة، والدّارصيني، والقرنفل، والكراويا - وهي جميعاً معروفة
قرّصت العجين - بسطته بالتقطيع لتجعله أرغفة
الفرن - ما ينضج فيه الخبز
الطابون - من طبن النار دفنها لئلا تطفأ، والموضع الطابون والعامة في مصر يؤنثون اللفظ
الرُّقاق والكعك - معروفان
قَشَشْتُ الشيء - أخذته بأجمعه
التمطُّق بالشفتين - أن تحدث صوتاً وأنت تضمهما وتفتحهما
الكوز - والجمع كيزان وأكواز
المسعور - الحريص على الأكل
الطبق - ما يؤكل عليه
الرائب - اللبن إذا خثر
الرُّوبة - الخميرة في اللبن
مَخْضُ اللبن - أخذُك زبده
تَجَبّن اللبن - صار كالجبن
الحالوم - الجبن الطري
العُلبة - معروفة
زهمت يدك - صارت فيها رائحة الشحم، والزُّهومة، ريح اللحم السمين إذا أخذ يفسد
ومن ألفاظ البيت التي يستعملها العوام وهي صحيحة:
الدهليز - ما بين الباب والغرف
الرُّواق - يستعمل في مصر للحجرة الكبيرة الواسعة
الصحن - وسط الدار
الرف - معروف
الكنيف - المرحاض
الصفة في البناء - معروفة
الدكة - للقعود
الإسطبل - للدواب
الحارة والشارع والزُّقاق - معروفة
المصطبة - مكان للجلوس
المِدْماك - الصف من اللِّبن في البناء
الطيّان - الرجل الذي يصنع الطين للبناء
البلاط - الحجارة تفرش بها الأرض
العتلة - حديدة طويلة تقلع بها الحجارة
الزيج، والأمام، خيط البناء
الرَّزَّةُ - حديدة يدخل فيها القفل
الخوخة - الكوة في الجدار أو في الباب
العريش - الظلة من شجر أو نحوه
الحصير - نسيج من القش معروف
النُّخ - بساط خشن معروف
المِخدة - الوسادة للرأس
المسند - الوسادة يُستند عليها
الخُرْجُ - جوالق ذو ناحيتين
الدُّرج - ما تحفظ فيه الأشياء الصغيرة
القنّينة - إناء للشرب
الشباك - النافذة
إن اتخاذ هذه الألفاظ وما إليها، في مواضعها، يمنع التكلف الذي يجعل اللغة غريبة، وينفي ما تقرر في النفوس من أن لنا لغتين: واحدة نكتب بها، والأخرى نستعملها في الكلام

ويأخذ الطريق على الذين يدعون إلى اتخاذ العامية لغة للكتابة، فإن كل حجتهم هي أن العامية هي لغة السواد، وأن العربية أجنبية، ومتى ثبت أنهما شيء واحد، فقد سقطت الحجة

وليس من همي الاستقصاء، وما أريد إلا أن أنبه إلى أن درس العامية واجب، وأن من العبث والتكلف الذي لا موجب له، أن نبحث عن ألفاظ وهي على ألسنتنا كلما تكلمنا

إبراهيم عبد القادر المازني

النقد والمثال

للأستاذ أحمد الزين

تحدثت إليك في فصل سابق عن البيان اللفظي ومنزلته من الشعر، وأنه من أهم ما تتفاوت به الشعراء في مراتبهم، وتتمايز به درجاتهم، كما تحدثت عن الاختلاف بين لغة الشعر والكتابة والخطابة؛ واليوم أتحدث إليك في المعنى، فإن المعنى هو قوام الشعر، والعنصر الأول من عناصره، بل هو الشعر نفسه؛ وما حرصنا على تحسين الألفاظ وتجميل العبارات إلا ليظهر المعنى في صورة فاتنة تجعل القلوب أشد قبولاً له، وأقوى تأثراً به، وينطبع في أذهان الحفظة والوعاة، ويخلد على ألسنة الرواة؛ فلا ينال منه تعاقب الزمن، ولا تمحوه عوادي المحن؛ وتلك هي ميزة الشعر التي اختص بها من دون النثر، وإلا فقد كان النثر كافياً في تأدية المعنى وإفهام الغرض؛ وكما أن الأصوات الغنائية المعروفة الآن بالأدوار لا تعمل عملها في النفس إذا تليت على الأسماع كما تتلى الرسائل، وألقيت كما تلقى الخطب، بل لابد من جريانها على قواعد الفن الموسيقي الجميل، وأدائها بالصوت العذب الرخيم حتى تبلغ في النفوس أثرها، وتفعل في المشاعر فعلها، فكذلك المعاني الشعرية لابد في تأديتها من حسن الألفاظ، وعذوبة العبارات، وجزالة التراكيب، وقوة النسج واطراده، وما إلى ذلك مما سأذكره بعد في هذه الفصول، ليكون أثرها في القلوب أبلغ، وعملها في النزعات والميول أقوى؛ وكما أن سوء الطبع والتحريف، وكثرة الخطأ والتصحيف، وتعمية الخط، ورداءة الورق في بعض الكتب قد تذهب بما حوت صفحاتها من علم غزير وفضل كثير وبحوث دقيقة وأفكار عميقة، فلا غرابة أن يذهب سوء التأدية وضعف النسج والإبهام في العبارات، والإسفاف في الألفاظ، بما يريده الشاعر من أغراض سامية ومعان جليلة؛ بل إن الصلة بين المعاني والألفاظ أشد وأقوى من الصلة بين الألفاظ والكتابة، إذ المعاني لا تؤدَّى بدون العبارات، وقد تؤدَّى الألفاظ مشافهة بدون كتابة. وقد غفل أو تغافل أو عجز عن ذلك بعض الشعراء في عصرنا، فاعتبروا المعاني كل شيء في الشعر، على ما في معانيهم من الضعف والمسخ وسوء تناولهم إياها، وقصور شاعريتهم عن تحويل المعنى الأصلي إلى معنى شعري، وقلة خبرتهم بكيفية وصفها في الشعر، وما إلى ذلك مما سأحدثك به عند الكلام على المعاني؛ ولم يعنوا بالألفاظ أقل عناية، موهمين

أنفسهم وغيرهم من قصار النظر أن بيان الألفاظ، وإشراق العبارات، ومتانة النسج، والبلاغة في الأسلوب، وإجراء الشعر على سنن الشعر العربي، أنواع من التزيين والتحلية والزخرف الذي مضى عصره، وانقضى زمنه، وذهب به العصر الجديد، ومحته آية التجديد؛ فملئوا الصحف والدواوين بشعر لا صلة بينه وبين الشعر العربي إلا الصلة العروضية في الوزن والقافية؛ علة أن بعضهم قد يتركهما مبالغة في التجديد، محتجاً بأن ذلك نوع من التقييد؛ على أنهم بعد أن أطلقوا الألسنة والقرائح من قيودها المزعومة، لم يأتوا بالمعجب المطرب في معنى ولا لفظ، ولم يبتكروا غريباً في تشبيه ولا خيال، ولم يخترعوا جديداً في تصوير عاطفة ولا إحساس؛ وإنك لتقرأ ديوان أحدهم من ألفه إلى يائه فلا تظفر منه ببيت يعلق بذهنك فتعيده، ولا معنى يملك لبَّك فتستجيده؛ وسبب ذلك يرجع إلى أنهم لم يقرءوا من الأدب العربي القديم ولا من علوم العربية ما يقوّمون به ألسنتهم، ولم يتعلموا من فحول الشعراء المتقدمين ما يهذبون به معانيهم قبل وضعها في قالبها الشعري، ويميزون به بين المعنى الشعري وغيره من معاني الكتابة والخطابة، فإنه مما لا ينازع فيه ذو ذوق فني دقيق أن المعنى الواحد تختلف صوره باختلاف تأديته في هذه الصناعات الثلاث، وأن الشعر والكتابة والخطابة كما تختلف في ألفاظها وعباراتها تختلف في تصوير معانيها وأغراضها، فإن الخطيب لا يعمد في تصوير معانيه إلى خلودها على مر العصور، وبقائها محفوظة في

الصدور، ولكن يقصد إلى نوع من الإثارة الوقتية يلهب بها حمية الجمهور إلى ما يريده من الأمور؛ فإذا فترت همم الجمهور بعد ذلك الموقف لجأ إلى خطبة أخرى وهكذا، ففن الخطيب فنٌّ وقتي لا فن خالد، ولذلك لم ينقل الرُّواة إلينا من خطب الأولين ومواقفهم في المخاصمات والمصالحات وفي حضرة الخلفاء والأمراء ما يوازي كله ديواناً واحداً من دواوين الشعراء، ولا مجموعة واحدة من رسائل الكتاب. أما الشاعر والكاتب فإنهما يقصدان في تصوير معانيها إلى خلودها وبقائها؛ والفرق بينهما أن قصد الشاعر إلى تخليد أثره أكثر، وحرصه على بقاء فنه أقوى، فهو يضع في معانيه وألفاظه من جمال التصوير وروعة الفن ما يرى أنه كفيل ببقاء شعره وحياته على الزمن ولذلك كانت رواية الشعر أشيَع، وما نقل إلينا منه أكثر

وأيضاً فإن الكاتب والخطيب يبالغان في تقرير المعنى وتأكيده في الأذهان بإكثار الأمثلة

وذكر الأشباه والنظائر إلى حدّ الاستقصاء أحياناً؛ أما الشاعر فيقتصر من ذلك على قدر الحاجة، فإن الشعر ضيق لا يحتمل ذلك الطول، بل يراه في بعض الأحيان نوعاً من الفضول. وثم فرق ثالث هو أن الخطيب يراعي في تصوير معانيه أن تكون سطحية بسيطة، قريبة الغور، سريعة إلى الفهم، فإنه يوجهها إلى عقلية بسيطة هي عقلية الجماعة؛ وكما أن هذه العقلية سريعة القياد، فهي سريعة الجموح، لا يؤمن نِفارُها؛ وما أقرب انصرافها وإعراضها عن الخطيب إذا رأت في معانيه ما يكلفها مشقة الفهم وعناء الفكر، ولذلك يعتمد الخطيب في خطبته على الصوت والإلقاء وملابسات الموقف أكثر من اعتماده على غرابة المعنى وعمق الفكر

أما الكاتب والشاعر فيغربان في معانيهما ما شاءا، ويتعمقان في ذلك ما أرادا؛ تلك هي بعض الفروق بين المعاني في الصناعات الثلاث؛ فإذا رأيت في إحدى هذه الصناعات بعض الميزات الغريبة عنها فهي مستعارة من غيرها لا أصلية فيها؛ ولا غرابة في أن ترى الشاعر خطيباً أو كاتباً في قصيدته، ولا أن ترى الكاتب شاعراً أو خطيباً في رسالته، ولا أن ترى الخطيب شاعراً أو كاتباً في خطبته؛ وإنك إذا قرأت شعر ابن الروميّ وجدت فيه كثيراً من تقسيمات الكتاب وتعليلاتهم والاستدلالات المنطقية، والاحتجاجات الملزمة للخصم، كقوله:

لما تؤذن الدنيا به من صروفها ... يكون بكاء الطفل ساعة يولد
وإلا فما يبكيه منها وإنها ... لأوسع مما كان فيه وأرغد

وقوله يخاطب صديقاً:

وقد حلفنا على الوفاء جميعاً ... واجتهدنا وذاك جهد المطيق
فبأي الأحكام توجِب تصدي ... قك حتما ولا ترى تصديقي
وبأي الأحكام قولك برها ... ن وقولي من خُلَّبات البروق
ليس في العدل أن تحكم في قو ... لك فارجع إلى سواء الطريق
ما من الدعويين إن ضِقت دعوى ... غير محتاجة إلى تحقيق
ولنا إن رددت ما ندّعيه ... رَدُّ ما تدعيه، ضيقاً بضيق

وقوله يعاتب صديقاً لم يحفظه في مغيبه وعاب شعره:

لي صاحب قد كنتُ آمل نفعه ... سبقت صواعقه إليَّ صبيبه

إلى أن قال:

نبئت قوماً عابني سفهاؤهم ... وشهدت مجلسهم وكنت خطيبه
عبوا وعبتَ بغير حق منطقاً ... لو طال رميك لم تكن لتصيبه
وهب القضاء كما قضيت، ألم يكن ... في محض شعري ما يجيز ضريبه
هلا وقد ذُوِّقت دَرَّ قريحتي ... فذممت حازرَه حمدت حليبه
بل هبْه عيباً لا يجوز، ألم يكن ... من حق خلك أن تحوط مغيبه

وديوانه مملوء بمثل هذا الشعر الذي هو أقرب إلى رسائل الكتاب منه إلى قصائد الشعراء. أما الكتاب الشعراء في نثرهم فمنهم المرحوم أحمد شوقي بك في كتابه أسواق الذهب، والزمخشري في أطواق الذهب، والقاضي الفاضل عبد الرحيم البيسانيّ في رسائله الكثيرة المملوءة بها كتب الأدب

أحمد الزين

الشعر في صدر الإسلام وعهد بني أمية
بقلم أحمد حسن الزيات
شعر الشيعة
ورث علي بن أبي طالب بحكم مولده ومرباه مناقب النبوة، ومواهب الرسالة، وبلاغة الوحي، وصراحة المؤمن، وبسالة المجاهد، فأجمع الناس على إجلاله وكادوا يطبقون على حبه؛ حتى من كتب عنه من الأوربيين قد شاركوا المسلمين في هذه العاطفة، فقد قال فيه الكاتب الإنكليزي كارليل: (أما ذلك الفتى عليّ فلا يسعك إلا أن تحبه؛ ركب الله في طبعه النبل منذ الحداثة، وتجلى في خلاله الكرم طوال عمره، ثم طبعه على العمل ونفاذ الهمة وصراحة البأس، وآتاه سر الفروسية وجرأة الليث، وكل ذلك في رقة قلب وصدق إيمان وكرم فعال تليق بالفروسية المسيحية) ثم سار عليّ في خصومته وخلافته وسياسته على ضوء هذه الأخلاق، فما قارف الأثرة، ولا حاول الفرقة، ولا راقب الفرصة، ولا أثار العصبية، ولا استخدم المال؛ وإنما أخلص النية للعمرين، ومحض النصيحة لعثمان، وأعذر بالحجة لمعاوية؛ ولكن دنيا الفتوح كانت قد أخذت على عهده تتجاهل دين البساطة والزهد، ولم تعد السياسة الدينية وحدها قادرة على كبح النفوس المفتونة بمال معاوية في الشام، وثراء الرافدين في العراق، فانتشر أمره، وانصدعت خلافته، ثم قتل مظلوماً في محرابه؛ فكان محياه ومماته تاريخاً دامياً للفضيلة المعذبة والنفس المطمئنة الشهيدة. ثم ورّث بنيه وأهليه ذلك العزم الثائر وهذا الجد العاثر، فدب الموت للحسن سراً في كأس مذعوفة، وقتل الحسين قتلة لا يزال يرعد من هولها الدهر
وتلاحقت الفواجع الأموية فصرع زيد وقتل يحيى، وافتتَّت المنايا الرواصد في اختلاج بني عليّ، وهم يقابلون هول الغوائل الظاهرة والباطنة بالشجاعة والصبر والاحتساب، وحتى أسفرت حول وجوههم طفاوة من التنزيه والتقديس، وتخللت محبتهم قلوب المسلمين، ولا سيما الشيعة. فإن ندم هؤلاء على خذلانهم إياهم، وألمهم لما رأوا من اضطهادهم وأذاهم، رفعا في نفوسهم ذلك الحب حتى أشرفا به على مقام العبادة؛ ثم ظهر ذلك الحب في صور من العقائد: فقالوا بالوصية، وجعلوا الإمامة من أصول الدين، وحصروها في عليّ وبنيه، وطعنوا في إمامة الشيخين. ولم يتهيأ لهم السلطان، ولم تسعفهم القدرة، فاعتمدوا على
استمالة القلوب وترقيقها بالبكاء والندب، وتصوير الآلام، وإعلان الفضائل، فاصطبغ شعرهم بالحزن العميق، والرثاء النائح، والمدح المبتهل، والعصبية الحاقدة. على أن هذه الخصائص لم تكن واضحة في شعر أوائل الشيعة وضوحها في شعر الأواخر منهم، فإن تغلغل الفكرة في أصل العقيدة، وتنكيل الحاكمين بآل البيت، واضطهاد الولاة للشيعة، إنما تدرجت قسوةً وقوة مع الزمن، فضلاً عن قلة شعراء الشيعة في هذا العصر لإفساد الأمويين الضمائر بالحديد والذهب؛ فشعرهم بدأ ولاءً صادقاً، ومدحاً خالصاً، وهجاء مراً، ثم اشتد فصار مفاضلة جريئة، ومعارضة شديدة، ومناقشة فقهية، ودعاية حزبية. ولعل ذلك يتجلى لك فيما ذكرناه وفيما سنذكره من الأمثلة. فمن التعبير عن العاطفة القوية الساذجة قول أبي الأسود الدؤلي:
يقول الأرذلون بنو قشير ... طوال الدهر لا تنسى عليّا!
بنو عم النبي وأقربوه ... أحبُّ الناس كلهم إليّا
أُحِبهمُ كحبّ الله حتى ... أجيء إذا بُعثت على هَويا
فإن يك حبهم رشداً أُصِبْهُ ... ولست بمخطئ إن كان غيّا
ومن المدح والمفاضلة قول أيمن بن خزيم الأسدي:
نهاركمُ مكابدة وصوم ... وليلكُم صلاةٌ واقتراء
أأجمعكم وأقواماً سواءً ... بينكُم وبينهم الهواء؟
وهم أرض لأرجلكم وأنتم ... لأرْؤسِهِمْ وأعينهمْ سماء
ومن الهجاء قول ابن مفرغ الحميري:
ألا أبلغ معاوية بن صخر ... مغلغلةً من الرجل اليماني
أتغضب أن يقال أبوك عفٌّ ... وترضى أن يقال أبوك زاني؟
فأشهد إن رحمك من زيادٍ ... كرحم الفيل من ولد الأتان
وأشهد أنها ولدت زياداً ... وصخر من سُمَيّة غير داني

وقول عبد الله بن هشام السلولي في يزيد بن معاوية:

حُشينا الغيظ حتى لو شربنا ... دماء بني أمية ما روينا
لقد ضاعت رعيتكم وأنتم ... تصيدون الأرانب غافلينا

ومن المناقشة الجدلية قول الكميت في الخلافة:

يقولون لم يورث ولولا تراثه ... لقد شَركت فيه بجيلٌ وأرحبُ
ولا انتشلت عضوين منها يُحابرٌ ... وكان لعبد القيس عضو مؤَرّب
فإن هي لم تصلح لحي سواهمُ ... إذن فذوو القربى أحق وأقرب
فيالك أمراً قد تشتَّت جمعُه ... وداراً ترى أسبابها تتقضب
تبدلت الأشرار بعد خيارها ... وجُدَّ بها من أمة وهي تلعب!

ويكاد الكميت بن زيد الأسدي بقصائده الهاشميات يكون الشاعر الفذ لبني هاشم؛ فقد مدحهم واحتج لهم ودافع عنهم بلسان صادق واعتقاد خالص ونفس جريئة وقريحة سمحة. ولما أهدر هشام بن عبد الملك دمه لجأ على ما أرجح إلى التَّقِّية في شعره على عادة الشيعة، فقال من كلمة يمدحه فيها:

فالآن صرتُ إلى أميّة والأمور إلى المصائر
يا ابن العقائل للعقا ... ئل والجحاجحة الأخاير
من عبد شمس والأكا ... بر من أمية فالأكابر
لكم الخلافةُ والألا - ف برغم ذي حسد وواغر

ومهما يقل الكميت فإن عاطفة شعراء الشيعة ستظل كما قلنا مكظومة بالطمع والخوف حتى تنبجس في عهد بني العباس نفثات غيظ، وحسرات حزن، وعبرات ألم، في شعر السيد الحميري، ودعبل الخزاعي، وديك الجن، ومطيع بن إياس، وأبي الشيص، والعكوّك، وأضرابهم

شعر الخوارج

وأما الخوارج - وجمهرتهم من البدو الجفاة والسذج - فقد قام أمرهم على الصلابة في الرأي، والمكابرة في القول والاشتطاط في الحكم، والتشدد في الدين، والغلو في العبادة، والقسوة في المعاملة، والاعتماد على الحرب. شايعوا عليّا وآزروه حتى قبل التحكيم، فقالوا له: حكّمتَ الرجال ولا حكم إلا لله! ثم خرجوا عليه وأبوا أن يرجعوا إليه إلا إذا أقر على نفسه بالكفر، ونقض ما عاهد معاوية عليه، فأبى عليهم ما سألوا، وأوقع بهم يوم النهروان، فزاد ذلك في حنقهم عليه وخلافهم له فائتمروا به واغتالوه.

واستعرضوا أعمال الخلفاء وعقائد الناس، فخطئوا بعضاً وكفَّروا بعضاً؛ ثم ذهبوا إلى أن الخلافة تصح في غير قريش وفي غير العرب، وأن العمل جزء من الإيمان، فحرصوا كل الحرص على أداء الشعائر واجتناب الكبائر، ولاذوا بكور الجبال يدعون جهراً إلى مذهبهم دون مواربة ولا تقية ولا هوادة؛ فكانوا في الدين كما قال صاحبهم أبو حمزة الشاري: (أنضاء عبادة، وأطلاح سهر؛ قد أكلت الأرض أطرافهم، واستقلوا ذلك في جنب الله؛ فإذا كان الجهاد ورعدت الكتيبة بصواعق الموت، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله، ومضى الشاب منهم قُدُماً حتى اختلفت رجلاه في عنق فرسه، وتخضبت بالدماء محاسن وجهه، فإذا أنفذه الرمح جعل يسعى إلى قاتله ويقول: (وعجلت إليك ربِّ لترضى)

وكانوا مع هذا الورع الشديد والخشية البالغة يقسون على مخاليفهم، فلا يرحمون ضعف المرأة، ولا براءة الطفل، ولا شيخوخة الهرم، ولا وشائج الرحم، لأنهم - كما ظنوا - باعوا أنفسهم وأموالهم لله بأن لهم الجنة، فقطعوا أسباب الحياة، وأماتوا عواطف الدنيا، وقاتلوا وقُتلوا في سبيل هذا المذهب وتلك الغاية. وهم لصراحة بداوتهم، وشدة عصبيتهم، وخلوص عقيدتهم، وما تقتضيه دعوتهم من إدمان الحجاج والناظرة، أسلس الناس منطقاً، وأروعهم كلاماً، وأمتنهم شعراً؛ ولكن الشعر كان عندهم في المحل الثاني من الخطابة، لقيام أمرهم على الإقناع والجدل بآيات الله وأحاديث الرسول، وغناء الشعر في ذلك قليل. فإذا ما صمد الخارجي إلى الخصم، أو هجم على الموت، أو وقع في الأسر، جاشت نفسه بمتين الرجز، أو رصين القصيد، يضمنه وصفه للحرب، وولهه للقتال، وزهده في الحياة، واستخفافه بالموت، وشوقه إلى الشهادة، وظمأه إلى الجنة، في لفظ جزل وأسلوب قوي؛ وقلما يدور شعرهم على غير ذلك. فمن الرجز قول أم حكيم:

أحمل رأساً قد سئمت حمله ... وقد مللت دهنه وغسله
ألاَ فتى يحمل عني ثقله!
ومن القصيد قول معاذ بن جوين يحرض قومه وهو أسير:
ألا أيها الشارون قد حان لامرئ ... شرى نفسه لله أن يترحلا
أقمتم بدار الخاطئين جهالة ... وكل امرئ منكم يصاد ليُقتلا
فشدوا على القوم العداة فإنها ... أقامتكُم للذبح رأياً مضللا
ألا فاقصدوا يا قوم للغاية التي ... إذا ذكرت كانت أبر وأعدلا
فيا ليتني فيكم على ظهر سابح ... شديد القُصيري دارعا غير أعزلا
فيا رُب جمع قد فللت، وغارة ... شهدت، وقِرْن قد تركت مجندلا
وقول الطرماح بن حكيم:
لقد شقيتُ شقاءً لا انقطاع له ... إن لم أفز فوزة تنجي من النار
والنار لم يَنجُ من لهيبها أحد ... إلا المنيبُ بقلب المخلص الشاري
أو الذي سبقت من قبل مولده ... له السعادة من خلاقها الباري
وقوله:
وأمسى شهيداً ثاوياً في عصابة ... يصابون في فج من الأرض خائف
فوارس من شيبان ألف بينهم ... تُقى الله نزالون عند الزواحف
إذا فارقوا دنياهم فارقوا الأذى ... وصاروا إلى ميعاد ما في المصاحف
وكقول قَطَري بن الفجاءة في يوم دولاب:
فلم أر يوماً أكثر مَقْعصاً ... يمج دماً من فائض وكليم
وضاربة خداً كريماً على فتى ... أغر نجيب الأمهات كريم
أصيب بدولاب ولم تك موطناً ... له أرض دولاب حميم
فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا ... تبيح من الكفار كل حريم
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم ... بجنات عدن عنده ونعيم
وقليلاً ما يجادل الخوارج بالشعر ويقارعون بالهجاء، لاعتمادهم في الجدل على الخطابة، وفي القراع على السيف. ومن هذا القليل قول بعضهم في الجدل وقد هزم أربعون منهم ألفين لابن زياد:
أألفا مؤمن فيما زعمتم ... ويقتلكم بِآسكَ أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ... ولكن الخوارج مؤمنونا
هي الفئة القليلة قد علمتم ... على الفئة الكثيرة ينصرونا
وقول عمران بن حطان في هجاء الإمام:
لله در المرادي الذي سفكت ... كفاه مهجة شر الخلق إنسانا
أمسى عشية غشاه بضربته ... مما جناه من الآثام عُريانا
وما حمله على ذلك إلا أنه من القَعَدة لضعفه عن الحرب لكبر سنه فجاهد بلسانه
الزيات
من نوادر المخطوطات
أثر أدبي فذ!
اختراع الخراع لصلاح الدين الصفدي
للأستاذ علي الطنطاوي
أطلعني على هذه الرسالة صديقي الشاعر الأديب السيد أحمد عبيد، أحد أصحاب المكتبة العربية العامرة بدمشق الشام، فرأيتها رسالة عجيبة، وتحفة أدبية غريبة، ورأيت فيها فناً من فنون الأدب العربي لا يعرفه الناس ودليلاً على بعد الغاية التي بلغها أدبنا، ورأيت فيها جمالاً ولذة، ووجدت فيها نفعاً وفائدة، فأحببت أن أتحف بها قراء الرسالة، فتكون لهم أفكوهة وللأدب خدمة، بتسجيل هذا الأثر الجميل من آثاره الضائعة في الرسالة (السجل الأدبي الخالد)
صلاح الدين، أبو الصفا، خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (المتوفى سنة 764) أحد أئمة القلم والأدب في عصره، (مهر في فنّ الأدب، وكتب الخط المليح، وقال النظم الرائق، وألف المؤلفات الفائقة، وباشر كتابة الإنشاء بمصر ودمشق، ثم ولي كتابة السرّ بحلب، ثم وكالة بيت المال بالشام، وتصدى للإفادة بالجامع الأموي، وحدّث بدمشق وحلب وغيرهما. ذكره شيخه الذهبي في المعجم المختص، فقال: الإمام العالم

الأديب البليغ الأكمل، طلب العلم وشارك في الفضائل، وساد في علم الرسائل، وقرأ الحديث وكتب المنسوب وجمع وصنف والله يمده بتوفيقه، سمع مني وسمعت منه، وله تآليف وكتب وبلاغة)

قال شيخ الإسلام التاج السبكي:

الشيخ صلاح الدين الصفدي الإمام الأديب الناظم الناثر أديب العصر: (خليل بن أيبك) ولد سنة 696 وقرأ يسيراً من الفقه والأصلين، وبرع في الأدب نظماً ونثراً وكتابة وجمعاً، وعني بالحديث، ولازم الحافظ فتح الدين بن سيد الناس وبه تمهر في الأدب، وصنف الكثير في التاريخ والأدب. قال لي: إنه كتب أزيد من ستمائة مجلد تصنيفاً ومن مؤلفاته الوافي بالوفيات ويكاد يكون أجمع كتب التراجم. ومن مؤلفاته المطبوعة نكث الهميان في نكت العميان، والغيث المنسجم في شرح لامية العجم، وجنان الجناس في الأدب، ودمعة الباكي، وتمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون (وهي غير الرسالة التهكمية التي شرحها ابن نباته) ووصف الهلال وغيرها

أما هذه الرسالة التي نتكلم عنها، فلم أجد من ذكر أنها له، ولكني لا أشك في أنها إن لم تكن له، فلن تكون إلا لأديب كبير، وعالم متمكن، ولغوي محقق، وهي في شرح بيتين من الشعر. . . شرحهما المؤلف شرحاً مستفيضاً، حلاه بالنكات اللغوية والمسائل النحوية، والطرائف الأدبية، والآراء الفلسفية، وزينه بالحكم الباهرة، والأمثال السائرة، واستشهد على كل مسألة من مسائله بأقوال العرب. . . ولكنه - وتلك ميزة هذا الكتاب - تعمّد ألا يأتي إلا بما هو خطأ محرّف عن أصله، معدول به عن جادة الصواب، ممال به عن سبيل الحق: فلا بيت ينسب إلى صاحبه، ولا كتاب يعزى إلى مؤلفه، ولا مسألة تورد على وجهها، ولا بلدة توضع في موضعها؛ وقد أورد ذلك كله بحذق ومهارة، ولباقة وظرف، حتى أن الرجل ليتلوه فيحس لحلاوة ما يقرأ أنه لا يقرأ إلا حقاً وصدقا، وما فيه من الحق والصدق شيء

ولا يقدر على الخطأ الذي لا صواب فيه، إلا من يقدر على الصواب لا خطأ معه. يحتاج كلاهما إلى علم بمواقع الخطأ ووجوه الصواب، وانتباه وفطنة، واطلاع ومعرفة، كيلا يخلط خطأ بصواب، أو صواباً بخطأ. والرسالة على ما فيها من الهزل والتحريف، تدل على طول باع مؤلفها في علوم اللسان، وعلوم العقل، ووقوفه على آراء الفلاسفة، وآثار الأدباء، ومباحث العلماء، ولا تخلو من فوائد

وهي ناقصة من وسطها وآخرها، والموجود منها (53) صفحة، في كل صفحة (11) سطراً، مكتوبة بخط قريب من النسخي، مضبوط قليل الأخطاء، يدل على علم ناسخه. وليس في الرسالة تاريخ، ولكن ورقها من الورق الذي بطل استعماله من ثلاثة قرون، فكأنها مكتوبة في القرن التاسع أو العاشر

على الصفحة الأولى منها:

كتاب اختراع الخراع

تأليف المولى الأجل الفاضل

العلامة فريد دهره ووحيد

عصره صلاح الدين أبي الصفا

خليل بن أيبك الصفدي

رحمه الله تعالى

للشيخ عبد الجواد:

بدا لابن أيبك في عصره ... كساد العلوم وخبث الطباع

وأن الأماثل قد أصبحوا ... هباء يطار بهم في الشعاع

وأن كثيراً كمالاتُهم ... دعاوى أحاديثها في انقطاع

فجرّ بأفعاله رأيهم ... وأتحفهم باختراع الخراع

وعلى الرسالة تعليقات لطيفة، وتنبيهات شريفة

وأول الرسالة:

بسم الله الرحمن الرحيم

قال أبو خرافة الهدّ القشيري، سامحه الله تعالى: حضرت في بعض أوطان أوطاري، وأوْكار أفكاري، مع جماعة الخ. .

فابتدر أحد ظرفائهم فأنشدنا بيتين الخ. . . وهما
لو كنت بكتوت امرأة جارية الفضل ... وكان أكل الشعير في البرد مَلْبَسكو
لا بدّ من الطّلوع إلى بئرك في ... الليل وظلام النهار متضح ا
فأخذ الجماعة في الإعجاب، مما اتفق فيهما من اختلال النظم، واختلال القافية، وعدم الإعراب، وخلاف أوضاع اللغة، وتناقض المعنى وفساده، والتخبيط في التاريخ، وقضوا نهارهم بتعاطي كؤوس العجب من ذلك
فقال أحدهم: ألا إنهما محتاجان إلى شرح ينخرط معهما في سلك الغريب، ويبرز في مظهرهما العجيب!
فالتزم بعض من حضر الخ. . . وصبَّحهم وقد أعمل في الشرح حيلته. . . فقال:
حدثني نصير الدين أبو الهزايم ثابت، قال حدثني من كتابة أصيل الدين أبو المفاخر لقيط القطربي، وقيل القرطبي، قال أخبرني اجازة أسد الدين أبو ثور صقر الفنحكردي من أهل دمشق، قال: إن افتخار الدين سبكتكين القسهتاني صاحب زهر الآداب، قال: عارض هذين
البيتين الأفوه الأودي أبو علي، على ما ذكره الحريري في الخطب النُباتية في قوله:
وإذا نظرت إلى الوجود بعينكم ... فجميع ما في الكائنات مليح
وهذا من قصيدته الطردية في التشبيهات، وأولها:
وأنت يا غصن النقا ... ما أنت من ذاك النمط
وزعم مؤيد الدولة أبو خاذل أيدكين الجواليقي، صاحب المديح المأموني، في كتاب الصادح والباغم، في باب المراثي أنهما من باب قول الثعالبي:
لو كنت شاهين جارية الف ... ضل وكان الحريم منزلك
لابدّ الخ. . .
وليس بشيء والصحيح الأول
قال الشارح عفا الله عنه: نبدأ أولاً بما في البيتين من اللغة وثانياً بما فيهما من الإعراب، وثالثاً بما فيهما من التاريخ وتقدير المعنى، ورابعاً بما فيهما من البديع، وخامساً بالكلام على ما يتعلق بعروضهما، وسدساً بما يتعلق بعلم القافية
القول في اللغة:
قوله بكتوت: هو علم مركب من اللغة العربية والتركية، فبك بالعربي وتوت بالتركي، ومعناهما أمير توت مثل دمرطاس ومروان وقراحاً وما أشبه ذلك، ومن قال إن معنى ذلك بالعربية أمير النيروز فلا يتأتى له ذلك إلا إن كان النيروز في شهر توت على ما ذكره السخاوي في سمع الكيان
قوله امرأة: المرأة مشتقة من المرآة، وهي التي يرى الإنسان فيها وجهه إذا كانت في جيبه أعني السراويل، وكقول الأخطل:
ما أخذ المرآة في كفّه ... ينظر فيها للجمال المصون
إلا رأى الشمس وبدر الدجى ... ووجهه في فلك يسبحون
قوله جارية فيها قولان، منهم من قال: هي الساقية لأنها تجري من أسفل إلى فوق، واستشهد بقول الحطيئة:
نديمتي جارية ساقية ... ونزهتي ساقية جارية
جارية أعينها جنّة ... وجنّة أعينها جارية
ومنهم من قال هي في مقابلة المملوك، واستشهد بقول العكوّك:
أيا بديع الجمال رقّ لمن ... ستر هواه عليك مهتوك
دموعه في هواك جارية ... وقلبه في يديك مملوك
وهذا باطل ببديهة الإنسان
قوله الفضل: هو كل شيء ناقص، ومنه سمّي عبد الرحيم كاتب مروان بالفاضل لأنه كان قصيراً، وفي أمثال بزرجمهر لأمر ما جدع قصير أنفه. قال التلعفري:
ضعاف الطير أطولها جسوماً ... ولم تطل البزاة ولا الصقور
قوله كان: معلوم أنها للاستقبال وسيأتي الكلام عليها في الإعراب
قوله أكل: هو الحالة المؤدية إلى الجوع لمن هو شبعان الخ. .
قوله الشعير: معروف أنه من فواكه الآدميين؛ ولا يوجد إلا في جزرات الهند بالمغرب في الليل دون النهار صيفاً. قال ابن الساعاتي:

جارية لم تأكل المرققا ... ولم تذق من البقول الفستقا
ومن استشهد في هذا بقول ابن الفارض يصف رجلاً من الأكراد كوسجا:
إن تطل لحية عليك وتعرض ... فالمخالي معروفة للحمير
علق الله في عذاريك مخلا ... ة ولكنها بغير شعير
فليس من التحقيق في شيء والمعنى على الأول
قوله البرد: هذا معروف أيضاً عند الأساكفة في الشام وأظنه نوعاً من الأطلس الحريري. قال امرؤ القيس في معلقته الطائية:
قالوا حريراً كان وجه حبيبه ... ونرى مسوح الشعر فوق الأطلس
جهلوا معاني حسنه مع علمهم ... أن الحرير كماله بالقندس
ومن قال إنه نوع من العديني وأنشد الخ. . فليس بشيء لأن العديني نوع الخ. . والأطلس إنما هو فلك القمر خلافاً لأبي تمام فإنه في الخطب النباتية زعم أنه الفلك الذي له الحركة القمرية الخ. . وهذا رأي المشائين. والرواقيون خالفوهم والعمدة في اللغة على أقوالهم (إلى أن قال):
لابدّ: البد معلوم، وهو صنم يعبده اليهود في النوبة. قال بعض شعراء الجاهلية:
من قال لابدّ منه ... فمنه لي ألف بدّ
وقال النابغة:
دعوه يبلي فؤادي ... لا خفَّف الله عنه
كم لمت قلبي فيه ... فقال: لابدّ منه
(البقية في العدد القادم)
علي الطنطاوي
من تراثنا الأدبي
أبو العيناء - 2
بقلم محمود محمود خليل
تحدثت في مقالي السابق عن إسراف أبي العيناء في هجاء الناس، حتى لم يسلم منه أحد من عظيم أو سوقة، وقلت إن هناك عوامل أثرت في حياته، حتى جعلته سليط اللسان وقد آن أن أتحدث عن تلك العوامل:
(1) الوراثة وقد تعرضت لها فيما سبق بحديث مستفيض، فلا حاجة بي الآن إلى تكرار القول فيها
(2) نشأته فقيراً، وطالما كان الفقر وهو مثير الأضغان والأحزان منبعاً للنبوغ والذكاء، ونجد فقره هذا اضطره فيما بعد إلى الارتحال من منبت نشأته وهو البصرة إلى بغداد طلباً لعطايا الخلفاء والوزراء، وكل أحاديثه مع الكبراء تنبئنا بفقره المدقع، فقد دخل مرة على عبيد الله بن سليمان بن وهب الوزير فضمه إليه، فقال له أنا إلى ضم الكفاية أحوج مني إلى ضم اليدين. وقال له مرة أنا معك مغبوط الظاهر موجود الباطن كما قال أبو الطيب المتنبي:
ماذا لقيت من الدنيا وأعجبها ... إني بما أنا باك منه محسود
وقال لعبيد الله بن يحيى: مسّنا وأهلنا الضر، وبضاعتنا الحمد والشكر، وأنت لا يخيب عنده حر
وسواء كان هذا الكلام منه من أساليب الاستجداء الذي اشتهر به أو من شدة الحاجة كما يقول، فقد عاش أبو العيناء في حياته كلها سواء منها المدة التي قضاها في البصرة أو المدة التي عاشها في بغداد في ضنك من العيش وشدة، وتلك حياة كثير من الأدباء والكتاب في عصره، حتى كان الانتساب إلى الأدب طالع سوء على محترفيه، اللهم إلا نفراً قليلاً من الأدباء الذين أتاح لهم القدر أن يصلوا إلى مرتبة الوزارة أو القضاء، وغفلت عنهم عين الزمان كما يقولون، كالفضل بن سهل وأخيه الحسن والفضل بن الربيع وابن الزيات ويحيى بن أكثم وأحمد ابن أبي دؤاد وغيرهم، وما عدا هؤلاء فكانت حياتهم تتوقف على العطايا التي ينفحهم بها أرباب المناصب في الدولة؛ وكثيراً ما كانت تضيق أمامهم سبل العيش، وتضطرهم الفاقة إلى الاستكانة والذلة، ولا سيما إذا راعينا رجلاً كأبي العيناء وهو مكفوف البصر، رثينا لحاله التي كان فيها، وانتحلنا له عذراً في استطالته بلسانه على الكبراء، فإنه لا يملك غيره، وهو سيفه الوحيد الذي كان يناضل به في حياته عن

عيش الكفاف الذي كان يبتغيه في دنياه كما يقول ذلك لعبيد الله بن سليمان
وثالث العوامل التي غيرت مجرى حياته فقد بصره، ولم يحدثنا الرواة أحصل له (3)
ذلك الحادث في حياته البصرية أم في حياته البغدادية، وإني أرجح أن ذلك كان في
حياته البصرية قبل أن ينتقل إلى بغداد، فإن أحاديثه جميعها التي نقلت عنه وهو ببغداد
تنبئنا أنه كان أعمى يقوده غلامه
ويظهر أن هذا الحادث قد أثر فيه تأثيراً كبيراً فجعله ساخطاً على الحياة، يتناول الناس
بقوارص الكلم. قال له المتوكل: لا تكثر الوقيعة في الناس، قال: إن لي في بصري
لشغلاً عن الوقيعة فيهم، قال ذلك أشد لحيفك في أهل العافية. فانظر إلى حيفه في
أهل العافية الذي يذكره له المتوكل، أما كان هذا أثراً من آثار فقد بصره؟ وشكا مرة
إلى صديق له سوء الحال وفقد البصر، فقال له اشكر فإن الله قد رزقك الإسلام
والعافية. قال: أجل ولكن بينهما جوعاً يقلق الكبد، ويفقد الرشد
لم يتخذ أبو العيناء سخطه على الحياة مذهباً فلسفياً له كما اتخذه شاعر المعرة من
بعده، ولم يؤدّ به هذا السخط إلى الزهد والتقشف كما فعل ذلك أبو العلاء، وإنما كان
سخطه مقصوراً على حزنه العميق الذي خالج فؤاده لفقد بصره
صفاته وأدوار حياته:
إذاً فقد اجتمعت عوامل ثلاثة أثرت في حياته: الوراثة والفقر وفقد البصر، حتى جعلته
سليط السان حاضر البديهة متوقد الذكاء؛ ولقد تزود في حياته البصرية من آثار
الوسط الذي كان يعيش فيه بما يصلح لمجالس الملوك والأمراء ومنادمتهم بأحاديث
وطرف ونوادر، ثم رحل إلى بغداد بعد أن ضاقت به سبل العيش في البصرة؛ ولقد
ذمها للمتوكل حينما سأله عنها فقال: من أين أنت؟ قال من البصرة. قال له: فما تقول
فيها؟ قال: ماؤها أجاج، وحرها عذاب، وتطيب في الوقت الذي تطيب فيه جهنم
تزود بتلك الرواية الواسعة واشتهر مع هذا بالجواب المسكت والمراسلات العجيبة
والجواب السريع والطبع الفكه والحجة الداحضة، والبديهة المتوقدة. فكانت تلك
المظاهر معينة له على الحياة التي أقدم عليها ببغداد. فمن ذلك أن بعض الرؤساء قال
له: يا أبا العيناء، لو مت لرقص الناس طرباً وسروراً! فقال بديهةً:
أردتَ مذمتي فأجدت مدحي ... بحمد الله ذلك لا بحمدك
فلاثك واثقاً أبداً بعمد ... فقد يأتي القضاء بغير عمدك
ثم قال: أجل. الناس قد ذهبوا فلو رآني الموتى لطربوا لدخول مثلي عليهم، وحلول
عقلي لديهم، ووصول فضلي إليهم، فما زال الموتى يغبطونكم ويرحمونني بكم.
وخاصم أبو العيناء يوماً علوياً فقال له العلوي: تخاصمني وأنت تقول كل يوم: اللهم
صل على محمد وآل محمد! قال لكني أقول الطيبين الطاهرين ولست منهم. ووقف
عليه يوماً رجل من العامة فلما أحس به قال من هذا؟ قال رجل من بني آدم، فقال
مرحباً بك! أطال الله بقائك، ما كنت أظن هذا النسل إلا قد انقطع. ولقيه بعض أصحابه
في السحر فجعل يتعجب من بكوره، فقال له: أراك تشركني في الفعل وتفردني في
التعجب! وقال له المتوكل: إبراهيم بن نوح النصراني واجد عليك. فقال: ولن ترضى
عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم. قال إن جماعة من الكتاب يلومونك. فقال:
إذا رضيت عني كرام عشيرتي ... فلا زال غضباناً علي لئامها
وغير هذه الأحاديث كثير تستطيع أن تقرأها في كتب الأدب. وتلك البديهة الوقادة
والأجوبة المسكتة هي التي جعلت الحصري صاحب زهر الآداب يقول: كان أبو العيناء
أحدَّ الناس خاطراً وأحضرهم نادرة، وأسرعهم جواباً، وأبلغهم خطاباً. ولقد كان أبو
العيناء يجالس في حياته البغدادية الخلفاء والكبراء فيطرفهم بأحاديثه وفكاهته، فكان
سلوة لهم في مجالسهم وزينة في محاضرهم على ما فيه من حدة اللسان
انتقل أبو العيناء إذاً من البصرة إلى بغداد بعد أن تمت له الثقافة التي أرادها، والبلاغة
العكاظية التي امتاز بها، وتلك حال كان يشترك معه فيها كثير من أدباء عصره، إذ
كانت بغداد مركز الخلافة الإسلامية يرحل إليها الأدباء والعلماء، ويبتغون فيها صلات
الملوك والأمراء، وقد يصل بعضهم إلى أن يرتب له الخلفة من بيت المال رزقاً يجري
عليه. ويظهر أن أبا العيناء كان من أولئك النفر كما تدل عليه أحاديثه ولا سيما إذا
لاحظنا أنه من

موالي الخلفاء العباسيين، فكان بلا ريب له دالة عليهم جعلته في مأمن من تلك الحزازات التي كانت في صدور كثير من الحاشية، والتي سبّبها أبو العيناء ببذاءة لسانه، وتطاوله على أعراض الناس

حياته البغدادية:

يقول الرواة إن أبا العيناء ولد في آخر المائة الثانية وتوفي سنة 282 أو سنة 283هـ فمن ثم يكون قد أظلته خلافة المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد وصدر من خلافة المعتضد بالله الذي تولى سنة 279 وتوفي سنة 289هـ. ولقد كانت الحياة البغدادية في عصر أبي العيناء كلها ترف ولذة، يسودها المجون والخلاعة، ويروج فيها العبث واللهو، وقد روى لنا المؤلفون كثيراً من مجالس لهوهم ومنادمتهم على الشراب، ومساجلات الشعراء في خلواتهم، وأحاديث المجان في طربهم، وإني أعتقد أن الخليفة الذي تمتع بملذات الحياة، وأنال نفسه ما تبتغيها حقاً، من خلفاء العباسيين هو المتوكل على الله، فهو أول من أظهر من خلفاء بني العباس الانهماك على شهوته، فأسرف في بناء القصور، وعكف على الشراب ولم يبال باللوم، ولقد جنى ثمرة رفاهية الدولة، وإن شئت فقل إن الدولة قد بلغت في أيامه ذروة العظمة، وكان لابد لها من بعده أن تضعف حتى تنمحي، ولكل شيء إذا ما تم نقصان. ولقد حدثنا التاريخ أنه قتل في قصره، وأن الأمور من بعده اضطربت اضطراباً شديداً بسبب المعول الهادم الذي أوجده المعتصم وهو الجنود الأتراك، ولم يظهر استبدادهم وشرهم حتى بلغت الأمور غايتها ثم ظهر الفساد بعد عصر المتوكل

اتصل أبو العيناء بالمتوكل اتصلاً شديداً، وسنعلم إلى أي حد أثر فيه هذا الاتصال، ولم يقتصر اتصاله بالخلفاء على المتوكل وإنما اتصل بغيره كما اتصل به، ولكن المتوكل هو الذي رفع له الحجاب، وجعل يصغي لأحاديثه، ولقد بهره منه تلك البديهة الحاضرة، وذاك الذكاء الوقاد، حتى رأيناه يمزح معه في كثير من مجالسه، ويرفع الكلفة بينه وبينه

ويظهر من أقوال الرواة أن أبا العيناء حينما ارتحل إلى بغداد كان الخلفة المأمون على رأس الدولة فاتصل به وعرف وزيره الحسن بن سهل وأخذ منهما الصلات والعطايا، ولقد أثر ذلك المعروف في نفسه حتى قال لما بلغه موت الحسن بن سهل: والله لئن أتعب المادحين، لقد أطال بكاء الباكين، والله لقد أصيب بموته الأنام، وخرست لفقده الأقلام. وخبر آخر قال أبو العيناء: حصلت لي ضيقة شديدة فدخلت يوماً على يحيى بن أكثم فقال إن أمير المؤمنين جلس للمظالم وأخذ القصاص فهل لك في الحضور؟ قلت نعم ومضيت معه، فلما دخلنا أجلسه وأجلسني ثم قال يا أبا العيناء بالألفة والمحبة ما الذي جاء بك في هذه الساعة؟ فأنشدته:

لقد رجوتك دون الناس كلهم ... وللرجاء حقوق كلها تجب
إن لم أكن لي أسباب أعيش بها ... ففي العلا لك أخلاق هي السبب

فقال لغلامه: انظر أي شيء في بيت مالنا دون مال المسلمين، فقال بقية من مال، قال فادفع له منها مائة ألف وابعث له بمثلها في كل شهر. فلما كان بعد أحد عشر شهراً مات المأمون فبكى عليه أبو العيناء حتى تقرحت أجفانه، فقال له بعض أولاده يا أبتاه بعد ذهاب العين ماذا ينفع البكاء. فقال:

شيئان لو بكت الدماء عليهما ... عيناي حتى يؤذنا بذهاب
لم يبلغا المعشار من حقيهما ... فقد الشباب وفرقة الأحباب

(يتبع)

محمود محمود خليل $ 2

شوقية لم تنشر

مراقب الصحف بالآستانة

للمغفور له أحمد شوقي بك

لنا رقيب كان ما أثقله ... الحمد لله الذي رحّلهْ
لو ابتلى الله به عاشقاً ... مات به لا بالجوى والولَهْ
لو دام للصحْف ودامت له ... لم تنج منه الصحف المُنْزله

إذا رأى الباطل غالى به ... وإن بدا الحق له أبطله
لو خال (بسم الله) في مصحف ... تغضب (تحسيناً) محا البسمله
وعزة الله بلا (عزتٍ) ... لا تنفع القاري ولا خردله
جرائد الترك على عهده ... كانت بلا شأن ولا منزله
إن تذكر الخنجر لفظاً تُصِبْ ... من شدة الذعر به مقتله
وإن تصف قنبلة لم ينم ... من هول ذكرى حادث القنبله
الشر بالشر فيا قوم لا ... إثم إذا راقبتموه منزله
فحاصروا الأبواب واستوقفوا ... من أخرج الزاد ومن أدخله
إن كان في السلَّة تفاحة ... ضعوا له موضعها حنظلة
أو جيء (بالشرشر) له فاملأوا ... مكانها من علقم جردلة
أو اشتهى الأبيض من ملبس ... قولوا له الأسود ما أجمله
ذلك يا قوم جزاء امرئ ... كم غيَّر الحق وكم بدَّله

خطرات

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

- 1 -

اكْدَحْ لدنياكَ اكْدَحِ ... وبالملذات افرِح
وامرح فما خُلِقتَ في الـ ... أرض لغير المرح
دع الهمومَ جانباً ... وللمسرّات اجنح
وربما وجدتَها ... في جرعة من قدح
فقد تكون مُمْسياً ... في اليوم غير مُصبح
وإن خُلِقتَ شاعراً ... فقل ولا تمتدح
كل الذنوب إن صرف ... تَ النفسَ عنها تنمحي

- 2 -

الناس تحيا بالمُنى ... فما لها عنها غِنَى
لولا المنى ما عشتَ أن ... تَ هادئاً ولا أنا
لا تَدْلَهِمُّ أنفسٌ ... لها من المُنى سَنا
ولا يَرى ذو اليأس ما ... أمامَه وإن رنا
اليأس نارٌ تحرق الر ... وح وتفني البدنا
وتجعل العمرَ قصي ... راً وتُطيل الشجنا
أمِّلْ حياةً كلها ... طيبٌ هناك أو هنا

- 3 -

مَن يعتقد بنحسه ... فهو عدوُّ نفسه
خير الفتى وشرّه ... كلاهما في رأسه
إن الفتى بسؤله ... ينشط لا بيأسه
وذلُه في جبنه ... وعزهُ في بأسه
وربما عرفت ما ... نسيجُه من لمسه
يرجو الفتى ألا يكو ... ن يومُه كأمسه
قد درّسته نفسُه ... فليستفد من درسه

- 4 -

يا نفس لا تنخدعي ... بالزاهد المنقطع
دنياكِ هذي تحتوي ... على النعيم أجمع
تنعّمي بخيرها ... قبل دنوّ المصرع
وبالحياة ما صفت ... تمتعّي تمتّعي
لكل بابٍ تحسبي ... ن الخيرَ خلفه اقرعي
وانتهزي الفرصة قب ... ل فوتها وأسرعي
بالبسمات تبلغي ... ن السؤلَ لا بالأدمع

- 5 -

مصيبتي في الهرم ... فإنه امتصَّ دمي
لم يبق مني غير جلْ ... دٍ ذابلٍ وأعظُم

وغير نفسٍ قد تربَّت ... ني فيا نفسُ أسلمي
وغير ما أقوله ... عند الأسى من كَلِم
صعبٌ عليّ السيرُ من ... ضوء الضحى للظلم
إني أرى الموتَ أما ... مي ماثلا من أمَم
مَن ضامنٌ ألا يكون ... ن الشيخ بالمنهدم
- 6 -
انظر إلى الزواهر ... يسبحن في الدياجر
تلك شموسٌ قد بعدْ ... ن عن عيون الناظر
لا تنسَ ما بين نجو ... م الليل من أواصر
فكلها مؤلَّفٌ ... من كهرباء ثائر
ما أقدم الوجودَ فَهْ ... وعنصر العناصر
فما له من أوّل ... ولا له من آخر
بلى لكونٍ فيه نح ... يا سندٌ من قادر
- 7 -
أهْدِ إلى الشمس القبَلْ ... فإنها بنتُ الأزَلْ
وحَيِّهَا عند شرو ... قها وحَيِّ في الطَّفَل
قد عُبِدت من الأنا ... م في قرونها الأُوَل
منها الحياة والرخا ... ء والسرور والجذل
والأرض لولاها خلت ... من الحياة والعمل
والشمس أمُّ الأرض وال ... خطبُ إذا زالت جَلل
توغِلُ في هذا الفضا ... ء الرحب من غير وَجَل
بغداد
جميل صدقي الزهاوي
بعد الأخاء والعداء
للأستاذ عبد الرحمن شكري
حنوت على الود الذي كان بيننا ... وإن صَدَّ عنه ما جنينا على الود
حنوت ولو أني حنوت وما حنا ... ولو أنه يبغي هلاكي من الحقد
ولا أكذِبَنَّ الناس قلبي كقلبه ... له أنة ميلٌ عن النصف والقصد
كلانا جنى شراً فعاد إخاؤنا ... محالاً حكى ذكرى الشباب على بُعْدِ
فيا طيب ذكراه وما بُعْد عهده ... وأين قديم الود من حاضر الصد
مضى حيث يمضي عابر بعد عابر ... من الأهل والأصحاب والذخر والولْدِ
مضى حيث يمضي كل رأي ومذهب ... له أجل كالناس ظعن بلا عَوْدِ
إذا أنا أُنْسِيتُ الإساءة من أخ ... ذكرتُ له مني إساءة ذي عمد
وأيقنت لا ينسي عدائي وما جنى ... عدائي عليه من عناء ومن جهد
أيلتئم الصخران في اليَمِّ بعدما ... تردد موج اليَمِّ بالصدع والهد
ويتفق الخِلاَّنِ من بعد ما بدت ... به بغضة من مين قول ومن نقد
وكنا على ما كان من قرب أنفس ... كنهرين في وادي الغضارة والورد
قد اقتربا مجرى وماءً وعسجدا ... من الشمس لألاءً كلألأة الود
حياة شبابٍ عسجدٍ أيَّ عسجد ... وعهد إخاء لا يغيض ولا يُكْدِي
إلى أن دعا داعي الحياة وإفنها ... فمال بنا قصد السبيل عن القصد
وغَيَّرَ منا القلبَ والنفسَ والمُنى ... وزاد طماحُ النفس بعداً على بعد
هو البغض مثل الحب لحظ فمنطق ... فنار لها بين الأضالع كالوقد
وإن كنت تدري الحب كيف طروقه ... ولم تدره أيقنت ما جاء بالحقد
فيا ليت أني قد غفرت جفاءه ... ونَبْوَتَهُ حتى يصد عن الصد
ويذكر لي صبري على الضيم والأذى ... فيأسى على ما كان منه من الكيد
وَتكْسِبني منه الندامة ألفة ... وإن كان لي من قبل كالحجر الصلد
أعيش بصفو منه يوماً فإنْ جنى ... على إثْرِهِ غدراً ذخرت له ودي
وأُذْكِرُ نفسي منه عند انصرافها ... شمائل تستدعي المَغِيظَ إلى الحمد

أبَعْدَ بلائي العيش أبغي مُبَّراً ... وكيف ونفسي لي كما الضد للضد
يروقك حسن الفجر والنجم في الدجا ... ومرأى رياض من عرار ومن ورد
وَأحسن منها البشر وجه صاحب ... حليفك منه ما استسر ولم يُبْدِ
فيا ليت لي دنيا أبيع حطامها ... بود أخٍ لو يشتري الود بالنقد
إذا الحب لم يخلص من البغض والأذى ... فكيف خلاص الود من عنت الحقد
وخِلاَّننا مثل الجوارح أيهم ... فقدنا فبعض النفس في ذلك الفقد
أحقٌ طِلاَبُ الود من نقص طالب ... إذاً قَمِنٌ نشدانك الود بالحمد
لتكمل بالخل الذي أنت ناشد ... كما كَمُلَ النصفان تجمع في العد
ويا طيب قلب غره الود حقبة ... كما عظُمَ المخدوع بالفضل والمجد
وإنك لا تدري أقلب مراوغ ... أسرُّ أم القلب المُغَرَّرُ بالود
وإنَّ وداد المرء من بعض غنْمِهِ ... ولو أنَّ مخلوف الوفا غاض لم يُجْدِ
تعيش بمخلوف الرجاء وكذبه ... فَطَامِنْ فإن الود يا قلب لم يُرْدِ
رحيق الحياة الود لو دام صفوه ... - وكالخمر - أصفاه المُعَتَّقُ ذو العهد
وأحسنه ما كان من عصرة الصِّبى ... ولم يَحْلُ بعد الشيب مُستَحْدَثُ الود
فمن لي بعود الدهر للود والصِّبَى ... أليفين ما كانا كما الند للند
يخال الصِّبَى ودا وود الصِّبَى صبىً ... كيانهما الممزوج كالجوهر الفرد
وإن فقير الناس من خان خِلَّهُ ... وإن نال حظاً من طريفٍ ومن تلد
أأبغي إخاءً لم تَشُبْهُ عداوةٌ ... وأنقم عفو الغدر أو غدرة العَمْدِ
كأنّي لم أدرِ الأنام وخُلقه ... ولم أدْرِ أن الضد يولع بالضد
أَبَعْدَ فراغي من جنازة ودنا ... أروم خلود الود من عادم الخلد
متى أرتضى الخلان صحوا وغيمة ... فأمنحهم غيثي وأمنعهم رعدي
أُغالط نفسي فيهمُ وأغرها ... وإن لاح منهم غدر أعْدَائي اللد
وأكتم من آلام نفسيَ عزةً ... إذا لم يُتَحْ لي ما أزيل به وجدي
فيا ساقِيَ النسيان عاطِ صحابتي ... وهات لِيَ النسيان رفداً على رفد
وهيهات ما أمر إذا جد جده ... ليُنْسَى ولو واروه في مُشْبِهِ اللحد
إذا انفلت السهم الطليق فما له ... ولو أنه سهم النميريِّ من رد
ويعجز هذا الدهر عن نقض فعله ... ألاَ وهو الدهر المصَرِّفُ ذُو الأيْدِ

عبد الرحمن شكري

في الأدب الإنجليزي

الكائنات الغيبية في شعر شكسبير - 4

بقلم خيري حماد

وكان من السائد في ذلك العصر أن هذه الطائفة من المخلوقات سرمدية أزلية، فكثيراً ما يطلق شكسبير على الناس لقب الأحياء الفانين بينا هو لا يعرض لهن بشيء من ذلك. وقد يجعلن من الرجل أداة للهزء والسخرية فيلقبنه بألقاب عدة أهمها أنه حي زائل وليس بباق. فالملكة تيتانيا تطلب من بطانتها ووصائفها أن يعاملن بلطف ذلك المخلوق الزائل بوتوم ولهذه المخلوقات زيادةً على ذلك خاصية الاختفاء والظهور للبشر، فهي كالفقاعات الهوائية التي لا تظهر للناس حتى تزول ولا يمكن عند ذلك معرفة الجهة التي اختفت فيها أو تمييزها.

وفضلاً عما تقدم كانت لهن صفات أخرى أهمها خاصية التشكل والظهور بصور عدة، وقد صور إيبرون لنا نفسه بقوله: (سأكون في وقت ما حصاناً فأصهل، أو كلباً فأنبح، أو قوقعة فأنعق، أو دباً فأقهقع، أو ناراً فأحترق). وخاصية السرعة والنشاط فهنّ أسرع من القمر، وفي استطاعتهن الدوران حول الكرة الأرضية في مدة لا تتجاوز الأربعين دقيقة. وقد افتخر روبن هود بسرعته وتحدى الآخرين قائلاً (انظروني أذهب بسرعة لا تدانيها سرعة السهم وقد انطلق من قوس التتري)

وأهم ما نراه مشتركاً بين الجنيات هو ميلهن إلى الموسيقى وفنه فلا يطربن للسماع فقط بل خلقن وقد لازمهن هذا الفن وهذه الموهبة النادرة ملازمة تامة. وما جزيرة العاصفة الخرافية إلا مكان تسوده الموسيقى والأصوات العذبة مما جعل للمكان روعة ساحرة خلابة. فكثيراً ما كانت تسمع أصوات آلاف الآلات الموسيقية منتشرة في الجو انتشاراً لا يضاهيه انتشار الروائح العطرية المختلفة ولم تقتصر هذه الموهبة على

الموسيقى فحسب بل تجاوزتها إلى الرقص، فنرى الملكة تيتانيا تأمر بطانتها وجواريها (أن يخترن من الينابيع وجداول الأنهار وشواطئ البحار أمكنة ليقمن فيها حلقات الرقص والموسيقى)

وآخر هذه الميزات التي اشتهرت بها الجنيات هي ميزة حماية القبور والأضرحة. فكن يقمن بأعمال ما يسمونه الملاك الحارس. ولا تقتصر مهمتهن على تسلية الميت بل تتعداها إلى حفظه سليماً من الحشرات معافى من الجراثيم. ونرى هذه الخاصية بوضوح في رواية سمبالين إذ يقول (ستقوم نساء الجنيات بحراسة قبره من الحشرات)

أم وقد انتهينا من هذه الصورة الرائعة التي صورها لنا شكسبير فيجدر بنا أن ننظر أكان موفقاً في تصويره أم غير موفق. قال جبسن يصف هذه المحاولة: (إن صورة الجنيات في روايات شكسبير تمثل لنا المرح والسرور والنية الطاهرة ممتزجاً بعضها ببعض تحددها المحاولات الضئيلة التي يقصد منها إيقاع الضرر بالناس. ولا يقصد الشاعر من هذه الصور إلا تسلية قراءه فقط غير محاول إظهار عقيدته الحقيقية، وما هي إلا مخلوقات هوائية تحلق في الفضاء مرفوفة أمام أعيننا)

لا يسهل علينا أن ننكر قط هذا الجمال الظاهر في هذه الصورة النادرة. فقد نجح شكسبير أيما نجاح في إبرازها إلى حيز الوجود بلباس رائع من المرح والسرور؛ ولقد صدق جبسن في وصفه السابق لهذه الصورة من ناحية واحدة وأخطأ في ناحية أخرى، فلقد حكم أن شكسبير لم يقصد منها إلا تسلية قرائه غير معبر عن أية عقيدة من عقائده. وحسبي أن أقول معارضاً هذا الرأي أنه ليس في استطاعة أي شاعر أو كاتب أن يصف عقيدة من العقائد كهذا الوصف الدقيق المسهب دون أن يكون له أدنى تفكير وإيمان بالعقيدة نفسها. فقد اعتقد شكسبير بوجود الجنيات وسمع ما كان يدور على ألسنة أهل عصره من قصص وأساطير جلاها في رواياته مرتدياً رداء من الخيال الواسع والابتكار البديع

الساحرات

من الصور الغيبية التي رسمها شكسبير بدقة تأتي صورة الساحرات في الدرجة الثانية؛ فلم يقتصر ذكرهن على رواية واحدة من رواياته؛ بل تعدتها إلى عدد من الروايات لا يقل عن التي تبحث في الجنيات أهمية وعدداً، ولكنه اختص إحدى هذه الروايات ببحث مسهب مستفيض جعلها قاصرة على هذا النوع من المخلوقات الغيبية، وهذه الرواية هي التي يعدها كثير من النقاد والأدباء أحسن ما كتبه الشاعر ألا وهي رواية مكبث

أما ساحرات شكسبير فيقسمن إلى طبقتين مختلفتين: أولاهما طبقة الساحرات البشريات اللواتي يوصفن عادة بالذبول. وثانيهما طبقة الساحرات العلويات أو الغيبيات اللواتي امتزن عن أخواتهن بميزات أرقى وأهم

يذكر شكسبير ساحراته الأرضيات في كثير من رواياته العديدة حيث يكون لهنّ شأن ضئيل في مجرى الرواية وهيكلها. فهو يذكر في رواية هنري السادس إحدى هؤلاء الساحرات على لسان تالبوت حيث يقول: (إن بوسيل تلك الساحرة الملعونة قد سببت هذه المصيبة وتلك الأكدار التي لم نتخلص منها في فرنسا إلا بعد لأي)، وقد ذكرهن في رواية أخرى هي رواية (نساء وندسور المرحات) حيث تقول السيدة بيج (دعنا نلبسه ألبسة تشبه ألبسة ساحرة برانيفورد). وقد ذكر هذا النوع من الساحرات في رواية ثالثة هي رواية الملك ريشارد الثالث عندما يخاطبه كلوسستر قائلاً: (إن هي إلا امرأة ادورد تلك الساحرة التي نفثت سحرها في أعمالي فباءت بالفشل)

في جميع هذه الروايات التي ذكرتها نرى الساحرات البشريات يلعبن دوراً بسيطاً، بينما الساحرات السماويات تشغل قسماً أكبر من تفكير هذا الشاعر العظيم؛ فقد اختص رواية مكبث كلها بتحليل شخصياتهن ووصفها وصفاً دقيقاً مسهباً. وقد صدق مستر لويد في كتابته النقدية عن مكبث حين قال: (إن رواية مكبث تشمل الخيال المبدع والمخاوف السحرية، وكثيراً من الخرافات التي كانت تسود أقسام بريطانيا الشمالية والجزر الغربية منها)

وهؤلاء الساحرات لا أسماء لهن فهن يدعين أنفسهن بالأخوات الذابلات كما يتبين لك

في مواضع عدة من رواية مكبث وقد كان الناس كثيراً ما يشتبهون فيهن فيحسبونهن رجالاً لما في ذقونهن من لحى كلحى الرجال بينما هنّ في الحقيقة إناث اكتملت فيهن صفات الأنوثة؛ ويظهر هذا جلياً في رواية مكبث عندما يقول مخاطباً آباءهن: (إنكن نساء مع أن لحاكن تجعلني أميل إلى الاعتقاد في رجولتكن)

إن هذا المظهر الذي كان يجمع بين صفتي الرجولة والأنوثة في هؤلاء الساحرات كان سبباً قوياً في ازدياد الشعور نحوهن بالكره والازدراء. وكم كان الناس يودون القضاء عليهن لولا أن في استطاعتهن أن يغيرن صورهن وأشكالهن، فتارة تراهن بصورة قطة من القطط الرقطاء، وطوراً بشكل فأر قد قطع ذنبه، وهذا يتجلى لنا بصورة واضحة في رواية مكبث عندما تظهر إحداهن في بدء الرواية بصورة هرة تدعى كريمالكين وقد وصفت إحداهن نفسها بقولها في ناحية أخرى من الرواية (سأكون بشكل فأرة عارية عن الذنب فأمتطي منخلاً وأسبح في البحر محاولة تخريب السفن وإغراقها)

وتختلف الساحرات عن الجنيات بكونهن عاملاً من عوامل الشر والدمار فهن يحملن في أنفسهن الكره الشديد لبني البشر ويسعين بكل طاقتهن لإيقاع الضرر بالمجموع البشري، وكثيراً ما يستعملن الأعشاب السامة لتنفيذ أغراضهن الشريرة، وكانت لهن ملكة تدعى هكبت اقتصرت أعمالها على إيقاع الآلام بالناس، وقد وصفها لوشيانس في رواية هملت بقوله: (انك لتخلط بين أعشاب الليل وبين الأعشاب الصفراء الذابلة التي جمعتها هكبت لتستعملها في سحرها وفي ذلك تنتهي الحياة البشرية)

وتمتاز الساحرات بأنهن أقوى أنواع هذه المخلوقات المغيبة، فهبوب الرياح والسباحة في البحار كانت من المسائل التي في استطاعتهن القيام بها بكل سهولة، وكان الليل أحب الأوقات إليهن لأنهن يستطعن الخروج فيه بكل جرأة وحرية ويتعاطين ما يشأن في أثنائه. ولنستمع إلى مكبث مخاطباً إياهن قائلاً: (ماذا تعملن أيتها المخلوقات السرية الليلية)

ولم يقتصر زمن ظهورهن على الليل فقط بل كان بإمكانهن التجول أثناء النهار فقد اتفقن في الفصل الأول من رواية مكبث أن يقابلنه قبل مغيب الشمس. وكان في استطاعتهن أن يختفين أو يظهرن حسب إرادتهن. فقد ظهرن لمكبث وبانكو في الفصل الثالث من الرواية لكنهن ما عتمن أن اختفين بعد أداء مهمتهن التي قصدنها وقد استولت الدهشة على بانكو فصاح قائلاً لما اختفين: (إن للأرض فقاعات كما أن للماء فقاعات أيضاً، وهذه المخلوقات هي من فقاعات الأرض، في أي مكان اختفين؟)

حاولت الساحرات إظهار قوتهن وسلطتهن على البشر فصدرت عنهن تلك النبوءات التي تم تحقيقها في نهاية رواية ومبث، وكل ما في هذه الرواية من ابتكار وابتداع يرتكز على محور واحد ذلكم هو النبوءات، ففي بدء الرواية يخبرنه عن المستقبل فيتنبأن بصيرورته سيداً على كادور ثم ملكاً على اسكتلندا، وكلتا هاتين النبوءتين يتحقق، وفي نهاية الرواية يتنبأن بنبوءات جديدة، فيخبرنه أنه لن يصيبه مكروه من إنسان عادي بل من رجل لم تنجبه امرأة، وإن هذا الأمر لن يتحقق إلا إذا انتقلت غابة برنام من مكانها وسارت مسافة لا تقل عن الخمسين ميلاً، وكل هذه النبوءات تتحقق ويتبين صدقها في نهاية الرواية

ونظراً لهذه الشرور والآثام التي كان الساحرات يرتكبنها كان الناس على اختلاف مللهم ونحلهم ينظرون إليهن بعين الكراهية والسخط، فكانت لهن عادات مستهجنة غريبة كميلهن إلى الأعداد الغريبة وخصوصاً الثلاثة منها، فلا يخطون إلا ثلاث خطوات عند رقصهن، والقط لا يموء إلا ثلاث مرات؛ وقد اعتقد شكسبير أن السبب الذي حدا بهن إلى هذا الميل الغريب هو اعتقادهن أن الأعداد الغريبة تنبئ عن الحظ الحسن والفال الجيد

وكان العقاب الشديد دائماً في انتظارهن يهدد حياتهن، فكل امرأة كان يشك في كونها ساحرة من النوع الخطر كانت تشد إلى قطعة خشبية مصلبة تتوقف بواسطتها الحركة الدموية، وتتشنج الشرايين فتحدث ألماً شديداً قل أن يحتمله إنسان. وقبل أن تتوقف الحركة الدموية بهذه الطريقة كان الساحرات يربطن لمدة لا تقل عن الأربع والعشرين ساعة حتى تعترف بسحرها. وهناك طريقة أخرى كان الساحرات يعذبن بواسطتها ألا وهي طريقة نزيف الدم بقطع أحد الشرايين

وللساحرات فصل معين من فصول السنة لا يظهرن فيه أبداً، وقد ذكر شكسبير ذلك في رواية هملت بقوله: (يقول البعض إن الفصل الذي ولد فيه السيد المسيح هو فصل سعادة وحبور، ففي أثنائه تظل الطيور مغردة على الأفنان، وتختفي الساحرات والأشباح من عالم البشر). وكان الناس يخافونهن ويسعون في مرضاتهن فيستعيذ المتدينون من الرجال منهن ويبتعدون عن شرورهن وآثامهن

وإني لأعتقد من جرّاء هذا الاهتمام الذي أبداه شكسبير بهن، وهذا التدقيق في البحث في مسألتهن وتصويرهن، أن شكسبير كان يؤمن بوجودهن وقدرتهن الإيمان كله، فقد اعتقد أن لهن من القوة والجبروت ما تستطعن بواسطته إخضاع النوع البشري لسلطتهن وسيطرتهن، وهذا ما أظهره جلياً في كتابته عنهن في كثير من رواياته.

خيري حماد

القصص

صور من هوميروس

حروب طروادة - 10

. . .معركة بين الآلهة

للأستاذ دريني خشبة

وقفت نَدْمانَةُ الآلهة (هيب) اللعوب الهيفاء، تسقي أربابها خمراً! وكان الأولمب يزخر بسادته

فهذا زيوس العظيم مستوياً على عرشه الضخم المرصع بالجوهر والياقوت

وهذا أبوللو سيد الشمس، وصاحب القوس، يوقع على قيثارته أشجى ألحانه

وهذا فالكان، الحداد القذر، قد بدا في حلة جديدة ذات ألوان صارخة

وذاك مارس الجبار، إله الحرب، يلاعب الأسنة، ويداعب الصَّعْدَةَ المُرِنَّة

وذلك هرمز، عزرائيل هيدز الكريم، ورسول الآلهة إلى سكان الأرض، يرسل في الملأ نظراته الساخرة، ونكاته المنكرة

وهذه حيرا،، مليكة الأولمب، تود لو تضرم النار في قصور مولاها، إن لم يقض بانتصار الإغريق!

وهذي مينرفا. . . الحكيمة الراشدة. . . تصمت صمتاً أبلغ من وحي الأولمب كله، ترى هل تستطيع تسخير هذه العصبة من الأرباب لسحق باريس وقومه وأحلافه!

. . .ثم طائفة كبيرة من الآلهة وأنصاف الآلهة

وهيب اللعوب تسقي الجميع خمراً!!

وللخمر الأولمبية، كما لخمر هذه الأرض، نشوة وسورة، ولها على رؤوس أربابها صولة وسلطان، وهي مثلها تُرَوِّي حتى تبلغ المُشاش، وتتغلغل حتى لتمتزج بالدم!

وهيب تروح وتجيء، حلوة بسامة. . . كأنها مدامة!

وروى الجميع إلا حيرا!!

وانتشى الجميع إلا مينرفا!!

لقد كانتا ما تفكران إلا في هذه الساحة الحمراء، وما يقع فيها من بلاء!

أليس قد ذهب الهيلانيون ينتقمون لكبريائهما من باريس ومن قوم باريس؟

ألم تنصح عروس الماء، إيونونيه، لباريس ألا يصيخ لفينوس، وأن يعطي التفاحة لمينرفا؟

ألم تحذره من التعرض لنقمة الربتين العظيمتين؟

غير أنه أبى!!

وآثر الجمال والحب، ثم الشقاء والحرب، مع فينوس، على القوة والصولة، والملك الكبير، والحكمة والنورانية، مع حيرا أو مينرفا!!

وبذلك جلب على نفسه وقومه وبال هذه الحرب ونكالها!

وليس اليوم أروح إلى قلب حيرا، وأرضى إلى نفس مينرفا، من أن تنصرا جحافل الهيلانيين، وتثبتا في ساحة الحرب أقدامهم!

ولكن أخيل منفرد في معسكره وهو مفئود محزون!

وقد وعدته أمه بالأثار له، وكلمت فيه زيوس سيد الأولمب، ولم تزل به تسلط عليه ذكريات غرامهما القديم حتى زلزلت أركانه، وسلبت جنانه، وانتزعت منه وعداً قدسياً بأن ينتقم من أجاممنون، وجنوده لأخيلها العزيز!

تانِكم إذن حيرا ومنرفا
وذاكم زيوس كبير أرباب الأولمب
أما أبوللو، فهو لا ينسى أن فضحه أجاممنون في بنت كاهنه، وهو ما يفتأ يتربص بالقوم، ويدبر لهم سوء المنقلب!
. . .وأما فينوس،. . .،. . .؟
فتلك أبر بباريس وبقوم باريس، وهي أبداً ستحمي باريس وجند باريس!! لأنها ستذكر له أبداً أنه نصرها على حيرا. . . وأيدها على مينرفا!!
وكذلك أوقدت هذه الحرب العداوة والبغضاء بين الآلهة، وأضرمت النيران في قصور الأولمب!
فللآلهة في جبل (إيدا) معسكران، كما لبني الموتى حول طروادة معسكران!!
أوشك منالايوس أن يفتك بباريس، لولا أن أنقذته فينوس ولقيته هيلين عاذلة مغضبة، لكنه
نسي نفسه بين ذراعيها، واستماحها أن تدع حديث الحرب إلى نشوة الحب،. . . (على أن أعود فأثأر لنفسي من منالايوس العنيد، الذي لولا حماية مينرفا وحيرا له لبطشت به وجعلته خبراً في الذاهبين. . .)
وكان العهد بين بريام الملك، وأجاممنون قائد الهيلانيين، أن يلقي المغلوب السَّلمَ، فلما فرّ باريس تقدم أجاممنون وطلب أن يسلم الطرواديون هيلين الأرجيفيه، وأن يقدموا دروع باريس وسيفه، وفرسه، وجميع عدته الحربية، لتكون أثراً خالداً يحتفظ به الإغريق ويتوارثونه رمزاً لمجدهم الحربي، وتذكاراً لفوزهم وغلبهم
بيد أن الطرواديين رفضوا هذا الطلب: (لأن أحداً من المتبارزين لم يظفر بالآخر، ولأن قطرة من الدم لم تصبغ أديم الأرض فتكون شاهد النصر)
وكانت بين الفريق مهادنة
فخشيت حيرا ومينرفا أن يطول أمدها، واتفقتا على أن تذهب مينرفا هذه المرة أيضاً فتضع حداً لهذا السلام الذي يشمل الساحة، وأن تثير الحرب من جديد!
وذهبت مينرفا فاندست بين صفوف الطرواديين؛ وسحرت نفسها فبدت في عدة (لاودوكوس) البطل الطروادي وهيئته، ثم وترت قوسها وأرسلت سهماً مراشاً نفذ في جسم منالايوس إذ هو يبحث عبثاً عن باريس. . .
وتجددت الحرب بين الفريقين بسبب هذه السهم، فكانت حرباً زبوناً، طاشت من هولها الأحلام، وبلغت القلوب الحناجر وزاغت الأبصار فما ترى إلا حميماً. . .
وعز على فينوس أن ينهزم جند طروادة، وهم أولياؤها وصنائعها، فذكرت أن لها في أرباب الأولمب عاشقاً هيماناً يترضاها ويلتمس وصلة منها تشفي قلبه الخفق، وتداوي هواه الثائر، وأعصابه التي مزقها الحب، وأذابها لظى الغرام، فانطلقت إليه تغريه بكل ابتسامة تلين الحديد، وكل نظرة ساجية تفجر الماء من الصخر، أن يقوم من فوره فينفخ من روحه في قلوب الطرواديين، ويؤيد بنصره صفوفهم. . .
ذلك هو مارس، مسعر الحروب وموري لظاها!
وطرب الطرواديون لوجود رب القتال في صفوفهم يناصب أعداءهم الحرب فيجعلها ضراماً، ويصلصل دروعه فيوقع في قلوبهم الرعب، ويثير في نفوسهم الهلع، ويروعهم ترويعاً. . .
وكانت إلى جانبه فينوس تنفث فيه سحرها، فكان لا يلقى فارساً إلا طعنه فيكبه على وجهه، ثم يشكه فيجفوه من الأرض، كأنما يتخذ منه هزواً وسخرياً!!
وهرع أبوللو فأمطر الهيلانيين وأبلا من سهامه التي ما مست أحداً إلا أردته، وما أقصدت صدراً إلا شقته. . .
وساء منقلب الهيلانيين!
وعز على حيرا ومينرفا أن ينهزم أصحابهما، وأن يصلوها من مارس وأبوللو نارا حامية، وهزيمة منكرة، ثم لا يكون بحسبهم ضربات مارس اللزاب، وسهام أبوللو المفوَّقة، بل تطحنهم هذه الصواعق الجهنمية التي سلطها كبير الآلهة عليهم؛ زيوس؛ سيد الأولمب، الذي أصبح كل همه أن ينتقم لأخيل بن حبيبته ذيتيس من هؤلاء الإغريق ناكري الجميل!!
وعبست حيرا عبوساً ثقيلاً، ودعت إليها مينرفا، وجلستا تفكران! وبدا لهما أن يذهبا إلى

الأولمب فيستدعيا رب البحار العظيم، نبتيون، فيضع حداً لهذه القسوة التي يبديها مارس وزميله أبوللو. . .
ولكن كيف السبيل إلى غل يد زيوس، ورد صواعقه التي تنحط على الإغريق من عل، فلا تبقي عليهم ولا تذر؟
آه! لا سبيل إلى ذلك إلا بمنطقة فينوس السحرية! سستوس! تلك المنطقة العجيبة التي تغوي كل من نظر إليها، وتشعل في قلبه لظى من الهوى، وضراماً من الحب. لا بأس إذن من ممالقة فينوس حتى تنزل عن منطقتها أياماً لمليكة الأولمب وكبيرة رباته، ثم لتذهب مليكة الأولمب بمنطقة فينوس لتعبث كثيراً - أو قليلاً - بقلب زيوس، الذي ما يفتأ يرسل صواعقه على الإغريق من جبل (إيدا)، وليس شك أن سيصبو زيوس حين يرى منطقة فينوس تزين خصر حيرا وتبرز مفاتن صدرها؛ فإذا عصفت به فورة التشهي، وحاول قبلة واحدة من آثر زوجاته إليه، فلا بأس من أن تمنحه إياها. . .
ولكن. . . لتنتهز سكرته العميقة وتسلط عليه إله النوم الجبار - الذي هو دائماً في خدمتها أينما سارت - فيغرقه في سبات عميق، ويظل به يداعب أجفانه، ويعسل أحلامه، حتى يكون نبتيون قد انكشف لمارس وصاحبه، وأجنادهما، فيقذف الرعب في قلوبهم، ويزلزل أركانهم، ويوهي عزائمهم؛ ويختلط حابلهم بنابلهم فيولون مدبرين لا يلوي أحد على أحد!. . .
وقد أفلحت خطة حيرا. . .
فهذا مارس ما يكاد يلمح نبتيون حتى يذكر هذه الأيام السوداء التي صب عليه فيها رب البحار سوط عذابه، فيخفق قلبه، وترتعد فرائصه، ويكبو زنده، وتذهب ريحه وتنحطم شوكته. . . ثم يقذفه نبتيون بسهم، وقل أن تطيش سهام نبتيون، فيصرخ إله الكريهة صرخة كريهة، وينفتل من الحلبة الحمراء مولياً عقبه، ساخطاً على فينوس، وما يجر إليه غرام فينوس!!!
وولى في أثره أتباعه الطغاة، آلهة الشرور، إيريس رب الشغب، وفوبوس رب الرعب، وميتوس رب الخوف، وديميوس رب الفزع، وباللور رب الهلع. . . عصبة الإجرام وشرذمة الآثام، والطغمة الباغية من أوشاب الأرباب!!
وأفيق الإغريق مما حل بهم من روع. . .
ونظروا فرأوا مارس وملأه مولين الأدبار، والدم يتدفق من جراحهم جميعاً؛ فأفرخ روعهم، وأمن سربهم، ثم لموا شعثهم وهجموا على أعدائهم هجمة رجل واحد، فأدالوا لأنفسهم، وثأروا لكبريائهم، وانصرفوا يتفقدون جرحاهم، ويحرّقون جثث قتلاهم الشهداء!
يا للهول!
لقد قتل إمبريوس البطل! قتله تيوسير، غير راحم شبابه، ولا مبق على عوده الفينان! وأمفيماخوس!! لقد صرعه هكتور بن بريام، غير راث لأمه العجوز الهرمة، ولا آبه بالباكين حوله والمعولين!!
وديوميد!! زين شباب هيلاس، وآثر فتيانها إلى قلوب الآلهة! لقد جرحه باريس بسهم أوشك أن يكون قاتلاً! لولا أن أدركه جنوده فأسعفوه، وضمدوا جرحه وإلى المعسكر حملوه!
وأجاممنون! لقد برز في المعمعة، ودل على الفروسية التي بهرت الطرواديين، بيد أنه أصيب بسهم نفذ فيه، فارتد على عقبه يصرخ ويتلوى!
وأوليسيز!! أوليسيز العظيم!! لقد أرسل إليه سوكوس، أمهر رماة طروادة، بسهم مفَوَّق، فجعله ينتفض كما ينتفض المحموم، ويخر إلى الأرض فيتأود كمن لدغته أفعى، ولولا أن أدركه أجاكس ومنالايوس فأسعفاه لكان من الغابرين!
وأجاكس كذلك! لقد أتاه سهم كاد يذهب به لولا بقية من حياة!!
ومخاون! لقد روعه باريس هو الآخر فشكى وبكى!!
أرأيت؟
لقد نال الطرواديون وأحلافهم من جموع الهيلانيين، ولولا أن أغاث هؤلاء نبتيون القاهر، لكانت ملحمة فاصلة في هذه الحرب الشعواء!
وكأن السماء قد أيقظت ضمائر اليونانيين، وبرهنت لهم أن أخيل ما دام لا يخوض معهم المعمعة، فلا نصر لهم ولا غلبة، ولا محيص من هذه الهزائم المتتالية، والجروح

التي لما تكن قصاصاً لولا أن أدركهم نبتيون!
عرف اليونانيون هذا، وآمنوا بعد هذا الفزع الأكبر أن لو كان أخيل بينهم يوم هذه الكريهة لما حفلوا بمارس وأتباعه، ولأظفرتهم آلهتهم بأعدائهم، ومارس وملئه، وأبوللو وجنوده جميعاً. . .
وانطلق نسطور فعرض على أجاممنون مصالحة أخيل وإرضاءه، وبعد لأي رضى القائد العام أن ينطلق نسطور وأوليسيز وأجاكس وفونيكس إلى معسكر أخيل، مندوبين عن القائد، ليعرضوا عليه صلحاً شريفاً، وموثقاً كريماً، يرضاه الطرفان؛ ولكن أخيل يثور لكرامته، ويأبى إلا. . . بريسيز. . . ثم لا يشترك في حرب ضد الطرواديين. . .
ويلح أوليسيز على صديقه القديم. . . . ولكن صديقه القديم ما يزداد إلا شماساً، وما يزداد إلا أنفة. . .
ويكون فونيكس قد نالت منه حجج أخيل، ويكون قد خلبه بيانه، وبهره حسن منطقه، وطلاقة لسانه، وعظيم شجاعته، فيؤثر البقاء معه، مخاصماً الهيلانيين جميعاً حتى يرضى أخيل فيتركه أوليسيز وصاحباه، ويعودون إلى أجاممنون. . . بخفي أخيل!!
وهكذا تتم كل هذه الأحداث الجسام. . .
وزيوس يغط في نومه الهادئ الناعم يوماً بأكمله. . حتى يبطل السحر، وتذهب الرُّقية، فيهب الإله الأكبر من سباته حيران أسفاً. . . لأنه ينظر من ذروة جبل إيدا، فيرى إلى نبتيون الجبار يصول في ساحة طروادة ويجول، ويصرع الأبطال، ويجندل الأقران، ويرى إلى مارس العتيد، وجنوده الأقوياء، يفرون من وجه سيد البحار، لا يلوون على شيء. . .
ويرى أيضاً إلى أخيل ما يزال منفرداً في فسطاطه، قريباً من سفائنه، والحزن يمضه، ويوهي جلده، فيحزن الإله الأكبر وينفذ إيريس إلى نبتيون ليزجره، ويأمره أن يغادر المعمعان في الحال، وإلا أرسل عليه سيد الأولمب صواعقه، وهناك لا يكون له حول ولا تكون له قوة. . .
ويغادر نبتيون الموقعة، ولكن بعد دمر الطرواديين تدميراً!. . .
(لها بقية)
دريني خشبة
رحلة إلى حدود مصر الغربية
مرسى مطروح، سيوه، السلوم
للأستاذ الرحالة محمد ثابت
شددت رحالي إلى الناحية الغربية من الديار المصرية، تلك الناحية التي نجهل عن أهلها الشيء الكثير، فكان أن بدأت بخط أدكو ورشيد، فمررنا بأراض شبه صحراوية، بها مزارع متناثرة غير متصلة، وبخاصة حول أدكو، وهنا أدهشني نشاط الأهلين في الكد وراء كسب عيشهم حتى الأطفال، فتراهم لا يضيعون من وقتهم شيئاً، يخرجون جماعات لصيد السمك أو الطيور، ويتجرون في ذلك كباراً وصغاراً، وأنت ترى جموعهم تتهافت على القطار يعرضون عليك سلعهم هذه، فإن أعوزهم المشترون عكفوا على دورهم يأكلون ما تخلف معهم من سمك كثير وطير وفير؛ لذلك كنا نلمس في أجسادهم وفرة التغذية والامتلاء، ومن السلع المنتشرة هنالك البيض والليمون، أما غابات النخيل فهي في كثرة فائقة، ومنها نستمد البلح الرشيدي (الزغلول) ذائع الصيت. ولقد مررنا بتفتيش إدفينا، وهنا تجلت المجهودات الجبارة التي بذلت في استثمار تلك الأراضي التي كانت بائرة نزة، فلقد زودت بالمصارف والمضخات والقنوات، فأضحت جنة يانعة، وهي ملك للخاصة؛ ويا حبذا لو شمل ذلك الإصلاح ما جاورها من متسعات لا يزال أمرها مغفلاً مهملاً، وهنالك بعض الشركات الأجنبية تشتري المساحات الشاسعة وتتعهدها بالإصلاح، فهلا قامت الحكومة بذلك أو ساعدت الأهلين عليه حتى لا تزيد في ملكية الأجانب وامتيازاتهم في بلادنا؟ دخلنا رشيد فحاكت بلدا عتيقاً، بيوته بالآجر الأحمر الصغير لا يكسوه ملاط، وهي تقوم على النيل، ومن أظهر ما يسترعي نظرك مداخن لا حصر لها هي لمضارب الأرز أنشط جهات العمل في البلدة، وعلى مسيرة زهاء خمسة كيلو مترات يلتقي النيل بالبحر في لسان شبيه بذاك الذي في رأس البر، ولقد كان ماء هذا الشهر عذباً (أغسطس) بعد أن ظل مالحاً ستة شهور قبل ذلك من طغيان ماء البحر على النهر، وسيظل الماء عذباً بقية العام؛

ويجاور البلد عدد من الملاحات، ونرى زوارق الصيد يغص بها النهر والبحر، ومهنة صيد السمك رئيسية هنالك
عدت إلى الإسكندرية، وقمت صوب الغرب إلى مطروح مسافة تزيد على 300ك م، ثلاثة
أرباعها بسكة الحديد إلى محطة فوكه وبعدها بالسيارات الكبيرة، وكان قد أنشأ ذاك
الخط سمو الخديو السابق رغبة في تعمير تلك الناحية التي كان يمتلك جل أراضيها
ويحاول إصلاحها، لكنه اعتزم أن يبيع الخط للطليان، فسارعت الحكومة بشرائه منه،
ولقد سار القطار إلى جانب مستنقعات بحيرة مريوط وصحرائها الملحة طويلا، ومر بمحطة (اكنحي مريوط)، ولعل أكبر البلاد (الحمام) العاصمة التجارية لتلك الناحية، أما الأهلون فهم قليلون مشتتون في خيامهم، ولهم لهجتهم العربية المحرفة، وقد كنا نقف
على المحطة فلا نرى من المساكن شيئاً سوى أبنية عمال المحطة، فنتساءل أين
البلدة؟ فيقولون: ليس هناك من بلد، والأهلون متفرقون في مساحة شاسعة من الأرض حولها، ويبدو عليهم العوز والجوع، وبخاصة في هذا العام الذي تخلف فيه المطر فأجدبت منابت الشعير، وكنا نرى مساحات الأراضي التي (عزقها) أصحابها وبذروا فيها
الشعير كعادتهم وتركوها حتى ينزل عليها مطر الشتاء فيسقيها، وعند اقتراب نضجها
يعودون من جولاتهم الطويلة - التي قد تصل بهم إلى داخل مديرية البحيرة - ويحصدونها
وبعد مسير ثماني ساعات ونصف من الإسكندرية أشرفنا على مرسى مطروح في خليج هلالي، تقوم المباني على جوانبه في شوارع متعامدة أبعادها تكاد تكون متساوية وهندستها موحدة بسيطة، فجلها شبه مربعات من طابق واحد يكسوه الطلاء الأبيض، وقل أن تجد بناء يشذ في علوه أو لونه وهندسته، والشوارع هناك فسيحة، ويبدو عليها
المظهر الصحراوي في ندرة النبت، وإن حاولت المحافظة استنبات بعض الأشجار
القليلة على جوانب الطرق؛ وهناك بيت المحافظ الإنجليزي - ومطروح تعتبر عاصمة
محافظة الحدود الغربية - يشرف على البحر، ويليه بيت وكيل المحافظ وسائر
الموظفين. ومما يذكر للإدارة هناك بالفخر، عنايتها بالنظافة التامة، ورعاية صحة
الأهلين والرقابة الخلقية عليهم؛ ولقد أعدت للموظفين نادياً صغيراً جميلاً على البحر زود بصنوف الحلوى والمرطبات وأدوات اللعب البريء وبجهاز للراديو يسري عنهم في معيشتهم المنعزلة الموحشة؛ وتضاء الشوارع بالمصابيح الكبيرة التي تقلل من وحشة
سكون الليل الرهيب هنالك. وخير ما يتجلى منظر البلدة في كامل روائه من
الاستراحة الحكومية التي أقيمت على النجاد التي أدت بسيارتنا إلى شاطئ خليج
مطروح؛ وفي ناحية نائية من غرب مطروح مسجد أنيق
بطل المنطقة وقد بناه الخديو السابق كما بنى كثيراً من المساجد في (لسيدي العوام)
بلدان خط مريوط، وكانت تقوم حوله طائفة من مساكن الأعراب فعوضتهم عنها الحكومة وأزالتها وأقامت مصيفاً يسمونه الليدو، فبدأت بنزل فاخر زودته بكافة وسائل
الترف والراحة وجعلت أجر المقام به نصف جنيه في اليوم، ثم أقامت حوله بيتين صغيرين أنيقين (فلآت) لمن يريد الاستئجار. على أن عزلة المكان وبعده وافتقاره إلى وسائل اللهو قد زهد المصيفين فيه، إذ أني لم أحص في المصيف كله أكثر من عشرة
أشخاص، فهو عندي خير مصطاف لطلاب الراحة البريئة والسكون الشامل وهؤلاء قليلون؛ ويخيل إلي أن تقدير الحكومة الصدقية كان خاطئاً إذ كلفته نيفاً وعشرين ألف
جنيه لن يسد للدولة منها شيئاً. ولقد قال لي بعض الناس من سكان البلد إنها فكرة إنجليزية قصد بها أن يقيم على حساب الدولة مستراضاً للمارة من السادة الإنجليز في روحاتهم وغدواتهم على الحدود الغربية
وأهل البلد من الأعراب يسيرون في ثيابهم الفضفاضة، وسادتهم يطوقون كواهلهم بأحزمة بيضاء ثقيلة، ونساؤهم يسرن سافرات في ثياب حمراء فضفاضة أكمامها هائلة هادلة وهن على جانب كبير من السذاجة. تجلس في المقهى فترى الواحد منهم يدخل
ويقف حولك يحدق فيك ويزوغ ببصره ثم يتسكع حولك ولا يكاد ينصرف حتى ترى
غيره، وأطفالهم عراة جياع حالتهم تستدر العطف وتستنزل الرحمات ويكثر بينهم
الزنوج السود وهم من عبيد السنوسية جاءوا بهم معهم بعد أن حرروهم لما أن
طاردهم الطليان وأجلوهم عن ديارهم. ولأبناء السنوسي هناك مقام كبير بين الناس

يكاد يبلغ حد التقديس. حدث مرة أن رأيت بيتاً فاخراً طلي باللون الأزرق على خلاف سائر بيوت البلدة فسألت أحد المارة بيت من هذا؟ فأجاب: بيت الأسياد. قلت: ومن الأسياد؟ فثار الرجل وصاح في نغمة الغاضب المستنكر: الأسياد! الأسياد! كيف لا تعرفهم هم آل السنوسي! ولهؤلاء جل أملاك المنطقة وأبنيتها. وإلى الجنوب الغربي من البلدة أقيم المطار في متسع هائل واستعداد كبير لاستقبال الطائرات المختلفة، وقد نزلت به أمامي طائرتان إحداهما للشركة الهولندية التي تقوم من هولندة وبتافيا، وهي طائرة كبيرة من الألمنيوم بها 14 مقعداً للمسافرين. أما الثانية فطليانية بين الإسكندرية وبني غازي وذاك خط حديث بدأ منذ أسبوعين فقط وطائرته صغيرة وفي مطروح محطة لاسلكية أساس عملها الاتصال بالطائرات خصوصاً الهولندية.

أقمت في مطروح زهاء يومين في نزل إغريقي، واليونانيون هنالك نشيطون في التجارة وبيدهم غالب سيارات النقل وحوانيت البدالة والفنادق؛ وسيارات النقل هناك تقوم لثلاث جهات: فوكة وتلك كل يوم، السلوم، واحة سيوة مرة أو مرتين في الأسبوع

إلى سيوه:

قمنا مبكرين نستقل سيارات الحدود فأخذنا نسير في صحراء لا نهائية عربت عن النبت حتى الشائك منه وإن كان مظهرها في الشتاء والربيع أبهى وأجمل إذ يكثر العشب بنواره المختلف الجميل، ولا يفتأ المسافر يمر ببقاع تنمو بها أعواد الشعير، والطريق حجري في جزئه الأول، مترب في الأخير. ويمر بمجموعة من آبار أذكر من بينها: حجفة جلاز عند الكيلو 72 من مطروح - حجفة أي بئر بلغتهم - وحجفة البويب عند الكيلو 124 على مقربة من الاستراحة التي أقيمت لجلالة الملك يوم أن زار تلك الناحية سنة 1928، ولذلك يطلقون على تلك البئر أحياناً (بئر جلالة الملك) لأنه شرب منها، ثم بئر النصف في منتصف الطريق عند الكيلو 150، والمسافة كلها 300 كيلو متر، وغالب تلك الآبار رومانية الأصل كانوا يحفرونها تجاويف في الصخر تبطن بالأسمنت أو الآجر، وتعد بفتحات ضيقة يؤدي إليها ماء المطر عند سقوطه ليتراكم فيها، وعلى الفتحة الرئيسية باب وحارس يكلف بحفظها من الأوساخ ومن إسراف الناس في مائها، وأنت ترى طائفة كبيرة من السائمة وبخاصة الإبل تحوم حول تلك العيون وتتسكع في مرعاها عساها تشفي بعض ظمئها من الماء كلما مر بالبئر عابر، وقد كان يبدو على بعض الإبل عند بئر جِلاّز ظمأ شديد، ولم يرغب الحارس في سقيها، ولما سألناه عن السبب قال: لكي لا تنتجع تلك الناحية وتعتادها كثيراً فتضايقه، على أنا أجبرناه أن يسقيها هذه المرة إكراماً لنا ورأفةً بها

لبثنا نسير في ذاك الطريق الوعر ثماني ساعات ونصف الساعة - والسيارات الأخرى الكبيرة تقطعه في يوم كامل - وقبل دخولنا الواحة أخذنا في الهبوط تدريجياً، وظهرت مخاريط متناثرة من الربا، تمتد إلى الآفاق في منظر رائع جميل، ثم بدت الخضرة الشاحبة على بعد أمامنا، وذاك أول قبس من سيوه التي تنخفض عن سطح البحر بنحو 25 متراً، ثم أخذت تفاصيل المنظر تبدو في شبه غابات من النخيل مغلقة متباعد بعضها عن بعض؛

بينها ربا أقيمت عليها المباني بعضها للحكومة والبعض للأهلين

وقفنا بباب مركز البوليس، ولقينا حضرة المأمور أحسن لقاء، وقدم لنا الاستراحة لنأوي إليها، وأظهر استعداده الجميل لمساعدتنا في جولتنا العلمية القصيرة هناك، وكان قد أوصاه بنا خيراً سعادة وكيل المحافظ وبعض إخواننا من مطروح. دخلنا دار الاستراحة وقد أقيمت فوق ربوة شاهقة تشرف على الواحة وقد زودت بالشرفات تغطيها شبابيك من السلك لمنع البعوض، وقد كانت الواحة مهددة بالملاريا منذ زمان بعيد ولا يزال لها بقية إلى اليوم - ولن أنسى جلستي في إحدى تلك الشرفات ومشهد الواحة من دوني ساحر وامتداد الصحراء رهيب، وقد عني بتلك الاستراحة عناية خاصة، لأن جلالة الملك قد نزل بها في زيارته، وبها دورة للمياه فاخرة، وفي أسفلها بعض المغارات التي كان يتعبد فيها الشيخ السنوسي الكبير في زياراته لتلك الواحة قديما، وبعد أن طارده الطليان إليها. نزلت أجوب بعض أطراف البلدة فإذا بغالب بيوتها على الربى تقام من الطين المصفر الذي يحكى الطفل، وترى البيوت وكأنها الأحجار أو المغائر بعضها ركب فوق بعض وتشبه مجموعة من حصون قديمة، وليس لها من

النوافذ سوى كوى صغيرة لا تكاد تسمح لضوء الشمس أن يتخللها، ولهم العذر في ذلك، لأن لفح الصيف قاتل وبخاصة في أبريل ومايو، وقر الشتاء زمهرير، وشهور أغسطس وسبتمبر خير مواسم السنة جواً هنالك. ومن أظهر ما يسترعي نظرك وسط تلك الأبنية برج مربع يدق كلما علا ويشبه المدخنة وهو مئذنة لمسجد من مساجدهم القديمة، أما سوق البلدة ومتاجرها فأقيمت في متسعات أسفل تلك الربى وزودت بطلل من الطين وجريد النخيل، ومداخل شوارعها ضيقة مسقفة، لا تشعر بأنها طرق يباح المرور فيها

(يتبع)

محمد ثابت

البريد الأدبي

ذكرى الموسيقي سان سيان

احتفلت الدوائر الفنية الفرنسية في أوائل أكتوبر الحالي بالذكرى المئوية لمولد الموسيقي الشهير شارل كامي سان سيان. ويشغل سان سيان في عالم الموسيقى مركزاً فريداً، فهو حلقة اتصال بين المشرق والمغرب يندر وجودها، وله بالأخص صلة بمصر لا يزال يذكرها من تمتع بسماع عزفه في هذه البلاد قبل الحرب الكبرى. وقد ولد هذا الموسيقي الشهير في أكتوبر سنة 1835 بباريس ودرس الموسيقى منذ حداثته، ودرس عزف الأرغن على العازف الشهير بنوا، ودرس التأليف الموسيقي على هاليفي في معهد باريس، وتخصص في الموسيقى الكنسية. وفي سنة 1858 عين عازفاً لكنيسة المادلين، ولم يمضي قليل حتى طار صيته كعازف ومؤلف موسيقي، وفي سنة 1867 نشر مقطوعته الشهيرة (أعراس بروميتيه) فلقيت نجاحاً عظيماً، وأتبعها بنشر سلسلة أخرى من المقطوعات القوية الشائقة وأخصها مقطوعة عنوانها (شمشون ودليله) التي عزفت لأول مرة في فيمار بألمانيا وأكدت صيته وعبقريته كمؤلف لمقطوعات الأوبرا. ومن مقطوعاته الأخرى: (الرقصة المروعة)، (شباب هرقل)، (هنري الثامن)، (اسكانيو)، (البرابرة)، (هيلين) وغيرها

وقد ساح سان سيان كثيراً في بلاد المشرق، فزار الجزائر ومصر، وتأثر بمحيطها ومثلها الشرقية. وله مقطوعات شهيرة يلذ سماعها للشرقي بنوع خاص، ففيها يتجلى سحر السماء الصافية، وروعة الصحراء، وجمال الليالي الشرقية

ومما يرويه المستر أدوين ايفانس الناقد الموسيقي الشهير، أنه كان يمر ذات مساء بالإسكندرية في طريق الرمل، إذ سمع عزفاً بديعاً على (المعزف) (البيانو)، فسمره السحر في مكانه وسرعان ما علم أن هذا العازف إنما هو سان سيان، وإنه يقضي بمصر أياماً في خفية وتنكر

وذاع صيت سان سيان في جميع أوربا، ولا سيما فرنسا وإنكلترا والنمسا وألمانيا. وعاش زهاء خمسة وثمانين عاماً. وتوفي بالجزائر في ديسمبر سنة 1921

مباحث عن أصل الترك

أنشأت حكومة الجمهورية التركية في استنبول متحفاً لعلم الأجناس البشرية يقصد به بنوع خاص أن يعاون العلماء الباحثين في أصل الجنس التركي على تحديد خواصه الجنسية وتعيين السلالة الإنسانية التي ينتمي إليها. ولكي يتمكن العلماء من إجراء المباحث العلمية اللازمة أصدرت الحكومة لائحة تبيح فتح قبور العظماء الترك وفحص جماجمهم وإيداعها بالمتحف المذكور عند الحاجة

وقد نفذت هذه اللائحة بالفعل وفتح قبر سنان باشا أعظم مهندسي الترك؛ وقد عاش في القرن الخامس عشر وأنشأ أكثر من مائتي مسجد وقصر ومكتبة كلها من الأبنية الأثرية الشهيرة؛ وفحصت جمجمة المهندس الشهير لجنة من العلماء. وسيجري أيضاً فحص عدد من جماجم العظماء الترك الآخرين من رجال الحرب والسياسة والتفكير. وتشجع الحكومة هذه المباحث وتعضدها؛ وهي تجري بإشراف عالمين أجنبيين كبيرين أحدهما الأستاذ موشيه الأخصائي في علم الأجناس البشرية

والمعروف أنه يصعب جداً أن تحدد خواص الجنس التركي أو خواص العنصر السائد فيه لأن الترك ليسوا إلا شعبة من جنس آسيوي كبير هو الجنس المغولي على الأرجح؛ وهو جنس متشعب الفصائل، هذا إلى أن الشعب التركي امتزجت به خلال العصور أجناس

كثيرة أخرى دخلت الإسلام واعتنقت الحضارة التركية؛ ثم إن الترك درجوا خلال العصور على التسري، وكان الكبراء منهم يحوزون في (حريمهم) نساء من مختلفي الجنسيات، فمن الصعب بل ربما كان من المستحيل أن يستطيع الترك المعاصرون إرجاع أصلهم إلى جنس بذاته

خطر على المؤلفين

هل يقرأ الناس اليوم أكثر مما كانوا يقرءون؟ وهل يربح المؤلفون أكثر مما كانوا يربحون؟ دلت الإحصاءات في إنكلترا وفي أمريكا على أن قراء الكتب الإنكليزية قد زادوا في سنة 1934 عنهم في سنة 1933 بمعدل نحو عشرة في المائة، وكان المفروض أن ذلك يعني أن المؤلف قد زاد ربحه ولكن الواقع أن أخبار المؤلفين لا تسر، والأدلة متوفرة على أنهم يسيرون من سيئ إلى أسوأ، وقد دل البحث على أن أشد العوامل وطأة على المؤلفين هو نظام المكاتب الدورية المأجورة؛ ويوجد من هذه المكاتب في أمريكا نحو خمسين ألف مكتبة، وهي تنتشر الآن في إنكلترا بسرعة مدهشة، ونظام هذه المكاتب في غاية السهولة

فهي لا تطلب ضماناً عما تعيره من الكتب، ولا تتقاضى من القارئ إلا أجراً زهيداً قد لا يتجاوز بضعة ملاليم عن الكتاب الواحد، على أنها مع ذلك تجني أرباحاً طائلة، وبهذه الوسيلة يقرأ الكتاب الواحد مئات وربما آلاف من الناس، ولا يصل المؤلف منهم شيء، وقد وصفت هذه المكاتب السيارة بأنها (الوباء الأسود) بالنسبة للمؤلفين؛ فإذا لم يوضع نظام آخر لهذه المكاتب يكفل للمؤلفين نوعاً من المشاركة في الربح، فإنها تنتهي بتثبيط همم المؤلفين، ويحجم المؤلفون بذلك عن التأليف، وعندئذ يكون المشتغلون بهذا النظام قد قتلوا الدجاجة ذات البيضة الذهبية، وما يقال عن إنكلترا وأمريكا يمكن أن يقال عن مصر التي أصبحت فيها عارية الكتب والمجلات والصحف رذيلة ذائعة

معرض للإنجيل

مضت أربعمائة عام كاملة على طبع أول إنجيل باللغة الإنكليزية. وقد احتفل بهذه الذكرى أخيراً في إنكلترا؛ وأقامت مكتبة رينالدز الشهيرة في منشستر معرضاً للأناجيل القديمة. والإنجيل الذي يحتفل بذكراه هو الإنجيل الذي ترجمه (كفرديل)؛ وقد عرضت إلى جانبه أناجيل عديدة بمختلف اللغات تمثل تطور الإنجيل منذ نشأة النصرانية حتى القرن الأخير. والمعروف أن أول إنجيل طبع هو إنجيل جوتنبرج الذي طبع في سنة 1456، وتوجد منه الآن في العالم كله أربعون نسخة فقط. وبين هذا الإنجيل، وإنجيل (كيفرديل) ثمانون سنة؛ وقد ظهرت تراجم عديدة أخرى للإنجيل منذ العصور الوسطى منها تراجم إلى العبرية واليونانية والألمانية والفرنسية؛ وظهرت بالإنكليزية تراجم لأجزاء من الإنجيل في وقت مبكر جداً؛ من ذلك ترجمة كايدمون في القرن السابع، وترجمة الراهب بيد في القرن الثامن، ثم ترجمة ألفريد الأكبر. وقد عرضت هذه الأناجيل كلها في صعيد واحد. وعرض معها إنجيل مخطوط كان ملكاً للملكة اليصابات

آثار الفيكنج

كشفت المباحث الأثرية في السويد عن أشياء مدهشة تدل على بعد المدى الذي انتهى إليه (الفيكنج) في تجوالهم في طلب السلب والغنيمة، في القرنين الثامن والتاسع من الميلاد، ومن ذلك ما وجد في جهات متعددة في أنحاء السويد وحفظ في متاحفها، وهي عبارة عن

طائفة كبيرة من الآثار واللقط الشرقية، وبالأخص النقد الشرقي القديم، فقد وجد منها زهاء عشرين ألف قطعة، وجد معظمها في جزيرة جوتلاند، وتدل بعض الأحجار المنقوشة على أن بعض زعماء الفيكنج سافروا حتى ضفاف بحر الخزر (بحر قزوين)، وتوفوا هنالك في تلك القفار النائية؛ وفي متحف البندقية أسد من المرمر عليه نقوش (فيكية) محي بعضها؛ وكان هذا الأسد من غنائم الحرب التي حصلتها البندقية من اليونان في القرن السابع عشر

كيف يشجعون الأدب

قرأنا في أنباء أمريكا الأخيرة أن الرئيس روزفلت أقر مشرعاً أدبيا ضخما يعد الأول من نوعه، وخلاصته أن الحكومة الأمريكية قد اعتمدت نحو سبعة وعشرين مليون ريال (خمسة ملايين جنيه ونصف) لتغذية الحركة الأدبية والفنية في أمريكا، وأن هذا

المشروع الذي يبدأ في تنفيذه من سبتمبر الماضي سيؤدي إلى إيجاد أعمال لخمسين ألفاً من الكتاب والموسيقيين والفنانين لمدة ستة شهور

وهذا المشروع بلا ريب من مفاخر الرئيس روزفلت وسياسته، وإذا كان ثمة بلد نرجو أن يحدث فيها مثل هذا المشروع صداه وأثره، فهي مصر التي ما زالت تتجاهل الحركة الأدبية والفنية، وما زالت تتركها لمصيرها وبؤسها. ولقد عنيت الحكومة أخيراً بمسألة التمثيل، ورصدت لتشجيعه وإنهاضه زهاء ثلاثين ألفاً، هذا عدا عشرة آلاف أخرى تفرق كل عام على الفرق الأجنبية. وإذا كنا نحمد لوزارة المعارف عنايتها بالتمثيل وهو من عناصر الفن وأركانه، فإننا لا نستطيع أن نسيغ موقفها إزاء الحركة الأدبية وإزاء المشتغلين بالأدب والكتابة، فلم نسمع إلى اليوم أن وزارة المعارف قد فكرت في عهد من العهود أن ترصد أي اعتماد لتشجيع الحركة الأدبية، ولم نسمع أنها رصدت يوماً أي مبلغ لمكافئة الكتاب المبرزين أو مؤلفي الكتب الممتازة، ومنذ أعوام ترصد وزارة المعارف إعتمادات مختلفة لإعانة الممثلين والممثلات، ولكنها لم تفكر يوماً في أن ترصد مبلغاً لإعانة الكتاب والمؤلفين، ولسنا نجد مبرراً لمثل هذا الإغفال المؤلم من وزارة المعارف، فهل لنا أن نؤمل أنها في عهدها الجديد، تعنى بهذه المسألة؟ وهل لنا أن نؤمل أنها كما ذكرت التمثيل والممثلين تذكر الأدب والكتاب، فتعمل لهؤلاء شيئاً مما تريد أن تعمله لأولئك؟

آخر كتاب للكولونيل لورنس

من أنباء نيويورك أن شركة للنشر قد أعلنت أنها ستخرج في الخريف القادم عشر نسخ فقط من آخر كتاب وضعه الكولونيل لورنس بطل الثورة العربية الشهير، وعنوانه المضرب وستطبع هذه النسخ العشر على ورق من الحرير الفاخر وتعرض النسخة الواحدة للبيع بمبلغ خمسمائة ألف دولار (مائة ألف جنيه!) والمقول أن بيع الكتاب بهذا الثمن الخرافي يقصد به حماية حق طبعه وعدم إذاعته. ومما يذكر بهذه المناسبة أنه لما طبع كتاب لورنس الشهير (سبعة أعمدة من الحكمة) في أمريكا عرضت النسخة للبيع بمبلغ أربعة آلاف جنيه وبيعت كلها وكان المطبوع منه 120 نسخة فقط

كتاب جديد لدانونزيو

صدر أخيراً كتاب جديد لجبرائيلي دانونزيو شاعر إيطاليا الأكبر بعد صمت طال أمده. وعنوان كتاب الشاعر الجديد طريف مدهش، فقد سماه (مائة ومائة ومائة ومائة صفحة من الكتاب السري لجبرائيلي دانونزيو الذي يود الموت) والكتاب مدهش رائع حقاً؛ فهو يحتوي على طائفة كبيرة من ذكريات دانونزيو ومخاطراته وتجاربه الشخصية وملاحظاته من كل ضرب، وهو يفيض بالصور البديعة والآراء الغريبة، والتخيلات المدهشة والاضطرام المتقد في سبيل المجد والشهرة. وينقسم الكتاب إلى قسمين، قسم يحتوي على قصص الشباب وأحلامه الوحشية، وقسم عنوانه (الكتاب السري)، وفيه يتحدث دانونزيو عن الدور الذي قام به في الحرب الكبرى، ومخاطراته وأحلامه وأعماله العبقرية التي جعلت من الشاعر جندياً شهيراً، وجعلت منه بطلاً قومياً لإيطاليا

من ضحايا النازي

يعيش في المنفى رهط كبير من أكابر الكتاب الألمانيين (غير اليهود) وذلك لأنهم من خصوم هتلر وسياسته؛ ويعاني الكثير منهم شظف العيش وآلام المنفى لأنهم حرموا من أموالهم وأملاكهم التي صادرتها الحكومة الألمانية. وقد توفي أخيراً في باريس أحد هؤلاء الكتاب، وهو الدكتور هلمان فون جيرلاخ

وكان فون جيرلاخ قبل قيام الحكم الهتلري من أقطاب الصحافة الألمانية، يحرر (جريدة

برلين الأسبوعية) وقد اشتغل فون جيرلاخ بالسياسة منذ بعيد وتقلد النيابة في الرخستاج مراراً عن سيليزيا العليا موطنه. ولكنه كان ديموقراطي النزعة يدعوا إلى السلام والتفاهم مع فرنسا، وهو الذي أسس شعبة حقوق الإنسان الألمانية، ولما قام الحكم الهتلري في ألمانيا فر من ألمانيا إلى باريس، فنزعت الحكومة أملاكه وأمواله، وجعل فون جيرلاخ جهوده لمقاومة الحكومة النازية ومبادئها حتى توفي في نحو الخامسة والستين من عمره

منازل الفضل

كان الأستاذ الجليل محمد محمود جلال قد أخذ يكتب تحت هذا العنوان عن الدور

القديمة التي كان لها أثر ظاهر في تاريخ مصر الحديثة، فنشر في العدد الثامن والثمانين من (الرسالة) مقالاً نفيساً عن (قصر الوالدة)، ثم شغلته شواغل الحياة عن موضوعه. وقد جاءنا اليوم كتابان أحدهما من الأديب (علي فهمي) بالمنصورة، والآخر من (فؤاد شاكر) بالقاهرة يستنجزان الأستاذ وعده بالمضي في هذا الموضوع الطريف الذي يجمع بين الفائدة والعضة واللذة، والأستاذ لا شك فاعل

الكتب

1 - وحي العصر - تأليف الأستاذ إبراهيم المصري

2 - قصص الحياة - تأليف السيدة نور الهدى الحكيم

للأستاذ محمود الخفيف

ترى في هذين الكتابين مثلين من ألوان الأدب العصري في مصر. أما أولهما فمجموعة مقالات تتخللها عدة أقاصيص مترجمة، قسمه المؤلف خمسة أقسام: دراسات أدبية، واجتماعيات وصرخات، ووجوه وأروح، وقصص. ولذلك كان الكتاب في بنائه وفي موضوعه لا يخرج كثيراً عن ذلك النوع من الأدب المعروف (بأدب المقالة)، فلقد جمع المؤلف شتيت ما كتب في مناسبات مختلفة وأطلق عليه اسم وحي العصر، وإن كان هذا الاسم يوحي إليك فكرة متصلة أو دراسة مفصلة للعصر الذي يعيش فيه تطالع الفصل الأول (وحي البيئة والعصر في الأدب الحديث) فترى الكاتب يقرر أن الأدب الحي الجدير بالبقاء هو ما جمع بين تأثير البيئة وإيحاء العصر، وتراه من أجل ذلك يعيب على أدبنا العصري خلوه من هذه الصفة، بينما هو يمتدح الأدب الأوربي ويعجب به، وهو إذ يورد لك الأمثلة في أدبنا ينسى أن ما يشكو منه إنما هو وليد البيئة، كما جاء في كلامه عن طريقتنا في الحب والشعر مثلا؛ والغريب أنه يشير إلى العلة، وهي بعد المرأة عن الرجل! أوليس تأثير البيئة الذي يدعوا إليه واضحاً في هذا؟ وكيف يتسنى لنا أدب آخر مع ما نحن عليه؟

وإنك لتنتظر أن يدور الكتاب على تلك القاعدة التي يدعو إليها، فإذا بك لا تكاد تحس أثراً لبيئتنا إلا في تلك القطعة الجميلة القوية وهي (المرأة المصرية قبل الكفاح الوطني وبعده) وماعدا هذه فالصيغة كلها غربية، أوربية وأمريكية، ففي مقالة (الصدق في الأدب والحياة) تجده لا يقتصر عن اتهام أدبنا فيرمينا بأننا نؤثر اللذة على الألم في إنتاجنا ضعفاً منا وجبنا، ثم هو يعيب علينا كثرة الخيال وضعف قوى العقل، يعيب ذلك علينا في الشعر والقصة، وهو لا يجهل أن الشعر في العالم قديمه وحديثه شرقيه وغربيه وليد الخيال، وأن القصة تفقد أهم عناصرها إذا غلب فيها التحليل والدرس على الخيال الشعري القوي، فإذا طلب الصدق فعليه أن يطلبه في الفلسفة، فان الصدق في الأدب عدو الخيال، ومن ثم فهو عدو الشعر والقصة. على أن الكاتب الفاضل لا يلبث أن ينسى القاعدة أيضاً، فيرى أن الأدباء البرجوازين يتعامون عن بيئتهم، ويزيغون عنها، ويبتعدون بذلك عن الصدق، وهو مع ذلك يرى في أدبهم قوة تنجيه من اللوم، ثم تراه حين يتحدث عن (الشعر في هذا العصر ونهضته في فرنسا) يدعوا مع الداعين من أبناء الغرب إلى السمو الروحاني والخيال الجامح المليء بالرؤى والأحلام، تراه يدعو إلى (ذلك الشعر الذي يغلب فيه الخيال على العقل، والذي ينطلق كموج الموسيقى، ويتصاعد إلى السماء كالصلاة، ويقصد به الشاعر التغني بالحياة وتمجيد ظواهرها واستبطان هذه الظواهر بواسطة الإشراق الروحي والاتصال من خلالها بالقوة العلوية الخالدة التي أبدعتها) فأين هذا من إنكاره الخيال في الأدب وخصوصاً في أدبنا؟! ولعل هذا التناقض نتيجة انعدام الوحدة في الكتاب كما سبق أن ذكرت

أما باقي موضوعات الكتاب فهي كما أسلفت غريبة الروح والعاطفة، فأنت تقرأ الأدب الأمريكي الحديث وترجمة خمسة من أعلامه، وتقرأ أدب السرعة ومظهره في أوربا، كل ذلك دون أن تظفر بإشارة إلى شاعر من شعرائنا أو كاتب من كتابنا؛ وفي قسم التراجم من هذا الكتاب لن تجد سوى أعلام الغربيين كأميل زولا، وبول بورجيه، ورومان رولان، وهنري دي منترلانن وغيرهم؛ وفضلاً عن ذلك فلن تحس بشخصية المترجم في تلك التراجم، وهي على دقتها واستيفائها لا تخرج في جملتها عما نطالعه في المجلات من لمحات بسيطة في سير هؤلاء الرجال حتى لقد أحسست أن ثقافة المجلات مسيطرة سيطرة قوية على الأديب المؤلف في هذا الباب

حتى الأقاصيص تجدها معربة تشرح بيئات غير بيئتنا ومجتمعاً غير مجتمعنا، ومثلاً غير مثلنا. نعم لا ضير على الأديب أن ينقل إلينا ما استحسن من النماذج بين حين وآخر، ولكن على شرط أن يشعرنا بألحاننا ويرينا من ألوان ثقافتنا وصور حياتنا ما يؤنسنا وسط هذا الضجيج الغربي الذي نخشى أن يعوق تقدمنا، ويمحو ذاتيتنا، ويحول بيننا وبين الأصالة والخلق، ويقطع الصلة بيننا وبين ماضينا الحافل

ولست أشك في أن الأستاذ إبراهيم المصري بذكائه ونشاطه واستعداده قمين أن يجول في

أدبنا المصري الناشئ جولات تعود علينا بالخير، إن هو وجه إليه بعض عنايته

يأتي بعد ذلك الكتاب الثاني (قصص الحياة في الأسرة والمجتمع) للمربية الفاضلة السيدة نور الهدى الحكيم، ويقع في نيف وثلثمائة صفحة، وذكرت مؤلفته أنه مؤسس على نظريات التربية وعلم النفس والاجتماع. ولقد قرأته فألفيته يدور كله حول المرأة وعلاقتها بالرجل، وهو يضم إلى ما به من أقاصيص بعض نظرات في الحياة (كاستفتاء في حادث خلقي) والمجتمع الحديث للأسر المصرية، وتطور الآراء في تربية المرأة.

وهذا الكتاب يتناول المجتمع المصري والبيئة المصرية في الكثير الغالب من موضوعاته، حتى لتكاد تنعدم فيه الصبغة الغربية، على الرغم من أن صاحبته عاشت في أوروبا زمناً، وهي ظاهرة نحمدها لها؛ فما أحوجنا إلى من يتناول حياتنا بالشرح والتحليل في إخلاص وعطف. ولقد أحسست الإخلاص والتحرق إلى الإصلاح في هذه الأقاصيص الساذجة، وأعجبتني تلك الروح الطيبة؛ فالكاتبة لا تشير إلى عيوبنا إشارة المترفع المستكبر الذي يباهي بمدنية غيره، ولن يهمه سوى إظهار نقائصنا وعرضها في شكل فضائح كما يفعل شبابنا، بل تراها تعرض لها في رفق وهوادة، ولن تقتصر على الموقف السلبي منها، وإنما تذكر اوجه العلاج وتشرحها جهد طاقتها، وهي كما أذكر طريقة حميدة وروح محمودة. هذا إلى أن الكاتبة الفاضلة قد وفقت إلى أسلوب بسيط مقبول، تراه وإن لم يرضك كثيراً من ناحية البلاغة، لن يثقل عليك ولن تمله

غير أني أرى بناء القصة عندها ضعيفاً، ولعلها لا تسير فيها على قاعدة ولا تنتهج طريقة، وإنما يختلج الرأي في رأسها فتلبسه ثوب القصة في أي وضع، جاعلة نصب عينيها إبراز الفكرة وتوضيحها بطريقة سهلة غير طريقة الدفاع والمناقشة. ولعلها لم تفكر قط في بناء تلك الأقاصيص؛ والحقيقة أنها أقرب إلى (الحكايات) التي تدور بين جليسين منها إلى القصة في وضعها الفني، فأنت إذا طلبت الاستمتاع الفني عند قراءة هاتيك الأقاصيص لن تظفر به في معظمها، أما إذا طلبت الرأي والعاطفة فهي متوفرة لديك

هذا إلى أن الكاتبة النابهة، أقوى شخصية وأشد تأثيراً وأسمى بياناً في المقالة عنها في القصة، فلقد أعجبت حقاً بمقالها (تطور الآراء في تعليم المرأة وتربيتها) وتلوته مرتين مستمتعاً بما جاء فيه من آراء صائبة، وما تجلى في ثناياه من روح متوثبة

وإني إذ أقدم هذا الكتاب إلى فتياتنا وفتياننا، أتقدم بالثناء للمربية الفاضلة على ما بذلت من جهد وما توخت من خير

الخفيف

العدد 121 - بتاريخ: 28 - 10 - 1935

خيبة المدنية

وا أسفاه!! أبعد هذه الحقب الملايين التي أتت على سليل الطين فسوت من خلقه، وراضت من خلقه، وصقلت من ذهنه، وصفت من جوهره، وجعلته على ملكوت الأرض يديره على حكمه، ويجريه على نظامه - لا يزال كأوابد الفقر وضواري الغاب يسطو القوى على القوى بالختل، ويعدو القوى على الضعيف بالقتل، وتضطرب الشهوات والمآرب بين الحيلة والغيلة اضطراب الأثرة بين العجز والقدرة؟!

أبعد الرسالات المتعاقبة التي بلغها رسل الله فغمرت العالم بالضياء، ووصلت الأرض بالسماء، ونهجت للنقص البشري سبيل الكمال المطلق - لا يبرح الإنسان باسطاً عنانه في الجهل، يرتكس في عماية الهوى، ويرتطم في حمأة المادة، ويجعل من الدين غشاء لنابه، ومن الأخلاق طلاء لظفره!

أبعد انتشار العلوم التي هتكت أستار الكون، وكشفت أسرار الطبيعة، وسبرت أغوار الحياة، وذلك ريض القوة - يظل أبن آدم على حيرة من يومه، وفي غمة من غده؛ لا

يثق وثوق العالم بالحاضر، ولا يطمئن اطمئنان المؤمن بالمستقبل؟
أبعد ازدهار الآداب التي خلقت للناس أجنحة من الشعر، وكشفت للعالم أجواء من الخيال، وأبهجت مشاعر النفس بسحر المجهول، ودبجت حواشي العيش بألوان الربيع، ووجهت مطامح العيون إلى رفيع المثل - يظل الإنسان مسفا إلى حقير الأمل، مدفوعاً إلى دنى الغرض، محصوراً في حدود المنفعة؟!
أبعد هذه المدينة المغرورة التي تزعم إنها حررت الفكر، وأبطلت الرق، وضمنت حقوق الإنسان، ووحدت المقاييس بين الألوان، وحصرت أهواء الدول العاتية في قصر من قصور (جنيف) لتأمين خصامها بالتوفيق، وضمن سلامها بالتعاهد، وتجعل من جماعتها ألباً على الطغيان، وحرباً على العدوان، ويداً على الإثم - يظل الإنسان على عاد الجاهلية: يتكاثر بالعديد، ويتعزز بالسلاح، ويرصد الغفلة للغزو، ويفتري الحجة للغضب، ويغذى قوته على ضعف غيره؟!
من كان يظن بعد هذا الدهر المتطاول والعمران المستبحر والتقدم العجيب، أن يظل الناس على ضراوة الفطرة لا يتغير فيهم غير الغشاء، ولا يتبدل غير الأسماء، فتصبح البربرية بالعلم مدنية، والاغتصاب بالمدينة إنتداباً، والإسترقاق بالقانون وصاية!
من كان يظن أن بحر الروم الذي كان بالأمس مسبحاً لغارة القرصان، ومسرحاً لبغي الرومان، لا يزال اليوم مجالاً لمثل ذلك؛ فالأساطيل على وجهه، وفي جوفه، وفي جوه، تضطرم بالحديد والنار لا استجابةً لصريخ الحق، ولا إطاعة لأمر القانون، ولكن لأن طاغية من طغاة المدنية المغشوشة، حشر جنوده في البر والبحر والهواء ليقتل أمة عزلاء قبل أن يتفق مع منافسيه على اقتراف الجريمة واقتسام الغنيمة؟!
من كان يظن إن هذا (الفاشي) المفتون يقف بمرأى من (الفاتيكان)، وعلى مسمع من (جنيف)، فيلغي قانون (العصبة)، وينقض ميثاق (كيلوج)، ويتحدى جميع الدول، لأنه نفخ (زقاقه السود) بالهواء الحار، وحوَّل الحذاء الإيطالي كله مصانع للذخائر والآلات، ومعامل للسموم والغازات، ثم تكبر وإختال، وتيخل ثم خل، وفكر فيمن يحرقه بهذا الرصاص، ويمزقه بهذا الديناميت، ويخنقه بهذا الغاز، ويسحقه بهذا الحديد، فلم يجد كفاء لتالد روما وطريف الفاشيست غير الحبشة المتواضعة المسكينة!! ولكن بأي حجة يبلغ (الدوتشي) الشعوب الهمج. والأحباش ولا ريب همج لأنهم لا يأكلون (الأسباجتي)، ولا يشربون (الكيانتي)، ولا يسترقون إلا الأفراد فلم يرتقوا بعد إلى استرقاق الأمم!!
أما بعد، فلو كانت أمور الناس تجري على سنن المنطق لكانت الحبشة أولى بتمدين إيطاليا؛ قضى خمسون دولة بالإجماع على الطليان بالعار والخزي، فقاطعوهم مقاطعة المجذوم، وطاردوهم مطاردة الآثم؛ ووقف الأحباش من المغير موقف الكرامة والنبل، يقابلون العدواة بالسلم، ويدافعون السفاهة بالحلم، حتى ظفروا بإعجاب العالم ورشح النجاشي لجائزة نوبل!! فلما أغار (المتمدنون) من غير إعلان، وقاتلوا من غير ضمير، واستعملوا أسلحة بغير حق، دافع (الهمجيون) دفاع المستبسل الحر، وجاهدوا جهاد المستشهد الصابر، وغالبوا باطل المعتدين بقوة الحق وعطف الشعوب ومزايا الرجولة، وكان موقف النجاشي الأسود من الزعيم الفاشي الأبيض موقف رب الدار من اللص، وصاحب القانون من الجرم!
رويدك يا أسود الشعار وممثل دور الجبار ومنذر العالم بيوم القيامة! إن أرواح الشباب الذين قذفتهم ظلماً في جحيم الحبشة، لتخرق أذنيك من خلال اللهيب بهذا الهتاف الرهيب:
على رسلك يا نيرون! إنك تحرق روما مرةً ثانية!!

أحمد حسن الزيات

بعد شوقي

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

كان يتوجه الظن على شوقي رحمه الله فيزعم الزاعم أن شوقي هو يحي شعره، وهو يرفع منه، وهو يشيع حوله قوة الجذب من مغناطيس الثروة والمكانة؛ وإن الرجل ما أوفى على شعراء جميعاً لأنه أفضلهم، بل لأنه أغناهم، ولا من أنه أقواهم قوة، بل لأنه أقواهم حيلة؛ وأن الشاعر لو جاء يومه لبطل السحر والساحر، فترجع العصا وهي عصاً بعد أن انقلبت حية، ويؤول هذا الشعر إلى حقيقته، وتتسم الحقيقة بسمتها؛ كأن

شوقي كان يعمل لشعره بقوة السموات والأرض لا بقوة رجل من الناس.
فقد ذهب الرجل إلى ربه، وخلا مكانه، وبطلت كل وسائله، ونام عن شعره نومة الأبدية، وتركه لما فيه يحفظه أو يضيعه إن كان فيه حق من الشعر أو باطل، وأصبح الشاعر هو وماله وجاهه وشعره في حكم الكلمة التي بقولها الزمن، ولم تعد هذه الكلمة في حكمه. فهل أثبته الزمن أو نفاه، وهل سلم له أو كابره، وهل رده في غمار الشعراء أو جعل الشعراء بعده أدلة من أدلته؟
أول ما ظهر لي أن الزمن بعد شوقي أصبح أقوى في الدلالة عليه وأصدق في الشهادة له، كما تكون الظلمة بعد غياب القمر شرحاً طويلاً لمعنى ذلك الضياء، وإن سطعت فيها الكواكب وتوقد منها شيء وتلألأ شيء. فقد دل الزمن على أن ذلك الشأن لم يكن لشاعر كالشعراء، يقال في وصفه إنه مفتن مجيد مبدع؛ ولكنه للذي يقال فيه إنه صوت بلاده وصيحة قومه كانت تحدث الحادثة، أو يتخالج الناس معنى من الهم الذي يعمهم، أو يستطيرهم فرح من أفراح الوطن، أو يزول عظيم من العظماء فيزيد صفحة في التاريخ، أو ينشأ كون صغير من أكوان الحضارة في الشرق كبنك مصر، أو ترتج زلزلة في الحياة العربية أينما ارتجت، فإذا كل ذلك قد وقع في الدنيا بهيئتين إحداهما في ذهن شوقي، فيرسل قصيدته الشرود السائرة داوية مجلجلة، فلا تكاد تظهر في مصر حتى تلتقي حولها الأفكار في العالم العربي كله، فتكون شعراً من أسرى الشعر وأحسنه، ثم تجاوز فإذا هي صلة من أقوى الصلات الذهنية بين أدباء العربية وأوثقها، ثم تجاوزها فإذا هي عاطفة تجمع القلوب على معناها، ثم تسمو فوق هذا كله فإذا هي من هذا كله زعامة مصر على
الشعر العربي.
واليوم يقع مثل ذلك فتتطاير بعض الفقاقيع الشعرية من هنا وثم ملونة منتفخة ماضية على قانون الفقاقيع في الطبيعة من أن لحظة وجودها هي لحظة فنائها، وأن ظهورها يكون لتظهر فقط لا لتنفع.
ولست أماري في إن بيننا شعراء قليلين يجيدون الشعر ولهم فكر وبيان ومذهب وطريقة، ولكن ما منهم أحد إلا وهو يشعر من ذات نفسه أن الحوادث لم تختره كما اختارت شوقي، وأنه في الحياة كالواقف على باب ديوان ينتظر أن يعهد إليه وأن يخرج له التقليد فهو ينتظر وسينتظر.
وهذا عجيب حتى كأنه سحر من سحر الزمن حين تفصل الدنيا بين العبقري الفذ وبين من يشبهونه أو ينافسونه - بضروب خفية من الصرفة والعوائق لا هي كلها من قوة العبقري ولا هي كلها من عجز الآخرين.
وأعجب من ذا إن (شوقي) كان في العالم العربي كأنه عمل تاريخي متميز من أعمال مصر، غير أنه مسمى بأسم رجل؛ وكان على الحقيقة لا على المجاز - كأن فيه شيئاً من هذه الروح التاريخية المتغلبة التي تخلد بأسماء الآثار الفنية وتكسبها العظمة في الوجودين، من محلها ومن نفس الإنسان.
وأعجب من هذا وذلك أني لم أر شعراً عربياً يحسن في وصف الآثار المصرية ما يحسن في وصفها شعر شوقي، حتى لأسأل نفسي: هل تختار بعض الأشياء العظيمة وصفها ومفسر عظمتها، كما تختار المرأة الجميلة عاشقها ومستحلي حسنها؟
وما بان شوقي على غيره إلا بأنه رجل أفرغ في رأسه الذهن الشعري الكبير، فكان في رأسه مصنع عماله الأعصاب، ومادته المعاني، ومهندسه الإلهام؛ والدنيا ترسل إليه وتأخذ منه؛ وعلامة ذلك من كل شاعر عظيم أن تضع دنياه على أسمه شهادتها له.
ولهذا ما يكون بعض الشعراء كأن أسمه في وزن اسم مملكة. فإذا قلت شكسبير وإنجلترا، فهما في العظمة النفسية من وزن واحد، وكذلك المتنبي والعالم العربي، وكذلك شوقي ومصر.
قالوا كان الفرزدق ينقح الشعر، وكان جرير يخشب (أي يرسل شعره كما يجيء فلا يتنسوق فيه ولا ينقحه)؛ وكان خشب جرير خيراً من تنقيح الفرزدق. ولم يتنبه أحد إلى السر في ذلك؛ وما هو إلا السر الذي كان في شوقي بعينه، سر الامتلاء الروحي قد أمد بالطبع، وأعين بالذوق، وأوتى القوة على أن يتحول بآثاره في الكلام؛ فكل ما كان منه فهو منه، يجيء دائماً قريباً بعضه من بعضه، ولا يكاد ينفذ إلى شعور إلا اتحد به.
وقد كان عمر بن ذر الواعظ البليغ إذا تلكم في مجلسه نشر حوله جسواً من روحه

فيجعل كل ما حوله يتموج بأمواج نفسية؛ فكان كلامه يعصف بالناس عصف الهواء بالبحر يقوم به ويقعد، وكان من الوعاظ من يقلده ويحكيه ولا يدري إنه بذلك يعرض الغلطة على ردها وصوابها، فقال بعض من جالسه وجالسهم: ما سمعت عمر بن ذر يتكلم إلا ذكرت النفخ في الصور، وما سمعت أحداً يحكيه إلا تمنيت أن يجلد ثمانين. . .

فالفرق روحاني طبيعي كما ترى، لا عمل فيه لأحد ولا لصاحبه وهو يشبه الفرق بين عاصفة من الهواء وبين نسيم من الريح يرسلان على جهتين في البحر. ففي ناحية يلتج الماء ويثب ويتضرب ويقصف قصف الرعد، وفي الأخرى يترجرج ويتزحف ويقشعر ويهمس كوسواس الحلي.

والشأن كل الشأن للكمية الوجدانية في النفس الشاعرة أو الممتازة؛ فهي التي تعين لهذه النفس عملها على وجه ما، وتهيئها لما يراد منها بقدرٍ ما، وتقيمها على دأبها إلى زمن ما، وتخصها بخصائصها لغرض ما. وإذا أنت حققت لم تجد الفروق بين النوابغ بعضهم من بعض، إلا فروقاً في هذه الكمية ذاتها مقداراً من مقدار. ولولا ذلك لكان أصغر العلماء أعظم من أكبر الشعراء، فقد يكون الشاعر العظيم كأنه تلميذ في العلم ثم يكون العلم كأنه تلميذ لقلب هذا الشاعر وعواطفه. ولئن عجز النقد العلمي أن ينال من الشاعر العبقري لقديماً عجز في كل أمة.

وقد كان فيمن حاولوا إسقاط شوقي من هو أوسع منه إطلاعاً على آداب الأمم، وأبصر بأغراض الشعر وحقيقته، وكان مع ذلك حاسداً شانئاً قد ثقب في قلبه الحقد؛ والحاسد المبغض هو في اتساع الكلام وطغيان العبارة أخو المحب العاشق، فكلاهما يدور الدم في كبده معاني ووساوس، وكلاهما يجري كلامه على أصل مما في سريرته فلا تجد أحدهما إلا عالياً عالياً بمن يحب، ولا تجد الآخر إلا نازلاً نازلاً بمن يبغض. وكان هذا الناقد شاعراً فأنضاف شعره إلى حسده، إلى بغضه، إلى ذكائه، إلى إطلاعه، إلى جهده، إلى طول الوقت

وتراخي الزمن؛ وهذه كلها مفرقعات نفسية. . . بعضها أشد من بعض كالبارود، إلى الديناميت، إلى الميلينيت؛ ولكن شوقي كان في مرتقى لم يبلغه الناقد فانقلب جهد هذا عجزاً وأصبح البارود والتراب في يده بمعنى واحد. . . .

ومن أعجب ما عجبت له من أمر هذا الناقد، أني رأيته يقرر للناس صواب الحقيقة بزعمه، فإذا هو يقرر غلطه وجهله وتعسفه. وهو في كل ما يكتب عن شوقي يكون كالذي يرى الماء العذب وعمله في إنبات الروض وتوشيته وتلوينه، فيذهب بعيبه للناس بأنه ليس هو البنزين. . . الذي يحرك السيارات والطيارات.

تناول شوقي بعد موته فجرده من الشخصية أي من حاسة الشعر ومن إدراك السر الذي لا يخلق الشاعر الحق إلا لإدراكه والكشف عن حقائقه؛ وكان فيما استدل به على ذلك أن شوقي لا يحسن وصف الربيع بمثل ما وصفه ابن الرومي في قوله:

تجدُ الوحوشُ به كفايَتها ... والطيرُ فيه عتيدةُ الطُّعْمِ

فظباؤُه تُضحى بُمنْتَطَح ... وحمامه يضحى بمختَصمِ

وزعم أن ابن الرومي قد ولد بحاسة لم يولد بها شوقي، ولهذه الحاسة اندمج في الطبيعة فأدرك سر الربيع وأنه غليان الحياة في الأحياء، فالظباء تنتطح من الأشر الخ الخ وبنى على ذلك ناطحة سحاب. . . . لا ناطحة ظباء.

أما شوقي الشاعر الضعيف العاجز الذي لم يولد بمثل تلك الحاسة فلو أنه شهد ألف ربيع لما أحس هذا الإحساس ولا استطاع أن يجيء بمثل هذا القول المعجز. وكل ذلك من هذا الناقد جهلٌ في جهل في جهل، واعاليل بأضاليل بأباطيل؛ فابن الرومي في هذا المعنى لصٌّ لا أكثر ولا أقل، فلم يحس شيئاً ولا ابتدع ولا اخترع.

قال الجاحظ: يقال في الخصب (أي الربيع) نفَشَت العنز لأختها؛ وخلفت أرضاً تطالم معزاها (أي تتظالم). قال لأنها تنفش شعرها وتنصب روقيها في أحد شقيها فتنطح أختها وإنما ذلك من الأشر. (أي حين سمنت وأخصبت وأعجبتها نفسها).

فأنت ترى أن ابن الرومي لم يصنع شيئاً إلا أنه سرق المعنى واللفظ جميعاً، ثم جاء للقافية بهذه الزيادة السخيفة التي قاس فيها الحمام على الظباء والمعزة. . . . فاستكره الحمام على أن يختصم في زمن بعينه وهو يختصم في كل يوم. وإنما شرط الزيادة في السرقة الشعرية

أن تضاف إلى المعنى فتجعله كالمنفرد بنفسه أو كالمخترع ولعمري لو كان للطبيعة مائة صورة في الخيال الشعري، ثم قدم شوقي للناس تسعاً وتسعين منها، لقال ذلك الناقد المتعنت: لا. إلا الصورة التي لم يقدمها. . . .

وكان شعر شوقي في جزالته وسلاسته كأنما يحمل العصا لبعض الشعراء، يردهم بها عن السفسفة والتخليط والاضطراب في اللفظ والتركيب؛ فكثر الاختلال في الناشئين من بعده وجاءوا بالكلام المخلط الذي تبعث عليه رخاوة الطبع وضعف السليقة، فتراه مكشوفاً سهلاً ولكن سهولته أقبح في الذوق من جفوة الأعراب على كلامهم الوحشي المتروك.

والآفة أن أصحاب هذا المذهب يفرضون مذهبهم فرضاً على الشعر العربي كأنهم يقولون للناس: دعوا اللغة وخذونا نحن. وليس في أذهانهم إلا ما اختلط عليهم من تقليد الأدب الأوربي فكل منهم عابد الحياة، مندمج في وحدة الكون، يأخذ الطبيعة من يد الله، ويجاري اللانهاية، ويفنى في اللذة، ويعانق الفضاء، ويغني على قيثارته للنجوم؛ وبالاختصار فكل منهم مجنون لغوي. . . .

وأنا فلست أرى أكثر هذا الشعر إلا كالجيف، غير أنهم يقولون إن الجيفة لا تعد كذلك في الوجود الأعظم، بل هي فيه عمل تحليل علمي دقيق. لقد صدقوا، ولكن هل يكذب من يقول: إن الجيفة هي فساد ونتن وقذر في اعتبار وجودنا الشخصي، وجود النظر والشم، والانقباض والانبساط، وسلامة الذوق وفساد الذوق!

وكان حاسدو شوقي يحسبون أنه إذا أزيح من طريقهم ظهر تقدمهم؛ فلما أزيح من الطريق ظهر تأخرهم. . . وهذه وحدها من عجائبه رحمه الله.

وقد كان هذا الشاعر العظيم هبة ثلاثة ملوك للشعب، فهيهات ينبغ مثله إلا إذا عمل الشعب في خدمة الشعر والأدب عمل ثلاثة ملوك. . . . وهيهات.

(طنطا)

مصطفى صادق الرافعي

السنيون والشيعة

للأستاذ أحمد أمين

بهذا العنوان كتب الأستاذ (محمد رضا المظفر) من أفاضل علماء النجف مقالاً قيماً في (عدد الرسالة 118 السنة الثالثة)؛ وقد أستهلها الأستاذ بالعجب من أن أكون كاتب (فجر الإسلام وضحاه)، وكاتب (مقدمة تاريخ القرآن) للأستاذ الزنجاني معاً وأن (النغمة التي ظهرت مني في هذه المقدمة نغمة متواضعة على وتر من إحساس جديد) وإنها على عكس ما ظهر مني في فجر الإسلام وضحاه، وفسر ذلك بأن لي (شخصيتين تباعدتا على قرب العهد بينهما)

والحق - يا أخي - أن النغمتين صدرتا عن نفس واحدة كانت تكره الخلاف بين السنيين والشيعة أشد الكره وأعمقه يوم كتبَتْ فجر الإسلام وضحاه كما كانت تكرهه يوم كتبت مقدمة تاريخ القرآن، وكما لا تزال تكرهه إلى اليوم

وكل مظاهر الخلاف بين القولين سببه أني بحثت في فجر الإسلام وضحاه مذهب الشيعة كما يبحثه كل عالم، وحاولت جهدي أن أضع التعصب جانباً، وأن أتناسى أني سني أكتب عن الشيعة، وأملأ نفسي عقيدة أني مؤرخ يتطلب الحق حيث هو - ومن أجل ذلك نقدت السنيين كما نقدت الشيعة، وقلت ما اعتقدته الحق في هؤلاء وهؤلاء، ووضعت الفرقتين في كفتي ميزان؛ فإذا قلت إن بعض الشيعة وضعوا بعض الأحاديث قلت إن بعض السنيين وضعوا بعض الحديث أيضاً، لأني اعتقدت الحق في ذلك؛ وهكذا سرت على هذا النهج دائماً وأنصفت المعتزلة في بعض آرائهم، والخوارج في بعض آرائهم، والشيعة في بعض آرائهم. مع أن العادة جرت أن السنيين لا يرضون عن شيء من ذلك، فأسلوبي في الحالين طلب الحق حيث كان، وإذا كان ديننا يتطلب منا أن نزن الحق في ذاته من غير أي اعتبار آخر سواء كان مصدره مسيحياً أو يهودياً أو وثنياً، فبالأحرى نزنه إن كان مصدره معتزلياً أو خارجياً أو شيعياً؛ وكل ما في الأمر أن بعض أخواني من الشيعة اخطأوا من ناحيتين: الأولى إنهم دائماً طبقوا ما أقوله عن الشيعة على أنفسهم، وفهموا أني لا أعني بالشيعة في كل موضوع إلا إياهم، مع أن الشيعة كما يعلمون فرق مختلفة لا حصر لها، وإن منها الغالي الممعن في غلوه، ومنها المعتدل القريب من الإنصاف، وليست الإمامية التي يدين

بها أهل العراق وفارس إلا فرقةً واحدة من فرق عديدة، بعضها باق إلى اليوم، وبعضها عفى عليه التاريخ؛ فخطأ محض أن يظنوا أني كلما قلت (الشيعة) عنيتهم؛ إنما يكون لهم الحق كل الحق أن يفهموا إني أقصدهم عندما أتكلم على الإمامية أو الاثني عشرية - والمؤرخ يجب عليه أن يؤرخ الماضي كما يؤرخ الحاضر، وأن يذكر الغلاة كما يذكر المعتدلين، فإذا عاب الغلاة فليس عيبه إذا فهم قوم منه أنه يعنيهم

والناحية الثانية هي ما دعوت إليه في (مقدمة تاريخ القرآن) من إنه يجب على العلماء من الطائفتين أن يوسعوا صدرهم للنقد النزيه (ويتلقوا النتائج بصدر رحب)، فهذه شيمة العلماء حقاً، فكم أخطأ الشيعة وكم أخطأ السنيون! فواجب الباحث أن يبحث المسائل حراً طليقاً، ويتأهب للبحث وهو على الحياد بالنسبة للنتائج، فسواء خرجت النتيجة صفراء أو سوداء لا يهمه، لا أن يعتقد أولاً ثم يبحث عن البرهان الذي يؤدي إلى النتيجة التي أعتنقها من قبل، فذلك ليس شيمة العلماء المخلصين للحق. وكل ما في الأمر أن الواجب أن ينحي العامة وأشباههم عن الدخول في مثل هذه المباحث لأنهم لا يستسيغونها ولا هم متهيئون لها، وليست تنفعهم في دينهم ولا دنياهم

بهذه الروح بحثت، ولا أدعى العصمة، فقد أكون أخطأت؛ وقد وجه بعض أخواني من الشيعة نظري إلى أني حين بحثت عولت على مصادر أهل السنة أكثر مما عولت على مصادر الشيعة، وكان الواجب ألا يعتمد في كلام خصم على خصم، وأن ينظر في قول كل فرقة إلى حكاية أصحابها وخصومها معاً، ثم يمحص الحق من ذلك كله؛ وقد أصغيت إلى هذا القول واقتنعت بصحته، فلما أردت أن أكتب فصل الشيعة في الجزء الثالث من ضحى الإسلام توسعت ما وسعني في قراءة الكتب المعتمدة عند الشيعة، ولا أزال أقلبها ظهراً لبطن وأفكر فيها من وجوهها المختلفة حتى ينثلج صدري للحق وأومن بما يقوم عليه البرهان من غير تحزب لناحية - وليس يتطلب مني أكثر من ذلك. وإنما يتطلب من قادة الرأي في الشيعة والسنيين ألا يضيق صدرهم حرجاً مما يقال متى خلصت نية القائل - وعلى القائل والكاتب أن يعمد إلى الحق والحق وحده، وأن يقوله في أدب لا في تهاتر وسباب

وليس من الحق ألا يرضى الشيعة عن المؤرخ إلا إذا مجد كل عقائد الشيعة وصوبها، كما

ليس من الحق ألا يرضى السنيون عنه إلا إذا مجد كل عقائدهم وصوبها، فالمؤرخ قاض عادل لا يهمه من رضى ومن غضب، وهو لم ينصب للإرضاء والإغضاب، إنما نصب ليتعرف الحق ويجهر به

هذا ما أردت أن أقوله من الناحية العلمية، وأرى من وراء ذلك كله إلى القول بأن البحث العلمي شيء والنزاع والخصام شيء آخر، وأن البحث العلمي لا يمنع التفاهم والوئام، بل هو إذا نظر إليه النظر الواسع العالي سبب من أسباب الألفة

أما الناحية العملية في الوفاق فسهلة ميسورة متى أخلص القادة في ذلك - وهي في هذا الزمان أيسر وأسهل؛ وإذا كانت الوطنية قد استطاعت أن توفق في مصر بين الأقباط والمسلمين، وفي سوريا بين المسلمين والمسيحيين، فكيف لا تستطيع المصالح المشتركة القوية الواضحة ألا توحد بين الشيعة والسنيين وهم أهل دين واحد يجمعهم الإيمان العميق في صدورهم بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وان كل الخلاف بينهم موجات على السطح وفقاقيع في الظاهر يستغلها أهل الجاه والمال والرياسة فيوهمون أنها كل شيء في الدين، وليس ذلك بصحيح إلا إذا كانت فقاقيع الماء كل الماء، وأمواج البحر هي كل البحر، وزبد السوائل كل السوائل، والعمامة الخضراء والحمراء والبيضاء هي كل الإسلام؛ فالحق إن الإسلام أعمق من ذلك كله، وما الخلافة والنزاع عليها والفروق الخفيفة في مظاهر الوضوء والصلاة والزواج والطلاق ونحو ذلك إلا أشياء تافهة كل التفاهة بجانب القواعد الأساسية للدين، والفرق بينهما كالفرق بين مظهر الإنسان وقلبه، وبين ملبسه ومخبره. ليكن الإيمان بالأسس في القلب، ثم ليكن المظهر ما يكون، فالله ينظر إلى قلوبكم لا إلى صوركم

وليقلل علماء الدين سنيون وشيعة من تمسكهم بالمظهر ومحافظتهم على وجاهتهم في قومهم وأتباعهم وما يغله ذلك عليهم، يروا أن الوفاق أقرب ما يكون وأسهل ما يكون ويضحكوا ويبكوا من سخافات السلف والخلف الذين أثاروا النزاع على التافه وتركوا اللباب أليس من السخف أن يتقاتل طائفتان على خلاف تاريخي أكان علي أحق

بالخلافة أم أبو بكر وعمر، وعلي وأبو بكر وعمر في قبورهم لا يعنون بشيء من ذلك؟ أم ليس من السخف أن يتعادى طائفتان مسلمتان تقرأن كل أسس الإسلام من أجل اختلافهما في جزيئات صغيرة في أشكال
الوضوء وما إليه؟ أم ليس من السخف ألا يقر الشيعة بعلم ولا فضل ولا فكرة ولا عمل مجيد إلا إذا صدر من شيعي؟ وألا يقر السنيون بعلم ولا فضل ولا فكرة ولا عمل مجيد إلا إذا صدر من سني؟. . لا لا أيها القوم! جعفر الصادق رجل عظيم، وأبو حنيفة رجل عظيم، فليزر شيعة العراق أبا حنيفة لعظمته، وليزر سنيو العراق مشهد الحسين لعظمته؛ والأمهات يلدن النوابغ على السواء، فلم تضن على الشيعة بنوابغ ولا على السنيين بنوابغ، كما لم تضن على الأمم الأخرى بنوابغ، فحصر كل فرقة تعظيمها لرجال فرقتها ضيق في النظر وفقر في الفكر.
وإذا زال هذا كله وأمثاله - وهي فيما أرى من البديهيات - رأينا الخلاف قد تبخر ولم يعد له أساس، ولا يبقى إلا عند المؤرخ والباحث، والمؤرخون والباحثون دائماً متصافون متى كان رائدهم الحق، وشعارهم الصدق، ولم تطوح بهم الأغراض والشهوات ليس من وسيلة تدرأ هذا الخلاف إلا أن يتقدم علماء اليوم من الفريقين فيمحوا الآثار السيئة التي خلفها علماء الأمس
ولعل أصلح بقعة لذلك هي العراق، لأنها أشد البلاد مظهراً لهذا الخلاف، فيتعاون رؤساء الطائفتين لعقد مؤتمر في بغداد من رؤساء السنيين والشيعة، ويبحثوا وجوه الخلاف وكيف تزال في جو هادئ مخلص؛ وأسبق الطائفتين إلى هذه الدعوة أفضلهم، ولا يجعلوا للعامة والغوغاء سلطاناً، وليحذروا من أصحاب المطامع والشهوات ودسائسهم، وليجعلوا شعارهم في كل مجتمع وعند كل خلاف (مسلمون قبل كل شيء) (مسلمون قبل أن نكون شيعة وسنيين).
ولا بأس أن يدعوا قادة الفكر في مصر والشام والحجاز للاشتراك في هذا المؤتمر والتشديد في حصر أغراضه في إزالة الخلاف بين سني وشيعي، فلا يمسون أي موضوع آخر، ثم يرسمون الطريق العملي لإزالة هذا النزاع من تزاور الطائفتين، واتخاذ شعار لهذا الوفاق، وتبيين يوم يتخذ عيداً يذكر بهذا الاتحاد ونحو ذلك. إنهم إن فعلوا واخلصوا خلصوا من أكبر مشكلة يتعرض لها الطائفتان، وأمكنهم أن يوجهوا هذه القوى - العظيمة التي تذهب في الخلاف - إلى إصلاح شؤونهم الاجتماعية، واستطاعوا أن يتعاونوا على رفع مستوى قومهم، وعجبوا بعد قليل - لما يظهر من نتائج باهرة - كيف كانوا جميعاً في ظلام دامس،
وكيف كانوا هذا الزمن الطويل يستمسكون بالعرض، ويضيعون الجوهر، ويفرطون في الكتاب، ويحتفظون بالغلاف
واقرر من الآن أني سوف لا أرد على من يتخذ من بعض ما جاء في هذه المقالة وسيلة لإثارة النزاع من جديد، إلا أن يفتح صاحبها مجالاً للكلام في مشروع المؤتمر، أو وسائل الوفاق وباللهالتوفيق. . . .
أحمد أمين
عصبة الأمم وتطبيق العقوبات
تحريم الحرب من الوجهة الدولية وتشبيه الدولة بالفرد في قمع الاعتداء
لباحث دبلوماسي كبير
لأول مرة في التاريخ نشهد قراراً دولياً بأن حرب الاعتداء وسيلة غير مشروعة لتحقيق غايات السياسة القومية، ولأول مرة في التاريخ تصدر دول العالم ممثلة في عصبة الأمم حكمها على دولة أوربية عظمى هي إيطاليا بأنها دولة معتدية، وإنها بغزو الحبشة ترتكب خرقاً لقانون الأمم؛ بل نشهد في الواقع ما هو أعظم من الأحكام النظرية؛ نشهد عصبة الأمم تقرر باسم دول العالم أن توقع على إيطاليا طائفة من العقوبات الاقتصادية التي نص عليها في ميثاقها؛ وهذه أول مرة تتخذ فيها عصبة الأمم مثل هذه القرارات الخطية الحاسمة، وقد كان يبدو دائماً كلما وقعت أزمة دولية خطيرة أن هذه النصوص التي أدمجت في ميثاق عصبة الأمم وقت حمى السلام، إنما هي نصوص خيالية لا سبيل إلى تطبيقها بصورة عملية؛ ولكن يلوح لنا إن عصبة الأمم تسير هذه المرة بعزم واضح إلى تطبيق هذه التجربة الشائكة، وإنها تزمع أن تصل بتطبيقها إلى

نتائج عملية لا شك في أهميتها من الوجهة الدولية
وهذا الإقدام الذي تبديه العصبة في مقاومة الاعتداء الإيطالي على الحبشة وعلى السلام العام يثير بلا ريب كثيراً من الإعجاب، ويرفع بلا ريب هيبة العصبة بعد أن كادت تغيض في الأعوام الأخيرة؛ ولكن يجب ألا نبالغ في فهم الدور الذي تؤديه العصبة في هذا النضال الدولي الخطير، أو بعبارة أخرى يجب أن نفرق بين العصبة كشخصية دولية معنوية، وبين الدول التي تساهم في تكوينها وتشرف على توجيهها؛ فمن الواضح أنه لو لم تقف إنكلترا وقفتها المعروفة في التمسك بميثاق العصبة، ولو لم توفق السياسة البريطانية إلى إقناع الدول الأخرى بوجهة نظرها في تأييد الميثاق، بل لو لم تقم إنكلترا باتخاذ تلك الاهبات البحرية والعسكرية الخطيرة لتأييد موقفها، لما استطاعت العصبة أن تقدم بمثل هذا العزم على تطبيق الميثاق واتخاذ قرارها الشهير في الحكم على إيطاليا بالاعتداء وتوقيع
العقوبات الاقتصادية عليها
ومن الواضح أيضاً أن بريطانيا العظمى لم تقف هذا الموقف الحازم من المغامرة الإيطالية حباً في السلام فقط، أو لأن بريطانيا تريد أن تكون حارسة للسلم، أو أن تكون على حد تعبيرها (بوليسا) للقارة، أو بوليسا للعالم. فبريطانيا أزهد ما يكون في مثل هذه المهمة التي تعرضها لمتاعب ومسؤوليات لا نهاية لها؛ ولكن الحقيقة أن هذه الحرب الاستعمارية التي تثيرها إيطاليا تعرض مصالح الإمبراطورية البريطانية للخطر، وفوز إيطاليا بافتتاح الحبشة وتحقيق حلمها في إقامة إمبراطورية استعمارية في شرق أفريقيا، يهدد السيادة البريطانية في وادي النيل، وفيما وراء البحار، ويعرض المواصلات الإمبراطورية البريطانية لأخطار لاشك فيها، وإذكاء مطامع إيطاليا القيصرية بالفتح يهدد سيادة إنكلترا البحرية في البحر الأبيض المتوسط، وهي عماد الطريق الإمبراطوري إلى الهند وإلى استراليا. فهذه البواعث الخطيرة هي التي تحمل إنكلترا قبل كل شيء على اتخاذ موقفها في تحريك ميثاق عصبة الأمم، وفي المغامرة بالدخول في أية معارك بحرية أو برية يقتضيها تطبيق العقوبات الاقتصادية على إيطاليا على إنه مهما تكن البواعث التي تواجه السياسة البريطانية في الآونة الحاضرة فلا ريب أن بريطانيا العظمى تقف إلى جانب السلم، ولا ريب إنها بموقفها تؤيد سلام العالم؛ وإذا كانت الفاشستية الإيطالية بعنفها المضطرم، ووسائلها المثيرة، وأحلامها الإمبراطورية، وغرورها الأعمى، تهدد الإمبراطورية البريطانية في البحر الأبيض والبحر الأحمر، فإنها تهدد سلام العالم أيضاً؛ وربما كان من حسن الطالع أن يتحد هذان العاملان معاً، وأن تجد بريطانيا من بواعث مصالحها الحيوية ما يدفعها إلى العمل في تلك الآونة لتحطيم مشروعات إيطاليا الهمجية. وها نحن أولاء نشهد من إصرار بريطانيا على موقفها، ومن تمسكها بتطبيق العقوبات الاقتصادية ضد إيطاليا، ومن أهباتها البحرية والعسكرية ما يفسر خطورة البواعث والعوامل التي تجثم وراء هذا النزاع وقد كثر الحديث حول العقوبات الاقتصادية التي تعنى بتطبيقها عصبة الأمم ضد إيطاليا المعتدية؛ وهي عقوبات لها خطورتها وأثرها في هذا العصر الذي يتوقف كل شيء فيه على المال، وتستمد فيه قوى الدول من مواردها المالية قبل كل شيء؛ فإذا شلت موارد
الدولة من جراء مقاطعة اقتصادية صارمة تنظمها الدول الأخرى، فلا ريب إن مشاريعها العسكرية تصاب أيضاً بنوع من الشلل يضطرها إزاء هذا الضغط إلى الخضوع. وقد أجملت المادة 16 من ميثاق عصبة الأمم ذكر هذه العقوبات، ولسنا نرى لشرحها خيراً من إيراد نص هذه المادة كاملاً وهو:
إذا التجأ عضو من أعضاء العصبة إلى الحرب خلافاً للتعهدات المنصوص عليها في) المادتين 12 و13 أو المادة 15 فإنه يعتبر قد أرتكب عملاً حربياً ضد كل أعضاء العصبة الآخرين، ويتعهد هؤلاء أن يقطعوا في الحال معه كل علائقهم التجارية والمالية، وأن يحظروا كل علائق بين رعاياهم وبين رعايا الدولة التي خرقت الميثاق، وأن يقطعوا كل الصلات المالية والتجارية والشخصية بين رعايا هذه الدولة وبين رعايا أية دولة أخرى، سواء أكانت عضواً في العصبة أم لا
وفي هذه الحالة يجب على المجلس (مجلس العصبة) أن يوحي إلى الحكومات) المختلفة ذات الشأن بتقديم القوى العسكرية أو البحرية أو الجوية التي يساهم أعضاء

العصبة في تقديمها للقوى المسلحة التي تقوم بالعمل على احترام تعهدات العصبة ويتعهد أعضاء العصبة أيضاً أن يعاون بعضهم بعضاً في تطبيق الإجراءات الاقتصادية) والمالية التي تتخذ طبقاً لهذه المادة والتي يراد بها أن تخفض إلى أدنى حد ما يمكن أن يترتب عليها من الخسائر والمضار، ويتعهدون أيضاً بالتعاون في مقاومة كل إجراء خاص يوجه إلى أحدهم من جانب الدولة التي خالفت الميثاق، ويتخذون الإجراءات اللازمة لكي يسهل المرور في أراضيهم لقوات أي عضو من أعضاء العصبة يساهم في العمل المشترك الذي يقصد به العمل على احترام تعهدات العصبة

ويمكن أن يفصل من العصبة كل عضو وينتهك أحد التعهدات المترتبة على هذا الميثاق، (وبصدر قرار الفصل بموافقة أعضاء العصبة الآخرين الممثلين في المجلس

فهذه العقوبات الدولية يمكن إجمالها في كلمة هي (المقاطعة الاقتصادية) وهذه المقاطعة هي التي تجد في سبيل تنظيمها عصبة الأمم ضد إيطاليا؛ وتجد إيطاليا من جهة أخرى في سبيل اتقاء عواقبها؛ وتعلل إيطاليا نفسها بأمل انقسام أعضاء العصبة وانهيار الجبهة التي استطاعت السياسة البريطانية أن تؤلفها ضدها حين البدء في تطبيق العقوبات، وتعتمد في

ذلك بادئ بدء على فرنسا التي تزداد كل يوم تردداً وإحجاماً؛ وسنرى على أي حال نتيجة هذا الصراع في القريب العاجل؛ بيد أن الذي نريد أن نلفت النظر إليه هو أن تنفيذ هذه العقوبات بدقة سيقتضي بلا ريب تنظيم نوع من الحصار المسلح ضد الدولة المعتدية أعنى إيطاليا، وقد يقتضي القيام ببعض الإجراءات والأعمال العنيفة، وهذا أخطر ما في التجربة، فإن إيطاليا تصرح دائماً بأنها ستقابل مثل هذه الأعمال العنيفة بمثلها، وعندئذ يكون هذا الصدام الذي لا مفر منه، بدء حرب، يستحيل أن تحصر في دائرة معينة، ومن المحتوم أن تتحول في الحال إلى حرب أوربية وربما إلى حرب عالمية

على أننا نترك هذه التكهنات جانباً لنبحث ناحية أخرى من الموضوع. ولنفرض أولاً أن عصبة الأمم قد وفقت في مهمتها، واستطاعت الدول المتحدة أن ترغم إيطاليا على وقف الحرب الحبشية، وأن تقنع بتسوية ودية تمنح بها بعض المزايا الاستعمارية؛ فماذا يمكن أن يترتب على هذه النتيجة من الوجهة الدولية؟ يمكن أن يترتب عليها تقرير مبدأ في منتهى الخطورة أو بعبارة أخرى تأييده من الوجهة العملية، إذ هو موجود بالفعل، وهذا المبدأ هو تحريم الحرب الاعتدائية؛ وقد نص على تحريم الحرب كأداة للسياسة القومية بمقتضى ميثاق كلوج؛ ولكن هذا الميثاق لم يكن أكثر من وثيقة نظرية؛ أما اليوم فإن تحريم الحرب يقع بصفة عملية، إذ ترغم دولة قررت عصبة الأمم أنها (معتدية) على وقف الحرب أو تعاقب على فعلتها بالمقاطعة الدولية. وهنا نستطيع أن نلمح وجه المقارنة الفقهية بين الدولة (المذنبة) وبين الفرد (المذنب) ففي القانون العام، وفي داخل المجتمع المتمدن يحرم على الفرد أن يرتكب ضد غيره عملاً من أعمال العنف، ولو وقع عليه اعتداء ما فلا يسمح له أن ينتصف لنفسه؛ ذلك لأن إقامة العدالة من حق المجتمع، والقانون العام ينظم المجتمع ويرتب حقوق الأفراد وواجباتهم، فإذا اعتدى على شخص فرد ما أو اعتدى على حقوقه، كان القانون كفيلاً بمعاقبة المعتدي، وكفيلاً برد الحق المسلوب، وإذا تقرر ذلك فما الذي يمنع من أن تشبه الدولة في جماعة الأمم بالفرد في المجتمع؟ وكما أن العنف محرم على الفرد - عدا ماله من حق الدفاع عن النفس أو المال - فكذلك يمكن أن يحرم العنف على الدولة وتحرم الحرب كأداة لتحقيق غايات السياسة القومية، وإذ كانت الحرب ما زالت تعتبر في القانون الدولي أداة مشروعة للسياسة القومية، فإنه يمكن بتحريمها أن تغدو عملاً محرماً غير مشروع، والمقصود هنا دائماً هو الحرب الاعتدائية، وهذا ما سعى إليه الساسة الفقهاء الذين اشتركوا في وضع ميثاق تحريم الحرب أو (ميثاق كلوج)، فإذا تقرر أن الحرب محرمة، وأنها تعتبر خرقاً لمواثيق السلام وقانون الأمم، فإنه يمكن معاقبة الدولة التي تقدم عليها، إذا قررت دول العالم ممثلة في هيئة دولية عليا كعصبة الأمم، أنها دولة معتدية، وقررت بذلك أن تطبق عليها نوعاً من العقوبات يكفل ردها إلى صوابها

وهذا ما نشهده اليوم في الواقع، فإن عصبة الأمم، تقرر أن إيطاليا وهي عضو من

أعضائها دولة معتدية فيما تقوم به من غزو للأراضي الحبشية، وتقرر أن تطبق عليها العقوبات الاقتصادية التي نص عليها في المادة السادسة عشرة من الميثاق، ولكنا نكرر القول بأن عصبة الأمم ما كانت لتجرؤ على اتخاذ مثل هذه الخطوة لو لم تحركها يد السياسة البريطانية القوية، وإلا فأين كانت عصبة الأمم يوم اعتداء اليابان على منشوريا والاستيلاء عليها تحت سمع العصبة وبصرها؟ وإذا كانت عصبة الأمم تستطيع كشخصية معنوية تمثل فيها إرادة الأمم أن تحكم على الدولة الممثلة فيها أولها، فمن الواضح أنه يقتضي لتنفيذ أحكامها قوة دولية أو وسائل ضغط معينة، وهذه القوة أو الوسائل أشارت إليها المادة السادسة عشرة من الميثاق، ولكنها لم تخلق أو توجد بعد، ولو لم تتقدم بريطانيا العظمى باهباتها وقوتها المسلحة مدفوعة بما تقدم من البواعث لتنفيذ العقوبات، لبقى قرار العصبة قراراً نظرياً لا سند له ولا أثر على أن من الإسراف في التفاؤل والأمل أن نعتقد أن عصبة الأمم قد غدت محكمة الأمم العليا، وغدت ملاذ السلم الأعلى، وأن هذه الخطوة التي تقدم على اتخاذها اليوم ستغدو بالفعل مبدأ دولياً عالمياً يحتكم إليه في كل الحوادث والظروف المماثلة. إنها نظريات السلام والعدالة الدولية وحقوق الأمم تبدو في الأفق، وفي ظلها وباسمها تعمل عصبة الأمم، ولكنها القوة في الواقع تعمل من الوراء ظاهرة غير مستترة؛ وهي تعمل مسيرة بالبواعث والمصالح الخاصة التي كان من حسن الطالع أنها تتفق مع قضية العدالة الدولية والسلام العالمي؛ ولكن هل يمكن أن تجتمع مثل هذه الظروف دائماً إذا ما تعلق الأمر بإقامة الحق والعدالة الدولية؟ هذا ومن جهة أخرى فإنه من المرجح جداً أن تطور الحوادث على هذا

النحو الخطر الذي نشهده قد يقضي في النهاية على كل مظاهر الحق ونظريات السلام والعدالة الدولية؛ وقد يضطرم العالم من جديد بحرب تودي بعصبة الأمم وكل ما يمثل فيها من النظريات والمثل الدولية العليا

النقد والمثال

للأستاذ أحمد الزين

تحدثتُ في فصلٍ سابقٍ عن المعنى، وأنه العنصرُ الأولُ من عناصر الشعر، بل هو الشعرُ نفسهُ، وقلت: إن الألفاظ ليست إلا ثوباً يحيط به، ويقدر على أجزائه، وأن حُسنها وروعتها ليست إلا وسائل يقصد بها استمالة القلوب النافرة، واجتذاب الميول الجامحة

ولست أريد بالمعنى أي معنى يخطر بالخاطر، وأول ما تتحدث به نفس الشاعر، والحقائق المجردة الأصلية التي تقع في الفكر لأول مرة قبل أن تتصرف فيها الملكة الفنية، فإن ذلك لا يسمى شعراً وليس منه في قليل ولا كثير، لأن هذه المعاني مشتركة بين جميع الأذهان، ولا فضل للشاعر فيها على غيره؛ وإنما يقصد بنظمها ضبط الحقائق المتفرقة، وضم المسائل المنتثرة على من أراده، لا التأثيرُ في العاطفة الذي يقصد إليه الشاعر بشعره، ومن ذلك قول المرحوم حافظ بك إبراهيم:

البرلمان تهيأت أسبابه لم يبق من سبب سوى المفتاح

وقوله من قصيدة يودع بها صاحب الدولة المرحوم سعد زغلول باشا في بعض أسفاره لمفاوضة الإنجليز:

الشعب يدعو الله يا زغلول ... أن يستقلّ على يديك النيل

وقوله في هذه القصيدة أيضاً:

فزعيمهم شاكي السلاح مدجّجٌ ... وزعيمنا في كفه منديل

وقوله يمدح ثلاثة من الأغنياء قد وقفوا بعض الضياع على إحدى المدارس المصرية:

ثلاثة من سراة النيل قد وقفوا ... على مدارسنا سبعين فدانا

وخالفوا سنةً في مصر شائعةً ... جرّت على العلم والآداب خسرانا

فإن عادتهم في مصر أن يقفوا ... على القبور وإن لم تحو إنسانا

فهل ترى فرقاً بين تلك الأبيات والأخبار التي تقرؤها في مختلف الصحف إذا نظمت على أجزاء العروض وبحوره؟

وكذلك قول المرحوم أحمد شوقي بك في قصيدته التي أستقبل بها مصر حين عاد من الأندلس:

وكلُّ مسافر سيؤوب يوماً ... إذ رُزِق السلامة والايابا
إلا أن ما في بقية القصيدة من جلال المعاني، وعلو الألفاظ، ورقة الديباجة قد ستر ما يشعر به الأديب المتذوق في هذا البيت من عادية المعنى، وخفته وإبتذاله، وقلة خطره، واشتراك جميع الأذهان فيه
ومن هذا النوع أيضاً تلك المتون التي ينظمها العلماء في مختلف الفنون ليسهل حفظها واستذكار العلم بها على الطالب، كالشاطبية في القراءات، وألفية النحو، والبهجة الوردية في الفقه، وعقود الجمان في البلاغة، وما إلى ذلك
ومنه أيضاً ما كان ينظم في عهد الثورة المصرية من القصائد المسجلة لحوادثها لإثارة العامة. وتنشرها الصحف إذ ذاك في كل يوم لأشخاص لا يجيدون قراءة الشعر فضلاً عن قوله، فلا يلبث أحدهم أن يسمع الحادثة عن بعض الزعماء، أو يرى طوائف الجنود المدججة تجوب الأحياء، أو يسمع الخبر، حتى يجلس جلسته يسيرة يعصر فيها ذهنه، ويكد قريحته، وينشئ قصيدة طويلة الذيول، كثيرة الفضول، لا يذوق الأديب فيها للشعر طعماً، ولا يحس له فيها عيناً ولا أثراً؛ وعفا الله عن الغرابلي باشا، فكم أمطرنا سحابه الهاطل من هذه القصائد ما يصك الأذواق والأسماع، وإن أستهوى قلوب العامة والرعاع، فهذا الشعر أشبه بالخطب الشعبية منه بالقصائد الشعرية
فإذا تصرفت ملكة الشاعر في تلك المعاني الأصيلة، وتناولتها بأناملها الرقيقة الصناع، فأضافت إليها شيئاً من جمال الشعر وروعته، وسحر الفن وفتنته، ومزجتها بخيال مستعذب، أو تعليلٍ مستحسن، أو تشبيهٍ رقيق، أو مجازٍ غريب، أو تصويرٍ فاتن، أو وضعٍ حَسَن أو ترتيبٍ جميل، أو حرارة تحي العاطفة وتستثير الشجن، أو روحٍ فيها تحركُ الحاسة وتجتذب الشعور، أو غير ذلك، تحولت تلك المعاني الأصيلة إلى معانٍ شعريةٍ تحسب أن صاحبها قد إخترعها، ولم تكن معروفةً لأحد قبله، ووقع الشعر من القلوب موقعه، وأصاب من كل نفسٍ موضعه؛ وكان كما قلت في صفة شعر المرحوم إسماعيل صبري باشا في القصيدة التي رثيته بها:
متلمِّسٌ من كلِّ نفس سِرّها ... ومُلامِسٌ من كلِّ قلب موضعا
طبَّ النفوس يعيد في ميت المنى ... روحاً ويبعث في القنوط المطمعا
شِعرٌ إذا يتلى تكاد لحُسَنِهِ ... تَثبُ القلوب من الصدور تطلعا
فكأنها في كلِ بيت تبتغي ... نبأ عن الأحباب فيه أودعا
فلو أن شعركَ كان سجعاً للقطا ... كاد الأراك مع القطا أن يسجعا
ومن المعاني الشعرية ما تراه شائعاً في شعر الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين ومن نهج نهجهم من التحدث إلى ما لا يفهم خطاباً، ولا يحير جواباً، كمخاطبة الأطلال الدراسة، والرسوم الطامسة، ومساءلة الديار الخالية والمغاني المقفرة عن أهلها متى رحلو؟ وأين حلو؟ والدعاء له بسقيا المطر، وأن يعود لها ما فقدته من زمان غبر، كما قال أبو تمام:
دِمنٌ ألم بها فقال سلامُ ... كم حلَّ عقدة صبره الإلمامُ
لا مرَّ يوم واحد إلاّ وفي ... أحشائه لمحلّتيك غمام
حتى تعمّمَ صَلْع هامات الرُّبى ... من نوره وتأزَّر الأهضام
ولقد أراك، فهل أراك بغبطة ... والعيش غض والزمان غلام
أعوام وصل كان ينسى طولها ... ذكرُ النوى فكأنها أيام
ثم انبرت أيامُ هجر أردفتْ ... نجوى أسىّ فكأنها أعوام
ثم انقضت تلك السنون وأهلها ... فكأنها وكأنهم أحلام
وقول مهيار الديلميّ:
سلمت وما الديارُ بسالماتٍ ... على عنتِ البلى يا دارَ هندِ
ولا برحتْ مفوَّفة الغوادى ... تصيب رُباك من خطأ وعمْد
بموقظة الثرى والترب هاد ... ومجدية الجنى والعام مكدي
على أنى متى مطرتْكِ عيني ... ففضلٌ ما سقاكِ الغيث بعدي
أميل إليكِ، يجذبني فؤادي ... وغيرُك - ما استقام السير - قصدي
وأشفق أن تبدّلك المطايا ... بوطأتها كأن ثراكِ خدّي
وعلة الجمال في ذلك أن قوة العاطفة قد ملأتْ قلب الشاعر وضاقت بها نفسه، وضعف عنها احتماله، فافضاها على ما حوله، وأسبغها على ما يشاهده من آثار الديار،

والدِّمن القفار؛ متخيلاً أن لها ماله من قلب وكبد، وإنها تحس ما يحس، وتجد ما يجد؛ ومن ذلك أيضاً مخاطبة الحمائم على الغصون، والإفضاء إليها بما يكنه الشاعر من لوعة وشجون،
كقول الشاعر:

تذكرني أمَّ العلاء حمائمٌ ... تجاوبن أن مالت بهن غصون
تملأ طلا ريشِكُن من النّدي ... وتخضرُّ مما حولكن فنون
ألا يا حمامات اللوى عدْنَ عَودة ... فأني إلى أصواتكن حزينُ
فعُدْن فلما عدْنِ كدْن يمتنني ... وكدتُ بأسراري لهن أبين
فلم تر عيني مثلهن حمائما ... بكين ولم تدمع لهن عيون

وقول أبي كبير الهذليّ:

ألا يا حمام الأيك إلفُك حاضر ... وغصنُك ميّادٌ ففيم تنوحُ
أفِق لا تنُح من غير شيءٍ ... فأنني بكيتُ زماناً والفؤاد صحيح
ولوعاً فشطت غربةً دارُ زينب ... فهأنا أبكى والفؤادُ قريح

ولهذا الشعر قصة طريفة لا بأس من روايتها هنا لما اشتملت عليه من المعاني الشعرية التي نحن بصدد شرحها في هذا الفصل.

لما وُلّي عبد الله بن طاهر خراسان أخذ معه عوف بن محلّم الخزاعي؛ فلما كانا (بالرّي) جلسا تحت شجرة، فسمعا صوت عندليب يغرد، فقال عبد الله: هل سمعت مثل هذا الصوت يا عوف؟ قال: لا والله، ألا قاتل الله أبا كبير الهذلي حيث يقول: (ألا يا حمام الأيك إلفك حاضرٌ) الأبيات. فقال عبد الله بن طاهر: لقد كان في هذيل مائة وثلاثون شاعراً وكلهم مُفْلِق، وكان أبو كبير أحسنهم. بالله عليك يا عوف إلا ما أجزت هذه الأبيات؛ فقال: كبرتْ سني، وفنى ذهني، وأنكرتُ ما كنتُ أعرف؛ فقال عبد الله: أقسمت إلا ما فعلت؛ فقال:

أفي كل عام غربةٌ ونزوح ... أما للنوى من وَنيةٍ فتريح
لقد طلّح البين المشتُّ ركائبي ... فهل أرينَّ البين وهو طليح
وشوقني (بالرَّيّ) نوح حمامة ... فنحت وذو اللّبِ الغريب ينوح
على إنها ناحت ولم تُذْرِ دمعةً ... ونحت وأسراب الدموع سفوح
وناحت وفرخاها بحيث تراهما ... ومن دون أفراخي مَهامهِ فِيح
ألا يا حمام الأيك إلفك حاضرٌ ... وغصنك مَيَّادٌ ففيم تنوح
عسى جود عبد الله أن يعكس النوى ... فتلقى عصار التَّسيار وهي طروح
فإن الغنى يُدني الفتى من صديقه ... وعِدْم الغنى بالمعسرين نزوح

فبكى عبد الله بن طاهر وحلف ألاّ يعمل معه خفاً ولا حافراً إلا بالرجوع إلى أهله، وأمر له بثياب ودنانير؛ فقال عوف:

يا ابن الذي دان له المشرقان ... طُرًّا وقد دان له المغربان
إنَّ الثمانينَ وَبلّغتُها ... قد أحوجت سمعي إلى ترجمان
وبدّلتني بالشطاط انحِنا ... وكنتُ كالصعدة تحت السنان
وبدّلتْني من زَماع الفتى ... وهمّتي همَّ الجبان الهِدان
وقاربت مني خُطى لم تكنِ ... مقارباتٍ وثنتْ من عِنان
وأنشأتْ بيني وبين الورى ... عنانةً من غيرِ نَسج العنَان
ولم تَدَع فيَّ لمستمعٍ ... إلا لساني وبحسْبي لسان
أدعو به الله وأثني به ... على الأمير المُصْعَبيِّ الهجان
فقرّباني بأبي أنتما ... من وطني قبل اصفرار البنان
وقبلَ منعايَ إلى نسوةٍ ... أوطانها حران والرقتان

أما أمثلة المعاني الشعرية من شعر المعاصرين، فمن ذلك قصيدة (مصاير الأيام) للمرحوم احمد شوقي بك، فقد بلغت هذه القصيدة من جمال الفن، ووفرة هذه المعاني الفاتنة غايةً لم تبلغها قصيدة أخرى من شعر المعاصرين، وأنا انصح للأدباء والتادبين بحفظها وروايتها فأنها تعتبر بحق من معجزات الشعر الحديث لما فيها من دقة في تصوير الحياة بجميع مراحلها حتى ليخيل لك أنها حياة كاملة من مبدئها إلى نهايتها يقول في أولها:

ألا حبِّذا صحبةُ المكتبِ ... وأحْبِبْ بأيامه أحْبِبِ!

ويا حبذا صبيةٌ يمرحون ... عِنانُ الحياة عليهم صَبي
كأنهمُ بَسماتُ الحياة ... وأنفاسُ رَيحانها الطيّبِ
يُراح ويُغدى بهم كالقَطيع ... على مشرق الشمس والمغرب
إلى مَرْتع الفِوا غيَره ... وراعٍ غريبِ العصا أجنبي
ومستقَبلٍ من قيود الحياة ... شديدٍ على النفس مستصعَب
فراخٍ بأيكٍ فمن ناهضٍ ... يروض الجناحَ ومن أزغَبِ
تقاعدُهم من جَناح الزمان ... وما عملوا خطرَ المْركَب
عصافيرُ عند تهجّي الدروس ... مِهارٌ عرابيدُ في المَلْعب
خليّون من تبِعات الحياة ... على الأمّ يُلقونها والأب
جنونُ الحداثة من حولهم ... تضيق به سَعةُ المذهب
عدا فاستبدّ بعقل الصّبّي ... وأعدَى المؤدِّبَ حتى صبي
لهم جَرَسٌ مطربٌ في السراح ... وليس إذا جدّ بالطرب
توارت به ساعةٌ للزمان ... على الناس دائرةُ العقرب
تَشُول بإبرتها للشباب ... وتقذف بالسمّ في الشَّيب
يَدقّ بمطرقتيها القضاء ... وتجري المقادير في اللولب
وتلك ألا واعي بإيمانهم ... حقائب فيها الغد المختبي
ففيها الذي أن يقم لا يُعَد ... من الناس أو يَمضِ لم يُحسب
وفيها اللواء وفيها المنار ... وفيها التبيع وفيها النّبي
وفيها المؤخَّر خلف الزحام ... وفيها المقدمّ في الموكب
ويقول في آخرها:
قد انصرفوا بعد علم الكتاب ... لبابٍ من العلم لم يكتب
حياةٌ يغامر فيها امرؤٌ ... تسلح بالناب والمخلب
وصار إلى الفاقة ابن الغنّي ... ولاقى الغني ولد المترب
وقد ذهب الممتلئ صحة ... وصح السايم فلم يذهب
وكم منجب في تلقي الدروس ... تلقى الحياة فلم ينجب
وغاب الرفاق كأن لم يكن ... بهم لك عهدٌ ولم تصحب
إلى أن فنوا ثلةً ثلةً ... فناء السراب على السبسب

ولنذكر لك مثالا أخر للمعنى الشعري من شعر شوقي أيضاً موضحين لك معناه الأصلي، وكيف استطاع صاحبه أن يحوله إلى معنى شعري بما أدخله عليه من المحسنات التي تلعب بالألباب لعب الشمول، قال يصف أبا الهول:

أبا الهول طال عليك العصُر ... وبلغت في الدهر أقصى العمُر
فيالدةَ الدهر لا الدهر شاب ... ولا أنت جاوزتَ حد الصغر
إلامَ ركوبك متن الرمال ... لطيِّ الأصيل وجَوْب السحر
تسافر منتقلاً في القرون ... فأيان تلقى غبار السفر
أبينك عهدٌ وبين الجبال ... تزولان في الموعد المنتظر
الخ. . .

فإن المعنى الأصلي لهذه الأبيات لا يزيد على أنه يصف أبا الهول بطول البقاء، وأن العصور المتوالية والأجيال المتعاقبة لم تنل منه منالاً، ولم تصدع له بناء، فأنظر إلى عبقرية شوقي كيف أتت بذلك المعنى اليسير واستخرجت منه تلك المعاني الكثيرة الساحرة ومزجته بتلك المحسنات الفاتنة؛ أتراه لو انه اقتصر على نظم المعنى الأول كان يعده أصحاب الذوق الشعري قد صنع شيئاً أو أتى بجديدة؟ ولا يفوتنا في هذا الفصل التنبيه على وفرة هذه المعاني الشعرية الساحرة، وقوة الجمال الفني الرائع في شعر الرافعي، فانك تحس بذلك الجمال في كل بيت من ابياته، بل في كل من نثره، بل فيه هو إذا جلست إليه وتحدث اليك، فهو شعر كله؛ وإنما انسب الغموض المتوهم في بعض أبياته إلى قصور ذهن المتوسطين من القراء، والى ضيق الألفاظ المحدودة، عن أن تحصر هذا الجمال المعنوي الذي لا يحد؛ إلا إنني أرى أن معانيه من صنعة الفكر وابتكار الذهن، لا من وحي العاطفة وإملاء الإحساس. واليك بعضاً من شعره ليتبين لك صحة ما ذهبت إليه؛ قال يصف بائسة حسناء أفقرتها الحرب:

طريدة بؤس ملّ من بؤسها الصبرُ ... وطالت على الغبراء أيامها الغُبر

وكانت كما شاءت وشاء جمالها ... كما اشتهت العليا كما وصف الشعر
تلألأ في صدر المكارم دُرَّةً ... يحيط بها من عِقد أنسابها درّ
وما برحت ترقى السنين وتعتلى ... وكل المعالي في طفولتها حِجْر
فكانت كَزهر نَضرّ الفجرُ حسَنه ... ولما علت كالنجم أطفأها الفجر
تقاسمت الحسْن الإلهي وأُنثنى ... يقاسمها، فالأمر بينهما أمر
فللشمس منها طلعة الحسن مُشرقاً ... وفيها من الشمس التوقد والجمر
وللزَّهر منها نفحةُ الحسن عاطرا ... وفيها ذُبولٌ مثلَما ذبلَ الزهر
وللظبي منها مقلتاها وجيدها ... وفيها من الظبي التلفت والذعر
وما قيمة الحسناء يقبح حظها ... وتذوي بروض الحب أيامها الخُضْر
فما الحسن فخر للحسان وإنما ... لخالقه فيما يريد به سِرّ
ضعيفة أنفاس المنى بعد ما غدت ... رقابُ أمانيها يغلّلها الفقر
وبين خُطَى أيامها كل عَثرةٍ ... يزلزل أقدامَ الحياة بها العُسر
وزَجت بها الأحزان في بحر دمعها ... وليس لبحر الدمع في ارضنا بر
إذا استنبؤها أرسلت من دموعها ... لآلى حزن كلّ لؤلؤةَ فكْرْ
وان سألوها لجَلجَت فكأنما ... عرا اللفظ لما مرّ من فمها سكْر
مشرَّدة حيرى تنازَعَ نفسها ... فريقان ذلٌ لم تعوَّده والكبرْ
إلى أن قال في هذه القصيدة يصف ما في الإنسان من شر وسوء:
رأت كل مخزاة من الشر تلتوي ... ويهرب ذعراً من جنايتها العذر
رأت أثراً تَدمى به الأرض والسما ... وليس سوى الإنسان في جرحه ظُفر
أليس يرى الإنسانُ في القرد شِبَهُه ... فهل ذاك إلا من تكبّره سُخْر
كما عاقب الله الأسود لكبرها ... فجاء لنا في صورة الأسد الهرِّ
وهي طويلة

فقد عرفت ألان نوعين من المعاني وعرفت الفرق بين المعاني الأولية والمعاني الشعرية التي هي من مقومات الشعر وأصوله فينبغي للشاعر إذا أراد أن يكون شعره مخصب المعاني، متنوع الاغراض، ان يقصد إلى المعنى قبل ألفاظ البيت وقافيته، فيمزجه بالمحسنات التي سبق ذكرها، ويهذبه تهذيباً يقربه من العواطف ليحدث فيها اثره، ويبعث الحياة فيما همد منها. وبعض الشعراء قد تعوزهم من البيت قافية فيتطلبونها قبل المعنى، ويتلمسونها قبل إعداد الغرض، فإذا ظفروا بالقافية آتوا بالمعنى على مقتضاها، فيخرج الشعر مكبلة معانيه، مظلمة نواحيه، ضيق المقاصد، قليل الأغراض؛ وكثيراً ما ترى ذلك أيضاً في شعر شعراء البديع الذين لا يقصدون من البيت أو القصيدة إلا إلى ذلك النوع البديعي الذي لا يحرك نفساً، ولا يهز حساً، فقد أجهزوا على الشعر بالحرص على هذه المحسنات اللفظية إجهازاً تاماً، وصيروا البكاء عليه في جميع الأقطار عاماً، واليك أبياتاً

من قصيدة لصلاح الدين الصفدي كتب بها إلى صديقه جمال الدين بن نباته المصري، وقد ضمنها شطرات من معلقة امرئ القيس التي أولها: (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل) وجعل صدر كل بيت من شعره وعجزه من قصيدة امرئ القيس، قال:
أفي كل يوم منك عتب يسؤني ... (كجلمود صخر حطه السيل من عَلِ)
وتَرمى على طول المدى متجّنياً ... (بسهميكَ في أعشار قلب مقتَّل)
فأمسِي بليل طال جنح ظلامه ... (عليّ بأنواع الهموم ليبتلى)
وأغدو كأن القلب من وقدة الجوى ... (إذا جاش فيه حَميهُ غلى مِرجَل)
تطير شظاياه بصدري كأنها ... (بأرجائه القصوى أنابيشُ عُنصُل)
وسالت دموعي من همومي ولوعتي ... (على النحر حتى بل دّمعيَ محملي)
وهي طويلة، وقد أجابه ابن نباته بقصيدة مثلها ضمنها شعر امرئ القيس أيضاً، قال:
فَطَمَت ولاَئي ثم أقبلت عاتباً ... (أفاطمُ مهلاً بعض هذا التدلل)
بروحيَ ألفاظ تعّرض عتبُها ... (تعّرضَ أثناء الوشاح المفصّل)
فأحيين وداً كان كالرسم عافياً ... (بسقط اللوى بين الدخّول فحومل)
تعفىّ رياح الغدر منك رقومَه ... (لِما نسجَتها من جنوب وشمأل)
نعم قَوِّضتْ منك المودّةُ وانقضت ... (فيا عجبا من رحلها المتحمّل)
وهي طويلة أيضاً

فهل ترى في هذا الشعر غير المقدرة على الملاءمة بين شعرهما وشعر امرئ القيس، والمهارة في التوفيق بين المعاني المتباعدة، والأغراض المتباينة؟ على أن هذه المقدرة ضائعة القيمة حقيرة الخطر إذا قيست بما جره تكلف التضمين على هذه الأبيات من تفاهة وبرود، وخلوها من روح الشعر. ولنا في هذه الفصول عودة إلى شعراء البديع وغيرهم ممن يحرصون على إظهار المقدرة اللفظية اكثر من غيرها في شعرهم.

احمد الزين

معركة عدوى

للأستاذ الفريق طه باشا الهاشمي رئيس أركان حرب الجيش العراقي

أخذت الجرائد والمجلات في الآونة الأخيرة تبحث في معركة عدوى التي انتصر فيها الأحباش على الطليان وكثيراً ما يذكرها الطاغية موسوليني، ويحث الشبان الفاشيست على محو وصمة العار التي لحقت بالجيش الطلياني، ويعلن للملأ انه عازم على الانتقام من الأحباش.

وقعت هذه المعركة في 1 مارس 1896 في أطراف عدوى بين الجيش الطلياني البالغ عدده زهاء عشرين الفاً، والجيش الحبشي البالغ مقداره زهاء ثمانين ألفاً، وبرغم حيازة الجيشالطلياني على الأسلحة الجيدة، وتنظيمه على احدث الأساليب، انتصر الأحباش عليه انتصاراً مبيناً، وأوقعوا به خسارة فادحة بلغت 248 ضابطاً، و15400 جندي، بين قتيل وجريح وأسير، ونالوا بذلك صك استقلالهم الذي امتنعت إيطاليا عن الاعتراف به.

لم يكن الجيش الحبشي جيشاً منظماً على الوجه المطلوب، بل كان مؤلفاً من أناس مسلحين بأسلحة متنوعة كالبندقية والحربة والسيف والترس والقوس وغير ذلك، وكان يقودهم رؤساؤهم على الطريقة البدوية وكانت مدافعه قديمة يبلغ عددها الأربعين؛ وكان لدى الجيش الطلياني أربعة وستون مدفعاً حديثاً

وقبل البحث في هذه المعركة رأينا من المفيد أن نذكر باختصار جغرافية الحبشة وتاريخها وعلاقاتها بالدول المستعمرة

جغرافية الحبشة

تقع الحبشة في الشمال الشرقي من أفريقية ويحيط بها من الشرق مستعمرة إريترية الطليانية، والمستعمرات الصومالية الفرنسية، والبريطانية والطليانية؛ ومن الشمال مستعمرة إريترية والسودان المصري؛ ومن الغرب والجنوب المستعمرات البريطانية في وسط أفريقية.

ولا منفذ للحبشة إلى البحر الأحمر، وقد سدت دول الاستعمار طريق البحر في وجهها، فجعلتها خاضعة لها في تجارتها واقتصادياتها. وتبلغ مساحتها السطحية زهاء 1. 120. 400 كيلو متراً مربعاً؛ وتقدر نفوسها باثني عشر مليوناً؛ وهذه النفوس لا تنتمي إلى قومية واحدة، ولا تدين بدين واحد؛ وفيما يلي الشعوب التي يتألف منها سكان الحبشة: الأمحرة، الغالا، السيدامو، الصومال، الدناكل، الزنوج ودين الدولة الرسمي المسيحية، والمذهب يعقوبي. وفيما يلي عدد النفوس بالنظر إلى الأديان:

العدد

4. 500. 000 مسيحيون (يعاقبة)

3. 000. 000 مسلمون

3. 500. 000 وثنيون

50. 000 يهود

40. 000 كاثوليك

5. 000 الاتحاد اللاتيني

واللغة الرسمية هي اللغة الامحرية وهي شعبة من اللغات السامية والعاصمة أديس أبابا ونفوسها زهاء 100. 000 نسمة وهي متصلة بالميناء جيبوتي عاصمة المستعمرة الفرنسية بالسكة الحديدية.

وصف البلاد - السهول والجبال

تتألف بلاد الحبشة من جبال وسهول. والأراضي السهلة واقعة بالقرب من الساحل. أما

الأراضي الجبلية فهي في داخل البلاد. وإذا ما أنعمنا النظر في خريطة الحبشة رأينا إن سلاسل الجبال الواقعة إلى الشرق وإلى الجنوب قد كونت مثلثاً متساوي الأضلاع: الضلع الشرقي منه ضفاف البحر الأحمر وخليج عدن، والضلع الجنوبي يمتد من رأس عسير المقابل لجزيرة سومطرة إلى الشرق، والضلع الغربي يمتد من الشمال إلى الجنوب.

والأرض الواقعة في هذا المثلث هي الأرض السهلة المتموجة من بلاد الحبشة والمتاخمة لمستعمرة إريترية الطليانية والصومال الفرنسي والبريطاني. والقسم الشمالي منها صحراء دناكل القاحلة، وإلى جنوبي الضلع الجنوبي من ذلك المثلث تقع أرض سهلة متموجة أخرى تتألف منها بلاد الغالا وفيها قصبة ولوال التي نشأ الخلاف عليها بين إيطاليا والحبشة.

وليست الأرض المتموجة خالية من الجبال، فالجبال منتشرة فيها هنا وهناك، إلا إنها أقل وعورة من المناطق الجبلية الواقعة إلى غربي الضلع الغربي من المثلث المذكور. ومع

ذلك تقع سفوح الجبال الشرقية إلى شرقي هذا الضلع وهي شديدة الانحدار كثيرة المناعة والوعورة.

والجبال في الحبشة تحيط البلاد الداخلية بسور منيع طالما وقف في وجه المستعمرين وساعد الأحباش على الاحتفاظ باستقلالهم.

ويشبه الوضع الجبلي في داخل بلاد الحبشة خطوطاً مستحكمة، فخط منها في الشرق يمتد من الشمال إلى الجنوب على موازاة الساحل ويسيطر على السهول ويسد طرق الاستيلاء الممتدة من الساحل. وهذا الخط هو السلسلة التي تؤلف ضلع المثلث الغربي.

وهناك خط آخر ممتد من رأس عسير في الصومال البريطانية على موازاة ساحل خليج عدن الجنوبي إلى أن يصل إلى قصبة (هرر) ثم ينعطف نحو الجهة الجنوبية الشرقية ثم إلى الجنوب موازياً للبحيرات الواقعة في جنوبي الحبشة، وهو السلسلة التي تؤلف الضلع الجنوبي للمثلث. وهذا الخط يعلو ارتفاعاً ويشتد مناعة كلما تقدمنا من الشرق إلى الغرب، وكأنه الخط المستحكم الأول الذي يسد طرق الهجوم في وجه القوات الزاحفة من الصومال الطليانية للتوغل في صحراء الغالا.

وغير هذين الخطين توجد خطوط أخرى تمر بذري الجبال الشامخة منفصلة عن الخط الشرقي وممتدة من الشرق إلى الغرب على موازاة حدود إريترية الطليانية الشمالية كأنها خطوط مستحكمة متوازية لصد القوات المتقدمة من الشمال على التعاقب.

ومع وقوع الأرض السهلة والأرض المتموجة والحافات الشرقية الوعرة في شرقي الخط الأول الممتد من الشمال إلى الجنوب والمسيطر على صحراء الدناكل تشتد الأرض وعودة وتزداد مناعة في هذا الخط ذاته وفي غربيه - أي في الهضبة الحبشية التي تقطعها عدة سلاسل جبلية ممتدة من الشرق إلى الغرب على ما سبق ذكره؛ وفي أطراف بحيرة تانا نلتف الجبال بعضها ببعض فتكون المعقل المركزي للحبشة بشكل منحرف، ضلعاه القصيران في اتجاهي الشرق والغرب، وضلعاه الطويلان في اتجاهي الشمال والجنوب؛ وتقع العاصمة (أديس أبابا) في طرف الضلع الشرقي.

أما منطقة البحيرات الواقعة في جنوبي الحبشة فمحاطة من الشرق والغرب بسلسلتين جبليتين؛ وهما طرفا الخط الأول والخط الثاني الممتدين من الشرق والغرب، وفي وسط

هاتين السلسلتين تعلو البحيرات فتؤلف هضبة مرتفعة.

مما تقدم نعلم أن داخل بلاد الحبشة قلعة منيعة ذات عدة خطوط مستحكمة تسيطر على السهول في الشرق والجنوب، وهي مؤلفة من عدة معاقل كونها الهضاب الشامخة بجبالها وغاباتها وبحيرة (تانا).

تمد وادي النيل بالمياه في موسم الصيف بواسطة رافده النيل الأزرق، وهي ذات خطورة خاصة لمصر والسودان، ولولاها لما فاض النيل في كل سنة فسقي الحقول الواسعة والمزارع الخصبة التي ضرب بها المثل في فجر التاريخ؛ وسبب ذلك أن الثلوج المتراكمة في ذرى الجبال تذوب فتختلط بالأمطار الغزيرة التي تنزل صيفاً فتجري في الوديان المتشبعة من الجبال وتنصب جميعاً في النيل الأزرق فيطفح

بالمياه وبالطين، وينقل البركة والخير إلى بلاد السودان ومصر.
ولنذكر بعد ذلك المرتفعات التي في أرض الحبشة:
الأرض المتاخمة للساحل في المستعمرات الطليانية والفرنسية والبريطانية منخفضة وسهلة، وكلما تقدمنا من الشرق إلى الغرب أخذت الأرض في الارتفاع. وفي إريترية (على مسافة تتراوح بين 50 و80 كيلو متراً من الساحل تتصل هذه الأرض بالقسم الشمالي من الخط الأول فتصبح شامخة وعرة، مكسوة بالغابات والإحراج.
وفي صحراء دناكل بالقرب من (عصب) تكون أرضاً متموجة قليلة المياه، وذات شعاب ووديان؛ وعلى مسافة (200 إلى 300) كيلو متر من الساحل تصل إلى حدها الأعلى في الخط الأول حيث المضايق الوعرة؛ ويتفاوت ارتفاع الذرى في هذا الخط من (2400 إلى 4300) متر، ويبلغ الارتفاع في ذروة (أبونا يوسف) (4200) متر، وفي ذروة (كللو) يبلغ 4300 متر، وتقع قلعة (مجدلة) على هذه الخط.
وفي الجنوب يبدأ السهل من ساحل البحر المحيط الهندي ويأخذ في الارتفاع إلى الغرب، وعلى مسافة 200 إلى 300 كيلو متر من الساحل يبلغ من الارتفاع والوعورة مبلغاً يكون هضاب (اوجادن) و (بوران).
وتتفاوت الارتفاعات في هذا القسم من (300 إلى 1000) متر وبالقرب من خليج عدن يبلغ الارتفاع في السلسلة التي تؤلف الخط الأول 2000 متر في جنوبي (بربرة).
وفي صحراء (الغالا) نجد الأرض متموجة والروابي قليلة الميل، وهي ترتفع إلى جبال هرر بسهولة وتلتقي بالخط الثاني، وتتفاوت المرتفعات في مركز هذا الخط من (1000) إلى (1500) متر، وفيها هضاب شامخة بانحدارات شديدة كأنها جدران يتفاوت ارتفاعها من (2000 إلى 3500) متر وصخورها بركانية.
أما الجبال الداخلية التي تؤلف معاقل الحبشة فالهضاب فيها ترتفع (2000) متر كأنها قلعة أحاطت بها الجبال من الشمال والشرق والجنوب، ومع ذلك لا يمكن تسلقها من جهة الغرب حيث يجري النيل الأزرق إلا بصعوبة.
وفي منطقة (غوجام) يبلغ الارتفاع في راس (دانجان) (4620) متراً وهو أعلى ذروة في بلاد الحبشة

(يتبع)

طه الهاشمي

من الأشواق الملتهبة

شجرتي الضالة

(مهداة إلى الأستاذ مصطفى صادق الرافعي)

للأستاذ خليل هنداوي

مقدمة:

(لي شجرة ضخمة الجذع وارفة الغصن؛ أحج إليها كل يوم لأتبوأ جذعها ألابتر مقعداً، حيث لا يطرقني إلا الطيور النازحة والنسائم الرائحة شان هذه الشجرة عجيب، قد غبرت عليها عصور، وهي ثابتة تبدل قشوراً بقشور، لا يمسها نصب ولا فتور. والسالك في ذلك الطريق الوعر ينجذب بظلها، فيأوي إليها مخففاً عن نفسه بعض ما ناء بها من مشقة الطريق؛ فيرى الظل والراحة والنعيم؛ فيتمنى لو أنام أيامه تحت ظلها؛ أو لو أن حياته القلقة تحتوي على مثل هذا الظل الذي تنحط عليه الشمس من كل مكان لتحرقه وما هو بمحترق؛ ولكن الإنسان ما أشقاه! ولوع بالسير ولكن إلى أين؟ هذه الشجرة آثرتها لي مثوى في أيام صيفي، لأنها تقصيني عن الناس وتديننى من نفسي؛ وما آثرته لجسدي منتقلاً كيف لا أوثره له يوم تغدو حقيقته ظلاً!. . .)

(خليل)

المسلك إليك وعر يا شجرتي!

وهأنذا قد سلكته

الطريق محفوف بالشوك

وهأنذا قد طرقته. . .

يقولون عنك (ضالة) لأنك آثرت هذه العزلة العميقة، وهذه الزاوية السحيقة وينظرون إليك ساخرين لأنك تركتهم وملت إلى الانفراد.

كم يخشى الناس هؤلاء المعتزلين!

يرونهم فيقولون: ربنا لا تجعلنا من الضالين
اتضنين على من سلك الوعر إليك. . .
ضالاً عن قرنائه
بهذا الفيء الذي جاهدت جذورك وأوراقك وروحك في حياكته
ولو أردت الظل لنفسك لما تعبت في مده
والظل الخفيف يغنيك. . .
ولكنك لست كالإنسان الذي يقضي العمر كله في حياكة ظل لنفسه، ويمضي غير منتهٍ من
حياكة ذلك الظل
أما ظلك أنت فقد حُكتِه!
وهذا الظل الواسع الممدود على الأرض لم تحوكينه؟
أليس - للظالين - أيتها الشجرة الظالة؟
إلهي اجعلنا من الضالين!
- أتضنين على من تحمل النصب من أجلك - وقد تكونين أنتِ في غنى عنه
أتضنين عليه باستواء قصير على منكبك العالي
ليشركك في تأملك العميق
وإن ضلالك ليشرك ضلالي
وظلك الممدود ينادي خيالي
فلا تثاقلي من استوائي عليك، فإنني لن أشوش عليك تأملاتك
ولن تعطل طيورك أهازيجها من أجلي
افتحي قلبك لي فإني لاجيء إليك
وأومئي بأوراقك فإني ضال مثلك
أأنت تلك المحجة التي يسعى إليها الإنسان غير حافل بوعورة الطريقة؟
أأنت تلك المحجة التي تناهضها الصخور والوعور والأشواك لتواريها عن العيون؟
وكم يكلف الوصول إلى هذه المحجة؟
إرتفعي كثيراً وأسمي كثيراً، حتى تبدو للضالين ذروتك، وأصعدي باغصانكِ إلى السماء.
وليجذبها شوقك دائماً إلى السماء.
هل رأيت المحجة بعين الشوق، فأنبأت رفيقاتك فسخرن منك، لأنهن لا يرين إلا
بعيونهن. . . فإعتزلتهن، وانطلقت وحدك وراء المحجة
نورها يسطع للعيون براقاً، فما أدناه للعين وما أبعد تناوله!
أغمضي عينك فقد جمدت، وسالمي قدمك فقد ارتعشت
والمحجة لا تزال بعيدة كالنور الذي ترنو إليه العين وتقصر عنه اليد.
ألا أن المحجة في عالم أنفسنا قد سطعت، فمدى يدك إلى قلبك تلمسيها، وانظري بعينك
في نفسك تبصريها.
ألا إن المحجة في أنفسنا. . .
ستضرمنا العاصفة ثم تذرونا الرياح رماداً قبل أن ندرك هذه المحجة.
أليست هي في أنفسنا؟ ولكن الأبعاد الشاسعة بين نجوم الفضاء. . . هذه الأبعاد التي ترتجف لها مقاييسنا حين نمدها بينها، هذه الأبعاد هي أقرب تناولاً من الأبعاد الشاسعة المنتصبة بيننا وبين أنفسنا.
أين أنت أيهذا الذي بلغ نفسه!
بلى! ستضر منا العاصفة، وسنحول رماداً قبل أن تنتهي مراحلنا إلى أنفسنا
كلانا ضال وراء نفسه
كلانا يرهب طريقه الناس، لأن طريقنا طريق الوحدة، وطريق الوحدة طريق الضلال
كلانا يمشي وإن لم يكن في نظر المقاييس شيئاً، لأن مشينا لا تدركه مقاييس
ضميني إليك يا شجرتي الضالة فقد أضواني السير ولفحت وجهي الشمس
ضميني إليك أقرن تأملاتي بتأملاتك، فنحن في نظر الحياة شريكان يتمم بعضنا بعضاً
تضيئنا شمس واحدة، وتنير طريقنا مصابيح واحدة، وتعانقنا غاية واحدة
مشهدك واحد في حياتك كلها لا يبرح ناظرك، ولك منه كل يوم وجه للتأمل جديد

ومشاهدي كثيرة واعتباري منها قليل
وواصلي أيها الطيور أغانيك فوق رأسي فما أنا بالمروع لك!
وغذيني أيتها الشجرة الضالة بفيئك الواسع
وغداً أغذي جذورك بلحمي ودمي
ألست ظمأى إلى دم إنسان!
محجتنا واحدة وصداقتنا عميقة فوق ظهر الأرض وتحت بطنها
ستمتصني جذورك عصيراً، وستحملني سراً عميقاً إلى فروعك السامية.
إننا لن نقف!
لأن الشمس تبارك أشواقنا وتنير أرواحنا لأننا أحسنا الاستحالة
وبغير هذه الاستحالة كيف يريدون أن تحوك جذورك هذا الظل الوارف الذي يأوي إليه الضالون!
وكيف يريدون أن تعيش هذه الزهور المتفتحة بدون رماد!
ألسنا في حالي الفناء والوجود قافلة من قوافل الحياة السائرة منذ الأبد حتى الأبد؟
ألست في صدرك حياً أيتها الشجرة؟
ألست أنت حية في صدر النار التي ستلتهمك؟
ونحن ألسنا بعد شيئاً ينبض في قلب الحياة دماً ولحماً، وماء ونباتاً، وناراً ورماداً؟
ربي أحلني في قلب هذه الشجرة ثمرة يباركها قلب جائع، ثم اجعلنا وقوداً لنار يهتدي بها
الضالون.
(كفريا)
خليل هنداوي
من نوادر المخطوطات
أثر أدبي فذ!
اختراع الخراع لصلاح الدين الصفدي
للأستاذ علي الطنطاوي
تتمة
قوله من الطلوع: نعوذ بالله منه، لأنه مرض بلغمي يحدث في الشعر لمداومة أكل الزنجبيل والأشياء الحارة: كالبطيخ والأسماك، وغيرها. قال أبن الدمينة يرثى شخصاً:
فسَّر لي عابر مناماً ... فصّل في قوله وأجملْ
وقال لابدّ من طلوع ... فكان ذاك الطلوع دّملْ
ومن قال إن الطلوع ضد النزول وأستشهد بقول أبي ذؤيب الهذلي في الهجاء:
أيسعدني يا طلعة البدر طالع ... ومن شقوتي خطٌّ بخديك نازل
فقد أخطأ ووهم والصحيح الأول.
إلى بئركِ: لفظ مركب من الأعداد في التركي، كقولك في العربي واحد إثنان، فبير واحد وإكي اثنان. ومجموع هذا العد سبعة ونصف، لأن إكي ناقصة الياء، ولولا ذلك لكان المجموع ثمانية، وألفاظ الأتراك لا شاهد عليها من العربية. فلهذا أضربنا عن الاستشهاد لذلك.
في الليل: الليل معروف، وهو من الزوال إلى أذان العصر في العرف، وفي اللغة من طلوع الشمس إلى غروبها، كما قال دريد بن الصمّة في الغزل:
أستوفي قلْيّوبَ ... إلى كم هكذا تكذب
من الصبح إلى الظهر ... إلى العصر إلى المغرب
وقليوب بليدة صغير على شاطئ الفرات من أعمال عدن، وقيل هي إقريطش (كريد) باليمن.
قوله: ظلام النهار الخ. . . الخ.
القول في الإعراب
لو: حرف يجر الاسم ويكسر الخبر على ما ذكره الرماني في شرح طبيعي الشفا. والكسائي في رموز الكنوز هذا مذهب الكوفيين، والصحيح إنها من الأفعال الناقصة التي لا عمل لها، إنما قلنا إنها فعل ناقص لأنها كانت في الأصل لوي فنقصت حرفاً، وإنما قلنا إنها لا عمل لها لأنها متى نقصت ضعفت عن العمل، وهذا الذي ذهب إليه

إقليدس وأرشميدس في مخارج الحروف وبرهناه مستشهدين على ذلك بقول الشماخ في رائيته:

أرسل فرعاً ولوي هاجري ... صدغاً فأعيا بهما واصفه

وقد سقط من الرسالة أوراق لا أدري كم هي، ثم يبدأ الموجود منها بقوله قال الشارح رحمه الله تعالى:

ما في كلام العرب أسم معتل الطرف بالألف المقصورة غير كان، وهذا مع أن دخلت فيها الحركات الثلاث: الجر والخفض والكسر فأجريت مجرى الصحيح، وليس بعجيب. قال أرسطو العبري:

وربما صحت الأجسام بالعلل

ومن قال: هذا من شعر أبي مرة الحلاوي أبن المتنبي فهذا قول من لا يدري علم الرمل ما هو. . .

وبعد هذا فما أدري بماذا حكم عليها؟ هل هي صلة وتتمة لأبن خلكان وزير بغداد الحنبلي، أو هي أسم قائم برأسه، أستغفر الله: قائم برجليه. فإن قلنا إنه صلة من أبن خلكان فلا يخلو إما أن يكون العائد على الصلة من باب أسماء الأفعال أو من باب مالا يتصرف، فإن كان الأول من القسمين لزم الخ. . أكل: فعل مضارع لأن في أوله أحد الزوائد الخمسة وهو الهمزة، إنما قلنا بزيادتها لأنه لا يصح تجريدها، تقول كل شيء. . . قال لبيد:

كل خطب ما لم تكونوا غضاباً ... يا أهيل الحمى عليّ يسير

وقد جاء فعلاً ماضياً في قول الخنساء الاخيلية ترثي زوجها:

أكِلُ الأمرِ إذا ما حل بي ... للذي قدَّره أن يقعا

الشعير: الألف واللام أصلية، وهو نكرة إن قلنا بأنها أداة التعريف، ومعرفة إن قلنا بأصليتها، ذكر ذلك المبرد في كتاب ديسقوريدوس في باب النعت، وهو هاهنا مرفوع على الحال؛ وللنجاة هاهنا بحث في الماضي والمستقبل والحال بينهم وبين الحكماء، لأن النجاة

أنكروا زمن الحال، وقالوا ثبوته يؤدي إلى القول بالجوهر الفرد وهو ممنوع، وقول الحكماء أقرب إلى الصحة قال عبد الله بن عجلان النهدي:

ولو عاين النظام جوهر ثغرها ... لما شك فيه أنه الجوهر الفرد

وما الذي يمنع الخ. . .

في: أسم لأنه يحسن دخول حرف الجر عليه: تقول أنتقل من الشمس إلى فيء الظل، ودخول الألف واللام: تقول هذه الدراهم مبلغ ألفي درهم، والإضافة تقول: أعجبني حسن فيك، والتنوين أيضاً تقول: هذا المال فيءٌ للمسلمين، وعلى الجملة فما للنجاة في الأسماء كلمة يدخلها سائر خواص الاسم إلا (في) وهي ممنوعة من الصرف لأنه أجتمع فيها من العلل أكثر مما أجتمع في أذربيجان، وذلك أن الفاء بعشرة والياء بثمانين على ما ذكره الزجاج في الجمل، فصارت تسعين، وعلل الصرف المانعة تسعة!

قال شبرمة بن الطفيل في وصف الزرافة:

ربَّ برغوث ليلة بت منه ... وفؤادي في قبضة التسعين

والقبض هو المنع من الصرف. فلهذا قال النحاة إن (في) لا تنصرف، وهذه النكتة غريبة جداً لم أر أحداً ذكرها من النحاة غير الأصطخري في كتاب الحميات له، وهو معرب بالنصب على أنه صفة للفاعل وهو جارية وإن قلنا إلخ. . .

البرد: منصوب بالألف واللام التي في آخره على أنه خبر متقدم تأخر عنه المبتدأ فحذف، وهي مسألة مشهورة في باب الاستثناء، ونصّ عليها سيبويه خلافاً لأبن الحاجب لما بحث معه في المسألة الزنبورية بين يدي الوليد بن عبد الملك، وتقدم الخبر دائر في الكلام على ألسنة العرب، قال كثير عزة في محبوبته بثينة:

والله ما من خبر سرني=إلا وذكراك له مبتدأ

فقدم الخبر وأخر المبتدأ. . .

(إلى أن قال):

القول على المعنى

قبل الخوض في الكلام على المعنى نقدم مقدمة تشتمل على ما يتعلق بهذين البيتين

من التاريخ منقولاً من المجسطي للأحنف أبن قيس في تاريخ بغداد؛ فنقول: بكتوت هذه كانت
بعض حظايا النعمان بن المنذر، شراها من نور الدين الشهيد صاحب القيروان، وكانت قبل لعنان بنت النابغة أبن أبي سلمى زوج سيف الدولة أبن بويه السلجوقي أول ملوك السامانية الذين أخذوا خراسان من الفاطميين.
. . .أول أملاكهم السفاح
والسفاح هو أخو العاضد
وكانت بكنوت الخ. . . وما أحسن قول بعض ملوك الأندلس أظنه أبن سكرة الهاشمي:
أيا ربة القرط التي حسنت هتكي ... على أيّ حال كان لابدّ لي منك
فأما بذلٌ وهو أليق بالهوى ... وأما بعزّ وهو أليق بالملك
وقد أخطأ من نسبهما إلى ابن الأحمر، فقد أوردهما صاحب المرقص والمطرب، وهو مصنف موجود قبل ابن الأحمر بألف وخمسمائة سنة. وهذا المعنى من البيتين واضح اتضاح الغسق نصف الليل في ثماني وعشرين من الشهر، وضياء الباطل إذا جاءه الحق، إن الباطل كان زهوقاً، ولله در نجم الدين الكاسي دبيران حيث قال يخاطب الشريف الرضي:
وليس يصح في الإفهام شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليل
هذا مثال من هذه الرسالة العجيبة، نقف عنده لا نجاوزه إلى القول في البديع والعروض والقافية لأن المقال قد طال، ونخشى أن يمل القراء الكرام
علي الطنطاوي
من صور العباقرة
هانيبال
بقلم حسين مؤنس
لنكن على حذر حين نلتمس أخبار هانيبال، فهذا رجل وكل أمره لأنصاف خصومه، وترك تراثه في رعاية أشد الناس عداوةً له، وتولى تقديمه إلى الناس أحفل الناس ببغضه؛ فهو مظلوم من بوليبيوس، مغضوب عليه من تيت ليف، مهضوم الحق عند الكثرة الغالبة من رواة عصره وقضاة زمانه، ولكنه برغم هذا كله بارز لا تحتاج عظمته إلى البينة، ظاهر لا يعوز عبقريته البرهان؛ وإن الشهادة له لتبدر من الخصم حين يتخونه الحذر، وإن فضله على أعدائه لتقوم عليه البينات والحقائق وإن أعوزته الألفاظ والعبارات؛ وهذا بوليبيوس يتحدث عن آل سيبيو فيطيل الحديث، ويكون قصارى ما يتأنق فيه من دلائل نبوغهم أنهم أخذوا فنون الحرب عن هانيبال، وأن أشهرهم المعروف بالأفريقي أخذ عنه وتفطن لأساليبه وحاربه بها في زاما. ولعل سبب هذه الخصومة هو أن الرجال كان شرقياً، لا هو روماني ولا إغريقي، وإنما هو فينيقي عريق، وكانت الخصومة مشبوبة في ذلك العصر بين الشرق والغرب، وكان الزمان قد استدار وصار اليوم للغرب، ورفرفت راياته وخفقت بنوده، حملها الإسكندر وخلفاؤه زماناً ثم تركوها للرومان، وكان الفينيقيون قد ضاقت بهم الأرض في المشرق فالتمسوا الرزق في المغرب، وأقاموا المراكز والمدن على شواطئ أفريقية وإسبانيا وصقلية وجنوبي إيطاليا وفرنسا، فلما نهض الرومان وجدوا الفينيقيين في طريقهم أينما ساروا، وكان مركز قيادتهم قد أنتقل من صور في المشرق إلى قرطاجنة في المغرب، ومن هنا كانت الخصومة بين روما وقرطاجنة، ومن هنا كان تعصب مؤرخي الرومان على هانيبال، ومن هنا كانت ضيعة قضيته عند القضاة؛ فلنلتمس أخباره في حذر. . . ولنحاول أن نشهده عن كثب، وأن نفضي إليه ونصاحبه حياته الحافلة بالأحداث، الخصبة بالوقائع والبيانات.
ها هو ذا في مجلسه على شاطئ الرون ينظر إلى جيشه الكبير يعبر النهر صفاً طويلاً وقد طال به الجلوس وطال به الانصراف إلى هذا المشهد حتى لا يدري أهذا مطلع النهار أم مقبل الليل؛ وكيف له التمييز وهذه أيام ثلاثة بلياليها تقضت وهو في مجلسه هذا شاخصاً
إلى أجناده وفرسانه وقبيلته وهي تعبر النهر على مهل؟. . وأين له الراحة أو الانصراف عن التفكير وهو يعلم أن الرومان قد علموا بأمره وأنهم ساعون في أثره مرسلون قوادهم خفافاً للحاق به والقضاء عليه؟. وهذه عيونه تنبئه بأن مارسلوسن ماض في

الطريق إليه، وإنه ليخشى ذلك كثيراً، إذ كيف تكون العاقبة لو لحق به الرومان وهو يعبر النهر؟. إذاً لقضوا عليه في يسر وهينة. ثم هذه عيونه تنهى إليه أن آل سيبيو يثيرون عليه النافو ويقيمون عليه قيامة الشعب. فإذا متع الضحى فقد أقبل عليه رئيس فرسانه ينبئه بأن الجيش قد فرغ من العبور وأنه لم تبق في الضفة الأخرى إلا شراذم من المشاة وأشتات من المؤن التي لا يؤذي ضياعها. هناك ينهض الرجل الذي أجهده الإعياء وثقلت عليه قلة النوم، ويأوي إلى فسطاطه. . . ويطلب النوم فيسرع إليه النعاس. . . ولكنه على رغم ذلك مضطرب ما يزال. . . وأن الذكريات لتسعى إليه في الحلم فتروعه.

هذا هو أبوه هملكار يخطو إليه رهيباً جليلاً. . . يذكره بعهده الذي قطعه على نفسه وهو أبن سنوات تسع، وهذا صوت الصبي الصغير يتردد على سمعه واضحاً بيناً، إنه يقسم أن يكون عدواً لدوداً لروما إلى الأبد.

وها هو ذا يرى نفسه صبياً وفتى يافعاً، ثم رجلاً في مداخل الرجولة، إنه ليمضي الوقت في قفار إسبانيا ووهادها، لم ينصرف إلى شيء مما ينصرف إليه الشبان، ولم يترك لنفسه فرصة للراحة أو الدعة، وإنما أشتد على نفسه عشرين سنة كاملة حتى أوفى على الثلاثين. . . حتى إذا أكتمل الأهبة، فقد أتخذ سبيله إلى إيطاليا، وكان الرومان قد أخذوا عليه سبيل البحر بعد أن قضوا على أسطول قرطاجنة، ولم يبق له إلا أن يمضي فيخترق هذه المجاهل الجافة حتى يصل إلى سهول إيطاليا؛ ولقد فصل عن قرطاجنة الجديدة وهو في تسعين ألفاً فتهاوى منهم الآلاف في الطريق تعباً وإجهاداً. . . ولولا بقية من أمل معقودة بلواء فرسان نوميديا، لأدركه اليأس وكر راجعاً إلى بلده. . .

هكذا كانت حياته: واقع أشبه بالحلم، وحلم أشبه بالواقع! إنه ينام ليحلم بحرب روما، ويقوم ليمضي لخراب روما. ومضى أمامهم فمضوا من خلفه، وهم أشد ما يكونون رهبة من هذا الذي يمضي بهم إليه؛ إنهم ليشعرون الرهبة من هذه الجبال السامقة التي تطل عليهم وتنذرهم بالموت. . . وأين لأبدانهم المتعبة أن تتوقل هذه النجاد الوعرة، وأن تنحدر على

هذه الصخور القاسية؟ وأين لجسومهم العزم الذي يخوضون به هذه الركام المثلوجة التي تبهر عيونهم على قنن الجبال؟. . . ولكنهم لا يملكون لأمر قائدهم دفعاً. . . بل هو لا يملك لأمر نفسه دفعاً. وإنه ليمضي ليوفي عهد أبيه لا يكاد يفطن إلى شيء مما حوله. فها هو ذا في مقدمة الجيوش يصعد في إعياء ويسير في هينة، والجنود يتساقطون من حوله إجهادا والخيل تنبت من تحته نافقة، وهو في طريقه لا ينبس. . . حتى ينتهوا إلى السهول فينحدروا إليها سراعاً.

هنا ترجع بنا الذاكرة إلي معبد (بعل) في قرطاجنة. . . تلك هي القديسة تضطرب تحت يد هملكار الذي يقدمها إلى الآلهة طاعة ونسكا. . . وتلك هي روما تضطرب تحت يد ابنه هانيبال الذي يقدمها إلى أبيه قرباناً زكياً. . وهؤلاء هم الرسل مقبلين على مدينة التلال السبعة يرجفون بالأخبار ويزعزعون العزمات من رهبة الوعيد، ويضطرب الأمر بين الرومان اضطراباً شديداً، ويقذفون بجيوشهم إلى هانيبال في شجاعة وأقدام حقيقين بالإعجاب. . والقرطاجني متربص يفني الجيوش فناء، ويبتلع القادة ابتلاعاً وهذه تريبيا تشهد يوم اجبر هانيبال العدو على النزول إلى الميدان في البكرة القارسة والشمس لا تزال في خدرها، وكيف انسابت الكمائن من فرسان نوميديا على جوانب الجيش الروماني فأكلته أكلا. . . وهذه ترازمين تذكر يومها العبوس من شتاء سنة 217. . هذا هانيبال يخبئ جنوده في باطن الجبل المطل على أمواج البحيرة، ويترك منهم نفراً يناوش القنصل فلامينيوس، ويتقدم الروم ثم يندفعون اندفاعاً شديداً. . فإذا انتهوا إلي ساحل البحيرة فقد القوا أنفسهم في وابل من نبال الغال، ونار من فرسان النوميديين وإذا العدو يسد عليه طريق الرجوع، وإذا الماء يعين عليهم الخصم. . وإذا هزيمة ساحقة لم ينج منها إلا نفر مضى إلى روما يزلزل أهلها بالمصيبة النازلة، والفاجعة التي لم تذر. . وهؤلاء أهل المدينة مروعين قد انتابهم هلع شديد. . إذ ترامى إلى أسماعهم أن الرجل قاصد إليهم. . ثم هاهو ذا على أميال من روما. . ليس من الموت بد! ولكن هانيبال لا يتقدم، إنما يطوي عن المدينة ويتجه إلى الجنوب.

ترى ماذا صد هانيبال عن روما؟ كانت الحصون واهنة والجيوش منكسرة ولا يكلف الاستيلاء على المدينة الا اقل الجهد. . ولكن هانيبال كان يرجو شيئاً آخر. . كان لا يريد

أن يقتل الفريسة دفعة واحدة وإنما يقطع أعضاءها عضواً عضواً، ويمزق أشلاءها شلواً شلواً: ثم يدعها تموت؛ كان يرجو أن يمزق جسد روما جزءاً جزءاً ويبتر مستعمراتها عنها على مهل! لم يمزق الرومان أملاك قرطاجنة واحدة فواحدة لكي تموت على مهل. هكذا كان يريد أن ينفذ انتقامه الشديد - ولهذا مضى يثير أنصار روما ويؤلب عليها أحلافها. . . انه ليعلن انه اقبل ليحارب الرومان لا الايطاليين، وانه ليطلق الأسرى الإيطاليين دون الرومان وانه ليكسب من هذا كسباً عظيماً. . هذه (كبوا) تسارع إليه بقواتها وأحلافها. . وهذه المدن الإغريقية في (تارنتم) تعلن ولاءها. . وهؤلاء هم الرومان يشتد بهم الخوف فيختارون (فابيوس) لهم قنصلاً. . فيختط لمحاربة هانيبال خطة صارت علماً عليه في التاريخ: هي أن يجنب نفسه وجيوشه لقاء العدو في موقعة حاسمة. . بل يناوشه ويتخطف جنوده، ويقفل طريق الإمداد من الشمال. . ويمضي على ذلك حتى يضعف فمره ويفني جنوده. . ولكن الرومان لا يطيقون صبراً. . أن هانيبال ليفسد عليهم جيرانهم واتباعهم. . ويتلف مزارعهم ويهدم حصونهم ويمضي من بلد إلي بلد، تاركاً جنوده يأتون من الأمر ما يحبون ويصيبون من العدو ما تصل إليه أيديهم، حتى يضيق ذرع اللاتين فيعزلوا فابيوس ويولوا قنصلاً آخر يمضي مسرعاً حتى يلقي هانيبال في (كاني) على ساحل الأدرياتيك، وهناك تظهر قدرة الرجل في الحرب في أجمل آياتها. . . إنه ليصف جندوه صفوفاً طويلة تكاد تخفي جناحي الفرسان. . وانه ليلقي العدو وينثني قلب جيشه حتى يصير الصف نصف دائرة تحتوي الرومان ثم يقبل الفرسان فيقضون على العدو قضاء مبرماً.

ندع هانبيال في سيره إلى جنوب شبه الجزيرة ونخف إلى روما لنشهد اضطراب الشيوخ وهياج الشعب واشتداد الأمر ولنشهد مشهداً من أصدق مشاهد الرجولة القوية والبطولة الخالدة. . . إن (آل سيبيو) لا يحفت لهم صوت ولا يضعف لهم أمل. . . لقد مات الأخوان في وعور إسبانيا، وهما في طريقهما إلى بلادهما بعد أن استوليا على (قرطاجنة الصغيرة) قاعدة هانيبال في أيبريا، وشطرا شبه الجزيرة كلها عن القرطاجني حتى حصروه حصاراً شديداً. . . وها هوذا أخوه (هازدرونال) أخو هانيبال يجمع له ما تيسر من فلول المرتزقة ويمضي إلى إيطاليا فيلقاه الرومان ويفتكون به ويقتلونه. . . ثم يحملون رأسه إلى أخيه ويلقون به بين يديه.

ثم ينهض سيبيو الصغير ويقود حملة من أعنف حملات التاريخ؛ فهذا فتى في الخامسة والعشرين ولكنه روماني عزيز. . . إنه ليقطع شبه الجزيرة على عجل. . . ثم يركب البحر إلى صقلية ثم يخف إلى أفريقية وينزل على مقربة من قرطاجنة ثم يبدأ يصنع في أفريقية ما يصنعه هانيبال في إيطاليا. . . !

هنالك يتأمل هانيبال رأس أخيه الشهيد ويستمع إلى أخبار سيبيو فتأكل الحسرة قلبه ويفزع على مصير قرطاجنة، ويسرع لنجدتها. . . ولا تكاد قدمه تمس ثرى أفريقية. . . حتى تسرع نحو سيبيو. . . فيمضي هذا أمامه. . . ولم يكن أخطر على الجيش الروماني من هذا المضي الذي يباعد ما بينه وبين الشاطئ. . . ولكن. . . أنظر إنه ليثير النوميديين على قرطاجنة، إنه ليطويهم تحت رايته حلفاء أقوياء. . . ثم يثبت لهانيبال عند (زاما) ويرسل فرسانه في طرفي مشاته. . . ويصف الجنود صفاً طويلاً، ويباعد بين الجندي والجندي حتى ليدع بينهما طريقاً رحباً. . . ثم يقبل هانيبال. . . ويدور فرسانه فإذا هم وجهاً لوجه أمام فرسان سيبيو. . . فيفسحون لهم الطريق، فيندفع هؤلاء إلى ما وراء الجيش وهناك ينتظرون. . . وتشد المعركة، ويثار النقع، حتى إذا بلغ الإعياء من جيش قرطاجنة أقبل فرسان الرمان فقضوا عليهم قضاءً أخيراً.

أليست هذه أساليب هانيبال؟ أليست تلك خطته في كاني؟ وإنها لبينة واضحة على عبقريته، وآية باقية على ما خلف للعالم من تراث.

ويخف هانيبال إلى قرطاجنة، ويأمر بأسوارها أن تقفل ويسودها الهرج والاضطراب، ويجتمع مجلسها ويتعاقب الخطباء منادين بالحرب والثأر. . . ولكن الرجل لا يطبق. . . إنه يعرف خصمه جيداً فينهض ويسكت الخطيب. . . ويعتذر لمواطنيه عن هذه الجفوة التي لا محيص له عنها بعد ست وثلاثين سنة في ميادين الحروب. . . ثم يوافق على شروط الصلح التي قدمها سيبيو.

ثم يبدأ صراع هو أشبه بصراع المائة يوم بين نابليون وخصومه. . . ولكن يطول سبع سنوات، يصر الشيوخ في السناتو على القضاء على الرجل. . . ويطلبونه ويجدون في

طلبه. . . وهو لا يفقد الأمل في الغلبة عليهم والانتقام منهم. . . لقد فشل في أن يثير عليهم الغرب، فلملا يقيم عليهم قيامة الشرق؟. . . ها هو ذا يخف إلى بلده (صور)، فإذا
هي ترتعد فرقاً من روما وجيوشها فيفصل عنها إلى (إنطاكية) حيث يستقبله ملكها أثينوكس، إذ كان بعد حملته على روما. . . ويدبر معه الأمر. . . ويرسم معه مشروعاً خطيراً. . . ولا يكادان يشرعان في العمل حتى يفاجئهما الرومان فيقضوا على أثينوكس في داره فيفر إلى بيثتنيا حتى يلقاه ملكها مرحباً. . . . ويأويه ويكرمه.
ولكن الرومان لا يسكتون عنه. . . ويطلبونه ويجدون في طلبه. . . وإنه لجالس ذات يوم في ملجئه. . . إذ أحس اضطرابا وسمع وقع أقدام جنود يقتربون منه. . . فنادى بخادمه. . . وأمر بالسم فأتى به إليه. . . وقال وهو يدني الكأس من شفتيه: (لكي تستريح روما إذا كان لا يرضيها أن تترك شيخاً في الستين يموت على مهل).
حسين مؤنس
شاعرنا العالمي أبو العتاهية - 13
للأستاذ عبد المتعال الصعيدي
وأما عتابه فنذكر منه عتابه لصالح الشهرزوري، وكان أبو العتاهية صديقاً له، وآنس الناس به، فسأله أن يكلم الفضل ابن يحيى البرمكي في حاجة له، فقال له صالح: لست أكلمه في أشباه هذا، ولكن حملني ما شئت في مالي، فأنصرف عنه أبو العتاهية، وأقام أياماً لا يأتيه، ثم كتب إليه:
أقلل زيارتك الصديق ولا تطل ... إتيانه فَتِلجَّ في هجرانه
إن الصديق يلجُّ في غشيانه ... لصديقه فيملَّ من غشيانه
حتى تراه بعد طول مَسَرة ... بمكانه متبرِّماً بمكانه
وأقل ما يلقى الفتى ثِقَلاً على ... إخوانه ما كف عن إخوانه
وإذا توانى عن صيانة نفسه ... رَجلٌ تنقص وأستخف بشأنه
فلما قرأ الأبيات قال سبحان الله! أتهجرني لمنعي إياك شيئاً تعلم أني ما ابتذلت نفسي له قط، وتنسى مودتي وأخوتي، ومن دون ما بيني وبينك ما أوجب عليك أن تعذرني؟ فكتب إليه أبو العتاهية:
أهل التخلق لو يدوم تخلُّقٌ ... لكنت ظُل جناح من يتخلق
ما الناس في الإمساك إلا واحد ... فبأيهم إن حصِّلوا أتعلق
هذا زمان قد تعود أهلهِ ... تِيهِ الملوك وفعل من يتصدق
أي يطلب الصدقة كما قال في بيت آخر:
هذا زمان ألجَّ الناس فيه على ... تيه الملوك وأخلاق المساكين
فلما أصبح صالح غدا بالأبيات على الفضل بن يحيى وحدثه بالحديث، فقال له لا والله ما على الأرض أبغض إليَّ من إسداء عارفة إلى أبي العتاهية، لأنه ليس ممن يظهر عليه أثر صنيعة، وقد قضيت حاجته لك، فرجع وأرسل إلى أبي العتاهية بقضاء حاجته، فقال يشكره:
جزى الله عني صالحاً بوفائه ... وأضعَف أضعافاً له في جزائه
بلوت رجالاً بعده في إخائهم ... فما ازددت إلا رغبة في إخائه
صديقٌ إذا ما جئت أبغيه حاجة ... رجعت بما أبغي ووجهي بمائه
ولم يكن أبو العتاهية كما قال الفضل ممن لا يظهر عليه أثر الصنيعة، ولكنه كان يعاشر هؤلاء العظماء معاشرة الند للند، لا كما كان يفعل غيره من الشعراء المستجدين عند هؤلاء العظماء، وإنما كان البرامكة يكرهون من أبي العتاهية إيثاره الفضل ابن الربيع عليهم، وهو منافسهم السياسي في دولة الرشيد، وقد صحبه أبو العتاهية صحبة طويلة؛ ومازال الفضل من أميل الناس إليه، فلما رجع من خراسان بعد موت الرشيد دخل عليه أبو العتاهية، فأستنشده فأنشد:
أفنيت عمرك أدباراً وإقبالاً ... تبغي البنين وتبغي الأهل والمالا
الموت هولٌ فكن ما شئت ملتمساً ... من هوله حيلة أن كنت محتالا
ألم تر الملك الأمسيَّ حين مضى ... هل نال حيٌ من الدنيا كما نالا
أفناه من لم يزل يُفني القرون فقد ... أضحى وأصبح عنه الملك قد زالا
كم من ملوك مضى ريب الزمان بهم ... فأصبحوا عبراً فينا وأمثالا

فأستحسنها الفضل، وطلب إليه أن يعود إليه في وقت فراغه ليقعد معه ويأنس به، فلما كان يوم فراغه صار إليه، فبينما هو مقبل عليه يستنشده ويسأله فيحدثه إذا أنشده:

ولي الشباب فما له من حيلة ... وكسا ذؤابتي المشيبُ خِمارا
أين البرامكة الذين عهدتهم ... بالأمس أعظَم أهلها أخطارا

فلما سمع ذكر البرامكة تغير لونه، ورأى أبو العتاهية الكراهية في وجهه، فما رأى منه خيراً بعد ذلك. وقد حدث أبو العتاهية هذا الحديث الحسن بن سهل في دولة المأمون فقال له: لئن كان ذلك ضرك عند الفضل بن الربيع لقد نفعك عندنا؛ ثم أمر له بعشرة آلاف درهم وعشرة أثواب، وأجرى له كل شهر ثلاثة آلاف درهم، فلم يزل يقلبها دارة إلى أن مات. وكان الحسن بن سهل فارسياً مثل البرامكة، وكان الفضل بين الربيع عربي النزعة، وقد انتهت تلك العصبية بين الفرس والعرب في هذه الدولة بضياع أمرها منهما معاً.

ومن عتابه أيضاً ما كان منه لأحمد بن يوسف وكان صديقاً له فلما خدم المأمون وخص به رأى منه جفوة فكتب إليه:

أبا جعفر إن الشريف يشينُه ... تَتَأَهُهُ على الإخلاء بالوفر
ألم تر أن الفقر يُرجَى له الغنى ... وأن الغني يُخشى عليه من الفقر
فإن نلت تيهاً بالذي نلت من غني ... فإن غنايَّ في التجمل والصبر

ومن شعره في الاستعطاف إلى الرشيد وهو في سجنه:

يا رشيد الأمر أرشِدْني إلى ... وجه نجْحي لا عدمت الرَشدا
لا أراك الله سوءاً أبداً ... ما رأت مثَلَك عينٌ أحدا
أعِنِ الخائف وارحم صوته ... رافعاً نحوك يدعوك يدا
وإبلائي من دعاوي آمِلِ ... كلما قلت تداني بعدا
كم أمَني بغدٍ بعد غَدٍ ... ينفد العمر ولم ألق غدا

وأما الزهد والحكمة والمثل فهي الفنون التي أستفرغ فيها جهده، وأربى فيها على غيره، ونظم فيها ما استفاده من أهل العلم من السنن وسير السلف الصالح، وأشعاره في ذلك لا مثيل لها لأنها مأخوذة من كتب الدين والسنة، وما جرى من الحكم على ألسنة هذه الأمة. ومن بدائعه في ذلك أرجوزته المزدوجة التي سماها ذات الأمثال، وتبلغ في الطول ما لم يبلغه شعر قبلها، ويقال إن فيها أربعة آلاف مثل، وهي تجديد عظيم في الشعر العربي بهذا الطول البالغ فيها هذا المبلغ، وبهذه القافية التي مكنت له من المضي فيها إلى الحد، وهذا ما ذكره منها صاحب الأغاني:

حسْبكَ مما تبتغيه القوتُ ... ما أكثر القوت لمن يموت
الفقر فيما جاوز الكفَافَا ... من أتقى الله رجا وخافا
هي المقادير فلمني أو فَذَرْ ... إن كنتُ أخطأتُ فما أخطا القدرْ
لكل ما يؤذي وإن قل ألمْ ... ما أطولَ الليل على من لم ينم
ما أنتفع المرء بمثل عقله ... وخير ذخر المرء حسن فعله
إن الفساد ضده الصلاح ... وربّ جد جرّه المزاحُ
من جعل النمامَ عيناً هَلَكا ... مُبلغكَ الشر كباغيه لكا
إن الشباب والفراغ والجِدِهْ ... مفسدة للمرء أيُّ مفسده
يغنيك عن كل قبيح تركَه ... يرتهن الرأيَ الأصيل شكه
ما عيش من آفته بقاؤه ... نغَّص عيشاً كُلُّه فناؤه
يا رب من أسخطنا بجهده ... قد سرنا الله بغير حمده
ما تطلع الشمس ولا تغيب ... إلا لأمر شأنه عجيب
لكل شيء معدن وجوهر ... وأوسط وأصغر وأكبر
من لك بالمحض وكلٌّ ممتزجْ ... وسَاوسٌ والصدر منه تعتلج
وكل شيء لاحقٌ بجوهره ... أصغره متصل بأكبره
ما زالت الدنيا لنا دار أذى ... ممزوجة الصفو بألوان القذى
الخير والشر بها أزواج ... لذا نِتَاجٌ ولذا نتاج
من لك بالمحض وليس مَحَضُ ... يخبث بعضٌ ويطيب بعض
لكل إنسان طبيعتانِ ... خير وشر وهما ضدان

إنك لو تستنشق الشَحيحا ... وجدته أنتن شيء ريحا
والخير والشر إذا ما عُدّا ... بينهما بَونٌ بعيد جداً
عجبت حتى غمني السكوت ... صرت كأني حائر مبهوت
كذا قَضَى الله فكيف أصنع ... الصمت إن ضاق الكلام أوسع
قال أبو الفرج وهي طويلة جداً وإنما ذكرت هذا القدر منها حسب ما استاق الكلام من صفتها.

عبد المتعال الصعيدي

في وادي الهوى

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

شدا فوق فرع مورق بلبل الوادي ... فيا حبذا الوادي ويا حبذا الشادي
فقلتُ له زدني بربك أنني ... إلى نَغَمٍ حُلو تُرجعه صاد
وما لحياة بهجةٌ وحلاوةٍ ... إذا كنتَ في واديً الهوى غير غرّاد
أفدني بأسرار المحبة خُبرَةً ... فأنت عليمٌ بالخفي وبالبادي
ضللتُ طريق في هوى من أحبّه ... وإنك في وادي الهوى وحدك الهادي
فقال أتحميني من الموت إنني ... أراه فأخشاه على نبل صياد
توسمتُ فيه الشرَّ لمّا رأيتهُ ... يسدد نحوي السهمَ من عطفة الوادي
فطرتُ بعيداً عنه أهرب واقعاً ... على فَنَنٍ في ذروة الدوح ميّاد
ومن هجمات للغراب شديدة ... يريد بها عن موطني النضر إبعادي
يطاردني في موطني معتمداً ... وما زال فيه واقفاً لي بمرصاد
ينازعني في الشدو حق زعامة ... توراثتها من والديّ وأجدادي
فيهدم عشّي وهو ما قد بنيتهُ ... بنفسيَ من نبتٍ يبيس وأعواد
وماذا من الإجرام كنتُ أتيتهُ ... فيصبح هذا الأسود النحس جلادّي
براني في وادي الهوى اللهُ شاعرا ... فأطرَبَ فيه الزهرَ شعري وإنشادي
وما طال لولا الزهرُ فيه إقامتي ... وما كنت لولا الزهر بالرائح الغادي
لقد كنتُ في الوادي إلى الزهر مُخِلداً ... فهل كان يؤذي ذا جناحين إخلادي
سل الطير بي هل كنتُ في العمر مرّةً ... على واحدٍ منها إلى جانب العادي
وإن أضمرت نفسي على ذي تجاوزي ... من الطير أحقاداً تناسيتُ أحقادي
بلانيَ ربي كل يوم بظالم ... فما القصد من خلقي شقيّاً وإيجادي
ولو كنت ذا ظفرٍ حديدٍ منسرٍ ... تجنبت الغربان بطشي وأرصادي
وإنيَ في الوادي الذي هو معبدي ... بروحيَ للزهر الذي يحتوي فاد
فما أجَملَ الزهرَ الذي هو مشرق ... كنجم بدا في آخر الليل وقّاد
وقل لبني الضاد اجمعوا أمركم فما ... لقوم كسالى نهضةٌ يا بني الضاد

جميل صدقي الزهاوي

في وصف الطباع

وصف شامل للنفس وطباعها

للأستاذ عبد الرحمن شكري

ما ازدريت الأنام الاوهان ال ... كيد منهم وهان منهم عداء
وتفردت لا أصول بكيد ... وتزهدت واستقام العزاء
ومن الناس مَنْ إذا ما ازدراهم ... كان منه الإجرام والاعتداء
ولو أنى أكبرتهم لم يروني ... غافراً واحتوتنيَ البغضاء
ولو أنى أكبرتهم لم تر الرح ... مة ديني وما بهم رحماء
ودهم مثل بغضهم فيه عدوى ... مثل عدوى تسعى بها الثؤباء
ويرى المرء انه كان كل شيء ... هو تبر وما عداه هباء
مركز الكون حوله دارة الأف ... ق وبهو من فوقه وسماء
ولقد تحمد الخليل طويلاً ... ثم يبدو ما كان منه انطواء
فإذا الغدر شيمة وطباع ... وإذا الود والوفاء رياء
وإذا النفس جانب مدلهم ... بالدنايا وجانب وضاء
وإذا المرء يحمد الصحب منه ... جانباً والكريه منه خفاء
ومع الخبر بالأنام فقد يع ... رو الفتى عند غدرهم إعياء

كل يوم يخال منه جديداً ... وهو رث وما طواه العفاء
قلبه الأمل المضلل بالو ... د يقود الأسى إليه الرجاء
ومع اليأس منهم كرم الصف ... ح إذا الحتم ما جنوا والقضاء
كلهم يشتكي ويشمت بالشا ... كي وكلٌّ كما يسيء يساء
كلهم يندب الوفاء وكلٌ ... يتأذى وطبعه الإيذاء
كلهم قانص يرى في وفاء ال ... بخل صيداً وليس منه وفاء
كلهم لا يود للناس ما يرِ ... غب فيه لنفسه ويشاء
ويُسَرُّ الفتى ويُبدى اكتئاباً ... إنْ أَلَمَّتْ بصاحي بأساء
صادق العطف كان أو كاذب العط ... ف ففي نحس خله سراء
وارتياح أن لم يُصَبْ مثل خل ... نزل الحزن داره والشقاء
وسواء خب وغِرٌّ ولا غَرْ ... وَفللغر صولة وعداء
كلهم إن يرقك منه ذكاء ... بعد حين يرعْك منه غباء
فكأن الذكاء منه وميض ال ... برق والعقل كله ظلماء
كلهم يبغض النقيصة حقاً ... حذر الناس بغضه إخفاء
واكتساباً للحمد والربح يقلا ... ها ولولاهما لعيف الرياء
كلهم يُلْبِسُ النقيصةَ منه ... حلة الخير وهو منه بَرَاءُ
يغضب المرء للفضيلة كيما ... يحسب الناس أن ذاك نقاء
وسواء نقص وفضل لديه ... إنْ تدانت من كسبه النعماء
ومن الناس من يبوح بنقص ... وكثيرٌ من قوله إطراء
كالذي قال إنما أفقدته ال ... حلم منه صراحة وإباء
يمدح الحلم مغرباً وهو يسطو ... مغنم الحب في الورى الحلماء
وحذاراً للشر يمدح خيراً ... ذاك جبن في طبعه واتقاء
قسم النقص والمحامد بين ال ... ناس منه الأحقاد والأهواء
فلئيمٌ من كان منه جفاء ... وكريمٌ من كان منه إخاء
ذاك ميزانه وما الحق إلا ... ما رأى الحق يأسه والرجاء
ويرى الأخرقَ الذي يرحم النا ... سَ وإن ود أنهم رحماء
كي يمدوه بالذي ضن عنهم ... بجداه وهكذا الأحياء
كل حي يصون منه حياة ... ولئن غال ما عداه العفاء
حاطها بالصيال والمكر والقَسْ ... وِ ولم عم سواه الشقاء
وبإنكار كيده وأذاه ... وبدعوى الكمال وهو طلاء
يتدنَّى يبغي العلاء ولا يث ... نيه عما يحط منه إباء
غير من آثروا على أنفس من ... هم نفوسَ الورى وقد قيل داء
وعجيب إِنْ كان أَطْهَرُ ما في ال ... نفس داءً والحرص منه الشفاء
واشد القُساةِ يُنِكُر لؤم ال ... ناس كيما يكون منه مضاء
وهو يُطْرِى الحياة بُقيا على الكيد وذعراً يكون منه الثناء
بين أمرين يدرج الناس طراً ... جوع بطن أو أن يكون امتلاء
ومن الجوع أو حذاراً له أو ... خشية الموت كم قسا الأحياء
وامتلاء يصير شهوة جسم ... يهتك الطهرَ حفزها والمضاء
هَيِّنٌ بعدها إذا ما الضحايا ... نال منها نحس ونال شقاء
خمص بطن ونهمة وحذار ... واحتيال وقسوة ورياء
ذلك العيش ثم ما كان من خي ... ر بَكِيٍّ لولاه عيف البقاء
وقتالٌ على الحياة دعاه ال ... حيُّ فضلاً يبغي به ما يشاء
ذاك فضلُ إذا أساء ولكن ... هو نقص في الناس حين يُساء
ولو أن السبيل للموت سهل ... لم تكن عنه نجوة أو عزاء
فاحمد العيش إن حبك للعي ... ش مُلِحٌّ مما تمادى العناء
إنَّ أقوى الرجاء ما تعرف النف ... س وإنَّ قَبَّحَ الحياةَ الذكاء
لم يعفها وإنما شاء أن يُبْ ... صِرَ قدماً من حسنها ما يشاء
دائب بَصَّرَ الأنام بما جَ ... مَّلَ عَيشاً ووصفة إغراء
والذي يكلأ الحياة على العل ... م بها لا تروعه الأشياء

يمدح المرء مثل ما حاز من فض ... ل فإنْ زاد كان منه هجاء
فقليل ما تصدق النفس قولاً ... وكثير من أجل ذاك المِراء
مهجة الحاسدين في سورة الأح ... قاد والبغض مهجة هوجاء
ساء فعلٌ منهم فساءت ظنون ... والورى في طباعهم شركاء
سوء ظن الأنام طبع ولكن ... مقلة الظن مقلة حولاء
كل حي أمامه ما جنى الخص ... م يراه وما جناه وراء
وعجيبٌ أن يُحْسَد المرء حتى ... بعد أنْ لم تَدمُ له النعماء
أي نفس من أنفس الناس عافت ... حسداً للقلوب منه اكتواء
لا بل الفضل إنْ تضاءل ما في ال ... نفس منه ولم يكن إيذاء
كلهم ذلك الحسود ولكن ... هَيّنٌ ما بدت به الفضلاء
لو ينال الأنام ما حسدوه ... حسدوا ضده ولِمَ القضاء
حسبوا اللؤَم من ذكاء وعقل ... فادَّعاه الطغام والأعلياء
وتباهوا بقدره اللؤم فيهم ... استشاطوا إنْ قيل هم لؤماء
وقليل ما يندم المرء أن لم ... يك جُرْم من بعده الازدراء
فإذا الناس زَيَّنُوا منه جرماً ... شملته مِنْ مدحهم خيلاء
ومضى سادراً يرود من الآ ... ثام مرعى ودأبه الكبرياء
يبتغي المرء أن يرى الناس طراً ... حيث يرضى وخلقهم ما يشاء
وهو لا يستطيع تغيير ما في ... نفسه كي يكون منهم رضاء
وحقيق بالشك مَنْ رأيه يت ... بع ما خولجت به الحوباء
رأيه مثل خلقه وهواه ... حاكم فيه جَوُّه وُالغذاء
في قنوط ومطمع وانقباض ... وارتياح تناكرت آراء
لو بدا الشر في النفوس تعادت ... رحم الله فاحتواه كساء
وإذا الشر أعوز المرء عجزاً ... ادعَّىَ أن عجزه استعلاء
ومُقِرَّ بالشر كي يُغْفَرَ الش ... رَّ وكيما يعود منه اعتداء
واعتراف بالجود حرصٌ وكسبٌ ... وهو منه استزادةٌ لا وفاء
ولقد يحقد العشير إذا خ ... لاَّك رزء وكان منه رثاء
يجرأ الفرد بالجميع على الش ... ر ولولاه غاله استخذاء
شد من أزر سافل أنَّ شراً ... جُمِعَتْ في مناله الجبناء
فجبان يشد أزر جبان ... وعداء يكون منه عداء
ولقد يفعلون خيراً ليخفى الش ... ر منهم وذاك منهم رياء
والشقي الجزوع من شر قوم ... حر نفعاً منه إليهم رجاء
مستنيم إلى الولاء ويكوي ... قَلْبَه أن يغيض منهم ولاء
جاهل بالأنام يخدعه المُط ... ري نفوساً لهم وحق الهجاء
لقنوه أن المروءة أن يغ ... تر بالناس وهو منه غباء
لا بل الفضل خيره وهو يدري ... إنْ بلاهم أنَّ قد يعز الجزاء
مطمئناً بعد اصطناع جميل ... عندهم إنْ دهاه منهم بلاء
كلهم ظالم وان كان مظلو ... ماً ما رأى أنَّ قَسْوَةُ استشفاء
يشتفي من لواعج الغيظ والذ ... ل بظلم الأذَلِّ بئس الدواء
يظلم الصاغر الضعيف كما يظ ... لمه من له عليه اعتلاء
طبقاتٌ مقدرَّات من الطغ ... يان ما إن يُخَال فيها انتهاء
ومع الشر والأباطيل في النف ... س فللخير أنة سيماء
عبد الرحمن شكري
القصص
صور من هوميروس
حروب طروادة
أندروماك
للأستاذ دريني خشبة
استطاع نبتيون أن يزلزل قلوب الطرواديين
وحسبه أن يفر من ميدانهم مارس الجبار، وأن يفر في أثره أتباعه إله الروع، وفينوس،

أصل البلية التي حاقت باليوم، لينتقل النصر طفرة من جانبهم إلى جانب الهيلانيين.
وبرزت شمس اليوم التالي على الساحة الملطخة بآثام الإنسانية، المضرجة بأوزار الإلهة، المصطخبة بأنين الموتى. . . لتشهد من جديد صراع الضغائن وتصاوُل الأحقاد، وأخذ السخائم بعضها برقاب بعض، وهذه الكتل البشرية يفني بعضها بعضاً.
وأشتد الهيلانيون في طلب الطرواديين، وأستبسل هؤلاء، فكانت أمواج الغزاة تتكسر على صخور شجاعتهم. . . . . ولكنها لا تتلاشى.
وعظم الخطب، ومارت الأرض، وأنعقد رَهَجُ الحرب مما تثير الخيل من هَبَوات، وإشتجرت الهيجاء، حتى لكأنها قطع من الليل، وصلصلت الدروع حتى لكأنها عواء ذئاب الجن، واستشرى الشر حتى لا ترى إلا إلى منايا وآجال، في قتال ونزال. وأحسن جنود طروادة بلُغوب الوغى، وشعروا بالرجفة تأخذهم من كل جانب، وكان هكتور العظيم يخطف كالبرق بين صفوفهم يحضهم ويحرضهم؛ بيد أن الشجاعة لا تغني في موقف الموت شيئاً، فقد شرعت فيالقهم تتقهقر ببطء نحو الأسوار، حتى إذا بلغوها لبثوا ثمة يُصلون أعداءهم وابلاً من السهام، تساعدهم الرماة من فوق الأبراج. . .
لكن الهيلانيين ما تفتر لهم همة، ولا يصل إلى حماستهم كلال؛ فقد صمدوا في مواقفهم، وثبتو وصابروا، وأبدوا من ضروب البسالة واليأس ما حير ألباب أعدائهم، وجعلهم ألباً عليهم واحداً!!
وفي عنفوان المعمعة لقي هيلانوس بن بريام الملك، أخاه المغوار هكتور يقصف بين الصفوف ويرعد، ويرغي بين المحاربين الصناديد ويزبد؛ وكان هيلانوس خير كأشفى الغيب، وعرافي الطرواديين؛ وكان حبيباً إلى الآلهة، جميل الطلعة، بسام الثغر، حتى في الحرب؛ وكان إلى ذلك حازماً موفور الحزم، صارماً شديد البأس، يقهر الغير على احترامه ولو كانوا يكبرونه سناً؛ فلما رأى هكتور يعبس تلك العبوسة القمطرير لما يحيق بجنوده من أذى، ذهب إليه قُدماً وقال:
(أي أخي! أي هكتور العظيم!).
وما كاد هكتور يسمع النداء الحبيب حتى هرع إلى أخيه يلتمس في صدره الحنون برداً لحر تلك الجحيم التي لفحت شجعان طروادة بزفيرها، وصاح به:
(هيلانوس! أنت هنا؟ أدع لنا آلهتك يا أيها العزيز! لقد كؤد النصر بعد إذ حسبناه في أيدينا أمس. . . أدع لنا آلهتك فقد عيينا بهؤلاء الهيلانيين الأبالسة!. .)
(- هكتور! أصغ إليَّ! لن تظفروا بهؤلاء مادامت مينرفا معهم تؤيدهم، وتشد أزرهم، وترد عنهم سهامكم، فتجعلها في نحوركم!!).
(هكتور! هلم إلى القصر يا أخي، فالق والدتك المرزأة ثمة، فتوسل إليها أن تذهب من فورها، مرتدية أبهى ملابسها إلى هيكل مينرفا، فلتبك عند قدمي تمثالها، ولتقدم الضحايا، ولتُقرب القرابين، ولتحرق البخور المقدس، الممزوج بالأفاويه والصندل وطيوب الهند؛ ولتنذر أن تذبح اثنتي عشرة بقرة من خير أبقار اليوم، فتتصدق بلحومها، وتهب الكهنة شحومها، إذا وعدت ربة الحكمة أن ترفع مقتها وغضبها عن طروادة!)
وألحف هيلانوس على هكتور، فألقى نظرة على المعركة، وكاد قلبه يتفطر على هذه الأشبال التي تسقط هنا وهناك، وفي كل صوب وحدب، لاقيةً حتوفها في سبيل اليوم، وذرف عبرات تذوب حناناً ورحمة، ثم لوى عنان حصانه إلى البوابة الكبرى، فدخلها وقلبه يتصدع من الهم، ووقف مرة أخرى يلقي على الساحة المضطربة نظرة قائد بجنوده جد رحيم. . .
وأنطلق إلى القصر الملكي المنيف ذي الشرفات والآكام. . .
وهناك. . . عند بوابة القصر، وتحت البلوطة الكبرى الوارفة، أجتمع حول هكتور نسوة كثيرات، هن أزواج المحاربين البواسل وأخواتهم وبناتهم، وأمهاتهم كذلك، إزدحمن حول
يسائلن عن رجالهم، هل أودى بهم حتف القضاء؛ واسقوا نرى الوطن العزيز من دمائهم، أم ما يزالون يناضلون الأعداء، ويردون عن طروادة حُمى البلاء؟. . .
ولكن هكتور يوشك ألا يسمع لهن، لأنه ينطلق من فوره إلى داخل القصر،. . . وها هو ذا يهرع في أبهائه العظيمة، ماراً بتلك الغرف الخمسين التي تضم أزواج أبيه وأطفالهن، ثم بالبهو الأكبر ذي العماد الشامخة، ثم بالجواسق الذهبية ذات الدُّمى والتماثيل، حتى يكون عند ردهة الملكة، فتلمحه أخته الجملية ذات المفاتن لاؤوديس

فتجري إليه، وتلف ذراعيها حول ساقيه، فيتخلص منها برفق. . . وتكون والدته قد أحست وجوده فتهرع إليه، وتهتف به:
(هتكور! بُني! ماذا جاء بك هنا؟ لمن تركت الساحة يا ولدي! أهكذا تدع أبناء طروادة للموت الأحمر وتجيء إلى الحرم تنشد الراحة يا هكتور؟ لا. لا. لا أحسبك تتخلى عن جنودك لحظة. ولكن هلم إليَّ! إليك هذه الكأس من أشهى ما عصر باخوس! رَّو ظَمأتك منها وعد إلى الميدان. .)
بيد أن هكتور يتهجم تجهمة مُغضَبة، ويهتف بها:
(أماه! حاشاى يا أماه! حاشاى يا أعز الأمهات! لن تهرق الخمر بأسمي، وتلك دماء أخواني تهرق بإسم الوطن وتُراق! حاشاي يا أماه أن أتذوق قطرة واحدة من تلك الكأس، وهناك. . . في سعير المعمعة، يجرع أبناء طروادة الأعزاء كؤوس المنايا وذوب الحمام! أريقيها على مذبح مينرفا إذن! هلمي ولتك معك أزواج القادة والمحاربين جميعاً، فالبسن أبهى ثيابكن الحريرية المفتلة، وحبركن المفوفة، وانطلقن إلى هيكل مينرفا، فصلين لها، وأحرقن البخور الغالي من الأفاويه والصندل أفخر طيوب الهند، ثم أركعن عند قدمي تمثالها المعبود، وإبكين بكاء طويلاً، وسبحن بإسم آلهة الحكمة، واغسلن الأرض عندهما بدموعكن، ثم توسلن إليها أن ترفع عن الطرواديين مقتها وغضبها وأنذرن أن تقربن، لو فعلت، إثني عشرة بقرة من خير أبقار اليوم، يتصدق على الفقراء وأبناء السبيل والمعترين بلحومهن، وعلى كهنة الهيكل بشحومهن. . .
(أماه! إن لم تفعلن كما أخبرتك فلا نصر لنا. . . بل لنا الهوان والهزيمة المؤكدة. . . وعليك وعلى نساء طروادة السلام من أربابها الكرماء!. .).
وصمت هكتور! وأربد وجه هكيوبا!
وأنطلق البطل إلى قصر أخيه. . . إلى قصر باريس فوجده يلهو ويلعب، ولا يأبه بهذه الأرواح الغالية التي تصطرع في الميدان، فأخذته الحنقة، وصب عليه شواظ غضبه. . .
(أنت! أنت باريس بن بريام! عجباً وزيوس الأكبر! أنت هنا تلهو وتلعب، وتدع ضحاياك تنافح عن آثامك تحت أسوار اليوم، وتذوق الردى بجريرتك؟!. . .).
وأطلق العنان للخيل، فذهبت عربته الحربية المطهمة تطوي الطريق إلى الميدان. . .
أما أمه فقد جمعت نساء طروادة وجماعة المتوسلات، وذهبن جميعاً إلى هيكل مينرفا. . . وصلين وبكين، وغسلن بدموعهن قدمي التمثال المعبود، ونذرن لآلهة الحكمة ما أمر به هكتور أن يُنذر. . .
ولكن!
لقد أصمت مينرفا أذنيها! ولم تُصغِ لهذه المتوسلات المكلومة، ولم ترق لتلك العبارات المسفوحة، ولم تطمع أبداً في ضحايا وقرابين تكفر عن خطيئات باريس؛ ذاك الراعي المفتون الذي آثر الجمال الفاني على الحكمة الخالدة، فقضى في التفاحة لفينوس، ربة الحسن والحب، تلك الحية الرقطاء التي لدغت طروادة بأسرها، فهي إلى اليوم تصرخ من سمها الزعاف يسري في أرواح أبنائها، فينكل بهم، ويكاد يقضي عليهم. . . ولا ذنب لهم ولا جريرة، إلا لبنات الهوى الآنم، والغرام الشائن، والحب المجرم المهين!!
وأحس هكتور وهو منطلق إلى الميدان كأن منيته تنوشه من مكان بعيد، وأحس في صميمه بشوق حار إلى لقاء أندروماك، زوجه العزيزة عليه، الأثيرة إلى قلبه، شوقاً يشبه وداع الحياة في حرارته وأسره، وشوقاً يشبه الاستمتاعية الأخيرة من مباهج هذه الدنيا. . . في حزنه الصامت، ومعناه العميق!
وأحس كذلك بلوعة إلى التزود بنظرات من سكمندريوس طفله الحبيب؛ هذه الهبة السماوية التي توشك أن تصبح نقمة من نقمات اليتم، إذا كان صحيحاً هذا الهاجس الذي وقر في قلب هكتور، والذي صور له أنه مقتول اليوم لا محالة. . .
وألح الشوق على قلب البطل، فثنى عنان الخيل إلى الطريق المؤدية إلى قصره الممرد، ليشفي حاجات الفؤاد المعذب.
وذهب من توه إلى مخدع أندروماك! ولكنه لم يجدها هنالك، فبحث عنها في الغرف والردهات والأبهاء، ولكنه عبثاً حاول الوقوف لها على أثر!
وسأل عنها حشم القصر، وكان صدره يعلو ويهبط حين كن يتحدثن إليه عن أندروماك العزيزة وما تلقاه دائماً من القلق، وما تتفزع به روحها من الهواجس ما دام زوجها

يخوض غبار هذه الحرب!
فهل هي من الأرض الثقيلة المخضبة بالدماء هذه العواطف المشتركة، أو هي من السماء الصافية التي لا يرتفع إليها نغل، ولا يروي فيها زند عداء، ولا تشب فيها سخيمة؟!
وأخبرنه أنها يممت شطر برج طروادة الرفيع، تشهد منه ما يحدث في المعركة من أهوال، وذلك عندما ترامت الأخبار أن الإغريق قد ضيقوا الحصار على جنود طروادة، وأنهم خضدوا شوكتهم، وفلجوا عليهم، ونخبوا قلوبهم، وضعضعوا أركانهم. . . فريعت أندروماك، وذهبت من فورها إلى البرج لتطمئن على رجلها وذخر حياتها، وسندها في هذه الحياة السوداء.
ونهد هكتور إلى البرج، فلقيته أندروماك بعينين مغرورقتين ووجه شاحب وجبين مغضن، وصدر ينوء بما فوقه من الهموم.
كانت تقف أبنت إبتيون، الجملية البارعة، وعلى ذراعها المرمري الفاتن طفلها الرضيع الشاحب، الذي حل بهذه الدنيا الهازلة ليكون عبرة سخينة من عبرات الحزن القاهر، ثم ليكون مأساة وحده حين تضع هذه الحرب الضروس أوزارها، وحين يشب فلا يرى حوله إلا الباكين والمحزونين، وإلا هذه المدينة الكاسفة التي تعصف بها آلهة الحرب، من غير ما شفقة ولا مرحمة!
وتعلقت أندروماك بذراعي زوجها، وشرعت تنظر في عينيه المبللتين، وتقول له:
(هكتور! رجلي وذخري من هذه الحياة! إلى أين أيها الحبيب؟ أما لهذه الحرب الطاحنة من نهاية؟ أهكذا قضت الآلهة على طروادة الخالدة بالحزن الأبدي والأسى المقيم؟ هكتور ألا تفكر في سلم يرفرف على ربوع الوطن، ويبقى على هذا الشباب الذي تعصف به ريح الحرب؟
رَجُلي!
إن آلافاً من الهواجس السوداء تضغط على قلبي تحدثه بالعُقَبى الوخيمة، والأيام الباكية القريبة!
هكتور؟
هذه أشباح القتلى الأعزاء من بني وطني تحدثني عن مأساة أبي، وأخوتي السبعة، والمئين من أهلي، قتلهم أخيل الجبار بيده السفاحة وجعل من جثثهم كومة عالية تقص على القرون تاريخنا الحزين!
لقد هرعوا جميعاً إلى هذه الساحة من سيليسيا، ملبين نداء الملك، الملك التاعس، أبي، الذي سعى إلى طروادة لينام أبد الدهر في ظل أسوارها نومةً غير قريرة ولا هانئة. . .
هكتور!
لقد نام أعز الآباء في تراب ساحتكم دفاعاً عن مدينتكم، ولكن المأساة لم تتم بقتله وقتل أبنائه والمئين الأعزاء من بني جلدته، ولكن المأساة أبت إلا تكون أمي. . . آه يا أمي العزيزة! أن تكون هذه الأم صفحة محلولكة من صفحاتها التي تفجر الدم في القلب، وتضرم النار في الحشا!
لقد ساقها أخيل يا هكتور في جملة السبي، ولولا القَود الكبير، والفدية الغالية التي بذلناها من أجلها، لكانت إلى اليوم، لو مد في أجلها، إحدى خادمات الأعداء الذليلات، اللواتي لا يملك لهن في هذا الإسار عزة، ولا يقدر لها أحد شأناً! لكنها سقطت هناك، في هامش هذه الساحة الظالمة، ضحية سسهم مراش من قوس الآلهة ديان، فكأنما رفضت أن ترفع كأس هذه الحياة إلى فمها النقي الطاهر. بعد إذ لوثته أجداث الدهر بذل الإسار!!
هكتور!!
كل هذه النوازل هدت نفسي، وحطمت قلبي، وأثلجت مشاعري، وجعلتني بائسةً تاعسة موهونةً لا حول لي. . . لولا أنك إلى جانبي تأسو جراحي وتؤنس وحشتي، وتشيع نوراً متلألئاً في ظلمات حياتي. . .! فأنت لي اليوم أب نعم الأب، وأنت لي في وحدتي بقلبك الحنون أم نعم الأم، وأنت لي أخ، بل أنت لي كل شيء في هذه الدنيا!
هكتور!
أبق إلى جانبي فأنا لا أستغني عنك بأب أو أم أو أخ، أو بمملكة يزين مفرقي تاجها

المشرق، ولا يشد يميني صولجانها الرنان!
أبق إلى جانبي يا هكتور!
أبق إلى جانبي وأرع هذا الطفل، ولا تسلمه وتسلمني لليتم والشقاء.
هتكور!
إن المستقبل يعبس من اليوم لولدك سكمندريوس؛ فرده عنه، وأدفع عاديات الزمان من الآن عن فلذة كبدك، وحبة قلبك، واستشعر نحوه حنان الأب الرحيم، ولوعة الأم المفئودة!. . . .)
وخنقتها عبرة حجبت عن ناظريها نور الحياة، وحبس منطقها كمد ممض، وحزن أليم؛ ووقف هكتور مبهوتاً لا يحير، ينظر إليها مرةً، وإلى ولده أخرى، ثم يلقي على طروادة نظرات. . . واستقيظ بطل اليوم من غفوته الصاحية، وأنطلق لسانه من عقاله يقول:
(أندروماك! أيتها الحبيبة! أسمعي إلي!)
لا تخالي يا أعز الناس إلى أن قلبي قد تحجر فلم يخفق لكل ما ذكرته من قبل! لا! لقد خفق كثيراً بمثل هذه الهواجس!
بل هو قد ذكرك، وقد تصور إن هكتور مقتول، وكأنك كما ذكرت عن أمك في جملة السبي، وأنك تؤوين مع أحد القادة الهيلانيين إلى هيلاس! وإن القائد الغليظ قد ضمك إلى حرمه، أو بالغ في الإيذاء فجعلك إحدى سراريه أو خدمه، كلما مر بك أحد أشار إليك بالبنان: (مسكينة! هذه زوجة هكتور فتى طروادة، وأين ملكها المقدام، البطل الذي سفك الدماء وسعر الهيجاء، تعمل هنا اليوم خادمة ذليلة، كسيرة القلب، مهيضة الجناح، تأتمر بأمر السفلة والاخساء!
لا يا أندروماك! لقد ذكرت ذلك جميعاً، ومن أجل هذا فأنا لهذه الحرب، وأنا لهؤلاء الأعداء! سأحطمهم! سأدك الأرض من تحتهم! سأسقط السماء عليه كسفاً. . .! من أجلك! يا وطني! يا بلادي!. . .).
وسكت فتى طروادة قليلاً، ثم ذكر المعركة وما يدور فيها، فتقدم إلى زوجه فطبع على جبينها قبلة كلها هموم: ومد يده يريد أن يأخذ سكمندرويوس فيداعبه أو يودعه؛ ولكن الطفل صرخ مروعاً من هذه القبعة النحاسية المذهبة التي تحمى مفرق أبيه! وأبتسم والداه، برغم
حزنهما، ورفع هكتور القبعة وألقاها على الأرض المعشوشبة، وتناول الطفل فأرقصه قليلاً حتى انفرجت شفتاه عن ضحكة عالية، ولثمه كما تلثم العاصفة فنناً وارفاً فتلفحه، ودفع به إلى حضن أمه.
وأنطلق يطوي الطريق إلى المعمعة. . .
(لها بقية)
دريني خشبة
رحلة إلى حدود مصر الغربية - 2
مرسى مطروح، سيوه، السلوم
للأستاذ الرحالة محمد ثابت
أقلتني سيارة برفقة الأخ النبيل الكريم حسن حشمت، من خيرة الشبان وأكفأ ضباط الحدود، وطفنا بكثير من البساتين والينابيع، وهي عماد موارد الواحة وخير ما يميزها، تنتشر في أطرافها في عدد لا حصر له، وحولها تقوم غابات النخيل تتخللها أشجار الفاكهة، أخص بالذكر منها الكروم والزيتون، ثم الرمان والتفاح والبرقوق والموالح، على أن البساتين تفتقر إلى عناية كبيرة من أهلها، فهي مهملة إلى حد كبير، إذ تغص أرضها بالطفيليات، وتزدحم بالأشجار المتجاورة، مما يؤثر ولاشك في مقدار إنتاجها عاماً بعد عام. ويخيل إلى أن الناس هناك أميل إلى الكسل، إذ كنا نرى ماء الينابيع المتفجرة يجري على غير هدى، ويؤدي بعضه إلى مستنقعات فسيحة هائلة بعضها يبدو كالملاحات المديدة. نرى كتل الملح الأبيض الوضاء تكسو جوانبه إلى مد البصر، ولقد حاولت وزارة الزراعة إصلاح تلك الأرضي وحث الناس على استغلالها بطريقة أنجع من طريقتهم الحالية في الحرث وتعهد الأرض، وكذلك في الاستفادة بذلك الماء الوفير الذي يضيع سدى، ولقد قامت وزارة الزراعة هناك بمجهود يشكر في توزيع أشجار الزيتون والخروب على الناس مجاناً، وفي الاحتفاظ بمياه الينابيع فأقامت حول كل عين أحواضاً كبيرةً من البناء تؤدي منها المجاري الصغيرة إلى مختلف النواحي، بحيث

تشعر وأنت تجوب أطراف الواحة من كثرة القنوات وتقاطعها وتشعبها أنك وسط قطر زراعي ممتاز، لكن رغم ذلك يضيع جانب كبير من ذلك الماء سدى، ولقد ساعدت تلك القنوات على تجفيف كثير من المستنقعات التي كانت مربى خصيباً لبعوض الملاريا الذي كان يفتك بالناس فتكاً ذريعاً، وهي تبث في تلك المياه نوعاً من السمك الصغير الذي يعيش على بويضات ذاك البعوض استئصالاً له. ولقد زرنا مصنع وزارة الزراعة الذي أقامته لاستغلال أكبر موردين للناس: هناك البلح والزيتون؛ وهي تبتاع من الآهلين جانباً كبيراً من أجود أنواع البلح، وتخضعه لعملية الغسيل والتطهير والتبخير، ثم الكبس في صناديق من خشب تبطن بالورق الصقيل، وتصدر منه بين 2000 و4000 طن في العام؛ وفي جانب من المصنع معصرة آلية للزيتون بكامل معداتها، يعصر فيها الزيتون وينقى الزيت بعدة عمليات، ثم يوضع في صفائح ويصدر؛ وإنتاج المصنع آخذ في الزيادة، ولذلك تفكر الوزارة في توسيعه باطراد. وللأهلين كثير من المعاصر الخاصة للزيت ومساطح البلح الذي يعدون منه (العجوة) السيوي الشهيرة؛ أما باقي أنواع الفاكهة فلا يكادون يستفيدون منه تجارياً، حتى البيع لأهل الواحة نفسها غير مباح، ذلك لأن المالك يعد بيع الثمار للناس معرة لا تليق بكرامته، ولكل إنسان أن يدخل البساتين ويأكل منها ما يشاء بدون مقابل، ولكن ليس له أن يحمل إلى الخارج شيئاً منها إلا في حالات خاصة، عندما يريد المالك تقديم الهدايا من ثمار حديقته لبعض ذوي المكانة والجاه من الغرباء أو الأهلين. ولم أدرك من صنوف الثمار شيئاً، اللهم إلا أردأ أنواع البلح هنالك ويسمونه البلح الفراوي، أما البلح الممتاز المسمى الصعيدي، والذي يليه جودة الفريحي فلا يزال فجاً غير ناضج.

أذكر أنا دخلنا بستاناً وتفيأنا بشجرة، وكانت الأرض تحت النخيل يكاد يفرشها ذاك البلح الرديء (الفراوي) فطلب الأخ حشمت إلى الرجل أن يذيقنا أطيب ذاك البلح، فاعتلى الرجل النخلة وهز عرجونها، فأمطرت وابلاً من رطب أصفر كبير، فأقبلنا ننتقي منه أطيبه ونغسله في ماء النبع حولنا ونأكله، فكان لذيذاً شهياً، وما كدت أمتدحه حتى سارع الرجل بالاعتذار بأن الأنواع الجيدة لما تنضج بعد، وأن هذا النوع الذي نأكله غير جدير بنا، لأنه عندهم طعام الحمير! وقد علمت أنهم حقاً يقدمونه علفاً للحمير، والنوى تأكله المعزى.

وأكبر عيون الواحة عين قريشت التي تبعد عنها بنحو عشرين كم، ثم عين تاخررت التي تنفجر بقوة هائلة ويتدفق منها 4000 طن يومياً يضيع جله في متسعات الملاحة بالبحر؛ ثم عين الشفا، وتقول خرافة قديمة إنها كانت متصلة بالجن، خاضعة لعبثهم، ثم اكتسبت هبة سحرية هي شفاء الأمراض كافة، لذلك يكاد يغتسل فيها الناس جميعاً كل يوم، فالنساء يقمن مبكرات ويغسلن أجسادهن دون رأسهن احتفاظاً بجمال الشعر أفخر آيات تجملهن، ثم يعقبهن في ساعة متأخرة الرجال؛ والعين التي يستقي منها الناس جميعاً عين تأبه أمام مركز البوليس؛ وكم كان يروقني منظر الناس وبخاصة النساء وهن يردن تلك العين في بكرة الصباح وعند الأصيل يملأن جرارهن! هذه سيوية في نصف سفور، وقد ارتدت جلباباً فضفاضاً من قماش يغلب على نقوشه التخطيط الأزرق، وقد ضفرت شعرها في جدائل متعددة، بعضها يتدلى إلى جانبي الرأس والبعض أمامها؛ وتنتهي الجدائل الخلفية بقطع من جلد خشن كان سبباً في أنهن لا يستطعن النوع على ظهورهن أبداً، وتزين أذنيها أقراط ثلاثة، في أسفل الأذن في طوق كبير يعلوه في وسط الأذن واحد أصغر منه، ثم يعلو هذا ثالث هو دونه حجما، وتكاد تكسو رقبها أطواق من الفضة بعضها خارج بعض، وهؤلاء لا يغسلن رأسهن إلا في فترات تعد بالأعوام، وبعضهن لم يغسلنها منذ نشأن، وذلك خشية إفساد زينة الرأس، وهن كل أسبوع يتعهدن الشعر ببعض الزيوت والأعطار، ويخيل إليَّ إن سبب تلك العادة سقوط الشعر من أثر أملاح مياه الينابيع مما نفرهن من غسله فأضحت عادة فيهن.

والسيويات جميلات الوجوه بألوانهن الخمرية وتقاطيعهن الدقيقة النحيلة. وإلى جانب السيوية كنت أرى عربية ازينت بجلبابها الأحمر، وأحاطت خصرها بحزام معوج من الأمام، وكانت تهولني أكمامها الكبيرة، ولقد خبرني الطبيب بأنه عند الكشف على إحداهن لا تضطر السيدة أن تخلع ثوبها ويكفي أن ترفع ذراعها فيظهر كل جسدها من كمها.

وللقوم لغتهم السيوية الخاصة، كنت أستمع إليها في رطانة هي أبعد من اللهجات الأوربية عنا، وقد حاولت أن أتعقب في كلماتها شيئاً يمت إلى العربية أو اللاتينية بصلة فلم أهتد إلى كلمة واحدة؛ وهم يتخاطبون بها دائماً، لكنهم إذا تحدثوا إلى الغريب تكلموا بالعربية، وأطفالهم لا يعرفون إلا اللغة السيوية. وإليك أمثلة من تلك اللغة: تلحاك أنك (كيف حالك؟)، أمقحاط: (أين تذهب؟)، سقم أنا سيط: (من أين تجيء؟)، أفتك اللون: (أفتح الشباك)، أفن شاشنك أخفنك (ألبس الطاقية على رأسك)، أفن شخشيرك في أشكنك (ألبس الجورب في رجلك) أشوُّ (الطعام) الخ. وما إلى تلك الألفاظ التي تمعن في الغرابة بالنسبة للغتنا، وحتى أسماؤهم تجد من بينها عجباً: تلشلشت، زوبَّاي، بيَّخ. ولهم تدليل خاص لبعض أسمائنا فمثلاً ينادون: أبا بكر باسم كاكال، إبراهيم باسم بابي، أحمد باسم حيدة؛ ويقال إن أصل تلك اللغة بربري ما زجتها العربية ثم الرومانية. ولا تزال للرومان هنالك بعض الآثار؛ أشهرها مبعد المشتري (جوبتر أمون)، وكان مقر الكهنة ذرعه 360 300 قدم، ومن أحجاره ما يبلغ 33 26 قدماً، وقد زاره الإسكندر بعد أن قاسى المتاعب الممضة وبعد أن نضب ماؤه وأشرف على الهلاك لولا أن سقط المطر فأنجاه هو ورجاله. وكان يقوم في هذا المعبد صنم أسمه سيوح هو الذي أكسب الواحة أسمها؛ وقد زرت هذا المعبد وألفيته في حال يرثى لها، فأنت لا تكاد تجدبه حجراً قائماً على أصله وذلك من أثر أحد المأمورين الذين رأوا في أحجاره مادة صالحة لإقامة مركز البوليس، فقام يهدم المعبد ويستخدم أحجاره فيما أراد، والمفروض أنه من مثقفي القوم ومن الذين يعرفون قيمة الاحتفاظ بمثل تلك الآثار الجليلة، وهو لا يزال مأموراً إلى اليوم في ناحية أخرى من مراكز الحدود؛ عفا الله عنه وكفر له عن سيئته.

ويقال إن تلك الواحة كانت تسمى عند العرب (سنتريه)، بناها منافيوس مؤسس بلدة أخميم، أقامها من حجر أبيض وشيد وسطها ملعباً من سبع طبقات وعليه قبة من خشب على عمد من رخام، وكانت كل طبقة لطائفة من الناس على حسب مكانتهم، على إني لم أجد لكل هذا أية بقية أو أثر. وقد حاول قمبيز تدميرها وهدم معبد أمون الذي بها فهلك جيشه العظيم في طريقه إليها. ولقد زاد ذلك في قدسيتها لأنهم عزوا ذلك إلى غضب الآلهة، ولم تدخل تلك الواحة تحت حكم مصر إلا في عهد المغفور له محمد علي باشا حين أرسل إليها حسن بك الشماشرجي، حاكم البحيرة إذ ذاك، فأخضعها وتعهد بها عرب أولاد علي إلى زمن سعيد باشا ثم ضمت لمديرية البحيرة، وهم يؤدون ضريبة النخيل الحكومة، وكان مجموعها زهاء 800 جنيه وزعت على عدد النخيل الجيد الذي يثمر البلح الصعيدي، فخص كل نخلة نحو تسعة مليمات ضريبة تدفع للدولة كل عام؛ ويكاد يكون لهم نظام حكم خاص بهم فالحكومة تكل أمرهم إلى المشايخ وعددهم سبعة يتقاضون مرتبات تتراوح بين جنيهين وأربعة كل شهر، وهؤلاء الوسطاء بين الدولة وبين الأهلين؛ وعند انتخابهم يجتمع أعيان الواحة ممن تزيد ملكيتهم على مائة نخلة وينتخبون الشيخ ولا تقل أملاكه عن 250 نخلة؛ وغالب منازعتهم تحل بطريق التحكيم فيختار كل من الخصمين رجلين يوكل إليهما الأمر وقضاؤهما نافذ بعد عرضه على المأمور، وأساس تشريعهم القواعد التي وضعها لهم عالم أسمه محمد يوسف، وتكاد تكون وفق تقاليدهم الخاصة، إلا في الزواج والميراث فهم خاضعون لقضائنا. وعدد سكان الواحة يقرب من خمسة آلاف ليس بينهم مسيحي واحد؛ ويقولون إن أربعين رجلاً من العرب والبربر وقبيلة أغورمي وفدوا إلى تلك البقعة وأقاموا لهم معصرة ودونوا أسماءهم في سجلاتهم، ثم تكاثر نسلهم حتى بلغ هذا العدد ومن لا ينتمي إلى واحد من أولئك الأربعين يعد دخيلاً عليهم.

وطبقة العمال هناك يسمون الزجالة أو الزجالين، يزيد عددهم على الخمسمائة، وهم الذين يقومون بخدمة الأرض نظير قيام السيد بمؤنتهم الضرورية، ولكل خادم جبة من صوف وثوب من قماش كل عام، وعند جمع المحصول يتسلم الواحد 32 صاعاً من الحب وأربعين من البلح الصعيدي الجيد. وتلك الطائفة كبيرة العدد مفتولة السواعد ممتلئة الجسوم، ممنوع أفرادها من الزواج مخافة أن يزيد نسلهم فتزيد النفقة على سيدهم، ومن تزوج منهم طرده سيده وتخلص منه؛ وهذا لا شك من أسباب قلة النسل في الواحة كلها، وقد أخذ ذلك يهدد السكان بالإنقراض، فضلاً عن إنه ساعد على

انتشار الفساد إلى درجة كبيرة.
(يتبع)
محمد ثابت
البريد الأدبي
وفاة الشيخ محمد بخيت
في اليوم الثامن عشر من هذا الشهر استأثر الله بالفقيه العلامة الشيخ محمد بخيت المطيعي مفتي الديار المصرية السابق؛ وهو خاتم طبقة من العلماء المحققين الذين تميزوا في حياة الأزهر بالتبسط في العقائد، والتعمق في الفقه، فانتهت إليه الأمانة فيهما حيناً من الدهر. كان - غفر الله له - من أشد المعارضين لحركة الإصلاح التي قام بها الإمام محمد عبده، دفعه إلى تلك المعارضة الثائرة شهوة المنافسة من جهة، وتحريض أولي السلطان من جهة أخرى، وكان في الشيخ زكانة شاهدة، ودعابة لطيفة؛ وطموح إلى مساماة الإمام في منصبه ونفوذه وشهرته حرك فيه الأخذ بنصيب من الأدب والثقافة العامة. ولعله كان أعلم أهل جيله بدقائق الفقه الحنفي، وأبسطهم لساناً في وجوه الخلاف بين أصحاب الشافعي وأصحاب أبي حنيفة.
ولد في بلدة المطيعة من أعمال أسيوط في سنة (1271 هـ) (1856م)، ثم دخل الأزهر في سنة 1282 هـ وتخرج منه سنة 1292 فاشتغل بالتدريس فيه. ثم أنتقل سنة 1297 إلى القضاء فتقلب في مناصبه حتى تولى قضاء مصر نيابة عن القاضي التركي نسيب أفندي. وفي سنة 1914م عين مفتياً للديار المصرية، وظل في هذا المنصب حتى أحيل على المعاش سنة 1921م وقضى بقية أيامه في الإقراء والإفتاء حتى قبضه الله إلى رحمته.
اختراع الخراع للصفدي
وقع الأستاذ الطنطاوي على نسخة من هذا الكتاب الغريب عند بعض أصدقائه الأدباء، وقد وصفها في العدد الماضي وفي هذا العدد، وقال إنها ناقصة من أولها وآخرها، وقد أخبرنا صديقنا الأستاذ محمود حسن زناتي أمين الخزانة الزكية إن من هذا الكتاب نسخة مخطوطة كاملة في مكتبة المرحوم عبد الله باشا فكري، وهي الآن في حوزة حفيده الأستاذ محمد أمين فكري بك بوزارة المالية؛ فعسى أن يتيح الله لهذا الكتاب الطريف من ينشره.
قبر الصفدي
إلى الأخ الأديب الأستاذ على الطنطاوي
ذكرت يا سيدي أثراً من آثار صلاح الدين الصفدي بعدد (الرسالة) العشرين بعد المائة ودللت على فضل الرجل وعلى أثره في الأدب العربي، فهل تدري يا سيدي ابن يرقد هذا الرجل الفذ؟ إن قبره في مدينة صفد (فلسطين) قبر متهدم، في حارة لليهود، في بقعة لا تزيد على خمسين متراً مربعاً. . . أتريد أن تعلم أكثر من ذلك؟ - إن جيرانه لا يأنفون أن. . . يقذفوا قبره بزبالة بيوتهم.
قبر مندرس، في مكان ضيق قذر، مجهولة قيمة ساكنه، لا يزار ولا يعرفه إلا القليل، وما كان ليعرفه كل من يعرفه الآن لولا زيارة المرحوم شيخ العروبة له قبل عشر سنوات، والتبرع. . . ببناء جدار حوله!
منذ الحرب حتى يومنا هذا لم يزر قبر (إمام عصره) من الأدباء إلا المرحوم أحمد زكي باشا، فهل هذا هو التقدير لأدبائنا؟ أمة تنشد الحياة والاستقلال وإحياء الماضي العزيز، أيليق بها أن تهمل قبور رجال العلم والأدب فيها لتصبح. . . مزابل؟ قارن بين وستمنستر والبانطيون و (مقبرة) صلاح الدين تعلم السر في الفرق بين من أدباؤهم السابقون في وستمنستر، ومن قبور أدبائهم كقبر ابن أيبك!
ها قد مر على رقدة صلاح الدين الأخيرة خمسمائة وتسعون سنة كاملة، وبعد عشرة سنوات تبلغ الستمائة، فماذا أعددنا لإحياء ذكراه الستمائة؟ في وقت يقيم الغربيون المهرجانات الكبيرة لأحياء ذكر أدبائهم في كل عام! عسى ألا تمر العشر السنوات الباقية لذكرى الستمائة سنة لوفاته وقبر مهمل قذر لا يزار.
(صفدي)
نظريات الجنس والسلالة والخصومة السامية
اتخذت نظريات الجنس والسلالة في العهد الأخير أهمية خاصة؛ فهي اليوم روح النظام

الذي يسود ألمانيا، وقد أخذت تثير في بعض الدول الأخرى جدلاً لا نهاية له؛ وقد كان اليهود ضحية هذه الفورة التي اتخذت في ألمانيا أشكالاً من العنف والهمجية تذكرنا بروح العصور الوسطى وأساليبها؛ على أن نظرية الجنس وتفوق السلالة لم تقف عند اضطهاد
اليهود، ولو وقفت عند هذا الحد لكانت مسألة محلية بالنسبة لألمانيا، ولكن هتلر ودعاته ذهبوا بعيداً في صوغ النظرية الجنسية، فنادوا بتفوق السلالة الجرمانية أو السلالة الشمالية (النورديكية) على جميع أجناس البشر، ووصموا الأجناس السامية كلها بالانحطاط وعدم الأهلية لإنشاء الحضارة، ونادوا بوجوب إخضاعها وتمدينها واستغلالها بواسطة الشعوب الشمالية. ومن هنا تتخذ الدعاية الهتلرية أهميتها بالنسبة للشعوب الشرقية، وهي التي وصمت بهذه الوصمة وصدر في حقها هذا الحكم؛ وقد كانت ألمانيا وما زالت مهد التعصب الجنسي، وكانت بالأخص مهد الخصومة السامية؛ ولم يأت زعيم الدولة الألمانية في ذلك بجديد في كتابه (كفاحي) الذي يحدثنا فيه طويلاً عن عناصر الانحطاط والخطر في اليهودية، فإن الثقافة التي تلقاها لا تسمح له بمناقشة هذه الشؤون العلمية والتاريخية؛ ولكنه نقل معظم أقواله من الكاتب الألماني كرستيان لاصن؛ وقد كان لاصن أول من صاغ من الخصومة السامية نظرية علمية تاريخية، وأول من تحدث عن انحطاط الأجناس السامية في كتاب نشره في منتصف القرن الماضي؛ ثم تلاه المؤرخ الفرنسي أرنست رينان؛ واتخذت نظرية الخصومة السامية من ذلك الحين شكلها الجدلي.

نكتب ذلك لمناسبة كتاب ظهر أخيراً بالإنكليزية عنوانه: (كيف التباين من الله) بقلم الكاتب الإنكليزي لويس بروان؛ وموضوع الكتاب هو الحديث عن مركز اليهود في المجتمع والإنسانية؛ وقد يبدو لأول وهلة إن المؤلف وهو يهودي يجري على نغمة الدفاع عن جنسه؛ ولكن الواقع أنه لا يبدي في ذلك حماسة خاصة؛ وإنما لب الكتاب وموضوعه الأول هو تحليل النظريات الجنسية التي ترتبت عليها الخصومة السامية؛ وشرح الأسباب التي أدت إلى تفاقمها وإلى الصراع بين اليهودية وخصومها، ويرى الكاتب أن الحركة اليهودية لم تتخذ هذه الأهمية من تلقاء نفسها، ولكنها نمت وأشتد ساعدها بسبب الاضطهاد والمطاردة؛ ويدلل الكاتب على نظريته بسير الحركات العالمية الكبرى، فالنصرانية ما كانت لتنمو وتنتشر هذا الانتشار لو لم تطارد في بدء ظهورها بعنف وقوة، وكذلك اليهودية: فمنذ غابر العصور كان اليهود موضع الاضطهاد والبغض والزراية، وكانوا يجلدون ويعذبون وتحرق منازلهم وتصادر أموالهم، ولكن اليهودية هي اليوم أقوى ما تكون حياة وحيوية: بل هي اليوم في ازدهار وتقدم، وقد نتساءل أيكون ذلك رغم الاضطهاد
والمطاردة؛ ويقول الكاتب كلا بل بسبب الاضطهاد والمطاردة. ثم يقول إن اليهود لم يكونوا قط جنساً أو شعباً متحداً، ومن الخطأ أن نعتقد أن العصبية الدينية هي التي تربطهم وتقوي تضامنهم؛ ذلك أن اليهودية دين سهل، يقبل مختلف التطورات والتفسيرات؛ ولكن اليهود يجتمعون في مسألة واحدة ما زالت قائمة خلال القرون، تلك هي أنهم دائماً موضع البغض والزراية من بني الإنسان: وقد أرغموا خلال العصور على أن يناضلوا من أجل حياتهم، فبث فيهم النضال قوة؛ واليهودي يشعر أنه ليس كباقي الناس، ولكنه يحمل دائماً على أن يشعر بأنه يوجد شيء ضده؛ ومن ثم تعلم الحذر والتحوط إلى درجة يدهش لها الجمهور الرفيع.

ويكتب لويس براون بوضوح وسلالة ويستعرض ما في بني جنسه من عيوب وفضائل بروح الاعتدال والإنصاف، ويحلل نظريات الجنس والسلالة بقوة وذكاء، ويفند ما فيها من تحامل وسفسطة، ويتساءل عن المعيار الذي يتخذه دعاة النظرية لتفاضل الجنس والسلالة: أهي المظاهر الخلقية المادية كالجمجمة والفك والشفتين واللون وغيرها، وهذه جميعاً يختلف معيار التفاضل فيها عن مختلف الأجناس والشعوب، وربما فضل الزنجي الرجل الأشقر في بعض تقاطيعه أو خواصه، وربما فضل المغولي الأصفر القصير باقي الأجناس بدقة شفاهه وحمرتها، وهكذا. ولا يحاول لويس براون بأي حال أن يزعم أن لليهود تفوقاً خاصاً، ولكنه يقول فقط إن الجمهور الرفيع لم يترك باباً من أبواب الاضطهاد والمطاردة، لسحق اليهود إلا ولجه، وحيثما ترك اليهودي لنفسه ولم يزعج نراه نسياً منسياً، ولكن حيث يواجهه الصراع والمطاردة نراه قوياً يغالب

الحوادث.
وقد أثار كتاب لويس براون في الداوئر السياسية والاجتماعية كثيراً من الاهتمام والجدل؛ وربما كان كتابه أول كتاب من نوعه، يذكرنا بمؤلفات سلفه ومواطنه الكاتب والفيلسوف اليهودي الأكبر (مكس نردو) الذي لفت أنظار العالم منذ ثلث قرن بقوة جدله في نقض أصول المدنية الحاضرة وأكاذيبها الاجتماعية والجنسية والسياسية.

تمثال لحنة بافلوفا

من أنباء لندن أنه سيقام في إحدى حدائقها تمثال بديع للراقصة الروسية الشهيرة حنه بافلوفا، وقد أوصت بصنع هذا التمثال لجنة من محبي الفنون في لندن حيث عاشت الراقصة الشهيرة حيناً من الدهر؛ وعهد بصنعه إلى المثال السويدي الكبير كارل ميلس، وستبلغ نفقاته ثلاثين ألف جنيه؛ وتقرر أن يقام في بستان ريجنت في حديقة الورد، وهي تقع إلى جانب بركة البجع، وهو الطير الذي أوحت حركاته إلى بافلوفا بأشهر وأروع رقصاتها المسماة (رقصة البجع). وتعول اللجنة على جمع المال المطلوب من إيراد (فلم) يمثل حياة بافلوفا في طائفة من أبدع رقصاتها ومنها (رقصة البجعة المحتضرة)؛ وقد أخذت هذه المناظر قبل وفاة بافلوفا بقليل وأشترك فيها مع الفنانة الشهيرة بعض كبار الراقصين الذي عملوا معها.

وتمثل حياة بافلوفا وحدها طوراً من أعظم أطوار الفن الراقص؛ وقد ولدت هذه الراقصة المبدعة في بتروجراد في سنة 1885، وتعلمت الرقص في بعض مسارحها، ولم تبلغ العاشرة من عمرها حتى ذاعت شهرتها وتقدمت في سبيل المجد والرياسة الفنية بسرعة مدهشة؛ وكانت فنانة رائعة الإبتكار، وعلى يدها دخلت أوضاع (الباليه) الراقصة في طور جديد وبلغت ذروتها من الافتنان والروعة. وكان الفن لديها وحياً وسمواً. وقد طافت عواصم العالم الكبرى مثل لندن وبرلين وباريس ونيويورك ولقيت فيها جميعاً فوزاً باهراً. وقدمت إلى مصر سنة 1929 ففتنت المجتمع المصري برائع فنها ولا سيما برقصة (البجعة المحتضرة)؛ وتوفيت سنة 1931 في مدينة لاهاي وطويت بوفاتها صفحة من أروع صفحات الفن الحديث.

أرض السعداء

يوجد بين جزائر المحيط الهادي التابعة لإنكلترا جزيرة صغيرة يصح أن تسمى بالجزيرة السعيدة. وتسمى هذه الجزيرة (جزيرة تونجا) وهي إحدى مجموعة جزائر (الأحباب) التي وقف بها الرحالة الشهير (كابتن كوك) أثناء طوافه في أواخر القرن الثامن عشر بهذه المياه الخطرة. وأمير هذه الجزيرة زنجي يسمى البرنس (توفا آهو) وهو شاب في الثامنة عشرة ولكنه طويل القامة جداً، وهو يدرس الحقوق في مبلورن ووجه الرضى والسعادة في (تونجا) هو أنه ليس بها فقير ولا معوز ولا تدفع فيها ضرائب. وكل فرد من سكانها يبلغ السادسة عشرة يعطى أرضاً مساحتها نحو ثمانية فدادين ومسكناً قروياً، أو بعبارة أخرى تهيأ له كل أسباب العيش والرخاء.

وقد استبدلت ضريبة الدخل بجعل سنوي قدره جنيهان يدفعه كل ذكر بالغ؛ ولكنه ليس بضريبة في الواقع لأنه يخول له مقابله أن يعالج مجاناً هو وأفراد عائلته في مستشفى الحكومة؛ ومعظم إيراد الحكومة يجبى من الجمارك وضريبة السيارات.

ويكفل التعليم الحر بوجود المدارس الابتدائية وهي كلها مجانية؛ وهناك كليتان صغيرتان. ومن مفاخر هذه الجزيرة النائية التي لا يجاوز سكانها ثلاثين ألف نفس أن ليس بها أمي واحد.

الكتب

رسالة الحج

تأليف الأستاذ ح. ع. (دبلوماسي)

للأستاذ عبد الحميد العبادي

الأستاذ ح. ع. من خيرة رجالنا العاملين في السلك الدبلوماسي، مثل مصر ولا يزال يمثلها في ممالك الشرق العربي، فأفاد بذلك خبرة نادرة بأحوال البلاد العربية في الوقت الحاضر، وأنشأ لنفسه بخلقه وإخلاصه ونشاطه مكانة عالية عند ملوك العرب، وساستهم، وأدبائهم، وعلمائهم. وإني لسعيد بأن أقول إني اطلعت على ذلك بنفسي في بعض تجوالي في ربوع الشرقين الأدنى والأوسط

وقد واتى الحظ الأستاذ ح. ع. وساعفته ظروف عمله الدبلوماسي فأدى فريضة الحج

ثلاث مرات استطاع أن يدرس في أثنائها على هدى التاريخ وفي ضوء الواقع حال ذلك النظام الإسلامي الجليل المعدود خامس أركان الإسلام. ثم صاغ خلاصة دراسته في رسالة لطيفة الحجم عظيمة الفائدة، يعرف فيها من يطالعها بلاغة الأدب، وفكرة الفيلسوف، ونزعة المصلح المؤمن برسالة الإسلام وبإمكان إنهاض المسلمين من عثارهم بالرجوع بهم إلى كثير من نظمهم وسننهم الأولى. فجاءت الرسالة من أحسن ما كتب عن (الحج)، ومن خير ما أخرجته المطابع المصرية في هذا العام

ينعى الأستاذ على المسلمين فيصدر رسالته إهمالهم أمر الحج حتى كاد هذا النظام العتيق يفقد على مر الزمن من الناحية العلمية الحكمة التي قصد إليها الشارع من تشريعه. فهو يقول: (أما بعد فقد أديت فريضة الحج ثلاث مرات، وشاهدت الحجيج من جميع الأجناس، وخالطت منهم طوائف كثيرة، وحادثت كبارهم وذوي العقول منهم، ودرست بفكري وعيني وقلبي، فكنت أرى وأفكر وأبحث، وكنت استلهم كل شيء حكمته، وكل مكان وحيه، وكل عمل سره، فظهر لي أخيراً أن الحج لا يزال مجهولاً في حقيقته، وأن الذين يحجون إنما يؤدون عملاً فردياً محضاً، ولا يعرفون إلا ظاهراً من الأمر. . .)

والرسالة تنقسم إلى ثلاثة أقسام، أولها في أن الإسلام دين إنساني عام، وأنه دين المساواة

التي تظهر في شكلها المادي المحسوس في الحج، وأن الكعبة من العالم الإسلامي بمنزلة القلب من الجسم، فالتوجه إليها في الصلاة والحج ذو حكمة بالغة. والقسم الثاني يتناول الكلام على (مقاصد الحج)، وفيه يرى الأستاذ أن الحج كفيل بتحقيق مبدأ الرجوع إلى طهارة الطبيعة الذي دعا إليه الفلاسفة أمثال روسو ولكنهم عجزوا عن تحقيقه، وأن الحج يستوفي مزايا نظام الكشافة ويربى عليها، وأن الحج رمز للجهاد الإسلامي في أسمى وأشرف معانيه، وأن موسم الحج جدير بأن يصبح مؤتمراً عاماً لنشر الثقافة بين المسلمين لو حرصت كل أمة إسلامية على أن تحج كل عام نفرا من صفوة رجالها يبادلون نظراءهم من حجاج الأمم الأخرى الرأي والمشورة؛ والأستاذ يرى أن هذه المقاصد كلها مما يندرج تحت مدلول قوله تعالى: (ليشهدوا منافع لهم)

على أن الجديد الممتع من هذه الرسالة هو قسمها الثالث، هو تلك الفصول التي عقدها الأستاذ لمناسك الحج وأسرارها التي خفيت على كثير من بحاث المسلمين حتى ذهب بعضهم إلى أنها أمور تعبدية توقيفية لا مجال لتفكير العقل البشري فيها؛ فالأستاذ يتناولها منسكاً منسكاً: من الإحرام، إلى الطواف حول الكعبة، إلى السعي بين الصفا والمروة، إلى الوقوف بعرفات، إلى رمي الجمار عند العقبة، إلى تقديم الهدي، إلى استلام الحجر الأسود والإهلال بالتلبية، فإذا هذه المناسك قد أفصحت عن سرها، وأبانت عن مكنون حكمتها. والحق أن هذا البحث ليكشف عن ناحية روحانية جميلة من نفس الباحث القدير

ثم يختم الأستاذ رسالته بمقترحات عملية يتقدم بها إلى الحكومات الإسلامية عامة والحكومة المصرية خاصة، راجياً الأخذ بها حتى ينتفع المسلمون بنظام الحج وإن الذي يفرغ من قراءة هذه الرسالة ليتمنى أمرين: أن تجد دعوة الأستاذ ح. ع. من أولى الرأي في العالم الإسلامي آذاناً صاغية، وقلوباً واعية، وألا يحرم الأستاذ الشباب المتعلم المثقف من نفثات يراعه، فهو يراع يصدر عن فكر ناضج وعاطفة نبيلة.

عبد الحميد العبادي

العدد 122 - بتاريخ: 04 - 11 - 1935

في الجمال. . .

بحث تحليلي نهديه إلى الآنسة شرلوت واصف ملكة الجمال العالمي في هذا العام

ما هو الجميل؟ الجميل في إجماع الناس هو ما ينشئ في الذهن فكرة سامية عن الشيء في الطبيعة، أو عن الموضوع في الفن فيبعث في نفسك عاطفة الإعجاب به. ولكن ما هي على التحديد الصفات التي تبعث اللذة وتثير الإعجاب في بدائع الفن أو في روائع الطبيعة؟ ذلك ما نحاول شرحه في شيء من الإفاضة.

الطبيعة والفن إنما يحدثان أثرهما في النفس إما بالفكرة وإما بالعاطفة وإما بالشعور الصادر عن آلات الحس؛ ومن ذلك تنوع الجمال فكان عقلياً وأدبياً ومادياً ما في ذلك

شك. ففي أي الجهات إذن تتعرف النفس والعاطفة والحواس وجوه الجمال؟ إن الخصائص المميزة للجمال هي القوة، والفِرَة، والذكاء؛ والمراد بالقوة شدة العمل وحدته، وبالفرة كثرة الوسائل وخصوبتها، وبالذكاء الطريقة الرشيدة المفيدة لتطبيق هذه الوسائل. ولا جدال في أن الحواس ليست كلها أهلا لنقل هذه الخصائص الجمالية الثلاث، وإنما ينفرد منها السمع والبصر بنقل أحاسيسها نقلاً قوياً يثير الدهش والإعجاب واللذة. أما الانفعال الذي يأتيك عن طريق الشم والذوق واللمس، فلا ينشأ عنه فكرة ولا عاطفة، لأن الطعوم والروائح، والملوسة والخشونة، والصلابة واللدونة، والحرارة والبرودة، أحاسيس بسيطة عقيمة قد توقظ في النفس ذكرى خابيةً أو عاطفة غافيةً، ولكنها لا تنتج واحدة منهما. وإذا كان البصر آلة الجمال الحسي أو المادي، والسمع آلة الجمال العقلي والخلقي، فإن في هاتين الحاستين الدليل على خصائص الجمال الثلاث، ذلك لأن أجمل ما يؤثر في العين والأذن هو ما بلغ من القوة والفرة والذكانة أسمى غاية؛ وجمال الأشياء إنما يتفاضل فيهما بمقدار ما يشتمل عليه من هذه العناصر؛ وكلما نقص عنصر منها أو قل، ضعف فينا الشعور بالجمال على نسبته. ما الذي يجعل لعملي النفس وهما الفكر والإرادة هذه الصفة التي تملك اللب في العبقرية والفضيلة؟ لا شيء غير القوة والفرة والذكاء، سواء أكان ما تعجب به براعة الصنع أم مهارة الصانع. إن الطيبة في ذاتها فضيلة، ولكنها لا تكون جميلة إلا إذا اقترنت بالقوة؛ فسقراط في الحكماء، وعمر في الخلفاء، مثلان سائران في جمال الخلق، ولكنك إذا
جردت أخلاقهما مما ينبئ عن القوة وخواصها من الصدق والصبر والشجاعة والسمو ذهب الجمال وبقيت الطيبة. إذا صنعت المعروف في صديقك وعدوك كان الفعل كريماً في الحالين، ولكنه في الصديق عادي لأنه بسيط سهل، وفي العدو ممتاز لأنه عظيم شاق؛ وفي هذه القوة التي تقتضيها تلك المشقة كان جماله. إن وفاء السموءل بدروع امرئ القيس فضيلة، ولكن اقترانه بالقوة على تضحيته بابنه جعله آية في جمال الوفاء؛ وإن تنفيذ بروتوس عقوبة الموت على أحد المجرمين عادة مألوفة، ولكن تنفيذه إياها على بنيه الذين ائتمروا بروما مثل نادر لجمال البطولة. وموقف هكطور مع أندروماك، وموقف أسماء بنت أبي بكر مع ابن الزبير لا يقلان جمالاً عن ذينك الموقفين. وسر الجمال في كل ذلك إنما هو تلك القوة الخارقة في تغليب فكرة الواجب على عاطفة البنوة.

كذلك الحال في أعمال الذهن؛ فحل معضلة في الهندسة، واكتشافٌ عظيم في الطبيعة، واختراع عجيب في الميكانيكا، ونظام محكم الوضع في التشريع، وقطعة قوية التفكير والتصوير في الأدب، كلها أعمال جميلة؛ لأنها تستلزم نصيباً موفوراً من الذكاء، وقوة عظيمة في التفكير؛ وشعور المرء بالجمال فيها، موقوف على إدراك القوة التي تقتضيها؛ فالعامي أمام الأحرف الهجائية، والتلميذ أمام منطق أرسطو، لا يجدان فيهما من الجمال ما يجده الفيلسوف، لأنه يدرك ما اقتضياه وتضمناه من الذكاء والقوة.

أما في البلاغة والشعر فأبْين خصائص الجمال الذكاء والفرة؛ فتزاحم العواطف، وتكاثر الصور، وتوافر الأفكار؛ ثم اتساع الخواطر بالذهن النير الذي يحييها ويقويها ويستولدها، وغزارة اللغة وخصوبتها وقدرتها على أن تعبر عن العلاقات الجديدة للحياة، أو على أن تفيض من الحرارة والقوة على الحركات المختلفة للنفس، كل أولئك يملأ شعاب القلب بالإعجاب، وذلك الإعجاب الذي نحسه هو عاطفة الجمال.

وشأن الجمال في المادة لا يختلف عن شأنه في الفكر والعاطفة؛ فإنك إذا رحت تبحث في الطبيعة عن الصفة العامة للجمال لم تجدها غير القوة، أو الفرة، أو الذكاء. ففي الحيوان تجد هذه الصفات الثلاث مجتمعة ومتفرقة، ففي جمال الأسد القوة، وفي جمال الطاووس الفرة، وفي جمال الإنسان الذكاء. ولا أقصد ذكاء الإنسان في نفسه، إنما أقصد ذكاء الطبيعة في تهيئته وتثقيفه؛ وذكاء الطبيعة معناه مطابقة طرائقها لصورها، وملاءمة وسائلها
لغاياتها. فغايتها من الرجل غير غايتها من المرأة، ولذلك اختلفت الوسائل في الزوجين، وتباين مقياس الجمال في الجنسين. أرادت من الرجل أن يعمل ويقاتل ويحمي زوجه ويعول أسرته، فزودته بما يحقق هذا المراد ويُمضي تلك الإرادة: تركيب

وثيق محكم تنم ملامحه على السرعة والمهارة والقوة والشجاعة، وجسم متجاوب الأعضاء متناظر الشكول متوازن الأوضاع يصلح لكل عمل ويقدر على كل حركة ويستقيم على أي صورة، وسِماتٌ من الشهامة والجرأة والحنان والحساسية تفيض من العيون وتنتشر على الوجوه وتختلج على الشفاه، وجملة من الصفات الخلقية والجسمية تؤلف في الإنسان مزايا الجمال المذكر؛ فإذا قلت رجل جميل كان معنا ذلك أن الطبيعة وهي تكوّنه عرفت ما تفعل، وفعلت ما تريد.

(للبحث بقية)

أحمد حسن الزيات

فوق الآدمية

الإسراء والمعراج

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

من أعجب ما اتفق لي أني فرغتُ من تسويد هذا المقال ثم أردتُ نقله فتعسَّرَ عَلَّي وصُرِفتُ عنه بألم شديدٍ اعتراني ونالتني منه ثقلةٌ في الدماغ؛ ثم كشفه الله بعد يوم فراجعتُ الكتابةَ، فإذا قلمي ينبعث بهذه الكلمات:

كيف يَستَوْطِئُ المسلمون العجز وفي أول دينهم تسخير الطبيعة؟

كيف يَسْتَمْهِدون الراحة، وفي صدر تأريخهم عملُ المعجزة الكبرى؟

كيف يَركَنُونَ إلى الجهل، وأول أمرهم آخرُ غايات العلم؟

كيف لا يحملون النور للعالَم، ونبيُّهم هو الكائن النورانيُّ الأعظم؟

قصة الإسراء والمعراج هي من خصائص نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، هذا النجم الإنساني العظيم، وهذا النور المتجسِّد لهداية العالم في حَيرة ظلماته النفسية؛ فإن سماء الإنسان تُظلم وتُضيء من داخله بأغراضه ومعانيه. والله تعالى قد خلق للعالم الأرض شمساً واحدةً تُنيره وتُحييه وتتقلب عليه بليله ونهاره، بيد أنه ترك لكل إنسان أن يصنع لنفسه شمس قلبه وغمامها وسحابها وما تسفِرُ به وما تظلم فيه. ولهذا سمي القرآن نوراً لعمل آدابه في النفس، ووُصف المؤمنون بأنهم (يسعى نورُهم بين أيديهم وبأيمانهم)، وكان أثر الإيمان والتقوى في تعبير القرآن الكريم أن يجعل الله للمؤمنين نوراً يمشون به.

ولقد حار المفسرون في حكمة ذكر (الليل) في آية (الإسراء) من قوله تعالى: (سُبحانَ الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركْنا حوله لنُريه من آياتنا). فإن السُّرى في لغة العرب لا يكون إلا ليلاً؛ والحكمة هي الإشارة إلى أن القصة قصةُ النجم الإنساني العظيم الذي تحول من إنسانيته إلى نوره السماوي في هذه المعجزة، ويتمم هذه العجيبةَ أن آيات (المعراج) لم تجئ إلا في سورة (والنجم) وعلى تأويل أن ذكر (الليل) إشارةٌ إلى قصة النجم، تكون الآية برهان نفسها، وتكون في نَسَقها قد جاءت معجزة من المعجزات البيانية. فإذا قيل إن نجماً دار في السماء، أو قطع ما تقطعه النجوم من المسافات التي تعجز الحساب، فهل في ذلك من عجيب؟ وهل فيه شك أو نظرٌ أو تردد؟

وهل هو إلا من بعض ما يسبِّح الله بذكره؟ وهل يكون إلا آية اتصلت بالآيات التي يراها اتصالَ الوجود بعضه ببعض؟

وأنا ما يكاد ينقضي عجبي من قوله تعالى: (لنُرِيه من آياتنا) مع أن الألفاظ كما ترى مكشوفة واضحة، يخيَّل إليك أن ليس وراءها شئ، ووراءها السرُّ الأكبر؛ فإنها بهذه العبارة نصٌّ على إشراف النبي صلى الله عليه وسلم فوق الزمان والمكان يرى بغير حجاب الحواس مما مرجعه إلى قدرة الله لا قدرة نفسه، بخلاف ما لو كانت العبارة (ليرى من آياتنا) فإن هذا يجعله لنفسه في حدود قوتها وحواسها وزمانها ومكانها، فيضطرب الكلام ويتطرق إليه الاعتراض ولا تكون ثمَّ معجزة. وتحويل فعل (الرؤية) من صيغة إلى صيغة كما رأيت هو بعينه إشارة إلى تحويل الرائي من شكل إلى شكل كما ستعرفه، وهذه معجزة أخرى يسجد لها العقل؛ فتبارك الله مُنزلُ هذا الكلام!

وإذا كان صلى الله عليه وسلم نجما إنسانياً في نوره فلن يأتي هذا إلا من غلبة روحانيته على مادته؛ وإذا غلبت روحانيته كانت قواه النفسية مهيأة في الدنيا لمثل حالتها في الأخرى؛ فهو في هذه المعجزة أشبه بالهواء المتحرك. فقُل الآن: أيعترضُ على الهواء إذا ارتفع بأنه لم يرتفع في طيارة. . .؟

ومن ثمَّ كان الإنسان إذا سما درجةً واحدةً في ثبات قواه الروحية، سما بها درجاتٍ فوق الدنيا وما فيها، وسُخِّرت له المعاني التي تسخِّر غيره من الناس، ونشأت له نواميسُ أخلاقيةٌ غير النواميس التي تتسلط بها الأهواء. ومتى وُجد الشيء من الأشياء كانت طبائع وجوده هي نواميسه. فالنارُ مثلاً إذا هي تضرَّمت أوجدت الإحراق فيما يحترق، فإن وضع فيها ما لا يحترق أبطل نواميسها وغلب عليها.

وكل معجزة تحدث فهذا هو سبيلُها في إيجاد النواميس الخاصة بها وإبطال النواميس المألوفة، وبهذا يقال إنها خرقت العادة؛ ومن النور نورٌ لا يشفُّ له غيرُ الهواء، ومنه أشعة (رنتجن) التي تشف لها الجدرانُ والحجب، فهذه معجزة في ذاك.

والنبي لا يكون نبياً حتى يكون في إنسانه إنسانٌ آخر بنواميسَ تجعله أقربَ إلى الملائكة في روحانيتها؛ وما ينزل إنسانُه الظاهرُ من الإنسان الباطن فيه إلا منزلةَ من يتلقى ممن يُعطي. فذاك الباطنُ هو للحقائق التي لا تحملها الدنيا، وهذا الظاهر لما يمكن أن يبلغ إليه

الكمالُ في المثل الإنساني الأعلى، ولولا ذلك الباطن ما استطاع نبي من الأنبياء أن يحمل هموم أمة كاملة لا تضنيه ولا تغيره ولا تعجزه.

فحقيقةُ النبوَّة أنها قوةٌ من الوجود في إنسان مختار جاءت تصلح الوجود الإنسانيَّ به لتُقرَّ في هذه الحيوانية المهذَّبة مثلها الأعلى، بدلالتها على طريقها النفسيّ مع طريقها الطبيعي؛ فيكون مع الانحطاط الرقيّ، ومع النقص الكمال، ومع حكم الغريزة التحكم في الغريزة، ومع الظلمة المادية الإشراقُ الروحاني.

وما المعجزات إلا شأنُ تلك القوة الباطنة لا شأنُ إنسانها الظاهر. ومن الذي ينكر أن قوى الوجود هي في نفسها إعجاز للعقل البشري؟ وهل ينكر اليوم أحد شأنَ هذه القوة في (الراديو) حين مسته فجعلت الكلمة التي ترسل بين الشرق والغرب، كالكلمة بين اثنين يتحدثان في مجلس واحد؟

ونحن نرى معجزات التنويم المغناطيسي وما يبصره النائم وما يسمعه وما ينكشف له مما وراء الزمان والمكان؛ وليس التنويم شيئاً إلا تسليط الذات الباطنة بقواها الروحية العجيبة على الذات الظاهرة المقيدة بحواسها المحدودة، فتطغى عليها فتصبح الحواس مطلقة شائعة في الوجود بمقدار ما فيها من قواه لا بمقدار ما فيها من قوة شخصها، وعلى نحو ذلك يتصلُ الرجل الروحانيُّ بذاته الباطنة، فيوقع شخصه الظاهر في الاستهواء، فينكشف له الوجود ويبصر ما يقع على البعد ويرى ما هو آت قبل أن يأتي. وما الكون في هذه الحالة ألا كالمعشوق يقول لعاشقه الذي وقع في قلبه الحب: قد آتيتك نوراً تنظر به جمالي.

وفي علماء عصرنا من يفكر في الصعود إلى القمر، وفيهم من يعمل للمخاطبة مع الأفلاك، وفيهم من تقع له العجائب في استحضار الأرواح وتسخيرها. وكل ذلك أول البرهان الذي سَيُلْزِمُ الفم فيضطره في يوم ما إلى الإقرار بصحة الإسراء والمعراج. .

ونحن قبل أن نبدي رأينا في القصةُ نلمُّ بها إلمامةً موجزة؛ فقد اختلفت فيها الأحاديث ووقع فيها تخليط كثير فجاءت فنوناً وأنواعاً من طرق شتّى حتى جمعها بعضهم في جزءين، وما تحتمل كل ذلك ولا بعضه؛ ولكن روح الرواية في ذلك الزمن كانت كروح الصحافة في هذا العصر، متى فارت فَوْرَها استحدثتْ من كل عبارة عبارة أخرى، وعلى هذه الطريقة تخرج من العبارتين عبارة ثالثة، فيكون الأصل معنى واحداً وإذا هو يَمُدُّ من يمينه ويساره.

ولا يرون بذلك بأساً فانهم يَشُدُّون به الرأي ويضاعفون منه اليقين، ويزيدون ضوءاً في نور المعنى، وما داموا قد أثبتوا الأصل واستيقنوه فلا حَرَجَ أن يؤيد القولُ بعضُه بعضاً باجتهاد في عبارة، واستنباط من أخرى، وزيادة في الثالثة - مما هو بسبيل منها، على نحو ما نرى من فن الرواية القصصية؛ إذ تتعدد الأساليب والعبارات مختلفة متنوعة، وليس تحتها إلا حقيقة واحدة لا تختلف. والقَصصُ الديني في هذه اللغة العربية فنّ كامل قائم بنفسه لا يُبدع العقل والخيال والعاطفة أقوى منه ولا أعجب ولا أغرب ,

هذا في متن القصة؛ أما في واقعتها فقد اختلفوا اختلافاً آخر؛ هل كان الإسراء والمعراج يقظةً أو مناماً، وبالروح وحدها أو بالروح والجسم معاً؟ وإنما ذكرنا هذا الخلاف لأنه الدليل القاطع على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يخبر بشيء من ذلك فلم يعين لهم وجهاً من هذه الأوجه. والحكمة في ذلك أن عقولهم لم تكن تحتمل

الإدراك العلمي الذي أساسه الكهرباء والأثير. .
والخلاصة التي تتأدَّى من القصة: أنه صلى الله عليه وسلم كان مضطجعاً فأتاه جبريل فأخرجه من المسجد فأركبه البُراق فأتى بيت المقدس ثم دخل المسجد فصلى فيه، ثم عرج به إلى السموات فاستفتحها جبريل واحدة واحدة، فرأى فيها من آيات ربه، واجتمع بالأنبياء صلوات الله عليهم، وصعد في سماء بعد سماء إلى سِدْرة المنتَهى، فغَشيَها من أمر الله ما غشيها، فرأى صلى الله عليه وسلم مظهر الجمال الأزلي، ثم زُجَّ به في النور فأوحى الله إليه ما أوحى ,
أما وَشى القصة وطرازُها فبابٌ عجيب من الرموز الفلسفية الإنسانية التي يُرمز بها إلى تجسيد الأعمال في هذه الحياة، تكون تعباً وتقع فائدة، أو تُلتمس منفعة وشهوة وتقع مضرَّةً وحماقة، ثم تفنى من هذه وتلك الصُّور الزمنيةُ التي توّهمها أصحابها، وتخلد الصور الأبدية التي جاءت بها حقائقها.
ومن هذه الرموز البديعة قوله: فجاءني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فأخذت اللبن، فقال جبريل أخذت الفِطرة. وإنه مرَّ على قوم يزرعون ويحصدون في كل يوم كلما حصدوا عاد كما كان؛ فسأل ما هذا؟ قال جبريل: هؤلاء المجاهدون في سبيل الله تضاعَفُ لهم الحسنة سبعمائة ضِعف. ثم أتى على قوم تُرْضَخُ رءوسُهم بالصخر، كلما رُضِخَت
عادت كما كانت ولا يُفَتّر عنهم من ذلك شيء. فقال ما هذا؟ قال جبريل: هؤلاء الذين تتثاقل رءوسهم عن الصلاة. ثم أتى على قوم بين أيديهم لحمٌ نضيج في قدر، ولحمٌ آخر نيء في قدر خبيث، فجعلوا يأكلون من النيئ الخبيث ويَدَعون النضيج. فقال ما هؤلاء؟ قال جبريل: هذا الرجل تكون عنده المرأةُ الحلالُ الطيّب فيأتي امرأة خبيثة، والمرأة تقوم من عند زوجها حلالاً طيباً فتأتي رجلاً خبيثاً. ثم أتى على رجل قد جمع حزمةً عظيمةً لا يستطيع حملَها وهو يزيد عليها، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال هذا الرجل تكون عليه أماناتُ الناس لا يقدر على أدائها وهو يريد أن يحمل عليها. ثم رأى نساءً معلّقاتٍ بثديِّهن، فسأل، فقال جبريل: هؤلاء اللاتي أدخلن على الرجال من ليس من أولادهم.
ونحن على الرأي الذي عليه جمهور العلماء من أن الإسراء والمعراج كانا بالجسم والروح معاً على التأويل الذي سنبينه. ويثبت ذلك قوله تعالى في سورة (والنجم): (إذ يغشى السِّدرةَ ما يغشَى، ما زاغ البصرُ وما طغى). فلا يكون البصر يزيغ ويطغى إلا في الجسم ولا ينتفي عنه ذلك إلا وهو في الجسم. ولم ينتبه أحد من المفسرين إلى المعنى المعجز العجيب في قوله ((وما طغى)؛ فذلك نص على أنه كان يرى بجسم قد تحول عن الطبيعة الآدمية المحدودة فليس فيه منها شيء، إذ لا يكون طغيان البصر إلا من تسلط الخيال عليه بأهواء الجسم التي لا يستقيم بها حكم على حقيقته، فما زاغ البصر بكونه مقيد الحاسة، ولا طغى بكونه مطلق الخيال، بل كان كما يُريه الله من آياته، أي كان حقيقةً كونيةً في غير حالتها الأرضية الناقصة.
والذين قالوا إن الإسراء والمعراج كانا رؤيا رآها النبي صلى الله عليه وسلم؛ احتجوا لذلك بقوله تعالى: (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس) وقد خلط المفسرون في هذا أيضاً، وإنما كان التعبير بلفظ (الرؤيا) وهي التي تكون مناماً، لنفي تأثير الحواس على الرائي وإثبات أن الطبيعة الآدمية بجملتها كانت فيه كالنائمة عن حياتها الأرضية بحقائقها وأخيلتها معاً فليس نائماً كالنائم ولا مستيقظاً كالمستيقظ.
وفي أساس القصة جبريل والبراق؛ وهما القوة الملائكية، والقوة الطبيعية، أو الروح الملائكي والروح الطبيعي، ولم يوصف البراق بأنه دابة إلا رمزاً إذ لا يأتي للعرب أن يفهموا ما يراد منه وعندنا أنه سمي البراق من البرق، وما البرق إلا الكهربائية، وهذا هو
المراد منه. فتلك قوة كهربائية متى نَبَضت جمعت أول العالَم بآخره. وهذه هي الحكمة في أن آية الإسراء لم تذكر أنه كان محمولاً على شيء إذ لم يكن محمولاً إلا على الروح الأثير.
وما دامت القوةُ الملائكية والقوة الطبيعية قد سُخرتا له صلى الله عليه وسلم فلا معنى لأن يكون ذلك للروح وحدها، بل اجتماعهما معاً في القصة دليل على أن سر المعجزة إنما كان في تيسير ملاءمة جسمه الشريف لهاتين الحالتين؛ فيتحول في

صورة كونية ملائكية بين سر الملك وسر الطبيعة، وحينئذ لا تجري عليه أحكامُ الحواس ولا أحكام المادة.

ومن الممكن أن تتحول الأجسام إلى حالتها الأثيرية في بعض الأحوال الخارقة، وبهذا يعلِّل طيُّ الأرض لبعض الروحانيين وتعلل خوارق كثيرة مما يَحدث في استحضار الأرواح لهذا العهد ومما يأتيه فقراء الهند، ومما كان يصنعه (لاهوديني) الأمريكي إذ كانوا يغلُّونه بالسلاسل والقيود ثم يرونه طليقاً؛ ويحبسونه في السجون المحصَّنة يقوم عليها الحراس وتُمسكه فيها الأبواب والجدران، ثم يجدونه في بعض الفنادق.

وليس للعقل أن ينكر شيئاً من هذا ونحوه فان تركيب الطبيعة ردٌّ عليه، ونقصه هو ردٌّ على نفسه، والمستحيل على الأعمى هو أيسر الممكنات على المبصر.

فأنت ترى أن ذكر البراق والملك في أساس قصة الإسراء والمعراج هو صلة القصة بالمعجزة وهو عينه صلتها بالبرهان العلمي ولو لم يكونا فيها لما كان لها تفسير.

والقصة بعد ذلك تثبت أن هذا الوجود يرق وينكشف ويستضيء كلما سما الإنسان بروحه، ويغلظ ويتكاثف ويتحجب كلما نزل بها، وهي من ناحية النبي صلى الله عليه وسلم قصةٌ تصفه بمظهره الكوني في عظمته الخالدة كما رأى ذاته الكاملة في ملكوت الله، ومن ناحية كل مسلم من أتباعه، هي كالدرس في أن يكون لقلب المؤمن معراجٌ سماويّ فوق هذه الدنيا ليشهد ببصيرته أنوار الحق، وجمالَ الخير، وتجسد الأعمال الإنسانية في صورها الخالدة؛ فيكون بتدبره القصة كأنما يصعد إلى السماء وينزل؛ فيستريح إلى الحقائق الأساسية لهذه الحياة فيدفع عن نفسه بذلك وتعقُّد الأخيلة الذي هو أساس البلاء على الروح.

ومتى استنار القلبُ كان حياً في صاحبه وكان حياً في الوجود كله. ومتى سلمت الحياة من تعقيد الخيال الفاسد لم يكن بين الإنسان وبين الله إلا حياةٌ هي الحق والخير، ولم يكن بينه

وبين الناس إلا حياةٌ هي الرحمةُ والحب.

(طنطا)

مصطفى صادق الرافعي

مدينة الزهراء - 1

وحياتها الملوكية القصيرة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

قرأنا منذ حين في بعض الأنباء الخارجية أن بعض الهيئات الأثرية في إسبانيا تعنى بالبحث لاكتشاف معالم مدينة الزهراء الأندلسية، وأنها قد وفقت بالفعل إلى اكتشاف بعض أسس قديمة في ضاحية قرطبة يظن أنها من أسس قصر الزهراء؛ وجدير بمثل هذا النبأ أن يثير شجناً في نفس أولئك الذين يستعرضون تاريخ الأندلس، وتاريخ قاعدتها الملوكية الشهيرة التي غاضت من صفحة الوجود حتى لم يبق من أطلالها اليوم ما يدل على مواقعها ومعالمها.

كانت الزهراء من أعظم القواعد الملوكية التي عرفها التاريخ، ولكنها لم تعمر طويلاً ولم تقم في تاريخ الأندلس بدور ذي شأن، ولم ينزلها سوى مؤسسها الناصر وولده الحكم وابنه المؤيد، ولم تعمر كقاعدة ملوكية أكثر من نصف قرن؛ ومن غرائب القدر أنه في الوقت الذي أكملت فيه الزهراء في عهد الحكم المستنصر، وضعت أسس قاعدة ملوكية إسلامية جديدة قدر لها أن تؤدي في تاريخ الإسلام وتاريخ الحضارة الإسلامية أعظم دور؛ تلك هي القاهرة المعزية التي أخذت تتفتح عظمتها وبهاؤها في نفس الوقت الذي ذوت فيه عظمة الزهراء وعصفت بها حوادث الدهر؛ ولم تكن الزهراء أول قاعدة ملوكية في الأندلس، ولم تكن القاهرة أول قاعدة ملوكية إسلامية في الشرق أو في مصر، فمن قبل أنشأ هشام بن عبد الملك رصافة الشام لتكون منزلاً ملوكياً لبني أمية، وأنشأ المعتصم سامراء لتكون منزلاً له ولعقبه من بني العباس، وأنشأ ابن طولون مدينة القطائع بمصر لتكون له ولعقبه قاعدة ملوكية إلى جانب الفسطاط عاصمة مصر الإسلامية؛ وفي الأندلس أنشأ عبد الرحمن بن معاوية مؤسس ملك بني أمية بالأندلس ضاحية ملوكية في قرطبة سماها الرصافة تشبهاً برصافة جده هشام؛ وسطعت كل من هذه القواعد الملوكية الإسلامية حيناً من الدهر، ولكنها اختفت جميعاً من صفحة الوجود، إلا القاهرة فإنها استحالت إلى عاصمة الإسلام

في مصر، وما زالت تقطع الأحقاب قوية راسخة، تحمل حتى اليوم عمرها الألفي أعظم ما تكون الحواضر العظيمة والمدن الغراء ضخامة وفخامة وبهاء.

كان عصر عبد الرحمن الناصر أعظم عصور الإسلام في الأندلس، وكانت قرطبة عاصمة الأندلس، قد بلغت يومئذ أوج العظمة والإزدهار، وأضحت تفوق بغداد، منافستها في المشرق، بهاء وفخامة، ولكن قرطبة كانت بمعاهدها ودورها وطرقها الزاخرة، وسكانها الخمسمائة ألف، تضيق بما يتطلبه ملك عظيم كملك الناصر من استكمال الفخامة الملوكية والقصور والرياض الشاسعة؛ بل كانت تضيق بهذه الأبنية الملوكية منذ عهد عبد الرحمن الداخل حيث أنشأ الرصافة في ظاهرها لتكون له منزلاً ومتنزهاً ملوكياً. وقد كان بناء القواعد الملوكية دائماً سنة العروش القوية الممتازة؛ فلما بلغ الناصر لدين الله ما أراد من توطيد ملكه وسحق أعدائه في الداخل والخارج، عنى بأن يعرض آيات من ملكه الباذخ، وثاب له رأي في أن يقيم بجوار قرطبة ضاحية ملوكية رائعة، فأنشأ مدينة الزهراء؛ ولإنشاء الزهراء قصة، وربما كانت أسطورة على مثل الأساطير التي ترتبط بقيام المدن والمنشآت العظيمة. ولم تقل لنا الرواية إن الناصر رأى حلماً كالذي رآه قسطنطين فأوحى إليه بإنشاء قسطنطينية، ولكنها تقول لنا إن الذي أوحى إلى الناصر ببناء هذه الضاحية الملوكية هي جاريته وحظيته (الزهراء)؛ وأنه ورث من إحدى جواريه مالاً كثيراً فأمر أن يخصص لافتداء الأسارى المسلمين، ولكنه لم يجد من الأسارى من يفتدى، فأوحت إليه (الزهراء) بأن ينشئ بهذا المال مدينة تسمى باسمها وتخصص لسكناها. بيد أنا نفضل أن نرجع مشروع الناصر إلى بواعث الملك والسياسة، وإلى عرض فخامة الملك والترفع بمظاهره وخصائصه عن المظاهر العامة لعاصمة مكتظة زاخرة.

والظاهر أيضاً أن شغفاً خاصاً بالعمارة والبناء كان يحفز الناصر ويذكي رغبته في إقامة هذه الضاحية الملوكية، وقد كانت المنشآت والهياكل العظيمة على مر العصور مظهر الملك الباذخ والسلطان المؤثل، وقد نسبت إلى الناصر في ذلك أبيات قالها في هذا المعنى:

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها ... من بعدهم فبألسن البنيان
أو ما ترى الهرمين قد بقيا وكم ... ملك محاه حوادث الأزمان
إن البناء إذا تعاظم شأنه ... أضحى يدل على عظيم الشان

وهكذا اختطت الزهراء في ساحة تقع شمال غربي قرطبة على قيد أربعة أميال أو خمسة منها في سفح جبل يسمى جبل العروس؛ وكان البدء في بنائها في فاتحة المحرم سنة خمس وعشرين وثلثمائة (نوفمبر سنة 936م). وعهد الناصر إلى ولده وولي عهده الحكم بالإشراف على بناء العاصمة الجديدة، وحشد لها أمهر المهندسين والصناع والفنانين من سائر الأنحاء، ولا سيما من بغداد وقسطنطينية، وجلب إليها أصناف الرخام الأبيض والأخضر والوردي من المريه وريه، ومن قرطاجنة أفريقية وتونس، ومن الشام وقسطنطينية؛ وكان يشتغل في بنائها كل يوم من العمال والفعلة عشرة آلاف رجل ومن الدواب ألف وخمسمائة، ويعد لها من الصخر المنحوت نحو ستة آلاف صخرة في اليوم؛ وقدرت النفقة على بنائها بثلثمائة ألف دينار كل عام طوال عهد الناصر أعني مدى خمسة وعشرين وعاماً، هذا عدا ما أنفق عليها في عهد الحكم وابتنى الناصر في حاضرته الجديدة قصراً منيف الذرى، لم يدخر وسعاً في تنميقه وزخرفته حتى غدا تحفة رائعة من الفخامة والجلال، تحف به رياض وجنان ساحرة؛ وأنشأ فيه مجلساً ملوكياً جليلاً سمي بقصر الخلافة صنعت جدرانه من الرخام المزين بالذهب، وفي كل جانب من جوانبه ثمانية أبواب قد انعقدت على حنايا من العاج والآبنوس المرصع بالذهب والجوهر، وزينت جوانبه بالتماثيل والصور البديعة وفي وسطه صهريج عظيم مملوء بالزئبق، وكانت الشمس إذا أشرقت على ذلك المجلس سطعت جوانبه بأضواء ساحرة؛ وزود الناصر مقامه في قصر الزهراء وهو الجناح الشرقي المعروف بالمؤنس، بأنفس التحف والذخائر، ونصب فيه الحوض الشهير الذي أهدي إليه من قيصر قسطنطينية، وأقام عليه اثني عشر تمثالاً من الذهب الأحمر المرصع بالجوهر، وهي تمثل بعض الطيور والحيوانات وتقذف الماء من فيها إلى الحوض. وقد دون هذه الروايات والأوصاف العجيبة التي تشبه أوصاف قصور ألف ليلة المسحورة عن قصر

الزهراء، أكثر من مؤرخ معاصر وشاهد عيان، وأجمعت الروايات على أنه لم يبن في أمم الإسلام مثله في الروعة والأناقة والبهاء.

وأنشأ الناصر في الزهراء أيضاً مسجداً عظيما تم بناؤه في ثمانية وأربعين يوماً، وكان يعمل فيه كل يوم ألف من العمال والصناع والفنانين، وزود بعمد وقباب فخمة ومنبر رائع الصنع والزخرف، فجاء آية في الفخامة والجمال، وأنشئت بها مجالات فسيحة للوحوش متباعدة الساح ومسارح للطير مظللة بالشباك، ودار عظيمة لصنع السلاح، وأخرى لصنع الزخارف والحلي؛ والخلاصة أن الناصر أراد أن يجعل من الزهراء قاعدة ملوكية حقة

تجمع بين فخامة الملك الباذخ وصولة السلطان المؤثل، وعناصر الإدارة القوية المدنية والعسكرية.

وفي إقامة هذه المنشآت الباذخة وبذل هذه النفقات الطائلة ما يستوقف النظر، ويحمل على تأمل ذلك المدى المدهش الذي بلغته الدولة الأموية بالأندلس من القوة والضخامة والغنى؛ وقد انتهت إلينا في ذلك أرقام مدهشة، منها أن جباية الأندلس بلغت لعهد الناصر من الكور والقرى خمسة آلاف ألف (أعني خمسة آلاف مليون) وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار، ومن السوق والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار؛ هذا عدا أخماس الغنائم العظيمة التي لا تحصى؛ وقيل لنا إن الناصر خلف وقت وفاته في بيوت الأموال خمسة آلاف ألف (خمسة آلاف مليون) دينار؛ وكان يقسم الجباية من أجل النفقة إلى ثلاثة أثلاث، ثلث لنفقة الجيش، وثلث للبناء والمنشآت العامة، وثلث يدخر للطوارئ، ولم يتردد المؤرخ الحديث في قبول هذه الأرقام حتى أن دوزي ينقلها، ويقدر أن الناصر ترك عند وفاته في بيت المال عشرين مليوناً من الذهب ويقول لنا ابن حوقل الرحالة البغدادي الذي زار قرطبة والزهراء في ذلك العصر إن الناصر وبني حمدان ملوك حلب والجزيرة هم أغلى ملوك العالم في ذلك العصر؛ وهذه أرقام وروايات تشهد بضخامة الدولة الأموية وطائل غناها وبذخها في عصر الناصر، وتفسر لنا كيف استطاع الناصر إلى جانب حروبه وغزواته الكثيرة أن يضطلع بأعباء هذه المنشآت العظيمة الباهرة.

واستمر العمل في منشآت الزهراء طوال عهد الناصر أعني حتى وفاته في سنة خمسين وثلثمائة؛ واستمر معظم عهد ابنه الحكم المستنصر؛ واستغرق بذلك من عهد الخليفتين زهاء أربعين سنة. ولكنها غدت منزل الملك والخلافة، مذ تم بناء القصر والمسجد؛ وقد كان ذلك فيما يظهر في سنة تسع وعشرين وثلثمائة ففي شعبان من هذا العام تم بناء المسجد، وأقيمت به أول جمعة رسمية؛ وكان الناصر قبل ذلك بنحو عامين قد اتخذ سمة الخلافة وتسمى بألقابها (سنة 327هـ)، فكانت الزهراء بذلك أول منزل للخلافة الإسلامية بالأندلس.

للبحث بقية (النقل ممنوع)

محمد عبد الله عنان

بين المعجزة والعلم

للأستاذ زكي نجيب محمود

أخي س:

لم أكن أتوقع من صروف الدهر مهما أسرفت في عبثها، أن تُخرج منك، وأنت . . . القديس المتبتل في يفوعتك، زنديقاً يكفر بما كان يؤمن به قلبك ويدين!! حتى جاءتني هذه الرسالة منك، ففضضتها وأجلت فيها البصر سريعاً، فإذا بصفاتك تختفي وتتنكر، وإذا بك تبدو لعين صديقك إنساناً غريباً يشك بعد يقين، وينكر بعد إيمان! لقد مضيت في كتابك لي ترفض كل ما يزعمه الناس من المعجزات وخوارق الطبيعة، وتلوح في كل سطر بالعلم وقوانين العلم، وتعتز في كل سطر بالفلسفة ونتائج الفلسفة؛ ثم ختمت الرسالة بهذه العبارة أخذتها من كتاب سبينوزا (في الدين والدولة): (يظن الدهماء أن قوة الله وسلطانه لا يتجليان بوضوح إلا بالحوادث الخارقة التي تناقض الفكرة التي كونوها عن الطبيعة. . . إنهم يظنون أن الله يكون مُعَطَّلاً ما دامت الطبيعة تعمل في نظامها المعهود، وعكس ذلك صحيح، أي أن قوة الطبيعة والأسباب الطبيعية يبطل عملها ما دام الله فعَّالاً؛ وهم بذلك يتخيلون قوتين منفصلة إحداهما عن الأخرى: قوة الله وقوة الطبيعة؛ والواقع أن الله وقوانين الطبيعة شيئ واحد). ولقد ساءلتني

بعد ذلك قائلاً: (ما حاجتك إلى التمسك بالمعجزات وخوارق الطبيعة ما دام العلم يفسر لنا كل شيئ بقانون؟!)

وإني لأستطيع أن أقوض علمك هذا من أساسه بضربة واحدة حين أذكّرك بما انتهى إليه هذا العلم نفسه، من أن الطبيعة المادية لا تسير وفق قانون صارم كما يذهب بك الظن، بل إنها قد تغير سلوكها بما لا يمكن التنبؤ به، كالكائنات الحية سواء بسواء؛ وإن هنالك بين أساطين العلم من يزعم أنه ليس في الطبيعة كلها ذرة واحدة تخلو من الحياة أو ما يشبه الحياة، وكل الفرق بين حياتها وحياة الإنسان هو في الدرجة لا في النوع، فكما أنني لا أستطيع أن أتنبأ بما أنت فاعله غداً، كذلك لا يستطيع العلم أن يقطع جازماً بما ستؤول إليه هذه الذرة أو تلك، لأنها يا سيدي تتمتع بشيء مما تتمتع به أنت من حركة وإرادة، وليست مجرد آلة صماء في يد القانون!! ولكن يجب أن أسارع إلى القول بأنه وإن تكن الذرة الفردية على شئ من الحياة التي تغير في سلوكها، فإنها في مجموعها أقرب ما تكون إلى النظام الدقيق في سيرها، كما أن الإنسان الفرد حُرٌّ في تصرفه إلى حد بعيد، ولكنه في المجموع يسير وفق أسس وقواعد لا تكاد تعرف الشذوذ.

نعم أستطيع أن أقوض علمك هذا من أساسه بضربة واحدة حين أذكّرك بهذه الحقيقة العلمية التي تعترف للطبيعة بإمكان التغير في بعض جوانبها، فذلك وحده كفيل بتعليل أي تبديل في نظام الكون المعهود، ولكني سأفرض معك أن قوانين الطبيعة يستحيل عليها الخطأ، وأن المادة لا تملك لنفسها تغييراً ولا تبديلاً عما رسمه لها قانونها الأعلى، فمن ذا الذي زعم لك أن المعجزة كسر لقانون الطبيعة، وإنه لذلك يجب اطراحها ونبذها؟ نحن نسلم معك أن قانون الجاذبية صارم لا يقبل الشذوذ، وأن التفاحة إذا انفصلت عن فرعها سقطت من فورها على الأرض بفعل قانون الجاذبية هذا، ولكن هب يداً امتدت إلى التفاحة أثناء طريقها إلى الأرض فلقفتها فحالت بذلك بينها وبين الأرض، أيكون ذلك كسراً للقانون؟ كلا! القانون لا يزال قوياً سليماً، غير أن إرادة بشرية حالت دون تطبيقه لا أكثر ولا أقل. . . أإذا تركت أقلامك وكتبك مبعثرة في أرض غرفتك ثم عدت بعد حين فوجدتها صعدت إلى ظهر المكتب صفوفاً منظمة، أفنقول إن قانون الجاذبية قد انقلب رأساً على عقب لأن الكتب والأقلام قد صعدت إلى أعلى بدل أن تستقر على الأرض منجذبة بها؟ أم أنت جازم في مثل هذه الحالة بأن شخصاً بشرياً قد تدخل في الأمر بإرادته وحال بين قانون الجاذبية وبين تنفيذه حيناً، فأمكن للكتب بذلك أن تفلت من يده، ولكن القانون لا يزال قائماً لم يخدش ذلك من قوته وشموله؟! لا أحسبك مرتاباً في صحة هذا القول، فأنت موافقي ولا شك أن الإرادة البشرية قد تستطيع أن تتوسط بين القانون وبين تطبيقه فتعطله دون أن تبطله، نعم إنك موافقي على ذلك، ولكني لو حورت العبارة قليلاً سائراً بها نحو الأقوم والأصح فستغضب للعلم وكرامة العلم؛ لو زعمت لك أن لله إرادة حرة كهذه التي للإنسان، يستطيع بها أن يعطل قانون الطبيعة حيناً قد يقصر أو يطول ولكنه يظل قائماً معمولاً به لا يصيبه عطب ولا خسارة، كان ذلك الزعم مني في رأيك جهلاً وحماقة، يا رعاكالله! أفتستطيع أن تحدثني بما يبرر عندك أن يكون للإنسان ما ليس لله؟!!

معذرة، يا صديقي، فسأقص عليك حديثاً عن كلبي، وللحديث صلة بموضوعنا، فقد وضعت كتاباً بالأمس على مقعد إلى جانبي، فجاء الكلب يتحسس ويتجسس ويشم الكتاب، وأظنه قد حسبه قطعة من الجماد لا خير فيها، فترك الكلبُ الكتاب وانصرف؛ وإذا فرضنا أن التفاهم مع الكلب ممكن، ثم جئت تقسم له أن في الكتاب ما ليس يدرك بالشم واللمس، وأن فيه معنى إذا كان لا يدركه هو فليس عجزه دليلاً على عدم وجوده، نفر وسخر وأكد لك أن حواسه مقياس للحقيقة لا يخطئ. . . وإني لأحسب الكون يا صديقي كتاباً مفتوحاً فيه من المعاني السامية ما يمكن فهمه وإدراكه لذوي البصيرة السليمة. ولكني أؤكد لك أن هنالك طائفة من الناس ستمد أيديها وأنوفها إلى جوانب الطبيعة تتحسسها، ثم تجزم في يقين لا يعرف الشك ولا التردد بأن هذه الطبيعة جماد في جماد يسيره هذا وهذا من القوانين في طريق مرسومة معلومة لن تشذ فيها خارقة ولا معجزة. . . وأعجب العجب أن تكون هذه الطريقة الكلبية علماً، وأن يكون كل ما عداها تخريفاً وجهلاً.

نشدتك الله إلا حدثتني كيف جاز لك أن تقطع أن ليس في الكون من الحقائق ما تعجز عقولنا وحواسنا عن إدراكه؟ ولم لا يكون في هذا الكون الفسيح من هو أكبر منا عقلاً وأحد ذكاء فيستطيعفي كتاب الكون ما لا نستطيعه؟ ترى لو أتانا الله حاسة سادسة وسابعة وثامنة، فماذا عسانا نعرف بتلك الحواس الزائدة، أم تظل أبواباً مغلقة لأن العلم قد نفد؟!

تعال معي إلى الكون نحتكم إلى ظواهره لنرى هل استطاع العلم أن يعللها جميعاً، أم أن هناك ألوفاً وألوفاً يقف أمامها العلم مكتوف الأيدي ولا يمكن فهمها إلا أن تكون (خوارق) فوق العلم وقوانينه. أم تُراك فاعلاً كما يفعل ذوو النزعة المادية الضيقة، فتطأ بقدمك كل الظواهر التي تستعصي على العلم وتنكر وجودها حتى لا ينثلم العلم ولا ينخدش، أو تطلب إلينا أن نصبر وأن ننتظر حتى تتم للعلم قوته وفتوته فيشمل الكون كله بالتفسير والتعليل؟ وفي الحق أن هذا السلاح الذي يشهره الماديون_سلاح التسويف والوعد بأن العلم سيتمكن في المستقبل مما لم يتمكن منه اليوم_يمكن استخدامه في كل حين، فليس بيننا وبينهم موعد يبطل بعد التسويف، ولكنها مماطلة متجددة لا تنقطع ولا تفرغ؛ فإذا فرضنا أن رجلاً استطاع أن يحز رأسه ويحمله فوق يديه سائراً به في الطريق، ثم سألت الماديين رأيهم في هذا أجابوك: اصبر فإن الزمن كفيل للعلم أن يبرهن على هذه الظواهر وأشباهها، فليس ذلك على العلم بعزيز. . . ولكن هل يتفق وروح العلم أن نلجأ إلى دليل غير موجود؟ أم أنه أحجى وأقرب إلى الصواب أن نعلل الظواهر بالأدلة التي بين أيدينا، حتى ولو تعارض ذلك مع آرائنا؟ فماذا يمنع أن نفرض أن هنالك قوى غير مادية تفعل فعلها وتؤثر في مجرى الطبيعة فتنتج كل هذه الخوارق والمعجزات؟

ولكن الماديين يركبون رؤوسهم ويحاولون أن يعللوا بقوانين العلم كل شئ، فإن عجزت أمهلونا إلى المستقبل القريب أو البعيد. والعجب أن لهؤلاء الماديين (شطحات) في التفكير تدعو إلى التأمل، فأنت إذا سألتهم مثلاً كيف نشأت هذه الخلائق؟ أجابوك: تسلسلت نوعاً عن نوع وجنساً عن جنس، وأصلها كلها خلية واحدة. . . حسن! وكيف نشأت هذه الخلية الواحدة؟ إنها تولدت بطريقة تلقائية آلية من الجماد! فانظر إليهم كيف تجيز لهم عقولهم صدق هذا النبأ مع أنه على فرض أنه صحيح فقد حدث في ماض بعيد سحيق، ولم يشهده شاهد ولا سجله مسجل، ولكنهم مع ذلك يقبلونه راضين مختارين؛ ثم إذا عرضنا عليهم خارقة من خوارق الطبيعة مما يقع على مرأى منا ومسمع، أنكروها في حمق مع أنها حاضرة بين أيديهم وليست بالماضي البعيد، وهي مشاهدة ومسجلة فكانت أجدر بالتسليم والقبول من تلك (الخارقة) البعيدة_ونسميها خارقة لأنه ليس من قوانين الطبيعة فيما نظن انبعاث الحياة من الجماد! ولكن القوم يختارون من الآراء والعقائد ما يتفق مع مذهبهم، كما يتخير النساء أزياءهن لكي تلائم ألوانهن وأجسامهن.

هب يا صديقي جماعة قد ارتطمت سفينتهم على جزيرة مهجورة لا أثر للحياة فيها، ولكنهم ألفوا على أرضها آثار أقدام ليست من آثارهم هم، فبماذا يعللون هذه الظاهرة إلا أن أناساً غيرهم كانوا بالجزيرة منذ حين؟ أظن هذا منطقاً لا صعوبة فيه ولا التواء: لكل أثر مؤثر، فإن رأينا أثراً ولم نجد بيننا مؤثره أيقنا أن هذا المؤثر لا بد أن يكون موجوداً في غير مكاننا. وها نحن أولاء ننظر فنرى أنفسنا فوق هذه الجزيرة المهجورة التي تسبح بنا في الفضاء، ثم ننظر فإذا بآثار لا يحصيها العد تفرض علينا فرضاً أن أحداً غيرنا قد اتصل بهذه الجزيرة وهو يتصل بها في كل حين ليحدث هذه الآثار.

ولست أدري ماذا يضيرك أن تعلل بالعلم ما يمكن العلم أن يعلله، وأن تُرجع إلى القوة التي فوق الطبيعة كلَّ ما تصادف من خوارق ومعجزات؟ يقول الماديون إن إدخال (الله) في مجرى الطبيعة عجز وقصور عن التعليل الصحيح، ويزعمون أن الإنسان الأول كان يفسر كل شئ بقوة الآلهة لقلة محصوله من العلم، فكان إذا اكتسب شيئاً من العلم يعلل به ظاهرة ما، أسقط هذه الظاهرة من دائرة نفوذ الله وأدخلها تحت سيطرة العلم؛ وهكذا أخذ العلم ينمو ويتسع كما أخذت العقيدة في تأثير الله على سير الطبيعة تضؤل وتضيق، وهم يرجون أن يطرد نمو العلم حتى يشمل الكون جميعاً ويفسر (الظواهر) كلها بغير استثناء؛ وهم بناء على ذلك يرفضون رفضاً قاطعاً أن يعللوا شيئاً إلا على أساس واحد:

هو قانون الطبيعة ويلفظون من حظيرتهم كل من يحاول أن ينسب شيئاً إلى قوة أخرى غير قوة الطبيعة وقانونها! وقديماً كان العالم أو إن شئت فقل الكاهن يفسر كل شئ بقوة الآلهة وحدها، وينبذ كل من يحاول أن يفسر شيئاً على غير هذا الأساس!
فهل ترى فرقاً بين الكاهن القديم والعالم الحديث؟ كلا، فكلاهما متعصب محدود الفكر، ضيق النظر، ولعمري إن العالم الماديّ الحديث لم يزد على أن ارتدى رداء سلفه الكاهن مقلوباً ظهراً لبطن!
لعله أقرب لروح العلم الصحيح أن نتناول الأبحاث أحراراً من كل قيد، فلا نفرض لأنفسنا أساساً معيناً للبحث لا نمدوه، أعني أنه لا ينبغي أن نحتم على أنفسنا أن تفسر كل شئ بكذا أو بكذا؛ وإلا كنا كعلماء الفلك الأقدمين الذين كانوا ينظرون في السماء ويبحثون في النجوم على شرط أن يكون بحثهم مقصوراً على ما هو معروف من النجوم، فإن ظهر كوكب أو نجم جديد أنكروه ورفضوه!!
أردت يا أخي أن تكون حراً في البحث فكبلت نفسك بالأغلال والقيود! فارفع عن بصرك هذه الغشاوة عسى أن يهديك الله سواء السبيل.
زكي نجيب محمود
منازل الفضل - 2
دار علي مبارك باشا
للأستاذ محمد محمود جلال
من الأسماء ما يخف على سمعك لمجرد تركيبه ووقع نغمه في الأذن، ومنها ما يعجبك لمعنى يشير إليه؛ وقد يعجبك الاسم وقد خلا من هذين إعجاباً بشخصية قدَرت في التاريخ دورها؛ وقد يكون من بين الأسماء ما ينفر منه السمع، وهو مع ذلك حبيب إلى نفسك لذكرى تتصل به أو جميل أردفته بالعرفان.
ويقص المتشيعون للعلاقة بين الاسم والمسمى من علماء اللغة أن أحدهم سأل إعرابياً عن معنى (أذغاغ) فقال الإعرابي وهو لا يعرف من الفارسية شيئاً: (أرى فيه يبساً وصلابة، ولعله الحجر).
وليس للطفولة أن تسمو إلى شئ من ذلك البحث أو ذاك القياس، وإنما يسبق فيها الإحساس بالمعرفة، فما نظرت إلى شيء من ذلك يوم كان (شارع علي مبارك باشا بالحلمية) أحب الشوارع إلي سنة 1908، فكنت أخصه بروحاتي وغدواتي، وأختص (اليافطة) أول سيري به بتجربة قدرتي على قراءة اليفط والخط المشبك.
سكنا الحلمية بعد أن هجرنا دارنا الأولى بدرب الجماميز حيث مأمورية الأوقاف الآن، على أثر خلاف بيننا وبين ديوان الأوقاف على حيازة القطعة المجاورة لتوسيع الدار بطريق البدل، ولا أجد اليوم تعليلاً معقولاً لتفضيلي إلا بالصلة التي توجدها النشأة، وقد نشأت في الريف، ومن أسرة فلاحة، واسم علي ومبارك كثيراً الشيوع في الفلاحين، فلم يكن عجيباً أن يكون هذا الاسم أقرب إلى النفس وأسهل في الحفظ من أسماء ندر أن نسمع بها (كسنجر الخازن) و (الأمير يوسف) وغيرهما.
أجل لم يكن بذلك الشارع بائع (سوداني) ولا شوكولاته، ولم تكن حوانيت الساندويتش انتشرت بعد، حتى أرد التفضيل إلى تلك المغريات في سن الطالب.
وفي عام 1911 أهدتني الجمعية الخيرية الإسلامية مجموعة ثمينة من الكتب لنجاحي من الفرقة الثالثة في الشهادة الابتدائية، كان من توفيق الله أن ضمت بين دفتيها (تاريخ علي مبارك باشا) ولن أنسى ما حييت غبطتي بهذا الكتاب، وذكرت على التو شارع علي مبارك
باشا، وقلت: إذن فهذا رجل له في تاريخ البلاد شأن!
عكفت على القراءة مبتدئاً به، وخفق قلبي حين وقفت في أوله على نشأة (علي مبارك) فصدق ظني، فهو فلاح وابن فلاح مثلي، فلم أترك الكتاب حتى جئت على آخره، وأعدت قراءته مرات حتى كدت أحفظه عن ظهر قلب إذ ملئت إعجاباً بالرجل.
سميت المرحوم محمد شريف باشا حين كتبت عنه (رجل البرنامج)، وليس اليوم أحق بأن يسمى (رجل الواجب) من المرحوم علي مبارك باشا.
رأى صديقي المرحوم محمد رمضان بك القاضي السابق بالمحاكم الأهلية حين زار (فينا) عقب الحرب أحد ضحاياها (جول) يزحف وقد بقيت له ساق واحدة وذراع واحدة، وبيده الوحيدة مكنسة ينظف بها الرصيف، فسأله عن قصته.

قال جان: إنه كان يعمل في التحاليل الكيميائية، ويؤدي بذلك واجبه نحو بلاده وأسرته، وانخرط في سلك الجندية يؤدي واجبه نحو بلاده وأسرته، فلما فقد ساقه وجد مجال الواجب في عنابر الجيش يلف ويرتب بيديه، ولما فقد إحدى اليدين وكانت الحرب في نهايتها اشتغل كناساً، فهو بعد لا يستريح ضميره أن يكون من العاطلين، ومن بين إخوانه من هو أحق منه بالإعانة والإعاشة، وليس أحب إلى نفسه من أن يقوم بالواجب ويعيش من أداء الواجب، فليس فرق عنده بين المعمل والصفوف، ولا بين العنابر وكنس الرصيف!!!

حيَّاه صديقي عليه رحمة الله، وكتب عنه مقالاً كاملاً يذيع نبل نفسه ويضربه مثلاً لقومه.

وكذلك كان علي مبارك باشا، فهو من نوابغ البعوث العلمية في أول البعوث، وهو المبرز بين أفراد بعثته، وبلاده في حاجة إلى أمثاله، وفي حاجة أشد إلحاحاً إليه؛ ولكن لا زهو ولا صلف ولا استكانة! فالحاجة إليه يراها نعمة الله تستوجب الشكر، والعلم الذي يقدره الناس فيه يراه الثروة التي زكاتها البذل منها في خير البلاد.

ومن لم يحمّل فضله بتواضع ... يَبِنْ فضله عنه ويعطل من الفخر

كان علي مبارك باشا (ناظراً) وزيراً للأشغال يسيطر على أكبر الإدارات صلة بحياة البلاد ومرافقها، يضع الخرط وينظم حفر الترع والجسور التي طالما أحيت مواتاً ودرت أخلاف الرزق على الملايين وتركت اليباب مزارع وحقولاً، في أول عهد البلاد بزراعة منظمة وري منظم.

وبينما هو غارق فيما نعده اليوم أبهة المنصب، ينقل لسبب أو لغير سبب، لغضب أو لتقدير موهبة منتدباً لإصلاح طابية وهو من خريجي المعاهد الحربية، فينتقل قرير العين وكأن العالم صور فانحصر في تلك الطابية لا يرى أمامه إلا أن يُعِدَّها كما يجب أن تعد تقديراً لأمانة العلم وقياماً بالواجب.

ولي علي مبارك باشا في وقت ما وزارتين، وجيئ به وقتاً آخر يشرف على مد خط حديدي ليس أكثر من كبير مهندسين، جاءت خطته وأوضاعه وتنفيذ مشروعه آيات في حسن الوضع والتنفيذ؛ ولم يكن علي مبارك باشا ذو الوزارتين غير علي مبارك صاحب عيشة الخيام في براري البلاد يوطد أركان الدفاع عنها، ولا غير ذلك الرجل الهادئ رجل الواجب، يضع من قطع الحديد وصلاً لبلاد الريف وقراءة وتقريباً للشقة وتيسيراً لأمور الخلق، فهو إنما يعيش لبلاده، وإنما يخدم بلاده، وإنما يخدمها حيث يوضع، ويستثمر كفاءته في أي مجال. طريقته واحدة ونظرته واحدة، وهدفه واحد: الواجب.

وإنك لترى اليوم من شبابنا من ينقل من وظيفة إلى أخرى دون أن يمس راتبه ودون أن تمس درجته، فهو لا يكتفي بالشكوى والضجيج والإلحاح حتى يسمم عمله الجديد آثار غضبه ويأسه ولا يعيش إلا بخيال واحد وأمل واحد: أن يتغير العهد ويعود له ما كان فيه، بينما يقاسي المحكومون ممن تتصل أحوالهم بعمله ألواناً من البطء في شؤونهم وكثيراً من عنت لا ذنب لهم فيه.

هذه الظاهرة وحدها من سيرة (علي مبارك باشا) درس قيم في الأخلاق وتراث زاخر، وموعظة لهذا الجيل بالغة.

أما عمله في وزارة المعارف ففي كل ركن من أركان التهذيب والتثقيف له أثر عميق، كان لا يني عن زيارة المدارس زيارة لا يسبقها إعلان ولا شئ من جلبة الرسميات، ولو خلت من هذا وحده لكانت بذلك كافية في معنى الرقابة وما يتصل بالحرص على الواجب من الوقوف على درجة التقدم وعيوب التنظيم.

لكنها لم تقف عند ذلك الحد، فكان عليه رحمة الله يسأل أكثر من طالب في كل فرقة وفي أي مادة يتفق تدريسها مع ساعة الزيارة، وطالما كان له جولات في مختلف العلوم مع من يزورونه من الطلبة في الديوان سواء لرفع شكاة أو تبيان مصلحة.

هكذا كان علي مبارك باشا. فانظر إذن وتخيل ما تكون عليه دار أسعدها الله بسكنى رجل الواجب.

كان عهده نادر المقاهي والسوامر والملاهي؛ وكانت الدور العامرة سواء في العواصم أو في الريف بدورها في صيانة الأخلاق وتكوين الجيل، والعلماء وقت ذاك قليل، وعلي مبارك بين القليل درة لامعة.

دار كانت بالوافدين والساعين إلى العلم أكثر ازدحاما مما ترى اليوم في جامعة أو في

سينما، لكل فريق دور، والأدوار متعددة تنتهي بآخر السهرة من الليل لاختلاف أوقات الفضاء لصاحب الدار أو للوافدين.

دار طالما عمرت بصالح الحديث وبعدت بنازليها عن اللغو، فصفوة العلماء يبحثون ويباحثون، وللأدباء فيها نصيب كبير، وللطلاب النصيب الأوفر.

تزين الدار مكتبة جامعة، نصيب الرجل منها كنصيب أي واحد من قاصديه، وعليه هو القوامة على تنسيقها وحفظها، بل عليه أن يختار لكل ما يلائمه، يبذل من الكتب والمراجع كما يفيض من محفوظه وتجاريبه؛ وهل يستطيع علي مبارك إلا أن يكون واحداً في كل تصرفاته وفي روحاته وغدواته يقوده الواجب، وسيرته التماس النفع للبلاد؟

ولقد أعلم أن المرحوم (مصطفى كامل باشا) الذي ما زالت البلاد تعتز في ظل ما خلف إلى اليوم ما أحسن المحسن وما أساء المسيء، كان في شطر كبير من تكوينه العلمي أكبر حسنات تلك الدار، كما كان صاحب الدار أكثر الناس إعزازا للنجباء من أبناء البلاد، فمن نزح إلى أوربا يكمل تعلمه، لا يني في البحث عنه في العطلة الصيفية وفي عودته إلى الوطن، ولا تلبث الحلقات أن تعقد من أولئك الأنجاب في تلك الدار التي ازدهرت وقتاً ما فازدهرت بها حديقة العرفان وكللت جبين البلاد.

كانت مهمة الدار في أفق العلم مهمة الجامعات، فهي سيطرة رفيقة على تنظيم الثقافة وتوزيعها على قدر المختلفين إليها، وكانت فيما يمس الذين أكملوا دراستهم واسطة العقد، ووسيلة التعارف وأداة الوصل، كما كانت للنازحين في طلب العلم مرداً إلى عوارف الوطن، وجميل المدرسة الأولى، وخير مقرب بين الثقافتين، وخير قوام على تطبيق المعلومات وتهذيبها وصبغها بما يناسب صبغة البلاد.

أين تلك الدار؟ وأين كعبة العلم؟ ذهبت بها تصاريف الزمان وعفاها ما يشبه الجحود منا حكومة وشعباً، ومثلها مثل قصر أم المحسنين في حي الدوبارة، قامت أحجاره يسخر منها (قصر العار) وخلى من كل شيء إلا من نسيج العنكبوت.

بل إن للعلم عند الله كرامة! فلئن ذهبت رسوم الدار بين الرياح من جنوب وشمال فقد أكرم الله نازلها وعامرها بهذا العفاء، فلعلها لو عاشت لظهرت غريبة ولأزرى بها انصراف مؤمن عنها وشماتة من دور قامت على الإساءة للبلاد والسخرية مما ينفع الناس.

يبحث إخواننا من أهل العراق عن (المثنى) ويقيمون باسمه نادياً، فهلا نسمع من شباب الجامعة عزماً على البحث عن مكان الدار وتسمية ناديهم باسم (علي مبارك).

إذا كان هذا عزيزاً على أنواء الزمن فهل نسمع في القريب أنهم زينوا إحدى غرف النادي أو قاعات البحث بالجامعة باسم الراحل الكريم؟!.

أيها الناس أكرموا السلف يكرمكم الخلف، فكما يدين الفتى يدان

الشيخ عطا

محمود محمود جلال المحامي

فُجور القانون

للأستاذ جمال الزرقاني

أعجبت أشد الإعجاب بسلسلة مقالات (الجمال البائس) للأستاذ الكبير مصطفى صادق الرافعي وتتبعتها بمجلة (الرسالة) الغراء؛ وأعجبت منها خاصة بتصويره للقانون في مقاله الأخير ورميه بالفجور وقوله على الأستاذ (ح): (فالحقيقة التي لا مراء فيها أن فكرة الفجور فكرة قانونية، وما دام القانون هو الذي أباحها بشروط، فهو هو الذي قررها في المجتمع بهذه الشروط). وهذه فكرة كانت ظاهرة خافية معاً؛ فهي في القانون ولم ينتبه لها أحد ولا من رجال القانون. وقد صار من حق (الرسالة) وقرائها عليَّ أن اكشف هذا المعنى كشفه القانوني ليعرف القراء كيف غُرس الفُجور غرساً في قوانيننا المصرية.

لا مشاحة في أن قانون العقوبات قد اهتم لعقاب الجريمة بعد وقوعها اكثر من اهتمامه بالاحتياط لها والعمل على منعها قبل حدوثها؛ فمهمته في الواقع لم تخرج عن بيان الأفعال التي يعتبرها الشرع جرائم ومقدار الجزاء على كل منها، فهو يتضمن القواعد الموضوعية للقانون؛ بينما اهتم قانون تحقيق الجنايات (بالنظم والإجراءات) التي يجب أن تراعى لتنفيذ قانون العقوبات، أي لمعرفة الجاني إذا ما وقعت الجريمة،

فهو يتضمن القواعد الشكلية فكلا القانونين اهتما كما قال الأستاذ الرافعي (لحالة الجريمة لا للجريمة نفسها) وتركا مسألة الجريمة وبلا احتياط لمنعها قبل حدوثها للقوانين البوليسية وللعقوبات الأدبية، وبهذا أضافا للخطأ خطأ آخر إذ أغفلا مسألة واقعة وهي أن العقوبة الأدبية قد أضعفتها عوامل المدنية الحاضرة ولم يبق في أكثر النفوس إلا سلطان القانون وحدوده. .

والسبب في تقصير القوانين الجنائية هذا التقصير الفاضح وخاصة في بلاد إسلامية تتخلق بأخلاق الفضيلة، هو أجنبية هذه القوانين فإنها فرنسية الأصل، فرنسية الوضع، فرنسية التطبيق، فرنسية المرجع، فمن ثمَّ لا يؤدي إلا ما تؤديه القوانين الفرنسية في بلادها. أما حالات الشرق الخاصة وتقويم تقاليده وأخلاقه، فهي عمياء عنه أو تخبط في عمياء؛ ومن البلاء أن نقل هذه القوانين كان من عمل متشرعين أجانب بعيدين عن المحيط القومي فنقلوا نقلاً ممسوخاً أضاع كل فائدة ترجى وخاصة في صميم المسائل الأخلاقية الشرقية. بل إن القانون وقف من هذه الأخلاق موقف الجامد الغافل أو المشجع المستهتر بالأباحة.

ولو أنا عرضنا قانون العقوبات ووضعنا بعض المواد الصماء تحت نظر الفاحص لوضحت فكرتنا، فمن المعروف قانوناً أن حرية النيابة في (تحريك) الدعوى العمومية وفي استعمالها ليست مطلقة كل الإطلاق، فهناك أحوال تحد من تلك الحرية، ومنها ما يستوجب الإذن من صاحب الشأن كالحال في دعوى الزنا. والزنا في القانون يختلف عنه في اللغة وفي الشريعة، وبهذا اقتصر القانون على اعتباره كذلك إذا وقع من الزوج أو الزوجة وشريكيهما، وأحاطه بشروط خاصة ضيقة اشترط فيها قيام الزوجية فعلاً أو حكماً. فالفعل الواقع من الزوج أو الزوجة أثناء الخطبة أو بعد الطلاق البائن لا يعتبر جريمة. وكأن القانون في نقله ذلك عن المواد 336 - 339 من قانون العقوبات الفرنسي قد أغفل الأخلاق الشرقية وتناساها وترك حبل الشيطان على غاربه، بل هو قد شجع على ارتكاب هذا العمل من غير الزوج أو الزوجة بالشروط الخاصة بجريمتيهما، بل أكثر من ذلك أتاح الفرصة للزوج أن يفعل فعلته النكراء في غير منزل الزوجية بلا عقوبة. وبذلك ترك الأسرة تتدهور بتدهور عائلها ووقف موقفاً غريباً في صدد المساعدة على التدهور الأخلاقي، فجعل الحق في رفع دعوى الزنا للزوج وللزوجة وحدهما، فإذا رضي أحدهما عن فعلة الآخر وقف القانون مكتوفاً لا يمكنه التحرك إزاء العمل على سقوط الأسر واختلاط الأنساب والقضاء على الأخلاق، بل إنه يقف حائلاً دون الزوج نفسه في (تحريك الدعوى العمومية) إذا ما وقعت منه يمين الطلاق وهو في جنون غيظه من جريمة زوجته، وبذلك تتقي الزوجة وشريكها صولة القانون ويكون الطلاق كأنه محا الجريمة قانوناً مع أنه لم يقع إلا بها.

ولا دلالة على نقل القانون المصري نقلاً جامداً عن القانون الفرنسي أكثر من وقوفه بالمادة 201 عقوبات في جانب الزوج الذي يقتل زوجته في حالة التلبس بالجريمة، معتبراً ذلك ظرفاً قانونيا مخففاً يعاقب فيه بالحبس فقط، ثم يأبى ذلك على الأب والأخ الذين يمتد إليهما عار الجريمة أكثر من الزوج، فالزوج يتخلص منه بالطلاق، أما هما فالعار قد لصق بهما. وهذه القاعدة الفرنسية كانت معقولة في فرنسا في وقت وضع قانون العقوبات الفرنسي إذ كان الطلاق وفقاً للمذهب الكاثوليكي غير جائز، وإذ كانت الجريمة من ذلك لاصقة بالزوج أكثر من التصاقها بأسرة الزوجة.

ومن التخريجات الغريبة والتطبيقات التي تنشأ عن القانون الجنائي المصري في هذا الصدد، حالة ما إذا فاجأ الزوج زوجته وشريكها، فحاول قتلهما فقتلته الزوجة أو شريكها، فلا عقوبة على فعلهما لاعتبار ذلك دفاعاً شرعياً عن النفس؛ ثم إنه بعد ذلك لا عقوبة على جريمة الزنا التي اقترفاها إذ فد مات الزوج صاحب الحق في الدعوى ضدهما. ولو حدث أن قتل الزوج زوجته سقط بذلك حقه في الدعوى ضد شريكهما، لأن حظ الشريك مرتبط بحظ الزوجة الزانية فيستفيد مما كان يفيدها. وقد ماتت فالشريك يعتبر بريئاً إذ لا عقوبة عليه إلا إذا حكم على الزوجة، وهذا غير متيسر لموتها.

وكذلك القانون لا يعاقب على جريمة الفسق ولا على تلك الجريمة النكراء الشنعاء: جريمة اللواط متى توفر الرضا إذا كان سنَّ الفتى أو الفتاة أكثر من ست عشرة سنة. فكأن القانون يشجع ذلك بعدم وضع الحظر عليه، بل أكثر من هذا فإنه يقف موقفاً

غريباً بالنسبة للقاصر إذا جاوز السادسة عشرة فإنه يبيح له أن يجني ويبيح الجناية عليه. . . . بلا قيد، بينما لا يبيح له الزواج أو التصرفات المدنية إلا برضا وليه أو وصيه حسب الظروف، وهذه مسألة من الخطورة بمكان عظيم إذ تترك الشبيبة الناشئة تتلاعب بها الأيدي والأغراض، وتجرها المفاسد إلى غير مستقر بدون رقيب عليها، وهي عدة المستقبل وآمال الأمة. فإذا كانت هذه الشبيبة على ما يحوطها من المفاسد ويغريها لا يحميها القانون فيا سوءة المستقبل، ويا ضياع الآمال , ومن الواجب المحتم أن يتنبه المشرع إلى هذا النقص التشريعي فيسارع إلى علاجه قبل استفحاله كيلا يتهم بالمساعدة على التدهور الخلقي وعلى إفساد الأمة في أساسها الحي الذي هو الفتى والفتاة.

هذا بعض من كل من الأمثلة الدالة على فُجر القانون والمشجعة لضروب المنكر قد يقال إن روح القوانين الحديثة أن تتجه نحو الحرص على عدم التعرض بالعقاب للجرائم الأخلاقية إلا في حدود معينة، فلم يعاقب على الرذائل والآثام لذاتها؛ بل لما يترتب عليها من الضرر للأفراد أو للمصلحة العامة. ولكن الرد على هذا سهل يسير وهو: أنه ما من جريمة أخلاقية إلا أصاب الغير ضررها بالذات أو بالواسطة حالاً أو مستقبلاً، وذلك بانتشار الرذيلة الذي يتبعه تأثر الوسط وفقدانه حيويته؛ والذي يتبعه حتماً كنتيجة مباشرة إنهيارُ البيئة الإجتماعية وتفشي الأمراض الخبيثة بينها وازدياد الأدواء المختلفة الجسمانية والأخلاقية، وبذا تتأثر المصلحة العامة؛ فلا حجة في تلك الحجة.

ومع ذلك فإن كثيراً من القوانين الحديثة لا تزال تحرم الرذيلة لذاتها، والقوانين الإنكليزية والألمانية والنمسوية والمجرية تعاقب على اللواط ولو وقع بالرضا، كما تعاقب أيضاً على اتخاذ القيادة حرفة ومرتزقاً؛ والقانون السويسري يعاقب على البغاء. وهذه هي قوانين الدول المسيحية؛ أما الدول الإسلامية فإن قوانينها ولا كُفران لله قوانين واسعة سمحة. فيا ليت الحكومات الإسلامية تعمل بهذه الطريقة العكسية فتضع للشيطان قانوناً على الضد من طباعه، وبذلك يجئ قانون الشيطان مصلحاً لقانون الإنسان. . . . . .

جمال الزرقاني لسانسييه في القانون

من أيام سورية التاريخية

ذكرى 24 يوليو!

للأستاذين علي الطنطاوي وسليم الزركلي

قال الملك فيصل رحمه الله: (. . . وقد كان بين هؤلاء الذين سقطوا صرعى في ميسلون بعض رفاقي في معارك فلسطين؛ وإني لأحني رأسي احتراماً لجميع هؤلاء الذين ضحوا بحياتهم في سبيل اعتداء لم يعرف له التاريخ مثيلاً. . .) (جريدة الأيام الدمشقية العدد 863 من هذا العام)

أخرجْ من دمشق، وخلِّف وراءك الجِسْرَ وفيكتوريا، وهذه البِنْيَة ذات الطبقتين، التي كانت منذ خمسة عشر عاماً (النادي العربي) مثوى الوطنية، ومثابة الإخلاص؛ ودِعْ عن شمالك المرجة الخضراء، التي وقفها نور الدين على سوائم المسلمين، فرعاها نفر من الأقوياء الحاكمين، وعاثوا فيها آمنين مطمئنين؛ وجُزْ بالمِزّة وقلاعها، لا تلتفت إليها، ولا تأبَهْ لها، واستقبل الربوة لا تحفِل بقرارها ومعينها، ولا تعجبْ لأنهارها السبعة، وقد امتدت بين عَدْوَتي الوادي بعضها فوق بعض، كعقود اللؤلؤ في جيد الحسناء، وتناسَ ما قال فيها ياقوت وقد طوَّف أنحاء الدنيا، وجاب أرجاء الأرض، ثم رجع فلم يجد في الدنيا أنزه منها؛ وعدِّ عن النَيْرَب لا تذكر عهده، ولا تَبْكِ أيامَه، فقد ذهب النيْربَ، وغبرت أيامه، وفارقه وأنشد قول ابن حمدان:

سقى الله أرض الغوطتين وأهلها ... فلي بجنوب الغوطتين شجون

وما ذقت طعم الماء إلا استخفني ... إلى بَرَدى والنير بين حنين

وقد كان شكي في الفراق يروعني ... فكيف أكون اليوم وهو يقين

فو الله ما فارقتكم قالياً لكم ... ولكن ما يقضى فسوف يكون

واسلك على وادي الشاذروان، ولا يقفك عن غايتك أنه وادٍ من أودية الجنة، هبط إلى الأرض لتذكر فيه النفس أيام الجنة الأولى، فتطير إلى سمائها بأجنحة من نشوة الذكرى، ولا يثنك عن وجهتك هذان الجبلان المتعانقان، كأنهما عاشقان قد لبسا من

النجوم المزهرة، والأشجار المثمرة، حلة أبهى من السندس، ولا (يزيد) الذي يجري في صلب الجبل يزخر بالمياه، فيطفح بها، فتهبط الصخر من علو مائة ذراع متكسرة مزبدة، كأنما هي ذوب
اللجين، حتى تعود إلى أبيها بردى، وهو يجري في بطن الوادي جياشاً ثائراً؛ واستقبل دُمّر لا تقف بجنانها ورياضها، ولا تفتنك قصورها ودورها، ولا يشبك هذا القصر العجيب، ذو المعارج الملتوية، والألوان والنقوش، والبرك والنوافير: قصر الأمير سعيد، ولا قصر شمعايا تجري من تحته الأنهار!
ودع عن يمينك معمل الأسمنت الفخم، الذي قام دليلاً على أن الشرق يستطيع أن يعمل، ويقدر أن يبني. ومركباته التي أبت أن تمشي على الأرض، فسارت متعلقة بأسلاك في الهواء. . وائت الهامة فدعها عن يمينك لا تنزل إلى السهل، ولا تفتنك أنهاره وبهجته، ولا تجذبك فسحته وخضرته، وامش واضعاً (قادسية) عن شمالك، ثم دُرْ دورة فاخرج من الوادي، وامش صُعُداً حتى تدع الوادي من ورائك، وتستقبل الصحراء الخالية القاحلة، فإذا أصحرت فدع الديماس وحدائقه وامش قدماً حتى ترى هذه الهضاب المتسلسلة، والآكام المتتالية، فاعلُها. . حتى إذا بلغت ذراها، ولمحت في عرض البادية، في حضن الجبل، بناءاً غريباً كأن سقفه جناحاً طيارة؛ ورأيت من أمامه سلسل ماء، فاهبط إليه، ثم قف خاشعاً منحنياً، فأنت في ميسلون، وأنت حيال قبر يوسف العظمة. . .
علي الطنطاوي

قِفْ عند هذا الضريح ... واهتف بسكانهْ
هل حلّ فيكم جريح ... من أجل أوطانه
أهوى بكم يستريح ... من برح أحزانه
بغى عليه الزمان ... والغاشم الغادرْ
فراح يبغي الأمان ... في الفَلك الدائرْ
أصمته هوج الخطوب ... ففجرت دمعهْ
ومرهقات الكروب ... فأوقرت سمعهْ
ولم تدعه الحروب ... فكسرت ضلعه
بكى له النيّران ... والكوكب الساهر
فأين هذا الهوان ... من مجده الغابر
الملك رهن الضيْاع ... إن غيل في مهدهْ
والسيف ما إن يطاع ... ما دام في غمده
واحسرتا للشجاع ... يبكي على مجدهْ
النذل والخوّان ... والخاتل الماكرْ
يفوز بالجنان ... ويطرد الثائر
تبكي عيون السماءْ ... على أمانينا
وفي مجاري الدماء ... خاضت مواضينا
ما زال رهن الفناء ... شتى مرامينا
هل يرجع الفاتحان: ... الأسد الزائر
للعرش والطيلسان ... والفاتح الظافر
جاست دياري العداه ... والدهر يبغينا
وعاث فينا الطغاه ... ذلاً وتهوينا
لم تصف بعد الحياه ... حتى تعادينا
آن أوان الطعان ... فلينهض العاثرْ
لا يبلغ المجدَ وإن ... عن نيله قاصر
فاستصرخي يا قبورْ ... عزائم الأبرار
ولتحطمنَّ الدهورْ ... صواعق الأحرار
لا عاش من لا يثور ... ويستسيغ العارْ
إنا فدى الأوطان ... من غاصب جائرْ
لا عيش للإنسان ... في موطن صاغر
سليم الزركلي

معركة عدوى - 2
للأستاذ الفريق طه باشا الهاشمي رئيس أركان حرب الجيش العراق
وفيما يلي وصف الأرض العام في بلاد الحبشة: في الساحل أرض سهلة رملية، والرطوبة فيها تبلغ درجة عالية في موسم الأمطار، وحرها لا يطاق ألبتة؛ وكلما تقدمنا من الساحل إلى الداخل ارتفعت الأرض واختلفت تربتها وتنوع شكلها، فتكون ترابية وحصوية فصخرية فكلسية وهلم جرا، وتأخذ في التموج، وهذا التموج يجعل الأرض في بعض المحلات جبلية ذات غابات وأدغال، وكلما زاد الارتفاع كثرت الوديان الضيقة المكسوة بالغابات والأحراج الكثيفة. والانحدار في حافات الجبال شديد يحول دون تسلقها؛ والطرق فيها مسالك ضيقة تسلكها الدواب بصعوبة. وإذا ما دخلنا الهضاب اشتدت الوعورة، وازدادت المناعة. فالجبال تعلو في انحدار شديد، ويسيطر بعضها على البعض الآخر، وتكثر فيها المكامن والمضايق والفجوات والوهاد.
وقد شق الطليان طريقاً في مستعمرتهم اريترة يربط الميناء (مصوع) بالعاصمة (أسمرة)؛ وقد أنفقوا على شقه مبالغ طائلة من جراء انحدار الأرض وكثرة الوديان فيها؛ وكذلك السكة الحديدية التي تربط (مصوع) (بأسمرة) فإنها تعتبر من أرقى ما بلغه الفن الهندسي في مد السكك الحديدية، لأن السكة تتسلق الجبال ملتفة حولها عابرة على عدة جسور وملتوية الالتواء كله.
وتستطيع القوات القادمة من الساحل بفضل وسائط التجهيز والتموين السير في الأرض السهلة والأرض المتموجة، وإذا ما وصلت إلى السفوح الغربية بتوقف السير لمناعة الأرض وصعوبة سير العجلات والدواب فيها. ومع ذلك نجد أن فقدان المياه في الأرض السهلة والمتموجة مما يحول دون تسيير قوات كبيرة فيها.
الأمطار والبحيرات
والحقيقة أن بلاد الحبشة مدينة لغزارة الأمطار التي تنزل فيها، فهذه الأمطار تسقي بلاد الحبشة فتدر بركاتها على البلاد المجاورة لها، وتنزل الأمطار في بلاد الحبشة مرتين في السنة، صيفاً وشتاء؛ والصيف موسم الأمطار الطويل، فتبدأ الأمطار في هذا الموسم في أوائل آيار إلى نهاية أيلول، وتقع غالباً بعد الظهر، وتنزل بغزارة، وتقلب الأرض السهلة
والمتموجة إلى بحيرات وسيول في مدة قصيرة، وتجري هذه المياه بسرعة الوديان الجافة إلى البحر، وبعض الماء تبتلعه الأرض.
وأما موسم الأمطار في الشتاء فهو شهرا كانون الثاني وشباط، والمطر فيه قليل.
وأجل الأنهار شأناً في بلاد الحبشة هي تلك التي تنبع من السفوح الغربية في المنطقة الجبلية الداخلية وتصب في نهر النيل.
فنهر (صوباط) مثلاً يتكون من فرعين، ويجري في الجهة الجنوبية الغربية؛ ونهر (أباي) ينبع من بحيرة (تانا) وهو يؤلف القسم الأعلى من نهر النيل الأزرق.
وفي الشمال نهر (عطبرة) وهو يتألف من نابعين: نابع (مارب) في الشمال، ونابع (نكازة) في الجنوب، وبعد أن يسقي مقاطعة (تيجري) يجري شمالاً ويصب في نهر النيل في عطبرة شمالي الخرطوم.
ولنهري أباي وعطبرة تأثير شديد في اقتصاديات السودان؛ فالأمطار الصيفية تملأ أحواض هذين النهرين، فيفضيان بها ويسقيان مزارع السودان ويتركان الرسوب الغرينية في المزارع.
وبحيرة (تانا) التي تمثل دوراً خطيراً في تاريخ الحبشة من حيث تأثيرها في مياه النيل تعلو عن البحر 1700متر، وتبلغ مساحتها زهاء 3000كيلو متر، وتحيط بها الجبال من كل جانب ,
وفي الجنوب وديان كثيرة تأتي من حافات الجبال، وأهمها نهر وادي (جبة) وهو الذي ينبع من الحافات الجنوبية للمنطقة الجبلية الداخلية ويجري في الأرض المتموجة والسهلة.
وتبدأ الوديان من حافات الجبال الشرقية، وتمتد إلى السهول، وإذا ما نزلت الأمطار جرت فيها المياه.
ومن المياه ما تتكون منه البحيرات الجنوبية في أرض الحبشة؛ وهذه البحيرات واقعة على طول الخط الممتد من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، وتنتهي في شمالي

بحيرة (فيكتورية) وأخطر هذه البحيرات بحيرة (رودولف) في الجنوب وبحيرة (استفاني) في الشمال.

تقسيم الأحباش البلاد

والأحباش أنفسهم يقسمون بلاد الحبشة إلى ثلاثة أقسام من حيث أوصافها، وإليك بيانها:

القسم الأول: وهو القسم المنخفض، ويتفاوت الارتفاع فيه من (1000 إلى 1800) متر، وهذا القسم حار وتتفاوت درجة الحرارة فيه من 20 إلى 40 درجة سنتغراد؛ وفي هذا القسم المقاطعات (هرر) و (كانا) و (يديتو) و (سيدامو) و (شافكالة)؛ والحرارة في المحلات المنخفضة، وفي الوديان لا تطاق؛ والزرع فيه هو الذرة. وفي المحلات المرتفعة من هذا القسم يزرع قصب السكر والقطن والزعفران والموز والتمر الهندي والبن والنخيل وغير ذلك.

القسم الثاني: وهو القسم المتوسط من حيث ارتفاع الأرض إذ يتفاوت العلو فيه من (1800 إلى 2400) متر. وتختلف درجة الحرارة فيه من 14 إلى 19 سنتغراد، والهواء فيه جيد، والربيع دائم، وتكثر فيه المياه والغابات.

القسم الثالث: وهو القسم المرتفع ويتفاوت الإرتفاع فيه من (2400 إلى 3400) متر، ومناخه يشبه مناخ جبال الألب، والشتاء فيه شديد وبرده قارص. وتختلف درجة الحرارة فيه من 10 إلى 12 سنتغراد ويجمد الماء في الليل. وبينما نجد القسم الأول جهنم الحبشة نرى القسمين الثاني والثالث جنتها.

التقسيمات الإدارية

تنقسم بلاد الحبشة إلى عدة مقاطعات، ويحكم كل مقاطعة رأس، وهو بمنزلة ملك تلك المقاطعة وله سلطة مطلقة عليها نالها إرثاً بحقوق الإقطاع. وكثيراً ما أطلق عاهل الحبشة على نفسه ملك الملوك بعد إخضاعه الرءوس في المقاطعات وتوحيده المملكة.

وفيما يلي المقاطعات الخطيرة: -

(أ) مقاطعة (تيجري) وهي واقعة في الشمال ومتاخمة لأريترة الصومالية والسودان، وفيها العاصمة المقدسة (أكسوم).

(ب) مقاطعة (أمحره)، وهي واقعة إلى جنوبي مقاطعة تيجري ومتاخمة للسودان.

(ج) مقاطعة (غوجام)، واقعة إلى جنوبي مقاطعة أمحرة.

(د) مقاطعة (شوعا)، وهي من أخطر المقاطعات وفيها عاصمة الدولة (أديس أبابا).

(هـ) مقاطعة (كاتا)، وهي واقعة إلى الجنوب ومتاخمة للسودان ولمستعمرة أوغاندة البريطانية وفيها يزرع البن.

(و) مقاطعة (أوجادن)، وهي واقعة إلى الجنوب الشرقي ومتاخمة للصومال الطلياني.

نبذة من التاريخ

يزعم العلماء الضليعون في معرفة الأجناس والشعوب إن الأحباش هاجروا من جزيرة العرب إلى إفريقية عن طريق اليمن، ويعللون انتماء اللغة الحبشية إلى اللغات السامية بتلك الهجرة.

والمحقق أن الأحباش احتكوا بالمصريين في قديم الزمان واقتبسوا منهم بعض مظاهر الحضارة؛ ولما امتدت فتوح المصريين إلى بلاد النوبة والسودان إشتدت هذه العلاقة. ويؤيد التاريخ إستيلاء الأحباش على مصر العليا وتأسيسهم أسرة حاكمة هناك. ويزعم الأحباش أن الملك منليك الأول هو ابن سليمان من بلقيس ملكة سبأ. وشاعت النصرانية في الحبشة في أوائل القرن الرابع بعد الميلاد ورسخت فيها بعد ذلك. والمعلوم أن أبرهة قائد القوات الحبشية الذي استولى على بلاد اليمن وتقدم نحو الحجاز كان نصرانياً. والشائع أن الداعي إلى هجوم الأحباش على اليمن هو الانتصار لبني دينهم أهل نجران.

وكان الأحباش يدينون بالنصرانية لما هاجر المسلمون إلى الحبشة فراراً من الاضطهاد. وشاعت اليهودية في الحبشة في عهد هذا الملك. وتخليداً لهذه الذكرى أحدث ملك الحبشة في سنة 1874 وساماً سماه (وسام خاتم سليمان).

وفي القرن السادس تبع الأحباش الكنيسة المصرية التي اعتقدت أن ليسوع (عيسى) طبيعة واحدة، وانضوى الأحباش من ذلك التاريخ لبطريرك الإسكندرية.

وفي القرن السابع استفاد اليهود القاطنون في الحبشة من الإنشقاق في العقيدة المسيحية، واتفقوا مع المعارضين والوثنيين وتغلبوا على الأحباش فأخرجوهم من مقاطعة أكسوم وحكموا البلاد زهاء مائتي سنة. وفي نهاية القرن الثامن قضى (لاليبا) على حكم اليهود ورجع الأحباش يحكمون بلادهم معتنقين المذهب اليعقوبي.

المسلمون والأحباش

ولم يتوجه العرب في عهد فتوحهم نحو بلاد الحبشة بل اكتفوا بالاستيلاء على بلاد مصر والسودان فقط، وذلك على ما نعتقد لسببين: أولهما بُعد بلاد الحبشة عن طريق الاستيلاء ومناعتها، وثانيهما ذكرهم للأحباش بخير لأنهم آووا المسلمين الأولين وآمن نجاشيهم برسالة الرسول.

وفي القرن الثامن عشر ثارت الحروب بين الأحباش والمسلمين الذين أحاطوا ببلاد الحبشة من كل جانب. وقبل منتصف القرن الخامس عشر احتك البرتغاليون بالأحباش من أجل الحصول على موانئ صالحة في مغامراتهم في بحر المحيط الهندي، وسعوا لتأسيس علاقات ودية بينهم وبين الأحباش، وعقدوا أول معاهدة في سنة 1515؛ وكان من نتائج هذه المعاهدة أن المسلمين أخذوا يتوغلون في بلاد الحبشة لمحاربة الأحباش حلفاء البرتغاليين، وكلما انتصر المسلمون على البرتغاليين في البحر الأحمر وفي خليج عدن انتقموا من الأحباش الذين ناصروا البرتغاليين في حروبهم.

وفي سنة 1517 تحرك جيش كبير من المسلمين من (زيلع) وهجم على بلاد الحبشة واستولى على (أكسوم) العاصمة المقدسة، و (جوندار) عاصمة المملكة. وبعد أن مد البرتغاليون الأحباش بالمدافع وتولى (كريستوفوس دغاما) قيادة الجيش الحبشي انكسر المسلمون وانسحبوا.

ولما استولى العثمانيون على مصر اشتدت علاقة الترك بالأحباش، وأخذ سلاطين آل عثمان يساعدون المسلمين في البحر الأحمر على محاربة البرتغاليين والأحباش، وكان من نتائج ذلك أن استولى العثمانيون على مصوع وبربرة وهما من موانئ الحبشة، وتوغلوا في الداخل، وأخذ المسلمون القاطنون في السهول يشددون العزائم للهجوم على بلاد الحبشة ويسعون لنشر الدين الإسلامي فيها.

طه الهاشمي (يتبع)

من ضحايا الوطنية

شارلوت كورداي

لتوماس كارليل

بقلم الأستاذ حسن عبد الحليم اليماني

يعي التاريخ مشهداً يذكره وسط الغموض والاضطراب اللذين لفا مدينة (كان) الفرنسية كما لفّا العالم بأسره في طليعة عهد الثورة الكبرى: أما مكانه فساحة مجلس (كان) النيابي، وأما أبطاله فرجل وفتاة أوشكا أن يفترقا بعد لقاءهما النائب باربارو وشارلوت كورداي ((دارمان) كما كانت أسرتها تلقب قبل الثورة التي ألغت رتب النبل وألقابه) كانت فتاة فارعة العود في عامها الخامس والعشرين، يتلألأ محياها جمالاً ووداعة؛ وكانت على أن ترحل إلى باريس في أمر ما، ولهذا تقابلت وباربارو فحملها توصية وتقدمة إلى صديقه الباريسي النائب دوبريه ذاكراً في خطابه (إنها لجمهورية الهوى من قبل أن ينادي بالثورة منادٍ، وإنها لم تكن في حاجة أبداً إلى الحماسة، ففي قلبها منها الكفاية). (أما الحماسة في رأيها فهي تلك العاطفة التي تدفع بالمرء إلى بذل روحه طائعاً في سبيل بلاده).

وقبيل ظهر الثلاثاء التاسع من شهر يولية من العام الرابع للثورة، اتخذت شارلوت مكانها من عربة بريد (كان) الراحلة إلى باريس مزودة بخطاب باربارو وبقليل من متاعها الخفيف. لم يكن في وداعها - كسنة السفار - أحد يتمنى لها رحلة طيبة موفقة، فهي قد بيتت عزيمتها بينها وبين نفسها مخلّفة لأبيها رقعة تفضي إليه فيها بأنها في طريقها إلى إنجلترا، وأنها ترجو أول ما ترجو أن يغفر لها فعلتها وأن ينساها إلى الأبد.

وزحفت عربة البريد بحملها، وكأنما لازمها نعاس ملح، ما زال يدفع بها وئيدة مهومة حتى بلغت جسر (نيلي)، وحتى لامست عجلاتها ثرى باريس في ضحى يوم الخميس 11 يولية، حيث شهدت عينا شارلوت مدينتها المنشودة تطالع السحاب بقبابها العديدة السوداء وفي فندق البروفدانس بشارع دي فيو أوجستين احتجزت لنفسها غرفة

سرعان ما احتواها فراشها، وسرعان ما راحت في سبات عميق بقية النهار وطيلة الليل، فلم تستفق منه إلا وشمس الجمعة قد علت في الأفق.

غادرت شارلوت فندقها في ذلك الصباح لمقابلة النائب دوبريه، فلما سلمته رقعة صديقه باربارو علم منها أن لصاحبتها أوراقاً تتعلق بأسرتها، وأن صديقه يرجو مساعدتها حتى تحصل عليها من وزارة الداخلية. وأنالها دوبريه بغيتها وقضت نشدتها في اليوم نفسه، وغادرته ولم تشر بطرف إلى رحيل أو بقاء. وفي باريس طالعت نواحي عديدة وصوراً متباينة، ولكنها لم تهتد إلى لقاء (مارا والتحقق من قسمات وجهه فقد احتبسه المرض إذ ذاك في منزله.

باتت ليلتها في الفندق، حتى إذا أسفر الصبح غادرته حوالي الساعة الثامنة لتشتري خنجراً، ثم لتأخذ عربة من ميدان الانتصارات ميممة مسكن مارا بشارع مدرسة الطب رقم 44، حتى إذا بلغته حال مرضه دون لقائها، فأهمها أن تفشل في وسيلة ركزت فيها كل آمالها وأحلامها. يالشارلوت الجميلة المنكودة! ويالمارا القبيح المنكود! أي قدر يسعى بفتاة من (كان) في أقصى الغرب، وبرجل من نيوشاتل في أقصى الشرق ليلتقيا؟ وأي شأن يربط بين حظيهما فيجذبهما إلى أن يصطدما؟

وإذ عادت إلى فندقها بعثت إليه بورقة تحمل اسمها واسم بلدتها: (كان مهد الثورة)، وتحمل فوق هذا رجائها ولهفتها إلى لقائه، حتى تدفع إليه (ما يعينه على أن يسدي لفرنسا يداً) ولكنها لم تتلقى عليها جواباً، فخطت إليه أخرى أقوى من سابقتها رجاء وعاطفة، وحملتها بنفسها إلى مسكنه في مساء اليوم نفسه 13 يولية.

كان مساء شاحباً، وقد مضى على المساء الذي سقط فيه الباستيل أربعة أعوام كاملة، ذلك المساء الذي وقف فيه مارا على رأس جموع الشعب، طالباً من رجال فرقة الهوسار - حرس الباستيل وكانت قلوبهم مع الشعب - أن يخلوا أمكنتهم وأن يلقوا بأسلحتهم. وبهذا الحدث ارتفع مارا إلى الذروة - ذروة البطولة والوطنية، وها قد مضت أربعة أعوام حافلة - فأية طريق اشتقها مارا إلى المجد وأية طريق دفع بنفسه في شعابها؟

لقد كان في الآونة التي يممت فيها شارلوت صوب داره، ينتقع في حوض استحمامه، وقد تجرد من ملابسه إلا قليلاً، وكانت الساعة حوالي منتصف الثامنة مساءاً، وكان منهوكاً محطماً يحمل في يده قصاصات من الورق، وأمامه منضدة مثلثة القوائم، يتكئ عليها كلما هم بالكتابة. كان وحيداً في مسكنه اللهم إلا إذا اعتبرنا خادمه الشوهاء رفيقة تطرد الوحدة

وتخفف أثقالها. فهل انتهى به الطريق إلى أن يلقى خاتمته على هذا الوضع وفي تلك الصورة؟

قُرع الباب وتكرر القرع، ونفذ إلى مسمعيه صوت ليّن حلو، يرفض صاحبه أن يغادر مكانه من الباب أو تقضى حاجته. كانت صاحبته هي المواطنة شارلوت كورداي، تلك التي تريد (أن تعينه حتى يسدي للوطن يداً) - عرف (مارا) من كلماتها تلك أنها صاحبة الرقعة الأولى التي وصلته، فنادى خادمه: أن دعيها تدخل؛ ودخلت شارلوت قائلة: (أيها المواطن مارا! إنني من (كان) مهد الثورة، وأريد أن أفضي إليك بأمر).

فرد عليها قائلاً: (اجلسي يا طفلتي! ما وراءك من أخبار كان وأخبار خونتها؟ ومن ترى فيها من النواب الآن؟).

ولما سمت له شارلوت بعض النواب، زمجر (صديق الشعب) قائلاً: (ستطاح رؤوسهم في مدى أسبوعين)؛ واجتذب المنضدة إليه ثم أخذ يكتب (باربارو، بتيون. . .) واستدار في الحوض مصلحاً من جلسته (بتيون. . . لوفيه و. . .)، وفي أسرع من اللمح استلت شارلوت خنجرها من غمده، ثم أهوت به إلى قلبه. لم تمهله حشرجة الموت طويلاً؛ فلم يستطع إلا صرخة واحدة: (إليّ يا عزيزي - الغوث يا عزيزي!) سارعت الخادم إليه فإذا به لقي لا روح فيه، وقد انكفأ على وجهه الذي بدا مغيظاً محنقاً. . . وهكذا قضى مارا (صديق الشعب) وليس إلى جواره صديق!

إلى هنا تمَّ لشارلوت ما دبَّرت وأتّى لها أن تلقى جزاء عاجلاً محتوماً. . . فقد تدفق الجيران على صرخة مارا الأخيرة والتفوا بشارلوت التي قاومت قليلاً، حتى إذا حضر الشرطة أسلمت نفسها لهم طائعة. واقتيدت لتوها إلى سجن (أباي حيث احتوتها إحدى غرفه هادئة ساكنة، وقد ماجت باريس حول محبسها، ودَوَّت أصوات الشعب في خليط

يتذبذب بين الدهشة والغضب والإعجاب.
بعد أيام أربعة، طالعت الجموع المحتشدة في قصر العدالة، حيث تعقد محكمة الثورة، وجه شارلوت جميلاً هادئاً كعادته، وما إن دخلت القاعة حتى سرت فيها همهمة ليس من السهل أن نستبين العاطفة التي أوحتها! - وهنالك وقف تنقيل ليقيم الدعوى مستعيناً بالشهود وببائع الخنجر الذي حضر المحكمة ليدلي بالواقعة أمامها، ولكن شارلوت قاطعته قائلة (لا
حاجة بكم إلى هذه التفاصيل
(إنني أنا القاتلة)
(وبإيحاء من؟)
(لم يوح إلي أحد)
(إذاً فما الدافع؟)
ثم زادت في صوت صاخب مرتفع (لقد قتلت فرداً لأنقذ مئات الألوف، (جرائمه) مجرماً لأنجي أبرياء، حيواناً مفترساً لأريح بلداً بأسره! لقد اعتنقت مبادئ الجمهورية قبل أن تقوم للثورة قائمة، ولم أكن أبداً في حاجة إلى الحماسة أو التشجيع!).
وهكذا قطعت عليهم كل سبيل إلى الكلام، وحملق الجمهور مشدوهاً بينما أتم القضاة إجراءاتهم في صمت وسكون، وصدر الحكم بإعدامها لجريمة القتل فتلقته هادئة، وفي لهجة رقيقة تشف عن روح نبيلة عالية شكرت محاميها، كما شكرت القسيس الذي أحضروه لها معتذرة له في لطف بأنها ليست في حاجة إلى شئ من بضاعته!
وفي مساء ذلك اليوم نفسه خرج سكان باريس - على بكرة أبيهم - إلى الطرقات والمنافذ ليلقوا على شارلوت نظرة أخيرة. . وظهرت عربة السجن المشئومة تحمل تلك المخلوقة الصغيرة في ملابس الإعدام الحمراء، حلوة وادعة، غضت الإهاب ريانة الغصن تسعى إلى حتفها وحيدة وسط هذا العالم الصاخب! كثير هم أولئك الذين حيوها في احترام برفع قبعاتهم، فأي قلب لا يمس هذا المشهد قرارته؟ بينما طاوعت بعض الآخرين نفوسهم فزمجروا وهدرت أصواتهم لدى رؤيتها!
وفي (ميدان الثورة) حيث ينتظرها الموت، لم يتسلل إلى أساريرها الجميلة الهادئة أي شحوب أو فرق، بل حافظت على ثباتها وحيويتها؛ ولما تقدم الجلادون لقيد ساقيها، احتجت متذمرة، وقد حسبت أنهم إنما يفعلون ذلك رأفة بها، وقد لحظوا في أنوثتها ضعفاً لا يقوى على مجابهة الموت إلا مكبلاً! حتى إذا أفهموها أنها إجراءات تتبع في كل حالة اعتذرت لهم باسمة وخضعت راضية!
وفي المشهد الأخير عندما جردوا عنقها من لفائفه وهيأوه لسيف الجلاد، تمشت في عنقها ووجهها الجميل حمرة من خجل العذارى ضلت تصبغ خديها النديين حتى بعد أن رفع
الجلاد رأسها المفصول ليراه جمهور النظارة!
فيا للجمال ويا للقبح ممثلين في شارلوت ومارا! يصطدمان فيلاشي كلاهما الآخر! ويالكما من منكودين أنهلهما العدم كأسه مترعة! فلتناما في أحضان أمكما الأرض، تلك التي حملتكما معاً!
حسن عبد الحليم اليماني
في الأدب الإنجليزي
الكائنات الغيبية - 4
في شعر شكسبير
بقلم خيري حماد
الأشباح:
تشتمل الأشباح التي وردت في روايات شكسبير نوعين مختلفين:
أشباحاً مرئية وأشباحاً غير مرئية. أما الأشباح المرئية فهي التي في استطاعة كل شخص أن يراها ويبصرها. وأما الأشباح غير المرئية منها فهي التي اختفت عن أعين الجميع إلا عن أعين بطل الرواية.
استعمل شكسبير نظرية الأشباح في عدد غير قليل من رواياته ومؤلفاته، فهناك شبح في رواية الملك ريشارد الثالث لم يره إلا ريشارد وريشموند، وهناك شبح آخر في رواية يوليوس قيصر يعجز الخدم عن رؤيته بينما يظهر جلياً لبروتوس. وفي رواية

سمبالين أشباح متعددة تظهر لبوشيموس في سجنه في حالة لا يراها الحرس والسجانون.

وكانت مخاطبة الأشباح تقتصر على نفر قليل ممن كانت لهم قوة التنبؤ والاستنباط، فكان في استطاعتهم أن يرسلوا الأرواح في مهماتهم الخصوصية. وقد ذكرهم شكسبير في كثير من رواياته كرواية سمبالين ورواية يوليوس قيصر بقوله: (قد استطعت التغلب على روحي الخفية بواسطة حيلك السحرية) وفي رواية ' بقوله: (هل يوجد هناك من مشعوذ يستطيع أن يزيل ما أمام عيني من الشك).

وهذا النوع من الرجال كان ينتظر منه الإلمام باللغة اليونانية واللاتينية والاضطلاع الواسع على الآداب القديمة. وتظهر لك هذه الميزة جلياً في رواية هملت عندما يظهر الشبح، فيقول مارسيليوس مخاطباً هورايتو: (إنك متعلم ومطلع على الآداب، ولذا وجبت عليك مخاطبته يا هورايتو).

ويصحب ظهور الأشباح عادة تغيير في الأنوار، فنرى ريشارد الثالث بتغير في الأضواء قبل ظهور الشبح؛ وفي رواية يوليوس قيصر نرى نفس الظاهرة بجلاء ووضوح، فيرى بروتس تغيراً في ضوء الشمعة يسترعي انتباهه ويهتف قائلاً: (ما لهذه الشمعة قد شحب ضوؤها؟ من القادم؟).

وتظهر الأشباح بصورة عادية مرتدية نفس الملابس التي كان أصحابها يرتدونها قبل موتهم. ففي رواية هملت يظهر الشبح بنفس الأردية التي كان يرتديها الملك قبل وفاته، وهذا ما دعا هورايتو إلى الهتاف قائلاً: (إنه ليشبه والدك تمام الشبه مرتدياً نفس الملابس والأسلحة التي كان يرتديها قبل وفاته؛ وفي رواية مكبث يظهر شبح بانكو بنفس الحلة التي وجد فيها قبل وفاته لساعات قليلة.

ولهذه الأشباح طبائع غريبة وأخلاق شاذة، فهي لا تستطيع احتمال الأسئلة الكثيرة بل تهملها. وفي رواية هنري السادس نرى الشبح وقد ضاق ذرعاً بالأسئلة الكثيرة التي وجهت إليه فأجاب سائله بقوله: (اسأل ما بدا لك ولكني لا أجيب إلا عما أريد الإجابة عنه) ز

وكانت الأشباح تفضل الصمت على الشغب والضوضاء، ولذا نرى بروسبيرو يطلب الهدوء التام عند ظهور الأشباح. وتختلف هذه المخلوقات الغيبية عن سابقتها بكونها لا تستطيع الظهور مطلقاً إلا عند سدول الظلام، فلا يظهر الشبح في رواية هملت إلا بعد غروب الشمس؛ وعندما يشعر باقتراب النهار يفر مسرعاً إلى عالمه العلوي. فالنهار والضوء عدوان لدودان للأشباح.

قال جبسن في ختام بحثه عن الأشباح: (إن المهارة والمقدرة التي أظهرها شكسبير في تصوير الأشباح لما يؤكد لنا اعتقاده الجازم بها) وهذا الحكم الذي يصدره ناقد معروف كجبسن لجدير بالتفكير والبحث. نعم إن شكسبير لم يوفق في بحثه عن الأشباح وتصويرها كما وفق في الساحرات والجنيات؛ فخياله المبدع الذي رأيناه سابقاً لا نشاهده في الصورة الحالية؛ وقد يكون هذا النقص ناتجاً عن عدم اعتقاده بالأشباح؛ خصوصاً وأن الرجل لا يحسن ما لا يؤمن به ويعتقد فيه، فكان بحثه تعوزه المقدرة، وينقصه الخيال الواسع والفكر العميق.

العفاريت:

كان من السائد على معتقدات الناس في ذلك العصر أن العفاريت هم من سلالة الآلهة القدامى. وما عفاريت شكسبير إلا صور مصغرة من آلهة الرومان واليونان والفلسفة الشمالية، فهم مصدر شقاء وينبوع آلام. نعم إن مقدرتهم لم تصل إلى تلك الدرجة من القوة التي وصلت إليها مقدرات الساحرات، ولكنهم رغماً عن ذلك كانت لهم القدرة الكافية على الاختفاء بالشكل الذي يريدون.

وفي رواية تايمون أثينا نرى وصفاً مسهباً لهذا النوع من العفاريت عندما يتكلم المهرج قائلاً: (إنها روح شريرة تظهر مرّة بشكل سيد من الأسياد، وأخرى بشكل محام بارع، وثالثة بشكل فيلسوف شهير).

وكانت في بعض الأحيان تتخذ لها وسيطاً من بني البشر، فيكون لهن من روحه مكاناً يقمن فيه، ويعامل هذا الرجل (المسكون) عادة أشد المعاملة وأقساها، فهو عرضة للشتائم وشتى أنواع العذاب والهوان. وفي رواية (مهزلة الأخطاء) نرى بنسن يخبر خليلته بأن زوجها وخادمه قد أصابهما مس من الجنون، وأن العفاريت قد اتخذت من

روحيهما مسكناً مريحاً، فمن الواجب إذن القبض عليهما وإيداعهما حجرة مظلمة.
وفي حديث غرامي بين روزاليذ وعاشقها رولاندز في رواية (كما تريد نرى الفكرة نفسها واضحة جلية؛ فهي تقول له: (إن الحب جنون، وما العاشق إلا مجنون يجدر به أن يكون حبيس غرفة مظلمة لا يدخلها الضوء؛ ولكن المحب لا ينزل به هذا النوع من العقاب، لأن الحكام والقضاة قد كانوا في نفس الحالة يوماً ما، ولذا كان من الواجب مداواته بالنصيحة والمشورة).
يندر أن تجد عفريتاً من هذه العفاريت يظهر بشكله الحقيقي على مسرح شكسبير؛ ولا أذكر في رواياته كلها غير مرة واحدة تراءى العفريت فيها للنظارة، وهذه المرة تقع في رواية هنري السادس عندما تدخل العفاريت المسرح بعد إلحاف شديد من الساحر (لابوسيل)، فيقومون بأعمال كثيرة تعد في حكم المستغربة الشاذة، فيدخلون دون أن ينطقوا بأية كلمة، ومن ثم يلقون برؤوسهم إلى الأسفل، ثم يرفعونها مرة ثانية ويغادرون القاعة حيث لا رجعة بعد ذلك.
من هذه الأعمال الغريبة التي كان العفاريت يقومون بها نستنتج أن هذه المخلوقات تعد من
أغرب أنواع المغيبات، وتختلف عن سائر الأنواع الأخرى باختفائها الدائم في الهواء؛
وقد ختم جبسن بحثه عن العفاريت بقوله: (إن شكسبير لم يهتم بهذه المخلوقات اهتمامه بالأنواع الأخرى المشابهة لها؛ وإن معاملته الشاذة لها لجديرة بالاستهزاء بدل الإجلال والتقدير) وهذا الحكم على درجة كبيرة من الصحة والصواب؛ فلا نجد هنالك إلا عدداً قليلاً من الأماكن التي يأتي ذكرها فيها؛ ولو فرضنا جدلاً أن شكسبير ذكرها في عدة أماكن لرأينا أن ذكره لها لا يتجاوز عدداً من الأسطر؛ ثم يتركها على ألا يعود إليها ثانية. ومن هذا يظهر جلياً أن شكسبير كان يحتقر هذا الاعتقاد في العفاريت فلم يولها جانباً من اهتمامه.
خيري حماد (يتبع)
الدكتور محمد إقبال
فلسفته
معالم الاتفاق والاختلاف بينه وبين فلاسفة الغرب
للسيد أبو النصر أحمد الحسيني
إن أول مَن لَحِظَه التوفيق بين فلاسفة الغرب في أن يثبت بالدلائل القاطعة والشواهد الصادقة أن الإنسان لا يقدر على حل العقد المستغلقة والمعضلات الغامضة في هذه الكائنات بالعقل المجرد، هو الفيلسوف الألماني الكبير (كانت). وعلى هذا أثبت كانت عن طريق فلسفي ضرورة وجود الله ولزوم الإيمان به، وبرهن في مصنفه (نقد العقل العملي) على أن قواعد عقل الإنسان العملي ودعائم عمله ووطائد اختباره ثلاثة: حرية الإرادة، وخلود الروح، والإيمان. ووضح أن الإنسان لا يمكن أن يكون مسؤولاً عن أعماله إذا لم يكن فيها بالخيار. لذلك كان (كانت) بكشف هذه الحقائق وأمثالها في عالم الفلسفة قد قام للإنسانية بخدمة عظيمة.
ونحن قد أبنا لك في المقال السابق أنه على حسب فلسفة إقبال أيضاً يكون لكمال الإنسان وتقدمه ثلاث دعائم: إحراز الغاية القصوى من الحرية والاختبار بنيل الأنانية العظمى، ونيل الخلود باتصاف الأنانية بحالة الجد المستمر، ثم بلوغ منزلة الخلافة الإلهية التي هي نهاية عليا لذلك الكمال والتقدم: فعلى هذا يتفق إقبال مع كانت في التصورات الثلاثة أساسياً، ويختلف عنه في أن ليس لدى كانت تصور الخلافة الإلهية. وأما تصور (كانت) الثالث وهو الإيمان فهو أساس جميع تصورات إقبال، لذلك لم يحتج إقبال إلى إثبات ضرورة وجود الله والإيمان به في فلسفته كما احتاج إليه كانت، ولأن مبدأ فلسفة إقبال الأنانية المتصفة بحالة الجد المستمر. وآخر الجد المستمر الإيمان كما هو أوله، لأن الإنسان لا يقدم على عمل ويستمر فيه إذا لم يك مؤمناً بنتيجته ونجاحه فيه، وكذلك إقبال لم يحتج إلى إثبات قانون أخلاقي خارجي كما احتاج إليه كانت في بيان نظريته الأخلاقية، لأن قانون الأخلاق عند اقبال ينجم عن ضروريات الأنانية الباطنية، فكل شئ يقوي الأنانية عنده خير وحسن، وكل ما يضعفها شر وقبيح؛ فكأن أنانية الإنسان المتصفة بالجد المستمر

عنده ضمنية لإنتاج ذلك القانون، فلا يحتاج إلى البرهان والدليل.
ويختلف إقبال عن كانت في أن اكتساب الحرية والاختيار ونيل الخلود والدوام في فلسفته ثمرة الجهد المستمر لا يفوز بها إلا الذي اتصفت أنانيته بتلك الصفة، أي الجد المستمر. فكل من رغب فيها وطمح ' ليها ينبغي له عنده أن يسعى لذلك بعزم وحزم لا يشوبها على الزمن خلل ولا وهن، وأما كانت فقد تصدى لفكرة الحرية والاختيار والخلود والدوام في فلسفته ليقول إن العدل جار في الكائنات وإنه يوجد فيها المطابقة بين الأعمال ونتائجها، وبين الأمور وعواقبها.
إن فلسفة إقبال فلسفة تفاؤل لأنه تخلق في الإنسان الأماني تتري، وتبعث فيه الهمة القصية المرمى، وتحفزه لبذل الجهد واستفراغ الوسع في تحقيقها بالمثابرة والمواظبة. فهي لذلك تخالف فلسفة التشاؤم التي كان أكبر أئمتها الفيلسوف الألماني شوبنهاور. كان شوبنهاور هذا متأثراً بأفكار البوذية الهندية، فنظر إلى العالم نظرة التشاؤم، وقرر أن حقيقة الكائنات القصوى هي الإرادة، لكنها لا تقدر أن تملك لقصدها مشمولاً خاصاً يمكن أن يعرض عملياً في الذهن، لأن كل مشمول مثل هذا يتعلق بخارجها. فلذلك تملك الإرادة الكونية لقصدها نفسها، أي هي تريد لأن تريد. هي تريد لأن تكون حقيقياً، فإن كل شئ حقيقي ليس إلا الإرادة الممثلة. فبهذا المفهوم سمى شوبنهاور تلك الإرادة (إرادة الحياة)، ورأى أنها جوهرياً شر، فإنها لا يمكن أن تقع؛ هي ألم. هي ألم غير القانع؛ وعلى هذا فالحياة حمأة الطموح الذي لا يشبع، وثورة التوقان الذي لا يقنع. لذلك كانت نهاية الإنسان دائماً في الشكوى، ولن يتم له حسن الحظ أبداً. ولكن إقبالاً يرى أن سوء الحظ وآلام الحياة أكثر فائدة للإنسان إذ بها تربى أنانيته وتدرب، فيطأ بها أعراف المجد، ويتسور شرفات الكمال؛ ثم شوبنهاور ينكر الفردية أي وجود الأشياء المنفردة أو (الإرادات المنفردة) كما يقول، ويرى أنها وهم تتوقف على الفروق الزمنية والمكانية، بينما أساس فلسفة إقبال هو الفردية.
أما من يوجد بين فلسفته وفلسفة إقبال معالم المشابهة وملامح المماثلة أكثر فهو الفيلسوف الألماني الكبير نيتشه. والمزية الكبرى لنيتشه هذا بين فلاسفة الغرب أن عبقريته صبغت الفلسفة بصبغة الإلهام، ولم تكتف في المباحث الفلسفية بانتقاد الفن، بل أتت للعالم بمقياس جديد للحسن والقبح، والخير والشر. وفلسفته ثمرة مزيج من أفكار كانت، وشوبنهاور، وداروين. فقد استنبط من نظرية العلم لكانت أن ليس هناك شئ يقال له علم، بل كل شئ خيال ووهم، وذلك لأن الحقيقة لا يكشف عنها بل تُخلق، ولا يبحث عنها بل تُخترع، وهو أيضاً قد قرر مثل شوبنهاور أن حقيقة الكائنات القصوى هي الإرادة، ولكن ليست (إرادة الحياة) كما رأى شوبنهاور بل (إرادة القوة)، وهي عنده مصدر كل خير وفلاح كما أن (إرادة الحياة) عند شوبنهاور منبع كل شر وخسران. وما أحسن قول البعض أن ما يراه شوبنهاور شيطاناً يراه نيتشه إلهاً.
يرى نيتشه أن (إرادة القوة) هذه دافع قويّ غريزيّ سارٍ في الكائنات، فهو مركز الحياة الإنسانية، بينما إقبال يرى أن مركز حياتها هي الأنانية المتصفة بحالة الجد المستمر. ولكنهما يتفقان في أن خوض غمار الآلام ومكابدة المصائب، ومعاناة النوازل، مما لا محيص عنه لصعود الإنسانية في معارج الشرف ولبلوغ تقدمها غاية الكمال. ويتفقان أيضاً في أن هذا العالم المادي هو ذريعة إلى تلك البغية ووسيلة إلى ذلك المطلب، وأن الفن يجب أن يكون ملتقى الجمال والقوة كما يتفقان في أن فلسفة الأخلاق المسيحية غير وافية لضروريات تقدم الإنسان وتسمنه ذروة الكمال. غير أن نيتشه قدح فيها قدحاً شديداً وانتقدها انتقاداً لاذعاً وصرح بأن المسيحية تدعو إلى (أخلاق العبيد) في حين أن إقبالاً اكتفى بالإشارة إلى أنها غير مفيدة للإنسانية لأنها لا تقدر على إماطة اللثام عن قواها الخفية، ولا على الكشف عن استعداداتها المكنونة، وذلك لأنها تدعو إلى الرهبة وترك العالم. وبناء عليه فدعوة إقبال خلاف ذلك كما قال في بيت ترجمه:
غص في البحر وحرب الأمواج ... فإن خلود الحياة في المحاربة
يتفق إقبال ونيتشه في تصور كمال الإنسانية؛ بيد أن نيتشه يراه ممثلاً في سوبرمان (أي فوق البشر) وإقبال يراه في خليفة الله. والفرق الأساسي بين تصوريهما هو أن نيتشه ينكر وجود الله ويقول: (اقتلوا الله! كل شئ مباح. إن الطبيعة والدوافع

الطبيعية ليست شراً. ابْعدوا الحياء والكظم! ابْعدوا الأدب والتقيد! إن أخلاق الرجل الحر ستكون الأخلاق المعبرة عن الذات حقيقة)، وعلى هذا فسوبرمان نيتشه محصور في نفسه ومحدود في ذاته، ليس لديه غاية يجري إليها ولا هم يتفرّغ له. وأما الخليفة عند إقبال فحياله الأنانية العظمى، أي الله ذو الرحمة الواسعة، وصاحب العطاء المتصل، فله عنده الدرجات العلى، يجزي بها بما

يسعى؛ ثم سوبرمان نيشته عارٍ عن العاطفة جافي الطبع، شديد الوطأة، لأن روح أفكار نيشته أرستقراطية، فرأى أنّ حقيقة الكائنات القصوى (إرادة القوة)؛ وقرر أنها هي الدافع الغريزي الأقوى في الإنسان فعليه أن يطلبها، ولكن هذا الطلب غير المشروط كان ينجم عنه نظام القِيَم الذي ظلت الحضارة مشتبكة فيه إلى الآن. فهنا أتى نيشته بفكرة (وراء الحسن والقبح) فإرادة القوة عنده لا تعرف حدود الحل والحرمة، والحسن والقبح، لأن كل شئ مصدره ونهايته قوة، عندها حلال وحسن، وكل شئ مصدر ونهايته ضعف، عندها حرام وقبح، والعقائد كذلك ليست عندها متساوية متماثلة، فالفرق الحقيقي بينها ليس عندها من حيث كونها حقاً وباطلاً، بل من حيث كونها مفيدة وغير مفيدة. وهكذا شعرت أرستقراطية نيشته بضرورة أي تغيير جميع القِيَم، فمثل في أن واحد دور الفيلسوف، والمصلح الأخلاقي، والشارع، وخالق الحضارة الجديدة. وكان في دور ارتقاء أفكاره الأخير شاعراً بمهمته هذه.

فعلى هذا النمط وصل نيشته إلى تصور كمال الإنسانية في صورة (سوبرمان) بازاء عامة الناس الذين هم موضع قنوطه ويأسه. فأنشأ فكرته الجديدة للحضارة بتوزيع الاجتماع الإنساني في طبقتين متناقضتين: ذات أخلاق السادة وذات أخلاق العبيد. وقرر أن الأولى منشأ سوبرمان، وأن لأفرادها وهم الأقوياء حق معاملة أفراد الأخرى وهم الضعفاء بالظلم والعدوان، وإن واجب القوى في شريعة الارتقاء وتنازع البقاء الولوغ في دماء الضعيف وفتح جميع أبواب الجور عليه بكل وحشية، فإن السوبرمان أو الإنسان القوي الكامل الصالح للحياة لا يظهر إلا بتدمير الضعيف غير الكامل وغير الصالح للحياة. وأما طبقة الضعفاء أو (ذوو أخلاق العبيد) كما يسميهم هو فقد خلقوا لأستمال الأقوياء فقط، وهم موضع بأس نيشته، لذلك سد عليهم نيشته جميع أبواب التقدم كما سدت ديانة البراهمة على المنبوذين في الهند.

فلذلك كان تصور الخليفة لدى إقبال خيراً من تصور السوبرمان عند نيتشه، لأن روح أفكار إقبال الديمقراطية الإسلامية فالخليفة عند إقبال شخصية محبوبة إلى جميع طبقات البشر تسعى لخيرهم، وتسبغ من خصب طبعها عليهم وتقربهم إلى نفسها؛ فكلما تتقربوا إليها تتدرج حياتهم في مدارج الكمال؛ وهي تمثل اللين كما تمثل الشدة. وهاتان الصفتان لا

محيص عنهما لتقدم الاجتماع البشري. قال إقبال في بيتين ما ترجمتهما:

اخلق من حفنة ترابك ... جسما أوطد من حصن منيع
وليكن في داخله قلب رقيق ... كالنهر في جنب الجبل الراسي

إن ما حدا بنيتشه إلى هذه التصورات الأرستقراطية هو خوضه غمار الأدب اليوناني، وهو لم يشعر بأن النظام الاجتماعي اليوناني في هذا الأمر كان ناقصاً. فلو شعر بذلك لم يحسب العبودية كالجزء الضروري للتمدن. فظهور سوبرمانه في الحقيقة على حساب تلك العبودية، وهو يحوز قصب السبق على جهود هؤلاء العبيد، وعلى هذا فشخصيته عند فلسفة إقبال ليست بأكثر من شخصية مستجد

السيد أبو النصر أحمد الحسيني الهندي (للمقال بقية)

كلمات

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

حياةٌ ولكن الحياة تزول ... ودنيا ولكنَّ البقاء قليل
ودهرٌ طويلٌ ماله من نهاية ... ولكنَّ فيه العيشَ ليس يطول
وشمسٌ يسرّ الناظرين طلوعُها ... ولكن لها بعد الطلوع أفول
وفي كل يوم للنهار إذا أتى ... غدوٌّ ومن بعد الغدو أصيل
ربيعٌ ولكن لا يطول زمانهُ ... وزهرٌ ولكن يعتريه ذبول
وإن حياة المرء آفةُ نفسه ... فإن لم يَغُله الموت فهي تغول
وفي القبر قد تبقى من الميْت أعظم ... ومما بناه أرسمٌ وطلول

وما الموت للإنسان إلا ضرورة ... فينشأ من جيل تقاعس جيل
يواري الفتى تحت التراب صديقَه ... ويدفن في الأرض الخليلَ خليل
كأن الأسى جمرٌ له من لهيبه ... ذوائب أصلى نارَها وذيول
كأن فؤادي يستحيل بها إلي ... دموع ومن عيني الدموع تسيل
أمامي أرى ماءً نميراً وبي صدى ... ومالي إلى الماء النمير سبيل
يبيتُ ابن أرض الرافدين على الطوى ... ويشبع من خير البلاد دخيل
وما الأرض بين الرافدين شحيحةٌ ... ولا الماء يسقي الرافدين قليل
تهون فلول السيف في حومة الوغى ... إذا لم تصب نفسَ الكماة فلول
أفكّر في الماضي فلا هو عائدٌ ... إليّ ولا عن ناظريّ يزول
ولو كنتُ ممن يؤثرون نفوسهم ... لملت مع الأيام حيث تميل
طريقي طريق الصدق لو كان منجياً ... فما ليَ حتى الموت عنه نكول
ولي كبدٌ أخشى عليها من الجوى ... إذا ما نأى بالظاعنين رحيل
وكم مرّة واريتُ صحبيَ للثرى ... على وجه مَن عزُّوا عليّ أهيل
يقولون ما للدهر يقسو بصرفه ... عليك ويبغي غِرَّةً ويصول
ومن أنا من دهري فيطلب غِرَّتي ... ويغريه بي بعد المشيب ذُحول
أكوّن رائي في الحياة مفكّراً ... ولكنَّ رائي في الحياة يفيل
ورب عويصٍ في الحياة أمامه ... يظلّ سواءً عالمٌ وجهول
من الدهر تبغي خَلْقَ ذي عبقرية ... ولكنه بالعبقريّ بخيل
من الغُرّ أما عقله فهو راجح ... يصيب وأما وجهه فجميل
ويعرف من نور السهى ما بجوفها ... على أن ما يأتيه منه ضئيل
إذا الشمس ذرّت من وراء حجابها ... فللأرض منها غرّة وحجول
أُلام على نَيْلي من الشعر شهرةً ... ومَن ذا يعاف المجدَ وهو أثيل
يجيش بصدري الشعر من سورة الأسى ... فأشدوا به مستعبراً وأقول
ورب يراع جاء في كف شاعر ... بما لم يجئه السيف وهو صقيل
إذا امتلك الذعرُ النفوسَ فجاءة ... فأوَّل ما يَلقي الضياع عقول
وإن حياة الشيخ بعد صراعه ... وخيبتِه عبءٌ عليه ثقيل
لقد حال مني كل شئ عرفته ... سوى ذكرياتٍ لا تكاد تحول

الموت

للأستاذ فخري أبو السعود

أيا قادماً تخشَى النفوس قُدُومَه ... لأنْتَ صديقٌ في ثياب غريم
قدومُك تحريرُ الأسارى ولو درتْ ... لما أنكرتْك النفسُ يوم قدومِ
كما يُنكرُ الطفلُ الطبيبَ وعنده ... له بُرْءُ أسقامٍ ودَمْلُ كلوم
بَلَوْتَ نفوسَ الخلق من عهد آدم ... فأنتَ بها يا موت جدُّ عليم
إذا قسَت الدنيا على مُتعَب بها ... بسطتَ له لأياً جناحَ رحيم
ومن شَفَّهُ قيظُ الحياةِ أغَثتَهُ ... بِبَرْد نسيم في الأصيل رخيم
فأنت لِنِضْوِ العيش من دون صحبه ... ومن دون قُرباه أبَرُّ حميم
وأنتَ دواءُ الجسم قد خيلَ داءهُ ... تميط الأذَى عن مُوجَع وسقيم
وأنت بلاغُ النفس حَيْرى مَرُعَةً ... بوادي شكُوكٍ جمةٍ وهموم
وفيك ابتعادٌ عن جهالة جاهل ... وعن قول مَأفونٍ وفعل لئيم
وعندك نسيانٌ وطول زهادة ... لكل مُراد في الحياة عقيم
فأنت - وإن غُلْتَ المنى - أطْيَبُ المنى ... وفيك نعيمُ المرءِ أيّ نعيم
لعمرك ما حَيٌّ بأرْوَحَ منزِلاً ... على الأرض من بالٍ بها ورميم
ولو علم الجاني لما جادَ عامداً ... على خَصمه بالموت جُود كريم
وتمحو يداك الحقدَ والخوفَ والأسى ... وكلَّ بلاءٍ في النفوس قديم
وكلَّ بلاءٍ لم يسِغ طعمَه الفتى ... عليه طَوَى بالأمس كشح كظيم
وأنت تُريح الفكر من كلِّ مُعْضِلٍ ... يَظَلُّ لَهُ في حَيرةٍ ووجوم
وتطوِي عن الأجفان صفحة عالمٍ ... مَليءٍ بأنواع الشرور ذميم
وتطوي كتاب الأمس طياً وما مضى ... به من بغيضٍ ذكرُه وأليم
عزاءٌ لبعض الناس أنك قادمٌ ... وأن شقاء العيش غيرُ مقيم

المادة
للأستاذ محمود غنيم
فتَّشتُ بين الناس عن زاهدِ ... فلم تقع عيني على واحدِ
ما أزهدَ المرَء إذا لم يجدْ ... وأبعدَ الزهدَ عن الواجد
لا يُزْهَ إنسانٌ بآدابه ... أو يفتخر بالسلف البائد
المجد إما سطوةٌ أو غنىً ... ما العاجزُ المعدِمُ بالماجد
فقيمةُ الشعب إذا قستها ... بقيمة الصَّادر والوارد
وقيمةُ الفرد بما يملك الْ ... فَرْدُ من الطَّارف والتَّالد
كم طفلةٍ أوْدَعَ من هِرَّةٍ ... حَوَّلها الجوعُ إلى مارِد
قد يُحسدُ المرءُ على رزقهِ ... ولا أرى للفضل من حاسد
لم يفتتن بالمكْرُماتِ امرؤٌ ... والغانياتُ فتنةُ العابد
العلمُ والأخلاق ما قُدِّسا=إلا لنفع منهما عائدِ
لا يَردَعُ التاجرَ عن غشِّهِ ... إلا اتِّقاءُ المتجرِ الكاسد
لم يَخْتَرِ الناسُ دياناتهم ... بل أخذوا بالمذهَب السائد
ليس جمالُ الطبع في غادةٍ ... مثلَ جمال اليَدِ والسَّاعد
يا زاعمَ العِّفةِ في حبهِ ... ما تبتغي من كاعبٍ ناهد؟
لم يتَّقِ اللهَ امرؤٌ للتقى ... بل لنعيم الجنة الخالد
تَيمَت الناسِكَ حُورِيةٌ ... ذاتُ قوامٍ أهْيَفٍ مائد
تَسقيه كأساً حُلوَةَ الطعم من ... خمرِ الجنانِ السيِّغ البارد
لولا جمال الحورِ ما لامَسَتْ ... أرضَ المُصلَّى جَبهةُ الساجد
هل كنتَ تلقي في الورى ساعياً ... لو كان يسعى الرِّزقُ للقاعد
سِيَّان مَنْ يسعى إلى قُوتِهِ ... بالسلْبِ أو بالوَرَع الزائد
كم لحيةٍ أجْدَى على ربِّها ... من ألفِ سهمٍ بِيَدِ الصائد
جُرْحُ يد المرءِ لَهُ قائدٌ ... وما لجُرح العِرْضِ من قائد
كم مُجرمٍ يقتُل روحاً ولا ... يُجزَى جزاءَ القاتل العامد
قد يُتركُ الأولادُ من جهلهم ... صَرْعى ولا حدَّ على الوالد
صاح دَع الرُوحَ ودع قُدْسها ... نحن عبيدُ الجسد الفاسد
حمامتي!
للشاعر الإنجليزي (كيتس
بقلم عيسى وهب الله الشمبيري
أظنها من حزنها قد ذوت ... ورفرف الموت على وكرها
ويلاه! ماذا ساءها فانزوت ... تطفئ بالحزن سنا عمرها
كانت على سيقانها الناعمة ... خيوط خز صنعتها يدي
تزهو بها، كالوردة الحالمة ... على غُصين مائس أمْلد
جفت وأبلى السقم سيقانها ... واحسرتا من سكرات السقام!
يا زهرة أذبل عيدانها ... عصف الردى كيف أتاك الحمام؟
قد ضمك زماناً مضى ... لم تسعدي فيه بنجوى الحبيب
والآن قلبي وكرك المرتضى ... فكيف هدت جانبيك الكروب
والحمص الأبيض كم أشرقت ... في ثغرك المحبوب حباته!
والشاعر المحزون كم صفقت ... فوق لماك العذب قبلاته!
فَلِمْ هجرت الدار لم تسعدي ... بين يدي فيها بعيش مصون!!
لو كان أمر الموت طوع اليد ... فديتك اليوم بروحي الحزين!
القصص
صور من هوميروس
حروب من طرْوادَة - 12
بتروكلوس
للأستاذ دريني خشبة
إن يكن قد أصاب الطرواديين قَر {حٌ فقد أصاب الهيلانيين قَرحٌ مثله.
ذلك أنه ما كاد يغادر نيتيوما حومة الوغى، صادعاً بأمر الإله الأكبر، حتى أفاق

الطرواديون وأحلافهم، كما أفاق الهيلانيون من قبل حين غادر الحومة مارس وزبانيته.
أفاق الطرواديون إذن، وصحا زيوس من رُقْية حيرا، فأقسم إلا أن تدور الدائرة على جنودها من شانئ أخيل، وإلا أن يحيق بهم مكر هذا السحر ملأ جفنيه، وغلّق سمعيه، وأطلق أيديهم في أبناء طروادة يضربون منهم كل عنق كريم وكل بنان!!
وما هي إلا أن لم الطرواديون شعثهم، ورتقوا فتقهم، حتى استطاعوا أن يعيدوا الزحف، ويأخذوا أعدائهم المزهوين بنشوة النصر، على غرة منهم؛ ويطّلع سيد الأولمب من ذروة جبل إيدا فيمكن لهم من أبناء هيلاس، ثم يسلط عليهم صواعقه، ويفتح عليهم السماء فتمطرهم بعذاب واقع، ليس له من دونه دافع، إلا أن يُثأر لابن ذيتيس، حبيبة القلب. . . ومنية النفس!
. . .وفزع أوليسيز إلى رمحه
. . .وأجاممنون إلى سيفه
. . .وديوميد إلى صَعْدته
. . .وأجاكس إلى جُرازه
وفزع الجنود إلى أسلحتهم يشحذونها، وإلى دروعهم يلبسونها، وإلى الجياد الصافنات يمتطون صهواتها. . . . وإلى الواقعة فيخوضون غُبارها، ويثيرون عجاجتها. . .
ولكن!. . . بلا جدوى!.
فلقد طوردوا حتى بلغوا سيف البحر؛ وضُيّق عليهم حتى نظروا إلى الهزيمة تأخذهم من
هنا وهنا؛ ورأوا إلى هكتور كالأسد الهصور يزلزل الساحة بزئيره؛ ويثير في قلوب جنوده الحمية بافدامه، وأينما توجه الموت في ركابه، وقطرت المنية من سنان سيفه، وانقدح الشرر من حوافر خيله، وتناثر الزبد من أشداقها، فيكون سُماً في قلوب الهيلانيين.
وطرب الطرواديون لهذا النصر المفاجئ، وشاعت الخيلاء في أعطافهم حين أبصروا فرأوا أوليسيز يغادر الميدان متأثراً بجراحه، وأجاممنون يفر بنفسه كأحقر الأجناد، وديوميد محمولاً إلى سفينته كمن يجود بروحه، وأجاكس العظيم يولي دبره غير متحرّف لقتال. . . . فأوقدوا مشاعلهم، وأججوا نيرانهم، واعتزموا إضرامها في أساطيل الأعداء، ليكفوا طروادة شرورهم، وليأمنوا آخر الدهر مكرهم، وليتم نصرهم. . .
وهنا. . . . . .؟!!
انتفض بتروكلوس! بتروكلوس الكبير، صديق أخيل، وأعز الناس عليه، وجذوة الحماسة المتأججة في ضلوع الميرميدون!
لقد نظر بتروكلوس فرأى جموع الهيلانيين تنهزم إلى البحر فتلقى بعتادها فيه، ثم يسبح منهم من يسبح إلى الأسطول الحزين بدا عليه كأنه يرثى لرجاله، ويبكي على أبطاله، ثم يغرق منهم خلق كثير، فيبتلعهم اليم. . . إلى غير عود. . . ونظر فرأى الطرواديين وأحلافهم وعلى رأسهم هكتور الهائل كأنه زوبعة يأخذون أبناء هيلاس غير راحمين. . . ثم نظر أخيراً فرأى إلى حَمَلة المشاعل والنيران يزحفون إلْباً فيكونون غير بعيد من السفائن اليونانية، لو أعملوا منجنيقهم في قذفها لأصبح الأمر غير الأمر، ولأتوا على آخر قوة لبني قومه، ولباء بنو قومه بالفشل العظيم! ولعاد الميرميدون كاسفي البال يحملون إلى هيلاس أنباء مصارع إخوانهم، الذين تخلى عنهم أخيل وجنوده وهم أقصى ما يكونون حاجة إليهم؛ ولكن أخيل لا يرضى أن ينسى الضغينة التي بينه وبين أجاممنون حتى في هذه الساعة العصيبة، فينهض لنصرة إخوانه اليونانيين، وليدفع عنهم هذا البلاء الذي حاق بهم، وليرد عنهم عادية هذه الكلاب التي تنوشهم وتمزق صفوفهم. . . . . .
ورأى بتروكلوس أنه لا سبيل لعودة الميرميدون إلى وطنهم بفرض نجاتهم من نيران الطرواديين، يجرون أذيال الخيبة، ويلملمون أكفان الفشل، فثارت في قلبه نخوة الجندي الباسل، واشتعلت في أضالعه نيران الغيرة من مفاخرات هكتور ومنابذاته التي يملأ بها
السهل والجبل، ثم تفطر قلبه أسى وحسرة على هذه الجموع الهيلانية التي تتدافع إلى البحر. . . . . فكأنها تفر من موت إلى موت، وتنجو من حمام إلى حمام. . . . . .

فذهب من فوره إلى أخيل، واقتحم بابه غير مستأذن؛ وقال:
(أخيل!)
(فتى هيلاس وغَوْثَها في كل رَوْع!)
(يا سليل الآلهة، المترفع عن الدنايا!)
(أرأيت؟!. . .)
(ماذا تتحدث القرون إذا قيل إن الهيلانيين باءوا بالهزيمة، فلم ينهض أخيل لنصرتهم؟ وماذا تحمل إلى هيلاس إذا أبنا غداً غير أنباء السوء ووقائع تلك النهاية المحزنة؟ وكيف نلقى الأمهات المعولات على أبنائهن؟ وماذا نقول للوطن إذا طالبنا بصحيفة الحساب عن هذا اليوم الأسود الذي بدت بوادره، وأخيل العظيم لا يحرك ساكناً؟ وكيف نتقي نقمة الشعب الذي ندبنا لهذا الأمر إذا خُنا أمانته، وبددنا ثقته، وحطمنا آماله؟ وأين تذهب الشهرة الطويلة التي أحسبنا خدعنا بطراوة العيش فيها والأحاديث الممسولة عنها؟).
(أخيل!)
(بل فكر معي إذا تم النصر لهذه الذئاب الوالغة في دمائنا، هل يكون بحسبها أن تستأصل شأفة هذا الجيش المنهزم، وتحرق سفنه، ثم لا تعتزم غزو هيلاس العزيزة، لتتأثر لهذه السنين السوداء التي أذقناهم طوالها رهق الحياة وخباثة العيش!!).
(ثم أين لوطننا قوة بعد هذه القوى المبعثرة، وأنى له جيش بعد هذا الجيش المُراع، ومن لنا بأسطول يعنو له الموج، وتذل لعزته البحار؟)
(أخيل!)
(أنظر إلى الميرميدون تكاد تقتلهم الحُنْقَةُ على هذه البلادة التي أخمدت سورة الحرب في نفوسهم، وأطفأت جذوة البطولة في قلوبهم. . . أنظر إليهم يكادون يقذفون بجموعهم من سفائنك لنصرة إخوانهم، وليلقوا على هكتور درساً في النزال لا ينساه آخر الحياة!)
(مالك لا يحركك هذا اللظى يا أخيا؟! إن هذا يوم ينسى فيه أمثالك أحقادهم، ويدفنون سخائمهم، ولا يبالون ألف متعسِّف أفاقٍ مثل أجاممنون! إن هذا يوم هو كله للوطن من دون
أيام الدهر جميعاً، فإذا أفلتت فرصته من أيدينا، أفلتت عزة الحياة وكرامة العيش من أيدي الهيلانيين جميعاً؛ ولن يقال في سبب ذلك إلا أن أخيل العظيم قد تقاعس بجنوده عن نصرة الوطن، وفي سبيل إشباع شهوة الخصومة قامر بالوطن، وأبناء الوطن، ومستقبل الوطن!. .)
(إيه يا فتى هيلاس، وحامي ذمارها إذا اشتد بها الكرب!)
(مالك تصمت هكذا كأنك تسمع إلى ألف قرن تناديك، وتضع ثقتها فيك؟!)
(أنا زعيم لك يا فتى هيلاس، أن هذه الجحافل الطروادية سترتد على أعقابها فتكون للهيلانيين الكرّة عليهم إذا رأوْا خوذتك التي تكسف بلألإها شمس الضحى، وشاهدوا هذه الشعرات البيض التي تزين ذؤابتها!)
(أخيل!)
رد على أعز الناس عليك، فالظرف أحرج من المطل، وأقصر من هذا الصمت!
والساعة مفزعة مروعة، وإخواننا في الوطن والآلهة يصرخون ويموتون!
(أخيل!)
إن كان يعز عليك أن تحنث في عزمتك التي عزمت، فأذن لي أن ألبس خوذتك، وأمتشق سيفك، وأحل في دروعك السوابغ، ثم أسوق الميرميدون باسمك، فأرد عادية القوم، وأجير إخواننا الهيلانيين!. . . . . .
وكان بتروكلوس يكلم أخيل وكأنما وحي السماء يتنزّل على قلب البطل، بلاغة وحرارةً وقوةً إيمان وثبات يقين، ونفساً تجيش بالحب وأقدس المنى لوطنٍ مصابٍ في أبطاله، منقوصٍ في عزائم بنيه، يتلفَّت من خلف البحار، يرى ماذا يصنع أخيل في هذا الروع، وجنوده الميرميدون!!
وهب أخيل من جلسته الخاملة، وأخذ يدَيْ بتروكلوس في كلتا يديه، وطبع على جبينه المرتجف قبلةً مهر بها صك التضحية في سبيل الوطن الشقي، وقال لصديقه:
(بتروكلوس! أخي! يا أعز جنودي عَليّ!

أما أن أذهب أنا فأرد هذه الذئاب، فلا! ولكني آذن لك بكل ما أردت من قوة وعتاد، ما (دمت تؤثر صالح الوطن، وتحرص على حقن دماء الهيلانيين)

بتركلوس! لا يَدُرْ بخلدك يا صديقي الكريم أنني انتويت أن أغضب غضبةً لا انتهاء لها؛ ولكنني أُمرت أن أنتظر حكم السماء بيني وبين خصمي الذي لم يتورع أن يهتك أمر السماء، فيسلبني ثمرة خلعها رمحي علي، وقدمها لي جيش بأسره. . . هلم يا بتروكلوس فالبس دروعي واسبغ عليك لأمتي، وشرف خوذتي بجبينك، ولأذهب أنا فأعد لك الميرميدون، ولتبرهنوا لناكر الجميل أننا سبب مجده وخير جنده، وذخيرته كلما حز به كرب، أو ألم به خطب

(. . . . .هلم. . . . . هلم)

وانطلق أخيل فصاح بجنوده، فهرعوا إليه في سُفُنِه الخمسين، الراسية بمعزل من سائر الأسطول الهيلاني. . . . وكم كان رائعاً أن يتحرك أسطول أخيل، في أحرج ساعةٍ مرت بهذا الجيش المغير، الذي وقع فريسة كله في قبضة الطرواديين! لقد كان أجاممنون وجنوده ينظرون إلى سفن أخيل؛ وكأنها الخلاص من الموت الذي يلاحقهم، والمنايا التي ترقص فوق هاماتهم، وهي مع ذاك فيما خُيل لهم تزور عنهم، وتشيح عن نجدتهم، لأنهم لؤموا مع زعيمها، وأنكروا عليه ما اعترفت به السماء أنه حقه خالصاً له!

أقلع أسطول أخيل، ولكنه لم يقلع ليفر من واجبه، بل أقلع نحو الشمال ليكون جنده بمأمن، يهبطون إلى الشاطئ من كبسة الصفوف الظافرة، المشغولة باستئصال شأفة الهيلانيين.

وما هي إلا ساعة حتى رسا شمال طروادة، وحتى أخذ سيل الميرميدون ينهمر على شاطئها الشاحب فيملؤه، وكأنهم كِسف من العذاب أرسله نيتيون، رب البحار، من أعماق أليم ليقذف بها في قلوب الطرواديين!

وطفق أخيل يجيشهم، فجعل منهم خمسة جحافل كقطع الليل البهيم؛ فكان على رأس الجحفل الأول البطل الحلاحل، والقائد المناضل، منستيوس بن سبرخيوس، ابن السماء وصاحب العزة القعساء.؛. وعقد لواء الجحفل الثاني لابن هرمز المقدام، الفتى يودوروس، الذي طالما كان جزعاً في فؤاد الردى، ووجلاً في قلوب المنايا!!. ووضع على رأس الجيش الثالث القائد بيزاندر، ابن ميمالوس، صفي الآلهة وهبة الأولمب. وأقام على الجيش الرابع صديقه فونيكس، الذي آثر البقاء إلى جانب أخيل حين أقبل مع أوليسيز وأجاكس، يفاوضون في الصلح من قبل أجاممنون؛ أما الجيش الخامس فقد عقدت رايته لابن ليرسيز، الكميدون العظيم، أخي الغمرات وصاحب الثارات.

أما بتروكلوس! فقد أقدم يتخايل فوق عربة أخيل، يجرها جواداه الأشبهان، إكسانثوس وبليوس، أعز خيل زفيروس، وأحب دوابه إليه، ولقد كان مظهره الوقور يبعث الروع في النفوس: فهذي خوذة أخيل تتألق فوق هامته، والريح العاصف تداعب شعراتها فتجعل منها بركاناً يقذف الحمم. وهذي دروع أخيل سابغة فوق الصدر والفخذين والذراعين، كأنها لبدٌ نبتت فوق حيدْ جبل شامخ ينطح السماء برَوْقيه.

وتقدم أخيل فصافحه، ومنحه شرف القيادة العامة، وخطب الجنود فقال:

(إيه أيها الميرميدون! هذا يومكم!

لقد كنتم تنظرون إلى الساحة، وبكم من الظمأ إلى اقتحامها ما لو أن بعضه بكم الآن لزلزلتم الجبال وخرقتم الأرض؛ ولقد كنتم تعذلونني فتقسون علي في أني أحتجزكم هنا ووقفت في سبيلكم دون نصرة إخوانكم، فها هو الميدان أمامكم فاشفوا صدوركم وأنقذوا أجاممنون مما حاق به، ولا يجرمنكم شنآنه ألا تغيثوه، أغيثوه فنصره عز لكم؛ شد الإله أزركم، وباركت الأرباب أسيافكم، وأحبت مجد الوطن بما أنتم قادمون عليه؛ سيروا على بركة زيوس، وفي حمى حيرا، وعين ميزفا تكلؤكم).

وانطلق الميرميدون فانطوت الأرض من تحتهم، ورجف الوادي رجفة أجفل منها السهل والجبل؛ إذ كانوا ينسابون فلا يربعون على شئ، ويتدفقون فما تحجزهم لابة، ولا يعوقهم جُرفُ، وتسجد من دونهم حزون الأرض وآكامها.

وانتظم خميسهم؛ فبرز القلب تتبعه الميمنة، تلقاءها الميسرة؛ وهرول الجناحان فأخذا السبيل على جحافل الطرواديين.

ونفخ في البوق فانقض الميرميدون على مؤخرة الأعداء الظافرين، فبدّلو نشوة ظفرهم بأنكر من سكرة الموت، وانطفأ في أبصارهم بريق النصر فكان أغطش من ظلام الهزيمة؛ ونظروا فرأوا تلك الخوذة المذهبة التي طال عهدهم بها، وحسبوا أنهم أصبحوا بنجوة منها: خوذة أخيل التي كانت تكفي وحدها لإلقاء الرعب في قلوب الطرواديين، وقذف الوجل في نفس كل منازل أو مناجز.

وتصايح بعضهم ببعض: (يا للهول يا صاح! لقد أقبل أخيل! النجاء النجاء! أين كان الطاغية؟. . . . . .) ثم تنادوا يحذر بعضهم بعضاً: (أي أيها الطرواديون! خذوا حذركم! الفرار الفرار من الداهية الجبار! لقد قطع الميرميدون رجعتنا! دعوا الهيلانيين وانشدوا خلاصكم، إلى البوابة العظمى! أيها المقاتلون! لا تزحموا الجسر! القهقري القهقري!. . . . . (إلى آخر هذا النداءات المنزعجة الواجفة

ولكن أين يهرب الطرواديون من بتروكليس؟!

لقد كان إكسانثوس وبليوس - الجوادان الكريمان - زوبعتين مُغْضَبتين، تثيران الرهج وتعقدان العجاجة، في جميع أنحاء الميدان: في القلب، في الميسرة، في الميمنة، في الجناح الأيسر، في الجناح الأيمن. . . . . بل. . . في السماء!!

وكانت الشمس، شمس طروادة الملتهبة، تعكس أضواءها على خوذة أخيل، فتذهب أفئدة الطرواديين!

واختلط نظام القوم، وتدافعت جموعهم مذعورة مولية نحو الجسر الكبير، الذي نصبوه فوق الخندق حول اليوم. ولم يحتملهم، فهوى بالألوف المؤلفة في جوف الخندق؛ ولكن المؤخرة، وكانت غالبية الجيش، لم تنتبه لما حل بأكثر المقدمة وكذلك تدافعت لا تلوي على شئ، فجعلت من جثث الموتى قنطرة تعبر فوقها إلى. . . طروادة!!

وأخذ الميرميدون السبيل على كتائب كثيفة فأبادوها، ثم جال بتروكلوس جولة هنا وجولة هناك، يبحث عن أصحاب النداءات المنكرة التي كانت تملأ الساحة شماتة بالهيلانين، منذ لحظات، فلقي منهم برنوس فصرعه، ثم ثستور فجند له، ثم اريالوس فأرسل به إلى الجحيم، وعشرات غيرهم من بني طروادة النجب.

وكانت أعز أمانيه أن يلقى هكتور؛ فسعى إليه وضيق الحصار عليه، وأرسل إليه طعنة لو أصابت جانب الجبل لصدعته، ولكن، يا لهكتور!! لقد ريع من هول ما رأى من مقاحمة بتروكلوس، فألهب جياده الضاريات فعدت به وأنقذته من قتلةٍ محققة وموت مبين.

ولشد ما شده بتروكلوس إذ رأى إلى جانبه فتى هيلاس، ومحاربها الصنديد أجاكس، يقود فلول الهيلانيين، ويقتحم بهم الحلبة كرة أخرى!؟ غير مبال بجروحه التي يتدفق من أفواهها الدم صباً.

وكم كان سرور الهيلانيين عظيماً حين استيقظوا من سكرة هزيمتهم فرأوا جنود أخيل الأنجاد يذودون عنهم، ويردون عادية الموت والقتل والغرق عن جموعهم!؟

ونشبت ملاحاة بين بتروكلوس قائد الميرميدون، وساربيدون البطل الطروادي الكبير، أدت إلى مبارزة دامية، وانتهت إلى فجيعة طروادة في أشجع فتيانها بعد هكتور! إذ شكه بتروكلوس شكة جرعته غصة الردى، وقربت إليه ورد الحمام. . . . .!!

وانكشفت غمة الهيلانيين

ولكن الميرميدون هم الذين دفعوا ثمن هذا النصر، ودفعوه غالياً وعزيزاً!! يا للهول!

لقد قُتِل بتروكلوس!!

فمن لك بعده يا أخيل!!

دريني خسبة (لها بقية)

رحلة إلى حدود مصر الغربية

مرسى مطروح، سبوه، السلوم

للأستاذ الرحالة محمد ثابت

وللقوم عادات عجيبة في الأفراح، فإذا ما تم الاتفاق على المهر وقدره ستة ريالات (ومن هنا جاءت الأغنية القديمة: بستة ريال بابا جوزني) تعهد به الزوج على أن يدفع عند حلول أحد الأجلين الموت أو الطلاق، ثم يقدم قطعاً من القماش، وفي ليلة الزفاف يدعى الأحباب إلى الطعام، ويطوف عليهم خلال ذلك كشف بأسمائهم، فيتبرع كل منهم بما تجود به نفسه، وقد شهدت فرحاً اكتتب المدعوون فيه بأربعين جنيهاً،

وذلك الاكتتاب يعد ديناً عليه يؤديه كلما دعي في أفراحهم؛ وجل تكاليف الفرح تقع على عاتق أهل الزوجة؛ وفي ليلة (الحنة) تمشط رأس العروس في حفل كبير يحضره نساء من الفريقين وتلبس حلي ثقيلة من فضة، تكاد تغطي جسمها كله، والعجيب أنها مقترضة من الغير فلا يجوز لها أن تلبس حليها الخاصة إلا بعد الزفاف، وتلك الحلي المقترضة ترد لأصحابها بعد الزفاف بأيام؛ وفي ليلة الزفاف يقوم بين الفريقين شبه شجار ومشادة يشترك فيها نساء الفريقين، طائفة تحاول أخذ العروس بالقوة، والأخرى تحاول منعها، وعند بزوغ الفجر تخطفها إحدى السيدات وتجري بها إلى بيت الزوج، وبعد أن يدخل الزوج بها يظل الثلاثة الأيام الأولى نافراً من أهله وصحبه، يخرج قبيل الشمس ويظل في الحقول إلى المساء لكيلا يراه أحد منهم، وفي ذلك شئ من التأدب والاحتشام لا بد منه! ثم يعد أهل العروس صحافاً من طعام (الرقاق) أو من العدس والحمص يسمونه (أطقاع) يحمل إلى بيت الزوج، ويحاول أهل الفريقين أن يتخاطفوه في الطريق، فإن وصل إلى الزوج سالماً أكله وإلا التهمه الناس في الطريق تيمناً. وفي صباح اليوم الأول من الزفاف (الصباحية) يعد أهل الزوج (شجرة العرس) وهي من جمار (لباب) نخلة طيبة تخرط في شكل أنيق وفي طول العروس تم تزين بالأعلام وسائر أنواع الفاكهة، وتعلق عليها الحلي الفضية التي كانت قد اقترضتها الفتاة، ثم تحمل تلك الشجرة وسط حفل يكاد يحضره كل أهل البلدة، ويطاف بها في الطريق إلى أن تصل بيت العروس، وهناك تقوم وسط البيت أياماً وكأنها عروس قامت تعوضهم عن فتاتهم، وإذا ما قاربت اليبس قطعت وأكل منها المحبون، وبخاصة الفتيات

اللواتي يرغبن في الزواج تيمناً وتبركاً؛ وإذا ما رزق الزوجان مولوداً سارع المحبون بتقديم قطع من قماش أبيض إن كان المولود ذكراً أو قماش ملون إن كانت أنثى، وقد تبلغ تلك القطع بضع مئات تسد حاجة الطفل من الملابس شطراً كبيراً من عمره. وإذا مات الزوج عكفت الأرملة في معزل من الناس جميعاً لتقضي عدتها وقدرها ثلاثة أشهر وثلاثة أيام، وفي صبيحة اليوم الأخير تخرج لزيارة قبر زوجها، والويل لمن لاقاها في طريقه إذ ينصب عليه نحسها، لذلك ينبه الناس بعضهم بعضاً ألا يخرجوا في الصباح لأن (الغولة) ستكون في طريقها إلى المقابر؛ وقد يطوف بالنبأ مناد ينبه الناس، وبعد عودتها تقصد إحدى العيون (عين طموس) فتغتسل فيها، فإن اتفق أن لاقاها شخص أصابه نحسها كله، وإلا استأجر أهلها فقيراً يلقاها ليرفع عنها وصمة النحس، وبعد ذلك تسير حرة ولا ضير على من لاقاها أو تحدث إليها أو رغب في زواجها. وعادة الندب ولطم الخدود شائعة لديهم، ومقابرهم متجاورة، إلا من اشتغل بالذبح (القصابون)، أو بعصر الزيتون، فهؤلاء يدفنون في أماكن نائية، فكأنهم من المنبوذين.

ومن أشهى الأطعمة لديهم (لِمْصَفَّة) وهي مزيج من القرع والطماطم واللحم والزيت، ثم (إنْقطة) وهي فطير بالزيت والعجوة، وكل غذائهم بالزيت، ولا يكادون يعرفون (السمن) قط؛ وأحب المشروبات عندهم (اللقبي) يتخذ من عصارة لباب النخيل، وذلك بأن يكشف عن لباب النخلة وتجرح وتوضع تحتها آنية يتجمع فيها السائل، وقد تدر النخلة منه صفيحة كبيرة (4 جالون) في اليوم الواحد، وتظل تعطي النخلة هذا القدر زهاء نصف عام، ثم تموت، لذلك تراهم لا يأخذون من النخيل الجيد إلا القليل كل يوم لكيلا يؤثر ذلك على حال الشجرة فيضنيها. وطعم ذلك الشراب وهو طازج حلو لذيذ، لكنه إذا ترك قليلاً تخمر فأصبح مسكراً قوياً، وهم يشربونه متخمراً، وبعضهم يدمن تناوله.

ويدهشني تقاعد الناس هناك عن استغلال موارد تلك الواحة الغنية، فالأرض المنزرعة محدودة جداً وهم لا يحاولون زيادتها رغم وفرة المياه وسهولة الري فيها، وحتى البساتين لا تلقى من عنايتهم إلا القليل رغم أن المنطقة جد صالحة لسائر أنواع الفاكهة والزيتون والحبوب، وقد تمثل الفرق أمامي مجسماً بين الناس هنا وبين أهل (الواحات الخارجة) فهم هناك يستنبتون الحبوب وبخاصة الأرز والقمح والشعير بكثرة هائلة، وينتجون غلتين في الأرض الواحدة كل عام، ويعنون بتسميدها ولا يفتأون يوسعون المساحة المنزرعة يوماً بعد يوم وينقبون عن ينابيع جديدة؛ أما أهل سيوة فمتواكلون قانعون حتى ملاك الأراضي يتركونها لطبقة العمال (الزجالين) ولا يكاد المالك يزور بستانه مرة كل

أعوام. وعندي أن الحكومة لو أوفدت طائفة من (الصعايدة) وأقطعتهم مساحات في مجاورة الينابيع في سيوة لكان لتلك الواحة شأن آخر في الإنتاج خصوصاً وأن الطرق المعبدة الجيدة تربطها بالسلوم وبمطروح والسيارات تقطعها في أقل من عشر ساعات.

قمنا نودع سيوة عائدين إلى مطروح، ثم أقلتنا إحدى الطوافات وكانت أجمل البواخر وهي (الأميرة فوزية) إلى السلوم فقضينا يوماً كاملاً ونحن نسير إزاء السواحل المصرية الوطيئة.

وفي باكورة الصباح دخلنا خليج السلوم الذي حاكي (الحويصلة) في تقوسه ورسونا على شاطئه الرملي فأشرفت الجبال من ورائه في طوق هائل أظهر لنا متعة الموقع من الناحية العسكرية؛ وتلك الجبال هي حافة الهضبة الصحراوية الداخلية التي تؤدي إلى الحدود الطليانية وارتفاعها 190 متراً. وما كادت الباخرة ترسو حتى تهافت أهل البلدة عليها في جموع لا حصر لها من سائر الطبقات، وكانت تبدو عليهم علائم الفرح والسرور لأنها تحمل إليهم مؤونتهم من الطعام والخضر والفاكهة وحتى الماء لأن موارد ماء الشرب هناك معدومة تقريباً، فالباخرة تملأ لهم مستودع الماء الذي منه توزع على الموظفين يومياً بمعدل (صفيحة واحدة) لكل فرد، وإن اعوزهم الماء بعد ذلك أتموا حاجتهم من المياه المكثفة من البحر وقد قامت الآلة المكثفة (كندنسر) على حافة الماء. على أن ماءها رغم نقاوته غير صحي لخلوه من المواد اللازمة للجسم التي لا يخلو منها ماء الشرب عادة.

ويوم وصول الباخرة عندهم هو يوم (الملوخية)، لأن الناس جميعاً يطبخونها لأنها أسرع الخضر تعرضاً لليبس والعطب، ولقد خلقت الباخرة جو عمل وحركة غير عاديين وسط تلك الجهات الساكنة، فقد تهافتت سيارات النقل والحمالون وبدأت العربات المعلقة الهوائية تشحن حاجات الجيش المعسكر فوق المرتفعات، فترى العربات تجري معلقة على الأسلاك إلى قمة الجبل ثم تعود فارغة، وحتى زوارق صيد الإسفنج تبتاع ماء الشرب لها من الطوافة؛ والمنطقة غنية جداً بالإسفنج الجيد وأصحاب امتياز صيده طائفة من اليونانيين

يفدون من بلادهم في موسم الصيد ومعهم زوارقهم، وهم لا يفهمون من العربية شيئاً قط. أما أهل السلوم فمن فقراء الأعراب يعيشون عالة على الموظفين أو خدماً لهم، وترى خيامهم القليلة مبعثرة في سفح الجبل، وهم يحصلون على مائهم العذب بطريقة عجيبة بسيطة، فهم يحفرون الرمل بجوار البحر إلى عمق نصف متر فينز الماء ويملأ الحفرة ماء لا بأس بمذاقه، وهم في فقرة مدقع وبؤس مبيد خصوصاً بعد أن اجدبت منابت الشعير إجداباً تاماً هذا العام. ولقد أثر ذلك في حالتهم الصحية والخلقية تأثيراً سيئاً؛ وتلك فئة جديرة بعطف ذوي البر، وقد تبرعت لهم الحكومة ببعض الغلال ويا حبذا لو ضاعفت إحسانها فحفظت طائفة من سكان مصر من أن يلقوا بأنفسهم إلى أحضان الطليان في حدود طرابلس مستسلمين كأسرى البال؛ ونساء العرب هناك سافرات لهن جمالهن الخاص في أرديتهن الحمراء، وعند زواج إحداهن يجتمع الناس لتقدير المهر ويبدأ بنحو خمسين جنيهاً، ثم لا يفتأ يتدخل شيخ منهم ويقول (وعشان خاطري) فينزل المهر إلى أربعين. ثم إلى ثلاثين، وهكذا حتى ينزل إلى خمسة جنيهات. ويكاد الفرح يقصر على حفلات الرقص، ولهم حركات في غاية الرشاقة والخفة، وجل الرقص يوقع وفق تصفيق الجماهير؛ ويغلب أن تكون الراقصة ويسمونها الحجالة من الأوانس اللاتي يرغبن في الزواج، وهي ترقص وعلى وجهها قناع، وليالي الفرح أربع، وفي ليلة الزفاف تحمل العروس على جمل تحت هودج يسمونه (كرمود)؛ ويمسك بالخطام الفتيات البكر تفاؤلاً ويقتادها إلى بيت الزوج. ومن عاداتهم أن الفتاة إن طلبها أحد ذوي قرباها فضل على غيره حتى ولو لم يكن كفؤاً لها، وإن حصل ما يخالف ذلك فرضت على المعتدي الدية التي يختلف قدرها باختلاف مكانة الفتاة.

حدث مرة أن أجمل فتاة في قبيلة المعابدة هناك طلبها كل فتيان قبيلتها فرفضت لأنها كانت تحب فتى من قبيلة أخرى، وذات ليلة دبر ذلك الفتى أمر اختطافها، فكانت الدية ألف جنيه. والعجيب أن سائر رجال القبيلة لابد أن يتعاونوا على جمع تلك الدية ودفعها وإلا لحقهم العار ولزمهم الحق جميعاً، وأنت إذا مررت على (خيشة) من خيامهم وحييتهم وجب أن تعرج لتشرب الشاي. ولا بد من تقديمه ثلاث مرات: الأولى شايها

ثقيل أسود مر لا يوضع به سكر قط، والثانية أخف منه وأحلى، والثالثة يقدم شايها وكأنه العسل وغليه النعناع،
ويدور السقي إلى اليمين مهما كان من أمر الجالسين؛ وهم يدمنون الشاي إدماناً أثر على صحتهم ولو أنه أفاد من ناحية التطهير ضد بعض الأمراض.
وإذا اعتدى أحدهم على غيره وأصابه بسوء أرسل المصاب إلى (التَّطّار)، وهو يقابل الطبيب الشرعي عندنا لتقدير الدية، وقوله نافذ على الجميع، وتلك الدية تسمى (كبارة)، والقاتل لا يقتل في عرفهم متى دفع الدية التي يقضي بها المحكمون، وهي حوالي مائتي جنيه في العادة، ويتعاون كل أغنياء القبيلة على دفعها.
طفنا ببلدة السلوم فإذا بها قرية شبيهة بمطروح في نظام بيوتها البيضاء الوطيئة، على أنها تفوقها وحشة، إذ يشعر الواحد فيها بأنه في معزل عن العالم. تسلقنا المرتفعات في طرق لياتها من الأعاجيب، وكلما علونا بدا مشهد خليج السلوم رائعاً بديعاً، وفوق الهضبة زرنا المعسكر وتوابعه في أبنية بالحجارة، فاخرة الإنشاء، لم أكد أصدق أنها أقيمت لجنودنا المصريين، وهنا تعسكر أورطة مصرية بكامل رجالها ومعداتها، وتشرف على الخليج إلى جانب المسكر طابية قديمة أسسها عصمت التركي سنة 1322، وعليها الطغراء العثمانية، ويشغل القسم الأكبر منها اليوم السجن. ولقد أخذنا نشق تلك الصحاري المجاورة، ومررنا ببعض الآبار الرومانية القديمة، ومن أكبرها بئر وعرة نزلناها فإذا بها تجويف في الصخر الهائل، له شعاب ممدودة تحت الأرض فإذا ما أمطرت السماء سال الماء إليها خلال فتحات ضيقة وترشحت أوساخه مع الرمال الراسبة واستقى منها الناس. ثم سرنا حتى وصلنا الحدود الطليانية، وهم يمدون على طولها أسلاكاً شائكة. وزرنا طابية (مساعد) التي كانت لهم وتنازلوا عنها لمصر عند تحديد التخوم بعد أن أخذوا هم جنوب وما جاورها، وتركوا لنا تلك الطابية ومسافة قدرها زهاء عشرة كيلو مترات حول السلوم. وعجبت جداً لما لم أجد من الاستعداد لدفع طوارئ الهجوم على تلك الناحية المكشوفة من حدودنا، فعدد الجنود غير كاف ولم يزودوا من الأسلحة بشئ يدفع عنهم أذى، وحتى معسكر المدفعية رأيته يضرب خيامه أسفل الخليج بعيداً عن المرتفعات، لذلك يوجس الناس هناك خيفة هجوم العدو بين يوم وآخر. فهلا اهتمت وزارة حربيتنا بأمر تحصين ذلك الركن الهام من حدودنا فأمنتنا أخطاراً جسيمة وألقت شيئاً من مسئولية الدفاع عنا على عواتق أبنائنا المخلصين.
قمت من السلوم عائداً إلى الإسكندرية في الطوافة، وكان أجرها زهيداً جداً، إذ للموظفين
جميعاً أن يدفعوا ربع الأجر فقط، والأجر الكامل للذهاب والإياب خمسة جنيهات في الدرجة الأولى، وبتنا فيها ليلتين، ثم دخلنا الإسكندرية في باكورة الصباح.
محمد ثابت
البريد الأدبي
مشاكل الشرق الأقصى - كتاب طريف عنها
في العهد الأخير لفتت مسائل الشرق الأقصى أنظار العالم؛ وأثار توغل اليابان في الصين في بعض الدول التي تهتم بمجرى الحوادث في الشرق الأقصى شكوكاً ومخاوف جديدة، وأبدت اليابان رغبتها جلية واضحة في الاستئثار ببسط نفوذها على الصين ومقاومة النفوذ الأوربي، وما تزال مشكلة الشرق الأقصى جاثمة في الأفق تثير اهتمام السياسة الأمريكية، والسياسة الروسية، والسياسة البريطانية؛ وقد صدر في أمريكا أخيراً كتاب عنوانه (سحب الحرب في آفاق الشرق الأقصى). بقلم المحامي توم إيرلاند، تناول فيه المؤلف مسائل الشرق الأقصى بإفاضة، وذهب فيه إلى رأي جديد لا يبدو أنه متفق مع اتجاه السياسة الأمريكية الحاضرة. وخلاصة هذا الرأي هو أن أمريكا يجب أن تنفض يدها من التدخل في مسائل الشرق الأقصى، وأن تترك الصين لمصايرها؛ ويستند المؤلف في عرض رأيه إلى ما يأتي:
(1) أن التجارة الأمريكية في الشرق الأقصى لا تبرر هذا التدخل من حيث أهميتها.
(2) أن أمريكا مضطرة إلى إنشاء أسطول ضخم تكون نسبته للأسطول الياباني كنسبة 5 إلى 3، إذا أرادت أن تتدخل لمقاومة اليابان تدخلاً فعلياً، وهذا يكلفها نفقات باهظة.

(3) وحتى لو سلمنا بأن في استطاعة أمريكا أن تنشئ مثل هذا الأسطول فإنه لا يفيدها كثيراً، بعد أن فرطت في جزائر الفيليبين، وأصبح من المتعذر أن تتخذ منها قاعدة بحرية للعمل في المحيط الهادي.

(4) أن اليابان سائرة في طريق التوسع، ومن حسن الحظ أنها وجدت في منشوريا (منشوكيو) مجالاً لنشاطها، وفي ذلك ما يدفع تيار الخطر الأصفر عن أمريكا.

وقد أريد بهذا الكتاب أن يصدر قبيل انعقاد المؤتمر البحري إذ ينتظر أن تطالب اليابان فيه بزيادة نسبة أسطولها نظراً لما تتطلبه حماية أملاكها الجديدة، ولأن أمريكا ما زالت تطالب في الصين بسياسة الباب المفتوح، وهي سياسة عتيقة أضحت لا تبررها الظروف.

ويقرن المؤلف عرضه بإحصاءات ووثائق اقتصادية كثيرة عن نشاط مختلف الدول ذات المصالح في الشرق الأقصى، وإحصاءات عن نفقات الحرب، وعن القوى البحرية، وسير المهاجرة، وسير المواليد، ويثبت فيه كل المعاهدات التجارية، ويتحدث طويلاً عن سياسة روسيا ونشاطها. والكتاب بموضوعه وتدليله يعتبر وثيقة هامة في التاريخ السياسي والاقتصادي المعاصر.

محنة الصحافة الألمانية في ظل الإرهاب الهتلري

من أنباء برلين الأخيرة أن جريدة (كرويتس تسيتونج) الشهيرة (جريدة الصليب) قد احتجبت واختتمت حياتها الصحفية الحافلة. وقد كانت (الكرويتس تسيتونج) من أعظم الصحف الألمانية وأقدمها، وأعرقها في الهيبة السياسية؛ وقد أنشئت سنة 1848 لتكون لساناً للحزب المحافظ الذي أنشأه البرنس بسمارك عميد السياسة الألمانية في القرن التاسع عشر؛ وكان شعارها منذ نشأتها العبارة الشهيرة الآتية: (إلى الأمام مع الله، في سبيل الملك والوطن. نحن الألمان نخاف الله، ولا نخاف شيئاً آخر في العالم)؛ وكان هذا الشعار ما يزال يطبع في صدر الصحيفة حتى أيامها الأخيرة أعني حتى 31 أكتوبر المنصرم وهو آخر أيام حياتها؛ وكانت عند نشأتها تسمى (نوية برويسشه تسيتونج) أو الجريدة البروسية الجديدة، وقد اختطت لها منذ نشأتها نزعة بروسية محافظة تعبر عن آمال العسكرية والأرستقراطية وكبار الملاك؛ وتظهر صباحاً ومساءً في حجم كبير وتفوق في الانتشار معظم جرائد برلين الكبرى مثل التاجبلات وجرمانيا، والدويتشه الجمينة وغيرها؛ وكانت ما تزال حتى العهد الأخير تتمتع بمركز حسن وذيوع لا بأس به؛ ولكنها كانت تعاني منذ قيام الحكم الهتلري صعاباً جمة في التعبير عن آرائها؛ وكانت من الجرائد القليلة التي لم تقبل أن تخضع لأغلال النازي ونظرياتهم؛ وقد كان مصيرها الإغلاق والمصادرة منذ بعيد لو لم تكن تتمتع بتأييد نفوذ بعض الهيئات العسكرية والمحافظة القوية؛ ولو لم تكن تعتبر أثراً من آثار منشئها بسمارك. بيد أنها رأت أخيراً أنها لا تستطيع المضي في رسالتها تحت تأثير الضغط والوعيد الذي يفرض على الصحافة الألمانية في العهد الجديد، ولهذا آثرت الاحتجاب من تلقاء نفسها. وهكذا تختفي الصحف الألمانية الكبرى واحدة بعد الأخرى وتنحط الصحافة الألمانية تباعاً إلى عداد صحف الدعاية الحزبية. وباختفاء (كرويتس تسيتونج) ينهد ركن متين من أركان الصحافة الألمانية العريقة، وتسجل ضحية صحفية جديدة لحكم الإرهاب السائد في ألمانيا.

مدينة للسينما في إنكلترا

كانت الأفلام الأمريكية قد اكتسحت بلدان العالم، وكادت الصناعة السينمائية تصبح وقفاً على أمريكا وعلى هوليوود مدينة الكواكب الشهيرة؛ ولكن كثيراً من الأمم تنبهت إلى هذا الخطر الذي يهدد صناعتها وثقافتها المحلية، فنهضت تنشئ لها صناعة سينمائية خاصة، وكانت بريطانيا العظمى وفرنسا وألمانيا وإيطاليا في مقدمة هذه الدول، فشجعت صناعة الأفلام القومية، ووضعت قيوداً مختلفة على عرض الأفلام الأجنبية. وقد قرأنا في البريد الأخير أن إنكلترا قد بدأت بإنشاء مدينة خاصة للصناعة السينمائية على نمط مدينة هوليوود الأمريكية. وموقع هذه الضاحية الفنية في دنهام من مقاطعة بوكنهام شير حيث تكثر المناظر الطبيعية البديعة؛ ومساحتها مائة وخمسة وستون فداناً من الأرض؛ وتبنى فيها الآن أبهاء التصوير (ستديو) بإشراف المهندس والرسام جاك أوكي، وستكون أعظم أبهاء من نوعها في القارة الأوربية، وهي ثمانية

سيكلف صنعها 400 ألف من الجنيهات، وسيكون في كل منها مسرح مجهز بالألوان لا يضارعه أي مسرح في أمريكا، وسيجهز بمولد كهربائي يكفي لإنارة مدينة كبيرة.
وينتظر أن ينفق نحو مليوني جنيه سنوياً على صناعة الأفلام في دنهام، وأن تخرج كل عام 24 فلماً من الأفلام العظيمة، وستشترك في العمل فيها شركتان أمريكيتان كبيرتان إلى جانب شركات لندن الكبرى، وينتظر أيضاً أن يهرع إليها عدد كبير من نجوم هوليوود.
ولم ينته إلى اليوم من المدينة السينمائية العظيمة سوى الهياكل الحديدية، ولكن المنظور أن تنتهي بعد بضعة أشهر؛ وتحتوي الأرض المختارة على غابات وأشجار ورياض وأنهار وشواطئ بديعة؛ وستنشأ بها مكاتب ومطاعم وفنادق وكل ما يجب لتوفير الوقت والرفاهة لساكنيها من نجوم وغيرهم.
مجمع اللغة العربية الملكي
تقرر أن يبدأ مجمع اللغة العربية الملكي دورته القادمة في يوم الأربعاء 20 من شهر شوال سنة 1354 الموافق ليوم 15 من يناير سنة 1936، وقد أرسلت سكرتارية المجمع رقاع الدعوة إلى الأعضاء في مصر وفي الخارج. وقد استأنفت لجانه أعمالها بعد فترة الصيف؛
وقد انعقدت مساء يوم الجمعة الماضي بدار المجمع لجان الآداب والعلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية؛ وستوالي جميع اللجان اجتماعاتها لتعد ما سيجري البحث فيه في الدورة المقبلة، وقد استدعت اللجان بعض الخبراء الفنيين للاستعانة بهم في دراسة المصطلحات العلمية. هذا وستعجل إدارة المجمع بإصدار الجزء الثاني من مجلته تمهيداً لإصدار الجزء الثالث منها، بحيث يكون الجزءان بين أيدي الأعضاء في مفتتح الدورة المقبلة.
ذكريات عن أكابر الكتاب
ظهر في لندن أخيراً كتاب طريف عنوانه: (الصلات) بقلم المستر كورتس براون. ومستر براون ليس كاتباً بمهنته، ولكنه من أكبر (وكلاء الأدب) في إنكلترا، وله صلات وثيقة بمعظم الكتاب الإنكليز؛ وقد تعاقد مع كثيرين منهم على حقوق كتبه. ويعرف مستر براون جيل الكتاب المنصرم معرفة وثيقة، ويعرف الكثير عن أحوالهم وعاداتهم ومشاربهم، وأساليبهم في التفكير والكتابة؛ وقد وضع كتابه المشار إليه متضمناً ما يعرفه عن كثيرين من أقطاب الكتابة في أواخر القرن الماضي مثل توماس هاردي، وهول كين، وجورج مور، والسير كونان دويل، ولورانس وغيرهم. وكتب أيضاً عن بعض الكتاب الهواة مثل مستر لويد جورج واللايدي اسكويث وغيرهما. ونستطيع أن نستخلص من قراءة هذا الكتاب حقيقة مدهشة هي أنه وإن كان هؤلاء الكتاب يشتغلون دائماً بعالم التفكير والخيال، فإن بنهم رجالاً يحسنون فهم الأعمال التجارية والمالية، ويحرصون على مصالحهم المادية حرصاً عجيباً. بيد أن الكاتب يروي لنا أيضاً أن بعض هؤلاء الكتاب كان يفرط في حقوقه المادية تفريطاً مدهشاً، ويضرب لنا مثلاً بتوماس هاردي، ويقول لنا إنه لم يتقاض عن حق تأليف روايته الشهيرة: (تحف شجرة الغابة الخضراء) سوى ثلاثين جنيها!
الكتب
1 - البُحَاثة اللغوية
عن قاعة البحث اللغوي بدار العلوم
2 - القبس للإنشاء العربي
تأليف:
محمد رزق الدهشان - مدرس بالمدارس الثانوية
عبد الغني الصاوي - مدرس بالمدارس اثانوية
للأستاذ محمد سعيد العريان
في دار العلوم اليوم نهضة موفقة، يساهم فيها الشباب والشيوخ من أبناء هذه الدار التي قامت على العربية ستين عاماً، فأحسنت القوامة، ورعت الأمانة، وأدت حق العلم وحق اللغة أوفى أداء، وأثرت تأثيرها المبارك فيما ينتج الشعراء والكتاب من أدباء هذا الجيل؛ وهي نهضة حكيمة، بادية النشاط، بادية الأناة، تسير على سننها في رفق وقوة، وتمضي إلى غايتها في حماسة ووقار؛ فمن ثم لا تحاول أن تنسلخ جملة من ماضي

التاريخ، وهي تأبى كذلك أن تصمّ أذنيها عن دعوة إلى الابتكار والتجديد.
وهذا أثر جديد، هو مجْلى من مجالى نشاطها الدائب؛ تحاول به أن تثبت للحاقدين من خصومها، والعاقّين من بنيها، أن عندها هي وحدها تلتمس الأسبابُ لحياة هذه اللغة حياةً تكون بها بين اللغات ما كانت بينها في تاريخها المجيد.
ولقد أنشئت في دار العلوم منذ أكثر من عام (قاعة البحث اللغوي) لتكون ميداناً حراً لكل ذي فكر جديد، يتناول شأناً من شؤون اللغة. والعلم اليوم عرض وبحث ومذاكرة، لا تلقٍ وحفظٌ واستذكار؛ من أجل ذلك أنشئت هذه القاعة في دار العلوم، غير مسبوقة بمثال لها تتخذه قدوة وتسير على نهجه؛ على أنها قد أجدَّتْ فأجْدَتْ، واخترعتْ ففرعتْ؛ وهذا كتابها الثاني (البحاثة اللغوية) يدل على جهد مشكور، وعمل له ما وراءه.
وهو نهج جديد في فقه اللغة. وفقهُ اللغة عند القدماء أبوابٌ موضوعة، تضم من أشتات اللغة كلَّ معنى إلى ما يشاكله، وكل تعبير إلى ما يضاهيه، وكل لفظ إلى ما يرادفه؛ فهو عندهم معجم يرتِّب اللغة على أبواب المعاني لأعلى أبواب الحروف؛ وإذْ كانت اللغات
تتطور، وحاجات العصر تطلب حقها من كل لغة، وأن تتعرف اسمها على كل لسان - كان همّ فقهاء اللغة من هذا الجيل أن يحاولوا الربط بين ألفاظ اللغة وحاجات العصر، وأن يكشفوا عن أوجه المشاكلة بين كل اسم ومسماه وما يتصل به، في أبواب يضعونها، وترتيب يخترعونه، إلا أنه لا يخرج في جملته ومعناه عن طريقة القدامى في الوضع والترتيب.
ولكن فقه اللغة شئٌ غير الكلمات الجديدة، وغير الجمع والترتيب والتبويب، وغير النحت والاشتقاق والترجمة - وإن يكن أولئك هو كل ما نطلبه من فقه اللغة لنساير بها حاجات العصر؛ إنما فقه اللغة أن نحاول الكشف عن أسرار اللغة، وتفهم طبيعتها، وفقه ألفاظها على حقيقتها وفي معناها الذي عناه الواضع الأول؛ ثم البحث في نشأة الكلمات، وتاريخها، واشتقاقها، وتطورها، وما استعملت فيه ودلت عليه من المعاني في مختلف العصور، وما صارت إليه وعرفت به في لغة الأحياء؛ ثم ما يهدي إليه هذا البحث مما تزيد به ثروة اللغة، ويصح به أسلوب الكلام.
وهذا هو ما رآه الأستاذ (محمد عبد الجواد) أستاذ فقه اللغة بدار العلوم، فدعا طلابه إليه، فهيأ لهم قاعة البحث اللغوي، فكان من عملهم هذه البحاثة اللغوية.
وهو كتاب دوريّ، سبقته البحاثة الأولى إلى الظهور باسم: أنابيش لغوية.
وهذه البحاثة كما يدلّ عليها اسمها والغرض منها هي خلاصة البحث اللغوي لطلاب دار العلوم في السنة الدراسية الماضية بتوجيه أستاذهم؛ ويبلغ الكتاب ثلثمائة صفحة، ثلثاها مما اختير من بحوث الطلاب أنفسهم في (رياضة لغوية في قراءة القاموس المحيط)؛ وقد نهج بهم أستاذهم منهجاً حسناً، هو يصفه في مقدمته لهذا الباب:
(رأينا أن توزع عليهم أوراق من القاموس المحيط للبحث فيها واستخراج كنوزها . . . ودفائنها، كي يوجه النظر إلى استعمالها، والانتفاع بها في حركة التجديد اللغوي. . . وقد طلب إليهم قراءتها بإمعان وتدبر، ووضع خط بالقلم الرصاصي تحت ما يصح أن يوضع لمسمى لم يعرف له اسم عربي، أو كلمات يتوهم أنها عامية وهي عربية، أو ما خرج به التحريف أو التصحيف عن عربيته الخ، أو أية لفظة يرى أنها جديرة بالنشر. وإذا كان لأحدهم مقترح، أو أراد التوسع في بحثه، شفع ما قرأ من الأوراق بتوضيح كتابيّ. . .)
ولقد كانت رياضة لغوية مثمرة، تدل على جدوى هذا النهج الجديد في دراسة فقه اللغة؛ وإننا لنرى فيها جهد الطلاب ظاهراً قوياً، وقد وفق الكثير منهم توفيقاً يدعو إلى الإعجاب والرضى ويبعث على كثير من الاطمئنان والأمل؛ على أنه من التواضع أن يسمى كل هذا الجهد (محاولة)؛ فما أغلو إذا ادعيت أنه قد أضاف إلى العربية ثروة جديدة، وكشف عن دفائن تزيدها قوة وغنى.
على أن في الكتاب غير ذلك بحوثاً طريفة، وأبواباً قيمة، وطرائف من اللغة تروق الأدباء والمتأدبين. وإذا كان لنا أن نأخذ شيئاً على الكتاب، فذلك أنه كان في حاجة إلى العناية بترتيبه وتقسيم فصوله خيراً مما رُتِّب وقُسِّم، ليتأتى للمستفيد أن يقع منه على ما يريد من غير عناء، ولكننا نحب أن نعتذر عنهم من ذلك، بأنهم أرادوه ليكون أشبه

بسجلّ يصوِّر مجهودهم، أكثر مما أرادوه كتاباً يتناوله القراء للبحث والانتفاع، وإن كان هو عندنا لأكثر من ذاك.

القبس للإنشاء العربي

وهذا كتاب آخر للإنشاء العربي، متين العبارة، قويّ الأسلوب، جميل التقسيم، أنشأه مؤلفاه الفاضلان ليستعين به التلاميذ في دروس الإنشاء العربي، فجاء وافياً بما يريدان من قوة السبك، وحسن الأداء، ودقة التقسيم.

ولكننا نعود فنسأل عن مدى استفادة التلاميذ مما يسمونه (كتب الإنشاء)؟

ليس من شك في أن تعليم اللغة تلقين ومحاكاة، يهيئان التلميذ من بعدُ للخلق والابتكار، ولكن وسائل التلقين ليست هي هذه الكتب التي توضع بين أيدي التلاميذ لغرض واحد، هو أن يقرءوها فيحاكوها، أو ينبشوها فيقتبسوا منها، والتي لا ينظرون فيها إلا على نية الأخذ عنها، والاستعانة بها على تجويد العبارة وصقل الكلام؛ إنما ينبغي أن يلقن التلميذ من حيث لا نشعره أنه يلقن: بأن نحمله على القراءة في كتب شتى، ونبعث فيه الشوق إلى المطالعة والنظر في كل كتاب، ونعوده حسن الاستماع لجيّد الكلام؛ فما يقبل التلميذ على مثل كتب الإنشاء هذه بقلبه وعقله، بل بحافظته؛ فمن ثم لا تراه ينظر فيها إلا ليسترق أو يقلد، فيؤول ذلك إلى أن تكون كتابته أشبه بطبع الرواسم (الأكلشيهات): عبارات محفوظة، وربط سقيم، وفكر بليد؛ ثم هي تجعل التلميذ لا يحاول أن يطالع أو أن يقرأ، إلا إذا طلب إليه أن يكتب أو أن ينشئ، للمدرس، أو للامتحان؛ لأنه لم يتعود أن يقرأ ليلذ نفسه ويرضي عاطفته، بل ليستعين على أداء تكليف ثقيل. . .!

وهذه الكتب الكثيرة للإنشاء، أثرٌ من إيحاء مناهج الدراسة ونظم التعليم في بلادنا، هذه النظم التي تقيس العلم بعدد الناجحين ونسبة النجاح، ومن ثم كانت أكثر محاولات المدرسين في مدارسنا للوصول إلى هذه الغاية؛ أما تربية الملكات، وصقل العقل، وإرهاف الحس، فذلك شئ قلما ترى من يحاوله منهم، ولعل لهم عذراً كبيراً من ذاك. . .!

ولقد يكون من الخير الكثير لو أن المؤلفين الذين يحاولون تأليف الكتب للإنشاء اتجهوا في ذلك اتجاهاً آخر، فوضعوا همهم وجهدهم في تأليف كتب أخرى مما يروق التلاميذ صغاراً وكباراً، ويشوقهم إلى قراءته غير محمولين عليه، مثل: القصص، والرحلات المشوّقة، وغيرها، ثم ليجعلوا في ثنايا ذلك ما يريدون أن يضيفوه إلى ثروة التلاميذ اللغوية والعلمية. فلعلهم إن فعلوا ذلك يكونون قد أضافوا إلى اللغة ثروة جديدة من أدب الأطفال، وعوَّدوا الأطفال أن يقرءوا التماساً للذة العقلية ومتاع الروح، بدل أن يقرءوا رغبة في النجاح وحسب.

وما نعني بهذه الكلمة - هذا الكتاب الجديد وحده، فلعله من خير ما أُلف في موضوعه، وإنما هو رأي نحب أن يسمعه كل القائمين على تعليم الإنشاء في المدارس المصرية.

محمد سعيد العريان

العدد 123 - بتاريخ: 11 - 11 - 1935

. . .في الجمال

- 2 -

لعل جمال المرأة أبرع مثل للجمال الطبيعي لو تدبرته؛ وسر الإعجاب فيه هو سر الإعجاب في جمال الرجل: أعني الذكاء؛ والذكاء كما قلت من قبل إبداع الوسائل الملائمة للغاية، ثم تطبيق هذه الوسائل على غايتها في نظام دقيق محكم؛ فأنت لا تستطيع أن تفقه جمال المرأة إلا إذا وقفت على حكمة الله فيها، وغرض الطبيعة منها، وأدركت ما بين طبيعة خَلْقها وعلة وجودها من المواءمة التي تسترق الأفئدة وتدق على إفهام البشر.

فالعلة الغائية لخلْق المرأة هي أن تكون زوجة وأُماً، وسبيلها أن تروق الرجل وتدمث خُلقه وترقق طبعه ليسكن إليها ويُشبل عليها بالمعونة والنجدة؛ وسكون الزوج إلى زوجه تدبير إلهي يقوم عليه بناء المجتمع وبقاء النوع، لأن المرأة وهي زوج تحمل، أو أم ترضع، لا تملك لنفسها ولأولادها غذاء ولا حماية؛ فما دام الولد في حاجة إلى أمه، فالأم في حاجة إلى أبيه. ولكن غريزة الاستقرار والاستمرار في الرجل ضعيفة، فلا بد

لهذا الوحشي الشريد من صلة أخرى غير صلة الدم تحبسه على زوجه وتعطفه على بنيه؛ والحب وحده هو الذي مكن الطبيعة من هذه البُغية؛ فبفعل الجاذبية سكن النافر، وبسحر الجمال ثبت العَزوف. وللحب خصيصتان قويتان: الرغبة والحشمة؛ ومن ذلك كان جمال المرأة داعيَ الرغبة خافض الجناح حيي الطبع؛ والرجل مزهوٌّ على المرأة يُدل بحيازته لها، ويتعزز بقيامه عليها؛ فهو يريدها (ريحانة لا قهرمانة)، وحبيبة لا جليبة، لها سلطان ولكنه رفيق، وفيها إباء ولكنه رقيق.

ومن ذلك كان جمالها مزيجاً من الوداعة والعزة، وخِلطاً من الضعف والدلال، وطباقاً من الهيبة والنبل.

وجمال المرأة يحتفظ بدوامه وسحره ما دامت له روح من العاطفة تشع في نظراتها، وتنسم

في بسماتها، وتشيع في قسماتها، وتنشر أضواءها السحرية على أعصاب الرجل - وهو بطبعه ولوع - فيتمتع بنعمة اختياره ولذة إيثاره، ويجد في الضعف الذي يستلم ويستكين، الحبَّ الذي يطول ويحكم.

إن شبهة الخداع والتصنع تمحق كل شيء: لذلك كان في مخايل الطيبة والنزاهة، وفي سمات الظرف الغرير يتراءى وهو يختفي، وفي أسرار الهوى المكتوم تفضحه البسمة الحنون من شفة مطبقة، وتعلنه الومضة الخاطفة من نظرة حبية، وفي دلائل الملامح المعبرة في الوجوه والعيون تقول وهي تنصت، وتريد وهي ترفض: كان في كل أولئك بلاغة الجمال؛ فإذا أصيب الحب بالفتور ابتُلي الجمال بالخرَس.

وسلطان المرأة القوي على قلب الرجل إنما يأتيها من ذلك الذكاء المستسرِّ ترعاه معه وفيه على غير علمه؛ فكان من مزايا جمالها أيضاً أن تلوح هذه البصيرة الدقيقة على أسرَّة وجهها، وتشرق على الأخص في تلك النظرة الوديعة التي تتغلغل في طوايا القلب فتنسخ ظلال الفتور، وتبدد ظلام الكآبة، وتشعل خمود الحب. . . . . .

ومن خصائص جمال المرأة الاحتفاظ بالقلب الذي تصبَّاه وسباه؛ ووسيلته أن يطرد السأم عنه، ويجدد الشوق فيه، فيعير العادة المملة ألوان الجدَّة، ويقبس الحياة الرتيبة حرارة التنوع؛ وذلك هو السر العجيب الذي وضعه الله في الجمال النسوي، فيتكرر ولا يُمل، ويستعلن ولا يُفهم، ويتجدد ولا يتناهى، ويتنوع ولا يختلف، ويتولد ولا يبيد!!

إن في خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس؛ وإن في تجميع النهر، وتكوين الجبل، وتصريف الريح، وإثارة البحر - لجمالاً رائعاً يجري في كل شعور، ويستولي على كل قلب، لأنه يعلن القوة الخارقة؛ والقوة أروع خصائص الجمال وأشدها أخذاً بمدارك الحس؛ كذلك تجد في صغار الأشياء مفاتن للجمال الطبيعي تهز النفس وتصبي المشاعر؛ فورقة الزهرة، وجناح الفراشة، يبعثان في قلبك من الإعجاب ما يبعثه الطود المتموج بالثلج، والمحيط الملفف بالعاصفة؛ ولكن خصيصة الجمال في الزهرة والفراشة هي فرَة الألوان، ونصاعة الأصباغ، وتعدد الصور؛ وخصيصة الفرة أضعف من خصيصة القوة لتأثرها بالذوق، وخمودها بالألف والعادة.

ولعل خصيصة الذكاء أخفى الخصائص الجمالية جميعاً، لأن مرجعها إلى التأمل والفهم، وهذان لا يتيسران في كل وقت، ولا لكل شخص؛ فالبركان والإعصار يروعان القلب بالقوة المجردة، ولكن الجمال إذا قام على خصيصة الذكاء وحده، وهي الترتيب والمواءمة والإنتظام، خبا أثره في الناس إلا إذا كان محسوساً شديد الغرابة! أليس الواقع أن براعة القدرة وسر الإبداع سواء في العظاية والأسد، وفي القصبة والدوحة؟ ولكنك تعجب بالأسد والدوحة، ولا تكاد تأبه للعظابة والقصبة، لأن سلطان القوة غالب، وسحر العظمة عجيب.

فاجتماع الخصائص الثلاث إذن ضروري لحصول الجمال الصحيح في مشاهد الطبيعة وروائع الوجود.

(للبحث بقية)

أحمد حسن الزيات

اللون الأصفر

للأستاذ أحمد أمين

لفت نظري - وأنا أدرس الحياة الاجتماعية في العصر العباسي - ما رأيت من كثرة ما

كتب عن اللون الأصفر في هذا العصر، وحلوله محلاً كبيراً غطى على كل الألوان الأخرى، وكثرة ما قيل فيه من أدب، فرأيت أن أعرض على قراء (الرسالة) شيئاً منه وأترك لعلماء الجمال ما يدل عليه انتشار اللون الأصفر في الشعوب من تحديد درجة الذوق في الرقي، وعلاقته بانتشار التهتك والخلاعة، ودلالته على مقدار ما وصلت إليه الأمة من حضارة.

رأيت العراقيين هاموا باللون الأصفر وتغزلوا بالوجوه الصفر، وصبغوا ثيابهم بالصفرة، وافتتنوا بالزهور الصفر، وأكثروا من اتخاذ الطعوم الصفر، ومدحوا الجواهر الصفر، وهكذا.

روى الجاحظ من الأمثلة المشهورة قولهم: (أهلك النساءَ الأصفران: الذهب والزعفران)، وهذا يدل على غرام النساء باللون الأصفر، وظهور هذا الغرام بحبهن للذهب والزعفران؛ أما حبهن للذهب فللونه ولأنه خير أنواع المال. وقد ظُلم النساء برميهن وحدهن بحب الذهب، فمن من الرجال كذلك لم يذله الذهب ويسترقه المال ويستعبده الدينار؟ ومن منهم لم يقس أخلاقية العمل بمقياس الذهب؟. . . لقد كان الحريري أصدق قولاً إذ يقول:

أكْرِمْ به أصفرَ راقت صفرتهُ ... جوّابَ آفاقٍ ترامت سفْرته
مأثورةً سمعتُه وشهرته ... قد أودعت سر الغنى أسرَّته
وقارنت نجحَ المساعي خطْرته ... وحُببت إلى الأنام غرَّته
لولا التُّقى لقلت جلت قدرته

وأما الزعفران (وهو نبت له أصل كالبصل وزهر أصفر إلى حمرة) فقد كان له سلطان في بغداد أي سلطان حتى لو سميْتَ بغداد في ذلك العصر مدينة الزعفران لم تُبعد؛ وقد جعلوا له قوة سحرية فقالوا: (إنه إذا كان في بيت لا يدخله سام أبرص) وإذا حسن في عينهم شيء أصفر شبهوه بلون الزعفران كما قال آدم بن عبد العزيز:

شربت على تذكر عيش كسرى ... شراباً لونه كالزعفران

وأكثروا من تلوين الطعام به؛ قال بديع الزمان في إحدى مقاماته: (ومعنا على الطعام رجل تسافر يده على الخوان، وتأخذ وجوه الزعفران).

وكان البغداديون يلونون الطعام ويكرهون أن يقدموه بلا تلوين، ويسمون الطعوم غير الملونة (الطعوم المُعتدَّة) تشبيهاً لها بالمرأة في العدة، لأنهم يكرهون منها أن تلبس الثياب الملونة، فكانوا يلونون الطعام بالزعفران وبالعصفر وهو أصفر أيضاً.

قال ابن حمدون:

هاتوا أطايب ثورٍ فائق سمناً ... كالفيل قدّاً وان عدُّوه في البقر
وسكْبجُوها ووفوها توابلها ... وزَعفروُها وصفوها عن الغير

وصبغوا بالزعفران ملابسهم؛ حكى الأغاني أن الرشيد دخل على أخته علية بنت المهدي في يوم قائظ فوجدها قد صبغت ثياباً بزعفران وصندل وجعلتها على الجبال لتجف، فجعلت الرياح تمر على الثياب فتحمل منها ريحاً بليلة عطرة فوجد لذلك راحة من الحر.

وكتبت جارية على قباء معصفر:

وما البدر المنير إذا تجلى ... هدوا حين ينزل بالعراق
بأحسن من بثينة يوم قامت ... تهادَى في معصفرة رقاق

وقد كثرت أسماء الثياب الصفر فسموا

التَّخمَةَ: الثياب المخططة بالصفرة

والرَّادعة: القميص لُمّع بالزعفران والطيب

والسبنيّة: نسبة إلى سَبَن قرية بنواحي بغداد وهي ثياب من حرير فيها أمثال الأترجّ (الأصفر)

والثياب المحرَّضة: وهي المصبوغة بالاحْريض وهو العصفر.

والثوب المُمصّر: قيل هو المصبوغ بصفرة خفيفة

والثوب الموَرّس: المصبوغ بالوَرْس وهو نبت أصفر يصبغ به.

وأكثر ما كانت العصائب التي تتزين بها النساء عصائب مصبوغة بالزعفران وشيتْ بخيوط من حرير وطرزت بسلوك من ذهب.

وقالوا أجمل شيء غلالة معصفرة على جارية

ويروي الوشاء في كتابه الموشي أنه لا يحسن بالرجال لبس المصبوغ بالزعفران في مظاهر الجد لأن ذلك من لبس النساء والقيان؛ وقد يلبسه الرجال في أوقات الفصد والعجلات وأوقات الشراب، وربما استعملوا ذلك في وقت قصفهم وتظرفوا بها في مجالسهم. . . والظهور بها قبيح من السوقة مستحسن من أهل النعم وأبناء الخلفاء).
وحكى التنوخي في نشوار المحاضرة (أن الخليفة المتوكل اشتهى أن يجعل كل ما تقع عليه عينه في يوم من أيام شربه أصفر، فنصبت له قبة صندل مذهبة مجللة بديباج أصفر، مفروشة بديباج أصفر، وجعل بين يديه الدستنبور والأترج الأصفر وشراب أصفر في صواني ذهب، ولم يُحضر من جواريه إلا الصفر، عليهم ثياب قصب صفر، وكانت القبة منصوبة على بركة مرصعة يجري فيها الماء، فأمر أن يجعل في مجاري الماء إليها الزعفران على قدر ليصفر الماء، ويجري من البركة أصفر، ففعل ذلك وطال شربه فنفد ما كان عندهم من الزعفران، فاستعملوا العصفر، ولم يقدروا أنه ينفد قبل سكره فنفد، فلما لم يبق إلا قليل عرّفوه وخافوا أن يغضب إن انقطع. . . فلما أخبروه أنكر أنهم لم يشتروا أمراً عظيماً، وقال إن انقطع هذا تنغص يومي، فخذوا الثياب المعصفرة بالقصب فانقعوها في مجرى الماء ليصبغ لونه بما فيها من الصبغ. . . فحسب ما لزم ذلك من الزعفران والعصفر ومن الثياب التي هلكت فكان خمسين ألف دينار).
ونسبوا إلى أفلاطون أنه قال إن رائحة الزعفران تسكن الغضب، وإذا قرن اللون الأحمر بالأصفر تحركت القوة العشقية.
ولإعجابهم باللباس المعصفر أو المزعفر شبهوا به الخمر، فقال ابن وكيع:
فاشربْ مُعَصْفَرَةَ القميصِ سُلاَفة ... من صنعة البَرَدَان أو قُطْرَبُّلِ
وقال ابن المعتز:
لبسَتْ صفرةً فكم فتَنَت من ... أعينٍ قد رأيْنَهَا وعقول
مثل شمس الغروب تسحب ذيلا ... صبغته بزعفران الأصيل
وقال ابن الرومي في وصف شواء:
وسميطة صفراء دينارية ... ثمنا ولونا زَفَّها لك جُؤْذر
وأكثروا من مدح المرأة الصفراء واستحسنوها، ففي الأغاني أن متَيَّم الهاشمية، ومحبوبة
المتوكلية، ودنانير البرمكية، كن صفراوات مولدات، وسميت دنانير لصفرتها. وقال بعضهم في وصف جمال الصفرة:
وعهدي بها صفراء رود كأنها ... نضى عرق منها على اللون مجسدا
ومدحوا الزهور الصفر والثمار الصفر
فمدحوا الآذَرْيُون وهو زهر أصفر في وسطه خمل أسود، قال فيه ابن المعتز:
كأن آذَرْيُونَها ... والشمسُ فيه كاليه
مداهنٌ من ذهب ... فيه بقايا غالية
كما مدحوا (الخِيريْ) وهو المنثور الأصفر.
وكان عندهم نوع من الياسمين أصفر قال فيه الشاعر:
كأنما الياسمين حين بدا ... يشرق من جوانب الكثب
عساكر الروم نازَلَتْ بلداً ... وكل صُلْبَانها من الذهب
ومدحوا التفاح الأصفر والخوخ الأصفر:
وتغزلوا بصفرة الخمر فقال أبو نواس:
صفراءُ لا تنزل الأحزانُ ساحتها ... لو مسها حجرٌ مسته سراء
ويقول آدم بن عبد العزيز:
إسقني واسقي خليلي ... في مدى الليل الطويل
لونها أصفر صاف ... وهي كالمسك الفتيل
وبالغوا في حب الصفرة حتى كانت القينة أحياناً تلبس الثياب المعصفرة أو المزعفرة وتطلي ما ظهر من يديها ومن عنقها بالورس.
روى بعضهم قال: (رأيت جارية ببغداد وقد طلت يديها بالورس وفي عنقها طبل وهي تنشد:
محاسنها سهام للمنايا ... مُرَيَّشةٌ بأنواع الخطوب).

وكثيراً ما قرنوا هذا اللون بالدلالة على الميل إلى الشهوات والفجور، فقد رأينا ولوع القيان بهذا اللون؛ ورمزوا للخليع بقولهم إنه (يلبس المُوَرَّس) واعتقدوا أن الورس يزيد الميل إلى النساء؛ وقرر ذلك الفيروزآبادي في القاموس وهو المولع دائماً بالنص على ذلك.

هذه ظاهرة غريبة رأيتها وهي ظاهرة تستحق الدرس، وأحق الناس بالفتوى فيها علماء الجمال الاجتماعي.

أحمد أمين

المُشكِلَة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قالت لي صاحبةُ (الجمال البائس) فيما قالت: إن المرأةَ الجميلة تخاطب في الرجل الواحد ثلاثة: الرجلَ وشيطانه وحيوانه؛ فأما الشيطان فهو معنا وإن لم نكن معه. . . وأما الحيوان فله في أيدينا مقادةٌ من الغباوة، ومقادةٌ من الغريزة، إذا شمَسَ في واحدة أصحب في الأخرى وانقاد؛ ولكن المشكلة هي الرجل تكون فيه رجولة.

نعم إن المشكلة التي أعضلتْ على الفساد هي في الرجل القوي الرجولة يعرف حقيقةَ وجوده وشرفَ منزلته، ولهذا أوجب الإسلام على المسلم أن يكون بين الوقت والوقت في اليوم الواحد خارجاً من صلاة.

وإنما الرجولةُ في خلالٍ ثلاث: عمل الرجل على أن يكون في موضعه من الواجبات كلِّها قبل أن يكون في هواه؛ وقبوله ذلك الموضع بقبول العامل الواثق من أجره العظيم؛ والثالثة قدرته على العمل والقَبول إلى النهاية.

ولن تقوم هذه الخلال إلا بثلاثٍ أخرى: الإدراك الصحيح للغاية من هذه الحياة؛ وجعل ما يحبه الانسانُ وما يكرهه موافقاً لما أدرك من هذه الغاية؛ والثالثة القدرة على استخراج معاني السرور من معاني الألم فيما أحبّ وكره على السواء.

فالرجولة على ذلك هي إفراغ النفس في أسلوب قوي جزل من الحياة، مُتساوقٍ في نَمط الإجتماع، بليغ بمعاني الدين، مصقول بجمال الإنسانية، مسترسل ببلاغة وقوة وجمال إلى غايته السامية.

ولهذه الحكمة أسقطت الأديان من فضائلها مبدأ إرضاء النفس في هواها، فلا معاملة به مع الله إلا في إثم أو شر؛ وأسقطه الناس من قواعد معاملتهم بعضهم مع بعض، فلا يقوم به إلا الغش والمكرُ والخديعة، وكلُّ خارج على شريعة أو فضيلة أو منفعة اجتماعية، فإنما ينزع إلى إرضاء لنفسه وإيثاراً لها وموافقة لمحبتها وتوفيةً لحظها؛ وعمله هذا هو الذي يلبسه الوصفَ الإجتماعي الساقط ويسميه باسمه في اللغة، كالرجل الذي يرضي نفسه أن يسرق ليغتني، فإذا أعطى لرضاه فهو اللص، وكالتاجر في إرضاء طمعه هو الغاش، وكالجندي في إرضاء جبنه هو الخائن، وكالشاب في إرضاء رذيلته هو الفاسق، وهلمّ جراً وهلم جرجرة. . .

وأما بعد، فالقصة في هذه الفلسفة قصةُ رجل فاضل مهذب قد بلغ من العلم والشباب والمال، ثم امتحنته الحياة بمشكلة ذهب فيها نومُ ليله وهدوءُ نهاره حتى كسفت باله وفرّقت رأيه وكابد فيها الموت ليس بالموت وعاش بالحياة التي ليست بالحياة.

قال: فقدت أمي وأنا غلام أحوجَ ما يكون القلب إلى الأم، فخشي عليّ أبي أن أستكين لذلة فقدها فيكون في نشأتي الذلُّ والضراعة، وكبر عليه أن أحس فقدَها إحساس الطفل تموت أمه فيحمل في ضَياعها مثل حزنها لو ضاع هو منها. فعلمني هذا الأب الشفيق أن الرجل إذا فقد أمه كان شأنه غير شأن الصبي لأن له قوة وكبرياء، وألقى في روعي أني رجلٌ مثله، وأن أمه قد ماتت عنه صغيراً فكان رجلاً مثلي الآن. . .

وكان من بعدها إذا دعاني قال: أيها الرجل، وإذا أعطاني شيئاً قال: خذ يا رجل، وإذا سألني عن شأني قال كيف الرجل؛ وقلَّ يومٌ يمرُّ إلا أسمعنيها مراراً حتى توهمتُ أن معي رجلاً في عقلي خلقته هذه الكلمة: وتمام الرجل بشيئين: اللحيةُ في وجهه، والزوجة في داره، فتجيء الزوجة بعد أن تظهر اللحية لتكون كلتاهما قوةً له، أو وقاراً أو جمالاً، أو تكون كلتاهما خشونة، أو لتكونا معاً سوادين في الوجه والحياة. . .

أما اللحية لي أنا أيها الرجل الصغير فليس في يد أبي ولا في حيلته أن يجئ بها، ولكن الأخرى في يده وحيلته؛ فجاءني ذات نهار وقال لي: أيها الرجل! إن فلانة مُتسماةٌ

عليك منذ اليوم فهي امرأتك فاذهب لترى فيك رجلها. وفلانة هذه طفلة من ذوات القربى، فأفرحني ذلك وأبهجني؛ وقلت للرجل الذي في عقلي: أصبحتَ زوجاً أيها الرجل. . .

وكان هذا الرجلُ الجاثمُ في عقلي هو غروري يومئذ وكبريائي، فكنت أقع في الخطأ بعد الخطأ وآتي الحماقة بعد الحماقة، وكنت طفلاً ولكن غروري ذو لحية طويلة. . .

ونشأتُ على ذلك صلب الرأي معتدّاً بنفسي إذا هممتُ مضيت، وإذا مضيت لا ألوي؛ وما هو إلا أن يخطر لي الخاطر فأركبَ رأسي فيه، ولأن تكسرَ لي يدٌ أو رجل أهونُ علي من أن يكسر لي رأي أو حكم؛ وأكسبني ذلك خيالاً أكذب خيال وأبعده، يخلط عليَّ الدنيا خلطاً فيدعني كالذي ينظر في الساعة وهي اثنا عشر رقماً لنصف اليوم الواحد، فيطالعها اثني عشر شهراً للسنة. . .

وترامت حريتي بهذا الخيال فجاوزت حدودها المعقولة. وبهذه الحرية الحمقاء وذلك الخيال الفاسد، كذبتْ علي الفكرة والطبيعة.

ولست جميل الطلعة إذا طالعتُ وجهي، ولكني مع ذلك معتقد أن الخطأ في المرآة. . . إذ هي لا تظهر الرجل الوضيءَ الجميل الذي في عقلي؛ ولست نابغة ولكن الرجل الذي في عقلي رجل عبقري؛ وهذا الذي في عقلي رجل متزوج فيجب عليَّ أنا الطفلَ - أن أكون رزيناً رزيناً كوالد عشرة أولاد في المدارس العليا. . .

وذهبتُ بكل ذلك أرى زوجتي، فأغلقت الباب في وجهي واختبأت مني، فقلت في نفسي: أيها الرجل إن هذا نشوزٌ وعصيانٌ لا طاعةٌ وحب. وساءني ذلك وغمّني وكبر عليّ فأضمرت لها الغَدْر، فثبتت بذلك في ذهني صورةُ (الباب المغلق) وكأنه طلاق بيننا لا باب. . .

قال: ثم شب الرجلُ فكان بطبيعة ما في نفسه كالزوج الذي يترقَّبُ زوجته الغائبة غيبةً طويلة؛ كلَّ أيامه ظمأ على ظمأ، وكل يوم يمرّ به هو زيادة سنة في عمر شيطانه. . .

وكان قد انتهى إلى مدرسته العالية وأصبح رجلَ كتب وعلوم وفكر وخيال. فعرضتْ له فتاة كاللواتي يعرضن للطلبة في المدارس العليا، ما منهن على صاحبها إلا كالخيبة في امتحان. . . بيد أن (الرجل) لم يعرف من هذه الفتاة إلا أوائل المرأة. . . ولم يكد يستشرفُ لأواخرها حتى سمِّيت على غيره فخطبت فزفَّت، زُفَّت بعد نصف زوج إلى زوج. . .

وعرف الرجل من الفلسفة التي درسها أنه يجب أن يكون حراً بأكثر مما يستطيع وبأكثر من هذا الأكثر. . . فقالها بملء فيه، وقال للحرية: أنا لك وأنت لي قالها للحرية، فما أسرعَ ما ردت عليه الحرية بفتاة أخرى. . .

نقول نحن: وكان قد مضى على (الباب المغلق) تسع سنوات فصار منهن بين الشاب وبين زوجته العقلية تسعة أبواب مغلقة. ولكنها مع ذلك مسماةٌ له يقول أهله وأهلها (فلان وفلانة). وليس (الباب المغلق) عندهم إلا الحياء والصيانة؛ وليست الفتاةُ من ورائه إلا العفافَ المنتظِر؛ وليس الفتى إلا ابنَ الأبِ الذي سمَّى الفتاة له وحَبَسها على اسمه؛ وليست القربى إلا شريعة واجبة الحق نافذة الحكم.

وعند أهل الشرفِ، أنه مهما يبلغ من حرية المرء في هذا العصر فالشرفُ مقيَّد.

وعند أهل الدين، أن الزواج لا ينبغي أن يكون كزواج هذا العصر قائماً من أوله على معاني الفاحشة.

وعند أهل الفضيلة، أن الزوجة إنما هي لبناء الأسرة؛ فإن بلغ وجهها الغاية من الحسن أو لم يبلغ، فهو على كل حال وجهٌ ذو سلطة وحقوق (رسمية) في الإحترام؛ لا تقوم الأسرة إلا بذلك ولا تقوم إلا على ذلك.

وعند أهل الكمال والضمير، أن الزوجة الطاهرة المخلصة الحبِّ لزوجها، إنما هي معاملةٌ بين زوجها وبين ربه؛ فحيثما وضعها من نفسه في كرامةِ أو مَهانة، وضع نفسه عند الله في مثل هذا الموضع.

وعند أهل العقل والرأي، أن كل زوجة فاضلة هي جميلةٌ جمال الحق، فإن لم توجب الحبَّ وجبت لها المودة والرحمة.

وعند أهل المروءة والكرم، أن زوجة الرجل إنما هي إنسانيته ومروءته؛ فإن احتملها أعلن أنه رجل كريم، وإن نبذها أعلن أنه رجل ليس فيه كرامة.

أما عند الشيطان لعنه الله، فشروط الزوجة الكاملة ما تشترطه الغريزة: الحب،

الحب، الحب.
قال الشاب: وإذا أنا لم أتزوج امرأة تكون كما أشتهي جمالاً وكما يشتهي فكري علماً، كنت أنا المتزوج وحدي وبقي فكري عزبَا. . . وقد عرفتُ التي تصلح لي بجمالها وفكرها معاً، وتبوَّأتْ في قلبي وأقمت في قلبها. ثم داخَلْتُ أهلَها فخلطوني بأنفسهم وقالوا شابٌ وعَزَبٌ. . . ومتعلم وسريّ. . . فلم يكن لدارهم (بابٌ مغلق) حتى لو شيءت أن أصل إلى كريمتهم في حرام وصلت، ولكني رجل يحمل أمانة الرجولة. . .
أما الفتاة فلست أدري والله أفيها جاذبية نجم أم جاذبية امرأة! وهل هي أنثى في جمالها أو هي الجمالُ السماوي أتى ينقح الفنونَ الأرضية لأهل الفن؟
إذا التقينا قالت لي بعينها: هأنذي قد أرخيتُ لك الزمام فهل تستطيع فراراً مني؟ ونلتصق فتقول لي بجسمها: أليست الدنيا كلها هنا، فهل في المكان مكانٌ إلا هنا؟ ونفترق فتحصر لي الزمن كله في كلمة حين تقول: غداً نلتقي.
كلامها كلامٌ متأدب، ولكنه في الوقت نفسه طريقة من الخلاعة تلفتك إلى فمها الحلو. والحركة على جسمها حركة مسْتَحِيَةٌ، ولكنها في الوقت عينه كالتعبير الفني المتجسم في التمثال العاري.
إنها والله قد جعلت شيطاني هو عقلي؛ أما هذا العقل الذي ينصح ويعظ ويقول هذا خير وهذا شر، فهو الشيطان الذي يجب أن أتبرأ منه. . .
قال: وألمَّ الأبُ بقصة فتاه، ويحسبها نزوةً من الشباب يُخمدها الزواج، فيقول في نفسه: إن للرجل نظرتين إلى النساء: نظرة إليهن من حيث يختلفن فتكون كل امرأة غير الأخرى في الخيال والوهم والمزاج الشعري؛ ونظرة إليهن من حيث يتساوَينَ في حقيقة الأنوثة وطبيعة الإحترام الإنساني، فتكون كل امرأة كالأخرى ولا يتفاوتن إلا بالفضيلة والمنفعة. ويقرر لنفسه أن ابنه رجل متعلم ذو دين وبصر، فلا ينظر النظرة الخيالية التي لا تقنع بامرأة واحدة بل لا تزال تلتمس محاسن الجنس ومفاتنه، وهي النظرة التي لا يقوم بها إلا بناءُ الشعر دون بناء الأسرة، ولا تصلحُ عليها المرأة تلد أولاداً لزوجها، بل المرأة تلد المعاني لشاعرها.
ثم احتاط في رأيه فقدَّر أن ابنه ربما كان عاشقاً مفتوناً مسحوراً ذا بصيرة مدخولة وقلب هواء وعقل ملتاث، فيتمرد على أبيه ويخرج عن طاعته ويحارب أهله وربَّه من أجل امرأة، بيدَ أنه قال إنه هو والده وهو ربّاه وأنشأه في بيت فيه الدينُ والخلقُ والشهامةُ والنجدةُ، وأن محاربة الله بامرأة لا تكون إلا عملاً من أعمال البيئة الفاسدة المستهترة حين تجمع كل معاني الفساد والإباحة والإستهتار في كلمة (الحرية). وقال إن البيئة في العهد الذي كان من أخلاقه الشرف والدين والمروءة والغيرة على العِرض، لم يكن فيها شيء من هذا، ولم يكن الأبناء يومئذ يعترضون آباءهم فيمن اختاروهن، إذ النسل هو امتداد تاريخ الأب والابن معاً، والأب أعرفُ بدنياه وأجدر أن يكون مبرأ من اختلاط النظرة، فيختار للدين والحسب والكمال لا للشهوة والحب وفنون الخلاعة؛ ولا محل للإعتراض بالعشق في باب من أبواب الأخلاق، بل محلّه في باب الشهوات وحدها.
ثم جَزَمَ الأبُ أن الولد الذي يجيء من عاشقين حريٌّ أن يرث في أعصابه جنون اثنين وأمراضهما النفسية وشهواتهما الملتهبة، ولهذا وقف الشرع في سبيل الحب قبل الزواج
لوقاية الأمة في أولها، ولهذا يكثر الضعف العصبي في هذه المدينة الأوربية، وينتشر بها الفساد فلا يأتي جيلٌ إلا وهو أشد ميلاً إلى الفساد من الجيل الذي أعقبه.
ولم يكد ينتهي الأبُ إلى حيث انتهى الرأي به حتى أسرع إلى (الباب المغلق) يهيئ للزفاف ويتعجل لابنه المطيع. . . نكبة ستجيء في احتفال عظيم. . .
قال الشاب: وجن جنوني؛ وقد كان أبي من احترامي بالموضع الذي لا يلقى منه، فلجأتُ إلى عمي أستدفعُ به النكبة وأتأيَّد بمكانه عند أبي، وبثثته حزني وأفضيت إليه بشأني، وقلت له فيما قلت: افعلوا كل شيء إلا شيئاً ينتهي بي إلى تلك الفتاة، أو ينتهي بها إليّ. وما أُنكر أنها من ذوات القربى، وأن في احتمالي إياها واجباً ورجولة، وفي ستري لها ثواباً ومروءة، وخاصة في هذا الزمن الكاسد الذي بلغت فيه العذارى سن الجدات. . . والقلب العاشق كافر بالواجب والرجولة، والثواب والمروءة، وبالأم والأب، فهو يملك النعمة ويريد أن يملك التنعم بها؛ وكل من اعترضه دونها كان كاللص.

. . . . .
قال: قَبح الله حباً يجعل أباك في قلبك لصاً أو كاللص
. . . . .قلت: ولكني حر أختار من أشاء لنفسي
قال: إن كنت حراً كما تزعم فهل تستطيع أن تختار غير التي أحببتها؟ ألا تكون حراً إلا فينا نحن وفي هدم أسرتنا؟
. . . . . .قلت: ولكني متعلم، فلا أريد الزواج إلا بمن
فقطع علي وقال: ليتك لم تتعلم، فلو كنت نجاراً أو حداداً أو حوذياً لأدركت بطبيعة الحياة أن الذين يتخصّعون للحب وللمرأة هذا الخضوع، هم الفارغون الذين يستطيع الشيطانُ أن يقضي في قلوبهم كلَ أوقات فراغه. . . . . .
أما العاملون في الدنيا، والمغامرون في الحياة، والعارفون بحقائق الأمور، والطامعون في الكمال الإنساني، فهؤلاء جميعاً في شغل شاغل عن تربية أوهامهم، وعن البكاء للمرأة، والبكاء على المرأة: ونظرتهم إلى المرأة أعلى وأوسع؛ وغرضهم منها أجل وأسمى. وقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم: اتقوا الله في النساء، أي انظروا إليهن من جانب تقوى الله فإن المرأة تقدِم من رجلها على قلب فيه الحبُّ والكراهةُ وما بينهما ولا تدري أي ذلك هو حظها، ولو أن كل من أحب امرأة نبذ زوجة لخربت الدنيا ولفسد الرجال، والنساء جميعاً.
وهذه يا بني أوهام وقتها وعمل أسبابها، وسيمضي الوقت وتتغير الأسباب، وربما كان الناضج اليوم هو المتعفِّن غداً، وربما كان الفجُّ هو الناضج بعد!

وهبك لا تحب ذات رَحِمك ثم أكرمتها وأحسنتَ إليها وسترتها، أفيكون عندك أجمل من شعورها أنك ذو الفضل عليها؟ وهل أكرم الكرم عند النفس إلا أن يكون لها هذا الشعور في نفسٍ أحرى؟ إن هذا يا بنيّ إن لم يكن حبا فيه الشهوة فهو حب إنساني فيه المجد. ووقعت (المشكلة) وزفَّت المسكينة؛ فكيف يصنع الرجل بين المحبوبة والمكروهة؟
(طنطا)
مصطفى صادق الرافعي
المأساة الفاشستية
بقلم باحث دبلوماسي كبير
في الثامن والعشرين من أكتوبر احتفلت إيطاليا باختتام العام الثالث عشر لظفر الفاشستية الإيطالية وقيام النظام الفاشستي؛ فمنذ ثلاثة عشر عاماً زحف موسوليني وأنصاره من ذوي الأقمصة السود على رومة، وانتزعوا مقاليد الحكم؛ ومنذ ثلاثة عشر عاماً يسيطر موسوليني وحزبه على مصاير إيطاليا ومصاير الشعب الإيطالي؛ ولكن الفاشستية الإيطالية تحتفل بعيدها لأول مرة في ظروف خاصة؛ فهي الآن في مأزق خطر، بل هي تجوز معركة الحياة والموت؛ وهي تشعر لأول مرة بمرارة الخيبة وانهيار الآمال، وترى مشاريعها الاستعمارية العريضة في ميزان القدر تكبدها من الخسائر والمشاق الفادحة ما لم تكن تحلم بتكبده ولا قبل لها باحتماله، وترى فوق ذلك نفسها تواجه كتلة عالمية من الأمم الناقمة الساخرة تحيطها بسياج من الحفيظة والبغض، وتنظم ضدها مقاومة مادية فعالة وتزمع أن تقضي على كل مطامعها وأحلامها.
والفاشستية هي التي جنت على نفسها وعلى إيطاليا، وهي التي زجتها إلى ذلك المأزق الذي تتخبط فيه ولا ترى سبيلاً إلى الخلاص منه؛ فهي التي أقدمت عامدة مصرة على غزو الحبشة وانتهاك المعاهدات الدولية؛ وهي التي لم تخجل أن تصرح في جرأة منقطعة النظير أنها تغزو الحبشة وتعتدي على استقلالها لأنها في حاجة إلى التوسع والإستعمار واستغلال الثروات الطبيعية التي تبطنها وهاد الحبشة؛ وهي التي أثارت بعدوانها وغرورها وقحتها السياسية إشمئزاز كل الشعوب المتمدنة؛ وهي الآن في محنتها ويأسها تحاول أن تتشح بثوب الظافر، لأن الجيوش الإيطالية استولت على بعض الأراضي الحبشية في الشمال وفي الجنوب؛ ولكن العالم يعرف جيداً أن هذا النصر اليسير لم يكن نتيجة معارك حقيقية ولا بطولة عسكرية، وأنه مع ذلك قد كبد

إيطاليا أعظم الجهود والخسائر، وأن المعارك الفاصلة ما زالت تنتظر إيطاليا في الوهاد الحبشية السحيقة التي لن تبلغها إلا بأفدح تضحية من المال والرجال.

لقد كان قيام الفاشستية في إيطاليا أول ضربة حقيقية للديموقراطية والحريات الشعبية بعد الحرب الكبرى؛ وكانت الديموقراطية قد استطاعت غداة النصر أن تكتسح النظم الإمبراطورية في ألمانيا والنمسا؛ ولكن الديموقراطية انساقت في فورة الظفر إلى ألوان خطرة من التطرف والفوضى؛ وكانت إيطاليا لهذا التطرف، ففي غمر الإضطراب العام وثبت الفاشستية تؤيدها العسكرية، وتؤيدها الصناعات الكبرى والمالية العليا، وقبضت على زمام الحكم بقوة؛ وظن خصومها في المبدأ أنها فورة الساعة وأن ريحها لن تلبث أن تركد، ولكن فورة الفاشستية كانت أشد وأقوى مما تتصوروا، وكانت المعركة قصيرة المدى، فلم يمض سوى قليل حتى سحقت الفاشستية خصومها، وسحقت الإشتراكية والديموقراطية، وكل النظم البرلمانية الحقيقية، وأخضعت الصحافة لصولها، ولم تبق متنفساً للشعب الإيطالي سوى طريقها، ولم تسمح له بأن يفكر إلا برأيها أو أن يرى إلا بعينها، وامتزجت الدولة بالحزب، فغدت الفاشستية هي الحكومة وهي الدولة، وهي مصدر السلطات وهي كل شيء في حياة إيطاليا العامة، وفي مرافقها ومصايرها.

كان ظفر الفاشستية سريعاً، وكان مطلقاً، ولكنها لم تدخر لتحقيق هذا الظفر أية وسيلة مثيرة؛ ولسنا نقف طويلاً بهذه الوسائل الهمجية التي أصبحت روح النظم الطاغية في عصرنا، سواء في روسيا البلشفية أو تركيا الكمالية أو إيطاليا الفاشستية أو ألمانيا الهتلرية، والتي تقوم على القتل والسجن والنفي والمصادرة وغيرها من أساليب العنف المنظم؛ ولكنا نقول أيضاً في إنصاف هذه الفاشستية الهمجية أنها لم تكن شراً مطلقاً، بل كانت لها آثار داخلية حسنة، وقد أسفرت جهودها في سبيل الإنشاء والتنظيم عن نتائج مادية ظاهرة الأثر في تكوين إيطاليا الحديثة وفي تطورها وتقدمها؛ فقد سحقت عوامل التفرق القديم الذي خسرت إيطاليا من جرائه مغانم الحرب في معاهدة الصلح، وسحقت عوامل الفوضى التي كادت تشل الحياة الإقتصادية في إيطاليا، وبثت في الشعب الإيطالي روحاً جديداً وعزائم جديدة في ميادين النشاط والتفكير والعمل، فخطت الزراعة والصناعة والتجارة إلى الأمام خطوات واسعة، ونظمت موارد الثروة القومية تنظيماً مدهشاً؛ وبذلت الفاشستية جهوداً محمودة لمعالجة الركود الإقتصادي والعطلة، وحماية الإنتاج القومي، وقامت بمئات المشاريع العمرانية النافعة، ولم تترك وجهاً من وجوه الحياة العامة إلا عملت لإصلاحه وتقويمه؛ ولم تقف عند العمل في ميادين النشاط المادي، بل عملت أيضاً في النواحي المعنوية، فطهرت الحياة الإجتماعية من كثير من أدرانها القديمة، وبثت في الشعب الإيطالي روحاً جديداً من العزيمة والخلال الحسنة، وقد كان قبل قيام الفاشستية في حالة يرثى لها من الإنحلال الفكري والأخلاقي، ونظمت الشباب والنشء تنظيماً بديعاً؛ والخلاصة أنها من حيث الوجهة الداخلية، خلقت إيطاليا خلقاً جديداً، وسارت بها في سبيل التقدم شوطاً بعيداً. وأما من حيث الوجهة الخارجية فقد عملت الفاشستية أيضاً لتقوية إيطاليا في البر والبحر والهواء، ورفعتها من حيث القوة العسكرية والهيبة الدولية إلى مصافي الدول العظمى ذات الرأي المسموع.

كل ذلك عملته الفاشستية في أعوامها الثلاثة عشر؛ ولكنها عملته فوق أكداس من الجرائم والضحايا، وعلى أنقاض الحريات العامة والكرامة البشرية والاستقلال الروحي والفكري؛ والفاشستية مادية مغرقة في المادية، والمعنويات في نظرها وسيلة إلى تحقيق المصالح المادية؛ ومن ثم جعلت من الجبل الإيطالي الجديد، في تفكيره وعقليته وتصرفاته قطيعاً من البشر مسلوب الرأي والإرادة، توجهه الزعامة العنيفة أينما شاءت. وكان من أكبر وأخطر جرائم الفاشستية أنها بثت في الشعب الإيطالي روحاً خطرة هي روح الغرور المغرق؛ ولا بأس من أن يتصف الشعب بالكبرياء القومية وأن يستمد من ماضيه المجيد وعظمته الحاضرة أسباب العزة القومية، ولكن الفاشستية بثت في الشعب الإيطالي أخطر عوامل الكبرياء والتحدي الفارغة؛ فالإيطالي الجديد يعتبر نفسه اليوم أرقى الخليقة، وأنه خلع بارتداء الفاشستية أثواب

أوربا البالية، وأنه غدا يشرف من ذروة عظمته الجديدة على بؤس القارة القديمة وتدهورها، وأنه سيقود أوربا الجديدة طبق مبادئه وآرائه؛ ثم هناك ما هو أخطر من هذه الأوهام المعنوية؛ فقد بثت الفاشستية في الجيل الجديد روح العداء لأوربا القديمة، وروح التطلع والتحفز والعدوان، ولقنته نظرية جديدة هي أن إيطاليا الفاشستية خليفة الدولة الرومانية القديمة وقرينتها؛ وأن موسوليني إن هو إلا قيصر يقودها في سبيل الفخار والمجد، وغمرت هذه الروح القيصرية ذلك الشباب المغرور المتحدي، فأصبح يتصور أنه سيعيد حدود الدولة الرومانية القديمة، وأنه سيفتح مصر والأناضول وسورية وشمال أفريقية، ويجعل من البحر الأبيض بحيرة رومانية؛ ومضت إيطاليا الفاشستية تسخر بلسان زعيمها من كل دعوة للسلام ونزع السلاح، وكل دعوة إلى تفاهم الأمم، وآثرت نغمة الوعيد والتهديد، والحرب والإنتقام.

غير أن ذلك الروح الحربي المضطرم لم يتمخض عن إحياء الدولة الرومانية، ولا استعادة شيء من حدودها أو أملاكها القديمة، ولكنه تمخض عن مشروع استعماري مثير وضيع معاً: ذلك هو غزو الحبشة وافتتاحها لاستخلاص ثرواتها الدفينة، وليكون منها ومن الصومال والأرترية لإيطاليا القيصرية إمبراطورية استعمارية ضخمة؛ وقد كان زعيم الفاشستية يحلم بأن جيوشه ستكتسح الفريسة في سيل من النصر الباهر يدهش العالم ويروعه معاً. ولكن الفريسة صمدت للمعتدين عليها وأفهمتهم أن دون إزهاقها أهوالاً وتضحيات فادحة؛ وقد كانت الفاشستية في ذلك معتدية أثيمة تنكر أبسط مبادئ الحق والعدالة، بل تنكر ماضيها وعهودها وتصريحاتها التي أذاعتها لأول عهدها بلسان زعيمها. وإليك مبادئ السياسة الخارجية الفاشستية كما أذاعها موسوليني في أول برلمان فاشستي: (لا نريد استعماراً، ولا نريد اعتداء، ولكنا سنتخذ موقفاً يقضي على سياسة الإذلال التي جعلت إيطاليا أقرب إلى وصيفة وخادمة ذليلة للأمم الأخرى؛ إحترام للمعاهدات الدولية مهما كلفنا ذلك؛ إخلاص وصداقة نحو الأمم التي تقدم لإيطاليا أدلة صادقة على مبادلة هذه العواطف؛ تأييد للتوازن الشرقي الذي يقوم عليه سلام الدول البلقانية، ومن ثم يقوم عليه سلام أوربا وسلام العالم)، ولكن الفاشستية وهي حركة عنيفة تقوم على القوة وتعتبر الحق للقوة، لا يمكن أن ترتبط بعهد أو ذمام، ولا يمكن أن تؤمن بالحق لذاته أو العدالة لذاتها؛ وقد نمت الفاشستية واشتد ساعدها بسرعة، واستطاعت أن تخلق من إيطاليا قوة يخشى بأسها. بيد أنها بدلاً من أن تقف هذه القوة لتأييد الهيبة والمصالح القومية المشروعة، اتخذت منها أداة لتهديد سلام أوربا وسلام العالم، وجعلتها وقفاً على تحقيق الشهوات الحربية والاستعمارية، ولم تحجم عن أن تعرض سلام العالم للخطر فغي سبيل شهواتها وغاياتها.

واليوم وقد انساقت الفاشستية إلى مغامرتها الخطرة، فإنها تشعر لأول مرة في تاريخها بصدمة حقيقية؛ وقد كان موسوليني يظن أنه يستطيع افتراس الحبشة بأيسر أمر وعلى مرأى ومسمع من العالم، وأن صيحات الوعيد المتكرر تكفي لإخماد كل معارضة وتدخل: ولم يكن موسوليني ليقيم وزنا لعصبة الأمم، وقد سحق مبادئها من قبل يوم احتل جزيرة كورفو ليرغم اليونان علة تنفيذ مطالبه لخلاف نشأ بينهما من جراء مقتل بعض الرعايا

الإيطاليين في الأراضي اليونانية؛ وكان موسوليني على حق في استخفافه بالعصبة وجهودها؛ ولكن من كان يظن أن عصبة الأمم ستضطرم فجأة بروح جديدة؟ ومن كان يعتقد أنها ستجرؤ على اتخاذ تلك القرارات التاريخية الشهيرة فتلقي تهمة الاعتداء العمد في وجه إيطاليا وتقضي عليها بالعقوبات الإقتصادية؟ ولكن عاملاً جديداً لم يكن يتصوره موسوليني قط هو الذي وثب فجأة ووقف للفاشستية ولإيطاليا بالمرصاد، واستطاع أن يقلب الأوضاع الدولية في أسابيع قلائل: ذلك هو تدخل إنكلترا وتحرك الإمبراطورية البريطانية. ولقد كانت إنكلترا تبغض الفاشستية منذ قيامها، وتعتبرها خطراً على السلم الأوربي؛ ولكنها مذ اشتد ساعد الفاشستية وذكا وعيدها وتدفقت جيوشها إلى شرق أفريقية، أدركت أن الفاشستية قد أصبحت بمطامعها ومشاريعها الاستعمارية خطراً داهماً على الإمبراطورية البريطانية، وعلى دولتها الاستعمارية في وادي النيل وشرق أفريقية، وعلى سيادتها في البحرين الأبيض والأحمر؛ ويجب لتأييد سلام الإمبراطورية وأمنها، أن تسحق هذه الفورة الخطرة؛ وهناك عامل معنوي آخر

يقتضي في نظر إنكلترا الحكم على الفاشستية، هو أنها رمز النظم الطاغية العنيفة التي يمقتها الشعب الإنكليزي، ويراها خطراً على الديموقراطية التي غدت ملاذها وحصنها الأخير بعد أن اجتاحت معظم الدول الأوربية؛ وهكذا تستحيل المعركة اليوم إلى نضال خطير بين الفاشستية وبين الإمبراطورية البريطانية مستترة وراء عصبة الأمم؛ ولقد كان نجاح إنكلترا عظيماً في حشد أمم العالم ضد إيطاليا باسم العصبة، وفي تنظيم هذه العقوبات الاقتصادية التي ستشل عما قريب كل موارد إيطاليا وقواها المالية والاقتصادية؛ وهكذا تنهار تدابير الفاشستية فجأة، وترى نفسها وحيدة في الميدان، تواجه سخط العالم وتألبه، وتواجه الإمبراطورية البريطانية؛ وفي رأينا أنه ليس ثمة شك في نتيجة هذه المعركة، فالفاشستية تجوز معركة الحياة والموت، وهي تسير بلا ريب إلى انحلالها، وليس في وسعها أن تثبت طويلاً أمام هذه الصعاب الفادحة التي تواجهها في الخارج وفي الداخل؛ وتدل الطوالع على أن الحرب الحبشية التي أريد أن تكلل جبين الفاشستية بهالة من الظفر ستغدو قبراً للفاشستية؛ ومن المرجح أن يقترن فشل الفاشستية في مشروعها الاستعماري بانهيار سلطانها في الداخل، وعندئذ تختتم تلك المأساة الطويلة بانقلاب حاسم، وتتحرر إيطاليا من تلك الأغلال الحديدية التي صفدتها مدى ثلاثة عشر
عاماً، ويتنفس العالم سعيداً إذ يرى مصرع تلك الفورة الطاغية الخطرة التي مازالت منذ قيامها تهدد أمنه وسلامه.

كيف كسبت الرهان!

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

(تنبيه - الحادثة ليست شخصية - وليس لي أخت)

غام الزجاج أمامي من كثرة ما سقط عليه من ندى الفجر، وكنت - كلما قطعنا بضعة فراسخ - أمسحه بمنديل ثم أجلوه بورقة، وكان ذلك يحوجني إلى الوقوف ثم استئناف السير، وهذا مضيعة للوقت، والشقة بعيدة، والرهان جسيم؛ فقلت أرفع الزجاج، فإن التعرض للهواء البارد أيسر محملاً، وأهون من النظر من زجاج عليه ضبابة، وإن كانت رقيقة؛ وصحيح أن أختي كانت تصف لي الطريق وتسمي لي ما يعترضنا عليه، وتعين لي مواقع الأشياء، ولكن السائق لا يستطيع أن يعتمد على غير عينيه؛ ثم إن وصفها كثيراً ما كان يحيرني ويحدث لي اضطراباً، فقد كانت تقول مثلاً: (هذا رجل في وسط الطريق. . لا لا لا. . إنه أقرب إلى اليسار. . . إنتظر. . . بل هو يمشي يميناً. . . إمض على بركة الله. . . لا خوف).

فأتنهد، وأمضي على بركة الله، فما ثم شيء آخر أمضي عليه؛ وبودي لو تبين لي كيف أستطيع أن أتريث وأنتظر حتى تتثبت هي وتقطع الشك باليقين! ثم إني لم أكن أومن بأن نظرها أصح وأسلم وأقوى، وأنه يسعها ما أعياني من اختراق هذا الضباب - أعني النظر من خلال الزجاج المتغيم. لذلك توكلت على الله ورفعت الزجاج.

وقال زوجها: (لا بأس! ولم لا؟ إنه لن يصيبنا شر من الإلتهاب الرئوي.

فرمت إليه زوجته شيئاً وقالت: (تلفع بهذا).

فرده إليها وهو يقول: (الكلب لا يعض أذن أخيه. . . صدق والله!).

فثاروا به وشغبوا عليه، ولما قرت الضجة قلت:

غط صدرك إذا كنت تخشى الهواء، وفمك أيضاً - فإني نويت أن أعوض ما خسرت الآن).

وضغطت بقدمي فانطلقت السيارة كالسهم، وانحنت أختي تنظر إلى العداد، وجعلت تعلن إلى الرقم كلما تغير، وتصيح: (40. . . . 43. . . . 47. . . . 50. . . . أوه! لقد وصل إلى الستين. . . .! السبعين. . . .).

ثم أمسكت، فقد كان الهواء قوياً، ودفْعُه في الصدر شديداً، فلولا أن النظارة على عيني لما وسعني الصبر عليه؛ وكان الطريق مستقيماً، والتراب راقداً لكثرة ما نزل عليه من الطل؛ وبدت لعيني مركبة فسألت نفسي: ترى على أي ناحية من الطريق هي؟ ولكني جزتها ومرقت كالسهم في نفس اللحظة التي رأيتها فيها، فلا جواب لسؤالي؛ وأحسست أن سيارة مقبلة علينا، ثم تبينت أنها ماضية في اتجاهنا فما عتمت أن صارت وراءنا، وأحسب أن سائقها قد أوسعني شتماً ولعناً، فما نبهته ولا حذرته؛ وظهرت ضيعة، ورأيت بيوتها الواطئة المبينة من الطين، وأخذت عيني الأشجار

المغروسة أمامها - أو خلفها، لا أدري - فقد غابت عن عيني بأسرع مما بدت لها؛ وكنت لا أجرؤ أن أصوب لحظي إلى عداد السرعة، ولكني كنت أحس كل كيلو نقطعه ومضيفه إلى ما فرغنا منه؛ وزاد ضغط قدمي، فتجمعت أختي ونظرت ثم قالت:
(89. . . 90. . . 91. . . 92. . .)
ثم رأتني كالمسمر في مكاني، وكأنما أدركها العطف علي، أو قواها إصراري على الفوز، فعادت تنظر وتبلغني ما ترى.
إلى اليمين شيء. . . عربة. . . خال. . . عربة. . . تتحرك. . . دراجة إلى يسارك. . .)
(. . .سيارة مقبلة. . . خال. . . لا. . . رجل يمشي. . . خال
فسألتها: (كم كيلو قطعنا؟ وكم الساعة الآن؟)
وكانت الساعة الرابعة صباحاً، ولا يزال أمامنا مائة وعشرة كيلومترات إلى دمنهور، ونحو ثلاثين أخرى إلى القرية، وثلاث ساعات نقطعها فيها.
فجعلت أدافع اليأس؛ ذلك أن الطريق إلى (بنها) واسع، ولكنه بعد ذلك يضيق، إلى قريب من طنطا، وسيزدحم بالجمال والأبقار والأغنام والدواب والسيارات، فسألت القوم: (هل ورد ذكر لدمنهور في الرهان؟).
فقالت أختي: (أظن. . . لا لا. . . لم يرد لها ذكر).
وقال زوجها: (أو ورد. . . . . سيان. . . . . .).
فقاطعته ابنة عمه، وكانت معه على المقعد الخلفي وقالت:
(لا، على التحقيق. . . كل ما اشترط هو الوصول إلى القرية الساعة السابعة صباحاً، والأسبق هو الفائز. . . . . ولكن لماذا تسأل؟).
(قلت: لأن هناك طريقاً أخصر. . . . . من طنطا إلى دسوق مباشرة).
قالت: (وما الفرق؟).
قلت: (ثلاثون كيلو. . . مسافة لا يستهان بها. . . والطريق أضيق ولكنه معبد).
قالت: (وهل تظن أنه يجهل هذا الطريق؟).
فهبط قلبي من صدري إلى حذائي، ولي العذر، فإن قريبنا هذا - ومراهننا، وصاحب الضيعة وداعينا إليها - أبرع مني وأعرف بالسكك المؤدية إلى قريته، ولاشك أنه أهمل النص على دمنهور في الرهان عمداً، لظنه أني لا أعرف غير سكة دمنهور، ثم لا أشك أنه تلكأ وراءنا ليغافلنا في طنطا، ويميل هو إلى الطريق الأخصر. . . . . .
وزاد الطين بلة أني أحسست ونحن ندخل بنها كأن قدمي قد شكت بمسمار محمي، فصرخت، ورفعت رجلي، واضطررت أن أميل بالسيارة إلى الرصيف.
وخلعت الحذاء وجعلت أنظر، وأتحسس قدمي وأفركها، فقالت أختي:
(ماذا جرى؟).
وقال أخوها: (هل أدلكها لك؟ كلا، لا بأس! إذن لم يبق إلا العلاج بالإيحاء. إسمع! متى قلت: (واحد) فإن عليك أن تفرغ رأسك من كل شيء - وهذا سهل جداً ولن يكلفك عناء - ومتى قلتُ: (اثنين) فأعتقد أن الألم الذي لا تحسه، ليس إلا وهماً. . . ومتى. . .).
فصحنا به نسكته، ولما انقطع اللغط قلت:
(طول الضغط فعل هذا. . . على كل حال لا أظنني أستطيع أن أسوق السيارة، فعليك أن تتفضل وتجلس في مكاني، وأمرنا إلى الله، وأرواحنا في وديعته، وعوضنا الله خيراً، فقد ذهب الرهان والأمل في كسبه).
فصاحت أختي: (ولكنه لا يحسن القيادة. . .).
قلت: (وما الحيلة؟ سأجلس إلى جانبه - وأرشده).
فقالت: بنت عمه: ولكنه سيقصر عمرنا. . .).
فقلت: (وماذا نصنع غير ذلك؟).
وقالت زوجته: (ولكني أخاف. . . أعني. . . إنه. . .).
فقلت: (اطمئني. . . لا خوف عليه. . . ولا علينا، إذا كان هذا يعنيك).
فالتفت إلينا وقال:
(إن الذي فهمته هو أن هناك اقتراحاً منكم بأن تتمتعوا بقيادتي لهذه السيارة. . . حسن جداً. . . فلتبلغ الصحف، وليدع الشعراء).
فقلت: (إن المسألة لا تحتمل هذا المزح. . .).

وقالت أختي: لا تحتمله أبداً. . . عدني ألا تسرع. . . سر ببطء. . . على مهل. . . ولنصل بعد أسبوع. . . ماذا يهم؟ واحذر أن تسابق شيئاً. . .).
فقال: (لا تخافي يا نور عيني. . . إذا صادفت في طريقي سيارة فإني أعدك أن أعطل المحرك، وأذهب فأختبئ تحت شجرة).
ودخلت بينهما وقلت: (إن وعداً كهذا لا سبيل إليه، فإن علينا أن نصل إلى القرية في وقت معقول، إذا لم يكن علينا أن نكسب الرهان، ثم إني سأكون إلى جانبه وسأرشده، وسيكون هو السائق إسماً، فقط، فلا خوف.).
فالتفت إلينا، بعد أن قعد في مكاني وقال: ولكني أشترط أن يكون الإرشاد بلغة مفهومة، أما أن تصيح بي (الهوا) أو (اكسر). . . فلا يا صاحبي. . . قل كلاماً مفهوماً أطعك! ولا تقلد ذلك الذي علمني، وصاح فجأة: (حش. . . حش) فوثبت عن المقعد، ولم أدر ماذا أحوش، ووثب الرجل الذي دعاني معلمي أن أحوش السيارة عنه. . . وعلى ذكر ذلك أقول إني لم أر في حياتي أحداً يثب كما وثب ذاك الرجل يومئذ!).
فصاحت زوجته، وهي تنزل من السيارة: (إني لم أكن أعرف هذا الخبر، ويستحيل أن أدعك تسوق السيارة).
وقعدت على الرصيف.
وجعلت أنظر منها إليه، ومنه إلى بنت عمه، في صمت؛ ومضت دقائق كأنها الدهر طويلاً، مشيت بعدها إلى مقعد القيادة وقلت:
فنزل وهو يقول (إنزل من فضلك. . . فإنك مطرود):
ولكن رجلك. . . ثم إن هذا. . .).
قلت: (لا بأس، سأجرب على الأقل).
فدنت منا بنت عمه ووضعت كفيها على كتفينا وقالت لي (ألا تدعني أسوق؟. . . ربما. . . استطعت. . .).
قلت: (حباً وكرامة، ولكن كيف يمكن؟ إنك. . .).
قالت: (لست جاهلة جداً. . . وسأحتاج إلى إرشادك. . . والطريق خال).
فقال: (نعم خال. . . جداً، إلا من البقر والجمال. . .).
وركبنا جميعاً، وقلت لها: (الآن ضعي ناقل السرعة في. . . برافو. . . أنقليه برفق. . . برافو جداً. . . أظن أنه يحسن التأني حتى تبعد عنا هذه السيارة).
فقالت: وهي تحول ناقل السرعة إلى المكان الثالث: (كلا أظن أن الأوفق أن نمر به).
ومرقت كالسهم بجانبه، فالتفت إليها متعجباً، فما كنا نعرف أن لها دراية بالسيارات أو خبرة بقيادتها، ونظرت إلى العداد فإذا هو يشير إلى الخمسين. . . فالستين، فرفعت عيني إليها، فألقيت على ثغرها ابتسامة فاتنة، وقالت وهي تخطف بالسيارة:
(أظن أن الأمل في الرهان لم يذهب. . . على كل حال (عبده) لا يزال وراءنا).
فقالت أختي: (وراءنا؟ من قال هذا؟ لقد مرق وأنتم واقفون. . . رأيته بعيني).
فعدنا إلى اليأس بعد أن كاد ينتعش الأمل، ولكن الفتاة قالت:
(هذا أحسن. . . خيراً صنع. . . وأنا الآن مطمئنة).
قلت: (ولكن كيف؟ أليس قد سبقنا؟).
قالت: (سترى. . . معنا الله).
وشارفنا طنطا، ولمحنا سيارة (عبده)، فتباطأت، وأبت أن تسبقه كما أشرت عليها؛ فلما صرنا في قلب المدينة، إغتنمْتُ فرصة الزحام، وتركْته يمضي في طريق، وضربت هي في طريق غيره، وأطلقت للسيارة العنان.
وقالت بعد أن خرجت إلى السكة الزراعية: (إنه يعتقد الآن أننا وراءه، واعتقاده هذا ربح لنا، وبقي أن يغلط ويأخذ طريق دمنهور).
فسألتها: (ولكن من أدراك أنه لم يسبقنا؟).
قالت: (كلا. . . إن طريقي أخصر جداً. . . كن واثقاً).
ومضينا على سكة دسوق، وكنا لا ننفك نلتفت وراءنا لعلنا نرى سيارة (عبده)، فلما طال ذلك علينا أيقنا أنه أخذ طريق دمنهور، فقد كان في وسعه أن يدركنا بسهولة.
وسكة دسوق ضيقة كما أسلفت، وكانت إلى هذا كثيرة الزحاليق، وكانت السيارة تتلوى على المواضع البليلة، كالحية، ولكن سائقتنا كانت حاذقة، فسكن روعنا جميعاً،

ووسعنا أن نضحك ونمزح.
وقلت لها - همساً - (إني أحس غيرة. . . هنا) وأشرت لها إلى موضع القلب فابتسمت وقالت: (لماذا؟
قلت: (لأن على جبينك خصلة صغيرة جميلة يداعبها النسيم - أعني يقبلها - علناً وعلى مرأى منا جميعاً - وهذا. . . هذا. . . مخجل. . . فعسى ألا يُعديني بالجرأة).
فتكلفت الجد وقالت: (إذا فعلت، فسأمضي إلى هذه الترعة. . . مباشرة).
فهمست: (هش. . . لا تمزحي. . . إنها مسائل لا تحتمل المزح. . . ومن يدري؟؟ فقد تصيبك العدوى. . . ثم إنك لن تحسني التعبيس ما دام لك هذا المحيا الواضح الذي يضيئه الجمال، ويضحك فيه أيضاً).
فلوت مُوَجِّه السيارة بلا كلام فصاح ابن عمها:
(إلى أين بنا يا هذه؟).
قالت بابتسام: (إلى الترعة. . . إذا لم يسكت).
قال: (إذا كنت تريدين أن تستحمي فإن في البيت الذي نرجو أن نبلغه سالمين حماماً بديعاً، ولكن بغير ماء! على كل حال، أظن أن جارك مستعد أن يملأ لك الجرار، ويصبها عليك أيضاً).
قالت: (إذا وعد بأن يكون حسن السلوك. . .).
واستأنفنا السير بسرعة، ويطول بنا الحديث إذا أردت أن أسرد ما عانيناه من الغنم والبقر والجمال والسيارات؛ ولكن حادثاً واحداً وقع لنا لا أرى بداً من ذكره، ذلك أنا وقعنا في وحل عظيم، ولم يكن لنا مفر، ولا كان لنا مهرب، فقد كنا مقبلين بسرعة فإذا أمامنا - وإلى مسافة طويلة - ماء وطين ووحل شديد فارتطمنا فيه قبل أن ندرك ما حدث، وصارت العجلات تنزلق دائرة ولا تتقدم. فأوقفت المحرك وقالت:
(هل مع أحد منكم سيجارة؟)
وأشعلتها، ونفخت دخانها ثم قالت:
(هذا أوان الحاجة إلى الرجال. . . فأخرجا، وابحثا عن قش تلقيانه تحت العجلات، أو اجرفا الطين أمامها وشقا لها طريقاً).
فقال ابن عمها: (هذا بديع. . . لقد تركت أظافري تطول لمثل هذا اليوم. . . قم بنا يا أخي).
ولكنا فعلنا غير ذلك، ودعونا أحد الفلاحين إلى معونتنا، فزعق فاجتمع حولنا نفر من الرجال والنساء، أعملوا أيديهم في الطين حتى رفعوه من طريقنا، فشكرنا لهم مروءتهم ومددنا لهم أيدينا بنقود، فأبوها كل الأباء؛ وقال الذي جمعهم: (عيب يا أفندي) فألححنا، فأصر على الأباء، وعلى أن هذا عيب، فكررنا له الشكر، وصافحناه ثم نظرنا في أيدينا فإذا كلها طين! فاستحيينا أن نقول شيئاً على مسمع منه.
بلغنا البيت قبل صاحبه وقبل الموعد المضروب بنحو ربع ساعة، وكان الفضل لهذه السائقة البارعة التي كنا نجهل أن هذه من مزاياها؛ ولما أقبل مضيفنا بعد دقائق قال له نسيبي:
(ليكن هذا درساً لك. . . هات الرهان).
قال: (ولكن من أين جئتم؟) ثم كأنما تذكر فرفع يده إلى جبينه وصاح: (ما أغباني!) فقال نسيبي: (تمام. . . اعرف نفسك. . . هكذا قال الحكماء. . . وهذا هو ربحك اليوم. . . وأولى أن تسأل كيف جئنا. . . حدثه يا هذا، فإن بي كسلاً بعد الذي تجشمته من متاعب القيادة).
فصحنا به منكرين هذا الكذب. . .

إبراهيم عبد القادر المازني

حول السنيين والشيعة

للأستاذ محمد بهجة البيطار

قرأت ما كتبه العلامة الأستاذ أحمد أمين في الرسالة الغراء (عدد 121) تحت عنوان (السنيون والشيعة) فرأيته يدعو إلى نبذ كلام الطاعنين من الفريقين، وإلى عقد مؤتمر للوحدة الإسلامية، يمهد له بالتماس وسائل الوفاق من الآن؛ ولعمري أن السنة والشيعة هما أكبر مظهر للمسلمين اليوم، وهم الموجودون لوراثة تلك الوحدة الدينية، وتجديد ذلك المجد الدارس علماً وديناً وأخلاقاً؛ وإن أضر شيء علينا هو هذه العصبية

الموروثة، والعداوة الممقوتة، والتفرق الديني الذميم، (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء).

أيها الشيعة الكرام: تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، أنتم تحبونها منا وهي تسرنا منكم، وهي أن نأخذ بأدب سيدنا علي وهديه، ونقف من محاربيه عند حدود أمره ونهيه، وإن لم تتجاوزا قوله ولا فعله، فأهل السنة معكم، وأنتم منهم وهم منكم، وها هي ذي أقواله وأعماله تعرض عليكم: لقد بايع الإمام علي للأمة الثلاثة من قبله، وتنازل ولده الحسن عن الخلافة لمعاوية من بعد، وأصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين طبقاً لما أخبر جده الصادق الأمين عليه وآله الطاهرين وصحبه الطيبين أفضل الصلاة والتسليم:

في نهج البلاغة أن علياً عليه السلام سئل عن الخوارج: أكفارٌ هم؟ قال من الكفر فروا؛ قيل: أفمنافقون؟ قال: المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلاً، ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى؛ قيل فما هم؟ قال قوم بغوا علينا فقاتلونا وقاتلناهم. وفي نهج البلاغة أيضاً أنه عليه السلام قال وقد سمع قوماً من أصحابه يسبون أهل الشام أيام حربهم بصفين: (إني لأكره أن تكونوا سبابين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم، وذكرتم حالهم، كان أصوب في القول، وأبلغ في العذر)

أقول ومعلوم من حال أهل السنة أنهم يقصون ما جرى بين الصحابة (رض) ويصفون أعمالهم، ويذكرون حالهم، ويرون أن الحق في جانب عليّ عليه السلام، وأن محاربيه هم الفئة الباغية على الإمام الحق، وهم المخطئون في اجتهادهم، ولكنهم يؤولون التشاجر بينهم تأدباً واحتراماً لصحبتهم، وحفظاً لكرامتهم، وحسن بلائهم في نشر الدعوة الإسلامية، ويقولون: الكل ينشدون مصلحة الإسلام.

أيها الأخوان الكرام: أليست الدعوة إلى عقد مؤتمر يعيد الوحدة الإسلامية على هذا الأساس الديني، السُّني العلَوي هو المطلوب ولا سيما في هذا الزمن العصيب؟ فنحن نعزز رأي الأستاذ الجليل أحمد أمين، ونرجو أن يعقد مؤتمر في الكنانة أو في دار السلام تزول به تلك الإحن، وتحول تلك المشاحنات إلى ما يعود على الأمة بالنفع العام من توحيد الكلمة، وتقوية الملة، وإنشاء دور العلم المشتركة، وإحياء ذكرى أئمة آل البيت عليهم السلام بتجديد هديهم وإصلاحهم.

(دمشق)

محمد بهجة البيطار

أثر تشجيع الأمراء

في الأدبين العربي والإنجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

نالت الآداب العربية من تشجيع الأمراء في مختلف العهود ما لم تكد تظفر به آداب أمة أخرى؛ ومن الأقوال المتواترة في كتب الأدب العربي وتاريخه أن ذلك التشجيع كان من أهم أسباب ازدهار الأدب، ولكن الحقيقة التي يراها المدقق أن ذلك التشجيع لم يكن له ذلك الأثر الطيب المعزوّ إليه، بل كان له في الأدب العربي أثر وخيم بعيد المدى.

ذلك بأن الأمراء حين شجعوا الشعر وقربوا الشعراء وأغدقوا عليهم لم يقصدوا إلى تشجيع الفن لذاته أو إكرام أصحابه، وإنما كانت لهم غاياتهم الشخصية ومآربهم السياسية المعروفة، فكانوا يريدون من أولئك الشعراء التزكية وإعلاء الصيت ومناضلة أعدائهم والذب عن دعواهم في الملك والسيادة، ولذلك لم يطلبوا عندهم سوى فن واحد من فنون الشعر هو المدح، ولم نعلم عن أمير أجاز شاعراً لنبوغه في الوصف أو النسيب أو قول الحكمة وضرب الأمثال.

فالشعر الذي شجعه الأمراء هو المدح دون غيره، وليس المدح بخير فنون الشعر ولا هو من الشعر على الإطلاق لمنْ طلب في الشعر تعبيراً عن شعور صادق قيم؛ وما كان المدح الذي أفشاه أولئك الأمراء في الشعر العربي إفشاء لا نظير له يحوي شعوراً صحيحاً ولا تفكيراً مستقيماً.

إن أول خصائص الشعر الجيد صدوره عن دافع وجداني داخلي، وهذه صفة كانت تنقص شعر المدح الذي كان لا يصدر إلا عن دافع مادي هو صلة الممدوح، وإن لم يحسَّ الشاعر بحب له ولا إعجاب به، حتى ولو أضمر له البغض والإزدراء فلا غرو، وقد فقد

شعر المديح هذه الصفة الأساسية أن خالطه الكذب وأسرع إليه التهويل والمبالغة والتهافت والإسفاف والإحالة، وأغرى معالجيه بسد نقص الشعور بالتلاعب باللفظ واصطناع محسناته، وأولعهم بالسرقة من متقدميهم وتعَاوُر معانيهم توليداً وتخريجاً وابتذالاً، حتى لم تَعُدْ غاية قرض الشعر التعبير عن الشعور الصحيح - لأنه لم يكن هناك في الغالب شعور - بل عادت الغاية إبداء البراعة ومعارضة المتقدمين واستدرار أكبر الصلات.

وشعر المديح استتبع ضرباً آخر من الشعر ليس أقل منه حطة في المرتبة وبعداً عن أغراض الشعر الصحيح، وهو الهجاء: لأن إرضاء الممدوح كان يستتبع ذم خصومه، ولأن المادح المخيَّب كان ينقلب في الغالب هاجياً مفحشاً لممدوحه أو للشاعر الذي زاحمه ونال الحظوة دونه، ولأن بعض الأمراء كان يشجع تراشُق الشعراء ببذيء القول شَغْلاً لأذهان الناس، وكان من ثمار هذه الخطة مقذعات جرير والفرزدق والأخطل.

واستتبع شعر المديح ضرباً آخر من النظم بعيداً عن الشعر الصحيح والشعور المستقيم امتلأ أيضاً بأنواع الأغراب والإغراق والإسفاف، ذلك هو النسيب الاستهلالي الذي ألتزمه الشعراء المدَّاحون من أهل الحضر تشبها بالمداحين من الجاهليين وإمعاناً في تقليدهم.

وكل هذه الرذائل التي تجمعتْ في شعر المديح - لخلوه من الدافع الوجداني والشعور الصادق - إنتقلت إلى ضروب القول الأخرى ففشت في الشعر كله عيوب التقليد والمبالغة والصناعة اللفظية ومحاولة إبداء البراعة.

واسترقَّت هباتُ الأمراء - للأسف الشديد - رِقَابَ معظم أقطاب الشعر العربي، فلم ينزِّه شعرَهُ عن طلبها إلا القليل جداً ممن أبت لهم ذلك ظروف خاصة، كالشريف الرضي وأبي العلاء، وأضِيعَ جانبٌ من عبقريات أبي نواس والطائي والبحتري وابن الرومي والمتنبي وغيرهم من الفحول في نظم الأكاذيب والمفارقات طلباً لجوائز الأمراء، فكان من أقوال هؤلاء الفحول:

تعود بسط الكف حتى لو أنه ... ثناها لقبضٍ لم تطعه أنامله
تكاد عطاياه يجن جنونها ... إذا لم يعوِّذها بنغمة طالب
وقد زعموا أن النجوم خوالد ... ولو حاربته ناح فيها الثواكل
وكشفن عن بَرَدٍ خشيتُ أذيبه ... من حر أنفاسي فكنتُ الذائبا

والمتأمل لهذه الأبيات يرى إلى أي حد من تفاهة المعاني وكذبها واستحالتها قد خرج المديح بالشعر ويفحول الشعر؛ بيد أن النُّقَّاد انساقوا في ذلك التيار، فعدُّوا هذا السفساف من غرر أولئك الشعراء وراحوا يقابلون بين هذه الأقوال ويفاضلون بين قائليها، والأديب الذي يريد من الشعر التعبير الصادق عن الشعور الصحيح لا يرى لأحدٍ من قائليها فضلاً بل يحذفها من عداد الشعر جملة.

ولو أعرض أولئك الشعراء عن تلك السبيل وقَصَرُوا القول على بيان شعورهم الصحيح وأفكارهم الصادقة وتوفروا على الفن الذي حبتهم به الطبيعة جاعليه غاية لنفسه، إذن لربح الشعر العربي ربحاً جزيلاً ولَوَسَّعُوا من أغراضه وأوضاعه ورحّبوا من أطرافه وآفاقه.

هذا أثر تشجيع الأمراء للشعر وصلتهم للشعراء: إدخالٌ لفارغ القول وكاذبه وسفسافه، وإزاغة للنظرة إلى الغرض منه، وتقييد لأغراضه ومذاهبه، وقعود بهمم رجاله عن استيفاء غاياته، وصرفٌ عن جِدِّ التفكير ونافعه؛ ولو أراد الأمراء بالشعر خيراً لكفُّوا عن رجاله صِلاتهم فطلب الشعراء الرزق من أبوابه التي يطلبه الناس منها، ونَّحوا الشعر عن المادة، وأبقوه كما يجب أن يبقى ترجمانا لمشاعر النفس ووصفاً لروائع الكون فجاء الأدب العربي أشد انطباعاً بطابع الصدق مما كان.

لم يكن للأدب الإنجليزي - لحسن حظه - مثل هذا الاتصال الوثيق ببلاط الأمراء، ولم يتخذ حلية من حلي القصور وآلة من آلات السياسة إلا فترة وجيزة في أواخر القرن السابع عشر خالطه فيها الضعف والاستهتار والمجون وملاحاة، ثم كانت للأدباء بالنبلاء في بعض القرن الثامن عشر صلة، ولكن شتان بينهم وبين صلة من تقدم ذكرهم من الشعراء بالأمراء من العرب: كان الأديب يؤلف فيما عنَّ له ونال اهتمامه من موضوع ثم يهدي كتابه عند نشره إلى النبيل الذي يتولاه برعايته، وليس في هذا ضرر يقاس بالأضرار التي تقدم ذكرها في الأدب العربي.

وقد نشأ منصب شاعر الملك في إنجلترا منذ زمان، ولكن الشعراء الذين شغلوه لم يتوفروا على الملوك توفر شعراء العربية، ولم يشغل المنصب من كبار الشعراء إلا القليل، وكان اختيارهم لملئه تقديراً صحيحاً لسالف جهودهم في عالم الأدب، ولم يكن ما قالوه بصفتهم شعراء الملك بخير ما قالوا، ولم يكن بالكثير، ولم تزل وظيفة شاعر الملك تتضاءل حتى صار المنصب إسمياً فخرياً لا أكثر.

وقد جاء الأدب الإنجليزي لخلاصه من لوثة تشجيع الأمراء - أو بالأحرى تسخير الأمراء - وزلفى الأدباء إليهم حرَّ النزعة طليق الفكرة بعيد المرمى صادق التعبير، يعبر عن إحساسات الفرد ويترجم عن عواطف الجماعة، وانفسحت أمامه الآفاق إذ خلا من القيود، فتعددت أغراضه وتكاثرت أوضاعه، إذ كانت وجهته دائماً وجهة كل الفنون الرفيعة:

التعبير الجميل عن شعور الإنسان الصحيح بروائع الحياة، بعيداً عن ذلك الغرض المادي الدخيل الذي تعثر الأدب العربي في قيوده طويلاً.

فخري أبو السعود

معركة عدوى

للأستاذ الفريق طه باشا الهاشمي

رئيس أركان حرب الجيش العراقي

ثانياً - الأوربيون والأحباش

وفي نهاية القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر إحتك الفرنسيون بالأحباش على عهد ملكهم (ياسو الأول) الذي أرسل سفيراً حبشياً إلى بلاط الملك لويس الرابع عشر. وفي سنة 1705 أرسل الفرنسيون المسيو رول سفيراً إلى الحبشة وتشجع الرهبان اليسوعيون الفرنسيون على الذهاب إلى بلاد الحبشة وأخذوا يحلون محل الرهبان اليسوعيين البرتغاليين.

ولما مات ياسو الأول ثار الأهلون وقتلوا رجال السفارة الفرنسية، وأراد خلفه أن يحمي اليسوعيين فلم يوفق؛ وحدثت إضطرابات داخلية في المملكة استمرت مدة طويلة فاستفاد الصوماليون والغالا المسلمون من ذلك وهجموا بقوات كبيرة علة بلاد الحبشة فتوغلوا فيها وأمعنوا فيها قتلاً وتخريباً. والذي زاد الطين بلة أن الرهبان الكاثوليك أرادوا الاستفادة من هذه الاضطرابات وسعوا سعياً حثيثاً لاستمالة الأحباش إلى مذهبهم طالبين منهم أن يتركوا المذهب اليعقوبي. وفي سنة 1838 إستولى رأس مقاطعة شوعا على العرش فأصبح ملكاً على البلاد وعقد معاهدة مع الفرنسيين.

ثالثاً - علاقات الدول المستعمرة

في سنة 1855 استولى (عالي) أحد أغنياء الغالا على مملكة شوعا ونصَّب نفسه ملك ملوك الحبشة. ولم يوطد عالي حكمه فعلاً في البلاد فاستفاد صهره من الموقف فأصبح عاهلاً على جميع بلاد الحبشة باسم (تيودوروس الثاني) بعد أن استمال قبائل الغالا والأمحرة والتيجري إلى جانبه ونقل عاصمته إلى أنكوبار ولبس تاج الملك في القاعدة الدينية (أكسوم) أعلن ذلك على أوربة وغدا ملك ملوك الحبشة. ولم يكن تيودوروس من سلالة الملوك؛ وكان الملك الشرعي (هاتيلو ملكوت) ملك شوعا ووالد (ساهالا مريام) (منليك الثاني المنتظر) وتغلب تيودوروس على هذا الملك وعامله بإحسان.

ومن الأمور الإصلاحية التي قام بها إلغاء المخصصات التي كان يتمتع بها الرؤوس بالإرث فلقي معارضة منهم واستطاع أن يقهرهم. وعاكسه الرهبان فتغلَّب عليهم، ولما علم بأن الرؤوس اجتمعوا في قصر خلسة ليدبروا ثورة عليه ذهب بنفسه إلى القصر المذكور وباغتهم وقتلهم جميعاً ما عدا الأمير الصغير (ساهالا مريام) الذي استطاع أن ينجو بنفسه فاراً.

وفي دور الإضطراب كان ملوك الحبشة قد حرموا على الأجانب دخول بلاد الحبشة، بيد أن تيودوروس ألغى هذا التحريم زاعماً أن دخول الأجانب الحبشة يفيد أهل البلاد. فأرسل وفوداً إلى ملكة إنكلترا فكتوريا وإلى إمبراطور فرنسا نابليون الثالث وكلف هذا الأخير بتجديد المعاهدة المعقودة سنة 1848.

وكان البريطانيون قد أرسلوا قنصلاً إلى الحبشة إلا أنه قتل في الاضطراب الذي حدث في سنة 1860. وفي سنة 1862 أوفدت ملكة بريطانيا قنصلاً مع الهدايا، كما أن

نابليون الثالث أيضاً أوفد قنصلاً.
ولما رأى البريطانيون أن تيودوروس لقي مقاومة في الداخل وأن جيشه أخذ يضعف بالحروب المدبرة لم يميلوا إلى الاعتماد عليه، لذلك لما أراد إرسال سفير إلى إنكلترا لم يلب طلبه فضلاً عن أن القناصل البريطانيين أخذوا لا يعبأون به.
واشترى الفرنسيون جزائر دسس وزولا في سنة 1859 وميناء عبق في سنة 1862 وجعلوها قاعدة لتموين بواخرهم بالفحم، وأرادوا تيودوروس أن يرسل سفيراً إلى فرنسا فلم يتلق جواباً من إمبراطورها. ولما اطلع على مخابرات القناصل إغتاظ من الأوربيين جميعاً وحبسهم في قلعة (مجدلة).
فأرسل البريطانيون في سنة 1864 وفداً برآسة السير هرمز رسام ليطلق سراح الأجانب، إلا أن تيودوروس امتنع وحبس رئيس الوفد أيضاً؛ فلما رأى البريطانيون ذلك وسَّطوا الخديو إسماعيل باشا فأرسل كتاباً إلى ملك الحبشة ولكنه لم يتلق جواباً عنه. .
وفي سنة 1866 ترك العثمانيون ميناءي مصوع وسواكن لخديو مصر فأصبحتا بعد ذلك من الممتلكات المصرية، وأضاف المصريون إليهما منطقة زولا أيضاً.
واستفاد البريطانيون من هذا الحادث فقرروا الحملة على الحبشة فجهزوا جيشاً في بمبي
بقيادة السير روبرت نابر بقوة (16 , 000) جندي وأنزلوها في زولا. وساعد الخديو البريطانيين في هذه الحركة وأمر محافظ مصوع بالمساعدة، كما أنه كلف أسطوله في البحر الأحمر بأن يكون بجانب البريطانيين وأمدهم بالسفن النقلية، وقوى البريطانيون هذا الجيش بجنود أهليين وجهزوه بالوسائط النقلية فبلغت قوته (40 , 000) جندي.
ومال بعض رؤوس الأحباش إلى جانب البريطانيين فلم يساعدوا ملكهم على القتال وامتنع رأس شوعا من إرسال الجند. أما رأس تيجري فاتفق مع البريطانيين الذين طمأنوه قائلين له إنهم لا يقصدون الإستيلاء على الحبشة و؟ إنما جل ما يريدونه خلع تيودوروس وتنصيب رأس تيجري بدلاً منه وأنهم سوف ينسحبون بعد ذلك.
وساعد هذا الاتفاق على حركة الجيش فتقدم من طريق (سنافة - أدجرات - مكالو - انتالو) ووصل إلى أمام حصون مجدلة؛ ولما حبطت مساعي تيودوروس لاستمالة الرؤوس إلى جانبه التجأ إلى حصون مجدلة ولم يكن لديه سوى 7000 جندي وستة وعشرين مدفعاً.
وفي 13 نيسان سنة 1858 احتل البريطانيون حصون مجدلة واستمر تيودوروس على المقاومة في آخر حصن، ولما تيقن من أن المقاومة لا تجدي نفعاً مات منتحراً.
فأخذ البريطانيون تاج تيودوروس ومعطفه الملكي وحفظوهما في المتحف البريطاني في إنكلترا، وأعادوهما إلى الرأس تفري لما زار إنكلترا في سنة 1924. وانسحب الجيش البريطاني بعد أن أطلق سراح الأسرى الأجانب وأخذ معه ابن تيودوروس رهينة خشية أن ينتقم لأبيه وأرسله إلى إنكلترا فمات فيها.
وفي الملاقاة التي تمت بين قائد الجيش البريطاني ورأس تيجري أهدى السير روبرت نابر 900 بندقية إلى الرأس مكافأة له على صداقته.
بعد أن بقي هذا الأمير في الأسر سبع سنوات هرب من منفاه، وكان عمره إذ ذاك اثنتي عشرة سنة، ودخل مملكة أبيه شوعا. وبعد حادثة مجدلة أعلن استقلاله فحذا حذوه رأس أمحرة، واستقل الغالا ببلادهم وأخذوا يغيرون على بلاد الحبشة الداخلية جرياً على عاداتهم. وهكذا تجزأت المملكة الحبشية التي استطاع تيودوروس أن يجمع كلمتها ويؤلف منها مملكة كبيرة في مدة قصيرة.
, أراد رأس تيجري كاسيا أن يملك البلاد ويوحدها فتحرك على رأس جيشه البالغ 12 جندي فتغلب في عدوى على جيش رأس أمحرة البالغ 80 , 000 بفضل البنادق 000 التي أخذها من البريطانيين.
وفي سنة 1872 أعلن نفسه إمبراطوراً على الحبشة باسم (يوحانس السادس) وبعد اثنتي عشرة سنة تفاهم مع رأس شوعا وزوج ابنه من ابنته. وكان من نتيجة ذلك أن أصبح ساهالا مريام حاكماً على مقاطعة شوعا وجميع بلاد غالا، وذلك ما ساعده بعد ذلك على توحيد المملكة والقبض عليها بيد من حديد فاعترفت باستقلالها الدول

الإستعمارية مرغمة.
رابعاً - المصريون والأحباش
وبعد تتويج يوحانس في أكسوم شرع الخديو إسماعيل باشا في التأهب للزحف على الحبشة جاعلاً سواكن ومصوع قاعدتين لحركته. ولعله كان يطمع في ضم مقاطعة هرر التي يكثر فيها المسلمون إلى أملاكه والاستيلاء على منابع النيل الأزرق، أو أنه فكر في أن توسع الحبشة وتقوية جيشها مما يضر بمصالح المصريين ويجعل بلاد السودان معرضة للغارات، أو أن الدول الطامعة في بلاد مصر أرادت أن تشغل الجيش المصري القوي بالفتوح في الحبشة وتقضي عليه بالتدرج، ويجوز أن رغبة الخديو الشخصية كانت ترمي إلى التوسع. والظاهر من مجرى الأحوال أن توجيه المصريين أنظارهم إلى الحبشة قربت النكبة التي أصابت المصريين بعد ذلك.
ولا شك في أن تجهيز الجيوش وإرسالها على التعاقب مما أحرج الموقف المالي الذي ساء من جراء بذخ إسماعيل باشا.
وفي سنة 1872 أنزل المصريون جيشهم إلى سواحل الصومال في زيلع، وتقدموا نحو مقاطعة هرر، ودخلوا شوعا، إلا أن الرأس ساهالا مريام أجلى الجيش المصري عنها وقضى عليه بالقرب من بحيرة (أوسة).
وفي سنة 1874 احتل المصريون هرر وأنزلو جيشاً بقوة 14 , 000 في مصوع، فتقدم نحو عدوى، فتظاهر رأس تيجري في بادئ الأمر بالولاء له، وفي ليلة ظلماء باغته من كل جهة وقضى عليه، فلم يفلت منه إلا النزر القليل.
وفي سنة 1876 أراد الخديو أن ينتقم من الأحباش، فجهز جيشاً بقوة 20 , 000، وناط قيادته بابنه الأمير حسين باشا وأنزله في مصوع؛ ولما تقدم قابله الأحباش بقوة 200 ,
000 جندي، وفي المعركة التي نشبت في جرة إنكسر الجيش المصري بعد أن خسر 13 , 000 رجل، فوقع الأمير حسين باشا في الأسر مع هيئة أركانه، ولم يخل الأحباش سبيلهم إلا مقابل فدية من المال.
والغريب في هذه الحركات أن الأجانب كانوا يتولون قيادة الجيش كأن المصريين من أهل البلاد لا يستطيعون القيادة، بينما التاريخ يشهد لهم ببراعتهم في ذلك، فالجيش الأول كان قائده موزنجر باشا، وكان يقود الجيش الثاني ضابط دنمركي الأصل، أما رئيس أركان الجيش الثالث وأركانه فكانوا أميركيين.
وفي الوقت ذاته كان المسلمون في السودان بقيادة المهدي يهاجمون الحبشة من الشمال، فدخلوا جوندار وأحرقوها، وكان من أمر ذلك أن أرغم يوحانس المسلمين القانطين في الحبشة على الخروج منها، وأدى ذلك إلى هجرة كثير من المسلمين من الحبشة بعد أن كانوا متنعمين فيها، فتشتتوا هنا وهناك؛ أما الذين بقوا فيها فاضطهدهم الأحباش حتى اضطر بعضهم إلى التنصر، ولو لم ينزل الطليان إلى الساحة الإستعمارية في بلاد الحبشة لظل المسلمون مضطهدين، إلا أن محاولة الطليان التوغل في بلاد الحبشة اضطرت ملوك الحبشة إلى التساهل مع المسلمين تمهيداً لتوحيد المساعي إزاء هذا العدو الجديد.
وبعد أن احتل البريطانيون أرض مصر لم يتدخلوا في الحروب التي وقعت بين السودانيين والأحباش. ولكي ينتقم يوحانس لوقعة جوندار جهز جيشاً كبيراً وتقدم على رأسه نحو قوات المهدي، وفي المعركة التي وقعت في متمة 13 آذار أواخر (مارس) سنة 1889 وقع جريحاً ومات فانكسر جيشه.
والحقيقة أن قيام المهدي وبسط نفوذه على السودان وانتصاره على الأحباش جعل البريطانيين يفكرون في العاقبة، لأن القوات البريطانية والمصرية وحدها لم تكن كافية للتغلب عليه.
ولعل نزول الطليان إلى الساحة كان بتشويق من البريطانيين للتغلب على المهدي من جهة ولمشاغلة الحبشة بقوات جديدة من جهة أخرى لكيلا تسيطر دولة قوية على مياه النيل فتهدد مصالح البريطانيين المتوقعة في السودان.
(يتبع)
طه الهاشمي

مذاهب الفلسفة
المذهب الطبيعي
للأستاذ زكي نجيب محمود

هو ضرب من ضروب الفكر ونحو من أنحاء النظر، لا يذهب في بحثه وراء حجب الطبيعة وأستارها، بل يحصر نفسه في نطاق الطبيعة وحدها، يتقصى بالنظر ما شاء من وجوهها، ثم يقنع بهذا فلا يعدوه قيد أنملة. عنده أن الحقيقة التي لا حقيقة بعدها هي هذه الطبيعة التي تراها بعينك وتلمسها بيديك، وهي هذه الأرض وتلك السماء وما بينهما من أحياء وأشياء؛ أما أن تبعثك الطلّعة فتحاول أن تنفذ ببصرك إلى ما وراء ذلك، زاعماً أن ما تدركه الحواس عبث باطل، وأن الحقيقة الخالدة هي شيء مستور وراء هذه الحجب الصفيقة، فخداع وجهل في رأي هذا المذهب، إذ يرى أشياعه أن الطبيعة لا تبطن شيئاً وتظهر شيئاً آخر، بل هاهي ذي قد عرضت بضاعتها لمن شاء تحت السمع والبصر، وهي تسير وفقاً لقانون صارم حازم لا يشذ ولا يلين، فهو يسيطر بقوته على الكون بكل ما يحوي بين دفتيه؛ ثم ينهانا أتباع هذا المذهب أن نلقي بالا إلى ما قد يزعمه الزاعمون أن هنالك فوق الطبيعة حقيقة خالدة يدركها الفكر وتقصر عن إدراكها الحواس، فهم لا يصدقون أن يكون ثمت غير ما نرى أو أن يكون في الطبيعة شيء لا يخضع لقانونها خضوع الجماد الصامت، ولا يستثنون من قاعدتهم الإنسان بكل ما فيه من حياة وفكر وخيال لأنه في رأيهم هباءة في يد الطبيعة تطوح بها يمنة أو يسرة كيف شاء لها قانونها الجبار، وإن الإنسان ليخدع نفسه حين يوهمها أنها أرفع من الجماد منزلة وأسمى مقاماً؛ فإن اعترضت على رجال المذهب الطبيعي بأن قانون الطبيعة لا يفسر كل شيء، وأن هنالك آلافاً من الحقائق التي تنتظر الشرح والتعليل أجابوك أن ذلك رهين بالعلم وحده. فلن يفتأ العلم يجد في كشفها ويسعى، ولن تزال هي تبدو في ضوئه واحدة في إثر واحدة.

وينقسم المذهب الطبيعي إلى شعب تتعدد بتعدد إدراك الإنسان لماهية المادة التي تملأ الكون؛ فإن رأيت أن قِوام الطبيعة ذرات مادية تتحرك في المكان، وأن كل ظاهرة من ظواهر الطبيعة لا تعدو أن تكون مجموعة متراكمة من تلك الذرات فذلك هو المذهب المادي؛ وإن اعتبرت المادة نفسها ضرباً من ضروب الطاقة والقوة، فذلك هو المذهب
الطاقي وأما إذا غضضت البصر عن أصل المادة الأول، ونظرت إلى الحقائق كما هي، مرتبطاً بعضها ببعض ارتباط العلة بالمعلول، فذلك هو ما يسمى بالمذهب الوضعي. . . وكثيراً ما يطلق اسم (المادية) على هذه الشعوب كلها. لأنها مهما اختلفت فهي لم تزد على أن تناولت ظواهر الطبيعة المادية بالشرح والتعليل.

وإن هذا المذهب الطبيعي ليبلغ أقصى قوته حينما يقف موقف الإنكار والرفض بإزاء ما يتعلق به الإنسان من صنوف العقائد وضروب الخيال، فهو لا يتردد في أن يتناول الأديان بكفه الباردة فيسحقها بين أنامله، لأنه لا يرضيه أن ينظر إلى الأشياء والحقائق نظرة مجردة عارية من كل ما ألبسها الإنسان من زخرف العقيدة وطلاء الخيال، فبقذفه واحدة ألقى في اليم كل ما أنتج الفكر البشري من آراء عن عالم الغيب المجهول، ولعله بذلك قد كفى نفسه مؤونة البحث في هذا المطلب الشاق العسير.

وما دام هذا المذهب الفلسفي قد رفض عالم الغيب رفضاً قاطعاً، فهو إذن لا يعترف بالله إلا أن يكون ذلك هو الطبيعة نفسها، أو الإنسانية، أو ما شئت من ظواهر الكون المحسوس؛ وهو كذلك لا يقر الخلود إلا إذا قُصد به آثار الإنسان الخالدة وظهوره في أعقابه وما إلى ذلك من ضروب البقاء؛ أما أن يذهب الظن بالإنسان أنه باق بعد الحياة بقاء روحانياً فوهم خاطئ في رأي هذا المذهب، إذ ما بقاؤه وهذا جسده قد تبدد أشتاتاً فكان منه الشجر والحجر؟ ستقول إنه باق بروحه دون جسده، ولكن ما هو ذلك الروح؟ أهو جزء من الطبيعة أو عنصر شاذ لا يستقيم مع مادتها ولا يخضع لقانونها؟ اللهم أن كان هذا فلا روح، لأنه ليس في الطبيعة إلا الطبيعة نفسها!

وهذه الطبيعة تسير وفق سنن معروفة ثابتة لا تتغير ولا تتبدل، فلكل ظاهرة من ظواهرها أسباب لا بد أن تنتج مسبباتها، دون أن تحول بينها وبين ذلك معجزة أو خارقة، ودون أن يكون في مقدور الإنسان أن يغير من مجراها بما يزعم لنفسه من إرادة حرة، فليس الإنسان حراً فيما يفعل وفيما يترك، إنما هو آلة مجبرة على السير

في طريق رسمتها له الطبيعة كما رسمتها للأنهار والأشجار والأحجار والكواكب وسائر ألوان الجماد. ولكن الإنسان المغرور كثيرا ما يلقي في روع نفسه أنه حر التصرف برغم أنف الطبيعة، فيقول مثلاً: إني لم أقرر بعد ماذا أصنع في كذا وكذا، ونسي المسكين أن مجموعة الذرات التي تتكون
منها مادته قد قررت له ما يصنع - جهل بذلك أو علم - ولم تكن فيما قررت بمعزل عن سائر الكون، بل اشتركت في تقريره مع العالم كله، مع الطبيعة بأسرها. فخفف من غلوائك أيها الإنسان، واعلم أنك لا بد فاعل ما أريد لك أن تفعله، إذ ليس لك عن فعله منصرف ولا محيص.

ومن منا لا يلوي شفتيه من الغضب، كلا، بل من ذا الذي لا يبتسم ساخراً من هذا المذهب الذي يريد أن ينتزع من الإنسان أعز جوانبه وأنفس عناصره؟ إنه يريد أن يسلبه إرادته فإذا هو صخرة تتحدر من قمة الحياة إلى واديها مدفوعة بقوة القانون! وليس له أن يقف حيث شاء ولا أن يسلك من السبل ما يشاء! كيف أكون مكتوف الإرادة وهأنذا أحب هذا فأعمله وأكره ذلك فأتركه؟ فبماذا تسمي هذا إن لم يكن إرادة حرة مطلقة التصرف؟ ولكن هاك ما يجيبنا به (سبنسر): نعم إنك تعمل ما تحب وتترك ما لا تحب، ولكن هل علمت أنك لا تحب إلا ما رغبت فيه الطبيعة؟ أن مولاتك الطبيعة قد حببتك فيما تراه هي صالحاً لسيرها، ونفَّرتك مما رأته مضراً بها معطلاً لها عن المضي في سبيلها. فما أحببت أن تعمله إن هو إلا ما أرادتك الطبيعة على حبه: (إنك تستطيع أن تعمل كما تحب، ولكنك لا تستطيع أن تحب كما تحب). فاختيارك هذا الشيء ورفضك ذاك، هو الوسيلة التي تتخذها الطبيعة لتنفيذها إرادتها في سلوك الإنسان.

وأين المفر من الطبيعة وهي لا تني تذكرنا بما لها علينا من نفوذ وسلطان؟ فطر بالخيال إلى حيث شئت، فأنت مضطر آخر الأمر أن تنزل في معمعان الحياة لكي تضعك بين مطرقة الحقائق الواقعة وسندانها، تنظمك في سلكها، ولا تخلي بينك وبين خيالك! تحدَّ الطبيعة ما استطعت إلى تحديها من سبيل، وسترى نفسك بعد حين قصير مرغماً على التسليم والخضوع، وإلا فماذا أنت صانع أمام غائلة الجوع سوى أن تقتات بما يقيم الأود؛ ثم ماذا أنت صانع إذا أضناك الإجهاد وأعياك العمل إلا أن تسلم بضرورة النعاس؟ ثم ماذا تجدي إرادتك مهما بلغت قوتها أمام الموت إذا دنا الأجل؟ فالطعام والشراب والنوم والموت إعتراف متواصل بخضوع الإنسان لضرورات الطبيعية مهما يكن طاغياً جباراً.

وكأني بالعلوم جميعها تناصر هذا المذهب وتؤيده، وتكاد تضطر العقل اضطرارا إلى اليقين بأن ما يقع في الطبيعة من أحداث مهما اختلف لونها وتباين شكلها خاضع للعلم وقوانينه
التي تضرب بنفوذها على أطراف الكون فلا تدع جمالاً ينفذ إليه شيء من القوة المزعومة فيما وراء الطبيعة. وإن احتججت على العلم بأنه مبالغ في شأن نفسه مسرف في تقدير عمله، وأنه لا يزال قاصراً عن إدراك الحقائق كلها، فكيف يحق له أن ينكر شيئاً قد يكون جزءاً مما لم يدركه بعد؟ نقول إن احتججت على العلم بهذا أجابك في يقين ثابت، وكله أمل ورجاء: هأنذا أسير وأتقدم، ويستحيل ألا يؤدي هذا السير المطرد إلى حل ألغاز الكون كلها، ولا بد لي أن أصل يوماً إلى غاية الطريق، فإن لم يكن ذلك بعد حين قريب فامتداد الزمن كفيل بكل شيء، وإن العلم ليتمسك بتطبيق قانون (العلة الواحدة) الذي صاغه (وليام أوكام)، والذي مؤداه أن ما أمكن تعليله بعلة ما لا يجوز تعليله بعلة أخرى. وبناء على هذا القانون لا ينبغي أن نضيف إلى الظواهر الطبيعية التي أمكن تعليلها بقوانين العلم عللاً أخرى مما وراء الطبيعة، فإن تمكن العلم أن يتتبع حقائق الكون بالتفسير واحدة فواحدة وجب حتماً ألا نتردد في إنكار كل قوة أخرى.

ولكن إذا كان أنصار هذا المذهب يريدون أن يحتكموا إلى العلم في كل شيء، وأن يفسروا به كل ظاهرة من ظاهر الوجود، فماذا هم قائلون في تعليل ظاهرتي الحياة والعقل اللتين تبدوان كأنهما شاذتان نابيتان لا تخضعان لقوانين الطبيعة التي تنتظم الجماد؟ وأين الجماد من الحياة المتوثبة والعقل المفكر؟ إنه إن صح مذهبهم للزم أن تكون الحياة قد تفرعت من الجماد الذي لا حياة فيه، ويستحيل أن يتفرع شيء من

أصل لا يحتويه! إنك تستطيع أن تعلل بالعلم كل ما هو آلي رتيب، ولكن كيف بالحياة عامة والعقل بنوع خاص، وبينهما وبين الجماد الآلي من مسافة الخلف ما يكاد يجعلهما ضدين نقيضين؟

إن للكائنات الحية طابعاً يميزها عن الجماد تمييزاً واضحاً، ولعل خير ما يوضح ذلك الطابع المميز هو كلمة (بنفسها). فالكائن الحي يبني نفسه بنفسه، ويصلح عطبه بنفسه، ويدبر أمره بنفسه، ويعمل على حفظ بقائه بنفسه؛ نعم هنالك آلات تطعم نفسها ولكنها لا تنمو بما تطعم، وهنالك آلات تكتب من تلقاء نفسها، وسابحات في الماء تقود نفسها، ولكن هذه جميعاً لا تصلح لنفسها ما يصيبها من عطب، ولا تستطيع أن تلائم بين دخيلة نفسها وبين الظروف الخارجية المحيطة بها كما يفعل الكائن الحي؛ وليس بين الآلات أو صنوف الجماد ما ينشئ في باطنه نواة في مقدورها أن تنمو إلى ما يشبه الأصل الذي تفرعت منه،

ثم يكون فيها بدورها قوة إنشاء نواة أخرى تعيد تاريخها وهكذا. . . . وأجدر من هذا كله بالذكر من خصائص الحياة التي تنفرد بها وتتميز عن الجماد هو أن الحياة في كل فرد من الأحياء لا تحصر عملها في حدود هذا الفرد الذي هي حالة فيه، بل يمتد نطاقها حتى يشمل النوع بأسره، أعني أن الحياة في كل فرد لا تكتفي بحفظ بقائها هي، بل تعمل على حفظ النوع كله.

تلك هي خصائص الحياة؛ أما العقل فطابعه الذي يميزه هو علمه بالنفع والضرر، وهما ما نسميهما باللذة والألم؛ فكل الكائنات الشاعرة تعرف ما ينفعها فتقبل عليه وما يضرها فتنفر منه، هذا عما لها من قوة التفكير التي تستطيع بها أن تكون آراء عن الأشياء الخارجية ثم اتخاذ تلك الآراء وسيلة إلى فهم حقائق تلك الأشياء والوصول إلى ما يسيرها من قوانين وما تقصد إليه من أغراض.

(يتبع)

زكي نجيب محمود

الذكرى الرابعة لشاعر البادية

الشيخ محمد عبد المطلب

للأستاذ فايد العمروسي

الذكرى لا تتسع لدراسة أو تحليل، وحسبها أن تكون للقراء خاطرة وفاء، ونفحة تقدير؛ وعبد المطلب أحد شعراء العربية الذين خلفوا لنا تراثا ممتازاً يضاف إلى تراثي المرحومين (شوقي) و (حافظ)؛ غير أن هذا الرجل عاش مغبوناً، ومات مغبوناً، شأنه شأن (حافظ) بعد موته، فلم يفز ديوانهما بما كان ينبغي من عناية وتقدير، اللهم إلا مقالات كتبها كاتب هذه الكلمة في جريدة البلاغ بعد صدور الديوان في الجو الأدبي، وليس هذا بكاف في تقدير الأدباء للشعر، وخاصة لأعلامه وفحوله النابغين. والناظر إلى عبد المطلب لا يعرفه في ديوانه فحسب، لأنه ديوان ذو روح خاص، واتجاه صبغته الصنعة في أكثر مقاصده من فخر وحماسة وشكر ومديح وغزل ونسيب. . الخ وهذه ظواهر ما كان له أن يتخلى عنها وأن حاول، وما كان للفترة التي عاش فيها غير هذه المقاصد الشعرية تمشياً مع ميول الحياة التي ترغم الشاعر أن يتلون بلونها، والتي تكوِّن العناصر الأولى لفكره وخياله!

وقد كان رحمه الله شخصية عربية صميمة، تنبئ مظاهره الخلقية أنه من سكان نجد أو الحجاز، في ضآلة من الجسم، وقليل من القصر المتزن، تنطوي هذه الضآلة على قوة الأسد في عرينه، تبدو بها عيناه الواسعتان البراقتان اللتان تفيضان قوة وثقة واعتزاز؛ وكان ذا نفس أبيّة، وضمير حي، وشعور متقد، وإحساس صادق، يهيج لأتفه أسباب الخلاعة أو اللهو، فينفجر بأشد ما تكون الخلاعة قسوة وإيلاماً؛ وكان رجلاً بأسمى ما تكون الرجولة صفاء ونبلاً، رجلاً جم العطف، وافر الرحمة فياض الحنان. ولقد رأيته - رحمه الله - أكثر من مرة يسكب الدمع من عينيه لأمور لا تهيج عواطف الناس، ولكنها تهيج ذوي النفوس السامية، والإحساس المرهف القوي.

وشخصيته على ما كان فيها من خشونة البداوة كانت تذوب رقة وحناناً، وتفيض عطفاً ووداعة؛ وديوانه حافل بصور من هذه العاطفة التي فتشت في نواحي المجتمع المصري فعالجته بأثمن النصائح وأغلى الحِكم؛ وكم ودَّ تطهير النفوس، وتهذيب

الوجدان، وصقل الإدراك؛ وكم ودَّ الرقي بالإنسان إلى درجات العفة والصفاء. وما أشبه الثلاثة بعضهم
ببعض: (حافظ والمنفلوطي وعبد المطلب) في هذا المجهود! فترى الأخير يصف أسرة يتيمة بقطع من نفسه، وذوب من فؤاده، في قصيدته العصماء التي استهلها بقوله:
أسألت باكية الدياجي ما لها ... أرقت فأرقت النجوم حيالها
باتت تكفكف بالوقار مدامعها ... غلب الأسى عبراتها فأسالها
وفيها يقول:
ببعض: (حافظ والمنفلوطي وعبد المطلب) في هذا المجهود! فترى الأخير يصف أسرة يتيمة بقطع من نفسه، وذوب من فؤاده، في قصيدته العصماء التي استهلها بقوله:
أسألت باكية الدياجي ما لها ... أرقت فأرقت النجوم حيالها
باتت تكفكف بالوقار مدامعها ... غلب الأسى عبراتها فأسالها
وفيها يقول:
حتى إذا رقد الأسى بجفونها ... وهفا النعاس برأسها فأمالها
خلب الطوى أحشاءها فتفزعت ... حيرى تعاني سهدها وملالها
وله وطنيات حارة، ووصف رائع لمشاهد القومية المصرية، وله علويته المشهورة التي أنشدها على (جمل) متشبهاً بالشعراء في (عكاظ).
والشاعر على ما أعتقد ليس إنتاجاً من قصائد عريضة طويلة، تطن بالرصانة، وترن بجودة السبك والإيجاد، وإنما هو نفس قبل كل شيء، وشعور يصدق فيما يحس أو يشاهد، شعور يمتزج بالمظاهر فيصير جزءاً منها أو تصير هي مزيجاً منه، لا يتخللها التفريق، ولا تحتوي هذه المواهب إلا النفوس الممتازة التي لا تتفتح في دائرة ضيقة محدودة، ولا تحيط في نظرها السطحي من الكائنات. وعبد المطلب كان هذه النفس التي تضيق بما فيها من عوالم تائهة، فتنبعث على الكون طائفة سابحة، تستشعر ما فيه من جمال فتطرب، وتحس ما فيه من آلام فتألم؛ نفس خلقت لغيرها فنال منها كل شيء، وهي لم تنل من شيء أي شيء؛ وروح قسمته العاطفة، ومزقته الرحمة، فراح يوزع فيه كأنه نهب مستباح، وهو إلى ذلك مطمئن الخاطر هادئ البال. . . وإنه شخصية ممتازة في جوهرها، قبل أن تكون ممتازة في شعرها وصنعتها؛ وكم من قائل إن عبد المطلب قديم في شعره، قديم في عاطفته، جاهلي في جميع نواحيه؛ ولست أدري كيف تكون العاطفة قديمة، وهي شعور إنساني لا يتغير في ذاته وجوهره، وإن تغير في اتجاهاته وميوله، فالشعور الذي يتجه إلى الألم فيستعذبه، وإلى الدمع فيسكبه، هو الشعور الذي تطربه المسرات، ويثمله النعيم، إلا أن انفعالات الشعور الأول من نوع فاتر حزين، وانفعالات الشعور الثاني من نوع متفتح مرح، وكلا الشعورين له قيمته وخطره؛ فالشعور بالألم يكون معظم عناصر الحياة، كما أن الشعور بالنعيم يمس طبيعتها الأولى وحقيقتها الواقعة، وهما شعوران تخلقهما في النفوس
طبيعة الحياة التي تحياها. فليس في عبد المطلب قديم، إذ ليس هناك قديم أو جديد في الأدب، فهو فن والفن لا يتغير في قيمته الجوهرية، وإن تغير في عوارضه والمظاهر التي تسدلها عليه نوازع الإبتكار. وبعد، فتلك كلمة لذكرى شاعر البادية عبرة للشعراء، وتذكرة للأدباء الذين هم أحق بهذه الذكرى، وتلك الخاطرة. . . . . .
فايد العمروسي
من تراثنا الأدبي
أبو العيْنَاء - 3
بقلم محمود محمود خليل
لقد مات المأمون؛ ولقد حزن أبو العيناء حقاً عليه، حتى بكى بكاء مراً، وتقرحت عيناه؛ ويظهر من بكائه وحديثه عنه أنه راعا حق النعمة، وقام بإسداء الشكر لصاحبها، حتى بكاه بعد وفاته؛ وسواء أكانت خلة الوفاء موجودة فيه وهو ما لا أظنه، أم كان بكاؤه هذا لمنفعة شخصية فاتته، وخاف من انقطاع الرزق الذي أجراه عليه المأمون من بيت المال، فإن هَمَّ ضمان قوته كان يخالج فؤاده، ويخشى من يأتي بعده.
ولقد تحققت مخاوفه، فإن عهد المعتصم والواثق لم يظهر فيه شأن أبي العيناء كثيراً، ويرجع هذا إلى الخصومة التي كانت قائمة بين الوزير في ذلك العهد محمد بن عبد

الملك الزيات، وبين القاضي أحمد بن أبي دؤاد، تلك الخصومة التي اشتدت إلى درجة كبيرة، حتى جعلت ابن أبي دؤاد يأنف أن يقوم عند دخول ابن الزيات، وكان قد أوجب الخليفة الواثق أن ينهض قياماً له جميع الحاضرين في المجلس، ولم يرخص في ذلك لأحد، فاشتد الأمر على القاضي، ولم يجد لمخالفة الواثق سبيلاً، فالتجأ إلى حيلة لطيفة تخلصه من ذلك الموقف الحرج، فوكل بعض غلمانه بمراقبته، وموافاته بخبر قدومه، فإذا أقبل نهض يصلي، فقال ابن الزيات في ذلك:

صلى الضحى لما استفاد عداوتي ... وأراه يمسك بعدها ويصوم

لا تعدمَّن عداوة موسومة ... تركتك تقعد تارة وتقوم

ويرجع سبب هذه العداوة إلى المنافسة في الرياسة التي كانت بين هذين الرجلين الفذين.

لم يقف أبو العيناء إزاء تلك العداوة موقف الحياد، بل انضم إلى القاضي ابن أبي دؤاد، فأبعده هذا إلى حد ما عن مجلس الخليفة المعتصم والواثق ووزيرهما ابن الزيات؛ وقد انقسم الأدباء أيضاً إلى حزبين، حتى رأينا الجاحظ يميل إلى ابن الزيات ويكون من حزبه. ولقد سأل أبو العيناء الجاحظ مرة أن يشفع لصاحب له عند ابن الزيات، فكتب الجاحظ الكتاب، وناوله الرجل، فسار به إلى أبي العيناء، وقال له: قد أسعف بالمراد، قال: فهل قرأته؟ قال: لا. إنه مختوم. قال: ويحك فُضَّه لا يكون صحيفة المتلمّس؛ ففَضَّه فإذا فيه: موصل كتابي هذا سألني فيه أبو العيناء، وقد عرفتَ سفهه وبذوء لسانه، وما أراه لمعروفك أهلاً، فإن أحسنتَ إليه فلا تحسبه عليَّ يداً، وإن لم تحسن إليه لم أعده عليك ذنباً والسلام. فركب أبو العيناء إلى الجاحظ، وقال له: قرأت كتابك يا أبا عثمان، فخجل الجاحظ وقال: يا أبا العيناء هذه علامتي فيمن أعتني به، قال: فإذا بلغك أن صاحبي قد شتمك فاعلم أنها علامته فيمن شكر معروفه.

وصلت العداوة إذن بين الكاتبين القديرين الجاحظ وأبي العيناء، وكان هذا أثراً لتشيع الحاشية وانقسامها على نفسها كما سبق؛ وها نحن أولاء نرى أبا العيناء يغشى مجلس القاضي ابن دؤاد في تلك المدة، ويتودد إليه، ويروي عنه أحاديث كثيرة آثرنا أن نثبت منها شيئاً؛ قال أبو العيناء للقاضي: إن قوماً من أهل البصرة قدموا إلى (سُرّ مَنْ رأى) يداً على، قال: يد الله فوق أيديهم. فقلت: إن لهم مكراً، فقال: ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، فقلت: إنهم كثير، فقال: كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين. فقلت: لله در القاضي، فهو كما قالت الصموت الكلابية:

لله درك أي جُنة خائف ... ومتاع دنيا أنت للحدثان

متخمط يطأ الرجال شهامة ... وطء الفنيق مدارج القِرْدان

ويكبهم حتى تظل رءوسهم ... مشجوجة تنحطُّ للغربان

ويفرّج الباب الشديد تاجُه ... حتى يصير كأنه بابان

وقال أبو العيناء: كنا عند القاضي ابن أبي دؤاد في جماعة من أهل العلم والأدب، فوفد عليه رسول الحاجب أبي منصور يقرئه السلام ويبلغه ألا يقصد القاضي إلى الحاجب، لأن ذلك يضر بسمعته عند الوزير ابن الزيات، فقال القاضي: أجيبوه عن رسالته، فلم ندر ما نقول، ونظر بعضنا إلى بعض، فقال: أما عندكم جواب؟ قلنا: القاضي أعزه الله أعلم بجوابه منا، فقال للرسول: اقرأ عليه السلام، وقل له ما أتيتك متكثراً بك من قلة، ولا متعززاً بك من ذلة، ولا طالباً منك رتبة، ولا شاكياً إليك كربة؛ ولكنك رجل ساعدك زمان، وحركك سلطان، ولا علم يؤلف، ولا أصل يعرف، فإن جئتك فبسلطانك، وإن تركتك فلنفسك. فعجباً من جوابه.

على أنه لا يغرنا مجالسه أبي العيناء للقاضي، فإنه قد وقعت بين الرجلين خصومة، فكان لا يرحمه فيها أبو العيناء، مما يدلنا على أنه كان من الرجال النفعيين الذين يؤثرون المنفعة الشخصية على تلك الصداقة التي لا تفيده شيئاً من المال الذي يحبه ويفضله على كل عزيز وحميم. ولكن ينبغي إلا نفهم من هذا أن أبا العيناء انضم إلى حزب ابن الزيات. كلا. بل أبغض الرجلين جميعاً، وذمهما معاً، وهذا حديث طريف أتى به صاحب زهر الآداب وقد آثرت أن آتي بجزء صالح منه حتى يكون معيناً لنا على الوقوف على مقدار بلاغة الرجل وأسلوبه في الكتابة.

قال أبو العيناء: لما حبس الواثق إبراهيم بن رباح، وكان له صديقاً، صنعت له هذا الخبر راجياً أن ينتهي إلى أمير المؤمنين فينتفع به؛ ولقد سمعه الواثق فضحك واستظرفه، وقال ما صنع هذا كله إلا أبو العيناء بسبب إبراهيم بن رباح، وأمر بتخليته. والخبر هو: قال لقيت أعرابياً من بني كلاب، فقلت له ما عندك من خبر هذا العسكر؟ قال قتل أرضا عالمها؛ قلت فما عندك من خبر الخليفة؟ قال بخبخ في عزه، وضرب بجرانه، وأخذ الدرهم من مصره، وأرعف قلم كل كاتب بجنايته؛ قلت فما عندك في أحمد بن أبي دؤاد؟ قال: عضلة من العضل لا تطاق، وجندلة لا ترام، ينتحي بالمدى لتنحره فيجوز؛ وتنصب له الحبائل، حتى تقول الآن، ثم يطفر طفرة الذئب، ويخرج خروج الضب؛ والخليفة يحنو عليه، والقرآن آخذ بضبعيه. قلت فما عندك من خبر ابن الزيات؟ قال ذلك وسع الورى شره، وبطن بالأمور خيره، فله في كل يوم صريع، لا يظهر فيه أثر ناب ولا مخلب، إلا بتسديد الرأي. قلت فما عندك من خبر إبراهيم بن رباح؟ قال ذاك رجل أوبقه كرمه، وإن بقره للكرام قدح، فلا عزّ بهجائه؛ ومعه دعاء لا يخذله، ورب لا يسلمه، وخليفة لا يظلمه. ثم يأخذ في الحديث عن شأن أناس كثيرين من رجال الدولة مثل الخصيب والحسن بن وهب وأخيه سليمان، وهذا لا يعنينا في شيء لأننا لا ندرس أولئك الرجال الآن، ثم يقول قلت له: أين نزلت فأؤمك؟ قال مالي منزل تؤمه، أنا أستتر في الليل إذا عسعس، وأنتشر في الصبح إذا تنفس.

ويلوح لي أن تلك الأحاديث هي التي فتحت باب المقامات، وأوجدت الفكرة الرئيسية فيها، حتى نسج على منوالها بديع الزمان الهمداني والحريري فيما بعد.

قد عادى أبو العيناء ابن أبي دؤاد، ولكنه لم يمض في الخصومة إلى حد كبير، بل حفظ له جميل كرمه وقضاء حوائجه التي كثيراً ما كان يضايقه بها إبقاء على وده وصداقته ما دامت تجر عليه المنفعة حينا. قال له المتوكل يوماً: من أسخى من رأيت؟ قال ابن أبي دؤاد، فقال المتوكل تأتي إلى رجل رفضته فتنسبه إلى السخاء. قال إن الصدق يا أمير المؤمنين ليس في موضع من المواضع أنفق منه في مجلسك، وإن الناس يغلطون فيمن ينسبونه إلى الجود، لأن سخاء البرامكة منسوب إلى الرشيد، وسخاء الفضل والحسن ابني سهل منسوب إلى المأمون؛ فإذا نسب الناس الفتح وعبيد الله ابني يحيى بن خاقان إلى السخاء، فذلك سخاؤك يا أمير المؤمنين. قال صدقت.

فمن هذا نعلم مبلغ تلك الخصومة وأنها كانت طفيفة، ويظهر أن سببها كان عدم إجابة طلب لأبي العيناء أو قبوله شفاعته، أو نحو ذلك من الأشياء التي كان يتطاول بها أبو العيناء على الرؤساء.

دامت المنافسة على الرياسة بين ابن الزيات وابن أبي دؤاد مدة خلافة المعتصم والواثق حتى تولى المتوكل، وفي السنة الثانية من خلافته نكب ابن الزيات وأحرقه في التنور، وخلا الجو بهذا لحزب ابن أبي دؤاد، ووجد أبو العيناء الميدان أمامه فسيحاً، فاتصل بالمتوكل وحصلت له معه مجالس أدخل الرواة بعضها في بعض؛ ويظهر أن أعداءه قد وشوا به إلى الخليفة كي يوقعوه فيما وقع فيه ابن الزيات، ولكنه بفصاحته وذلاقة لسانه نجا. قال له المتوكل: بلغني أنك رافضي، فقال يا أمير المؤمنين وكيف أكون رافضياً وبلدي البصرة، ومنشئي في مسجد جامعها، وأستاذي الأصمعي، وليس يخلو القوم أن يكونوا أرادوا الدين أو الدنيا، فإن كانوا أرادوا الدين فقد أجمع الناس على تقديم من أخروا، وتأخير من قدموا وإن كانوا أرادوا الدنيا، فأنت وآباؤك أمراء المؤمنين، لا دين إلا بك، ولا دنيا إلا معك. وكانت تلك الوشاية كفيلة بأن تقضي عليه، لأن المتوكل كان يكره الرافضة الذين يدينون بحب عليّ بن أبي طالب (ض) ولكنه تخلص بذكائه.

ودخل أبو العيناء المتوكل في قصره المعروف بالجعفري فقال له الخليفة ما تقول في دارنا هذه؟ فقال يا أمير المؤمنين إن الناس بنوا الدور في الدنيا، وأنت بنيت الدنيا في دارك. فاستحسن كلامه وقال: كيف شرابك للخمر؟ قال أعجز عن قليله، وأفتضح عند كثيره؛ فقال له الخليفة دع عنك هذا ونادمنا، فقال لا أطيق ذلك، وما أقول هذا جهلاً بمالي في هذا المجلس من الشرف، ولكني رجل مكفوف البصر، وكل من في مجلسك يخدمك، وأنا محتاج أن أخدم، ولست آمن من أن تنظر إلي بعين راض، وقلبك علي غضبان، أو بعين غضبان وقلبك راض، ومتى لم أميز بين هذين هلكت، فأختار العافية على التعرض

للبلاء. قال صدقت، ولكن تلزمنا، قال لزوم الفرض الواجب اللازم. فوصلني بعشرة آلاف درهم.

تلك كانت منزلة أبي العيناء عند المتوكل يتمنى أن ينادمه، ويود ولو بجدع الأنف أن يتاح له حضور شخص فكه المحاضرة، عذب الحديث كأبي العيناء في مجلس شرابه، وقد كان المتوكل يمزح معه كثيراً قال له مرة: هل رأيت طالبياً حسن الوجه قط. قال يا أمير المؤمنين أرأيت أحداً قط سأل ضريراً عن هذا! قال لم تكن ضريراً فيما تقدم، وإنما سألتك عما سلف؛ قال نعم رأيت منهم ببغداد منذ ثلاثين سنة فتى ما رأيت أجمل منه. قال المتوكل: تجده كان مؤاجَرا، وتجدك كنت قوادا عليه، فقال أبو العيناء: أو فرغت لهذا يا أمير المؤمنين، أتراني موالي على كثرتهم، وأقود على الغرباء، قال اسكت يا مأبون! قال مولى القوم منهم، قال المتوكل أردت أن أشتفي منهم، فاشتفى لهم مني.

على أن عدم قبول أبي العيناء لمنادمة المتوكل قد عصمه إلى حد ما من القصف والمجون اللذين كان يجري في قصر الخلافة، وإن كنت أعتقد أن شخصاً متوقد الذكاء كأبي العيناء قد حمى نفسه من معاقرة الخمور، خوفاً من أن تضيع عقله، وتغلب على لبه، فيخرج عن صوابه، وهو ما كان يأباه على نفسه، فجوابه إذاً للمتوكل حين سأله عن الشراب بقوله: أعجز عن قليله، وأفتضح عند كثيره لم يكن للتخلص من منادمته، وإنما كان صادقاً في هذا القول، وإن كان قد ذهب إلى الإستمتاع بملذات الحياة من غير طريق الشراب، كلما حان له ذلك، ولكن ذهابي إلى هذا الرأي ليس معناه تنزيه أبي العيناء وجعله في عصمة الأنبياء والصديقين بل ربما يكون قد شرب ونادم وأفرط في الشراب وأخذ بحظه من اللهو والمجون مع غير المتوكل، لكنني لا أميل إلى اتهامه بأنه كان من المعاقرين للشراب والمدمنين على قرع الكؤوس، كالمتوكل أو وزيره الفتح بن خاقان مثلاً، كلا. وإنما كان لا يميل إلى تعاطي الكثير من الخمور لأنها تجره إلى الإفتضاح كما يقول.

(يتبع)

الزقازيقمحمود محمود خليل

عمرو بن العاص - 1

بقلم حسين مؤنس

أصبح الرجل محزوناً كاسف البال، لم يبرح غرفته بل لم يبرح مكانه، وإنما هو مقيم حيث تركه ابنه عبد الله أمس، ساكنا لا يريم، صامتاً لا ينبس؛ وقد ارتسمت على وجهه أسارير من الحزن لا تخفى، وتراءت في قسماته ملامح من القلق الممض المشجي. . . بل كانت لا تخفى في عينيه علائم السهر الطويل. . . ومن يدري فربما انقضت هذه الليلة ولم يغمض له جفن، وربما أرق ليلة الأمس كذلك، وربما طواهما مسهداً في هذه الغرفة التي لا يبرحها. . . إنه يفكر تفكيراً طويلاً. . يفكر ويخاطب نفسه ويقلب كفيه، ويهمهم وإنه لينظر نظر الشجي (استعملتك على ظلمك وكثرة القالة فيك. .) والله لقد خلتها يا عثمان. . .! ثم يعود فيردد: (لو آخذتك بما آخذك به عمر لاستقمت!). . إن الحزن ليشتد بالرجل وإن الدمع ليترقرق في عينيه وإنه ليحني رأسه ويصمت صمتاً طويلاً. . وبينما هو في ذلك إذا يد خفيفة تمر على كتفه في رفق، وإذا صوت رقيق يهتف به: (رويدك يا ابن العاص. .) فيلتفت إليه ويقول: (حتى نحن يا سلامة. .). فيجيبه: (لقد متع الضحى) فيسترسل الرجل مرة أخرى في تفكيره ثم يقول: (رحمك الله يا ابن حنتمة. . والله لقد كانت فيك على شدتك رقة، وعلى جفائك وداً. . أما هذا. . أما هذا. .) فيقاطعه سلامة قائلاً: فليغفر له الله. . . (فيرد عليه محتداً. .) لا يا ابن روح. . لا غفر الله له أبداً. . لا غفر الله له أبداً. . لقد وليها عامرة. . ولن يعفيها حتى ينعق عليها البوم. . لقد عملنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فرضى عنا، وعملنا لخليفته فأكرمنا. . وعملنا لعمر فانصرف عنا قرير العين، ثم جاءت أيامك يا ابن عفان. .! ويصمت الرجلان صمتاً بليغاً، ويسرع بهما الفكر إلى الجزيرة التي فرا بنفسيهما منها. . واطمأنا إلى الراحة في هذا القصر الذي يملكه عمرو في فلسطين، فهذه جزيرة العرب تموج موجاً وتضطرب اضطراباً، وقد فوقت إليها الفتنة سهاماً صائبات. . واصطلحت عليها من الشر حادثات. . وهذا عثمان في بيته بالمدينة وحيداً لا يطرق بابه أحد، فريداً لا يذكره أخ ولا ناصح بعد الذي كان من تقريبه آل أمية وآل

مروان، وبعد الذي كان من خصومته مع علي وازوراره عن طلحة والزبير وعزله الصالحين من ولاة عمر. . وهاهي ذي الفتنة تتحرك في مضاجعها. . . والثائرون يتواصلون ويتابعون الشكوى ويجمع بينهم الظلم. . وهذا أبو ذر الغفاري يطوف ببلاد الإسلام يثير الفتنة ويقلب الأرض على عثمان. . . وهذا علي يباعد ما بينه وبين الخليفة مخافة أن يصيبه آل أمية بشر! وهم الساعة أصحاب الأمر وذوو السلطان على الخليفة الورع اللين الرقيق. . . وهم اليوم لبني هاشم بالمرصاد، وإن للبيتين فيما مضى لشأناً. وإن لهما فيما يقبل من الأيام لشأناً أكبر وقد أسخطته من عثمان أمور ونفرته منه شرور. وما يطيق الرجل صمتاً على ابن أبي سرح وآلياً على مصر، مكان ابن العاص القدير. فما زاد عثمان على أن قام على الناس رجلاً كرهه الرسول ولم يرض عنه إلا شفاعة وسماحة. . . ثم سكت طويلاً ثم أخذ يردد هذا الرجز الذي سيكون له في المحنة المقبلة أي شأن، والذي ستردده الجموع في الشام وتهتف به الجحافل في العراق. . . ويتردد صداه بعد ذلك على مدى الأيام:

أصبحت الأمة في أمر عجب ... والأمر مجموع غداً لمن غلب

فقلت قولاً صادقاً غير كذب ... إن غدا تهلك أعلام العرب!

ثم بدا له فقام من مجلسه. . وأطل من النافذة على فناء (العجلان) فإذا أعرابي يسعى على راحلته وهو يردى بها مسرعاً. فهتف به فوقف، وسأله كيف عثمان:

فقال الأعرابي: قد تركته محصوراً شديد الحصار

ثم تركه وتولى مسرعاً

وأي هلاك.! خليفة الله محصور. إن الأمر ليشتد وإن العاصفة لتنذر وإن العقبى لوخيمة. ترى أعيل صبر العرب فأتوا يقومون الخليفة بالسيوف. هنا أحس عمرو أنه لم يحسن الصنيع حين ترك عثمان وحده في المدينة، وأخذ يسأل: ترى ماذا يصنع علي وماذا تصنع البقية من الصحابة. إن فيهم لعصمة لابن عفان مما يراد به. . ولكن ما عساهم يصنعون وقد أبى عثمان أن يلقي لهم بالاً. فلتنفعه عصبية بني حرب لو كان فيهم خير. وليعصمه ابن أبي سرح لو كان يستطيع. أما الصحابة فها هم أولاء يعتزل منهم نفر فيهم سعد بن أبي وقاص، ويعلن العداء منهم نفر وفيهم أبو ذر الغفاري، ويشتد منهم نفر ولا يتحرج أن ينقد عثمان النقد الجارح الشديد وفيهم علي، وتنصرف منهم طائفة إلى ذات نفسها تجمع المال وتؤلف الأنصار وتعد العدة لما عسى أن يحدث من الأحداث وفيهم معاوية. ثم نظر

فإذا شرذمة من الأعراب على الخيل والجمال يسعون نحو الشمال. وكان انصراف العرب عن الحجاز قد كثر هذه الأيام، وإذا بهم يعلنون مقتل عثمان في شيء من الإنكار والخوف والهلع. فإذا استوقفهم وسألهم فوصفوا له الأمر وصفاً دقيقاً، ثم تولوا وتولى، فإذا سلامة قد ترك المصحف الذي كان يقرأ فيه ووقع الخبر في نفسه موقع الصاعقة. وريعت نفسه ولم يطلق على الأمر صبراً. فنهض من مجلسه ونظر إلى عمرو فإذا به شجى يشرق بالدمع فقال له وإنه ليعاني ألماً بليغاً: (يا معشر قريش! إنه كان بينكم وبين العرب باب وثيق فكسرتموه، فما حملكم على ذلك؟) فقال عمرو وإنه لذاهل: (أردنا أن نخرج الحق من خاصرة الباطل ليكون الناس في الحق شرعاً سواء.).

وهل أصبح الناس الآن في الحق شرعاً سواء. .؟ أجل! وقد ذهب ولي الأمر وأصبح السيف بين الناس حكماً. . وليطلب الأمر من يجد في نفسه الإقتدار على النهوض به. . ترى من يكون هذا المقتدر الذي سيملك ناصية الأمر ويقدر له الفوز بهذا الغنم العظيم؟ كذلك كان ابن العاص يسائل نفسه. . وكذلك كان يمضي في نظر المسألة والتدقيق فيها. . . بدأ يستعرض جوانب القوة واحداً فواحداً ويوازن بين ما لديهم من (القدرة) لا من (الحق) موازنة طويلة حتى لا يخفى عليه منها وجه من وجوه الرأي. . وهذا رجل يتقن الحساب ويجيد المساومة. . . ولا يخطئ في تقدير ربحه من أي النواحي. . ولقد كان هذا موقفه في كل أزمة. . وتلك حالة قبيل كل عاصفة. . يقف ساكنا ويفكر طويلاً. . ثم يساوم في حرص. . وأخذ يستعرض ما انقضى من أيامه عسى يلقي الماضي على الحاضر ضوءاً. . . إنه ليذكر موقفه قبيل إسلامه. . . وقد بدأ أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم يظهر شيئاً فشيئاً. . . وبدأ الخوف من ناحيته يدب في قلوب قريش. . . وإن طائفة منهم لتشتد في عداوته شدة جاهلية. . . وإن

طائفة أخرى لتسرع إلى رايته فتنضوي تحتها. . . وإن طائفة ليثقل عليها الأمر فتدع الميدان وتعتزل الحياة. . . ولكن عمراً لا يميل إلى أحد الجانبين ولا يعتزل بل يزن كل ناحية على مهل. . . ويقدر تقديراً طويلاً بل هو يبتعد عن الميدان كله إلى بلاد الحبشة. . . وهناك يرقب الأمور في صبر وحرص كما يرقب التاجر أسعار السوق. . . فإذا استبان له رجحان كفة الإسلام. . . وإذ رأى كنوز النصر تخفق. . . في بدر وفي الخندق، فقد أقبل إقبال الواثق ليتمم الصفقة وليشتري عن ثقة. . . ولكنه بعد ذلك كله يرجو أن يكون كسبه من الأمر أكثر من كسب الآخرين. إنه ليعود من الحبشة مسرعاً وقد حزم أمره على الدخول في الإسلام. . . ولكن انظر كيف أقنع نفسه بالبيعة للرسول، لقد بعثت إليه قريش تسأله ما عقد عليه النية. . . فلا يعلن إسلامه إعلان عمر، ولا يفسر إيمانه تفسير أبي بكر أو عثمان. . . وإنما هو يقول للرسول: أنحن أهدى أم فارس والروم؟ فيقول الرسول: (بل فارس والروم) فيقول عمرو. . . فما ينفعنا فضلنا عليهم في الهدى إن لم تكن إلا هذه الدنيا وهم أكثر فيها أمراً، قد وقع في نفسي أن ما يقول محمد من البعث حق. . . هذا منطق الرجل في الإيمان وهكذا يستوثق لنفسه من أنه لا (خسارة) عليها في ذلك، ثم يمضي حتى إذا أقبل على الرسول الكريم ومد يده فقد قبضها، فسأله الرسول صلى الله عليه وسلم فقال: (أردت أن أشترط!) نعم يريد أن يشترط. . . يريد أن (يكسب) شيئاً في هذه البيعة الجديدة. . . فإذا سأله الرسول ما يشترط فقد تريث لحظة. . . وبدا له فطوى ما كان يريد أن يقول. . . وساعفته بديهته. . . فقال (يا رسول الله. . . إني أبايعك على أن تغفر لي ما تقدم من ذنبي، ولا أذكر ما تأخر) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا عمرو! بايع فإن الإسلام يجبُّ ما قبله وإن الهجرة تجبُّ ما قبلها). . . إنه يريد أن يشترط دائماً. . . هكذا كان موقفه في كل أمر.

(للبحث بقية)

حسين مؤنس

تحطّمي تحطّمي!

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

يا ليل للنجم اكتم ... ويا نهار أظلم
يا أدمعي فيضي ويا ... نار فؤادي اضطرمي
نفسيَ لي قد آلمت ... فقل لها تألمي
كمثل ما حطمتِني ... تحطّمي تحطّمي
مسؤولةً يا نفس أن ... تِ عن حياتي ودمي
ندمتِ مما جئتِه ... ولات حين مندم
بكِ العِدى تهكمتِ ... وأنتِ للتهكم
من قال إن لاقيت نا ... راً تلتظي فاقتحمي
ألم أقل تريّثي ... فيما عزمتِ تسلمي
مشيتِ بي في مزلق ... صعبٍ فزلّت قدمي
ما أنتِ من دمي بري ... ئةٌ فلا تختصمي
من ذا الذي أغراكِ يا ... نفسي على التقحم
قولي، أجيبي، بيني ... شيئاً، أزيلي تُهَمي
لا تلبثي ساكتة ... تكلّمي تكلّمي
يا نفس هذا وقت إن ... تبكي فلا تبتسمي
يا نفس من نفسِك قب ... ل أن تموتي انتقمي
بالكف يا نفسيَ قد ... صفعتِني في الهرم
للشيب في رأسيَ وال ... قذال لم تحترمي
أصبحتُ من موتي قري ... باً فأقيمي مأتمي
أنت حقيرة بعي ... ن الفيلسوف الفهم
وإن تردّيتِ ثيا ... بَ السيّد المحترم
أخرجتِني من ساحة ال ... نور لساح الظلم
فصرتُ في مشيي على ... وجهي اللطيم أرتمي

هل عائدٌ إليّ عه ... دُ عيشيَ المنصرم
ماذا أقول والأسى ... قيدُ لساني وفمي
وإن تكلمتُ فهل ... تردَ حقي كلِمي
الهمُّ في رأسي كأن ... هـ لظى جهنم
وهو إلى قلبي كجي ... شٍ زاحفٍ عرمرم
نحسبه مخيّماً ... وليس بالمُخيّمِ
لا أستطيع الخوضَ يع ... د الشيب في الغطمطمَ
أخاف أن يبلعني الت ... يّارُ بلعَ النّهِم
أإنني في يقظة ... أم إنني في حُلُم
المرءُ بالأفعال لا ... بالقول والتكلم
لقد رميتُ أسهماً ... فارتدّ نحوي أسهمي
جرحن جلدي ثم لح ... مي وبلغنَ أعظمي
فيا له من حادث ... للروح مني مؤلم
أنتِ به مسؤولةٌ ... ما أنا بالمتّهَم
في الموت كلُ راحتي ... وبالردى مُعتَصَمي
إذا هلكتُ فادفنو ... ني بالمكان الأشأم
قد عششت فيه على ال ... أرماس أمّ قشعم
بغداد جميل صدقي الزهاوي
النجاح
للأستاذ عبد الرحمن شكري
أنت رب الأوشاب والأعلياء ... وجماع الجهود والأهواء
تُلْبِسُ المرَء منك حُلَّةَ فضل ... يلهج الناس حولها بالثناء
أي فضلٍ للمرء إنْ لم تَحُكْهُ ... وذكاءٍ إنْ لم تكن في الذكاء
فُرَصُ العيش كلها لك جند ... والعطايا مواثلٌ كالإماء
وصروف الأقدار طراً عبيد ... للذي تصطفيه للآلاء
لا يضير الذي اصطفيت عداءٌ ... لا ولا يُزدرى لفرط الغباء
ويود الذكي لو كان غِرّاً ... ثم تكسوه حُلة الأذكياء
أنت سِحْرٌ يكسوه القبيح جمالاً ... ويُنِيلُ الوضيعَ أفْقَ العلاء
وينيل القَمِيَء أجنحة النس ... ر فيغدو لقومه كسماء
يرتجي الناس غيثها وعلاها ... بخشوعٍ وذِلة ورياء
إيهِ يا مالك القلوب قلوب ال ... ناس طراً طوع اللُّهَا والعطاء
رُبّ قلبٍ مُمَاكِسٍ لك في البي ... ع وذاك المِكاس غير الإباء
تنثر التبر مثلما تبعث الشم ... س بأضوائها على الأرجاء
فوق وغدٍ أو فوق غِرٍّ حَظِيٍّ ... أو على ظافر من الفضلاء
لك ثوب يُخفي العيوبَ ويحبو ال ... فضلَ فضلاً من روقة اللألاء
قَدَرٌ حاكه وليس صَنَاعٌ ... كصناع يدعونه بالقضاء
معدن الخير والفضيلة والحك ... مة من يرتدي بذاك الرداء
أي فضلٍ تعطي القويَّ قواه ... إن عداه النجاح في الأحياء
أي صيتٍ يُجْدِي الذكيَّ بيانٌ ... لم يُصِبْ نهزة من الإصغاء
أي فضلٍ تحبو الحكيمَ نُهَاهُ ... وهو لولا الأنصار كالأغبياء
سَرَفٌ أنْ أضاعه الدهرُ لا يُفْ ... قِر دهراً أضاعه من ثراء
أترى التبر لو يضل دفيناً ... كان يجبي أطايب الأشياء
أترى الحسن كان يُعتدُّ حسناً ... وهو في خفية عن البصراء
يغنم الظافر السعيد وإن ك ... ذَّب منه النقاد بُطْلَ الطلاء
وهو في أعين الآنام نضار ... وسواه في الخلق كالدقعاء
يغفر الناس شَرَّه وأذاه ... ويمدونه بمحض الولاء
إنما الحق ما رأى الناس حقاً ... ثابتاً في عقيدة الأهواء
والشريف الذي يرون شريفاً ... نال أولم ينل مدى الشرفاء
والكريم الذي يرون كريماً ... حاز أو لم يحز هوى الخبراء

صاحِ لو يُنْبَذُ المُزَيَّفُ طراً ... حَرَبَ الناسَ كلُّ هذا الاباء
ثم باءوا بحيرةٍ وضلالٍ ... في دعوى العقول والآراء
وإذا النجح لم يكن منه ميزا ... نٌ فكلُ مُزَيَّفُ الأنباء
كن جديراً به وإنْ لم تنله ... إنما الحقد آلة الأدنياء
ويضير الأنامَ كَيْدُ حَقُودٍ ... صد عن خير مطمح وعلاء
فدع الناس يكفلون بما شا ... ءوا وَعِشْ في حقيقة الأشياء
إنْ تجدها أو لم تجدها فللع ... يِّ وللجد نشوة الصهباء
نشوة النجح نشوة السعي والخا ... سر من لم يَفُزْ له بطلاء
ولعل الأحقاد ما صَغَّرَ النج ... ح وأنحى عليه بالإزراء
ورجاءُ للنجح خير من النج ... ح فعش من طلابه في رخاء
إنَّ بَعْدَ الرجاءِ أنْ تبلغ القص ... د ولا قصد بعد نيل الرجاء
ولقد ينكب النجاح أناساً ... بالذي فاق نكبة للشقاء
والسعيد المحروم من أسلم الأط ... ماعَ طُرّاً لصرف حكم القضاء
ويود الذي تود له الأق ... دار يبغي فيها رخاء الرضاء
ذاك خُبْرٌ يغري الحكيم وإن شَقْ ... قَ فَيُلْفِي رخاءه في العزاء
ولقد يحبط الطَمُوحُ إذا زح ... زحه الهَمُّ عنه بالإعياء
وفُرُوضُ الحياة أخلق يالسع ... ي وأحجى من اقتعاد السماء
إنَّ أعلى من العلاء خليقاً ... بعلاء لا حائزاً للعلاء
والسعيد الحظيُّ من رُزِقَ الجدْ ... دَ وفي الجد مصرع الثؤباء
هو طب الملال إنْ أعنت العي ... شُ وغالت غوائل البأساء
وسواء نُجْحٌ وفوتٌ إذا أح ... مدت ما في مسعاته من دواء
والشقي المحروم من لا يرى في ال ... عيش فرضاً ينأى به عن شقاء
ذاك من مات قلبه وهو حي ... وغدت نفسه كقفر خلاء
خاصمته النعماء في كل أمر ... وبدت فيه وحشة البيداء
خيبة المرء أن يمل مُنَاهُ ... لا تمادي الحرمان والإبطاء
ولعل الإبطاء في النجح أهنا ... وقصارى المبذول للإزراء
ويمُلُّ العطاءُ بعد أوانٍ ... كعزوفٍ من طول بُعْدِ الغذاء
والذي لا يمل فرضاً مُعاداً ... كل يوم مُوَفّقُ السعداء
لا ينال البعيدَ من لا يرى الأد ... نى سبيلاً يُدْنِي إلى البعداء
خطوة إثْرَ خطوة هكذا س ... نة عيشٍ وسنةُ في الجراء
وامتناع الطليب أهون من أنْ ... يندب المرء خيبة الأهواء
هو خطب أدهى من الفوت وقعاً ... وهو داءٌ أشد من ذا الداء
كالذي يستطب بالخطب من خط ... ب ويُقْصِي الأدواء بالأدواء
ليس يُدْعَى الرضاء يأساً فكم را ... ضٍ وفي سعيه دبيب الرجاء
والذي يستدر نجحاً من الخي ... بة أحجى برفعةٍ وعلاء
فإذا ما نكصت في العيش فاعْلَم ... ليس في العيش موطن للنجاء
يُدْخِلُ المرء نفسه في الرزايا ... كي يُدَاوَى من رعدة الجبناء
مثلما أسمعوا الجيادَ صليلاً ... كي يهون الصليل في الهيجاء
صاحِ ما العيش بالمُخَلّدِ في الده ... ر فترتد ناكصاً للوراء
وإذا ما ارتخصتَ ما هو مبذو ... ل ويا رُبَّ مُرْخَصٍ مِنْ سخاء
فالهواء الحياةُ وهو مُذَالُ ... لو نأى كان مُنْيَةَ الأحياء
لا تَقلْ خيبة الرجاء سموم ... فالشقيُّ الشقيَّ بالأسماء
إنَّ بعض السموم منه دواء ... كدواء الرمداء بالظلماء
وإذا ما هممتَ بالخير لا تو ... لعْ بكسب الإجلال والإطراء
ليس بين الإطراء والذم إلا ... كانطباق الجفون في الإغفاء
واللبيب العليم بالناس لا يغ ... تر بالمدح منهمُ والهجاء
غايظوا الراجح السعيد بمَنْ خا ... ب ولو فاز كان في البغضاء
يزعمون الخُيَّابّ أحجى بفوزٍ ... قد لواه القضاء ذو الأخطاء
زعموا الدهرَ يظلم الندب إذ يس ... مو بشأو اللئام والأدنياء

فإذا الندب نال شأواً أَعَدُّوا ... ما أعدوا له من الإيذاء
ولعمري لو بُيِّنَ النقص والفض ... ل لكانوا في النقص كالشركاء
باتِّفَاقٍ أو باقتدارٍ نجاح ... كان أو لم يكن لدى الفضلاء
ولو أن المفضولَ لم يُلْفِ نُجْحاً ... ضاعف الفَوْتُ غبنَ صرف القضاء
نابَهُ النقص من قضاء فإن خا ... ب فغبنٌ مضَاعَفٌ في الجزاء
ليس فوزُ الأباة قدرَ شقاء ... هزم الذل نخوةَ الأحياء
لا بل الفوز صحة واقتدار ... وببذلٍ للذخر أو للحياء
وبأَنْ تَطَّبى رضاء ذوي الجا ... هـ وأهل الجدود والأقوياء
وبإحباط من يكيد بكيد ... رب فوزٍ مستجلب بالدهاء
وبإطراء من ترى منه نفعاً ... وبإرضاء كل دانٍ ونائي
واحتذاءِ الحياة ترضي الذي تر ... ضاه من شيمة ومن سيماء
وَبِأَنْ لا تعاف كسباً ولا خُلْ ... قاً يداني من مَطْلبٍ ورجاء
فإذا عفت كان سعدك في الخي ... بة والنجح من صنوف الشقاء
رُبَّ قُوْتٍ للمرء منه سقام ... وهو في جسم آخرٍ كالدواء
وكذا النجح منه عِزٌّ ونعما ... ء ونجح يُلِمُّ بالبرحاء
عبد الرحمن شكري

القصص

صور من هوميروس

حُروب طَرْوَادَة - 13

مقتل بتروكلوس

للأستاذ دريني خشبة

قتِل ساربيدون ملك ليسيا وقائد فرسانها، وأشجع مقاتلٍ في جيش طروادة بعد هكتور؛ ووقف بتروكلوس على جثته يصليها سخرية وهزوا، ناسياً أنه إنما يهزأ بابن زيوس سيد الآلهة، من آثر زوجاته إليه، أوروبا الجميلة المفتان، التي وقفت من ذروة جبل إيدا تنظر إلى المعركة الحمراء، وتشهد مقتل ابنها. . . وتبكي!!

وتثور ثائرة الأم التاعسة، وتهيب بالإله الأكبر أن يحمي جثة ولدها، بعد إذ عجز عن حمايته حياً، إذ عجز عن دفع ما قضت به ربات القدر.

وينظر زيوس فيري إلى بتروكلوس واطئاً بقدمه صدر ساربيدون، عادةَ الجاهلية، ويسمع إليه يقذفه بأشنع عبارات التهكم والاستهزاء، غير راث لهذه الروح التي تفيض، أو معتبر جلال الموت الذي تخشع أمامه القلوب؛ فيثور الإله، ويحنق على بتروكلوس وجند بتروكلوس، ويأمر من لاتونا. . . أبوللو العظيم. . . فينطلق من فوره إلى معمعان الحرب، ويرسل إلهي النوم والموت فيحميان جثمان القتيل، ويدفعان عنه سباع الميرميدون التي تكاثرت حوله تريد لو تسبي سلاحه، وتستنقذ دروعه.

أما الجثة، فيحملها الإلهان الكريمان إلى ليسيا؛ وثمةَ، يخلطان بها حنوط المخلود، ويلفانها في ثوب سماوي من ثياب الرحمة، ويجمعان حولها عرائس الفنون تبكيها وتنشد لها أوجع ألحانها، وأشجى ما تكن موسيقاها.

ويبدو لبتروكلوس أن طروادة، بعد ساربيدون، لقمة سائغة، وغنيمة باردة، فيهتف بالإغريق مرة، وبالميرميدون مرة أخرى، أن يقاحموا نحو أسوارها، وأن ينتهزوا فرصة تفتح عليهم فيها المدينة الخالدة.

ولا تدري كيف يستيقظ الطرواديون وأحلافهم من سكرة الروع التي غشيتهم فينكشف لهم أن البطل الذي قتل ساربيدون وعشرات غيره من صناديدهم، ليس هو أخيل العظيم، وإن يكن يحمل خوذته، ويقنّع في دروعه، ويذرع الساحة بعربته. . فتهدأ أعصابهم، ويثبت جأشهم، ويأخذون في مناهضة الميرميدون والإغريق جميعاً.

ولكن بتروكلوس يهجم غير هياب، ويجندل من حوله الأبطال المذاويد، ويقود جنده إلى البوابة الكبرى حيث وقف هكتور ينظر إلى المعركة بعينين مشدوهتين، ونفس مذهوب بها، وقلب حيران متصدع. . .

ووقفت الآلهة دون البوابة تحمي طروادة الخالدة. . .

ذلك أن بتروكلوس كان كلما بلغ ثمة. . . وجده وجنده ينسحبون إلى وراء بقوة خافية لا

يدرون سرها، ولا يعرفون من أين تأتيهم فتتخطفهم، وتردي جحافلهم. . . وهي على قاب قوسين من داخل المدينة. . . أو أدنى!

وفي الهجمة الثالثة، سمع بتروكلوس إلى صوت إلهي يقول: (بتروكلوس! ليس على يديك تفتح هذه المدينة الخالدة! بل هي لن تفتح على أخيل العظيم الذي هو أقوى منك، ومن عشرة من أمثالك! عد من حيث جئت، واحذر أن تكون آخرتك اليوم، في هذا الميدان المضرج بدماء ضحاياك).

وتلفت بتروكلوس فرأى الهاتف هو إله الشمس، أبوللو، أيوللو بعينه، رب طروادة العظيم، واقفاً فوق برجها الباذخ يقلب قوسه في يديه الجبارتين، مرسلاً في عساكر الميرميدون والجنود الهيلانيين، نظرات تقدح الشرر، وتوري نيران الكيد والجبروت!

واقشعر جسم بتروكلوس، وأيقن أن أبوللو هو الذي رفع جثمان ساربيدون من مكانه من المعمعة، وأنه أيضاً أقبل ليلعب دوره ضد الميرميدون وضد الإغريق، وضد بتروكلوس قبل كل شيء!!

ولكن بتروكلوس محارب، وقلب المحارب العظيم لا يعرف الجبن، ولا يتلجلج لقصف المنايا في المعركة، فكيف به يخفق فرقاً إذا رأى الآلهة نفسها تحارب في صفوف الأعداء!

أقبل يا بتروكلوس وأقدم، ولا يهولنك أبوللو، وألف ألف أبوللو، مادام العمر واحداً، والساعة آتية، ولن يفلت أحد مما قدر له!

وبهت الجمعان المقتتلان حول جثمان ساربيدون حين رأوْا إليه يرتفع في الهواء، ثم يتهادى إلى جهة ليسيا، موطنه الذي يبكي عليه، فعلموا أن السماء تعمل!

وأحس الليسيُّون هذا الفراغ المفزع الذي خلفه ملكهم المقتول فيهم، فذهب رئيسهم المغوار، جلوكوز، نائب الملك وخير وجوه ليسيا، إلى حيث وقف هكتور ينظر إلى المعمعة قريباً من البوابة الكبرى، فوقف تلقاءه محطم القلب، دامع العين، موهون القوى، وقال: (يقف هنا بطل أبطال طروادة العظيم، ويدع أحلافه البواسل يجودون بأرواحهم من أجل اليوم، ويسيلون نفوسهم على ظبي الرقاق البيض التي يرهفها في وجوههم أعداؤكم! ولأي شيء!؟ لأنكم استجرتم بنا فأجرناكم وأسرعنا إليكم نفتديكم بالمهج الغالية والدماء الزكية! هكتور! لقد قتل ساربيدون، فهل علمت! هل علمت هذه النفوس التي يمضها الأسى، والعيون التي تقرحها الدموع، ويعصف بها الدم!؟ فيم وقوفك هكذا ترمق الساحة وقد رأيت من فتك الميرميدون بنا ما رأيت. هل فكرت في حماية مولانا الملك، أو على الأقل صيانة جثمانه العزيز؟! لقد سبوا دروعه وسلاحه، فأي عار يصمنا في طويل الأحقاب والآباد؟ يا لثأرنا. . . يا لثأرنا. . .؟

ولم ينبس هكتور!

ولكنه شاهد الميرميدون يعيدون الكرة بعد الكرة على الطرواديين، فينالون منهم ويمزقون صفوفهم، وشاهد البطل الإغريقي المشهور إيجيوس، يصول بين الجيشين ويجول، ويجندل الأبطال ويبيد لها ميم الرجال، فأخذ هكتور حجراً كبيراً وانتهز فَرّة من إيجيوس، وقذف بالحجر فوق رأسه فشجعه، وبرز المخ، وتدفق الدم، وتردى البطل فوق الحدور حتى استقر في بسيط الساحة!

واستشاط بتروكلوس غضباً! ويود لو كان قريباً من هكتور فيضغط على عنقه ضغطة تذهب به إلى الجحيم! ولكنه لم يستطع إلا أن يثأر للقتيل بمثل ما صنع هكتور؛ فقد تناول جلموداً كبيراً، وقذف به ستينلاس الهائل، أشجع شجعان طروادة الأحياء، فأطاح جمجمته، وهوى الجلمود على مفرش جواده فقتله، بين عجب الطرواديين وشدة تحيرهم!!

ولكن جلوكوز - رئيس الليسيين - يرى إلى ذلك فيتسخط، وينقض على البطل الهيلاني الكبير باثيسيز، فيشكه برمحه شكة تذهب به، وتتركه يتشحط في دمه. وتستمر المعركة. . .

أما أبوللو! فيغيظه من هكتور هذا الجمود الذي استولى عليه، وذلك الموقف الجبان الذي يحول بينه وبين الميدان، وفي الحق، لقد كان هكتور ينظر إلى شياطين الميرميدون ولا يصدق أنهم مقاتلة من البشر، بل وقر في قلبه أنهم زبانية من جحيم بلوتو سلطتهم المقادير على الطرواديين يسومونهم الخسف وسوء العذاب!

وتنكر أبوللو؛ فبدأ في زي محارب في عنفوان الشباب، ثم أجرى في عروقه من دماء بني الموتى، وغضَّن قليلاً من جبينه، وسوى من ساعديه، ونثر فوق عدته من ثرى المعمعة، ولوَّح وجهه بملامح (أسيوس) العظيم، أخي هكيوبا، وخال هكتور؛ وسار قُدُما إلى حيث وقف فتى طروادة المسحور بروع الساحة الهوجاء:

(هكتور! فيم إحجامك عن لقاء الأعداء يا بني؟ هلم، هلم! فَوَ أرباب الأولمب لو كان لي شبابك وعنفوانك، لصاولت هؤلاء الميرميدون الألداء، ولأخليت منهم تلك الحومة التي ملأتك هلعاً! أقدم يا هكتور ولا تحجم هكذا! إلق بتروكلوس فقد تصرعه، وإنك لصارعه، وإنك لعاقد إكليلاً من المجد فوق رأسك لا يذبل أبد الدهر، وحسبك أن أبوللو صاحبك وحاميك ومسدد خطاك، ومضاعفٌ بتأييده ضرباتك! هلم، هلم، وعش عزيزاً يا هكتور، أو مت كريماً يا بني، بين طعن القنا وخفق البنود!)

وانفتل أبوللو فانخرط في صفوف المقاتلين، وطفق يُصرع أبطال الهيلانيين ليضرب المثل لهكتور، وليشحذ من همته الخابية، وليوقظ شبابه النائم.

فلما رأى هكتور جلائل هذه الفعال التي أبداها خاله - وما هو بخاله - انكشفت عنه هذه الغمة التي غمرته، وأمر سِبْريونيس، سائق عربته، أن ينطلق به إلى الحومة. فانطلق السائق المسكين نحو بتروكلوس، حتى إذا كان على مقربة من شباة رمحه، ترك صاحبه وجهاً لوجه معه. وكان السائق من مغاوير أبطال طروادة، فأخذ يناوش بتروكلوس هو الآخر، فما كان من قائد الميرميدون العظيم إلا أن قذفه بحجر هشم رأسه، وصدع فقاره، وطار بروحه إلى هيذر.

واقشعر هكتور من هول الضربة، وعز عليه أن يودي سبريونيس وهو بين يدي مولاه، فلا يجد له حامياً. ولكن الطرواديين تكبكبوا حول القتيل، يذودون الهيلانيين الذين كان كل همهم أن يفوزوا بعدته، أثراً حربياً خالداً!!

واشتد صيال القوم حول جثمان السائق، وصخبت زوبعة القتال فوقه، واشترك هكتور وبتروكلوس مع أجنادهما؛ فكان جماعة يشدون القتيل من قدميه، بينما جماعة أخرى تشده من الرأس، وهم يعفرونه فيما بين هذا وذاك بالتراب، ويلطخونه بالدم!

ووجد أبوللو فرصته!

أبوللو الخائن! أبوللو سيد الشمس الذي لا يستحي! أبوللو الإله الذي يفرق أن يلقى بتروكلوس وجهاً لوجه، فيأتيه من الظهر! كأجبن الجبناء!!

يا للآلهة! ومسكين يا بتروكلوس!!

لقد تقدم أبوللو، مستجمعاً كل قوته في قبضة يمينه الجبارة فأهوى على قفا بتروكلوس بضربةٍ خائنةٍ كضربات اللصوص، حين ينسلون تحت أستار الليل، فأطار صواب البطل، وأوقع الخوذة الأخيلية الهائلة، وغودر الرأس العظيم مكشوفاً في متناول كل ظباةٍ وكل سنان!

ولم يدع هكتور فرصته تمضي، بل سرعان ما أبصر بتروكلوس يتلفت يرى صافعه، حتى أرسل رمحه الرعديد الخائر، إلى الرأس العاري، فأقصده. . .

وسقط بتروكلوس المسكين. . . مضرجاً بدمه!!

ووقف هكتور يتشدق، ويفاخر تلك المفاخرة الكاذبة: (بتروكلوس! أرأيت؟ لقد انتهيت! ولقد طاحت آمالك وذهبت أمانيك فوق هذه الساحة أباديد! بتروكلوس! أكنت تحلم بأن تُفْتح طروادة عليك، فتسوق بيض خدورها إماء بين يديك إلى بلادك وتُقَرّن في الأصفاد أبطالها البهاليل!؟ أيها التاعس. لقد ترديت من عربة أخيل التي لم تكن يوماً أهلاً لها، وبعد قليل تنوشك سباع الطير، وتغادرك فوق ثرى طروادة صعيداً جرزاً ورفاتاً سحيقاً!!

بتروكلوس! يا أتعس قتيل في هذه الساحة الحمراء!

كم كنت تحدث نفسك أن لو كان هكتور، هكتور الحلاحل، قاتلك، وسافح دمك، هو الذي ينام تلك النومة الساعة بين يديك!!

وكم كنت تمني نفسك أن لوعدت بعدة هكتور وعتاده إلى مولاك، إلى أخيل الذي أرسلك إلى الحومة، ولم يجازف بنفسه فيها، وهو يعلم أن أسدها الهصور لا بد قاتله، فافتدى نفسه بك، وضحاك في سبيل خلاصه، من هذه الصرعة التي زلزلتك بتروكلوس!

أهكذا قد غرر بك أخيل، فأطلقك إلى حيث تلقى حتفك وتسبح في دمك، وتغص بآلامك؛ وإنه ليسبح الآن في شهواته ويقارف لذاته، ولا يدري مصيرك المحزن، ولا يعرف ما حل بك من موتة زؤام!!. . . . . .)

وكان بتروكلوس العظيم يجود بروحه، ويسمع إلى هذا الهذر، ويبكي! فلما انتهى هكتور تأوه القتيل آهة عميقة، وقال:

(هكتور!

حق لك أن تفتخر الآن)

أما قبل هذه اللحظة، فقد كنت تبحث عن قلبك الرعديد فلا تجده، لأنه طاش من شدة ما عاينت من ضربات الميرميدون!

على أنك لو كنت رجلاً، لآثرت أن تدفن وجهك في الرغام، دون أن تفخر بنصر ليس لك في أقله يدان!

لست أنت الذي رميت يا هكتور، بل هو سيد الأولمب، وولده أبوللو، هما اللذان رميا، وهما اللذان كتبا هذا القضاء، وأبرما هذا القدر!!

وإلا، فو أرباب هيلاس، لو صاولت عشرين كلباً مثلك، لما أفلت منهم أحد أبداً؛ ولأرسلت أرواحهم الخبيثة تتردى في نار جهنم!!

أجلي هو الذي أعجلني يا هكتور، وأبوللو هو الذي فتك بي تلك الفتكة البكر، أما أنت، فلم تصنع شيئاً، أكثر من أن رميت رمية الجبان!!

على أني أقولها لك قولةً غير كاذبة

إنك ستشرب بالكأس التي شرب بتروكلوس، ولن تبسم لك الدنيا أكثر مما فعلت، فانتظر، فسيأتيك عذاب يشقيك، وسينتفض أخيل العظيم حين ينتهي إليه نبأ مصرعي، فيهرع إلى هذه الساحة، والويل لك من رمحه الظامئ إلى دمك!)

وكانت هذه المقالة قد أجهدته، فسكت قليلاً، ثم أغمض عينيه إغماضة متعبة، وفتحهما فجأة، ونظر إلى جنوده، وقال:

(ميرميدون!

وداعاً!!) . . . سلامي. . . إلى. . . أخيل

. . .وفاض الروح الكبير، وسكنت الساحة الحزينة كلها. . . كأنها تبكي!

وكأنما هزت كلمات بتروكلوس فؤاد هكتور، وكأنما خشع بطل طروادة لجلال الموت، فصمت طويلاً. . . وقال، مخاطباً القتيل:

(بتروكلوس!

من يدري إذا كان أخيل هو الذي يقتلني، أو كنت أنا الذي أقتل أخيل!

هذه آجال يا أخي!!) . . . فالسلام عليك

ولم يتورع هكتور أن ينزع حربته من رأس البطل، ولم يتورع كذلك أن يأمر فينزع رجاله عدة أخيل. . .

تذكاراً حربياً!

وعتاداً مؤقتاً!

(لها بقية)

دريني خشبة

البريد الأدبي

مؤتمر الشباب الأخلاقي - نداء لسعادة رئيسه

إلى شباب مصر:

أبنائي الأعزاء. . .

كان بودي أن أجمعكم في صعيد واحد لأقص عليكم هذا النبأ السار الذي تلتقيه بالغبطة والسرور من شباب رابطة الشباب المصري. . . وعهدي بكم سباقين إلى طريق الخير، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، وهانحن أولاء نتقدم إليكم بفكرة هي أساس لهذا المعروف الذي جبلتم عليه وتسعون إليه. . .

ما أطيب أن تدعوكم هذه الجماعة الفتية لوضع دستور للشباب يتمخض من بين جموعهم، فيدعوهم إلى توحيد الصفوف توحيدا يبشر بالنجاح، وينظم حياتهم الخاصة والعامة تنظيماً يهيئ منهم جيلاً صالحاً نحن في أشد الحاجة إليه - ذلك لأن هذا النقص الذي نراه في بعض البيئات منا هو نتيجة لعدم تركيز حياتنا على أسس يجب أن تتوافر

فينا جميعاً في هذا العصر وفي جميع العصور، فتجعل منا رجالاً يشرفون أنفسهم ويشرفون بلادهم؟ فإذا ما فهم الشباب حقيقة المقصد ونبل الغاية، فقد قدر لنا أن نحقق رسالتنا على يديه، ذلك لأنه الروح الدافعة، والقلب النابض في الأمة.

أبنائي: من منكم لا يريد الهداية لهذا الخلق الحائر. . . . المغمور فيما لا يرضي نفوسكم الطاهرة، فضموا الصفوف وتعالوا إلى كلمة سواء لتسمعوا آراء كبار مفكريكم في مؤتمر الشباب الأخلاقي، ثم نتناقش معاً في جو من الحرية ونزاهة القصد حتى يستقر عزمنا على تحقيق ما قمنا من أجله من وضع دستور تهذيبي يهيئ للشباب سبل الرشاد؛ هدانا الله سواء السبيل.

رئيس مؤتمر الشباب الأخلاقي

الأستاذ ساطع الحصري

قدم القاهرة منذ يومين الأستاذ الجليل ساطع بك الحصري الوكيل الفني لوزارة المعارف العراقية ومدير دار الآثار ببغداد، ليتصل برجال العلم وقادة الفكر في مصر، ويقف على نظم التربية وطرق التعليم ومناهج الدراسة في المعارف، فيقتبس من الأساليب ويختار من الكتب ما يلائم الحال في مدارس العراق، توثيقاً لرابطة الفكر وتحقيقاً لوحدة الثقافة بين البلدين الأخوين.

والأستاذ ساطع أحد الأعلام المعدودين في التربية؛ وقد كان عميد هذا الفن في تركية قبل الثورة العربية؛ فلما قامت الدولة الفيصلية في دمشق كان وزيراً للمعارف فيها، حتى إذا ما انتقلت إلى بغداد انتقل معها وتولى إدارة المعارف هناك، فوضع أساس التعليم للحكومة الجديدة على أساس الوحدة القومية وأحدث الطرق الفنية بالرغم من ندرة المعلمين ومشاكل الطائفية وعراقيل الإنتداب. وأفضل مزايا الرجل أنه صحيح المبدأ، منطقي الفكر، صليب الرأي، حي الضمير، يتقن العمل الذي يعمله، ويملأ المنصب الذي يَشغله.

له مؤلفات قيمة في التربية، ولكن أنفع آثاره وأخلدها مجلة التربية والتعليم التي كان يصدرها في بغداد، فإن مجموعتها سفر جليل حافل في التربية والأخلاق والأدب؛ وهو ولا شك ركن أساسي قوي من أركان النهضة العلمية في العراق؛ فأهلاً به وسهلاً.

حول قبر الصفدي

إلى الأخ (الصفدي) الفاضل، صاحب الكلمة الطيبة المنشورة في بريد الرسالة الحادية والعشرين بعد المائة. . . .

المعروف يا سيدي أن الصلاح الصفدي جاء إلى دمشق في آخر حياته، وتولى فيها وكالةً بيت المال وكتابة الدست وأقام عليهما إلى أن توفي سنة 764. فلما قرأت كلمتك شككت في ذلك ورجعت إلى ما في خزانتي من مراجع، فإذا الذي في طبقات السبكي (6: 94) والسبكي معاصره وصديقه، والشذرات (6: 201)، وتاريخ آداب اللغة العربية لزيدان (3: 161) والأعلام لخير الدين (1: 296) أن وفاته في دمشق، وزاد في الذرات أنه دفن بالصوفية، ومقبرة الصوفية قد درست وقام عليها بناء الجامعة السورية والمستشفى الوطني، ولم يبق منها إلا قبر شيخ الإسلام ابن تيمية قائما وسط المستشفى، وهي في أنزه موضع في دمشق معروف بمقبرة البرامكة.

فكيف يكون القبر الذي وصفت في صفد قبره؟ وعلام استند الأستاذ المحقق أحمد زكي باشا رحمه الله في تأييد ذلك؟ هل وجد نصاً يطمئن إليه الباحث، ويثق به المنقب، أم اكتفى بالسماع، والشائع على ألسنة الناس؟

هذا وقد وقع لي مرة أني كنت ماراً في الزقاق الذي ينتهي إلى سوق الحميدية، وفيه دور المَرْدميين، والذي يسمى زقاق الفخر الرازي، فلمحت في خربة قذرة قد اتخذها الناس لمثل ما تتخذ له المراحيض. . . . . لمحت حجراً أبيض مصقولاً عليه كتابة يبدو طرفه، وسائره غائص في الطين والأوساخ والتراب، فعالجته ودعوت من أعانني على استخراجه، فإذا هو الحجر الذي كان على قبر الإمام المصنف العظيم، علامة المسلمين، فخر الدين الرازي، وإذا عليه اسمه، فحملت الحجر إلى المدرسة التجارية، وذهبت مغتماً ثائراً، أقيم الأرض وأقعدها. . . ثم بدا لي فرجعت إلى ترجمته، فإذا من المتفق عليه أنه توفي رحمه الله ببلدة هراة يوم الاثنين في عيد الفطر سنة 606

ودفن فيها!
ولعل هذه من تلك؛ ولعل هذه المزبلة التي في صفد قبر رجل أخر غير الصلاح صاحب الوافي بالوفيات وتلك المصنفات. وإذن فلله الحمد، وإن كنا من قبل لفي خطأ مبين.
والسلام عليك أيها الأخ ورحمة الله وبركاته.
علي الطنطاوي
الشيخ عبد العزيز الميمني
قدم القاهرة الأستاذ العلامة الشيخ عبد العزيز الميمني الراجكوتي أستاذ اللغة العربية في جامعة عليكرة في الهند، وأحد أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق، وهو صاحب المصنفات والآثار الممتعة التي تمتاز بالتحقيق المنقطع النظير، ومنها:
(1) أبو العلاء وما إليه، وفي آخره فائت شعره ورسالة الملائكة.
(2) تنكيتات وتعقبات على خزانة الأدب للبغدادي ,
(3) اقليد الخزانة، وهو فهرس لما تضمنته خزانة الأدب من الكتب المنسوبة.
(4) تحقيق (ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد للمبرد).
(5) تحقيق (أبواب مختارة للأصبهاني في مجازات العرب).
(6) شرح (ما تلحن فيه العوام للكسائي ومقالة كلا لابن فارس).
(7) النتف من شعر ابن رشيق وابن شرف.
(8) ابن رشيق حياته والبيئة التي نشأ فيها.
(9) زيادات ديوان شعر المتنبي.
(10) تحقيق كتاب المداخل لأبي عمر الزاهد المطرز غلام ثعلب.
(11) تحقيق كتاب جاويزان خِرَد (أي العقل السرمدي)، كان ترجم أيام المأمون من الفارسية القديمة إلى العربية، وهو أقدم كتاب في العالم على رأي الفرس إذ ينسبونه إلى حفيد آدم.
(12) وقد عني في هذه السبع السنوات الأخيرة بكتاب اللآلئ في شرح أمالي القالي لأبي عبيد البكري فصححه على نسختين بألمانيا ومكة، ونقحه بما لا مزيد عليه من العناية، وخرج كل ما فيه، وشاطر المؤلف في جميع المباحث، وذيله بإتمام الكلام على ذيل الأمالي بطريقة البكري نفسه. والأستاذ الميمني بعمله هذا قد أتى بفلقة من الفلق في هذه الأزمنة المتأخرة، ودل على اطلاع واسع في آداب اللغة العربية في زواياها المترامية الأطراف، وقد سد الفراغات وما بيض له البكري في كثير من الأمكنة التي كانت تحتاج لمزيد بحث وتدقيق.
إلى غير ذلك من مباحث مفيدة ومقالات مستفيضة نشرت في مجلتي المجمع العلمي والزهراء. والله نسأل أن يمتع الأدب العربي بطول بقائه.
محمد شفيق
سرقة أدبية
نبهنا الأستاذ علي الطنطاوي والأديب محمد يوسف قوره إلى أن القصيدة التي نشرت في عدد الرسالة الماضي تحت عنوان: (حمامتي) وفوق إمضاء (عيسى وهب الله الشمبيري) هي للشاعر محمود حسن إسماعيل صاحب (أغاني الكوخ) ترجمها ونشرها في مجلة الأسبوع عدد 4 أبريل سنة 1934! وأعجب ما في الأمر أن هذا السارق أرسل إلينا قطعة أخرى، ويرجو أن نشير إلى أن اسمه (عيسى وهب الله عبد المسيح) لا عيسى وهب الله الشمبيري كما نشر، فكأنه ساعد الحق على فضيحته!!
السياسة والتاريخ
أضحى تعليم التاريخ في عصرنا من أكبر العوامل في تكوين العقلية والثقافات القومية. وقد لعبت الثقافة التاريخية أكبر دور في تكوين الجيل الألماني الذي قام بالحرب الكبرى، وكانت من أهم العوامل المعنوية في إذكاء الفكرة الجرمانية. وحيثما كانت السياسة تسيطر على سير الثقافة القومية نرى التاريخ يلعب دوراً كبيراً في تكوين النشء، ويصور بالألوان التي تلائم غايات الدعاية السياسية؛ ففي إيطاليا الفاشستية وفي روسيا البلشفية، وفي ألمانيا الهتلرية، يدرس التاريخ بالأساليب السياسية، ويستعمل أداة قوية لصوغ عقول الشباب وتوجيهها نحو الآراء والنقط الحساسة التي تستطيع السياسة متى حان الوقت أن تضرب على أوتارها. ولم ينس الدعاة الهتلريون في ألمانيا هذه الحقيقة بل عملوا علة استغلالها، وأنشأت الحكومة

الهتلرية معهداً جديداً للتاريخ أسمته (المعهد القومي لتاريخ ألمانيا الجديدة) وفي أنباء برلين الأخيرة أن هذا المعهد قد أفتتح بالفعل في حفلة رسمية عقدت ببهو جامعة فردريش ولهلم، وشهدها جمهور كبير من زعماء الحزب النازي ومندوبي الجامعات الألمانية. وتحدث مدير المعهد الجديد الدكتور والتر فرانك عن (الوجهة الاشتراكية الوطنية لفهم التاريخ) وأفاض في استعراض المناهج السلبية القديمة لدراسة التاريخ وحمل عليها بشدة قائلاً: (إن صراعنا العلمي ممتزج بصراع أمتنا القومي، ولسنا نستطيع أن نكون في حياتنا وفي عملنا أكثر من تعبير عقلي عن التطور العظيم والعصر العظيم اللذين اضطلع بهما أدولف هتلر)

وشرح الدكتور والتر مهمة المعهد الجديد في ميدان الدراسة التاريخية ولخصها في أربع نقط هي:

أولاً - غزو الأفكار الغربية لألمانيا منذ سنة 1789 (أعني منذ الثورة الفرنسية) إلى سنة 1848.

ثانياً - الحركة القومية الدينية في القرن التاسع عشر.

ثالثاً - ألمانيا وتطور الفلسفة في القرن التاسع عشر.

رابعاً - المسألة الألمانية اليهودية منذ الثورة الفرنسية إلى الثورة الألمانية الوطنية الاشتراكية.

وظاهر من هذا الشرح أن مهمة المعهد الجديد هي توجيه الدراسة التاريخية بما يتفق مع النظريات النازية في شرح التطورات القومية. فالأفكار الغربية التي غزت ألمانيا، كما غزت العالم كله، منذ الثورة الفرنسية هي أفكار خطرة منحلة لأنها تذهب إلى أبعد الحدود في تصوير الفردية والحقوق والحريات العامة، بينما تذهب المبادئ الهتلرية في الحكم وفي تصوير حقوق الفرد إلى أبعد حدود الطغيان وإنكار الفردية؛ والمبادئ النازية تصور بأنها أمثل طرق الحكم وتكوين الفرد. وأما فيما يختص بالتطور الديني والتطور الفلسفي، والمسألة اليهودية، فلا ريب أنها ستصور جميعاً بصور مغرقة تبرر سياسة النازي وتؤيدها، وتبرر بالأخص نظريات الجنس والتفوق العقلي الجرماني وغيرها.

وسيكون المعهد الجديد مصدر الوحي والإلهام لدراسة التاريخ وكتابته في جميع المعاهد والمدارس الألمانية.

كتاب جديد عن لورد بيرون

كانت حياة اللورد بيرون الشاعر الإنكليزي الأشهر موضع التأمل والدرس لأكثر من كاتب ومؤرخ، فصدرت عنها بالإنكليزية وباللغات الأخرى كتب لا حصر لها، ولكن حياة لورد بيرون ما تزال في عصرنا، أعني لأكثر من مائة عام على وفاته مادة شائقة للدرس؛ وقد صدر أخيراً عن بيرون كتاب جديد عنوانه (بيرون: أعوام الشهرة) بقلم الكاتب الإنكليزي بيتر كنيل؛ وهو كتاب ضخم يفيض بالعرض الشائق ويتناول حقبة صغيرة من حياة بيرون هي ما بين سنتي 1812 و 1816، وهي الفترة التي استقبل بيرون فيها مجده الباذخ وغدا عزيز المجتمع المدلل.

وقد ولد بيرون سنة 1788، من أسرة تشرفت بالنبل، ولكن عرف أفرادها بسوء الطباع وانحلال الخلق، ولم يكن بيرون يشذ عن هذه القاعدة؛ ولكن بيرون كان شاعر الطبيعة العبقري؛ بيد أن هذه العبقرية التي تفتحت بسرعة مدهشة، وغمرت كل ما حولها، لم تدم سوى فترة قصيرة هي التي اتخذها مستر كنيل موضوعاً لدراسته؛ ففي هذه الأعوام الأربعة أو الخمسة يبدو بيرون في ذروة قوته وخلاله، وقد استعرض المؤلف نفسية الشاعر وخواصه بإفاضة وبراعة، ونوه بنوع خاص بذلك المزيج المؤلم الذي يجثم في نفسيه بيرون وفي صفاته، والذي يجعل حياته الباهرة قطعة من العذاب المستمر؛ وذلك التباين المدهش الذي يجمع في صعيد واحد بين الخليع الصاخب والحيّ النقي، وبين المدنف الشره والقنوع الزاهد.

ومنذ سنة 1816 يأخذ نجم بيرون في الأفول، ولكن شهرته تصمد ردحاً آخر، وتنتهي حياته المضطربة الصاخبة بأن برغم على مغادرة إنكلترا إلى إيطاليا ثم إلى اليونان؛ وقد كان اسم اليونان الطامحة إلى حرياتها يجذب يومئذ كثيراً من عشاق الحرية، وكان

بيرون في طليعة أولئك الذين جذبهم وسحرهم ماضي تلك الأرض القديمة؛ فغادر إيطاليا إلى اليونان في أوائل سنة 1824 حينما علم بأن اللجنة الثائرة انتخبته عضواً فيها؛ وذهب إلى اليونان ليعمل في سبيلها بقلمه وماله وشخصه؛ ولكن جراثيم الداء الذي قوض حياة الشاعر كانت تعمل عملها، فلم تمض أشهر قلائل حتى توفي، واختتمت تلك الحياة الباهرة الصاخبة بسرعة، ولكن اسم الشاعر ما يزال بعد مائة واثني عشر عاماً من وفاته يفيض حوله أسمى معاني العبقرية والعظمة والخلود.

الكتب

(1) المعجم الفلكي - للدكتور أمين المعلوف باشا
(2) خصائص اللغة العربية - للأستاذ حبيب غزالة بك
(3) الزراعة العملية الحديثة - للأستاذ الأمير مصطفى الشهابي
(4) في أصول الأدب - للأستاذ أحمد حسن الزيات
(5) تاريخ الأدب العربي - للأستاذ أحمد حسن الزيات

للأستاذ محمد بك كرد علي

- 1 -

بعد بحث الأستاذ أمين المعلوف في الحيوان سنين طويلة ألف كتاب معجم الحيوان، فوقع من نفوس العلماء أجلَّ موقع، وهاهو الآن ينشر المعجم الفلكي وهو يشمل الثوابت والكواكب السيارة والصور النجومية وبعض المصطلحات الفلكية. وقد جاءت فيه أسماء كثيرة أخذها الإفرنج عن العرب للدلالة على النجوم كانت على الدهر شاهدة بفضلهم في هذا العلم. وقد حقق الأستاذ المعلوف ألفاظاً لم يسبقه إليها أحد، وعلق شروحاً وحواشي مهمة وهو في 140 صفحة طبع في دار الكتب المصرية.

- 2 -

يكتب الأستاذ حبيب غزالة بين حين وآخر أبحاثاً صغيرة مفيدة، ومنها ما نشره في جزيرة رودس وتاريخها، ونشر اليوم رسالة في خصائص اللغة العربية قال فيها إن مما امتازت به اللغة العربية من الخصائص المترادفات والتفصيل والتقسيم والأسماء المشتركة والتضاد والاشتقاق والقلب والنحت والتجوز والتعميم والتخصيص والاستعارة والمقصور والممدود والمثنى ومزدوج الكلام والاتباع والتكرار والزيادة والتأكيد والتصغير والكتابة والكنية والتفاؤل والتمويه والأمثال والجزاء أو المشاكلة والتزويج والتعويض والإدغام والتخفيف والإضمار وجمع الجمع والتناسب بين المعنى والاسم والبديع والاعتراض والإعراب والتصريف والحروف وخصائص الحروف. وأورد لكل ذلك أمثلة. وقد شفع هذا البحث بدرس في اللغات العربية العامية.

- 3 -

عرف الأمير مصطفى الشهابي في الأندية العلمية بأبحاثه الزراعية والاقتصادية واللغوية. وقد نشر إلى الآن عدة كتب في الزراعة ومنها كتاب (الزراعة العملية الحديثة) في خمسمائة صفحة، طبعه طبعة ثانية منقحاً مزيداً مزيناً بالصور بعبارة سلسة قل أن كتب في الزراعة مثلها. وللمؤلف معجم مفيد في الألفاظ الزراعية، وضع لكل لفظ من الألفاظ بالإفرنجية ما يقابلها بالعربية، ومنها ما كان من وضعه خاصة وهو بضع مئات؛ فحبذا لو صحت عزيمته على طبعه خدمة للعلم.

- 4 -

أحسن الأستاذ أحمد حسن الزيات بنشر محاضرات له ومقالات في كتاب خاص؛ ومن أحق من بلاغة ابن الزيات بالتخليد؟ وقد درس في هذا الجزء عدة موضوعات ومن أهمها الأدب وحظ العرب من تاريخه والعوامل المؤثرة فيه، وتاريخ ألف ليلة وليلة، وبحثه في الروايات المسرحية كالمأساة والملهاة والدرامة والغنائية (الأوبرا)؛ ولاشك أن الكلام على ألف ليلة وليلة والروايات المسرحية من الأبحاث الممتعة التي وفق الأستاذ إلى وضعها ولم يسبقه أحد إلى تجليتها وتجويدها. وحبذا لو جمع أيضاً في كتاب بعض ما خطته أنامله على صفحات الرسالة من المقالات الممتعة، فإن الكتاب تتناقله الأيدي في كل زمان ومكان على صورة لم يكتب للمجلات حتى الآن مثلها.

- 5 -

قلَّ في الكتب حتى المدرسية ما طبع بعض طبعات. وصدور الطبعة السادسة من تاريخ الأدب العربي دليل بيِّن على احتياج الطبقات المتأدبة إليه، وقد زاده المؤلف

إمتاعاً فنقحه وذيله بمعجم فسر ما غمض من الألفاظ والتراكيب، حتى لا يحتاج طالب هذا الفن إلى الرجوع إلى كتاب آخر. وحبذا لو صحت عزيمة المؤلف الكبير على البحث في سني ولادات من ترجم لهم من الأدباء والعلماء، فللولادات كالوفيات دخل كبير في تصوير المترجمين؛ مثال ذلك عبد الله بن المقفع، فقد ذكر أنه قتل في السادسة والثلاثين، وعلى هذا جرى كل من ترجموا له ومنهم كاتب هذه الكلمة في (رسائل البلغاء) (طبعت طبعة
ثانية في القاهرة سنة 1913م - 1324هـ)، وتبين بعد ذلك أن ابن المقفع عاش أكثر من ذلك، فقد ذكر الجهشياري في كتاب الوزراء والكتاب الذي طبعه في فينا السيد موجيك من علماء المشرقيات سنة 1345 - 1926 أن ابن المقفع كان يكتب لدواوين عمر بن هبيرة على كرمان؛ وعمر بن هبيرة عزله هشام بن عبد الملك عن العراق والشرق سنة خمس ومائة، وقال إنه كتب للمسبّح بن الحُوَّاري في نيسابور في ولاية عبد الله بن عمر بن عبد العزيز قبيل تقلص الدولة الأموية، وبهذا يصدق التخمين بأن عبد الله بن المقفع ولد في عشر التسعين ظناً، ولا يعقل أن يكتب لأحد قبل أن يتم له نحو خمس وعشرين سنة على الأقل، وإذا حسبنا ذلك كان ابن المقفع يوم قتل ابن ستين أو نحوها؛ وهذا هو المعقول لأنه كتب أكثر من عشرة كتب، والعمر الذي قال به من قال لا يتسع لكل هذا.

محمد كرد علي

العدد 124 - بتاريخ: 18 - 11 - 1935

على هامش الموضوع

في الجمال؟!

حاولت أن أتابع البحث (في الجمال) فنبا عليّ الفكر، وشرد عني الخيال، واستبهم أماميَ المسلك. وكيف يستطيع أن يبحث في الجمال من يرى القبح الشنيع قد هجم على المشاعر من وراء البحر، فآذى الأحداق، وسمم الأذواق؛ وشوه كل منظر؟ ومَن أقبح من قادر يختل، ومعاهد ينكث، وصديق يروغ، ومتمدن يعالن الناس بسخف الذمة، وذائد عن الحق يتبجح باهتضام الحق، وغارق في الثراء يتحلب ريقه على كفاف الفقير، وكابوس من الأنس يجثم على صدرك نصف قرن، تريد أن تزحزحه فيثقل، أو تخاطبه فيغبى، أو تغاضبه فيبرد؟

إن في بعض أعمال اللصوص جمالاً إذا نمّت جراءتها على القوة، أو دلت حيلتها على الذكاء؛ ولكن أي جمال في صوت يتحنن بالرياء في (جنيف)، ويتخشن بالعداء في (جلد هول)، ثم لا يختلف في مقامه وقراره عن عواء الذئب في روما؟ أليس هذا وذاك مظهرين وضيعين قبيحين من ضراوة الحيوانية في الإنسان الضعيف؟

على أن من يسطو وفي يده الخنجر، أدنى إلى الرجولة ممن يسطو وفي يده المسبحة؛ لذلك كانت قهقهة (الدوتشي) من تصريح (هور) سخرية أليمة، خنس لها الرياء، وخجل منها الدهاء، وفرت أمامها الحجة!

الحياة جميلة؛ ولكن هذا الإنسان يلونها بلونه فتقبح؛ وقد جاهد المرسلون والمصلحون أن يجلوها على صبغة الله فعجزوا أمام بغيه وجشعة!

ماذا يبتغي الإنسان من الإنسان إذا كان يفسح له في أرضه، ويفضل عليه من رزقه، ويقول له: هواك هواي، ورضاك رضاي، وعدوك عدوي، ولكن لي وطني ولك وطنك، فلينعم كلانا بسلطانه الطبيعي على ما يملك، وليكن بيننا ما بين الحليف والحليف من تعاهد في شرف، وتعاون في استقلال، وتعامل في حرية؟ هذا كلام على بساطته وصراحته ووضوحه ما يزال يعجز الإفهام في أمة تفاخر بالعلم والحكم، وتباهي بالديمقراطية والعدل؛ لأن الأنانية المسلحة إذا عصفت في النفوس غشّت على الحواس فلا تشعر، ورانت على الأذهان فلا تدرك، وأنبهم في الخواطر مفهوم الفضيلة في الإنسان، ومدلول الجمال في الطبيعة، فلا تدرك من معنى البحر غير الأسطول، ولا من دلالة الأرض غير الجيش، ولا من جمال غير الاستعمار الوقح.

من شذوذ هذه العقلية الغالبة في الغرب ما نعاني ويعاني الشرق من أرزاء ومحن! ومن شذوذ هذه العقلية الطاغية ما تصبَّب أمس من نفوس الشباب على أديم الأرض! فدحتهم تركة الآباء الغارمة، وأحفظتهم سياسة الأصدقاء الجارمة، فغضبوا للحق

الطعين، وفزعوا للأمل المخيَّب، ففاضت أرواح طاهرة، ودميت وجوه حرة، وضجت بالأنين مستشفيات، وجأرت بالشكوى سجون، وتجاوبت بالحزن بيوت، وتألف من هذه السطور الحمر صفحة بيضاء من تاريخنا الوطني الحديث.

جف اللسان وحفى القلم من استعداء القانون واستصراخ العدالة؛ والقانون والعدالة كلمتان لا تعنيان إلا إرادة القوى ومنفعة الغاصب؛ فإذا لم يكن بجانب الحق قوة تؤيده، وبازاء العدل سلطان يقيمه، كان استمساك الضعيف بهما استمساكاً بالهباء المنتثر!

إذا أعوزتك اليوم قوة السلاح فلا تعوزك قوة الخلق؛ وقوة الخلق ميسورة لك متى أقنعت نفسك بأنك إنسان له إرادة قبل الوظيفة، وكرامة فوق المال، وواجب مع الحق، وتاريخ بعد الموت. وقوة الخلق هي التي تجعل للأمة كلمة لا تتعدد، وسياسة لا تتردد، ومهابة في الصدور تكسر من طرف المحتقر، وتكف من شرة الطامع، وتصد من عادية الدخيل.

جربنا كل شئ في جهاد العادين فما أغنى عنا جهاد ولا تجربة، لأن العُدة كانت قوية إلا من ناحية الخلق. وإذا لم يكن الخلق كانت الشهوة والأثرة والتحاسد والتخاذل والتواكل والهوى؛ وهذه الرذائل مجتمعة ومتفرقة كانت في مدى أعوام الجهاد الستة عشر وباءً ذريعاً تسلطه الأقدار من حين إلى حين على جهود الشباب فيفنيها، وعلى آمال الأمة فيذويها، ثم يقطع ما بيننا وبين الزمن المتقدم فنسقط في هوة الماضي على الموقف الأول.

هانحن أولاء على جلَد الصخرة التي وثبت من فوقها الأمة: وراءنا الهدنة التي قُسمت عليها الأسلاب ووُزعت بينها الغنائم؛ وأمامنا أطلال من الجهود العافية، وأنقاض من الأماني المحطمة؛ وعن أيماننا وعن شمائلنا آثار أقوام كانوا قبلنا فغبَّروا في وجوهنا وانطلقوا خفافاً متساندين إلى الأمد البعيد. فهل لسادتنا الذين يتولون استئناف الجهاد أن يجربوا في قيادتهم قوة الخلق؟ إنهم إن فعلوا ذلك أمنوا ولا ريب نكسة العلة، ورِدَّة الهزيمة، وضلة الطريق. جاهدوا أنفسكم قبل أن تجاهدوا العدو، فإن من لم ينتصر على نفسه لا ينتصر على غيره، ومن لم يقد نفسه الواحدة، لا يستطيع أن يقود النفوس المتعددة.

أحمد حسن الزيات

كَلِمة وكُلَيمة - 6

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

أصوبُ الصوابِ عند المأفون غلطةٌ تجلِبُ له الشهرة.

يرى المغرورُ أنه كالمسجد، إذا هدمه الناسُ بقيت أطلاله تصلي وتسلم على نفسها . . .

. . . . . عقلُ النملة يصوِّرُ لها ظلام الليل جيشاً من النمل قد ملأ العالم.

تعدُّدُ الأحزاب في أمة تحتاج إلى الحرية، كتعدد الأنبياء في أمة تحتاج إلى العقيدة؛ إذا وجد فيها نبيان كان اتفاقهما معاً دليلاً على كذبهما معاً، وكان أقل ما في اختلافهما أنه دليل على كذب أحدهما.

إنما أضعفَ السياسيين في الشرق أن ربحهم وخسارتهم من (الوظائف) لا غير.

من مصائب هذا الشرق أن الخصامَ السياسيَّ فيه لا يدلُّ على سياسة. . . تَبَرَأ متبوعٌ من تابع فاختصما، فكانا كرجُل وحذائه؛ يقول الرجل: أنا خلعتُ الحذاء، ويقول الحذاء: بل أنا خلعت الرجل. . . إذا كانت المشكلةُ بين الذئب والحَمَل، فلن يكون حلها إلا من أحد اثنين: إما لحم الخروف، أو عصا الراعي. . .

كلُّ دجال له أساليبُه التي صار بها دجالاً، وليس للمنخدعين إلا أسلوبٌ واحد في الغفلة؛ وشرٌّ من الشرِّ تعدُّدُه. . .

إذا اصطنعتَ سفيهاً يُسافِهُ عنك، فاحذَرْه لليوم الذي لا يكون فيه سفيها إلا عليك.

من أحْسَنَ تملُّق المرأة أحسنَ إخضاعها لا تملُّقَها.

ما رأيت امرأةً حمقاءَ إلا كان حمقُها من سخفه كأنه امرأةٌ أخرى حمقاء. . .

إذا أحببت ففكر في البغض لعله يكون، وإذا أبغضتَ ففكر في الحب لعله يعود؛ بهذا وهذا تكون دائماً محباً وإن أبغضت.

ما أعجبَ تناقُض المرأة! هي تريد أن تستقلَّ فتخرجَ عن طاعة الرجل، وهي لا تسعد إلا حين تجد رجلاً تشعر من حبه بوجوب طاعته.

من بلاءِ الحب أنه ينزِّه جمالَ المحبوب عن كل عيبٍ وكل نقص؛ ولكنه بذلك يدفع طبيعةَ العاشق إلى البحث عن كل نقص وكل عيب في أعمال المعشوق.
قاعدةُ الرجل مع المرأة التي يحبها أن تنتصر إرادته وإن ذلت كبرياؤه؛ وقاعدة المرأة مع
الرجل أن تنتصر كبرياؤها وإن ذلت إرادتُها.
سؤال فيه جوابه: لماذا يكون حَقدُ المرأة الخائبةِ في حبها حقداً شديداً على الرجل الذي أحبته حتى كأنه حقدُ أمٍ على قاتل أطفالها. . .؟
المرأةُ التي لا زوج لها منفيةٌ وإن كانت في دارها، لأن وطن قلبها الرجل.
إذا استسلمت المرأةُ لمحبها ظنت الحبَّ قد ابتدأ، وعلِمَهُ الرجلُ قد ابتدأ ينتهي. . .
أذاك فرقُ ما بينهما في الحب أم فرقُ ما بينهما في الظلم؟
ما أعجبَ هذا! أرادت حبيبةٌ ظريفةٌ أن تكون مرةً سخيفة عند محبها، فلم تستطع أن تكون سخيفة إلا كما يحب.
ما هو السُّلوان في الحب؟ هو رجوعُ العقل من سَفَره الخياليّ في جسم المحبوب.
الرذيلة الصريحةُ رذيلةٌ واحدة، ولكن الفضيلةَ الكاذبةَ رذيلتان.
يرى الملحدون أن من حقهم أن يعملوا في النفس الإنسانية كما يعمل أهل الدين؛ فهل من حق أصابع الرجلين أن تمشي على البِيَانة كأصابع اليدين؟
لكل إنسان عقلٌ تحكمه الغريزة، وحقيقةُ الدين أن يكون للغريزة عقلٌ يحكمها.
إذا جئتَ بالنكتة وبالغتَ فيها، كنت كمن أضاء المصباح وأطفأه حين أضاء.
(طنطا)
مصطفى صادق الرافعي
مدينة الزهراء وحياتها الملوكية القصيرة - 2
للأستاذ محمد عبد الله عنان
تتمة البحث
وقد انتهت إلينا هذه الضاحية الملوكية الشهيرة أوصاف وأرقام مدهشة تنبئ عما كانت عليه من الضخامة والفخامة، فقد ذكر ابن حيان مؤرخ الأندلس أن الزهراء كانت تشغل مسطحاً قدره تسعمائة وتسعون ألف ذراع، وأن مبانيها اشتملت على أربعة آلاف سارية ما بين صغيرة وكبيرة، منها ما جلب من مدينة رومة، ومنها ما أهداه قيصر قسطنطينية، وأن مصاريع أبوابها كانت تبلغ زهاء خمسة عشر ألفاً، وكلها ملبسة بالحديد والنحاس المموه؛ وذكر مؤرخ آخر أن عدد الفتيان بالزهراء كان ثلاثة عشر ألفاً وسبعمائة وخمسين فتى، وعدد النساء والحشم بالقصر ستة آلاف وثلثمائة، يصرف لهم في اليوم ثلاثة عشر ألف رطل من اللحم سوى الدجاج والحجل وغيرها. وقد لا نجد في المنشآت الملوكية الحديثة ما يذكرنا بهذه الأرقام المدهشة سوى القصر البابوي أو قصر الفاتيكان الشهير برومة وما انتهى إليه خلال العصور المتعاقبة من الضخامة والفخامة والجلال، فإن هذا المقام الكنسي الملوكي الفخم يحتوي على أربعة آلاف غرفة وعلى مئات الأبهاء والساحات والأروقة، ويضم عدة أجنحة ومجالس رائعة أسبغ عليها أبدع ما عرف الفن الرفيع من آيات الزخرف والنقش والتصوير.
- 2 -
ولم تعمر الزهراء طويلاً كقاعدة ملوكية؛ فقد لبثت قاعدة الملك والخلافة زهاء أربعين عاماً فقط، مذ نزل بها الناصر سنة 329هـ حتى نهاية عهد ابنه الحكم المستنصر سنة 366هـ؛ ولم يكن ذلك لأن الزهراء قد عفت كقاعدة ملوكية، ولكن لأن تحولاً خطيراً قد وقع في سلطان بني أمية؛ فقد ترك الحكم الملك لابنه الوحيد - هشام المؤيد - وهو طفل لم يجاوز الحادية عشرة؛ وسرعان ما استولى الوزير محمد بن عبد الله بن أبي عامر على مقاليد الحكم بمؤازرة صبح أم المؤيد ووصية العرش، ولم يمض قليل حتى استأثر ابن أبي عامر بكل سلطة ورياسة في الدولة؛ وفي سنة 368هـ أنشأ له ضاحية ملوكية جديدة
بجوار قرطبة على نهر الوادي الكبير وأسماها الزاهرة، وجعلها قاعدة الحكم، ونقل إليها خزائن الأموال والأسلحة ودوائر الحكومة، واتخذ سمة الملك وتسمى بالحاجب المنصور.
وهكذا فقدت الزهراء صفتها كقاعدة رسمية، وشاءت الأقدار ألا تكون منزل الملك

والخلافة إلا في عهد مؤسسها وخلفه الذي أكمل بناءها. وكان قيام الحاجب المنصور في الواقع خاتمة لسلطان بني أمية، ولم يبق لهم بعد ذلك من الملك سوى الاسم؛ وقد بقيت الزهراء حيناً آخر مقاماً ملوكياً للخليفة المحجور عليه، ولكنها فقدت إلى الأبد أهميتها السياسية، وروعتها الملوكية.

ثم كانت المحنة الكبرى بانهيار هذا الصرح البديع الذي شاده بنو أمية بالأندلس، وانهيار الخلافة الأموية والدولة العامرية معاً، وسقوط الأندلس صرعى الحرب الأهلية. ففي سنة 401هـ (1011م) زحف سليمان المستعين زعيم الثورة الأموية على قرطبة لينتزعها من المؤيد وواضح الحاجب التغلب عليه، ثم هاجم مدينة الزهراء واقتحمها، وفتك أنصاره البربر بسكانها، وعاثوا في معاهدها ورياضها، وأحرقوا المسجد والقصر؛ والظاهر أن الضربة كانت قاضية، فلم يبق من الضاحية الملوكية الباهرة سوى أطلال دارسة، ولا يكاد اسم الزهراء يذكر بعد ذلك في التاريخ الأندلسي إلا كأثر عصفت به صروف الدهر؛ وقد كانت الزهراء أيام روعتها وازدهارها وحي الشعر الرائع والخيال الرفيع، وقد تغزل بجمالها وفخامتها جمهرة من أكابر شعراء الأندلس وأمراء البيان، ثم رثوها بعد ذلك في مقطوعات مؤثرة؛ ومما قاله ابن زيدون أعظم شعراء العصر يشيد بالزهراء ورائع ذكرياتها:

خليلي لا فطر يسر ولا أضحى ... فما حال من أمسى مشوقاً كما أضحى
لئن شاقني شرق العقاب فلم أزل ... أخص بمخصوص الهوى ذلك السفحا
معاهد لذات وأوطان صبوة ... أجلت المعاني في الأماني بها قدحا
ألا هل إلى الزهراء أوبة نازح ... تقضت مبانيها مدامعه سفحاً
مقاصر ملك أشرقت جنباتها ... فخلنا العشاء الجون أثناءها صبحا
يمثل قرطبها لي الوهم جهرة ... فقبتها فالكوكب الرحب فالسطحا
محل ارتياح يذكر الخلد طيبه ... إذا عز أن يصدى الفتى فيه أو يضحا
هناك الحمام الورق تندى خفافها ... ظلال عهدت الدهر فيها فتى سمحا
تعوضت من شدو القيان خلالها ... صدى فلوات قد أطار الكرى صبحا

ونقل إلينا الشيخ محي الدين بن العربي أبياتاً قال إنه قرأها على بعض جدران الزهراء بعد خرابها، رثاء في المدينة الشهيرة وهي:

دَيار بأكناف الملاعب تلمع ... وما إن بها من ساكن وهي بلقع
ينوح عليها الطير من كل جانب ... فيصمت أحياناً وحيناً يرجع
فخاطبت منها طائراً متغرداً ... له شجن في القلب وهو مروع
فقلت على ماذا تنوح وتشتكي ... فقال على دهر مضى ليس يرجع

ويرثي الفتح معاهد الزهراء خلال رواية نقلها عن جولة لبعض الكبراء في تلك الأطلال: (وآثار الديار قد أشرفت عليهم كثكالى ينحن على خرابها، وانقراض إطرابها، والوهي بمشيدها لاعب، وعلى كل جدار غراب ناعب، وقد محت الحوادث ضياءها، وقلصت ظلالها وأوفياءها، وطالما أشرقت بالخلائف وابتهجت، وفاحت من شذاهم وأرجت، أيام نزلوا خلالها وتفيأوا ظلالها، وعمروا حدائقها وجناتها، ونبهوا الآمال من سناتها، ورعوا الليوث في آجامها، وأخجلوا الغيوث عند انسجامها، فأضحت ولها بالتداعي تلفع واعتجار، ولم يبق من آثارها إلا نؤى وأحجار، وقد هوت قبابها، وهرم شبابها؛ وقد يلين الحديد، ويبلى على طيه الجديد. . .)

ويحدثنا الرحالة البغدادي ابن حوقل عن الزهراء - وقد زارها أيام الحكم - فيصف موقعها، ويقول إن العمارة اتصلت بينها وبين قرطبة، وأن لها مسجداً جامعاً دون جامع البلد (قرطبة) في المحل والقدر، وعلى سورها سبعة أبواب حديد، وليس لها نظير بالمغرب فخامة حال وسعة تملك، وابتذالاً لجيد الثياب والكسى، وفراهة الكراع وكثرة التحلي، وإن لم يكن لها في عيون كثير من الناس حسن بارع.

وكانت أطلال الزهراء ما تزال قائمة حتى القرن السابع، الهجري (القرن الثالث عشر) وقد ذكرها الشريف الإدريسي في معجمه الجغرافي الذي وضعه في منتصف القرن السادس وذكر أن بينها وبين قرطبة خمسة أميال؛ وذكرها أيضاً ياقوت الحموي في معجمه الجغرافي الذي وضعه في أوائل القرن السابع الهجري. وفي سنة 636هـ (1236م)

كانت نكبة الأندلس، ونكبة الإسلام بسقوط قرطبة في يد النصارى، فطويت بذلك أسطع صحف الإسلام وصحف الخلافة في الأندلس؛ وكانت قرطبة قد فقدت أهميتها السياسية منذ الثورة وسقوط الدولة الأموية، ولكنها لبثت بعد ذلك عصراً تحتفظ بهيبتها الخلافية القديمة. ومن المرجح أن أطلال الزهراء بقيت بعد سقوط قرطبة في يد النصارى عصراً يصعب تحديده؛ غير أن قرطبة فقدت في ظل سادتها صبغتها ومعالمها الإسلامية بسرعة؛ ولم يبق اليوم من آثارها ومعاهدها الإسلامية الشهيرة سوى مسجدها الباهر الذي حوله الأسبان منذ افتتاحها إلى كنيسة جامعة؛ وقد شوهت بذلك معالمه ومناظره الأولى، ولكنه ما زال يحتفظ بكثير من أروقته وأبهائه القديمة، وما زال يلفت نظر الزائر المتجول بمسحته العربية والإسلامية، بل ما زال يعرف حتى اليوم بكلمة (مزكيتا) أي المسجد؛ ولم يبق غير المسجد من معاهد قرطبة وأبنيتها الفخمة القديمة سوى أنقاض بالية. أما الزهراء، فقد اختفت معالمها منذ عصر بعيد، ولم يبق منها اليوم أثر ما. بيد أن موقعها ما زال يعرف بالتقريب، في شمال غربي قرطبة، ويطلق عليه اليوم (قرطبة القديمة) ويقوم إلى جوار موقعها القديم إلى اليوم دير (سان جيرونيمو) ويقال إنه بني بأنقاض قصر الزهراء وقد عنيت الهيئات الأثرية الأسبانية في العهد الأخير بإجراء الحفر في تلك المنطقة محاولة استكشاف مواقع الزهراء ومعالمها الحقيقية.

وقد كان لهذا المصير المحزن الذي انحدرت إليه مدينة الناصر بسرعة مؤسية شبيه بين مصاير القواعد الملوكية الإسلامية؛ ذلك هو مصير مدينة القطائع الملوكية التي أنشأها ابن طولون إلى جانب الفسطاط، وأسبغ عليها ولده خمارويه آيات رائعة من الفخامة والبهاء، ثم شاء القدر أن تنهار دعائم الدولة الطولونية، وأن تمحى القطائع بين يوم وليلة، بعد حياة قصيرة لم تجاوز ثلث قرن؛ فكانت مأساة مؤثرة تشبهها مأساة الزهراء من وجوه كثيرة مع فارق في العظمة والمنزلة السلطانية، وفي ظروف العصر، وصروف الأحداث.

محمد عبد الله عنان

مذاهب الفلسفة

المذهب الطبيعي - 2

للأستاذ زكي نجيب محمود

إذن فالجامد والحي شيئان مختلفان أشد ما يكون الاختلاف، وليس من اليسير أن يسبغ العقل أنهما جانبان لحقيقة واحدة هي الطبيعة، وأنهما يسيران وفق قانون واحد هو قانون الطبيعة؛ ولعل أعقد المشاكل التي يصادفها المذهب الطبيعي هي هذه: كيف أنتج الجماد عالم الأحياء وبين موات الجماد وحياة الأحياء ما رأينا من فروق؟ هنا تقدمت نظرية التطور لتأخذ بيد المذهب الطبيعي فتنجو به من هذا المأزق العسير بأن تفسر لنا كيف نشأت الحياة وكيف نشأ العقل.

أما دارون فلم يستطع ذلك، أو هو على الأصح لم يحاوله، فقد سلم بوجود الحياة تسليماً وفرضه فرضاً، ثم بدأ سيره من هذه النقطة بأن أخذ يبحث فيما يطرأ على الحياة من تغير وتحول، ومعنى ذلك أن دارون قد فرض أن الكائن الحي قد تسلسل من كائن حي قبله، وهذا من كائن حي قبله، وهكذا دواليك. فهو على ذلك لم يزد في بحثه على أن تتبع حلقات الاتصال بين أنواع الأحياء أي بين الكائنات السفلى والكائنات العليا، وإذن فدارون لم يقدم في نظريته حلاً للمشكلة الأولى: مشكلة المذهب الطبيعي، وهي، كيف نشأت الحياة من الجماد، وكيف نبت العقل مما لا عقل فيه؟ ثم جاء في أثره هربرت سبنسر وتناول بعقله الجبار نظرية دارون فأكمل نقصها وأتم مطلبها. فأقام الحجة على أن الحياة إن هي إلا ضرْب من ضروب المزيج الكيميائي بين أجزاء المادة، فإذا كنا نبغي الوصول إلى الحلقة التي تصل الحياة بالجماد، فما علينا إلا أن نلتمس علماء الكيمياء!. . ولقد رأى سبنسر مما وصلت إليه العلوم في عهده أنه ليس بين قطع الجماد وكائنات الأحياء تلك الشقة الفسيحة التي توهمها الأولون، فالفرق كل الفرق بينهم اختلاف في درجة التعقيد والتركيب. أما العقل فضرب من ضروب الطاقة كالحرارة والكهرباء والضوء.

ولكن ما بالنا نركب رءوسنا فلا يرضينا إلا أن يقوم الدليل على أن العقل قد نشأ من

الجماد نشأة تدريجية معقولة وإلا كان الأمر في أعيننا لغزاً مغلقاً؟ فلم لا تكون الحياة قد خرجت
من الجماد خروجاً فجائياً مباغتاً بغير مقدمة ولا تمهيد؟ قلب النظر في جوانب الكون تر آلافاً من الأشياء التي جاءت إلى الوجود من غير مقدمة منطقية؛ خذ طعم الملح مثلاً وسائل نفسك من أين جاء؟ هو لم يكن في عناصر الملح الأولى التي من مزيجها نشأ الملح، وإذن فقد جاء هذا الطعم الذي نعرفه للملح طارئاً مباغتاً. فلماذا لا تكون الحياة ولا يكون العقل قد نشأ كلاهما على هذا النحو، فيكون لهما من الخصائص ما ليس لعنصرهما الأول: أعني ما ليس في مادة الطبيعة الجامدة. . . تلك حجة جديدة يؤيد بها المذهب الطبيعي رأيهم.

ولكن دعك بعد هذا كله من تطور العقل سواء أكان تدريجياً أم مفاجئاً، وحسبنا أن نأخذه كما بين أيدينا. فهل يستطيع المذهب الطبيعي أن يفسر كيف يعمل العقل؟ كيف يمكن لقطعة من اللحم أو الشحم أن تخلق فكراً وتبدع خيالاً كما نرى؟ إنه إن استطاع أن يعلل ذلك هان عليه بعد ذلك كل شئ، ولهذا تراه اليوم يجاهد جهاد الأبطال في ميدان علم النفس لعله واجد عنده نصيراً وظهيراً؛ وهاهو ذا علم النفس منذ منتصف القرن الماضي ينحو في بحثه نحواً فسيولوجياً، أي أنه يعتبر العقل وظيفة للمخ لا أكثر ولا أقل، فهو لذلك خاضع كبقية أعضاء الجسم لقوانين العلة والمعلول. وكثير بين علماء اليوم من يزعم أن كل ظواهر الإنسان الروحية والعقلية لا تعدو أن تكون نتائج كيميائية لبعض إفرازات الجسم. وليس بعيداً عن هؤلاء أن يحين الحين الذي يسيطر فيه الإنسان على قواه العقلية، بأن يبتكر طعاماً معيناً إفرازاً خاصاً يرفع الفدم الوضيعْ إلى مرتبة الفلاسفة والحكماء!!

المذهب الطبيعي والدين:

لما كان أنصار هذا المذهب يتشبثون بالطبيعة وحدها، فهم ينكرون أشد إنكار أن يكون وراءها أية حقيقة أخرى، وبعبارة موجزة واضحة: هم ينكرون الدين وكل ما يتصل بالعقيدة الدينية من حقائق لا تمت إلى ظواهر الطبيعة بسبب من الأسباب. فإن ساءلتهم قائلاً: إن كانت العقائد ضلالاً في ضلال فما الذي حدا بالإنسان بادئ ذي بدء أن ينظر إلى العالم بمنظار روحي، ومن أين جاءه هذا الاتجاه في التفكير؟ أجابوك إنه خطأ بشري ككل ما يقع فيه الإنسان من أخطاء، ولكنه في رأيهم خطأ واجب مفيد لم يكن للإنسانية عنه بد في حياتها الأولى.

إنما ينشد الإنسان الحقَّ في الرأي لا لشيء إلا أن تكون الحقيقة عوناً له في طريق الحياة؛

إذ الفكرة الصائبة توضح السبيل وتيسر الطريق، وتعمل على استمرار البقاء واجتناب الخطر؛ وعلى نقيضها الفكرة الخاطئة، فهي مضللة للإنسان مبعثرة لجهوده في غير ما طائل، بل إنها قد تضره وتؤذيه وتؤدي به إلى الموت. ولما كانت العقائد الدينية مجموعة آراء نسجها الإنسان ووشج بينها، كان لنا أن نقول إنه كلما بعدت العقيدة عن الصواب كانت أدنى إلى إيذاء الإنسان والعمل على تدهوره، ولكن مما يهون الأمر أن الفكرة الخاطئة لا يستفحل خطرها وأذاها إلا إذا مست حياة الإنسان العملية فأثرت فيها أثراً مباشراً، فإن لم تكن كذلك كانت قليلة الخطر أو عديمته؛ فلما كان الإنسان مثلاً في العصور القديمة لا يتعدى بأسفاره ورحلاته نطاقاً محدوداً ضيقاً، لم تكن لتؤذيه فكرة أن الأرض مسطحة على خطئها، فالخطأ والصواب في مثل هذه الحالة سواء، بل كثيراً ما يكون الخطأ أنفع للإنسان من الرأي الصحيح كأن توهم المشفى على الموت بأنه قوي سليم.

وعلى هذا النحو كانت فائدة النظرة الروحية في مراحل الإنسانية الأولى، إذ كانت العقيدة أقوى حافز يدفعه إلى العمل والنشاط حينما كان الإنسان أشد ما يكون حاجة إلى التشجيع. فقد كان أول أمره يهيم مع أوابد القفر وضواري الغاب، يعيش لساعته عيش الحاجة والضرورة، فلما أراد أن يعلو على مستوى الحيوان وأن يتخذ لنفسه في الحياة منزلة رفيعة ومكانة ممتازة بين الأحياء، مستعيناً بما أوتي من عقل وخيال، رأى أن الوسيلة الأولى هي أن يحطم أغلال الضرورة ما استطاعت حيلته، وأن يوسع من أفق زمانه فينفذ ببصره إلى الغد، مهنا يعيش في جو من أحلام ينسجها لنفسه بقوة خياله، وسرعان ما ألقى في روع نفسه أن هناك - فوق العالم الذي يرى - قوة سامية

سترعاه وتأخذ بيده مما يصادفه في حياته من عسر وإشكال، وتمكنت من نفسه العقيدة بأن تلك القوة العليا ستكون له خير هادٍ ومرشد في طريقه نحو الكمال الذي أخذ يرجوه ويبتغيه بعد أن نقض حياته الحيوانية الأولى، وتحرر من رق الضرورة واستعبادها.

تلك كانت نواة العقيدة الدينية التي عملت فيما بعد على تماسك الأفراد وترابطهم في تكوين المجتمع، إذ أوحت إلى الناس ضرورة احترام العادات والتقاليد التي هي الأساس الأول في بناء المجتمع، كما خلعت على السلطة المدنية مسحة مقدسة زادت من هيبتها واحترامها؛ وبديهي أنه لا بقاء لمجتمع بغير سلطان محترم مهيب، وهكذا كان الدين عماداً قويماً في

بناء المجتمع أول الأمر كما كان خير مدرب لمشاعر الإنسان وعواطفه، إذ راضها وصقلها وأجراها في سبيل صالح مستقيم، ولعل هذا هو السبب الذي من أجله كان الدين كنفاً ترعرعت في ظله الفنون الجميلة على اختلافها إبان طفولتها.

كل هذه حسنات للدين مشكورة غير منكورة، ولكن قد يكون هذا الذي عاون الإنسان على السير في أول الطريق عائقاً يحول اليوم دون تقدمه، وقد يكون (فرويد) العالم النفسي الكبير مصيباً في رأيه بأن الدين صالح لتقويم الأخلاق إبان الطفولة حتى إذا ما نضج الإنسان كان لزاماً عليه أن يواجه مشكلات الحياة العملية في صرامتها وجدها، ولا ينبغي أن نطيل الوقوف عند هذه المرحلة الأولى - مرحلة الأحلام الجميلة والآمال الحلوة بأن قوة سامية ستحول بين صدورنا وبين ضربات القدر وسهامه، فلئن كان الدين قد ساهم بقسط وافر في تطور الحياة البشرية ورقيها فلقد فرغت رسالته وأصبحت الإنسانية اليوم في مرتبة من رشد الكهولة تجعلها في غنى عنه.

ويقول أوجست كونت في هذا الصدد إن طريقة تفكير الإنسان بازاء العالم قد سارت منذ نشأتها إلى اليوم في مراحل ثلاث: الأولى هي المرحلة اللاهوتية حيث كانت تُفسر الأحداث بقوى الآلهة؛ والثانية، وهي المرحلة الغيبية حيث كان الإنسان يعلل حوادث الكون بمجموعة من القوى، فيعزو الحياة إلى القوة الحيوية، والنار إلى الحرارة، وسقوط الأجسام إلى قوة ثقل الجسم؛ والمرحلة الثالثة هي المرحلة الإيجابية التي فيها يفسر الناس ظواهر الوجود بأسباب مباشرة تسبق حدوث الظاهرة المعينة، فإذا وقعت العلة جاء في أثرها المعلول تبعاً لقانون معروف؛ وهذه المرحلة كما يقول كونت هي أسمى مراحل العقل البشري، وهي المرحلة التي تجتازها الإنسانية اليوم.

وهكذا يدعو أصحاب المذهب الطبيعي إلى نبذ العقائد على الرغم من رسوخ قدمها في النفس وتأصل جذورها في القلوب، ويهيبون بالناس أن يواجهوا حقائق الكون الواقعة في شجاعة وإقدام.

والعجيب أن هذا المذهب الطبيعي لم يعدم في كل عصر من عصور الفكر ظهيراً ونصيراً، فقد وجد بين فلاسفة الإغريق من يقيمه ويؤيده كديمقريطس؛ ووفق في مستهل العصر الحديث إلى رجل مثل (توماس هوبز) الذي أخذ على نفسه أن يفسر كل شئ في الوجود على أنه مادة متحركة ليس إلا، فتناول العقل نفسه وقال إنه نتيجة لجملة الأحاسيس التي

تنفذ إلينا خلال الحواس الخمس، ولما كان هذا الإحساس أثراً مباشراً لتحرك الأعصاب، وهذه نتيجة لأزمة لما يقع بين الأشياء المادية من حركة، كان العقل بكل ما فيه من ذاكرة وخيال وما إليها ضرباً من ضروب الحركة المادية لا أكثر ولا أقل - هذا وإن ديكارت الذي يعتبر مؤسس الفلسفة الحديثة وواضع أصولها قد نادى بأن الكائن الحي لا يزيد على آلة صماء عمياء تسير في حياتها كما تسير الآلة الميكانيكية، وقال إن جسم الإنسان أيضاً آلة كسائر صنوف الحيوان ولو أنه استثنى العقل من هذه الآلية وقال إنه عنصر ممتاز. ثم جاء القرن التاسع عشر، وهو عصر ازدهرت فيه المادية ووجدت طائفة كبيرة من المشايعين، على رأسهم دارون وسبنسر وبخنر وهيكل وهكسلي ونيتشه، فسار المذهب الطبيعي على أيديهم شوطاً فسيحاً في تدعيم قواعده.

(يتبع)

زكي نجيب محمود

النقد والمثال
الجمال الذاتي في بعض المعاني البسيطة
للأستاذ أحمد الزين

تحدثتُ في الفصل السابق عن نوعي المعنى الأصليّ والشعريّ؛ وقلت في المعنى الأول: إنه أول ما يخطر على الخاطر، وتتحدث به نفس الشاعر، وذكرتُ أنه لا يسمى شعراً، وليس من الشعر في قليل ولا كثير، وبينت المعنى الثاني الذي تصرفت فيه الملكة الفنية بإضافة شئ من المحسّنات الشعرية إليه، وقلت: إنه هو الذي يعدّ من مقومات الشعر وعناصره، ومثلت لكلا المعنيين بما فيه الكفاية من شعر المتقدمين والمحدثين.

وأقول في هذا الفصل:

إن بعض هذه المعاني الأصلية التي لم تتصرف فيها ملكة الشاعر قد يكون الحسن فيها أصلياً، والجمال فيها من ذاتها، فلا تتصرف فيها ملكة الشاعر تصرفاً كثيراً ولا قليلاً، ولا تتكلف فيها تحسيناً ولا تجميلاً، بل إن تصرف الشاعر فيها قد ينقص من جلالها، ويشوه من جمالها، ويحجب هذه الطبيعة الجميلة بثوب من التكلف يحول بينها وبين مشافهة الأذواق بجمالها، ومباشرة الاحساسات بتأثيرها؛ فهي أشبه بغانيات أبي الطيب اللاتي استغنين بما فيهن من جمال مطبوع، عما يُكسبهن الافتنان في الزينة من جمال مصنوع إذ يقول:

حسنُ الحضارة مجلوبٌ بتطريةٍ ... وفي البداوة حسنٌ غيرُ مجلوب
أفدي ظِباء فلاةٍ ما عرفن بها ... مضغَ الكلام ولا صبغ الحواجيب
ولا برزن من الحمّام مائلة ... أردافهن صقيلات العراقيب
ومن هوى كل من ليست مموهة ... تركتُ لون مشيبي غير مخضوب

وليس على الشاعر في أمثال هذه المعاني إلا ما يتعلق بالصياغة البيانية، من عذوبة العبارة، ورقة النسج، وشرف الألفاظ، واختيار الأسلوب الملائم لغرض الشاعر، وما إلى ذلك مما يتصل بالألفاظ والعبارات، دون المعاني والأغراض، وإنما يكون هذا الجمال الطبعيّ في المعاني البسيطة إذا صدرت عن عاطفة قوية في النفس، وتحدرت عن ينبوع صافٍ من الحِسّ، وكانت صُوَراً دقيقة للشعور الصادق في القلب الخافق، فهنالك لا يعد الشاعر إلا لساناً ناطقاً، لا مبتدعاً خالقاً.

وترى هذه المعاني الجميلة بطبيعتها مستفيضةً شائعةً في شعر الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين إلى أواسط العصر الأموي، وإنما استفاضت هذه البساطة في شعر الأمويين لقرب عهدهم بعيش البساطة في البادية، ومشافَهة الطبيعة في صحراء الجزيرة، فهم رغم تفرقهم في الممالك التي فتحوها وانتشارهم في الأمصار التي مصّروها، ومفارقة الفطرة في بواديهم، لم يزل صوتها يناديهم، فيجيبونها في أشعارهم بالبساطة في معانيهم وأفكارهم.

وإنك لتستجلي ذلك في شعر النسيب وما هو بسبيله، من الحنين إلى الأوطان وما قضاه الشاعر فيها من لبانات وأوطار وما لقيه بعد فراقها من مِحَن وآلام وذِكر الشباب الزائل، وما كان فيه من لهو وباطل، ونفور الحسان من هذا الشعر الأبيض الذي يُقذي العيون، ويذهب باللهو والفتون، كما ترى هذه البساطة الفاتنة فيما تقرؤه أوائل قصائدهم في صفة الديار والأطلال، وما فعلت بها الرياح والأمطار، وما بقي فيها بعد من رحلوا عنها، وتحديد مواقعها بين الأمكنة التي تتصل بها أو تقرب منها.

وترى ذلك أيضاً في شعر الذكريات حين تنزل بالشاعر محنة من سجن أو إسار فيعزّي نفسه عن تقييد ساقيه بإطلاق فكره في تذكر أيامه الذاهبة، ولذاته الفائتة؛ وذِكر ما كان يحضره من مجالس الشراب والقيان، وبقائه رغم القيد على الوفاء لمن كان يجالسه من القدامى والصحاب، وإقدامه في القتال، وصبره على مقارعة الأقران ثم يأخذ في الافتخار بقومه وعشيرته ولومِهم على تركه لأعدائه، وبطئِهم عن فدائه؛ كلّ ذلك في حسرة وألم يفريان الضلوع، ويستنزفان الدموع.

وأنا أعرض عليك في هذا الفصل أمثلةً يسيرة لما ذكرت مما اخترته من حفظي.

أما جمال هذه البساطة في النسيب، فكقول المجنون (وهو من أصوات الأغاني).

وماذا عسى الواشون أن يتحدثوا ... سوى أن يقولوا إنني لكِ عاشقُ

لقد صدق الواشون أنت حبيبةٌ ... إليّ وإن لم تَصْفُ منكِ الخلائق
ووجه الجمال في هذا الشعر مخالفةُ الشاعر غيرَه من المحبّين باحتقاره الوشاة، وعدم استحقاقهم لتكلّف المصانعة والمداراة وهو بذلك يصف حبَّه بالنقاء من الريبة، وأنه أسمى من أن يستره بحيلة، وأشرفُ من أن يُعمِل في إخفائه الوسيلة.
ثم انظر إلى سحر هذه البساطة في ضد ذلك وتصوير الخوف من الوشاة والارتياع من مقالتهم؛ وشكوى الشاعر إلى حبيبته قلّة الرسل إليها، وأن الحيل قد أعوزته في لقائها، ثم إشارته بعد ذلك إلى عتابه عليها، وضراعته إليها؛ كل ذلك في بساطة ساحرة وجمال رائع يشبه جمال الأزهار التي كستها الطبيعة من ألوانها الفاتنة ما تقصُر عنه ريشةُ الفن بما تزوِّره من أصباغها الحائلة.
أريد شعر يزيد بن الطُّثرية حيث يقول:
أيا خُلة النفس التي ليس دونها ... لنا من أخلاء الصفاء خليل
أما من مقام أشتكي غربة النوى ... وخوف العدا فيه إليك سبيل
فديتكِ، أعدائي كثير، شقتي ... بعيد، وأشياعي لديك قليل
وكنت إذا ما جئتُ بعلة ... فأفنت علاتي فكيف أقول
فما كلَّ يوم بأرضك حاجةٌ ... ولا كلَّ يوم لي إليك رسول
صحائف عندي للعتاب طويتها ... ستنشر يوماً والعتاب طويل
فلا تحملي ذنبي وأنت ضعيفة ... فحمل دمي يوم الحساب ثقيل
ومثل هذه البساطة الساحرة ما تراه في شعر عبد الله بن الدُّمَيْنة حيث يقول:
ألا لا أرى وادي المياه يثيب ... ولا النفس عن وادي المياه تطيب
أحب هبوط الواديين وإنني ... لمشتهر بالواديين غريب
أحقاً عباد الله أن لست وارداً ... ولا صادراً إلا عليَّ رقيب
ولا زائراً فرداً ولا في جماعة ... من الناس إلا قيل أنت مريب
وهل ريبة في أن تحن نجيبة ... إلى إلفها أو أن يحن نجيب
أما جمال هذه البساطة في معاني الحنين إلى الوطن فمن أحسن ذلك قول بعض الأعراب:
أحب بلاد الله ما بين منعج ... إلي وسلمى أن يصوب سحابها
بلاد بها حل الشباب تمائمي ... وأول أرض مس جلدي ترابها
وقول عبد الله بن نمير:
تعز بصبر لا وجدِّك لن ترى ... عراص الحمى إحدى الليالي الغوابر
كأن فؤادي من تذكره الحمى ... وأهم الحمى يهفو به ريش طائر
وقول الصمة بن عبد الله القشيري:
قفا ودِّعا نجدا ومن حل بالحمى ... وقلَّ لنجد عندنا أن يودعا
بنفسي تلك الأرض ما أطيب الربى ... وما أحسن المصطاف والمتربَّعا
وليست عشيّات الحمى برواجع ... عليك ولكن خل عينيك تدمعا
وأذكر أيام الحمى ثم أنثني ... على كبدي من خشية أن تَصدَّعا
فهل ترى أحد هؤلاء الشعراء الثلاثة قد زاد في هذا الحنين على ما يتحدث به إليك متحدث نأى عن بلده، وفارق أهله وعشيرته، من الحنين إليهم، والألم لفراقهم، وتذكر ما مضى له من عهود، وزمن لا يعود، وتَمنيه العودةَ إلى وطنه تمني اليائس من الأمنية، وتأميله الرجوع إلى بلده تأميل من يثق بالخيبة ويوقن بامتناع الأمل واجتهاده في الدعاء له وتوديعه إياه، وتفديته بالنفس؛ فلم يخترع أحدهم في الحنين معنىً جديداً، ولم يفكر تفكيراً بعيداً، ولم يُغرِب في خيال، ولم يبالغ في تصوير ما يشعر به من ألم الفرقة، ووحشية الغربة، ولم يُثقِل شعره بالمجازات والاستعارات، ولا بشيء من تلك الحُلي الظاهرية الزائدة على الحاجة في هذه المعاني وأشباهها.
ولما كان هذا الشعر خطاباً صادراً عن نفس الشاعر منبعثاً عن عاطفته كان لا بد من مشافهته لنفس السامع ومباشرته لها، ولا نزاع في أن إثقاله بتلك الحلي الظاهرية من الاستعارات والمجازات مما يحول بين معانيه ومشافهتها للنفس، ويباعد بينها وبين الحس، ويجعلها أشبه بالغناء الجميل تسمعه بواسطة (الحاكي) فإنه لا ينال من نفسك ما يناله الغناء المشافه.
وفي هذه الأمثلة التي رويتها لك فوق البساطة الساحرة في معانيها من رقة الأسلوب

الملائم لمعاني الحنين، وعذوبة العبارة، وحلاوة الألفاظ - وهي كلُّ عمل الشاعر في أمثال هذه المعاني - ما يثير الشجن ويوقظ اللوعة، ويجتذب قلب السامع إلى قلب الشاعر حتى يصيرا قلباً واحداً متحد الإحساس، متفق الشعور، حتى يخيل للسامع - وهو في وطنه بين أهله وعشيرته - أنه غريب عنهما، وأن النوى قد قذفت به إلى مكان سحيق، فهو يشكو الغربة كما شكاها الشاعر، ويتمنى العودة كما تمناها؛ وقد كان بعض علماء الأدب المتقدمين ينشد أبيات الصّمّة بن عبد الله السابقة على تلامذته في مسجد الكوفة، ثم يبكي حتى تخضل
لحيته، ويقول: ما أصاب أكبادكم! ألا تبكون عشيات الحمى؟

وسرّ الجمال في هذه المعاني مشافهتها للعاطفة ودخولها إلى النفس الإنسانية من ناحية الضعف الموجب للمواساة والرحمة؛ ونفوذها إلى إحساس العطف المشترك بين الأسرة البشرية الباعث على المشاركة في الألم والمحنة. أما بساطة هذه المعاني في أشعارهم إذا بكَوا الشباب وعهده، وذموا المشيب ووفدَه؛ ووقفوا على الأطلال والديار، فلا أريد أن أطيل عليك في هذا الفصل القصير بذكر أمثلتها، فإن ذلك مستفيض شائع في كلامهم بل هو جُلُّ شعرهم، وأكثرُ ما يبدأون به قصائدهم؛ فلا تكاد تجفّ قصيدة لأحدهم مهما يكن غرضها من دمعة حارّة يذريها الأسف على شباب ذاهب والارتياع من مشيبٍ طارق، والوقوف على طلل ما حل، ورسمٍ حائل، وذِكر ما قضاه الشاعر في أفياء هذه الرحاب وأكناف هذا الجناب، من أيامٍ عِذاب وليال قصرتها مُتَعُ الصِّبا ولهوُ الفتوّة إلى غير ذلك.

ولعلّهم جرَوا على ابتداء قصائدهم بهذه المعاني وتقديمها على الغرض المقصود بالشعر لتحريك القرائح الراكدة، وإيقاظ الشاعرية الراقدة، وتنبيه الأذهان التي قد تغفو، واقتياد الأفكار التي قد تعزب؛ ولما كانت هذه المعاني معروفة لديهم، معبدة طرقها لهم، محفوظاً أكثرها عندهم، كانت تجربة قرائحهم فيها أيسر، وتنشيط شاعريتهم في ميدانها أسهل، كما يجرب الجواد بإجرائه شوطاً قبل الانتظام في الحلبة، وكما ترى أرباب الموسيقى إذا قصدوا إيقاع إحدى النغمات، أوقعوا على الأوتار ما يقاربها من النبرات حتى يسَهل عليهم الخروج منها إلى النغمة المقصودة.

أما روعة هذه المعاني في قصائد الذكريات إذا نزلت بالشاعر محنةٌ من سجن أو إسار، فأنا أذكر لك أمثلة منها لقلتها وانتثارها في كتب الأدب، وصعوبة الظفر بها في دواوين العرب، وأكثرها من شعر لصوص البادية والمُغيرين على أموال القبائل وهم أفصح العرب شعراً، وأصرحُهم عربية؛ وكان بعض علماء الأدب المتقدمين وأحسبه الأصمعي يقول: (إذا أتاك بيت لصّ فاحتفظ عليه) وذلك لإخلادهم إلى سكنى البادية، وعدم اتصالهم بالحضر.

ومن أحسن ذلك شعر عبد يغوث بن وقّاص الحارثي، وكانت تيم قد أسرته وشدّوا لسانه، فقال من قصيدة

ألا لا تلوموني كفى اللوم ما بيا ... فمالكما في اللوم خيرٌ ولا ليا
أيا راكباً إمّا عرضت فبلّغن ... نداماي من نجرانَ ألاّ تَلاقِيا
أقول وقد شدّوا لساني بنسعةٍ ... أمعشر تيم أطلِقوا عن لسانيا
أحقًّا عباد الله أن لستُ سامعاً ... نشيدَ الرِّعَاء معزٍ بين المتاليا
وقد علمت عرسي مُلَيكة أنني ... أنا الليث معدواً عليّ وعاديا
وقد كنت نحّار الجزور ومُعمِل ال ... عطيَّ وأمضي حيث لاحيَّ ماضيا
وأنحر للشَّرب الكرام مطيتي ... وأصدع بين القينتين ردائيا
وكنت إذا ما الخيل شمسها القنا ... لبيقا بتصريف القناة بنانيا
كأني لم أركب جواداً ولم أقل ... لخيلي كُرّي نفِّسي عن رجاليا
ولم أسبأ الزِّق لبرَّويّ ولم أقل ... لأيسار صدق أعظِموا ضوء ناريا

وإنك لتقرأ هذا الشعر بيتاً فلا ترى ملكة الشاعر قد تصرفت في هذه المعاني البسيطة الفاتنة ببساطتها تصرفاً قليلاً ولا كثيراً، ولا أضافت إلى هذا الجمال الطبعي الرائع بطبيعته من المحسنات الفنيّة ما يزيده روعة وحسناً؛ ولم يزد الشاعر على أن عرض صوراً دقيقة من حياته الماضية ولذاته المنصرفة، كما يتحدث به المتحدث، لا كما يتخيله الشاعر المتكلف؛ ودَعْني أيها الأديب المتذوق أعتمد على ذوقك في إدراك الجمال في هذا الشعر فإني أرى الإطالة في شرح الجمال الشعر والإبانة عن وجوه

الحسن فيه كما يفعله علماء البلاغة مما يسخفه ويسمّجه، ويخرجه عن كونه احساسات نفسية، إلى جعله قواعد علمية. وسيمر بك أيضاً كثير من أمثلة هذا الجمال منتشرة في هذه الفصول.

أحمد الزين

معركة عدوى - 4

للأستاذ الفريق طه باشا الهاشمي

رئيس أركان حرب الجيش العراقي

علاقة الطليان بالحبشة

نشأت هذه العلاقة من اشتراك إيطاليا في سياسة الاستعمار. ففي اليوم الذي نال الطليان وحدتهم تامة غير منقوصة بعد حرب 1870 أخذت الجرائد الطليانية تطالب بالمستعمرات الإيطالية بحجة أن الطليان في زيادة مستمرة في بلادهم فيحتاجون إلى أرض أخرى للسكنى فيها.

فاستأجرت في سنة 1870 شركة (روباتينو) أرضاً من الأهلين في جوار (عصب) لمدة عشر سنوات. وكانت أرض مصوع وما يجاورها ملكاً للعثمانيين ولكنهم تنازلوا عنها لخديو مصر مقابل خراج سنوي. وعند انقضاء مدة الإيجار اشترت الشركة الأرض المذكورة. ولما احتل البريطانيون أرض مصر أعلن الطليان أن (عصب) مستعمرة طليانية فأخذت البعثات الطليانية تتجول في أرض دناكل والحبشة برغم هلاك بعضها بيد سكان البلاد، وكان البريطانيون في هذا التاريخ منهمكين في مقاتلة جماعة المهدي في السودان. وأراد الطليان أن يقلدوا البريطانيين في تشكيل القوات في المستعمرات فأخرجوا قوة طليانية صغيرة إلى (عصب) لحماية الشركة هناك وجعلوا هذه القوة نواة لتشكيلات أهلية أخرى أسوة بالبريطانيين.

وعقيب انتصارات المهدي في السودان اضطر المصريون إلى إخلاء مصوع وهرر وأرض الصومال والانسحاب إلى الشمال. فاستفاد الفرنسيون من ذلك فعقدوا معاهدة مع سلطان هرر واحتلوا خليج تاجورة بأجمعه. فارتاب البريطانيون في ذلك فأسسوا لهم مستعمرة في الصومال في جنوبي جيبوتي وجعلوا قصبة (زيلع) مركزاً لها وألحقوها بمستعمرة عدن وجعلوا سلطان هرر تحت حمايتهم.

ويظهر أن بريطانيا أرادت أن تشرك إيطاليا في حركاتها على المهدي وتجعل لفرنسا رقيباً في أرض الصومال فوافقت على أن تحتل إيطاليا مصوع في 5 شباط 1885، فخرجت يومئذ قوة طليانية إلى مصوع ورفعت العلم الطلياني على دار الحكومة. فلم يحرك خديو مصر ساكناً. بيد أن الفرنسيين لم يرتاحوا إلى ذلك، وبعد أن رسخت أقدام الطليان في مصوع وجهوا أنظارهم إلى الداخل للتوغل في أرض الحبشة، وكان هناك طريقان تجاريان يربطان مصوع بالداخل: أولهما طريق (مصوع - كرن - كسلا - الخرطوم). أما الطريق الثاني فكان متجهاً إلى الجنوب ويقطع جبال الحبشة من الشمال إلى الجنوب إلى أن يصل إلى شاطئ البحر الأحمر.

ولما كان هواء مصوع الحار الرطب غير ملائم للأوربيين فكر الطليان في الحصول على مركز في الداخل صالح للسكنى. فارتفاع قصبة كرن حوالي 1340 متراً عن سطح البحر. أما كسلا فارتفاعها يبلغ 530 متراً ولكنها محاطة برواب بشكل قلعة، ولكي يحصل البريطانيون على مساعدة الطليان في مقاتلة المهدي في السودان لوحوا للطليان بالطريق الأول.

فقررت الحكومة الطليانية تجهيز قوة لإنزالها في مصوع تأهباً لاحتلال الحبشة من جهة أخرى وذلك رغم كون القيادة في مصوع لفتت نظر ساسة الطليان إلى عاقبة الحركة في اتجاه كسلا. وكان في جنوبي مصوع ميناء عرفالي الذي كان الأحباش يعتبرونه من الموانئ الحبشية لأنهم كانوا يجلبون الملح منه، ولما رأى النجاشي (يوحانس) أن الطليان احتلوا هذا الميناء احتج على ذلك.

والحقيقة أن الحوادث بعد ذلك جعلت الحبشة وإيطاليا تقفان وجهاً لوجه لأن البريطانيين قضوا على حركة المهدي بعد وفاته واحتلوا السودان وثبتوا أقدامهم فيه. لذلك لم يخش الأحباش خطراً من هذا الجانب. أما الطليان فأخذوا يوسعون نفوذهم في مستعمرة مصوع التي أطلقوا عليها اسم (أريترة) (أي الزنبقة الحمراء) ووسعوا

ساحة الساحل باحتلالهم ميناء زولا وخليج (عدولي) ومنعوا الأحباش من أخذ الملح فاحتج النجاشي على ذلك أيضاً فلم يعبأ الطليان باحتجاجه بل سلكوا سبيل تخدير أعصاب الأحباش بإرسال البعثات وكانوا قبل ذلك أرسلوا بعثتين من (عصب) فقتلهما الدناكليون. وأرسلوا بعثة أخرى في سنة 1886 فذبحت برمتها في هرر. وفي سنة 1887 أرسلوا بعثة أخرى. ولما وصلت إلى ملك تيجري ألقى الرأس القبض عليها وحبسها. فأرسل
الطليان قوة مؤلفة من 500 جندي قضى عليها الأحباش فاغتاظ الطليان لذلك فأبلغوا قوتهم في مستعمرة أريترة إلى 18 , 000 جندي وقرروا الحرب.
وحشد الأحباش رجالهم في آذار سنة 1888 أمام موضع دفاع الطليان وكان عددهم بالغاً زهاء 100 , 000. فخشي الطليان عاقبة الأمر ومالوا إلى المسألة فانسحب الأحباش لأن المهدي كان يهدد مقاطعة أمحرة فهاجمها بجيوشه ودخل عاصمتها جوندار فدمرها، فظن الطليان أن القتال بين الحبشة والمهدي سوف ينهك الأحباش فيجيبون مطالبهم لذلك أعادوا قواتهم إلى إيطاليا وتركوا 8000 جندي في أريترا.
وفي أوائل سنة 1889 جهز الأحباش بقيادة النجاشي (يوحانس) جيشاً بقوة 180 , 000 كما سبق ذكره وتقدموا نحو المهدي فوقعت معركة في (متمة) مات فيها النجاشي جريحاً وبعد أن ترك الأحباش 30 , 000 قتيل في ميدان المعركة رجعوا إلى بلادهم خاسرين.

منليك ملك الملوك

كان ملك شوعا أقوى ملوك الحبشة كما نعلم وكان من سلالة الملوك الذين يمتون بنسبهم إلى النبي سليمان وزوجته بلقيس ملكة سبأ. فاحتل منليك مدينة هرر في سنة 1887 وبسط حكمه على الغالا كلها، واستولى على مقاطعة كانا وما يجاورها فأصبح بذلك ذا نفوذ عظيم، فأراد الطليان أن يستفيدوا من حرب داخلية بالانحياز إلى جانب منليك متألبين على النجاشي (يوحانس) فأعطوه 5 , 000 بندقية و 200 , 000 طلقة ليبقى على الحياد عندما يقاتل الطليان النجاشي (يوحانس)، وكان الكونت (انطونلي) على رأس الوفد الموفد إليه فتذاكر الوفد مع منليك في الوقت الذي مات (يوحانس) في معركة متمة. فقبل منليك شروط معاهدة (أوكسالي) في سنة 1889 وكانت خلاصة أحكام المعاهدة ما يلي:
تبادل الممثلين السياسيين، قبول خط الحدود بصورة عامة، دفع رسوم جمركية (بمقدار ثمانية في المائة عن الأموال الطليانية التي تدخل أرض الحبشة عن طريق مصوع وضرب النقود الحبشية في إيطاليا، وقرض الحبشة أربعة ملايين ليرة ذهباً، وحرية التجارة على أن ينفذ حكم المعاهدة في بلاد الحبشة برمتها).
وكانت المادة السابعة عشرة تقضي على الحبشة بأن ترضى بتوسيط إيطاليا في علاقتها بالحكومات الأخرى. وكانت هذه المادة سبب الحرب بين الحبشة وإيطاليا.
فاستفاد الطليان فوراً من أحكام المعاهدة واحتلوا الأراضي التي تركت لهم بموجب المعاهدة قبل أن يوقع عليها ملك إيطاليا واحتلوا أرضاً في بلاد الحبشة.
ولم يرض ملك تيجري بأن يتعاهد الطليان مع ملك شوعا وهو الذي ورث الملك عن أبيه يوحانس واعتبر نفسه ملكاً للملوك.
واحتل الطليان في حزيران 1889 (كرن) وفي آب (أسمرة) واستمالوا أحد رؤساء تيجري إلى جانبهم. وهكذا استطاعوا أن يدخلوا (عدوى) عاصمة تيجري بسهولة.
وبهذه الواسطة تقدموا من مصوع مسافة 130 كيلو متراً فتوغلوا في أرض الحبشة واعتبروا أنفسهم حماة الحبشة بالملحق الذي أضافوه إلى المعاهدة بسهولة حتى أم ملك إيطاليا أضاف إلى ألقابه لقب (حامي بلاد الحبشة).
ولما ذهب الرأس (ماكونن) ابن عم منليك إلى رومة حاملاً مواد هذا الملحق لنص المعاهدة هلل الطليان فرحاً واستبشاراً. وكان من حقهم أن يهللوا لأنهم حصلوا على صك استعمار الحبشة دون أن يسفكوا دماً إيطالياً.
وفي تشرين الثاني سنة 1889 وقع الرأس (ماكونين) على الملحق باسم منليك وقدموا إليه مقابل ذلك أربعة ملايين فرنك و 38 , 000 بندقية و28 مدفعاً وعتاداً كثيراً عربوناً لإخلاصه.
فاعترفت الدول جميعاً بالمعاهدة وملحقها ما عدا روسيا. وفي سنة 1891 رضي

البريطانيون بأن يحتل الطليان قصبة (كسلا) بصورة مؤقتة لأن قضية المهدي لم تكن قد انتهت.

أما النجاشي منليك فعني بتوحيد الحبشة وتوقيتها ونقل عاصمة البلاد من (جوندار) بعد أن أحرقها المهديون إلى أديس أبابا. ومنح الفرنسيين امتيازاً بإنشاء سكة حديدية تربط العاصمة بالساحل. ومن الطبيعي أن البريطانيين والطليان لم يرتاحوا إلى عمل منليك فاحتجوا عليه وحرضوا الرهبان عليه بدعوى أن السكة الحديدية من عمل الشيطان.

ولم يستطع الطليان أن يعملوا أكثر من ذلك لأنهم كانوا مكلفين بمساعدة البريطانيين في محاربة المهدي. وكانوا أرسلوا قوة في اتجاه كسيلا بدعوى حماية الأهلين من ظلم دراويش المهدي واحتلوا (أجوردة) وفي سنة 1894 تقدمت قوات طليانية بقيادة الجنرال (باراتيري)

نحو (كسلا) وبعد معركة حامية طردوا أتباع المهدي منها واحتلوها.

أما النجاشي منليك فكان يسعى لتوحيد البلاد فاستند في السياسة الخارجية إلى صداقة فرنسا وأخذ يستميل الرؤساء المخالفين إلى جانبه في الداخل واتفق مع رأس تيجري فاعترف هذا بمنليك ملكاً لملوك الحبشة وهكذا أصبح النجاشي يحكم فعلاً بلاد الحبشة برمتها.

وأول عمل قام به بعد إعلانه ملكاً لملوك الحبشة أنه أخذ يذيب كل العملة التي ضرب الطليان عليها رسم ملك إيطاليا ويضع بدلاً من رسم الملك الإيطالي رسم النجاشي منليك ويكتب اسمه فيها بالكتابة الحبشية ويضع في الوجه الثاني للعملة شعار الحبشة الأسد والتاج.

(يتبع)

طه الهاشمي

شكاة واعتذار

قصة معلم

فمن كان يرثي قلبه لمعذب=فأجدر شخص بالرثاء المعلم

الرسالة 117 (الأستاذ محمود غنيم)

للأستاذ علي الطنطاوي

قلت لصديق لي أديب:

- إني لأقرأ لك منذ عشر سنوات، فما رأيتك أسففت إسفافك في هذه الأيام، وإني لأشك أأنت تكتب ما تكتبه، أم يجري به قلمك وأنت نائم، فتأخذه فتضع عليه اسمك؟ فماذا عراك أيها الصديق فأضاع بلاغتك ومحا آيتك؟

- قال: دعني يا فلان دعني. . . فإن سراج حياتي يخبو، وشمعتي تذوب؛ وما اخالني إلا ميتاً عما قريب، أو دائراً في الأسواق مجنوناً. . . إنني انتهيت. . . بعت رأسي وقلبي برغيف من الخير. . . . . .

- قلت: أربع عليك أيها الرجل وأخبرني ما بك، فلقد والله أرعبتني. . . . . .

- قال: وماذا بي إلا أني معلم. إني معلم في مدرسة ابتدائية. نهاري نهار المجانين، وليلي ليل القتلى، فمتى أفكر، ومتى أكتب. . . . وأنا أروح العشية إلى بيتي مهدود الجسم، مصدوع الرأس، جاف الحلق، فلا أستطيع أن أنام حتى أقرأ مائة حماقة، حتى أصحح مائة كراسة، فأعمي عيني بقراءتها، والإشارة إلى خطئها، وبيان صوابها، وتقدير درجاتها، فإذا انتهيت من هذا كله - ولا يقرأ تلميذ من كل هذا شيئاً، ولا ينظر فيه - عمدت إلى دفتر تحضير الدروس، وهو الموت الأحمر، والبلاء الأزرق، الذي صبّ علينا هذا العام صباً، فكتبت فيه ماذا أنا فاعل غداً في الفصل، دقيقة دقيقة، ولحظة لحظة. . . وماذا أنا قائل من كلمة، أو مقرر من قاعدة، أو ضارب من مثل، حتى إذا بلغت آخر كلمة فيه، استنفدت آخر قطرة من ماء حياتي، فسقطت في مكاني قتيلاً، فحملت إلى السرير حملاً. . فنمت نوماً مضطرباً ملؤه الأحلام المزعجة، والصور المرعبة، فأحس كأن أمامي ركام الدفاتر التي سأصححها غدا، فلا أنجو منها حتى أبصر المفتش يتكلم من فوق المآذن، فلا يدع قاعدة من قواعد التربية، ولا نظرية من نظريات التعليم، ظهرت في فرنسا أو إنكلترا، إلا أرادني على تطبيقها، في فصل فيه سبعون تلميذاً قد حشيت بهم المقاعد حشواً، وصفوا على الشبابيك، ووضعوا على الرفوف، ممالا يرضى عنه منهج من مناهج التربية، ولا قانون

من قوانين الصحة؛ فإذا انمحت هذه الصورة، رأيت كأني أفهم تلميذاً وهو يصغي إليّ ولا يفهم، فأكرر وأعيد فلا يفهم، فأقوم إليه أنظر ما يصنع، فإذا هو منصرف إلى دُبيرة يربط رجلها بخيط. فإذا شتمته أو أخرجته من الفصل، ذهب يستنجد القانون الذي حرّم العقوبات كلها، وكفّ يد المعلم، وشد لسانه بنسعة. . . ولا أزال في هذه الأحلام، تنوء بي، فأتقلب من جنب إلى جنب، أحس كأن رأسي من الصداع بثقل أُحُد، حتى يصبح الله بالصباح، فأفيق مذعوراً، أخشى أن يسبقني الوقت، فلا أدري كم ركعت وكم سجدت، ولا كيف أكلت ولبست، وأهرول إلى المدرسة لا أستطيع التأخر عنها ولو طحنتني الأوجاع، أو أحرقتني الحمىّ، لأن المعلم لا يسمح له القانون أن يمرض في أيام المدرسة، وعنده أربعة أشهر (عطلة الصيف) يستطيع أن يمرض فيها، فإذا خالف ومرض، حرم الراتب ومنع العطاء!

أغدو إلى المدرسة، فأدخل على تلاميذ السنة الثالثة الأولية، وهؤلاء هم تلاميذي، لم يجدوني أهلاً لأكبر منهم. . . فلا أنفك أقطع من عقلي لأكمل عقولهم، وأمزق نفسي لأرقّع نفوسهم، ثم لا أفلح في تعليمهم ولا أنجح في تفهيمهم، ولا أدري من أين السبيل إلى مداركهم؛ فأنفق ساعة كاملة، أقلّب أوجه القول، وأستقري عبارات اللغة، لأفهمنهم كيف يكون (الاسم هو الكلمة التي تدل على معنى مستقل في الفهم وليس الزمن جزءاً منه) فلا يفهمون من ذلك شيئاً، ولا أقدر أن أطرح هذا التعريف السخيف أو أستبدل به، فأهذي وأهري ثم أقول: من فهم؟

فيرفع ولد إصبعه. فأحمد الله على أن واحداً قد فهم، وأقول:

- قم يا بني بارك الله فيك، فأخبرني عن معنى هذا التعريف

- فيقول: يا أستاذ! هذا داس على قدمي. فأصيح به ويحك أيها الخبيث! إني أسألك عن تعريف الاسم، فلماذا تضع فيه قدمك؟ ألم أقل لكم إن هذه الشكاوي ممنوعة أثناء الدرس؟

- فيقول: ولماذا يدوس هو على رجلي؟!

- فأصيح بالآخر: لم دست على رجله يا شيطان؟

- فيقول: والله لقد كذب، ما دست على رجله ولكن هو الذي عضّني في أذني فأغضب وأصرخ في وجهه:

- وكيف يعضك وأنا قاعد هنا؟

- فيقول: ليس الآن، ولكنه عَضّني أمس ويتطوع العفاريت الصغار للشهادة للمدعي وللمدعى عليه، ويزلزل الفصل فأضرب المنصة بالعصا وأسكتهم جميعاً مهدداً من يتكلم بأقسى العقوبات، ولا أدري أنا ما أقسى العقوبات هذه؟. . . فيخنسون ويُبْلسون فأعود إلى الدرس فإذا هو قد طار من رؤوسهم، على أنه ما استقر فيها قط!

وينفخ في الصور، فتقوم القيامة، ويخرج الأولاد إلى الفرصة، ثم نرجع إلى درس القرآن. فأقول:

- من يحفظ سورة الفاتحة؟

- فيتصايحون: أنا. . . أنا. . . أنا

- سكوت! واحد فقط. . . اقرأ أنت

- الحمد لله رب العالمين. . . إياك نعبِد

- فأقول: إياك نعبُد. - فيقول: نعبد

- ويحك: نَعْ بُ د

- فيقول: نَعْ بِ د

- انتبه يا بني: نَعْ بود

فيقولها. حسن. قل نعبُد. فيقول: نعبِد فلا نزال في نعبُد ونعبِد حتى ينتهي الدرس. ولا يلفظونها إلا بالكسر لأنهم حفظوها من السنة الأولى خطأ.

ولا أزال في هذا البلاء بياض نهاري، ولا يأتي المساء وفيّ بقية من عقل، أو أثر من قوة، ثم لا أنا أرضيت الوزارة، ولا أنا نفعت أبناء المسلمين، ولا أنا انصرفت إلى مطالعاتي وكتابتي.

وهذه مكتبتي لم أدخلها منذ أول العام المدرسيّ، وهذه مشروعات المقالات والبحوث التي أكتبها، وهذه مسوّدات الكتاب الجديد الذي أؤلفه مبثوثة في جوانب الغرفة، ضائعة مهملة.

أفتلومني بعد، على أني لا أجوّد في هذه الأيام؟ قلت: هذه والله حالي فلست ألومك؛ فرّج الله عني وعنك!

دمشق

علي الطنطاوي

آيتان من آيات الله

للأستاذ قدري حافظ طوقان

حدثت منذ أسبوعين حوادث جوية في نابلس لا عهد لنا بها، ولا لمن هم أسن منا، أزعجت الناس وأدخلت خوفاً كثيراً إلى نفوسهم؛ هالتهم وعظمت عليهم، أقضت مضاجعهم ونفت الكرى عن عيونهم؛ أرجعتهم إلى الله يسألونه اللطف بالكهول والأطفال، وقام المؤذنون من أعلى المآذن يستنجدون بخالق السموات والأرضين أن ينظر بعين الرأفة إلى هذه الأمة التي توالت عليها المحن والمصائب من كل جانب؛ وكان صوت: (يا رب - يا لطيف) يدوي في الأجواء، ويرن في الآفاق، ترجعه الأصداء إلى الآذان، فيدخل إلى النفوس خشوعاً أحاطه الخوف، واستسلاماً أحاطه الإيمان والعقيدة، فاطمأن المؤمنون وقالوا: ليفعل الله ما يشاء؛ هو العليم وهو الحكيم، بيده الخير إنه على كل شئ قدير. وقال آخرون: إنها لعلامات تدل على قرب الساعة. وقال غيرهم: إنها لأشارات تنذر بالحروب والكوارث. وكيف لا تشغل هذه الظواهر أفكار الناس، وكيف لا تصبح حديثهم وموضع تنبؤاتهم وخوفهم وقد شغلت السماء كلها، بما على الأرض من رياح ومياه وأشجار ومبان؟؟ . .

لاحظ الناس في مساء يوم الأحد الموافق 21 من الشهر الفائت أن الحالة الجوية غير طبيعية قبل غروب اليوم المذكور، فقد كانت تظهر في بعض جهات المشرق والجنوب بروق ولمعات فجائية، دامت إلى ما بعد الغروب، ثم ما لبثت هذه البروق وتلك اللمعات أن استحالت إلى بروق متواصلة متعاقبة الحدوث والظهور في نواح عديدة إلى أن شملت السماء كلها، فإذا أضواء شديدة تنبعث من بين الغيوم من شرارات كهربائية كثيرة الشعب والتعاريج، كانت تظهر للناظرين وقد خيل إليهم أن السماء مفتحة الأبواب، تخرج منها أنوار تخطف الأبصار، مصحوبة برعود متعاقبة، لها قعقعة مختلفة الشدة، تبعها برد وأمطار غزيرة ورياح هائجة أحارت الناس وأذهلتهم.

ومما لا ريب فيه أن هذه الظواهر الجوية لا تحدث عفواً ومن دون أسباب، بل إن وقوعها لا يكون إلا حسب أنظمة خاصة لا تتعداها، خاضعة لنواميس طبيعية لا تشذ عنها، عرف الإنسان بعضها ووقف على أسرارها؛ وقد ثبت أن مدبر هذا الكون سائر بكونه على أساس من القواعد والقوانين متين، وقد أتبع كل شئ سبباً، وكلما عرف الإنسان شيئاً عن هذا

النظام وهذا الناموس وتلك القواعد والقوانين تجلت لنا عظمته تعالى واضحة في آياته، وتجلت لنا حكمته في أفعاله وأعماله؛ وما البرق والرعد وما إليهما إلا آيات من آيات الله لا تحدث لموت أحد، ولا تنبئ عن وقوع حروب، بل هي ظواهر تسير حسب أنظمة تمكن العلماء من اكتشافها، وثبت لديهم أنها دلائل ساطعة على قدرته تعالى وألوهيته جل وعلا. . . . . .

لقد حسب كثير من الأقدمين أن هذه الظواهر الجوية من أفعال الشياطين تجري بموجب قدرة إلهية لتوقع القصاص على الكفار والمذنبين. هذا الرأي كان سائداً في الغرب وعند كثير من العلماء؛ ومن الغريب أن العرب لم يأخذوا بهذا الرأي، وقد استعملوا في تعليل بعض هذه الظواهر الجوية العقل والفكر فكان رأيهم في تعليل حدوث البروق والرعود والصواعق، مع بُعده عن الحقيقة، يدل على دقة في الملاحظة، ويدل أيضاً على أنهم كانوا لا يقبلون الآراء والنظريات المبنية على أوهام وخزعبلات فنجد أحد علمائهم وهو القزويني يقول في تعليل البرق والرعد ما يلي:

إن الشمس إذا أشرقت على الأرض حللت منها أجزاء أرضية تخالطها أجزاء نارية) ويسمى ذلك المجموع دخاناً، ثم الدخان يمازجه البخار ويرتفعان معاً إلى الطبقة الباردة من الهواء فينعقد البخار سحاباً ويحتبس الدخان فيه، فإن بقي على حرارته قصد الصعود، وإن صار بارداً قصد النزول، وأيًّا ما كان يمزق السحاب تمزيقاً فيحدث منه الرعد، وربما يشتعل ناراً لشدة المحاكة فيحدث منه البرق إن كان لطيفاً، والصاعقة إن كان غليظاً كثيراً فتحرق كل شئ أصابته، وربما تذيب الحديد على الباب

ولا تضر بخشبه، وربما تذيب الذهب في الخرقة ولا تضر الخرقة، وقد يقع على الماء
وقال في سبب رؤية البرق قبل سماع (. . . .فيحرق حيتانه وعلى الجبل فيشقه
الرعد. . . (واعلم أن الرعد والبرق يحدثان معاً لكن يُرى البرق قبل أن يسمع الرعد
لأن الرؤية تحصل بمراعاة البصر، وأما السمع فيتوقف على وصول الصوت إلى
الصماخ، وذلك يتوقف على تموّج الهواء، وذهابُ النظر (أي سير النور) أسرع من
وصول الصوت. . .)
ولقد بقي تعليل البرق والرعد وغيرهما من الظواهر الجوية غامضاً إلى أن جاء
فرنكلين الأمريكي في القرن الثامن عشر للميلاد فأوضح هو وغيره بأن في الجو
كهربائية يمكن
الحصول عليها، وقد أثبت وجودها بتجارب عديدة، وبين أيضاً أن هذه الكهربائية موجبة
في غالب الأحيان، وأن كهربائية السحب تكون عادة سالبة، وقد تكون موجبة في بعض
الأحيان، وأن هذا كله يتبع التغيرات الجوية، وعوامل عديدة بعضها معروف والبعض
الآخر غير معروف؛ وقد قدم فرنكلين بنتيجة تجاربه تقريراً إلى جمعية الملكية بلندن؛
ومع أن أعضاء هذه الجمعية عدو تجاربه وآراءه خيالاً في أول الأمر إلا أنهم أقروا أخيراً
نظرياته وأخذوا بآرائه ومنحوه نوطاً رفيعاً الشأن اعترافاً بفضله وانتخبوه عضواً في
جمعيتهم.
واختلف العلماء في منشأ كهربائية الجو والسحب؛ ومن الغريب أن هذا الاختلاف لا زال
قوياً، إذ لم يستطع أحد البت في هذا الشأن. يقول بعض العلماء إن سبب وجود
الكهربائية في الجو يرجع إلى تبخر الماء المحتوي على مقادير ضئيلة من الأملاح؛
ويقول آخرون إن منشأ الكهربائية الجوية بما فيها السحب هو الاحتكاك بين القطرات
المائية الدقيقة بالثلج الموجود في الطبقات العالية من الجو. وهناك عوامل أخرى لها
علاقة بمنشأ هذه الكهربائية لا تزال غامضة وفي حاجة إلى الاستقصاء وزيادة البحث. .
ولكن الثابت .
المحقق أن في الجو كهربائية، وأنه يوجد سحب كثيرة مشحونة بكهربائية سالبة أو
موجبة، فقد يصادف أن تمر سحابة مشحونة فوق سحابة أخرى أو فوق شجرة أو
بناية، فتؤثر فيما تمر عليه وتجذب إليها الكهربائية المخالفة لها، وينتج عن ذلك اتحاد
نوعي الكهربائية برغم الهواء ومقاومته، ومن هذا الاتحاد تتكون شرارة كهربائية ينبعث
منها ضوء شديد نسميه (البرق)؛ وكثيراً ما يكون سير هذه منعرجاً، ويرجع العلماء
سبب هذا إلى مقاومة الهواء الشديدة عند اتحاد نوعي الكهربائية؛ ويختلف طول
الشرارة بحسب مقادير الشحنات الموجودة في السحب وعلى سطح الأرض فقد يبلغ
ميلاً وقد يزيد على ذلك. ويلاحظ أن لون البرق يختلف، فبينما نراه أبيض في أسفل
الجو نراه في أعلاه ضارباً إلى اللون البنفسجي أو مائلاً إلى الحمرة، وذلك لتخلخل
الهواء في تلك الجهات المرتفعة.
والبرق على أنواع: منها برق كثير التعاريج وقد ظهر جلياً في تلك الليلة التي دفعتنا إلى
كتابة هذا المقال.
وبرق يرى عند الأفق وهو في حدوثه كاللمعة الفجائية، وبرق كروي يمتد من السحاب
إلى
الأرض في بطء ويمكن العين أن تتبعه. وقد اختلف العلماء في منشأه وفي أسباب
حدوثه ولم يستطيعوا أن يصلوا إلى نتيجة قاطعة في ذلك؛ وهناك برق يرى في ليالي
الصيف برغم صفاء السماء، ويرجع منشأ هذا البرق إلى الغيوم الموجودة تحت الأفق،
وهذه الغيوم تكون عادة بعيدة، وبعدها هذا من العوامل التي تحول دون سماع أصوات
الرعود التي تحدث كنتيجة لهذا البرق. وقد أثبتت التجارب أن البرقة تتكون من
شرارات عديدة يتبع بعضها بعضاً وإن مدة لبث ضوء البرق أقل بكثير من عشر الثانية.
أما الرعد فهو الصوت الذي يعقب البرق، وهو يسمع دائماً بعد رؤية البرق، والسبب
في ذلك يرجع إلى أن سرعة الصوت أقل بكثير من سرعة الضوء، فالصوت يسير في
الثانية الواحدة نحو ربع كيلومتر، بينما الضوء يقطع ثلثمائة ألف كيلومتر في الثانية
الواحدة - فتأمل . .!!
وسبب حدوث الرعد يرجع إلى أنه عند ما يتحد نوعاً الكهربائية أي عند التفريغ
الكهربائي بين سحابتين، أو بين سحابة والأرض، يتمدد الهواء في منطقة التفريغ

ويحدث ضغطاً على الهواء المجاور ثم يأتي الهواء ثانياً إلى تلك المنطقة لتخلخل هوائها، وهكذا تتكرر هذه الحركات وينتج عن تعاقبها صوت نطلق عليه اسم (الرعد)، فإذا كان التفريغ في منطقة قريبة منا سمعنا صوتاً مزعجاً جداً؛ أما إذا كانت بعيدة فحينئذ يكون للرعد أصوات ليس فيها شدة نسمعها متتابعة آخذة في الازدياد من أزيز إلى قرقرة إلى قعقعة؛ وإذا حصل برق ولم يعقبه رعد فمعنى هذا أن التفريغ الكهربائي حدث في أماكن بعيدة أو في مناطق مرتفعة حيث الهواء قليل الكثافة.

وكثيراً ما نسمع بأن صاعقة وقعت على شخص فأفقدته حياته، وانهالت على بعض مواد قابلة للاشتعال فألهبتها، وأنها أصابت حيواناً فأماتته، وأنها نفذت إلى الأرض فأحدثت فيها فوهات عميقة، وقد تقع على قضبان من الحديد فتمغنطها وتظهر عليها آثار المغناطيسية بصورة ملموسة. فما هي هذه الصاعقة التي تحدث مثل هذه الأعمال؟ ما سبب حدوثها؟ لقد أثبتت التجارب أن الصاعقة ليست إلا تفريغاً كهربائياً بين سحابة مشحونة وبين الأرض. فالأرض تشحن بالتأثير بكهربائية مخالفة كهربائية السحابة فيحصل اتحاد بين نوعي الكهربائية وينتج عن ذلك شرارة كهربائية وهي ما نسميها بالصاعقة. وهي تتجه في سيرها في الطرق الأقل مقاومة لها من الهواء فتمر على المباني والأشجار وتؤثر فيها؛ وقد تحدث فيها أضراراً جمة، فإذا مرت على شخص أو حيوان فقد تفقدهما الحياة، ولهذا لا يستحسن أن يجلس الإنسان في الليالي الكثيرة البرق في أماكن مرتفعة (تحت السماء) أو تحت شجرة، ففي ذلك كله يعرض نفسه للخطر. وتسلح الأبنية في البلدان التي يكثر فيها وقوع الصواعق بجهاز خاص يطلق عليه اسم (مانعة الصواعق، أو مترسة الصاعقة) اخترعها فرنكلين لحفظ المباني والأماكن العامة من الأضرار التي تحدثها الصاعقة؛ وبرغم معارضة رجال الدين لهذا الاختراع الجليل في بادئ الأمر فقد انتشر انتشاراً كبيراً في أمريكا وأوربا، وذاع اسم مخترعه (فرنكلين) وأصبح حديث الحلقات العلمية وموضع إعجاب العلماء ورجال الأعمال. ولا بأس من الإشارة إلى أن فرنكلين لم يكن عالماً فقط، بل خدم العلم وقام بقسط كبير في تقدم الكهرباء، وإليه يرجع الفضل في إنشاء الجمعية الفلسفية الأمريكية وفي تأسيس جامعة بنسلفانيا الشهيرة، وفوق ذلك فقد كان من كبار سياسي زمانه الذين جاهدوا كثيراً في سبيل استقلال بلادهم، ومات وقد تحقق كثير من غاياته السياسية التي من أجلها ضحى وناضل. وهذا المخترع العالم جدير بأن يكون قدوة صالحة ومثلاً عالياً لعلمائنا الذين يقبعون في بيوتهم أو في معاهدهم ولا يبذلون شيئاً من مجهوداتهم وتفكيرهم لخير بلادهم.

وليت الأمر يقف عند هذا الحد بل يتعداه إلى أنهم لا يسيرون في ميادينهم العلمية سيراً قومياً، فلست ترى إلا نادراً من خصص بعضاً من وقته في ناحية الكشف عن مآثر أمته في الطب مثلاً أو التاريخ أو الرياضيات أو الآداب أو الطبيعيات أو الفلسفة أو في أي فرع من فروع المعرفة الأخرى وأثرها (أثر الأمة) في تقدم المدينة وسير الحضارة؛ وقد غرب عن بالهم أن علماء الأمم في هذا الزمان وفي الأزمنة السابقة قد خصصوا (ويخصصون) جانباً كبيراً من وقتهم وتفكيرهم في ناحية بعث الثقافة القومية وتبيان آثار أممهم في ميادين العلوم والفنون. نحن لا نقول بألا يواصل علماؤنا بحوثهم وألا يهتموا بالتنقيب، ولكننا نقول بأن يخصصوا جانباً من وقتهم للاشتغال في تحرير بلادهم من النير الأجنبي ولتوجيه بعض بحوثهم توجيهاً قومياً يخلق في النشء روح الاعتزاز والاعتقاد بالقابلية، وفي هذا قوى تدفع بالأمة المستعمَرة إلى ما تتمناه من رفعة وسؤدد واستقلال.

ولنرجع الآن إلى مانعة الصواعق فنقول إنها تتركب من ساق وموصل، فالساق يتركب من قضيب حديدي مدبب في نهايته العليا لا يقل طوله عن خمسة أمتار ولا تقل مساحة مقطعه عن 25 سنتيمتراً مربعاً يوضع في أعلى البناء المراد تسليحه، ويغطى طرفه الأعلى عادة بطبقة من البلاتين لكي تمنع تراكم الصدأ، وبذلك يبقى القضيب جيد التوصيل؛ أما الموصل فهو سلك من حديد أو عدة أسلاك تمتد من نهاية الساق إلى الأرض، ومن الضروري ملاحظة هذه النقطة - نقطة الاتصال الأرضي - إذ يجب أن يكون الاتصال (بالأرض) محكماً، وإلا لما كان للمانعة فائدة عملية، ويستحسن أن تكون نهاية الموصل في أرض مبللة أو في بئر، وإذا لم يمكن ذلك فمن الضروري عمل

حفرة في الأرض تدخل فيها نهاية الموصل، ويراعى في هذه الحفرة أن تكون دائماً رطبة وذلك بتسليط مجرى مائي عليها، أو باستعمال طرق يمكن بواسطتها حفظ رطوبتها؛ ولكي يضمن الإنسان الفائدة العملية من المانعة يجب عليه أن يجعل لنهاية الموصل شعبتين أو ثلاثة. . وهناك طرق أخرى اخترعت لحفظ المباني من الصواعق وأضرارها يمكن لمن يريد الاطلاع على تفاصيلها أن يراجع الكتب الخاصة بذلك.

ولمانعة الصواعق عملان: الأول أنها تمنع تراكم الكهربائية على سطح الأرض؛ والثاني أنها ترجع السحب المكهربة إلى حالة التعادل؛ وهذان العملان يحولان دون حدوث الصاعقة ويحفظان الأبنية من آثارها؛ وقد تكون المانعة غير قادرة على منع حدوث الصاعقة، فحينئذ يحدث التفريغ وينتج عنه البرق، ولكن يقع التأثير كله وتقع الصدمة كلها على المانعة لأنها جيدة التوصيل، وبهذه الطريقة يصان البناء ويبقى سالماً.

لقد تكلمنا بإيجاز عن البرق والرعد والصاعقة، وعن كيفية حدوثها، ومن أراد زيادة البحث والاستقصاء فعليه أن يرجع إلى الكتب الموضوعة في علم الطبيعة وغيرها، ففيها الكفاية والتفصيل.

ويظهر لنا مما مر أن هذه الظواهر كغيرها تسير على قانون ونظام لا تخرج عنهما، وترتكز على أسس ومبادئ يسعى الإنسان للتعرف عليها والوقوف على دقائقها؛ وإن في تعرف الإنسان عليها ووقوفه على دقائقها لما يقوى فيه الاعتقاد بوجود قوة الله المدبرة الحكيمة المنظمة التي تشرف على هذا الكون وتسيطر على حركاته. أليس في البرق

والرعد والصاعقة وفي كيفية حدوثها، وفي المبادئ الطبيعية التي تسودها ما يزيد المرء اعتقاداً بضآلته؟ أليس في عدم استطاعته اكتشاف كثير من القوانين التي تسود الكون، وفي عدم وصوله إلى نتائج حاسمة في الوقوف على أسرار بعض الظواهر الجوية ما يزيد الإنسان اعتقاداً بأنه لا يزال على عتبة اليقظة العقلية؟

أليس في معرفة شئ عن حقيقة هذه الظواهر الجوية ما يزيد في وداعة الإنسان وفي تواضعه، ويسمو به إلى عالم أسمى من عالمنا؟

أليست هذه الظواهر الجوية دلائل قاطعة على عظمة الله المبدعة وقدرته الخارقة؟

وأخيراً أليست هذه الظواهر من آياته فيها عبرة وعظة للذين يتفكرون في خلق السموات والأرض وما بينهما؟

نابلس

قدري حافظ طوقان

بين الأدب والسياسة

للأديب أحمد الطاهر

نقصد بتاريخ الأدب - هنا - كل ما يتناول الحياة الأدبية للأمة، مما يطرأ عليها من القوة أو الضعف، والصعود أو الهبوط، وأسباب ذلك، وما ينتجه أصحاب البيان في مختلف مناحي القول، ودراسة حياة أولئك المنتجين، وأثر ما انتضحت به قرائحهم في اللغة.

ونقصد بالتاريخ السياسي والاجتماعي - هنا أيضاً - ما يطرأ على الأمة من أحداث وتغيير في نظامها السياسي وعلاقة الحاكم بالمحكوم ونظام الحكم فيها، وعلاقة الأمة بغيرها من الأمم، وكذا حالتها الاقتصادية والمالية، وعلاقة ذلك بمرافقها.

وما سقنا هذا التعريف - وهو غير جامع ولا مانع - إلا لنحد به موضع البحث في الصلة بين التاريخين، وهي صلة وثيقة واشجة. فقلّ أن يتأثر أحدهما بعامل من العوامل دون أن يبدو لذلك أثر في الآخر يبدل وجهته ويغير ديباجته - ذلك مالا خلاف فيه. أما ما اشتجر فيه الرأي وظهر الخلف: فأيهما يسبق الآخر فيمهد له الطريق ويعبد له المسلك؟ وأيهما أبلغ أثراً في الآخر؟ وفي هذا نسوق الحديث:

فجمهرة الأدباء على أن التاريخ الأدبي يسبق السياسي والاجتماعي: فينهج له السبيل، ويمهد له المنبت: فينشأ قوياً أو ضعيفاً، منتجاً أو عقيماً، حسبما تهيأ له.

وأغلب الظن أن هذا القول على إطلاقه لا يقصد به أن يكون قاعدة يعتبر ما شذ عنها استثناءً؛ ذلك بأن استقصاء تواريخ الأمم وتقريه يقف بنا في مراحل عدة نجد فيها التاريخ السياسي والاجتماعي سابقاً للتاريخ الأدبي، مؤثراً فيه أثراً عليه طابع السياسة وسمتها. بحيث لا يسع مؤرخ الأدب إلا أن يعترف بفعل السياسة فيه، وأثرها في أكثر مظاهره ونواحيه؛ ونزول الأدب على حكم السياسة، وكثرة هذه المراحل لا نطمئن

معها إلى القول بأنها استثناء للقاعدة، ولعل من الخير ألا نقرر قاعدة بعينها في تحديد هذه العلاقة.

فالأمم الحية القوية التي نالت حظاً من الحضارة والحرية، إذا وقع فيها انقلاب سياسي أو اجتماعي، أو قلبت صفحة جديدة في سجل حياتها السياسية قل أن يحدث فيها هذا الانقلاب دون أن تسبقه نهضة أدبية تهيئه للوجود، وتعده للنهوض بما تفعل في الشعب من إيقاظ الشعور حتى الإحساس بضرورة التغيير، وحفز الهمم حتى تصدق العزائم على المضي إلى الغاية، وتمحيص الرأي حتى لا يتعثر في درجه مع سيل الحوادث.

ذلك فضل الأدباء والشعراء والخطباء والكتاب، وموضع الأدب هنا موضع السابق من المسبوق، والمتبوع من التابع.

ولا نغفل هنا أن الأدب لا يكتفي بالسبق، ولا يقنع بالقيادة: بل إنه ليلقى الانقلاب السياسي في الميدان بعد أن أفسح له الطريق فيدارجه ويرعاه بما يقويه، ويبعث النشاط في نواحيه، ويهدي الأمة في جهادها فيه، ويقف التاريخ السياسي والاجتماعي حيث قدر له أو حيث أراد، ولكن التاريخ الأدبي لا يقف عند هذه الغاية. بل يسير بعد ذلك ويمتد أثره: فما يزال أهل الأدب بعد الحدث السياسي أو الاجتماعي يحبُون الأمة بفضلهم، ويتعهدونها ببرهم، ويخرجون لها جميل آثارهم، ونتاج قرائحهم: يتحدثون عن الماضي وما كان فيه، ويذكرون الحاضر، ويستشرفون بالأمل في المستقبل، فتربو ثروة الأدب وتنمو. ويتسع مجال القول، وتخلد للأمة آثار تبقي ما شاء الله على تطاول الزمن.

ولا نُغفل كذلك أن الأدب في هذا الوضع يفضل السياسة من حيث ما تفيد الأمة من كليهما: ذلك بأن الانقلاب السياسي أو الاجتماعي غير مأمون العاقبة: فالأمة في سبيلها إلى الغاية السياسية أو الاجتماعية التي تقصد إليها يعرض لها ما يعرض للضاعن في طريقه: فقد تعيا فلا تصل إلى الغاية، أو تتكاءدها عقبات تحول دون الفوز بالمقصد؛ وقد تهب عليها من أية ناحية إعصار وأنواء تصدف بها عن المحجة، وتلوي بها عن القصد، وتضلها عن السمت، فلا تبوء الأمة بعد جهادها الطويل أو القصير إلا بالفشل فيما قصدت إليه، وخسران الأنفس والأموال فيما سمعت له، بَلْهَ جزيرة ذلك على حاضرها ومستقبلها.

أما النهضة الأدبية فقاعدتها بقاء الأصلح. وحكمها فناء السقيم: فمتى نهض أهل الأدب وبرزوا للناس بفضل أقلامهم فذلك هو الخير الذي لا سبيل إلى التشكك فيه من حيث هو ثروة وعتاد في الأدب. والبقاء مكفول لهذه الثروة ما بقي في الدنيا أدباء ومؤرخون؛ ولا بقاء للأدب الرخيص فإنه يذهب جفاء في اللحظة التي يظهر فيها للوجود. ومهما تكن النتائج السياسية أو الاجتماعية التي مهدت لها النهضة الأدبية أو كانت سبباً فيها فهذه النهضة الأدبية لها قيمتها في ذاتها وفيها خيرها من ساعة ميلادها: لا يغض من شأنها، ولا ينقص من قدرها، ولا تمتد إليها يد غاصب، ولا تعبث بها يد ظالم. ولا نقصد بقولنا إن الأدب الرخيص أو السقيم لا يقوى على الحياة أن أدب الأمة ما بقي لا يكون إلا قيماً ثميناً، إنما قصدنا إلى أن الأدب في فضله وما يتروى الناس منه كالكنز يخرج من بطن الأرض له قيمته وقدره، وقد يكون الكنز ذهباً أو فضة أو معدناً دون الذهب والفضة، ومهما يكن من شئ فهو ثروة لها قدرها ووزنها.

ولكن هناك شروطاً لا بد من وفائها حتى يفيض الأدب فضلاً على أمته، ويبلغ القصد من محجته، في هذا الوضع الذي بيَّنا: أولها أن تكون في الأمة حياة أدبية تثبت وجودها قبل الأحداث السياسية، وتستطيع أن تشق طريقها في ظلمات الانقلاب، وتسلك نهجها تحت عواصف الثورة، وتقوى على البقاء بعد أن تهدأ العاصفة؛ وثانيها أن تكون الأمة موفورة الحق في المتعة بحرية القول والبيان عن جدارة واستحقاق فلا تكتم عن الحق أفواه الخطباء، ولا تكتم عن الصدق أنفاس الشعراء، ولا تزم عن الكتابة أنامل الكتاب. وثالثها: أن يكون سواد الأمة مثقفاً ثقافة أدبية؛ فبغير هذا لا ينبت لأهل الأدب زرع، ولا يدر لهم ضرع، ولا يصيخ لهم سمع. وأقرب المثل لهذا الوضع وهذه النتائج الثورة الفرنسية ونهضة الأدباء قبلها وأثناءها وبعدها. وذلك مالا يحتاج إلى بيان.

أما الأمم الواهنة المستضعفة فالعلاقة بين تاريخها السياسي والاجتماعي وتاريخها

الأدبي مضطربة متبلبلة، لا تسير على نهج واضح، وتنقطع حيناً وتتصل حيناً، وتضعف وتقوى؛ ذلك بأنها لضعفها واستكانتها وفرط ما كرثتها الحوادث تسلم سجل تاريخها السياسي للقدر، أو لمن بيده أمرها؛ يقلب صحافته كما يشاء، ويمحو ويثبت فيه ما يشاء. فلا موضع للقول بأن لأدبائها أو لتاريخها الأدبي أثراً في خلق انقلاب سياسي فيها، أو التمهيد له، أو تقويته، أو تعهده. فإذا حدث فيها انقلاب سياسي فهو في أغلب الأحيان مقطوع الصلة بحالتها الأدبية؛ على أنه إذا جد الجد، وقويت حركة الانقلاب السياسي وغلت مراجله حتى تنفست عن ثورة حادة، أو ما يشبه الثورة الحادة، فقد يؤثر ذلك في تاريخ الأمة الأدبي، فيطلق الألسنة من عقالها، ويمد القرائح بغذائها، فتنطلق في الجو صيحات تكون خافتة في مبدئها، وتستسلم بعد ذلك للأقدار، فأما أن تقوى وتشتد، وأما أن تضعف وترتد.

وهنا نرى للأدب فضلاً آخر لا يجوز إغفاله: ذلك بأن الأمة التي وصفنا قد تعوزها في جهادها السياسي وسائله وعدته، أو يقعد بها ضعفها عن النهوض له فتستخذى وتستسلم

لضعفها أو قوة غلبها. أما أهل الأدب فلا ينضب لهم معين، ولا يقفر بهم منبت، فهذه الظلمات المحيطة بالأمة ينسجون من خيوطها شعراً، وهذه صخور الظلم والاستعباد يفتتونها بأسنة الأقلام ويبسطونها للناس نثراً، ومن هذا يحاولون إحياء شعور أماته الظلم، وإثارة همم قعد بها الخنوع. وقد يفلحون فيصلون بالأمة إلى غاية سياسية محمودة، وقد يخفقون ولكن بعد أن يتركوا للأمة ثروة أدبية؛ ولا تنس أن جهادهم شاق وعسير، وأن بلاءهم مرهق ومرير.

وهنا نجد التاريخ السياسي سابقاً ومتبوعاً، والتاريخ الأدبي لاحقاً وتابعاً؛ والأول مؤثر في الثاني أثراً قوياً أو ضعيفاً، وقد يبرز الأول في الميدان فلا يتبعه الثاني ولا يجاريه، وإن تبعه ففي تؤدة ووناء. على أنه يشترط أيضاً في هذه الحالة أن تكون الأمة مثقفة إلى حد معين حتى تستطيع في وسط هذا المضطرب أن ترى قبس النور ينبعث من قصبات الأقلام فتمشي على هداه، وأن تسمع صوت الحق من الخطباء فتلبي نداه. ذلك أن أتيح للأديب أن يكتب، وللخطيب أن يخطب.

ولا يتداخلنا العجب من أن يسبق التاريخ السياسي ويتقدم والمثل أمامنا واضحة بينة. فتاريخ الأدب الإسلامي إنما تأثر بما سبقه من عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية كان من مظاهرها نشوء الأحزاب السياسية وما فتح الله للمسلمين من بقاع الأرض؛ ذلك أثر في العقلية العربية فغير في أسلوب الشعر والخطابة والكتابة وموضوعاتها تغييراً ظاهراً. وأقرب من هذا المثل تلك الحرب الأوربية التي اندلعت نارها في الغرب، وامتد لهيبها إلى الشرق، فحركت النفوس وحفزت الهمم، وأثارت المطامع، وأبرزت في الشرق طبقةصالحة من الكتاب والأدباء، ما زالوا يعملون وما زال الشرق يرجو من غيثهم خيراً في الأدب وفي السياسة؛ أليست هذه نهضة أدبية قامت على أثر حركة سياسية؟

وليس سبق التاريخ السياسي على الأدبي قاصراً على الأمم الضعيفة أو المستضعفة، فقد يقع هذا في الأمم القوية كما يتضح من أثر تلك الحرب في الغرب، وأكثر أممه قوية متحررة، فقد تقدمت الحرب وأحداثها، ثم تبعها تغيير في الآداب من حيث الأسلوب ونظام القصة وطريقة التفكير، وكان تغييراً مستوياً كاملاً قوياً، بل كان نهضة حادة فتية.

أليس من الخير بعد هذا ألا نلتزم قاعدة بعينها نجري على سننها الأدب والسياسة ونقيد بها

موضع أحدهما من الآخر وأثره فيه؟

ذلك ما أراه في هذا البحث، فإن رأى أئمة البيان وأهل الأدب غيره وجلوا لي وجه الصواب وبصروني مساقط الرأي فإنني لشاكر وسعيد.

اليوزباشي أحمد الطاهر

عمرو بن العاص - 2

بقلم حسين مؤنس

ثم انظر كيف فهم الرسول صلى الله عليه وسلم نفس عمرو: لقد قال: (أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص) لقد أسلم الناس حباً في الإسلام وقد دفعتهم عواطفهم

وهدتهم طبائعهم، أما عمرو فقد حسب لأمر حسابه، ووزن ربحه وخسارته، حتى إذا اطمأن فقد آمن. وقد أقبل واثقاً. . هكذا أصاب الرسول الكريم في فهم الرجل الجليل. وأن الرسول ليعرف أن عمراً كان تاجراً داهية ومساوماً ماهراً. . . وأنه قد بذل الثمن وينتظر الربح، فهو لا يضن عليه بما يريد فيؤمره على سرية ذات السلاسل، ويؤمره على المدد الذي أرسله إليه وفيه أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ونفر من الأنصار والمهاجرين. . . إن الرسول ليعرف أن هؤلاء كلهم لا ينظرون إلى ولاية أو إمارة. . . لأنهم لا يلقون جزاءهم عن الأيمان إلا عند الله. . . أما عمرو فيجادل أبا عبيدة على الإمارة. . . ويقول له: (إنما قدمت على مدد، وأنا الأمير ولا أمارة لك. . .) فينزل له أبو عبيدة عن الأمارة وكفاه شرف الجهاد. . . ثم انظر كيف يفهم أبو بكر نفس عمرو. . . إنه ليفرده بفتح فلسطين. . . إنه ينقده ثمن ما سيبذل من جهد في الفتح ومهارة في القتال. . . ولو قد طلب إليه أن يكون مكان يزيد بن أبي سفيان مثلاً على جيش دمشق. . . لربما كره عمر. . . وربما لم يبد من المهارة ما أبدى في أجنادين، ولكنه خليفة رسول الله، كان يعرف عمراً خير المعرفة. . . فنزل له عما يريد. ولم يقصر الفاروق في هذا فتركه حراً في فلسطين، لم يعزله كما عزل خالداً. . . وكان عمر يعرف كذلك أن عمراً مغامر. . . وأي تاجر لا يغامر؟ وأي رجال المال لا يرتاح إلى المضاربة والمغامرة والتعرض للغنم العظيم أو الغرم الذي يقصم الظهر. . . ولكنه كان يعرف فيه حذق المضاربة. . . وأنه لا ينزل السوق إلا كاسباً، ولهذا. . . أقره على فتح مصر ولم يفرغ بعد من فتح الشام. . . وكان عمرو في ذلك مساوماً ماهراً ومقنعاً ذا حجة ودهاء. . . فلم تثبت اعتراضات عمر الثبت الحصيف الدقيق الذي يضن بمسلم واحد على أن يجازف به وإنما اقتنع سريعاً. . . كان عمرو ماهراً لسناً بارعاً حين خلا بابن الخطاب وهما عائدان من فتح فلسطين. . . وكان أمهر حين انساب في جنح الليل يسعى إلى مصر سعياً. . . لقد خشي أن يعود أمير المؤمنين فيقبض يده. . . وقد خشي أن يراجع عمر نفسه. . . أو خشي أن يثنيه أحد عن عزمه. . . وما أخطأ عمرو في ذلك. . . فها هي ساعات لا تنقضي على مسيرة عمرو حتى يقبل عثمان فيعلن إليه عمر نبأ غزاة مصر. . . فما يكاد عثمان يسمع الأمر حتى يراع ويصيح به: (يا أمير المؤمنين: إن عمراً لمجرَّؤ وفيه إقدام وحب للأمارة، فأخشى أن يخرج من غير ثقة ولا جماعة فيعرض المسلمين للهلكة رجاء فرصة لا يدري تكون أم لا. . .) فيشفق عمر على المسلمين إشفاقاً شديداً. . . وتحدثه نفسه أن يستوقف عمراً، ولكن عمراً قد مضى من أيام. . . ولعله قد دخل حدود مصر، ولعل الرسول لا يبلغه إلا وقد دخلها. . . وما ينبغي لجيش إسلامي أن يدخل بلاداً ثم يبارحها من غير فتح. . . تلك إذن هزيمة لا تليق بجند الإسلام.

إذن فليسرع بالكتابة إليه، فإن أدركه الرسول قبل أن يدخل حدود مصر فليرجع، . . . وما في ذلك حرج. . . وإذا كان قد دخلها. . . فليمض على بركة الله، وليبعث إليه الإمداد سراعاً تباعاً. . . كأنما كان عمرو يقرأ ذلك لكنه من كتاب! وكأني به وقد قدر أن الخليفة لا بد أن يستدعيه، وأن أحداً لا بد لائمه في ذلك الأمر. . . فها هو ذا يقرأ كتاب الخليفة دون أن يفتحه!. . . وها هو ذا يحتال حتى يدخل أرض مصر. . . لا لأنه يعلم أن الخليفة قد قال ذلك. . . بل لكي يقول للخليفة إذا أمره بالرجوع: (وكيف أنسحب وقد دخلت أرض مصر. . . فكأني بالروم تقول: خافتنا العرب. . .)

إلى هذا الحد بلغ ذكاء هذا الرجل وحسن تقديره ودقة بصره. . . حتى عمر نفسه على ما عرف عنه من الذكاء الخارق لم يدرك شأو ابن العاص في فن الحساب والتقدير. . .!

. . . . . .

وأي صفقة هذه. . . لقد ربحها ابن العاص. . . إنها مصر التربة الغبراء. . . والشجرة الخضراء. . . (طولها شهر وعرضها عشر) كما يقول في وصفه البليغ لعمر. . . ثم انظر كيف يعرف الرجل سبيل استغلال (هذه اللقمة) السائغة. . . إنه يقول: (ألا يتأذى خراج ثمرة إلا في أوانها. . . وأن يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وترعها. . . فإذا تقرر الحال مع العمال في هذه الأحوال. . . تضاعف ارتفاع المال. . .)

وتلك هي سبيل التاجر الذي يحسب مكسبه وطرق الفائدة منه. . . ثم استمع إلى ما

يوصي به الناس غداة الفتح. . . إنه لا يقف كثيراً عن حض الناس على الصلاة والصيام. . .
فتلك أمور بينهم وبين ربهم. . . أما هو فحسبه أن يقول (يا معشر الناس! إياكم وخلالا أربعة فإنها تدعو إلى التعب بعد الراحة. وإلى الضيق بع السعة. . . وإلى الذلة بعد العزة. . . إياكم وكثرة العيال. . . واخفاض الحال، وتضييع المال، والقيل والقال بعد ذلك في غير نوال، ثم يوصي الناس بالخيل ويطيل في ذلك. . . لأنها (رأس مال العربي) في الفتح والزرع!. . . وهكذا. . . كان الرجل يعرف قدر الصفقة التي كسبها من عمر، ويعرف سبيل الفائدة منها. . . وإحسان القيامة عليها، وإلى هنا ويبدأ الخلاف بينه وبين غيره. . . حتى عمر نفسه لا يداني ابن العاص في مسائل المال والاستثمار. . . فها هو ذا يكتب إليه يقول: (أما بعد فإني فكرت في أمرك والذي أنت عليه، فإذا أرضك أرض واسعة عريضة رفيعة قد أعطى الله أهلها عدداً وجلداً. . . وقوة في بر وبحر، وأنها قد عالجتها الفراعنة وعملوا فيها عملاً محكماً مع شدة عتوهم وكفرهم. . . فعجبت من ذلك. . . وأعجب ما عجبت أنها لا تؤدي نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير قحط ولا جدب!) فيرد عليه عمرو الرد الحكيم فيقول: (ولعمري. . . للخراج يومئذ (أي أيام الفراعنة) أوفر وأكثر، والأرض أعمر، ولأنهم كانوا على كفرهم وعتوهم، أرغب في عمارة أرضهم منا مذ كان الإسلام. . .).
هنا نلمس الفرق بين عمرو وغيره من ساسة الإسلام، إنه يجيد الاستثمار، ويحسن القيام على المال. . . . . وهل كان الولاة الأولون يعرفون من هذه الأمور كثيراً أو قليلاً؟ أترك الجواب على ذلك لابن خلدون فله من ذلك شكوى لا تنقطع. . .! وهنا سر الخلاف بين عمر وعمرو، ومبعث هذه المراسلات التي كانت تشتد وربما وصلت إلى التعريض. . . فهذا عمر يقول: (وقد علمت أني لست أرضى منك إلا بالحق المبين، ولم أقدمك مصر أجعلها لك طعمة!. . .) ثم يقول له في كتاب آخر: (إنه قد فشت لك فاشية من متاع ورقيق وآنية وحيوان لم تكن حين وليت مصر!).
إن ابن الخطاب يعرف أساليب عمرو بن العاص، إنه يخشى أن يدخر المال. . . إنه ليبعث إليه محمد بن مسلمة (ليقاسمه ماله) في ظاهر الأمر، وليكون عليه رقيباً حسيباً!. . . في باطنه؛ كان عمر يعرف في ابن العاص صفة التاجر المغامر. . . فعامله على حذر، وأفاد منه ولكن في حذق. ولكن عثمان قد عزله عن مصر. . . فأي خطأ هذا. . . وأي
جهل بطبيعته. . . لو أنه وجه إليه كلاماً أفعل من كلام عمر لسكت. . . لو أنه فعل به أي شئ آخر لما أهاجه ذلك هذا الهياج. . . ولكن (الصفقة) ضاعت من يده؛ لقد عزل عمر بن الخطاب خالد ابن الوليد عن إمرة صد الشام فلم يحزن ولم يبتئس، ولكن ابن العاص لا يسكت. . . إنه يعرض بعثمان حيث جلس. . . إنه يخف إلى المدينة مسرعاً وإن الثورة على عثمان لتضطرب بين جوانحه. . . وأي ثورة هي أشد من هذا الحديث البديع الذي رواه لنا الطبري كاملاً:
قال عثمان: يا ابن النابغة!. . . أتطعن علي وتأتيني بوجه وتذهب عني بوجه آخر؟
عمرو - إن كثيراً مما يقول الناس وينقلون إلى ولاتهم باطل، فاتق الله يا أمير المؤمنين في رعيتك.
عثمان - استعملتك على ظلعك وكثرة القالة فيك.
عمرو - قد كنت عاملاً لعمر بن الخطاب ففارقني وهو عني راض.
عثمان - لو آخذتك بما آخذك به عمر لاستقمت، ولكني لنت عليك فاجترأت، أما والله لأنا أعزمنك نفراً في الجاهلية، وقبل أن ألي هذا السلطان.
عمرو - دع هذا، فالحمد لله الذي أكرمنا بمحمد صلى الله عليه وسلم وهدانا به، قد رأيت العاص بن وائل ورأيت أباك عفان، فو الله للعاص أشرف من أبيك.
عثمان - ما لنا ولذكر الجاهلية!
هكذا تنتهي المحاورة بين الخليفة وعمرو. . . ويخرج هذا الأخير وقد دبر في نفسه أمراً. . . إنه ليثير الناس على الخليفة ويقضي وقته متنقلاً من مجلس إلى مجلس يبسط للناس أخطاء عثمان. . . ويحرضهم على الثورة عليه. . . فإذا وفق إلى إثارة الناس وأنذرت الفتنة فقد انحاز إلى قصره (العميلان) بفلسطين. . . حيث وجدناه في أول هذا الحديث. . . فإذا بلغه مقتل عثمان فقد طرب لذلك ولم يكتم فرحه به. . .

وصاح يقول: (أنا عبد الله. . . إذا حككت قرحة أدميتها، أنى كنت لأحرض عليه، حتى لأحرض عليه الراعي في غنمه في رأس الجبل.
والآن! (قد خرج الحق من خاصره الباطل، وأصبح الناس في الحق شرعاً سواء!. مات ولي الأمر وأصبحت دولة الإسلام كلها (صفقة واحدة) تحسن المساومة فيها جملة، ولهذا
أرق عمرو وسيأرق طويلاً، إنه ليتدبر الأمر تدبيراً، وإنه ليقلبه على وجوهه ويحسب مكسبه منه، وخسارته فيه، ثم يمضي على حذر، وسنرى.
للبحث بقية

حسين مؤنس
في الأدب الإنكليزي
الكائنات الغيبية في شعر شكسبير - 5
بقلم خيري حماد

الأحلام:
إن اهتمام شكسبير بالأحلام ليفوق اكتراثه للعفاريت، فقد جعل منها في كثير من الأحيان قسماً من أقسام الرواية الأساسية بحيث تشكل ما نسميه موضوع الرواية.
وهناك عدد من الأحلام في رواياته كان له أثر غير قليل في مجرى الرواية وسياقها التمثيلي. فحلم كلوسستر في القسم الثاني من رواية هنري السادس، وحلم كلارنيس في رواية ريشارد الثالث، وحلم كلبورنيا في رواية يوليوس قيصر، وحلم العرّاف في سمبالين، كلها تكون جزءاً غير قليل من هيكل الرواية التي ذكرت فيها.
وجميع هذه الأحلام التي ذكرتها عدا حلم العراف سمبالين تنبئ عن الموت والخراب؛ فكلوسستر يرى في نومه غلاماً قد لدغته أفعى سامة فقتلته على الفور؛ وكلارنس يحلم أن أخاه قد رمي به في بحر خضم فأغرقه حيث لا رجعة له بعد ذلك؛ وكلبورنيا أبصرت في نومها زوجها قتيلاً بين أيدي مغتاليه ورأت جسده يسيل الدم من جوانبه وقد اجتمع جميع الرومانيين حوله ليرشفوا من دمائه.
وكان الناس على اختلافهم يعتقدون أن الملكة ماب تبعث هذه الأحلام في الصدور؛ وتتجلى لنا هذه الفكرة من أجابه مركونيو لرفيقه روميو إذ يقول: (وإني لأظن أن الملكة ماب قد لازمتك ليلة البارحة)
لقد تحققت جميع الأحلام التي وردت في روايات شكسبير؛ ومن هذا يظهر لنا أن الشاعر كان يعتقد اعتقاداً جازماً في الأحلام وتأثيرها على المجتمع البشري، وهذا الاعتقاد هو ما نسميه اليوم بعلم تفسير الأحلام.

التنبؤ والتنجيم:
تحتوي روايات شكسبير على عدد كبير من النبوءات التي تختلف بحسب أهميتها وكونها قسماً رئيسياً من أقسام الرواية. وأهم هذه النبوءات التي يطالعنا بها شكسبير هي نبوءة مرجريت في رواية ريشارد الثالث. فهي تتنبأ للملكة اليصابات بقدوم وقت قريب تحتاج في أثنائه لمعونة كل إنسان، وهي تنبئ كلوسستر بقرب ذلك اليوم الذي تقطع فيه الأحزان نياط قلبه؛ وإن من الغريب أن كلتا هاتين النبوءتين تتحقق في سياق الرواية.
وأما النبوءات التي فاهت بها الساحرات في رواية مكبث، فقد تحققت كذلك في نهاية الرواية. وهذه النبوءات كما ذكرنا سالفاً كانت على نوعين: أحدهما حدث قبل أن يكون ملكاً على اسكتلندة، والآخر بعد رُقيه العرش، وقد تحققت هذه النبوءات كما تحققت سالفتها.
وفي رواية (ترويلس وكريسيدا نرى هناك عدداً آخر من النبوءات التي تصدر عن أميرة حمقاء تدعى الكسندره، فقد تنبأت بقتل هكتور ودمار طروادة، وهذا ما حدث حقيقة في نهاية الرواية؛ وترى في بعض الروايات عرافين يتكهنون بحدوث الأمور قبل وقوعها؛ ففي رواية يوليوس قيصر يتكهن العراف يقتل قيصر، وهذا ما يتم فعلاً لننتقل الآن قليلاً إلى البحث في التنجيم والفلك، ونرى هل اهتم شكسبير بهذا النوع من المغيبات. لقد وردت إشارات عدة في كثير من رواياته إلى التنجيم وقدرته على حل رموز الغيب والمستقبل؛ فنرى في كل من هملت، ويوليوس قيصر، وكوريولانوس، والعاصفة، وهنري السابع، ومكبث، وقصة الشتاء ' ' عدداً من الظواهر الطبيعية التي

تحدث عادة قبل وقوع أمر جلل.
سيطول بنا البحث كثيراً إذا أسهبت في وصف كل من هذه الظاهر الطبيعية وشرح أسبابها ونتائجها، ولذلك اقتصرت على ذكرها دون شرح أو تفسير، فمن هذه الظاهر الكثيرة ظاهرة سقوط المذنبات وارتفاع أمواج البحر وقدوم بعض الطيور وسخط الطبيعة وانتقال بعض أنواع الحيوانات من مكان إلى آخر، كلها كانت أموراً خارقة للمادة تنبئ عن حدث جلل ومصاب عظيم.

الملاك الحارس

يعرّف جونسون هذا النوع من المغيبات بأنه القوة السماوية التي تحفظ الإنسان من الشرور والآلام؛ وبولكير في كتابه (العقائد الإنكليزية) يقدم لنا تعريفاً أوسع وأكثر شمولاً، فهو يقول: (يكون الملاك الحارس ملاكاً خيراً أو شيطاناً مريداً).
وقد ذكر شكسبير هذا النوع من المغيّبات في سبعة مواضع، وفي كل واحدة منها اتخذها عنواناً للفضيلة ومعنى من معاني الخير والصلاح إلا في روايته العاصفة عندما يصف فردناند هذا النوع من المغيّبات قائلاً: (إن شيطاني الحارس لن يكون قادراً على إيداع شرفي في الرغام، ولن يكون في استطاعته قط أن يغير معالم السرور التي تحيط بي الآن).
من هذه الفقرة يظهر لنا أن للإنسان ملاكاً وشيطاناً حارسين. يؤكد هذه النظرية خطاب فلستاف إلى بونيز قائلاً: (إن لهذا الغلام ملاكاً حارساً بعثه، ولكن له في نفس الوقت شيطاناً يعمي بصائره ويقوده إلى ما فيه شره ومضرته).
ولا يظهر هذا الملاك الحارس للملأ إلا بعد وفاة صاحبه، فيظهر في كل شبح من الأشباح يرتدي نفس الملابس التي كان صاحبها يرتديها قبل وفاته. ولننظر إلى حالة الذهول التي تستولي على الناس عند نهاية الرواية (مهزلة الغلطات فيرون رجلين متشابهين لا يمكن تمييز أحدهما من الآخر. اسمعهم يتهامسون (إن أحد هذين الرجلين ملاك للآخر أو صورة مطابقة له).
وهذا الملاك يلازم صاحبه تمام الملازمة في غدواته وروحاته وفي نومه ويقظته، وهنالك لا يحدث نزاع بين رجلين إلا ويصحبه نزاع آخر بين ملاكيهما الحارسين.
ولنستمع إلى مكبث يقول عن بانكو: (إنه الشخص الوحيد الذي أخافه وأرهبه. إن ملاكي الحارس لا يستطيع القيام بأي أمر من الأمور مخافة غضبه وسخطه، كما كان ملاك أنطونيوس خاضعاً تمام الخضوع لملاك بروتس).
مما تقدم يتجلى لنا أن شكسبير عني بالملاك الحارس شيئاً غير الروح وغير الشبح. فما الملاك إلا باعث من بواعث الخير وداعٍ من دعاة الفضيلة بقي صاحبه ويحفظه من كل ما يهاجمه ويناوئه.

(للبحث بقية)

خيري حماد

من تراثنا الأدبي

أبو العَيْناء - 4

للأستاذ محمود محمود خليل

تتمة

قلت أن أبا العيناء اتسع أمامه الميدان أيام المتوكل، وظهر نجمه، وسعدت أيامه، فلم يقتصر الأمر على اتصاله بالخليفة، بل اتصل بوزيره الفتح وأخيه عبيد الله ابني يحيى بن خاقان واستفاد من عطاياهم وسخائهم مالاً كثيراً؛ ولقد مدح عبيد الله لدى المتوكل حينما سأله عنه فقال: (نعم العبد لله ولك، مقسَّم بين طاعته وخدمتك، يؤثر رضاك على كل فائدة، وما عادَلَ بصلاح ملكك كل لذة). وله كتاب طويل كتبه إلى عبيد الله يستوهبه دابة يركب عليها حينما وهب له ابنه محمداً دابة، فزعم أنها غير فاره. وهذا الكتاب تستطيع أن تجده في كتب الأدب، وهو يدل على التلطف في المسألة، والاحتيال على هؤلاء الرؤساء بتلك الأحاديث الحلوة الفكهة، مما حبب أبا العيناء إليهم، وجعلهم يغضون عن بذاءته ويلبسونه على علاته.
انقضت دولة المتوكل ووزيريه الفتح وأخيه عبيد الله، واضطربت الأمور من بعده، حتى استتب الأمن، ورجعت المياه إلى مجراها، وتولى الوزارة عبيد الله بن سليمان بن وهب في خلافة (المنتصر، المستعين، المعتز، المهتدي) فاتصل به أبو العيناء وحضر

مجالسه؛ وطالما حدثنا الرواة عن كثير من حوادثه معه. دخل عليه ذات يوم فقال: أقرب مني يا أبا عبد الله. فقال أعز الله الوزير! تقريب الأولياء، وحرمان الأعداء. قال: تقريبك غنم وحرمانك ظلم، وأنا ناظر في أمرك نظراً يصلح من شأنك إن شاء الله.

وقال له يوماً: اعذرني فإني مشغول. فقال: إذا فرغت من شغلك لم نحتج إليك، وأنشده:

فلا تعتذر بالشغل عنا فإنما ... تناط بك الآمال ما اتصل الشغل

ثم قال يا سيدي قد عذرتك، فإنه لا يصلح لشكرك من لا يصلح لعذرك. ودخل عليه يوماً فقال من أين يا أبا عبد الله؟ قال من مطارح الجفاء. وأقبل يوماً إليه، فشكا سوء حاله، فقال له أليس قد كتبنا إلى إبراهيم بن المدبر في أمرك؟ فقال: كتبت إلى رجل قد قصَّر من همته

طول الفقر، وذل الأسر، ومعاناة محن الدهر، فأخفق سعيي، وخابت طلبتي. فقال أنت اخترته قال: وما عليَّ أعز الله الوزير في ذلك، وقد اختار موسى قومه سبعين رجلاً، فما كان فيهم رجل رشيد، واختار النبي (ص) عبد الله بن سعد بن أبي سرح كاتباً فرجع إلى المشركين مرتداً، واختار علي بن أبي طالب (ض) حكماً له فحكم عليه؟!

وإنما قال أبو العيناء ذل الأسر لأن إبراهيم المذكور كان قد أسره صاحب الزنج بالبصرة وسجنه فنقب السجن وهرب.

ولما نكب الخليفة المعتمد على الله عبيد الله بن سليمان وولي الوزارة صاعد بن مخلد حصل خصام بين الوزير وبين أبي الصقر إسماعيل بن بلبل الكاتب، فانضم أبو العيناء إلى حزب أبي الصقر ولكن ذلك الموقف الذي وقفه من صاعد لم يمنعه من أخذ عطاياه واستجدائه، وحضور مجالسه. وقد عادى أبو العيناء رجلاً يقال له أبو العباس بن ثوابة لمعاداته لأبي الصقر، حتى إن الرجلين اجتمعا في مجلس صاعد يوماً، وكان ابن ثوابة قد سبّ أبا الصقر قبل ذلك بيوم، فقال ابن ثوابة لأبي العيناء: أما تعرفني؟ فقال: بلى أعرفك: ضيق العطن، كثير الوسن، خاراً على الذقن، وقد بلغني تعديك على أبي الصقر، وإنما حلم عنك لأنه لم يجد لك عزاً فيذله، ولا علوا فيضعه، ولا مجداً فيهدمه، فعاف لحمك أن يأكله وينهكه، ودمك أن يسفكه. فقال ابن ثوابة: ما تسابّ إنسانان إلا غلب آلامهما. فقال: لهذا غلبت أمس أبا الصقر!

ولقد كان من جزاء أبي العيناء من أبي الصقر على وقوفه منه هذا الموقف في سبيله أنه عندما تولى الوزارة خيّره فيما يحبه حتى يفعله به، فقال أريد أن تكتب إلى أحمد بن محمد الطائي تعرفه مكاني، وتلزمه قضاء حق مثلي من خدمة، فكتب إليه كتاباً بخطه فوصله إلى الطائي، فسبب له في مدة شهر واحد مقدار ألف دينار وعشرة أجمل، فانصرف بجميع ما يحبه. وله أحاديث كثيرة، ومجالس طريفة مع الوزير أبي الصقر. ويظهر أن هذا آخر وزير اتصل به أبو العيناء من وزراء الدولة العباسية فإنه لم يعش بعد ما نكب الموفق أبا الصقر إلا قليلاً، وتوفي سنة 282 أو سنة 283هـ.

مهاترته مع كاتبين في عصره

على أننا نرى من الواجب علينا أن نأتي بشيء مما جرى بين أبي العيناء وبين كاتبين قديرين في عصره، هما محمد بن مكرم، وأبي علي بن جعفر الضرير؛ أما مكرم فكانت له معه مداعبات، وكان يهاتره كثيراً؛ كتب إليه ابن مكرم يوماً: قد ابتعت لك غلاماً من بني ناشر ثم من بني ناعظ ثم من بني نهد. فكتب إليه: فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين. وولد لأبي العيناء ولد، فأتى ابن مكرم فسلم عليه، ووضع حجراً بين يديه وانصرف، فأحس به فقال: من وضع هذا؟ فقيل ابن مكرم، فقال: لعنه الله إنما عرض بقول النبي (ص): الولد للفراش وللعاهر الحجر. وقال لابن مكرم وقد قدم من سفر: مالك لم تهد إلينا هدية؟ قال: لم آت بشيء، وإنما قدمت في خِف، قال: لو قدمت في خف لخفت روحك. وقال له ابن مكرم يوماً يعرض به: كم عدد المكذبين بالبصرة؟ فقال: مثل عدد البغائين ببغداد!

وأما أخباره مع أبي علي الضرير فكثيرة، وكم أتمنى أن يتيح لي الزمن فرصة الموازنة بين هذين الرجلين، فإن بينهما شبهاً قوياً، وقد وجدا في عصر واحد، وكانا في البلاغة نسيج وحدهما، ولكن كانت بينهما منافسة قوية أدت إلى أن تجري بينَهما مساجلات ومفاخرات كثيرة، حتى إن فتى من أبناء الكتاب في بعض الدواوين تعرض لأبي العيناء، وكان فيه جرأة فقال: كل الناس يا أبا العيناء زوجة، وأنت زوجة أبي علي البصير.

فقال له أبو العيناء: قد ملكنا عصمتك بيقين فحواك، ثم ننظر في شكوك دعواك، وقد طلقت الناس كلهم سواك، ذلك أدنى ألا نعول، وفيك ما يروي الفحول، ويتجاوز السول. ففضحه بهذا الكلام ولم يجبه.

وهذا الحديث يدل على أنه قد كان بين الرجلين تصادم؛ وإن شئت فسمه مشاكسة وجدلاً عنيفاً وصراعاً قوياً بالألسن وأنه كثيراً ما يكون الغلب في جانب أبي علي الضرير.

أدب أبي العيناء

ونقصد بهذا الأدب الشعر والنثر؛ أما الشعر فلا نستطيع أن نعد أبا العيناء شاعراً مكثراً من فحول الشعراء لأننا لم نجد له في كتب الأدب والتراجم التي بأيدينا شعراً كثيراً؛ إنما الذي نقدر أن نحكم له به أنه كان من شعراء الكتاب أضراب أحمد ابن يوسف الكاتب والوزير للمأمون فيما بعد، وقد تقدم له بضعة أبيات مدمجة في أحاديثه تؤيدنا في حكمنا هذا.

وأما النثر فقد كان أبو العيناء سباقاً فيه، وتمتاز كتابته بأنها تارة تكون مفرغة في قالب فكاهي مضحك، تقرؤها فلا تكاد تملك نفسك من الضحك، ولكنه إذا أفرغها في قالب الجد أتى بالفقر القصيرة حيناً والطويلة حيناً آخر؛ وكثيراً ما تكون مرسلة، وقد يقيدها بالسجع. فأسلوبه من السهل الممتنع كما يقولون، ويكفيه في منزلته من البلاغة تعجب المتوكل منه، إذ سأله: أكان أبوك في البلاغة مثلك؟ فأجابه بقوله: لو رأى أمير المؤمنين أبى لرأي عبداً له لا يرضاني عبداً له. ونرى كاتباً معاصراً له يشهد له شهادة قيمة وهو محمد بن مكرم الكاتب قال: من زعم أن عبد الحميد أكتب من أبي العيناء إذا أحس بكرم أو شرع في طمع فقد ظلم. ونحن إن كنا نعتقد أن في كلامه غلواً مراعاة للصداقة المحكمة الأواصر بينهما، إلا أن الحال التي وصف فيها أبا العيناء بالإجادة خليقة بتقدير النقد الأدبي لها. فإننا نرى الرجل يأتي برسائل ممتعة حقاً نعجب كيف صدرت عنه، ولكننا لو علمنا أن الدافع له إحساسه بالكرم، أو شروعه في الطمع كما يقول ابن مكرم لا نستغرب هذا.

وإني أريد أن أؤيد كلامي بنماذج من رسائله، ولقد كنت في غنى عن هذا لما تقدم من أحاديثه وكتاباته، ولكني لم أر بداً من الإتيان بنبذ يسيرة منها، فمن رسائله الفكاهية: ما كتبه إلى عبيد الله بن يحيى بن خاقان حينما أهدى إليه ابنه محمد دابة زعم أنها غير فاره:

أعلم الوزير أعزه الله أن أبا علي محمداً أراد أن يبرني فعقني، وأن يربكني فأرجلني: أمر لي بدابة تقف للنبرة، وتعثر بالبعرة، كالقضيب اليابس عَجَفاً، وكالعاشق المجهود دنفاً، قد أذكرت الرواة عذرة العذرى، والمجنون العامري. يساعد أعلاه لأسفله،. . . مقرون بسعاله، فلو أمسك لترجيت، أو أفرد لتعزيت، ولكنه يجمعهما في الطريق المعمور، والمجلس المشهور، كأنه خطيب مرشد، أو شاعر منشد، تضحك من فعله النسوان، وتتناغى من أجله الصبيان، فمن صائح يصيح داوه بالطباشير، ومن قائل يقول نقّ له من الشعير، قد حفظ الأشعار، وروى الأخبار، ولحق العلماء في الأمصار، فلو أعين بنطق، لروى بحق وصدق، عن جابر الجعفي، وعامر الشعبي، وإنما أتيت به من كاتبه الأعور، الذي إذا اختار لنفسه أطاب وأكثر، وإذا اختار لغيره أخبث وأنزر. فإن رأى الوزير أن يبدلني ويريحني بمركوب يضحكني كما ضحك مني، يمحو بحسنه وفراهته، ما سطره العيب بقبحه ودمامته، ولست أرد كرامة، سرجه ولجامه، لأن الوزير أكرم من أن يسلب ما يُهديه، أو ينقض ما يمضيه.

فوجه إليه الوزير برذونا من براذينه بسرجه ولجامه؛ ثم اجتمع مع محمد بن عبيد الله عند أبيه، فقال الوزير شكوت دابة محمد، وقد أخبرني الآن أنه يشتريه منك بمائة دينار، وما هذا ثمنه لا يشتكي. فقال أعز الله الوزير لو لم أكذب مستزيداً لم أنصرف مستفيداً، وإني وإياه لكما قالت امرأة العزيز: الآن حصحص الحق، أنا راودته عن نفسه، وإنه لمن الصادقين، فضحك الوزير وقال: حجتك الداحضة بملاحتك وظرفك أبلغ من حجة غيرك البالغة.

ومن رسائله الجدية ما كتبه إلى عبيد الله بن سليمان بن وهب: أنا أعزك الله وولدي وعيالي زرع من زرعك، إن سقيته راع وزكا، وإن جفوته ذبل وذوى، وقد مسني منك جفاء بعد بر، وإغفال بعد تعاهد، حتى تكلم عدوّ، وشمت حاسد، ولعبت بي ظنون رجال

- :كنت بهم لاعباً، ولهم مجرّساً. ولله درّ أبي الأسود في قوله
لا تهني بعد إكرامك لي ... فشديد عادة منتزعه
وتلك الرسالة كانت كافية في أن تطلق يد عبيد الله بالعطاء فوقع في رقعته: أنا أسعدك الله على الحال التي عهدت، وميلي إليك كما علمت، وليس من أنسأناه أهملناه، ولا من أخرناه تركناه، وقد وقعت لك برزق شهرين، لتعرفني مبلغ استحقاقك، لأطلق لك باقي أرزاقك، إن شاء الله والسلام.
وكتب إلى الوزير أبي الصقر يشكوه: أنا أعزك الله طليقك من الفقر، ونقيذك من البؤس، أخذت بيدي عند عثرة الدهر، وكبوة الكبر، وعلى أية حال حين فقدت الأولياء والأشكال، والإخوان والأمثال الذين يفهمون في غير تعب، وهم الناس الذين كانوا غياثاً للناس فحللت عقدة الخلة، ورددت إلى بعد النفور النعمة، فأحسن الله جزاك، وأعظم حماك، وقدمني أمامك، وأعاذني من فقدك، فقد أنفقت علي مما ملكك الله، وأنفقت من الشكر ما يسره الله لي، والله عز وجل يقول لينفق ذو سعة من سعته، فالحمد لله الذي جعل لك اليد العالية، والرتبة الشريفة، لا أزال الله عن هذه الأمة ما بسط فيها من عدلك، وبث فيها من رفدك والسلام.
الزقازيق
محمود محمود خليل
وداع والد
للأستاذ محمود خيرت
أخوان ما آب المسافر منهما ... حتى استطاب أخوه هجران الحمى
فالقلب بينهما الغداةَ موزَّع ... حيرانُ يخفق نشوةً وتألّماَ
ولشدّ ما يجد المُفارِقُ ما انتهى ... مِن جنة اللّقيا إليه جهنما
يا أكبر الأبناء خلّف بعده ... صبراً تقطّع حبلُه وتصرّما
لم تَدْرِ يوم البين ما فعَل الأسى ... بأبيك لما أن دنوتَ وسَلّما
عقد الذهولُ عن الكلام لِسَانَه ... فتكلّم الدمع العَصِيُّ وترجما
ومشى إليك مشرّداً متخاذلاً ... يأبى عليه الهول أن يتقدّما
حتى إذا نأتِ السفِين بركبها ... وغدوتَ بالبُعد الطويل ملثَّما
وبَدَتِ الحقيقة كالخيال فها أنا ... إما أراك غداً أراك توهّما
والدار تنعى أنسها الماضي وقد ... أمسى على ظَمْأى النفوس محرّما
يا من كساها مِن بشاشته سَنىً ... عكسَت جوانبُها صداه تبسّما
للدور أرواح تحِنّ لأهلها ... وتطوف مِن خَلل الحواجِز حُوّما
وصّاءة بهمُ الزمانَ فإن هُمو ... نزحوا تغشاها الظلام وخيّما
كم كنت ترعاني وتأسُو علّق ... وتحولُ دون الدّاء أن يتحكّما
ولكَم سهرتَ عليّ فيه لياليا ... لا عابساً فيها ولا متبرِّما
وتخِذتُ منك وأنتَ منّي عدّة ... عند الزمان إذا الزمان تجهّما
فالبعد أقسى ما يمُرُّ به أبٌ ... ثقُلت عليه همومُه فتهدّما
لكنْ رحلتَ ونصبُ عينك غايةٌ ... كانت أعزّ من البقاء وأكرما
وطّنتَ نفسك في أمانيها على ... أن تركب الأخطار كي تتعلّما
محمود خيرت
سليل الأكابر
بقلم رفيق فاخوري
حَسِبَ الدنَى قيدتْ له ... والكونَ مخلوقاً معهْ
يحيا له ويموتُ إذ ... تطوي الليالي أجمعَهْ
لم يبكِ من حظٍ يجدِّ ... د للفقير على المدَى
بؤساً ويرسم في محيّ ... اه اكتئاباً سرمداً
فإذا أصاب الدمعُ في ... عين الشجيّ مسيلَهُ
رقصتْ بكفيه المنَى ... فشفى بهنَّ غليله
ورثَ الجهالة فاستعا ... نَ على الجهالة بالغنَى
ويُرَى وضيعاً وهو في ... عُرْف الدراهم فوقنا
أبداً تواكبه وفو ... دُ السعد أنىَّ يمما

وتصوغ أحلامُ الفرا ... غِ له المكارةِ أنعُما
يمسي ويصبح سادراً ... يأتيه سعياً رزقُهُ
ونظل نطلب ما حَيي ... نا والمطالبُ حقهُ
تُفْدَى سلامته بأرْ ... واح لنا لا تفتدى
الويلُ للخَوَلِ الأصا ... غرِ إن أضاعوا السيدا
إنا بنو الفقر ابتني ... نا بالمساعي مجدنا
وشروا بماء الوج ... هـ حظاً خاسراً لا يقتنَى
ليس الغنَى ما أورثَ ال ... آباءُ أو ما خَلَّفوا
فاشحذْ قواكَ لغَدوةٍ ... تُندي الجبينَ وتُرْعف
يا ويحَ للقوم النيا ... مِ على تصاريف الزمن
الوادعينَ الآكلي ... ن جَنَى العِباد بلا ثمن
يغدو النعيمُ جسومَهمْ ... أبداً فتعتلُّ النُّهَى
لكأنهم إبِلٌ هوا ... ملُ غفلةً أو دونها
جمعوا فما أغناهمُ ... مالٌ عصارتُه الندمْ
إن لم تكن بالنفس ذا ... مالٍ فأنت أخو العدم
حمص
رفيق فاخوري
أسمى
[مهداة إلى الأستاذ الكبير المازني]
للأستاذ الياس قنصل
يروق له اصطداميَ بالصعابِ ... ويعجبُه اتصاليَ بالعذابِ
فيغريني حديثٌ منه خافٍ ... يخدّرُني بآمالٍ عِذابِ
ويدفعُني إلى بحر الرزايا ... أصارع منه أمواجَ العباب
إذا سلّمت نفسي من بلاءٍ ... أشارَ على سواه باطّلابي
أريد البعد عن كل اضطرابٍ ... ويأبى أن أكون بلا اضطرابِ
وقفتُ على كرامته حياتي ... وصنتُ علاءه من كلّ ناب
وفضّلتُ الكفاف على ثراءٍ ... يلطّخُ عِزَّه برشاشِ عاب
وشدتُ له بآي الفنّ قصراً ... متين الأُسّ مرفوع القباب
تذيع قصائدي منه دوياً ... ستصحبه إلى يوم الحساب
نصيبيَ أن أهيئ وهو يحبني ... وينعم من جهادي بالثواب
فإن أنشرْ مقالاً أو كتاباً ... تخايلَ في مقالي أو كتابي
وإن أسعفْ صديقاً مستجيراً ... تبخترِ بين أفواهِ الصحاب
وإن أبعثْ إلى أحد خطاباً ... تخطّرِ في الخطابِ وفي الجوابِ
وإن أرحلْ وإن البثْ مكاني ... تمايل في المجيء وفي الذهاب
فلستُ حياله إلاّ خيالاً ... يجدُّ - متى يجدّ - إلى سراب
نكبت بشرِّهِ وأنا وليد ... ورافقني أذاه في شبابي
وسوف يظلُّ مرصوداً لرزئي ... إلى ما بعد درجي في التراب. .
(عاصمة الأرجنتين)
إلياس قنصل
القصص
صور من هوميروس
حُروب طَرْوَادَة - 14
أخيل يبكي بتروكلوس
للأستاذ دريني خشبة
قتل بتروكلوس!
وانقلب هذا النصر المؤزّر إلى ذهول استولى على أفئدة الميرميدون، صيرته الصدمة الهائلة أشبه شئ بالهزيمة المؤكدة!
وبينما كانت أبصارهم زائغةً تنظر إلى ما حل بمولاهم، وبينما كانوا ينظرون إلى أشباح المنايا ترف فوق الساحة، وتُدَوّم على رؤوسهم، تكاد تخطفهم، كان هكتور وملؤه

. . . . . .!ينزعون عدة أخيل، دون أن يلقوا أقل معارضة
ثم أفاق الميرميدون بصيحةٍ من منالايوس العظيم، اقتحم الحلبة نحو زعيمهم قُدُماً، وناضل وحده عن الجثمان العزيز، الذي كان هكتور يمني نفسه بحمله إلى طروادة ليجعله مَعْرِضاً هنالك، يشهد له بالشجاعة المغتصبة، والجراءة المزوّرة، والبطولة التي لم يكن لها أهل؛ ثم ينبذه بعدها بالعراء فتنوشه الطير، وتغتذي بلحمه المر سباع طروادة وكلابها!. . . . . .
وانقض الميرميدون يذودون عن الجثة مع منالايوس، ولكنه انقضاض المهموم المحزون، وهجمة المرَرّأ المكدود؛ فلم تكن ضرباتهم الواهية تخيف الطرواديين بعد إذ أُنقذوا من بتروكلوس الداهية، ولم تكن صيحاتهم الوانية تهز بضعة من قلوب أعدائهم الذين أصبحت لهم الكرة عليهم. . . . . .
واستطاع منالايوس، بعد لأي شديد وجهد أن يحمل الجثة، يساعده مريونيس الكبير، وأن يقتحما بها المعترك المصطخب إلى الصفوف الخلفية، يحمي ظهورهما أجاكس وجنوده وذعر قادة الهيلانيين حين رأوا شدة هجمات الطرواديين بعد مقتل بتروكلوس، وحين نظروا فوجدوا الميرميدون يشتغلون عن المعركة بالبكاء على مولاهم، والرثاء لما حل بهم من بعده، والفزع الأكبر للقاء أخيل. . . . لا يتقدمهم إليه قائدهم. . . .
ولجأ منالايوس إلى الحيلة، وفكر من فوره في إثارة النخوة في قلب أخيل، عسى أن يقدم فيقود أجناده، ويتم النصر للهيلانيين، فأرسل إليه أنتيلوخوس يحمل النبأ العظيم، ويزلزل من تحته الأرض حين يقص عليه ما لغط به هكتور.
ولو قد علم أنتيلوخوس ما يثيره هذا النعي في قلب أخيل، ما آثر أن ينفذ إليه به! فلقد صرخ ابن ذيتيس صرخة اضطرب لها البحر، وماد الشاطئ، وتجاوبت لها جنبات الجبال، ثم بكى، فاربد أديم السماء واعتكر، واحتلك الضحى وبسر، وشاعت في العالم ظلمه أهول من ظلمة القبور!
(. . . . . .!بتروكلوس)
أفي الحق يا أعز الأصدقاء أنك أوديت! وا حرباً! أإذا لقيتك الآن فأنت ما تحرك شفتيك لتكلمني، وما تفتح عينيك لترى إلى أخيل؟! ألا ينبض قلبك بعد اليوم يا بتروكلوس، حتى ولا بحبي؟!. . . . . .
. . . . . .أإلى حتفك كنت تستأذنني إذن؟
. . .ويلي عليك يا بتروكلوس! ويلي عليك يا أعز الأحباب
ولم يُطق، فطفق يحثو التراب على رأسه، ويشد شعره، فيكاد ينزعه، ويرسل في السماء وفي الأرض والبحر صرخاته الداويات.
وانتفض الموج، وفار الماء؛ وكأنما اتصل قلب أخيل باليم فاضطرب بما فيه من وجد، واصطخب بما يؤوده من كمد، وشاعت فيه أشجانه وأحزانه، حتى وصلت إلى الأعماق. . . . حيث تأوي ذيتيس إلى زوجها، رب البحار السفلية، فشعرت الأم المحزونة بما ينتاب ولدها في أسطوله الراسي على هامش طروادة، وأحست بما يأخذه من ألم، ويمزق حشاه من عناء؛ فصرخت ثمة صرخةً اجتمع لها كل عرائس البحر، وعذارى الماء، من حوريات نريوس، وأخذن يلطمن خدودهن الوردية تحت الثبج، ويذرين من نرجس عيونهن فيضاً من الدمع الدري، ثم انتظمن صفوفاً صفوفاً، ورحن يتاهدين وراء ذيتيس، مرسلاتٍ في الأعماق أناشيد الحَزَن، طاوياتٍ ذلك الرحب الذي يفصل بين مملكة مولاهن، وبين شطئان اليوم؛ حتى إذا كُنّ عند الأسطول الهيلاني طفون فوق الماء، فانقلبت اللجة بجمعهن جنة، وارتد البحر بربربهن فردوس نعيم!!
وبرزت ذيتيس فَرَقَت سفينة ابنها أخيل الباكي الآنَّ الحزين؛ وتقدمت فضمته إلى صدرها الحنون، وجعلت تُهوِّن عليه أمر صاحبه، وتصرفه عن هذه الحرب التي يفرق من هولها قلبها الخفَّاق أشد الفَرَق، لما تعلمه منذ قديم من القتلة التي تخترم ولدها تحت أسوار طروادة، كما أنبأتها بها ساحرات الماء. .
وأن أخيل أنة شديدة، وقال لأمه: (أماه! هكذا قدر لنا أن نلقي ما حتمه القضاء علينا، وهكذا شاء سيد الأولمب الكبير المتعال، ولكن خبريني بربك ما قيمة هذه الحياة ما لم يعد بتروكلوس ينضرها ويزين حواشيها، وما دام أعز أحبابي وأودائي ملقى هذه الساحة النكراء، ذبيحاً بين أشقى الخصوم الألداء!!
أه يا بتروكلوس! لقد شفي هكتور غلة قلبه حين سفك دمك غادراً، وحين انتزع عدتك

غادراً، وحين يفاخر بكل أولئك غادراً!
وهذه العدة يا أماه! أيلبسها هذا الشقي وهي هدية الآلهة إلى بليوس، أبي، رب الأعماق، وهدية من أبي إلي؟!
أبداً لن أعود معك إلى حيث العار الأبدي ينتظرني، ما لم أثأر لأوفى أحبائي بتروكلوس، من هذا النذل، هكتور، وما لم أرو هذه الصعدة الظامئة من دمه النجس، وأقذف في وجهه بمفاخراته الكاذبة وإهاناته للقتيل الكريم. . .
لا. لا، لا تتحدثي إلي عن أوية تصمنا بالذل إلى الأبد يا أماه، وإني لأقسم بالسماء ومن فوقها، لن أبرح الأرض حتى ينفذ هذا السنان في صدر هكتور!)
وصمتت ذيتيس قليلاً، ثم لم تطق أن تخفي ما تخشاه على ولدها من ذلك القضاء المحتوم، فأخبرته بما تحدثت به العرافات عام ولُد؛ وما تخافه من أمر هذه النهاية المحزنة، والفجيعة التي لا تكون مثلها فجيعة.
ولكن أخيل تبسم ابتسامة محزونة، وتحدث إلى أمه عن المجد الخالد الذي سيحمله اسمه آخر الدهر: (واستبشار الهيلانيين بعودتي لمناصرتهم ووضوح الحق وجلائه لأجاممنون إنني روح الجيش وحماسة الجند، والقوة المذخورة لدحر الطرواديين! صه يا أماه! فلن تزعجني مخاوفك، ولن تلقي في روعي أقل الجزع. . . لأنه إن كان حقاً ما تحدثن إليك به، فأين يهرب أحدنا من القضاء!؟!)
وبهتت الأم مما صمم عليه ولدها؛ ولما أيقنت أن لا سبيل لها إلى قلبه الجريء، بدا لها أن تعاهده على ألا يخوض الكريهة حتى تعود إليه من عند فلكان، الإله الحداد؛ الذي ستذهب هي إليه تكلفه بعمل درع وخوذة تحملهما إليه، ليحمياه في كل يوم روع!! وعاهدها أخيل.
وأمرت ذيتيس عذارى الماء فانثنين إلى مملكة بليوس، يحملن إليه أنباء ولده. أما هي، فانطلقت إلى فلكان. . . هناك. . . هناك فوق ذروة جبل إطنة، حيث وجدته ينفخ في لظى كيره الضخم. . . يصنع الدروع والعُدد. . .
ولقيها الإله الحداد بالترحاب، وشرع من فوره يصنع عدة لم تر العين مثلها، ولم يأبه أن يصنع مثلها حتى للآلهة!!. . . (وكيف لا، وأخيل الحبيب سيدّرع بها وتحميه من أوشاب الطرواديين، وأوغاد هذا الأخ اللئيم مارس، الذي تعلمين مما كان من أمره مع فينوس ما تعلمين. . لقد فضحني السافل فضحته المقادير. . . . . .)
ولكن الساحة كانت تضطرب، وجموع الطرواديين تأخذ الهيلانيين من كل فج؛ وكانت حيرا، ملكية الأولمب، تطلع من عليائها فتأخذها الرهبة لما يحيق بعبادها من تصريع وتقتيل؛ وكانت مينرفا كذلك تهلع عليهم هلعاً شديداً. . .
وتشاور الرّبتان، واتفقتا على أن تُنفذا إيرليس إلى أخيل، تأمر أنه يخوض الكريهة في جانب الهيلانيين. ولكنه قص على الرسول ما عاهد أمه عليه فعاد الرسول إلى الأولمب يحمل نبأ هذه المعاهدة. . .
بيد أن حيرا أشارت على مينرفا أن تنفذ الرسول إلى أخيل يحمل إليه درعها، وكان لمينرفا درع اسمه ايجيس لم يَصْنع مثله لأحد من قبلُ فلكان؛ وأن يَنهي إليه أنهما تأمرانه بالتوجه إلى الساحة فيطلع عليها ليراه الطرواديون، فإنه بحسبهم أن يروه فيولوا الأدبار!!
وانطلق إيرليس برسالته إلى أخيل؛ فاهتز البطل من نشوة الطرب، وشاعت الكبرياء في أعطافه لأنه سينال شرفاً لم ينله أحد من قبل، وذلك بأنه سيدّرع بقميص مينرفا، المسرودة من حديد!!
وعندما نهض ليلبس الدرع رأى مينرفا نفسها تساعده بيديها الطاهرتين النقيتين كالبلور وتضع فوق جبينه إكليلاً وضاءً من الذهب، ثم تقوده إلى الساحة!!
وهناك، وقف أخيل العظيم فوق ربوة عالية تشرف على الساحة كلها، ثم أرسل في الآفاق
صيحةً داوية، كانت تنفخ فيها مينرفا فتزيدها قوة وعنفواناً، فزلزل قلوب الطرواديين وجعلها تدق في صدور ذويها كالنواقيس!!
وما كاد الأعداء يستيقنون أن الصيحة صيحة أخيل، وما كادوا ينظرون إلى هذه الآراد المُنتشَّرة فوق رأسه، والأضواء المتلألئة من إكليله، حتى سقُط في أيديهم وارتعدت فرائصهم وولوا على أعقابهم مدبرين! وكانت خيولهم المذعورة تولي هي الأخرى فتطأ

الفرسان هنا وهناك، وتسقط في الخنادق المحيطة بطروادة، فتلقي فيها حتفها بمن عليها!!
وتوارت الشمس بالحجاب.
فتحاجز الجمعان وذهب كل ليستريح من هذا اليوم العصيب وكانت صيحة أخيل أكبر عون لمنالايوس وزميله في الإسراع بجثة بتروكلوس إلى مؤخرة الجيش، حيث الأمان والاطمئنان؛ فلما عاد أخيل كانت جثة صديقه أول ما وقع بصره عليه. . . فبكى. . . وبكى. . . واجتمع حوله الميرميدون يبكون.
ثم رثاه بكلمة دامعة، ترجمت عن نفس مكلومة؛ وأمر فأوقدت نار كبيرة وضع عليها دست ماء كبير؛ وأخذوا جميعاً في غسل الجثة المعفرة بالتراب، ودهنها بالطيوب ثم تحنيطها بالأفاوية والبهار والقرنفل، ولفوها في مدارج طويلة من الحبر الغاليات البيض.
واجتمع قادة الطرواديين يتشاورون في هدأة الليل، فخطب بعضهم ناصحاً بوجوب التحرز داخل الأسوار في غد، مخافة أن يبطش بهم أخيل وشياطينه، لا سيما وهم سيخوضون الوغى بقلوب جرحها مصرع بتروكلوس، وهم لا بد مثئرون له، مهما كلفهم الأثئار من أرواح ودماء!
ولكن هكتور أبى إلا أن يخرج للقوم، وكأن قتله بتروكلوس غيلة قد خدعه عن شجاعة أخيل، وما قدر له مما سيلقاه من بطشة أخيل. . . وهل غد بعيد!!؟؟
وفي اللحظة أيضاً، كان زيوس يتحدث إلى حيرا حديث الذي أظفر بأعدائه وكأنما أطرب الإله الأكبر أن أخيل يعود إلى المعركة بعد أن أديل له من الهيلانيين ومن الطرواديين على السواء.
وكانت حيرا تسمع إليه وهي تطفر فرحاً! كيف لا؟ وهذا أخيل يعود إلى أعدائها في الغد، فيصليهم عذاباً، ويجرعهم غصصاً ما ذاقوا مذ ترك الحلبة أمثالها!؟ ولتحزن فينوس!
وليحل غضب السماء على باريس، ولتذهب التفاحة المشئومة إلى الجحيم. . .
وأشرقت شمس الغد.
ولاحت ذيتيس تتهادى فوق الزبد في الأفق الغربي، تحمل الدرع التي لم يصنع مثلها فلكان.
حتى ولا للآلهة أنفسهم!
والويل لك يا هكتور!!
(لها بقية)

دريني خشبة

غريب

بقلم حبيب الزحلاوي

لم يكن باقياً من سنة 1913 سوى شهر واحد وبضعة أيام وقتما وصلت مصر قادماً من دمشق هرباً من مطاردة الحكومة إياي.
الليلة عيد، وأجراس الكنائس تدق، والناس بين داخل البَيع بوجوه تعلوها سيماء الرضى والإيمان، وبين خارج منها مسرع الخطى إلى الفنادق الكبرى والمنتديات الخاصة تطلعاً إلى الاشتراك في حفلات العيد.
كنت مع الماشين إلى النادي الشرقي وكأني منساق معهم إليه؛ ولما دخلته حسبت الناس ينظرون إلي نظرات الاستيحاش والاستغراب.
أهاجت فرحة الناس نفسي فتذكرت والدتي وأهلي وإخواني وقد خلفتهم في غير هذا البلد الذي كل ما فيه يناديني: (غريب)
تركت صحبي ومواطني هناك؛ تركت قلباً وذريات تتأجج نارها كلما طال البعاد، وما أحراها بالاضطرام ليلة العيد إذ ذهبت وحدي إلى ذلك النادي أقضي ساعات مع أناس يعرفونني ولا أعرفهم من أبناء الجالية السورية.
كان كل ما في النادي في تلك الليلة ينم عن المرح والحبور، وكنت الصامت المستوحش الساهم وحدي بين الجمع، لأني (غريب).
انقضت سنوات عدة كنت خلالها لا أنقطع عن زيارة النادي، إذ أصبح لي فيه إخوان وأصدقاء لا يقلون حباً لي ولا يقل تعلقي بهم وإخلاصي لهم عن أولئك الأصدقاء

والأخوان الذين خلفتهم في دمشق.
زرت النادي في ليلة الأحد وأنا متأبط ذراع فتاة عرفتها فيه، وقد صارت لي زوجة، وصرت لها بكليتي، وعقدت حظها بحياتي، ووقفت على إسعادها وجودي، وأحسب أني كنت في تلك الليلة من أسعد الناس، وأوفرهم غبطة، وأحرصهم على تكييف كل شيء بالهناء المرفوف على نفسي؛ وحينما كان يطوف بذهني خيال والدتي وأنا وحيدها، وصورة شقيقتي المحبوبة كنت أحاول استهواء ذاتي وإقناعها بأن قد صار لي في امرأتي حنان كحنان الأم، وألفة كألفة الأخت، فوق حب الزوج لزوجه، بحيث أضحى محالاً أن يطوف
بخاطري طيف (الغريب) أو وحشة البعيد عن أهله ووطنه.
طوتني مصر كما طوت الآلاف من الناس الذين وفدوا مثلي عليها، فأقلمتني بإقليمها، ونفخت فيّ روحها، وألهمتني وحي بيئتها، فصيرتني كأحد أبنائها أقوم بالواجب المفروض بمثل ما يقوم به كل مصري مخلص حرّ، ولما كنت أعود بذاكرتي صوب الشام، مسقط رأسي ومهد حداثتي، كنت أحس بالحرمان يمزقني ويكبت روحي، وأشعر بالواقع يسترضيني ويتودد إليّ. .
حقاً لقد علمتني مصر أن أرى فيها وطني وأهلي، ولقد تعلمت منها كيف أبادلها الجميل بجميل والوفاء بوفاء؛ لقد علمتني كيف أحبها وكيف أحافظ على حبي مسقط رأسي ومهد ذكرياتي، وكنت أصيخ بسمعي دائماً إلى أنات قومي وأوجاعهم، وأسعى جهدي إلى مزجها بأنات إخواني المصريين الموجعين؛ وكنت أعمل، وسأعمل على أن أجعل من تفاعلات تمازج الأنات المؤلمة ما يزيل العلة الموجعة.
انقضت سنوات أخرى كنت لا أنفك خلالها عن المجيء إلى النادي الشرقي؛ وحدث في عصر يوم من أيام الشتاء أن ذهبت إليه، وكنت متعب الجسم، مكدود القوى، موزع الخاطر، مشرد الفكر، فرحت تواً إلى صالة الرقص وانتحيت ناحية فيها أرفه عن خاطري بقدح من الشراب.
ما كنت لأعبأ بالراقصات والراقصين رغم ما فيهم من رشاقة ودلال جذابين؛ وما كنت لأحس ضربات (الجازبند) العنيفة المؤذية للنفس لأني كنت في شاغل عن كل ذلك.
طال بي الجلوس؛ هممت بالنهوض؛ رفعت رأسي عفواً وإذا بي ألمح سيدة جالسة قبالتي على قيد أمتار مني، ما كدت أتبينها حتى نهضت مسرعاً لتحيتها.
عرّفتني السيدة إلى زوجها، واكتفت بقولها عني: (صديقنا) وذكرت اسمي، فكان هذا التعارف على ما فيه من بساطة واقتضاب كافياً لاستذكار الزوج، فنهض مسلماً سلام مودة وصداقة، داعياً إياي إلى مجالستهما. . . . . انطلقت ألسنتنا بالحديث، تارة عن الحياة الزوجية وسعادتها القائمة على التضحية، والتفاهم، والطمأنينة، وطوراً على الأبناء وعناء تربيتهم، وعما يضحي الآباء في سبيلهم من عواطف زوجية يستغرقها الحنان الوالدي. كنا نتكلم عن كل شئ، وعن كل إنسان نعرفه في لبنان بسرور، ولم ننس الغدير
وأحراج الصنوبر، ودير (القرقفة) في قرية كفر شيما مسقط رأس السيدة حيث عرفتها هناك، وكنت ألمح من طرف خفي إلى حوادث الشباب، ولم يصدنا عن الاسترسال في التنقل بالكلام كالأطفال من موضوع إلى آخر إلا دعوة الزوج زوجه إلى الرقص معه، واعتذارها بلطف إليه بحجة الرغبة في الرقص معي رقصة (التانجو).
رقصنا. . . . . وكنت إبان الرقص كالساهم الغارق في حلم لذيذ؛ كنت أنعم بالراحة كلها في مخاصرة هذه السيدة التي تنبعث منها الطمأنينة إلى أعماق نفسي؛ لم أكلمها؛ لم أجتل محياها؛ كنت نشوان بها؛ لم أسمع كلمة منها، بل شعرت بجسمها اللين البض يسترخي شيئاً فشيئاً بين ذراعي. كنا سوية كنبرة وتر مزدوجة عزفها موسيقى ماهر، فصدرت كأنها من وتر واحد، يدفع خطانا وينقلها نقلاً إيقاعياً متناسقاً. .
. . . . . وقبل الانصراف تواعدنا على اللقاء في النادي في الليلة القادمة..
طافت بي الخواطر، ثم ألحت عليّ، فآثرت العودة إلى البيت ماشياً لأطلقها في أوسع مجالات الفكر.
رجعت بي الذكريات إلى دمشق يوم بارحتها ويوم لذت بلبنان بقرية صغيرة رابضة فوق ربوة تطل على سهول (الشويفات) ثم البحر، تكتنفها أحراج الصنوبر وقد انتشر منها أرج الأصماغ؛ ذكرت ذلك الدير المهيب الشاهق الرابض فوق الربوة أشبه بقلعة

شيدت لحماية الخيالات والأحلام!! وتراءت لي أطياف سكان القرية وهي تحج إليه متسلقة الربوة بهمة ونشاط، يتهادون في ابتسام الفجر الساحر المغبر تحية الصباح.
ذكرت إقبال رجال القرية للسلام عليّ ودعواتهم إياي إلى زيارتهم. ذكرت الساعات الطوال التي كنت أقضيها بين الأحراج أفترش الأرض، وأناجي الشجر، وأملأ من جمال الطبيعة قلبي وروحي؛ تراءت أمام عيني صور شيوخ القرية جالسين في القهوة يدخنون النارجيلة ويحلمون، والشباب يلعبون الورق أو يشربون ويغنون؛ كنت أطرب لسماع أغنيتهم المستمدة من وحي روح الطبيعة الساذجة الهادئة، والمعبرة عن دوافع الغريزة بأبسط الكلمات والإشارات.
ذكرت تلك الفتاة القروية عائدة من الكنيسة بثيابها الفضفاضة، وضفائرها المنسدلة على كتفيها، ووجهها الحري الزاهر بنفحات الربيع، وصدرها الناهد، وقدها الممشوق، وخطواتها المتزنة الحازمة.
كم كانت رائعة صبغة الخجل الوردية التي اصطبغت بها أذناها لما سألتها عن اسمها، وهل فكرت في صلاتها في غير أهلها ممن تعرف من الناس!؟ لقد حيرها سؤالي فارتبكت وسكتت عن الجواب؛ وذكرت أيضاً زيارتي لها في بيت أهلها وكيف اعترفت لها بحبي وعاهدتها على الزواج، وتلك الأوقات الحلوة التي كنا نقضيها تارة في النقاش وقراءة الكتب، وطوراً في التطلع إلى المستقبل والتمهيد لبناء عش سعادتنا.
تمثلت يوم عودتي إلى دمشق، والاضطهاد الذي أصابني من حكومتها، وفراري من السجن والتجائي إلى مصر بعد الحكم علي وعلى زملائي بالنفي المؤبد، لا لشيء إلا لأننا من دعاة الاستقلال الظامئين إلى الحرية.
ذكرت كل هذا والطريق يمتد أمامي؛ كانت ظلمته تبعث في نفسي رؤيا تلك الأيام التي ودعتها منذ سنين في أرض الوطن وطويتها بين ضلوعي، وبدا لي كأن ماضي يبعث من جديد وينشر فجأة؛ تجسمت أمامي الحوادث كأنما لم يمر عليها ساعات، ذلك العهد الباسم الذي أمضيته وإياها، خيل إلي أن هذا الماضي الماثل القريب قد ضاع مني كله، كأن بيني وبينه برزخاً. . . فجوة الزمن، والحنث بالعهد، تفصل بيننا!!!
ارتدت بي الذكرى فجأة إلى النادي الشرقي، فاستشعرت تلك الذراع الغضة منبسطة فوق كتفي، والصدر المليء ما برح يتموج مختلجاً بين ذراعي؛ جاشت نفسي بالذكرى، وعضضت شفتي ندماً وقلت: ليتني، ليتني ما حنثت باليمين. . . . . .
ما كنت أحسبني استعيد مرح الصبا ونشوة الرقص، وقد أرهقني الزواج المبكر بأحمال من الرزانة، وبأثقال من الوقار، وبكل ما تفتعله أكاذيب العادات ونفاق التقاليد.
لم أكن أنشد في الرقص ما ينشده شبان ينتقلون كالنحلة من زهرة إلى زهرة، يرتشفون من ندى زهرات الحياة ما يرتشفون. . . لم أكن كعقلاء العزّاب أو جهالهم أبحث عن فتاة فيها من أوصاف الجمال الجثماني، أو طيش الطباع النزاعة إلى العبث واللهو، أو وفرة المال للزواج، بل كنت مكبوت النفس بحب قديم لم تقو صروف الزمان ومناسباته ولا تطورات الفكر على خنقه؛ لا غرابة في خمود ذلك الحب طوال السنين، بل الغرابة لو لم يستيقظ ويستنهض فيّ دوافع الميول المستقرة في أعماق قلبي بكامل ما فيها من قوى الحياة تهليلاً
للحب البكر البريء.
لقد كنت والسيدة أحرص ما نكون على إخفاء أمارات الحب في عيوننا؛ لم يكن في مظاهرنا ما يلهم غريزة المرأة استشعار الواقع بدليل أن امرأتي لم تدرك شيئاً منه؛ أما زوجها فقد كان له من أقداح الوسكي وأحاديث البورصة والمضاربات ما يشغله عنا، فلم يع شيئا من ذلك أيضاً؛ وهكذا كانت تنقضي ليالي الاجتماع بمظهرين: مظهر النفس المتأججة بلاعج من حب باطني، ومظهر السكوت الدال على الاندماج الكلي في وحدانية الحب المقدس، وعلى التجاوب الروحي والتفاهم الجسدي حين المخاصرة.
لم يعد طبيعياً أن تطاوعنا عناصر الوجود على استدامة هذه الحال، فلما همست أخفت همسة في أذن (حبيبتي) أطلب منها لقاء على انفراد، أومأت بهدب جفنها إيماءة الرضى وأتبعتها بلمحة من بسمة ارتسمت على جانب شفتها، ونظرت إلي نظرة طويلة. . . ثم فتحت فاها كأنها تريد أن تقول شيئاً، ولكنها أحجمت وأطبقت شفتيها. . . ثم عادت فاشترطت أن يكون اللقاء في الريف على ضفاف النيل، وألا يرى أحدنا

الآخر إلا في الموعد المضروب؛ رضيت بهذا الشرط الصارم وحرماني منها طيلة عشرة أيام.

عبثاً كنت أحاول إخماد حدة الأزمة النفسية التي ساورتني ففزعت إلى (الأقصر) أستمد السكون والهدوء من مشاهدة آثار العصور الخوالي في وادي الملوك، ولكن متى كانت صور الفن تصرف الذهن عن الصور الحية، وكيف يهدأ قلب استفاق من هجعة الحب الأول على صراخ تأنيب الضمير؟

عجباً! لم جعلت اللقاء بعد عشرة أيام ودعمته ألا يرى أحدنا الآخر خلالها؟ هل رمت من وراء هذا التباعد إلى إثارة قوى الدفع والجذب التي تكون وليدة الآمال المرتجاة؟ هل شاءت بباعث من غرائزها التي يعمل عقل الرجل مجتهداً في حل رموزها أن تمتحن الفوارق بين اللقاء المكظوم في صالة الرقص وبين اللقاء الموعود في الريف؟ هل أرادت أن نستجم للقاء كما يستجم الشاعر لإبداع قصيدة، والعابد لتمتمة صلاة غير مسطورة في كتاب، والصوفي للاندماج في وحدانية الله؟ وإنما رغبت في أن يكون لقانا اللقاء الأخير وموقف الوداع قبل السفر!!

دنا الموعد، اقتربت ساعة اللقاء، وقفت أنتظر قدوم سيارتها وأرقب دقائق . . . . . الساعة بضجر ملحّ، وأعدّ الثواني باضطراب. تمضي الثواني والدقائق والساعات، بل العمر كله يمضي في طريق الزمن والزمن لا ينفك منذ الأزل وسيبقى مدى الآباد يسير بنظام محكم الضبط إلا أنا، أنا الشاذ المضطرب، الصاخب الهادئ، المفكر المبلبل، أنا السعيد الحزين، والباكي الضاحك، أنا الذي أعيش في أرض يلوح لي الآن أنها تدور دورة معكوسة!!!

لمحت سيارتها مطلة من بعيد فشعرت بدمي يندفع حاراً في عروقي وسمعت بأذني وجيب قلبي. . . وقفت السيارة، وإذ فتح بابها رأيت السيدة جالسة وإلى جانبها صبي صغير، وكانت مرتدية ثوباً أزرق وقد أمالت رأسها إلى جانب من السيارة، رأيت في عينيها الحالمتين فتوراً ساحراً غريباً؛ وقفت زهاء نصف دقيقة ذاهلاً مبهوتاً لم أستطع النطق حتى بالتحية؛ خيل إلي أني قد استجمعت في هذه الفترة كل ماضينا. . . والتفت فوقعت عيناي على الصبي. . . وانقبض قلبي؛ غام الضوء في نظري وشعرت بحزن طارئ يستولي علي، كبحت جماح عواطفي، وتعملت الابتسام، وكانت قد أفسحت لي مجالاً فوثبت إلى المقعد ورأيتني بالقرب منها.

لم أدر السبب الذي حدا بي كي أستجيب وأصعد إلى السيارة؛ لقد غمرني مرأى الصبي بإحساس مؤلم قوي لم أكن أتوقعه حتى لقد وددت أن أفر بنفسي.

وكأنما قد أشفقت علي، فلم تتكلم، بل مدت بأطراف الأنامل يدها وتلاقت يدانا في مصافحة صامتة، وكانت يدي باردة كالثلج بينما كان الدفء يسري من كفها. ثم قربت يدها شيئاً فشيئاً حتى احتوتها يدي، فضغطت عليها ضغطة قوية كأنما أردت أن أهرب من برودة قارسة إلى حرارة الحياة.

استأنسنا بالصمت، ثم تلاقت عينانا؛ كان في نظراتي شبه استعتاب لمجيء الصبي معها، وكأنها فهمت ذلك بالنظرة الخاطفة فشاءت أن تعدل عنها، وتبسمت واهتزت يدها في يدي تريد أن تذكرني بأني أضغط في عنف عليها، وتألق في عينيها لمعان. . . هذا اللمعان الذي أبصرته في مقلتيها الكستنائيتين أول مرة عرفتها، لمعان قوي كضوء باهر في ليلة شتاء يسطع بين السحب ثم يختفي. . . أجل؛ بدا لي أنني أعثر في تلك السيدة على أشياء ما رأيت قط مثلها في امرأة من قبل، وكان هذا محور حياتي معها وتاريخ حبي لها. . .

فيها أشياء كالنور حيناً والحرارة حيناً؛ فيها صمت لا أدري قراره. . . شممت عطرها القديم الذي طالما ملأت منه رئتي، فاسترحت.

السيارة ماضية بنا تنهب الطريق الممتد بين حقول القطن تظلله غصون الشجر، لم أكن لأستطيع في هذا الحين جمع خواطري لأنها كانت تتناثر كالشرر، إنما كنت أحس كأني انفصلت عن العالم وانقطعت صلتي بالناس، بالحياة وبالواجب أيضاً.

هاهي إلى جانبي، المرأة التي كنت ركزت عليها آمال الشباب، هاهي مبعث الحلم البعيد الذي يصطخب في قرارة تصوراتي، هاهي الومضة الخاطفة التي بإشاعتها تنير أجواء التفاؤل في حياتي، لقد حققت بوجودها جميع صور الخيال وأطياف الأحلام، هاهي بروحها وجسمها إلى جانبي لا يحتجزها عن الالتصاق بي سوى طفلها الجالس

في هدوء كأنه يحلم مثلنا.
علام أتجاهل حياتها الواقعة، بل لم أتغافل عن الأمر الواقع الصارخ؟ إن قوانين . . .
الحياة وتقاليدها البغيضة تسري علينا سوياً، فلماذا أحاول أن أبعث في نفسها أنانية
متمردة شرهة كالتي تعج بها نفسي؟ كلنا أسرى العواطف، عبيد الشهوات، أفلا يليق
بنا وقد ولجنا عالم الإنسانية من أبواب الشعر أن نقيم لسيول الشهوة العمياء سدوداً
تحول دون اجترافنا؟ أجل، إني لأنزه الحب عن أن يكون مجرد مادة، كما أني أتبرم به
متى كان حرماناً صرفاً. يسمو الحب على الحقائق ولكنه لا يستطيع أن ينكرها أو
يستهين بها؛ فلماذا تتألم نفسي من وجود الصبي بيننا؟
يسمو الحب على الحقائق، ولكنه متى نما واكتمل وازدهر، وتسنم ذروته العليا فقد
يخضع لهذه الحقائق عن رضى لأن سر عظمته في اللين والخضوع!!
لماذا أفزع من وجود الصبي؟ لقد جاءت به لتفصلني عنها، لتضع سداً بيني وبينها، لتنقذ
حبي من التردي في مهاوي الواقع والفناء في ظلمة الحقيقة. . . إنها تحبني، أشعر
بهذا من رعشات يدها، ورجفات جفنيها، من شفتيها المختلجتين وعينيها المتقدتين
شهوة وحسرة، تحبني ولكنها لا تريد الاستسلام، تحبني وتخشى إن هي استسلمت ثم
افترقنا على مضض، كما يقضي بذلك الواجب، أن تعذبني الحسرة وتشقيها اللوعة،
وأن تترك من شخصها في خيالي صورة بشعة ملوثة تهبط بهذا الحب الرائع القدسي
إلى درك الحيوانية الأولى!!
إنها تريد أن تكون بكليتها لي، أولا تكون لي أبداً، وما دامت سترحل في الغد، عائدة
إلى لبنان، فهي تؤثر أن تحرمني كل شئ على أن تسقيني من كأس بدنها الشهي
جرعة واحدة لا تنقع غلتي ولا بد أن تسمم في المستقبل كل حياتي.
أواه! لقد أدركت ما يجول بخاطري، هاهي تتفرس في وتتأملني وتشفق علي منذ الآن،
ويكاد الدمع يطفر من عينيها.
لماذا؟ لماذا تبكين يا حبيبتي؟! أخذت رأسها بين ذراعي ألاطف شعرها بينما كانت
تنتفض ودموعها الحارة تتساقط على يدي.
تجاه هذه الدموع لم أجد بداً من الإذعان لها، أشفقت عليها كما أشفقت علي، سموت
بحبي كما أرادت أن تسمو بحبها، عولت على ألا أعترض القدر، وأن أنزل ما استطعت
على حكم هذه المرأة التي علمتني أن في وسع الإنسان أن يعيش بالروح أكثر مما
يعيش بالجسد، وأن الحب الكبير قد يستطيع أن ينتصر لا على المادة فقط، بل على
الزمن أيضاً.
أرسلت نفساً طويلاً فرّج عن صدري، وضاعف أعصابي صلابة وقوة، فتنحيت قليلاً
ومددت رأسي إلى حيث سائق السيارة وغمغمت بهذه الكلمات: (عد من حيث أتيت).
حدَّقت فيّ وأشرق وجهها بغتة، ثم أطرقت برأسها وتلمست يدي ورفعتها برفق إلى
شفتيها، فشعرت بالقبلة الهادئة تجمع بيننا إلى الأبد.
عادت بنا السيارة تنهب الأرض، والأشجار تتعاقب، والهواء يصفر، والصبي يضحك، وأنا
أردد في نفسي هذه الكلمات: غريب! غريب! غريب!
حبيب الزحلاوي
البَريد الأدَبيّ
أسبوع المتنبي في الجامعة المصرية
اعتزمت كلية الآداب أن تقيم أسبوعاً حافلاً للمتنبي بمناسبة انقضاء ألف سنة على
وفاته في أوائل العشرة الثانية من شهر رمضان سنة 1354 في قاعة الجمعية
الجغرافية الملكية، وسيلقي أساتذة الكلية محاضراتهم على الترتيب الآتي:
الدكتور طه حسين: المتنبي في شبابه (من مولده إلى اتصاله بسيف الدولة)
الأستاذ عبد الحميد العبادي: سيف الدولة
الأستاذ أحمد أمين: المتنبي وسيف الدولة
الدكتور حسن إبراهيم: كافور الأخشيدي
الأستاذ أحمد الشايب: المتنبي في مصر
الدكتور عبد الوهاب عزام: المتنبي من لدن خروجه من مصر إلى وفاته
الأستاذ إبراهيم مصطفى: المتنبي والنحاة
الأستاذ عبد الوهاب حمودة: أسلوب المتنبي

الأستاذ مصطفى عبد الرزاق: فلسفة المتنبي
وسيتخلل هذه المحاضرات إنشاد بعض قصائد المتنبي وغناء قطع من شعره
سيلفان ليفي حجة التاريخ والحضارات الهندية
نعى إلينا من باريس العلامة والمؤرخ الفرنسي الكبير الأستاذ سيلفان ليفي أستاذ التاريخ الهندي وحضارات الشرق الأقصى بالكوليج ده فرانس. توفي في الثانية والسبعين من عمره بعد أن قطع زهاء نصف قرن يدرس الحضارات الهندية والصينية، وكان مولده سنة 1863 من أسرة يهودية؛ وكان سيلفان ليفي علامة واسع الثقافة، ولغويا ضليعاً، وحجة في شؤون الحضارات الهندية والصينية واليابانية، وفي حل المخطوطات والرموز الهندية والصينية القديمة. وقد ظهر منذ شبابه بميله إلى هذه الدراسة الفريدة، فكتب (رسالته) لنيل العالمية عن (المسرح الهندي) وتاريخه وتطوراته وخواصه، ودرس الديانة البوذية دراسة واسعة، وكذلك الفلسفة البوذية والبرهمية ووضع عنها رسائل وبحوثاً عديدة؛ وقام الأستاذ ليفي بعدة رحلات علمية واستكشافية في بلاد الهند والهند الصينية واليابان وجاوة، وفي بلاد التبت وسيبريا، وكتب على أثر رحلاته الهندية كتاباً عن بلاد (نيبال) والتبت، وهو يعتبر من أعظم كتبه إن لم يكن أعظمها. ثم نشر بعد ذلك مؤلفاً ضخماً عن (الهند والعالم) شرح فيه الدور الذي قامت به الحضارة الهندية في تكوين الفكر الإنساني والحضارة الإنسانية.
وقد كان سيلفان ليفي أستاذاً في معهد الدراسات العليا، ثم أستاذاً في الكوليج ده فرانس منذ سنة 1894؛ ثم تولى رئاسة قسم العلوم الدينية في معهد الدراسات العليا. وكان عضواً عاملاً ومراسلاً في معظم الجمعيات العلمية الكبرى التي تعنى بالمشرقيات، وكان منذ سنة 1828 رئيساً (للجمعية الأسيوية).
ومنذ نحو أربعين عاماً يشغل سيلفان ليفي بين علماء المشرقيات مركزاً فريداً، فهو الحجة الثقة، وهو المرجع المفرد في أخص المسائل التاريخية والاجتماعية والأثرية الهندية والصينية؛ وفي قراءة اللغات الهندية القديمة ولا سيما السنسكريتية التي كان من أعلامها والتي تلقاها على أستاذه بورجيني أشهر علمائها في القرن الماضي.
وكان لسيلفان ليفي أكبر الفضل في إحياء كثير من اللهجات الأسيوية القديمة، وكان لمباحثه وجهوده الدراسية والأثرية أكبر الفضل في إلقاء ضوء كبير على الدور الخطير الذي قام به التفكير الهندي القديم في توجيه التفكير الأوربي وفي تكوين الحضارة الحديثة. وأخيراً كان سيلفان ليفي حجة الشؤون الاستعمارية في الشرق الأقصى، ترجع إليه وزارة الخارجية الفرنسية فيما يمس الشؤون الاجتماعية والنفسية لشعوب الهند الصينية، وفيما تقوم به من المشروعات الإصلاحية والعمرانية.
وكان يتمتع بحيوية مدهشة، فقد لبث حتى أواخر أيامه منكباً على مباحثه ودراساته؛ وقد حضر مؤتمر المستشرقين الأخير في رومة وألقى فيه خطبه باللاتينية كانت موضع التقدير والإعجاب؛ وكانت وفاته فجأة وفي ذروة القوة والنشاط.
حول قبر الصفدي - إلى الأستاذ علي الطنطاوي
أذكر حين زيارة المرحوم زكي باشا لقبر الصلاح الصفدي في حارة يهود صفد أن مؤرخ فلسطين الأستاذ عبد الله مخلص ذكّر الباشا أن الصلاح الصفدي، خليل بن أيبك مرموس في دمشق؛ وكأن هذا التذكير لم يرق للباشا الذي يريد أن يزرع كل أقطاب الإسلام في
فلسطين فلعل فيهم سياجاً يدرأ ما ينتابها من المحن - رحمه الله! ولما لحظ عليه الأستاذ المخلص هذا ساق إليه حديثاً آخر، وهو أن عالماً دمشقياً قبر في صفد، وكان معاصراً لابن أيبك، وبعد مدة نقل ذووه رفاقه إلى دمشق؛ وأضاف: لعل عادة الرفات كانت أمراً شائعاً في ذلك الزمان، ولا يستبعد أن يكون أهل الصلاح نقلوه من دمشق إلى صفد وقبروه في هذا المنزل الذي كان عامراً بذكر لا إله إلا الله!! فضحك الباشا وقال بلهجته لمصرية الحلوة: أيوه جبوه! جبوه؟ لقد فرجت عني والله!
وكان من مساعي شيخ العروبة أن بنت جمعية الشبان المسلمين قاعة كبرى في موقع ممتاز في البلد لتكون غرفة مطالعة باسم (مكتبة الصلاح الصفدي)، وعلى أن تضاف إليها غرفة مقببة تنقل إليها رفات هذا القبر المهين، فتكون مزاراً لعارفي فضل ابن أيبك ولكن (الله يعمرك يا صفد) والسلام

صفدي آخر

نظريات الجنس والسلالة

صدر أخيراً في إنكلترا كتاب تثير قراءته كثيراً من الاهتمام وعنوانه: (نحن الأوربيين) وضعه كاتبان عالمان هما جوليان هكسلي وا. هادون، وموضوعه استعراض نظرية الجنس والسلالة التي تثير اليوم كثيراً من الجدل. وهو على صغر حجمه بفيض مادة ووضوحها؛ وقد استعرضت فيه النظرية الحديثة الخاصة بالوراثة البيولوجية وظروف تطبيقها على الإنسان وما يكتنف تكوين الأمم الأوربية من العوامل؛ وفيه شرح شائق لنظرية السلالة المزعومة التي اتخذت في ألمانيا ستاراً لأغراض السياسة. ويذهب المؤلفان إلى أن البيولوجيا لم تبق بعد داروينية النزعة (نسبة إلى داروين) بل غدت مندلية النزعة (نسبة إلى مندل صاحب مذهب الوراثة). والمعروف أن الوراثة البيولوجية تحدث خلال آلاف الوحدات، ولكن الخواص العقلية والجسمية تتأثر أيضاً بمؤثرات المحيط والطبيعة والتربة، ومن الممكن أن يصقل العقل والخلق بالمران؛ ويدلل المؤلفان بطريقة بديعة على أن معظم الخواص التي يزعم هتلر ودعاته أنها جنسية ترجع إلى فعل السلالة، إن هي في الحقيقة إلا خواص ثقافية محضة. فإن الإنسان له وراثة اجتماعية كما أن له وراثة بيولوجية، ومن الصعب علينا أن نستخرج الخواص القومية من غيرها؛ بيد أننا نستطيع أن نعين المؤثرات الاجتماعية بطريقة حاسمة. ويدلل المؤلفان على نظريتها بأمثلة جنسية وقومية واضحة غير اليهود الذين هم اليوم هدف لمطاعن الجنس والسلالة. ويذهب المؤلفان أيضاً إلى أنه لا توجد ثمة أجناس نقية، ذلك أن الإنسان يتأثر خلال الأجيال بمئات الأجداد والأسلاف، ويشتق منهم جميعاً؛ والواقع أن كلمة (الجنس) قد فقدت معناها بالنسبة للجماعات الإنسانية. وأما هذه المزاعم الحديثة التي تنسب إلى الجنس والسلالة فليست سوى (علم مزعوم) ينظم لتستتر وراءه غايات السياسة.

وفاة شاعر روسي

توفي أخيراً في باريس شاعر روسي فتي هو بوريس بوبلافسكي. وباريس هي كما نعلم مهجر الروس البيض الذين يخاصمون البلشفية ويمقتونها، وفي باريس يترعرع أدب روسي ناشئ هو أدب المهجر، يتأثر تأثيراً كبيراً بالأدب الفرنسي؛ وقد كان بوريس بوبلافسكي من أعلام هذه الحركة الأدبية ومن أقوى ممثليها، وفد باريس حدثاً، وتكون فيها تحت تأثير الأدب الفرنسي، فنشأ يمثل مزيجاً بديعاً من الأدبين الروسي والفرنسي وظهر بنظمه القوي المؤثر حتى شبهه بعضهم ببعض أكابر الشعر المعاصر مثل رمبو وأبولنير.

وكان بوبلافسكي ينشر قصائده ومقطوعاته في بعض المجلات التي يصدرها الروس المهاجرون مثل مجلة (الأخبار المعاصرة) ومجلة (تفينو) ومجلة (تسسلي)؛ وكان علماً بارزاً بين أدباء المهجر على رغم حداثته. وفي سنة 1931 نشر مجموعة شعرية بالفرنسية عنوانها (الأعلام) وقد ترك عند وفاته مجموعة شعرية أخرى لم تنشر، وكذلك قصتين. وكان بوبلافسكي أيضاً كاتباً مجيداً وباحثاً؛ وكان حركة مضطرمة، وقد توفي في أوج قوته وعنفوان شاعريته، وأحدث موته فزعاً كبيراً في أدب المهجر وأثار بين مواطنيه في المهجر أيما حزن وأسى.

جائزة نوبل

منحت الجائزة الأولى من جوائز نوبل هذا العام، وهي جائزة الفسيولوجيا (علم وظائف الأعضاء) لعالم ألماني هو الأستاذ هانز شييمان من أساتذة جامعة فريبورج: ومما يجدر ذكره أن هذه هي المدة الرابعة التي يرشح فيها الأستاذ شبيمان نفسه لنيل هذه الجائزة الشهيرة.

والأستاذ شبيمان في نحو السبعين من عمره؛ وهو يخصص حياته منذ ثلاثين عاماً للعمل في سبيل التكوينات الميكروسكيبية، وقد نجح أثناء مباحثه في نقل بعض الأعضاء الحيوية إلى (الأجنة) وجعل فيها مخلوقات جديدة، وهذا ما يسمى في اللغة العلمية (بالخياليات).

وقد انتهت مباحثه في هذه (الخياليات) إلى نتائج تلفت الأنظار؛ وكان أن أستحق معها جائزة نوبل وقدرها نحو سبعمائة ألف فرنك فرنسي (أعني نحو عشرة آلاف جنيه)،

وبذلك تنتهي هذه الحياة الباهرة بحياة رغد وثراء.
ومما يذكر بهذه المناسبة أن العلماء الألمان والنمسويين هم أكثر العلماء نيلاً لجوائز نوبل وخصوصاً في النواحي العلمية المحضة مثل الطب والكيمياء والعلوم الطبيعية والرياضة؛ ولم يمر عام لم يظفر فيه واحد منهم أو أكثر بجوائز نوبل. أما جوائز نوبل الأدبية فأكثر ما يظفر بها الكتاب الإنكليز أو الأمم اللاتينية.

الكتب

المختار للأستاذ عبد العزيز البشري (1)

المرشد العربي للسيد سهيل للسيد (2)

للأستاذ محمد كرد علي

- 1 -

خُصَّ الأستاذ البشري بالإجادة البالغة في ضروب الكلام. وكتابه (في المرآة) شاهد بتفوقه في الصناعة، وأنه نسيج وحده في أسلوب الجد في الهزل والهزل في الجد، ساعده على هذا الإبداع والإمتاع تمكنه من ناصية اللغة، وقبضه على قياد الآداب، إلى ما فُطر عليه من ظرف شفاف، إذا تنادر وإذا تهكم، وأتى يودع الآن كتابه (المختار) بعض ما أبدع فيه من المقالات والمسامرات والمحاضرات، فكان له المنّة على أبناء هذه اللغة بما ينوّع لها من أصناف القول، وبما يحمل إلى مختلف الطبقات من ألفاظ ومعان وتراكيب لا يكادون يقعون عليها إلا في كلام نبغاء البلغاء.

البشريّ كالجاحظ إذا عرضت له النكتة قالها لا يبالي، وإذا اقتضته الحال أن يتهكم تهكم، يدخل السرور على قلب قارئه ويعلمه ولا يشقُّ عليه، وقليل جداً في فصحاء جيلنا من تهيأت له الذرائع إلى إتقان فنه هذا الإتقان، وقليل مثله من عرفوا الحياة ولابسوها كما أرادت ثم قابلوها بالضحك والسخرية، وقليل جداً من خبروا المجتمع المصري خبرته، فكتب ما توقع منه نفعاً في رفع مستواه الأدبي.

أحسن الأستاذ خليل بك مطران بقوله في تقدمه كتاب البشري إنه متحف حافل بالمفاخر، وإن كل طرفة من طرفه جديرة بأن تطالع في تدبر وروية وقد كسر كتابه هذا على ثلاثة أبواب (الأدب) و (الوصف) و (التراجم). فعالج في الأدب فصولاً في القصص، والنقد الأدبي، والأدب بين القديم والجديد، والأدب القومي وغير ذلك، وفي باب الوصف جوّد في مقالة (الراديو)، كما يصفه أعرابي قادم من البادية و (في الطيارة بين الماظة والدخيلة) وفي غيرها من الفصول. وفي التراجم ترجم لحسين رشدي باشا من رجال السياسة وللشيخ علي يوسف من أرباب الصحافة ولمحمد بك المويلحي من أهل الأدب. ترجم بروح جدّ فكانت ترجمته على مثال التراجم المتعارفة. أما يوم ترجم (في المرآة) مثلاً للشيخ أبي الفضل الجيزاوي ولأحمد مظلوم باشا وللدكتور محجوب ثابت فإنه أتى بالمرقص المطرب، وربما لم يكتب لأحد من المحدثين إن وُفّق إلى مثل هذه الإجادة في تصوير الصفات والحركات بهذه الطريقة.

وبعد فإن أدب الشيخ البشري لا يتذوقه كما قال شاعر العرب مطران إلا من يدرسه ويعاود دراسته بروية وتبصر. وصاحبه واحد من بضعة المنشئين في هذا العصر، يحاولون بأسلوبهم - ولكل واحد منهم أسلوبه على حياله - أن يعيدوا إلى العربية رونقها القديم من الجزالة والسلاسة، والبعد عن السجع إلا إذا جاء عفو الخاطر. ولعلهم موفقون إلى بلوغ الغرض الذي سددوا سهام أقلامهم إليه.

- 2 -

أعجبني من هذا الدليل في القسم الإسرائيلي منه وصف عمال اليهود في فلسطين و (لعل أرفه حياة يعيشها عامل في العالم كله هي حياة العامل اليهودي في فلسطين) بفضل (الهستدروت) أي النقابة العامة لعمال اليهود. وهي جمعية توزع العمل على العمال وتدافع عن حقوقها وتكره أصحاب الأعمال على التقيد بأنظمتها وتؤمن حياة العمال وتجد لهم عملاً وتوزع العمل بينهم في الأزمات وعند تكاثر العمال وهبوط الأعمال. وللهستدروت شركات تعاون وقرى يعيش ساكنوها عيشة اشتراكية. قال إن الفلاحين في القرى الاشتراكية يعيشون حياة غريبة الشكل بالنسبة للشعوب الأخرى. خصوصاً الشعوب العربية. فهم لا يتناولون أجراً ولا يعرفون قيمة الدراهم. بل يعملون في قراهم بدون أجر، يأكلون ويشربون ويلبسون وينامون ويتنزهون ويتطببون

ويتزوجون ويتناسلون، من غير أن يكلفوا بدفع فلس واحد، لا يعترفون برئيس ولا زعيم، ولا يجعلون للأديان السماوية سلطاناً كبيراً عليهم، وكلهم في نظر إخوانهم يتساوون في الحقوق والواجبات؛ وقد لاحظ الكاتب أنه يصعب على كل إنسان أن يعيش عيشاً اشتراكياً كما يعيش هؤلاء إلا إذا كان على جانب من العلم والثقافة، ويميل بفطرته إلى الحرية المطلقة، على ألا يستعمل هذه الحرية في خرق الأنظمة والقوانين؛ ومن أهم شركات التعاون شركة المساكن، ولها بنايات ضخمة في البلدان التي ينزل فيها العمال مثل حيفا وتل أبيب، وتتألف هذه البنايات من 150 بيتاً، ولا يختلف بعضها عن بعض إلا بالسعة، وكلها مبنية على طراز واحد استكمل شروط الصحة والفن.

ويعيش الأولاد في القرى الاشتراكية حياة مستقلة تختلف عن حياة الكبار، فلهم بيوت ومطاعم خاصة ومطبخ مستقل ومربيات خصوصيات، قال: والإنسان الاشتراكي لا يعيش هنا لنفسه فقط، بل للمجموع، وعليه أن يجدّ لسعادة المجموعة الاشتراكية أو الأخوية الاشتراكية التي يعيشها، ولا يحاول أن يعتلي على زملائه أو يتحكم فيهم، فهو عامل وشريك، ورأس مالي وفقير معدم في وقت واحد؛ والأغرب أن على هذا الإنسان الذي يعيش بدون أمل في الرفعة والسؤدد الشخصي أن يجد ويجتهد، ويعمل بهمة ونشاط كما لو كان يعمل لمستقبله ومستقبل أولاده وأحفاده؛ وإذا لاحظ إخوانه في الاشتراكية أنه كسول خامل، يعمل أقل مما يقدر على عمله، لا يتوانون عن إفهامه بلطف وجوب مغادرتهم، فإن تجاهل أفهموه صراحة وحكموا بطرده؛ ومتى زهد في الحياة الاشتراكية تقدم له الجمعية نفقات سفره إلى المكان الذي يقصده، وإن رغب أحد الاشتراكيين في زيارة أهله نقدوه نفقات سفره ذهاباً وإياباً إلى أقصى الأرض ليعود إليهم بعد انقضاء مدة الأذن، ومن كان له فقراء من أهله في مدن أخرى، تقدم له المجموعة الاشتراكية مبلغاً شهرياً لا يتجاوز الجنيهين، وفي هذا الدليل فوائد كثيرة ينبغي للفلاح المصري والشامي والعراقي أن يتعلموها، وينسجوا على منوالها بما يلائم طباعهم وعاداتهم.

محمد كرد علي

العدد 125 - بتاريخ: 25 - 11 - 1935

على هامش الموضوع السابق أيضاً

. . .عطف جميل

وجَّه الكاتب الفرنسي النابه فكتور مرجريت نداء صارخاً إلى (الضمير البشري والعالَم الحر)، أهاب فيه بذوي الوجدان من بني الإنسان أن يتعاونوا على دفع الظلم وكف الأذى عنمصر التي كابدت أضرار الرق، وعالجت آصار الذل، ثلاثاً وخمسين سنة لم يفتُر لصَرْخاها استغاثة، ولم يكن لصرعاها أنين؛ ثم ناشد أعلام الذكاء الفرنسي أن يظاهروه على هذا النداء، فأمضاه منهم خمسمائة وثمانية آلاف من العلماء والأدباء والفنانين من بينهم جول رومان، واندريه جيد، ورومان رولان، وهادامار.

عَرَض الكاتب الشكور في ندائه المحَن التي انفجرت على ضرب مصر منذ توقح على ضرب الإسكندرية ذلك الأسطول الذي يتقلب اليوم بين شواطئها ومرافئها تقلب العزيز المقتدر والمختال المملك؛ ثم عَرَّض بتلك الوعود الفواجر التي جرت على لسان غلادستون وغرفيل وسالسبورى وأضرابهم من المدَّاعين الذين بنوا هذا الملك الضخم على مراوغة اللسان ومماطلة الزمان ومغافلة الناس؛ ثم ذكر اضطراب مصر في الأصفاد، واستشهاد شبابها في الجهاد، وذياد الحلفاء وفْدَها المختار عن مكانه في مؤتمر السلام؛ وعجب أن يتسع إنجيل وِلْسُنَ لحرية الحجاز وأرمينية وألبانيا، ثم يضيق عن تحرير مصر وهي ما هي في وحدة الأرض وقوة الدولة وتجانس الأمة، فيذرها معلقة على رغمها بين حق حليم الطبع وباطل سفيه السلاح، ثم أعاد إلى الذاكرة قول الكاتب الخالد اناطول فرانس: (أن ساستنا أنقذوا من يد العدم انشروا من طوايا القبور عشرين أمة، فانتهت إلى الحرية بولونيا وعادة إلى الحياة أرمينية؛ ولكن العدل الإنساني يأبى أن يبرأ من تناقضه ونقصه، فكان من نقص هذا العدل، ومن حمق المدعين للحزم والعقل، أن صارت مصر وحدها هي الضحية الكبرى لأكذوبة السلام).

غضبة سامية، وصرخة داوية، ودعوة كريمة وصدورها عن حفدة الذين أعلنوا بأقلامهم حقوق الإنسان، وأطلقوا بأسيافهم حرية العالم، أمر جار على مألوف الطبع والعادة؛

ولكن الأستاذ فكتور ينادي غير سميع، ويخاطب غير واع! لقد هوى ذلك الضمير الإنساني صريعاً أمام الجشع، وجثت حرية العالم ضارعة إلى الحرص، واستحال الإنسان الجديد
إلى معدة مسحوتة هائلة لا تكف عن القضم، ولا تعيا عن الهضم، ولا ترسل الميول والعواطف إلا في نواحي المنفعة. أين كان ذلك الضمير الحر حين رجفت باسمه الرجفة الكبرى، وأصاخت إلى صوته الهدنة العظمى، ثم جلس على أقدار الشعوب لويد جورج وكليمنصو وويلسن، وأيديهم على منضدة الصلح فوق أعواد الزيتون وأغصان الغار، يتقاسمون الحقوق الممزقة، ويتهادون الحريات المسلوبة، ويقيمون أنفسهم أوصياء على فرائس اقتطعوها، ثم عجزوا أن يبلعوها، فقدموها إلى الوصي كما تقدم الشاة إلى الأفعوان، يزدردها في سكون،؟ ويهتضمها على مهل أين كان ذلك الضمير الإنساني الحر حين تجاوبت بالأنين ضحايا السلام في تركية ومصر وفلسطين وسوريا والعراق؟ تستغيث بالولاء للحلفاء فلا تغاث، وتُلوِّح بالوثائق والوعود فلا تبالَي، وما ذنبها أنها ضعيفة، ففيهم أضعف منها وإنما ذنبها أنها مسلمة؟ أين كان ذلك الضمير الإنساني الحر وصرخات مصر الشهيدة تتعاقب على أسماع المدينة من غير فترة، فتمزق أغلفة الأذهان بالحجة، وتلمس لفائف القلوب بالرجاء، ثم لا ترتد أصداؤها إلا بالخيبة؟ أين كان ذلك الضمير الإنساني الحر والوعود الستون بالجلاء تتساقط من فوق المنبر الدستوري العريق تساقط الشهب، يخطف البصر سناها في جو السماء، ثم تكون حجارة باردة على الأرض؟ هؤلاء أبناؤنا الأعزة يا مسيو فكتور كما سمعت هناك ورأى إخوانك هنا: يشترون بأنفسهم الغالية الهتاف للحرية، لعلهم ينبِّهون العامِةَ، فيبصر، ويرشدون المبطل فيُقصر ويُسمعون المخطئ فيصيب. ولكن الطوائر، تئز والبواخر تصفِر، والمصانع تضج، والمناورات الحربية ترعد، والخطب الخداعة تهدر، فكيف تجد الأصوات الرقيقة العذبة سبيلها في هذه الضوضاء العنيفة إلى آذان هي بطبيعتها موقورة عن مثل هذا النغم؟ ولو كان الضمير الإنساني لا يزال حياً لرأى من خلال الحجب، وسمع من وراء الآفاق، ثم وخز النفوس وخزته الإلهية، فيشعر القوي أنه زل، ويدرك الغوي أنه ضل، ويفطن الإنسان أنه إنسان.
لقد كنت أود يا مسيو فكتور أن ينبسط عطفك حتى يشمل أخواناً وجيراناً يعانون من الذكاء الفرنسي مثل ما نعاني من الدهاء الإنجليزي، ولكننا سئمنا الكلام وأنفنا الاسترحام واحتقرنا الحجج.
لقد بلُد الشعور حتى لا يحس ألا ذبابَ السيف، وثقل السمع حتى لا يدرك ألا قصفة المدفع،
وكَلَّ الذهن حتى لا يفهم إلا كثافة المادة؛ فأين يقع من ذلك بيان الأدب ومنطق العلم وخيال الفنان يا مسيو فكتور؟؟
أحمد حسن الزيات
المجنون
للأستاذ مصطفى صادق الرافعي
جاء يمشي هادئاً يتخيَّلُ في مِشْيته، يَرْجُفُ بين الخُطوة والخطوة كأنه من كِبره يُشعرك أن الأرض مُدركة أنه يمشي فوقها. . . ولا ينقلُ قدمَه إذا خَطَا حتى يَنْهضَ برأسه يُحركه إلى الأعلى، فما تدري أهو يريد أن يطمئنَّ إلى أن رأسَه معه. . . أم يُخَيَّل إليه أن هذا الرأس العظيم قد وضع على جسمه في موضع راية الدولة فهو يهزُّه هزَّ الراية. . . .
وأخذته عيني وليس بيني وبينه إلا طولُ غرفةٍ وعرضها - فهو إذا زائغُ البصر كأنما واقع في صحراء يقلِّب عينه في جهاتها متحيِّراً متردِّداً، ثم كأنما رُفِعَ له في أقصاها جبَلٌ فأخذ إلى ناحيته. . . . .
ورحبتُ به، وأجلستهُ إلى جانبي، فأخذ يَسْتَعَرِفُ إليَّ بذكر أسمه وجماعته وبلده، لا يزيد على ذلك شيئاً كأنه عنترةُ بني عَبس، لأرضه من طبيعتها جغرافياً، ومن أسمه جغرافياً على حدة. فلما رآني لا أُنْبِئُه معرفة قال: أن بك نسياناً قلت: وكثيراً ما أنسى، غير أن أسمك غير من ذلك الأسماء التي تذكّر بتاريخ.
قال: هذه غلطة الجرائد. . . ومهما تنسَ من شيء فلا تنسَ أنك أستاذاً (نابغة القرن العشرين). . .

فسرَّحتُ فيه نظري، فإذا أنا بمجنونٍ ظريفٍ أمردَ أهيفَ، يكاد برخاوته وتفككه لا يكون رجلاً، ويكاد يبدو امرأة بجمال عينيه وفتورهما.
وتوسمتُ فإذا وجه ساكن منبسطُ الأسارير ممسوح المعاني، ينبئ بانقطاع صاحبه مما حوله، كأن الدنيا ليست دنيا الناس، ولكنها دنيا رأسه.
وتأملت فإذا طفولة متلبدة قد ثبتت في هذا الوجه لتخرج من بين الرجل والطفل مجنوناً لا هو طفل ولا رجل.
وتفرَّستُ فإذا آثارُ معركةٍ باديةٍ في هذه الصَّفحة قَتْلاها أفكارُ المسكينِ وعواطفُه.
وتبَّينتُ فإذا رجلٌ مُستَرْخٍ، مُتفتِّرُ البدن، خائرُ النفس، وكأنه قائم لِتَوَّه من النوم فلا تزال في عينه سِنَةٌ، وكأنه يتكلم من بقايا حُلُم كان يراه. . .
وخُيِّل إليَّ من هذا الخُمول في هذا الشاب أن عليه جوًّا من تثاؤبه وان المكان كله يتثاءبُ،
فتثاءبت.
فلما رأى ذلك مني ضحك وقال: أن (نابغة القرن العشرين) رجلٌ مغناطيسيّ عظيم؛ فها هو ذا قد ألقى عليك النوم. . . وحسبُكَ فخراً أن تكون أستاذَه وأخاه وثقتَه، (فليس على ظهرها اليوم أديبٌ غيري وغيرك. . .).
قلت في نفسي: إ تا لله، ما يعتقد الرجلُ أن على ظهرها مجنوناً غيره وغيري، وكأنما ألمَّ بذلك فقال: لستُ مجنوناً، ولكني كنت في البيمارستان. . .
قلت: أهو البيمارستان الذي يسمى مستشفى المجاذيب؟
قال: لا. إن هذا الذي تسميه أنت هو مستشفى المجاذيب، أما الذي سميتُه أنا فهو مستشفى فقط. . .
وذكرتُ عندئذٍ أن من المجانين قوماً ظُرفاء يَدخُلُهم الفسادُ في عقولهم من ناحية فكرة ملازمة لا تبرح، فلا يكون جنونُهم جنوناً إلا من هذا الوجه، وسائر أحوالهم كأحوال العقلاء، غير انهم بذلك طيَّاشون متقلبون، إذا ازْدُهِيَ أحدُهم لم يُطقْهُ الناس من زهوه وكبريائه وتنطُّعِه، كأنه واحدُ الدنيا في هذه الفكرة وكأن بينه وبين الله أسراراً؛ ويظن عند نفسه انه اعقلُالناس في أرقى طبقات عقله، وما جنونُه إلا في هذه الطبقة وحدها.
ومثل هذا لا بد له ممن يستجيبُ لهذَيانه كيما يحركَ فيه خفتَه وطيشَه وزهوه وليكونَ عنده الشاهدَ على هذا الوجود الخياليِّ المُبدَع الذي لا يوجد إلا في عقله المختل. فإذا هو ظفر بمن يُحاسنُه، أو يصانعُه، أو يجاريه حَسبَه مُذْعِناً مؤمناً مصدِّقاً، فلا يَدَعُه من بعدها ويتعلق به اشد التعلق، ويراه كأنه في ملكه. . . فيتخذه صفيَّاً وهو يعتقد انه رقيق؛ وقد يَزُعمُه أستاذَه لِيُفهِمَه من ذلك بحساب عقله. . . أنه تلميذُه.
وخشيتُ أن يكون (نابغة القرن العشرين) لم يُسمِّني أستاذَه إلا بحسابٍ من هذا الحساب، فهو سيُعطى الأستاذيةَ حقَّها، ولكن كما هو حقّها في لغة جنونه. . . فأصبح في رأيه تلميذه وصنيعتَه، ومحدِّثَ هذيانه، وثقتَه وملجأه، والمحاميَ من ورائه؛ قلت في نفسي: إذا أنا تركتَه جالساً كان هذا المجلسُ مَثابَتَه من بعدُفلا يعرف له محلاً غيره ويصبح كما يقال في تعبير القانون (محلّه المختار)، فَيتَطَرَّأُ إليَّ لسبب ولغير سبب، ويقعُ في أوقاتي وقوعَ السَّهوِ لا حسابَ عليه ويضيعُ فيه ما يضيع. فأجمعتُ أن أصرفَه راضياً باليأس وقد انتهت
نفسُه من معرفتي وانتهى عقله إلى الرأي أني لا اصلح له أستاذاً، لا بحسابه هو ولا بحساب الناس.
فقلت له: ظني بك انك أستاذ نفسك، ولا يحسن بنابغة القرن العشرين أن يكون له في القرن العشرين أستاذ، واراك قد فرغتَ للأدب، أما أنا فمشغول بأعمال وظيفتي، وقد جاء من العمل ما تراه وتكاد لا تفي به الساعاتُ الباقيةُ من الوقت و. . فقطع عليّ وقال: أن الوقت ليس في الساعة، والدليل أني أعطلها فيتعطل الوقت ولا يكون فيها يوم ولا ساعة ولا ثانية ولا دقيقة.
فقلت: ولكنك إذا عطلتها لم تتعطل الشمسُ التي تعيّن منازلَ النهار، فسيمرُّ الظهر ويحينُ العصر و. . .
قال: ويأتي غد، وإنما أنا معك اليوم فقط. . . ويجب أن تغتبط بأنك أستاذ (نابغة القرن العشرين)، فقد قرأت الكثير في الأدب وقرأتك، فما كان لي رأي إلا رايتّه لك، ولا

صحَّت عندي نظرية إلا رايتك قد أبديتَها، وأنا لا اعتقد أدباً في مصر إلا ما توافَيْنا عليه معاً (ولا أسلّم جدَلاً، ولا جدَلاً أسلّم أن في مصر أدباء ينالون مني شيئا، فهو أنا وأنا هو)، ولئن لم يذعنوا (لنابغة القرن العشرين) فليعلمُنَّ انهم (وقعوا مني موقعَ نملةٍ (على صخرة). هذا من جهة، ومن جهة أريد سجائر وليس معي ثمنها. . .

فتهللْتُ واستبشرتُ، وقلتُ له: هذا قرش فهلمَّ فأشتر به دخانك، وفي رعاية الله. ثم استويت للقيام، ولكنه لم يقم، بل تمكَّن في مجلسه. . .

وكرهتُ أن أتَغَير له وما اشك انه في هذا صحيحُ التمييز؛ فما أسرعَ ما قال: أن (نابغة القرن العشرين) فتى قويُّ الإرادة، فإذا هو لم يصبر عن التدخين ساعاتٍ فما هو بصبور. . . . وإذا لم يُثْبتْ لك هذا الأمرَ عن مُعَايَنَة. . . . فما أعطيتَه حقَّه.

فقلت في نفسي: لقد غرستُ الرجلَ من حيث أردتُ اقتلاعَه، وأيقنت انه من عقلاء المجانين الذين تتغير فيهم العاطفة أحياناً فتُلهمهم آياتٍ من الذكاء لا يتفق مثلها إلا لنوابغ المنطق؛ وذكرت (بهلول) المجنون الذي حكوا عنه أن إبراهيم الشيباني مرَّ به وهو يأكل خبيصاً فقال له: أطعمني. قال: ليس هو لي، إنما هو لعاتكة بنت الخليفة بعثته أليَّ لآكله لها. . .

وقالوا: انه مر بسوق البزَّازين فرأى قوماً مجتمعين على باب وكان قد نُقِب، فنظر فيه وقال: أتعلمون من عمل هذا؟ قالوا: لا. قال: فأنا اعلم

فقالوا هذا مجنون يراهم بالليل ولا يتحاشَونه فالْطِفُوا به لعله يخبركم. ثم قالوا: اخبرنا. قال: أنا جائع. فجاءوه بطعام سَنيّ وحلواء، فلما شبع قام فنظر في النقْب وقال: هذا عمل اللصوص. . . . .

وكانت مجلة (الرسالة) في يد (نابغة القرن العشرين)، فصل الكلامَ بها وقال: أنه يقرأ كل مقالاتي وأنه وأنه، وإنها وإنها. قلت: فما استحسنتَ منها؟ قال: (مقالة السيما) . . .

فقلت: متى كان آخر عهدك برؤية السيما؟ قال: أمس

قلت: فأنا لم اكتب مقالاً عن السيما، ولكنك أعجبت بما رأيت أمس فتحول ما رأيته حلماً في مقالة

فأعجبه هذا التأويل وقال: بمثل هذا أنا (نابغة القرن العشرين) فاقرأ مقالتك في العيب من قبل أن تكتبها. . . .

قلت: انك تكثر أن تقول عن نفسك (نابغة القرن العشرين) وهذا يحصر نبوغك في قرن بعينه، فلو قطعتَ الكلمة وقلت (نابغة القرن) لصحّ أن تكون نابغة القرن التاسع عشر والثامن عشر وما قبلهما وما بعدهما.

فرأيت به شَدْهَةً كأنه يفكر في جنونه، ثم أفاق وقال: لا. لا. وان هاهنا موضع نظر، فلو رضيت بنابغة القرن فقط، لجاء من يقول إني نابغة قرن خروف. . . .

فقلت في نفسي: حمأةٌ مُدَّتْ بماء. وان هذه الوساوسَ لا تنفك تعرو هذا المسكين ما وجد من يكلمه، والأفكار في ذهنه مجتمعة مختلطةٌ مسترسلةٌ كأنها ثورة من الكلام لا نظام لها، فلأسكت عنه ولأتشاغل بما بين يدي.

وسكتُّ وأعرضت عنه فجعل طائفة يعتريه، وكان السكوت قد سلَّط أفكاره عليه، وكأنها أخذت تصيح به في رأسه كما يصيح غلمانُ الطرق بالمجنون لا يزالون به حتى يُجْرِدُوه ويفقدوه البقيةَ من صبره وعقله معاً. فغضب (نابغة القرن العشرين) ونقله الغضبُ إلى حالة زَمْهَرَتْ فيها عيناه وكلَحَ وجهه حتى خفتُ أن يثور به الجنون، فأقبلت عليه وتعلّلتُ بسؤاله ألك اخوة؟ ألم ينبغ فيهم نابغة. . .؟

قال: أن له أخاً يعذبه ويُوقِعُ به ضرباً ويغلله بالسلاسل ويشدُّه (بأمراس كَتَّانٍ إلى صُمِّ جَنْدل) وأنه أنزل به من العذاب ما لو أنزله بحجر لتألم

قلت: فأنت في حاجة إلى راحة ويحسن بك أن تأوي إلى مكان تتمدد فيه

قال: أني منصرف وسأجلس في نديّ كذا (هذا من جهة، ومن جهة ليس معي ثمن القهوة)

قلت: فهذا قرش تدفعه ثمناً لها فاذهب فاستمتع بها وبالتدخين وبالراحة في ذلك النديّ فالمكان هاهنا كثير الضجيج والحركة.

واستُوفزت للقيام، ولكنه لم يَتَحَلْحَلْ من مجلسه

ثم قال: أراك الآن مُسْتَبْصِرا أني (نابغة القرن العشرين) بعينه

قلت: بل بعينيه اليمنى واليسرى معاً. . .

قال: لا. لا. أنك نسيت أن العرب تقول في التوكيد: عينهُ ونفسهُ وذاتهُ. (أي أنا نابغة القرن العشرين بعينهِ ونفسهِ وذاتهِ، فليس غيري نابغة القرن العشرين)

وكادت نفسي تخرج غيظا ولكني رأيت الحلم على مثل هذا يجري مجرى الصَّدقة، وقلت أن أدباء المجانين كثيرا ما يتفق لهم الإبداع الظريف إذا عللوا شيئا كذلك القاصّ الذي كان يقصُّ على العامة سيرة يوسف عليه السلام، فقال لهم فيما قال: إن الذئب الذي أكل يوسف كان اسمه كذا، فردوا عليه: إن يوسف لم يأكله الذئب. قال: فهذا هو اسمُ الذئب الذي لم يأكل يوسف. . .

فقلب للمجنون: فما العلةُ عندك في أن العرب لم يقولوا في التوكيد: عينه وأذنه وانفه وفمه ويده ورجله؟

فنظر نظرةً في الفضاء ثم قال: ليسوا مجانين فيخلطوا هذا الخلط، وإلا وجب أن يقولوا مع ذلك: وعمامته وثوبه ونعله وبعيره وشاتهُ ودراهمهُ. (هذا من جهة، ومن جهة ليس معي أجرة السيارة إلى بلدي وهي قرشان).

قلت: هذه هي أجرة السيارة وصَحِبتك السلامة، ونهضتُ واقفا، ولكنه لم يتحرك.

ثم قال: انك لم تعرف بعدُ (أنى أقول الشعر في الغزل والنسيب والمدح والهجاء والفخر، أني في الخطابة قُسٌّ بن ساعدة أو أكثم بن صيفي، أني صخر لا ينفجر. . . يابس لا ينعصر، لست كالحجَّاج بل كعمر).

قلت: هذا شئ يطول بيننا ولا حاجة لك بهذه البراهين كلها فقد آمنت انك نابغة القرن العشرين في الأدب والشعر والخطابة والترسُّل.

قال: والفلسفة وكل معقول ومنقول. وقد انتهينا على ذلك

قال: ولكنك تحسبني مجنونا أو ممروراً (كما حسبتني الجرائد التي زعمت أن اختفائي في البيمارستان كان لجنوني الفكريّ أو لذكائي الطبيعي وهو الأصح. . . فبّين لهذه الجرائد أني خرجت أني سأطبع الأدب بطابع جديد).

قلت: ولكني لست مراسل جرائد. قال (فاجعلني رسالةً وراسلها عني أو اكتب لك أنا ما ترسله، وما جئتك إلا لهذا؛ ويجب أن تلحقني بجريدة كبيرة، وهذه الجرائد تعرفني كلها، وقد تناولتني من جميع النواحي الأدبية، فضلا عن أنى كاتب فذ، وخطيب فذ، وشاعر فذ. وهذا قليل من كثير، فهل أعوّل عليك في صلتي بالجرائد أولا؟)

قلت: انك تعرفهم ويعرفونك وقد بَلَوتهم وَبَلَوْا منك فلست في حاجة إلى عندهم.

قال: (انهم يخشون بأسي وقد حسبوني مجنونا استهوته الشياطين، وما علموا أن شيطان الشعر هو الذي استهواني كما أن شيطان الحب هو الذي استهواك. . . هذا من جهة، ومن جهة ليس معي ثمن الغداء ولا أكلفك شيئا. . .).

قلت: فهذا قرش للغداء في مطعم الشعب. وهم الآن يتعدون ويوشك إذا أبطأتَ أن توافقهم وقد استنفذوا الطعام، وأنت لا تجهل أن القرش في مطعم الشعب هو قرشان في القيمة.

قال: صدقت؛ يوشك أن أوافقهم وقد فرغوا من طعامهم وغسلوا الآنية. فلا بْقِ هذا للعَشاء وسأطوي إلى الليل. . .

قلت: فمعك الآن ثمن الدخان، والقهوة، والغداء، وأجرة السيارة إلى بلدك. وقد كان نابغة القرن الثالث للهجرة واسمه (طاق البصل) يغني بقيراط ولا يسكت إلا بدانق. هذا من جهة، ومن جهة فخذ هذا القرش ثمناً لسكوتك وانصرف.

فشقَّ ذلك عليه وقام مُغْضَباً، وتنفسَّتُ بعده الصعداء الطويلة. . . . وفتحتُ النافذة واستقبلتُ الهواء النقيَّ أخذت في رياضة التنفس العميق، ثم زاغت عيني إلى الباب فإذا (نابغة القرن العشرين) مقبلٌ مع نابغة قرنٍ آخر. . . . . .

(لها بقية)

(طنطا)

مصطفى صادق الرافعي

في مائة عام

الصراع بين الطغيان والديموقراطية ومحنة الديموقراطية المعاصرة

بقلم مؤرخ كبير

منذ نحو قرن ونصف كانت ريح الثورة الفرنسية الكبرى تهب على الملوكية الفرنسية،

فلما انفجر بركان الثورة بعد ذلك بنحو عامين أو ثلاثة، سقطت الملوكية الفرنسية وكل صروحها ونظمها القديمة صرعى الفورة المضطرمة. ولكن الثورة الفرنسية لم تقف عند حدود فرنسا، ولم تقف عند سحق الملوكية الفرنسية، ولم تلبث أن غدت ثورة عالمية ترتجف لها كل العروش والنظم في أوربا القديمة، وتتحد جيوش أوربا القديمة قلى مقاومتها وإخمادها. ولكن جيوش أوربا القديمة ارتدت منهزمة أمام القوى المعنوية الجديدة الني تضطرم بها جيوش الثورة؛ ولم تسحق الثورة أمام العدو الخارجي، ولكنها سحقت في غمر من المعارك الداخلية على يد قادتها وزعمائها أنفسهم، ولم تلبث أن استحالت إلى حركة خانعة ذلول تحملها موجة من الطغيان العسكري لتحقيق نفس الشهوات القومية والمبادئ المطلقة التي قامت لسحقها.

غير أن الثورة الفرنسية تبقى مع ذلك حركة تحرير عالمية، بل هي من بين الثورات التحريرية الكبرى أوسعها مدى وأبعدها أثراً في تاريخ الإنسانية؛ ذلك أنها قامت قي الأصل على حقوق الإنسان، وجعلت غايتها تحرير الحقوق والحريات العامة من أصفادها، وسحق كل النظم الطاغية، وتقديس الفرد وحقوقه، واعتبار الدولة خادم الأمة في مجموعها، وخادم الفرد والأمينة على حقوقه ومصالحه؛ ولهذا كان ظفرها عظيما، وأثرها عميقا في بث المبادئ الديمقراطية والتحريرية في أمم أوربا القديمة؛ ومنذ فاتحة القرن التاسع عشر نجد معظم الأمم الأوربية التي تسودها النظم المطلقة مثل روسيا القيصرية، وإمبراطورية النمسا والمجر تجيش بفورات تحريرية متوالية، وتطالب بإقامة النظم والدساتير الحرة، ونجد الملوكيات القديمة المطلقة تجد بكل ما وسعت في قمع هذه الحركات التحريرية.

وقد تجلى هذا الصراع بين الطغيان والديمقراطية على اثر سقوط نابوليون وسحق الفورة

العسكرية البونابارتية التي شغلت أوربا مدى خمسة عشر عاما، وقامت الملوكيات الطاغية القديمة تأتمر وتتحد على قمع المبادئ والحركات التحريرية التي اتسع نطاقها وسرت إلى معظم الأمم الأوربية، واضطرت معظم الحكومات المطلقة أن تنزل عند ضغطها ووعيدها وان تبذل بعض المنح الدستورية؛ وأسفرت هذه الحركة الرجعية التي نظمها ودبرها إسكندري الأول قيصر روسيا عند عقد (المحالفة المقدسة) الشهيرة بين روسيا وبروسيا والنمسا (سنة 1815)، وكان غرضها الظاهر أن تنظم الدول الثلاث شؤونها الداخلية والخارجية طبق التعاليم المسيحية، وان يحكم الملوك الثلاثة بين شعوبهم بالعدل والمساواة، وان يقوموا بتأييد السلام، ولكن كان غرضها الحقيقي أن تتهاون الملوكيات الثلاث على قمع الحركات التحريرية التي تضطرم بها أمم القارة، وعلى تأييد الحقوق الملوكية المطلقة، وعلى مقاومة الروح الدستورية الحقيقة وإخضاعها لهوى العرش وأرادته؛ وقد انضمت معظم الدول الأوربية الأخرى إلى هذه المحالفة الشهيرة، عدا إنكلترا التي كانت تمثل النزعة الديموقراطية الخصيمة.

ولكن الروح الدستورية كانت قد نفذت إلى الأعماق وحمل تيار الحركة التحريرية أمامه كل شئ، فلم تنجح حركات القمع إلا قدر ما يؤيدها العنف؛ وكان العنف كالعادة يغذي هذه الوثبات الشعبية ويذكيها؛ فلم تلبث عير بعيد حتى عادت إلى الاضطرام؛ ومنذ سنة 1830 نرى الثورات الشعبية تتفجر هنا وهنالك في أوربا. ثم كانت سنة 1848، التي يمكن أن تسمى بحق عام الثورة الديموقراطية. وفيها سقطت الملوكية في فرنسا أمام إرادة الشعب مرة أخرى، وقامت الجمهورية الفرنسية الثانية؛ وفيها اضطرمت الثورات التحريرية في ألمانيا، وفي معظم أنحاء الإمبراطورية النمسوية، وفي كثير من الدول الإيطالية، واجتاحت أوربا من أقصاها إلى أقصاها ريح تحريرية قوية اهتزت لها كل النظم الطاغية والعروش القديمة المطلقة؛ ولم يلبث أن لاح فجر الديموقراطية الحديثة في الأفق قوياً ساطعاً.

وبلغت الديموقراطية ذروة ظفرها عقب الحرب الكبرى، فانهارت القيصرية الروسية، وانهارت الإمبراطورية النمسوية، والإمبراطورية الألمانية، والسلطنة العثمانية، وقامت جمهوريات فتية، في روسيا وألمانيا والنمسا وبولونيا وتركيا، وفي عدة أخر من الدول الجديدة الناشئة التي خلقتها معاهدة الصلح لأغراض عسكرية وسياسية؛ ثم قامت الجمهورية

أخيراً في أسبانيا بعد أن سقطت ملوكيتها القديمة التالدة أمام الفورة العامة.
ولكن هذا الظفر الذي أحرزته الديمقراطية عقب الحرب الكبرى كان خليا، ولم يقم على أسس أو روح ديمقراطية حقيقية، بل استمد من الفوضى العامة التي أحدثتها الحرب؛ هذا إلى أن هذه الديمقراطية الظافرة لم تكن رزينة عاقلة، بل انساقت غير بعيد إلى ألوان خطرة من العنف والتطرف والفوضى. ومن جهة أخرى فقد كانت الديمقراطية قناعا للطغيان المطلق في روسيا السوفيتية وفي تركيا. وقد أدى تطرف الديمقراطية وتفرق كلمتها ووهن جبهتها غير بعيد إلى انهيار صروحها في إيطاليا حيث قام الطغيان المطلق باسم الفاشستية، ثم إلى انهيار صروحها في ألمانيا حيث قام الطغيان المطلق باسم الاشتراكية الوطنية، وانهارت الديمقراطية أيضا في بولونيا وفي النمسا وفي دول أخرى حيث قامت أنظمة قومية أو عسكرية طاغية بألوان وأسماء مختلفة، وهكذا لقيت الديمقراطية في بضعة الأعوام الأخيرة من ضروب الفشل والمحن ما لم تلقه قط في حياتها القصيرة الظافرة؛ والديمقراطية اليوم تناضل عن مبادئها وعن كيانها، ولكنها تناضل في غمر من الصعاب واليأس لأنها لا تناضل فقط أنظمة ومبادئ خصيمة، وإنما تناضل أيضا قوى عسكرية طاغية هي التي تعمل باسم المبادئ والنظم الجديدة.
غير أن الديمقراطية ما زالت تحتفظ بميزتها الكبرى، وهي أنها ما زالت تعتبر قانون الحكم العام، وما زالت مبادئها هي المبادئ الشعبية الخالدة، وهي المبادئ التي ترتكز إليها الحقوق والحريات العامة في كل الأمم المتمدنة؛ وهذا هو سر بقائها وسر قوتها، وهذا ملاذ آمالها ومستقبلها.
أما هذه النظم الطاغية التي تقوم اليوم باسم الشعب أو باسم القومية في دول مثل روسيا وتركيا وإيطاليا وألمانيا، فهي في الواقع نظم عنف وإرهاب محض؛ وهي ابعد النظم عن المبادئ الحرة والمبادئ الإنسانية: ذلك لأنها تمثل النزعة الفردية الحزبية قبل كل شئ، وفي هذه النزعة الفردية الحزبية تذوب فكرة الدولة والأمة والحقوق العامة؛ وقد قامت البلشفية في روسيا باسم الكتلة العاملة واسم سيادتها مناقضة لسيادة الرأسمالية في الدول الأخرى؛ بيد أن هذه السيادة المزعومة للكتلة العامة في روسيا، ليست سوى سيادة الحزب البلشفي، بل هي في الواقع سيادة عصبة من الزعماء والساسة يحكمون تلك الكتلة الشعبية
الهائلة بوسائل العنف والإرهاب. نعم تزعم البلشفية أن لها غاية عالمية هي بث مبادئ الثورة العالمية وتحطيم النظم الرأسمالية كلها؛ وتعمل على البلشفية منذ أعوام طويلة لبث مبادئها ودعايتها في معظم أنحاء العالم،
ولكن البلشفية ما زالت وقفا على روسيا وحدها حيث تؤيدها القوة الطاغية العنيفة وحيث تتصرف حفنة من الطغاة الدمويين في مصائر الشعب الروسي وفي عقوله وأرواحه. ولقد نسجت الفاشستية في إيطاليا على هذا المنوال في تمكين قبضتها من الشعب الإيطالي، مع فارق في الأسس التي تقوم عليها فهي تقوم على فكرة السيادة القومية والعسكرية، بيد أنها كالبلشفية سيادة حفنة من الرجال، (بل رجل واحد) يؤيدهم حزب وجيش، ويفرضون أرادتهم على الشعب بوسائل العنف؛ وليس في الفاشستية ما يميزها إلا أنها من حيث التنظيم السياسي تقوم على الفكرة النقابية.
وقد كانت الاشتراكية الوطنية (النازية أو الهتلرية) في ألمانيا احدث ألوان الطغيان المعاصر، بيد أنها من اشدها إمعانا في العنف وسحق الحريات والحقوق العامة؛ واهم مميزاتها وقواعدها الفكرة الجنسية أو فكرة السلالة والدم؛ وهي تذهب في تطبيق هذه النظرية التي تتخذها ستارا لغايات السياسة مذهب الإغراق المثير، وتصدر باسمها اغرب القوانين التعسفية وترتكب أشنع ألوان الاضطهاد والمطاردة؛ ومع أنها تتظاهر بأنها بطارد اليهودية في الواقع وتعمل على سحق نفوذها العنصري والاجتماعي في ألمانيا، فأنها في الحقيقة تذهب بعيدا في تأكيد النعرة الجنسية وتتخذها مثارا لعاطفة من التعصب الجنسي والقومي الشنيع، وهي بذلك من اخطر الحركات القومية التي تنذر بالانفجار المسلح؛ وللاشتراكية الوطنية خاصة أخرى، هي أنها تمعن في التسلط على شخص الفرد وعقله وروحه، فتسلبه كل إرادة وكل حق في التفكير أو التصرف المستقل، وربما كانت في ذلك اكثر إمعانا من البلشفية ذاتها؛ فالفرد لا وجود له في نظر الاشتراكية الوطنية؛ والدولة هي كل شئ. بيد أن الدولة والحكومة والزعامة

ومصدر السلطات كلها ليست سوى العصبة الهتلرية ومن ورائها القوات النازية المسلحة؛ وهذا الإمعان في تطبيق الفكرة الحزبية لا يقتصر على الدولة والتشريع، بل يمتد إلى الاقتصاد والثقافة وكل ما هنالك مما له مساس بتكوين الفرد أو توجيهه، سواء في جسمه أو عقله وروحه

وكما أن البلشفية تزعم أنها حركة ومبادئ عالمية لإصلاح الدولة والمجتمع، فكذلك تزعم الفاشستية الإيطالية والنازية الألمانية. بيد أن الفاشستية لم تنجح كحركة عالمية، وان كانت قد ظهرت آثار يسيرة منها في بعض الدول الأخرى ويمكن القول بأنها لقيت وما زالت تلقى في جميع أنحاء العالم المتمدين اشد صنوف المعارضة، بل ما زالت رغم كل ما عملته لإصلاح شؤون إيطاليا الداخلية تثير بوسائلها عواطف الاشمئزاز والمقت؛ كذلك الدعاية الهتلرية لم تجاوز حدود ألمانيا، ولم تلق مزاعمها الجنسية بالأخص صدى، وقد وصفت نزعاتها بأنها وثنية بربرية؛ والخلاصة أن هذه الحركات الطاغية التي قامت بالعنف والإرهاب وما زال يسندها العنف والإرهاب بقيت حركات محلية، ومن المحقق أن مصائرها ترتبط بمصائر زعمائها ومصائر القوى العنيفة التي تسندها، ومن المرجح أنها ستنهار عند حدوث أول انفجار عام. على انه لا ريب أن هذا الطغيان الشامل الذي يسحق شعوبا عريقة بأسرها، وذلك التطور المدهش في شؤون الزعامة والحكم وهو تطور ترتب عليه أن تثب أحط العناصر والطبقات إلى أسمى الزعامات السياسية والقومية؛ وذلك الاستعباد المزري لكرامة الفرد ولشخصه وعقله وروحه؛ وتلك الوسائل البربرية لتدعيم الشهوات الحزبية والمذهبية، وهي وسائل تذكرنا بالعصور الوسطى؛ وتلك الأحقاد القومية والجنسية التي تثيرها أذهان متعصبة منحطة: نقول لا ريب أن هذه الخواص التي تلازم نظم الطغيان الحاضرة، والتي هي ملاذ قوتها وحياتها، هي في الواقع دلائل واضحة على انحلال المدنية الغربية الحاضرة، وعلى قرب انحدارها إلى غمر جديدة من الاضطراب والفوضى

(مؤرخ)

الفلسفة

للدكتور إبراهيم بيومي مدكور

مدرس الفلسفة بكلية الآداب

كلمة تثير في النفس ما تثير من غموض وإبهام، وتؤذن بشيء من الغرابة والخفاء. يقال: تفلسف فلان إذا ظن انه يمعن في الغريب ولا يأتي بما ألفه الناس. وقد يرمى الفلاسفة بأنهم (يعيشون مع الملائكة) ويسبحون في عالم الخيال، لا يشعرون بما يشعر به من حولهم، ولا يقيسون الأمور بما توارد عليه العرف المألوف. يقال: هذا فيلسوف، وما لنا ولهذه الفلسفة، إذا أريد عد المحدث عنه وحديثه في عالم النظريات حيث لا تنال الحقيقة الواقعة ما تستحق من تقدير. لذلك انتبذت الفلسفة، وانصرف الناس عنها، ونظروا إليها نظرة ازدراء واحتقار، أو توجس وخيفة. فالعصريون والمتحضرون ينتقصون الفيلسوف مدعين انه لا يعيش في عصره، ولا يأخذ بقسط وافر من شؤون الحياة، والجامدون والمتأخرون يرمونه بالإلحاد والزندقة والخروج على الأديان.

والفلسفة في بلدنا بوجه خاص غريبة عديمة النصير والأعوان، لا تكاد تجد من يتحبب إليها، ويأخذ بيدها، ولا من يصورها للناس في شكلها الواضح ومظهرها الصحيح. فالنظم التعليمية العامة لا تعمل على نشرها، ولا تقف النام على حقائقها؛ والجمهور يفر منها، ولا يحاول أن يتفهمها ليؤمن بما لها من اثر في تهذيب الأفراد والجماعات ورفع مستواهم العقلي والخلقي؛ والخاصة يتبادلون منها أفكاراً بالية وأراء عتيقة قل أن تُعرض عرضاً مستقيما، وكأن الفلسفة في نظرهم ما جاء به أفلاطون وأرسطو دون أن يكون للقرون الوسطى والعصور الحديثة أبحاث يعتد بها أو نظريات يقام لها وزن. وهناك طائفة أخرى جنت على الفلسفة جنايات شنعاء، وزادت الناس فيها بغضا وكراهية، وهي جماعة أدعياء الفلسفة الذين يتهجمون عليها، ويكتبون فيها وينشرون، ويناقشون ويعترضون، دون أن ينفذوا إلى صميمها ويدركوا كنهها؛ وفي الصحف اليومية والأسبوعية من أمثلة هذه الجرأة العظيمة الشيء الكثير. وكان العلوم الفلسفية في هذا البلد حمى مباح، وسلعة تعرض في مختلف الأسواق، ومتاع

يستخدمه من عرف ومن لم يعرف قدره. بل نلاحظ فوق هذا انه كثيراً ما كتب في الفلسفة من لم يجد السبيل إلى الكتابة في موضوع آخر؛ وبذا انعكست الآية وأصبحت الأبحاث الدقيقة مجال من لا طاقة لهم بها، وظهرت الفلسفة في ثوب مشوه منقوص؛ وإذا كنا نعيب على هؤلاء الأدعياء جرأتهم فلا يفوتنا أن نأخذ على الفلاسفة المختصين تقصيرهم في التعريف عن أنفسهم وتهاونهم في الدفاع عن فنونهم وعلومهم.

ليست الفلسفة غريبة بالقدر الذي يدعيه المعرضون عنها، ولا خيالية بدرجة تباعد بينها وبين الحياة وشؤونها. فللزارع فلسفته في حقله، وللرجل فلسفته مع زوجه، وللزوجة فلسفتها مع بنيها. لكل من هؤلاء وهؤلاء طريقة خاصة في تفهم الأمور المحيطة به والحكم عليها ووزنها بميزانها الصحيح؛ وتلك ولا شك فلسفة ذات مغزى عظيم. وما اصدق أرسطو إذ يقول: الإنسان حيوان فيلسوف. على أن الفلسفة بمعناها الدقيق لا تخرج عن دائرة الحياة العملية والتجارب اليومية؛ وكل همها أن تشرح هذه التجارب وتفسرها تفسيرا يرتضيه العقل ويطابق الواقع. فظواهر سرورنا، وألمنا، وقواعد سلوكنا، ومعاملتنا وآراؤنا ومعتقداتنا، هي في جملتها موضوع الدراسات الفلسفية، ومن منا يمر عليه يوم - بل ساعة - دون أن يحكم على شئ بأنه خير أو شر، وعلى آخر بأنه صواب أو خطا، وعلى ثالث بأنه جميل أو قبيح؟ وهذه الأحكام الثلاثة هي شغل الفيلسوف الشاغل وعمله الدائم، يعنيه أن يدرس ظواهرها، ويضبط قوانينها، ويبين للناس كيف يكونونها التكوين الصحيح. فالفلسفة إذن من الحياة في صميمها، أو إن شئت هي الحياة كلها؛ وكيف لا وفي دراسة للإنسان في مختلف أحواله الفردية والجمعية، الفكرية والخلقية.

وإذا كانت هذه منزلة الفلسفة فمن العبث أن نهملها؛ أو أن نضعها في الصف الأخير من أبحاثنا، وهل حاجتنا إلى تعرف المادة في تمددها وانكماشها، والجسام في مغناطيسيتها وجذبها، أمس من حاجتنا إلى تعرف أنفسنا في ميولهما ومشاعرها، وتنافرها وتآلفها؟ نعم أن دراسة الإنسان عسيرة ودقيقة، غير أنها لهذا السبب نفسه ضرورية ولازمة؛ ولا أظنها اقل تشويقا من أية دراسة أخرى. فعناصر الثقافة العامة التي تشغل الأذهان الآن لا يصح أن تقصر على الجغرافيا الإقليمية، والاقتصادية، والهندسة النظرية والفراغية، والكيمياء، والطبيعة وما إليها دون أن يكون للفلسفة فيها نصيب كبير. على أن هذه العلوم نفسها نشأت في حجر الفلسفة وتربي في كنفها؛ فقد كان الإغريق الأول يطلقون كلمة فلسفة على أية معرفة كيفما كان نوعها، وكان العلم والفلسفة متآخيين ومتآزرين، وكثيرا ما كان الفيلسوف عالما يقنن القوانين العلمية ويوضحها، وكثيرا ما اهتدى إلى نظريات علمية على ضوء الدراسات الفلسفية. فطاليس وفيثاغورس الفيلسوفان الإغريقيان كانا رياضيين وعالمين في الطبيعة، وقد كتب أفلاطون على باب مدرسته: (لا يدخل هنا أحد ممن لم يلموا بأصول الهندسة)، وإذا جاوزنا العصور القديمة وجدنا أن ديكارات أبا الفلسفة الحديثة هو مخترع الهندسة التحليلية، وان ليبنتز كبير فلاسفة الألمان في القرن السابع عشر هو مبتكر حساب الجزئيات. ولئن كانت العلوم قد انفصلت عن الفلسفة الواحد بعد الآخر وكونت دراسات مستقلة لا تزال جمعها مسودة بلهجة وروح فلسفية، وفلسفة العلم النوم هي النقطة الحساسة والرئيسية كل مادة من مواد الدراسة الإنسانية. فالعلم ينزع ثانية إلى أن يكون فلسفيا وان يعود أيضاً إلى كنف أم غذته بلبانها من قديم، والأدب أيضا يتأثر بالفلسفة في أسلوبه ومعانيه، وغاياته ومراميه، وربما كان السر في نجاح كثير من الأدباء المعاصرين تلك النزعة الفلسفية التي رق بها شعورهم، ودق تفكيرهم، وسمت عبارتهم.

فليس ثمة بد من أن نتذوق الفلسفة ونذيقها للناس ما دامت الحياة تملي علينا درسها، والعلم الصحيح يعتمد عليها، والأدب الراقي ينهل من حياضها؛ ومن العار أن نبقى إلى اليوم وليس في لغتنا أبحاث فلسفية سهلة يجد فيها العامة سلوتهم، ولا دراسات عميقة يشحذ فيها الخاصة أذهانهم. أن البحث الفلسفي، ككل الأبحاث الأخرى، ضرب من التثقيف لا يصح أن تحرم منه أمة من الأمم؛ هذا إلى انه يجدر بنا أن تكون لنا فلسفة متميزة ذات لون خاص ومبادئ خاصة، وان ينقل الغرب عنا كما ننقل عنه، وبذا تنتظم دورة الفلك، ويعود التاريخ إلى مجراه، وتتصل الفلسفة العربية الحديثة

بالفلسفة الإسلامية القديمة، وإذا كان الناس يتحدثون عن فلسفة إنجليزية وأخرى فرنسية وثالثة ألمانية، فلم لا يتحدثون عن فلسفة مصرية وشامية وعراقية؟
إبراهيم بيومي مدكور

قصة المكروب كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكي وكيل كلية العلوم

رابع غزاة المكروب

طبيب القرية الذي ضجر بالطب لجهله أسباب الداء ثم ادعائه علاجه؛ الذي شغله البحث في أصول الأمراض في مداواة أربابها؛ الذي حقق أحلام بستور واثبت أن المكروب ينتج الأمراض، وان لكل مرض مكروبا يخصه، ويخصه وحده؛ الذي علم الدنيا كيف تصطاد النوع الواحد من المكروبات، وتصطاده خالصا خاليا من الأخلاط؛ الذي كشف مكروب الجمرة الخبيثة، قاتلة الماشية والإنسان، ومكروب السل قاتل الإنسان والحيوان؛ الرجل الذي كشف مكروب الكوليرا على ارض مصر في أجسام ضحاياها. البطل الذي نزل بساحات الموت فأظلته فيها ارفع بنوده، وقاتلته على أرضها افتك جنوده، فأسر منها على هواه، وخرج عنها سالما قد أخطأته سهامها قضاء وقدرا.
المترجم

في السنوات ذات الأحداث العجيبة والمفاجآت الغريبة من عام 1860 إلى عام 1870، بينا بستور يخلص صناعة الخل ويكشف عما دهى دود القز فيدهش الملوك ويرضى الأمم، كان شاب قصير القامة قصير البصر، تبدو عليه ملامح الجد، يدرس الطب في جامعة (جوتنجن) وكان اسم هذا الشاب روبرت كوخ وكان طالبا مجتهدا. إلا أنه بينما كان يجري بمشار يطه في جثث الموتى فيقطعها إربا، كان يحلم بغابات إفريقيا وبصيد الأنمار فيها. بينما كان يحفظ في رغبة واجتهاد أسماء المئات من عضلات الإنسان وعظامه، كانت صفارات السفن الذاهبة للشرع ترن في أذنه فتذهب من رأسه بكل تلك الأسماء اللاتينية والرطانات الإغريقية.

كان كوخ يود أن يضرب في الأرض ليكشف عي مجاهلها، أو أن يكون جراحاً في الجيش ليكسب الشارات والأوسمة، أو ينال منصب طبيب في سفينة تمخر به عباب البحار الواسعة فيذهب فيها إلى حيث لم يذهب قبله إنسان. ولكن القدر خيب آماله، فانه لم يكد يتم دراسته عام 1866 حتى وجد نفسه في مدينة هامبرج في مستشفى للمجاذيب يتولى فيه منصب طبيب مقيم؛ وفي هذا المستشفى للمجاذيب يتولى فيه منصب طبيب مقيم؛ وفي هذا

المستشفى امتلأ سمعه بصراخ المجانين وأحاديث البلهاء فلم تكد أذنه تسمع أصداء بستور ونبوءاته بوجود مكروبات فظيعة تفتك شر فتك بالإنسان؛ وظل ينصت لصفير السفن، وفي الأمساء كان يطلب المشي للرياضة فيصطحب صديقة له كانت تسمى: (ايمي فراتس) وكان يهبط بها إلى شاطئ البحر حيث السفائن تغدو وتروح، وسألها الزواج منها، وخال أن يغريها بالقبول فذكر لها أمله في طوافه حول الأرض ومسيره إلى الشرق ورؤية البلاد والشعوب، فقالت له إنها تتزوجه على شريطة أن يصحو عن أحلامه وينسى الشرق ومغامراته ويفتح لنفسه عيادة في بلد ألماني فينفع أهله وبلاده وأنصت كوخ إلى ايمي والى صوتها الساحر ساعة، وازدحمت في خياله صور شتى من سعادة خمسين عاماً يقضيها في العيش الهنيء معها، فطردت هذه الصور صور الفيلة والأنمار من رأسه، واستجاب نداء عروسه فاستقر لممارسة الطب، وفي سبيله اخذ ينتقل من قرية بروسية إلى أخرى على يمط من الحياة لا يختلف - حياة رتيبة ليس فيها صخبات الحياة وما تتضمنه من متع ولذائذ وفي هذه الفترة من الزمان، حين كان كوخ يكتب الوصفات للمرضى وينتقل في سبيل صناعته بين ديارهم المتباعدة على ظهر حصانه، يستقبل وكْفات المطر من فوقه، ويشق لنفسه طريقا في الوحل من دونه، ويسهر الليالي في ديار النُّفساء من أهل الريف، في هذه الفترة من الزمان كان (لستر) بأسكتلندا آخذاً في إنقاذ حياة الكثيرات من النساء عيد الوضع بدفع غائلة المكروب عنهن، وكان أساتذة الطب وطلابه في أوروبا اخذين في الإصغاء إلى ما يقول به بستور من نظريات، وما يعزوه إلى المكروب من أمراض، واختلفوا في الذي يقول واشتجروا، وقام من بينهم رجال يجرون تجارب أعوزها حذق المجربين وذكاء الباحثين، وكان كوخ بمعزل عن كل هذا، كان منقطعاً عي بيئة العلم انقطاع (لوفن

هوك) عنها قبل ذلك بمائتي عام، عام قام لأول مرة في مدينة دلفت بهولاندا ينحت العدس بيد ما عرفت من قبل للعدس نحتاً: وخيل للناظر إلى (كوخ) أن القدر قسم له أن يكون طبيباً عادياً متواضعاً يواسي المرضى ويحاول ما استطاع تخليصهم من الموت، وعزَّ ذلك مطلباً عليه وعلى أطباء ذلك الزمان، ورضيت ايمي بقسمة القدر، وفخرت بزوجها لما كسب خمسة وعشرين مركاً في يوم كثير العمل وفير المرضى ولكن كوخ كان غير راض، وانتقل في منصبه من قرية بليدة إلى قرية اكثر بلادة، حتى أدى به المطاف
إلى قرية فُلِشْتين في بروسيا الشرقية، وفي هذه القرية أتم عامه الثامن والعشرين، فأهدت إليه زوجته في عيد ميلاده مكرسكوباً يلهو به ويتسلى.
وكأني بهذه المرأة الطيبة تقول في نفسها عن إهداء هذا المجهر إياه: (لعل هذا المجهر يبعد فكره عن عمله الذي لا يرضاه. . . لعله يروح عن نفسه قليلاً ويكسبها شيئاً من الرضاء. . . إنه دائم التحديق إلى كل شئ بعدسة جيبه الصغيرة العتيقة. . .).
وا بؤسى لهذا المرأة الطيبة الساذجة! لقد أهدت إليه هذا المكرسكوب غير عالمة أنها بهذا الإهداء إنما فتحت له باب مغامرة تتضاءل إلى جانبها مغامرات كانت كان يحلم بها في أقطار الهند وجزائر الأقيانوس السفلي. فتلك الرؤى التي رآها بستور جاءت كوخ على يأس تتأوّل عند بابه وفي نفس تلك الغرفة التي أستقبل فيها مرضاه تلك الغرفة المليئة بالدواء تلك الغرفة التي ضاق بها وضاق بها وبدوائها تلك الغرفة التي عاف بها الطبَّ حتى كاد يصبح داء نعم في تلك الغرفة استحالت أحلام بستور حقائق أرتاها كوخ في جثث الأبقار ورِمَم الأغنام من خلال عدسات ذلك المجهر الذي أهدته زوجته إياه للهو والسلوى كأني بكوخ يقول لزوجته: (أنا أكره هذه الخدعة التي يُسْمونها طبّاً. . . وليس ذلك لأني أكره تبرئة الأطفال من الدفتيريا. . . ولكن الأمهات يأتينني صارخات مستغيثات يطلبن النجاة لأبنائهن وبناتهن. . . فماذا أنا صانعه لهن؟ أتحسس لهن في الظلماء أطمئن وأرجّيهن حين لا طُمَأنينة ولا رجاء وكيف لي بعلاج الدفتيريا وأنا أجهل حتى أسبابها وأكثر أطباء ألمانيا يجهلون أسبابها كذلك). يَبُثّ صاحبنا شكواه المرّة لأيمي فتضيق نفساً وتحتار فكراً وتغتاظ من هذا الزوج الذي لا يرضى أبداً لأنها كانت تعتقد أن واجب الطبيب الشاب يَتَأدَّى وينتهي إذا هو بذل كل ما في وسعه استعان بعلمه الكثير الذي حصله في مدرسة الطب يوم كان طالباً.
وعلى الرغم من هذا فكوخ كان لا شك على حق. فما الذي كانت الأطباء تعلمه من أسباب الأمراض الوبيئة؟ لا شئ. نعم قام بستور بتجارب رائعة ولكنها لم تثبت شيئاً من سبب اقتباس الإنسان الوباءَ ولا من كيفية اقتباسه رفع بستور بيمناه مشعلاً وضاء كبيراً وسبق به إلى تلك الظلمات صارخاً بالأمل داعياً للنصر يحدث الناس عالياً بانهزام الأوبئة قريباً ومحو الأمراض من سطح الأرض وشيكاً ولكن الأوبئة لم تكن بدأت تتخاذل والأمراض لم
تكن أخذت تتزايل والفلاحون في قرى روسيا التي خرَّبتها الجائحات بقوا على أسلوبهم في دفعها وظلوا على عادتها يربطون أربعاً من أراملهم إلى محراث ثم يدورون بهن في سكون الليل وراء القرية يرسمون حولها أخدوداً هو في حسبانهم خير نطاق يدفعون به شر الوباء وهل كان لدى الأطباء أسلوب في دفعه خير من هذا!
كأني بمدام كوخ تحاول أن تجد لزوجها مخرجاً مما هو فيه: (ولكن يا روبرت أن أساتذة برلين وكبار أطبائها لابد عالمون أسباب هذه الأدواء التي لا تستطيع أنت علاجها) كان هذا من خمسين عاما أو تزيد ولكني أعود فأقول أن أكبر الأطباء في هذا الزمان لم يكن يدرون عن الوباء أكثر مما درى هؤلاء الريفيون الذين ربطوا الأرامل جهلاً إلى المحاريث. قام بستور في باريس يتنبأ بأن البحث لا بد كاشف عن قريب تلك المكروبات التي هي لاشك سبب السل وحتف المسلولين فنهض له رجال الطب أجمع يتقدمهم بيدو ذو المقام الرفيع والأزرة البارقة الصفراء يدفعون خرف هذا النبيَّ المأفون.
صرخ بيدو كالرعد يقول: (أجرثومة خاصة تحدث السل وتقضي على المسلولين! خرافة مؤذية وخاطرة مخطرة! أن السل مفرد وجمع في آن. غايته موت الأنسجة في عضو بالعدوى وذلك عن طرقات عدة من واجب الطبيب وخبير الصحة محاولة سدّها) بمثل هذا الهُراء وهذا الكِلم الفارغ الذي لا معنى له يدفع الأطباء تنبؤات بستور.

أخذ كوخ يقضي أمساءه يلهو بمجهره الجديد ويتعرّف كيف يحرك مرآته ليعكس بها على منظوراته من الضياء على القدر الذي يريده ويتعلم ضرورة تنظيف صفائح الزجاج وتلميعها قبل أن يضع عليها قطرة الدم من أجسام الخراف والأبقار التي قضى عليها مرض الجمرة

وكان هذا المرض الخفي الغريب قد أخذ يقلق بال المزارعين في جميع أقطار أوربا فكان تارة ينزل على المزارع صاحب الألف من الأغنام فيقضي عليها بالهلاك وعليه بالخراب وقد ينزل على الأرملة الفقيرة وبقرتها الوحيدة فيصّبحها وقد عزّها الرزق وساءت مصيراً. لم يكن لهذا المرض أسباب معروفة أو خطة مرسومة يجري عليها في تخيّر ضحاياه. فقد يُصْبح الصباح على القطيع من الغنم فتأخذ عينَك منه شاةٌ سمينة صحيحة جميلة لا تكاد

يستقر على أرجلها نشاطاً مرحاً فلا يأتي عليها المساء حتى تعاف الطعام وتميل برأسها بعض الميل ولا تشرق عليها شمس الغد حتى تلقاها باردة هامدة متصلّبة وقد استحال دمها إلى دم أسود كالليل ثم يعود فيحدث نفس هذا لشاة ثانية فثالثة فسادسة فسابعة لا يقف عند حد ثم يأتي دور الفلاح ودور الراعي ودور فرّاز الأصواف ودور تاجر الجلود فتتفجر جلودهم عن خراجات مؤلمة قبيحة أو يلفظون آخر أنفاسهم من التهاب رئوي لا يُمهلهم طويلاً.

بدأ كوخ، كما بدأ من قبله لوفن هوك، بدأ يستخدم مجهره لغير غاية معروفة وغير قصد محدود. فأخذ ينظر به كل شئ، ويحدق من خلاله في كل ما يلقى، حتى وقع على دك الأغنام التي قتلها داء الجمرة وعندئذ أخذ يتجمع فكرة على غاية، ويقف جهده على قصد، وعندئذ أخذ يتناقص نصيب مرضاه من هم نفسه، فقد يقصد إلى مريض فيلقى في طريقه بين الحقول شاة نافقة فينسى المريض وعيادته إياه، واخذ يساور الجزارين يسألهم عن الضياع التي بها تقتل الجمرة الشياه. ولم يكن لكوخ من فراغ الوقت مثل الذي كان للوفن هوك فكان يتحين الفرص بين تطبيبه لطفل يصرخ من وجع بطنه وبين خلعه ضرس قرويّ جاء يفزع إليه من ألمه ففي فترة من تلك الفترات جاء بدم أسود من بقرة ماتت بالجمرة فوضع منه قطرات بين رقيقتين من رقاق الزجاج النظيف البارق ونظر إليها بمكرسكوبه فوجد بين كرَيات هذا الدم المخضرَّة السابحة أشياء أخرى غريبة تراءت كأنها عصيّ صغيرة وكانت هذه العصيّ أحياناً قصيرة وأحياناً قليلة العدد تسبح في ارتعاد قليل بين كريات الدم وتراءت له كذلك عصيّ أخرى تعلق بعضها في أطراف بعض من غير مفصل يجمعها وقد يتشابك العدد الكثير منها حتى تصير خيطاً طويلاً أرفع ألف مرة من خيط الحرير.

ما هذه العصيّ؟. . . أهي مكروبات. . أهي حيّة. . . أنها لا تتحرك. . أم هو الدم) السقيم في هذه الحيوانات المرزوءة يستحيل إلى هذه العصي والخيوط؟). على هذا النحو دار فكر كوخ في الذي رآه. وكان رجال العلم قبله قد رأوا ما رآه. فدافان ورايان في فرنسا أبصروا نفس هذه الأجسام في دم الأغنام النافقة وأعلنا أن هذه العصي بَشِلّات وأنها مكروبات حيّة وأنها لاشك سبب الجمرة الذي لا مراء فيه - ولكنهما لم يثبتا ذلك بالدليل

ولم يصدقهما فيما زعما أحد في أوربا غير بستور. على أن صاحبنا كوخ لم يكن ينصت كثيراً إلى ما يقوله الناس ولم يكن يهتم كثيرا بما يرتئيه البحاث كان الأطباء من حوله يرتابون في الذي يراه، ويضحكون منه في الذي يأتيه فلا يصغي لارتيابهم ولا يهتز لضحكهم، حتى حماس بستور لم يُغره يوماً بالوثوب إلى نتائج لم ينضجها البحث ويمحصها التجريب؛ ومن حسن حظ كوخ أنه لم يكن سمع به أحد فلم ترتفع إلى ظهره سواعد الأشياع والمريدين تدفعه قُدُما إلى فتوحات في عالم المكروب عاجله غير ناضجة كان في خمول ذكره رب نفسه ومالك أمرها.

حدث كوخ نفسه قال: (أنا لا أستطيع الآن الاهتداء إلى طريقة اعرف بها أهذه العصيّ والخيوط حيّة ام ميتة، فلأدع هذا مؤقتاً ولأدرس خواصها الأخرى. . .) ولم يلبث أن أوقف دراسته للأغنام المريضة، واتجه يدرس الأغنام الصحيحة، فذهب إلى مذابحها، وزار الجزارين وخالط تجار اللحوم ونادمهم، ورجع بدم كثير من عشرات البهائم السليمة، واسترق من زمن مرضاه ليفرغ لمكرسكوبه، فكان يجلس إليه ساعات

متصلة طويلة ينظر منه إلى هذا الدم الكثير الصحيح الذي جمع، فقلقت زوجه من إهماله عيادته.

قال كوخ: (إني لا أجد في دم هذه الحيوانات الصحيحة تلك العصي والخيوط أبداً، وهذا حسن جميل، ولكنه لا يدلني أهذه الأجسام بَشِلاّت أم لا، لا ينبئني أهي حية في استطاعتها النمو والتوالد والتكاثر، أم هي كبعض الجمادات؟)

ولكن كيف السبيل إلى معرفة ذلك؟ كيف السبيل إلى إثبات أن هذه العصي حية؟ أخذ هذا السؤال يملأ نفسه ويملك عليه حسه، وطلبه المسلولون الذين أعيا الأطباء داؤهم، وطلبه الأطفال وقد سدت الدفتريا عليهم منافس الهواء، وطلبته العجائز استشفاء من مرض موهوم غير كائن، ولكن اشتغال صاحبنا بأمر هذه العصي لم يبق منه غير فضلة قليلة لمرضاه، حتى لنسي أن يكتب اسمع على وصفاته لهم. وآنست فيه زوجه الهم والغمّ وكسوف البال. ودعا النجّار يوما وسأله أن يقيم في حجرة العيادة حاجزا خشبيا. وقضى الدماء السوداء وفئران بيضاء بمرح وتلعب في أقفاص اخذ عددها يزيد على الأيام.

وكأني بك تنظر إلى هذا الحاجز الخشبي فتجد على جانب منه مريضة انتظرت طويلاً فأخذت تحط الأرض بنعلها ساماً وقلقاً، وتجد على الجانب الآخر طبيبنا الفاضل يتمتم لنفسه فيقول: ليس لي من المال ما اشتري به أغناماً وأبقاراً لتجاربي. ولو كان لي هذا المال لكان من المتعذر إحضارها إلى هذا المكتب الصغير. أما هذه الفئران فصغيرة رخيصة، وهي لا تشغل حيزاً كبيراً، ولعلي أستطيع أن أعطيها مرض الجمرة. . ولعلي إذن اثبت أن هذه العصي تنمو حقاً فيها .. . .)

يتبع

احمد زكي

مذاهب الفلسفة

المذهب الطبيعي - 3 -

للأستاذ زكي نجيب محمود

ولكن مهلا! فلأنصار الروحية من البراهين على وجود الله ما يقوض هذا المذهب ويدكه من أساسه دكاً، لأنه إذا ثبت وجود الله فقد نهض الدليل على صدق العقائد الدينية قوياً دافعاً، وبطل هذا الهراءُ الذي يهرف به الطبيعيون، ونحن نتخير من تلك البراهين ما يلي:

(1) أن ما في الطبيعة من نظام دقيق وجمال خلاب يستحيل عقلاً أن يكون قد جاء عرضاً بغير تقدير وتدبير، فإذا كانت الظواهر المادية تسير وفق طائفة من القوانين الثابتة المطردة، فلابد أن يكون هنالك من صاغ لها هذه القوانين واكسبها ما لها من قوة وثبات. كذلك يستحيل أن يكون جمال الطبيعة وتناسق أجزائها مصادفة طارئة، وإلا كنا كمن يزعم أن الساعة إذا تحطمت عُددها وانتثرت أجزاؤها، أمكنها أن تلتئم من تلقاء نفسها، وان تبدأ السير والحركة من جديد!

(2) أن مجرد وجود فكرة الله في أذهاننا دليل على حقيقة وجودها في الخارج؛ وذلك لأننا نتصور بعقولنا كمالاً مطلقاً، وهذا الكمال لا يتم إطلاقه إلا إذا وجد وجوداً فعلياً، فإن لم يوجد كانت فكرتنا عن الكمال ناقصة صفة الوجود، وفن هذه الحالة - أي في حالة اقتصار فكرة الكمال على مجرد التصور الذهني - نناقض أنفسنا، فنكون كمن يقول: (أني أتصور كمالاً مطلقاً ولكنه ناقص!) مع أن الكمال والنقص لا يجتمعان.

وهنالك من الأدلة الأخرى على وجود الله ما هو شائع معروف.

وبعد هذا كله فهل ترى هذا المذهب الطبيعي قد فسر لنا شيئاً؟ إن قضيته باختصار هي أن الكون كله مادة يسيرها القانون، وأن العقل الإنساني كسائر الظواهر قطعة من المادة تتبع في سيرها نفس القوانين التي تسيطر على قطعة من الحجر!

(1) أما أن الكون مادة فقط، فلا يقدم ذلك في القضية ولا يؤخر، لأنه قول لا يقلل شيئاً تعد أن خلصت الأبحاث العلمية الحديثة إلى أن الذرة المادية ليست كائناً بسيطاً، بل أن كل واحدة منها عالم دقيق على جانب عظيم من التركب والتعقد وأنها قادرة من تلقاء نفسها على التكون والانحلال والتحول، كذلك لم يعد الحد الفاصل بين المادة والقوة محدداً واضحاً

كما كان من قبل، فقد يظهر أنهما درجتان من حقيقة واحدة، وأن ذرة أو الذرة إلى قوة، وإذن فلا يكفي في تعليل الكون أن نقول إنه مؤلف من مادة، لأن في هذه المادة نفسها ما يحتاج إلى التعليل.

(2) وأما زعم الماديين بأن العقل ظاهرة مادية، وأن حقيقة الإحساس كما يقول هوبز إن هي إلا حركة في الجهاز العصبي، وإن الفكر سلسلة من الاحساسات الماضية، أي أنه مجموعة حركات متعاقبة، فيكفي لهدمه أن نطالبهم مثلا بشرح هذه العبارة: (أنا أحب هذه الوردة الجميلة) إنها حقيقة فكرية أحس بها ولا شك في وجودها؛ فهل يقول الماديون أن هذا الحب هو هزة الأعصاب على نحو معين؟ خذ مجهرك وانظر إلى الأعصاب فسترى قطعة من المادة تهتز وتتحرك حقاً، ولكنك لن ترى (حباً) ولو حدقت في مجهرك عاماً كاملاً!! هذا، وان لنا أن نسائل الماديين: لماذا لا تنتج الحركة في كل ظواهر الوجود المادي إلا حركة مثلها، ثم هي في الإنسان تنتج إحساساً وفكراً؟ وما احسبنا ظافرين منهم بالجواب! وإذن فقد عجز هذا المذهب الطبيعي عن تفسير ظاهرة عن ظاهرة العقل كما فشل في شرح المادة نفسها.

(3) وأخيراً، يقول أنصار هذا المذهب أن حوادث الكون يمكن تفسيرها بما يسيرها من القوانين العلمية، ولكن أي عقل يكفيه هذا التفسير؟ أني أرى مثلاً هذه القطعة من الحديد تتمدد نهاراً وتتقلص ليلاً، فلماذا؟ سيقولون أنه قانون الحرارة المعروف الذي تتمدد نهاراً وتتقلص ليلاً، فلماذا؟ سيقولون إنه قانون الحرارة الذي تتمدد المادة على سننه وقواعده، ولكن لماذا تمدِّدُ الحرارة الجسام؟ فإن أجبت عن هذا السؤال بما يجيب به أرباب العلم من أن ذلك ناشئ عن تصادم الذرات أثناء تحركها، فسأعود إلى استجابتك: ولماذا يحدث هذا، حتى تقر معي بأن هنالك آخر المر ما يتعذر تعليله بأصول هذا المذهب، وإن القوانين التي يلجأون إليها لتعليل ظواهر الكون هي بدورها تحتاج إلى التعليل.

مذهب الذرائع

لقد لبثت الفلسفة دهراً طويلاً تسبح في سماء الفكر المجرد، فلا تصغي بآذانها إلى الحياة العملية التي تعج بأصدائها أرجاء الأرض جميعاً. ولا تحفل بالواقع الذي تراه الأبصار إلا قليلا، فقد قصرت مجهودها - في الأعم الأغلب - على جوهر الأشياء في ذاتها، وأخذت

تسائل: ما المادة وما الروح وما مبعثهما؟ ولكنها باءت بعد طول الكدح والعناء بالفشل والإفلاس. . . حتى جاء الفكر الأمريكي الحديث الذي يقدس العمل ويمقت البحث النظري المجدب العقيم، وأراد أن ينحو بالفكر نحواً جديداً، فلا يكون من شأنه كنه الشيء ومصدره، بل نتيجته وعقباه. ولقد كان أول من صاغ هذا المذهب وليام جيمس (1842 - 1910) الذي اعترف أنه قد استمد أصوله وقواعده من أشتات قديمة، وانّ له فضل الصياغة والتعبير. أما رسالته التي قصد إلى أدائها بمذهبه فهي في أوجز عبارة: أن يتخذ الإنسان من أفكاره وآرائه ذرائع يستعين بها على حفظ بقائه أولاً ثم على السير بالحياة نحو السمو والكمال ثانياً.

أنه لمن الغفلة والشطط أن نُؤتى هذه القوة العقلية فنبددها في البحث عما وراء الطبيعة، من قوى مما لا غناء فيه للإنسان ولا رجاء؛ أن العقل إنما خلق ليكون أداة للحياة ووسيلة لحفظها وكمالها، فلينصرف إلى أداء واجبه، وليضرب في معمعان الحياة العملية الواقعة، فليست مهمته أن يصور بريشته عالم الغيب المجهول، الذي لا يكاد يربطه بحياة الإنسان سبب من الأسباب. . وليكن مقياسه الذي يفصل به بين الحق والباطل هو مقدرة الفكرة المعينة على إنجاز أغراض الإنسان في حياته العلمية، فإن تضاربت الآراء وتعارضت، كان أحقها وأصدقها هو أنفعها وأجداها، الذي تنهض التجربة العملية دليلاً على فائدته. وكل شئ يؤثر في الحياة أثراً منتجاً يجب أن يكون في اعتبارنا هو الحقيقة، بغض النظر عن مطابقته أو عدم مطابقته لما يخلقه الفكر المجرد من معايير، إذ لا يُعَوِّل مذهب الذرائع إلا على النتائج وحدها؛ فإن كان الرأي مثمراً نافعاً قبلناه حقيقة، وإلا أسقطناه من حسابنا وهما باطلاً.

والواقع أن معظم الناس يتبعون في حياتهم العلمية أصول هذا المذهب، فهم ينتقون لأنفسهم من الآراء ما يعين على تحقيق أغراضهم التي يقصدون إليها، أو ما يعمل إلى رقي الإنسانية وتقدم البشر بصفة عامة. خذ العقيدة في الله مثلاً، فالأكثرية العظمى

تأخذ بها لا لأن الدليل قاطع بوجوده، (فذلك إبعد عن متناول الدهماء) ولكن لأنها ترى أن هذه العقيدة تبث في حياة الناس روحاً قوية، وتفسح أمامهم في الأمل الجميل الذي تزدهر به الحياة وتبتسم، والذي لولاه لضقنا ذرعا بفداحة عبئها. . . فليس منا من لا يقيس الآراء بظروف
عَيشْه ثم يختار منها انسبها له وافعلها في أداء مهمته، فسلوكنا العمليُّ هو في الواقع الذي يوجه أفكارنا. وليست أفكارنا هي التي توجه أعمالنا. ولقد قال موسوليني يوماً أنه يدين لوليام جيمس بكثير من آرائه السياسية، وانه بتأثيره لا يحتكم في سياسته إلى نظريات العقل المجرد، إنما يسلك من السبل ما يراه أقوم وأدنى إنتاجاً.
وأن نيتشه ليذهب في هذا الاتجاه إلى أقصاه فيقرر أن البطل إذا كان وسيلة ناجعة لحفظ الحياة كان خيراً من الحقيقة؛ فبطلان الرأي لا يمنع قبوله ما دام عملاً من عوامل بقاء الفرد وحفظ النوع، فلرب أكذوبة أو أسطورة تدفع الحياة إلى الأمام بما تعجز عنه الحقيقة المجردة العارية. انظر كيف تفعل الوطنية في رأس الجندي فيطوح بنفسه بين براثن الموت، ولو حكم عقله المجرد لما فعل؛ بل انظر كم يبدل الآباء والأمهات من مجهود في سبيل أبنائهم، ولو استرشدوا العقل وحده لآثروا أشخاصهم ولضنوا على الأبناء بأي بذل أو عطاء، ولكننا لحسن الطالع ذرائعيون بالفطرة، فنعتنق من الآراء احفظها للحياة، ولولا ذلك لظلت الإنسانية في حيوانيتها الأولى لا تتقدم ولا تسير.
ولا يقتصر الأمر في ذلك عامة الناس، بل أرباب العلم أنفسهم ليأخذون بطائفة كبيرة من الآراء التي تعين على المضي في بحثهم، دون أن ينهض الدليل العقلي على صحة تلك الآراء التي اتخذوها أساساً لأبحاثهم، فلا يدري العلم ما الأثير وما الجاذبية وما المادة وما الطاقة وما الكهرباء، ولكنه يفرضها لأنها تعينه على أداء مهمته، وهذا بعينه ما يدعو إليه مذهب الذرائع، فيكفي لان تكون تلك الآراء صحيحة إنها توجهنا في حياتنا توجيهاً صحيحاً، فلا يعنينا في كثير ولا قليل أن نعلم ما هي الكهرباء في ذاتها ما دمنا نستطيع أن نستخدمها، فحسبنا من معناها آثارها، وليكن معنى الكهرباء هو ما تعمله وما تؤديه. وعلى هذا النحو يمكننا أن نتخلص من أعوص المشاكل الفكرية التي أرهقت الفلسفة بغير طائل؛ فلندع جانباً كل بحث عن ماهية القوة أو ماهية المادة أو ماهية الله وما إلى ذلك، وحسبنا منها أن نبحث عن الآثار التي تنشأ عنها في حياتنا اليومية العملية، فان لم يكن لها آثار فيما نصادف من تجارب وجب اعتبارها ألفاظاً جوفاء لا تحمل من المعنى شيئاً.
يتبع
زكي نجيب محمود
أندلسيات:
1 - قصة الفتح بن خاقان
للأستاذ عبد الحمن البرقوقي
تمهيد:
آما وقد خطت (الرسالة) هذه الخطى الرغيبة الموفقة، وبلغت المبالغ في الفخامة والضخامة والطرافة والإحسان، والحشد والاحتفال، والعناية بالدراسات الدبية الممتعة الموفقة، والترحيب بكل ما يقدم إليها من الموضوعات القيمة الفائقة، فلماذا لا ألقي دَلوي أنا الآخر في الدلاء، وانشر في (الرسالة) من الآن شيئاً مما تنطوي عليه أضابيري الأندلسية الزاخرة بشتى الموضوعات في هذا الفردوس الإسلامي المفقود - كما كان يسميه فقيد العروبة صديقنا المرحوم احمد زكي باشا - فمن ترجمة أديب إلى قصة شاعر إلى تاريخ فيلسوف إلى حياة علام إلى طرفة أدبية إلى نبذة فلسفية إلى تحفة علمية إلى شطحة صوفية، إلى ما شئت مما تهيأ لي أن اكف على دراسته منذ نيف وثلاثين عاماً حتى صرتُ أطول له عِشرة، وأبطن به خِبرة. . . ولا تسلني لماذا تولعت هذا التولع بدراسة الأندلس وكل ما يمت إلى الأندلس بسبب، فذلك ما اجهل أنا أيضاً علته. . وقد جفت الأقلام وطويت الصحف وقضى الله أن أكون ممن شغفه حباً هذا الفردوس الذي إذا أنت حاولت أن تنزه نفسك بين رياضه النضرة المهرة المثمرة، تجتلي أنوارها، وتجتني من أَمَمِ أثمارها، وتستمع إلى تغريد بلابلها، وتتروّى من رحيق جداولها، ألفيت ما ينبعث له عجبك وإعجابك، وتشتهي مذاقه حتى يسيل له لعابك،

ويتأرجح عبيرهُ المفعَّم فيملأ خياشيمه طيباً، ويستخفّك تغريده المغم فتترنح له تطريباً؛ بيد أنك إذا أنت حاولت هذا الإمتاع من طريق الأسفار التي وضعت في الأندلس قديماً للقيتَ من الألاقى ما لقيت مما لا يكاد ينهض به إلا الأفراد أوتوا من الشوق ما يجلدهم على معاناة البحث والتنقيب والارتياض بتذليل كل صعب عسير. ومن ثم استخلصت لك من نادرة الأسفار، ومغرِّبة الأخبار، باقة جمعت مختلف الأزهار، وسفطاً يحتوي شتى الأثمار، وحاكياً يسمعك احسنَ النغم، وناجوداً تحتسى منه شراباً لا إثم فيه ولا لمم.

أوّه لقد شط القلم، وسجعت ثم سجعت، وتلك التي تستك منها المسامع. . . ومن عذيري من الفتح بن خاقان إذا هو أعداني بسجعه، وتأثر طبعي بطبعه، وان لم يدرك الظالع شأو الضليع؟ ولكن لا تُرَع فسوف أتجنب السجع ما أمكنني تجنبه، وكذلك لا تتوقع ما دمت بصدد هذا الفتح أن ستسمع سجعاً أندلسياً كثيرا قد يضجرك ويسلمك إلى السأم والملال. فسوف أشعشع كل أولئك بما يلطفه ويسيغه أن شاء الله . . .

وإذا كنت اقدم بين يدي كلماتي قصة الفتح بن خاقان فليس ذلك عن قصد قاصد، ولعل الذي وجّه الذهن إليه الآن هو ما أخذته عيني أخيراً في بعض التواليف الحديثة الموضوعة في بلاغة العرب في الأندلس لبعض أصدقائنا من أساتيذ الجامعة إذ يقول: انه لم يترجم للفتح بن خاقان غير ابن خلكان، وإن المقَّري لم يترجم له في نفح واحد. واليك بعد ذلك قصة هذا الأديب الأندلسي . . :

الفتح بن خاقان

ظهر أبو نصر الفتح بن محمد بن محمد بن عبيد الله بن خاقان عبد الله القبيسي الإشبيلي في عصر هو من خير العصور ومن شر العصور في وقت معا: كان عصراً ذهبياً من ناحية الثقافة، إذ كان عصرا يفقه بكل أنواع المعارف، من علم وأدب وفلسفة، وكان في الوقت ذاته عصر اضطراب سياسي مزعج. . وبَينا الأندلسيون زمَن ملوك الطوائف متمتعون بحرية لاحد لها، يتبجحون فيها ما شاء لهم التبجح، ويلاقي مُثَقَّفُوهم من ملوكهم أقصى غايات الأريحية والإكرام يعيشون في إذرائهم عيشاً تلين لهم مثانيه ومعاطفه، وتدنو عليهم مجانيه ومقاطفه، إذ أنملوكهم كانوا كذل أدباء أفاضل، وعلماء أماثل، أثرت فيهم الحضارة لأندلسية أثرها، فرققت من حواشيهم، وألانت من جوانبهم - بيْناهم كذلك، وجفون الخطوب عنهم نيام، إذ قلب لهم الدهر الخؤون ظهر المجن، وليس لهم جلد النِمر، فكلب عليهم الإسبانيون من الشمال، وطمع فيهم برابربَرٌ العُدوة - مراكش - من الجنوب، فغزاهم المرابطون الخشنون وأزالوا ملكهم، فاستحالت حال الأندلسيين ولا سيما في زمن علي بي يوسف بن تاشفين ذلك الملك الذي كان إلى أن يعد في الزهاد والمتبتلين اقرب منه إلي أن يعد في الملوك والمتغلبين كما يقول المراكشي صاحب المغرب، ويقول عنه أيضاً: واشتد إيثاره - أي إيثار علي بن يوسف بن تاسفين ملك مراكش والأندلس - لأهل الفقه والدين فكان لا يقطع أمراً في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء، وكان إذا ولي أحداً من قضاتِه كان فيما يعهد إليه إلا يقطع أمراً ولا يبت حكومة في صغير من الأمور ولا كبير إلا بمحضر أربعة من الفقهاء، فبلغ الفقهاء في أيامه مبلغاً عظيماً لم يبلغوا مثله في الصدر الأول من فتح الأندلس، ولم يزل الفقهاء على ذلك وأمور المسلمين راجعة إليهم، وأحكامهم صغيرها وكبيرها موقوفة عليهم طول مدته، فمعظم أمر الفقهاء كما ذكرنا وانصرفت وجوه الناس إليهم، فكثرت لذلك أموالهم واتسعت مكاسبهم. وفي ذلك يقول ابن البنّي - شاعر أندلسي سنترجم له - :

أهل الرياء لبستمو ناموسكم ... كالذئب أدلج في الظلام العاتم
فملكتمو الدنيا بمذهب مالك ... وقسمتو الأموال بابن القاسم
وركبتمو شهب الدواب بأشهب ... وبأصبغ صبغت لكم في العالم

(ابن القاسم وأشهب واصبغ هم من أئمة مذهب الأمام مالك الذي كان المذهب الوحيد المعمول به في المغرب والأندلس إلى أن يقول: (ولم يكن يُقرَّبُ من أمير المسلمين ويحظى عنده إلا من عَلِمَ عِلْمَ الفروع أعني فروع مذهب مالك، فنفقت في ذلك الزمان كتب المذهب وعمل بمقتضاها ونبذ ما سواها، وكثر ذلك حتى نسي النظر في كتاب الله وَحديث رسول الله (صلعم) فلم يكن أحد من مشاهير أهل ذلك الزمان يعتني بهما كل الاعتناء. ودانَ أهل ذلك الزمان بتكفير كل من ظهر منه الخوض في

شئ من علوم الكلام - التوحيد - وقرّر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام وكراهة السلف له وهجرهم من ظهر عليه شئ منه، وانه بدعة في الدين وربما أدى أكثره إلى اختلال في العقائد، في أشباه لهذه الأقوال، حتى استحكم في نفسه بغض علم الكلام وأهله، فكان يكتب عنه في كل وقت إلى البلاد بالتشديد في نبذ الخوض في شئ منه، وتوعد من وجد عنده شئ من كتبه. ولما دخلت كتب أبي حامد الغزالي رحمه الله أمر أمير المسلمين بإحراقها، وتقدم بالوعيد الشديد حتى سفك الدم واستئصال المال إلى من وجد عنده شئ منها. وأشتد الأمر في ذلك؛ ثم قال: ولم يزل أمير المسلمين من أول إمارته يستدعي أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك، كأبي القاسم بن الجد، وأبي بكر محمد المعروف بابن القَيْطُرْنه، وأبي عبد الله محمد بن أبي الخصال وأخيه أبي مروان، وأبي محمد عبد المجيد

بن عبدون - صاحب القصيدة المشهورة التي يرثى بها بني الأفطس من ملوك الطوائف والتي مطلعها:

الدهر يفجع بعد العين بالأثر ... فما البكاء على الأشباح والصوَر

(وسترى تراجم هؤلاء الأفاضل قريباً) ولم يزل في جماعة يكثر ذكرهم. إلى أن قال: أبو عبد الله بن أبي الخصال وأخوه أبو مروان كاتبين لأمير المسلمين إلى أن أخّرَ أمير المسلمين أبا مروان عن الكتابة لموجدة كانت منه عليه سببها انه أمره وأخاه أبا عبد الله أن يكتبا عنه إلى جند بلنسية حين تخاذلوا وتواكلوا حتى هزمهم ابن ردمير هزيمة قبيحة، فكتب أبو عبد الله رسالته المشهورة في ذلك وهي رسالة كاد أهل الأندلس قاطبة أن يحفظوها احسن فيها ما شاء، منعني من إيرادها ما فيها من الطول: وكتب أبو مروان رسالة في ذلك الغرض افحش فيها على المرابطين واغلظ لهم في القول اكثر من الحاجة؛ فمن فصولها قوله: أي بني اللئيمة، وأعيار الهزيمة، ألام يزيفكم الناقد، ويردكم الفارس الواحد؛ فليت لكم بارتباط الخيول ضأناً لها حالب قاعد، لقد آن أن نوسعكم عقابا، وألا تَلُوثوا على وجه نقاباً، وان نعيدكم إلى صحرائكم، ونطهر الجزيرة من رحضائكم. . . في أمثال لهذا القول فاحنق ذلك أمير المسلمين وأخره عن كتابته وقال لأبي عبد الله أخيه: كنا في شك من بغض أبي مروان المرابطين والآن قد صح عندنا. فلما رأى ذلك أبو عبد الله استعفاه فأعفاه، ورجع إلى قرطبة بعد ما مات أخوه أبو مروان بمراكش وأقام هو بقرطبة، ثم قال: واختلت حال أمير المسلمين بعد الخمسمائة اختلالا شديدا فظهرت في بلاده مناكر كثيرة، وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد ودعواهم الاستبداد وانتهوا في ذلك إلى التصريح فصار كل منهم يصرح بأنه خير من علي أمير المسلمين وأحق بالأمر منه. . . وأمير المسلمين في ذلك كله يتزيد تغفله ويقوى ضعفه، وقنع باسم إمرة المسلمين وبما يرفع إليه من الخراج وعكف على العبادة والتبتل فكان يقوم الليل ويصوم النهار مشتهراً عنه ذلك وأهمل أمور الرعية غاية الإهمال فاختل لذلك عليه كثير من بلاد الأندلس.

نجم أبو نصر الفتح بن خاقان في هذا العصر الذي هو كما أسلفنا من خير العصور لأندلسية من ناحية الثقافة واكتظاظ الأندلس بالعلماء والأدباء والفلاسفة والشعراء، وفي الوقت ذاته هو من شر العصور إذ كان عصرا سياسيا سخيفا كما ترى.

ولد الفتح بن خاقان سنة 480هـ - 1087م، أي قبل أن يدال للمرابطين من ملوك الطوائف بسنتين. أما وفاته فقد اضطربت فيها كلمة المؤرخين فحكى ابن خلكان إنها كانت سنة خمس وثلاثين وخمسمائة - 1140م - وقال ابن الأبار القضاعي في معجم أصحاب الصدفي انه توفي ليلة عيد الفطر من سنة ثمان وعشرين وخمسمائة قال: وقرأت ذلك بخط من يوثق به، وقال الوزير الخطير لسان الدين بن الخطيب أن وفاته كانت ليلة الأحد لثمان بقين من محرم من عام 529 والفرق بين ما رواه ابن الأبار وبين ما رواه لسان الدين بن الخطيب هو قريب من أربعة اشهر كما ترى. على أن ابن خلكان حكى ما رواه لسان الدين بن الخطيب أيضاً. . . وقال لسان الدين بن الخطيب: وأبو نصر الفتح بن خاقان من قرية بعرف بقلعة الواد من قرى يحصِب. وبضم كلام لسان الدين هذا إلى قول الحجاري في المسهب في حق الفتح: طلع من الأفق الاشبيلي شمسا طبق الآفاق ضياؤها، وعمّ الشرق والغرب سناها وسناؤها - يبدو لنا ان قرى يحصب هذه من كورة اشبيلية، وقد تكون من كورة أخرى من كور الأندلس

نزح منها الفتح إلى إشبيلية واتخذها مقاماً له؛ وقد يريدلسان الدين بن الخطيب أن اصل الفتح من هذه القرية، آما هو فقد ولد بإشبيلية بعد أن نهد إليها آباؤه الأقربون وأقاموا بها؛ وأياً كان مسقط رأسه فقد نشأ في أشبيلية وفيها كما يظهر اخذ الأدب - كما يحدثنا لسان الدين بن الخطيب - عن أبي بكر بن سليمان بن القصيرة - أحد مشهوري الكتاب وسترى ترجمته - وأبن اللبانة من كبار شعراء الأندلس، وابن محمد بن عبدون الشاعر الكاتب صاحب قصيدة: الدهر يفجع بعد العين بالأثر، وابن دريد الكاتب وأبي جعفر بن سعدون الكاتب، وأبي الحسن بن سراج، وأبي خالد بن تستغير، وأبي عبد الرحمن بن طاهر، وأبي عامر بن سرور وأبي الوليد بن حجاج. هكذا سرد مشيخته لسان الدين بن الخطيب.

نشأ الفتح بن خاقان نشأة أدبية كما ترى، ومن ثم غلب عليه الأدب حتى انصرف إليه فن كلما عداه ولم يؤثر عنه من المعارف سواه، قال ابن خاتمة: انه لم يعرف من المعارف بغير الكتابة، والشعر، والآداب. أقول: وقلما ترى أديباً أندلسياً إلا وله مشاركة في كثير من العلوم الدينية وغير الدينية. على أن قارئ الفتح بن خاقان يرى انه واسع الاطلاع إلى أقصى حد، وانه أديب كل الأديب وان معارفه العامة وثقافته الشاملة التي لا بد منها للأديب

في تلك العصور متوافرة. واليك أقوال مترجميه: قال لسان الدين بن الخطيب: كان آية من آيات البلاغة لا يشق غباره ولا يدرك شأوه، عذب الألفاظ ناصعها، أصيل المعاني وثيقَها، لعوباً بأطراف الكلام، معجزا في باب الحلي والصفات. وقال في موضع آخر: وشعره وسط، وكتابته فائقة. وقال ابن سعيد في المغرب: فخر أدباء أشبيلية بل الأندلس ذكره الحِجَاري في المسهب، الدهر من رواة قلائده، وحملة فرائده. طلع من الأفق الاشبيلي شمسا طبق الآفاق ضياؤها، وعم الشرق والغرب سناها وسناؤها، وكان في الأدب ارفعالأعلام، وحسنة الأيام، إلى أن قال: وهو وأبو الحسن علي بن بسام الشنتمري مؤلف الذخيرة فارسا هذا الأوان، وكلاهما قس وسحبان، والتفضيل بينهما عسير، إلا أن ابن بسام أكثر تقييدا، وعلما مفيدا، وإطناباً في الأخبار، وإمتاعاً للأسماع والأبصار، والفتح أقدر على البلاغة من غير تكلف، وكلامه أكثر تعلقاً وتعشقاً بالأنفس، ولولا ما اتسم به مما عرف من أجله بابن خاقان لكان أحد كتاب الحضرة المرابطية بل مجليها المتولي على الرهان، وإنما أخلّ به ما ذكرناه مع كونه اشتهر بذم أولي الأحساب، والتمرين بالطعن على الأدباء والكتاب، وقد رماه الله بما رمى به إمام علماء الأندلس أبا بكر بن ماجه فوجد في فندق بحضرة مراكش قد ذبحه عبد اسود خلا معه بما اشتهر عنه بتركه مقتولاً. .

نرجئ القول على قتله ولماذا قتل ونمضي الكلام على منزلته الأدبية والمفاضلة بينه وبين معاصره وتوأمه أبي الحسن علي بن بسام صاحب الذخيرة.

(يتبع)

عبد الرحمن البرقوقي

إلى الأستاذ الفاضل مصطفى صادق الرافعي

المشكلة

للأديب أحمد الطاهر

لا فضل لي فيما اعرض من رأي في هذه المشكلة التي عرضت في (الرسالة) يوم الاثنين ليلة النصف من شعبان، بل الفضل لصاحبة (الجمال البائس) فيما أوحت به إليك من رأي في رجولة الرجل.

فإذا استوت للرجل رجولته فسبيل الحياة له يكون كما أراده الله أن يكون: خيراً، ويسراً. أما ما يلقى الرجال فيه مما يسمونه بأسماء تضاد الخير واليسر فمرجعه في أكثر الأحوال إلى أن الرجل لم تستو رجولته ولم تكمل. والنقص في الرجولة زيادة في الشقاء، وإذا لقي الرجل في سبيل الحياة نتوءاً يتعثر فيه ففي وجولته ثغرة قد قدت على قدر هذا النتوء.

ونعود إلى صاحب المشكلة - وفقه الله - فنمتحن رجولته فنجدها ناقصة من بعض نواحيها، سقيمة في بعضها الآخر؛ ولكن نقصها ليس مما يستعصي على الكمال، وسقمها ليس مما يحمل على اليأس في أي حال، فمشكلته ليست عسيرة والحمد لله شهد الفتى على نفسه فقال أن الرجل الجاثم في عقله هو غروره - يومئذ - وكبرياؤه

يقع في الخطأ بعد الخطأ، ويأتي الحماقة بعد الحماقة؛ ونشأ صلب الرأي، معتداً بنفسه، إذا هم مضى، وإذا مضى لا يلوى، وما هو إلا أن يخطر له الخاطر فيركب رأسه. . .)

!!اللهم غفراً ورحمة لهذا الفتى

انه قد عرف عيب نفسه، ومن عرف عيبها وأصحر به فقد نهج السبيل إلى علاجها، وانه لواصل إلى غايته عاجلا أو آجلا، لا ينقصه إلا أن يذيقها مرارة الحق لتشفى بعد أن استساغت حلاوة الباطل فسقمت.

البلاء الذي لا يشبهه بلاء، والسقم الذي لا يرجى منه شفاء، هو أن يجهل الرجل عيب نفسه، أو يعلمه ناقصا يلتمس فيه الأسباب والعلل المبررة.

آما صاحبنا فكما نعلم من القصة: رجل فاضل مهذب ذو ميسرة، وبيته بيت فيه الدين والخلق والشهامة والنجدة؛ وبعض هذا فيما أرى كفيل بتيسير العلاج له برعاية الله التي لا تتخلى عن بيت فيه الدين. فان ضل واحد من أفراد هذا البيت، ففي قلبه من أثر الدين الذي

بسط سلطانه على البيت منذ نشأته بقية صالحة يكشف عنها غطاؤها فتقود هذا القلب إلى الخير في عجلة أو وناء. فلندع رجل المشكلة الآن ولننظر إلى فتاتها.

هذه الفتاة التي سميت للفتى - سامحها الله - لِمَ أغلقت الباب في وجهه؟ لم يذكر لنا عارض المشكلة سبباً صريحاً لهذه الفعلة. على أن إدراك السبب ليس بعسير، فلقد نستطيع أن ندركه (بالاستنتاج والمقارنة)؛ فالفتاة الثانية التي عرفها صاحب المشكلة فاحبها لم تغلق في وجهه الباب لأنها كانت فتاة جذابة (أمسكت بإحدى يديها عنانه فمضى قدما، فإذا التفت إلى الوراء قرأفي عينيها كلمات: ((أتستطيع فرارا مني؟)) فيقول: (لا) ويمضي. . . (ثم يلتصق بجسمها) فتسرى منها إلى قلبه رسالة يقرؤها بقلبه المريض، فإذا هي: (الدنيا كلها هنا). . . .

هذا شانها، وما احسب أن من ظالم الأحكام أن نصف الفتاة بان في حياتها لينا ورخاوة، ولذا لم تغلق في وجهه الباب وهي لم تصبح زوجا له بعد. ولا أحسب أن الفتاة الأولى قد أغلقت الباب إلا لان في حياتها شدة واستمساكا.

إلا فاعلم يا صاحب المشكلة، أن حياء المرأة إذا أصيب باللين والرخاوة ثغر فيه الشيطان ثغرة يجلس على بابها ويصيح: (هلموا أيها الفتيان!) وسرعان ما يستجيب الفتيان لصيحة الشيطان. واعلم وقاك الله أن هذه الفتاة التي فتحت لك الباب أن تزوجتها فستتزوج معها الشيطان الجاثم على ثغرة حيائها وسينضم إلى شيطانك فتصبح بين ثلاثة: امرأة وشيطانين! وأنت واحد! وستكون بين أمرين أحلاهما مر: آما أن يأتمر بك الشيطانان فيوسعا في ثغرة حياتها حتى يدخل فيها غيرك من الفتيان. وإما أن تضيق أنت بما وسع الشيطانين أن يفعلا فتلجأ إلى ابغض الحلال إلى الله - الطلاق! وأدعو لك مرة أخرى: وقاك الله. على أن الشيطانين أن أعياهما صبرك أو سعة في حلمك دارا بوجهيهما إلى المرأة فصوراك لها بصورة بشعة قبيحة، وبذرا في قلبها حبا مراً اسود ينبت في القلوب المريضة فيثمر ثمراً مراً اسود يسمى البغضاء ويسمى الكراهية ويسمى المقت: ولا يزال هذا الثمر ينمو ويربو حتى ينضج ويستوي فلا يتسع له قلب المرأة فتحاول أن تجتثه من اصله فلا تستطيع، فتعمد إلى الزوج تحاول أن تجتثه، فان أفلحت فذلك ما أرادت وتستريح ويشقى الرجل شقاء المحروم من أهله، وإن لم تصبه أصابت شرفه ويشقى الرجل شقاء المثلوم في عرضه؛ أقبل أيها الرجل على تلك التي أغلقت الباب في وجهك: - أتدري لم أغلقته؟

لأنك لم تكن وحدك حين طرقت بابها! لقد رأت معك شيطانك وما يتسع بابها لدخول إنسان وشيطان. لقد رأت معك الشيطان متمثلا في (غرورك وشبابك وكبريائك وعنادك) فأشفقت عليك وعلى نفسها من ثالث يدخل بينكما. ولو أفسد الشيطان وأنتما لم تصبحا زوجين بعد فيا للشقاء ويا للعار!

إنها أغلقت الباب في وجهك وأنت خطيبها المسمى لها وأحكمت إغلاقه من الداخل حتى لا تستطيع أنت أن تدخل عليها، فكان الأجدر برجولتك أن تحكم إغلاقه من الخارج حتى لا يستطيع غيرك أن يدخل أليها.

حتى إذا حان موعد الزواج فضضتما الإغلاق في وقت واحد وفي حضرة نفر من الأهل

وذوي القربى، وعسير على الشيطان يومئذ أن يندس بينكما.
ما عليك أيها الرجل إلا أن تفتح قلبك لهذه المرأة الحيية الخفرة فتصل ما بينها وبينك، وتغمض عينيك عن كل ما يصوره لك غرورك ونزقك وكبرياؤك وصلفك، ولن تلبث طويلا حتى ترى هذه الفتاة جندا من جنودك يحارب معك أعداء نفسك ويعالج معك أدوَاءَها، وستصلان إلى الحب الزوجي النقي وفيه منك العطف والحنان، وفيه منها الوفاء والإخلاص.
ستجد في هذا عناء ونصبا، وسوف تتمثل لك الفتاة التي أحببت بين حين وآخر وأنا أدلك على ما يجب أن تعمل:
انظر بعقلك الذي تبرأ منك حين صدت عنك الفتاة:
تلك الفتاة التي قد أحببت وضَعَتْ جمالها ورقتها وفتنتها وذكاءها في إناء ولم تحبسه عن الناس ولم تتخذ لصيانته سببا من الأسباب. وهذه الفتاة التي كرهت لقد وضعت عفتها ووفاءها وشرفها وحياءها في إناء وأغلقت دونه الأبواب. فأيهما أبقى على الزمن؟ وآيهما أخلص لك؟ وأيهما لا يعبث به نزق الفتيان؟
وان كان في صدرك حرج مما لا تجد في زوجتك الخفرة من جمال ورقة وفتنة وذكاء وما يتراءى لك في الفتاة الجذابة فخذ واحدة مما زُيِّنَ لك من صفاتها وضَعْها إلى جوار واحدة
مما ترى من صفات زوجتك: خذ الجمال من تلك وضعه إلى جوار الشرف من هذه: وانظر في نصيبك من الاثنين:
ألست ترى جمال الجميلة ملكا لها تجود منه بما تشاء ومتى تشاء ولمن تشاء؟ وشرف الشريفة لك ولزوجتك تنعمان بفضله ما بقى، وتستظلان بفيئه ما كان؛ لا يستأثر به واحد منكما وحده، ولا يبخل بخيره أحدكما على الآخر؟ إلا تجد الجمال متاعا تستهلكه أنوثة المرأة، والشرف متاعا تستبقيه رجولة الرجل؟
ثم خذ الذكاء من الحبيبة إليك وضعه إلى جوار الحياء من البغيضة إليك وانظر إلى حظك من الاثنين:
إلا تجد الذكاء سلاحا في يد الأولى تحارب به كل الناس وزوجها: والحياء سلاحا في يد الثانية تحارب به كل الناس إلا زوجها؟
خذ الفتنة من تلك والوفاء من هذه إلا ترى الفتانة تنادي بفتنتها: هلموا إلي أيها الناس، وترى الوفية تنادي بوفائها: هلم ألي أيها الزوج؟
وبعد، فهاتان اثنتان إحداهما وقفت بالباب، والأخرى أغلقت الباب
آما التي وقفت بالباب فأنها تستقبل الدنيا وتستدبر الدار، وأما التي أغلقت على نفسها الباب فأنها تستقبل الدار وتستدبر الدنيا. والدنيا للناس جميعاً، والدار لك وحدك.
فانظر أيتهما الصالحة لك، الجديرة بحبك، الأمينة على بيتك، الحفيظة على شرفك.
سترى في زوجتك عيوباً ونقصاً، وستتجسم هذه العيوب، لأنك تنظر إليها بغير عين الرضا؛ وخير لك ألا تفكر في هذه العيوب حين تبدو لك إلا بمقدار ما تحاول إصلاحها، وأن تروض نفسك على اليقين بأن المرأة الكاملة لم تخلق بعد، ولن تخلق بعد، فلو خلقت الزوجة الكاملة خلُقاً وخلْقاً لتعطل في الرجل كثير من صفات الرجولة، ولما شعر الرجل بما مازه الله به على المرأة، ولخرجت المرأة من أنوثتها، ولتزحزح الرجل عن رجولته؛ ولما كان الرجال قوامين على النساء.
ولا أجد في الرد على ما تدعيه لنفسك من الحرية أبلغ مما أجابك به عمك حين قال: (إن كنت حرا كما تزعم فهل تستطيع أن تختار غير التي أحببتها)، وحين يسائلك: (إلا تكون حرا إلا فينا نحن وفي هدم أسرتنا؟).
وان كنت تبيح لنفسك تحت ظل هذه الحرية أن تحب غير امرأتك لا لسبب إلا لأنك رأيت فتاة غيرها تفوق زوجتك جمالا ورقة وعذوبة منطق، فبم سينتهي بك هذا؟
إلا تدري انك أن وثبت إلى الفتاة تراها فتعجبك فتتخذها زوجة دون زوجتك أو تضمها إليها فما زالت في الدنيا وما زال فيها من هي أجمل وأذكى وأدعى للفتنة من تلك التي أعجبتك: أتثب إليها أيضاً وتتخذها زوجة ثالثة، أم تطلق الاثنتين وتتزوج الثالثة؟ ألاتعلم أن هذا لا ينتهي بك إلى نهاية، ولا يقف بك عند غاية، ولو أباح الناس جميعاً لأنفسهم هذه الفعلة لما قامت زوجية صالحة، ولا نعم الأولاد بالحنان الممتزج من الأبوة والأمومة، ولأفضى الحال بالناس إلى أن يتواثب الرجال والنساء بعضهم إلى بعض،

ولفسدت بذلك الأرض؟
يا أخي: إن المتزوج الذي يشتهي جمالا اكمل من جمال زوجته أو فضلاً لم يجده في زوجته فيثب إليه إنما هو رجل قد اسقط مروءته وأهدر رجولته وظلم زوجته أشد الظلم، وكفر بأنعم الله أشد الكفران، وديث شرفه بالصغار. وحسبك لتقدر هذا أن تزن الفعلة وزنها لو انعكس الوضع فأباحت الزوجة لنفسها ما يبيح الرجل لنفسه؛ لا تقل أن الله أباح للرجل أن يتزوج بأكثر منواحدة إلى أربع دون المرأة، فلذلك حكمة وقيود لا يسقط بها حق المرأة على الرجل وواجب الرجل قبل المرأة.
ما أحسبك إلا فهمت هذا وأحسنت تقديره، وأنت القائل لعمك انك تقدر الرجولة والثواب والمروءة
اتق الله في الزوجة، وأشعر نفسك قوة الرجولة، وانظر إلى ضعف الأنوثة، وليكن لك على قلبك السلطان القوي، وهيئ بالقطف والحنان مهادا للحب الزوجي تجد أن زوجتك احب الناس إليك، وأقدرهم على إسعادك.
اليوزباشي أحمد الطاهر
عمرو بن العاص
بقلم حسين مؤنس
والآن، فيم طول التفكير وبعد التقدير، وقد صار الأمر لعلي، واستقامت البيعة له في الحجاز، وترامى سلطانه إلى العراق، وامتدت خلافته فشملت مصر، وأولئك هم ولاته تَرْدِى بهم الإبل خفافاً إلى ولاياتهم، وهؤلاء صحابه وأنصاره يبعثون في النفوس ظلالاً من الخوف والرعب بعد الذي كان من قتلهم عثمان، وان عمراًليحس مطالع هذه الخلافة الجديدة في الشك وقلة التقدير، وانه ليجد انقباض نفسه عن طاعتها ورغبتها عن العمل في ظلها. . . بل إنه ليعمل الفكر ليجد من سلطانها مخرجاً ومن طاعتها مهرباً. . . ولعله يستوي في هذا مع أترابه من الصحابة والقادة. . . ولعله كان يرجو أن يتصل ببعضهم ليستطلع فكره وليبادله الرأي. . . وربما ود لو يتصل بعلي نفسه، إذن لأقنعه بالتخلي عن هذه الطوائف القلقة التي وصل حباله بحبالها، والتي تضر بقضيته كل الضرر. . . فإن في هذه الطوائف لنفراً لا زال دم عثمان يجري على أيديهم، وان فيهم لأوباشاً لا يليق بالخلافة أن تتصل بهم ويكونوا عدتها في الفتح والجهاد، وان فيهم لأحداثاً لا يستقيم بهم الأمر، ولا يحسن أن تكون بأيديهم أمور العباد؛ وماذا عسى ابن العاص أن يفعل مع هؤلاء وهو يرجو أن يكون سيداً لا مسوداً، وقائداً لا مقوداً، ثم هو يريد قبل ذلك (أن يشترط)، فما ينبغي لمثله أن يخطو دون أن يقدر للخطو موضعه. . . أو يمضي دون أن يعلم أين يؤدي به السير، أو يعمل دون أن يقدر ربحه وخسارته من هذا العمل الذي هو مقبل عليه. . . أليس هو القائل: (الكرار في الحرب، وإنني الصبور على غير الدهر، لا أنام عن طلب؛ كأنما أنا الأفعى عند أصل الشجرة؛ ولعمري لست بالواني أو الضعيف، بل أنا مثل الحية الصماء، لا شفاء لمن عضته، ولا يرقد من لسعته، وأني ما ضربت إلا فريت، ولا يخبو ما شببت. . .)
أليس هو الفاتح النابغة، والسائس الذي لا يشق له غبار. . . فما باله يبذل قياده طائعاً، ويقدم نفسه مختاراً. . . كلا. . . وليكن له في الميدان الجديد شأن عظيم. . . فما هؤلاء الذين يتولون الأمور إلا أترابه ولداته الذين لا يفضلونه في ماض ولا في حسب ولا مقام. . . والذين لا يساوونه في مكر ولا سياسة ولا تدبير. . . ففيم يكون ذنباً والرؤوس لا تزيد
عليه شيئاً؟ وفيم يؤمر وهو من طبيعة الآمرين؟. . ولو أن علياً بعث إليه يستعين برأيه ويستنير بفكره؛ إذن لقام إلى جانبه وأخلص له المودة، وأفاده الفائدة العظيمة، فانه (شيخ يضر وينفع) كما يقولون في بعض ما يدس عليه من الشعر؛ ولكن علياً منصرف عنه لا يكاد يذكره، وهذه شهور تنطوي على خلافته وهو مستقل بنفسه بصحابه، ما يلقي إلى أحد من الصحابة بالاً. . . بل ها هو ذا يؤدب العصاة منهم وينهض لهم بالسيف. . . وهذه الأخبار تترامى عن الهزيمة النكراء التي منيت بها عائشة، والقتلة القاسية التي صار إليها الصحابيان طلحة والزبير. . . وماذا بعد؟. . . أغلب الظن أن دوره مقبل ولا ريب، وأنه مخير بين الطاعة أو الحرب عن قريب فماذا تراه فاعلا؟. . . هنا كان الرجل يحس قلقاً شديداً. . . فيقلب فكره ويتأمل حاله، عله ينتهي إلى رأي يستقر أليه. . . ثم خطر بباله فسأل نفسه: ومعاوية؟. . . كيف ترى حال معاوية. . .

أغلب الظن أن أبن أبي طالب لن يعفيه، وهو وال على الشام وما حواليه. . . وانه لمرسل إليه بالطاعة أو عازله. . . ثم بدا له خاطر جديد فابتسم. . . وهم من مجلسه ومضى يذرع الغرفة جيئة وذهاباً. . . انه يفكر في معاوية. . . ويحسب الأمر حساباً دقيقاً؛ أن لمعاوية جندا كثيفاً، ونفرا أقوياء. . . وانه لفي منعة بأهل الشام ومال الشام. . . ومن يعرف فضل جند الشام كعمرو الفاتح المجرب الخبير؟ أن فيهم لخيرا، وان عليهم لمعتمداً. . . وأنهم ليفضلون جند العراق وجند الجزيرة. . . وانهم ليثبتون في الحرب ثباتاً عظيماً. . . فلم لا يعتمد عليهم ويستفيد منهم؟ ولم لا تكون جبهة قوية من جند الشام وقدرة معاوية وحيلة عمرو. . . فما عسى أن يفعل جند العراق وشجاعة علي وتهور أنصاره أمام هؤلاء. . . فإذا فرغ من ذلك الحساب والتقدير فقد هم يريد ليذهب لمعاوية ليرى رأيه في ذلك الأمر، وانه لكذلك إذا طارق قد اقبل، وإذا به رسول من معاوية!. . . يحمل إلى عمرو كتاباً. . . ويبتسم ابن العاص، فقد فهم ما في الكتاب؛ وما يقصر مثله عن ذلك وقد قدر الأمر كله كما رأينا. . . ثم يتناول الكتاب، فإذا به يقول: (أما بعد فانه كان من أمر علي وطلحة والزبير ما قد بلغك، فقد قدم عليّ جرير بن عبد الله في بيعة علي، وحبست نفسي عليك حتى تأتيني، فأقدم على بركة الله تعالى).

الآن يستطيع ابن العاص أن يمضي عن ثقة، فقد عرف ابن أبي سفيان قدره واستنجد به، وفي استطاعته الآن (أن يشترط)، وأن يطلب ما يريد من أجر وجزاء. . . وهل هو يرجو إلا مصر وخيرها وأمنها. . . وهل هو واجد في مناصب الدولة منصباً هو آمنأو احسن من ولاية مصر الفياضة بالخير والبركات. . . بلى وإنها لأجدى على صاحبها من الخلافة نفسها. . . فما يغنم الخليفة إلا التعب والجهد في غير طائل. . . وما جزاؤه من ملكه الواسع إلا أن يتوسد الغبراء، فذا رق ومال إلى الدنيا كان نصيبه القتل دون رحمة ولا غفران. ثم أي مكان هو اعز من هذا الركن الأمين الذي لا يصله الجند إلا بمشقة، ولا يقصر في أمر يطلبه الخلفاء. . . الخير الخير إذن في المبادرة إلى جانب معاوية والانضمام لرايته، والحزم الحزم في الإسراع إليه والوقوف في صفه فما في هذا خطر ولا خوف. . . وليزود نفسه من رأيه باستشارة ابنيه محمد وعبد الله. . . فقد عود نفسه أن يدقق الحساب جداً. . . وألا يترك ناحية من نواحي الرأي ولا مذهباً من مذاهب الفكر إلا بحثه ووزنه وزناً دقيقاً؛ وها هو ذا يستمع إلى ابنه عبد الله. . . انه يلومه في ذلك لوماً شديداً، ويرده عن هذا الجشع الذي تحدثهنفسه به: (أيها الشيخ، أن رسول الله قد ذهب وهو عنك راض، ومات أبو بكر وعمر وهما عنك راضيان، فلا تفسد دينك بدنيا يسيرة تصيبها مع معاوية). . . وان محمداً ليسخر من أخيه، ويريد لأبيه مكانا ممتازاًفي عالم السياسة العربية، ويقول: (بادر إلى هذا الأمر فكن فيه رأساً قبل ان تكون ذنباً. . .).

بلى لقد قال محمد الصدق، ومس شغاف قلب أبيه. . وماذا احب إلى ابن العاص من أن يكون رأسا في كل خطوة يقوم بها وألا يأتمر برأي أحد وان يكون حراً، فلا تؤذيه مضايقة مثل عمرو، وان معاوية لقادره قدره ورافعه في درجات الرياسة والامارة، ولا يعدم ابن العاص بفكره أن يتسلط بعد ذلك فيكون صاحب الرأي في الجماعة دون معاوية. . وما عسى تفعل (الحية في أصل الشجرة) إلا ذاك. . نعم وليمض على بركة الله.

وكان معاوية في حيرة من أمره لا يدري ما يفعل؛ كان رأيه قد استقر على حرب علي، ولكنه لم يدر كيف يمضي إلى ذلك، وقد بدأت دعوة علي تتسرب إلى الشام، وانشأ المسلمون يتحدثون في سر سكوت معاوية عن طاعة الخليفة الجديد، وكان هو نفسه يسكتهم ويهدئهم بما له من المكانة في نفوسهم والقدر في أعينهم، ولكنه كان يحس أن لذلك آخراً وانهم منفضون من حوله أن لم ينته في هذا الموقف إلى رأي، وهل هو إلا وال من الولاة عليه أن يطيع، وقد وصلت دعوة علي وتحدث بها البعض ومال إليها البعض الآخر، وبدأ القلق يساور معاوية، وانتهى به الأمر إلى الاستنجاد بابن العاص، وكان يعرف فيه ميلاً عن بني هاشم وكرها لهم، وكان يقدر أنه لابد كاره لأمر علي فبعث إليه يتعجل حضوره فخف إليه كما رأينا. . وجلس الرجلان يتبادلان الرأي، وربما أحس عمرو من حديث

معاوية انه اخطأ في هذه المغامرة التي أقدم عليها، وان هذه (الصفقة الجديدة) ربما كان فيها بعض الخطر. . ورأى أن ما كان قدره من الاعتماد على جند الشام كان فيه كثير من الوهم وسوء التقدير. . وكيف يمكن إقناع هؤلاء بمناهضة الخليفة وحربه وهم مسلمون مؤمنون يرون طاعة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فرضاً واجباً؟ وكيف يمكن التعويل عليهم، وهذه طاعة علي تكاد تبدو على ألسنتهم؟ ولكنه اطمأن إلى أن لا خطر على مركزه في هذا الأمر الذي انضم إليه. . فإنما هو صاحب الرأي المسموع والكلمة النافذة. . وها هو ذا يستطيع أن يشترط (أخذ مصر كلها أو مصر ومعها غيرها). وقد تقدم فما ينبغي له أن يتأخر. . وقد ألقى يده في يد معاوية ولن يخلص له على بعد ذلك أبدا.

ثم انه مضى يفكر في الأمر تفكيرا طويلا، وقلبه على وجوهه. . حتى هداه الرأي إلى حيلة ربما أفلحت في إقناع جند الشام بعدالة قضية معاوية. . فان هؤلاء الناس لا بد أن يكون قد ساءهم مقتل عثمان، ولا بد أن يكونوا ساخطين على قتلته راغبين في الثأر والاقتصاص منهم؛ وقد ترامى إلى سمع ابن العاص أن عليا يأوي هؤلاء المجرمين ويمد لهم في نعمته ويضعهم من حزبه موضع القادة والرؤساء. . فلم لا يقال للشاميين أن معاوية يقبض يده عن علي لأن عليا يعين قتلة عثمان ويدعهم أحراراً طلقاء، بل لم لا يقال لهم أن مقتل عثمان قد صادف من نفس علي موقعاً طيباً؟. . بل لم لا يقال لهم أن علياً نفسه عمل على هذا القتل وعاون عليه لكي يصير الأمر إليه أخيراً؟. . ولم لا تلتمس البراهين على ذلك، وقد كان علي في المدينة ساعة قتل عثمان، وكان في ميسوره أن يمضي لنجدته فلم يمض. . . وكان الأمر لا يكلفه إلا مشية من داره إلى دار عثمان عطشان يجهده العطش. . . وعلي في داره رويٌّ مسرور. . . بلى. . . وهذا ابن أبي بكر قاتل عثمان بيده مكرم من علي، أثير عنده، مقام على مصر واليا. . . بلى، والحق ابلج لا تنقصه البينة ولا يعوزه البرهان!

للبحث بقية

حسين مؤنس

في الأدب الإنجليزي

الكائنات الغيبية في شعر - 6

بقلم خيري حماد

تتمة البحث

فلسفة الدينية:

أن من الصعب علينا أن نرجع إحدى رواياته العديدة إلى أصل ديني صريح، ولكن هناك عدداً غير قليل من العقائد الدينية أودعها شكسبير ثنايا شعره ومؤلفاته، وتختلف هذه العقائد باختلاف الروايات التي ورد ذكرها فيها.

ففي رواية الملك هنري الخامس نرى فكرتين دينيتين أودعهما الشاعر في روايته. وأولى هذه العقائد هي عقيدته في أصل خطأ الإنسان، وثانيتهما هي عقيدته في المعمودية. آما خطأ الإنسان فكان منشؤه تلك الخطيئة العظيمة التي اقترفها آدم أبو البشر. اجترم ذلك الجرم فتلوثت نفسه بتلك الخطيئة وكان جديراً بعد ذلك أن تتطهر نفسه مما لحق بها من الأدران، فأرسل الله إليه أحد الملائكة واخرج منه تلك الروح الطائشة ووضع بدلاً منها روحاً طاهرة نقية، وما اقتراف الناس للآثام إلا سير على السنن الذي اختطه والدهم من قبل واحتذاء لحذوه.

وهناك عقيدة ثالثة أدرجها شكسبير في رواية هملت، فهو يعتقد أن الدعاء والابتهال إلى الله لا يصل إلى السماء إلا إذا كان صادراً عن نفس طاهرة وقلب صادق الإخلاص، وهذه حقيقة دينية تثبت أن شكسبير كان رجلاً ورعاً تقياً يؤمن بصدق النية وخلوصها من الرياء والنفاق.

نظر شكسبير إلى هذا العالم الملئ بالشرور والموبقات نظرة احتقار وازدراء فكان دائم التوق إلى الخلاص منها والانتقال إلى حياة أروع منها وأطهر، وقد ذكر عقيدته هذه على لسان بطله هملت الذي كان يقصد الترفع عن الأمور التافهة الشريرة والسمو بنفسه في عالم أرقى، عالم ملؤه التقى والصلاح والسعي إلى ما فيه خير الناس.

وفي رواية الملك يوحنا نرى شكا في عالم آخر يلقى الناس فيه أبنائهم وأصدقاءهم، ذلكم

هو يوم البعث والحساب، وشكه هذا يظهر على لسان الأميرة كنستانس عندما تخاطب الكردينال قائلة: (أن كان حقا ما تقول عن وجود حياة أخرى مجتمع فيها بأصدقائنا فأني لا شك واجدة ولدي الذي فقدته في المهد صبياً).

آما اعتقاد شكسبير في وجود الإله فكان عقيدة ثابتة لا شك فيها ولا مراء. فهو دائما يذكر الإله في عدد من رواياته وعندما يقصد إظهار أمر عظيم يقسم بالإله الأعظم الذي تطأطئ له جباه البشر؛ فهو يقول على لسان بانكو: (أني لأقسم إمام الإله القدير أن أحارب جميع المكائد التي يقصد منها خراب الأمة والبلاد).

وفي رواية روميو وجولييت تظهر لنا عقيدته في المعمودية، فالإنسان إذا اقترف أمراً منكرا وجب عليه أن يتعمد مرة أخرى فيصبح كأنه حديث النشأة والولادة ويتخلص بواسطة ذلك مما لحقه من ذنوب ومعاص.

واهم هذه العقائد الدينية الكثيرة التي ضمنها شكسبير رواياته عقيدتان: أولاهما حق الملك الآلهي، وثانيتهما عقيدة تناسخ الأرواح؛ وقد ذكرت العقيدة الأولى في موضعين من روايات شكسبير: أحدهما في رواية الملك ريشارد الثاني عندما يهتف الملك قائلا: (أن جميع مياه المحيطات لعاجزة عن أن تمحو الزيت المقدس عن الملك المنصب من قبل الآلهة). والآخر في رواية مكبث عندما يتقدم الطبيب إلى مالكولم بقوله واصفا الملك القديس: (ولمسة من يده التي وضع فيها الإله قدسية وطهارة لم يضعهما في غيره كانت كافية لان تشفى المرضى والمصابين).

من هاتين الفقرتين يتبين أن شكسبير كان يؤمن بحق الملك الآلهي، وانهم نفر من الناس اختارهم الله لإدارة شعوبه، فعليهم طاعتهم وتنفيذ أوامرهم. وليس من العجيب أن يعتقد هذا الاعتقاد وقد وجد في عصر سادت فيه هذه العقيدة وآمن بها الناس على اختلاف ملكهم ونحلهم، ولم تكن لأفكار الحرّة قد انتشرت بعد، بل كان الناس يفضلون كل ما هو قديم موجود.

وأما العقيدة الثانية كما ذكرنا فهي عقيدة تناسخ الأرواح، وهذه تؤلف قسما من النظرية المعروفة لدينا بنظرية فيثاغورس التي تقول بانتقال بعض الأرواح من أجسادها إلى أجساد أخرى، فروح الرجل التقى الورع تنتقل إلى جسد كريم تحل فيه وتتخذ منه مكاناً لأقامتها،

وأما روح الرجل الشرير فتحل في جسد أحد الحيوانات الشريرة؛ وقد ذكر شكسبير هذه العقيدة في (الليلة الثانية وفي تاجر البندقية، وفي كل من هذين الموضعين ينظر شكسبير إلى هذه العقيدةنظرة استخفاف وازدراء، فهو يقول على لسان كراشيانو في الرواية الثانية: (انك لتجعل من عقيدتي موضعاً دائماً للشك فيسهل علي حينئذ الاعتقاد بنظرية فيثاغورس التي تقول بانتقال أرواح الحيوانات إلى أجساد البشر).

وفي رواية (الليلة الثانية عشرة) نرى حواراً بين المهرج وبين مالفوليو. واليك نصه:

المهرج: (ما هي نظرية فيثاغورس؟)

مالفوليو: (أنها تعني انتقال روح جدتي إلى جسد أحد الطيور)

المهرج: (ماذا تعتقد في هذه الفكرة؟)

مالفوليو: (أني للأنزَّه الروح أن تنزل إلى هذا المستوى ولذلك فآني اعتقد بأنها نظرية خاطئة)

المهرج: (وداعاً يا صاح! لتبق على جهلك، وستعتقد بهذه العقيدة قبل أن أعيد إليك عقلك، وعندئذ ستتردد في ذبح أحد الطيور مخافة أن تحل روحه محل روح جدتك)

من هذا الحوار يتبين أن شكسبير كان يستهزئ بهذه العقيدة وينظر إليها نظرةاحتقار وازدراء؛ فعقائده الدينية لا تسمح له بهذا التفكير، ولذلك كان جديراً به أن يوليها ظهره وألا يهتم اهتماماً جدياً.

وقبل أن اختم هذا البحث في فلسفة شكسبير الدينية أورد ما قاله جبسن عنه: (إن الاحترام الزائد الذي أبداه شكسبير في رواياته نحو الديانة المسيحية الأساسية لتجعلنا أميل إلى الاعتقاد في نصرا نيته لولا عدم وجود أحد الأدلة لنثبت لنا انه كان مسيحياً صادقاً) ولكنه لم يكن يوماً ما معتقداً بجميع الاعتقادات التي آمن بها أهل عصره. نعم لقد عاش مسيحياً ومات مسيحياً، ولكنه اظهر في بعض الأمور شكا وتساؤلاً عن صحتها وصدقها. نعم كان شديد الاحترام للكنيسة وعقائدها ولكنه خالفها في كثير من المواضع.

خاتمة:

لو تتبعنا نظريات شكسبير في الأمور المغيبة التي ذكرناها سابقاً لرأينا الاهتمام الذي أبداه نحوها، نعم عاش في عصر سادت فيه الخرافات والأوهام، ولكنه تطلع بعين ثاقبة فرأى أشياء كثيرة يعجز الرجل العادي عن رؤيتها. كانت له القدرة الكافية على تفهم الأشياء المغيبة ففهمها بطريقة تخالف الطريقة التي فهمها الغير.

ولم تكن العقائد الشائعة المصدر الوحيد الذي اعتمده شاعرنا في أبحاثه عن المغيبات، بل كانت هناك مصادر أخرى من الفلسفة الرومانية والإغريقية القديمة مضافا إليها الابتكار الذي أوجده شكسبير دون أن ينقل عن غيره. سمع بأذنه ما يدور بين الناس من هواجس وأوهام فجمعها في شعره إلى ما نقله عن مخلفات السلف وأخرج منها روائع تعد من أعظم مبتكرات الأدب، وأخص بالذكر منها رواية (حلم منتصف ليلة من ليالي الصيف).

وأما الشبح في رواية هملت فيحوي نوعين من الأشباح أحدهما كان من ابتكار الشاعر العبقري والآخر مما نقله عن سابقيه من الكتاب الذين رووا حادثة الأمير هملت بشكل قصصي.

وأما ساحرات مكبث فقد اقتبسها شكسبير عن ويتبين لنا هذا مما قال في هولنشد: (بينما كان مكبث راجعاً إلى العاصمة إذا به يصادف ثلاثاً من النسوة وقد ارتدين ألبسة تشبه ما كان يرتديه النساء في ذلك العصر)؛ وأما شبح بانكو فهو ابتكار ابتدعه الشاعر العظيم؛ وأما رواية العاصفة فيغلب على الظن أنها الأولى من نوعها، وذلك لعدم وجود من كتب في موضوعها من الشعراء والكتاب الذين دونت كتبهم في السجلات وكتب القصص والتاريخ.

تقع حياة شكسبير بالنسبة إلى بحثه في المغيبات في أربعة أطوار: الطور الأول منها هو طور ظهور روايته (حلم في منتصف ليلة من ليالي الصيف) فاستعماله للجنيات مبتكر ومحدث. . وهو سلس في كتابته بعيد كل البعد عما يرهق الذاكرة ويمل القارئ. وقد وصف كلارك كتابه هذا بقوله: (أن استعمال شكسبير المغيبات لأول مرة لمما يدل على سروره ومرحه: فكل روايته هذه ملأى بالبهجة والحبور، ويندر أن تجد هنالك ما يكدرك إلا ما يقع في الأسطر القليلة التي بحثت في الأشباح).

وأما الطور الثاني من أطوار تأليفه فهوة الدور الذي ظهرت فيه روايته الثانية هملت؛ وفي هذه الرواية التمثيلية نشعر بالأرواح والأشباح تتصل ببني البشر اتصالاً لا يكاد يكون تاما، فان هذه القوى الخفية لا تستطيع أن تؤثر في مجرى حياة الإنسان وتحوله في الجهة التي تريدها، ولا يقوم الشبح في هذه الرواية بأي عمل من الأعمال إلا إذا كان بطريق وسيطه؛

وكان شكسبير في هذا الطور قد بلغ الثلاثين من سنه وبدأت نظرته في الحياة تتحول من تفاؤل إلى تشاؤم وأخذت الأفكار والظنون تنتابه فتجعل منه عرضةً دائمة للتفكير والتخيل، فاعتقد أن وراء الإنسان قدر يسيره حسبما يريد، وما الإنسان إلا فريسة لهذا القدر الغاشم.

والطور الثالث ينتهي بإخراج مكبث. ازدادت هذه المخلوقات المغيبة ولكها عاجزة عن إيقاع الضرر بالناس مباشرة ودون أية واسطة، ولم تكن كلمات الساحرات الحقيقة إلا صدى يردد ما كان يدور في خلد بطل الرواية، وكان شكسبير يشعر بالشرور والموبقات تحيط به من كل جانب فأظلم أفكاره وتناوبته الهواجس المختلفة، واصبح في خوف مستمر من هذه القوى الخفية التي تقوم بأعمالها تحت ستار من الظلم والخفاء. وهنا يصل إيمانه بالخرافات إلى القمة ويصبح شكسبير مؤمنا مصدقاً لكل ما يقال له عن هذه الأمور المخيفة المرعبة.

وفي الطور الرابع أو الأخير نراه يخرج للناس رواية العاصفة وفيها يسترد رباطة جأشه وقوة عقيدته فيرجع إلى أفكاره المرحة الطلقة مرةً ثانية. فما الأرواح والقوى الخفية إلا عبيد يستخدمها الإنسان في مهامه وأغراضه، وليس لها من القوة والسلطة على شئ؛ وفي هذه السنوات الأخيرة يصل خياله الابتداعي أقصى غايته. فيشعر بحقيقة الوجود وطبيعة الأمور دون أي ستار أو غطاء.

وقد تخلص شكسبير من هواجسه ومخاوفه وعاد مرة ثانية إلى مرحه وسروره الذي

أظهره في صورته التي صورها للجنيات فانطلقت مخيلته في الفضاء مجتازة جميع العوائق من عقائد وأفكار رجعية. وسجلت في روايته الأخيرة نتيجة عبقريته ونبوغه.
وفي كل من هذه الأطوار الأربعة رأينا شكسبير يتخذ مواضيعه مما كان يدور في خلده من المسائل والمشاغل العقلية، فهي مفكر واسع التفكير، مصور حسن التصوير، وشاعر خصب الخيال؛ تجلى تفكيره في كل هذه الأمور العقلية التي بحثها، وظهر تصويره في هذه الرسوم الرائعة التي رسمها لمخلوقات خيالية بأبدع تكوين واحسن تصوير.

نابلس - فلسطين

خيري حماد

شاعرنا العالمي أبو العتاهية - 14

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

تتمة

محاسنه ومآخذه:

إذا كان لأبي العتاهية ذلك الفضل في الشعر العربي بطريقته الجديدة التي أحدثها فيه، وتوخيه فيه السهولة التي تجعله قريب النفع، وتجعل منه أداة صالحة لتقويم الشعب، فانه كان أحياناً يفرط في هذه السهولة، فينزل فيها إلى اللغة الدارجة، والواجب أن يتوسط في ذلك ويسلك في الشعر لغة بين هذه اللغة ولغته القديمة الجافة؛ ومما يؤخذ عليه من ذلك قوله:

إلا يا عُتْبَةُ الساعَةْ ... أموتُ الساعَةَ الساعَةْ

وقد قيل لأبي برزة الأعرابي أحد بني قيس بن ثعلبة: أيعجبك هذا الشعر؟ فقال: لا والله ما يعجبني، ولكن يعجبني قول الآخر:

جاء شقِيقٌ عارضا رُمحَهُ ... أن بني عمك فيهم رماحْ

هل احدَثَ الدهرُ لنا نكبةً ... أم هل رَقتْ أمُّ شقيق سلاح

أي نفثت فيه حتى لا يعمل شيئاً. ولا يفوتنا أن نأخذ على هذا الأعرابي أن هذا الشعر لا يصح أن يذكر مع ذلك الشعر، ولكن يجب أن يذكر معه غزل من نوعه، وفي معنى يمت بسبب إلى معناه، لتكون الموازنة صحيحة بينهما، وتظهر الفروق بين الشعرين تمام الظهور.

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلي، وكان ممن ينكر على أبي العتاهية: أنكر الرشيد علي طعني على أبي العتاهية في شعره، فقلت يا أمير المؤمنين هو أطبع الناس، ولكن ربما تحرف، أي شئ من الشعر قوله:

هُوَ الله هُوَ الله ... ولَكِن يغفر الله

وقال أبو عبيد الله المرزباني: ومما أنكر على أبي العتاهية من سفساف شعره قوله في عتبة:

ولَّهَني حبُّها وصيرني ... مثل جُحى شهرة ومشخلَبَهْ

وقوله:

يا وَاهَا لذكر الل ... هـ ياوَاهَا ويا وَاهَا

لقد طَيَّبَ ذكر الل ... هـ بالتسبيح أفواها

أرى قوماً يتيهونَ ... حُشوشاً رزقوا جاها

فما أنْتنَ من حُش ... على حُش إذا تاها

وقال علي بن أبي المنذر العروضي: لما مات سعيد بن وهب الشاعر حضر أبي جنازته، وحضرها الفضل بن الربيع، وكان قد ظهر أيام المأمون، فلما دفن أثنى عليه الفضل، وأقبل على أبي العتاهية يحدثه انه أودع القضاة والعدول أموالا فما وفوا له، وانه أودع سعيد بن وهب مالا فوفى به، فقال أبي لأبي العتاهية: ألا ترثيه؟ قال: بلى، قال أبي: ثم صرت بعد أيام إلى الفضل ابن الربيع فأخرج إليّ رقعة، فقال: اقرأ مرثية أبي العتاهية لسعيد بن وهب، فإذا فيها:

مات والله سعيدُ بن وهب ... رحم الله سعيَد بن وهب

يا أبا عثمان أبكيتَ عيني ... يا أبا عثمان أوجعت قلبي

فقلت ما ادري ما أقول؟ فقال الفضل: أبو العتاهية بأن يرثى في حياته أولى من سعيد بعد موته، قال الصولي: وله شبيه بهذا في محمد بن يزيد المسلمي:

قد مات خِلي وأُنسي ... محمد بن يَزِيدِ
ما الموتُ والله منا ... خلافه ببعيد
قال أبو عبيد الله المرزباني: وقوله في مرثية عيسى بن جعفر أشبه بقوله في سعيد بن وهب مما ذكره الصولي وهو:
بكت عيني على عيسى بن جعفر ... عفا الرحمن عن عيسى بن جعفر
ويمكن أن يعتذر عن هذا وأشباهه بأنه مما كان يقوله أبو العتاهية في حديثه السائر ولا يريد به الشعر، وقد روى أبو الفرج رثاءه لسعيد بن وهب بطريق آخر فقال: اخبرني علي بن سليمان الأخفش عن محمد بن مزيد، قال: حدثت عن بعض أصحاب أبي العتاهية، قال: جاء رجل إلى أبي العتاهية ونحن عنده فساره في شئ فبكى أبو العتاهية، فقلنا له: ما قال لك هذا الرجل يا أبا اسحاق فأبكاك؟ فقال وهو يحدثنا لا يريد أن يقول شعراً:
قال لي مات سعيد بن وهب ... رحم الله سعيد بن وهب
يا أبا عثمان أبكيت عيني ... يا أبا عثمان أوجعت قلبي
قال فعجبنا من طبعه، وانه يحدث فكان حديثه شعراً موزونا، وإنا نرجح هذه الرواية بورودها عمن شاهد هذا الشعر حين يقال وعاينه بنفسه، ولعل الفضل غير فيه هذا التغيير، ثم رواه بذلك الشكل ليزري به على أبي العتاهية بعد أن فسد ما بينهما على ما ذكرنا
ومما أنكر على أبي العتاهية قوله:
حلاوةُ عيشك ممزوجةٌ ... فما تأكل الشهد إلا بسَم
فالمعنى صحيح لأنه جعله مثلا لبؤس الدنيا الممازج لنعيمها، والعبارة غير مرضية، لأنا لم نر أحداً أكل شهدا بسم، وأجود من قوله لفظاً، وأصح معنى، قول ابن الرومي:
وهل خُلةٌ معسول الطعم تجْتَنى ... من البيض إلا حيثُ واشٍ يكيدُهَا
مع الواصل الواشي وهل تجْتَنِى يَدٌ ... جَنَى النحل إلا حيثُ نحْلٌ يذُودُها
وأنكر عليه أيضاً قوله:
يا ذا الذي في الحب يَلحَى أمَا ... والله لو كُلِّفتَ منه كما
كلفتُ من حبْ رخيم لَمَا ... لمتَ على الحب فذرني وما
ألقى فإني لستُ أدري بما ... بُلِيتُ إلا أنني بينما
أنا بباب القصر في بعض ما ... أطوف في قصرهم إذ رَمَى
قلبي غزالٌ بسهام فما ... أخْطَأ بها قلبي ولكنما
سهماه عينان له كلما ... أراد قتلي بهما سَلمَّا
فانه من الشعر المضمن، والتضمين عندهم عيب شديد في الشعر، وخير الشعر عندهم ما قام بنفسه، وخير الأبيات ما كفى بعضه دون بعض، مثل قول النابغة:
ولست بمستبق أخاً لا تَلمهُ ... على شعثٍ أيُّ الرجال المهذَّبُ
فلو تمثل إنسان ببعضه لكفاه، إن قال (أي الرجال المهذب) كفاه، وان قال (ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث) كفاه، وقد سبق أني لا أرى رأيهم في عيب هذا التضمين، ولست
أدري لماذا لا نجيز في الأسلوب تفصصي هذه القطعة الشعرية البارعة المتماسكة، فيكون لنا من تماسكها وحدة شعرية ملائمة لوحدة قصتها، كما يكون لنا في الحكم ونحوها أبيات مستقلة، فيها يقوم كل بيت منها حكمة قائمة برأسها.
أما محاسنه وعيون شعره فنذكر منها ما اثر عنهم، واستحق به التقديم عندهم، قال موسى بن صالح الشهرزوري: أتيت الخاسر فقلت له أنشدني لنفسك، قال لا ولكن أنشدك لأشعار الجن والإنس، لأبي العتاهية، ثم أنشدني قوله:
سكنٌ يبقى له سَكنُ ... ما بهذا يؤذن الزَّمَنُ
نحن في دار يُخَبّرُنا ... ببَلاهَا ناطق لَسِنُ
في سبيل الله أنفسُنَا ... كلنَا بالموت مُرْتهَنُ
كلُّ نفس عند ميتها ... حَظُّها من مالها الكفن
أن مَالَ المرء ليس له ... منه إلا ذكرُهُ الحسن
وقال بشار لأبي العتاهية: أنا والله استحسن اعتذارك من دمعك حيث تقول:
كم مِنْ صديق لي أسَا ... رِقُهُ البكآء من الحياءِ

فإذا تأمل لامَنِي ... فأقول ما بي من بكاء
لكن ذهبتُ لأرتدي ... فطرفتُ عيني بالرداء
فقال له أبو العتاهية: لا والله يا أبا معاذ ما لذت إلا بمعناك ولا اجتنيت إلا من غرسك حيث تقول:
شكوت إلى الغواني ما ألاقي ... وقلت لهن ما يومي بَعِيد
فقلن بكيتَ قلتُ لهن كلا ... وقد يبكي من الشوق الجَلِيد
ولكني أصابَ سوادَ عيني ... عُوَيْدُ قَذًى له طَرفٌ حديد
فقلن فما لدمعهما سواء ... أَكِلْتَا مقلتيك أصاب عود
وقال أبو سلمة الباذغيسي: قلت لأبي العتاهية في أي شعر أنت أشعر: قال قولي:
الناسُ في غَفَلاتِهِمْ ... وَرَحا المنية تَطحَنُ
وقال الفضل بن البيع لأبي العتاهية: يا أبا إسحاق ما أحسن بيتين لك وأصدقهما! قال قولك:
ما الناس إلا للكثير المال أو ... لَمُسَلَّطٍ ما دام في سلطانه
فإذا الزمان رماهما بِبَلِيَّةٍ ... كان الثِّقَاتُ هناك من اعوانه
وقال عبد الله بن الحسن بن سهل الكاتب: قلت لأبي العتاهية أنشدني من شعرك ما يستحسن فأنشدني:
ما أسْرَع الأيام في الشَهْرِ ... وأسرع الاشهُرَ في الْعُمْر
ليس لمن ليست له حيلةٌ ... موجودةٌ خير من الصبر
فاخْط مع الدهر إذا ما خَطا ... واجْر مع الدهر كما يجري
من سَابَقَ الدهر كَبَا كبوة ... لم يُستَقُلْها آخر الدهر
وقال أبو تمام الطائي: لأبي العتاهية خمسة أبيات ما شركه فيها أحد، ولا قدر على مثلها متقدم ولا متأخر، وهي قوله:
الناسُ في غَفَلاتِهِمْ=ورحا المنية تطحنُ
وقوله لأحمد بن يوسف:
ألم تر أن الفقر يُرجَى له الغنى ... وأن الغني يخْشَى عليه من الفقر
وقوله في موسى الهادي:
ولما اسْتَقَلوا بأثقالِهِمْ ... وقد أزمعوا للذي أزمعوا
قرنتُ التفاتي بآثارهم ... وأتبعتهم مُقْلَةً تدمع
وقوله:
هب الدنيا تصير إليك عَفْواً ... أليس مصير ذاك إلى زَوَال
وقال العتبي: رؤى مروان بن أبي حفصة واقفا بباب الجسر كئيباً آسفاً ينكت بسوطه في معرفة دابته، فقيل له يا أبا السمط ما الذي تراه بك؟ قال أخبركم بالعجب: مدحت أمير المؤمنين فوصفت له ناقتي من خطامها إلى خفيها، ووصفت الفيافي من اليمامة إلى بابه أرضاً أرضاً، ورملة رملة، حتى إذا أشفيت منه على غناء الدهر، جاء ابن بياعة النخاخير - يعني أبا العتاهية - فانشده بيتين فضعضع بهما شعري، وسواه في الجائزة بي، فقيل وما البيتان؟ فأنشد:
إن المطايا تشتكيك لأنها ... تطوى اليك سباسباً ورمالا
فإذا رحلن بنا رحلن مخفَّة ... وإذا رجعن بنا رجعن ثقالا
وهذا قليل من كثير من عيون شعر أبي العتاهية، وديوان شعره في جزأين كبيرين أولهما في الزهد، وثانيهما في الأغراض الأخرى، وقد جمعه أحد القسوس اليسوعيين نقلا عن رواية النمري وكتب مشاهير الأدباء كالأصفهاني والمبرد وابن عبد ربه والمسعودي والماوردي والغزالي وغيرهم، وهو مطبوع في بيروت سنة 1305هـ سنة 1886م.
وليس في هذا الديوان كل شعر أبي العتاهية، لأنه كان أحد ثلاثة لم تمكن الإحاطة بشعرهم لكثرته، وهم بشار والسيد الحميري وأبو العتاهية، وكان في هذا أكثرهم شعرا، ولعلنا بما كتبناه في حياته وشعره نكون قد قربناه لمن يجهله أو يجحد به، وقدمنا للأدباء مثلا من الشعر لنبيل الذي يجب أن ينسجوا على منواله.
عبد المتعال الصعيدي

الرأي
للشاعر الراوية الأستاذ أحمد الزين
سأحمل في الرأي مَضَّ الألم ... واصبر للخطب إما ألمّ
واحمل نفسي على مُرّها ... إذا ضامها ما يضيم الكرم
ولا اشتري كل هذا الوجود ... ولا العيش فيه ببعض الشمم
وازهد فيما بناه الرياء ... واصدع بالرأي مهما هدم
فأهونْ عليّ بدنيا النفاق ... وجاه يُنال ببيع الذمم
هو الرأي روحك فاحرص عليه ... فما بعد روحك غير العدم
وحكم القلوب بإلهامها ... وما اصدق القلب فيما حكم
فلا تطلبن وداد الصديق ... بمدحٍ تزوِّره أو بذمّ
فإن اللسان رسول القلوب ... يحدّث عنها بلا أو نعم
وإن العقيدة عِرضٌ فصنه ... إذا كنت ممن يصون الحُرَم
سَرت في فؤادك مسرى الدماء ... فلا تبذل الدم إلاّ بدم
أمانة ربك في خلقه ... فمن كتم الحق فيها ظلم
وميثاقه قبل خلق الجسوم ... تلقّته أرواحنا في القِدم
بها رفع الله تلك النفوس ... وميّزها عن سوام النَّعم
فلا تغبطنَّ أخا حظوة ... فما نالها برخيص القيم
ولكنه باع فيها الضمير ... وألقى العقيدة تحت القَدم
وساوم بالنفس فعل البغيّ ... رمت بالحياء ابتغاء اللقم
وكم اسخط الحق في موطن ... وكم البس النور ثوب الظلم
تكاد مظاهره الخالبات ... تشف لعينيك عما طوى من تُهَم
ويوشك منظره المجتلي ... يحدّث عما طوى من تُهَم
فلا تغترر ببهاء الوضيع ... فكم من حذاء صقيل الأدم
وعش العقيدة عيش الكرام ... ومت رجلاً تحت هذا العلم
ولا تعتدد بالأُولى خالفوك ... وكن أمماً أن عصتك الأمم
أحمد الزين
الجبل
(ذكرى)
للأستاذ عبد الرحمي شكري
جلالك أهدى من ضياء المناثر ... ومنبرك الأعلى اجل المنابر
لقد كنتَ عرشَ المجد في الأرض عزة ... ومسكن أرباب الدهور الغوابر
فيامعبداً سقف السماء غطاؤه ... وعمدانه الدوحات ملء النواظر
جلالك يُلْهي المرَء عن كل زائل ... فيخشع مسحور النهى والضمائر
توحدت كالرهبان يا رُبَّ راهب ... رأى عصمةَ الأطواد طهرَ السرائر
تُطِلُّ على السهل الفسيح كأنما ... تُفَكِّرُ في عيش القرى والعمائر
ألاَ أنِّ للأهرام مجداً وروعةً ... ولكنها أنْ لَحْتَ لهْو الأصاغر
فأنت بِنَاءُ الله لم يبنِ مثلَه ... قديرٌ ولم تعبث به يدُ جائر
ومعتصم في معقل منك مانع ... كما اعتصم الملاَّح بين الجزائر
عَلَوْتَ براسٍ في السماءِ مُبَاعِدٍ ... أَكَيمْا تناجي السحب أم كبر قادر؟
وينساب فيك الماء جذلان لاهياً ... وآناً له روع كروعة هادر
عليك اعتراكٌ للعواصف رائع ... وبرقٌ ورعدٌ طيَّ سُحْبٍ مواطر
وأنت وَقُورٌ لم تُرَعْ من رعودها ... ولم تتهَّيبْ دورةً للدوائر
يُغَيِّر مَرُّ الدهر حياً وهامداً ... سواك فهل أوقفت خطو المقادر
فيا مَلِكاً بُرْدُ الجليد كساؤه ... ومِنْ فوقه تاج النجوم الزواهر
تشاهد جيلاً بعد جيل كأنما ... تمر بك الأجيال مَرَّ العساكر
ترى مولد الدولات ثم مماتها ... وتبصر مجد اليوم بعد الغوابر
خلطتُ بك النفسَ الطَّموحَ إلى العلا ... ومرأى جلالٍ منك ملءُ الخواطر
عبد الرحمن شكري

عذراء الهوى
بقلم سليم الزركلي
هدأ الشاعر في خلوته ... وانثنى يقرأ أسفار الحياةِ
فتجلّى الشك في صورَتِه ... كوميض البرق بين الظلماتِ
زهرة لم تتفتح للهوى ... كالملاك الطفل في مهد الدلال
لمست وجنتها بنت الندى ... فأضاء النور مصباح الخيال
بسم النور على أجفانها ... فتجلى في معانيها الأمل
وارتمى البشر على أحضانها ... غارقاً في أغاريد القبل
قبلتها الشمس في وجنتها ... فنما في ِدفئها وَرد العفاف
وحنا البدر على طلعتها ... فحلا للعين والقلب المطاف
يا ملاك الحب في المهد ويا ... شعلة الإلهام والوحي المصون
يا ضياء النفس في النفس ويا ... غاية الحسن وتمثال الفنون
منية منيتها القلب اللهيف ... فغدا في صبره يلقى العذاب
بسمةً واحدة يهْدَ الوجيف ... وافتراراً عن ثناياك العِذاب
في حنايا النفس آمال جسام ... تتلوى كأفاعي الهاجره
أطفئِي غلتها بالابتسام ... وبإغضاء الجفون الساحره
ما لهذا الكون معمور الجناب ... وفؤادي في سراه حائر
فإذا ما مزّق الدهر الإهاب ... ماالهوى؟ ما العيش؟ جَدُّ عاثر!
عاشق الزهر في ميعتها ... يحتسي في الكأس معسول الرُّضاب
إنه يقطف في صورتها ... بهجة الدنيا وأحلام الشباب
فإذا قبل خدّ الزهَرات ... وهي سكرى كالعيون الناعسه
سمع القلب شجيّ النغمات ... فهفا وهي تغني هامسه:
(أنت لاتبصرني بعد غدِ ... سوف يجلوني عن الغصن القدرِ
فتمتع من جمالي وأسدد ... ولتمثلني خيالات الفكَر
لاتُضع أيامك الغرّ سدى ... واتخذني مثلاَ تنشده
يذهب العمر هباَء بَدَداَ ... أن تولى عنه من يسعده
يا نسيم الروض خفف وطأتك ... لم اعد أستطيع حمل النغمات
سر على مهل وخفِّف حدتك ... أصبحت تؤذَي خدودي النسمات
واحنُ يا طيف على أحلامنا ... وابتسم تشرق أزاهير السعود
(واسر ممراحاَ على أيامنا ... بنشيد من أناشيد الخلود
فانحنى يغمرها بالقبلات ... ويواري في حناياه دموعهْ
وَدَّ لو ينفحها روح الحياة ... حانياً فوق أمانيها ضلوعه
طهِّري القلب بحب وغرام ... ودعي الأيام في غفلتها
أنت أن أيقظتها جَدَّ الخصام ... وتداعى العمر في يقظتها
واغنمي اللذات في أوقاتها ... وارتعى مثل فراشات الربيع
واعطفي القلب على باقتها ... إنها تحنو على الطفل الوديع
دمشق سليم الزركلي
الزَّوَاجُ
رَأَيْتُ زَوَاجَ الْمَرْءِ أَسْعَدَ حاَلَة ... مِنَ الْمُكْثِ بَيْن النَّاس وَهْوَ فَرِيد
شَرِيك الْفَتَى فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ زَوْجُهُ ... فَكَيْفَ يَعِيشُ الْمَرْءُ وَهْوَ وَحِيدُ
وَلَوْلاَ زَوَاجُ النَّاسِ في الْكَوْنِ لانْقَضَى ... وَلاَ كانَ للإنْسَانِ فِيهِ وُجُودُ
يُخَلِّدُ ذِكْرَ الْمَرْءِ فِي الدَّهْرِ نَسْلُهُ ... وَمَا لامْرِئٍ فِيهِ سِوَاهُ خُلُودُ
(بيبان)
عبد الهادي الطويل
الوداع
بقلم الياس قنصل
يا قلبُ لا تجنحْ إلى الش ... شَكوى فتؤلمك الكِلامْ
ودع الكآبةَ فالشبا ... ب إذا انقضى لا يرجع
وتأمّل الدنيا، فقد ... أبدى هناها الابتسام

والناس ترفل بالمسر ... رة والطبيعة تسمعُ
لحناً أثيريّ الجما - ل يعيد أنباض الأمَلْ
أن كان أحزنك التأه ... بللوداع فما العمل
والدهر لا يرثى واح ... كام القضا ليست تُرَدُّ؟
أنا لا ألومك يا فؤا ... د إذا عراك الاضطرابْ
فقد جرعتَ - وانتفي ... عهد الصبى - كأس النوى
وخبرت أدواَء البعا ... دِ وما تجرّ من العذابْ
فاصبر على جور الزما ... ن، ولا تهبْ منهم الجوى
فالصبر ينفث في الحيا ... ة الانشراح والابتهاجْ
لا تيأسنَّ، فقد يرو ... ق البحر من بعد الهياجْ
ولربما انجلت الغيو ... م عن السما وبدا القمرْ. . .
(عاصمة الأرجنتين)
الياس قنصل
القصص
صور من هوميروس
حُروب طَرْوَادَة - 15
صلح. . .
للأستاذ دريني خشبة
أشرقت الشمس أو كادت، وبدت ذيتيس تتهاوى في الأفق الغربي فوق الشبح، وهرعت عرائس الماء وعذارى البحر تحييها وتنشد لها الحان الفجر، ظلّها الندى. . .
وكانت تتأوّد تحت حملها الثقيل، فما إن بلغت سفينة أخيل حتى ألقت بالدرع المسرودة، وحتى هب ولدها يحييها بعين شَكْري، ومهجة حَري، وقلبٍ مُوجع حزين.
ما يزال جالساً أمام جثة بتروكلوس يبكيها، ويكلم فيها الإخاء والوفاء، ويناجي في لفائفها الود والولاء، وكان ما يزداد إلا لوعة، وكان ما يزداد إلا أنيناً!
وحنت عليه أمه تواسيه؛ ثم لفتته إلى الدرع والخوْذة، فحدجهما بنظرة قاتمة، وشكر لها هدية فلكان، ثم أوصاها بالجثة خير ما يوصى به الصديق. . . (ذودي الذباب فلا يمسها يا أماه، وارفعي عنها أذى أسرابه، واسقيها من المعتقة الصفراء، حتى تأذن الآلهة فأعود إلي بتروكلوس بثأره. . . . . .)
وانطلق في غبشة الصبح يطوف بمعسكر الهيلانيين، داعياً إلى مجلس حربي.
وكان يهتف بالجند النائم هُتافاً عالياً، فينتفض المقاتلون وقد خفقت قلوبهم، واهتزت جوانحهم، وفاضت عبراتهم من الفرح للقاء أخيل!
وكان أجمل ذلك جميعاً أن ينهض اوليسيز متهالكا إلى نفسه، وديوميد مترنحاً في عطفه، ونسطور مرتجفاً كأنه في يوم حشر،. . . و. . . اجممنون، كان الحياء والحجل يصبغانه بحمرة الجحيم!!. . . . . .
لقد كانت جروح القادة انطق برهان على ما جرّت تلك الخصومة الوضيعة بين اجاممنون وأخيل من هزيمة للجيش، وضياع للجهود، وعبث بآمال أمة ترقب أبناءها من وراء البحار! وانتظم عقد القادة، ووقف أخيل يتكلم، فأرهفت الآذان، وصغت القلوب، وتحركت
الألسن تبحث عن بلل من الريق تبتلعه:
(أين أتريوس العظيم)
(أخي في الوطن)
(يا أمير هذه الجيوش الغازية)
أرأيت؟! أي جدوى عادت عليّ أو عليك من هذه القطيعة التي أججت نارها، واندلع بيني وبينك أوارها، وأي غنم أفدت من شحناء لم تكن بعظيم بن عظيم، بل سليل آلهة عظماء؟!
ألا ليتها أودت تلك الفتاة التي أثارت كل تلك العداوة، وأغرت جميع تلك البغضاء بيننا!
أي وأرباب الأولمب، ليتها أودت يوم غنمناها من مدينة ليرناسوس، حتى لا تفرح طروادة بما تم لها من نصر، وما حاق بجحافلنا من خذلان، لم يكن شئ منه يقع لولا ما أثارته بريسيز بيننا!

ولكن لا! فالفتاة نقية وطاهرة وبريئة، لأنها لا تزر وازرة وزر أخرى؛ ولكننا، معشر الهيلانيين، ينبغي أن نذكر أبداً أن لنا ثأراً عند هؤلاء الطرواديين، لا محيص لهم من أن نأخذهم به، وان نطلبه عندهم، فلا نرتد عينهم حتى يُدال لنا منهم، وتكون لنا الكرة عليهم حين يظفرنا اتحادنا بهم. . .

لنكبح جماح نفوسنا إذن! وليطفئ كل من غيظه في سبيل هيلاس؛ ولتندمل تلك الجراح التي تفثأ قلوبنا فتكاد تقضي على آمال أمة؛ وتطيح بأماني الوطن!

اجاممنون! بن أتريوس العظيم

تلك يدي أضعها في يدك، عهداً مخفوراً وذمةً وفيةً، ألا ندع أهواءنا تهدم ما طمحت إليه نفوسنا من قبل، وان نكون من الساعة يدا على عدونا، وإلباً واحداً. . . . . .

والويل بعدها لمن يجرؤ من جند طروادة أن يتصدى لنا، أو يجازف بنفسه أمامنا. . . . .

(!. . . . . .هذا رمحي! وتلك قناتي! ويا طالما قد ظمئت آلي الدماء وتدفقت الدماء في عروق القادة، وشعروا كأن السماء ترفعهم إليها فتطهرهم وتزكيهم، وتعود بهم إلى الثرى قوماً آخرين!

ونهض أجاممنون من مكانه، ولم يستطع أن يتقدم إلي مكان الخطابة، فقال: (أيها الأصدقاء!

يا أبطال هيلاس! يا وزراء مارس!

لست ادري ما أقول ردّاً على أخيل العظيم، بيد أنني سأفتح له قلبي، واكشف لكم أمامه عن سريرتي، وسيد الأولمب على ما أقول وكيل!

أبداً والله ما كنت سبب هذه المأساة التي أغرت بيننا العداوة، وأججت نيران هذه البغضاء! وأبداً والله ما آثرت أن يكون بيننا ونحن في هذا الأمر ما نحن، شئ من تلك القطيعة التي دفعنا ثمنها غاليا: أرواحاً مطهرة ودما زكياً وشبابا أنظر الشباب!!

أبداً والله ما أثرت من ذلك شيئاً قط؛ ولكنها المقادير، ومشيئة سيد الأولمب، وهذه الربات الغالبات (ارينيس) اللائي تحالفن علي، فغشّين بصيرتي، وأذهلنني عن نفسي، فأتيت ما أتيت على غير وعي مني، ولا هدى ولا برهان مبين!. . . ولقد ثاب إلى رشدي، وارتفع الحجاب عن بصيرتي، ساعة إذ أبصرت هكتور يأخذ جموعنا فيحصرهم بينه وبين البحر، كأشد ما يكون حصار بين موتين! عندها، ذكرت أخيل! وذكرت أنني آثم في حق أخيل، وان أخيل لو كان في هذه الحلبة لما ملك هكتور رشاده، وما ملكت رجلاه أن تحملاه! فزاغت عيناي، واستبنت ضلالتي، واستغفرت الآهة من أجل آثامى أخيل!

ما أعظمك حين نسيت غضبتك، وسعيت إلى خصمك، ومددت إليه بيمينك من اجل الوطن! مرحبا بك يا أخي؟ ومرحبا بصلح يغسل الضغن، ويذهب بالجفوة، ويرأب ما أنصدع من شملنا جميعا!

على أنى أرى أن أمهر صلحي وأؤكد محبتي، ياللهي الغالية، والهدايا العالية، وبكل مذخور ثمين؛ فهلم يا ابن بليوس هلم؛ هيئ الصفوف وجيّش الفرق، حتى أعود إليك بتذكاراتي. . .)

وأبى أخيل أن يلهو أحد في تلك الساعة، أو يشتغل إلا بالحرب. والاستعداد ليوم الفصل؛ فشكر اجاممنون، ورجاه أن يلبث معه حتى يأخذ كل عدته؛ ولكن اوليسيز الجريح يتدخل، ويرجو أن ينطلق اجاممنون فيأتي بالعطايا واللهى،. . . وبالغادة المفتان، بريسيز، فتنة الفتن، ونادرة الجمال؛ نقية كما هي، أخيلية كما فَصَلت من خِدْر مولاها يوم الخصام الأكبر. وأنا اقسم لأخي على ذلك ويقسم عليه ويؤكده اجاممنون).

ويقسم عليه ويؤكده اجاممنون، ويغسل أقسامه بالدمع السخين؛ ثم يأمر خادمه (تلثيبوس) فينطلق إلى حيث يأتي بخنزير سمين يذبحه ويطعم القادة منه. . . ويحلف أخيل لا يذوقن من طعام حتى يعود بثأر صديقه واعز الناس عليه: (بتروكلوس!).

ويلح عليه اوليسيز في أن يأكل: (لان الحرب شاقة، ويومها دهر بأكمله، ومقارعة الأقران مجهدة للأبدان. . .) وما يزيد أخيل إلا إباء!

وعاد اجاممنون

وكان اوليسيز نفسه يتقدم الراكب الذي اقبل من سفينة القائد العام يحمل هداياه لأخيل. ونهض اجاممنون فأشهد الآهة على نقاء القلب وصفاء النفس، ورضاء الضمير،

ثم قدم الهدايا إلى ابن بليوس الذي كان يشهدها ويبكي!
وفي الحق، لقد كانت لُهىً أحسن اللُّهى، وهدايا على قدر مُهديها!
فهذه صناديق سبعة مقفلة، ملئت بالدر واليواقيت والزبرجد وبكل ما غلت قيمته من كتان مصر، وخز الهند، وحبر الشام. . . وهذه اثنا عشر من صافنات الجياد كأنما ولدت في ليلة واحدة ولوَّنتها الآلهة بألوان واحدة، وأضفت عليها عرائس الفنون من سحرها، فكانت كخيل أورورا!
وهذه أيضا عشرون دستاً من النحاس المزركش، حليت سطوحها بالميناء والفُسيْفِسَاء، وتبارت في حفرها كل يد صناع وفكر عتيد. وفيها من أصناف الجوهر ما يبهر اللب ويشده القلب، ويذهب سنا برقه بالأبصار!
وهذه بدَرٌ عَشْر من الذهب الخالص يحملها اوليسيز ويتقدم بها أبكاراً سبعاً من جملة اللُّهى، كل منهن كأنها فينوس حقيقة، تميس كأنها بانة، وتبسم كأنها أقحوانة، وتبدي عن الدر النضيد!!
ثم. . .
هذه بريسيز! بريسيز الهيفاء، واصل هذا البلاء؛ الدمية التي أترعت بالمفاتن، وفاضت عيناها بسحر الهوى!
هذه بريسيز تبرز فتخطف الأبصار، وتتقدم فثب القلوب، تود لو تغمرها لمحة من جمالها النضر، وشبابها الفينان!
فهل رأيت إلى العاصفة تقتلع الدوح، وتطيح بالأيك، وتهب على اليم النائم فيصطخب، والبحر الوادع فيضطرب. . . و. . . على الغدير ذي الخرير فيرقص من رعشة كان به مسّاً من الخَدَر!!
تلك هي بريسيز حين تبدت للقوم!
لقد هتف اوليسيز هتفةً ضاعت في إنذهال الملأ بما يرى، على ما تعرف من جبروت اوليسيز، وشدة أيده. . . . . ثم هتف فتلقَّت الناس، وراح الرجل يكرر ما قيل من نقاء بريسيز وتمام طهرها؛ أخيل مطرق ساهم، لا يكاد يعي مما يقال شيئا. . .!
واستل اتريديس خنجره، وأهوى به على عنق الخنزير يذبحه، وهو في ذلك كله يصلي لأربابه، ويسبح بحمد السماء، ويشكر لسيد الأولمب ما أتم من صلح شريف بين سليلي الآهة. . . ونهض اجاممنون فقدم بريسيز إلى سيدها، وعقّب بكلمة طيبة، ثم أشار أخيل إلى المرميدون فحملوا الهدايا، وانطلقوا إلى أسطولهم بها، ومعهم فتاة مولاهم في صفوف موسيقية، وفي موكب رهيب!
وانصرف القادة إلى زادهم، والجنود إلى ميرتهم، ولا حديث لهم إلا أخيل وفتاة أخيل، والصلح الذي باركته السماء، وكسبوا منه أن يكون فيهم أخيل!
أما بريسيز فقد وصلت إلى سفينة مولاها؛ فشدها أن ترى إلى جثة بتروكلوس في لفائفها وأكفانها، والى هذه الأم البارة، ذيتيس، جالسة عندها تبكي، وتدفع أسراب الذباب، وتسقي القتيل خمراً!!
لقد كانت بريسيز تعجب بالبطل منذ قريب، ولقد تركته ممتلئاً صحة، موفوراً شباباً؛ نضر الصبى، ريّانَ الأهداب! ثم عادت فكان اشق عليها أن تراه مُسَجَّى هكذا! لا نأمة! لا حركة! لا نَفَس! قتيلاً كأدنى من كان يقتل كل يوم روع، طعيناً كأقل من كان يطعن كل يوم نزال!!
ودارت الدنيا بالفتاة، فراحت تملؤها ندبة وبكاء!. . . واجتمع لديها الفتيات الأخريات يندبن ويبكين. . .
فما كان أروعه منظراً، وما كان أحره إخلاصاً!!
واقبل فونيكس على أخيل يواسيه
ولكن أخيل ما يرقأ له دمع، ولا ينقطع له نحيب. . . واطلعت أرباب الأولمب، فشهدت ما
يأخذ البطل مت ن رُحَضَاء الحزن، وبُرَحاء الأسى، فأشار زيوس إلى مينرفا، فهبت إلى أخيل ترعاه، وتخفف عنه من بلواه. فلما كانت قاب قوسين من ابن بليوس، هالها أن ترى إليه يعصف به الحزن، ويوهنه الجزع، والجند مع ذاك قد بُوَّئُوا مواقف للقتال! فما هي إلا أن أمرت فونيكس بأن يصب الخمر المعتقة على صدر صديقه لينقذه من ضيقه، وليخفف عنه من وطأة الجوع. ويصدع فونيكس، فيتقدم إلى أخيل كاشفاً عن

صدره، وصب السلافة الأولمبية فيشربها الجسم الضاوي، ويسترجع بها ما فقد من قوة. . . وما يفتأ فونيكس يصب الخمر، وما يفتأ أخيل ينظر إليه مشدوها، حتى يكون في كل قوته من اثر الخمر، فيصيح صيحة الحرب. . . التي تهتز لها أبراج طروادة!. . .

فانظر إليه مُقَنَّعاً في حديد فلكان، وانظر إليه تحت تلك الخوذة التي لم تصنع مثلها يد الإله الحداد، وانظر إليه يداعب حربة شيرون، أستاذه السنتور العظيم؛ ثم انظر إليه كالبركان المضطرب يقذف النار من عينيه المغْضَبَتيْن، ومن حوله الميرميدون يملؤون الرحب ويسدون الشِّعاب. . .

ويل لك يا هكتور!

(لها بقية)

دريني خشبة

البريد الأدبي

اللغة السيوية بربرية

إلى الرحالة الأستاذ محمد ثابت، سلام واحترام:

ذكرتم يا سيدي في العدد 121 من (الرسالة الغراء) أن لأهل سيوة لغة خاصة يتكلمونها في رطانة هي ابعد من اللهجات الأوربية عنا، وأنكم تسمعتم إليها فلم تهتدوا إلى كلمة واحدة تمت إلى العربية أو اللاتينية بسبب؛ وبعد أن ذكرتم أمثلة من هذه اللغة الغريبة الشاذة قلتم: (ويقال إن اصل تلك اللغة بربري مازجته العربية ثم الرومانية).

والأمثلة التي ذكرتموها تدل دلالة قاطعة على أن هذه اللغة هي بربرية لا شك فيها، وهذه الألفاظ التي استغربتموها هي نفسها لا تزال مستعملة في أفواه البربر في هذه البلاد إلى الآن.

والذي انتهيت إليه - بعد البحث الطويل في اصل هذه اللغة وفي علاقتها بالعربية - هو أنها إن لم تكن لهجة من العربية الأولى بعدت عن اصلها بتراخي الزمن وطول الأمد حتى صارت كأنها لغة مستقلة، فما لا شك فيه أنها لغة سامية (انظر بحثنا (هل البربر عرب؟ وهل لغتهم لغة ضاد أخرى؟) في مقتطف يوليو 1934).

وأما أن العربية المدونة في القواميس قد مازجت البربرية بعد الفتح الإسلامي لبلاد البربر، فهذا أمر واقع لا شك فيه، فكلمة (تَلَشْلَشَتْ) التي قلتم إنها من أسماء الأعلام عند السيوويين هي كلمة عربية من (لشْلَشَ) إذ تردد واضطرب (بُرْبرَتْ) بادْخالِ علامة التأنيث في اللغة البربرية عليها وهي التاءان معا في أولها وفي آخرها؛ وترجمة هذه الكلمة (اللشلشة أو اللشلاشة) وكلمة (لشلاش) من أسماء الأعلام هنا في الجزائر بين العرب.

ولقد وجدت وأنا انظر في اللغة البربرية أن القاف المعقودة فيها ينطقها بعض البربر جيما مصرية، وينطقها بعضهم جيما عربية، وينطقها آخرون منهم عربية تارة ومصرية تارة أخرى، فقلت في نفسي: من يدري فلعل الجيم المصرية جاءت من هنا.

وبرابرة برقة كما يحدثنا التاريخ أغاروا على مصر أقاموا بها واثروا في لغتها، وجئتم اليوم أيها الأستاذ الرحالة فرويتم لنا أن نفس اللغة البربرية لا تزال مستعملة كلغة منزلية إلى الآن في بعض زوايا مصر، ونشرتم صورة فتاة سيوية عليها مسحة من الجمال المغربي، فافدنا منكم ما لم نكن من قبل نعلمه ولا ندريه، فلكم الفضل والشكر على ما وليتم.

وهران (الجزائر)

محمد السعيد الزاهري

قصة رائعة وفلم مبتذل

عرض أخيراًفي بعض دور السينما بالقاهرة شريط مصور (فلم) عنوانه (الشيطان امرأة) وقيل في مدحه والترغيب في رؤيته أن النجمة الألمانية الشهيرة مرلين ديتريش هي صاحبة الدور الأول فيه، وهي التي تقوم بتمثيل هذه (المرأة الشيطان)؛ ولكن الذي لم يقل في شان هذا الفلم ولم ينوه به هو انه مأخوذ من قصة بيير لوئيس الشهيرة المسماة (المرأة وقراقوز) أي الرجل الذي لا إرادة له.

وقد أذيع أخيراً أن الحكومة الأسبانية أمرت بمنع عرض هذا الشريط في جميع أنحاء أسبانيا لأنه يعرض سمعة الضباط الأسبان - وبطله الرجل هو ضابط أسباني - إلى المهانة والسخرية ويعرض سمعة المرأة الأسبانية - وبطلته هي فتاة أسبانية راقصة - إلى الزراية، وذلك أنها تبدو في الفلم في شخص الفنانة الحسناء امرأة عاهرا مبتذلة تعرض اخطر ضروب الإغراء النسوي وأسفلها بصورة مثيرة ملهبة، تلك هي (كونشيتا) بطلة هذه القصة الشهيرة.

بيد أن الحكومة الأسبانية لم تقف عند هذا المنع المحلي بل تقدمت بمذكرة احتجاج سياسي إلى الحكومة الأمريكية، فتدخلت في الأمر ونصحت إلى شركة بارامونت التي أخرجت الفلم بسحبه من جميع أنحاء العالم؛ فلم يسع الشركة إلا النزول عند هذه الرغبة وتنفيذها، وبذا يختفي أحدث مخرجات مرلين ديتلايش عن الأنظار، ولكن تبقى بعد ذلك القصة الأصلية التي تعتبر من أبدع ما كتب بيير لوئيس؛ بل هي في سحر أسلوبها ورائع عرضها لا تقل اضطراما وحياة عن الشريط المصور ذاته؛ وهكذا يستطيع من حرم مشاهدة هذا الشريط (العاهر المبتذل) أن يقرا في بيير لوئيس، ما يرفع روجه إلى ذروة الفن والخيال الرائع.

وفاة لاوردس برون

قرأنا في البريد الألماني الأخير نعى الكاتب القصصي الدنمركي الشهير لاوردس برون توفي في الحادية والسبعين من عمره، وكان برون سليل هذه المدرسة القصصية الدنمركية الزاهرة التي اشتهرت بروعة خيالها وسحر أسلوبها وخفة روحها، والتي أنجبت هانز آندرسن معبود الطفولة والحداثة، وكان مثل مواطنه وسلفه الكبير اندرسن يكتب للشباب قصصاً رائعاً ممتعاً؛ واشتهر على الأخص بسلسة من القصص التي تصور الحياة في البحار الجنوبية، واسم بطلها فان سانتن؛ واخرج منها ثلاثة مجلدات عنوان أولها (فان سانتن في أيام سعده) وعنوانه الثاني (جزيرة السعادة لفان سانتن) وعنوانه الثالث (الأرمل المحزونة)؛ وتدور القصة كلها حول حياة تاجر ورحالة، وهو فان سانتن، يجوب البحار الجنوبية، وينزل بإحدى جزرها، ويتزوج إحدى نسائها وهي ابنة ملك هذه الجزيرة، ويعيش معها سعيداً؛ ويصف برون هذه الحياة وصفاً رائعاً ساحراً؛ وعبرة القصة تذهب إلى عكس ما ذهب إليه دانيل ديفوني في قصته (روبنصن كروزي)، وهي أن الحياة البدوية في هذه البقاع النائية اسعد مما يتصور الناس.

وكتب لاوردس برون أيضاً عدة مجموعات من القصص الصغير منها مجموعة: (إلى الوطن)، وأسلوبه بسيط ساحر، ويمتاز بمقدرة فائقة على تصوير الحياة والصور الطبيعية فيما وراء البحار، وذلك في ألوان شعرية بديعة؛ وهو يذهب في كتابته مذهب الدعوة إلى الحياة الطبيعية، والطبيعة احب الأشياء والناظر إليه، وهي أروع ميادين قلمه وخياله.

الأستاذ الزنجاني

من أخبار طهران أن وزارة المعارف الإيرانية عينت الأستاذ أبا عبد الله الزنجاني مؤلف كتاب (تاريخ القرآن) أستاذا للفلسفة الإسلامية وتفسير القرآن الكريم في جامعة (سبهالار) في طهران

أسبوع المتنبي في دمشق

تألفت في دمشق لجنة من العلماء والأدباء برياسة الأستاذ المغربي رئيس المجمع العلمي العربي لإعداد الأهبة لإقامة مهرجان شعبي عظيم تحت رعاية وزارة المعارف السورية

يستمر أسبوعا بدمشق في فصل الربيع، وسيقام في المعرض الصناعي السوري الذي يفتتح في شهر أبريل سنة 1936. وقد أرسلت لجنة المهرجان الدعوة إلى علماء العرب وشعرائهم في مختلف الأقطار، وكذلك إلى أفاضل المستشرقين ليساهموا في هذا المهرجان ببحث ناحية من نواحي أبى الطيب، وستنشر اللجنة كل ما يقال في هذا الاحتفال في كتاب خاص.

وفاة فنان كبير وانتحار كاتب شهير

توفي أخيراً في فينا المؤلف الموسيقي الشهير الأستاذ بيلا لازكي؛ وكان لازكي مدى الثلاثين عاما الأخيرة من أعلام التأليف الغنائي والموسيقي؛ وهو مجرى المولد، ولد سنة 1867، وتلقى علومه في فينا عاصمة الفن الزاهر في ظل الإمبراطورية القديمة،

وعاش فيها منذ شبابه؛ وظهر في التأليف الموسيقي، فوضع مئات الأناشيد والمقطوعات والغاني الألمانية، وامتاز بالبراعة في نوع خاص منها هو القطع الغرامية والشعبية التي تعزف وتلقى في النوادي الليلية (الكابريه)؛ وكانت تعاونه في فنه زوجته الفنانة والمغنية الحسناء ميلا مارس التي لبثت مدى حين تخلب الباب المجتمع النمساوي الرفيع؛ ولكنها توفيت شابة ومضى لازكي يطوي ذلك حياته الفنية وحيداً، ويخرج كل عام عدداً كبيراً من المقطوعات والأناشيد التي تذاع في جميع أنحاء العالم، وفي أواخر أعوامه عرف لازكي متاعب البؤس والمرض، إذ خسر معظم أمواله مضاربات عقيمة، وداهمته أوصاب الشيخوخة، فقطع أيامه الأخيرة محزوناً بائساً، وتوفي في الثامنة والستين من عمره.

ووقفنا في أنباء فينا الأخيرة أيضاً على حادث محزن هو وفاة الكاتب النمساوي الأشهر الدكتور فكتور درزتي وزوجه البارونة كلارا؛ وقد وجدا منتحرين بالغاز في منزلهما في شارع بليز في ضواحي فينا؛ ولم تتضح أسباب المأساة تماماً، ولكن المعتقد أن الحادث يرجع إلى مرض عصبي شديد كانت تعانيه البارونة؛ وكان الدكتور درزتي من النبلاء، وكان أديباً وكاتباً كبيراً، واشتهر بمقالاته الاجتماعية والنقدية، وله مؤلفات وكتب قصصية ذائعة.

شهادة لله

سيدي الأستاذ الفاضل (صاحب الرسالة)

سلام عليك

ربك العظيم يقول في كتابه القديم:

(ولا تكتموا الشهادة، ومن يكتمها فانه آثم قلبه)

صدق الله العظيم

وإني أعيذ نفسي برحمة الله من آثام القلب، فضلا عن تأثم القلوب

سيدي الأستاذ:

هي شهادة لا أبتغي منك عليها جزاء ولا شكوراً

لقد كنت يا أستاذ الزيات بليغاً دائماً، بليغاً علم الله فوق ما نسمع ونقرا من بلاغات سحبان وأكثم بن صيفي وعبد الحميد وإخوانهم من كرام البلغاء الأقدمين.

أما في مقالك الأخير في عدد (الرسالة) الأخير، لمعنون (في الجمال) (على هامش الموضوع) فلقد كنت أبلغ من نفسك بكثير.

أتدرى لماذا يا سيدي الزيات؟

لان موقف اليوم، الذي أرسل قلمك، بعد إرساله شجنك، بمقال اليوم، موقف من ابلغ مواقف التاريخ. لشد ما قال لنا التاريخ والزمن في أنفسنا قولا بليغاً.

وليس للمواقف البليغة في الأمم والشعوب إلا قلوب البلغاء، بل إلا القلوب البليغة، ودعني لا أقول هنا: السنة البلغاء، فطالما والله أودت السنة البلغاء بحقوق وكرامات وأوطان!

ولعل هذا ما يثبت في قلبك البليغ، فوق تثبيته في قلمك البليغ، أنك حقاً قبل أن تحمل في وطنك أو في وطن العربية قلما، فانك تؤدي فيها (رسالة).

رسالة لا تكذب الناس، وهي تتسمى إلى الناس باسم (الرسالة)، وكثيرا ما تسمت الأشياء على هذه الأرض بغير أسمائها، وهي الأرض التي قام عليها يوما مسيلمة يقول: أنا نبي! وقام من قبله فرعون من فراعنة مصر يقول: أنا ربكم الأعلى!

هذه شهادتي إليك. كما ويسرني كما يشرفني، بل استحلفك بالله أن تجعلها شهادتي إلى الناس، لأنها أيضاً شهادتي إلى الله، ألقى بها الله فيما ألقي به وجهه (الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه آمر الدنيا والآخرة) كما دعاه يوماً اعظم مخلوقاته، لأنه أخلص المخلوقات: محمد بن عبد الله، عليه صلوات الله.

وهذه والله شهادتي، ولو أنى لا انفي أن لي عندك عتابا قديماً، لعلك كنت لا تصغي إليه لو أنى كتبته إليك قبل اليوم، أو بادهتك به وجهاً لوجه، لأننا لم نتعارف قلوباً، بيد أنا تعارفنا وجوها، مرة واحدة أو مرتين، في يومين فقط من الأيام.

فارفع بيدك (رسالتك) يا أستاذ، فهي من رسالات الله، لأنها من رسالات الحق والوطن

والقوة والجمال.
ارفع بيدك هذه (الرسالة) من النور، تخدم وطنك فوق ما يخدمه كثير من دعاته وأدعيائه البارزين فوق المسرح هنا وهناك لن تفلح هذه الأمة في نهضتها الوطنية، حتى تفلح أولا في نهضتها الأدبية، أو قل نهضتها الأخلاقية، نهضة النفوس والأرواح في أعماقها لا على سطوحها التي يراها أو يسمع بها الناس. . . . .

إبراهيم إبراهيم علي
المحامي بقليوب

الكتب

خيوط العنكبوت
تأليف الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني
للأستاذ محمد سعيد العريان

الأستاذ المازني أديب من أدبائنا المعارف، يجري اسمه في ابتسام عذب على شفتي كل من يتحدث عنه حين يذكر الأدباء، وقل من لا يتحدث عنه حين يعرض ذكر أدبائنا الذين انشئوا في الأدب وزاد بهم. وان له فيما يكتب لطابعاً وروحاً يتميز بهما ويعرف؛ وما الأديب إذا لم يتميز بطابعه وروحه، ويبرز اسمه وصورته وراء كل سطر مما يكتب؟

على أن للأستاذ المازني غير ذلك فناً وحده، تفرد به، واقتصر عليه أو كاد؛ فما يستطيع أن يجاريه فيه أديب من أدباء العربية؛ يرسم لك به الصورة الملموسة، فيضيف إليها فنا من فنه، ويخلق لك فيها الجديد الذي لم تبصره عيناك، ولم تتناوله حواسك؛ على انك لا تستطيع إلى ذلك أن تنكر انك ترى شيئا مما يرى ويحس، وان أعجزك أن تراه وتحسه كما رآه المازني وأحسه، أو كما جلاه عليك من صور، هي هذه النواحي الضاحكة المضمرة وراء ما يبدو لك من عبوس المناظر والصور والأشكال؛ فهو حين ينظر، وحين يفكر وحين يكتب، يستطيع أن يريك موضع الابتسامة من كل معنى كئيب، وإشراقة السرور من وراء كل ظل عابس؛ وله من ذلك في كل أليم تأخذه عيناه روح من السرور مضمرة مستخفية، لا تدري اهو يخلع عليها من فنه فتضحك من عبوس، وتنبسط من تقطيب؛ أم أن له عينا انفذ بصيرة إلى ما وراء المحسوسات، هي تكشف له عن حقيقتها وسرها، فما هو إلا أن يجلوها عليك كما رآه ببصيرته وإحساسه العميق؟

وكما تجد للمازني فنه الخاص به، تجد له كذلك أسلوبه ولغته؛ واحسبه لا يفكر في اللفظ والعبارة عندما يهم أن يكتب، اكثر مما يفكر في المعنى والموضوع؛ فهو هنا وهناك لا يكلف نفسه الغوص والتعمق، واستخراج المعنى من المعنى، وتوليد الفكرة من الفكرة؛ بل تراه أسلوباً متساوقاً مطرداً، وفكراً قريباً من قريب، وموضوعاً مما يقع عليه الحس وتألفه النفس. واحسبه أيضاً يلتمس فيما يكتب أن يرضى قراءه ويسرهم، أكثر مما يلتمس أن يكون إنشاء يخلد به في الأدب، واختراعا يزيد ثروة اللغة معنىً أو موضوعا أو فكرة. وما حاجة المازني إلى الخلود وهو لا يراه إلا خرافة، اخترعها الإنسان ليضل بها نفسه ويرضى ناحية من غروره وكبريائه؟

على انه - من حيث يريد، أو من حيث لا يريد - قد كتب لنفسه في تاريخ الأدب صفحة، وأثبت صورة، سيخلد بها وتخلد به.

وأنت حين توازن بين ما يكتبه المازني الآن، وما كان يكتبه أو يحرره منذ بضع عشرة سنة - لا تجد فرقاً كبيرا، إلا أن ذلك الأديب الطموح الذي كان يكتب ليقول الناس: (ما اجمل ما كتب. . .!) قد قست عليه الحياة ونالته أحداث الزمن، حتى عاد يكتب، لأنه مطلوب منه أن يكتب؛ ولكنه هو المازني الذي يعجب القراء به ويجتمعون إليه، وإن لم يعنه هو اجتمعوا أم تفرقوا إلا بمقدار ما يعني صاحت الصحيفة الذي يطلب إليه أن يكتب!

والمازني حريص على سلامة لغته، حرصه على أن تكون اسهل على آذان القراء وأطوع لألسنتهم؛ وهو بسبيل ذلك كثيراً ما يحاول تصحيح الكثير من لغة العامة وأساليبهم، فيخطئ في ذلك ويصيب، وما على المجتهد في أن يخطئ باس؛ وقد يمر القارئ العادي على ما يكتب المازني، فيراه بعض أولئك الضُلاَّل الذين يدعون إلى

العامية ويرجون لها؛ ويمر الأديب المطلع، فيرى لغة أن لم تكن إلى لغة القدماء فهي منها، وان كان فيها من لغة العامة، فهو الجديد الذي تتقبله العربية ولا يأبه البيان الصحيح، لأنه يزيدهما ثروة إلى ثروة، ويفتح الباب إلى الأدب القومي في لغته التي يتحدث بها أهله، غير نابية ولا مستكرهة ولا أعجمية ولكنك إذ ترى المازني يحرص على هذه الناحية القومية في اللغة، قل أن تراه كذلك في الموضوع الذي يحاوله؛ وما اكثر ما يشطح خياله إلى قصة أو حادثة، فيصورها بأسلوبه الساحر، على أنها مصرية وقعت في مصر، وجرت في الجو المصري، وتحدثت بها ألسنة مصرية، وكان حقها أن تكون مما يقع في لندن، أو برلين! أتكون مما يقعمطالعات المازني في مصر هي بعض الجو المصري الذي يراه وينقل عنه. . .؟ على أنه أدب جديد في العربية على كل حال سواء أكان من إيحاء الجو المصري إلى فكر المازني، أم من إيحاء جو غريب.

وبعد، فهذا كتاب المازني الجديد (خيوط العنكبوت)، فمن لم يكن يعرف المازني فليعرفه

فيه، ولعله أن يرى هناك ما رأيت وأسلفت وصفه. تبدو لك فكاهة المازني لأول صفحة من الكتاب، حيث يهديه إلى ولديه: (اعترافاً بفضلهما، وشكراً لمعونتهما. . فلولا عبقريتهما لظهر هذا الكتاب قبل عامين!) وتقرأ فاتحة الكتاب فلا تدلك أي كتاب هو، ولكن سِرْ إلى نهايتها ثم اقرأ: (وبعد، فقد لا يكون هذا الكلام اصلح ما يكتب على سبيل التمهيد لمجموعة من الصور والقصص، ولكن ما يكتب على روح الفاتحة من روح الكتاب، وهذا شفيعها عندي فعسى أن يكون شفيعها عند القراء. . .!).

ولقد قرأت المقدمة، وقرأت الكتاب؛ ولكني لم استطع أن افهم قوله (. . . . روح المقدمة من روح الكتاب) أما المقدمة ففضل اجتماعي ما كنت أقدّر أن يكتب المازني مثله، لا عجزاً منه، فانه لقدير؛ ولكني أعرفه أكثر اعتزازاً بقوميته، وافخر بمصريّته، فما كان ينبغي أن يتهكم بمصر ويزرى بها، كل هذا التهكم وهذه الزراية في فاتحة الكتاب! وقد يكون فيما عاب على المصريين واخذ عليهم محقّا بعض الحق، وقد يكون بعض ما قاله أو اكثر ما قاله صحيحا بعض الصحة، ولكن، أما كان ينبغي أن يستر على قومه؟ والجمود والبلادة، والضعف - عيوب طالما رُميتْ بها مصر من أعدائها، ومن بنيها أنفسهم، ولكن هذا على ما قد يكون فيه من رغبة الإصلاح، يؤثر أثره في القراء، ويكون أشبه بالإيحاء يستقر في الواعية الباطنة فيعمل عمله، فلا يكون من ورائه إلا الجمود والبلادة والضعف حقا وصدقا لا تهمة بغير دليل. ويحاول الأستاذ المازني في ختام الفاتحة أن يعتذر وان ينفي التهمة؛ أفتراه قد بلغ في اعتذاره بمقدار ما بلغ في تجريحه؟

وان القارئ ليعجب لذاك يصدر عن المازني المصري الفخور بقوميته، ولكن، أرأيت إلى المازني إذ يكتب فلا يتحرج أن يسخر من نفسه، وأهله، وولده؟ فها هو ذاك يسخر أيضاً من مصر. . .!

أما الكتاب، فكل شئ فيه جميل، إلا الفاتحة: وهو قسمان: (صور من الأمس)، و (صور من اليوم) هما مجموعة صور وأقاصيص، لا تجد لها شبيها مما كُتب في العربية، جمعت إلى الرقة في الوصف، حُسْنَ الأداء وسلامة التعبير، إلا قليلا احسبه من اثر السرعة التي يكتب بها المازني. وأنت ترى فيما تقرا من هذا الكتاب صورة المازني الطفل، والمازني العابث، والمازني الأديب الذي يسحر قراءه بسلامة الفكر وحُسْنَ الأداء؛ فحياته منشورة في

كتابه مصورة، على حين يحاول اكثر كتابنا أن يكون ما يتصل بشخصه ابعد ما يكون عن قرائه. وقد تجد المازني يجنح أحياناً إلى المبالغة في تصويره وفي عباراته، وقدتجده يسترسل في الكلام فيكتب في القصة ما لا يطلبه موضوع القصة؛ ولكن هذا وذاك لا يعيبانه ولا ينقصان من مقدرته القصصية وفنه البارع.

وبعد، فمن أراد أن يمتع نفسه ساعات من فراغ، ويلذ نفسه، فحسبه أن يقرأ (خيوط العنكبوت)؛ ولو أن أحدا طلب أليّ أن أدله على خير ما قرأت في هذا الأسبوع فلذني وأمتعني؛ فليقرأ فيما يقرأ من الكتاب (الراعيان)، (سيرة من السير)، (التدخين)، (الشيخ قفّه)، (ساسة المرأة)، فسيجد فيها ما وجدت من متاع ولذة، ألذَّ متاع وأمتعَ لذة.

محمد سعيد العريان

العدد 126 - بتاريخ: 02 - 12 - 1935
. . .في الجمال
- 3 -
إذا عرفت الجوهر الذي يتحقق به الجمال الطبيعي سهل عليك أن تعرف الجوهر الذي يقوم عليه الجمال الصناعي، لأنه إما وحيه وإما نموذجه. فالجمال الصناعي يتعلق بالفكرة التي يوحيها إليك الفن عن الفنان ثم عن الفن نفسه إذا كان ابتكارياً، وبالفكرة التي يوحيها إليك الفن عن الفن نفسه وعن الفنان ثم عن الطبيعة إذا كان تقليديا.
ولننظر بادئ الأمر فيم تنشأ منه عاطفة الجمال في الفن الابتكاري كالريازة مثلا. ففي أي بنية من البنايا تجد الوحدة، والتنوع، والترتيب، والتناظر، والتناسب، والتوافق، تؤلف منها كلاً منتظما ما في ذلك شك؛ ولكنك لا تجد في ذلك الكل جمالا إذا لم يكن من العظمة أو الوفرة أو الذكاء على درجة تثير في نفسك الإعجاب والدهش. وهل تجد في العمارة البسيطة مهما اتسق بناؤها واتفقت أجزاؤها ما تجد في معابد الفراعين من الجمال والجلال والروعة؟ خذ بنظرك قصراً من قصور القاهرة الحديثة شيد على قدر عادي من العناصر الجمالية الثلاثة، ثم أطل الوقوف أمامه ما شئت، تجد الفن فيه نازلا على حكم القواعد الموضوعة، ولكنه عيي صامت لا يحدثك لا عن نفسه ولا عن صانعه؛ ثم قف تلك الوقفة أمام معبد الكرنك أو هيكل الأقصر أو هرم الجيزة، تجد نفسك المسبوهة المشدوهة موزعة بين سمو الفن في ذاته، وعظمة الفنان في حقيقته. لا جرم أن هذه الأبنية الضخمة الفخمة أقل تناسقاً وتوافقاً من تلك، ولكن القوة التي أقامت هذه الأعمدة، ورفعت تلك الصخور، ونصبت هذه التماثيل، وصنعت تلك المحاريب؛ والوفرة التي تراها في الشكول المختلفة، والصور الناطقة، والرسوم الدقيقة، والكتابة الرمزية، والأصباغ الحية، والمادة العجيبة؛ والذكاء الذي يروعك في ابتكار الوسائل الميكانيكية لنقل هذه الأجرام الهائلة من مناحتها في الجبل، إلى مثابتها في الجو، لتصارع الفناء الذي لا يفتر، وتضارع الدهر الذي لا يبيد؛ هي التي حققت فيها ذلك الجمال، وألقت عليها هذه الروعة، وربطت في ذهنك بين فكرتك عن الصنيع وفكرتك عن الصانع. ولو كانت نسبة الذكاء فيها على مقدار نسبة القوة، لبلغت ما لم تبلغه نواطح السحاب الأمريكية من الغاية التي ينقطع دونها الدرك!
على أن الجمال الطبيعي قد يقوم في بعض مظاهره على القوة والوفرة دون الذكاء، كما
ترى في العواصف والبراكين، ولكن الذكاء إذا أعوز في الفن ذهبت عاطفة الجمال فيه بددا بين التنافر والغرابة، إذ الطبيعة مجهولة الأسرار محجوبة المقاصد؛ وقد استراحت عقولنا منذ النشأة إلى أن تلتمس لجهالتها العلل، وتفترض لسفاهتها الحكمة؛ وليس كذلك الفنان، فأنه مسئول أمام العقل عن العلة التي أجهد من أجلها قوته، والغاية التي بدد في سبيلها ثروته. وحسبه من الذكاء ما ينفي عنه العبث؛ فإذا تيسرت له عظمة القوة في ظاهر من النظام، كفاه ذلك في إنشاء الإعجاب واتقاء النقد، لأن القوة والوفرة هما المصدران الأولان لنشأة الجمال في الفن
على أن فكرة القوة تختلف اختلافا شديدا عن فكرة الجهد؛ فكلما قلت الدلائل على هذه، كثرت الدلائل على تلك. فالخفة والظرافة والأناقة والسراح من صفات الجمال، لأنها تظهر من القوة أكثر مما تظهر من الجهد؛ ولكن إنشاء مقامة من الحروف المعجمة أو الحروف المهملة كما صنع الحريري، أو كتابة سورة من القرآن على حبة من الرز كما يصنع الخطاط السوري، عمل لا يحدث في النفس شعور الجمال، لأنه يدل على الجهد أكثر مما يدل على القوة، ويدعو إلى الرثاء أكثر مما يدعو إلى الدهش. وفي التفصيل المحكم من كلام الله، وفي السهل الممتنع من كلام الناس، كل الفروق بين القوة والجهد
كذلك لا يستعمم الفرق بين الوفرة الصناع وبين الزخرف الأخرق؛ فإن سر الإبداع في الوفرة أنها تضع اللون في مظهره، والحسن في جوهره، والمعنى في لفظه، والشيء في مكانه؛ أما الزخرف الأخرق فترف لا ينبئ عن غنى، ورهق لا يسفر عن قدرة، ولجب لا يبلغك من ورائه نغم! هو كل ما يملك الصانع من ثروة نثرها أمام عينيك في غير لباقة ولا تحفظ، ليخفي بالرياء حقيقة العجز، ويدفع بالزور تهمة العوز
إن ما قلته في الريازة ينطبق على الخطابة والموسيقى وسائر الفنون الابتكارية التي

تفصح عن قوى كبيرة ووسائل وفيرة. فالخطيب الذي يبلبل الآراء بقوة كلامه، ويسترقّ الأهواء بسحر بيانه، ويملك على الشعب نوازع القلوب فيرسله على رأيه، ويصرفه على إرادته، قد أوتي من القوة في الفن والعبقرية ما يحمل النفوس على الإعجاب بقدرته والانقياد لأمره. كذلك الموسيقي الذي يصبي المشاعر بسحر أنغامه، والشاعر الذي يسبي العقول بقوة أسلوبه وسمو إلهامه، كلاهما يعلن الجمال في قوة الفن التي يفرضها، ووفرة الوسائل

التي يعرضها، وذكاء الروح الذي يفيض على عمله النظام والانسجام والمناسبة. والقوة والوفرة هما كذلك روح هذا الجمال وسره؛ فإذا كان الانفعال الذي ينشئه الصوت أو القصيدة لطيفا يحدث اللذة، ولكنه ضعيف لا يحدث الطرب، مدحت قريحة الفنان وأطريت عذوبته الفن، ولكن الإطراء شيء آخر غير هتاف الإعجاب يبعثه سمو العبقرية وقوة الإلهام في روائع الموسيقى وبدائع الشعر

أمس وغداً

للأستاذ أحمد أمين

قرأت مرة أن سرياً أمريكياً كان له مصانع ومتاجر، كأفخم ما يكون من مصانع ومتاجر أصابتها النار فاتت عليها وقدرت الخسائر بملايين الدولارات

وكان هذا السري في السابعة والستين من عمره، ليس له قوة الشباب، ولا أمل الشباب، ولا طموح الشباب؛ وكانت ثروته الضائعة ثروة العمر، ومجهود العمر، ونتيجة العمر

أتى إليه (مكاتب) يسأله عن هذه الكارثة وأسبابها ومقدارها فأجابه: (لست أفكر في شيء من ذلك، إنما يملك على كل فكري الآن: ماذا أنا صانع غدا)

يعجبني هذا الاتجاه العملي في التفكير، فانه دليل الحياة، وعنوان القوة، ومبعث النشاط؛ فما دمتَ حيا ففكر دائما في وسائل الحياة؛ وتلك كلها أمامك لا خلفك، وفي الغد لا في الأمس

لقد دل هذا السري بإجابته على أنه يقتني عقلية أقوم مما رعته النار، ونفسية لا تفنى بفناء المال

إن الحياة الناجحة تفكر في الغد، والحياة الفاشلة تبحث في الأمس. وقديما قالوا: (إذا أفلس التاجر فتش في دفاتره القديمة). وقال الشاعر وقد رأى بني تغلب لا يعملون عملا جديدا مجيدا، ويكتفون برواية قصيدة قالها عمرو بن كلثوم التغلبي في مدحهم:

ألْهي بني تغلب عن كل مكرمةٍ ... قصيدةٌ قالها عمرو بن كلثوم

يفاخرون بها مذْ كان أوَّلهم ... يا لَلرِّجال لشعر غير مسئوم

ولأمر ما خلق الله الوجه في الأمام ولم يخلقه في الخلف، وجعل العين تنظر إلى الأمام ولاَ تنظر إلى الخلف، وأراد أن يجعل لنا عقلا ينظر إلى الأمام وإلى الخلف معا، وأن يكون نظره إلى الخلف وسيلة لحسن النظر إلى الأمام؛ فعكس قوم الفطرة الإنسانية ونظروا بعقولهم إلى الخلف وحده، وقلبوا الوضع فجعلوا النظر إلى الخلف غاية لا وسيلة

من هؤلاء الذين نُكّسوا في الخلق من إذا حدثتهم فيما هم صانعون غدا حدثوك عما صنعه آباؤهم الأولون، وكيف حاربوا وكيف انتصروا، وكيف سادوا العالم، وكيف وكيف. وهذا حق لو أتخذ وسيلة لعمل مستقبل، واستحثث به الإرادة لعمل مستقبل، وضرب مثلا لمعالجة مشاكل المستقبل؛ أما أن يكون غرضا في نفسه فحديث العجزة ومن أصيبوا بأنيميا

وضعف الإرادة (الفكر)

وممكن نكسوا في الخلق هؤلاء الذين يثيرون العداوات القديمة والأحقاد القديمة بين رجال الأمة وقادتها؛ فإذا طالبتهم أن ينظروا إلى الأمام، ويتكيفوا بما يتطلبه المستقبل، أبوا إلا أن يذكروا لك تاريخ الأمس، وحزازات الأمس، وسخائم الأمس، وما دروا أنهم بهذا يعطلون مصلحة المستقبل وخير المستقبل، أو دروا ولكنهم الماكرون الخادعون.

فليس يصح أن ينظر في الأمس إلا لتجنب أغلاط الأمس في المستقبل، والانتفاع بصواب الأمس وخطئه في المستقبل

وممن نكسوا في الخلق هؤلاء الذين جمدت عقولهم فاعتقدوا أن كل شيء كان خيره في الأمس وشره في الغد؛ فخير النحو ما وضعته سيبويه، وخير البلاغة ما قاله

الجاحظ، وخير الفلسفة ما قاله أبن سينا وأبن رشد والفارابي، وخير عصور الدين ما سبق من العصور، وخير الأخلاق أخلاق آبائنا، وأنه لم يبق في هذا الزمن إلا الحثالة من كل علم وأدب ودين وخلق، وأن العالم في ذلك كله سائر إلى التدهور دائما، فأمس خير من اليوم، واليوم خير من الغد. فهذه العقلية لا تنفع للحياة وإنما تنفع للصوامع؛ ولا تنفع للجهاد وإنما تنفع للفناء؛ ولا تنفع لمن أرادوا أن يتبوءوا مكانا في الحياة وإنما تنفع من أرادوا أن يتبوءوا مكانا في القبور. إن النحو الذي ننشده هو في المستقبل لا في الماضي؛ واللغة التي تصلح لنا وتؤدي مطالبنا في الحياة هي في المستقبل لا في الماضي؛ والأدب الذي يمثل نزعاتنا حق تمثيل هو في المستقبل لا في الماضي؛ والأخلاق التي تلائم الموقف الاجتماعي الذي نقفه اليوم هي في المستقبل لا في الماضي؛ وليس لنا من الماضي إلا ما يصلح للمستقبل بعد غربلته وإبعاد ما تعفن منه. إن موقفنا بين الماضي والمستقبل يجب أن يكون كموقف وجهنا فينا؛ وضعه الطبيعي في الأمام؛ ولكن الإنسان قد يلوي عنقه وينظر إلى الوراء إذا دعت الضرورة، ثم يعود سيرته الأولى من النظر إلى الأمام ويسير ويمضي قدما لشأنه؛ ولن ترى إنسانا طبيعيا لوى عنقه، ونظر إلى الخلف دائما

وممن نكسوا في الخلق هؤلاء الذين ينتظرون القدر؛ أولئك لم ينظروا للمستقبل، ولكن ينظرون إلى ما يفعل بهم المستقبل؛ أولئك ينفعلون ولا يفعلون، ويتأثرون ولا يؤثرون؛ وإنما مستقبلك في يدك ولك دخل كثير في صياغته، فان شئت تكن فقيرا، وإن شئت تكن

غنيا إلى حد كبير وإن شئت تكن سعيدا، وإن شئت تكن شقيا؛ وليس يستسلم للقدر إلا من فقد إرادته وأضاع إنسانيته

لقد أتى على الناس زمان كان الاستسلام للقدر عنوان (الولاية) ورمز القداسة، وكلما أمعن الإنسان في التجرد عن الدنيا أمعن الناس في تعظيمه وتبركوا به ولثموا يده؛ ولكن هذا تقدير الماضي أما تقدير اليوم والمستقبل فالولاية والقداسة في العمل، والولي أو القديس المصلح، وهو الذي يبني المجد بعمله لأمته وللإنسانية؛ وهو الذي يواجه العمل في شجاعة وإقدام، لا الذي يفر من الميدان؛ وهو الذي يرسم خطة العمل وينفذها، لا الذي يعزى عن الكوارث ويعود المرضى ويلطف وقع البؤس؛ وهو الذي يشق الطريق لمحو الفقر عن الفقراء والبؤس عن البؤساء، لا الذي يذرف الدمع ويوصي بالصبر على احتمال الفقر من غير حث على العمل، والتفكير في طرق الخلاص من البؤس؛ وليس الولي والقديس من يحلم بل من يعمل

مضى الزمن الذي كنا نرصد فيه النجوم لنتطلب السعادة من سلطانها، ونتجنب الشقاء في أوقات نحسها، وأصبحنا نشعر بان النحس نحس الخلق وموت الإرادة، والسعادة حياة النفس وتفتح الأمل، والمشي في مناكب الأرض، وإعمال اليد والعقل في جلب الرزق، وجلب الخير، ودفع الشر، ودفع البؤس والفقر

خير لك إن كنت في ظلمة أن تأمل طلوع الشمس غدا من أن تذكر طلوعها أمس؛ فلكل من الظاهرتين أثر نفسي معاكس للآخر، ففي ترقبك طلوع الشمس غدا الأمل والطموح إلى ما هو آت، وفي هذا معنى الحياة؛ وفي تذكرك طلوعها أمس حسرة على ما فات، وألم من خير كنت فيه إلى شر صرت فيه، وفي ذلك معنى الفناء

وفرق كبير بين من يُلطَم اللطمة فلا يكون له وسيلة إلا البكاء، وتذكر اللطمة ثم البكاء، ثم تذكر اللطمة ثم البكاء، وبين من يلطم اللطمة فيستجمع قواه للمكافحة. والحياة كلها لطمات، وأعجز الناس من خارت قواه أمام أول لطمة فهرب. ولو أنصف الناس لقوموا الناس بمقدار كفاحهم، لا بمقدار فشلهم ونجاحهم

شر ما ألاحظ في الشرق حنينه الشديد إلى الماضي، لا أمله القوى في المستقبل، واعتقاده أن خير أيامه ما سلفت لا ما قدمت، وإعجابه الشديد بأعمال الماضين وإهمال المعاصرين؛

له منظاران: منضار مكبر يلبسه إذا نضر إلى الماضيومنظار مصغر اسود يضعه إذا نظر إلى الحاضر والمستقبل. يلذه أن يطيل البكاء على الميت، ولا يلذه أن يتدبر فيما يجب أن يفعله الأحياء؛ يستسهل النفقات مهما عظمت على الميت، ويستكثر نفقات الطبيب وأثمان الدواء للمريض. يعجبهم أن يتمثلوا الأمثال تدل على عظم الماضي، ولا يعجبهم أن يتمثلوا الأمثال تبعث الأمل في المستقبل؛ ففي أعماق نفوسهم أن قول القائل: (ما

ترك الأول للآخر) خير من القول: (كم ترك الأول للآخر). ويلوكون دائما: (لا جديد تحت الشمس)، ولا يعجبهم أن تقول إن كل ما تحت الشمس في جدة مستمرة، والمستقبل مملوء بالجديد. وإذا رأوا كلمة في كتاب قديم تدل ولو دلالة كاذبة على نظرية جديدة طاروا بها فرحا، لأن ذلك يلائم ما نفوسهم من تعظيم الماضي وتحقير الحاضر والمستقبل. هم يعيشون في أحلام، ولا يريدون أن يعيشوا في حياة واقعة، وحول هذه المعيشة الحالمة ينسجون دائما ما يوافقها ويمازجها ويسايرها؛ يكتفون بالأمل أن ينعموا بالآخرة؛ وماذا عليهم لو عملوا لينعموا في الدنيا والآخرة؟

أحمد أمين

المجنون - 2

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

ورأيت المجنونين يدخلان معا فكأنما سدا الباب وسوياه بالبناء، وتركا الغرفة حائطا مصمتا لا باب فيه مما اعتراني من الضيق والحرج؛ وقلت في نفسي: إنه لا مذهب للعقل بين هذين إلا أن يعين كلاهما على صاحبه، فأرى أن أدعهما وأكون أنا أُصرفهما؛ ويا ربما جاء من النوادر في اجتماع مجنونين ما لا يأتي مثله من عقلين يجتمعان على ابتكاره؛ غير أني خشيت أن أكون أنا المجنون بينهما، ثم لا آمن أن يثب أحدهما بالآخر إذا خطرت به الخطرة من شيطانه، فرأيت أن يكون لي ظهير عليهما، إن لم يحق به العون فلا أقل من أن يطول به الصبر. . وكان إلى قريب مني الصديق ا. ش. فأرسلت في طلبه

أما هذا المجنون الثاني الذي جاء به (نابغة القرن العشرين) فقد رأيته من قبل، وهو كالكتاب الذي خلطت صحفه بعضها في بعض فتداخلت وفسد ترتيبها، وانقلب بذلك العلم الذي كان فيها جهلا وتخليطا يثب الكلام بعد كل صفحة إلى صفحة غريبة لا صلة لها بما قبلها ولا ما بعدها

وهو طالب أزهري كان همه أن يصير حافظا كالحفاظ الأقدمين من الرواة الفقهاء، فجعل يستظهر كتابا بعد كتاب ومتنا بعد متن؛ وكانت له أذن واعية فكل ما أفرغ فيها من درس أو حديث أو خبر، نزل منها كالنقر على آلة كاتبة، فينطبع في ذهنه انطباع الكتابة لا تمحى ولا تنسى

ثم التاث هذه اللوثة وهو يحفظ متنا في فقه الشافعي رضي الله عنه، فغبر سنين يتحفظه، كلما انتهى إلى آخره نسيه من أوله؛ فيعود في حفظه وربما أثبت منه الشيء بعد الشيء، ولكنه إذا بلغ الآخر لم يجد معه الأول؛ فلا يزال هذا دأبه لا يمل ولا يجد لهذا العناء معنى، ولا يزال مقبلا على الكتاب يجمعه ثم لا يزال الكتاب يتبدد في ذاكرته.

وترك المعهد الذي هو فيه وتخلى في داره للحفظ وأجمع أن لا يدع هذا المتن أو يحفظه كأن فيه الموضع الذي فارقه عقله عنده، وبذلك رجع المسكين آلة حفظ ليس لها مساك؛ وأصبح كالذي يرفع الماء إلى البحر، ثم يلقيه في البحر، لينزح البحر . . .

وجاء ا. ش فقلت له وأومأت إلى المجنون الأول: هذا نابغة القرن العشرين

قال: وهل انتهى القرن العشرون فيعرف من نابغته؟

فقلت للمجنون: أجبه أنت. فسأله: وهل بدأ القرن الواحد والعشرون؟ قال لا

قال: فان هذا الذي إلى جانبي نابغة القرن الواحد والعشرين. . . فكما جاز أن يكون هو نابغة قرن لم يبدأ، جاز أن أكون أنا نابغة قرن لم ينته

قلت: ولكنك زدت المشكلة تعقيدا من حيث توهمت حلها. فكيف يكون معك في آن وبينك وبينه خمس وستون سنة؟

فنظر نظرة في الفضاء، وهو كلما أراد شيئا عسيرا نظر إلى اللاشيء. . . ثم قال: هذه الأمور لا تشتبه إلا على غير العاقل. . . وكيف لا يكون بيني وبينه خمس وستون سنة وأنا أتقدمه في النبوغ بأكثر من علم العلماء في خمس وستين سنة. . .؟

قلت للآخر: أكذلك؟

قال: مما حفظناه عن الحسن: أدركنا قوما لو رأيتموهم لقلتم مجانين، ولو أدركوكم لقالوا شياطين. . .

فضحك الأول وقال: إنه تلميذي

قال الثاني: لقد صدق فهو أستاذي ولكنه حين ينسى لا يذكّره غيري. . .

. . .قلت: لا غرو؛ (فما حفظناه) عن الزهري: إذا أنكرت عقلك فقدحه بعاقل
فغضب نابغة القرن العشرين وقال: ويح لهذا الجاهل، الأحمق، الجاحد للفضل، مع جنونه وخبله. أيذكّرني وهو منذ كذا وكذا سنة يحفظ متنا واحدا لا يمسكه عقله إلا كما يمسك الماء الغرابيل؟ صدق والله من قال: عدو عاقل خير؛ خير؛ خير. فقال الثاني: خير من صديق جاهل، ها أنذا قد ذكرتك من نسيان، وهانت ذا رأيت
فضحك النابغة وقال: ولكني لم أرد أن أقول هذا، بل أريد أن أؤلف كلاما آخر. . . . . .عدوا عاقل خير، خير، خير؛ خير من مجنون جاهل . . . . . .
ورأيت أن في التقاء مجنونين شيئا طريفا غير جنونهما، وصح عندي أن المجنون الواحد هو المجنون؛ أما الاثنان فقد يكون من اجتماعهما وتحاورهما فن ظريف من التمثيل إذا وجدا من يصرفهما في الحديث، ويستخرج ما عندهما، ويستكشف منهما قصتهما العقلية. . . . . .
ولم أكن أعرف أن (نابغة القرن العشرين) من المجانين الذين لهم أذن في غير الأذن، وعين في غير العين، وأنف بغير الأنف؛ إذ تتلقى أدمغتهم أصواتا وأشباحا وروائح من ذات نفسها لا من الوجود، وتدركها بالتوهم لا بالحاسة، فتتخلق هواجسهم خلقا بعد خلق، وتخطر الكلمة من الكلام في ذهن أحدهم فيخرج منها معناها يتكلم في دماغه أو يمشي أو يلاطفه أو يؤذيه أو يفعل أفعالا أخرى
وبينما أنا أدير الرأي في إخراج فصل تمثلي من الحوار بين هذين المجنونين، إذ قال (نابغة القرن العشرين): صه، إن جرس (التلفون) يدق
قال ا. ش: لا أسمع صوتا وليس ههنا تلفون
فاغتاظ المجنون الآخر وقال: إنك تتقحم على النوابغ ولست من قدرهم، وما عملك إلا أن تنكر، والإنكار، ويلك، أيسر شيء على المجانين وأشباه المجانين، والعامة وأشباه العامة؛ وقد أنكرت نبوغه آنفا وأراك الآن تنكر (تلفونه) . . . . .
قال ا. ش: وأين التلفون وهذه هي الغرفة بأعيننا؟
فضحك (نابغة القرن العشرين) وقال: صه ويحك لقد خلطت على؛ إن الجرس يدق مرة أخرى وأنا لا أريد أن أكلمها حتى يطول انتظارها، وحتى تدق ثلاث مرات، وأخشى أن تكون قد دقت الثالثة وذهب رنينها في صوتك ولغطك
قال المجنون الآخر: هي صاحبته التي يهواها وتهواه؛ وقد استهامها وتيمها وحيرها وخبلها حتى لا صبر لها عنه، فوضعت له تلفونا في رأسه. . . . . .
قال (النابغة): وهذا التلفون لا يسمعني صوتها فقط، بل ينشقني عطرها أيضا. وقد تكلمني فيه الملائكة أحيانا، وأنا ساخط هذه الحبيبة فأنها غيور تخشى سطواتها على اللاتي تغار منهن؛ ولولا ذلك لكلمتني في هذا التلفون إحدى الحور العين. . . قلنا: أو تغار منها الحور العين؟
قال المجنون الثاني: بل الأمر فوق ذلك، فان الحور العين يشتمنها ويلعنها؛ (فمما حفظناه) هذا الحديث: لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين: لا تؤذيه قاتلك الله؛ فإنما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقك إلينا
قال (نابغة القرن العشرين): ويلي على المجنون! إنه يريد أن يخلوا له موضعي فهو يتمنى
هلاكي وانتقالي وشيكا من هذه الدنيا. وهو يقول بغير علم لأنه أحمق ليس له عقدة من العقل، فيزعم أنها تؤذيني، ولو هي آذتني لغضبت قبل ذلك، ولو غضبت لرفعت التلفون. صه إن الجرس يدق
قال ا. ش: إن للنوابغ لشأنا عجيبا، ففي مديرية الشرقية رجل نابغة ماتت زوجته وتركت له غلاما فتزوج أخرى وهو يعيش في دار أبيه. فلما كان عيد الأضحى سأل أباه مالا يبتاع به الأضحية فلم يعطه. وهو رجل يحفظ القرآن فذكر قصة إبراهيم عليه السلام ورؤياه في المنام أنه يذبح أبنه، فخيل إليه أن هذا باب النبوة وأن الله قد أوحى إليه، فأخذ الغلام في صبيحة العيد وهم بذبحه. ولولا صرخ الغلام فأدركه الناس فاستنقذوه. . .
قال (نابغة القرن العشرين): هذا مجنون وليس بنابغة؛ بل هذا من جهلاء المجانين؛ بل هو مجنون على حدته. وقد رأيته في البيمارستمان حين كنت أنا في المستشفى. . . فكان يزعم أنه ائتمر في ذبح غلامه بإرادة الله. ولو كانت إرادة الله لنفذت بالذبح، ولو

. . .كان الأمر وحيا لنزل عليه من السماء كبش يذبحه
وهكذا أنا في المنطق (نابغة القرن العشرين)
ثم إنه أشار إلى المجنون الثاني وقال: وأنا أتقدم هذا في النبوغ بأكثر من علم العلماء في خمس وستين سنة كاملة
قلت: ولكنك ذكرت هذا من قبل فلم عدت فيه الآن؟
قال: إن السبب قد تغير فتغير معنى الكلام؛ وقد بدا إلى أنه يتمنى هلاكي ليكون هو نابغة القرن العشرين. فمعنى الكلام الآن: أنه لو عاش خمسا وستين سنة (يحفظ المتن) لما بلغ مبلغي من العلم. هذا رجل نصفه ميت جنونا موتا حقيقيا، ونصفه الآخر ميت جهلا بالموت المعنوي
قال ا. ش: حسبه أن يقلدك تقليد العامي لإمامه في الصلاة؛ وعسى ألا تستكثر عليه هذا فأنه تلميذك
قال المجنون الثاني (مما حفظناه): لو صُوِّر العقل لأضاء معه الليل، ولو صور الجهل لأظلم معه النهار. . . ونابغة القرن العشرين هذا لا يعرف كيف يصلي، فقد وقف منذ أيام يصلي بالشعر. . . ولما رأيته ناسيا فذكرته ونبهته أن الصلاة لا تجوز بالشعر، التفت إلي
. . .وهو راكع فسبني وشتمني وصرخ في وقال: ما شأنك بي هل أنا أصلي لك أنت
فغضب (النابغة) وقال: والله إن تحسبونني إلا مجنونا فتريدون أن يقلدني هذا الأحمق الذي ليس له رأي يمسكه. ولولا ذلك لما اعتقدتم أن تقليدي من السهل الممكن، ولعرفتم أن نابغة القرن العشرين نفسه لم يستطع تقليد نابغة القرن العشرين
قلنا: هذا عجيب، وكيف كان ذلك؟
فضحك وقال: لا أعدّكم من الأذكياء إلا إذا عقلتم كيف كان ذلك
قال ا. ش: هذا لم يعرف مثله فكيف نعرفه، ولم يتوهمه أحد فكيف نتوهمه؟
وقلت أنا: لعلك رأيت نفسك في الرؤيا
قال: لو لم تكن أستاذ نابغة القرن العشرين لما عرفتها؛ وهذا نصف الصواب؛ وما دمت أستاذي، فلو أننا اختلفنا في رأي لكان لي صوابا لأنه منك، وكان خلافي لك صوابا لأنه مني؛ فأنت (غير مخطئ) وأنا مصيب، وإذا أسقطنا كلمة (غير) أضل أنا مصيبا وتكون أنت مخطئا. . .
أنا لم أر (نابغة القرن العشرين) في الرؤيا ولكني رأيته في المرآة عند الحلاق. . . ورأيته يقلدني في كل شيء حتى في الإشارة والقومة والقعدة، ولكني صرخت فيه وسببته ففتح فمه ثم خافني ولم يتكلم. . .
وأومأ إلى المجنون الآخر وقال: وأنا أتقدم هذا في النبوغ بأكثر من علم العلماء في خمس وستين سنة
قال ا. ش: لقد قلتها مرتين كلتاهما بمعنى واحد، فما معناك في هذه الثالثة؟
قال: هذا الغِرّ يزعم أني لا أعرف كيف أصلي، ويستدل بذلك بأني صليت بالشعر وأني شتمته وأنا راكع؛ ولو كان عاقلا لعلم أن شتمي إياه وأنا راكع ثواب له. . . ولو كان نابغة لعلم أن الشعر كان في مدح دولة النحاس باشا وأولى التُّهى
قلنا: ولكن الشعر على كل حال لا تجوز به الصلاة ولو في مدح دولة النحاس باشا
قال: لم أصل به ولكن خطر لي وأنا أصلي أني نسيت القصيدة فأردت أن أتحقق أني لم أنسها. . . فإذا أنا نابغة القرن العشرين في الحفظ وهي ستة أبيات. لا كهذا المعتوه الذي صبر على المتن صبر الغريب على الغربة الطويلة ومع ذلك لم يحفظه
قال ا. ش: فأملِ علينا هذا الشعر. فأملى عليه
يا حليف السُّهْد قل لي ... أين مَنْ في الدهر خالْ
إن تكن تهوى غزالا ... أكحل العينين مالْ
أنا أهواها ولكن ... لا سبيل إلى الوصالْ
منذ ولّت قلتُ مهلاً ... منذ غابت في خيالْ
أنا مجنونٌ بليلى ... ليلَ يا ليلى! تعالْ
قلنا ولكن ليس هذا مدحا. فضحك وقال: أردت أن تعرفوا أني أقول في الغزل، أما المديح فهو:
شغفَ الورى بمناصبٍ وأماني ... وشَغَفْتَ يا نحاسُ بالأوطان

حسبوا الحياةَ تفاخرا وتنعّما ... وحسِبتها للهِ والأوطان
ثم ارتَجّ عليه فسكت. قال المجنون الآخر: إنها ستة أبيات، وقد نسيت أربعة، ولست أريد أن أذكرك
فقال (النابغة): أظنه قد حان وقت الصلاة وأريد أن أصلي. . . ونظر إلى اللاشيء في الفضاء ثم قال. والبيت الأخير:
لا أبتغي في المدح غيرَ أولي النُّهى ... أو صادق أو شوقي أو مطران
ثم أمر ا. ش أن يقرأ عليه الشعر فقرأه، فقال: أحسنت، أنظر إلى فوق؛ فنظر، ثم قال انظر إلى تحت؛ فنظر ثم سكت
. . .قال ا. ش: وبعد؟ قال: وبعد فإن الناس ينظرون إما إلى فوق وإما إلى تحت وكان الضجر قد نال مني، فرجوت ا. ش. أن يلبث معهما وأذنت لنابغة القرن العشرين أن يلقاني في الندى وانصرفت
قال ا. ش وهو يُنبّئني: فما غبت عنا حتى أخذ المجنون يشكو ويتوجع ويقول: لقد حاق بي الظلم، وإن (الرافعي) رجل عسوف ظالم لأني أكتب له كل مقالاته التي ينشرها في (الرسالة). . . وأجمع نفسي لها، واجهد في بيانها، وأذيب عقلي فيها، وهو مستريح وادع، وليس إلا أن ينتحلها ويضع توقيعه عليها ويبعث بها إلى المجلة ثم يقبض هو فيها الذهب وينال الشهرة ولا يدفع لي عن كل مقالة إلا قرشين. . .
قال ا. ش: فما يمنعك أن ترسل أنت هذه المقالات إلى المجلة فتقبض فيها الذهب، . . .قال: إن هناك أسرارا أنا محصنها وكاتمها، ولا ينبغي أن يعلمها أحد فأنها أسرار قال له فدع (الرافعي) واكتب لي أنا هذه المقالات وأنا أعطيك في كل مقالة ذهبين لا قرشين
قال هذه أسرار ولا أستطيع أن اكتب ' إلا للرافعي، لأن (نابغة القرن العشرين) لا يجوز أن يدعي كلامه إلا أستاذ نابغة القرن العشرين، ولو ادعاه غيره لكان هذا حطا من قدر نابغة القرن العشرين. وهذا بعض الأسرار لا كل الأسرار. . .
قلت ثم جاء المجنونان في العشية إلى الندى
(لها بقية)
مصطفى صادق الرافعي
الصقالبة في الرواية العربية - 1
وفي الدولة الأندلسية
للأستاذ محمد عبد الله عنان
لم يعن العرب في فتوحاتهم الأولى بتعيين الأمم والأجناس الأجنبية تعيينا واضحا، وإذا استثنينا الفرس والروم والقبط والبربر والقوط، فإن هذا التصنيف للأمم والأجناس الأجنبية يتخذ في الرواية الإسلامية صفة التعميم الغامض، فنجد كلمات (الأعاجم) و (النصارى) و (الفرنج) تطلق على أمم وأجناس متباينة لا يمكن تحديدها وتعيينها إلا على ضوء الحوادث والظروف؛ بل نجد كلمة (الروم) ذاتها تطلق في الرواية الإسلامية الأولى على الرومان وعلى سكان الدولة الشرقية (الدولة البيزنطية) اليونانيين أحياناً على سكان المستعمرات الرومانية مثل الشام وطرابلس؛ وتطلق كلمة الفرنج لا على أمة الفرنج (الفرنكيين) وحدها، بل على معظم الأمم والممالك النصرانية التي كانت تعيش يومئذ في غرب أوربا وفي وسطها؛ ولم تعن الرواية الإسلامية بالتصنيف والتحديد في هذا الميدان إلا منذ القرن الثالث الهجري، وفي القرن الرابع نجد هذا التصنيف القومي أكثر وضوحا سواء من حيث اللفظ أو المعنى، فنجد الرواية الإسلامية تحدثنا عن الفرنج والألمان (الألمان) والبلغار والروس والصقالبة، وعن انكبردية (بلاد اللومبارد) والفرنسة وبريطانية؛ وهذا التقدم في تصنيف الأجناس والأمم يرجع إلى تقدم مماثل في الجغرافية الاسلامية، وإلى تقدم العلائق والصلات الدبلوماسية والتجارية بين الأمم الإسلامية والأمم النصرانية
وقد كانت كلمة (الصقالبة) من أغمض الكلمات التي أطلقت في الروايات الإسلامية على الأجناس الأجنبية الدخيلة؛ ولم يبق اليوم ثمة غموض في تعريف البلدان والأمم الصقلبية، فهي تشمل قسما من بلاد البلقان وتشمل صربيا ورومانيا وروسيا حتى الشرق الأقصى وبولونيا وتشيكوسلوفاكيا وشرق ألمانيا؛ وبعبارة أخرى هي الأمم التي تعرف اليوم بالأمم (السلافية) أو السلافونية ; ولكن كلمة (الصقالبة) في الرواية

الإسلامية كانت بعيدة جداً عن أن تشمل مثل هذا التصنيف الواسع، ومع أننا نراها مستعملة في الرواية الإسلامية منذ القرن الثاني للهجرة، فأنها لبثت دائما لفظا غامضا متباين المعنى. فمثلا يستعملها البلاذري، وهو من أقدم رواة الفتوح الإسلامية في أكثر من مناسبة؛ فيقول لنا إن المنصور (نقل
الخصوص وهم فرس وصقالبة وأنباط ونصارى من المصيصة وكان مروان أسكنهم إياها)؛ ومن الصعب أن نضبط المعنى الذي ينصرف إليه لفظ (الصقالبة) في هذا العصر المتقدم. بيد أنه يلوح لنا أن الكلمة كانت تطلق حتى القرن الثالث على سكان بلاد الخزر (قزوين) والقوقاز وما إليها، ثم اتسع معناها نوعا وأطلقت على سكان البلقان المتاخمين للدولة البزنطية مثل البلغار؛ وقد كان الصقالبة في الواقع يستعمرون هذه الأنحاء في تلك العصور، وكانت لهم في بلغاريا مملكة (صقلبية) حقيقية. وكان معنى الكلمة أوضح وأدق في الغرب الإسلامي في الأندلس وصقلية والمغرب، حيث كانت تطلق على الأجناس الصقلبية الحقيقية التي تسكن حوض الدانوب الشرقي والأوسط وألمانيا وضفاف الادرياتيك، ويؤتى منها إلى الأندلس والمغرب بالخصيان والأسرى؛ ويعرف الشريف الإدريسي بلاد الصقالبة بأنها هي شبه جزيرة البلقان، وهو في الواقع معنى أقدم من عصر الإدريسي، بيد أن الإدريسي يشير على ما يظهر إلى التحديد السياسي حيث كانت مملكة الصقالبة (بلغاريا) تسود يومئذ بلاد البلقان
وعرف الصقالبة وعرفتهم القصور الإسلامية في عصر مبكر جدا، فمنذ الدولة الأموية نجدهم في بلاط الخليفة وفي الجيش؛ ولكن نفوذهم الحقيقي في القصور الإسلامية يبدأ منذ القرن الرابع الهجري، فنراهم عندئذ يتقلبون في الوظائف والمهام العليا بعد أن كانوا يقتصرون على تقلد الوظائف والمهام الصغرى في البلاط وداخل القصر، مثل وظائف الخدمة السلطانية والنظر على الشؤون المنزلية المحضة كشؤون المائدة والثياب والرياش، ونراهم يسيطرون على شؤون الدولة العليا، فيتولون الوزارة والقيادة والوصاية أحيانا ويسود نفوذهم في القصر وفي الحكومة. وقد كان هذا النفوذ يرجع في الغالب إلى سياسة الدول والأسر، تعمل لرعايته وإيثاره لبواعث سياسية واجتماعية؛ وسنقتصر هنا على معالجة مركز الصقالبة ونفوذهم في الأندلس حيث كانت لهم دولة وكان لهم أيما نفوذ

كانت سياسة الدولة الأموية بالأندلس تقوم منذ البداية على اصطناع الموالي والصقالبة واتخاذهم أداة وبطانة؛ وكانت الظروف العصيبة التي أحاطت بقيام الدولة الأموية في الأندلس، والخطوب والثورات الجمة التي تفجرت حول عبد الرحمن الداخل والتي أثارها
خصومه ومنافسوه من زعماء القبائل العربية، هي التي حملته على الاسترابة بالعرب وعلى اصطفاء البربر والموالي الذين آزروه وقت المحنة ومكنوه من توطيد زعامته وإمارته؛ وقد حافظ خلفاء الداخل على هذه السياسة في جوهرها منذ البداية لشعورهم بأهميتها وضرورتها لمقاومة نفوذ القبائل الخصيمة التي كانت تتقاسم السلطان والنفوذ قبل قيام الدولة الأموية؛ وظهر الصقالبة بكثرة لأول مرة في البلاط الأندلسي في عهد الحكم المنتصر حفيد عبد الرحمن الداخل (188 - 206هـ)؛ وكان الحكم يعشق مظاهر الفخامة والملك فغص البلاط الأموي في عصره بالخدم والحشم من المماليك والصقالبة حتى بلغ عددهم زهاء خمسة آلاف وأخذ نفوذ أولئك الصقالبة يقوى شيئا فشيئا داخل القصر والبطانة. بيد أنه لبث مدى حين بعيدا عن الشؤون الدولة العليا قاصرا على شؤون القصر والخاص
وفي عهد الناصر قوى نفوذ الصقالبة وازدهر؛ وكان الناصر يجري على سنة سلفة عبد الرحمن الداخل في الاسترابة بالقبائل العربية ذات العصبية والبأس وفي إقصاء زعمائها عن مناصب النفوذ والثقة؛ وكان يمعن في الاستئثار حتى لقد ألغى وظيفة الحاجب، وجمع مقاليد الحكم كلها في يده؛ وعهد بالمناصب الكبيرة إلى رجال وضيعي المنبت من الصقالبة والموالي المعتقين أو الأرقاء؛ وهم رجال لا إرادة لهم يوجههم كيفما شاء؛ وكان يثق بالصقالبة بنوع خاص ويوليهم من النفوذ مالا يوليه سواهم ومنذ أواسط عهد الناصر يبدأ نفوذ الصقالبة الحقيقي في بلاط قرطبة. وقد كانت كلمة

الصقالبة تطلق في الأندلس كما قدمنا على الأسرى والخصيان من الأجناس الصقلبية الحقيقة؛ ولكنها غدت تطلق بمضي الزمن على جميع الأجانب الذين يخدمون في البطانة وفي الجيش؛ ولما استحكم نفوذ الصقالبة واستأثروا بحماية الخليفة والقصر، أضحت الكلمة تطلق منذ عهد الحكم المستنصر على الحرس الخلافي وقد انتهت إلينا عن صقالبة الأندلس في العصر رواية شاهد عيان هو الرحالة البغدادي أبن حوقل الذي زار قرطبة والزهراء في أواخر عهد الناصر أو أوائل عهد أبنه الحكم المستنصر وبحث أحوال الصقالبة وكتب عنهم في رحلته ما يأتي:

وبالأندلس سلاح كثيرة ترد إلى مصر والمغرب، وأكثر جهازهم الرقيق من الجواري) والغلمان من سبي فرنجة وجليقية. والخدم الصقالبة وجميع من على وجه الأرض من الصقالبة الخصيان من جلب الأندلس، لأنهم بها يخصون، ويفعل ذلك بهم تجار اليهود عند قرب البلد؛ وجميع ما يسبى إلى خراسان من الصقالبة فباقي على حالته، ومقر على صورته. وذلك أن بلد الصقالبة طويل فسيح، والخليج الآخذ من بحر الروم ممتد على القسطنطينية واطرابذنده يشق بلدهم بالعرض، فنصف بلدهم بالطول يسبيه الخراسانيون ويصلون، والنصف الشمالي يسبيه الأندلسيون من جهة جليقية وأفرنجة وانكبرده وقلورية، وبهذه الديار من سبيهم الكثير الباقي على حاله)، ومعنى ذلك أن الصقالبة الأندلسين كانوا مزيجا من الجليقيين (النصارى الأسبان) والألمان والفرنسيين (أهل افرنجة) واللومبارديين (أهل انكبردة) والايطاليين من (قلورية) وكذلك الروس وهم أهل القسم الأول من بلاد الصقالبة. وكان معظم هؤلاء الصقالبة يؤتى بهم أطفالا من الجنسين بواسطة خوارج البحر (القرصان) وتجار الرقيق، وتحملهم سفن القرصان أو سفن البنادقة إلى مختلف ثغور البحر الأبيض؛ وكانت الكنيسة تقاوم هذه التجارة المثيرة وتحرمها؛ بيد أنها كانت تجري في روما عاصمة النصرانية ذاتها؛ وفي معظم الثغور الإيطالية. وكانت الحرب مصدرا آخر لجلب هؤلاء الصقالبة، ففي كثير من الغزوات الإسلامية المنظمة لأمم النصرانية؛ وفي الحملات والغزوات البحرية الناهبة كان المسلمون يغنمون كثيرا من السبي والأسرى صغارا وكبارا، ومنهم الصقالبة الذين يخدمون جندا مرتزقة في معظم الجيوش النصرانية؛ هذا عدا الرقيق والأسرى من مختلف الجنسيات والأمم يتدفقون على الثغور والعواصم الإسلامية عقب كل فتح أو غزوة ناجحة وكان الصقالبة يختارون في الغالب أطفالا من الجنسين، ويربون منذ الحداثة تربية عربية حسنة، ويلقنون مبادئ الإسلام؛ وقد بلغ بعضهم في النثر والنظم وصنفوا الكتب والقصائد، وبلغوا في عهد الناصر قسطا وافرا من السلطان والنفوذ، واحتلوا الوظائف الكبرى في القصر وفي الإدارة والجيش، وأحرزوا الضياع والأموال الوفيرة؛ وفاق عددهم في عهد الناصر أي عهد آخر حتى قدر بعض المؤرخين عددهم يومئذ في القصر والبطانة بثلاثة عشر ألفا وسبعمائة وخمسين، وبلغوا في رواية أخرى ستة آلاف وثمانين، وفي رواية ثالثة ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسين؛ وعلى أي حال فقد كان منهم الحرس الخلافي، ورجال الخاص والحشم، وكان الناصر يمد لهم في السلطان والنفوذ

ويرغم أشراف العرب وزعماء القبائل على الخضوع لهم ليذل بذلك أنوفهم ويسحق هيبتهم بل كان كل منهم في الناصر قائد الجيش الأعلى نجدة، ومعظم أكابر القادة والضباط، وكان منهم أفلح صاحب الخيل ودرى صاحب الشرطة؛ ومنهم ياسر وتمام صاحبا النظر على الخاص وكان لهذه السياسة غير بعيد أسوأ الأثر في انحلال الجيش وفتور قواه المعنوية لما جاشت به صدور الضباط والجند العرب من الحفيظة والسخط على هذه السياسة المهينة؛ وكانت هزيمة الناصر في موقعة الخندق الشهيرة (الانديجا) أمام نصارى الشمال (327هـ - 939م) ترجع من وجوه كثيرة إلى هذا الانحلال المعنوي الذي سرى إلى الجيش من جراء الأحقاد القومية والطائفية

للبحث بقية

(النقل ممنوع)

محمد عبد الله عنان

من ذكريات لبنان

الحذاء الذهبي

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

(!استيقظت)
وكانت قد أغفت، وهي قاعدة على دكة تحت شجرة صنوبر، وذراعها على سور النافورة، ويسراها على حجرها، ثم فركت عينيها فقلت:
(!والآن أرجو أن يلهمها الله ألا تغير جلستها، فإنها هكذا أحلى)
فحطت ساقا عن ساق، وتناولت حقيبتها الصغيرة وفتحتها ونظرت في المرآة، ثم أخرجت منديلا، وجعلت تلمس به وجهها في مواضع فقلت:
ولها جيد جميل أيضا - وأناملها مخضبة. . . الآن صرت لا أرى عيبا في قول من يقول) (!إن هذا من دم العشاق
فابتسمت وقالت - كأنها تحدث نفسها - (ماذا يقول هذا الرجل؟)
فقلت، وأنا أنكث الأرض بعود صغير في يدي: (إنه يسأل: أتراك زوجته؟)
فزوت ما بين عينيها وقالت: (زوجته؟ زوجة من؟)
قلت: (زوجتي أنا!)
فصاحت: (إيه؟)
قلت: (زوجتي. . . تعرفين الكلمة؟. . يتهجونها هنا بالزاي والواو والجيم، أتهجاها أنا بالحاء والباء و. . .)
وكانت تنظر إلي مبهوتة، ثم ابتسمت وسألتني:
(هل تعني أنك لا تستطيع أن تعرف زوجتك حين تراها؟)
فأهملت السؤال وقلت: وأنا أشير بالعود الذي في يدي:
(. . .إنك هي. . . أو أنت عيناها، وجيدها وساقاها)
فخيل إليها أنها فهمت وقالت: (أوووه! ألك زمان طويل لم ترها؟)
قلت: (طويل جدا. . . ربع ساعة!)
فصدمها هذا فقطبت وقالت: (إنك تسخر مني) ومدت يدها إلى الحقيبة
فقلت: (لا تعجلي! ألم أقل إنك هكذا أحلى؟ وعلى ذكر ذلك أسألك: كيف يمكن أن تأكلي بهذا الفم الصغير؟)
فقالت: (إني ذاهبة. . . اسمح لي)
قلت: (إنها ذاهبة؟؟ هل سمع أحد بمثل هذا؟ ليت شعري كيف تستطيع أن تمشي بمثل هذا الحذاء الدقيق؟ ثم تجيء زوجتي فتوسعني تأنيبا!)
وكانت تهم بالقيام، فترددت، ثم سألتني:
(من أنت؟ أني أريد أن أعرف)
فقلت، وعيني إلى الأرض: (إنها تسأل؟ بداية حسنة على كل حال - خطوة في الطريق القويم - ومتى رأيت امرأة تعنى بأن تسأل من يكون الرجل، فاعلم بأن الأمل في. . . .)
فانتفضت ئمة وقالت وهي عابسة: (سأذهب)
ولكنها لم تكد تخطو خطوة واحدة حتى صرخت وارتدت فانحطت على الدكة، وانحنت فمدت يديها إلى قدمها اليمنى، فأسرعت إليها أسألها ما الخبر، وكانت قد خلعت الحذاء ودست فيه إصبعين تتحسس بهما، فقالت: (مسمار! ماذا أصنع؟)
فأخذت الحذاء ونظرت فيه ثم قلت: (من كان يتصور أن هذا الحذاء الصغير يمكن أن يسكنه مسمار ضخم كهذا؟ والآن هل يمكن أن يكون في حقيبتك عتلة أو معول أو فأس أو أي شيء أصغر أو أكبر ندق به هذا المسمار الملعون؟)
فقالت وهي تضحك: (لا تمزح من فضلك!)
قلت: (هذا أحسن - نعم يجب أن نضحك إذا لم نستطع أن نفعل ما هو خير من ذلك؟)
فقالت: (ولكن ألا تستطيع شيئا؟)
وتلفتت وقلت، أستطيع أن أضع النعل على وجهي، وأقبض على رأس المسمار بأسناني، وأشد. . . هكذا)
فصاحت بي وهي تتلوى من الضحك (أرجو. . أرجو. .)
فقلت: (أعرف ما تريدين بغير حاجة إلى رجاء. . . أن أحملك إلى حيث تقصدين)
فغاض الابتسام، واعتدلت في جلستها وقالت: (أتظن أني أسمح لك بذلك؟ مستحيل!)
قلت: (ولما لا؟ إنك أخف من الريشة، وفي وسعي - بعد قليل من التدريب - أن أظهر بك

(على المسرح، وأمشي بك على الحبل، محمولة على أسناني
فضحكت ثم قالت: (إنك فظيع!)
قلت: (بالعكس. . . إني لطيف جدا. . .)
فقاطعتني ضاحكة وقالت: (دع لطفك الآن. . .)
- قبل أن تعترفي به؟ هذا مطلب بعيد!
- وقل لي ما العمل؟
فقلت: (العمل أن تجلسي حيث أنت - وإن كنت سأحرم منظرك الفاتن وأعود إلى
(القهوة) ثم أكر إليك بالحذاء في يدي - لا في رجلي - بعد أن نطرد هذا الطفيلي
وانحدرت إلى حيث (القهوة) وعثرت مرتين أو ثلاثا، فآمنت أن العجلة من الشيطان،
ولكني مع ذلك، وعلى الرغم مما أصابني، ظللت أعدو كأن ورائي ألف كلب من كلاب
الصيد، وحرت بين أشجار القهوة فوقفت أنادي (يا حاج الياس! يا حاج الياس!)
فأقبل علي اثنان من أعوانه؛ فأشرت إليهم بالحذاء وطلبت شيئا أخرج به المسمار
وكانت زوجتي - مع أولادنا - على مقربة مني، وكانت تراني ولا أراها، فقالت: (ما
هذا؟)
فدرت حتى واجهتها وقلت، وأنا أمشي إليها:
(. . . . . .هذا؟ آه! هذا حذاء جميل)
فدهشت وسألتني: (من أين جئت به؟ أين وجدته؟)
قلت: (لا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم. . . صدق الله العظيم. . . خذي جربيه؛ اخلعي
هذا. . .)
وانتزعت حذاءها الأيمن، وذهبت أعدو به
(ولكن هذا ليس حذائي؟)
قلت: (يا فتاتي المتبطرة. . هو حذاء والسلام. . تستطيعين أن تلبسيه وتمشي به
وتقطعي أربع مائة متر، ثم تخلعيه لا شاكرة ولا مشكورة، ثم تلبسي حذاءك الجميل،
وتقعدي به كما أنت الآن. . . رشيقة أنيقة. . . فاتنة الجيد. . . ساحرة العينين. . .
وتروحي تهذري مع زوجتي التي تصب على رأسي الآن أحر اللعنات. . . ومن يدري؟ إذ
لم تعجلي قبل أن
يطغي بها الحنق والسخط، فقد تلقي بحذائك في البركة. . . إن النساء هكذا. . .
(!حذاؤك جميل، ولكن كل امرأة تعتقد أن حذاءها هي أجمل وأنفس. . . هيا بنا
فوقفت وهي تقول: (ولكني لا أستطيع أن أمشي به. . . واسع. . .)
قلت: (لا تذمي زوجتي - أعني قدمها، فأنها جميلة. . . ثم إن المشي في الحذاء واسع
خير من المشي في حذاء في جوفه مسمار. . . تعالي بالله قبل أن يغرق في البركة)
فتوقفت وصوبت عينها إلى قدميها وقالت: (ولكنه فضي وحذائي ذهبي؟)
قلت: (قوس قزح. . . تعالي. . . أترانا في معرض أزياء هنا؟ نحن في الجنة المغروسة
على جبال (الشوير) ولا أحد معنا ولا ثالث لنا إلا. . . . إلا الهوى. . . كآدم وحواء. . .
وعلى ذكر ذلك أظن أن حواء كانت تلف ذراعها بذراع آدم إذ يسيران في الجنة)
وقالت زوجتي ونحن مقبلان عليها:
(!لم أر مثلك أبدا في الدنيا)
قلت: (صدقت يا امرأة! وأين تجدين في هذه الدنيا نظيري)
قالت محتجة: (تخطف حذائي وترمي إلي هذا الـ. . .)
وأشارت بازدراء إلى حذاء الفتاة، وكان ملقى على الأرض
فقلت: (هس! إن اللص معي، أعني المسئولة عن الجريمة والمحرضة على ارتكابها)
فصاحت الفتاة وضربت بكفها على صدرها: (أنا؟)
ونظرت زوجتي إلى قدمي الفتاة ثم نهضت وأقبلت عليها وقالت، وهي تمد إليها يديها:
أوه! لم أكن أعرف؟ ولكن كيف استطعت أن تمشي فيه؟ أنه واسع. . . ورجلك)
(أصغر. . . وأجمل أيضا؟
فالتفت إلى الفتاة وقلت: (أتسمعين يا هذه؟ إنها تقر لرجلك بالمزية؛ وجيدها؟ أليس
ساحرا يا امرأة؟ ألست معذورا إذا اشتهيت أن آكله؟ وعيناها؟ وهذا الفم العجيب الذي
لا أدري كيف يتسع للكلام، وأن كان يتسع جدا الذم حذائك يا امرأة!)
فريعت الفتاة وصاحت: (أنا ذممته؟ حرام عليك!)

فقلت: نعم. . . جدا. . . قلت أنه واسع عظيم، وأنه يذكرك بالباخرة تايتانك، وأنه يسع جيشا عرمرما من الأقدام الكبيرة الغليظة، وأنه . . .
وكانت زوجتي تضحك، أما الفتاة فقد خيل إلي أنها ستسقط على الأرض
وقالت زوجتي: (فظيع! ألا تقفل هذه البوابة! لا تعبأي به يا حبيبتي ولا تلفتي إليه. . . أنه هكذا دائما. . . والآن خذي هذا المسمار واحتفظي به للذكرى)
فقلت: (وأنا؟ ما أجري على التعب؟ لقد قطعت كيلو مترا في الذهاب والإياب - قطعته عدوا. . . وهذه الأحذية على راحتي الطاهرة. . . .)
فقالت زوجتي: (جزاؤك أن تقعد مع الأولاد، ونذهب نحن نتمشى. . . .)
قلت: (هذا جزاء سنمار. . لا بأس! مجنون من يصنع معروفا في بنت من بنات حواء. . . .)
فقالت زوجتي: (هذا رأيك؟ إذن لن أدعوها إلى العشاء معنا!)
فصحت: (لا لا لا. . . إنما أعني بنت من بنات آدم)
. . . .فضحكت الفتاة، ورمتني زوجتي بفستقة
إبراهيم عبد القادر المازني
قصة المكروب
كيف كشفه رجاله
ترجمة الدكتور أحمد زكي وكيل كلية العلوم
كوخ رابع غزاة المكروب
طبيب القرية الذي ضجر بالطب لجهله أسباب الداء ثم ادعائه علاجه؛ الذي شغله البحث في أصول الأمراض عن مداواة أربابها؛ الذي حقق أحلام بستور وأثبت أن المكروب ينتج الأمراض، وأن لكل مرض مكروبا يخصه، ويخصه وحده؛ الذي علم الدنيا كيف تصطاد النوع الواحد من المكروبات، وتصطاده خالصا خاليا من الأخلاط؛ الذي كشف مكروب الجمرة الخبيثة، قاتلة الماشية والإنسان، ومكروب السل قاتل الإنسان والحيوان؛ الرجل الذي كشف مكروب الكوليرا على أرض مصر في أجسام ضحاياها. البطل الذي نزل بساحات الموت فأظلته فيها أرفع بنوده، وقاتلته على أرضها أفتك جنوده، فأسر منها على هواه، وخرج عنها سالما قد أخطأته سهامها قضاء وقدرا
المترجم
كان كوخ قد أعتزم أن يسيح في الأرض ويضرب في مجاهلها ضربا، ثم خاب، وهاهو ذا يبدأ سياحات غريبة في مجاهل أشد غرابة. إني أحيانا أقرن كوخ بلوفن هوك فأجد الأول أعجب وأغرب في صيادته المكروب وأكثر إبهاما، وأجد كليهما على السواء عصاميا في كسب العلم. كان كوخ رجلا فقيرا يرتزق من صناعة الطب، وكل ما عرف من العلم هو ما تضمنته مقررات الطب في مدارسه، وعلم الله ما كان في هذه الدراسة شيء يعلم ممارسة التجارب ويدرب في فن التجريب. ولم يكن لدى كوخ من أدوات التجربة غير ذلك المكرسكوب الذي أهدته إليه زوجه المخلصة إيمي في عيد ميلاده، أما عدا هذا من الأدوات فكان عليه أن يحتال لتدبيره وتصميمه وأن يصنع بيده من قطع الخشب وخيوط القنب وشمع الأختام. وترك يوما مكرسكوبه وفئرانه وجاء زوجه يخبرها في تحمس بالجديد المعجب الذي وجد، فما كان من السيدة الطيبة إلا أن قلصت قصبة انفها في اشمئزاز ظاهر وقالت له: ولكن يا روبرت، إنك كريه الرائحة جدا
بعدئذ وجد طريقة أكيدة ينقل بها مرض الجمرة إلى الفئران. لم يكن لديه محقن يحقن به الدم القاتل فيها في سهولة، ولكن بعد خيبات ولعنات وخسارة عدد طيب من الفئران السليمة، اهتدى إلى أن يأخذ فلقاً من الخشب فينظفها جيدا ثم يسخنها في الفرن ليقتل ما قد يكون عليها المكروبات العادية، ثم يغمسها في قطرات من دم الأغنام التي قتلتها الجمرة، ثم يدخل أطرافها بما عليها من الدم في جرح جرحه بمشرط نظيف في أذناب تلك الفئران. ولا تسألني كيف قبض عليها فسكنها وهي تترعص وتلتوي بين يديه. وكان يضع هذه الفئران في أقفاص وحدها ثم يغسل يديه، ويخرج ليعود طفلا مريضا في سبيل تخليص الذمة، ورأسه لا يزال مليئا بالأشتات من كل شيء: (أيموت هذا الفأر بداء الجمرة. . . . نعم يا مدام اشميت، يستطيع أبنك أن يعود إلى المدرسة في الأسبوع القادم. . . . أرجو ألا يكون هذا الدم الملوث بالجمرة

دخل إصبعي من الجرح الذي فيه. . .). هكذا كانت حياة كوخ موزعة بين بحثه وطبه وأصبح الصباح، وجاء كوخ إلى المعمل البيتي الذي صنعه بيده، فوجد الفأر ملقى على ظهره وأرجله إلى السماء، وقد تصلب جسمه وأنتفش شعره ووقف على جلده وكان بالأمس منبسطا على ظهره في ملامسة ونعومة. وبعد أن كان أبيض صار أزرق رصاصيا، فأحمى كوخ سكاكينه في النار، وربط الفأر المسكين على شريحة من الخشب، وشق بطنه فكشف عن رئتيه وكبده، وشرحه حتى وصل إلى كل ركن من جسمه وحدق فيه: (نعم. نعم. إن باطنه يشبه باطن الشاة المجمورة. . . وهذا طحاله، ما أسوده وما أضخمه!. . . ' نه يكاد يملأ كل بطنه. . . .) وأسرع كوخ وشق الطحال المتضخم فجرى منه الدم الأسود، فأخذ منه قطرات ووضعها تحت مجهره، وتمتم أخيرا لنفسه: (ها هي العصي وها هي الخيوط بعينها. . . . إنها تكاد تملأ دم الفأر كما ملأت دم الشاة (وفرح كوخ فرحا شديدا لأنه أيقن أنه بذلك يستطيع أن ينقل إلى الفئران أمراض الشياة والأبقار والإنسان، والفئران قليلة الثمن، صغيرة في اليد، سهل تناولها عند التجريب. وفي الشهر الذي جاء من بعد ذلك لم يكن لكوخ عمل إلا حقن فأر حي من بعد فأر ميت. يأخذ قطرة الدم من طحال الفأر الميت فيحقناها في ذيل فأر حي صحيح. ثم يصبح الصباح فيجد هذا الفار قد مات من داء الجمرة، فيمتحن دمه فيجد به الملايين من تلك الخيوط المتخالطة والعصي المتكاثرة يجدها ساكنة لا حراك بها، صغيرة متضائلة لا يزيد طولها على جزء من ألفين من المليمتر الواحد

وأخذ كوخ يتفكر: (هذه العصي لا حركة فيها، ولكن مع هذا لا بد أن تكون حية. إن قطرة الدم التي أحقن بها الفأر ليس بها غير مئات من هذه العصي، ولكنها لا تلبث في دمه أربعا وعشرين ساعة حتى تكون قد تكاثرت فبلغت البلايين، ويكون الفأر قد مرض بها ومات. . . . ولكن كيف السبيل إلى رؤيتها وهي تتكاثر!؟ كيف السبيل وجلد الفأر لا يشف عما تحته؟!

وأخذ هذا السؤال يرن في أذنه وهو يجس نبض مرضاه وينظر في ألسنتهم. فإذا جاء العشاء أكل عشاه سريعا، وغمغم لزوجته تحية المساء لتنام، وذهب هو إلى تلك الغرفة الصغيرة قد ملأتها رائحة الفئران والمطهرات الكيميائية وأغلقها على نفسه، ثم أخذ يفكر يكثر تلك العصي خارج جسم الفأر. وكان كوخ في هذه الوقت لا يدري شيء عن إحساء الخمائر التي صنعها بستور ولا عن قباباته، أو أن هو درى، فالنزر القليل منها؛ لذلك كانت تجاربه لتكثير تلك العصي تجارب المبتكر الأول، فيها التواء وفيها تعقد؛ كانت كتجارب الرجل الأول يريد أن يصنع لنفسه نارا

قال كوخ: (سأحاول أن أكثر هذه الخيوط في سائل أقرب ما يكون إلى سوائل الجسم، سائل مصنوع من مادة الأجسام نفسها). وأتى بعين ثور وأخرج منها بعض مائها، ووضع في هذا الماء فتيتة كسن الدبوس من طحال فأر قتله المرض. ثم قال: (هذا غذاء لا شك مستطاب لهذه الخيوط، ولكن لعلها تتطلب غير الغذاء الطيب حرارة أجسام الفئران كذلك) وصنع بيديه مدفئا غير جميل وسخنه بمصباح زيت، ثم وضع في هذا المدفأ المرتجل شريحتين متلاصقتين من الزجاج الرقيق كان قد وضع بينهما سائل عين الثور وفتيتة الطحال. وذهب لينام. ولكنه لم ينم. ففي منتصف الليل قام ليخفض فتيلة المصباح بمدفئه، وكان قد ملأه منها الدخان. وبدل أن يعود فينام، أخذ ينظر العصي بين شريحتي الزجاج مرة بعد أخرى. وخال أحيانا أنه يرآها تتكاثر، ولكنه لم يكن على يقين من ذلك، لأن مكروبات أخرى من التي تسبح وتثب وجدت سبيلها بين الشريحتين على عادتها، وزادت في تكاثرها على عصي صاحبنا الدقيقة المهلكة وطغت عليها

قال كوخ لنفسه: (هذا عمل غير نافع! هذه العصي لابد من تكثيرها هي وحدها خالصة نقية من كل مكروب آخر) وأخذ يفكر في الوصول إلى هذا حتى أكده الفكر. وأخذ يحتال ويتدبر حتى صار الاحتيال هما والتدبر غما

وذات يوم تراءت له طريقة يروض بها عصيه وهو يراقبها. طريقة غاية في البساطة غاية في السهولة لا تحتاج للفكر الكثير قال كوخ: (سأضع تلك العصي في، قطرة عالقة، فلا يصلها من المكروبات الغريبة شيء). ثم جاء بقطعة صغيرة رقيقة مفرطحة من الزجاج الرائق، وسخنها حتى يقتل ما قد يكون عليها من المكروب، ثم وضع عليها

قطرة من سائل عين ثور سليم قضى عليه الجزار حديثا، ثم غمس في هذه القطرة قطعة غاية في الصغر من طحال فأر مات من داء الجمرة حديثا. وبعد ذلك جاء بشريحة غليظة مستطيلة من الزجاج، كان قد نقر في وسطها نقرة عميقة واسعة، ودهن سطحها مما يلي حافة النقرة بشيء من الفزلين ثم قلب هذه الشريحة الكبيرة السميكة على الأخرى الصغيرة الرقيقة التي عليها سائل العين وطحال الفأر بحيث تقع النقرة فوق القطرة ولا تمسها، فالتصقت الزجاجتين بالفزلين فكانتا كقطعة واحدة. ثم عاد فقلبهما معا في سرعة وحذق فصارت قطعة الزجاج الصغرى هي العليا وتعلقت منها قطرة السائل بما فيها من الطحال وعصيه الكثيرة، وقد انحبست في تلك النقرة انحباسا كاملا فلا تستطيع المكروبات الأخرى الدخول إليها. تلك هي (قطرته العالقة). ولعل كوخا لم يقدر كل التقدير هذه الطريقة الجديدة، ولم يدرك كل الإدراك مكانها من تاريخ بحث المكروب ومحاربة الإنسان أسباب الموت. وسواء قدرها أو فاته تقديرها فقد كانت ساعة من أخطر الساعات تلك التي أخطرت هذه الفكرة على باله، ساعة لا يعدلها إلا تلك التي رأى فيها لوفن هوك أحياءه الصغيرة في ماء المطر أول مرة

ووضع كوخ (قطرته العالقة) تحت مكرسكوبه وجر كرسيه وجلس وهو مضطرب ينظر ما تكشف له العدسة وهو يقول لنفسه: (لا يستطيع شيء أن يدخل إلى تلك القطرة، وهي ليس بها إلا العصي، فلأرقبها علي أعلم من أمر نموها شيئا، فكشفت له العدسة عن مجال أغبر لم يجد فيه غير قطع الطحال وقد نسلت وتقطعت وتراءت ضخمة تحت المجهر، وغير عصية هنا وعصية هناك طافية بين نسائل الطحال؛ وظل ينظر ساعتين، وينظر في

الساعة الواحدة وخمسين دقيقة، ولكن لم يحدث شيء. وأخيرا بدأت الرواية التي اصطبر لمرآها طويلة، وأخذت صورة المجال تحت بصره تتغير وتتبدل كأنما امتدت لها بالسحر يد الساحر، واهتز صاحبنا واضطرب، وجرت في ظهره رعدة بعد أخرى كلما اختلفت صورة المجال تحت عينه. إن العصي الطافية القليلة أخذت فعلا في التكاثر! ففي هذا المكان توجد الآن اثنتان حيث كانت واحدة. وتلك عصية أخرى تطول بطيئة ولكنها تطول كثيرا، وهي في استطالتها تنثني كالأفعى وتنال أطراف المجال. ولم تمض ساعتان حتى كثرت تلك العصي كثرة غطت على قطع الطحال فاختفت وبلغت أعدادها الملايين فأصبحت في اختلاطها وتداخلها وتلبدها ككرة من غزل، انحل فاختلط فلا رجاء في تسليكه إلا أنه غزل حي، غزل صامت قاتل

وتنفس كوخ الصعداء: (الآن أعلم أن هذه العصي حية والآن أعلم أنها تتكاثر بالملايين في فئراني الصغيرة المسكينة، وفي الشياه، وفي الأبقار. فالعصية الواحدة (البشلة الواحدة) أصغر من الثور بلايين المرات، فإذا دخلت الثور نمت وتعددت وصارت ألوفا تنسل ألوفا تنتشر في نواحي الحيوان الكبير فتتحشى بها رئته ويكتظ بها مخه وينسد بها دمه، لا عن ثأر لها عنده، أو كراهة لها فيه

أصبح كوخ لا يعي الزمن، ولا يهتم لواجباته، ولا يصغي لمرضاه إذ ينتظرونه طويلا فيملون فيشكون. فكل هذه الأمور فقدت حقيقتها من نفسه، وأصبح رأس كوخ لا يعي إلا صورا مخيفة من خيوط الجمرة وهي في اختلافها واختلاطها. وأخذ يعيد تلك التجربة التي يخلق فيها من البشلة الواحدة ألوف الألوف من البشلات. فأعادها ثماني مرات في ثمانية أيام متابعات. فبدأ بأن أخذ غمسة يسيرة جدا من (قطرته العالقة) وهي تعج بتلك العصيات فزرعها في قطرات نقية جاء بها من سائل عين ثور سليم. فوجد بكل قطرة من هذه ألوفا من هذه العصيات. ثم أخذ من هذه القطرات الحادثة ليزرع في قطرات جديدة نقية من عين ثور. وهلم جرا حتى أستتم له من ذلك ثماني زرعات قال كوخ: (لقد نسلت هذه البشلات ثماني ذريات متعاقبات، كلها خالصة من مكروب غريب، خالصة من طحال الفأر الذي اختلطت به أولا. وهذه البشلات في هذه الذرية الأخيرة هي أحفاد البشلات الأولى التي قتلت الفأر. فهل يا ترى تقتل هذه البشلات الأخيرة الفأر والشاة كما كانت تفعل أمهاتها

الأولى؟. . . . . أفتنمو يا ترى هذه البشلات في الفئران وفي الشياه إذا حقنتها فيها؟ (أهي يا ترى سبب الجمرة الذي لا مرية فيه؟

وأخذ كوخ قطيرة يسيرة من (قطرته العالقة) - وكانت تتراءى للعين العادية عكرة بما

تعج به من المكروب - ونشرها على فلقة من الخشب صغيرة، ثم غرس هذه الفلقة تحت جلد فأر صحيح ونجا هو فلم يمسسه سوء. نجاه منه تلك العناية الإلهية التي تقوم إلى جانب البحاث الجريئين المتهورين وتحرسهم وتدفع عنهم بمشيئة الله شر ما هم فيه

وفي اليوم التالي كان كوخ قائما على هذا المخلوق الصغير وقد دبسه إلى لوحة تشريحه، وقد انحنى عليه عن قصر في البصر ليراه من قريب. ثم أخذ يحمي مشارطه في النار وقد ملأه الرجاء. ولم تمض دقائق ثلاث حتى كان جالسا إلى مكرسكوبه ينظر منه قطعة صغيرة من طحال الفأر قد وضعها بين رقيقتين من الزجاج ثم تمتم لنفسه: (لقد تحقق المأمول، فها هي الخيوط، هاهي العصيات وتلك البشلات الصغيرة التي في قطراتي العالقة، تلك البشلات التي أوجدتها بالتنسيل سلالات متعاقبة ثمان، لها من القدرة على القتل مقدار ما تلك التي يأخذها الآخذ مباشرة من طحال الشاة النافقة من داء الجمرة)

رأى كوخ هذه البشلات أول ما رأى في دم تلك البقرة التي نفقت من داء الجمرة زمانا مضى، يوم كان مجهره جديدا ويده تضطرب عليه من قلة التجربة والمران، واليوم يرى نفس هذا المكروب دم الفأر المسكين، وهو هو نفسه المكروب الذي رباه في سلسلة طويلة من الفئران، وفي عدد كثير متعاقب من قطراته العالقة

هاهو ذا كوخ يثبت أول مثبت أن النوع الواحد من بعض المكروب يسبب نوعا واحدا من الأمراض، وأن هذه المخلوقات الصغيرة قد تعتدي في حقارتها على مخلوقات كبيرة عظيمة في ضخامتها فتوردها موارد الموت سريعا. سبق كوخ كل الرجال في إثبات هذا، وسبق فيه بستور كذلك، وهو الذي على سننه جرى وبهديه اهتدى. رمي كوخ بخيطه وصنارته ليصطاد تلك الأسماك الضئيلة في المحيط الأعظم وهو واسع بهيم. وتقفاها وتجسس بها وهو لا يعلم من صفاتها شيئا، ولا من عاداتها شيئا، وهو لا يدري من جرأتها وشراستها شيئا وهو لا يعرف متى ولا بأي سهولة تثب عليه من مراصدها ومخابئها؛ والشيء إذا دق هذه الدقة فكل مكان مخبأ وكل طريق مرصد يتبع

أحمد زكي

أندلسيات:

قصة الفتح بن خاقان - 2

للأستاذ عبد الرحمن البرقوقي

يتشابه الفتح بن خاقان وأبو الحسن بن بسام في أنهما كانا متعاصرين، وفي أنهما تصديا للكلام على أدباء الأندلس من العلماء والشعراء والكتاب والوزراء والملوك ممن عاصرهما ومن كان قبل عصرهما، وفي أنهما كانا يرسلان إلى معاصريهما يعرفانهم عزمهما ويسألانهم إنفاذ شيء من منثورهم ومنظومهم ليذكراه في كتابيهما: الأول في قلائد العقيان ومطمع الأنفس، والثاني في الذخيرة. قال العماد الكاتب صاحب خريدة القصر: حدثني الصاحب الكبير العالم جمال الدين بن أكرم قال: لما عزم أبن خاقان على تصنيف كتاب قلائد العقيان جعل يرسل إلى كل واحد من ملوك الأندلس ووزرائها وأعيانها من أهل الأدب والشعر والبلاغة ويعرفه عزمه ويسأله إنفاذ شيء من شعره ونظمه ونثره ليذكره في كتابه. وكانوا يعرفون شره وثلبه فكانوا يخافونه وينفذون إليه ذلك وصرر الدنانير، فكل من أرضته صلته، أحسن في كتابه وصفه وصفته. وكل من تغافل عن بره هجاه وثلبه. وكان ممن تصدى له وأرسل إليه أبو بكر بن باجه المعروف بابن الصائغ، وكان وزير أبن فلويت صاحب المرية. وهو - أي أبن الصائغ - أحد الأعيان وأركان العلم والبيان. شديد العناية بعلم الأوائل، مستول على أهل الأشعار والرسائل، وكانوا يشبهونه في المغرب بابن سينا بالمشرق، وله تصانيف في المنطق وغيره، فلما وصلته رسالته تهاون بها ولم يعرها طرفه، ولا لوي نحوها عطفه، وذكر أبن خاقان بسوء بلغه، فجعله ختم كتابه، وصيره مقطع خطابه، وقال: هو رمد جفن الدين الخ وبلغ ذلك أبن الصائغ، فأنفذ له مالا استكفه به واستصلحه؛ وصنف أبن خاقان كتاب آخر سماه مطمح الأنفس وصله بقلائد العقيان افتتحه بذكر أبن الصائغ وأثنى عليه فيه ثناء جميلا الخ وكذلك نرجئ الكلام على ما كان بين أبن خاقان وبين الفيلسوف أبن باجه أو أبن الصائغ إلى ما بعد الفراغ من الموازنة بين أبن خاقان وبين أبن بسام. . . وقد ظهر

لك مما أوردناه هنا من كلام العماد أن أبن خاقان كان يرسل إلى أعيان الأندلس ليرسلوا إليه آثارهم، وكذلك كان يفعل أبن بسام صاحب الذخيرة. . . قال المراكشي صاحب المعجب: فمما أختار له - أي لأبي عبد الله محمد بن أبي الخصال أحد كتاب الأندلس البلغاء النابهين - فصول من رسالة كتب بها مراجعا لبعض إخوانه عن رسالة وردت عليه منه يستدعي فيها منه شيئا من كلامه، وهذا الرجل صاحب الرسالة هو أبو الحسن علي بن بسام صاحب كتاب الذخيرة. . . وهذا هو محل الشاهد. . . ودونك الآن فصولا من هذه الرسالة - أي رسالة أبن أبي الخصال إلى أبن بسام فأنها من طرف الأندلسيين. قال: وصل من السيد المسترق، والمالك المستحق، وصل الله إنعامه لديه، كما قصر الفضل، كتابه البليغ، واستدراجه المريغ. فلولا أن يصلد زند اقتداحه، ويرقد طرف افتتاحه، وتقبض يد انبساطه، وتغبن صفقة اغتباطه، للزمت معه قدري، وصنت سريرة صدري. ولكنه بنفثات سحره يسمع الصم، ويستنزل العصم، ويقتاد الصعب فيصحب، ويستدر الصخور فتحلب، ولما فجأني ابتداؤه، وقرع مسمعي نداؤه. فزعت إلى الفكر، وخفق القلب بين الأمن والحذر، فطاردت من الفقر أوابد قفر، وشوارد عفر، تغبر في وجه سائقها، ولا يتوجه اللحاق لوجيهها ولا حقها، فعلمت أنها الاهابة والمهابة، والإصابة والاسترابة، حتى أيأستني الخواطر، وأخلفتني المواطر، إلا زبرجا يعقب جوادا، وبهرجا لا يحتمل انتقادا. وأنى لمثلي والقريحة مرجاة، والبضاعة مزجاة ببراعة الخطاب، وبزاعة الكتاب. ولولا دروس معالم البيان، واستيلاء العفاء على هذا الشان، لما فاز لمثلي فيه قدح، ولا تحصل لي في سوقه ربح. . . وأنا أعزك الله أربأ بقدر الذخيرة، عن هذه النتف الأخيرة. وأرى إنها قد بلغت مداها، واستوفت حلاها، وأنا أخشى القدح في اختيارك، والإخلال بمختارك. . . إلى أن يقول: وعذرا أعزك الله فأني خططت ما خططته والنوم مغازل، والقر منازل، والريح تلعب بالسراج، وتصول صولة الحجاج، فطورا تسدده سنانا، وتارة تحركه لسانا، وآونة تطويه حبابه، وأخرى تنشره ذؤابه، وتقيمه إبرة لهب، وتعطفه برة ذهب. أو حمة عقرب. وتقوسه حاجب فتاة، ذات غمزات، وتسلطه على سليطه، وتزيله عن خليطه، وتخلعه نجما، وتمده رجما، وتسل روحه من ذباله، وتعيده إلى حاله، وربما نصبته أذن جواد، ومسخته حدق جراد. ومشقته حروف برق، بكف ودق، ولثمت بسناه قنديله، وألقت على أعطافه منديله، فلا حظ منه للعين، ولا هداية في الطرس لليدين، والليل زنجي الأديم، تبرى النجوم، قد جللنا ساجه، وأغرقنا أمواجه، فلا مجال للحظ، ولا تعارف إلا بلفظ، لو نظرت فيه الزرقاء لاكتحلت، أو خضبت به الشيبة لما نصلت، والكلب قد صافح خيشومه ذنبه، وأنكر البيت وطنبه. والتوى التواء الحباب، واستدار استدارة الحباب، وجلده الجليد، وصعد أنفاسه الصعيد، فحماه مباح، ولا هرير ولا نباح، والنار كالرحيق، أو كالصديق، كلاهما عنقاء مغرب، أو نجم مغرب، استوى الفصل، ولك في الإغضاء الفضل، والسلام. . .

وقد حدثنا الفتح في قلائده أنه هو الآخر كتب إلى أبي عبد الله محمد بن أبي الخصال مستدعيا من كلامه ما يثبته في الديوان - يريد قلائد العقيان - وينبته في زهر البستان، فكتب إليه أبن أبي الخصال رقعة يقول فيها: الحذر - أعزك الله - يؤتي من الثقة، والحبيب يؤذى من المقة؛ وقد كنت أرضى من ودك وهو الصحيح بلمحة، وأقنع من ثنائك وهو المسك بنفحة، فما زلت تعرضني للامتحان، وتطالبني بالبرهان، وتأخذني بالبيان، وأنا بنفسي أعلم، وعلى مقداري أحوط وأحزم، والمعيدي يسمع به لا أن يرى، وإن وردت أخباره تترى فشخصه مقتحم مزدرى، ولا سيما من لا يجلى ناطقا، ولا يبرز سابقا، فتركه والظنون ترجمه، والقال والقيل يقسمه، والأوهام تحله وتحرمه، وتخفيه وتخترمه، أولى به من كشف القناع، والتخلف عن منزله الامتناع، وفي الوقت من فرسان، هذا الشان، وأذمار هذا المضمار، وقطان هذه المناهل، وهداة تلك المجاهل، من تحسد فقره الكواكب، ويترجل إليه منها الراكب، فأما الأزاهر فملقاة في رباها، ولو حلت عن المسك حباها، وصيغت من الشمس حلاها، فهي من الوجد تنظر بكل عين شكرى، لا نكرى، وإذا كانت أنفاس هؤلاء الأفراد مبثوثة، وبدائعهم منثوثة، وخواطرهم على محاسن الكلام مبعوثة، فما غادرت متردما، ولا استبقت لمتأخر متقدما، فعندها يقف الاختيار، وبها يقع المختار، وأنا أنزه ديوانه النزيه، وتوجيهه الوجيه، عن سقط من المتاع، قليل الإمتاع، ثقيل روح السرد، مهلك صر البرد، إلا أن يعود به

جماله، ويحرس نقصه كماله، وهبه أعزه الله قد استسهل استلحاقه، وطامن له أخلاقه، أتراني أعطي الكاشحين في اتبابه يدا، وأترك عقلي لهم سدى، وما أخالك ترضاها مع الود خطة خسف، ومهواة حتف، لا يستغل غبينها ولا يبل طعينها. . . الخ الخ .فهي رسالة طويلة وإن كانت على طولها ممتعة جميلة . . . .

موازنة ومفاضلة

والآن فلنعرض للموازنة بين الفتح وبين أبن بسام ما دام بينهما هذا التشابه الذي ذكرنا. . .

قال الحجاري صاحب المسهب: وهو - الفتح - وأبو الحسن بن بسام الشنتمري مؤلف الذخيرة فارسا هذا الأوان، وكلاهما قس وسحبان، والتفضيل بينهما عسير، إلا أن أبن بسام أكثر تقييدا، وعلما مفيدا، وإطنابا في الأخبار، وإمتاعا للأسماع والأبصار، والفتح أقدر على البلاغة من غير تكلف، وكلامه أكثر تعلقا وتعشقا بالأنفس. . . هذا هو كل ما عثرنا عليه للمتقدمين من مفاضلة بين هذين الفاضلين، ونحن فنقول: إن المتفقد لكتاب الذخيرة لأبن بسام، وكتابي القلائد والمطمح لأبن خاقان، يتبن له أن الفتح في الحق أضخم عبارة، وأجزل أسلوبا، وأقدر على التنميق والتزويق والتهويل، ويغلب ذلك على أكثر تراجمه؛ وقد يتعمل حتى يرى أثر التقعر محسا ملموسا، وهو مع هذه الجزالة والضخامة، أقل تقييدا وعلما مفيدا، دع تقصيره في تراجمه من ناحية التحقيق التاريخي فلا يذكر أسم المترجم كاملا ولا نسبه ولا بلده ومنشأه، ولا تاريخ مولده ووفاته، فكأنه يترجم مترجمة لناس يعرفونهم كل المعرفة، وإنما الذي ينقصهم هو أن يلموا ببعض آثار أولئك المترجمين المعروفين، وأن يقفوا على بلاغة الفتح وبراعته، وحذقه ومهارته، وكيف يرفع من يبغي أن يرفعه ويخفض من يريد أن يضعه، ومن هنا لا تعد كتب الفتح كتب تراجم بالمعنى المعروف، وإنما هي بكتب المختارات أشبه. أما أبن بسام صاحب الذخيرة فهو وإن كان أكثر تقييدا وعلما مفيدا، وإطنابا في الأخبار، وإمتاعا - من هذه الناحية - للأسماع والأبصار - كما يقول الحجاري - وإن كان أقل تزويقا وتهويلا وإن كان أعف لسانا، وأنزه بيانا، إلا أنه هو الآخر يقارب الفتح في أغفاله تاريخ من ترجم له مولدا ووفاة ونسبا ومنشأ، ومثل الاثنين في ذلك مثل الثعالبي صاحب يتيمة الدهر، ومثل الثلاثة العماد الكاتب صاحب خريدة القصر وجريدة أهل العصر والباخرزي صاحب دمية العصر وعصرة أهل العصر، كل أولئك يجتزئون ببلاغتهم عن تحقيقاتهم، فكانت كتبهم لذلك نوعا غريبا بين أسفار الأدب في لغة العرب، فلا هي بالمختارات المحضة ول هي بالتراجم الوافية، ولا هي من قبيل العقد والكامل وما إليهما. ولعل أول من ابتكر هذا النوع هو الثعالبي

(للقصة بقية)

عبد الرحمن البرقوقي

معركة عدوى - 5

للأستاذ الفريق طه باشا الهاشمي

رئيس أركان حرب الجيش العراقي

أسباب الحرب

لقد ظهر لنا من المباحث السابقة أن الطليان اعتبروا الحبشة مستعمرة طليانية، وحملوا الدول الأوربية على الاعتراف بذلك بعد نشرهم المعاهدة وذيولها، واستفادوا من حاجة البريطانيين إليهم فتقدموا إلى كاسيلا واستولوا قبل ذلك على عدوى ومع أن منليك كان يتظاهر بعدائهم عند منحه امتياز السكة الحديدية للفرنسيين وإذابته العملة النقدية التي ضربها الطليان في بلادهم لم يتمكن الطليان من التضييق عليه لأنهم كانوا مكلفين بمساعدة البريطانيين في قتالهم المهدي، ولم يرض البريطانيون بان يترك الطليان جبهة السودان ويتقدموا بقواتهم على الأحباش والحقيقة أن السياسة البريطانية من حيث أهدافها العامة لم ترغب البتة في توسع نفوذ الطليان في الحبشة وتوطيد كلمتهم فيها لأنها كانت ترمي إلى احتلال مصر والسودان والمحافظة عليهما بترك حراسة جبال الحبشة بيد أهل الأحباش أما النجاشي منليك فكان يرمي إلى توحيد المملكة وتقويتها ثم إعلان استقلالها للعالم. ولا شك في أن رغبة الطليان في توطيد نفوذهم في الحبشة وسعي نجاشي الحبشة لاستقلال البلاد أديا حتما إلى الاختلاف بين إيطاليا والحبشة برغم المعاهدة وذيولها

وسترى كيف حدث هذا الاختلاف فأدى إلى الحرب بينهما. والحقيقة هي أن بريطانيا لم تكد تقض على حركة المهدي فتبقي إيطاليا حرة في العمل إلا وشرع الطليان بحشد قواتهم في مستعمرة أريترة للتوغل في بلاد الحبشة

ولما تأكد منليك من قدرة جيشه البالغ عدده زهاء 145000 أعلن استقلال الحبشة إلى جميع الدول. ولمجاملة إيطاليا طلبت ألمانيا وفرنسا من النجاشي أن يرسل هذا البلاغ بواسطة إيطاليا

فبلغ منليك ملك إيطاليا أن المادة السابعة عشرة من معاهدة أوكسالي لا ترغمه على توسيط

إيطاليا في جميع علاقته بالدول الأوربية، والنص الحبشي من المعاهدة صريح في هذا الباب، فهو يخول للنجاشي حق طلب التوسيط إذا أراد ذلك. لذلك رجا من ملك إيطاليا أن يخبر الدول الأوربية بذلك لكي لا يحدث سوء تفاهم في المستقبل

والواقع أن المعاهدة كانت مكتوبة باللغة الأمحرية والمادة السابعة عشرة منها تنص على ما يلي: (جلالة إمبراطور الحبشة مختار في استخدام الوكلاء الطليان). أما الطليان فلما ترجموا المعاهدة إلى لغتهم وضعوا كلمة (الإجبار) بدلا من كلمة (الاختيار) فجاء النص الطلياني كما يلي: (جلالة إمبراطور الحبشة مكلف باستخدام الوكلاء الطليان)

فانتبه الساسة الطليان إلى خطئهم، فلما تيقنوا أن القلم لم يجد نفعا في الحصول على رغبتهم في بلاد الحبشة قرروا استخدام السيف، مع أن منليك لم يرغب في الحرب في تثبيت علاقاته بإيطاليا. فتظاهر الفرنسيون بالولاء للطليان، بينما كانوا في الخفاء يؤيدون النجاشي، لأن توسع نفوذ الطليان في بلاد الحبشة يخالف مرماهم. وكان الحكم الفرنسي في المستعمرة الصومالية همزة الوصل بين الحكومة الفرنسية والحكومة الحبشية، أما الحكومة الروسية فلم تعترف بالمعاهدة وكانت تساعد الحبشة بإرسال الضباط وأصحاب المهن والرهبان والسلاح إليهم

فرأى رئيس الحكومة الطليانية (كريسبي) إرسال رجل محنك إلى بلاط النجاشي عسى أن يقنعه ويزيل الخلاف. فأرسل الكونت (انطونلي) إلا أن هذا لم يتمكن (رغم ذلاقة لسانه ووعيده) من إقناع منليك الذي كان جوابه للوزير الطلياني ما يلي: (ما دام قد حدث غلط في نص المادة السابعة عشرة فالأولى أن نلغيها تماما، ولنتذاكر من جديد على نص المعاهدة؛ ثم إن بلادي تحتاج إلى منفذ إلى البحر فلنقرر هذا أيضا) ولم يغير منليك رأيه ولم يحد عن فكره. فكان في جميع مذاكراته مع الوزير المفوض يؤيد هذا الطلب عينه. وأخيرا بلغ الحكومة أن المادة السابعة عشرة من المعاهدة ملغاة. وفي الوقت عينه أعاد الأربعة ملايين فرنك إليها. وكان من نتيجة ذلك أن توترت العلاقات بين إيطاليا والحبشة وانتهت إلى الحرب

ساحة الحركات

تقرب سلسة الجبال من مصوع وتسيطر على سهلها الضيق وفي امتدادها إلى الشمال تكون

موازية للشاطئ. أما في امتدادها إلى الجنوب فتبعد عنه، وتتكون منها الصحراء الدنا التي تشح المياه فيها، وهذه الصحراء وعرة ذات مفازات ووديان ورواب

وهذه السلسلة ذاتها تتصل بالسلاسل الأخرى التي تتكون منها معاقل الحبشة الداخلية جرت الحركات على طرفي الحدود في جنوبي (أسمرة) عاصمة أريترة بعد مصوع. والأرض في هذه المنطقة جبلية وهي واقعة على سفوح السلسلة الأولى التي تؤلف الضلع الغربي للمثلث، والارتفاعات فيها تتفاوت بين 1500و2500 متر. والانحدارات في السفوح الشرقية على ما نعلم مائلة شديدة الوعورة، وتسلقها صعب، والأرض متقطعة بوديان وفيها وهاد ومضايق. والروابي يعلو بعضها بعضا، والكثير منها مكسو بالغابات والأحراش. أما الطرق فمسالك وعرة يصعب على الحيوانات المحملة السير فيها

والمنطقة بأجمعها تصلح للدفاع أكثر منها للهجوم. ولا تمكن الحركة فيها بقوات كبيرة ما لم يكن السير فيها بأرتال مختلفة متباعدة تفرقها الودن والمضايق عن بعضها فتصعب المواصلة بينها. وفضلا عن ذلك فالمياه فيها شحيحة وموارد الإعاشة قليلة، الأمر الذي يقتضي تجهيز القوات بوسائل النقل الكثيرة والسير فيها يقتضي بطبيعة

الحال اتخاذ تدابير الحماية. لذلك كان لا يجوز أبدا تطويل الارتال لأنها تمسي أهدافا ملائمة للمباغتة. والخلاصة أنها من أفضل الأراضي الصالحة للحروب الصغرى بالكمين والمباغتة فهي من هذه الوجهة تفيد الأحباش الذين يعرفونها حق المعرفة ويعلمون بنجدها وغورها فضلا عن تعودهم على إقليمها

والطرق التي تربط مستعمرة إريترية بهذه الساحة تبدأ من ساحل البحر وتمتد إلى الجنوب الغربي فإلى الجنوب، منها طريق شمالي يبدأ من مصوع ويمر بأسمرة بعد أن يتسلق الجبال ويدخل الهضبة. وارتفاع أسمرة 2372 مترا. وقبل أن يقطع نهر مأرب الفاصل للحدود يمر بقرية (غوندت) ثم يصل إلى عدوة وارتفاعها 1965 مترا وهي واقعة بالقرب من أكسوم وإلى شرقيها

والطريق الثاني يبدأ من زولا على خليج عدولى. وبعد أن يمر بقريتي (حلبى) و (كواتيت) يقطع الحدود إلى جنوبي سنافة ويصل إلى قلعة ادجرات وهي من المراكز الحبشية الخطيرة، فيتوجه الطريق بعد ذلك إلى الجنوب ويمر بقلعة (مكا) إلى أن يصل إلى (هرر)

ويجري في هذه الساحة تابعا نهر عطبرة وهما مأرب وتكاسه

ومن جملة الأهداف التي كان يتوخاها الطليان في حركاتهم استمالة الرؤوس إلى جانبهم وإثارة الحروب الداخلية في الحبشة لكي يسهل عليهم التغلب على العدو فكانوا على اتصال برأس مقاطعة تيجري، وبعد هذه المقاطعة تأتي مقاطعة أمحرة الداخلية، وفي جنوبيها مقاطعة شوعا المختصة بالنجاشي، وهي خلف مقاطعة غوجام الداخلية، وفي جنوبي هذه المقاطعات أرض الغالا في منتهى البلاد الحبشية

فيتضح من ذلك أن الحركة يجب أن تجري بمراحل لاحتلال المقاطعات على التوالي، وهذه المقاطعات جميعا وعرة منيعة

قوات الفريقين - الجيش الحبشي

استخدم الطليان رئيسا لتجسس أحوال الحبشة وبالنظر إلى المعلومات التي توصل إليها هذا الضابط من أن أنفس مقاطعات تيجري وأمحرة وغوجام زهاء 2 , 500 , 000 نسمة. أما أنفس مقاطعة شوعا وحدها فتبلغ 2 , 000 , 000 نسمة وهذا مما يجعل لهذه المقاطعة مركزا خطيرا يتجلى بحكمها على المقاطعات الأخرى

ولما لم يكن للحبشة جيش منظم فمن البديهي أن تقدر القوات بالرجال المسلحين الذين تجهزهم المقاطعات المذكورة وعلى هذا الأساس تبلغ قوة الجيش ما يلي:

	رجل
جيش تيجري	20 , 000
جيش أمحرة	35 , 000
جيش غوجام	20 , 000
جيش شوعا	70 , 000
المجموع	145 , 000

ونقصد بالجيش القوة الجاهزة التي يستطيع أن يستخدمها الرأس أو ملك المقاطعة، متى شاء بمعنى أنها مستعدة للعمل في كل وقت. أما عند الاقتضاء فيمكن إخراج قوات أخرى بكل سهولة لأن الأحباش جميعا جنود بالطبع لا فرق بين شابهم وشيخهم.

أضف إلى ذلك مقاطعة الغالا وعاصمتها هرر التي تبلغ نفوسها زهاء 3 , 000 , 000 نسمة ومع أنها بعيدة عن ساحة الحركات إلا أنها تستطيع أن تجهز جيش النجاشي بالخيالة.

ولدى الجيش الحبشي أربعون مدفعا على أنواع مختلفة. والأحباش جنود بالطبع فيتحملون السير الطويل دون تعب، ويعسكرون ويسيرون بلا جلبة ولا ضوضاء، ويحصلون على معيشتهم بالتكاليف الحربية ولا يستخدمون وسائل لذلك. فالجندي يحمل أرزاقه معه وهي مقدار قليل من الذرة. والأرزاق التي تكفي الجندي الأوربي ثلاثة أشهر يعيش بها الحبشي سنة كاملة. فالحبشي من هذه الجهة قانع بما يتيسر له.

والوحدة السوقية في الجيش الحبشي هي الفرقة أو القوة التي يخرجها الرأس أو الملك. وهذه القوة تختلف باختلاف مساحة مقاطعة الرأس أو الملك فيتفاوت مقدارها بين 5000 و10 , 000 رجل أو أكثر

واملك أو الرأس يجهز جنوده بالسلاح والحكومة تمده بالسلاح والعتاد عند الاقتضاء. ومع ذلك نرى بعض جنود الأحباش يدبر بنفسه أمر سلاحه وعتاده.

وقد علمنا أن الطليان دون أن يحسبوا حساب المستقبل جهزوا النجاشي بأسلحة حديثة فمنحوه 5000 بندقية و200 , 000 طلقة في المرة الأولى و38000 بندقية و8 مدفعا في المرة الثانية. أما البريطانيون فكانوا قد أهدوا إلى رأس تيجري 900 بندقية. وإذا أضفنا إلى ذلك السلاح الذي استطاع أن يشتريه منليك في المدة الأخيرة علمنا أن لدى الأحباش عدد كبير من البنادق الصالحة للاستعمال

ومن عادة النساء الحبشيات أن يرافقن الجيش فيحملن مواد الإعاشة والماء لرجالهن ويهيئن الطعام في المعسكر ويداوين الجرحى ويشجعن الجنود على القتال

أسلوب التعبئة عند الأحباش

يمتاز الأحباش بالهجوم السريع وبالشدة. ويحسن المشاة الرمي فلا يطلقون النار إلا من مسافات قريبة حرصا على ذخيرتهم وعندما يقتربون من أعدائهم يحملون عليهم صارخين فيستعملوا سيوفهم العريضة في الحملة وجها لوجه، وبرغم وعورة الأرض يحسن الأحباش الركوب. وإذا ما وقع في أيديهم بغل أو جواد ينقلب المشاة حالا إلى خيالة، ويسير المشاة بسرعة ويستخدم الأحباش في الأغلب الخيالة في المجنبة، وذلك للالتفاف حول العدو وقطع

خط الاتصال عليه وإذا ما انتصروا عليه قضوا عليه القضاء المبرم بقتل رجاله جميعا. أما في الدفاع فيحسن الأحباش الاستفادة من الأرض ويعمدون إلى الكمون والمباغتة بنجاح

الجيش الطلياني

يتألف الجيش الطلياني من القوات الطليانية والأهلية المرابطة في مستعمرة إريترية والقوات التي يمكن جلبها من إيطاليا

واستخدم الطليان في بادئ الأمر السودانيين والصوماليين وبقايا الجنود المصريين في المستعمرة بعد أن جعلوا نواة القوة من الطليان

وكانت القوة بعد الاحتلال بثلاث سنوات مؤلفة من ألف جندي، وفي سنة 1894 نسق الطليان جيش المستعمرات بتأليف من وحدات طليانية ووحدات أهلية بقيادة الضباط وبعض ضباط الصف الطليان

وكانت القوة الطليانية في بادئ الأمر مؤلفة من فوج مشاة وفصيل مدفعية. أما القوات الأهلية المختلطة فكانت مؤلفة من بطارية وفصيل هندسة ووحدة درك وجنود نقلية

(يتبع)

طه الهاشمي

المشكلة. . .!

للأستاذ كامل محمود حبيب

دخل الشاب مستأذنا؛ فخلع طربوشه، وألقى عصاه، ثم جلس مبهوراً تتتابع أنفاسه، ويزدحم الكلام على شفتيه، لا يكاد يبين معنى من معنى، أو يستقر خاطره على شيء؛ فما استبنت إلا قوله يختتم الحديث بكلمات متقطعة منهوكة: (نعم، وقعت المشكلة!

وقعت المشكلة! فأين أجد الخلاص؟)، وكنت وقفت عند قول أستاذنا الرافعي في مقاله بمجلة (الرسالة الغراء) (ووقعت المشكلة. . .) فعرفت ما يعني صاحبي، وهو كان صاحب هذا الحديث، ومحور رحاه، على أن الرحى لم تطحن إلا قلبه هو، وكان قد كتب إلى أستاذنا يطلب الخلاص، فأين رأى الخلاص من نصح طبيبه. . ما أمر الدواء لو يجدي، وما أقسى الطبيب. .! وقلت في نفسي: (وا أسفاه لهذا الشاب!! أثقل عليه أن صفحة من صفحات قلبه قد نشرت، وهو كان يحمل الهم كله في صدره فما يثقل عليه؟ ويل للشاب من الشيخ، فذلك يتكلم بوجدانه وعاطفته وقلبه، وذاك بعقله وتجاربه وفلسفته. فأين يلتقيان؟)

ثم استوى الشاب في مجلسه وقد اطمأن قليلا وسرى عنه بعض ما كان فيه من اضطراب وقلق، ثم قال: (أترى ما فعل بي أستاذنا؟ لقد كنت - بادئ الرأي - في عينه مهذبا، متعلما. ذا رأي وبصر؛ فما هي إلا دورة الكلام فإذا أنا ساقط، مرذول، ضعيف الرأي! أفترى على الشاب من حرج أن يحلق في سمائه، يفتش عن قلبه الطائر حتى

يرى ضالته. .؟ والطائر الغريد - يا صديقي - ينقب عن أنثاه التي تساكنه عشه، وترعى أفراخه. أفيكون لأبيه أن ينتقي له أنثاه من بين عصافير الغاب، أم تراه هو. .! أو تحسبها هي تستقر إليه إذا لم تر في ظل جناحه الرأفة والحنان والحب! أرأيت يا صديقي؟ أرأيت هذا الطير، يطير عن أنثاه إلى غيرها، وهو نفسه الذي تعلقها، وفتنه ما فيها من أنوثة وجمال؛ وهو نفسه الذي اختارها لتشاركه حياة الطير، وزقها وزقته، وبادلها وبادلته الحب والحنان؛ أم كان ينتقص من حريته، ويسلب رأيه لو كان تعلم. . .؟

إن الذي تعلم منا، قد تعلم ليمسك بمفتاح القيد الذي ضمت به إحدى رجليه إلى الأخرى، وشدت إحدى يديه إلى الثانية، وماذا يكون وراء العلم إن لم يكن هذا؟. وإذا كان الرجل يقول: (هذا أبي، وتلك أمي، وهؤلاء أهلي) لينتسب إليهم، أفيخرج عن أهله إن هو قال:

وإذا كنت رجلا تنفذ إليه المرأة بين الشيطان والحيوان منه، ويصده (وهذه زوجتي؟) عنها الرجل الذي في عقله، أفكنت غير الرجل الذي يريد أن يتمم القصة التي أتمها الله لآدم بحواء؟ وهل قال الله لآدم: (هذه متسماة عليك؟) أم قال لملك الحب: (ضع سحرك، وابذر لغرسك؟) فهم آدم ليعانق حواء، وهمت هي لتعانقه، فبدت الطبيعة أجمل ما تكون في عين رجل وامرأة، ورأى بعين الحب التي تشع نظراتها من القلب، وهو كان يرى بعين الجسد فما وراء نظرته معنى ولا عاطفة. ثم خلق من حبهما شاعرا، وأديبا، وفيلسوفا، وعبقريا و. . . وعاشقا وعاشقة

قلت: وي! كأنك طرت من الدنيا فلم تهبط إلا في الفردوس؛ كأنك لا ترى أنك في حجرة إن لم تكن ضيقة فهي ليست بالواسعة!

واندفع الشاب في خياله، وكأنه أراد أن يجمع إلى كتبه التي يطالعها؛ ويرى الجمال في صفحاتها، صفحة أخرى من جمال الطبيعة، وثالثة من جمال المرأة؛ وظن الجمال في عقله عند الكتاب، وفي نظرة تحت ظل شجرة وارفة على ضفاف الوادي، في قلبه عند امرأة جميلة يميل إليها ويحبها ويرافقها إلى حيث يشبه الطائر الذي تحدث عنه؛ وفي أذنه عند زقزقة العصافير، وفي حديث هذه الفتاة التي يزعم عندها الجمال والرقة والعقل؛ وفي شمه عند نسيم الصباح وشذى هذه المحبوبة التي عرفها وهيمها وهيمته، وخيل إلي أن تعاويذها قد فعلت فيه، وأن قارها قد نالت منه، وأنه قد أسلس لها وانقاد، فقلت: أما أنت منها فكالذي نوم فهو يسير على غير إرادته، أو سحر فهو ينظر بغير عينيه، أو التاث فهو يمشي في غير طريقه؛ وأن كان أستاذنا قد قال: فما يملك أن يرفع السحر عنك، ولكن في كلماته سحرا من نوع آخر. . .

قال: والذي يذهب بعقلي أن يقول الناس: إنك مسحور أو بك لوثة؛ وقد تعلمت - فيما تعلمت من حياتي - أن أفكر بعقل الفيلسوف، وأن أطير في سماء الخيال إلى حيث أقع؛ ولئن كان الخيال قد أضر بي قليلا، إنه لقد شب معي مقدار ما شب عقلي معي، فكان عقلي وخيالي، ثم كانت حياتي وكلها دراسة عميقة فلسفية - فحجب عقلي خيالي حينا، ثم عاد خيالي للظهور مع هذه، ولكنه لم يحجب عقلي، وكانت هي عقلا إلى عقلي، وليست خيالا إلى خيالي؛ فكان عقلي أولاً ثم خيالي الصغير، وكانت تقول: (أنا لك بعد عملك ومستقبلك،

ولست لك إلا أن تكون رجلا فذا) فتدفعني بكلماتها وقلبها وعقلها إلى المثل الأعلى. فيا ضيعة الأمل إن خاب هذا المثل، ورددت إلى منزلي لأرى فيه مصيبتي!! ويا خيبة الرجاء إن صرت كذلك الحداد أو النجار أو الحوذي، أو. . . أو غيرهم ممن لا يرون في الحياة إلا أنها اللقمة والثوب والمأوى، ثم. . . ثم ذلك الضجيج البيتي الذي يصبح فيه هو وزوجته ويمسي، والذي يشب عليه أبناؤهما فيأخذون من سوء الخلق، وضعة الأخلاق، وسفالة الطبع، والشقاق، والتنابذ، مما رأوا عليه أبويهم

إن أستاذنا ليقول: إنها فتاة الشعر والخيال، وما هي كذلك، وما قابلتها مرة، أو حاولت ذلك إلا بعد أن خلع عني خيالي، لأخاطبها بلسان الفيلسوف، وعقل الحكيم، وكم أردت أن أقول لها: (أي فتاتي. . . . . .) لأندفع في غزل رقيق، فكانت تنظر إلي بعين تقول منها: (ليست هذه لغتنا. . .) فأرتد لأقول: (ولقد قرأت. . . . . .) ثم أخلو لنفسي لأشبع رغبتي في الحديث الآخر. . . بيني وبين نفسي. . .!

قلت: أفترى أن الفيلسوفة العالمة تستطيع أن تكون زوجا وربة دار، وأن تكون أما

ومديرة بيت؟ وهل تراها تنشئ لك الحياة التي قدرتها في خيالك؟ إن الحياة - يا صديقي - شيء غير هذا كله، وإنك لمن بيت فيه الدين والاحتشام والشهامة؛ أفليس من ذلك كله أن تمسك عليك زوجك التي اختار أبوك، وأن تمنحها من نفسك ما يمنح الزوج؟

قال: إنك تنحو منحى أستاذك. أفتريد أن تضيف إلى همومي هماً آخر، وأنا جئتك أستعينك على همي. . .! لقد كان أستاذك في مقاله كالذي ينزع سكينا هو أغمدها في صدري ليداوي جرحا هو الذي بلغ به هذا العمق العميق، حتى إذا ما التأم أو كاد، عاد فنكأه، ثم عاد ثالثة ليداويه. . .! وصاحبتي التي اصطلحتما عليها لم تكن مني إلا بمنزلة المنظار من عين الأعشى ينظر من خلاله إلى هذا العالم فيرى ما يراه ذو العين الصحيحة؛ ولم تكن من قلبي إلا بمنزلة الاطمئنان من قلب مضطرب، ولم تكن من عقلي إلا بمنزلة الطبيعة تفتح فيه طرقا معبدة؛ ولم تكن من حياتي إلا بمنزلة الصديق الوفي. ولعلك تذكر يوم أن كتبت إليك وكنت بعيدا: (لقد أبللت من مرضي. . .) كان أخي في منأى عني، ووقفت زوجتي جوار سريري، لا تعرف كيف تصب الدواء في فنجانه، ولا متى يكون. وهفت نفسي إلى التي أحبها حين خيل إلي أني أموت فكتبت إليها وألححت؛ فزارتني على استحياء، ثم ألححت فوقفت مني موقف الطبيب من مريضه. . . ثم كتبت إلى أهلي تقول: (إن أبنكم يحتاج إلى من يقوم عليه. . .) كتبت ذلك حين رأت أن في زيارتها شيئا، ثم. . . ثم لم تعد ولم أبللت وخرجت للقائها قالت: لقد كنت قاسيا، وما استطعت أن أرفض حين رأيت الخطر. وما كان أجدر بي وبك ألا نقطع هذه المرحلة. يا لشقائي بك! ويا لشقاء زوجك بك! لقد أصبت قلبين بسهم.

وقالت لي وقلت لها، ثم افترقنا، وأردت أن أهب إلى التي في داري بعض نفسي فأشعرها بأننا أنثى ورجل؛ فارتد قلبي عنها، ثم أرغمته فارتد أخرى، وأظلم منزلي من بهجة العزوبة ومن جمال الزواج معا. وأصبحت الدار التي جعلتها لسكناي هي جحيمي، ففررت إلى الشارع وإلى عملي؛ وشعرت الأخرى أنها لا تملك في هذا المنزل ما تملكه الزوجة ففرت إلى حجرتها وإلى خادمتها؛ واعتزلتها، واعتزلتني؛ ورجعنا إلى ما كان، حين كان بيننا (الباب المغلق) سنوات تسعا

قلت أن أولى الناس بإحسان المحسن، هو القريب، فالجار الجنب، فالصاحب بالجنب؛ وقد عرفتك محسنا، وهذه من ذوي قرابتك، وأقرب إليك من جارك؛ أفلا تكون محسنا معها؟

قال: لقد كنت أستطيعه لو وجدت النور. إنها لظلام وظلام وظلام. . . أما الظلام الأول ففي منزلي، وأما الظلام الثاني ففي قلبي، وأما الظلام الثالث ففي عقلي. . .!

وصمت وصمت؛ وكان كأنه يسترجع الذكرى، ذكرى أيام خلت، ذاق فيها حلاوة العيش، وسعادة الرضى، وكأن حياته بماضيها ومستقبلها قد جمعت في أشهر كانا فيها. . .

ثم التفت إلي كالمذعور وقال: أما أنني كنت معها غير الرجل الذي فيه الرجولة فقط، وأما أنها كانت معي غير الأنثى التي فيها الأنوثة فقط - فلا. إلا أنها كانت توحي إلي بكلام هو من لغة السماء، وتصب في حياة هي حياة أهل الخلد؛ وكنت إلى ذلك مطمئنا وقد اطمأنت هي أيضا إليه. وقنعت وقنعت. والناس يرون في الحب الفاحشة ولا يرون فيه المجد. والذي يعيش في حياته بلا حب كالشجرة العانس. ليس إلا هي في الحديقة، ولا سبيل إلى أن تجد الشجرة الأخرى. . . فلا هي بالذابلة الجافة، ولا هي بالمثمرة؛ ولكنها بارتفاعها وفقرها تقول: (أنا. . . أنا الموجود الذي لا وجود له.) فما أسرع ما تمتد إليها يد لتقتلعها، وحين ترى نفسها وقد نالتها فأس الحطاب تقول (. . أنا. . ويلي!. . أنا الضائعة). أن الذي لا يحب الجمال ولا يلتمسه في امرأة؛ ثم يفاخر غيره بذلك، إنه لا يقول للناس (أنا لا أحب ولا أقدر الحب.) بل يقول (أنا. . ما أنا في الأحياء!. . أنا. . أنا ميت الأحياء) والضعف الذي يراه في الذين عرفوا الحب وآمنوا به، إنما هو ضعف في إنسانيته هو لا في إنسانيتهم. والذي لا يدرك الجمال في المرأة لا يدركه في الطبيعة؛ لأن المرأة هي المنظار المكبر الذي ينظر الرجل من ورائه إلى ما حوله. وإلا فهو لا يرى موضعه من الأحياء. .)

أنا. . أنا إنسان ولا أستطيع أن أقول إن كل شيء جميل، وإن كان القبح جمال فقد

يكون الجمال قبح؛ ولكن هذه التي يقولون عنها إنها جميلة. . . ثم أرغموني عليها وأرغموها على لا أرى في قبحها جمالا ولا في بؤس الحياة معها فنا. . .
قلت: ويك: لقد اصطرعت في نفسك عوامل رانت على بصرك وتركتك في بيداء من الوهم والخيال، كأنك تريد أن تخلع ثوبك؛ وقد يكون في الذي تخلعه جمال!
قال: أما أن أظل شريدا، فلا. وأما أن أحتمل مع عبئ عبئا آخر، فلا. وأما أنني أهتم بنفسي، فنعم. وماذا يضيرني ويضير هذا العالم بما فيه أهلي وأهلها إذا لبست فوقي ثوبي القديم ثوبا آخر، فيخفي عن عيني وعين الناس هذا القبيح الذي كنت ألبس؟
ثم تركني، وأنا أقول: وا أسفا لهذا الشاب!! أثقل عليه أن صفحة من صفحات قلبه قد نشرت وهو كان يحمل الهم كله في صدره فما يثقل عليه؟ ويل للشاب من الشيخ فذلك يتكلم بوجدانه وعاطفته وقلبه، وذاك يتكلم بعقله وتجاربه وفلسفته. فأين يلتقيان!

كامل محمود حبيب

عمرو بن العاص - 4

بقلم حسين مؤنس

تتمة

وانتظمت جيوش معاوية واتخذت سبيلها إلى الشام لتثأر لعثمان الشهيد. . . ولم يعد في نفس أحد منهم شك في أن عليا هو قاتل عثمان. . . وأن حربه والانتقام منه فرض واجب على المسلم الصادق الأمين، ومضى معاوية وعمرو على حصانيهما يتحدثان في الطريق وإن معاوية ليحس خطر هذا الرجل الصامت إلى جانبه. . . إنه ليعجب من هذا العقل الكبير الذي لا يقصر عن غاية ولا يعجز عن أمر. . . وإنه ليخشاه ويرى سلطانه مهددا بوجوده. . . ولكنه يحتاج إليه ولا يكاد يستغني عنه في هذه الملحمة المقبلة. . . ولم يكن عمرو ليفكر في غير ذلك! ولكنه لم يكن منصرفا إليه هذا الانصراف كله. . . فهو يعرف حاجة معاوية إليه ولا يخشى منه أمرا. . . بل هو يفكر في أمر آخر، إنه ليفكر في علي وقوته. . . ويحسب حسابها ويسأل نفسه، ترى ماذا افعل لو أنتصر عليَّ علي وهو أمر معقول جدا. . . وإن عليا لفارس العرب وسيف الله البتار؛ وإنه لصاحب الأيام البيض الخوالد والغزوات الزهر الباقيات، وأن معه لنفراً من الفرسان الصناديد الذين يخشى منهم أي خشية. . . فيهم الأشتر النخمي وفيهم من أصحاب الرأي أبن عباس، وإن في هؤلاء لغناء ومنعة من الفشل. . . فما ترى أبن العاص فاعلا والأمر خطر والبلاء شديد؟

وانتهت الجيوش إلى ضفاف الفرات، واقتربت من طلائع علي وعسكرت في موضع سهل ومنعت الماء من علي. . . وباتت قوات علي عطشى حتى عيل صبرها فحملت على الشآميين فأجلتهم عن موضع الماء. . . وبات الشآميون عطشى فندبوا من يسأل عليا الماء فأجاب!. . . وتلك كانت علة الرجل التي انتهت به إلى الهزيمة في ذلك الميدان، فكيف يثبت الطيب للخبيث، والرقيق للقاسي، والأيمان للحيلة والدهاء! وزاد الأمر بلاء أن عمرا أدرك موضع الضعف من علي، وسنراه سباقا إلى الاستفادة من إيمان علي وشهامته. . . انظر إليه قبيل صفين. . . إنه يدور بعينيه في معسكر علي ليختار الدهاة والخبثاء ويتصل بهم ويشككهم في أمرهم. . . هذا الأشعث بن قيس يتفاهم مع عمرو، وهذا أبو موسى يبدأ يشك في حق علي. . . ثم تبدأ الدعاية القوية في جيش علي نفسه فتقعد همم الناس وتفتر عزماتهم. . . ويرون قتال أعداء علي تعبا لا طائل وراءه، وإن عليا ليلزم جنوده شدة لا يطيقونها، وإنه ليمنيهم بالجنة دون الغنائم والأسلاب؛ وهؤلاء جنود الشام عليهم النعمة ظاهرة والخير وافر: وذلك عدل معاوية، وكياسة عمرو! ثم انظر إلى ميدان صفين: كيف تهم طائفة من أصحاب علي فتكتسح العدو اكتساحا وتكاد تأتي على معاوية، وكيف تتقاعس طائفة أخرى تكاد تفر من الميدان، وكيف يلقى علي مقاومة من أنصاره ومعارضة من قواده. لقد تغيروا. لقد داخل نفوسهم الشك في عدالة قضيته؛ وإنهم ليرون ظل عثمان ملقى على خلافة على ثقيلا رهيبا. بلى وهذا الأشعث يقعد عن المضي، وهذا الأشتر يمضي، حتى تكاد الهزيمة تحيق بمعاوية. ويشتد الأمر بجند الشام وينظر عمرو حواليه، فإذا الأمر مقضي، وإذا الهزيمة قاضية، فينحى على معاوية ويلومه لوما شديدا. لقد بدا له أنه (خسر الصفقة) وأن السوق قد أتت بغير ما كان

يقدر. إنه لثائر مغضب يلوم معاوية، فيشتد في لومه، وإنه ليعتبره مسئولا عن الخسارة التي حاقت به، وإنه ليصارحه برأيه وبمكنون سره ويقول له: (يا معاوية: أحرقت قلبي بغصصك؛ ما أرى أننا خالفنا عليا لفضل منا عليه! لا والله، إن هي إلا الدنيا نتكالب عليها، وايم الله لتقطعن لي قطعة من دنياك أو لأنا بذنك).

وإنه ليندم على ما أتى من انضمامه، وقد نسي قدر علي وقوة جنوده؛ ولآن اتضح له الحق فهو يلوم ويندم، ولكن ماذا يجدي، , عن الخطر ليقترب، وإن جنود علي لتكاد تمس جفاء معاوية؛ وإنه ليركب حصانه، ويهيب بعمرو: (الله. . . الله. . . في الحرمات والنساء والبنات: هلم مخبآتك يا أبن العاص فقد هلكنا)، ولكن كيف يسرع أبن العاص إلى مخبآته، ويطوي خيامه ويلوي هاربا، وما بعد؟. . . إنه لينظر بعيدا، وإنه ليرى عليا متعقبا إياهم حتى يقبض عليهم في عقر دارهم. . . كان هذا أمرا يخيف أبن العاص. . . فانظر كيف يستغيث وكيف يحتمي بكتاب الله. . . لقد عرف أن في بعض رجال علي ميلا إلى المهادنة وترك القتال. فرأى الاستفادة منهم. . . ثم أخذ يسأل نفسه قائلا: ترى أي شيء يجله هؤلاء القوم في هذه اللحظة التي تنكروا فيها لكل شيء؛ فتجيبه نفسه: كتاب الله. . . فيجيبها: فلنعتصم منهم بكتاب الله، ولنرفع المصاحف على الرماح؛ فيجب نفسه. . . بلى. . . هو الرأي الصواب. فترفع المصاحف على الأسنة ويراها أصحاب علي، وكأنما كانوا يترقبون فرصة يكفون فيها عن القتال فيرون في هذه حجة كافية، ويكفون ويحتجون بكتاب الله،

ويدور علي بعينه في معسكر عدوه ليرى مطلع هذه البدعة فيجد انه عمرو. وهنا ينكشف لعينه سرها. . إنها خدعة. . إنها حياة، ولكن قومه لا يسمعون. وهاهي صفين تنفض، والأشتر يؤمر بالرجوع، وينجو معاوية، ويحول أبن العاص المعركة من حرب السيوف لحرب الفكر واللسان لكي يشل قوة علي، ولكي يكون هو في ميدانه الصالح له. ثم انظر إليه يتدخل حتى في اختيار علي لمندوبه. . . إنه ليتصل بالخونة من أنصار علي ويوعز إليهم فيرفضون عبد الله بن عباس لأنه فتى ذكي مخلص لقضية علي. ثم يرفضون الأشتر لأنه متفان في خدمة أبن أبي طالب، ولكنهم يؤيدون الأشعري لأن عمرا يعرف أن بينه وبين علي شيئا، وأن التفاهم قد يجدي معه كثيرا، وينفض الجمع ليلتقي في دومة الجندل

ترى فيما يفكر أبن العاص في هذه الفترة. . . في مصر وأمورها. . . لأنها ستعود إليه بعد قليل. . إنه يكيد لواليها الجديد قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري فيشيع في حزب علي أن قيس قد أنضم لحزب معاوية، فيعزله علي ويضع مكانه الأشتر النخمي فيموت الأشتر مسموما عند (مسروره) بالقلزم في 5 رجب 37. . . أترى لعمرو يد في ذلك؟ ثم يكون التحكيم الذي لم يرو التاريخ مثله أبدا، والذي لم يوفق مؤرخ في روايته على أصله أبدا، والذي يرفض العقل أن يقبله في صورته التي وصلت إلينا. . . ولكننا نستطيع أن نفهم منه كيف كان الناس ينظرون إلى عمرو! وكيف اعتبرته الأجيال اشد الناس لؤما وأكثرهم خبثا. . . لقد وفق عمرو توفيقا عظيما. . . ولم يكن توفيقه راجعا إلى مهارته في الكيد وحدها، بل إلى وجود الضعاف والخونة في صفوف خصمه وحسن استفادته من هؤلاء. . . هذا هو يتدخل في انتخاب مندوب علي ويرضى أخيرا عن أبن موسى الأشعري لا لأنه أبله أو شيخ كما يزعم الرواة، بل لأنه غير راض الرضى كله عن علي. . . ولأنه قابل للفتنة مستعد للمساومة؛ وهذا عمرو يخلو به ساعات طوالا يتحدث إليه في الأمر: ويتفنن في إقناعه. . . وينفذ إليه من شتى السبل حتى يوفق إلى تشكيك الرجل في عدالة قضية علي، بل إلى اتهامه بمقتل عثمان. . . فإذا خلص من هذا فقد أفهمه أن لعثمان أولياء يطلبون ثأره من القاتلين. . . وأن الأولياء هم معاوية وعامة آل أمية. . . فإذا خلص إلى هذا فقد أقنع خصمه بعدالة ثورة معاوية. . . ثم يسأله: فماذا يا ترى؟. . فيصمت الشيخ فيقول عمرو: أننا نرضى بتنازل علي ثمنا لدم عثمان؛ فلا يرى أبو موسى

حرجا في ذلك. . . ويطرب لذلك عمرو، فقد خسر منافسه الخلافة ولم يخسر هو شيئا. . . وهو إنما يرجو أن يخلع الخلافة عن علي ليصير هو ومعاوية صنوين. . . ثم إنه يعرف أن أنصار علي ملتفون حوله لأنه خليفة، فإذا زالت عنه هذه الخلافة تفرقوا. . . وقد أفلح. . . بل أن أنصار علي ليتفرقون قبل خلعه في التحكيم. . . ويصبح معسكره فوضى. . . وينفض الخوارج ويتفرقون ويحاربهم في النهروان. . . كل هذا يرضي عمرا

لآن فيه أضعافاً للخصم، فإذا تم الأمر ونزعت الخلافة لم يصبح لعلي بعد ذلك شيء ويذهب أمره هباء
ثم يعلن الحكمان ما وصلا إليه: لقد رأينا خلع علي. . . لقد ثارت الفتنة واضطرب الأمر وأسقط في يد علي وأنصاره. . . وقد كسب عمرو كل شيء وأصبح علي عاجزا عن استنهاض همم جنوده لحرب معاوية. . . وقد قوى أنصار هذا الأخير فخافهم الناس واتحد جند معاوية وقوى أمرهم واشتد ساعده بهم، واستطاع أن يفصل عن علي بلاده جزءا جزءا حتى إذا قتل سنة 40هـ لم يكن قد بقي في يده من الأمر شيء
هكذا فعل عمرو: فرق الصفوف وأشاع الفتنة وأقام هذه الفوضى التي لم يخلص الإسلام منها إلى أواخر أيامه. . . لكي يصل إلى شيء واحد. . مصر. . لقد باع الحق وارتهن الفضيلة، وساوم على طمأنينة الدولة الإسلامية ليكسب شيئا واحدا، هو مصر بخيرها وبركاتها
وانظر إليه لقد أسرع إلى مصر ستة آلاف مقاتل، يقطع بهم سيناء على عجل سنة 38هـ، فإذا أشرف عليها فقد أرسل يهدد محمد بن أبي بكر الصديق ليخلي بينه وبين ما يريد. ولكن محمدا رفض، ولم يدر أن غريمه قد باع الدنيا والآخرة بهذا الذي يعارضه فيه؛ والتقى الجمعان، وفر محمد وتبعه معاوية بن حديج وقتله في المنشأة
ثم انظر صراعه مع معاوية على مصر. إن الأول ليستكثر عليه هذا البلد الغني الطيب، وإنه ليراه غير أهل لتلك النعمة الوارفة. فإنه لجالس ذات يوم في نفر من صحبه وفيهم عمرو فيقول:
- ما أعجب الأشياء؟ فيجيب يزيد ابنه:
- أعجب الأشياء هذا السحاب الراكد بين السماء والأرض. . . وقال آخر:
- حظ يناله جاهل، وحرمان يناله عاقل. وقال عمرو:
أعجب الأشياء أن المبطل يغلب المحق. فيسرع معاوية ويقول:
- بل أعجب الأشياء أن يعطى الإنسان ما لا يستحق إذا كان لا يخاف
بلى فهو أعجب الأشياء. . . وهل يستحق عمرو مصر وهولا يخاف (الله)
ذلك رأي معاوية في عمرو. . . ثم انظر إلى معاوية يحترس من عمرو في كتاب توليته فيكتب: (على ألا ينقض شرط طاعة. . .) فيمسك عمرو بالقلم ويبدلها: (على ألا تنقض طاعة شرطا)
وعاش عمرو بعد ذلك ما شاء الله له أن يعيش، وأنجاه الله من يد قاتله لكي ينعم قليلا بالشجرة الخضراء التي خسر في سبيلها كل شيء. وتردد بين الشام كثيرا، ليجلس إلى معاوية. . ثم ليخلو إلى أولاده، وكانت مصر قد صارت له طعمة، فاطمأن باله وترك الكفاح والجلاد، ولكنه لم ينس الكسب والخسارة إلى آخر أيامه؛ فإنه لجالس مع معاوية يوما إذ سأله هذا ما بقي منك يا عمرو؟ فيجيب. مال أغرسه فأصيب من ثمرته وغلته. . .)
أجل لازال في سن السبعين يفكر في غرس المال والإصابة من ثمرته وغلته؛ وهكذا ينبغي أن يفهمه الناس، فأن اجتهاده في السياسة ونبوغه في الحرب كان مصدرهما شيئا واحدا: الرغبة في الكسب والربح. . وقد انتهت جهوده إلى شيء واحد، لا هو الملك ولا هو الثواب. . بل ليست هي الآخرة نفسها وإنما هي مصر. . أغنى ولايات الدولة وأوفرها مالا. وقد مات وخلف ألف ألف درهم كما يقول المسعودي ودورا عديدة كان يمتلكها في مصر والشام.
(تم البحث)
حسين مؤنس
الصحراء
للأستاذ عبد الرحمن شكري
أرُحبُكِ أم صمتٌ الأرض على غالب ... غدا مُصحِرٌ من روعه وهو هائب
كصمت الخشوع المطرقين تروعهم ... مقابرُ صرعى للردى وخرائب
وصمتٍ لِذِي المحراب في بيت ربه ... يقاربه في صمته ويخاطب
توَقَّعَ من قد غاله الصمت هاتفاً ... يكلمه من فرط ما الصمت راعب
كمخترق الظلماء لاح لعينه ... إذا جال فيها اللحظُ ما هو غائب
حَرّي أن يناجي النفس فيك أخو الحجا ... ويخشع صمتاً راكب فيك ذاهب

ويخشع من رُحبٍ كأن لا مدى له ... حكى أبداً ما حَدَّهُ الدهرَ حاسب
ويخشع أن لا شيَء إلا مجانسٌ ... فلم يُلفَ إلا مُشبِهٌ أو مناسب
وكم راع رأى العين إن كان لا يُرَى ... سوى الشَّبهِ يتلوه الشبيه المصاقب
حكى خدعة الآمال آلك رافعاً ... على الأفقِ بُشرّى كذبتها العواقب
سراب الأماني في الحياة خديعةٌ ... وقد تُهلِكُ المرَء المنى والرغائب
ومن ضل في خرق من العيش لبه ... كمن خذلته في الفيافي المذاهب
تَفَتَّحُ أبواب الجحيم عن اللظى ... كأن شواظ القيظ يسفيه دائب
سموم كَدُقَّاعِ البراكين أو لظى ال - حرائق يصلاه الحصا والنجائب
ويصلاه ركبٌ خال دنيا تقلَّصت ... عن النار لو يسعى جحيمٌ مقارب
ويَسوَدُّ وجه الأفق حتى كأنما ... ذُكاءُ دجت أو يكسف الشَّمسَ حاجب
وكم حار ركبٌ من فجاءة صحوة ... كما راعَ مرأى الحسن والعُرى سالب
إذا الجو كالبِلَّورِ أُخلِصَ لونه ... وصب عليه من سنا الشمس ساكب
كذلك غب الغيث ريعان بهجة ... كأن طلاءً قطره وهو صائب
كأن ضياءً في سواد سَحَابةٍ ... تكاثر حتى ثَقَّبَ الدجنَ ثاقب
تَفَجُّرَ ينبوع من النور غامر ... كما غمر الأرضَ المياه السوارب
ضياءٌ ترى المألوفَ من كل منظرٍ ... به فإذا المألوف منه الغرائب
وما فرحة الولهان عاد حبيبه ... بأصدق منها فرحةً وهو آيب
نهارك أم ليل الداريِّ نائل ... من اللب نيلاً لم تنله الكواعب
أديم سماءٍ يُبْرِزُ الشهبَ صَفْوُه ... فأحسبها تدنو به وتقارب
أما يخشع السُّمَّار من كثرة الدنى ... ويذهل من رحب الفضاء المراقب
يبيت يناجي النجم والنجم سامر ... فتُفْضي إليه بالحِوارِ الكواكب
كأن لحاظ النجم من لحظ عاقل ... وأن رقيباً في السماء يراقب
يسائله عن عيشه أين سره ... كأن وراء النجم ما هو طالب
إذا خط فيك الدهر سطراً محوته ... كذا اليم، لا يقوى على اليم كاتب
وتُرْقل فيك اليعملات وإنما ... سفائن لج البيد تلك الركائب
وللبحر أمواج وللبيد مثلها ... إذا هب إعصارٌ على الركب كارب
فيغرق في لجٍ من الترب حائن ... كما احتشدت فوق السفين السوارب
ورحبك رُحْبُ البحر يطويك هائب=ويركبه ذو مطلب وهو هائب
بافقكما للشهب رهب وروعة ... جلالكما شِبْهٌ وشبهٌ مقارب
وذي دولة في اليم قد دال أمره ... وآخر أردته لديك المطالب
ويصغر عيش المرء في اليم مثلما ... تضاءل فيك عيشه والرغائب
لِمَحْلِكِ يلقى مكرم الضيف ضيفه ... بخير، وأما خصمه فهو سالب
وتشحذه الأخطار حتى كأنما ... بنوك سيوف ينتضيها المحارب
لقد صقلتها نار قَيْنٍ وصيقل ... كما صقلتهم في الحياة النوائب
تَنَسَّكْتِ في بُرْدِ التقشف لم يَلِنْ ... معاشٌ ولا ترجى لديك الأطايب

عبد الرحمن شكري

لُبْنَان

(تهدى إلى أخي الأستاذ علي طنطاوي)

لشاعر الشباب السوري أنور العطار

غاَبَ لُبْنَانُ في رَقيقٍ من الغَي ... مِ كما غَابَ في مَدَى اليَمّ زَوْرَقْ
ضَفَرَ الثَّلْجَ والسَّحَائِبَ تَاجاً ... وَاحْتَفَى في الضَّبابِ ثُمَّ تَعَلَّقْ
الهِضَابُ الشمُّ اكتَسَتْ وَرَقَ الخُلْ ... د وَطَافَ الرَّبيعُ فيها وَأحْدَقْ
والرَّوَابي تَوَسَّدَتْ رَاحة السُّحْ ... بِ ونَامَتْ على وِشَاحٍ مُرَقَّق
والذُّرَى البِيضُ في العَلاءِ نُسُورٌ ... حَوَّمتْ تَكشِف الخَفيَّ المُغَلَّقْ
نَشَرَت في الفَضاءِ أجنُحَها الزَّه ... رَ فأسنى بها الوجودُ وأشرَقْ
والقُرَى غلغلَتْ بأخبيةِ الغيْ ... بِ وَضاعت بين الغَمامِ المنمَّقْ
غَرَقٌ ملؤُهُ فُتُونٌ وسَحرٌ ... ونعيمٌ ضافٍ وحُلَمٌ مزوَّقْ
والينابيعُ ضاحكاتٌ من الزَّهْ ... وِ ترامى فيها السَّنا وتألقْ
سردتْ قِصَّةً من النَّغمِ الحُلْ ... وِ ومنْ سجعةِ الحَمامِ المُطوقْ

ضَجَّتِ الرَّبوةُ الأنِيسةُ بالشَّدْ ... وِ وغنَّى السفحُ الحَبِيبُ وزقزَقْ
وتَمَشَّتْ بالغابِ موجةُ أُنَسٍ ... فَشَدا الأَرزُ والصَنوبرُ صفقْ
وتَرَاءى البحرُ البَعيدُ كَحُلْمٍ ... مُبهمٍ راجِفِ الخيالِ مُلفَّقْ
سَرَقَتهُ في السماء الأُفقِ النَّا ... ئي فمن أبصرَ الخضمَّاتِ تُسْرَقْ
حَبّذا في رباعِ (زَحْلَةَ) وادٍ ... برعمَ الحبُّ في حِماهُ وأورَقْ
وبِأفْيائِهِ اللِّطافِ الحَوَاني ... سَرَبَ النَّهرُ كاللُّجينِ المُطرَّقْ
وترامى الصَّفصافُ في مائِهِ الرَّق ... راقِ يَسجُوا على الصَّفافِ ويغرَقْ
وعلى السّفحِ تَستريحُ الدَّوالي ... في نِظامٍ حلوٍ ونهجٍ مُنسَّقْ
والعناقيدُ بينهُنَّ نَشَاوى ... ثَمِلاتٌ مِنَ الرَّحيقِ المُعتَّقْ
رَنَّتِ الخَمرُ في ظُرُوفٍ من النُّو ... رِ وَكادَ الشذا يُشمُّ وينشَقْ
ذاكَ (صِنِّينُ) قَيلَقٌ في السموَا ... تِ وفي الأرضِ جاثمٌ منه فيلقْ
هوَ جارُ النُّسورِ حَطَّ على الغي ... مِ وَأسرى إلى العَلاءِ وحَلقْ
والسُّهولُ الفِساحُ دُنيا من الإلْ ... هامِ تَندَى مِنَ الطُيوبِ وتعبَقْ
والمساءُ السَّاجي البهيُّ رُسُومٌ ... وَرُؤىً كلها تحبُّ وتُعشَقْ
والقطيعُ المِمرَاجُ غَنَّاهُ راعي ... هِ فأصغى مستمهلاً وتشوَّقْ
هَدهَدَتهُ الرَّبابُ فَانسَابَ كالنَّه ... رِ وأهوى من الرُّبى يتَدَفَّقْ
ملأَ الكونَ بالثُّغاءِ فما تَس ... مَعُ إلاَّ صدى يطِنُّ وَيزعَقْ
عَادَ واللَّيلُ مُتعَبٌ هبطَا لأر ... ضَ وأغيا على الجِبَالِ وَأطبَقْ
إيهِ لُبنَانُ يا نَشيدَ الأناشي ... دِ ويا صُورَةَ النّعِيمِ المُحَقّقْ
عَالَمٌ أنتَ للهَوَى والأماني ... يُشتَهَى السَّحرُ في حِماكَ فيُخلَقْ
دَرَجَ الحُبُّ في ثَرَاكَ نَقِيًّا ... ولهُ فتنةٌ تَرُوعُ وَرَونقْ
وبأعطافِكَ الرَّقاقِ الحَوَاشِي ... وَقفَ الحُسنُ خاشِعاً ثُمَّ أطرقْ
وتطلَعتُ مِنْ مشارفِ لُبْناَ ... نَ أُناجي منْ صفحةِ الغَيْبِ جلَّقْ . . .
تلكَ مأوَى رَغَادَتِي وَخَيالِي ... وبها قَلْبَي اللَهيفُ مُعَلقْ
أنور العطار
جنازة السلام
بمناسبة الحرب بين إيطاليا والحبشة
للأستاذ محمود غنيم
أرأيت إذ وُلِدَ السلامْ ... فنَعَوْهُ من قبل الفطامْ
وضعته (أُورُبَّا) لنا ... يا ليت (أوربا) عُقَام
طفلٌ بريءٌ ذاق مِنْ ... يد أمهَّ كأسَ الحِمام
نحروا الغلامَ ضحيةً ... في عيد ميلاد الغلام
لهفي عليه ممزَّقَ الْ ... أوصالِ مُنْتَثِرَ العظام
عصفت به ريحُ الوغى ... عصفاً وغطَّاه القتام
فمضى شهيداً ما له ... قبرٌ يُزارّ ولا مقام
ليس السلامُ بسائد ... مادام في الدنيا حُطام
ما الناسُ إلا الناسُ في ... عصر الضياء أو الظلام
سيَّان مَنْ سكن القصو ... رَ الشمَّ أو سكن الخيام
بِسوَى الدمّ المسفوح لا ... يُرْوَى لظامئهم أوام
وأحبُّ ما وقعت علي ... هـ عيونُهم جُثَثٌ وهام
وهو ابنُ آدمَ ينتشي ... من حُمْرَة الدم والمدام
الذئب كالإنسان لو ... يتعلم الذئبُ النظام
فكلاهما وحشٌ حد ... يد النّاب يلتمس الطعام
سِيَّان عند الفتكِ نا ... بُ الليث أو حدُّ الحسام
قالوا السلامُ فقلت ما ... أقوى اللسانَ على الكلام
وتعاهدوا فسألتُهم ... ما حَدُّ مَنْ خَفَرَ الذمام
أبغصن زيتون يُجا ... زى أم بصارم الانتقام
قالوا السلامُ فقلتُ كم=قد حارب الرُّسُلُ الكرام

لا (الفاتيكانُ) من الحرو ... بِ نجا ولا البيتُ الحرام
قد كانت الخلفاء تُص ... لَبُ بين زمزمَ وَالمقام
كلٌّ يُشيرُ إلى السلا ... م بعين ذئبٍ لا تنام
وأمامهُ أُسطولهُ ... ووراءه الجيشُ اللُّهام
فَقَدَ المهنّدُ عرشَه ... والمُلكُ ليس له دوام
نارٌ وغازٌ فاتكٌ ... بدلَ الأَسنة والسَهام
شبح المنَّية جاثمٌ ... فوقَ المياهِ أو الرغام
أو في الفضاء مرفرفٌ ... بجناحه مثلَ الحمام
جبَّارَ رُوماَ سوف تَلْ ... بَسُ تاج قَيْصَرَ في المنام
أتريدُ ويحك أن تُؤَ ... خِّر أهْلَ جيلِك ألفَ عام
ولّى زمانُ القيصر ... يَّةِ والقياصرةِ العِظام
أوَ ما رأيتَ الحكم با ... ت الآن في أيدي الطّغام
ولقد مشَيتَ القهقَرى ... ومشى الزمانُ إلى الأمام
أإذا صفا جوُّ السلا ... م زَفَرْتَ فانتشر الغمام
رُحماك هل تشكو إلي ... ك الأرضُ من هول الزحام
لم تَخْبُ نارُ الفتنة ال ... كبرى وجُرْحُ الكون دام
ولقد تحديْتَ الأنا ... مَ فكنت سخريةَ الأنام
أسرفتَ ويحك فاتئد ... ماذا جنى أبناءُ حام
لا تحسبَنَّ مرابضَ الْ ... آسادِ سهلَةَ الاقتحام
هذي معاقلُهم فمن ... لك بالبواذخ من شمام
هاهم خصومُك حول شَ ... طِّ المَنْشِ إن شئتَ الخصام
القابضون على جني_فَ ورهطها مثلَ السوام
قالوا الحصارُ فأذعنت ... (والقول مَا قالت حذام)
أخذوا على روما المسا ... لكَ فهْي في ضيق المسام
عَجَبي على باغٍ يقو ... لُ لمن بغى: هذا حرام
استَعْمَرُوا فتلثَّموا ... وخرجتَ مكشوفَ اللثام
رمتَ التّنَمُّرَ مثلَهم ... فظهرتَ في ريش النّعام
شرزٌ بروما طار يو ... شِكُ أن يكون له ضِرام
الشعبُ هُدِّدَ بالطّوى ... والجيشُ بالموت الزؤام
يتساءل الأقوامُ هل ... (نيرونُ) بعد الموت قام
زعزعتَ أركان السلا ... مِ فَذُقْ مرارة الانهزام
كوم حماده
محمود غنيم
القصص
أقصوصة عراقية:
أبو جاسم
للأستاذ محمود. ا. السيد
- 1 -
حدثني صديقي إبراهيم والذكرى تؤلمه، قال:
كنت في المدرسة الثانوية - السلطانية العثمانية - قبل احتلال الجيش البريطاني بغداد) بسنة أو أقل، أصاحب طالبا من ذوي الذكاء الواعد والخلق الجميل. كنت في السادسة عشرة من العمر. وكان هذا الصديق - وأسمه علي بن حسن - خير عون لي في المدرسة. وكنت أعجب بذكائه. . وكان طليقا جريئا يسمو على أقرانه بكثير من المزايا والصفات
وكان إلى جانبنا طالب آخر يكمل لنا (ثالوثا) مقدسا بالإخاء والود أسمه عبد العزيز. وهو من أبناء الطبقة العاملة. وكان أكبرنا سنا وأقلنا تهذيبا، وأجرانا قلبا، يقلدني وعليا في الاعتزاز برجال التاريخ الإسلامي العربي: أجدادنا الأولين. وذلكم كان ديدننا في ذلك العهد: فجر الحرب العالمية الاستعمارية الكبرى وضحاها
وكان أكثرنا حبا لبغدادنا وإيغالا فيها. . . يعاشر خارج المدرسة فتية من أبناء طبقته

المكدودة فيشاركهم فيما يعتقدون من باطل العقائد والخرافات. وكان يرى - فيما يرى من غريب الآراء - أن القبعة العسكرية (الأنورية) التي ابتدعتها الحكومة الاتحادية إبان الحرب لرجالها ولطلبة المدارس، قبعة إفرنجية، حرام على المسلمين لبسها، أن رباط العنق رمز للصليب. ولم يلبس القبعة حتى أخر يوم من أيامه في المدرسة، فكان الطالب الوحيد البارز من بين الطلبة بطربوشه الأحمر القديم. أما أنا وعلي فقد لبسنا القبعة تلك لأننا لم نستطيع أن نشذ عن الجماعة شذوذه.

وكان هذا الصديق الجريء، يقضي أغلب أوقاته في منازعة الطلبة وتحديهم، فكنت أنصحه راجيا منه أن ينصرف عنهم وعن منازعاتهم إلى التوفر على دروسه فما كان النصح يجدي

وكان يؤسفني أنه عرف آخر الأمر بأنه شكس سيئ الخلق، وإن كان في الحقيقة طيب

السريرة خيرا. ولعلهم كانوا يعيبون عليه كرهه للبس القبعة (الأنورية) لغير ما سبب معقول. وكانوا يتخذونه وطربوشه القديم الذي أوشك أن يبلى هزوا؛ وهذا ما كان يهيجه. ولم يزده عقاب المدرسة إياه على شغبه إلا جرأة واستمرارا في الشغب والنزاع والخروج على (النظام)

وكما كان يكره القبعة، كان يكره الحكومة - الاتحادية - أشد الكره، لأنها حين اضطرمت نار الحرب جندت أخاه الكبير وأرسلته مع من أرسلت من أبناء العراق إلى سوح الوغى في القوقاز، ففقدت بذلك أسرته قوامها وسبب حياتها، كان قائما مقام أبيه الشيخ الكبير الذي لا يستطيع عملا، وكان يحسب أنه لاحق به في العاجل القريب وظاهر أن هذا المسلك الذي سلكه عبد العزيز يومئذ كان يجب أن يؤدي إلى الشر. وكان يجب أن يكون مصيره (الطرد) من المدرسة والحرمان من العلم. وكان متوقعا كذلك أن ينالني بعض الأذى من أجله، فقد كان المدرسون والطلبة - إلا القليل منهم - يناوئوننا معا ويكرهوننا ويعادوننا أشد عداء. . .

واشتدت الحرب في العراق. وطغى سيل الغزاة الفاتحين. غلب البريطانيون، وأصبحوا على أبواب بغداد، فتنكرت الأيام للناس، وجندت الحكومة طلبة الصفوف العالية، وأكبت على طلبة الصفوف التالية الأخرى تعلمهم كما تعلم الجند فنون الحرب والضرب وتقحمهم في أشق الرياضات العسكرية لتلحقهم بهم. وهنا كان صحبنا الطلبة جميعا - في مدرستنا - جبناء، يملأ قلوبهم الرعب والخوف

أما عبد العزيز فقد استيقظ في نفسه من جراء ذلك شعور بغض للمدرسة، بغض للخروج مع الطلبة - على ما كانوا يفعلون في كثير من الأحيان - إلى استقبال القواد وحضور الحفلات الحكومية. بغض لمدرس الرياضة الذي أرسل إلينا آنئذ من الجيش، وهو ضابط فظ بدين، ذو شاربين غليظين منتصبين كالصياصي. . . وكان يخشاه

وكان - من بعد - حين يخرج من بيته صبحا يتلكأ في الذهاب إلى المدرسة، ويحاول أن يتمارض لكي ينقطع عنها أياما قليلة أو كثيرة. كان يغادر البيت كل صبح، وكأنه - كما كان يقول لي - يساق إلى سجن لا إلى دار علم وعرفان

وجاءنا إذ ذاك مدير المدرسة جديد. وهو رجل عنيد، كان يحسبنا مجموع دمى من الشمع

يسهل عليه إذابتها ثم صنعها ثانية على الغرار الذي يريد. وكان أول من لفت نظره إليه من الطلبة: عبد العزيز؛ فقد أعار سلوكه اهتمامه وعنايته، وراح يرهبه ويعالج تأديبه وتهذيبه بالعصا. وأذكر أن طالبا من أبناء الضباط الذين جاءوا بغداد في أواخر أيام الحرب من البلاد الشمالية، سفهه ذات يوم ثم عيره بالعامية والفقر، فقابله بالصفع والضرب الموجع المهين، فما كان نصيبه من المدير إلا الإهانة و (الطرد). وبذلك أسدل الستار على حياته المدرسية، وألجئ إلى التشرد والعطلة! وا أسفاه!!

ولقيته بعد ذلك فألفيته جزعا، وقص علي قصة النزاع بينه وبين ذلك الطالب - ولا أذكر أسمه الآن - قال:

غادرت البيت صبحا وأنا كئيب محزون، لأن أمي التي لا تفتأ تذكر أخي الجندي ليلا ونهارا بالحسرات والدموع، وأبي المقبل على أخرته غير آسف على شيء في الدنيا، وهو يحبه حبا جما، لم يصل إليهما كتاب منه منذ شهر وبعض شهر. فأفرغ ذلك صبرهما بل أفقدهما الرشد. وإذ كنت أمشي في الشارع فاجأني خمسة من الشرط يعدون

وراء رجل علمت من بعد أنه جندي هارب. وصرخ أحدهم قائلا: (خائن! قف!) ثم أطلقوا عليه الرصاص من بنادقهم فأردوه. وسقط تعبا جريحا يلهث وعيناه تنظران إلى السماء. ووقفت على مقربة منه أنظر إليه في لهفة وفرق؛ وهو ملقى وقد اصفر لونه وجللت وجهه سحابة من قتر الطريق، وتشنجت أعصابه من الخوف، وأقبل الشرط يتراطنون يريدون أن يحملوه. . . أعرضت عن هذا المشهد الذي آلمني أشد إيلام وانصرفت صامتا، ولحظت أن الشمس تملأ الأرجاء نورا، فعرفت أنني تأخرت عن موعد الدرس الأول. وكنت أمشي متباطئا ذاهلا، فما انتبهت إلا وأنا على باب غرفة صفي. . . طرقت الباب طرقا خفيفا مرة فمرتين وحاولت الدخول فجابهني المعلم ناهرا إياي بقوله: (أخرج، أخرج، اندفع يا حمار!) أو كنت حمارا فيإسطبل أبيه؟! وكنت حتى حين خروج الطلبة في الصف إثر الفراغ من الدرس ثائرا مهتاجا، فلقيني ذلك النذل فلاغاني فلكمته، وماذا كان يجب على أن أفعل؟ وسحقا للمدرسة بعد أن ينالني من هؤلاء فيها أذى)

وقال صديقي إبراهيم وقد حدثني بحديثه هذا بعد انتهاء الحرب ومرور سبعة أعوام على نهايتها:

(ثم احتل البريطانيون بغداد، وفرقت صروف الزمن بيننا - بعد ذلك - إذ رحل بي أبي وأسرتنا كلها إلى الحلة، فأقمنا فيها قرابة سنين أربع، فلما عدنا إليها لم أسمع لصاحبي عبد العزيز ذكرا)

- 2 -

وكتبت هذا الحديث لطرافته عام 1929. ثم مضى على ذلك أعوام ثلاثة، فبدا لي يوماً أن أسأل إبراهيم!

(هلا بحثت في هذه المدة الطويلة الماضية عن رفيقك القديم؟ رفيق المدرسة وطريدها عبد العزيز؟)

فأجابني وهو شاعر بما يتضمنه سؤالي من ملامة:

(لقد بحثت عنه في الأيام الأخيرة، فبلغني من أنبائه، أنه كان هاجر قبل مدة غير محدودة بالضبط إلى البصرة، ليتكسب فيها ويعيش عاملا لدى إحدى الشركات الأجنبية، فأنه أضحى في عنفوان شبابه، وبلغ السن الذي يستقل فيها المرء بالكفاح والجهاد في سبيل الحياة، وإن أخاه الجندي المحارب لما يعد، وهلكت أمه ومات أبوه فقيرا معدما، لم يترك له إلا ديونا ودارا، بل كوخا باعه الدائنون؛ ولم يف ثمنه بعشر معشار تلك الديون. ولم يكن متعلما حرفة، ونسي ما تعلمه في المدرسة العثمانية من مبادئ العلوم. وكان يزاول بعض الأعمال الشاقة التافهة التي يزاولها العمال الذين من أدنى الدرجات؛ ولا يأخذون عليها أجرا يستحق ذكرا. هذا كل ما سمعته عنه. ولا يعلم أحد على التحقيق أذهب إلى البصرة أم إلى جهة أخرى)

قلت:

(أو لا ترى من واجب الوفاء إتمام البحث عنه لاستئناف الصلة به والوقوف بجانبه في معترك الحياة، في هذا المجتمع الذي طغت فيه المادية والأنانية والفردية، المجتمع الجائر القاسي الذي لا يرحم الفقير، وأن تنفعه وتعينه على اكتساب الرزق، فأنك موسر بعض اليسر.)

قال:

(وهل تحسب عبد العزيز المشاغب في المدرسة، الذي لم يعرف سوى عزة النفس والأباء في أيامه الماضية عدة وخلقا، والذي لم يستعن أحدا من صحبه يوما لو وجدته الآن لمد لي ولأمثالي يده في إبداء حاجة واستعانة مهما كان معسرا تنقض ظهره الشدة والفاقة؟ كلا. أنا لا أحسب ذلك؛ بل أحسب أن تلك الفترة من أيام مراهقته وفاتحة شبابه، كانت مقدمة وعنوانا لما كان مقبلا عليه من أيام شبابه ورجولته)

ثم سكت وسكت

وبعد شهرين أو ثلاثة أقبل علي يزورني في داري، وما عتم أن راح يحدثني عن رفيق صباه عبد العزيز الذي عثر به آخر الأمر فقال:

(ولقد وجدته آخر الأمر وصافحته. . . ولكن أين؟ احزر أين وجدته؟ في السجن! ولا تستغرب؛ فقد ذهبت يوم الجمعة - أمس - إلى هناك لأزور صديقي الصحافي عبد

الصمد الذي سجن متهما بنشر ما لا تجيز الحكومة نشره، وإذ كنت أدخل الحجرة التي يسمح بمقابلة السجناء فيها ألفيتني أمامه وجها لوجه. وكان يكلم زائرا غريبا يرتدي بزة العامة، ربما كان صديقا له. ولم أعرفه إلا بعد تأمل فيه قليل، لأن سحنته قد غيرتها السنون؛ وحييته فحياني وبسم لي، ثم سألني (أو قد نسيتني يا إبراهيم يا حبيبي؟ يا رفيق الأيام الحلوة التي لن تعود! وهل نسيني علي كذلك؟ وكيف هو؟. . . الخ) ودمعت عيناه من شدة الفرح بلقياي، وكان طليقا جريئا، كما كان في المدرسة، في محادثته السجانين وصاحبي الصحافي عبد الصمد الذي لم يكن يعرفه من قبل، ورأيت أن لهجته في الكلام أصبحت عامية سوقية خالصة، تميزها التعابير والألفاظ التي تجري - عادة - على ألسنة هؤلاء الذين عرفوا بفعال (الشقاوة) - كما نسميها - التي تظهر فيها، في أغلب الأحيان، شجاعة نادرة في غيرهم و (أريحية) ونجدة وكرم على فقر، وجرأة في احترام الجرائم، وكراهية شديدة لكل من يمت إلى الأجنبي الغاصب بصلة باقية من عهد الاحتلال المظلم، على ما تعرف. ولا أدري كيف أدركت أنه محكوم عليه بعقاب السجن لإجرامه جريمة قد لا يفخر المرء بها عندنا، فلم أشأ أن أسأله عما أدى به إلى حاله تلك. ومن الغريب أنه لم يكن يرى في أمره غرابة؛ وكأنه كان معلوما عندي ما اجترم فلم يخبرني به؛ وسرعان ما راح يودعني، إذ كانت الفرصة المسموح بها لزيارة المسجونين ضيقة جدا، متمنيا أن يلاقيني عقب خروجه من السجن، و (أن يكون تحت النظر) على حد تعبيره الشعبي الرمزي الجميل، (فأنه لا يزال على وده القديم، وذلك الصاحب الذي لا ينسى الصحب على طول الزمان، ولا يرضى عن الوفاء بديلا). وترك المجلس لي ولصاحبي منصرفا عنا في لباقة وحسن أدب، كما ينصرف الواحد منا عن أثنين لديهما سر، ولم يكن لدينا - في الحقيقة - سر غير أمره. فأنني كنت في أشد الشوق إلى سماع قصته، وبتعبير أوضح أحجمت عن سؤاله عما أدخله السجن ساعة لقيته لكي لا أجرح منه شعورا طالما كنت أقدره، بل أقدسه في أيامنا التي خلت، في أزهى زمان وأحلاه، زمان الدرس والتحصيل. وقال لي عبد الصمد: (هذا فتى باهر الخصال يا أخي، ولا أرى فائدة في أن أقص قصته عليك في إسهاب وتفصيل، فهو الآن مجرم محكوم عليه بالسجن ثلاث سنين لأنه جرح رجلا من الأجانب، كان يحترف عملا فنيا لدى شركة أجنبية في البصرة؛ وكان عبد العزيز (يشتغل) هناك بيده كعامل لا شأن له، ورئيسه ذلك الأجنبي، على أنه كان شخصا مخيفا بين العمال، خشن الطباع، شرسا، كذلك قالوا عنه. وليس في حادثته التي طوحت به إلى السجن ما يستغرب منه ومن أمثاله في العراق اليوم، فقد انتهره الأجنبي ذات يوم، وشتمه وأهانه، لأنه أخطأ في عمله بعض الخطأ، فما كان منه إلا أن قابل إهانته إياه بطعنه بمديته، فجرحه، ولم يصب منه مقتلا. انتهت قصته. أما هو فما يزال يذكر الحادثة غير مكترث به صار إليه من جرائها، فهو يرى لها سببا من أسباب التفاخر بالجرأة والشجاعة، ولا سيما أن المجني عليه أجنبي من بقايا الذين جاءوا في الحرب في (الحملة) على العراق، وهو يقول لنا عنه في سذاجة ويكرر قوله مرارا: (ليته كان من أبناء أمتنا أمثالي، إذن والله لما جرحته، لما جرحته)، فانظر إلى رقة شعوره وشدة كرهه للأجانب الذين أرهقوا البلاد في الحرب الاستعمارية الكبرى وبعدها. . . والعبرة ليست فيما حدثتك، بل فيما أرى عند هذا العبد العزيز الذي لقبوه في السجن بأبي جاسم كما يلقب العراقيون عادة فتيانهم ذوي (الأريحية) والنجدة والشجاعة، مجرمين كانوا أو غير مجرمين، من فلسفة القوة والأمل والتفاؤل والاستهزاء بصروف الحياة، فأنني - وقد خصني بصداقته وترحابه منذ أن دخلت السجن - قد أسفت على حالي كثيرا، وطالما اسودت الدنيا في وجهي يأسا وتشاؤما، فلا أكاد أسمع نصائحه الساذجة في ظاهرها، وضحكاته ذات الرنين العالي، وأغانيه الشعبية التي يرسلها من نفس زاخرة بالأحلام والآمال، حتى تتفرج نفسي من اليأس، وتبدد عني سحب التشاؤم والأسى؛ فو الله ما نفعتني في هذه الأيام العابسة الكتب وفلسفاتها المهذبة المصقولة، بقدر ما نفعتني نصائح وضحكات وأغاني هذا الصديق الجديد في السجن، بل في مدرسة الرجال والأبطال، على ما يسميه؛ وأنا ناقل لقوله فما علي (من لوم، فالناس تسمي السجن مدرسة المجرمين

قال محدثي إبراهيم:

ثم زايلت السجن وكلي أسف على حياة صاحبي القديم، التي أحسبها ضائعة بعد هذه الحال التي صار إليها؛ وهذا ما كنت أتوقعه منذ طرد من المدرسة السلطانية العثمانية. (تلك مقدمة هذه نتيجتها. . . وفي نيتي أن أزوره يوم الجمعة القادم
قلت وأنا مصغ له في غير أسف:
ولكن عبد العزيز أبا جاسم، وهو جدير بلقبه هذا، كان شريفا من بعد؛ ورب مجرم) معذور؛ فأما أنه كان فقيرا وسوف يغدو كما كان، فما في الفقر من عيب. وما ضاعت حياة من كان مثله إباء وعزة نفس. . . .)
العراق - الأعظمية
محمود. أ. السيد
البريد الأدبي
تولستوي لمناسبة الاحتفال بذكرى وفاته
تحتفل روسيا السوفيتية خلال شهر ديسمبر بإحياء ذكرى كاتب روسيا وفيلسوفها الكبير ليون تولستوي، وذلك لمناسبة مرور خمس وعشرين سنة على وفاته. ولقد محت الثورة البلشفية كثيرا من معالم روسيا وذكرياتها وتقاليدها القديمة، ولكن روسيا السوفيتية ما زالت تحرص على رعاية الآداب والعلوم والفنون، وما زال هذا الحرص يتجلى في كل موقف ومناسبة، وذكرى تولستوي تتبوأ في الأدب الروسي بل وفي الأدب العالمي أسمى مكانة، وما زالت الثورة البلشفية تنحني إجلالا لذكرى هذا الذي رفع الأدب الروسي إلى السماكين، واتشح بنوع من القدسية تجعل ذكراه وتراثه فوق كل ثورة وانقلاب
توفي تولستوي منذ خمسة وعشرين عاما، وفي 20 نوفمبر سنة 1910؛ وكان مولده سنة 1828 في قرية باسينا بوليانا من أعمال مقاطعة تولا في أسرة قديمة عريقة في النبل؛ وتوفيت والدته وهو في الثانية من عمره، ثم توفي أبوه في التاسعة من عمره؛ فكفلته وأخوته إحدى عماته، وتلقى معهم تربية خاصة على يد معلم فرنسي؛ وفي سنة 1843 أرسل إلى جامعة فازان ليدرس فيها؛ ولكنه لم يبد براعة خاصة في الدرس، فقضى بها حينا، وغادرها ملولا، وانكب على اللهو بضعة أعوام؛ ولما بلغ الثالثة والعشرين من عمره انتظم في سلك الجيش في قسم المدفعية وأرسل إلى القوقاز، واشترك في حرب القرم تحت إمرة البرنس جور نشاكوف، وقاتل في موقعة سلستريا سنة 1854، وفي موقعة سباستبول سنة 1855. وكان تولستوي قد ظهر في عالم الأدب قبل ذلك ببضعة أعوام، فكتب في بعض المجلات الكبرى، وكتب كتبه الثلاث الأولى وهي (الطفولة) (سنة 1852) ثم (الحداثة) (سنة 1853) ثم (الشباب). كتبها في القوقاز قبل أن ينزح إلى ميدان الحرب، ووصف فيها طفولته وحداثته وشبابه في صورة مؤثرة. وفي أثناء الحرب، وتحت قصف المدافع كتب تولستوي عدة صور وقطع حربية قوية أسماها (قصص سباستبول) وفيها ظهرت روعة مواهبه الأدبية، فطارت شهرته وكان بدء مجده الخالد. وفي (قصص سباستبول) تبدو شخصية تولستوي قوية، ويبدو إجلاله للحقيقة والشمائل الإنسانية والحب الأخوي؛ ويبدو مقته لكل مظاهر الطغيان والعنف. ولما انتهت الحرب عاد إلى بطرسبرج تسبقه شهرته، واتصل فيها بكل مجتمع رفيع وشخصية بارزة؛ واتصل بأقطاب الكتابة والأدب، ولا سيما تورجنيف وجوتشاروف وتكراسوف، وتوثقت علائقه بتورجنيف مدى حين، ولكنها لم تلبث أن فترت لاختلافهما في كثير من الآراء والمبادئ. ذلك أن تولستوي كان ثوري المبدأ والعقيدة، يحرر العبيد في ضيعته، ويغدق العطاء للفقراء؛ ولكنه كان في أعماق نفسه (انفراديا) وكان بعيدا عن الحركة الاشتراكية التي كانت تجرف روسيا يومئذ ويتزعمها جناح قوي من الكتاب والأدباء. هذا إلى أن تولستوي كان عبد الحقيقة يصورها في تفكيره وكتابته؛ بينما كان أولئك الكتاب يكتبون غيرها ما يعتقدون، ويفعلون غير ما يقولون. وقد كانت كتب تولستوي صورة صادقة لشخصه ومبادئه، وكل ما فيها مستمد من حياته ومن نفسه؛ وهذا ما يقرره تولستوي نفسه في بعض كتاباته إذ يقول: (إن الحقيقة هي بطلة مؤلفاتي، وهي دائما نفثه روحي وكل جوارحي)
وفي سنة 1862 تزوج تولستوي من صوفيا بيرس؛ ولم يمض قليل على هذه الحياة الهادئة حتى كتب تولستوي أعظم كتبه قصة (الحرب والسلام) وظهرت لأول مرة سنة

1869 ثم كتب قصته الخالدة (حنه كارنينا) وظهرت سنة 1877؛ وفي هذين الكتابين يصل تولستوي إلى ذروة قوته وروعته. وفي القصة الأولى أعني (الحرب والسلام) يصف تولستوي حوادث الغزوة النابليونية لروسيا؛ ومما يلفت النظر أنه يصف فيها والدته في شخص الأميرة ماري. وقد رأينا أن تولستوي فقد والدته وهو في الثانية، ولكنه مع ذلك يؤكد لنا أنها تركت في ذهنه صورة قوية وأنه احتفظ في ذهنه الفتي بكثير من ذكرياتها وصورها. وأما قصة حنا كارنينا، وهي فيما يرى النقدّه أعظم كتب تولستوي، فهي القصة الخالدة لزواج نكد، وما يترتب على ذلك الزواج من المحن؛ وهي القصة الخالدة لزواج عادي وما يحيط به من العوامل والظروف. هي قصة فتاة تزوجت في سن العشرين رجلا يكبرها بعشرين عاما، وعاشت معه ردحا من الزمن أمينة مخلصة؛ ولكنها في الثلاثين اضطرمت بفورة من الهوى فأحبت ضابطا فتى جميلا واستسلمت إليه؛ ولما ارتاب زوجها في الأمر اعترفت له لأول وهلة؛ وأدرك الزوج بعد التفكير أنه يحمل تبعة هذه الجناية، لأنه جنى على امرأة شابة فتزوجها وهوليس أهلا لحبها، وكأنه اختلسها اختلاسا وارتكب بذلك جرما يعاقب عليه؛ وعلى ذلك فقد شعر أنه يستحق ما أصابه، وترك زوجته الفتية (حنه)

وفارقها، وعاش بلا أسرة. ولكن هل كانت حنه سعيدة بهذه الحرية؟ كلا فقد شعرت هي الأخرى باثمها؛ وسرعان ما دب الفتور إلى حبيبها، وأضحت تشعر أنها غدت عبئا ثقيلا عليه، وهكذا حطمت حياتها. وأما العاشق (فرونسكي) فقد كان فتى جم العبث والأهواء. وكان يهوى حنه هوى الفورة والساعة؛ ولكنه شعر أنه أثم أيضا وأن إثمه يوجب عليه أن يبقى إلى جانب تلك التي حطم حياتها ففر معها إلى الخارج وقضى بذلك على مستقبل زاهر كان في انتظاره، ثم كانت خاتمة المأساة ذات يوم في حلبة السباق إذ سقط المحب القديم من فوق ظهر جواد كان يمتطيه فقتل لساعته.

تلك هي الفلسفة الإنسانية الرائعة التي يبسطها لنا تولستوي في أعظم كتبه. وفي سنة 1880 نشر تولستوي كتابه (اعترافي) وفيه يبسط لنا آراءه ونظرياته الدينية. وفي هذا الميدان كما في غيره يبدو تولستوي في صور مختلفة متناقضة، فبينا نراه الرجل المؤمن العريق في الإيمان إذا بنا نراه ملحدا منكرا، وإذا بنا نراه وثنيا وطائفيا. وكتب تولستوي بعد ذلك كتب عدة ورسائل أخرى يغلب عليها طابع التصوف، منها (ايفان ايليتش) و (الكورتيس سوناتا) و (مملكة الله في قلبك) و (ما هو الدين). وساح تولستوي في ألمانيا وسويسرا وغيرهما وكتب صور سياحته في كتابين: أحدهما يسمى (لوسره) ولآخر (مذكرات نخليودو) وغدا تولستوي في كهولته فيلسوفا ومصلحا اجتماعيا يحرر عبيد ضيعته، ويقسم أرضه بين الفلاحين ويعنى بتربيتهم وإرشادهم، ويغيث البؤساء والمنكوبين؛ ومن أثر ذلك أنه نزل عن أملاكه لزوجه وأولاده، وحاول أن يعيش عيشة الزهد والتقشف مثل ما يعيش أفقر أبناء الريف. وكان ذلك سببا في تنغيص حياته العائلية، وفي تسميم علائقه بزوجته. ولما شعر في أواخر حياته أنه غدا بين أسرته كالغريب المنبوذ، فر من منزله سرا. وكان قد تبوأ ذروة مجده منذ أعوام طويلة وغدا يكنفه نوع من القداسة، وكان قد أشرف على نهاية حياته الحافلة فتوفي بعد ذلك بقليل في بلدة استابوفو في 20 نوفمبر سنة 1910، واختفت بذلك شخصية من أعظم شخصيات الأدب الحديث

وكان تولستوي شاعرا وفيلسوفا وناقدا وفنانا، وكانت حياته كلها حياة كفاح واضطراب، ولكنها متناقضات مدهشة؛ فمن أرستقراطية عريقة، إلى ديمقراطية ساذجة؛ ومن إيمان مؤثر إلى الحاد مطبق؛ ومن شغف بالنساء إلى احتقار لهن؛ ومن إنسانية فياضة إلى انانية

عميقة. بيد أن تولستوي كان يسمو بروحه ومشاعره إلى أنبل ما يمكن أن تسمو إليه النفس الإنسانية؛ وقد كان لفلسفته وكتبه أثر عميق في تطور المشاعر الروسية، وفي تكوين النفس الروسية الحديثة

وقد بلغت مؤلفات تولستوي في الطبعة الروسية زهاء مائة مجلد، وترجمت إلى كثير من اللغات الحية. وترجم له كثيرون من أكابر الكتاب في مختلف الأمم

رسالة ملوكية ضخمة

من أنباء استنبول الأخيرة أن السلطات المختصة قد وجدت في محفوظات متحف الدولة رسالة ملوكية ضخمة من الورق المشمع وطولها تسعة أمتار وعرضها سبعة؛

وظهر من البحث أنها رسالة أرسلها شاه الفرس في القرن السادس عشر إلى السلطان سليمان الأكبر. وقد تقرر أن تعرض لأنظار الجمهور

موت زعيم كريم، إبراهيم بك هنانو

وا أسفاه!! في الساعة التي اشتبهت فيها معالم السياسة في سورية، فتدسست الأماني الخوادع إلى الشعب، وتفرقت السبل الجوامع بالزعامة، يغيب القطب الهادئ، ويهدم المنار الدال، ويخبو الضرام المذكى، ويخفت الصوت المجمع، ويموت الزعيم هنانو؟! روعت سورية من شمالها إلى جنوبها بنعي هذا الزعيم الكبير، ونالها من خطبه ما غلب على الصبر ومنع من القرار، فهبت كلها تندبه وتريثه، وتبكي بطلها وأملها ودليلها فيه. والحق أن الفقيد العظيم كان مثلا نادرا في الزعامة البريئة الجريئة المخلصة: كان صلبا في الرأي على قدر إيمانه، ومتمردا على الباطل على سواء حقه، ومهيمنا على الشعب بقوة نفسه ونبل غرضه. جرد على الواغل الدخيل جيشا من الوطنية الصابرة والحمية الثائرة والعروبة الغضبى، ثم صمد له بالعدد القليل بعد سقوط دمشق سنة كاملة لم يلن لمغمز ولم ينكل عن خطة، حتى آل أمره إلى فلسطين فسلمته حكومتها إلى فرنسا فحوكم وبرئ؛ ومن ذلك اليوم كان معقد آمال السوريين يفزعون إليه في المعضلات، ويستنيرون برأيه في المشكلات، وينضوون إلى رايته في المواقع. كان رحمه الله على خلق الزعماء أولى العزم والرسالة: نظر إلى أمته نظر الحكيم المصلح فألف بين قلوبها ووفق بين ميولها وقرب بين عقائدها، ثم دافع عن مرافقها دفاع المؤمن النزيه، فلم يسف إلى دنيء المطامع، ولم يغتر بمظاهر الجاه، ولم يطمح إلى عزة السلطة، وإنما ظل جنديا يقود، ومحاميا يذود، وخطيبا يرأب بلسانه صدوع الفرقة، حتى أضناه الجهاد المستمر، وأقعده المرض المخامر، فكان زعيما بالفكرة، قائدا بالمبدأ، مرشدا بالقدوة. ثم قبضة الله إليه فأحدث ذلك الفراغ المخيف، وهز أمته تلك الهزة العنيفة، لأن الزعماء الذين يصوغهم الله على هذا الطراز يكونون في النهضات الاجتماعية من أممهم مكان السماط من حبات العقد، ينظمون وحدتها، ويجمعون كلمتها، ويمسكون نظامها، ويعقدون أمانيها؛ فإذا قطعت المنون ذلك الخيط ذهب العقد بداد ما لم يكن له من الله ناظم وعاصم - سقى الله بصيب الرحمة ثراه، وعزى فيه الأمة العربية خير العزاء

الاحتفال بالجاحظ

في السنة القادمة (1355هـ) يتم أحد عشر قرنا لوفاة أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري المتوفى سنة 255هـ؛ ويا حبذا لو تقدم علماء العراق وأدباؤه إلى الاحتفال بذكراه في مدينة البصرة، واشتركت الأقطار العربية كلها بتعديد مناقب أعظم رجل جمع بين علوم الدين والدنيا في الإسلام.

محمد كرد علي

جوائز نوبل

ذكرنا في العدد الماضي أن جائزة نوبل للطب والفسلجة قد منحت عن هذا العام إلى العلامة الألماني الدكتور هنز شبيمان من أساتذة كلية فريبورج. ونضيف اليوم أن جائزة نوبل للكيمياء قد منحت للأستاذ جوليو الفرنسي من أساتذة جامعة باريس ولزوجته السيدة كوري جوليو، وهي ابنة مدام كوري الكيميائية البارعة التي اشتهرت بمباحثها واكتشافاتها في الراديوم وخواصه. ومنحت جائزة نوبل للطبيعيات للأستاذ جيمس سادويك الإنكليزي ومن أساتذة جامعة كمبردج اعترافاً بفضله في اكتشاف (النوترون). وقيمة كل جائزة من هذه الجوائز الشهيرة كما أسلفنا سبعمائة ألف فرنك (نحو تسعة آلاف جنيه).

وأما جائزة نوبل عن الآداب فلم يتقرر منحها هذا العام، وتقرر أن يعاد النظر في أمر منحها في العام القادم. وقد سبق أن عطل منح هذه الجائزة زهاء خمس عشرة سنة من 1901 إلى سنة 1914، ثم استؤنف منحها بعد ذلك.

النقد

تاريخ الإسلام السياسي - 1

تأليف الدكتور حسن إبراهيم حسن

بعض مآخذ تاريخية

لأستاذ كبير

الدكتور حسن إبراهيم حسن من الشبان المصريين الذين يحملون في مادة التاريخ الإسلامي طائفة غير قليلة من الألقاب العلمية الضخمة ما بين مصرية وأجنبية، ثم هو قد زاول تدريس التاريخ الإسلامي في الجامعتين المصرية والأزهرية سنين طوالاً أخرج فيها من الآثار المؤلفة والمترجمة شيئاً كثيراً؛ وقد طلع على الناس في هذه الأيام بسفر ضخم في تاريخ الإسلام السياسي تناول الكلام فيه على عصر الجاهلية، وعصر النبوة، وعصر الخلفاء الأربعة، وعصر بني أمية.

تلقاء هذه الألقاب الضخمة، والخبرة الواسعة؛ وتلقاء جلال العصر الإسلامي القديم، استشرفت نفسي لمطالعة كتاب الدكتور الأخير منذ علمت بظهوره؛ ولم أكد أصل إلى نسخة منه حتى عكفت على قراءته؛ وقد قرأته من أوله إلى آخره. وإني مع اعترافي بالمجهود الكبير الذي أنفقه الدكتور في كتابه، قد تبين لي في الكتاب من السقط والزلل مالا يحسن السكوت عليه، لذلك عمدت إلى نشر ما تيسر لي نشره من الاستدراك خدمة لمادة ناشئة في معاهدنا العلمية، هي مادة التاريخ الإسلامي، واستحثاثاً للمؤلف على تدارك أمره في مادة هو متخصص فيها، وضناً بما لمصر من حسن السمعة العلمية في الأقطار الشرقية أن يتطرق إليه ضعف أو وهن. وإني قاصر كلمتي اليوم على إيراد شيء من مآخذ الكتاب التاريخية تاركاً بقية المآخذ لكلمات أخرى أنشرها تباعاً على صفحات (الرسالة) الغراء.

يطلق المؤلف في ص 34 كلمة (أقيال) على ملوك العرب وساداتهم، مع أن هذا اللقب خاص بملوك اليمن أو من دونهم من أمراء المخاليف اليمنية.

يقول المؤلف في ص 36: (وكان للعرب نظام ثابت للزواج: فكان جمهورهم يقترن بالزوجة بعد رضاء أهلها، كما كان كثير منهم يستشيرون البنات في أمر زواجهن. وينبغي

ألا نخلط بين هذا الارتباط بالزواج وبين غيره مما عرف عن بعض العرب من اجتماع الرجل بالمرأة بغير هذه الطريقة) ولو قصر المؤلف هذه الحال على الحجاز لاستقام قوله؛ أما وهو يعمم الحكم فكلامه لا يطابق الواقع؛ والدليل على ذلك حديث البخاري المنسوب إلى عائشة، والذي يبين الأنحاء الأربعة للأنكحة في الجاهلية (البخاري جـ7 ص 15).

يذكر المؤلف في ص 45 أخذاً بظاهر الرواية العربية، أن الفرس كانوا زاهدين في ملك اليمن؛ والصحيح الثابت أنهم كانوا حراصاً عليه ليحدوا من نفوذ خصومهم الروم والأحباش في تلك البلاد.

يقول المؤلف في ص 45 في وصف وهرز قائد الحملة الفارسية على اليمن: (ويصفه المؤرخون - ومنهم المستشرق نولدكه - بأنه قد بلغ من الكبر عتياً لدرجة أن جفنيه انطبقا أحدهما على الآخر) والوارد في الروايات أن حاجبيه هما اللذان كانا قد سقطا على عينيه لكبره فكان يعصب له حاجباه ليحسن الإبصار (الطبري جـ2 ص 119).

يقول في ص 58 (ويستفاد من أخبار العرب أن بني جفنة استولوا على سورية)، ولو استبدل (بادية الشام) بسورية لاستقام قوله.

يقول المؤلف في ص 61 - 62 (وكان لكل قبيلة رئيس منهم حسب نظام القبيلة المسمى الذي كان مألوفاً لدى العرب في جاهليتهم، وكان لهذا النظام مثيل بجزيرة قرسقة (كورسيكا) واستعمال لفظ أجنبي لنظام عربي لا محل له هنا كما أن التنظير بين بلاد العرب وبين قورشقة خاصة يبدو غريباً ونابياً في هذا المقام.

يزعم المؤلف في ص 63 أن الحجاز (ظل محافظاً على استقلاله أيام الإسكندر المقدوني الذي صده العرب حين أغار على ملك الفرس) فمتى، وأين، وكيف صد العرب الإسكندر المقدوني الكبير؟ لاشك أنك إن فصلت ما أجملت في عبارتك تكشف عن ناحية خطيرة مجهولة من تاريخ الفاتح المقدوني الكبير.

يقول المؤلف في ص 68 في سياق كلامه على قريش (واتخذوا جزءاً من الأرض المجاورة أولوه احترامهم، واعتبروه مقدساً، وبنوا به بيتاً حراماً لا يحل فيه القتال وأخذوا على عاتقهم حمايته) وهذا كلام يضر قائله ولا ينفعه، وإني أنصح للدكتور أن يبادر إلى التبرؤ منه وإلقاء تبعيته على قائله الأصلي. فالدكتور لاشك يعرف أن إبراهيم الخليل هو

الباني للكعبة، وأن قريشاً كانت تحتمي بالبيت والحرم، بدلاً من أن تحميهما، بدليل قوله تعالى (أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم). (سورة العنكبوت)

يقول المؤلف في ص 87 في صدد الكلام على الحنيفية ببلاد العرب: (ويطلق على هذه النزعة التحنف، وعلى أصحابها الحنفاء أو التائبون المعترفون) وهنا أيضاً أنصح للمؤلف أن يبرأ من هذا القول فليس معنى التحنف (التوبة والاعتراف).

ويقول في ص 97 بعد أن يورد أسماء السابقين الأولين إلى الإسلام: (وقد سموا السابقين الأولين كما سمى من أسلم بعدهم بالمستضعفين) وظاهر أن ليس التأخر في الإسلام هو السبب في وصف المستضعفين بالاستضعاف إنما السبب في ذلك أمر آخر يعرفه من يقرأ الجزء الأول من سيرة ابن هشام بشيء من الروية والتفكير.

ويقول في ص 129 - 130: (ولم يكد الرسول يفرغ من بناء السجد حتى أخذ يبث الدين في نفوس أصدقائه وأتباعه ويحثهم على الخضوع والإذعان لإرادة الله، ومن ثم سمى هذا الدين بالإسلام لما فيه من الانقياد والخضوع المطلق لإرادة الله تعالى. والذين يدينون به يسمون المسلمين، أي الذين يخضعون لأمر الله ورسوله) وعلى فرض صحة هذا القول ماذا كان يسمى الإسلام والمسلمون قبل بناء المسجد وطوال العصر المكي؟

ويقول في ص 131: (وأحل (الإسلام) الدعوة الدينية محل الوحدة القومية) ثم يقول بعد: (وهكذا أصبح الدين دون الجنس المرجع الوحيد في تحديد العلاقات بين الحكومة والرعية) والظاهر أن المؤلف ينقل هنا عن أصل أجنبي، وأن المراد بالوحدة القومية والجنس هنا إنما هو (القبيلة).

ويقول في ص 134: (فقد تزوج (الرسول). . . صفية بنت حُيَيٍّ سيد بني النضير ليتم له إسلام قومها، لا لتأثير جمالها كما يقولون فهو أعلى نفساً من أن يتأثر بذلك) وهذا الكلام إن دل على شيء فإنما يدل على قلة الاطلاع الصحيح وعلى سذاجة التفكير وإلا فهل كان الرسول لا يزال يطمع في إسلام اليهود بعد الذي جرى بينه وبينهم من الأحداث الجسام بالمدينة وخيبر؟ ثم متى كان التأثر البريء بالجمال دليلاً على نزول النفس وعدم سموها؟

ويقول المؤلف في صفحة 154: (سرية بني الرجيع) ويعيد ذلك القول في هامش صفحة 174 ظناً منه أن هناك قبيلة تسمى (بني الرجيع) والواقع أنه إنما يريد (بني لحيان) الذين كان لهم ماء يسمى (الرجيع) وقعت عنده الحادثة المعروفة في كتب السيرة.

ويقول في صفحة 170: (وصفوة القول أن معاملة الرسول إياهم (اليهود) كانت أيسر وأخف من معاملته قريشاً وغيرها) ولو عكس المعنى فقال: (كانت أحزم وأشد) لكان كلامه منطبقاً على الواقع من غير نزاع.

ويقول في صفحة 183 في صدد الكلام على غزوة الطائف: (وأقام الرسول على حصارهم (ثقيف) حتى إذا دنا شهر ذي القعدة وهو من الأشهر الحرم فك الحصار عنهم ليرجع إليهم بعد انقضاء الأشهر الحرم) ومع أن الأشهر الحرم لا تمنع من مباشرة القتال في الإسلام فإن الرسول لما رأى أن الحرب طالت بينه وبين ثقيف علم أنه لم يؤذن له فيها وأسر ذلك إلى أبي بكر وعمر ثم ارتحل عن الطائف تاركاً أمر إسلامها للزمن. وقد صحت فراسته فقد جاءه وفد ثقيف بإسلامها في رمضان سنة 9هـ.

ويسمي المؤلف في صفحة 211 نابليون بـ (الفتى الطلياني) وذلك تعبير لا يليق صدوره ممن يتخصص في التاريخ.

في صفحة 240 - 241 يزعم المؤلف أن القصيدة التي مطلعها:

إن بالشعب الذي دون سلع ... لقتيلاً دمه ما يطل

قالها قائلها في رثاء عمه، والصحيح الثابت من سياق القصيدة نفسها أنها قيلت في رثاء خال الناظم لا عمه وذلك بدليل قول الشاعر:

فاسقنيها يا سواد بن عمرو ... إن جسمي بعد خالي لخل

والظاهر أن المؤلف شغل بنقل شرح التبريزي على القصيدة عن تفهمها وتبين من قيلت فيه.

ويقول في صفحة 247 في كلامه على أبي بكر الصديق: (وكنى بأبي بكر لمبادرته إلى

الإسلام) ولست أدري ما الذي أبقاه المؤلف بعد هذا القول لجهلة المبشرين ومتعسفي المستشرقين؟

ويقول في ص 278: (لقد رحب الفرس بالعرب حباً في الخلاص من ظلم الحكام أولاً ورغبة في معافاتهم من الخدمة العسكرية ثانياً. .) وهو كلام بعيد عن الواقع بعد السماء عن الأرض.

يظهر المؤلف في هامش ص 295 ضجره من اضطراب تاريخ فتح العرب الشام ويقول (وعلى كل حال فليس غرضنا ترتيب الوقائع لأن ذلك ليس من شأننا) فهل ترى يا دكتور أن من شأنك أن تنقل شرح التبريزي على قصيدة تأبط شراً، وأن ليس من شأنك أن ترتب وقائع فتح العرب للشام؟

ويقول في ص 310 عند كلامه على فتح عمرو الإسكندرية: (وهزم الروم براً وبحراً) وقد أخطأ هنا من وجهين. فإن عمراً أو غيره من العرب لم يهزم الروم براً وبحراً عند الإسكندرية، وإنما استولى عليها بمعاهدة نابليون التي تمت بينه وبين المقوقس (أنظر كتاب فتح العرب مصر لبطلر) ثم كيف استطاع عمرو أن يهزم الروم بحراً؟ هل كان معه أسطول يا ترى؟

يزعم المؤلف في صفحة 314 أن المؤرخين لم يجزموا برأي في أمر حريق مكتبة الإسكندرية. والصحيح أنهم فعلوا. فقد جزم بطلر بأن العرب لم يحرقوها، وجزم جورجي زيدان في تاريخه بأنهم أحرقوها.

يقول في ص 330 ضمن كلامه على عثمان بن عفان: (وكان يصوم الدهر)، والعقل الناقد يرفض هذا القول وإن كان وارداً في كتاب قديم. هذا فوق ما ورد في الأثر من النهي عن صوم الدهر.

يقول في ص 341 أن عثمان ترك للأغنياء أمر الزكاة يدفعونها كما يشاءون، وتلك دعوى لا يقوم على صحتها دليل.

يقول في ص 353 أن قتلة عثمان ضربوا عنقه وأن بعضهم قطع بالسيف إصبع نائلة زوج عثمان، والخليفة المظلوم قتل دون أن يضرب عنقه، وأن أصابع يد نائلة أطنت بالسيف لا إصبع واحدة.

يقول في ص 365: (ولما توفي عمر انتخب عثمان بمقتضى قانون الشورى الذي سنه عمر) وعمر لم يسن قانوناً للشورى وإنما عين ستة نفر يختار المسلمون من بينهم خليفتهم.

في ص 398 يتابع المؤلف المستشرق الإنجليزي نيكلسن في قوله في انتصار معاوية في أمر الخلافة: (اعتبر المسلمون انتصار بني أمية وعلى رأسهم معاوية انتصاراً للأرستقراطية الوثنية التي ناصبت الرسول وأصحابه العداء) والأمر هنا ليس أمر وثنية وإسلام إنما هو أمر أحزاب سياسية تتنافس في الحكم وفاز بعضها في النهاية.

وهو يتابع في ص 425 السيد أمير علي في قوله في وقعة الحرة (ولا غرو فقد حول جند الشام المسجد الجامع إلى إسطبل لخيولهم وهدموا الحرم والأماكن المقدسة لسلب ما فيها من أثاث ومتاع) وهذا كله غير ثابت.

يقول في ص 507 عند كلامه على المرجئة: (وقد ظهر من بينهم أبو حنيفة صاحب هذا المذهب المشهور الذي لا يزال باقياً إلى اليوم) واتهام الإمام الأعظم بالإرجاء أمر قديم وقد كفانا مؤنة تفنيده السلطان أبو المظفر عيسى الأيوبي في رده على الخطيب البغدادي.

(يتبع)

مؤرخ

العدد 127 - بتاريخ: 09 - 12 - 1935

في الجمال. . .

- 4 -

ذلك إجمال القول في الفن الصناعي المرتجَل؛ أما الصناعي المنقول فالسر فيه أن يبعث في ذهنك فكرتين: عن الطبيعة المقلَّدة، وفكرة عن الفنان المقلِّد. فتماثيل فِدْ وصور رفائيل، تجمع بين الجمالين: جمال المثال في أصله، الفن في تقليده. وكذلك في وصف مغرب الشمس لابن نجد الإعجاب الناشئ عن القوة والوفرة والذكاء موزعاً الصورة الناطقة التي أبدعتها الطبيعة، وبين المحاكاة الصورية التي أخرجتها القريحة.

إن روعة الجمال الطبيعي آتية من ناحية الحرية في الطبيعة وحرية الطبيعة هي قانونها العام، لا تقوم عظمتها إلا به، ولا فخامتها إلا فيه؛ فالغيضة اللّفّاء أجل مظهراً في النفس من الحياة المنمنمة، وشلالات النيل أجمل منظراً في العين من النوافير المنضمة لأن الجمال المطلق يملأ خيالك بالتأمل الحالم، وذهنك بالتفكير الرفيع، وشعورك بالطرب الباسط؛ ومظنة العبودية في الجمال أو في الجماد تضيف إليه معنى من الحقارة والقبح يحطه ويشوهه. ولكن الجمال الصناعي لا بدَ أن يتقيد بالقواعد ويتحدد بالأصول؛ فإذا لم يكن الفنان من البراعة بحيث يخفي تلك القيود، ويحجب هذه الحدود، ويظهر السمة الدالة على الطبع المرسل والإلهام الحر، همدت في فنه الحياة، وخبا في جماله السحر، وضاقت في عمله الفكرة.

ليس الجمال في الفن المعنوي أو الحسي أن تحاكي الطبيعة محاكاة الصدى، وتمثلها تمثيل المرآة، وتنقلها نقل الآلة؛ تلك هي التبعية التي تنفي الذكاء، والعبودية التي تسلب القوة؛ إنما عظمة الفن أن يفوق الطبيعة؛ وإنما براعة الفنان أن يزيد في ترتيب صورها بالذكاء، وفي تنويع تفاصيلها بالوفرة، وفي توجيه مقاصدها بالعظمة، وفي بيان تعبيرها بالحياة، وفي سلطان تأثيرها بالقوة، وفي حقيقة وقائعها بالسحر الموهم والوشي الخادع.

انظر إلى تعاجيب الطبيعة وتهاويل الفلك، من العواصف والصواعق والبراكين، تجدها في ذاتها جليلة رائعة، ولكنك تجدها في فن الشعراء والمصورين والمثّالين أجل وأروع. لقد فيها شهوات النفوس، وسلطوا عليها تصادم الأهواء، وصوروها للأذهان في عالم من الآلهة الكَمَلَةِ في قواها المختلفة، تتنافس في العجائب، وتتصارع بالأهوال، وتتفانى على اللذة.

وسحر الفن الإغريقي في صمته وفي نطقه قائم على تجميل الظواهر المروعة في الطبيعة، بالنوازع المتضاربة في النفس.

ومن المعلوم في بدائه العقل أن يكون ما يقلده الفنان في الطبيعة حقيقاً بالتقليد، حتى يمكن الجمع بين جمال الشيء في أصله، وبين جماله في نقله؛ فالمصور الذي يرسم وضعاً من أوضاع الرأس، أو معنى من معاني الوجه، أو لوناً من ألوان الحياة، يكون أسمى في الفن من المصور الذي يتحامل على براعته حتى يصور أرنباً تكاد من دقة التقليد أن تلحظ وثبته وتعد وبره. والشاعر الذي يصف عاطفة من عواطف القلب، أو ظاهرة من ظواهر الكون، يكون أبلغ في فنه من الشاعر الذي يجهد قريحته في وصف حادثة من هَنَوات الحوادث لا تقوم في ذاتها على فائدة ولا لذة.

قد يكون الشيء المنقول في حقيقته قبيحاً، ولكن صدق التعبير عنه، ودقة التصوير فيه، والتماس المنفعة منه، تجعل تقليده جميلاً، كالوجه الشتيم يرسمه المصور المبدع بريشته، والخلق الذميم يصوره الشاعر المفلق بقلمه؛ والملهاة المسرحية موضوعها رذائل الناس ونقائص المجتمع، ولكنها ارتفعت إلى أوج الفن الجميل بتحليلها العميق، وتصويرها الدقيق، وغايتها النبيلة. كذلك الحوادث المؤلمة والمناظر المحزنة والمواقف المؤثرة ليس فيها من الجمال شئ. ولكن استبطان الفنان لدخيلة البائس، وتصويره الفاجعة ماثلة مثول الواقع، وإعانته الحقيقة على التأثير بالجمل النفاذة، والصور الأخاذة، والظلال الرهيبة، يجعل تقليدها من أجمل الأشياء، ويضع المأساة من الفن موضع الواسطة من العقد.

فأنت ترى أن التقليد لا يثير الإعجاب في نفسك، ولا يُشيع اللذة في شعورك، إلا باعتماده على الفن؛ والفن لا يتحقق جماله إلا بالعظمة في عمله، والسعة في وسائله، والحكمة في غايته؛ فإذا قلدت أصوات الطبيعة من غير تأليف ولا تنسيق ولا معنى، وأقمت شلالاً من الماء والحجر تضارع به شلال أسوان، وسردت بالكلام الموزون حادثة عادية من حوادث اليوم، أخطأك الفن وانزوى عنك الجمال؛ لأنك صغرت الطبيعة، وحقرت الواقع، وتعلقت بالتافه، واستعنت بالمادة، من غير قوة ولا ثروة ولا علة. ولو أنك رحت تستقري مفاتن الجمال في الطبيعة، أو في الفن، أو في الأثر الذي ينشأ من ائتلاف الطبيعة والفن، لما وجدتها في غير ما يعلن القوة والوفرة والذكاء مجتمعة أو متفرقة.

ولعلك واجد ما يدعم هذه الفكرة عن الجمال في قول (شيشرون): (إن الطبيعة أبدعت الأشياء على صورة تجعل ما يكون منها جَمَّ المنفعة يكون كذلك جليل المكانة

موفور الجمال.
إن جلالة هذا المعبد نتيجة لازمة لمنفعته؛ فلو أنك تخيلت (الكابتول) قائماً في السماء على هام السحب، لما وجدت له جلالاً في نفسك ما لم يكن قيامه هناك علة لسقوط المطر).
وهل المنفعة التي أرادها شيشرون في صنع الطبيعة وفي نتاج الفن إلا الذكاء الذي أردناه في الجمال وقصدنا به حكمة الغرض وانتظام الخطة؟
أحمد حسن الزيات
المجنون - 3
للأستاذ مصطفى صادق الرافعي
وكنا في النَّديِّ ثلاثة: أنا وأ. ش وس. ع؛ وقد هيَّأت تدبيراً تَوافَقْنا عليه لتحريك هذين المجنونين وتدوين ما يجئ منهما. فلما أقبلا تحفَّينا بهما وألْطَفْنَاهما، وقمنا ثلاثتُنا ببسطهما وإكرامِهما، حتى حسبا أن في كلمة (مجنون) معنى كلمة أمير أو أميرة. . . . . ورأيت في عيني (نابغة القرن العشرين) - وهو أعْيَنُ أنجَل - ما لو ترجمتُه لما كانت العبارةُ عنه إلا أنه يعتقد أن له نفساً أنثى أعشقها أنا. . . . فكان مُسَدَّدا فكِهِ اللسان تُسْتَملَحُ له النادرة وتُستظرف منه الحركة.
ولما تمكن منه الغرور واحتاج الجنون كما يحتاج الجمال إلى كبريائه إذا حاطته الأعين - أدار بَصره في المكان ثم قال: أفٍ لكم ولما تصبرون عليه من هذا الندىَّ في ضوضائه ورعاعه وغوغائه. إن هؤلاء إلا أخلاطُ وأوشابُ وحثالة. هذا الجالس هناك. هذا الواقف هنالك. هذا المستوفِز. هذان المتقابلان. هؤلاء المتجمعون. هذا كله خيال حقيقة في رأسي. ما هي؟ ما هي؟
هذا التصايح المنكر. هذا الصرب بحجارة النرد. هذه الزحمة التي انغمسنا فيها. هذا المكان الهائج من حولنا. هذا كله خيال حقيقة في رأسي. هي، هي، هي.
فانزعج المجنون الآخر، ووقع في تهاويل خياله. ونظر إلينا تدور عيناه، وتوجَّس شراً، ثم زاغ بصره إلى الباب، واستْوفَزَ وجمع نفسَه للقيام؛ فلما رأى صاحبه ما نزل به، قهْقه وأمعن في الضحك وقال: إنما خوَّفتُه الصبيان والضرب ليثبت لكم أنه مجنون. . . فَحردَ الآخر واغتاظ وجعل يتمتم بينه وبين نفسه.
قال (النابغة) ما كلامٌ تطن به طنينَ الذبابة أيها الخبيث؟
قال: (مما حفظناه) أن من علامات الأحمق أنه إذا استنطق تجلَّفَ، وإذا بكى خار، وإذا ضحك نهق. . كما فعلت أنت الساعة تقول هاء، هوء، هيء. . .
فتغير وجه (النابغة)، ونظر إليه نظرة منكرة، وهم أن يقتحم عليه وقال: أيها المجنون. لماذا تضطرني إلى أن أجيبك جواب مجنون. . . لا نجوت إن نجوت مني.
فأسرع أ. ش. وأمسك به واعترض من دونه س. ع. وقال له: أنت بدأته والبادئ أظلم.
قال: ولكن ويحه كيف قال هذا؟ كيف لم يقل إلا هذا كيف لم يجد إلا هذا يقوله؟ أنابغة القرن العشرين أحمق وقد أوْحدَهُ الله في القرن العشرين؟ لهممْتُ والله أن أكسر الذي فيه عيناه فما يقول إلا أني أحمق القرن العشرين.
قلتُ: إن كان هذا هو الذي أغضبك منه، ففي الحديث الشريف: ليس من أحد إلا وفيه حَمْقَةٌ، فبها يعيش. والحياة نفسها حماقة منظمة تنظيماً عاقلاً؛ وما يُقبِلُ الإنسان على شئ من لذتها إلا وهو مقبل على شئ من حماقاته؛ وأمتع اللذات ما طاش فيه العقل وخرج من قانونه؛ ولولا هذا الحمق في طبيعة الإنسان لما احتمل طبيعة الحياة. أليس يخيَّل إليك أن أكثرك غائب عن الدنيا وأقلك حاضرٌ فيها، وأن يقظتك الحقيقية إنما هي في الحلم وما يشبه الحلم، كأنك خُلقت في كوكب وهبطت إلى كوكبنا هذا، فما فيك له ولا فيه لك إلا القليل يلتئم بعضه ببعضه، وأكثركما متنافر أو متناقض أو متراجع؟
قال: بلى.
قلت: فهذا القليل هو الحمْقَةُ التي تعيش، وهي أرضية الأرض فيك. أو سماوية السماء فبعيدةٌ لا تحتملها طبيعة الأرض. ولهذا يعيش أهل الحقيقة عيش المجانين في رأي المغرورين الذين غرتهم الحياة الفانية، أو المخدوعين الذين خدعتهم الظواهر الكاذبة؛ فكلما أتوا عملا من الأعمال السامية انتهى إلى الحمقى معكوساً أو محوّلاً أو معدولاً به. ولعل هذا أصحُ تفسير للحديث الشريف: أكثر أهلِ الجنةِ البُله.
قال المجنون الآخر: (مما حفظناه) أكثر أهل الجنة البُله.

فقال (النابغة): المصيبة فيك أنك أنت هو أنت. ألا فلتعلم أنك من بلهاء البيمارستان لا من بُلْه الجنة.

قلت: ثم إن الموت لا بد آت على الناس جميعاً فيسلبهم كل ما نالوه من الدنيا ويُلحق من نال بمن لم ينل؛ فمنذا الذي يُسرُّ بأن ينال ما لا يبقى له إلا أن يكون سروره من حماقته؛ ومنذ الذي يحزن على أن يفوته ما لا يبقى له إلا أن يكون حزنه حماقة أخرى؟ وأي شئ في الحب بعد أن ينقضي الحبُّ إلا أنه كان حماقةً ضربت في الحواس كلها حتى ملأت النفس؛ ثم ملأت النفس حتى فاضت على الزمن. ثم فاضت على الزمن حتى خبَّلت العاشق تخبيلاً لذيذاً تصغر فيه الأشياء وتكبر ويجعل الواقع في النفس غير الواقع في دنياها؟ يُشبِّه كلُّ عاشقٍ حبيبته بالقمر: فهب القمر سمع هذا وفهمه وعناه أن يجيب عنه، فماذا عساه

يقول إلا أن يعجب من هذا الحمق في هذا التشبيه؟

فهدأ (النابغة) وسكن غضبه وقال: صدقت ولهذا أنا لا أشبه حبيبتي بالقمر.

قلت: فبماذا تشبهها؟

قال: لا أقول لك حتى أعلم بماذا تشبّه أنت حبيبتك.

قلت: وأنا كذلك لا أشبهها بالقمر.

قال: فبماذا تشبهها؟ قلت: حتى أعلم بماذا تشبه أنت . . .

قال: هذا لا يُرضي منك وأنت أستاذ (نابغة القرن العشرين) ولك حبائبُ كثيراتٌ عدد كتبك، وقد أعجبتني منهن تلك التي في (أوراق الورد) وأظنك أحببتها في شهر مايو من سنة. . . من سنة. . .

قال المجنون الآخر: من سنة 1935؛ هاأنذا قد نبهتك.

قال: يا ويلك! إن (أوراق الورد) ظهرت من بضع سنين، إنما أنت من بُلهاء البيمارستان لا من بله أوراق الورد. . . ماذا كنت أقول؟

قال أ. ش. كنت تقول: هذا لا يرضي منك ولك حبائب كثيرات.

قال: نعم لأنك إذا شبهت واحدة منهن بالقمر انتهى القمر وفرغ التشبيه فيظل الأخريات بلا قمر. . . ثم إن كلمة القمر لا تعجبني، فلونها أدكن مغبر يضرب أحياناً إلى السواد. . .

فإذا عشقتُ زنجية فههنا محلُّ التشبيه بالقمر. . . أما البيض الرعابيب فتشبيههن بالقمر من فساد الذوق.

قال س. ع.: وللألفاظ ألوان عندك؟ قال: لو كنت نابغة لأبصرت في داخلك أخيلةً من الجنة. ألم يقل أستاذنا آنفاً عن (نابغة القرن العشرين) إنه هبط من كوكب إلى كوكب؟ فقي كوكبنا الأول يكون لنا سمع ملوَّن وحسٌ ملوَّن، نسمع قرع الطبل أزرق، ونفخ البوق أحمر، ورنين النغم الحلو أخضر، والوجود كله صورٌ ملونةٌ سواءٌ منه ما يرى وما يحس وما هو مستخفٍ وما هو ظاهر.

. . .ثم أومأ إلى المجنون الآخر وقال: واسم هذا الأبله كلفظ الحبر لا أسمعه إلا أسود وسكت (النابغة) وسكتنا؛ فقال له س. ع. مالك لا تتكلم؟ قال: لأني أريد السكوت.

. . .قال: فلماذا تريد السكوت؟ قال: لأني لا أريد أن أتكلم

وتحرك في نفسه الغيظ من المجنون الآخر فرمى بعينه الفضاء ينظر اللاشئ وقال: إذا أصبح كلُّ النساء ذوات لحى أصبح هذا عاقلاً. . . فدقَّ الآخر برجله دقاتٍ معدودة؛ فثار (النابغة) وقال: من هذا يشتمني؟

قال س. ع؟ لم يشتمك أحد، هذا خفقُ رجلٍ على الأرض.

قال: بل شتمني هذا الخبيث وسمعي لا يكذُبني أبداً، وأنا رجل ظنونٌ أسيء الظن بكل أحد، وعلامة الحازم العاقل سوء ظنه بالناس. فهبه كما قلت قد خفق بنعله أو خبط برجله فهو يعلم ما يعني من ذلك وأنا أسمع ما يعنيه. لقد طفح الشعر على قلبي فلا بد لي من هجائه، ولا بد أن أذبحه ولو بالكلام، فإني إذا هجوته رأيت دمه في كلماتي، وأريد أن أجعله كالعنز التي كانت عندنا وذبحناها.

ثم انتزع قلم س. ع. وقال: هذه هي السكين. ولكن أسألك يا أستاذي أن تذبحه أنت بكلمتين وتصف له جنونه فقد عزَب عني الشعر. إن خفْقَة رجلٍ على الأرض تستطير الأرانب فزعاً فينفرن إلى أحجارهن ويتهاربن، وما كانت أبيات الشعر في ذهني إلا أرانب. . .

أنتم لا تعرفون أن من كان حصيفاً ثبيتاً مثلي كان دقيق الحس، ومن كان فدماً غبياً مثل هذا كان بليد الحس غليظاً كثيفاً. فإذا أنا استشعرت البرد رأيتني قد سافرت إلى القطب الشمالي؛ أما هذا المجنون فهو إذا استشعر برداً سافر إلى عباءته أو لحافه. . . .

إذ هو لا يعرف جغرافياً ولا يدري ما طحاها.

قلت: هذا منك أظرف من نادرة أبي الحارث. قال: وما نادرةُ أبي الحارث؟ وهل هو نابغة؟

قلت: جلس يتغذى مع الرشيد وعيسى بن جعفر، فأتى بخوان عليه ثلاثة أرغفة، فأكل أبو الحارث رغيفه قبلها، والرشيد ملك عظيم لا يأكل أكل الجائع وإنما هو التشعيث من هنا وهناك. فكان رغيفه لا يزال باقياً. فصاح أبو الحارث فجأة: يا غلام، فَرَسي. ففزع الرشيد وقال: ويلك ما لك؟ قال: أريد أن أركب إلى هذا الرغيف الذي بين يديك. .

قال (النابغة): ولكن فرقاً بين أبي الحارث وبين (نابغة القرن العشرين)، فإن من العجائب أني ربما نظرت إلى الرجل وهو يأكل فأجد الشبع حتى كأنه يأكل ببطني لا ببطنه. ولكن من العجائب أن هذا لا يتفق لي أبداً حين أكون جائعاً.

أما هذا المجنون الذي أمامنا فربما أبصر الحمار على ظهره الحمل فيشعر كأن الحمل على ظهره هو لا على ظهرالحمار. .

قال الآخر: (مما حفظناه) أنه سرق لأعرابي حمار، فقيل أسُرِق حمارك؟ قال نعم وأحمد الله. فقيل له على ماذا تحمده؟ قال على أني لم أكن عليه حين سرق. . فأنا إذا رأيت حماراً مثقَلَ الظهر حمدت الله على أن الحمل لم يكن عليّ، لا كما يقول هذا. ثم دقّ برجله دقات. .

فاستشاط (النابغة) وقال: أسمعتم كيف يقول إني مجنون، ثم لا يكتفي بهذا بل يقول إني حمار على ظهره الحمل؟

قلت: ينبغي أن تتكافأ وهذا لا يعيبك منه ولا يعيبه منك، فإن من تواضع النوابغ أن يشعروا ببؤس الحيوان، فإذا شعروا ببؤسه دخلتهم الرقة له، فإذا دخلتهم الرقةُ صار خيالُ الحمل حملاً على قلوبهم الرقيقة؛ وقد يصنعون أكثر من ذلك. حكى الجاحظ عن ثمامة قال: كان (نابغة) يأتي ساقيةً لنا سحراً فلا يزال يمشي مع دابتها ذاهباً وراجعاً في شدة الحر أيام الحر، وفي البرد أيام البرد، فإذا أمسى توضأ وقال: اللهم اجعل لنا من هذا الهم فرجاً ومخرجاً؛ فكان كذلك إلى أن مات.

قال المجنون الآخر: (مما حفظناه) ثمرةُ الدنيا السرور ولا سرور للعقلاء، فلو لم يكن هذا أعقل العقلاء لما مُحق سروره في الدنيا هذا المحق إلى أن مات غماً رحمه الله.

قال س. ع. فاعف الآن عن صاحبك ولا تذبحه بالهجاء.

قال: لقد ذكرتني من نسيان، وهذا المجنون يرى نسياني من مرض عقلي، وكان الوجه لو تهَدَّى إلى الحقيقة أن يراه شذوذاً في العقل أي نبوغاً عظيماً كنبوغ ذلك الفيلسوف الذي أراد أن يعرف في كم من الزمن تسلق البيضة؛ فأخذ بيده الساعة وبيده الأخرى بيضة ثم نسي نسيان النبوغ فألقى الساعة في الماء على النار، وثبتت عينه على البيضة ينظر فيها على أنها هي الساعة. ولو قد رآه هذا الأبله لزعمه مجنوناً كما يزعمني، فإن المجانين يرون العقلاء مرضى بمواهبهم وأعمالهم التي يعملونها.

وأنا فليس يهيجني شيء ما تهيجني كلمات ثلاث: أن يقال لي مجنون، أو أبله، أو أحمق. فمن رغب في صحبتي فليتجنب هذه الثلاث كما يتجنب الكفر والكفر والكفر. . .

قال أ. ش. فإذا قيل لك مثلاً مثلاً. أي على التمثيل: مغفَّل. . .

فحك رأسه قليلاً وقال: لا، هذه ليست من قدري. . .

قلت: فبعض الكلمات إذا قطعت عندك غيرت الحقائق، كذلك القرن الذي قُطع فَرَد البقرة فرساً؟

قال وكيف كان ذلك؟ قلت: زعموا أن أعرابياً خرج أخوته يشترون خيلاً، فخرج معهم فجاء بعجل يقوده. فقيل له ما هذا؟ قال فرس اشتريته. قالوا: يا مائق هذه بقرة أما ترى قرنيها؟

فرجع إلى منزله فقطع قرنيها ثم قادها إليهم وقال لهم: قد أعدتها فرساً كما تريدون. .

.

قال (النابغة) هذا غير بعيد، فقد رأيتُنا حين ذبحنا العَنز وكسرنا قرنيها أعدناها كلبة سوداء، فتقذَّرتها وعفتُ لحمها ولم أطعم منها.
ثم أومأ إلى الآخر وقال: هذا لا يدري ما طَحاها، وهو مثل العنز تحسب قرنيها للقتال والنِّطاح ومنهما تمسك للذبح. فقل في هذا يا أستاذ (نابغة القرن العشرين).
قلت للآخر: أيرضيك أن أقول في المعنى لا فيك أنت. . .؟ قال نعم، فكتبت هذه الأبيات على ما يريد النابغة:
قل لعَنز ناطِحَاها ... لقتالٍ سلَّحَاها
مالها قد طَرَحاهَا ... في يَدَين ذَبَحَاها
شِيمةٌ مني نحَاهَا ... عقلُ غر فلحَاهَا
ليس يدري ما طحاها ... بل يرى شمسَ ضُحَاها
حَجَراً مثلَ رَحَاهَا ... ويرى الليل مَحَاها
ظُلماً طالت لِحَاها
وسر (النابغة) وازدهى وجعل يقول طالت لحاها، طالت لحاها؛ وما كان هذا إلا السرور الأصغر؛ أما سروره الأكبر فمجيء ساعي (البريد المستعجل) إلى النديّ وفي يده رسالة عنوانها: نابغة القرن العشرين فلان بنديّ كذا.
وجعل الرجل يهتف بالعنوان يسأل عن صاحبه؛ فتطاولت أعناق الناس ورفعوا أبصارهم ينظرون إلى (نابغة القرن العشرين) وقد مدَّ يده يتناول الرسالة وكأنه ملك من القدماء أسقط
له كتابٌ بالفتح العظيم وبضم دولة إلى دولته.
ثم ترك الرسالة بين أصابعه يقلبها ولا يفضُّها ونحن في دهشة من أمره؛ فنظر فيها المجنون الآخر وقال له: هذا عجيب يا أخي كيف هذا؟ إن هذا لا يصدَّق. إنك لم تُلقِها في صندوق البريد إلا منذ ساعة. . . . . .
(لها بقية)
مصطفى صادق الرافعي

الصقالبة في الرواية العربية وفي الدولة الأندلسية - 2

للأستاذ محمد عبد الله عنان

ونلاحظ أنه بينما كان نفوذ الصقالبة يقوى ويشتد في بلاط قرطبة وفي الدولة الأموية في الأندلس، إذا بنفوذ الصقالبة يغزو بلاطاً إسلامياً آخر ودولة إسلامية أخرى هي الدولة الفاطمية؛ ومما يدعو إلى التأمل أن يزدهر النفوذ الصقلي في البلاط الفاطمي في نفس العصر، أعني في أواسط القرن الرابع الهجري، وفي ظروف مماثلة؛ وقد قامت الدولة الفاطمية في المغرب بمؤازرة القبائل المغربية القوية، واستأثر زعماؤها مدى حين بمناصب الثقة والنفوذ؛ ولكن تطوراً وقع في السياسة الفاطمية؛ ومنذ عهد المعز لدين الله يغزو نفوذ الصقالبة البلاط الفاطمي ويغالب نفوذ المغاربة؛ وقد كان جوهر الصقلي أعظم أعوان المعز وكبير قادته من أصل صقلبي، وكان له في الدولة وفي الجيش أعظم نفوذ؛ وفي عهد العزيز سما نفوذ الصقالبة وساد في القصر وفي الوزارة؛ وبلغ ذروة قوته في أوائل عهد الحاكم بأمر الله الذي تولى الملك صبياً وتولى الوصاية عليه صقلبي هو برجوان؛ وفي عهد وصايته القصير سيطر الصقالبة على القصر والدولة، واستأثر بمناصب النفوذ والحكم نفر من الفتيان الصقالبة مثل يانس وميسور ويمن وغيرهم؛ ولكن الحاكم لم يلبث أن تخلص من هذا النفوذ الخطر بمقتل برجوان ونكبة الفتيان الصقالبة، وبذلك انهار نفوذ الصقالبة في البلاط الفاطمي.
وكان ذلك في أواسط القرن الرابع وفي أواخره حيث كان يزدهر نفوذ الصقالبة في بلاط قرطبة في عهد الناصر حسبما بينا، ثم في عهد ولده الحكم المستنصر من بعده.
ولما توفي الناصر كان نفوذ الصقالبة أشد ما يكون بسطة في القصر وفي الحكومة؛ وكان فتيان القصر الصقالبة وهم المعروفون بالخلفاء الأكابر أول من أخذ البيعة للحكم المستنصر؛ وكان حاجب الحكم، جعفر بن عبد الرحمن الصقلي أقوى وأعظم رجل في الدولة؛ وكان الحرس الخلافي المكون من الفتيان الصقالبة سياج البيعة الخلافية وأبرز مظاهرها؛ وكان من وزراء الحكم أيضاً زياد ومحمد ابنا أفلح الصقلبي صاحب الخيل

في عهد الناصر؛ وفي عهد الحكم غدا الحرس الخلافي كل شيء في القصر، وغدا عصمة الخلافة والخليفة يسهر
على سلامة عرشه وشخصه، ويحميه من المؤامرات والدسائس الخارجية؛ وكان أولئك الجند الصقالبة يعتدون بقوتهم وسلطانهم ويمرحون في العاصمة ويسيئون أحياناً إلى أهلها، وكان الحكم يخشى بأسهم ويغضي عن تصرفهم وسوء سلوكهم؛ وكان عدد الحرس الخاص من الفتيان الصقالبة يبلغ زهاء ألفن، بيد أنهم كانوا يتمتعون بوفرة في الوجاهة والثراء، ويملكون الضياع الشاسعة، ويسيطرون على كثير من الأتباع والحاشية.

وهكذا أصبح الحرس الخلافي أو الفتيان الصقالبة في بلاط قرطبة أصحاب الحول والقوة، وغدوا عاملاً يحسب العرش حسابه، بل غدوا قبل بعيد حكماً في مسألة العرش وولاية العهد، مثلما غدا الحرس التركي في بلاط بغداد. وما توفي الحكم (سنة 366هـ - 976م) كان الصقالبة هم سادة الموقف وأصحاب الكلمة في ولاية العرش والخلافة. وكانت زعامتهم بيد فائق النظامي صاحب البرد والطراز، وجوذر صاحب الصاغة والبيازرة، وإليهما كان أيضاً أمر الغلمان الفحول خارج القصر. وكان رأي الصقالبة أن يصرف النظر عن تولية ولي العهد هشام بن الحكم، وهو يومئذ غلام في نحو الحادية عشرة حتى لا يفقدوا نفوذهم في ظل وصاية جديدة، وأن يولى الخلافة أخو الحكم المغيرة بن عبد الرحمن الناصر فيكون لهم بذلك فضل يمكنهم من توطيد نفوذهم وسلطانهم عليه؛ ولكن الحاجب جعفراً المصحفى أدرك ما يضمره الصقالبة من وراء هذا المشروع ولم يقرهم على ائتمارهم بولي العهد؛ ونظم البيعة لهشام ولي العهد بمعاونة الوزير محمد بن أبي عامر؛ ودبر الاثنان مقتل المغيرة بن الناصر خشية مناوأته، وتولى ابن أبي عامر تنفيذ الجريمة، وبذا استقر هشام المؤيد في العرش الخلافي، وانهار مشروع الصقالبة؛ ودبت الوحشة على أثر ذلك بين الصقالبة والحاجب جعفر، فأخذ يتحين الفرصة لسحقهم؛ وكان ابن أبي عامر يستميل الصقالبة ويداريهم بادئ ذي بدء حتى تمكن نفوذه في القصر وفي الجيش؛ وعندئذ اتفق مع الحاجب على نكبة الصقالبة وتشريدهم، ولم يدخر في ذلك وسيلة ظاهرة أو مستترة حتى شرد زعماؤهم واستصفيت أموالهم وأخمدت شوكتهم، ونفي زعيمهم فائق إلى الجزائر الشرقية (جزائر البليار)، وفي ذلك يقول شاعر معاصر هو سعيد الشنتريني:

أخرِج من قصر أمام الهدى ... كل فتى منبسط جائر
فمن رأينا منهم قال لا ... مساس قبل الناس بالشاكر
فخف ظهر الملك المرتضي ... قد خف من ثقلهم الظاهر
وسال ماء العلم من وجهه ... مذ مال عن حبلهم الخاثر
فلازم الميدان في قصره ... مع الوزير الخير الطاهر

ولما سما أمر ابن أبي عامر وسحق كل خصومه ومنافسيه واستبد بالسلطة، رأى أن يتخذ من البربر بطانة له وخولا وأن يستعين بهم على العرب، فقدمهم في الحكومة والجيش، وعمل على تمزيق القبائل العربية؛ وكانت العصبية العربية قد اضمحلت منذ بعيد، فلم تلق السياسة الجديدة معارضة تذكر؛ وهكذا حل البربر مكان الصقالبة في الالتفاف حول السلطة العليا والتمتع برعايتها، بيد أن الصقالبة لم يفقدوا كل نفوذ بعد، فقد استمر عدد كبير منهم يشغل وظائف الخاص بالقصر؛ ولما أنشأ ابن أبي عامر حاضرته المعروفة بالزاهرة، واتخذ سمة الملك وتسمى بالحاجب المنصور، عاد إلى اصطناع الصقالبة، واتخذ منهم إلى جانب البربر حاشية وبطانة؛ وحشد منهم كثيراً في الجيش؛ والظاهر أن هذه الطائفة أعني الصقالبة كانت تتمتع بصفات وخلال خاصة تجعلها أداة لينة صالحة في يد السياسة القوية الحازمة، وإذا كان الصقالبة قد بدوا في أحيان كثيرة خطراً على الدولة والعرش فقد كان من أثر السياسة التي تمد لهم في السلطة وتسمح لهم باستغلالها، وتغضي عن صلفهم وتمردهم؛ وقد كانت هذه حال الصقالبة في عهد الحكم المستنصر وحين وفاته، فقد بلغ من سلطانهم ونفوذهم أن اعتزموا التصرف في أمر العرش طبق أهوائهم، ولولا أن سحقتهم يد ابن أبي عامر القوية لاستمر سلطانهم المطلق. بيد أن ابن أبي عامر لم يجد بأساً بعد أن أخمد شوكتهم وشرد زعماءهم من أن يستخدمهم أداة لتنفيذ إرادته، بل لم يجد بأساً من أن يرفع بعضهم إلى أسمى المناصب، كما حدث في شأن مولاه الفتى واضح الصقلبي،

فقد منحه حكم الولايات الجنوبية وولاه قيادة الجيش الذي بعثه لمحاربة أقوى وأخطر خصومه زيري بن عطية البربري حاكم المغرب الأقصى؛ وقد كان لواضح هذا وعصبته الصقالبة شأن عظيم فيما تلا من الحوادث والخطوب.

ولم يستطع الصقالبة في ظل حكومة المنصور القوية أن يتدخلوا في شؤون الدولة أو يؤثروا في سيرها وتوجيهها؛ فلما توفي الحاجب المنصور (393هـ - 1002م)، وانهارت الدولة العامرية بعدئذ بقليل، رأى الصقالبة الفرصة سانحة للعمل، فانضموا إلى الحزب الأموي الذي عمل لإسقاط الدولة العامرية وسحق البربر الذين آزروها ومكنوا لها؛ ولما ظفر محمد بن هشام زعيم هذا الحزب ببغيته واستولى على قرطبة وتلقب بالمهدي، انضم إليه الفتى واضح وعصبته الصقالبة واتخذ واضحاً لحجابته وانضم فريق آخر من الصقالبة بزعامة خيران العامري وزميله عنبر إلى سليمان المستعين خصيم المهدي ومنافسه، وجرت بين الفريقين مواقع جمة، واستتب الأمر للمهدي؛ ولكن الصقالبة لم يخلدوا إلى السكينة ورأوا صالحهم في إبعاد المهدي عن العرش، فتفاهم الصقالبة من الحزبين وائتمر واضح وخيران بالمهدي فقتله الصقالبة، في الحمام (سنة 400هـ) وأخرج واضح الخليفة المؤيد هشام المحجور عليه، وكان سجيناً بالقصر منذ أيام المنصور، وأجلسه على العرش؛ وتولى واضح حجابته، واستأثر بكل رأي وسلطة؛ وقبض على ناصية الأمور في قرطبة مدى حين؛ ولكن سليمان المستعين لم يلبث أن هاجم قرطبة في مجموعة البربر ثم دخلها رغم كل ما اتخذه له واضح من الأهبة لمقاومته، وفتك جنده بالسكان أيما فتك، واقتحموا مدينة الزهراء وخربوها (401هـ)؛ فعندئذ رأى واضح السلامة في خيانة المؤيد واللحاق بالمستعين؛ ولكن الجند الصقالبة وقفوا على نيته في الوقت المناسب فقتلوه؛ واستمر الصقالبة في الدفاع عن قرطبة وعن المؤيد وعرشه، والمستعين يحاول استمالتهم عبثاً، واضطرمت الحرب بين الفريقين مدى حين، وانتهت باستيلاء سليمان على قرطبة في مناظر هائلة من السفك والعيث (403هـ) وانهار سلطان الصقالبة بانهيار عرش المؤيد؛ وبدأ سلطان البربر، واستأثروا بحكم الثغور والنواحي، وانتثر عقد الخلافة وانقسمت الأندلس إلى دويلات وإمارات صغيرة، وبدأ عهد الطوائف.

بيد أن الصقالبة لم ينسحبوا نهائيا من الميدان، ولم يختفوا نهائياً كعامل يؤثر في سير الحوادث فقد اجتمع فلهم حول زعيم منهم، من صنائع الدولة العامرية، هو خيران العامري؛ واستقر خيران بعصبته ومن لحق به من خصوم المستعين والبربر إلى المرية بعد أن أستخلصها من يد البربر؛ وفي الوقت نفسه عبر علي بن حمود حاكم سبتة في جيش من البربر إلى الأندلس محاولاً أن يشق له خلال الاضطراب طريقاً، وتفاهم مع خيران العامري والصقالبة وتحالفا على محاربة المستعين، ثم زحفا بجموعهما على قرطبة،

ونشبت بين الفريقين حرب رائعة هزم فيها سليمان وأسر ثم قتل مع أفراد أسرته؛ وجلس علي بن حمود على العرش وتلقب بالمتوكل (407هـ). ولجأ في الحال إلى سياسة الإرهاب والشدة، ولم يترك أي مجال أو سلطة للصقالبة، فسخط عليه خيران وتركه، وأظهر الخلاف عليه. وأثار المتوكل ببطشه وشدته زعماء العرب، واشتدت عليه النقمة، ولم يلبث أن قتله الصقالبة في الحمام (أواخر سنة 407هـ) وبذلك استطاعوا أن يؤثروا في سير الحوادث كرة أخرى.

ولما توفي المتوكل خلفه أخوه القاسم بن حمود وتلقب بالمأمون، وعدل عن سياسته الشدة إلى اللين والمسالمة، واستمال خيران العامري الذي استعصم بالمرية، وأقطع زميله زهير العامري ولاية جيان؛ وكانت الحوادث تتطور بسرعة، وكان الخلاف يضطرم فيما بين آل حمود؛ فانتهز الزعماء العرب تلك الفرصة وتفاهموا مع الصقالبة ضد آل حمود والبربر، واستخلصوا قرطبة من يد المتغلبين عليها؛ بيد أن نجم الصقالبة كان بدأ بالأفول، ولم يكن يسطع يومئذ إلا غرارا؛ وكانت دولتهم قد انهارت في الواقع وتفرقوا بين مختلف الصفوف والأحزاب؛ وكانت آخر مظاهر سلطتهم أن تولوا الحجابة لإدريس بن حمود الذي استقر في مالقة وتلقب بالمتأيد بالله، فتولى حجابته نجا الصقلبي مدى حين، ولكن دون عصبية ظاهرة.

وكان هذا آخر العهد بتدخل الصقالبة في سير الحوادث الأندلسية بصورة بارزة. ومن ذلك الحين يختفون من ميدان الشؤون الأندلسية كقوة فعالة لها أثرها الحاسم في

توجيه الحوادث، ومن ذلك الحين يبزغ نجم البربر؛ وتتحول المعركة الداخلية إلى نضال مزدوج، نضال ملوك الطوائف فيما بين أنفسهم، ثم نضالهم ضد العدو المشترك أعني أسبانيا النصرانية؛ ثم يجيء دور البربر في السيادة المطلقة بسرعة، فتنهار دول الطوائف الصغيرة تحت ضرباتهم القوية، وتسقط الأندلس في يد المرابطين ثم يفتتحها الموحدون، فتستمر سيادة البربر عصراً آخر؛ ثم تنهض مملكة غرناطة في تلك الغمار والخطوب العصيبة فتسطع في الأندلس حتى يحل الصراع الأخير.

تم البحث

محمد عبد الله عنان

مذاهب الفلسفة

مذهب الذرائع

للأستاذ زكي نجيب محمود

لقد لبثت الفلسفة دهراً طويلاً تسبح في سماء الفكر المجرد فلا تصغي بآذانها إلى الحياة العملية التي تعج بأصدائها أرجاء الأرض جميعاً. ولا نحفل بالواقع الذي تراه الأبصار إلا قليلاً فقد قصرت مجهودها - في الأعم الأغلب - على جوهر الأشياء في ذاتها، وأخذت تسائل: ما المادة وما الروح وما مبعثها ولكنها باءت بعد طول الكدح والعناء بالفشل والإفلاس. حتى جاء الفكر الأمريكي الحديث الذي يقدس العمل ويمقت البحث النظري المجدب العقيم، وأراد أن ينجو بالفكر نحو جديداً، فلا يكون من شأنه كنه الشيء ومصدره، بل نتيجته وعقباه. ولقد كان أول من صاغ هذا المذهب وليام جيمس (1842 - 1910) الذي اعترف أنه قد استمد أصوله وقواعده من أشتات قديمة. وأن له فضل الصياغة والتعبير. أما رسالته التي قصد إلى أدائها بمذهبه فهي في أوجز عبارة: أن يتخذ الإنسان من أفكاره وآرائه ذرائع يستعين بها على حفظ بقائه أولاً، ثم على السير بالحياة نحو السمو والكمال ثانياً.

إنه لمن الغفلة والشطط أن نُؤتى هذه القوة العقلية فنبددها في البحث عما وراء الطبيعة من قوى مما لا غناء فيه للإنسان ولا رجاء؛ إن العقل إنما خلق ليكون أداة للحياة ووسيلة لحفظها وكمالها، فلينصرف إلى أداء واجبه، وليضرب في معمعان الحياة العملية الواقعة، فليست مهمته أن يصور بريشته عالم الغيب المجهول، الذي لا يكاد يربطه بحياة الإنسان سبب من الأسباب، وليكن مقياسه الذي يفصل به بين الحق والباطل هو مقدرة الفكرة المعينة على إنجاز أغراض الإنسان في حياته العلمية، فإن تضاربت الآراء وتعارضت، كان أحقها وأصدقها هو أنفعها وأجداها، ذلك الذي تنهض التجربة العملية دليلاً على فائدته. وكل شيء يؤثر في الحياة تأثيراً منتجاً يجب أن يكون في اعتبارنا هو الحقيقة، بغض النظر عن مطابقته أو عدم مطابقته لما يخلقه الفكر المجرد من معايير، إذ لا يُعَوّل مذهب الذرائع إلا على النتائج وحدها؛ فإن كان الرأي مثمراً نافعاً قبلناه حقيقة، وإلا أسقطناه من حسابنا وهما باطلاً.

والواقع أن معظم الناس يتبعون في حياتهم العملية أصول هذا المذهب، فهم ينتقون لأنفسهم من الآراء ما يعين على تحقيق أغراضهم التي يقصدون إليها، أو ما يعمل على رقي الإنسانية وتقدم البشر بصفة عامة. خذ العقيدة في الله مثلاً، فالأكثرية العظمى تأخذ بها لا لأن الدليل قاطع بوجوده، (فذلك أبعد عن متناول الدهماء) ولكن لأنها ترى أن هذه العقيدة تبث في حياة الناس روحاً قوية، وتفسح أمامهم في الأمل الجميل الذي تزدهر به الحياة وتبتسم، والذي لولاه لضقنا ذرعاً بفداحة عبئها. . فليس منا من لا يقيس الآراء بظروف عيشه ثم يختار منها أنسبها له وأفعلها في أداء مهمته؛ فسلوكها العملي هو في الواقع الذي يوجه أفكارنا، وليست أفكارنا هي التي توجه أعمالنا. ولقد قال موسوليني يوماً إنه يدين لوليام جيمس بكثير من آرائه السياسية، وإنه بتأثيره لا يحتكم في سياسته إلى نظريات العقل المجرد، إنما يسلك من السبل ما يراه أقوم وأدنى إنتاجاً.

وإن نيتشه ليذهب في هذا الاتجاه إلى أقصاه، فيقرر أن الباطل إذا كان وسيلة ناجحة لحفظ الحياة كان خيراً من الحقيقة؛ فبطلان الرأي لا يمنع قبوله ما دام عاملاً من عوامل بقاء الفرد وحفظ النوع؛ فلرب أكذوبة أو أسطورة تدفع الحياة إلى الأمام بما تعجز عنه الحقيقة المجردة العارية. أنظر كيف تفعل الوطنية في رأس الجندي فيطوح بنفسه بين براثن الموت، ولو حكم عقله المجرد لما فعل؛ بل أنظر كم يبذل الآباء

والأمهات من مجهود في سبيل أبنائهم، ولو استرشدوا العقل وحده لآثروا أشخاصهم ولضنوا على لأبناء بأي بذل أو عطاء، ولكننا لحسن الطالع ذرائعيون بالفطرة، فنعتنق من الآراء أحفظها للحياة، ولولا ذلك لظلت الإنسانية في حيوانيتها الأولى لا تتقدم ولا تسير.

ولا يقتصر الأمر في ذلك على عامة الناس، بل إن أرباب العلم أنفسهم ليأخذون بطائفة كبيرة من الآراء التي تعين على المضي في بحثهم، دون أم ينهض الدليل العقلي على صحة تلك الآراء التي اتخذوها أساساً لأبحاثهم، فلا يدري العلم ما الأثير وما الجاذبية وما المادة وما الكهرباء، ولكنه يفرضها لأنها تعينه على أداء مهمته؛ وهذا بعينه ما يدعو إليه مذهب الذرائع، فيكفي لأن تكون تلك الآراء صحيحة أنها توجهنا في حياتنا توجيها صحيحاً، فلا يعنينا في كثير أو قليل أن نعلم ما هي الكهرباء في ذاتها ما دمنا نستطيع أن نستخدمها، فحسبنا من معناها آثارها، وليكن معنى الكهرباء هو ما تعمله وما تؤديه، وعلى

هذا النحو يمكننا أن نتخلص من أعوص المسائل الفكرية التي أرهقت الفلسفة بغير طائل؛ فلندع جانباً كل بحث عن ماهية القوة أو ماهية المادة أو ماهية الله وما إلى ذلك، وحسبنا منها أن نبحث عن الآثار التي تنشأ عنها في حياتنا اليومية العملية، فإن لم يكن لها آثار فيما نصادف من تجارب وجب اعتبارها ألفاظاً جوفاء لا تحمل من المعنى شيئاً.

وهكذا يريد مذهب الذرائع أن تكون كل فكرة وسيلة لسلوك عملي معين، أعني أن تكون الفكرة تصميماً لعمل يقوم به الإنسان، أو لا تكون على الإطلاق؛ فالفكرة التي تحيا في الذهن وحده ليست جديرة بهذا الاسم، ولا خير فيها إلا أن كانت مرشداً للإنسان في حياته وسلوكه، فيكون مثلها مثل اللون الأحمر أو الأخضر على السكة الحديدية يراهما سائق القطار فيوجهان تصرفه توجيهاً معيناً، أو كالعلامات الموسيقية كل قيمتها في توجيه حركات الموسيقيِّ، فإن لم تُفد ذلك كانت عبثاً صبيانياً لا يعني شيئاً؛ فيجب على هذا الأساس أن تكون كل فكرة في أذهاننا مرشداً عملياً يرسم لنا سلوكنا ويضع لنا القواعد التي ينبغي أن نسير على مقتضاها في حياتنا اليومية. أو بمعنى آخر تكون أساساً لعادة معينة. ففكرة الجاذبية مثلاً معناها محصور في تكوين عادات أستعين بها في سلوكي، فأعرف كيف أنظم علاقاتي بالأشياء تنظيماً ملائماً، فأحمل كوب الماء مثلاً وفمه إلى أعلى حتى لا ينسكب الماء بفعل الجاذبية؛ وأمشي معتدل القامة خشية السقوط بفعل الجاذبية، وأشيد مسكني مستقيم الجدار لئلا ينهار بفعل الجاذبية، وهلم جرا. أما إن كانت حياتي لا تتأثر بهذه الفكرة، وكنت لا أصادف لها آثارا فيما أصادف من تجارب، كانت في اعتباري وهما وخطأ، بغض النظر عن حقيقة وجودها في العالم الخارجي أو عدم وجودها؛ فالرأي الصحيح هو ما ييسر لي سبيل الحياة ويعمل على توفيقها ونجاحها، والرأي الخاطئ هو ما يفعل عكس ذلك، أو ما لا أرى له أثراً في الحياة.

وظاهر أن نظرية التطور تؤيد هذا المذهب وتدعمه، لأن العقل عندها ليس إلا عضواً كسائر الأعضاء يتذرع به الإنسان في تنازع البقاء، وأنه لو لم يكن العقل أداة من أدوات البقاء لما وجد أصلاً؛ وإذن فالفكرة التي تنشأ فيه لا تكون صادقة بمقدار مماثلتها للحقيقة الواقعة في الخارج، كلا، بل مقياس صدقها هو في مقدرتها على إجابة الظروف المحيطة بنا على النحو الذي يمكن لنا في البقاء. ولتوضيح ذلك نقول إنه من المعلوم أن الأشياء

الخارجية في ذاتها لها ألوان، إنما الألوان من صنع أعيننا، ولكني ما دمت أستطيع بفكرة اللون التي في ذهني (وإن لم تكن موجودة في الخارج) أن أميز الأشياء فأعرف التفاحة الناضجة مثلاً باحمرارها؛ والفجة باخضرارها، ففكرة اللون صحيحة صادقة. كذلك قل في الصوت، فليس للأصوات وجود في الخارج، إنما هي أمواج تقصر حيناً وتطول حيناً، حتى إذا ما قرعت الأذن، ترجمتها هذه بما نعهد من أصوات، ولكن ماذا يعنيني من عدم مماثلة فكرة الصوت في ذهني للأمواج الخارجية في الهواء، ما دمت أعرف أن هذا الصوت المعين يدل على سيارة قادمة فأنجو بحياتي من الخطر؟ إن فكرة الصوت حقيقة ما دامت تعمل على نجاح الحياة وبقائها. . . إن الحياة كما يعرفها سبنسر هي ملاءمة حالات الإنسان الداخلية بالظروف الخارجية، وإذن فالعقل الصالح

للحياة هو ذلك الذي يدرك اختلاف الظروف الخارجية لنعدل من سلوكنا بما يلائم الموقف الجديد، وليس يعنينا بعد ذلك في كثير ولا قليل أن تكون الصورة الذهنية التي رسمها لنا العقل من الأشياء الخارجية، مطابقة لأصلها أو مشوهة محرفة، فالحقيقة العليا في الوجود هي الاحتفاظ بالبقاء أولاً، ثم الارتفاع بالحياة نحو الكمال. فكل ما يؤدي ذلك هو حق صريح. وفي ذلك يقول (ديوي) العالم الأمريكي المعروف: إن الفكر أداة لترقية الحياة وليس وسيلة إلى معرفة الأشياء في ذاتها. ويقول (شلر): إن الحقيقة هي ما تخدم الإنسان وحده. وكلا الرجلين من دعاة هذا المذهب.

ونحن نجمل فيما يلي ثلاثة الشروط التي يضعها مذهب الذرائع لصدق فكرة ما:

1 - فأولاً يجب أن يكون للفكرة قيمة فورية - ومعناها أن الإنسان يجب أن يشاهد صحة رأيه أو خطأه في تجربته العلمية، فإن جاءت هذه التجربة العلمية موافقة للفكرة كانت الفكرة صحيحة وإلا فهي خاطئة.

2 - وثانياً أن تكون الفكرة منسجمة مع سائر أفكاري وآرائي. فلا يكفي أن تكون كل فكرة صحيحة على حدة بالنسبة لقيمتها الفورية، ولكنها يجب كذلك ألا تناقض الأفكار الأخرى. فلا يجوز مثلاً أن أفرض نوعاً من الذرات في علم الطبيعة، ثم أفرض نوعاً آخر منها في علم الكيمياء، حتى ولو كان كل منهما صحيحاً في ميدانه الخاص - فإذا وجدنا أمامنا فكرتين عن شئ ما، كل منهما صحيح بالنسبة لقيمته الفورية، وجب أن نختار إحداهما على أساس البساطة، فأبسط الفكرتين أصحهما؛ فمثلاً لما أتى كوبرنيك برأيه الجديد عن الكون يعارض به رأي بطليموس القديم، كانت كلتا الفكرتين صادقة إذا قيستا إلى ما ينجم عنهما من النتائج العملية في حياة الناس، ولكن ما دامت فكرة كوبرنيك أقل تعقيداً من الأولى، كان لزاماً أن يقع عليها اختيارنا.

3 - ولا بد للفكرة بعد هذا وهذا أن تطمئن لها نفس الإنسان وترضى ما دام لا يتعارض مع القيمة العملية. فالعقيدة الدينية مثلاً، على الرغم من أن ليس لها قيمة فورية في حياتنا إلا بمقدار ضئيل، إلا أنها واجبة، لأنها تخلع على حياتي صبغة من التفاؤل، وهي في الوقت نفسه تنسجم مع الأفكار الأخرى ولا تتعارض معها. ومعنى ذلك أنه إذا تساوت ظروف فكرتين، ثم كانت إحداهما تبعث التفاؤل والأخرى تبعث التشاؤم، كانت الأولى بالنسبة لنا أصدق وأصح. فالمؤمن والملحد كلاهما لا تؤثر عقيدته في شؤون حياته! ولكن الأول متفائل يرجو الآخرة، والثاني متشائم لا يرجو شيئاً؛ إذن فالإيمان أصدق من الإلحاد وأحق، لأنه أجدى على الإنسان وأنفع.

تلك هي الحقيقة في عرف هذا المذهب؛ ولقد يعترض بحق أنها قد تؤدي إلى التنافر بين الناس، وإلى عدم انسجامهم في سلك المجتمع، لأن كل فرد سينتقي لنفسه الرأي الذي ينفعه بغض النظر عما يتخذه سواه من آراء؛ وإذن ففلسفة الإنسان ستعتمد على مزاجه وظروفه، ولكننا نسارع فنقول إن مذهب الذرائع قد أحس في نفسه بهذا النقص، فحاول أن يوفق بين قواعده وبين مصلحة الجماعة لا الفرد، فقرر أن الرأي الصحيح هو الذي يكون له فائدة عملية لأكبر عدد ممكن من الناس، بل ويحسن أن تشمل نتائجه النافعة الإنسانية بأسرها، وإذن فلا ينبغي أن نحكم على رأي بالصواب أو بالخطأ إلا بعد تجربة اجتماعية طويلة الأمد. ولكن يؤخذ على مذهب الذرائع وجوه أخرى من النقص نرجو أن نعرضها في مقال تال.

زكي نجيب محمود

قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكي

وكيل كلية العلوم

كوخ

رابع غزاة المكروب

طبيب القرية الذي ضجر بالطب لجهله أسباب الداء ثم ادعائه علاجه؛ الذي شغله البحث في أصول الأمراض عن مداواة أربابها؛ الذي حقق أحلام بستور وأثبت أن المكروب ينتج الأمراض، وأن لكل مرض مكروباً يخصه، ويخصه وحده؛ الذي علم الدنيا كيف تصطاد النوع الواحد من المكروبات، وتصطاده خالصاً خالياً من الأخلاط؛ الذي

كشف مكروب الجمرة الخبيثة، قاتلة الماشية والإنسان، ومكروب السل قاتل الإنسان والحيوان؛ الرجل الذي كشف مكروب الكوليرا على أرض مصروفي أجسام ضحاياها.
البطل الذي نزل بساحات الموت فأظلته فيها أرفع بنوده، وقاتلته على أرضها أفتك جنوده، فأسر منها على هواه، وخرج عنها سالماً قد أخطأته سهامها قضاء وقدراً.
المترجم

- 3 -

كان كوخ مستقرّ النفس، بارد العاطفة؛ فلما نجا من هذه المخاطر بسلام، وأصاب بها ما أمّل من نجاح، لم يَدُرْ بخلده أنه أصبح في عداد الأبطال، ولم يخطر بباله أن ينشر أبحاثه في الناس. واليوم إذا أنجز الرجل الباحث عملاً بارعاً كهذا، وكشف عن أسرار لها مثل هذه الخطورة، استحال عليه أن يعقد لسانه فلا يتحدث بها.
وظل يسخّر نفسه في العمل تسخيراً، ويذلها فيه تذليلاً، وهو في ذلك ساكت صامت، حتى ليكاد المرء يتهم هذا الطبيب الريفيّ الألماني العبقريّ بأنه لم يدرك مقدار الجمال والخطر الذي كان في تلك التجارب التي أجراها وحيداً في عزلته وانزوائه.
نعم تابع العمل وصابره، فلا بد له أن يعلم فوق الذي علمه؛ فأخذ يحقن الخنازير الغينية والأرانب، والشياه أخيراً، بذلك السائل ذي المظهر الطاهر والمخبر القاتل من قطراته العالقة. ولم تكد تدخل هذه الآلاف القليلة من المكروب إلى دم هذه الحيوانات حتى يتضاعف عددها بلايين المرات بسرعة واحدة، وبفظاعة واحدة، في الفأر الصغير والشاة الكبيرة على السواء؛ ولا تمضي ساعات حتى تعج بها أنسجة كانت سليمة تزدحم في الشرايين الصغيرة والأوردة الرفيعة حتى تختنق بها، وحتى يستحيل الدم الأحمر القاني إلى دم رهيب أسود - فتنفق الشياه، وتفنى الخنازير والأرانب.
كان كوخ في الأطباء واحداً من سوادٍ كثير، فلم يكن له اسم، ولم يكن لحاله ذكر، ولكنه فارق هذا السواد بغتة، وارتفع مصعداً إلى صفوف الأمجاد الخالدين من الباحثين؛ وكان كلما مهر في اصطياد المكروب ساءت عنايته بمرضاه بقدر ذلك؛ صاحت أطفالٌ رُضّعٌ في ضياع بعيدة، ولكن الطبيب لم يحضر؛ واحتد الألم في أضراس فلاحين، فاصطبروا على أوجاعهم ساعات مضنيات، ولكن دون جدوى؛ واضطُرّ كوخ أخيراً أن يحول نصيباً من مرضاه على طبيب آخر؛ وقل حظ زوجته من رؤيته وزاد همها، وودت إليه ألا يخرج إلى مرضاه وبه رائحة كيميائياته وحيواناته. أما هو فلم تصله شكوى زوجه، ولا صوت مرضاه، فلو أنهم وهم القريبون منه صاحوا له من وراء النصف الأبعد للقمر ما زادوا ولا نقصوا في أسماعهم إياه - ذلك أن قضية خفية جديدة ساورت رأسه، وملكت لبه، وأسهرته الليالي، قال لنفسه:
هذه البشلات تموت وشيكاً على قطعة الزجاج تحت المجهر، فأنى لها وهي بهذا الضعف أن تنتقل في الطبيعة من حيوان مريض بالجمرة إلى الحيوان جدّ سليم؟
وكان فلاحوا أوربا والبيطريين فيها يؤمنون بخرافات غريبة عن أسباب هذا المرض، وعن تلك القوة الخفية لهذا الوباء، وقد أصلِت كالسيف فوق رقاب أغنامهم وأبقارهم لا يدرون متى يهبط عليها بالقتل المروع الذريع. أما هذه البشلات الصغيرة الضئيلة التي لا يبلغ طول الواحدة منها جزءاً من ألف من المليمتر، فلن يتصور عاقل أنها سبب هذا المرض الفظيع.
قال البقارون والغنامون لكوخ: (يا سيدنا الدكتور، هب أن مكروباتك الصغيرة تقتل أبقارنا وأغنامنا، فقل لنا بالله إن كان هذا حقاً، كيف أن القطيع يكون سليماً في مرتع، يأكل ويشرب، ويثب ويلعب، فإذا نقلناه إلى مرتع آخر، كثير العشب، وافر النعمة، امتنع أكله، وذهب لعبه، وتساقطت وحداته، وماتت سريعاً كأنها الذباب).
كان كوخ يعلم أن هذه الوقائع حقاً لا كذب فيها، كان يعلم أن في أوفرن بفرنسا جبالاً خضراء لا تذهب إليها قطعان الأغنام حتى يأخذها الموت واحدة واحدة، أو عشرة عشرة، حتى ومائة مائة، بسبب هذا الداء الأسود داء الجمرة؛ واجتمع الفلاحون حول نيرانهم في ليالي الشتاء الباردة وأخذوا يتهامسون: (إن حقولنا ملعونة مسكونة).
وحار كوخ في أمره - وكيف تقوى هذه البشلات الدقيقة على العيش سنوات عديدة في مثل هذا الشتاء، فوق هذه الحقول، وعلى تلك الجبال؟ كيف يكون هذا؟ وهو حين أخذ شيئاً من طحال فأر وبئ، ونشره على شريحة من الزجاج، وأخذ ينظر إليه من

المجهر، وجد المكروب قد عجز عن الحياة، فانبهمت حدوده، وانتشر جرمه، واختفت صورته اختفاء؛ نعم كيف يكون، وهو لّما وضع من بعد هذا على المكروب فوق شريحة الزجاج سائلاً من عين ثور، وهو نعم الغذاء الطيب، لم ينم المكروب، ولم يتكاثر، وهل تتكاثر الأموات؟ ثم هو لما جفف هذا الدم الوبئ وحقنه في فئران، ظلت في أقفاصها تلهو وتمرح ناعمة بالحياة؛ إذن هذه المكروبات ماتت؛ نعم ماتت هذه المكروبات التي كانت تقتل الشاة السمينة والبقرة الضخمة الكبيرة على السواء.

وتسائل كوخ: (هذه المكروبات تموت على زجاجاتي النظيفة اللامعة في يومين اثنين، فكيف استطاعت أن تواصل الحياة على الحقول زماناً طويلاً؟).

وذات يوم وقع بصره على حَدَث غريب تحت مجهره - تحولٍ عجيب أدى به إلى حل الطلسم الذي أعجزه. وجلس كوخ على كرسيه بمعمله الصغير في بروسيا الشرقية وكشف السر المخبوء في حقول فرنسا وجبالها؛ وحكاية ذلك أنه جاء بقطرة من قطراته العالقة، وهي حبيسةٌ في نقرتها الضيقة من شريحة الزجاج، وتركها في مدفأ درجة حرارته كدرجة جسم الفأر، وخلفها هناك أربعاً وعشرين ساعة، فلما عاد قال: (لا بد أن يكون المكروب قد نما في القطرة واستطال خيوطاً طويلة كطول تلك التي تنمو في أجسام الفئران). ونظر في المكرسكوب فوجد غير الذي أمّله. وجد أن الخيوط بعد أن استكملت طولها، أخذت حدودها تنبهم، وتنقط الخيط بأجسام بيضاوية لمعت كحبات الزجاج، وانتظمت على طوله كعقد اللؤلؤ، بَرَق واستقام.

استاء كوخ أول الأمر، فسخط ولعن، وحسب أن غريباً من المكروب دخل إلى مكروبه فأفسده، ولكنه لما أعاد النظرة وجد حُسبانه الأول خاطئاً، فالحبات اللامعة كانت في داخل خيوط المكروب، وهذه الخيوط نفسها هي التي تحولت إلى تلك الحبات. وجفف كوخ قطرته العالقة، وحفظ ما بقي منها على الزجاج شهراً أو بعض شهر. ثم شاء القدر أن يعود فينظر إليها من خلال عدسته، فوجد العقود لا تزال على لمعانها؛ فخطر له أن يجري شيئاً من التجارب عليها. فأتى بقطرة صافية من عين ثور، فأسقطها على تلك المكروبات التي استحالت عقوداً، وأخذ ينظر إليها فإذا بالحبّات تنمو فتصير إلى بشلات، ثم إلى خيوط طويلة مرة أخرى. عام رأس كوخ اختلاطاً واندهاشاً.

قال: (إن هذه الحبات البارقة الغريبة قد عادت فاستحالت بشلات تارة أخرى، فهذه بذور المكروب، صوره الأمتن التي تصمد للحر الشديد والبرد القارص والجاف القاتل. . . . . لا بد أن المكروب على هذه الصورة يستطيع البقاء طويلاً في الحقول، لا بد أن البشلات تستحيل إلى هذه البذور).

وقام كوخ عندئذ بجملة من التجارب الدقيقة البارعة، أجراها ليمتحن صحة ظنه في هذه البذور، فاستخرج طحالات من فئران مجمورة، استخرجها الآن بحذق ظاهر بعد الخبرة والمران، ورفع هذه الأطحلة، وفيها الموت، على مشارط وبملاقط طهرت في النار، واحتاط ما استطاع الحيطة ألا تمسها مكروبات من التي تسبح على ضلال في الهواء، وحفظها يومياً في درجة حرارة كالتي لجسم الفأر. فلم يكذب ظنه، فخيوط المكروب استحالت إلى حبات من البذور بارقة كالزجاج، وتلا هذه بتجارب عديدة حبسته طويلاً في حجرته الصغيرة القذرة، خرج منها على أن هذه البذور تبقى حية أشهراً كثيرة، وأنها من بعد ذلك تنفقص على التو عن تلك البشلات القاتلة إذا هي وضعت في قطرة من سائل عين ثور، أو إذا هي أُدخلت على فلقة خشب في قاعدة ذنب فأر.

قال كوخ: (إن هذه البزور لا تتكون في حيوان وهو حي أبدا، وإنما تظهر فيه بعد وفاته إذا احتُفِظ بجسمه حاراً).

وأثبت ذلك إثباتاً جميلاً بأن وضع أطحلة وبيئة في ثلاجة، ثم عاد إليها بعد أيام فأخذ منها وحقن الفئران، فلم يصيبها سوء، فكأنما حقن فيها لحماً طازجاً سليماً.

وكان العام عام 1876، وكان كوخ قد بلغ الرابعة والثلاثين فخرج لأول مرة من عُشّه، من قرية فُلِشْتَين ليخبر الدنيا في شئ من الفأفأة، أنه قد ثبت ثبوتاً قاطعاً بعد طول الشك أن المكروبات أسباب الأدواء. لبس كوخ أفخر ثيابه، ووضع على عينيه نظاراته وقد تأطر الذهب حولها، وحزم مجهره، وعدداً من القطرات العالقة في محابسها من الزجاج وقد تنغشت بمكروب الجمرة القاتل، وأضاف إلى متاعه قفصاً أخذ يهتز ببضع

عشرات من الفئران البيض الصحيحة، وركب القطار ووجهته بلدة برسلاوة ليعرض فيها مكروب الجمرة الذي كشفه، وليبين للأشهاد كيف يقتل هذا المكروب فئرانه، وكيف أنه يستحيل تلك الاستحالة الغريبة فيصير عقوداً كالسُّبَح - وأراد بخاصة أن يطلع الأستاذ كُون على كل هذا، وهو أستاذ النبات بجامعة برسلاوة، وكان يكتب أحياناً إلى كوخ مشجعاً حامداً.

أعجب الأستاذ كون بتجارب كوخ التي أجراها وحيداً لا يسمع به أحد، وعلم أنها ذات خطر كبير لم يفطن له كوخ نفسه، وتصور في ابتسام وخبث ما يكون من أثرها في نفوس جهابذة الجامعة وأعلامها، وهم ما هم من رفعة القدر وشيوع الذكر، وكوخ هو ما هو من الضعة والخمول، فبعث إليهم يدعوهم لحضور الليلة الأولى للمعرض الذي يقيمه طبيب القرية الصغير.

ولبوا الدعوة، نعم لبوها ليستمعوا إلى هذا الذي جاء من أقصى الريف يحدثهم عن العلم؛ ولعلهم جاءوا رعاية لحرمة الأستاذ الشيخ كون. ولقيهم كوخ، ولم يحاضرهم في الذي أتى له، فلم يكن قط ممن يحسن صناعة الكلام. انعقد لسانه، ولكن يده انطلقت ثلاثة أيام ولياليها ترى هؤلاء السفسطائيين ما كان من أبحاثه طوال تلك السنين، وما كان فيها من تلمس في الظلام، وتحسس في دياجير المجهول، وما كان فيها من عثرات تبعتها نهضات، ومن نهضات تلتها عثرات؛ فلم ينزل أحد من كبريائه، ولم يهدئ من ادعائه، نزول هؤلاء الجهابذة وهدوءهم، وقد كانوا في كثرتهم يستمعون لرجلنا القليل، وقد كانوا طامنوا أنفسهم على التسامح، وألا يأخذوا عليه المآخذ، بل يدعونه يرسل القول إرسالاً، فما عند مثله يطلب الجدل، ولا لمن هم في منزلته يثار النقاش. ولم يجادل كوخ قط ولم يتفيهق قط، ولم يحلم الأحلام، ولم ينطق عند الغد بصنوف النبوءات، وإنما ظل يضرب فِلَق الخشب في ذيول الفئران فكانت كالسهام سرعة ودقة، وفتح أساتذة البثلجة عيونهم وسعها لما رأوه يتناول تلك البشلات والبزور والمكرسكوب بيد صناع لا تكون لعالم إلا في ستّينه. كان انتصاراً رائعاً روعة الصباح الضاحي.

وكان من بين هؤلاء الأساتذة الأستاذ كون هايم وكان من أمهر علماء أوربا في دراسة الأمراض، فلم يستطيع صبراً على الذي سمع ورأى، وخرج ثائراً من صالة العرض وذهب إلى معمله واندفع على التو إلى حيث يعمل الشباب من مساعديه في أبحاثه، فصاح فيهم: (أبنائي، دعوا ما بأيديكم وانصرفوا فاستمعوا إلى الدكتور كوخ، فإن هذا الرجل كشف كشفاً عظيماً) واسترجع الأستاذ أنفاسه.

قال الطلاب: (ولكن يا سيدنا الأستاذ منْ كوخ هذا فما لنا به من علم؟).

قال الأستاذ: (مهما يكن من أمره، فالكشف الذي أتاه عظيم، كشفٌ غاية في الدقة، غايةٌ في البساطة، غايةٌ في العجب. وكوخ هذا ليس أستاذاً. . . ولم يتعلم قط كيف يجري الأبحاث. . . وإنما تعلمه من ذات نفسه، وصنع كل ما صنع بمجهوده وحده).

قال الطلاب: (ولكن ما هذا الكشف يا سيدنا الأستاذ؟).

قال الأستاذ: (أقول لكم اذهبوا، واذهبوا جميعاً، وانظروا بأعينكم، واسمعوا بآذانكم، فإنه عَلِم الله أخطر كشف في عالم المكروب. . . كشف نتضاءل جميعاً إلى جانبه. . . .

(. .اذهبوا، اذهبوا

ولم يتم الأستاذ قوله إلى التلاميذ حتى كانوا قد خرجوا من الباب واختفوا عن بصره فلم يسمعوا آخر نبراته، وكان من بينهم بول إرليس

قال بستور قبل هذا اليوم بسبع سنوات: (إن الإنسان في مقدوره محو الأمراض المعدية من على ظهر البسيطة)؛ وعندئذ قال أحكم أطباء ذلك العصر: (إنه رجل مأفون)؛ ولكن في هذه الليلة خطا كوخ بالدنيا أول خطوة في تأويل الحلم الذي أرتاه بستور. وختم كوخ حديثه إلى الأساتذة الأمجاد قال: (إن أنسجة الحيوانات التي تموت بداء الجمرة لا تعدي بهذا الداء إلا إذا هي حملت بشلاته أو بزور هذه البشلات، سواء أكانت هذه الأنسجة صالحة أو فاسدة، متعفنة أو جفت أو مضى عليها عام. وفي وجه هذه الحقيقة يجب أن يزول كل ظلّ من شك في أن هذه البشلات هي سبب هذا الداء) ختم حديثه إلى الأساتذة بهذا القول حتى لكأن تجاربه التي أراها إياهم لم يكن بها كفاية من إقناع؛ وزاد على ما قال بأن

أبان لمستمعيه، وقد أخذتهم الدهشة، طريقاً لمكافحة هذا الوباء، طريقاً أرته تجاربه إياه لمحو هذا الداء، قال: (إن كل حيوان يموت بالجمرة يجب إعدام جثته في الحال، فإذا لم يكن في الإمكان حرقها، فلا أقل من دفنها عميقة في الأرض حيث البرودة شديدة فلا تأذن للبشلات أن تستحيل إلى بزور تقاوم شدة الحياة وجبروتها طويلاً. . . ..)

وهكذا علم كوخ الناس في هذه الثلاثة الأيام كيف يبدأون في محاربة المكروب ويدفعون عن أنفسهم أسباب المهالك التي تكمن لهم خفية في الظلام؛ وهكذا بدأ في حمله الأطباء على الإقلاع عن اللعب الهازل بالحبوب والعلق في مدافعه الأدواء، وإحلال العلم والمنطق محل السحر والخرافات.

وقع كوخ بذهابه إلى المدينة برسلاوة في زمرة من رجال أمناء كرماء مخلصين، بذلوا له من صداقتهم ومن عونهم الشيء الكثير، نخص بالذكر منهم الأستاذين كون وكون هايم ذلك لأنهما أولاً لم يسرقا أبحاثه، ولصوص العلم ليسوا أقل عدداً من اللصوص في مناشط الحياة الأخرى. وثانياً لأنهما صّيحا له وهتفا هُتافاً ترددُ أصداؤه في أوربا، حتى لأوجس بستور خيفة على مكانه سيدا لبُحّاث المكروب، وأخذ هذان الرجلان يرسلان الكتاب تلو الكتاب إلى مصلحة الصحة الإمبراطورية ببرلين يعرفانها بأمر هذا الرجل الجديد، مفخرة ألمانيا؛ وصنعا ما صنعاه ليمكناه من ترك عيادته، وهي لا تكسبه غير البلادة، وتيسير الرزق والمال له ليفرغ لدرس المكروب ودفع أدوائه. ومن يدري ماذا يكون من أمر كوخ لو أنه جاء برسلاوة فلم يجد بها غير الزجر والمهانة والصدود، إذن لعاد إلى قريته واكتفى بمعاودة صناعته من جس النبض والنظر في السنة المرضى، ولما كان من أمره الذي كان. إن رجل العلم لا ينجح إلا أن يكون فيه بعض خُلُق الدلالين وأرباب المعارض - وهكذا كان اسبلنزاني الفخم العظيم، وهكذا كان بستور الحساس الصخاب - وإلا أن يكون له من أرباب الجاه وذوي السلطان من يحميه بجاهه، ويدفعه ويزجه في معترك الحياة.

يتبع

أحمد زكي

نظرية النسبية الخصوصية

البحث الأول

الزمان ونسبيته

للدكتور إسماعيل أحمد أدهم

عضو أكاديمية العلوم الروسية

- 1 -

لنتصور قطاراً يتحرك من محطة القاهرة الساعة الثامنة، فما معنى تحركه الساعة الثامنة؟ لا خلاف في أن معناه أن آونة تحرك القطار وحادثة وقوف العقرب الكبير في الساعة على الرقم (12) والصغير على الرقم (8) متوافقان.

ولقد يجول بخاطر الكثيرين أن في هذا البيان الكشف عن حقيقة الزمان. وهذا ظن صحيح فيه من الوثوق الشيء الكثير لو كان العالم كله الساعة وما حولها. ولكن مثل هذه الفكرة هل تنطبق على حادثتين: الأولى حدثت في مكان قصي عن مكان الأخرى؟ فمثلاً لو فرضنا حادثة مثل الحادثة (أ) حدثت في الشمس، وحادثة أخرى مثل الحادثة (ب) حدثت على الأرض؛ فهل في الإمكان النظر في تواقُتِهما؟

إن الإجابة على مثل هذه الأسئلة تتطلب منا أن نذكر أن مسألة التواقت مسألة ترجع لتساوي سير حركة الساعات في مختلف الأمكنة، وهذا الأمر يرجعنا إلى واسطة التعيين.

لنفرض كرة مثل (ك) بها نقطتان ثابتتان، الأولى (أ) والثانية (ب) وبكل نقطة من هاتين النقطتين توجد ساعة، ولنرمز لساعة النقطة الأولى بالرمز (سأ)، ولساعة النقطة الثانية بالرمز (سب)، ولنفرض أن المسافة بين هاتين النقطتين هي (م)؛ فلكي نوحّد سير الساعتين نجد أمامنا إحدى طريقتين نسلك إحداهما لتوحيد سير ساعتي النقطتين: الطريقة الأولى تنحصر في نقل الساعة (سأ) والساعة (سب) إلى مكان واحد، ثم ضبطهما هنالك على زمان واحد، ثم إعادة كل ساعة إلى المكان الأول.

والطريقة الثانية تستند على إشارة ضوئية من النقطة (أ) إلى النقطة (ب) مثلاً، فتضبط بناء عليها الساعة (سب) زمانها حسب زمان الساعة (سأ).

وهاتان الطريقتان لا زالتا مستعملتين إلى يومنا الحاضر في حياتنا العملية؛ فالسفن تتبع الطريقة الأولى عندما تضبط وقت ساعاتها حسب أزمنة الموانئ التي ترسو عليها؛ وتتبع الطريقة الثانية بمراجعتها أزمنة ساعاتها وكرونومتراتها خلال سيرها بإشارات التليفون اللاسلكي لتصحح الفروق الناشئة في الزمن من اختلاف خطوط الطول والعرض على سطح الكرة الأرضية. ويمكننا استناداً إلى هذه الظاهرة تقرير اختلاف الزمان؛ غير أن هذا التقرير لا تكون له قيمة علمية إلا بعد تعميمه على الأكوان.

فلنفرض في كون مثل (ك) ساعة مثل (س)، فهل في الإمكان جعل ساعتين مثل (س 1) و (س2) في كونين مثل (ك1) و (ك2) تتحركان حركة انتقالية مستقيمة متساوية في الزمان مع زمان الكون (ك)؟

الإجابة عن هذه المسألة خارجة عن نطاق علم الطبيعة ما دامت هذه الأكوان يتحرك بعضها إزاء بعض حركات انتقالية؛ ومهما كانت هذه الفروق المتولدة من هذه الحركات ضئيلة فمسألة تساوي الزمان في هذه الأكوان أو عدم تساويه لا يمكن معرفتها إلا بالرجوع إلى الإشارات الضوئية. والاستناد على الأمواج النورية في تقرير تواقت الزمان قائم على ثبات سرعة النور، وهي وإن كانت سرعة محدودة إلا أنها سرعة فوق كل سرعة.

وقضية ثبات سرعة النور تجرنا إلى معرفة حركات الأكوان المطلقة خلال الفضاء الأثيري.

إذا أرسلنا شعاعة نور في اتجاه سرعة الأرض فستكون سرعة هذه الشعاعة بالنسبة للمشاهد الذي أرسلها من فوق الأرض: (300 , 000 كم - سرعة الأرض في الفضاء الأثيري).

وفي حالة إرسال شعاعة النور في عكس اتجاه سرعة الأرض فستكون سرعة الشعاعة متضخمة بسرعة الأرض بالنسبة لمرسلها (300 , 000 كم + سرعة الأرض في الفضاء الأثيري).

وكل التجارب التي أجريت في هذا الصدد أسفرت عن نتيجة سلبية.

- 2 -

لنفرض شعاعة نور مثل (س) تقع على مرآة نرمز لها بالرمز (م)، وهذه المرآة نصف عاكسة، فتشق شعاعة النور (س) شعاعتين: المعكوسة (س1) والمكسورة (س2)، وقد وضعت المرآة (م) بالنسبة لاتجاه الشعاعة (س) بحيث تجعل الشعاعتين (س1) و (س2) متعامدتين إحداهما على الأخرى؛ ولنفرض أنه قد وضع في خط سير هاتين الشعاعتين وعلى بعد ثابت من المرآة (م) مرآتان أخريان، الأولى (م1) والثانية (م2) بحيث تردان الشعاعتين (س1) و (س2) إلى المرآة (م)؛ وهناك عند التقائهما ثانية تعكسان عكساً نصفياً فيتحد الجزء المعكوس من الشعاعة (س2) مع الجزء المكسور من الشعاعة (س1) في الشعاعة الأخيرة (س3)، فإذا ما سارت الشعاعتان مسافة واحدة من نقطة افتراقهما إلى نقطة التقائهما ثانية؛ أعني إذا كانت المسافة من (م) إلى (م3) تعادل المسافة من (م) إلى (م1) تعادلاً تاماً، فإنك إذا ما وضعت عينيك في الوضع (د) شاهدت الشعاعة (س3) كاملة لا نقص فيها؛ أما إذا كانت المسافة (م - م 1) تنقص أو تزيد على المسافة (م - م2) بما يعادل نصف موجة النور أو حاصلاً صحيحاً لنصف موجة النور، فإن الشعاعتين تكونان قد سارتا منذ انفراجهما إلى اتحادهما ثانية غير متعادلتين، فينجم عن ذلك تداخل نوري بين حركة الموجتين يشف عن نظام تداخلي يتظاهر في شكل حلقات من النور والظلمة.

ولو فرض وأزحنا (م1) أو (م2) قليلاً بمعنى أننا غيرنا تعادل المسافتين (م - م1) و (م - م2) ألفينا هذه الحلقات تتحرك، أو قل تتقلص شيئاً فشيئاً إلى أن تختفي في الوسط المشترك بينهما، ثم تظهر حلقات جديدة من خارج النظام، ويكون عدد ما يختفي معادلاً عدد ما يظهر من الحلقات؛ ومن مقدار تغير (م - م1) أو (م - م2) نستطيع حساب الحلقات الواجب اختفاؤها على هذا المنوال. لهذا لو كان هنالك راصد مشاهد لهذا النظام، وطفقت حلقاته تتقلص بغتة، أمكنك أن تحكم يقيناً إن كانت المسافة (م - م1) أو (م - م2) قد شرعت في التغير؛ وإذا حسبت عدد الحلقات المختفية استطعت

التنبؤ بمقدار تغير المسافتين.

أجرى الدكتور ميكلصون والأستاذ مورلي تجربتهما بحيث كانت حركة الشعاعة موازية لحركة الأرض (ح) حول محورها مثلاً، أي وضعت (م1) بحيث تكون المسافة (م - م1) ممتدة شرقاً غرباً، فتكون لذلك الشعاعة (س1) متعامدة على اتجاه حركة الأرض حول محورها، أي تكون ممتدة شمالاً جنوباً في الاتجاه (ح).

ولكن عندما تنفصل الشعاعتان (س1) و (س2) عند النقطة (ن) تسير كلتاهما بسرعة واحدة بالنسبة للفضاء الأثيري، لأنهما كلتيهما تموّج أثيري، والاختلاف لا يكون إلا بإسنادهما إلى شيء آخر، وليكن الجهاز: (جهاز ميكلصون - مورلي) فتكون سرعة (س1) بالنسبة للجهاز غير سرعة (س2) بالنسبة له، لأن هذه الآلة تدور مع الأرض في دورانها حول محورها، والشعاعة (س1) متعامدة على السير بينما الشعاعة (س2) موازية له؛ فمن هذا الاعتبار ينتج أن سرعة (س2) بالنسبة لجهاز ميكلصون عندما تكون الشعاعة (س2) سائرة نحو (م2) هي:

ص - ح. . . . . (معادلة 1)

حيث أن (ص) رمز لسرعة الضوء المنطلقة خلال الأثير، و (ح) رمز لسرعة الأرض حول محورها. وعندما تنعكس الشعاعة (س2) عن (م1) تصبح سرعتها بالنسبة للجهاز هكذا:

ص + ح. . . . . (معادلة 2)

أما الشعاعة (س1) فلها نفس السرعة في سيرها نحو (م2) لأنها مركبة من سرعتين متعامدتين مثلاً، ولكنها في ذهابها وإيابها في كلتا الحالتين ستكون متعامدة على اتجاه سير الآلة أو الجهاز، وستكون مقدار هذه السرعة:

. . . . . (معادلة 3)

. . . . . (معادلة 3)

وذلك لأنها مركبة من سرعتين.

على هذا الأساس رتب الدكتور ميكلصون وزميله الأستاذ مورلي جهازهما في الأوضاع السابق ذكرها، وأخذا يرقبان الشعاعة (س3) من النقطة (د) فارتسم أمامهما نظام متداخل ناجم عن تداخل الشعاعتين في بعض، وعندما أديرت الآلة بكامل أجزائها حول المحور (ن) بحيث أصبحت (م - م1) متعامدة على اتجاه حركة الأرض بعد أن كانت موازية، واتخذت الشعاعة (م - م2) وضعاً موازياً لحركة الأرض بعد أن كانت متعامدة. فكان المنتظر أن هذا التغيير يسفر عن تغير سرعة الشعاعتين بالنسبة للآلة في الزمن الذي تستغرقه كل من الشعاعتين في سيرها من المركز (ن) إلى المرايا المعاكسة ورجوعها إلى

(ن) ثانية. ومن البديهي أن الزمن الذي تستغرقه الشعاعة (س2) في وضعها الجديد أقل من الزمن الذي استغرقته وهي في وضعها القديم؛ أعني أن شعاعة النور في سيرها في اتجاه متعامد - بشرط أن تعكس الشعاعتان وتردا إلى مصدرهما، وإدارة الجهاز حول محوره تسعون درجة - لابد وأن تسفر عن إبطاء الشعاعة الواحدة في رجوعها إلى (ن) وإسراع الشعاعة الأخرى في هذا الرجوع.

هذا الإبطاء والإسراع يؤثران في النظام الداخلي، إذ تنقص بعض الحلقات وتختفي حلقات الوسط وتبدو حلقات جديدة تتسرب للنظام من طرفه الخارجي. ذلك لأن تباطؤ الموجة الواحدة في رجوعها يفضي إلى تداخل جديد مع حركة الموجة الثانية التي أسرعت في الرجوع.

ولما كانت سرعة الأرض حول محورها معلومة، وسرعة النور في الفضاء الأثيري معلومة كذلك، فمن المستطاع قياس الفاصلتين (م - م1) و (م - م2) واستخراج طول موجة النور، وبذلك يصبح من الممكن حساب التأخير اللازم حدوثه إذا ما أديرت الآلة ومقدار التغير اللازم طروؤه على عدد الحلقات من تقلص واحتجاب.

على مثل هذا الأساس العلمي الدقيق أجريت تجربة ميكلصون، ولكنها أسفرت عن نتيجة سلبية إذ لم تتغير الحلقات ووصلت الشعاعتان معاً. ثم أعيدت التجربة مع الدقة الشديدة ولكن لم تسفر عن نتيجة.

(بقية البحث في العدد القادم)

إسماعيل أحمد أدهم

أندلسيات
قصة الفتح بن خاقان - 3
للأستاذ عبد الرحمن البرقوقي
أخلاق الفتح
نقول إن ابن بسام كان أعفّ لساناً، وأنزه بياناً. أمّا الفتح ابن خاقان فقد كان مقذعاً هجاء إلى أنه كان مداحاً فصالاً، فمن أرضاه وألهاه، مدحه وفتح لهاه؛ ومن لا يرضخ له من ماله بما يرضيه، هجاه وأقذع وولغَ فيه. وربما دسّ له لدى أولى الأمر وضرّاهم عليه. ومن ذلك ما كان منه مع فيلسوف الأندلس أبي بكر بن الصائغ وطبيبها الأكبر أبي العلاء بن زهر كما سيمر بك قريباً. . . وقد كان مع ذلك سكيراً معربداً إلى هنوات أخرى لقد يندى لها جبين الأدب، وقعدت به عن بلوغ المراتب التي بلغها أمثاله ومن هو دونه. قال الوزير لسان الدين بن الخطيب في حق الفتح: كان آية من آيات البلاغة لا يُشَق غباره، ولا يدرك شأوه، عذب الألفاظ ناصعها، أصيل المعاني وثيقها، لعوباً بأطراف الكلام، معجزاً في باب الحلي والصفات، إلا أنه كان مجازفاً مقدوراً عليه، لا يملّ من المعاقرة والقصف حتى هان قدره، وابتذلت نفسه، وساء ذكره، ولم يدع بلداً من بلاد الأندلس إلا دخله مسترفداً أميره. وأغلا في عليته. . . وقال ابن بشكوال في الصلة: وكان - الفتح - معاصراً للكاتب أبي عبد الله بن أبي الخصال، إلا أن بطالته أخلدت به عن مرتبته. وجاء في النفح أن الفتح قصد يوماً إلى مجلس قضاء أبي الفضل عياض - صاحب الشفاء - مخمّراً، فتنسم بعض حاضري المجلس رائحة الخمر، فأعلم القاضي بذلك، فاستثبتوحدّه حداً تاماً. وبعث إليه بعد أن أقام عليه الحد بثمانية دنانير وعمامة. . . فقال الفتح حينئذ لبعض من أصحابه: عزمت على إسقاط القاضي أبي الفضل من كتابي الموسوم بقلائد العقيان، قال: فقلت له: لا تفعل، وهي نصيحة، فقال: وكيف ذلك؟ فقلت له: قصتك معه من الجائز أن تنسى وأنت تريد أن تتركها مؤرخة، إذ كل من ينظر في كتابك يجدك قد ذكرت فيه من هو مثله ودونه في العلم والصيت، فيسأل عن ذلك فيقال له، فيتوارث العلمَ عن الأكابر الأصاغرُ؛ قال: فتبين ذلك وعلم صحته وأقرّ اسمه في (القلائد).
ولقد أزلفنا أنه هجا الفيلسوف ابن الصائغ وأقذع في ترجمته له في القلائد، ثم مدحه وأثنى عليه في المطمح؛ وقد حدثنا الوزير لسان الدين بن الخطيب عن سبب هجائه إياه أولاً، قال: وحدثني بعض الشيوخ أن سبب حقده على ابن باجه أبي بكر آخر فلاسفة الإسلام بجزيرة الأندلس ما كان من إزرائه به في تكذيبه إياه في مجلس إقرائه إذ جعل يكثر ذكر ما وصله به أمراء الأندلس، ووصف حلياً، - وكان يبدو من أنفه فضلة خضراء اللون، فقال له: فمن تلك الجواهر إذن الزُمرّدة التي على شاربك. . . فثلبه في كتابه بما هو معروف. . .
أما مدحه إياه بعد إذ هجاه فقد ذكر لنا العماد أن ذلك كان منه بعد أن أنفذ إليه مالاً استكفّه به واستصلحه. . . وإليك نُتَفاً مما كتبه في القلائد هاجياً، ثم مما كتبه في المطمح مادحاً: قال في القلائد: (هو - أي ابن الصائغ - رَمَد عين الدين، وكمد نفوس المهتدين، اشتهر سخفاً وجنوناً، وهجر مفروضاً ومسنوناً، فما يتشرع، ولا يأخذ في غير الأضاليل ولا يشرع، ناهيك من رجل ما تطَهّر من جنابة، ولا أظهر مخيلة إنابة، ولا استنجى من حدث، ولا أشجى فؤاده بِتَوار في جدث ولا أقر ببارئه ومصوره، ولا قر بتباريه في ميدان تهوره، الإساءة إليه أجدى من الإحسان، والبهيمة عنده أهدى من الإنسان، نظر في تلك التعاليم، وفكر في أجرام الأفلاك وحدود الأقاليم، ورفض كتاب الله الحكيم العليم. الخ الخ). وقد أورد له متعمداً أبياتاً ليست من جيد شعره. وأين هذا من تحليته له في المطمح بقوله فيه ما هذا بعضه: (نور فهم ساطع، وبرهان علم لكل حجة قاطع، تتوجت بعصره الأعصار، وتأرجت من طيب ذكره الأمصار، وقام وزن المعارف واعتدل، ومال للأفهام فنناً وتهدّل، إذا قدح زند فهمه أورى بشرر للجهل محرق، وإن طما بحر خاطره فهو لكل شيء مغرق، مع نزاهة النفس وصونها، وبعد الفساد من كونها، والتحقيق الذي هو للإيمان شقيق، والجد، الذي يخلق العمر وهو مستجد، وله أدب يود عطارد أن يلتحفه، ومذهب يتمنى المشتري أن يعرفه، ونظم تعشقه اللبات والنحور، وتدعيه مع نفاسة جوهرها البحور، الخ الخ). وأورد له شعراً جيداً. وكل أولئك تراه في ترجمتنا لهذا الفيلسوف الأندلسي العظيم. . . أما ما كان

من الفتح من الكيد للفيلسوف الكبير والطبيب النطاسي الأشهر والوزير الخطير أبي العلاء زهر لدى أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين، فقد جاء في نفح الطيب ما نصه:

وكان بينه - أي بين أبي العلاء زهر - وبين الفتح صاحب القلائد عداوة، ولذلك كتب في شأنه إلى أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين ما صورته:

أطال الله بقاء الأمير الأجل سامعاً للنداء، رافعاً للتطاول والاعتداء، لم ينظم الله الملك بلبتك عقداً، وجعل لك حلاً للأمور وعقداً. وأوطأ لك عقبا، وأصار من الناس لعونك منتظراً ومرتقباً، إلا أن تكون للبرية حائطاً، وللعدل فيهم باسطاً، حتى لا يكون منهم من يضام، ولا ينال أحدهم إهتضام، ولتقصر يد كل مُعتدي في الطلام. وهذا ابن زهر الذي أجررته رَسَنا، وأوضحت له إلى الاستطالة سُنَنا، لم يتعدّى من الأضرار إلا حيث اشتهيته، ولا تمادى على غيّه إلا حين لم تنهه أو ألهيته، ولما علم أنك لا تنكر عليه نكراً، ولا تغير له متى ما مكر في عباد الله مكراً، جرى في ميدان الأذية مِلء عنانه، وسرى إلى ما شاء بعدوانه، ولم يراقب الذي خلقه، وأمد في الحظوة عندك طلقه، وأنت بذلك مرتهن عند الله لأنه مكنك لئلا يتمكن الجور، ولتسكن بك الفلات والغور، فكيف أرسلت زمامه حتى جرى من الباطل في كل طريق، وأخفق به كل فريق، وقد علمت أن خالقك الباطش الشديد يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وما يخفى عليه نجواك، ولا يستتر عنه تقلبك ومثواك، وستقف بين يدي عدل حاكم، يأخذ بيد كل مظلوم من ظالم، قد علم كل قضية قضاها، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فبما تحتج معي لديه، إذا وقفت أنا وأنت بين يديه؟ أترى ابن زهر منجيك في هذا المقام، أو يحميك من الانتقام، قد أوضحت لك المحجة، لتقوم عليك الحجة، والله النصير، وهو بكل خلق بصير، لا رب غيره والسلام. . . هذا جانب من خلائق الفتح: تحوّل وتقلّب، ونقض لما أبرم، وإبرام لما نقض، وهجاء ثم مدح، ومدح ثم هجاء، ومناوأة للفلاسفة، واستعداد للملوك والأمراء عليهم، إلى ما أشرنا إليه آنفاً من خلعه العذار واستهتاره، وإهماله المعاقرة وفسوقه، حتى كان ذلك سبباً - كما يقول المؤرخون - في تخلفه عن لداته وقعوده عن بلوغ علياً الرتب التي بلغوها. ومن هنا كان حبه المال حباً نال من كرامته ونقص من قيمته وصّيره شهرة لدى العلماء والأمراء وسائر العلية والسروات. ومما يؤخذ عليه أيضاً غروره واعتداده بنفسه إلى أقصى حد؛ ولا أدل على ذلك من قوله في خطبة قلائده: (الحمد لله الذي راض لنا البيان حتى انقاد في أعنتنا، وشاد مثواه في أجنتنا، وذلل لنا من الفصاحة ما تصعب فملكناه، وأوضح لنا من مشكلاتها ما تشعب

فسلكناه، فصار لنا الكلام عبداً يجيب إذا ناديناه، ومهما يصيب الغرض إذا رميناه).

وبعد فقد كان هذا الأديب الألمعي الموهوب من أولئك الأدباء الذين أدركهم داء الانحطاط، ومثله كثير بين أدباء العرب والعجم والمشرق والمغرب قديماً وحديثاً. . .

وهذا الصنف من الأدباء والفنانين جدير بالرحمة والرثاء، لأن عبقريتهم هي سر انحطاطهم، إذ العبقرية في الحق شعبة من الجنون كما شرح ذلك لمبروزو وماكس نوردو وغيرهما. وقد كان انحطاط هذا الأديب سبباً في قتله. . . وفي أنفة مؤرخ كبير وأديب نابغ هو ابن الأبار القضاعي من ترجمته والتعرض لذكره، فقد قال هذا ابن الأبار في معجم أصحاب الصدفي: إنه لم يكن مرضياً وحذفه أولى من إثباته. ولذا لم يذكره في التكملة. أما قتله فقد قال ابن سعيد في المغرب - بعد كلام - ما نصه: (وقد رماه الله تعالى بما رمى به إمام علماء الأندلس أبا بكر ابن باجَّه، فوجد في فندق بحضرة مراكش قد ذبحه عبد أسود خلا معه بما اشتهر عنه وتركه مقتولاً. . . . . .). . . وقال ابن دحية إنه قتل ذبحاً بإشارة على بن يوسف بن تاشفين. . .

(يتبع)

عبد الرحمن البرقوقي

معركة عدوى - 6

للأستاذ الفريق طه باشا الهاشمي

رئيس أركان حرب الجيش العراقي

كانت القوة مؤلفة من أربعة أفواج وسرية خيالة وبطرية جبلية. وكان لدى كل سرية مشاة يبلغ عددها (200) جندي، أربعة طليان وهم رئيس وملازمان وضابط صف. أما

الملازمان الآخران فمن الأهلين. ونظراً إلى التنسيق الجديد بلغت القوة في المستعمرة ما يلي:
171 ضابطاً طليلنياً
1400 جندي طلياني
37 ضابطاً أهلياً
4400 جندي أهلي
-
6 , 008 المجموع
وفي سنة 1895 أحدث الحاكم العام الجنرال (باراتيري) احتياطاً من الجنود المسرحين يتألف من ثماني سرايا تبلغ قوتها 1700 جندي.
وأطلق الطليان على الجندي الأهلي اسم (عسكري).
ولما توترت العلاقات أنجد الطليان جيش المستعمرة بقوات أخرى جلبوها من إيطاليا.
وفي الشهر الأخير من سنة 1895 بلغت النجدة أربعة أفواج قوة كل منها 60 جندياً.
ثم جعلوا القوة الأهلية ثمانية أفواج بعد أن كانت أربعة أفواج. وزادوا قوة السرية فيها من 200 إلى 300 جندي، وهكذا بلغت قوة الجيش 14 , 000، منها 2 , 800 جندي طلياني.
وبإضافة قوة الاحتياط إلى ذلك أصبحت قوة الجيش 18 , 000 جندي، وفي معركة عدوى كانت قوة الجيش كما يلي:
لواء الجنرال (البرتونة) وكان مؤلفاً من أربعة أفواج أهلية وبطريتين طليانيتين وبطرية أهلية.
لواء الجنرال (دابورميدا) وكان مؤلفا من ستة أفواج طليانية وفوج أهلي وأربع بطريات طليانية.
لواء الجنرال (اريموندي) وكان مؤلفاً من خمسة أفواج طليانية وسريتين أهليتين وبطريتين طليانيتين.
لواء الجنرال (اللانا) وكان مؤلفاً من ستة أفواج طليانية وفوج أهلي وبطريتين طليانيتين سريعتي الرمي وسرية هندسة.
فالجيش كان مؤلفاً من ثلاثة وعشرين فوجاً، وسريتي مشاة، واثنتي عشرة بطرية، وسريتي هندسة؛ وكان مجموع القوة:
510 ضباط، و 12 , 411 جندياً إيطالياً، و 7 , 330 جندياً أهلياً و 64 مدفعياً، ومجموع رجاله 20 , 251 رجلاً، وهكذا يصيب كل ألف جندي 311 مدفعاً، وكانت هذه النسبة جيدة في ذلك الزمن.
أسلوب التعبئة الطليانية
كانت كتب التعليم الطليانية شائعة في جيش المستعمرة، إلا أن بعض أحكامها عدل نظراً إلى حالة العدو. وكان بعض هذا التعديل، الحركة في ميدان المعركة بالنظام المنظم، والانتشار بصف واحد، على أن يكون الجنود متجانبين دون فرجات.
وظهر من حركات البريطانيين على المهدي أن هذا الأسلوب لا يفي بالمرام تجاه صولة الأحباش الذين يظهرون شجاعة فائقة في حملاتهم، فاستفادت القيادة الطليانية من حركات البريطانيين وقررت أن تترك قدمات احتياط في الخلف لتنجد الخط الأول عند الحاجة أو لتكون متأهبة للطوارئ. إلا أن الضباط لم يتعودوا هذا الأسلوب تماماً لما وقعت معركة عدوى، ولا سيما أنهم كانوا قد تدربوا على أساس التعبئة الأوربية قبل مجيئهم إلى المستعمرة.
ليس من السهل دخول القتال في مستعمرة بعيدة عن الوطن ما لم تنظم أمور السوقيات؛ والظاهر من تدابير الطليان أنهم لم يضعوا خطة ناجحة لشؤون النقلية ولم يمهروا فيها، فاتخذوا الميناء (مصوع) قاعدة للحركات وأرسلوا إليها القطعات والتجهيزات على التعاقب دون ترتيب. فكانت التجهيزات ومواد الإعاشة تكدس هنا وهناك بصورة يصعب نقلها من الميناء إلى الداخل.
والأغرب من كل ذلك أن الحكومة الطليانية كانت ترغب في إدارة رحى الحرب دون إنفاق المال. ولما طلب الجنرال باراتيري المال أجابه رئيس الحكومة (كريسبي) بأن نابليون الأول كان يحارب حروبه بمال العدو؛ قال هذا ناسياً أن الساحة التي يتحرك

الجيش فيها هي أرض قفراء لا ماء ولا أقوات كافية فيها.

الشروع في القتال

توترت العلاقات في مايو 1894. وفي آخر شهر من هذه السنة ظهرت علائم التمرد في جنوبي أسمرة. وكان المحرض على ذلك رأس تيجري (منيغسيا)، ولما سمع الطليان أنه يجمع الجنود طلبوا منه تسريحهم فلم يجب طلبهم.

وعلى أثر ذلك تقدمت القوة السفرية المكلفة بستر أسمرة ومصوع بقيادة الجنرال (باراتيري) إلى شمال نهر مارب وعسكرت هناك.

وفي 13 يناير 1895 عبر (منيغسيا) نهر بلزة فتقدم الجنرال نحوه ونشبت المعركة في كواتيت. ورتب باراتيري ثلثي قوته مع البطرية الجبلية في الخط الأول، وترك باقي القوة في الخط الثاني لحماية جانبه الأيسر.

وكان الأحباش يسعون للالتفاف حول هذا الجانب إلا أن إرسال الوحدات الأهلية للنجدة، وثبات الطليان في الجبهة، واشتراك جميع القوات في القتال على التدريج مما ساعد باراتيري على الاحتفاظ بموقفه، وتوقف القتال بعد الظهر واستمرت المناوشات الخفيفة إلى المساء وانسحب الأحباش ليلاً.

وشرعت القوات الطليانية في المطاردة في 15 يناير 1895 وتقدمت طول النهار ولحقت بالأحباش في سنافة. وبعد إطلاق بضع طلقات انسحب الأحباش، وتقدم الطليان على طريق الهضبة دون أن يضطروا إلى عبور الأنهار، ودخلوا ادجرات في 25 أبريل 1895. وفي شهر مايو بدأ موسم الأمطار الغزيرة فتوقفت الحركات.

أما الأحباش فأخذوا يجمعون قواتهم لمقاتلة الطليان، وكانوا يأملون أن يتم الحشد في الخريف، فشرع الأحباش في الهجوم على الطليان لإخراجهم من البلاد. أما الطليان فأنجزوا تحكيم موقع ادجرات في شهر يونيو. والموقع كما نعلم يرتفع عن سطح البحر 2545 متراً وهو صالح لإقامة الأوربيين من حيث الهواء. وهو أيضاً موقع خطير في حد ذاته. ففيه تلتقي الطرق الممتدة إلى مقاطعة شوعا ومقاطعة أمحرة، فضلاً عن كونه واقعاً في نقطة ملتقى الجبال، ومنه تتشعب سلسلة عدوى التي تفصل حوض (تكاه) وتوابعه عن حوض (مارب) وتوابعه.

وقرية عدوى عاصمة المقاطعة، وعلى مسافة خمسة وعشرين كيلومتراً منها تقع أكسوم العاصمة الدينية، حيث يتوج عواهل الحبشة. واحتل الطليان عدوى أيضاً في شهر أبريل، وبذلك استولوا على خط (ادجرات - عدوى) فسيطروا على المسالك المؤدية إليه، وجعلوا حوضي النهرين تحت نفوذهم.

واستمروا على التقدم من ادجرات سالكين المرتفعات التي تفصل بين أحواض الماء، ودخلوا قصبة (مكلة) أيضاً وحكموها.

وعلى هذا الأسلوب تحركوا بحذر وشيدوا القلاع على طول الخط بمراحل 3 إلى 5 أيام. وكان من الضروري الاهتمام بالمواصلات التي تربط هذه القلاع بالساحل. ولا شك في أن توسيع دائرة احتلالهم على هذه الصورة جعلهم ضعفاء في كل محل، لأن القوة لم تكن تكفي لحراسة خطوط المواصلات، والدفاع عن هذه القلاع وتهيئة قوة سيارة تتحرك عند الحاجة لضرب الأحباش، لأن القوة لم تزد حينئذ على 18 , 000 رجل. أما الخط الذي انتشرت عليه القوة فيبدأ من (كسلا) ويمر بخط (كون - اسمرة - ادجرات) وينتهي في (مكلة). وكانت الأخبار تؤيد تأهب الأحباش للمعركة الفاصلة. ولم يكتف الطليان بنشر قواتهم على ذلك الخط الطويل بل أوفدوا قوة ستر مؤلفة من فوج أهلي وفصيلة مدفعية إلى جنوبي (مكلة) في مرحلتين إلى (امبا - الاغى).

وفي نهاية السنة هاجم الأحباش هذا الموقع فدافعت القوة دفاعاً مستميتاً، ولم يتلق آمرها أمر الانسحاب إلا متأخراً بعد أن قضى الأحباش على قوته وغنموا مدفعيته، بينما كان الموقف يتطلب أن يبلغ هذا الآمر واجبه الأصلي وهو الدفاع الرجعي دون دخول قتال فاصل.

وكانت القوة الحبشية مؤلفة من 30 , 000 رجل يقودها الرأس (ماكونين) والد الرأس (تفري).

وكان الجنرال (اريموندي) بكوكبه (بقسمه الأكبر) في مكلة، ولما تيقن أن الأحباش سوف

يهاجمونه وأنه لا يستطيع الدفاع أمامهم قرر الانسحاب، فانسحب بسرعة إلى (اداجاموس) ثم إلى (ادجرات) وترك في مكلة فوجاً أهلياً مع مدفع جبلي فقط.
أما النجاشي منليك فكان مهتماً بجمع الجيش ليملي إرادته على الطليان ويهيئ سبيل الخلاص لبلاده. وبعد أن جمع المال المطلوب من مقاطعة الغالا، وأنجد جيشه بخياله الغالا، وصل إلى أديس أبابا وأعلن إلى الجميع أن الحبشة لا تحتاج إلى أحد بل تمد يدها إلى الله، فتولى قيادة جيشه بنفسه وجمع جميع الرؤوس في (بروميدا) وصرح لهم ولجميع المشايخ والأشراف برغبته في طرد الطليان من البلاد وإنقاذها من مخالب الاستعمار. فوافقه الرؤوس على ذلك بالإجماع، وكان المشهد مما يثير الحماسة في الصدور، وكانت قوة الجيش الحبشي مع قوة جيش (ماكونين) تبلغ 160 , 000 رجل. فحاصر ماكونين قلعة مكلة وأخذ يدكها بنار مدافعه، وقطع عليها طرق الماء. فاضطرها إلى التسليم في 25 ديسمبر 1896 ووافق النجاشي على عودة الأسرى الطليان إلى بلادهم لينشروا الرعب في قلوب الطليان الآخرين.
ولما انتشرت أخبار انتصار الأحباش في المستعمرة ساد القلق والرعب في قلوب الناس، وفكر الطليان في الدفاع عن ميناء مصوع أيضاً. وقررت القيادة حشد جميع القوات في ادجرات لصد تقدم الأحباش ما عدا الحاميتين اللتين في كرن وكسلا، وكانت قوة الحامية منها مؤلفة من فوج وسرية خيالة وفصيل مدفعية.
(يتبع)
طه الهاشمي
مؤتمر القلوب
للأستاذ السيد محمد زيارة
سألت نفسي بعد تأمل وتفكير: (ماذا يكون لو أمكن كلَّ إنسان أن ينكمش حتى يختفي في قلبه، وأمكن قلبه أن يتسع حتى يحويه؛ فيظهر للناس عارياً لا يكسوه إلا الشغاف، ويصبح الشخصُ المنطوي على قلب قلباً منطوياً على شخص، وتمشي القلوب وتنتقل، وتدب حيث تحب؟ أتنكشف السرائر، وتسفر الخفايا، وتباح الأسرار؛ ويستطيع كل قلب أن يعرف ما له عند الآخر بغير حاجة إلى رسول بينهما قد يصدق وقد يكذب، ويتبين المرء ما يكنُّه له حبيبه أو صديقه خالياً من الزيف والرياء؟).
وكان سؤالا غريباً جديداً، فحيرني الجواب عليه؛ ثم رأيتني في الرؤيا أجرب هذا. . . فانقبضتْ أطرافي إلى بدني، وانحصر بدني في قلبي، فأصبحت قلباً ومضيت لشؤوني في الحياة؛ ووجدتني مقبلاً عليها بتلهف وشوق كما يقبل على الحرية سجين أطلقوه. فهو يندفع إليها بقوة، ويتقلب على رحبها بشغف، كأنه يريد أن يجنح فيها فيملأها. وهي تتلقاه هاشة باشة، وتتفتح له حيث اتجه، وكأنها تريد أن يمتزج بها فيصير منها.
ثم وجدتُني هنا وهناك طلْقاً موزّعا متحيراً لا أستقر، ولا أعرف كيف استقر، ولا أفهم معنى الاستقرار. وزعمت أنني لم أوجد في الحياة إلا لأتحسس الجمال وأتلمس الحب، وخيَّل إلى وهمي أن الجمال في كل لحظة يناديني، وأن الحب في كل بقعة ينتظرني؛ فجننت بالجمال والحب، وحلَّقتُ في سمائها بأجنحة الخيال حتى كدت أتحطم أو تحطمتُ. . بين شقاء يجرُّني إليه الهجر، وشقاء يجرني إليه الوصال.
ورأيت العيون من حولي تلتهمني بنظرات هي التعجب والاستغراب، وكأنها تتخاطب قائلة: (ما لهذا القلب لا يهدأ؟) حتى كادت تشعرني بأنني وحدي أصفق للجمال وأخفق بالحب. ولكني لم أحفل بالنظرات ولم أهب العيون، وسرت في طريقي كما أنا قلباً مهموماً شديد الخفقان.
ثم رأيتني مدعوًّا إلى مؤتمر دعيتْ إليه القلوب جميعاً؛ ففرحتُ بهذه الدعوة ونشطت إلى الائتمار. وتوافدنا نحن القلوب يسابق بعضنا بعضاً، ويحمل كل منا في أعماقه ما يحمل.
فهذا قلب صاف لا رنق فيه ولا غبار عليه؛ وهذا قلب درِنٌ غلب على بعضه الدرنُ وغلب
على بعضه النقاء؛ وهذا قلب أسخمُ لم يبق أثر لطبيعته؛ وهذا قلب كبير؛ وهذا قلب صغير.
ووقفتُ أرنو إلى ذلك الحشد الحافل وأستمتع بما فيه من مشاهد غريبة كانت محجوبة عني أو كنت محجوباً عنها؛ وأخذ كلُّ قلب يتطلع إلى القلوب حوله، ويستمتع استمتاعي

وكأنه يحس ما أحسه من دهَش يصحبه فرح، ومن رهَب تصحبه لذة.
ورأيت على بعد غير سحيق من مكاني قلباً تقلص أديمُه، وشاه مظهرُه؛ فدلّنا على باطن غاسق كالليل؛ والقلوب كلها نافرة منه صادفة عنه، كأنه قتاد يشوك من يقربه، أو مخلوق وحشي يلتهم من يلمسه. وهو في مكانه يوزع عليها نظرات ممتعضة ساخطة ملأى بالتمرد والتوعد. فسألتُ: (ما لهذا القلب لا يجد منا صاحباً ولا نجد فيه أهلاً للصحبة؟) فقالوا: هذا قلب رجل لا يعيش إلا ليبثَّ الفساد بين قلوب عارفيه، ولا يستريح حتى يشي بين صديقين متفقين، أو يعكر ما بين حبيبين ناعمين، أو يسيء إلى أحد ما. فتراه يبتسم لهذا، ويداعب ذاك، ويوسوس إلى ذلك؛ حاسباً أن في ابتسامته ودعابته وريائه ستاراً لحقده وخبثه وخسته؛ ولكن هيهات. . فكلنا يعرف ما في جوفه، وكلنا يحتقره وينبذه ويلعنه، وكلنا يود الآن لو يسحقه فيريح الوجود من وجوده.
ورأيت في ناحية أخرى قلباً شفَّ لونه، وأضاءت سحنته، فدلّتنا على دخيلة بيضاء كالشمس، والقلوب كلها - إلا ذلك القلب الداكن وأمثاله - متهافتة عليه، متودة إليه، تصافحه وتحييه؛ فيصافحها ويلاقيها بتحيات زكيات ملأى بالبر والقناعة - فسألت: (ما لهذا القلب لا يجد منا قالياً ولا نجد منه داعياً للقلى؟) فقالوا: (هذا قلب رجل تقي كريم يعرف الله ويخشاه، نصب نفسه لهداية الناس، وقضى أيامه يجاهد الرذيلة ليحي الفضيلة، ويكره الشر، ويحب الخير. فطالما سعى ليوفق بين صديقين مختلفين، أو يصلح ما بين حبيبين تاعسين، أو يحسن إلى أحدٍ ما؛ فتراه يرشد هذا، ويعلم ذاك، وينتزع الغواية من ذلك، صادقاً في كل ما قال وكلّ ما فعل، مصلحاً أينما حل. فكلنا يعرف فضله ويقدره ويحترمه ويود لو يرفعه فيجعله في السماء.
ولفتَ بصري قلبٌ غلا دمه، وتصاعد البخار من فتحاته، وكاد يندلع اللهب من جنباته؛ حتى خلتُه تنُّوراً تنصهر فيه جدرانه جزءاً فجزءاً، ويشتد أزيزه كلما استعر جوفه. يروح ويغدو بين القلوب هائجاً كالمشرّد، حائراً كالنصال، لا تفتر قواه ولا ينقطع خفوقه. فتساءلنا
عما به فوجدناه قلب محب فارقه حبيبه فبرّح به الشوق، وأضناه الألم؛ فهو ظمآن لهفان يبحث عنه بيننا علّه يلقاه فينقع اللقاء غلته، ويبرد لهفته. فقلت: آه!! ما أعظم سلطان الحب. . آمنت بأن في الحياة قلوباً تحار حيرتي وتكابد ما أكابد.
وكان بين القلوب قلبٌ خالٍ كالبيضة إذا أفرخت، سافر كالمرأة إذا تهتكت، باهت كالشمس إذا تنقبتْ بالسحاب. فكان أشبه شيء بالإسفنجة؛ وأعجبني منظره الفاتر الخالي من كل قرائن الحياة، لأنه شاذ بفتوره وخلوه منها، وأخذتُ أراقبه مليا لأقف على سره لو كان لمثل هذا القلب سر؛ فوجدته إمعة يظل ساكنا كالنائم فلا يتحرك حتى يحركه غيره، ولا يتوجه حتى يوجهه غيره، ولا يعمل إلا ما يمليه عليه غيره.
يدنو منه قلب من تلك القلوب السوداء هامساً موسوسا فلا يلبث حتى يسودّ ويتشكل بشكله، ثم يدنو منه قلب من تلك القلوب البيضاء الناصعة محدثاً مبشراً، فلا يلبث حتى يبيضّ ويتشكل بشكله، وهكذا هو في كل أحواله مقود لا إرادة له ولا صفة.
فسألتُ عنه فقيل لي: هذا قلب شاب ساذج أبله مغرور بنفسه، مخدوع بغروره، لم ينكبه الدهر، ولم تكرثه العوادي؛ فعاش كما تراه سليماً من الشر ومن الخير، بعيداً عن الحزن وعن الفرح، وحسب أنه عاش كذلك برغبته وقدرته، وأنه استطاع أن يهزأ بالأحداث لأنه فوق متناولها؛ ولم يعرف أن الله خلقه ضعيفاً فأنكره الدهر، وهزأت بوجوده الأحداث.
ووقع بصري على قلب تراه واقفاً فلا تحسبه واقفاً لدأبه على الدق والتوثب، ولا تفهم من خفقانه المتواصل معنى خفقان القلوب. وإنما تفهم معنى الجبروت والصولة والعربدة!! ينظر إلينا شزرا ويتطلع إلى محيطنا باستخفاف؛ ثم يصرف عنا بصره ويتطلع إلى أبعد من محيطنا باستخفاف؛ كأنه لا يشعر بنا وكأنه يعتبر الكون أضيق من أن يَسَع قوته وعظمته، فلا يروح ولا يغدو إلا في تيه وخيلاء، ولا يقف إلا وقفة المتمرد المتحفز، وهو مع هذا أبكم، أصم، أعمى، كافر، لا يؤمن بالرحمة، قاس لا يعرف الآلام؛ فهو أشبه شئ بكرة من الحديد.
قلت: قلب من هذا القلب القوي المتكبر؟ قالوا: قلب رجل شجاع جبار لا يهاب الصعاب، ولا يرضى الاستكانة، ولا يعرف التسامح، مفطور على الكبر والعظمة

واستصغار الكبائر؛ واستضعاف الأقوياء، واستعباد الضعفاء. فهو يعتقد أنه مخلوق للغلبة والانتصار.

ونظرت على يميني فرأيت قلباً استحق مني أن أطيل النظر إليه لما هو فيه من هم وكآبة، وقطعت فترة طويلة من الوقت شاخصاً إليه، متأملاً مشفقاً وأنا أحس أنه بائس وأن بيني وبينه صلة من البؤس مهما يكن بؤسه ثم ملت إليه وسألته: ماذا بك أيها القلب الحزين الباكي، ومالي أراك ساكناً ساكناً. . . تبدو في سكونك كاليائس المقشعر من يأسه، وكأني بك تستكثر على نفسك أن تعيش لأنك برم بالعيش!! إنك منا ولكنك غريب عنا؛ لا تخالطنا كما نتخالط ولا تحادثنا كما نتحادث؛ فما رأيتك منذ رأيتك إلا زافراً تكبت الزفرات، أو مستعبراً تخبأ العبرات، وأحسب أنك نكبتَ في حب فعشت في ذكرياته، وأن تلك الذكريات التي وصلت ما بينك وبين الماضي قطعت ما بينك وبين الحاضر: فماذا بك، وقلب من أنت؟

فانتفخ، ثم صعدت من فوهته زفرة ملتهبة، ثم صمت قليلاً، ثم رنا إليّ طويلاً، ثم قال: دعني لمأساتي فاللهب لا يحرق إلا من ألقي فيه.

قلت: ولكني أريد أن أعرف مأساتك؛ فعسى أن أعينك أو أواسيك أو أتوجع لك.

فصعدت من فوهته زفرة أخرى وقال: أواه. . . هذا شعور جديد في الحياة أو جديد في حياتي أنا فقط، وهذه كلمات لم أسمع مثلها منذ حين. فيالك من قلب طيب!

إن مأساتي هي أنني بحياتي مأساة في الحياة!! لقد كنت محباً واليوم قد مات الحب، بل أنا محب؛ كنت هانئاً، واليوم قد مات الهناء. . . بالأمس كنت قلب فتاة عذراء مؤمنة، واليوم أنا قلب امرأة متخالعة متماجنة. . . امرأة مومس أقدمت على الدعارة مكرهة، ثم مستسلمة، ثم راضية،. . . امرأة ساقطة تبيع عرضها في سوق الفجور (الرسمي) كل يوم لكل من يدفع الثمن. . .

مسكينة هذه البائسة المجروحة التي تحملني بين حناياها بائساً مجروحاً!! إنها تحاول كثيراً أن تسكتني وتخفيني، ولو استطاعت لقطعت ما بيني وبينها من شؤون وصلات، لتخلو لشؤون وصلات ذلك العالم الداعر الكافر الذي تعيش فيه بين ذبّاحي الإنسانية وهدّامي البشرية، وأنا في صدرها ألتاع وأتألم وأبكي وليست لي دموع إلا الدماء أستوردها من بدنها فيهزل قوامها، وهزال قوامها يذبل شبابها، وذبول شبابها يضيع جمالها، وجمالها هو حياتها الفانية التي لا خير فيها.

الرجال يحدثونها دائماً عن مواضع الفتنة ومواطئ اللذات فيها، فلا تسمع رجلاً واحداً يحدثها عن مواطن الحسرة ومدافن الذكريات في أعماق نفسها، ويسألونها كل يوم عن شهوة بعد شهوة، ولا يسألونها: أي حزن دخيل ثقيل تحملين، وكيف تتعذبين!! إنها تضاحكهم وتداعبهم ترويجاً لخلاعتها بينما تباكيني وتناجيني تفريجاً لكآبتي، وهي في ذلك مضطرة إلى التظاهر بأنها امرأة بلا قلب ولا ضمير، وإلا اتهموها بأنها تحمل قلباً حياً وضميراً مستيقظاً، وعدوها بذلك خائنة لحرفتها غير حافظة لنعمتها.

لقد حبستْني وحرَّمتْ علي أن يسمعني أو يشعر بي أحد، وما جئت إلى هنا إلا خلسة منها. فهي الآن في أحط أوقاتها بين أحط الرجال.

ولكني لا ألومها فأنا الجاني الأول عليها،. . . لقد قادني الحب فقدتها أنا إلى معمعة العواطف، ثم قادتها العواطف المطلقة إلى مغانم الشهوات، ثم قادتها الشهوات الغريرة إلى مساقط الفساد، ثم إلى الهاوية التي لا مقيل لها منها إلا الموت.

وبكى وبكيت له ورحت أواسيه بالقول لأن مأساته أكبر من أن أعالجها بالعمل.

(البقية في العدد لقادم)

السيد محمد زيادة

عويل الدم

(مهداة إلى الأستاذ الزيات)

من وحي مقالة: (على هامش الموضوع)

بقلم جورج وغريس

(في يوم مشئوم، في بلد مجهول، جرى دم الشهداء على أديم الغبراء، وظل سحابة يومه شاهد الأرض للسماء؛ وفي الصباح الباكر مر عابر السبيل، فألفى الدماء قد استحالت إلى كلمات، فأخذ يلتقطها بيد مرتجفة ويلقيها في سلال حمراء وسوداء. . . وهاؤم اقرءوا تلك الكلمات. . . . . .)

لقد قالوا للسان اصمت فتكلمنا.
نحن القطرات المتساقطة من عيون الفناء، وحيث سقطنا ستظل الحقيقة قائمة إلى الأبد.
إنما يعيش الإنسان بالدم الذي يجري في عروقه، فإن مات شهيداً عاش الناس بما يلقيه من الدم في عروقهم.
لقد كذبت معاجم اللغة في كلمتين: (قعقعة السلاح) وصوابها (قعقعة الدم).
ليس معنى الموت الموت دائماً، فقد يكون معناه الحياة أحياناً.
أليس غريباً أن نهتف للحق مرتين: مرة في حنايا القلب، ومرة من ثنايا الأرض؟
لو أننا عدنا إلى حيث أتينا ثم خُيرنا في مصيرنا ما اخترنا غير هذا المصير.
لقد فهمنا حاجة الأرض فأطفأنا ما بها من ظمأ. . . .
أيها الثري الجائع. . . . لقد أتخمك الشبع!
لقد قالوا لنا عيشوا في معاقلكم فانطلقنا منها أحراراً لما أحجم القوم تقدمنا، وحين أطفأ الناس أنوارهم أتينا لهم بالمشاعل.
نحن مادة الحياة أينما حللنا. . . . . عشنا في القلوب فخفقت، ولمسنا الأرض فنبضت. .
ليت الإنسان يفهم أن للحياة معنى غير الذي دارت عليه أيام الأنعام، والحياة بغير هذا المعنى لا معنى لها.
أنصتوا أيها الباكون حولنا واستمعوا، فإن قيثارتنا ترسل أنغامها السحرية.
إن تفجرنا من القلوب أو جمدنا في العروق فنهايتنا واحدة: الأرض مثوانا وهي الأم الرءوم.
أليست تلك أرض الوطن. . .؟ لقد خالطنا حبها فاختلطنا برغامها وتوغلنا في أعماقها وأضفنا إلى تربتها عنصراً جديداً لن يزول إلى الأبد. . . . . أليس في كيميائها (المادة لا تفنى؟. . .).
للمظالم البشرية سهام مسمومة وللنفس الشريفة دم كريم. . . . . إن أصاب ذلك الدم سهم من تلك السهام أبت كرامته أن يعيش إلى جواره فيفلت من مكانه ناقماً عليه ثائراً على عدوانه.
جبلت نفس الظالم من صخر لا قلب له ولا دم. فهو ينتقم لتلك الطبيعة الناقصة. فإن صادف قلباً أرهقه، وإن لاقى دماً أهرقه.
لا تقوم في نفس ابن آدم نزعة إلى الشر إلا ويكون مبعثها شيطان فيه. ولا يجئ منه الخير إلا يكون مصدره الإنسانية في الإنسان. ونحن - وا أسفاه - نتيجة صراع بين النزعتين في نفسين مختلفتين.
تضافرت الفضائل فغلبتها التضحية، وتنافرت الرذائل فجمعتها الأنانية.
يا عابر السبيل. . اخلع نعليك، فإن الأرض التي تطؤها مقدسة!
يا عابر السبيل. . . نحن غرباء مثلك، مطاردون مثلك، وقد أحاطتنا الحياة بهوانها حتى زجرتنا عن محيطها، وقذفت بنا الأرض قطرة حارة وزفرة متأججة تحرق الأديم وتلفح الوجوه. فإن بلغتك أنفاسنا المحترقة فخذ من حرارتها قوة لأنشودتك، ومن فيض آلامها املأ أنغامك سحراً وجلالاً وروعة. . . . . .
يا عابر السبيل. . . . . لا تخش أن يكون سبيلك سبيلنا وطريقك طريقنا. . . فإنما السبيل للمجد وعر والطريق إليه شائك، فلا تكتئب أو تحزن فمن وخزات ألمك تعيش الكرامة، ومن زفرات بكائك يشتق الخلود آيته. . .
نحن الورود الحمراء التي سقتها الدموع وأنبتتها الأهوال. ستعيش جذورنا في أعماق الصخرة وتصمد أعوادنا المخضلة في وجه العاصفة، تتفتح أكمامنا للأجيال فتملأ النسمات بأريج عاطر ينعش الأنف ويغذي القلب ويثير الفؤاد.
لنا في أذن الأجيال همسات، أسمِعوها يا هؤلاء لأولادكم وأحفادكم إن كان لكم ولهم آذان. واكتبوها على شغاف قلوبكم وقلوبهم بحروف من عصارة تلك القلوب. فإن كانت دماً نقياً رفعكم ورفعهم، وإن كانت دماً مارقاً خذلكم وخذلهم.
(إسكندرية)
جورج وغريس

أحلام وذكريات

للآنسة فردوس مصطفى

من مشكاة الطفولة اللاهية الغافلة كان قلبي الخلي يطل على قوافل الحياة فيراها ويحس بها غير ما يراها ويحس بها الآن، وكان إحساسه بها حينذاك إحساساً قوي الفطرة جامح الغفلة يبهره من قافلة الحياة تناسقها ومظاهرها غير مدرك سرها وجوهرها. وكان يرقبها طوال الأعوام الثلاثة عشر، حتى إذا ما تحول إحساسه بها إلى بعض إدراكه لها نشأ عن هذا الإدراك الحسي شعور جديد دفع به إلى السير مع القافلة، فاندمج فيها ولم يعد يراها، ولكنه بدأ يعرف سرها ويدرك مداها. وعندما أذكر أحلام الأعوام الثلاثة عشر، وقد كانت كلها أحلاماً، أشعر بالماضي يجذبني نحوه وبالحنين يعاودني إليه؛ فأحلام الصغار وأمانيهم أسباب تصل ما بينهم وبين الحياة بسبائك من الذهب، ولأحلام الكبار وأمانيهم أسباب تصل ما بينهم وبين الحياة بحبائل من النصب، ويا شد ما يهفو القلب إلى القفزات المرحة في رحبة المدرسة، وإلى تلك الدمى المتراصة في الدار من مختلف اللعب، وإلى فساتين الأعياد الزاهية الألوان؛ كل ذلك له أثر في القلب، لأنه بدء علوقه وأول صباباته. فلما شب عن طوقه وبارح مشكاته أصبحت له صبابات غير تلك الصبابات، وأماني وأحلام غير تلك الأماني والأحلام، بذل فيها من دمه ونعيمه الشيء الكثير، فثار على الحياة يثأر لدمه الغالي ونعيمه الذاهب؛ وللقلب حين يثور فلسفة يحتار في غاياتها العقل؛ وللقلب حين يثور أفانين يقصر عن إدراكها الفكر، ولكنها فلسفات وأفانين هي أقرب إلى السماء منها إلى الأرض؛ تدمجه في الروح الخالص فلا يشعر بما على الأرض من مادة طاغية، ولا يحس من بهرج الحياة وظاهرها بسعادة خاوية. فهناؤه فوق المادة، ونعيمه موصول بالسماء، وبين الفينة والفينة يعاوده الحنين إلى ذكريات الطفولة وأحلامها، وإلى المشكاة وأيامها، فيخيل إليه أنه يستطيع أن يطل على الحياة كما كان يطل، وأن يرقب القافلة كما كان يرقب، ولكن هيهات!

فردوس مصطفى

عجز التجارب

للأستاذ عبد الرحمن شكري

ما زاد مَرُّ حياتي غير أشجاني ... فَزَوَّدَتْنيَ رجحاناً كنقصان
يا دهر لا تُنْسِني في ضيق عادية ... محاسن العيش من صبر وغفران
وقَوِّني بتجاريب أزاولها ... فإنها لم تزدني غير عرفان
وكيف يُلْهِمُ خُبْرٌ صَبْرَ مصطبرٍ ... يَمْري له الخُبْرُ عرفاناً بإيهان
يزيده العمر من وَهْيٍ ومن كِبَرٍ ... ما زاده العمر من خُبْرٍ بِحِدْثَانِ
فكيف ينفع تجريبٌ ومانحه ... يوهي جلادة أعصاب وجثمان
بعض التجارب يُنْسِي بعضها زمناً ... إذا تعاور لبَّ المرء ضدان
فإن تيقَّظ في تجريب طارقةٍ ... فإنما هو يقظانٌ. كوسنان
ضرورة العيش أن ينسى ليذكر ما ... يغدو يعالج من أمرٍ له ثان
فالمرء ما عاش من حالٍ لثانية ... مَنَقَّلٌ بين نسيانٍ ونسيان
فإنْ تذكَّرَ أمراً واحداً أبداً ... قضى الحياة غريراً جد غفلان
وإن تناسى فلا نَفْعٌ لخبرته ... وكيف يُجْديهِ مَنْسِيٌ بغنيان
فإن تذكر منسياً تبادهه ... منه فجاءة ما يقضي الجديدان
كأنه مُستَجَدٌّ لم يُلِمّ به ... ولم يُحوَّلْ إلى طبع ودَيْدان
ورب طبع بلا خُبْرٍ وتجربةٍ ... أسخى على المرء من خبر وعرفان
ذُخْرُ التجارب ذخرٌ لا رواج له ... ولم يُخَصّ بأرباح وأثمان
ذخر الأقاصيص مسحوراً ومُخْتَزَناً ... فليس للعين منه غير ريعان
إلاَّ تجارب علمٍ يُستَجَدُّ بها ... ما يملأ العيش من حسن وإحسان
لولا انتفاعك من عادٍ مُفَضَّلَةٍ ... قد تجتبيها مع التجريب في آن
لما خُدِعْتَ بأشباهٍ إذا اختلطت ... فعادةُ المرء والتجريبُ أمران
والخُبْرُ ليس بنافٍ عادةً شنأت ... ولا يُداوَى به من وهي أبدان
يزيدك الخُبْرُ علماً بالحياة وما ... تُغْرِي به الناس من شرٍّ وطغيان
حتى تسير على مجرى سجيتهم ... فلا يزيدك فيها غير إمعان

فإن أبيت سجايا الناس من شمم ... قضيت عيشك في هم وأحزان
إلاَّ إذا ما لبست الدهْرَ عافيةً ... فهيأت لك من صبر وغفران
عبد الرحمن شكري
السجينة
للأستاذ فخري أبو السعود
لك الله كم ذا تطمحين وأعزف ... وأثنيك عما تبتغين وأصرف
ويا نفس كم أزوّرُّ عما اشتهتِهِ ... وأعنى بما لا تشتهين وأكلف
وأحجم عما رمتني فيه مُقْدماً ... وأقدِمُ فيما تكرهين وأسرِف
وأبدي سوى ما تضمرين مكتِّماً ... جوى لك في الجنبين لا يتكشف
تُجِنِّين تهياماً ووجداً ولهفة ... وأظهر أني الزاهد المتعفف
وتخفين إشفاقاً وأبدي جلادة ... وأغلُظ يا نفسي عليك وأعنُف
وأكظم غيظاً قد أطاشك فرطه ... وأجمل للباغي المسيء وألطف
كأنك في الجنبين منِّي سجينةٌ ... تعذب في ظلمائها وتحَيَّف
وتُكبح عما تشتهيه وتبتغي ... وتُقمع أشواقٌ لها وتَشوُّف
ظلمتك لم أظلِم سواك من الورى ... وما من خلالي قسوة وتعجرُف
ظلمتك، لا يا نفسُ بل تظلميننى ... وأصفح عما تُسلِفين وأصْدِف
أما كلّ يوم مذهبٌ لك شائق؟ ... أما كل حين مأربٌ بك مُلْحِف
أما كل آن غايةٌ إثْرَ غاية ... أكلّفُ في إدراكها ما أكلّف
وسيان محمودُ العواقب نافع ... لديك ومذمومُ المغبة مُتْلِف
أما تشتهين اليوم ما يُجْتَوى غداً ... ويُقْلى لديك اليوم ما كان يشغَف؟
وهل أنا مُسطيعٌ رضاك لو أنني ... على العالمين الحاكم المتصرف؟
ولو أنني عمرْي أجاريك لم أعِشْ ... عن النهج إلا حائداً أتعسف
كلانا أيا نفسي بلاءٌ لخدنه ... نعم وكلانا ناقم ومعنِّف
نعيش كأنّا اثنان لم يتعارفا ... وما لهما في الدهر شمل يُؤَلف
ظلمتكِ خدناً صاحباً وظلمتِني ... فَعَلّ فراقاً آتياً هو أنصف
فخري أبو السعود
أغنية
بين يدي الشمس تشرق تحت السحاب
للأستاذ إبراهيم إبراهيم علي
وجهُ من يا فجر هذا ما بدا ... من وراء الغيب في الأفق الجميلْ؟!
سحَرَ الطيرَ، فغنّى وشدا ... وترامت بهجة الدنيا تسيل
لهبٌ يندى على الكون ندى! ... ناضر الجمرة كالخد الأسيل!
وجمالٌ في جمالٍ في جمالْ
ية للحق في عليائها ... تختفي في السحب شيئاً وتبين
يقف العقل لديها تائهاً ... وهي أم العقل والصبح المبين
غيمة واحدة تلهو بها ... تحجب الغرّاء حيناً بعد حين
أفسحْرٌ، ليت شعري، أم دلال؟
أفهزلٌذاك يا أم الحياه؟ ... لعبٌ في الأفق، لهو في السحاب!
هاهو الكون جميعاً يا فتاه ... يرقب الأضواء من خلف الحجاب
يسكب النور، ولكن لا نراه! ... ثم يبدو من ثنيّات الضباب
في العلا نورٌ وفي الأرض ظلالْ!
بل هو الجدّ، ولا هزل هنا! ... بل هو الحق، ولا حق سواه
بل هو الله، تجلى ودنا ... وتباركت قديماً يا إله!
تبعث الشمس كأطياف المنى ... كالرؤى يوماً، ويوماً كالمهاه
وجمالاً في جمالٍ في جمالْ
(قليوب)
إبراهيم إبراهيم علي المحامي
حَنين
للأستاذ رفيق خوري

واهاً على زمنٍ ما كان أقصرَهُ ... فديتُهُ بدمي لو صانه الزمنُ
نفضتُ منه يدي والحرصُ يُمسكه ... والمرءُ حيثُ أراد الدهر مرتهَنُ
إن الذين دعتهم نيَّةٌ قذُفٌ ... سر الضمير، وقد فارقتهمْ علنُ
لا يستجيبون للمضنَى، فدىً لهمُ ... نفسي، وكنتُ إذا ناديتُهمْ أذِنوا
أكلما لاح برقٌ من ديارهمُ ... أجابه من دموعي عارضٌ هتن؟
ما حيلةُ المرء في الدنيا بنافعةٍ ... إذا أُريد به الترنيقُ والحَزَنُ
ضَلّ الفؤاد الذي طار الفراقُ به ... لهفي على هائم ما إنْ له سكن
يا ليت شعري يدانينا السرور كما ... كنا، ويجمعنا بعد النوى وطن؟
حمص
رفيق خوري
القصص
صور من هوميروس
حروب طَرْوَادَة - 16
فزع الآلهة. . .
للأستاذ دريني خشبة
قلق زيوس من اعتزام أخيل اقتحام الحرب
وكيف لا يقلق سيد الأولمب وكل من الفريقين يصلي له، ويطلب منه العون، ويتوسل إليه أن يُظفره بعدّوه، فتنجاب هذه الغاشية التي صرّعت الرجال، وضرجت أديم الثرى بدماء الأبطال!!
ودعا إليه أربابه فعقد منهم مجلساً للمشورة، فانتظمهم ديوان الأولمب، وحفلت بهم ذروة جبل إيدا، وطفق الإله الأكبر يقلّب الرأي على جميع وجوهه، ويبحث المسألة من شتى أطرافها، والأرباب فيما بين ذلك يحملق بعضهم في وجوه بعض، وتضطرم في أفئدتهم نيران العداوة والبغضاء؛ لأنهم كانوا جميعاً وقلوبهم شتى! فهذا فريق منهم يعطف على طروادة، ويشيد بذكر طروادة، بل منهم من اشترك في بناء طروادة وأقام أسوارها، وتحصين صياصيها؛ والطرواديون من أجل هذا قد أخلصوا العبادة لهؤلاء، وأقاموا لهم الهياكل المشيدة، والمعابد المنيفة، وهم في طويل الأحقاب والآباد ما يفترون عن عبادتهم والأخبات لهم، وتقديم القرابين والضحايا بأسمائهم.
وفريق آخر من الآلهة يعتبر الشعب الهيلاني شعبه المخلص؛ فهو لذلك يحدب عليه، ويرجو الخير له، وهو أبداً يستأذن سيد الأولمب فيحارب في صفوفهم، ويشد أزرهم، ثم الهيلانيون يخلصون العبادة لهذا الفريق، وهم أبداً يتعلقون بهم، ويقيمون المعابد لهم في كل حنية من جبالهم، وبكل منعرج من شعابهم، ومنهم كل مثّال صناع اليد، مرهف الحس، رفيع الذوق؛ وهم لذلك قد ملأوا المعابد والهياكل بتماثيل الآلهة، حتى ما تقع العين على أجمل منها!
وفريق ثالث لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ينقم على هذه الحرب الشعواء التي سُعِّرت لغير
ما سبب يستأهل كل تلك الضحايا ويستحل كل هذه المهج؛ وهذا الفريق يحنق على طروادة ويحنق على هيلاس على السواء. ويود لو يأذن سيد الأولمب فيزلزل بهما الأرض، أو يرسل عليهما كِسَفاً من السماء، فلا يبقى على أحد منهم أبداً!!
واتفق الآلهة على أب يذهب فريق منهم فيكون في صفوف الطرواديين يرشدهم، ويدفع عنهم عادية أخيل، ثم يذهب فريق آخر فيكون في صفوف الهيلانيين يفل من نشاطهم، ويكسر من سورتهم، حتى تكون الحرب بين الجمعين سجالاً؛ وإلى أن يرى الآلهة في شؤون خلقهم رأياً آخر.
وانطلقت حيرا مليكة الأولمب، ومينرفا ربة الحكمة، ثم هرمز رسول الآلهة وقائد الأرواح إلى هيدز. وفلكان الحداد وإله النيران، الذي فضحه مارس في زوجه، ونبتيون رب البحار العتيد الذي روّع الطرواديين في هذه الحرب أيما ترويع.
انطلق هؤلاء فكانوا في صفوف الهيلانيين.
وانطلقت فينوس إلى صفوف الطرواديين، وراح في أثرها أبوللو وأمه لاتونا وديان ومارس وإكسانثوس، وفئة غير هؤلاء من عشاق فينوس؟.
وانبث الآلهة ينفخون في أبواق الحرب.

وصاح أخيل في شياطين الميرميدون صيحة داوية، زادتها مينرفا قوة، فما تركت فؤاداً إلا زلزلته، وما غادرت نفساً إلا تركتها ترجف من خوف وفزع.

وكان أبوللو ينظر إلى أخيل فيتميز من الغيظ، ويود لو يبطش به بغدره من غدراته التي أودت بيتروكلوس من قبل، ولكنه أحس بفرائصه ترتعد، وفقاره يندك من الرعب، لما رأى حول أخيل من هذه الأرباب المتعطشة للدماء، لا سيما الإله الوحش نبتيون الذي يرسل من عينيه بركانين من الغضب يضطرمان اضطراماً.

وآثر أبوللو أن يستخفي في زي ليكاون بن بريام وصورته، وأن يذهب من فوره إلى إينياس العظيم مستشار طروادة وأبسل شجعانها بعد هكتور، فيثيره على أخيل، ويلهب فيه نخوة الجاهلية التي سداها التفاخر بالأنساب، ولحمتها التباهل بالأحساب، والتبجح بأنا ابن من سمك السماء، ودحا الأرض، وأنبت فيها من كل زوج بهيج!

واستطاع أبوللو أن يهون على إينياس من شأن أخيل، وأن يحقر في ناظريه خطبه، واستطاع ببيانه الموسيقي، وطلاقته السحرية، أن يدفعه إلى ناحية أخيل، الذي وقف مكانه يقذف الرعب في قلوب الطرواديين وأحلافهم، باحثاً عن غريمه البغيض، هكتور بن بريام، يود لو يخلي بينه وبينه فيبطش به، ويشفي هذا اللظى الذي يتأجج في جوانحه، بما قتله أعز أصدقائه، وأحب الناس إليه.

ووقف إينياس تلقاء أخيل، فتبسم زعيم الميرميدون، ووعظ المحارب أن ينثني فلا يلقي حتفه، وذكره بما حدث بينهما قديماً، حين ساق أخيل قطعان إينياس السائمة في سفح جبل إبدا؛ وما كان من فرار إينياس، هذا الفرار المضحك، الذي أشمت به الأعداء، وأثار عليه سُخرية الأصدقاء والأوداء!

ولكن إينياس، الذي كان ما يزال مأخوذاً بسحر أبوللو وموسيقاه، أبى واستكبر، وهز أعطافه، ثم أخذته العزة بالأثم، وانطلق يقذف في وجه أخيل بهذا التفاخر الذميم الذي لا يجدي في حلبة الحرب نفعاً، ولا يجر على صاحبه مغنماً، يوم لا حكم إلا للمرهف البتار، ولا قول إلا ما يقول الفيلق الجرار.

والتحم المحاربان العظيمان!

وارتطم الصخر بالصخر، وثار النقع في الميدان وأظلم حتى قد تهاوت كواكبه، ونظر الجمعان نظرة القلق الحيران، وأخذ الذهول يضرب إطنابه على الساحة الحمراء، ونظروا فرأوا إينياس يستجمع كل قوته، ويقذف برمحه العظيم فتردد درع فلكان، وإن تكن الطعنة قد شقت منها طبقتين، وفترت، فلم تصل إلى فؤاد أخيل.

وهنا!

اشتعلت نيران الدنيا في عيني زعيم الميرميدون، وذاب في أعصابه حميم من الغضب، وأرسل بدوره رمحه الهائل يرن على درع إينياس فلا يصيبه بأذى، ولكنه، لعظم الطعنة، يصرعه ويطرحه فوق أديم الثرى فريسة رخيصة لغوائل الردى، وضربات الرقاق البيض.

وينحني أخيل من عربته الفخمة، فيتناول حجرا عظيماً، قد يتعب عشرة من صناديد الرجال في حمله، ثم يرفع الحجر ليقد به جمجمة إينياس. . .

ولكن!. . . . . .

لا! ينبغي ألا يقتل إينياس، لأنه ابن زيوس سيد الأولمب، وهو لو قتل لم يرض به أبوه ألف ألف أخيل، وألف ألف ميرميدون كملأ أخيل!. . .

هكذا قدّر نبتيون! وقُتل نبتيون كيف قدر!!

لقد أرسلها إلى حيرا، مليكة الأولمب التي كانت قريبة تشهد الحدث الأعظم، قولة غير صادقة إلا في زعم نبتيون!

وعارضت حيرا في تدخل نبتيون، ولكنه، لشدة حبه أخيل، لم يسعه إلا أن يسرع إليه فينشر أمام ناظريه ضبابةً كثيفة حجبت عنهما هدف إينياس، ثم أنكفأ يحمله بعيداً من أخيل، حتى انتهى إلى صفوف الطرواديين الخلفية، فسجاه على العشب الأخضر، وأخذ في نصحه ألا يجازف بنفسه أمام أخيل كرة أخرى!!

وكان الجمعان ينظران إلى إينياس محمولاً في الهواء. . فيأخذ العجب منهما كل مأخذ!!

وامّحت الضبابة، وبطل السحر، ونظر أخيل فلم يعثر لإينياس على أثر، وشدهه أن ينجو خصمه من قتلة محققة، فيُلقى في روعه أن إينياس سليل الآلهة كما ادعى منذ لحظة؛

ثم يشدهه أكثر تجابن الميرميدون والهيلانيين على السواء، بعد إذ رأوا إلى إينياس محمولاً في الهواء!
ويحضهم أخيل على خوض المعمعة، ويستطيع بحماسياته أن يلهب في صدورهم روح الإقدام. . .
ويكون هكتور في هذه اللحظة قائماً في جنوده يحضهم هو الآخر ويطمئنهم أن الآلهة معهم فلا يخافون ولا يحزنون. ويراه أخيل فيخفق قلبه، ويعلو صدره ويهبط كأنه الخضم الغاضب. ويدفع عربته نحوه، فتندفع الخيل، وكأنه النيران تندلع من عيونها وأنوفها. . . .
وكان أبوللو إلى جانب هكتور، فلم يرض أن يلقى أخيل الذي ما خاض المعمعة إلا ليثأر لصديقه بتروكلوس.
وكاد هكتور لا يأبه لكلام أبوللو، وتقدم فعلاً ليلقى أخيل، ولكن الإله الكبير زجره زجراً شديداً، ثم أمره بالتقهقر في الحال. . . فانسحب بطل طروادة، وترك أخيل يحرق الأرّم مكانه، إذ أفلته هذا الصيد الثمين!!
وانقض أخيل يشفي غيظه بقتل عشرات وعشرات من أبطال طروادة فصرع إيفتيون العظيم ابن عذراء البحر، ثم ثنّى بالكميّ الكبير ديموليون، شج رأسه فانبثق الدم يتفجر منه، وبرز المخ، وذهبت روحه إلى هيدز! ثم ثلّث ببطل الأبطال هبوداماس، شكه شكة فتركه يخور كخوار الثور، مسوقاً إلى مذبح الآلهة. . . ثم انقض على بوليدور بن بريام، ملك طروادة، فطعنه في ظهره طعنة صرعته، ونشرت ظلام الموت في عينيه، فهوى إلى الأرض يئن أنيناً مؤلماً، أبكى الجند. . . وأحزن أخيل نفسه. . .
لقد كان بوليدور أحب صغار بريام إليه، وكان يجري فيسابق الريح، وينازل القروم الصيد فيصرعهم عشراتٍ ووحداناً، فيا حزن أبيه عليه بعد اليوم!!
وكأن ظلام الموت الذي خيّم على عيني بوليدور امتد حتى ظلل عيني هكتور! ولم تكن الحياة رخيصة في نظر بطل طروادة مثلها اليوم، فقد فجعه أخيل في بوليدور، فلا بد أن يفجع ذيتيس وبليوس، والدي أخيل، في أخيل نفسه. . .
وألهب جياده فاندفعت بعربته ناحية أخيل. . .
واستبشر زعيم الميرميدون حين رأى هكتور يسرع ناحيته قدماً، وذكر أنه قاتل بتروكلوس فدارت به الأرض، وذكر أن بتروكلوس ينتظر ثأره ميتاً ولا بد أن يعود أخيل إليه به، فتقدم نحو هكتور وقال له:
(هلم يا بن بريام فتعجل قتلتك، وودع الحياة الحلوة التي لن تهنأ بها بعد اليوم!!)
وتجهم هكتور، وكلم أخيل فاعترف أنه أقوى منه، وأطول في مواقف الحرب باعاً، ولكنه حذره من الغرور؛ (ومن يدري؟! هل أوحت إليك السماء أنك تقتل هكتور؟ وهل أخذت على المقادير والأقضية عهداً ألا يصرعك هكتور. . .) ثم انقض بن بريام فأرسل حربته الظامئة إلى صدر أخيل، ولولا أن مينرفا كانت إلى جانبه تحرسه، ولولا أنها زحزحته قليلاً فتفادته الطعنة. . . لكان أخيل حديثاً من الأحاديث.
وبهت أخيل، ثم صاح صيحة رجف لها جانب الجبل، وجاوبتها أسوار طروادة، ورددت أصداءها أجواز السماء؛ وانقض على هكتور يود لو يقتلعه من عربته فيخبط به الأرض، وتذهب روحه بعدها إلى الجحيم!. . .
وكان أبوللو إلى جانب هكتور هذه المرة، كما كان إلى جانبه دائماً؛ وراع الإله الأكبر أن يهجم أخيل تلك الهجمة التي يعجز عن مثلها مارس الجبار نفسه. . .
وذهل أبوللو ماذا يصنع، ليقي بطله من رمح أخيل؟!
ثم ذكر ما صنعه نبتيون من أجل إينياس، فنشر ضبابةً كثيفةً أمام ناظري أخيل، وتقدم إلى هكتور فحمله، وذهب به إلى حيث يكون بنجوة من مصير محزن، كان يوشك أن ينتهي إليه. . . . .
وظل أخيل يطعن الضبابة، مشدوه اللب حيران!!
طعنها مرةً، ثم مرة ثانية، ثم ثالثة، ثم ما كاد يطعنها الرابعة حتى امحت وبطل السحر، وانكشف له الميدان يضج بالجند، ويعج بعدة الحرب، ولكنه مع ذاك، وغير ذاك. . . . خلو من هكتور!!. . . . . .
(جميل يا هكتور!! صل للإله الذي أنقذك اليوم مني! صل لربك أبوللو! لقد أنجاك من قتلة بينة، وموتة محققة. . . صل له يا هكتور! ولكن ثق أننا سنلتقي بعدها، ولا أدري

هل ينقذك إلهك عندها؟! إن لي أربابي التي تحميني، والتي إن فوجئت بغادر فهي (. . . . .تنجيني. . . . . سنلتقي يا هكتور. . . . فصل الآن لأبوللو واشكر له وثار أخيل فكان زوبعة!

وطفق يصرع أبطال طروادة، فطعن دريوبس طعنة اخترمت حياته، ثم جندل ديماخوس وأسرعت روحه إلى أمواج ستيكس المنصهرة، وتقدم فأطاح رأس دردانوس العتيد، وجال جولة هنا وجولة هناك، فكانت المنايا تتعثر أنىّ ذهب، وأيان صار، فهذا تروس البطل ملقى على الأرض والدم ينبثق من كبده، ومولیوس الصنديد زائغ العينين يتوجع مما ألم به، وإخكلوس ابن أجينور تساقط نفسه حشاشات، ثم ديكاليون الذي دوخ الجيوش وروع الأبطال، وبث اليتم في كل دار. . . هاهو ذا فوق الثرى صعيداً جرزاً، وجثماناً يتدافق الدم من جرحه. . . نهاية حمراء لحياة حمراء. . . كلها حرب وتقتيل!

ورجموس!!

رجموس بن بريوس! الذي شد رحله من تراقية لينصر الطرواديين على بني وطنه. . . قائداً جموعه التي لا حصر لها؛ مؤلباً القبائل والأفخاذ على الأرض التي أنجبته، والآلهة التي نشّأته. . . . لماذا؟ لا سبب معقول!! ولكنه طيش الملك وغروره وكبرياؤه. . . ولأن الهيلانيين لم يختاروه قائداً لهم في هذه العشوزْنة الزبون!!

لقد امتشق أخيل سيفه، وأصلته على رأس رجموس، ثم أهوى به، فخر الخائن يتشحط في دمه. . . . . وانتهت بموته حياة ذميمة.

وزلزل قلب أريثوذ. . حارس رجموس وسائسه. . . فود لو فر بعربة سيده، لولا أن عاجله أخيل بضربة قدت أضالعه، وذهبت بروحه إلى حيث ذهبت روح مولاه. . . . . .

(لها بقية)

دريني خشبة

البريد الأدبي

كتاب عن المسألة الحبشية

أثارت المسألة الحبشية واعتداء الاستعمار الإيطالي على الحبشة نشاط المؤرخين والكتاب كما أثارت اهتمام الساسة والرأي العالمي، وظهرت في الآونة الأخيرة عدة كتب ومباحث تاريخية وسياسية واقتصادية وعسكرية عن إيطاليا والحبشة وكل ما يتعلق بتلك المشكلة الخطيرة التي ما زال يضطرب لها العالم كله منذ أشهر , وكان مما ظهر أخيراً في ذلك الموضوع كتاب للكاتب الإنكليزي أميل بيرنز عنوانه (الحبشة وإيطاليا) واميل بيرنز كاتب اشتراكي، وكتابه حملة قوية على الاستعمار الغربي، وأحدث فوراته ونزعاته أعني الاستعمار الإيطالي. ويقول الكاتب في مقدمته إنه يقصد بما يكتبان يبين الأسباب التي تجثم وراء الحوادث ووراء ستار المظاهر الدبلوماسية؛ والحوادث الظاهرة هي اعتداء إيطاليا المسلح على الحبشة، وعمل إنكلترا وفرنسا السياسي في عصبة الأمم أو خارجها، وليس هذا العمل في نظر اميل بيرنز سوى مؤامرة استعمارية.

ويستمد أميل بيرنز أدلته من حوادث التاريخ الحبشي منذ سبعين عاماً؛ فتاريخ الحبشة يحفل خلال هذه الحقبة بمشاريع إنكلترا وفرنسا وإيطاليا ودسائسها المستمرة، وكل تغالب الأخرى في سبيل الحصول على النفوذ الأوفر في الحبشة؛ والرأسمالية الاستعمارية من وراء السياسة تحاول أن تضع قدمها في تلك الأرض الغنية. وليس عمل إيطاليا إلا اعتداء في سبيل الاستغلال والسلب؛ ذلك أن أحداً في العالم لم يصدق أن إقدام إيطاليا على اتخاذ هذه التدابير العسكرية كان من باب الضرورة والتحوط وليست لها صبغة اعتدائية، وأنها ليست إلا ضمانا للسلام والأمن ضد أمة همجية، ولم يدهش إنسان بعد ذلك أن يرى هذه الإجراءات تتخذ فجأة صبغة الغزو المسلح، وأن تتحدى إيطاليا رأي العالم المتمدن كله، ولم تقم الدول الاستعمارية الأخرى بعمل حاسم لمنع هذا الاعتداء، وإذا كانت قد فعلت شيئاً فذلك لأن الموقف النبيل الذي وقفه النجاشي كان مثاراً لإعجاب العالم وعطفه.

وقد كانت الحبشة فريسة الاعتداء المدبر، وكان لإيطاليا أن تحمد الفرصة السانحة من كل وجه وخصوصاً لأن موقف الحكومة القومية الإنكليزية في تأييد سياسة النازي

(الهتلريين) في ألمانيا قد دفع فرنسا إلى أحضان إيطاليا وانتهزت إيطاليا هذه الفرصة لتضمن تأييد
فرنسا لها في افتراس الحبشة. بل لقد حاولت إنكلترا أن تعمل على اقتسام الحبشة مع إيطاليا، ومن أجل ذلك قدمت مشروعها بالتنازل عن زيلع إلى الحبشة.
ويتناول المؤلف بعد ذلك العوامل الإقتصادية التي دفعت بالحكومة الفاشستية إلى اعتدائها، ويسرد الأدلة على أن (التمركز المالي) هو الذي يدفع إلى هذه النزعة الإمبراطورية ثم يتحدث بعد ذلك عن (الفاشستية وعصبة الأمم) ويبين لنا كيف أن الرأسمالية من وراء كل حركة وإجراء تعمل باسم الأقليات وباسم الانتدابات؛ وكيف أن الرأسمالية الخصيمة تحاول أن تقضي على أي مشروع للصلح يتضمن أي مغنم للرأسمالية الفاشستية، وهذا بصرف النظر عن قضية الحبشة وعدالتها. والآن تسنح فرصة بديعة لسحق الفاشستية ونظمها الطاغية، ولكن هل تنتهز الدول هذه الفرصة؟
ويقول لنا الكاتب إن الواقع أن حكومة إنكلترا القومية إن هي إلا حكومة فاشستية بمعنى الكلمة لا ينقصها سوى الاسم.
ويعرض المؤلف نظرياته وأدلته بقوة ووضوح ولا سيما فيما يتعلق بالمسألة الإيطالية الحبشية، ويسبغ على عرضه صبغة اشتراكية واضحة ولكن معقولة متزنة، وكتابه يعتبر من خير الكتب التي أخرجت أخيراً في موضوعه، ويمتاز بالنسبة للشعوب الشرقية بأنه حملة قوية منظمة على الاستعمار وأساليبه تثلج صدر كل شرقي يرى أساليب الاستعمار الهمجية تعمل في وطنه وأمته.
ذكرى غزوة بدر الكبرى
تألفت بالقاهرة لجنة من الشباب للاحتفال بذكرى غزوة بدر الكبرى في 17 من رمضان لأنها أول نصر حاسم في تاريخ الإسلام. وستكون الحفلة برياسة الدكتور محمد حسين هيكل. ومن خطبائها الأساتذة الدكتور محمد حسين هيكل، الشيخ عبد المجيد اللبان شيخ كلية أصول الدين، السيد محمد الغنيمي التفتازاني، الدكتور عبد الرحمن شهبندر، محمد أفندي عبد الباقي سرور نعيم، الشيخ أحمد البهي مندوب الأزهر، أحمد أفندي شوقي مندوب كلية الحقوق.
وسيكتب في هذا الموضوع الأساتذة محمد جاد المولى بك، أحمد حسن الزيات، حفني محمود، محمد علي غريب، عبد الحميد المشهدي.
كتاب (محمد) للأستاذ توفيق الحكيم
كتب الأستاذ توفيق الحكيم رسالة إلى أحد أصدقائه الفرنسيين في أكتوبر سنة 1934، جاء فيها عن كتابه (محمد) ما يأتي: (إن كتابي عن محمد (ص) لا يزال في طور التحضير والتهيئة، وعسى أن أتمه في الشتاء المقبل. وسأبرز فيه النبي الكريم متكلماً بكلامه المأثور، في صورة تستوعب حياته المجيدة، كما يتصورها الفنان، لا كما يفهمها العالم والمؤرخ. . .)
الصقالبة في الرواية العربية
إلى الأستاذ المحقق محمد عبد الله عنان
قد قرأت لحضرتكم في عدد الرسالة (رقم 126) مقالاً تحت هذا العنوان، وفيه عبارة لابن حوقل عن صقالبة الأندلس، جاء فيها: (فنصت بلدهم (الصقلب) يسبيه الخراسانيون ويصلون، والنصف الشمالي يسبيه الأندلسيون من جهة جليقة وإفرنجة وانكبردة وفلورية، وبهذه الديار من سبيهم الكثير). ثم استنتجتم من ذلك أن لفظة الصقالبة كانت تطلق على سكان هذه البلاد المذكورة، والذي يغلب على ظني أن هذه العبارة لم يرد بها ذلك، بل المراد وصف الطريق التي كان يسلكها سبي الصقالبة، حتى يصل إلى الأندلس، فهل عند الأستاذ ما ينفي هذا الظن؟
(قنا)
عطية الشيخ
الإنسان والكون - آراء علمية جديدة
ألقى العلامة الطبيعي الإنكليزي الأشهر سير جيمس جينس أخيراً محاضرة عن (الإنسان والكون) حمل فيها بشدة على مادية العلم القديمة، وقال إنه يعتقد أن الإنسان ليس آلة صماء، وأنه يناضل في الواقع من أجل مصيره، وأنه قد أحرز أخيراً نجاحاً لا شك فيه. بيد أنه ما زال عليه أن يناضل من أجل مركزه في المجتمع، فإذا

أخفق في هذا النضال فقد يستأصل ويقضى عليه كما قضى على أجناس وفصائل أخرى من قبل، وفي هذه الحالة يكون الإنسان ضحية جنس آخر من صغار المخلوقات، ربما كان هو الميكروبات التي لا
يراها لصغرها.

وإذا نجح الإنسان في هذا الصراع واستطاع أن يظفر بتوطيد مركزه، فإن مواهبه وكفاياته قد تتسع وتزيد تدريجياً حتى يتحول إلى شئ آخر غير ما هو اليوم عليه وربما كان شيئاً أرفع مما هو عليه. وقد تختلف عنا سلالتنا بعد عشرة ملايين سنة كما نختلف نحن عن أسلافنا المنحطين منذ عشرة ملايين سنة. وشر ما يخشاه الجنس الإنساني هو الهزيمة والعدم، وخير ما يؤمله هو أن يغدو قنطرة منسية للطريق إلى أشياء أسمى.

وقد لاح في وقت ما أن نظرية (النسبية) قد وضعت حداً لكل الآمال التي تساور الإنسان في جعل العالم أكثر رفاهة وسعادة وجمالاً وأكثر نبلاً وعدالة طبق مثله الخاصة.

أما الآن فلدينا أسباب كثيرة تحملنا على العودة إلى اعتقادنا في أن الماضي والحاضر والمستقبل لها في الواقع معنى موضوعي وليست هواجس تهجس في عقولنا، وبعبارة أخرى يجب علينا أن نعتقد أن الزمن إنما هو حقيقة مادية.

واستعرض السير جينس بعد ذلك ما وصل إليه العلم في شأن (الذرّة) وما يقال من أنه لا يمكن سير الذرات، وأن سير الطبيعة يقوم على غير نظام وتقرير سابق؛ ومن رأيه أن العلم عاجز عن أن يقدم أي تحديد أو أي تدليل على مسألة (الحير) القديمة؛ وقد يكون الإنسان أو لا يكون آليّاً، ولكن العلم لا يستطيع أن يبرهن على أنه ليس آلياً، ثم هو لا يستطيع أن يبرهن أنه آلي قال؛ وإذا استعرضنا تاريخ العلوم في جملته، فإنا نرى المعارف العلمية ما تزال ترغم الإنسان على أن يخفض من تقدير نفسه ومركزه في الكون حتى بدء القرن الحالي، أما أنا فأرى أن التيار قد أخذ يتطور، وإننا على ضوء المعلومات التي ترتبت على نظرية النسبية والكمية، نستطيع أن ننظر إلى مركزنا في شيء من التفاؤل لم يسمح به العصر الفيكتوري).

شرعية الانتحار

يعرض في القريب العاجل على مجلس اللوردات الإنكليزي مشروع قانون فريد في نوعه، يراد به تقرير شرعية الانتحار، أو بعض أنواع القتل؛ ففي العهد الأخير وقعت في إنكلترا عدة حوادث رنانة مؤثرة؛ قتل فيها الابن أباه، والزوج زوجته، والعاشق حبيبته، ولم يكن قتلاً عادياً أو له صفة الجريمة، بل كان قتلاً مبعثه الإشفاق والحب، وكان في الغالب بناء
على طلب المجني عليه؛ وكان المجني عليه أو القتيل في معظم الأحوال يشكو مرضاً لا يرجى برؤه ويعاني آلاماً مروعة يريد أن يتخلص منها بالخلاص من حياته، فيطلب إلى أحب الناس إليه أن يقوم بهذه المهمة الأليمة. وقد وقعت عدة حوادث من هذا النوع، وقدم (الجناة) أو الذين ارتكبوا القتل بهذه الطريقة إلى القضاء فحكم القضاء في الغالب بالبراءة إزاء الظروف المؤثرة التي وقع فيها القتل، وإزاء انعدام نية الجريمة من جانب المتهم ولكن بعض (الإنسانيين) وأنصار هذا النوع من الإعدام يخشون أن يقسو القضاء فيعامل المتهمين في هذه الحوادث بالشدة وينال قصاصه المؤلم، لأن الانتحار يعتبر في القانون الإنكليزي جريمة ويعاقب كل من اشترك فيه أو ساعد عليه؛ ولذلك رأى بعض اللوردات أن يقدم إلى المجلس مشروع قانون يبيح القتل في مثل هذه الأحوال، وقد روعي في هذا المشروع أنه توجد حالات أليمة يشتد فيها المرض والألم على الفريسة فيتمنى كل من حولها لها الخلاص من هذا العذاب ويعتبرون من واجبهم المقدس أن يلبوا طلبها في الإجهاز عليها وإنقاذها من ذلك الجحيم؛ ولكن روعي من جهة أخرى أنه قد توجد حالات يتمنى فيها أهل المريض المعذب وفاته بسرعة ليحظوا بالإرث والثراء؛ وقد ينتهزون فرصة آلامه، وهذيانه فينتزعون منه إقراراً كتابياً بطلب الموت، ثم يجهزون عليه؛ ويتذرعون بهذا الإقرار للإفلات من العدالة؛ ففي هذه الحالة يتطلب القانون الجديد أن يقع مثل هذا الإقرار على يد موظف عمومي، وذلك بعد أن يصدر الطبيب المختص قراره بأن المريض لا يرجى برؤه وأنه يعاني آلاماً لا يمكن احتمالها مع الحياة؛ ويشترط مشروع القانون أيضاً أن الذي يقوم بعملية

الإعدام أو الإجهاز على الفريسة طبيب مرخص له بذلك.
وهكذا يراد أن يشرع حق الانتحار، وأن يمنح حق الإعدام في ظروف معينة؛ وسنرى ما إذا كان مجلس اللوردات يقر هذا القانون المدهش.

معرض الفن الصيني

أفتتح أخيراً في لندن في (برلنجتون هاوس) معرض الفن الصيني الذي كانت تتخذ العدة لافتتاحه منذ أشهر. وقد عرضت في هذا المعرض تحف وآثار صينية نفيسة يرجع الكثير منها إلى نحو ثلاثة آلاف سنة. ومعظم هذه التحف الرائعة ملك للصين ولكن الحكومة الوطنية الصينية ارتضت أن تعيرها للسلطات الفنية البريطانية بعد مفاوضات طويلة؛ ونقلت المعروضات في طرادة بريطانية مسلحة وأخذت إلى لندن لتعرض هنالك على أنظار العالم المتمدن. وتدل هذه التحف على أن الصين كانت قبل آلاف السنين تتمتع بحضارة رائعة تضارع في ازدهارها وروعتها حضارة مصر القديمة، وتدل على إن الفنون الصينية بلغت مبلغاً عظيماً من الافتنان. وقد كان الابتكار يقترن لدى الفنان الصيني مع الصبر وتخير النماذج الفائقة. وأقدم التحف المعروضة هي آنية للمراسيم الدينية صنعت من البرونز ويرجع صنعها إلى سنة 1766 قبل الميلاد؛ وكان البرونز أول مادة استعملت في الفن الصيني؛ ولم يبدأ النحت البوذي إلا في القرن الرابع أو الخامس الميلادي. وقد كان افتتاح المعرض الصيني حادثاً فنياً عظيماً في إنكلترا، وهرعت الجماهير الحاشدة لرؤيته من أنحاء الجزر البريطانية وأمم القارة الأوربية.

الكتب

كتاب التشريح المرضي والجنائي
تأليف الدكتور محمد زكي شافعي
بقلم الدكتور محمد الرافعي

لا أسهل في العلوم من اختصارها، ولا أيسر من إخراج الكتاب الضخم محصلاً في جزء لطيف. وقد كانت هذه طريقة علمائنا المتقدمين؛ فليس من كتاب ذي خطر إلا وقد اختصروه مرة أو مراراً، يريدون إما تقريبه من الأذهان وإما حصر فوائده، وإما جعله كالمذكرات. وقد يعجز بعض العلماء عن التأليف ويريد مع ذلك أن يكون مؤلفاً فيجد مادته من الكتب المطولة يؤلف منها ما يسميه المختصر أو الموجز أو نحو ذلك. وهذا كله سهل، بل بعضه أسهل من العبث إلا في الطب، وخصوصاً حين يكون الاختصار في فرع من فروعه التي اختص بها علماؤها كهذا الكتاب الذي نحن بصدده.

إن وضع كتاب مختصر في فرع من الفروع الطبية وخصوصاً باللغة العربية هو عمل من أشق الأعمال، وأدقها إذا أريد أن يكون الكتاب مع اختصاره وافياً في موضوعه، محققاً لفائدة الأصل المطوَّل، جامعاً لفوائد جديدة تعطي الكتاب حكم التأليف مع تسميته المختصر. وما دام الطب شرحاً للجسم المعجز في تركيبه وأعماله ودقائقه المحيرة للعقول؛ فالتأليف فيه لا ينتهي، واختصار المؤلفات فيه لا يكاد يوفق إليه إلا النوابغ المحيطون أوسع إحاطة، والمتمرنون تمريناً طويلاً، والمتتبعون لكل جديد.

ومن هؤلاء مؤلف كتاب (التشريح المرضي والجنائي) الدكتور محمد زكي شافعي، مدير المكتب الفني بمصلحة الصحة العمومية بمصر. وقد قال في مقدمة كتابه هذا: (لقد اشتغلت حوالي العشرين عاماً بالطب الشرعي، ولا أزال أعمل الآن مراجعة بعض الأعمال الخاصة به، وكثيراً ما استرعى نظري أن الحاجة ماسة أشد مساس إلى كتيب خاص بالتشريح المرضي والجنائي، يرجع إليه الطبيب الكشاف إذا أعوزه الأمر للإطلاع العاجل، فإنه كثيراً ما يجد نفسه في مأزق حرج، إذ يطلب إليه - وهو بعيد عن مراجعه - الفصل في مسائل فنية دقيقة الخطورة، يتوقف على الإجابة عليها مصير متهم قد يكون بريئاً.

ولقد كنت أشعر بهذه الحاجة في أثناء ممارستي التشريح، ولا سيما في الجهات التي أكون فيها بعيداً عن مراجعي، وكل الأطباء يدركون دقة هذا الموقف.

ولقد عرضت على زميلي (الدكتور لبيب شحاته) أن نعمل على سد هذا النقص، فوضعنا معاً هذا الكتاب، وتوخينا فيه أن يكون عملياً أكثر منه نظرياً، وجعلناه واضح العبارة، سهل المأخذ، حتى ينتفع به كل مشتغل بالطب الشرعي، وانتقينا أحدث المعلومات، وأرجحها قبولاً لدى جمهرة الأطباء الشرعيين ولذلك اضطرتنا الحال إلى

الإطلاع على مراجع عديدة علاوة على المذكرات الشخصية).
ومع أن الكتاب كما يصفه حضرة مؤلفه فقد وقع في 490 صفحة، وبلغت المراجع التي اعتمد عليها واضعاه عشرين مرجعاً، يضاف إليها اختبار المؤلف وتحقيقه مدة عشرين سنة، وذلك فضلاً عن رجوعه في بعض مسائل كتابه إلى كثير من الأساتذة المختصين، بحيث جاء الكتاب عظيم الفائدة للمشتغل بالطب الشرعي، وللطبيب المشرح، ولمن يتصلون بالحوادث الجنائية من القضاة ورجال النيابة والمحامين فهؤلاء جميعاً يهتدون فيه إلى أدق المسائل الفنية بأيسر طريقة وأسرع وقت، ويصيب كل منهم غرضه الفني أو القضائي. وقلما يحتاج مع هذا الكتاب إلى الأصول المطولة إلا في التدريس، على أنه في التدريس ذو قيمة ثمينة إذا جعل للطالب كالتذكرة التي يدون فيها خلاصة علمه. هذا وإن ضم التشريح المرضي إلى التشريح الجنائي في كتاب واحد عمل فني بديع لم يُسبق إليه.
وأنا وقد درست هذا العلم على الفحول من رجاله في فرنسا، لا يسعني إلا أن أهنئ الدكتور محمد زكي شافعي، ومساعده الفاضل الدكتور لبيب شحاته بكتابهما وبما وفقا فيه، فهو توفيق يستحق التهنئة العلمية.
الدكتور محمد الرافعي
خريج جامعة ليدن بفرنسا

لباب الآداب لابن منقذ
تحقيق وتعليق الأستاذ أحمد محمد شاكر
للأستاذ محمد بك كرد علي

بنو منقذ أصحاب قلعة شيزر من عمل حماة في الشام كانوا معروفين على عهد الحروب الصليبية بالفروسية والسياسة والأدب والأمارة، وقد خلد أسامة بن منقذ (488 - 584 هـ) أحد رجال هذا البيت بأدبه ذكر آله في التاريخ. ولما طبع له العلامة درنبرغ كتاب (الاعتبار) في سنة 1884م بمدينة ليدن في هولاندة اشتهر أسامة بين الأدباء في الشرق والغرب، لما حوى كتابه من أخبار البطولة والشجاعة، ولأنه صُنّف على غير مثال. وقد طبع له درنبرغ أيضاً كتاب العصا وغيره في باريز، وعُني بجمع أخباره بالفرنسية وخدمه وأولع به.
والآن طبع الأديب لويس سركيس في القاهرة كتاب (لباب الآداب) لأسامة أيضاً، وتولى تحقيقه والتعليق عليه الأستاذ أحمد محمد شاكر، وحلاّه بفهارس الأعلام وأيام العرب والأماكن والقوافي، وشكله تقريباً بالشكل الكامل، فقرّب فوائده من يد المستفيد، وأضاف إلى ما طبع من كتب الأدب القديم سفراً آخر قال في وصفه إنه من أجود كتب الأدب، وإن فيه أقوالاً من نثر ونظم لم يجدها في كتاب غيره من الكتب المطبوعة.
قسم المؤلف كتابه إلى عدة أبواب فيها عظة وتعليم وأهداه لابنه الأمير مرْهِف، وجعل أبوابه في الوصايا والسياسة والكرم والشجاعة والآداب وكتمان السر والأمانة والتواضع وحسن الجوار والصمت وحفظ اللسان والقناعة والحياء والصبر والرياء والإصلاح بين الناس والتحذير من الظلم والإحسان وفعل الخير والصبر على الأذى ومداراة الناس وحفظ التجارب وغلبة العبادة والبلاغة. وهناك فصول من كلام رسول الله والصحابة وغيرهم، ومن كلام سليمان الحكيم وبرسين الحكيم وأفلاطون، ونوادر فيثاغورس وسيخانس، ومحاسن شعر الحكماء، وأبواب في المديح والتشبيه ومشي النساء والخفر والشيب والاعتذار والعتاب والمراثي والغزل والحكمة. يبدأ المؤلف كل فصل بآيات كريمة ويشفعها بما ورد من الأثر ثم الشعر ثم أقوال الحكماء في هذا المعنى.
وذكر المعلق على الكتاب أنه وقعت في طبعته هذه بعض أغلاط، مع كل ما عانى في تصحيحه، جاء بعضها سهواً منه، وبعضها من خطأ النظر، وبعضها من الأغلاط المطبعية التي لا يتنزه عنها كتاب. ونحن نقيم من كلامه هذا عذراً لكل من أحيا كتاباً للقدامى؛ وليس من الإنصاف أن يُحمل على كل من ارتكب خطأ من هذا القبيل بعد بذل الجهد، فقد تسرع
الناظر في هذا الكتاب وقال (ص 26) إن كتاب العصا هو كتاب القضاء لا العصا، وليس في جريدة مؤلفات أسامة كتاب في القضاء وإنما هو كتاب العصا المطبوع. وذكر (ص

22) (الأمير معين الدين أنَر وزير شهاب الدين محمود) وليس في التاريخ الإسلامي من اسمه أنر، وإنما هو اتسنر وهي كلمة تركية معناها لا لحم له، أو الرجل الضَرْب الخفيف اللحم غير الجسيم. واتسنر هذا هو مملوك جد مجير الدين أرتق بن محمود ابن بوري بن طغتكين، وكان عاقلاً ديناً محسناً لعسكره (راجع كتابنا (خطط الشام) م2 ص 21). ومن ذلك في صفحة 192 (تباة البلد) قال ولعلها جمع تاب بوزن غاز وغزاة من قولهم تبا إذا غزا وغنم وسبى. ونحن أميل أن تكون (تُنّاة البلد) أي سكانه من تنأ تنوءاً أقام، ويقولون (الطراء والتناء) أي النزلاء والمقيمون وهي الأولى بالمقام.

وتسرع أيضاً (ص 28) ونقل ظن بعض أهل العلم أن كتاب (الأدب والمروءة) الذي نشرناه في مجلة المقتبس، ثم ضممناه إلى الطبعة الثانية من (رسائل البلغاء) في سنة 1331هـ 1913 هو لصالح بن عبد القدوس لا لصالح بن جناح كما ذكر ناشره أستاذنا العلامة الشيخ طاهر الجزائري رحمه الله؛ قال (ولعله - أي صالح ابن عبد القدوس - أخفى نفسه بهذا الاسم في بعض الأوقات خوف الطلب). والحقيقة أن كتاب الأدب والمروءة هو لصالح بن جناح ترجم له ابن عساكر صاحب تاريخ دمشق، فقال إنه صالح بن جناح اللّخمي الشاعر أحد الحكماء؛ حكى عنه أبو عثمان الجاحظ أنه ممن أدرك الأتباع بلا شك، وكلامه مستفاد في الحكمة. وقد أخذ عنه الجاحظ في نيسابور وقال عنه دمشقي؛ ونشر ابن عساكر طائفة من شعره الجميل. وبذلك انتفى ظن بعض أهل العلم أن كتاب الأدب والمروءة هو لصالح بن عبد القدوس بل هو لرجل عربي دمشقي ينسب إلى لخم من أتباع التابعين ومن أساتيذ عالم الأمة الجاحظ.

ومثل هاته الهنات المعدودة لا تقدح في كتاب طويل وقع في خمسمائة صفحة، الله أعلم كم قاسى ناشره من المتاعب حتى استخرجه من خطوط قديمة سقيمة. وليس لنا بعد هذا إلا الشكر نقدمه للأستاذ شاكر على عنايته وتجويده.

محمد كرد علي

النقد

تاريخ الإسلام السياسي - 2

تأليف الدكتور حسن إبراهيم حسن

بعض مآخذ تاريخية وجغرافية

لأستاذ كبير

أتيت في كلمتي السابقة على قليل من المآخذ التاريخية التي تورط فيها مؤلف (تاريخ الإسلام السياسي) وقد لحظ بعض الذين قرأوها أنه كان الأفضل ألا أورد هذه المآخذ مسرودة على نحو ما فعلت بل أن أوردها مقرونة بأسبابها الجوهرية. وأجيب عن هذه الملحوظة التي لها وجاهتها العامة بأن من المفيد في نقد كتب التاريخ أن ينصب النقد أولاً على الوقائع مجردة. فإن التاريخ من الناحية التحليلية البحتة يقوم على الوقائع التاريخية التي هي مادته الأولية. وبمقدار تزود المؤرخ من هذه المادة الأولية وتمكنه منها إحاطةً، وتقويماً، وفهماً، تكون متانة أحكامه التي يستنبطها وافتراضاته التي يذهب إليها، والعكس بالعكس. وإذاً فلا بأس أن أمضي في كلمتي هذه في إتمام ما أخذت فيه في كلمتي السابقة من الإتيان على أجسم ما في الكتاب من المآخذ التاريخية، مقفياً على أثر ذلك بإيراد شيء مما وقع فيه المؤلف من الأغلاط الجغرافية، والتاريخ والجغرافيا صنوان مؤتلفان، وهما ظرفا الزمان والمكان لما يسمى بوقائع التاريخ.

قال المؤلف في ص 340 في معرض الكلام على الوقعة البحرية العظيمة المعروفة في كتب العرب بذات الصواري: (وفي سنة 31هـ نشب القتال بين ابن أبي سرح وبين الروم تحت قيادة ملكهم قسطنطين في البحر الأبيض المتوسط، على مقربة من الإسكندرية، وكان النصر للعرب في هذه الحرب، وقد عرفت هذه الموقعة بموقعة السواري أو ذات السواري) والمؤلف يخطئ هنا من حيث زمان الوقعة ومكانها، فأما من حيث الزمان فالوقعة قد ذكر في المصادر العربية أنها كانت سنة 31هـ ولكن هناك رواية أخرى تجعلها في عام 34هـ، وقد ظهر من المصادر اليونانية أنها تؤيد الرواية الثانية، وإذاً يتعين الأخذ بها واطراح الأخرى. وأما من حيث مكان الوقعة فالمصادر اليونانية تعينه فتجعله قريباً من

ساحل آسيا الصغرى الجنوبي لا قريباً من إسكندرية مصر (أنظر تاريخ العصور الوسطى لكمبردج ج2 ص 353) والمؤلف لا شك يتابع في كلامه هنا السير ويليم ميور

الذي يأخذ عن المؤرخ الإنجليزي جبون، وكلا هذين المؤرخين أصبح قديماً ولا يصح التعويل عليه بصفة مطلقة.

جاء في ص 370 عن وقعة الجمل المشهورة (ونشب القتال وعائشة راكبة في هودجها على جمل يسمى عسكرا واقتتل الناس حوله سبعة أيام حتى صار كالقنفذ من النشاب) والصحيح أن وقعة الجمل لم تدم أكثر من سحابة يوم واحد. فإن السبئية من أصحاب علي أجمعوا إنشاب القتال حتى لا يتم صلح بين الفريقين. وقد حملوا بالفعل ليلاً على جيش عائشة وما تعالى النهار حتى كان الفريقان قد اشتبكا في وقعة دامية ولم يكد النهار ينصرم حتى كان جمل عائشة قد عقر وأخذت عائشة وانتهت الوقعة. ولعمري إن جيشاً يرشق كله أو بعضه بالسهام جملاً ساعة واحدة لحري بأن يحيل الجمل كالقنفذ، ولا يقتضي الأمر سبعة أيام!

ومن الخطأ الجسيم ما وقع فيه المؤلف عندما أراد أن يبدي رأيه في خروج عائشة وطلحة والزبير على علي، فهو يقول في ص 372 (نرى أنه لا مبرر لعمل طلحة والزبير وعائشة ما دام للأمة إمام ينفذ الأحكام ويقيم الحدود ولاسيما وقد وعدهم علي ابن أبي طالب بالنظر في أمر عثمان والبحث عن قاتليه والقصاص منهم عندما تستقر الأمور. على أننا نرى من جهة أخرى أن مجرد قبول علي في جيشه أعوان ابن سبأ الذين قتلوا عثمان في الوقت الذي يطالب فيه بدمه كاف لأن تحوم الظنون حوله وتبرر اتهامه بالاشتراك في دمه) فالمؤلف ينظر هنا إلى كل من الفريقين من وجهة نظر الآخر، وقد خرج من الموضوع ولا رأي له على التحقيق. والوضع الصحيح للمسألة هو ألا مبرر مطلقاً لخروج عائشة وصاحبيها، وأما علي فلعل أصدق وصف له في الفتن التي اضطر إلى خوض غمارها أنه كان على إخلاصه مغلوباً على أمره.

ويقول المؤلف في هامش ص 450 تعليقاً على كلامه على ضرب الحجاج الكعبة بالمجانيق: (لم يرد عبد الملك بن مروان أن يحط من شأن الكعبة وإنما اضطر إلى قتال ابن الزبير فحدث ما حدث من غير قصد. وذلك أن الحجاج لما نصب المجانيق على الكعبة

جعل هدفه هذه الزيادة التي زادها ابن الزبير في الكعبة، إذ كان الأمويون يعتبرون ذلك بدعاً في الدين) وهذا تخيل عجيب للحال، فإن مجرد استحلال القتال في الحرم فضلاً عن رمي الكعبة بالمجانيق عمل ينطوي في نفسه على حط كثير من شأن الأمكنة المقدسة من غير نزاع. على أن الأمر كان أمر سياسة قبل كل شيء وبنو أمية كانوا إذا تعارضت المصلحة السياسية وأي اعتبار آخر رجحوا جانب المصلحة السياسية كائناً ما كان ذلك الاعتبار الآخر، وتاريخهم كله يشهد بذلك. وقد يكون من المضحك أن يقال إن الحجاج جعل الزيادة التي زادها ابن الزبير في الكعبة هدفاً لمجانيقه! أفما كان من الممكن الانتظار حتى تضع الحرب أوزارها ثم تنقض الكعبة وتبني على أسسها القديمة؟ ثم هل كانت هذه الزيادة متميزة عن سائر بنية الكعبة بحيث يمكن نقضها دون هدم الكعبة؟ كلا ثم كلا! لقد كان الهدف الحقيقي للمجانيق هو ابن الزبير نفسه، ولما جعل ابن الزبير الكعبة حائلاً بينه وبين المجانيق ضربت الكعبة.

ويقول المؤلف في ص 471 وقد استعرض أشهر فرق الخوارج في العصر الأموي: (وإن الناظر إلى مبادئهم ليجد أنهم اشتطوا جميعاً في الحكم على مخالفيهم حتى ساووا بينهم وبين الكفار عبدة الأوثان) وهذا الحكم على إطلاقه غير صحيح فهو إن صدق على بعض فرق الخوارج كالأزارقة لا يصدق على بعضها الآخر كالأباضية.

ومن الخطأ الجسيم الذي وقع فيه المؤلف متابعته مؤرخاً متوسط المكانة التاريخية هو السيد أمير علي الهندي في الكلام على نظام الإمارة على البلدان في العصر الأموي. يقول المؤلف نقلاً عن هذا المؤرخ: (إن هناك نقصاً قد تطرق إلى النظام الإداري في عهد بني أمية وجر إلى أسوأ العواقب فيما بعد. وذلك أنه كان يفرض على ولاة الأقاليم الإقامة في حواضر ولاياتهم. أما في عهد الأمويين فقد أصبحت ولاية الولايات تسند إلى بعض أفراد البيت المالك وإلى كبار رجال البلاط فكانوا يبقون في دمشق ويعينون من قبلهم رجالاً يقومون بحكم الولايات نيابة عنهم. وكان من أهم أغراض هؤلاء الإثراء على حساب بيت المال، وإرضاء هؤلاء الولاة بما كانوا يدرونه عليهم من الأموال) ونبادر إلى القول بأن هذا النقل غير دقيق فالسيد أمير يؤرخ النقص الذي تطرق إلى

النظام الإداري من عهد يزيد بن عبد الملك بن مروان أي من عام 101هـ في حين أن كلام الناقل يجعل تطرق
النقص منسحباً على العصر الأموي كله.

ومع ذلك فكلام السيد أمير علي لا ينطبق على الواقع، فإنه إذا كانت الولاية على الأمصار قد أسندت في بعض الأحوال إلى أمراء من بني أمية كمسلمة ومروان بن محمد فإن ذلك إنما كان لما عرفوا به من الكفاية الممتازة لا لقرابتهم من الخلفاء. ثم إنه لم يكن لبني أمية بلاط بالمعنى الصحيح يولي كبار رجاله على الأمصار كما أن الأمراء لم يكونوا يقيمون بالعاصمة ويستنيبوا غيرهم على الأمصار، إنما كانوا يقيمون في حواضر الأقاليم نفسها. هكذا كان خالد القسري أمير العراق، ونصر بن سيار أمير خراسان وحنظلة بن صفوان أمير مصر. وإذا انتفت الاستنابة فلا نيابة ولا إثراء ولا رشوة. ولا شك أن السيد أمير علي كان يفكر وهو يكتب هذا الكلام في نظام الولاية على الأقاليم في العصر العباسي الثاني عندما غلب الأتراك على الدولة العباسية، وهو خلط لا مبرر له.

ويتكلم المؤلف (ص 576) على نظام (العدول) في معرض الكلام على نظام القضاء في عصر الخلفاء الراشدين وبني أمية فيقول (وقد دعت سنة التقدم والارتقاء إلى اتخاذ الشهود (المحلفين) حين فشت شهادة الزور، إذ جرت العادة أن تقبل شهادة من يتقدم لأدائها، سواء أكان ممن عرف بالخير أو بالشر. فقضى النظام الجديد بتعيين شهود عدول، عرفوا بحسن السمعة والفقه، فصاروا من هيئة المحكمة، يعمل برأيهم القاضي فيما له علاقة بالمتقاضيين.

وكان من اختصاصاتهم أيضاً الشهادة على ما يصدره القاضي من الأحكام وأنه غير مخالف لأحكام الشريعة الإسلامية) لاشك أن المؤلف تناول هذا الموضوع لاعتقاده أن نظام العدول وجد في العصر الذي اتخذه موضوعاً لكتابه. وهو اعتقاد خطأ فأول ما سمع عن نظام العدول إنما كان زمن الرشيد أي في الدولة العباسية (أنظر كتاب تاريخ القضاء في الإسلام ص 132) ثم إن كلام المؤلف لا يجلو هذا النظام على حقيقته وفيه تخليط كثير (راجع الكتاب المذكور).

ويقول المؤلف في ص 627 وهو يتكلم على الجامع الأموي بدمشق: (وقد تأنق الوليد في بناء هذا المسجد حتى قيل أنه أنفق على عمارته خراج دولته سبع سنين وما ذلك إلا ليتقرب إلى الله بهذا العمل الديني الجليل). والمؤلف ينقل هنا عبارة المستشرق فون
كريمر، وفون كريمر يعتمد على ابن الفقيه. ووجه المبالغة غير المعقولة في تقدير نفقات الجامع ظاهر. وكان ينبغي العدول عن رواية ابن الفقيه والأخذ برواية أخرى متواترة قال بها الأصطخري وابن حوقل والمقدسي. ومؤداها أن النفقة استغرقت خراج الشام وحده سبع سنوات.

وبعد فلو أردنا استقصاء الأخلاط التاريخية الواردة في كتاب (تاريخ الإسلام السياسي) لطال الأمر. فنكتفي بهذا القدر. ونختم كلمتنا اليوم بإيراد أغلاط جغرافية جرى بها قلم المؤلف.

فبلدة (صحار) تكتب الصاد المهملة لا بالسين كما كتبت على خريطة جزيرة العرب الواردة في أول الكتاب، وبلدة عينتاب تكتب بالياء المثناة بعد العين (أنظر نفس الخريطة)، وإذا أريد تعيين وادي اوطاس فلا يقال إنه بين مكة والبصرة (ص 31) فالتعيين على هذا النحو وعدمه سواء. ولا يقال في تحديد ملك الغساسنة (إنه كان حول دمشق وتدمر. وكانوا يجولون في الجهات الجنوبية لدمشق وخاصة لبنان وفلسطين والبلقاء وحوران) فماذا بقي للروم من الشام (ص 56). ولا يقال أن الطبيعة وهبت نهر اليرموك أسراراً وألغازاً (ص 289)، وإلا فما تلك الألغاز والأسرار؟ ومن أقبح الخطأ أن يقال ص 335 (وقد أنشأ معاوية أسطولاً حارب البيزنطيين حتى وصل إلى عمورية في آسيا الصغرى كما استولى على جزيرتي قبرص ورودس) فعمورية لا تقع على البحر ولكنها في صميم آسيا الصغرى. كما أن هرقلة ليست واقعة على البحر الأسود ولكنها في شرقي آسيا الصغرى مما يلي منطقة الثغور الإسلامية. (الخريطة ص 274) ثم أن خريطة الأندلس ملأى بالخطأ والتحريف.

مؤرخ

العدد 128 - بتاريخ: 16 - 12 - 1935
بين الأمس واليوم
رمضان يوم الاتحاد والجهاد والنصر 17
كان الإسلام المهاجر من مكة الجاهلية لا يزال خافض الجناح في يثرب؛ وكان السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار لا يزالون تحت البلاء: يمتحن الله صبرهم بالألم، ويختبر إيمانهم بالفتنة، ليمحص الذين يجتبيهم لنشر الدعوة، ويَعْلم الذين يصطفيهم لجهاد الرسالة؛ فالقرشيون يُوَثِّبون عليهم القبائل، واليهود ينصبون لهم الحبائل، والمنافقون يدسون لهم الغدر في الملَق. فلما أذن الله لدينه أن يعود ولمجده أن يسود ولنوره أن يتم، أرسل جنوده الثلثمائة إلى وادي بدر، يتعاقبون على سبعين نِضواً من أباعر المدينة، ويستعينون بصبر المجاهد على القلة، وبعزة المؤمن على الذلة، وبعفة الزاهد على الفاقة؛ ويسيرون في استغراق الصوفي المدَلَّه إلى ما وعدهم الله من إحدى الطائفتين: العِير أو النفير، وإحدى الحُسْنَيَيْن: النصر أو الشهادة؛ ولكن العير الذي يفهق بالثراء الضخم نجا به أبو سفيان على الساحل، فلم يبق إلا مكة الغاضبة لثروتها وسطوتها ودينها قد نزلت بالعُدْوة القصوى من الوادي مع أبي جهل! تسعمائة وخمسون من فلذات كبدها أرسلتهم في الخيل والحديد يجيشون على محمد بالغِل، ويفورون على صحبه بالحفيظة، ويرون الإسلام في هذا العدد القليل والمظهر الهزيل قد أمكنهم من نفسه، ودلهم على مصرعه

التقى الجمعان في صبيحة اليوم السابع عشر من شهر رمضان، وكان المسلمون على فقرهم وضرهم ثلث المشركين، وكان المشركون على كثرتهم وعُدَّتهم صفوة قريش، فموقف الإسلام من الشَّرك كان يومئذ موقف محنة. كان بين العُدْوتين في بدر مفرق الطرق، فإما أن يقود محمد زمام البشرية في سبيل الله فتنجو، وإما أن يردها أبو جهل إلى مجاهل التيه والضلال فتهلك. وقفت مدينة الإنسان بأديانها وعلومها وراء محمد على القليب، ووقفت همجية الحيوان بأصنامها وأوهامها وراء أبي جهل على الكثيب!! فكان طريق وعَقبة، ونور وظلمة، وإله وشيطان! فأما أن يتمزق تراث الإنسانية على هذا الصخر، ويتبدد نور الله في هذا القفر؛ وإما أن تتم المعجزة فتفيض الحياة على الناس من هذه البئر، ويتصل الماضي بالمستقبل من هذه الطريق، ويبدأ التاريخ عهده الجديد بهذه الموقعة!

اللهم هذه قريش قد أتت بخُيلائها تحاول أن تكذب رسولك! اللهم فنصرك الذي) وعدتني! اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تُعبَدَ في الأرض (! ذلك كان دعاء الرسول أمام العريش ووجهه إلى القبلة، ويداه إلى السماء، ورداؤه من الذهول في الله يسقط عن منكبيه فيرده الصِّدِّيق ويقول: بعض هذا يا نبي الله فأن ربك منجز وعده! وما هي إلا خفقة من خفقات الوحي حتى نزل الوعد بالنصر، وجاءت البشرى بالجنة، فغاب المسلمون في إشراق عجيب من الإيمان، لا يرسم في أخيلتهم إلا الحُور، ولا يصور في عيونهم إلا الملائكة؛ وقذف الله في قلوب المشركين الرعب فانهار السد الغليظ أمام النبع النابض من صخور بدر، وانجاب القَتَم الكثيف عن النور الوامض من ربوع يثرب، وانكشفت المعجزة الإلهية عن انتصار ثلثمائة على قرابة ألف!!

موقعة بدر الكبرى لا تذَكر بخطتها وعدتها ونفقتها وعديدها في تاريخ الحرب، فلعلها في كل ذلك لا تزيد على معركة بين حيين في المدينة؛ إنما تذكر بنتائجها وآثارها في تاريخ السلم، لأنها كانت حكما قاطعاً من أحكام القدَر غيَّر مجرى التاريخ، وعدَّل وجهة الدنيا، ومكَّن للعرب في دَوْرهم أن يبُلغوا رسالة الله، ويؤدوا أمانة الحضارة، ويصلوا ما انقطع من سلسة العلم

لم يكن النصر فيها ثمرة من ثمار السلاح والكثرة، ولكنه كان ثمرة من ثمار الإيمان والصدق؛ والإيمان الصادق قوة من الله فيها الملائكة والروح، وفيها الأمل والمثَل، وفيها الحب والإيثار، فلا تبالي العَدد ولا ترهب السلاح ولا تعرف الخطر!

بهذا الإيمان الصادق خلق الله من الضعف قوة في بدر والقادسية واليرموك؛ وبهذا الإيمان الصادق جعل الله من البادية الجديبة والعروبة الشتيتة عمرانا طبق الأرض بالخير، وملكا نظَّم الدنيا بالعدل، ودينا ألَّف القلوب بالرحمة

بهذا الشعور القدسي الذي يحس وينهض ويقود، وبهذا اليقين النفسي الذي يجاهد وينتصر ويسود، وقف الشباب المصري الباسل من دخلاء الجيش، موقف البدريين من

كفار قريش، يشقون بهتافهم أذن الأصم، ويقرعون باحتجاجهم ضمير المصِرِّ، ويجدعون بثباتهم أنف المستكبر! لا ينكلون أمام الرصاص، ولا يرهبون وحشة السجن، ولا يجزعون عند الفاجعة. وعاطفة الوطنية كعقيدة الدين: فناء في الغيرية، واندماج الجمعية، وتوجيه الأمل
الطموح إلى المقصد الأعلى؛ وأجمل ما في وطنية الشباب المصري اليوم، هو أجمل ما كان في عقيدة الشباب العربي أمس: اتحاد قائم على الألفة، وتضامن مبني على الوحدة، ومزاج مركب من الشعور الدافق والإيمان الصادق والتفكير المنظم
إن اليوم السابع عشر من رمضان سيظل يوماً مشهوداً في تاريخ الأمة العربية بنزول القرآن وغلبة الحق، وفي تاريخ الأمة المصرية بنصرة الشباب ووحدة الأحزاب وعودة الدستور

احمد حسن الزيات

المجنون - 4

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

وضاق (نابغةُ القرن العشرين) بحُمق المجنون الآخر؛ ورآه داهية دَوَاهٍ كلما تعاقل أو تحاذق لم يأتِ له ذلك إلا بأن يكشفَ عن جنونه هو؛ فلا يبرَحُ يُجرَّعُه الغيظَ مرةً بعد مرة، ولا يزال كأنه يسُّبه في عقله؛ فأراد أن يحتالَ لصرفه عن المجلس، فدفع إليهالرسالة التي جاء بها (البريد المستعجل)، وقال له: خذ هذه فاذهب فألقِها في دار البريد، فسيجيء بها الساعي مرة أخرى، ثم تذهب الثانية فتلقها، ويعود هو فيجئ بها، وتكونُ أنت تذهب ويكون هو يجئ فنضحك منه ويضحكون. . . . .

قال س. ع: ولكن كم يذهب هذا وكم يجئ ذاك؟

فغمزه (النابغة) بعينه أن اسكت، فتغافل س. ع. وقال: كم تريد أن يجيء الساعي ليهتف بنابغة القرن العشرين؟

قال المجنون الآخر: هذا هو الرأي، فلست قائماً حتى أعرف كم مرةً أذهب، فان الساعي لا يجيء إلا راكباً، وأنا لا أذهب إلا راجلا، وإن لي رجلي إنسان لا رجلي دابة

قال (النابغة): سبحان الله! بقليل من الجنون يخرجُ من الإنسان مجنونٌ كامل مُسْتَلَبُ العقل. بَيْدَ أنه لا يأتي النابغةُ إلا من كثيرٍ وكثير، ومن النبوغ كله بجميع وسائله وأسبابه على تعدُّدها وتفرّقها وصعوبة اجتماعها لإنسان واحد (كنابغة القرن العشرين) فهو الذي توافتْ إليهكلُّ هذه الأسباب، وتوازنت فيه كل تلك الخلال. إنه ليس الشأنُ في العلم ولا في التعليم؛ ولكنما الشأنُ في الموهبة التي تبدع الابتكار كموهبة (نابغة القرن العشرين)؛ فيها تجئ أعماله منسجمةً دالة بنفسها على نفسها؛ ومتميزة مع كونها منسجمة دالة بنفسها على نفسها؛ ومتلائمة مع كونها متميزة دالة بنفسها على نفسها. . هذا س. ع. كان الأولَ بين خرّيجي مدرسة دار العلوم، مدرسة الأدب والعربية والمنطق والتحذلق وبلاغة اللسان وصحة النظر، وهو يعرف أن الكتاب يُلقي في البريد وعليه طابعٌ واحد، فيصل إلى غايته بهذا الطابع؛ ثم يرى بعيني رأسه أربعة طوابع على هذه الرسالة المعنونة باسم (نابغة القرن العشرين) فلا يدرك بعقله أن معنى ذلك أن من حق هذه الرسالة أن تصل إليَّ أنا أربع مرات. . . .

فطرب المجنون الآخر واهتزّ في مجلسه، وصفَّق بيديه، وقال: (مما حفظناه) هذا الحديث: يحاسِبُ الله الناس على قدر عقولهم؛ فلا تؤاخذ س. ع. فان مدرسة دار العلوم تعلمهم (فيها قولان)، وفيها ثلاثة أقوال، وفيها أربعة أوجه؛ ولكنها لا تعلمهم فيها أربعة طوابع. . . . . .

ثم التفت إلى س. ع. وقال له: لا عليك، فأنا صاحبُه وخَليطُه وحاملُ عِلمه وراويةُ أدبه وأكبر دُعاتِه وثقاته، وما علمتُ هذه الحكمة منه إلا في هذه الساعة

قال ا. ش: فإذا كان هذا، فان لقائلٍ أن يقول: لماذا لم يضع على كتابه عشرة من الطوابع فيجيء به الساعي عشر مرات

قال (النابغة): وهذا أيضاً. . .

وما شرُّ الثلاثةِ أُمَّ عمرٍو بصاحبك الذي لا تصحبين؛ إن الشمعة في يد العاقل تكون للضوء فقط، ولكنها في يد المجنون للضوء ولإحراق أصابعه. . . كم الساعة الآن؟

قلنا: هي التاسعة

قال: ومتى ينصرف أهل هذا الندىّ؟

قلنا: لتمام الثانية عشرة
قال: فإذا كان الساعي يتردد في كل ساعة مرة، فهي أربعُ مرات إلى أن ينفضَّ المجتمعون هنا، وبين ذلك ما يكون قد ذهب قومٌ عرفوا (نابغة القرن العشرين)، وجاء قوم غيرهم فيعرفونه، وأما بعد ذلك فلا يجد الساعي هنا أحداً فلا تكون فائدة من مجيئه
فصفَّق المجنون الآخر وقال: هذا وأبيك هو التهدّي إلى وجه الرأي وسداده، وهذا هو الكلامُ الرصينُ الذي يقوم على أصول الحساب والجغرافيا. . . (ومما حفظناه) هذا الحديث: لا مالَ أعودُ من العقل. فأربعة طوابع، لأربع مرات، في أربع ساعات، وما عدا ذلك فإسرافٌ وتبذير، ولا مال أعودُ من العقل. . .
ورضى (النابغة) عن صاحبه وقال له: لئن كانت فيك ضَعْفةٌ إن فيك لبقيةً تعقل بها. . .
ثم أخذ منه الرسالة ودسَّها في ثوبه. قلنا: ولكن ألا تفضُّها لنعرف ما فيها؟
فضحك وقال: أئن جارَيتكم في باب المطايبَة والنادرة، وجاريتُ هذا الأبلهَ في باب جنونه وحمقه - تحسبون أن الأمر على ذلك، وأن الرسالة فارغةٌ إلا من عنوانها، وأن نابغة
القرن العشرين هو أرسلها إلى نابغة القرن العشرين كما قال سعد باشا: (جورج الخامس يفاوض جورج الخامس). . .؟ لحقٌ واللهِ أن العقل الكبير الذي يأبى الصغائر هو الذي تأتي منه الصغائر أحياناً لتثبت أنه عقل كبير، وهكذا تسخر الحقيقة من كبار العقول (كنابغة القرن العشرين)
فغضب المجنون الآخر وهمَّ أن يتكلم. فقال له (النابغة): أنت كاذبٌ فيما ستقوله
قلنا: ولكنه لم يقل شيئاً بعد، فكما يجوز أن يكون كاذباً يجوز أن يكون صادقاً
قال: وسيخطئ في رأيه الذي يبديه
قلنا: ولم يبد شيئاً من رأيه
قال: ولا يعرف الحقيقة التي سيتكلم عنها
قلنا: ويحك أدخلت في عقل الرجل أم تعلم الغيب؟
قال: لا هذا ولا ذاك ولكنه قياسٌ منطقيٌّ يتَوهَّم اطرادُه. إنه سيقول إني مجنون. . .
فأخرج الآخر لسانه. . . قال (النابغة): تباً لك لقد رأيتُ الكلمةَ في لسانك كأنها مكتوبة بحروف المطبعة. ويحك يا مَرْقعان ألا تعرف أن لك دماغاً مخروقاً تسقط منه أفكارك قبل أن تتكلم بها، ولولا أنه مخروقٌ لحفظت المتن! إن كل تخطئةٍ لي منك بصواب
فنظر إليهالآخر نظرةً كان تفسيرها في حواجبه إذ مطَّ حواجبه ورقَّصها. فقال (النابغة): ونظراتُه خبيثةٌ، مِلْحةُ الطعم، مزعوقةٌ كماء البحر المرَّ، أخذ من البحر وأُضيف إلى ملحه الطبيعي ملح. أكادُ أتهوَّعُ من هذه النظرة فأقئ
الآن فهمتُ معنى قولهم: (ملحةٌ في عين الحسود) فان الملح لا يغلبه إلا الملح، كالحديد بالحديدُ يفْلحْ. هاتوا كأساً من معتقة الخمر لينظرْ فيها الخبيث هذه النظرةَ فان الخمر لابد مستحيلةٌ شربة ملح إنجليزي. . . هذا الأبله ثقيل الدم كأن دمه مأخوذ من مستنقع. . . أهذا الذي لا يستطيع أن يقول لشيء في الدنيا: هو لي، إلا الفقر والجنون والخرافة - يكذّب ما في الرسالة التي جاء بها البريد المستعجل ولا يصدق أنها مرسلة إلى نابغة القرن العشرين من صاحب السمو الأمير؟
هذا الذاهب العقل هو كالجبان المنقطع في وحشة القفر في ظلام الليل، إذا توجَّس حركةً ضعيفة انقلبت في وهمه قصةَ جريمةٍ ملؤها الرعب وفيها القتل والذبح. ولهذا يخشى ما في
الرسالة التي جاءت من صديقي صاحب السمو. هاؤم اقرءوا الرسالة
وفضضنا الغلاف فإذا ورقتان ممهورتان بتوقيع أمير معروف أحدهما صِكٌ بألف جنيه تُدفع (لنابغة القرن العشرين)، والثانية أمرٌ بالقبض على المجنون الآخر. . . وإرساله إلى المارستان
وذهبتُ أصْلح بينهما فقلت: إن في الحديث الشريف: بينما رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه إذ مرّ به رجل، فقال بعض القوم هذا مجنون. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذا مصاب، إنما المجنونُ المقيم على معصية الله
فقال صاحب المتن: (مما حفظناه): إنما المجنون المقيم على معصية الله
قلت: وليس فيكما مقيم على معصية الله. . . .

قال المجنون: (مما حفظناه) وليس فيكما مقيم على معصية الله
قلت: هذا ليس من الحديث ولكنه من كلامي. قال (النابغة) أنبأتكم أن هذا البله يضلّ في داره كما يضلّ الإعرابي في الصحراء؛ وأن الأسطول الإنجليزي لو استقرّ في ساقية يدور فيها ثور، لكان أقرب إلى التصديق من استقرار العقل في رأس هذا الأبله؟
فاحتدَمَ الآخر وهمّ أن يقول (مما حفظناه) ولكني أسكتّه وقلت (للنابغة): إنك دائماً في ذِروة العالم فلا غَرَو أن ترى المحيطَ الأعظم ساقية. والنوابغ هم في أنفسهم نوابغ، ولكنهم في رأي الناس مرْضىَ بمرض الصمود الخياليّ إلى ذروة العالم. ومن هذا يكون المجانين هم المرضى بمرض النزول الحقيقي إلى حضيض الآدمية. فهناك يعملون فتكون أفكارهم من أعمالهم، ثم تكون عقولهم من أفكارهم، فيكون هذا الجنون في عقولهم. وذلك معنى الحديث: إنما المجنون المقيم على معصية الله
قال (النابغة): لَعَمري إن هذا هو الحق. فنبوغُ العقل مرضٌ من أمراض السموّ فيه؛ فالشاعر العظيم مجنون بالكون الذي يتخيّله في فكره، والعاشق مجنون بكون آخر له عينان مكحولتان؛ والفيلسوفُ مجنون بالكون الذي يدأب في معرفته؛ ونابغة القرن العشرين مجنون. . . لا. لا. قد نسينا ا. ش فهو مجنون وس. ع فهو مجنون
وكلُّ الناس مجنونٌ بليلى ... وليلى لا تُقرُّ لهم بذاكا
ومن حقّ ليلى ألا تقر لهم إذ هي لا تقر إلا لنابغة القرن العشرين وحده. وما أعجبَ سحرَ
المرأة في الكون النفسانيِّ للرجال؛ أما في الكون الحقيقي فهي أنثى كأناث البهائم ليس غير. وأعقلُ الرجال من كان كالحمار أو الثور أو غيرهما من ذكور البهائم. فالحمار لا يعرف الحمارة إلا إنها حمارة، والثور لا يعرف البقرة إلا إنها بقرة؛ ولا ينظمون شعراً ولا يكتبون (أوراق الورد). . . . . وإناث البهائم أُمَّاتٌ لا غير، ولكن العجيب أن ذكورتها ليست آباءً؛ فهذه الذكورة طفيليةٌ في الدنيا، والطفيليُّ لا يأكل إلا بحيلة يحتال بها فيكون صاحب نوادر وأضاحيك وأكاذيب. ولهذا كان عشق الرجال للنساء ضُروبا من الخداع والأكاذيب والأضاحيك والحيل والغفلة والبلاهة. وإذا نظرنا إليه من أوله فهو عشق، أما آخره فهو آخر الحيلة والأكذوبة، وهو قول الطفيلي قد شبعتُ وقد رويت. . . ويحكم أين أولُ الكلام؟
قلنا: أوله ما أعجب سحر المرأة في الكون النفساني للرجال
قال: نعم هذا هو. إنه سحر لا أعجب منه في هذا الكون النفساني إلا سحر الذهب. فلوُ مسِخت المرأةُ الجميلة شيئاً من الأشياء لكانت سبيكةً ذهبيةً تلمع. ولهذا يُوجدُ الذهبُ اللصوص في الدنيا، وتوجد المرأةُ الجميلة لصوصا آخرين، فيجب أن يصان الذهب وأن تصان المرأة
قلت: ولكن أليس من المال فضة وهي توجد اللصوص كالذهب؟
قال: نعم، وفي النساء كذلك فضة وفيهن النحاس. ولو أنت ألقيت ريالاً في الطريق لأحدثتَ معركة يختصم فيها رجلان ثم لا يذهب بالريال إلا الأقوى. ولو تركت قرشاً لتضارب عليه طفلان ثم لا يفوز به إلا من عض الآخر. . .
ولكن (فورد) الغني الأمريكي العظيم الذي يجمع يَده على أربعمائة مليون جنيه لا يتكلم عن القرش؛ (ونابغة القرن العشرين) الذي يملك (ليلى) لا يتكلم عن غيرها من قروش النساء
قلت: فإني أحسبك أعلمتني أن اسمها فاطمة لا ليلى
قال: هل يستقيم الشعر إذا قلت: وكل الناس مجنون بفاطمة وفاطم لا تقرُّ لهم؟ قلت لا.
قال: إذن فهي (ليلى) ليستقيم الشعر. . . أما حين أقول: أفاطمُ مهلاً بعد هذا التدلّل، فهي فاطمة ليصح الوزن
قلت: يُشبه والله ألا يكون اسمها ليلى ولا فاطمة؛ وإنما هي تسمى حسب الوزن والبحر،
فاسمها فَعُولنْ أو مُفَاعَلتنْ
ثم قلنا له: فما رأيك في الحب، فانه ليقال: إنك أعشقُ الناس وأغزل الناس؟
قال: إن ذلك ليقال (وهو الأصح). ثم أطرق يفكر. وبدا عليه أنه مندهش ذاهب العقل

كأنه من قلبه على مسافة أبعد من المسافة التي بينه وبين عقله. وخُيِّل إلي أن النساء قد حُشِرن جميعاً في رأسه ومرت كل واحدة تعرض مفاتِنها وغَزَلَها وتلائم هَذيَانه بهذيان من جمالها، فهو يرى ويسمع ويَعْرض ويَتخيّرْ. ثم اضطرب كالذي يحاول أن يسمك بشيء أفلت منه؛ فلم ينّبهه إلا قول المجنون الآخر: (مما حفظناه) أن أعرابية سئلت عن العشق فقالت: إنه داء وجنون. . .

قال: اسكت يا ويلك لقد أطفأت الأنوار بكلمتك المجنونة. كان في رأسي مرقص عظيم تسطع الأنوار فيه بين الأحمر والأخضر والأبيض؛ وترقص فيه الجميلات من الطويلة والقصيرة والممشوقة والبادنة، فجئتَ بالداء والجنون قبحك الله فأخرجتني عنهن إليك. أحسبُ أنِك لو انتحرت لصلح العالم أو صلحتُ أنا على الأقل، فإذا أردت أن تشنق نفسك فأنا آتيك بالحبل الذي كنتُ مقيدا فيه أي الحبل الذي عندي في الدار. على أن رأسك الفارغ مشنوقٌ فيك وأنت لا تدري ..

قال الآخر: ما أنت مُنذُ اليوم إلا في شنقي وتعذيبي أو في شنق عقلي على الأصح. (ومما حفظناه) قول الأحنف بن قيس: إني لأجالس الأحمق ساعةً فأتَبينُ ذلك في عقلي. .

فلم يَرُعْبنا إلا قيامُ المجنون مسلَّحاً بحذائه في يده. . . وهو حذاء عتيق غليظ يقتل بضربة واحدة؛ فحلنا بينهما وأثبتناه في مكانه. وقلنا: هذا رجل قد غُلِب على عقله فلا يدري ما يقول؟ فإذا هو دل على أنه مجنون، أفلا تدل أنت على أنك عاقل؟ ما سألناك في انتحاره وجنونه، بل سألناك رأيك في الحب؛ وما نشك أنك قد أطلتَ التفكير ليكون الجواب دقيقاً، فانك (نابغة القرن العشرين)، فانظر أن يكون الجوابُ كذلك

قال: نعم إن العاقل إذا ورد عليه السؤال أطال الفكر في الجواب. فأكتب يا فلان (س. ع):

جلس نابغة القرن العشرين مجلس الإملاء مُرتجلاً فقال: قصةُ الحب هي قصة آدم،) خلق الله المرأة من ضلعه. فأول علامات الحب أن يشعر الرجل بالألم كأن المرأة التي أحبها كسرت له ضلعاً. . وكل قديم في الحب هو قديم بمعنى غير معقول، وكل جديد فيه جديد

بمعنى غير مفهوم؛ فغيرُ المعقول وغيرُ المفهوم هو الحب

والجمرةُ الحمراءُ إذا قيل إنها انطفأت وبقيت جمرة فذلك أقرب إلى الصدق من بقاء الحب حياً بمعناه الأول إذا انطفأ أو بَرَدَ

والعاشق مجنون. وجنونه مجنون أيضاً، فهو كالذي يرى الجمرةَ منطفئةً ويرى مع ذلك أنها لا تزال حمراء، ثم يُمْعِنُ في خياله فيراها وردة من الورد. . وإذا سألته أن يصف الجمالَ الذي يهواه كان في ذلك أيضاً مجنونَ الجنون كالذي يرى قمر السماء أنه قد تَفَتَّت وتناثر ووقع في الروضة فكان نِثارُه هو الياسمينَ الأبيض الجميل الذكي. . .

والمجنون يرى الدنيا بجنونه والعاقل يراها بعقله؛ ولكن العاشق المخبول لا ينظر من يهواه إلا ببقية من هذا وبقيةٍ من ذلك فلا يخلُصُ مع حبيبته إلى جنون ولا عقل

إذا أراد أن يظهر في دماغ بشريّ لم يسمعه إلا أحدُ رأسين: رأسِ (والمجهول) المجنون ورأسِ العاشق

ولا صعوبة في الحكم على شيء بأنه خير أو شر إلا حين يكون الخير والشر امرأة معشوقة. أما أوصاف الشعراء والكتاب للجمال والحب فهي كلها تقليد قد توسعوا فيه؛ والأصل أن ثوراً أحب بقرة فكان يقول لها: يا نجمة القطب التي نزلت من السماء لتدور في الساقية كما دارت في الفلك. . .

قال (النابغة): هذا رأيي في حب العاشقين، أما حبي أنا (نابغة القرن العشرين) فيجمعه قولك: فلّ، ورد، زهر. . .

قلنا ما هذه الألغاز، وهل للحب مَنْن كقولهم: حروفُ القَلْقَلة يجمعها قولك (قُطْبُ جَدٍ)، وحروف الزيادة يجمعها قولك (سألتمونيها)؟

فتضاحك (النابغة) وقال: تكاثرت الظباءُ على خَراش، فلكيلا ننسى. . . إن كل حرف هو بدءُ اسم، الفاء فاطمة، واللام ليلى، والواو وردة، والراء رباب، والدال دلال، والزاي زكية، والهاء هند، والراء رباب

قلنا: رباب قد مضت في (ورد). قال: كنا تهاجَرْنا مدةً ثم اصطلحنا بعد هند. .

قلت: هكذا النوابغ فان رجلا أدبياً كانت كنيته (أبا العباس) فلما (نبغ) صيّرها (أبا الِعبر) وفَتّق له نبوغه أن يجعلها تاريخاً يعرف منها عمره. قالوا فكان يزيد فيها كل سنة حرفاً حتى مات وهي هكذا:

أبو العبر طَرَدْ طيل طَليرِي بَك بَك بَك

(طنطا)

مصطفى صادق الرافعي

حوادث الشرق الأقصى

مشروع اليابان في الاستيلاء على الصين

بقلم باحث دبلوماسي كبير

بينما تشتغل أوربا والعالم بأسره بتطورات المشكلة الإيطالية الحبشية وما يترتب على تفاقمها من أخطار داهمه على سلام أوربا وسلام العالم، إذا بالشرق الأقصى يجيش بحوادث خطيرة قد يكون لها أكبر الأثر في مصير الصين والشرق الأقصى كله، ولكن يحجب عنا خطورتها، نأيها وغموضها وانحصارها في ذلك الركن من العالم؛ وهي ليست في جوهرها جديدة أو مستقلة، ولكنها حلقة جديدة في ثبت الحوادث التي يضطرم بها الشرق الأقصى منذ أربعة أعوام، والتي تضرمها وتذكيها السياسة اليابانية كلما آنست فرصة صالحة للعمل

وليس من الصعب أن نتلمس في حوادث الصين الجديدة رغم غموضها، وجه الصلة بينها وبين الحوادث المماثلة التي تقع في الصين بين آونة وأخرى، فالسياسة اليابانية هي التي تنظمها وتوجهها بأساليب متماثلة، وتتذرع لاضرامها بنفس المعاذير: اعتداء على المصالح اليابانية في ناحية من النواحي، أو مقتل أحد الرعايا اليابانيين، أو اضطراب الأمن وعيث العصابات، أو دسائس الشيوعية؛ كذلك ليس من الصعب أن نتحرى العوامل والبواعث الدفينة التي تحمل هذا الغزو الياباني المنظم إلى داخل الصين بين آونة وأخرى تارة بالقوة العنيفة، وتارة بالوسائل السياسية، فاليابان تكاد تفصح عن نياتها ومقاصدها الاستعمارية البعيدة في كل مناسبة، وإن كانت ما تزال تستتر وراء بعض المظاهر والعبارات الخلابة التي يمهر الاستعمار في صوغها

وقد بدأت اليابان منذ بضعة أسابيع في القيام بمحاولة جديدة لبسط نفوذها على مناطق جديدة من الصين؛ ومهد قادة الجيش الياباني في شمال الصين لذلك بمؤتمر عقدوه في دايرين ثغر منشوريا الجنوبي، ووجهوا على أثره بلاغاً نهائياً إلى الحكومة الصينية الوطنية (حكومة نانكين) ضمنوه المطالب الآتية:

1. قمع الدعوة الشيوعية في الصين، وهي دعوة مهدها ومصدرها منغوليا
2. قمع أعمال (الكومن تانج) (الحزب الوطني الصيني) وأعمال الجمعية الوطنية الصينية

المسماة بجمعية (ذوي الأقمصة الزرقاء) في شمال الصين

3. تعهد الحكومة الصينية بأن تتبع منذ الآن سياسة ودية نحو اليابان

وبينما كانت حكومة نانكين تدرس ذلك البلاغ، إذ وقعت عدة حوادث في منطقة الحياد الشمالية في شمال بكين اقتضت تدخل السلطات اليابانية، وقامت ثورات محلية صغيرة في عدة مناطق طولب خلالها بتخفيض الضرائب والاستقلال عن حكومة نانكين؛ ولم يكن أصبع العسكرية اليابانية بعيداً عن هذه الحوادث

ولم تلبث السياسة اليابانية أن أفصحت عن غرضها الحقيقي من القيام بهذه الحركة؛ فقد أبلغت السلطات المحلية في ولايات الصين الشمالية، وأبلغت حكومة نانكين بوجوب إنشاء حكومة إدارية مستقلة في ولايات خمس هي: هوبي، وتشاهار، وشانصي، وسويان، وشانتونج، وتكون عاصمتها بكين، العاصمة الإمبراطورية السابقة؛ وقصد اليابان منذ ذلك أن تقيم دولة متوسطة بين أملاكها الصينية في الشمال أعني منشوكيو وجيهول، وبين وادي النهر الأصفر حيث يبدأ نفوذ حكومة نانكين الحقيقي

وقد أفرغت اليابان مطلبها في صيغة بلاغ نهائي، وأنذرت الحكومة الوطنية الصينية بأنها ستتخذ الإجراءات العسكرية اللازمة إذا لم تحقق رغبتها؛ ولكن حكومة نانكين لم تذعن لهذا الوعيد، وكذلك لم يذعن زعماء الشمال، ولم تنفذ اليابان وعيدها في الحال، ولكنها آثرت أن تعمد مؤقتاً إلى العمل السياسي؛

وفي الأنباء الأخيرة أن الضغط الياباني قد أحدث أثره الأول وذلك بحمل حكومة نانكين

على الموافقة على إنشاء إدارة مستقلة في مقاطعتي تشاهار وهوبي يكون مركزها في بكين، ويتولى إدارتها مجلس مؤلف من زعماء الشمال، ويكون لها طابع الاستقلال التام في شئونها الداخلية وعلائقها الخارجية، ما عدا الجمارك والبريد فتحتفظ حكومة نانكين بإيرادها؛ ومعنى ذلك أن اليابان قد فازت بتحقيق الخطوة الأولى في مشروعها لفصل الشمال عن الجنوب ووضعه تحت نفوذها السياسي والاقتصادي

ونظرة بسيطة إلى خريطة الصين توضح لنا فداحة هذا المشروع الياباني، فالولايات الخمس التي يراد فصلها عن الحكومة الوطنية من أهم وأغنى الأقاليم الصينية؛ وفصلها على هذا النحو يشطر الصين إلى شطرين، ويمهد إلى بسط النفوذ الياباني على الأقاليم

الشمالية حتى النهر الأصفر (الينج تسي)؛ وتتظاهر السياسة اليابانية بأنها في هذه المحاولة إنما تعبر عن رغبات سكان هذه الأقاليم، والواقع أنها تعتمد في ذلك على مؤازرة الجنرال (شنج تشي يوان) زعيم الشمال وخصم الحكومة الوطنية، وتعتمد من جهة أخرى على محالفة حكومة (كوانتونج) الجنوبية (حكومة كنتون) وهي أيضاً خصيمة الحكومة الوطنية؛ فالحكومة الوطنية أو حكومة نانكين تجد نفسها بين نارين في هذا الصراع الذي يوشك أن يقوض دعائمها

ويجب أن نذكر إلى جانب أن اليابان قد استولت قبل ذلك بأربعة أعوام على إقليم منشوريا الغني، ولم تعبأ بتدخل عصبة الأمم وقراراتها النظرية؛ وأنشأت فيه جمهورية صورية تحت الحماية اليابانية (منشوكيو)؛ ولبثت بعد ذلك تتحين الفرص للزحف جنوباً متذرعة بمختلف الحجج والأعذار حتى اقتحمت قواتها (السور الكبير) واستولت على قسم كبير من إقليم جيهول، وبسطت نفوذها على جميع الأراضي الواقعة شمال بكين؛ وليست الحركة الانفصالية الجديدة التي تدبرها السياسة اليابانية إلا حركة غزو جديدة، تستأنف بها اليابان نشاطها في سبيل تنفيذ مشروعها الاستعماري الضخم الذي تتحين الفرص لتحقيقه كلما شغلت الدول الغربية بأزماتها الخطيرة

والظاهر أن السياسة اليابانية كانت تعبر عن نيتها ومشاريعها المستقبلية تعبيراً صادقاً حينما ألقت إنذارها الشهير منذ نحو عام ونصف إلى أوربا وأمريكا وهو: (ارفعوا أيديكم عن الصين) أو بعبارة أخرى حينما صرحت بأنها تجري في سياستها الصينية على مبدأ (آسيا للأسيويين) مثلما تجري أمريكا في سياستها على مبدأ (مونرو) الشهير أو على مبدأ (أمريكا للأمريكيين)، وقد كانت اليابان ترقب دائماً مشاريع الدول الغربية وتوغل نفوذها في الصين بمنتهى الاهتمام والتوجس؛ وتعمل على مقاومة نفوذها وامتيازها بالوسائل الاقتصادية والعسكرية ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، ولكنها جرت في الأعوام الأخيرة على سياسة عملية يؤيدها التدخل العسكري، وكان استيلاؤها على منشوريا تحت سمع أوربا وأمريكا ورغم تدخل عصبة الأمم تجربة عملية ناجحة عجمت بها عود الدول الكبرى ذات المصالح في الصين مثل بريطانيا العظمى وروسيا وفرنسا وأمريكا، واستطاعت أن تقف على مدى المقاومة التي يمكن أن تتذرع بها الدول لمعارضتها؛ بيد أن الدول عدا روسيا لم

تبد معارضة نظرية، ومع أن روسيا وأمريكا قدمتا على غزو اليابان للأراضي الصينية احتجاجات شديدة، فان اليابان لم تحفل بأي احتجاج أو معارضة؛ ولما توسعت اليابان في مشروعها وغزت ثغر شنغهاي لترغم الصين على الاعتراف بالحالة الواقعة في منشوريا، احتجت الدول الغربية بنصوص معاهدة الدول التسع (معاهدة سنة 1922) التي تنص على احترام سيادة الصين ووحدتها الإقليمية والإدارية، ولكن اليابان لم تنسحب من شنغهاي إلا أمام المقاومة العنيفة التي استطاعت أن تنظمها حكومة نانكين

والآن تمضي اليابان في تنفيذ مشروعها لاحتلال الصين واستعمارها مرحلة أخرى. وهي تعمل في ظروف صالحة جداً؛ فالدول الغربية وأمريكا مشغولة بالأزمة الدولية الخطيرة التي أثارتها المشكلة الحبشية، والصين في حال من التفرق والتمزق لا تمكنها من أية مقاومة عملية، فحكومة الجنوب أو حكومة كوانتونج (وعاصمتها كنتون) تخاصم الحكومة الوطنية وتناوئها، والحكومة الوطنية (حكومة نانكين) لا تكاد يتعدى سلطانها الأقاليم الوسطى. أما الأقاليم الشمالية وهي مسرح النشاط الياباني، فتكاد تخرج جميعاً عن قبضتها ولا تكاد تتمتع فيها بأية سلطة أو نفوذ يذكر؛ والسلطة فيها

موزعة بين جماعة من القادة العسكريين المحليين، أهمهم وأقواهم الجنرال (شنج تشي يوان) زعيم الشمال وهو من أنصار سياسة التفاهم مع اليابان. ويجب أن نذكر أن اليابان تعمل الآن مطمئنة من جانب روسيا التي اضطرت إزاء تطور الحوادث وتفاقمها في أوربا أن تترك ميدان الصراع مع اليابان في الشرق الأقصى، وأن تنسحب نهائياً من منشوريا بعد أن باعت لليابان نصيبها في السكة الحديدية الشرقية؛ وبذلك خفت عوامل الاحتكاك القديمة بين اليابان وروسيا، وهي عوامل كانت تحسب اليابان حسابها كلما أقدمت على عمل جديد في هذا الميدان

أما الدول الغربية فليس من المنتظر أن تقوم في الظرف الحاضر بعمل ذي شأن، وخصوصاً بعد ما تصدعت جبهتها المشتركة، وأضحت كل تعمل بمفردها؛ بيد أن الصين تحاول من جانبها أن تحمل الدول الغربية على التحرك، وذلك بإثارة التمسك بمعاهدة الدول التسع لدى الدول الموقعة عليها، وهي الولايات المتحدة (أمريكا) وبريطانيا العظمى وفرنسا وإيطاليا وبلجيكا وهولندا والبرتغال والصين واليابان ذاتها؛ وتنص هذه المعاهدة على احترام سيادة الصين واستقلالها ووحدتها الإدارية والإقليمية، وعلى معاونتها على النهوض

والتقدم بكل الوسائل، واستعمال الدول الموقعة لنفوذها في تأييد مبدأ الفرص المتساوية في النشاط التجاري والصناعي في الصين لجميع الأمم، وعلى عدم انتهاز ظروف الصين للحصول على امتيازات خاصة؛ فهذه المعاهدة هي التي تثير الصين وتثير الدول نصوصها اليوم احتجاجاً على عمل اليابان في شمال الصين، بيد أنه من المشكوك فيه أن يسفر هذا الاحتجاج النظري عن أية نتيجة عملية؛ فاليابان تمضي دائماً في طريقها غير حافلة بالنصوص التي تعرقل مشاريعها

على أن هناك عاملاً يحسب حسابه؛ فإن اليابان إذا استمرت في سياسة التوغل في الصين على هذا النحو، فنها تقترب شيئاً فشيئاً من حدود الهند البريطانية، وحدود الهند الصينية الفرنسية؛ وبريطانيا العظمى لا تستطيع السكوت طويلاً على هذه الحركة التي قد تفضي إلى تهديد سيادتها في الهند؛ كذلك تشعر فرنسا بالخوف على مستقبل الهند الصينية، إذا ما اقتربت اليابان من جنوب الصين. والواقع أن بريطانيا رغم انشغالها بالمشكلة الحبشية واحتمالاتها المزعجة، لم تفتر عن العمل لمقاومة التوغل الياباني في الصين، والصراع يضطرم دائماً بين الدولتين وإن كان ما يزال يقتصر على الوسائل المستترة؛ وآخر محاولة بريطانية لمقاومة النفوذ الياباني، هي اتفاق بريطانيا مع حكومة نانكين على القيام بتنظيم المالية الصينية على يد خبير بريطاني، وعقد قرض للصين في إنكلترا، وهي محاولة تفطن لها اليابان وتعمل لمعارضتها؛ وإذا كانت الدلائل تدل على أن أمريكا قد أخذت تبتعد شيئاً فشيئاً عن التمسك بسيادة المحيط الهادي وعن التعرض لسياسة التوسع الياباني في الصين، فأنها من جهة أخرى تدل على أن بريطانيا العظمى ما زالت تعتبر قيام التوازن الدولي في الصين أمراً حيوياً لسلامة الهند وباقي أملاكها في الشرق الأقصى؛ ولم يكن إنشاء إنكلترا لقاعدة سنغافورة البحرية الهائلة بعيداً عن التحوط للزحف الياباني نحو الجنوب

وليس بعيداً أن يكون تقدم التوسع الياباني في الشرق الأقصى على هذا النحو المزعج عاملاً جوهرياً في التقرب بين إنكلترا وروسيا، واتحادهما معا على مقاومة هذا الخطر الياباني الذي تشعر كلتاهما باشتداد وطأته؛ فإذا تم ذلك، فانه يسجل انقلاباً خطيراً في السياسة الدولية، قد يكون له أبعد الأثر في تطور الحوادث في الشرق الأقصى

المرأة كما يراها شوبنهور

للأستاذ زكي نجيب محمود

إن المرأة بحكم تكوينها لا تستطيع أن تضطلع بجليل الأعمال - الجسمي منها والعقلي على السواء، وإن رسالتها في الحياة لتنحصر في الانسال وتعهد الأطفال، مع وجوب طاعتها للرجل وخضوعها له؛ فقد شاءت لها الطبيعة أن تسلك في حياتها سبيلا هادئاً مطمئناً وادعاً، لا تصادف فيه ما يصادف الرجل في حياته من التطرف في اللذة والألم كليهما - وإذا كانت الحياة قد ركنت إلى المرأة في أداء هذه الرسالة الكبرى، وأرادت بها أن تكون أداة لتربية النشء في مدرج الطفولة الباكرة، فقد أعدتها إعدادا عقلياً يلائم الغرض من وجودها، فجاءت ضعيفة العقل قصيرة النظر، حتى لكأنها طفل كبير، لكي يتم بينها وبين أطفالها شيء من التناسق والانسجام، أو إن شئت فقل إنها مرحلة

عقلية متوسطة بين الطفولة والرجولة، فالرجل هو الكائن البشري الحق الذي قصدت إليهالحياة

عرفت الطبيعة في المرأة ضعفها فوهبتها الجمال تغزو به أفئدة الرجال لينهض هؤلاء بعبئها عن رضى وطواعية، ولكن الطبيعة في عطائها كانت كعهدنا بها مقترة مغلولة اليد، فلم تهب المرأة من الجمال إلا بمقدار ما تستطيع أن تتخذ منه أداة لحفز الرجل على التناسل ليستمر البقاء، حتى إذا ما انقضت مهمتها في ذلك عادت الحياة فسلبتها ما كانت وهبتها من فتنة وجمال، وتركتها ذابلة ذاوية تنعى شبابها المفقود. . . وإن الفتاة مهما اشتعلت حماسة لحريتها، واصطنعت لنفسها مهن الرجال، لَتَشعرُ في أعماق نفسها أنها ما خلقت إلا للمعركة الجنسية، تتوسل لها بالحب وما يتصل به من تزين ودلال

ومما يلاحظ أنه كلما ارتفع الكائن الحي في سلم الكمال كان أبطأ وصولا إلى مرتبة النضوج، فبينما المرأة تكتمل نضوجها العقلي في سن الثامنة عشر، ترى الرجل لا يكاد يبلغ نهاية هذا النضوج إلا بعد الثامنة والعشرين، على أن المرأة لا تدرك من القوة العقلية إلا حدا ضئيلا لا يمكنها من أن تنفذ إلى حقائق الأشياء، ولذا يسهل انخداعها بالظواهر الباطلة، كما أنها كثيرا ما تتعلق بتوافه الأمور دون الهام منها والخطير؛ كذلك تتميز المرأة بأنها تعيش في حاضرها فقط، نظرا لعجزها عن أن تنفذ بفكرها إلى الماضي أو المستقبل، فبالقوة العقلية وحدها يستطيع الرجل أن يحطم حدود الزمن التي تقيد المرأة كما تقيد

الحيوان الأعجم، فيرسل بصره إلى الأفق النائي البعيد، ويضم في نفسه أطراف الزمان من الأزل إلى الأبد؛ ولعل هذه الخاصة هي التي يتميز بها الرجل دون المرأة، وأعني بها النظر الشامل العميق، هي العلة فيما يلاحظ عليه من هم وانقباض كثيرا ما يغلبان عليه حتى ينسياه ما قد يحيط به من عوامل الهناءة والسرور. أما المرأة فهي تنعم بضعفها العقلي لأنها تلهو بلذائذ يومها غير حافلة بما يأتي به الغد من ويلات وكوارث. فهي في ذلك كالحيوان الأجهر (ضعيف البصر) الذي يرى ما هو قريب منه في وضوح وجلاء، ولكن بصره لا يمتد إلى أبعد من أنفه؛ أي أنها قد تستطيع أن ترى الحوادث الحاضرة أدق مما يراها الرجل، ولكنها عاجزة كل العجز عن اجتياز حاضرها إلى ماضيها ومستقبلها، وربما كان هذا النظر الضيق المحدود هو الذي دفع المرأة إلى ما تتصف به عادة من إسراف قد يصل إلى حد الحماقة والجنون؛ فهي تريد أن تنعم (الآن) وليأت بعد ذلك الطوفان! ولكن اشتغال المرأة بحاضرها واستمتاعها بلذائذ يومها لا يخلو من حكمة بالغة، لأن ذلك يكسبها مرحاً وابتهاجاً بالحياة يمكنانها من القيام بواجبها الخطير نحو الرجل، وهو الترويح عن نفسه مما يعانيه من شقاء وعناء، فما أكثر ما تكون المرأة جنة فيحاء تزيل بسحرها عن كاهل الرجل المتعب المضني عبء الهم الثقيل

ولكن لا ينبغي أن يتيه الرجل بما أوتي من العقل فلا يصغي لرأيها ولا يحفل بما تقول، بل خير له إذا ما حزب الأمر واشتد الخطر أن يستشيرها الرأي ويستهديها السبيل، وذلك لأن طريقة المرأة في فهم الأشياء تخالف طريقة الرجل كل المخالفة، فهي تحب بطبعها أن تسلك أقصر الطرق التي تؤدي إلى الغاية المقصودة، هذا فضلاً عن مقدرتها على رؤية القريب بسبب ضعف قواها العقلية الذي أشرنا إليه، فهي بذلك قد تلفت نظر الرجل إلى ما يغفل عن إدراكه لقربه منه، إذ هو كما قدمنا مفطور بطبعه على النظر البعيد؛ أضف إلى ذلك أن المرأة ألصق بالحقائق الواقعة فترى الحوادث كما هي لا تضيف إليها ولا تنقص منها، أما الرجل فإذا ما اضطرمت عواطفه، انطلق خياله يهول في الأمر ويزيد عليه فتضيع الحقيقة في ثنايا الأوهام ويستحيل عليه التفكير السليم

وقد كان هذا الضعف العقلي الذي تتميز به المرأة قيداً حصرها في دائرة الحقائق والوقائع المحسوسة دون أن تكلف نفسها مؤونة التفكير المطلق المجرد، فنتج عن هذا شدة عطفها

على البائسين وحدبها على الأشقياء، لأنها لا تدري من حقائق الكون إلا هذه الحقائق الجزئية التي تراها وتلمسها؛ وليس في مقدورها أن تنظر إلى العالم كله وحدةً متصلة وحقيقة واحدة ينمحي في خضمه المتلاطم كل ما فيه من بؤس الأفراد وشقائهم،

ولكن إن كان هذا النظر الواقعي المحدود قد أكسب المرأة عطفها الجميل، فقد جنح بها كذلك إلى ألأم الطباع وأخسها، فهي أبعد ما يكون الإنسان عن العدل والشرف ويقظة الضمير وما إليها من الصفات الخلقية التي لا تستساغ إلا بالنظر المجرد العميق، وقد ألجأها ما أحسته في نفسها من ضعف إلى أساليب المكر والحيل والخداع، فهيهات أن تجد بين النساء امرأة واحدة قد خلص طبعها من الخيانة والغدر والكذب؛ فبهذه هي عدتها التي وهبتها إياها الطبيعة لتدافع بها عن كيانها ووجودها كما امتدت الضواري بالمخالب والأنياب، فليس عند المرأة من عتاد تدرأ به عن نفسها ما يتهددها من خطر إلا المكر والخداع، لا فرق في ذلك بين امرأة وامرأة، وهي تلجأ إلى هذا السلاح الفكري في كل ظرف دون أن تشعر أنها ترتكب بذلك ما يناقض فضيلة أو شرفاً، بل إنها على نقيض ذلك تعتقد أنها إنما تستخدم قوة طبيعة فيها لها كل الحق في استخدامها كما يستعين الأسد بمخالبه ساعة الخطر؛ ولما كان الخداع مفطوراً في دماء النساء كُنَّ أقدر من الرجل على إدراك خداع الناس. ولذلك كان من الغفلة والبلاهة أن يحاول الرجل خداع المرأة لأنها في هذا الميدان فارسة لا يشق لها غبار. ولقد نشأ من هذا الجانب في النساء ميل غريزي إلى العقوق والخيانة ونكران الجميل؛ وما أهون على المرأة أن تحنث في يمينها، وما أيسر عليها أن تمد يدها إلى السرقة حتى ولو لم تكن في حاجة إلى ما تسرقه

لقد اتخذت الحياة من المرأة وسيلة للتعبير عن إرادتها في البقاء، وإن المرأة لتعلم في أعماقها أنها خلقت لحياة النوع قبل أن تخلق لشخصها، ولذا تراها تسعي جهدها لأداء واجبها الأول نحو النوع وإن تعارض ذلك مع واجبها نحو الرجل الذي يتعهدها ويرعاها، فهي تأبى مثلا إلا أن تلد وترضع وتربي مهما كلفها ذلك من عناء؛ وهنا تختلف المرأة عن الرجل اختلافا جوهريا، فبينما هي تتوفر لخدمة النوع وبقائه، ترى الرجل لا ينصرف بمجهوده إلا لبقاء شخصه؛ أعني أن المرأة خلقت وسيلة لبقاء النوع، أما الرجل فهو غاية في حد ذاته - ومن هذا الفارق بين الجنسين تفرع وجه اختلاف آخر بينهما: فالرجال لا

يكاد بعضهم يأبه ببعض، بل كل منهم منصرف إلى سبيله لا يحفل بغيره، وذلك لبعد ما بين أعمالهم من تباين وخلاف؛ أما النساء فبينهن عداوة غريزية فلا يسع الواحدة منهن إلا أن تضمر في نفسها أشد المقت لغيرها من بنات جنسها. وعلة ذلك مدعاة للغيرة والكيد والتنافس؛ فنظر مثلا إلى سيدتين تقابلتا في الطريق كيف تنظر إحداهما إلى الأخرى بعين كلها الغل والكراهية؛ وإنه لما يبعثك على الضحك أن تستمع إلى امرأتين تتعارفان أو تتبدلان تحية اللقاء أو الوداع، فلن ترى إلا سخفاً منشؤه أن التودد والتعاطف والمحبة ليست من طبيعة المرأة نحو المرأة، وأن هذه العداوة الفطرية بينهن لتتضح لك في جلاء إذا رأيت كيف تعامل المرأة الأرستقراطية من هي دونها في المنزلة الاجتماعية من النساء؛ عندئذ ترى صلفا أي صلف وغطرسة وكبرياء، لماذا؟ لأنها تشعر أن الفارق بينهما في حقيقة الأمر جد ضئيل. استغفر الله بل إنه لا فارق البتة بين امرأتين. فهذه تحفظ النوع بنسلها كما تحفظه تلك سواء بسواء؛ ولعمري أن الحياة لم تقصد بهن إلا هذا، وهذا وحده. تشعر المرأة الأرستقراطية بانعدام الفارق في الجوهر بينها وبين المرأة الوضيعة فتلجأ إلى الصناعة والتكلف تخلق بهما ما تريد هي أن يكون بين المرأتين من تفاضل؛ أما الرجل فتراه على النقيض من ذلك: يعامل من دونه بالحسنى، لأنه يعلم أن الطبيعة قد فرقت بينهما في القوة والعمل، فليس به لإظهار منزلته حاجة إلى الصلف والكبرياء

ولشد ما أعجب لهذا الاسم الذي يطلق على النساء جزافاً: (الجنس اللطيف)؛ ولست أشك أن من أطلق هذا اللقب على ذلك الجنس الضئيل القصير الشائه، هم أولئك الذين أفسدت غرائزهم الجنسية عقولهم. فجمال المرأة كله قائم على الغريزة الجنسية وحدها، وإنه لأقرب إلى الصواب أن نسمي النساء بالجنس الذي لا ذوق له ولا فن، إذ ليس في مقدورهن تقدير الجمال في شتى الفنون، ولكنهن كثيراً ما يغالطن في الحقائق فيدعين أنهن ذوات فن جميل، بأن يعزفن على الآلات الموسيقية أو يعالجن التصوير، ولكن ذلك منهن كذب ورياء، فهن لا يُشغفن إلا بما خلقن من أجله: حفظ النوع. . . . . إن الرجل يجاهد في العلوم والفنون لتتم له السيطرة على الأشياء، إما بفهمها أو بالتحكم فيها، أما المرأة فهي بطبيعتها لا تحب أن تسيطر على

الأشياء سيطرة مباشرة، ولكنها دائماً تقصد إلى السيادة على الأشياء عن طريق سيادتها على الرجل، فالرجل وحده هو ما تصبو المرأة إلى التحكم فيه والسيطرة عليه - ومعنى ذلك بعبارة أخرى - أن المرأة ترى في كل شيء وسيلة فقط لغزو الرجل، فإذا ما تظاهرت بميل إلى الموسيقى أو الشعر مثلاً فليس ذلك ناشئاً عن رغبة طبيعية فيها نحو هذه الفنون، إنما هي تتخذ منها أداة تتجمل بها لتروق في عين الرجل. وما أصدق روسو حين قال: (إن النساء بصفة عامة لا يحببن الفنون ولا يعرفنها، ومحال أن يبلغن فيها حد النبوغ) وهل تريد دليلاً على نفورهن من الفنون الرفيعة أقطع من هذا الذي تراه في دور التمثيل؟ أنظر إليه ن كيف يواصلن الحديث في أتفه الكلام، معرضات عما قد يكون على المسرح من أروع آيات الفن! ولئن صدق ما يقال من أن الإغريق لم يسمحوا لنسائهم بمشاهدة تمثيل المآسي، فو الله لقد أصابوا. . . ثم استعرض التاريخ وحدثني مَنْ من النساء قد أبدع في الفن آية فيها الأصالة والنبوغ؟؟

ولقد شاءت الطبيعة للمرأة أن تثير في الرجل أحط جوانبه، فهي لا تنفذ إلى الرجل من ناحية عقلية وهو مظهر قوته وسيادته ولكنها تأتيه من نواحي ضعفه ومجونه. فيجمل بالرجل أن يتخلص من ضعفها ما استطاع إلى ذلك سبيلا، أما أن يكرمها ويرفع من قدرها فذلك ما أعجب له أشد العجب! إن إكرامك للمرأة واحترامك لها انحطاط لك في عينها، لأنها تدرك بفطرتها أنها أحط من الرجل وأضعف. فلا يضعها في غير موضعها إلا الضعيف العاجز - المرأة يجب أن تكون أماً فيجب ألا نعد بناتنا إلا لهذا مع تدريبهن على طاعة الرجل وقسرهن على الخضوع؛ وفي ذلك يقول بيرون الشاعر الإنجليزي (على النساء أن يعنين بالمنزل، وعلينا أن نحسن لهن في الطعام واللباس، ولكن لا يجوز لهن مخالطة المجتمع، فان تعلمن شيئاً فليكن ذلك هو الدين، على شريطة ألا يطالعن شعراً ولا سياسة، وألا يقرأن إلا كتب العبادة والطبخ)

إن كل قانون للزواج يعامل المرأة على أساس مساواتها بالرجل باطل من أوله، فإذا أراد القانون أن يسويها في الحقوق بالرجل فليعطها أولاً عقلاً كعقول الرجال! ومع ذلك فتأبى سخرية القدر إلا أن تعاني المرأة نفسها ما وراء المساواة من وخيم العواقب، لأنه كلما جارت القوانين على الرجل وأجحفت بسيادته الطبيعية على المرأة وطالبته بأن يقف منها موقف الند للند، أعرض الرجل ونفر، فليس من الهين عليه أن يقوم على مثل هذه التضحية وأن يطوح بما أوتيه من قوة وسيادة، وبذلك الإعراض يزداد عدد النساء غير المتزوجات اللواتي قد يدفعهن الفقر والحاجة أما إلى عمل لا يتفق مع طبيعتهن، وإما إلى السقوط في هاوية الفساد، وعندئذ تكون الطامة الكبرى. ويستطرد شوبنهور في استحسان تعدد الزوجات وفي وجوب عدم توريث المرأة مال زوجها لأنها مسرفة بطبعها، وقد نشأ إسرافها من تعلق أطماعها بالأشياء المادية فتراها تبذل بغير حساب في تجملها وزينتها، وهي في ذلك مخالفة للرجل الذي يتوجه بطموحه إلى نواح غير مادية كالعلم والشجاعة وما إليهما، فهو يستنفذ مجهوده فيما لا يحتاج إلى البذل والإسراف

يقول أرسطو في كتاب (السياسة): إنه إذا سمح للمرأة بالزيادة من حقوقها كان ذلك نذيرا بزوال الدولة ودمارها، وهو يستشهد على ذلك بأسبرطة. وقد جاء التاريخ الحديث بأمثلة كثيرة تؤيد ما ذهب إليهالفيلسوف العظيم، فزيادة نفوذ المرأة في فرنسا منذ عهد لويس الثالث عشر أدى إلى تدهور الحكومة والبلاط، وهذا بدوره أنتج الثورة الفرنسية الكبرى وما أعقبها من ثورات

وشهد شاهد من أهلها

لقد عرضت على القراء آراء شوبنهور في المرأة بمناسبة ما قرأته في إحدى الصحف الإنجليزية لسيدة تنكر على المرأة حقها في الحرية، قائلة إن الحرية تستتبع التفكير والمسئولية وهما ضد طبائع المرأة التي خلقت لتستعبد لشخص ما: زوجها أو طفلها. وهي تؤيد قولها بأنصع الأدلة وأقوى الحجج، وتروي لنا أنها كانت تحاضر في ناد نسوي فسألت الحاضرات: لو لم تكوني من بنات هذا القرن فأي زمن تختارين؟ فأجابتها فتاة ذكية: كنت أحب أن أعيش في أي عصر لا يتطلب من المرأة التفكير!!

زكي نجيب محمود

قصة المكروب
كيف كشفه رجاله
ترجمة الدكتور أحمد زكي وكيل كلية العلوم
كوخ غزاة المكروب

وانتقل كوخ بزوجه ومتاع بيته إلى برِسْلاوة، وعُيّن فيها طبيبا للبلدية براتب قدره تسعون جنيها في العام، وكان قد افتُرِضَ عند تقدير المرتب أن كوخ لا شك سيضاعفه أضعافا بما يكسبه من مرضاه، وأن المرضى لا شك آتون إليهزرافات ووحدانا إذا شاع في البلد أنه قد حلّ به مثل هذه العبقرية الفذّة. هكذا ظن الأستاذ كوُن، وهكذا ظن الأستاذ كُون هايم؛ وفتح كوخ داره للناس، فلم يقرع بابه طارق واحد. عندئذ تعلم كوخ أن من مساوئ الطبيب أن يكون فِكِّيرا يبحث في علل الأشياء. وعاد أدراجه إلى قرية فُلِشتين عودة حنين بخُفيه، وفيها ظل يقتفي آثار المكروب، ويتجسّس الجراثيم، ويقتنص تلك الخلائق الدنيئة في أجحارها، تلك الموجودات المعدومات في حكم العين، التي تصل إلى جروح الإنسان والحيوان فتبُثّ فيها سمّا قاتلا. وظل يحرز في هذا الميدان السبق بعد السبق من عام 1878 إلى عام 1880، وتعّلم أن يَصْبُغ كل نوع من أنواع البشلاّت صَبْغاتٍ مختلفات لتظهر صُغرها بَيْنة الجرم فيما حولها واضحة الحدود. واقتصد شيئا من المال، ولا يدري إلا الله كيف اقتصده، وأشترى كمِرةً ربط عدستها بمكروسكوبه، وتعلم وحده كيف يصوّر بها تلك الخلائق الصغيرة

قال كوخ: (ليس في استطاعة المرء أن يقنع العالم بحقيقة هذه المكروبات حتى يريهم صُوَرا منها. وفوق هذا فالمجهر الواحد لا يستطيع النظر فيه اثنان في آن، وهما إذا نظرا استحال عليهما أن يَنْقلا عن المكروبة الواحدة صورةً واحدة، وإذَنْ يكون خصام وانقسام. أما الصور الفوتوغرافية فلا تكذب، ويستطيع العشرة من الرجال أن ينظروها معاً، ويدرسوها سوياً، ويخرجوا منها على نتيجة واحدة لا سبيل للخُلف فيها)

على هذا النحو أراد كوخ أن يدخل في هذا العلم الوليد شيئاً من النظام والانسجام مكان الهرجلة والتخليط، وشيئاً من الموسيقى والنغم المتسق بعد النشوز الذي آذى الآذان ردحا طويلا من الزمان

وفي هذه الأثناء لم يغب عن بال أصدقائه؛ ففي عام 1880 لم يدر إلا والحكومة تدعوه إلى الحضور إلى برلين ليتعين بها زميلا فوق العادة لمصلحة الصحة الإمبراطورية. وفي منصبه الجديد أعطت له السلطات معملا جميلا، ووفرة كبيرة من الأجهزة لم يكن يحلم بها، ومساعدين، ومالا كافياً فيه غناءٌ عن طلب الرزق، وتمكينٌ له من قضاء ست عشرة ساعة أو ثماني عشرة في اليوم الواحد بين صبغاته وأنابيبه وخنازيره الغينية

وفي هذا الوقت كانت اكتشافات كوخ شاعت في معامل أوربا جميعها، وعبرت المحيط الأطلسي إلى أمريكا، فقام لها أطباؤها وقعدوا، وتحمسوا لها، واتقدوا من جرائها اتقادا؛ ودارت معركة حامية الوطيس واسعة النطاق حول نظرية الجراثيم

وبلغت في هذا الأوان أشدها. واتخذ كل طبيب وكل أستاذ في علم الأمراض عرف المكرسكوب وخفاياه، أو خال أنه عرفه وعرف خفاياه، اتخذ عدته وعتاده، وقام بتقفي المكروبات يؤمل اصطياد جديد منها؛ وأخذت تنجلي الأسابيع عن اكتشافات مزعومة فرح الناس لها عن جراثيم خال أصحابها أنها سبب السرطان أو السل أو التيفود. وصرخ صارخ منهم صرخة تردد صداها في القارات الخمس زعم فيها أنه وجد مكروبا واسع الأثر يعطيك من الأمراض على هواك، من التهاب الرئة إلى زكمة الدجاج. وهدأت هذه الصرخة، وتلاشت موجاتها في الهواء، لتَتْبعها أخرى من سخيف آخر يدعي أنه أثبت أن الداء الواحد كالسل مثلا قد تسببه مئات من أنواع مختلفات من المكروبات

ازداد تحمس القوم لفكرة الجراثيم، وزاد تخليطهم فيها، حتى خِيف على اكتشافات كوخ ذاتها أن يضحك الناس منها ضحكهم من هذه الخُزَعْبِلات التي ملأت الكتب والمجلات في هذا السبيل، وأن ينسوها نسيانهم تلك الأباطيل

ولكن قُدّر لأعمال كوخ أن تحيا؛ واليوم صيحة الأمم أقوى في طلب زيادةٍ في المعامل، وزيادة في قنّاص المكروب، وزيادة في أجور البُحّاث الذين يعملون جهدهم في دفع السوء عنا، ولا سبيل إلى التقدم إلا أن يبعث الله لنا رجالا ككوخ ذوي صدق وبصيرة كان ما كان من هذا الحماس الجاهل المشئوم الذي لا يكون من نتيجته إلا القضاء على

علم المكروب وهو وليد ناشئ. ولكن كوخ حفظ اتزانه في وسط هذه الجلبة الضارة، وجلس في هدوء وسكون يتعلم كيف يربي النوع الواحد من المكروب خالصاً من أخلاطه. قال: (أنا أومن بأن النوع الواحد من الجراثيم يسبب نوعاً واحدا من الأدواء، وأن كل داء له جرثومته الخاصة) آمن بذلك قبل أن يُثبته، فكأنما أُوحي إليه. قال: (. . . . . فلا بد لي أن أجد طريقة أكيدة يسيرة أكّثر بها الجنس الواحد من المكروب دون أن تختلط به الأجناس الأخرى التي هي دائماً حوله تحاول الدخول إليهخلسة واستراقا) ولكن كيف السبيل إلى اقتناص جرثومة واحدة بادئ ذي بدء؟ اخترع المخترعون عدة مكنات غريبة لفصل المكروبات، ونصب آخرون منهم أجهزة مركبة معقدة، طويلة لا شك أنهم من طولها وتعقد تركيبها نسوا بعد أن أتموا الغرض الذي من أجله نصبوها. وقام بحاث غير هؤلاء، لا يبالون الموت، فحقنوا المكروب الذي حقنوا في جو سام قتال من الكيميائيات المطهرات ليقتلوا جراثيم الهواء التي تسبح فيه على ضلال كي لا تقع في المكروب الذي يحقنون

وذات يوم نظر كوخ إلى فِلْقة من البطاطس المسلوق تُرِكت عفوا في معمله، نظر إليه اتفاقاً وأقر هو بذلك؛ نظرها فوجدها قد تبقعت بعدة بقع ذات ألوان، فهمس لنفسه قال: (هذه بقعة شقراء، وهذه بقعة حمراء، وهذه ثالثة بنفسجية، ورابعة صفراء. لابد أنها تكوّنت جميعاً من جراثيم الهواء). وأخذ يحدق فيها من قريب لقصر نظره حتى كادت تمتزج بها لحيته الخفيفة، وهّم ينظف عدسات مجهره ويهيئ رقائق الزجاج. وأمسك بعود رقيق من معدن البلاتين فغمسه بخفة في بقعة من البقع الشقراء ورفعه بشيء منها؛ ثم وضع هذا الشيء القليل، ومزاجه كالمخاط، على رقيقة من تلك الرقائق الزجاجية، ودافه بقطرة من الماء، وحدق فيه من خلال المجهر فإذا جماعات البشلات تتهادى في الماء عموماً، وتشاكلت جميعها فلم يكن بها على كثرتها بشلة واحدة غريبة عن أخواتها. وأخذ من البقعة الصفراء ومن البنفسجية ومن الحمراء، فوجد لمكروب في إحداهما مستديرا، وفي الأخرى عصيا عائمة، وفي الثالثة حلزونيات كالبريمات دبت فيها الحياة؛ وليس في هذا جديد، وإنما الجديد أن المكروبات في البقعة الواحدة متشاكلات لا تختلف واحدة عن أختها وفي سرعة البرق الخاطف تجلى لكوخ جمال هذه التجربة التي اصطنعتها له الطبيعة: (كل بقعة من هذه البقعات زريعة خالصة من نوع واحد من المكروبات. . . الأمر واضح وتفسيره حاضر! فالمكروبات عندما تقع من الهواء في الأحسية السائلة التي نستخدمها، هي أنواع عدة، تتكاثر جنباً لجنب، وتعوم فتختلط فلا ينتج إلا مزيج من أخلاط عدة. أما اذا هي وقعت على سطح البطاطس، وهو صلب، لصقت وحداتها في المكان الذي وقعت فيه، فتكاثرت الواحدة حيث هي فصارت ألوفاً، ولكن من نوع واحد (لا يخالف

وكان يعين كوخ طبيبان في الجيش، يدعى أحدهما لُفْلار والآخر جفكي فدعاهما كوخ في هدوء وأطلعهما على ما وجد، وأراهما مدى التغيير الذي سيطرأ على دراسة المكروب بسبب التفاتته السانحة إلى قطعة البطاطس المتروكة، نقول التغيير، وما كان إلا الثورة! وبدأ الرجال الثلاثة يدرسون صحة ما خال كوخ بجد لا حد له، وبدقة ألمانية إذا وصفها الفرنسي المتعصب سماها سخفاً. بدأ الثلاثة يعملون فكنت تراهم صفاً واحدا على كراسيهم الثلاثة، منكبين على مجاهرهم الثلاثة ينظرون في ضوء ثلاث نوافذ وقد توسطهم كوخ. ثالوث أي ثالوث! يبذلون الجهد الجاهد لا ليثبتوا الذي ظنوه، بل ليكذبوه، فإذا النتيجة تؤمن على الذي قاله كوخ وقالوه، وكانت طريقتهم في ذلك أنهم خلطوا من المكروبات نوعين أو ثلاثة؛ فتكوّن منها مزيج تعجز الأحسية السائلة عن فصل أنواعه مهما طال زرعها فيها وتكثيرها. ثم جاؤا بقطرة من هذا المزيج ونشروها نشرا واسعاً على سطح مستو لبطاطسة مسلوقة مشقوقة؛ فاستقرت المكروبات من هذا السطح على أبعاد غير متقاربة، وتكاثرت المكروبة الواحدة حيث استقرت فخرج منها الملايين ولكن من نوعها، ومن نوعها فحسب بشق بطاطسة عتيقة استحدث كوخ طرائق جديدة لاقتناص المكروب، وأرسى هذا العلم على قواعد صحيحة يطمئن إليهاأولو الفكر اطمئنانهم إلى سائر العلوم، من بعد

أن كان ظناً ورجماً بالغيب؛ ثم أخذ كوخ يتجهز لاقتناص المكروبات التي تسبب عشرات الأمراض التي تفتك بالناس، ولم يكن كوخ لقي بعد من رجال العلم انتقادا يذكر ولا اعتراضاً كبيرا، ذلك لأنه لم يفتح فمه إلا بعد ذلك أن كان يتم تأكده من نتائجه، ثم لأنه كان اذا تحدث بعد ذلك عن اكتشافاته ذكرها في كثير من التواضع فتخاذل خصومه ونام الشر في قلوبهم، وفوق هذا وهذا لأنه كان دائماً يصوّر لنفسه شتى الاعتراضات الممكنة، والانتقادات الجائزة، ويجيب عليها قبل إخراج عمله للناس وامتلأ كوخ ثقة بنفسه، فاعتزم أن يلقى الأستاذ رودلف فرشو وما أدراك من هو؟ هو أشهر بحاث ألمانيا في أصول الأدواء، وأكبر جهابذتها وأعلامها؛ إذا حدثته في موضوعات شتى أراك فيها من العلم ما لا يريك عشرات العلماء، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا. كان فرشو عمدة الطب الألماني، درس تجين الدم وقال آخر كلمة تقال فيه، واخترع ألفاظاً من أروع الألفاظ مثال الهتربوبيا وأجنيسيا والأكرونوسس وكثير غيرها مما يسهر طلاب الطب لياليهم في محاولة تفهمها، ونظر بمكرسكوبه في ستة وعشرين ألف جثة، ووصف فيها حال الأنسجة وقد غيرتها شتى الأمراض، ونشر بلا مبالغة ألوفا من الأبحاث في كل موضع يخطر بالبال، من دراسة أشكال رؤوس الذكور من تلاميذ المدارس الألمانية، وتفحص أصواتهم، إلى قياس الأوعية الدموية، وقد بلغت الغاية في الصغر في أجسام بنات اخضرت وجوههن مرضاً واعتلالا

ذهب كوخ إلى صاحب هذا الصيت الكبير وفي قلبه رعب، فدخل الى حضرته على أطراف قدميه احتراماً وخشية أن يتحرك الهواء فينزعج رب المكان

قال كوخ وهو مطرق: (سيدي الأستاذ! لقد كشفت طريقة لتكثير النوع الواحد من المكروب خالصاً لا شائبة فيه)

فقال الأستاذ: (إذن فقل بالله كيف تصنع، ففي ظني أن هذا لن يكون)

قال كوخ: (بتربيته على طعام جامد. نعم أستطيع أن أولد منه على قطعة من البطاطس مستعمرات لا يسكنها غير نوع واحد منه. . . . فبدل البطاطس أذيب الآن الجلاتين في حساء من لحم البقر، فإذا برد انعقدا جميعاً وصار لمزيجهما سطح جامد، وعندئذ. . . . . .)

لم يتحرك فرشو لهذا الكلام؛ ولما نطق قال في استهزاء الحاقد: (إن منع المكروب من أن تختلط أنواعه عسير جداً، إلا إذا شاء كوخ أن يبني لكل نوع معملا خاصاً. .)

واختصاراً لم يجد كوخ عند صاحبنا غير البرود والتثبيط؛ ولا عجب، فالرجل كان قد بلغ من الشيخوخة تلك السن التي عندها يعتقد الرجال أن كل شيء عُرِف، فلم يبق في الدنيا ما يُكتشف؛ وتولى عنه كوخ وفي نفسه شيء من الكآبة، ولكن عزيمته لم تهن، ولم يفعل ما كان غيره فاعله، فلم يجادل فرشو في الذي كان، ولا كتب المقالات، ولا خطب الخطب في النيل منه، ولكنه اتجه بكل ما فيه من حول إلى بحثٍ هو أبدع بحوثه، إلى تقفّي أثر أخبث

مكروب عرف، إلى كشف ذلك القتال الخفي الذي سبق المكروبات جميعا في حصد أنفس الرجال والنساء والأطفال، فتقاضى روحاً من كل سبع صعدت إلى ربها. شمر كوخ عن ساعديه، ومسح نظارته، وبدأ رحلته الكبرى لاقتناص جرثومة السل المروع

(يتبع)

أحمد زكي

في طريق المدينة

للأستاذ علي الطنطاوي

أفاق سحراً - ولا يبدو السحر على أتمه إلاّ في البادية، فلا ليل في الجلال كلَيْلها، ولا صبح في الجمال كصبحها، ولا نهار في الشدة كنهارها - فجلس ينظر إلى هذه الصحراء التي تمتد من حوله؛ يغيب أوْلها في بياض الفجر المقبل، وآخرها في سواد الليل المدبر، وهي ساكنة سكون الموت، واسعة سعة السماء، فأحس في نفسه بشيء لم يحسّ به قط؛ فقال: لا إله إلا الله! فخرجت من أعماق قلبه. . . وأي امرئ تلقيه الأيام في البادية، فيرى ليلها ونهارها، وشمسها ورمالها، ثم لا يكون أشد الناس بالله إيماناً، وعليه اتكالا؟ وهو يرى أبداً من جلال المخلوق ما يخشع منه قلبه لجلال الخالق؛ وهو يعلم أنه ليس بينه وبين أن يموت عطشاً، أو يهلك جوعاً، إلا أن يحيد عن طريقه ذراعاً، أو ينحرف عن وجهته شبراً. . . وكيف يكفر بالذي لا يرجو النجاة إلا منه، ولا قوّة إلاّ به،

وليس له من يدعوه إلاّ إياه؟
وكانت تلك صبيحة اليوم السابع عشر من أيام البادية، فطفق يذكر هذه الأيام، وينظر ما أفاده فيها، فإذا هو قد عرف من خبر العرب، في سبعة عشر يوماً، ما لم يعرفه في سبع عشرة سنة، يقرأ فيها أسفار العرب، ويتلو أشعار العرب، ويدرس لغة العرب، وتاريخ العرب، وإذا هو قد سافر ألفاً وثلثمائة سنة في الزمان، لا ألفاً وثلثمائة كيلٍ على الأرض؛ وسلك الطريق التي سلكها الغزاة الأوّلون، فعلم أن سرّ قوةّ العربي الأوّل الذي عمل ما لم تعمله الجن، ولا تقوى عليه المرَدَة، حتى بنى للحضارة هذا الصرح العظيم، فأوت إليه، وتفيأت ظلاله، وإنّ سر عجز العربيّ الأخير، حتى نام عن هذا الصرح، وأباح العدوّ حماه، إنما هو (بعد الإسلام) هذه الصحراء
هذه الصحراء الذي لا يعيش فيها الجبان العاجز، لأن الحياة فيها بين عيني الأسد، لا ينالها إلاّ شجاع مقدام، أخو غمرات، صّبار على النكبات، ضحّاك في الملمّات، وإلاّ ابن الشمس، صديق الرمال، حليف الجوع والعطش، ذو إرادة لا تنثني، وهمة لا تطاول، وعزيمة لا تفلّ
ولا يعيش فيها المريض، لأنها لم تخلق مستشفى للمرضى، ولكنما خلقت ميداناً للأبطال، وأنىّ يأتي البدويّ المرض، ما دام لا يؤتى من قبل معدته (والمعدة بيت الداء)، وما دام كل
طعامه التمر والسّمن واللحم والأقط، وكلّ شرابه اللبن والماء، فإذا مرض يشرب قارورة من شعاع الشمس، وشمس الصحراء أنفع من مجموعة صيدليات باريز! فإذا لم تجده نفعاً، أجداه الكي، وما بعد الكيّ إلا حياة كاملة أو موت كامل، هو خير على كل حال من حياة ناقصة. . . وقديماً قالوا آخر الطب الكيّ!
ولا يعيش فيها الفقير، لأن أهلها كلهم أغنياء. . . وهل الغنى إلاّ أن تنال كل ما تطلب؟ وهل يطلب البدويّ إلاّ ماء له وكلأ لمواشيه؟ فإذا أمحلت الدار أم غيرها:
وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى ... وفيها لمن خاف القلى متحول
ولا يعيش فيها المنافق المتملّق الخدّاع، الذي يلبس جلد الحمل على جلد الذئب. . . . لأن الصحراء منبسطة مستوية متكشّفة، ظاهرها كباطنها، وليس فيها سقوف ولا جدران، ولا مغارات ولا سراديب، وكذلك نفس العربيّ ما في قلبه على لسانه؛ فان عاداك فعداوة الشريف، يستقبلك بالشر ولا يستدبرك به؛ ويحمل إليك الموت على شفرة السيف، لا يقدمه في كأس من الذهب، قد خلط فيها السمّ بالدسم؛ وإن صافاك آخاك، فأخوّة الشريف يفديك بنفسه وماله، ولا يرغب عنك حتى ترغب به، وإذا أنت أنكرت من العرب جفاء في الطبع، أو خشونة في المقال، فلن تنكر منهم عَوْضُ تلوّناً ولا تملقاً، ولا تنكر منهم لين الحيّة ولا لطف المستعمر. . . على أنّ الجفاء ليس من شأن العرب، ولا هو في جميعهم، وإن فيهم للطفاً، وإن فيهم لظرفاً، وإن لهم لأحلاما. . .
وطفق يذكر كيف كان يتبرم بهذه الأشعار التي تندب الديار وتبكي الأطلال، ويستثقلها ويراها كأنها الدّمى فيها جمال وليس فيها روح؛ فلما كانت أول ليلة قضاها وأصحابه في البادية، وحطّ الركب في قاع الدغيلة فوقفت السيارات الخمس، ووضعت الأحمال، ونصبت الخيام، وأوقدت النيران، ورفعت القدور، وبسطت البسط، ومدّت الفرش، وكمل المجلس حتى قام المذياع (الراديو) يسمعهم بين الشّيح والقيصوم، أغاني عبد الوهاب وأم كلثوم
ف. . . باتوا بأنعم ليلة حتى بدا ... صبح تلوَّح كالأغرّ الأشقر
فنادى منادي الرحيل؛ فما هي حتى طويت الخيام، ولفّت البسط، وشدّت الأحمال، فإذا كل شيء كأنه حلم، أو كأنه صفحة طويت، ولم يبق إلا الؤى المهدم، وإلاّ موقد النار، فامتلأت نفسه حزناً، وانطلق لسانه يترجم عن أصدق عاطفة، وأعمق شعور، بكلمة النابغة التي
استثقلها، وعدها من القول المعاد، والكلام الفارغ:
عوجوا فحيوا لنعم دمنة الدار. . .
وانطلق يقف إخوانه لحظة، يحيّ فيها هذه البقعة التي ترك فيها ليلة من حياته، وطائفة من ذكرياته، وقطعة من نفسه؛ ثم عاد فسخر منهم كيف يقفون على أحجار قد سوّدتها النار، وحفرة حفروها من حول الخيمة خشية الأمطار. .

ماذا تحيوّن من نؤى وأحجار؟
ويجد القاع بعد أن تقوّضت الخيام، وطويت البسط، وضاع المكان الذي سوّاه لنومه، وأعدّه لجلوسه
أقوى وأقفر من نعم وغيّره ... هوج الرياح بهابي الترب موّار
ويطول به الوقوف، وأصحابه يستحثّونه، والسيارات (تصرخ) مستعجلة، فيمشي وهو يفكر في هذا القاع. هل يحفظ هذه الذكريات؟ ويسأل هذا القاع: هل يذكر أبداً هذه الليلة التي قضاها فيه، والعواطف التي استودعه إياها؟ فلا يسمع مجيباً، ولا يجد إلا أحجار الموقد، وإلا هذا الثمام الضعيف الليّن، الذي جمعوا منه فأوقدوا به النار، واتخذوه فراشاً، فينشد قول النابغة:
وقفت فيها سراة اليوم أسألها ... عن آل نعم أموانا عبر أسفار
فاستعجمت دار نعم ما تكلمنا ... والدار لو كلمتنا ذات أخبار
فما وجدت بها شيئاً ألوذ به ... إلا الثمام وإلا موقد النار
وتعدو به السيارة عدو الظليم، وهو لاهٍ عما حوله، يتمثل الشاعر وقد يممّ الديار، فلم يجد بها سائلاً ولا مجيباً:
ناديت: أين أحبّتي؟ ... فأجبت: أين أحبّتي؟
فبرّح به الشوق، واشتعلت في صدره النار، وكواه الهجر فذهب يذكر نعماً، وقد كان يسايرها حتى ينأى بها عن الحيّ، ثم يجلسان حتى تغيب الشمس، ويلفهما الظلام برداء الأمن من الرقباء، ويسبغ عليهما نعمة الحبّ، فلا يكون بينهما إلا كل خير: يبثها حبّه، فتشكو له حبّها، ويكشف لها عن قلبه، فتكشف له عن قلبها، ولا يخفي عنها شيئاً، ولا تكتمه شيئاً:
وقد أراني ونعما لاهيين بها ... والدهر والعيش لم يهمم بامرار
أيام تخبرني نعم، وأخبرها ... ما أكتم الناس من حاجي وأسراري
وجعل يذكر كيف فهم في تلك الساعة قصيدة النابغة، ونفذ إلى روحها، وقد كان يتلوها، ويدرّسها، ويشرحها، فلا يفهم منها إلا كلماتها وجملها، وعروضها وإعرابها؛ وجعل يذكر ما حفظ من أشعار الديار، فيبصر فيه جمالاً لم يبصره من قبل، فيعلم أنه قد كان منه في ليل مظلم، لا يرى فيه إلا سواداً فطلعت تلك الساعة بدراً، أراه أن وراء الظلام دنيا واسعة، وفتنة وجمالاً، وروضة وأنهاراً. . .
وجعل يذكر كيف كان يقرأ أمثال العرب فلا يفهم من قولهم: (أن ترد الماء بماء أكيس) إلاّ أن ذلك أحزم، فلما خرجوا من القاع وأقبلوا على ماء الهزيم الذي طالما وصفوه لهم وحببوه إليهم، وجده بئراً منتنة خبيثة، تقتل من يشمها، فكيف بمن يشرب منها؟ فعلم أن معنى أكيس: أنك لا تشرب ماء خبيثاً فتمرض!
فلما وردوا ماء الفجر، بعد مسيرة يومين في الشعب لم تر السيارة فيهما كيلين متتابعين على أرض كالأرض، ولكنها كانت تعلو صخرة، أو تهبط حفرة، أو تغوص في رملة، لما وردوا الماء وجدوه جافاً، فعلم أن معنى أكيس: أنك تبقى بلا ماء فتموت ثم نظر فرأى الفجر قد انبثق، فأيقظ المؤذن، وكان قوي الحنجرة حسن الصوت، فأذن فزلزل البادية بـ (الله أكبر) فلما قال (أشهد أن محمداً رسول الله)، لم يتمالك صاحبنا نفسه أن تضطرب وقلبه أن يخفق، وعينه أن تدمع:
هذا آخر يوم من أيام البادية. لم يبق بيننا وبين المدينة إلاّ نصف مرحلة. . . فهل يكتب لنا أن ندخل من باب السلام ونقوم أمام الحجرة ونسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم؟
علي الطنطاوي
نظرية النسبية الخصوصية
بقية البحث الأول
الزمان ونسبيته
للدكتور إسماعيل احمد أدهم عضو أكاديمية العلوم الروسية
- 3 -
علل هذه الظاهرة فتزجرالد بقوله إن المتحركات تتقلص في اتجاه سرعتها، فالأرض تتقلص في اتجاه سرعتها بقدر الفرق النظري بين رحلتي الشعاعتين بحيث تعودان كما هما عمليا في وقت واحد. وقام العلامة لورانتز الهولندي فاستخرج مقدار هذا التقلص

في عملية رياضية دقيقة
لو رمزنا بالرمز (ر) لمسافة رحلة الشعاعة (س1)، وبالرمز (ر2) لرحلة الشعاعة (س
2:)، وبالرمز (ص) لسرعة الضوء، وبالرمز (س) لسرعة الأرض، لكان
وهذا معناه تقلص الأرض حتى تصير بمقدار:
وبذلك تقرر استحالة استخراج الحركة المطلقة للمتحرك، وبذا صار من المحال معرفة التواقت
- 4 -
لابدّ من فاصلة زمانية لمعرفة سرعة الضوء؛ هذا إلى أن معنى الزمان قائم على معرفة سرعة انتشار النور. هذا التضاد استخدمه العلامة ألبرت اينشتين في سبيل استخلاص مبادئه الأولى في النسبية الخصوصية
لنفرض كوناً مثل (ك) به نقطة مثل (أ) ثابتة، وبهذه النقطة راصد ومعه ساعة؛ ولنفرض أن هذا الراصد يعين حدوث الحادثات في كونه بموجب زمن الساعة التي يحملها، ولكنه بلا شك يفشل في تعيين زمان الحادثات عينها بالنسبة لنقطة ثابتة في كون آخر يتحرك حركة انتقالية ازاءه؛ ما لم يوحّد سير ساعته مع سير الراصد القائم في الكون الآخر
وتوحيد سير الساعتين لا يقوم إلا على إشارة ضوئية؛ والضوء كما قلنا سرعته واحدة في كل الجهات؛ ومعنى هذا أن الفترة التي تستغرقها شعاعة الضوء لقطع المسافة من الكون
الأول إلى الثاني هي عين الفترة التي تستغرقها للعودة من الكون الثاني إلى الأول هكذا يتحول معنى المسافة الممتدة بين النقطتين (أ) في الكون الأول، و (ب) في الكون الثاني من امتداد الأجسام الصلبة إلى أمواج النور، أعني أنها تتحول من خط امتداد الأجسام الصلبة إلى السافة التي تقطعها أمواج النور في آماد متساوية
هذا التبدل يؤدي إلى تغير موضوع الهندسة الأوقليدية، إذ تتحول الأشكال والخطوط الأوقليدية التي ترسمها الأجسام الصلبة في تحركها إلى الأشكال والخطوط الاينشتينيّة التي يرسمها سير أمواج الضوء
- 5 -
لقد رجع اينشتين بعالم الحادثات إلى الهندسة. ومن المعلوم أن هنالك ضربين من الرياضيات: ضربا ذهنيا محضا، وضربا حسيا. فالضرب الأول هو الذي تقوم عليه مبادئ الرياضة، وخاصة التحليلية منها، والضرب الثاني يتفق والأول في الماهية الرياضية، إلا أنه يختلف في كونه راجعاً إلى الحس والتجربة. والمدرسة الأكسيومانيكية تجد في مكان الرياضة المحض مكان المنطق الصوري والذهن الخالص
على هذا الأساس لو مضينا ندقق موضوع الهندسة الأوقليدية لألفينا هندسة ترجع لخواص الأجسام الصلبة وعلاقتها ببعض، فهي ضرب من الهندسة التجريبية، وبذا تعد ضرباً من الطبيعيات. والهندسة الأوقليدية ليست قضاياها منطقية تحليلية فحسب، بل هي تنطوي على أحكام تجريبية مستمدة من الاختبار والمشاهدة، وبذلك كانت بعيدة عن ساحة الهندسة الصرفة
وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال من حول الهندسة الأوقليدية وعمليتها بمعنى: هل هي تلتئم من حول حوادث هذا العالم؟ وللاجابة على هذا السؤال نلجأ للتجربة، فهي الأداة العلمية الوحيدة التي تمكننا من الاجابة على هذا السؤال، فان قياس أي طول في علم الطبيعة يرجع لمبدأ انتشار النور في خطوط مستقيمة، وبذا نلفي الأطوال ترجع ضرب من الرياضة التجريبية، وهذه الحقيقة نخرج منها بنتيجة هامة. فالنقطة والخط. . . . . .؛ ليس من المهم أن نقول إن معرفتنا بها عقلية، لأننا في الحقيقة نفرض صحة بعض المبادئ، ومن حول هذا الفرض نقيم هندستنا الصورية التي لا ترجع معرفتنا
بمبادئها إلى التجربة، إذ هي مبادئ أوجدها العقل الانساني وصرح بامكانها. غير أنه من المهم أن نقول إننا بارجاعنا الهندسة إلى مبدأ انتشار الضوء نقرر ضمناً ارجاع الهندسة إلى الطبيعيات الحديثة أو العكس، ويكون مقدار ما في الهندسة من الصواب بمقدار ما فيها من المرونة للالتئام من حول حقائق العالم الخارجي، وهكذا نرى الهندسة الأوقليدية تنهار حيث لا تتفق ومبدأ انتشار النور

- 6 -
موضوع النسبية الخصوصية: تقوم على أساس أولى في تحويل موضوع الهندسة من) الأشكال التي ترسمها الأجسام الصلبة اللا متغيرة إلى الأشكال التي ترسمها الأمواج النورية الثابتة)
برتر اندرسل
لنفرض ساعة في نقطة مثل (أ) حيث صدرت منها شعاعة نور في الآونة (أ) إلى النقطة (ب) فوصلتها في الآونة (ب1) ثم رجعت إلى (أ) في الآونة (أ2) فنكون:
أو أن (ب1) - (أ2) = (أ1) - (ب1):
بمعنى أن الساعة التي في (أ) تكون متساوية في سيرها مع الساعة التي في (ب) ويكون إعلان الساعتين للزمان واحدا. فلو أردنا أن نعين زمان الساعتين في وقت واحد فما علينا إلا أن نرسل إشارة نورية بزمان النقطة (أ) إلى (ب) فتضبط استناداً عليها نقطة (ب) زمنها. وعليه تكون النقطتان متوافقتين في زمنهما، وهنا يوحي التواقت إلى الذهن فكرة أن الزمان ليس أكثر من مجرد الفواصل التعاقبية للحادثات
- 7 -
ما معنى التواقت؟
حدثت حادثة مثل (ح) في (أ) وحادثة أخرى مثل (ح1) في (ب)؛ فما معنى تواقتهما؟ للاجابة على هذا السؤال نفرض أن الحادثة (ح1) حدثت في الزمن (أ2)، كما أن الحادثة (ح) حدثت في الزمان (أ1)، فلو كان سير ساعة النقطة (أ) هو سير ساعة النقطة (ب)، وما تعلنه الساعة الأولى من الوقت هو ما تعلنه الساعة الثانية فالحادثتان متواقتتان.
على هذا الأساس يمكننا أن نعرف الزمان استناداً على إشعارات الساعات؛ ولكن لنا أن نتساءل: هل يصح القول بتواقت حادثتين حدثت احدهما في كون مستقل عن الآخر وهما يتحركان بالنسبة لبعض حركة انتقالية؟
للاجابة على هذا السؤال نرجع لمثالنا السابق فندقق فيه النظر فسنرى أن ساعات كل كون يمكن أن تتساوى في سيرها مع آخر، وعليه يمكننا تعيين زمان حدوث أية حادثة بأية ساعة في هذا الكون لانتشار النور خلاله بسرعة ثابتة؛ أما في أكوان متعددة تتحرك بالنسبة لبعضها حركات انتقالية كما هو جار في العالم الخارجي فلا يمكن القول بالتواقت لانعدام واسطة استخراج الحركة المطلقة. ولبيان هذا نفرض خطاً يمتد من النقطة (م) إلى (م1) طوله 9000 وحدة طولية، وأن هنالك شعاعا من النور يقطع هذا الخط من اتجاه (م) إلى (م) بسرعة 300 وحدة طولية في الساعة، ولنفرض كذلك طيارة بها راصد تتحرك من جهة (م) إلى (م1) مع شعاعة النور بسرعة 75 وحدة طولية في الساعة؛ ولنرمز للراصد الذي بداخل الطيارة بالرمز (ص1)، ولنفرض أن في منتصف المسافة بين (م) و (م1) على بعد 4500 وحدة طولية من كل من النقطتين يقوم راصد مثل (ص2) في النقطة (ن) ومعه جهاز كهربائي يمتد طرفا إلى نهاية الخط من الجهتين، وبكل طرف مصباح كهربائي يبين بإشارة نورية تأتيه من الجهاز الكهربائي الذي مع الراصد (ص2) وبالطبع ستتلاقى الشعاعتان معاً عند (ص2) في آونة واحدة
لنفرض أن الراصد (ص2) ضغط على جهازه الكهربائي فصدرت منه إشارتان كهربائيتان إلى النقطتين (م) و (م) حينما صارت الطيارة براصدها (ص1) أمامه تماماً. فهل تبدو الشعاعتان الواردتان عن المصباحين متواقتتين لكل من الراصدين (ص1) و (ص2) لأن كلا منهما في منتصف المسافة بين (م) و (م1) حينما ضغط (ص2) على الجهاز الكهربائي الذي معه؟
إن الإشارة الكهربائية ستقطع المسافة من (ن) إلى كل من النقطتين (م) و (م1) في 15 ساعةوستقطع الموجة النورية الصادرة من المصباح الذي في (م) المسافة من (م - ن) ومن (م1 - ن) في نفس المدة. فبعد ثلاثين ساعة يشاهد الراصد (ص2) الشعاعتين قد وصلتا أمامه في (ن) في آونة واحدة. هاتان الحادثتان متواقتتان للراصد (ص2)، ولكن هل
هما متواقتتان بالنسبة للراصد (ص1)؟
لا. لأن الراصد (ص1) يكون قد غادر النقطة (ن) عندما ضغط (ص2) على الجهاز،

فيأخذ في الاقتراب من نقطة (م) بمعدل 75 وحدة طولية في الساعة، وحينما تتلاقى الشعاعتان عند (ص2) يكون هو قد قطع 2250 وحدة طولية، ويستقبل الشعاعة الواردة من النقطة (م1) قبلما تصل إلى (ن)، فعنده تجري حادثة وقوع شعاعة (م1) قبل أن تجري حادثة وقوع شعاعة (م)؛ أعني أن الحادثتين غير متواقتتين عنده.
ونستنتج من هذا أن التواقت نسبي حسب المشاهد وكذلك الزمان
- 8 -
إن التواقت نسبي في أكوان تتحرك بالنسبة لبعضها حركة انتقالية كما هو حاصل في عالمنا هذا. ويصح التواقت بين حوادث كون ساكن؛ أما في أكوان متحركة فلا يصح القول بالتواقت حتى ولو وصلت الحادثات إلى المشاهد متواقتة في وقوعها، إذ يلزم أن تكون الحوادث في وضعها متواقتة؛ ولما كان السبيل إلى ذلك قائماً على معرفة الحركة المطلقة للأكوان، وكانت الحركة المطلقة مستحيلاً استخراجها، كان القول بالتواقت المطلق لغواً، وكان لكل حادثة زمان خاص نسبي لها حسب المشاهد؛ كذلك يكون التواقت نسبياً حسب المشاهد، فما هو متواقت عندك يكون غير متواقت عند غيرك
من هنا نخرج بأن الزمان نسبي، وأن التواقت نسبي، وأن زمان كل حادثة نسبي لمشاهدها
(تم البحث الأول)
إسماعيل أحمد أدهم
في الأدب الأمريكي
مارك توين
(بمناسبة انقضاء مائة سنة على ميلاده)
- 1 -
في يوم السبت الماضي 30 من شهر نوفيمبر سنة 1935 احتفل الأدباء في أغلب أقطار الأرض بانقضاء مائة عام على مولد الكاتب العبقري الأمريكي الفكه مارك توين.
ومَن من الناس لا يحي ذكرى مؤلف: (مخاطرات توم ساوير)، و (هيلكبري فن)، و (الأمير والشحاذ) وغيرهما من القصص التي استهوت قلوب الصغار لفكاهتها وطرافتها، وعقول الكبار لحكمتها وبلاغتها؟ أن الذين قرأوا مارك توين قد علموا بعض العلم عن الرجل، لأنه انما يتحدث في الغالب عن نفسه او عن ذويه في قصصه؛ وقد روى ذكريات طفولته في تلك المخاطر التي عزاها إلى أولئك الأطفال الذين عاشوا على ضفاف (المسيسبى)؛ وليست العمة الشهيرة (بولي) في قصته (توم ساوير) إلا أمه.
ولعلنا نستطيع أن نزيد في هذا العلم شيئاً بحكاية تاريخ حياته المضحكة المبكية المملوءة بالمخاطر والأحداث والطرف، فانها في ذاتها لا تقل امتاعا للقارئ عن سائر كتبه
فى 30 نوفمبر سنة 1835، وفى قرية (فلوريدا) بولاية (ميسوري) ازدادت أسرة المحامي (جون كليمانس) واحدا بولادة طفل خامس سموه (صمويل)، ثم صار بعد حين من الدهر (مارك توين)؛ وكان يؤكد أنه لم يكد يولد حتى وجد له محلا بين عظماء الناس، لأن ولادته زادت في عدد قريته واحدا في المائة، إذ كان تعداد سكانها مائة بالضبط
وفي سنة 1839 عين أبوه العابس القاسي قاضياً في (هانيبال) على شواطئ المسيسبي فلحقت به أسرته، وهناك قضى صمويل شطرا من طفولته. وكانت الطباع في ذلك البلد شرسة، والأخلاق منحلة؛ فالمقامرة والمعاقرة والعراك والقتل أمور مألوفة وحوادث فاشية، وصمويل قد شهد بنفسه أربع حوادث من حوادث القتل، وقد اختزن في ذاكرته جملة من مشاهد هذه الحياة وصفها في مؤلفاته. وكان في هانيبال عدد وفير من العبيد؛ وكان لأسرة كليمانس منهم ثلاثة أعبد جاءت بهم أم صمويل مهراً لأبيه. وكان هؤلاء المساكين يحبون
صمويل حباً جماً لرقته وعطفه؛ ولهم من ذكرياته في مؤلفاته حظ عظيم
كان صمويل في المدرسة شديد الكسل ردئ العمل، يؤثر على درسه وكتبه الاجتماع بطغمة من رفاقه الأشرار الذين أتى وياهم من المنكرات والسيئات ما قرأناه بعدُ في قصصه. وقد يئست أمه من صلاح أمره؛ وكانت سيدة جميلة ذكية متسلطة تؤثره

وترعاه، ولها عليه سلطان قوي مدى عمرها الطويل إلا في الجانب الذي يتعلق بدراسته. كان تقويمه من طريق الاقتناع عبثاً، فعمدت أمه إلى تقويمه بالضرب والأذى؛ وفي ذات يوم قالت له وهي تضربه: صدقني يا بني أني حين أضربك أتألم بشدة، فأجابها بقوله: هذا ممكن، ولكنك تألمين في غير الموضع الذي أتألم منه. وهذا الجواب الذي صار مثلا يشهد هو وغيره أن صمويل كان حاضر البديهة سريع الجواب كان من عادة مارك توين أن يقول: (إن السيد الحقيقي للانسان هو المصادفة). وذلك قول صحيح بالنسبة له، فان المصادفات الطارئات والظروف المفاجآت كثيرا ما غيرت مجرى حياته. فقد كان صمويل لا يزال على مقاعد الدرس حين فجعه الموت في أبيه، فاضطرت أمه أن تخرجه من المدرسة وتجعله (صبياً) عند صاحب جريدة (هانيبال كوريه) يعمل له من غير أجر إلا الطعام والمأوى؛ ولكن الجراية كانت وا أسفاه قليلة لا تسد رمقه. ولما أصدر أخوه الأكبر (جريدة هانيبال) في سنة 1850 ضمه إليهوعمره يومئذ لا يزيد على خمس عشرة سنة؛ ولكن النجاح لم يكن على قدر الأمل فقل عدد الموظفين واضطر صمويل إلى أن يجمع بين صف الحروف وبين ترتيب المواد، وأن يجوب بعد ذلك شوارع المدينة للتحصيل، فيعود مملوء اليدين بالحبوب لأن أغلب المشتركين كانوا يؤدون قيمة اشتراكاتهم عيناً. كان العمل كثيراً، ولكن صمويل مع ذلك كان يجد الفراغ لكتابة مقالة أو أقصوصة تظهر فيها دلائل قريحته الفكهة المنتظرة؛ وكان ينتهز الفرصة في غياب أخيه لبعض أعماله، فينشر في الجريدة ما يكتب؛ وكان أكثر ما يطرق من الموضوعات التعليق اللاذع على الحوادث المحلية، فيؤنبه على ذلك أخوه؛ ولكن الجمهور كان شديد الاعجاب بها، وأكثر القراء كانوا لا يشترون الجريدة إلا ليقرأوها

وفي ذات يوم رأى في غيبة أخيه أن يلهو مع القراء فنشر أقصوصة عن صحافي أمريكي مدع كان مولعاً بالأسفار، فوقع في بعض رحلاته في أواسط أفريقية أسيراً في قبيلة تأكل

لحوم البشر، فكان مصيره الأليم لا شك فيه، إلا أن شيخ القبيلة أراد أن يستجوبه طويلا عن حرفته، وعن الغاية المقصودة من رحلته، فلما سأله في ذلك أجابه المسكين وعيناه الزائغتان تنظران إلى معدات الوليمة: أنا لست إلا صحافياً متواضعاً يا مولاي العظيم. فقال له الشيخ: صحافي؟ تريد أن تقول انك مدير جريدة؟ فأجابه: أوه! كلا يا مولاي القادر ما أنا إلا وكيل حقير، فقال له اطمئن ايها الرجل الأبيض! سترقى بعد أن نصنع منك الحساء إلى مدير!!

كانت هذه النوادر المضحكة تستهوي ألباب القراء، ولكن أخاه (أوريون كليمانس) كان لا يجد لها مذاقاً ويرجو منه ألا يستمر فيها. على أن صمويل لم يحرص على البقاء في الجريدة، فقد كان نزوعاً بطبيعته إلى الاستطلاع والنقلة، ولكن افلاسه كان يحول بينه وبين قضاء هذه النزعة. وقد طلب من أمه أن تقرضه خمسة دولارات فأبت عليه ذلك حتى لا تشجع فيه هذه النزعة التي تحسبها نوعاً من التشرد والصعلكة؛ فاضطر إلى أن يتذرع بالصبر حتى يجمع المبلغ المطلوب بارة فبارة، حتى اذا ظن أنه أصبح غنياً يستطيع مواجهة العالم الفسيح فر في ليلة من الليالي يريد (أن يحيا حياته) على حد تعبيره، فكسبه الترحال والتجوال ثروة في اختباراته، ووفرة في انطباعاته، أفادته كثيراً فيما بعد حين تكتشف مواهبه النادرة عن الكاتب النابه (مارك توين)

على أن من النادر أن تأتي الشهرة والنباهة دفعة واحدة، فقد كان أول الطريق على صمويل وعراً، طوّف في البلاد ما طوّف حتى بلغ نيويورك، فأتقن فن الطباعة، ثم ارتد إلى هانيبال، وكان عمره إذ ذاك ثمانية عشر عاماً؛ وكان أخوه في غضون ذلك قد تزوج وأصبح مديراً لإحدى المطابع، فصار صمويل عاملا من عمالها، ولكنه كان قد تذوق الحرية وقرأ كثيراً من كتب الرحلات، فما كان يحلم إلا بانتجاع أمريكا الجنوبية على ضفاف الأمازون؛ وكان للمصادفة مرة أخرى يد بيضاء في توجيه الشاب الحالم. فقد عثر ذات يوم في الطريق على ورقة مالية من ذات الخمسين دولارا، ولما لم يجد لها طالباً في الصحف احتفظ بها وعاد من جديد يضرب في الأرض. سار على ضفاف المسيسبي منحدرا مع مجراه حتى بلغ بعد خمسة عشر يوما (أوليان الجديدة)، وهنالك أدركته خيبة

الأمل؛ فقد علم أن ليس في البواخر ما يسافر إلى الجنوب، وإذن لا يستطيع أن يبحر كما فكر وقدر. صفرت يده من المال، وهدده الشرط أن يعاملوه معاملة المتشرد، وأخذت حاله تسوء من يوم ليوم. . . ولكن إله المصادفة كان يرعاه، ففي الوقت الذي بلغت فيه حاله من الحرج وحياته من الضيق مبلغا شديدا، ألفى في طريقه بحاراً يدعى (بكسبي) تقدم إليهصمويل ليكون تلميذاً بحرياً في سفينته دون أن يفكر في المصاعب التي يلقاها الملاح في نهر كالمسيسبي طوله اثنا عشر ألف ميل، وبه من التعاريج ما يجب على راكبه أن يعرفها على التفصيل والجملة. ولكن وساطة بعض الأصدقاء ذللت له العقبات وسهلت عليه القبول. قضى المغامر الشاب عهد التعلم الشاق في ثبات وصبر وشجاعة، حتى غدا قائدا ماهرا للسفينة. . . أصبحت حجرة الدفة مأواه، والنهر المتنوع الحي مدرسته، فكانت هذه الحياة العاملة التي قضاها في النهر بعد تلك المقالات التي نشرها في جريدة أخيه مدرسة ناجحة لهذا الصحافي المنتظر؛ ومن مِلاحته في الماء العذب أخذ صمويل اسمه المستعار (مارك توين)، فقد كان في بعض مواضع النهر كثبان من الرمل، فإذا ما اقتربت السفينة منها سبر العامل المختص غور الماء، وقال وهو يلاحظ المسار: ارقم ثلاثة أرقم اثنين وهلم جرا. . . فأعجبت صمويل كلمة مارك توين فاتخذها اسما له. راغ صمويل من حرب الانفصال طول شبوبها، ثم سافر بعد ذلك مع رفيق له يبحثان عن الذهب، ولكن ما معه من المال نفذ سريعاً، فاضطر إلى العمل أجيرا في منجم من مناجم الذهب بعشرة دولارات أسبوعيا، وهي أجرة ساخرة إذا قيست بالعمل المرهق المنهك الذي كان يؤديه هذا المسكين. وذلك كان رأيه، فانه حين ظفر يوماً بمقابلة المدير طلب منه زيادة الأجر فقال له المدير: إنك لا تساوي شيئاً؛ ومع ذلك فأنا أحب أن أعرف ادعاءك. فقال له صمويل بأدب: إني رجل معقول، لذلك أقنع بأربعمائة ألف دولار في الشهر! فما كان جواب المدير إلا أن طرده لتّوه. ولما لقيه بعد ذلك مصادفة سأله ألم تندم على شيء؟ فقال له: بلى (بعد أن علمت ما هو العمل في المنجم كان ينبغي أن أطلب سبعمائة ألف دولار أجرة في الشهر لا أربعمائة ألف كما طلبت)

بعد هذه التجربة القاسية عزم صمويل أن يبحث عن الذهب على حسابه، فاشترك مع رفيق له، وحصل على امتياز ومضى في العمل. ولكنه تعلم على حسابه أن الثروة لا تواتي الجسورين دائماً. فقد أهمل هو ورفيقه أن يسورا الأرض التي يملكان فيها الامتياز، فنازعهما على ملكها بعض الناس، وأعوزهما الدليل فآلت إلى هؤلاء المنازعين، وبحثوا فيها فعثروا على عروق خصيبة من الذهب. وكانت الصدمة قوية على الشابين. ولكن المصادفة أدركت صمويل في ساعة المحنة. إذ طلب إليهأن يكون وكيلا للإدارة في جريد (انتربريز)، وهذا المنصب في نظر صمويل كان عرقاً ذهبياً من نوع آخر، إذ أدخله على غير انتظار في حلبة الأدب. وكان دخوله في تحرير هذه الجريدة فرصة حسنة تمكنه من ناحية الإنشاء والقصص، فصقل بالتحرير أسلوبه، وهذب بالمران حكاياته، ولكن طبعه الهجَّاء وروحه المداعب الفكه لم يخمدا فيه؛ وأوشك في البداية أن يقع منهما في ورطة شديدة، وذلك أنه نشر في بعض الأيام بيانا عن حادثة قتل وقعت في محطة (دوتش نيكس) أطلق فيه لخياله العنان، فذكر أن القاتل بعد أن طعن زوجته وأطفاله التسعة بالخنجر وضرب نفسه فقطع عنقه من الأذن إلى الأذن، امتطى جوادا عدا به حتى بلغ (كنساس ستي) ثم خر صريعاً هناك. نقلت ذلك الخبر جرائد كليفورنيا كلها ثم حملت في تعليقاتها على وحشية القاتل وفظاعة جرمه، ولكن جرائد بعض الولايات القريبة روت ذلك الحادث الغريب وقالت انه حديث خرافة. فكان ذلك فضيحة طريفة للكاتب أوشكت أن تخرجه من عمله

ثم انتقل إلى (سان فرنسيسكو) واستمر يكتب في الصحف كتابة رفعت شأنه وأذاعت اسمه في ولاية (كليفورنيا)، ولكنه بعد أن نشر كتابه (قصة الضفدعة التي تثب) أصبح نابه الذكر بعيد الصيت في أمريكا أولا، ثم في سائر البلاد بعد ذلك؛ واحتل من الأدب العالمي مكانا ممتازاً لا يتبوؤه إلا القليل. كذلك في هذه المدة نال مارك توين شهرته الذائعة في فن المحاضرة، وأضاف إلى علمه العميق بفن القراءة وقدرته العجيبة على زخرف الحديث، موهبته الساحرة لجذب قلوب السامعين باللهو والضحك. ولما عزم أن يحاضر الجمهور لأول مرة كتب في الإعلان الذي ألصقه على الجدران: (فتح

الأبواب في الساعة السابعة والنصف، وابتداء الضجة الفاضحة في الساعة الثامنة تماما. ولما زار إنجلترا ليلقي فيها بعض المحضرات أحس في أول اختلاطه بالجمهور اللندني بعض الفتور وشيئا من عدم الثقة، فعلم أن ليس من اليسير التغلب على الطبع الإنجليزي المتزمت المحتشم، فطفق

يتحدث عن أخبار رحلاته وعن انفعالات نفسه أمام جبل (يبرد الهواء على قمته بردا يجمد له مخ الإنسان في التو، وأثر ذلك في كل من يصعدونه أن يصبحوا عاجزين عن قول الحقيقة) ثم سكت قليلا وقال في لهجة نادمة ساذجة: (إني أعرف شيئا عنه لأني صعدت فوقه!) فانفجرت قاعة المحاضرة بالضحك الغرب، واعتقد ساعتئذ أنه ربح الصفقة واكتسب السامعين

وكان يلقي ذات مرة محاضرة في (بوستن) فقاطعه أحد السامعين وسأله رأيه في الجنة والنار، فأجابه (لا أريد أن أبدي رأيي فيما تسأل، لأني لي أصدقاء كراما في هذه وفي تلك!)

كان مارك توين ذكي القلب متوقد الذهن، ولكنه لم يكن على شيء من حسن السمت وجمال الشارة، فقد كان هندامه مهملاً ولقاؤه فجاً ومعاملته خشنة؛ على أن السنين صقلت هذا الفلاح فاكتسب سمت النبلاء بفضل امرأته (أوليفيا كليمنس) التي بنى عليها في سنة 1870. وكانت هذه السيدة أنيقة مثقفة ذكية، فأثرت تأثيرها الجميل في زوجها، ودامت حياتهما الزوجية خمسا وثلاثين سنة لا يكدر صفاءها حادث، ولا ينغص هناءها خلاف. وقد جاهدت هذه الزوجة الكريمة في إصلاح زوجها، فلمت شعثه وحالت بينه وبين بعض الأمور التي لا تلائم مكانته. كانت ترعاه رعاية الأم لطفلها، فلا تدعه يخرج إلى مكان ما قبل أن تفحص هندامه فحصاً دقيقاً مخافة أن يكون في شكله وزيه ما يخالف العادة

وكانت تنبه إلى كل شيء حتى إلى خلع معطفه في المدخل قبل أن يدخل البهو. فإذا غابت ذات يوم كانت الطامة، فقد اتفق مرة وهما في واشنجطون أن خرجت السيدة كليمنس لبعض شأنها، وكان على مارك توين زيارة لابد أن يؤديها إلى سيدة من سيدات الطبقة العليا. فارتدى ثيابه بنفسه وخرج دون أن يخضع هذه المرة لتفتيش زوجه. أدى الزيارة وعاد إلى مكتبه في زيه الفاخر وطفق يعمل. وكانت زوجته قد عادت في هذهالاثناء فدخلت عليه تلاطفه وتسأله عن الزيارة. ولكنها لم تكد تلقي على السيد نظرة حتى رفعت يدها إلى السماء وصاحت قائلة: يا الله! أفي هذه الهيئة زرت السيدة فلانة؟ فأجابها: وهو قلق يعيد النظر في نفسه خلسة: ماذا؟ ألست في زي أنيق وشارة حسنة؟ فقالت: ولكن أين رباط رقبتك؟ لقد نسيت رباط رقبتك! يا للفضيحة الفظيعة يا عزيزي!! فأجابها بلهجة

مصالحة: (أهذا كل ما هنالك؟ لا تضايقي نفسك فسأسوي الأمر) وما كان أشد دهشة الزوجة حين علمت في اليوم التالي كيف سوى زوجها الأمر! علمت أنه أرسل رباط رقبته مع الخادم إلى السيدة التي زارها مصحوباً ببطاقة كتب عليها: (هذه تكملة زيارتي)

على أن الدهر لم يسالم الكاتب النابغ طويلا، فقد فجعه الموت في ثلاث من بناته قضين صغيرات، وجل الخطب وفدح الرزء بفقد زوجته المحبوبة؛ ولكنه عاد فتصرف على هواه، وقرر بعد موت زوجته ألا يرتدي غير الثياب البيض وقد حرص على اتخاذ هذا اللون بقية عمره

كان مارك توين رقيق القلب شديد العطف على الناس يقابل ضعفهم بالتسامح، وبؤسهم بالرحمة، وجرمهم بالعفو؛ وذلك في شيء من الفكاهة الحلوة والدعابة الخبيثة. دخل اللصوص ذات ليلة في منزله في (إستار مفليد) وسرقوا كل ما وجدوه من الأواني الفضية؛ وكانت هذه السرقة شغل البيت وحديث أهله بالطبع، فأخطروا الشرطة وأذاعوا الخبر وتقاسموا الهم، إلا مارك توين، فقد كان في هذه الضجة هادئاً لا يعبأ بشيء ولا يقوم بحركة. فلما هم بالانصراف ليلاً إلى مخدعه علق في مكان ظاهر من مدخل الدار ورقة كبيرة كتب فيها هذه الكلمات

(اعلان للصوص في المستقبل)

ليس في المنزل بعد الآن أوان فضية بل مفضضة، وهي في ركن من أركان قاعة المائدة بجانب السلة التي تنام فيها القطط الصغيرة؛ وإذا احتجتم إلى هذه السلة فلا

تنسوا أن تضعوا القطط في درج البوفيه الأسفل. أرجو ألا تحدثوا ضوضاء، وأن تغلقوا الباب وراءكم، وتقبلوا خالص احتراماتي.
(س. كليمانس)
ومن السهل أن نتصور ما قابلت به الأسرة هذا الاعلان من الدهش العظيم والضحك الشديد. وهكذا عاش ممثل الذكاء الأمريكي حتى توافاه الله في 21 ابريل سنة 1910 وهو في أوج مجده

حول السنين والشيعة

إلى الأستاذ أحمد أمين

للأستاذ السيد محمد صادق الصدر

يسرني ويسرني جداً أن أقرأك أيها الأستاذ الأمين على صفحات (الرسالة) - صحيفة الأدب الخالدة - حاملاً لواء الوحدة، داعياً إلى الاتحاد والألفة. وإن في لحنك الجديد العالي - يا أستاذ - لذة ومتاعا، وإن فيه كل ما تصبو إليهالنفوس الحساسة الشاعرة، وإن تفسيرك للفظة الشيعية التي وردت في كتابيك الجليلين وسفريك الثمينين: فجر الإسلام وضحاه، وتصريحك بأنك لم تقصد من لفظ الشيعة الأمامية الاثني عشرية منهم، وإنما قصدت المغالي الممعن في غلوه، كل ذلك منك عاطفة مشكورة هذه لدليل أقوى دليل، وبرهان أسطع برهان، على أدب نفسك وطهارة ذاتك، وعظيم أخلاقك وخلالك. وكن على يقين معي بأن تصريحك هذا قد رفع سوء التفاهم وأزال من نفوس إخوانك الشيعة البررة كل ملامة وعتب؛ وإذا قرأت أو سمعت عن مفكريهم شيئاً لا يرضيك، فإنما كان ذلك غيرة على طائفتهم ودفاعاً عن آرائهم ومعتقداتهم، وهذا طبيعي لكل أمة تحتفظ بكرامتها، وتحرص على سمعتها؛ واسمح لي بأن أقول إنهم لم يخطئوا إذ فهموا من لفظ الشيعة أنك عنيتهم ما دام لفظ الشيعة مطلقاً غير مقيد؛ وليس في كتابيك (فجر الإسلام وضحاه) عبارة واحدة على تقييد الشيعة بالغالية لتخرج الاثني عشرية عن لفظ الشيعة المطلق الذي يشمل فرق الشيعة المتعددة؛ ومن المقرر في أصول الفقه أن المطلق إذا لم تقم قرينة تدل على تقييده يحمل على إطلاقه. وقد تكون ثمة قرائن - لا قرينة واحدة - قامت لدى الشيعة على الإطلاق وحملتهم على ما فهموه، فان ذكرك للفظ الشيعة مطلقاً أيضاً في كتابك (ضحى الإسلام) - بعد أن زرت العراق وطفت بمدن الشيعة، واجتمعت برجالاتها، وعرفت الشيء الكثير من عقائدها وآرائها - سوغ لهم هذا الفهم وحملهم على أن يعتقدوا هذا الاعتقاد؛ ولست أريد بكلامي هذا أن أثبت أنك تقصد ما فهموه، وإنما أريد أن أقول إنهم لم يخطئوا في فهمهم ما دام إطلاق اللفظ كان يحتم عليهم فهم ذلك. وعلى كل حال سترى من الشيعة إخواناً شاكرين أفكارك وآراءك الأخيرة

وأود أن ألفت نظرك إلى نقطة مهمة وردت في مقالك القيم، فقد قلت: (وليست الأمامية التي يدين بها أهل العراق وفارس إلا فرقة واحدة من فرق عديدة بعضها باق إلى اليوم، وبعضها عفى عليه التاريخ). إن الطائفة الاثني عشرية هي الطائفة الوحيدة اليوم من طوائف الشيعة وهي مبثوثة في العراق وفارس والهند وأفغان وسورية والبحرين والحسا والقطيف وفي غيرها من الأقطار الإسلامية، وكل ما يبرز للعالم من آثار علمية ومنتوجات أدبية هو مما دبجته أقلام علماء هذه الفرقة وكتابها وشعرائها، ولم يبق من طوائف الشيعة المتعددة غير هذه، اللهم إلا بعض طوائف ضئيلة لا تذكر. لذلك أصبح لفظ الشيعة اليوم خاصاً بهذه الطائفة يتبادر إلى الذهن لدي إطلاقه؛ وقد بادت - والله الحمد - أكثر هاتيك الطوائف الضالة التي شوهت سمعة الشيعة. وأملي وطيد ألا تعرض في الجزء الثالث من فجر الإسلام إلى غير هذه الطائفة لأنها هي الطائفة الوحيدة من بين طوائف الشيعة المتعددة، التي يطلق عليها لفظ الشيعة بكل ما لهذه اللفظة من معنى؛ فهي التي شايعت علياً عليه السلام وتابعته في أفعاله وأقواله، وليست طوائف الشيعة الضالة من التشيع في شيء ما دامت أفعالهم وأقوالهم لا تتفق وأقوال أهل البيت عليهم السلام وأفعالهم. ومن الخطأ جداً أن نجعل المقياس والجامع للتشيع حب علي (ع)، لأنا إذا أردنا أن نجعل المقياس هذا العنوان وجب أن نطلق على السنيين لفظة الشيعة أيضاً، لأنهم يحبون الأمام ويقدسون شخصيته، فالمقياس للتشيع إذن هو المشايعة والمتابعة، وهو الذي يقتضيه لفظ

الشيعة؛ أما الطوائف التي لا نجدها مطابقة لهذا اللفظ فليست من الشيعة في شيء وإن ألصقت نفسها إلصاقا واتخذت لها هذا الاسم وساماً

أما ما رجحت من عقد مؤتمر في بغداد يجمع بين علماء الطائفتين، ويؤلف بين الفرقتين فهذه فكرة ناضجة، وأصبحت اليوم محتمة. وجدير بكل مسلم أن يبث هذه الدعوة، ويسعى لتحقيق هذه الفكرة فقد آن أن نتفق ونتحد، وآن لنا أن نوحد الصفوف ونجمع الكلمة، وآن لنا أن ننبذ النعرات الطائفية التي كانت السبب الوحيد في شق عصا المسلمين وبث روح الخصام في نفوس الأمة المسلمة التي كان يسودها الاتفاق، ويعلو سماءها الحب والوئام. وحري بنا - ونحن في هذا العصر الذي كثر فيه أعداء الإسلام ومناوئوه - أن نتناسى الماضي ونسدل حجاباً كثيفاً على كل ما من شأنه أن يكدر الجو ويثير العداوة والبغضاء. وإذا فرقتنا المذاهب بالأمس فستجمعنا المصائب اليوم. وإني أتذكر كلمة خالدة في هذا

الموضوع لعلامة جبل عامل الأكبر الأمام السيد عبد الحسين شرف الدين نوهت عنها مجلة المنار الإسلامية، فقد قال عن الطائفتين: (فرقتهما السياسة، وستجمعهما السياسة)؛ فالسياسة التي فرقت بينهما طيلة الأعصر الماضية هي هي التي ستجمع بينهم في هذا العصر وتوحد صفوفهم في الأعصر الآتية؛ وإن الواجب ليحتم على كل فرد من أفراد الأمة الإسلامية أن يبث روح الاتفاق الحية، ويسعى جهده في كل ما يرجع إلى صالح الأمة. (فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته)، ولكن مما لا شك فيه أن المسؤولية العظمى تلقي على عاتق العلماء والمفكرين من الأمة، فانهم هم القادة، وهم الذين يقدرون الواجب، وهم الذين يحسون بمسيس الحاجة إلى بث روح الاتفاق والألفة، وهم قادرون - بما أوتوا من علم وحكمة وقوة بيان - أن يخضعوا العامة لآرائهم ونظرياتهم؛ وإذا قام العلماء ببث هذه الروح، وقاموا بإيجاد مؤتمر إسلامي عام، فإنما يقومون بواجب تفرضه عليهم حالة الأمة الإسلامية الحاضرة، وتحتمه آي القرآن الكريم ونصوص السنة المقدسة؛ فالقرآن الكريم يحض على الاتفاق، ويحث على الألفة فيقول: (إنما المؤمنون اخوة)، ويقول: (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض)، ويقول: (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم) ويقول (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) إلى غير ما هنالك من الآيات الكريمة التي تحتم على المسلمين أن يتفقوا، وتحذرهم أن يتفرقوا فتذهب ريحهم، ويخسروا عزهم ومجدهم. ونحن لو رجعنا إلى السنة النبوية المقدسة لوجدناها تضرب على هذا الوتر وتلحن أحاديثها الشريفة على هذا التلحين، وتواجه المسلمين بنحو هذا الأسلوب فتقول: (ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم، وهم يد على ما سواهم فمن أخفر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه يوم القيامة صرف ولا عدل) والأحاديث في ذلك كثيرة. وكان صلى الله عليه واله وسلم يبث هذه الروح المباركة ويحض عليها بمختلف التعبير، وكان لإرشاداته (ص) وتعاليمه القيمة دوي عظيم في أنحاء الجزيرة العربية، وأثر في نفوس المسلمين الأثر الذي جعل فيهم روحا وثابة حية كانت هي السبب الوحيد في رقيهم الباهر، وتقدمهم العظيم. فالأمة الإسلامية ما اجتازت تلك المراحل، وما وصلت إلى ما وصلت إليه من المجد والعظمة إلا بالتمسك بالاتفاق والاعتصام بحبله المتين؛ بفضل الاتفاق أصبحت الأمة الإسلامية أمة

حية، وبفضل الاتفاق تربعت على دست الحكم وقبضت بيدها الحديدية على أنحاء المعمور. وإذا أردنا أن نسترجع مجدنا القديم ونسترد عزنا السالف لتحتم علينا أن نتقدم للعمل حاملين هذه الروح الوثابة المباركة. (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون).

بغداد - الديوان

محمد صادق الصدر

!!وا أَمَّاهُ

للأستاذ الحاج محمد الهراوي

تكَشفْتُ للأَحداثِ بعدكِ يا أُمَّي ... فيا طولَ ما أقَي من الحزنِ والهمِّ

ليَ الله يا أَمَّاهُ ما أنا بالّذي ... تعَوَّد أَنْ يَقْوَى على الحادثِ الجَهْم

تلمَّسْتُ حَزْمِي في المصاَب فعزَّني ... لقد غاب عنَّي في الثرى مَصْدر الحزم

فقَدْتُ الّتي كانتْ إذا شطَّ بي النَّوَى ... تُساَئِلُ عنّي في الدُّجى سَارِيَ النَّجم
وإن تَرْمِنِي الأقدارُ منها بحادِثٍ ... تَلَقَّفُه عنّي على الرُّوح والجِسْم
وإن تَرِبَتْ كفِّى تجودُ برُحها ... مخافةَ ما لَمْ أحتمِله من العُدْم
وإن مسني سُقْمٌ ثوَتْ عند مَرْقدي ... لِزاماً فلم تَبْرَحْهُ إلاّ معَ السُّقْم
عَلى أنَّها والسُّقْمُ يَرْى عِظَامَها ... تُحاوِلُ أن تُخْفيهِ عَنّيَ بالكتْم
ولو أنها استطاعت لأَخْفتْ حِمامَهاَ ... وقد حُمَّ، إشفاقاً عليَّ من الصّيْم
فيا رَحْمَتاَ للفاَقِدِي أمَّهاتِهِمْ ... من الناسِ مِثلي أو من الطيْر والبُهْم
فإن الحنَانَ الحقَّ في الأمَّ وحدهاَ ... وغيرُ حناَنِ الأمَّ ضَرْبٌ من الوهْم
هِيَ الأمُّ شِرٌّ لستَ تَعرِفُ كُنهَه ... وإن خِلْتهاَ في صورةِ الدَّمَّ واللّحم
يقولون فانظُرْ رسمهاَ بعد موتِها ... فقُلتُ لهم في الرَّمْسِ أمِّيَ لا الرَّسم
فإن فاتَني ذاك الحنَانُ التَمَستهُ ... على حسْرَةٍ من ذلك القَبرِ باللَّثْيم
دَفَنْتُ به من لا ينِي إن دَعَوْتُه ... إلى معشَرٍ صُمّ إذا ما دُعُوا بكْم
فإن قلتُ يا أُمَّاهُ أغْنَاني اُسْمُهاَ ... عن الأبِ والأبناء والخالِ والعَمِّ
عِصامِّية كانت على حينَ أنَّهَا ... لها نسبٌ فوق النّقيصةِ والذَّمِّ
وأُمِّيَّة كانت ولكنَّ رَأيهاَ ... لدي مُعْضِلاَتِ الأمرِ فوقَ ذوي العِلْم
فقَدْتُ أبي طِفْلاً فلم أدْرِ ما الأسَى ... وأفقِدْتُهاَ كهلاً فَهدَّ الأسى عَزْمي
سَلونِي أحَدِّثْكُمْ عن اُليتمِ بَعْدها ... فإنَّ اُليتيمَ الكَهْلَ أعْرَفُ باليُتْم
فيا ليتَ أيامَ الحياةِ وقَفْنَ بي ... لدى مَوضعِي منها من اللثْمِ والضّيم
ويا لْيت لِمَ يَقطَعْ بنا الدهرُ شَوطَهُ ... فإن خُطَاهُ للقطيعةِ والصَّرْم
سَرَي لِيَ يا أُمَّاهُ طَيفُك في الكَرَى ... فغَابَ خَيَال الأمِّ عن زَوْرةِ الأُم
وأنَّى لِيَ السَّلْوى وقد حالَ دُونَها ... مِثالُكِ في عيني وطَيفكِ في حُلمِ
سأَخْضَعُ يا أُمِّي لقلبي ومَدْمَعِي ... على رَغمِ ما أسْديتِ من نُصْحِكِ اُلجَميل
وأبكيكِ بالقلبِ الذي تَعْرِفينَهُ ... وللدَّمْع شأنٌ غير ذلك في الحُكم

ليلة حوراء

للأستاذ عبد الرحمن شكري

رق الظلام بليلة ... حوراء كالطرف الكحيلْ
سحر العيون كسحرها ... بين الشواهد والشكول
هي فتنة الحدق الملا - ح ونعسة الطرف العليل
رق الظلام كأنه ... مُتَفيَّأ الظل الظليل
في روضة فينانة ... هجر الهجيرُ بها المقيل
وصفا الدجا فكأنما ... مزج النهار به الأصيل
فتمازجا كتمازج ال ... ماء المُصَفّى والشَّمُول
في جنحها وصفائها ... قُرِنَ الجليل إلى الجميل
وتصالحا من بعد ما اف ... ترق السبيل عن السبيل
تحنو علينا مثلما ... يحنو الخليل على الخليل
وتخالها حُلُماً بسع ... د جل عن قيد العقول
ولرب ليلٍ فاحم ... فيكاد يُقْطَعُ أو يسيل
لا مثل لَيْلَتيَ التي تندي على الوجد الدخيل
في سحرها وصفائها ... ونجومها برء الغليل
عم السكون كأنه مَلَكٌ على الدنيا نزيل
فكأنها رسم بدا ... وكأنها حُلُمٌ مخيل
في مثلها من هدأة ... سكن القضاء فلا يصول
وكهدأة في معَبد ... للخاشعين به مثول
وكأنما أغفى الهو ... ء كغضة الطرف الكليل
والبدر طيف في المنا ... م يطيف كالحِبَّ الوَصول
في مثلها من ليلةٍ ... عبد الداني أهل الحلول
ورأوا تَجَلّي الله في ... كونٍ عراه له ذهول
والزهر كالمسحور وس ... نان المحاسن في ذبول

والنهر غافٍ راكد ... نَسِيَ الترقرقَ والميل
وسنان يحلم بالريا ... ض وظلها فيه الظليل
في مثلها من ليلةٍ ... يقف الزمان فلا يحول
يصغي إلى نجوى القلو ... ب وذكرها العهد المحيل
كوقوف نجم سمائها ... يثنيه من سحر ذهول
كذهول مسحور بما ... تجلو من الحُلُمِ الجميل
يا ليل بل يا سحر بل ... يا حُلْمُ ليتكَ لا تزول
عبد الرحمن شكري
الحياة
للأستاذ فخري أبو السعود
ليت شعري لأي أمرٍ مُراد ... قد سرتْ منكِ نفحةٌ في الجماد؟
فاستقلت أجزاؤه من همود ... وصحا بعد طول ذاك الرقاد
دائبَ السعي لا يمل حراكاً ... مستمراً ولا طويل جلاد
ساعياً دون غاية يجتليها ... سعي ذي غاية جَلَّي المراد
صابراً للصروف كيف توالت ... مستجماً للنازلات الشداد
فيك بؤس له وفيك نعيم ... وهو في الحالتين لهفان صاد
يبلُغ الجوعُ منه والخوف والحز ... ن وعادتٍ من نازل الداء عاد
باسماً للرجاء يشرق بعد ال ... كد منه وبعد وَعْزِ الجهاد
آملاً كيفما تمادى شقاءٌ ... أن يدورَ الزمان بالإسعاد
وهو مهما أصاب خيراً مُريعٌ ... غيره منك طامعٌ في ازدياد
وهو مهما طال البقاء به را ... ج بقاءٌ وراغبٌ في التمادي
وحريصٌ على هواكِ وأنْ لم ... تنْق غير الجفاء والإبعاد
فرط حبٍ قد استوى أفتَكُ الفُتّ - اكِ فيه وأزهدُ الزُّهَّاد
ليس يدري سواكِ أصلاً وفصلاً ... ليس يَشْبيه غيرَ وَاديكِ واد
يكره الموتَ جُهْدَهُ وهو رَوْحٌ ... وقرارٌ له على الآباد
وإذا حَنَّ للخلودِ تَقِيٌّ ... يبغي بالصلاح دارَ الرشاد
فهو يبغي في الخُلدِ ما فيكِ من نُع ... مى ومن فتنةٍ ومن إرغاد
وهو يبغي جميع ذلك صفواً ... من صفوف القذى وَرَيْب العوادي
وهو يبغي جميع ذاك مُقيماً ... مستمراً له لغير نفاذ
جَنّةُ الُخلدِ صورةٌ منكِ تَغْذُو ... منه شتّى المُنى وحاج الفؤاد
فخري أبو السعود
فراق
للأستاذ رفيق فاخوري
يا خدينَ الصِّبا رعى الله عهداً ... لم يلد مثله الزمان المقلُّ
لا أرى لي عمراً سواه فأولا ... ظله لم يكن لمحيايَ ظل
هو فصلٌ من النعيم نهبنا ... هُ قصيراً، ولذةٌ لا تُمل
لُممعٌ من سعادةٍ ورخاء ... أعقبتْ حسرةً تَمُرُّ وتحلو
زعموا البعدَ منتهى كلِّ أُنسٍ ... وفراقَ الأحبابِ خطباً يَجِلُّ
قلتُ: إنْ أزمعَ الخليطُ احتمالاً ... ففؤادي بالوجد لا يستقل
نحن كلٌ بَحدة الروح يحيا ... وجميعٌ على العُداة مُطِل
فإذا ناله التفرقُ يوماً ... لم يكنْ فيه للحياة مَحلُّ
يا مَعين السلوان ليت لقلبي ... ما يُميت الحنينَ فيه فيسلو
آتهِ جرعةً تغول حجاه ... عَلّة من بواعث الهم يخلو
كاد من لوعةٍ وفرط اشتياقٍ ... عن حماهُ بين الأضالع يجلو
ضاقَ عن حُبّه فتىً ذا مراسٍ ... واشتكى من عذابه وهو طفل
حمص
رفيق فاخوري
القصص
صور من هوميروس

تفَزّغ الطرواديون مما أخذهم به أخيل؛ وزادهم خبالا هذا الظلام الذي راحوا يضربون فيه على غير هدى، والذي تمد حيرا في دياجيره فيتدجى فوق الساحة الصاخبة، ويمكن لابن بليوس من أعدائه فيضرب في أقفيتهم، ويهوي على أعناقهم، ويمسح بِسُوقهم ويضرب كل بنان

وضاق الجسر بجموع الفارين، فاضطروا إلى خوض عباب النهر الزاخر، وخَوَّضوا فيه بخيلهم ورجلهم. . وتطامن لهم سكمندر فسكنت أواذيه، ونامت جراجره، وانكشف قاعه عن حصباء كالدر النضيد. . . .

وتبعتهم أخيل فخاض مياه النهر، ثم أعمل سيفه ورمحه، فكانت شآبيب الماء تختلط وشآبيب الدماء، وأنين القتلى يمتزج وأصداء المنهزمين، والجماجم المنتثرة تصطدم بالأشلاء الطافية هنا وهناك، والسماء الكاسفة ترسل عقبانها تغتذي بالجزر المتساقط في رحب المعركة، من بطون مبقورة، وهام مُفَلّقٍ، ولحم مقروم. . . . . .

واستطاع أخيل أن يحصر اثني عشر شاباً فيأخذ عليهم سبيل الفرار، وفضل أن يرسلهم إلى سفائنه أسرى حتى لا يثخن في الأرض، وحتى يشهدوا ثمة ذلك القتيل المسجي، تسقيه ذيتيس الحزينة خمراً؛ فكبل أرجلهم وأيديهم من خلاف، ووكل بهم جماعة من رجاله فقادوهم إلى الأسطول، بعد ما وقفوا هنيهةً أمام جثة بتروكلوس، يؤدون لها تحية المعركة التي دارت رحاها عليهم، واصطلوا من بعده بنارها

وطفق أخيل يأخذ الجموع من كل حدب، ويلقاهم في كل صوب، حتى كان وجهاً لوجه أمام ليكاون بن بريام، الذي كانت له معه قصة قديمة مشجية، زمان إذ أسره أخيل واستاق قطعانه، وحبسه في جزيرة لمنوس، حتى افتداه أهله من الحرس الموكل به، ورشوهم بمائة ثور جسد ذي خوار ليطلقوا سراحه!

مسكين ليكاون بن بريام! لقد فر من جزيرة لمنوس منذ اثني عشر يوماً فقط، وسعى إلى هذه الساحة النكراء ليلقى فوق أديمها حتفه، كما لقيه أخوه بوليدور من قبل

ودهش أخيل إذ رأى ابن بريام يذرع الميدان أمامه، وعجب من أفلته من منفاه السحيق في عرض البحر. . . ثم أيقن أن في الأمر مكيدة. . فانقض على الفتى المسكين انقضاض الباشق، وأرسل إليهطعنة نجلاء كادت تخترم أجله، لولا هذه اللفتة الرشيقة التي أنفتلها الشاب فأنقذت حياته. . . ولو إلى حين!

وفتح الفتى عينيه فنظر إلى شبح الموت تنتشر سماديره من ظباة أخيل، وأحس كأن هذا الشبح يلاحقه في كل مكان فيقبض على عنقه ويضغطه، ثم ينشب فيه أظافره فيسري السم في هيكله الخاوي فلا يكاد يبين!

وحاول أن ينجو من روع هذا الموقف. . ولكنه كان أبطأ من حتفه الذي يسابقه، فلما أيقن أن لا سبيل إلى الفرار، ألقى سلاحه وتقدم إلى أخيل فقبل ثرى الساحة عند قدميه، ثم لف ذراعيه المرتجفتين حول ساقْي زعيم الميرميدون، وطفق يضرع إليهألا يقتله. . (فان لي أماً محزونة ما تفتأ ترسل دموعها على أخي بوليدور الذي قتلته منذ لحظة، والذي أذويت شبابه النضر ولم تبق على عوده الفينان، ولم ترحم فيه قلوباً تعطف عليه، وأباً شيخاً أصبته في ولده بقاصمة الظهر. . .

أرسلني يا أخيل تباركك الآلهة، وترعاك أرباب الأولمب، ولا تفجع فيّ ذيْنك القلبين الحنيين على، الحفيين بي. . .)

وكان الفتى يغسل توسلاته بعبرات شبابه، ويصهرها بآهات صباه. . . ولكن أخيل الذي يضطرم حزناً على بيروكلوس، لمتأخذه رحمة في ابن بريام المسكين، وأخي هكتور الذميم. . .! بل استل جزاره البتار وأهوى به على عنق الفتى. . . فطاح الرأس الطروادي الكريم!

وكان البطل الطروادي العظيم، سترابيوس بن بلجون، رب البركات، الذي يدين له بحياته أكسيوس رب النهر الشرقي الكبير. . . كان سترابيوس على مقربة من أخيل وهو يصرع ليكاون بن بريام، فجزع - شهدت الآلهة - على ابن الملك، وأحزنه ألا يرق أخيل لتوسلاته؛ ووقر في نفسه أن يقتص له من هذا الشيطان، ويخلص الطرواديين منه، فيطير

ذكره في الخافقين ويقترن اسمه بما لم يقترن به اسم أحد في العالمين. فيمم شطر أخيل والكبرياء تنفح أوداجه، والغرور يشيع في أعطافه، ثم هز رمحه هزة المتحدي الخصيم. . .

وزجره أخيل فلم يزدجر، فانقض عليه انقضاض الحتف، وأخذه أخذ المنية، لا تجدي فيها إذا أنشبت أظافرها النمائم، ولا تدفعها الرُّقي، ولا تُفلت من أقصدته ولو كان في برج مشيد!

وأرسل أخيل رمحه كالصاعقة، لو لقي الصخر لقده، أو الجبل لنفذ فيه، ولكن سترابيوس كان أرشق من أن يلقي الطعنة فانزلق انزلاقه خفيفةً أذهبت الرمح في الهواء، ثم هوى إلى الأرض فغاص فيها؛ ومن ثمة راح يداعب أخيل حتى أحنقه وحتى بلغ الغيظ منه، فامتشق بن بليوس سيفه وصرخ صرخة رجفت لها السماء، وانصدع من هولها جانب الجبل، وهجم على سترابيوس هجمة رابيةً فلم يفلته، بل أرسل السيف في بطنه فخرج سنانه من ظهره، وبرزت الأمعاء فاجتمعت حولها أسماك الماء، تنوشها وتتغذى بها.

وريع سكمندر، رب النهر العظيم، إذ نظر فرأى ابن ضيفه المقدام، يلفظ أنفاسه، ويُساقط نفَسه، فدارت الأرض به، وضاقت عليه بما رحبت، وتجهم من تَوّه لأخيل، وود لو انشق فابتلع ابن بليوس آخر الدهر، أو لو يأخذ هو سيفاً فيقد به أضلاعه، ويطيح به رأسه، ويريح العالم من بأسه. لكنه آثر، كأله له وقاره، أن ينذر أخيل ويأخذه بالحيلة، فخاطبه من القرار، قال: (أخيل! يا ابن بليوس العظيم! أنا لا يهمني أن تصطلم الطرواديين جميعاً، ما دام زيوس قد سلّطك عليهم ورماهم بك. . . أنا لا يهمني من ذلك شيء. . . ولكن الذي يحزنني ويضيق به صدري هذه الجثث الكثيرة التي يعج بها عبابي، وينتشر منها الخبث في أرجائي. . . لقد أنتنت يا أخيل، وخالطت عذوبة مائي، ولم يعد لي بها طاقة، ولا عليها جلد. . . وهي إلى ذلك كادت تقف تياري، وتشل حركتي. . . فهلم فارفعها عني، وقف التصريع والتقتيل حتى تطهر مجراي من أدرانها وحتى ألفظ أنا إلى البحر ديدانها. . .)

وتبسم أخيل قائلا: (أما أن أقف هذه الحرب فلا سبيل إلى ذلك حتى آخذ بثأر بتروكلوس، وحتى أدك طروادة على رأس هكتور، فاما أن ألقاه فأقتله وإما إن يلقاني فيقتلني؛ وأما أن أطهر مجراك من هذه الجثث الطافية فوقه فليس لي الآن بذلك يدان. . . أو تضع هذه الحرب أوزارها. . .)

وحنق سكمندر العظيم، وانطلق إلى أبوللو يكلمه في أمر أخيل، ولم يدعه أبوللو حتى أغراه بابن بليوس أعدى أعدائه، وأشد شانئيه، وحتى أثاره عليه، وهاج فيه كل حقد دفين. وعاد سكمندر فأشار إلى الماء فعلا وفاض، وإلى الموج فتلاطم وجرجر، وإلى الأواذي فدوّمت وهوّمت، ولاحقت أخيل من ههنا ومن ههنا؛ وظن ابن بليوس إلى الخطر الذي أوشك أن يحيق به فهرع يحاول الفرار. . . ولآت حين فرار. . . فقد أزبد الموج، وانساب العباب، وتشققت الأرض عيوناً ومسايل، وعَمُقت اللجة، وبعد ما بين سطحها وبين قدمي أخيل، أو ما بينه وبين قرارها، فأطلق المسكين ذراعيه يسبح في أغوارها، ويتعلق بالجثث الطافية فوقها

وأشتد الخطب، وعظم الكرب، وصرخ أخيل يستنجد أربابه، فما كادت حيرا تسمعه حتى فزعت إليه، وأمرت فلكان ابنها فانطلق يجفف الأمواه بنيرانه، ويرسل على الطوفان بدخانه، ويستعين في كل ذلك بآلهة الريح التي هرعت إليهمن كل صوب تساعده، وكان زفيروس الكريم يهب على النهر اللجي سجسجاً، ويذهب منه بكل مزنةٍ مثقلة، وديمة محملة، فلم يمض غير بعيد حتى صفا الجو، وغيض الماء، وبرز أخيل يحمل عدته، فطربت الآلهة لنجاته، وانقض فلكان على سكمندر يحاول أن يثأر لأخيل منه. . .! ولكن بعد أن عاهد حيرا - إذ هي صدت عنه ولدها فلكان - أن يحصر الطرواديين بموجه، فلا يمكنهم من الدخول إلى مدينتهم، ويجعلهم بذلك هدفاً لأخيل يصنع بهم ما يشاء!!

وتثار الخصومة بين الآلهة لموقف فلكان من سكمندر. . . ويغيظ مارس من مينرفا أنها تؤيد فلكان وتحرضه على رب النهر المسكين الذي أفزعته النيران تأخذه من كل حدب. . . فتقدم إليها وطفق يقرعها وتقرعه، ويرميها بالمثالب وترميه بها. . . ثم تناول

رمحه العظيم واستجمع كل قوته، وأرسله يود لو يقضي به على ربة الحكمة الحازمة، ولكن، ويل لك يا مارس! لقد ارتد الرمح فلم يستطع إلى درع مينرفا من سبيل. . . وانحنت الآلهة المغيظة فأخذت حجراً من أكبر حجارة الجبل وقذفت به مارس فدكت عنقه، وتركته على السفح الشاحب لَقًى من ألقاء هذه الحرب!

وظل مارس ممدداً على السفح يخور ويئن، ويتلوى بجثته العظيمة التي كانت ترتطم بالجبل فتميد به، وتهزه هزاً ظاهراً

وأقبلت فينوس فوقفت تواسي مارس وتهون عليه ما فعلت به مينرفا، ثم أنهضته وانصرفت به، ولكن حيرا أرسلت في إثرهما مينرفا، ترى ما يكون من أمرهما. . . بعد كل تلك الفضائح التي لوثت شرفهما، وجعلت اسمهما مضغة في جميع الأفواه. . .

وأقبلت فينوس على مارس تشفي حرقةً في قلبه، وتنيله من قبلاتها ما تنسيه به بعض الذي لقيه من أذى. . . ولكن مينرفا أهابت بهما. . .! وطفقت تنصح لهما أن يدعا اليوم فلا ينصرانها على شعبهما المختار. . . هيلاس العزيزة! ولكن. . .! لقد أسمعت لو ناديت حياً. . .!! فلقد أعطيت فينوس موثقاً، وان فينوس لصادقة!!

وانطلق نبتون يعظ أبوللو، ويصرفه هو الآخر عن مؤازرة الطرواديين، فذكر له أيام أن نفاهما زيوس إلى أقصى الأرض، فأتيا إلى طروادة، وعملا في خدمة أميدون الجبار، الذي لم يتورع أن يرسل أبوللو فيرعى له قطعانه، ويسمّن نعمه وشاءه، كأن لم يكن أبوللو أبن إله عظيم، وكأن لم يكن هو نفسه إلهاً عظيماً!!. . . (أتذكر هذه الأيام يا أخي أبوللو!!. . أتذكر أيام أن كان هذا العاتية العنيد يسومنا الذل، ويقهرنا أرهق القهر، وينزل بنا أشد ألوان الخسف، متذرعاً بغضب سيد الأولمب علينا، لا تأخذه فينا رحمة، ولا يهمه أن نبرم ونتسخط ما دام - فيما كان يزعم - يؤدي ما أمره به أبوك زيوس!!

فيم هذه المناصرة كلها لطروادة يا أبوللو؟. . . ماذا تذكر من حسنات لملكها اللعين أوميدون؟! أنسيت يوم أسخطناه بالتراخي قليلاً في عملنا، فأمر بنا فقطعت آذاننا وشد وثاقنا، وأصبحنا ضحكة كل راء؟!. . . لا لا يا أبوللو. . . أنا لا أرتضي لك أن تكون غبياً إلى هذا الحد. . .)

وعملت فيه كلمات العم نبيتون عملها، فعاهده ألا يخوض غمار هذه الحرب كرة أخرى، وقاسمه ألا يسدد فيها بعد اليوم سهما. . . ولو عيرته أخته ديانا ألف تعيير!!!

وماذا لو عيرته ديانا، ورمته بالجبن أمام نبيتون؟! ها هي ذي حيرا تسمع إلى ربة القمر، فتقذفها أشنع القذف وأمره، ثم تهجم عليها فتكبلها، وتنثر كنانة سهامها، وتمضي بعد ذلك لشأنها. . . وتأتي لاتونا - أم ديانا الباكية - فتواسيها وتذهب وإياها إلى زيوس. . . المتربع فوق سدة الأولمب، فتشكو إليهما لحق ابنتها من زوجه. . . ويغضي الآلة. . . لأنه ليس له على حيرا يدان. . . . . .!

ويتم الظفر لأخيل وجنده بعد إذ ينسحب أبوللو من المعركة، فيأخذ الطرواديين أخذ عزيز مقتدر؛ ويقف بريام الملك في برج شاهق يطلع على الساحة، ويشهد هزائم جنده، فتدمع عيناه. . . ويأمر بالبوابة الكبرى فتفتح، ويهرع الجنود ناحيتها فراراً من أخيل وشياطين أخيل، ولكن أخيل وشياطين أخيل تشطر الجنود الفارين شطرين، بل يستطيع أخيل وكوكبة قوية من الميرميدون أن ينفذوا إلى البوابة الكبرى، ويدخلوا طروادة فاتحين. . . . . .!!

وهناك! يثبت لهم أجينور البطل الطروادي الحلاحل، ويأخذ مع أخيل في ملاحاة عنيفة، ثم يتقارعان برهة، ويصاول أحدهما الآخر. . .

ويكون. . . أبوللو. . .!! إلى جانب أجينور يحضه ويحرضه، ويثبت قدميه. . . ناسياً مواثقه التي قطعها على نفسه أمام نيبتون. . . . . .

ويهم أخيل أن يبطش بفتى طروادة

لولا أن يعز على أبوللو أن يلحق أجينور بصاحبه استرابيوس من قبل، وبعشرات الأبطال من مثل سترابيوس، فيتقدم إلى أجينور يحميه، ويرسل عليه سحابة بيضاء فيحمله فيها. . . . مضللا أخيل عن خصمه. . . ومبعده خارج البوابة التي يقفلها الطرواديون من دونه. . . . . .

(لها بقية)

دريني خشبة

البريد الأدبي

الصقالبة في الرواية العربية رد على ملاحظة

وجه إلى قارئ فاضل هو الأستاذ عطية الشيخ في عدد الرسالة الماضي ملاحظة بشأن ما ورد في مقالي (الصقالبة في الرواية العربية) تفسيراً لرواية الرحالة ابن حوقل البغدادي عن (صقالبة الأندلس). فقد ذكر ابن حوقل في رحلته المسماة بالمسالك والممالك عن الصقالبة ما يأتي: (وذلك أن بلد الصقالبة طويل فسيح، والخليج الآخذ من بحر الروم ممتد على القسطنطينية واطربزنده يشق بلدهم بالعرض، فنصف بلدهم بالطول يسبيه الخراسانيون ويصلون، والنصف الشمالي يسبيه الأندلسيون من جهة جليقة وأفرنجة وأنكبردة وفلورية، وبهذه الديار من سبيهم الكثير باق على حاله) (ص75)؛ قلت: (ومعنى ذلك أن الصقالبة الأندلسيين كانوا مزيجاً من الجليقيين (النصارى الأسبان) والألمان والفرنسيين (أهل افرنجة) واللومبارديين (أهل انكبردة) والإيطاليين (من فلورية))، ولكن القارئ الفاضل يريد أن يفسر قول ابن حوقل بأن الصقالبة كانوا يصلون إلى الأندلس عن طريق البلاد المذكورة، لا بأنهم كانوا يجلبون منها

وردي على ذلك هو أن المعنى الثاني هو الأرجح، وهو الذي اخترت الأخذ به، ذلك أن من بين البلاد التي يذكرها ابن حوقل أقطاراً كانت تقع في صميم بلاد الصقالبة في تلك العصور مثل لومبارديا (أنكبردة) وشرق افرنجة (ألمانيا)؛ وفي الوقت الذي زار فيه ابن حوقل الأندلس في أواخر عهد الناصر (أو أوائل عهد الحكم المستنصر) كانت كلمة الصقالبة تطلق في الأندلس على جميع الأجانب الذين يخدمون في البطانة أو الجيش؛ ولم يكن يقتصر في فهمها على الصقالبة الخلص، أعني سكان شرق أوربا وحوض الدانوب، وفي القسم الأول من مقالي شرح واف لتطورات هذه الكلمة، وذكر بعض المراجع التي تلقي ضوءاً على الموضوع.

م. ع. ع

التاريخ والسينما

كانت حوادث التاريخ وما زالت أعظم غذاء للمسرح والسينما؛ والمسرح القديم عريق في الاقتباس من حوادث ووقائعه الشهيرة؛ ولكن السينما استطاعت على حداثتها تتوسع في هذا الاقتباس سواء من حيث الوقائع أوالمناظر لتفوق وسائلها الفنية، وقد بدأت السينما باقتباس كثير من حوادث التاريخ القديم وشخصياته، فرأينا على ستارهاحياة كليوباطرة، وصفحات كثيرة من التاريخ الروماني قبل رواية (كوفاديس) الشهيرة؛ ثم كان عهد القصص التاريخية الكبيرة مثل (الفرسان الثلاثة)، و (مونت كريستو)، و (الفرنسية) لاسكندر ديماس وغيرها، وفي الأيام الأخيرة رأينا ممثلاً نابغاً هو السير أرليس يحي لنا طائفة من أشهر شخصيات التاريخ الحديث مثل ريشيليو، وفولتير، والدوق ولتون وغيرها

وفي الأنباء الأخيرة أن شركة فنية إنجليزية قررت أن تخرج شريطاً مصوراً يمثل حياة ألفرد نوبل المخترع السويدي جوائز نوبل الشهيرة للعلوم والآداب والفنون، وكان نوبل صورة رائعة التناقض، فقد قضي حياته في اختراع أصنافجديدة من المفرقعات المهلكة، ثم جعل كل ثروته بعد وفاته وقفاً على تشجيع العلوم والفنون، ورصد منها جائزة كبيرة تمنح كل عام لمن يقدم أجل خدمات لقضية السلام. وقد رأى نوبل قبل وفاته نتائج اختراعاته المهلكة في الحرب الفرنسية (سنة 1870) ورأى رائع فتكها ببني الإنسان فحزن لهذه النتيجةأيما حزن وغدت حياته عذاباً مستمراً، ورأى أن خير ما يكفر به عن هذا الإثم هو أن يهب كل ثروته التي جمعها من اختراع المهلكات لتشجيع أعمال السلام من علوم وفنون، وهذه المأساة المؤلمة وما يترتب عليها من العبر البالغة هي التي يريد مخرجو الشريط الجديد أن يبرزوها للناس

والظاهر أن التعاون بين السينما والتاريخ لن يقف عند تمثيل الحوادث التاريخية وإخراجها على هذا النحو، وانه لن يمضي وقت طويل حتى تقوم السينما بدور أهم في خدمة التاريخ؛ ففي باريس يعرض الآن شريط مصور (فلم) عنوانه (السينما في خدمة التاريخ) وهو عبارة عن شرح مصور لأشهر الحوادث التاريخية التي وقعت في الثلاثين عاماً الأخيرة، ومادته مأخوذة من الصور المعاصرة التي سجلت عن هذه الحوادث

نفسها. ومعنى ذلك أن المؤرخ قد يرى في الغد القريب في السينما نوعاً من المحفوظات التاريخية التي يمكنه أن يرجع إليها ليحقق بعض المناظر والحوادث. ولا ريب أن تسجيل الحوادث بطريق التصوير وسيلة مؤكدة لإجراء مثل هذا التحقيق؛ وفي وسع المؤرخ أن يعتمد كثيراً على
صورة لاجتماع برلماني، أو اجتماع دولي، أو مناظر ثورية، أو عسكرية، أو غيرها صورت وقت حدوثها، بأفضل مما يعتمد على الروايات المعاصرة ذاتها

مصادرة مؤلف ألماني

من أنباء النمسا أن الحكومة النمساوية قررت أن تصادر كتابا صدر أخيراً بالألمانية وعنوانه (الإمبراطورة اليزابيث وأنا) بقلم السيدة ماري لويز فون فالرسي لاريش، وقد أخرجته إحدى المطابع الألمانية في لايبزج. والإمبراطورة اليزابيث هي قرينة الإمبراطور فرانز يوسف وإمبراطور النمسا والمجر، وقد اغتالتها بعض الجمعيات الفوضوية في سنة 1898، وكان لمصرعها دوي كبير في أوربا. وقد كانت المؤلفة وصيفة في البلاط الإمبراطوري، وكانت صلاتها بالقصر والبلاط تهيئ لها فرصة الاطلاع على كثير من الأسرار والحقائق الملوكية؛ والظاهر أنها خرجت في مؤلفها المذكور عن حدود التحفظ المألوف

العيد المئوي لصمويل بتلر

احتفل أخيرا في إنكلترا بالعيد المئوي لمولد الكاتب والشاعر الإنكليزي الكبير صمويل بتلر، وكان مولده في نوفيمبر سنة 1835 في مقاطعة نوتنهام شير؛ وقضى طفولته فيما وراء البحار في زيلاندة، وتلقى بعد ذلك تربية جامعية حسنة في كمبردج. وكان بتلر ذا خلال ومواهب خاصة، فقد كان مصوراً بارعاً يتمتع في عالم التصوير بشهرة ذائعة، ولكنه نزل إلى ميدان الأدب فجأة وأخرج قصته الشهيرة (ايرهوم) وهي قصة طريفة تدور حول وصف عالم خيالي غير عالمنا وبلاد لا وجود لها إلا في مخيلة الكاتب على مثل (رحلات جوليفر) الشهيرة وهي قطعة تفيض بالمخاطرات والحوادث المدهشة، ولكنها تفيض أيضاً بالسخرية اللاذعة والتهكم المر؛ وقد قفاها في أواخر حياته بقصة أخرى من طرازها وعلى منوالها في سرد الحوادث وسماها (ايرهوم المنقحة) سنة 1901؛ وكتب بتلر أيضاً كتاباً أخرى منها (الحياة والعادة) و (التطور قديماً وحديثاً)، وهو مؤلف علمي يحاول فيه بتلر أن يدحض نظريات دارون في التطور؛ وكان آخر ما كتبه بتلر قصته الشهيرة تركها مخطوطاً ولم تظهر إلا بعد وفاته في سنة 1903؛ وله قصائد ومقطوعات شعرية كثيرة؛
وأهم ما يؤثر عن بتلر أنه كان بمثابة الأستاذ الروحي لكاتب من أعظم الكتاب الإنكليز المعاصرين ونعني به برنارد شو؛ وقد تأثر أيما تأثير بتفكيره وأساليبه في التهكم والسخرية اللاذعة. وكانت وفاة صمويل في سنة 1902

نادي الجامعيين

يدرس الآن أساتذة الجامعة المصرية فكرة إنشاء ناد لهم يقضون فيه بعض الفراغ، فيتبادلون المعرفة، ويتواضعون الرأي، ويتساهمون المودة. والفكرة حكيمة ولا شك، لأن توثيق الصلات الحرة بين ممثلي الذكاء المصري وأئمة الثقافة العالية له أثره البالغ في توجيه النهضة الفكرية، وتمهد السبل لها، وتوحيد الغاية منها
والمأمول أن نرى قريباً تحقيق هذه الفكرة

الفرقة القومية المصرية

افتتحت الفرقة الحكومية موسمها التمثيلي الأول مساء الخميس الماضي برواية (أهل الكهف) الأستاذ توفيق الحكيم، فسمعنا من وراء الستار قارئاً حلو النغم يقرأ قول الله تعالى في هذه القصة من سورة الكهف؛ ثم ابتدأ الفصل الأول بمقدمة موسيقية رائعة تترجم الصور الخيالية التي كانت تمر على الستار الأبيض مصورة اضطهاد المسيحيين في عهد دقيانوس قبل حادثة الرواية؛ وسنكتب عن الإخراج والتمثيل والرواية في عدد قادم

الكتب

في الأدب القديم

اعجام الأعلام: للأستاذ محمود مصطفى - 1
(أخرجته جماعة دار العلوم بإقرار لجنتها العلمية)

2 - الفروق اللغوية: لأبي هلال العسكري
3 - معجم الشعراء: للموزباني
4 - المؤتلف والمختلف: لأبي القاسم الآمدي
(نشرتها مكتبة القدسي)

للأستاذ محمد سعيد العريان

كيف نفهم الأدب القديم، وكيف نتروَّاه، وإلى أي مدى نستفيد منه، وما وسيلتنا إلى ذلك. . .؟

هذه أسئلةٌ كثيراً ما تعرض لي، حين يضمني مجلس إلى بعض المتأدّبين من ناشئتنا الذين يدعون إلى الجديد؛ وإن أعجب ما يلقاك في مثل مجلس هؤلاء، هو الدعوة العريضة، والإنكار الساخر - أو سمَّه الإنكارَ الجاهل - والاعتداد بالنفس في غير مُعتدّ، ثم الحكم الجامع لا نقض فيه ولا استثناء. ما ايسر أن تسمعمن واحد من هؤلاء. (الأدب القديم. . .! وما الأدب القديم؟ وماذا فيه. . .؟) فلا أدب عنده إلا هذا اللغو الذي تنشره له الصحف، أو هذه الرطانة العجماء تحاول أن تستعرب على لسانه؛ ولا إنشاء إلا على مثال برقيات (روتر) و (هافاس)، التي يترجمها (فلان) ويدعو إلى احتذاءها فيما يكتب الأدباء وينشئون. . .!

ولو أنك ذهبت تحاول أن تحمل واحداً من هؤلاء على غير ما يرى في الأدب القديم، أو أن تقنعه بما فيه من حياة وقوة - لأعياك أن تبلغ إليه؛ وأنى لك أن تبلغ وما يعرف أكثر هؤلاء ولا يفهمون من الأدب القديم إلا محفوظات المدارس. . . وما حصلوا من فنون اللغة إلا القليل من قواعد النحو والبلاغة في حجرات التعليم. . .؟ بل لو أنك أردت واحداً من هؤلاء على أن يحقق لفظة في معجم، أو يقرأ سطراً غير مشكوا في كتاب - لكنت كمن يطلب إليهأن ينقل صخرة، أو يحفر بئراً. . .! فمن أين لمثل هذا أن يتذوق ما تجلوه عليه من روائع الأدب القديم؟

وطائفة أخرى من هؤلاء المتأدبين آمنت عن تلقين، أو تقليد، أن في الأدب القديم ثروة مخبوءة، ومنجماً حقيقياً بالجهد وحسن الاستغلال؛ فراحت هذه الطائفة - طمعاً في الثورة وحسن الاستغلال وحسب! تحاول أن تعثر بشيء تستسيغه، أو تجد لَقًي تسعى إليه، ولكنها لم تأخذ الأهبة، ولم تهيئ الأسباب، وحسبت أن في أظفارها اللينة غَناءً عن الفئوس والمساحي في الحفر والتنقيب؛ قلما آبت أوبتها الخاسرة، عادت تعيب ما كانت تباهي به، وتنكر ما كانت تعترف؛ ولو أنصفت لعابت الجهد الكليل والعزم الخائر

وقد جلست مرة إلى آنسة متأدبة تشتغل بشؤون التعليم، فلقيتني متعبة مكدودة وهي تقول: (حسبي منك يا صاحبي ومن أدبك القديم!) قلت: (ماذا يا آنسة؟) قلت: (هذا (نهاية الأرب) بين يديّ منذ أيام ثلاثة، أحاول أن أجد فيه شيئاً يفيد تلميذاتي فأترجمه لهن في كتاب المطالعة الذي أشتغل بتأليفه فما وجدْت. . .!)

وكان هذا أول عهد صاحبتي بالأدب القديم، وقد لجأت إليه أوّل ما تلجأ، لتجد بغيتها تحت عينيها؛ فلما استيأست ونال منها الجهد، ورمت الكتاب وهي تسب الأدب القديم، وتعيب الأدب القديم!

وإنما يتأنى الفوز بمثل ذلك لمن أدمن الاطلاع والنظر، وداوم البحث والاستقرار، فيقرأ أولاً ليدرس ويلذّ نفسه، حتى إذا بلغ من ذلك ما بلغ، جاءته الثمرة من حيث لا يطلبها، ووجد الفائدة تحت عينيه تدلّ على موضعها وهؤلاء الباحثون جميعا لم يؤدوا إلينا نتائج ما بحثوا مستوفاةً ناضجة لأنهم أرادوا أن يبلغوا هذه النتائج أوّل ما قرءوا؛ إنما كانت القراءة أولا؛ ثم شعاع الفكرة، ثم عناصر البحث، ثم هذه الثمرات التي نقرؤها فتعجب بها فنثني على ما جاهدوا وظفروا؛ ولو أنهم أرادوا موضوع البحث قبل أن يقرأوا، لكان غاية جهدهم أن يخترعوا عناوين البحوث. . .!

وهذا أديب آخر يظفر بالشهرة والجاه عند دعاة الجديد، ويحسبونه واحداً منهم، لأنه يكتب بأسلوبهم وعلى طريقتهم، لقيته مرة فحدّثته وحدّثني، فقال لي: (دعهم يقولون عني، وينسبون إلي وينتسبون؛ ولكني لا أكذبك، فكم تمنيّت أن يكون حظّي من الأدب القديم أكثر مما عندي، وسأبلغ ذاك، وسيعلم أصدقائي يومئذ أنني لم أكن في المجددين لأني أنكر

القديم، بل لأن زادي وثروتي من اللغة لم يكن يبلغ بي أن أكون مع غير الذين يسمونهم مجددين. . .!)

أفينكر إخوانُنا في اللغة أن هذه النهضة التي ينتسبون إليها لم تكن من صنعهم؟ وإنما هّيأ أسبابها وأذكاها تلك الكتب القديمة التي يسبّونها اليوم حين نهض لنشرها أدباؤنا منذ قرن فدرسوها مخطوطات باليةً مركومة، وخلّفوها لنا مطبوعةً مصحّحة مجلوّة ولكل عمل أدته ووسيلته، وإنما الوسيلة لدراسة هذه اللغة هي النشاط الدائب في التحصيل، والجهد المتصل في الاستقراء، والمحاولة المستمرة للكشف والبحث والاطلاع. ولهذه اللغة أصول لابد من الإحاطة بها قبل الشروع، وعندها طرف الخيط، فمن شاء فليبلغ إلى الغاية. . .

أما بعد فهذه كتب أربعة، لم أكن بحاجة في تقديمها إلى كل ما أسلفت، ولكنها جميعاً من الأدب القديم؛ وللأدب القديم ملمس خشن، أفيدري اللامسون ما وراء. . .؟

1 - اعجام الأعلام:

أكثر ما يعاني المطالع في الكتب القديمة، هذه الأعلام الكثيرة في كل سطر وفي كل عبارة مما يقرأ؛ على أن أشق ما يعانيه في هذه الأعلام، هو ضبطها والتميز بينها؛ وحسبك أن تعلم أن أكثر هذه الأعلام ليس مما يسمى به في هذا الزمان، فلا سبيل إلى تصحيح نطقه إلا بالسماع والرواية، ولا سبيل إلى الترجمة لمسّماه - إنسانا كان أو بلدا - إلا بالبحث الطويل والجهد المضني، على أن ذلك لا يتأتى لكل طالب؛ فأنت لا تجد كتابا في العربيةُ يستغني به عن سواه في هذا الباب

والأستاذ محمود مصطفى أستاذ الأدب العربي بكلية اللغة العربية الأزهرية، رجل دءوب كثير البحث، طويل الأناة؛ وهو قد لقي في شتى مطالعاته ضروبا من العناء في ضبط الأعلام والتعرف إلى أصحابها؛ فاجتمع له بسبيل ذلك فيما أجتمع من ثمرات المطالعة طائفةٌ كبيرة من أعلام الأناسيّ والبلاد مضبوطة مترجمة لا تجتمع لمثله حين ينشدها إلا بجهاد سنوات وسنوات؛ فرأى أن يقدّم هذه الثمرة الجليلة إلى أدباء عصره، ليخفف عنهم بعض ما لقي، على أنه لم يثقل عليهم بما لا حاجة بهم إليه. فاكتفى من عمله بضبط الأعلام وتصحيحها، ثم إيجاز ترجمتها بما يقصر على ما يفيد، بعيدا من الاختصار المخلّ

والتطويل الممل؛ وقد أعانته على إخراج كتابه (جماعة دار العلوم) بإقرار لجنتها العلمية؛ ومن غير جماعة دار العلوم تعرف قيمة هذا العمل الجليل؟ على أن ذلك وإن يكن من واجبها، لا يمنعنا أن نذكر عملها شاكرين، فقلَّ في هذا الزمان من يذكر واجبه بمقدار ما يفكر في وسائل الفرار منه!

وأكثر الكتاب في ضبط أعلام الأناسيّ، وأقله لأعلام البلاد. ولو أنني حاولت الإنصاف لما وسعني إلا أن أعترف بأن هذه الصفحات المائتين والأربعين، تغني عن مكتبة حافلة بكتب التراجم ومعاجم الأعلام

ولكن إعجابي بالكتاب وثنائي عليه لا يمنعان أن آخذ على مؤلفه العالم أنه أهمل الإشارة إلى المراجع التي منها استمدّ؛ وأحسبه كان يجمعه لنفسه فلا يهتم بحفظ المصادر، فلما اجتمع له هذا القدر الكبير أخرجه كتاباً. أفيدفع عنه النقد هذا الاعتذار. . .؟؟

وفي الكتاب أشياء كانت تقتضي جهداً أوسع، وعناية أدق، فالتعرف بالأماكن قليل مخل، وأرى المؤلف في هذا الباب لم يُفد إلا ضبط أعلام المواضع، أما تحديدها وتعيين أماكنها فما بلغ منه إلى كثير. وتراه في أكثر من موضع من الكتاب، قد أوجز الحديث وأحال إلى موضع آخر، فإذا انتقلنا إلى ذلك الموضع لم نجد شيئاً مما أحال إليه، أو نجد شيئاً ولكنه لا يغني كل الغناء؛ فمن ذلك في ص76 (. . . . بسطام، وهي بلدة مشهورة من أعمال قومس)، فإذا بحثت عن (قومس) هذه في أعلام البلاد وجدت (القوامس) كثيرة، فلا تعرف إلى أيها تنتسب (بسطام). وفي ص94: (كان منزل رهط (جميل) في وادي القرى (أنظره). . .) وتنتظر في أعلام البلاد، فلا تجد ذكراً لوادي القرى. ومثل ذلك في ص128 ترجمة السُّهْرَوَرْديّ (ونسبته إلى سهرورد، وهي بلدة (أنظرها)) ولكن أين؟ وغير ذلك كثير

على أن الكتاب مع ذلك لا يستغني عنه متأدب، وإن فيه لغناء عن كتب ومكتبة، وأكثر مصادره مما لا تتناوله الأيدي، وهو مجهود مشكور، جدير بالثناء والإعجاب

2 - الفروق اللغوية
أبو هلال إمام من أئمة اللغة في القرن الرابع الهجري، تحتفظ له المكتبة العربية بآثار خالدة؛ أكثرها معروف متداول، وهو إلى أنه شاعر وأديب، عالم فحل، واسع المعرفة، صنَّف في أكثر من فن من فنون العربية، وهذا كتابه (الفروق اللغوية) يبحث في الفرق بين الألفاظ التي تؤدي معاني متقاربة، والتي يسميها علماء اللغة مترادفات، وهو في هذا الكتاب يقرر مذهباً في اللغة: (أن كل اسمين يجريان على معنى من المعاني وعين من الأعيان في لغة واحدة، فان كل واحد منهما يقتضي خلاف ما يقتضيه الآخر، وإلا لكان الثاني فضلا لا يحتاج إليه. . . لأن في ذلك تكثيرا للغة بما لا فائدة فيه. . . إلا أن يجئ ذلك في لغتين، فأما في لغة واحدة فمحال أن يختلف اللفظان والمعنى واحد كما ظن كثير من النحويين واللغويين. . .)
فهو يرى كل لفظين مما نسميه مترادفاً، يختلفان في المعنى، أو في الصفة، أو الاستعمال. أو الاشتقاق. . . وتراه على هذا المذهب يسير في كتابه، يبين الفرق بين اللفظ ومرادفه، في أبواب مقسمة على معاني الكلمات، تريك دقة أبي هلال، وسعة علمه، وصدق نظره في فقه اللغة العربية، والكتاب كله أمثلة على ما ذكرت ولو أن كاتباً من أبلغ أدباء هذا الزمان، عرض كلامه على كتاب (الفروق اللغوية)، لبانت له قيمة ما يكتب بازاء ما يجب أن يكتب، ولعرف مقداره بين كتّاب العربية حين يعرف أين عربيته من العربية الصحيحة. وهذا وحده الدليل كلَّ الدليل على جدوى هذا الكتاب في كل زمان، لا سيما هذا الزمان!
3 - المؤتلف والمختلف - 4 - معجم الشعراء:
يعترض القارئ في أثناء مطالعته في الأدب القديم، أسماء شتى لشعراء من مختلف العصور، فتختلف عليه، وتَشْعَب فكره، وتتشابه في مسمعه، ويا أكثر ما يشترك شاعران أو أكثر في اسم واحد، فتتداخل الصور وتزدحم عليه، فما يتأتى له أن يحكم حكمه في موضوعه، أو يتضح له منهاج بحثه، إلى أن يعرف ترجمة كل شاعر من هؤلاء، معرفة تحدد في الذهن صورته وتكشف عن ابهامه، وسبيل هذه المعرفة لا تكون إلا بمثل هذين الكتابين
والمرزباني والآمدي عَلمان من أعلام القرن الرابع الهجري، لهما في الأدب العربي فكر وفنٌ وبيان
والكاتبان على ما اختلفا في الغرض يلتقيان في الموضوع، فأوّلهما يترجم لشعرائه ترجمة تعرّف بهم في إيجاز مفيد مع استشهاد رائق، على أن الذي بين يدينا من كتابه هو جزء
منه أحسبه يبلغ ثلثيه
وأما الآمدي فيترجم للشعراء المشتبهة أسماؤهم وحسب، ترجمةً تزيل الشبهة وتكشف اللبس، ويجمع هذا الكتاب مع الجزء الموجود من معجم الشعراء - أكثر من ألفي شاعر، بأسمائهم، وكُناهم، وألقابهم، وأنسابهم، وبعض شعرهم. وقد أحسن ناشرهما إحساناً كبيراً بضم بعضهما إلى بعض في مجلد واحد، ليكون النفع بهما أتم والغاية أوفى
ولا نشك أن مكتبة (القدسيّ) بنشرها هذين الكتابين، وكتاب (الفروق اللغوية) قد بذلت جهدا، ويسرت نفعاً، وعممت فائدة، وهذا باب في خدمة العربيةُ يُذكر فيه العاملون.
(شبرا)
محمد سعيد العريان
النقد
3 - تاريخ الإسلام السياسي
تأليف الدكتور حسن إبراهيم حسن
مصادر الكتاب لأستاذ كبير
ألممت في كلمتي السابقتين بما تأخذه النظرة العجلى من الأغلاط التاريخية والجغرافية الواقعة في كتاب (تاريخ الإسلام السياسي) وهي لعمري أغلاط يذهب بعضها بمحاسن أي كتاب يرد فيه فكيف بها كلها: وأريد في هذه الكلمة أن أعرض في شيء من النقد لمصادر هذا الكتاب، وأن آتي بعد ذلك على بعض عيوب لحظتها على طريقة المؤلف في أخذه عن المصادر المذكورة، وكم كنت أود، علم الله، أن تكون

كلمة اليوم كلمة ثناء أكيله للمؤلف جزافاً لعلي أمحو ما عساه أن يكون قد علق بنفسه من جراء المقالين السابقين، ولكن شاء سوء حظي أن يجئ الأمر على غير ما أريد

كل من يطلع على (تاريخ الإسلام السياسي) تبهره من غير شك كثرة المصادر التي تدل على أن المؤلف رجع إليها في وضع كتابه، فما من صفحة من صفحاته، ولا فقرة من فقرة إلا وهي تحتوي على أقل تقدير إحالة واحدة للقارئ على مرجع من مراجع التاريخ الإسلامي القديمة والحديثة. ثم إن المؤلف لا يكتفي بذكر مراجعه منثورة مفرقة على الفصول والصفحات والفقر والأسطر، بل هو يوردها في آخر كتابه مجموعة منسوقة في بضع صفحات تروع النظر والفؤاد جميعاً

وإيراد المراجع العلمية على هذا النحو واجب محتوم في البحوث العلمية الدقيقة التي يراد فيها الإدلاء بنظرية علمية جديدة أو بسط وجهة نظر مستطرفة. أما في الكتب العامة التي يقصد أن تكون في متناول الطلاب المثقفين فقد جرى العرف بأن يقتصر من ذكر المراجع في صلب الفصول على الضروري، ثم يذيل كل فصل بذكر المراجع التي استعان المؤلف بها في كتابة الفصل تبرئة لذمته وتوسيعه على الطلب والقارئ الراغب في سعة الاطلاع وكثرة التحصيل. ومما يبعث على سلوك هذه الطريقة أن الأصل في الكتب المؤلفة للطلاب وراغبي الثقافة، أن يكون واضعوها من أعلام العلماء وجهابذة الأساتذة، ممن لهم في العلم

قدم راسخة ومكانة عالية تحمل قراءهم على تصديقهم فيما يقررون وما إليهيذهبون

ومع أن كتاب (تاريخ الإسلام السياسي) من الصنف الثاني فقد آثر المؤلف ركوب الطريقة التي تتبع في الصنف الأول، فحمل متن كتابه من الشروح والحواشي حملا ثقيلا، وكلف نفسه شططا وقراءه مشقة وعنتا. ولم كل هذا؟ لا لشيء سوى ابتغاء السمعة عند الناس وأن يلقي في روع القارئ أنه في التاريخ واسع الاطلاع، طويل الباع، قد وعى ما كتبه الأوائل والأواخر

على أن نظرة ناقدة إلى المراجع المذكورة كفيلة بأن تثبت أن كثرتها إلى حد بعيد صورية لا حقيقية. فان حرص المؤلف على التكثير والتزيد قد حمله في كثير من الأحيان على أن يدلل على ما لا يحتاج إلى دليل، وأن يعدد المراجع ولو كانت في مرد أمرها ترجع إلى مصدر واحد. فمن من تلاميذ المدارس لا يعرف نص الخطبة التي افتتح بها أول الخلفاء الراشدين عهده؟ إنها أشهر من أن تجهل. ومع ذلك فالمؤلف الكريم يحيل قارئه عند إيراده نص هذه الخطبة على أربعة كتب قديمة متضمنة لها ذاكرا اسم الكتاب واسم المؤلف ورقم الجزء والصفحة والطبعة ومكان الطبع! كذلك الحديث الذي يزعم رواة العرب أنه جرى بين أبي سفيان وبين هرقل قيصر الروم في الشام. وهو حديث يحمل في ثناياه أدلة ضعفه وانتحاله، وهو على فرض صحته ليس بذي خطر، ولا يقدم في فهم سيرة الرسول ولا يؤخر. ومع ذلك، فالمؤلف يورده بنصه على طول ذلك النص ثم يحيل القارئ على الكتب القديمة التي ذكرته، وقد ذكر منها خمسة أكثرها شروح مختلفة على متن البخاري. لو أن المؤلف قصد إلى مناقشة هذه النصوص ومقارنة رواياتها المختلفة بعضها ببعض، وبيان ما تتفق فيه وما تختلف من حيث اللفظ والمعنى، ثم الوصول بعد ذلك إلى حكم يكون لها أو عليها، لكان للمشقة التي عني نفسه وقارئه بها ما يجيزها ويسوغها. أما وهو لم يقصد إلى شيء من ذلك فقد انتقلت المزية وبقيت المشقة

ثم إن هذه الكثرة صورية من وجه آخر أكثر خطرا وأضر بقيمة الكتاب العلمية وبمقدرة مؤلفه على نقد مراجعه وتقويمها ذلك بأن المؤلف كثيرا ما يأخذ عن كتب أثبت البحث العلمي الدقيق أنها لا يصح الاعتماد عليها بحال في معرض التدليل العلمي الصحيح. فهو يعتقد أن الكتاب القصصي المسمى (فتوح الشام) للواقدي حقا، ثم يذهب يستعين به في

الفصل الذي عقده لفتح العرب الشام، وينقل عنه صفحات برمتها، ثم لا يكتفي بذلك بل ينبري لمناقشته ومجادلته. فليأذن لنا الدكتور أن نقول له إن هذا الكتاب ليس للواقدي، بل ليس من آثار عصر الواقدي، وإنما هو كتاب كتب بعد زمن الواقدي بمئات السنين: كتب على أغلب الظن إبان الحروب الصليبية لبث الحمية الدينية في نفوس الجمهور وترغيبه في مجاهدة الصليبيين بتذكيره بفعال آبائه في الشام. ونفس عبارة

الكتاب من النوع القصصي الحماسي. جاء في دائرة المعارف الإسلامية في ترجمة الواقدي ما يأتي:
وترجمتها (إن كتابي فتوح الشام والعراق قد فقدا. أما الكتابان المتدولان بهذا الاسم فيرجعان إلى عصر متأخر، وهما مضافان إلى الواقدي خطأ.)
كذلك يعتمد المؤلف في عدة مواضع من كتابه على كتاب آخر زائف هو كتاب (الإمامة والسياسة) المنسوب إلى ابن قتيبة وكل شيء في هذا الكتاب يدل على أنه ليس لابن قتيبة. وإنما هو في غالب الظن لكاتب أندلسي أراد تسلية الخاصة باسم الحياة السياسية الإسلامية فوضع هذا الكتاب الذي يعتبر من الناحية الأدبية قطعة فنية، وإن كان من الناحية التاريخية لا يعول عليه على الإطلاق. وفي ذلك يقول المستشرق الإنجليزي مرجوليوث في كتابه (مؤرخو العرب) في ص125
وترجمته (أن ما في هذا الكتاب من تكذيب للتاريخ أم جهل به، لفاضح بحيث لا يمكن أن يكون من تصنيف ابن قتيبة.)
ثم إن المؤلف كثيراً ما يستمد ويقتبس من كتب منها ما قد أصبح قديماً قاصراً من حيث المستوى العلمي، ومنها ما هو ثانوي الأهمية، ومنها الضعيف، ومنها ما قصد بكتابته إلى التثقيف العام. من هذه: (تاريخ العرب) لسديو، و (موجز تاريخ العرب) للسيد أمير علي، و (الحضارة العربية) لجوستاف لوبون)، و (أتباع محمد) لواشنجتن أيرفنج
إن هذه الكتب وكثيراً غيرها قد وضعها في أغلب الأحوال هواة قصدوا بها ناحية الثقافة العامة والتصوير المجمل، فكثيرة الاستدلال بها في مقام البحث الجدي ترخص لا مسوغ له
هذا عن مبلغ نقد المؤلف أمهات مصادره. أما مذهبه في الانتفاع بهذه المصادر إجمال فلنا عليه بعض الاستدراك. فهو مفرط في الأخذ عنها والاقتباس منها، بحيث أنك في كثير من فصول الكتاب تبحث عن شخصية المؤلف فلا تجدها أو تجدها ضئيلة ضعيفة، خذ لذلك
مثلا الباب الأخير من أبواب الكتاب الخاص بالحضارة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين والأمويين، وهو باب كان يمكن المؤلف أن يجول فيه ويصول، ومع ذلك فهو لا يخرج عن كونه مجرد تلخيص لكتاب (الحلافة) لارنولد، وكتب الحضارة الإسلامية والأدب العربي لفون كريمر والسيد أمير علي ونيكلسن. أن الأمر هنا أمر تكرار لا ابتكار
وقد يخطئ المؤلف بعض من يأخذ عنهم تخطئه لا حق له فيها. من ذلك أنه عند كلامه على الخوارج استشهد بقول صاحب كتاب (الفخري): (وصدرت منهم أمور متناقصة تدل على أنهم يخبطون خبط عشواء، منها أن رطبة سقطت من نخلة فتناولها رجل ووضعها في فيه، فقالوا له أكلتها غصبا وأخذتها بلا ثمن، فألقاها، ومنها أن خنزيراً لبعض أهل القرى مر بهم فضربه أحدهم بسيفه فعقره فقالوا هذا فساد في الأرض، فمضى الرجل إلى صاحب الخنزير وأرضاه، ومنها أنهم كانوا يقتلون النفس التي حرمت إلاّ بالحق، قتلوا عبد الله بن خباب، وكان خباب من كبار الصحابة، وقتلوا عدة نساء وسبوا، وفعلوا أفاعيل من هذا القبيل) هذه العبارة التي يصح أن تعتبر مثلاً للتناقض يعلق عليها المؤلف بقوله: (نرى أن هذا ليس من التناقض في شيء، وإنما هو أقرب إلى أن يكون غلوا في تطبيق مذهبهم)!!
ومن ذلك نقدم الهادم لحاجي خليفة، لا لشيء سوى أنه أورد خبراً لم يرضي المؤلف فيقول: (ومثل هذا المؤرخ لا يؤخذ بكلامه ولا يعول عليه في المسائل التاريخية الهامة لأنه كان متأخراً في الزمن فقد توفي سنة 1067هـ) وهو تعسف في الحكم من غير منازع، ومن هذا القبيل أيضاً تصديه لمرجوليوث في أمر الرجلين اللذين تزعم الرواية العربية أن كسرى أمر عامله على اليمن أن ينفذهما إلى الرسول ليأتياه به، فلما قدم الرجلان على الرسول أخبرهما النبي بأن كسرى قتل وأن أبنه هو الذي قتله.
فمرجوليوث يأخذ من هذه الرواية أن النبي كان له من يأتيه بالأخبار. أما المؤلف فبدلاً من أن ينقد الرواية العربية، ليرى هل من المعقول أن ينفذ كسرى من طريق عامله على اليمن رجلين اثنين إلى سيد الحجاز ليأتياه به، فانه يأخذ في الرد على مرجوليوت

لأنه لم ينظر إلى المسألة نظر المسلم المؤمن بنبوة محمد (ص)، ولو عمد إلى نقد الرواية أو تأولها على أقل تقدير لأنهارت دعوى مرجوليوت من تلقاء نفسها والمؤلف يسهو أحياناً فيذكر أنه أخذ من مصدر بعينه أخذاً مباشراً، في حين أنه يكون قد أخذ عنه بالوساطة، فهو يحيل القارئ في ص80 وغيرها على ما يسميه هو المجلد الثاني من كتاب (بقية الوثنية العربية) المستشرق الألماني فلها وزن. والواقع أن الكتاب المذكور يقع في مجلد واحد فقط، ولكنه طبع مرتين، فلو أنه رجع إليهحقاً لما وقع هذا الخلط القبيح

وعلى كثرة من يستشهد المؤلف بهم في كتابه وذكره أسماءهم مباهياً بتلميذته لبعض المستشرقين منهم، كأرنولد ونيكلسون، نراه ينسى أن يذكر أن الفصل الذي عقده لمكتبة الإسكندرية كله ملخص من كلام دكتور بطلر في كتاب (فتح العرب مصر) والغريب أنه يحيل في ختام هذا الفصل على كتابه هو (عمر بن العاص)

وبهذه المناسبة نقول أن المؤلف غمط حق مؤرخ جليل وعالم كبير طالما جلس المؤلف منه مجلس التلميذ من الأستاذ، ذلك هو المرحوم الشيخ محمد الخضري بك الذي طوى الموت ما بينه وبين هذه الدنيا بما فيها من غدر ومحال، وباطل وغرور. لقد انتفع المؤلف بعلم هذا الشيخ حياً وميتاً كما يدل كلامه على شرعية القتال، ثم هو يبخل بأن يذكر اسمه ضمن من أخذ عنهم. فيا ليت شعري إذا كنا لا نظفر بالوفاء عند تلاميذنا، فعند من سواهم يكون الظفر بالوفاء؟.

(يتبع)

مؤرخ

العدد 129 - بتاريخ: 23 - 12 - 1935

أبو الطيب المتنبي

بمناسبة ذكراه الآلف

في مثل هذا الأسبوع من سنة أربع وخمسين وثلاثمائة للهجرة طل في سواد بغداد دم الرجل الطموح.

والبطل الشاعر أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي، فهمدت بهموده نفس دائبة الشبوب وعزيمة دائمة الوثوب وهمة رفيعة المصعد! وكان المأمول أن يكون هذا العدد من الرسالة ديواناً لما يلقيه أساتذة الجامعة المصرية من المحاضرات في (أسبوع المتنبي)، ولكن العواصف الهوج التي ثارت بالبلاد فروعت قلوب الناس، وزعزعت سلام الجامعة، حالت من دون هذا الأمل. وأبو الطيب الذي رزق السعادة في شعره، وأوتي النباهة الخالدة في ذكره، لا يزال حظه العاثر لعبة الأيام وألهية القدر! هذا العراق الذي ولد به ودفن فيه قد أعرض بسمعه عن ذكراه، وهو المثل الذي يرتجيه لشبابه، والروح الذي يبتغيه لنهضته! وهذه حلبالتي جعلها نشيدا في فم الزمن، قدقسم الهوى رأيها على ذكراه فجاءت بما لا يتفق مع قدره، ولا يسمو إلى جلاله! وهذه مصر التي كان أول من أخذها بالخضوع الضارع، وعابها بالزهد الوضيع، ونبه عينها الوسنى إلى فساد الحكم قد دفنت ذكراه بين وعد من (رابطة الأدب العربي) عفى عليها النسيان، ونية من الجامعة المصرية ثبطت عنها الحوادث؛ فلم يظفر شاعر القوة وشهيد المجد إلا بحفلتين جديرتين بفضله: حفله قومية أقامها شباب العرب الأبرار في (سان باولو)، وحفلة رسمية سيقيمها رجال الأدب الأخيار في (دمشق)! وسان باولو لم تخلق في دنيا، ودمشق لم تذكر في شعره.

كان أول عهد بالمتنبي أن والدي - بقى الله ثراه - أهدى إلى في يوم من الأيام ديوانه، وكنت لا أزال غلاماً يافعاً قد ارتفع قليلاً عن سن الحداثة، فأنا إقراء القصص، وأحفظ المتون، وأتلقى الدروس الأولية في الأزهر، وأكثر من نظم الشعر في المناسبات المختلفة على معاناً سقيمة وقوالب مشوشة؛ فأراد أبي أن استعين بالنظر في هذا الديوان على تقويم ملكتي وتهذيب طبعي؛ فأقبلت عليه إقبال المنهوم المحروم، لأنه الكتاب الوحيد الذي أملك، والغذاء الشهي الذي احب، والحنان الأبوي الذي أقدس. أقرأه فأدرك موسيقاه بشعوري، وأن كنت لا أدرك معناه بعقلي، وأحس أن شعاعاً سحرياً ينبثق عن سطوره، فيغمر القلب بالنشوة، ويرفع النفس بالحماس، كاللحن القوي ينساب في الأذان الأمية نغما من غير معنى، وجمالا من غير تحديد، ووحياً من غير بيان، ولذة من غير وعي.

ازداد على الدرس والأيام فهمي للمتنبي، فصار للذوق الساذج حجة من الفن، وللحب الذي صادف خلاء من القلب قوة من المنطق. وكان أستاذنا المرصفي - تغمده الله بالرحمة - لا يصح في رأيه أحد من الشعراء المولدين وبخاصة أبو الطيب، فدس في أذواق تلاميذه الكراهة له والنفور من شعره؛ وتأثر بذلك الإيحاء رفيقاي طه حسين ومحمود زناتي، وقاومه في نفس تلك العوامل الأولى فلم أر رأيهما فيه، ولم أمالي تعصبهما عليه؛ وكثر ما كنا نتمادى في أدبه، ونتهاجى بسببه! ولا زلنا نتذاكر تلك المداعبات الأدبية الأخوية فنستروح منها شميم الصبي الغريض، ونسيم العيش الأبله، ونفخ الولاء الخالص.

إن أبلغ ما أثر في نفسي من حياة المتنبي منذ عرفته هي هذه النفسية المعذبة بين الطموح والعجز، وتلك الشخصية المذبذبة بين الوسيلة والغاية: سمت نفسه منذ أيفع إلى معالي الأمور، ولم يجد معيناً عليها غير المال والقوة. أما القوة فقد ألتمسها في قيادة الأعراب باسم الدين أو باسم العدالة فأخفق، وأما المال فأحتال عليه بوحي العبقرية وقوة الشاعرية فأصاب. وكان الشاعر المغامر من هذه الوسيلة الأرضية، ومن تلك الغاية السماوية، بين عاملين مختلفين: عامل يرفعه فيدل على الملوك، ويتأبى على السوقة، ويتجافى عن الهون. ويقول لبعض الأمراء:

وفؤادي من الملوك وأن كا ... ن لساني يرى من الشعراء

وعامل يضعه للهبة هشاشة السائل، ويحرص على المال حرص الشحيح، ويعفر خده الأصعر في البحث عن درهم، ويقول لبعض الأغنياء:

تهلل قبل تسليمي عليه ... وألقى ماله قبل الوساد

ولكنه في كلتا الحالين كان طالب ملك، وعاشق مجد وخاطب دولة

(للكلام بقية)

احمد حسن الزيات

المجنون - 5

للأستاذمصطفى صادق الرافعي

ثم إن (نابغة القرن العشرين) استخفه الطرب لذكر صواحبه وجميلاته من فاطمة إلى رباب؛ ومن طبع المجنون أنه إذا كذب صدق نفسه، فان قوة الضبط في عقله إما معدومة وإما مختلة، وكلوجه تخيل منه خيالا فهو وجه من وجوه العالم عنده إذ كان عالمه أكثره في داخله لا في العالم، فإذا توهم أو أحس أو شعر فإنما يكون ذلك بطريقته هو لا بطريقة الناس العقلاء، فليس يحتمل عقله إلا فكرة واحدة تمضى منفردة بنفسها مستقلة بمعناها كأنها قدر غالب على جميع أفكاره الأخرى، فلا شأن لها بالواقع ولا شأن للواقع بها، وإنما هي تحقق معناها كما تخطر له لا كما تتمثل فيما حوله. فبين كل مجنون وبين ما حوله دماغة المتدجي بالغيوم القليلة، لا تزال تعرض له الغيمة بعد الغيمة من اختلال بعض المراكز العصبية فيه، وفساد أعمالها بهذا الاختلال، وقيام الطبيعة فيها على هذا الفساد. ومن ذلك تنقلب الكلمة من الكلام وإنها لحادثة تامة في عقل المجنون كالقصة الواقعة لها زمان ومكان وبدء ونهاية، لا يخامره فيهاالشك، ولا يعتريها التكذيب؛ وكيف وهي قائمة في ذهنه من وراء سمعه وبصره قيام الحقيقة في الأبصار والأسماع؟ ولحواس المجنون جهتان في العمل لأنها بين كونين أحدهما الكون الخرب الذي في دماغه؛ وفي هذا يقول (نابغة القرن العشرين):

إن في داخل عينيه منظارا يرى به الأشياء في غير حقائقها، أي في حقائقها.

وحدثنا الدكتور محمد الرافعي قال: إن في دار المجانين بمدينة ليون بفرنسا نابغة كنابغة القرن العشرين ذكرت إمامه قيصرة روسية وخبر مقتلها، فأحفظه هذا وأرمضه وقال يا ويحهم! كذبوا عليها وعلي. . . فسأله الدكتور: وكيف ذلك؟

قال: كان من خبر القيصرة أنها رأتني فأحبتني وعلمت من كل وجه يمكن أن يعلم منه قلبها أني أنا رجلها لا القيصر.

فما زالت بعدها تناكد القيصروتلتوي عليه ولا تصلح له في شيء حتى يئس منها فطلقها. فحملت كنوزها وحلاها ولجأت إلى حبيبها. ثم تبعتها نفس القيصر ولم يطق العيش بعدها فانتحر. . . ثم طلبها الشيوعيون لما معها من كنوز فأخفاها هو في مكان حريز لا يعلمه إلا هو؛ ثم إنه هو لا يصل إلى هذا المكان الذي أحرزها فيه إلا إذا نام. . . كيلا يراه أحد من

الشيوعيين فيتعقبه فيعلم مقرها. ولهذا كان من الحكمة أن ينسى المكان إذا استيقظ. . . فقد يزل مرة فيخبر به أو يغلبه الشوق مرة على عقله. . . فيذهب إليه فعسى أن يراه من ينم بذلك فتفتضح الحبيبة وتؤخذ منه، قال: وإن القيصرة هي تحتاط أيضا مثل ذلك فتراسله كل يوميباللاسلكي رسائل تقع من الجو في دماغه فيقرؤها وحده. وإن أخوف ما يخافه أنيغلبها جنون الحب يوما فتطيش طيش المرأة فتزوره في هذا المارستان. . . فقد تقتل إذا رآها الشيوعيون.

قال الدكتور: وهناك (نابغة) آخر ثبت في ذهنه أن امرأة من أجمل النساء قد استهامت به وأنها مبتلاة في حبها إياه بجنون الغيرة، وقد تناهت فيه حتى إنها لتقتل نفسها إذا علمت أن لصاحبها هوى في امرأة أخرى. وخبلته هذه الفكرة فاعتقد أنحبيبته من جنون غيرتها واقعة بين السلامة والتلف؛ ثم توهم ذات يوم أن واشيا قد أعلمها أن النساء افتتن به؛ فطار صوابها فهي آتية إليه في المارستان لتوبخه وتشفى غيظها منه ثم تنتحر إمام عينيه. وأدار (النابغة) الفكر في إقناعها لتعلم أنه لم يخنها بالغيب. . . فلم يهتد إلى مقنع تستيقن به المرأة أن لا أرب للنساء فيه إلا أن. . . ففعل وجب خصيتيه بيده ليقدمهما برهانا أنه لها وحدها. . .

قلنا: وطرب نابغة القرنالعشرين، لذكر صواحبه وجميلاته فجعل يترنم بهذا الشعر:

قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم ... ما لذة العيش إلا للمجانين

فقال المجنون الآخر: (مما حفظناه): ما لذة (الخبر) إلا للمجانين. . .

فضحك (النابغة) وقال: ما أسخفك من أحمق. إذا كان هذا هو المعنى فقل ما لذة (الكعك). ألم أقل لكم إن هذا الأبله لو تهجأ كلمة خبز لقال إنها ل. ح. م. ولو تهجأ كلمة لحم لقال ف. و. ل. . .

إنه طفل عمره ثلاثون سنة وفيه دائما غضب الطفل ونزقه وحماقته، وفيه كذلك سرور الطفل وطيشه وأحلامه؛ غير أنه ليس فيه عقل الطفل. وهو من الضعفوشدة الحادة إلى العناية في حياطته وسياسته والبر به كطفل صغير - بحيث يخيل إلى أحيانا أنني أمه. . .

قلنا: وتنسى في هذه الحالة أنك رجل؟

قال: وأنتم كذلك تهمونني بالنسيان وهو شرعا جهة ملزمة للحكم بالجنون. فما النسيان إلا الكلمة الأخرى لمعنى ضعف العقل؛ وضعف العقل هو اللفظ الآخر لمعنى جنوني، وقد أعلمتكم ما أكره من الكلام.

قلت: لا، إن النسيان لا يكون منك نسيانا بمعناه في المجانين، بل بمعناه فيك أنت من تواثب الأفكار النابغة وتزاحمها في تواردها على العقل. فإذا تواثبت وتزاحمت كان أمرها إلى أن ينسى بعضه بعضا فلا ينطلق منها إلا القوي النابغ حق نبوغه، فيجيء كالمنقطع مما قبله، فيحسب ذلك نسيانا وما هو به. وقد تصطلح الأفكار في هذه المعركة الذهنية إذا كان النابغة مسرورا محبورا يرقص طربا. . . فيكون أمرها إلى أن تجيء كلها معا على اختلاف معانيها وتناقضها؛ فحسب ذلك ضربا من الذهول عند من يجهل العلة النبوغية؛ وعذره جهل هذه العلة وهي في دلالة العقل ليست نسيانا ولا ذهولا.

قال: فأعلمني كيف نسيان المجانين فقد خفي علي أن أدرك هذا الأمر العجيب فيهم، ولست أدري كيف يفوتهم ما استدنى لهم من الفكر بعد أن يكون قد استقر وحصل في عقولهم؟

قلت: لا يكون النسيان تهمة بالجنون إلا في أحوال ثلاث جاءت بكلها الرواية الصحيحة المحفوظة:

فأما الأولى فما يروى عن رجل كان سريا غنيا وعمر حتى أدركه الخرف؛ فجاء كاتبه يوما يستعينه على تجهيز أمه وقد ماتت فدفع إلى غلام له دنانير يشتري بها كفنا ودنانير أخرى يتصدق بها على القبر؛ ثم قال لغلام آخر: إمض إلى صاحبنا وغاسل موتانا فلان فادعه يغسلها. قال الكاتب: فاستحييت منه وقلت يا سيدي ابعث خلف فلانة وهي جارة لنا تغلسها. قال يا فلاناً تدع عقلك في حزن ولا فرح. كيف ندخل عليها من لا نعرفه؟ قال الكاتب: نعم تأذنبذلك. قال لا والله ما يغسلها إلا فلان.

فضاق الكاتب بهذا الحمق وقال: يا سيدي كيف يغسل رجل امرأة؟

قال: وإنما أمك امرأة.،.؟ والله لقد أنسيت
وأما الحالة الثانية فما يروى عن رجل كان نائما في ليلة باردة فخرجت يده من الفراش فبردت، فأدناها إلى جسده وهو نائم فأحس ردها فأيقظته، فانتبه فزعا فقبض عليها بيده الأخرى وصاح: اللصوص. اللصوص. . . هذا اللص قد قبضت عليه أدركوني لئلا تكون في يده حديدة يضربني بها، فجاءوا بالسراج فوجدوه قابضا بيده على يده وقد نسى أنها يده.
وأما الثالثة فهي رواية عن رجل قد ورث نصف دار، ففكر طويلا كيف تخلص الدار كلها له ثم اهتدى إلى الوسيلة؛ فذهب إلى رجل وقال له: أريد أن أبيعك حصتي من الدار وأشترى بثمنها النصف الباقي لتصير الدار كلها له. . .
. . .قال (النابغة) لعمري إن هذا لهو الجنون، وما يذكر مع هؤلاء مجنون المتن ولا غيره فقال الآخر: تالله لولا أن (نابغة القرن العشرين) يدفع نفسه عن الجنون لجاء في الجنون بما يذهل العقول. . .
ثم نظر فإذا النابغة يتحفز له. . .؛ فأسرع يقول: (مما حفظناه) كنحذرا كأنك غر، وكن ذاكراً كأنك ناس. فهذا هو نسيان نابغة القرن العشرين، نسيان حكماء لا نسيان مجانين.
قال (النابغة) ولكن قد فسد قول الشاعر، ما لذة العيش إلا للمجانين؛ فما بقيت مع الجنون لذة.
قلت: إن الشاعر لا يريد المجانين الذين هم مجانين بالمرض وإنما يريد العشاق المجانين بالجمال؛ وجنون العاشق في هذا الباب كعيوب العظماء من أهل الفن، وهي عيوب تدافع عن نفسها بحسنات العظمة فليست كغيرها من العيوب.
قال: فيجب أن أصنع بيتاً آخر يفسرذلك الشعر ليستقيم لي التمثل به. ثم فكر وهمهم، ثم كتب في ورقة ثم طواها وقال: اصنع أنت أول، وسأئتمن س. ع. على شعري ودفع إليه الورقة.
فنظرت وقلت: يجب أن يكون الشعر هكذا:
قالوا جُنِنت بمن تهوى فقلتُ لهم ... ما لذة العيش إلا للمجانين
العقلُ إن حَكَم العُشّاقأثقلُ من ... فقرٍ تحكَّم في رزقِ المجانين
ونشر س. ع. الورقة فإذا فيها:
قالوا جُنِنت بمن تهوى فقلتُ لهم ... ما لذة العيش إلا للمجانين
إن العيوب عن المجنون دافعةٌ ... بأنه نابغ في القرن العشرين. . .
وضحكنا جميعا؛ فقال النابغة: أبعدك الله يا س. ع. إن من ائتمن المجنون على سر وقال له أكتمه فكأنما قال له انشره.
ثم قال: وددت والله أن يكون س. ع. هذا نابغة، ولكني سأجعله نابغة، فقد صار له علي حق الصديق وهو حق لا أضيعه ولا أخل به. فإذا احتجت يا س. ع إلى خطاب رنان تلقيه في حفل عظيم، أو قصيدة تمدح بها وزير المعارف، فالجأ إلي فإني ملجأ لك.
ومتى انتحلت شعري كنتعند الناس المتنبي أو البحتري أو ابن الرومي، فان هؤلاء القدامى لم ينفعهم إلا أنني لم أكن فيهم، ولما لم أكن فيهم أعجبوا الناس إذ أنني لم أكن فيهم.
قلنا فما حكمك عليهم في الأدب؟
قال: إذا حكمت عليهم فقد جعلت نفسي بينهم، فمن الطبيعي إلا يعجبني منهم أحد. إن (نابغة القرن العشرين) لا يقول لمعنى هذا أحسن فانه هو فوق الأحسن، ولا يقول عننابغة هذا أشهر فانه هو فوق الأشهر.
قلت: كأن الدنيا تحت قدميك وأنت فيها الزاهد العظيم الذي لا يقول في حسن هذا أحسن لأنه فوق الشهوة، ولا في نعيم هذا أطيب لأنه فوق الطمع، ولا في مال هذا أكثر لأنه فوق الحرص. وأحسبك لو كنت ترعى غنما لكنت الحقيق في عصرنا بقول تلك الراعية الزاهدة: أصلحت شأني بيني وبين فأصلح بين الذئب والغنم.
قال: وكيف ذلك؟
قلت: حكي عنبعض الصالحين أنه فكر ذات ليلة فقال في نفسه: يا رب. من زوجتي في الجنة؟ فأرى في منامه ثلاث ليال أنها جارية سواء في أرض كذا. فجاء تلك الأرض فسأل عن الجارية، فقال له رجل ما هذا؟ تسأل عن جارية سوداء مجنونة كانت لي

فأعتقتها؟ قال وماذا رأيتم من جنونها؟ قال: كانت تصوم النهار فإذا أعطيناها فطورها تصدقت به، وكانت لا تهدأ الليل ولا تنام فضجرنا منها.
قال: فأين هي؟ قال ترعى غنما للقوم في الصحراء.
فذهب إلى الصحراء فإذا هي قائمة في صلاتها، ونظر إلى الغنم فإذا ذئب يدلها على المرعى وذئب يسوقها. فلما فرغت من صلاتها سلم عليهافأنبأته أنه زوجها في الجنة وأنبأها أنه بشر بها؛ ثم سألها ما هذه الذئاب مع الأغنام؟ قالت: نعم أصلحت شأني بيني وبينه فأصلح بين الذئب والغنم.
قال (النابغة): هذا كذب لأنه عجيب، وهو عجيب لأنه كذب.
قلت: وأي عجيبفي هذا؟ إن الذئب والشاة، والأسد والغزال، والثعبان والعصفور، وكل آكل ومأكول من الأحياء، لو هي دخلت في دائرة الصلاة الحقيقية لانتظمت كلها صفا واحدا يركع ويسجد. فهذه الجارية نشرت روح الصلاة والتقوى علىكل ما حولها من قلبها الطاهر المطمئن بالإيمان، فوقع الذئب منها في دائرة مغناطيسية، فسلب وحشيته ورجع مسخرا لفكرة الصلاح والخير إذ تجانست فيه الحياة بما حولها، وانسجم النوع والنوع في حركة متجاوبة انسجام الرجل المغناطيسيهو ومن ينومه في إرادةواحدة وفكرة واحدة.
قال (النابغة): فإذا دخل الذئب مسجدا يرتج بالمصلين، أتراه يصف أربعته ويقف بينهم للصلاة، أم يصلي صلاته الذئبية في لحومهم؟
قلت: وأين هم الذين يصلون بحقيقة الصلاة فيخرجون بها من النفس إلى الكون، ومن الزمن إلى الأبد، ومن الأسباب إلى مسببها، ومما في القلب إلى ما فوق القلب؟ إن هؤلاء جميعا يصلون بجوارحهم وبينهم وبين أرواحهم طول الدنيا وعرضها؛ وما منهم إلا من يتصل فكره بما يغلب عليه كما يتصل فكر اللص بيده، وفكر العاشق بعينه، وفكر الطفيلي بمعدته. . .
فاسمعها عندهم الصلاة وحقيقتها عند الله كما ترى.
قال (النابغة) ولكنه ذئب من طبيعته أن يأكل الشاة لا أن يرعاها، فلا أفهم شيئا.
وقال الآخر: (مما حفظناه) رتع الذئب في الغنم، ولم يقولوا صلى الذئب في الغنم، فلا أفهم شيئا.
قلت: سأزيد كما عدم فهم. . . إن قلب تلك المرأة العظيمة الطاهرة متصل بالله، وليس فيه شيء من طباعها الإنسانية ولا ظل من ظلال الدنيا؛ وقد تجلى فيه سر الحياة، وهو السر الذي لا يطعم ولا يشرب ولا يلبس ولا يشتهى ولا يطمع في شيء ولا يحرز شيئا، وإنما طبيعته أشواقه الكونية واتصاله بنفحات القوة الأزلية المسخرة للوجود كله. فانتشرت هذه الموجة الكهربائية الأثيرية حول الجارية من قلبها، وجاء الذئب فلتج فيها وغمرته الروحانية الغالبة فإذا هو يفتح عينه على كون غريب قد تجلى السلام عليه، فليس فيه إلا قوة آمرة أمرها بائتلاف كل شيء مع كل شيء، واجتماع المتنافرين في حالة معرفة لا في حالة إنكار. فصار الذئب مستيقظا، ولكن في روح النوم، وشلت فيه الذئبية الطبيعية فإذا
هو يحمل الأنياب والأظافر وقد أنسى استعمالها، وبقيت حركته الحيوانية ولكن تعطلت بواعثها فبطل معناها.
ومن كل ذلك اختفى الذئب الذي هو في الذئب، وبقى الحيوان حيا ككل الأحياء، فناسب الشاة وفزع إليها إذ لم تعد العلاقة بينهما علاقة جس الآكل بجسم الأكيلة، بل علاقة الروح الحي بروح حي مثله. قال (النابغة): أما أنا فقد فهمت ولكن هذا المجنون لم يفهم. أكتب يا س. ع: جلس نابغة القرن العشرين مجلسه للفلسفة على غير إعداد ولا تمكن، وبدون كتب البتة. . . وكان هذا أجمع لرأيه وأذهن له وأدعى لأن يتوفر على الإملاء بكل مواهبه العقلية؛ ولما أن فكر النابغة وأعطى النظر حقه وجمع في عقله الفذ جزالة الرأي إلى قوة التفنن والابتكار، قال مرتجلا: إن فلسفة الذئب والشاة حين لم يأكلها ولم تنطحه، هي بالنص وبالحرف كما قال أستاذ نابغة القرن العشرين. . .
(حاشية) وإن مجنون المتن لم يفهم هذه الفلسفة.
فامتعض الآخر وقال: (مماحفظناه):
وبات يقدح طول الليل فكرته ... وسر الماء بعد الجهد بالماء
فقال (النابغة): ويلك يا أبله! أما والله لو كنت نفطويه أو سيبويه لما كنت عندي إلا

. . .جحشوية أو بغلويه
لقد كنت أرى الكلام في تلك الفلسفة طريقا نزها جميلا حفته الأشجار والأزهار عن جانبيه، واندفعت في سوائه (تمبيلات) الأفكار خاطفة كالبرق. فلما تكلمت أنت انتهينا من سخافتك إلى طريق حجري تقعقع فيه عربات النقل تجرها البغال البطيئة.
فقال الآخر وهو يتعذر إليه: ما أردت والله مساءتك ولو أردتها لقلت وفسر الماء بعد الجهد بالسبرتو. . . فهذا هوالخطأ، أما تفسير الماء بعد الجهد بالماء فهو صحيح.
قال النابغة: ولكنه تفسير مفرط السقوط كتفسير المجانين، فهو يقول إني مجنون.
قلت: كلا، إن تفسير المجانين يكون على غير هذا الوجه كالذي حكاه الجاحظ قال: سمعت رجلا يقول لآخر: ضربنا الساعة زنديقا. قال الآخر: وأي شيء الزنديقا؟ قال الذي يقطع المزيقا. قال: وكيف علمت أنه يقطع المزيقا؟ قال رأيته يأكل التين بالخل. . . .
(طنطا)
مصطفى صادق الرافعي
إلى (الحضرمي): أنامن زمن لا اقرأ شيئا لهذا الزنديق الذي سميته في كتابك؛ وقد عرفته رجلا لو أيقن أن حبل المشنقة يرفعه مترين فقط في جو الشهرة لمد له عنقه. . . فكل ما تقرؤه له من الطعن في العربية والعرب والإسلام، فإنما نيته فيه أن يتناول الكتاب ولو بالصفع إذا رن الصفع في العالم العربي. . .
الرافعي
1 - بعض مواطن الخفاء في التاريخ الإسلامي
للأستاذ محمد عبد الله عنان
كان الخفاء وما يزال الفضول والروع، ومصدر الأساطير الغريبة الشائقة؛ وفي عصور ومواطن كثيرة كان الخفاء عماد دعوات وثورات سياسية واجتماعية خطيرة، وكان مبعث دول قوية قامت في ظروف غامضة، واستندت في قيامها إلى دعوات ومبادئ خفية؛ وكان هذا الخفاء نفسه مصدر قوتها وحياتها. وقد شغلت هذه الفورات والدعوات الخفية فراغا كبيرا في التاريخ الإسلامي، وخصتها الرواية الإسلامية بكثير من التفصيل والجدل؛ ومازلنا نلمس آثارها حتى اليوم في بعض الطوائف والمجتمعات التي تلوذ في عقائدها وتقاليدها بكثير من الغموض والخفاء.
وقد كانت قصة المهدي المنتظر بلا ريب من أشد مواطن الخفاء في التاريخ الإسلامي وكانت أخصبها موردا للأساطير، واحفلها بالدعوات والفورات الخفية؛ ويكفي أن هذه الأسطورة الغريبة كانت مبعثا لطائفة من الدول القوية التي كان لها أكبر الأثر في سير التاريخ الإسلامي كما أنها كانت مصدرا لطائفة من الدعوات والمذاهب الدينية والاجتماعية التي شغلت مكانا كبيرا في الكلام الإسلامي. كانت أسطورة المهدي عماد الدولة الفاطمية التي قامت في قفار المغرب الأوسط حول تلك الشخصية الخفية - شخصية المهدي المبعوث - وحول رسالتها وإمامتها؛ ثم افتتحت مصر والشام وبسطت سيادتها على قلب العالم الإسلامي فيما بين آسيا الصغرى والحرمين؛ وكانت عماد دولة الموحدين التي قامت في قفار المغرب الأقصى، وسادت بسائط المغرب والأندلس أكثر من قرن؛ وكانت عماد طائفة كبيرة من الثورات والفتن الدينية التي وقعت في مختلف العصور في أنحاء العالم الإسلامي. وكان الخفاء صفة ملازمة لأسطورة المهدي قبل البعث وبعده، يسبغ على القائم ودولته وخلفائه نوعا من القداسة الروحية أو السمو فوق بني الإنسان.
ومنذ عصر الإسلام الأول تتبوأ هذه الأسطورة مكانها في الكلام الإسلامي، وتقوم على عناصر الغموض والخفاء، فنرى من غلاة الشيعة من يقول إن عليا بن أبي طالب لم يمت، ولكنه حي غائب عن أعين الناس، مستقر في السحاب، صوته الرعد والبرق في سوطه؛ ونرى منهم من يقول مثل ذلك القول في ولده محمد بن الحنفية، وأنه مستقر في جبل
رضوى من أعمال الحجاز؛ ثم نرى الأسطورة تتخذ بعد ذلك صبغتها السياسية وتدعم بالأسانيد الكلامية والشروحي التاريخية، ولكن مع اقترانها بصفة الخفاء دائما. وخلاصة الأسطورة (أنه لابد في آخر الزمان من ظهور رجل من آل بيت يؤيد الدين ويظهر العدل، ويتبعه المسلمون، ويعيد مجد الإسلام ودولته ويسمى بالمهدي). أما هذا الإمام

الخفي فمن هو؟ هو من ولد علي بن أبي طالب؛ ولكن يختلف الشيعة في مساق الإمامة أصولا وفروعا؛ وليس من موضوعنا أن نتعرض لهذا الجدل؛ ولكننا نذكر فقط أن أشهر فرق الشيعة الإمامية، وهم الاثنا عشرية، يقولون إن الثاني عشر من أئمتهم، وهو محمد بن الحسن العسكري، هو المهدي، وإنه لم يمت؛ ولكنه اختفى وغاب عن الأنظار، ولا يزال مختفيا إلى آخر الزمان، ولكنه اختفى وغاب عن الأنظار، ولا يزال مختفيا إلى آخر الزمان، ثم يخرج فيملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا؛ وزاد بعض الدعاة على ذلك فحددوا لظهروا المهدي تواريخ معينة، وكلهم يستتر لتأييد مزاعمه وراء الرموز والإشارات الغامضة، مما يسبغ على دعوتهم دائما لون السرية والخفاء.

وكما كان الخفاء مبعث القداسة والخشوع قبل تحقيق الظفر السياسي، فكذلك كان الخفاء بعد تحقيق هذا الظفر مصدر القوة والنفوذ للدولة أو الأسرة التي تتشح بثور الدعوة أو الإمامة أو الرسالة، ولنا أسطع مثل على ذلك في الدولتين، الفاطمية والموحدية. بيد أن هنالك أمثلة محلية كثيرة للاعتصام بهذا الخفاء المروع، وما كان يترتب على هذا الاعتصام من النتائج المادية والمعنوية المدهشة؛ ويكفي أن تكون هذه الغمر الخفية مبعثا لأكثر من دعوة بالنبوة، بل مبعثا لدعوة الألوهية ذاتها، وأن تقوم عليها عقائد ومذاهب كان لها أثر قوي في سير العالم الإسلامي وما زالت تمثل في عصرنا.

- 2 -

ويقدم لنا التاريخ الإسلامي أمثلة عملية مدهشة قوامها الخفاء المادي والروحي؛ ومن الصعب أن نستوعب هذه الأمثلة أو أن نحصيها جميعا في هذا المقام المحدود، ولكننا نقدم منها بعض أمثلة شهيرة.

ففي أواخر القرن الثالث من الهجرة ظهرت دعوة القرامطة مستظلة بالدعوة الشيعية والإسماعيلية وقوامها التبشير بالمهدي المنتظر؛ وظهر داعية القرامطة الأول الفرج بن

عثمان القاشاني الملقب بذكرويه في جنوب العراق، ولبث حينا يبث دعوته سرا وخفية؛ وتلاه تلميذه وصاحبه (قرمط) مؤسس المذهب الحقيقي يبث الدعوة جهرا، ويدعو إلى إمام من آل البيت هو المهدي الذي يظهر فيملأ الأرض عدلا، فلما ذاع أمره قبض عليه عامل الكوفة وألقاه إلى ظلام السجن، ولكنه استطاع أن يفر من سجنه في ظلام الليل بمساعدة جارية للحاكم؛ وكان هذا الداعية الجريء يدرك سر الخفاء وفعله في نفوس الكافة فاختفى على أثر فراره حينا، وألقى في روع أنصاره أنه رفع إلى السماء فازدادوا به فتنة؛ ثم ظهر بعد ذلك وكأنه قد بعث، ثم فر إلى الشام ولم يوقف له على خبر بعد ذلك، فكان هذا الاختفاء في ذاته عاملا في ذيوع الدعوة القرمطية واضطرامها.

ورأى الفرج بن عثمان أو ذكرويه أن يخوض أيضا غمر الخفاه، ليحدث مثل الأثر الذي أحدثه اختفاء قرمط، فنزح إلى القفر وتوارى عن الأنظار في مكان ناء، في مغار أنشأه لذلك، واستخلف أولاده للدعوة، ولبث أعواما طويلة يعمل ويدبر الخطط من وراء ستار، ويوجه أكابر أنصاره وخاصته حتى اشتدت دعوة القرامطة بعد قتال رائع، وجرح ذكرويه وأسر، وحمل إلى بغداد حيث توفى من جراحه بعد أيام، ومثل بجثته أشنع تمثيل (سنة 294هـ) بيد أن فورة القرامطة كانت قد اجتاحت يومئذ أنحاء البحرين، واستقرت هنالك قوية منذرة، واستمرت خطرا داهما على الشام ومصر وأطراف الجزيرة حتى أواخر القرن الرابع.

- 3 -

على أنا نجد أروع مثل للخفاء فيالدولة الفاطمية، في قيامها، وفي وسائلها، وفي خلفائها؛ فقد نشأت هذه الدولة القوية في قفار المغرب على يد دعاتها السريين وشيعتهم من القبائل البربرية المتعصبة الساذجة، وكان أول خلفائها عبيد الله المهدي شخصية خفية غامضة لم يستطع التاريخ أن يقف على حقيقتها أو يتقصى نسبتها؛ واستمر هذا الخفاء يغمر شخصية الخلفاء الفاطميين، وهذا الريب يغمر أصلهم ونسبتهم، حتى أننا نجد أشراف مصر يطلبون إلى المعز لدين الله حيث مقدمه إلى مصر أن يوقفهم على، نسبه، فيجمعهم في مجلس عام ويسل نصف سيفه ويقول لهم

هذا نسبي، ثم ينثر عليهم ذهبا ويقول لهم هذا حسبي، ونجد خصوم الفاطميين ولا سيما بني يتخذون هذا الريب في نسبهم مثارا للطعن في إمامتهم وفي ذممهم وعقائدهم مما لا يتسع المقام لبسطه؛ بيد أن هناك حقيقة تلفت النظر، هي أن الخلفاء الفاطميين، ولا سيما الأوائل منهم كانوا يزعمونعلم الغيبومعرفة الخفاء، ومما يروى في ذلك أن العزيز بالله الفاطمي صعد المنبر ذات فرأى رقعة مكتوب فيها.

بالظلم والجور قد رضينا ... وليس بالكفر والحماقة

إن كنت قد أعطيت علم غيب ... فقل لنا كاتب البطاقة

وذلك إشارة إلى دعواهم علم الغيب؛ وقد اتخذ تعلق الفاطميين بالخفاء واستظلالهم برموزه صورا واضحة لهم أثرها القوي في بناء الدولة الفاطمية وفي خططها ووسائلها؛ بل كان هذا التعلق بالخفاء سياسة مقررة للخلافة الفاطمية؛ فنراها منذ استقرت بمصر مجالس الحكمة الشهيرة في القصر وفي الأزهر وتعني بأن تكون هذه المجالس مبعثا لتعاليمها المذهبية؛ ثم نرى هذه المجالس يتسع نطاقها شيئا فشيا وتغدو، جزءا من نظم الدولة الروحية والاجتماعية، ونراها تعقد للنساء والكافة، وينصب للأشراف عليها رجل من أكبر موظفي الدولة هو قاضي القضاة، وينعث في هذا المنصب (بداعي الدعاة). وفي عهد الحاكم بأمر الله تتخذ الخطوة الأخيرة والحاسمة في تنظيم مجالس المحكمة، وتنظيم الدعوة السرية الفاطمية بصورة رسمية وتنشأ دار الحكمة الشهيرة، لتستأثر بتنظيم الدعوة وبثها على يد نخبة من الدعاة والنقباء (سنة 395هـ)؛ وقد اتخذت دار الحكمة منذ قيامها صبغة مذهبية واضحة قوامها بث الروح والمبادئ الدينية الفاطمية، وكانت هذه مهمتها الظاهرة؛ بيد أنها كانت تعمل في الظلام لغاية أخرى يغمرها الخفاء، هي بث الدعوة السرية الفاطمية. ولا يتسع المقام للإفاضة في تفاصيل هذه الدعوة الغريبة ورسومها، ولكنا نقول فقط أنها كانت من أغرب الدعوات السرية المذهبية؛ وكانت موزعة على مراتب تسع يتدرج فيها الطلبة على يد الدعاة، ويدفعون تباعا إلى حظيرة التعاليم الفلسفية والالحادية؛ ويبدأ الطالب في جو من الإيمان العيق، ولكنه لا يصل المرتبة السادسة أو السابعة حتى يكون قد انحدر إلى غمر الإنكار المطبق؛ ويبدو مما نقل إلينا من تفاصيل هذه الدعوة الغريبة ومن موضوعات مراتبها، أن الغاية الأخيرة التي كانت تعمل لها الدعوة السرية الفاطمية هي هدم كل اعتقاد وكل عقيدة دينية، والانتقال بالطلبة والصحب إلى حظيرة الإلحاد المطبق والترفع عن العقائد الروحية العامة التي تؤكد الدعوة أنها لمتوضع إلا للكافة، ولا يلزم بها ذوو الإفهام الرفيعة وقد استمرت هذه الجامعة الغريبة، أعنى دار الحكمة، عصرا ثبت العقائد والمبادئ الفاطمية، الخفية والظاهرة، وكانت جهودها السرية أخطر وأشد أثرا في توجيه الحركة الروحية في مصر؛ بيد أنها لم توفق إلى تحقيق الغاية التي عملت لها، ولم تستطع أن تطبع المجتمع المصري بطابع عميق من الدعوة التي كانت مبعثها ومستقرها، وكانت جهودها بالعكس عاملا في بث أسباب السخط على تلك السياسة التي رسمت للاستئثار بتوجيه العقائد وبث الإنكار والإلحاد؛ واضطرت الخلافة الفاطمية غير بعيد أن تعدل عن هذا الإغراق في بث العقائد المذهبية، فتضاءلت أهمية دار الحكمة، ثم أغلقت بعد ذلك؛ بيد أن هذه الدعوة السرية ذاتها تمخضت كما سترى عن نتائج مدهشة سريعة الأثر.

(للبحث بقية)

محمد عبد الله عنان

المتنبي في ديوانه بمناسبة ذاكره الألفية

للأستاذ عبد الله كنون الحسني

اختلفت مذاهب الأدباء في المتنبي بين المدح والذم اختلافا شديدا منذ العصور الذي كان يحيا فيه إلى الآن، وقد مر على وفاته عشرة قرون كاملة. وانك لتجد اليوم بعد هذه الأجيال الطويلة من يتكلم عن المتنبي بلسان الصاحب بن عباد خصمه العنيدالذي جعل وكده النيل من المتنبي وإنكار فضائله بالحق أو الباطل، ومن يدافع عنه ويتعصب له أكثر من ابن جني وأبي العلاء. ولقد كان حريا أن تضيع حقيقة المتنبي بين التفريط والإفراط من الفريقين كما هو الشأن في كل ما يتعاوره هذان العاملان المختلفان، ولكن المتنبي كان شخصية فذة تأبى إلا الإعلان عن نفسها والظهور بمظهرها الحقيقة مهما حالت الحوائل بينها وبين الناس فالمتنبي لا يجهل أحد من المثقفين اليوم أنه من

أكبر شعراء العربية إن لم يكن أكبرهم على الإطلاق. رفع من شأن الشعر العربي فأحله مرتبة لم تكن له من قبل، بما نفى عنه من الزخارف اللفظية والأساليب التقليدية والأغراض السافلة، وما نفخ فيه من روح العظمة والابتكار والسمو إلى الغايات البعيدة المنال. حتى انه إذا مدح شخصا فان مدحه له يكون كالتلقين لمبدأ سام لا يجد الإنسان مندوحة عن الاستجابة له من أعماق نفسه. ولا نستدل على ذلك بأكثر من مطلع هذه القصيدة التي يمدح بها سيف الدولة، فان فيه وحده بلاغا لمن يتشكك في هذا القدر، وهو قوله:

على قَدْرِ أهلِ العزْمِ تأتي العزائم ... وتَأتي على قَدْرِ الكِرَامِ المكارِمُ
وتَعْظَمَ في عَيْنِ الصَّغير صغارُها ... وتصغُرُ في عين العَظِيمِ العَظائِمُ

وكما يعرف الجمهور هذه الحقيقة من أمر المتنبي اليوم، فانه كان يعرفها بالأمس وفي نفس عصر المتنبي. يدلنا على ذلك هذه العناية الكبيرة من الأدباء بشعره؛ فمن شرح له، إلى انتقاد، إلى تقريظ، إلى غير ذلك مما لم ينله شاعر قبله ولا بعده. وفي حياة المتنبي قال ابن العميد لأحد خلصائه: (انه والله ليغيظني أمر هذا المتنبي واجتهادي في إخماد ذكراه، فقد ورد على نيف وستون كتابا في التعزية ما منها إلا وقد صدر بقوله:

طَوَى الجزيرةَ حتى جاءني خبرٌ ... فَزِعتُ منه بآمالي إلى الكذبِ
حتى إذا لم يَدَعْ لي صدقه أملاً ... شَرِقتُ بالدمع حتى كاد يَشرَقُ بي

ولاحظ الأستاذ العقاد عن المدة بين نظم القصيدة التي منها هذان البيتان وموت أخت ابن العميد التي كانت التعزية فيها، أنها لا تزيد كثيرا على سنة واحدة. فانظر كيف كان تلقف الأدباء لآثار المتنبي وتلقيهم لها بالقبول، برغم وجود كثير من المنافسين له والعاملين على إخماد ذكراه كما يعبر الرئيس ابن العميد!

فمقام المتنبي دائما أرفع من أن يتطاول إليه أحد، وشأنه أكبر من أن يؤثر فيه مقال أهل الحسد. وما كثرت هذه التبعات لشعره فكثرت بسببها العثرات التي يأخذها عليه خصومه، إلا لأن نبوغه كان أكمل وأتم، وعبقريته أجل وأعظم؛ والناس منذ كانوا مولعون بالعظماء يتلمسون عيوبهم فيظهرونها، ويتكشفون عوراتهم فلا يسترونها.

على أن جل ما أخذ على المتنبي قد رده المحققون وبينوا أن الصواب ما ذهب إليه هو؛ وبعض الباقي هو مما لم يخل منه كاتب ولا شاعر في القديم والحديث، وأي صارم لا ينبو؟ وأين الجواد الذي لا يكبو؟

نعم، هناك هنات لا تزال لاصقة بالمتنبي فتزري بشخصه الكبير؛ ولا زال البحث العلمي بعيدا عن أن يصل فيها إلى نتيجة حاسمة، فنريد أن نلقي عليها بصيصا من نور التحقيقمعتمدين في الكثير على شعر المتنبي الذي هو أصقل مرآة لنفسيته وأخلاقه. وسيكون اعتمادنا في الأكثر على نسخة خطية عتيقة من ديوانه توجد بالخزانة الكنونية. وهذه الهنات التي نقصد إلى الكلام فيها هي تنبؤه وعقيدته وأخلاقه.

فأما تنبؤه فهو الزلة الكبرى التي تؤخذ على ذلك العقل الجبار، وهو في الحقيقة أمر لو صح لكان ذريعة إلى اتهامه في سلامة الادراك. ولكن من المعروف أن المعري كان يشك في صحة ذلك، ويقول في هذا اللقب الذي غلب على أبي الطيب: إن اشتقاقه من النبوة أي الارتفاع، لما كان من ترفعه على الخلق، لا من النبأ الذي منه اشتاق النبئ. وهذا الخبر وحده كاف في نفي هذه التهمة عنه، لا لتشكك المعري فيها، ولكن لما يتضمنه ذلك من إخفاء قضية التنبؤ وعدم شهرتها بين الخاصة فأبله بالعامة، وإلا لما سأل ابن القارح أبا العلاء عن حقيقتها فأجابه أبو العلاء بذلك الجواب. وهذا على أن ما بين المتنبي وأبي العلاء من الزمن لا يجاوز العقد الواحد من السنين. فكيف خفي هذا الأمر ودفن مع المتنبي حتى أن اثنين من كبار أدباء ذلك العصر لا يجدان سبيلا إلى التوثق منه، مع أن العادة في مثله إذا وقع ولو ممن هو أدنى من المتنبي مقاما، أن يشتهر ويتعالم فيتناقله الناس ولا يبقى إحدى ليس عنده نبأ منه!

وأكثر من خبر المعري دلالة على هذا المعنى، خبر ابن جني الذي ذكر له أبو القاسم الشريف (الشريف الغرناطي) في شرح مقصورة حازم، قال: (وحكى أبو الفتح ابن جني قال: سمعت أبا الطيب المتنبي يقول: إنما لقبت بالمتنبي لقولي:

أنا تِرْبُ الندَى وربُّ القوافي ... وسمامُ العدَى وغيظُ الحسودِ

(أنا في أمةٍ تدارَكها الله ... غريبٌ كصالح في ثُمودِ
فهو لو كان تنبأ حقيقة لما جهل ذلك من أمره حتى يحتاج إلى البيان، وإلا كان كالمعتذر بأقبح من الزلة. وصفوة القول أن قضية تنبئه لم تثبت حتى في زمن حياته. وهي إن لم تكن من إشاعات خصومه الكاذبة فهي على الأرجح مما نبز به لتشبيهه نفسه بالأنبياء كما في البيتين السابقين والبيت الآخر الذي يقول فيه:
ما مقامي بأرض نخلة إلا ... كمقام المسيح بين اليهود
وننظر في ديوانه فلا نجد ما يدل على هذه القضية لا تصريحا ولا تلويحا إلا ما كان من أمر سجنه في صباه بسبب وشاية بعض الناس به إلى الوالي. فنقول ما هي هذه الوشاية؟ أتراها مما له علاقة بهذا الأمر؟ وتجيب نسختنا عن ذلك بما كتب فيها على القصيدة التي مدح بها الوالي فتقول: (وكان قوم في صباه وشوا به إلى السلطان وتكذبوا عليه وقالوا له قد انقاد إليه خلق من العرب، وقد عزم على أخذ بلدك، حتى أوحشوه منه. فاعتقله وضيق عليه فقال يمدحه). فالوشاية إذا هي خروجه على السلطان لا ادعاؤه النبوة. واستمع إلى ما يقوله في استعطاف الوالي من تلك القصيدة:
أمالك رقي ومن شأنه ... هبات اللجين وعتق العبيد
دعوتك عند انقطاع الرجا ... ء والموت مني كحبل الوريد
دعوتك لما براني البلي ... وأوْهن رجليِ ثقلُ الحديد
وقد كان مشيهما في النعال ... فقد صار مشيهما في القيود
وكنت من الناس في محفل ... فها أنا في محفل من قرود
يريد المسجونين من اللصوص والجناة المختلفي الطبقات السيئي السلوك
تعجل فِيَّ وجوب الحدود ... وحدِّيَ قبل وجوب السجود
يريد أنه صغير لم تجب عليه الصلاة فكيف يجب عليه الحد؟
وقيل عدوت على العالمين ... ن بين ولادي وبين القعود
يريد أنهم اتهموه بالعدوان على العالمين في حال الطفولة قبل أن يستطيع القعود. وليلاحظ القارئ نوع التهمة فهي منحصرة في الخروج، ولو كانت ادعاء النبوة لما قالت عدوت على العالمين:
فماَلك تَقبلُ زُ ورَ الكلام ... وقدرُ الشهادة قدرُ الشهود
يريد أن الشهود من سفلة الناس فشهادتهم مردودة لعدم تورعهم عن الكذب:
فلا تسمعنَّ من الكاذبين ... ولا تعبأنَّ بمحكِ اليهود
وكن فارقا بين دعوى أردت ... ودعوى فعلتُ بشأو بعيد
وفي جود كفك ما جدت لي ... بنفسي ولو كنت أشقي ثمود
فهذا كلامه في حال صباه قبل أن يناصبه العداء أحد من المنافسين له والحانقين عليه، لم يتضمن شيئا من الإشارة إلى دعوى النبوءة، ولا يمكن ان تفهم منه بحال. فلو كان قال هذه القصيدة في إبان شهرته وانتشار ذكره لقلنا إنه جمجمفيها ودارى عن نفسه، ولكنه كما علمت قالها في صباه، وهي من أوائل شعره بلا نزاع عليها وصحة الاستشهاد بها. بل نحن نسلم جدلا انه أدعى النبوة وبسببها سجن، فكيف يصح قوله حينئذ:
بين دعوى أردت ... ودعوى فعلت بشأو بعيد؟
وهل من يريد إدعاء النبوة متنبئ بالفعل؟ وهل هذه الإرادة مما يمكن الاطلاع عليه قبل إظهارها حتى تأتي الوشاية به؟ وذلك بخلاف الخروج فان بوادره تظهر للناس قبل الإقدام عليه، لأنه لا بد له من دعاوة كبيرة، إذ أن الفرد لا يمكن أن يرفع وحده علم الثورة في وجه الدولة! ومع تأكيدنا أن الذين وشوا به لم يتهموه إلا بالخروج، لا نستبعد أنهم الذين لمزوه بذلك اللقب المشنوء لما رأوا تعاليه عليهم وتقريعه لهم مع تشبيههم باليهود وتشبيه نفسه بالأنبياء كما في قوله:
ما مقامي بأرض نخلةَ إلا ... كمقام المسيح بن اليهود
وقوله:
فلا تسمعن من الكاذبين ... ولا تعبأنَّ بمحك اليهود
بل إننا لا نكاد نميل عن هذا الرأي في سبب تلقينه بالمتني حتى تقوم الحجة، والحجة القاطعة على خلافه. وأما أقوال خصومه في ذلك فمرجد ادكار قوله انه سمام العدا

وغيظ الحسود تضعف وتضمحل حتى لا يبقى لها اعتبار ما.
وأما عقيدته فهي مما كثر كلام الناس فيه؛ ولسوء حظ المتنبي لم يتناولها إلا منتقد، وليس هناك معتقد فيما نعلم تولي رد ما رمى به من الزيغ والإلحاد. فنحن نبين ما يعتمد إليه متهموه فيها ونعقب عليه بما يلوح لنا من ذلك صحيحا أو باطلا. غير أنه لابد من القول أن مثل المتنبي في أدبه وشعره وروحه الفلسفية لا يطمع منه أن يكون متدينا خالصا إلى حد التبتل والانقطاع للعابدة ومحاسبة نفسه على الخطرات وحبس لسانه عن فضول الكلام، فان التدين بهذه الصفة مما لا يكاد يفهمه إخوانه من الشعراء وأهل الأدب على وجه العموم. وقديما مثلوا برقة إيمان الأدباء، فكيف نريد منالمتنبي أن يتستر على جمهورهم ويقدم لنا من نفسه (أويسا) في ثوب شاعر، أو شاعار في ثوب (أويس)؟ ولئن قال علي بن حمزة عن المتنبي إنه ما صام ولا صلى ولا قرأ القرآن فلقد قال عنه إنه ما كذب ولا زنا ولا لاط. وهذه إن لم تقم بتلك فان تلك لا اعتداد بها مع هذه. وهل كان الشعراء الذين لم يتنزهوا عن الكذب والزنا واللواط يصمون ويصلون ويقرأون القرآن؟
وبهذا تعلم أن عدوان الخصومة على المتنبي قد ستر من محاسنه ما لو ظهر لكان له في النفوس مكان أسمى مما له فيها الآن ولأقص على سمعك بعد هذه المقدمة بعض الأبيات التي يزن بسبها بضعف العقيدة. قال يمدح بدر بن عمار:
تَتَقاَصرُ الأفهامُ عن إدراكه ... مِثْل الذي الأفلاكُ فيه والدُّنى
فقالوا: لقد أفرط جدا لأنه شبه ممدوحة بالحق سبحانه وتعالى، لأن الذي فيه الأفلاك والدنى هو علمه عز وجل. ونقول إن هذا تعسف ظاهر، فمن الذي نقل عنه أنه يريد ما ذكرتم؟ وماذا حسن في بلاغتكم؟ التعبير عن علم الله بالذي الأفلاك فيه والدنى حتى رجحتموه على أن يكون المراد به هذا الفضاء الواسع الذي يحتوي الأفلاك والدنى حقيقة ممتدا وراء الآفاق التي تتقاصر عن إدراكها العقول؟
وقال المتنبي:
أنا مُبصرٌ وأظن أني نائمٌ ... من كان يحلم بالآله فأحلما؟
فقالوا: هذه مبالغة مذمومة وإفراط وتجاوز حد، ثم هو غلط في إنكار رؤية الله تعالى في النوم فان الأخبار يقد تواترت بذلك ونقول: إن البيت رواية أخرى وهي الأشهر هكذا:
من كان يحلم ما يراه فاحلما، وهي كذلك في نسختنا، والمعنى عليها أظهر من الأولى فلا يبعد أن تكون تحريفا
(البقية في العدد القادم)
(طنجة)
عبد الله كنون الحسني
قصة المكروب كيف كشفه رجاله
ترجمة الدكتور أحمد زكي وكيل كلية العلوم
كوخ
رابع غزاة المكروب يكتشف مكروب السل
- 6 -
إن بشلات الجمرة بشلات في المكروبات كبيرة يسهل الكشف عنها إذا هي قورنت بمكروب السل، ذلك المكروب القتال الخداع. ومكروب الجمرة يكثر في أجسام الحيوان قبيل موته كثرةً هائلة، فلا يخطئه البصر ولو لم يكن حديدا، أما مكروب السل - ولم يكن كوخ على يقين من وجود مكروب له - فقد طلبه الطالبون وتقفاه الباحثون ولكن بغير جدوى. ولو أن لوفن هوك نفسه، وهو أحد البحاث عيناً، نظر في مائة رئة مريضة، ثم نظر، ثم أعاد النظر، ما خرج من نظراته الحديدة الكثيرة على شئ. ولو ان اسبلنزاني حاول ما حاول لوفن لعجزت مجاهره عن إبلاغه تلك الغاية. أما بستور، وهو الباحث القدير، فلم تكن طرائقه من الدقة بحيث ترفع الغطاء عن هذا الفاتك الغادر. أو لعل صبره كان ينقذه دون أن يحقق شيئاً.
ولم يكن يعرف قبل كوخ من داء السل شئ كثير، فكل ما عرف عنه أنه داء تنقله مكروبات، وذلك لأمكان نقله من حيوان سقيم إلى أخر سليم. سبق إلى هذا الدليل عالم شيخ اسمه فلمان وحققه من بعده كون هايم أستاذ برسلاوة الكبيرة، فاستطاع

أن ينقل داء السل إلى الأرانب، إذ أخذ فتيتة من رئة مسلولة فأدخلها في الخزانة الأمامية لعين أرنب، فأخذت أنسجة العين تتدرن، وأخذ الدرن يتمدد ينذر الموت. وظل عالمنا القدير يرقب حوادثهذه التجربة البديعة من خلال أغنية العين الشفافة فكأنما يرقب دوراً على مسرح يلعب من وراء زجاج كان كوخ قد أطلع على تجربة كون هايم، ودرسها درساً طيباً.

قال: (ليس في المقدور أن أجرب تجارب السل في آدمي، وقد أمكن الآن نقل هذا الداء إلى الحيوان، فهناك يا نفس فرصة غالية لدراسته، لكشف مكروبه، فلا بد من مكروب ينشأ عنه هذا الداء. . . .)

وبدأ كوخ عمله، وكان لا يعمل إلا على خطه يرسمها، وكانت خططه قاسية لا صلةهلا بعاطفة بني الانسان، ولا تمت بسبب إلى الحنان القلوب. وأجرها ببرود قلب لو أطلعت عليه في تقاريره عنها لأقشعر بدنك منها. وحصل على مادة سله الأولى من عامل يفعل في الأرض؛ وكان رجلا قوي البنية، مفتول العضل شديداً، وكان عمره ستة وثلاثين عاماً، وكان منذ ثلاثة أسابيع في صحة هي الغاية مما يرجوه إنسان، فلم يلبث أن جاءته سعلة باغتة، اخترقت صدره الآم فاجئه، نفذ منه نفوذ السهام. وأخذ جسمه في الهزال السريع حتى أصبح كأنه الشمعة احترقت فأخذت تسيح. ودخل المستشفى ولم تظله سقفه أربعة أيام حتى صعدت روحه إلى السماء، وتخلف جسمه حيث هو من سريره، وقد عمه الدرن وتنقط كل عضو فيه بتلك الحبيبات الغبراء الصفراء كأنها الفلفل بعثره مبعثر فيها.

بدأ الكوخ عمله في هذه المادة الخطيرة وحيداُ، فمساعداه كانا قد افترقا عنه، أما لفلار فأخذ يتقفى مكروب الدفتريا، وأما جفكي فكانا ينقب عن مكروب التيفود. بدأ كوخ العمل وحده، فجمع الدرن الأصفر من جثة العامل المنكود بين مشرطين أحماهما في النار، ثم سحق الدرن، ثم حقن سحيقة بلطف في عيون طائفة من الأرانب، وحقن منه تحت جلود طائفة أخرى من الخنازير الغينية، ووضع الأرانب والخنازير في أقفاص نظيفة، وأخذ يعني بها ويلاطفها ويداعبها مداعبة الأم الرؤوم؛ وبينا هو ينتظر انبعاث السل فيها ملأ وقته بالنظر بأقوى مجهر في الأنسجة المريضة التي خلفها العامل المسكين.

نظر ثم نظر، ثم داوم النظر أياما بمجهر يكبر الأشياء مئات المرات، فلم يكشف بصره شيئاً إلا الحطام الذي تخلف من كبد تهدمت أورئةتخربت. قال كوخ: (إن يكن للسل مكروب فلا بد أنه يداورني ويغالبني حتى يفلت من عيني فلن أستطيع بعد الآن رؤية وهو حيث هو من الأنسجة بصبغة شديدة، فلعله يتراءى من بعد ذلك فيها. . .)

ومضى اليوم تلو اليوم، وكوخ قائم قاعد في صبغ الدرن الذي جمعه، يصبغه بالأسمر والأحمر، وبكل لون من ألوان الطيف استطاعه. كان ينشره على شريحة من الزجاج نظيفة، ثم يغمرها بما عليها فيمحلول صبغة قوية زرقاء، ويدعها الساعات فيها، ثم يعود إلى شريحة ثانية ويصنع بها ما صنع بالأولى، فيغمرها في صبغة أخرى، ثم يعاود ثالثة ورابعة، وكلما مست يداه شيئاً مستراباً غمسها في محلول مطهر من السليماني حتى تقشف
جلدهما وأسود.

واصبح صباح يوم، فقام كوخ إلى شرائحه الزجاجية فأخرجها من محلول الصبغات التي كانت بها، ووضعها واحدة بعد أخرى تحت مجهره،، واخذ يبؤئره عليها، فاخذ مجال بصره يتضح رويداً رويداً حتى خرج له من العلماء الأغبر صورة جلية بينة، وإذا عينه ترى بين خلايا الرئة التي تقوضت من الداء مجموعات غريبة من بشلات صغيرة كالعصي زرقاء، رقت في بصره فلن يستطع تقدير سمكها، أما طولها فأقل من جزء من خمسة عشر ألف جزء من البوصة الواحدة قال كوخ: (ما أجملها بشلات! إن بها انحناء قليلا والتواء، فهي ليست في استقامة مكروب الجمرة، وهناكأسرابا منها اجتمعت واكتنزت كأنها حزم السجائر، وهاك بسلةً عفريتة دخلت وحدها خلية من خلايا الرئة المتآكلة. . . أحقاً هذا مكروب السل وقعت عليه هكذا سريعاً؟) وواصل كوخ عمله بدقته المعهودة، فظل يصبغ الدرن يستخرجه من كل ناحية من نواحي جثة العامل، وحيثما صبغ أرته صبغته الزرقاء تلك البشلات الدقيقة الحنواء؛ تلك الخلاق الغريبة الجديدة وقد اختلفت عن كل ما كان رآه في أجسام ألوف الحيوان والإنسان سليمة وسقيمة.

ولم يلبث فيما هو فيه طويلا حتى بدأت الفاجعة المحزنة تقع في الخنازير الغينية والأرانب. أخذت هذه الخنازير يتزاحم بعضها لصق بعض في أركان القفص في كآبة بينة، وانتفش فروها، وأجسامها الصغيرة التي دأبت بالأمس على الوثب واللعب، آخذت تنهزل ويذوب عنها ما كساها من اللحم والشحم فصارت كأنها العظم حوته صرة من جلدها. ولزمتها الحمى فهمدت وتخاذلت عن طعامها من الجزر الطيب قد زها لونه، والحشيش الطازج قد فاح شذاه. ثم آخذت تموت واحدا فواحده، وكلما مات واحد منها إرواء لغلة عالنا من البحث، وافتداء لسلامة للاتسان، قام صاحبنا إليه فدبسه على لوحة تشريحه، وبلل جلده بمحلول السليماني ثم اخذ مشارطه فطهرها ثم شق جثة الخنزير وشرحها في دقة زائدة وعناية بالغة سكتت لها أنفاسه مخافة الزلل.

وفي بطون هذه الضحايا، التي جهلت بما ضحت، وجد كوخ نفس ذلك الدرن الأصفر الأرمد المرعب الذي امتلأت به جثة العامل. فقام يبسطه على لوائح زجاجه الذي لايفني، ثم يغمره في صبغته الزرقاء، وفي كل حالة وبكل جسم كشفت له الصبغة عن نفس تلك

العصي الحدباء التي أرته إياها أول مرة في رئة ذلك العامل فدعا عونيه الأقدمين - لفلار الشغال، وجفكي المخلص - فتركا ما هما فيه من مكروبات أخرى يبحثانها، فلما جاءاه أراهما ما وجد. قال: (انظر كلاكما فآني وضعت في هذا الحيوان منذ ستة أسابيع فتيتة صغيرة من الورق لا يتجاوز ما فيها مائة من هذه البشلات، وها هي اليوم قد تكاثرت فيه فبلغت البلايين. أي مخلوقات هذه! فلقد إنتشرت من حيث حقنت في فخذ هذا العيني إلى كل أجزاء جسمه، فنفذت كالأرضة إلى اقاصيه، واخترقت جوانب الشرايين. . . . وحملها الدم إلى عضامه. . . وحملها إلى ابعد زوايا في مخه. . . .)

وذهبت إلى مستشفيات برلين، كائنة حيث ما كانت، يستجدي منها جثث الموتى رجلاً ونساءً من صرعى السل، واخذ يقضي أيامه وحيدا مستوحشاً بين هذه الجثة حيث هي من بيوتها، ويقي امساءه عند مكرسكوبه في معمله، وهو ساكن كالقبر إر من أصوات خنازيره الغينية وحركاتها، واستخرج من أجساد الموتى أنسجتها المريضة فحقن منها في مئات من هذه الخنازير، وفي كثير من أجساد الموتى أنسجتها المريضة فحقن منها في مئات من الخنازير، وفي كثير من الأرانب، وفي ثلاثة كلاب، واثنتي عشرة حمامة، ثلاثة عشرة قطة خداشة، دجاجات دفاقةقواقة؛ ولم يقف من جنونه إلى هذا الحد من جقن هذا العدد الكبير من الحيوانات، بل انه حقن هذه المادة الجبنية القاتلة في أنواع عدة من الجرذان والفئران أبيضها وأرمدها، وما يرتاد الجبال منها، بلغت دقة كوخ في صيد المكروب حداً لم يبلغه صائداً قبله.

وتفكر كوخ لما أجهده الحذر قال: (يا لله من عمل يهز الأعصاب هزاً). قال هذا وقد خال ما كان حاله لو أن مخلب هذه الهرة امتد كالبرق إلى محقنه فأرتشق في جلده بكروبها القاتل! لم يكن كوخ برغم هدوئه ووحدته وانفراده في محاربة هذه الأعداء الخفية خلوا من هزات الحياة وانفعالاتها، إلا أنها لم تكن انفعالات من التي تنعش وتسر، ولكن من تلك التي تنذر بالفواجع والمآسي.

وصمد صاخباً للمأساة المنذرة فلم تزل يده إنما ازدادت على الأيامجفافاً وتجعداً واسوداداً لغمسه إياها في محلول السليماني، هذا المحلول الطيب الذي وجد بحاث الكروب في تلك الأيام أمنهم فيه، فغمروا يه كل شيُ حتى أجسامهم. وتتالت الأسابيع وكوخ بين مواء القطط وقيق الدجاج ونباح الكلاب، وبشلته الحنواء تتكاثر تكاثراً سريعاً قاسياً فظيعاً في هذه

الحيوانات، ثم أخذت هذه الحيوانات تتساقط واحدة بعد اخرى، وتعجلها الموت فازدحمت بين يدي كوخ، فاشتغل من يومه ثماني عشرة ساعة قضاها في شق جثتها وتفحص ما بها، ثم في امتحان ما وجد فيها تحت المكرسكوب بعينه العمشاء.

قال كوخ لتلميذيه الأقدمين لفلا وجفكي: (إني لا أجد هذه العصي الزرقاء إلا في الرجل أو في الحيوان المسلولين. ولقد نظرت كما تعلمون في مئات من الحيوانات الصحيحة فلم أجد لهذه العصي أثراً).

فقال صاحباه: (ومعنى هذا يا سيدنا الدكتور أنك وجدت البشلة التي هي أصل هذا الداء).

فيقول كوخ: (لا. لا. للساعة لم يتم الأمر. . . إن الذي أتيته قد يقنع بستور، أما أنا فلم

أقتنع بعد، فلا بد لي من استخراج هذه البشلات من أجسام هذه الميتات، ولا بد لي بعد ذلكمن زرعها في فالوذج حساء اللحم الذي كنا اصطنعناه. . . (لا بد من الحصول علة زريعات خالصه من هذه البشلات من أجسام هذه الميتات، ثم لا بد لي بعد نسل عدة اشهر، بعيدة عن كل مخلوق حي. ثم بعد ذلك أحقن النسل الأخير الخالص في حيوانات سليمة، فاذا جاءها السل. . . .) وعندئذ انبسطت أسارير كوخ وعلت فمه ابتسامة قصيرة. وعاد لفلار وجفكي إلى أبحاثهما، وفي قلبيهما روعة المعجب خجلة المتسرع الذي يجني النتائج فجة غير ناضجة.

ورسم كوخ في رآسة كل الصور الممكنة لزرع خذا المكروب وبدأ بزرعه على فالوذج حساء البقر. وصنع عشرات من مختلف الأحسية، وصبها في أنابيب وقنيناته ووضعها في درجات من الحرارة مختلفة؛ فبعضها في درجة حرارة غرفته، وبعضها في درجة حرارة جسم الإنسان السليم، وبعضها الآخر في درجة جسم الإنسان المحموم. وأتى ببشلاته من رئات خنازير غينيه فجاءت حالص من كل مكروب ضال يخشة منه أن يكاثرها وهي دقيقة فيسج عليها مسالكها. وزرع هذه البشلات النقية في مئات الأنابيب والقناني، ولكنه خرج من كل هذا - بالخيبة! فهذه البشلات الدقائق التي تتكاثر في أجسام حيواناته تكاثراً سريعاً ذريعاً، هذه البشلات التي تناسلت في أجسام المرضى من بني الإنسان حتى بلغت الملايين، هذه البشلات رفعت أنوفها - على فرض إن لها أنوفاً - عن طعام كوخ اشمئزازاً من احسائه وفواليذهذات يوم خطر لكوخ خاطر فيسبب إخفاقه قال: (إن بشلات السل لا تنمو إلا في أجسام حية، فلعلها آذن تتطفل على هذه الأجسام، وعلى إذن أن أجهز لها طعاماً أقرب ما يكون إلى مادة جسم الحيوان).

هكذا اكتشف كوخ طعامه الشهير - فالوذ مصل الدم اكتشفه طعاماً لكل مكروب أرستقراطي مترف يعاف طعام السوق ' طعاماً لكل مكروب أرستقراطي مترف يعاف طعام السوقة من المكروبات، وذهب إلى القصابين وجاء منهم بدم طازج من أبقار قتلت لوقتها، فلما أنجمد وتجبن، شققه، فسال منه عصير زلالي يضرب إلى صفرة التبن. ثم سخن هذا المصل بمقدار يقتل ما سقط فيه من مكروبات الهواء الضالة، ثم صبه على حذر في عشرات من أنابيب اختبار ضيقة، أمالها في مواضعها إمالة كبيرة ليتسع سطح المصل الذي بها، فعلى هذا السطح سيبسط مادة المكروب. ثم سخن الأنابيب وهي على ميلانها تسخيناً يكفيلانعقاد مصلها وتحوله إلى مزاج فالوذي جامد جميل في روقانه.

ومات في صباح هذا الغد خنزير غيني خرمه السل تخريماً، فشرحه واستخرج منه درنة أو درنتين، نشرهما بعود من البلاتين على سطح فالوذ المصل وهو ندى، وانتقل منأنبوبة إلى أخرى حتى لقح الجميع. ثم استنشق نفساً كبيراً، ثم زفر زفرة طويلة فكأنما نفض فيها الهم الذي ملأه في هذه العسلية الدقيقة وقد نجحت بعد خشية الزلل، وقام كوخ فأخذ الأنابيب فوضعها في مدفأ درجة حرارته تعدل تماماً تلك التي في جسم الخنزير الغيني ومضت أيام ذهب كوخ فيها كل صباح إلى هذا الفرخ الدافئ، ورفع أنابيبه إلى نظارته في إطارها الذهبي، وحدق فيها وحملق، ولكنه لم ير شيئاً. قال كوخ: (هذه خيبة أخرى! كل المكروبات التي زرعتها تكاثرت في يومين، وهذا هو اليوم الرابع عشر، فما لهذا المكروب التعس لا يتكاثر أبداً. . .) لو أن رجلاً غير كوخ صادف ما صادفه من الخيبات لكب أنابيبه وسكب مصله، ورجع عما قصد إليه. أما كوخ طبيب القرية الأشوع، فله شيطان يحفزه ويغريه، فقام عندئذ يوسوس إليه من وراء عاتقه: (صبراً سيدي صبراً. أنسيت أن جرثومة السل بطيئة تستغرق في قتل الرجال الأشهر والسنين. فلعلها أذن بطيئة كذلك في تكاثرها في مصل أنابيبك) فأستمع كوخ لشيطانه، فلم يرم بأنابيبه وأمصاله، واستمهلها لليوم الخامس عشر. فلما كان صباحه نزل إلى مفرخة فوجد الفالوذج المصل قد تبعثرت على سطحه الناعم حبات صغيرة لامعة. فمد كوخ يده في لهفة إلى جيبه يستخرج منه عدسته وألصقها بعينه وأخذ يحدق في الأنابيب أنبوبة أنبوبة، فلما كبرت هذه الحبات في عينه تراءت قشوراً جافة صغيرة فأمسك كوخ وهو ذاهل بإحدى الأنبوبات، فنزع عنها سداد القطن الذي يسدها، ووضع فاها وهو غائب الفكر في اللهب الأزرق لمصباح بنسن ليعقمه، وأدخل فيها عوداً من البلاتين فلقط على طرفه حبة من تلك الحبات التي ظهرت على

الفالوذج المصل، وهو يكاد يوقن أنها مكروبات. فوضعها تحت مكرسكوبه، وهو لا يكاد يدري ما وضع، ونظر فعلم أن البحث تجري طريقه شاقه في صحراء لفاحة جرداء، لا زرع فيها ولا ماء، ولكن المسافر فيها يأتي الفينة بعد الفينة على واحة ظلها وارف، ونبعها بارد، وثمرها وفير مستطاب، نظر فعلم أنه هبط بعد الجهد والجلد على واحة من تلك الواحات، أفليست ملايين المكروبات هذه التي تكشف لبصره الآن هي عينها تلك البشلات الحنواء التي رآها في رئة ذلك العامل المسلول زمناً مضى، وتراءت له لا حراك بها، ولكنها حية بدليل تكاثرها، وتراءت له دقيقة صغيرة، رقيقة المزاج، أنيقة المطعم، سريعة الرغبة عما لا ترضاه منه، ولكنها مع هذا كبيرة النهم شديدة الفتك مخربة هدامة، أكثر تخريباً من غزاة التتر، وآكد في الموت من الحيات والأفاعي.

(يتبع)

احمد زكي

أبو الطيب المتنبي

شاعر الأدب القوي بمناسبة ذكراه الألفية

مهداة إلى الأستاذ الكبير أحمد أمين

بقلم السيد كامل حريري

في مثل هذا اليوم منذ ألف سنة خلت، فقدت آلهة الشعر والبيان رسولها الأمين ونبيها العظيم أبا الطيب أحمد المتنبي، بعد إذ أدى رسالتها ونشر دعوتها أربعين عاماً لا تأخذه كلالة ولا تتكاءده ملالة، وأنبياء البيان كأنبياء الأديان شديد عنتهم كثير اضطهادهم صعبة دعوتهم، وهممع ناكري رسالتهم في بلاء وجهد ما أنزلت عليهم إلهة الشعر رائع آياتها وخالد أبياتها، وما بي عرض رسالة المتنبي وما كان يلقى بسببها من كفر العبقرية وجحود الفضل ونكران العظمة، فكل أحس ذلك في شعر شوقي ورسالته، إن ما أخذت نفسي به هو ذكر أبى الطيب الفيلسوف المهذب، (كورني) العرب في القرن الرابع؛ وأنا إذ أقول هذا لا أقصد إلى قول الفيلسوف الشاعر أبى العلاء المعري: (إنما أبو تمام وأبو الطيب حكيمان والشاعر البحتري) بل أعني ناحية خطيرة في شعر المتنبي هي وحدها سر خلوده وعظمته وبقاء شعره على الزمن.

وما الدهر إلا من رواة قصائدي ... إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا

فسار به من لا يسير مردداً ... وغنى به من لا يغنى مفردا

ولكن هذا يقتضيني ذكر القرن الرابع الهجري، وقد تهاوى بناء الدولة العباسية، ورث حبل العروبة، وفشت فاشيةُ ملوك الطوائف في البلاد العربية الاسلامية؛ فآل بويه وبنو حمدان فيالعراق وفارس والشام، ودولة الأخشيديين وبنو رائق في مصر وفلسطين يتواثب بعض على بعض، وإن للفساد والرذيلة لسوقاً رائجة، وان للخيانة والنفاق لبضاعة نافقة؛ أما عن الأخلاق الواهية والعزائم الوانية والمروءات الساقطة فحدث ولا إثم.

فدهري ناسه ناس صغار ... وإن كانت لهم جثث ضخام

أرنب غير أنهم ملوك ... مفتحة عيونهم نيام

ذلكم القرن الرابع الذي ولد فيه فجر الشعراء أبو الطيب المتنبي قد عرضته عليك بعجره وبجره وخيره وشره. لأن للعصر أثراً بيناً فيما ينظم الشاعر ويكتب الأديب، وهو عصر ما أخلقه بشاعر كالمتنبي ينشر بين أهله الضعفاء فرقان القوة ورسالة المجد والمثل الأعلى.

وكما ابتعث (جوبيتير) آله الحرب والقوة نيتشه فيلسوفا يوقظ بإنجيله همم الألمان الراقدة وعزائمهم الهامدة ويلقنهم آيات تنازع البقاء وبقاء القوي الغالب، ابتعث المتنبي قبله بثمانية عصور إلى الأمم الإسلامية يقول:

فالموت أعر لي والصبر أجمل بي ... والبرُّ أوسع والدنيا لمن غلبا

تطاول العهد بالجاهلية الأولى، فنسى الشعراء نغمة التفاخر بالعديد، والتكاثر بالوليد، والاعتداد بالقوة، والاعتزاز بالمنعة، والتفاضل بمنع الجار وحفظ العشيرة، فأصبحوا وقد رقت حاشيةالحياة، ولانت أعطاف العيش، تشوقهم اللذة، ويروقهمالترف، ويستعبدهم الهوى، وتتصباهم الطريقة النواسية، فما منهم إلا عاشق مفتون، وقيس بليلاه مجنون، وما فيهم إلا نضو ردف ثقيل، وخصر نحيل، وطرف سقيم، وثغر نظيم؛

.!ومن لا يحب الخصور والنحور واللواحظ والثغور إذا كن مما يشتهي ويستملح
طغى سيل الأدب اللين بنوعيه الشعر والنثر على الحياة الإسلامية العربية في القرن الثالث والرابع حتى ماعت الأخلاق الصلبة البدوية، وذابت الرجولة القاسية الجاهلية، وتفككت الفضائل من رابطتها الوثيقة، وتحللت الأخلاق من أزمتها المتينة، وسرى داء الضعف والتخنث في نفوس الشيوخ والشبان بله الكواعب والغلمان. فكان من ذلك جيل مترف متنعم، مسخت الحضارة رجولته، وألان الترف شكيمته، وأماتت النعمة طموحه. فما تتراقى إلى مجد له همةٌ، ولا تتسامى إلى مثل أعلى له عزمةٌ، وما جنى على هذا الجيل ما جنى إلا شعراؤه الخليعون الماجنون وفي طليعتهم بشار وأبو نواس. فان من يقول:

ولو أن مالي يستقل بلذتي ... لأنسيت أهل اللهو كسرى وقيصرا

لا يبشر إلا بجيل خائر ضعيف كهذا الجيل الذي ولد فيه المتنبي. وما لنا لا نقول في صراحة وصدق، إن الأدب القوي في غير عنف، الشديد في غير عسف، ظل يتيماً بعد الفرزدق وجرير حتى جاء أبو الطيب فرأب الصدع، وسدَّ الثأى وحمل الراية؛ ثم فتح للشعراء طرائق الخلد، وسنَّ لهم سنن المجد؟

ولا تحسبن المجد زقاً وقينة ... فما المجد إلا السيف والفتكة البكر

وتضريب أعناق الرجال وأن تُرى ... لك الهبواتُ السود والعسكر المجرُ

وتركك في الدنيا دوياً كأنما ... تدوال سمع المرء أنمله العشر

أنا لا أريد لهذا النشء المتفكك من شبابنا (الشيك) أن يقحم نفسه الحرب، ويحملها الطعن والضرب، كي ينشأ شجاع النفس شديد البطش منيع الجانب عظيم الرجولة، ولكني أنصحه بقراءة ديوان المتنبي شاعر القوة والبطش والرجولة الحق، وأنا زعيم له بعد ذلك بما يتطلبه من رجولة وإقدام.

ولو أن الحياة تبقى لحر ... لعددنا أضلنا الشجعانا

وإذا لم يكن من الموت بد ... فمن العجز أن تموت جبانا

أما أنتم أيها الذين أضلهم المجد وقعدت بهم الهمة عن طلب العلا، فاستوطأوا مهاد الضعة، وأساغوا صاب الذل، ورضوا بخطة الخسف، فإليكم أتوجه ببيتي شاعر المجد والعظمة

إذا غامرت في شرق مروم ... فلا تقنع بما دون النجوم

فطعم الموت في أمر حقير ... كطعم الموت في أمر عظيم

وبعد: فأن في ديوان المتنبي جبهة حربية تعلم شبابنا الشجاعة والقتال، ومدرسة أسبارطية تنشئ أطفالنا على احتمال الشدائد والأهوال، وجماعة فلسفية توحي إلى رجالنا جلائل الأعمال. فلنمجد شاعر الأدب القوي الذي يدعو إليه نيتشه في عصره، والأستاذ أحمد أمين في عصرنا، والذي توجبه حالنا الاجتماعية والخلقية، وتفرضه سنة البقاء على الناس.

وليحْن قراء (الرسالة) معي رؤوسهم خشوعاً وإجلالاً لنبي الشعر، وفارس الدهر، وملء أذن العمر، وعبقري لو تقدم به الزمن في عهده الإغريق لخلده هومير مع الأبطال وسما به إلى سماء الآلهة! ولا عجب.

وأبو الطيب القائل عن نفسه:

وقت يضيع وعمر ليت مدته ... في غير أمته من سالف الأمم

أتى الزمان بنوه في شبيبته ... فسرهم وأتيناه على الهرم.

(حلب)

كمال حريري

أندلسيات:

قصة الفتح بن خافتان - 4

للأستاذ عبد الرحمن البرقوقي

تتمة

تواليف الفتح وشئ من منظومه ومنثوره

الشائع المعروف أن ليس للفتح بن خاقان غير قلائد العقيان، ومطمح الأنفس، ولكن يجب أن يلحظ أن المطمح نسختان صغيرة وكبيرة؛ وقال أبن خلكان إن المطمح ثلاث نسخ صغرى ووسطى وكبرى. وللفتح غير قلائد العقيان والمطمح كتاب أسمه بداية

المحاسن وغاية المحاسن، ذكر ذلك المقري وقال إن له أيضاً مجموعاً في ترسيله وتأليفاً صغيراً في ترجمة ابن السيد البطليوسي نحو الثلاثة كراريس على منهاج القلائد. . . ولمناسبة ذكر ابن السيد البطليوسي الأندلسي الأديب الكبير وصاحب شرح أدب الكاتب لابن قتيبة نقول: إنه كان بينه وبين الفتح علقة ومودة، ومن ثم قرظ ابن السيد كتاب القلائد بهذه الرقعة التي أرسلها إلى الفتح، قال: (تأملت - فسح الله لسيدي ووليي في أمد بقائه - كتابه الذي شرع في إنشائه، فرأيت كتاباً سينجد ويغور، ويبلغ حيث لا تبلغ البدور، وتبين به الذرى والمناسم، وتغتدى له غرر في أوجه ومواسم، فقد أسجد الله الكلام لكلامك، وجعل النيرات طوع أقلامك، فأنت تهدى بنجومها، وتردى برجومها، فالنثرة من نثرك، والشعرى من شعرك، والبلغاء لك معترفون، وبين يديك متصرفون، وليس يباريك مبار، ولا يجاريك إلى الغاية مجار، إلا وقف حسيراً وسبقت، ودعي أخيراً وتقدمت، لأعدمت شفوفاً، ولا برح مكانك بالآمال محفوفاً. بعزة الله. .). وقلائد العقيان كتاب قدمه الفتح لأبي إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين أخي أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين ونائبه في الأندلس، وقد ألمعنا فيما سلف إلى بعض صفات هذا الكتاب وأنه هو والذخيرة لابن بسام، واليتيمة للثعالبي، والخريدة للعماد، ونظائها، لا تعد كتب تراجم بالمعنى المتعارف؛ وإنما هي حليّ وصفات لبعض أفاضل العصر وبلغائه بأسلوب منمق بليغ. ومختارات من منظومهم ومنثورهم.

أما تاريخ المترجم له ومنشؤه ونسبه ومولده ووفاته وكيف تصرفت به الأحوال فهذا ما ليسوا منه بسبيل ولا هو من عملهم وإنما هو من عمل المؤرخ. أما هم فأدباء يحلون أدباء معاصرين أو قريبين من عصورهم. . . وأسلوب الفتح في كتبه أسلوب لاشك جزل متين وإن كان كله مسجعاً؛ ومن ثم قد يعلو وقد يسفل، وقد يرى مطبوعاً وقد يرى عليه أثر التكلف والتعمل. وقد كان بلغاء الكتاب في تلك الأعصر يظنون السجع عملا فنياً في الذروة من الفن تلي مرتبته مرتبة الشعر للموسيقية التي فيه وإن كان النقدة من المتقدمين ينكرون الولوع به والإفراط فيه كما ننكره نحن اليوم. وقد اشترطوا به شروطاً أهمها: أن يكون اللفظ فيه تابعاً للمعنى، ولم يشترطوا ذلك في السجع فحسب؛ وإنما اشترطوه في كل المحسنات البديعية، قالوا: إن هذه المحسنات ولاسيما اللفظية منها لا تحل محلها من القبول، ولا تقع موقعها من الحسن، حتى يكون المعنى هو الذي استدعاها وساقها نحوه، وحتى تجدها لا تبتغي بها بدلاً ولا تجد عنها حولاً؛ ومن هنا ذم الاستكثار منها والولوع بها، لأن المعاني لا تدين في كل موضع لها، إذ هي في الغالب ألفاظ، والألفاظ خدم المعاني مصرفة في حكمها، فمن نصر اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشيء عن جهته، وأحاله عن طبيعته، وذلك مظبة من الاستكراه، وفيه فتح أبواب العيب والتعرض للشين. ولهذه الحالة كان كلام المتقدمين الذين تركوا فضل العناية بالسجع ولزموا سجية الطبع أمكن في العقول، وأبعد من القلق، وأوضح للمراد، وأسلم من التفاوت، وأبعد من التصنع الذي هو ضرب من الخدع بالتزويق. والرضا بأن تقع النقيصة في نفس الصورة وذات الخلقة إذا أكثر فيها من الوشم والنقش؛ وأثقل صاحبها بالحلي والوشم، قياس الحلي على السيف الددان والتوسع في الدعوى بغير برهان، كما قال المتنبي:

إذا لم تشاهد غير حُسن شياتها ... وأعضائها فالحسن عنك مغيب

هكذا يقول إمام النقاد عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة 471هـ - سنة 1078 ميلادية - ويقول: وقد تجد في كلام المتأخرين كلاماً حمل صاحبه فرط شغفه بأمور ترجع إلى ماله اسم في البديع - ومنه السجع - إلى أن ينسى أنه يتكلم ليفهم، ويقول ليُبِين؛ ويخيل إليه أنه إذا جمع بين أقسام البديع في بيت فلا ضير أن يقع ما عناه في عمياء، وأن يوقع السامع من طلبه في خبط عشواء، وربما طمس بكثرة ما يتكلفه على المعنى وأفسده كمن ثقل على العروس بأصناف الحلي حتى ينالها من ذلك مكروه في نفسها. . . ولن تجد أيمن طائراً، وأحسن أولاً وآخراً، وأهدى إلى الإحسان، وأجلب للاستحسان، من أن ترسل المعاني على سجيتها، وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ، فإنها إذا تركت وما تريد لم تلبس إلا ما يليق بها، ولم تلبس من المعارض إلا ما يزينها. فأما أن تضع في نفسك أنه لابد من أن تجنس أو تسجع بلفظين مخصوصين فهو الذي أنت منه بعرض الاستكراه

وعلى خطر من الخطأ والوقع في الذم الخ. (وبعد) فإن الكلام في هذا الموضوع يطول، ولنجتزئ بهذا المقدار. والآن، إلا يسمح لنا القارئ بأن نعرض عليه شيئاً من منظوم الفتح ومنثوره؟ وأنت تعلم أن شعر الكتاب في الأعم الأغلب إن هو إلا مقطعات من جهة، وليس من النسق العالي كشعر فحول الشعراء من الجهة الأخرى. ومن ثم كان ما رأيناه من شعر الفتح على قلته شعراً وسطاً كما قال لسان الدين بن الخطيب. فمن شعره مما لم يرد في كتبه:

لله ظبي من جنابك زارني ... يختال زهواً في ملاء ملاح
ولي التماسك في هواه كأنه ... مروان خاف كتائب السفاح
فخلعت صبري بالعرا ونبذته ... وركبت وجدي في عنان جماح
أهدي لي الورد المضعف خده ... فقطفته باللحظ دون جُناح
وأردت صبراً عن هواه فلم أطق ... وأريت جدا في خلال مزاح
وتركت قلبي للصبابة طائراً ... تهفو به الأشواق دون جَناح

ومنه قوله وقد أورده في قلائد يخاطب أبا يحيى بن الحاج:

أكعبة علياء وهضبة سؤدد ... وروضة مجد بالمفاخر تمطر
هنيئاً لملك زار أفقك نوره ... وفي صفحتيه من مضائك أسطر
وأين لخفاق الجناحين كلما ... سرى لك ذكر أو نسيم معطر
وقد كان واش هاجنا لتهاجر ... فبت وأحشائي جوى تتفطر
فهل لك في ود ذوى لك ظاهراً ... وباطنه يندى صفاء ويقطر

ومن منثوره مما لم يرد في القلائد ولا في المطمح قوله:

معاليك أشهر رسوماً، وأعطر نسيماً، من أن يغرب شهاب مسعاها، أو يجدب لرائد مرعاها، فان نبهتك فإنما نبهت عمرا، وإن استنرتك فإنما أستنير قمراً، والأمير أيده الله

تعالى أجل من أعتصم في ملكه، وأنتظم في سلكه، فإنه حسام بيد الملك طلاقته فرنده، وشهامته حده، وقضيب في دوحة الشرق رطيب، بشره زهره، وبره ثمره، وقد توسمت نارك لعلي أفوز منها بقبس، أو تكون كنار موسى بالوادي المقدس. وعسى الأمل أن تعلو بكم قداحه، ويشف من أفقكم مصباحه. فجرد أيدك الله تعالى صارم عزم لا يفل غروبه، وأطلع كوكب سعد لا يخاف غروبه. . . (وأما بعد) فان أردت التروي من منثور الفتح وبدائعه، فعليك بالقلائد والمطمح، فهما بحق نهران يزخران بالمعجب والمطرب، رحمة الله على هذا الأديب الأندلسي العبقري المبدع. .

(تم البحث)

عبد الرحمن البرقوقي

بمناسبة ذكرى المتنبي الألفية

دنيا المتنبي

إن أهنت الدنيا فانك دنيا ... كلها عزة ونبل وجود

للسيد أمجد الطرابلسي

هكذا المجدُ! هِمَّةٌ وصُعودُ ... وَحَياةٌ بعدَ الرّدى، وَخُلودُ
هكذا المجدُ! صَيْحَةٌ تَمْلأ الأر ... ضَ كما تَملأُ الفضاَء الرُّعودُ
هكذا المجدُ! وَمْضَةٌ تَبْهَرُ العَي ... نَ، وَتُجْلى بها اللّيالي السّودُ
هكذا المجدُ! فَرحةٌ لِبَني الأر ... ضِ وللارضِ والسّماءِ وَعِيدُ
هكذا المجد مَجْدُ (أَحْمَدَ) لَحْنٌ ... فَي سَماعَ الدّنيا لَهُ تَرْديد
نَفْحَةٌ مِنْ خَمائِلِ الخُلْدِ رَيّا ... بِشَذَاهُ، وَبُلْبُلٌ غِرِّيد
يا نَبِّي القَريض كَمْ لكَ بَيْتٍ ... مَلأَ الخافِقَيْنِ وَهْوَ شَرودُ!
كم خطابٍ فَصْلٍ، وَكم مَثَلٍ سا ... رَ فَأبلى القُرونَ وَهْوَ جَديد!
سائِلِ الأَعْصُرَ الطِّوالَ أَأَوْدى ... لكَ فيها بَيْتٌ وماتَ قَصيد؟
يَتوإلى المَدى وشِعْرُكَ باقٍ ... وَتَشيخُ الدّنيا وَأَنْتَ وَليد
شِعْرُكَ المُسْتَفيضُ في عُنُقِ الأَ ... يّامِ دُرٌّ وَلُؤْلُؤٌ مَنْضود
أيُّ سَلْوى عَنِ الزّمانِ يَراها ... في قَوافيكَ بائِسٌ منْكود
أي سَلْوى عنِ الحَبيبِ يَراها ... في قوافيكَ ثاكِلٌ مفؤود
شِعْرُكَ النارُ للجَبانِ سِلاحٌ ... وَعَتادٌ وَعَزْمةٌ وَجُنود

وَهُتافٌ يُهيبُ بالنِّكْسِ حَتى ... يَرِدَ الكالِحات وَهْوَ جَليد
يَستَثِيرُ الاسْرى على الظلْمِ حَتى ... يَتَبَرَّى المُقَيَّدُ المَصْفود
وَيَهزُّ الدنْيا على الجَوْرِ حَتى ... تَتَفَرى سَلاسِلٌ وَقُيود
أَيُّها الشاعِرُ الذي أَطْرَبَ الأَجْ ... يالَ مِنْهُ الإنْشادُ والتَّغْريد
وَغَدا الدهْرُ راوياً وَمُعيداً ... لأَغاريدِهِ، وَجَلَّ المُعيد
أَيُّها الشّاعِرُ الذي سَحَرَ الأسْ ... ماعَ حَتى كأَنَّهُ داوُد
وَتَغَنَّى بِلَحْنِهِ الفَلَكُ الدَوَّا ... رُ وَاليَمُّ وَالرُّبى وَالبِيد
مِلءُ صَدرِ الزَّمانِ حِكْمَتُكَ المُث ... لى وَإرْشادُكَ القَويمُ السَّديد
مُرْسَلٌ مُلْهَمٌ وَأُفْقٌ مَديد ... (أَنْتَ في شِعْرِكَ العظيمِ نَبِيٌ)
وَفُحولُ القَريضِ بَعْدكَ يَرْوي ... هِمْ عَلى الدهْرِ بَحْركَ المَرْفود
هكَذا الشّعْرُ نِعْمَةُ اللهِ في الأَرْ ... ضِ تَغَنَّى بِها الهُوى والنُّجُود
يَتَخَطَّى الزَّمانَ جيلاً فَجيلاً ... وَيُبيد القرونَ وَهْوَ خَلود
يا ابْنَ حَمْدانَ أَنْتَ لَولا أبو الطَّيِّ ... بِ أنّى لِذِكرِكَ التّخْليد
أَنْتَ أَوْلَيْتَهُ العَطايا جُزافاً ... والعَطايا مَعَ الزَّمانِ تَبيد
وَحَياكَ الخُلودَ في مُصْحَفِ العِزِّ ... م وَهذا هَو النَّدى والجود
أنت لولاهُ ما رَأَيناكَ في السا ... ح، وَلْلحَرْبِ ضَجَّةٌ وَبُنود
تَصدعُ الجَحْفَلَ الألَفَّ بِسيْفٍ ... مُصْلتٍ حُرِّمتْ عَلَيْهِ الغُمود
باسماً تَطْلُبُ الرَّدى مُستميتاً ... وَالرَّدى مِنْكَ خائِفٌ مكدود
وَفلولُ الأعداءِ تبَغْي عَنِ المَو ... تِ مَحيداً وليس ثَمَّ مَحيد
كلهم يصرُخُ النجاةَ ويطوي ... صفَحاتِ القِفارِ وهْوَ شَريد
صورَةٌ للنِّضالِ عَيني تراها ... في ارتِياعٍ، ومنْظرٌ مشْهود
ياأبا الطّيّبِ الزَّكِّي مِنَ الوَحْ ... ى ويا أيها الحديثُ الفَريد
إنْ أَهْنت الدُّنيا فإنَّكَ دُنْيا ... كلها عِزَّة ونُبْلٌ وجود
قد أبيت الرِّياَء والكونُ خَتْلٌ ... ورِياءٌ وخُدْعَةٌ وسجود
وحَقَرْتَ الدنيا يموجُ بها الش ... رُّ وتَغْلي مطامِعٌ وحُقود
وسَئِمْتَ الحياةَ رَثَّقَها الظلْ ... مُ وأَوْدى بصفْوِها التَّصْريد
يَتلوَّى النَّبيغُ فيها من الجو ... عِ ويَغْلو عروشَها الرِّعديد
آفةُ المرءِ في الحياةِ شُعورٌ ... مستفيضٌ وخافِقٌ مَجْهود
ونصيبُ الإنْسانِ بين الجلامي ... دِ عذاب وحُرْقَةٌ ونكود
وأخو النُّبلِ والإباء بغيضٌ ... تتجافى عنهُ الرِّفاقُ، وحيد
مُستضامٌ يطوى الحياةَ كميداً ... وهْوَ في مُرِّ عيشِه محسود
يَئِدُ العمرَ في تُرابِ التمني ... والأمانِيُّ لَوْعةٌ وجهود
يا أبا الطيِّب السَّنيِّ منَ الذك ... رِ ويا أيُّها الثَّناءُ الحميد
ما الذي أشتكى إليكَ وقَلبي ... مُفْعَمٌ مُوجع، ودَمعي بدِيد
قد شكوتَ الزَّمانَ والمجدُ مجد ... عربيٌّ، وغُصنُه أَمْلود
وملِلْت الحياةَ في ظِلِّ (سيفٍ) ... وهْوَ فَحْلُ العُروبةِ الصِّنْديد
فلعَمري ماذا نبُثُّ ونشكو ... بعدَ أن صوَّح التراثُ المجيد؟
قد عفا المُلكُ وانطوى كلُّ عزٍّ ... وهوى العرشُ والبناءُ المَشيد
(وغدا الحُرُّ من بني الصِّيد عبداً ... بينما العبدُ سيِّدٌ معبود)
وتمشي الصَّغارُ فوق شبابِ ال ... مجد يختال هازِئاً ويسود
وبنو الصِّيد نائمونَ على الضَّيْ ... مِ فلا غُصَّةٌ ولا تنكيد
يا أبا الشِّعرِ أين منك دويٌّ ... هو للظلْم والطغاةِ وعيد
أين صَيْحاتُكَ التي تتنادى ... بصداها يومَ الزِّحامِ الأسود
قُم وصَرِّخْ بين الغُفاةِ مُهيباً ... فلقد طالَ بالنِّيامِ الهجود
وأثِرْ نخوَةَ الصّراغِمِ حتى ... يُرْخِصوا كلَّ مُهجةٍ ويجودوا
وصْمةٌ للخلودِ أن تمَّحى العُرْ ... بُ، ويَبلى لِواؤُها المعقود
ويصيحُ العفاءُ في رَبْعِها القَفْ ... رِ، ويُطوى حديثُها الممدود
يا أخا المجدِ والمكارِمِ ماذا ... في حياةٍ نعيمُها تعقيد؟
!لو تَركتَ الدنيا وأهْوالَها السُّحْ ... مَ، فإن الحياةَ فيها جُدود

أنتَ تَبغي السماَء والجَدُّ يأبى ... وتروضُ الزَّمانَ وَهْوَ عنيد
قد رَكبتَ الأهوالَ في دَرَكِ المُلْ ... كِ فلا راحةٌ وَلا تهجيد
وقطعتَ القِفارَ يحمِلُك الشَّو ... قُ ويحدوكَ حلْمكَ المنشود
عْزمةٌ دونَها السُّيوفُ المواضي ... وإباءٌ، وَهِمَّةٌ لا تميد
وَمَضاءٌ يستعذِبُ الموتَ وِرْداً ... ويفُلُّ الصُّروفَ وَهْو حديد
وإذا النفس دُلِّهت بمُناه ... فالمنايا خمائلٌ ومُهود
حلُمُ يستيبك في أفقِ المج ... دِ بَهيٌّ، لا أعيُنٌ وخدود
وقدود القَنا سَبتْكَ غراماً ... لا قدود عاجِيّةٌ وَنُهود
رُضتَ صَعبَ الفلا وجُبْتَ الصحارى ... ظامئاً يطّبيك وِرْدٌ بَرُود
وشَققْتَ النّوى إلى العِزِّ حتى ... جاَءك الموت في المطاف يصيد)
فرميتَ السِّلاح بعد حياةٍ ... كلها ثورَةٌ وجَهد جهيد
ولقيتَ الجَمامَ في كنفِ المو ... تِ وقد عزَّ في الحياة الهُمود
ثُم ضاقَ الثرى الرحيب وضقت ... عنك يا ابْنَ الخلودِ هذي اللّحود
فمحتْ قبرَكَ السِّنون المواحي ... ومشى فوقُه الزمانُ المبيد
مُتَّ إلا صداك فَهْو مُرِنٌ ... هازئٌ بالمَدى الطويل، شديد
إن عفا قبرُكَ الضئيل فأنت ال ... يوم في كلِّ خافقٍ ملحود
أوْ خبا لحنُك الجميل فأنتَ ال ... يوم في مِسمع الزمان نَشيد
(دمشق)
أمجد الطرابلسي
الشتاء في إنجلترة
(ذكرة)
للأستاذ عبد الرحمن شكري
مقدمة:
يسقط الثلج في إنجلترة شتاء على شكل حبات الدقيق فيعلو الأرض والمنزل والأشجار، فيخيل للرائي كأنما قد كسيت الدنيا كساء من القطن، وكأن النهار ليلة مقمرة، وكأنما بياض الثلج من أثر بياض أشعة القمر؛ وتذكى النار في المواقد في البيوت، فكأن ألوان النار ألوان الأزهار الزاهية في جنة الربيع؛ وتذكى نار المواقد وجنات الوجوه، فكأن في المواقد جمراً، وفي الوجوه جمراً؛ وتبحث في القلوب فترى نار الحياة وشرتها، وترى الحب والآمال لم يغض منها برد الشتاء وثلجه.
(الناظم)
نشر الضريبُ على البسيطة ... حلة بيضاء تمحو غبرة الغبراء
يسعى على وَضَح النهار كأنما ... يسري الفتى في ليلة قمراء
فكأنَّ نُورَ البدر ما حَلّى الثرى ... برواء تلك الحلة البيضاء
غلب البياض على اصفرار أشعة ... تهب النهارَ من اصفرار ذُكاء
وعلى المساكن كسوة منه كما ... تعلو المفارقَ شيبةُ الشمطاء
فإذا مشابهة المشيب كدعوةٍ ... للنفس أن تنأى عن الأهواء
وإذا استراح لمُقْمِرٍ من لونه ... راء ترى الأحلامَ عينُ الرائي
وكأنما زهرا أبيضاً غطّى الثرى ... برواء ثوب الروضة الغناء
ولكل لون حسنه كالليلة ال ... ليلاء أو كالقبة الزرقاء
ولربما اختلف الجمال وفعله ... متشابهٌ في أخذة الصهباء
وإذا المواقد في البيوت تضاحكت ... من شدة الإيقاد والإذكاء
خلت الربيعَ سعى إليك بحلفه ... والنارَ زهرَ الجنة الفيحاء
يُذكى الوجوهَ لهيبُها فتراهما ... جمرين يشتعلان في الظلماء
ما غض من دفءِ الحياة ونارها ... ثلج الشتاء على ثرى الغبراء
الحب والآمال فوق متونه ... كالحب والآمال في الصحراء
والقلب قلبٌ حيث كان إذا ذكت ... نار الشباب وشِرَّةُ الأحياء
عبد الرحمن شكري
مؤتمر القلوب
للأستاذ محمد السيد زيادة

وبقيت حزيناً مطرقاً أتفكر في أساليب الشقاء على الأرض حتى أخرجني من الحزن قلب رأيته حائراً بين القلوب موزعاً عليها مجنحاً فوقها!! يجد قلباً آسيا فيميل إليه مشفقاً عاطفاً يسأله عن قصته ثم يواسيه ويعزيه، ويظل مائلاً إليه بشفقته وعطفه حتى يتأكد أنه خفف عنه بعض ألمه. ثم يتركه ويمضي في المجتمع نائحاً يردد في نوحه صدى القصة التي سمعها من ذلك القلب، ويذيع سرها منمقا، ويصورها مجسمة ليتأسى صاحبها ويستعبر سامعوها. . ثم يصادف قلباً آخر متربة فيبذل له قسطه من دموعه ومن عزائه، ثم يمضي إلى سبيله في المجتمع موضحاً ما غمض شارحاً ما تعقد. وهكذا رأيته كالطائر الغريد يقضي كل وقته متنقلاً بين الأدواح والغصون يتسمع الهمس والنبض والأنين، ويتغنى بما يصل إلى حسه من شجو القلوب وأساها، فيصرف في ذلك راحته وهدوءه. ويتهافت على ذلك كأنما هو يؤدي وظيفة يحتم عليه الواجب أن يؤديها.

قلت: قلب من هذا القلب المؤمن العطوف الذي يعذبنفسهفي راحتنا، ويصب علينا من مشاعره حنانا ورحمة، وينساب بيننا كما ينساب الجدول في الحديقة بين مختلف الزهور يغيث منها الظامئ، وينعش الذابل، ويرقص المنتعش؟.

قالوا: هذا قلب شاعر. . . وما خلق الشعراء إلا رحمة للعالمين. . . قلب كريم يتعذب بين الناس بحنانه، ليزرع الحنان في قلوبهم بعذابه؛ فترينا حياته كيف تكون حياة الملائكة إذا صاروا من بني الإنسان. إن في أحنائه لعالماً فسيحاً تمتزج فيه آلام الناس بآلامه هو فتكون كتلة واحدة من الألم يتفجر من بينها ينبوع فوار من الرحمة ينهل منه كل بائس.

لكأنما هو مكلف باستخراج مصيبة لنفسه، من كل مصيبة تنزل بغيره، أو مرسل من عند الله لتخفيف أشجان مخلوقاته. فكم يفتش في مناحي الحياة عن مآسيها وعبرها ليتحمل نصيباً منها! وكم ينقب في أغوار الكيان عن خفاياه ومكنوناته ليحدثالناس عنها! وكم يكد ليخلق من كل ما حوله جنة لكل من حوله!.

ولما أنى للمؤتمر أن يبدأ عمله وجدت قلب الشاعر أظهرنا اهتماماً، وأشدنا فرحاً، وأكثرنا حركة. وما كدت أعجب لهذا حتى عجبتُ لأكثر منه إذ علمت أنه هو الداعي إلى هذا المؤتمر.

وساد الكون فترة ثم وقف قلب الشاعر يقول: دعوتكم إلى هنا اليوم يا إخواني لأنادي فيكم بالوئام فهل أنتم مجيبون؟ إذا كان ذلك، وما أظن إلا ذلك، فلنجمع إذاً أمرنا على إقرار المحبة، وتبادل الوداد والإخلاص بيننا؛ ولنترك إذن كل ما يتعلق في أهداب الحياة من المساوئ والمكارة التي إذا وقع أحدنا في إحداهاوقعفي أخس الصفات وبات مذموماً ممقوتاً؛ ولنتنصَّل إذن من شئ بغيض اسمه البغض، ومن شئ كريه اسمه الكراهية؛ ولنتجنب الوضاعة في تجنب الحقد، ولننبذ الأنانية في نبذ الحسد.

لنشرع لنا يا إخوتي سنناً جديداً، ونمشي في نوره إلى المثل الأعلى لنقاوة القلوب. كونوا جميعاً عصبة واحدة كلمتها الدائمة: نحن إخوة فليس بيننا إلا مافي الإخاء من إخلاص ووفاء - كونوا جميعاً قلباً واحداً لا يحمل غير الأيمان والحب.

قال قلب الشيخ المصلح: أكرم بك يا قلب الشاعر!! لقد قلت ما أحب دائماً أن أقوله وأن أعمل له. إنك لصورة مني في قالب الجرأة، وأنى لصورة منك في قالب الحياء.

ثم تحول إلى الجمع وقال: أنصتوا له يا أعضاء المؤتمر، وأطيعوه، إنه يدعوكم إلى السلام.

قال قلب الشاب الساذج المغتر وهو يرقص كالطفل يرى لعبة جديدة له في يد أمه: مرحى. . . مرحى. . . جاء السلام. . . نعم السلام؛ فلنتسارع جميعاً إليه ولنستبشر بالهدوء والطمأنينة.

قال قلب الرجل المفسد: كأن لك غرضاً خفياً من وراء ندائك هذا يا قلب الشاعر!! فأنت تدعونا الآن إلى الانصراف عما خلقنا له من عمل وجهاد، والركون إلى ما خلقنا لنحاربه من خمود واستسلام.

قال قلب الشاعر: صه يا هذا القلب المتكلم. . . ماذا في السلام من الخمود والاستسلام؟ وهل معنى العمل والجهاد أن نتسابق في الضغائن والأحقاد؟ أعملوا

وجاهدوا ولكن فيما فيه الخير والنفع تعيشوا في حدود السلام سالمين.
قال قلب المفسد: وكيف نسلم إذا كانت نواميس الطبيعة تحتم علينا إن تختلف طباعُنا، فنختلف بها، فيأخذ كل منا منهجاً لنفسه، فتتعدد الأحوال بتعدد المناهج، فتنجم المشاكل
فتخلق العناد، وتستلزمالعمل والجهاد.
قال قلب الشيخ المصلح: ما أخطرك أيها القلب على كل محيط تندس فيه!! إنك لخبيث وتدافع عن الخبث بقوة هي فجور الخبث وتسلطه وانتقاله من طور الداء إلى طور الوباء.
لماذا لم يتكلم غيرك منابذاً دعوة السلام، محاولاً تفنيد الرسالة التي حملها ألينا قلب الشاعر؟ ولماذا لم تبدر من غيرك نذر الخلف ووسائل الشر؟ أليس هذا لأنك مجبول على الخسة وحقارة المبدأ؟. . . ما أقل شأنك عند الله، وماأبعدك عن رحمته، وما أحقك بأن تكون سخرية لكل ساخر!.
قال قلب الشاعر: لقد فسد خلقه، ثم أعلن في هذا المؤتمر فساده، ثم دافع عنه الصلاح، ثم أرادأن يجعله نهجاً نتسقل فنعمل به جميعاً. . . ليس بعد هذا حضيض لمنحط، أو قرار لنازل من مستوى الآدميين على دركات منها الوقيعة، ومنها النميمة، ومنها الدس، ومنها الرياء؛ وآخرها التبجح في كل ذلك!! أخرجوه عنا وأبعدوه.
فانقضضنا عليه وطردناه، وكان كل منا يشعر إذ ذاك بأن هذا القلب رذيلة تتحكك به، فاتحد شعورنا فشعرنا كلنا بأنه رذيلة تريد أن تسلك سبيلها المظلم في المجتمع، فوجب علينا أن نصدها، بل وجب علينا أن نمحوها. . . ولما طرد من بيننا ذلك القلب الشرير، أو ذلك الشر المتسلط، أو ذلك الخطر المتسلل، أسوأ الطرد كانت لا تزال بيننا قلوب من طبقته، تعمل على شاكلته، فتوجست خيفة، وتضاءلت، والتمست النجاة، وانتدحت المخابئ. ولكنها كانت مع هذا حريصة على أن تظل مدسوسة في المؤتمر، أو مخبوءةفي مسمع مما يدور فيه لتشبع غريزة الحب الاستطلاع التي هي إحدى لوازم عملها، وإحدى دعائم حياتها.
وعرفناها فألحقناها بزميلها الذي فضح نفسه حين تكلم، فكان شراً على نفسه حين أراد أن يكون شراً علينا، وانقلبت عليه سيئات ما عمل قبل أن تصل إلينا.
ووقف قلب الشاعر يكرر نداءه، ويستكمل رسالته ويقول: أحسب الآن أننا نجونا من الرذائل بطرد دعاتها ومحبذيها، وأعتقد أننا سنحارب القلوب المضرة ما استطعنا حتى تصير مثلنا أو تنقرض، وأن كلاً منا قد آمن بنعمة السلام، وأننا قد أصبحنا أخوة، ولكن تظل أخوتنا ناقصة حتى نسبغ عليها شيئاً ضرورياً لها هو روح الاخوة. . . فينظر بعضنا إلى بعض دائماً نظرة الاحترام الخالية من الاستصغار أو الاستنكار أو الاستهتار، فليكن بيننا كبيراً في مقداره، كثيراً في اعتباره، وليكن شعوره محترماً ككل شعور.
فاستاء قلب الجبار وقال: عجباً!! كيف يساغ أن نعامل الضعيف كما نعامل القوى؟؟ وكيف نجل ذاك كما نجل هذا؟ وكيف نعتبر ذاك في ضعفه كما نعتبر هذا في قوته؟ إلا يكون في ذلك خلط، وتزييف في حقائق، وغبن للكرامة، وتشويه للحياة؟. . . . . إنها لمساواة فاشلة باطلة، كالمساواة بين الخادم وسيده، أو بين الطفل وأبيه. فلا العقل يتصورها، ولا الطبيعة تقيمها، ولا ظروف المعايش تبيحها.
قال قلب الشاب الساذج المغتر: أجل. . . أجل. . . هذا هو الصواب؛ فالقوي لا يمكن أن يقبل الضعيف عديلاً له أو شبيهاً به، لأن القوي لا يستطيع أن يهبط حتى عيشه الضعيف، والضعيف لا يستطيع أن يعلو حتى يعيش عيشه القوي، فليكن القوي فوق الضعيف، ولتكن القوة موضع الاحترام.
قلت أنا أخاطب قلب الجبار: أنت واهم أيها القلب المتجبر تحسب أن الصدارة للقوي يعمل ما يشاء فيرتاح الجميع لما يعمل؛ ثم يأبى عليك جبروتك أن تساوي بمن يقل عنك قوة ومكانة؛ ولكن هون عليك فانك لم تدع إلى ما فيه غبن لكرامتك أو حطم لكبريائك، وإنما دعيت إلى ما تعد كريماً لو فعلته.
دعيت إلى تبادل المحبة مع القوي والضعيف على السواء؛ فبقدر قوتك يحسب على الضعيف كرمك، وبقدر كرمك يعتبر تواضعك، وبقدر تواضعك يكون سموك.
نحن نعرف أنك قوي، ونعرف أنك لست وحدك القوي، فأكثرنا ذو قوة. . . وإن لم تكن قوته في بنيته ففي صلابة إيمانه، أو في طيبة عنصره، أو في طهارة نزوعه، أو في

عزته وإبائه؛ وقد ينقصك شئ مما في غيرك من هذا كما ينقص غيرك شئ مما فيك من القوة. فلنقدر كل هذه الصفات، ولتعلم أن القوة ما هي إلا واحدة منها.
قال قلب الشاعر: ليس ذنب الضعيف أنه ضعيف، لأنه خلق كذلك فلم يدخل شيئاً جديداً على خلقته؛ والقوي يكون مذنباً إذا اختال بقوته، لأنه يدخل باختياله عيباً كبيراً على خلقته. . .
وكنت أظن أن عمل المؤتمر قد انتهى إلى هذا، ولكن وقف قلب الشاعر مرة أخرى يستكمل رسالته ويقول:
ما دمنا أخوة، ومادمنا نشعر بروح الأخوة. . فعلينا واجب هو آخر واجباتنا غير أنه أهمها، هو أن نقدم العون والمواساة لمن كان منا منكوباً أو مكروباً؛ فمثل هذا القلب - وأشار إلى قلب المومس بجانبي فيكي - كم بألم، وكم يكتم ألمه، لأنه لا يجد من يشكوه إليه، وإن وجد فأنه لا يجد من يواسيه فيه، فيكي وحده كلما انفرد فتذكر، أو كلما اجتمع فتفكر - بكاء الصابرين على غير أمل، والأحياء في غير رجاء.
فأقبلنا جميعاً على هذا القلب المسكين نواسيه، حتى انفرجت كربته؛ ثم أخذنا نتشاكى ونتناجى ونتواسى، ثم أقبلنا على قلب الشاعر نكبره ونصافحه ونحييه، ثم انفض المؤتمر.
ولما خرجت من التفكير والحلم، ثم عدت كما أنا شخصاً في صدره قلب، قلت: آه!! كم يعيش العالم سعيداً لو اتحدت قلوبنا فاتحدنا؛ وكان أساس اتحادنا الإخلاص!.
(طنطا)

السيد محمد زيادة

بين المتنبي وسيف الدولة

للأستاذ أحمد أحمد بدوي

غادر المتنبي أرض مصر وشعوره لأميره السابق سيف الدولة نستطيع أن نجمله في بيتين قالهما المتنبي وهما:
فارقتكم فإذا ما كان قبلكم ... قبل الفراق أذى، بعد الفراق يد
إذا تذكرت ما بيني وبينكم ... أعان قلبي على الشوق الذي أجد
فهو قد خرج من مصر ونفسه تواقة إلى سيف الدولة، مشتاقة إلى الاستظلال بكنفه، لأن آماله التي غرسها عند غيره لم يجن منها غير الخيبة والندامة؛ ولم يكن اشتياق سيف الدولة إلى لقاء المتنبي بأقل من ذلك، فقد أحس بعد فرقته بفراغ لم يملأه شاعر ممن حوله، ورأى بلبله الغريد قد طار عن أبكته، وحط عند غيره، ولم يكن أحب إليه من عودته، كما دلت على ذلك فعال سيف الدولة بعد أن فارق المتنبي أرض مصر، وهو إحساس كان من السهل على المتنبي أن يستثمره وأن يقصد تواً أرض سيف الدولة، ولكنه لم يفعل لأمور نستطيع تلخيصها فيما يأتي:
أولاً ما فطر عليه المتنبي من سمو النفس والعظمة التي كانت تملأ جنبيه، فقد عز عليه أن يلجأ إلى من فارقه مغضباً منه، وأن يذهب إلى من فرّط فيه ولم يبق عليه، بل سمع فيه قول الوشاة.
وثانياً هذا الشعر الكثير الذي قاله مضطراً تحت عوامل نفسية، وعوامل خارجية وثورة واضطرام عواطف وسب فيه سيف الدولة، فلم يجد من اللياقة أن يقصد من هجاء، ورأى في ذلك غضاضة لا يسبغها ولا يقبلها.
لم يذهب المتنبي إذاً إلى سيف الدولة ولكنه قصد الكوفة، وهناك كثيراً ما ذكر أيامه السالفة لدى الأمير وعهده الغابر؛ أما سيف الدولة فقد نسى كل ما ذكره المتنبي عنه حينما كان بمصر وأرسل إليه ابنه بهدية، فلم نجد المتنبي ما يشكره به سوى شعره، فكتب إليه قصيدة بدا فيها ما يكنه من جميل الذكرى وفيها يقول:
كلما رحبت بنا الروض قلنا ... حلب قصدنا، وأنت السبيل
والممَّون بالأمير كثير ... والأمير الذي بها المأمول
الذي زلت عنه شرقاً وغرباً ... ونداه مقابلي ما يزول
نقص البعد عنك قرب العطايا ... مرتعي مخصب وجسمي هزيل
إن تبوأتُ غير دنياي دارا ... وأتاني نَيْل فأنت المنيل
من عبيدي إن عشت لي ألف كافو ... ر ولي من نداك ريف ونيل
ولا ينسى في تلك القصيدة أن يسمعه تلك النغمة القديمة التي كان يطرب بها

مسامعه أيام كان في كنفه، فهو يحدثه عن حربه مع الروم وطول عراكه معهم، لأن تلك النغمة أعذب نغمة لدى سيف الدولة، فهو يقول له:

وموال تحييهم من يديه ... نعم غيرهم بها مقتول
فرس سابق، ورمح طويل ... ودلاص زُغف وسيف صقيل
أنت طول الحياة للروم غاز ... فمتى الوعد أن يكون القفول

تلك القصيدة تشعرك حقاً بأن المتنبي يحفظ أجل الذكريات لأميره ولا ينساها. ثم لما ماتت أخت سيف الدولة وورد نعيها العراق وسمع به المتنبي أبت عليه نفسه إلا أن يكون له نصيب من الحزن عليها فرثاها بقصيدة تدلك حقاً على وجدان متألم، وأنه يحزن لحزن أميره القديم ويرثى لمصابه، وفيها يقول:

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر ... فزعت فيه بآمالي إلى الكذب
حتى إذا لم يدع لي صدقه أملا ... شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي
أرى العراق طويل الليل مذ نعيت ... فكيف ليل فتى الفتيان في حلب
يظن أن فؤادي غير ملتهب ... وأن دمع جفوني غير منسكب
بلى وحرمة من كانت مراعية ... لحرمة المجد والقصاد والأدب

فأنت ذا تراه ينفى عن نفسه أنه لم يشارك أميره في الحزن ويقسم له بحرمة الفقيدة ثم يقول:

يا أحسن الصبر زر أولى القلوب به ... وقل لصاحبه يا أنفع السحب
وأكرم الناس لا مستثنياً أحداً ... من الكرام سوى آبائك النجب

ولعل رغبة سيف الدولة قد اشتدت في أن يكون المتنبي إلى جانبه فأرسل إليه كتاباً بخطه إلى الكوفة يطلب منه أن يسير إليه، فأجابه بقصيدة فيها عتاب جميل واعتذار عن التخلف،

ومدح لسيف الدولة؛ ولعل المتنبي بذلك المدح يريد أن يعوض على سيف الدولة فقده؛ واستمع إليه يعتذر ويقول:

وما عقني غير خوف الوشا ... ة، وإن الوشايات طرق الكذب
وتكثير قوم وتقليلهم ... وتقريبهم بيننا والخبب
وقد كان ينصرهم سمعه ... وينصرني قلبه والحسب
وما قلت للبدر أنت اللجي ... ن وما قلت للشمس أنت الذهب
فيقلق منه البعيد الأباة ... ويغضب منه البطئ الغضب

ويمدحه ويقول:

وما لاقني بلد بعدكم ... ولا اعتضت من رب نعماي رب
وما قست كل ملوك البلاد ... فدع ذكر بعض، بمن في حلب
أفي الرأي يشبه أم في السخا ... ء أم في الشجاعة أم في الأدب

ثم يمضي مادحاً معيداً على أذنه تلك النغمة القديمة - كما قلنا - نغمة مدحه بقتال الروم.

تلك علاقة المتنبي بسيف الدولة وهي علاقة لا تتعدى المراسلة، وقد يقال: أما كان من الخير للمتنبي أن يذهب إلى سيف الدولة بعد أن دعاه؟ ولكن إذا علمنا ما كان يخشاه المتنبي من الوشاة وأن المأساة ربما تتكرر خففنا من لومه والاعتراض عليه.

لم يلق المتنبي إذاً سيف الدولة بعد أن فارقه حتى قتل؛ أما شعور الأمير ساعة علم بمقتل شاعره القديم فان كتب الأدب إذا كانت لم تحدثنا عنه فمن السهل علينا فهمه، إذ ليس من اليسير على سيف الدولة تقبل مثل هذا الخبر من غير أن يحزن له وأن يتألم من أجله في صميم فؤاده.

أحمد أحمد بدوي

معركة عدوى - 7

للأستاذ الفريق طه باشا الهاشمي
رئيس أركان حرب الجيش العراقي

وكان لموقع عدوى خطورة خاصة من حيث الاحتشاد في (ادجرات) حيث يوجد طريق يربط عدوى بأسمرة تواً بعد أن يمر بغوندت ويقطع خط الاتصال على القوات في ادجرات، وإذا أرادت الانسحاب تكون القوة الحبشية في عدوى قد سبقتها إلى اسمرة، بينما موقع أسمرة خطير وهو واقع على عقدة الجبال ويستر ميناء مصوع.

نعم يوجد طريق آخر يربط ادجرات بزولا في جنوبي مصوع وتستطيع القوات أن تتمون وتنسحب بواسطته إلى الساحل عند الحاجة، بيد أنه لا يستر الميناء (مصوع)، وهذا الميناء هو القاعدة لجميع الحركات ومنه تتمون حاميات (كرن) و (كسلا)، ولم يكن البريطانيون راغبين في إخلاء كسلا قبل أن يقضوا على حركات المهدي تماماً.
وقد أدى جمع القوات في ادجرات إلى مجابهة القيادة الطليانية مشكلة التموين. وكان في عدوى مقدار كبير من الذخائر اضطر الطليان إلى إتلافه لما انسحبوا منها. ولم تكف وسائل النقل لنقل المؤن. وبدلاً من أن يمونوا الوحدات الأهلية أخذوا يدفعون إليها الدراهم بدلاً من الأرزاق، بينما كانت الأرزاق قليلة، وكانت الأحوال جميعاً تدل على أن الطليان وقعوا في مأزق لا يمكنهم الخروج منه إلا بصعوبة.
فأرادت الحكومة الطليانية أن تنقذ الموقف بإرسال قوات جديدة إلى أريترة، وقررت من جهة أخرى إنزال القوات في ميناء زيلع للتقدم نحو هرر واستمالة المسلمين إلى جانب إيطاليا وتهديد العاصمة (أديس أبابا)، فتضطر القوات الحبشية إلى الإنقسام. بيد أن حكومتي بريطانيا وفرنسا لم توافقا على إنزال القوات الطليانية في ميناء زيلع في الصومال البريطاني لأنهما كانتا قد اتفقتا على اعتبار مقاطعة هرر من الأملاك الحبشية. وهذه المقاطعة الكثيرة السكان تتجر مع المستعمرتين الفرنسية والبريطانية، ولكلتا الدولتين منافع خاصة فيها.
والذي زاد الطين بلة أن الخلاف ظهر بين القيادة الطليانية في أريترة وبين الحكومة الطليانية في رومة. وكانت البرقيات التي يرسلها رئيس الحكومة (كريسبي) تندد بأعمال
الجنرال باراتيري، وكلما ورد خبر مؤلم إلى إيطاليا تثور زوبعة في رومة تنتهي بإرسال برقية شديدة اللهجة إلى حاكم المستعمرة وقائدها.
ومن هذه البرقيات البرقية التالية التي أرسلها رئيس الحكومة إلى الحاكم العام بعد وصول أخبار نكبة (امبا - الاغي):
(أرسلنا إليك أكثر مما طلبت ولا نزال نرسل. وإذا كان سبب المصائب عدم كفاية وسائلك أو قلة كفايتك فالويل لك).
وفي البرقية الأخرى يذكر ما يلي:
(يظهر لنا أن في روحك شيئاً من الخيبة والتردد).
وطلب الجنرال إرسال أربعة عشر فوجاً وخمس بطريات جبلية؛ بيد أنه لم يفكر في كيف يتمكن من تموين هذه القوات بينما كانت القيادة عاجزة عن تموين أولئك الموجودين في المستعمرة، وكان يبحث في القيام بالهجوم من جديد. وكان جواب (كريسبي) إليه ما يلي: (أنا لا أريد منك خطط حركات، وإنما أرغب إلا تتكرر الهزائم).
وفي 8 يناير 1896 أبرق الجنرال (باراتيري) أنه لا يريد إرسال قوات لأنه لا يتمكن من تموين القوات الموجودة عنده. وبعد سقوط قلعة (مكلة) تأكد من كثرة قوات الحبشة التي عسكرت بين (مكلة) وادجرات، فقرر ترك مقاطعة (تيجري) والانسحاب بقواته إلى مصوع، وطلب الموافقة على ذلك من رومة، إلا أن الحكومة الطليانية لم تشاركه في هذا الرأي، وكان كريسبي يستهزئ بباراتيري مبرقاً إليه: (إنك مصاب بالتدرن).
فلم ير الجنرال بداً من رمي الجيش الإيطالي في النار
قبل معركة عدوى - 8
لما حاصر ماكونين قلعة (مكلة) عسكر منليك بجيشه بين القلعة و (ادجرات)، ولما سقطت (مكلة) وافق على ذهاب الأسرى مقابل مال تدفعه إليه الحكومة الطليانية. وكان رسول كريسبي يفاوض منليك في هذا الشأن. وسافر الموظفون المدنيون أولاً إلى (ادجرات)، وبعد خمسة عشر يوماً سافر الجرحى والمرضى على البغال التي أخرجتها الحامية من القلعة لقلة الماء فيها
وقد أظهر النجاشي مقدرة حربية بالاستفادة من سوق الأسرى. ولم تكن القوة المحتشدة في
ادجرات قليلة، وكانت القلعة حصينة، والطريق الذي يصل مكلة بادجرات وعراً، ويمر بمضايق حصنها الطليان لسدها في وجه الأحباش. وكانت الجهة المعرضة للهجوم واقعة إلى الجنوب ومسيطرة على الوادي في انحدار شديد. وكان طول الخنادق حول القلعة 750 متراً، وكانت مواضع المدافع صالحة للرمي على مسافات بعيدة. وبلغت

القوة المكلفة بالدفاع عن هذه الجبهة 000ر20 مقاتل، وكان التقدم في هذه الناحية يلقى عراقيل وموانع، وقد لا ينجح الهجوم على الطليان لمناعة مواضعهم وكثرة مدافعهم ووفرة سلاحهم. وإذا استطاع منليك أن ينقل جيشه من شمالي مكلة إلى عدوى دون علم الطليان فإنه يكون قد هدد طريق (اسمرة - مصوع) وألجأ الطليان إلى الانسحاب من ادجرات، لأن التقدم من عدوى في الجهة الشمالية الشرقية يقطع خط الرجعة على الجيش الطلياني

ولكن كيف يستطيع منليك القيام بالمسير الجنبي بهذا الجيش اللجب دون علم الطليان؟ والأمر يتوقف على الخدعة، والعرب يقولون: (رب حيلة تغني عن قبيلة). وسوق الأسرى وفيهم الجرحى والمرضى من مكلة إلى ادجرات هيأ هذه الخدعة، فأنبأ منليك القيادة الطليانية بأنه سوف يوفد قوة من جيش ماكونين مع الأسرى لحراستهم. فساقهم يوم 25 يناير على طريق (اندرثا) وفي اليوم الثامن غير طريقهم إلى (هوزن) بحجة أن الطريق الأول لا يصلح لسوق المرضى والجرحى؛ وهكذا قدم جيش ماكونين على طريق (مكلة - هوزن - ادجرات) وبحراسة هذا الجيش سير منليك جيشه من معسكره إلى عدوى. ولما وصل الأسرى إلى ادجرات كان جيش منليك في عدوى والتحق به بعد ذلك جيش ماكونين فأصبح مجموع القوة 000ر80 رجل

ولا ريب في أن منليك أهمل أمر (ادجرات) واهتم بعدوى. والحقيقة أن لخط (ادجرات - عدوى) خطورة عظيمة من حيث السيطرة على مستعمرة اريترة، أو سد الطرق في وجه المهاجمين لبلاد الحبشة، لأن الخط المذكور كما سبق القول يمر بذرى الجبال التي تؤلف الخط الفاصل بين حوضي نهر مارب ونهر تكاسا. واعتمد منليك على تفوق عدده وتيقن أن الضربة التي ينزلها في عدوى تفتح له الطريق. وما دام هو في عدوى فلا يجرؤ الطليان على التقدم في الجهة الجنوبية الغربية

ولما وصل الجيش إلى عدوى احتل الروابي الشرقية وتأهب للمعركة، فاضطر الجنرال (باراتيري) أيضاً إلى تغيير وجهة جيشه. فبعد أن كان متوجهاً إلى الجنوب توجه إلى الغرب

ولم يستعجل منليك القتال، وكانت لديه مهمات أخرى يريد أن ينجزها قبل العمل، وهي إراحة الجيش، واحتلال المواضع المسيطرة، وتسليح الأهليين في المستعمرة، وحثهم على الثورة على الطليان. فتظاهر بأنه يريد الصلح، وشاغل الطليان بمفاوضات الصلح، فحملهم على البقاء في ادجرات. وطلب من الحاكم العام أن تجري المفاوضات على الأسس التالية:

اعتبار نهر مارب ونهر بلزة خط الحدود، وتصحيح معاهدة كسلا، والاعتراف باستقلال الحبشة. وهكذا أظهر للعالم أنه مسالم. بيد أن الجنرال (باراتيري) أنبأه بأنه غير مفوض بقبول هذه الشروط ما لم يقف على رأي رومة

وفي 13 فبراير سنة 1896 نجحت تدابير منليك بإغراء الأهليين الذين كانوا قد تطوعوا في الجيش الطلياني مقابل راتب. وفي 14 فبراير ترك المتطوعون الجيش الطلياني وانضموا إلى الجيش الحبشي وهاجموا قوة الستار الطليانية في مضيق (اليطا) وحاول قائد القوة في هذه الجبهة أن يحول دون انضمام المتطوعين إلى الأحباش وأرسل وراءهم فصائل طليانية على التعاقب، إلا أن المتطوعين أحاطوا بهؤلاء واضطروهم إلى التسليم وساقوهم أسرى إلى منليك، فتشجع الأهليون بذلك وثاروا على الطليان، واستولوا على طريق (ادجرات - سنافه)، وقطعوا الأسلاك البرقية؛ وطفق الطليان يشعرون بحرج الموقف إذ قلت الأرزاق، لأن الثوار أخذوا يهاجمون القوافل على خط المواصلات؛ وكانت القوافل تسير بحراسة حاميات قوية ببطء. وأخذ بعض فصائل الجيوش يتقدم نحو أسمرة لعبور نهر مارب والوصول إلى (غودفلاسي)

(يتبع)

طه الهاشمي

شعر الديباجة

أدب البارودي وشعره

بمناسبة انقضاء مائة سنة على مولده

للأستاذ أحمد الزين

أما وقد تحدثت إليك في الفصول السابقة عن ألفاظ الشعر ومعانيه؛ وبينت أن للشعر

ألفاظاً ومعاني مختصين به، لا يشاركه فيهما غيره من الكتابة والخطابة؛ وأوضحت الفرق بين المعاني الشعرية وغيرها من المعاني البسيطة؛ ومثلت لجميع ذلك بما أوضحت به الغرض من شعر القدماء والمحدثين؛ فإني متحدث إليك اليوم عن شعراء الألفاظ فأقول:

قد يفرط بعض الشعراء في تحسين الألفاظ وتجميل العبارات مع خلو الشعر من المعاني الحية، والأغراض الملائمة للبيئة، والتفكير المساير لثقافة العصر، فلا ترى في القصيدة على طولها، بل في الديوان على ضخامته صورة صادقة منتزعة من حياة الأمة ولا من حياة الشاعر نفسه، بل يعمد الشاعر إلى معاني سواه من الشعراء المتقدمين فيرددها في شعره، ويحشو بها قصائده، ويحاول أن يخدع القراء عن هذا التقليد بألفاظ يجيد تهذيبها، ويحسن اختيارها، ويجري فيها على مذهب القدماء من الفخامة والجزالة والمتانة، ومع هذه الفخامة وتلك الجزالة فإنك تشعر في مجموع القصيدة وفي كل بيت من أبياتها ببرودة الموت وسكون الفناء، كأنك ترى جسماً ميتاً يبدو الجمال على محياه، وما يجدي الجمال مع فقد الحياة؟ فإنه مما لا نزاع فيه أن للمعاني كما لذوات الروح أزمنة محدودة تحياها، وأعماراً معدودة تعيشها؛ وأن من المعاني ما ينقضي أجله بمجرد انقضاء الحادثة التي قيل فيها، فإذا قيل بعدها عدّ من المعاني الرثة البالية؛ ومنها ما يخلد على توالي العصور وتعاقب الأجيال ويظل جديداً على قدمه، يغالب الزمن بما فيه من عناصر القوة والبقاء، ويدافع العدم بما فيه من أسباب الحياة، وذلك إذا تعلق المعنى بغرض عام في حياة الإنسانية جمعاء، وصلح أن يتخذ مثلاً سائراً بين جميع الأحياء؛ ومنها ما يخرج من فم قائله ميتاً، كالسقط الذي لم يستهل صارخاً، لا يستحق غسلاً ولا تكفيناً، لأنه ولد دفيناً؟ وكثيراً ما ترى ذلك في شعر التقليد وقصائد المعارضات التي يجاري فيها الشعراء من تقدمهم ن فحول الشعر وأعلام القريض.

وبالجملة فمن عيوب الشعر التي لا تغتفَر أن يُعنى الشعراء بالألفاظ دون ملاءمة المعاني للبيئة التي يعيشون فيها، ومسايرتها لثقافة العصر الذي قيل فيه الشعر ومن هؤلاء المرحوم (محمود سامي البارودي) فقد كان رحمه الله غريباً في مصره، وصياغة عصر غير عصره، ومغرداً في روض العلويين بأغاريد العباسيين، ومُسمعاً دولة إسماعيل وتوفيق ما لا يطرب له غير الرشيد وأنداده من أمراء المؤمنين، فهو شاعر جاء متأخراً عن زمنه، بعيد العهد بينه مبين أقرانه وأساتذته من أوائل العصر العباسي إلى أواسط القرن الرابع، وهم الشعراء الثلاثون الذين اشتملت مختاراته الضخمة على كرائم قصائدهم، وعيون شعرهم في أهم أبواب الشعر وأجل أغراضه في تلك العصور وهي المديح والرثاء والأدب والصفات والنسيب والهجاء والزهد.

ولم يزل هذا الكتاب منذ طبع حتى اليوم ينبوعاً صافي المورد، ومنهلاً عذب الشريعة، يرده الأدباء والمتأدبون ظماء، ويصدرون عنه رواء، فكم من أديب نابغ في هذا الجيل قد تخرج عليه، وعلم من أعلام البيان العربي كان مرجع بيانه إليه، وشاعر فحل زكت شاعريته، ونمت موهبته بالرواية عنه، والأخذ منه، ولسان منعقد حلت عقدته بمطالعته، وانطلق من وثاق اللكنة بمذاكرته، وتعلم صقل الألفاظ، وعلو البيان، وإشراق الأسلوب بدوام النظر فيه، ومحاكاة ما يعلق بالذهن واللسان منه؛ وكم خابط في ظلمات العجمة استوضح معالم العربية الصريحة، وملامح الصور الشعرية الصحيحة بضوء مصباحه، فهذه المجموعة في حسن ما اشتملت عليه من قصائد المولّدين وجدواها على الأدباء والمتأدبين، وكثرة من تخرج عليها من الشعراء المجوّدين، أشبه الكتب بحماسة أبي تمام وإن اختص كل منهما بشعراء عصر، فمختار أبي تمام مقطعات من شعر العربية الخالصة التي لم يشُبها توليد، وختار البارودي قصائد من شعر الموّلدين؛ فحيث انتهى أبو تمام في حماسته ابتدأ البارودي في مختاراته، فهو كالذيل له، وإن كان أضفى من الثوب، وقد كان يقال: إن أبا تمام في اختياره، أحسن منه في أشعاره. وعندي أن البارودي يشبهه في ذلك، بل هو أولى منه بهذا الحكم الأدبي العادل. فجميع شعره ليس إلا تقليداً لشعر هؤلاء الثلاثين الذين اختار لهم، ولا نزاع في أن الأصل أقوى في بابه من التقليد مهما بالغ المقلد في أحكام عمله، وتنوق في تقليده. أما أبو تمام فلم يقلد أحداً في شعره، بل كان إمام مذهب شعري خاص موسوم به،

معزوٍّ إليه؛ لم يُسبق فيه بأحد قبله، وتابعه عليه كثيرون ممن عاصره أو جاء بعده.
وناهيك بما كابده البارودي رحمه الله من العناء والجهد في جمع هذه الدواوين التي كانت تعد في عصره من نوادر الكتب ونفائس الخزائن، وذخائر الكنوز الخطية التي لم تصل إليها يد النشر بطبع ولا نسخ، إذ كان بعضها في خزائن العظماء والسراة يتوارثونها فيما يتوارثون من ذخائر وطرائف لا يعرفون قيمتها، ولا يدرون ما يُفعل بها؛ وكان أكثرهم بل كلهم من أمراء الترك الذين استوطنوا هذه البلاد واتصلوا بملوكها، أما بالمودة أو بالقربى أو بالعمل، واستأثروا بالثروة الوافرة والجاه العريض؛ وكانوا يحشدون في خزائنهم تلك الكتب مباهين بعضهم بعضاً في جمعها، لا في نفعها، وقد آل بعض هذه الخزائن إلى دار الكتب المصرية من عهد قريب، كمكتبة المرحوم طلعت بك وحليم باشا وغيرهما، ويشهد الله ما فتح أكثر هؤلاء من كتبهم سِفراً، ولا قرءوا منها سطراً، وإنما كان يبهجهم ما يرون في بعض هذه الكتب من النقوش الفنية البديعة، والصور المتقنة الرفيعة، ويبهرهم من الكتاب ما يرون فيه من نفاسة الغلاف، والعلامات الذهبية في أواسط الصحف أو على الأطراف، وغير ذلك مما يسترعي الأبصار، دون الأفكار.
ولا يزال بيننا الآن من الناس من لهم كلَف شديد باقتناء الكتب: إما ببذل المال الكثير في شرائها، أو باستهدائها من مؤلفيها وجمعيات نشرها، ويتنوقون في تجليدها تجليداً حسناً، وينقشون أسماءهم عليها بالذهب، ويرتبونها في خزائنها ترتيباً متقناً، وينسقونها في مواضعها تنسيقاً فنياً يبهج الناظر، متوخين في ترتيبها التجانس في الألوان والأحجام، دون العلوم والموضوعات، إذ كانوا لا يفقهون من ذلك قليلاً ولا كثيراً، ولا يدركون من نفعها جليلاً ولا حقيراً؛ معتقدين أن حجرة الكتب مما تتم به مرافق البيت، كحجرة الزائرين وحجرة الطعام وما إليها، فإن قدم عليهم زائر أدخلوه حجرة الكتب ليرى أثر النعمة عليهم، بجمع هذه التحف لديهم.
وكان بعض هذا الكنز الثمين مدفوناً بين أنقاب المساجد وفي كوَى الزوايا في حراسة الجهلة من خدمها، يبيعونه لتجار الفرنجة بيع يوسف بثمن (بخس دراهم معدودة وكانوا فيه
من الزاهدين).
فتفرق أكثر هذه الكتب في العواصم الأوربية، إما في مكاتبها العامة، أو في الخزائن الخاصة، والأدباء والعلماء في الشرق يتلهفون شوقاً إليها، ويتحرقون أسفاً عليها، ويسمعون بها سماعهم بأصحابها، حاسبين أنها انقرضت بانقراضهم، وذهبت بذهابهم؛ وهي تختلس من بلادهم، وتنتهب من بين أيديهم؛ واللغة التي أشفت على الهوّة، وأشرفت على المنحدر، في حاجة ماسة إلى نهضة كبرى لإحيائها، وقوام تلك النهضة هو إحياء تلك المخطوطات البالية، بل الآثار الباقية لأعلام البيان وأمراء الكلام من الكتاب والشعراء، فلبثت هذه الكتب في ظلمات الخزائن مئات من السنين تتعاقب عليها الحقب والأجيال، ويتضافر على تعطيل الانتفاع بها الجهل والإهمال، وتنتفع الجرذان والأرَض بأكلها، أكثر مما ينتفع الأدباء والعلماء بفضلها؛ حتى أتاح الله لها ذلك الأديب النابغ، والشاعر الفذ، فتولى نظارة ديوان الأوقاف، وجمع ما بقي من هذه الكتب في مخابئها؛ وكان هذا هو بدء العمل في إقامة دار للكتب في مصر.
ولا يغيبنّ عن ذهنك أن ما بذله ذلك النابغة رحمه الله من الجهود المضنية في الظفر بتلك الدواوين التي جمع منها مختاراته، لم يكن بأكثر مشقة مما عاناه من التعب المُمِض، والنصب المُقِضّ، في تصحيح ما أفسدته أيدي الجهلة من النسّاخ بل المسّاخ من ألفاظها، وإصلاح المحرّف من كلماتها، وتكميل الناقص من أبياتها، وإعادة البهاء والرونق إلى ما شوه الجهل من جمالها، ومسخ من صورها، وطمس من معالمها، وإن أيسر ذلك لمما يستنزف الجهود، ويستنفد الزمن المعدود، والعمر المحدود؛ فإنك لا تكاد تفتح أحد هذه الدواوين المخطوطة حتى ترى ظلاماً كثيفاً من التحريف والتصحيف قد غشي جميع صحفه، وخيّم على جميع سطوره، فلا يبدو لعينك في وسط هذه الظلمة من شعاع الصواب، إلا كما يبدو ضوء الشهب من خلل السحاب، ولا تكاد تقرأ سطراً خالياً من عدة كلمات محرفة، أو مصحفة، غير مستقيمة المعنى ولا واضحة الغرض، يحتاج إصلاحها إلى زمن طويل، وبحثٍ غير قليل، وذهن غير كليل؛ وتحفّظ من الخطأ، ودقة في الذوق الشعري ينفذ بها القارئ إلى وجه الصواب؛ وحسن اختيار في

المحو والإثبات، وتفهّم دقيق لما يقتضيه سياق الكلام من المعاني والأغراض، ومعرفة بأساليب الشعراء ومصطلحاتهم في
كل عصر، ليكون المحو والإثبات تابعين لما تقتضيه هذه الأساليب وتلك المصطلحات
وخبرة واسعة بالكتب اللغوية والأدبية، وأغراض كل منها، ومكان الفائدة منها، ثم إعمال الذهن بلا كلل، وإجهاد الفكر بلا سآمة في الألفاظ المحرفة، والعبارات المغلقة، التي لم يستقم معناها على وجه من الوجوه، بتقليب حروفها بين التحوير والتغيير، والتقديم والتأخير، والحذف والزيادة، والإعجام والإهمال، حتى يستقيم المعنى ويتضح الغرض مع الأمانة التامة على الأصول، وعدم الخروج عنها إلا بالقدر المعقول.
هذا قليل من كثير من المشتقات التي يعانيها الناظر في أمثال هذه الدواوين ليختار منها مجموعة ضخمة مصححة أقوم تصحيح كمختارات البارودي.
أما شاعرية البارودي فسنحدثك عنها في العدد المقبل.
احمد الزين
القصص
صور من هوميروس
حروب طروادةمصرع هكتور - 18
للأستاذ دريني خشبة
اختلط حابل الطرواديين بنابلهم، وظلوا يهرعون إلى الأبواب حذر الموت الذي يتلقفهم عن شمائلهم وعن أيمانهم، ومن فوقهم ومن تحت أرجلهم، كأنما جثمت المنايا في كل خطوة فهي لهم بالمرصاد. . . طالما يكر أخيل هنا ويفر هناك، وتكر من خلفه وتفر شياطين الميرميدون، صائحين متهدجين: (يا لثارات بتروكلوس!)
ووقف أبوللو وهو يتميز من الغيظ يشهد المعركة، ويرى إلى أخيل يحصد تلك الرؤوس اليانعة التي لم يحن بعد قطافها، فلم يملك أن دنا منه وقال:
(على رسلك يا ابن بليوس، فكأني بك ما كفاك من صرعت حتى لتحدثك نفسك بقتال الآلهة، ومحاربتي أنا من دون أرباب الأولمب خاصة! ولكن هيهات! فإنك لابد يوماً ذائق الموت الذي لن يذوقه إله في الأرض ولا في السموات. . . فاقصد في تقتيل هؤلاء الأبرياء، ولا يغرنّك نصر قد تكون في آثاره هزائم. . . . . .)
وعبس أخيل عبوسة قاتمة، ثم نظر إلى أبوللو مغضباً وقال: (حسبك يا سيد الشمس ما ضيعت من جهود، وما فوّت عليّ من ثارات. . . أعرج في سمائك الشاسعة، ودع بني الموتى يصطرعون من أجل المجد والشرف. . . لقد أنقذت خصمي من قتلة محققة، فهل يا ترى تظل يا سيد الشمس تعترض طريق الأقدار، ليمرح في كنفك الفجار الأشرار؟. . .)
وانطلق أخيل يعدو في أثر هكتور؛ وكان هكتور قد أخذته العزة فأبى أن ينجو بنفسه فيدخل المدينة مع الداخلين
وكان بريام، الملك الشيخ، يشرف على الساحة الحمراء من أحد أبراج مدينته، فرأى ابنه واقفاً في إحدى حنيّات الأسوار يستجم، ويرسل في رهج الميدان عينين سادرتين محزونتين، تشفان عن قلق عميق، واضطراب دوي، فريع الأب المفئود، وزلزل زلزالاً شديداً، وطفق يئن أنيناً عالياً، ويدرب صدره الموهون بيديه الواهيتين، ثم يصيح بابنه أن يسارع إلى البوابة الإسكائية قبل أن يلحق به أخيل، عسى أن ينجو مما يتربص به من منون. . .
(أي بني! هكتور! فيم تقف في هذا الميدان وحدك تنتظر الطاغية أخيل عليه لعنة السماء والآلهة، بقتله بنيّ، وإهداره دماء مواطنيّ!
هلم يا بني فحسبي ما جزعت عن بوليدور، وحزنت أمض الحزن وأوجعه على ليكاون، وحطم قلبي من الأسى على أبناء اليوم. . .!
هلم يا بني فأنت أمل طروادة ومعقد رجائها، وليس لها بعدك من ولي ولا شفيع!
هلم فأبوك الشيخ قد صدعه الحزن، وأوقرت ظهره ويلات الحرب، وأغطشت عينيه أرزاء هذا البلاء، فلا تكن أنت محنة المحن التي تحل به، واستبق شبابك له يتسل بك، ولأمك المفجّعة تستلهم بقربك الصبر، على ما كرثها الزمن الصارم من نكبات يلاحق بعضها البعض، وتأخذ أولاها بتلابيب أخراها مشرق كل شمس، وكل مغيب شمس
هلم يا هكتور إليّ! إلى والدتك! إلى زوجك! إلى طفلك الذي تكاد تسلمه لليتم، وتدعه

. . .!خلفك للشقاء
هلم وحسبنا أرامل شجعاننا اللائى يحلن إشراق أيامنا ظلمة، ويصيرون لألاء الحياة
!. . .قتاماً. . . أو يرسفن في أغلال الاستعباد حيث يقمن في خدمة الإغريق اللؤماء
هلم إليّ يا بني! فو أرباب الأولمب إني لأرتعد فرقاً كلما خلتك كلقى بالعراء تنوشك
(. . .سباع الطير، منبوذاً لضواري هذه البرية التي طالما أطعمتها وأكرمت مثواها
وصمت الملك، وراعه أن ابنه لم يتحرك لتوسلاته، بل لبث مكانه يرمق الميدان فراح
يضرب يداً بيد، ثم انحنى فجعل يحثو التراب على رأسه المجلل بثلج الشيب، وندف
. . .الأيام، وبهذه الشعلة البيضاء التي زادتها أحداث الزمان اضطراماً
وكان هيكوبا إلى جانبه. . . هيكوبا مليكة اليوم،. . . هيكوبا الأم. . . التي فجعها أخيل
في عدد من أعز أبنائها، ويحاول اليوم أن يفجعها في هكتور، ابنها البكر، وتاج الأمومة
!الوضّاح، الذي تفخر به كل أم، وتدل به كل والدة
وقالت الأم الباكية تخاطب هكتور: (هلم يا ولدي فإنك وحدك لا تستطيع أن تكبح جماح
هذا البحر الزاخر من الجند، بل لو أن معك ألفاً من شجعان طروادة ما وسعهم أن
يردوا عادية
.هؤلاء الميرميدون المقنعين في حديدهم، الكثيرين في عديدهم
هلم يا هكتور واستبق شبابك وعنفوانك لأمك المحزونة التي لم يبق لها من ولد غيرك،
ولا عز إلا في جوارك، ولا حمى إلا في كنفك، ولا مجنّ يرد عنها عوادي الأيام إلا في
. . .ظلك، ولا فخر لها بين النساء إلا فخرك، وما تمد الآلهة في أيدك، وتشد به أزرك
هلم يا بني فقد أزعجتني الرؤى، وروعتني الأحلام، وجثمت فوق صدري أشباح هذه
الساحة التي تفتأ تلبس الحداد وتخلعه وتغري بالنصر ثم تنزعه، وإن سرت بطلاً بفوز
.). . .تنكص فتفجعه، فتنقد أضلعه وتمتزج بدمي أدمعه
وكانت الملكة، كما كان الملك، تمزج توسلاتها إلى ولدها بأغلى الدموع، وأحر الآهات؛
بيد أن هكتور ظل مسمراً مكانه كالحية الرقطاء التي تتحوى وتتكوم في انتظار عابر
تنقض عليه؛ وكان يمني أن يأخذ أخيل على غرة، فيريح طروادة منه، ويضفر لنفسه
.بنفسه إكليلاً من المجد لم يزن مفرق بطل من قبل
وكانت توسلات أبويه تتناثر فوق أذنيه، ولا يصغي لها قلبه، بل هو ظل يحلم في يقظته
أحلاماً معسولة، كانت تطن في خلده هكذا: (ضلة لي إذا ثنيت عناني إلى المدينة ألوذ
بها من أخيل، فأرسف أبد الدهر في حضيض العار، واطأطئ حياء كلما رأيت طروادياً
يهمس في أذن أخيه: إن هذا هكتور الذي ولى دبره، ونكص على عقبيه، ولم يجرؤ أن
يلقى أخيل بمفرده في الميدان. . . وأين أذهب من غادات اليوم وحرائرها إذا أنا وليت
الأدبار، وهاهن مشرفات على الساحة يرين ماذا يكون من أمري مع ابن بليوس الذي
تفزع الآلهة من ضرباته، وتمور الأرض تحت عجلاته، وتنعقد عجاجة الوغى فوق رأسه
في حين يبرز منها كالكوكب الدري! حاشاي أن أعود أجرر أذيال الخيبة، فأما أن ألقاه
فأريح الدنيا قاطبة من شره، وإما أن يرحني هو من هذا الهم المقيم فأفضي في سبيل
. . .بلادي ومن أجل مملكتي
ثم فيم صراخ أبي وعويل أمي؟ أيرجوان أن أدخل إلى المدينة فأكون بنجوة من
الموت الشريف فوق أديم الميدان ساعة، ثم يفتحها أخيل عليّ، فيذبحني كما يذبح
شاة لا حول لها ولا طول، أو يضع الأغلال في عنقي ويجرني في شوارع (إليموم) كما
تكون أذن الجارية في يد النخاس بسوق الرقيق!؟
حاشا. . . بل خير لي ألف مرة أن أخوض غبار المعمعة، مادام لن يضيرني إلا ما)
(. . .حتمت المقادير عليّ
وما كاد يفيق من أحلامه حتى كان أخيل أمامه وجهاً لوجه، وعلى كتفه الرحب الهرقلي
رمحه الضامئ العتيد، وفوق صدره العريض الممرد سوابغ دروعه التي سردها الإله
الحداد فلكان، تنعكس عليها آلاف وآلاف من أراد الشمس فتبهر الأبصار وتخلع الأفئدة،
!!وتذيب في الجوارح كهرباء الرعب، وتشعل في الرؤوس ضرام الشيب
وزاغ بصر هكتور، واضطرمت مفاصله، ونُخِب قلبه، واستُطير لبه، وأحس كأن جبلاً
ينحط عل روحه فلا يكاد يفلتها، وذاب الثلج في عروقه فجمدت من الروع والفزع،
. . .وهزته قشعريرة طفقت تعصف بكيانه الضخم، وتلعب بفؤاده الونى
ثم بدا له أن يلهب جياده فتفر به من وجه أخيل، ولكن إلى أين؟ إنه حيثما تولى فثم

وجه أخيل!! إن أخيل غدا آلافاً لا حصر لها من الأشباح المفزعة تملأ الساحة وتكظ الهواء، وتأخذ على الطرواديين أنفاسهم!

وانطلق ابن بليوس في أثر هكتور، وأشرف عذارى اليوم يطللن من أبراج المدينة الخالدة ويمسكن حبات قلوبهن أن تثب إلى الميدان فتطأها سنابك تلك الجياد الجوامح. وكان كلما أغذّ هكتور أوخف أخيل في أثره، فكانا كالأبردين: لا الليل يدرك النهار ولا النهار يستأنى فيدركه الليل، حتى نال منهما الجهد، وتفزعت الآلهة في علياء الأولمب إشفاقاً على ابن بريام العظيم، ورثاء لابن بليوس المتهدج، ورحمة لهذه الأرض لتضرجه بدماء الشهداء

وهم سيد الأولمب أن ينقذ هكتور لولا أن أقنعته ابنته، مينرفا ربة الحكمة والموعظة الحسنة، فنحّته عن طريق الأقدار وأخلت بين أخيل وخصمه. . .

وطافا حول طروادة ثلاثاً، وما كادا يبدآن طوافهما الرابع، حتى قبض زيوس إليه ميزان القدر، فهوت كفة الحق بقتل هكتور، وأربد وجه أبوللو وسقط في يده، وانطلق يضرب أخماساً لأسداس!. . .

وأسرعت منيرفا إلى أخيل تزف إليه بشرى السماء، وآثرت له أن يتلبث مكانه يستجم نشاطه، ويتنفس الصعداء، حتى تذهب هي إلى هكتور تغريه بلقاء خصمه، وتنفره من هذا الفرار الذي أضحك منه قيان إليوم وحسانها. . .

واستخْفت منيرفا، وبدت لهكتور في هيئة أخيه الأصغر ديفوبوس، ثم راحت تحضه على الحرب، وتحرضه على أخيل، وتهوّن له من شأن زعيم الميرميدون، وتعده أنها ستقدم له كل عون حتى يظفر به وتنصره السماء عليه نصراً عزيزاً. . .

ولم يشك هكتور في أن الذي يخاطبه هو شقيقه وحبيبه ديفوبوس، فوقف قليلاً يفرج عن قلبه بعض ما كرثه من روع، وراح يمزج شكرانه لأخيه بدموع الفزع، وذلة العبارات المنقطعة الحزينة، وخفقان القلب المضطرب ذي الوجيب!

وانثنى هكتور للقاء أخيل. . .

فما كاد ابن بليوس يشهده مقبلاً، بعد إذ كان مدبراً، حتى طرب قلبه، وشاعت بشاشة اللقاء في زنده القوي وسواعده المفتولة، ثم انقلبت هذه البشاشة إلى جهنم من الغيظ تستعر بالتشوّف إلى الانتقام في فؤاده، وتضطرم بلظى البطش في سويدائه، وتطل من عينيه تود لو تنقدح في أضلع هكتور. . .!

وقال هكتور: (تخدع نفسك يا أخيل إذا ظننت أني كنت ألوذ بأذيال الهرب منك، حين أجريتك هذه الأشواط الثلاثة حول إليوم. . .؟! لا. . . فإنني ما حاولت إلا إجهادك، وأن ينال الإعياء منك. . . والآن، هأنذا قد انقلبت للقائك فأما أن أقتلك، وأما أن تروي رمحك الضامئ من دمي. من يدري؟ أليست الأقدار مطوية عنا في صحائف الغيب، لا يعلمها إلا سيد الأولمب وكبير الآلهة: زيوس جل شأنه!

بيد أنني أطمئنك من الآن يا أخيل، إن أظفرتني السماء بك، فلن أفضحك في هذه العدة السابغة من فوقك، ولن أنزع عنك تلك الدروع الضافية التي لن تنفعك من المقادير من شئ. . . ثم أعدك أيضاً إلا أفضحك بعد موتك في هذا الجسم العزيز الذي سيكون بعد قليل جثة لا نأمة فيها ولا حياة. . . لن أرسل بك إلى عراء طروادة فأنبذك فتأكل الطير منك، زتنوشك سباع البرية الموحشة التي تعج بالضواري والكلاب. . . لا. . . لن أفعل من ذلك قليلاً ولا كثيراً. . . بل سأترك لجنودك البواسل أن يحملوك إلى سفائنك عزيزاً في قتلتك، كما كنت عزيزاً في معاشك

والآن يا ابن بليوس! هل تعدني الوعد الذي وعدتك، وهل تعاملني بمثل ما أنا معتزم أن أعاملك، إن أظفرتك السماء عليّ. . . . . .؟

وتزلزل الأرض تحت عربة أخيل مما سمع من مهاترة ابن بريام ويقذفه بشواظ من الكلم المحنق والقول المضطرم، ثم يقذفه بصعدته الظامئة التي تمرق إلى هكتور كالبرق الخاطف، لو أصابت منه عضواً لذهبت به إلى الجحيم. . .

ولكن هكتور العظيم ينفتل انفتالةً عجلى، فيهوي رمح أخيل إلى أرض الساحة، ويغوص ثمة إلى ثلثيه. . . إلا قليلاً

وكانت فرصة طيبة لهكتور ينفرد فيها بخصمه الأعزل، لو لم تكن مينرفا حاضرة، وعلى أهبة تامة لمعاونة أخيل. . . . فلقد سارعت إلى الرمح فانتزعته من الأرض وسلمته لصاحبه دون أن يلمحها هكتور. . .

وقبل أن يتهيأ لها أن تضع ذلك، قال ابن بريام: (أخيل! ها قد طاشت ضربت، وآن لطروادة التليدة أن تستريح منك يا ألد أعدائها!! لقد كنت تحدث نفسك برأس هكتور؛ غريمك وخصمك، فلتبحث الآن عن رأسك يا ابن بليوس. . . .

ولم يكد البطل المسكين يتم قولته، ويضيع بها فرصته حتى كانت مينرفا قد أعادت الرمح إلى أخيل. . . وحتى تبسم أخيل ابتسامة لاذعة ساخرة بما قال هكتور، الذي داعب هو الآخر رمحه، ثم أرسله كأنه الحتف فارتد على درع فلكان، ومنه إلى الأرض، فغاص فيها؛ وقبل أن يلحق به هكتور حال أخيل بينهما، وأصبح الموت أقرب إليه من حبل الوريد؛ وتلفت ابن بريام يبحث عن أخيه ديفوبوس فلم يعثر له على أثر، فصاح من الوجل يقول: (يا ديفوبوس! أغثني يا ديفوبوس! أدركني يا ديفوبوس! هات لي رمحاً يا ديفوبوس. . . . . .)

بيد أن ديفوبوس لم يغثه ولم يدركه ولم يحضر له رمحاً، وبدت له مينرفا وهي تبتسم له ابتسامة خبيثة زلزلت أركان هكتور، الذي فطن إلى الحيلة التي دخلت عليه، فقال يخاطب الربة الساخرة، وهو يكاد ينشق من الغيظ: (يا للسماء! أهكذا تخاتل الآلهة، فتقضي بموتي في معركة لا أحمل فيها سلاحاً. . . ولكنني سأقاومك يا ابن بليوس، فإذا سقطت فلن يكون لك في ذلك فضل ولا محْمدة، واذهب من بعدها فصلّ للخاتلة التي نصرتك وآزرتك. . .)

وامتشق المسكين سيفه، ولكن ماذا يصنع الجراز البتار في ملحمة لا يقطر الموت فيها إلا على أسنة الرماح. . .!

لقد انقضّ أخيل على فخر طروادة وأملها المذخور فعاجله بشكة من رمحه الظامئ نفذت في عنقه، وهوت به إلى أديم الأرض المقدسة التي يا طالما دافع عنها مع جنوده البواسل الكرماء. . .

هكتور! اليوم شفيت حزني الممض على بتروكلوس. . . واليوم تذهب روحك إلى) . . . ظلمات هيدز غير كريمة ولا محمّدة. . يا كلب طروادة المذؤوم!! كم كنت تمني نفسك لو تظفر بي فتنبذ جثتي بالعراء لوحوش طروادة وجوارح طيرها. . . إلا فحدث نفسك الآن مامذا صنع القدر بك. . .!)

ويتهدج هكتور قائلاً: (أخيل! يا ابن بليوس العظيم! استقسمك برأسك الرفيع، وأبويك الحبيبين، إلا تأخذ جثتي فتنبذها لكلابك، وتعفر جبيني الحر بثرى المذلة بين أصحابك، وحسبك أن الآلهة قد أظفرتك بي، وأن المقادير السوداء قد أفلذتك عليّ)

فيقول أخيل، وقد زهاه النصر على ألد خصمائه: (اطمئن يا هكتور، فكلابنا لا تستطيب إلا جزر الأبطال، وستكون لها وليمة فاخرة. . . فو رأس أبيك لو ملأ لي بريام هذه الدنيا ذهباً على أن أخلي بينه وبينك، ليعود بك إلى اليوم، ما رضينا بك بديلاً. . .)

وتكون سكرة شديدة من سكرات الموت جاثمة في صدر هكتور تعذبه وتضنيه، فيتأنى قليلاً حتى تنجاب عنه الحشرجة، ويفتح عينيه ويقول: (أخيل؟ لا تغتر بما تم لك من نصر؛ فباريس أخي سيقتص منك لي؛ وسيرميك من أبراج طروادة بسهم يعجل بك إليّ. . . في هيدز. . . وثمة سنلتقي!)

ويموت البطل. . .

وتنطوي صحيفة مجيدة من صحائف طروادة. بل تنطوي أنصع صفحاتها جميعاً، بموت هكتور.

يا عجباً!!

هل كان كتاب الغيب مفتوحاً أمام هكتور يقرأ منه عندما أنذر أخيل بسهم باريس؟!

وازدحم الهيلانيون حول الجثة يطعنونها ويصلونها كلوماً عجزوا عن إيصالها إليها حية فأبوا إلا أن يصلوها بها ميتة. . .

ونزل أخيل من عربته، فنحنى على الجثة، ونزع عنها تلك العدة العزيزة التي نزعها هكتور عن جثة بتروكلوس. . . عدة أخيل. . . فلن تكون بعد اليوم إلا لأخيل!

واستل ابن بليوس خنجره، وأهوى على عقبي هكتور فخرمهما، وربط القدمين العزيزتين في مؤخر عربته الحربية، ثم ألهب جياده فهامت على وجوهها في الساحة، وطفقت تطويها مثنى وثلاث حول إليوم، والرأس العظيم يتعثر بثرى المعمعة الذاهلة، والطرواديون فوق الأسوار ينظرون ولا يحيرون. . . إلا هذا الملك الشيخ. . . بريام المذهول. . . الذي راح يملأ الفضاء أنيناً موجعاً، وشجواً مفزعاً. . . وإلا هذه الأم

المرزأة. . . هكيوبا الملكة. . . التي راحت تحثو التراب فوق رأسها، وتتقلب فوق الأرض كالطائر المذبوح. . .
أما أندروماك. . . فلها السماء. . . ولها الآلهة!!
لقد كانت تضفر أفواف الزهر للقاء هكتور، وترشق الورود في أرائك المخدع، وتعد الحمام الساخن لغسل ثرى الميدان. . . ولم تكن تفكر قط إلا في عودة البطل مخضّب الذيل بدماء الأعداء. . .
ولكنها سمعت لغطاً وضوضاء يرتفعان فجأة خارج القصر. . . وكأن هتافاً من السماء هتف بها أن تخرج لتستجلي النبأ. . . ولكنها أيضاً شعرت بقوة خفية تدفعها إلى البوابة الأسكاتية. . . حيث وقف بريام يبكي ولده. . . فما كادت تصل ثمة وتشهد هذا الجمع المحزون يذري دموعه. . . وما كادت تطل من شرفة البرج فترى إلى هكتور مربوطاً في عربة أخيل، وأخيل الجبار يطوي به الساحة، ويذرع به الميدان. . . حتى وجفت نفس الزوجة البائسة، وخرت إلى الأرض مغشياً عليها. . .
وأفاقت أندروماك التاعسة. . .
وطفقت تبكي زوجها وترثيه بالدم
وطفقت نفسها تساقط عليه أنفساً!؟
لها بقية
دريني خشبة
حادث انتحار
بقلم حسين شوقي
عندما دقت الساعة الثانية صباحاً، كان بار (الدب الأبيض) خالياً من خدمه ورواده، عدا رجلين: أدولف الخمار الشيخ الذي ذهب إلى داخل المحل لتصفية حسابات اليوم، وشاب جلس في ركن منزو يشرب ويكتب؛ ولم تمض فترة قصيرة على انزواء أدولف حتى سمع دويّ رصاص في البار، فعاد مهرولاً، فوجد الشاب قتيلاً على كرسيه، قتل نفسه بمسدس كان لا يزال بيده اليمنى. . . فحصه أدولف فوجده قد مات من فوره، بينما السيجارة التي كان يدخنها لا تزال مشتعلة. . وقع أدولف في حيرة من أمره، ثم أخذ يصخب ويلعن، ثم جعل يخاطب نفسه قائلاً: ألم يكن الأجدر بهذا الأبله أن ينتحر في بيته؟
علام يزعج الخلق هكذا؟
ثم فكر أدولف في النوم الذي لن يذوقه الليلة. إذ عليه أعمال كثيرة. . . إخطار البوليس بالحادث، وانتظار التحقيق القضائي الذي سوف يدوم ساعات. . . وعلى رغم هذا شعر أدولف بشيء من العطف عندما نظر ثانية إلى وجه القتيل لأنه كان شاباً بين العشرين والخامسة والعشرين، ثم تنهد قائلاً:
إنه لم يحن أوان موته بعد!
إن الشباب يجلب العطف دائماً، وبخاصة من جانب الذين فقدوه أمثال أدولف، أو من جانب الذين فقدوا أشخاصاً يعزونهم ماتوا في ميعة الصبا، أمثال أدولف أيضاً، الذي فقد في العام الماضي ابنة لم تبلغ العشرين بعد. . .
وبعد أن أخطر أدولف البوليس بالحادث رجع عند الجثة، ثم أخذ يحدق في وجه القتيل! إنه لا يعرفه أبداً، فلقد كانت هذه زيارته الأولى للبار. . ثم رأى أدولف ورقة مكتوبة أمام الشاب فتناولها مدفوعاً بحب الاستطلاع، فقرأ ما يأتي:
الموقع على هذا (س). . المولود في. . والمقيم في. . يقدم اعتذاره إلى صاحب بار الدب الأبيض من القلق الذي سيسببه له بعمله هذا. إن (س) يأسف لأنه لم يستطع أن ينتحر في بيته كما كانت تقضي بذلك اللياقة، لأن صاحبة الفندق الذي يقيم فيه سيدة عجوز مريضة بالقلب، فأي انفعال يقضي عليها؛ وإذا كان (س) قد اختار البار لفعلته، فلكي يستطيع أن
يتناول بضعة أقداح من (الويسكي) تنعشه في رحلته الطويلة المظلمة. . ومع ذلك فإن (س) واثق من أن هذا الحادث سوف يعوض لصاحب البار ما أصابه من ضرر، يعوضه بالإعلان الذي يعمله هذا الانتحار للمحل. . إن (س) لا يأسف كثيراً على مفارقة الحياة لأنه لم يعد يملك شيئاً، والحياة بلا مال، أمرّ في نظره من جرعة ملح. . ثم (س) فوق ذلك لا يثق بالمستقبل، ولا بنفسه، فهو يعلم أنه لا شئ، وأنه لن يصير في يوم من

الأيام رجلاً مثرياً. . ومع ذلك فإن (س) لم يخلف ديوناً. . بل لا يزال في حجرته بالفندق بضعة جنيهات، وهو يهديها إلى جمعية الرفق بالحيوان، لأنه لا يحب أن يخلف شيئاً لبني جنسه، إذ هو يحتقر الطبيعة البشرية، ولا يستثني منها نفسه. . إذ لم يكن ملاكاً في الحياة الدنيا، بل كان كغيره مخادعاً. . بل (س) يأسف لأنه لم يحسن الخداع في الحياة، لأن الحياة في نظره كلعبة (البوكر) لا يربح فيها إلا البارع في الخداع. . ومن الأسباب القوية لانتحار س أيضاً، أن ضميره لم يكن مستريحاً، فقد كان سبباً في وفاة فتاة في العام الماضي في ريعان الصبا، ماتت كمداً لأنه وعدها بالزواج ولكنه لم يف بوعده، لأنه فقير لا يستطيع أن يتزوج، وهو لا يعترف بالحب مع البؤس. كم ودّ (س) أن يتناسى هذا الحادث! ولكن ماذا يفعل في ذلك الشيطان الصغير الذي يقطن داخل جسدنا والذي أخذ ينغّص عليه الحياة من أجل هذا الحادث؟. . . لهذا تجد (س) غير نادم كثيراً على مفارقة الحياة. . . وبهذه المناسبة يطلب (س) الصفح من هيلانة (وهو اسم الفتاة). . .

ولكن أدولف الخمار لم يكمل قراءة الورقة، بل قذف بها صارخاً: آه من الوغد! مسكينة هيلانة!

فلقد كانت هذه الفتاة ابنته. .

حسين شوقي

البريد الأدبي

كتاب عن التاريخ الحبشي

وهذا أيضاً كتاب جديد عن الحبشة. والحبشة ومسائلها ومصايرها تثير اليوم أعظم الاهتمام والعطف. وقد صدرت عن الحبشة في الآونة الأخيرة كتب ومؤلفات عديدة أشرنا إلى بعضها في هذا المكان من (الرسالة). واليوم نشير إلى مؤلف قيم جديد هو تاريخ الحبشة بقلم الأستاذ جونس والسيدة مونرو وهو عرض قيم جداً لتاريخ الحبشة منذ أقدم العصور إلى الآونة الحاضرة؛ ويمهد المؤلفان بوصف شائق للحبشة وشعوبها وأصولها؛ ويتلو ذلك الحديث عن عصر الأساطير في التاريخ الحبشي، وهو حديث يدعمه التدليل التاريخي: (كان ملوك الحبشة حتى القرن الرابع من الميلاد وثنيين، يرجعون أصلهم إلى (مهرم) وهو إله الحرب. أما أسطورة ملكة سبأ فقد نشأت بعد القرن السادس؛ ومن المرجح أنها نشأت في العصور المظلمة التي تلت قيام الإسلام في جزيرة العرب. وحرمت الحبشة من الاتصال بالعالم النصراني)

وقد اعتنقت الحبشة النصرانية في القرن الرابع؛ وكان ملوك الحبشة يومئذ يعيشون في بذخ همجي، وما زالت مسلات اكسوم تدل على ذلك العصر. وفي (عصر الحبشة المظلم) وهو الذي يعرضه القسم الثاني من الكتاب، احتل العرب والمسلمون شواطئ البحر الأحمر وسحقوا حركة القرصان الأحباش، وقطعوا الحبشة عن العالم الخارجي، وفي ذلك العصر ازدهرت أسرة (زاجوي) واستمرت في الملك حتى سنة 1270م، ثم عادت الأسرة السليمانية التي تزعم أنها سليلة ملكة سبأ وسليمان. وبدأ تاريخ الحبشة الحديث؛ وكان للحبشة ديوان تحقيق (محكمة تفتيش) تطارد الملاحدة ورئيسها زرعة ابن يعقوب

ويتناول القسم الثالث من الكتاب أسطورة (القس جون) وسفارة البرتغال، ووصف السفير البرتغالي الفاريز للحبشة يومئذ (سنة 1520) وهو أدق وأقيم وصف لحالة الحبشة في أوج مجدها وحضارتها قبل أن تنحدر إلى عصر من الضعف والفوضى. وكان ملك الحبشة يعيش يومئذ في معسكر متنقل وليس له عاصمة ثابتة؛ وقد انتهت هذه السفارة الشهيرة بتنازل الإمبراطور عن مصوع للبرتغال نظير توريد السلاح وإرسال الأطباء؛ ولكن النتائج المرغوبة لم تتحقق لأن الترك عبروا البحر الأحمر يومئذ، وغزوا الحبشة؛ ولكنه

غزو لم يطل أمده؛ ووقعت الحبشة في عصر من الفوضى

ويتناول القسم الرابع عصر (العزلة والفوضى) ثم يتناول القسم الخامس تاريخ الحبشة الحديث، ونزاع الأسر على العرش وظهور طلائع الاستعمار الأوربي، وحملة السير نابيير وانتحار الإمبراطور تيودور؛ ويتناول القسم السادس والأخير مسألة النزاع الإيطالي الحبشي في سنة 1935، وتطوراتها المختلفة حتى أغسطس الماضي وقد كتب الكتاب بأسلوب سلس قوي يحفز القارئ؛ والكتاب قيم مدعم بالوثائق

التاريخية، ويعتبر من أنفس ما كتب عن الحبشة في الآونة الأخيرة.

كتب بالمزاد!

أذيع أخيراً في القاهرة نبأ بيع مكتبة فخمة لأحد الكبراء، تحتوي على طائفة كبيرة من المجموعات والكتب القيمة، والمطبوعات النادرة، وكان البيع بالمزاد طبعاً، فهرع إلى مكانه حشد من العلماء وهواة الكتب والآثار النادرة، وبيعت في اليوم الأول طائفة حسنة من الكتب والمجموعات، ولكن لوحظ أنها بيعت بالأخص لجماعة من الهواة الذين يأسرهم جمال الطبع والرونق قبل أن تغريهم البواعث العلمية؛ ورأى الحاضرون من العلماء والخبراء الذين يعرفون قيمة الكتب ويحسنون تقدير أثمانها أنهم لا يستطيعون الشراء في هذا الجو المشبع بتنافس الهواة، فلم يشتروا سوى القليل. ذلك أن قليلاً جداً من الكتب المعروضة بيع بثمن المثل أو أقل قليلاً، ولكن معظمها رسا بأثمان فاحشة كانت تصل أحياناً إلى أضعاف القيمة الحقيقية؛ وكانت ثمة عوامل وأصوات مريبة تتدخل في المزايدة في ظروف ووقفات خاصة، فترفع الأثمان بنسب مدهشة حتى يتقدم أحد الفرائس من الهواة فيلقى عليه العبء المنشود

وبعد أيام قلائل كان بيع القسم الثاني من هذه المكتبة الشهيرة؛ فكان أول ما لوحظ أن معظم الذين حضروا في الدفعة الأولى لم يحضروا هذه المرة. ألم تتضح لهم الحقيقة بعد أن غادروا قاعة المزاد، وتساءلوا عن القيم الحقيقية للكتب التي اشتروها في هذا الجو المكهرب؟ وكان قد عُرف خلال ذلك أن المكتبة المعروضة ليست لكبير ولا وزير وإنما هي ملك لأحد تجار الكتب المعروفين الذين أزعجتهم الأزمة، فعمد إلى تصريف كتبه بهذه الوسيلة، وفي هذه الجلسة أيضاً ازدادت العوامل المريبة والمصطنعة ظهوراً، وتصاعدت

أثمان الكتب المعروضة إلى نسب فاحشة حتى أن كثيراً منها كان يباع بأضعاف ثمنه جديداً، وزاد يقين العارفين بأنهم يجلسون في شرك منصوب؛ ولكن حدث كما حدث في الجلسة الأولى أن توالى سقوط الهواة في هذا الشرك

ولقد كان درساً لمن حدثته نفسه بالظفر بنصيبه من هذا الكنز بالوسائل والأثمان المشروعة؛ وكانت خيبة أمل، ولكن الحقيقة ظهرت ناصعة، وهي أن شراء الكتب بالمزايدة وسيلة لا تصلح للعلماء، وأن المزايدة (ولاسيما في مصر) ليست دائماً وسيلة شريفة للتعامل. فحذار أن تشتروا الكتب بالمزايدات!

وفاة مؤلف موسيقي شهير

من أنباء النمسا أن المؤلف الموسيقي الشهير ماكس فون أوبرليتنر قد توفي في الثامنة والستين من عمره، فاختفى بوفاته أحد أساطين المدرسة الموسيقية القديمة، التي ازدهرت في أواخر أيام الإمبراطورية، وما زالت آثارها تخلب ألباب الشعب النمسوي. وقد تفرغ ماكس فون أوبرليتنر منذ شبابه للتأليف للأوبرا، وأحرز في هذا الميدان نجاحاً باهراً؛ وبزغ مجده في سنة 1912 حيث لحنت قطعته الشهير (افروديتي) وعزفت في الأوبرا الإمبراطورية بفينا، وغنتها يومئذ فنانة موهوبة كانت في مستهل حياتها الفنية وهي ماريا يرتزا التي تتبوأ اليوم مقاماً فنياً سامياً في نيويورك وتعتبر أشهر مغنية في أمريكا. وفي سنة 1916 عزفت قطعته (المسيح الحديدي) في (الأوبرا الشعبية)، فأحرزت نجاحاً باهراً، ثم عزفت بعد ذلك في عدة مسارح شهيرة نمسوية وألمانية، وانتهت إلى دار الأوبرا؛ ووضع فون أوبرليتنر بعد ذلك عدة مقطوعات وأوبرات كانت دائماً موضع التقدير والإعجاب

مدينة دولية للفنانين والكتاب

تألفت منذ حين في باريس جمعية اسمها (جمعية المدينة الدولية للفنون والتفكير) برئاسة مسيو جبرايل بواسي الكاتب الشهير ورئيس تحرير مجلة (كوميديا) الكبرى؛ وقد صرح رئيس هذه الجمعية أخيراً بأن الغرض من تأسيس هذه الجمعية هو السعي في إنشاء (مدينة دولية) بالقرب من محطة مونبارناس، يخصص سكناها للعلماء والفنانين من جميع البلدان،

وإن الجمعية تعلق أكبر الأهمية على الآثار المادية والمعنوية التي تترتب على تنفيذ مثل هذا المشروع الجليل. ومن المعروف أن الحي الذي تختاره الجمعية لإنشاء المدينة الجديدة، وهو حي مونبارناس، هو حي الفنون والآداب منذ بعيد، وله تقاليد فنية وأدبية مؤثلة، وقد بزغ فيه نجم مئات من الكتاب والفنانين، الذين تغص بهم دائماً

ربوعه ومقاهيه
المعهد الإمبراطوري ومهامه
يذكر القراء تلك الأحاديث الشائقة التي ألقاها وزير الخارجية البريطانية وبعض أكابر الساسة أمام عصبة الأمم عن توزيع المواد الخام ووجوب توزيعها بين الدول الكبرى بنسب أكثر عدالة، وذلك لمناسبة النزاع القائم على توزيع المستعمرات واستئثار إنكلترا بأعظم نصيب منها. وقد وقفت في بعض الصحف على معلومات هامة عن المعهد الإمبراطوري الذي يعتبر في إنكلترا قلب الاستعمار النابض، والذي يسهر على مصاير المواد الأولية في جميع أنحاء العالم؛ فهذا المعهد قد أسس للعمل على تنمية الاستغلال الصناعي والاستفادة من المواد الأولية المختلفة، وجمع الإحصاءات البيانات الاستعمارية اللازمة؛ وقد زود المعمل بمعامل للأبحاث الكيميائية والفنية لبحث المواد الأولية وتعيين قيمتها ومدى الانتفاع بها ووضع التقارير الفنية عنها. ويصدر المعهد نشرات فنية محققة عن مختلف المواد الأولية وعلاقاتها بالصناعة، ومدى تقدم الاستغلال الاستعماري في ميادين الزراعة والمعارف وغيرها، ويعنى عناية خاصة بدرس المواد الأولية في الهند البريطانية والمستعمرات والأملاك المستقلة
النقد
تاريخ الإسلام السياسي - 4
تأليف الدكتور حسن إبراهيم حسن
موضوع الكتاب، الثقافة الإسلامية، خاتمة
لأستاذ كبير
لست أدري لم قصر مؤلف (تاريخ الإسلام السياسي) وصف كتابه على (السياسي) فحسب، مع أنه عرض لنواح شتى من الحياة الإسلامية القديمة: عرض لنواحي الدين، والسياسة، والاجتماع، والعقل، والأدب. فبينا تقرأ له فصلاً في حكمة تشريع القبلة، إذا بك تنتقل إلى فصل آخر موضوعه فتح عمرو بن العاص مصر؛ وبينا تقرأ له فصولاً في عقائد الفرق الإسلامية القديمة ومذاهبها، إذا بك تقرأ له كلاماً في حال المرأة المسلمة في العصر القديم، ثم إذا بك تنتقل بعد إلى كلام مطول في صناعتي الشعر والنثر في عصر الخلفاء الراشدين والأمويين.
أو ما كان أولى للمؤلف أن يقدر هذه المزايا قدرها، فيصوغ عنوان كتابه بحيث يدل عليها كلها مقتدياً في ذلك بالسيد أمير علي حين سمى كتابه الذي يعرفه المؤلف حق المعرفة (موجز تاريخ العرب). لاشك أن الصفة السياسية الصحيحة، كما يعرفها علماء التاريخ والعارفون بأصول علم السياسة، ليست أبرز نواحي الكتاب، وقد تكون عند التحقيق من أضعف نواحيه. ولكن من يدري؟ فلعل المؤلف قد لحظ هذه الحقيقة فنعت كتابه بأضعف صفاته تواضعاً منه! وإن كان التواضع خلة قلما يدل عليها كتابه. أو لعل له غرضاً آخر يعرفه ولا نعرفه.
والحق أن المؤلف أقدم على تأليف كتابه وليس له غرض واضح محدود يرمي إليه ويسير على هديه، إلا أن يكون كتابة تاريخ عام للإسلام من الطراز المألوف وهو ما لا يدل عليه عنوان الكتاب. وغموض الغرض الحقيقي أو انتفاؤه بالمرة أضر بالكتاب من عدة وجوه. فمن جهة أحال الكتاب كتلة ضخمة من الأخبار والحوادث المتعلقة بعصر معين، قد جمعت من هنا وهنا، ثم حشدت حشداً، وأزجيت على الورق إزجاء، فاقدة الوحدة المعنوية،
والاتصال الذاتي، اللذين يكسبانها الروح والحياة والحركة. ومن جهة ثانية فإن غموض الغرض قد لبس على المؤلف أمره، وجعله يضطرب بين طرائق المؤرخ المحقق، والمحامي المنافح عن الدين، والواعظ المبشر بالإسلام، الراد لشبهات المبشرين وتعسفات المستشرقين؛ فعدل في كثير من المواطن عما يحسن، وتكلف ما لا يحسن، وما ليس من شأنه من حيث هو مؤرخ فحسب. ومن جهة ثالثة فإن نشاط المؤلف وعنايته لم يوزع على أجزاء الكتاب توزيعاً يتكافأ وأقدارها من الوجهة التاريخية البحتة، فتشريع القبلة وحكمته يظفران بثلاث صفحات، في حين أن غزوة بدر التي تعتبر بحق أهم وقائع الإسلام ومن وقائع التاريخ الفاصلة، لا تكاد تظفر بصفحة واحدة! وأم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك تخص بصفحتين، في حين أن الأحداث الجسام التي وقعت في زمن الخليفة يزيد ابن الوليد بن عبد الملك تركز وتضغط في أسطر

قلائل!
أوردها سعد وسعد مشتمل ... ما هكذا تورد يا سعد الإبل
ومن الأمور التي أثرت في كتاب (تاريخ الإسلام السياسي) وقعدت به عن رتبة الجودة ما يدل عليه الكتاب نفسه من عدم وفور حظ المؤلف من الثقافة الإسلامية الصحيحة، والمطلع على الكتاب يرى أن المؤلف يحاول جهده أن يكتم هذا الضعف، ويستره بطلاء براق من الاقتباسات العربية الكثيرة التي يطالعك بها في كل صفحة، ولكن هذه المحاولة لا تروج حتى على من يقرأ الكتاب قراءة عجلى. فإن اللحن والتحريف الفاشيين في الكتاب واللذين أعرضا عن تتبعهما اختصاراً للقول، وتوخياً لصميم الموضوع، وإن المآخذ التي سردنا بعضها في بحوثنا الماضية، نقول إن ذلك كله كفيل بإثبات أن المؤلف غير موفور الثقافة الإسلامية. وقد أداه تفريطه في جانب الثقافة الإسلامية إلى الإفراط في الأخذ عن المصادر الأجنبية، فخرج كتابه حائل الصبغة، حائراً بين العروبة والفرنجة، لا ينتمي إلى واحدة منهما انتماء صحيحاً
والحق أن التاريخ الإسلامي من أشق فروع التاريخ مطلباً وأوعرها مذهباً، فهو تاريخ عالم بأسره؛ لا مجرد تاريخ إقليم معين أو أمة بعينها. وهو تاريخ عصور متطاولة تقرب من أربعة عشر قرناً، ثم هو تاريخ تختلط في الأحداث، والنظم، والآراء، والمذاهب اختلاطاً عجيباً، فإذا ما أريد تصنيفها وإفراد كل منها على حدته، وسوقه في مساقه الخاص، اقتضى
ذلك من الجهد والعناء الشيء الكثير. والمعاني لدراسته محتاج إلى وفور حظه من الثقافتين التاريخيتين العامة والإسلامية، فإن لم يفعل كان كمن يغشى الهيجاء بيد عزلاء، أو يتقحم المجاهل برجل عرجاء. من أجل ذلك لم ينهض بعد التاريخ الإسلامي في الشرق نهضته المستقلة المنشودة. مع أن التاريخ سجل أحداثه، وديوان مجده وفخاره، فهو لا يزال قصصاً يقص، وسيراً ساذجة تتلى. أما روح الجماعات، وأثر البيئة والتقاليد، وعمل المبادئ والعقائد، والقوى الاجتماعية والاقتصادية المختلفة، فتلك كلها لا تزال في العربية أسراراً لم ترفع عنها الحجب. وقد يتعذر بعضهم عن هذه الحال بأن العوامل المذكورة ليست عند الشرقيين في مثل قوتها عند غيرهم ولكن الأمر هنا ليس أمر قوة وضعف، فهي موجودة في كل حال، والطبيعة البشرية واحدة، والناس هم الناس سواء أكانوا في شرق أم في غرب. ولو أنصف أولئك المعتذرون لقالوا إن الذي يحول دون نمو الروح التاريخي الصحيح في الشرق هو ما يعترض الباحث من وعورة المسلك، وبعد الشقة، وصعوبة المنال.
وبعد فقد آن أن نختم هذه الفصول التي لم يدفعنا إلى تسطيرها إلا ما أشرت إليه في كلمتي الأولى من توخي المصلحة العامة قبل كل شئ. فلعلي أكون قد وفقت فيما قصدت إليه.
ونصيحتي الأخيرة للدكتور مؤلف (تاريخ الإسلام السياسي) أنه إذا أسعده الحظ فأعاد طبع كتابه، ينبغي أن يعيد النظر في كل فصل من فصوله، وصفحة من صفحاته، فيصحح الخطأ، ويقيم المعوج، وإنه عندما يتولى إصدار الأجزاء الباقية ينبغي أن يكون أشد تحفظاً، وأكثر تثبتاً، فالناس لا يسألون عادة عن مقدار الزمن الذي ينفق في عمل من الأعمال، بمقدار ما يسألون عن حظ هذا العمل من التجويد والإتقان.
بقي أن أبرأ إليه مما عسى أن يكون القلم قد ناله به في هذه الكلمات من لفظ خشن، أو عبارة قارسة، فإن ذلك مما قد يحمل عليه مجرد الغضب للحق. أما المآخذ العلمية فلا حيلة لي فيها، وقديماً قالوا: (لا يزال الرجل في فسحة من عقله ما لم يقل شعراً أو يؤلف كتاباً)، وقد ألف الدكتور كتاباً، وسمع فيه مديحاً عاطراً كيل جزافاً، فمن الحق عليه أن يسمع إلى جانب ذلك صوت النقد يكال بقدر وحساب.
(انتهى)
مؤرخ
العدد 130 - بتاريخ: 30 - 12 - 1935
أبو الطيب المتنبي
بمناسبة ذكراه الألف
- 2 -
ولد أبو الطيب في ذرور القرن الرابع عظيما بالاستعداد، قويا بالنشأة، طموحا

بالفطرة؛ فلا تحاول أن ترجع هذه الصفات فيه إلى أحوال داعية وأسباب موجبة، فأن إعجاز القدرة أن يولد الملك في حجر السوقية، ويدرج العبقري في عش الفدم، ويظهر النبي في بيت المشرك؛ إنما العظمة خلقةٌ في العظيم، تقويها عوامل وتضعفها عوامل؛ فولادة المتنبي بالكوفة، وتجواله في البادية، وتنقله في القبائل، وكدحه الدائب أربعاً وثلاثين سنة وراء الرزق الشرود، يضرب من أفق إلى أفق، ويخرج من هول إلى هول، نمت فيه أخلاق الجرأة والصراحة والصدق والصبر والمغامرة واللسن؛ واتصاله بسيف الدولة الأديب الشجاع السمح، هذب فيه الشاعرية والفروسية، وهما غريزتا البداوة، وخصيصتا العروبة؛ ثم ظهوره في العصر الذي تحللت فيه روابط الخلافة، وتعددت حواضر الأدب، وتطاولت كفايات السيف والقلم إلى العروش المقدسة والمناصب الفخمة، وأثمر تداخل الثقافات المختلفة ما أثمر من شمول العلم، ونضوج العقل، واعتراض الشكوك، وتعدد الفرق، وسع في ذهنه أفق المعرفة، وقوى في نفسه الطموح إلى الرياسة، وهيج في رأسه الثورة على القدر، وأراه بعض الكتاب في بغداد يصل بالأدب إلى الوزارة، وبعض العبيد في مصر يصل بالحيلة إلى الإمارة، فطوع له رأيه في نفسه أن يبايع لها بالملك، ثم أخذها بسمت الملوك، وألزمها شارة الخاصة، وعاشر الدهماء معاشرة الأنوف المكره، وساير الرؤساء مسايرة الغريب الحاقد، وسخر قوته وعبقريته في طلب هذا (الحق) وتحقيق هذا المطلب، حتى ملأ الدنيا بذكره، وشغل الناس بأمره

المتنبي في كتاب الأدب العربي فصل قائم بذاته؛ لأن حياته التي اختلفت عليها العوامل، وازدحمت فيها الأحداث، واعتركت بها الآمال، وفاضت منها التجارب، أمكنته من نوع جديد في الشعر يتسم بالتفكير الحي، والابتكار الجرئ، والأداء الحر، فأقبل عليه عشاق الأدب وطلاب الشهرة من ذوي السلطان في خراسان والعراق والشام ومصر، يتسابقون إلى وده، ويتنافسون في رضاه، وربما توسل بعضهم بالشفاعة ليحطبه في حبله، وجلس

أحدهم بين يديه ليسمع مدحه فيه، وهو يتصون عن مدح السوقة، ويتكرم عن موقف الشاعر؛ فسعى إليه الرؤساء المحرومون بالعداوة، واجتمع عليه الشعراء المغمورون بالحسد، وتعاون هؤلاء وأولئك على تعقب سقطاته وجحود فضله؛ فكان من أثر الكتب التي ألفت في نقده، والقصائد التي قيلت في هجوه، والخصومة الأدبية التي أثيرت من حوله، والحركة الذهنية التي نشأت من شعره، أن سار ذكره مسير الشمس، وصار شعره سجل الخلود، وغدا مدحه مطمح الملوك، وأصبح أدبه وما اتصل به من النقود والشروح مكتبة!

عقلية المتنبي عقلية بدوية خالصة: تتعلق بالحس أكثر من تعلقها بالمعنى، وتعتد بالواقع أكثر من اعتدادها بالخيال، وتعتمد على القوة أكثر من اعتمادها على الحيلة. لذلك كان ذهول الصوفية نابياً في عقله، وشعور الجمال خابياً في قلبه، واثر الدين ضعيفاً في حياته؛ ثم كانت فلسفته حاجة الدنيا، وخطته سنة الطبيعة، وفكرته صورة الواقع، وغايته غاية الرجل الطماح: شخصيته تبغي الظهور، وشهوته ترغب المال، وحيوته تطلب الغلب، وعظمته تريد الحكم؛ لذلك كان أخص ما يميزه بروز شخصيته في شعره، وصدق إيمانه برأيه، وقوة اعتداده بنفسه، وصحة تعبيره عن طبائع النفس ومشاغل الناس وأغراض الحياة

عبقرية أبى الطيب سباحة الجناح، لماحة الطرف، مبسوطة الأفق؛ ولكنه قيدها بالمادة وحصرها في ما تدور عليه من كاذب المدح ولاذع الهجاء، فقرت قرار الطائر الحبيس، تخافت بالأغاريد المزورة على طبيعتها، وتكابد الشوق الملح إلى الهواء والسماء والروض؛ ثم تفلت أحيانا من ربقة القيد فتحلق في سماء الإلهام وتهتف بالمعجز من قلائد الحكم وشوارد الأمثال وطرائف الذهن، حتى في الأغراض المبتذلة والمواقف الوضيعة

وهكذا كانت قوى المتنبي ومواهبه مقهورة معذبة! ولعله كان أقسى ما يكون على قريحته وعبقريته! فقد أرادهما على الابتكار في مدح لا يعتقده، ووصف لا يحسه، فجاءت معانيه في أمثال هذه الأغراض توليداً في عقله، لا نقلا عن شعوره؛ ومن ثم كثر فيها الإغراق لقيامها على الدعاوى المرسلة، والغموض لانتزاعها من الخوالج المبهمة، والتناقض لتعبيرها عن غير كائن، والتشابه لتفصيلها على غير معين

أما في ما يشعر به كالهجاء والعتاب والنقد والفخر والشكوى، فسيل لا يحجزه سد، وبحر لا
يحصره ساحل. وهو في تدفع السيل وعمق البحر وسعة العباب، مثله في بطء الحركة واختلاج الأداء وضيق الفكرة: شخصية مفروضة على الذهن، وروح شعاعة على الإحساس، وزفيف في الارتفاع والإسفاف يدل على جناح النسر!
والحق أن المتنبي شاعر القوة، شاعر الحرب، شاعر المغامرة، شاعر المجد! فلو كان سياسيا لكان مكيافللي، أو قائداً لكان نابليون، أو فيلسوفاً لكان نيتشه!
أحمد حسن الزيات
المجنون
للأستاذ مصطفى صادق الرافعي
تتمة
وطال المجلس بنا وبالمجنونين، والكلام على أنحائه يندفع من وجهٍ إلى وجه، ويمر في معنى إلى معنىً؛ فأردت أن ابلغ به إلى الغاية التي جمعت من أجلها بين هذين المجنونين، بعدما انطلقا في القول وانفتح القفل الموضوع على عقل كل منهما وكان قد مر في الندى بائع روايات مترجمة (بوليسية وغرامية ولصوصية!) يحمل الرجل منها مزبلة أخلاقٍ أوربية كاملة لينفضها في نفوس الأحداث من فتياننا وفتياتنا، فقلت (لنابغة القرن العشرين): أتقرأ الروايات؟ قال: لا، إلا مرة واحدة ثم لم أعاود، إذ جعلتني الرواية روايةً مثلها قلنا: هذا أعجب ما مر بنا منذ اليوم، فكيف صرت رواية؟ قال: أنتم لا تعرفون طبيعة النوابغ، إذ ليس لكم حسهم المرهف، ولا طبعهم المستحكم، ولا خصائصهم الغيبية، ولا خواطرهم المتعلقة بما فوق الطبيعة. قلت: نعم أعرف ذلك؛ وما من (نابغة) إلا هو بين عالمين على طرف مما هنا وطرفٍ مما هناك، فهو خراجٌ ولاجٌ بين العالمين؛ وله نفسٌ مركبة تركيبها على نواميس معروفةٍ وأخرى مجهولة، فهي تأخذ من الظاهر والباطن معاً، ويحصرها المكان مرة ويفلتها مرة، وتكون أحياناً في زمان الأرض، وأحيانا في زمن الكواكب من القمر فصاعدا. . . ولكن . . .
فقطع علي وقال: أضف إلى ذلك أن هذه العقول التي تحصر من يسمونهم العقلاء في الزمان والمكان، لا توجد أهلها إلا الهموم والأحزان والمطامع السافلة والأفعال الدنيئة، فانهم يعيشون فوق التراب
قلت: نعم، وإذا عاشوا فوق التراب فباضطرارٍ أن تكون معاني التراب فوقهم وتحتهم ومن حولهم وبين أيديهم، فليسوا يقطعون على هذه الأرض إلا عمراً ترابياً في كل معانيه ولكن . . .
قال: وزد على ذلك أنهم مقيدون تقييد المجانين غير أن حبالهم وسلاسلهم عقلية غير منظورة؛ وبتغليلهم تغليل المجانين يسمون أنفسهم عقلاء، وأعقلهم أثقلهم قيوداً، وهذا من الغرابة كما ترى
قلت: نعم، أما العقلاء بحقيقة العقل فهم الذين يضحكون على هؤلاء ويسخرون منهم، إذ كانوا في حال كحالٍ المنطلق من المقيد، وفي موضع كموضع المعافى من المبتلى. ولكن . . .
قال: وفوق هذا وذاك، إنهم لا يملكون السعادة إذ ليس لهم العقل الضاحك الساخر العابث الذي خص به النوابغ وكان الأوحد فيه (نابغة القرن العشرين)
قلت: نعم وإذا ملكوا السعادة لم يشعروا بها؛ أما (النوابغ) فقد لا يملكونها ولكن لا يفوتهم الشعور بها أبدا فيجيئهم الفرح من أسبابه ومن غير أسبابه ما دام العقل الضاحك الساخر العابث الذي دأبه أبدا أن ينسى ليضحك، ولا قانون له إلا إرادة صاحبه، على مشيئة صاحبه، لمنفعة صاحبه. ولكن . . . . . .
قال: والذي هو أهم من كل ما سبق؛ أن أعظم خصائص هذا العقل الضاحك الساخر العابث أن يطرد عن صاحبه ما لا يحب ويجنبه أن يخسر شيئاً من نفسه، فهو لذلك يجعل حسابه مع الأشياء حساباً يهودياً لا بد فيه من ربح خمسين في المائة . . . . . .
قلت: نعم، وهو دائماً كالطفل؛ وما أظرف بلاهة الطفل وما أجداها عليه إذ يضع بلاهته دائماً في أرواح الأشياء وأسرارها فتخرج بلهاء مثله، وتنقلب له الدنيا كأنها أمٌ تضاحك ابنها وتلاعبه. ولكن . . .
قال: ولكن هذا مبلغ لا تبلغه الإنسانية إلا شذوذاً في أفرادها من جبابرة العقول (كنابغة

القرن العشرين)
قلت: نعم ولكن كيف صار نابغة القرن العشرين روايةً حين قرأ الرواية!
قال: هذه نكتة النبوغ؛ فلو أن مؤلفها كان نابغةً مثلنا يتلقى في نفسه وحي الأثير وإشارات الروح الأعظم؛ لعلم من الغيب أن نابغة القرن العشرين سيقرأ روايته، فكان يتحرى معاني غير معانيه ويتوخى بهذه القصة وصفاً آخر لا تكون فيه حبيبةٌ خائنة، ولا لص عارم، ولا قاتل سفاح، ولا سجنٌ مظلم، ولا محكمة تقول حيث وحيث. . . . . .
قلت: وما عليك من حبيبة خائنة في الورق، ولص بين الحروف المطبعية، وقاتل لا يقتل إلا كلاما، وسجن ومحكمة على الصحيفة لا على الأرض؟
قال: هذه نكتة النبوغ، فما استوعبت القصة حتى عمرتني أشخاصها وأقحمت منها على هول هائل، فخانتني الخائنة لعنها الله. ولولا خوف السجن والمحكمة لقتلتها أشنع قتلة ومثلت بها أقبح تمثيل. ويح الخائنة كيف استمالها ذلك الدميم الطويل العملاق المشبوح العظام المفتول العضل؟ ولكني لست عملاقاً ولا مبنياً ولا بناء الحائط؛ ثم كان مجنوناً بشهواته جنون الفيل الهائج وكنت في شهواتي عاقلا عقل الإنسان؛ ثم كان غنياً غنى الجهال وكنت فقيراً فقر العلماء؛ والنساء؛ قبح الله النساء. إنهن زينةٌ تطلب زينة مثلها. وإن المرأة لتمنح وجهها للقرد يقبله إذا كان الذهب يتساقط من قبلاته. أما من كان مثلي أمواله الشباب والجمال أو العقل والنبوغ، فهو مفلس عندهن إفلاس القرد في الغابة، فهو عندهن قرد لهذه المشابهة
قلت: هذا ليس عجيباً فان اللغويين يجرون على الشيء أسم ما يقاربه في المعنى
قال المجنون الآخر: (مما حفظناه) أن اللغويين يجرون على الشيء ما يقاربه في المعنى. . . . . .
فتربد وجه (النابغة) غضباً وقال: أبي يلعب هذا المجنون؟ إنه يزعم أن اللغويين يسمونني قرداً، فهاتوا القواميس كلها وارجعوا إلى مادة (قرد) ومادة (نابغة). . . سواة عليك أيها الصبي المعمر. . . ألا فدعوني أؤدبه أدب الصبيان فأن اللطمة القوية على وجه الطفل المكابر في حقيقة، تلمسه الحقيقة التي يكابر فيها إذ تدخله إلى عقله من أقرب طريق. . .
قال ا. ش: أنت قلت لا هو. على أنك لست قردا أبداً إلا عند امرأة جميلة فاتنة متخيلة متامجنة قد تضع البرذعة على ظهر الأمير وتجعله حمارها، فيعجب الأمير أن يكون حمارها. ولست قردا مع قراد إلى جانب عنز وكلب. . .
قال: الآن علمت السبب فأن الخائنة كانت متخيلةً مؤلفة كتب، وروايات، والمرأة التي تؤلف الكتب، غير تؤلف الرجل أيضاً، وتجعله قصة فيها قرد. . . وهذا إن كانت جميلة كامرأة الرواية. أما إن كانت دميمة مجموعة من المتناقضات، أو عجوزا مجموعة من السنين؛ فهذه وهذه كل أيامها كيوم الأحد عند النصارى. . . يوم للعطلة لا بيع فيه ولا شراء ولا مساومة. هذه وهذه كلتاهما تجعل الرجل كالماء في سبيل التجمد. . . لا يشتعل، فضلا عن أن يستعر، عن أن يحترق
مؤلفة الكتب لا يكون وجهها إلا إحدى وثيقتين: فأما جميلة، فوجهها وثيقة بأن لها ديونا على الرجال؛ وإما غير جميلة، فوجهها (مخالصة) من كل الديون. . .
قلنا: هذا في الخائنة. فكيف سرقك اللص ولست غنياً؟
قال: هذه هي نكتة النبوغ؛ وفي النبوغ أشياء لا ينكشف تفسيرها وليس في جهلها مضرةٌ على أحد، وجهلٌ لا يضر هو علم لا ينفع، لكنه علم. والبحث في بعض أعمال (النابغة) هو كالبحث عن سر الحياة فيه، إذ يعمل أعماله تلك بسر الحياة لا بسر العقل، أي بالعقل النابغ الخاص به وحده لا بالعقل الطبيعي المشترك بين الناس.
قلت: ومن عجائبك أنك لا تقرأ الروايات ولكنك مع ذلك تؤلفها. . .
قال: إن ذلك ليكون، وإن لم أؤلفها أنا تألفت هي لي. فإذا تقدم الليل ونام الناس جميعاً انتبهت أنا وحدي لرواية العالم فأرى ما شئت أن أرى. وفي ضوء النهار أجد الناس عقلاء ولكني في ظلمة الليل أبصرهم مجانين. فهذا الليل برهان الطبيعة على جنون الناس وضعف عقولهم إذ هو يثبت حاجة هذه العقول إلى ضرب من النسيان الأبله التام لولاه ما عقلت في نهارها ولا أستقام لها أمر
يصرع الناس في الليل صرعة المجانين فيغمضون أعينهم ولا يرون شيئاً. أما أنا فأرى العالم في الليل مسرحاً هزلياً يضج بالضحك من الإنسان الأحمق الذي يقطع سراة

نهاره وهو معتقد أنه قابض على الوجود بالأعين والآذان والآناف. . . أئن رأيت الأسد بعينك أيها الأحمق وسمعت في أذنيك زئيره؛ ادعيت الدعوى العريضة وزعمت أنك ملكته وقبضت عليه، ولا تدري في هذا أنك كالمعتوه إذا قبض على الضل بيده وصاح هاتوا الحبل لأقيده لا يفلت. . .؟

قلت: فإذا كان العالم كله روايتك فأخرج لنا فصلا من الرواية

قال: أيما أحب إليكم، أن أكتب أو أن أمثل؟

وقلنا: بل التمثيل أحب ألينا. فنظر إلى المجنون الآخر وقال: إن المجنون في طبيعته ينبوع من الأشخاص يفيض حالاً بعد حال، كينبوع الماء يسح الدفعة بعد الدفعة، فهنا المسرح، والرواية الآن رواية الطبيب والمجنون. . .

أنت يا س. ع. عم هذا المجنون، فإذا قال لك يا عم. قل له أنا لست عمك ولكني أخو أبيك. . . لننظر أيتنبه على الفرق بين الصيغتين أم لا؛ فأنه فرق عقلي دقيق تمتحن به العقول.

تعال أيها المريض فأني أرجو أن يكون شفاؤك على يدي، وفي يدي هذه لمسة من لمسات المسيح، لأن (نابغة القرن العشرين) هو الآن طبيب القرن العشرين

اتقوا أن تغضبوه أو تخيفوه، وأقيموا له كل ما يحتاج إليه، وتحروا مسرته دائماً فإن إدخال بعض السرور إلى نفس المجنون هو إدخال بعض العقل إلى رأسه. متى أنكرت يا س. ع عقل ابن أخيك وما كان السبب وكيف غلب على عقله. وهل ا. ش. هو خاله أو أخو أمه. . .؟

لطف الله لك أيها المسكين. قل لي: أتتذكر أمس؛ أتتذكر غداً. . . إن الأمس والغد ساقطان جميعاً من حساب المجانين؛ ومن الرحمة بهم أن الدنيا تبدأ لهم كل يوم فقد استراحوا من ثلثي هموم الزمن في العقلاء. وهم لا يصلحون أن ينفعوا الناس كالعقلاء، غير أنهم صالحون أكثر من العقلاء للانتفاع بأنفسهم في الضحك والمرح والطرب، وهذا حسبهم من النعمة عليهم

قل لي أيها المجنون: أتحس أن الدنيا تصنع لك نفسك أم نفسك هي تصنع لك الدنيا؟ إن هذه مسألة يحلها كل مجنون على طريقته الخاصة به، فما هي طريقتك في حلها؟ مالك لا تجيب أيها الأبله؟ (هذا من جهة ومن جهة) أعطوه قرشاً لينطلق لسانه، وآتوا الطبيب أجره وافياً وهو لا يقل عن قرشين. . .

ثم مال (النابغة) على مجنون المتن وسره بشيء. فقلنا ما أمر المال بسر؛ هذا قرش للمريض وهذان قرشان للطبيب. فقال المجنون: (مما حفظناه) كفى بالسلامة داء

قال الطبيب: هذا مريض بنوع من الجنون أسمه (مما حفظناه) وهو جنون النسيان الذي يضع في مكان العقل كلمةً ثابتة لا يتذكره إلا بها؛ ومن أعراضه جنون الشك فكل ما حول المريض مشكوك فيه، وقد يترامى إلى جنون اللمس، فلو لمسته بإصبعك توهمها عقرباً فخاف من الإصبع تلمسه خوفه من العقرب تلدغه، ولكن بقيت أشياء لابد من التدقيق في فحصها، فليس هذا من مجانين العبقرية التي انحرفت عن طريقها أو شذت في قوتها؛ ولا هو ممن يتجان ويتحامق التماساً للرزق والعيش كما قال بعضهم: حماقةٌ تعولني خير من عقل أعوله

فقال المجنون: (مما حفظناه) حماقة تعولني

فضحك (النابغة) وقال: هو كما بينت لكم مصاب بجنون (مما حفظناه) وهو أقل الجنون وأهونه، وعلاجه البسط والسرور والقرش؛ والضرب أحياناً. . . فإذا ثابر عليه الداء تحول إلى جنون (مما ضربناه). . . فيتعدى المصاب على كل من يراه أو يوقع به ضرباً، وعلاجه حينئذ القميص المرقوم؛ فإذا فدحت العلة انقلب المرض إلى جنون (مما قتلناه). وعلاجه يومئذ السلاسل والأغلال

والحق أقول لكم إن آخر ما انتهت إليه فلسفة الطب في القرن العشرين أن الناس جميعاً مجانين ولكن بعضهم أوفر قسطاً من بعض، كأن سلب العقل هو أيضاً حظوظ كحظوظ موهبة العقل. وأهل المريخ من أجل ذلك يسمون الأرض بيمارستان الفلك ولكن بقيت أشياء لا بد من التدقيق في فحصها؛ وعندي في الدار عاطوسٌ إذا أشممته هذا المجنون عطس به عطسة قوية فخرج جنونه من أنفه. . . قل لي أيها المسكين: أتخاف إذا سرت وحدك في ميدان واسع كأن الميدان سيلتف عليك؟ أتضطرب إذا مشيت في مضيق كأن المكان سينطبق عليك؟ وإذا كنت في عربة القطار فهل يخيل

إليك أن البيمارستان قد جره القطار وانطلق به هاربا؟ وهل شعرت مرة أنه أوحى إليك أن تنتحر؟
أرني هذا القرش الذي في يدك. فمد المجنون يده بالقرش
قال (النابغة): أنظر الآن هل تحدثك نفسك أن تغصبني هذا القرش أو تسرقه مني؟
قال: نعم
قال (النابغة): إذن يجب أن أحرزه في جيبي. . . وأسرع فأخفاه في جيبه
فصاح الآخر وشغب، وقال سلبني ونهبني. قلنا لا ينبغي أن يتصل بينكما شر في تمثيل الرواية فهذا قرش آخر، ولكن أفي الفلسفة عند (النابغة) إباحة السرقة والغصب؟
قال: فالرواية الآن هي رواية الفيلسوف العظيم أفلاطون وتلميذه أرسطو
قل لي ويحك يا أرسطو. أعلمت أن في المجانين أغنياء يسرقون الشيء القليل لا قيمة له وهم أغنياء وليست بهم حاجة إليه. فما علة ذلك عندك وما وجهه في مقولة الجنون؟
أعجزت عن الجواب؟ إذن فاعلم يا أرسطو أن المصاب بهذا الضرب من الجنون إذا اشترى هذا الشيء بدرهم كانت قيمته من الدرهم وحده، وهو غني لا قيمة للدرهم في ماله
فلا يحفل بالشراء. بيد أنه إذا سرقه كانت قيمته عنده من عقله وحيلته فيجيئه بلذة لا تشتريها كل أمواله ولا كل أموال الدنيا. فهذا جنون باللذة لا بالسرقة وهو بذلك ضرب من العشق يجعل الشيء إذا لم يسرق كأنه المرأة المعشوقة الممتنعة على عاشقها والجياع إذا سرقوا ليأكلوا ويمسكوا الرمق على أنفسهم، لا يقال في لغة الفلسفة إنهم سرقوا بل أخذوا. . . فباضطرار جاعوا وباضطرار مثله أكلوا، والسارق هنا هو الفتى الذي منعهم الإحسان والمعونة. . .
فالدنيا معكوسة منقلبة أوضاعها يا أرسطو، ولو استقامت هذه الأوضاع لوجدت السعادة في الأرض لأهل الأرض جميعاً. وكيف لك بالسعادة والناس مخلوقون بعيوبهم؟ ويا ليتهم مخلوقون بعيوبهم فقط، ولكن الطامة الكبرى أن عيوبهم تعمل دائماً على أن ترى في الآخرين عيوبا مثلها
كل حمار فهو يريد أن يملأ جوفه تبناً وفولا وشعيراً، غير أني لم أر حماراً قط يريد أن يملأ لنفسه الإسطبل، فإذا وجد حمار هذه همته وهذا عمله فاسمه إنسان لا حمار. . . .
يا أرسطو إن معضلة المعضلات أن يحاول إنسان حل مشكلة داخلية محضة قائمة في نفس حمار أو ثابتة في ذهنه الحماري؛ ومثل هذا أن يحاول حمار حل مشكلة نفسية في ذهن إنسان أو في قلبه؛ فلا حل لمشاكل العالم أبدا ما دام كل إنسان مع غيره كحمار مع إنسان. . . .
والمعضلات النفسية من عمل الشياطين فكان ينبغي أن تجيء الملائكة لتحارب الشياطين بالبرق والرعد دفاعاً عن الإنسانية؛ ولكن الله تعالى منعها وأرسل للإنسان ملائكة أخرى إن شاء هذا الإنسان عملت، وإن شاء عجزت؛ وهي فضائل الأديان المنزلة فإذا منحها الإنسان إرادته وقوته فعملت عملها كان الإنسان هو الملك بل فوق الملك، وإذا أضعفها ومحقها كان الإنسان وهو الشيطان وأسفل من الشيطان
يا أرسطو (هذا العالم عندي كتلة من العدم اتفقت على الظهور وستختفي. والعالم عندي ضعف ركب وقوة ركبت. والعالم عندي لا شيء. والعالم بين بين. والعالم قسمان. منهم الفلاح الزراعي وذلك أفضل فلسفة طبيعية. . . والعالم في حاجة إلى الموت والموت في حاجة إليه. والأدب هو الحياة ولا حياة بلا أدب. والأدب ضربان: أدب نفساني وأدب
مكتسب. وقد يكون طبيعياً كما هو عند نابغة القرن العشرين. ومن هو نابغة القرن العشرين؟ وهو شخص مات بلا موت ويحيا بلا حياة.)
أتريد يا أرسطو أن تعرف سر تركيب العالم؟ الأمر يسير غير عسير، فان سر تركيبه كسر تركيب القرش الذي في يدك، فدعني أظهرك على هذه الحقيقة ومد يدك بالقرش لأبين لك سر التركيب فيه. . . .
ولكن المجنون الآخر أسرع فغيب القرش في جيبه. فقال (النابغة) هذا سياسي داهية خبيث. والرواية الآن رواية سياسي القرن العشرين
ليس في حقيقة السياسة إلا الرذل من أفعال السياسيين. والألفاظ السياسية التي

تحمل أكثر من معنى هي التي لا تحمل معنى. فليحذر الشرق من كل لفظ سياسي يحتمل معنيين، أو معنى ونصف معنى، أو معنى وشبه معنى. فان قالوا لما (أحمر) قلنا لهم اكتبوه بهذا اللفظ؛ فإذا كتبوه قلنا لهم ارسموا إلى جانبه معناه باللون الأحمر لتشهد الطبيعة نفسها أن على معناه أحمر لا غير. . . . وعلى هذه الطريقة يجب أن تكتب المعاهدات السياسية بين أوربا والشرق

انهم يكتبون لنا جريدة بأسماء الأطعمة ثم يقولن: أكلتم وشبعتم. . . . ولقد رأيت (مظاهرات) كثيرة ولا كالمظاهرة التي أتمناه؛ فما أتمنى إلا أن يخرج كل الجانبين في مظاهرة. . . . . .

وهذا الأبله الذي أمامنا ليس وطنياً ولا فيه ذرة من الوطنية. فان كان وطنياً أو زعم أنه وطني، فليخرج القرش الذي في جيبه. . . . ليكون فألا حسناً لخروج جيش الاحتلال من مصر

ولكن المجنون لم يخرج القرش وترك جيش الاحتلال في مكانه

فقال (النابغة): الرواية الآن رواية الشرطي واللص. وبحق من القانون يكون للشرطي أن يفتش هذا اللص ليخرج القرش من جيبه. . . .

غير أن المجنون أمتنع. فقال (النابغة): كل ذلك لا يجدي مع هذا الخبيث، فالرواية الآن رواية هارون الرشيد مع البرامكة. ويجب أن ينكب الرشيد هؤلاء البرامكة ليستصفي القرش. . .

بيد أننا منعناه أن ينكب (البرامكة) فقال: الرواية الآن رواية العاشق والمعشوقة، ونظر طويلاً في المجنون وصعد فيه عينه وصوب فلم ير إلا ما يذكر بأنه رجل فتهدى إلى رأي عجيب. فوقع على قدميه وتوهمه امرأةً في حذائها. . . وجعل يناجي الحذاء بهذه المناجاة:

إن سخافات الحب هي أقوى الدليل عند أهله على أن الحب غير سخيف؛ فكل فكرة في الحب مهما كانت سخيفةً، عليها جلال الحب؛ وللحذاء في قدميك يا حبيبتي جمال الصندوق المملوء ذهباً في نظر البخيل، وكل شيء منك أنت فيه سر جمالك أنت. والحذاء في قدميك ليس حذاء، ولكنه بعض حدود جسمك الجميل، فلا أكون كل العاشق حتى أحيط بكل حدودك إلى الحذاء

أن جسمك يا حبيبتي كالماء الجاري العذب؛ في كل موضع منه روح الماء كله. وحيثما وقعت القبلة من جسمك كان فيها روح شفتيك الورديتين. هذه قبلة على قدميك يا حبيبتي؛ وهذه قبلة على ساقك؛ وهذه على ثوبك، وهذه قبلة على جيبك. . .

وكادت يد (النابغة) تخرج بالقرش؛ فعضه المجنون في كتفه عضة وحشية فجأة الخوف منها فطار صوابه؛ فصرخ صرخة عظيمة دوى لها المكان وترددت كصرصرة البازي في الجو. ثم اعتراه الطيف، وأطبق عليه الجنون، فاختلط وتخبط. . . . . .

(والرواية الآن) رواية عربة الإسعاف. . . . . .؟

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

2 - بعض مواطن الخفاء في التاريخ الإسلامي

للأستاذ محمد عبد الله عنان

- 4 -

وفي عصر الحاكم بأمر الله تدنو أساليب الخلافة الفاطمية، وتدنو شخصية الخلفاء الفاطميين من ذروة الخلفاء؛ وكما أن الدعوة السرية الشيعية لقيت على يد الخلافة الفاطمية أعظم مظاهر ظفرها الديني والسياسي، فكذلك تلقى الدعوة السرية الفاطمية في عصر الحاكم بأمر الله أغرب مظاهرها، وأشدها إمعاناً في الغموض والخفاء؛ وفي هذه الفترة بالذات ينفجر بركان الدعوات السرية التي لبثت تضطرم قبل ذلك بأكثر من قرن، وتحقق بعض غاياتها العملية بصور جريئة مروعة

ولقد كانت شخصية الحاكم بأمر الله مثال الخفاء ذاته؛ ولم تكن مظاهر الغموض والتناقض التي تنتاب هذه الشخصية الغريبة في كثير من المواطن، لتحجب مظاهر القوة المادية والمعنوية التي تتمتع بها في أحيان كثيرة، بيد أنا نلاحظ أن الخفاء يغمر هذه المظاهر جميعا، سواء في فترات قوتها أو ضعفها. كان الحاكم ذهناً هائماً، يشغف بنظريات الخفاء والعالم الآخر، وينكب على دراسة التنجيم والفلك، ويهم في ميدان

المباحث الفلسفية والروحية؛ وكان هذا الخفاء المروع يصحب الحاكم في حياته الخاصة، وفي تصرفاته العامة، في أقواله وأعماله؛ وأي خفاء أشد من ذلك الذي تنفثه حولها شخصية ترتفع في سماء التفكير حتى لتزعم السمو فوق البشر، وتهيم في دعوى الألوهية، وتنحط مع ذلك في بعض نزعتها وتصرفاتها إلى نوع من الجنون الغامض؟ لقد يجرؤ الدعاة في كثير من المواطن على انتحال الرسالة أو النبوة، وقد يزعم المشعوذون المغامرون أنهم يتمتعون بمواهب خارقة، ولدينا من هؤلاء وهؤلاء ثبت حافل في جميع العصور والأمم، بل إنا لنراهم ينبثون في القرن الثامن عشر في المجتمعات الأوربية يزاولون السحر والتنجيم، ويعتصمون بأذيال الخفاء والروع؛ ولكنا لا نعرف مثلا عملياً ذهب فيه الداعي إلى انتحال الألوهية، وأثمرت فيه الدعوة ثمرتها العملية كمثل الحاكم بأمر الله

احتشد الدعاة السريون بمصر في عصر الحاكم، وازدهرت الدعوات السرية، واتخذت سبلا ومظاهر شتى؛ وكان المجتمع القاهري يعيش في الواقع على هامش تلك الدعوات الغريبة

التي تتخذ سبلها في الخفاء إلى أذهان الهائمين والمنافقين؛ وقد تمخضت هذه الحركة السرية الملحدة في عصر الحاكم ذاته عن نتائج مدهشة، ففي أواخر عصر الحاكم ظهر دعاة يدعون إلى ألوهية الحاكم بأمر الله؛ وزعم حمزة بن علي رأس أولئك الدعاة وأشدهم جرأة أن الحاكم ليس بشرا، وإنما هو (المولى سبحانه هو هو في كل عصر وزمان) ونعته بأنه (قائم الزمان)، وأنه هو أي حمزة نبيه ورسوله، وذهب الدعاة في جرأتهم إلى حد التبشير بهذا الهراء في جامع القاهرة (الأزهر) علناً، وكادت تضطرم من جراء ذلك فتنة خطيرة لولا أن بادر الحاكم بصرف الدعاة وإبعادهم إلى الشام، وهنالك أسفرت دعوتهم عن تأسيس مذهب الدروز الذي ما زال قائماً إلى اليوم، وقوامه القول بالتناسخ وحلول الأرواح، وأن الحاكم بأمر الله هو الإله، وهو قائم الزمان، تجسمت فيه روح آدم، بعد أن تجسمت من قبل في علي بن أبي طالب وقد وضع أولئك الدعاة كتباً ورسائل سرية مدهشة انتهى إلينا بعضها؛ ولم يك ثمة ريب في أن الحاكم بأمر الله كان يرعى هذه الدعوة ويغذيها من وراء ستار، وأنه تأثر بها في أواخر عهده، وأذكت هيامه، واضطرام عقله وروحه، وكان لها أكبر أثر في تطور الدعوات السرية الإسماعيلية

وكان اختفاء الحاكم كحياته لغزا مدهشا، بل كان ذروة الخفاء والروع؛ وما زالت قصة هذا الاختفاء وظروفه وحقيقة عوامله مثار الريب والجدل. ركب الحاكم ذات مساء في بعض جولاته الليلية التي كان يشغف بها ولا يصبر عنها، وقصد ناحية في جبل المقطم اعتاد أن يرتادها لرصد النجوم، بعد أن صرف الحشم المرافقين له؛ ثم لم ير بعد ذلك قط لا حياً ولا ميتا، ولم يوجد له بعد ذلك أثر قط؛ ولم توجد جثته قط. ولم تقدم إلينا الروايات المعاصرة أو المتأخرة أية رواية حاسمة عن مصرعه أو اختفائه، ولكنا لا نتردد رغم خفاء الحادث وغموض ظروفه في الاعتقاد بأن الحاكم ذهب ضحية مؤامرة، وأن مقتله لم يك سوى جريمة سياسية ارتكبت لتحقيق شهوات الملك والسياسة؛ وهذا ما تقرره بعض الروايات المعاصرة على اختلافها في الشرح والتفصيل؛ وفي ظروف الحاكم، وفي عنفه واضطرام أهوائه، وغريب تصرفاته، وفي قسوته وصرامته نفسه ما يفسر مثل هذا الرأي، وما يسبغ

عليه مسحة من الرجحان. ومعظم الروايات المعاصرة على أن الذي دبر المؤامرة هي الأميرة ست الملك أخت الحاكم؛ وكانت تأخذ عليه عنفه وإغراقه، وتحذره من عواقب أهوائه؛ وكان الحاكم يشدد عليها الحجر والرقابة وينعى عليها سوء مسلكها وفضائحها الغرامية؛ وكانت تخشى بطشه وفتكه، وترقب الفرص لتدبير اغتياله؛ وكان حليفها وعونها في تدبير المؤامرة وتنفيذها، سيف الدولة بن دواس زعيم قبيلة كتامة القوية التي فقدت في ظل الحاكم ما كانت تتمتع به من النفوذ والجاه. وفي ليلة الاثنين 27 شوال سنة 411هـ (1020م) ركب الحاكم إلى المقطم، بعد أن طاف حيناً في أنحاء القاهرة، وسار إلى الجبل ومعه ركابيان فقط؛ وكان أبن دواس قد اتخذ أهبته ورتب للفتك بالأمير عبدين من أخلص عبيده؛ وتوغل الحاكم في الجبل إلى حيث اعتاد أن يرصد النجوم ومعه ركابي فقط؛ أما الركابي الآخر فصرفه مع بعض ذوي حاجة

اعترضوه في طريقه، وهنالك في جوف الجبل تمت الجريمة وقتل الحاكم ووصيفه، وقطعت قوائم حماره الأشهب؛ وحملت جثة الحاكم في جوف الظلام إلى أخته ست الملك فدفنته في نفس مجلسها؛ واتخذت كل ما يجب لكتمان الجريمة، وأذاعت أن أخاه سيغيب أياماً؛ وخرج الناس إلى الجبل فلم يعثروا بأثر للحاكم أو حماره أو ركابيه؛ ورتبت ست الملك في نفس الوقت اغتيال أبن دواس وكل من اشترك في الجريمة أو وقف على السر، وذهب السر مع الجناة إلى القبر

وقضى رجال الدولة ثلاثة أيام متوالية يبحثون عن الحاكم دون جدوى، وفي اليوم الرابع توغلوا في الجبل فعثروا بحماره الأشهب وقد قطعت قوائمه، وتابعوا بحثهم حتى وصلوا إلى البركة الواقعة شرقي حلوان، فنزلها البعض، وعثروا فيها بثياب الحاكم مزررة لم تحل أزرارها وفيها أثر الطعان. فعندئذ أيقن الناس بقتله

كان مصرع الحاكم فيما يرجح إذاً جريمة سياسية دبرت ونفذت بأحكام؛ ولكن ذلك التعليل لم يكن حاسما في عصر ذاعت فيه الدعوات والأساطير السرية، ونودي فيه بألوهية ذلك الذي اختفى على هذا النحو الغامض. ومن ثم فقد زعم بعض الغلاة والمغامرين من الدعاة أن الحاكم لم يمت ولكنه اختفى وسيظهر آخر الزمان، أو أنه رفع إلى السماء كما رفع المسيح بل لقد وجدت هذه الأساطير المغرقة سبيلها إلى بعض دوائر البحث الحديث، فنرى المستشرق فون ميللر مثلا يعلق على اختفاء الحاكم بما يأتي: (أما أن أخته قد دبرت قتله

لخوفها من تنفيذ وعيده لها بالقتل، فهو حديث خرافة. والواقع أن مصيره لم يعرف قط. وعندي أنه طبقا لكل ما نعرفه من حياته، قد رأى استحالة تحقيق مبادئه في مصر، فاعتزال الحياة واختفى في مكان ما ليقضي حياته بعيداً عن الأنظار، لكي يعتقد أنصاره على الأقل أنه هو (الناطق) حقيقة (ناطق الزمان) وأنه سيعود من رمسه آخر (الزمان في شخص الإمام أو المهدي؛ وهذا ما لا يزال ماثلا إلى اليوم في عقائد الدروز والواقع أن هذه الأساطير رغم بطلانها وإغراقها، كانت أخصب مستقى لمذهب الدروز. وإذا كنا لا نستطيع أن نؤمن بهذا التعليل الغريب لاختفاء الحاكم، ففي وسعنا أن نعتقد أن اختفاء الحاكم كان نتيجة جريمة دبرها الدعاة السريون لإذكاء دعوتهم، ولكي يسبغوا عليها بإخفاء الحاكم من هذا العالم قوة الدلائل المادية، فيقال إن ناطق الزمان قد اختفى ولن يظهر إلا في آخر الزمان. على أنه مهما قيل في مصرع الحاكم وفي تعليل اختفائه، فلا ريب أنه من أغرب حوادث التاريخ الإسلامي، وأشدها غموضاً وروعة وخفاء

هذه خلاصة منوعة لبعض مواطن الخفاء في التاريخ الإسلامي وهنالك الكثير منها مما لا يتسع المقام لذكره. ولا تقتصر هذه المواطن الخفية الغامضة على حوادث التاريخ الإسلامي؛ ولكنها تمثل في تواريخ معظم الأمم والعصور؛ فما من عصر إلا وله أساطيره، وما من أمة إلا ولها أساطيرها القومية، وقد كانت هذه الأساطير وهذه المواطن الخفية تمت في الغالب بصلة إلى الدين أو إلى الأطماع والمشاريع السياسية، وكان يستغلها دائما دعاة مهرة ومغامرون لهم من الجرأة والإقدام، ما يكفل تحقيق مشاريعهم؛ وكان السلطان الروحي أو السياسي دائما مطمح أولئك الدعاة أو المغامرين؛ وفي أحوال كثيرة نرى الأسطورة الدينية أو الدعوة الخفية تنتهي بانفجار تعقبه انقلابات سياسية واجتماعية خطيرة، وفي بعض الأحيان نرى الأسطورة أو الدعوة تفضي إلى قيام دولة جديدة أو مذهب ديني أو سياسي جديد

ولا ريب أن هذه الأساطير والدعوات والحوادث الخفية تبدو في عصرنا حديث خرافة، ومن المستحيل أن تشق طريقها بعد في أمة متمدنة أو مجتمع مستنير. ولكن يجب أن نذكر فوارق العصر والظروف، وأن نحكم على هذه الظواهر الغريبة بمعيار العصر الذي حدثت

فيه. على أننا نجد في التاريخ الحديث، وفي المجتمعات الحديثة المتمدنة أيضاً أمثلة مدهشة من هذه الأساطير والظواهر الخفية تشق طريقها إلى أرقى المجتمعات وتثير الدهشة والروع في نفوس الكبراء فضلا عن العامة؛ ففي القرن الثامن عشر ظهر في ألمانيا والنمسا وفرنسا عدة من الدعاة والمغامرين السريين مثل يعقوب فرنك (أو الكونت أوفناخ) والدكتور فوك، ويوسف بلسابو (أو الكونت كاجليوسترو)، والكونت

سان جرمان وغيرهم، وجابوا المجتمعات الأوربية الرفيعة، وأثارت مزاعمهم ودعاواهم في الخلود وعلم الغيب، ومزاولة السحر، والخوارق، كثيراً من الدهشة والروع؛ بيد أن هؤلاء المغامرين الدهاة لم يحاولوا أكثر من تحقيق مطامع محلية وشخصية؛ وذلك أن العصر الذي كانت فيه جرأة الدعاة تتجه إلى إنشاء المذاهب الدينية أو الدولة السياسية، كان قد انتهى منذ بعيد، ولم يبقى أمام الأواخر من الدعاة والمشعوذين إلا أن يعملوا في ميدان متواضع جدا لتحقيق المآرب والأهواء الشخصية.

(تم البحث)

محمد عبد الله عنان

ذكرى زوجة

للأستاذ حسنين حسن مخلوف

حدث صاحبي قال:

عشر سنين سوياً هي مدى العيش بيني وبينها

هي قنطرة حياتها الجديدة اجتازتها عجلة إلى القبر

كانت تملأ بيتي نوراً، ونفسي حبوراً؛ بدلتني بالوحشة أنساً، وبالوحدة جمعاً. هؤلاء أولادها نجوم سماء أرسلتها العناية الإلهية لتكون معجزة الله في نظام الأسرة، وفي بعث الأمل الباسم، وفي سعادة الآباء والأمهات، ثم لم يمتعها الدهر بهم إلا قليلا، واستودعتني صغاراً كأفراخ الطير، وذهبت في عالم السماء. . . . . .

دعني يا أخي أخفف من برحاء حزني بقطرات من الدمع هي كل ما أملك عند ما يغلي مرجل قلبي بذكراها

دع دماء قلبي تتبخر فتستحيل دموعاً، ففي انبثاقها هدوء لوعتي وأشجاني، فقد انصبت أحزان الناس جميعاً في مصيبتي فما أطيق لها حملا

أفما رأيت المحزونين يتعزون بي، وينسون مصائبهم إذا رأوني، فيرثون لبلواي، ويمسحون بتعازيهم فيض عيني التي هي معاني دموعهم على موتاهم؟

يا لأيامها الحلوة، وسريرتها الطاهرة!!

أرأيت إلى البحر الصافي الساكن الذي لا يدس في قرارته شيئاً!! أرأيت إلى السماء الزرقاء الجميلة تزهر بالنجوم الوضّاءة، هي رمز السرور والطمأنينة!! ذلك هو قلبها: إخلاص وصدق، وأدب وحياء، وكل ما ترتجي في الزوجة الكاملة من سمو ووفاء. . . . .

وكأن القدر أراد أن يسقيني كؤوس السعادة مترعة ثم يسلبنيها وشيكا ليطول حزني، وتدمى إلى الأبد جراح قلبي، فأنا منها في همٍ مقعد مقيم

قلت له: هوّن عليك يا أخي، فما لما قضى الله حيلة، وحسبك ما قدمتٍ يداك، وما قمت به نحوها من تمريض، فقد كانت في أغلب سنيها معك بين الموت والحياة، تسعى سعي المجد لتدفع القدر عنها، فلم تدع طبيباً إلا استشرته، ولا صيدلية إلا أفرغت فيها كنوز حياتك

كنت في حياتها في فكر ممض، وقلق مستديم، وليس من الإنصاف لنفسك ولا لأولادك أن تظل هكذا شقيا بمماتها. .

فما استأذن حديثي على سمعه حتى ظل هنيهة مطرقاً مفكراً، وكأن أطياف الماضي تذهب وتجيء في رأسه، فلا يستطيع لها دفعاً، وكأن لوحة خيال تعرض حوادث حياته مشهداً مشهداً، وبعد أن تنبه إلي قال:

لست أنسى طول حياتي رزانة عقلها، واتزان كلامها، وجميل وفائها؛ وقصدها في الأمور كلها، حتى لقد حسبت أن الله مازها بذلك من دون النساء جميعا؛ وأن شمائل بنات حواء اجتمعت لديها ثم صارت وقفا عليها. أرأيت إلى قطرات من المطر تتحلب من أفواه السحاب، ثم يؤلف الله منها ماء رويا يحظى به فرد واحد من بني الإنسان؟ تلك هي فضائلها. فأن محي البر والمعروف والوفاء من نفوس الناس جميعاً فلن تبرح ذهني ذكراها، وهكذا تمر الأيام وروحها ماثلة أمامي، ومآثرها مشرقة إشراق الشمس؛ فهي باقية في معاني الكمال الإنساني، باقية في هؤلاء الصبية كلما خطروا أمام عيني، فهم بضعة منها، وأمثالها العزيزة على نفسي. . . . . .

كان داء قلبها مبعث آلامها، فما تبرّمت لحظة في القيام بما تفرضه شركة الحياة بيني وبينها، ولأني أعلم أن صخرة عاتية تنتظرني بعد أن أنفض يديّ من تراب قبرها،

فتحطم آمالي تحطيما، وتفرق أجزاء نفسي شعاعاً
وكم كنت أود إن لم يكتب الله لها السلامة أن تعيش هكذا في سريرها تنعم برؤية أولادها، وأنا كل يوم أزجي إليها كواذب الآمال في برئها، وأزور مع الطبيب في الطريق كلاماً نقوله عند لقائها، والطبيب يشفق علي ويقول: حسبك فقد أبليت، والطب ألقى سلاحه معترفاً بالعجز عند باب حجرتها؛ وأنا أجيبه: لا عليك أن تكرر الزيارة، وأن تذرع الأرض جيئة وذهوباً، وأجرك موفور، وعذرك في عدم الشفاء مذكور، رجاء أن تدخل شيئاً من برد الطمأنينة على قلبها
وقد والله كانت راضية بالقدر خيره وشره، وما ذاقت طعم النوم أشهراً إلا مثل حسو الطير ماء الثِّماد، وكانت لا تطيب نفسها أن أسهر بجانبها حتى أقوى على أسباب العيش طول النهار؛ فإذا نزلت عند رأيها انتابني الفزع في وهن الليل، فأراها جالسة مفتوحة العينين
تنتظر قضاء الله فيها، وقد تسمع المؤذن في الفجر يشق الفضاء بكلمة الحق: (الله أكبر) في سكون الليل وهدوئه، فتضرع إليه أن يحكم فيها بما يراه خيراً لها، ثم تدعو الذي لها كتب لها قصر العمر أن يكتب لي طول العمر جزاء ما أسديت إليها في أمراضها المتطاولة من برٍ ومجهود، فآسى لهذا القول، وأذكر الأمل في الشفاء، فتستبعد تحقيق ما أملت وتقول: أيقدر لي الشفاء فأقضي عمراً جديداً في شكر معروفك؟!
ثم اشتدت بها العلة، وبرحت بها الأوصاب. ومن عجائب القدر أن تكلفني وزارة المعارف مغادرة المدينة لأعمل في الامتحانات في مدينة أخرى، وليس من شرعة وزارة المعارف أن ترحم مثل الظروف المحيطة بي، أو تقبل عذري إلا إذا كنت أنا مدنفا عليلا، ويشهد جماعة من الأطباء جهد أيمانهم إنيل لا أطيق السفر، ولا أقوى على مكابدة الأعمال
سافرت متعب الفكر، مضطرب النفس، وبين جنبي من الهم ما لو كان بالجبال لاندكت، وبالبحار ما سمعت لرنات أمواجها زئيراً، ولا لشموخ أنفها عزّة وزفيراً
وقبل سفري تقدمت إلى أنجالي أن يراسلوني يوميا بحالتها، وأسررت إلى بعض أصدقائي إن حل المقدور أن يبادر باستقدامي برقياً، ومن عجب أن تترى الرسائل كل يوم بأن معجزة عيسى الباهرة ظهرت في زوجي، وأن المرض كادت تزول آثاره!
فأحدث ذلك في نفسي حالة بين الشك واليقين. أذكر البرء فأقول: (آمنت بالله)، (يحي العظام وهي رميم)، هاهو ذا مجهودي الطويل تتوّج بالنجاح، وتا لله إن فرحي برؤيتها سليمة لينسيني كل عذاب تحملته صابراً محتسباً، ثم تخم علي سحب مظلمة تقترب من نفسي شيئاً فشيئاً فأنفجر باكياً في حجرتي بالفندق بعد أن أحكم رتاج الباب، وأشتفي ببلسم المحزون؛ هي تلك القطرات
يا لله للإنسان لو لم تكن دموع عيني أتراه ينشق فتطير أجزاء قلبه ورأسه فلذة في المشرق وفلذة في المغرب ثم يتناثر جسمه إرباً إرباً. ثم تعود إلي قوة نفسي فأحس حرارة اليقين في صدري، ويشع أمام عيني ضياء الأمل فأنتعش وأبني قصور الآمال من جديد بعد أن ضعضعتني الأسقام، وزعزعتني الوساوس والأوهام. وعدت من السفر ودخلت عليها مسلما لأبدل بالشك اليقين، فرأيتها جالسة في سريرها وقد امحت منها معالم الحياة إلا عيونا براقة وروحاً رضية تتحدث حديث الأحياء وجسمها في عالم الأموات، فعرفت زيف أحلامي التي
نعمت بها مدة غيبتي عنها، فسألت في شأن هذه الرسائل فاعتذرت لي بأنها شاءت أن أفرغ لعملي، وحسبي جهود الامتحان من آلام التذكر، فحاطت الرسائل بما يخفف عني، ويحي ميت الآمال من نفسي، فأكبرت هذه المروءة وذلك العقل الكبير من حيةٍ ميتةٍ تنتظر أياما أو ساعات لتودع الحياة الدنيا وقالت لي: إنها ابتهلت إلى الله ألا يحل بها ريب المنون حتى أعود من سفري، وهاهي ذي مشيئة الله كانت رحيمة بها كريمة عليها، وأعلمتني إن دلائل الموت تقترب منها ففاضت شئوني. أما هي فكانت الثقة بالله تملأ جوانب نفسها والتسليم للمقادير ما يلهج به لسانها في كل حين فكانت هادئة رزينة مكتملة العقل كعادتها
ثم عدت إلى المنزل في الظهيرة وقارورة الدواء الأخيرة في يدي فنظرت إليها كما ينظر الموتور إلى واتره فأجفلت منها وكأنها نذير الموت جاء يعجلها فقالت: في هذه

الزجاجة بقية عمري فأبعدوها عني ولا تفضوا ختامها: ارحموني فقد تمزق جسمي بالحقن فلم يسلم جزء فيه من طعناتها، وتقطعت أحشائي بالعقاقير وأنا صابرة، فكم من طبيب كشف عن جسمي! وكم من دواء شقت مرارته مرارتي! أين أولادي؟ ليصنعوا مثل الحلقة حولي، وأخذت تقبل هذا، وتمسح بيدها رأس ذاك، وتبلل بالدموع وجوههم جميعاً، كل ذلك وهم في غفلة ساهون يفرحون ويمرحون إلا أكبرهم فكانت دموعه تسابق دموع أمه فيبكيان معا. وبعد قليل استنجدت بجرعات من الزجاجة فشربتها فنامت ثم أستيقضت بعد نصف ساعة وكأنما نشطت من عقال، فاستفاقت وعاد إليها برد الأمل، وما رأيتها في أوقات مرضها أسعد حالا وأعظم سروراً من تلك الساعة، وقلت لها: ألم أقل لك كثيراً إن الإنسان قد يصل به المرض إلى الغاية ثم يشفى، وأنا أعرف كثيراً من الناس بهذه المثابة

وما أنتصف الليل أو كاد حتى زلزلت الأرض زلزالها!! إنه موقف الموت الرهيب!! فرأيت نفسي في مأزق حرج لم أشهده طول حياتي. إنه رسول الموت جاء ليحسم الأمر بعد طول جدال! جاء (لقطع جهيزة قول كل خطيب)

ولتحط أم أولادي الرحال بعد طول تهجير فقد أضناها السرى وبرمت بالحياة الدنيا. رأيتها تسلم الروح إلى بارئها في يقظة وانتباه ونفسها معلقة بأولادها وكأنها تخاطب رسول الموت: قف قليلا لأشهد الكون إني ذهبت إلى الله وخلفت في الدنيا أطفالاً هم بهجة قلبي وحشاشة نفسي. قف قليلا لأودعهم الوداع الأخير

ثم مسحت آلام المرض الطويل وغسلت كل أسقامها المبرحة بكلمة لن أنساها طول حياتي كانت مفتاح الآخرة (دعوني أستريح. أشهد ألا إله إلا الله وأن محمد رسول الله) ثم صارت جثة هامدة

سهرت ليلة من ليالي العمر بيضت سواد شعري، وكلما دقت الساعة دقت معها شعرة من رأسي لنعلن استحالة السواد بياضاً حتى أدركني الصباح

أنا غريب في هذه المدينة التي صارت مثوى زوجي، ومرقد جزء من أجزاء نفسي، وقد غادرت أمي في العاشرة من عمري لأطوف في نواحي الأرض في سبيل المصير الذي بعض عواقبه اليوم

ولا والله ما شعرت بلذع الغربة يحرق كبدي إلا في هذا اليوم العصيب.

ذهبت مبكراً إلى منزل الصديق الصدوق الأستاذ (مصطفى صادق الرافعي) أحسن الله جزاءه فأيقظته من النوم فعرف سر البكور قبل أن يلقاني وأن قضاء الله قد حمَّ، فجاءني مذعورا فقلت له (أفي مقبرة آل الرافعي مكان للغريبة؟)

ومشينا والنعش أمامنا، فرأيت بعيني سياج حياتي يتحطم، وضياء بيتي ينطفيء، وزوجي في ظلمات القبور!

فيا قبر رفقاً بها فقد كانت عزيزة علينا!! ويا أحجاره كوني على جدثها أوراق الجنة (القاهرة)

حسنين حسن مخلوف

المتنبي في ديوانه

بمناسبة ذكراه الألفية للأستاذ عبد الله كنون الحسني

بقية ما نشر في العدد الماضي

وقال المتنبي:

يَتَرَشفنَ من فمي رشفاتٍ ... هنَّ فيه أحلى من التوحيد

فقالوا: لو كان يجد للإيمان في قلبه حلاوة لما جعل رشفاتهن من فمه أحلى من التوحيد. ونقول: إن البيت قد روى هكذا: هن فيه حلاوة التوحيد، وهي نسختنا أيضاً. وقد قيل إن أفعل غير مراد به التفضيل؛ وقيل أيضاً إن التوحيد نوع من التمر! وعلى الرواية الثانية يكون شبه الترشيف بحلاوة التوحيد ولا حرج في ذلك، ومثله مستساغ في مذهب الشعراء. هذه ثلاثة أبيات ليس في شعر المتنبي أكثر غلواً منها، ومع ذلك فهي لا ترد علينا كما رأيت. أما مذاهب عقليته فنشير إليها حيث يقتضي المقام ذلك؛ وليس هناك ما يدل على أنها من ذات نفسه ومضمر قلبه أصلاً؛ وأما مبالغاته في المدح فيصل بها إلى حد المقارنة بين نفسه وممدوحيه من الأنبياء

والأمر الأول لا شك لا يؤاخذ عليه لأنه حتى على فرض كونه مما يؤثر في صحة الإيمان فمن أين لنا أنه كان يعتقده؟ وإلا فحاكى الكفر ليس بكافر، وعلى أنه اعتقده فمن أين

لنا أنه استمر على اعتقاده إلى أن مات؟ وعلى كل حال فالحكم على المتنبي بضعف العقيدة لبعض أفكار فلسفية تضمنها شعره يجعلنا لا نقبل في حظيرة الإسلام أكثر علماء الإسلام من الذين لهم مذاهب فلسفية وأفكار حكمية. على أنه ما من قول موهم في شعر المتنبي إلا وقد وجد في شعر غيره ما هو أكثر إيهاماً منه، فلماذا لم تحكموا على غيره من الشعراء بذلك الحكم الجائر؟ ولولا ضيق المجال لعقدنا مناظرة بين أقواله وأقوال غيره من الشعراء في هذا الموضوع حتى يرى القارئ أن المتنبي لا يزيد على غيره إن لم يقصر في ذلك. وإليك قوله مثلا في كافور:

ألا فتى يُورِدُ الهندي هامته ... كيما تزول شكوك الناس والتهم

فأنه حجة يوذي القلوبَ بها ... مَن دينه الدهر والتعطيل والعدم

فأنه هو عين قول أبن الرومي لصاحب لحية طويلة في صورة أخرى من السخرية:

أرْع فيها الموسَى فأنك منها ... - يشهد الله - في أثام كبير

أيُّما كوَسج يراها فَيلقى ... رَبَّه بعدها صَحيحَ الضميرِ

هو أحرى بأن يشكَّ ويغرَى ... باتهام الحكيم في التقديرِ

فلماذا أخذ قول المتنبي دليلا على ميله للتعجيل دون قول أبن الرومي الذي منه استعار المتنبي ذلك المعنى؟

كذلك الأمر الثاني، لم يكن المتنبي بارعا فيه ولا بأول ولا آخر؛ فما زال الشعراء يشبهون ممدوحيهم بالأنبياء بل يجاوزون التشبيه إلى ما هو فوقه، وذلك معروف من مذهبهم قديماً وحديثاً، ولا نعني أنه لا بأس به شرعاً، ولكنا نريد أن نقول إن المتنبي لم ينفرد به ولم يطعن أحد بمثله على غيره من الشعراء في عقيدته؛ وقد وجد ذلك في صدر الإسلام ووسطه ويوجد الآن في هذا العصر، فمن قول جرير بمدح عمر بن عبد العزيز:

أتى الخلافة أو كانت له قدرا ... كما أتى ربه موسى على قدر

ومن قول أبي نواس في الأمين:

سخر الله للأمين مطايا ... لم تسخر لصاحب المحراب

ومن قول أمير الشعراء المرحوم أحمد شوقي بك يذكر طائرات فرنسا:

لسليمان بساط (واحد) ... ولكم ألف بساط في الفضاء

فهل هؤلاء الشعراء لا يضربون مع المتنبي على وتر واحد في هذه النغمة؟

والخلاصة أن المتنبي كغيره من الشعراء صدرت عنه أقوال ظاهرها الاستخفاف بأمر الدين ولكن لا نحكم بمقتضاها أنه فاسد العقيدة حتى نحكم على غيره من الشعراء بله العلماء أنهم كذلك، فأن بعضهم أسوة بعض في هذا الأمر

وأما أخلاقه فلسنا بحاجة إلى التنويه بما كان عليه من علو الهمة والشجاعة والصدق والوفاء، فإن شعره مملوء بشواهد ذلك حتى لقد بلغ من علو الهمة أن عابه خصومه بهذا الخلق، فمنهم من لقبه بالمتنبي لتشبيهه نفسه بالأنبياء، ومنهم من جعل ذلك مرضا نفسيا أشبه ما يكون بالجنون. والواقع أن المتنبي كان يسرف في التعظم وإن كان له سلف في ذلك، فانظر إلى قوله:

أي محل أرتقي ... أي عظيم أتقي

وكل ما قد خلق الله ... وما لم يخلق

محتقر في همتي ... كشعرة في مفرقي

فأنك لا تجده يختلف عن قول هبة الله بن سناء الملك:

وفرطُ احتقاري للأنام لأنني ... أرى كل عار من حلي سودَدِي سدى

أرى الخلق دوني إذ أراني فوقهم ... ذكاءً وعلماً واعتلاء وسؤددا

وبلغ من شجاعته أن لاقى الموت المحقق فراراً من الغدر. وبلغ من صدقه أن قال عنه بن حمزة إنه ما كذب قط، وقال هو:

ومِن هوى الصدق في قولي وعادته ... رغبتُ عن شَعرٍ في الرأس مكذوب

وبلغ من وفائه أنه برغم ما عامله به سيف الدولة من سوء العشرة، لم يبح ذاكراً له متشوقا إليه؛ وقد كان يمدح كافورا فيصدر بمدحه ويكثر التأسف على فراقه. ومن شدة وفائه أنه وفى للشيب فلم يقدر على مفارقته إلا حزينا باكيا كما قال:

خلقت ألوفاً لو رجعت إلى الصبا ... لفارقت شيبي موجع القلب باكياً

هذه أخلاق المتنبي ليس مغمز لأحد؛ وقد وصف به نفسه في شعره، وجاءت سيرته

دليلا على صدقه في هذا الوصف. إلا أن الطاعنين عليه لم يعدموا ما يلمزون به أخلاقه أيضاً فقالوا: إنه كان بخيلا، وبخيلا جداً، واستدلوا على ذلك بحكايات ملفقة تشتم منها رائحة الوضع كما يقول المحدثون، وبأبيات من شعره إن لم نقل إنها محرفة عن موضعها فلا أقل من أن نقول إنها لا دلالة فيها على ما زعموه أصلا. فأما تلك الحكايات فقد كفانا الأستاذ المازني أمرها إذ بين ما فيها من زور وما تحتويه من بهتان؛ وأما أبيات الشعر فأنا ناقلون مما هو نص من شعره في نفي هذه التهمة عنه ثم مقارنون بينه وبينها ليظهر خطأ الاستدلال بها واضحاً لا خفاء فيه

قال المتنبي يستنجز كافوراً ما وعده به من الولاية:

أبا المسْك هل في الكأس فضل أناله ... فإني أُغَنى مُنذُ حين وتَشرَبُ

إذا لم تُنط بي ضيعةً أو ولاية ... فجودك يكسوني وشغلك يسلب

وقال فيه أيضاً:

وهل نافِعي أن تُرفَعَ الحُجْب بينَنا ... ودون الذي أمَّلتُ منْك حِجابُ

فهذا المتنبي يقول إن بغيته في فضلة من الكأس الذي يشرب بها كافور (يعني الولاية) لا المال. وإن كل ما وصل من عطاء كافور لم يرفع الحجب بينه وبين ما أمله منه، ولا شك أن ذلك شيء غير المال. ومن كانت هذه منزلة المال عنده، لا يحفل به ولا يجعله شيئاً مما أمله، فكيف يوصف بالبخل ويتهم بالحرص لو كان هناك إنصاف؟ وقد صرح به أخذ ضمناً من الأبيات في قوله

وما رغبتي في عسجد أستفيدُه ... ولكنها في مَفخر أستَجدُّه

وقال في شكره لمن وهب له هبة:

وما شكرتُ لأن المال فرحني ... سيّان عندي إكثار وإقلال

لكن رأيت قبيحاً أن يُجادَ لنا ... وإننا بقضاء الحق بُخَّال

وفي مطلعها ما يشير إلى صدق قوله (فجودك يكسوني وشغلك يسلب) وهذا هو المطلع:

لا خيل عندي أهديها ولا مال ... فليسعد النطق إن لم تسعد الحال

ثم هل بقى من تقبيح البخل أكثر من جعله من مبطلات الصلاة كما قال:

فتى لا يُرجِّى أن تَتَّم طهارةٌ ... لمن لم يطهر راحتيه من البخل

فهذه الأبيات وسواها كثير مما هو نص في المراد، كيف يصح إغفالها والتمسك بمثل قوله دليلا على بخله:

فلا مجدَ في الدنيا لمن قل ماله ... ولا مال في الدنيا قل لمن مجده

فهل هو إلا مقرر لحقيقة واقعية، وهي أن المجد مهما كان رفيعاً لا اعتبار له إلا بالمال، وقد أجمع الناس على ذلك فما يحترمون إلا صاحب المال ولو كان دنيئاً؟ ولكن ألا تراه مع ذلك قد عقب بأن المال وحده لا اعتبار له عند العقلاء ولا بد من خصال المجد التي هي أساس الاعتبار؟

وأغرب من ذلك الاستشهاد على بخله بمثل قوله:

من يطلب المجد فليكن كعليَّ ... م يَهبُ الألفَ وهو يَبتسم

وقوله:

تهللَ قبل تَسليمي عليه ... وألقى مالهُ قبلَ الوسَاد

وهذا لو صح دليلاً على بخل الشاعر لعددنا كل شعراء العربية بخالا، فأنه لكثرة ما تدوول

هذا المعنى، صار لا يخلو منه ديوان شاعر

وإننا لا ننفي أن المتنبي كان جماعة للمال، ولكنه لم يكن يفعل ذلك إلا للاستعانة به على مقاصده كما يصرح هو بذلك في شعره لا سيما وهو يعلم من أحوال عصره أن الاعتبار كله إنما هو لأهل المال خاصة. وانظر إلى حكاية البطيخة التي أعطى صاحبها خمسة دراهم فلم يبيعها له وباعها بثلاثة لمن يملك مائة ألف دينار لمجرد كونه يملك مائة ألف دينار! فانصرف وقد علم أنه لا يتم اعتبار الناس له إلا إذا جمع مائة ألف دينار؛ وقد كان كذلك، وكل ما صدر عنه في هذا الصدد إنما هو من قبيل المثل الفرنسي , وكم بين من يطلب المال ليستعين به على قضاء حقوقه - وأي حقوق هي! إنها لتزري بحقوق الطغرائي التي يقول فيها:

أريد بسطة كف أستعين بها ... على قضاء حقوق للعلا قِبلي

وبين من يطلبه لمجرد الحرص عليه وشهوته التي هي مرض من الأمراض، فإن هذا هو البخيل حقاً لا ذاك!

والواقع أننا وجدنا المتنبي صادقاً في كل ما وصف به نفسه من خلال المجد، فلا يصح أن يكذب في هذا الأمر لمجرد حكايات الله أعلم بحالها وحال من نحله إياه! كذلك وجدنا شعره طافحا بمدح الكرم وذم البخل في أبيات صريحة لا غبار عليها فلا يجوز أن نغض الطرف عن ذلك ونلجأ إلى الفرض والتخمين محملين بعض ألفاظه ما لا دلالة لها عليه لنصحح تهمة أنه كان بخيلا!

وإذا فرغنا من الكلام في النقط الثلاث التي عنينا به هنا، فلنتساءل ماذا كان مطلب المتنبي في الحياة ما دام لم يكن يطلب المال لذاته؟

والجواب أن المتنبي كان طالب دولة ولا شك، وكان لا أعدي إليه من أصحاب الدول في عصره، فهو لو تمكن منهم لما رحمهم، بل نرحم شبابه من أن يرحمهم على حد تعبيره هو:

لا يخدعنك من عدُوٍّ دمعُه ... وارحم شبابك من عَدُو ترحمُ

وقد كان يرى المجد في ضرب أعناق الملوك:

ولا تحسبنَّ المجد زقاً وقَينةً ... فما المجد إلا السيف والفتكةُ البكر

وتضريبُ أعناق الملوك وإن تُرى ... لك الهبواتُ الكثر والعسكر المجر

فلو أن الفلك جرى بموافقة سعيه لعصف بدول عصره جميعا ولو دولة الخلافة، وأقام على أنقاضها دولة متنبية من الطراز الذي يقول فيه أبو الطيب:

أعلى الممالكِ ما يبنى على الأسلِ

وما أصدق ذلك الذي قاله على لسان كافور وقد صوّر أنه سئل لماذا لم يُنلْ المتنبي ما طلب منه من الولاية: (يا قوم! من أدعى النبوّة بعد محمد صلى الله عليه وسلم كيف لا يدعى الملك بعد كافور؟)

وحينئذ فماذا كان يصير لو نجح المتنبي في مطلبه؟

إن الدولة العربية كانت قد شاخت في زمنه وتمكن الضعف منها فصارت هامة اليوم أو الغد، وقد رأى هو أن العرب أصبحت تدين للعجم بالطاعة وذلك أمر ليس من صالحهم في شيء:

وإنما الناس بالملوك وما ... تَصلح عُرْبٌ ملوكها عجمُ

وإن المسلمين أصبحوا في كل جهة عبيد العصا يسوقهم المتغلب أمامه كما يسوق الراعي قطعان الماشية:

ساداتُ كلِ أُناس من نفوسهمُ ... وسَادَةُ المسلمين إلا عبدُ القزُمُ

وقد صار أمرهم مع المشركين بين العجز عنهم والرهب منهم:

أرى المسلمين مع المشركين ... إما لعجز وإمَّا رهُبْ

فإذا قلنا إنه لو نجح في مطلبه لكان ذلك من الخير للعرب والإسلام. لم يكن في قولنا هذا شيء من المبالغة لأن الرجل كان قوة هائلة لا تقف عند حد ولا ترجع عن قصد، فكان ينفخ من روحه في جسم الدولة المتهالك ويهيب بالأمة إلى حياة المجد والعظمة فما يكون بأسرع منها إلى الاستجابة له والإقبال عليه صادعة بأمره صادرة عن قوله:

لا افتخارٌ إلاَّ لِمن لا يُضامُ ... مُدركٌ أو محاربٌ لا يَنامُ

ليس عزماً ما عرَّض المرءُ فيه ... ليس همّاً ما عاقَ عنه الظلامُ

واحتمالُ الأذى ورؤْية جانٍ ... يه غِذاءٌ تضوى به الأجسامُ

ذلَّ من يغبط الذليل بعيشٍ ... رُبَّ عيشٍ أخفُّ منه الحمامُ

(طنجة)

عبد الله كنون الحسني

التضحية

للأستاذ محمد روحي فيصل

صلاح الأمة للبقاء أو قوة حيويتها إنما تظهر أشد الظهور إذا أصاب تلك الأمة شر، أو ألمّ بها خطب، أو انتابتها أزمة في السياسة أو في المال، أو في الأخلاق، مما يجل وقعه، ويشق احتماله؛ ذلك لأن جميع الأمم تستطيع أن تعيش في الرخاء، وتسمو بالنعيم، ولكنها لا تستطيع كلها أن تعيش وتسمو إذا أحدقت بها الشدة، وحفت بها المكاره، وتنكر لها الدهر، وعبست في وجهها الحياة

بلى! قليلة جداً تلك الأمم التي تستطيع أن تعيش وتسمو إبان المحنة والشدائد، لأن كل أمة من الأمم تحتاج حينئذ إلى أن تستمد حياتها من حياة أبنائها، وتعتمد في شفائها على سواعد أفرادها؛ فإذا كان خلق التضحية قويا فيهم، متأصلا في نفوسهم، مشتملا عليه كلهم أو جلهم، نجت تلك الأمة من الشر إن كان نازلا بها، أو تقدمت إلى غايتها إن كانت لها غاية عليا تعشقها وتطمح إليها

أما الأمة الأثرة التي لا تعرف من التضحية غير أسمها، فهي محكوم عليها بالفناء والموت، لا بد أن يخني عليها الذي أخنى على لبد

لما اشتدت الأزمة المالية أخيراً على الأمة الإنكليزية رأينا كيف أن مظاهر التضحية لم تنحصر في رؤساء الأحزاب فحسب، وإنما تعدتهم إلى الأفراد رجالا ونساء، فكانت الفتاة الفقيرة تهب سوارها الذهبي الذي أهدته إليها أمها قريرة العين طيبة الخاطر؛ وكانت العائلة الفقيرة تتنزل راضية عن جنيه من كسبها الذي لا تحصل عليه إلا بشق الأنفس وترفقه بكلمة كهذه: (مساعدة متواضعة لملكنا وشعبنا من أسرة (فقيرة))

كذلك كل أمة نالت شأوا بعيداً في المجد، وبلغت مكانة عالية بين الأمم، ما نالت ذلك الشأو وما بلغت تلك المكانة، إلا بتضحية أبنائها أمامها بالأنفس والأموال تضحية صادقة صحيحة! ولعمر الحق ما كانت تكون لأجدادنا العرب، أبناء الصحراء وساكني الجزيرة، تلك السيادة الرفيعة، وذلك السلطان المرهوب، لو لم يكونوا متشبعين بخلق التضحية إلى أقصى مدى

ونحن، إذا كنا قد تنبهنا بعد الغفلة واستيقظنا بعد النوم، فاستأنفنا طريقنا إلى العلياء وطالبنا

بحريتنا المسلوبة واستقلالنا المفقود، فإنما يجب أن نتجشم تكاليف ما نطالب به ونضحي لنيله القليل والكثير، ونتحمل ما نلاقي في سبيله من ألوان المكاره وضروب المشاق، ونصبر على صنوف العقبات حتى يلين صلبها ويسهل صعبها، فأنه لا تنال المطالب إلا مكافحة ومغالبة، لأن الحياة معركة، فما لم يدرك فيها بالملاينة والمحاسنة، أدرك بالعنف والمخاشنة. . .!!

إن رجال هذه الأمة جميعاً ثلاثة: رجل لا علم له بما عليه من الواجبات نحو وطنه فلا يعنيه شأنه، ولا يهمه أمره، ولا يعبأ به ولا يحفله، فهو جاهل؛ ورجلٌ أخذ من الدين بقشوره، وشرب من مورده العذب مصة خفيفة ظنها غاية ما يرتوي به المرتوون، فقضى أوقاته في البحث في المحيرة والحيض والنفاس، ونصب نفسه لعداوة كل جديد وإنكار كل ما يألف، فهو جامد؛ ورجلٌ يجري وراء منافعه الشخصية أينما رآها وتخيلها، يراها في جانب مصلحة عامة فيظهر في زي المصلح الداعي إلى هذه المصلحة ويملأ الجو نداء للتعاون عليها، حتى إذا تراءت له منفعة خاصة لا يصل إليها إلا أن يقضي على ما ينفع الناس والوطن داسه بكلتا قدميه، وذهب إلى منفعته تواً لا يلوي على شيء، فهو خبٌ منافق

فإذا أزيل عن الأول جهله، وأزيح عن الثاني جموده، وشُّع على الثالث خبَّه ونفاقه، وعمل على بث خلق التضحية فيهم وتقويته عندهم، مع تبصيرهم بمقتضيات الأحوال كما يقول البديعيون - إذا فعل هذا عظمت الفائدة، وتوفرت العائدة على الوطن، وسارت الأمة مسرعة إلى مطمحها

(حمص)

محمد روحي فيصل

السنيون والشيعة والمؤتمر

للأستاذ محمد رضا المظفر

لأول وهلة بدا لي أن أنسحب بعد مقال الأستاذ (أحمد أمين) المنشور في (عدد الرسالة 121)، ولا أدخل في هذا الموضوع من جديد، لأنه قرر أخيراً: (أنه سوف لا يرد على من يتخذ بعض ما جاء في مقالته وسيلة الأثارة النزاع من جديد إلا أن يفتح صاحبها مجالا للكلام في مشروع المؤتمر أو وسائل الوفاق) فخشيت أن أكون عند الناس أو عند نفسي (وهي لا تحب لي الرذيلة) ممن يتحبّب النزاع أو يسعى لتعكير صفو الأخوة التي ظهرت بشائرها في العالم الإسلامي، ولهذا - أو لشيء آخر لا أدري - وُضع هذا التقرير الصريح

ومن جهة أخرى، تخوّفت أن يكون حديثي هذا من (لغو الصيف) وإن كنا نستقبل

الشتاء، فلا أجاب عليه بعد ذلك التقرير؛ وليست فكرة المؤتمر - وبالأصح حلم المؤتمر - تلك الفكرة الناضجة والحلم الصادق فيما أعتقد (وسأعود إليها)، حتى أستنزل بعلاجها طرف الأستاذ لميدان هذا الموضوع

كل ذلك دار في خلدي، وأكثر من ذلك صرفني عن كل هذا الحديث، حتى يمضي عليّ هذا الزمان، وأخيراً أتراجع إلى طوية نفسي فأجدها جد مؤمنة بوجوب السعي لتحقيق فكرة الاتفاق، وتوحيد كلمة المسلمين، مهما اختلفت وجهة النظر مع الأستاذ أو مع غيره، وهنا فليقرر الأستاذ ما يشاء؛ وليقل الناس ما يحبون!

ولعل الرسالة تفتح صدرها الرحب لكاتب يقف للفرص يتتبعها، لإزالة ما قد يسيء للاتفاق بين الطائفتين، ويشهد حديث كتابها أو غيرهم عن كثب، حتى لا يتكلموا عن الشيعة كأمة غائبة في مجاهل المفاوز، لا سمع لها ولا لسان، في حين أن رجال الشيعة تتبع الأحاديث عنها في الصحف والكتب بكل إصغاء، وقد لا تشاء الرد والجواب، كما وقع في العام الماضي في الرسالة بين الأستاذين، عبد الوهاب عزام، وأمين الخولي، في قضية مكة ومشهد الحسين

وكم يضحكني ما يكتب عن الشيعة كأنها من الأمم الخوالي (ولتعرف من الآن أنا لا نفهم من كلمة الشيعة إذا أطلقت غير الأمامية)، فتنسب لها عقائد وآراء لا نعرفها، وكثير من رجالها صامتون كأن الحديث مع غيرهم، ثم يحرقون الأرم من غير طائل، وليس من

الصحيح هذا التسامح الذي جر ما جر من تباغض وشنآن، وربا على ما خلفه لنا علماء أمس رحمهم الله، وزاد في الطين بلة، وربما تصبح الطريق بعد هذا زلقاً لا تصلح لسير الأقدام إلا بما لا يحمد، كما كان في العصور السالفة؛ وكان من الواجب أن يبادر إلى علاج هذه الناحية قبل فوت أوان العلاج، والحرية الصحافية ضربت أطنابها في البلاد، وخصوصاً في مصر، فأعجب أن يسأل صاحب المقتطف - مثلاً - عن الشيعة، فيجيب عنهم بما يعلم - وهو معذور - ولا يرد عليه واحد منهم وهو لا يأبى عن ذلك، ولا يأبى أن يزيد علمه فيهم. إذن بعد هذا لم لا أتقدم بنفسي لهذا الواجب؟

هذا سؤال وجيه، وعليّ أن أجيب عنه بكل صراحة وإخلاص: كم هناك من مباحث وددت كشف غطاء الحقيقة عنها - لو كنت من أهل ذلك - فأتقدم إلى القرطاس، وأحاول أن أجرد قلمي من لحاء التعقيب لعقيدتي التي نشأت عليها، وغذيتها في لبن التربية، لا أطلب الحقيقة بالبرهان، ولا أكون ممن يتطلب البرهان للعقيدة، ولكن أجد محاولتي الباطلة، فأبحث عن قلمي، فأراه قد تألف من مجموع قشور، وأخيراً لا أجد قلماً أحمله لأكتب به

وهكذا العقائد العامة ليس في وسع أحد أن يتجرد عن تبعتها مهما تخيل أنه سيذهب عنها ناحية، ولا بد أن تنزله لحضيضها، ويرغم على غذائها، فيما يكتب وفيما يعمل، فتتركز عليها أقواله وأفعاله، من حيث يدري ولا يدري؛ وعلم النفس يصدقني - وعلى الأقل لا يكذبني - في هذه الدعوى

ولا أعتقد أن امرءا استطاع أن يحرر نفسه من عقيدته، ما دامت له عقيدة يتمسك بها، أبى الأستاذ أحمد أمين أم لم يأب!

ولكني أرجو أن يوفقنا الله في جهاد سورة النفس في تعصبها، وقمع غلوائها، فيما إذا اعتقدنا بعظم النتيجة وفائدتها للجميع؛ وعسى أن نصيب هدف الحقيقة بعد حين بهذه الحيلة؛ وهذا هو الذي يطمئنني أن أنزل إلى هذا الميدان الوعر المسالك، ومن ورائي جمعية (منتدى النشر) تقبض على ناصيتي

ولقد كانت وجهة نظري القاصر - ولا بد أن تعرفها من حديثي المتقدم ومقالي السابق - أن نفتح لنا باباً للتفاهم في أصل عقائدنا وصحتها - مهما كان في ذلك من الخطورة - فندخل في بحث علمي أو تاريخي، كسائر أبحاثنا العلمية والتاريخية، ونتلقى النتائج بصدر

رحب، وذكرت في مقالي السابق: ما هي النقطة التي يجب اتباعها في البحث؟. وذاك هو الذي فهمته أيضاً من كلام الأستاذين محمد بك كرد علي وأحمد أمين في المرة الأولى، وعلى هذه النغمة حسست وتري، ومضيت مطرباً إلى حد بعيد وحقاً (إن البحث العلمي لا يمنع التفاهم والوئام، بل هو إذا نظر إليه النظر الواسع العالي سبب من أسباب الألفة)

إلا أني بعد هذا وجدتك - أيها الأستاذ - تذهب بعيدا وتنتقل مفاجأة إلى حديث عقد مؤتمر بين الطائفتين في العراق، فماذا تقصد من المؤتمر؟ وعلى أي خطة ولأي غاية يجب أن يسير؟ هذا الذي بعد لم أحط به علماً، ونزولاً عند رغبتك أدخل في الموضوع ما انفتح لي بابه:

لا شك أن عقد مؤتمر بين الطائفتين - على أي وجه يكون - لا يمكن التوصل إلى تحقيقه، بمجرد تفكير واحد واقتراح آخر وتأييد ثالث، مهما كان المفكر والمقترح والمؤيد فلابد أن يختمر في العقول بنقد ورد وبدرسه على جميع وجوهه حتى يستقر على فكرة واحدة ووجه واحد، ويعمم صوته الأسماع النائية والقريبة، ويساهم في درسه العالم والسياسي، ويقتنع به ولاة الأمور - ولا بد من اقتناعهم أو إقناعهم - كعمل لا بد منه، ثم تنتهز الفرص للعمل على تحقيقه، ويسعى بإخلاص لتأسيسه، على سنة الارتقاء والتدرج، أو كما قال معالي العلامة الشبيبي

خواطري اليوم أقوالي ومعتقدي ... غَداً وغرّة أعمالي وراء غد

لقد سمعنا بحديث هذا المؤتمر وسعى بعض رجالات الطائفتين لتأسيسه وسمعنا باختلاف التفكير في خططه، كل هذا سمعنا، واتضح لي مما سمعت ومما قرأت أيضاً أنه ما زال أمنية لم تشبع درساً وتدقيقاً؛ وكل عمل كبير مثل هذا لا بد أن يكون كذلك وأكثر. فلنفرض أن المؤتمر انعقد في العراق، واجتمع أعضاؤه لدرس خططهم، فعم يتساءلون؟

يدرسون مذهب الشيعة وأهل السنة - وعلى الأصح مذاهب المسلمين - وأسباب الخلاف بينهم، كأجانب على المذهبين، ثم يتفقون على الصحيح، أو قل على جوهر الإسلام الحقيقي الذي جاء به الرسول عن الله، ويطوحوا بالقشور وبما ألصق بالحنيفة إلصاقا - ولا بد أن يكون هناك لباب وقشور وحق وباطل لا محالة - ليحملوا الأمة الإسلامية جمعاء على الإسلام الصحيح، الذي يفهمه روح الإخلاص والبحث النزيه حلم لذيذ! لو صدقناه لكنا خيرا منه ونعم الخلف الصالح. ولاسترحنا من آلاف الكتب التي ألفت في هذه الشؤون، وجرت على المسلمين الويل والثبور، وأضاعت من أوقات العلماء كل غالٍ ونفيس درساً وتأليفاً، فصرفتهم عن كل عمل ينفع الأمة ويجر إليها المغنم، طيلة هذه القرون

ولكن - بالله عليك - هل رأيت حلماً أكذب من هذا في أضغاث الأحلام، وأمنية أبعد منها في الأماني؟ كيف يتفق أولئك على الصحيح؟ وبماذا يحملون الرأي العام على اعتناقه؟ أبالقوة يعتنق هؤلاء الدين الجديد عندهم؟ أم بالتقليد لأولئك النفر القليل؟ أم بطريق الحجة والإقناع؟ كلا! كل هذا ليس من السهل، أو ليس من المستطاع؛ وإذا جاز أن يقع مثله في أول الدعوة إلى الإسلام من نبينا وأصحابه، فليس من الجائز أن يقع في هذا العصر من مؤتمر يؤلف من علماء الطائفتين المتخالفين في بؤرة الخلاف، وهل يصح أن نكتفي بهم وحدهم أو بالخاصة معهم - لو جاز أن يتفقوا - ونستغني عن اتباع السواد لهم

وأكبر الظن أني تياسرت عن الغرض في تأويلي هذا للمؤتمر المقصود، إذن فعم يبحثون؟

لنتركهم يعملوا لإيجاد عوامل الألفة والصداقة الودية بين الفريقين، ولذبح النعرة الطائفية على أعتاب الأخوة الإسلامية ليدخلوها بسلام آمنين، ولتبق بعد هذا كل طائفة على عقيدتها وأعمالها، كمذاهب أهل السنة فيما بينهم، وكالشيعة لما يختلفون في تقليد مجتهديهم، وهناك تتجلى الكلمة الذهبية الخالدة: (إنما المسلمون إخوة)، وقوله عليه السلام: (المسلمون كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً). وينظر عندئذ للمؤتمر في دعوى من يدعي غمط حقوقه كمحكمة كبرى إسلامية، ويأخذ على الأيدي العابثة من كتاب وغيرهم بالوسائل التي يختطها ويستطيعها

وظني أن هذا المؤتمر هو الذي يرمي إليه إخواننا فيما فكروا وتحدثوا وكتبوا، وهناك ملحوظات يجب ألا نغفل عنها:

هذه الدعوة إلى الاتحاد ونبذ النزعات الطائفية، والتفرقة الشائنة، هي إحدى الأسس القويمة التي بنى عليها الحكم الوطني في العراق - كما ذكرت في مقالي السابق - ورؤساء الطائفتين يومئذ لم يقصروا في توجيه الرأي العام نحو هذه الفكرة الجديدة

التي لم يدع لها العهد التركي البائد مجالاً للظهور أو لبذرها في العقول، واستطاعوا في اقصر وقت أن
يكهربوا الفكرة العامة بتيارهم، حتى إنك كنت تسمع الهتاف بالوحدة يبلغ عنان السماء
في جميع محافلنا ومجالسنا، وكان الرجل يخسأ أن ينبس بكلمة واحدة تشتم منها
رائحة الخلاف، وعلى ذلك أعوام - أو أيام - مضت، حتى تغير بعض النفوس، وتبدل
كثير من النوايا، ولا ندري لماذا كان؟! وهل يجوز أن نقول لا ندري؟ لا أدري!
واليوم - بحمد الله - تجد الحال كما هي، لم تتبدل تلك الظاهرة المحبوبة؛ ولكنها
فقاقيع على الماء من ارتفاع درجة الحرارة، وليست هي كل الماء - كما يقول الأستاذ
أحمد أمين - أو ليس وجودها إلا لتظهر فقط لا لتنفع - كما يقول الأستاذ الرافعي - لأن
هذه الظاهرة احتفظت بها السياسة وحدها واكتفت بها، ولم تأخذ بها الأمة عن طريق
الرغبة فيها، والاقتناع بضرورتها وثمراتها، في حين أن العودة إليها قد تضاءل نبراسها
إلى حد كاد معه ينطفي، وما أدل على هذا من أن السني الداعي إلى الوحدة يصبح
متشيعاً في نظر أصحابه، والشيعي الداعي إلى الوحدة يصبح سنياً في دعوى إخوانه،
وهذا ذنب كبير عندهم لا يغتفر!
ولذلك يسود الاعتقاد اليوم أن الدعوة الأولى كانت كلها خداعاً في خداع؛ ومن رجالنا
من لا يزال مستمسكاً بها إلى اليوم، فينسب إلى غفلة أو سذاجة، وهذا هو الداء الدوي
فإذا أردنا أن نؤلف هذا المؤتمر في العراق، فإنما نريد أن نعيد تلك الكرة لتنفي العزة،
وقد لاقت في مبدأ الأمر سوقاً رائجة، ثم كسدت تلك السوق، وبيع فيها الرأي العام
بأبخس ثمن، وبدراهم معدودة؛ ومن الصعب جداً أن نعمل عملاً مجرباً بتشاؤم منه؛
واعتقد أنه سيكبد القائمين مجهوداً كبيراً من هذه الناحية، ويحتاج إلى زمن ليس
بالقصير، لتحوير الأفكار ورسوخ العقيدة من جديد، تتخلله الدعاية الواسعة من القادة
وذوي العقول المخلصين: وتقريباً للمسافة أجد من الضروري أن تنضج هذه الفكرة
خارج العراق أولاً، ثم تدخل العراق لتستطيع أن تهضمها الأفكار بسهولة
ومن المرجح أن هذا المشروع لا يلاقي الفشل بعد تشكيله في هذه المرة إذا كان
القائم به مؤتمراً منظما يبنى على أسس متينة ونظم واضحة، وإذا كان مؤسسو
المؤتمر يحملون في حقائبهم إخلاصاً صادقاً وعقيدة ثابتة ووطنية صحيحة، والعراق في
دور الاستقلال، وما فشل لأول مرة إلا لأنه كان عملاً فوضوياً اندفع إليه المجتمع كسائر
إندفاعاته التي لا
يقودها العقل والرأي - على حسب قانون المجتمعات - فاستغلته الساسة الوقتية، ثم
لعب أهل الأغراض والمطامع ومن خلفهم الاستعمار أدوارهم - وبالطبع يتلاشى هذا
الظل بعد حين، متى طلعت الشمس ولا بد أن تطلع -، ولا مؤتمر مسؤول ولا جمعية
مخلصة تحاسب الناس على أعمالهم

النجف الأشرف

محمد رضا المظفر

قصة المكروب كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكي وكيل كلية العلوم

كوخ رابع غزاة المكروب يكتشف مكروب السل

بدت لكوخ طلائع النجاح، فقضى أشهرا يؤكده بالعمل المتواصل، والتفصيل الممل،
والصبر النادر، والدقة المتناهية، والحذر البعيد. تجد كل ذلك منه إذا أنت قرأت تجاربه
المتكررة العديدة في تقريره التاريخي عن داء السل، وقد ولد من هذه البشلات ثلاثا
وأربعين أسرة مختلفة، ولدها على فالوذج المصل في أنابيبه المائلة من القردة
المسلولة والفئران والخنازير الغينية العليلة
ولم يستطع توليدها إلا من حيوانات أصابها السل أو ماتت من جرائه، وقضى أشهراً
يرعى تلك القتلة الصغار رعى الحاضن ولدها، وكان أكبر همه ألا يدخلها من أخلاط
المكروبات الضالة شيء
قال كوخ: (والآن إذ ولدت بشلاتي هذه خالصة، فلم يبق لي إلا أن أحقنها في خنازير
غينية سليمة، بل في كل نوع من حيوان سليم. فإذا أصابها السل علمت علم اليقين أن
هذه البشلات ضرورة لازمة لإحداثه، وأنها علته التي لا شبهة فيها)
وقام كالمجنون الذي يركب رأسه لفكرة ملكت عليه منافذ السبل، فقلب معمله فصار

أشبه شيء بحدائق الحيوانات، وأصبح يتجهم للناس ويتهكم بزواره المتشوفين لما عنده حتى صار غولاً ألمانيا صغير الجرم حقوداً، وعقم عشرات المحاقن وحده، وزودها بمكروبه الأحدب من زريعاته التي على فلاذج أمصاله بعد أن دافه بقليل من الماء، ثم أطلق هذا المكروب من هذه المحاقن كالسهام في جلود الخنازير والأرانب والدجاج والجرذان والقردة والفئران. ثم زمجر فقال: (لا يكفي هذا. فلا بد من إطلاق هذا المكروب في أنواع من الحيوانات لا يعرف أن السل أصابها أبداً)، وخرج عن ألمانيا يطوف البلاد فجمع لمعمله. ثم عاد فحقن بشلاته، العزيزة عليه الشديدة على غيره، في سلاحف وعصافير وخمسة ضفادع وثلاثة من ثعابين الماء

وفي نوبة ذهب فيها عقله شاء أن يتمم تجربته الغريبة في سمكة مرجان ومضت أيام تلو أيام، وتلاحقت الأسابيع، وفي كل يوم منها ذهب كوخ إلى (ورشته) في الصباح واتجه تواً إلى أقفاصه وجراره التي احتوت هذه الحيوانات الخطيرة. أما سمكة المرجان فظلت تفتح فاها وتغلقه وهي تعوم عوم الوداع الآمن في طاسها الكبير ذي البطن العظيم. أما الضفادع فظلت تنق نقيق من لا يأبه لشيء. وأما ثعابين البحر فكانت على عهدها نشيطة رشيقة في انزلاقها على الماء، وأما السلاحف فكانت تخرج رأسها أحياناً من بيتها العظم وتطرف بعينها لكوخ كأنها تغمز به وتقول: (إن مكروبك يا سيدي العزيز غذاء صالح لنا، فهل لديك من مزيد؟)

سلمت هذه الحيوانات من محاقن كوخ، ولا عجب، فهي في حياتها العادية منيعة على السل. أما الخنازير الغينية فأخذت تميل ثم تتساقط على جنوبها تتلهف على الهواء وتستدر الرحمات ثم تموت وقد براها السل برياً شديداً

والآن وقد أتم كوخ آخر حلقة من البرهان الذي أراده، تهيأ ليعلن للدنيا أن البشلة التي هي سبب السل الحق قد اصطيدت، قد اكتشفت! وما كاد يهم بالإعلان حتى خطر له أن للبرهان ذيلاً لا بد من إتمامه. قال: إن الناس لا بد آخذة هذه البشلات استنشاقا مع تراب الهواء، أو لعلهم آخذوها من المسلولين إذ يسعلون. فليت شعري أتأخذه الحيوانات السليمة بهذه الطريقة أيضاً؟) وما عتم أن قلب وجوه الحيلة لإجراء هذه التجربة الخطرة. وارتأى أن يرش البشلات رشا في وجوه الحيوانات. وتلك مخاطرة من دونها فتح أبواب السجن لعشرات الألوف من القتلة السفاحين

ولكن كوخ كان مشبعاً بروح الصيد، فعرف أنه لا بد له من مواجهة الأخطار التي لا مندوحة لصياد عنها. فصنع صندوقا كبيرا في الجنينة ووضع فيه الخنازير الغينية والفئران والأرانب. وأوصل من شباك معمله خرطوماً ينتهي طرفه في الصندوق برشاشة. وقعد هو في معمله عند طرف الخرطوم الآخر يحرك مضخة ينبعث من تحريكها في الصندوق ضباب من البشلات قتال يستنشقه ما في الصندوق من حيوان، وقام كوخ يحرك المضخة نصف ساعة كل يوم طيلة ثلاثة أيام. وعند فوات عشرة أيام وجد ثلاثة من الأرانب تتنفس سريعاً في طلب هذا الهواء الغالي الذي عجزت رئاتها المريضة عن إعطائها إياه. ولم تمض خمسة وعشرون يوماً حتى كانت هذه الخنازير قامت هي أيضاً بنصيبها المتواضع من هذه المأساة المجيدة فمات الواحد تلو أخيه مسلولاً

ولم يذكر لنا كوخ كيف صنع لاخراج هذه الحيوانات من صندوقها وقد عمه وعمها الوباء، ولم يحدثنا ما الذي صنعه بهذا البيت الصغير الذي بناه بعد أن ابتلت حيطانه بهذا الرشاش الفتاك. ولعمري لقد أضاع هذا البحاثة الهادئ المتواضع بصمته عن ذكر هذا فرصة ثمينة لمن همه الفخر وطلب المباهاة

(يتبع)

احمد زكي

شعراء الديباجة

أدب البارودي وشعره

بمناسبة انقضاء مائة سنة على مولده

للأستاذ أحمد الزين

تتمة

أما شاعرية البارودي فقد قدمت لك أنها صياغة عصورٍ غابرة، ووليدة بيئات منقرضة، إذ لم يسبق بنهضة أدبية نما فيها ذوقه العربي، ولم ينشأ في بيئة عربية ترعرع فيها

فنه البياني؛ بل كان هو باعث تلك النهضة بعد أن لم تكن، ومطلع ذلك النور بعد أن خبا، والمجلي في حلبة البيان الذي لم يسبقه أحد قبله وجاء على أثره من بعده، ومكون تلك البيئة بعد أن كانت مصر قبله وفي صدرٍ من عهده ممحلةً من الأدب والأدباء والشعر والشعراء إلا القليل ممن لا يعتد بشعرهم، ولا ينبغي أن تسجل أسماؤهم في الشعراء إلا تسجيلا تاريخياً لمن أراد أن يكتب سجلا جامعاً، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها

إلا أن تلك النهضة التي بعثها من مرقدها لم تكن نهضة تجديدية في الأفكار والمعاني؛ وتلك الوثبة التي وثبها لم تكن وثبةً انقلابية في تصوير ما حوله من المشاعر والاحساسات؛ وهذه الخطوة التي خطاها لم تكن خطوة تطويرية في مسايرة روح العصر وتوجيهه إلى ما يريده الشاعر لأمته وبلاده من المثل الأعلى في الآمال والأغراض، بل كانت نهضةً بيانية لا أكثر، متعلقة بجودة العبارات، واختيار الألفاظ، وإحكام النسج، ومتانة التركيب، والجري على مذهب القدماء في الفخامة والجزالة؛ فلا تكاد تربفي شعره ما يعبر عما حوله من أحاسيس أمته وأوطانه، إلا القليل مما تراه منتثرا في ديوانه؛ وسبب ذلك يرجع إلى أن شاعريته كما قدمت لك من صياغة الكتب والدواوين، وصناعة هؤلاء الشعراء المتقدمين؛ فكان يعيش بشعره في عصرٍ غير عصره، وكان أشبه بالعاشق الموله الذي يجالس القوم بجثمانه، ويكلمهم بلسانه، وهو مع معشوقه وسالب لبه بروحه ووجدانه

وهنا ينبغي أن نشير إلى مخالفتنا لما رآه بعض كتاب النقد في شعر البارودي، فقد قسم الشعر إلى أربعة أقسام، وهي شعر التقليد الضعيف، وشعر التقليد القوي، وشعر الابتكار

الذي يوحيه الشعور بالحرية القومية، وشعر الابتكار الذي يوحيه الشعور بالحرية الفردية؛ وذكر أن شعر البارودي في طليعة النوع الثالث، وهو شعر الابتكار الذي يوحيه الشعور بالحرية القومية

وعندي أن شعره لا يعدو من هذه الأنواع الأربعة، وهو شعر التقليد القوي؛ وهذا هو سر شغفه بمحاكاة الفحول من شعراء المتقدمين ومعارضتهم في مشهورات قصائدهم كأبي نواس، والشريف الرضي، وأبي فراس، والبويسيري، وغيرهم؛ وفي رأيي أنه لم يبلغ أحدا من هؤلاء، وإن كان قد قاربهم بعض المقاربة، وذلك لأنه مقلد، والتقليد كما تحدثت إليك من قبل أضعف من الأصل مهما يبالغ المقلد في إحكام المشابهة وإتقان المحاكاة. وإنك لتقرأ القصيدة من شعره فلا توقظ عاطفة من عواطفك، ولا تحرك شجناً من أشجان نفسك، ويخيل لك أنك سمعتهاقبل عدة مرات؛ والحق أنك قد سمعتها، فإن لم تكن قد سمعتها بالفاظها، فقد سمعتها بمعانيها في شعر العباسيين وغيرهم من المتقدمين؛ حتى أن قصائده التي قالها في صفة الحروب وأهوالها، والميادين وأبطالها، وافتخاره بالإقدام إذا حمي الوطيس واشتد الخوف وجاشت نفس الجبان لا تراها تتميز إلا في القليل النادر بمعان جديدة وأفكار مستحدثة عن شعر المتقدمين في صفة ذلك، حتى إنك لو لم تعرف أن قائل هذا الشعر هو البارودي لحسبت أنه شاعر عباسي يصف إحدى غزوات الرشيد أو المأمون في خراسان أو بلاد الروم. وإلا فأي جديد مستحدث يلفت ذهنك إليه، ويجتذب قلبك نحوه، تراه في قوله:

فلا جوَّ إلا سمهريٌّ وقاضِبٌ ... ولا أرضَ إلا شَّمري وسابحُ
ترانا بها كالأسد نرصُد غارةً ... يطير بها فنق من الصبح لامحُ
فلست ترى إلا كماةً بواسلا ... وجُردا تخوض الموت وهي ضوابح
نُغير على الأبطال والصبح باسمٌ ... ونأوي إلى الأدغال والليلُ جانح
بكى صاحبي لما رأى الحرب أقبلت ... بأنيابها واليوم أعبر كالح
ولم يك مبكاه لخوف وإنما ... توهم أني في الكريهة طائح
فقال اتئد قبل الصِّيال ولا تكن ... لنفسك حربا إنني لك ناصح
ألم تر معقود الدخان كأنما ... على عاتق الجوزاء منه سرائح
وقد نشأت للحرب مُزْنة قَسْطَل ... لها مستَهلٌ بالمنيةِ راشح
فلا رأي إلاُ أن تكون بنجوةٍ ... فأنك مقصود المكانة واضح
فقلت تعلَّم إنما هي خُطّة ... يطول بها مجدُ وتخشى فضائح
فقد يهلك الرِّعديد في عقر داره ... وينجو من الحتف الكَمِيُّ المشابحُ

الخ. . . . . .
وقد كان ينبغي أن يتميز شعره في صفة الحرب عن شعر المتقدمين، ولا يحاكيهم في كثير ولا قليل من معانيهم فيها، وذلك لما باشر من وقائعها، وخاض من غمراتها، وتعرض لمخاوفها، ولما امتلأت به نفسه من حبها، والتمدح بالإسراع إليها، ولِما تميزت به الحروب في عصره عن الحروب في العصور الماضية، واختلفتْ في صُورَها وآلاتها وترتيبها عن الحروب أيام تقسيم الغزاة إلى شاتية وصائفة

ومما يعاب على البارودي ويؤاخذ به قلة شيوع الشعور الوطني والإحساس المصري في شعره، وخلو قصائده إلا في القليل النادر من العاطفة القومية، وإنما استثنيت القليل النادر لما له في ذلك من القصائد اليسيرة التي قالها وهو في منفاه بسرنديب كقوله من قصيدة:

هل من طبيب لداء الحب أو راقي ... يشفي عليلا أخا حزن وإيراق
قد كان أبقى الهوى من مهجتي رمقا ... حتى جرى البين فاستولى على الباقي

وفيها يقول:

يا روضة النيل لا مسّتكِ بائقةٌ ... ولا عدتك سماءٌ ذات إغداق
ولا برحتِ من الأوراق في حلل ... من سندس عبقريّ الوشى برّاق
يا حبّذا نَسَمٌ من جوِّها عَبِقٌ ... يسري على جدول بالماء دفّاق
مَرعَى جيادي ومأوى جيرتي وحِمَى ... قومي ومنبتُ آدابي وأعراقي
أصُبو إليها على بُعد ويعجبني ... أني أعيش بها في ثوب إملاق
وكيف أنسى دياراً قد تركتُ بها ... أهلا كراماً لهم ودّي وإشفاقي
فيا بريد الصَّبا بلغ ذوي رحمي ... أني مقيم على عهدي وميثاقي
وأنت يا طائرا يبكي على فنن ... نفسي فداؤك من ساقٍ على ساق
أذكرتَني ما مضى والشمل مجتمع ... بمصر والحربُ لم تنهض على ساق

الخ. . . . . .

ولعل السر في عدم شيوع ذلك الشعور في شعره وقلة ظهور هذه العاطفة في قصائده يرجع إلى أنه سليل عائلة من الأتراك الذين يرون أن سيادتهم في مصر لا تتم إلا بالترفع عن مخالطة أهلها، وعدم مشاركتهم فيما يشعرون به من آلام وآمال، ويرون أن الاتصال بطبقات الشعب ثلم في غزتهم، وانتقاص من سيادتهم وإليك طرفاً من قصيدته التي استقبل بها مصر حين عاد من منفاه، قال:

أبابلُ رأيَ العين أم هذه مصر ... فأني أرى فيها عيوناً هي السحر
نواعِسُ أيقظن الهوى بلواحظ ... تدين لها بالفتكة البيض والسمر
فإن يك موسى أبطل السحر مرة ... فذلك عصر المعجزات وذا عصر
بنفسي وإن عزت عليّ ربيبةٌ ... من العين في أجفان مقلتها فترُ

الخ. . . . . .

فأنت ترى أنه لم يزد في استقبال وطنه على ذكر ما فيه من الجمال النسوي الشائع بين جميع الأمم، والمشترك بين مختلف الشعوب، ولم يقل في قدومه إلى مصر إلا ما يقوله قادم على أي بلد من البلاد المشهورة بهذا النوع من الجمال، وإن لم يكن وطنه.

ثم انظر هذا الإحساس الوطني المتدفق، والعاطفة المصرية الفياضة في قصيدة شوقي التي استقبل بها مصر حين عاد من منفاه بالأندلس، إذ يقول:

ويا وطني لقيتك بعد يأس ... كأني قد لقيتُ بك الشبابا
وكلُّ مسافر سيؤوب يوماً ... إذا رزُق السلامةَ والآيابا
ولو أني دُعيتُ لكنت ديني ... عليه أقابل الختم المجابا
أدير إليك قبل البيت وجهي ... إذا فُهْتُ الشهادة والمتابا
هدانا ضوءُ ثغرك من ثلاثٍ ... كما تهدي المنوَّرةُ الركابا
وقد غشَّى المنارُ البحر نوراً ... كنار الطور جلّلت الشعابا
وقيل: الثغر، فاتأدت، فأرست ... فكانت من ثراك الطُّهر قابا

وقوله وهو في منفاه أيضا:

وطني لو شغلت بالخلُد عنه ... نازعتني إليه في الخلُدُ نفسي
وهفا بالفؤاد في سلسبيل ... ظماً للسواد من (عين شمس)
أحرامٌ على بلابله الدَّوْ ... ح حلال للطير من كل جنس

كلِ دار أحق بالأهل إلاّ ... في خبيث من المذاهب رجس
وهنا قد يخطر بذهنك أن تسأل عن العوامل المؤثرة في شعر شوقي هذا الأثر الظاهر، وميزته من شعر البارودي هذا التمييز الواضح، وجعلتْه فياضاً بهذه العاطفة القومية، مفعما بتلك الاحساسات الوطنية، فلا تكاد تقرأ قصيدة من قصائده خالية من ذكر مصر والفخر بماضيها، والألم لحاضرها والأمل القوي في مستقبلها؛ ولا تبعد عن الحق كثيراً إن قلت إن شوقي لم يجد إجادة تامة إلا في هذه الأغراض؛ وأقول في جواب هذا السؤال إن سر ذلك يرجع إلى مخالطة شوقي لزعماء الوطنية المصرية وصلته القوية بهم، وحرصه على توثيق أسباب المودة بينه وبينهم، وملازمته لمجالسهم بالليل وانهار، فلا عجب إن شاركهم بعد ذلك في الآراء والأفكار، وشاطرهم في الآمال والأوطار. . .
أضف إلى ذلك خدمته الطويلة للخديو السابق عباس الثاني؛ وقد كان من كراهته للمحتل الغاصب، وحبه الاستقلال بالسلطة والانفراد بالحكم، ما هو معروف مشهور
وهذا جواب إجمالي أرجئ تفصيله إلى فصل آخر عند الكلام على شاعرية شوقي
أحمد الزين
سكان أعالي النيل
بقلم رشوان أحمد صادق
يسكن أعالي النيل ثلاث مجموعات أساسية تتفرع منها عدة مجموعات أخرى فرعية:
1 - المجموعة النيلية، ويطلق عليهم أسم وهم خليط من الزنجي والحامي. نشأ هذا الخليط بالقرب من شرق البحيرات الكبرى في شرق أفريقيا ثم نبعت منه شعبتان:
الشعبة الأولى هي جماعة الدنكا وقد اتجهت شمالا ثم تكون منها الدنكا والنوير الحاليتان
والشعبة الثانية اتجهت شمالا أيضا ونتج عنها القبائل التي تتكلم اللهجة الشلك مثل جماعة الشلك والليو والأنواك
وهذه المجموعة تشغل أقاليم بحر الغزال وبحر الجبل وبحر الزراف والسوباط وجزءا من النيل الأبيض. أما مميزات هذه المجموعات الجنسية فهي قامة بائنة الطول، ورأس مستطيل، وبشرة سوداء جدا، وشعر مجعد؛ فهم يختلفون عن الزنجي البحت وكذلك عن الحامي البحت
أما جماعة الأشولي الذين يتكلمون لهجة الشلك فرؤوسهم مستديرة، وذلك يرجع إلى تأثرهم جنسياً وثقافة بعنصر مستدير الرأس جاء من الغرب إلى الشرق والتقى بهم أثناء هجرتهم من موطنهم الأصلي
2 - المجموعة الحامية النيلية مثل الباري واللوتوكو وغيرهم، وهم يشبهون النصف حاميين الذين يوجدون في شرق أفريقيا وفي شرق أفريقيا الوسطى، ويكثر وجودهم في مستعمرة كينيا وأوغندا حتى حدود السودان وشمال تنجانيقا. وهم أيضا خليط من الحامي والزنجي، غير أنه يظهر تغلب الجنس الحامي في تكوينهم خصوصا من حيث التقاطيع مثل الأنف ولو أن البشرة سوداء اللون. ولقد تأثروا أيضا بالهجرات المستديرة الرأس الآتية من الغرب إلى الشرق، ولكن هذا التأثير كان ثقافيا لا جنسياً
3 - مجموعة زنجية مستديرة الرأس لونهم أخف من لون النيليين وقامتهم أقصر. كانت أماكنهم بحيرة تشاد، ثم هاجروا جنوبا إلى أفريقيا الاستوائية الفرنسية، ثم شمالا إلى خط تقسيم المياه بين الكنغو والنيل. وأهم هذه المجموعة الأزندي، ويسكنون في أعالي بحر الغزال الآن
وبعض العلماء يظن أن لونهم الفاتح يرجع إلى اختلاطهم بجماعة البربر أو بعض الحاميين
ولقد اشتهر سكان هذه الجهات ومعظم سكان أفريقيا - سواء الزنجي البحت أو الخليط - بحب اللهو والطرب والرقص وكثرة شرب الخمور. ولقد تبارى العلماء في تعليل هذه الظاهرة التي تكاد تعم معظم بقاع أفريقيا
فابن خلدون يرجع ذلك إلى عوامل مناخية إذ يقول:
(من خلق السود على العموم الخفة والطيش وكثرة الطرب فتجدهم مولعين بالرقص على توقيع، موصوفين بالحمقفي كل قطر؛ والسبب الصحيح في ذلك أنه تقرر في موضعه من الحكمة أن طبيعة الفرح والسرور هي انتشار الروح الحيواني وتفشيه، وطبيعة الحزن بالعكس وهو انقباضه وتكاثفه. وتقرر أن الحرارة مفشية للهواء والبخار،

مخلخلة له زائدة في كميته، ولهذا يجد المنتشى من الفرح والسرور ما لا يعبر عنه، وذلك بما يداخل بخار الروح في القلب من الحرارة الغريزية التي تبعثها ثورة الخمر في الروح من مزاجه فيتفشى الروح تجيء طبيعة الفرح. وكذلك نجد المتنعمين بالحمامات إذا تنفسوا في هوائها واتصلت حرارة الهواء في أرواحهم فتسخنت، لذلك حدث لهم فرح، وربما انبعث الكثير منهم بالغناء الناشئ عن السرور. ولما كان السودان ساكنين في الإقليم الحار واستولى الحر على أمزجتهم وفي أصل تكوينهم كان في أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم وأقاليمهم، فتكون أرواحهم بالقياس إلى أرواح أهل الإقليم الرابع (المعتدل) أشد حرا، فتكون أكثر تفشياً، فتكون أسرع فرحا وسرورا وأكثر انبساطاً، ويجيء الطيش على أثر هذه. وتتبع ذلك في الأقاليم والبلدان تجد في الأخلاق أثراً من كيفيات الهواء والله الخلاق العليم.)

ولقد حاول كثير من العرب تعليل حب هؤلاء الأقوام للخمر واللهو والرقص، ومن هؤلاء المسعودي الذي ينسب ذلك إلى ضعف عقليتهم، كذلك يعقوب بن إسحاق الكندي ذكر ذلك التعليل الذي ربما يكون المسعودي قد نقله عنه

كذلك ذكر هذا الرأي جالينوس كما يقول ذلك أبن خلدون

وربما كان ذلك راجعاً إلى قلة العمل وطول الوقت، ولذلك يلهو الزنجي بمثل هذا النوع من الطرب. وربما يرجع حب الزنجي للرقص والخمر إلى التغلب على مناخ بلاده الذي يدعو إلى الكسل والخمول. كما يستعمل الأوربي مثلا المسكرات للتغلب على البرد في بلاده.

ويقول نعوم بك شقير في كتابه تاريخ السودان: (وهم مولعون بالرقص ولعاً شديدا، ولكل قبيلة منهم رقصة خاصة يرقصها الرجال والنساء على أصوات الآلات الموسيقية. وقد رأيت جماعة من رجال الشلك يرقصون رقصة حربية في الخرطوم أيام تشريف الخديو للخرطوم، وقد لبسوا شعورهم على أشكال غريبة وزينوها بالريش والخرز وصبغوا جفونهم بصباغ أبيض مشرب حمرة، ولبسوا أساور العاج والنحاس في أيديهم، والجلود أو الخرق في أصلابهم، وحملوا الحراب والنبابيت فمثلوا في رقصهم واقعة حربية وقفوا فيها صفين يهاجم أحدهما الآخر، وهم يقفزون كالقردة ويصيحون كالذئاب، وهم يهزون رماحهم وعصيهم فوق رؤوسهم، ويغنون أغاني لا تلحين فيها، ويصوتون بالقرون أصواتاً مزعجة تصم الآذان؛ وبالإجمال لم يكن في رقصهم طرب بل دل على الهمجية والخشونة)

وقد اشتهر الزنجي بجودة الرقص خصوصاً في عهد قدماء المصريين إذ استخدموا الأقزام لرقص الآلهة. وكثيرا ما نرى الآن في موسيقى الجاز الأوربية الراقصة أن يستخدم الزنجي للعزف. كما اشتهر بعض الزنوج نساء ورجالا بالرقص الأوربي

الزنوج النيليون

النوير

لم يتأثروا بالحكم الأوربي لأن أماكن سكناهم تجعلهم في عزلة إذ يتعذر اجتياز بلادهم في فصل المطار لكثرة المستنقعات كذلك في فصل الجفاف. لذلك لم يحاول جيرانهم الاعتداء عليهم، كما أن العرب الذين عرفوا هذه الجهات قديما اكتفوا بإنشاء محطات تجارية على المجاري الرئيسية. ولم تهتم بهم الحكومات الأوربية إلا منذ أربع سنوات عندما قاموا ببعض الاضطرابات. وكان لهذه العزلة الأثر الأكبر في عدم قبولهم الاختراعات الحديثة، وعدم تغييرهم لنظامهم الاجتماعي، كذلك لم يتأثروا بالمسيحية ولا بالإسلام؛ وتجد الحكومة صعوبة في جباية الضرائبمنهم أو إرغامهم على العمل وتنقسم السنة عندهم إلى قسمين تبعاً لتغير الإنتاج الزراعي الذي يتوقف على هطول الأمطار. فمن ابتداء شهر مايو تهطل الأمطار وتستمر كذلك حتى أواخر نوفمبر، فتمتلئ الأنهار وتكثر الأخوار. ولما لم يكن هناك تصريف على السطح فإن هذه المياه تتجمع على

شكل مستنقعات تقوم في الأراضي المرتفعة. وفي هذا الفصل تكون الماشية على مقربة من هذه القرى لكي يمكن إيوائها مساء في الأماكن المخصصة لها لحمايتها من شر البعوض. كذلك يتمكن النوير في هذا الفصل من زراعة بعض الذرة. وفي هذا الشهر ديسمبر تبدأ الأمطار في القلة، ولذلك تساق الماشية إلى أماكن بعيدة عن القرى في الجهات الغابية حيث ترعى هناك، وبعد أن يجمع المحصول في القرى ترجع

الماشية إلى القرى لتأكل بقايا النباتات؛ ثم بعد ذلك يحل فصل الجفاف وأهم شيء في حياة النوير خاصة، والزنوج النيليين عامة هو الماشية، فمنها يأخذون اللحم واللبن، وجلودها تستعمل فراشاً، وروثها يستعمل وقوداً، والرماد المتخلف يتخذ لدلك الجسم لحمايته من البعوض، ويصنع منه مسحوق للأسنان والشعر، وقرونها تستعمل ملاعق، وذيلها للزينة. والرجل الغني عندهم هو الذي يملك ماشية، فهي تقوم مقام الصداق في حفلات الزواج، ولذلك كان النويري شديد الاهتمام بتنمية القطيع من الماشية، لأنه مهم من حيث الزواج. والرجل عندما يريد الزواج لابد أن يوزع عشرين رأساً من الماشية على أهل زوجته ولابد من إهداء عشرة رؤوس لأقارب والدة عروسه، وعشرة أخرى لأقارب والد عروسه، فمن اللازم أن يأخذ القطيع في الزيادة حتى يصل إلى خمسين رأسا من الماشية. فإذا تزوج أبن فلابد أن يظل بقية الأبناء بدون زواج حتى يأخذ القطيع في الزيادة إلى أن يستعيد عدده قبل الزواج. فالزواج حسب الترتيب: الأكبر فالذي يليه وهكذا. وعلى نساء الأبناء الكبار أن يقمن بطهي الطعام وحلب الماشية للأخوة الذين لم يتزوجوا بعد؛ كذلك تستعمل الماشية في دفع الديات والتعويضات. والنويري يعتبر القتل كالزواج، أي أن الرجل إذا قتل شخصاً من عائلة أخرى كان كأنه تزوج فتاة من هذه العائلة؛ وذلك على قاعدة أن هذه العائلة ستفقد فرداً منها في حالة الزواج أو في حالة القتل. فعلى القاتل أن يعطي عائلة المقتول عشرين رأسا من الماشية: عشرة منها توزع على أقارب والد القتيل، وعشرة أخرى توزع على أقارب والدة القتيل. والفكرة في ذلك أن عائلة القتيل تحتفظ بهذه الماشية التي أخذتها دية لكي يمكنها أن تحصل بواسطتها على زوجة للرجل الميت لكي تلد هذه الزوجة أبنا يحل محل أبيه. وهذه الزوجة بعد الحصول عليها تعيش مع زوجة الرجل المقتول، والابن الذي يولد لها يعتبر كأنه للرجل المقتول.

يتبع

رشوان أحمد صادق

اندفاعات

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

يعيش القريعُ الحُّر في البلد الحِّر ... فبالخير يجزى الخيرَ والشرَّ بالشرِّ
ويزري بعادات يراها مضرّة ... وأمّا بما فيه انتفاعٌ فلا يزري
وأَكْثِرْ بمغْتَرّ بما كان ظاهراً ... وأَقْلِلْ بمن قد كان ليس بمغتر
بمجتَمع حّريةُ الفكر عنده ... وما عنده حُريةُ القول والجهر
ولم يك أسراً منع حُرّية الورى ... ولكنه شرٌّ عليهم من الأسر
وما خيرُ أرض هان فيها ذوو الحجا ... وذو الأفْن موصول الكرامة والقدر
تحّملتُ أعباَء ثقيلة ... فكانت كأخت الموت قاصمة الظهر
يعادونني من أجل تركي لمدحهم ... ومَن كان حُراً عاش للأدب الحُر
ومالي وثوق في العراق بصاحب ... مع المدّ يأتيني ويمضي مع الجَزْر
لقد نسبوا لي الوزرَ فيما أقوله ... وهل مُثقِلٌ غيري إذا صدقوا وزري
وللكفر والإيمان تجمع لحمةٌ ... وقد شرب الإيمان من منبع الكفر
ولو كنتُ أدري ما ألاقي من الأذى ... أخذت من الأيام قبل الأذى حِذري
أعاتب أيامي على ما أصابني ... وما في يد الأيام شيءُ من الأمر
ولست إذا لاقيتُ مكراً بنا كص ... ولكنني أستقبل المكرَ بالمكر
إذا رمتَ أن تلقى من الناس حرمةً ... فكن سيداً للخير أو سيد الشر
وإن الفتى الخّوار في حومة الوغى ... إذا لم يمت بالسيف مات من الذعر
وليس يردّ العسكرَ المجرَ غازياً ... لمملكة مُثلى سوى العسكر المجر
وما أنس لا أنس الشبابَ فأنه ... على ما به من خفة غرّةُ العمر
صبوتُ إلى غُرّ الوجوه مُتيماً ... ومَن كان لا يصبو إلى الأوجه الغُرّ؟
وإني ليعروني اضطرابٌ لذكرهم ... كما اضطراب العصفور في مخلب الصقر
وإني كسارٍ ضلّ ليلاً طريقه ... بمذأبة خرقاء أو مهمةٍ قفر
ذكرتُ شباباً كان لي في زمانه ... سوابق آثام فأخجلني ذكرى
أثمتُ وبالطيش اعتذرتُ مُبرّراً ... وأكبرُ من إثمي الذي جئتهُ عذري

ألامُ على حبي لدنيايَ هذه ... وما حيلتي إن كان قلبي بها يغري
صحوت غداةَ الشيب من سكرة الصبا ... ويا رُبّ صحوٍ كان شراً من السكر
وكان نصيبي في الشباب ابتسامةً ... تلوح على عين الحبيبة والثغر
قد ازدان بالألماس والزَهر فرعُها ... كما ازدان ليل الصيف بالأنجم الزُهر
ولما تفارقنا شجاني بكاؤها ... وما نثرت تلك المدامعُ من دُرّ
أذال هوانا الدمعَ والعقل صانه ... فموقفُه بين المذلّة والكبر
وماذا لليلي جدّ حتى تغيرت ... فأني وليلى كنت كالماء والخمر
تعيرني بالشيب وهو مصيرُها ... كأني وإياها إلى غايةٍ نجري
أبالقلب مني تهزئين إذا صحا ... ولكن هذا القلب ينبض بالشعر
منحتك حبي خالصاً فهجرتني ... وأسرفتِ يا ليلى الجميلة في الهجر
وللبلبل الصداح في كل روضة ... عرائسُ يبثن الغرامَ من الزّهر
ويبسمن للصيداح من فرح به ... ويرمينني للشيب بالنظر الشزر
وللزهر مثل الغانيات لواحظٌ ... وفي تلكم الألحاظ شيءٌ من السحر
عيون رمتني بالسهام مريشةً ... بأهدابها من حيث أدري ولا أدري
سأهبط قبراً بعد حُمّى تميتني ... سلامٌ على الحمّى، سلامٌ على القبر
وإني لأخشى دفنهم لي بحفرة ... فيدُفن للنسيان فيها معي فكري
تموت اعتبارات الفتى عند موته ... فلا حسنَ في عُرفٍ ولا قبحَ في نكر
وأطْولْ بليل القبر والقبرُ ضيّقٌ ... ونوميَ في جوف التراب مدى الدهر
وددتُ لو أني قد يقضتُ من الكرى ... على صيحة الصيداح في مطلع الفجر
طريقُ حياتي لم يكن متساوياً ... فوعرٌ إلى سهل وسهلٌ إلى وعر
أرى المرَءَ مضطراً لما هو فاعَل ... وإن خال جهلاً أنه غير مضطرّ
ولستُ أخاف الشكَّ في كل ما رووا ... ولكنّ بعض الشكّ يأكل من حِجري
لمن تكتب الأرواحُ في اليمّ مألكاً ... فإني أرى الأمواجَ سطراً إلى سطر
مكانك لا تطلب من الدهر مخرجاً ... فأنك أني سرت في قبضة الدهر
وليس أنيناً ما له أنت سامعٌ ... ولكنه شكوى الغريق إلى البحر
لقد جرّد الدوحَ الخريفُ وليته ... لأطياره أبقى على الورق النضر
فَروضٌ ولكن لا رواء لزهره ... فهل فيه لاقى الزهرُ شحّاً من القطر
إذا لم تكن تشكو الأزاهيرُ كربةً ... فما بالها ليست بباسمة الثغر

بحر الحسد

للأستاذ عبد الرحمن شكري

مقدمة:

الحياة هي بحر الحسد، ويسعى الناس في الحياة لأرزاقهم وجاههم بالكيد والمكر كأنما يسبحون في بحر من الحسد، وقد يدفع بعضهم بعضاً كي يظهر الدافع على متون أمواجه، وقد يعين بعضهم بعضاً في الأحايين. أما المجاملة في الحياة والتحيات فقد تكون أشبه بلألاء الشمس على سطح الماء، يخفي بجماله ما في البحر من قبح وبلاء (الناظم)

يسبح الأحياء في بحر الحسد ... فاعتصم بالصبر فيه والجلَدْ
واقتعد صهوته مستبشراً ... سابحاً في الموج منه والزَّبد
ضاحكاً من عنت الأمواج لا ... يُدفَعُ الغائلُ منها بالكمد
أنظر الأمواج في الشط تَجِدْ ... لُجَّها منهزم الأمر بدد
إن علت موجة حقد فاصطبر ... أي موج في ذرى اليمَّ خلد
وإذا ما رمَّة لاحت فلا ... تحسب الرمة فيه كالسند
وإذا لألأت الشمس على ال ... يمَّ أخفت قبح ما دون الزبد
كمقال الحب يُخْفى كَيدهُ ... إن سطا في العيش في لؤم وحِقْد
وإذا غار بك الماءُ فقل ... كم حسام في قراب قد غُمِد
رب دُرٍّ فيه لا تأمله ... إن من غاص على الدر وجد
درة مخبوءة أنت إذا ... ما طفا باللؤم إن أغرقْتَ وغد
أنجد السابح إن خار وكن ... للذي أشفى على الهُلْكِ عّضُد
ليس مجد الغدر أحجى بالفتى ... أي مجد ناله الأوغاد مجد

أحمق الناس جهول خائف ... كلما لاح له برق ورعد
ليس في العيش ولا الموت أذى ... إنَّ من سار على الدرب ورد
لا يلذ الموتَ إلا مُتْعَبٌ ... سهر العيش وفي الموت رقد
رقدةٌ يا طيبها من رقدة ... بعد أن عانى وأبلى وسهد
الشادوف
بقلم محمود حسن إسماعيل
دَعْ نايَكَ الشَّادي بلا تَعْزيفِ ... طربَ الخيالُ لأنَّة الشادوفِ
عُرْيانُ جَرَّدَه الضحَى مِن سِتْرِهِ ... فغدا يضِجُّ بدمْعِه المذْروف
لم يُرضهِ ثَوْبُ السَّنا سِدْلاً له ... يخْتالُ في بَهجَ ولَمْحِ شُغوف
فبكى ونكَّس رأسه مُتَذَلِّلاً ... متحسَّراً كالعاشق الملْهوف
فإذا تقاعس خِلْتَهُ في صَمْتِهِ ... جُثْمانَ مصلوبٍ بغَيْر كُفُوف
بَترَتْ سواعده الليالي، وانبرتْ ... تُبْليه في سخَطٍ وفي تعْنيف
وإذا جَثا ألفَيْتَهُ متعِّبداً ... طهُرَتْ سرائُرهُ من التّزييف
سجَداتُهُ في النّبْع قُبْلَةُ والهٍ ... طبِعَتْ على سَلْساله المرشوف
صَدْيان قدَّم للوُرود شرابَهُ ... وأعارَ أدْمُعَهُ لقلب الرِّيف
فيظلُّ يَظمأ عارياً، والزَّهْر في ... رِيِّ، ونبْتُ الحقل في تفويف
ثاوٍ على الجُبِّ العَميق كأنّهُ ... أعمى على جُرُفٍ هنالكَ موفي!
جبارُ أفزعه الرَّدى فتقَلْصَتْ ... أضلاعُه من صَرْعَة التخويف
فتخالُه في الوهْم جُثّةَ ماردٍ ... ضجِرَتْ لهوْلٍ في القبور مخيف
فأعارتْ الأكفان ثوْرةَ حانِقٍ ... بَرِمتْ بِحَتفٍ فالتقتْ بحتُوف
يا صامتاً والريحُ تَخْفُقُ حَوْلَه ... والنّبتُ يطربُه بسجْع حَفيف
وتصايحُ الغِرْبان يُنْذرُ مَرْجَه ... بحَصيدٍ سافَيةٍ، وجَدْب خَريف
وربابةُ الرّاعي تُهدْهِدُ عِنْده ... قلْباً يَهيم بلَحنِها المعْزوف
سَكْرَى من الأنْغام أسكَرَ شَدْوُها ... آذان ثاغِيَةٍ وسِمْع خَروف؛
هلاّ شَجَتْكَ نُفاثةٌ من بائِسٍ ... لهفانَ في كنَف الأسى ملْفوف
روّى الزُّروعَ بصَّيبٍ من دَمْعِهِ ... وثوَى بقلب في الظلام لهيف!
محمود حسن إسماعيل
فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية
تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا
الناحية السلبية من مذهب نيتشة
الإنسان للأستاذ خليل هنداوي
يرى نيتشه شريعة العبيد ومثل الزهد وسلطة الكاهن تقوم أركانها على جملة أكاذيب فارغة؛ وهو لا ينظر إلى الشريعة المسيحية نظرة الرافض لها، وإنما يجد فيها خطراً كبيراً وتدميراً. إن قطيع المنحطين وقائدهم كاهنهم الزاهد تراهم وقد قضي عليهم بأن يغمضوا أعينهم عن بيان أصول الأشياء، لكي يضعوا - موضع الامتحان والحقيقة التجريبية - شريعتهم وقيمهم الوهمية الضالة التي عالجوا بها حل أسرار الوجود. لو أدرك المريض حقيقة أمره، وعرف مكان عافيته، وموطن شفائه، وعلم أن علاج الكاهن لا يزيح من ألمه الحقيقي شيئاً، وإنما هو علاج ظاهر يعمل على تشديد الألم بدلا من أن يعمل على تخفيفه وشفاء صاحبه؛ لو علم ذلك كله لرأيت العمارة المسيحية قد انهارت دعائمها واندكت صروحها. إن المنحط الضعيف يتحرى عن مخفف حقيقي لآلامه عند الطبيب أو عند الموت. وقد أحس الكاهن هذا الخطر فأخذ يحدث قرناءه دائماً عن الإيمان، وهو الاقتناع المبني على غير العقل، عن الإيمان الذي لا يحفل بحقيقة الأشياء، وهل الإيمان بحقيقته إلا أن تفرض وهما تشعر بضرورةوجوده في الحياة، تفرض وجوده بأي ثمن كان
في كل عصر يرى الكاهن في الحكمة الدنيوية والعلم الواقعي الذي يدرس الوجود للعلم، غير حافل بقواعد الدين، يرى الكاهن فيهما خصمين عنيفين، وهو يحلل كل وسيلة تصرف الإنسان عن التأمل في الأشياء بعين نفسه، وعن جلاء الحقيقة عارية مجردة من غير تشويه. وهذا ما لا يتساهل فيه نيتشه، ولقد يغفر للمسيحية ما تبث في الإنسانية من آلام، وما عسى يضر الألم الإنسان إذا كان الألم يصفيه؟ وفي الحقيقة

نرى الإيمان الديني قد خلق أرواحاً كثيرة أفادت البشر؛ ولم يكلف نتشيه نفسه بيان الآلاء التي قامت بفضل ثورة العبيد فأغنت النوع الإنساني وظلت من الانقلابات المعتبرة في التاريخ. ونتشيه يعجب بالمنطق العظيم في المنطق الديني الكاذب، وبالمذهب الذي ابتدعه وظل يغذي الناس طيلة
عشرين قرناً بالأوهام الخيالية، وقد يعجب بالكاهن برغم أنه ينطوي على إرادة شريرة، لأن إرادته تستمد شعورها من نفسها، لا تحوك الأوهام حول الهدف الذي تقصده ولا حول الوسائل التي تصطنعها. وأما يستفز غضب نيتشه من العالم المسيحي فهو ذلك المحيط القدسي الذي يحيط به، وذلك المزيج من المكر والغباوة والطهارة الكاذبة التي يتظاهر بها رجال الإيمان. فاستفاق في نتشيه شعوره الوحشي وحبه للطهارتين المادية والروحية، وجرأته في الذهاب وراء أقصى ما أشرف عليه عقله، فثار وتمرد على هذا التدليس كله، ثم انصرف عن هذه الجماعة، وفي قلبه سأم من رجالها الذين غدا الوهم عندهم جزءا من الأجزاء التي لا يتم بدونها الوجود؛ وهم لا يعرفون أنفسهم حين يخدعون ويخادعون وحين يكونون صادقين، يعيشون أسرى أوهامهم حين يريدون أو لا يريدون؛ وأعلن بأن المسيحية هي المسئولة عن تسميمها للبيئة العقلية والأدبية في أوربا.

على أن جهود الكنيسة كلها في مناضلة العلم ذهبت عبثاً، ومقاومتها للعقل البشري انطلقت أدراج الرياح؛ فان في أوربا كثيرين من علماء الطبيعة - على اختلاف مناهجهم ومدارسهم - يعيشون في غير أكناف الدين والإيمان؛ هؤلاء هم أعداء الكاهن. ولكن سائلا يسأل: وما بال عقول هؤلاء لم تضع سداً يمنع تأثير الوهم المسيحي؟ وكيف لم يفلح أصدقاء الطبيعة والحياة والعافية في تحطيم القيم المسيحية؟

كان جواب نتشيه على هذا السؤال جواباً أدبيا، يقول: إن هؤلاء العلماء لا يؤمنون بعلمهم، ومعنى ذلك أنهم لا ينصرفون إلى تبديل المثل الأعلى الديني بمثل أعلى عندهم؛ أو أنهم يؤمنون بعلمهم ويأتون بحل جديد للحياة يستمدون مادته من المثل الأعلى المشيد على الزهد؛ أو أن رجال العلم هم رجال متوسطو الإدراك، عاجزون عن إبداع شريعة جديدة؛ أو أنهم قوم زاهدون محتالون عالمون؛ لا يختلف جوهر مثلهم الأعلى عن مثل الكهان

يشبه نتشيه هذا العالم (المتوسط) بامرأة عجوز لا تلد ولا تنجب. وهو قليل القناعة بنصيبه

ولآن فلننظر في تعريف رجل العلم!

إن رجل العلم يتصل نسبه بذرية بشرية غير شريفة. تنطوي نفسه على خلال ذرية غير شريفة، ذرية لا تأمر ولا تملك السلطة، ولا تغني شيئاً. إنه عامل دائب يدرك بشعوره حاجات قرنائه. إنه وارث أمراض ذرية غير نبيلة، ملك عليه الزهور ومشى لا يتحرى إلا عن الأشياء السفلية في الطبائع. أما العظمة فهي بعيدة المنال عنه. وإن مما يجعل العالمجليل الخطر شعوره الباطن بأنه من ذرية متوسطة، فهو والحالة هذه يدأب عاملاً على إبادة الرجل (الشاذ)

ولا ريب أن العالم يحيا بعيداً عن كل إيمان؛ ألا ترى فطرته في كثير من المواطن توائم فطرة رجل الدين، ثم يخالفه ويفر من ملامسته وملامسة أمثاله، لأنه يعتقد كل الاعتقاد بأن رجل الإيمان هو نموذج سفلي في البشرية، وأن رجل العلم هو أسمى منه. على أن هنالك هوة سحيقة تفصل بين رجل الدين رجل الإرادة الكبيرة المريضة، المقاتل الظافر بفضل هذه الإرادة، والخالق قيماً يعتقد بصحتها، وبين هذا الرجل العالم الجريء، هذا القصير المعجب بنفسه وعلمه. يعمل كما تعمل الآلهة ليزداد ضلالاً، ولينعتق من التفكير، وليزيح من سبيله هذه المسائل المغلقة! قد يكون عمله حسناً لو كان يعمل مستوحياً نفسه، لكنه يعمل ليكون مأموراً عاجزاً عن إبداع قيمة جديدة عاجزاً عن أن يتذرع بإرادة

لنحكم العالم (غير الذاتي) الذي نضجت فيه الحاسة العملية قد ساد أمره فماذا ينتج منه؟ لا شيء إلا مرآة. . . وآلة لا إرادة لها. . . إنه يشبه المرآة التي تعكس الأشياء، ترتقب حتى تظهر عليها فتعكس مرآها، وإنما غناء في أن يكون معبراً تمر به الأشياء. لا يحس ولا يلمس آلامه الشخصية. يعمل ما يستطيع، ولكن ما يعطيه حقير لا قيمة له. هو لا يأمر ولا يخرب شيئاً، يقول مع (ليبينز): (أنا لا أحتقر شيئا). إنه آلة تتجلى فيها

العبودية والخضوع والطاعة. مفتقر إلى معلم يهديه إلى الغاية المقصودة. وهو ليس بعلامة حركة جديدة، ولا بعلة أولى. إنه وا أسفاه ليس بمعلم. إنه وعاء فارغ يتخذ لون السائل المراق فيه، إنه فاقد الشخصية

ثم هاجم نيتشه الشكوكيين الذين يصل بهم علمهم إلى حيرة يتساوى فيها العود والهبوط، والعلم والجهل، وإنما يتميزون من رجال العلم بأن هؤلاء عاملون دائبون كالآلات؛ أما الشكوكيون فهم عقول أضعفها تريضها الزائد في العلوم، وهم ليسوا بشيعة واحدة، فمنهم المضطرب والمعتدل المزهو بنفسه، ومنهم النفس التي تبذل الجهد في كشف أسرار الوجود وقد دوختها أسراره حتى غدت تروح وتغدو كالخيال الدقيق ليس له من قرار

ألا ترى إلى زرادشت - نبي نيتيشه - المبشر بالسوبرمان قد سحب وراءه خيالا من هذه

الأخيلة الضالة، رافقته في كل مراحله، قد طلقت كل أيمان كان فيه عزاء، وحطمت كل الأوثان، وفقدت أيمانها بالأسماء الكبيرة والرموز الفخمة حتى أضاعت غايتها في النهاية، وضلت في زوايا الوجود الموحش هائمة بدون حب ولا رجاء ولا وطن. رآها زرادشت فلم يتمالك نفسه من الإشفاق عليها

قال بكآبة: أنت ظلي -!

إن الخطر الذي تفر منه ليس بحقير أيها المسافر!

إن أمامك نهاراً سيئاً فاحترس من أن يكون مساؤك أسوأ. إن السجن لأمثالك الطائشين قد يصبح نعمةً لهم

أرأيت هؤلاء العاتين المفسدين، يجرجرون في قيودهم!

هؤلاء ينامون نوماً هادئاً لأنهم مرتاحون بطمأنينتهم

أحترس في النهاية أن تغدوا سجين إيمان ضيق ووهم قاس مرعب. على أن كل ما هو ضيق قاس هو لك فيه إهواء وخديعة

أنك أضعت الغاية، وكذلك أضعت سبيلك

يالك من نفس ضالة طائشة! يالك من فراشة منهوكة القوى

ولكن رجال العلم ليسوا جميعاً على هذا النحو الذي صوره نيتشه، فهنالك رجال يقين من رجال العلم، علم هؤلاء لا يقف عند قولهم: ماذا ندري؟ هو علم وثاب يخلق إرادة ويبدع شريعة ومذهباً

(يتبع)

خليل هنداوي

القصص

في ذكرى بدر

أبو جهل. . . . لم أكتب رواية، ولكني عرضت مناظر من بدر. . . . . (علي)

للأستاذ علي الطنطاوي

(المنظر الأول)

(في بيت عاتكة بنت عبد المطلب)

عاتكة - يا أخي! والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفظعتني، وتخوفت أن يدخل على قومك منها شرٌ ومصيبة، فاكتم عني ما أحدثت، فانهم إن سمعوها آذونا، وأسمعونا ما لا نحب

العباس - حدثيني، فسأكتم الحديث

عاتكة - رأيت راكباً قد أقبل على بعير له، وحتى وقف بالأبطح، ثم صرخ بأعلى صوته: ألا فانفروا يا لَغدُرُ إلى مصارعكم في ثلاث، فأرى الناس اجتمعوا إليه، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه؛ فبينما هم حوله مثل به بعيره على ظهر الكعبة، ثم صرخ بمثلها؛ ثم مثل به على رأس أبي قبيس، فصرخ بمثلها؛ ثم أخذ صخرة فأرسلها، فأقبلت تهوي، حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضّت، فما بقيت دار من دور مكة إلا دخلها منها فلقة. . . .

العباس - إن هذه رؤيا حق، فاكتميها ولا تذكريها لأحد

(المنظر الثاني)

(في الحرم، وقد غابت الشمس، وجلست قريش في مجالسها من حول الكعبة)

(أبو جهل في رهط من قريش يتحدثون برؤيا عاتكة)
أبو جهل - يا أبا الفضل! إذا فرغت من طوافك فأقبل علينا. . . .
(يقبل العباس)
أبو جهل - يا بني عبد المطلب! متى ظهرت فيكم هذه النبيّة؟
العباس (متجاهلاً) - وما ذاك؟
أبو جهل - الرؤيا التي رأت عاتكة!
العباس وما رأت؟
أبو جهل - كأنك لا تدري؟. . . ألم تحدث بذلك الوليد بن عتبة؟ أما رضيتم يا بني عبد المطلب بكذب الرجال، حتى جئتمونا بكذب النساء؟ زعمت عاتكة في رؤياها أنه قال: انفروا في ثلاث! فسنتربص بكم هذه الثلاث، فان بك حقاً فسيكون، وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء نكتب كتاباً أنكم أكذب أهل بيت في العرب
العباس (وقد غضب) - هل أنت منتهٍ يا مصفّراً. . . .؟ فان الكذب فيك وفي أهل بيتك
(يهم به فيحول القرشيون بينهما)
القرشيون - ما كنت يا أبا الفضل جهولا ولا خرقاً
(المنظر الثالث)
(. . .في بطن الوادي، صباحاً)
العباس (لرجل معه) - لقد لقيت أمس من عاتكة أذىً شديداً لما أفشيت من حديثها، ولم تبق امرأة من بني عبد المطلب إلا أتتني تقول: أقررتم. . . أقررتم لهذا الخبيث أن يقع في رجالكم، ثم قد تناول النساء وأنت تسمع، ثم لم يكن عندك غيرة لشيء مما سمعت. . . . . .
فو الله لأتعرضنَّ له؛ وإن عاد قاتلته، فلقد فاتني منه أمر أحب أن أدركه منه
الرجل - أنظر يا أبا الفضل! هذا أبو جهل خارجاً من باب المسجد يشتدَّ
العباس - ماله لعنه الله، أكل هذا فرقاً مني؟ اذهب فانظر ما شأنه؟
(يذهب الرجل ويرجع على عجل)
الرجل (مضطرباً) - ألا تسمع؟
العباس - ماذا؟
الرجل - هذا ضمضم بن عمرو الغفاري. يصرخ ببطن الوادي وقد شق قميصه، وحوَّل رحله، وجدع بعيره! اسمع
(يتقدمان ويصغيان)
ضمضم - يا معشر قريش! اللطيمة. . . اللطيمة أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه. . . لا أرى أن تدركوها. . . الغوث. . .! الغوث!. .
(حركة واضطراب ولغط وصيحات حماسية)
رجل - هذه والله رؤيا عاتكة!
آخر - والله إن أخذ محمد العير لا تفلح قريش أبداً
آخر - انفروا إلى مصارعكم في ثلاث. إن رؤيا عاتكة كأنها أخذ باليد
أبو جهل - هه! أيظنّ محمد أنها كعير أبن الحضرمي؟. . والله ليعلمنّ غير ذلك. . إنها قريش!
سهيل بن عمر - يا آل غالب! أتاركون أنتم محمداً والصُّباة من أهل يثرب يأخذون أموالكم؟ - من أراد مالا فهذا مالي؛ ومن أراد قوتاً فهذا قوتي. . .
(يتفرق الناس. يستعدون للخروج)
(المنظر الرابع)
(في الحرم، وقت الظهيرة)
أمية بن خلف وسعد بن معاذ سيد الأوس وهو ضيفه وخليله
أمية - تعال فطف بالبيت، فانه وقت الظهيرة ولا يراك أحد
(يطوف سعد بالبيت ويجلس أمية)
أبو جهل (قادماً) - من هذا الذي يطوف بالبيت؟
سعد - أنا. سعد بن معاذ!
أبو جهل - ماذا؟ أتطوف بالبيت آمناً، وقد آويتم محمداً وأصحابه، وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم؟! أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالماً

سعد - أما والله لئن منعتني هذا لأمنعنك ما هو أشد عليك منه: طريقك على المدينة
أمية (لسعد) - لا ترفع صوتك على أبى الحكم فانه سيد أهل الوادي
سعد (لأمية) - إليك عني، فأني سمعت محمداً يقول إنه قاتلك
أمية - إياي؟
سعد - نعم!
أمية - بمكة؟
سعد - لا أدري!
أمية - والله ما كذب محمد
(يسقط أمية خائر القوى)
إذن والله لا أخرج من مكة، إذن والله لا أخرج من مكة
المنظر الخامس
(في الحرم. مساء. قريش في مجالسها، عقبة بن أبي معيط قادم على مجلس أمية معه مجمرة فيها بخور. أبو جهل على أثره)
أمية - ويلك لمن هذا؟
عقبة - لك يا أبا علي. قم استجمره فإنما أنت من النساء
أمية - قبحك الله وقبح ما جئت به
(يصل أبو جهل)
أبو جهل - يا أبا صفوان، إنك متى يراك الناس قد تخلفت، وأنت من أشراف قريش، فسر يوماً أو يومين
أمية - افعل!
(يمشي عقبة وأبو جهل إلى مجلس عتبة وشيبة أبي ربيعة وزمعة بن الأسود وحكيم بن حزام)
أبو جهل - أنتم سادة قريش، وأنتم قادة الناس، فمالكم لا تتجهزون؟
عتبة - لقد استقسمنا بالأزلام فخرج الناهي
عقبة - كلا. ولكنه الفزع من اللقاء
عتبة - ألمثلي يقال هذا؟ والله لولا أنك في بيت الله. . . .
أبو جهل - دعه يا أبا الوليد، فانك اليوم شيخ قريش، فإذا لم تخرج أقام الناس
عتبة - سأخرج
(المنظر السادس)
(يفصلون من مكة، وهم ألف رجل فيهم شيوخ قريش وأشرافها. وقد خرجوا على الصعب والذلول، ومعهم القينات يضربن بالدفوف ويغنين بهجاء المسلمين، وقد أرتج بهم الوادي)
(المنظر السابع)
(ماء في البادية، عليه خباء رجل، وعليه جاريتان تختصمان، يقف عليه رجلان من المسلمين فيستقيان)
الجارية - لا أدعك حتى تقضيني الذي لي
الأخرى - دعيني، فستأتي العير غداً أو الذي بعده، فاعمل لهم، فأقضيك
الرجل لقد صدقت، فستأتي العير غدا أو بعد غد
(يسمع الرجلان فيجلسان على بعيرهما ليلحقا بالمسلمين)
(أبو سفيان يأتي بعد قليل، يتقدم العير وحده)
أبو سفيان - هل أحسست أحداً أيها الرجل؟
الرجل - ما رأيت أحداً أنكره، إلا أن راكبين قد أناخا إلى التل، ثم استقيا في شنّ لهما، وانطلقا
أبو سفيان - أرني مبرك ناقتيهما
الرجل - هو ذاك. . .
(يأتي أبو سفيان المبرك، فيأخذ من أبعارهما في يده)
أبو سفيان - هذا هو النوى، هذه والله علائف يثرب
(ويمضي مسرعاً فينجو بالعير)
(المنظر الثامن)

(في جيش المسلمين، في ذفران، وقد جاءهم الخبر بمسير قريش ليمنعوا عيرهم)
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
إن القوم قد خرجوا من مكة، على كل صعب وذلول، فما تقولون؟ ألعير أحب إليكم من النفير؟
رجل - عليك بالعير ودع العدو
آخر - هلا ذكرت لنا القتال حتى نتأهب له! إنا خرجنا للعير
(يتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم)
المقداد بن الأسود - يا رسول الله! امض لما أمرك الله، فنحن معك؛ والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون. ولكن أذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون. والله الذي بعثك بالحق نبياً لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه نقاتل عن يمينك ومن خلفك حتى تبلغه
(يشرق وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم)
المسلمون - كلنا ذاك الرجل يا رسول الله، ولكنا ظننا أن العير قوّة للإسلام
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أشيروا عليّ
عمر - يا رسول الله! إنها قريش وعزّها، والله ما ذلت منذ عزّت، ولا آمنت منذ كفرت؛ والله لتقاتلنَّك؛ فتأهب لذلك أهبته، واعدد له عدَّته
قال رسول الله (ص): أشيروا عليّ أيها الناس
سعد - لعلك تريدنا معاشر الأنصار يا رسول الله
قال رسول الله: أجل
سعد - قد آمنا بك وصدّقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، ولعلك يا رسول الله تخشى أن تكون الأنصار ترى عليك ألا ينصروك إلا في ديارهم، وإني أقول عن الأنصار، وأجيب عنهم، فصِل حبال من شئت، واقطع حبال من شئت، وسالم من شئت، وعاد من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت لنا، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع أمرك. فامض يا رسول الله لما أردت ونحن معك، والذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا، وإنا لصُبُر في الحرب، صُدق عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينيك، فسر بنا على بركة الله
قال صلى الله عليه وسلم:
- سيروا وابشروا، فان الله وعدني إحدى الطائفتين، فو الله لكأني أنظر الآن إلى مصارع القوم!
(المنظر التاسع)
ماء في البادية عليه شيخ من العرب، يقدم عليه رسول الله وأبو بكر مستخفيين فيسألانه عن قريش
- ماذا تعرف عن قريش؟
الرجل - لا أخبركما حتى تخبراني من أنتما!
قال رسول الله (ص): إن أخبرتنا أخبرناك
الرجل - ذاك بذاك؟
قال الرسول: نعم
الرجل - بلغني أن محمداً وأصحابه، خرجوا يوم (كذا) فان كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم في مكان (كذا)
أبو بكر (لنفسه) - لقد عرف مكاننا
الرجل (متمما) - وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم (كذا) فان صدق الذي أخبرني فهم اليوم في مكان (كذا). فمن أنتما؟
قال النبي (ص): نحن من ماء!
أبو بكر (لنفسه) - فلينظر الإنسان مم خلق، خلق من ماء دافق
الرجل (متعجبا) - من الماء؟ أمن ماء العراق؟ أمن ماء الشام؟
(المنظر العاشر)

(في بدر الماء الأدنى من المدينة)
الحباب - يا رسول الله! أرأيت هذا المنزل، أهو منزل أنزلكه الله تعالى، ليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟
قال: بل هو الرأي والحرب المكيدة؟
الحباب - يا رسول الله! إن هذا المنزل ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ما من القوم فتنزله، ثم نغوّر ما عداه من القلب، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه، فنشرب ولا يشربون
قال النبي (ص): لقد أشرت بالرأي
(يتقدم المسلمون)
(المنظر الحادي عشر)
(في بدر على الماء الأدنى من القوم)
سعد: يا نبي الله! ألا نبي لك عريشاً من جريد تكون فيه، وتعد عنك ركائبك، ثم نلقى عدونا، فان أعزنا الله تعالى وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى، جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا، فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن بأشد لك حباً منهم، لهم رغبة في الجهاد ونية؛ ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك إنما ظنوا أنها العير،
يمنعك الله بهم ويناصحونك، ويجاهدون معك
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
أو يقضي الله خيراً من ذلك يا سعد -
(المنظر الثاني عشر)
(قريش في الجحفة في طريقهم إلى بدر)
رسول - يا معشر قريش! قد أرسلني إليكم أبو سفيان إنه قد نجا بالعير، فارجعوا فأحرزوا عيركم
أبو جهل - سوءة لك! والله لا نرجع حتى نحضر بدراً فنقيم عليه ثلاثة أيام، ننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان، فلا يزالون يهابوننا أبداً
الرسول - هذا بغي، والبغي منقصة وشؤم
أبو جهل - صَه قطع الله لسانك
الأخنس - لقد صدق الرسول، وأنا راجع بقومي
يا بني زهرة! قد نجى الله أموالكم وخلّص لكم صاحبكم مخرمة بن نوفل، - (لقومه) وإنما نفرتم لتمنعوه وماله، فاجعلوا بي حميتها، وارجعوا فانه لا حاجة بكم إلى أن تخرجوا في غير منفعة
(ضجة وهياج ولغط. . . ينفرد الأخنس بأبي جهل)
الأخنس - أترى محمداً يكذب؟
أبو جهل - ما كذب قط؛ كنا نسميه (الأمين)، ولكن إذا كانت في بني عبد المطلب السقاية والرفادة والمشورة ثم تكون فيهم النبوة، فأي شيء يكون لنا؟
الأخنس - أنت والله تحسده
(يرجع الأخنس وبنو زهرة)
(قادماً) - يا معشر قريش! لقد ذهبت في الوادي، أحزر أصحاب محمد، عمير بن وهب أنظر هل للقوم كمين أو مدد فأبعدت فلم أر شيئاً، وأنهم لثلاثمائة رجل؛ يزيدون قليلاً أو ينقصون قليلاً، ولكني رأيت البلايا تحمل المنايا: نواضح يثرب تحمل الموت النافع، ألا ترونهم خرساً لا يتكلمون؛ يتلمظون تلمظ الأفاعي، لا يريدون أن ينقلبوا إلى أهليهم؛ زرق العيون كأنهم الحصى تحت الجحف، ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم؛ والله ما نرى أن نقتل منهم رجلاً حتى يقتل رجل منكم، فإذا أصابوا منكم أعداها فما خير العيش بعد ذلك! فروا رأيكم
حكيم بن حزام (لعتبة) - يا أبا الوليد! إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها، فهل لك لا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر؟
عتبة - وما ذاك يا حكيم؟
حكيم - ترجع بالناس وتحمل دم حليفك عمرو بن الحضرمي
عتبة - هذا والله الرأي، فأدع لي الناس

(يدعوا الناس)
عتبة (خطيباً) - يا معشر قريش! أنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً؛ والله لئن أصبتموه لا يزال رجل منكم ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه، قتل أبن عمه وأبن خاله، ورجلا من عشيرته. ارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب، فان أصابوه فذاك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك كفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون. أي يا قوم! إعصبوها اليوم برأسي وقولوا: جبن عتبة، وانتم تعلمون أني لست بأجبنكم. . . . . .
يا قوم أطيعوني فأنكم لا تطلبون غير دم أبن الحضرمي وما أخذ من العير وقد تحملت ذلك. يا معشر قريش! أنشدكم الله في هذه الوجوه التي تضيء ضياء المصابيح أن تجعلوها أندادا لهذه الوجوه التي كأنها عيون الحيات
(يسكت عتبة ويلغط القوم لغطاً شديداً)
رجل - نعما يقول أبو الوليد!
آخر - هو والله الرأي
آخر - عتبة سيد الناس فأطيعوه
عتبة (لحكيم) - انطلق إلى أبن الحنظلية
(يذهب حكيم)
حكيم (لأبي جهل) - إن عتبة أرسلني إليك لنرجع بالناس، وهو يحمل دم حليفة أبن الحضرمي
أبو جهل - أهو يقول هذا؟ والله لو قاله غيره لأعضضته إنتفخ والله سحره! كلا والله، لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد
(يرسل أبو جهل إلى عامر بن الحضرمي)
أبو جهل (لعامر) - هذا حليفك، عتبة بن ربيعة يريد أن يرجع بالناس، ويخذلهم عن القتال. وقد تحمل دية أخيك من ماله يزعم أنك قابلها، ألا تستحي أن تقبل الدية من مال عتبة، وقد رأيت ثأرك بعينك، فقم فاذكر مقتل أخيك
(عامر يتكشف ويجثو عليه التراب)
عامر (صائحاً) - واعمراه. . . واعمراه!
(يهيج الناس ويتحمسون)
حكيم (لعتبة) - لقد أثارها
عتبة - دعه فسيكون شؤماً وبلاء على قومه.
(المنظر الثالث عشر)
اشتعلت الحرب وقتل المسلمون عتبة وشيبة والوليد ورجع سراقة وكان قد أجارهم (من كنانة)
أبو جهل - يا معشر الناس! لا يهمنكم خذلان سراقة فانه كان على ميعاد من محمد، ولا يهمنكم قتل عتبة وشيبة والوليد، فانهم قد عجلوا، واللات والعزى لا نرجع حتى نقرن محمداً وأصحابه بالحبال. . . .
يا معشر قريش! لا تقتلوهم. خذوهم أخذ اليد
(يخرج رسول الله من العريش فيحض الناس على القتال)
أما والذي نفس محمد بيده، لا يقاتلهم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبرا، إلا - أدخله الله الجنة
(عمير بن الحمام يأكل ثمرات بيده)
عمير - بخ بخ. . . ما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء؟ فان حييت حتى آكل ثمراتي
(يلقي الثمرات ويقدم)
عمير (هاجماً)
ركضاً إلى الله بغير زاد
إلا التقى وعمل المعاد
والصبر في الله على الجهاد
وكل زاد عرضه النفاد
غير التقى والبر والرشاد

(تزداد الحرب اظطراما)
(المنظر الرابع عشر)
(قريش تنهزم، أبن مسعود يفتش بين القتلى عن رجل)
عبد الله - هل أخزاك الله يا عدو الله؟
(يضع رجله على عنق أبي جهل وهو على آخر رمق)
(المنظر الخامس عشر)
أبو جهل - وبم أخزاني؟ أعار على رجل قتلتموه؟ أخبرني لمن كانت الدبرة لنا أو علينا؟
عبد الله - بل لله ولرسوله!
(. . .في الحرم وقد جلس أبو سفيان وأبو لهب في ناس من قريش ينتظرون الأخبار)
أبو لهب. . . هذا أبن عبد عمرو! وما وراءك يا أبن عبد عمرو؟
أبن عبد عمر - فنيت قريش! قتل أبو جهل وعتبة وشيبة وزمعة وأمية بن خلف. . . . . لقد ظهر الإسلام! فسيظل غالباً إلى يوم القيامة. . .!. . وذلت الأصنام فلا تعز إلى يوم القيامة. . . . .!

علي الطنطاوي

البريد الأدبي

آنساتنا والثقافة الأجنبية

ثار أخيراً في مجتمعنا الأدبي حوار طريف، بين الكاتب الفكه الأستاذ فكري أباظه وبين بعض آنساتنا المثقفات؛ فالأستاذ ينعى على أولئك الآنسات المثقفات أنهن برغم ثقافتهن الواسعة الفرنسية والأدب الفرنسي، لم يتزودن بأي قسط من العربية والأدب العربي، وأنهن يكدن يعجزن عن أن يعربن عن آرائهن بالعربية، وأنهن يبالغن في الانصراف إلى الفرنسية وإلى الكتابة بها. وقد حاولت إحدى الآنسات اللائي يوجه اليهن هذا اللوم، وهي من أعضاء الاتحاد النسائي المصري أن تدافع عن موقفهن، فضربت مثلاً بإحدى زميلاتها وقالت إنها تعلمت في باريس، ولم تعرف مصر إلا فتاة ناضجة فلا جناح عليها إذن، والتبعة في ذلك - إن كان ثمة تبعة - تقع على أسرتها، ثم قالت: إن أولئك الآنسات يكتبن بالفرنسية لكي يسمعن صوت المرأة المصرية إلى الخارج، وأن العربية لا تقرأ في باريس ولا لندن ولا برلين

ونحن نؤيد الأستاذ فكري أباظه في ملاحظته كل التأييد فأولئك الآنسات اللائي يعتصمن بالثقافة الأجنبية يذهبن في هذا الاعتصام إلى حد الإغراق، وإلى حد الانفصال عن البيئة المصرية والمجتمع المصري؛ وفي رأينا أن مثل هذه الثقافة الأجنبية تفقد كثيراً من قيمتها لأنها لم تقرن بقسط من الثقافة العربية السليمة؛ ولسنا ندري ما المانع في أن تمثل الثقافتان معاً، وذلك أن من المحزن أن نرى أولئك الآنسات يكدن يعجزن عن الإفصاح عن أفكارهن بالعربية العادية فضلا عن الكتابة بها، وليس صحيحاً أن قضية المرأة المصرية تخدم فقط عن طريق الكتابة بالفرنسية، لأن الفرنسية تقرأ في برلين ولندن، فالمرأة المصرية بحاجة إلى التحدث إلى أبناء جنسها أولا وقبل كل شيء، وقضية المرأة المصرية (إن كان ثمة لها قضية) يجب أن تبث في مصر أولا وباللغة العربية قبل كل شيء؛ ولسنا نعرف في الواقع مثلا لهذا النوع الغريب من الثقافة في أي بلد متمدين؛ ففي الغرب لا يمكن أن يحول أي عذر دون تذوق الثقافة القومية، وإذا نهل الراغبون من أية ثقافة أجنبية، فهي دائما إضافة فقط إلى جانب الثقافة القومية؛ ولم نسمع بأن مستشرقا ممن يفنون أعمارهم في دراسة اللغات والآداب الشرقية قد أعجزه تعلم العربية أو الفارسية عن الكتابة بلغته الأصلية؛ كذلك يجب ألا يغيب عن ذهن أولئك الآنسات أن هذا الاعتصام المحزن بثقافة أجنبية يجعلهن في شبه عزلة من المجتمع المصري الصحيح، ويحرم القضية التي يدافعن عنها من كثير من العطف القومي وهو ألزم لها من أي عطف أجنبي، وأن تلك الصلة الروحية التي أنشأتها الطبيعية بين المرء ولغته الأصلية وماضي أمته وتراثها العقلي وهو خير دعامة في صرح الوطنية الصحيحة والعزة القومية الأثيلة

تاريخ الأديب

كتب الكاتب الفرنسي الكبير بيير بنوا عضو الأكاديمية الفرنسية كلمة يصور فيها تاريخ (الأديب). وفي رأيه أن الأديب لم ينشأ محترفاً بطبيعته، ولكنه قطع زهاء عشرين قرنا

قبل أن ينتهي إلى هذه النتيجة؛ فمنذ العصور القديمة، أعني منذ فرجيل وهوراس، وفي خلال العصور الوسطى والعصر الحديث نجد الأديب (هاويا) ينساق إلى ميدان الأدب بفطرته وذوقه، وتحقيقاً لهواه وشغفه؛ وقلنا نجد أديباً أو مفكراً يعمل ليعيش من قلمه؛ بل كان كل هنالك من كتاب وشعراء ومؤرخين يعيشون في كنف الأمراء والكبراء ويلوذون جميعاً برعاية ملك أو عظيم من العظماء، يتخذون مكانهم في بطانته، ويعلمون له كمستشارين أو مدبرين، وإلا عاشوا على مديحه وملقه، أو يتخذهم معلمين لأولاده، أو بوقاً لوحيه؛ وقلما نجد كتاباً كتب في هذه العصور إلا وقد صدر بإهداء وتحية رقيقة لملك أو عظيم، وليس معنى ذلك أن الأديب لم يكن يكسب من قلمه، فقد كان ثمة أدباء يكسبون من ثمرات قرائحهم وأقلامهم، ولكنه كسب ضئيل جدا، لم يكن ليصلح لهم قوتاً أو حياة، ولنذكر على سبيل التمثيل أن راسين قد باع مخطوطة (أندروماك) بما يساوي ألفا ومائتي فرنك. ويستخلص مسيو بيير بنوا من ذلك أن الأديب المحترف لم يخلق مختارا في المجتمع، ولكنه بدأ (هاوياً)، لا تمنعه عبقريته من يكون من ذوي الهوى والشغف، وهذا الهوى ما زال يؤثر أكبر تأثير في تكوينه وفي مصايره

نقول، وهذه الصورة التي يقدمها بيير بنوا عن تاريخ الأديب في بلاد الغرب، ليست بعيدة عن الصورة التي يمكن أن نقدمها عن تاريخ الأديب المشرق؛ فقد نشأ الأديب فيه أيضاً هاوياً يعيش في كنف الأمراء والعظماء، ولم يتقدم في سبيل الكسب إلا بعد عصور؛ بيد أن الكسب الأدبي لم يكن أساسياً في عبقريته أو إنتاجه، ولم يكن قوام عيشه وحياته

ترجمة لجالسوير ذي

منذ نحو عام ونصف توفي جون جالسوير ذي عميد الكتاب القصصين الإنكليز ورئيس نادي القلم الإنكليزي؛ ومن ذلك الحين يعنى جماعة من أصدقائه بوضع كتاب جامع عن حياته، وقد صدر هذا الكتاب أخيراً بعنوان (حياة جون جالسوير ذي ورسائله) بقلم الكاتب والنقادة المعروف مستر هـ. ماروت، وهو مجلد ضخم في نحو تسعمائة صفحة، ولكنه ليس بالكثير على رجل كان طليعة القادة والزعماء في الأدب الإنكليزي المعاصر. وفي حياة جالسوير ذي ما يستوقف النظر، فهو لم ينشأ كاتباً ولا قصصياً، ولم ينزل ميدان الكتابة إلا بعد أن طوى مرحلة الشباب؛ وقد هام في صباه بالرياضة والرحلات، وكان أول عهده بهوى الكتابة رحلةٍ قام بها في البحار الجنوبية؛ وشاءت الأقدار أن يلتقي على ظهر السفينة التي أقلته ببحار فتى بولوني يدعى يوسف كونراد، وقد كان هذا البحار الفتى أديباً، وشاءت الأقدار غير بعيد أن يغدوا كاتباً شهيراً، وأن يكتب بالإنجليزية قصصاً رائعة؛ وكانت صحبة تاريخية بين الكاتبين العظيمين، وكان لقاء له أكبر الأثر في تطور حياة جالسوير ذي

وثمة ظرف آخر كان له في حياة جالسوير ذي وفي تكوينه الأدبي أكبر تأثير، وذلك هو حبه لزوجه، وهو حب كان يشوبه الحزن والألم لما كانت تلقاه هذه الزوجة العزيزة من صنوف الأوصاب المبرحة، وقد أذكى هذا الظرف المؤلم عاطفة الحب عند جالسوير ذي، وأذكى مشاعره الإنسانية، فغدا نصير المكلومين والبؤساء، وأضحى القلم في يده أداة للتعبير عن هذا الحب الإنساني؛ وهكذا أضحى جالسوير ذي مصلحاً وزعيما إنسانياً. ويقال إنه كان ينفق نحو نصف دخله لغوث المنكوبين والبؤساء

هذه الظروف والمواقف المؤثرة في حياة جالسوير ذي يعرضها مستر ماروت في عرضاً قوياً بديعاً، ويورد خلال حديثه للكاتب عشرات الرسائل التي لم تنشر من قبل

جائزة فمينا لسنة 1935

منحت جائزة (فمينا) الأدبية الشهيرة عن هذا العام لسيدة شاعرة، هي الكاتبة والشاعرة الفرنسية كلود سيلف أو الكونته دلافوريه ديفون، وقد نالت السيدة هذه الجائزة بكتابها

المسمى (البركة) وهو قصة شعرية لقصر قديم ترويها سيدة قارئة في زاوية سحيقة من زوايا القصر، وتذكر خلالها طائفة مدهشة من العجائب والخوارق، وقد وصف الكتاب بأنه قطعة من الأدب الساحر، وأنه صورة قوية للأدب النسوي، يفيض رقة ورشاقة، وهو مكتوب بالشعر الريفي القوي المؤثر، وقد صرحت مؤلفته مدام سيلف أنها ما كانت تنتظر قط أن يظفركتابها بمثل تلك الجائزة الخطيرة، لأنها تعتقد أن

جمهور القراء قد انصرف منذ بعيد عن قراءة الشعر، أما الآن فهي تعتقد أن الجمهور ما زال يحتفظ بذوقه الشعري، وأنه في وسع المرء أن يكتب الشعر وأن يقدمه إليه في أدب الشباب

جرت مجلة (آلاباج) الفرنسية على أن تخصص في ديسمبر من كل عام جائزة أدبية قدرها ألف فرنك (نحو خمسة عشر جنيهاً) تمنح عن أحسن قصة صغيرة يكتبها شاب دون الحادية والعشرين. وقد منحت هذه الجائزة هذا العام لطالب طب يدعى (آلان ليجيه) عن قصة كتبها وقدمها بعنوان (الخلاصة)، وتشرف على تخصيص هذه الجائزة لجنة أدبية مكونة من عدة من أعلام الكتاب مثل جورج دوهامل، وفرنسوا مورياك، وبونار. وقد صرح مسيو دوهامل للصحفيين أن القصة التي منحت الجائزة هذا العام هي أحسن قصة للشباب قرأوها منذ أربعة أعوام. والظاهر أن سيكون لهذا الطالب القصصي مستقبل زاهر في عالم الأدب

الكتب

الجزء الثاني من شرح الإيضاح تأليف الأستاذ عبد المتعال الصعيدي

أتمت المكتبة المحمودية التجارية طبع الجزء الثاني من شرح الإيضاح في علوم البلاغة للأستاذ عبد المتعال الصعيدي المدرس بكلية اللغة العربية، وقد نهج فيه نهجه الأول من العناية باللباب في هذه العلوم دون القشور التي يعنى بها فيها، وشرح شواهده، ونسبتها إلى قائليها، وبيان ما دخل هذه العلوم من الأخطاء التي وقعت فيها، ومن ذلك مسألة الوصل والفصل فقد جرى عبد القاهر على أنهما إنما يكونان في الجمل دون المفردات، وفي الواو دون غيرها من حروف العطف، وجرى المتأخرون على أنهما يكونان في الجمل وفي المفردات، وفي الواو وغيرها من الحروف العاطفة، فرد الأستاذ الشارح الحق في ذلك إلى نصابه، وذكر أن العطف في المفردات يجري وراء اشتراكها في الحكم ولو لم يكن هناك بينها مناسبة من المناسبات المعتبرة في مسألة الوصل والفصل، كما جمع بعض الشعراء بين الضب والنون في وصف واد جمع بينهما فقال

زُرْ وادي القصر نعم القصر والوادي ... في منزل حاضر إن شئت أو بادي
ترقيَ به السَّفْنُ والظّلمانُ حاضرةٌ ... والضَّبُّ والنُّونُ والملاح والحادي

ولو جرت المفردات في ذلك مجرى الجمل لما صح لهذا الشاعر عطف النون على الضب، لأنهم يقولون في الجمل إن الجمع بين غير المتناسبين فيها كالجمع بين الضب والنون؛ وقد تحس مراعاة تلك المناسبات بين المفردات في الخيال الشعري، لأن الأمر فيه يجري على الخيال لا على الحقيقة. وقد اجتمع نصيب والكميت وذو الرمة فأنشد الكميت:

أم هل ظعائن بالعلياء رافعة ... وإن تكاملَ فيها الدل والشنب

فعقد نصيب واحدة؛ فقال له الكميت ماذا تحصى؟ فقال خطأك، فأنك تباعدت في القول! أين الدل من الشنب؟ ألا قلت كما قال ذو الرمة

لَمياءُ في شفتيها حوّةٌ لَعَسٌ ... وفي اللثات وفي أنيابها بَرَدُ

فالدل يذكر مع الغنج وما أشبهه، والشنب يذكر مع اللعس وما أشبهه

وكذلك عيب على أبي نواس قوله:

وقد حلفت يميناً ... مَبرورَةً لا تكذبْ
برب زمزم والحو ... ض والصفا والمحصب

فإن ذكر الحوض مع زمزم والمحصب غير مناسب، وإنما يذكر الحوض مع الصراط والميزان وما جرى مجراهما

وإنما يحسن من ذلك مثل قوله تعالى (يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها) لما بين ذلك من تقابل التضاد، وكذلك قول البحتري في رثاء المتوكل:

ولم أنْسَ وحش القصر إذ رِيعَ سِرْبُهُ ... وإذ ذُعِرتْ أطلاؤُه وجآذِرُهْ
تحمل عنه ساكنوه فجاءة ... فعادت سواء دوره ومقابره

ولكن ذلك كله يرجع إلى محسنات بديعية، ولا يرجع إلى ما يجب في اعتبار الوصل والفصل بين الجمل

وقد جرى الأستاذ الشارح على هذا المنوال في تحقيق أمثال هذه المسألة، فجزاء الله خيرا، ومنح شرحه ذيوعاً.
(ص)
العدد 131 - بتاريخ: 06 - 01 - 1936
الرسالة في عامها الرابع
تُحَيِّ الرسالة عامها الرابع بوجه مشرق بالرضى، وثغر مُفْترٍ عن الأمل، ولسان رطيب بالحمد؛ وتسأل الله سبحانه أن يزيدها نَفَسا في الأجل، وثباتا في العمل، وإخلاصا في النية؛ ثم تقف على رأس هذه المرحلة الجديدة وقفة المستجم الذاكر، تستمد القوة من الإيمان، وتستروح النشاط من الصبر، وتستخرج الصواب من الخطأ، ثم تبادل أصدقاءها الخلص ولاء بولاء ووفاء بوفاء وتحية بتحية.
تعالوا يا رفاق الروح وإخوان الفكرة نتناقل شجون الحديث في هذه البرهة التي ينسدل فيها ستار ويرتفع ستار، وينتهي من رواية الحياة فصل ويبتدئ فصل. ماذا سجل العام المنصرم في صفحته المطوية عن حياتنا العقلية؟ هل استقر لنا أدب خاص؟ هل صدر عنا إنتاج مستقل؟ هل ظهر فينا زعيم موهوب؟ هل غلبت علينا ثقافة واحدة؟ هل تسايرت أفكارنا إلى غاية معينة؟ هل اتصل أدبنا بالأدب العالمي المشترك؟ هل اتسع نطاق الأدب العربي فشمل نواحي الفن؟ تلك أسئلة يتشقق في أجوبتها الرأي، ثم لا يجتمع لك منها ما يوضح مبهماً ويحدد فكرة. وحسبك من ضعف الشيء أن تتعارض الأقوال في وجوده.
مما لا ريب فيه أن هناك أدباً متميز بفنه عن كل عصر، وإنتاجاً أستقل بأصالته عن كل نقل، وأسلوب أنفرد بخصائصه عن كل مذهب، واتجاها تنزه بمراميه عن كل عبث؛ ولكن هنالك أيضاً تنوعاً في مصادر الثقافة يباعد وجوه الرأي، وضلالا في فهم الأدب يزيف حقائق الفن، وإمعاناً في استيحاء الغرب يفسد روح القومية. فأحمد أمين، والرافعي، وطه حسين، والعقاد، والمازني، وهيكل لا تكاد تجد لهم في الأدب الموروث أشباها في سلامة المنطق وعمق التفكير وصدق الأداء وأصالة الإنتاج. وهم على اختلاف ثقافتهم متفقون على بناء الجديد على أساس القديم، وإذكاء الفكر الشرقي بالفكر الغربي، وتلقيح الروحية العربية بالمادية الأوربية، وإيثار الأسلوب البليغ المشرق في حدود الفن البارع السليم؛ وقد ظهر اتحاد وجهتهم جليا فيما نشروه هذا العام من مقالات ومحاضرات وكتب، وسينتهون متى استقرت أمور البلد، واستقلت إدارة الشعب، وهدأت ثائرة النفوس، إلى أدب واضح المعالم، مرسوم الحدود، تحرك جسمه روح، وتجمع أجزاءه وحدة، ويواجه أهواءه غرض.
وعلى هذه الخطة المثلى سارت الرسالة ثلاث سنين كاملة، قطعت فيها ولله الحمد مراحل مطموسة وعرة، ولولا عناية الله لأبدعت المطيُّ وحار الدليل.
لقد كان على الرسالة أن تجاهد خصوماً ثلاثة جمعهم عليها دفاع الطفيلي عن وجوده: زهادة الشباب في القراءة وبخاصة ما كان جدّ يامنها؛ وتلك العلة التي جرها عليهم سوء التعليم وفساد الغيش هي سبب ما نشكوه من بطئ الثقافة وضعف الصحافة وقلة الإنتاج. وطغيان الأدب اللاهي على الأذواق الناشئة، فأصاب الأذهان بالكسل العقلي حتى برمت بالدرس وضاقت بالتفكير وعزفت عن الجد. ثم نفور طائفة من الأدباء لأسباب مرضية من هذه اللغة التي تقرأ، ومن هذا الأدب الذي تذوق؛ فهم يجلبون الأدب الأوربي بمعانيه ومراميه ووحيه، ثم يلبسونه طربوشاً أو عمامة ويقولون له تكلم، فيتكلم على الرضى أو على الكره، ولكنك لا تسمع بالطبع إلا عربية كعربية الرومي في البار، أو الإيطالي في المتجر!
قالت الرسالة لهؤلاء: مادمتم تكتبون بالعربية فلا بد من فنها وأدبها؛ وما دمتم تعيشون في الشرق فلا بد من إلهامه وطابعه. أما أن تحاولوا طمس حدود الأرض، ونسخ قوانين الطبيعة، وقطع سلسلة الزمن، فذلك مجهود لا يضعه الناس إلا في قرارة الحمق.
فقالوا إننا ننشر ثقافة العصور المظلمة، ونجدد أساليب البيان القديم! يريدون بالعصور المظلمة عصر الرشيد وأبنه المأمون في آسيا، وعصر الناصر وأبنه الحكم في أوربا، وعصر العزيز بالله وأبنه الحاكم في أفريقيا! وهي العصور الثلاثة التي جلت عن الأرض دياجير القرون فكشفت الأفق للإنسان، وهيأت العقل للعلم، وراضت البربر على

الحضارة! وهم في ذلك أيضاً يقلدون الكتاب الأوربيين في نعتهم عصور الجرمان بالظلام، كأنما ظنوا قبائل البربر من جزيرة العرب!!
ثم يريدون بأساليب البيان القديم تلك الأساليب التي تجري على قواعد الفن فلا يشوهها لحن ولا تتعاورها ركاكة. قطعوا أنفسهم عن الموارد الروحية لهذه اللغة فصاغوها من حروف الهجاء، لا من الأعصاب والدماء، ثم آذوا فطرة الإنسان فجعلوا قوة الأسلوب عيباً، وجمال الصياغة نقيصة.
ليس في أسلوب الرسالة ما يشبه القديم إلا في الصحة. إنما هو اختيار اللفظ الجميل القوي للمعنى الجديد القوي ليس غير. أما اطراد النسق، وحلاوة الجرْس، ونبض الحياة في الكلمة، وإشراق الدلالة في اللفظ، وامتزاج الكاتب بالجملة، وبراءة الأسلوب من اللغو، فذلك هو الفن الذي يعيش ما عاش الناس، ويُعجب ما سلمت الفطرة.
فالرسالة بين هؤلاء الخصوم الثلاثة إنما تنحت في الصخر طريقها الطويل! تسير ببطيء ولكنها لا تقف، وتعالج برفق ولكنها لا تهن، وتصطدم بالأحداث ولكنها لا تحيد. على ذلك تجدد لأصدقائها وقرائها العهد والعزم معتمدة على فضل الله، مطمئنة إلى عطف الأمة، متكئة على عون الشباب، ممتدة بإيمان القلب، معولة على إتقان العمل؛ وفي بعض ذلك الضمان الأوفى والسند الأقوى والمرفأ الأمين.
أحمد حسَن الزيات
اجتلاء العيد
للأستاذ مصطفى صادق الرافعي
جاء يومُ العيد؛ يومُ الخروج من الزمن إلى زمنٍ وحدَهُ لا يستمرُّ أكثر من يوم. زمن قصير ظريفٌ ضاحك، تفرضُهُ الأديان على الناس، ليكون لهم بين الحينِ والحينِ يومٌ طبيعيٌّ في هذه الحياة التي انتقلت عن طبيعتها.
يومُ السلام، والبشرْ، والضحك، والوفاء، والإخاء، وقول الإنسان للإنسان: وأنّتم بخير. يومُ الثيابِ الجديدة على الكل إشعاراً لهم بأن الوجه الإنسانيَّ جديدٌ في هذا اليوم. يومُ الزينة التي لا يراد منها إلا إظهارُ أثرها على النفس ليكون الناس جميعاً في يوم حب.
يومُ العيد؛ يوم تقديم الحلوى إلى كل فم لتحلوَ الكلمات فيه. . . .
يوم تعمُّ فيه الناسَ ألفاظُ الدعاء والتهنئة مرتفعةً بقوةٍ إلهية فوق منازعات الحياة. ذلك اليومُ الذي ينظر فيه الإنسانُ إلى نفسه نظرةً تلمحُ السعادة، وإلى أهله نظرةً تبصر الإعزاز، وإلى داره نظرةً تدرك الجمال، وإلى الناس نظرةً ترى الصداقة. ومن كل هذه النظرات تستوي له النظرة الجميلة إلى الحياة والعالم؛ فتبتهج نفسُه بالعالم والحياة.
وما أسماها نظرة تكشف للإنسان أن الكلَّ جمالُه في الكل!
وخرجتُ اجتلي العيدَ في مظهره الحقيقيْ على هؤلاء الأطفال السعداء.
على هذه الوجوه النَّضرة التي كبرتْ فيها ابتساماتُ الرضاع فصارت ضحكات.
وهذه العيون الحالمة التي إذا بكت بكت بدموع لا ثقل لها؛ وهذه الأفواه الصغيرة التي تنطق بأصوات لا تزال فيها نبرات الحنان من تقليد لغة الأم؛
وهذه الأجسام الغضة القريبة العهد بالضمات واللَّثمات فلا يزال حولها جوُّ القلب.
على هؤلاء الأطفال السعداء الذين لا يعرفون قياساً للزمن إلا بالسرور.
وكلٌّ منهم ملكٌ في مملكة؛ وظرفهم هو أمرهم الملوكي.
هؤلاء المجتمعين في ثيابهم الجديدة المصبَّغة اجتماعَ قوسِ قُزَح في ألوانه.
ثيابٌ عملت فيها المصانع والقلوب، فلا يتم جمالها إلا بأن يراها الأبُ والأمُّ على أطفالهما.
ثيابٌ جديدة يلبسونها فيكونون هم أنفسهم ثوباً جديداً على الدنيا.
هؤلاء السَّحرةُ الصغار الذين يخرجون لأنفسهم معنى الكنز الثمين من قرشين. . .
ويسحرون العيد فإذا هو يومٌ صغير مثلهم جاء يدعوهم إلى اللِّعِب.
وينتبهون في هذا اليوم مع الفجر، فيبقى الفجرُ على قلوبهم إلى غروب الشمس.
ويُلْقُون أنفسهم على العالَم المنظور فيبنون كلَّ شيء على أحد المعنيين الثابتين في نفس الطفل: الحبْ الخالص، واللهو الخالص.

ويبتعدون بطبيعتهم عن أكاذيب الحياة، فيكون هذا بعينه هو قربهم من حقيقتها السعيدة.
هؤلاء الأطفال الذين هم السهولة قبل أن تتعقد.
والذين يرون العالم في أول ما ينمو الخيالُ ويتجاوزُ ويمتدْ يفتِّشون الأقدارَ من ظاهرها؛ ولا يَسْتَبْطِنون كيلا يتألموا بلا طائل.
ويأخذون من الأشياء لأنفسهم فيفرحون بها، ولا يأخذون من أنفسهم للأشياء كيلا يوجدوا لها الهمْ.
قانعون، يكتفون بالثمرة؛ ولا يحاولون اقتلاع الشجرة التي تحملها.
ويعرفون كُنه الحقيقة، وهي أن العِبرة بروُح النعمة لا بمقدارها. . . .
فيجدون من الفرح في تغيير ثوبٍ للجسم، أكثر مما يجده القائدُ الفاتحُ في تغيير ثوبَ للمملكة.
هؤلاء الحكماءُ الذين يشبه كلٌّ منهم آدمَ أولَ مجيئه إلى الدنيا.
حين لم تكن بين الأرض والسماء خليقةٌ ثالثة معقدة من صنع الإنسان المتحضَّر.
حكمتُهم العليا: أن الفكر الساميَ هو جعلُ السرور فكرا وإظهارُه في العمل.
وشِعورهم البديعُ: أن الجمالَ والحبْ ليسا في شيء إلا في تجميل النفس وإظهارها عاشقة للفرح.
هؤلاء الفلاسفةُ الذين تقوم فلسفتهم على قاعدة عملية، وهي أن الأشياء الكثيرة لا تكثر في النفس المطمئنة.
وبذلك تعيش النفسُ هادئةً مستريحةً كأن ليس في الدنيا إلا أشياؤها المُيسرة.
أما النفوسُ المضطربةُ بأطماعها وشهواتها فهي التي تبتلي بهموم الكثرة الخيالية.
ومثَلُها في الهمْ مَثَلُ طُفيليْ مغفَّلٍ يحزن لأنه لا يأكل في بطنين.
وإذا لم تكثر الأشياءُ الكثيرةُ في النفس، كثرت السعادة ولو من قلة.
فالطفلُ يقلِّب عينيه في نساءٍ كثيرات، ولكن أمَّه هي أجملهن وإن كانت شو هاء.
فأمه وحدها هي أمُّ قلبه، ثم لا معنى للكثرة في هذا القلب هذا هو السرُّ؛ خذوه أيها الحكماءُ عن الطفل الصغير!
وتأملت الأطفال وأثر العيد على نفوسهم التي وسعت من البشاشة فوق ملئها.
فإذا لسانُ حالهم يقول للكبار: أيتها البهائم اخلعي أرسانك ولو يوماً. . . . . .
أيها الناسُ انطلقوا في الدنيا انطلاقَ الأطفال يُوجدون حقيقتهم البريئة الضاحكة.
لاكما تصنعون إذ تنطلقون انطلاقَ الوحش يُوجد حقيقتَه المفترسة.
أحرارٌ حرية نشاط الكون ينبعث كالفَوضى ولكن في أدقْ النواميس.
يثيرون السخط بالضجيج والحركة، فيكونون مع الناس على خلاف لأنهم على وفاق مع الطبيعة.
وتحتدم بينهم المعارك ولكن لا تتحطم فيها إلا اللعب. . . .
أما الكبارُ فيصنعون المدفعَ الضخَم من الحديد للجسم اللّين من العظم.
أيتها البهائمُ اخلعي أرسانك ولو يوماً. . . .
لا يفرح أطفال الدار كفرحهم بطفل يُولد؛ فهم يستقبلونه كأنه محتاجٌ إلى عقولهم الصغيرة.
ويملؤهم الشعور بالفرح الحقيقي الكامن في سر الخلق لقربهم من هذا السر.
وكذلك تحمل السنة ثم تلد للأطفال يوم العيد؛ فيستقبلونه كأنه محتاج إلى لهوهم الطبيعي.
ويملؤهم الشعور بالفرح الحقيقي الكامن في سر العالم، لقربهم من هذا السر.
فيا أسَفَا علينا نحن الكبار! ما أبْعَدَنا عن سرْ الخَلْق بآثام العمر!
وما أبعدنا عن سِر العالَم بهذه الشهوات الكافرة التي لا تؤمن إلا بالمادة!
يا أسفَا علينا نحن الكبار! ما أبعدنا عن حقيقة الفرح! تكاد آثامنا والله تجعل لنا في كل فَرْحَة حَجْلة. . .
أيتها الرياض المنوِّرةُ بأزهارها!
أيتها الطيور المغرِّدة بألحانها!
أيتها الأشجار المصفِّقة بأغصانها!

أيتها النجومُ المتلألئة بالنور الدائم!
أنتِ شَتى؛ ولكنك جميعاً في هؤلاء الأطفال يوم العيد!
(طنطا)

مصطفى صادق الرافعي

الرمز في الأدب الصوفي

للأستاذ أحمد أمين

تدور العقيدة الصوفية على فكرة (وحدة الوجود)، فليس العالم والله شيئين منفصلين، وليس الله في السماء وحدها ولا في الأرض وحدها، بل هو في كل شيء، بل هو كل شيء؛ وليس هناك محب ومحبوب، وعاشق ومعشوق، بل المحب والمحبوب واحد، يختلفان في المظاهر والأحوال ويتحدان في الحقيقة؛ وكل شيء في العالم له مظهر فانٍ متغير متقلب، وله مخبرٍ دائم باق لا يتغير؛ ونفس الإنسان كذلك: نفس ناقصة فانية ظاهرة، ونفس كاملة باقية باطنة؛ والنفس الأولى تشق الطريق لتحقق نفسها الثانية فتتحد بالحقيقة وتتشربها وتفني فيها. وسمى الصوفي هذا المسلك (طريقاً) أو (طريقة)، وسمى نفسه (سالكا)، وسمى المسافات التي يقطعها فيقف عندها للاستجمام (مقامات)، وسمى الغرض الذي يقصده من سلوكه وهو اتحاد نفسه بالحقيقة، وبعبارة أخرى اتحاد ذاته بالله (الفناء في الحق). وقد رسموا (خُرَطاً) لهذا الطريق، وتعددت (خرطهم) بتعدد أنظارهم، وسموا كل مرحلة وكل مقام بأسم، فهي عند بعضهم مقام التوبة، ثم مقام الورع، ثم مقام الزهد، ثم مقام الفقر، ثم مقام الصبر، ثم مقام التوكل، ثم مقام الرضا؛ وفي كل مقام من هذه المقامات يقف السالك فيشعر بمشاعر نفسية خاصة سموها (الأحوال)، فحال الخوف، وحال الرجا، وحال الشوق، وحال الأنس، وحال الطمأنينة، وحال المشاهدة، وحال اليقين الخ؛ ولا بد للسالك أن يستوعب كل مرحلة من هذه المراحل ويؤقلم نفسه بها ليستعد للمرحلة التي تليها، حتى يصل في النهاية إلى حالة اتحاد بالعالم وبالله فيستحق بذلك أن يسمى (عارفاً). ولا بد للسالك أن يقوده (شيخ) في هذه الطريقة الوعرة حتى لا يضل المسلك.

وليس المقام مقام تفصيل لتعاليمهم وعقائدهم وإنما نريد أن نقول إنهم بتعمقهم في هذا المبدأ الذي ألممنا به إلماماً بسيطاً قد أقاموا أنفسهم في عالم غير العالم المادي الذي يعيش فيه غيرهم؛ فلهم خاصة بهم ومسميات لا يعرفها إلا هم - ولكنهم فعلوا في اللغة كما فعل كل العلماء في اللغة العربية، فأخذوا الألفاظ العربية وأطلقوها على مدلولات خاصة كما فعل النحاة بالفاعل والمفعول والمبتدأ والخبر والجار والمجرور ونحو ذلك من ألفاظ كان يستعملها العرب في مدلولات عامة فأخذها النحاة ووضعوها لمصطلحات خاصة، حتى أن العربي القح لم يكن يفهمها في معاني النحاة. وهكذا الشأن في البلاغة والعروض والفلسفة - غير أن هناك فرقاً كبيراً بين المتصوفة وغيرهم، فالأوضاع النحوية والصرفية والبلاغية لها مدلولات ترجع إلى العقل في تفهمها، أما المصطلحات الصوفية فلا ترجع إلى العقل، وإنما ترجع إلى الذوق، ولهذا لا يفهمها أحد بعقله فهماً صحيحاً؛ إنما يفهمها من تذوقها ووقف في المقام الذي يقف فيه المتصوف؛ والفرق بين العاقل والمتذوق كالفرق بين شخصين أحدهما لم يذق الكمثرى قط فوصفت له وصفاً لفظياً علمياً، وشخص ذاقها وعرف الفروق الدقيقة بين مذاقها ومذاق الموز والتفاح؛ فأستعمل شعراء الصوفية ألفاظ الشعراء الخليعين من (ليلى) و (الخمر) والوصل والعناق والهجر والعذال، واتخذوها رموزا لأحوالهم ومقاماتهم؛ وكان لهم من ذلك كله أدب رمزي بديع غريب يمتاز عن غيره من الأدب بروحانيته وصفائه، كما يمتاز بغموضه وخفائه.

والسبب في الغموض والخفاء أن الشاعر المادي إذا وصف خمراً أو لوعة حب أو هجراً أو وصالاً، فإنما يصف عواطف يدركها الناس وهي في منالهم، أو بعبارة أخرى هي قدر مشترك بينهم؛ فكل الناس أحب، وكل ذاق لذة الوصل وألم الهجر؛ أما الصوفي فيعبر عن مقام يقفه وحال غلبت عليه، فوصف مقامه وحاله بحيث لا يفهمه إلا من كان في موقفه وحاله، أو كان قد قطع هذه المرحلة إلى مرحلة أبعد منها مدى. ومن أجل هذا لا يفهم الصوفي إلا الصوفي، بل قد لا يفهم الصوفي الصوفي إذا سلك كل منهما

مسلكاً خاصاً، أو كان الصوفي الشاعر في مقام بعيد عن مقام الأول؛ ومن أجل هذا شرح بعضهم قصائد لبعض المتصوفة، فكان الشرح غامضاً كالأصل. وصاحب القصيدة معذور كل العذر، لأنه في حال لا يجد فيها ألفاظاً تعبر عما في نفسه في وضوح وجلاء؛ وهناك سبب آخر قد يدعو إلى الغموض، وهو أنه في حال لو أوضح ما في نفسه لرماه من لم يفهمه بالكفر والإلحاد.

على كل حال يمتاز الأدب الصوفي بأنه أدب رموز من ناحيتيه القابلة والفاعلة، فهو يفهم مظاهر العالم على أنها رمز؛ والعالم عنده لا يختلف عن أحلام النائم؛ فكما أن الحلم يعرض حوادثه عرضاً رمزياً فكذلك العالم كل ما فيه رمز، فكل ما يقع تحت عينه وما يسمع بأذنه، وما يتصل بجميع حواسه رموز يستنتج منها ما يغذي عواطفه ومشاعره، وبذلك أنفتح أمامه عالم غريب الأطوار مملوء بالجمال، مفعم بالتخيلات، حتى كأن كل شيء - ولو كان صغيراً - كتاب ملئ علماً، أو لسان ينطق دائماً بالحكمة، هو في العالم دائماً يقرأ ولا مقروء، ويسمع ولا مسموع، ويستخرج من الحبة قبة، ومن القطرة بحراً خضماً. يقرأ في كل حادثة نفسه وعالمه وربه، ويفسرها تفسيراً يتفق ومزاجه وحاله.

وهذا الأدب الرمزي والدين الرمزي والحكمة الرمزية نزعة كانت في الإنسان منذ القدم، فالديانة المصرية القديمة مملوءة بالرموز الدينية، وكذلك ديانة الهنود والفرس الأقدمين، ترمز إلى الحقيقة في بعد وخفاء؛ والميثولوجيا اليونانية ليست إلا رموزاً لما كانوا يرون من حقائق؛ وكثير من شعائر الأديان إنما وضعها فلاسفة متصوفون رمزوا بها إلى بعض الحقائق. فأتى العامة الجهلة، وظنوا نفس الرموز حقائق؛ فما الأصنام ولا النجوم ولا نقوش المصريين في عباداتهم ولا كثير غيرها إلا رموز أتى عليها الزمن فنسى أصلها وعبدت ذواتها، وجرى كثير من الفلاسفة على هذا النحو فيحكى عن فيثاغورس اليوناني أنه كان يكثر من الكلام الرمزي ليدل به على الحقيقة، وكذلك كان من بعده أفلوطن.

ولهذا الأدب الرمزي جماله، فهو يمتاز بأنه جمال مقنع تدركه ولاتلمسه، وتتخيله ولا يسمح لك أن تحدق فيه، فهو جمال تنظره وكأنك لاتنظره، وتسمعه وكأنك لاتسمعه، وتعرفه وكأنك لاتعرفه، قد خلع عليه الخفاء جلالاً فكان جميلاً جليلاً معاً - تسمعه فتلتذ له وتترنم به، فإذا أردت أن تقبض عليه قبضت على هواء؛ ليس لكلماته مدلول محدود، ولا لمعانيه حدود، وإنما هو إمعان في اللانهاية، وسبْح ولا غاية.

يرى الصوفي أن لكل ظاهر باطناً، وفي كل شيء إشارة، وفوق السطح عمقاً، ووراء القناع جمالاً فاتناً؛ ويتيه عجباً على الناس إذ فهم ولم يفهموا، وغنى لهم ولم يطربوا، ويرى أن العقل حجاب يحجب النفس عن إدراك الجمال، وأن كشف هذا القناع إنما هو بالذوق والألهام، لا بالمنطق والقضايا والأحكام.

وبهذا النظر نظر الصوفي إلى العالم فسمى الحقيقة ليلى وسعدي، وأعجب بالخمر وتغنى بها، ورأى في الخمر معاني ليست في غيرها. فهي رمز إلى رقي النفس وتساميها، فالنفس ترقى بالفناء في الحقيقة كما تنشأ الخمر بفناء العنب، فيكون شيء من شيء، ويختلف الشيئان والأصل واحد؛ وإذا خرجت الخمر من العنب بقيت إلى الأبد وصلحت بمرور الزمان، على حين أن العنب نفسه لا يصلح للبقاء، فكذلك النفس إذا تجردت من مادتها الفاسدة ونزعت إلى الكمال صلحت للبقاء، ولم يعتروها فناء، وكلما مرت عليها السنون والأعوام زادت نقاء، ورقت صفاء.

وهكذا ولّد الصوفية من كل شيء أشياء، ورأوا في كل مادة رمزاً لمعان لا عداد لها وبني آخرهم على ما أتى به أولهم ونظروا إلى الدين نظرهم إلى كل ما في العالم، فكل آية في القرآن رمزا، وكل حديث له تأويل. فليسوا يفهمون من الآيات ما يفهم الناس، ولا من الأحداث ما يفهم الناس.

إن شئت مثلاً لذلك فخذ ما فهموا من حادثة شق صدر النبي صلى الله عليه وسلم، فعلماء السيرة يروون أنه (ص) شُق قلبه وهو مع رابّته ومرضعته في بني سعد، وأنه جيء بطست من ذهب فيه ثلج فغسل به قلبه إلى آخر ماروا؛ والصوفية لا يفهمون هذا إلا على أنه رمز، فقلب الإنسان قد ران عليه الخوف والشهوة والطمع وغير ذلك من السيئات، فأراد الله أن يذهب عنه الرجس ويطهره تطهيراً، فأبعد عنه ما غشى

قلوب الناس، وفتح قلبه ونقاه من كل سوء حتى يستعد للنبوة. فرويت هذه القصة وفهمها العامة حقيقة، وفهمها الخاصة رمزاً.

وهكذا كان شأنهم فيما عرض عليهم من العالم ومن الدين ومن الأدب؛ وهكذا كان شأنهم فيما أنتجوا من دين وأدب - عاشوا في حلم لذيذ من حب وتضحية، ونعموا بما قرءوا في العالم من رموز، وأخذوا أدب الأدباء وشعر الشعراء فنقلوه إلى أحوالهم ومقاماتهم، فطربوا لشعر مجنون ليلى وأبي نواس وفسروه بليلاهم وخمرهم، فلما شعروا هم أسبغوا على شعرهم من معانيهم ورموزهم، فكان لنا من ذلك كله نوع من الأدب طريف. أرجو أن أعرض لتفصيله في مقال تال.

أحمد أمين

فضيحة دولية استعمارية

عصبة الأمم بين المد والجزر

بقلم باحث دبلوماسي كبير

كانت عصبة الأمم في نظرنا دائماً أداة دولية مريبة، لا تتفق أعمالها وجهودها مع المثل والغايات السامية التي أدمجت في دستورها، ولم نستطيع يوماً مدى الخمسة عشر عاماً التي قطعتها العصبة من حياتها أن تحمل على الثقة بها أو الاطمئنان لاستقلالها أو نزاهة وسائلها وغاياتها؛ وإنما رأينا العصبة دائماً أداة مسيرة في يد الدول الغربية القوية توجهها حيثما شاءت لتحقيق مشروعاتها وغاياتها على حساب الأمم الضعيفة، ورأيناها بالأخص سوط استعمار بالنسبة لبعض الأمم الشرقية، تفرض عليها نير الانتداب وتنظمه لمصلحة الدول الكبرى التي تواجهها؛ ولم تقدم العصبة يوماً أي دليل على أنها تعمل لأنصاف دولة ضعيفة أو أمة شرقية، خصوصاً إذا ما تعلق الأمر بمصلحة دولية قوية أو أمة غربية، ولم تنل العصبة توفيقاً في أي ميدان من الميادين العامة أو الإنسانية التي تزعم أنها تعمل في سبيلها، فلم يحقق مشروع نزع السلاح أو تحديده، ولم يوضع نظام ثابت للسلامة العامة أو عدم الاعتداء، ولم تكفل حقوق الأقليات أو الأمم الضعيفة بصورة مستقرة عادلة.

ولكنا رأينا عصبة الأمم تتخذ فجأة لمناسبة النزاع الإيطالي الحبشي صورة أخرى، فتبعث دستورها من قبره وتطبقه بروح جديدة؛ رأيناها تحل السيادة والحقوق القومية مكانتها، وتعمل لاحترام استقلال الأمم الضعيفة، فتصم إيطاليا بما تستحق من وصمات الاعتداء المنكر، وتحرك من نصوص دستورها ما تراه كفيلاً بوقف الاعتداء ورد المعتدي إلى صوابه؛ وتستجمع شجاعتها لتطبيق العقوبات الاقتصادية والمالية التي فرضت على المعتدي، وتطبقها بالفعل على إيطاليا المعتدية، فتحظر تصدير السلاح وجميع المواد الأولية إلى إيطاليا وتبيحه للحبشة، وتطلب إلى أعضائها أن يقطعوا كل العلائق الاقتصادية والمبادلات التجارية مع إيطاليا؛ فيلبي دعوتها نحو خمسين دولة أو ما يشبه الإجماع؛ وهكذا رأينا عصبة الأمم تفتتح عهداً جديداً في سياستها وفي فهم مهمتها الدولية، واستبشرنا بأن يكون العهد الجديد مفتتح الآمال بالنسبة للأمم الضعيفة، فتستطيع أن تطالب بحقوقها وحرياتها، وتستطيع أن تعتمد على ذلك التعضيد الدولي الذي تحمل لواءه عصبة الأمم.

ولم يغب عن العالم مع ذلك ما هنالك من وراء ستار، فقد فطن العالم إلى أن عصبة الأمم لم تكن في عملها مستقلة ولا مختارة، وإنها كانت مسيرة موجهة فيما اتخذت من قرارات جريئة؛ ولم يغب عن العالم أن السياسة البريطانية هي مبعث التوجيه والوحي الأول، وأنها اتخذت هذه الخطة لأن الاعتداء الإيطالي على الحبشة، وتوسيع النفوذ الإيطالي في شرقي إفريقية، وما يترتب على ذلك من إذكاء الروح الحربي الفاشستي، يعرض الإمبراطورية البريطانية وسلامة مواصلاتها في البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط وسيادتها في وادي النيل وشرق إفريقية إلى أخطار جسيمة، وأن إنكلترا لم تحرك أساطيلها الضخمة، وتتخذ هذه الأهبات الحربية الواسعة النطاق في مصر وعدن وشرق إفريقية انتصارا لقضية الحبشة أو دفاعاً عنها، ولكن رداً للخطر الفاشستي الذي ظهر في الأفق فجأة، وأخذ يزعجها بمطامعه وتحديده. بيد أن وقوف العالم على هذه العوامل المستترة الظاهرة معاً، لم يثنه عن التصفيق لعصبة الأمم والإعجاب بموقفها وتصرفاتها في هذا المأزق العصيب؛ ذلك أن الوسائل لاتهم دائماً؛ وكفى أن عصبة الأمم قد انتهت إلى الغاية المقصودة، وسيقت إلى العمل لصون

الحريات والحقوق القومية، وإلى الحكم على الاعتداء المنظم بأقسى الأحكام.
ولهذا دهش العالم أيما دهشة حينما أذيعت شروط هذا المشروع الشائن الذي أسفرت عنه المفاوضات الفرنسية البريطانية الأخيرة كتسوية سلمية للمسألة الحبشية، والذي أريد أن يقدم إلى إيطاليا هدية سابغة على اعتدائها المثير لكي تكف عن المضي في أعمالها ومشاريعها الحربية. وقد وقف القراء على هذا المشروع وتطوراته فلا حاجة بنا إلى الإفاضة فيه، ويكفي أن نذكر أنه كان يقوم على تمزيق الحبشة تمزيقاً شائناً، وينص على منح أكثر من نصفها لإيطاليا، ويحيط سيادة الحبشة على الأراضي الباقية بقيود خطرة أو هو بعبارة أخرى يقضي بشقيه على الحبشة كأمة مستقلة ذات وجود، ويمهد لاستبعادها النهائي في أعوام قليلة؛ نقول ثار العالم كله لهذا المشروع الشائن الذي يتوج اعتداء إيطاليا بغار ظفر لم تحرزه، ويحقق لها حلماً مازالت تتخبط في غمر الصعاب لتحقيق شطراً منه؛ وأشد ما كانت دهشة العالم لأن السياسة البريطانية التي ثارت من قبل لاعتداء إيطاليا وألبت عليها أمم العالم بواسطة عصبة الأمم وحملت العصبة على أن تقرر العقوبات
الأقتصادية، قد أشتركت في وضع هذا المشروع الشائن الذي يقضي فجأة على آمال أمة مستقلة مازالت تناضل عن حرياتها نضالاً يثير الإعجاب والإكبار؛ على أن الصدى العنيف الذي أحدثه المشروع في العالم كله، وفي الرأي العام البريطاني بنوع خاص، كان كافياً لأن يحدث أثره بسرعة في استنكار هذه السياسة الاستعمارية الصارخة، واستنكار المشروع برمته. وكان من جراء ذلك أن استقال السير صمويل هور وزير الخارجية البريطانية الذي أشترك في وضع المشروع، وكان لاستقالته أعظم وقع كما شهدنا، واضطرت الحكومة البريطانية أن تتراجع بسرعة، وأن تعلن أنها لا تؤيد المشروع وأنها تعتبره قد مات؛ هذا بينما كان المشروع مطروحاً أمام عصبة الأمم، يلقي الضربة الأخيرة على يد مجلس العصبة، ويرجئ النظر فيه إلى أجل غير مسمى.
وهكذا مات مشروع تمزيق الحبشة في أيام قلائل تحت ضغط الرأي العالمي واستنكاره، ولم يُسمح لإيطاليا أن تجني ثمرة اعتدائها الشائن وأن تحقق بالدجل السياسي ما لم تستطع أن تحققه على يد جنودها في ميدان القتال. أما الحبشة فقد رفضت مشروع تمزيقها لأول وهلة، ورفضته بمنتهى الأباء والقوة، بل واستطاعت أن تقرن رفضها الأبي بانتصارات محلية أحرزتها الجيوش الحبشية في مختلف الميادين في نفس الوقت الذي طرح فيه المشروع أمام عصبة الأمم. ومع أن العوامل الحقيقية التي أملت بوضوح هذا المشروع، وحملت السياسة الإنكليزية على إقراره، في الوقت الذي ذهبت فيه إلى هذا المدى البعيد في مخاصمة إيطاليا ومقاومتها، لم تتضح إلى الآن وضوحاً كافياً، فأنه يمكن فهمها على ضوء بعض الحوادث والظروف الأخيرة، وأخصها تفاقم الخطر الياباني في الشرق الأقصى، وانتعاش الحركة الوطنية في مصر، وما يذاع من وجود تذمر في الأسطول البريطاني، وما يبدو من تحرك ألمانيا وتربصها؛ هذا إلى بعض الاعتبارات الأوربية والاستعمارية العامة، وهو أنه ليس من حسن السياسة أن تشجع أمة إفريقية سوداء على مقاومة أمة أوربية كبرى، وأن تترك إيطاليا لتطوح على هذه الصورة بشطر كبير من قواها الحيوية في شرق إفريقية. في حين أن هذه القوى ذاتها ضرورية لحفظ التوازن الأوربي ومقاومة مطامع ألمانيا في النمسا؛ ومن جهة أخرى فأن هذه الصعاب والمتاعب الفادحة التي تتخبط فيها إيطاليا قد تدفع بها إلى غمار اليأس فيسقط النظام الفاشستي، وسقوطه في هذا المأزق الدقيق قد يضعف إيطاليا ويصيب التوازن الأوربي بضربة شديدة: فإلى هذه العوامل يمكن أن نرجع تطور السياسة الإنكليزية الفجائي. بيد أن هنالك حقيقة لاشك فيها هي أن أكبر الفضل في هذا التطور يرجع إلى تذبذب السياسة الفرنسية وترددها، وإلى ما تبديه من تحيز ظاهر للاعتداء الإيطالي، وما تبديه من فتور ظاهر في تأييد سياسة العقوبات الدولية التي تعتمد عليها إنكلترا في تحطيم مشاريع إيطاليا. وتذبذب السياسة الفرنسية وتحيزها يرجعان إلى عوامل أنانية محضة، فالحكومة الفرنسية الحاضرة تريد أن تحرص على الصداقة الإيطالية بأي ثمن، وأن تحافظ بكل الوسائل على أن تتقاضى تعاون إيطاليا في أوربا ضد ألمانيا وبالأخص في المسألة النمسوية، ثمناً لما بذلته فرنسا لإيطاليا في الاتفاق الفرنسي الإيطالي الأخير (يناير الماضي) من المنح والمزايا السياسية والاستعمارية؛ وهي تحاول في نفس الوقت أن تحتفظ

بصداقة إنكلترا ومعاونتها.

على أن هذه السياسة التي انكشفت عواملها الأنانية بسرعة لقيت حتفها في الحال في إنكلترا وفي الحبشة وفي جنيف؛ ومع أن السياسة البريطانية استطاعت بسرعة مدهشة أن تستدرك الخطأ الذي وقع فيه السير هو وزير الخارجية البريطانية بإقراره لمشروع الصلح، واستقال الوزير في الحال ليخلفه مستر إيدن بطل سياسة السلامة الاجتماعية والعقوبات الدولية على يد عصبة الأمم، أو بعبارة أخرى بطل سياسة التشديد على إيطاليا، فأن هيبة بريطانيا السياسية قد أصيبت بشيء من التصدع والريب؛ ذلك لأنه لم يكن خافياً ما ينطوي عليه مشروع الصلح المقدم إلى جنيف من معنى مستتر، هو تقسيم الحبشة بين إيطاليا وإنكلترا، واختصاص إيطاليا بالقسم الشرقي الذي تحتل قسماً منه، واختصاص إنكلترا (فيما بعد) بالقسم الغربي الذي تقع فيه منابع النيل الأزرق، والذي تحرص كل الحرص على استخلاصه من يد أية دولة أوربية أخرى؛ بيد أن هذا الرجوع السريع الحازم من جانب السياسة البريطانية إلى خطتها الأولى، أعنى خطة الوقوف في وجه إيطاليا ومقاومتها عن طريق العمل الدولي، قد رد إليها كثيراً مما كادت تخسر من هيبة ونفوذ.

على أننا نستطيع أن نستخلص من هذه المأساة الدولية درساً بليغاً يؤيد ما ذهبنا إليه في صدر مقالنا بشأن عصبة الأمم؛ فما كانت العصبة يوماً ملاذاً للعدالة الدولية وحقوق الأمم الضعيفة، ولاسيما الأمم الشرقية، ولن تكون العصبة يوماً ملاذاً حقيقياً لهذه المثل العليا.

وإذا كان موقف العصبة في المسألة الحبشية قد أسبغ عليها هيبة لم تتمتع بها منذ نشأتها، فأن الفضل في ذلك لا يرجع إلى إرادة العصبة ذاتها أو إلى استقلالها ونزاهتها بقدر ما يرجع إلى العوامل السياسية والاستعمارية الخارجية التي شرحناها؛ وكون العصبة تعمل في مثل هذه الظروف أداة مسيرة، لا يؤكد الآمال التي يمكن أن تثيرها نصوص دستورها الخلاب، بل كل ما هنالك يثير الريب دائماً في وسائلها وغاياتها. ومع ذلك فأن عصبة الأمم يمكن أن تكون أداة حقيقية لتأييد السلام العالمي والعدالة الدولية، ولكنها يجب قبل كل شيء أن تحرر من ذلك النفوذ الذي يواجهها وينحرف بها عن العمل للغاية الحقيقية التي أنشئت لها إلى العمل لغايات السياسة القومية والاستعمارية. وقد رأينا في مثل إيطاليا وما نالها من أثر العقوبات الاقتصادية، قوة العمل الإجماعي وتأثيره الفعال في كبح جماح الشهوات القومية؛ فإذا صلح دستور العصبة ليلائم الظروف الدولية الحاضرة، وإذا استطاعت الأمم أن تضع ثقتها في سياسة الضمان المشترك والسلامة المشتركة، فإن العالم يستطيع أن يتجنب كثيراً من الحروب الاعتدائية المخربة. ولكن هل تستطيع الدول الاستعمارية الكبرى أن تتجرد عن غايات الأثرة القومية، أو تعدل عن الالتجاء إلى القوة الهمجية التي تمكنها من أعناق الفرائس الضعيفة المغصوبة؟

(* * *)

شهيد من شهداء أحد

أنس بن النضر

للأستاذ خليل هنداوي

كتب الله النصر للمسلمين في غزوة (بدر الكبرى)؛ وكان نصراً رائعاً للدعوة الإسلامية، فأنصرف المشركون وفي كل عضو من أعضائهم جراحة من أثر بدر، وفي كل بيت من بيوتهم مناحة لفقد عزيز من أعزائهم يوم بدر؛ وقد تبرأ هذه الكلوم، وتهدأ هذه المناحات، ولكن المضض كامن في صدور كأنها الدروع المنطوية في النار.

ألا يعود يوم كيوم بدر نثأر فيه لشرفائنا، ونلوك أكباد أعدائنا! إنه إن يعد - وهبل - نشف منهم النفوس أو تضمنا الرموس. . . . . .

والمسلمون خلال ذلك تخفق ألوية النصر عليهم، وأصحاب بدر يخطرون طربين بما أوتوا، يجلسون حلقات، هذا يتحدث عن بلائه، وذلك عن بطشه بأحد رؤوس قريش، وقد يسمع النبي لحديث من أحاديثهم فيغلب الإشفاق على قلبه ويود لو أن دماء قومه لم تهدر، ولكن الدعوة تفتقر إلى ضحايا! وقد يغادر المتحدثون هذه الأصناف من الحديث، لا لأن بدراً يفرغ حديثها. . . وإنما يعودون إلى التحدث بينهم: كيف ألقى الله الرعب في قلوب أعدائهم، وثبت منهم الأقدام، وزلزل أقدامهم، ويشكرون الله على

صدق وعده لهم، فما أخف نفوس هؤلاء البدريين الذين قاتلت جنود الله معهم! ويكفي أحدهم إذا أراد أن يفتخر أن يقول: (أنا بدري)! وما أشد أسى الذين لم يكتب لهم أن يكونوا من جنود هذه الغزوة المباركة!

كيف يمشي هؤلاء الذين لم يحضروا غزوة بدر، وكيف تطمئن لهم جنوب أو تسكن قلوب، وقد رأوا أن رفاقهم سبقوا بالأجر: أجر بدر؟ وكيف يخالطون أصحابهم الغزاة، وكيف يكلمون الرسول، وهم يرون في أنفسهم منقصة تؤخرهم عن مجالس هؤلاء الغزاة، إنهم ليسوا ببدريين!

حاور أنس بن النضر نفسه فلم يقنعه منها عذر؛ فآثر أن يتوارى عن قومه، وأن يعتزل مجالسهم، مقسما أنه لن يغفر هذه الحوبة لنفسه حتى يلاقي غزوة كغزوة بدر، يحملها ما لم تحمل، ويحمل منها فوق ما حمل أصحابه، فإذا سمع (ببدر) رأيت وجهه اكتأب وأساريره انقبضت، لأن حديث بدر - عنده - حديث ذو شجون، فيسأل نفسه إذا أشتد به الأمر:

- أعهد بدر الثانية عنك بعيد؟ رب أقرب بدراً

وقد عجب أصحابه لوجومه وانصرافه عن مجالسهم، ولم يروا منه إلا كل خلة حميدة، وعقيدة صلبة؛ يرونه يمشي كمن يلوذ بجدار، ويرتاح إلى الليل الأسود كمن يتخذه لباساً، ويجنح إلى العزلة كمن هو على موعد من ربه. . . وتحدث القوم بينهم: ما بال أنس لا يطأ مجالسنا؟ أأذىً به أم عارض؟ وكان الرسول لا يلمحه إلا معتزلاً في زاوية وحده، لا يسمعه سامع إلا هاجساً ببدر، مستفسراً عن بدر؛ وقد أقلق الرسول حاله، فسأله:

- ما خطبك يا أنس؟

فقال أنس:

- يا رسول الله غبتُ عن أول قتال قاتلتَ المشركين، لئن الله أشهدني قتال) المشركين ليرين الله ما أصنع!)

ففهم الرسول أمره، وبارك عزيمته وقال:

- أما وقد نويت:

ولم يقف الرسول على شيء من أمره بعد مقابلته. وهاهي المقادير جاءت تنتقم (لأنس)، وتكتب أسمه في سجل الغزاة الثابتين، وهاهي الأيام كرت تجدد (بدراً) ثانية، ليس موعدها بدراً، لكن أُحُدا! فهب البدريون إلى شحذ سيوفهم البدرية ولا تزال أغرتها مكتسية دماً، ورماحهم ولا تزال ثعالبها حُمرا، ونشط من لم يحضروا بدراً لينالوا من الأجر ما لم ينالوه، فكان الأولون يمشون ثابتي الأقدام، مستخفين بأعدائهم عند الروع؛ وكان الآخرون يمشون خفافاً كمن أزيح عن صدره ثقل الجبال، وقد ارتاحت من أنس نفسه، ودنا يحدث صحبه كأن لم يكن له عهد بتلك الوحشة.

بزغ الفجر من وراء أحد، وأفاقت قعقعة الرجال: وتيقظ كل ثأر قديم وكل خصومة قديمة، فلم يمهل بعضهم بعضاً بالبراز وإنهم لا يملكون أنفسهم في مثل هذا اليوم، وقد ود (أنس) قبل زحفه إلى الشهادة أن يكلم الرسول فيكتسب منه دعوة صالحة أو يراه فيذكر الرسول وجومه فيقول له:

- إيه يا أنس! اليوم بدر!

ولكن الزحام شديد والقتام ساطع والعدو راصد، والنبي قد وزع عقله هنا وقلبه هناك، يهدي ويوصي ويرشد وقد ذهب أمامه أقرباؤه قروم الحرب وأبطال الشدائد، فأقلع أنس عن رغبته وأدرك أنه لم يكتب له الحظ أن يمس جلده جلد رسول الله قبل آخر العهد، فأنطلق زاحفاً إلى صفوف المشركين يضرب بيديه وبسيفه ورمحه وفرسه، وكأن المقادير أرادت أن تنتقم له انتقاماً حسناً فلم تظهر ثباته وصدقه في جمع ظفر، لكن في جمع تفرق وأنكسر، ولم يثبت فيه إلا كل أروع صنديد؛ فكرام من الصحابة يذودون عن النبي بأرواحهم وأجسادهم! وكرام من الصحابة شدوا على العدو المحيط بهم وقد أبت لهم عقيدتهم أن ينهزموا ويستسلموا! وهذا أنس لا يزال يجول وما زادته جراحه الكثيرة إلا زيادة في الثبات. وهل أكرم من الثابتين عند الله؟ وما زادته سراويله الحمر إلا استقتالاً وطمعاً في ذلك الأجر الذي تلوّح له به بدر؛ لكن يوم بدر كان يوم ظفر، ويوم أحد أسود الجلباب! فحيثما يطأ يجد صحابياً جريحاً يئن، وأيان توجه ير قتيلاً تزفه الحور العين.

- بادر يا أنس! فهذا هو يوم الأجر الأكبر، وهذا هو يوم الرضوان، ما ينفع تأجيل الموت وفي الشهادة حياة؟
وإنه ليحدث نفسه بهذا الحديث فيستقبله سعد بن معاذ فيقول له:
- (. . .يا سعد! الجنة ورب النضر، إني لأجد ريحها من دون أحد)
فيتركه سعد ويود لو يصنع ما يصنع، ولكن رجال الله رجال، فليلتفت أنس إلى قومه فيقول:
- اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء!
ويلتفت إلى المشركين فيقول:
- وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء!
ثم يحمل مقتحماً صفاً من المشركين المضرجة سيوفهم ونصالهم بدماء أصحابه فلا يزال مقتحماً في حملته وقد أعجز المشركين رده وأحزن قومه فقده. وإن المِعركة لتنتهي وقد بذل فيها الفريقان من فلذات الأكباد والأولاد لها طعاماً، وهيهات أن تشبع!
فيقوم أبو سفيان يقول:
- أفي القوم محمد؟ فلا يجيبه أحد. أفي القوم أبن أبي قحافة؟ فلا يجيبه أحد. أفي القوم أبن الخطاب؟ فلا يجيبه أحد
فيقول:
- أما هؤلاء فقد قتلوا
فلا يملك عمر نفسه فقال:
- كذبتَ والله يا عدو الله - إن الذين عددت لأحياء كلهم! إنهم لأحياء، وإن الحياة هي التي أنطقت عمر بالرغم من نهى الرسول، وهل يخنق للحياة صوت؟
إن هؤلاء أحياء، والذين استشهدوا منهم أحياء!
فيجيب أبو سفيان:
يوم بيوم بدر، والحرب سجال! إنكم ستجدون في القوم مُثلة لم آمر بها ولم تسؤني: أعلُ هبل، أعلُ هبل!
فيجيبه أصحاب الرسول:
- الله أعلى وأجل!
فيقول: إن لنا العزى ولا عزى لكم
فيجيبونه: الله مولانا ولا مولى لكم
تنتهي هذه المحاورة ويؤوب أبو سفيان إلى قومه وقد شفوا قلوبهم وغسلوا عار يوم بدر، وهب المسلمون إلى تلمس قتلاهم واستنقاذ جرحاهم وقد راعهم أن يمثل المشركون بالشهداء منهم وهم لو أرادوا تمثيلاً بهم لمثلوا. ولبث النبي في مكانه يعالج أصحابُه نزيفاً منه كاد يودي به، وهو يرتقب جثة عمه حمزة وقد أشجاه ما أشجاه، فجاءت الجثة بغير كبد والوجه معبوث بملامحه. فناب الصمت عن البيان، وحجبت هذه الداهية غيرها من دواهي أحد؛ فجمع المسلمون جثث قتلاهم يدفنونها متراكمة في موضع المعركة وقد أساهم في مصابهم ما أصاب الرسول في عمه. فكان ينظر إلى الذين يغيبهم التراب إلى الأبد نظرة صامتة، وعينه لا تتمثل إلا مصرع حمزة.
لم يعد أنس جريحاً ولم يبن قتيلاً في المعركة، وقد ذهبت أخته تتحرى عنه بين القتلى فيمن تحرى، حتى وقعت على قتيل خفيت تقاسيم وجهه، وذهب جلده قدداً، في بدنه بضع وثمانون من ضربة بسيف وطعنه برمح ورمية بسهم. أهذا هو أنس صريعاً؟ لكن وجهه
لايفصح، وبدنه لا يبين عنه. لكن هذه بنانُه قد أبقى عليها المشركون ولم يمسوها بسوء. مثلوا بجسده ما شاءوا أن يمثلوا بعد أن ملأهم ضربه غيظاً وقتاله حقداً، وذهلوا عن بنانه.
- رحمك الله يا أنس لقد بررت بعهدك الذي عاهدت، وأدركت الأجر الذي طلبت. أليس فضل الثابتين في أحد كفضل أصحاب بدر؟
قضى أنس ولم يذكر مصرعه القوم، لأن مصارع أذهلت عن مصارع. والرسول لم تندمل كلومه، ولم يبرح مصرع حمزة قلبه.
لم يقتل حمزة وحده ولم يقتل أنس وحده، بل قتل معهما (رجال صدقوا ما عاهدوا

الله عليه) وهؤلاء هم الذين قتلوا في سبيل ما عاهدوا الله عليه.
خمدت وقعة أحد، وكان الرسول كلما مر بأحد استشعر خشية، والتفت إلى أصحابه كأنما يلتمس في هذا الجبل شيئاً قدسياً يهبط على نفسه. التفت يقول لهم:
- (إن أحداً يحبنا ونحبه!)
وكيف لا يحبونه وقد أطافت به أرواح الأعزاء وثوت فيه أجساد الشهداء وكيف لا يهتز الرسول لأحد وفيه قد أدّوا ثمن العقيدة والصدق والإخلاص من دمائهم وقلوبهم.
أما إن لكل أمة (أحداً) تذكره وتعتز بذكره لأنه رمز ضحاياها الغالية التي عملت لها. وهذه الأمة المشتتة تحت كل كوكب، المعتزة بأيمانها وعقيدتها تقيم في كل زاوية (أحداً جديداً) تقدم له كل يوم ضحايا عزيزة من دمائها وقلوبها! حتى غدت مواطنها: (كل موطن أحد) وشهداؤها: (كل شهيد أنس).

خليل هنداوي

نظرية النسبية الخصوصية

المقال الثاني

وحدة قوانين الطبيعة والبعد الرابع في النسبية

للدكتور إسماعيل أحمد أدهم

عضوا أكاديمية العلوم الروسية

عناصر البحث

(1) الحد الرابع للمادة في النسبية

(2) ثبات النور ووحدة قوانين الطبيعة

(3) النظام الغاليلي وقوانين التحويل اللورانتزية

- 1 -

تصور سطحاً في حيز منه نقطة مثل (ن)، وأنك تريد تحديد مكانها، فلا شك أنك ستقيس بعدها عن الحافة اليمنى للسطح أو اليسرى، ثم بعدها عن حافة السطح الأمامي أو الخلفي، وبواسطة خطين تحدد مركز النقطة على السطح، أما إذا كانت النقطة المرغوب تحديدها في حجم فلا بد من خطوط ثلاثة تنتهي عندها لنحدد مكانها بالضبط.

لنتصور مكعباً ضلعه 10 امتار، ولنفرض به نقطة مادية مثل (ن) في المكان (م)، ولنشرع في تحديد مكان هذه النقطة المادية، فلا بد من أن نقيس الخط العمودي الساقط على هذه النقطة من السطح السفلي للمكعب، ولنفرض أنه كان مترين، فهذا الخيط بمفرده لا يصح أن يكون محدداً لمكان النقطة إذ في الإمكان تحريك هذه النقطة حركة أفقية ويبقى الخط الممتد من السطح السفلي للمكعب حتى النقطة (ن) مترين بدون أن يلحقها أي تغيير؛ فلا بد من حدْ ثان بخط يمتد من السطح الأيمن أو الأيسر إلى النقطة (ن). فلنفرض أنه كان ستة أمتار، فلنا أن نتساءل: هل في الإمكان الاكتفاء بهذين الخطين لتحديد موضع النقطة؟

إن من السهل تحريك النقطة المذكورة في خط مواز للسطح الأيمن أو الأيسر بحالة لا يختل معها طول الخطين. فلا بد من حد ثالث، هو بعد النقطة عن السطح المعامد للجدار الأيمن والأيسر، ولنفرض أننا ألفيناه ثلاثة أمتار؛ فعليه يمكن تحديد أية نقطة في حجم بثلاثة أبعاد تتعامد على بعضها في النقطة المرغوب تحديد مكانها، وهذا النظام يعرف بنظام المتعامدات الديكارتية.

إن المشاهد الذي يقوم بعملية القياس سيلجأ إلى قواعد فيثاغورس في الهندسة ليحدد أبعاد الخطوط الثلاثة المحددة من مكان النقطة. وقاعدة فيثاغورس التي ترجع إليها هذه المسألة نظريتان:

الأولى: أن مربع الوتر في المثلث القائم الزاوية يساوي مجموع مربع الساقين.

الثانية: أن مربع الوتر في مكعب يساوي حاصل جمع مربع خطوط الطول والعرض والعمق.

فتكون المسافة من المشاهد إلى النقطة (ن):

22 + 23 + 26

- 2 -

لنفرض أنّ النقطة المادية (ن) تحرْكت من وضعها الأول في (م) إلى وضع آخر، وليكن (م1) بمعدل سرعة متر واحد في الدقيقة الواحدة؛ ثم لنفرض أنها بلغت وضعها الجديد بعد دقيقتين من تحركها، فالمسافة (م - م1) يستغرق قطعها زمناً. وهذا بلا شك يثبت أن الزمان يتداخل في المكان ويندمج به ليكوْنا البعد الرابع للمادة.

هذه قضية البعد الرابع في النسبية الخصوصية في أبسط صورها، ولكنها ليست كل شيء كما سنرى.

- 3 -

لا يمكن فصل الزمان عن المكان ولا المكان عن الزمان، لأنك لا تتصور حادثة إلا وتتصور أوان حدوثها، ولا تتمثل في ذهنك حركة إلا ويتطرق إلى وعيك الزمن الذي أستغرقه الجسم في الحركة.

إنه لا يمكن تصور شيء في الوجود لا يشغل مكاناً ولا يحدث في زمن. فالبعد الرابع في النسبّية ليس إلا إدماج الحركة في المسافة، إذ تُعبر عن المسافة بحاصل ضرب معدل
السرعة في وحدة زمانية بوحدة زمانية أخرى.

هذه العملية نظرية لأننا لم نعمل حساب الزمن الذي تستغرقه شعاعة النوع في التحرك لقطع المسافة من مكان وقوع الحادثة إلى المشاهد؛ ذلك لأن المسافات على سطح كرتنا الأرضية قصيرة، ولا يحس فرق زمني إذا ما انسابت في فضائها موجات النور. أما في المسافات السحيقة بين الأجرام فالأمر يحتاج إلى حساب الزمن الذي تستغرقه شعاعة النور في الوصول إلينا، لأن هذا الزمن يتضخم حتى يبلغ ملايين السنين في المسافات السحيقة. فمن المعلوم أن شعاعة النور تستغرق نحو 9 دقائق للوصول إلى أرضنا من الشمس، كما أن شعاعة تصدر من السدم اللولبية تحتاج إلى مليون عام لتصل إلينا، وقد تحتاج أحيانا إلى مائة مليون عام؛ فهذا النجم يبعد عنا بنحو 124. 264. 801. 625. 000 ميل. فاحسب كم عاماً تحتاج له شعاعة الضوء لقطعه مع أنه قريب إلى أرضنا بالنسبة للسدم والمجرَّات.

لا شك أننا لا نجد الشمس إذا نظرنا إليها إلا كما كانت قبل دقائق؛ فلو فرضنا أن الشمس انكسفت فجأة فأنها تنير لنا نحو تسع دقائق بعد كسوفها تكون خلالها الشعاعة الأخيرة التي صدرت من الشمس قد وصلت إلينا. فكأن المسافة قد تمددت بالنسبة لنا وأندمج الزمان في المكان.

- 4 -

إن قانون ثبات سرعة النور الذي هو نتيجة لتجربة (ميكلصون - مورلي) يقضي بأن قوانين الطبيعة الشاملة للحادثات ثابتة. لأن هذه القوانين قائمة على انتشار النور بسرعة ثابتة في كل الاتجاهات. وما دامت سرعة النور ثابتة والنور يحدد من حدوث الحوادث فقوانين هذه الحوادث ثابتة. هذا المبدأ الذي أستخلصه ألبرت أينشتين في تيه من المعادلات الرياضية الفائقة طبقه العالم مينقوفسكي على حادثات الكون والظاهرات الضوئية والإلكترومغناطيسية. وقد كان هذا المبدأ في صورة أخرى ذائعاً في علم الطبيعة الكلاسيكي إذ كانت تفرض أن الحوادث تحدث في العالم بالنسبة للأثير دون أن تتأثر بحالات الأكوان التي تحدث خلالها من حركة أو سكون. هذا المبدأ المطلق كان موضوعاً جوهرياً في علم الطبيعة الكلاسيكي. غير أن هنري بوانكاريه العالم الرياضي الفرنسي الشهير عدل عن
هذا المبدأ وقرر أنه من المحال الاستناد إلى التجارب التي تجري داخل عالم متحرك في استخراج حركته المطلقة استناداً على تجربة (ميكلصون - مورلي) كما سبق.

لقد عمل ألبرت أينشتين على أن يلائم بين سنة ثبات النور في سرعتها ومبدأ ثبات قوانين الحادثات، فقرر أن الضوء يتصف بسرعة ثابتة في انتشاره في جميع الجهات أياً كان الكون الذي ينتشر خلاله. ولتوضيح هذا القانون نفرض عالماً متحركاً مثل (ع) وعالماً آخر مثل (ع1)، ولنفرض أن سرعة الضوء في العالم الأول (ص) وفي الثانية (ص1)، ولنفرض أن السرعة (ص) أكبر من السرعة (ص1)، فستكون سرعة النور في العالم الأول أكبر منها في العالم الثاني. فتكون السرعة النسبية إذن غير ثابتة في كل الأتجاهات، إذ تتأثر بحركات العوالم المنسوبة إليها والتي تنتشر خلالها. ولما كانت تجربة (ميكلصون - مورلي) قد أثبتت أن السرعة (ص) هي عين السرعة (ص1)

فاستناداً إلى قانون لورانتز في التقلص ونتيجته في استحالة استخراج الحركة المطلقة وثبات سرعة الضوء نقرر ثبات قوانين الحادثات ووحدتها.

وهنا قد يتبادر إلى ذهننا سؤال: هل في إمكاننا أن نؤلف بين سنة ثبات سرعة الضوء ومبدأ النسبية؟

مبدأ النسبية الكلاسيكية يقرر أن الحادثات الكونية التي تحدث في كون متحرك لا تتبع حركة الكون الذي تحدث فيه، فكأنها تحدث في عالم ساكن غير متحرك. فهل في الإمكان التوفيق بين هذا المبدأ النيوتوني وسنة ثبات انتشار الضوء في الفضاء؟

إن الإجابة على هذا السؤال ترجع بنا إلى مسألة التواقت التي توحي إلينا أن الزمان ليس بفكرة آنية كما تقرر علوم الطبيعة الكلاسيكية، وأن مفهوم السرعة مشتق منه، بل إن سرعة النور وثبات هذه السرعة يجب أن يعدا من المبادئ الأولية ومنها يشتق مفهوم الزمان. فكأننا براصد الحادثات مقيد بآلاته يقرر حسبما تتراءى له الحادثات، والزمان بالنسبة للمكان وليس هو بالشيء الوهمي الذي تصوره لورانتز بل له حقيقة موضوعية طبيعية.

إسماعيل أحمد أدهم

. . .في ليلة العيد

للأستاذ علي الطنطاوي

يا أيها الغافلون. . . إن هذا العيد ليس لنا.

إن أعيادنا مخبوءة في ثنايا الماضي الفخم، ومطاوي المستقبل المنتظر.

(علي)

مشيت ليلة العيد في حاجٍ للعيال، فتأخرت في السوق، فركبت (الترام رقم1) لأروح إلى الدار، فكان مجلسي فيه قبالة شيخ ساهم رازم، عظيم اللحية، كأن رأسه ولحيته ثغامة بيضاء، زريْ الهيئة، رثْ الثياب. . . فأشرت إليه بالتحية وابتسمت له، فلا والله ما طرف ولا تحرك ولا ألقي إليْ بالاً، فجعلت أعجب منه، وأحاول أن أذكر من هو، وأين رأيت هذا الوجه، فلا أدري أين لقيته ولا أعرف من هو. ولا أستطيع أن أميز هذه الصورة من بين المئات من الصور التي اختلطت في نفسي وانطمست وضلّت عن أصحابها، ولكني كنت على مثل اليقين بأن لي بهذه الصورة عهداً. . . فلما بلغنا الدرويشية رأيت الشيخ يتحسس عصاه وبصره عالق بي، فأدركت أنه أعمى وأنه ينظر بعين قائمة، وعلمت سرْ امتناعه عن ردْ السلام. فرثيت له وأشفقت عليه، فلما سقط على العصا أعتمد عليها، فقام يتلمس الطريق، فهاجني الفضول وأثارتني الشفقة فقمت أتبعه، فإذا هو ينزل من الترام فيميل عن الجادْة، ويتجنب هذه البنى الجديدة ويتغلغل في تيك الخرائب، يضرب فيها على غير هدى، وأنا أتبعه مغتماً متألماً، أكره هذه الظلمة الداجية، وهذه الخرائب الموحشة، وأزمع العودة فلا تطيب نفسي بفراق هذا الشيخ وتركه يتخبط وحيداً في هذه المجاهل، فتعوذت بالله (من شرْ غاسقٍ إذا وَقب) ودنوت منه فحْييته وسألته:

- أتريد مساعدة يا عمْ؟

قال: جزاك الله خيراً يا بني. . . فمن أنت؟

- قلت: عابر سبيل رآك فأحبْ مساعدتك

قال: أحسن الله إليك. . . قل لي: أين نحن؟

- قلت: في خرائب الدرويشية

قال: أعرف ذلك. . . هل وازينا القلعة؟

- قلت: نعم

قال: هل ترى قوسين كبيرين قائمين وسط هذه الأطلال؟

- قلت: نعم. . هذه دار آل هـ. . .

قال: أتعرفها؟ (وبكى) -

قلت: نعم أعرفها. فمالك تبكي يا عمْ؟

قال: تلك والله داري يا بني

فلما قالها صعقت وذكرت أين لقيت هذا الرجل، وعرفت من هو. ولكن ما بال هذه الشيبة، ما هذه العصا، ما هذه الثياب؟ ما الذي أناخ عليه فهدّ شبابه؟ أيْ سهم من سهام الدهر أصمى بصره؟ حرت وحزنت ولكني تجاهلت وقلت:

- دارك أنت يا عمْ؟
- قال: إي والله يا بني. . . ألم تسمع بها؟ لقد كانت من أجمل دور دمشق. لقد كان من تحت هاتين القوسين قاعة من أفخم القاعات، يؤمها السيّاح من أوربا وأمريكا ليروها ويعجبوا بما فيها. لقد كان فيها بركة مصنوعة من ألف وثلثمائة قطعة صغيرة من الأحجار الملونة. . . لقد دفعوا لي في سقفها الخشبي ثمانية آلاف دينار. . . ولكن ما فائدة الكلام؟ لقد خسرت ما هو أعزّ عليّ منها: زوجتي وأولادي. . .

(وأنطلق يبكي بكاء موجعاً)

لقد كان ذلك ليلة العيد، في مثل هذه الليلة. . . وكنا قد ذقنا في رمضان الأمرّين من الخوف والرعب، وكنا كأننا في ساحة حرب: بينما نحن جالسون آمنون، إذا بالرصاص يصفر، وإذا هي المعركة: يهجم عشرون من الثوار، فيطردون جيشاً فيلجئونه إلى القلعة ويضطرونه إلى الاعتصام بجُدُرها، ويؤوبون وقد غنموا ما شاءوا من مجد ومال وعتاد، فيخرج أولئك، فيتبخترون بالساحة (يطلبون الحرب وحدهم والنزال)، وتنطلق أفواه المدافع تلقي خطب البطولة على النساء والأطفال:

أسد عليّ وفي الحروب نعامة ... فتخاء تنفر من صفير الصافر

هلا برزت إلى غزالة في الوغى ... بل كان قلبك في جناحي طائر

آه يا بني. لا تلمني إذا بكيت وأذهب البكاء بصري، فقد سحقت المصيبة قلبي. . . كان ذلك ليلة العيد، وكانت الدار تضحك سروراً، وترقص بهجة؛ وكان الأطفال ينتظرون مدافع العيد، ليفرحوا ويمرحوا، ويأخذوا عيديّاتهم. . . فلما انطلقت هتف الأطفال، وصاح النساء، وأبتسم الرجال، ولكن. . .

آه من لكن. . . لقد هدْت (لكن) كياني؛ لقد طمست بصري؛ لقد جعلتني قبراً يمشي، ولكن هذا السرور لم يدم؛ ولم تكن إلا لحظة حتى استحال الهُتاف بكاء، والصياح ولولة، والابتسام حيرة وجزعاً. لم تكن مدافع العيد، بل كانت مدافع الموت نزلت على أجمل دار في دمشق، وأهنأ أسرة فيها، فجعلت هذه الأسرة موزْعة بين الموت والشقاء، وهذه الدار مقسْمة بين النار والدماء، ثم انجلت العاصفة، فإذا هذه الدنيا الناعمة العريضة تلْ من التراب. . .

لقد حزنا وجزعنا، ولم ندر ماذا نصنع، فحملت الأم طفلها الرضيع، وأمسكت بطفلها الآخر، وكادت تنجو لولا أن عاطفة الأمومة قد عادت بها لتنقذ سائر أولادها، فسدت النار سبيلها فابتغت سبيلاً غيره، فأستقبلها اللهب، فماتت هي وأولادها، يلفّهم كفن من لسان النار الأحمر. . .

أما أنا وولدي الشاب - رحمه الله على شبابه. . . أه! - أما نحن فما زلنا نجيء ونذهب، نحاول أن ننقذ هذا ونخلص هذه، حتى حملنا الجميع وكدنا ننجو، بل لقد نجوت أنا، وتلفت لأراه فحال بيننا اللهب، ورأيته يشير إليْ بسلام المودع ثم يسقط صريعاً. . .

لم ينج إلا أنا وولدي الصغير، وليته لم ينجُ، ولكن ما ذنبه هو؟ إنه بريء، إنه نشأ على الفضيلة والعفاف، وربي على الاستقامة والشرف، فكان أكمل التلاميذ خلقاً وأجملهم خلقاً، وأقومهم سيرة، وأكثرهم اجتهاداً؛ لم يعرف قط إلا طريق المدرسة، حتى إذا وقعت الواقعة لم يع على نفسه إلا وهو يدور في الأسواق ليلاً بإزار النوم، فاستحيا وجزع وعاد إلى الدار. . . فلم يجد داراً، وجد بقعة من جهنم وقودها الناس والحجارة، فأرتد هائماً على وجهه، وكان ذلك آخر عهدي به.

لقد نسى من بعد هذه الفترة من حياته، نسى أباه المفجوع وأمه الشهيد، وأخاه القتيل، وأهله الصرعى، وأستقر في نفسه أنه مخلوق نبت من الأرض، بين سوق علي باشا، والسوق العتيق، وشارع النصر، وميدان المرجة، ثم قادوه بعد إلى معابد الرذيلة، إلى مذابح الأخلاق، إلى هذه المزابل القذرة، إلى العباسية وأولمبيا وتاجادا فقتلوه. . . آه يا بني إنهم لا يقتلون بالقنابل والرصاص والسيوف والخناجر إلا قليلاً، ولكنهم يقتلون دائماً، يقتلون الأمم بالحانات والقينات (الأرتستات) والأزياء والمدارس والقوانين. . .

وأدرك الشيخ العجزُ فهو إلى الأرض وهو يبكي ويشهق، وأن نفسه تكاد تخرج في شهقة من شهقاته.

كانت الأنوار تشع من العباسية، وأولمبيا، وتاجادا، والأمبير، وراديو، وروسكي، وهذه الملاعب الخشبية التي أقاموها على أطلال الدرويشية والسنجقدار احتفالاً بالعيد؛

. . .وكانت أصوات الموسيقى، ورنات الضحك، وصيحات الفرح تشق سكون هذا الليل
وكان الشيخ يجود بنفسه على أنقاض دمشق لا يدري به أحد
أما الشعب الثاكل فكان يرقص على رفات الشهداء، أما الشعب فقد كان يفرح بالعيد.
. . . . . .
علي الطنطاوي
أيها الشبان!
لبول بورجيه
بمناسبة وفاته في 25 ديسمبر سنة 1935
ترجمة الأستاذ عبد الحليم الجندي
إليكم هذا الكتاب يا شباب الوطن، الذين تتراوح أعماركم بين الثامنة عشرة والخامسة والعشرين، والذين تبحثون في مؤلفاتنا عن جواب عن المسائل الآخذة عليكم مذاهب التفكير، أما الجواب فيعتمد قليلاً على حياتكم المعنوية حياة فرنسا ذاتها، فلسوف تسيطرون في العشرين سنة المقبلة على مصائر هذه الأمة العجوز. . . . . أمنا جميعاً
. . . . .ماذا حصلتم من مؤلفاتنا؟ هذا سؤال يخاف الكتاب النزيهون من تبعاته في كتاب (التلميذ) بحث لهذه التبعات، وفيه دليل على أن الصديق الذي يطالعك وأنت تطالعه إنما يملؤه إيمان عميق بسلطان الأدب، ودليل آخر على أنه يفكر فيك أيام درجت تتعلم الهجاء، أيام كنا نحن كاسفي البال نوقع ألحان قريضنا الناشئ على رنين المدافع الفاغرة أفواهها على باريس، أيام كان كبارنا في صفوف المعركة، وكنا نحن الصغار في صفوف الجامعة، ترزح ضمائرنا تحت عبء فادح هو إحياء فرنسا.
كنا نناجيك يا شباب اليوم بما ناجاك به بانفيل: (أقبلوا أيها الفيلق المبارك، يا شباب الأيام التي لم تنفرط من عقد الزمان بعد، أقبلوا كالفجر الطالع، واملأوا آفاق الورى بالنور. . . .) كنا نتمنى أن يشرق فجركم وضاء يغمر الورى إشراقاً، فلقد كان فجرنا يختنق ببخار الدم الذي يسمم الأفق، وكنا نعرف أن علينا أن نعيد لكم فرنسا سيرتها الأولى؛ ولئن كنا صغاراً فلقد كنا نعلم أن أفضل ما علمنا أساتذتنا هو (أن الظفر أو الخذلان في الخارج إنما هما مظهر المنعة أو الانحلال الداخلي) كنا نعلم أن نهضة ألمانيا في فاتحة القرن لم تكن إلا عملاً من أعمال (النفس)، وكنا نعلم أن النفس الفرنسية هي التي انكسرت في حرب السبعين، وأن الأزمة الفرنسية إنما هي أزمة نفسية عبر عنها ديماس حينما قال: (. . . حذار. . . حذار. . . إنها برهة عجلى ما أسرع أن تفوت. . . تلك البرهة التي يمكن أن يكون فيها الفتى حساساً كله عواطف، أو متشككاً أو ساخراً أو مهذاراً. أما الله، وأما الطبيعة، أما العمل والزواج والحب والبنون، فأولئك أمامك دائماً. . . أولئك يجب أن يحيوا أو أن تموت. .)
بلى: هذا الجيل الذي أنا منه والذي زخرت نفسه بالآمال الجسام، كم جاهد لمجد فرنسا!. إن نفسي لتذوب حسرات كلما تذكرت أن رجال السلطة قد تخلوا عنا في غضون هذا الجهاد العاصف، وأن الطبقة الوسطى هي التي غذت فرنسا في العشرين عاماً الماضية بالقادة والساسة والفنانين العباقرة حتى ليتساءل المرء: (ما أقدر هذا الفلك الفرنسي السيار! ما أكبر حيوية هذه الأمة الفرنسية! إن خُطاها لاتني حيث كانت تهلك أية أمة أخرى!) هذه الطبقة الوسطى التي شهدت بعض الزعماء يضحون بالعزيز عليها من العقائد بأسم الحرية، ودجاجلة سياسيين يلعبون على الاقتراع العام فيسمو التدجيل بكفاياتهم المتواضعة إلى أسمى الدرجات. . كم تحملت لتبعث فرنسا في العوالم من جديد. .! ولئن خطر الجند الفرنسيون ذهاباً وجيئة، أو أضمرت الحكومات لنا الاحترام، أو تقدم التعليم العالي، أو كانت الآداب الفرنسية ما برحت تحمل لفرنسا لواء العبقرية والمجد، فلهذه الطبقة الوسطى تلكم اليد العليا. .
كيف تحابك فرنسا وتنهض؟ هذه مسألة الساعة.
إنك لا تتذكر صورة أولئك الخيالة البروسيين وهم يتبخترون على أرض فرنسا، يهزون أعطافهم كبرياء، ويصعرون خدودهم صلفاً؛ أما نحن فكم غصصنا بهذه الرؤى. . وما كنا نحسب أن الصلح يمحوها من الأحلام، أو أنه سيسوي أسباب الخصام والسلام إنني أعلم أنك على استعداد لتهب في سبيل الوطن روحك، لكن ليس هذا الفخر، ولا يكفي

. . .أن تعلم كيف تموت، بل يجب أن تعلم كيف تحيا
هل لك مثل أعلى من أمثالنا العليا؟ أفيك أيمان أقوى مما تنطوي عليه أضالعنا؟ هل
. . .لك آمال دونها آمالنا؟
أن كان الجواب نعم، فشكراً.
. . .وأن كان الجواب لا
. . .إن كان الجواب لا
.إن كان الجواب لا: فإن من شباب هذا الجيل طرازين كلاهما ثري وكلاهما مشئوم
أما الأول فهو ذلك المرح المستهتر بالأشياء، الذي همه وكِبر مناه في الدنيا أن
يستمتع، وعلى الأصح أن يصل وأن ينجح، فإذا كان سياسياً أو رجل أعمال أو أديباً أو
محامياً أو فناناً أو ضابطاً فإنما (. . ذاته) هي الأمل المشتهى، وهي المبدأ والمنتهى؛
يندفع في تطبيق قانون تنازع البقاء على أساليب عيشه وكفاحه اندفاعا بربرياً؛ هولا
يهوى من الحياة إلا النجاح، ولا من النجاح إلا المال؛ ولقد يقرأ ما أكتب كما يقرأ كل
شيء ليكون فقط (. . مع الدنيا. .)؛ ولقد يرميني بأني أهزأ بالجمهور وما أنا إلا صورة
منه؛ طراز إباحي في كل شيء؛ ليس المثل العالي لديه إلا فكاهة! فإذا مارس
الديمقراطية مثلاً فليتبوأ مقعده في مجلس النواب. . . أو ليس ذلك الشيطان
. .الرجيم؟
هذا الذي لم يقطع من مراحل الحياة خمساً وعشرين مرحلة وليست نفسه إلا (عداداً)
لحساب الملذات.
ثم أرأيت إلى ذلك الأخر الأخلق بالزراية والمقت، هذا طراز قد اجتمعت له
أرستقراطية الأعصاب والصلف، أبيقوري مهذب على نقيض الأول؛ فذلك أبيقوري
متوحش، وهذا الأرستقراطي إباحيّ لبق؛ طافت كل الأفكار برأسه، فلا تحدثه عن
التجديف أو عن المادية، فإن للمادة عنده معنى غير ذي حدود. . . هو أنفذ بصيرة من
أن يجهل أن كل دين دانت له الدنيا في إبانة. . . هو لا يدين إلا (لذاته). . ليس الخير
ولا الشر، ولا الجمال ولا القبح أموراً ذات بال تعنيه، وإنما نفسه (أداة) متعلمة يلتذ
بتجريدها وتعطيل مزاياها كأنها موضوع تجارب، لا يفقه في الحق ولا في الباطل ولا
في الإنسانية ولا في البهيمية، بل كما قال (بارس) تناهت به شهواته إلى عبادة ذاته أو
. . . . .لذّاته
. . . .لا تكونوا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء أيها الفتيان
لا إلى الواقعيين المفرطين في عالم الحس، ولا إلى المتفيهقين المستهترين في عالم
المعقول؛ ولا يركبنكم شيطان الغرور فيذلنكم للكبرياء والشعوذة، بل عليكم أن تجعلوا
شعاركم: (إنما يحكم على الشجرة بما تؤتي من ثمار).
إن ثمة حقيقة لا مراء فيها لأنها بين الضلوع، تبصرونها وتحسون بها: تلك هي النفس.
وإن من الفكَر التي تسيطر على أذهانكم لأفكاراً تضعف من قوى الإرادة والمحبة،
فأعلموا أنها أفكار زيوف مهما طلاها السحر بالألوان. وزيدوا (المحبة والإرادة) نماء
فليس سواهما
إلا عار دائم وعذاب مقيم.
وأعلموا أن العلم الصحيح اليوم يعرف أن حدود (العالم المجهول) تتاخم حدوده - وكما
قال لتريه: هذا بحر غامض تلاطم شواطئنا لجاته، تشهده نواظرنا وآلهة، لا زورق يسبح
بنا فيه ولا شراع. . . . فقولوا للأولى زعموا أن عنده الظلمات والهاوية: (إنكم لا
تعرفونه)
وما دامت في جنوبكم هذه النفس فتعهدوها
إن فرنسا تريد من كل فرنسي أن يفكر فيها.
باريس في 5 يونيو سنة 1889
قصة المكروب كيف كشفه رجاله
ترجمة الدكتور أحمد زكي
وكيل كلية العلوم
كوخ رابع غزاة المكروب
يكتشف مكروب الكلوليرا في مصر

وفي الرابع والعشرين من مارس عام 1882 اجتمعت الجمعية الفسلجية في برلين في حجرة صغيرة حقيرة بحجمها، كبيرة عظيمة بمن اجتمعوا فيها من أعلام رجال العلم في ألمانيا. فكان في الحاضرين بول أرليس وكان فيهم علاّمتنا الجهبذ الكبير الأستاذ الشهير رودلف فرشو الذي ذكرنا قِدْما ما كان من استهانته لكوخ المأفون ودعواه المزعومة في بشلات الأدواء. وكان في الحاضرين كل مقاتل للأمراض له أسم يذكر في ألمانيا.

ولما أكتمل الجمع، قام فيهم رجل صغير، جَعدُ الأسارير، على عينيه نظارتان، وفي يديه أوراق أخذ يقلبها في خَبلة ظاهرة وهي لا تفتأ ترتعد بين أنامله وأخذ يتكلم فأضطرب صوته اضطراباً خفيفاً. هذا كوخ قام يخبر الجماعة في تواضع رفيع كيف تأتى له أن يكشف عن مكروب هذا الداء الذي يحظى بنصيب الأسد من الأدواء فيفوز برجل من كل سبعة يموتون. وأخبرهم دون أن يُجلجل بصوته، فِعلَ مصاقع الخطباء، أن أطباء العالم يستطيعون اليوم التعرّف إلى بَشلِة السل ودرس عاداتها وخصائصها. وأخذ كوخ في الحديث عن هذه البشّلة، أصغر أعداء الإنسان وأكبرها به فتكاً، فعرّفهم بمكامنها ومراصدها وبمظاهر ضعفها ومظاهر قوتها، وأراهم طرائق لو أنهم سلكوها فلعلهم ماحون هذا المكروب القتال من على ظهر البسيطة.

وجلس كوخ، وأنتظر النِّقاش والحِجَاج والمعارضة التي لا بد منها عندما يختم باحث عرض بحث ثوريّ كالذي نحن بصدده. ولكن لم يقف رجل على قدم، ولم تنفرج بكلمة واحدة شفتان. وأخيراً اتجهت الأنظار إلى فرشو، سلطان دولة العلم الألمانية، ومهبط وحي

الآلهة، والرجل الرّعاد الذي كان يعبس للنظرية الجديدة تهم بالظهور في تفسير الأدواء فيقضي عليها قبل ولادتها.

اتجهت الأنظار إلى هذا الداهية، فأنتصب قائماً، ووضع قبعته على رأسه، وغادر المكان فلم يكن عنده ما يقول -!

لو أن لوفن هوك كشف هذا الكشف الخطير في قرنه السابع عشر، أي قبل أيام كوخ بمائتي عام، لأستغرق انتشار خبر ذلك في أوربا أشهراً عديدة طويلة؛ أما في عام 1882، فلم ينفضّ اجتماع الجمعية الفسلجية حتى شاع خبر هذا الكشف في الناس، وحمله البرق في نفس الليلة إلى أقاصي اليابان شرقاً إلى أقاصي أمريكا غرباً. وأصبح الصباح فكنت تراه في جرائد الأمم كالقنبلة انفجرت على صفحاتها الأولى. وهاجت الدنيا وماجت لاكتشاف كوخ، وجاءه الأطباء زرافاتٍ في السُّفُن وعلى القُطُر تسأله تعليمهم كيف يُطبخ الفالوذج اللحم، وكيف تُضرب المحاقن مليئةً بالجراثيم في أجسام الخنازير وهي تعتلج وتضطرب.

كشف بستور ما أكتشف، فأثار فرنسا من جرائه إلى التشاحن والتطاحن. أما كوخ فكشف عن مكروبة السل الخطيرة فهزّ بها الدنيا هزّاً. وكلما أجتمع حوله المعجبون صرفهم بتلويحة من يده وهو يقول: (ليس لكشفي كل هذا الخطر الذي تزعمون). وتهرّب منهم، وتهرّب من تلاميذه يتفرغ ما استطاع لأبحاثه الجديدة. وكان مثل لوفن هوك يكره التدريس، ولكنه غُصب عليه فكان يأتيه كاظماً كرهه، إلا تمتمةً وراء شفتيه، فدرّس ليابانيين يتكلمون الألمانية سقيما، وكلامهم بها أيسر عليهم من فهمهم إياها. ودرّس لبرتغاليين كانوا قوماً يستحيل عليهم صيد المكروب ولو تعلموه على كوخ مائة عام. وخاصم بستورَ خصومة كبرى سنأتي عليها في الباب القادم. وقام بين الفينة والفينة بتعليم عونه القديم جَفْكيٍ كيف يتصيد مكروب التيفود. وأضطُر اضطراراً إلى حضور استقبالات.

وتقبّل الشارات، فإذا فرغ من هذه عاد إلى عونه الآخر لُفلار وكان من ذوي الشوارب الكبيرة الرائعة فأعانه فيما هو فيه، وكان قد أخذ في سبيل اقتناص ذلك المكروب الذي يَقْطُر سمّاً في حلوق الأطفال الرضّع فيميتهم اختناقاً، وأعني به مكروب الدفتريا.

أكتشف كوخ طريقته لتكثير المكروب على سطوح الأطعمة الجامدة، وهي طريقة مُغرقة

في البساطة، إلا أنها على بساطتها فتحت له أبواباً شتى إلى كشوف شتى. ووصفها جَفْكيٍ بعدئذ بزمن فقال إنها كانت كالشجرة المباركة، كُثر طرحها، وثقلت به فروعها، فما كان على كوخ إلا أن يهز بجذعٍ فتساقط في حجره بكل جَنيٍ من ثمرها.

لقد قرأت جميع ما كتب كوخ فلم أجد في شيء منها قرينة تدل على أنه عد نفسه يوماً كشافاً كبيراً ومبتكراً ذا بال. وهو لم يستشعر يوماً - كما أستشعر بستور - أنه كان بحق قائداً عظيماً في حربه التي أثارها على المكروب، وقد كانت من أشد الحروب التي أثيرت عليه، ومن أجمل الوقائع التي دبرّها الإنسان لصد غارات الطبيعة ودفع قساواتها. كان هذا الرجل القصير القليل الملتحي لا يطلب إلى الشهرة سبيلاً، ولا يمثل من أجلها في الناس تمثيلاً. ولكنه مع هذا رفع على مسرح الكون ستاراً عن درامة أخذت فصولها تتكشف عن معارك حامية أثارها اللاحقون من العلماء على رسل الموت مترسمين فيها خُطى هذا السبّاق الأول، مخاطرين بأرواحهم إلى حد النزق، وبأرواح سواهم إلى حد الأجرام. كل هذا ليثبتوا أن المكروبات أسباب الأدواء.

ولنضرب مثلاً لهؤلاء رجلاً يدعى الدكتور فِيلَيسِنْ خرج من معمل كوخ، فوجد مكروباً مستديراً كالكرة، وقد تشبث بعضه ببعض فأصبح كحبات السّبحة، فأخذ هذا المكروب من جلد أنتزعه تقويراً من مرضى بداء الحمرة، ثم رّباه، وبناء على نظرية حمقاء تقول إن إصابة من داء الحمرة قد تذهب بداء السّرطان، أطلق صاحبنا البلايين من هذه المكروبات في مرضى مسروطين قلّ الرجاء فيهم، وبعد أيام قلائل التهبت جلود هذه الحيوانات التجريبيّة من بني الإنسان بداء الحمرة وكاد يقضي عليهم قضاء مبرماً، وفاز صاحبنا الأرعن ببرهانه: إن هذه الحبّات السُّبحية سبب داء الحمرة.

ولنضرب مثلاً آخر تلميذاً من تلاميذ كوخ، وبطلاً من الأبطال الذين ذهب بأسمائهم الزمان، وعفى على ذكراهم النسيان، ذلك الدكتور جاريه بمدينة بازل فهذا الرجل سمع بستور يدّعى أن نوعاً آخر خاصاً من المكروب هو سبب الدمامل التي تصيب الإنسان، فما كان منه إلا أن قام إلى أنابيب اختبار ملأى بهذا المكروب فدعك بها ذراعه، فكان جزاءَه خُراجٌ كبير وعشرون دُمّلاً؛ وكان من الجائز أن يذهب ضحية جسارته، ولكنه أحتمل أوجاعه بسن ضاحكة، ووَصف ما لَقَي بأنها تجربة (غير لطيفة)، وصاح اغتباطاً بفوزه

قال: أنا الآن أعلم أن هذه الحبوب العنقودية هي سبب الدمامل والخراجات.

وجاء عام 1882 وقارب الختام، وانتهى بانتهائه الخصام الشديد الذي قام بين بستور وكوخ؛ وهو خصام على شدته لم يخل مما يضحك. أما بستور فأنفض يتفرغ بكل حوله إلى غياث الشياه والأبقار الفرنسية مما أصابها. وأما كوخ فأنفض يتشمم كالكلب في آثار مكروب جديد، هو في ذاته سهل القتل سريع الفناء، إلا أنه مع هذا شر المكروبات افتراساً للناس؛ ذلك مكروب الكوليرا. ففي عام 1883 جاءت الكوليرا من آسيا تطرق باب أوربا. فرّت من مخابئها في الهند وتسلّلَت في خفاء عَبْرَ البحار، وجازت الصحراء والرمال إلى مصر، ثم انبثت بعدواها المخيفة في الإسكندرية، وبقيت أوربا تنظر إليها من وراء البحر الأبيض وَجِلة مرتاعة. خيّمت هذه الوافدة المُنكَرَة على ميناء مصر الحيّة فخفّ نبض الحياة فيها، وعم السكون شوارعها اكتئاباً لفواجع النهار الحاضرة، وارتقاباً لفواجع الليل التي هي لا بد آتية؛ ولم يكن يدري الناس من أمر هذه الوافدة شيئاً، إلا أنها وباء يسترق طريقه خُفيةَ إلى جسم الرجل السليم في الصباح، فإذا أتى العصر التوى تشنجاً وانطوى ألماً، فإذا خيّم الليل تباعد إلى الأبد ما بينه وبين الآلام.

وتنافس كوخ وبستور في كشف مكروب هذه الوافدة التي طلعت نُذُرها حمراء في الأفق البعيد. وما التنافس بين كوخ وبستورإلا تنافس بين ألمانيا وفرنسا. فقام كوخ وصاحبه جَفْكِي عن برلين قاصدين إلى مصر، وحملا معهما مكرسكوبات وحيوانات؛ وكان بستور في شُغْل شاغل يبحث مكروب الكلَب، فأوفد عنه أميل رُو والصموتَ السَّكوت تويّيه وكان أصغر بُحّاث المكروب في أوربا. وعمل كوخ وصاحبه الليل والنهار، فنسيا النوم والطعام، وقاما في حجرات موحشة يقطّعون جثث الموتى من المصريين. وقاما في معمل شديد الحر شديد الرطوبة حتى كاد جوه يتقطر ماء، كما تقطرت أنفاهما عرقاً على مكرسكوباتهما - قاما يحقنان قردة وكلاباً وقططاً ودجاجاً وفئراناً بالمواد الوبيئة التي استخلصاها من جثث الإسكندريين الذين ماتوا من الوافدة قريباً. ولكن بينما الفريقان الألماني والفرنسي يستميتان في طلب هذا المكروب الجديد، إذا بالوافدة تتزايل لغير ما سبب ظاهر، كما كانت جاءت لغير علة معروفة. ولم يكن منهم من تمكن من معرفة شيء عن المكروب المنظور، فنظروا إلى الموت المتراجع نظرة الآسف على فرصة أمكنت ثم

أفلتت.
وهّم كوخ وجَفْكِي بالرجوع إلى برلين، وبينما هما يتأهبان للرحيل جاءهم رسول ينتفض ارتعاداً، فقال لهم: إن الدكتور توّييه الباحث الفرنسي مات، ومات بالكوليرا.
كره بستور كوخ كرهاً شديداً، وأخلص له بالكره بقدر ما يكره الفرنسي الصميم؛ وكره كوخ بستور كرهاً شديداً، وأخلص له الكره بقدر ما يكره الألماني الصميم. ومع كل فما علم الألمانيان بالخبر خفَّا إلى رُو يقدمان عزاءهما ويبذلان عونهما. وصحب كوخُ رفات توّييه إلى مقره الأخير، وقد حملوه في صندوق بسيط عار من الزخرف. ولدى قبره وضع كوخ على تابوته الإكليل وقال (إنها غاية في البساطة، إلا أنها من الغار. العرف يجري بأن الغار هدية الأبطال). مات هذا الشاب الجسور، أماتته تلك المكروبات الضعيفة التي جاء يتقفاها أقتناصاً، فأقتنصته في الطِّراد من حيث لا يدري.
وانتهت جنازة هذه الضحية الأولى، فعاد كوخ إلى برلين ومعه صناديق بها عيّنات كان صبغها بصبغات قوية فتراءت فيها مكروبة على صورة الواو. فكتب تقريره إلى وزير الدولة، وقال فيه: (لقد وجدت جرثومة واحدة في كل حالات الكوليرا التي بحثتها. . . . ولكني لم أثبت أنها سبب هذا الداء، فابعث بي إلى الهند حيث توجد الكوليرا دائماً. . . . ففي الذي وجدته ما يكفي لتبرير إرسالي إليها).
وغادر كوخ برلين قاصداً كلكتّا تصحبه ذكرى (توّييه) وذكرى فاجعته التي كانت. وصحبه خمسون فأراً قام عليها وصياً راعياً. وزاد دوار البحر في عنته. فكثيراً ما تصورت ما خاله ركاب السفينة من أمره، لعلهم ظنوه مبشراً حمله تحمسه على ما هو فيه؛ أو لعلهم حسبوه أستاذاً همه التنقيب عن تراث الهند القديم ووجد كوخ تلك المكروبة الواوية في كل جثة في جثة من الجثث الأربعين التي فحصها. ووجدها كذلك في مَعي المرضى عند أول إصابتهم بالكوليرا. ولم يجد أثراً لها في مئات الهنود الأصحاء الذين أمتحنهم. ولم يجدها في أي حيوان سليم، من الفأر الصغير إلى الفيل العظيم.
وسرعان ما تعلّم كوخ تربية هذه البشلات الواوية نقيةً على فالوذج حساء لحم الأبقار، وما استطاع القبض عليها في أنابيب اختباره حتى درس عادات هذه المخلوقات النباتية الصغيرة الشريرة فعرف أنها تموت سريعاً إذا هي جففت ولو تجفيفاً طفيفاً، وعرف كيف
تتسلل إلى الرجال الأصحاء من ثياب الموتى وأفرشتهم بعد أن تتلوّث بأقذارهم؛ واستخرج هذه الواوات عينها من صهاريج الماء الآسن التي أجتمع الهندوس حولها في أكواخ حقيرة، بل زرائب بائسة، تخرج منها توجعات المرضى يستعْدون على الموت وليس من يُعدي ولا من يعين.
وركب كوخ البحر عائداً إلى بلده، فأستقبله الألمان استقبالهم قائداً عاد منتصراً، وأجتمع له العلماء الأطباء فقال فيهم: (إن الكوليرا لا تنشأ من ذات نفسها، فلا بد للمكلور من ابتلاع بَشِلّتها الواوية، وهذه البشلة لا يمكن أن تنشأ إلا من بشلة مثلها، وهي لا تنشأ من شيء آخر غير هذه البشلة، وهي لا تنشأ من العدم، وهي لا تنمو وتتكاثر إلا في أمعاء الإنسان، وإلا في الماء إذا زاد قذره كماء الهند).
ألا حمداً لكوخ ولأبحاث كوخ وشجاعته، فهي التي أمنت أوربا وأمريكا من غارات هذه الوافدة الشرقية، ولم يبق لتأمين العالم منها إلا تمدين الهند ونشر الأنظمة الصحّية فيها.
- 8 -
من يد الإمبراطور نفسه تسلم كوخ وسام التاج بنجمته؛ ومع هذا ظلت قبعته الريفية مطمئنة على رأسه الأكيس؛ وكلما أعجب به المعجبون وأثنى عليه المادحون قال: (أنا إنما أفرغت كل وسعي، فأن كنت نجحت فوق نجاح غيري، فما هذا إلا لأني وقعت اتفاقاً من مجاهل العلوم الطبية على أصقاع بكرٍ بها التِبْر كثير مركوم. فليس لي في الذي وجدت فضل كبير)
كان البحّاث الذين اعتقدوا أن المكروبات أسباب الأدواء وأعداء الإنسان رجالاً شجعاناً، ولكن هذه الشجاعة لم تفت خصومهم من الأطباء الأقدمين وعلماء الصحة المحافظين الذين هزءوا بالأحاديث الجديدة عن المكروبات المزعومة وظنوها ضلالة وخرفاً، ومن هؤلاء الخوارج الأستاذ الشيخ بيتنكوفر أستاذ ميونيخ وزعيم الشكاكين الذين لم تقنعهم تجارب كوخ على بساطتها ووضوحها. فلما عاد كوخ من الهند ومعه هذه المكروبات

الواوية التي آمن بأنها أسباب الكوليرا، كتب له بيتنكوفر ما معناه: (أرسل إلي شيئاً من جراثيم الكوليرا المزعومة، وأنا أثبت لك أن لا ضرر فيها)
وبعث كوخ إليه بأنبوبة تعج بهذه الجراثيم القتالة، فما كان من صاحبنا إلا أن رفعها إلى فمه وأبتلعها ابتلاعاً. فأرتاع كل صياد يؤمن بالمكروب، فقد كان في هذه الأنبوبة بلايين من هذه الواوات تكفي لعدوى جيش؛ ولكن الأستاذ تمطى بعد ما شربها استخفافاً وصاح يتحدّى من خلَل لحيته الكثة: (والآن فلنصبر وننظر هل تجيئني الكوليرا كما يزعمون)، وانتظروا ولكن الكوليرا لم تأت لهذا الأستاذ المجنون، ولآي سبب تخلفت؟ لم يعلم أحد عندئذ ولا يعلم أحد إلى الآن من سر هذا شيئاً.
بلغ النزق الجسور بيتنكوفر أن قام بتجربة جاز أن يكون بها قضاؤه، وبلغ كذلك به اليقين بعدها أن زعم أنها قضت له قيما بينه وبين خصومه. فصاح فيهم: (ليس للمكروب شأن في الكوليرا، إنما الشأن لاستعداد الشخص المصاب)، والاستعداد كلمة مبهمة لا مفهوم لمعناها.
فصاح كوخ يجيبه: (لا كوليرا إلا بالبشلات الواوية).
فرد عليه بيتنكوفر: ((ولكني بلعت الملايين من بشلاتك القاتلة في زعمك ولم يصبني حتى وجعٌ في بطني).
كان في هذا الحوار، وأسفاه، ما يكون بكل حوار علميّ شديد: كلا الطرفين مصيب بعض الإصابة، وكلاهما مخطئ بعض الخطأ. فقد توالت الأربعون عاماً التي جاءت من بعد كوخ بحوادث كلها تؤيده في قوله إن الناس لا تأتيهم الكوليرا إلا إذا هم بلعو بشلته الواوية؛ وكل السنين التي توالت علمتنا أن تجربة بيتنكوفر ما هي إلا مثل غامض من كثير أبَت حُجُب المجهول أن تكشف لنا عن تفسيره، حتى في هذا العصر الحاضر الذي نحن فيه عجز بحاث المكروب عن رفع طرف واحد من تلك الحجب الكثيفة، فالمكروبات الفاتكة تملأ الكون، وتنسّل إلى كل مكان، وهي مع ذلك لا تقتل منا إلا بعضنا؛ أما بعضنا الآخر فإنه يقاوم مقاومة تحير عقولنا اليوم كما حيرت عقول الجيل الصاخب في العقد الخامس من القرن الماضي، حين الرجال لا يبالون بالموت في سبيل إثبات ما يدعون أنه الحق؛ فما كان بيتنكوفر هازلاً فيما صنع. وكيف يهزل من مشى إلى الموت حتى صار منه على مدى شبر واحد. وقد بلع غيره من البحّاث على غير عمد مِثل الذي بلع من مكروب الكوليرا وماتوا على أثر ذلك شر ميتة.
وما قاربت أيام كوخ العظيمة تمامها حتى أخذ بستور وأعماله الكبرى تتراءى مرة أخرى ضخمة هائلة، فتلفت الناس والدنيا وتَزُجّ بكوخ وبغيره من البحاث إلى الوراء في رقعة
الحوادث الخطيرة. فلندع الآن كوخ، ولنتركه إلى مواطنيه الطماحين ينصبون له غير عامدين شركا، بل داهية عظمى ومأساة كبرى طمست قليلاً من وهج هذا الاسم الكبير، أسم الرجل الذي أقتنص من أعداء الإنسان والحيوان مكروب الحمرة ومكروب الكوليرا ومكروب السل. وقبل أن أعود إلى بستور فأكشف عن الصفحة الأخيرة الناصعة من سفر حياته الخالد، دعوني أرفع قبعتي وأنحني احتراماً لكوخ - هذا الرجل الذي أثبت يقيناً أن المكروب ألدّ أعدائنا؛ هذا الرجل الذي نظّم بحث المكروب فجعل منه علماء؛ هذا الربّان الذي قاد السفائن في عصر من بطولة وأبطال عفّي الآن عليه النسيان بعض العفاء.
(انتهى كوخ)
أحمد زكي
من روائع الشعر الأندلسي
رثاء الأندلس
لشاعر أندلسي مجهول
قصيدة بليغة من الأدب الأندلسي الرائع تصف أحسن وصف المأساة الأندلسية . . . . لم نعثر على قائلها، وقد طبعها لأول مرة على ما يظهر الأستاذ الدكتور صوالح محمد بالجزائر سنة 1914 مع ترجمة فرنسية وبعض تعليقات بالفرنسية ذكر فيها أن هذه القصيدة من جملة قصائد بعث إلى السلطان بايزيد العثماني بقصد الاستغاثة، وأشار إلى أن صحيفة الزهرة التونسية نشرت نتفاً منها منذ سنوات وطلبت من الأدباء أن يعلنوا عن صاحبها إذا عرفوه، ولكن لم يجب الصحيفة أحد: فبقي صاحبها مجهولاً. وقد

عْرضتها على المؤرخ المغربي الكبير السيد محمد بن علي الدكالي السلوي فذكر لي أن صاحبها كما يفهم من القصيدة من مدينة المرية، ولعله أبو جعفر بن خاتمة، وقد تكون مذكورة في كتاب له يسمى مزية المرية الموجود منه نسخة خطية بمكتبة الأسكوريال.

ولقد أحببت أن أرسل إليكم نصها لكي تنشروه في مجلتكم الحافلة إذا راقكم لعل بين المشتغلين بالأدب الأندلسي من له معرفة بقائلها فيعلنه.

سلا - مراكش

عبد الرحمن حجي

أحقاً خبا من جَوِّ رندَة نورها ... وقد كسفت بعد الشموس بدورها
وقد أظلمت أرجاؤها وتزلزلت ... منازهها ذات العلا وقصورها
أحقاً خليلي أنَّ رندة أقفرت ... وأزعج عنها أهلُها وعشيرها
وهُدَّت مبانيها وثلت عروشها ... ودارت على قطب التفرق دورها
وكانت عقاباً لا يُنال مطارُها ... ومعقل عز زاحم النسر صوُرُها
هوت رندة الغراء ثم حصونها ... وأنظارها شنعاء (كذا) عز نظيرها
وقد كن عقدا زين القطر نظمها ... فقد فتح الآن البلاد نثيرها
وفرق شمل المؤمنين لهيبها ... وقطع من أرحامهم زمهريرها
تسلمها حزبُ الصليب وقادَها ... وكانت شروداً لا يقاد نَفورُها
وقد ذهبت أديانها ونفوسها ... وقد دثرت تحت السباء دثورها
فباد بها الإسلام حتى تقطعت ... مناسبها وأستأصل الحق زورها
وأصبحت الصلبان قد عبدت بها ... تماثيلها دون الآله وصورها
لقرع النواقيس اعتلى بمنارها ... كرائه أصوات يروع صريرها
فيا ساكني تلك الديار كريمة ... سقى عهدكم مزن يصوب نميرها
أحقاً أخلائي القضاء أبادكم ... ودارت عليكم بالصروف دهورها
فقتل وأسر لا يفادي وفرقة ... لدى عرصات الحشر يأتي سفيرها
لعمر الهدى ما بالحشا لفراقكم ... سوى حُرَق سُحم تلظى سعيرها
ولوعة ثكل ليس يذهب روعها ... ولا تنقضي أشجانها وزفيرها
ونفس على هذا المصاب حزينة ... يذوب كما ذاب الرصاص صبورها
وقلب صديع ماج فيه بلاؤه ... سويداؤه سوداء جمٌّ ثبورها
سأبكي وما يجدي على الفائت البكى ... بعبرة حزن ليس يرقا عبورها
شآبيب دمع بالدماء مشوبة ... يساجل قطر الغاديات درورها
عويلاً يوافي المشرقين بريحه ... وثكلاً بأقمار قد أطفئ نورها
فوا حسرتاكم من مساجد حولت ... وكانت إلى البيت الحرام شطورها
ووا أسفاكم من صوامع أوحشت ... وقد كان معتاد الأذان يزورها
فمحرابها يشكو لمنبرها الجوى ... وآياتها تشكو الفراق وسورها
وكم من لسان كان فيها مرتِّل ... وحفل بختم الذكر تمضي شهورها
وكم من فتى ثبت الجنان مهذب ... يود المنايا وهو كان يديرها
يصول على الأبطال صولة ضيغم ... فيرهبه شبل الشرى وهصورها
له في سبيل الله خير نقيبة ... تزان لها عِين الجنان وحورها
له في جناب الكفر أجدى نكاية ... وشعواء غارات يثاب مغيرها
يُراع لها دين الصليب وحزبه ... ويخزى بها غنُصالها ورُمِيرُها
وكم أنفس كانت لديه أسيرة ... فأضحى لعمر الله وهو أسيرها
تحكم فيه الشرك وهو موحد ... كما قد قضى جبارها ونذيرها
وكم طفلة حسناء فيها مصونة ... إذا سفرت يسبي العقول سفورها
تميل كغصن البان مالت به الصبا ... وقد زانها ديباجها وحريرها
فأضحت بأيدي الكافرين رهينة ... وقد هتكت بالرغم منها ستورها
وقد لطمت وَآحرَّ قلبي خدودها ... وقد أسبلت وأدمع عيني شعورها
وإن تستغث بالله والدين لا تغث ... وإن تستجر ذا رحمة لا يجيرها
وقد حيل ما بين الشفيق وبينها ... وأسلمها آباؤها وعشيرها
وكم من عجوز يحرم الماء ظمؤها ... على الذل يطوي لبثها ومسيرها

وشيخ على الإسلام شابت شيوبه ... يمزق من بعد الوقار قتيرها
وكم فيهمُ من مهجة ذات ضجة ... تود لو انظمت عليها قبورها
لها رَوعة من وقعة البين دائم ... أساها وعين لا يكف هديرها
وكم من صغير حيز من حجر أمه ... فأكبادها حراء لفحُ هجيرها
وكم من صغير بدل الدهر دينه ... وهل يتبع الشيطان إلا صغيرها
وكم من شقيّ يسرت هذه له ... سبيلاً إلى العسرى يحيف كفورها
كروب وأحزان يلين لها الصفا ... عواقبه محذورة وشرورها
فيا فرحة القلب الذي عاش بعدها ... ويا لعمى عين رآها بصيرها
ويا غربة الإسلام بين خلالها ... ويا عشرة أنَّى يقال عثورها
ويا ليت أمي لم تلدني وليتني ... بليت ولم يلفح فؤادي حرورها
وما خير عيش يعذب الموت دونه ... ويغبط قل الأهل فيه كثيرها
فيا ليت شعري بعد ما صح موتها ... أيرجي على رغم العداة نشورها
ويا ملة الإسلام هل لك عودة ... لأرجائها يشفي الصدور صدورها
وهل تسمع الآذان صوت الأذان في ... معالمها تعلو بذاك عقيرها
ويا لعزاء المؤمنين لفاقة ... على الرغم أغنى من لديها فقيرها
لأندلسَ ارتجت لها وتضعضعت ... وحق لديها محوها ود ثورها
منازلها مصدورة وبطاحها ... مدائنها موتورة وثغورها
تهائمها مفجوعة ونجودها ... وأحجارها مصدوعة وصخورها
وقد لبست ثوب الحداد ومزقت ... ملابس حسن كان يزهو حبورها
فاحياؤها تبدي الأسى وجمادها ... يكاد لفرط الحزن يبدو ضميرها
فلو أن ذا ألف من البين هالك ... لذابت رواسيها وغاضت بحورها
على فرقة الدين الذي جاءها به ... بشير الأنام المصطفى ونذيرها
فمالقة الحسناء ثكلى أسيفة ... قد استفرغت ذبحاً وقتلاً حجورها
وجزت نواصيها وشلت يمينها ... وبدل بالويل المبين سرورها
وقد كانت الغربيّة الجُنَنَ التي ... تقيها فأضحى جنةَ الحرب سورها
وبلّش قطت رجلها بيمينها ... ومن سريان الداء بان قطورها
وضَحّت على تلك الثنيات حجرها ... فأقفر مغناها وطاشت حجورها
وبالله إن جئتَ المنكب فأعتبر ... فقد خف ناديها وجفّ نضيرها
وسكّرُها قد بدل اليوم علقماً ... لها رجة نار الهيام تثيرها
وعرجْ على الإقليم فأبك ربوعها ... بسحب يضاهي المعصرات خريرها
وودع بها وفد النعيم فأنها ... لها أدمع فين الدموع يميرها
ألا ولتقف ركب الأسى بمعالم ... قد أرتج باديها وضج حضورها
بدار العلى حيث الصفات كأنها ... من الخلد والمأوى غدت تستطيرها
محل قرار الملك غرناطة التي ... هي الحضرة العليا زهتها زهورها
فما في العراقين العتيقين مثلها ... ولا في بلاد الله طراً نظيرها
تُرَى الأسى أعلامها وهي خشع ... ومنبرها مستعبر وسريرها
ومأمومها ساهي الحجى وإمامها ... وزائرها في مأتم ومزورها
لها حال نفس قد أصيب فؤادها ... وبتت لها اليمنى وحم تبورها
فأنفسها في الصعق دون إفاقة ... كنفس كليم الله إذ دك طورها
وقد ذعرت تلك البنيّات حولها ... فهن بواكي الأعين الرمد مُورها
وقد رجفت وادي الأشى فبقاعها ... سكارى وما استاكت بخمر ثغورها
لقد أظلمت حتى لفرط حدادها ... سواء بها نجل العيون وعورها
وبسطة ذات البسط ما شعرت بما ... دهاها وأنى يستقيم شعورها
على عظم بلواها وطول وبالها ... وما كابدت من ذا المصاب نحورها
وما أنس لا أنس المرية إنها ... قتيلة أو جال أزيل عذارها
فلو أحرق الثكل المصابين أصبحت ... تأجج من حر الو جيف بحورها
فيا أصدقائي ودعوها كريمة ... أو استدعوها مَن إليه أمورها
منازل آبائي الكرام ومنشئي ... وأول أوطان غذانيَ خِيرها
وأقروا عليها من سلامي تحية ... تجددها آصالها وبكورها

أماناتها ضاعت فضاعت رقابها ... لقد عميت عين تبدد نورها
أضعنا حقوقَ الرب حتى أضاعنا ... وقضت عرى الإسلام إلا يسيرها
وملتنا لم نعرف الدهر عرفها ... من النكر فأنظر كيف كان نكيرها
بما قد كسبنا نالنا ما أنالنا ... كذا السيرة السوأى لدى من يسيرها
بشقوتنا الخذلانُ صاحب جمعَنا ... ويؤنا بأحوال ذميم حضورها
بعصياننا استولى علينا عدونا ... وعاثت بنا أسد العدا ونمورها
نعم سلبوا أوطاننا ونفوسنا ... وأموالنا فيئا أبيحت وفورها
علوها بلا مهر وما غمزت لهم ... قناة ولا غارات عليهم ذكورها
وقد عوت الإفرنج من كل شاهق ... علينا فوفَّت للصليب نذورها
وقد كثرت ذؤبانها وكلابها ... وقد كسرت عقبانها ونسورها
وجاءت إلى استئصال شأفة ديننا ... جيوش كموج البحر هبت دَبورها
علامات أخذٍ مالنا قِبَلٌ بها ... جنايات أخذ قد جناها مثيرها
فلا تمتحي إلا بمحو أصولها ... ولا تنجلي حتى تخط أصورها
معاشر أهل الدين هبوا لصعقة ... وصاعقة وأرى الجسوم ظهورها
أصابت منار الدين فأنهد ركنه ... وزعزع من أكنافه مستطيرها
أدارت علي غريبة الدهر أكؤساً ... فظاعا بسكر الدهر تقضي خمورها
ودبت أفاعيها إلى كل مؤمن ... وعضّ بأكباد التقاة عَقُورها
أنادي لها عجم الرجال وعربها ... نداء سراة القفر إذ ضل عيرها
وأستنفر الأدنى فالأدنى فريضة ... على زمر الإسلام جلت أجورها
على كل محتاج لفضل دفاعها ... فليس يؤدي الفرض إلا نفيرها
ألا وارجعوا يا آل دين محمد ... إلى الله يغفر ما أجترحتم غفورها
أنيبوا وتوبوا واصبروا وتصدقوا ... وردوا ظُلامات يبيد نقيرها
ومن كل ما يردي النفوس تطهروا ... فليس يزكي النفس إلا طهورها
لا واستعدوا للجهاد عزائماً ... يلوح على ليل الوغى مستنيرها
بأسد على جُرد من الخيل سبق ... يدعُّ الأعادي سبقها وزئيرها
بأنفس صدق موقنات بأنها ... إلى الله من تحت السيوف مصيرها
تروم إلى دار السلام عرائساً ... على الله في ذاك النعيم مهورها
وضرب كأن الهام تحت ظلالها ... حثالة نور الورد ذرَّ ذرورها
وطعن يرى الخطِّيَّ في مهج العدا ... كأقلام ذات الخط خطت سطورها
يمين هدى إن تتقوا الله تنصروا ... وتَحْظَوا بآمال يشوق غريرها
فلا يَخذل الرب المهيمن أمة ... تدين بدين الحق وهو نصيرها
وأن أنتمُ لم تفعلوا فترقبوا ... بوادر سخط ليس يرجى فتورها
وأيام ذل واهتضام وفرقة ... يطاول آناء الزمان قصيرها
وأهدوا لدين الشرك كل خريدة ... خبتها على طول الليالي خدورها
وكل نفيس من نفوس كريمة ... وأعلاق أموال خطير خطيرها
وحق العظيم الشأن لا عيش بعدها ... بلايا يمر الطيبات مرورها
فنرفع شَكْوَاهَا لعالم سرها ... فليس لها في الخبر إلا خبيرها
نمد أكف الذل في باب عزه ... بأفئدة خوف الفراق يطيرها
فأن لم يُقِل رب العباد عثارَنَا ... فهذا العدو الضخم حتماً يبيرها
آله الورى ندعوك يا خير مرتجىً ... لكالحة هز الصليبَ سرورها
وشقت جيوب المؤمنين وأسخنت ... عيونهمُ والكفر ظل قريرها
وليس لها يا كاشف الكرب ملجأ ... إذا لم يكن منك التلافي ظهيرها
أغث دعواتِ المستغيثين أنهم ... ببابك موقوفو الحشاشات بورها
وليس لهم إلا الرسول وسيلة ... شفيع الورى يوم التنادي بشيرها
أمام الهدى بحر الندى قامع العدا ... وأول رسل الله فضلاً أخيرها
محمد المختار من آل هاشم ... سراج السموات العلى ومنيرها
دعوناك أملناك جئناك خشعاً ... بأنفس استولى عليها قصورها
نجاه العظيم الجاه أدرك ذماءنا ... برحمي يُحلّي المؤمنين شذورها
وعفو وتأييد ونصر مؤزر ... وعِزة سلطان يروق طريرها

ولطف وتسديد وجبر لما مضى ... يدال به من كل عادٍ كسيرها
وأرسل على هذا العدو رزيّة ... يروح ويغدو بالبوار مبيرها
يشتت شمل الكفر تشتيت نقمة ... وينظم شمل المؤمنين حصيرها
وصلّ على خير البريةِ أحمدٍ ... وأكرم من قد أنجبته ظهورها
وأصحاب الشهب الهداة وآله ... صلاة مع الآناء يزكو عبيرها

سكان أعالي النيل - 2

بقلم رشوان أحمد صادق

كذلك تستعمل الماشية في القرابين، ليكون هناك اتصال بين النويري والآلهة وأرواح أجداده، فمثلاً في أوقات الشدائد مثل المرض والموت والتشليخ (تشريط الوجه) والزواج يجب أن يحوز النويري رضاء الأرواح الطيبة، وذلك بأن يُستحضر عجل أو كبش، ثم يوضع على ظهره مسحوق من الرماد، ثم يقول له صاحبه ما يريده من الأرواح، ثم يطلق إلى حال سبيله لكي يخبر الأرواح بما يريده سيده.

والنويري يرى دائماً أنه لا بد أن توجد علاقة بينه وبين الأرواح، وذلك يكون بإهدائها بقرة، وهذه البقرة تترك في المنزل ولا يحل له ذبحها أو استعمالها لأي غرض من الأغراض ما دام قد وهبها للأرواح. فإذا ماتت فأن أحد أولادها يحل محلها كحلقة اتصال بين النويري والأرواح. والقطيع من الماشية تتعهده مجموعة من الأفراد تجتمع لهذا الغرض، إذ لا يمكن أن يتعهده فرد واحد. ومن ذلك يتبين إلى حد بلغت علاقة النوير بالماشية خصوصاً إذا ما علمنا أن أي فرد من هذه المجموعة لا يمكن أن ينفصل عنها، لأن طعامه اليومي وزواجه ونجاته من شر الانتقام متوقف على بقائه داخلها. وهكذا يظل النويري طول يومه يرعى ماشيته ولا حديث له سواها، ولذا قلما ينادي رجل من النوير باسمه، بل يعرف باسم أحد (عجوله أو ثيرانه)، فمثلاً بدل أن ينادي رجل باسمه ينادي بهذه العبارة: (أيها الثور أو العجل الأسود الأبيض ذو القرنين).

والنوير ينقسمون إلى عدة قبائل كل منها مستقل سياسياً، ولكل منها مقاطعة تتمتع بكل مواردها الاقتصادية، وكل واحد منهم يعرف حدود مقاطعته، وإذا حدث أن أحد أفراد قبيلة أستغل موارد مقاطعة أخرى غير مقاطعته فأن ذلك يعتبر اعتداء يثير الحرب على الأثر، فإذا قامت الحرب فأنها لا تقف إلا إذا تساوى عدد القتلى في الطرفين.

والأستاذ الدكتور أيفانز بريتشاد يشرح النظام الحربي كما يأتي:

تنقسم القبيلة إلى قسمين أ، ب، وكل قسم من هذين ينقسم إلى قسمين، فـ أتنقسم إلى جـ، د، ب تنقسم إلى هـ، و. وهذه الأقسام الصغيرة تنقسم إلى أصغر منها وهكذا. فإذا نشبت الحرب بين ل، ن لا يتدخل أحد، وإذا نشبت بين ل، م تدخل ن في صف ل، وإذا نشبت بين ل وأي فرع من فروع ن فإن جميع الأجزاء التي تتفرع من جـ، د تشترك مع ل في الحرب.

وإذا كان هناك حرب بين هذه القبيلة وقبيلة أخرى فأن جميع فروع هذه القبيلة المكونة أ، ب تنظم ضد القبيلة الأخرى وعلى العموم فما دامت الحرب بين أجزاء القبيلة فأن القبيلة تتحد ضد أي عدو خارجي.

والنوير عبارة عن عدة قبائل تربطها الحفلات العامة والظروف الحربية والدينية والقصص القديمة، هذا علاوة على الروابط الجنسية كرابطة الدم مثلاً. والعادة المتبعة أن الرجل لا بد أن يتزوج من قبيلة غير قبيلته.

ومن أهم المظاهر الاجتماعية بين النوير مسألة التشليخ (تشريط الجبهة) فكل ولد يبلغ من العمر أربع عشرة سنة لا بد أن تعمل له ستة شروط (أو خطوط) على جبهته من الأذن إلى الأذن الأخرى، وبذلك يعتبر أنه أصبح رجلاً، فتتغير حياته الأجتماعية، ويصبح عليه بعض الواجبات نحو المجتمع الذي يعيش فيه. ومن أمثلة هذا التغير أنه لا يقوم بتربية الماشية، وعليه ألا يحلبها إذ يقال إن البقرة إذا حلبها شخص مشلخ فأنها تموت، وعملية التشليخ هذه أدت إلى ظهور الحلقات الاجتماعية المختلفة، فمثلاً كل الصبية الذين يشلخون في سنة واحدة يكونون حلقة واحدة وعليهم واجبات نحو بعضهم وأخرى نحو الرجال المحترمين في مجتمع النوير. وهذه العملية تعمل كل أربع سنوات؛ فمثلاً إذا أقيمت عملية التشليخ سنة 1930 فأن عملية التشليخ الثانية تكون سنة 1934، وبذلك يمكن تقسيم النوير من الوجهة الاجتماعية إلى قسمين: (1) الرجال

المشلخون (2) الأولاد غير المشلخين. والنوير ليس عندهم رجال شرطة أم محاكم أو نظم حكومية، وإنما يعتمدون على بعض الرجال الروحانيين أو رجال الدين، وأهم هؤلاء (اللوبارد)، ويقوم بحل الخصومات وإرغام الخصم على قبول التعويضات، ومع ذلك فسلطته غير عملية، فليس لديه من وسائل العقاب إلا أن يلعن الشخص غير المطيع لأوامره. وهذا قلما يحدث لأن النويري يخاف سلطة هذا الرجل. كذلك يوجد عدد كبير من الرؤساء المختلفين مثل رئيس الماشية ورئيس الأسماك وغيرهما.

الشلك

وهم المجموعة الثانية من الزنوج النيليين ويشبهون النوير في الأحوال الاجتماعية والاقتصادية، ولكنهم يمتازون بنظام حكومتهم، فهم يكونون وحدة متينة برآسة ملك مطلق التصرف من حيث السلطة الروحانية والزمنية.

ولدراسة مركز هذا الملك من الوجهة الروحانية يحسن أن نرجع إلى القصة التي يذكرونها عن منشئهم، فهم يذكرون أن (نيا كنج) أخذ أتباعه وسار من موطنه الأصلي شمالاً إلى منطقة شرق بحر الغزال، وأستمر في الفتح والغزو حتى كون أمة وأسرة مالكة. (ويعتبر هذا الرجل بطل الشلك وربما كان ذلك في أوائل القرن السابع عشر) وإنه لم يمت بل تلاشى في الرياح. وبذلك أصبح موضع احترامهم منذ اختفائه. ويعتقدون أن روحه تنتقل إلى كل ملك يحكمهم، وهذا هو السبب في المركز الروحاني لملك الشلك. ولذلك فهم يعتقدون بأن الملك مسئول عن سعادة شعبه؛ ولا بد لكي يكون ذلك ممكناً أن تنتقل روح نيكا كنج إلى ملك قوي صحيح الجسم؛ ونتج عن ذلك الاعتقاد أن الملك إذا أظهر ضعفاً بأي شكل كان لا بد من أن يذبحوه لأنهم كانوا يظنون أن ضعف الملك الجسماني يضعف روح نيكا كانج وبذلك تمرض الماشية ويقل نتاجها ويموت كثير من المرضى ويضعف نتاج الأرض وربما يخيب المحصول.

وتدخل روح نيا كنج جسم الملك أثناء حفلة التتويج. وحسب تقاليد الشلك القديمة كان أي فرد من العائلة المالكة يتمكن من قتل الملك كان يحل محله ولذلك أصبح من المفروض أن الملك ينام نهاراً ويستيقظ ليلاً كيما ينجو من الفتك به على انفراد. ومن المتبع أن الملك لا يطلب المعونة أثناء الاعتداء عليه كذلك القاتل. فكلا الاثنين يرى أنها مسألة كفاح ومن الشرف أن يفوز أحدهما على الآخر. هذه هي الطريقة القديمة لقتل الملك وتنصيب غيره وحديثاً تغيرت تلك العملية إلى حد ما فيقوم بقتل الملك جماعة يسمون (أورورو) وينتخبون من بعض العائلات التي يقال إنها من سلالة الملك الثالث للشلك. ومنذ قرون كانت تعلق جثة الملك على سور كوخ حتى يفنى.

وتعقب قتل الملك عادة فترة يكون العرش فيها خالياً لمدة أشهر وفي هذه المدة يحضرون تمثالاً للبطل نيا كنج من مكان مقدس بجهة أكروا يحملونه إلى فاشودة حيث مقر الملك. ويحضرون معهم أيضاً مقعداً ذا أربعة أرجل يزعمون أنه من بقايا أمتعة نيا كنج وتجري

عملية التتويج وأبدع ما فيها أن يوضع التمثال على الكرسي قليلاً ثم يرفع ويجلس الملك الجديد مكان التمثال توا.

والغرض من هذه المسألة هو نقل روح نيا كنج إلى جسم الملك الجديد. وملك الشلك يعتبر مسئولاً عن حفلة نزول المطر إذ يطلب من الملك نيا كنج الذي يعيش في الفلك أن ينزل المطر. وهذه الحفلة تقام في فاشودة وفي نفس الوقت يقوم بهذه الحفلة ممثلوه في أجزاء مملكته المختلفة.

الدنكا

ويشبهون كلا من النوير والشلك في كثير من الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية وهم المجموعة الثالثة من الزنوج النيليين. ويحاكون الشلك في مسألة الرئيس الذي يقوم بحفلة المطر فهو ملك مقدس أيضاً. غير أنهم يخالفون الشلك في مسألة قتل هذا الرئيس، فهم لا يقتلونه بل يتركونه حتى يصبح هرماً ويطلب القتل، إذ يرى أنه أصبح غير كفء لقيادة قومه وإرشادهم. وعملية القتل تنفذ كما يأتي: ينام هذا الرجل على لوح من الخشب على شكل (نقالة) ويوضع في قبر أعد له حيث يبقى نحو أربع وعشرين ساعة يتلو في خلالها ملخصاً لأعماله وينصح للجمع المحتشد حول القبر حتى إذا ما خارت قواه وأصبح غير قادر على متابعة الكلام طلب من أتباعه إغلاق القبر فيختنق ويموت. وهو يفضل هذا النوع من الموت على الموت الطبيعي لأنه يرى أنه إذا

ترك حتى يموت موتاً طبيعياً فأن أبنه لا يمكنه أن يخلفه وعند ذلك تصبح القبيلة في حاجة إلى رئيس روحاني يقوم بعملية جلب المطر.

(يتبع)

رشوان أحمد صادق

الشك لا يهدي

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

- 1 -

رأيتُ الهدى في الشكّ والشك لا يهدي ... كأنيَ بالظلماء قد كنتُ أستهدي
فطوراً أقول الروح كالجسم هالك ... وطوراً أقول الهُلكُ عنه على بعد
فيالك من شك يبرّح بي ولا ... يبارحني حتى أسّدَ في لحدي
وإنيَ لا أدري أرشديَ كان في ... ضلاليَ هذا أم ضلاليَ في رشدي
أأفقد جسمي وحده عند ميتتي ... أم الروح مثل الجسم يشمله فقدي
أروحٌ وجسمٌ أم هو الجسم وحده ... يحرّكني فيما يضلّل أو يهدي
أعذّب حوبائي بما أنا فاكرٌ ... كأنيَ من أعداء حوبائيَ اللُدّ

- 2 -

إذا كان روحي مثل جسمي يَهلك ... فأني لأبكي في مصابي وأضحك
ولو خيروني بين تركي لواحد ... فأني لجسمي دون روحيَ أترك
يحرّك روحي الجسمَ وهو يحلّه ... فمن ذا لهذا الروح فيَّ يحرّك
وقبل وجودي أين كان مكانه ... فهذا هو الشيء الذي لستُ أدرك
وقد يستطيع الروحُ حلاً لمشكلي ... ولكن مجالُ الروح في الجسم يضنك
وأطلب من عقلي الهدى في ضلالتي ... ومن أين يعطي العقلُ ما ليس يملك
دع الموتَ يأتي فتكه بهما معاً ... كما كان هذا الموت بالناس يفتك

- 3 -

عهدتك يا روحي إلى الحق تجنح ... فهل بجواب إن سألتك تسمح
تقول سأبقى بعد موتك خالداً ... أأنت تريد الجدَّ أم أنت تمزح
فإن كان جداً ما تقول فما الذي ... ستصنع بعدي يومَ مني تبرح
تجيب وقد يُغرى جوابك قائلاً ... سألحق أرواحَ الذين تطوحوا
وإن الفضاء الرحبَ ما زال طافحاً ... بأرواح موتى في السموات تسبح
فقلت له في سبيلك راشداً ... ولا تنس جسماً ليس بعدك يصلح
فيا روح قبّلني وصافح مُودِّعاً ... فأنيَ لا أدري متى لك ألمح

- 4 -

نهارٌ لسيل النور فيه دفوق ... وليلٌ كأن النجم فيه خروق
ألوفٌ من الأكوان تقصو كأنها ... تريد أتساعاً بالفضاء يليق
وعند أفتكاري في الوجود كأنني ... أخوض خِضماً والخِضمُّ عميق
طريقي لإدراك الشؤون معّبدٌ ... ومالي لإدراك الوجود طريق
فيا نفس سيري في الفضاء طليقةً ... فلا شيء فيه للنفوس يعوق
لأنتِ شعاع طار من مستقرّه ... وكلُ شعاع بالبقاء خليق
تحيق المنايا بالجسوم كثيفة ... وأما بأرواحٍ فليس تحيق

- 5 -

يقولون إن النفس حقٌ وجودُها ... فلا ينبغي إنكارها وجحودها
وبعد الردى تطوى السماء خفيفةً ... وإن بعدت في اللاتناهي حدودها
وما الجسم إلا دولة مستقلة ... لها حكُمها في أهلها وجنودها
وما أهلها إلا خلايا صغيرة ... وما النفس ذات الحول إلا عميدها
وما هي إلاّ ومضةُ من شعاعة ... فإن خلدت ما كان بدعاً خلودها
فقلتُ لهم هذا جميلٌ وعله ... خيالاتُ عقلٍ شاردٍ لا أريدها
ولم يكن الإنسان إلا أبن غابةٍ ... على فُجأةٍ قد أنجبته قرودها

- 6 -

سيطفئ يأسي في المشيب حياتي ... وأذهب من نور إلى ظلمات
ويحملني صحبي إلى القبر إنني ... به بعد حين لست غيرَ رفات

تقَطَّعُ اوصالي وتبلى جوانحي ... وليس بوسعي أَن أبث ّشكاتي
وأجْملْ بأيام الصبِّا فهي لم تكن ... على الفم من دهري سوى بسمات
ولكن أيام الصبا قد تصرّمت ... ولم تبق ذِكراها سوى الحسرات
وفارقت أيامَ الشباب حميدةً ... وإن كَثرت في عهده عثراتي
قضيت شبابي مُطمئناً وبعده ... أتى الشيب منهوكاً من الشبهات
- 7 -
من الموت مهما مضّ لستُ بخائف ... ولكن وراء الموت ماذا مصادفي
خضعتُ لعقلي في حياتيَ كلها ... وما كنت يوماً خاضعاً لعواطفي
وكنت إلى لمس الحقائق نازعاً ... أنزه سمعي من سماع السفاسف
تعذَّبتُ عمراً من مخالفة الورى ... فيا ليتني قد كنت غيرَ مخالف
عجبت لجذعي كيف ظلّ مقاوماً ... فقد كان معروضاً لضرب العواطف
لقد قذفتني بالمسبات ثلّةٌ ... ولم أتجنّب شرَّ تلك القذائف
وكم شنّ ذو جهل على العلم غارة ... وكم كان ذبّي صادقاً في مواقفي
- 8 -
تجمّع يرميني خميس عرمرم ... أأنكص كالمغلوب أم أتقدم
ولكنني اخترتُ التقدّمَ إنه ... لمن كان يستبقي الحياةَ لأسلم
وللعلم أنصارُ وللجهل مثلُها ... ولكن أنصار الجهالة أعظم
لقد حاربوني بالمسبّة والخنا ... وحاربتُهم بالعلم والعلُم مخذم
إذا كان ليلي قد تجهّم وجهُه ... فأن صباحي بعده يتبسّم
يقصّ عليك الشيخُ منهم خرافةً ... فتحسب أن الشيخ في النوم يحلم
تصرّم عهدُ الجهل في الغرب كله ... ولكنه في الشرق لا يتصرّم
(بغداد)
جميل صدقي الزهاوي
الحق هو القوة
للأستاذ إبراهيم إبراهيم علي
ذهب السكوت فلا سكوت ... (شعبٌ ينام ولا يموت)
إن كنتَ من ذهب فإن ... ك من نسيج العنكبوت
الصمت يطلب عن خناً ... لا عن صلاةٍ أو قنوت
والصمت يحسن في التفا ... خر بالخزائن والبيوت
والصمت يُحمد في التكا ... ثر بالكراسي والدسوت
وعن الأكاذيب المشا ... عة في جهارٍ أو خفوت
والصمت أجمل في المقا ... بر وهي واعظةٌ صموت
أما عن الحق المضا ... ع فليس يحتمل السكوت
لم تكتمون الحق عن ... أوقاته حتى تفوت؟
لم تحبسون الحق في ... أعماقكم كيما يموت؟
الحق حر مطلقٌ ... مهما تعثر في القيودْ
الحق صوت صائحٌ ... في صرخةٍ أو في همود
الحق ضوء نافذٌ ... مهما تكاثفت البرود
مهما تعددت السد ... ود عليه فأخترق السدود
الحق ينطق (فتنةً) ... في اللحظ حيناً والخدود
في الشمس تشرق من أعا ... ليها على هذا الوجود
في البدر. في زهر الكوا ... كب. في الرشاقة والقدود
في البحر مضطرباً وفي ... أمواجه بعد الركود
في الغصن كلل بالزهو ... ر وبالبنفسج والورد
في الروض أيقضه الندى ... في الصدر زانته النهود
الحق ينطق (قوةً) ... والحق أقوى، لا مراءْ
في البحر يضرب موجُه ... حتى ليرتعب الفضاء
في الرعد. في السيل المح ... طم. في العواصف والبلاء

في النار تفتك بالحدي ... د، كأنه النسج الخِواء
في ثورة البركان في ... غضب الزلازل وهي ماء
في سطوة الأيام تق ... هر بالمقادر والقضاء
فإذا الملوك أذلّةٌ ... وإذا الممالك: لا وقاء
الحق ينصر نفسه ... إن خلّفته الأنبياء
وهو المظَّفر دائماً ... في الأرض (حقاً) والسماء
إن تنصروه فقد نصر ... تم أنفساً لكمو هباء
أو تخذلوه فقد خذل ... ثُم هذه الروح الغباء
ولقد يصول الحق بالضّعْـ ... فَى فيردي الأقوياء
ولقد يثير الحق شاةً ... تملأ الدنيا مضاء
فإذا الذئاب وهم حيا ... ري هاربون، ولا نجاء
الحق حقٌ فأنطقوا ... أو فأسكتوا فيها: سواء!!
قليوب
إبراهيم إبراهيم علي
القصص
صور من هوميروس
حُروب طَرْوَادَة - 19
. . .بعد مصرع هكتور
للأستاذ دريني خشبة
أنتصر أخيل!
وعاد بجثة هكتور ليجد أمه ما تزال تسقي بتروكلوس خمراً! وما تزال تدفع عن القتيل المسجى فوق سرير الموت أسراب الذباب! وما تزال تذرف الدموع الغوالي!
ويهرول زعيم الميرميدون، ويهرول معه جنوده حول جثة صديقه ثلاثاً، ثم يقف فوق الرأس المتشح بجلال الفناء. ويقول: (السلام عليك يا بتروكلوس فلقد ثأرت لك! السلام عليك فأنت خيرٌ حياةً من كثيرين ممن ينعمون بالحياة، وإن تكن تسبح في لا نهاية هيدز!
هاك غريمك هكتور سأتركه جزر السباع وكواسر الطير، وسأضحي لك باثني عشر من خير شباب اليوم. . . . أذبحهم عند قدميك بيدي!
(. . . .!إبكوا بتروكلوس يا رفاق)
فيبكي الميرميدون على بطل أبطالهم، ويعولون حتى تخفق السماء بأناتهم، وتضطرب الأرض بزفراتهم، ويمتلئ الهواء من حولهم أسى وشجوناً!
ويقبل الهيلانيون من كل فج يهنئون ويعزون: يهنئون بقتل هكتور، ويعزون، ويا حرّ ما عزوا، في بتروكلوس!
ويمتلئ بهم شاطئ الهلسبنت؛ ويأمر أخيل رجاله فيؤتى بالشاء والظباء، وبكل عجلٍ جسدٍ وخنزير سمين؛ وتؤجج النيران، ويسطع الشواء حتى ينضج، وتكون وليمة يقبل عليها القوم أيما إقبال. . . إلا أخيل. . . المنعكف وحده يذرف الدموع على بتروكلوس. . .
وأمر أجاممنون بماء ساخن يغسل به أخيل ما عليه من نضخ الدم وغبار المعركة، ولكن أخيل يأبى إلا أن يظل النضخ ويبقي الغبار حتى يتم تحريق بتروكلوس، وحتى تنتهي المراسيم الدينية التي تقتضيها السماء. . . ويفرضها بلوتو على موتاه!
وتفرّق الهيلانيون بعد أكل شهي وري، ونهض الميرميدون إلى خيامهم يخلعون عددهم ويستجمون من عناء اليوم الحافل، ولبث أخيل وحده على الشاطئ الشاحب يرقب أواذيه الصاخبة، ويرى إلى أعراف الموج تنتطح هنا وهناك، وترتد وترتد حتى تغيب في لا نهاية الماء!
ثم غفا إغفاءةً فتمدد على العشب، وأسلم جفنيه لنوم عميق ورأى ظلاً حزيناً يُطيف به ولا يكاد يبين، فتقلّب ذات اليمين وذات الشمال مما تأخذه الرؤيا به، ولكن الشبح ما يفتأ يُهوّم ويهوم، ويقترب ويقترب، حتى يكون عند رأسه، وحتى يقر النائم فما تبدو منه حركة، ويسكن فما يتردد فيه نَفَس، ويَحْسِر الزائر لثامه، فإذا هو. . بتروكلوس!!
لقد أقبل روحه الكبير يتحدث إلى مولاه، فيقول:

أخيل! أهكذا تنام ملء عينيك وتدع صديقك يهيم في مملكة الظلمات دون أن يؤذن له)
بعبور ستيكس الفائض بالحميم، ليقر في عدوته الأخرى مع المؤمنين! إنني يا صديقي
سأبقى طريداً شريداً مادمت متوانياً عن تأدية الطقوس التي يتطلبها بلوتو وتفرضها
السماء!
ماذا تبتغي بعد أن ثأرت لي يا أخيل! ألا يشجيك أن أظل معذباً في هذا التيه الذي لا
نهاية له، كاسف البال مسبوه اللب، لأنك تأبى أن تؤدي لي فرائض الآخرة!
أتحسب أنا ملتقيان في دنياك كرة ثانية يا أخيل، فأنت تنتظر هذا اللقاء؟ لا، لا، يا
صديقي؛ نحن لا نلتقي إلا هنا! في هذه الدار الجميلة الهادئة التي لا صخب فيها ولا
ضجيج. . . .
سنلتقي هنا. . . . وسنلتقي سريعاً. . . . ولن أزعجك إذا أخبرتك بما علمته هنا!. . . .
إنك ملاق حتفك تحت أسوار طروادة. . . لا تنزعج يا أخيل، فأنت بطل، والأبطال
أمثالك لا يرهبون الموت، والبطل الذي لا يجرع الكأس طافحة في حومة الوغى يموت
موتةً لا تشرفه. . . فأطمئن! إنما ذكرت لك ذلك لأن لي رجيةً عندك أتمنى لو أديتها
لي. . . ذلك أن توصي أن تدفن رفاتك في نفس الرمس الذي يضم رفاتي، لنظل آخر
الدهر متقاربين، كما كنا أول الدهر متقاربين، ولنقضي أحقاب الموت في مربعٍ معاً،
كما قضينا شرخ الشباب في ملعبٍ معاً. . .
إيه يا ذكريات الماضي السعيد!
أبداً لن أنسى يوم حملني مولاي الأمين أمفيداماس من نجاد أوبوس إلى بلاط بليوس، حيث
نشأت وترعرعت في نفس الكنف الذي ترعرعت فيه يا أخيل. . . . وأبداً لن أنسى هذا
الحنان الذي كانت تغمرني به ذيتيس، أمك الرؤوم، حتى أشتد ساعدانا، وسار الركبان
باسمينا في كل ناد. . .
(. . .هلم يا أخيل. . . أنهض يا زعيم الميرميدون. . . وأذكر ما قلته لك
ويذرف أخيل عبرة غالية، ويجيب بتروكلوس فيقول:
بتروكلوس! إليّ يا أعز الناس عليّ! سأفعل كل ما تريد، ولكن. . . أقترب. . .)
(قليلاً. . . لنسرّ من أحزاننا يا أخي! هب لي أن أعانقك فأنا مشوق إليك!)
وهب من نومه مذعوراً مادّاً ذراعيه لعناق بتروكلوس، ثم ضمهما فجأة. . . . ولكن
وا أسفاه!. . . لقد ضم أخيل إليه الهواء. . .! لأن الشبح العزيز قد ولى بعيداً عنه. . .
هناك. . . هناك. . . في ظلمات السُّفْل. . . في ديجور الدار الآخرة. . . في مملكة
بلوتو الجبار. . . حيث الأرواح والأشباح. . . . وحيث العذاب والنعيم. . .!!
وصرخ الزعيم المفئود صرخة زلزلت عماد المعسكر، وأجتمع لها القادة مشدوهين
مروّعين، وروعهم أكثر هذا الحديث الطويل عن الرؤيا المشجية. فأنفذ أجاممنون
الملك عصبة قوية إلى غابات الصنوبر والشاهبلوط القريبة، فجمعت أحمالاً ثقالاً من
جذوع الأيك وحطام الدوح اليابس، وأقبلت فكومت ما جمعت كومةً واحدة عالية؛ ثم
أمر أخيل جنوده فاصطفوا حول الكومة بعُددهم وخيولهم وعرباتهم، وأقبل فوج منهم
يحمل جثمان بتروكلوس، موارًي في شَعرٍ كثير أنتزعه الفرسان من رؤوسهم حزناً
على قائدهم بالأمس؛ وكان أخيل يتعثر خلف القتيل وقد حطمه الحزن ورأزته المصيبة
في أعز أصدقائه، وغشيه من الهم ما لو كان بعضه بوَضح الضحى لأحالة ليلاً من الوجد
مظلماً. . . ونزع شعر رأسه هو الآخر فغطى به وجه صاحبه، ومد ذراعيه المرتجفتين
فرفع الجثمان الطاهر، يعاونه نفر من الميرميدون، ووضعوه فوق الكومة التي تسامت
وسمقت حتى غدا ارتفاعها مائة قدم أو تزيد. وأمر أخيل فذبحت ألوف من العجول
والخنازير والنّعم، ونزعت عنها شحومها جميعاً، فوضعها بيده على الكومة من حول
بتروكلوس، ثم أشار إلى حَمَلةِ الزِّقاق فطفقوا يصبون الزيت والعسل المصفى ليزيد
في ضرام الوقود.
وأرتفع ضجيج بعيد وضوضاء، فتلفت القوم، وإذا فريق من الميرميدون يسوقون الشبان
الطراواديين الاثني عشر، الذين أسرهم أخيل في ملحمة الأمس، وقد كبلوا في
الأصفاد ورهقتهم قترة مظلمة من الروع والحزن؛ فلما شارفوا، تقدم أخيل المغضب
الحنق، فأستل خنجره، وشرع يمسح بأعناقهم ويبقر بطونهم، ويروي سنانه من

!!قلوبهم. . . . . والبشرية البائسة تتلفت يمنة ويسرة. . . . وتتعذب. . . . وتبكي
وأمر الزعيم فصفت الضحايا الاثنتي عشرة من حول الكومة أما هكتور! فقد حدجه
أخيل بنظرة ساحرة، وأقسم ألا يحرق جثمانه فينفذ روحه إلى هيدز، بل يتركه ثمة
!حتى تنوشه الطير، وتأكله كلاب البرية، وتلقي عظامه في اليم، غير كريمة ولا مرجوّة
بيد أن منظراً عجباً خلب الباب القوم، وأذهلهم عن أنفسهم. . . . ذلك أنهم رأو إلى
شبح جميل أبيض، يصب دهن الورد فيجعل منه حَنُوطاً مباركاً لجثمان هكتور، ورأوا
كذلك إلى ضبابة ذات أفياء وظلال باردة تقف من فوقه فتذود عنه أشعة الشمس
!. . .المحرقة حتى لا ينتن أو يتعفن
ماذا؟؟! آه! إنها فينوس الوفية التي تصب دهن الورد فوق هكتور، وإنه أبوللو المحزون
!!الذي ينشر الضبابة من فوقه تحميه من الشمس وتذود عنه حرارتها
وصلى أخيل صلاة قصيرة، ونذر لآلهة الريح، إذا هي أقبلت تروح على النيران حتى
تذكو، أن يذبح لها ويقرب لها القرابين! وما كاد يفرغ من صلاته، حتى تقلب البحر
وأضطرب، ومار اليم وأصطخب، وثارت العاصفة الهوجاء في بطن الدأماء وأقبل
زفيروس واخوته آلهة الريح فحاصروا الكومة، وما هي إلا لمحات حتى كانت ضراما في
ضرام، ولظًى يتأجج في لظى وسكنت اللهب، وخفت أوار النار، وتقدم أخيل وَحَملة
.الزِّقاق فصبوا على الجمر خمرا حتى خبأ
وتقدم نفر فرفعوا رفات بتروكلوس وهم يبكون، وأقدم أخيل فوضعها بيديه في إران
من الذهب، وأشار إلى بعض أصحابه فحفروا في الأرض حفرة كبيرة عميقة، فأسرع
!!. . .هو فوضع الاران فيها، بين أنين الجند، وبكاء القادة، وزلزلة الأرض والسماء
وهيل التراب على الميت، وعمل الكل في ذلك حتى كانت كومة عالية من الردم،
ستظل آخر الدهر رمز البطولة الخالدة، وتحية الدار الآخرة لهذه الدنيا المشحونة
!!بالأشجان
وكان من دأب الهيلانيين إذا مات أحد أبطالهم أن يُحرّقوه كما حرّقوا بتروكلوس، ثم
تتلو
ذلك حفلة ألعاب يشترك فيها أبطالهم، ويساهم فيها الجندي الصغير إلى جانب القائد
العظيم، وقد يفوز عليه فينال الجائزة من دونه، وكانوا يعدون هذه الحفلة تتمة للجناز
لا يكمل إلا بها؛ فلما انتهوا من إقامة الشعائر الدينية للشهيد الكبير نهض أخيل فأعلن
القوم ببدء حفلة الألعاب، ثم دعا للمشاركة في سباق العربات الحربية، وعدّد الجوائز
فذكر أن للفائز الأول غانية من أبرع غانيات طراودة جمالاً، وأوفرهن حسناً، وأنبغهن
في القيام بشؤون المنزل، ثم آنية عظيمة من الذهب الخالص، غالية الثمن، عالية
القيمة، لا تقدر بمال لما بذل في زخرفتها ونقشها من فن، وما أضفي عليها من
عبقرية. وأن للفائز الثاني مُهرةً صافناً تسبق الريح وتلحق البرق؛ وللثالث كوباً من
الفضة الناصعة، عظيم القدر، غالي الثمن. وللرابع بدرتين من الذهب الأبريز.
. . . .وللخامس إبريقاً فضياً للخمر، وكأسين للشراب
وأشترك في هذا السباق لهاذم أبطال الإغريق، وصناديدهم الصيد؛ وكان أول من نزل
إلى الحلبة يوميلوس الملك أبن أدميتوس العظيم، وتلاه ديوميد الحلاحل أبن تيديوس؛
ثم منالايوس سليل السماء، وفرع الآلهة بن أتريوس الكبير؛ وكان رابعهم أنتيلوخوس
المشهور بن نسطور الحكيم، الذي أخذ أعين القوم بقامته السامقة، وعودة اللدن،
وقوامه الأهيف السمهري الممشوق، والذي تقدم إليه أبوه فقبّله في حر الجبين،
وزوده بنصائحه الغوالي؛ وكان خامسهم مريونيس الهائل، صاحب الذكر البعيد والشأو
.الرفيع في كل مثار نقع وفي كل ميدان
وكان على الفارس العظيم فونيكس أن يلاحظ السباق، فكان في مركزه هذا حكماً
. . . .عدلاً وقاضياً ماهراً
وأعطى أخيل الإشارة. . . فانطلقت الجياد تزلزل الأرض، وتثير عجاجة قاتمة من ثرى
الميدان، وتضرب الصخر بحوافرها فينقدح الشرر، ويميد جانب الجبل، وتتصل أبصار
القوم بالريح الذي يتعثر في أدبار الخيل، ويتحسس كل منهم قلبه، متمنياً قصب السبق
لصاحبه الذي هو من شيعته. . . ثم. . . تتدخل الآلهة في هذا اللهو البريء فتغير دفة
المقادير، وتتحمس مينرفا للبطل العظيم ديوميد، حينما ينزع أبوللو السوط من يده
ويلقي به إلى الأرض، فتعيده إليه؛ وتلحظ أن أبوللو يصنع هذا ليظفر يوميلوس ويفوز

بالسبق، فتذهب من فورها إلى أبن أدميتوس وتنزع إحدى عجلتي عربته، فيهوى البطل ويوشك
رأسه أن يتحطم على الجلاميد المتراكمة على جانبي الطريق. . .
وتعدو الخيل. . .
وتخفق قلوب القوم. . . ثم ينظرون فيرون إلى ديوميد قد أنهى الشوط، ونزل من عربته فصافح فونيكس، وأستحق بذلك الجائزة الأولى.
وتلاه أنتيلوخوس، ثم منالايوس الملك، ثم مريونيس، وكان أبطأهم.
وسكن القوم قليلاً، وإذا هم يبصرون يوميلوس المقدم يسوق جياده، وخلفها عربته التي حطمتها مينرفا، فيثير مرآه قهقهة عالية وصخباً؛ لا يقطعهما إلا أخيل بصيحة داوية تعيد إلى الملأ وقارهم، ويقضي ليوميلوس بالجائزة الرابعة (لأنه لولا الحظ العاثر كان صاحب الجائزة الأولى!!)
واشرأبت الأعناق حين أعلن أخيل عن دورة الملاكمة وشارك فيها من الأبطال إبيوس بن بنوبيوس؛ فتى مفتول السواعد مكتنز العضل، رحب الصدر، له قبضتان كأنهما حراشف جذور بارزة من جذع شجرةٍ، ألقت بها الريح في يوم عاصف، ونهض إلى جانبه شاب قوي بادي البأس، لم يلبث القوم أن عرفوا فيه يوريالوس بن مسيتوس، الذي طالما شارك في أولمبيات الملك أوديبوس وكان أبداً فتاها وفارس حلبتها.
وأعطيت الإشارة فأنقض الأسد على الأسد، وأرتطم الجبل بالجبل، ولبث البطلان يكيل أحدهما للآخر لكمات كانت تقشعر لها أبدان الآلهة، وتنتفض من هولها أفئدة الرجال، ثم لاحت فرصة للبطل إبيوس كال فيها لخصمه لكمة في ذقنه ألقته فوق أديم الأرض بين هتاف الجند وضجيج القادة، وبذا أستحق إبيوس الجائزة الأولى، وهي بغل أشهب مسرج، في شدقيه لجام من الحديد، يتصل به عنان من الفضة. أما يوريالوس فقد أفاق من اللكمة القاسية لينال كأسين جميلتين أعدتا للفائز الثاني. . .!
وأرهفت الأسماع حين نهض أخيل يعلن دورة المصارعة التي لم يجرأ أحد أن يتقدم أليها حتى أوشك زعيم الميرميدون أن يلغيها لو لم ينهض أوليسيز ويتبعه أجاكس متثاقلين!!
وأهطعت الرقاب ذاهلة نحو الزعيمين الهولتين، وشخصت الأبصار ترى إلى الجبل يأخذ بتلاليب الجبل، والبحر ذي العباب يصاول البحر ذا العباب، والشهاب الراصد يندق على الشهاب الراصد؛ لا هذا ينال فرصة من ذاك، ولا ذاك يرى ثغرة منها إلى هذا، والقلوب أثناء ذلك تخفق وتخفق، والقشعريرة الباردة تشيع في أصلاب هؤلاء وهؤلاء، كل يتمنى أن يفوز رجله. . . . . حتى ثارت عجاجة حول البطلين انجلت عنهما صريعين فوق الأرض، لم ينل أحدهما من الآخر!! فكان القضاء العادل من السماء!
وحاولا أن يعودا إلى صراعهما الأول، فحال بينهما أخيل. . . لأن الدورة كانت لا تنتهي إذن. . . فكان بحسبهما أن ينالا جائزتين متساويتين!!
وبدأ سباق العدّائين، واشترك فيه أوليسيز وأجاكس أيضاً، ثم أنتيلوخوس الذي استطاع أن يفوز بالجائزة الأولى، لما كان يبدو على منافسيه من نصب، من جراء صراعهما السابق.
وتبع ذلك سباق المبارزة، وشارك فيه أجاكس أيضاً ثم ديوميد العظيم، الذي استطاع بعد لأي أن يجرح خصمه في عنقه، فينبثق الدم من الجرح، فينال الحزام الفضي بذلك!
ثم كان حمل الأثقال وهو سباق محبوب من الإغريق كثيراً، وقد شارك فيه بوليبوتيس وإبيوس وليونتيوس. . . ثم. . . أجاكس. . .! وفاز أولهم بالجائزة الأولى. . .
وتلا ذلك سباق الرماية، وأشترك فيه البطلان تيوسير ومريونيس، وفاز الأخير بأسنى الجائزتين للبراعة الفائقة التي أبداها في إصابة الغرض (وكان حمامة تنطلق وتنطلق. . . حتى تكون خلف السحب. . .!!)
وكان السباق. . . وها سباق إصابة الغرض بقذف الرمح، وقد تقدم إليه قائد الحملة العظيم. . . أجاممنون الملك. . . ثم. . . مريونيس الشجاع وأحد أتباع الملك إيدومنيوس. . . . . وقد هال أخيل أن ينافس أحد قائد الحملة، فتقدم إليه معترفاً بتفوقه على الجميع في كل شيء، وقدم له الجائزة الأولى. . . ثم قدم الرمح لمريونيس. . . وكانت مجاملة طيبة من أخيل تقبلها الجميع بثغور باسمة

(لها بقية)
دريني خشبة
البَريدُ الأدَبيّ
وفاة بول بورجيه
نعت إلينا الأنباء الأخيرة قطباً من أقطاب الأدب الفرنسي وكاتباً من أعظم كتاب العصر، هو بول بورجيه؛ توفي في الخامس والعشرين من ديسمبر في الثالثة والثمانين من عمره، بعد أن قضى حياة حافلة، وبلغ الذروة في عالم الشعر والأدب والنقد. كان بول بورجيه عميد الأدب الفرنسي المعاصر بعد أناتول فرانس، وكان يتبوأ مكانة في الطليعة منذ خمسين عاماً؛ ولم يعرف الأدب الفرنسي المعاصر، كاتباً قصصياً - إذا استثنينا أناتول فرانس - في قوة بورجيه وعمق تفكيره وتحليله، أو في بُعد آفاقه ووفرة إنتاجه. وكان مولد بورجيه في سنة 1852 بمدينة أميان من أب روسي وأم إنجليزية؛ فنشأ نشأة حسنة وتلقى دراسة عالية وثقافة متينة؛ وبدأ ينظم الشعر منذ حداثته، ثم أشتغل بالصحافة؛ وفي سنة 1884 أخرج أولى رواياته القوية ' فظهرت فيها براعة الكاتب والقاص، وتجلت فيها مقدرته الفذة على تفهم العواطف البشرية وتحليلها، وهي مقدرة ترجع إلى ذلك المزيج في السلالة الذي كان له أكبر الأثر في تكوين عقلية الكاتب. ثم كتب بورجيه روايتين أخريين هما: , والأخيرة من أعظم رواياته وأقواها، بيد أن بورجيه يبلغ ذروة القوة والطرافة في قصته الشهيرة: (التلميذ) وهي في رأي النقدة أعظم قصصه وأقواها، وأكثرها تمثيلاً لمواهبه وخلاله وفنه؛ ولم يلبث بورجيه أن تبوأ مكانته بين أقطاب الكتاب في هذا العصر: بين زولا، وفرانس، وكوبيه، ودوديه، ورشبان وغيرهم؛ ثم لم يلبث أن أحتل مكانة بين الخالدين في الأكاديمية الفرنسية (سنة 1894).
ولبورجيه تراث حافل من كتب الشعر والقصص والنقد والسياحة نذكر منها:
ومن القصص - ' و , وله ديوان شعر كبير، وقطع مسرحية عديدة، وله كتب , - , - , في الوصف والنقد والسياحة.
وبورجيه كاتب خصب متعدد النواحي والآفاق؛ بيد أنه على العموم كاتب أرستقراطي يكتب للخاصة قبل كل شيء، ويصور مجتمع الخاصة، وما يتصل بحياته من بذخ وأناقة، وما يتخللها من نواحي الجمال والرشاقة والفن؛ وما يغشاها من عوامل الفساد والوهن، وهو من هذه الناحية نقيض قرينه ومعاصره فرانسوا كوبيه كاتب البؤس والطبقات البائسة.
وأعظم ما تبدو مقدرة بورجيه ومواهبه في المواقف النفسية وفي تحليل القلب البشري ونزعاته، وفي تصوير مختلف العواطف الإنسانية، فهو عندئذ لا يجاري، بل هو أستاذ هذه المدرسة الفذ، وهي مدرسة نلمس فيها الأدب الروسي. ويكتب بورجيه بلغة قوية، وقد تبدو أحياناً عسيرة الفهم، ولكنه يحمل قارئه بقوته، ويأخذ لبه بسحر عرضه، وروعة بيانه وفنه؛ ومع أنه يميل إلى المفاجآت العنيفة في قصصه، فإنه مع ذلك يجنح إلى الحقيقة ويجانب الإغراق؛ وأكثر ما يميل بورجيه إلى التشاؤم، وقلما يميل إلى الجانب المرح مَن الحياة والصور؛ ويطبع الجد أسلوبه وتفكيره دائما؛ بيد أنه يجنح أحياناً إلى السخرية اللاذعة؛ وهو فوق ذلك فيلسوف عميق الفكرة دقيق الملاحظة بعيد الغور والمغزى، وناقد قوي الجدل والحجة، وفنان من الطراز الأول يعشق الفن ويرعاه؛ وكان حتى آخر أيامه مديراً لمتحف شانتي.
ويتبوأ بورجيه كرسيه بين الخالدين في الأكاديمية الفرنسية منذ أثنين وأربعين عاماً؛ وكان إلى ما قبيل وفاته يوالي الكتابة في كثير من الصحف والمجلات الكبرى، ويكتب منذ أعوام في جريدة (الفيجارو) كلمات في السياسة والاجتماع تلفت النظر بقوتها وطرافتها، وبوفاته ينهار ركن عظيم في صرح الأدب الفرنسي المعاصر.
(ع)
الأستاذ أحمد أمين يحاضر في بيت المقدس
نظمت جمعية الشبان المسيحيين في فلسطين سلسلة محاضرات في (المدينة العربية)، واختارت لها جماعة من صفوة العلماء، منهم الأستاذ أحمد أمين، والأستاذ جيب، والأستاذ مايرهوف.
وسيلقي الأستاذ أحمد أمين محاضرته في (الإسلام كعامل في المدينة) ببيت المقدس

في يوم الأربعاء 22 يناير سنة 1936.

حول الاحتفال بذكرى المتنبي

لامنا الأديب السيد فاضل سعيد عقل في شيء من الإسراف على أننا أغفلنا حفلة لبنان حين أشرنا إلى بعض تلك الحفلات في مقالنا عن المتنبي، وعزا ذلك إلى أن المصريين يتعمدون أن يَسْفهوا حق لبنان! ولو تذكر الأديب ساعة كان يكتب أن الحفلة الرائعة التي أقيمت في (سان باولو) إنما أقامها لبنان، وأن الحفلة العتيدة التي ستقام في دمشق إنما تقيمها سورية، وأن الإسكندرية أقامت حفلة كحفلة بيروت لم نشر إليها؛ لو تذكر ذلك كله ساعة كان يكتب رسالة لما سمح له ضميره أن يصطنع هذه العصبية الإقليمية المفرقة في عصر يدعونا فيه الجهاد المشترك إلى أن نمحو كل الفروق العارضة أمام الجوار والقرابة والجنس.

جواب عن سؤال

سألنا (قارئ) من قراء الرسالة عن الحكمة في كتابة اسمها وتأريخ يومها ورقم عددها بالفرنسية، وخشي أن يكون في الأمر تقليد أو حذلقة. والواقع أن ذلك احتياط بريدي اقتضاه انتشار (الرسالة) في البلاد الأجنبية، وعمل اقتصادي استدعته علاقة مكتب الإعلان في المجلة بالشركات التجارية الأوربية، وإذا لم تفعل الصحف الغربية ذلك فلأنها لغاتها مقروءة في كل بلد.

مؤتمر الجراحة الدولي العاشر

في منتصف الساعة الثانية عشر من يوم الثلاثاء الماضي أفتتح مؤتمر الجراحة الدولي العاشر في قاعة المحاضرات بالجامعة المصرية بحضور سمو النائب عن جلالة الملك ووزراء الدولة وأساتذة الجامعة وأعيان الحكومة ورجال الصحافة وطلاب العلم، فكان يوماً مشهوداً من أيام الإنسانية المفكرة العاملة، أزال الفروق بين الناس، ومحا الحدود بين البلاد وجمع بين الأمم المتباعدة المختلفة على فكرة نبيلة هي تسخير الجهود العلمية المشتركة لتخفيف آلام الإنسان.

أفتتحه صاحب السعادة وزير المعارف بخطاب عربي جاء فيه (إن العِلم المصري الذي توالت عليه آلاف السنين ليشعر بشرف وسرور حق، إذ يرى في هذا الاجتماع ثقات الممثلين للجراحة العامة في العالم أجمع، والأعضاء المبرزين لأشهر المعاهد الطبية والعلمية، يستعرضون في هذا الاجتماع الحافل كل ما أمكن تحقيقه في جميع أنحاء العالم من التقدم في فروع الجراحة، ويتجهون نحو ترقية فن من أعز الفنون الإنسانية في جو من السباق النبيل المثمر).

ثم ألقى بعده الدكتور علي إبراهيم باشا عميد كلية الطب خطاباً بالإنجليزية عرض فيه جهود مصر القديمة والحديثة في فنون الطب. ثم قفاه الدكتور فرهوجن رئيس اللجنة الدولية فخطب بالفرنسية شاكراً لنائب جلالة الملك ولجنة تنظيم المؤتمر هاتفاً بآثار مصر في عالم الجراحة.

ثم قام من بعده الدكتور كرفان فأثني وشكر ثم قال:

(لقد رحبت أغلبية أعضاء اللجنة الدولية بدعوة مصر منذ ثلاث سنوات، فهل ذلك لأن مصر والإسكندرية خاصة، كانتا منذ ألفين من السنين واسطة العقد في العالم الطبي، أو لأن ورق البردي يعد أقدم الوثائق لشفاء المرضى؟

قد يكون هذا، ولكن ثمة أمراً آخر، هو أن مصر ظلت منذ أكثر من ألفي سنة بلد الأسرار الذي تتجه إليه أذهان الإنسانية؛ ولأنها من ناحية أخرى وطن الفن الذي يجمع بين القوة والعظمة والدقة.

ثم قال: إن تأريخ الإنسانية يفتح هنا، كأنه كتاب نستطيع تقليب صفحاته واحدة واحدة، وهو إذ نقرأه، يبعث فينا شعور التواضع، وينزل عملنا المنزلة الصحيحة.

ولقد وجدنا جماعات برغم السحب التي تظلل سماء العالم بأسره، ونحن على يقين أن عملنا - بفضل النظام الذي وضعه زملاؤنا في كلية الطب، وعميدها خاصة - سيتم على أحسن صورة.)

ثم خطب بعده الدكتور ماير سكرتير الجمعية الجراحية الدولية خطبة بالفرنسية جاء فيها:

وبهذه المناسبة أشيد بالجهود العلمية والمادية التي بذلت لجعل هذا المؤتمر يتمشى) مع مبادئ جمعيتنا وهي العمل على أتساع العلوم الجراحية، ولا أريد أن أتكلم عن الشخصيات. غير أني لا أستطيع أن أمنع نفسي عن التكلم عن الأعمال التي قام بها علي إبراهيم باشا والدكتور نجيب مقار وغيرهما من الجراحين الأجانب. فقد أوضح كل منهم تجاربه الشخصية بصور مختلفة؛ وكانت كلها بمثابة أبحاث في المسائل التي اختلفت فيها آراء الجراحين، وأعتبر أن هذه الأعمال إنما هي آثار خالدة خلود الأهرام).

وختم الاحتفال الدكتور شوماكر رئيس المؤتمر بخطبة إضافية في أغراض المؤتمر والتنويه بذكر مصر والجامعة.

ولا يزال أساطين الجراحة وأساتذة الطب يوالون أبحاثهم العلمية فجعلوا من القاهرة كما قال أحدهم ميداناً للمناقشة في أحدث ما بلغه الطب من الآراء، وأعوص ما عرفه العلم من مشكلات الجراحة. ومما تناقش فيه الأعضاء (جراحة عصب القطن السمبتاوي)، وجراحة (القولون) عدا السرطان، والأحوال الجراحية للبلهارسيا، وقد ألقى الدكتور محمد خليل عبد الخالق بك تمهيداً لذلك محاضرة عن (تأريخ حياة البلهارسيا) عرض صورها على شريط سينمائي.

جوائز أدبية مصرية

بارك الله في بنك مصر، وفي قادة بنك مصر، وفي مشروعات بنك مصر؛ فإنها أسطع درة في جبين هذا الوطن الذي يسمو دائماً إلى الطليعة. ولقد شاء بنك مصر بعد أن وضع الأسس الثابتة لنهضة مصر المالية، ونهضتها الصناعية، أن ينزل إلى ميدان الفن والأدب، فأنشأ شركة مصرية للتمثيل والسينما؛ ورأى أن يقرن الفن بالأدب، وأن يغذي الشرائط المصورة بموضوعات وقصص مصرية محضة، فأذاع أنه يخصص لكتاب القصص المصريين جوائز تبلغ قيمتها ألف جنيه منها أربعمائة لجائزة ممتازة، وأربعمائة لأربع جوائز من الدرجة الأولى، ومائتان لخمس جوائز من الدرجة الثانية، وأنه يترك لهم الحرية في اختيار نوع القصة. وتقول شركتنا المصرية في بيانها: (فهذا باب جديد يفتح أمام المجدين من الكتاب لينالوا نصراً عزيزاً يرفع هاماتهم وهامة بلادهم). وفي الحق أنه باب جديد يفتح لكتابنا، بل هو فتح جديد في ميدان الرعاية الأدبية التي ليس لها في بلادنا أثر، والتي تخلت عنها جميع الهيئات الرسمية وغير الرسمية، ونحن نقص في هذا الباب دائماً أنباء الجوائز الأدبية العديدة التي تخصص في جميع البلاد المتمدنة لتشجيع الحركة الأدبية، وتشجيع الكتاب الناشئين بوجه خاص؛ ولكنا لم نجد من قبل ما نذكره عن أية جائزة أدبية مصرية ذات شأن. فالآن يتقدم بنك مصر على يد شركته للتمثيل والسينما لسد هذا الفراغ؛ وهو يتقدم بثقة وكرامة شأنه في كل مشروعاته، فيقدم إلى كتابنا جوائز من الطراز الأول؛ وإذا كان لنا ما نتمناه في هذا الميدان فهو أن يعمل البنك على التوسع في تشجيع الحركة الأدبية ورعايتها من طريق نشر المؤلفات العلمية والأدبية النافعة. وللبنك مطبعة كبيرة مجهزة بأحدث الأدوات والآلات الفنية، ففي وسعه أن يجعل منها في نفس الوقت داراً كبرى للنشر وإحياء الآداب العربية، وهو بذلك يسدي إلى الحركة الأدبية وإلى الثقافة العربية خدمة جليلة.

تأبين فقيد التعليم المغفور له محمد أمين لطفي

قرر مجلس إدارة جمعية خريجي المعلمين العليا بجلسته المنعقدة بتأريخ أول يناير سنة 1936 إقامة حفلة تأبين لفقيد التعليم المغفور له الأستاذ محمد أمين لطفي عضو الجمعية، وقد تألفت لجنة من أعضاء المجلس لتنظيم الحفلة. وسيعلن عن موعدها ومكانها قريباً.

وترجو اللجنة كل من يريد المساهمة في التأبين أن يتصل بها بنادي خريجي المعلمين العليا رقم 1 شارع فؤاد الأول بالقاهرة.

النقد

رد على نقد

كتاب تأريخ الإسلام السياسي

للدكتور حسن إبراهيم حسن

مؤلف الكتاب

الآن وقد انتهى ناقد هذا الكتاب من الكلام عما سماه مآخذ تاريخية، فيحق لي - إنصافاً

للحق وتمحيصاً للتأريخ - أن أرد عليه بإيجاز حتى يكون القراء على علم بالحقيقة. ولا يفوتني - قبل أن أرد على بعض هذه المآخذ - أن أشير إلى أن فكرة جالت في خاطري: هي إهمال الرد، اتكالاً على أن المطلع على الكتاب يتولى بنفسه تفنيد هذه المزاعم، لولا أن كثيراً من زملائي ألحّ عليّ أن أرد باسمي واضحاً لأضع الحق في نصابه.

يقول حضرة الناقد: (إنه عمد إلى نشر ما تيسر له نشره من الاستدراك خدمة لمادة ناشئة في معاهدنا العلمية واستحثاثاً للمؤلف على تدارك أمره في مادة هو متخصص فيها، وضناً بما لمصر من حسن السمعة العلمية في الأقطار الشرقية أن يتطرق إليه ضعف أو وهن).

وقبل أن أستدرك على هذا الاستدراك وأبين أن ما سماه الناقد مآخذ تاريخية وجغرافية، قد بالغ في بعضها كل المبالغة، وجانب الأنصاف في غالبها؛ ألفت نظر حضرته إلى أنه كان يستطيع أن يجنّب نقده بعض عبارات نابية يستغني عنها الموضوع الذي هو بصدده. وما أدري ما شأن تلك المآخذ بنحو هذه الألفاظ: (الألقاب الضخمة، الآثار العلمية المؤلفة والمترجمة، إن المؤلف شغل بنقل شرح التبريزي على القصيدة عن تفهمها وتبيين من قيلت فيه، الأغلاط والتورط، الخلط القبيح.) ولعل الأستاذ المستدرك غاب عنه أن مآخذه التاريخية والجغرافية على فرض صحتها - وسيرى القارئ مبلغ صحتها - لا تقدح في كتاب أربى على ستمائة وخمسين من الصفحات، ولا تدعو إلى كل هذا الإشفاق على حسن سمعة مصر في الأقطار الشرقية أن يتطرق إليه ضعف أو وهن، وغاب عنه أيضاً أن إيراد مثل هذه الألفاظ الشديدة التي لا تتعلق بموضوعه ألبته تعكس الغرض من النقد الذي اشترطوا له أن يقوم على ركن ركين من النزاهة الكافية والخبرة التامة، حتى لا يجد فيه الحاطبون أو ذوو المآرب مجالاً لبث كيدهم أو شفاء لحك حزازاتهم. وشتان بين تجريح عنيف وبين نقد سائغ يراد به الإصلاح، قد أسس على الصدق والحق وتقدم به الناقد في هدوء وسلامة ذوق، فما جرح من عاطفة ولا مس من كرامة، ولا كان رغبة في تشهير أو إلصاق عيب. ومن هنا قالوا إن النقد صعب مرتقاه. ذلك لأن الناقد حكم أو شبيه به، ولا يتسنى له ذلك إلا بالقدرة على ضبط النفس وتجنب مواضع الزلل.

ص34 - أخذ الناقد على الكتاب إطلاق كلمة (أقيال) على ملوك العرب وساداتهم، مع أن هذا اللقب - على رأيه - خاص بملوك اليمن أو مَن دونهم من أمراء المخاليف اليمنية. وألحق أن هذا التخصيص لا محل له. جاء في القاموس أنه يطلق على الملك، أو هو دون الملك الأعلى.

ص36 - أخذ الناقد على الكتاب في قوله: (وكان للعرب نظام ثابت للزواج؛ فكان جمهورهم يقترن بالزوجة بعد رضاء أهلها، كما كان كثير منهم يستشيرون البنات في أمر زواجهن. . . الخ)، أنه لم يقصر هذه الحال على الحجاز بل عممها في شبه الجزيرة.

وإذا لاحظ القارئ أن الحجاز هو قلب بلاد العرب، تحج إليه من قديم الأزمان للعبادة والتجارة والمباراة في الشعر، وأقامت فيه الأسواق لذلك، ومنه تصدر التقاليد والعادات اجتماعية وخلقية، وعلى قالبه يضع القاطنون في أنحاء الجزيرة العربية ويعتصمون بخواطره، وأن الحجاز هو موطن الحركة الدينية والسياسية اللتين يؤرخ لهما المؤرخون، إذا لاحظ القارئ هذا، أدرك لأول وهلة أن الناقد لم ينصف في مأخذه ولم يوفق فيما أستدل به من حديث عائشة في هذا المقام.

ص45 - يقول الناقد إن الفرس لم يزهدوا في بلاد اليمن و (أنهم كانوا حراصاً عليه ليحدوا من نفوذ خصومهم الروم والأحباش في تلك البلاد). ولو أنه أطلع على ما ذكره الطبري الذي أخذ عنه براون في كتابه (تأريخ الفرس الأدبي) , , , 178) وهو - كما لا يخفى - حجة دامغة في تأريخ الفرس، لعلم أن كانوا حقيقة زاهدين في غزو بلاد اليمن. ولا أدل على ذلك من رد كسرى على سيف بن ذي يَزَن الحميري عندما طلب منه مساعدته لاسترداد بلاده من الأحباش إذ يقول له: (بعدت أرضك عن أرضنا، وهي أرض قليلة الخير. إنما بها الشاة والبعير وذلك مما لا حاجة لنا به).

ولعل من العجب أن يقيم حضرة الناقد عاصفة حول اختلاف المؤرخين في وصف (وهرز) قائد الحملة الفارسية على اليمن، وهل حاجباه هما اللذان سقطا من الكبرأوأن

جفنيه انطبقا أحدهما على الآخر من الكبر!! فالمسألة - كما يرى القارئ - مسألة شكلية خلافية بين المؤرخين، ومؤداها - على كل حال - أنه بلغ من الكبر عتياً، فلا تستحق كل هذا الجهد.

ص61 - 62 - يأخذ الناقد علينا أننا استعملنا لفظاً أجنبياً لنظام عربي، وأن التنظير بين بلاد العرب وبين شبه جزيرة قرشقة يبدو غريباً ونابياً. والمنصف يقدر لنا رغبتنا في عدم إيقاع القارئ في لبس، خصوصاً إذا لم يكن قد قرأ شيئاً عن هذا النظام الذي كان سائداً في جزيرة قرشقة منذ مئات السنين؛ وقد سلكنا هذا المسلك عينه في كتابنا (الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص) (ص23) الذي قامت وزارة المعارف بطبع ترجمته العربية على نفقتها سنة 1932.

ص68 - هوّل الأستاذ الناقد تهويلاً عظيماً فيما جاء بسياق كلامنا عن قريش (أنهم اتخذوا جزءاً من الأرض أولوه احترامهم وبنوا به بيتاً حراماً لا يحل فيه القتال وأخذوا على عاتقهم حمايته) مستنداً في مأخذه على أن إبراهيم الخليل هو باني الكعبة، وأن قريش كانت تحتمي بالبيت الحرام.

ويقيننا أن حضرة الناقد، إذا رجع إلى كتب التأريخ والسير والحديث، عثر على ما يناقض استناده - ولو إلى حد كبير. فكما أنه لا يشك مسلم في أن إبراهيم هو أول من بنى الكعبة بنص الكتاب الكريم، كذلك لا يشك مؤرخ في أن الكعبة قد هدمت بعد هذا مرات بفعل السيول أو النار، وأنها بنيت في حياة النبي صلى الله عليه وسلم حين كانت سنة خمسة وثلاثين، وأنه هو الذي وضع بيده الكريمة الحجر الأسود وفض بذلك النزاع بين المتزاحمين؛ ولا يشك محدث أن الرسول قال لعائشة: (لولا أن قومك حديثو عهد بالكفر لبنيت الكعبة على قواعد إبراهيم)، وأن عبد الله بن الزبير هدمها أبان خلافته وبناها على أساس قواعد إبراهيم، مستنداً إلى الحديث السابق، فأتى الحجاج بعد هذا وأعادها إلى ما كانت عليه في عهد الرسول.

أما مسألة الاحتماء بالبيت الحرام أو حمايته، فليس فيها فارق كبير إذا اعتبرنا الاحتماء للأفراد والحماية للجماعات. وقد حصل في قصة أبرهة الحبشي ما يؤيد ذلك، على أننا قد ذكرنا في كتابنا هذا (ص66، 68، 92، 93، 450) ما يثبت ذلك كله.

ص87 لا أدري وجهة النصح من حضرة الناقد لنا في أن نبرأ من الذهاب إلى أن معنى التحنف التوبة والاعتراف. فليس بخاف أن التوبة هي ميل من حال إلى حال. ومعنى (حنيفاً) مائلاً عن الباطل إلى الدين الحق. راجع تفسير البيضاوي وغيره.

الحق أن هذا النصح لا يبعد عنه في الغرابة إلا دعوى أن الرسول صلى الله عليه وسلم تأثر تأثراً بريئاً بالجمال حين تزوج صفية بنت حُي!! وليسمح لنا الأستاذ الناقد أن نستعير عبارته (لست أدري ما الذي أبقاه بعد هذا القول لجهلة المبشرين ومتعسفي المستشرقين).

نعم! أيها الأستاذ. إن الرسول - كما قلنا في كتابنا - كان مضطلعاً بمهمة عظيمة تسمو عن الجمال وعن خلجات الفكر، ولعلك تراجع كتب التأريخ الإسلامي لترى أن السبب الوحيد في هذا الزواج هو تأليف قلوب قومها وإسلامهم، ولتكون سبباً في عتقهم ليشتد بهم أزر المسلمين. فهذه هي عائشة أم المؤمنين تقول: (لم أر امرأة أكثر بركةً ومنةً على قومها من صفية. أسلم بزواجها قومها وأعتقوا؛ فقد أطلق الصحابة أسراهم من قومها وقالوا إنهم أصهار الرسول). ثم كيف تستبعد أن يطمع الرسول في إسلام اليهود مع ما جرى منهم، وهو الذي أنزل عليه القرآن محذراً من القنوط لأنه علامة الكفر، وحاثاً على التواصي بالحق والتواصي بالصبر؟ لعل الناقد أولى بأن يبرأ من هذا القول الجريء وإلقاء تبعته على سبْق القلم.

ص131 - أخطأ الناقد في تفهم قولنا إن الإسلام أحل الوحدة الدينية محل الوحدة القومية، وذكر أننا أوردنا عبارة (الدعوة الدينية) مع أنها (الوحدة الدينية!!)، وقد ضم حضرته هذا الخطأ الذي وقع فيه إلى المآخذ التاريخية التي عابها على الكتاب، وأما عن قوله: (إن المراد بالوحدة القومية والجنس هو القبيلة) فهو كلام غير مفهوم بدليل قوله تعالى: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم)، وقوله عليه الصلاة والسلام (لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى). فالمقصود هنا الموازنة بين أمة وأمة لا بين قبيلة وأمة، ولعل الناقد يريد

بذلك أن يقيس مع الفارق على رأيهم.
ص211 - ثم ما ندري عدم اللياقة في التعبير عن نابليون بالفتى التلياني، مع أن المعنى
اللغوي والإطلاق العربي يجيزان ذلك بتوسع. إن نابليون كان فتى، لأنه رجل عظيم أتى بصنوف من العبقرية والمواهب في الحرب والسياسة، وكان العرب يطلقون لفظ الفتى على من أمتاز بموهبة تبعث الإعجاب والثناء، ولقد قالوا قديماً: (لا فتى إلا عليّ)، ونابليون كان فتى بالمعنى اللغوي لأنه حين بزغ نجمه لّما يكتمل العقد الثالث من عمرهُ؛ ثم كان تليانياً (بياء النسبة) من جزيرة قرشقة. لعل لهذه الغيرة النابليونية سبباً تكشفه لنا الأيام.
ص240 - 241 - يرمينا الناقد بالتقصير في تفهم قصيدة (تأبط شراً) ويأخذ علينا نقل شرحها عن التبريزي، وأننا ذكرنا في التعليق عليها لفظ عمه بدل خاله، وقد فات الناقد أننا ذكرنا لفظ خاله مرة قبل ذلك، ثم ذكرنا لفظ عمه سهواً وعن غير قصد: أما نقلنا شرح التبريزي، فمع إشارتنا إلى المصدر الأصلي - وهو ما يعبر عنه المؤرخون بالأمانة في النقل - فأننا لم ننقل هذا الشرح على القصيدة برمته، وإنما نقلناه بتصرف ومع مراجعة القاموس وكتب اللغة. فما ندري أن الخطأ غير المقصود في ذكر لفظ العم بدل الخال في قصيدة يكون معناهُ أننا لم نتفهم معنى القصيدة برمتها. وهكذا يكون الأنصاف وإلا فلا!!
كم أعجبني قول الأستاذ الكبير والمؤرخ المشهور بآثاره العلمية محمد بك كرد علي في تحقيقاته على كتاب: (ذكر المعلق على الكتاب أنه وقعت في طبعته هذه بعض أغلاط مع كل ما عانى في تصحيحه جاء بعضها سهواً منه، وبعضها من خطأ النظر، وبعضها من الأغلاط المطبعية التي لا يتنزه عنه كتاب.
ونحن نقيم من كلامه هذا عذراً لكل من أحيا كتاباً للقدامى وليس من الأنصاف أن يحمل على كل من أرتكب خطأ من هذا القبيل بعد بذل الجهد).
ص330 - على الرغم مما ورد في كتب التأريخ بأن عثمان كان يصوم الدهر وأنه قتل صائماً، فأن الناقد يحاول بجرة قلم أن يرفض هذا القول لسبب واحد: هو أن العقل يرفضه!! كأن حوادث التأريخ أصبحت تجري وراء عقل بعض الناس؛ فما رفضه يجب أن يمحى من كتب التأريخ ولو بلغ حد التواتر أو قام عليه ألف دليل ودليل. ألسنا في حل من إن نقول الذي جعل العقل يرفض هذا القول هو أننا نريد أن نثقل كفة السيئات والمآخذ.
ص365 - ينفي الناقد ما ذكرناه من أن عثمان أنتخب بمقتضى قانون الشورى الذي سنه عمر. ولم يكف حضرته في ذلك أن عمر سن نظاماً شورياً مناسباً جداً لعصره بتعيينه ستةُ يختار من بينهم خليفة، وجعل أبنه عبد الله أحد من يختارون على ألا ينتخب. فهل كان يريد الناقد لتحقيق هذه التسمية أن يعتبر عمر دفاتر الانتخاب ويرجع إلى دستور سنة 1923؟ ألا إن هذا المبدأ الذي سنه عمر كان حجر الزاوية في قانون الشورى إن لم يكن هو القانون بأكمله. ولو أخذ المسلمون به لما بزغت قرون الفتن، ولما زلزلوا زلزالاً شديداً صدعّ بنيانهم وأسرع في انحلالهم.
(يتبع)
حسن إبراهيم حسن
الكتب
كتاب الأوراق
للصولي
للأستاذ محمد بك كرد علي
كان أبو بكر محمد بن يحيى الصولي من الأدباء الظرفاء والندماء العلماء. نادم الراضي بالله وكان أولاً مؤدباً له. ونادم المكتفي ثم المقتدر. وكان من ألعب أهل زمانه بالشطرنج مات مستتراً بالبصرة في سنة 335هـ على أصح الروايات، لأنه روى خبراً في علي بن أبي طالب فطلبته الخاصة والعامة لتقتله. وله كتب كثيرة في الأخبار وتراجم الرجال، ولا سيما الخلفاء والأمراء والشعراء. والغالب عليه (أخبار الناس، وله رواية واسعة، ومحفوظات كثيرة. وكان حسن الاعتقاد جميل الطريقة. مقبول القول) وتآليفه: كتاب الأوراق هذا الذي قال فيه المسعودي (إن الصولي في كتاب الأوراق ذكر

غرائب لم تقع إلى غيره، وأشياء تفرد بها، لأنه شاهدها بنفسه. وكان محظوظاً من العلم، مجدوداً من المعرفة مرزوقاً من التصنيف، وحسن التأليف) والأوراق هو الذي أحياه بالطبع جزئين لطيفين أحد المستعربين من الإنجليز السير هودث دن. وكان طبع له كتاب (أدب الكتاب) أحد أدباء بغداد الشيخ محمد بهجة الأثري.

بدئ الجزء الأول من الأوراق أو القسم الذي عثر عليه الناشر بترجمة أبان اللاحقي وأخباره مع الرشيد ومع جماعة من الشعراء وأجزاء من نظمه كتاب كليلة ودمنة وبدأ بقوله:

هذا كتاب كذب ومحنة ... وهو الذي يدعى كليلة ودمنة
فيه دلالات وفيه رشد ... وهو كتاب وضعته الهند
فوصفوا آداب كل عالم ... حكاية عن ألسن البهائم
فالحكماء يعرفون فضله ... والسخفاء يشتهون هزله. . .

وفيه ترجمة ثلاثة شعراء وأدباء ظهروا من بيت اللاحقي، وترجمة أشجع السلمي ومختار شعره في المديح وغزله ومراثيه، وأشعار أشجع نحو ربع هذا الجزء. وترجم الصولي

لأحمد أخي أشجع كما ذكر أخبار أحمد بن يوسف الكاتب وأسرته ولا سيما أخوه القاسم، لأن الأخوين اقتسما نثر الكلام ونظمه فتقدم أحمد بن يوسف في النثر وأخوه القاسم في النظم. وبنو أحمد بن يوسف من أصل قبطي مصري، أسر جدهم فنشأوا في العراق وما زالوا يعلون وتنبه أقدارهم حتى وزر أحمد يوسف للمأمون. وللقاسم في الشيب والزهد من قصيدة:

ودع شبابك قد علاك مشيب ... وكذاك كل معمر سيشيب
جازت سنوك الأربعين فأزعجت ... منك الشباب تجارب وخطوب
ودعاك داع للرشاد أجبته ... وبما يراك الغيّ ليس يجيب
فأبك الشباب وما خلا من عهده ... أيام أنت إلى الحسان طروب
يسبين لبك بالدلال وتستبي ... ألبابهن فسالب وسليب
طوراً يسامحن الهوى ويطعنه ... ويصبن قلبك بالجوى وتصيب
خلطن معصية بحسن إجابة ... فلهن عندك أنعم وذنوب. . .

ولهذا الشاعر قصائد جميلة قالها في أغراض شتى مثل قصيدة يشكو فيها البق والبراغيث والبرغش، وأخرى في رثاء هرة، وثالثة في الشكوى من النمل والفأر، ورابعة في رثاء الشاه مرخ (الشاهمرد)، وخامسة في رثاء القمري إلى غير ذلك (راجع ما كتبناه في درس هذا الجزء السادس في المجلد من مجلة المجمع العلمي العربي).

وفي الجزء الثاني من الكتاب أخبار الراضي والمتقي وتأريخ الدولة العباسية من سنة 322 إلى سنة 333 وفيه تجلت نفسية الصولي، وكان في الجزء الأول ينقل أخبار غيره فيجيد النقل ويحسن الاختيار؛ أما في هذا الجزء فتكلم فيه عن نفسه، وذكر أحاديثه مع الراضي وقصائد فيه، ومبالغة في محامده وعطاياه له، فظهر الإسفاف عليه بالحافة في الاستجداء من الخليفة وشكوى الزمان من الحرمان، وقول فلان منحني وفلان حرمني، مما لا يتناسب مع جلالة قدر من يدعي أن أهله كانوا من نسل ملوك جرجان، وهو يعاشر الخلفاء والأمراء. وهذا القسم مهم في تأريخ الخليفتين الراضي والمتقي، يتجلى فيه انحطاط الملك العباسي، وما كان يحاك حول الخلفاء من دسائس، وكيف تنزع السلطة من الخوالف شيئاً فشيئاً.

والغالب أن بعض المؤرخين اعتمدوا على نصوص الصولي في أكثر المسائل التي ذكرها واقتبسوا عباراته بحروفها، وشعر الصولي الذي شغل به صفحات طويلة من هذا الجزء معجون بالمصانعة، وعلى جانب من التكلف حاول أن يأتي بقصائد ذات قواف مستغربة، فأبهم وعمي، وحاد عن قانون السلاسة. ومما ذكره من شعر تلميذه الخليفة الراضي يفتخر:

لو أن ذا حسب نال السماء به ... نلت السماء بلا كد ولا تعب
منا النبي رسول الله ليس له ... شبه يقاس به في العجم والعرب
فأن صدقتم فأعلى الخلق نحن وإن ... ملتم عن الصدق أعنقتم إلى الكذب

وله من قصيدة:

إني أمروءٌ تصفو موارد رأفتي ... وتحْرُب سطواتي العدو المحرّبا

إذا عدت الأبيات أبصرت بيتنا ... كأن الثريا بالبنيّ مطنباً
رويدك إن النار تظهر تارة ... ويكمن في الأحجار منها تغيبا
وذكر له صفحات من شعره في الفخر والغزل والتشبيب وما أخلى الصولي الخليفة المتقي من تهكم وتعريض، ولعله قال ما رأى في هذا، وأغمض عن أمور رآها في سلفه الراضي، لأنه لم يكن له القبول الذي يحاوله في أيام المتقي، (ذكره ص249) صورة أمر عن المتقي لما غادر بغداد إلى بعض أرجاء العراق وهو خائف من الناس قال: وكتب الخليفة إلى صاحب الشرقية أحمد أبن جعفر الزطي بكتاب يأمره أن ينادي بما فيه فنادى (أمر أمير المؤمنين أطال الله بقاءه بالنداء ببراءة الذمة ممن فتح من العمال والمتصرفين شيئاً من الدواوين، أو نظر في الأعمال، أو طالب بخراج، أو تصرف في عمل من الأعمال السلطانية بعد شخوص أمير المؤمنين، فقد أحل بنفسه العقوبة الموجعة وهجم (داره) وإباحة ماله، فقد أحب أمير المؤمنين ترفيه رعيته والاحتياط لهم، وترك إعناتهم، فليحذر المخالفون لذلك، وليلحق بأمير المؤمنين سائر عماله وأوليائه، ولا يتأخرون عن معسكره، وليلغ سامع هذا النداء الغائب عنه) أي أن الخليفة عطل كل شيء في بغداد لئلا يشغب العامة مدة غيابه عنها. وذكر المؤلف قصة تأديب الراضي وأخيه هارون وكيف أرسلت القهرمانة ريدان إلى المؤدب تقول (ص26) (إن هذه المحاسن من هذا الرجل عند السيدة ومن يخدمها مساوئ، فقل له عني يا هذا ما نريد أن يكون أولادنا أدباء ولا علماء، وهذا أبوهم (المقتدر) قد رأينا كل ما نحب فيه، وليس بعالم فأعمل على ذلك) قال المؤدب فأتيت نصراً الحاجب فأخبرته بذلك فبكى وقال: كيف نفلح مع قوم هذه نياتهم. قلنا ولما اكتفى العباسيون بالجهل لأولادهم تداعت دولتهم شأن كل دولة جاهلة في القديم. وعهد المقتدر وتسلط النساء في القصر العباسي من أغرب أيام بني العباس. ومن هذه الأمور صُورَ صالحة في كتاب الأوراق وصفحات ينبغي لها أن تقرأ بتدبير.
محمد كرد علي
العدد 132 - بتاريخ: 13 - 01 - 1936
من أحاديث النيروز
كنا ليلة النيروز المسيحي نسمر في دار صديق؛ . ولهذا الصديق زوجة من لوزان، دقيقة الفهم، رقيقة الشمائل، لطيفة التكوين؛ أغرمت بمصر وأخلاق أهلها اغراماً شديداً، فهي تحاول أن تتكلم الغربية، وتؤثر أن تعيش على الأوضاع المصرية، وتتابع بالنظر العطوف نهضتنا المجاهدة، وتدافع بالحجة القارعة ما تفتريه علينا الألسن الأوربية الجاحدة، وتحب كلما حضرت مجلسها أن تناقلني الأحاديث في مصر والعرب والإسلام والشرق، وهي في كل ذلك واسعة الاطلاع من طول ما تسافر ومن كثرة ما تقرأ.
كان زوجها وفريق من المدعوين يلعبون الورق على المائدة المغربية، وكان فريق آخر يستمع إلى (الراديو) وهو يذيع الأناشيد الكنسية المهللة، وأنا وهي على كرسيين متقابلين أمام المدفأة، نتجاذب على عادتنا أطراف الحديث المشقق، ونتصفح على طريقتنا أوجه الرأي المختلف، فأجد في حديثها الشهي الممتع ما يجده ذلك الذي يلعب، وذاك الذي يشرب، وهذا الذي يسمع!
تناهزت النفوس الحبيبة لذة الصفو في الساعات المودعة، وتجاوبت في البيع القريبة أصوات النواقيس المرنة، وتلاقت الحياة والموت في قلب الليلة المخضرمة، وتهتكت سدول المهد المحجب عن العام الوليد؛ فقالت لي ساعتئذ والرفاق يتبادلون المودة بالعيون، ويتناقلون التهنئة بالشفاه:
انظر كيف يولد العام المسيحي في بقاع الأرض!! إنه يولد كما يولد الأمل المعسول في النفوس المرحة الغضة، فالكنائس تعج بالصلوات المستبشرة، والمنازل تفيض بالمسرات المتجددة، والعالم الغربية كله لا يذكر في هذه اللحظة عاماً دفن مع الأمس، ذوت فيه نواضر المنى، وذهب معه بعض العمر، وإنما يذكرون عاماً يولد مع اليوم، فتستأنف نشاطها فيه، وتستمد رجاءها منه، وتستقبل حدثان الغد بالثغر الباسم والعزم الصارم والنظر الرغيب. . وما أدري - وقد نشأت في ربوع الغرب وطوفت في بعض أنحاء الشرق - لماذا كان المسلمون وحدهم اليوم رماد الموقد المضطرم: يتحرك بهم الفلك وهم ساكنون، وتتفجر عليهم الأحداث وهم غافلون، ويلقون في

مراغة الذل وهم راضون، وتؤكل بهم أرزاق الأرض وهم قانعون، ويجادل عنهم خصومهم وهم ساكتون؟ أيرجع ذلك إلى العقيدة أم إلى الطبيعة؟

فأجبتها والخجل يكسر من طرفي ويعقد من لساني: ربما كان مرجعه إلى الاثنتين معا!

وكانت تنظر إلى لهب النار يرقص واريا بين وقود المدفأة، فحولت في دهشة وسرعة وجهها إلي وثبتت نظرها في، وقالت: كيف؟! ألم تكن عقيدتهم اليوم هي العقيدة التي ألفت من شتات البدو دولة، وبعثت من جوف الصحاري حضارة، ونفخت في قلوب الصعاليك من روح الله فطمحوا إلى ملك كسرى وهم جياع، وسموا إلى عرش قيصر وهم عراة، وصمدوا إلى حكم العالم وهم سذج؟

ألم تكن طبيعتهم اليوم هي الطبيعة التي تكرمت عن الدون، وتجافت عن الهون، وتسامت إلى القدر الخطير، وتمردت على الطغيان المستبد، وجعلتهم يضعون أنفسهم في كفة، والعالم كله في كفة، فسموا - كما علمت منك - من عداهم بالعجم، كما سمى الرومان من عداهم بالبربر؟

فقلت لها: كلا وا أسفاه! ليست العقيدة هي العقيدة، ولا الطبيعة هي الطبيعة! كانت عقيدتهم كما قلت سامية تبعث الطموح، صافية تكسب الخلوص، بسيطة تنتج الرفاق، جامعة توجب الوحدة؛ توفق بين الدين والدنيا من غير كلفة، وتصل بين الله والإنسان من غير واسطة، فاختلط بها في القرون الأخيرة شعوذة الهنود وأساطير اليهود وصوفية الفرس ولاهوتية اليونان، فأصيبت بالخدر الذاهل والتواضع الجبان، والزهد الكسول، والاتكال المخلف، والجدل العقيم، والاختلاف المفرق؛ ثم تبخر من هذا الخليط المشوه إكسير الحياة فلم يبق إلا الرواسب الغريبة، وتصعد منه عبير الروح فلم يبق إلا الأوراق الجفيفة؛ فالدين اليوم شعائر من غير شعور، وتقليد من غير فهم، واعتقاد من غير تطبيق، وشعوذة من غير حقيقة، وأحكام من غير حكم.

وكانت طبيعتهم كما قلت أبية تأنف الضراعة، طماحة تكره القناعة، وثابة تحاول التفوق، طلاعة تحب المغامرة؛ فامتزجت بها من بعد الفتوح دماء الأجناس المملوكة، وأدواء الأمم المنهوكة، وأوباء الأقاليم القصية؛ ثم قرت فيها صبابة الأحقاب، وانتهت إليها نفاية الأعقاب، وناءت بها أعباء التقاليد. فالعقلية الإسلامية اليوم مشوبة غير صريحة، معقدة غير واضحة؛ وهي من عبث الأحداث متنافرة لا تلتئم، متخاذلة لا تقاوم.

إنما العقيدة الخالصة والطبيعة السليمة لا تزالان في بوادي الحجاز وهضبات نجد؛ ولكن

العالم غير العالم، والوسيلة غير الوسيلة، والغاية غير الغاية!

فإذا لم نجل عن عقيدتنا هذا الصدأ العارض، وننف عن ثقافتنا هذا الهراء الغث، ونجُدّ من خلفنا ذيل التقاليد الفاسدة، ظل سيرنا يا سيدتي بطيئاً لا يلحق، وجهدنا باطلاً لا يفيد.

وكانت فورة اللعب والطرب قد قرت في نفوس القوم، فخلت المائدة، وسكت الراديو، وفتر الحديث، وتهيأ السامرون للخروج، فلم تستطع السيدة أن تعقب على هذا الكلام.

احمد حسن الزيات

في الحب والمرأة

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

أنا - كما لا يعرف القارئ وإن كان لا شك لبيباً - أكره أن أُحِب أو أن أحَب. ولهذا النفور من الحب أسباب شتى، منها أنه لا يدلي في الأمر، ولا سلطان لي عليه، والمرء يصاب بالحب كما يصاب بالزكام - بكرهه وعلى الرغم منه - ولو خير لاختار السلامة وآثر النجاة، ومن ذا الذي يطيب له أن يتوعك؟ والحب حين يغمر النفس يذهلها عن لذته وحلاوته، ويشغلها بالوجيب والقلق والخوف والرغبة والغيرة، ولهذا كان أمتع ما فيه ذكراه - أي بعد تفتر الحرارة وتسكن النفس ويزول الاضطراب والقلق - أو تنتفي دواعيهما بفتور الرغبة - وقد يكون البحر الجائش العباب رائعاً ولكن ركوبه لا يحلو، واعتسافه لا يؤمن، والنفس مثله. وقد يسمو بها اضطرام الحب فيها إلى الجلال، ولكن الإحاطة بما تضطرب به والغوص عليه لا يتسنيان إلا بعد الهدوء؛ وقد يلهم المرء شيئاً وهو هائج، ولكن النظرة المباركة هي التي تدور بها العين في أنحاء النفس بعد أن تعود إليها سكينتها وصفوها ويتيسر الوصول إلى أغوارها والنفاذ إلى زواياها والتغلغل في

سراديبها.
ومن الأسباب المزهدة أني رجل عادل منصف، أو دع الإنصاف وقل إن الله خلق لي في وجهي عينين، فما خيرهما إذا أنا لم أنظر بهما؟؟ والمرأة مستبدة، ومن استبدادها أنها تغضب وتثور وتسود عيشك إذا نظرت إلى سواها. وعبث أن تحاول أن تفهمها أن الإغضاء عن كل هذا الجمال الذي في الناس، قلة عقل، وقصر نظر - بل عمى -؛ وماذا تصنع العينان إذا لم تبصرا؟ وأي عمل آخر لهما هناك؟ وكون المرأة التي يبتلى الإنسان بحبها جميلة ليس معناه أن النساء غيرها دميمات؛ وحبك إياها لا ينبغي أن يتقاضاك مقت النساء الأخريات وتنقصهن؛ والإعجاب بهن لا يعد ثلباً لحبيبتك، وفي وسعها هي أيضا - إذا شاءت وكان هذا مما تستطيع - أن تعجب مثلك بهن. والرجل الذي يفقده الحب القدرة على الإعجاب بالجمال في صوره المختلفة يكون فاسد الذوق، ولو عقلت المرأة لكان هذا كافيا لتشكيكها في رأيه فيها.
ويزهدني في الحب أيضا أن مناظر العشاق مضحكة، وأحوالهم سخيفة، ومبالغاتهم شديدة، ودعواهم عريضة، وعمى قلوبهم وأبصارهم تام عن كل ما يحيط بهم. وأي عاشق لم يقطع
ألف وعد بالوفاء المستحيل؟ بل أي محب لم ينس طربوشه مرة، أو لم يلبس طربوشين واحداً فوق الآخر (ومع ذلك تراه لذهوله يدور باحثا عن طربوشه لظنه أن رأسه عار!) أو لم يبد للناس في الطريق أو الترام ملتاث العقل مخبولاً، يضحك ويقطب بلا سبب ظاهر، ويشير بأصابعه أو يلوح بيده، أو يكلم نفسه؟ والأرق؟ لا أدري لماذا لا ينام العشاق ملء جفونهم كما ينام عباد الله الآخرون؟ ولكن الذي أدريه أن النوم المريح قلما يؤاتيهم أو يسعفهم بسكينته، وتالله إن العاشق لمسكين! لا نوم الليلة يا صاحبي لأنك حين ذهبت إلى بيت حبيبتك رأيتها مطلة من النافذة وناظرة إلى جهة غير التي تعرف أنك آت منها! فهل كانت يا ترى تنتظر سواك؟ وعليك أن تذرع أرض الغرفة مائة ألف مرة هذه الليلة وتقطع خمسمائة فرسخ - جيئة وذهوبا - لأنك وأنت معها جعلت ذراعك حولها وهممت بضمها وتقبيلها فجنحت إلى الدلال ونفرت من العناق، وكانت تبتسم، ولكنها قالت (من فضلك!) من فضلك؟، وهل بيننا (من فضلك!).
هذا كلام يقال للأغراب، وتكلف في التعبير لا يكون بين المحبين! ويظل طول الليل يدب على رؤوس النيام تحته. وفي ليلة يسير على وجهه في الشوارع كالمتشردين، ويحدث نفسه بالانتحار، ويجتاز جسر إسماعيل، وعينه إلى الماء الذي يتدافع بين قواعده، وقد يسأم التدخين فيلقي بعلبة السجاير في الماء ويغرقها فيه بدلا منه وفداء له، وبعد خمس دقائق يشتري غيرها. ولا يزال يتمشى حتى يرتاب في أمره الشرطة، ويرى منهم ما يرد إليه بعض ما عزت من عقله، فيرجع إلى البيت مضعضعاً مهدوداً. . . إلى آخره، إلى آخره.
ثم إن الحب إذعان، ومن أحب امرأة فقد أسلم أمره - إلى حد ما - لأهواء لا ضابط لها، ولا كابح، ولا تمييز فيها بين الممكن والمتعذر، أو اللائق وغير اللائق؛ وقد يطير الحب عقل الرجل - بل هو يفعل ذلك على التحقيق - ولكنه لا يستطيع أن يغير أسلوب تفكيره ولا أن يجعله كأسلوب المرأة في تفكيرها. وعسير أن يظل الحب قادراً على إخفاء الفوارق بين أسلوبي الرجل والمرأة في التفكير. وهب وقدته تبقى زمناً طويلاً - وهو ما أشك فيه ولا أومن به - فان توالي اصطدام العقليتين خليق أن ينبه إلى هذه الفوارق وأن يزعج الرجل ويحيره، وقد يفضي به إلى السآمة.
والمرأة التي ترى نفسها محبوبة تتوهم أن الرجل أباحها ظهره فهي تركبه وتركضه كيف
شاءت وإلى حيث ينزو برأسها أن تذهب، ولا تبالي ما يصيبه من الإرهاق والجهد والإعياء والملل، ولا يخطر لها أن كده على هذا النحو ولجاجتها في ذلك خليقان أن يخمدا وقدت الحب.
والدلال، ماذا نقول فيه؟ إنه مصيبة كبيرة وبلاء عظيم، ولكن المرأة تحسبه وقود الحب، فلا سبيل إلى شيء إلا بعذاب غليظ من هذا الدلال الثقيل، إذ كانت المرأة تسيء الظن بقيمة الاستجابة السريعة، ولا تؤمن إلا بقول القائل - قاتله الله كائناً من كان، فقد نسيت من هو -: (وَحَبُّ شيء إلى الإنسان ما منعا).
قلت مرة لامرأة وقعت بينها وبين حبيبها نبوة من جراء دلالها وإبائها عليه قبلة اشتهاها:

(يا ستي أنت تحبينه، وهو يحبك - أليس كذلك؟).
فألقت إلي نظرة خبيثة، فهززت رأسي وقلت: (نعم أو لا؟ أيهما؟ قولي بلسانك)
فقالت: (لكأني في مدرسة!)
قلت: (ومن الذي غشك وأوهمك أنك استغنيت عنها؟؟ إنك لم تشبي عن الطوق إلى الآن، ومازلت إلى هذه الساعة بنتاً صغيرة جاهلة، أجدر بك أن تخرجي إلى الشارع، فتلعبي فيه بالحبل. . .).
فلم يسؤها مني هذا الطعن لأنها كانت تعرف عطفي عليها، وحبي لخيرها، فأعدت عليها السؤال، فقالت: (نعم) فقلت: (أشهد ألا إله إلا الله! وقد اشتهى منك قبلة، فهل كنت تأنسين من نفسك استعداد للإجابة ورغبة فيها؟) فضحكت وقالت: (هذا أشبه بالتحقيق. . . شيء جميل والله!)
قلت: (هو تحقيق. . . فأجيبي)
فصاحت: (ولماذا لم يقبلني؟ ماذا منعه؟)
فصحت بدوري: (إيه؟ ماذا تقولين؟)
قالت: (أقول إن روحي كانت على شفتي. . . وكنت أتلهف على قبلته، ولكنه لم يفعل وذهب يتكلم. . . سخيف!)
قلت: (ليس هو وحده السخيف)
فرفعت وجهها إلي، وزوت ما بين عينيها، فقلت: (أنا أيضا مثله. . . فقد كنت أحسبه مؤدباً، وأعده مهذباً، فإذا به مغفل!).
فضحكت. . . وهكذا المرأة أبداً. . . ومن هذا الذي يجرؤ أن يزعم أنه يعرفها معرفتها؟ يفعل الرجل الشيء يطلب به رضاها، فإذا هي ساخطة ضجرة؛ ويتقي الشيء يخشى أن يغضبها بفعله، فإذا هي تلومه وتؤنبه وتعد ذلك من ذنوبه؛ وتختصر الطريق وتمشي إلى غايتك مباشرة، فتراها تؤثر اللف والمحاورة، فتروح تدور فتجدها قد تغير مزاجها، واختلفت رغبتها وانقلبت تؤمن بأن الخط المستقيم أقرب ما بين نقطتين؛ وتهدي إليها تحفة تتعب في انتقائها، وتغرم في سبيلها نصف دخلك، فتقول: (هل استشرتني قبل أن تشتريها؟)؛ وتستشيرها في مرة أخرى فتقول: (لو فاجأتني بالهدية لكان ذلك أحلى وأوقع) فأنت معها أبدا على كف عفريت سكران.
وعقول الرجل في رؤوسهم، أما عقل المرأة فقد يكون في حذائها - ولكنه على التحقيق - ليس في رأسها. وضائع، ضائع، من يجادلها بمنطق الرجال، أو يكلمها كلام العقل، فما عرفت ذلك يجدي معها. ولو أن رجلاً أثنى على عقل امرأة بكتاب في ثلاثين جزءا لما بلغ من نفسها ما هو خليق أن يبلغ بكلمة ثناء مفردة على جمالها - ولو كذباً - أو نظرة إعجاب واحدة إلى حذائها وإن كان أضخم من الباخرة نورماندي، أو مسحة بكفة - في حنو، ولو متكلفا - على شعرها وإن كان كضوء القمر.
ولست أذم المرأة، وكيف أجرؤ، وهي زينة الحياة وسر سحرها؟ ولكني أقول إنها مخلوق آخر، غير الرجل، وهو قول ليس فيه جديد، ولا شك أن الرجل يبدو للمرأة - كما تبدو هي له - مستغرب الأطوار شاذاً في أسلوب تفكيره، وطريقة تناوله للأمور.
إبراهيم عبد القادر المازني
المشكلة - 2
للأستاذ مصطفى صادق الرافعي
لما فرغت من مقالات (المجنون) وأرسلت الأخيرة منها، قلت في نفسي هذا الآخر هو الأخر من المجنون وجنونه، ومن الفكر في تخليطه ونوادره؛ غير أنه عاد إلى أخلاطا وأضغاثا فكأني رأيته في النوم يقول لي: اكتب مقالا في السياسة. قلت: مالي وللسياسة، وأنا (موظف) في الحكومة، وقد أخذت الحكومة ميثاق الموظفين لما عرفوا من نقد أو غميزة ليكتمنَّه ولا يبيِّنونه. فقال: هذه ليست مشكلة، وليس هذا يصلح عذرا، والمخرج سهل والتدبير يسير والحل ممكن. قلت: فما هو؟
قال: اكتب ما شئت في سياسة الحكومة، ثم اجعل توقيعك في آخر المقال هكذا:
(مصطفى صادق الرافعي؛ غير موظف بالحكومة). . .
فهذه طريقة من طرق المجانين في حل المشاكل المعقدة، لا يكون الحل إلا عقدة جديدة يتم بها اليأس ويتعذر الامكان، وهي بعينها طريقة ذلك الطائر الأبله الذي يرى الصائد فيغمض عينه ويلوى عنقه ويخبأ رأسه في جناحه ظنا عند نفسه أنه إذا لم ير

الصائد لم يره الصائد، وإذا توهم أنه اختفى تحقق أنه اختفى؛ وما عمله ذاك إلا كقوله للصياد: إني غير موجود هنا. . . على قياس (غير موظف).

وقد كنت استفتيت القراء في (المشكلة) وكيف يتقي صاحبها على نفسه وكيف تصنع صاحبتها؛ فتلقيت كتباً كثيرة أهدت إلى عقولاً مختلفة؛ وكان من عجائب المقادير أن أول كتاب ألقي إلى منها - كتاب (نابغة) كنابغة القرن العشرين، بعث به من القاهرة، وسمي نفسه في (المصلح المنتظر)؛ وهذه عبارته بحرفها ورسمها كما كتبت وكما تقرأ؛ فان نشر هذا النص كما هو، يكون أيضا نصاً على ذلك العقل كيف هو. . .

قال: (إن هذا الكون تعبت فيه آراء المصلحين، وكتب الأنبياء زهاء قرون عديدة، ودائما نرى الطبيعة تنتصر. ولقد نرى الحيوان يعلم كيف يعيش بجوار أليفه، والطير كيف يركن إلى عش حبيبته، إلا الإنسان. ولقد تفنن المشرعون في أسماء العادات والتقاليد والحمية والشرف والعرض، وإن جميع هذه الأشياء تزول أمام سلطان المادة فما بالكم بسلطان الروح؟

ورأيي لهذا الشاب ألا يطيع أباه ولو ذهب إلى ما يسموه الجحيم (كذا) إذا كان بعد أن يعيش الحياة الواحدة التي يحياها ويتمتع بالحب الواحد المقدر له، ما دام قلبه اصطفاها وروحه تهواها؛ ولو تركته بعد سنين قليلة لأي داع من دواع الانفصال. (كذا) وهذا ليس مجرد رأي مجرب، وإنما هو رأي أكبر عقل أنجبته الطبيعة حتى الآن، وسينتصر على جميع من يقفون أمامه، والدليل أن هذا المقال سيشار إليه في مجلة (الرسالة)، وهذا الرأي سيعمل به، وصاحب هذا الرأي سيخلد في الدنيا، وسيضع الأسس والقوانين التي تصلح لبني الإنسان مع سمو الروح بعد أن أفسدت أخلاقه عبادة المال.

إن الإنسان يحيا حياة واحدة فليجعلها بأحسن ما تكون، وليمتع روحه بما تمتع به جميع المخلوقات سواه. وإلى الملتقى في ميدان الجهاد

(المصلح المنتظر)

انتهى

وهذا الكتاب يحل (المشكلة) على طريقة غير (موظف). . . فليعتقد العاشق أنه غير متزوج فإذا هو غير متزوج، وإذا هو يتقلب فيما شاء؛ وتسأل الكاتب ثم ماذا؟ فيقول لك: ثم الجحيم. . .

وإنما أوردنا الكتاب بطوله وعرضه لأننا قرأناه على وجهين، فقد نبهتنا عبارة (أكبر عقل أنجبته الطبيعة حتى الآن) إلى أن في الكلام إشارة من قوة خفية في الغيب، فقرأناه على وحي هذه الإشارة وهديها فإذا ترجمة لغة الغيب فيه: (ويحك يا صاحب المشكلة، إذا أردت أن تكون مجنونا أو كافرا بالله وبالآخرة فهذا هو الرأي. كن حيوانا تنتصر فيه الطبيعة والسلام.

تلك إحدى عجائب المقادير في أول كتاب ألقي إلي؛ أما العجيبة الثانية فان آخر كتاب تلقيته كان من صاحبة المشكلة نفسها. وهو كتاب آية في الظرف وجمال التعبير وإشراق النفس في أسرارها يَمُور مؤْر الضباب الرقيق من ورائه الأشعة، فهو يحجب جمالاً ليظهر منه جمالاً آخر؛ وكأنه يعرض بذلك رأيا للنظر ورأيا للتصور، ويأتي بكلام يقرأ بالعين قراءة وبالفكر قراءة غيرها. ولفظها سهل سهل، قريب قريب، حتى كأن وجهها هو يحدثك لا لفظها، ومادة معانيها من قلبها لا من فكرها، وهو قلب سليم مقفل على خواطره وأحزانه

مسترسل إلى الإيمان بما كتب عليه استرساله إلى الإيمان بما كتب له، فما به غرور ولا كبرياء ولا حقد ولا غضب ولا يكثره ما هو فيه.

ومن نكد الدنيا أن مثل هذا القلب لا يخلق بفضائله إلا ليعاقب على فضائله؛ فغلظة الناس عقاب لرقته، وغدرهم نكاية لوفائه، وتهورهم رد على أناته، وحمقهم تكدير لسكونه، وكذبهم تكذيب للصدق فيه.

وما أرى هذا القلب مأخوذاً بحب ذلك الشاب ولا مستهماً به لذاته، وإنما هو يتعلق صوراً عقلية جميلة كان من عجائب الاتفاق أن عرضت له في هذا الشاب أول ما عرضت على مقدار ما؛ وسيكون من عجائب الاتفاق أيضاً أن يزول هذا الحب زوال الواحد إذا وجدت العشرة، وزوال العشرة إذا وجدت المائة، وزوال المائة إذا وجد الألف.

وبعد هذا كله فصاحبة المشكلة في كتابها كأنما تكتب في نقد الحكومة على طريقة جعل التوقيع: (فلان غير موظف بالحكومة). . . وهي فيما كتبت كالنهر الذي ينحدر بين شاطئيه مدعياً أنه هارب من الشاطئين مع أنه بينهما يجري. تحب صاحبها وتلقاه؛ ثم هي عند نفسها غير جانية عليه ولا على زوجته. . . فليت شعري عنها ما عسى أن تكون الجناية بعد زواج الرجل غير هذا الحب وهذا اللقاء؟

ونحن معها كأرسطاطاليس مع صديقه الظالم حين قال له: هبنا نقدر على محاباتك في ألا نقول إنك ظالم؛ هل تقدر أنت على ألا تعلم أنك ظالم؟

ورأيها في (المشكلة) أن ليس من أحد يستطيع حلها إلا صاحبها، ثم هو لا يستطيع ذلك إلا بطريقة من طريقتين: فإما أن تكون ضحية أبيها وأبيه (تعني زوجته) ضحيته هو أيضاً ويستهدف لما يناله من أهله وأهلها فيكون البلاء عن يمينه وشماله ويكابد من نفسه ومنهم ما إن أقله ليذهب براحته وينغص عليه الحب والعيش، (قالت): وإما أن يضحي بقلبه وعقله وبي. . .

وهذا كلام كأنها تقول فيه: إن أحداً لا يستطيع حل هذه المشكلة إلا صاحبها، وأن صاحبها غير مستطيع حلها إلا بجناية يذهب فيها نعيمه، أو بجنون يذهب فيه عقله. فان حلها ذلك فهو أحد اثنين: إما أحمق أو مجنون ما منهما بد. . . ولسان الغيب ناطق في كلامها بأن أحسن حل للمشكلة أن تبقى بلا حل، فان بعض الشر أهون من بعض.

والعجيبة الثالثة أن (نابغة القرن العشرين) جاء زائراً بعد أن قرأ مقالات (المجنون) فرأى بين يدي هذه الكتب التي تلقيتها وأنا أعرضها وأنظر فيها لأتخير منها، فسأل فخبرته الخبر؛ فقال: إن صاحب هذه المشكلة مجنون لو امتحنوه في الجغرافية وقالوا له ما هي أشهر صناعة في باريس لأجابهم: أشهر ما تعرف به باريس أنها تصنع (البودرة) لوجه حبيبتي. . .

قلت: فكيف يرتد هذا المجنون عاقلاً؟ وما علاجه عندك قال: وجه في طلب أ. ش ليجيء، فلما جاء قال له اكتب: جلس (نابغة القرن العشرين) مجلسه للإفتاء في حل المشكلة فأفتى مرتجلاً:

إن منطق الأشياء وعقلية الأشياء صريحان في أن مشكلة الحب التي يعسر حلها ويتعذر مجاز العقل فيها، ليست هي مشكلة هذا العاشق أكرهوه على الزواج بامرأة يحملها القلب أولا يحملها، وإنما تلك هي مشكلة إمبراطور الحبشة يريدون إرغامه أن يتزوج إيطاليا، ويذهبون يزفونها إليه بالدبابات والرشاشات والغازات السامة.

ولو لم يكن رأس هذا العاشق المجنون فارغاً من العقل الذي يعمل عمل العقل، إذن لكانت مجاري عقله مطرودة في رأسه فانحلت مشكلته بأسباب تأتي من ذات نفسها أو ذات نفسه، غير إن في رأسه عقل بطنه لا عقل الرأس، كذلك الشره البخيل الذي طبخ قدراً وقعد هو وامرأته يأكلان. فقال ما أطيب هذه القدر لولا الزحام. . . قالت امرأته: أي زحام ههنا؟ إنما أنا وأنت. قال: كنت أحب أن أكون أنا والقدر فقط. . . فعقل النهم في رأس هذا كعقل الشهوة في رأس ذلك؛ كلاهما فاسد التقدير لا يعمل أعمال العقول السليمة؛ ويريد أحدهما أن تبطل الزوجة من أجل رطل من اللحم، ويريد الآخر مثل ذلك في رطل من الحب. . .

وإذا فسد العقل هذا الفساد ابتلى صاحبه بالمشاكل الصبيانية المضحكة لا تكون في شيء كبير، ولا يكون منها شيء كبير؛ وهي عند صاحبها لو وزنت كانت قناطير من التعقيد؛ ولو كيلت بلغت أرادب من الحيرة؛ ولو قيست امتدت إلى فراسخ من الغموض.

هاتان المرأتان: (الحبيبة والزوجة)، إما أن تكونا جميعاً امرأتين فالمعنى واحد فلا مشكلة؛ وإما ألا تكونا امرأتين فالمعنى كذلك واحد فلا مشكلة؛ وإما أن تكون إحداهما امرأة والأخرى قردة أو هِرْدة وههنا المشكلة. (حاشية: الهردة من أوضاع نابغة القرن العشرين في اللغة ومعناها الأنثى ليست من إناث الأناسي ولا البهائم. . .)

فان زعم العاشق أن زوجته قردة فهو كاذب، وإن زعم أنها الهردة فهو أكذب. والمشكلة هنا مشكلة كل المجانين، ففي مخه موضع أفرط عليه الشعور فأفسده، وأوقع بفساده الخطأ في الرأي، وابتلاه من هذا الخطأ بالعمى عن الحقيقة، وجعل زوجته المسكينة هي معرض هذا العمى وهذا الخطأ وهذا الفساد؛ ولا عيب فيها، لأنها

من زوجها كالحقيقة التي يتخبط فيها المجنون مدة جنونه فتكون مجلي هذيانه ومعرض حماقاته، وهي الحقيقة غير أنه هو المجنون.

فان كانت هذه الحقيقة مسألةً حسابية استمر المجنون مدة جنونه يقول للناس: خمسون وخمسون ثلاثة عشر، ولا يصدق أبدا أنها مائة كاملة؛ وإن كانت مسألةً علمية قضى المجنون أيامه يشعل التراب ليجعله بارودا ينفجر ويتفرقع، ولا يدخل في عقله أبداً أن هذا تراب منطفئ بالطبيعة؛ وإن كانت مسألةً قلبية استمر المجنون يزعم أن زوجته قردة أو هردة ولا يشعر أبداً أنها امرأة.

فان صح هذا الرجل مجنون فعلاجه أن يربط في المارستان ثم يجيء أهله كل يوم بزوجته فيسألونه: أهذه امرأة أم قردة أم هردة؟ ثم لا يزالون ولا يزال حتى يراها امرأة ويعرفها امرأته فيقال له حينئذ: إن كنت رجلاً فتخلق بأخلاق الرجال.

أما إن كان الرجل عاقلاً مميزاً صحيح التفكير ولكنه مريض مرض الحب، فلا يرى (النابغة) أشفى لدائه ولا أنجع فيه من أن يستطب بهذه الأشفية واحدا بعد واحد حتى يذهب سقامه بواحد منها أو بها كلها:

الدواء الأول: أن يجمع فكره قبل نومه فيحصره في زوجته ثم لا يزال يقول زوجتي، زوجتي، حتى ينام. فان لم يذهب ما به في أيام قليلة فالدواء الثاني.

الدواء الثاني: أن يتجرع شربة من زيت الخروع كل أسبوع. . . ويتوهم كل مرة أنه يتجرعها من يد حبيبته، فان لم يشفه هذا فالدواء الثالث.

الدواء الثالث: أن يذهب فيبيت ليلة في المقابر، ثم ينظر نظره في أي المرأتين يريد أن يلقى الله بها وبرضاها عنه وبثوابه فيها؛ وأيتهما هي موضع ذلك عند الله تعالى، فان لم
يبصر رشده بعد هذا فالدواء الرابع.

الدواء الرابع: أن يخرج في (مظاهرة). . . فإذا فقئت له عين أو كسرت له يد أو رجل ثم لم تحل حبيبته المشكلة بنفسها. . . فالدواء الخامس.

الدواء الخامس: أن يصنع صنيع المبتلى بالحشيش والكوكايين، فيذهب فيسلم نفسه إلى السجن ليأخذوا على يده فينسى هذا الترف العقلي، ثم ليعرف من أعمال السجن جد الحياة وهزلها، فإن لم ينزع عن جهله بعد ذلك فالدواء السادس.

الدواء السادس: أنه كلما تحرك دمه وشاعت فيه حرارة الحب، لا يذهب إلى من يحبها ولا يتوخى ناحيتها، بل يذهب من فوره إلى حجَّام يحجمه. . . ليطفئ عنه الدم بإخراج الدم؛ وهذه هي الطريقة التي يصلح بها مجانين العشاق، ولو تبدلوا بها من الانتحار لعاشوا هم وانتحر الحب.

قال (نابغة القرن العشرين): فان بطلت هذه الأشفية الستة وبقى الرجل جموحاً لا يرد عن هواه فلم يبق إلا الدواء السابع.

الدواء السابع: أن يضرب صاحبه المشكلة خمسين قناة يصك بها واقعة منه حيث تقع من رأسه وصدره وظهره وأطرافه، حتى يتهشم عظمه، وينقصف صلبه، وينشدخ رأسه ويتفرى جلده؛ ثم تطلى جراحه وكسوره بالأطلية والمراهم وتوضع له الأضمدة والعصائب، ويترك حتى يبرأ على ذلك أعرج متخلعاً مبعثر الخلق مكسور الأعلى والأسفل، فان في ذلك شفاءه التام من داء الحب إن شاء الله.

قلنا: فان لم يشفه ذلك ولم يصرف عنه غائلة الحب؟

قال: إن لم يشفه ذلك فالدواء الثامن.

. . . . . الدواء الثامن: أن يعاد علاجه بالدواء السابع

(لها بقية)

مصطفى صادق الرافعي

سفارة أندلسية

إلى ملك النورمانيين في القرن الثالث الهجري

للأستاذ محمد عبد الله عنان

لبث عرب الأندلس منذ الفتح زهاء قرنين في مأمن من الغزوات الخارجية، لا تزعجهم سوى الحروب والمعارك الداخلية، ولم تشعر الأندلس المسلمة بخطر الغزو الخارجي في تلك الفترة إلا من ناحية واحدة، هي ناحية مملكة الفرنج التي بلغت ذروة القوة والبأس في عصر عاهلها كارل الأكبر (شارلمان)، والتي استطاعت من قبل أن

تستخلص من يد العرب رباط الثغر وكل أملاكهم في لانجدوك وما وراء جبال البرنيه، وأن تغزو إسبانيا المسلمة من الشمال أكثر من مرة؛ ولكن هذا الخطر الداهم لم يلبث أن خبا عقب انحلال المملكة الفرنجية وتوطد الدولة الأموية في الأندلس.

بيد أن الأندلس لم تلبث أن عرفت خطراً آخر لم تكن لتفطن إليه أو تتحوط لرده؛ ذلك هو خطر الغزوات البحرية النورمانية؛ وقد ظهر هذا الخطر فجأة حينما ظهرت سفن النورمانيين في مياه الأندلس لأول مرة في سنة 230هـ (843م) في عصر أمير الأندلس عبد الرحمن بن الحكم، وعاثت في ثغور الأندلس، ووصلت إلى أشبيلية، واقتحم الغزاة بسائطها بالنار والسيف؛ ولم يك لعرب الأندلس يومئذ معرفة بتلك الأمة البحرية التي جاءت من أقاصي الشمال غازية في أقاصي الجنوب، فعرفوها وآنسوا خطرها ومنعتها؛ وعرفوها عندئذ باسم (المجوس)؛ ذلك لأن النورمانيين كانوا يومئذ أمة وثنية تعبد النار والكواكب والعناصر، ثم عرفوها فيما بعد باسم (المجوس الأردمانيين)، أعني النورمانيين؛ وكانت الأندلس حتى ذلك الحين تعني بأسباب الدفاع الداخلية والبرية، ولا تعني كثيراً بأمر الأسطول أو التحصينات البحرية، فلما شهدت جرأة أولئك الغزاة المجهولين، وشدة عيثهم بشواطئها وثغورها، عنيت بأمر الأسطول والثغور، ولم يأت عصر عبد الرحمن الناصر حتى كان للأندلس أسطول فخم يسيطر على تلك المياه، ويحمي ثغور الأندلس من كل غزو واعتداء.

وقد ترددت حملات النورمانيين على شواطئ الأندلس مراراً، في عصر عبد الرحمن بن الحكم، كما قدمنا، ثم في عصر ولده محمد (245هـ - 859م)، ثم بعد ذلك بنحو قرن في
عصر الحكم المستنصر (355هـ - 9660م)، ثم في عهد الطوائف (457هـ - 1065م)، وكانت في كل مرة تبث الذعر والروع والخراب أينما حلت، بيد أنها كانت ترد على أعقابها بعد معارك برية وبحرية طاحنة؛ وكانت تقنع دائماً بما تحصل من الغنائم والسبي، ولا تمكن من البقاء أو الاستقرار وسير هذه الغزوات البحرية مشهورة في الروايات الإسلامية والنصرانية، وليس من موضوعنا أن نعي بتفاصيلها، وإنما نعني هنا بحادث دبلوماسي شهير، كان من بعض آثار هذه الغزوات، وهو من الحوادث الدبلوماسية الفريدة في علائق الشرق والغرب والإسلام والنصرانية.

قام النورمانيون بغزوتهم البحرية الأولى لشواطئ الأندلس في سنة 230هـ (843م) في عهد عبد الرحمن بن الحكم، وعاثوا في بسائط أشبونه وأشبيلية ولبلة؛ ولم يستطع الأندلسيون رد أولئك الغزاة الشقر إلا بعد جهود جهيدة ومعارك طاحنة، وبعد أن رأوا من جرأتهم وشجاعتهم وشدة فتكهم ما يؤذن بانتمائهم لأمة قوية عظيمة؛ عندئذ رأى أمير الأندلس عبد الرحمن ابن الحكم أن يسبر غور هذه الأمة المجهولة، وأن يسعى إلى مهادنتها وعقد أواصر الصداقة معها، في نفس الوقت الذي يعنى فيه بتقوية الأسطول وتحصين الثغور، فانتهز فرصة مقدم الرسل النورمانيين إلى قرطبة لعقد الصلح بعد هزيمة الغزاة وجلائهم عن الثغور الأندلسية، وقرر أن يوفد معهم إلى ملك النورمانيين سفارة يؤكد بها المودة والصداقة.

واختار أمير الأندلس لسفارته رجلاً جعلته صفاته الخاصة خير من يستطيع الاضطلاع بتلك المهمة هو يحيى بن الحكم المعروف بالغزال؛ وكان الغزال شاعراً رقيقاً من أهل جيان، وكان يومئذ من أكابر رجال الدول والبلاط، يصطفيه عبد الرحمن ويؤثره برعايته وتقديره لما كان يتمتع به من خلال وكفايات خاصة في الإدارة والسياسة. وكان عبد الرحمن قد اختاره قبل ذلك ببضعة أعوام ليكون سفيره لدى قيصر قسطنطينية الإمبراطور نيوفيلوس؛ وكان الإمبراطور قد بعث إليه سفارة وهدية فخمة ليخطب وده ومحالفته ويرغبه في ملك أجداده في المشرق حقداً منه على المأمون والمعتصم؛ فرحب عبد الرحمن برسل الإمبراطور، وبعث إليه يحيى الغزال بهدية فخمة (225هـ - 836م) فأدى الغزال سفارته ببراعة، واستطاع أن يخلب الباب الإمبراطور وبطانته بذلاقته وحسن بيانه ورقة
شمائله؛ واستمر عبد الرحمن بعد ذلك يسند إليه مختلف المهام الدقيقة فيؤديها بكياسة وبراعة؛ وكان الغزال في الواقع رجلاً خلاباً وسيم الطلعة - ومن ثم سمى بالغزال - يتمتع بصفات السياسي البارع وخلاله ومؤثراته، ويستخدمها دائماً بفطنة ونجاح

وقد انتهت إلينا عن هذه السفارة الفريدة رواية إسلامية ضافية لكاتب أندلسي عاش في القرن الثاني عشر الميلادي وهو أبو الخطاب بن دحية البلنسي في كتاب له يسمى (المطرب في أشعار أهل المغرب)؛ وفيه يسرد تفاصيل رحلة الغزال إلى بلاد النورمانيين، ويورد لنا طرفاً من خلاله وشيئاً من نظمه. بيد أن هذه الرواية الضافية تعني بالناحية الشخصية والأدبية أكثر مما تعني بالتحقيق التاريخي، ومن ثم فان كثيراً من الغموض يحيق بالمكان وبالظروف التي وقعت فيها هذه السفارة ويترك المجال واسعاً لمختلف الفروض.

تقول الرواية إن يحيى الغزال ومساعده يحيى بن حبيب خرجا من مياه الأندلس الجنوبية في سفينة أندلسية خاصة أعدت لهما، وسارت بهما إلى جانب سفينة الرسل النورمانيين؛ واتجهت السفينتان نحو الغرب حتى خرجتا إلى المحيط؛ وشهد السفير المسلم من عصف الرياح وروعة الموج أهوالاً؛ وقد ترك لنا الغزال في وصفها شعراً يقول فيه:

قال لي يحيى وصرنا ... بين موج كالجبال
وتولتنا رياح ... من دبور وشمال
شقت القلعين وانبت ... ت عرى تلك الحبال
وتمطى مل المو ... ت إلينا عن حيال
فرأينا الموت رأى العي ... ن حالا بعد حال

ولكن الركب وصل سالماً إلى (بلاد المجوس) بعد رحلة شاقة مروعة؛ وسار الغزال وزميله إلى مستقر ملك النورمانيين. أما عن مستقر مملكة النورمانيين (المجوس) فتقول لنا الرواية ما يأتي: (وهي جزيرة عظيمة في البحر المحيط فيها مياه مطردة، وجنات، وبينها وبين البر ثلث مجار، وهي ثلاثمائة ميل، وفيها من المجوس ما لا يحصى عددهم؛ وتقرب من تلك الجزيرة جزائر كثيرة منها صغار وكبار أهلها كلهم مجوس، وما يليهم من البر أيضا لهم مسيرة أيام، وهم مجوس، وهم اليوم على دين النصرانية).

وهنا موضع الغموض والحدس. إذ ما هو ذلك القطر الذي تعنيه الرواية الإسلامية، والذي كان مستقرا لملك النورمانيين وقت مقدم الغزال؟ لقد كان للفيكنج أو النورمانيين يومئذ ملك في الشمال، في دانماركه، وكان سلطانهم منذ أوائل القرن الثامن يشمل دانماركه وقسماً من اسكندناوه، وألمانيا الشمالية حتى فريزيا؛ ويلوح لنا من تأمل الوصف الذي تقدمه لنا الرواية الإسلامية عن رحلة الغزال في بحار خطرة مروعة، وعن طبيعية القطر الجزرية، إن هذا القطر هو الدانماركه، فهو شبه جزيرة يحيط بها عدد كبير من الجزائر؛ ومن هذه الجزائر كانت تخرج حملات النورمانيين الغازية إلى البحار الغربية والجنوبية. وكان يجلس على عرش النورمانيين في ذلك الوقت (نحو سنة 844 أو 845 م) ملك يسمى (هوريك)، وكان النورمانيون يومئذ أحداثاً في النصرانية، حسبما تقول الرواية الإسلامية، لأنهم بدءوا باعتناقها قبل ذلك بنحو عشرين عاما فقط. بيد أن هناك احتمالاً آخر يمكن الأخذ به، وهو أن القطر الذي زاره السفير الإسلامي ليؤدي رسالته إلى زعيم الفيكنج ربما كان جزيرة ارلندة التي تنطبق طبيعتها وموقعها على أوصاف الرواية الإسلامية، وكان الفيكنج قد فتحوها قبل ذلك بأعوام (840م) واستقروا في شمالها، واتخذوا زعيمهم (تورجيس) أو (ترجستر) قاعدة لملكه.

وعلى أي حال فقد لقي السفير المسلم من ملك النورمانيين كل ترحاب وعطف، وأفرد لأقامته وزملائه منزلا حسناً؛ وتصف لنا الرواية بعد ذلك كيف استقبل الملك الغزال، وكيف أعجب بجرأته وذلاقته ولباقته، وكيف قدم إليه الغزال كتاب الأمير عبد الرحمن وهديته من الثياب والآنية. فوقعت لديه أحسن موقع. ولقي الغزال مثل هذا الإعجاب والعطف في البلاط النورماني كله. ثم تقدم لنا الرواية تفاصيل شائقة عن صلات الغزال بملكة النورمانيين (نود) مواقفه منها، وقد رآها الغزال لأول مرة فراعه حسنها، وصرح أمامها بأنه لم ير في حياته مثل هذا الحسن الشعري الفائق مع كثرة ما شاهد من النساء الحسان في مختلف القصور؛ وكان الغزال يومئذ قد جاوز الخمسين من عمره ولكنه كان لا يزال جذاباً وسيم الطلعة؛ فأعجبت الأميرة بروائه وظرفه وحسن بيانه، وكثيراً ما كانت تستدعيه للتمتع بحديثه الساحر؛ وكان الغزال من جانبه

يهرع إلى مجلسها ويكثر من زيارتها حتى حذره أصحابه من ذلك، ولكنه لم يعبأ بذلك لما يلقاه منها من التشجيع
والعطف؛ وتقص الرواية علينا بعض مواقفه ومداعباته مع تلك الأميرة الحسناء؛ ومن ذلك قوله ذات يوم في مجلسها يتغنى بحسنها:

كلفت يا قلبي هوى متعباً ... غالبت فيه الضيغم الأغلبا
أنى تعلقت مجوسية ... تأبى لشمس الحسن أن تغربا
أقصى بلاد الله في حيث لا ... يلقى إليه ذاهب مذهبا
يا نود يا رود الشباب التي ... تطلع من أزرارها الكوكبا

وقوله ذات يوم وقد أمرته الأميرة بأن يخضب شعره الأشيب ففعل، واستحسنت خضابه:

بكرت تحسن لي سواد خضابي ... فكأن ذاك أعادني لشبابي
ما الشيب عندي والخضاب لواصف ... إلا كشمس جللت بضباب
تخفى قليلاً ثم يقشعها الصبا ... فيسير ما سترت به لذهاب
لا تنكري وضح المشيب فإنما هو زهرة الإفهام والألباب
فلدي ما تهوين، ما شأن الصبى ... وطلاقة الأخلاق والآداب

وعاد الغزال إلى الأندلس بعد رحلة دامت عشرين شهراً ومعه كتاب من ملك النورمانيين إلى عبد الرحمن بن الحكم؛ وكان عوده عن طريق شنت ياقوب ثغر جليقية. وقد أدى الغزال سفارته خير الأداء بلا ريب، ولكن ماذا كان موضوع هذه السفارة وغايتها الحقيقية؟ هذا ما لم تفصح عنه الرواية، وإن كنا نعتقد أنها كانت سفارة مودة وصداقة فقط.

وعاش الغزال بعد ذلك أعواماً طويلة، وتوفى بعد الخمسين ومائتين في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن، وقد أربى على الثمانين؛ وكان مدى نصف قرن يتبوأ الزعامة في ميدان الشعر والأدب والحكمة، ويتبوأ في بلاط قرطبة أسمى مقام من النفوذ والثقة والتقدير.

محمد عبد الله عنان

تاريخ الأدب النسوي في فرنسا

للأستاذ محمد بك كرد علي

بينما نرى تركيا تقرر مساواة المرأة بالرجل، وتعترف لها بحقوقها السياسية في المجتمع، غير ناظرة إلى ماضيها وحاضرها، ولا لاستعدادها المطبوع والمكسوب، ولا إلى قلة عدد المتعلمات من بنات جنسها في بلادها، يخيل إليها أن تجعل منهن أو أن ترتجل منهن عالمات مفكرات ناخبات منتخبات - بينا نرى هذا في الشرق وتركيا تضع تشريعاً جديداً تجري أحكامه في أمة تغرق كثرتها الغامرة في بحر لجي من الجهالة والأمية، نرى رجال الغرب على كثرة ما بلغته المرأة عندهم من درجات النشوء والرقي، يحاذرون أن تساوى الرجل عندهم في كل الحالات، ناظرين في ذلك إلى عدة اعتبارات نفسية وجسمية وعلمية وأدبية وتاريخية جرأة مستغربة من الترك في محاولة أمر لم تتم أسبابه، ولا بعضها، وتأن لا غرابة فيه من الغربيين ممن بنوا مدنيتهم على العقل، وساروا بسنة التطور الطبيعي في كل مظاهرهم، فأحدثوا هذه الحضارة القائمة على أساس راسخ من العمل والنظر، ولو نسج الغرب خيوط مدنيته بالخيال، تمليها العواطف، ولا يدعمها العقل المولد، ولا التجارب المسددة، لما شهدنا هذه المدينة تتفوق على غيرها، وتكسف شمس المدنيات القديمة التي كان من أعظم ما منيت به عصور جهالات كانت سود لياليها، ونظريات خيالية، فقد فيها التسلسل، ومات منها الإبداع.

حقا إن أهل البصيرة لا يفهمون سيراً لهذه المغامرة في جمهورية الترك، إلا إذا غالطوا حسهم. أليس من أعاجيب الدهر أن ينام الأتراك قروناً عن الأخذ بمذاهب الحضارة، ويهبوا اليوم دفعة واحدة يحاولون أن ينفذوا قوانين الجمهورية السويسرية في سكان آسيا الصغرى. ولا يختلف اثنان أن السويسريين أصحاب هذا القانون وصلوا إليه في عدة قرون، فاستووا أرقى شعب في الأرض، أو أول شعب يجيء في الصف الأول بين الأمم المتفوقة، والترك بلا جدال مهما غرت ظواهرهم، متأخرون في معظم مظاهرهم في سلم المدنية، على ما عرفناهم وعرفهم غيرنا من الباحثين من أهل الشرق

والغرب.
وأعجب من هذا كله أن تحرم المرأة السويسرية الراقية من حق الانتخاب وترزقه المرأة
التركية.
أمامي الآن (تاريخ الأدب النسوي في فرنسا) لجان لارتكان، قرأته مرتين فما بلغت حظ النفس في تلاوته، لما ضم من الفوائد الأثيرة، وليت العاملين والعاملات لإنهاض الشرق القريب يتدبرون بعض ما فيه. وطبقات البشر تكاد تكون واحدة إذا تساوى أهلها في شروط العيش والبيئة والثقافة. وإن ما يحاوله المقدمون علينا في سلم الحضارة والنشوء الإنساني حري بالمتأخرين عنهم في معظم مقومات الحياة أن يحتذوا مثاله، ويتأدبوا بأدبه، ويأخذوا من مضامينه عبرة وعظة. والمدنية مذ كانت ينقل فيها المتأخر أهخرأخر بتيسبيستبمنيستب بيسنبمتيسمنبتيسبمنيستبنسيتأخر عن المتقدم، ولا ضير في ذلك ولا غضاضة.
قلت يوماً لأحد علماء الترك المنورين: أما بلغك أن دمشق ستنار بعد قليل بالكهرباء، وتسير فيها الحوافل الكهربائية؟ فضحك وأجاب: إن حالكم بهذه الزينة الجديدة تقام بأيدي الغرباء، أشبه بإمبراطور كوريا لبس على رأسه تاجاً من ذهب، ولا سراويلات له تستر عورته. وكان الأولى يا صاح أن تكون للبلدة طرق معبدة، وترزق حظاً من التنظيم قبل الكهرباء. وأنا أقرر الآن أنه كان الأولى قبل أن تمنح المرأة الشرقية حق التشريع في مجالس النواب أن تتعلم وتتربى، حتى إذا استوفت حظها على النحو الذي وصلت إليه المرأة الغربية، ومتى تعلمت القروية كالبلدية كل ما يلزمها في صراع الحياة تتمتع بالحقوق السياسية كالمرأة الإنجليزية.
جملة معترضة ساقت إليها المناسبة. والآن نرجع إلى تحليل الكتاب الجديد فنقول:
عالج المؤلف هذا الموضوع أعواماً طويلة في الصحف والمجلات وفي إسناد له ورسائل، وكتابه هذا زبدة تجاربه وعصارة علمه وعمله. بدأه بفصل في تاريخ المرأة في القديم. فقال إن الرجل بينما كان في العصور الخوالي صياداً محارباً عرافاً يسير في العالم على هواه، ويطفر طفراته في سبيل المعرفة كانت المرأة قابعة في دارها، خاضعة خانعة لا يتسع نظرها لأكثر من أعمال بيتها، وتلقين بنيها التربية الأولى. وكان النساء في يونان القديمة لا معرفة لهن بغير غزل الصوف يتعمدن القناعة لا يسألن أزواجهن غير هذا. ولذلك قال أفلاطون: إن القرد قرد مهما كان، والمرأة مهما كان عملها تظل امرأة أي غبية مجنونة. يريد الهزؤ بها، وقد بقى هذا الهزؤ بالنساء قروناً في الأرض حتى كانت النصرانية، ورأى
رجال الكنيسة أن يحولوا دون زواج القائمين بأمر الدين فيها، فصوروا المرأة بصورة بشعة تزهيداً منهم فيها، حتى لتساءل أحدهم أن كان للنساء نفس.
وجاء القرن الثاني عشر، والنساء مأخوذات بعوامل كثيرة في نهضتهن، وليس لهن من الحرية ما يتسع لكثير من أسبابها، ولئن أخذ كثير من الأساودة أو الفرسان وخدام الملوك يرون من الشرف رعاية السيدات، ومعاملتهن بقواعد اللياقة والظرف، فان كثيرين من المحافظين في الغاليين (المغول) كانوا يبالغون في وصف النساء بما لا يليق، ويحرمونهن كل حرية. أما النساء فكن يصبرن على هذه المعاملة ويحاولن الخروج من حالتهن السيئة، وبقين بين عوامل الحرمة وعوامل الاحتقار مدداً متطاولة، ولا يعْدمنْ مع هذا أناساً من طبقات مختلفة يحمونهن وبفضلهم يتصدرن ويظهرن، وأما القاعدة العامة فالتشديد عليهن والمبالغة في الاحتفاظ بالتقاليد الموروثة. وقل فيهن من كن يستطعن أن يكتبن كتابة بسيطة، أو ينظمن ولو نظماً سخيفاً.
وأصبحت إيطاليا في القرن السادس عشر مصدر الآداب والفنون الأدبية؛ وسرى الفرنسيس على مثال الطليان، بأن جعلوا المرأة موضع إعجابهم، فأخذ بعض الكاتبين في فرنسا يضعون رسائل وكتباً في تاريخ المرأة، وكان أكثر ما وضع بإيعاز الملكات، فكان هذا القرن قرن رفعة المرأة، جسر فيه كستكليون في إيطاليا أن يقول. لولا النساء لتعذر كل شيء، ولولاهن لما كانت الشجاعة العسكرية ولا الفنون ولا الشعر ولا الموسيقى ولا الفلسفة بل ولا الدين، وما عرفنا المولى في الحقيقة إلا بهديهن.
وبدأ النساء يستعملن قرائحهن، فنشأ بينهن بعض القصصيات وواصفات الحكايات والشاعرات، وقل فيهن من كان لها قريحة يعتد لها. ولم يكن الماهرات منهن أكثر من

هواة ينتفن وينتشن من الآداب. وأنشأت مدينة ليون لقربها من إيطاليا، وكانت تدعى (فلورنسة فرنسا) تتذوق الآداب والفنون، وظهرت فيها المطبعة قبل أن تؤسس في باريز، وجعل فرنسوا الأول من مدينة ليون مضم جيوشه خلال حرب إيطاليا فنشأت فيها حركة فكرية ندر وقوع مثلها في مدن الولايات، فكانت منازلها مواطن الظرف واللطف والنساء يصطنعن فيها كل ما يعجب به الرجال. ومنهن من كانت تجيب على ما يوجه إليها من كلمات المديح بأبيات من الشعر، وتجرأ على نقد ذوق الباريزيات، فأصبحن بذلك ملكات

الذوق والأناقة والجمال، وفتح كثير من نبيلاتهن قاعاتهن لإنشاء قصائد كان ناظموها يجوزون لأنفسهم تمجيد جسم الحبيبة والتغزل بكل ما فيه، فلقي الأشراف من الأزواج عنتاً من هذا التمجيد، ولطالما احمرت الوجوه بما يقال، وكان يومئذ للحياء سلطان على النفوس.

ففي القرن السادس عشر إذا أحرز النساء مقاماً محموداً في المجتمع بفضل الشعراء والنبلاء، وبقى عليهن أن يطالبن بحقهن في التعليم وحقهن في النبوغ. واشتد الجدال فيما إذا كان للمرأة الحق في التعليم لتكون عالمة. ومن النبلاء من قضى للأميرات والنبيلات بتلقف مبادئ العلم ليستطعن إدارة أرضهن ويحكمن رجالهن، ويدرن شؤونهن، واقتصر الأمر على هذه الطبقة فقط. وبذلك أرجعوا البنات الطامحات من سائر الطبقات إلى عمل المغازل، ونشأ من ذلك حوار طويل دعوه خصام الألف باء، والنساء مع هذا لم يداخلهن اليأس. ولم يقعدهن عن المضي في سبيلهن عائق. وما طلع القرن التاسع عشر حتى دخل النساء في طور العمل بالمطالبة بحقوقهن في التربية، ولم يكن لنساء الشعب معرفة بشيء: أما العقائل فكن يجلبن لبناتهن معلمين أو يبعثن بهن إلى الأديار، وكانت بعض الراهبات تعلم الناس منذ القرن السادس عشر مسائل بسيطة لا يستطيع بها المتعلمات تصحيح الاملاء، ولا حذق شيء من صرف اللغة ونحوها. وقام في ذهن بعضهم إن الواجب إدخال تعديل على هذه الحالة. وقال العالم ماليرانش، بعد أن درس دماغ الرجل ودماغ المرأة: إن الواجب تعليم النساء تعليماً صحيحاً. وارتأت مدام دي سيفينيه، فيما كتبت به إلى ابنتها من الرسائل أن تلقن أولادها قليلاً من العلم تلقيناً حسناً، وأن يلقن الفتيات الأدب خاصة.

وقل أن جسرت امرأة في القرن الذي نشأت فيه مدام دي سيفنيه ومدام دي لافاييت أن توقع كتابتها أو تأليفها، مخافة أن تستهدف للسخرية. وما كان حول لويز الرابع عشر الملك العظيم سوى كاتبات يصرفن أوقات فراغهن في الكتابة، وما اقتدرت واحدة أن تكتب رواية تمثيلية؛ وكان تأليف هذه الروايات وقفاً على الرجال. وعانى النساء فن الرسائل والشعر في قلة. ودعي هذا القرن قرن المجتمعات والمحادثات.

ومن هذا القرن خلف الكاتبات رسائل تجلت فيها مواهبهن في الكتابة. ذلك لأن الرسائل غير محدودة الحدود ولا تربكها القواعد، ولا تستلزم أكثر من ذهن وقاد، وتفكر ذاتي، وإرادة في الإعجاب، وحاجة يأمن معها المراسل صاحبه، وهي صفات تفرد بها النساء. وما برز في هذا الباب أكثر من مدام

دي سيفنيه، ولا كتب لامرأة أن دانتها في هذا الباب. كانت تعشق المجد؛ ولا نعلم لو رأت من زوجها عطفاً - وكان زير نساء فسيقاً - هل كانت تبرز هذا التبريز؟ ومع هذا كانت تهوى من ترى ذات اليمين وذات الشمال، على مثال أعظم كبريات السيدات في عصرها. وهكذا يقال فيمن أحرز شهرة مثلها، وإن كن أقل منها مكانة. كانت دي سيفنيه أما عاشقة مولهة، وكاتبة متفردة بهذرها، وهذرها عبارة عن شعور قوي فيها تحاول بثه ولا تحتاج في ذلك إلى تأمل كثير. ورسائلها ملأى بالجذل والسرور والتنويع والبديهة، وهي مرآة عصر القرن العظيم. والنساء في هذا الجنس من الكتابة يبرزن ويتفوقن.

أما مدام لافاييت فالناس على أنه كان لها مؤازرون من الرجال يصقلون ما تنسخ قريحتها، أو يضعون لها الخطط التي تسير عليها. وأصبح من المألوف أن يكتب الرجال ما ينشر من الآثار باسم النساء؛ وكان موليير وبوالو يهزأن بالنساء الكاتبات المؤلفات، ولطالما سلقاهن بألسنة حداد. وكان جمهور النساء في ذاك العصر على غاية الجهل، ما خلا بعض العلية والطبقات المختارة؛ ويختلف عدد الأميات بين سبعين وأربعة وتسعين في المائة بحسب الأقاليم، ومنهن من لا يحسن توقيع أسمائهن؛ وأخذ بعضهن

يحضرون بعض دروس الرجال ويتعلمن شيئاً من الرياضيات، وظل أناس من أرباب المكانة ينعون على النساء ذكاءهن ويمنعونهن من كل ثقافة. ورأى جمهور من الكاتبين أنه لا يليق الهزؤ بالنساء إلى هذا الحد، وأنشئوا يعتبرونهن ويودون من الناس إجلالهن، يقدمون النساء على الرجال في الموائد والحفلات؛ وإذا أحرز النساء هذا المقام الاجتماعي في القرن الثامن عشر: فذلك بفضل ظهورهن في الأندية الخاصة؛ وكان البلاط الملكي في مقدمة هذا المجالس، وكانت كل امرأة تحررت في الولايات أو العاصمة من بعض القيود تقيم لها ردهة استقبال، يكون فيها دار ندوة للسياسة ومثابة للأدب. وكثرت هذه الأندية حتى حار الكتاب في أيها يختارون. ومنها قاعات بعض نساء أعضاء المجامع العلمية. وعلى هذا أصبح النساء يقدن بأيديهن المملكتين ويحكمن المجتمع، يملين عليه قواعد الحشمة، ويأخذن بزمام الآداب، ويحكن الأحابيل لا ليجعلن من يحمونهن من الرجال في جملة أعضاء المجمع العلمي، حيث كانت لهن الكلمة المسموعة، بل ليسمح لهن بنشر آراء شديدة اللهجة. ولم يكتفين بهذا، بل كن يطمحن إلى المجد الأدبي فينشرن في الصحف والمجلات، ويقرأن ما يكتبن على من يختلف إلى مجالسهن. وغدا الولوع بالآداب من إمارات الظرف في النساء. وكثر عديد النساء اللائى تعلقن من الأدب بسبب، وبلغ عددهن ثلاثمائة مؤلفة في الولايات والعاصمة، وما فيهن واحدة تسهل المقابلة بينها وبين العقيلتين: سفينيه ولافاييت. وصح بهذا أن يقال إن القرن الثامن عشر أمسى في تاريخ فرنسا قرن نهضة المرأة. وما سبق لهن في العصور الخالية أن يتملق لهن الناس ويستمع لكلامهن ويتمتعن بحرياتهن.

كل هذا وجوزيف دي مستر يقول في كتاب له إلى إحدى بناته: إن فولتير ادعى أن النساء قادرات على أن يعملن كل ما يعمله الرجال، وما هذا إلا للتقرب من قلوب بعض الغواني الجميلات، ولم يأت النساء بأثر يذكر في ضروب الآداب، فالنساء لم يؤلفن (الإلياذة) ولا (الانياد) ولا (القدس المنقذة) ولا (فيدر) ولا (أتالي) ولا (وودكون) ولا (الميزانتروب) ولا (تارتوف) ولا (زهرة دي ميديسيس) ولا (أبولون دي بلفيدر) ولا (البرسة) ولا (كتاب الأصول) ولا (خطاب التاريخ العام) ولا (تليماك)، ولم يخترعن الجبر ولا المجاهر ولا المناظر، ولا مضخة النار ولا صناعة الجوارب الخ، وما قامت امرأة عالمة جديرة أن تعد بين العلماء. فالمرأة ليست في حال تستطيع أن تفوق فيها الرجال إلا بأنوثتها، وليست سوى قردة إذا أرادت مساواة الرجل.

محمد كرد علي

(البقية في العدد القادم)

للتاريخ السياسي

عشرة أيام بئيسة

مشروع لافال - هور والرأي العالم

دواعي هذه الخطة الوخيمة العواقب

للدكتور يوسف هيكل

شهد العالم خلال الثلث الثاني من شهر ديسمبر الماضي اضطراباً شديداً في السياسة الدولية، وقلقاً عظيماً في الدوائر السياسية، نجما عن الانقلاب الفجائي في سياسة بريطانيا الخارجية بموافقة وزير خارجيتها السير صمويل هور على سياسة مسيو لافال، رئيس الوزارة الفرنسية ووزير الخارجية، وتوقيعه المشروع الذي وضعه لافال لحل المشكلة الحبشية عن طريق سلمية. ويُعرف هذا المشروع بمشروع الصلح، أو خطة السلام، أو اقتراح لافال - هور، أو اتفاق باريس.

فحوى مشروع الصلح

في يوم الثلاثاء الموافق 10 ديسمبر أبرق السير هور بمشروع الصلح إلى سفيري بريطانيا في روما وفي أديس أبابا طالبا منهما أن يذهبا مع زميليهما الفرنسيين ليطلعا السنيور موسوليني والإمبراطور على ما تم الاتفاق عليه بين حكومة جلالته والحكومة الفرنسية. وفحوى البرقية أن الحكومتين اتفقتا على أن يطلبا من الإمبراطور قبول التغيرات التالية في الحدود الإيطالية الحبشية.

1 - التيكري - إعطاء إيطاليا التيكري الشرقية، وحدودها جنوباً نهر (خيطا)، وغربا خط يمتد من الشمال إلى الجنوب ماراً بين اكسوم (في الجانب الحبشي)، وعدوه (في

(الجانب الإيطالي.
2 - إعطاء إيطاليا مقاطعة (أجادن) وجعل الحدود خطا مبتدئا من نقطة (ثلا) في
الحدود الحبشية والإيطالية والصومال البريطانية، وممتدا شمالاً شرقياً قاطعاً
(كوراهي) في الشرق، و (وارانادب) في الغرب، وملاقياً حدود الصومال البريطانية
حيث يقطعها خط
الطول 45.
3 - إعطاء إيطاليا امتيازاً اقتصادياً خاصاً في جنوب الحبشة يضع موارد هذه الإقليم في
قبضة إيطاليا ويسمح للإيطاليين بالإقامة فيه. وتكون الأراضي غير المملوكة ملكاً
للشركات الإيطالية، على أن تبقى السيادة في هذا الإقليم للإمبراطور.
وحدود هذا الإقليم هي: الحدود الجديدة بين الحبشة والصومال الإيطالي شرقاً، وخط
العرض 8 شمالا، وخط الطول 35 غرباً، والحدود بين الحبشة وكينا جنوباً.
4 - إعطاء الحبشة مرفأ (أساب) وممراً إليه على طول حدود الصومال الفرنسي.
وفي ذلك التاريخ أرسل وزير خارجية بريطانيا برقية إلى السفير الإنكليزي في أديس
أبابا طالباً منه فيه أن يبذل كل نفوذ في إقناع الإمبراطور على قبول (المشروع) وألا
يرفضه دون أن يتأمله جليا (!).

تطور الحوادث السياسية على المسارح الثلاثة

ذلك فحوى مشروع هور - لافال. وحين وقف الرأي العام الدولي عليه انثالت
الاحتجاجات عليه إلى عصبة الأمم من جهات الدنيا الأربع، وأخذت الحوادث تتطور،
واشتدت الأزمات السياسية، وعلى الأخص في باريس وجنيف ولندن.

على مسرح باريس

غادر السير هور لندن إلى باريس يوم السبت الموافق 7 ديسمبر. وفي منتصف
الساعة الثامنة عشرة وصل (كي دورسي) ومعه المستر (كلرك) لمقابلة مسيو لافال.
وفي الساعة التاسعة عشر والدقيقة 45 خرج من عنده. وعندها أنبأ لافال الصحافة أن
الحكومتين على اتفاق، تعملان معاً للوصول إلى خطة تحل بموجبها المشكلة الحبشية
عن طريق سلمية.
وقد تقابل الوزيران في اليوم التالي، ووصلا بعد المناقشة إلى اتفاق وقعاه عن
حكومتيهما. وفي صباح الاثنين الموافق 9 ديسمبر تلقى مستر بلدوين رئيس الوزارة
الإنكليزية كتاباً من السير هور، طالباً فيه موافقة الحكومة على اتفاق باريس، وقد رأى
بلدوين أن من الواجب عليه تأييد زميله الغائب، فوافقت الحكومة على مشروع هور -
لافال. وبهذه الموافقة تحملت حكومة بلدوين المسؤولية، وابتدأت إذ ذاك عشرة الأيام
البئيسة. . .
في الأيام التالية نشرت الصحف الباريسية مضمون الاتفاق بصورة غير رسمية،
فانقسم الرأي العام الفرنسي إلى فريقين: فريق يعضد الحكومة ويدافع عن
(المشروع) واجداً فيه خير حل للمعضلة الحبشية، وكثرة هذا الفريق من أحزاب اليمين
والوسط؛ وفريق آخر ينقم على اقتراح لافال - هور، ويرى فيه الضربة القاضية لعصبة
الأمم؛ وللبقية الباقية من الثقة في سياسة (السلام المشترك). والناقمون هم أحزاب
اليسار من اشتراكيين وكومنيست. وأخذ كل فريق يدعم رأيه ببراهينه وحججه،
ويدحض أقوال الآخرين على صفحات جرائده؛ ومما لا شك فيه أن حجج المدافعين عن
سياسة لافال الخارجية كانت واهنة لا تقوم على أساس قانوني. أما نظريات الناقمين
على (اتفاق باريس) فكانت مبنية على دعائم قانونية وسياسية متينة؛ وبخاصة ما كتبه
الزعيم الاشتراكي مسيو بلوم في جريدته (البيولير)
أما موقف الحزب الراديكالي الاشتراكي فكان حرجاً لاسيما موقف زعيمه (هريو)
والحزب الراديكالي أقوى حزب في مجلس النواب وهو مشترك في حكومة لافال،
ورئيسه (هريو) وزير دون وزارة، وقد فقد هذا الحزب شهرته في البلاد بعد فضيحة
ستافسكي وتخليه عن مسيو دومرج. والحزب يعلم أنه لا يستطيع في ظروف مجلس
النواب الحالية أن يؤلف وزارة ذات أكثرية. ورئيسه هريو لا يود أن يكون على رأس
وزارة والانتخابات العامة على الأبواب. . . لهذه الأسباب يتحاشى مسيو هريو حدوث
أزمة وزارية في البلاد. ويجد نفسه مضطرا إلى معاضدة مسيو لافال، على رغم
مخالفته لسياسته الخارجية. وقد أفضى إلى حزبه بذلك قبل اجتماع مجلس النواب

لمناقشة سياسة لافال الخارجية.
فانقسم الحزب أي فريقين؛ فريق معه، وفريق يرى من الضروري تغيير سياسة لافال وإسقاطه بعدم الموافقة على مشروعه لحل المشكلة الحبشية. وكان من بين هؤلاء مسيو (كت)
وفي صباح الثلاثاء الموافق 17 ديسمبر كان اجتماع مجلس النواب. وكان اجتماعاً صاخباً مضطرباً شديد الجدل. وكان أهم المتكلمين في تلك الجلسة ثلاثة: لافال وكت وبلوم.
نهض لافال وألقى خطابه في جأش رابط متزن؛ ودافع عن سياسته الخارجية ولاسيما (مشروع الصلح). وأقوى حججه أن سياسة العقوبات ليست الطريق الوحيدة لحل المشكلة
الحبشية، وأن حصر إيطاليا اقتصادياً وعلى الأخص منع البترول عنها مما يقود أوربا إلى حرب لا تعرف نتائجها، وأن روح مبادئ عصبة الأمم توجب حل كل خلاف عن طريق سلمي إن أمكن، وأن الخطة التي وضعها لإيقاف الحرب في الحبشة تتمشى مع مبادئ عصبة الأمم (!). . .
ومسيو كت يرى غير ما يراه مسيو لافال: يرى في اتفاق باريس هدم مبادئ العصبة، إذ هي تقدم إلى المعتدي مكافأة على تعديه ومخالفته واجباته الدولية. ومسيو لافال بعمله هذا يقدم سابقة إلى عصبة الأمم لتحل بموجبها التعدي الذي سيحصل على شرقي أوربا الوسطى. وبذلك يكون لافال قد ساعد الهر هتلر وجرأه على أن يحذو حذو موسوليني!. وقد هاجم مسيو كت لافال وقال إن عمله هذا ليس إلا تقسيماً للحبشة وجعلها فريسة للمعتدي، وهذا العمل مخجل لفرنسا. . .
وقد لاحظ لافال أن الجو مكفهر وأن النقاش إن دام ربما أدى إلى سحب الثقة منه؛ فطلب تأجيل النقاش على سياسته الخارجية إلى يوم الجمعة الموافق 27 منه. ولافال ماهر في أصول المرافعات البرلمانية؛ يعرف كيف يتخلص من المآزق الحرجة، فإنه بطلبه هذا قد حول المناقشة من مهاجمة سياسته إلى البحث فيما إذا كان من الصواب تأجيل المناقشة كما يطلب أو المضي فيها؛ وكان على رأس القائلين بوجوب المضي في المناقشة مسيو بلوم الزعيم الاشتراكي. وبرغم فصاحته وقوة حجته وافق المجلس على تأخير المناقشة بأكثرية 52 صوتاً. ومما تجدر ملاحظته أن الكثرة التي كانت في جانب الحكومة هبطت إلى ما يقرب من مائة نائب بانضمام كثير من الراديكاليين إلى فريق المعارضة.
ومجمل القول أن مسيو هريو الزعيم الراديكالي لم يشترك في المناقشة، ولم يبد حركة ما تدل على أنه يؤيد فريقا على آخر. . .
وفي اليوم التالي ذهب لافال إلى جنيف. . .
على مسرح جنيف
في يوم الأربعاء الموافق 18 ديسمبر كان اجتماع مجلس عصبة الأمم: فقام مستر أيدن ولم يدافع عن مشروع لافال - هور - بل قال إن الحكومتين وضعتا هذا المشروع وللمجلس أن يرفضه أو يقبله؛ والحكومة البريطانية ليست مرتبطة به. . .
ثم نهض مسيو لافال وقال إن عمله هو وزميله السير هور كان بموجب السلطة التي أعطيت للحكومتين لايجاد حل سلمي للمعضلة الحبشية. . . وللمجلس أن يقول الكلمة الأخيرة في الاقتراح. . .
وقبل فض الاجتماع العام قام سكرتير المجلس وألقى تصريح حكومة الحبشة وهو مؤلف من (5000) كلمة ومبني على نقط قانونية ترمي إلى أن اقتراح باريس مخالف كل المخالفة لمبدأ العصبة
وقد قابل الأعضاء المشروع بمعارضة شديدة. . . وجاء في المناقشة أن السلطة التي خولت إلى بريطانيا وفرنسا لإيجاد حل سلمي قد انتهت، وكل عمل من هذا القبيل يعود إلى مجلس العصبة أو إلى هيأتها العامة - وكان هذا رداً على ادعاء لافال - وفي اليوم التالي قرر المجلس بأسلوب - دبلوماسي دولي - رفض المشروع.
على مسرح لندن
أخذت الصحف الإنكليزية تنقل أخبار اتفاق باريس ومحتوياته عن الجرائد الفرنسية، وأخذت الجرائد التي كانت تناصر الحكومة وعلى رأسها التيمس تعارضها وتظهر

سخطها على المشروع، وأخذت جرائد المعارضة تهاجم الحكومة مهاجمة عنيفة
. . .وتصفها بأوصاف قاسية منها الجبن وخيانة الشعب وعصبة الأمم والحبشة
وفي اجتماع مجلس النواب الذي عقد في العاشر من ديسمبر دافع مستر بلدوين عن
خطة باريس وقال: لو كانت أستطيع أن أميط اللثام عن المشاكل التي تعترضنا، لما
. . .كان هناك رجل من أي هيئة ومن أي حزب يعارضنا
ومع ذلك اخذ يزداد عدد الثائرين من حزب الحكومة، مظهرين سخطهم على سياسة
الحكومة الجديدة؛ وأخذ آخرون يبدون قلقهم من موقف الحكومة الشاذ. فحدث من
جراء ذك انشقاق عظيم في حزب الحكومة. وانقسم أعضاء الوزارة إلى قسمين:
قسم مع بلدوين وقسم غير راض عن (اتفاق باريس) ومن بينهن مستر إيدن الوزير
.لدى عصبة الأمم إذ ذاك، وقد صرح بذلك في جنيف في الثالث عشر من ديسمبر
ومن الرجالات البارزين الذين عارضوا المشروع في حزب الحكومة السير أوستن
شمبريلن: فقد اجتمعت لجنة الشؤون الخارجية التي يرأسها هو في 17 منه لدرس
(اتفاق
باريس) وإبداء رأيها فيه. وصرح السير أوستن أنه غير راض عن (الاتفاق) ولا يقبله
مهما كان تشبث الحكومة به. . . فتبعه أعضاء اللجنة. . . وكان ذلك صدمة عنيفة
.لمستر بلدوين
أما الصحافة فقد أخذ يشتد نقدها للحكومة، طالبة منها بلهجة عنيفة التخلي عن
:(المشروع) والعودة إلى السياسة السابقة، سياسة جنيف والسلام المشترك
أمام ثورة الرأي العام العالمي على اقتراح هور - لافال، وأمام رفض الإمبراطور
(المشروع) وتردد موسوليني في قبوله؛ وأمام هجمات الحزب المعارض العنيفة وأمام
انقسام حزبه عليه؛ أمام امتعاض الرأي الإنكليزي من تخليه عن العصبة وسياسة
السلام المشترك، وأمام ثبات العصبة ورفضها (الاقتراح)؛ أمام كل هذه الصعوبات رأى
مستر بلدوين أنه لا يستطيع أن يسير خطوة إلى الأمام بسياسته الجديدة؛ فقرر أن
يكون على رأس القائلين بعدم قبول الاقتراح!. فدعا السير صمويل هور من سويسرا.
.وجمع أعضاء وزارته في 18 ديسمبر وقرر التخلي عن هور ورفض اتفاق (باريس)
وفي هذا التاريخ قدم السير هور استقالته فقبلها مستر بلدوين
وفي يوم الجمعة الموافق 19 ديسمبر كان موعد اجتماع مجلس اللوردات ومجلس
النواب لمناقشة اقتراح هور - لافال، وكان الجميع متفقين على التخلي عن (اتفاق
.باريس)
كان اجتماع مجلس النواب غير عادي: فقد حضره البرنس أوف ويلز وحضره السفراء.
. . وبعد إلقاء الأسئلة والإجابة عليها قام السير صمويل هور مبيناً الأسباب التي قادته
:إلى توقيع الاقتراح. ومما قاله إنه كان أمام عينيه هدفان
.(اتقاء حرب أوروبية والحيلولة دون نشوب حرب منفردة بين إيطاليا وبريطانيا)
إن منع البترول عن إيطاليا ربما يؤدي إلى هزيمة إيطاليا وخسرانها الحرب الحبشية،)
وعندما تجد نفسها في هذا الوضع الذليل تقوم بمهاجمتنا، وعندئذ تنشب الحرب بينها
وبيننا دون أن ينهض لمساعدتنا أحد، إذ لم تقدم دولة ما إلى الآن باخرة واحدة ولا
جندي واحد في سبيل الأمن المشترك؛ والرأي الفرنسي ضد الحرب ولا يريد أن يتورط
في مشاكل جديدة. . . (لهذا اضطررت وأنا في باريس إلى أخذ قرار عاجل لأن مسألة
.البترول لا يمكن تأجيلها إلى تاريخ آخر
. . .ثم أخذ يدافع عن مواد الاتفاق بحجج واهية
أما مستر أتلي رئيس حزب العمال فقد طلب رفض (اتفاق باريس)، وأثبت أن
:مسؤولية الحكومة لا تزول باستقالة السير هور. ثم أخذ يسائل الحكومة
ما فائدة الابتداء في العقوبات إذا كان أمرها سيهمل عند مجابهة أي خطر؟!. لماذا
صرح في شهر أكتوبر بأن العمل المشترك مفيد وفي شهر ديسمبر أنه غير مفيد؟! إذا
كان يوجد الآن خطر عظيم فخير من الوقوف بجانب المتعدي أن يقال بأن العصبة قد
. . .فشلت
ثم ألقى مستر بلدوين كلمة طويلة شديدة، صرح فيها بأن اتفاق باريس قد قضى عليه
تماماً، وطلب من حزب الحكومة معاضدته، وأعلن بأن الحكومة عائدة إلى العمل
. . .المشترك ضمن مبادئ جنيف

وقال اللورد هارتنكتن إن (عشرة الأيام البئيسة) قد انتهت.
وقد ختم النقاش في كلا المجلسين بقبول وجهة النظر القائلة بأن الحكومة قد ارتكبت غلطة فادحة في توقيعها (مشروع الصلح). وأنها بعملها هذا تقضي على النية الخالصة والأمل القوي في نظام السلام المشترك.
وقد جاء خطاب السير نفيل شمبرلين الذي ألقاه في برمنجهام مساء 20 ديسمبر مؤيداً لتصريح الحكومة، ومما قاله:
هذه الاقتراحات قد ماتت إلى غير بعث؛ وإنني أعتقد الآن بأن كل سعي للوصل . . .) إلى حل سلمي فاشل).
(. . .فيجب أن نعود إلى سياسة العقوبات)
وإن تعيين مستر إيدن وزيراً للخارجية لدليل ساطع على أن الحكومة عائدة إلى السياسة التي تحدث عنها السير شمبرلين على أن الحكومة البريطانية لا تود العمل منفردة، ولذلك أخذت تفاوض أعضاء عصبة الأمم الذين على البحر الأبيض المتوسط، ولقد أجاب حتى الآن كل من تركيا واليونان ويوجوسلافيا بأنهم على استعداد لمساعدة بريطانيا وللعمل على مبدأ عصبة الأمم. . .
(البقية في العدد القادم)
يوسف هيكل
دكتور في الحقوق من (حكومة فرنسا)
في ميدان الاجتهاد
للأستاذ عبد المتعال الصعيدي
أستاذ الأدب العربي بكلية اللغة العربية بالأزهر
كيف منع الاجتهاد
ينشد المسلمون الإصلاح في هذا العصر، وتنشده جامعتهم الأزهرية الكبرى في مصر، ويعالجون في سبيل ذلك طرقاً ملتوية يمشون فيها إلى أن تنتهي بهم إلى أسوأ مما كانوا فيه، فتعلو كلمة الجامدين بالرجوع إلى قديمهم الممقوت، ويوافقهم على ذلك بعض من يتظاهر بحب الإصلاح إذا أقبل عهده، ويخفى في قلبه كرهه وبغضه. ولو أنعم هؤلاء الناس النظر لرأوا الذنب في لذلك يرجع إلى تلك الطرق الملتوية، لا إلى الإصلاح المنشود الذي دعا إليه جمال الدين الأفغاني والأستاذ الإمام الشيخ محمد عبدة، وغيرهما من كبار المصلحين في هذا العصر.
وهذا الإصلاح المنشود يتلخص في كلمتين: فتح باب الاجتهاد في علومنا عامة والعلوم الدينية منها خاصة، وتأليف كتب جديدة في هذه العلوم تسري فيها روح الاجتهاد بدل تلك الكتب الميتة الجامدة؛ أما ما عدا ذلك من أمور الإصلاح فمن الأمور الكمالية ألقى ضرنا الاهتمام بها أكثر من هذه الأمور الأساسية.
ولست بسبيل الكلام في هذا الإصلاح فقد قطعت شوطاً من حياتي في الجهاد فيه، حتى آل الأمر بنا إلى تلك الطرق الملتوية، ووجدت في ذلك غرائب وعجائب صرفتني عن العناية بذلك الأمر إلى أمور أخرى في العلم والأدب؛ وقد حاورت فيها أناسا آخرين وحاوروني، فوجدت علماء الأدب أكرم الناس أخلاقا، وأسلمهم طوايا، وأطهرهم أقلاما، ووجدت الخير فيهم مرجوا، والشر منهم مأمونا؛ ولست أدري وقد تركتهم إلى هذا الموضوع الديني الخطير أأجد أقلاما مثل أقلامهم، ونفوسا سمحة مثل نفوسهم، أم أجد النفوس لا تزال على عهدي بها، وإن تظاهرت بحب الإصلاح والانتصار له؟ وقد أكون مخطئا في ظني، وأرجو من الله أن أكون مخطئا فيه، وأن نكون قد بدلنا نفوساً أخرى تبحث مثل هذه الأمور المهمة في هدوء، وتعرف الصواب للمصيب فلا تحسده عليه أو تتعامى عنه، وتحسن الظن
بمن يطلب الصواب فيخطئه طريقه، فتأخذه بالتي هي أحسن، حتى يعرف خطأه واضحا فيرجع عنه، ويشكر للذي دله عليه.
وهكذا كان حال سلفنا الصالح رضوان الله عليهم. كان باب الاجتهاد بينهم مفتوحاً على مصراعيه لا يحمل أحد منهم بسببه ضغينة على أخيه، ولا يحاول قهره على موافقته في رأي خالفه فيه، إلى أن نبتت فتنة الخوارج المعروفة، ولعبت السياسة بعقول الناس فيها، فكانوا أول من سن في الإسلام أخذ المخالف في الرأي بوسائل القهر؛ ثم تتابعت الحوادث وأتى عصر بني العباس فرأوا من الأئمة المجتهدين في عصرهم

انكماشاً عن سلطانهم فأخذوا ذلك عليهم، وجعلوا يصطنعون الوسائل لإيذائهم، فآذوا في ذلك أبا حنيفة ومالكاً والشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة الجماعة، وصاروا ينصرون عليهم خصومهم من المعتزلة، واستباحوا في ذلك ما استباحوا من الحجر على حرية الرأي، وتعذيب المخالف لهم فيه بالسجن والضرب والقتل، وبلغ ذلك شدته في مسألة خلق القرآن المعروفة.

وكان التعليم من أول الإسلام يتخذ المساجد دوراً له، فتتولاه الرعية بعيدة عن الحكومة، كما تتولاه الأمم الآن في الشعوب الراقية في أوربا وأمريكا. وينشأ التعليم في كنفها حراً لا يتأثر بهوى حاكم، وينشأ رجاله أحراراً لا تلين قناتهم لظالم وقد أخذ حكام المسلمين في آخر الدولة العباسية يدخلون في أمور التعليم ليكون لهم نفوذ عليه، وسلطان على رجاله، فأنشئوا له المدارس الخاصة به، وحبسوا عليها من الأوقاف الكثيرة ما رغب العلماء والمتعلمين فيها، وجعلهم يتنافسون على أبواب الملوك والحكام من أجلها، فضاعت كرامة العلم والعلماء، وخضع أهله لمن بيدهم أمر تلك المدارس والأوقاف.

ومن أقدم ما بني في الإسلام من المدارس المدرسة البيهقية المنسوبة إلى البيهقي المتوفى سنة 450هـ، والمدرسة السعيدية بنيسابور بناها الأمير نصر بن سبكتكين أخو السلطان محمود حين كان والياً بها، والمدرسة النظامية التي بناها الوزير نظام الملك وزير السلطان ألب أرسلان وابنه ملكشاه ببغداد سنة 459هـ واحتفل بافتتاحها يوم السبت عاشر ذي القعدة من هذه السنة، وجمع الناس على طبقاتهم ليحضروا دروس الشيخ أبي إسحاق الشيرازي، فجاء الشيخ ليحضر فلقيه صبي في الطريق، فقال يا شيخ كيف تدرس في مكان
مغصوب؟ فرجع الشيخ واختفى. فلما يئسوا منه ذكر الدرس بها أبو نصر الصباغ.

ولما ملك السلطان صلاح الدين بن أيوب مصر لم يكن بها شيء من المدارس، فبنى بها المدرسة الناصرية لتعليم المذهب الشافعي سنة 566هـ ثم بنى المدرسة الصلاحية بالقرافة الصغرى سنة 572هـ مجاورة للإمام الشافعي رضي الله عنه، وجعل لناظرها أربعين ديناراً في كل شهر؛ ورتب له في كل يوم ستين رطلاً من الخبز، وراويتين من ماء النيل؛ ثم بنى أخرى مجاورة للمشهد الحسيني، وجعل دار عباس الوزير العبيدي مدرسة للحنفية.

وكان من دواعي إنشاء هذه المدارس تأييد المذاهب التي كان السلاطين يشتدون في نصرتها، كما فعل صلاح الدين حين استولى على مصر، فقد حارب فيها مذهب الشيعة الفاطميين الذين حكموا مصر قبله، وكانت دروس هذا المذهب تلقى في الأزهر وغيره من مساجدهم، فأبطل هذه الدروس، وأحيا مذهبي الشافعي ومالك وبنى لهما كثيراً من المدارس.

وفي هذه المدارس أقفل باب الاجتهاد؛ وقبرت المذاهب الفقهية عدا هذه المذاهب الأربعة الباقية؛ وقد كانت هناك مذاهب كثيرة لأهل السنة والجماعة بقى بعضها إلى القرنين السابع والثامن الهجريين؛ ومن هذه المذاهب مذهب البصري والثوري ولم يطل العمل بهما لقلة اتباعهما؛ ومنها مذهب الأوزاعي، وقد بطل العمل به بعد القرن الثاني للهجرة؛ ومنها مذهب أبي ثور، وقد بطل العمل به بعد القرن الثالث؛ ومنها مذهب ابن جرير الطبري، وقد بطل العمل به بعد القرن الرابع؛ ومنها مذهب الظاهري، وقد طالت مدته وزاحم المذاهب الأربعة حتى جعله المقدسي في أحسن التقاسيم رابع المذاهب في زمنه (القرن الرابع) بدل الحنبلي، وذكر الحنبلية في أصحاب الحديث، وعده ابن فرحون في الديباج الخامس من المذاهب المعمول بها في زمنه (القرن الثامن)؛ ثم درس بعد ذلك ولم يبق لأهل السنة والجماعة إلا المذاهب الأربعة. وذكر ابن خلدون أن الظاهري درس بدروس أئمته، وإنكار الجمهور على منتحله، ولم يبق إلا في الكتب، وربما يعكف متكلفو انتحاله عليها لأخذ فقههم منها؛ فلا يحلون بطائل، ويصيرون إلى إنكار الجمهور عليهم.

وهكذا أخذت المذاهب الأربعة تتغلب مع الزمن على غيرها من هذه المذاهب حتى تم لها التغلب عليها في القرن السابع الهجري. وأخذ فقهاء هذه المدارس تبعاً لهوى أصحابها من الأمراء يتعصبون لها، ويفتون بوجوب اتباعها. قال المقريزي في خططه: (فلما كانت

سلطنة الملك الظاهر بيبرس البندقداري ولي بمصر والقاهرة أربعة قضاة، وهم شافعي وحنفي ومالكي وحنبلي، فاستمر ذلك من سنة 665هـ حتى لم يبق في مجموع أمصار الإسلام مذهب يعرف من مذاهب أهل الإسلام سوى هذه المذاهب الأربعة، وعقيدة الأشعري، وعملت لأهلها المدارس والخوانك والزوايا والربط في سائر ممالك الإسلام، وعودي من تمذهب بغيرها وأنكر عليه؛ ولم يول قاض، ولا قبلت شهادة أحد، ولا قدم للخطابة والإمامة والتدريس أحد ما لم يكن مقلداً لأحد هذه المذاهب. وأفتى فقهاء هذه الأمصار بوجوب اتباع هذه المذاهب وتحريم ما عداها، والعمل على هذا إلى اليوم)

وإذا لم يكف هذا الإجمال في بيان ما أتت به يد السياسة من وسائل القهر والإغراء في إحياء بعض هذه المذاهب وإماتة بعضها، ومحاربة الاجتهاد إلى حد القضاء عليه في تلك المدارس، فأنّا نسوق مثلاً من ذلك في المدرسة المستنصرية التي أمر بانشائها، المستنصر بالله العباسي، وشرع في ذلك سنة 625هـ وقد تكامل بناؤها سنة 631هـ وأنفق عليها أموالاً كثيرة، واحتفل بافتتاحها في تلك السنة احتفالاً عظيماً حضره بنفسه، وحضره نائب الوزارة وسائر الولاة والحجاب والقضاة والمدرسون والفقهاء ومشايخ الربط والصوفية والوعاظ والقراء والشعراء وجماعة من أعيان التجار الغرباء، واختير لكل مذهب من المدارس وغيرها اثنان وستون نفساً، ورتب لها مدرسان ونائبا تدريس؛ وكان المدرسان محي الدين محمد بن يحي بن فضلان الشافعي، ورشيد الدين عمر بن محمد الفرغاني الحنفي؛ وكان نائباهما جمال الدين عبد الرحمن بن يوسف بن الجوزي الحنبلي، وأبا الحسن علياً المغربي؛ وجعل لها معيدون لكل مذهب أربعة، وقسمت إلى أرباع، فجعل ربع القبلة الأيمن للشافعية، وجعل ربع القبلة الأيسر للحنفية، وجعل الربع الذي على يمين الداخل للحنابلة، وجعل الربع الذي على يساره للمالكية. وقد شرط المستنصر في وقفه عليها أن يكون عدة فقهائها ثمانية وأربعين ومائتي فقيه، من كل طائفة اثنان وستون، بالمشاهرة الوافرة، والجراية الدارة، واللحم الراتب، إلى غير ذلك من وسائل الإغراء التي لم تتح لغير هذه المذاهب. وقد كان قبر الاجتهاد في هذه المدرسة، وحجر النظر فيها على العلماء بهذا الشكل.

في سنة 645هـ أحضر مدرسوها إلى دار الوزير، فتقدم إليهم ألا يذكروا شيئا من تصانيفهم، وألا يلزموا الفقهاء بحفظ شيء منها، بل يذكروا كلام المشايخ تأدباً معهم، وتبركاً بهم. فأجاب جمال الدين عبد الرحمن بن الجوزي مدرس الحنابلة بالسمع والطاعة. وقال سراج الدين عبد الله الشرمساحي مدرس المالكية: (ليس لأصحابنا تعليقة، فأما النقط من مسائل الاختلاف فمما أرتبه). وقال شهاب الدين الزنجاني مدرس الشافعية، وأقضى القضاة عبد الرحمن بن اللمغاني مدرس الحنفية: (إن المشايخ كانوا رجالاً ونحن رجال) فكانا أفضل القوم إجابة. ثم أوصل الوزير أمر ذلك إلى المعتصم بالله، وكان قد ولى أمر الدولة بعد أبيه المستنصر، فتقدم إليهم أن يلزموا بذكر كلام المشايخ واحترامهم فأجابوه بالسمع والطاعة. وذهب إباء مدرس الشافعية والحنفية في الهواء. ولو أنهما استمرا على إبائهما لكان جزاؤهما القتل أو نحوه.

ونستطيع بعد هذا أن نحكم بأن منع الاجتهاد لم يتم إلا في عصور الظلم، وبأن قصر الناس على هذه المذاهب الأربعة حصل بوسائل غير مقبولة من القهر والإغراء. وفي يقيننا أنه لو أتيح لغير هذه المذاهب ما أتيح لها من تلك الأوقاف والرواتب لكان حظها من البقاء مثل حظها، ولبقيت معروفة مقبولة ممن يجهلها اليوم أو ينكرها.

وقد حوّلت هذه الوسائل لإلزام الناس بهذه المذاهب قبل هذه العصور فلم يرض بهذا المسلمون حتى أصحاب هذه المذاهب. روى أبو نعيم في الحلية عن مالك بن أنس أنه قال: شاورني هارون الرشيد في أن يعلق الموطأ في الكعبة ويحمل الناس على ما فيه؛ فقلت لا تفعل، فان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلفوا في الفروع، وتفرقوا في البلدان، وكل مصيب. فقال وفقك الله تعالى يا أبا عبد الله.

وروى ابن سعد في الطبقات عن مالك بن أنس قال: لما حج المنصور قال لي قد عزمت على أن آمر بكتبك هذه التي وضعتها فتنسخ، ثم أبعث إلى كل مصر من أمصار المسلمين منها نسخة، وآمرهم أن يعملوا بما فيها ولا يتعدوا إلى غيره، فقلت يا أمير المؤمنين لا تفعل هذا، فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل، وسمعوا أحاديث، ورووا

روايات، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم ودانوا به، فدع الناس وما اختار أهل كل بلد منهم لأنفسهم.

فنحن إذن في حل من أمر هذه المذاهب التي فرضت علينا فرضاً، وفي حل من ذلك الحظر على الاجتهاد في أحكام ديننا، لأنه أتى بطريق القهر، ولم يتم برضا المسلمين وتشاورهم، وإنما أمر المسلمين كما حكم الله تعالى شورى بينهم.

عبد المتعال الصعيدي

معركة عدوى - 8

للأستاذ الفريق طه باشا الهاشمي

رئيس أركان حرب الجيش العراقي

تتمة

وأراد الجنرال (باراتيري) أن ينسحب إلى (أديكايه) ليقصر خط المواصلات إلا أنه لم يجسر على ذلك خوفاً من تأنيب رومة فقرر القيام باستطلاع تعرضي في اتجاه نهر مارب شأن كل قائد متردد. وكان يرمي بذلك إلى وقف حركات الأحباش في اتجاه غوندت وأسمره، وبعد أن تأهبت الفصائل للحركة سحب أمره. ولا شك في أن هذه الأوامر المتناقضة مما أزال اطمئنان الفصائل وجعلها تخشى العاقبة.

ومما زاد الموقف حروجة قلة الأرزاق. وكلف مدير الميرة والتموين الجنرال بتقليل مقدار الأرزاق اليومي للجنود لأن مواد التموين لا تكفي وأن القوافل أخذت تتأخر والكثير منها يقع في أيدي الثوار، فاضطرت القيادة إلى تقليل أرزاق الجندي اليومي، وكان الجندي الأهلي يأخذ قليلاً من الشعير، ويفضل الدراهم مقابل الأرزاق الباقية، إلا أن الأرزاق كانت مفقودة. وتناول الضباط الأرزاق كالجنود. وأخيرا أضاف القائد العام خطيئة إلى خطيآته السابقة فكانت نذير الخذلان. فانه عقد مجلساً حربياً واستشار القواد فيما يعمل، ومعنى ذلك أنه أراد أن يلقى تبعة الحركات عن عاتقه وكان هو المسؤول الوحيد عنها.

والظاهر أن القائد العام كان يخشى حساب رومة بعد أن تلقى تلك البرقيات المرة منها، وكان قرار أعضاء أكثرية المجلس القيام بالهجوم وعدم الانسحاب لأن البقاء في ادجرات بسبب مجاعة الجيش، ولأن الأرزاق كانت على وشك النفاد برغم تقليل مقاديرها اليومية، لأن القوافل أمست لا تصل بانتظام. أما الانسحاب إلى الوراء فلم يكن من شك في أنه أحسن تدبير لتقصير خط المواصلات وتموين الجيش بصورة منتظمة، وبعد أن يتقوى بالنجدات المرسلة من إيطاليا وتكمل التدابير الإدارية وتنتظم سوق التموين والذخيرة يتقدم للهجوم بخطوات ثابتة متينة، بيد أن القائد العام والقواد الآخرين لم يكن لديهم من حب التبعة (المسؤولية) ما يجعلهم يتخذون هذه الخطة.

وفي الوقت الذي قرر المجلس الحربي فيه القيام بالهجوم وردت البرقية التالية من رومة إلى القائد العام:

ومعنى ذلك أن الحكومة (رتب الجيش بحيث يقوم الهجوم ويقاوم هجوم العدو) الطليانية لم توافق على الانسحاب وأنها تريد المقاتلة مهما كانت النتيجة.

نشوب المعركة

يظهر لنا مما تقدم أن أحد الفريقين المتحاربين شعب متوحش ملتف حول ملكه ومتعطش للقتال، ويعرف بلاده، ومستعد للاستفادة من جميع ظاهراتها للضربة القاضية على عدوه، وعلى رأسه ملك يعرف كيف يستفيد من رجاله، فاستطاع بدهائه وحنكته أن يحصل على العدد الكافي من السلاح، ويجمع الأحباش حوله ويقودهم إلى ميادين القتال.

أما الفريق الآخر فيجهل أحوال البلاد، وهو غير قادر على تحمل مناخها، وقد أساء قواده قيادته، فلم يضمنوا له ما يحتاج إليه من مواد التموين وأسباب الراحة التي تمكنه من القتال في هذه البلاد القاسية. وقد أدى التردد في التنفيذ إلى زوال اعتماد الجنود على ضباطهم والضباط على رؤسائهم.

والواضح من هذا أن المعركة سوف تنشب في ظروف غير متعادلة، وقد لا يفيد التدريب المتقن والأسلحة الحديثة في التغلب على كثرة الأحباش المتشوقين إلى القتال.

والغريب في أمر هذه الحركات أن القيادة العامة كانت لا تملك خريطة صالحة

تساعدها على وضع الخطط العاجلة. ومن الضروري معرفة حالة الأرض لتسيير القوات عليها. فالخطيئة التي ارتكبت في الحركات السوقية سوف يزداد شمولها بالخطأ في التعبئة، وهذا النقص مما سبب تسيير الأرتال في ميدان المعركة بحيث لا يستطيع بعضها مساعدة بعض، وذلك مما جعل القيادة الحبشية تغتنم الفرصة وتنقض برجالها على الأرتال وتقضي عليها على التعاقب.

عسكرت القوات الطليانية في 29 فبراير سنة 1896 في (صورية) وكانت القوات كما نعلم مؤلفة من أربعة ألوية بقيادة حاكم المستعمرة العام لجنرال (باراتيري)، وكان قواد الألوية الجنرال البرتونه والجنرال دابروميدا والجنرال أريموندي والجنرال اللانا.

وكانت الأوامر الصادرة من معسكر (صورية) ترمي إلى تحريك القوات في الساعة التاسعة

على ضوء القمر في اتجاه (عدوى).

وكان يؤدي إلى عدوى طريقان، وهما طريق شمالي وطريق جنوبي، وكلاهما يمتد في منطقة وعرة فيمر الطريق الشمالي بمضيق (رابي أريان)، والطريق الجنوبي بمضيق (شدان موت) قبل وصولهما إلى عدوى، وبين الطريقين جبل (راجو) الوعر الذي لا يمكن تسلقه لشدة انحداره وللصخور المكدسة فيه. وتبلغ المسافة بين المضيقين أكثر من خمسة عشر كيلو متراً. فالتقدم على هذين المضيقين يجعل الأرتال الطليانية معرضة لهجمات القوة الحبشية المتمركزة حيث تتحرك على الخطوط الداخلية، وبلغ الجنرال (باراتيري) أوامره مقتنعا بأن الأرتال بعد اجتياز المضايق يجتمع بعضها ببعض وتتقدم نحو العدو. إلا أن هذا الاقتناع لم يصح، وقد يأمل هذا القائد النصر إذا جمع الرتلين في شرقي جبل (راجو) واستفاد بعد ذلك من كثرة المدافع.

وبدلاً من تقسيم الألوية على الرتلين وتسيير لوائين في كل رتل لكي يكون لكل منها القوة الكافية لمقابلة العدو تقدمت الألوية على الترتيب التالي:

لواء البرتونه في الجنوب نحو مضيق (شدان موت)، ولواء (دابورميدا) في الشمال مضيق (رابي أريان) أما لواء (أريموندي) ففي القلب، وبقى لواء اللانا في الاحتياط إلى الوراء، ولما وصل لواء (أريموندي) إلى سفح الجبل رأى أن له. فوجه الجنرال (باراتيري) إلى الشمال وراء لواء (البرتونه) أما لواء (اللانا) فسار في المؤخرة وراء (البرتونه). وهكذا تكدست ثلاثة ألوية على طريق واحد بينما بقى لواء في الجنوب.

والحقيقة أن مضيق (رابي أريان) لم يكن فيه مجال لانفتاح لواء واحد، وكان اللواءان يتقدمان بصعوبة نحو المضيق، وذلك يجعل لواء (اللانا) يتأخر في الوراء بطبيعة الحال.

وكان القسم الأكبر من لواء (البرتونه) من الأهليين، وتقدم اللواء ليلاً على ضوء القمر، وكان الجنود يسيرون بنشاط، بينما كان الأحباش يترقبون اقترابهم بفارغ الصبر، وكانت طلائعهم تنسحب أمام هذا اللواء دون أن تحرك ساكناً.

وعلى ما يظهر كان النجاشي ينتظر مرور هذا اللواء من المضيق وابتعاده عن الرتل الشمالي لينقض عليه ملتفا حوله من كل جهة. واعتمد قائد اللواء على الخريطة غير الصحيحة فأراد أن يريح لواءه في رابية بعد اجتياز المضيق ظنا منه أن الرابية تسيطر على الأرض في شرقي المضيق. ولما وصل إلى الرابية باغت الأحباش لواءه من كل جانب وهاجموه بحرابهم وخناجرهم.

وفي الساعة السابعة صباحاً سمع الجنرال (باراتيري) صوت النار من الجنوب فكلف لواء (دابورميدا) بنجدة (البرتونه) عندما يجتاز المضيق، بيد أن الأحباش كانوا قد احتلوا الوديان والروابي في جنوبي مضيق (رابي أريان) فاضطر (دابورميدا) إلى مقاتلتهم، إلا أنه بعد مدة قصيرة رأى نفسه أمام قوة فائقة من الأحباش أحاطت بجانبه فألجأته إلى الوقوف للدفاع.

ولما علم (باراتيري) أن لواء (دابورميدا) أيضا اشترك في القتال وتأكد أنه لا يستطيع نجدة (البرتونة) أمر لواء (أريموندي) بألا يعقب لواء (دابورميدا) بل يتوجه رأساً إلى الجنوب لمساعدة (البرتونه).

ولما اجتاز هذا اللواء المضيق وتوجه إلى الجنوب وصل المنهزمون من لواء البرتونه إلى رأس الرتل فعلم منها أن الأحباش قضوا على اللواء بالإحاطة به من كل جانب وأن قائده قتل في المعركة، فتقدم اللواء في الاتجاه الجنوبي الغربي، وكان لواء (اللانا) يسير وراءه، إلا أن وعورة الأرض وكثرة الوديان والأخاديد فيها عرقلت المسير.

وكان الأحباش قد كمنوا لهذا اللواء مستفيدين من الوديان والأخاديد، فلما اقترب اللواء منهم باغتوه من كل جانب، ثم أعادوا الكرة على لواء (اللانا) فكانت مباغتة هائلة، وكان قتال وجها لوجه، فلم تستطع المدفعية مساعدة المشاة لاختلاط الحابل بالنابل. وكان بعض المدافع في المؤخرة فلم تستطع تلك المدافع أن تسلك الروابي لدخول الموضع. وكلما تقدمت قوات الاحتياطي لنجدة الخط الأول كان الأحباش يحيطون بها ويشتتون شملها. وعقب هذا القتال الشديد انسحاب، ولكن لا على الصور المعروفة بل كان أشبه بالهزيمة. فترك المشاة المدافع وولوا هاربين في طلب النجاة، فتكدسوا على الطرق وفي المضايق وفي الوديان فلم يسلم منهم إلا القليل.

أما لواء (دابروميدا) فبقى وحده يقاتل الأحباش ويظهر أن القوة التي هاجمته لم تكن كبيرة فقاتل إلى المساء بعد أن فقد قائده وانسحب بصعوبة في اتجاه آخر. أما القائد العام فلما رأى النكبة التي حلت بجيشه أصدر أمر الانسحاب في الساعة الحادية عشرة وأسرع مع أركان

حربه منسحبا إلى موقع (عدي كيه) البعيد عن ميدان القتال مسافة 70 كيلومتراً فكان ذلك فراراً لا انسحاباً.

وبلغت خسائر الجيش الطلياني في هذه المعركة ما يلي: جنرالان مقتولان وهما (دابورميدا) و (إريموندي) وأخذ الجنرال (البرتونه) أسيراً.

زعيمان من سبعة زعماء مقتولان وزعيم في الأسر.

خمسة عشر قائد فوج من (أربعة وعشرين) قتلى.

والخلاصة أن مجموع الخسائر من قتيل وجريح وأسير بلغ 284 ضابطاً و 15. 400 جندي. أما الذين نجوا فكانوا 262 ضابطاً و4369 جندياً منهم 276 جريحاً.

انتهى

طه الهاشمي

علماؤنا المجهولون

عبد الرءوف المناوي

952 - 1031هـ

للأستاذ محمد إبراهيم العفيفي

للسائر في شارع باب البحر بالقاهرة أن يعرج على حارة سيدي مدين ليرى بناء متهدماً درست معالمه إلا من جدران قائمة حول مقام وزاوية ومدرسة أهملتها جميعاً وزارة الأوقاف كأنها لا تدري أنه لفخر العلماء وإمام المحدثين ومن تصدى للإفتاء يوما ما، ومن أكب على الدرس والتأليف حتى قاربت تآليفه المائة: ذلك مقام سيدي عبد الرءوف المناوي.

عصره:

انتهى القرن العاشر الهجري والدولة العثمانية تبسط سلطانها على كثير من البلاد الشرقية، فكان لزاما أن تكون الطبقة الحاكمة في مصر عثمانية، وأن تكون اللغة المتداولة بين الأوساط الراقية تركية، يشجعها الحكام ويساعدون على انتشارها بشتى الأساليب؛ فلغة الدواوين ولغة المجالس ولغة التهاني والتناظر والمديح كلها تركية؛ أضف إلى ذلك ما يترتب عليه من ذيوع التأليف ودواوين الشعر بتلك اللغة؛ وأهملت اللغة العربية في شتى الأبحاث، وأقفرت تلك الحقبة من ذيوع لغة القرآن؛ فجفت أقلام المفسرين والمحدثين والمؤرخين والشعراء إلا من نفر قليل قبضهم الله للاحتفاظ بالبقية الباقية من مجدها الأثيل.

مولده

أنجبت القاهرة سنة 952هـ فخر العلم والأدب: زين الدين محمد المدعو عبد الرءوف بن تاج الدين بن علي بن زين العابدين (أو العارفين) الحدادي المعروف بالمناوي.

نشأته

أكب على الدرس منذ حداثته، (وحفظ القرآن قبل بلوغه، ثم حفظ البهجة وغيرها من متون الشافعية، وألفية ابن مالك، وألفية الحديث للعراقي، وعرض ذلك على مشايخ عصره في

حياة والده، ثم أقبل على الاشتغال فقرأ على والده العلوم العربية، وتفقه بالشمس الرملي، وأخذ التفسير والحديث والأدب على النور علي بن غانم المقدسي، وحضر

دروس الأستاذ محمد البكري، والتفسير والتصوف، وأخذ الحديث عن النجم الغيطي والشيخ قاسم والشيخ حمدان الفقيه والشيخ الطبلاوي؛ لكن كان أكثر اختصاصه بالشمس الرملي وبه برع، وأخذ التصوف عن جمع، وتلقن الذكر من قطب زمانه الشيخ عبد الوهاب الشعراوي، ثم أخذ طريق الخلوتية عن الشيخ المناخلي أخي عبد الله، وأخلاه مرارا، ثم عن الشيخ محرم الرومي حين قدم مصر بقصد الحج، وطريق البيرامية عن الشيخ حسين الرومي المنتشوي، وطريق الشاذلية عن الشيخ منصور الغيطي، وطريق النقشبندية عن السيد الحسيب النسيب مسعود الطاشكندي، وغيرهم من مشايخ عصره، وتقلد النيابة الشافعية ببعض المجالس، فسلك فيها الطريقة الحميدة، وكان لا يتناول منها شيئاً).

أكب على الدرس منذ حداثته؛ وكان يقتصر يومه وليلته على أكلة واحدة من الطعام زهداً في الدنيا واستجماماً للدرس والتحصيل، يميل إلى العزلة.

ثم علق المنقول والمعقول، واستهوته العلوم العويصة كالفلسفة والتصوف حتى أصاب منها بغيته، ثم التفت إلى التاريخ فألف فيه المطولات لمن يريد الاستيعاب، ثم المختصرات لمنم يبغي الاطلاع، كما ضرب بسهم في السياسة والاجتماع. ثم واصل الدرس فتعمق في فقه اللغة وعالج الكتابة غير أنه كان يميل إلى السجع والمحسنات اللفظية مما كن يعجب به أهل زمانه؛ وتعرض للتاريخ الطبيعي حسبما مكنه الأوان، ثم كان محدث عصره فجلس إلى الناس يحدثهم ثم ولى التدريس بالمدرسة الصالحية فحسده أهل عصره؛ وكانوا لا يعرفون مزية علمه لانزوائه عنهم.

ولما حضر الدرس فيها ورد عليه من كل مذهب فضلاؤه منتقدين عليه، وشرع في إقراء مختصر المزني، ونصب الجدل في المذاهب، وأتى في تقريره بما لم يسمع من غيره فأذعنوا لفضله، وصار أجلاء العلماء يبادرون لحضور مجلسه، وأخذ عنه منهم خلق كثير منهم الشيخ سليمان البابلي، والسيد إبراهيم الطاشكندي، والشيخ علي الأجهوري، والولي المعتقد الشيخ أحمد الكلبي، وولده الشيخ محمد؛ وغيرهم.

تصدره للإفتاء

أما ما قيل من انه تصدر الإفتاء فذلك يرجع إلى أنه ذكر في مقدمة زائفة لسيرة نسبت إليه: (قال شيخ الإسلام ومفتي الأنام الشيخ عبد الرءوف المناوي) ونحن نشك في ذلك، وربما كان ذلك يرجع إلى أن جده الشيخ شرف الدين يحيى تولى مشيخة الأزهر وأن له مجموعة فتاوى.

وفاته

ومع ذلك لم يخل من طاعن وحاسد حتى دس عليه السم فتوالى عليه بسبب ذلك نقص في أطرافه وبدنه من كثرة التداوي، ولما عجز صار ولده تاج الدين محمد يستملي منه التآليف ويسطرها. ولا ننسى أنه كثيراً ما اعتزل الناس وامتنع من مخالطتهم، وأنه كان إلى أواخر حياته بحراً فياضاً ومعيناً لا ينضب. وافاه قدره في صبيحة الخميس في الثالث والعشرين من شهر صفر سنة 1031هـ ودفن بجانب زاويته التي أنشأها بين زاويتي الشيخين احمد الزاهد ومدين الأشموني بعد أن ترك للأجيال ما يفخر به عصره.

تآليفه

1 - كنوز الحقائق في حديث خير الخلائق: يشمل على 100000 حديث استخرجها من 44 كتابا ما بين مغاز ومسانيد وسير بينها الكتب الستة رامزاً للأسانيد. فرغ من تأليفه سنة 1026هـ وطبع بمصر سنة 1286هـ، سنة 1305هـ.

2 - الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية: يبدأ بمقدمة في التصوف رداً على آراء المعتزلة، ثم يتبعها بثمانية أبواب في سيرة الرسول ثم بالخلفاء الراشدين، وبلى ذلك تراجم الصوفية مفرداً طبقات كل قرن على حدة حسب سني وفياتهم، مرتبا إياهم أبجدياً؛ فكانت إحدى عشرة طبقة ينتهي الجزء الأول بانتهاء الطبقة السادسة والباقي في الجزء الثاني، فرغ من تأليفه سنة 1011هـ في 880 صفحة ولم يطبع.

3 - الطبقات الصغرى أو إرغام أولياء الشيطان: جمع فيه تراجم صوفية العجم والروم والحجاز واليمن والشام ومصر، وصدره بمقدمة مرتبة على خمسة أبواب: في التنبيه على جلال كرم الأولياء، والرد على منكري كراماتهم بالأدلة النقلية والعقلية، وبيان

منازلهم ومقاماتهم والحكمة في ظهور الكرامات على أيديهم، والترغيب في مجالستهم، والأخذ عنهم،
وبيان طبقاتهم وأحوالهم ومكان أصحاب الوظائف منهم، وفي ذكر شيء من أصول علم التصوف المهمة التي لا يستغني عنها ثم، ذكر التراجم مرتبة أبجديا. مخطوط في 276 صفحة ألفه بعد سابقه.
4 - آداب الأكل والشرب: في آداب اللياقة يناسب أهل ذلك الزمن. مخطوط في 80 صفحة.
5 - شرح خطبة القاموس: في صفحات قلائل.
6 - الدر المنضود في ذم البخل ومدح الجود: من الأدب الرائع رغم ما به من سجع. مخطوط في 112 صفحة.
7 - إتحاف السائل بما لفاطمة من المناقب والفضائل للمناوي مخطوط ضمن المكتبة التيمورية في مناقب السيدة فاطمة الزهراء في خمسة أبواب:
الباب الأول: ولدت سنة 41 من مولد الرسول صلى الله عليه وسلم. وقيل قبل الرسالة بخمس سنين.
الباب الثاني: تزوجت علياً في (خلاف من الخامسة عشرة من عمرها إلى الحادية والعشرين) وعمره إحدى وعشرون سنة في رمضان سنة 2هـ وبنى بها بعد العقد بنحو أربعة أشهر ولم يتزوج قبلها ولا عليها، وأولدها حسناً وحسيناً ومحسناً (مات صغيراً) وأم كلثوم الكبرى التي تزوجت عمر فعون بن جعفر فمحمد فعبد الله أخويه وأمهرها درعاً باعها بمبلغ 480 درهماً وكان جهازها: سرير مشرط بالشريط، وإهاب كبش، ووسادة من أدم حشوها ليف، وقربة، ومنخل، ومنشفة، وقدح.
الباب الثالث: الأحاديث الواردة فيها: 52 حديثاً.
الباب الرابع: مناقبها ومزاياها.
الباب الخامس: عشرة أحاديث روتها ثم أشعار بين فاطمة وعلي ضعيفة التأليف.
8 - غاية الإرشاد في معرفة أحكام الحيوان والنبات والجماد لم أره ولعله يشبه حياة الحيوان للدميري أو الحيوان للجاحظ أو عجائب المخلوقات للقزويني.
9 - الجواهر المضيئة في الأحكام السلطانية: في آداب السلطان وعلم الاجتماع.
10 - سيرة عمر بن عبد العزيز.
11 - التوقيف على مهمات التعريف: مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس.
وهو ذيل لكتاب التعريف للشريف الجرجاني ويشمل الاصطلاحات العلمية العربية في عهدهما أفاض فيه المناوي في ذكر المسميات الفنية التي تساعدنا الآن في تسمية أجزاء الآلات وغيرها مما له مساس بأغراض المجمع اللغوي الملكي.
12 - فيض القدير: طبع في مصر:
وهو شرح كبير مستفيض لكتاب الجمع الصغير للحافظ جلال الدين السيوطي في علم الحديث.
13 - 80 مؤلفات تامة ذكرها المحبي في خلاصة الأثر فليراجعها من أراد.
81 - 93 مؤلفات لم تتم.
ونحن نرجو من يعثر على مؤلفات لعبد الرءوف المناوي غير ما ذكرت أن يتفضل بذكر مكان وجودها خدمة للرجل وفضله.
(الزقازيق)
محمد إبراهيم العفيفي

الكذب والصدق

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

الكذب أسعدني والصدق أشقاني ... والكذب أضحكني والصدق أبكاني
الكذب صيَّر أعدائي ذوي مقةٍ ... والصدق أبعد عني كل أخداني
كم ورطة كاد فيها الصدق يوقعني ... وبعد ذلك منها الكذب نجَّاني
حرمتُ أكثر ما عيشي يطيب به ... والصدق قد كان من أسباب حرماني
ما كنتُ أرعى نجومَ الليل في سهري ... بل كان فيه نجومُ الليل ترعاني
لولا أكاذيبُ آمالٍ تخادعني ... من كان يذهب أشجاني وأحزاني
إن الأمانّي تسلى وهي كاذبة ... وليس في الصدق من سلوى لأسوان

الصدق مستنقعٌ في مائه أَسَنٌ ... فليس يملك إرواءً لظمآن
والكذب بحر خِضَمٌّ لا قرار له ... يحوي جواهر من درّ ومرجان
الصدق يلقاك بالأشواك جارحةً ... والكذب يبسم عن وردٍ وريحان
وقد يفوز أخو صدق بمأربه ... وقد يؤوب أخو كذب بخسران
لكن هذا قليلٌ غير مطرّد ... فليس يبني عليه رأيه الباني
إن الحياة بدنيانا لقائمة ... على الأكاذيب من زور وبهتان
الصادق الحرّ ذو فقر ومسكنة ... والكاذب الغِرَّ ذو مال وسلطان
إذا كذبتَ فقد أصبحتَ ربَّ تقي ... وإن صدقتَ فأنت الملحد الجاني
ما كنت تلعنني لو كنت تفهمني ... أو كان عندك وجدانٌ كوجداني
وربَّ أحدوثةٍ في صدقها سببٌ ... إلى إثارة أحقادٍ وأضغان
ورب أكذوبةٍ أدّت بحكمتها ... إلى زوال حزازات وعدوان
الصدق في بثه نارٌ مؤججة ... فليس يطفئها إلا الدمُ القاني
كم دولةٍ أنشأتها ساسةٌ كذبوا ... فأصبحت ذات أبراج وأركان
ودولةٍ بعد كذْب صان بيضتَها ... أضاعها الصدق، صدقُ العاهل الواني
لا تنكروا ما به قد جئتُ أخبركم ... إني إذا قلتُ فالتاريخُ برهاني
هل السياسة إلاّ كذبُ باقعةٍ ... على جماهير من بُلهٍ وعميان
هل الحياة وإن كانت مثقفةً ... سوى نفاقٍ وتدليس وإدهان
إن الحياة لسرٌّ ظلّ مختفياً ... والروح أكبرُ من عقلي وعرفاني
هل كان في الأولين السابقين لنا ... حقاً عبادةُ أصنامٍ وأوثان
الكذب بالحور والغلمان ذو هِبةٍ ... والصدق يقصيك عن حور وغلمان
نزلت في ليلة مقرورةٍ بها ... فالصدق عبّس لي والكذب حياني
الكذبُ كان بما فيه الرغادة لي ... في العيش يأمرني والصدق ينهاني
إذا صدقتُ فان الناس تمقتني ... وإن كذبت فان الناس تهواني
يصحّح الكذبُ ما للصدق من الخطأ ... والكذب والصدق في الإنسان صنوان
وأعذب الشعر ما قد كان أكذبه ... قد قال هذا قديماً كل إنسان
وطالب المثل الأعلى وإن عجزت ... منه اليراع على هذا هو الباني
للنابغين شياطينٌ تساعدهم ... وما شياطينهم أشباه شيطاني
إبليس أنجبَ شيطاني وأدّبه ... وبالأكاذيب أوصاه وأوصاني
جميع ما فيّ أمسى تحت سلطته ... إلاّ ضميري وأخلاقي وإيماني
إما مفارقةُ الشيطان لي فكما ... يفارق الروحُ عند الموت جثماني
ولا يفارقني إلاّ غداة يرمي ... سيري إلى العالم الباقي من الفاني
الشعرُ أنِشدُه كالشعر يقرضه ... على لساني فأنّا فيه سيان
يبكي ويضحك شعري حين أرسله ... إلى الجماهير من أنسٍ وجنّان
لقد جرى الشعر شوطاً في تطوّره ... وظل يُبدل ألواناً بألوان
لم يكبر الشعرُ معتزاً بقوته ... حتى تربيتُه طفلاً بأحضاني
ولست أرضى بسلطانٍ على أدبي ... إن لم يكن ذلك السلطان سلطان
وربّ شعرٍ جميلٍ بعد قائله ... يشدو به الناس من قاص ومن دان
الشعر باللفظ والمعنى يفوق كما ... يطير في الجوّ الجناحان
وأفتنُ الشعر ما قد هز سامعَهُ ... بما به بثّ من وجد وأشجان
وسوف يبقى جديداً في رسالته ... إلى الجماعات ما كَرّ الجديدان
بغداد
جميل صدقي الزهاوي
أختي
للأستاذ أحمد رامي
رزئ الشاعر الوجداني الرقيق الأستاذ رامي في أخته منذ أسابيع فبكاها بهذه العبرات المنظومة:
أنا للحزن وما يبعث ... في خيالي من تهاويل الشجن
كلما صرت بنفسي خالياً ... يتبدّى من غيابات الزمن
يغرض الماضي فيسقيني الذي ... ذقت فيه من أفانين المحن

يشتكي ذو الوجد ما يعتاده ... ويغنى فيه مسلوب الوسن
هي أختي درجت في كنفي ... ثم أمست وهي للروح سكن
عُلْتُها طفلاً على بُعد أبي ... وهو نائي الدار عني والوطن
ثم دلّلت صباها فنمت ... كالنبات الغضّ في ظلّ الفنن
شربت طبعي وحاكت خلقي ... ثم كانت هي سرّي المؤتمن
إن شكوت الدهر مما نالني ... سكن القلب إليها واطمأنّ
هي أختي صبّرت نفسي على ... فقد أهلي كلما ضمّ كفن
لو تذاكرنا أبي أو اخوتي ... ساجلتني دمع عيني ما هَتَن
قلت ترعاني وترعى ولدي ... وتربيه على قصد السِّنَن
وتواسي علّتي في وحدتي ... وتناجيني إذا الليل سكن
فطواها الموت عني بغتة ... في الشباب الغضّ والوجه الحسن
تركت لي مَلَكاً في صورة ... من جنين واضح النور فتن
وعيون تسحر اللبّ بما ... أرسلته من ذكاء وفطن
وفم حلو اللمى مبتسم ... فرّ عن دّرٍ توارى واستكن
فيه منها ما يعزيَني عن ... بعدها إماً هفا قلبي وحنّ
وابن أختي قطعة من كبدي ... أفتديه العمر روحاً وبدن
أحمد رامي
صمت الشك
علم أم ضعف
للأستاذ عبد الرحمن شكري
ألا لا أُبيح العيش مدحاً ولا ذما ... سكتُّ فلا عذراً نطقت ولا لوما
ولا يستقيم القول إلا لمُنْتَش ... من العيش والآمال لا من صحا غما
مللت أساطير الحياة فان أفِقْ ... فمن لي بحلم قد حلمت به قِدْما
حلمت بحسن العيش والصدق والنهي ... أمانّي لا صُمَّاً تبدت ولا بُكْماَ
وإنْ لم يكن عيش الفتى حلم حالم ... فما عذر قولي إن حسبت الدُّنى حلما
فان شئت كان الشك ضعفاً وخيبة ... وإن شئت كان الشك منطقه علما
وإن كان أصل الوحش والناس واحداً ... فَلِمْ فقدوا ظلفاً وقد كسبوا لؤما
وكيف أرى في مقبل الدهر للورى ... علاء ومحيىً يجمع الخلق والفهما
إذا كان صدق الناس كذباً وفضلهم ... رياء وود منهم الغدر والسما
صحوت كصحو المْيت من نوم عيشه ... أترجعني للعيش ألعقه رغما
كما يلعق الآسي العلي دواءه ... وإن مج منه علقما قد نبا طعما
وهل ثقة بالعيش والناس تشتري ... لأنثرها نثراً وأنظمها نظما
وإن كان مدح المرء للعيش خشية ... من اليأس كان المدح من وجل دما
يسوغ بيان السخط إن كان من هوى ال - حياة وإن أغرى بك الأمل الجما
وإلاّ فإن الصمت أولى بقائل ... إذا قال قولاً جدد اليأس والهما
على تافه لا ينقع الدهر غلة ... ولم يك بين الناسْ ربحاً ولا غُنْما
رأيت زوالَ الكائناتِ فلا أسًى ... إذا لم أُخلَّدْ لي مقالاً ولا نظما
سيحدث بعد القول قول يُذيلُه ... وإن زال أقوام تجد بعدهم قوما
وما الخلد إلا غرة وطماعة ... وأنبلِ كذْب يخدع اللهب والفهما
يكون الفتى في اليأس دهراً وفي المنى ... (كأرجوحة بين الشقاوة والنعمى)
وقد حل بي دهر إذا ما مدحته ... أظل كحاسي المر يفتعل البسما
وإنْ لم يُنِلك القول إلا مذلة ... فمن بر نفسي أن ترى تركه حزما
فمن شاء فلينطق ومن شاء فليكن ... صموتاً فحسبي أن أرى الحمق والحلما
مللت نضال الناس في غير طائل ... وإن كان شراً يصقل الذهن والفهما
وكم شبهوا فهما بسهم ومورد ... ويا طالما أشوى الصوابَ وكم أظما
فيا ليت هذا العيش يبدو كصورة ... لعينيَّ أو خطأ على الطرس أو رسما
كما تهدأ الهيجاءُ في رسم راسم ... تراها فلا قتلا تراها ولا كَلْما
ترى حسن إحسان وتجويد صانع ... وقدرة فنان وجهداً له تما
عبد الرحمن شكري

القصص
صور من هوميروس
حروب طروادة - 20
بريام الحزين. . .
للأستاذ دريني خشبة
تفرق القوم إلا أخيل. . .
لقد أوهنه الحزن، وشف قلبه الأسى؛ وكأن قتله هكتور لم يشف ما في نفسه من الفقيد بتروكلوس. . . شجو، ولم يخفف عنه ما يلقه من عذاب البعد عن أعز أصدقائه!
وخرج لبعض شأنه فرأى جثة عدوه في طريقه، تثير في نفسه الكوامن الشواجن، فينقض عليها كالمجنون، ويشبعها ركلا بقدمه، وكلوماً بخنجره، ويربط القدمين في عربته، ثم يلهب جياده بسوط نقمته، فتعدو كالريح حول قبر بتروكلوس، جارة وراءها جثمان هكتور، تقلبه في الأديم المندى، وتلته في التراب الهامد. . .
ويكون أبوللو مطلاً من سحابة سارية، فينتابه من الهم على صديقه ما يثير في قلبه الحنان المقدس، ويلقى درعه الذهبي على القتيل المهين، فتقيه الدرع من الصخر والحصى. . .
أما فينوس! فإنها ترف هي الأخرى فوق الجثة، وما تنفك تصب عليها من خمر الأولمب وطلائها. . . ما تنضح به من دمائها. . .
وتطلع الآلهة من ذروة جبل إيدا، فترثي لما يحل بالميت المسكين من هوان، ويلحظ أبوللو ما ينقدح من عيني سيد الأولمب من شر، فيجد فرصته، وينهض خطيباً مصقعاً كيماً يثير زيوس على أخيل. . . عسى أن يحل عليه غضبه. . . بعد إذ حماه طويلاً. . .
وينجح أبوللو في إثارة رحمة الآلهة، وتأليبهم على زعيم الميرميدون، وجعلهم إلباً عليه واحداً؛ لولا أن نهضت حيرا مغضبة، فانطلقت تدفع عن أخيل، وتذكر سادة الأولمب بهذا المهرجان الفخم الذي أقامه بليوس، أخوهم ونجيهم، هناك. . . هناك، في أعماق المحيط احتفاء بقدومهم للمشاركة في عرسه، وبنائه على ذيتيس المسكينة. . . التي يعلم الجميع أنها ثكلى. . . وإن لم تفقد بعد أخيل!!
وتذكرهم حيرا بالموثق الحرام الذي قطعوه على أنفسهم أن يباركوا نسل بليوس، وأن يدفعوا عنه الضر. . . حتى تنفذ مشية ربات الأقدار.
ويحار زيوس بين سخط الآلهة، ودفاع حيرا. . . ثم يبدو له أنه ينفذ رسوله الأمين (إيريس) إلى ذيتيس الحالمة في أعماق البحر، فتوقظها، وتلقي إليها برسالة السماء. . .
(. . . أن هلمي من فورك هذا إلى سيد الأولمب. . . فانه يأمرك ان تسعى إليه في مهمة تعرفينها فيما بعد. . .)
وتنتفض الأعماق بالأوسيانيد والنربيد وسائر عرائس البحر وعذارى الماء. . . يسعين خبباً في إثر ذيتيس. . . حتى تكون في أفق جبل إيدا. . . فينثنين. . . تاركات مولاتهن في ثوبها الحريري الأسود، وزنارها القاتم الحزين، تسعى وحدها حتى تكون فوق الثبج، ومن ثمة تعرج في الأديم الأزرق حتى تلج أبواب السماء. . .
وألفت حشد الآلهة ما يزال يتحاور، وما يزال أبوللو يحاج حيرا وحيرا تقرعه، حتى نظر زيوس فرأى ذيتس تتهادى في طليانها الأسود، ووجها المشرق المترع بالمفاتن يزيده الحزن روعة، ويضفي عليه الأسى جلالاً. . . فتبسم سيد الأولمب، واهتز فوق العرش، ثم قال: (مرحبا ذيتيس! فيم هذا الأسى يا فتاة! آه. . . مسكينة. . .! ولكن أصغى إلي: لقد دعوتك إلى الأولمب لتذهبي برسالتي إلى أخيل العزيز، فتوصيه بجثة هكتور؛ لقد أثار بما ينزله بها من هوان غضب الآلهة جميعا. . . بل قد أثار غضبي أنا أيضاً. . . أنا. . . حاميه ومنقذه ومرشده في كل مثار نقع. . . اذهبي إليه فأمريه أن يقلع عن هذه المثلة، فانه لا شيء يحنق الآلهة مثلها. . . وليسلم القتيل لأهله، فهذا خير له، وليقبل القَوَدَ العظيم الذي يقدمه إليه بريام الملك الشيخ الحزين. . . الذي حطمه الرزء، وعظمت عليه البلية، وصدعت قلبه المصائب. . . أما نحن. . . فسننفذ إيريس إلى طروادة تأمر الملك بإعداد القود والتجهز للقاء أخيل في معسكره. . . وسنرسل ولدنا هرمز إلى بريام يحدو ركبه إلى معسكر أخيل، ويعمى أبصار الميرميدون حتى لا يثوروا به، وحتى يكون أمام زعيمهم وجها لوجه. . .

(. . .ذيتيس! حسب أخيل ما حل بابن بريام)
وهمت ذيتيس فانطلقت إلى ولدها، حيث ألفته يتناول وجبة الصباح، فأبلغت إليه الرسالة
الأولمبية وعيناها تفيضان بالدمع، وقلبها يخفق ويضطرب، ونفسها تذوب على شبابه الغض حسرات. . .
وهش أخيل لأمه، وتقبل رسالة الإله الأكبر قبولاً حسناً، فنهضت ذيتيس وعادت أدراجها، بعد إذ طبعت على جبين ولدها قبلة خاطفة، كانت. . . وا أسفاه. . . آخر وداع منها له في الحياة. . .
وانطلقت إيريس إلى بريام الملك، فوجدته ما يفتأ يبكي هكتور، ومن حوله أبناؤه التسعة، خضراً كأفراخ القطا، نضرا كأكمام الزهر، والرجل مع ذاك يقلب فيهم عينين تفيضان حسرة، ووجهاً يتشح باليأس والهم. . . وإلى جانبه جلست هكيوبا المرزّأة تئن وتتفجع، وترسل من أعماقها زفرات الهم والأسى. . .
وبلغته إيريس رسالة ربه، وعادت أدراجها إلى الأولمب؛ وما كاد الملك يخبر زوجه بما أوحى إليه من ربه، حتى اضطربت هكيوبا وأعولت، وطفقت تضرب صدرها لتهدم بيديها الوانيتين لما اعتزم زوجها من تنفيذ ما أشارت به السماء، والذهاب إلى أخيل يرجوه أن يهب له جثمان هكتور، خشية أن يأسره زعيم الميرميدون ويستبقيه عنده رهينة حتى يسلم الطرواديون. . .!
ولكن الرجل كان مؤمناً حتى لا يتسرب إلى قلبه الشك بما رسمت له الآلهة، أو يساوره ريب في أي مما تشير به أربابه؛ فزجر الملكة، ونهض إلى خزائنه العامرة بالتحف فتخير أثنى عشر قرطقا من أغلى ما نسجت مصر، ومثلها من المعاطف المصنوعة من القاقم والسنجاب، وعدداً كبيراً من الوسائد الرائعة والطنافس ذات التصاوير؛ ثم أمر بعشر؟؟؟ فأحضرت من بيت المال، وبدستين كبيرين من الذهب، ذوى قوائم من الفضة، وأيد من الجوهر؛ وبأربعة قدور مهداة من ملوك الشرق، أحدها يزن بما يملأ خزائن بن بليوس ذهباً. . . وبكأس من الإبريز الخالص بها من النقوش والصنعة ما يعجز عن مثله عباقرة الجن. . .
أمر بريام بكل أولئك فوضعت في صناديق كانت هي الأخرى تحفاً من صناعات مصر والشام والهند. . . تهيم فوقها تصاوير فارس. . .
وصاح بأبنائه التسعة فهرعوا من كل مكان. . باريس المشئوم وهيلانوس واجاثون؛ وبامون وأنتيفون وبوليت؛ ثم ديفوبوس وهيوثوس وديوس. . . كلاب الأزقة كما كان يدعوهم أبوهم. . . (ليت المنية التي تخطفت هكتور تلقفتكم وخلت سبيل هكتور. . . أوليتها أصابت ألف ألف من أمثالكم وعميت عن ليكاون وبوليدور. . .؟)
وأمرهم فرتبوا الهدايا ورفعوها فوق ظهور البغال. . . وما ثقل منها وضعوه في عربة كبيرة يجرها بهيمان؛ وتقدمت هكيوبا فصبت على يدي زوجها خمراً يطهر بها، وأخذ هو في صلاة طويلة لزيوس. . . أن يحميه ويوقيه. . . ويرشده في طريقه إلى أخيل؛ ويرسل إليه الرسول الذي وعد، يقوده إلى فسطاط زعيم الميرميدون!!
ولم يكد ينهض من صلاته، ويختم توسلاته؛ حتى رف فوقه طائر ظل يضرب الهواء بخافيتيه، ويهوّم ويدوم، ويرنق في سماء الهيكل تارة، ثم يستقر عند المذبح أخرى، حتى أيقن الملك وملؤه أنه الرسول المنتظر، والقائد المنشود فخفقت قلوبهم، وفرحوا واستبشروا.
وتقدم إيديوس الحكيم فألجم البغال، وأسرج الخيل، وشد البهائم إلى عربة الملك، وأقبل بريام فركب، وأصدر أمره إلى حكيم طروادة وفيلسوفها فسار بين يدي الركب، يحدوه ويباركه ويضمن له رعاية السماء.
أما الطائر الميمون فقد انتفض انتفاضة هائلة، وراح يحلق فوق طروادة،. . . ثم غاب عن الأبصار. . . إلى أين. . .؟ إلى حيث لا يدري أحد!!
وتهادى الركب. وانطلق إيديوس يحدوه، حتى كان عند مقبرة إليوس الأكبر، وحتى كانت طروادة الخالدة وراءهم، حالمة في غبشة المساء ساهمة مستسلمة، كالفكرة الشاردة في دماغ الشاعر الغرير.
وغابت الشمس في مياه الهلسبنت، واختلط البنفسج الشاحب بسواد الليل، ونقت ضفادع الأبالسة في فضاء البرية، فملأت القلوب وحشة، وأرسلت في المفاصل رعدة،

فلم يكن بد من أن ينيخ القوم حتى يأذن القضاء بالرحيل.
وفيما كان إيديوس يسقي الدواب من الغدير النائم في كِلَّة الغسق، إذا شاب يافع يقبل نحوه ويسأل عن الملك. . . ويكون بين يديه بعد لحظات. . .
ويسأله الملك عن شأنه فيحدث أنه جندي آبق من جنود أخيل، وأنه ينصح الملك ألا يجازف بنفسه وبما يحمل من اللُّهى والعطايا في هذه الرحلة المهلكة، التي قد تنتهي بما لا
يدور للملك في خلد، أو يقع له بحسبان؛ ولكن الملك يبدي تصميمه ويلح في سؤال الشاب عن هكتور. . . (أما يزال مسجى بين يدي أخيل يشفى بمرآه حرده، أم هو قد أسلمه للسباع وجوارح الطير تنوشه وتغتذي به؟. . .) ويطمئنه الشاب اللعاب الداهية
ثم يرثى له فيعده أن يكون قائده إلى فسطاط أخيل. . . (لأن أحداً من الناس لا يستطيع أن يخترق صفوف الميرميدون الدواهي ما لم يكن مخاطرا بنفسه، أو ملقيا بيديه إلى التهلكة. . .) ويستسلم الملك الشيخ، ويلقي في يدي الجندي الشاب بزمامه، ويأذن له فيمتطي الجواد الأمامي الذي يتقدم سائر الدواب. . . وتبدأ الرحلة إلى مرابض الميرميدون. . .
ويتحدث الشاب إلى الملك، ويتحدث الملك إلى الشاب. . . حتى إذا كانا قيد خطوات من معسكر أخيل، مد الشاب ذراعيه المفتولين، ولفهما حول جذع الملك، ثم رقاه رقية قصيرة، وإذا سأله الملك عما يبتغي بها أنبأه. . . (كي لا تمتد إليك عين ولا يلمحك أحد، ولا يحس بمسرانا أي من أولئك الميرميدون. . .) فيسكن جأش بريام الشيخ، ويطمئن قلبه، وتتضاعف ثقته في الجندي الشاب. . .
ويكون فسطاط أخيل تلقاءهما!
فينهض الشاب من جانب الملك، ثم ينتفض انتفاضة تكشف عن حقيقة، ويقول ضاحكاً:
(أيها الملك أنت الآن في جوار أخيل، وعليك أن تلقاه في غير هيبة ولا وجل، فادخل غير مستأذن، ولتكن رابط الجأش ساكن الروع، واركع بين يديه ثم ازرف أغلى دموعك حتى تلين ما قسا من قلبه، وتحجر من مشاعره، واذكر له حاجتك فانه راد عليك جثمان هكتور. . . وثق أن السماء قد قضت بذلك، ولا مرد لقضائها. . . أما أنا. . . فلا تنتظر أن أسعى بك إلى زعيم الميرميدون. . . وليس سراً أن أذكر لك أنني. . . هرمز. . . أرسلني أبي إليك لأجيء بك إلى هذا المكان. . . انهض. . . انهض. . . ماذا أخافك مني؟. . . أجل. . . أنا ربك. . . ولكن لتقصر صلاتك هذه، فالفرصة تكاد تفلت. . . تشجع يا بريام. . . قف. . . آمرك)
وينهض الملك من غشيته التي كادت تذهب به حين ذكر له الشاب أنه هو هرمز. . . هرمز نفسه الذي ذكره له إيريس أنه سيقوده إلى فسطاط أخيل. . .
وينظر بريام فيرى إلى. . . الجندي الشاب. . . يرف في الهواء المندى، ثم يرتفع ويرتفع، حتى يكون في السماء التي تتفتح له أبوابها!؟. . .
ويصلح الملك من شأنه، ثم يتقدم بخطى وئيدة إلى فسطاط أخيل، ويدخله. . . ويرى زعيم الميرميدون في الصدر، وبين يديه وزيراه العظيمان أوتوميدون وألكيموس، ثم قادة الجند منتثرين ههنا وههنا. . . يهمسون ولا يكادون يبينون. . .
وكان السماط ما يزال أمام الزعيم، وزقاق الخمر ما تزال تقبل الكؤوس المغرمة، والشواء العظيم يملأ الخياشيم بقتاره. . . فلم يبال بريام. . . بل تقدم وتقدم. . . حتى كان أمام أخيل. . . فركع ذاهلاً عن نفسه، ولف ذراعيه حول ساقي الزعيم، وراح يوسعهما لثماً وتقبيلاً، ويمطرهما بأحر العبرات!. . .
وشده أخيل!. . .
بيد أنه كان يعلم من أمر هذه المفاجأة كل شيء، فلم يزد أن قال: (بريام!؟)
- (أجل يا بني أنا بريام!!. . .)
وبهت القادة مما رأوا، وأذهلهم ما سمعوا!. . .
أهذا حقا هو بريام ملك طروادة يبكي بين يدي أخيل وينتحب؟. . . إذن. . . فيم هذه الحرب؟. . . وختام ذاك الصراع؟. . . وإلام تذهب هذه المهج؟. . .
- أجل يا بني. . . أنا هو. . . أنا الرجل المرزأ المحزون الذي قتلت أبناءه، وهرقت دماءهم لأنهم يحاربون من أجل وطنهم، ويذودون عن بلادهم. . . سعيت إليك. . . إليك يا أخيل العظيم، لأمطر هذه اليد التي ذبحتهم بدموعي، ولأوسعها لثماً وتقبيلاً؟!

أتمنى يا بني أن تعود قريباً إلى أبويك سالماً، فيهش أبوك للقائك، وتبش أمك لعناقك، ويفرح ذووك بك، لأنك عدت إليهم بالنصر والفخر. . . أستغفر الآلهة، بل عدت إليهم سالماً من نكبات الحرب وكوارثها. . . فهل أكون قاسياً أن أرجوك. . . حين تعود إلى ديارك وتلقى فيها أحباءك. . . أن تذكر أن أبوين آخرين قد خلفتهما وراءك يشقيان ويبكيان، ويلبسان السواد أبد الدهر، لأن أبناءهما لم يعودوا من ساحة الحرب كما عدت أنت، بل هم قد سقطوا فوق أديمها، مضرجين بدمائهم، شاكين إلى أربابهم ما حل فيها بهم، تاركين آباءً شيوخا فانين، وأمهات ضعيفات معولات، وقلوباً تتفجر أسى عليهم، وعيونا تختلط دموعها بدمائها من أجلهم، وأرامل يلطمن الخدود ويشققن الجيوب، ويتامى لا حول
لهم ولا قوة على الزمان الغادر، والحظ العاثر، والصبر الجميل. . .؟
هل أكون قاسياً يا بني إذا رجوتك أن تذكر ذلك أو بعض ذلك، حين تعود إلى ديارك وتلقى أبويك الفرحين بك؟ . . .
. .أخيل! لم أسع إليك يا بني إلا بأمر الآلهة، ووحي سيد الأولمب. . . أرجوك في هكتور .!. . .
. . .!وأحر قلباه يا هكتور. . .! وا أسفاه عليك يا ولدي
صدرت إليك يا أخيل عن أمر السماء أرجوك في هكتور أن تسلمه إلى حتى نؤدي له فرائض الآلهة، وطقوس الموت، وما أحسبك إلا ملبياً ندائي الحزين، حتى تتيح للآلاف المؤلفة من جنوده وذويه وزوجه وابنه أن يبكوا جميعا عليه، وأن يشيعوه إلى الدار الآخرة بما رضيت أن تؤديه لبعض أصحابك، حتى تقر روحه، ويؤذن لها فتلج إلى هيدز. . .
أخيل. . . لب ندائي أيها الزعيم الباسل. . . لب نداء هذا الشيخ الضعيف،. . . وارحم فيه هذا الذي حمله إليك. . . وأسعده بتقبل هذه الهدية التي أمرت بها السماء. . . وإن تكن يا أشجع المحاربين في غَنَاء عنها، ولا حاجة بك إليها. . .)
وأحس أخيل كأنما تخاطبه السماء كلها بلسان هذا الشيخ المتهدم، وكأنما الآلهة جميعا تنطلق من فمه لتكون بياناً ورحمة في قلبه، فأنهضه من بين يديه، وأجلسه إلى جانبه فوق أريكته ثم أخذا معاً في بكاء حار طويل.
وتقبل أخيل هدايا الملك، وأشار إلى اوتوميدون وزميله فأخذاها إلى الأسطول، ثم أمر الخادمات فغسلن هكتور بالماء الساخن المعطر بدهن الورد، ولففنه في مدارج بأكملها من كتان مصر، وتقدم هو فوضعه على وسادة الموت، وأشار إلى جنوده فرفعوه إلى إرانه، ثم أخذ يهون على بريام ويواسيه، ودعاه إلى تناول العشاء معه، فلبى الشيخ وهو يعول ويبكي. . . بكاء يفتت الأكباد ويذيب نياط القلوب. . .
وكان الليل قد انتصف أكاد، وكان بريام الملك قد لبث الليالي الطوال يتفجع على ولده، ولا يذوق جفنه طعم الكرى فأحس بعد العشاء بإعياء وجهد، وميل شديد إلى النوم، فصفت له ولرجاله وسائد فاخرة، عليها طنافس وملاءات من الهند، واستأذن أخيل واستلقى على متكئه. . . وقبل أن يسلم عينه للكرى، سأله أخيل أن تكون هدنة بين الجيشين المتحاربين
حتى تؤدي كل الطقوس اللازمة لتحريق هكتور؛ واتفقا على أن تكون هذه الهدنة لمدة أحد عشر يوماً.
وفي الهزيع الأخير من الليل، أقبل هرمز الكريم فأيقظ بريام الملك، ونبهه إلى الخطر الذي يحيق به إذا أشرقت الشمس وأقبل أجاممنون وسائر القادة الهيلانيين ورأوا كبير أعدائهم، وصاحب إليوم، في معسكر أخيل. . . هنالك يحجزونه لديهم رهينة حتى تسلم مدينته. . . (فهلم أيها الملك وانج بنفسك، وسأقودك إلى طروادة بحيث لا يشعر بك أحد، ولا يحس الميرميدون لركبك ركزاً. . .)
ويسير الركب في هدأة الفجر، ويحدو هرمز القافلة حتى تكون لدى البوابة الاسكائية الكبرى، فيسلم على الملك ويبارك الميت. . . ويعرج في السماء. . .
وتكون كاسندرا، ابنة بريام الكبرى، أول من يلمح الركب مقبلاً، فتبشر الأهالي المحزونين، ويرتفع اللغط، وتشتد الضوضاء، ويتكبكب المواطنون حول العربة تحمل الأران حتى ليتعذر السير، ويبطئ السعي، فيصيح الملك بالملأ، فتنفرج الطريق، ويعم الصمت، ولا يحس إلا وجيب القلوب وخفقانها.

وتقبل أندروماك فتذرى دموعها، وتندب حظها، وتبكي زوجها، وتمزق قلوب الطرواديين بما يبدو عليها من أسى وحزن ووجد وكمد. . .
. . .!!وأم هكتور!. . . ويا لمصاب الأمهات في فلذات أكبادهن، وأعز الأبناء عليهن !!. . .وهيلين!! والعجيب أن تبكي هيلين هي الأخرى!! هيلين الآبقة. . . هيلين الأثيمة ويأمر الملك فينتشر الجند يجمعون الوقود من كل فج، حتى تكون كومة عالية؛ ويوضع الجثمان المبكي فوقها، وتصب الخمر تحية لآله الموت وتكرمة، وتشتعل النار فتكون ضراماً. . .
أنشد يا هوميروس!
يا شاعر الأحقاب الخالية!
يا صدى الزمان القديم!
أيها القيثارة المرنة في أنامل الأيام!
أرسل من الأزل أنشودتك تملأ الأسماع في الأبد!
واعصف مع الريح. . .
واهتف مع البلابل. . .
وتقبل تحيات المعجبين. . .
(تمت الإلياذة)
(بقية الحروب في العدد القادم)
دريني خشبة
البريد الأدبي
ترجمة لكير هاردي
منذ أكثر من قرنين يتناوب الحكم في بريطانيا العظمى حزبان عظيمان هما المحافظين وحزب الأحرار؛ ولكل من الحزبين في ميدان الكفاح السياسي مواقف وتقاليد عريقة؛ ولكن حزباً ثالثاً ظهر فجأة في ميدان السياسة الإنكليزية هو حزب العمال؛ وكان ظهوره إيذاناً بوقوع الثورة الاجتماعية التي لبثت أسبابها تجتمع طوال القرن التاسع عشر؛ وظهر حزب العمال ونما بسرعة مدهشة، ولم يمض على قيامه نحو ثلاثين عاماً حتى استطاع أن ينتزع مقاليد الحكم من الحزبين القديمين الكبيرين (سنة 1942)، ثم تولاها مرة أخرى في سنة 1929
وقد كان كير هاردي من أقطاب مؤسسي هذا الحزب الجديد ومن أعظم الزعماء الذين أمدوه بأسباب الحياة والقوة؛ وحياة هذا الزعيم المجاهد هي موضوع مؤلف جديد صدر أخيراً بالإنكليزية بقلم هاملتون فايف، وهي مثل رائع من صور الكفاح الخالد بين الطبقات. كان كير هاردي عاملاً منذ نعومة أظفاره، وقد نشأ في بيت فقر وبؤس، وذاق مرارة الكفاح الشاق منذ طفولته، ولم يتلق تعليماً ولا ثقافة، ولكنه تعلم القراءة في منزله، وصقل ذهنه بالدرس المتواضع، ودرس الحياة بصورة عملية، وظهر في مجتمع العمال منذ حداثته، واشتهر بكفاحه في سبيل قضية العمال. وفي سنة 1892 أسس كير هاردي مع نفر من صحبه الحزب الذي قدر له أن يتبوأ بعد قليل مركزاً خطيراً في السياسة البريطانية وهو حزب العمال المستقل؛ وكان هو أول رئيس لهذا الحزب؛ وفي نفس العام دخل البرلمان نائباً عن إحدى المناطق الصناعية، وكان دخوله في هذا المجلس العريق في مظاهرة اشتهر ذكرها في هذا العصر؛ ولبث كيري هاردي يسهر على مصاير حزبه وعلى مصاير قضية العمال، ويبث روح الكفاح والقوة في الحزب الجديد، تارة بقلمه وتارة بخطبه، حتى أصبح حزب العمال قوة يخشى بأسها. وفي سنة 1906 كان لحزب العمال في مجلس النواب زهاء ثلاثين مقعداً؛ وبدأ الكفاح الحقيقي بينه وبين الأحرار والمحافظين، وبدأت الحكومات البريطانية المتعاقبة تحسب حسابه، وتنزل عند مض رغباته، وما زال سائرا في طريق الكفاح الاجتماعي حتى وصل إلى ما وصل إليه اليوم من القوة والنفوذ.
على أن الكفاح السياسي لبس أغرب صفحة في حياة كير هاردي، ولعل أغرب ما في هذه الحياة هو ما تميزت به حياة هذا المجاهد من بسالة ومقدرة على مغالبة الشقاء والفاقة، وما بذله من عزم وجلد. هنا تبدو حياة كير هاردي بديعة مؤثرة؛ ولعل أحدا من الناس لم يصف في هذه الحياة المؤثرة بقدر ما وصفها كير هاردي نفسه، فقد كتب كثيرا في متاعب هذه الحياة وشقائها. ومما يذكر أنه في صباه تأخر ذات يوم بعض

الوقت عن عمله، فطرده صاحب العمل، وكان أبوه عاطلا وأخوه يعاني الحمى، ولم يكن لأسرته عائل غيره. وقد وصف لنا كير هاردي فيما بعد هذا المنظر المحزن فيما يأتي:

(لبثت مدى حين أتجول في الشوارع تحت وابل المطر المنهمل، خجلاً من أن أعود إلى بيت لا طعام فيه ولا وقود؛ وأسائل نفسي دهشا أليس أفضل شيء أن ألقي بنفسي في نهر (كلايد) وأنتهي من حياة كهذه ليس فيها ما يرغب؛ وأخيرا ذهبت إلى الدكان، وقابلت صاحبه وأوضحت له سبب تأخري، ولكني لم أظفر منه بطائل. ولم يدفع لي أجري؛ وإني لأرتجف الآن ويتفطر قلبي كلما ذكرت الحادث؛ ومازلت أرتد إليه وأرتد على أجنحة الخيال، وتصور أنه في نفس الليلة كان ثمة آلاف من التعساء يعانون مثل هذا العذاب؛ وهي فكرة لا يطيق الإنسان احتمالها).

ويصف لنا مستر هامستون فايف حياة كير هاردي المؤثرة في جميع أطوارها؛ وإنها لقصة مؤثرة مبكية من الكفاح في هذه الحياة الشاقة؛ ثم هي في نفس الوقت صورة رائعة من البسالة وقوة النفس، والصبر على المكاره، وعظمة البؤس التي تحمل على الاحترام والإكبار.

وكان كير هاردي صحفياً وكاتباً، وقد كتب كثيرا عن الاشتراكية وتحرير الطبقات العاملة، وتوفى في سنة 1915 دون الستين من عمره، بعد أن نفث في حزب العمال كثيراً من روحه القوى الوثاب.

وثائق هامة عن حياة زعيم مسلم

من أنباء موسكو أن بعض الباحثين في محفوظات الدولة قد عثروا أخيراً على طائفة من الوثائق والرسائل الهامة التي تلقى أقوى الضياء على سياسة القياصرة نحو مسلمي القوقاز في أواخر القرن الماضي، وعلى حياة شاميل الزعيم القوقازي المسلم الشهير، وعلى علاقات مسلمي القوقاز بإخوانهم في تركيا وبلاد العرب وفارس. ويرجع الفضل في اكتشاف هذه الوثائق إلى جهود المعهد الشرقي الروسي؛ وقد كتبت كلها في عصر شاميل واليه بالعربية؛ ومعظمها رسائل أصلية وجدت في بعض محفوظات تقليس وجروزني، وعددها خمس عشرة وثيقة؛ وينتظر أن تنشر بنصها الأصلي خلال انعقاد المؤتمر القادم للمباحث الشرقية.

وقد وجدت إلى جانب هذه الوثائق طائفة من المخطوطات والكتب الأدبية ترجع أيضا إلى عصر شاميل؛ ومنها مؤلف تاريخي وضعه الزعيم شاميل نفسه بالاشتراك مع صديقه وزميله محمد طاهر؛ وهو الآن في المعهد الشرقي قيد البحث والإعداد للنشر. واكتشاف هذه الوثائق والمؤلفات يعدل كثيراً من الوقائع والآراء التي جرت حتى اليوم في شأن علائق القوقاز المسلمة بحكومة القياصرة، وكفاحها ضد مظالمهم، والتي استقيت معظمها من أقوال ووثائق رسمية مغرضة، ويلقي في نفس الوقت ضياء كبيرا على حياة شاميل زعيم القوقاز المجاهد وعلى حسن بلائه في مقاومة سياسة القياصرة، وفي بث روح الوطنية والعزة القومية والدينية في بني وطنه ودينه.

حول كتاب (الإسلام الصحيح)

ألف هذا الكتاب الأستاذ إسعاف النشاشبي منذ أشهر، وكتب عنه في (الرسالة) الأستاذ محمد كرد علي منذ أشهر؛ ثم درجت عليه الأيام دون أن تتاح لنا الفرصة لقراءته؛ ومنذ أسابيع أخذت مجلة (العروبة) تنشر منه فقرات تتصل بالشيعة أخطأ التوفيق فيها المؤلف، فثار على الكتاب والكاتب النقد العنيف من النبطية والنجف، وعاتب بعض فضلاء الشيعة (الرسالة) على قبولها تقريظ هذا الكتاب. والرسالة التي تدعو إلى اتحاد الأمة العربية وائتلاف الملة الإسلامية تبرأ إلى الله من سوء النية فيما نشرت؛ إنما هو رأي أستاذ كبير في كتاب قرأه ولم تقرأه؛ وكل مقال تنشره بإمضاء كاتبه إنما تكون تبعته عليه لا عليها.

ضريح ابن الأثير في الموصل

يشغل ضريح العلامة ابن الأثير بقعة صغيرة من الأرض خارج الموصل على شارع الحزامية المؤدي إلى المستشفى الملكي؛ وقد راع بعض الأفاضل حاله السيئة ففكر في

تشييد ضريح غيره يليق بشهرة صاحبه ومكانته في التاريخ العربي؛ وهو عمل جليل نرجو أن تساهم فيه إدارة الأوقاف وإدارة الآثار في العراق؛ فان من حق الذين أولونا الفضل في الحياة، أن نوليهم الإجلال في الموت.

الدكتور الرافعي

عاد من أوربا منذ قريب، الدكتور محمد الرافعي، نجل صديقنا الأديب الكبير الأستاذ مصطفى صادق الرافعي، بعد أن أتم دراسة الطب بجامعة ليون، وكان مبعوثاً إليها على نفقة جلالة الملك، تقديراً لنبوغه وكفايته.

وقد كان الدكتور الرافعي في دراسته، وفي رسالته لنيل الدكتوراه، وفي درجاته العلمية التي حصل عليها، مفخرة مصرية ودعاية ناطقة للشباب المصري في أوروبا.

وحسبه أن يعلن رئيس جامعة ليون في اجتماع لجنة القضاة المحكمين لمناقشة رسالة الدكتور الرافعي: أن هذه الرسالة تعتبر أماً لجميع الرسائل والكتب والمؤلفات التي وضعت في بابها من سنة 1910 إلى الآن، وأنها جاءت بالحل الأخير لمناقشات كادت لا تنتهي. وكان الدكتور الرافعي قد اكتشف مرضاً مما يصيب الأطفال لم يتنبه إليه أحد، ووضع له اسماً خاصاً به.

وقد منحته الجامعة درجة (جيد جداً)، مع (درجة تقدير القضاة)، و (مبادلة الرسالة لجميع الجامعات الأجنبية). وهي درجات رفيعة حقيقة منا بأن نتقدم إليه وإلى والده الكريم بالتهنئة فخورين معجبين.

بعض آراء الزملاء في الرسالة

لا تزال تنثال على (الرسالة) تهنئات الأصدقاء من مصر وسائر الأقطار العربية على دخولها في عامها الرابع؛ وهي تشكر لهم هذا العطف الجميل، وترجو أن تظل من توفيق الله على الحال التي يرتضيها الحق والجمال والخير؛ ثم تثبت هنا بعض آراء الزملاء الفضلاء فيها تسجيلا للوفاء منهم وللشكر منها:

قالت الجهاد الغراء في عددها الصادر في 8 يناير سنة 1936:

دخلت زميلتنا (الرسالة) الغراء في عامها الرابع، فحق لصاحبها الأديب الضليع الأستاذ أحمد حسن الزيات أن يغتبط بما أصاب في رسالته من نجاح، وما كتب لجهوده الصادقة من توفيق ونحن إذ نقول التوفيق لا نشير فقط إلى ما لقيت (الرسالة) من ذيوع في مصر وفي سائر الأقطار العربية، وإنما نشير إلى السبيل التي سلكها الأستاذ الزيات بمجلته، حتى بلغ بها هذا النجاح الذي يغتبط به كل ذي غيرة على الأدب العربي، فهو لم يسلك إلى النجاح واجتذاب الجمهور تلك السبيل الممهدة الرخيصة وهي النزول إلى مستوى العامة واقتناص الربح منهم بأرخص المغريات، ولكنه تطلع في عزم وإيمان وهمة لا تحد نحو غاية أسمى، وتصدى لمهمة أنبل وأكرم، فراح يرفع الجمهور إلى المستوى الذي يحبب إليه الأدب الصافي القويم.

وقد سلخت (الرسالة) ثلاثة أعوام لم تنثن فيها عن تحقيق هذه الغاية، بل لقيت من النجاح ما حفزها إلى المثابرة والمضي فيما سلكت من سواء السبيل.

فللصديق القدير تهنئتنا الخالصة ولمجلته اطراد التوفيق والنجاح

وقالت (البلاغ) الغراء في عدد 8 يناير سنة 1936:

أتمت مجلة الرسالة لصاحبها ومحررها الأديب الكبير الأستاذ أحمد حسن الزيات سنتها الثالثة، ودخلت بالعدد الأخير منها في عامها الرابع من عمرها الطويل المبارك إن شاء الله. والرسالة تؤدي مهمة ثقافية سامية، وتصل ما بين الأقطار العربية، وتسمو بالأدب عن التجارة، وتحرص على الرفعة والجد، وهي تمثل في الأدب المذهب السديد الذي يزاوج بين القديم والجديد، فلا يهمل القديم من كنوز الآداب ولا سيما العربية لقدمها، ولا يفتتن بالحديث لطرافته؛ ومن هنا كانت (الرسالة) كاسمها (رسالة) حقيقية إلى أمم العرب قاطبة، ولهذا فازت بحقها في كل قطر من الأقطار العربية من التقدير والإكبار. فنهنئها بعامها الجديد، ونشكر لزميلنا وصديقنا جهده الصادق المخلص في خدمة العربية والأدب الرصين.

وقالت روز اليوسف اليومية في عددها الصادر في 7 يناير سنة 1936:

دخلت زميلتنا (الرسالة) الغراء في عامها الرابع مزودة بما قدمت لقرائها بل الأدب العربية من خدمات سيرويها التاريخ فخورا بها. وسترى فيها الأجيال القادمة مرآة صادقة للمثل الأعلى في ثقافة هذا الجيل وأدبه.

وإذا كانت (الرسالة) باعتراف قادة الفكر رسول العلم والأدب إلى العقول، فهي باعتراف
قرائها الذين أقبلوا عليها طوال هذه السنين رسول الروح المهذبة والعقلية المؤدبة والعاطفة الملهمة، تحمل إلى رواد الأدب والعلم والشعر كل رائع وكل بديع.
وإذا كان واجبا علينا أن نهنئ حضرة الزميل الكبير الأستاذ أحمد حسن الزيات بدخول الرسالة في عامها الرابع فأوجب من هذا أن نهنئ القراء بما سيقرءونه في العام الجديد بين صفحات الرسالة في عامها الجديد.
فهنيئا لزميلنا الكبير رسالته النبيلة، وهنيئا لقرائه ما سيقرءون
وقالت المقطم في عدد 8 يناير سنة 1936:
دخلت مجلة الرسالة الغراء في عامها الرابع بعددها الأخير وقد حفلت مجموعات سنواتها الثلاث بطائفة طيبة من الأدب العربي الصافي المورد، فكانت مسرحا لأقلام فحول أدباء هذا العصر من المحافظين على متانة الأدب العربي القديم، والناهلين من أدب الغرب الحديث، من أدباء مصر وسورية والعراق وغيرها، فنهنئ حضرة الزميل الفاضل الأستاذ احمد حسن الزيات صاحب الرسالة الغراء ونتمنى لرسالته ذيوعاً وانتشاراً حتى يشمل نفعها أكبر عدد من أدباء العرب الذين قدروها قدرها وعرفوا لها منزلتها.
وقالت الأهرام في عدد 8 يناير سنة 1936:
دخلت مجلة (الرسالة) الغراء في عامها الرابع وهي المجلة الأسبوعية للآداب والعلوم والفنون لصاحبها ومديرها ورئيس تحريرها الأديب المعروف الأستاذ أحمد حسن الزيات. وقد برز العدد الجديد في صدر هذا العام بحلة قشيبة تدل على ازدياد العناية بها. وهو يضم مقالات طريفة وقصائد متينة السبك لبلغاء الكتاب وفطاحل الشعراء في موضوعات متنوعة لا تخرج عن الخطة التي نهجتها منذ إنشائها وتنطبق على الحاجة التي تشعر بها الأمة في موقفها الحاضر: فنهنئها ونتمنى لها اطراد التقدم.
النقد
رد على نقد
كتاب تاريخ الإسلام السياسي - 2
للدكتور حسن إبراهيم حسن
مؤلف الكتاب
ص398 - يزعم حضرة الناقد أننا قد اتبعنا رأى نيكلسون في أمر انتصار معاوية، وفي أن المسلمين اعتبروه انتصاراً للأرستقراطية الوثنية التي ناصبت الإسلام العداء.
وهذا الزعم غير صحيح، فإننا بنينا هذا الرأي على مقدمات صحيحة رواها ثقاة المؤرخين عن جمهرة المسلمين في القرن الأول الهجري. وهذا علي بن أبي طالب يقول في معاوية مخاطباً أصحابه: (انظروا إلى من يقول كذب الله ورسوله. إنما تقاتلون ابن رأس الأحزاب وابن آكلة الأكباد من قتلى أحد. وإنما تقاتلون الطلقاء وأبناء الطلقاء ممن أسلم كرها وكان للرسول حربا وكان عن الدين منحرفاً). ربما تقول إن كلام علي لا ينهض حجة في رأي جمهور المسلمين حيال معاوية وشيعته، وإن التنافس في الحكم يدعو إلى أكثر من ذلك، فإن هذا القول في معاوية لم ينفرد به عليّ، فهؤلاء كبار الصحابة والتابعين يرددون هذا القول بل أشد منه. وهذا قيس بن سعد يقول للنعمان بن بشير (انظر يا نعمان هل ترى مع معاوية إلا طليقاً أعرابياً أو يمانياً مستدرجاً. وانظر أين المهاجرون والأنصار والتابعون بإحسان الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه، ثم انظر هل ترى مع معاوية غيرك وغير صويحبك ولستما والله بدريين ولا عقبيين ولا لكما سابقة في الإسلام ولا آية في القرآن)، وقول ابن عباس: هذه الحرب بدأها عليّ بالحق وانتهى فيها إلى الغدر؛ وبدأها معاوية بالبغي، وانتهى فيها إلى السرف)، وهذا أبو حمزة الخارجي يقول في خطبته: (معاوية لَعِين الرسول وابن لعينه، وجلف من الأعراب، وبقية من الأحزاب، مؤتلف طليق، فسفك الدم الحرام، واتخذ عباد الله خولاً، ومال الله دولاً، وبغي دينه عوجاً ودغلاً. . . الخ).
لم نذكر هذه الأقوال معتقدين بصحتها كلها في معاوية، إذ رأينا الشخصي أنه مسلم عظيم خدم الإسلام خدمات جليلة، ولكنا اضطررنا إلى ذكرها لنبرهن على أن من استندوا إلى

رأي نيكلسون وجدوا في هذه الأقوال بعض المبررات لما ذهبوا إليه
وليت الناقد راجع تلك الأقوال التي تفيض بها المصادر التاريخية ليعرف أننا نعني بقولنا جمهور المسلمين، فيريح نفسه ويريحنا أيضا من هذا التعليق الطويل.
ص340 - كان خيراً للناقد ألا يرجع إلى هذه الصفحة بعد أن تركها عمدا أو سهوا - لا أدري - ويظهر أن شغفه بالتنقيب وتحميل اللفظ فوق ما يستحق، واستخراج ما توهمه مؤاخذة، هو الذي حمله على عكس الدورة ومعاودة المراجعة لهذه الصفحة بعد أن تركها في أول مرة. ولينظر القارئ إلى ما قال عنها بعد أن أرجع البصر كرتين: إنه لم يرضه إلا أن يرمينا بالخطأ لأننا وقعنا في أمر جسيم حيث تابعنا المصادر العربية التي تعين موقعة (ذات السواري) بزمانها ومكانها، ويريد أن يقسرنا على متابعة المصادر اليونانية في أن تاريخ الموقعة كان سنة 34هـ لا سنة 31 كما تثبته المصادر العربية، وأن مكان الموقعة كان قريبا من ساحل آسيا الصغرى الجنوبي لا قريباً من الإسكندرية.
ولحين اطلاعنا على السبب في ولع الناقد بتفضيل المصدر اليوناني على العربي، نقول له إن رأيك هذا فيه تحكم وترجيح بلا مرجح؛ على أن حضرته لم يذكر لنا ولو مصدراً واحداً من هذه المصادر اليونانية لنقف منها على مبلغ صحة اعتماده وأسباب ترجيحه، اللهم إلا كتاب العصور الوسطى لكمبردج، وهو عبارة عن سلسلة مقالات بالإنجليزية، كما أن حكمه علينا بأننا نتابع السير وليام ميور الذي يأخذ عن جبون هو من قبيل الرجم بالغيب، وأن قوله: (كلا هذين المؤرخين أصبح قديما ولا يصح التعويل عليه بصفة مطلقة) يحتاج إلى فك رموزه وأحاجيه. . .
ص450 - يظهر أن الناقد سريع النسيان. فبينا هو يأخذنا بلاذع اللوم والتعنيف إذا روينا آراء جمهور المسلمين في الأمويين، نجده هنا لا يعجبه أن دافعنا بحق عن أحد خلفائهم بأنه لم يرد أن يحط من شأن الكعبة، وأن رميها بالمجانيق أحدث فيها من غير قصد ما أحدث، وأن الحجاج لما نصب المجانيق على الكعبة جعل هذه الزيادة التي زادها ابن الزبير في الكعبة هدفاً، إذ كان الأمويون يعتبرونها بدعاً في الدين). وما أسرع هذا الناقد في سحب ثقته من هؤلاء المساكين، فيقول عنهم: (وبنو أمية كانوا إذا تعارضت المصلحة السياسة مع أي اعتبار آخر رجحوا جانب المصلحة السياسة كائناً ما كان ذلك الاعتبار الآخر.
وتاريخهم يشهد بذلك!!) ثم ما أدري وجه الضحك من قولنا إن الحجاج جعل الزيادة التي زادها ابن الزبير في الكعبة هدفا لمجانيقه، وإنه كان من الممكن الانتظار حتى تضع الحرب أوزارها ثم تنقض الكعبة وتبني على أسسها القديمة. فالواقع يقرر ما قلنا والتقرير غير الرد، والتفسير غير النقد، وأما هذه الزيادة فقد كانت متميزة عن سائر بنية الكعبة يمكن نقضها دون هدم الكعبة، بدليل أن الحجاج بعد أن قتل ابن الزبير عمد إلى تلك الزيادة فأزالها وأعاد الكعبة إلى ما كانت عليه زمن الرسول، وليس من الصعب على العرب، وهم مشهورون بتسديد الرماية، أن يجعلوا الزيادة هدفهم بدون أن يلحقوا بسواها ضررا؛ وقد فصلنا الكلام في ذلك مقالنا الأول. أما قول الناقد إن الهدف الحقيقي للمجانيق هو ابن الزبير نفسه ولما جعل الكعبة حائلا بينه وبين المجانيق ضربت الكعبة، فقول لم يأت الناقد فيه بجديد عن قولنا ولا يتنافى مع ما قررناه.
ص471 - يقول علماء الأصول والتشريع إن الحكم على المجموع لا على الجميع. فإذا حكمنا على الخوارج بأنهم اشتطوا بالحكم على مخالفيهم حتى ساووا بينهم وبين الكفار عبدة الأوثان، فلا يضرنا أن تشذ فرقة كالاباضية عن هذا الحكم، ولا يخفى أن هذه الفرقة لم تشترك مع الخوارج بظفر ولا يناب فيما ألحقوا بالأمة الإسلامية، فليست مقصودة في كلامنا لأنها غير معتبر من الخوارج ذوي البأس الشديد.
ويصدق هذا أيضاً على ما نقلناه عن (السيد أمير علي) على نظام الإمارة على البلدان في العصر الأموي، وبعد أن كان يفرض على ولاة الأقاليم الإقامة في حواضر ولاياتهم أصبحت الولاية في عهد الأمويين تسند إلى بعض أفراد البيت المالك وإلى كبار رجال البلاط، فكانوا يبقون في دمشق ويعينون من قبلهم رجلاً يقومون بحكم الولايات نيابةً (عنهم). وإذا رجع القارئ إلى كلامنا يلحظ أننا نقرر ذلك نظراً لما حدث أثناء حكم هذه الدولة، وأننا لم نجعل تطرق النقص منسحباً على العصر الأموي كله بدليل قولنا إن

هناك نقصاً قد تطرق إلى النظام الإداري في عهد بني أمية، وجر إلى أسوأ العواقب فيما بعد، إذ لا يخفى أن التطرق أمر عارض لم يكن موجوداً ثم وجد، فكيف يحمل على التعميم والاستفاضة؟.

ص576 - من المحسنات البديعية أن يذكر الإنسان شيئاً أجنبياً عن موضوعه لمناسبة وفائدة. فإذا كنا تكلمنا عن نظام العدول في معرض الكلام على نظام القضاء في عصر الخلفاء الراشدين والأمويين، وقلنا إن سنة التقدم والارتقاء دعت إلى اتخاذ الشهود المحلفين حين فشت شهادة الزور، فقضى النظام الجديد بتعيين شهود عدول عرفوا بحسن السمعة والفقه فصاروا من هيئة المحكمة يعمل برأيهم القاضي فيما له علاقة بالمتقاضين، إذا ذكرنا هذا فليس معناه أننا نجهل تاريخ هذا النظام ونجهل أنه كان في الدولة العباسة لا الأموية. والمنصف يرى أن مثل هذا الاستطراد له شواهد كثيرة من كتاب الله وكلام رسوله وكلام العرب. وقد لاحظ العلماء فيه أنه يكسب الكلام رونقاً وجدة ويذهب بالسآمة التي يشعر بها القارئ أحياناً من موضوع استطال الكلام فيه.

يخيل إلينا أن الناقد أحس بتهافت ملحوظته هذه فعمد إلى ستر الموقف وتدعيم المأخذ بكلام أرسله إرسالا وكال فيه التهم جزافا، فأبرم حكما مقضياً بأن كلامنا لا يجلو هذا النظام على حقيقته وفيه تخليط كثير!! ويا للعجب! هو لم يقبل منا أن نستطرد بذكر نظام العدول موجزين ويريدنا أن نفصل الكلام عنه. ولا بأس أن تترك الكلام عن موضوع الكتاب بالمرة لنفسح له في الميدان ليصول ويجول ويكون لنقده حينئذ بعض القوة!

ص627 - كنا نتفكه بحكاية ذلك التركي الذي كان مغرماً بأن يأمر فيجد مأموراً، وينهي فيجد منهياً، ولما كانت مؤهلاته لم تسعفه بإشباع رغبته اقتعد غارب الطريق ووضع أمامه بعض أباريق مملوءة بالماء، حتى إذا ما أجهد أحد المارين العطش وأراد تناول إحداها ليشرب نهره ذلك التركي قائلا: دع هذا واشرب من ذاك! فإذا ذهب حضرة الناقد في غالب كلامه يلومنا بأننا نقلنا كذا عن فلان، وكان أولى بنا أن ننقله عن سواه، فانه - ولا شك - يذكرنا بهذه الحكاية المضحكة. ولقد رأينا حضرة الناقد يسلك هذا الطريق معنا في أمر موقعة ذات السواري ونفقات المسجد الأموي.

وبعد، فمن شيم العلماء وكرام النقاد ألا يلجئوا إلى التمويه والإيهام عما ينقدون ويمحصون، وإنما عملهم هو قرن الدعوة بالدليل، ووضع الصحيح إزاء العليل، وبذلك يخدم العلم، وتشكر الحقيقة مجليها. أما إذا لجأ الناقد إلى التعميم، وعبارات التفخيم، واعتذر عن الإدلاء بالحجج والبينات بقصر الوقت وبكثرة السيئات، فليس معنى هذا في نظر الناس إلا الرغبة في الهدم، وعدم القدرة على البناء.

(يتبع)

حسن إبراهيم حسن

الكتب

المقتطف والمتنبي

المقتطف شيخ مجلاتنا؛ كلهن أولاده وأحفاده. وهو كالجد الأكبر، زمن يجتمع، وتاريخ يتراكم، وانفراد لا يلحق، وعلم يزيد على العلم بأنه في الذات التي تفرض إجلالها فرضا، وتجب لها الحرمة وجوباً، ويتضاعف منها الاستحقاق فيتضاعف لها الحق.

وهل الجد إلا أبوة فيها أبوة أخرى، وهل هو إلا عرش حي درجاته الجيل تحت الجيل، وهل هو إلا امتداد مسافاته العصر فوق العصر؟

والمقتطف يكبر ولا يهرم، ويتقدم في الزمن تقدم المخترعات ماضيةً بالنواميس إلى النواميس، مقيدةً بالمبدء إلى الغاية. فلقد أنشئ هذا المقتطف وما في المجلات العربية ما يغني عنه، ثم أسفت الدنيا حوله بأخلاقها وطباعها، وتحولت مجلات كثيرة إلى مثل الراقصات والمغنيات والممثلات. . . وبقي هو على وفائه لمبدئه العلمي والسمو فيه والسمو به، كأنما أخذ عليه في العلم والأدب ميثاق كميثاق النبيين في الدين والفضيلة؛ فبين يديه الواجب لا الغرض، وهمه الإبداع بقوى العقل لا الاحتيال بها، وهديه الحقيقة الثابتة في الدنيا لا الأحلام المتقلبة بهذه الدنيا، وطريقه في كل ذلك طريق الفيلسوف من هدوء نفسه لا من أحوال الدهر، فهو ماض على اليقين، نافذ إلى الثقة، متنقل في منزلة منزلة من يقينه إلى ثقته، ومن ثقته إلى يقينه.

وقد بدأ المقتطف مجلده الثامن والثمانين بعدد ضخم أفرده للمتنبي. ولئن كانت الأندية والمجلات قد احتفلت بهذا الشاعر العظيم، فما أحسب إلا أن روح الشاعر العظيم قد احتفلت بهذا العدد من المقتطف.

ولست أغلو إذا قلت إن هذه الروح المتكبرة قد أظهرت كبرياءها مرة أخرى، فاعتزلت المشهورين من الكتاب والأدباء ولزمت صديقنا المتواضع الأستاذ محمود شاكر مدة كتابته هذا البحث النفيس الذي أخرجه المقتطف في زهاء ستين ومائة صفحة تدله في تفكيره، وتوحي إليه في استنباطه، وتنبهه في شعوره، وتبصره أشياء كانت خافية وكان الصدق فيها، ليرد بها على أشياء كانت معروفة وكان فيها الكذب، ثم تعينه بكل ذلك على أن يكتب الحياة التي جاءت من تلك النفس ذاتها، لا الحياة التي جاءت من نفوس أعدائها وحسادها.

ولقد كان أول ما خطر لي بعد أن مضيت في قراءة هذا العدد - أن المؤلف جاء بما يصح القول فيه إنه كتب تاريخ المتنبي ولم ينقله؛ ثم لم أكد أمعن في القراءة حتى خيل إليّ أنه قد وضع لشعر المتنبي بعد تفسير الشرّاح المتقدمين والمتأخرين تفسيراً جديداً من المتنبي نفسه؛ وما الكلمة الجديدة في تاريخ هذا الشاعر الغامض إلا الكلمة التي نشرها المقتطف اليوم

إن هذا المتنبي لا يفرغ ولا ينتهي، فان الإعجاب بشعره لا ينتهي ولا يفرغ. وقد كان نفسا عظيمة خلقها الله كما أراد، وخلق لها مادتها العظيمة على غير ما أرادت. فكأنما جعلها بذلك زمنا يمتد في الزمن.

وكان الرجل مطوياً على سر ألقى الغموض فيه من أول تاريخه، وهو سر نفسه، وسر شعره، وسر قوته؛ وبهذا السر كان المتنبي كالملك المغضوب الذي يرى التاج والسيف ينتظران رأسه جميعاً، فهو يتقي السيف بالحذر والتلفف والغموض، ويطلب التاج بالكتمان والحيلة والأمل.

ومن هذا السر بدأ كاتب المقتطف فجاء بحثه يتحدَّر في نسق عجيب متسلسلا بالتاريخ كأنه ولادة ونمو وشباب، وعرض بين ذلك شعر أبي الطيب عرضاً خيل إلي أن هذا الشعر قد قيل مرة أخرى من فم شاعره على حوادث نفسه وأحوالها. وبذلك انكشف السر الذي كان مادة التهويل في ذلك الشعر الفخم إذ كانت في واعية الرجل دولة أضخم دولة عجز عن خلقها وإيجادها فخلقها شعرا أضخم شعر، وجاءت مبالغته كأنها أكاذيب آماله البعيدة متحققة في صورة من صور الإمكان اللغوي.

ومن أعجب ما كشفه من أسرار المتنبي سر حبه، فقال: إنه كان يحب خولة أخت الأمير سيف الدولة، وكتب في ذلك خمس عشرة صفحة كبيرة، وكأنها لم ترضه فقال إنه كان يؤمل أن يكتب هذا الفصل في خمسين وجهاً من المقتطف. وهذا الباب من غرائب هذا البحث، فليس من أحد في الدنيا المكتوبة (أي التاريخ) يعلم هذا السر أو يظنه. والأدلة التي جاء بها المؤلف تقف الباحث المدقق بين الإثبات والنفي؛ ومتى لم يستطع المرء نفيا ولا إثباتا في خبر جديد يكشفه الباحث ولم يهتد إليه غيره، فهذا حسبك إعجاباً يذكر، وهذا حسبه فوزا يعد ولعمري لو كنت أنا في مكان المتنبي من سيف الدولة لقلت إن المؤلف قد

صدق. . . فهناك موضع لابد أن يبحث فيه القلب الشاعر الذي وضعت في الدنيا حكمتها، وطوت فيه القوة سرها، وبث فيه الجمال وحيه، وأصغر هذه الثلاث أكبر من الملوك والممالك، ولكن الحبيبة أكبر منها كلها. . . . . .

مصطفى صادق الرافعي

العدد 133 - بتاريخ: 20 - 01 - 1936

مجمع اللغة العربية الملكي

يفتتح دورته الثالثة

في الضحى الأكبر من يوم الخميس الماضي افتتح مجمع اللغة العربية الملكي دورته الثالثة في حفل متواضع من رجال العلم والأدب؛ فألقى الأستاذ الرئيس خطبة مجمعة، أجمل فيها ما عالج المجمع من المسائل اللغوية في دورته الثانية، وأشار إلى وفوده عن المجمع العربي إلى عيد المجمع الفرنسي، وإلقائه أول الناس خطاب التهنئة (باسم أحدث المجامع نشأة في أقدم بلاد العالم حضارة)؛ ونوه بهدية الأستاذ فيشر إلى المجمع وهي جزازات جمع فيها جمهرة الموثوق بصحته من متداول الكلمات في

القرن الأخير للجاهلية، والقرون الثلاثة الأولى في الإسلام، واستهلك في جمعها وترتيبها نيفاً وأربعين عاماً؛ ثم ألم إمامة يسيرة ببعض ما وجه من نقد إلى خطة المجمع.

وقام من بعده الأستاذ حسين والي فألقى محاضرة سابغة سائغة أدلى فيها بحجيج المجمع في القرارات السبعة التي أصدرها في عامه الثاني. ثم نهض على أثره الأستاذ محمد كرد علي بك فدافع عن حداثة المجمع وأشاد بفضل جلالة المليك. وجاء دور الأستاذ جب فعقب على بعض ما قال الخطباء بكلمة بارعة أداها عن ظهر قلبه. ثم ختم الأستاذ الجارم هذا الحفل الوقور بقصيدة من حر الكلام سلسل فيها أطوار العرب وأدوار اللغة، وأهاب (بعصبة الخير) أن ينشطوا لتجديد الفصحى:

فالدهر يسرع والأيام معجلة ... ونحن لم ندر غير الوخد والخبب

كانت حفلة افتتاح هذه الدورة نفثة من روح المجمع، شاع فيها سره، وسطع في فورتها ريحه، فكان اهتمامها برضى القاموس أبلغ من اهتمامها بذوق السامع؛ وكأني رأيت يومئذ في بعض العيون بوادر الدمع رأفة بأولئك السيدات اللائى تظاهرن بالإصغاء إلى حقائق اللغة ودقائق الصرف وهن من الضجر على حال لا تسر! وهذه الحال نفسها ملحوظة بين المجمع والمجتمع في وضع الكلمات للشؤون العامة، فإن من الأعضاء من يسرف في بعث الحوشي الممات، أو الغريب المتنافر، ليحل من لغة الجمهور محل الدخيل الذي لا يثقل في الآذان ولا يعسر على اللسان ولا ينبو على أوزان اللغة، فيضع الجماز للترام، والنهبوع لليخت، والعنقاش للبائع الجوال، والكشَّاءة للكماشة، والضريم للبنزين، والطربال للعمارة!

وليس من شك في أن هذه الكلمات المرغوب عنها وأمثالها مما يحاول المجمع طرده من الاستعمال أدق في الدلالة، وأقوى على الحياة وأسهل على الطبع، من تلك الألفاظ الجافية التي نقضها الدهر عن وجه البيان العربي لأسباب طبيعية منذ عمره الأول. . .

ما للترام واليخت والفلم والبنزين والكنبة ما دامت سائغة في المنطق جارية على سنن الفصيح واردة على أسلوب المعرب؟ إن الشاكوش أدل من الخصين، والريال أجمل من الرقين، والفسيخ أدنى من القريب، والبشكير أولى من النشير، والمندالة أخف من الميطدة. لقد أفتتن الظرفاء طول العام في الإضحاك مما أشبه الأرزيز والجماز حتى استراب الناس في ذوق المجمع.

والواقع أن الصفة الغالبة على أكثر الأعضاء هي الضلاعة القاموسية المحافظة، فهم يريدون أن يتجاهلون الاصطلاح والعرف، ويتناسوا الكتاب والعامة، ويفرضوا على الأذواق الفنانة كلمات لا تقطر من جمودها على قلم، وعلى الطبقات العاملة لغات لا ينطبق مدلولها على عمل.

أن اللغة العربية لابست مرافق العصر الحديث قبل أن ينشأ المجمع بقرن ونيف، فاستحدثت الضرورة في مدى هذا الزمن ألفاظاً بالاشتقاق والتعريب والترجمة، ربطت اللغة بأسباب المدنية، ووصلت الأدب بمعاني الحياة. ووظيفة المجامع أن تقر ما وجد وتنشئ ما لم يوجد؛ والاستعمال الذي لا يقف ولا ينتهي، يتمم القاموس الذي انتهى ووقف. أما إطلاق العربي المهجور على المعرب المشهور مخافة أن تطغى العجمة (ويصبح الفصيح بين لغتنا أقل من القلة، بحيث لا يصح لنا وقتئذ أن نزعم أننا نتحدث بلسان العرب) كما قال الأستاذ الرئيس، فلا يستقيم في منطق اللغات، ولا يجري في نظام الطبيعة؛ لأن عربية القاموس لا تكاد تجاوز منتصف القرن الثاني، وما اقتبسته اللغة بعد ذلك من حضارة الفرس ومدنية الروم أوشك أن يؤلف قاموساً آخر، ومع ذلك لم تستعجم الفصحى ولم ينهم بيان العرب! ويخيل إلى أن الأستاذ جب كان يرد على معالي الرئيس حين قال في خطبته (ويل للغة مصادرها معجماتها دون الشعور الحي للناطقين بها! وويل كذلك للغةٍ ينطق الناطقون بها ويكتب الكاتبون فيها طوع أهوائهم ويضربون بمعجماتها عرض الحائط!).

إن ما أخذناه وأخذه الناس على ما وضع أعضاء المجمع من الألفاظ إنما ينحصر في شؤون

الحياة العامة؛ أما ما وضعوه أو أقروه لعلوم الأحياء والطب فلا وجه فيه لآخذ، ولا سبيل عليه لمنكر، لأنه يتعلق بالعلم ويتصل بالتعليم ويجري بين الخاصة، ومن السهل أن تراض عليه الألسنة في المدارس، وتؤخذ به الأقلام في المعاجم، وتجمع إليه الناس

في الكتب. . . كذلك كانت قراراته الأربعة التي تعلقت بالتوسع في طرق القياس صادرة عن رأي حصيف ودرس ناضج. وسيكون لها كما رجا الرئيس أثرها البعيد في التيسير على أهل العلم ومن يعالجون الصناعة ويزاولون الترجمة إن في إقرار المجمع عرض ما يضعه من الكلم على الجمهور قبولاً سابقاً للنقد النزيه والقول الأسد؛ وأن فيما كتب الكاتبون عن خطة المجمع وزانة يجب أن يروى فيها طويلاً قبل أن يمضي على نيته؛ وإن فيما تبيناه من مضامين الخطب في الاحتفال دليلاً على استصغار المجمع لما عمل واستعظامه لما سيعمل! والشعور بالنقص مبدأ الكمال، والنفور من العجز سبيل القدرة، والركون إلى الأمل الحافز دليل الفوز! أيد الله المجاهدين الصادقين بروح من عنده، وسدد خطى العاملين المخلصين في الطريق القاصد.

أحمد حسن الزيات

سلطة الآباء

للأستاذ أحمد أمين

رحم الله زماناً كان الأب في بيته الآمر الناهي، والحاكم المطلق، والملك غير المتوج؛ ينادي فيتسابق من في البيت إلى ندائه، ويشير فإشارته أمر، وطاعته غنم؛ تحدثه الزوجة في خفر وحياء، ويحدثه الابن في إكبار وإجلال؛ من سوء الأدب أن يرفع إليه بصره، أو يرد عليه قوله، أو يراجعه في رأي، أو يجادله في أمر. أما البنت، فإذا حدثها لف الحياء رأسها، وغض الخجل طرفها؛ قليلة الكلام، متحفظة الضحك، خافضة الصوت؛ تتوهم أنها أخطأت في التافه من الأمر فيندي جبينها، ويصبغ الخجل وجهها، وتنكس بصرها؛ وإذا جاء حديث الزوج والزواج فإلى أمها الحديث لا إلى أبيها، وبالتلويح والتلميح لا بالتصريح؛ والأمر إلى الأب فيما يقبل وفيما يرفض، وفيما يحدث وما لا يحدث.

في جملة الأمران أن البيت ينقسم إلى قسمين: حاكم وهو الأب، ومحكوم عليه وهو سائر الأسرة؛ منه الأمر ومنهم الطاعة، له السيادة ولهم الخضوع، يرسم الخطط وهم ينفذون، يجلب الرزق ويتولى الإنفاق وهم يسيرون على ما رسم؛ وويل لمن تبرم أو عارض! فأن أحس الابن حاجة ملحة إلى مال، أو شعر بضرورة ملجئة إلى أكثر مما أخذ، لم يجرؤ أن يجابه بالطلب؛ إنما يحاور ويداور، ويلمح ويرمز؛ فان أعياه الأمر وسط الأم لعلها تستطيع أن تعبر تعبيراً أوضح وأصرح، وقل أن تنجح.

وبجانب سلطة الأب الدنيوية كانت سلطته الدينية. فهو يوقظهم قبل الشمس ليصلوا الصبح أداء لا قضاء، ويسائلهم في أكثر الأوقات عن صلاتهم كيف صلوا، وعن وضوئهم كيف توضئوا؛ يعلم الجاهل ويؤم المتعلم، ويجمعهم حوله من آن لآن يصلي بهم، ويذكرهم ويعظهم، ويقص عليهم قصص الأنبياء، وحكايات الأولياء والصلحاء - وان أنس لا أنس جمال المواسم الدينية - كيوم نصف شعبان، إذ تشعر في البيت من الصباح بحركة غير عادية: هذا ينظف، وهذه تعد الأكل الحافل ويتهيأ الجميع قبل الغروب استعداداً لصلاة المغرب، قد لبس النساء البياض، وتقنعن بالشاش الأبيض، وإذا رب البيت يؤم جميع من في البيت، ثم يخرج دعاء نصف شعبان من جيبه ويتلوه عليهم، يقول جمله فيرددونها، ويبتهل معهم إلى الله أن يسعده ويسعدهم، ويصلحه ويصلحهم، ويبارك له في ماله وفي نفسه وفي ذريته، ثم يأخذون حظهم لبطونهم، كما أخذوا حظهم لأرواحهم، وشملتهم السعادة وعمهم اللطف والهناءة.

لقد ودعنا ذاك الزمان بخيره وشره وحلوه ومره، واستقبلنا زماناً صار فيه الأبناء آباء، وأرادوا أن تكون لهم السلطة كآبائهم فأبى عليهم الزمان.

قالت الزوجة لزوجها: الناس أحرار، وأنا إنسان وأنت إنسان، فإن اعتززت أنت بالكسب اعتززت أنا بالإنفاق، وان اعتززت بالرجولة اعتززت بالأنوثة، وان اعتززت بأي شئ فأنا اعتز بمثله وبخير منه؛ فأنا وأنت شريكان، لا سيد وأمة، ولا مالك ومملوك؛ لي كل الحقوق التي لك، وقد يكون على بعض الواجبات التي عليك، فان سفرتَ سفرتُ، وإن غشيت دور الملاهي غشيتها؛ عليك أن تحصل المال وعلي الإنفاق ولك السلطان التام في اختصار طرق التحصيل، ولي الخيار التام في وجوه التبديد أنت للبيت والبيت لي. إن كان لك أم فقد شبعت سلطة في الماضي أيام كانت زوجة، فلا حق لها أن تنعم بسلطانها وسلطان غيرها، فليس لها الحق إلا أن تأكل، كما ليس لك

في حبها؛ فالحب كله للزوجة، إنما لك أن ترحمها؛ والدين لا شأن لك فيه بتاتاً فهو علاقة بين العبد وربه، وكل إنسان حر أن يحدد هذه العلاقة كما يوحي إليه قلبه؛ فأن شئت أنت أن تتدين فتدين، على شرط ألا تقلب نظام البيت، وتقلق راحتي وراحة الخدم، بإعداد ماء ساخن في الشتاء وما إلى ذلك. ورأى الزوج أن الأحكام قاسيه، والشروط فادحة، وهام يبحث عن المتمدنات عمن يرضى به زوجاً على الشروط القديمة فأعياه البحث.

وأخيراً نزل على حكم القضاء، وأسلم نفسه لسلطان الزمان وقدم الطاعة للزوجة، بعد أن كانت هي تقدم الطاعة له؛ ولا يزال في دار الآثار في المحاكم الشرعية قضايا اسمها قضايا الطاعة، يحكم فيها للأزواج على الزوجات؛ حفظ شكلها، وبطل روحها؛ ولو كانت المحاكم محاكم عصرية لحكمت بالطاعة على الزوج لزوجته، وحكمت بالنفقة على الزوجة لزوجها.

وتم الزواج، وفرحت الزوجة بالظفر فغالت في المطالب، وابتدعت كل يوم مطلباً جديداً، وأرادت أن تنتقم لأمهاتها من آبائه في شخصه، فطالما أطَعْن، وطالما خضعن! فليطع هو دائماً وليخضع دائماً، جزاء وفاقاً على ما جنى أبوه وأجداده قالت أن رقصتَ رقصتُ، فذلك حقك وحقي؛ قال نعم. قالت بل أن لم ترقص رقصت لأنك أن أضعت حقك لم أضع حقي؛

وأن خاللتَ خاللتُ، فالجزاء من جنس العمل، بل أن لم تخالل ربما خاللت، لأن حياة الزوجية البحت قد يعتريها الركود والسأم والملل. فصرخ ولف الغضب وجهه، وحاول أن ينكل بها فتراجعت، وسحبت مطلبها الأخير ورأت الحكمة أن تتريث بعض الشيء حتى يبلغ ريقه من أثر الصدمة الأولى، ويستعد للصدمة الثانية، فان لم يسعفها الزمان أوصت بناتها بشروطها الجديدة.

قالت وسيكون من أول ما أوصي به ابنتي أن تتخذ قياس خطيبها، ثم يكون من أول جهازها أن تفصل له برذعة ولجاماً على قدره، فتضع البرذعة عليه وتركبه إذا شاءت، وتشكمه باللجام إذا حاول أن يتحرك يميناً أو شمالاً على غير رغبتها.

وشاء الله أن يرزقا بنين وبنات.

وقد رأوا أن الأم لا تجل الأب فلم يجلوه، ولم تعره كبير التفات فلم يعيروه؛ ورأوها تبذر في مال الأب فبذروا، ورأوها حرة التصرف فتحرروا، ورأوها تخرج من البيت من غير أذن الأب فخرجوا خروجها، وتعود متى شاءت ففعلوا فعلها، ورأوها لا تتدين فلم يتدينوا، ورأوها تطالب الأب ألا يفتح رسائلها فطالبوا، ورأوها تتكلم في المسائل الدقيقة أمام أبنائها وبناتها في صراحة فتفتحت شهواتهم، وتحركت رغباتهم، وغذتها تخيلاتهم.

وقال الأبناء لأبيهم: أنّا مخلوقون لزمان غير زمانك فاخضع لحكم الزمان؛ وقد نشأت في زمن حرية في الآراء، وحرية في الأعمال، وحرية في التصرف، لا كما نشأت في جو من الطاعة والقيد والأسر والتقاليد، فمحال أن يسع ثيابك الضيق أبداننا، وتقاليدك العتيقة البالية نفوسنا، فان حاولت ذلك فإنما تحول إدخال الثور في قارورة، أو لف القصر الكبير بمنديل صغير! قال نعم. قالوا وأنت الذي سمح لنا بادئ ذي بدء أن نغشى دور السينما والتمثيل، وأن نسمع الأغاني البلدية، ونشاهد المراقص الأوربية، فإذا أقررت المقدمة فلا تهرب من النتيجة. وأنت الذي عودنا ألا نضع للبيت (ميزانية) فأنت تعطي (ماهيتك) لأمنا تنفق من غير حساب، فإن انتهت في نصف الشهر طلبت منك أن تقترض فاقترضت، وأن تشتري ما لا حاجة لنا به فاشتريت، وأن تقدم الكمال على الضروري فأطعت؛ فليس لك أن تطالبنا بالاقتصاد في الجدول الصغير، والنهر الكبير ليس له ضابط. وخرق أن تحاول أن تضع ميزانية لمصلحة، وميزانية الدولة مبعثرة! قال نعم. قالوا وقد أضعت سيادتك على أمنا فلم تفرض سيادتك علينا؟ ورضيت بالخضوع لها فلم تأباه علينا، وهي أم الحاضر وأنت أبو الماضي ونحن رجال المستقبل؟ قال نعم. قالوا وأنت نشأت في زمن خضوع تام: خضعت لأبيك في المهد صبياً، وخضعت للفقيه في المكتب، والمدرس في المدرسة؛ فإذا قلت برأسك هكذا، قال الأستاذ بعصاه هكذا، فنكست رأسك، وغضضت بصرك، وأسعفتك عينك بالبكاء، ولم يسعفك لسانك بالقول، فلما صرت (موظفاً) وقفت من رئيسك موقفك من أبيك وأستاذك، تنفذ دائماً وتطيع دائماً - ولم يجر على ذهنك يوماً

تفكير في استقلال، ولا على لسانك نداء بحرية؛ أما نحن فحريتنا في بيتنا: حررتنا على أساتذتنا، فحملناك كرهاً على تملقنا؛ ونادينا بالحرية فتبعتمونا في شئ من الرياء، تظهرون الطاعة لرؤسائكم وتبطنون الرضا عن حركاتنا، وتريدون أن تجمعوا بين الحرص على ماهيتكم والحرص على وطنيتكم المكبوتة. قال نعم. قالوا: فلما قدناك وقدنا رجالنا في السياسة فلنقدكم جميعاً في كل شئ: في البيت وفي المال وفي العلم وفي رسم الخطط: ولنقلب الوضع فنكون قادة وتكونوا جنوداً وإلا لم نرض عنكم جنوداً ولا قادة.

وقالت البنات لأبيهن:

يا أبانا الذي ليس في السماء! رقصت أمنا فرقصنا، وشربت أمنا فشربنا، وشربت سراً فلتسمح لنا بحكم تقدم الزمان أن نشرب جهراً، ورأينا في روايات السينما والتمثيل حباً فأحببنا، ورأينا عريا على الشواطئ فتعرينا، وتزوجت أمنا بإذن أبيها فلنتزوج نحن بإذننا. قال نعم. قلن وقد أوصتنا أمنا أن نركب الزوج، ولكننا أمام مشكلة يشغلنا حلها فأنّا نرى شبان اليوم كاخوتنا متمردين لا يخضعون خضوعك ولا يستسلمون استسلامك، فإرادتهم قوية كإرادتنا، وهم يحبون السلطة حبنا؛ فهم أحرار ونحن أحرار، وهم مستبدون ونحن مستبدات، فكيف نتفق؟ هل يمكن أن يبقى البيت بعدة استبدادات؟ ولكن لا بأس يا أبانا! هل البيت ضرورة من ضرورات الحياة؟ أو ليس نظام الأسرة نظام عتيقاً. من آثار القرون الوسطى؟ قال نعم. قلن على كل حال فيصح أن يجرب جيل النساء الجديد مع جيل الرجال الجديد، فان وقع ما خشينا عشنا أحراراً وعاشوا أحراراً، وطالبنا بتسهيل الطلاق وبهدم المحاكم الشرعية على رؤوس أصحابها، وتعاقدنا تعاقداً مدنياً. قال الأب: وماذا تفعلن بما ترزقن من أبناء وبنات؟ قلن لك الله لا أبانا! إنك لا تزال تفكر بعقل جدنا وجدتنا! لقد كنت أنت وأبوك وجدك تحملون أنفسكم عناء كبيراً في التفكير في الأولاد، وتضحون بأنفسكم وأموالكم في سبيلهم، وتعيشون لهم لا لكم. أما عقليتنا نحن أهل الجيل الحاضر فأن نعيش لأنفسنا لا لغيرنا. لقد ضحك عليكم الدين والأخلاق ففهمتم أن الواجب كل شيء، وكشفنا اللعبة ففهمنا أن اللذة كل شئ، فنحن نمنع النسل، فإذا جاء قسراً فليعش كما يشاء القدر؛ ولنقدم حظنا على حظه، وسعادتنا على سعادته، ولا نفكر فيه طويلاً، ولا يتدخل في شؤوننا كثيراً ولا قليلاً قال الأب: وأمر المال كيف يدبر؟ كيف تعشن أنتن وأولادكن إذا كان طلاق وكان فراق؟ قلن هذا ظل آخر ظريف من ظلال تفكيرك، دع هذا يا أبانا والبركة أخيراً فيك.

أما بعد فقد خلا الأب يوماً إلى نفسه، وأجال النظر في يومه وأمسه، فبكى على أطلال سلطته المنهارة، وعزته الزائلة، ورأى أنهم خدعوه بنظرياتهم الحديثة، وتعاليمهم الجديدة - قال: لقد قالوا إن زمان الاستبداد قد فات ومات، فلا استبداد في الحكومة، ولا استبداد في المدرسة، فيجب ألا يكون استبداد في البيت؛ إنما هناك ديمقراطية في كل شيء، فيجب أن يكون البيت برلماناً صغيراً يسمع فيه الأب رأي ابنه ورأي أبنته ورأي زوجه، وتؤخذ الأصوات بالأغلبية في العمل وفي المال وفي كل شيء؛ وقالوا تنازل عن سلطاتك طوعاً، وإلا تنازلت عنها كرهاً، وقالوا أن هذا أسعد للبيت، وأبعث للراحة والطمأنينة، وقالوا أن هذا يخفف العبء عنك، فنحن نقسم البيت إلى مناطق نفوذ، فمنطقة نفوذ للمرأة، وأخرى للرجل، وثالثة للأولاد، وكلهم يتعاونون في الرأي ويتبادلون المشورة. سمعت وأطعت فماذا رأيت؟ كل إنسان في البيت له منطقة نفوذ إلا إياي، ولم أرى البيت برلماناً، بل رأيته حماماً بلا ماء، وسوقاً بلا نظام، إن حصلت على مال أرادته المرأة فستاناً، وأرادته البنت بيانو، وأراده الابن سيارة؛ ولا تسأل عما يحدث بعد ذلك من نزاع وخصام. وإن أردنا راحة في الصيف أردت رأس البر لأستريح، وأرادت الأم والبنت الإسكندرية قريبا من ستانلي باي، وأراد الابن أوربا؛ وإن، وأن، ' إلىما لا يحصى، ولا يمكن أن يستقصي؛ وأخيراً يتفقون على كل شئ إلا على رأي. فوالله لو استقبلت من أمر ما استدبرت ما تزوجت، فان كان ولابد ففلاحة صعيدية، لم تسمع يوما بمدينة، ولم تركب يوما قطاراً إلى القاهرة والإسكندرية، لها يد صناع في عمل الأقراص) ورأس صناع في حمل (البلاص)

أيتها الزوجة! وأيها الأبناء والبنات! ارحموا عزيز قوماً ذل.

أحمد أمين

المشكلة - 3
للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

أما البقية من هذه الآراء التي تلقيتها فكل أصحابها متوافقون على مثل الرأي الواحد من وجوب إمساك الزوجة والإقبال عليها، وإرسال (تلك) والانصراف عنها، وأن يكون للرجل في ذلك عزم لا يتقلقل ومضاء لا ينثني، وأن يصبر للنفرة حتى يستأنس منها فأنها ستتحول، ويجعل الأناة بازاء الضجر فإنها تصلحه، والمروءة بازاء الكره فإنها تحمله، وليترك الأيام تعمل عملها فانه الآن يعترض هذا العمل ويعطله، وإن الأيام إذا عملت فستغير وتبدل، ولا يستقل القليل تكون الأيام معه ولا يستكثر الكثير تكون الأيام عليه.

والعديد الأكبر ممن كتبوا إلى يحفظون على صاحب المشكلة ذلك البيان الذي وضعناه على لسانه في المقال الأول ويحاسبونه به ويقيمون منه الحجة عليه، ويقولون له أنت اعترفت، وأنت أنكرت، وأنت رددت على نفسك، وأنت نصبت الميزان فكيف لا تقبل الوزن به؟ وقد غفلوا عن أن المقال من كلامنا نحن وأن ذلك أسلوب من القول أدرناه ونحلناه ذلك الشاب ليكون فيه الاعتراض وجوابه، والخطأ والرد عليه، ولنظهر به الرجل كالأبله في حيرته ومشكلته تنفير الغيرة عن مثل موقفه ثم لنحرك به العلل الباطنة في نفسه هو فنصرفه عن الهوى شيئاً فشيئاً إلى الرأي شيئاً فشيئاً، حتى إذا قرأ قصة نفسه قرأها بتعبير من قلبه وتعبير آخر من العقل، وتلمح ما خفي عليه فيما ظهر له، واهتدى من التقييد إلى سبيل الإطلاق، وعرف كيف يخلص بين الواجب والحب اللذين اختلطا عليه وامتزجا له امتزاج الماء والخمر. وبذلك الأسلوب جاءت المشكلة معقدة منحلة في لسان صاحبها، وبقى أن يدفع صاحبها بكلام آخر إلى موضع الرأي.

وكثير من الكتاب لم يزيدوا على أن نبهوا الرجل إلى حق زوجته ثم يدعون الله أن يرزقه عقلاً. . . وقد أصاب هؤلاء أحسن التوفيق فينا ألهموا من هذه الدعوة، فإنما جاءت المشكلة من أن الرجل قد فقد التمييز وجن بجنونين: أحدهما في الداخل من عقله والثاني في الخارج منه، فأصبح لا يبالي الإثم والبغض عند زوجته إذا هو أصاب الحظوة والسرور عند الأخرى؛ فتعدى طوره مع المرأتين جميعاً، وظلم الزوجة بأن استلب حقها فيه، وظلم الأخرى بأن زادها ذلك الحق فجعلها كالسارقة والمعتدية وقد تمنى أحد القراء من فلسطين أن يرزقه الله مثل هذه الزوجة المكروهة كراهة حب، ويضعه موضع صاحب المشكلة ليثبت أنه رجل يحكم الكره ويصرفه على ما يشاء ولا يرضى أن يحكمه الحب وأن كان هو الحب. وهذا رأي حصيف جيد فإن العاشق الذي يتلعَّب الحب به ويصده عن زوجته لا يكون رجلا صحيح الرجولة، بل هو أسخف الأمثلة في الأزواج، بل هو مجرم أخلاقي ينصب لزوجته من نفسه مثال العاهر الفاسق ليدفعها إلى الدعارة والفسق من حيث يدري أو لا يدري؛ بل هو غبي إذ لا يعرف أن انفراد زوجته وتراجعها إلى نفسها الحزينة ينشئ في نفسها الحنين إلى رجل آخر؛ بل هو مغفل إذ لا يدرك أن شريعة السن بالسن والعين بالعين، هي بنفسها عند المرأة شريعة الرجل بالرجل. . . . .

والمرأة التي تجد من زوجها الكراهية لا تعرفها أنها الكراهة إلا أول أول؛ ثم تنظر فإذا الكراهة هي احتقارها وإهانتها في أخص خصائصها النسوية، ثم تنظر فإذا هي إثارة كبريائها وتحديها، ثم تنظر فإذا هي دفع غريزتها أن تعمل على إثبات أنها جديرة بالحب، وأنها قادرة على النقمة والمجازاة، ثم تنظر فإذا برهان كل ذلك لا يجيء من عقل ولا منطق ولا فضيلة، وإنما يأتي من رجل. . . . رجل يحقق لها هي أن زوجها مغفل وأنها جديرة بالحب.

وكأن هذا المعنى هو الذي أشارت إليه الأديبة ف. ز. وإن كانت لم تبسطه؛ فقد قالت: وإن صاحب هذه المشكلة غبي، ولا يكون إلا رجلاً مريض النفس مريض الخلق، وما رأيت مثله رجلا أبعد من الرجل. . . ومثل هذا هو في نفسه مشكلة فكيف تُحل مشكلته؟ إنه من ناحية زوجته مغفل لا وصف له عندها إلا هذا؛ ومن جهة حبيبته خائن والخيانة أول أوصافه عندها.

وهذا الزوج يسمم الآن أخلاق زوجته ويفسد طباعها، وينشئ لها قصة في أولها غباوته وإثمه، وسيتركها تتم الرواية فلا يعلم إلا الله ما يكون آخرها. وبمثل هذا الرجل أصبح

المتعلمات يعتقدون أن أكثر الشبان إن لم يكونوا جميعاً هم كاذبون في ادعاء الحب، فليس منهم إلا الغواية؛ أو هم محبون يكذب الأمل بهم على النساء، فليس منهم إلا الخيبة.

قالت: وخير ما تفعله صاحبة المشكلة أن تصنع ما صنعته أخرى لها مثل قصتها، فهذه علمت بزواج صاحبها قذفت به من طريق آمالها إلى الطريق الذي جاء منه، وأنزلته من درجة أنه كل الناس إلى منزلة أنه ككل الناس، ونبهت حزمها وعزيمتها وكبرياءها فرأته بعد ذلك أهون على نفسها من أن يكون سبباً لشقاء أو حسرة أو هم، وابتعدت بفضائلها عن طريق الحب الذي تعرف أنه لا يستقيم إلا لزوجة وزوجها، فإذا مشت فيه امرأة إلى غير زواج، انحرف بها من هنا، واعوج لها من هنا، فلم ينته بها في الغاية إلا أن تعود إلى نفسها وعليها غباره، وما غبار هذا الطريق إلا سواد وجه المرأة. . . وقد جهد الرجل بصاحبته أن تتخذه صديقاً، فأبت أن تتقبل منه برهان خيبتها. . . وأظهرت له جفوة فيها احتقار، وأعلمته أن نكث العهد لا يخرج منه عهده، وأن الصداقة إذا بدأت من آخر الحب تغير أسمها وروحها ومعناها، فإما أن تكون حينئذ أسقط ما في الحب، أو أكذب ما في الصداقة

ثم قالت الأديبة: وهي كانت تحبه، بل كانت مستهامة به، غير أنها كانت أيضاً طاهرة القلب، لا تريد في الحبيب رجلاً هو رجل الحيلة عليها فتخدع به، ولا رجل العار فتسب به، وفي طهارة المرأة جزاء نفسها من قوة الثقة والاطمئنان وحسن التمكن؛ وهذا القلب الطاهر إذا فقد الحب لم يفقد الطمأنينة، كالتاجر الحاذق إن خسر الربح لم يفلس، لأن مهارته من بعض خصائصها القدرة على الاحتمال والصبر للمجاهدة.

قالت: فعلى صاحبة المشكلة التي عرفت كيف تحب وتجل أن تعرف الآن كيف تحتقر وتزدري.

وللأديبة ف. ع وأي جزل مسدد؛ قالت: إنها هي قد كانت يوما بالموضع الذي فيه صاحبة المشكلة، فلما وقعت الواقعة أنفت أن تكون لصة قلوب، وقالت في نفسها: إذا لم يقدر لي، فإن الله هو الذي أراد، وإني أستحي من الله أن أحاربه في هذه الزوجة المسكينة، ولئن كنت قادرة على الفوز إن انتصاري عليها عند حبيبي هو انتصارها على عند ربي، فلأخسر هذا الحب لأربح الله برأس مال عزيز خسرته من أجله، ولأبقى على أخلاق الرجل ليبقى رجلاً لامرأته فما يسرني أن أنال الدنيا كلها وأهدم بيتاً على قلب، ولا معنى لحب سيكون فيه اللؤم بل سيكون ألأم اللؤم.

قالت: وعلمت أن الله تعالى قد جعلني أنا السعادة والشقاء في هذا الوضع ليرى كيف أصنع، وأيقنت أن ليس بين هذين الضدين إلا حكمتي أو حمقي، وصح عندي أن احسن المداخلة في هذه المشكلة هو الحل الحقيقي للمشكلة.

قالت: فتغيرت لصاحبي تغيراً صناعياً، وكانت نيتي له هي أكبر أعواني عليه، فما لبث هذا الانقلاب أن صار طبيعياً بعد قليل. وكنت أستمد من قلب امرأته إذا اختانني الضعف أو نالني الجزع فأشعر أن لي قوة قلبين. وزدت على ذلك النصح لصاحبي نصحاً ميسراً قائماً على الإقناع وإثارة النخوة فيه وتبصيره بواجبات الرجل، وترفقت في التوصل إلى ضميره لأثبت له أن عزة الوفاء لا تكون بالخيانة، وبينت له أنه إذا طلق زوجته من أجلي فما يصنع أكثر من أن يقيم البرهان على أن يصلح لي زوجاً. ثم دللته برفق على أن خير ما يصنع وخير ما هو صانع لإرضائي أن يقلدني في الإيثار وكرم النفس ويحتذيني في الخير والفضيلة، وأن يعتقد أن دموع المظلومين هي في أعينهم دموع، ولكنها في يد الله صواعق يضرب بها الظالم قالت: وبهذا وبعد هذا انقلب حبه لي إكباراً وإعظاماً وسما فوق أن يكون حباً كالحب؛ وصار يجدني في ذات نفسه وفي ضميره كالتوبيخ له كلما أراد بامرأته سوءاً أو حاول أن يغض منها في نفسه. واعتاد أن يكرمها فأكرمها، وصلحت لها نيته فاتصل بينهما السبب، وكبرت هذه النية الطيبة فصارت وداً، وكبر هذا الود فعاد حباً، وقامت حياتهما على الأساس الذي وضعته أنا بيدي،

أنا بيدي. . . . . .

أما أنا. . . . . .؟

وكتب فاضل من حلوان: إن له صديقاً ابتلى بمثل هذه المشكلة فركب رأسه فما ردَّه شيء. عمد الزواج بحبيبته، وزُفَ إليها كأنه ملك يدخل إلى قصر خيالة وكأن أهله

يعذلونه ويلومونه ويخلصون له النصح ويجتهدون في أمره جهدهم، إذ يرون بأعينهم ما لا يرى بعينه، فكأن النصح ينتهي إليه فيظنه غشاً وتلبيساً، وكان اللوم يبلغه فيراه ظلماً وتحاملاً؛ وكان قلبه يترجم له كل كلمة في حبيبته بمعنى منها هي لا من الحقائق، إذ غلبت على عقله فبها يعقل، وذهبت بقلبه فبها يحس، واستبدت بإرادته فلها ينقاد؛ وعادت خواطره وأفكاره تدور عليها كالحواشي على العبارة المغلقة في كتاب؛ واستقرت له فيها قوة من الحب أمرها إذا أرادت شيئاً أن تقول له كن. . .

ثم مضت الليلة بعد الليلة وجاء اليوم بعد اليوم والموج يأخذ من الساحل الذرة بعد الذرة والساحل لا يشعر، إلى أن تصر مت أشهر قليلة فلم تلبث الطبيعة التي ألفت الرواية وجعلتها قبل الزواج رواية الملك والملكة، وقصة التاج والعرش، وحديث الدنيا وملك الدنيا - لم تلبث أن انتقلت عليّ فجأة فأدارت الرواية إلى فصل السخرية ومنظر التهكم، وكشفت عن غرضها الخفي وحلت العقدة.

قال: ففرغ قلب المرأة من الحب وظمئ إلى السكر والنشوة مرة أخرى من غير هذه الزجاجة الفارغة. . . وبرد قلب الرجل وكان الشيطان الذي يتسعّر فيه ناراً، شيطاناً خبيثاً فتحول إلى لوح من الثلج له طول وعرض. . . .

وجدت الحياة وهزل الشيطان، فاستحمق الرجل نفسه أن يكون اختار هذه المرأة له زوجة، واستجهلت المرأة عقلها أن تكون قد رضيت هذا الرجل زوجاً، وأنكرها إنكارا أوله الملالة، وأنكرته إنكارا آخر أوله التبرم؛ وعاد كلاهما من صاحبه كإنسان يكلف إنساناً أن يخلق له الأمس الذي مضى. وضربت الحياة ضربةً أو ضربتين فإذا أبنية الخيال كلها هدم هدم، وإذا الطبيعة مؤلفه لرواية. . . قد ختمت روايتها وقوضت المسرح، وإذا الأحلام مفسرة بالعكس، فالحب تأويله البغض، واللذة تفسيرها الألم، و (البودرة) معناها الجير. . . وتغير كل ما بينهما إلا الشيطان الذي بينهما، فهو الذي زوج وهو بعينه الذي طلق. . . .

وكتب أديب من بغداد يقول: إنه كان في هذا الموضع القلق موضع صاحب المشكلة، وأن ذات قرباه التي سميت عليه كانت ملفقة له في حجب عدة لا في حجاب واحد، وقد وصفت له باللغة. . . . وفي اللغة ما أحسن وما أجمل وما أظرف، وكأنها ظبي يتلفت، وكأنها غصن يميل، وكأن سنة وجهها البدر!

قال: وشبهت له بكل أدوات التشبيه وجاءوا في أوصافها بمذاهب الاستعارة والمجاز، فأخذها قصيدة قبل أن يأخذها امرأة. وكان لم ير منها شيئاً وكانت لغة ذوي قرابته وقرابتها كلغة التجارة في ألسنة حذاق السماسرة، ما بهم ألا تنفيق السلعة ثم يخلون بين المشتري وحظه.

قال: فرسخ كلامهم في قلبي، فعقدت عليها، ثم أعرست بها ونظرت فإذا هي ليست في الكلمة الأولى ولا الأخيرة مما قالوا ولا فيما بينهما. . . . ثم تعرفت فإذا هي تكبرني بخمس عشرة سنة. . . . ورأيت اتضاع حالها عندي فأشفقت عليها وبت الليلة الأولى مقبلاً على نفسي أؤامرها وأناجيها وأنظر في أي موضع رأيي أنا، وتأملت القصة فإذا امرأة بين رحمة الله ورحمتي، فقلت إن أنا نزعت رحمتي عنها ليوشكن الله أن ينزع رحمته عني، وما بيني وبينه إلا أعمالي؛ وقلت يا نفسي: (إنها إن تكُ مِثقالَ حَبةً من خَردَلٍ فتكنْ في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأتِ بها الله) وإنما أتقدم إلى عفو الله بآثام وذنوب وغلطات، فلأجعل هذه المرأة حسنتي عنده، وما عليّ من عمر سيمضي وتبقي منه هذه الحسنة خالدة مخلدة.

إنها كانت حاجة النفس إلى المتاع فانقلبت حاجة إلى الثواب، وكانت شهوة فرجعت حكمة، وكنت أريد أن أبلغ ما احب فسأبلغ ما يجب. ثم قلت: اللهم أن هذه امرأة تنتظرها ألسنة الناس إما بالخير إذا أمسكتها، وإما بالشر إذا طلقتها، وقد احتمت بي؛ اللهم سأكفيها كل هذا لوجهك الكريم.

قال: رأيتني أكون ألأم الناس لو أني كشفتها للناس وقالت انظروا. . . فكأنما كنت أسأت إليها فأقبلت أترضاها، وجعلت أماسحها وألاينها في القول وعدلت عن حظ نفسي إلى حظ نفسها، واستظهرت بقوله تعالى: (وعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً)؛ واعتقدت الآية الكريمة أصح اعتقاد وأتمه، وقالت اللهم اجعلها من تفسيرها.

قال: فلم تمض أشهر حتى ظهر الحمل عليها، فألقى الله في نفسي من الفرح ما لا

تعدله الدنيا بحذافيرها، وأحسست لها الحب الذي لا يقال فيه جميل ولا قبيح لأنه من ناحية النفس الجديدة التي في نفسها (الطفل). وجعلت أرى لها في قلبي كل يوم مداخل ومخارج دونها العشق في كل مداخله ومخارجه، وصار الجنين الذي في بطنها يتلألأ نوره عليها قبل أن يخرج إلى النور، وأصبحت الأيام معها ربحاً من الزمن فيه الأمل الحلو المنتظر

قال: وجاءها المخاض، وطرقت بغلام؛ وسمعت الأصوات ترتفع من حجرتها: ولد! ولد! فبشروا أباه. فوالله لكأن ساعة من ساعات الخلد وقعت في زمني أنا من دون الخلق جميعاً وجاءتني بكل نعيم الجنة. وما كان ملك العالم - لو ملكته - مستطيعاً أن يهبني ما وهبتني امرأتي من فرح تلك الساعة. إنه فرح إلهي أحسست بقلبي أن فيه سلام الله ورحمته وبركته. ومن يومئذ نطق لسان جمالها في صوت هذا الطفل. ثم جاء أخوه في العام الثاني،

ثم جاء أخوهما في العام الثالث؛ وعرفت بركة الإحسان من اللطف الرباني في حوادث كثيرة وتنفست على أنفاس الجنة وفسرت الآية الكريمة نفسها بهؤلاء الأولاد، فكان تفسيرها الأفراح، والأفراح، والأفراح.

ويرى صديقنا الأستاذ محمد حسين جيره، أن صاحب المشكلة في مشكلة من رجولته لا من حبه؛ فلو أن له ألف روح لما استطاع أن يعاشر زوجته بواحدة منها إذ هي كلها أرواح صبيانية تبكي على قطعة من الحلوى ممثلة في الحبيبة. . . . ولو عرف هذا الرجل فلسفة الحب والكره لعرف أنه يصنع دموعه بإحساسه الطفلي في هذه المشكلة؛ ولو أدرك شيئاً لأدرك أن الفاصل بين الحب والكره منزوع من نفسه، إذ الفاصل في الرجل هو الحزم الذي يوضع بين ما يجب وما لا يجب.

إنه مادام بهذه النفس الصغيرة فكل حل لمشكلته هو مشكلة جديدة، ومثله بلاء على الزوجة والحبيبة معاً، وكلتاهما بلاء عليه، وهو بهذه وهذه كمحكوم عليه أن يشنق بامرأة لا بمشنقة. . . هذا عندي ليس بالرجل ولا بالطفل إلى أن يثبت أنه أحدهما فان كان طفلاً فمن السخرية به أن يكون متزوجاً، وإن كان رجلا فليحل هو المشكلة بنفسه؛ وحلها أيسر شيء: حلها تغيير حالته العقلية.

ونحن نعتذر للباقين من الأدباء والفضلاء الذين لم نذكر آراءهم، إذ كان الغرض من الاستفتاء أن نظفر بالأحوال التي تشبه هذه الحادثة لا بالآراء والمواعظ والنصائح. أما رأينا ففي البقية الآتية.

(طنطا)

مصطفى صادق الرافعي

(حاشية): تمثل في نفسي وأنا أُبيض هذه المقالة أنها ستشير في نفس إحدى قارئاتها موضعا ذا شأن وخطر، وان هذه القارئة ستتردد في الكتابة إلي وألا فضاء بمعناها. وقوى ذلك في الخاطر حتى كأنه واقع فما هو ذلك الشأن يا ترى؟ إن سطراً صغيراً فيه شئ من حكمة الدنيا قد تكون فيه مقالات فلا يبخلن أحد على أحد.

الرافعي

الشاعر الأندلسي المجهول

رثاء الأندلس وما يحتويه من العناصر واللمحات التاريخية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

نشرت (الرسالة) في الأسبوع الماضي قصيدة رائعة هي رثاء مؤثر للأندلس بقلم شاعر أندلسي مجهول؛ ومهد الأديب المغربي الذي بعث بنصها إلى الرسالة بكلمة ذكر فيها أن هذه القصيدة نشرت بنصها الكامل في الجزائر لأول مرة سنة 1914 وأن صحيفة الزهرة التونسية نشرت منذ أعوام بعض مقاطيعها وطلبت إلى الأدباء أن يدلوا على ناظمها إذا استطاع أحدهم إلى ذلك سبيلا، ولكن أحدا منهم لم يظفر بالجواب؛ وأنه عرضها على مؤرخ المغرب الكبير السيد الدكالي السلاوي، فذكر أن ناظمها ربما كان أبا جعفر بن خاتمة وهو من أدباء المرية كما يستدل من بعض أبياتها، وأنها ربما كانت من محتويات كتابه المسمى (مزية المرية) الذي توجد منه نسخة مخطوطة بمكتبة الأسكوريال؛ ويرجو الأديب المغربي في خاتمة كلمته أن يوفق أحد الأدباء المشتغلين بالأدب الأندلسي إلى معرفة ذلك الشاعر المجهول فيعلن اسمه والحق أن القصيدة رائعة مبكية، وليس من ريب في أن ناظمها أديب كبير وشاعر

بارع؛ ومن حق الأدب أن يُعرف هذا الشاعر المبدع وأن تحقق سيرته؛ بيد أننا نترك هذا البحث لمؤرخ الأدب الأندلسي في عصر السقوط؛ وفي رأينا أن أهمية القصيدة ليست في قيمتها الأدبية، بل أن أهميتها ترجع بوجه خاص إلى ما تضمنته من الإشارات واللمحات التاريخية لحوادث المأساة الأندلسية؛ وهي بهذا الاعتبار وثيقة تاريخية لها قيمتها؛ ولهذا رأينا أن نؤثرها بتحليل عناصرها الواقعية، وإيضاح ما فيها من الإشارات واللمحات التاريخية.

وأول ما يجب تحقيقه هو الفترة التي وضعت فيها القصيدة؛ وفي تعيين هذه الفترة تحقيق للعصر الذي عاش عيه الشاعر، وللظروف والملابسات التي أحاطت به؛ هذه الفترة على ما يبدو من كثير من مقطوعات القصيدة هي الفترة التي تلت سقوط غرناطة مباشرة؛ ونحن نعرف أن غرناطة سقطت في أيدي النصارى في صفر سنة 897هـ (ديسمبر سنة 1491) ودخلتها جنود فرديناند الكاثوليكي في الثاني من ربيع الأول (2 يناير سنة 1492)؛ وكانت قواعد الأندلس قد سقطت قبل ذلك كلها تباعاً في أيدي النصارى؛ فسقطت مالقة في شعبان سنة 892 هـ (1487م)، ووادي آش والمنكب والمرية في أواخر سنة894 هـ (1489م)، وبسطة في المحرم سنة 895 (ديسمبر سنة 1489)، وهي آخر قاعدة أندلسية سقطت قبل غرناطة؛ أما رندة التي يستهل الشاعر قصيدته بالإشارة إليها فقد سقطت في يد النصارى في سنة 1485 (890 هـ)؛ ويبدو من أقوال الشاعر المؤسية عن رندة أنه ربما شهد سقوطها، وأن هذا الحادث قد ترك في نفسه أثراً عميقاً يتردد بقوة في روعة استهلاله، وهو أبدع مقطوعة في القصيدة:

أحقاً خبا من جو رندة نورها ... وقد كسفت بعد الشموس بدورها
وقد أظلمت أرجاؤها وتزلزلت ... منازلها ذات العلا وقصورها
أحقاً خليلي أن رندة أقفرت ... وأزعج عنها أهلها وعشيرها
وهدت مبانيها وثلت عروشها ... ودارت على قطب التفرق دورها

بل يلوح لنا أن الشاعر ربما كان من أهل رندة وقت سقوطها، وأن إشارته فيما بعد إلى المرية بقوله:

منازل آبائي الكرام ومنشئ ... وأول أوطان غذّانيَ خيرها

لا يذهب إلى أكثر من أن المرية كانت موطن أسرته ومسقط رأسه، وأنه قضى بها حداثته الأولى وربما كان ذلك حوالي سنة 860 هـ وأنه وقت سقوط رندة كان رجلاً ناضجاً يقف على مجرى الحوادث العامة وقوفاً تاماً.

ولنرجع إلى الفترة التي وضعت فيها القصيدة، فنقول إنه من المحقق مبدئياً أنها كتبت بعد سقوط غرناطة؛ وليس هناك ما يدل على أنها كتبت لترسل إلى السلطان بايزيد الثاني العثماني كما يظن الأديب المغربي الذي تولى نشرها. ذلك أن رسائل الاستغاثة التي وجهها زعماء الأندلس إلى السلطان بايزيد الثاني، وإلى الأشرف قاتيباي ملك مصر، وجهت منذ بدء الصراع الأخير، أعني منذ حصار مالقة وقبل سقوطها في سنة 893 هـ (1487م)؛ ولكن الاستغاثة لم تغن شيئاً، وسقطت قواعد الأندلس تباعاً في يد النصارى على النحو الذي فصلنا ولما اشتد النصارى في معاملة المسلمين بعد سقوط غرناطة؛ وأرغموهم على التنصر، وعصفت بهم محاكم التحقيق (محاكم التفتيش)، كتب بعض كبرائهم إلى بايزيد الثاني في أواخر عهده يستغيث به، وذلك حوالي سنة 1505م، أعني بعد سقوط غرناطة بنحو أربعة عشر عاماً، وقد استطال عهد بايزيد الثاني حتى وفاته في سنة 1512م؛ وقد نقل إلينا المقري هذه الرسالة في كتابه (أزهار الرياض) ونقل إلينا معها شعراً مؤثر يصف به صاحب الرسالة عسف محاكم التحقيق، ويبدو من أسلوب هذه الرسالة والشعر كيف انحدرت اللغة العربية وآدابها في الأندلس في تلك الفترة بسرعة مدهشة، وكيف استطاعت السياسة الأسبانية في مدى قصير أن تخمد جذوة الشعر والأدب.

أما القصيدة التي نحن بشأنها فيبدو أنها كتبت قبل ذلك بحين، والمرجح أنها كتبت في سنة 904 أو 905 هـ (سنة 1500م). ولنا على ذلك أدلة عديدة، منها قوة القصيدة وروعتها مما يدل على أنها كتبت عقب الفاجعة بأعوام قلائل قبل أن يخف وقعها في النفوس، وقبل أن تحدث السياسة الأسبانية أثرها في قتل اللغة العربية؛ ومنها الترتيب

التاريخي الذي اتبعه الشاعر، فهو يورد الحوادث تباعاً بترتيبها التاريخي، إذا استثنينا إشارته إلى غرناطة؛ وبيان ذلك أنه يبدأ بالإشارة إلى سقوط رندة، وقد كانت أول قاعدة سقطت في أيدي النصارى سنة 890هـ (1485م) كما قدمنا؛ ثم يتبعها بالإشارة إلى سقوط مالقة في قوله:

فمالقة الحسناء ثكلى أسيفة ... قد استفرغت ذبحا وقتلا حجورها
وجزت نواصيها وشلت يمينها ... وبدل بالويل المبين سرورها
وقد كانت الغريبة الجنن التي ... تقيها فأضحى جنة الحرب سورها

وفي هذا البيت الأخير إشارة فطنة إلى موقع مالقة ومناعتها وكونها كانت حصن الأندلس من الغرب، فلما سقطت سقطت قواعدها في يد العدو تباعاً؛ ويشير الشاعر بعد ذلك إلى سقوط بلش مالقة في قوله:

وبلَّش قطت رجلها بيمينها ... ومن سريان الداء بان قطورها
وضحت على تلك الثنيات جحرها ... فأقفر مغناها وطاشت حجورها

وكان سقوط بلش وهي حصن مالقة من الشمال الشرقي في جمادى الأولى سنة 892هـ (إبريل 1487م) وعلى أثر سقوطها حاصر النصارى مالقة واستولوا عليها في شعبان من هذه السنة (أغسطس سنة 1487).

ولما استولى النصارى على مالقة أخذت ثغور الأندلس وقواعدها الباقية تسقط تباعا في يد النصارى فسقطت المرية والمنكب في أواخر (سنة 894هـ - 1489م)، وسقطت بسطة في المحرم سنة 895هـ (ديسمبر 1489م)؛ ثم استولى النصارى على وادي آش قاعدة مولاي عبد الله (الزغل) في صفر من تلك السنة (يناير 1490م)؛ ويشير الشاعر إلى هذه الوقائع بعد ذلك في قوله:

وبالله إن جئت المنكب فاعتبر ... فقد خف ناديها وجف نضيرها
وقد رجفت وادي الأشى فبقاعها ... سكارى وما استاكت بخمر ثغورها
وبسطة ذات البسط ما شعرت بما ... دهاها وأنى يستقيم شعورها
وما أنس لا أنس المرية إنها ... قتيلة أوجال أزيل عذارها

ولم يبق بعد سقوط هذه القواعد في يد المسلمين سوى غرناطة، وقد سقطت في يد العدو في صفر سنة 897هـ (ديسمبر سنة 1491م) وإلى ذلك يشير الشاعر خلال ما تقدم:

ألا ولتقف ركب الأسى بمعالم ... قد ارتج باديها وضج حضورها
بدار العلى حيث الصفات كأنها ... من الخلد والمأوى غدت تستطيرها
محل قرار الملك غرناطة التي ... هي الحضرة العليا زهتها زهورها
ترى الأسى أعلامها وهي خشع ... ومنبرها مستعبر وسريرها
ومأمومها ساهي الحجى وإمامها ... وزائرها في مأتم ومزورها

فهذا الترتيب التاريخي خلال قصيدته من عميق تأثره بالحوادث التي يصفها، مما يدلي بحداثة عهده بالمأساة حسن وضع رثاءه المفجع؛ بيد أن هنالك أيضاً في قصيدته ما يكاد يعين هذا العهد في نظرنا وهو قوله:

وجاءت إلى استئصال شأفة ديننا ... جيوش كموج البحر هبت دبورها
علامات أخذ ما لنا قبل بها ... جنايات أخذ قد جناها مثيرها
فلا تمتحي إلا بمحو أصولها ... ولا تنجلي حتى تخط أصورها
معاشر أه الدين هبوا لصعقة ... وصاعقة وارى الجسوم ظهورها
أصابت منار الدين فانهد ركنه ... وزعزع من أكنافه مستطيرها

فهذه الإشارات تنصرف في نظرنا إلى أول محاولة قام بها الأسبان لتنصير المسلمين، ونقض عهودهم التي قطعوها لهم عند تسليم غرناطة باحترام دينهم وشرائعهم، وتأمين أشخاصهم وأعراضهم وأموالهم وحرياتهم. وكان ذلك سنة 904هـ (1499م) حينما قرر مجلس الدولة أن يفرض التنصير على المسلمين، وذلك لأعوام قلائل فقط من سقوط غرناطة. بل يلوح لنا أن الشاعر يشير بقوله:

ألا واستعدوا للجهاد عزائما ... يلوح على ليل الوغى مستنيرها
بأسد على جرد من الخيل سبق ... يدعُّ الأعادي سبقها وزئيرها
بأنفس صدق موقنات بأنها ... إلى الله من تحت السيوف مصيرها

إلى الثورة التي حاولت بعض المناطق الإسلامية أن تقوم بها مقاومة لقرار التنصير؛

ويلاحظ هنا أن الشاعر يقف عند هذه الواقعة في الإشارة إلى الحوادث التاريخية مما يدل على أنها آخر حادث أدركه وقت نظم مرثيته؛ فإذا صح الاستنتاج الذي سقناه على النحو المتقدم، فأنا نستطيع أن نقول إن الشاعر وضع مرثيته كما قدمنا حوالي سنة 904 أو 905 هـ (نحو سنة 1500م).

وهذا ومما يلاحظ أيضاً أن الشاعر قد تأثر في مواطن كثيرة من قصيدته بالقصيدة الطائرة الصيت التي نظمها سلفه ومواطنه أبو البقاء الرندي في رثاء الأندلس، وأنه أستمد منه بعض الوحي والمعنى؛ فقوله مثلاً:

فوا حسرتا كم من مساجد حولت ... وكانت إلى البيت الحرام شطورها
ووا أسفا كم من صومع أوحشت ... وقد كان معتاد الأذان يزورها
فمحرابها يشكو لمنبرها أحوى ... وآياتها تشكو الفراق وسورها

مستمد من قول أبي البقاء في مرثيته:

حيث المساجد قد صارت كنائس ما ... فيهن إلا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكي وهي سجادة ... حتى المنابر ترثي وهي عيدان

وقوله:

وكم طفلة حسناء فيها مصونة ... إذا أسفرت يسبي العقول سفورها
تميل كغصن البان مالت به الصبا ... وقد زانها ديباجها وحريرها
فأضحت بأيدي الكافرين رهينة ... وقد هتكت بالرغم منها ستورها

مستمد من قول أبي البقاء:

وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت ... كأنما هي ياقوت ومرجان
يقودها العلج للمكروه مكرهة ... والعين باكية والقلب حيران

وهكذا في مواطن أخرى. بيد أن شاعرنا يفيض في نظمه وفي تصويره قوة وطرافة.

وليس من ريب أن مرثيته المفجعة من أبلغ وأروع ما رثيت به دولة الإسلام في الأندلس.

محمد عبد الله عنان

قصة المكروب كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكي وكيل كلية العلوم

بستور والكلب المسعور

- 1 -

لن يدور بخلدك أيها القارئ أن بستور ترك اسمه للنسيان، وشهرته للنقصان، أثناء الزوابع التي أثارها كوخ في الدنيا وهو يثبت أن المكروب يقتل الناس. وكيف يجوز هذا على بستور وفي عوده ما نعلم من صلابة، وفي أنفه لتصيد المكروب ما في أنف الكلب، وفي نفسه ما في نفس الشاعر من الحس والخيال؛ وهو فوق ذلك رب الدعاية الذي يعرف كيف يأتي الجماهير فيشهدهم فيتركهم صرعى حيارى مما رأوا أو سمعوا؟

في أواخر العقد الثامن من القرن الماضي - وكان كوخ قد اكتشف بذور داء الجمرة فأدهش الأطباء وأفرغ وأبدع - قام بستور ينفي بهزة من كتفه، وكلمة من أنفه، وتلويحة من يده، ما تمخضت عنه تجارب الأطباء ألوف السنين. يا لها صفاقة من كيميائي! وحكاية ذلك أنه جاءت فترة من الزمان صارت فيها مستشفيات الولادة بباريس مخابئ للوباء، تدخلها الأمهات يملؤهن الأمل ويحدوهن الرجاء، ولكن القدر الصائد الخبيء فيها كان يختطف منهن أما من كل تسع عشرة، تذهب بها حمى النفاس تاركة ولدها يلقى الحياة بغير حب الوالدات. وماتت عشر نسوة متتابعات في مستشفى واحد فأسماه الناس (بيت الإجرام)، وارتاع النساء فلم يثقن بالأطباء حتى أغلاهم أجوراً، وبلغت بهن الريبة فأخذن يقاطعن المستشفيات، وخشي كثيرات منهن مواجهة مخاطر الحمل فرغبن بحق عن النسل، والأطباء أنفسهم فزعوا وافتضحوا بمرأى رسل الموت قائمة هكذا على أبواب الحياة وهي تولد. وذات يوم اجتمعت أكاديمية الطب بباريس، وقام فيها طبيب شهير يخطب ويجلجل في أسباب حمى النفاس - وهو وا أسفاه يجهلها كل الجهل - وامتلأ خطابه الرنان بكثير من الكلمات الإغريقية الطويلة، وكثير من الألفاظ اللاتينية الفخمة، وبينا هو في إحدى جملهُ الطنانة

قاطعه صوت كالرعد جاء من مقاعد البهو الأخيرة. قال صاحب الصوت: (إن الذي يقتل النساء بحمى النفاس ليس الذي تقول، ولا شيئاً يشبه الذي تقول. إن الذي يقتلهن أنتم أيها الأطباء، فأنتم الذين تحملون المكروبات القتالة من المرأة المريضة إلى الأخرى الصحيحة. . .!) وما كان صاحب الصوت إلا بستور، وكان قد قام عن مقعده، وكانت عيناه تتطاير شرراً.

قال الخطيب: (قد تكون على صواب، ولكن أكبر ظني أنك لن تجد هذا المكروب أبداً. . .) وأراد أن يعاود خطابته المقطوعة، ولكن بستور كان في هذه اللحظة قد اخترق الصفوف ومشى إلى المنبر يجر وراءه رجله، وقد كانت شُلت بعض الشلل. ولما بلغ السبورة أمسك بعنف قطعة من الطباشير وصاح في الخطيب وهو في ضيقه، وفي أعضاء المجمع وهم في دهشة مما جرى، قال: (أنت تقول إني لن أجد هذا المكروب. أيها الرجل، إني وجدته، وشكله هكذا!) ورسم بستور على السبورة سلسلة من دوائر صغيرة، فأنفض الاجتماع في اختلاط كالعِقد انقطع نظامه.

كان بستور قارب الستين من عمره، ولكن كان لا يزال به عنف الخامسة والعشرين وتهورها، وكان كيميائياً، واختص في تخمير سكر البنجر، وعلم الخمارين كيف يدفعون الفساد عن خمورهم، وترك هذا العمل فجأة وأخذ في تخليص دودة القز مما اعتراها، وقام في فرنسا بالدعاية إلى تحسين البيرة الفرنسية وفعلاً تحسنت عما كانت، وقضى تلك السنين الطويلة يشتد على نفسه في العمل فأنجز فيها ما يستنفد أعمار عشرة رجال، ولكنه ظل يحلم دائماً طوال هذه السنين بالمكروبات وبأمل إصطيادها، لأنه عَلم عِلم اليقين أنها سبب مصائب الإنسان ومنشأ أمرضه الخبيثة

ولكنه استيقظ يوماً فوجد كوخ سبقه إلى ما أمل فحل العقد التي رجا هو أن يحلها. وإذن تحتم عليه أن ينهض لكوخ هذا وأن يلحق به. وكأني به يتمتم لنفسه فيقول: (وعلى كل حال فالمكروبات من بعض الوجهات من متاعي وحقي، وأنا أول من أبان خطرها منذ عشرين عاماً لما كان كوخ طفلاً صغيراً. . . .)

على أن لحاق بستور بكوخ قامت دونه عقبات. منها أن بستور لم يجس نبضاً قط، ولم يقل قط لرجل مصفور أخرج لسانك. ولقد يشك في قدرته على تمييز الرئة من الكبد. ومن المؤكد أن يده لم تكن تعرف كيف تأخذ بالمشرط. أما تلك المستشفيات القاسيات فبعداً لها وسحقاً، فقد كانت روائحها تبعث الألم في قرارة معدته، وكانت أصوات مرضاها وأناتهم

تخرج من حجراتها إلى دهاليزها القذرة فيألم لها صاحبنا فيهم بسد أذنيه ويفر منها هارباً. على أن بستور لم يلبث أن تخطى هذه العقبات وذلل هذه الصعوبات. فهذا كان دائماً دأب هذا الرجل الذي لا يغلب، إذا قامت في سبيله صخرة فلم يستطع أن يقفز من فوقها دار من حولها. فاتخذ لنفسه أعواناً ثلاثة من الأطباء فبدأ أولا بالطبيب جوبرت ثم بالطبيبين وشمبرلاند وكانوا أحداثاً صغاراً. في آرائهم أحراراً، بل بلاشفة ثائرين على الطب القديم وتعاليمه السخيفة. وجلسوا في المجمع الطبي يستمعون لمحاضرات بستور، وكانت مما يزهد عامة الأطباء فيه، ولكن هؤلاء الثلاثة كانوا ينصتون ويغتبطون معجبين ببستور عابدين مؤمنين بكل نبوءة يتنبأ بها من كل وباء فتاك يثيره كل خبيث دقيق يخفي على البصر من الأحياء. تفضل بستور ففتح لهذا الثالوث أبواب معمله، فعلموه عوضاً من هذا تركيب جسم الحيوانات وكيف تعمل وتحيا، وعرفوه المحقن فأبانوا له الفرق بين إبرته وكابسته، وأقنعوه بأن الحيوانات مثل الأرانب والخنازير الغينية لا تكاد تحس إبرة المحقن وهي تضرب في جلدها، وكان رجلا يسوؤه أن يرى الألم أو أن يفعله. وعقدوا الخناصر فيما بينهم على أن يكونوا لوليهم هذا عبيداً طائعين، وأن يكونوا لهذا العلم الجديد رسلاً مبشرين.

إن صيد المكروب ليس له سبيل واحدة يقال لها هذه، وهذه فحسب. وتلك حقيقة لا مراء فيها. ودليلنا عليها السبيلان اللتان اتخذهما كوخ وبستور لنفسيهما، فقد اختلفا اختلافاً بيناً على الرغم من اتفاق الغاية التي قصدا إليها. أما كوخ فكان يطبق المنطق في برود قاتل، حتى لكأنه كتاب هندسة في يد طالب - فقد بحث بشلة السل بتجاريب غاية في التنظيم، وخال عنها كل الاعتراضات التي يخالها الشكاكون الناقدون، وذلك قبل أن يعلم هؤلاء بوجود شئ ينقد. وكان كوخ ينشط إلى ذكر خيباته كما ينشط إلى ذكر فوزاته، وبمقدار واحد لا يزيد في هذه على تلك أبداً. فقد كان له إحساس بالعدل

غير إنسي. وكان ينظر إلى كشوفه نظرة الناقد المتغالي حتى لكأنها لغيره. أما بستور فقد كانت في قلبه شهوة على البحث متقدة، فكانت تخرج من رأسه النظريات الصائبة تتلوها أخواتها الخاطئة في تتابع سريع كأنها صواريخ النيران انطلقت في مهرجان، ولكن في قرية، فخرجت على غير عمد وفي غير نظام.

بدأ بستور يبحث عن مكروبات الأمراض فثقب دملا في عنق أحد أعوانه وربّى مما أخرج منه جرثومة؛ وما أسرع ما أيقن أنها أصل الدمامل وسببها. وبغتة ترك ما هو قائم فيه من ذلك وهرع إلى مستشفى فوجد مكروبه المتسلسل في أجسام النسوة وهي تموت، فما أسرع ما قال إنه مكروب حمى النّفّاس! ومن المستشفى طار إلى الريف ليكتشف أن دود الأرض يحمل بشلة داء الجمرة من جثث الأبقار الوبيئة المدفونة في باطن الأرض ويخرج بها إلى ظهرها، ثم هو لا يثبت كشفه هذا إثباتاً كاملاً. كان بستور عبقرياً في العباقرة، غريباً يحس بحاجة دفاعة إلى القيام بعشرة الأمور في آن واحد، ولا يحتفل بمقدار الدقة التي ينجزها بها فهي قد تنقص وقد تزيد، كل هذا ليكشف عن تلك الذرة من الحقيقة التي تتراءى في أكثر أعماله

خبط بستور في كل أرض، وهب مع كل ريح، وليس بعسير عليك أن تدرك في كثرة خبطاته وتنوع هباته أنه كان يتلمس طريقاً تؤدي به إلى سبق كوخ والتفوق عليه. أثبت كوخ في وضوح جميل أن الجراثيم تحدث الأمراض؛ لا شك في هذا. ولكن ليس هذا كل شئ. ليس هذا الإثبات أهم شئ. فأهم منه اكتشاف طريقة تمنع هذه الجراثيم من قتل الناس؛ أهم منه حماية الإنسان من الموت. وفي سبيل هذا ظل بستور يخبط طويلاً على غير هدى. قال رو يصف تلك الفترة من حياة بستور بعد أن فاتت بزمان طويل: (أي تجربة سخيفة لم نبتكر! أي تجربة مستحيلة لم نتخيل! ثم يصبح الصباح فنضحك من أنفسنا من جرائها ملء أفواهنا طويلاً).

لا بد لفهم بستور من تفهم أخطائه وانهزاما ته بمثل ما نتفهم إصاباته وانتصاراته. لم يكن لبستور صبر كوخ ولم تكن له دقته، فلم يهتد إلى ما اهتدى إليه كوخ من تربية الميكروبات نقية. فذات يوم أغلى بستور بولا في قبابة وزرع فيها بشلات الجمرة ثم نظر إليه بعد ذلك فساءه وغلظه أن وجد به ميكروبات دخيلة جاءته من الهواء. وفي الصالح التالي نظر إليه أخرى فلم يجد به من مكروبات الجمرة شيئاً. لقد ذهبت بها جميعاً مكروبات الهواء! وعندئذ يقفز بستور قفزة بارعة إلى الفكرة الآتية: (حيث أن مكروبات الهواء المسالة استطاعت أن تخنق بشلات الجمرة التي في القبابة فلا شك أنها فاعلة ذلك في الأجسام. والظاهرة واضحة: مكروب يأكل مكروب). وما أسرع ما صاح بذلك في الناس! وما أسرع ما كلف

عونيه رو وشمبرلاند بإجراء تجربة بديعة في الخيال مؤداها حقن مكروب الجمرة في خنازير غينية ثم اتباعها بحقن مكروبات هادئة مسالمة رجاء أن تطارد في الدم تلك المكروبات الثائرة اللعينة فتقتلها وتزدردها ازدراداً. وأعلن بستور في جِدّ عابس قال: (إن هذه التجربة قد يكون من ورائها انفتاح الأبواب لعلاج الأمراض وشفائها). وهذا آخر ما تسمع منه عن هذه التجربة التي أثارت كل هذا الأمل الهائل. فهكذا كان بستور يخفي إخفاقاته عن العلماء فيحرمهم من درسها، وقد يكون في درسهم إياها الإصلاح والنجاح.

غير أنه لم يمض قليل من الزمن حتى كلفته أكاديمية العلوم أمراً غريباً وبعثته إنابة عنها رسولاً، وفي أداء هذا الأمر وإيجاز هذه الرسالة عثر بستور غير عامد على حقيقة أنارت له السبيل فاهتدى على نورها إلى طريقة يؤنس بها شوارد المكروبات فتنقلب من بعد عدائها للإنسان أمناً عليه وسلاماً. نعم وقع على هذه الحقيقة فأخذ بناء عليها يخط الخطط ويحلم الأحلام، فيجد نفسه قد أثار المكروب الحي بعضه على بعض، وبث فيه الخصام فأباد نفسه بنفسه، فنجا الحيوان والإنسان من الموت، وكفى الله المؤمنين القتال. وقصة ذلك أنه شاع في ذلك الوقت أن بيطرياً اسمه لوفرييه اكتشف علاجاً لداء الجمرة، وذلك في جبال الجور بشرق فرنسا. وذاع أمر هذا العلاج واشتهر. وشهد أعيان الناحية بأن مئات الأبقار شفيت به وهي على باب الموت، وإذن آن أوان العلم أن يقر هذا العلاج الجديد.

وبلغ بستور تلك الناحية من جبال الجورا، وصحبه أعوانه الشباب فوجدوا أن هذا العلاج

المعجز يتلخص أولا في أن يقوم نفر من الفلاحين بدعك البقرة المريضة دعكا شديدا لتحتر ما استطاعت إلى الاحترار سبيلا، ثم يشرط جلد البهيمة المسكينة شرطا، ويصب زيت التربنتينة على هذه الشروط صباً، وبعد التمثيل بها هذا التمثيل الشنيع يغطى جسمها إلى رأسها بطبقة سميكة من مادة لا نذكرها تأدباً، وذلك بعد نقيعها في الخل الساخن، وتظل البقرة تصعق بالخوار شديداً من الألم ولا سامع ولا راحم. أما وقد تم كل هذا، وقد ودت البائسة المعذبة لو تموت، فيغطى جسمها أجمع بثوب شامل ليستبقي هذا المرهم الغريب عليها زمناً مقدوراً.

قال بستور للوفرييه: (إن البقر الذي تصيبه الجمرة لا يموت كله بل يشفى بعضه من ذات نفسه. وعندي تجربة لا أرى عدلا لها ترينا هل حقا علاجك هو سبب خلاص هذه الأبقار. (فهيا بنا يا عزيزي نجرب

وأحضر لهما أربع بقرات، وقام بستور في حضرة لوفرييه وبشهود وفد عليه سيما الجد من المزارعين، فطعن الأبقار في أكتافها أربع طعنات من محقنه بعد أن ملأه بزريعة من مكروبات الجمرة، فانساب في أجسامها مقدار يقتل الشاة الواحدة بالتحقيق ويقتل من الخنازير الغينية عشرات. وفي الغد عاد بستور ولوفرييه ووفد المزارعين فوجدوا الأبقار جميعاً قد علت أكتافها أورام حادة محمومة، وهي تتنفس شخيراً. فلم يعد شك في أنها في إبان مرضها.

قال بستور لصاحبه: (والآن يا دكتور، تقدم فاختر بنفسك بقرتين من هذه الأربع المريضة. ولنسمها أ، ب فخذها وعالجها على نحو ما تفعل. أما هاتان البقرتان الأخريان ج، د فدعهما بلا علاج) وقام لوفرييه على البقرتين البائستين يصب عليهما النقمة التي تدعى علاجاً. فكانت النتيجة ضربة قاضية على العلاج وعلى صاحبه الذي أحسن النية وقصد الخير - ذلك إن إحدى البقرتين اللتين عولجتا ماتت وسلمت الأخرى، وإحدى البقرتين اللتين لم تعالجا ماتت وسلمت الأخرى.

قال بستور لصاحبه: (حتى هذه التجربة كان في إمكانها أن تخدعنا، فلو أنك أعطيت دواءك للبقرتين ا، د بدلا من ا، ب وحدث الذي حدث، أذن لظننا أنك وقعت للجمرة على خير علاج) مات في التجربة بقرتان، وسلمت فيها بقرتان وشفيتا لكن بعد أن عانت من الداء الأمر. ففكر بستور فيما هو صانع بهما، قال: (أظن أنه لا بأس من حقنهما مرة أخرى بنسل من مكروب الجمرة أخبث من الأول. إن عندي في باريس نسلاً شديد الفتك لو أنه حقن في كركردن لسود ليلته وأفسد عليه نومته) وبعث بستور في طلبه من باريس فلما جاء حقن منه قطرات في كتف البقرتين، واصطبر ينتظر مرضهما فلم يمرضا، حتى الورم لم يحصل حيث ضرب بإبرة المحقن من كتفيهما. وبقيت البقرتان سليمتان هنيئتين ولم تحفلا بالذي كان!

فقفز بستور إلى إحدى استنتاجاته السريعة، قال: (أن البقرة التي تصاب بالجمرة ثم تشفى لا تأتيها الجمرة مرة أخرى ولو حقنت بما على ظهر البسيطة من مكروب هذا الداء - إنها إذن تصبح حصينة). وأخذت هذه الفكرة تدور بفكره ثم تدور، يلعب بها وتلعب به فلم تسمع أذنه ما ألقت زوجه عليه من سؤال، ولم تر عينه ما وقعت عليه الأشياء. (كيف أستطيع أن أعطي الحيوان شيئا قليلاً من مرض الجمرة، شيئاً يعطيه الداء ولا يقتله، ولكن يتركه من بعد ذلك حصيناً. . . . كيف السبيل إلى ذلك. . . . لا بد من سبيل. . . لا بد أني واجده)

ومضت أشهر وبستور على هذه الحال. وكان يقول لرو ولشمبر لاند (أي سر في الدنيا أشد خفاء من أن المرض الخبيث إذا زار مرة وارتحل، فلن يعود مرة أخرى) وبقى يردد بين شفتيه: (لا بد من الحصانة لا بد أن نحصن من المكروب. . . . لابد. . . . لابد.) (يتبع)

احمد زكي

نظرية النسبية الخصوصية

المقال الثاني وحدة قوانين الطبيعة والبعد الرابع في النسبية

للدكتور إسماعيل احمد أدهم

عضو أكاديمية العلوم الروسية

إنه من غير الممكن التوفيق في نظام غاليلي (نسبة لغاليلو العالم الفلكي الإيطالي) بين سنة النسبية الكلاسيكية ومبدأ انتشار النور بسرعة ثابتة إلا برد مبدأي إطلاق الزمان والمكان والرجوع بهما إلى هيئات القياس، أعني إلى مبدأ نسبتيهما إلى الهيئة التي تقاسان بالنسبة لها. فإذا فرضنا نظاماً مادياً مثل (ع) ومن نقطة مثل (م) فيها لنفرض أن شعاعة ضوئية مثل (ص) صدرت، فستكون سرعة هذه الإشارة الضوئية واحدة في كل الاتجاهات. فإذا فرضنا أن هذه الإشارة الضوئية حددت في زمان مثل (ت) وكان مرموزاً لسرعة الضوء بالرمز (ن) فهذه الشعاعة ستتبع القانون الآتي:

ك2 + ي2 + ز2 - ن2ت2=م

لننتقل إلى نهاية امتداد نظامها، وهنا الرموز ك، ي، ز، تمثل ثلاث حوادث حدثت في الكون (ع) فإذا فرضنا نظاماً مادياً أخر مثل (ع) متعامدة على النظام الأول وتتحرك حركة نسبية إزاءها فأن الدستور أو القانون الدال على الحادثات يتغير من الأول إلى آخر هو:

ك21 + ي21 + ز21 - ن2 ت21=م

وفي هذا القانون يكون الرمز (ت1) لأوان الزمن الذي بدأ فيه انتشار الشعاعة الضوئية والمقادير

ك، ي، ز، ت، ك1، ي1، ز1، ت1

لما كانت ظواهر مستمدة من الإشارات الضوئية حدثت في الكون (ع) كان معنا المعادلة:

ك2 + ي2 + ز2=ن2ت2=أ (ك21 + ي21 - ز21 - ن2ت21=م

وهنا (أ) رمز لسنة التقلص، ولما كان خط الانتقال من النظام (ع) إلى (ع1) لا يؤثر في الحادثات لثبوت قوانين الطبيعة كانت القوانين الطبيعية في النظام (ع) هي القوانين التي

بالنظام (ع1)؛ واستناداً إلى ما تقدم نقرر أن: أ=1 فيكون القانون الدال على حركة انتقال الشعاعة من (م) إلى نهاية امتداد حد النظام بالنسبية للنظام المادي (ع) هو نفسه القانون الدال على الانتقالية بالنسبة للنظام المادي (ع1) وينشأ بذلك معنا المعادلة الآتية:

ك2 + ي2 + ز2 - ن2ت2=ك21 + ي21 - ز21 - ن2ت21

لأن سرعة النور تنتشر بسرعة ثابتة في جميع الاتجاهات وإذا ما فرضنا أن في النظام (ع) المادي المحاور: م1ك1، م1ي1، م1ز1

موازية للمحاور م2ك2، م2ي2، م2ز2 في النظام (ع1) وفرضنا أن المحورين (م1ك1) و (م2ك2) موازيان لاستقامة السرعة النسبية (س) فبالنسبة لراصد مثل (ص) يرصد الحادثات ك، ي، ز في النظام (ع) والحادثات ك1، ي1، ز1 في النظام (ع1) أن حدثت في الزمان (ت2) حوادث النظام (ع) فلتحقيق المساواة العليا يجب أن يتحقق أن:

ك2=ق (ك1 - س ت1)

ي2=ي1

ز2=ز1

ت2=ق (ت1 - س ك1ن2)

ك1=ق (ك2 + س ت2)

ي1=ي2

ز1=ن2

ت1=ق (ت2 + س ك2ن2)

حيث كان فيها ق رمزاً لقانون التقلص أعني أن

ق=أ=1 (1 - س2ن2)

هذه المقادير الرياضية شهيرة بقوانين التحويل اللورانتزي نسبة إلى كاشفها العلامة لورانتز الهولندي، وهذه المقادير ما دامت قد استخرجت مرة واحدة فيجب قبول مبادئ الميكانيكا التي أذاعها لورانتز كنتيجة مسلسلة من نظرية النسبية الخصوصية.

أوضحنا فيما سبق أن أفكار اينشتين في النسبية الخصوصية تقوم على أساسين:
الأول: انتشار الضوء بسرعة ثابتة في الأكوان المختلفة أعني أن الأمواج النورية ليست تتبع مصادرها من حيث الحركة والسرعة، فبمجرد انطلاق موجة نور من منبعها تستقل عن مصدرها وتنتشر خلال الفضاء وفي رحاب المكان بحركة منظمة ذات سرعة ثابتة
الثاني: الحوادث التي تقع داخل أكوان تتحرك بازاء بعضها تنظم من حدوثها قوانين طبيعية تكون في جميع أطوارها ثابتة لا تتغير.
والمبدأ الثاني نتيجة للأول. ومن هذين المبدأين يستنتج انشتين القاعدتين الآتيتين:
الأولى: أن سرعة النور لها مقدار ثابت لا يتغير
الثانية: ينظم من حدوث الحوادث التي تقع في أكوان تتحرك بازاء بعضها حين انتقالها من كون إلى آخر قوانين التحويل التي كشف عنها العلامة لورانتز.
وبذلك تحافظ معادلات المجال الالكترومغناطيسي على صبغتها التقديمية بينما قوانين غاليلو تغير من هذه الصيغة
إن قوانين لورانتز لا تتفق مع قوانين غاليلو، ذلك لأن الثانية تقوم على مبدأ إطلاق الزمان في الوقت الذي تقوم فيه قوانين لورانتز على مبدأ نسبية الزمان، ومن بين قوانين لورانتز وغاليلو تكونت تجربة (ميكلصون - مورلي)
كان من المنتظر أن تعطي تجربة (ميكلصون - مورلي) نتيجة إيجابية بالنسبية لمجاميع غاليليو التحويلية بينما كانت ترجح لها نتيجة سلبية بالنسبة لمجاميع لورانتز التحويلية من حيث كونها تتضمن مفهوم كل من الزمان والمكان نسبياً.
لقد تأيدت معادلات التحويل التي أذاعها العلامة لورانتز بنتيجة (ميكلصون - مورلي) السلبية وكانت نتيجة هذا التأييد أن رجعت بالميكانيكا الكلاسيكية إلى مبادئ الالكتروديناميكا.
وعلى وجه عام فقوانين المجال الالكترومغناطيسي صحيحة إلا أن قوانين ومبادئ الميكانيكا الكلاسيكية يمكن تطبيقها على السرعات العادية التي هي كسر ضئيل من سرعة الضوء. وفي السرعات الكبيرة يلزم الرجوع لقوانين المجال الالكترومغناطسي. وفي حالة تطبيق المبادئ الميكانيكية الكلاسيكية للسرعات البسيطة يجب أن توفق مع قوانين لورانتز
التحويلية.
إن نظرية كلارك ماكسويل في الكهرب مغناطيسية تقوم على أساس ثبات سرعة الضوء، وعلى التأثير القربي في انتشاره، وبذا تتحقق دساتير وقوانين التحويل التي أذاعها لورانتز ويتقرر مبدأ نسبية الزمان وينتفي إمكان وجود أية علاقة تربط أثراً ذا سرعة لا متناهية كالضوء بالمؤثر، أعني منبع الضوء.
وخلاصة القول إن علم الحركات الذي كشف عنه اينشتين هو علم الحركات التجريبي، وهو يستند على دساتير لورانتز التحويلية وتومئ إلى وحدة قوانين علم الحركات.
(تم المقال الثاني)
إسماعيل أحمد أدهم
تاريخ الأدب النسوي في فرنسا
للأستاذ محمد بك كرد علي
بقية ما نشر في العدد الماضي
وما ظهرت تباشير القرن التاسع عشر، حتى صحت العزائم على تعليم المرأة تعليماً رسمياً، ففي سنة 1836 منحت حق التعليم الابتدائي العالي، وفي سنة 1850 نشر قانون يقضي بإنشاء مدرسة في كل كورة يتجاوز سكانها ثمانمائة إنسان، وبعد سبع عشرة سنة عم هذا القانون الأقاليم بأسرها ولاسيما ما يجاوز سكانه الخمسمائة. وفي سنة 1878 نشر أحد عظماء الكتاب كتاباً أسماه (الجوارب الزرقاء) أورد فيه عدة مقالات في المتأدبات والكاتبات، وقال أن هذا الجنس من النساء الكاتبات قد خرجن عن الأنوثة. وما هن إلا الرجال، بيد أنهن لم يبلغن مبلغهم، يريد بقوله صاحبات الجوارب الزرقاء النساء اللائي كن لكثرة ما صرفن من همتهن العقلية قد بلغت حالهن أن يذهدن في التجميل ويلبسن جوارب زرقاء مثل المعجبات بأنفسهن في إنجلترا.
واستطاعت المرأة بعد هذه الحقبة من الزمن أن تظهر بظهور مدام كوري تلقى دروساً في (كوليج دي فرانس)، وما بقيت قلعة للذكور إلا وتخطاها النساء، حتى ولا

مدرسة المعلمين العليا ولا منابر الجامعات، ولم يبق أمامهن عائق يعوقهن عن التعلم، ونشر ما يستهوى قلوبهن، ويرضي نفوسهن، وأصبحن في حل من أن يتعلمن كما شاء لهن الهوى؛ وغدا منهن الأساتيذ والصحافيات ومديرات دور الطباعة، وأخذن ينافسن الرجال في جوائز الأدب والمجامع الأدبية العامة والخاصة، فتمت لهن كل أدوات الثقافة في بيوت العلم، ولكن القرائح تخلق خارج المدارس، وللنساء أن يتوسعن ما شئن، وليس في مقدورهن أن ينبعثن إلى الحد الذي يطمحن إليه، ولا يسرح النساء ويمرحن إلا في ظل الحرية، فإذا أخذن من عنان قرائحهن يفقدن أجنحتهن. ولذا بقين إلى أول القرن العشرين يمشين على أثر الرجال، ولم يتحررن التحرر المطلوب إلا في هذا القرن. حتى لقد قال ستندال إن قلة استعداد المرأة لبلوغ مراتب الكمال في تأليف النساء منبعث من كونهن ما جسرن ذات يوم أن يتحللن من قيودهن إلا نصف تحلل، ومتى حاولن الحرية المطلقة فكأنهن يخرجن بلا خمار، على أنهن بعد هذا القول خرجن بلا براقع، وأحياناً بدون دثار ولا شعار؛ والسعادة لم تحالف العاملات من هذا الطراز، فإنهن إذا أغلقن أبواب غرفهن وصرن إلى خلوة لا يسعهن العزاء يعلمهن العقلي، على حين يحاولن أن يجدن لأنفسهن عزاء، فيأتي الشيطان يعبث بأهوائهن، وقلَّ فيهن من تنسى الحب والغرام، فإذا اشتد إغواؤهن أصبح عسرهن إلى مياسرة، وتداعت كل قوة كن يعتصمن بها.

والواقع أن النساء بأسرهن عبيدات حواسهن وأعصابهن وقلوبهن، لا ينجع فيهن اعتراض إذا خالف قانون الطبيعة وأعني الحب. وكان الأديبات منهن إذا مجدن الحب بالمعنى الوجيز يجهلن حب الأمومة على ما تجلى ذلك في مكتوباتهن، ومع هذا تراهن يتكلفن فيما يكتبن ويتطلبن إلى حواسهن وقلوبهن أن تعطي اكثر مما لها، وما كتب لهن إلا أن يكن أدوات تحس وتهتز، وأن يجعلن من العالم مجموعة أحاسيس. وإذا فحصت الأدب النسوي المعاصر من حيث الإنشاء تسقط فيه على قرائح عظيمة وعلى نبوغ أيضاً، ولكن قل أن تقع فيه على شئ اسمه فن. ويقال إن النساء ما عدا اثنتين أو ثلاث منهن لا يحسن التفريق بين المواد التي تتطلبها الحياة، فمنهن من تجتهد اجتهاداً ينتجن به آثاراً طيبة، وكثيرات يرسلن أقلامهن على فيضها كما يشاء الهوى، لا يحفلن التنقيح ولا سلامة التراكيب. وفيهن من اتخذت الأدب للسياسة، ومنهن من عانين فلسفة الأخلاق، ومنهن من مارسن في التربية وظللن فيها متوسطات لم يأتين بإبداع، وفقد في أدبهن التجدد على حين رأينا الأدباء والكتاب بعد الحرب أحدثوا طرائق لهم جديدة خالفوا فيها طرائق الآداب قبل الحرب العامة.

لا جرم أنهن لم يكتب لهن التفوق على الرجال أن التدقيق يصعب عليهن، حتى أن القصصيات منهن لم يتوخين إلا وصف الحب في كل مظاهره، جعلنه موضوع قصصهن؛ وكذلك كان القصصيون، ولهؤلاء قدرة على معرفة المداخل والمخارج في أقاصيصهم، يتبعون العقل، ويحسنون تطبيق الأصول اللازمة، ولم يعهد لامرأة أن برزت، فكانت مؤلفة في الدرامة، وما جاء منهن مؤرخة. فالمرأة تحسن أن تضحك من مثيلاتها، ولكنها لا تحسن الإضحاك. أما الرجل فيحسن نقد نفسه، كما يحسن أن ينتقد غيره؛ والنساء يحاذرن كثيراً من المزاح الذي يأتي على الاعتبار والحرمة والحب. وهن مجموعة عواطف تحس بالحاجة كل الإحساس وتخشى أن تقع فيها، حتى لتضن بالابتسامة صادرة عن امرأة لا تنافسها، وكذلك حالها في التاريخ، فقد نشأ في النساء مدونات مذكرات بكثرة، وقصصيات، ومنهن اليوم أستاذات في التاريخ وأستاذات في استخراج المكتوبات والمخطوطات، يستطعن بما ثقفن من معارف أن يعملن عملاً علمياً وما كان منهن إلى اليوم مؤرخة من عيار (أوغستين تيري)، ولا (ميشليه)، لأن اللازم للتبريز في هذا الشأن معلومات كثيرة ليس في مكنة النساء احرازها، بل الواجب أن يكون لها مع ذلك فكر نقاد عار عن كل هوى للتمييز بين الحقائق والظنون، وعقل مجرب لإدراك ألوف من الروابط تجمع الحوادث بعضها إلى بعض، ورأي أكيد قادر خال من التفصيل في العواطف، وقدرة على النظر إلى عصر واحد نظرة واحدة؛ ولهذا لم ينشأ من النساء امرأة عظيمة واحدة في باب النقد الأدبي والفني، ولا كان منهن فيلسوفة تلفت النظر. ومن النساء من كانت لهن مقدرة على الاستفادة من دروس أساتيذهن، ليس فيهن واحدة ابتدعت مذهباً، وما قام منهن واحدة استطاعت أن تنتج مثل (خطاب في

التاريخ) ولا (الأفكار لباسكال) فهن قاصرات في جميع الفروع التي تستلزم من المؤلف التجرد المطلق من نفسيته، وما لمعت أعمالهن إلا في موضوعات لا فن فيها؛ وقلائل منهن من كتب لهن التفوق في الإنشاء والكتابة، إلا من قادهن الرجال في عملهن، فان (مدام دي لافاييت) أشرف عليها (سكري) و (لاروشفو كولد)، و (مدام دي ستال) سارت بسير أصحابها العديدين، و (جورج ساند) قادها عشاقها، (ومدام كوليت) راقب أعمالها (فنيلي).

فإذا لم تتح مواهب النساء الطموح لهن إلى منزلة في الأدب المجرد، فقد شهدنا في آثارهن أحياناً أنها خالية من الصنعة، فصح أن يقال أن ليس لهن قدرة على التفكير الصحيح، والتوسع اللازم لوضع الفكر المجرد والإنشاء الفني؛ ولذلك تساءل (بول فاليري) عما إذا كانت المرأة ستظل إلى الأبد ظاهرة التوسط في معاناة الأعمال الفكرية، ناقصة في معاني الإبداع والحرية، وعما إذا كان هذا الضعف الملازم هو ثمرة استعبادها زمناً طويلاً. قال: وأنا أود أن يكون الأمر كذلك، ففي الحالة الأولى تكون قد عبثت بها الأقدار الفسيولوجية، وفي الحالة الثانية يحكم عليها بأن انحطاطها ناتج من أخلاقها. قال ولا يخفى ما تؤثره الأخلاق التي تخلق البشر بها والقوانين التي ساروا عليها قروناً في مجموعة التركيب البشري.

ولم يكتب للنساء درجة عالية حتى في فن الطهي، ورأينا كبار الطهاة من الرجال لا من النساء، وتراهن في باب الأزياء، والأزياء من أخص خصائصهن، ينثنين على أنفسهن ليتجملن، فهن في هذا الباب أيضاً مقودات بأيدي الرجل، بل إن النساء الملكات كما لاحظ (باربيه دورفيلي) قد فقدن البداهة والعمل الذاتي وما ساعد الملكة (اليزابيث) الإنجليزية إلا بورليخ، وإذا ذكرت (كاترين) الروسية ذكرت معها بطرس الأكبر.

وقد ظهر من أبحاث العلماء في جميع الأمم أن الطبيعتين الأنوثة والذكورة متخالفتان، لا في ظواهرهما بل في أعمق تراكيبهما؛ والأطباء يقولون إن كلا من الفتى والفتاة ينشأ نشأة طبيعية متخالفة، ويكثر الموت والضعف في الصبيان، ويتجلى الذكاء والإحساس والحكمة في الطفلة، قبل تجليه في الطفل؛ ولا تزال الفروق بينهما تتزايد من الثانية عشرة إلى الرابعة عشرة؛ ويبدو في الصبيان الاستعداد لتعلم الحساب والعلوم المقررة كما يبدو للفتيات بفضل خصوبة إحساسهن، جمال إنشائهن ورقة نشوئهن بالقياس إلى خشونة كتابة الصبيان؛ وبعد اجتياز هذه السن الصعبة يرتقي الصبيان ارتقاء دائماً، أما الصبايا فيقعن فجأة مأخوذات بحالة جديدة، وهي حالة المرأة؛ وكثيرات فيهن من يتركن عندئذ كل عمل. وادعى بعضهم إن ذكاءهن يضمحل في ذاك الدور ليقوم مقامه حس ينصرف إلى الذل، والغزل، والموسيقى، والقراءة، وأعمال الإحسان؛ وكثيراً ما يكون أحسن التلميذات في سن الخامسة عشرة إلى السابعة عشرة ممن تأخر نموهن؛ وبينما يكون البلوغ في الصبي داعياً إلى توسع فكره، وحاملا له على معاناة المسائل الكبرى فوق الطبيعة، تنثني الفتاة على نفسها، وتمشي مع إحساسها، ثم تعاني مشاكل الحب والأمومة، خلافا لما ادعته (مدام دي ستال) من أن الأرواح ليس لها جنس معين.

وقد قرر العلماء إن تشريح الجنسين متخالف كل التخالف، فالقامة وثقل الجسم أقل في النساء منهما في الرجال؛ وقوة الأعصاب في الفتيات أقل مما هي في الرجال بنحو الثلث؛ وجماجم البنات أقل استعداداً للنمو وأدمغتهن أقل وزناً، حتى بالقياس إلى الوزن العادي. وقرر العلماء أن حاسة الشم والذوق في النساء أقل مما هي في الرجال؛ ولذلك قل أن استخدم أرباب المعامل النساء في الأعمال التي تتطلب التمييز بين الألوان والأذواق، مثل التفريق بين الخمور والشاي، ومراقبة الصوت وإصلاح (البيان). قالت (مدام دي رموزا): إن الحس أكثر ملازمة لنا معاشر النساء من الملاحظة. واستنتج من هذا أن ذاكرة النساء أقل اضطلاعاً بالمسائل من كل وجه من ذاكرة الرجل. واضطراب المرأة اعظم بكثير من اضطراب الرجل. وتزيد في بعض أدوار حياتهن اضطراباً حتى تكون مرضاً وحرضاً تبعث على الغضب، وتصبح مدة الحمل أحياناً في مثل جنون عارض.

وهكذا انفرد الرجل بالذكاء والمرأة بالشعور؛ والرجل في كل حين يفكر ويقدر، والمرأة تشعر وتحس. فالشعور فيهن هو كل ما لهن من آيات النبوغ. قالوا إن المولى

أبى أن يرزق النساء قرائح لتتجمع كل جذوتهن في القلب.
قال وقد يعترضني أناس كثيراً من الفتيات أحرزن المقام الأول في المسابقات العلمية والأدبية الصعبة، ولكن (خيركوف) بحث في فتيات الجامعات فانتهى به البحث إلى أن الطالبات قد أهبن بالحافظة والمعلومات الجدية التامة المدققة أكثر من الطلاب؛ فالطالبات ينقصهن الاستقلال والتعمق في الفكر. فهن آخذات غير موجدات. وقارن المؤلف بين ثلاثة من الكتاب: (بوسويه) و (فلوبير) و (بول فاليري)، وبين ثلاث كاتبات (مدام دي سيفينه) و (جورج ساند) و (مدام كوليت)، فثبت له أن في إنشاء الرجال منطقاً سليماً، وفكراً مستقيماً، كانت فيه متانة جملهم، ورنة أصواتهم الموسيقية وتساوق المجموع من أقوالهم، على خلاف كتابة أولئك الكاتبات العظيمات.
قال ولا سبيل إلى إنكار تأثيرات العرف من القرون في تربية المرأة. ولعل أوربا تشهد في مستقبل الأيام حالة تشبه ما نراه من مثلها في الولايات المتحدة اليوم، وهي أن الرجل يشتد في اقتناص المال عاملاً له كل ساعة، والمرأة مستغرقة أبداً في تثقيف نفسها، وعندئذ ينشأ من النساء الهواة المنورات، والكاتبات البارعات، والمغنيات الباهرات، يكن مناراً يهتدي به الرجل الساري في الحياة. أما الآن فالنساء ينقلن عن الرجل، والناقل بنقله معترف ضمناً بتفوق من ينقل عنه.
محمد كرد علي
للتاريخ السياسي
عشرة أيام بئيسة مشروع
لافال - هور والرأي العام دواعي هذه الخطة الوخيمة العواقب
للدكتور يوسف هيكل
بقية ما نشر في العدد الماضي
موقف كل من الإمبراطور وموسوليني:
في 16 ديسمبر أبدت الحكومة في ديسي رأيها في اقتراح باريس، وهي تعتبر أن إعطاء إيطاليا المعتدية قسماً من الحبشة يكون مشجعاً لها أن تعمل على اكتساح الحبشة مرة ثالثة، وأن الاقتراح القائل بإعطاء إيطاليا امتيازاً اقتصادياً في جزء كبير من الحبشة لأشد ضرراً من الانتداب، وأن حكومة الإمبراطور موقنة بأن مجلس العصبة سوف يرفض الاقتراح عند اجتماعه في 18 من ديسمبر.
وبهذا التصريح أظهر الإمبراطور مهارة دبلوماسية لا تقل عن مهارة كبار السياسيين اليوم. إذ رفض (الاتفاق) بصورة غير مباشرة؛ ووضع عصبة الأمم أمام حقائق قانونية لا يمكن أن تحيد عنها دون أن تحيد عن مبدئها الأساسي.
وقد أجاب الإمبراطور أحد الصحفيين عند ما سأله رأيه في (الاتفاق) قائلاً: (إن جنودي لم تقهر بعد!).
أما السنيور موسوليني فقد أخذ يماطل في الإجابة. لقد طلب من باريس ولندن إيضاحاً عن بعض النقط في (الاقتراح)، وأجل الجواب إلى ما بعد انعقاد المجلس الفاشستي الكبير في 20 ديسمبر.
وفي خلال ذلك أخذت الصحافة الإيطالية تعلن أن (الاقتراح) لا يسد حاجة إيطاليا!. . . .
اختط موسوليني هذه السياسة اعتقاداً منه بأنه يستطيع بذلك أن ينال زيادة على ما جاء في (الاقتراح)ـ وقد فقد بذلك بعض أصدقائه في فرنسا، وأخذ كثير من الصحافيين الذين كانوا يمجدون اسمه ويدافعون عنه ينتقدون سياسته ويلقون عليه تبعة الأزمة الدبلوماسية الحالية.
ولما رأى موسوليني أن الرأي العام العالمي ضد الاقتراح وضد أي اعتراف له بحق الحبشة، عاد إلى سياسته الكلامية التهديدية، فألقى خطاباً في يوم الأربعاء الموافق 18 ديسمبر وصرح فيه بأن إيطاليا ستستمر في سياستها الحبشية إلى أن تخرج منها ظافرة.
ومما جاء في قرار المجلس الفاشستي الأكبر الذي انتهى انعقاده صباح السبت الموافق 21 ديسمبر: إن المجلس يثبت بأن عمل إيطاليا سيستمر، وأن القرار لقاطع للوصول إلى الهدف الذي اختطه الدوتشي.
ولما رأى موسوليني إن مجلس النواب في لندن قد رفض (الاقتراح) وأن جمعية الأمم

لم تقبله، طلب من سفيريه في باريس ولندن إخبار الحكومتين بأن روما سوف لا ترسل جواباً على (اتفاق باريس) نظراً لموته.

الأسباب الحقيقية التي دعت مسيو لافال إلى وضع (المشروع):

منذ أن وضع مسيو لافال يده على زمام سياسة فرنسا الخارجية بعد وفاة مسيو برتو في فاجعة مرسيليا وهو يتبع سياسة مسيو (دلكاسيه) المؤدية إلى حصر ألمانيا. لهذا قام بتصفية الخلاف مع إيطاليا، وبعقد معاهدة مع الروسيا، وقد حاول أن يحتفظ بصداقة بريطانيا ولكن دون أن يثق بها كل الوثوق؛ ويمكن القول بأن هذه المحاولة كانت ظاهرية، إذ أن لافال يكن ضغينة في نفسه لحكومة لندن، وذلك من جراء عقدها المعاهدة البحرية مع برلين دون أخذ رأي باريس في ذلك.

ومن المؤكد أن لافال قد أكد لموسوليني بأنه سوف لا يقف ضد مناهجه في شرق أفريقيا، وأن السياسة التي اتبعها لافال في المسألة الحبشية تثبت لنا ذلك.

لقد حاول لافال قبل إعلان الحرب أن يتوصل إلى إقطاع موسوليني امتيازات كبيرة في الحبشة عن طريق سلمية ففشل في ذلك. ثم أخذ يحاول تخفيف شدة العقوبات الاقتصادية التي وضعتها العصبة على إيطاليا فأخفق سعيه. وأخيراً بذل جهده في تأجيل عقوبة البترول فوفق؛ ولما رأى أنه لا يستطيع تأجيلها مرة ثانية وان لجنة العصبة ستبحثها في الاجتماع الذي حدد لها وذلك في 12 ديسمبر، وضع (المشروع) وورط هور في توقيعه؛ وذلك بإظهاره له أن إيطاليا ستعتبر حظر البترول عملاً حربيا وتهاجم البواخر الإنكليزية.

وإذ ذاك تتحول الحرب إلى حرب إيطالية إنكليزية فقط. إذ أن فرنسا لا تستطيع مساعدة بريطانيا فوراً كما انه لا توجد دولة من أعضاء العصبة مستعدة لذلك. أمام هذا التحذير وأمام الصعوبات التي تجابهها حكومة لندن في هذه الأيام من أحزاب عمال مناجم الفحم، ومن الصعوبة التي تجدها في المؤتمر البحري المنعقد في لندن؛ ومن اضطرابات مصر. . . أمام هذه العقبات خشي هور الحرب مع إيطاليا فوقع (المشروع). وبذلك تمكن لافال من تأجيل مسألة الحصر البترولي بصورة غير مباشرة إن لم يكن قد قتلها.

ولكن لماذا يبذل لافال هذه الجهود الجبارة في مساعدة موسوليني؟.

إن سياسة وزارة خارجية فرنسا كانت منذ حرب السبعين تعمل على توطيد العلاقات مع كبرى الدول الأوربية بعقد معاهدات معها. . . لتكون في مأمن من الخطر الجرماني. ولما وضعت الحرب أوزارها وأنشئت عصبة الأمم، رأت وزارة الخارجية الفرنسية أن تستغل هذه المؤسسة وتستعيض بها وبسياسة السلام المشترك عن سياسة المعاهدات. وقد بذل مسيو بريان في سبيل ذلك جهوداً جبارة. . . .

غير أن لافال حاد عن سياسة فرنسا الجديدة وعاد إلى سياسة ما قبل الحرب: سياسة المعاهدات. . . وحصر ألمانيا وتكوين جبهة قوية ضدها، فتمكن من إيجاد تحالف بين فرنسا وإيطاليا من جهة، وبين فرنسا والروسيا من جهة ثانية. . . .

وهو في سبيل المحافظة على صداقة إيطاليا والعمل معها ضد ألمانيا قد ضحى بمبدأ عصبة الأمم وسياسة السلام المشترك - ضحى بذلك برغم تصريحاته العديدة بأنه لا يزال يعمل ضمن سياسة جنيف ومن اجل المحافظة على صداقة إيطاليا يبذل لافال جهده في تثبيت مركز موسوليني الدولي - إذ هو يعتقد أن زوال حكم موسوليني في روما أو زوال نفوذه ربما يغير مجرى السياسة الإيطالية، فلا تستفيد فرنسا من المعاهدة التي عقدتها مع موسوليني، هذا إذا لم تتقرب إيطاليا من ألمانيا وتكونا جبهة قوية. . . خطرة على فرنسا. وفي سبيل ذلك قد وتر علائقه مع بريطانيا، إذ من المحال الاحتفاظ بمحالفة موسوليني وصداقة بريطانيا معا في الظروف الحالية.

فهل أصاب لافال بسياسته هذه؟ وهل مكن مركز فرنسا الدولي وأبعد عنها كل خطر جرماني؟

إن ألمانيا تتسلح الآن بكل ما لديها من قوة، وأنها ستضع قوتها يوماً ما في حيز العمل، غير أنها قد أخذت درساً كبيراً في الحرب العالمية، وهو أنها لا تستطيع قط محاربة العالم، وأن أي حرب تكون فيها فرنسا وبريطانية في صف واحد خطرة عليها. لهذا يبذل ساسة ألمانيا جهدهم في تفريق وحدة دول جنيف وإضعاف سياسة الأمن

المشترك من جهة، وفي التقرب من بريطانيا وإبعادها عن فرنسا من جهة ثانية، وهم إن تمكنوا من ذلك اتسع المجال لعملهم وتنفيذ مناهجهم.
ومن الغريب أن نرى أن سياسة لافال الحالية، تعمل بصورة غير مباشرة على تطبيق المنهاج الألماني! وفي تطبيقه زوال مركز فرنسا الدولي، وهو رفيع، وإضعاف سلطانها.
وإننا نعتقد أنه لا أضمن لسلامة فرنسا واستمرار عظمة نفوذها الدولي من تقوية جنيف وتثبيت سياسة الأمن المشترك؛ وبتثبيت هذه السياسة وبالمحافظة على الصداقة البريطانية يزول عن فرنسا كل خطر جرماني.
ومن هنا نرى أن لافال قد أخطأ كثيراً في تضحية هذه القوى الجسيمة في سبيل المحافظة على موسوليني وكيانه، وأن مشروعه كان غلطة فادحة تجر على فرنسا ضرراً جسيماً لو نفذ، ناهيك بالأضرار الجسيمة الأخرى التي تنال السلم العام وحقوق الدول الصغرى.
(لندن)
يوسف هيكل
دكتور في الحقوق من (حكومة فرنسا)
سكان أعالي النيل - 3
بقلم رشوان احمد صادق
المجموعة الحامية النيلية
البادي
يسكن جنوبي منطقة الدنكا أي (في أعالي بحر الجبل) عدة قبائل تتكلم اللهجة البادية نسبة إلى شعب البادي، وبهم بعض الشبه من شعب الدنكا، ولابد أنه حصل اختلاط في المنطقة التي يسهل أن يحتك فيها الدنكا بالقبائل البادية خصوصاً في المجموعة المسماة الشير، ومع ذلك فهم ليسوا زنوجاً نيليين، وهم وإن كانوا ثقافة ولغة وجنساً يتبعون النصف حاميين في شرق أفريقيا لتغلب العنصر الحامي في تكوينهم إلا أنهم يعتبرون ضمن مجموعة قائمة بنفسها وهي، (المجموعة الحامية النيلية).
ويمكن تمييز نوعين من الجماعات التي تتكلم اللهجة البادية: جماعة شرقي بحر الجبل، وجماعة غربة. والمجموعة الشرقية تنقسم إلى عدة قبائل، ويظهر أنهم كانوا يتبعون النظام الطوطمي لوجود بقاياه في بعض القبائل، إذ يعتقدون بانتقال روح الميت إلى حيوان مخصوص عندهم.
والرجل الذي يقوم بعملية استنزال المطر هو رئيس القبيلة، ومركزه يختلف عن مركز الرئيسالروحاني عند الزنوج النيليين، فإذا أخفق في استنزال المطر فانه يذبح في الحال، ويدور البحث عن غيره ليحل محله. كذلك يوجد عدة رؤساء يطلق علي كل منهم اسم (صاحب الأرض أو الأب)، وهو اسم يعطى لكل من جهز قطعة أرض وزرعها، وكذلك يمنح هذا الاسم لخلفة؛ وينحصر عمل هذا الرئيس في القيام ببعض التعاويذ والسحر عند بذر الحبوب وأثناء نمو النبات وقبل عملية الصيد؛ ولهذا الرئيس مقام محترم بين البادي إذ بدونه يفشل الصيد والزرع.
وحفلة استنزال المطر تعتبر من المظاهر الممتازة بين البادي؛ وتجري هذه الحفلة على النحو الآتي: يحضر الرئيس قطعاً من حجر الكوارتز بعضها ابيض اللون والبعض الآخر أخضره، ثم يضعها في إناء، وبعد غسلها يضعها على صخر كبير يسمى صخر المطر
وهو بقايا آلة قديمة لطحن الحبوب , ثم يلطخ الحجر بزيت السمسم، ثم يذبح عنز أسود بجوار هذا الحجر، ويأكل الرئيس ومساعدوه وبعض الشيوخ من لحمه، ثم تؤخذ بقايا الغذاء الذي في معدة العنز وتوضع أيضاً على هذا الحجر، ثم يأتي المطر بعد ذلك.
وكثيراً ما تجري هذه الحفلة بجوار مقبرة شيخ مطر قديم أو بعض الأماكن المقدسة التي تنتمي إليه.
اللوتوكو
ولهجة اللوتوكو تتكلمها القبائل الآتية: (1) اللوتوكو (2) الكويَا (3) اللنجو. ويلاحظ في هذه القبائل الثلاث أن الرأس طويل، أما القامة فقامة اللوتوكو أطول منها في القبائل الأخرى بمقدار بوصتين. وهم ينقسمون إلى قبائل طوطمية، وأهم مظهر للطوطمية

عندهم هو أن كل فرد بعد موته تنتقل روحه إلى الحيوان الذي تقدسه القبيلة؛ فهناك قبيلة تقدس التمساح، وأخرى تقدس القرد، وثالثة تقدس الفيل، ورابعة تقدس النمل الأبيض، وخامسة تقدس الثعبان وهلم جرا؛ وأقوى هذه القبائل هي التي تقدس التمساح، ومنها ينتخب الرؤساء الذين يقومون بحفلة استنزال المطر، ويستعملون في هذه الحفلات حجر المطر السابق ذكره كذلك يستعملون بعض الحراب المقدسة كمساعد، والمياه التي توضع فيها هذه الحراب تحضر من بركة مقدسة يعيش فيها التماسيح التي تنتقل إليها أرواح أجدادهم رؤساء المطر.

ومن عاداتهم إخراج عظام الميت بعد دفنه بثلاثة أشهر، وأحياناً من ثلاثة إلى ستة عند اللوتوكو، ويعتقدون أن في ذلك سعادتهم ورفعتهم. كذلك عند موت الميت يسرعون إلى دفنه، ثم بعد ذلك يقيمون له تذكاراً ينوب عن الميت حيث يقيمون له المراسم الجنائزية المختلفة.

المجموعة الزنجية

الأزندي

رؤوسهم متوسطة، وقاماتهم أقصر من قامة الزنوج النيليين، ولونهم أفتح من لونهم، إذ يختلف ما بين لون (الشكلاته)، ولون بشرة سكان البحر الأبيض المتوسط. وبعض العلماء يعلل ذلك باختلاطهم مع البربر والحامي، وربما كان هذا الاختلاط مع جماعة الفولاني. ويمكن اعتبار الأزندي من زنوج غرب افريقا، إذ تظهر عليهم جميع المميزات التي تميز زنوج غرب أفريقيا من غيرهم. ومن الصعب التفرقة بين رجل من الأزندي وآخر من سكان أفريقيا الاستوائية الفرنسية أو نيجريا. كما أن لغة الأزندي خالية من الأثر الحامي، على حين أنه توجد بها آثار من لغة البانتو، وهذا ينعدم وجوده في لغة الزنوج النيليين السابق الكلام عليهم. والأزندي من جهة الثقافة يتبعون غرب أفريقيا بعكس الزنوج النيليين الذين يتبعون في ثقافتهم شرق أفريقيا. وهذا يتضح تماماً من نظام بناء كوخ الأزندي ومساكنهم وآلاتهم الحربية والموسيقية مثلا.

والأزندي عبارة عن عدة قبائل ولهم حكومة مركزية عليا وهم ينقسمون إلى ولايات مستقلة عن بعضها، وهي في حرب دائمة مع جيرانها، ولكنها جميعها تخضع لملك واحد من أسرة أرستقراطية مالكة ينتخب دائماً منها الملوك، وهذه العائلة المالكة تسمى (الافنجارا) ومنها ينتخب أيضاً رؤساء الإدارة والحكومة الذين يساعدون الملك، والملك هو الذي ينتخبهم ويوزع عليهم العمل. والملك وهؤلاء الرؤساء لا يشتركون في الحروب ويتلخص النظام الإداري فيما يأتي:

1 - الملك وهو الرئيس العام ويحكم في العاصمة وهو المرجع الأعلى ويحرم عليه أن يدخل الحرب بنفسه.

2 - مقاطعات أو مديريات يديرها أبناء الملك أو أخوته أو غيرهم من العائلة المالكة، وكل من هؤلاء مطلق السلطة إلا أنهم مسئولون أمام الملك مباشرة عن حفظ الأمن والعدل كما إن عليهم واجبات نحو الملك؛ مثلا إذا أراد الملك عملا لبناء منازله أو جنداً للحرب فعلى هؤلاء المديرين أن يقوموا بجميع العدد اللازم حسب طلب الملك، وهؤلاء المديرون لا يدخلون الحرب.

3 - تنقسم كل من هذه المديريات إلى عدة أحياء أو مناطق على كل منها نائب أو وكيل، وهذا النائب يباشر الأمور المختصة بالعدل بواسطة عقد مجلس يكون هو عضوا فيه يساعده الرجال المعترف بكفاءتهم في حيه أو منطقته. فإذا ظهر نزاع بين فردين وجب أن تعرض المسألة على نائب الحي أولا، فأن كان موضوع النزاع بسيطاً حله النائب، ولكن إذا كانت المسألة معقدة مهمة فان النائب يحولها مباشرة إلى المدير الذي يحكم المديرية، وهو طبعا أحد أفراد العائلة المالكة؛ ولا يمكن عمل استئناف من المدير إلى الملك، لأن المدير مستقل بشؤون مديريته.

فإذا أراد الملك أن يعلن حرباً أو يقوم بعمل اقتصادي مهم فانه يرسل في الحال إلى المديرين يخبرهم بالعدد اللازم، وعند ذلك يقوم كل مدير بعقد مجلس برياسته يدعو إليه جميع النواب الذين يحكمون الأحياء التي تنقسم إليها مديريته، ويشاورهم في العدد الذي يمكن أن يقدمه كل منهم؛ وهؤلاء النواب يقومون بعد ذلك بجمع العدد اللازم من كل منهم بواسطة قرع الطبول. وبذلك يمكن إرسال العدد المطلوب من العمال والجنود إلى الملك. والملك نفسه يدير مقاطعة في وسط بلاده وهي بمثابة

العاصمة وضواحيها، ولكنه يستعين بالمديرين في المسائل القومية المهمة.
(بقية في العدد القادم)
رشوان أحمد صادق
بمناسبة أربعين الزعيم الخالد
يوم هنانو
للأستاذ أمجد الطرابلسي
صُعق الناسُ جَسرةً فأهابوا ... مَنْ صَريعُ الِحمى فقيل الشِّهابّ
ضربوا في الدُّجى البهيمِ سُكارى ... أين منهمْ هُداهُمُ والصواب
وَسَروا خُشَّعَ النواظرِ يَغشا ... هُم من الليلِ والدموعِ حجاب
يتناجوْن باللَّحاظِ من الهو ... لِ؛ أصدقٌ ما قدَروْا أم كذاب
شرِقوا بالدموع إذ هَتف النَّا ... عي مُهيباً، ومادتِ الألباب
هَتفاتٌ فوق المآذن تعلو ... فيضجُّ الباكونَ والندّاب
ورنيُن الناقوس من كلِّ فج ... تَتَفَرَّى له القلوبُ الصِّلاب
زفراتٌ هي الكبوُد تَلظَّى ... ودموعٌ هي النُّفوسُ تُذاب
هاهُنا لِلُّبى عويلٌ مُرِنٌّ ... وهنا ثَمَّ للِشِّبالِ انْتحِاب
من يواسيهُم وكلٌّ طعينٌ! ... من يُعزيهمُ وكلٌّ مصاب!
لا تُلمْهُمْ! خلا العرينُ، فمن يد ... فعُ عنهمُ إذا اسُتبيح الغاب
زُلزلت دارةُ الوليد ومادت ... تحت عِبْءِ المُصابِ فيها الهِضاب
فَعليها من الهُزالِ شُفوفٌ ... وعليها من الشُّحوبِ نقِاب
لبَسَتْ في نهارِها اللَّيلَ وجداً ... وتوارى السُّمَّارُ والأصحاب
وتباكت حمائِمُ النَّيْربَ السا ... جي وَأوْدى غِرِّيدُهُ المِطرب
ليت شعري أذاك (مروانُ) أوْدى ... فَأهَلَّ الورى وَسَحَّ السحاب
أم تدعى عرشُ (الوليدِ) غَداةً ... فتداعت منابرٌ وَقِباب
يا لَسُورِيَّة الشَّهيدَةِ كم ذا ... تتهاوى أبناؤُها الأنجاب
يهْبطُ الكوكَبُ المحَجَّلُ منهم ... أو يُقَدُّ المهَّندُ القِرْضاب
فإلى صدرها تَضُمُّ الضحايا ... وعلى صدرِها يُهال التراب
مَلأوا قلبها نُدوباً وشَجْواً ... ليس يخبو وقودُه اللَّهّاب
أبداً للدموعِ فيها انسْكابٌ ... أبداً للدِماء فيها انصْبابِ
رَوِيَتْ منْ دماءِ أبنائِها الغُرِّ ... م وفاضت رِباعُها والرَّحاب
أمس في الغَوطةِ الرَّؤوم تهاوَت ... شُهبٌ كلها منًى وَشباب
وعلى ميسلونَ سالت دِماءٌ ... علَّمتْنا أنى يكونُ الغِلاب
شهداءٌ أعزةٌ عَدَدَ الزهْـ ... ـرِ أيحُصْى زَهْرَ الشآم كِتاب!
يا هنانو أثَرْتها ذِكريَاتٍ ... ضَمَدتها السِّنونَ والأحقاب
فليالِيَّ بعدَ منعْاك سُهدٌ ... وشرابي قذىً وَشَهْدِيَ صاب
كنتُ في قريتي الوديَعةِ سهوا ... نَ فلا غُصةٌ ولا أوْصاب
تستبيني مِن الرُّعاةِ لحون ... وأغانٍ عُلويَّةٌ، ورَباب
وَمِنَ الطَّيرِ في الرُّبى نغماتٌ ... هن لِلُّبِّ مِزْهَرٌ وشراب
أدْفِنُ الهمَّ في ظِلالِ التمَنِّي ... والأعاليلُ مورِقاتٌ رِطابُ
وأغَنيَ مع الطفولةِ لحناً ... ذِكَرُ كله وشهد مذاب
وحوالَيَّ صِبيةٌ كالعصف ... ير مِراحٌ، أهِلَّةٌ، أتراب
يتبارَوْنَ عابثين فما يد ... رون ما الهمُّ، ما الأسى، ما العذاب
كدِتْ أسلو لَذْعَ الحنين وأنسى ... بينهم ما يهيجُهُ الاغتراب
فأتاني الناعي يجُمَجْمُ في القْو ... لِ فما إنْ يبينُ منه الخطاب
قالَ: مات الزَّعيمُ، قلْتُ: هوى الصَّر ... حُ رُكاماً وَقُوِّضَ المحراب
يا الهي أكلما سُدَّ باب ... من شَقاءِ الشام حُطِّم باب!
يا فقيدَ الآمالِ قُم فتأملْ ... كيف تبكي آمالُنا والرِّغاب
رَزَحَ الموْطنُ الجريحُ وناءت ... أمَّةٌ لم يذلِّهَا الإرهاب
كنتَ في السَاح والندِيِّ زعيماً ... ما دَعَوْتَ الشبالَ إلا أجابوا
ومشوا خْلفَ ضغيمِ الغابِ صفاً ... ليس يخشى الردى وليس يَهاب

كلهم باسمون خلفَكَ للمو ... تِ، سِراعٌ إلى الطِّعانِ طِراب
كنتَ حِصْناً فدكَّ ذيْالك الحِص ... نُ وَحِرْزاً فَقُدِّتِ الأطناب
وشهاباً يفترُّ في أفُقِ المج ... د بهِياً لا يعتريه غياب
شَعَّ دهراً فَأرشِد ابن الدياجي ... وأنيَرت مسالكٌ وَشِعاب
ثم غشّاهُ من سكون المنايا ... سُحُب مكْفِهَرَّةٍ وَضبابُ
وطن سار خلف نعشِك يبكي ... يا لهُ اللهُ صارخاً لا يجاب
كان يرنو إليكَ كالطِّفل إما ... عَضَّهُ من أراقم الظلْم ناب
موكب كالخِضمِّ سارَ خَشوعاً ... جَلَّ ذا موْكِباً وَجَلَّ الرِّكاب
مَن رأى محشراً يموجُ زِحاماً ... وَعُباباً يبكي عليه عُباب!
ولواءً قد كنَت تفديهِ إمّا ... رَوّع الغَابَ عاصِفٌ صَخّاب
ضمَّك اليومَ لوعةً وحناناً ... أنت منه الشَّباةُ وْهوَ القِراب
من لهُ اليومَ إن أناخ عليه ... مُستبيح أو راعه غَصاب!
إيه (شهباءُ) أيُّ سِفرِ جِهادٍ ... غالهُ فيكِ ريَّاب
وخَفوق يغْلي مُنىً وإباءً ... وفتىً لا تغُّره الألقاب
كان تاجاً في مفرقيكِ وَدِرْعاً ... لكِ تنبو عنه القنا والحراب
وأباً بالبنينَ براً شفيقاً ... كلهم في فنائه أحباب
هزهُم للعُلى فكانوا صفوفاً ... وْهَو ليث بين الصفوف مهاب
لهفَ نفسي أن غاض فيك نمير ... كان بالنُّور والهُدى ينساب
تنتوي ساحَهُ الحيارى وتهفو ... حول شطَّيْهِ عُطَّشٌ وسِغاب
جسد هدَّه الكِفاحُ فأبلا ... هُ وقلب على المدَى وثّاب
كلما هاجه الإسارُ تنزَّى ... فتنَزِّى فيه الصبى والشباب
إن مشى للأمامِ هان عصيب ... وتوارت عن الطريق صعاب
حمل السيف طاوياً في الصحارى ... عادةُ الليث عِزة وضراب
يرشُف الموت بالرماحِ ولا ير ... ضيه هَضم لحقِّه واغتصاب
ذاب في حَوْمةِ النَضال شهيداً ... ذاكُمُ المجدُ ساطعاً لا السراب
إنما المجدُ ثورة وجهاد ... لا كلام مُنَمَّقٍ وخطاب
يا جيوش الشبابِ، يا أُسُدَ الغا ... بِ، ويا أيها الشبالُ الغضابِ
قد مضى القائدُ العظيمُ إلى الخُلْ ... دِ وقد عاجلَ الرئيس التباب
فارقأوا هذه الدُموع الجواري ... ليسَ في الدمعِ للفقيد مآب
ولسكبوا خلفهُ الدماء الغوالي ... إنما الدمع هَيِّنٌ مْخصاب
وصليل السيوف أجملُ لحنٍ ... لبكُاء الشهيدِ لا التَّنْحاب
لا تخوروا فإنَّ معركة النَّص ... رِ بدا فجُرها الضُحوك العُجاب!
أمجد الطرابلسي

سحر الطبيعة

للأستاذ عبد الرحمن شكري

كؤوس من النور هذي الزهو ... ر أم هي أخْيلة الشاعر
وليست بحُلم ولكنها ... أجل من الحُلُم الباهر
وما خلَّفت لفنون الخيا ... ل فتنة حسن لدي الخابر
وما الحياة ونبع الخلو ... د في مائها لسلسل المائر
وعشب قشيب وظل ظليل ... أدنيا أرى أم مُنَى الساحر
ومما يزيد رواء الزهور ... أذى العيش والقدر الجائر
لقد خفت أن تنطوي مثلما ... يزول الخيال عن الناظر
فأسلمت نفسي لسحر الخيال ... لأخلد في حسنها الزاهر
وغبت عن الحِسِّ حِس الوجود ... كأنيَ روح لدى العابر
كأني نقلت إلى عالم ... سينشأ في دهر أو غابر
كأني نقلت إلى جنة ... نأت عن سطا القدر الدائر
ومما يزيد رواء الزهور ... أذى العيش والقدر الجائر
عبد الرحمن شكري

قبلة الحب
بقلم فريد عين شوكه
هاتها هاتِها فإنيَ ظمآ ... نُ إلى وِردْك العفيف الطهور
هاتِها قبُلةً تهُدهدُ أحشا ... ئي، وتشفي من الجنون شعوري
عطشت مهجتي إليك وضاقت ... جَنبَاتي بما بها من سعير
فارْوِ ما جفَّ من حشاي وَرفِّهُ ... عن فؤادي وخاطري وضميري
ويك يا قلبُ! ما لخفقك يشتد ... وما للحشا يلجُّ وثوباً؟
إنها خمرة الهوى فارتشفها ... لهباً في الضلوع حتى تذوبا
ضلَّةً للفؤادِ! رفَّ على النا ... ر ولم يخش جمرها المشبوبا
كلما ذاق حَرَّها عاد لهفا ... ن إليها حتى استحال لهيبا
يا لها قبلةً أحرَّ من الجم ... ر على قلبَي اللهيف المعذَّب
رشفة كالندى النديِّ استحالت ... شعلة في الدماء أيان تذهب
هيه يا ثغره الحبيب أنلني ... منك ما يشعل الضلوع ويلهب
قبلة الحب لفحةٌ من جحيمٍ ... هي أشهى من النعيم وأعذب
فريد عين شوكه
فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية
تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا - 26
الناحية السلبية من مذهب نيتشه
الإنسان
للأستاذ خليل هنداوي
لكل فلسفة أجل موقوت، تظهر فيه حجتها على الناس. وكل فيلسوف يضم شتات فلسفته ويحبسها ضمن نظام منطقي كأنها عمل عقلي محض، ألا إن هذا باطل، فأن الحياة الواعية في كل إنسان لها جذور تمتص من الحياة غير الواعية فيه؛ وإن حبه لمعرفة الحقيقة يعود إلى غريزة فيه قوية خفية. عد إلى المذهب الفلسفي العددي المجرد من كل شخصية ومن كل هوى تجد شيئاً ينزل منزلة الإيمان فيه؛ وما نظريات الفيلسوف في الحقيقة إلا بنات مذكراته واعترافاته. إن هذا الفيلسوف ليس في الحقيقة - كما يخيل إلينا - مفكراً خالصاً، ولكنه محام خبيث يذب عن اعتقاداته الوهمية ولا سيما الأدبية منها. يجرب أن يجعل من اعتقاداته حقائق ثابتة ودساتير نافذة. على أن هذه الاعتقادات التي تنطوي عليها المذاهب الفلسفية التي تريد أن توجه الحياة في سبيلها، إنما هي اعتقادات مستمدة من المثل الذي يبشر بالزهد والمسكنة. . . وهكذا لم يكن الكاهن والفيلسوف بخصمين كما يبدو ظاهر الأمر - وإنما هما صاحبان وان كانا لا يدريان.
هذا هو (كانت) أبو الفلسفة الألمانية لا يرى فيه نيتشه إلا كاهناً مسيحياً تطور في بعض حالاته. وخلاصة فلسفته أنها تضع (شعبتين) من شعبها خارج القوة العقلية؛ في الأولى تلهج بعالم حقيقي مباين لهذا العالم المبني على الظواهر والحوادث، وفي الثانية تؤمن بالشريعة الأدبية الخلقية أنها مقدرة تقديراً. وإذا جرد المحقق هاتين الشعبتين وجد أنهما وليدتا نظريات الشريعة المسيحية ذاتها. إذ ما هو الإيمان بعالم حقيقي غير هذا العالم؟ أليست هذه الفلسفة تنطوي على الفكرة التي يبشر بها علم اللاهوت، فالإله هو العلة الأولى للوجود الذي تتلقفه الحواس، وحياة الإنسان الحقيقية هي الحياة في الله، وهكذا أخذ النظريون فكرة القول بإله صالح، بإله للمتألمين، ودققوها وسموا بها وبدلوا لونها حتى
أحالوها عنكبوتاً ضخماً ينسج الوجود من خيوطه. فكان منه (المثل الأعلى) والعقل الخالص، والواحد المطلق، والشيء القائم بذاته؛ على أن هذا الشيء القائم بذاته، وهذا العالم الحقيقي إن هما - إذا تجردا - إلا العدم الخالص.
إن إله المسيحيين - كما يراه نيتشه - هو إله كل ما يتألم، وكل ما يجنح إلى الموت؛ وهو بدلا من أن يبشر كالآلهة الوثنية بما يفيض على الحياة من بهجة ونعيم، ويبث الإرادة القوية التي تقول للحياة: (بلى)، ولكن ما تحمله (بلى)؛ نراه يحمل الناظر إلى كل منحط خسيس في فؤاد الإنسان، يكره الحياة الحقيقية ولا يحمل لها إلا مقتاً؛ ويجعل رجاءه في حياة وهمية ثانية. إن عالم النظريين يماثل في حقيقته هذا العالم

المسيحي. أنه كلمة فارغة من كل حقيقة؛ إن الإله هو علامة (سلب الحياة)، وإله الفلاسفة هو العدم الخالص.

وتلك الإرادة التي تمثل هذا الإله إن هي إلا الجنوح إلى الفناء. وإن أبرز هؤلاء الفلاسفة الذين يعتقدون بأنهم مارقون من كل دين وكل إيمان هم في الحقيقة رجال إيمان لا يتزعزع. إن هؤلاء العلماء والفلاسفة اللابسين أثواباً مختلفة إنما لباسهم لباس واحد يلفهم ويضم بينهم، هو لباس الزهد.

لنحلل معتقدهم: أن إرادة إدراك الحقيقة مهما كان ثمنها - تتهيأ في طريقين مختلفين: تقول (لا أريد أن أخدع!) أو تقول (لا أريد أن أخدع نفسي ولا أخدع أحد) أما القول الأول فهو بعيد عن الحقيقة، لأن الإنسان ليقدر على أن يسمو إلى الحقيقة بفطنة منه أو خشية إذا كان يثق في نفع هذه الحقيقة السامي إليها. ولكن الحقيقة هي أنه إذا كانت هنالك حقيقة بدأت تنجلي شيئاً فشيئاً للعقول المستنيرة فهي أن الوهم ذو فائدة للوجود وضروري له كالحقيقة. وفي اعتقاد نيشته أن الوهم والكذب هما من الجواهر اللازمة للحياة.

إن مسألتنا التي نبتغي حلها ليست بجملة اعتراضات، ولا فوز في المنطق، وإنما مسألتنا هذه: (ما هو الأجدى نفعاً لحفظ الحياة وصيانة النوع ووقاية الحيوان؟) وأنّا لنستطيع أن نقول بدون تردد: أن الأفكار والأحكام الأكثر بعدا عن الحقيقة هي عندنا من الأشياء التي لا منصرف عنها: ولو أن البشرية استغنت عنها لما استطاعت الحياة، إذا كان الجحود جحوداً بالحياة نفسها وإعداماً لها.

ولكن لو فرضنا أن الكذب أكثر يمناً والحقيقة أكثر شؤماً، فأن رجل العلم لا يجنح - إذ ذاك

إلى الحقيقة طمعاً في فائدة أو رهبة من شئ، وإنما يجنح إليها ويتواقع عليها لأنه نشأ - على ألا يخدع نفسه ولا غيره مهما كلفه ذلك. تراه يضحي بسعادته وبالبشرية في سبيل الحقيقة، هذه الحقيقة المقدسة التي راح يسميها المسيحي إلهاً.

ومما لا ريب فيه أن ناشد الحقيقة يضع إيمانه في وجود غير هذا الوجود، وحياة غير هذه الحياة. فماذا تراه يضع في وجودنا هذا بعد انصرافه عنه؟ هل يجد غير الجحود به؟ ولكن رويداً! أريد أن أقول: إن اعتقادنا العلمي مبني على اعتقادنا النظري. وإننا نحن مفكري اليوم، الجاحدين الناكرين نستمد النار التي تحرضنا وتثيرنا من المجمرة التي أضرمتها نار العقائد كثيراً، ومن ذلك الإيمان المسيحي الذي شابه الإيمان الأفلاطوني القائل بأن الله هو الحقيقة وأن الحقيقة هي ألهيته.

إن رسول الجيل الحاضر لم يجرؤ على أن يشك في القيم الحالية الموروثة، لم يجرؤ على القول: ما هي قيمة الحقيقة وما هي قيمة ذلك الأمر المطلق للفضيلة التي تأمرنا بسلوك طريق الحقيقة؟ إنه وقف مكتوف اليدين إزاء مسألة الحقيقة والفضيلة. إنه لم يقل لماذا وجب على الإنسان أن يعرف كنه هذه الطبيعة التي نحسها اليوم كقوة عمياء، غير عاقلة لا تعبأ بالخير ولا بالشر، فيها قوة الخصب والتوليد؛ تنجب دائماً مخلوقات جديدة لتضحي بها لغايات لا معنى لها، ولا عاطفة في صدرها. . . وإذا كانت هذه حالتها فلماذا كتب الإنسان على نفسه التضحية بها في سبيل مثل هذه الألوهية؟

يرى نيتشه أن الرغبة في الحقيقة مثلها مثل الصبغة العصرية لصرامة التنسك والزهد التي دفعت الإنسان إلى أن يضحي - في سبيل إلهه - بكل ما تملك يداه، فكان الإنسان يقرب له الضحايا البشرية، يضحي بأول غلام يأتيه، حتى إذا جاء العهد المسيحي أصبح الزاهد يضحي للإله بكل غرائزه وميوله الطبيعية.

والآن ماذا يملك عليه ليضحي به؟ ألم ينته دور التضحية له بكل عزيز؟ أليس الأجدر الآن تضحية الإله نفسه؟ وعبادة الحجر والمبهم والثقل والحظ والعدم إمعاناً في مجافاته؟ وهكذا تجد رسول المعرفة الذي لم يهو في مهواة الشك، المؤمن بالحقيقة، الجريء على خلق مثل أعلى، الشديد إيمانه بالعقل السامي والفضيلة، تجده إذا نزعت رداءه - زاهداً ينكر الوجود، ومتشائماً يفر من الحياة، لأنه يأبى أن يستسلم إلى الوهم، إلى الكذب اللازم للحياة، انه

عدمي كالمسيحي بعمل على أن يقذف بالإنسانية في هاوية العدم.
(يتبع)
خليل هنداوي
القصص
صور من هوميروس
حروب طروادة - 21
مصرع أخيل - 1
انتحار بوليكسينا - 2
سهام هرقل - 3
مقتل باريس - 4
نهاية إيونوليه - 5
للأستاذ دريني خشبة
انتهت الهدنة، واندلعت نيران الحرب كرة ثانية، والتحم الجمعان تؤجج العداوة بينهما ثارات وثارات؛ ولم يجد الطرواديين أن تنضم إليهم مليكة الأمازون تحارب بفصائلها في صفوفهم وتشد بجموعها أزرهم، فان أخيل هو هو لم ينقص ولم يزد. . . بل هو يزيد كل يوم ظمأ إلى دماء قاتلي صديقه وأحب الناس إليه. . . بتروكلوس الشهيد. . .
لقد انقض أخيل على مليكة الأمازون التي انقضت بدورها على جحافل الهيلانيين فأوقعت الروع في نفوسهم، وقذفت الرعب في قلوبهم. . . فلم يزل بها يصاولها ويطاولها حتى نهز منها نهزة أنفذ بها رمحه في صدرها، وعفر جبينها الملتهب بثرى المعمعمة، وجردها من سلاحها إذ هي جثة هامدة، وانكفأ أتباعها وبهن من الحزن على صاحبة الأمر فيهن. . . ما صرفهن عن طروادة والطرواديين.
وإن أخيل ليصول في الميدان ويجول، وإنه ليرتفع بصره عفواً، وعن غير قصد، إلى البرج الشاهق من أبراج إليوم، فوق البوابة الاسكائية، إذا به يلمح قمراً مطلاً من شرفة البرج يرنو بعيني ظبي، ويهطع بجيد رئم، ويشرق بخدين ناضجين من خدود ربات الخدور، يرسلان على الساحة كلها سناءً ورواءً. . . .
من هي؟. . .
من هذه العذراء البارعة التي تشرف هكذا على الساحة الحمراء فتطفئ جذوات الغل المتقدة بين أضلاع أخيل، وتضع حداً لهذه الثورة التي ظلت إلى تلك اللمحة تعصف بنفسه الغضبى، وتحز في قلبه المحزون؟. . .
أوه. . .!! إنها الأميرة الفتانة بوليكسينا، صغرى بنات الملك الشيخ. . . بريام البائس الباكي الحزين. . .
لقد أرسلتها العناية لتشرف على الساحة الصاخبة، ولينظر إلى هذا البطل الخرافي الجبار الذي لم يعد بيت في طروادة كلها إلا وفيه لسان يلهج بذكره، ويتحدث عن شجاعته، ويخوض في جبروته. . . ثم لم يعد بيت في طروادة كذلك، إلا وفيه عين مؤرقه تبكي على عزيزها الذي قتله هذا البطل، أو الذي سيقتله، أو الذي يخشى منه عليه أن يقتله. . . كأنه أصبح سفير هيدز إلى اليوم، أو وزير بلوتو العظيم!!
وأبصر أخيل بها. . . ويالها من نظرة أنبتت في قلبه دوحة من الحب وارفة، ذات ظلال وذات أفياء. . . .
وظل الرمح يهتز في يده. . . ولا يصيب أحداً. . . وظل هو يسارق قمر البرج المطل نظرة فنظرة، وظل مشدوهاً مسبوهاً. . . لا يعرف لم شبت هذه الحرب، ولم يقتتل هذان الجمعان؟!. . . وانثنى من الميدان ينظر في هذا الغرام الجديد. . .
ولم يجد بداً من العمل لإحلال السلم محل تلك الحرب التي طالت وتتابعت عليها السنون، من غير أن يظفر الهيلانيون بالطرواديين، أو الطرواديين بالهيلانيين، ومن غير أن يفكر أحد في هذه المجزرة الشائنة التي تفتدي كل يوم بقطوف الشباب من زهرات الأمتين على السواء.
فيا له من حب مهد السلم، لولا قساوة في القلوب زادتها الثارات عنفواناً، ولولا شرف أمة بأسرها تعبث به امرأة، ولولا الأحن التي ذهبت بأبناء الملوك الصيد!
واستطاع أخيل أن ينفذ رسله إلى بريام يستعتبه، ثم استطاع الرسل أن يخاطبوا الملك في بوليكسينا على أن تكون أحب أزواج أخيل وآثرهن إلى قلبه، فوعدهم

الملك، بعد إذ لحظ من افتتان ابنته هي الأخرى بزعيم الميرميدون، أن تتم مراسيم الزواج حين تضع الحرب
أوزارها، وحين تنكشف هذه الغمة القاسية عن طروادة. . .
بيد أن الهوى المبرح قد ألح على قلب أخيل، والصبابة العاتية قد جمعت أفانين من السهاد في عينيه، وطيف بوليكسينا يراوحه ويغاديه، ويملأ عليه أخيلته، ويتهادى أمامه في كل نظرة ينفرج عنها هدبه، أو غمضة يتناعس بها جفناه! فلم يطق إلى صبر من سبيل!
وأنفذ رسله كرة أخرى فاتفقوا مع الملك على إجراء مراسم الخطبة، عسى أن تفل من غرب هذه الحرب القاسية، أو تبزغ منها تباشير السلام المنشود!
وأعلنت هدنة ليوم أو بعض يوم؛ وأقيم المهرجان الفخم في صميم الحومة الرائعة، وتقدم أخيل فصافح الملك، وأعلنت الخطبة، وانثنى الزعيم العظيم وقلبه يطفر من الفرح، أن أصبحت له بوليكسينا. . .
وما كاد البطل ينقلب إلى جنده، حتى كانت فينوس توسوس إلى باريس أن ينتهز الفرصة العزيزة النادرة، ويريش سهماً من سهامه المسمومة إلى أخيل التي لم تغمرها مياه ستيكس فيصميه. . . فيرديه!!
ووتر باريس قوسه، وأرسل السهم المسموم إلى عقب أخيل فنفذ فيه، وأنفذ فيه قضاء ربات القضاء. . . اللائي فرغن الساعة فقط من غزل خيط حياته، وقطعته أتروبوس الهائلة بمقصها الجبار الفظيع.
وهكذا أنهى باريس الخائن تلك الحياة الحافلة بغدرة سافلة من غدراته التي توشك أن تنتهي!
واستطير الميرميدون! وانقض أوليسيز كالعاصفة ينافح عن جثمان صاحبه، واستطاع أن يستنفذ القتيل العزيز من أيدي أعدائه الجبناء؛ وكان أجاكس العظيم يعاونه في دفع الجموع الحاشدة التي تكاثرت حول الجثة تطمع في عدة فلكان. . .
وانصرف الجيش الحزين يذرف دموعه على أخيل!!
واجتمعوا حول الجثة المضمخة بالطيب وحنط المسك يحرقونها!
ووقفت ذيتيس تلقى على ابنها نظرة الوداع. . . وتذرف عليه عبرة الوداع!!
وكانت ثيابها السود تبكي معها. . . وكانت السماء كلها تذرف شئونها على أخيل. . .
وعرائس البحر ساهمات على شواطئ الهلسبنت الفائض بالدم!
وبليوس المحزون يضطرب في الأعماق فيجعلها ضراما: والأولمب كله، ما عدا عصابة فينوس يعزى بعضه بعضاً!! وليس أولئك جميعاً شيئاً إلى ما حدث من بعد، قبيل أن تخمد النيران فوق أخيل. . . فقد ضج المكان الصامت بصيحات مفاجئة، نبهت ما سكن من هول هذا المحشر الرهيب. . . ونفت القوم، فإذا أجاكس العظيم قد أصابه طائف من المس، وإذا به يرغى ويزبد، ويعول وينشج، ثم يقذف من فمه صبياً من الدم، يتلوه شوب من العلق، وينبطح على الأرض ثم يثب على قدميه، ويروح ويغدو دون أن يلوا على شئ. . . ثم يستل جرازه ويركزه فوق الأرض، ويتكئ بصدره على سنانه، فينفذ السنان من ظهر أجاكس، ضحيه جديدة لهذه الحرب التي لا تشبع، وخيط حياة حافلة يمر وشيكاً بين الشفرتين من مقص أتروبوس. . .!
ويحك أجاكس! وللآلهة ما وفيت لأخيل يا بطل الأبطال!
وذهل القوم لانتحار أجاكس ولم يفيقوا من ذهولهم إلا ليروا إلى مأساة ضعضعت ما أبقى عليه الحزن من ألبابهم، وأطاشت ما بقى من حلومهم، وتركتهم سكارى وما هم سكارى
هذه بوليكسينا!!
إنها تقبل من طروادة كأنما بها مس. . .
وهي تطوي الساحة المزدحمة بالأشلاء. . . المضرجة بالدماء، بقدمين عاريتن، لا يقيمها حذاء. . . وأن الدم ليتفجر منهما. . . وهي تصرخ. . . وتلطم خديها الشاحبين، بكفيها الواهيتين
وهي تجفل كالظبية المراعة، وتدور حول نفسها. . . ثم تقف لحظة. . . وتنطلق. . . .
وهي تفعل هذا حتى تكون أمام البركان الخافت، المشتمل على رفات أخيل. . .
وإنها لتقف تلقاءه جامدة كأنها دمية. . . . ذاهلة كأنها تمثال. . . .

!!يا للهول
لقد انطلقت الفتاة فخاضت النيران. . . ودست رأسها في جمرات الغضى تبحث عن
!!. . . . . .حبيبها المرجو. . . . . عن أخيل
!!أخيل الجبار. . . قاتل ليكاون وبوليدور. . . وهكتور
ويجزع الهيلانيون مما ألم بهم من مقتل أخيل، وانتحار أجاكس حزناً عليه، فينصرفون عن
الحرب إلى استيحاء آلهتهم؛ وينفرد كالخاس يرسل نظرة في النجوم، ويناجي سكان السماء، ثم يقبل على القادة وقد فرغت قلوبهم من الصبر، وتبلبلت أفكارهم من طول الانتظار. . . فيقول: (سهام هرقل!! لا بد من سهام هرقل!! لن يفتح عليكم طروادة إلا سهام هرقل. . .!!)
(سهام هرقل؟؟ وما سهام هرقل هذه؟؟
آه! لعلها هذه السهام التي غمسها هرقل في دم هيدرا فتسممت به، وادخرت من الموت ما يكفي لإبادة الطرواديين جميعاً. . .
ولكن أين هي هذه السهام اليوم! وأنى للهيلانيين أن يهتدوا إليها؟!
جلس القادة يفكرون. . .
وذهب العرافون يقلبون صحف الغيب. . .
وطفق مشايخ الجند يفتشون في زوايا أدمغتهم. . .
ثم ادّكر أوليسيز، بعد لأي، أن هذه السهام المنشودة قد تركت مع الجندي القديم فيلوكتتيس الذي غادره الجيش فوق جزيرة لمنوس، في طريقه إلى طروادة. . . فجر الحملة. . . منذ عشر سنوات!
ولقد كان فيلوكتتيس قد أصيب بجرح كبير في قدمه جعل أصحاب الحملة له من المحال، لما كان يلقى أوانئذ من الآلام المبرحة، وما كان يملأ به آذان الجند من الصراخ والأنين. . . فأضطر أوليسس إلى تركه في جزيرة لمنوس، حيث أوى الجندي المسكين إلى كهف منعزل عكف فيه على جرحه يعالجه. . . دون جدوى!
واتفق القادة على أن يذهب أوليسس مصطحباً معه بيروس ابن أخيل؛ (أونيوبتلموس كما كانوا يسمونه أحياناً) إلى جزيرة لمنوس ليريا هل الجندي الجريح ما زال يحيا هنالك، وقد بحثا عنه في أنحاء الجزيرة حتى عثرا به يئن في كهفه ويتوجع، ويشكو إلى غير سميع، فعرضا عليه أن يصحبهما إلى طروادة فأبى وجعله يشتد في الأباء تذكره هذا اليوم الأغبر الذي آثروا فيه تركه فوق تلك الجزيرة القاحلة لا أنيس ولا سمير، ولا لسان يرفه عنه وحشة الألم ووحشة المنفى الذي لا يدله فيه؛ وكبر عليه أن ينطلق مع هذا الجيش الذي جحده وغمطه حق الجهاد في سبيل الوطن، والذود عن شرف هيلاس واسمها المقدس. . .
وتركه أوليسس ليبروس يأخذه بالحيلة والرفق. . . ولكن بيروس ما يستطيع قط أن يقنع فيلوكتتيس. . . فيكاد يدعه برما متسخطا. . لولا أن يظهر طيف هرقل فجأة مرفرفاً في العلو ثم يأمر فيلوكتتيس، بعد تهويمة هنا وتهويمة هناك، أن ينصاع لما يأمره أوليسس به.
ولا يسع الجندي الكريم إلا أن ينطلق مع أوليسس. . . فيركب الجميع في السفينة إلى طروادة، ويلقاهم العسكر المشتاق بالبشر، ويهرع إليهم بالإيناس!
أليس في سهام هذا القادم الأعرج. . . النصر كل النصر؟!
ونفخ في صور الحرب، واشتجرت الأسنة، واستحر القتال، وتبوأ فيلوكتتيس مقعداً للرماية لا يبصره فيه أحد؛ في حين يبصر هو منه كل ما في الميدان! وراش سهامه!
وتتطايرت المنايا عن قوسه المرنان! وسعت إلى الطرواديين مصارعهم تهدهدها. . .!سهام هرقل، وتمهد لها يمين فيلوكتتيس! ومرق سهم منها إلى باريس وكان يشرف على المعركة من أسوار إليوم!. . . فوقع يتشحط في دمه، ويغص بريقه، ويصرح من الألم الذي يسري في عروقه مع الدم. . . والسم!!
. . .!واجتمع حول باريس أبوه وذووه وعشيرته. . . وهيلين
وطفق الجميع يبكون في باريس إخوته، والذكريات السود التي أقبلت من كل صوب ترف فوقه وترنق على جبينه. . .
وأخذ الألم من باريس مأخذه. . . وراح المسكين يصرخ ويتلوى. . . غير آبه لما تغرقه

به هيلين من قبلات دنسة، ودموع مسمومة، كانت الويل كل الويل على طروادة والطرواديين
وذكر، وهو يتجرع غصص العذاب أن حبيبته الأولى وزهرة صباه، ووردة حبه القديم، أيونونيه، كانت قد ذكرت له أنها تعرف من خواص الأعشاب المختلفة ما يشفي أقله أشد أوجاع الجروح وأنكاها وصباً. . . فأشار إلى بعض أهله، وطلب إليه أن يذهب إلى سيف البحر عله يجد إيونونيه. . . فإذا لقيها فليخبرها بما انتهى إليه (حبيبها!) باريس، والآلام التي تعذبه وتشقيه، من جراء جرح هذا السهم المسموم. . . . . بيد أن إيونونيه التعاسة. . . إيونونيه المعذبة. . . إيونونيه التي أخلصت لباريس الحب حتى عبدته. . . ذكرت ما كان من هجر هذا الحبيب وقلاه؛ وذكرت دموعها التي ذرفتها مرة تحت قدميه ضارعه
متوسلة. . . وتلك القساوة التي كافأها هو بها لما أن خدعته فينوس. . . وأوقعته في أحبولة هيلين. . . . . فرفضت أبية شماء أن تذهب إليه. . .؛ والآلهة وحدها تعلم مقدار ما كانت تكنه له برغم هذا الرفض من الحب النقي. . . والصبابة الحزينة. . . والهوى المتأجج المشبوب!!
. . .!!وقضى باريس
وأعدت النيران الضخمة لتحرقه، فما هو إلا أن أشعلت من حوله حتى شوهدت إيونونيه المتبولة تخرج من لجة الهلسينت وتعدو، كأن قد أصابها مس، حتى تكون تلقاء النار. . . فتقف باهتةً. . . وتتنهد طويلاً. . . وتقذف بجسمها الجميل المرمري الممشوق في اللهب. . وتصرخ صرخة مشجية. . . و. . . وتنتهي قصة حبها الباكي. . .
وتخط بيدها آخر سطر في كتاب باريس. . .
(البقية في العدد المقبل)
درني خشبة
البريد الأدبي
الأدب قبل هوميروس
يقدرون أن هوميروس عميد الشعر اليوناني وصاحب الإلياذة الشهيرة قد عاش قبل المسيح بنحو ألف عام؛ والمعروف أن هيرودوت (أو هرشيوش) أبا التاريخ قد عاش في القرن الخامس قبل الميلاد؛ ولكن انتهى إلينا نص كامل من الإلياذة، وانتهى إلينا نص كامل لتاريخ هيرودوت مع أن الأثرين الخالدين وضعا في عصور لم تعرف الكتب، فكيف كانت حال الأدب والتاريخ، وكيف كانت تتناقل الآثار الأدبية في هاتيك العصور؟ كانت الرواية السماعية ولا ريب هي أنجع الوسائل لتوارث التفكير والأدب، وأن كانت الآثار والنقوش والكتابات البردية أيضاً من وسائل تدوينها، وهذا ما تناوله العلامة الإنكليزي الأستاذ طومسون في كتاب ظهر حديثاً عنوانه (فن الرواية) وكلمه (لوجوس) رومية معناها (ما يقال) والأستاذ طومسون حجة الأدب اليوناني القديم، وهو يتناول في بحثه العلمي القيم فن الرواية في عصور ما قبل التاريخ وكيف كان هذا الفن يشمل التاريخ والشعر والقصص، وكيف أنها جميعاً تكاد تمتزج بعضها ببعض ويعني الأستاذ طومسون بوجه خاص لتحليل رواية هيرودوت وما فيها من الحقائق التاريخية الخالدة؛ ثم يعني ببحث الأساطير اليونانية الكبرى وأصولها ومراميها، وأصل الإلياذة، والأوذيسة؛ وتأثير الرواية في تطور العقلية الشعبية خلال هذه العصور، كل ذلك بأسلوب علمي محقق، ممتع في وقت معاً
وما يتناوله الأستاذ طومسون في كتابه هو نفس الحالة التي كان عليها الأدب العربي قبل الإسلام، فالشعر الجاهلي الذي ورثه الأدب الإسلامي، ووقائع العرب وايامها، وما يتخلل ذلك كله من القصص والأساطير، والمنثور والمنظوم، إنما انتقل خلال العصور بالرواية والسماع؛ وقد كانت الرواية في الجزيرة العربية بلا ريب أقوى وأنفذ، وكان أثرها بلا ريب أقوى في تكوين الأدب الجاهلي؛ وتقدم إلينا كتب الأدب الكبرى مثل الأغاني، والعقد الفريد صوراً بديعة مما كان عليه أدب الرواية في عصور قد ترجع إلى ما قبل الإسلام عدة قرون.
من كنوز البردي المصرية
يذكر القراء تلك الضجة التي قامت منذ أشهر حول تسرب الآثار المصرية القديمة خارج

القطر ومنها مجموعات ثمينة من أوراق البردي التي ترجع إلى العصر الروماني؛ وقد ظهرت فداحة الخسارة الأثرية والعلمية التي أصيبت بها مصر من جراء تسرب آثارها على هذا النحو في حادثين: الأول ظهور مجموعة ثمينة من أوراق البردي المصرية في برلين، وهي بإقرار الخبراء أثمن مجموعة من نوعها لأنها تحتوي على نصوص عدة كتب كاملة من كتب ماني الفيلسوف الفارسي وصاحب المذهب المشهور؛ والثاني ظهور بعض قطع وشذور من أقدم إنجيل معروف، وقد كتب باليونانية على ورق البردي الذي تسرب من مصر أيضاً.

وقد اقتنت مكتبات رايلاندس الإنكليزية الشهيرة بمنشستر طائفة من هذه الأوراق الثمينة منذ أعوام، وبدأت بنشرها، فأصدرت مجلداً يحتوي على نصوص طائفة من أوراق البردي المصرية منذ العصر اليوناني؛ وأصدرت أخيراً مجلداً جديداً يحتوي على نصوص طائفة من أوراق البردي المصرية منذ العصر الروماني؛ وأهمية هذا الجزء الأخير هي أنه يحتوي على مقتطفات من الإنجيل الرابع (إنجيل يوحنا) هي أقدم نصوص من نوعها؛ وهي باللغة اليونانية، ولكنها كتبت بمصر في عصر يقدره العلماء والخبراء بالنصف الأول من القرن الثاني للميلاد؛ وقد كان المظنون حتى اليوم أن إنجيل يوحنا يرجع إلى عصر متأخر نوعاً، يقدر بأواخر القرن الثاني؛ ولكن ظهور هذه القطع من إنجيله، وما اقترنت به من شواهد في الكتابة والحبر والهجاء تدل على أنها كتبت بمصر في عصر الإمبراطور هادريان، مما يحمل العلماء على تغير نظريتهم، والرجوع بإنجيل يوحنا إلى أوائل قرن الثاني أعنى إلى نحو سنة 120 م أما مجموعة برلين من أوراق البردي المصرية التي تحتوي على كتب ماني الفيلسوف فيجري بحثها اليوم بمعرفة العلماء الأخصائيين تمهيداً لنشرها والتعريف عنها وهكذا يتسرب تراثنا الأثري والعلمي على هذا النحو، ونحن شهود نرمق هذه الاختلاسات المتوالية باسم العلم والبحث.

مذكرات صحافي شهير

هنري نفنتون من أشهر الصحافيين الإنكليز الذين جابوا أنحاء العالم وشهدوا عظائم الحوادث في مختلف الأقطار والمناسبات، وقد عرف خلال حياته الطويلة الحافلة مختلف الشخصيات في ميادين الحرب والسياسة والأعمال؛ واتصل بالعظماء والأقوياء وزعماء

الثورات، وتجار الرقيق وبالشعراء والأدباء، والقتلة واللصوص؛ وشهد بنفسه كثيراً من الحوادث والانقلابات التي وقعت في أنحاء العالم منذ أواخر القرن الماضي؛ ففي سنة 1897 شهد الثورة اليونانية في كريت ضد الترك، ودرس الفظائع التركية في البلقان كما درس تجارة الرقيق في أفريقية وشهد في سنة 1905 مؤتمر الشباب الروسي لإلغاء عقوبة الإعدام، ورأى فلول الجيش الروسي المنهزم أمام اليابان؛ وعرف تولوستوي وتحدث إليه في منزله الريفي فذكر له إن ما يراه ليس ثورة وليس انقلابا، ولكنه يرى خاتمة عهد مضى؛ وشهد في سنة 1907 جهود آني بيزانت ودعايتها في الهند؛ وتجول في ميادين الحرب أثناء الحرب الكبرى، وشهد وقائع الدردنيل، وانسحاب الإنكليز من غاليبولي؛ ثم شهد بعد ذلك الثورة الإرلندية الوطنية، ومؤتمرات الصلح، وشهد احتلال الجنود السود لمناطق الرور في ألمانيا سنة 1923، وتجول في بيت المقدس وبغداد، وكتب عن دراساته ومشاهداته مقالات ومذكرات لا نهاية لها.

وقد اخرج مستر نفنتون أخيراً كتاباً ضخماً ضمنه كل هذه المشاهدات والدراسات بعنوان (نار الحياة)؛ وكتبه بأسلوب قوي شائق يمتزج فيه صدق المؤرخ وخيال القصصي، ويمتاز الكتاب بما يطبعه من روح إنساني قوي؛ ذلك إن مستر نفنتون رجل يضطرم فؤاده إنسانية ورحمة، ويجيش ذهنه بأشرف المثل فهو يطري الثورات الوطنية أنى وقعت، ويحمل على سياسة العنف والغصب أياً كانت، وينوه بالحقوق حيثما استحقت، ويندد بكل ما فيه قسوة أو تحامل، وينصر المثل السليمة والإنسانية أياً كان مصدرها، ويعتبر كتابه سجلاً بديعاً لحوادث نصف القرن الماضي.

الإذاعة المدرسية

كان يوم الاثنين الماضي بدء الإذاعة المدرسية التي شرعتها وزارة المعارف في عهد سعادة وزيرها الحالي - لفائدة تلاميذ المدارس. والمشروع جليل يستحق الاحتفال والثناء والشكر لوزير المعارف وكانت أولى المحاضرات بعد كلمة سعادة وزير

المعارف في مفتتح الإذاعة، كلمة الأستاذ مهدي علام في: (عتاب بين الأدب العربي والإنجليزي!) ماذا يوحي هذا العنوان؟ أما عندنا، فكنا ننتظر أن نسمع حواراً بديعاً طريفاً بين العربية وأختها، وما اكثر ما يقتضي العتاب بين اللغتين! ولكنا. . . ولكنا لم نسمع إلا قطعتين من نماذج العتاب

!. . .في الأدبين، نشرهما المحاضر من محفوظاته، ثم ربط بينهما بهذا العنوان

قد يكون اختياره حسناً، ولكن لغة الكتابة غير لغة الإذاعة، وهذا مشروع جديد في

!. . .وسائل التربية، فما كان أحوجه إلى الجديد من أقلام أهل التربية

ثم جاء دور المدارس الابتدائية، فأرهفنا السمع على شوق وأمل. . . وكانت تلاوة شعرية في (عمرية حافظ)، وعمرية حافظ لون من الشعر التاريخي، حبيبة إلى نفوسنا، يسرنا ويرضينا كل الرضى أن يفهمها ويعيها أولادنا؛ ولكن هل كانت الإذاعة المدرسية من أجل ذاك؟ فماذا يعمل مدرس المحفوظات. . .! وهنا أيضاً كما هناك،

!. . .كان أدب ولغة، وخطابة وشعر؛ ولكن للكتاب لا للمذياع

واسألوا التلاميذ بعد ذلك ماذا سمعوا مما كانوا يترقبون أن يسمعوا؟

إن مئات من المدرسين في الوزارة يحسنون التحدث إلى التلاميذ بأحسن مما سمعوا يوم الاثنين؛ لا لأنهم خير من الذين أذاعوا، أو أفهم لروح الطفل؛ ولكن لأنهم قد يكونون أقدر على خلع شخصياتهم حين يتحدثون إلى الطفل.

ما نريد من هذه الإذاعة أن نجتلي علم فلان وفلان فما نشك في ذاك، وإنما نريد أن نعرف كيف يتجاهل العلماء حين يريدون الحديث مع هؤلاء العقول الصغيرة الفارغة، حتى يعيش الأطفال في دنياهم على حقيقتها.

إن في الأدب القديم وفي الأدب الجديد كثيراً مما يروق التلاميذ صغاراً وكباراً أن يسمعوه، أكثر مما يروقهم أن يقرءوه، وما نرى التلاميذ يؤثرون أن يسمعوا شيئاً أكثر مما يؤثرون القصص. وفي ثنايا القصص يقال كل شئ؛ وهذا رأي لا نحسبه غريباً عن المكتب الفني في وزارة المعارف، وإن كان غريباً عن هذه الإذاعة المدرسية.

وللمعلمين أيضاً إذاعة كما للتلاميذ، وكانت الإذاعة لهم (في الخاتمة) محاضرة قيمة في شؤون التربية والتعليم، ألقاها الأستاذ أمين مرسي قنديل. وليس في المحاضرة مما ينقد إلا شيئاً واحداً، هو أن أستاذاً في التربية يحاضر المعلمين عامة في القطر ثم لا يصحح نطق الجمل ولا إعراب الكلام.

!. . .يا معلمينا الأجلاء. افهموا تلاميذكم قبل أن تحاولوا تفهيمهم

معلم

أشعة الإخفاء

من أنباء بودابست أن كيميائياً مجرياً فتي يدعى ستيفان بربيل أذاع أنه قد اكتشف نوعاً جديداً من الأشعة يخفي الأشياء إذا سلطها عليها، وأنه اخترع في نفس الوقت مادة تحول دون اختفاء الأشياء إذا سلطت عليها هذه الأشعة؛ وإنها إذا سلطت أخيراً على باب أو جدار أمكن رؤية ما وراءه. وقد أثارت هذه الدعوى في المجر دهشة واهتماماً عظيمين، ولكن المخترع الشاب لم يجد كالعادة ما يطمح إليه من التشجيع الجدي؛ ولذلك يمم شطر لندن ليقوم هنالك بعرض اختراعه، وقد صرح إلى الصحف الإنكليزية بأن الأشعة التي اخترعها إذا سلطت على سيارة اختفت في الحال عن الأنظار؛ وأنها إذا سلطت على غرفة تضم عدة أشخاص، فأن أولئك الأشخاص يتوارون عن العيان ولا يبدو منهم سوى أشباح كالظل؛ وهنالك أشياء عجيبة أخرى يحققها هذا الاختراع المدهش، فمثلا يمكن استعمال هذه الأشعة في المسرح وفي السينما، فتأتي بنتائج عجيبة في تسهيل المناظر وتغييرها

ومع أن ماهية هذا الاختراع لم تثبت بصفة قاطعة، فإنه يذكرنا بأي حال بما نقرأه في كتب القصص القديمة من طلاسم كانت تستعمل للاختفاء عن الأنظار، وليس بعيداً بعد الذي نشاهده اليوم من أعاجيب العلم أن يتحقق اختراع الفتى المجري وغيره من الأمور التي كانت تبدو فيما مضى مستحيلة، فإذا هي اليوم موضع المحاولة والبحث الجدي.

زينة المرأة الحديثة

هل يسير الجمال النسوي بما تختاره المرأة اليوم لنفسها من صنوف الزينة والتجميل إلى الكمال؟ أم أن المرأة أسرفت في الالتجاء إلى الصناعة حتى أصابت من جمالها

الطبيعي؟ يقول الأستاذ أولان دي لو رئيس قسم الفنون الجميلة بأكاديمية بروكسل في محاضرة له عن (أحوال الجمال في عصرنا) إن المرأة الحديثة تؤذي نفسها وجمالها ومن حيث لا تريد، وإنها تبدو اليوم شاحبة سقيمة، وأن الأصباغ والمساحيق المختلفة تجعل من وجهها (قناعاً من الورق المقوى). أما تجميل الأظافر واحمرارها فمما يجعل المرأة الأنيقة تبدو كأنها وصيفة أو طاهية عاطلة.

بيد أنه يلاحظ من جهة أخرى أن الحكم المطلق على وسائل التجميل والزينة فيه تحامل

على المرأة، فمما لا ريب فيه أن المرأة في حاجة إلى التجميل، فقد نستطيع مثلا بالقلم الأسود أن نصحح عيباً في الحاجب، وليست وسائل التجميل كلها مغرقة أو مضحكة، والمرأة الفنانة ذات الذوق الحسن تستطيع أن تسبغ على وجهها من حسن الصنعة جمالا لم تمنحه إياها الطبيعة، وفي وسعها أن تعتدل في استعمال الدهان أو التلوين؛ أما الحكم فيجب أن ينصب على التجميل المفرق وعلى الإسراف في وسائله؛ والزينة هي بلا ريب ضرورة للمرأة الحسناء لا تستطيع عنها غنى، كما أنها لا تستطيع دون إضرار بجمالها وذاتها أن تهمل في زينة ثوبها أو شعرها أو قبعتها؛ ولو أن النساء الأنيقات عملن بنصح الأستاذ أولان وتركن ما يلجأن إليه من وسائل الزينة لفقدن كثيراً من أناقتهن وجمالهن.

النقد

رد على نقد

كتاب تاريخ الإسلام السياسي - 3

للدكتور حسن إبراهيم حسن

مؤلف الكتاب

لاحظ القارئ في مقالينا السابقين مبلغ تلك المآخذ التي أوردها الناقد من الصواب وأنها لا تغني من قيمة كتابنا شيئاً. فأي تجنٍ وأي ظلم إذا ذهب هذا الأستاذ، بعد أن شغل قراء (الرسالة) بمقالين طويلين يزهو مقسماً بعمره - وليس بهين - إن هذه الأغلاط التي كشفها يذهب بعضها بمحاسن أي كتاب يرد فيه، فكيف بها كلها؟ نترك حضرة الناقد يزهو في غير عجب، ويتعلق بلا سبب؛ ونهمس في أذنه بأن إيراد تلك العبارة التي قدم بها كلمته الثالثة تذكرنا بالحكمة العربية (كاد المريب أن يقول خذوني). ثم نكِر على بعض تلك العيوب التي لحظها على طريقتنا في الأخذ من المصادر التاريخية لنتبين إن حظه فيها ليس بأحسن من حظه فيما سماه (مآخذ تاريخية وجغرافية)، وإذا كان يقول إن سوء حظه أبى عليه أن يقدم الثناء للمؤلف، فهناك من اطلعوا على كتابنا - وهم كثيرون - قد شاء حسن حظنا أن ننال تقديرهم ونغمر بفضلهم وتشجعهم. ولا أدل على هذا مما نشر في الصحف والمجلات في مصر والشام والعراق وغيرها، ومن أن الطبعة الأولى من الكتاب كادت أن تنفذ؛ ولا يعدم الحق مؤيداً وظهيراً.

يتهمنا حضرة الناقد بأننا حملنا متن الكتاب من الشروح والحواشي حملاً ثقيلاً، وكلفنا نفسنا شططاً وقراءنا مشقة وعنتاً، حيث أننا راعينا الأمانة في النقل، فنسبنا كل قول لقائله، وأسندنا كل رأي إلى مرجعه. ويرى حضرته أننا لم نقصد بذلك إلا ابتغاء السمعة، وأن نلقي في روع القارئ أننا في التاريخ واسعوا الاطلاع طويلو الباع ما كتبه الأوائل والأواخر!

لندع هذا الكلام الذي ينم عن الغرض من نقده، ونناقشه بكل هدوء في هذه العيوب التي حال تبينه وبين كلمة ثناء يكيلها لنا جزافاً.

كل من اطلع على كتابنا يدرك لأول وهلة أننا أردنا أن يكون مرجعاً علمياً تاريخياً لمن يريدون التوسع في التاريخ الإسلامي

وليس من المعقول أن كتابا سيقع في ستة مجلدات لا ينقص أحدها عن ستمائة صفحة قد قصد في وضعه أن يكون في متناول الطلاب الذين لم يتموا الدراسة الثانوية - فإذا أكثرنا من ذكر المصادر، وإحالة من يريد التوسع عليها، فليس الغرض أننا نبغي السمعة عند الناس كما يتهمنا الناقد - سامحه الله - وإنما هو انتهاج الطريقة الحديثة، مراعاة للأمانة، وكشفاً للطريق لمن يريد زيادة التحصيل، وتبرؤاً من قول قد لا يتفق ورأينا الشخصي. أما الزعم بأن كتابنا من الكتب المدرسية التي جرى العرف بأن يقتصر فيها

من ذكر المراجع في صلب الفصول على الضروري فزعم لا يتفق ووضع الكتاب وطريقة البحث فيه، ويدرك ذلك من عنده أدنى تأمل؛ وإذا كان حضرة الناقد كلف نفسه بعض المشقة لوجد أننا عمدنا إلى الطريقة الثانية المختصرة في كتابنا (تاريخ العصور الوسطى في الشرق والغرب) للسنة الثانية الثانوية.

وليت شعري كيف يحكم حضرة الناقد بأن كثرة المراجع التي اعتمدنا عليها صورية لا حقيقة، وكيف يدعي بأن حرصنا على التكثر والتزيد قد حملنا في كثير من الأحيان على أن ندلل على ما لا يحتاج إلى دليل، وأن نعدد المراجع ولو كانت في مرد أمرها ترجع إلى مصدر واحد؟ أليس أحق بالغرابة والإشفاق أن يتخذ من إحالتنا القارئ لخطبة أبي بكر على أربعة كتب قديمة اختلفت رواياتها بعض الاختلاف، سبباً في أننا ندلل فيما لا يحتاج إلى دليل؟ أننا لا نشك في أن البحث التاريخي الحديث يوافقنا، بل يطلب أن نعدد المراجع ما استطعنا، ولو لم تخلف الروايات من تقديم أو تأخير، ما، أو إبدال لفظ بلفظ. فما بالك وتلك المصادر الأربعة قد ذكرت في كل منها الخطبة مختلفة عن زميلاتها بعض الاختلاف؟ على أننا لم ندر ما هو الضرر الذي يلحق بالكتاب ويصيبه في نظر الناقد من ذكر المصادر، أربعة أو أكثر أو أقل، حتى عن خطبة قيمة يعرفها طلاب المدارس وينكرها بعض الأساتذة.

ولقد طوح القلم بحضرة الناقد، ودفعه الحرص على إلصاق العيوب إلى التهجم على كتاب يعتبر أصح الكتب بعد كتاب الله بإجماع المسلمين، ذلك هو صحيح الأمام أبي عبد الله

البخاري. وإننا بدورنا نبادر ونطلب من الناقد أن يستغفر من ذنبه، فان إمام المحدثين البخاري هو الذي روى ذلك الحديث الذي جرى بين أبي سفيان وبين هرقل قيصر الروم في الشام (راجع باب بدء الوحي في البخاري)؛ كما أن هذا الحديث، وقد أجمع على صحته المحدثون، لم يحمل في ثناياه أدلة ضعفه وانتحاله - كما يقول الناقد - وأنه ذو خطر عظيم؛ فأنه يوضح بأجلى بيان كيف كان المشركون وعظماء قريش ينظرون إلى الرسول قبل إسلامه، وكيف كانوا يعرفون صدقه وأمانته كما يعرفون آبائهم وأبنائهم. وكيف لا يقدم هذا الحديث الصحيح في فهم سيرة الرسول ولا يؤخر؟ وقد كان أيضاً سبباً مباشراً فيما عرضه هرقل على بطارقته من الإسلام لولا أن حاصوا حيصة حُمر الوحش إلى الأبواب (راجع هذا الباب في البخاري)

أما أننا لم نقصد إلى مناقشة هذه النصوص التي وردت في شرح البخاري ومقارنة رواياتها المختلفة بعضها عن بعض، وأننا لم نبين ما اتفقت فيه وما اختلفت من حيث اللفظ والمعنى الخ، فان هذا ليس بذي خطر؛ فضلاً عن أنه يخرج بنا عن المقام. ومالا يترك كله

ولعل من الغرابة أن يجعل الناقد من أسباب الخطر على مقدرتنا في نقد المراجع وتقويمها أننا وافقنا على نسبة كتاب (فتوح الشام) للواقدي، وأننا استعنا به في الفصل الذي عقدناه لفتح العرب الشام، ثم أنبرينا لمناقشته ومجادلته، وأننا كذلك اعتمدنا في عدة مواضع على كتاب (الإمامة والسياسة) المنسوب لابن قتيبة. ويقول الناقد إن الكتاب ليس للواقدي، وان كل شئ في الكتاب الثاني يدل على أنه ليس لابن قتيبة، وإنما هو لكاتب أندلسي.

أما إن نسبة هذين الكتابين لهذين المؤرخين أو غيرهما فلا يقدم ولا يؤخر في الموضوع، - على كل حال - يوضحان الحياة العامة السياسية في العصور التي تناولناها في كتابنا. وقد تضافرت المصادر الأخرى على صحة القدر الغالب مما ورد فيهما. على أن مجرد إنكار نسبة الكتابين للواقدي وابن قتيبة لا يكفي، بل يدعو إلى الابتسام، اللهم إلا إذا اعتمد المنكر على غير (غالب الظن)، و (الاعتماد على بعض ما كتبه الإفرنج)، مما لا يعتد به المنطق التاريخي ولا يدعمه دليل مبين. وإذا كان الظن في كل المسائل لا يعني من الحق شيئاً، ففي المسائل التاريخية خصوصاً يكون أبعد من الحق منالا وأدنى للباطل مجالا.

(يتبع)

حسن إبراهيم حسن

الكتب

1 - الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير:

لابن الساعي
2 - الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة:
لابن الفوطي
للأستاذ محمد بك كرد علي
- 1 -
كتبت في مجلة المقتبس (م 3ص 93 - 1326 - 1908) مبحثا لفت فيه أنظار المشتغلين بالتاريخ إلى جزء من (الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير) لابن الساعي البغدادي (674) كان عثر عليه العلامة احمد تيمور باشا في دشت وضمه إلى خزانته رحمه الله. واليوم نشر الأستاذ مصطفى جواد بمعونة الأب انستاس ماري الكرملي هذا الجزء بعينه وهو التاسع من كتاب طويل. وللمؤلف اكثر من ثلاثين تأليفاً منها ما يدخل في بضعة مجلدات، وأكثرها في التاريخ والتراجم، ساعده على الاستكثار من التأليف كونه كان خازن كتب المدرسة المستنصرية ببغداد، إلى ما خص به من الدؤوب وثقوب الذهن ووفرة العلم. ولابن الساعي وهو على بن أنجب كتاب صغير طبع في المطبعة الأميرية بمصر 1309 وهو مختصر أخبار الخلفاء، يبدأ بظهور الدولة العباسية وينتهي بانقضائها.
وفي هذا الجزء التاسع من الجامع المختصر حوادث سنة 595 إلى 606 هـ يذكر فيها مجملة تم يترحم لمن ماتوا في تلك السنة من الأعلام، وفيه كثير من الفوائد التاريخية. ومعلوم عند الباحثين أن هذا العصر أحط عصور بني العباس، ولا ندري كيف يثبت ناشر الكتاب أن (العصر الذي تناول حوادثه هذا التاريخ من أزهر عصور بني العباس وأعظمها قوة ونظاماً)، وعصر الناصر على غلو المؤرخين من الشيعة فيه - لأنه تشيع - كان في الواقع عصر تراجع سلطان العباسيين، فاكتفوا ممن سلبوهم حكم بلادهم بالسكة والخطبة، وما كان يخطر ببالهم أن يتكرموا به على الخليفة من إتاوة، والخلفاء يكيلون لكل متغلب ما شاء الله من الألقاب ويطلقون على أحد العلماء (ص234): (الأجل السيد الأوحد العالم ضياء الدين شمس الإسلام رضى الدولة عز الشريعة علم الهدى رئيس الفريقين تاج العلماء. . .) ويكتبون عن أنفسهم: (المواقف الشريفة المقدسة النبوية الأمامية الطاهرة الزكية المعظمة المكرمة الممجدة الناصرة لدين الله تعالى. . .).
وفي الكتاب تراجم بعض المشاهير في تلك الحقبة وعهود وتقاليد صدرت عن خليفة الوقت بأقلام المنشئين في ديوانه. وقد وقعت للناشر هفوات لغوية وتحريف بعض آيات الكتاب العزيز منها (ص 196) (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك الظالمون). وغلط (ص87) بأن حرف الآية هكذا (الذين كفروا بعضهم أولياء بعض) وصحة الآية الكريمة (والذين كفروا بعضهم أولياء بعض) إلى غير ذلك.
- 2 -
طبع الجامع المختصر في بغداد وقبله طبع فيها كتاب الحوادث الجامعة لابن الفوطي (بالفاء) البغدادي المتوفى سنة 723 بدأه بحوادث سنة 626 وانتهى بأخبار سنة 700. وللمؤلف يد طولى في التاريخ ووقوف تام على سياسة عصره، وأورد في تاريخه الممتع من الحوادث ما كملت به سلسلة التاريخ في العراق على عهد الانحطاط العباسي. ومن أهم فصول الكتاب وصف المؤلف فاجعة هولاكو التتري سنة 656 وقضاءه على الخليفة المستعصم وعلى جميع آل العباس مع ذراريهم وحرمهم وتخريبه بغداد ووضعه السيف في أهلها. وقد قدر القتلى منهم بأكثر من ثمانمائة ألف في بغداد فقط (عدا من ألقي من الأطفال في الوحول، أو من هلك في القنى والآبار وسراديب الموتى جوعا وخوفاً) (واحرق معظم البلد وجامع الخليفة وما يجاوره واستولى الخراب على البلد) وصف ذلك وصفاً ممتعاً لا إفراط فيه ولا تفريط وقد ساعد المؤلف على هذا التوسع والتبسط في الحوادث التي عرض لها أنه كان كأستاذه ابن الساعي أيضاً خازن كتب المدرسة المستنصرية. وذكر في حوادث سنة 631 ترجمة محمد بن يحيى بن فضلان، وفتح المدرسة المستنصرية، وأبن فضلان هذا كان من العلماء درس في النظامية والمستنصرية (وولى النظر بديوان الجوالي - أي جزية أهل الذمة. حكى عنه انه كتب للخليفة الناصر لدين الله لما كان يتولى ديوان الجوالي رقعة طويلة يقول فيها إن أجرة سكنى أهل الذمة في دار السلام والارتفاق بمرافقها لا يتقدر

في الشرع بمقدار معين، في طرف الزيادة، ويتقدر في طرف النقصان بدينار؛ وطلب إلى الخليفة أن يتضاعف على كل شخص منهم ما يؤخذ منه. وقال انهم ضروب وأقسام، منهم من هو في خدمة الديوان وله المعيشة السنية غير بركة يده الممتدة إلى أموال السلطان والرعية من الرشا والبراطيل؛ ولعل الواحد منهم ينفق في يومه القدر المأخوذ منه في السنة؛ هذا مع ما لهم من الحرية الزائدة والجاه القاطع والترقي على رقاب خواص المسلمين. . . ثم ليس لهم في بلد من الحرمة والجاه والمكانة ما لهم في مدينة السلام، فلو تضاعف المأخوذ منهم مهما تضاعف كان لهم الربح الكثير؛ ومنهم الأطباء أصحاب المكاسب الجزيلة بترددهم إلى منازل الأعيان وأرباب الأموال ودخولهم على المتوجهين في الدولة؛ والناس يتحملون فيما يعطون الطبيب زائداً على القدر المستحق، وهو أمر من قبل المروءات، فلا ينفكون عن الخلع السنية والدنانير الكثيرة، والطرف في الموسم والفصول، مع ما يخطئون في المعالجات ويفسدون الأمزجة والأبدان، ويخرج الصبي منهم ولم يقرأ غير عشر مسائل حنين، وخمس قوائم من تذكرة الكحالين، وقد تقمص ولبس العمامة الكبيرة، وجلس في مقاعد الأسواق والشوارع على دكة حتى يعرف، وبيديه المكحلة والملحدان، يؤذي هذا في بدنه، ويجرب على ذا في عينه؛ فيفتك من أول النهار إلى منزله ومكحلته مملوءة قراضة، فإذا عرف بقعوده على الدكة وصار له الزبون قام يدور، ويدخل الدور.

ثم ذكر أصناف الحرف التي كان يحترفها أهل الذمة في ذاك العهد ويغشون فيها.

وهذه الرقعة أو التقرير على ما يلمح فيه من التعصب يحمل حقائق من وصف المجتمع البغدادي في القرن السابع. وهذا التاريخ مجموعة حوادث وأفكار مهمة جداً.

وقد قدم له العلامة رضا الشبيبي من علماء العراق مقدمة ذكر فوائده؛ ونظر فيه وعلق عليه الأستاذ مصطفى جواد.

محمد كرد علي

العدد 134 - بتاريخ: 27 - 01 - 1936

ملك وشاعر

حل أصدق المواعيد في يومين متعاقبين بالملك جورج الخامس، وبالشاعر رديارد كبلنج، فأرفضّ لخطبهما الصبر الإنجليزي الذي يتماسك بطبعه على مض النوازل، وتجاوبت بأصداء الأسى الوقور أقطار المُلك البريطاني الشامل، وشعر القلب الإمبراطوري برجفة صماء لموت الملك، وأحس اللسان الاستعماري بعقدة بكماء لموت الشاعر؛ ذلك أن صاحب الجلالة كان يمثل شعبه في نبله وديمقراطيته، وصاحب العبقرية كان يمثله في طموحه ووطنيته؛ فأولهما كان رمز السمو الخلقي في طبع السياسة، وثانيهما كان لحن الغرور القومي في معنى الأدب!

كان الملك جورج معنى جديداً من معاني الملكية الجديدة؛ وفق بين غطرفة الملك وتواضع الديمقراطية، وألف بين قيود الحكم ونوازع الحرية، وصالح بين حفاظ التقاليد وطبيعة التطور، ولاءم بين إرادة العاهل وسلطة الدستور، وواءم بين سياسة الدولة ورغبة الأمة، واستبدل بالسلطة الزمنية التي أماتها فيه الزمان، وورثها عنه البرلمان، سلطة روحية أحلته من شعبه محل القداسة، ورفعته في أفقه مكان العلم، وجعلته في حكمه سلام الحزبية إذا احتدمت، وقرار السياسة إذا اضطربت، وصلة الإمبراطورية إذا تقاطعت، ومواساة المرضى من برح الألم، وتعزية البؤس من مس الحاجة؛ ثم تكرم عن أثرة الملوك وتميز السادة، فكان في الحرب يأكل ما يأكل الناس، وفي الأزمة ينفق ما ينفق الأوساط، وفي المحنة يكابد ما يكابد الشعب، وفي الرخاء يكاد الإحسان العام لا يترك في يديه من مخصصاته النصف مليون إلا قرابة الألفين

كانت ملكية الملك جورج كما رأيت لفظاً معناه الحب والخير والواجب؛ ومن هنا وجدت الأحزاب على اختلافها مضامينها فيه؛ فهي تثور فيما بينها وتسكن إليه، وتختلف في رأيها وتتفق عليه، وتفترق في طرقها وتلتقي عنده، حتى قال زعيم من زعماء الأحرار هو مستر اسكويث: (إن العرش لَتَهَاوى حولنا، لأن بعضها قائم على أساس من الظلم، وبعضها مرفوع على غثاء من التقاليد، ولكن عرش هذه البلاد محمول على مشيئة الشعب البريطاني، فهو مستقر لا يتزعزع، راسخ لا يميد)، وحتى قال زعيم من زعماء العمال هو مستر استافورد: (إن الملكية الدستورية ستظل طويلاً في هذه الأمة خير أداة لاختيار رأس الدولة)

من أجل ذلك الخلق الأقوم كان حزن الإنكليز على مليكهم خالصاً من الرياء الرسمي، صادراً عن الشعور الصادق بالحب لرجل غلّب الأبوة على المُلك، واستغنى بالطيبة عن البراعة، وسد بكمال الخلق نقص القدرة

وكان الشاعر كبلنج مفتوناً بعظمة الإمبراطورية؛ صاغ من نسبها النضار شعره، وألف من لجبها المتناسق أغاريده؛ ثم شدا بالمجد الطوّاف على أثباج الماء، وهتف بالنصر الرفاف على وجوه الأرض، وجعل من شعره الجواب نشيداً قومياً تردده الآفاق البريطانية كما تردد نشيد الملك!

ولد كبلنج في بلاد قال فيها: (إنها أعجب بلاد خضعت للمخلوق وفتحت للخالق): ولد في الهند بمباي كما يولد الهنود، ولكنه وعى فوجد نفسه سيداً، ووجد الهندي الذي ولد معه عبداً، يعيش على كده وهو ناعم بين وِسكيه وحسانه، ويرقى على ظهره إذا همّ بركوب حصانه! الخلقة هي الخلقة، والبيئة هي البيئة، والطبقة هي الطبقة، ولكن كبلنج رأى بشرته ودمه من لون العلم الخفاق، ورأى بشرة الهندي ودمه من لون الأرض المستغلة، فأدرك علة الامتياز وسر التفوق: عرف أن البريطاني بحكم الجنس قد يدعى ذكياً وهو فدْم، وكيّساً وهو أخرق، وكافياً وهو عاجز، وسابقاً وهو متخلف، فاستهام بهذه القوة التي تشع مع الشمس في كل أفق، وتنتشر مع الحياة في كل قطر، وتنبسط على حواشي البر والبحر أمناً وحماية، فحبس على إعلان مفاخرها لسانه، ووقف على تسويغ عدوانها عقله؛ فموه حجج الاستعمار بالشعر، وألهب سعار العصبية بالحماسة، وشوه جمال الوطنية بالأثرة، وجعل الأدب وهو شعاع الروح دليلاً لبغي القومي ولؤمه، ومهد لأساطيل الطغيان، استبعاد الإنسان للإنسان، بحجة (أن الشرق شرق والغرب غرب فلا يلتقيان) إلا على شر، ولا يفترقان إلا على ثأر!

من أجل ذلك الإخلاص الملهم كان مرض كبلنج تحت الرعاية الملكية، وكانت جنازة كبلنج جنازة (شبه رسمية)!

إن في مثل سياسة الملك جورج لأماناً من طغيان الرءوس وثوران النفوس، وقيام الدعوات الباطلة، وشيوع المذاهب الجريئة، وانقلاب الحكم في الدولة، واضطراب السلم في الأمة، واغبرار العيش في أوجه العامة. إن في مثل أدب الشاعر كبلنج لروحاً مزهوة تعتلج بالشعور الوطني، وتختلج بالغرور القومي، وتدفع بالهمم الوانية إلى اللحاق، وتنزع بالنفوس الضارعة عن المذلة، وتكشف للقلوب المنخوبة عن معاني الرجولة!

إن في كل حادث ذكرى؛ وإن في كل حديث بلاغا!

احمد حسن الزيات

المشكلة - 4

تتمة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

صاحب هذه المشكلة رجل أعور العقل. . . . يرى عقله من ناحية واحدة، فقد غاب عنه نصف الوجود في مشكلته؛ ولو أن عقله أبصر من الناحيتين لما رأى المشكلة خالصةً في إشكالها، ولوجد في ناحيتها الأخرى حظاً لنفسه قد أصابه، ومذهباً في السلامة لم يخطئه؛ وكان في هذه الناحية عذاب الجنون لو عذبه الله به، وكان يصبح أشقى الخلق لو رماه الله في الجهة التي أنقذه منها، فتهيأت له المشكلة على وجهها الثاني

ماذا أنت قائل يا صاحب المشكلة لو أن زوجتك هذه المسكينة المظلومة التي بنيت بها، كانت هي التي أكرهت على الرضا بك، وحُملت على ذلك من أبيها، ثم كنت أنت لها عاشقاً، وبها صبّاً، وفيها متدلهاً؛ ثم كانت هي تحب رجلاً غيرك، وتصبو إليه، وتفتتن به، وقد احترقت عشقاً له؛ فإذا جلَوَها عليك رأتك البغيض المقيت، ورأتك الدميم الكريه، وفزعت منك فزعها من اللص والقاتل؛ وتمد لها يدك فتتحاماها تحاميها المجذوم أو الأبرص، وتكلمها فتُحَمّ برداً من ثقل كلامك، وتفتح لها ذراعيك فتحسبهما حبلين من مشنقتين، وتتحبب إليها فإذا أنت أسمج خلق الله عندها، إذ تحاول في نذالة أن تحل منها محل حبيبها وتقبل عليها بوجهك فتراه من تقذّرها إياك واشمئزازها منك وجه الذبابة مكبّراً بفظاعة وشناعة في قدر صورة وجه الرجل ليتجاوز حد القبح إلى حد الغثاثة، إلى حد انقلاب النفس من رؤيته، إلى حد القيء إذا دنا وجهك من وجهها. . . .؟!

ماذا أنت قائل يا صاحب المشكلة لو أن مشكلتك هذه جاءت من أن بينك وبين زوجتك الرجل الثاني لا المرأة الثانية؟ ألست الآن في رحمة من الله بك، وفي نعمة كفّت عنك مصيبة، وفي موقف بين الرحمة والنعمة يقتضيك أن ترقب في حكمك على هذه الزوجة المسكينة حكم الله عليك؟

تقول: الحب والخيال والفن، وتذهب في مذاهبها؛ غير أن (المشكلة) قد دلت على أنك بعيد من فهم هذه الحقائق، ولو أنت فهمتها لما كانت لك مشكلة ولا حسبت نفسك منحوس الحظ محروماً، ولا جهلت أن في داخل العين من كل ذي فن عيناً خاصة بالأحلام كيلا تعمى عينه عن الحقائق

الحب لفظ وهمي موضوع على أضداد مختلفة: على بركان وروضة، وعلى سماء وأرض، وعلى بكاء وضحك، وعلى هموم كثيرة كلها هموم، وعلى أفراح قليلة ليست كلها أفراحاً؛ وهو خداع من النفس يضع كل ذكائه في المحبوب، ويجعل كل بلاهته في المحب، فلا يكون المحبوب عند محبه إلا شخصاً خيالياً ذا صفة واحدة هي الكمال المطلق، فكأنه فوق البشرية في وجود تام الجمال ولا عيب فيه، والناس من بعده موجودون في العيوب والمحاسن

وذلك وهم لا تقوم عليه الحياة ولا تصلح به، فإنما تقوم الحياة على الروح العملية التي تضع في كل شيء معناه الصحيح الثابت. فالحب على هذا شيء غير الزواج، وبينهما مثل ما بين الاضطراب والنظام؛ ويجب أن يُفهم هذا الحب على النحو الذي يجعله حباً لا غير، فقد يكون أقوى حب بين اثنين إذا تحابا هو أسخف زواج بينهما إذا تزوجا

وذو الفن لا يفيد من هذا الحب فائدته الصحيحة إلا إذا جعله تحت عقله لا فوق عقله فيكون في حبه عاقلاً بجنون لطيف. . . . ويترك العاطفة تدخل في التفكير وتضع فيه جمالها وثورتها وقوتها؛ ومن ثم يرى مجاهدة اللذة في الحب هي أسمى لذاته الفكرية، ويعرف بها في نفسه ضرباً إلهياً من السكينة يوليه القدرة على أن يقهر الطبيعة الإنسانية ويصرّفها ويبدع منها عمله الفني العجيب

وهذا الضرب من السمو لا يبلغه إلا الفكر القوي الذي فاز على شهواته وكبحها وتحملها تغلي فيه غليان الماء في المرجل ليخرج منها ألطف ما فيها ويحولها حركة في الروح تنشأ منها حياة هذه المعاني الفنية؛ وما أشبه ذا الفن بالشجرة الحية، إن لم تضبط ما في داخلها أصح الضبط لم يكن في ظاهرها إلا أضعف عملها

ومثل هذا الفكر العاشق يحتاج إلى الزوجة حاجته إلى الحبيبة، وهو في قوته يجمع بين كرامة هذه وقدسية هذه لأن إحداهما توازن الأخرى، وتعدّلها في الطبع، وتخفف من طغيانها على الغريزة، وتمسك القلب أن يتبدد في جوه الخيالي

والرجل الكامل المفكر المتخيل إذا كان زوجاً وعشق، أو كان عاشقاً وتزوج بغير من يهواها استطاع أن يبتدع لنفسه فناً جميلاً من مسرات الفكر لا يجده العاشق ولا يناله المتزوج، وإنه ليرى زوجته من الحبيبة كالتمثال جمد على هيئه واحدة، غير أنه لا يُغفل أن هذا هو سر من أسرار الإبداع في التمثال إذ تلك هيئة استقرار الأسمى في سموه؛ فإن الزوجة أمومة على قاعدتها وحياة على قاعدتها؛ أما الحبيبة فلا قاعدة لها، وهي معان شاردة لا تستقر وزائلة لا تثبت، وفنها كله في أن تبقى حيث هي كما هي، فجمالها يحيا كل يوم حياة جديدة مادامت فناً محضاً ومادام سر أنوثتها في حجابه

ومتى تزوج الرجل بمن يحبها انهتك له حجاب أنوثتها فبطل أن يكون فيها سر، وعادت له غير من كانت، وعاد لها غير من كان؛ وهذا التحول في كل منهما هو زوال كل منهما من خيال صاحبه؛ فليس يصلح الحب أساساً للسعادة في الزواج، بل أحْرِ به إذا كان وجداً واحتراقاً أن يكون أساساً للشؤم فيه، إذ كان قد وضع بين الزوجين حداً يعين لهما درجة من درجة في الشغف والصبابة والخيال، وهما بعد الزواج متراجعان وراء هذا الحد ما من ذلك بد، فإن لم يكن الزوج في هذه الحالة رجلاً تام الرجولة - أفسدت الحياة عليه وعلى زوجته صبيانية روحه فالتمس في الزوجة ما لم يعد فيها، فإذا انكشف له فراغها ذهب يلتمسه في غيرها وكان بلاءً عليها وعلى نفسه وعلى أولاده قبل أن يولدوا، إذ يضع أمام هذه المرأة أسوأ الأمثلة لأبي أولادها ويفسد إحساسها فيفسد تكوينها النفسي؛ وما المرأة إلا حسها وشعورها

فالشأن في تمام الرجولة وقوتها وشهامتها وفحولتها إن كان الرجل عاشقاً أو لم يكنه.

وما من رجل قوي الرجولة إلا وأساسه ديانته وكرامته؛ وما من دين أو كرامة يقع في مثل هذه المشكلة ثم تظلم به الزوجة أو يحيف عليها أو يفسد ما بينه وبينها من المداخلة وحسن العشرة، بَلهْ أن يراها كما يقول صاحب المشكلة (مصيبة) فيجافيها ويبالغ في إعانتها ويشفي غيظه بإذلالها واحتقارها

وأي ذي دين يأمن على دينه أن يهلك في بعض ذلك فضلاً عن كل ذلك؟ وأي ذي كرامة يرضى لكرامته أن تنقلب خسة ودناءةً ونذالةً في معاملة امرأة هو لا غيره ذنبها؟ إن أساس الدين والكرامة ألا يخرج إنسان عن قاعدة الفضيلة الاجتماعية في حل مشكلته إن تورط في مشكلة؛ فمن كان فقيراً لا يسرق بحجة أنه فقير، بل يكد ويعمل ويصبر على ما يعانيه من ذلك؛ ومن كان محباً لا يستنزل المرأة فيسقطها بحجة أنه عاشق؛ ومن كان كصاحب

المشكلة لا يظلم امرأته فيمقتها بحجة أنه يعشق غيرها؛ وإنما الإنسان من أظهر في كل ذلك ونحو ذلك أثره الإنساني لا أثره الوحشي، واعتبر أموره الخاصة بقاعدة الجماعة لا بقاعدة الفرد. وإنما الدين في السمو على أهواء النفس؛ ولا يتسامى امرؤ على نفسه وأهواء نفسه إلا بإنزالها على حكم القاعدة العامة، فمن هناك يتسامى، ومن هناك يبدو علوّه فيما يبلغ إليه. . . . . .

وإذا حل اللص مشكلته على قاعدته هو فقد حلها، ولكنه حل يجعله هو بجملته مشكلة للناس جميعاً حتى ليرى الشرع في نظرته إلى إنسانية هذا اللص أنه غير حقيق باليد العاملة التي خلقت له فيأمر بقطعها.

وعلى هذه القاعدة فالجنس البشري كله ينزل منزلة الأب في مناصرته لزوجة صاحب المشكلة والاستظهار لها والدفاع عنها مادام قد وقع عليها الظلم من صاحبها، وهذا هو حكمها في الضمير الإنساني الأكبر وإن خالف ضمير زوجها العدو الثائر الذي قطعها من مصادر نفسه ومواردها. أما حكم الحبيبة في هذا الضمير الإنساني فهو أنها في هذا الموضع ليست حبيبة ولكنها شحّاذة رجال. . . . . .

لسنا ننكر أن صاحب هذه المشكلة يتألم منها ويتلذع بها من الوقدة التي في قلبه؛ بيد أننا نعرف أن ألم العاقل غير ألم المجنون وحزن الحكيم غير حزن الطائش؛ والقلب الإنساني يكاد يكون آلة مخلوقة مع الإنسان لإصلاح دنياه أو إفسادها، فالحكيم من عرف كيف يتصرف بهذا القلب في آلامه وأوجاعه، فلا يصنع من ألمه ألماً جديداً يزيده فيه، ولا يُخرج من الشر شراً آخر يجعله أسوأ مما كان. وإذا لم يجد الحكيم ما يشتهي أو أصاب ما لا يشتهي استطاع أن يخلق من قلبه خلقاً معنوياً يوجده الغنى عن ذلك المحبوب المعدوم، أو يوجده الصبر عن هذا الموجود المكروه، فتتوازن الأحوال في نفسه وتعتدل المعاني على فكره وقلبه. وبهذا الخلق المعنوي يستطيع ذو الفن أن يجعل آلامه كلها بدائع فن وما هو فكر الحكماء إلا أن يكون مصنعاً ترسل إليه المعاني بصورة فيها الفوضى والنقص والألم، لتخرج منه في صورة فيها النظام والحكمة واللذة الروحية

يعشق الرجل العامي المتزوج، فإذا الساعة التي أوبقَته في المشكلة قد جاءته معها بطريقة حلها؛ فإما ضرَب امرأته بالطلاق، وإما أهلكها باتخاذ الضرة عليها، وإما عذبها بالخيانة

والفجور، لأن بعض العبث من الطبيعة في نفس هذا الجاهل هو بعينه عبث الطبيعة بهذا الجاهل في غيره، كأن هذه الطبيعة تطلق مدافعها الضخمة على الإنسانية من هذه النفوس الفارغة. . .

وليس أسهل على الذكر من الحيوان أن يحل مشكلة الأنثى حلاً حيوانياً كحل هذا العاميّ، فهو ظافر بالأنثى أو مقتول دونها مادام مطلقاً مخليً بينه وبينها. والحقيقة هنا حقيقته هو والكون كله ليس إلا منفعة شهوانية؛ وأسمى فضائله ألا يعجز عن نيل هذه المنفعة

ثم يعشق الرجل الحكيم المتزوج فإذا لمشكلته وجه آخر، إذ كان من أصعب الصعب وجود رجل يحل هذه المشكلة برجولة، فإن فيها كرامة الزوجة وواجب الدين وفيها حق المروءة، وفيها مع ذلك عبث الطبيعة وخداعها وهزلها الذي هو أشد الجد بينها وبين الغريزة. وبهذا كله تنقلب المشكلة إلى معركة نفسية لا يحسمها إلا الظفر ولا يعين عليها إلا الصبر، ولا يفلح في سياستها إلا تحمل آلامها، فإذا رزق العاشق صبراً وقوةً

على الاحتمال. فقد هان الباقي؛ وتيسرت لذة الظفر الحاسم، وإن لم يكن هو الظفر بالحبيبة، فإن في نفس الإنسان مواقع مختلفة وآثاراً متباينة للذة الواحدة، وموقع أرفع من موقع، وأثر أبهج من أثر؛ وألذ من الظفر بالحبيبة نفسها عند الرجل الحكيم الظفر بمعانيها، وأكرم منها على نفسه كرامة نفسه. وإذا انتصر الدين والفضيلة والكرامة والعقل والفن، لم يبق لخيبة الحب كبير معنى ولا عظيم أثر، ويتوغل العاشق في حبه وقد لبسته حالة أخرى كما يكظم الرجل الحكيم على الغيظ، فذلك يحب ولا يطيش، وهذا يغتاظ ولا يغضب. والبطل الشديد البأس لا ينبغ إلا من الشدائد القوية، والداهية الأريب لا يخرج إلا من المشكلات المعقدة، والتقيّ الفاضل لا يعرف إلا بين الأهواء المستحكمة. ولعمري إذا لم يستطع الحكيم أن ينتصر على شهوة من شهوات نفسه أو يبطل حاجة من حاجاتها فماذا فيه من الحكمة وماذا فيه من النفس؟

وما عقّد (المشكلة) على صاحبها بين زوجته وحبيبته إلا أنه بخياله الفاسد قد أفسد القوة المصلحة فيه، فهو لم يتزوج امرأته كلها. . . وكأنه لا يراها أنثى كالنساء، ولا يبصر عندها إلا فروقاً بين امرأتين: محبوبة ومكروهة، وبهذا أفسد عينه كما أفسد خياله؛ فلو تعلم كيف يراها لرآها، ولو تعوّدها لأحبها

إنه من وهمه كالجواد الذي يشعر بالمقادة في عنقه؛ فشعوره بمعنى الحبل وإن كان معنى

ضئيلاً عطل فيه كل معاني قوته، وإن كانت معاني كثيرة. وما أقدرك أيها الحب على وضع حبال الخيل والبغال والحمير في أعناق الناس.!

وقد بقي أن نذكر توفية للفائدة أنه قد يقع في مثل هذه المشكلة من نقصت فحولته من الرجال فيدلس على نفسه بمثل هذا الحب ويبالغ فيه ويتجرّم على زوجته المسكينة التي ابتليت به، ويختلق لها العلل الواهية المكذوبة ويبغضها كأنه هو الذي ابتلي بها وكأن المصيبة من قبلها لا من قبله؛ وكل ذلك لأن غريزته تحولت إلى فكرة فلم تعد إلا صوراً خيالية لا تعرف إلا الكذب. وقد قرر علماء النفس أن من الرجال من يكره زوجته أشد الكره إذا شعر في نفسه بالمهانة والنقص من عجزه عنها، فهذا لا يكون رجلاً لامرأته إلا في العداوة والنقمة والكراهية وما كان من باب شفاء الغيظ، وامرأته معه كالمعاهدة السياسية من طرف واحد. . . لا قيمة ولا حرمة؛ وإذا أحب هذا كان حبه خيالياً شديداً لأنه من جهة يكون كالتعزية لنفسه، ومن جهة أخرى يكون غيظاً لزوجته ورداً بامرأة على امرأة. . . . .

(طنطا)

مصطفى صادق الرافعي

ريح التعصب الجنسي تهب على أوربا

بقلم باحث دبلوماسي كبير

مضى الآن أربعة أشهر على نشوب تلك الحرب البربرية التي تضرم إيطاليا نارها في الحبشة باسم الاستعمار والمدنية؛ والحبشة ترد هجمات المعتدين عليها بشجاعة وجلد يثيران إعجاب العالم وعطفه؛ والعدو المغير يتخبط في غمر فادحة من الصعاب والخيبة واليأس، ويرتد شيئاً فشيئاً عن الأرض التي احتلها في البداية دون مقاومة، وظن أن احتلالها مقدمة للظفر الشامل

وقد سنحت لإيطاليا المعتدية أكثر من فرصة للفوز بقسط معقول من أسلاب الفريسة، قبل أن تصطدم بأية مقاومة حقيقية، وقبل أن ينكشف ضعفها وعجزها عن تحقيق أطماعها الفادحة بالقوة القاهرة؛ ولكنها لم تحسن انتهاز الفرصة وذهبت بعيداً في غلوائها وتحديها، ولم تحسن تقدير المقاومة السلبية الدولية التي استطاعت السياسة البريطانية أن تنظمها ضدها على يد عصبة الأمم، والتي أملت تنظيمها على السياسة البريطانية بواعث حيوية خطيرة تتعلق بسلامة الإمبراطورية وتأييد سيادتها في البحر الأبيض المتوسط، وفي وادي النيل وشرق أفريقية؛ بيد أن إيطاليا استطاعت بسياستها العنيفة وما تحمل في ثنيتها من احتمال إضرام نار حرب أوربية، أن تحمل السياستين الفرنسية والبريطانية على وضع مشروع للصلح، يقضي في الواقع على الحبشة بالإعدام كأمة مستقلة، ويحقق لإيطاليا السيادة الفعلية على معظم أراضيها، ويتوج حملتها الاستعمارية بظفر شامل لم تستطع أن تنال منه شيئاً بالحرب؛ ولكن المقاومة الحبشية كانت قد بدأت عندئذ تحدث أثرها في وقف الزحف الإيطالي، وظهر

عجز إيطاليا وضعفها جلياً، واستقبل العالم مشروع الصلح بالاستنكار والسخط، ورفضته الحبشة بتاتاً، فلم يلبث أن قضي عليه في مهده؛ وكانت فضيحة دولية حقيقية أصابت هيبة السياسة البريطانية، واضطرت أن تتراجع أمامها بسرعة وأن تعود إلى موقفها الأول

وقد عرضنا من قبل إلى ذلك التطور المدهش في سير الحرب الحبشية، وأشرنا إلى بعض العوامل التي يظن أنها كانت سبباً في تحول السياسة البريطانية؛ ومنها ما يقال من أن مسيو لافال رئيس الوزارة الفرنسية استطاع أن يقنع السير صمويل هور وزير الخارجية

البريطانية المستقيل بأن تعريض الحملة الإيطالية للفشل، وتمكن الأحباش من إحراز نصر حاسم على البيض مما يعرض سيادة الدولة الأوربية في أفريقية للخطر، ويصدع من صرح أوربا الاستعماري كله، ويبعث في الشعوب السوداء أو الملونة رغبة الانتقاض والمقاومة، وذلك ليس من مصلحة بريطانيا التي تحكم مئات الملايين من الشعوب الملونة في أفريقية وأسيا

ومما يلاحظ أن هذه النغمة الجنسية تقوى وتشتد في أوربا يوماً عن يوم، وأن الدوائر والصحف الاستعمارية أخذت تضرب عليها بطريقة منظمة، وخصوصاً بعد الانتصارات المتوالية التي أحرزها الأحباش على الإيطاليين في الأسابيع الأخيرة، مما يدل على إنها قد أخذت تحدث أثرها في تكييف السياسة الاستعمارية الأوربية: بيد أنه مما يلاحظ أيضاً أن هذه النغمة التي بعثتها الحرب الحبشية من رقادها ليست سوى ناحية واحدة من نواحي الفورة الجنسية العامة التي اشتدت بوادرها في أوربا في الأعوام الأخيرة، والتي ظهرت بصورة جلية في كثير من المناسبات السياسية والدولية

وقد نرجع إلى الوراء قروناً إذا حاولنا أن ندرس كل التطورات التي مرت بها تلك النزعة الجنسية الأوربية؛ فتاريخ هذه النزعة هو تاريخ الصراع بين الشرق والغرب وبين الإسلام والنصرانية؛ ولكننا نكتفي بأن نعرض إلى أحدث طور من أطوارها، وهو الذي نرى اليوم آثاره ماثلة في سياسة أوربا العامة، وفي السياسة المحلية لبعض الدول الأوربية. وفي وسعنا أن نقول إن هذا الطور الحديث من هذا الصراع الجنسي يرجع إلى الحرب الروسية اليابانية في سنة 1904، فقد كانت الفكرة الجنسية تجثم قوية وراء هذا الصراع بين دولة أوربية عظمى وبين دولة آسيوية استطاعت أن تنفض عنها غبار الماضي بسرعة وأن تتبوأ مكانتها بين الدول القوية؛ ومع إن أوربا كانت تسيء الظن بمقدرة روسيا القيصرية واستعدادها، فإنها لم تكن تتوقع أن تصاب الجيوش والأساطيل الروسية بمثل ما أصيبت به من الهزائم الساحقة، وأن تحرز اليابان ما أحرزت من نصر باهر

ولكن اليابان خرجت من تلك الحرب ظافرة قوية، وكان من نتائجها أن بسطت سيادتها على أقاليم شاسعة من الصين؛ وحدث لأول مرة في التاريخ أن انتصرت دولة آسيوية على دولة أوربية عظمى؛ ولهذا استقبلت أوربا انتصار اليابان في دهشة وروع، واستقبلته

مقروناً بصيحة الخطر الأصفر؛ ولما سما شأن اليابان بعد الحرب الكبرى وضاعفت جهودها في سبيل التوسع الاستعماري في الصين، وكشفت عن نيتها في مقاومة النفوذ الأوربي في الشرق الأقصى، مستترة بشعار الجامعة الآسيوية، واستطاعت في الأعوام الأخيرة أن تبسط سيادتها تباعاً على منشوريا وأقاليم أخرى من الصين؛ زادت أوربا شعوراً بما تسميه الخطر الأسيوي، أو الخطر الأصفر إشارة إلى تفوق اليابان أو الجنس الأصفر؛ وما ينذر به من تحطيم النفوذ الأوربي في الشرق الأقصى، والحلول مكان الدولة الأوربية في استعمار الشعوب الآسيوية التي وقعت تحت سيادتها.

وهذه النعرة الجنسية تشتد اليوم في أوربا وتتخذ صوراً محلية إلى جانب صورتها العامة. ففي ألمانيا الهتلرية مثلاً تتخذ نظريات الجنس والسلالة أهمية خاصة، وترتب عليها مزاعم مدهشة، ويبدو أثرها جلياً في اضطهاد اليهود ومطاردتهم بأساليب عنيفة منظمة، وفي الدعوة القوية إلى بغض الأجناس السامية والشرقية واحتقارها واعتبارها أجناساً منحطة لا يليق أن تتبوأ مكانها مستقلة أو حرة، ووجوب إخضاعها واستغلالها بواسطة الشعوب الآرية الأوربية؛ ويزعم هتلر ودعاته أن الجنس الجرماني هو أشرف أجناس الخليقة، وأعظمها في الخواص والخلال، وينكرون على الشعوب السامية

والشرقية بوجه عام أنها ساهمت أو تستطيع أن تساهم في إنشاء الحضارة؛ بل يذهبون في غلوهم إلى اعتبار أن اليابان أمة مقلدة لا يصح أن توضع في مصاف الشعوب العظيمة المبتكرة، إلى غير ذلك من المزاعم التي تنم عن تعصب جنسي عميق؛ ونرى مثل هذه الريح الجنسية تعصف بأمم ثانوية مثل بولونيا والمجر ورومانيا، وتتخذ صورتها في اضطهاد اليهود ومطاردتهم. أما الصورة العامة التي تتخذها النعرة الجنسية اليوم في أوربا، فتظهر جلياً في أمرين: الأول صيحة الخطر الأصفر، وذلك لمناسبة توغل اليابان في الصين وتوجس الدول الأوربية من مطامع اليابان وخوفها من انهيار سيادتها الاستعمارية في الشرق الأقصى، وقد أخذت تنهار فعلاً بتخلي روسيا عن مصالحها القديمة في منشوريا؛ والثاني في صيحة البيض والسود التي ذاعت لمناسبة الحرب الحبشية الإيطالية، وقصور إيطاليا في إدراك غايتها الاستعمارية بعد أن لبثت طويلاً تنظم قواها وبعد أن جردت على الحبشة نحو ثلث مليون جندي مجهزين بأحدث الأسلحة والمخترعات المهلكة؛ وهذه الصيحة تشتد اليوم في البيئات والدوائر الاستعمارية كلما اشتدت مقاومة الأحباش وزاد عجز إيطاليا وضوحاً، وبدا إزاء ما يحرزه الأحباش من انتصارات متوالية أن مغامرة إيطاليا الاستعمارية ستمنى بالفشل الذريع. وهذه النغمة هي التي يضرب عليها اليوم غلاة الاستعماريين الذين يشدون بأزر إيطاليا تحقيقاً لغايات السياسة القومية، مثل مسيو لافال رئيس الوزارة الفرنسية الذي يحاول أن يستبقي الصداقة الإيطالية بأي الأثمان ويخشى أن يؤدي انتصار الأحباش أعني السود على الإيطاليين إلى كارثة استعمارية تهز الأمم السوداء والملونة إلى الأعماق، وتعصف بنير الاستعمار الأوربي في أفريقية، ولفرنسا في أفريقية الشمالية والغربية والوسطى إمبراطورية استعمارية ضخمة؛ ومثل زعماء ألمانيا الهتلرية الذين يرون في سياسة إيطاليا الاستعمارية، وفي تحقيق غايات الاستعمار الإيطالي سنداً جديداً لمطامع ألمانيا الاستعمارية في استرداد بعض مستعمراتها القديمة تحقيقاً لنفس الغايات الاقتصادية التي يزعم موسوليني أنه يعمل لتحقيقها بالقضاء على حريات الحبشة واستقلالها

وهذه النعرة الجنسية حرية بأن تحدث أثرها في السياسة الإنكليزية؛ فإنكلترا كفرنسا تسيطر على إمبراطورية شاسعة من الشعوب الملونة ولاسيما في شرق أفريقية حيث تضطرم الحرب الحبشية، وسحق إيطاليا في الحبشة يحدث بلا ريب أثراً عميقاً في عقلية هذه الشعوب ويذكي فيها روح التمرد والمقاومة للنير الأجنبي؛ ولكن الظاهر أن إنكلترا مع تقديرها لهذا العامل ترى أن تضعه في المحل الثاني بالنسبة لعوامل جوهرية أخرى تضطرها أن تعمل في وجهة أخرى. ذلك أن إنكلترا ترى في العسكرية الفاشستية خطراً داهماً على سيادتها في البحر الأبيض، وترى في ظفر إيطاليا باجتياح الحبشة خطراً داهماً على أملاكها في شرق أفريقية وعلى سيادتها في وادي النيل؛ وترى على الجملة في استمرار هذه الفاشستية الطامحة المتجنية المشبعة بروح الاعتداء والتحدي، خطراً على سلامة إمبراطوريتها وسلامة مواصلاتها الإمبراطورية، وخطراً على السلم الأوربي بوجه عام؛ والمسألة الحبشية ثانوية في نظر السياسة الإنكليزية كما بينا أكثر من مرة، ولكنها تغدو في يد إنكلترا وسيلة ناجعة لمحاربة الفاشستية وتقويض دعامتها العسكرية والسياسة

على أن الذي نريد أن نلفت النظر إليه هو أن هذه النعرة الجنسية التي تهب ريحها اليوم على أوربا وتروجها الدوائر الاستعمارية، ليست جديدة ولا حادثة في أوربا، إنما هي نزعة أصيلة في هذه الشعوب الأوربية التي استطاعت بأساليب العنف والغدر والخديعة أن تفرض سيادتها على معظم الأمم الأفريقية والآسيوية، والتي تحرص كل الحرص على استغلال هذه الأمم واستصفاء ثرواتها لكي تزيد بها في قوتها وفي نعمائها ورخاء بنيها على حساب هذه الأمم المهيضة؛ وأوربا اليوم هي كما كانت بالأمس، وكما كانت منذ العصور الوسطى مهد التعصب الجنسي والديني؛ وليس من الضروري أن نعود إلى أيام الحروب الصليبية لكي نصور أوربا المتعصبة على حقيقتها، وإنما يكفي أن نذكر أن الاستعمار العسكري والسياسي الذي تفرضه أوربا على الشعوب الشرقية باسم المدنية والتهذيب والتفوق الجنسي والثقافي والاجتماعي، تؤيده في نفس الوقت حملات البعثات التبشيرية، وتمهد له بالعمل على تقويض العقائد الدينية الشرقية؛ فإذا

كنا نسمع في أوربا اليوم صيحة الخطر الأصفر لمناسبة التقدم الياباني في الصين؛ وصيحة البيض والسود لمناسبة انهيار مشروع إيطاليا الاستعماري في الحبشة، فإنما ذلك يتفق تمام الاتفاق مع ماضي أوربا وتقاليدها في الاضطرام بنزعات التعصب الجنسي والديني وخصوصاً كلما خشيت على صرحها الاستعماري من الانهيار.

(* * *)

في الحب أيضاً

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

كتبت إليّ سيدة أعرفها فاضلة لبيبة تسألني عن الحب كيف أقول فيه ما قلت؟ وعن المرأة كيف أبسط لساني فيها كل هذا البسط؟ وعن الحب الأفلاطوني ماذا ترى رأيي فيه؟ وختمت كتابها باتهام الرجال بقلة الوفاء، وبالغدر وكثرة التقلب

وقد استخلصت من كتابها أن مقالي الذي تفضلت بنشره (الرسالة) لم يصادف منها ارتياحاً ولم يلق قبولاً. ولست استغرب هذا، أو أنكر عليها امتعاضها، فإني أعرف أن كل رأي فيه من الهوى أثر؛ والمرء يميل بمزاجه إلى ما هو أحب إليه من الآراء وأكثر موافقة أو مجاراة لهذا المزاج؛ وما يزال الإنسان يوحي إلى نفسه حتى يصير الأمر عنده عقيدة راسخة لا تتزعزع ولا يسهل زحزحته عنها؛ ولو أن إنساناً استطاع أن يتبين مبلغ أثر الإيحاء الذاتي في آرائه لهاله ذلك، ولذهب إيمانه بالعقل وقدرته على النظر المجرد، ولأيقن أنه ما من رأي إلا وهو وليد عاطفة، فمولد عاطفة؛ والإنسان يعيش بالطبع أكثر مما يعيش بالعقل. واحسبني لا أخطئ جداً حين أقول إن عقل كل فردٍ يصب في قالب من طباعه، فليست هذه التي نفكر بها (عقولاً)، وإنما هي طباع وأمزجة اتخذت صوراً مزورة؛ وأصل الخطأ أنّا سميناها (عقولاً) فصار لها في وهمنا، على الأيام، استقلال لا وجود له

وليس الذي نشرته لي (الرسالة) رأياً في الحب، وإنما هو بيان لحالات يجر إليها، ومواقف يستدعيها، ولا أرى لي صبراً عليها؛ أما الحب فليس لغزاً، وما على من يريد فهمه على الوجه الصحيح إلا أن ينضو عنه كل ما خلع عليه الشعراء ولفوه فيه، حتى أخفوه وحجبوه؛ وليس هذا كل ما جنى الشعر، وما هو إلا بعض ما مسخ من حقائق الحياة. والشعراء كالكهان الأقدمين - دأبهم التهويل على الناس وإيهامهم أنهم وحدهم دون خلق الله أهل العلم والإحاطة والبصر والاتصال بالحقائق العليا والأسرار المحجوبة - لا، بل الشعر ضرب من الكهانة، ومظهر من مظاهرها - أي نوع من الدجل. ولا نكران أن الشاعر والكاهن يبدأن مخلصين صادقي السريرة - وكذلك كل غرير قبل أن يجرب - ولكن الأمر يتحول شيئاً فشيئاً إلى صناعة، فلا تصدق من يقول لك إن الشاعر يظل عمره - إلى آخره - طفلاً كبيراً، فإن هذا ليس إلا بعض دجل الشعراء - أو هو بعض ما يوحون إلى

نفوسهم ويلحون به عليها ليكونوا أقدر على الدجل، والدجال يحتاج إلى اكتساب (مظهر) الإخلاص ليستطيع إقناع الناس. وقد رأيت في زمني دجالين كثيرين كان أبرز صفاتهم قدرتهم على مغالطة أنفسهم بالإيحاء إليها؛ والشعراء أبرعهم جميعاً لأنهم ألح على نفوسهم، وأكثر استلهاماً منها، وسبباً للتأثير فيها، ودؤوباً على مناجاتها

أعود إلى هذا الحب فأقول إنه ليس فيه سر، فهو ضرب من الجوع، أو هو إذا شئت نوع من التنبيه تلجأ إليه الطبيعة لتغرينا بما يكفل المحافظة على النوع كما تنبهنا بالجوع، فنبغي ما نحافظ به على ذواتنا. وعلى ذكر الجوع أقول إني أذكر أني أيام كنت أقول الشعر نظمت قصيدة نشرت في الجزء الأول من ديواني وفيها أن الحب أصاب مني (شبعه) فاستبشعها صديق لي أكبر رأيه وذوقه، وأنكر عليّ أن أذكر (الشبع) في معرض كلام على الحب، فوافقته على رأيه، ولكني تركت البيت على حاله، عجزاً عن تنقيحه، أو إهمالاً؛ ولولا أني أرفض شعري كله لقلت إني الآن أراني أحسنت

فالحب - كالجوع - اشتهاء، أي إيذان بأن الجسم يطلب أن تسد له حاجة، وليس الطعام هو الغاية من الأكل، بل ما يفيده من الصحة والقوة واستمرار الحياة؛ كذلك ليست المرأة هي الغاية من الحب، بل ما تعين عليه من بقاء النوع بالإنتاج؛ وكما أن المرء يغلط فيأكل ما لا خير فيه ولا صحة تستفاد منه ولا قوة، بل ما لعله يضر ويورث المرض، كذلك يغلط الإنسان فيحب ما لا يحقق الغاية التي ترمي إليها الطبيعة. والمرء يكون مترفاً في حبه كما يكون مترفاً في طعامه وملبسه وما إلى ذلك؛ ومن الناس من

يأكل طعامه جرفاً، والمبطان الذي لا ينتهي منه، والمخلّط من صنوفه والمستقصي لها، والقَرون الذي يأكل لقمتين، والذي يكره معدته على الزيادة بعد الشبع، والذي يسرع في الأكل كراهة لطول الجلوس له، والذي يضع يده على ما أمامه لئلا يتناوله الغير، والذي يجيل اللقم ولا يمضغها، والذي يلوك، والذي يأكل نصف اللقمة ويرد نصفها، والزهيد القليل الأكل، والمريض، والضعيف الاشتهاء، والمتعجّف. وكذلك أرى الناس يكونون في حبهم، بل الإنسان الواحد يكون مرة هكذا، ومرة هكذا؛ والتوابل وما إليها لازمة للحب أحياناً لزومها للطعام؛ واللحم هو هو كيفما طبخته، ولكنه تارة يكون أشهى مشوياً، وتارة أخرى يكون ألذ وهو مسلوق، أو مقدد أو مشرح أو معلق في السفود، أو مخلوط بالرز أو البيض أو الخضر أو غير ذلك؛ وقل مثل ذلك في غير اللحم من الآكال فما أردنا إلا التمثيل؛ وكذلك المرأة، فمن كانت يعنيها أن يبقى حب الرجل لها أطول زمن ممكن، فلتكن على كل لون وعلى كل صورة تُشتهى

ولا أحتاج بعد هذا أن أقول: إني لا أومن لا بالحب الأفلاطوني ولا بالوفاء، ولست أعني أني استهجنهما أو أعيبهما، فليس الأمر أمر استهجان أو عيب، وإنما أعني أنهما لا يوجدان مع الصحة والسلامة؛ وإذا كان من الممكن أن يشبع الجائع بالنظر إلى الطعام في أطباقه على السفرة، وأن يحيا المرء بأن يأكل بعينه أو خياله، فإنه يكون من الممكن أيضاً إرضاء عاطفة الحب عند الرجل السليم المعافى بالنظر إلى المرأة والاستماع إلى حديثها والتمتع بابتسامتها ورشاقة وقفتها أو حسن جلستها. والذي يقنع من المرأة بذلك يكون أحوج إلى الطبيب المداوي منه إلى المرأة.

أما الوفاء فأكرم به وأنعم! ولكن أين في دنيانا من يصبر على طعام واحد وفي وسعه ألا يفعل؟ وأقول (من يسعه ألا يفعل) وأنا أعني ما أقول، فما يلتزم الوفاء إلا من يعجز - بسبب ما - عن خلافه. وأسأل القارئ وأعفيه من الجواب العلني: أي رجل لم ينقض عهداً بالوفاء بالفعل أو بالنية أو بالخاطر أو بالخيال - على حسب الأحوال؟ والمرأة كالرجل وشأنها كشأنه. وكذاب من يقول - وكذابة من تدعي - غير ذلك. ولست أدعو إلى شيء - وحاشا أن أفعل - ولكني أصف واقعاً، وأقر حقاً لا يكابر فيه إلا منافق يريد أن ينتحل فضلاً على حسابي وحساب الحقيقة. والذي يجعل الوفاء مستحيلاً في الواقع أن الحياة قائمة على التحول لا على الثبات، والمرء يتغير حتى ليمكن أن يقال أنه يخلق كل يوم خلقاً جديداً مولداً من الخلق السابق أو أنه يموت ويجيء غيره باسمه؛ وكل يوم يحياه هو يوم ماته، وبعث بعده كرة أخرى في صورة تخالف الأصل من بعض الوجوه. وقد شرحت هذا من قبل في مقالات شتى في (البلاغ) (والأهرام) ولا أذكر أين أيضاً، فلا أعيد هنا ما قلت. . . . .

وليس هذا رأياً جديداً لي، فقد نظمت فيه شعراً كثيراً نشر بعضه، ولن ينشر البعض الآخر؛ وأذكر مما نشر هذه الأبيات:

أكلما عشت يوماً ... أحسست أنيَ متُّهْ
(من قصيدة الملل من الحياة)

إني أراني قد حلتُ وانتسخت ... مع الصبي سورة من السور
وصرت غيري فليس يعرفني ... - إذا رآني - صباي ذو الطرر
ولو بدا لي لبت أنكره ... كأنني لم أكنه في عمري
كأننا اثنان ليس يجمعنا ... في العيش إلا تشبث الذكر
مات الفتى المازني ثم أتى ... من مازن غيرُه على الأثر
(من قصيدة كأس النسيان)

هذه كفي على خون العهود ... لا على الرعى - فهذا لا يكون
إنها دنيا كِذاب وجحود ... ولصدق النفس أولى - لو يهون
هذه كفيِ على وشك الملال ... كل نار سوف يعلوها رماد
آهِ لو أستطيع تصديقَ الخيال! ... أو يكون الجهل شيئاً يستفاد
يا عقيدي طامن الله حشاك! ... لن تراني شاكياً وهْيَ حبالك
أين من طينتنا - أين - الفكاك؟ ... أنت إنسان على فرط جمالك
(من قصيدة معاهدة غرامية)

وحسبي هذا القدر، وعسى أن يكون كافياً في جواب السؤال
إبراهيم عبد القادر المازني
رفعة المرأة
للأستاذ محمد بك كرد علي
تحارب فرنسا فكرة إعطاء الحقوق السياسية للنساء ومساواتهن بالرجال؛ وقد جعلت ألمانيا وإيطاليا في جملة نظمها الجديدة أن تعود بالمرأة إلى سالف عهدها من التزام البيوت والقيام على تربية الأطفال ومنعهن ما أمكن من معاطاة أعمال الرجال؛ وتكتب في هذا الشأن كتب ورسائل، وتنشر صحف ومجلات. ومن الكتب التي ظهرت مؤخراً في فرنسا فأحدثت دوياً في الأوساط المعتدلة وأظهرت المرأة بمظهرها الحقيقي كتاب (رفعة المرأة) للدكتور روبرتوتش بدأه بكلام لثلاثة من مشاهير الكتاب أحدهم تيودور جوران قال: إن رفعة المرأة بلية صدرت إلينا من البلاد الأجنبية ولاسيما من أمريكا وجرمانيا وبلاد الشمال. وكان هذا النفوذ المتألف من كل غريب يكفي أن يكون منه نتاج قد لا يتلاءم كثيراً مع تركيبنا الفرنسي. وقال روبر كييو: من السهل الدلالة على أن دعوى رفع شأن المرأة كانت أبداً وليدة المذهب الاشتراكي، فأنّا نرانا نسقط فيها على أفكار اشتراكية بعينها، وعلى معان لهم وتعبيرات وعلى كلمات ما برح الاشتراكيون يرددونها مع سفسطات كانت ولا تزال مألوفة لهم؛ وما المرأة إلا أعدى عدو لرفعة شأنها، فهي موقنة بأنها تخسر من نفوذها الخاص أربعة أضعاف ما تربحه من نفوذها العام، ولا يتأتى مما ترمي إليه إدخال أدنى إصلاح على النظام الاجتماعي. وقال الثالث مارسل تينابر: إن حقوق النساء وتحريرهن الأدبي وطموحهن إلى الحياة السياسية، كل هذا حسن وجميل، ولكن يا سيدتي حررن أنفسكن أولاً من الخياط، فإن لم تكن لكن هذه الشجاعة فلا تتطاللن إلى أن تحصلن على ما بقى
قال المؤلف: إن مسألة إعطاء المرأة حقوقها ما زالت منذ ثلاثين سنة من الموضوعات الطريفة، ولو كان الأمر يقف على إعطاء المرأة جميع حقوقها ولاسيما السياسية التي لم تهيئها لها لا طبيعتها ولا عملها الخلقي لهان الأمر، ولكنهن يرمين من المطالبة بذلك إلى التفلت من كل قيودهن ولاسيما قيود البيت والأمومة. تريد إنقاص شأن الرجل وتطمح إلى الاستيلاء على كل عمل لم تخلق هي له. تريد الابتعاد عن المنزل وعدم المبالاة بأعماله والإقلال من الأولاد والقضاء على الأسرة وينتهي ذلكبانقراض العنصر والجنس. وبتأثير الاضطرابات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية التي ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر في معظم البلاد الممدنة ولاسيما في فرنسا، راجت دعاية المفرطين ثم دعاية الرجال والنساء في هذه الحرب الحديثة، فكان من تلك الدعاية إخراج المرأة عن طورها وحملها على أن تتناسى أو تستنكر عملها، فصبغت المرأة بصبغة بشعة من محاكاة الرجل ليكون منها شريكة مبغضة له أحياناً، ومنافسة وخصيمة يخشى بأسها. ومن العدل ألا نغفل عن التصريح بأن أسباب حياة المرأة بعد الحرب الكبرى قد تبدلت تبدلاً خاصاً فيه كثير من القسوة، لأن أجور كثير من الرجال لم تعد كافية لإعاشة البيوت فاضطرت المرأة بكسل الرجل أن تدخل أحياناً لتعمل في البيوت التجارية والمعامل والمصانع لتكتسب ما تستلزمه حاجتها أو حاجة ذويها، مما لم تحتج إليه فيما سبق من الأيام، اللهم إلا إذا كان زوجها مصاباً بعلة طال أمرها، أو بعاهة في جسمه تمنعه العمل؛ وعلى ذلك كثر عدد العزبات المتجردات، والمعوزات والأيامى المطلقات، ممن لا معرفة لهن بصناعة؛ وكثيراً ما يكون لهن أولاد يضطررن لإعالتهن. وإذا لم ترغب فيهن النفوس أو كن بشعات ممسوخات يعشن خليلات للرجال أو يتدهورن في العهر السافل. ولطالما كان من الفتيات من جمعن شيئاً من المال، وانتظرن السنين خاطباً أو راغباً! ومن هذه الطبقة أيضاً عوانس خرجن عن طبائعهن، وحاولن أن يعشن عيشة جديدة، ويخرجن من افقهن الضيق فاستلزم ذلك اختلاطهن بكثيرات من بنات جنسهن وغير أبناء جنسهن، فتيسر لهن إيجاد علائق كان من أثرها زواجهن؛ وشق على كثيرات منهن لما أخفقن في الحصول على عروس لهن أن يبقين بلا حب، فاخترن خليلهن بحسب أذواقهن، وكل أولئك كان يحسن ويحب لو وقف الأمر عنده، ولكن هناك نساء سطا عليهن الكبر والحقد، فاحتقرن الرجل والزواج والولد، وهن قادرات على أن يكن طاهيات ووصيفات وساعورات ودلاكات ومنظفات

أيد ومنظفات أرجل وحاسبات وخزانات وكاتبات ومدرسات وبائعات وسمسارات بل وقصصيات ومحاميات وطبيبات، ويتوهمن أنهن أسمى من الرجل أو على الأقل مساويات له، ويحاولن أن يقمن مقامه في معاناة سامي الأعمال مما لسن له خليقات بهذه الصفحة وصف المؤلف ما تحاول المرأة بلوغه في بلاده، أو تنزعه من قيودها الطبيعية لتتلبس طبائع غير جنسها. وقد قال في وظيفة الحيض: ما برح دعاة تحرير المرأة منادين صاخبين أن المرأة مساوية للرجل، وما كان تشريح الجنسين ونفسيتهما وطبيعتهما متشابهة قط؛ وإذا كان الحال كما يدعون، فلماذا نرى البقرة غير الثور، والنعجة غير الخروف، واللبوة غير الأسد؟ ولماذا يتناسى دعاة هذا التحرير العمل العظيم الذي يؤثر في طبيعة المرأة وعقليتها وما كتب عليها من الحيض فيخرجها إلى طور غريب، وتفعل أيام الحيض في خلقها، وبعض الصحيحات منهن أو المريضات تعاودهن العادة مرتين في الشهر، فيدفق الدم منهن في الشهر الواحد مرتين، وينقطع مرتين، فيتأثر المجموع العصبي فيهن من هذه الموجات الدموية. وأسهب في شرح هذه الحال على ما يجوزه لسان الطب، ولا يجوز نقله لسان الأدب الحديث في صحيفة سيارة، مستشهداً بآراء أعاظم الحكماء والأطباء؛ ونقل عبارة أحدهم من أن المرأة لا تشعر بالحرارة ولا بالبرودة، والدليل أنها تتدثر بالفرو في الصيف؛ وإذا قيل إن ذلك من جملة الأزياء الحديثة، فأنّا نشهدها تتعرى في الشتاء إلى خاصرتيها، دون أن تحس بما يضرها؛ فالمرأة ما بردت قط، وإن أظهرت أنها صردة تتأثر من البرد، وأنها تضع الفرو عليها فذلك لأن هذه الحركة هي من الحركات الجميلة فيها. وعرض لغرامهن بالأزياء من كشف الأيدي والأرجل والسوق والصدور والظهور على ما تأباه قواعد الحشمة قال: ولو عقلن لسترنها، لأن في سترها مصلحة لهن على خلاف ما يعتقدن، وبذلك إغواء الشباب إلى ما يحمل ذلك من الموبقات المخجلة

إن إعطاء الحقوق السياسية لم ينتج منه الإصلاح المدهش في شمال أوربا وفي أمريكا وأوستراليا، حيث أخذن يتمتعن بحقوق الناخب والمنتخب؛ ففي الدانمرك لم يأت النساء بشيء أحسن مما كان للبلاد يوم كان نساؤها يسلمن للرجال الأعمال، ولم يُقض على الغول (أو الكحول) في بلاد السويد والنرويج وفنلندا وأوستراليا والولايات المتحدة؛ أما الفحش فكثير جداً في هاتيك الممالك، وهو مشوب برياء وتصنع خرج المتعلمات في الجامعات الأمريكية من البيوت الفقيرة؛ وأظهر الفتيات في فرنسا وغيرها اجتهاداً في طلب العلم؛ وقد يتعلمن بدَعة وسرعة كل ما يتطلب إجهاد الذاكرة؛ وقد يبرزن في المسابقات، ولسن كذلك عندما يخرجن إلى الحياة، عندما يضطررن إلى القيام بمسألة تحتاج إلى تفكير وشخصية وحكم؛ وقل فيهن من ينجحن في المحاماة والطب، وقل

أن يقبل أرباب المصالح على توكيلهن في القضايا أو استشارتهن في الأمراض؛ ومن تزوج منهن من رجال لهم مثل صنعتهن، كأن تتزوج الطبيبة بطبيب، والمحامية بمحام، لم يحمدن غبّ زواجهن، لأن التفاوت في قريحتي الزوجين يؤدي إلى أن تحسد الزوجة زوجها على توفيقه في عمله، فتبغضه وتشنأه؛ وثلث المتعلمات في أمريكا لا يظفرن بأزواج، وكلما أحرزن شهادات تخوف الرجل الإقدام على التأهل بهن، ولذلك يحببن الانطلاق بأفكارهن أن أسفن لما صارت إليه حالتهن؛ وثبت أن من تزوجن في فرنسا لم يقدمن على الزواج إلا بعد الثلاثين، وأحياناً في الأربعين، وكان معدل العقم من هذا الزواج تسعة وثلاثين في المائة لا تنسل فيه صاحبته ولا تلد

فتحت في الحرب معظم الأعمال في فرنسا أمام النساء، فأثبت لهن الاختبار أن من الأعمال ما هو من شأن الرجال كقادة الترام، وسوق السيارات، والمحاماة، والطب، فأخذ يرجع بعضهن عن تعاطي هاتين الصناعتين؛ وأثبت النساء الموظفات في الإدارات الحكومية والخصوصية أن امرأة عندما تجلس من وراء كوة أو نافذة للقيام بعملها، تصبح أشبه بالحيوانات المفترسة، وكانت خارج عملها من الساحرات الفاتنات بلطفها وظرفها. قالوا إن النساء إذا شاركن في السياسة يدمثن الأخلاق، ويبطلن الحروب، ويشرعن تشريعاً إنسانياً أكثر من تشريع الرجل، والواقع خلاف ذلك، لأن من الموظفات من إذا رضخ لهن بشيء من المال يبسمن ويغيرن معاملتهن، فما بالك بهن إذا قبضت الواحدة المئات؟ ومن تولين أعمالاً لا شأن لها كثيراً لم ينجحن النجاح المطلوب؛ ومن نجحن كن بتراكيبهن الجسمية أشبه بتراكيب الرجال، من حيث

العضلات والقوى. وما نجح النساء في تولي الحكومات لو لم يكن لهن مؤازرون عظماء من الرجال يعملون كل شيء وينسبون ما عملوا للملكات، وإذا رجعنا إلى تراجم الملكات والأميرات نجد كثيرات منهن على جانب من التهتك والخلاعة، وما تعففن عن غمس أيديهن بالدماء - ويكون ذلك أحياناً لمآرب لهن - أو للتخلص من رجال تمتعن بهن، ثم أردن إطفاء ذكرهم. وإذا أردنا أن نذكر شهيرات النساء في الأدب لا نرى غير الرجال يعملون لهن من وراء ستار على الأكثر، وما تركت فيه المرأة وشأنها من الآثار الأدبية كان إلى التفاهة والفهاهة

وعدد المؤلف المساوئ التي تنتج للمجتمع من إعطاء النساء حق الانتخاب وما يتبع ذلك

من شرور تنبعث من الناخبات، وفسوقهن وفجورهن كثير. وعقد فصلاً طويلاً في آراء عظماء الرجال منذ القديم في النساء ورفعة شأنهن، وفي الأبناء والشباب. قال بركليس: إن خير النساء من لا يتحدث الناس في أمرها. وقال موليير: إن النساء أتين العالم لعمل الحساء وإنسال الأولاد، وما عدا ذلك فإنهن يظهرن بمظهر مزعج خطر. وقالت مدام دي منتنون: ما عرفت النساء قط إلا نصف معرفة، والقليل الذي يكتب لهن معرفة يصبحن به متعجرفات هزّاءات مهذارات بعيدات عن الرصانة والرزانة. وقالت الآنسة دي سكودري: إن فتاة تنسى النظر إلى السماء لا تحسن شيئاً على الأرض. وقالت مدام دي دوفان: إن النساء يحرصن على الاضطرابات حتى إن معظمهن يؤثرن البؤس على الراحة. وقالت الآنسة دي لسيناس: متى تعلمت المرأة الإملاء يأخذها العُجب، فالواجب تعليم النساء لا تخريجهن عالمات. وقالت العقيلة دي بوز يولكس: مهما بلغ من خبث الرجل لا يقل في النساء من المقابح أكثر مما يتصورن بأنفسهن. وقالت مدام دي ستال: لما لم يكن في النساء تعمق في نظرهن ولا تسلسل في أفكارهن، كان النبوغ متعذراً عليهن وإذا كتب للنساء أن اتسعت أفكارهن فلا يتم لهن ذلك إلا بألم شديد. وقالت إن مجد المرأة حداد ظاهر على سعادتها وقال برودون: إن المرأة التي تبتعد عن جنسها تسقط إلى مستوى أنثى مهذارة وقحة كسلانة قذرة خائفة قوادة مسممة، هي طاعون أسرتها والمجتمع. وقال لوكوفيه: إن المرأة الطبية يتقزز منها، والمرأة التي تتولى كتابة الصكوك يضحك منها، والمرأة المحامية يفزع منها. قال: كان أوجست كونت يعرف النساء كثيراً ويغرم بهن كثيراً، ويخالف في تحريرهن، ويعرف أنهن ماعدا القليل منهن جداً لم يخلقن للعمل ولا للحرية ولا لتحمل التبعات

(البقية في العدد القادم)

محمد كرد علي

في مقبرة جنوى حيث تتجاور الحياة والموت

للأستاذ فتحي رضوان

. . . . . الساعة العاشرة في الصباح

وجنوى تشملها شمس إيطاليا الهادئة، ونحن على أبواب مقبرة جنوى

يا عجبي! لم أسمع من قبل أن أجمل ما في مدينة مقبرتها، وأن السياح والراغبين في التفرج عن النفس، والجارين وراء لذائذ العقل والفكر، يهبطون جنوى، فلا يطلبون حدائقها، ولا يقصدون متاحفها، ولا يسألون عن حماماتها أو أسواقها، بل يستحثون الخطى وغايتهم (المقبرة)!!

فأي مقبرة هذه التي يهواها الناس؟ أليست مكاناً اضطجع فيه الناس بعد هذه الرحلة الطويلة التي يقطعونها في الدنيا، بحثاً عن المال، أو هياماً بالجمال، أو عدواً وراء جاه المنصب. . .؟ أما تضم الرفات بعد أن ذاب عنها اللحم الوردي؟ أما تجمع العظام بعد أن تشتتت وانتثرت وانحلت روابطها؟ أما تفوح منها رائحة الذكريات الحزينة: ذكريات الحبيب الذي ترك وراءه قلباً دامياً وعيناً دامعة، وذكريات الولد الذي خلف الأم الولهة، وذكريات الزوج الذي من ورائه أرملة ثكلى. . .؟

أتكون مقبرة جنوى شيئاً يمحو من صدور اليتامى والأيامى والبؤساء والحزانى أحزانهم ويهدئ آلامهم؟ إن تكن كذلك فهي أعجوبة أحْرِ بالناس أن يقصدوها لا ليفرجوا عن أنفسهم برؤيتها، بل ليحملوا إليها كل من فارقهم وكان عندهم عزيزاً، ليشعروا ببرد العزاء وحلاوة السلوان

دلفنا نحو المقبرة؛ ولست أعرف إحساسي وقت أن دنونا من بابها، فقد وقفت بنا السيارة أمام باب ضخم مفتوح على المصاريع، وإلى جانبه حارس؛ فلما اقتربت من الباب نظرت إلى الحارس، وقد حسبت أن طول اقترابه من قبور الموتى جعل له مظهراً خاصاً به، فإذا هو رجل عادي، يرى كل يوم النعوش الرخيصة تتبعها أسر فقيرة، والنعوش الغالية الثمينة، ووراءها الأغنياء الذين يتأنقون في الموت كما يتأنقون في الحياة، والموت يهزأ بهم، وإن كانت الحياة تدللهم!

لقد تعود حارس المقبرة أن يرى أحزان الناس وصور شقائهم، فبردت أعصابه، وتفهت مآسي الناس عنده، إذ رأى المتباكين الذين لا يحسون بألم، والمفجوعين الذين لا يجدون دمعة يلطفون بها نار صدورهم. . .

ولكن يا ترى ماذا يفعل الحارس إذا أصابه القدر في ابنه أو زوجته أو أمه أو حبيبته؟ أتبقى أعصابه في برودتها، ونفسه في شدتها، ودموعه في تحجرها؟ أم أنه سيفهم آلام الناس من جديد على ضوء النيران المشبوبة في صدره، الملتهبة في قلبه؟

تركنا حارس المقبرة، ورأينا في طريقنا عشرات من الحراس يلبسون على أكتافهم مآزر زرقاً من الصوف، تقيهم برد الشتاء، وتكسبهم وجاهة القواد والوجهاء، وهم يتبخترون في مشية عسكرية وخيلاء، وقد جملوا شواربهم ورفعوها، وحلقوا لحاهم وعطروها، فما عاد هيناً أن تعرف إذا كان هؤلاء حكاماً جاءوا يتنزهون، أم هم أشباح موتى ثقلت عليهم رقدة الموت، فخرجوا يتمشون ويتنفسون. . . إي وربي إنهم أشباح! فالواحد منهم على جلال مظهره، وجمال ملبسه، لا يعدو أن يكون تمثالاً؛ فالأيام تذوب وتدور، وهم في مماشي المقبرة واقفون، يرفعون رؤوسهم إلى السماء، ويخفضونها إلى الأرض، ويضعون خناصرهم وبناصرهم في خواصرهم، لا يشغلهم شاغل! حسبهم من الحياة أنهم وقفوا على أبواب الموت، تاركين وراءهم ضجات الناس وصيحاتهم. . . بل حسبهم من الحياة أنهم يحملون أقل أعبائها، ويرون أصدق حقائقها، فإذا جاءهم بعد ذلك الموت، وجدهم كالموتى، لا أوزار ولا أطماع، ولا ماض يحاسبون عليه؛ ثم وجدهم في المقبرة، يعرفون لحودها ويحفظون حدودها، ويدركون مكانهم اللائق بهم فيها

لقد قسوت على حراس المقبرة! وأحسب أن مظهرهم قد غرني وخدعني. . فكم تخفي الوجوه الهادئة نفوساً ثائرة! وكم يحترق الذين يحسبهم الناس كسالى ونائمين! ومن يدري؟ فلعل أحد هؤلاء الحراس شاب مغامر طاف بالأرض وجازف بالمال القليل الذي كان بين يديه، وبالحياة الغالية التي بين جنبيه، ثم قذف به القدر حارساً لمقبرة، وهو أبعد الناس عن الموت وفكرته، مشغولاً بالحياة ولذتها. . ولكنه يسير كما يسير بقية الحراس، مطرقاً متأملاً، شمخاً، متألهاً، وهو مستغرق في أفكار نفسه وبوده لو يواتيه القدر فينطلق من جديد. . .

لقد طالت وقفتي بحراس المقبرة. . .

هذه هي المقبرة، وقد لاحت من بعيد شواهد القبور، فأفلتت مني ضحكة أعرفها من نفسي كلما جاشت فيها خواطر، واحتدمت ضحكة يحسبها الذين معي أنها استخفاف بالذي أرى أو انصراف عما أرى، وهي ضحكة النفس التي أسأمتها صور الحياة المتشابهة، وقد أفرحها أن ترى الحياة والموت متجاورين، فلا الموت جعل مظهر الحياة عابساً، ولا الحياة جعلت مظهر الموت تافهاً. . . ضحكة الذي رأى الحياة وقد حنت على الموتى، فجملت لهم مساكنهم وزينت لهم حدائقهم، بل ضحكة الذي سره أن يرى مظاهر الحب الإنساني وقد تجسدت تماثيل وشواهد. . بل وقد تضوعت زهوراً وعطوراً. . .

هذه هي مقبرة جنوى. فأي فرحة شملت نفسي! وما بالي أرى الدنيا من حولي ضاحكة؟ هل أستخف أمام الموت بالموت الذي جمع في هذا المكان مئات الألوف من الموتى: صبياناً لم يتجاوزوا العقد الأول من أعمارهم، وفتيات صبايا أرى صورهن على قبورهن فأرى وجوهاً تترقرق بماء الحياة وتفيض بفتنة الأنوثة. . . ورجالاً قصف القدر عمرهم وعلى أكتافهم عبء عمل ناضج؟. . .

الشمس في السماء شمس رحيمة لا تحرق البدن، ولا تلفح الوجه؛ تحف بها السحب، والمكان هادئ لا جلبة حتى ولا بكاء. . وأنا مستغرق في تأملاتي، وأخواني قد سبقوني وأصواتهم تصل إليّ من بعيد! لقد هدأت نفسي، وذابت في أعماقها الضحكة التي كنت

أسمعها بإذني صوتاً، ويراها صحبي بشراً. . . ما بال الدموع قد ملأت عيني؟ ما بالي لا أرى شيئاً، ولا أسمع شيئاً. .؟
لقد أفقت على وقع أقدام من بعيد: أقدام تطرق الأرض طرقاً حاداً، ولكنه رفيق. . . عالياً، ولكنه موزون. . فما تحركت ولا تركت مكاني، بل بقيت مسترسلاً في هذه الخواطر التي لم أكن أعرف لونها ولا سرها، لأنها كانت تبدو لتختفي، وتتعارض وتتقابل، وتجتمع وتفترق، وتهدأ وتشتد. . خواطر أشبه بهواجس النائم الذي شغلت ذهنه قبل نومه ألف فكرة، فتحركت جميعاً حينما أغفى
لعلي لمت نفسي وأنا مطرق على قسوتها على الذين أحبوني وأخلصوا الحب، فشغلتني عنهم شواغل الحياة، فتألموا صامتين، وودعوني عند السفر باكين، بل صابرين. . أو لعلي لمت نفسي إذ رسمت لنفسي طريقاً محفوفاً بالصعاب، فوهنت حيناً، وأغفيت حيناً،
وجدفت وتشككت أحياناً. . ولعلي لمت نفسي لأني أحببت ألوان الجمال جميعاً، فما تغذيت بلون منها، ولا شبعت بها جميعاً. . .
لعلي لم ألم نفسي. . .
اقتربت الأقدام مني، فإذا بشبح أسود يمر سريعاً دون أن أراه. . ولكني أفيق فأتبين في الشبح فتاة تلبس الرداء الأسود الحزين وفي يدهاطاقة ورد، وعلى وجهها مسحة ألم، وهي في مشيتها لا تلقي بالاً لما حولها
هذه الفتاة ليست إلا قصة حزن من قصص الحزن التي سجلها الحفار تمثالاً، والتي سجلها الزمن أجساداً تسير في الدنيا بلا أرواح، مشغولة بالذين راحوا، ولا عودة لهم بعد الرواح. .
تبعتها، ولم أر بعد وجهها، وقد أحسست أن نصف حزنها قد خف ولطف، فقد قاسمتها الهم الذي تنوء من تحته، والألم الذي تشكو من وخزه، والحرمان الذي تبكي لطوله وعنفه. لقد بدت لي هذه الفتاة في ثوبها الأسود، ووشاحها المسدل، وإطراقتها الطويلة، الإنسانية التي تنبعث آلامها من آمالها، فقد تكون هذه الفتاة قد أقبلت لتضع على قبر حبيبها طاقة زهر، أو تنثر فوقه دموع عينيها، وقد كانت بالأمس تمني نفسها أن تكون له ويكون لها. . .
انطلقت الفتاة وكأنها تعدو؛ واخترقت الدهاليز، واجتازت الأبهاء؛ وبعدت عن صحبي، ولعلي بعدت عن نفسي، وخيل إليّ أن الفتاة لا تقصد قبراً، وأن القبور تساوت أمامها فكلها من الحجر الغالي، وكلها منقوش ومصور، وكلها أصم أبكم، بارد جامد لا يلين تحت يد، ولا يلتهب لوقع قبلات المحزونين المكروبين.
أتقودني هذه الفتاة إلى مجهول، أم أن دنيا الأحزان هكذا متسعة، والطريق إليها يطول ويطول. . .؟ ولكن الفتاة لم تلبث أن انحرفت إلى دهليز ضيق، ثم خطت خطوتين، وركعت أمام قبر من الرخام الأسود، ورسمت الصليب، وأغمضت عينيها. . . كان النور ضعيفاً، باهتاً، وكان المكان ساكناً ساكتاً، فابتعدت عنها خطوتين ووقفت أتأملها، ولكن الشمس لم تلبث أن خطت في السماء خطوتين، ثم سقط نورها من نافذة من الزجاج زرقاء، فرأيت هذه الفتاة تمثالاً افتنت فيه يد صانع الطبيعة، فاجتمع فيه ألف معنى، فلو سألتني أهذه الفتاة طفلة تتشبث بصدر أمها، ولم تتجاوز بعد الأعوام الأولى من عمرها، لقلت
ثم لو عدت وسألتني: أهذه الفتاة صبية لاهية تائهة في الدنيا ساهية، لقلت (نعم!). ثم لو رجعت إلى السؤال فقلت: أهذه الفتاة شابة اكتملت أنوثتها، ونضجت فتنتها، لقلت (نعم!) ثم لو ألححت في السؤال فقلت: أهذه الفتاة امرأة أثارت الدنيا شهواتها، ولم تضعف الأيام نزواتها، لقلت (نعم!). ثم لو كان بعد ذلك في مكنتك أن تسأل فقلت: أهذه عجوز شيبت السنون رأسها، وهدت البأساء نفسها، لقلت (نعم!). لقد أطلت النظر إلى وجهها، فرأيت الرجاء والتوسل، والبكاء والتهدم، والاطمئنان والاستسلام، والثورة الجائحة، والشك في رحمة الرحمن. . .
لمست القبر وقبلته، واقتربت منه وعانقته، وأسلمت رأسها وقد انسدل وشاحها على ظهرها، وبدا لي أنها شرقى تطلب ماء لغصة في حلقها، ولكنها رنت إلى السماء بوجهها، فرأيت أنها تطلب من الله ماء العيون. . فلقد تحجرت عيناها فلا بكاء ولا دموع. . .!

انتصبت الفتاة واقفة، ثم رفعت من فوق القبر قنديلاً صغيراً كادت تخبو شمعته إذ أوشك زيته على النفاد، وملأت القنديل بزيت من زجاجة كانت معها فاشتعل القنديل وتوهج، ثم ذهبت إلى الناحية الأخرى من القبر وملأت القنديل الموجود هناك، ثم رفعت طاقة الزهر التي كانت معها فوضعتها على القبر وتمتمت ثم رسمت الصليب وانطلقت وقد زاد وجهها شحوباً، ووقفت حيث كنت متأملاً في نور هذا القنديل، مشفقاً على هذه الإنسانية التي لا تدري كيف تعبر عن حزنها ولا عن ألمها. . . ماذا يفعل هذا النور الخافت في هذا الدهليز الضيق؟ وما الذي يفيده الفقيد الراحل من الزهر المنثور على القبر ومن القنديل ومن تجديد الفتيل. . . إنه ذهب ولن يعود. . . ولكن الحياة لا تعترف بأنها فقدت من الموتى كل شئ، فهي تحدثهم بلغة الأنوار والأزهار، وهي تناجيهم بالتماثيل والتهاويل، وهي تسمعهم الأغاني والتراتيل. . . أهي تفعل ذلك كله من أجل الموتى؟ أو من أجل نفسها؟ أهي تتشبث بالذين ذهبوا أم تتعلق بالدنيا التي تتجدد وتتطور وتزداد كل يوم جمالاً وافتناناً؟. . . وما أقوى الحياة في بدايتها وما أقواها في نهايتها!

لكن هذه الخواطر الغامضة لا تنتهي، لأن كل شيء في المقبرة يفجر في النفس ينابيع التأمل والاستذكار، فلابد لزائر المقبرة من شيء أو شخص ينتزعه من هواجس نفسه وخواطرها. وقد كان الذي انتزعني دليلاً من إدلاء المقبرة، تقدم إليّ وعلى عينيه مناظر لامعة، وسألني كم من الوقت أريد أن أقضي في المقبرة. قلت لأصرفه عني: (دقائق قليلة)؛ فقال حسناً. اتبعني. فتبعته وأنا أسائل نفسي ماذا يستطيع أن يقول هذا الدليل وقد تكلمت التماثيل والأحجار، ونطقت القبور والأنوار، وسالت الفجيعة من كل ركن من أركان المقبرة؟ ولكنه قادني إلى تمثال أنيق لراهب وانطلق يذكر صانع التمثال وشهرته، وتاريخه وبدائعه، فأحسست أن الجو الشعري الذي اشتملني قد تبدد أرجه وعطره، وشعرت أنني خرجت إلى دنيا التوافه. . . دنيا الأرقام والإحصاء، الدنيا التي لا ترى فيها إلا مكافحاً في سبيل الرزق، أو مدجلاً من أجل الشهرة، أو مغلوباً على أمره، يبغي البقاء ويخشى أن يدهمه الفناء. . .

قل أيها الدليل كل الذي في جعبتك فإنك لا تهوى الفن ولا تعشقه، وليست هذه التماثيل في حسابك إلا بقدر ما تدخل الجثة المسجاة في سرير في حساب (النادبة) التي تؤجج نيران الأسى في قلوب ذوي الفقيد وهي لا تحس ألماً، بل تنتظر لعويلها ثمناً. مرّ بي على تمثال الجندي الشاب الذي صرع في ميدان القتال فأقامت له أمه نصباً خلدت به ابنها، فأبرز المثال صورته، وقد أصابته الرصاصة في صدره، فوضع يده حيث اخترقته القذيفة ووقفت أمه من ورائه تحنو عليه. . .

مر بي أيها الدليل على تمثال الفتاة التي زفت إلى خطيبها، فماتت في شهر عسلها؛ وعلى تمثال الغواص الذي هبط إلى أعماق البحر ولم يخرج. . .

مر بي أيها الدليل في الدهاليز. . . وأشر بإصبعك إلى القطع البارعة التي أحرقت أعصاب أصحاب الفن قبل أن تبرز إلى الوجود. . . لخص أيها الدليل أجمل معاني الدنيا في عباراتك الباهتة وقل هنا (قبور الأغنياء)، وهنا قبور القرن الماضي، وهنا قبور المتوسطين من الناس. . . كأني جئت هنا لأضع الموتى في مراتبهم الاجتماعية، ولأسأل عن وظائفهم ومقادير ثرواتهم وما حصلوا من مجد، وما لاقوا من عنت. . . قف أيها الدليل أمام أجمل فتنة فنية؛ ثم لا تدعني أتأملها لأنك تحسب أنك قلت لي عنها كل شيء إذ تقول إنها تكلفت أموالاً كثيرة. . .

ولتدخل بي أيها الدليل إلى دهليز طويل، لأرى في جداريه أدراجاً فأحسب أنها أدراج مكتبة وقفها بعض ذوي الثراء على الراغبين في العلم الباحثين عن المعرفة حتى في المقبرة، ثم قل لي إن في كل درج جثماناً. . . وأن الأدراج امتلأت بالموتى ولم يبق إلا اثنان ينتظران ميتين. . .

إنها لمكتبة حافلة! ولكن من يستطيع فك مغاليقها وفض أختامها؟ واخرج بي أيها الدليل إلى مقبرة الفقراء والمساكين الذين لا يقيمون لموتاهم نصباً ولا تماثيل. ولا تقل لي عدد الموتى ولا أعمارهم. . . فإني هنا في حديقة جميلة غناء، بودي أن أقف فيها والشمس الهادئة تغمرني، والجبل الأشم يطالعني، والموتى الساكنون يغسلون بسذاجة قبورهم نفسي. . .

ولكن قل لي أيها الدليل ما بال هذا القبر يبدو عاطلاً من كل حلية.؟ (نعم يا سيدي لأنه قبر رجل غريب!)
أيتها الإنسانية المسكينة! تشبثي بالفروق، وتأنقي في الموت، وتأنقي في الحياة، وأقيمي لموتى الأغنياء قباباً، واحفري لموتى الفقراء لحوداً، ثم انظري آخر الأمر ماذا بقي لديك في يديك؟ الموتى جميعاً أصبحوا (معروضات) في متحف، يرتزق بالتحدث عنهم دليل جاهل، ويتسلى بالنظر إلى صورهم زائر عابر، ولا تبقى وراءهم إلا عبرة في عين، وحسرة في قلب، وعبرة لمن أراد أن يعتبر!
(جنوى)
فتحي رضوان المحامي
قصة المكروب كيف كشفه رجاله
ترجمة الدكتور احمد زكي
وكيل كلية العلوم
بستور والكلب المسعور
وأخذ بستور ورجاله الخلصاء يصوبون مجاهرهم على مواد يستخرجونها من أجسام موتى من الإنسان والحيوان- ماتت بأمراض مختلفة الأجناس بلغت العشرات عداً، وقضوا في هذا ما بين عام 1878 وعام 1880. كان بحثهم في هذه الفترة به شيء من التخليط، وتحسسهم فيها على غير هدى. ثم شاء القدر أو إرادة الله أن تضع تحت أنف بستور طريقة رائعة للتحصين من الأدواء، ذلك التحصين الذي حلم به طويلاً. ليس في استطاعتي أن أؤدي قصة ما جرى في ذلك بالضبط، لأن الذين كتبوا عن بستور اختلفت رواياتهم فيها، ولأن بستور نفسه لم يشر في كتاباته العلمية إلى الذي حدث، ولم يقل قط إن الذي جرى له في ذلك كان حظاً واتفاقاً. ومع هذا فأنا أقصها على أحسن ما أستطيع، وأسد خللها على قدر الإمكان
ففي عام 1880 كان بستور يلهو بتلك المكروبة الصغيرة البالغة الصغر التي تصيب الدجاج فتميته بالداء المعروف بكوليرا الدجاج، وكان الدكتور بيرؤنسيتو اكتشفها فوجدها ضئيلة بالغة في الضآلة فلا تُرى المكروسكوب منها غير نقطة صغيرة ترتعد تحت أقوى العدسات، وكان بستور أول باحث استطاع تربيتها نقية، وذلك في حساء صنعه لها من لحم الدجاج، وبعد أن راقب هذه النقطة الراقصة، وهي تتكاثر في هذا الحساء فتبلغ الملايين الكثيرة في الساعات القليلة، قام فأخذ من الحساء قُطيرة فأسقطها على قُتيتة خبز ألقمها دجاجة، فلم تمض ساعات حتى انتهت وقوقة هذا الطائر المنكود ورفض الطعام وانتفش ريشه واستدار فكان ككرة من العِهن. فلما أصبح الصباح جاءه بستور فألفاه يترنح على رجلين ضعيفتين، وعيناه في اغتماض من نوم غامض انقلب سريعاً إلى نوم أبديّ عميق
وقام رو وشمبرلاند على هذه المكروبات الصغيرة يربيانها ويرعيانها تربية الحاضن ورعايتها. فكانا يغمسان عوداً من البلاتين في حساء يعجّ بها، ثم يغمسانه بما حمل من البلل
ويحركانه في حساء جديد خال من الأحياء، فلا يلبث أن يعجّ هذا بالخلائف الجديدة من ذلك المكروب. وقاما على هذا يوماً من بعد يوم، ويكثرون من القليل الذي على العود البليل العدد الهائل الكبير من هذه المكروبات، حتى ازدحمت مناضد المعمل بزريعات متروكة قديمة بلغت أعمار بعضها أسابيع كثيرة، وتفكر بستور فيها فقال: (غداً نُنحّي كل هذا الركام وننظف المناضد)
وهنا جاء الحظ يهمس في إذن بستور، فما كان من صاحبنا أن غيّر رأيه، فقال لرو: (نحن نعرف أن مكروب كوليرا الدجاج لا يزال حياً في هذه القبابة. . . نعم إنه قديم، فقد تركناه في مكانه بضعة أسابيع. . . ولكن برغم هذا أرى أن تحقن قطرات قليلة منه في بعض الدجاج. . .)
وأنفذ رو ما سأله بستور، وإذا بالدجاجات يجيئها المرض فيذهب عنها المرح والخفة والنشاط، وتهوّم كأنها تطلب النعاس. وأصبح الصباح فأتى بستور يطلبها في المعمل لتشريحها وفحصها مؤقتاً أنها لاشك ماتت كالعادة، فإذا بها تجري على عينه هنيئة سعيدة. قال بستور: (هذا عجيب إن المكروب من زريعاتنا كان قبل الآن يحقن في العشرين دجاجة فتموت العشرون كلها، أما هذه. . .!) على إنه لم يكن قدّر لبستور

في هذا اليوم أن يكشف كشفه الخطير المنظور؛ ففي الغد قام هو وأسرته ورو وشمبرلاند لقضاء عطلة الصيف، وقبل سفره أودع الدجاجات التي برِئت ذمة حارس المعمل ونسي أمرها

وعاد بستور من سفره. وذات يوم طلب إلى خادم المعمل أن يحمل إليه بعض الدجاج الصحيح الجديد، وأن يجهزه للحقن، قال الخادم: (ولكن يا سيد بستور لم يبق من دجاجنا الجديد الذي لم يحقن غير زوج أو زوجين، أما البقية فأنت تذكر إنك حقنتها قبل سفرك بمكروب من زريعات قديمة فمرضت ولكنها لم تمت). فتسخط بستور على الخدم الذين يهملون فلا يحتفظون بوفرة من الدجاج لتكون دائماً كافية حاضرة، ثم قال: (إذن فأحضر ما عندك من دجاج جديد، وزوّدنا كذلك بزوج أو اثنين من الذي حقناه فأبى أن يموت. . .)

وأحضرت الدجاجات وهي تملأ الجو صياحاً، فضرب أحد الأعوان محقنه في عضلات صدورها بملايين المكروب في صدور تلك التي كانت حقنت من قبل، وكذلك في صدور الجديدات، ومضى النهار؛ وأصبح صباح الغد، فأقبل رو وشمبرلاند إلى المعمل، وبينما هما يدخلان سمعا صوت بستور خافتاً يأتي من تحت السلم من بيت الدجاج وهو يصيح بهما: (رو! شمبرلاند! انزلا إليّ وأسرعا!) وكان بستور يسبقهما دائماً إلى المعمل بساعة أو نحوها

ونزلا إليه فوجدا أمام الأقفاص يذرع الأرض بخطواته. فقال لهما: (انظرا! إن الدجاج الجديد الذي حقناه أمس مات. وكان يجب أن يموت. ثم انظرا إلى هذا الدجاج القديم الذي كنا حقناه من شهر مضى، فمرض ثم طاب، هذا الدجاج أخذ بالأمس نفس الحقنة القاتلة التي أخذها ذلك الدجاج الجديد، ولكنه لم يمت. . . لقد قاوم فعل الحقنة أتمّ مقاومة، إنه فرح مرح. . . إنه يأكل!)

فاختبل رو وشمبرلاند، وانبهم عليهما الأمر حيناً. فقال بستور: (ألا تدركان مغزى هذا؟ مغزاه أني وجدت كل ما أردت! لقد وجدت الآن كيف أعطي الداء قليلاً إلى الحيوان - قليلاً بحيث يمرضه ولا يميته فيشفى وشيكاً. . وكل الذي علينا أن نعمله هو أن ندع هذه المكروبات الحادة القاسية تشيخ في زجاجاتها. بدل أن نستخرج منها بالزرع أنسالاً كل يوم. . . إن المكروبات تَقدُم فتشيخ فتهدأ حدتها، وتضعف ثورتها، فإذا أنت حقنتها في الحيوان أعطته مرض الكوليرا، ولكن بعضاً قليلاً منه لا كله، فإذا طاب استطاع بعد ذلك أن يصمد لأخبث مكروب في العالم. . . فإنما تريان أن فرصتنا في هذا عظيمة؛ وأن هذا أخطر اكتشافاتي، هذا اللقاح الذي كشفت، وهو أكثر تأكدا من لقاح الجُدري وأكثر منه حظاً من العلم، فالجدري لم ير أحد له جرثومة. . . فهيا بنا نطبق هذا على داء الجمرة. . . وعلى كل الأدواء الخبيثة. . . ونخلّص حياة الإنسان والحيوان!)

- 3 -

لقد كان الذي وجده بستور مصادفة واتفاقاً، فلم يكن من تدبير العقل الإنساني. ومع هذا فلو أن رجلاً دون بستور قدراً وقع على الذي وقع عليه لقضى السنين الطويلة يحاول تفسير هذه الظاهرة الخفية لنفسه دون أن يأتي أمراً مذكوراً، أما بستور فما كاد يقع اتفاقاً على حماية دجاجتين حقيرتين من جرثومة قتالة حتى رأى في هذا فرصة سانحة عظمى لحماية بني الإنسان من الموت، فابتدع عقله الوثاب طريقة جديدة يختل بها الطبيعة التي شاءت أن يستسلم بنو الناس كلما هبت عليهم تلك بالعداء أحياؤها الصغيرة

كان بستور بلغ الثامنة والخمسين من عمره، فلم يبق فيه من الشباب بقية. ولكن هذا اللقاح الجديد الذي اكتشفه بغير قصد فنجا به الدجاج من الكوليرا، هذا اللقاح نفخ في جمرة حياته فاستعرت، فعاش من بعد ذلك ست سنوات هي أملأ سنواته بالحركة وأشدها احتداماً بالحياة، سنوات امتلأت بحجاج شنيع، وانخذال فظيع، ونصر غير منظور. في هذه السنوات الست صب بستور من الطاقة ما يصبه مائة رجل، وأحدث فيها من الحوادث ما يحدثه هذا العدد من الرجال متظاهرين

وقام بستور وصاحباه يؤكدون أمر هذا اللقاح، فتركوا مكروباً للكوليرا يقدُم في حسائه وزجاجته، فلما ضعفت شرته حقنوه في عشرات من الدجاج الصحيح، فمرضت سريعاً، واشتفت سريعاً؛ وبعد أيام قلائل حقنوها بذريعة خبيثة من المكروب نفسه تكفي لقتل

العدد الوفير من الدجاج الصحيح الذي لم يحقن بعد، وأخذ ثلاثتهم يرقبون هذا الدجاج
تياهين معجبين باحتماله تلك الملايين من المكروبات وصموده الغريب لها
هكذا أغرى بستور بذكائه مكروباً بمكروب. بدأ بتأنيسه، فلما تم له ذلك حشده وسلطه بأسلوبه الغريب على مكروب من جنسه
ولو أنه لم يكن عندئذ فعل ذلك في غير مكروب كوليرا الدجاج، فقد اندفع على عهده في غطرسته وتعجرفه على الأطباء، وفي حملته على آرائهم العتيقة، وهزئ برطانتهم
اللاتينية، وسخر بوصفات جرّت بها أقلامهم على الورق سريعة كالبرق الخاطف،
وانعقدت الجمعية الطبية فقام يخبر الأطباء في أدب جم أن لقاح الدجاج الذي كشفه يفوق كثيراً لقاح الجدري الخالد الذي كشفه يينار قال لهم: (فأنا الآن قد دللت على لم يكن يينار ليستطيع التدليل عليه، وذلك أن المكروب الذي يقتل الحيوان هو نفسه الذي يقيه من الموت!)
وضجر الأطباء ذوو الآراء القديمة والأزرّة الزرقاء ببستور أن نصّب نفسه إماماً ليينار العظيم. وقام الدكتور جول جيران يسخر من بستور أن أثار هذه الثائرة كلها من أجل
تخبيص في دجاج - واستمرت الحرب في استعارها. وقام بستور في غضبة ثائرة،
وأعلن على رؤوس الأشهاد رأيه في سخافة إحدى العمليات الجراحية التي يقوم بها جيران ويُعجب ويُغرم بها. فتلا ذلك منظر من أقبح المناظر وأفضحها يسوؤني أن أصفه وتضيق نفسي لاضطراري لذكره. نهض جيران من مقعده، وكان شيخاً في الثمانين من عمره،
وأراد أن ينقض على بستور ذي الستين، وما كاد يفعل حتى صوب إليه لكمة، ولكن
تدخل بينهما الأصحاب فمنعوا اشتباك هذين الشيخين اللذين حسبا أن الحقيقة تظهر باللكم والرفس وبكسر العظام وخمش الوجوه
وفي الغد أرسل جيران العتيق شاهديه إلى بستور يتحداه إلى المبارزة. ولكن يظهر أن
بستور لم يشأ أن يخاطر بحياته وأن يموت على هذا النحو، فأعطى صديقَي جيران
رسالة يحملانها إلى كاتب الأكاديمية، وقال فيها: (لم يبق لي الواجب من سبيل أسلكها
إلا أن أعرب عن استعدادي إلى تغيير كل ما قلته فيما يرى المحررون أني خرجت به
عن حدود النقد المباح والدفاع المعقول عن النفس). وبذلك هرب بستور من النزال
فأثبت مرة أخرى أنه إنسان ولو فاته أن يكون ما نسميه في العادة رجلاً
(يتبع)
احمد زكي
لفكتور هوجو
ترجمة السيد فؤاد نور الدين
!وا حسرتاه! ما أكثر ما رأيت من غادات هصرتهن يد المنون
،هذه سنة القدر! الفريسة ينتظرها الهلاك
،والعشب تنتظره المناجل المشحوذة القاطعة
،والزهور توطأ تحت أقدام الراقصين الناعمين في الحفلات
،والماء ينفد من وديانه، والبرق لا يومض إلا قليلاً
وأبريل الحسود يحرق بصقيعه أشجار التفاح المزهوة ذات الأزاهير الفواحة، التي
.تتساقط كأنها ثلج الربيع
نعم، هذه سنة الحياة. يعقب الليل الشاحب النهار الضاحك. وتعقب اليقظة كل شئ،
.إما في النعيم وإما في الجحيم
،ويلتف المدعوون الجشعون حول المائدة الكبيرة
إلا أن كثيراً منهم يهجرونها قبل نهاية الطعام
- 2 -
ما أكثر ما رأيت من غادات يمُتن! إحداهن وردية اللون بيضاء البشرة؛ وأخرى كأنها لم تنصت إلا للألحان السماوية؛ وأخرى ناحلة قد أسندت جبينها المحنّى على ذراعها؛ ثم فارقتها الروح كما يفارق العصفور غصن الدّوح وفنن الروض
إحداهن شاحبة ضالة، استولى عليها الهذيان فما تنطق إلا اسماً لا يدّ كره أحد، وثانية تفنى كما يفنى النشيد على الأوتار، وثالثة كانت تحتفظ بابتسامة الملاك الجميل الرحيم، لما لفظت نفسها الأخير

فما أشبههن جميعاً بالزهور المرتجفة التي أعجلها القدر إلى الموت!
وبالطيور الحائمة التي غمرتها الأمواه مع أعشاشها الطافية!
وبالحمائم الوديعة اللطيفة التي وهبها الله العالم!
فوا لهف نفسي عليهن! طواهن الثرى في غياهبه، وما قضيْن بعد من العمر لبانة!
دعوني أتيه في ظلمات الغاب الدامسة، وأطأ بأقدامي أوراق الشجر اليابسة، فأنا لا أصدق أن جميع هؤلاء الفتيات الساحرات قد متن، وذوت نضرتهن وخمدت أصواتهن؛
ولا أكاد أصدق أن هذه المشاعل البراقة قد خبت أنوارها، وتلك الورود الزاهية قد هصرت أعوادها
ما نفسي إلا أخت لهذه الطيوف الجميلة، أما الحياة والموت فلا يفصلهما فاصل ولا قانون
فأنا طوراً أساعد خطواتهن وطوراً آخذ أجنحتهن فأموت مثلهن أو يعشن مثلي في رؤى عجيبة لا توصف
وتلبس أفكاري أشكالهن وصورهن ويخاطبنني قائلات: تعال!
ثم يتراقصن متشابكات مترابطات حول رموسهن ويتوارين عن عياني بهوادة، لا يخلفن لي غير الحلم والذكرى

إنما أذكر منهن واحدة أسبانية: ملاك غض الصبى؛ أبيض اليدين. قد رفعت النهدين وعقدتهما زفرات بريئة. العين حوراء تلمع فيها نظرات فتنة وسحر
والجمال مجهول أمره، هذا الجمال الذي يتوج بهالة من النور والضياء جبين من بلغت الخامس عشر ربيعاً.
لم يقض الحب عليها، فالحب لم تخطر بعد لذائذه ومعاركه في فؤادها العاصي بالرغم من هتاف الناس عند مرورها: ما أجملها! كانت تهوى الرقص وهذا الرقص قضى عليها
فرفاتها لا يزال يرتعش رعشة الهدوء والسكون كلما رقصت حول كوكب السماء في الليلة المصحية غيمة بيضاء
كانت تعشق الرقص أشد العشق، وكانت تظل قبل كل حفلة ثلاثة أيام ولياليها تفكر فيه وترى من أجله أحلاماً زاهية، وترى نسوة وعازفين وراقصين كلهم يحفون بها
وترى الحلي اللامعة، والعقود الساطعة، وهذه النسائج الرقيقة الناعمة، وتلك النفائس البراقة المتلألئة، وهذه الشرائط الخفيفة التي تشبه أجنحة النحل اللطيفة: كلها وزهور وورود كانت تملأ في الحلم عينيها وتسحر نفسها
فإذا كانت الحفلة، ألفيتها لاهية ضاحكة مع رفيقاتها، تقبل حيناً وتدبر حيناً في المخامل الحريرية
والمروحة بين أصابعها تضغط عليها والألحان المرحة تنتشر من حنجرتها
فتوافقت الموسيقى الصادحة ونغمات البيانة السابحة
لله ما أبهج النفس التي تتمتع برؤية هذه الكاعب ترقص وتزهو!
ثوبها يهتز بنجومه المتلألئة اللازوردية، وعيناها السوداوان النجلاوان تلمعان تحت خمارها الحريري الرقيق لمعان نجمتين تضيئان على جبين الليل من خلف سحابة مظلمة
كل ما كان يكمن فيها كان رقصاً ضحوكاً ومرحاً متوثباً.
ما أشبهها بالطفل! - كنا نبتهج بالنظر إليها في دعتنا الكئيبة؛ لأن القلب لا يجد متعة في الرقص فحسب، فالرماد يعلو حول الألبسة الحريرية
والسأم يظهر وسط اللذائذ السماوية
أما هي فكان الرقص يهيجها ويثيرها، وكانت تحلق - وهي نشوى بنفحات القيثارة الفخور - في فضاء من الحبور، وفي جو من السرور
وكانت الزهور الجميلة، ومصابيح الذهب المتوهجة، وجلبة الأصوات المرتفعة، وضجيج الخطوات المنتقلة، تستهويها وتلذها
ما أسعدها وهي تثب وسط الجمع، كأن مشاعرها تضاعفت وازدادت ونمت!
فلا تدري حينذاك أتتدحرج خلال السحب، أم تصطاد خلال الغاب، أم تطأ بأقدامها أمواج البحار؟
وا حسرتاه! إذا ما قرب انبثاق الفجر وجبت العودة إلى القصر

وهنا تضطر الراقصة الساذجة إلى الوقوف على عتبة الباب منتظرة المعطف
وهنا تحس وهي ترتجف أن نسيم الصباح الندي يلامس كتفها العاري الفضيّ
فيعقب الغد الحزين واليوم الكئيب ليلة الرقص الهائجة!
وداعاً أيتها الرقصات الصبيانية، وداعاً أيتها الزينة؛
أيتها الحفلات الجميلة، أيتها الأغاني العذبة، واللذائذ الحلوة، والعيون المشرقة!
فلقد خلفتكنّ جميعاً عيون منطفئة، وأدواء معضلة
- 4 -
ماتت فتاتنا - وما جاوزت ربيع الخامسة عشرة من عمرها!
ماتت في وفرة شبابها، وروعة جمالها، بين نظرات تعبدها، وعيون تقدسها
ماتت على أثر خروجها من حفلة راقصة، فتفتت أكبادنا حسرة عليها؛ ولبسنا لباس الحداد من أجلها
ماتت وا أسفاه! بين ذراعي أم ضاع صوابها وغاب رشادها،
لم يرحمها الموت فانتزعها انتزاعاً بيديه الباردتين لكي يضعها في القبر، وهي ما تزال في أهبة لحضور حفلات تالية
لله ما أسرع الموت في اختطاف تماثيل الجمال!
أما تلك الزهور التي كانت تزين بالأمس رأسها، وتتفتح أكمامها على صدرها، فلقد ذبلت في الرمس، قبل أن تنشد فتاتنا نشيد الهوى والعرس
- 5 -
وا رحمة لأمها التاعسة! إنها تجهل حظها العاثر
تلك الأم التي أضمرت لابنتها من الحب والحنان شيئاً عظيماً؛
ألم ترع طفولتها الشاكية الحزينة؟
ألم تقض لياليها ساهرة تهدهد لها المهد لتغفو وتنام؟
رحماك رب! لم يفدها ذلك.
فالفتاة ماتت، وهي ترقد الآن في تابوتها القاتم شاحبة اللون، كاسفة الوجه، فريسة للحشرات والديدان
فإذا ما أيقظتها في ليلة جميلة من ليالي الشتاء حفلة خاصة بالموتى، تقدم إليها - ليتولى أمر زينتها - شبح رهيب ذو ضحكة مروعة
فيقول لها: هلمي حان وقت الرقص!
ويطبع على شفتها البنفسجية قبلة باردة جليدية، ويمر أصابعه العقداء، أصابع هيكل عظمي، على خصلات شعرها الطويلة المتموجة، ثم يسوقها مرتجفة مهتزة، إلى الرقص النادب المشؤوم، إلى تلك الموسيقى الجوية المتصاعدة في الظلام، حيث يكون القمر في
الأفق القاتم شاحباً عريضاً، وقوس قزح مصبوغاً ببريق الياقوت والعسجد، وتكون الغيوم ذوات أهداب من لجين
- 6 -
يا أيتها الفتيات اللواتي تشوقهن ملاهي الرقص الضاحك!
لا تنسين تلك البنت الأسبانية التي انطفأت شعلتها إلى غير عودة! ولا تنسين أنها كانت تنتقل من حفلة إلى حفلة باشة فرحة، فتقتطف بيد مسحورة، أزاهير العمر العبقة، وتكسب روحها لذائذ الحياة الطاهرة، وتملأ عينها بزاهي الألوان الساحرة
على إنها مضت إلى عتبات الموت سريعاً، فقضت كما قضت أوفيليا التي جرفها السيل وهي تقطف الورد والزهور، فراحت غريضة الشباب والجمال في ظلمات القبور
حلب
فؤاد نور الدين
معلم الترجمة بمدرسة الزهراء النسائية
فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية
27 - تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا
الناحية الإيجابية من مذهب نيتشه
السوبرمان أو الإنسان الأعلى
للأستاذ خليل هنداوي

إن أوربا الحاضرة قد انسل إليها الداء، ترى فيها حيث نظرت مظاهر العلة والانحطاط. فكأن نصباً بالغاً حل على الإنسان فكبّل قواه وأضوي عزمه. وهو بعد أن قطع سبيله من دودة أرضية إلى قرد، ومن قرد إلى إنسان أصبح يجنح في هذه الساعة إلى راحة بعد هذا التطور الذي شقي فيه. لا يحفل إذا كانت الراحة في الوقوف أو في الموت، وهنالك مذاهب كثيرة تتعلق بأطراف ثوبه تغريه بعوامل جميلة وآفاق مطرزة. هذا يعده بالمساواة المطلقة، وهذا يعده بحياة ما أجمل أفقها! المذهب الديموقراطي مذهب منحط في الجماعات، ومذهب ديانة الألم هو مذهب الضعفاء. وأولئك الشكوكيون الناقمون المارقون الذين ألفوا (مثوى) لهم عند زرادشت، هم منحطون يتألمون من وجودهم، ويكادون يختنقون سأماً من أنفسهم واحتقاراً لها كلما وقعت أنظارهم على الإنسان الحاضر

أليس هذا هو الإنسان المتشائم الإلهي الذي ينطق بمواعظ الموت قائلاً: (كل شيء باطل الأباطيل) (لا شيء يجدي! السعي باطل). (لا جزائر سعيدة وراء المحيط)!. هنالك متشائمون كثيرون أووا إلى كهف زرادشت، منهم الملكان اللذان هجرا مملكتهما لأنهما لم يخلقا أول الرجال، والآن يريدان ألا يأمرا ولا ينهيا أحداً. وهنالك العالم الذي يعكس صور الأشياء، ويضحي بحياته ابتغاء أن يدرس دماغ علَقة. وهنالك الساحر المشعوذ الذي يعبث كثيراً بحقائق الأشياء ويخدع كل الناس دون أن تجوز عليه خدعة. ثم يتحرى - وقلبه مفعم سأماً وكآبة - عن مجد مشروع صحيح. وهنالك (البابا الأخير) من لم يستطع أن يجد لنفسه عزاء عن موت الإله. وهنالك أقبح الرجال، قاتل الإله، لأن الإله خنق إشفاقه على

بؤس الناس وشقائهم. وهنالك السائل الذي مقت الإنسان المتمدن، يتحرى إزاء قطعان البقر السارحة في المروج، يتحرى عن السعادة. وهنالك الشكوكي الذي قذف به جموح عقله إلى إضاعة نفسه، فضل وغوى وانطلق - بدون أمل - يسبح في أرجاء الوجود. كل هؤلاء يئنون من داء عميق يحز في قلوبهم حزاً. فهم يطوفون في الآفاق وقد أخذ القلق منهم كل مأخذ. فالناس وكل ما يؤمن به الناس من السعادة لا يزيدهم إلا سأماً. فهم أمسوا ولا إيمان لهم بكل الرموز التي يقدس الشعب ألفاظها ومعانيها. فلا ما وصلت إليه المادة بمغنيهم نفعاً، ولا الإيمان بالمثل الأعلى يغمر قلوبهم، فماذا يجب على الإنسانية إذاً أمام هذه الهاوية؟ فهل تقف مشيها وتطلب نفي الحياة وتنشد العدمية؟

يجيب نيتشه: لا! لأن الانحطاط لا يؤول إلى العدم، بل قد يكون الانحطاط بشائر حياة جديدة وعافية قوية، وإن مما لا ريب فيه أنه لا يمكن الرجوع بالإنسانية إلى الوراء. (يجب الإقدام، الإقدام إلى أمام. . . تقدموا رويداً رويداً في الانحطاط، وكما أن أوراق الأشجار تصفر في الخريف وتتناثر على الحضيض، كذلك الانحطاط قد يكون طليعة سلالة جديدة، والإنسانية تهب باحتضارها حياة سامية، إن الإنسانية تتمخض وتتألم من أوجاع الولادة؛ ولذلك لم يحمل زرادشت تعاسة الرجال السامين إذ يعتقد بأن الإنسان ينبغي له أن يتألم كثيراً ليستطيع الوثوب على القمم العالية. أن شقاء الرجال السامين وسأمهم من الناس ومن أنفسهم ضروريان، ليصرفاهم إلى المواطن العالية وليزيداهم جرأة وإقداماً على الوثوب. وإذا كان هؤلاء الرجال السامون هم بأنفسهم نماذج ناقصة للإنسانية فما همّ ذلك؟ يجب أن يكون هنالك انحطاط ونقص حتى يجيء النموذج كاملاً من كل وجه. إن الإنسان السامي هو كالإناء، يتهيأ فيه مستقبل الإنسانية، وفيه تتألف وتتجاذب وتعمل كل الجذور التي ستظهر يوماً لمعانقة أشعة الشمس، على أن أكثر من إناء واحد ووعاء واحد بين هذه الأوعية سيتصدع وسيتحطم! ولكن ما هم ذلك؟ أإذا ساءت ولادة فرد ما فهل ساءت الإنسانية كلها؟ وإذا ساءت ولادة الإنسانية كلها فما هم ذلك؟ إن الإنسان خاضع لهذا التشبيه الذي فرضه نيتشه. (إن الإنسان هو حبل ممدود بين الحيوان والسوبرمان، ليس الإنسان بغاية، إنما الإنسان مجاز وممر، وليفن الإنسان في سبيل حياة السوبرمان). يقول زرادشت للشعب الحاشد حوله:

إني أعلمكم السوبرمان؛ الإنسان يجب أن يفوق الإنسان! ماذا فعلتم لتفوقوا) الإنسان؟

كل الكائنات سارت في طريق الإبداع إلى ما هو أسمى: وأنتم يا بني الإنسان شئتم أن

تكونوا من الموجة جزرها لا مدها، بل آثرتم العودة إلى الإنسانية على السمو فوق الإنسانية
ما هو الفرد في عين الإنسان؟ إنه لخزي وعار. وهذا ما يجب أن يكون الإنسان في عين السوبرمان: خزي وعار. ها إنني أعلمكم السوبرمان:
(إنه هو ابن الأرض، فلتقل إرادتكم، بلى. ليكن السوبرمان ابن الأرض!)
- 2 -
من هو السوبرمان؟ وكيف يستطيع الإنسان أن يكونه؟ يمكننا تحديد السوبرمان بأنه هو الإنسان الذي يصرف عن نفسه كل التقاليد الموروثة من مذاهب وشرائع سارية في جسد أوربا. يصرفها عن نفسه ليعود إلى تقاليد وضعها رجال نبلاء وأسياد خلقوا بأنفسهم هذه القيم ولم يقتبسوها من غير أنفسهم. وليس معنى ذلك أن نعود بالإنسان إلى الوراء - إلى عصر الوحشية - وإنما نريد من الإنسان أن يبقى محتفظاً بمعارفه وبتجاربه التي شقي فيها أدهاراً طويلة. . . ولكنه يجب عليه أن يحطم مجموعة التقاليد والشرائع التي تعوق سيره وتحول بينه وبين التقدم المنشود
إن الإنسان بذهابه من الوجود يفتح الطريق للسوبرمان. وما أشبه هذا الاجتياز بالحركة التي تولد الرجل الزاهد عند (شوبنهاور). يعتقد المتشائم الكبير بأن الألم قد يقود الإنسان إلى الانعتاق من إرادته الشخصية، ويسير به إلى الانتحار في النهاية. ولكن هذا لا يغني وحده في نقله، وإنما لا ينبغي له إذا أراد الخلاص أن يقنع بالتنازل عن حياته الخاصة التي يحرزها، بل أن يتنازل عن الحياة عامة، وبهذا الثمن يستطيع أن يحس بالهدوء. أما عند نيتشه فإن الألم هو الواخز الذي يخز الإنسان فيقوده إلى السلام. إن الإنسان يتألم من كل شيء ذاتي، فيدرك السآمة الحادة الفاشية في نفسه، وهذه السآمة هي التي تسوقه إلى طلب الزهد والتشاؤم. وهذه هي حالة الرجال السامين الذين جمع بينهم (زرادشت) في كهفه. ولكن النبي يعظهم قائلاً لهم (إنكم لم تبلغوا في الألم الدرجة التي أريدها. لأنكم ما زلتم تتألمون من حالتكم وما أنتم عليه. إنكم لم تتألموا من حالة الإنسان الحاضر!) فإذا بلغ الإنسان هذه الدرجة البالغة من الشقاء والسأم توارى وأباد نفسه تاركاً الأرض للسوبرمان. إن التشاؤم الحاد العنيف هو الذي سيولد التفاؤل الظافر
(يتبع)
خليل هنداوي
أشبعوا غيرهم وباتوا جياعا!
للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي
إن مَن كدّوا يزرعون البقاعا ... أشبعوا غيرهم وباتوا جياعا
ربحَ المالكون للأرض غصباً ... ومضى كدُّ الزارعين ضَياعا
يُفقِرُ الدهرُ ألفَ بيتٍ ليغني ... واحداً من أفراده جمّاعا
لا ترى بين أوَّليهم ثرياً ... كانزاً للأموال أو منّاعا
ومن العدل أن يكون نتاج ال ... أرض بين المستثمرين مشاعا
إن بين الحق المحصحِصِ والبا ... طل منذ الدهر القديم نزاعا
والآلي قد حسبتَهم بَشَرَاً إن ... ظفروا كانوا أذؤباً وضباعا
عرفتكم عيونُ من أبصروكم ... لو رفعتم عن الوجوه القناعا
وعسى أن يغير الله ربُّ الن ... اس في القوم الظالمين الطّباعا
رضى العاملون بالوهد مأوىً ... وأبى المالكون إلا اليفاعا
أفريقٌ يفوز بالعيش رغداً ... وفريقٌ يكابد الأوجاعا
إنما الدين وهو أكبر هادٍ ... لا يراعي الألوانَ والأوضاعا
وكتاب الله العظيم يساوي ... بين من كانوا سادة ورعاعا
ما بكم من جبن ولكنكم لم ... تستطيعوا عن الحقوق الدفاعا
مشهد يملأ العيونَ دموعا ... وأحاديث تجرح الأسماعا
إن للباطل الذميم لأشيا ... عاً وللحق لا ترى أشياعا
يتنزى قلبي الجريح بصدري ... موشِكاً أن يحطم الأضلاعا
وإذا الأرض زُلزلت فترقّب ... أن تكون الوهاد منها تِلاعا
إنما الآمر الذي يُلزم الأحَ ... رارَ بالإثم لا يكون مطاعا

أيها العدل أنت شمسٌ فأرسل ... لعيونٍ تبغي الضياَء شعاعا
لقد امتاز بالشجاعة ناس ... صارعوا الفقرَ يحسنون الصراعا
والذي كان في الحياة قوياً ... كال للمعتدين بالصاع صاعا
وإذا لم ترهف حسامك للذو ... د فأرهف إذا استطعت اليراعا
أيها المبتغي انتحاراً تأخر ... فمن الجبن أن تكون شجاعا
بئس قلباً ما كان بالصادق الودّ ... وعقلاً ما إن يجيد الخداعا
وإذا ما أتت صر وف الليالي ... فهي تأتي بالرغم عنك تباعا
أيها القوم إن أردتم لحاقا ... بالألى أبْعَدُوا فكونوا سراعا
إنني قد دعوتكم للذي في ... هـ لكم خير إن أردتم سماعا
فسلاماً إذا رضيتم سلاما ... ووداعاً إذا أبيتم وداعا
لا يرى مشرق السعادة رحباً ... غيرُ من كان للعُلا طلاّعا
رُبّ أرضٍ تشكو الصدى وسماءٍ ... لا ترى فيها كوكباً لمّاعا
كبرت جرأتي فجئت بشعر ... أنا فيه أخالف الاجماعا
حاسباً أن ما بنيتُ جدار ... ليس في الظن أنه يتداعى
(بغداد)
جميل صدقي الزهاوي
الغابة
للأستاذ عبد الرحمن شكري
قد حكيت الآباد كالبحر والصح ... راء من طول أرضك الشجْرَاءِ
وحجبت الأفق البعيد عن الطر ... ف فأنسيت منتهى الأشياء
فكأنْ لا مَدَى لدوحك يرجى ... حين تُدْحَى مطارح الغبراء
ورياح تشدو على ورق الدو ... ح بألحانِ شدة أو رخاء
منطق لم يدع لنفس شجوناً ... لا يُحاكى صفاتها في الغناء
ثم تبدو الغصون في هدأة الري ... ح كناي معلق بالهواء
وكأني أصغي إلى غابر الده ... ر وما كان فيك من أرزاء
وكأن المساء ظلّل دوحاً ... يتسامى ولات حين مساء
وكأن الظلام دس كميناً ... رابضاً في آجامك الدكناء
خطرت في ظلام دوحك أروا ... ح وناجت مسامع القدماء
لبث القوم فيك دهراً فناجا ... هم سِرارُ الفنون بالإيحاء
عُمُداً شيَّدوا وسقفاً كَبَهْوٍ ... واستمدوا من غابة وسماء
حين شادوا للدين بيْعةَ إيما ... نٍ تبدت كالغابة اللّفْاءِ
صرتِ ملهى وكنت غيلا مخوفا ... وملاذ اللصوص والطرداء
وارتضيت الأمان من بعد ذعر ... لم يزل في المدينة الشماء
غابة شادها ابن آدم نزلا ... دوحها من قصورها الزهراء
ربما عرّشت وضاقت فلا شم ... س لديها ولا مراح الهواء
ومَخُوفٍ من الفجاءة فيها ... كمخوف في الغابة القتماء
واحتيال ليُقْتَنَصَ الرزقُ والصي ... دُ سواء في مكرة كسواء
كم وحيد لا يعرف الأنس فيها ... أصبحت نفسه كقفر خلاء
ضاق ذرعاً بنفسه فغدا ين ... شد طباً في معرض الأحياء
عذبته لو احظ الشمس حتى ... أخذته لوا عج الظلماء
وأفاعٍ في دورها وقرود ... ووحوش - من ناسها بالعَرَاء
وغريب ومعدم وطريد ... قد عداه حتى خداع الرجاء
فكأنَّ الأقوام لم يخرجوا من ... ك ولا زال عهدك المتنائي
سُنَّةٌ قد سننتها في نفوس ... إنْ دعتها كانت جواب النداء
عبد الرحمن شكري
تحية يا شباب!
للأستاذ إبراهيم إبراهيم علي
دعنا نحييكَ يا شبابْ! ... تحيةَ المعجَب الفخورْ
ونجمع الأهل والصحاب ... نطرب في غمرة الشعور

أنت مجيبٌ ومستجاب ... وأنت نار بها نور
دعنا نحييك يا شباب
تحية العاجزِ المدين ... لآخذي النصر باليمين
تحيةً يا شبابَ مصرا ... يا فتيةَ النيل يا جنود
وذخرنا إن عدمتِ ذخراً ... يا مصر في ذلك الوجود
يا فيضة النيل بعد أخرى ... تمضي، ولكنها تعود
دعنا نحييك يا شباب
تحية العُرف للأمين ... وفاتحي فتحها المبين
تحيةً للدم الصبيبِ ... إلى الردى. أو إلى الحياه
يجري هنا من فتىً حبيبِ ... أو يخضب الوجه من فتاه
في ساحة الملتقى العصيبِ ... شلت من المعتدي يداه!!
دعنا نحييك يا شباب
يا ضاربَ الشك باليقين ... وقاطعاً ذلك الوتين
وفادياً مصر بالغوالي ... وبالأمانِيِّ، والرجاء
وخائض النار والعوالي ... لتستوي مصر في العلاء
لا بغيةَّ الجاه، أو لمال ... لكنها نفحة السماء
دعنا نحييك يا شباب
يا فاتح الصدر للمنون ... وباذلاً كل ما يكون
المجد! يا غبطةَ الضمير ... والمجدُ لله والبلاد
وشعلةَ الروح في الصدور ... ورفعةَ الرأس بالجهاد
ونشوةَ المدمع الغزير ... وغرةَ الحق والجلاد
دعنا نحييك يا شباب
قولوا هنا: مصرُ لا تليني ... فلعنة الذل أن نلين
تحيةً! صخرة الأساسِ ... مصر على الرأس واليدين!!
تجهل ما الحكم والكراسي ... وتذكر الدين أيَّ دَيْنْ
وتبتغي شدة المراس ... فما سبيل الهوى بِهَيْن
دعنا نحييك يا شباب
تحية الليث للعرين ... لا يُظلم القلب أو يرين
نحب مصراً ومن عليها ... وإنما مصر في بنيها
صعيدَها قبل شاطئيها ... قبطيَّها قبل مسلميها
ومن أعزُّ الورى لديها ... إلا الشباب الأعزُّ فيها
دعنا نحييك يا شباب
ابن بلادي هو ابن ديني ... وإنما بالهوى أدين
جهدَك يا جندُ لا يمارى ... مجدك يا جندُ لا يرام
خصمك يا جند لا يجاري ... في سطوة الحرب والسلام
لكنها مصر! من أغارا ... على حمى مصر لن ينام
دعنا نحييك يا شباب
اللهُ. في ركنها الركين ... وحصنها الراسخ المكين
الحق والنصر صاحبانِ ... وما من الحق أن نذلاّ
وليس في الحق من توان ... ولا على الحق أن نضلاّ
إن لم أصن مصر عن هوان ... وأبذِل الأعظمَ الأجلاّ
نعم وحاشاك يا شباب
خسئتُ من كاذبٍ مهينٍ ... أعرف ما الكاذب المهين
أجل، وحاشاكَ يا شباب ... يا نجدةَ الحق يا نصير
حييتمو أيها الصحاب ... جهادكم ههنا كبير
دعواهمو اغتصاب ... وأمرهم في الهوى غرورِ (القوم)
أجلْ! وحاشاكَ يا شباب
فاضربه في سره الدفين ... فكم له ثمَّ من كمين
كن واحداً يا شباب مصرا ... وادع إلى وحدة اللواء

ولا تكن للذئاب سخراً ... ولا تكن سلّماً لشاء
يا جند في مصر: لن تفرَّا ... حتى يقروك في السماء
دعنا نحييكَ يا شباب
في صرخة الدهش والسكون ... أوْلا! فمن ذا إذن نكون
يا باذلَ المهجةِ احتساباً ... والرأسَ والعينَ. والشبابا
وحامياً ذلك الجنابا
وفاعلاً ههنا العجابا
دعنا نحييك يا شباب
إبراهيم إبراهيم علي المحامي
القصص
تتمة من فرجيل ولمعة من يوريبيدز
حروب طَروادة - 22
الحصان الخشبي - 1
سينون - 2
مصير لاوكون - 3
رؤيا إيناس - 4
نهاية بريام - 5
أنخيسيز - 6
العاصفة - 7
سقوط إليوم
للأستاذ دريني خشبه
لم يبرح فيلوكتيتس يرسل سهامه على الطرواديين، ولم تبرح المنايا تتخطفهم. . .
. . .ولكن المدينة ذات الكبرياء ما برحت أمنع من عقاب الجو على الغزاة الجبارين
وذهب كالخاس عراف الحملة، إلى آلهته يستوحيها، ثم هرع إلى سادته قادة الجيش
فذكر لهم أنه ما دام تمثال منيرفا المقدس - البالاديوم المشهور - في طروادة فلن
!يفتحها على أهلها فاتح، ولو عاونته الأرباب جميعاً
وانطلق أوليسيز، وانطلق معه ديوميديز، فتنكرا واحتالا على حارس البوابة الاسكائية
الكبرى ففتحها لهما، وذهبا قدماً إلى هيكل مينرفا، وسرقا البالاديوم المقدس، وعادا
به، وكل همهما أن تبطل نبوءات العم كالخاس التي أخذت تترى، ويأخذ بعضها برقاب
بعض. . . . وكرت الأيام. . . . ومع ذاك لم تفتح طروادة!؟
. . .ثم بدا لأوليسيز أن يصطنع الحيلة
فعرض على زعماء الحملة أن يدعى مهرة النجارين والمثالين فيصنعوا حصاناً هُولةً
كبير الحجم. . . خاوي الجسم، فيكون بداخله جمهرة من أقوى شجعان الهيلانيين
وأبسلهم، ثم يوهم الأسطول أنه أبحر بجنود الحملة، فإذا مضى شطر من الليل، وأقبل
الطرواديون على الحصان فأدخلوه مدينتهم تذكاراً لهذه الحرب الضروس التي أكلت
أخضرهم، وأحرقت يابسهم، وذهبت بالزهرة اليانعة من شبابهم. . . ثم إذا كان الهزيع
الأخير من الليل. . . خرج الأبطال المختبئون ففتحوا أبواب إليوم، وينقض الجيش
المرابط، فيحتل المدينة العاتية التي رغمت تحت أسوارها أنوف، وذلت جباه، وذابت
. . . .أنفس، وذهبت أرواح، دون أن ينال منها أحد
وطرب القادة لهذه الحيلة التي بدههم بها أوليسيز. . . وانصرفوا عن القتال وهم له
كارهون. . . وانصرف الطرواديون فاعتصموا بأسوارهم، ورابطوا داخل صياصيهم،
. . .ومهرة النجارين وكبار المثالين دائبون على حصانهم الهولة حتى فرغوا منه
. . .وأقلع الأسطول
. . .وانكشفت الساحة من هذا الجراد المنتشر الذي لبث ينوء فوقها عشر سنين
واختبأ أوليسيز داخل الحصان ومعه نخبة من شياطين الميرميدون، وعلى رأسهم
. . .بيروس النجيب، ابن أخيل الخالد، وعصبة قوية من فرسان الإغريق البواسل
. . .ودق الطرواديون البشائر
وجاءوا يُهرعون إلى الساحة، ويتكبكبون حول الحصان الهولة، ويكلمون سينون الذي
تركه الهيلانيون عند الحصان ليخدع الطرواديين ولينصح لهم بنقله إلى المدينة ليكون

آخر الدهر تذكاراً لهذه الحرب التي شنها قومه على طروادة ظلماً، فباءوا منها بالبوار. . .
(. . . . . هؤلاء الهيلانيون اللؤماء، الذين انصبت عليهم أحقاد الآلهة، وثار بهم كبير الأولمب وسيده الأعظم، وسلطت عليهم الزوابع والأنواء حتى كادت تفنيهم، لولا أن أمروا بتضحية قربان بشري ينجيهم من غضب السماء. . . ولكن؟. . . من منهم أصاخ إلى الأمر المقدس؟ ومن منهم سمع إلى هتاف الأولمب؟ لقد جبنوا جميعاً! ولم يشأ واحد منهم أن يضحي بنفسه لينقذ الجميع، حتى أوليسيز! أوليسيز نفسه؟ هذا الداهية المغفل! لقد جبن
هو أيضاً! وفي الوقت نفسه حاول أن يرغمني أنا! أنا سينون المسكين، على أن أقبل التضحية، وأن أهب دمي للآلهة لتهدأ ثورتها. . .
ولكني رفضت في شمم، وامتنعت في إباء. . . لا خوفاً من الذبح؛ ولكن ضناً بدمي النقي الطاهر عن أن يهرق في سبيل هؤلاء الجبناء. . . الذين تكأكأوا وفزعت نفوسهم من صيحة السماء. . .!
وهربت يا مولاي! يا مولاي بريام العظيم. . . ولذت بظلال طروادة الخالدة، طروادة المنيفة القوية، وجعلت أصلي لأربابي حتى استجابت لي، وأرسلت إليهم من أنذرهم بسوء المنقلب إذا هم لم يقلعوا هذا المساء. . .!! قاتلهم الله السند! وقاتلتهم الآلهة جميعاً!. . .
والآن!. . . هاهم أولاء قد تركوا هذا التمثال الرائع الذي أعدوه ليوم نصرهم، فجعلته الآلهة آية فشلهم!. . . انقلوه يا مولاي إلى المدينة، واجعلوه تذكار هذه النوبة الجنونية التي شنوها عليكم، فحاق بهم سوء ما كانوا يمكرون. . . ألا فليكن قربة لمنيرفا!. . .
ولقد سمعت هاتفاً في صلاتي يقول: (. . . الويل لمن يصيب هذا التمثال بشر! تنقض عليه رجوم السماء، وتنخسف من تحته الأرض، وتميد من فوقه الجبال!. . . وطوبى لمن احتفظ إلى الأبد به!. . . إذن يحميه شر حدثان الزمان وعوادي الأيام. . .)
وكان سينون يمزج كلماته بدموع الصلاح والورع، ويشعل فيها جمرات الإخلاص والصدق. . . وكان يرسل آهاته من الأعماق. . .! حتى استطاع أن ينفذ إلى سويداء الملك، ويستولي على مشاعر الطرواديين؛ وحتى ثار الطرواديون أنفسهم على قديسهم الوقور لاوكون، راهب نبتون الأكبر حين نصح ألا تجوز عليهم هذه الكلمات المعسولة، والنفثات السحرية التي يتلجلج بها لسان سينون، وأن يدعوا الحصان مكانه (فإنه إن دخل طروادة جلب عليها الشر وكان فأل السوء للضحايا والشهداء. . . ولا تصدقوا أن الهيلانيين قد تركوا هذا الحصان تكرمة لنبتيون كما يدعي هذا الأفاقي المأمون، بل هم قد صنعوه حيلةً منهم لغرض سيئ. . . وهاهي ذي ابنتك أيها الملك. . . كاسّندرا العزيزة فاسألها. . . فإن لديها سر السماء. . .)
وسأل الملك كاسندرا فأفتت بما أفتى به لاوكون. . .
ولكن. . . من يصدق كاسندرا وما تزال نقمة أبوللو تنصب فوق رأسها. وقد جعلها إله الشمس عرضة لكل مستهزئ وضحكة كل ساخر لعّاب!
وزاد الناس استهزاء بالقديس لاوكون، حين رأوا إليه تفترسه حيتان عظيمتان على سِيف الهلسبنت إذ هو يقدم قربانه لربه لنبتيون فنقنلانه وولديه، عقب تحذير الطرواديين ألا يقربوا الحصان المشؤوم وألا يدخلوه مدينتهم!!
وتعاون الطرواديون جميعاً فجروا الحصان الهولة، وهدموا بأيديهم جزءاً كبيراً من سور إليوم المنيع لتتسع البوابة للتمثال الهائل فكانوا كالتي نقضت غزلها أنكاثاً!!. . .
وكان الأسطول قد اختبأ في ظلال الأيك النامي فوق جزيرة تندوس، فلما كان النصف الثاني من تلك الليلة الخرافية الحالكة، وكانت طروادة كلها قد استسلمت للنوم العميق الذي يسبق القضاء الصارم عادة في مثل هذه الأحوال، هب سينون الخبيث ففتح الباب السري الذي لا يعرف إلا هو مكانه من الحصان، وخرج الأبطال فقتلوا الحراس النائمين لدى الأبواب، وأشعلوا النيران فرآها الجنود الذين عاد بهم الأسطول في دجى الليل، فانطلقوا سراعاً إلى إليوم الخالدة. . . المستسلمة. . . فدخلوها. . . وأعملوا السيف، وشرعوا الرماح، واستباحوا المدينة، وهتكوا الأعراض النقية، وأحلوا حرمة الهياكل، وأضرموا النيران في القصور، وأتلفوا الحدائق الفينانة، وهشموا تماثيل الآلهة في الميادين العامة، وقتلوا الصبية والأطفال، وجعلوا المدينة أطلالاً في أطلال!!

وهكذا!! وفي سكرة الليل، وهدأة الظلام، تم للهيلانيين الاستيلاء على تلك المدينة العتيدة وهبت من تحت الثرى عشرة أعوام طوال مضرجة بالدم، ملطخة بالإثم، حافلة بالذكريات، غارقة في الدموع. . . تشهد إلى الفتح المجرم، وترى إلى المأساة الظالمة في آخر فصولها!!

وكان إيناس اليافع ابن فينوس الهلوك من أنخيسيز، فتى طروادة وأميرها الجميل ذا القسمات، يغط في نومه العميق، ملء سريره الذهبي الوثير. . . مطمئناً آمناً. . . لا يدور بخلده أن تحل تلك الكارثة بإليوم هذه الغفوة من الفجر. . .

وكان إيناس محبباً إلى الآلهة. . . ولم يكن قد جاء أجله بعد. . . فسخرت إليه ربات الأقدار طيف هكتور يزوره في نومه، ويريه حلماً مفزعاً. . . وينذره. . . (أن هب إيناس فقد سقطت طروادة، وانج بنفسك وبأهلك فالأسطول ينتظرك، واستنقذ التحف المقدسة والآثار العلوية. . . فقد دنسها الفاتحون!!)

وذعر إيناس، وهب من نومه لهفان صعقاً. . . وفزع إلى سلاحه ثم أشرف على المدينة المروعة فشهد المأساة تحل بها. . .

وهاله أن يرى الوحوش الضواري من بغاة الميرميدون، وغزاة الهيلانيين، يسوقون أتراب طروادة وبيَّض خدورها المكنون. . . عاريات أو نصف عاريات. . . إلى الأسطول. . . ليكنّ إماء في بيوت هيلاس. . . ورقيقاً في أسواقها!؟

وكاسندرا؟! كاسندرا نفسها!! ابنة بريام الملك. . . حبيبة السماء وصفية الآلهة!! التي حذرت أباها يوماً من قبول باريس. . . أن يحل البلاء بالمملكة وينزل الشؤم بالناس!! هاهي ذي مسوقة في قبضة أجاممنون نفسه. . . أجاممنون سيد القوم وقادهم العام. . . إلى. . . سفينته!!

وفكر إيناس، فلم يجد لإنقاذ المدينة وأهلها من سبيل. . . فأشار إلى بعض رجال قصره فقتلوا نفراً من جند الإغريق المتخلفين عن الجيش الغازي، كانوا مشغولين بالسلب والنهب في متجر قريب، ثم نزعوا عنهم ثيابهم فلبسها إيناس وصحبه ليستخفوا بها عن أعين المغيرين؛ وانطلقوا إلى القصر الملكي، وبودهم لو استطاعوا أن يحموا الملك في هذا الروع الأكبر. . . ولكن وا أسفاه!! لقد كان ببروس بن أخيل قد سبقهم إليه في عسكر مجر من أبالسة الميرميدون؛ وكان بوليتيس بن بريام، وآخر فرع من دوحته الباسقة آبقاً أمامه، مكروباً مفزعاً، فاراً إلى ذراعي أبيه الضعيف الشيخ، يلتمس الحماية في أوهى حمى. . . فلم يزل ببروس ينهب الأرض في أثره. . . حتى قتله بين يدي أبيه، وانقض على الملك التاعس فوضع حداً لهذه الحياة الطويلة المملوءة الشقية التي لطخها الدم البريء وصهرتها جحيم الشدة. . . ولم يغن عن بريام المسكين توسلات هذه الزوجة المعذبة التي وقفت بينه وبين ببروس. . . هكيوبا!! الملكة المرزأة! التي بقيت وحدها لتجرع الثمالة الباقية في كأس الحياة. . . مراً وعلقماً. . .

وهكذا صعدت روح الملك إلى سماء طروادة تتلفت حولها! ترى إلى المدينة الخالدة تضطرم النيران في جنباتها. . . وتندك صروحها العزيزة في الرغام. . . وتتهاوى أبراجها المنيفة التي كانت تسجد تحتها آسيا الجبارة. . . والآن! هاهو ذا على ثرى إليوم لقيً لا نَفَس فيه! وجثة هامدة لا تحمل اسمها بعد. . . ورأساً معفراً. . . . . من غير جسد!!

وزاغ بصر إيناس حين شهد هذا المنظر الرهيب، ووقر في نفسه أن مثل هذه النهاية المحزنة قد تحل بأبيه الشيخ، أنخيسيز؛ وبزوجته الهيفاء كروزا، وبطفله المعبود أيولوس. . . فلم يبال أن يقتحم صفوف الأعداء إلى قصره الذي خلا غابه إليوم من أسْده، وبُدل الشوك من ورده، وعاث فيه جنود الهيلانيين فأصبح قاعاً صفصفاً. . . كأن لم يشدُ في دوحه بلبل. . . ولم يحن في فؤاد إلى فؤاد!

وهناك. . . في إحدى الردهات المنعزلة. . . وجد هيلين!! نعم، هيلين! سبب هذه الكوارث المتلاحقة التي حلت بطروادة والطرواديين. . . هيلين التي لم تبال أن تتزوج ديفبوس - أخا باريس - عقب مقتل حبيبها بأيام معدودة!!

وجدها هنالك. . . تنقدح المصائب شرراً من عينيها، وتتدجى غواشي الكروب فوق هامتها، وتنعقد ظلمات الكوارث على جبينها المغضن الكريه. . . . . الجميل!!

وهم إيناس أن يفتك بها، لما ذكر من الأرزاء التي حاقت بطروادة من جرائها. . . لولا

أن بدت له أمه. . . فينوس!ـ . . فأنذرته ألا يفعل. . . ثم كشفت له حجاب الغيب المحرم على أعين البشر، فرأى إلى الآلهة أنفسهم يعملون بأيديهم في تخريب طروادة، وتدمير الطرواديين، وعلى رأسهم شيخ الأولمب وسيده. . . زيوس. . . كبير الأرباب!!

(. . .فانج بنفسك يا بني. . . ولذ بالبحر. . . ولتنزح عن هذه الديار . . .)

وانطلق إلى أبيه فنصح له أن يهرب معه. . . ولكن أباه استكبر وأبى. . . بحجة أنه ينتظر نبوءة من السماء توحي إليه بما توحي. . . فغيظ إيناس وأغلظ لوالده القول؛ ثم أمره أن يقبض بيديه اللاريتس والبينيتس، وأن يركب كاهلي ابنه وإلا قتلوا في الحال!

فلم يسع أنخيسيز إلا أن يطيع. . . فسار ابنه يحمله، وسار ولده الصغير أيولوس بجانبه، وتبعتهم زوجه الجميلة كروزا. . .

وكان قد أتفق مع أتباعه، قبل أن يقصد إلى قصر الملك، أن ينتظروه في هيكل خرب قريب من مياه الهلسبنت. . . فلما أقبل نحوهم يحمل أباه اتفقوا على أن يبحروا في الحال. . . ولكنه. . . وا أسفاه! افتقد زوجه فلم يجدها. . . زوجه كروزا التي كانت الساعة فقط تتبعه!! لقد قتلها كلب من شياطين الميرميدون. . .! ولما رجع إيناس ليبحث عنها لقيه طيفها الجميل. . . عند تمثال مينرفا. . . فخاطبه قائلاً. . . (هلم يا إيناس! غادر هذه الديار في الحال. . . واذهب إلى شطئان التيبر. فإن الآلهة قضت أن تبني بيديك. . . رومة أم القرى!!) وأبحر إيناس. . . وأبحرت فلول الطرواديين معه

وفي غبشة الصبح المضطرب، كان صوت الطبل الكبير يقصف كالرعد في خرائب طروادة. وكانت الجموع الحاشدة تهرول نحو الأسطول، وكان السبي الكثير عذارى من طروادة وسائر نسائها يهرولن هن الأخريات نحو البحر. . . فكنت ترى هكيوبا الملكة. . . واندروماك الحزينة التي اغتصبها بيروس لنفسه. . . وكاسندرا. . . تلك النبية التي أحبتها السماء. . . فأصبحت في جملة السبي من سريات أجاممنون وغانياته. . .

وكنت ترى غيرهن يهرولن في الصباح الباكي إلى شاطئ الهلسبنت، ليركبن البحر فيغبن عن أرض الوطن إلى الأبد. . .

وكانت كاسندرا تنظر إلى المأساة وتبتسم. . .

وكانت أمها ترمقها بعينين دامعتين. . . وتسألها عن سبب ابتساماتها. . . فتفتر كاسندرا وتقول. . . (أماه ليس حظ هؤلاء الغزاة المنتصرين بخير من حظ أبطالنا. . . هأنذى أقرأ ألواح القضاء. . . انظري. . . هاهو ذا مصرع أجاممنون بيد زوجته كليتمنسترا العاشقة. . . إنها تفضل اليوم حضن عاشقها الآثم على جنة يكون فيها زوجها. . . إنها ستقتله، ستذبحه بيديها. . . حينما تطأ قدماه أرض الوطن. . .!

وانظري يا أماه. . . هاهو ذا أوليسيز تعصف به الريح. . . ويلعب به الموج. . . ويؤرجحه البحر المجي. . . عشر سنين يا أماه يقضيها ملك إيثاكا في تيه هذا الماء. . . والعشاق يتقاتلون من حول زوجته. . . وتليماك المسكين يضطرم غيرة ولا يستطيع أن يفعل شيئاً. . .

وانظري يا أماه. . . هاهو ذا منلايوس. . . بائس. . . كم أنت بائس يا منالايوس. . . لقد ظن المسكين أن هيلين نقية كما هي!. . . لقد نسي التاعس أنها تقلبت في أحضان أزواج غيره!. . . انظري إليه يقذفه البحر إلى شطئان مصر. . . وانظري إليه ذليلاً بين يدي هيلين يتوسل إليها وكان أحرى لو أنه قتلها. . . . . .

ونسي الهيلانيون في نشوة النصر أن يقربوا القرابين للآلهة التي نصرتهم وأيدتهم وأظفرتهم بأعدائهم؛ قبل أن يبحروا. . . فأثاروا غضب الأولمب. . . واستنزلوا لعنة السماء واستحقوا حنق حيرا ونبتيون ومينرفا. . . ونقمة زيوس!!

لقد ثارت ثائرة مينرفا. . . فانطلقت إلى أبيها وشكت إليه ما فرط هؤلاء الجاحدون في جنبها وجنب الآلهة. . . واتفق الجميع على أن يسخر نبتيون الجبار. . . إله البحر. . . أرياحه العاتية على أساطيلهم فتمزقها. . . وتضلها تضليلاً. . .

فما كادت الأساطيل تمخر عباب الماء. . وما كادت تبتعد عن شواطئ إليوم. . حتى بدأت العاصفة تدوّم. . وحتى أخذت الأمواج ترسل أعرافها حول السفائن، وحتى نثر الثبج حبابه فوقها. . . وحتى ارتعدت فرائص القوم. . . ونظر بعضهم إلى بعض. . . كأنهم في يوم حشر. . . ولا يتساءلون

ولقد صدقت كاسندرا!
فهاهي ذي الأساطيل الكثيفة تتمزق فوق سطح البحر. . . وهاهي ذي جواري منالايوس المنشئات تدفعها العاصفة في طريقها إلى. . . مصر. . . وهاهي ذي مراكب أجاممنون تتكسر على الصخور الناتئة في عرض اليم. . . وما كاد يصل هو إلى مملكته أرجوس حتى تقتله زوجه العاشقة. . . مؤثرة عليه أحضان عاشقها الأثيم إيجستوس. . . وهاهي ذي سفين أوليسيز تضل في البحر الشاسع، وتتكسر بما عليها من سلب،. . ويظل البطل المغوار في نقلة وترحل. . . عشر سنوات. . . وتظل زوجه بنلوب تنتظره. . . وعشاقها يقتتلون حول قصرها. . . وتليماك البائس ابنها ينتظر أوبة أبيه. . . حتى يعود بعد شدة وبعد لأي فيدمر العشاق الآثمين. . .
وهاك بيروس بن أخيل يعود ومعه أندروماك التي تظهر له الحب، عاملة بنصيحة هكيوبا لها. . . حتى تنشئ ابنها. . وكانت تعتزم مضايقة بيروس ومناوأته ليقتلها. . . . ولتستريح بالقتل من عذاب العيش بعد هكتور. . . .

دريني خشبة

قصة

الرجوع

إن ما ندعوه (قضاء) ليس إلا ما نقضيه على أنفسنا

(ميخائيل نعيمة)

بقلم الأديب عبد الوهاب الأمين

لم يكن صبياً غراً عندما فتنته تلك الغادة، بل لقد حاول جهده أن يسيطر بعقله على جموح تلك العاطفة، فغره لأول وهلة شيء من النسيان أحس به، وظن أن الوقت قمين باستئصال ذلك الحب الفاسق، وطاوعته نفسه بعد أسابيع أن يمزق صورتها ليلقيها في الموقد أمامه، وقد عاوده طيف (العائلة) والزوج الحنون، وأطفاله في الغيب، وبسمة السعادة التي ستشيع على الوجوه، فتنهد!
وكان دائم اللجاجة في (التحليل)، فخيل إليه أن الأمر بلغ نهايته، وإن جذوة الشباب فيه قد قرت، وما عليه إلا أن يحنو على زوجته فتحنو عليه، فيثمر ذلك الحنو حباً شريفاً. . . لا ذلك الحب المجهد، حب المومس الذي تثيره غلمة وتقتله كلمة! وأنه بعد هذه السنين الثلاثين جدير به الإقلاع عن إجهاد نفسه وعاطفته الجامحة بالتطوح في مثل هذه المجازفات!
وماله قد فتنه تصوير! ألا يجوز أن يكون ليد المصور الفنانة فضل في هذه الفتنة وهذا السحر؟ بل هذا هو المنطقي المعقول، فليس لإنسانة أن تمتلك مثل هذه النظرة المغرية، وهذا السحر الفاتن! إنها ولاشك فعلة الرسام!
وأطل عليه وجه زوجته في تلك اللحظة، فتمثل فيه الطهارة والإخلاص، وابتسم على رغمه لأن روحه الشابة المرحة لم تطق أن تقاوم البشر المنطلق من عينيها، والطرب الشائع في نظرتها! ورمته بقشر وهربت! وانهزم معها فرحها الحي الطروب! فتمثل لخياله الفرق بين هدوء حياته هذه التي سيقبل عليها، وجموح تلك التي عزم على فراقها، فاستشعر شيئاً من الحزن طاف به على هذا الفراق، وسرت في ذهنه صور سريعة من ساعات اللذة واللهو يكاد ينسخها مر الأيام. . . غير أنه عاوده شعوره بقوة عزمه السابق ومسؤولية الرجل الرزين الذي سيكونه عما قريب، فمزق بقايا الصورة ورماها في الموقد ونظر إلى اللهب الصغير المتصاعد منه، وشرد ذهنه
تقدمهم الصبي بخفة إلى باب المقصورة وفتحها بتؤدة وعلى فمه ابتسامة متكلفة. وأخذ يفرك يده متظاهراً بالبشر لقدوم (سيده) الذي طالما نفحه بالعطايا الصغيرة التي كانت تتسع وتكبر حسب ما يقوم به من خدمة! وكان يبتهج كلما أبصر (سيده) بصحبة امرأة، فإن وجودها معه يعني ضرورة الحاجة إلى خدمته ورعايته اللتين يستدرهما عند ارفضاض السيد نقوداً يطبق عليها أنامله بخفة، وعلى وجهه تلك الابتسامة التي لقيه مساء اليوم بها، والتي يكرهها (سيده) منه فلا يرفع بصره إليه!
وكان (العِرض) مهماً. والمقاصير كلها ملأى بالمخلوقات الجميلة، وكانت عين الناظر تلقف في كل ثانية وأخرى عضواً بارزاً نسوياً جميلاً بين تلك المناظر السينمائية الخلابة والإعلانات الملصقة على الجدران، وتعلو بين تلك الضجات المختلطة بضعة أصوات ناعمة تتطور بعض الأحيان إلى قهقهات صافية الجرس، تعلوها رنة النعيم!

وكان وهو ينزع عن كتفيه معطفه الثقيل ويدير عينيه بين المقاعد يلحظ أن صوتاً في المقصورة إلى جانبه يرن في أذنه فيترك صدى غير اعتيادي. . . جذاب! ساحر! غير إن انتقاء المقعد شغله وصرف ذهنه هنيهة عن تتبع أثر ذلك الصوت في روحه، ولما جلس أخيراً لم يكن في ذهنه غير ذلك الصوت وصاحبته اللعوب! وبدرت منه - من غير قصد - إلتفاتة إلى المقصورة فاصطدم نظره المستريح بها. . .! نعم هي! وقد ظهرت في ثوبها البهيج أشد فتنة من صورتها، وزاد في جمالها الأخاذ سحر التجمل، فأدرك أن قوته تخونه، وأنه أمام شخص يملك سحراً يزيد على سحر المرأة، فعادت إليه فجأة وبسرعة كل خيالاته التي نسختها عزيمته أولاً، واستعادت مخيلته أويقات التأمل التي كان يقضيها في مناجاة تلك الصورة على أشد وأقوى حالاتها، وأحس وهو يدير نظره عن وجهها الذي بدت عليه البغتة أنه يقتلعه اقتلاعاً، وأن شيئاً من قلبه وحسه قد تعلق بتلك الأهداب السحرية التي زاد جمالها الطبيعي الأخاذ اعتناء خاص بتنسيقها وتجميلها، وأدرك في قرارة نفسه أن سيطرة هذه المرأة عليه أمر محتوم وقضاء لا يرد! وانتهز فرصة (الفاصلة) فاحتج برغبته بالتدخين وأصر عليها، ثم حسم المشكلة بخروجه من المقصورة، وكان شيء في رأسه يدور ويدور! وهو عراك نفسي بين عاطفتين قويتين لا يكاد يركن لإحداهما حتى تبرز نتائجها ملموسة لعينيه! أيحب هذه المومس وهو يعلم أن
حبها يفقده أشياء كثيرة وعزيزة عليه؟ أيتركها ولا يلتفت إلى تلك النظرة الصارخة في عينيها، وقد بدت الليلة بوضوح في ملامح وجهها وشفتيها، ولم تستطع البغتة أن تخفيها من عينيها الأخاذتين! وهل هو قادر على أن يهمل اهتمامها الظاهر به، وهو الذي كان يقضي الساعات في مناجاة صورتها؟ وما يدريه! لعلها تصطنع كل ذلك لاستمالته! إنها خبيرة ولاشك بفعل هذه النظرات في القلوب! إنها تاجره تريد أن تغبنه بصفقة خاسرة، تريد منه قلباً بروح، لتعطيه قلباً بلا روح! كلا إن ذلك لن يكون!
ووقف ذهنه عند هذا الحد، فقد بدت من مقصورتها ومشت إلى ناحيته بتؤدة، ولما وصلت إليه أسرت قائلة:
- كازينو أنترناسيونال، منتصف الليل
ومنحته فوق ذلك ابتسامة!
عاد بسيارته بعد أن أخبر زوجته أنه سيقضي السهرة مع صديق له، وأنه سيتأخر عن وقت قدومه المعتاد، وانطلق كالسهم بها على غير قصد، ثم خطر له أن يشرب فوقف عند أول حانة!
وبعد الكأس السادسة نظر إلى الساعة فوجد أن بينه وبين الموعد ما يقارب الساعة، فخطر له أن يقضيها متجولاً لأنه شعر بالاكتفاء من الشرب وقام
ولم يكن (التجول) في مخيلته غير السير إلى طريق الكازينو! فوقف على بابه وفي صدره عراك، وفي خطواته تردد وإحجام، وألقى نظرة تائهة على الوجوه فلم يجد بينها غادته، فساقته قدماه إلى الباب وعاد إلى مقعده في السيارة وقد خطر له أن موقفه ناطق بالذل والعبودية، وأنه يسيء إلى نفسه بذلك العمل، وأن شعوره بكرامته وكبريائه قد ثلم، وبدت على وجهه غضون وغيوم!
وفي تلك اللحظة فقط شعر أنه تعب منهوك، وأن حاجته إلى النوم شديدة، فقبض على محرك السيارة وأداره بخفة ولباقة، وشعر أن كل ما فيه في تلك اللحظة عزيمة قوية! وأن في تلك العزيمة قضاء لا يرد!
واختلطت في ذهنه الأفكار والصور وعجز عن متابعة نتيجة عمله، وشعر بشيء من الكلال والفتور والإعياء، وكانت ابتسامته لزوجته جامدة، وكان على غير عادته في النوم
السريع بدون مزاح ولا دعابة
ولما سيطر سلطان الكرى على جفنيه كانت الساعة تؤذن بانتصاف الليل، وكان ذهنه الكليل يدرك أن في دقاتها أمراً!
غير أنه لم يدرك دقاتها الأخيرة!
عبد الوهاب الأمين
البريد الأدبي
وفاة روديارد كبلنج عميد الشعر الإنكليزي

منذ أسابيع قلائل كان عميد الشعر الإنكليزي المعاصر روديارد كبلنج يحتفل ببلوغه السبعين من عمره؛ ولكن الشاعر الأشهر لم يلبث أن مرض بعد ذلك بقليل، ثم توفي في الثامن عشر من يناير الجاري

وقد ولد روديارد كبلنج في الهند بمدينة بومباي سنة 1865 وكان أبوه جون كبلنج فناناً أديباً؛ وكان وقت مولده يشغل منصباً في مدرسة الفنون الجميلة ببومباي؛ وتلقى كبلنج تربيته في إنكلترا في كلية ديفون؛ ثم عاد إلى الهند في سن السابعة عشرة؛ واشترك في تحرير صحيفة إنكليزية تصدر في لاهور. وفي سنة 86 أخرج كبلنج أول آثاره الشعرية في مجموعة سماها (الأغاني الإقليمية)؛ وأعقبها بمجموعة قصصية عنوانها (قصص من التلال) وتوالت آثاره القصصية بعد ذلك فأخرج منها، (الأبيض والأسود) و (الشبح ركشو) و (وي ولي وتكي) وغيرها؛ فذاعت هذه القصص في الهند والصين واليابان، وطارت شهرة كبلنج إلى ما وراء البحر، واستقبل كبار النقدة فيه قوة أدبية جديدة، وتجول كبلنج في بضعة الأعوام التالية في الهند والصين واليابان وأمريكا، ثم عرج على إنكلترا حيث سبقه صيته، واستقبل بما يليق بأدبه وشعره من التجلة والتكريم؛ وتجول بعد ذلك حيناً في أفريقية، ونشر عن سياحاته العديدة كتاباً سماه (من بحر إلى بحر) وفي سنة 1890 أخرج كبلنج مجموعة قصصية عنوانها (نضال الحياة) وأتبعها بأخرى اسمها (النور الذي خبا) بيد أن عبقرية كبلنج الأدبية تصل الذروة في كتابيه الشهيرين: (كتاب الغابة) وكتاب (الغابة الجديدة)، وهما كتابان قصصيان عن حياة الحيوان في الغابة على مثل كتاب (كليلة ودمنة) في أدبنا العربي، وعلى مثل بعض قصص الحيوانات والطيور التي وردت في ألف ليلة وليلة؛ وفيها يعرض كبلنج بعض خواص الحيوان الطبيعية والنفسية عرضاً رائعاً ساحراً؛ وكان ظهور هذين الكتابين الأول في سنة 1895 والثاني في سنة 1896، أعني حينما بلغ كبلنج الثلاثين من عمره. ويعتبر النقدة كتابي (الغابة) أروع ما في أدب كبلنج وإنتاجه.

واستمر كبلنج في إنتاجه الأدبي يخرج المجموعات القصصية والشعرية تباعاً، ويرتفع باستمرار في سماء المجد والشهرة. ومن مجموعاته الشعرية الشهيرة غير ما تقدم (الأمم الخمس) (سنة 1903) و (أناشيد من الكتب) (سنة 1913) و (الديوان الشامل)، وفيه يجمع طائفة كبيرة من شعره المتفرق. وكتب كبلنج أيضاً (تاريخ إنكلترا) بالاشتراك مع صديقه فلتشر؛ وفقد كبلنج ولده في الحرب الكبرى، فرأى أن يخلد ذكرى الفرقة التي حارب معها في كتاب عنوانه (الحرس الأرلندي في الحرب الكبرى) (سنة 1923)؛

وكتب كبلنج غير ذلك كتباً أخرى من القصص والشعر يضيق المقام عن ذكرها ويلقب كبلنج في الأدب الإنكليزي بأنه (شاعر الإمبراطورية)؛ وهذه في الواقع أبرز خواص الشاعر الأكبر؛ وربما كان في هذه الخاصة ما يباعد بين أدبه وبين العقلية الشرقية؛ فقد كرس كبلنج كثيراً من نظمه ونثره للإشادة بعظمة الإمبراطورية البريطانية وما أحرزت من سيادة واسعة على كثير من الشعوب، وما أصابت من النعماء والغنى، وما يجب عليها أن تتذرع به لاستمرار هذه السيادة الشاملة على الشعوب المحكومة؛ وفي هذه المواطن يبدو كبلنج استعمارياً مغرقاً في القومية. بيد أن كبلنج، فيما عدا ذلك، يتمتع بخواص أدبية وشعرية باهرة؛ وأسلوبه قوي ساحر يفيض بياناً وبلاغة؛ وقد انقسم النقدة في شأنه إلى فريقين، فريق يرتفع بأدبه إلى الذروة، ويرى فيه المثل الأعلى للشعر المعاصر، ومن هؤلاء روبرت لند الذي قال عن كبلنج (إن عبقريته تشرق على جيله في البلاغة والفكاهة) وفريق وهو الأقلية ينتقص من مكانة كبلنج، ويرميه بأنه سطحي في شعره وفي نثره، وأنه يكتب بأسلوب براق يرضي الجماهير فقط. وزعيم هذا الفريق جورج مور. بيد أنه مهما قيل عن كبلنج وعن مواهبه وخلاله، فلا ريب أنه يتبوأ أرفع مقام في الأدب الفيكتوري

وقد نال كبلنج طائفة كبير من الجوائز والأوسمة الأدبية الرفيعة، فنال جائزة نوبل للآداب في سنة 1907، ونال الوسام الذهبي لجمعية الآداب الملكية، ومنح عدة إجازات فخرية من الجامعات الكبرى، ولبث مدى أعوام مديراً لجامعة سنت أندروز

قضايا التاريخ العظمى

أصدر الأستاذ هنري روبير المحامي الفرنسي الكبير جزءاً جديداً من كتابه الشهير (قضايا التاريخ العظمى) ' وهو الجزء العاشر من ذلك الأثر الحافل الممتع؛ ويعرف

عشاق الأدب الفرنسي كتاب الأستاذ هنري روبير حق المعرفة ويقرءون أجزاءه المتوالية بشغف
ولذة، وهو كتاب يفيض في الواقع طرافة وقوة وسحراً، وفيه يتناول المحامي الأشهر طائفة كبيرة من أشهر القضايا التاريخية والجنائية المروعة، ومعظم هذه القضايا والحوادث معروف للقارئ المثقف، ولكن الجديد فيها حقاً هو الأسلوب الرائع الذي يعرضها به الأستاذ هنري روبير على قارئه؛ فهو محام بارع تخرج على يد الأعلام من أقرانه السابقين مثل لاشو وديمانج ولابوري أعلام البيان والدفاع في القرن الماضي، ثم هو كاتب من الطراز الأول يتشرف بالانتماء إلى الأكاديمية الفرنسية والانخراط في سلك الخالدين؛ وهو بهاتين الصفتين يقدم إلى القارئ تحفة قضائية وأدبية رائعة، عرضت في أسلوب قضائي وتاريخي واضح، ونظمت فيه الأدلة والفروض القضائية إلى جانب التعليلات التاريخية والاجتماعية البارعة. وربما كان عيباً في هذا الأثر الحافل أن يخصصه هنري روبير كله تقريباً لاستعراض قضايا التاريخ الفرنسية (وإن كان يقص فيه قليلاً جداً من القضايا الأخرى) ولكن ربما كان ذلك أيضاً من عوامل قوته ودقة معلوماته ووثائقه
ويتناول الجزء الجديد الذي أصدره هنري روبير عدة فصول أولها فصل خصص لحوادث السموم والنسوة المسممات في القرن السابع عشر، وهي حوادث تناولها من قبل المؤرخ البارع فونك برنتانو في كتاب قوي ساحر؛ وفصل خصص لفضيحة بناما الشهيرة التي انتهت بإفلاس الألوف وضياع مئات الملايين، ومحاكمة نفر من كبار الممولين والساسة يومئذ والحكم على بعضهم بالسجن؛ ثم فصل خصص لحياة كاترين دي مديتشي ملكة فرنسا ووالدة هنري الثالث وفرانسوا الثاني وشارل العاشر ملوك فرنسا، وهي امرأة رائعة وافرة الدهاء والخبث؛ ولكن الأستاذ هنري روبير يحاول أن يخفف عنها حكم التاريخ القاسي، ويتلمس لها أعذار السياسة والملك
والأستاذ هنري روبير يخرج فصوله الساحرة دون نظام معين، ففي كل جزء من كتابه أربعة فصول أو خمسة لا تجمعها رابطة العصر أو النوع؛ ولهذا لا يعتبر الجزء الجديد خاتمة الكتاب، وليس يعرف من جهة أخرى أنى يقف الكتاب وأيان ينتهي
شكسبير والسينما
سنرى قريباً أول رواية لشكسبير على ستار السينما؛ وهي فكرة جريئة للفنان المشهور مكس رينهارت، فهو يعمل الآن لإخراج شريط مصور من رواية شكسبير المسماة: (حلم ليلة صيف)؛ وقد سبق أن عمل رينهارت لإخراج روايات شكسبير الكبرى على المسرح، ونجح في ذلك نجاحاً عظيماً؛ فهو الآن يعالج إخراجها على ستار السينما؛ وكذلك عمل رينهارت لإخراج روايات أعظم كتاب المسرح مثل موليير، وابسن، وبرناردشو، وشترندبرج وغيرهم؛ وكان مكس رينهارت أول فنان وأول مخرج مسرحي في ألمانيا حتى جاء الهتلريون في الحكم فلم يشفقوا على علم ولا فن، وأطلقوا العنان لتعصبهم الجنسي الشنيع، وشردوا أقطاب الفن لأنهم يهود؛ وكان رينهارت في مقدمة أولئك الذين رفضوا البقاء في ظل هذا النظام البربري؛ وهو يتجول الآن في عواصم القارة فيلقى فيها أعظم حفاوة وتقدير
ومكس رينهارت نمسوي الأصل؛ وقد ولد في سالزبورج سنة 1873، فهو الآن في نحو الثانية والستين من عمره؛ وقد شاءت بلدية مدينة سالزبورج أخيراً أن تكرمه وأن تخلد ذكراه فأطلقت اسمه على شارع من أهم شوارعها، وسالزبورج هي مدينة الفن والموسيقى
النقد
رد على نقد
كتاب تاريخ الإسلام السياسي - 4
للدكتور حسن إبراهيم حسن
تتمة
ومن الغرابة أيضاً أن نجد الناقد يأخذ علينا أننا كثيراً ما نستمد ونقتبس من كتب (تاريخ العرب) لسديو، و (موجز تاريخ العرب) للسيد أمير علي، و (الحضارة العربية لجوستاف لي بون، و (أتباع محمد) لواشنجتن أيرفنج، لأنها في نظره أصبحت قديمة

قاصرة من حيث المستوى العلمي في الوقت الذي نراه فيه يشيد بمدح المستشرق مرجليوث، ويستدل به في نفي الكتاب عن ابن قتيبة. وقد يدعوه الإعجاب بمرجليوث فيدافع عنه ضمناً بأننا لم نحسن الرد عليه حين قال: (في صدد الرجلين اللذين أرسلهما عامل كسرى على اليمن ليأتياه بالرسول، فلما قدم الرجلان على الرسول (صلى الله عليه وسلم) أخبرهما بأن كسرى قتل وأن ابنه هو الذي قتله)، أن الرسول كان له من يأتيه بالأخبار!! أما والله لولا أن الناقد مسلم كما نعتقد!! لضننا أنه يردد صدى هذا المستشرق الذي ينكر كل معجزة للرسول ويذهب في التأويل بعيداً بحجة المعقول وغير المعقول، ولو كان حصوله أوضح من الشمس في وضح النهار

انظر إلى هذا الناقد يجعل من عيوب كتابنا أننا لم نبطل هذه الرواية الدالة على المعجزة أو نتأولها على الرغم من تعرض كتب السنة الصحيحة لها وإثباتها، وعلى الرغم من أنه يعلم كيف يتغلب التعصب الديني أحياناً على روح العلم والبحث عند بعض المستشرقين، فينظرون إلى ما ورد عن الرسول من خلال مذاهبهم الدينية لا أبحاثهم التاريخية، ولسنا في حاجة لإيراد الأمثلة والشواهد على ذلك، فهي في متناول كثير من الناس

ولشد ما أعجب من حضرة الناقد حين يأبى أن يكيل لنا المدح جزافاً، ولكنه لا يأبى أن يكيل الذم كذلك ويخطئنا تخطئة لا حق له فيها، من ذلك أننا لما روينا قول بعض المؤرخين أن بعض الخوارج كانت تصدر منهم أمور متناقضة تدل على أنهم يخبطون خبط عشواء، كلومهم آكل الرطبة بدون دفع ثمنها، واسترضائهم أ

ذمياً بدفع ثمن خنزير له قتلوه، وقتلهم عبد الله بن خباب وزوجه وبعض النساء - علقنا على ذلك فقلنا إن هذا ليس من التناقض في شئ، وإنما هو أقرب إلى أن يكون غلواً في تطبيق مذهبهم، وحجتنا في هذا أن الخوارج يرون وجوب قتل المسلم الذي لا يدين برأيهم لأنهم يعتبرونه مرتداً؛ وحروبهم المتعددة مع علي بن أبي طالب ومع الأمويين، بل وأشعارهم وأراجيزهم تنطق بذلك. أما الذمي فلا سلطان لمذهبهم عليه، كما إنهم كانوا لا يستحلون أكل المغصوب أياً كان صاحبه، ولو أنهم يستحلون قتل النفس التي حرّم الله قتلها. فمن أين يأتي التناقض يا ترى؟ حبذا لو أرشدنا الناقد إلى وجه آخر في هذه المسألة خلاف ما ذهبنا إليه! فليس إلقاء الكلام على عواهنه مما تُخدم به (المادة الناشئة في معاهدنا العلمية أو يحفظ لمصر سمعتها في الأقطار الشرقية!)

لا يقل خطأ الناقد في هذا عن خطئه في دعواه، بأننا مع استشهادنا ومباهاتنا بتلمذتنا لبعض المستشرقين ننسى ما ننقله عنهم أحياناً وننسبه لنفسنا، وأننا جرينا على ذلك في الفصل الذي عقدناه لمكتبة الإسكندرية، ويكفي في الرد على هذه الدعوى الجريئة أن يرجع القارئ إلى كتابنا عمرو بن العاص فيجد أننا ذكرنا هناك رأي (بطلر) مفصِلاً في إحراق هذه المكتبة، وعلّقنا عليه بما يستحق من تقدير. فإذا أحلنا القارئ إلى كتابنا المذكور، فذلك لأنه يعتبر خاصاً بهذه المواضيع مدوناً فيه آراء بعض العلماء منسوبة إليهم عن هذه الحادثة العظيمة الشأن

ولقد كنا نربأ ببعض الأقلام أن تنزلق عن منهج النقد الخالص إلى إلقاء التهم والظنون بين الناس وغرس ما لا يستحسن غرسه بين التلميذ وأستاذه أو بين المؤرخ والمؤرخ. وحاشا لله أن ندعي ما ليس لنا أو أن نجهل فضل من جلسنا أمامه مجلس التلميذ، فإذا رغبت بعض الأقلام في أن تتهمنا بالتدليس مع بعض الأساتذة المستشرقين، أو بالعقوق مع أستاذنا المرحوم الشيخ محمد الخضري بك الذي نقدره ونجله، فإنما تحاول عبثاً هذه الأقلام وتمكن من نفسها وتدل على مصرعها. إن المتصلين بنا يعرفون أن ليس من خلقنا إنكار الجميل. ونحمد الله أنه في الوقت الذي كان الناقد يفكر في هذه الوقيعة بيننا وبين أستاذنا المرحوم الشيخ محمد الخضري بك كان أحد أفراد أسرته يتكرم بزيارتنا ويعرض علينا أن نشرف

على نشر ما خلفه المرحوم من الكتب التي لم تنشر في حياته. ويا للعجب إذا كانت الجرأة والضمير يطوحان ببعض الناس إلى إثارة الضغينة بين الحي والميت، فكم تبلغ عفتها في أن توقع بين الحي والحي!! ألا فليرح الناقد باله من هذه الناحية فلن يجد غرسه أرضاً خصبة ولا يشفي به غيظاً

كيف يمكن أن يوفق القارئ بين قول الناقد إن هذا الكتاب عرض لنواح شتى من الحياة الإسلامية القديمة: عرض لنواحي الدين، والسياسة، والاجتماع، والعقل، والأدب،

وبين قوله - عفا الله عنه - (إن المؤلف غير موفور الثقافة الإسلامية وقد أداه تفريطه في جانب الثقافة الإسلامية إلى الإفراط في الأخذ عن المصادر الأجنبية)، ومن يدري؟ فلعل هذا تقريظ قلعت عيناه فأبصر

جرت العادة أن يسمى الكتاب بأبرز نواحي موضوعاته، اللبيب يدرك بداهة أن فتح عمرو بن العاص مصر مما ينطبق عليه انطباقاً كلياً لفظ السياسة ومعنى السياسة، ويدرك كذلك أنه كان لعقائد الفرق الإسلامية ومذاهبها المكان الأول في إحلال دول مكان دول، وتقويض عروش وتدعيم عروش. فهذه الدولة العباسية استطالت أعاليها بسبب انتشار العقائد الشيعية وتغلبها؛ وتلك دولة الفاطميين خلقتها المذاهب الدينية أيضاً. ودع عنك القرامطة، والباطنية، والخوارج وغيرهم؛ فتلك أمور يطول شرحها. فأنت ترى مبلغ تأثير تلك العقائد في الاتجاهات السياسية ركوداً وهبوباً، وماذا تكون السياسة إذا لم تكن هي خلق منشآت جديدة، وتنظيم أمور الناس وفق مشارب ملوكها وأمرائها، وطبع المجتمع على غرار ما يراه الحاكمون سواء بسواء؟ لكن ناقدنا يأتي مع هذا معنفاً بأن عنوان الكتاب قاصر لا يجمع مثل هذه البحوث، فما كانت تصح نسبتها إليه ولا وضعها فيه، ويتعطف فيرشدنا إلى أنه ينبغي - إذا لم تكن مندوحة عن ذكر هذه الأبحاث - أن نصوغ عنوان كتابنا بما يدل على الشمول، ويزداد تعطفاً فيذكرنا بكتاب (موجز تاريخ العرب) للسيد أمير علي الهندي الذي نعرفه حق المعرفة! ولقد كان بودنا أن نتبع نصحه - ولو مرة واحدة - تشجيعاً للنقد، وثقة بنية صاحبه، لولا أنه سها عن أننا بسبيل وضع جملة أجزاء لكل جزء عصر خاص به. فإذا اقتدينا بمن ذكره لحق علينا قوله ليس لدينا غرض واحد محدود نرمي إليه ونسير على هديه، ولعله تذكر أخيراً أن هناك خمسة أجزاء باقية ستصدر بعد هذا الجزء - إن شاء الله فلم يشأ إلا أن يزودنا - كعادته - بنصحه، وبأن نكون في وضعها أشد تحفظاً وأكثر تثبتاً -

على أننا نضحك أشد الضحك حيث يرشدنا الناقد إلى الاقتداء بوضع السيد أمير علي لاسم كتابه (موجز تاريخ العرب) ذلك الكتاب الذي وصف مؤلفه بأنه (متوسط المكانة التاريخية)، كما وصف أيضاً المؤرخ المشهور السير وليام ميور الذي خلف لنا كتابه في سيرة النبي وكتابه الآخر في الخلافة بأنهما قديمان. ونحب - قبل أن نترك هذه النقطة - أن نهمس في إذن الناقد بأن المؤلف الأول السيد أمير علي، الذي لم يرق في نظره أن أخذنا عنه بعض ما أخذنا، يقول عنه الأستاذ أدوارد براون في كتابه تاريخ الفرس الأدبي , , 4 188) في سياق كلامه على مبدأ ظهور الإسلام ما نصه:

هذه المسائل قد ناقشها في مؤلفاتهم بكفاءة ولباقة كل من سيل، وسبرنجر، وميور،) وكرهل، ونلدكه، وبوزول سميث، والسيد أمير علي

والسيد أمير علي هو ذلك المسلم العصري الواسع الفكر والاطلاع، جمع بين الثقافتين الشرقية والغربية، وهو حقيق بأن يطلع على كتابه كل من يرغب في تفهم ذلك النفوذ القوي الذي لا يزال يتمتع به الإسلام ونبيه، حتى في نفوس هؤلاء الذين أشربوا روح الثقافة الأوربية)

ونعود إلى بعض ما أورده حضرة الناقد - أستغفر الله! بل إلى الإرشاد ما نقده - ليعدل في المستقبل عن تكلف ما لا يحسن - على رأيه فينا - وليستوعب ما يقرأ ويصرف نشاطه في مدارستها، فما يكون الإنسان كاتباً إلا بعد أن يكون قارئاً، وإنها لكبيرة أن يعمد واحد إلى كيل التهم والتشكيك غير مراع للتاريخ حرمته، ولا للقارئ عقليته، ولا للحق كلمته

يقول: (إن تشريع القبلة وحكمته يظفران في كتابنا بثلاث صفحات، في حين أن غزوة بدر التي تعتبر بحق أهم وقائع الإسلام، ومن وقائع التاريخ الفاصلة لا تكاد تظفر بصفحة واحدة؛ وأم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك تخص بصفحتين، في حين أن الأحداث الجسام التي وقعت زمن الخليفة يزيد ابن الوليد بن عبد الملك تركز وتضغط في أسطر قلائل)

،وبحسبنا أن يرجع القارئ إلى كتابنا ليرى كيف تفتل بعض الأقلام من الهواء حبالاً وتخلق من الواقع محالاً. إن غزوة بدر ومقدماتها ظفرا وحدهما من صفحات الكتاب بنحو ثلاث عشرة صفحة (صفحة 136 - 148)، وإلا فهل كان الناقد يظن الكلام في الجهاد وأسبابه، والغنائم وشرعيتها، وهل الدعاية إلى الدين كانت من طريق السلام أو

الحسام - كل هذا يظنه بمنأى عن غزوة بدر ولا يتعلق بها، وأننا لم نفصل الكلام على هذه المواضيع بمناسبة تخالف تلك الغزوة الخالدة؟ وهل كان يريد أن نستبدل هذه الأحداث الهامة بذكر ما قيل في رثاء قتلى المشركين، وما تقدمت به قتيلة تعاتب الرسول لقتل أخيها النضر، وما وقع في قتل أبي جهل مما تختص به كتب السير؟ أما إن الأحداث الجسام التي وقعت زمن يزيد بن الوليد ركزت وضغطت في أسطر قلائل فدعوى غريبة، يكفي لوأدها صفحات الكتاب من 523 إلى 550، وفيها أسباب سقوط الدولة الأموية، والتعرض بالتفصيل لهذه الأحداث الجسام التي وقعت أيام يزيد وغيره إنما اللوم على من يحسبها ... ظلمة من بعد ما يبصرها

في الأمثال (لا يشكر الله من لا يشكر المحسن من الناس) وإذا كنا في كلمتنا السابقة أخذنا على بعض المستشرقين أنهم أحياناً ينظرون إلى تاريخ الإسلام من خلال مذاهبهم الدينية، لا أبحاثهم التاريخية، فإننا لا نكتمهم حق الشكر على إنهم عاونوا في رفع الحجب التي أسدلتها العصور المظلمة على تاريخنا، وسلوكه في سلسلة تصل أوله بآخره، وتمد القابض عليها السائر حذاءها بما يمكنه من إدراك ما فيه من قوة وضعف واعتلاء وابتلاء. هذا ما كتبه فون كريمر، وبروان، وكرهل، والسير توماس أرنولد، وأميل درْ منجم وغيرهم، يدل على توفيق كبير في استخراج الوقائع والعبر التاريخية واضحة جلية بعد أن اختلطت أحداثها وتعددت نظمها وآراؤها، وبعد أن كان التاريخ سيراً يتفكه بها الخالون ويحتقرها العالمون، صار بفضل تلك الأبحاث العلمية الحديثة فناً كريماً تقرن فيه الموقعة بالموعظة، وتلحق فيه البينات والشواهد آثار رجالاته وبيئاته، حتى غدت منابعه عذبة للواردين وطرقه معبدة للمدلجين. فليس من الأصناف ما ذهب إليه الناقد من أن التاريخ الإسلامي لم ينهض بعد في الشرق نهضته المستقلة المنشودة، وأنه لا يزال قصصاً يقص وسيراً ساذجة تتلى. أجل! كان من حسن الحظ - أو من سوئه - أن الناقد بعد أن نعى علينا ما نعى، وبعد أن ملأ مقالاته الأربع بما يستر هب بعض الألباب حتى ظنته إمام هذه الصناعة،

ذهب بعيداً جداً في الاعتداد والإرشاد، وعمم بعد تخصيص، وألقاها كلمة داوية بأن التاريخ الإسلامي في الشرق لم ينهض نهضته ولمّا يجد من يقيل عثرته، وأن روح الجماعات وأثر البيئة والتقاليد وعمل المبادئ والعقائد، والقوى الاجتماعية والاقتصادية لا تزال في العربية أسراراً لم ترفع عنها الحجب. فهذا الكاتب يرى أن كل ما ألف أو درس في التاريخ الإسلامي من أصول وفروع وبيئات وتقاليد لغو وباطل، سواء أكان الدارسون شرقيين أو مستشرقين

كان الظن بمن ينقد شيئاً أن يرينا مثلاً أعلى لما ينبغي أن يكون عليه طريق البحث ويدلنا عما صنع هو للاحتذاء والأسوة، فالنفس دائماً مولعة بأن تتبع ذا الفعال، وقلما تفيدها الأقوال (ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال والتعظيم من معلم الناس ومؤدبهم). ويظهر أن الناقد استشعر هذا الإشكال الجديد، فهو يحاول النجاة بأن الذي يحول دون نمو الروح التاريخي الصحيح في الشرق هو ما يعترض الباحث من وعورة المسلك وبعد الشقة وصعوبة المنال. مرحى مرحى!! كأنه يعتذر عن عدم إخراجه ولو مؤلفاً واحداً بما ذكر، ويتهم كل المؤرخين بأن التاريخ في كتبهم لا يزال قصصاً يقص وسيراً ساذجة تتلى، ويكتب أربع مقالات ينقدنا فيها نقداً لاذعاً، ويدعونا إلى الأخذ من هذا وترك الأخذ من ذاك. وما عهدنا واعظاً حكيماً يهدي إلى طرق لم يسلكها، ويكلف الناس بواجبات لم يتذوقها، أو يثقل عاتق الناس بما عجز عن حمله، أو يسهو عن أن الحكم عن الشيء فرع عن تصوره. عفا الله عن ابن المقفع، فقد ذكر في ترجمة (كليلة ودمنة) أمثالاً صالحة لمن يغشى حلبة السباق وهو مقعد، أو يتولى سدة الوعظ وهو محتاج إلى الرشد

وبعد فما كان أغنى قراء (الرسالة) عن هذا كله، وما كان حق النقاد ألا يشرعوا قلمهم إلا لله والمصلحة العامة، لا تنزو بهم نازية من خوف أو طمع. ولكن هكذا قدر (ولو شاء ربك ما فعلوه)

ولقد رأى حضرات القراء أن هذه الزوبعة التي هول في أمرها وأطال بذكرها لم تكن بذات خطر تمد له في تجريحه مداً. ولله الحمد قد آن لنا بعد أن حصحص الحق أن نمسك القلم شاكرين (للرسالة) والقراء، معتذرين - بدورنا - عما عسى أن يكون يدر

به القلم - فالبادئ أظلم. ومن لا يغار على الحق وكرامته يتهم في رجولته. (فأما الزبد فيذهب جفاء،
(وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض
انتهى
حسن إبراهيم حسن
الكتب
مفتاح كنوز السنة
من عمل الأستاذ ا. ي. فنسنك
ترجمة الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي
بقلم الأستاذ محمد حامد الفقي
مطبعة مصر: ثمنه ستون قرشاً مصرياً
كان الباحث الذي تتوجه نفسه إلى معرفة علم الحديث والاشتغال به يجد نفسه أمام كنوز ملأى بالجواهر النفيسة، فإذا ما حاول فتح مغلقها أخذه من العناء والمشقة الشيء الكثير المضني، لأنها جمعت على طرق من التأليف كانت آخر ما وصل إليه تفكير المتقدمين حين لم تكن مطابع، ولم تخرج العقول هذه الفنون المدهشة من الفهارس، والمفاتيح التي وصل إليها عقل العلماء اليوم بكثرة المران
كان يجد أمامه هذه الصعاب، فيضرع إلى الله تعالى أن ييسر بفهرس يكون مفتاحاً لهذه الكنوز، يهون عليه الوصول إلى بغيته؛ ولقد طال أمد هذه الضراعة حتى خرج علينا الأخ الفاضل محمد فؤاد عبد الباقي بهذا المفتاح المبارك الذي ما ترك كنزاً مغلقاً إلا فتحه على مصراعيه، ونثر دره بين يدي الطالب يأخذ منها حاجته التي يبتغيها فالكاتب، والخطيب، والمدرس، والفقيه، والمحدث، وكل من تعوزه صنعته، أو تقواه وعبادته، إلى شيء من هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، يفزع إلى هذا المفتاح فيضع في يده بسخاء كل ما يبتغي ويريد. وقد قدم له الإمام الكبير محدث عصره السيد رشيد رحمه الله، والمحدث الفاضل الشيخ احمد شاكر بمقدمتين، نقتطف منهما جملاً تنبئ القارئ الكريم عن عظيم الحاجة إلى هذا المفتاح إذ قال السيد رشيد رحمة الله عليه ورضوانه:
(ولو وجد بين يدي مثل هذا المفتاح لسائر كتب الحديث لوفر عليّ أكثر من نصف عمري الذي أنفقته في المراجعة. ولكنه لم يكن ليغنيني عن هذا الكتاب (مفتاح كنوز السنة) فإن ذاك إنما يهديك إلى مواضع الأحاديث القولية التي تعرف أوائلها، وهذا يهديك إلى جميع
السنن القولية والعملية، وما في معناهما، كالشمائل والتقريرات والمنقب والمغازي وغيرها، فلو كان بيدي هو أو مثله في أول عهدي بالاشتغال بكتب السنة لوفر عليّ ثلاثة أرباع عمري الذي صرفته فيها)
وقال الأستاذ الشيخ احمد شاكر (وقد عني الصديق فؤاد أفندي بالدقة في الترجمة أتم عناية، فإنه لم يترجم معنى من المعاني حتى رجع إلى الأحاديث في مصادرها التي أشار إليها المؤلف وعبر عنها بالعبارة الصحيحة التي تدل عليها الأحاديث. ولذلك مكث في ترجمته أربع سنين ثم لم يضن على طبعه بالمال، فاختار أرقى المطابع في القاهرة وانتقى له أجود أنواع الورق، فأبرز الكتاب كاملاً. . .)
هذا الكتاب جعله مؤلفه فهرساً لثلاثة عشر كتاباً من أمهات كتب الحديث. وهي:) مسند الإمام احمد بن حنبل. صحيح البخاري. صحيح مسلم. سنن الدارمي. سنن أبي داود. سنن الترمذي. سنن النسائي. سنن ابن ماجه. وهذه الثمانية هي أصول السنة ومصادرها الصحيحة الموثوق بها. ويندر أن يكون حديث صحيح خارجاً عنها. ثم موطأ الإمام مالك. ومسند أبي داود الطيالسي. . . ثم سيرة ابن هشام. ثم كتاب المغازي للإمام محمد بن عمر الواقدي. . . ثم أعُظم كتاب جمع سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وتراجم الصحابة والتابعين فمن بعدهم وهو كتاب الطبقات الكبير لابن سعد. والكتاب الرابع عشر المسند المنسوب إلى زيد بن علي بن الحسين. . . وقد رتب الأستاذ فنسنك كتابه على المعاني والمسائل العلمية، والأعلام التاريخية، وقسم كل معنى أو ترجمة إلى الموضوعات التفصيلية المتعلقة بذلك، ثم رتب عناوين الكتاب على حروف المعجم، واجتهد في جمع ما يتعلق بكل مسألة من الأحاديث والآثار

الواردة في هذه الكتب. . . . . ولعل نشر هذا الكتاب بلغتنا العربية الشريفة يكون سبباً في إقبال المتعلمين من جميع الطبقات على الاشتغال بالسنة النبوية، وعلى الاستفادة من كتب الحديث التي هي كنوز العلم والحكمة التي أعرض عنها أكثر الناس، إما جهلاً بفائدتها، أو عجزاً عن المراجعة فيها عند الحاجة)

وقد وضع الأستاذ فؤاد عبد الباقي لهذا المفتاح فهارس أخرى تيسيراً للمنفعة به وبالمعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، صدر منها فهرس البخاري ومسلم والترمذي. ولعلنا نتكلم عنها وعن المعجم المفهرس في فرصة أخرى

محمد حامد الفقي

القصص المدرسية

يصدرها الأساتذة سعيد العريان - أمين دويدار - محمود زهران

المدرسون بالمدارس الأميرية

ماذا يقرأ الطفل في وقت فراغه؟

بل ماذا يقرأ الطفل في مدرسته؟

ولماذا ينقطع أكثر شبابنا الذين أتموا دراستهم، عن المطالعة والدرس فلا يتذوقون لذة القراءة، ولا يلتمسون متاع الروح ورياض العقل بالاطلاع والنظر في الكتب؟

هذه أسئلة تعرض لكل ذي رأي في هذا البلد، فيذهب يلتمس الجواب، ويعرض الرأي، ويناقش الفكرة، فلا يهتدي إلا إلى رأي واحد: هو أن الطفل العربي لا يجد ما يقرأه فيلذه ويفيده في وقت معاً؛ فما بين يديه من الكتب واحد من ثلاثة: كتاب مدرسيّ يراه همّ النهار والليل، وكتاب في مكتبة أبيه يعيا من دونه فكره ويقصر إدراكه، وصحيفة بين هذين أو في مذهب ثالث، ليس من الحكمة أن تصل إليها يده. والطفل بين ذلك كله لا يجد ما يجذبه إلى القراءة أو يحببه إلى الاطلاع فينشأ نشأته كما نرى أكثر شباب هذا الجيل

ومن هنا بدأ تفكير بعض أدباء العربية في تلافي هذا النقص فاتجهوا بعنايتهم إلى محاولة إيجاد (أدب الطفل)، ويعنون بأدب الطفل، ذلك الأدب السهل الذي يلذ الطفل ويشوقه، ويحمله - بالرغبة والميل الطبيعي - على المطالعة وحب الكتب، منبثاً في ثناياه ما يُراد أن يزود به الطفل من علم وفن ومعرفة وبيان، فيتناوله مقبلاً عليه بقلبه وعقله وطبيعته؛ وكانت محاولات مجدية، أضافت إلى العربية فناً جديداً، وأوجدت بينها وبين نفس المتعلم سبباً وثيقاً

على أن هذه (القصص المدرسية) التي نتكلم عنها اليوم - اتجاه جديد في هذا الباب من الأدب؛ فلم يقتصر مؤلفوها على الترجمة من أدب الغرب، أو النقل من كتب الأدب القديم، كما فعل من سبقهم إلى هذا الباب؛ بل تراهم يحاولون أن ينشئوا (أدب الطفل) أصيلاً في العربية، مصوراً من هذا الجو الذي يعيش فيه طفل اليوم؛ وبذلك أوجدوا الصلة بين الطفل

ولغته، وبينه وبين أهله، وبينه وبين الجو الذي يعيش فيه، فلا يعييه بعد إذ أن يتابع القصة بخياله، كأنه بطل فيها، مؤثر في حوادثها؛ وهذا - لعمري - نهج سديد، خليق بأن ينشئ من أطفالنا جيلاً جديداً، له مُثُله العليا على مقداره، وله رأيه فيما يحيط به

وقد استقبلنا هذه القصص لأول ظهورها منذ عام، فرحين آملين، مشفقين على مثل هذا المشروع أن يقف في طريقه ما يقف في سبيل أكثر الجهود النافعة في بلدنا فيحول دونها أن تبلغ التمام. ولكنا اليوم إذ تطالعنا القصة الخامسة من هذه القصص الدورية - نستبشر ويزايلنا الإشفاق على مصير هذا العمل النافع. على أن جهداً كهذا الجهد الذي يبذله مؤلفو القصص المدرسية صامتين - جدير بأن يلقى ما يستحق من عناية الآباء والمعلمين ليدلوا تلاميذهم عليه، ويرشدوهم إلى سبيل الانتفاع به. لينجح المشروع ويؤتي ثمرته في أولادهم وتلاميذهم

وما نحاول أن نصف هذه القصص بأكثر مما وصفها الأستاذ الرافعي في رسالة كتبها إلى المؤلفين بخطه يقول فيها: (إنها رجولة عالية تساق إلى التلميذ في أسلوب التلميذ!)

(م)

العدد 135 - بتاريخ: 03 - 02 - 1936

محمد
لتوفيق الحكيم

وهذا كتاب آخر قد نسقه فن آخر، ليعين رواجح الأحلام على اجتلاء، شخصية سمت ببطولتها عن البيان، واكتناه سيرة جلت بقداستها عن الفهم. وشخصية الرسول الكريم وسيرته أصبحتا اليوم في الشرق والغرب موضوع الدرس المفصل، وموضع التحليل العميق. وأنى للبصر المحدود أن يدرك ما لا يحد؟ وللبصيرة المتناهية أن تبلغ ما لا يتناهى؟!

حاول هيكل تعريف هذا الإشراق الإلهي من طريق العقل فأتخذ الدليل، وحاول طه حسين أن يصوره من طريق القلب فأصطنع الأسطورة، وحاول توفيق الحكيم أن يمثله من طريق الغريزة فأستعمل الحوار، والحوار ولاشك غريزة الحياة وأسلوب المجتمع، تجري به الحوادث، وتنتقل عليه الأحاديث، وتتردد فيه المآرب، وتوشك لغة الخطاب لا تعرف من ضروب الكلام غيره. هو لسان الوجود اليومي، يترجم عن رغائب النفس في غير كلفة، وينقل عن سوانح الذهن من غير إجالة، وينم على مرامي الهوى في نبرات الصوت، ويكشف عن طوايا الصدر في لحن الكلام، ويشف عن أحاسيس الروح في لهجات الحديث، ثم يصطبغ بصبغة الزمان والمكان والموقف والمناسبة؛ فإذا أنت سجلته بالحق أو مثلته بالصدق، فقد صورت الوجود المعدوم أكمل صورة، وجلوت الماضي المبهم أتم جلاء؛ ولكن تسجيل الحوار على عمومه عمل من وراء الإمكان ومن فوق القدرة، فقصارى جهد الإنسان أن يروي معناه بالسند فيكون التاريخ، أو يموهه بالخيال فتكون القصة، أو يزخرفه بالوهم فتكون الأسطورة. أما تمثيله على النمط الذي جرى عليه فهو الفن المبدع الذي يمده الإلهام وتهديه الطبيعة. يجرد الحادث من فضول الرواية ونافلة الحديث فيرده إلى جوهره ويحيله إلى بساطته، ثم يبعث الأشخاص، ويجدد الأمكنة، ويعيد الملابسات، ويحيي البيئة، ويرجع بالقارئ إلى عصره، فيحيا حياته، ويعايش أهله، فيرى بعينه ما يعملون، ويسمع بأذنه ما يقولون، ويدرك بنفسه موانع الحال ودوافع الموقف؛ وذلك ما عمله توفيق الحكيم في كتابه الجديد (محمد): عمد إلى المواقف الخطيرة في حياة الرسول، والمواقع العظيمة في تأريخ الرسالة، فمثلها على الوضع الذي كانت عليه، بالعمل الذي حدث، وبالحوار الذي جرى، وبالروح الذي انتشر، ثم صور البواعث النفسية التي أغفلها المؤرخ، وأظهر الألوان المحلية التي أحاطها الزمن، فاتصلت الأسباب، استبانت العلل، وتحددت الفروق، ووقع الأمر من حك موقع المألوف من غير التواء ولا فلسفة. أقرأ في كتاب توفيق الحكيم موقعة بدر أو حديث الأفك أو وفاة الرسول، ثم أقرأها في كتاب من كتب التاريخ تجد ما قلته لك قد صار أوضح في المثال وأوكد بالموازنة.

لم يرد توفيق الحكيم أن يجعل من سيرة الرسول رواية؛ فإنه لو أراد ذلك لما سلم من لوم رجل الدين، ولا برئ من نقد رجل الفن؛ إنما هي مناظر مجلوة على أسلوب الحوار لا يجمعها قانون الوحدة، ولا يربطها تسلسل الزمن. ولقد ظهر هذا النوع أول ما ظهر في (الرسالة) حين اقترحت على الأستاذ الحكيم أن يكتب على طريقته هجرة الرسول في أول عدد من أعدادها الممتازة؛ فتهيب الأمر بادئ ذي بدء، ثم تخوف المتزمتين أن ينكروا عليه فعله، ثم أقدم فعالج الموضوع في حذر وحيطة، ثم ترقب ما يكون من رأي الناس، فإذا هم يقرءون في لذة ويحكمون في نزاهة، فمضى بعرض جوانب السيرة هذا العرض الواضح في مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة طوى عليها هذا الكتاب. والأرجح أن هذا الأسلوب سيجد مكانة في تأريخ الأدب المعاصر، فإن شاعراً من شعراء مصر نحا نحوه في مقتل حمزة، وكاتباً من كتاب الشام حذا حذوه في موقعة بدر.

هذه كلمة عجلى كتبناها عن طريقة الكتاب على قدر ما أتسع المكان والوقت؛ وفي أكثر المناظر منه مواقف للإعجاب وفي أقلها مواقف للإعجاب وفي أقلها مواقف للمؤاخذة، وسيقف الناقد النزيه منها موقف العاذر أو العاذل على حسب رأيه في الفن وحريته. ولست اليوم بسبيل الكشف عن سر الكتاب وفنه، إنما هي تقدمة وتحية؛ وسنقرأ عنه ثم تقرأ في باب النقد أو في باب الكتب.

وبعد فإن للرسالة أن تغتبط بتفوق الله فيما تجاهد له، فلقد كان لها نصيب منتج في توجيه الأدب العربي الحديث في مصر وفي غير مصر إلى هذه الغاية العليا. كان أدبنا

منذ قليل يتخلق بغير خلقه، ويتزيا بغير زيه؛ يرد المنابع البعيدة ونهره قريب، ويستجدي الأنامل الكزَّة وخيره عمم، حتى جف ما بينه وبين أصله، وانقطعت الأسباب بينه وبين أهله، فأصبح اليوم بفضل هذا التوجيه الحميد موصول الحبل بماضيه، معقود الرجاء بمستقبله،
مطوي الفؤاد على قصده، وما دام على الدرب الأمين القاصد فهو لا بد في القريب أو في البعيد واصل.
أحمد حسن الزيات
كلمة وكليمة - 7
للأستاذ مصطفى صادق الرافعي
ليس في الشرف كأداء الواجب بشرف
الوعد السياسي جريء في الكذب، جريء في الاعتذار، حتى أنه ليعد بإحضار القمر حين يستغني عنه الليل في آخر الشهر. . . فإذا لم يجيئوا به قالوا: سيتركه الليل في الشهر القادم. .
الزمن ضعيف في نصرة الضعيف؛ فإذا قالت دولة أوربية لدولة شرقية: سأدعك في سنة (كذا)، فمعناها في سنة (دائماً) التي لا أعرفها لا أنا ولا أنت ولا الزمن. . .
كما تضرب السياسة بقنابل حشوها البارود والرصاص؛ تضرب بقنابل حشوها المطامع والمناصب. . . .
لا يجيء الاتحاد القوي من وحدة الأحزاب المختلفة، ولكن من وحدة الحالة الواحدة في الأحزاب المختلفة.
للسياسة أحياناً أسلوب كأسلوب المرأة ذات العشاق، إذا وافق بعضهم بعضاً على النكاية بها، فرقت بين حظوظهم منها، فما أسرع ما يختلفون.
قال ذئب سياسي لخروف سياسي: أريد الاتفاق معك (حالاً). فقال الخروف: ويلك! إذا كنت أنت ذئباً للحمى، فهل تكون (حالاً) هذه إلا ذئباً آخر لعمري؟
لم يضيع الشرقيين ضعف القوة أكثر مما ضيعهم ضعف البصيرة.
تالله ما أذل الشرق إلا هذا التصوف، وتالله ما يعز الشرق إلا هذا التصوف بعينه، إذا أنتقل عن رجاله إلى رجال المال والحكم والسياسة.
كنت مرة في ضيافة رجل من أهل القرى مع أحد علماء الفقه، وذهبنا مع القروي إلى أرضه وفيها نخلة متهافتة ليس أهون منها على صاحبها. فقال له الفقيه: أحب أن تهب لي هذه النخلة في مغرسها بحدودها الأربعة. قال قد وهبتها لك. قال الفقيه بحدودها الأربعة؟ قال الرجل الطيب: نعم.
فقال له الفقيه: الآن وهبت لي أرضك كلها وخرجت منها شرعاً. . . فهذا فضاء ولا حدود للنخلة إلا آخر ما تملك منه في الجهات الأربع. هكذا يملك دهاةُ الفقه السياسي البلاد
. . . العريضة إذا ملكوا ولو نخلة فيها، غير أنهم يسمون حدود النخلة (تحفظات) النخلة
يكاد يقال اليوم إذا عدت العناصر الأرضية: أنها النار والماء والهواء والتراب والأسطول الإنجليزي. . .
كل ما استعنت به على الحبيب الملول، أعان الملل في نفسه
لا تعاتب حبيبك الذي مل، فإذا مرض الحب مات العتاب
. . . أكثر صبر العشاق من قلة الحيلة
كذب الحبيب كذب مر، لأنه خرج من الفم الحلو
جمال التواضع في الصديق أن يستمر دائماً في شكل تواضع، وجمال الخضوع في الحبيب ألا يستمر دائماً في شكل خضوع.
تنظر المرأة بقلبها إلى أشياء لا تراها بعينها
أحترس في العداوة مما تبدأ به العدوة؛ وأحترس في الحب مما ينتهي به الحب
لا تنسى الإساءة امرأة لأنها قليلاً ما تذكر الحسنة
كيف تتحرر المرأة إذا كان حكم الطبيعة أن أفضل ما تحرر به نفسها أن تجد من تقيد به نفسها؟
يا ويل المرأة من قلبها حين يكون محروماً! يا ويل المرأة من قلبها حين يكون فيها كالمنفي في غربة!

أبت الدنيا أن تفسر كل عجيبة إلا بما هو أعجب منها. وهذه هي العجيبة
لو كانت اللذة في اللذة نفسها لما شقي أحد، لتيسرت لكل الناس كما تيسرت لكل البهائم؛ ولكن أكثر اللذات لا يلذ إلا في التركيب الوهمي الذي أكثره في الخيال وأقله في الواقع.
ما دامت أخلاق البهائم في الناس، فصلاح الإنسانية سيبقى دائماً في هذه المعاني الثلاثة: الراعي، والحبل، والعصا. . .
من لؤم الكذب وشره أنك لو صدقت بكلمتين وكذبت بثالثة، كنت كأنك صدقت باثنتين وكذبت بثلاث.
كيف تصلح الدنيا وفي كل أرض يعمل على عكس قوانينها - قانون الجو وقانون الأرض؟
شقاء العبقري من نفسه؛ فإن ظل يعمل تعبت به، وأن ترك العمل تعب بها.
أين الحقيقة الكاملة من العقل الإنساني ونحن نرى كل عقل لا يعطي منها إلا قدر ما يسع منها؟
أسكت عن السفيه فإن ذلك إلا يجعله كريماً مثلك لا يجعلك لئيماً مثله.
قيل لمغرور متكبر يُخَنخِرُ في خياشيمه إذا تكلم: لماذا تتكلم من أنفك؟ قال. لأني لا أجد في العالم من أكلمه بملء فمي. . . . . .
لو رد العالم على هذا المغرور لقال له: كل الحمير تنهق بملء أفواهها إلا أنت. . . . .
إذا صغرت النفس من لؤم صاحبها، كبرت بلسان صاحبها.
الصورة الثانية للرجل المضحك جداً، هي أن يظهر نفسه عظيماً جداً.
(طنطا)
مصطفى صادق الرافعي
السياحة في مصر
ومتى تغدو موردا قوميا؟
بقلم سائح
مصر بلد الآثار الباقية والذكريات الخالدة؛ آثارها وذكرياتها ترجع إلى أقدم عصور الخليقة، وتراثها الأثري والفني منوع في عظمته، ممتد على كر العصور والمدنيات؛ ومنذ عصر الفراعنة، حيث يغيض التاريخ في ظلمات المجهول، ومنذ الحضارة المصرية اليونانية، والحضارة المصرية الرومانية، إلى الحضارة المصرية الإسلامية، تتكدس الآثار والذكريات الخالدة في أرض مصر صنوفاً متعاقباً، حتى غدا تراث مصر الأثري والفني في روعته وفي عراقته وتباين أعصره وصنوفه، أغنى وأثمن ما عرف من بقايا الحضارات الذاهبة القديمة والوسطى.
وقد كان حرياً ببلد كمصر يتمتع بمثل هذا التراث الثري الباهر إلى جانب ما يتمتع به أثناء الشتاء من طبيعة ساحرة وشمس وضاءة ودفء لذيذ، أن يغدو كعبة حقيقية للسياحة والسياح من سائر أنحاء الأرض، وأن يجعل من السياحة مورداً قومياً لا بأس به، وأن يستغل هذا المورد بوسائل وأساليب جذابة مجدية، وان يسيطر على مرافقه ونواحيه بطرق عملية شاملة، وألا يدخر وسعاً في الحرص عليه كمورد قومي ثابت، أو في السعي بتنميته بجميع الوسائل والنظم.
ولقد غدت السياحة في كثير من البلاد مورداً قومياً للكسب، وأضحت وسائل استغلاله وتنميته في بلاد كثيرة لا تتمتع بمثل تراثنا الأثري، ولا مثل جونا الساحر، صناعة حقيقية؛ لكن مصر ما زالت في المؤخرة من حيث دراسة هذه الصناعة المحدثة وفهمها والانتفاع بوسائلها. نعم أن في مصر موسماً للسياحة، وما زالت مقصد ألوف من السياح من مختلف البلاد في كل شتاء ولكن هذا الموسم لا يقوم على أسس ثابتة، بل يترك أمره للظروف والمصادفات الخارجية، وتكاد مصر تقف منه موقفاً سلبياً محضاً؛ فإذا كان الموسم حسناً مزدهراً، فأن ذلك يرجع عادة إلى ظروف خارجية لا دخل لمصر فيها، وإذا كان الموسم سيئاً مجدباً، كما هو الشأن منذ أعوام، فأن مصر لا تبذل من جانبها أية جهود عملية مجدية لاجتذاب السياح، والعمل على مقاومة العوامل والأسباب التي يمكن أن يرجع إليها مثل هذا الكساد.
على أن موسم السياحة المصري ليس في الواقع مصرياً إلا بالاسم، ومن الظلم أن

يحسب على مصر بصورته الحالية، فليست مصر أو الهيئات المصرية هي التي تجني ثماره، وتستغل موارده بقدر ما يجنيها ويستثمرها الأجانب والهيئات الأجنبية؛ ذلك أن كل ما تجنيه مصر من هذا الموسم يكاد ينحصر في أجور السكك الحديدية ورسوم المتاحف والآثار وأجور التراجمة وأثمان بعض السلع والمنتوجات القليلة التي تعرض للبيع أثناء الموسم، وهذا كله قليل بالنسبة إلى ما تجنيه الوكالات والفنادق والمتاجر الأجنبية من الأرباح الطائلة؛ وهكذا يستغل موسم السياحة المصري باسم مصر، ومصر تقنع منه بالفتات الضئيل.

وهذه حقيقة مؤلمة؛ بيد أن أشد ما يؤلم فيها هو أن هذا الغبن الفادح الذي يلحق مصر في مورد من مواردها المشروعة ترجع التبعة فيه إلى مصر ذاتها، والى ما تبديه هيئاتنا الرسمية وغير الرسمية من قصور وتقصير في تنظيم الدعاية لمصر في الخارج، وفي تنظيم شؤون السياحة الداخلية بوسائل مجدية وطرق جذابة وفي توفير أسباب اليسر والراحة للسائحين؛ ومن الحقائق المعروفة في أوساط السياحة الخارجية أن نفقات السياحة في مصر تصل إلى حدود مرهقة، ولا يكاد يتحملها سوى كبار الأغنياء والموسرين، وأن السياح المتوسطي الحال يقاسون فيها من فداحة الأجور وعدم توفر أسباب الراحة؛ وهذه الحقيقة وحدها تبعد عن مصر عشرات الألوف من السياح الذين تسرهم زيارتها لو توفرت فيها أسباب الإقامة المعتدلة، كما هو الشأن في معظم مراكز السياحة في أنحاء العالم.

ولنبدأ بمسألة الدعاية، فنقول أن مصر ما زالت متأخرة في هذا الميدان بصورة يرثى لها؛ وما تنفقه مصر في هذا السبيل من الألوف العديدة يذهب هباء؛ إذ يغدق معظمه على بعض الصحف الأجنبية التي لا تفيد في الدعاية الحقيقية؛ والدعوى المنظمة هي روح السياحة الحديثة، ومصر مشهورة في الخارج بتراثها الفني ومزاياها الإقليمية، وميدان الدعوى إلى زيارتها خصب ممهد؛ على أن مما يؤسف له أن مصر لم تقم حتى اليوم بتنظيم هذه الدعاية بطرق عملية ناجعة، فليس لنا في الخارج مكاتب ولا وكالات مصرية للسياحة، وقنصلياتنا لا تبذل أي جهد في هذا السبيل؛ على حين أن جميع الأمم التي بها مراكز للسياحة تنظم دعايتها في جميع أنحاء العالم تنظيماً عملياً واسع النطاق، فتنشئ لها مكاتب للسياحة في الداخل والخارج، وتذيع عن آثارها ومزايا السياحة فيها كتباً ونشرات بديعة جذابة توزعها بالألوف من مكاتبها وقنصلياتها، ولا تدخر في ذلك مالاً ولا جهداً.

ولكن مصر تقنع في هذا الميدان بنشرات قليلة تذيعها في بعض الصحف الأجنبية، وبعض لوحات تعلقها في عربات السكك الحديدية؛ هذا إلى أنه هناك دعايات مغرضة تنظم ضد مصر من منافسيها في ميدان السياحة، ومصر لا تبذل أي جهد لدحض هذه الدعاية السيئة.

ولقد أنشئ بمصر أخيراً مكتب رسمي للسياحة، وبدأ أعماله في ظروف سيئة عاقته عن القيام بالمجهود الذي تقتضيه هذه الحالة؛ وأنّا نؤيد الفكرة في ذاتها، ونرجو أن تتاح الفرص الملائمة ليقوم هذا المكتب الجديد بمهمته في بث الدعاية لمصر وفي العمل على اجتذاب السياح إليها. بيد أن مهمة المكتب لا تقف عند هذه المهمة؛ وفي رأينا أن مهمة المكتب الحقيقية هي وجوب العمل على تمصير موسم السياحة وجعله جهد الاستطاعة مورداً قومياً يتاح للهيئات المصرية ولأبناء البلاد قبل غيرهم إجتناء فوائده وثماره؛ وهذا يتطلب من مكتب السياحة أن يعمل في دائرة واسعة متعددة النواحي.

وإذا كانت السياحة قد أضحت كما قدمنا في بلاد السياحة صناعة وفناً، فأنه يجب علينا في مصر أن نفهمها بهذا المعنى؛ وعلينا إذا شئنا أن نجتني مغانم هذا الموسم أن نعنى بإنشاء الفنادق الفخمة والمتوسطة، وإنشاء المطاعم والأبهاء الأنيقة، وتنظيم السياحة الداخلية، وترقية طائفة التراجمة والمرشدين، وتخفيض أجور السكك الحديدية ورسوم الآثار والمتاحف.

وإذا أريد حقاً أن يكون موسم السياحة في مصر مورداً قومياً، فعلى هيئاتنا الرسمية وغير الرسمية أن تبادر قبل كل شيء إلى العناية بصناعة الفنادق، فهي عماد الموسم في جميع مراكز السياحة؛ ولا ندري لماذا لا يفكر الممولون المصريون في النزول إلى هذا الميدان الذي ما زال يستأثر به الأجانب في جميع عواصم القطر؟

ولماذا لا يتجه الشباب المصري إلى المساهمة في هذه الصناعة وهي لا تحتاج إلى مجهودات فنية صعبة؟ ولا ريب أن عدم توفر الفنادق الأنيقة المعتدلة الأجور من أهم عوامل الضعف في موسم السياحة المصري، لأن للفنادق الأجنبية الفخمة التي تستأثر الآن
باستقبال السياح ترهقهم بفداحة أجورها ونفقاتها؛ وإذا تذكرنا الأرباح الطائلة التي توزعها شركة الفنادق المعروفة على حاملي أسهمها كل عام استطعنا أن نقدر إلى أي حد يرهق السياح النازلون في فنادقها؛ وهو إرهاق يترك أثراً سيئاً في نفوس ضيوفنا الأجانب حتى الأغنياء منهم.
ولا يسد هذا النقص سوى إنشاء فنادق مصرية أنيقة معتدلة الأجور؛ وهي صناعة رابحة يجب ألا يتوانى المصريون عن النزول إلى ميدانها. ولا ريب أن بنك مصر هو أقدر الهيئات المصرية الاقتصادية على فتح هذا الباب خصوصاً وهو يضم بعض الشركات والمرافق التي يتصل عملها بشؤون السياحة كشركة الملاحة وشركة الطيران ومكتب مصر للسياحة؛ وغزو هذه الصناعة التي يستأثر بها الأجانب ويجانبها المصريون بغير حق، يحقق لمصر غايتين: الأولى تمصير صناعة الفنادق واجتناء أرباحها، والثانية تيسير أسباب الإقامة للضيوف الأجانب وتشجيعهم بذلك على زيارة القطر المصري.
ونعتقد أن مكتب السياحة المصري مجالاً للعمل في هذا الباب من الناحية الحكومية؛ ذلك أن الحكومة المصرية لا يفوتها ما يترتب على إحياء صناعة الفنادق الأنيقة المعتدلة من توفير أسباب الراحة للسياح وتشجيعهم لا على زيارة القطر فقط، بل على إطالة مكثهم به أيضاً؛ ولا بأس من أن تتولى الحكومة نفسها أو إدارة السكة الحديدية، وهي من أوثق الإدارات الحكومية اتصالاً بشؤون السياحة، القيام بأول خطوة في هذا السبيل، وإنشاء فندق أو أكثر من طراز نموذجي يجمع بين الفخامة واعتدال الأجور.
بقيت مسألة نرجو أن يعنى بها مكتب السياحة عناية خاصة، وهي مسألة التأشيرات التي تمنحها القنصليات المصرية في الخارج لراغبي زيارة القطر. ومن المعروف أن نظام التأشيرات الحالي يكاد يقضي على كل اختصاص حقيقي لقناصلنا في هذا الشأن، ويجعل الاختصاص الحقيقي في منح التأشيرات ورفضها لقلم الجوازات التابع لإدارة الأمن العام (ورئيسه إنكليزي). وفي معظم الأحوال يضطر القناصل المصريون إلى مراجعة إدارة الأمن العام قبل المنح أو الرفض، وتستغرق هذه المخاطبات وقتاً ليس بالقصير، وإذا كانت تلغرافية فأنها تجري على حساب الطالب. وبذلك تمضي أسابيع وربما مضت أشهر قبل أن يبت في طلب الطالب، ولا تستطيع القنصليات أن تمنح تأشيرة دخول القطر من تلقاء
نفسها إلا للكبراء والأشخاص المعروفين. فهذا النظام المعقد يزهد الكثيرين في زيارة مصر. ولا ريب أنه يحق للسلطات المصرية في الداخل أو الخارج أن تعمل لمنع العناصر الأجنبية السيئة وغير المرغوب فيها من دخول القطر، ولكن الحرص على هذه الغاية يجب ألا يكون عقبة في سبيل العناصر الشعبية الطيبة التي ترغب في الزيارة البريئة. وأملنا أن يوفق ولاة الأمر إلى وضع نظام جديد للتأشيرات يسهل مهمة القناصل المصريين وبذلك العقبات الحالية.
هذه خواطر وملاحظات في شؤون السياحة أملت بها أزمة الموسم الحالي، وما نقرأ من آن لآخر عن الدعايات المغرضة التي تذاع ضد مصر وأحوالها في الخارج تنفيراً للسياح من زيارتها؛ فإذا أرادت مصر أن يكون لها موسم للسياحة يتناسب مع مكانتها الأثرية والإقليمية، وإذا أرادت أن تجتني كسبه وثماره، فعليها أن تعنى قبل كل شيء بجعله موسماً قومياً يكون لمصر وللمصريين في استغلاله أوفر نصيب.
(سائح)

رفعة المرأة

للأستاذ محمد بك كرد علي

بقية ما نشر في العدد الماضي

وعاد المؤلف فعقد فصلاً في الأعمال التي تبرز فيها المرأة على الرجل، وهي الإحسان وتعهد المرضى وتربية اليتامى إلى غير ذلك من أنواع البر. ومما نقله لمديرة عصبة الخير أن الناس يتوخون أن يعرفوا ما نشكو منه من الأوجاع، وما تشكو منه كل الأمم،

ومنشؤه إفلاس تربية القلوب، فقد وسع القائمون بالتربية درجات الذكاء بالتأديب الذي أدبوا الناس به، وشددوا في تلقين التربية الجسمية، وظنوا في ذلك الكفاية وهو دون حدها. فقد رأينا في العهد الأخير أن خمسمائة مليون طن من الحنطة جعلت وقوداً، أو ألقيت إلى البهائم تقضمها، على حين نجد ملايين من البشر في الصين يموتون جوعاً. وألقوا في البرازيل 49500 كيس من البن في البحر، ثم 60000 ألفاً جعلوها سماداً للأرض. وأبادوا في ألمانيا مقادير من السكر. ودفنوا في أوستراليا مليون خروف في الأرض لئلا يستفاد منها؛ وفي كل مكان يطرحون الأثمار والبقول والأسماك التي لم تنفق، أو التي زادت على الحاجة، ولا يفكرون في أن بيوتاً كثيرة تشكو العوز وتصاب بالمخمصة. ويزيد هذا الانحطاط في الأخلاق كل يوم، وتزيد معه ويا للأسف هذه الأنانية كغيرها من النقائض التي تئن منها الإنسانية، وتردها إلى أرذل أطوارها. فالشعور بالإحسان والإخاء سواء في الحكومات أو في الشعوب لم يستثمر ولم يرب. وعصبة الإحسان تعاون على تربية عقلية الأطفال في المدارس التي تربي على حب الفضائل. وتعلم الإحسان ضروري في الحياة الاجتماعية كتعلم الصناعات والأعمال

وأفاض في وصف عقليات الأمم التي تخالف العقلية الفرنسية؛ فمما قال في وصف عقلية الأمريكان في الولايات المتحدة إنها مخالفة كل المخالفة لعقلية الفرنسيس في مسائل الزواج، فالزواج عند الفرنسيس بالنسبة إلى العزب نوع حديث من الحياة يتحتم أن يكون ثابتاً يسبقه على الأكثر شعور صادق عميق، اللهم إلا عند بعض شبابنا في السنين الأخيرة. واغلب الأمريكيين والأمريكيات (ما خلا الفلاحين والعملة في المدن وجمهور الفقراء) يعتبرون الزواج فقط حادثاً يبقى ما تيسر له البقاء، ويمكن حله لأسباب تافهة، أو لأنه فقد

فيه الرضا، كأن الزواج عندهم بحسب ما عرف شامنور الحب تعريفاً فيه سخرية بقوله أنه (تبادل هويتين واحتكاك بشرتين). وليس من النادر في الولايات المتحدة أن امرأة رجلاً كانا بالأمس لا يعرف أحدهما الآخر أن يتلاقيا ذات صباح ويتأهلا في نفس ظهر ذاك اليوم بمعرفة القس الذي يجمع وظيفة ضابط الأحوال الشخصية إلى وظيفته.

ووضع فصلاً عنون له (كلمات للتأمل) جاء فيه أن مدام ماكدلين شوميون قالت في جملة مقالات لها في جريدة النهار الباريزية: إن الفتاة عندما تبدأ في فهم الحياة تتمثل أن تدخل في ميدانها وحيدة بدون معين ولا استنصاح أحد. فيقال إنها تريد أن تعيش مستقلة وأنها تتجافى عن قبول آراء غيرها وتوبيخ أهلها، وأنها تود أن تعمل لتربح مالاً وتنفق على هواها، وأن تبدو للناس، وتسيح إذا اقتضت الحال، وهذا غاية أمانيها. وهذا الجمهور الذي لا يحصى من الفتيات والنساء ممن يخرجن عن أطوارهن هو الذي يدعونا إلى اللهفة والأسف. ولقد رأينا محاميات انقلبن خادمات في البيوت، ولدينا براهين كثيرة على انه خير للمرء أن يحسن صناعة من أن يحمل شهادات حسنة. ولقد نال كثير من النساء لقب دكتورات في الحقوق فاصبحن كاتبات بسيطات على الآلة الكاتبة. يتعلمن علماً كثيراً ولا يعرفن احتياجهن على كسب قوتهن. وذكر المؤلف ما تحمله السينما من مفاسد، ولا سيما للفتيات والصبيان، وقبح الأبوين اللذين يستصحبان أولادهما لمشاهدة هذه المناظر التي لا تعلم في الأكثر إلا المقابح والمفاسد.

وروى ما قاله أميل بيكارد العالم الطبيعي الرياضي أن مستوى الأخلاق في الجنس البشري يسفل بمقياس واسع، ولعلهم يقولون إن ذلك نشأ من الحرب العظمى؛ والحقيقة أن هذه الحرب لم تعمل غير تعجيل هذا الفساد كما عجلت في مسائل أخرى. وانتهى الحال ببعضهم أن ادعوا أن ذلك نشأ من العلم، وهذه الدعوى تصدق بعض الشيء، ذلك لأن الآلة قد أحدثت جنوناً في الإنتاج الصناعي، فأن السرعة التي تمت في المسائل الفنية لم تسمح للزمن أن يعمل عمله. والزمن يهزأ بشيء يعمل دون تدخله، بل ينتقم من صاحبه. ولم تكتف الآلة بإغراق العالم في الرفاهية بل قامت مقام الإنسان المنتج القوي، وأبطلت في الإنسان اعتياد العمل الشاق العميق الطويل، فأصبح سطحياً واستغرقته السهولة، وما نمت فيه القدرة المادية بل قل فيه العنصر الأخلاقي، والجسم إذا أتسع توقع أن يكون له ملحق

من الروح كما قال برجسون. وقد احتقرت الوطنية والتجارب وفقدت الحرمة الناتجة من الصبر والسن واختلاط العبقرية المريضة بالعبقرية السليمة وهي وليدة القوة ونقل أقوالاً لعظماء من علماء العصر الحاضر تأييداً لقضيته؛ ومنها أن نصف علم

يحرزه المرء يتولد منه من الأوهام ما يكون أضر على صاحبه من الجهل، لأن صاحبه يكلب على العمل فلا يأتي بكبير أمر، وتزداد عاقبته الشؤمى بالضرورة لامتزاجها بالمصالح الشخصية والشهوات والأهواء الرائجة في سوء الجدال الاجتماعي، وما يتبعه من عبث العابثين بالسياسة المتجرين بها. وحمل على الاشتراكية التي تحارب المثمرين والمتمولين، وتحاول القضاء على الطبقات الاجتماعية، وعلى رؤوس الأموال، وعلى النفرة من الحرب؛ ونقل أن رؤوس الأموال إذا انعدمت تموت الاشتراكية، لأنها لا تجد ما تحاربه فلا يبقى لها ما تقسمه من المال بين الاشتراكيين؛ والاشتراكية تؤدي إلى (البلشفة) البشعة. ومن المتعذر قيام الدعوى الاشتراكية إذا فقد المال، ولا شيء يعمل بلا مال. وما البلشفة إلا وضع حياة البشر في يد عصابة تزعم إنها تمثل الدولة. ومعنى ذلك بسط السلطة العامة على الناس في كل أمر يصدر من مصادر خفية. وقال هذا جنون شرقي ينساب على التدريج في عقل الغرب.

وختم كتابه بفصل في انتشار العهر والأسباب الداعية إليه في الغرب. وقال في الخاتمة إن الفرنسيس ما خلا أربعة أو خمسة آلاف امرأة ومثلهن من الرجال يطمعون في إعطاء حق التصويت للنساء لا يهتمون بتة في منح الحقوق المزعومة للمرأة لإدخالها في الحياة السياسية. ويخشى إذا تمتع النساء بحقوق الرجال أن يقلبن أوضاع الأمة إلى التي لا تريدها، شأن كثير من المتغلبين على الحكم في الأمم يعملون ما تزين لهم أهواؤهم، ويملون إرادتهم على من يتعذر عليهم طاعتهم. وكان على هؤلاء الدعاة أن يبدءوا أولاً بإقناع ملايين من النساء لا يريحه رأيهن في الاشتراك في الحياة السياسية. هذا والأفكار تسير سيرها؛ ولعله يأتي اليوم الذي تستعد فيه المرأة الفرنسية للاشتراك مع الرجل في الحياة العامة حذو القذة بالقذة. ويقضي على القائمين بهذه الدعوى ريثما تتحقق أمنيتهم أن يبدءوا بإصلاح أخلاق المرأة الحاضرة وتهذيبها على أسلوب لا يقبل كل رأي يدلى به إليها، ويحررها على الأقل من سلطان أزيائها وتبرجها، وأن يجهد الحاكمون أن يسيروا هذه الدعوة في المجرى الصالح لخير المرأة والرجل والحب والسلام الاجتماعي، ومستقبل العنصر، والأخذ بأسباب الارتقاء الحق. والمرأة مهما حاولنا وصفها بالرقي الآن لا نخرج عن كونها تطمح في استقرار حياتها وفي الخلوة إلى دارها، وإن ألبسوها اليوم لباساً غير لباسها من النزوع إلى الاستقلال. وقد أخذ كثير من الشبان يحولون اليوم وجهتهم متقززين من النساء المولعات بالألعاب الرياضية والمدخنات والشريبات والراقصات والساهرات أي من طبقة النساء ممن قد يكون فيهن العفيفات وظاهرهن أنهن بنات سرور ومرح، ومن الطبقة التي يقول فيها الإنجليز إنهن لسن نساء ولم يبلغن مبلغ الرجال.

قال: أيتها المرأة إنك مهما فعلت مسوقة بنابل من الكبرياء وبعوامل أكرهتك على خوض غمار أزمة هذه الأيام لتخرجي عن حظيرة جنسك وتقطعي صلتك بعملك الأبدي السامي، لن تكوني إلا محبة وزوجة وأماً. وإذا أنسيت رسالتك فأن الطبيعة ستتولى عاجلاً أو آجلاً تذكيرك أن الأقدار ما خرجت بك إلا لتكوني شريكة الرجل، وأم أولاده، وجزؤه المتمم، ونصفه، وأحياناً الموحية إليه والمنقذة له. أنت أبداً مهد الآلام البشرية وستظلين على ذلك إلى يوم البعث والنشور.

محمد كرد علي

قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكي

وكيل كلية العلوم

بستور والكلب المسعور

وصل الفائت

حقن بستور في دجاج مكروباً قديماُ ضعيفاً لداء كوليرا الدجاج، فمرض الدجاج ولكن لم يمت. وكان ذلك مصادفة. ثم حقن فيه مكروباً جديداً فتاكاً فلم يمت. فتوصل بذلك إلى طريقة لتحصين الدجاج ضد الكوليرا، إلى طريقة اللقاح أو الفكسين المعروفة اليوم.

قلت فيما مضى إن بستور يضمر في نفسه عبادة هذا الشيء العظيم الرائع الخفي

في هذا العالم المجهول، وكثيراً ما ركع وسجد لهذه اللانهائية المستورة. ولكن أحياناً كان يأتيه الأمل فيطلب القمر وينسى رب السماء. وكلما رفعت إحدى تجاربه الجميلة ستاراً عن خفية من خفايا ذلك المجهول الضخم الرائع بأسراره، ظن أن كل الخفايا انكشفت، وأن كل العقد انحلت. هكذا كان حاله ومزاجه في هذه الساعة التي نحن فيها. إنه استطاع حقاً أن يحمي الدجاج حماية تامة من داء مميت بأن أحتال له تلك الحيلة الجميلة فحقن في الدجاج شيئاً من المكروب القتال بعد تأنيسه وإضعاف شرته، ولكنه ما كاد يستيقن من نجاح حيلته حتى قال لنفسه: (وما يدريني؟ فلعل مكروب هذه الكوليرا يحمي الدجاج من كل داء خبيث آخر). وما عتم أن حقن عدداً من الدجاج بمكروب الكوليرا بعد إضعافه، ثم أتبع ذلك بحقنة من المكروب الجمرة الخبيث، واصطبر فلم يمت الدجاج! فهاج وماج وكتب إلى أستاذه القديم دوماس، ولمح له أن مكروب كوليرا الدجاج قد يكون لقاحاً عاماً يحصن من كل الأدواء. وكتب إليه يقول: (فإذا تأكد هذا، جاز لنا أن نأمل من النتائج أخطرها، حتى فيما يتعلق بأدواء الإنسان) ،وفرح دوماس الشيخ بالذي قرأ، فنشر الخطاب في التقارير الرسمية لأكاديمية العلوم وهاهو ذا إلى اليوم ماثل في صفحاتها، يشهد باندفاع بستور وتسرعه، ويكذب من يقول أن بستور لا يقول دائماً إلا حقاً. ولقد بحثت ما استطعت فلم أجد أن بستور أسترد الذي قال، ونفى الأمل الخادع الذي أحيا في الناس. وبستور لم يطل به الزمن بعد ذلك طويلاً حتى عرف خطل هذا الرأي، واستيقن من أن النوع الواحد من البشلات لا يحصن من كل الأمراض على نحو ما كان أدعى، وإنما يحصن من المرض الواحد الذي هو سببه، وحتى هذا قد لا يدفعه أحياناً.

ولكن كان من خصائص بستور المحمودة أنه كان كلما انهدم له أمل، قام على أنقاضه له أمل جديد؛ وإذا احترق له رجاء، انبعث له من رماده رجاء طريف. يحدق به الخيال الوثاب حتى يصل به إلى السحاب، ثم يخونه جناحاه، فيهوى كالقنبلة على الأرض، فتحسب هذا الدوي هو آخر ما تسمع منه، ثم لا تلبث أن تراه قائماً من تلك الأنقاض على رجليه، يجري التجارب البارعة، ويبحث بجد عن كل حقيقة صلبة صماء. لذلك لا تستغرب أن تسمع انه في عام 1881 كان يعمل مع عونيه رو وشمبرلاند ليكشف عن طريقة جميلة لتأنيس مكروب الجمرة وتحضير لقاح منه. فبمجيء هذا العام اشتد البحث وراء الألقحة اشتداداً لم يدع لرو وصاحبه وقتاً لراحة. حتى الآحاد اشتغلاها، وأيام العطلة لم يتعطلاها، والإجازات تجنباها، وناما في المعمل إلى جانب الأنابيب والمجاهر والمكروبات. وهنا، وبإرشاد بستور، أضعافا بشلة داء الجمرة إضعافاً متدرجاً. فمن الضعيف ما قتل الخنازير الغينية وأبقى على الأرانب، ومن الضعف ما قتل الفئران وأبقى على الخنازير الغينية. وحقنا الميكروب الأضعف في الخراف، وأتبعاه بالأقل ضعفاً، فمرضت الخراف ولكنها شفيت، وبعد ذلك صمدت على ما يظهر لمكروب الجمرة القوي الذي يقتل الأبقار.

وما لبث بستور أن أذاع نصره الجديد في أكاديمية العلوم - وكان قد ترك أكاديمية الطب بعد عراكه الذي كان مع الدكتور جيران - وبشر لهم بلقاحات يرجو استحداثها قريباً تمحو كل الأدواء، من النكاف إلى الملريا. وصاح فيهم: (وهل أيسر من لقاح الجمرة هذا! سموم تضعف بالتدريج من شِرتها فتعطى الخراف والأبقار والخيول بعض الداء دون أن تقتلها، ثم تتعافى، فتعفى من الداء أبداً!) وظن بعض زملاء بستور أنه يبالغ في يقينه، ويغلو في ثقته بهذا اللقاح، وتجاسروا على الجهر برأيهم، فانتفخت أوردة بستور في جبهته، ولكنه كظم غضبه هذه المرة واستطاع أن يحبس لسانه حتى خرج هو ورو وسارا في الطريق إلى منزليهما، وعندئذ انفجر بستور على هؤلاء وعلى أمثالهم ممن يعجزون عن الإيمان بالحق المحض الذي احتوته فكرته قال: (أنا لا أعجب إن أنت ذهبت إلى منازل أمثال هؤلاء فوجدتهم يضربون أزواجهن ضرباً)

صدقني، ما كان العلم لدى بستور جمع الحقائق بنفس مطمئنة باردة، فقد أثار فيه نفس الشيء الذي يثير الحيوان الآدمي إلى البكاء عند موت طفله، أو إلى الفرح والغناء عند نعي عم أو خال قد ترك له من بعد موته نصف مليون دولار.

وأخذ أعداء بستور يتبعون أثره ليثأروا منه شر ثأره. ولم يكن أعداؤه من الأطباء فحسب، بل كذلك كان البيطريون وهم رجال لهم مقام في الناس ونفع لهم. أساء

بستور إلى هؤلاء وهؤلاء فتصدى له بيطري فنصب في طريقه فخاً عظيماً وأغراه بالوقوع فيه. وكان أسم هذا البيطار روسنيول قام ذات يوم في الجمعية الزراعية بميلان يغري بستور بإجراء تجربة عامة، يجريها على الملأ في سبيل العدالة العلمية ظاهراً، وفي سبيل القضاء على بستور وأم باطناً. قال للجمعية: (إن بستور يقول إن أسهل شيء في الدنيا صنع لقاح يحصن الشياه والأبقار من داء الجمرة تحصيناً كاملاً. فأن حق هذا القول عاد على زرّاع فرنسا بالنفع العظيم، ووفر عليهم عشرين مليون فرنك يخسرونها كل عام بسبب هذا الداء. إن بستور لو كان يستطيع حقاً إخراج هذا اللقاح العجيب، لما وجد على نفسه غضاضة أن يثبت لنا أنه يستطيعه. فهيا بنا ندعوه إلى تجربة عامة يجريها في الجمهور، فأن أصاب كان لنا الغنم نحن معشر المزارعين، والبيطريين، وان خاب سكت عن هذه الثرثرة الكاذبة ودعاويه الباطلة عن كشوفات هائلة تنجي من كل شيء، من ديدان الأرض إلى حيتان الماء). هكذا تمنطق هذا البيطار الماكر

وسرعان ما جمعت الجمعية مالاً كثيراً لشراء ثمانٍ وأربعين شاة، وعدد من الأبقار، وجَديَين، واختارت البارون دي لاروشت لمكانته وشهرته، فبعثت به إلى بستور ليدخل إليه من عجبه ليوقعه في هذه التجربة وفيها من الخطورة ما فيها.

ولم يشعر بستور أبداً بالذي يراد به، فقال للبارون: (بالطبع أنا راضٍ بالذهاب إلى جمعيتكم

لأريكم أن لقاحي ينقذ الحياة - إن علاج أربع عشرة شاة في معملي لا يفترق عن علاج ستين في ميلان!)

هذا هو الشيء الغريب العظيم في بستور: يريد أن يخرج البيضة من الديك، والأرنب من القبعة، ويدهش العالم، فيقوم بكل هذا في إخلاص عظيم وإيمان بما يصنع كبير، كان عرّاضاً كبيراً بارعاً، وكان يجوز عليه أن ينزل في سبيل ذلك أحياناً إلى ملاعيب بهلوانية يسيرة، ولكنه لم يكن يعمد إلى التدبير والتخطيط لشيء من هذا أبداً. وتعين موعد امتحانه في الملأ، فكان مايو ويونيه من ذلك العام.

وكان رو وشمبرلاند قد تعبا من العمل المتواصل تعباً كبيراً أثر في أعصابهما، فأخذا يريان رؤى مفزعة، فتارة تفلت في النوم إلى الأرض من أيديهما قبابة خطيرة بالذي فيها، وتارة يجدان نفسيهما ينظران إلى حيوانات غريبة نصفها دجاجة ونصفها الآخر خنزير. أو لا يأتيهما النوم فيأخذان في حقن الملايين من الأرانب وهم في الفراش راقدون، فلما ساء حالهم إلى هذا الحد طلبا الراحة في الريف، وما كادا يستقران فيه حتى جاءهما التلغراف الآتي:

أرجعا إلى باريس حالاً. على وشك تجربة عامة أن لقاحنا يحمي الشياه من الجمرة - (ل. بستور)

فرجعا مسرعين. فقال بستور للقوم: (في مزرعة بويي - وفي حضرة الجمعية الزراعية بميلان، سألقح أربعة وعشرين شاة وبضع بقرات وعنزة واحدة. وسأدع بدون لقاح مثلها في العدد عنزة وشياهاً ابقراً، فإذا جاء الوقت الموعود سأقوم وأحقن كل هذه الحيوانات بأخبث زريعة لدينا من بشلة الجمرة، أما الملقحات فستكون في حِمى من الداء، وأما الأخرى فستموت طبعاً في يومين أو ثلاثة.) تحدث بستور كالفلكي يتنبأ بكسوف الشمس.

قال صاحباه: (ولكن يا أستاذنا إنك تعلم أن عملنا هذا كالمشي على الصراط، فنحن لا يمكننا أبداً أن نأمن أمناً تاماً إلى ألقحتنا، فهي قد تقتل الشياه التي نريد أن نحميها. . .)

فزعق بستور فيهما: (إن اللقاح الذي يعمل بنجاح في أربع عشرة شاة في معملنا لا شك ناجح في خمسين شاة في ميلان). فإنه عندئذ لم يرد أن يسمع بالخيبة، أو أن يذكر أن

الطبيعة لها سر لا يفشى وخدعات لا تؤتمن، أو أن الغيب قد يخبئ كثيراً من العثرات ويأتي بكل غريب لا يحتسب. بل لقد تراءى هذا الغيب في عينيه رائقاً كالماء، شفافاً كالهواء، سهل القراءة كما تقول اثنان من اثنين ينتجان أربعة. فلم يكن لرو وشمبرلاند بدٌّ من رفع الأكمام وكشف السواعد والأخذ في تجهيز الألقحة.

وجاء يوم الامتحان الأكبر، فكانت المحاقن جاهزة، والقبابات حاضرة، وكل قبابة عليها

أسمها. وصاح بستور فيهما وقد هموا جميعاً بركوب القطار: (إياكما يا ولدي أن تخلطا بين الألقحة). وكان قلبه مليئاً بالثقة ووجهه يطفح بشراً. ولما بلغوا بويي لو فرت - وصلوا إلى الحقل الموعود حيث الثماني والأربعون شاة وبضع الأبقار والعنزتان؛ تقدم بستور إلى الميدان، فدخله دخول مصارع الثيران، وانحنى وطيئاً للجمهور المحشود، وكان فيه أعضاء من مجلس الشيوخ الجمهورية، وكان فيه علماء وبيطريون وكثير من ذوي الأحساب ومئات المزارعين. فسار بستور بين صفوفهم يعرج قليلاً - عرجة العظم والوجاهة لا عرجة الضعف والاستعطاف - فحيوه تحية صارخة، وتسخر به قليل.

وحضر جماعة من رجال الصحافة، وكان من بينهم رسول جريدة التيمس السيد دي بلاوتز هذا الرجل المعروف الذي أصبح اليوم في التاريخ كأنه شخص خرافي مما يحكى عنه من الأعاجيب.

وسيقت الغنام إلى فرجة من الحقل، وقام رو وشمبرلاند إلى مصابيح الكحول فأشعلاها، وإلى المحاقن الزجاجية فأخرجاها بحذر من لفائفها، وجاءا بلقاح الجمرة الضعيف الأول الذي يقتل الفئران ويبقى على الخنازير الغينية، فحقنا منه خمس قطرات في أفخاذ أربع وعشرين شاة وفي عنزة وفي نصف البقر. ونهضت البهائم وهزت برؤوسها، وأعلمت بثقب في آذانها. ثم قاد بستور جموع الناس إلى إحدى الزرائب، وخطبهم نصف ساعة خطبة فخمة في هذه الألقحة الجديدة، وبشر فيهم بالرحمات التي تحملها الإنسانية المعذبة.

ومر اثنا عشر يوماً، وجاء الناس مرة أخرى إلى الحقل واحتشدوا فيه، فقام أعوان بستور إلى اللقاح الثاني الأقوى الذي يقتل الخنازير الغينية ولا يقتل الأرانب، وحقنوا منه المواشي مرة ثانية، ونهضت بعد الحقن نشيطة كما يجب أن تكون الشياه والماعز والأبقار السليمة الصحيحة، وأقترب الموعد الخطير للحقنة الثالثة، وهي أقوى الثلاثة فتحرج جو

المعمل، وثقل هواؤه، وأشتد العمل على رجاله، فجرى الحديث بينهم اقتضاباً من وراء المصابيح. وصمت بستور صمتاً مخيفاً لم يعهد فيه أبداً، وكان يطلب ما يريد آمراً صارخاً يكاد ينط له صبية المعمل في إنقاذه نطاً. وكان أنضم إلى أعوان بستور عون جديد يسمى توبيه كان أصغرهم سناً، فهذا كان يخرج إلى الحقل ليضع مقياس الحرارة تحت أذيال البهائم يرقب سير الحقنة فيها، ولكن حمداً لله لم يجد بها حمى، وكانت جميعاً قائمة على خير حال، صامدة للقاح الشديد صموداً عجيباً.

وبينما قلق رو وشمبرلاند وشاب رأسهما همَاً وحذراً وانتظاراً، احتفظ بستور بثقته بنفسه. كتب يتحدث برأيه القديم الصريح الجميل عن نفسه قال: (لو تم النجاح الذي أرجوه، فسيكون هذا مثلاً من أروع الأمثلة لتطبيق العلم على الحياة في هذه البلاد، وسيسجله التاريخ كشفاً من اخطر الكشوفات وأكثرها ثمراً).

قال أصدقاؤه همهمة، وهم يهزون الرؤوس ويرفعون الأكتاف: (نابليونيات رائعة أيها العزيز بستور!).

قال بستور: (نابليونيات ولا نكران يا أعزائي الأصدقاء)

(تتبع بنتيجة هذه التجربة في العدد القادم)

أحمد زكي

على هامش حوادث دمشق

أطفال دمشق

بقلم الأستاذ (ع)

لمن هذه الرشاشات منصوبة في الميادين والطرقات؟ لمن هذه المصفحات وهذه الدبابات، تروح وتغدو في الشوارع والساحات؟ لم تحوم في الجو هذه الطيارات؟ لماذا يساق هؤلاء الجنود من كل جنس وكل لون، فمن الشقر الفرنسيين الذين علموا أمم الأرض كيف تكون الثورة على الظالمين، وكيف تنتزع الحرية من بين أنياب الأقوياء المستبدين؛ إلى السمر المغاربة المسلمين، الذين جاءوا راغبين أو راهبين، ليحاربوا إخوانهم المسلمين؛ إلى السود السنغاليين،

من كل أشمط تدنى الموت طلعته ... ينساب في لهوات الليل ثعبانا

زعانف وعباديد برابرة ... لا يعرفون لهذا الكون ديانا

إلى الصفر الهنديين الصينيين؛ إلى هؤلاء (المتطوعة) أنصار الباطل، جزاة الخير بالشر،

الذين أكلوا خبزنا وحاربونا!! أكُل ذلك لأن هذا الشعب الأعزل تحرك؟ أكُل ذلك لأن دمشق غضبت؟
تيهي إذن يا دمشق واعتزي، فما أنت بالضعيفة ولا بالهينة، وقد حشدوا لك مالا يحشدون أكثر منه لقوم هتلر، وشيعة ستالين!
كانت دمشق يوم الجمعة صابرة تتجرع حزنها على (إبراهيم) في صمت رهيب، وسكوت هائل، فلم تحرك ساكناً، وما دمشق بالتي تعرف أنه المكلوم، أو استغاثة العاجز، ولكنها تعرف الصبر الذي لا يصبر عليه الدهر، أو الصرخة التي تصدع الصخر، وتخرج الميت من القبر؛ وما دمشق بالتي تعرف هذا الاحتجاج الضعيف، احتجاج (أوسعته شتماً وأودي بالإبل). . . ولكنها تتلقى الضربات بصدر كأنه الجلمود لا يشقق ولا يرفض ولا يلين.
وباتت دمشق على هذا الصمت، فلم يمض هزيع من الليل حتى سمعت الصريخ، فأفقت فزعة، تسأل: - ما الخبر - قيل: اختطفوا (فخري البارودي) ابن دمشق يختطف من حضن أمه وهي نائمة؟. . . يا للهول الأكبر! يا لهبة دمشق! يا لغضبة البطل الغَشَمْشَم!
أقبل أبناء دمشق بأيديهم، وأقبلت هذه الجيوش بحديدها ونارها، وكانت المعارك. . . التي يصطرع فيها الحق والقوة، والدم والنار، والصدور والحديد، فبينما معركة من هذه المعارك على أشد ما تكون عليه وإذا. . .
وإذا ماذا؟ ليس على وجه الأرض من يستطيع أن يُقدر ماذا كان، إلا هؤلاء الشاميون، وهؤلاء الفرنسيين الذين أكبروا جميعاً هذه البطولة التي لم يروا مثلها التاريخ. . .
وإذا خمسون من الأطفال الذين لا تتجاوز سن أكبرهم التاسعة، ينبعون من بين الناس، يخرجون من بين الأرجل، منهم التلميذ ذو الصدرية السوداء والأزرار اللامعة، قد فر من مدرسته وقمطره لا يزال معلقاً في عنقه، وحمل مسطرته بيده. . . ومنهم صبي اللحام، وأجير الخباز، قد اتحدوا جميعاً، وأقبلوا يهجمون بالمساطر على الدبابة وهي تطلق النار، وهم يطلقون من حناجرهم الرقيقة بأصواتهم الناعمة، التي تشبه الآلة السحرية التي غنى عليها الفارابي، فأضحك وأبكى. . . هذه الأنشودة البلدية المعروفة:
وصغارنا تحمل خناجر ... وكبارنا عالحرب واصل
يا بِالوطن ... يا بِالكفن
فوقف الناس ينظرون إليهم، وقد عراهم ذهول عجيب. فارتخت أيديهم بالحجارة التي كانوا يقاومون بها الرصاص. . . حتى رأوا الأطفال قد تسلقوا الدبابة وركبوها فأشتعل الدم في عروقهم، وفي أقحاف رؤوسهم، فأنشدوا أنشودة الموت:
(. . . . . يا سباع البر حومي.)
وهم يرعدون بها. فتهتز من جهْجَهتها الغوطة، ويرتجف قاسيون. وأقبلوا كالسيل الدفاع. . .
ولكنهم رأوا الدبابة قد كفت عن الضرب، ثم أنفتح برجها، وخرج منها شاب فرنسي يبتسم للأطفال، وإن في عينيه لأثر الدمع من التأثر، ويداعبهم، ويقدم لهم كفاً من الشكولاته، ثم يعود إلى مخبئه!
إنسانية قد توجد حتى في الدبابات!
ورأيت في هؤلاء الصبية تلميذاً في شعبة الأطفال من مدرستنا، وكان صغيراً جداً ما أظنه قد أكمل عامه السابع، فدعوته فأقبل حتى أخذ بيدي، وجعل يرفع رأسه إلي يحاول أن يتثبت من وجهي، فقلت:
- لماذا عملتم هذا العمل يا بابا؟
- فقال: أخذوا فخغي الباغودي (يريد فخري البارودي)
- قلت: ومن قال لك ذلك؟
- قال: أمي. وقالت لي هّلي يموت بالغصاص يغوح عالجنة (يريد: من يموت بالرصاص يذهب إلى الجنة)
- قلت: وإذا أرجعوا فخري البارودي، هل ترضى؟
- قال: لأ. خلي يغوحوا (يروحوا) هدول كمان ما بدناياهم! (يريد فليذهب هؤلاء أيضاً، لا نريدهم)

فسكت. فقال:
- أستاذ، ليش الإسلام ما لهم عسكغ (عسكر)؟
فأصابتني كلمته في القلب، ووجدت كأن شيئاً جاشت به نفسي، ثم صعد إلى رأسي، ثم وجدته في قصبة أنفي، وآماق عيني، ودق قلبي دقاً شديداً، فتجلدت ومسحت عيني، وحككت أنفي، وقلت له:
- أنتم يا بابا عسكر الإسلام.
- قال: نحن صغار!
- قلت: ستكبرون يا بابا، أنتم أحسن منا، نحن لما كنا صغاراً كنا نخاف من البعبع، ونخشى القط الأسود، وأنتم تهجمون على الدبابة، فالمستقبل لكم لا (لهم) . . .!
وبعد، فلمن هذه الرشاشات؟ ولمن هذه المصفحات وهذه الدبابات؟ ولمن هذه الجنود وهذه الطيارات؟ إنها لم تصنع شيئاً، ففتشوا عن شيء أكبر من الموت، لتفزعوا. . . . . .!(أطفال دمشق)

(ع)

علم غير مفيد

للأستاذ قدري حافظ طوقان

في النشرة الأخيرة للجامعة الأمريكية في بيروت مقال افتتاحي عنوانه (علم الفلك - علم غير مفيد) وقد أوحت إلي قراءته أن أكتب هذه العجالة في الفوائد التي جناها الإنسان من علم الفلك. ويلاحظ أن المتعلمين وطلاب المدارس العالية والكليات والجامعات يختلفون في نظرهم إلى هذا الفرع من المعرفة اختلافا بيناً فمنهم من يقول بوجوب تدريسه والاعتناء به، إذ فيه فوائد ومنافع عادت على البشرية بأطيب الثمار، ولولاه لما شعر الإنسان باللذة الروحية شعوره الحالي، ولبقى نظرنا إلى الكون في نطاق محدود، وفي محيط ضيق؛ وفريق آخر يقول بعدم فائدة علم الفلك، وبأن في تدريسه إضاعة للوقت فيما ليس فيه غناء، وأن الأولى لنا أن نهتم بشيء يعود على المدنية بالمتاع والنفع. ولا يقف هذا الفريق عند هذا الحد، بل يتعداه إلى الجهر بأن الاعتناء بعلم الفلك وإنفاق الأموال الطائلة على مراصده وآلاته ضرب من الهوس والسخف؛ ويتساءل هذا الفريق قائلاً: ماذا يستفيد الإنسان من معرفته أن الأرض كوكب من كواكب أخرى تدور حول الشمس، وأن لهذا الكوكب تابعاً - القمر - يدور حولها؟ وهل يزيد في سعادة البشر ورفاهيتهم إذا عرفوا أن لبعض الكواكب توابع كما للأرض؟ وهل في القول أن في السماء نجوماً لا عديد لها بعضها أكبر من الشمس وبعضها أصغر، وأن هناك أنظمة أخرى وسدماً ومجرات وعوالم، هل في كل ذلك ما يعود علينا بالتقدم؟ هذه بعض أسئلة الفريق الذي لا يؤمن بأهمية علم الفلك ومنافعه.

ويسرني ألا أكون من هذا الفريق وأنني أخالفه وأن أكون من الفريق الأول القائل بسمو علم الفلك وأثره الفعال في تطور نظر الإنسان إلى الكون وما يحويه من أعاجيب

وفي رأيي أن علم الفلك من العلوم الواجب تدريس مبادئها لطلاب المدارس العالية والكليات والجامعات وجعله إجبارياً، حتى يخرج الطالب وقد جمع إلى العلوم العملية والفنون النافعة علماً ومعلومات عامة وهي أسمى أنواع المعلومات، توسع أفق التفكير وتنير العقل، وتزيد في الاعتقاد بقدرة الخالق وعظمته المبدعة. وأرجو ألا يساء فهم القصد من تدريس مبادئ علم الفلك لطلاب التعليم العالي، فقد يُظن أني أطلب تدريس الفلك على وجه مفصل حيث المعادلات العويصة والأرقام المخيفة والعمليات المرعبة. . .! أنا لا أطلب هذا، إذ لا يتيسر الوقوف على كل ذلك إلا لمن كان له ميل إلى الرياضيات ورغبة في الطبيعيات وولع في علم السموات. ولكن أقول إن علم الفلك برغم دقة بحوثه وما يحويه من عويص الموضوعات فيه كثير من البسائط سهلة التناول قريبة المأخذ تسهل الإحاطة بها وفهمها بدون تكلف أو صعوبة فنية. وهذه هي التي أدعو إلى إدخالها في مناهج التعليم العالي حتى يخرج الطالب ولديه فكرة عن هذا الفرع السامي مما يعود عليه بأجل الفوائد من الناحية الروحية والمعنوية فيرفعه إلى ما هو أسمى من عالمه وأعلى من محيطه المادي

ولعلم الفلك فوائد عدة جليلة أهمها أنه وسع نظر الإنسان وأفق تفكيره في الكون،

وجعله يدرك بوضوح وجلاء أن الكون وما يحويه من أجرام تسير على أنظمة ثابتة لا تتغير وأن الظواهر الجوية والطبيعية لا تحدث عفواً وأتفاقاً، بل إنها سائرة حسب قوانين ونواميس لا فوضى فيها ولا شذوذ، عرف الإنسان بعضها ولا يزال يجاهد في معرفة البعض الآخر، وأصبح في استطاعة الفلكي أن يتنبأ عن الخسوف والكسوف وغيرها من ظواهر طبيعية قبل حدوثها ووقوعها بعشرات السنين.

لقد كان العلماء في القرون الماضية يعتقدون أن أكثر ما يجري في هذا العالم هو من قبيل المصادفة وأن ليس هناك نظام شامل أو ناموس مسيطر، ولكن بحوث علم الفلك أفسدت هذا الاعتقاد وأقمت الأدلة على بطلانه، فثبت أن كل ما يجري حولنا سائر على أنظمة خاصة وسنن ثابتة، وأن ما يسيطر على أصغر أجزاء المادة يسيطر على أكبرها؛ فالنظام الذي تسير عليه الذرة بألكتروناتها ونواياها هو النظام بعينه الذي يسير بموجبه النظام الشمسي والنظم الأخرى بكواكبها ونجومها وشهبها ونيازكها، وهذه الفائدة هي من أجل الفوائد التي جناها العالم من علم الفلك، فكانت سبباً في تقوية أيمانه بوجود قوة خارقة منظمة مبدعة عن طريق البحث والاستقصاء والتفكير العميق.

وكيف لا يكون علم الفلك علماً مفيداً وقد حذر الإنسان من الانخداع بالظواهر وعدم الاعتماد عليها في كثير من الأحيان وعلمه كيف يعمل العقل والفكر في اكتناه حقيقة هذه الظواهر والوقوف على أسباب حدوثها. ألم يعتقد الإنسان في العصور الأولى والمتوسطة بأن الأرض هي محور هذا الوجود، وأن الشمس وغيرها تدور حولها، وأن كل شيء في

الكون تابع للأرض، فهي مركز دائرة هذا العالم والعنصر الأساسي فيه؟ كان هذا الاعتقاد سائداً يدين به كثير من نوابغ العلماء وفحول رجال الفكر، وبقى الأمر على هذا الحال إلى أن تقدم علم الفلك فرمى بهذه الأوهام عرض الحائط وبَيّن للناس أن الأرض ليست إلا ذرة تدور في فضاء الله الواسع، وأن الشمس وكواكبها وتوابعها ليست إلا جزءاً يسيراً جداً من هذا الكون الذي لا يعلم مداه إلا العليم القدير. لقد بين لنا أن علم الفلك أن الإنسان جرم متوسط بين الكوكب والذرة، وأنه يستطيع بفعل ذلك وبفضل ما وهبه الله من قوى روحية ومعنوية أن يدرك حقيقة الأشياء الصغيرة من جهة والكبيرة من جهة أخرى، واستطاع فوق ذلك أن يعرف الشيء الكثير عن حركات النجوم وطبائعها والعناصر التي تتكون منها، وثبت له أن النجوم ليست إلا معامل كيمياوية وبوادق هائلة ذات حرارة عظيمة جداً من الصعب تصورها؛ وقد يأتي يوم يستطيع فيه الفلكي أن يكشف أسراراً مغلقة عن كيفية تفاعلات عناصرها بعضها مع بعض، وسيجدون في هذه الاكتشافات ما يعود على البشرية بخير عميم. وما يدرينا لعلهم يستطيعون من دراسة النجوم وكشف غوامضها أن يقفوا على سر الحياة وهو ما يصبو إلى الوصول إليه كبار العلماء وعباقرة الفلاسفة ونوابغ المفكرين.

والذي لا أشك فيه أن في إدراك الإنسان لبعض هذه الحقائق وفي وقوفه على النواميس والأنظمة المسيرة لهذا الكون في صغار محتوياته وكبارها لمن العوامل الرئيسية التي جعلته يسيطر على كثير من عناصر الطبيعة وأفعالها، ومن هنا نتجت فوائد مادية عجيبة لم تكن في الحسبان ولا خطرت على قلب إنسان. وزيادة على ذلك استطاع الفلكيون أن يصلوا إلى نتائج باهرة في تاريخ الكون وعمره فثبت لهم أن الإنسان لا يزال عند مبدأ حياة جنسه، وأنه لا يزال عند فجر يقظته العقلية، وأن تاريخه كله إلا طرفة عين إذا قيس بأعمار النجوم، وأنه ليس في استطاعته أن يتفهم كل عجائب الأكوان وغرائب الوجود، ولما يمض على ظهور عقله إلا دقة واحدة من دقات ساعة الفلك، وأنه كلما تقدم في الزمن وقف على مدهشات وعجائب تحير العقل، وتخلب اللب، وتثير الدهش، وتزيد في العبر.

والآن. . . وبعد أن ظهر لك بعض الفوائد التي جنتها البشرية من هذا العلم السامي المبني على أدق القوانين الرياضية والطبيعية، وبعد أن تبين لك أثره بحوثه على عقلية الإنسان، بعد كل ذلك هل من الأنصاف أن يقال إنه علم غير مفيد؟

أو ليس الأنصاف والعدل يقضيان على الإنسان أن يعترف بسموه وسحره الحلال الأخاذ؟

أليس الوقوف على أسراره ومحاولة كشف غوامضه مما يزيد المرء اعتقادا بضآلته

وشعوراً بأن الواجب عليه أن يكون كثير التواضع وفي الذروة العليا من سمو الخلق؟ ثم أليس هذا التواضع وذاك الخلق السامي من العوامل الأساسية في سعادة البشر وطمأنينتهم؟
وأخيراً أليست السعادة والطمأنينة هما الغاية التي يصبو إليها الإنسان على سطح هذه الكرة العجيبة. . . . . .؟؟
(نابلس)
قدري حافظ طوقان
بيوولف
أقدم ملاحم الإنجليز الشعرية
للأستاذ حسن عبد الحليم اليماني
تمهيد تاريخي:
يرجع أصل الإنجليز إلى قبائل الأنجلو سكسون التي كانت تنزل الأراضي المنخفضة الألمانية في الجزء الممتد من مصب نهر الألب إلى شاطئ البلطيق، وذلك قبل أن يدعوهم البريتون سكان الجزر البريطانية الأصليون في عام 449م لطرد قبائل الغال التي وفدت على بلادهم مستعمرة. وحلا لهم بعدها البقاء، وتكاثروا حتى غلبوا أهل البلاد على أمرهم؛ فبرزت إلى الوجود ثلاث ممالك إنجليزية ضمت تلك القبائل المتفرقة؛ وهي ممالك: نورتمبريا، ومريشيا، ووسكس , وذلك في أواخر القرن السادس الميلادي. وكان الإنجليز قد حملوا معهم نصيباً من الأدب المتوارث تواتراً عن موطنهم الأول. ولم تكن لهم حروف صالحة لتدوينه؛ حتى إذا اعتنقوا المسيحية، عرفتهم إلى حروف الرومان الهجائية، فسجلوا به ما وعته حوافظهم من ذلك التراث. وقامت في هذا الصدد محاولات ناجحة، أزدهر بها سوق الأدب ونفق، وخصوصاً على يد أهل نورثمبريا التي قامت على رعاية الأدب وحفظه، فدونوا الملحمة الشعرية (بيوولف) التي سنتكلم عنها كما سجلوا غيرها من آدابهم وتواريخهم. ونمت تلك الحركة إلى أن صدمها الغزو الدنماركي الذي عاود البلاد مرتين؛ ثم شلها بعد الغزو النورماندي عام 1066م، فأوقف نماءها قرابة قرن ونصف قرن. فالذي خلص لنا من تراث ذلك العهد إنما يمثل لنا في صدق صميم الروح الإنجليزية، قبل أن تسمها مياسم جديدة من أثر الاختلاط بين الإنجليز والبريتون ثم بينهم وبين الدانماركيين والنورماند اجتماعياً وسياسياً؛ وقبل أن تطبعهم المسيحية بطابعها. كما أنها ترسم لنا تلك المحاولات الأولى التي قام بها الإنجليز في سبيل تدوين أدبهم والتعبير عنه؛ وتوقفنا على التدرج الطبيعي الذي لازم تلك الجهود من دور إلى دور.
بيوولف
بيوولف ملحمة شعرية طويلة فيما يزيد على ثلاثة آلاف بيت نظمت - على الأرجح - في مستهل القرن الخامس الميلادي، قبل أن يزايل الإنجليز موطنهم الأول إلى بريطانيا. وطابعها المميز لا يقوم على إنها أقدم قصائد الإنجليز عهداً، بل على إنها أصدق صورة للمجتمع الأنجلو سكسوني القديم، توضح لنا في جلاء حياة القوم في وطنهم الأول، وترسم لنا أخلاقهم وعاداتهم، وتنفذ إلى أكواخهم ودخائل معايشهم، وتسجل تاريخهم وأيامهم. فقيمتها لهذا لا ترتكز على الناحية الفنية فحسب. أما عبارتها فأنيقة موجزة، تطرد كل الطراد مع الموضوع الذي تؤرخه وتروي حوادثه الحربية، في سرعة وتسلسل لا يفقدانها توازناً، أو يبعثان إلى سطورها مللاً وسآمة. وهي أن كادت تخلو من التشبيهات التي لا تعدو خمسة، فيها كثير من الاستعارات الجميلة البسيطة. والشعر السكسوني لا يأبه للوزن والقافية، وإنما يعتمد كل الاعتماد على النبرات والمقاطع المشددة، يكاد يلتزمها في كل جزء من أجزاء البيت، فلا يكاد يخلو جزء من ثلاث كلمات مشددة، تتشابه كلها في حرفها الأول غالباً.
وبيوولف قطعة رائعة نادرة من الأدب القديم، ظلت حبيبة إلى قلوب الإنجليز ومشاعرهم خلال عدة قرون، وإن كادت تختفي اليوم وتنسى إلا من كتب الأدب. وكثيراً ما أوحت إلى الشعراء وأمدتهم ببضاعة حية زاخرة، وآخر من نلمس أثرها فيه منهم شاعر اسكتلندا الكبير وليام دنبر (من حوالي سنة 1460 إلى سنة 1513م). وهي إلى هذا لا تخلو من سطوة الخرافة عليها، شأن الملاحم القديمة، تلك الخرافة التي أنتجها الخيال الآري الخصب، والتي تظهر لنا واضحة جلية في آداب الإغريق

والرومان والتيوتون (آباء الأنجلو سكسون)، والتي نراها تتسلسل إلى أساطير الفراعنة أيضاً. وهي في كل حالاتها تحاول أن تمجد الإنسان وترفعه - على صور عدة - إلى مصاف الآلهة وأنصاف الآلهة، وحتى تنتظمه وإياها في وشائج وأنساب متشابكة متداخلة؛ على أن أسطورتنا هذه لا تسمو ببطلها إلى حيث يختصم الآلهة وينتضل الأرباب، بل تقنع بتوجيهه إلى أغوار الجن والمردة، يصارعها وتصارعه، حتى يغلب أشدها مراساً وأقواها أيداً.

ولغة القصيدة لا تكاد تفهم اليوم، فقد نبت واستوحشت. وحوادثها تدور حول البطولة الوثنية وحول حياة قبائل البلطيق فتتخذ لها مسرحاً أرض زيلند وجوتلند وخليج البلطيق الذي يفصلهما.

حكم زيلند - في الماضي السحيق - الملك روثجار وكان أبداً مظفراً في حروبه ظاهراً في غزواته، تضفي عليه تلك اسماً عريضاً، وتدر عليه هذه أسلاباً وغنائم، حتى إذا أتخمه الخير، وفاضت خزائنه غنى، أبتني له ولفرسانه قصراً منيفاً جميل الأبهاء فسيح الأرجاء، موشي الجوانب مستفيض الرونق، يقيمون فيه نهارهم لاهين فرحين، وليلهم قاصفين ثملين - وإلا فمن أولى من الأبطال الميامين بساعات تروح عنهم أكلاف الحرب وأثقال النزال؟

قام القصر على أرباض شاطئ رملي، ينداح حتى ينتهي إلى مجاهل موحشة تتاخم أغوار الماء حيث يقيم المارد جرندل المخيف في رفقة أمه، وكان الفرح والنور أعدى أعداء ذلك المارد؛ جرى في دمه بغض متأصل لهما، ما يكاد ينفذ إلى حواسه منهما دبيب أو بريق، حتى يثور داءه، وحتى يود لو ألتهم هذا القصر الذي ما عرفت حياته غير الفرح والنور، وبعث به إلى فمه لقمة تنساغ بالبرد والراحة إلى جوفه، وبيت أمراً ما زال يتربص له الفرص متلصصاً حول القصر، حتى إذا آنس من أهله غفلة ران بها عليهم كرى ثقيل، وذبلت الأضواء وخرس الصخب، أنساب إلى القصر خفية، ثم كر عنهم وفي قبضته ثلاثون فارساً. حتى إذا تنفس الصبح ألهب القصر شجيً وأقام بأرجائه مناحة!

وتمضي أثني عشر عاماً قاسية مريرة، يفجع فيها المارد قصر هيوروث في كل ليلة، وينفلت سالماً في كل مرة بضحاياه لا تطفأ له حفيظة أو يرد سغب، حتى أوشك القصر أن يقفر من رجاله، وحتى تهاوى الملك روثجار منحدراً إلى الضعف والهرم، يثقله الحزن وتتلقفه الفواجع وترامت الأنباء ومَلك الأسى كل قلب، حزناً على ذلك الملك المجيد، وعلى ما ألم به من مصائب لا تكاد تبين!

وفي قصر هايجلاك ملك جوتلند، حيث يعيش قريبه الفتى بيوولف ترددت أنباء الفجيعة، فدلفت من أسماع الفتى إلى قلبه، وحركت فيه توقاً إلى ملابسة هذا المشهد، والى الاستمتاع بمصارعة ذلك المارد، الذي طغى وطغى حتى لا مزيد على طغيانه. كان فتى خارق القوة، يختزن كفه بأس ثلاثين رجل، يملك على نفسه حب المخاطرة سعياً وراء الاسم ونشوة النصر، وفي خمسة عشر من صفوة رجاله احتواه السفين فجرا، ميمماً مملكة زيلند، حتى طالعتهم صخورها تلتمع في أضواء الغسق الخفيفة في فجر اليوم التالي. وقابلهم حارس الشاطئ في شك، وما عتم أن صحبهم إلى القصر كما طلبوا. وهنالك على الأبواب ألقوا بتروسهم ومزاريقهم، وخفوا إلى لقاء الملك في خوذاتهم الذهبية وقد زادتهم بهاء وروعة (ودب إلى روثجار بمرآهم دبيب الصبا وعاودته أحلام الفتوة) وأفضى إليه بيوولف إنه جاء في طلب المارد، عله يريح الشعب الصديق من شره وأذاه. ورحب الملك بمعونته شاكراً. ودوت أبهاء القصر مرحبة بالضيوف البواسل، ومضى النهار وشطر من الليل في قصف وشراب وغناء ورقص. حتى إذا دنى موعد قدوم المارد تسلل كلاً إلى فراشه وخلا البهو لبيوولف، يلتفع الظلال ويتخفى بها متحفزاً للقاء معداً له عدته.

برز المارد من مكمنه فما هي إلا أن ولج باب القصر، حتى احتواه بهوه، تومض عيناه شرراً، وتنطلق ضحكاته عريضة، وقد وجد سبيله ممهداً؛ فالكل غاف مستغرق. وتناول أقرب النوّام إليه فعب دمه ثم التهمه، ودار إلى فريسة أخرى، وإذا بقبضة بيوولف الجبارة تشل ساعده. أذهلته فجاءة، ولكنه ما لبث أن أفاق إلى صراع عنيف مع بيوولف - وأهتز القصر تحت أقدامهما، وتهاوت السرر، وتحطمت المقاعد، وفزع النوام

على ذلك المشهد المروع. وجاهد المارد طويلاً وأستجمع بطشه، لا ليحطم بيوولف كعهده ببني البشر، وإنما ليقنع بالإفلات تاركاً لقبضته كتفاً مخلوعاً وذراعاً مفصولاً!
وجاء الفجر، فخرج بيوولف برجاله في أثر دمائه المنزوفة، وهنالك على الشاطئ طالعهم الماء أحمر قانياً وقد صبغه الدم المسفوك، فأيقنوا أن المارد قد ودع الحياة إلى القاع قبراً يطويه، فلا نشور له ولا رجعى. فيا للفرح يثير البلاد ويملك عليها المشاعر! ويا بيوولف يخب في الخلع، وتثقله الجوائز!
استطاعت الأجفان أن تطعم النوم في ليلتها تلك، ولكنها نامت عن أم ثكلى، قرح الدمع أجفانها، وتحلبت شفتاها قرماً وعصف بها طلب الثأر. وفي هدأة الليل هاجمت أم المارد القصر، وأهله تستغرقهم أحلام النصر، ومضت عنه ومعها ذراع ابنها وأحد النبلاء انتقاماً للقتيل، وإرواء لهامته! وهب الغافلون فزعاً فإذا بها تمضي إلى وكرها كالريح الخاطف، الأمر الذي أحنق بيوولف فأقسم ليلحقنها بابنها وشيكاً.
خرج بيوولف برجاله صباحاً يقتصون أثرها، ويذرعون تلك المجاهل الموحشة، فإذا بها أرض عذراء تكتنفها الخوانق، وتقطعها الأخاديد، وترقشها برك ومستنقعات آسنة، تعج بحياتها وثعابينها، يتحدر عليها الماء من شعب خفية في الصخور، فكأنه ينضح عن مزن ملئ وسحاب عامر، ثم تغوص هذه البرك مدومة إلى كهوف غائرة، بينما تلتهب هنا وهنالك - على سطح الماء - نيران خاطفة غريبة. (فلو أن قنيصة أنهكها الطراد، وحوم على عنقها الشرك، رأت في أكنافها خلاصاً من موت محقق، لآثرت عليها ذلك الموت، ولوجدت في ورده مشرعاً أعذب من وردها!) وإذا وصلوا في تطوافهم إلى حيث صرع جرندل المارد بالأمس فخضب الماء بدمه، رأوا الصخور تعمر أحجارها بنفر من الجن، وخف بيوولف إلى قوسه فأردى بسهم منها واحداً من هذا النفر - ثم استل سيفه الماضي وغاص بعيدا بعيدا إلى الأعماق في أثر الجن الغائص هرباً. ظل بيوولف على غوصه يوماً كاملاً، حتى إذا قارب القاع أطبقت عليه أم المارد - وكان خلقها وسطاً بين الإنسان والذئب - ثم حملته إلى كهفها، حيث ثار بينهما نضال لم يغن فيه سيفه ولم ينل من لحمها الصفيق العضب، وإنما أجدى عليه كفه الجبار يمسك الجنية فلا تحير منه خلاصاً، وواتته الفرصة فلمح سيفاً حديداً من سيوف المردة، سرعان ما خطفه وأهوى به على رأسها فعزله. وأدار بيوولف بصره فإذا جثة المارد صريع الأمس - لقي لا روح فيها، وبالسيف الذي أودي بالأم فصل به رأس الابن، وسبح بيوولف بالرأسين - مخلفاً وراءه كنوزاً لم يلهه لألاؤها - وما زال يعلو إلى السطح ورأس المارد ينزف دماً، حتى صبغ الماء، وملأ قلوب رفاقه عليه فزعاً، وقد طاف بهم أن دمه هو ذاك الذي خالط الماء ومازجه. وما كان أروع اللقاء وقد برز إليهم سالماً صحيحاً! وحمل الرفاق رأس المارد ورأس أمه وألقوا بهما تحت أقدام الملك، وأستأذنه بيوولف في الرحيل قائلاً: (آن لك أيها الملك أن تهدأ بالاً، وأن يعرف النوم سبيله إلى عيون فرسانك) انقلبت البلاد إلى شعلة من الفرح، وأقلع بيوولف في عصبته إلى جوتلند، تنوء رحالهم بالهدايا، وتسير بذكرهم الركبان.
وأتى حين بعد ذلك سعى فيه عرش جوتلند إلى بيوولف، واعتلى تاجها رأسه، فحكم شعبه خمسين عاما عادلا شجاعا، لا يمل الغزو والجلاد. وكان آخر عهده بهما خروجه لقتال مارد مخيف أقام في كهف من الكهوف يحرس فيه كنزاً نادراً. وفعلت قبضة بيوولف فعلها في المارد فأوردته الردى، إلا أن حر أنفاس الجني أتلفت جسمه، ونفذت إلى دمه فسممته، نتيجة لاشتباكهما في صراع عنيف طويل، واحتواه بعدها فراش السقم حيث غلبه الداء
ومات. وعلى صخرة عالية يستشرقها البحر، وتشرأب إليها المروج الخضراء، أقام أهل جوتلند نصباً من خشب الصنوبر الثمين، علقت عليه الدروع، ورفت عليه السيوف، مثوى لجثمان مليكهم العزيز. وتنفيذاً لوصية بيوولف أضرموا النار تلتهم النصب ووديعته، وتلاشت من أمام أعينهم رويدا رويدا صورة مليكهم الدنيوية، حيث وجدت طريقها إلى السماء على ألسنة اللهب الصاعدة مع الهواء!

حسن عبد الحليم اليماني

مكانة مصر في المغرب العربي

للأستاذ محمد السعيد الزاهري

يشاع اليوم في الجزائر أن الآنسة أم كلثوم قد أزمعت أن تقوم بسياحة في بلاد

المغرب وأن حكومة مراكش قد رفضت أن تسمح لها بدخول المغرب الأقصى. قالوا ولذلك عدلت الآنسة عن زيارة المغربين الآخرين (الجزائر وتونس) وهذه هي المرة الرابعة التي نسمع فيها هذه الإشاعة تتردد في أرجاء المغرب العربي وتكون مشغلة الرأي العام فيه ويهتم لها الناس ويندفعون في شرحها والتعليق عليها بمختلف الآراء والأقوال. فهذا يقول لقد أحسنت السلطات بذلك إلى أهل مراكش ووفرت عليهم أعراضهم وأموالهم بمنع المطربة المصرية من دخول هذه البلاد، إذ لو أن هذه الآنسة زارت مراكش لملكت على أهليها قلوبهم وأهواءهم، ولذهبت بعقولهم وألبابهم، واستولت على أموالهم وعلى ما كسبت أيديهم، ولكانت عليهم في الآخرة نكبة مالية كبرى لا تقل في فداحتها وقسوتها عن هذه الضائقة العاتية التي أهلكت الزرع والضرع وأخذت بمخانق الدنيا كلها؛ ولذلك يقول لقد ضيقت السلطة بذلك على المغاربة حريتهم الشخصية ومنعتهم مما تهوى إليه أفئدتهم وحالت بينهم وبين ما يشتهون؛ وهنالك آخر يقول غير هذا

ومهما أختلف الناس في تفسير هذه الإشاعة وفي تأويلها فأنها تدل على شيء واحد وهو أن هذه الآنسة قد غزت بصوتها الملائكي الطروب قلوب هؤلاء الناس، وأن منزلتها في بلاد المغرب العربي لا تقل عنها في مصر، وأن المغاربة يتذوقون فنها وغناءها كما يتذوقهما المصريون.

قالت مجلة (السلام) الغراء التي كانت تصدر في مدينة تطوان في بعض أعدادها أن المغاربة مولعون بالموسيقى المصرية وبالتلحين المصري إلى حد الهيام، حتى أن العواتق في خدورهن ليهتفن بأم كلثوم ويترنمن بألحانها وأغانيها. ولقد رأينا بعض المراكشيين المشهورين بالتدّين والصلاح قد طرب وانشرح ونسى انه من أهل الورع والتقوى، ولم يزل به الطرب والانشراح حتى خرج عن رزانته ووقاره إلى حالة من العبث والطيش تشبه أن تكون جنوناً وذلك حين سمع في (الفونوغراف) صوتاً للأستاذ محمد عبد الوهاب. ولا تجد في المغرب الأقصى داراً فيها (فونوغراف) إلا وتجد كل أسطواناتها أوجلها

مصرية لأم كلثوم وعبد الوهاب وسامي الشوا ومن إلى هؤلاء. وتباع الأسطوانات المصري هنا بثمن مرتفع قد يفوق ثمنها الأصلي أضعافاً مضاعفة. ولقد مرت علينا أيام رأينا فيها أسطوانات أم كلثوم وعبد الوهاب تباع الواحدة منها بثلاثة جنيهات إنكليزية قبل هبوط الإسترليني.

والواقع أن الألحان والأغاني المغربية التي كانت إلى عهد قريب منتشرة شائعة في المغرب العربي قد اختفت اليوم من الميدان، وتخلت عن مكانتها من الذوق المغربي العام لألحان مصر وأغانيها، ولا نستثني هذا التراث الذي بقى بأيدينا من فن الأندلس وغنائها فقد تزحزح هو الآخر عن مكانه للغناء المصري وترك له المجال واسعاً فسيحاً.

ولما أعلنت الحكومة المصرية إنها ستفتح في القاهرة محطة للإذاعة اللاسلكية تهالك الناس في الجزائر وتونس ومراكش على أجهزة المذياع (الراديو) يشترونها ويقتنونها رجاء أن يستمتعوا بسماع ما تذيعه مصر من الأغاني والمحاضرات، ولكنهم عادوا فجعلوا يبيعون أجهزتهم ببعض قيمتها عندما تبين لهم أن المحطة المصرية لم تكن محطة عالمية يمكنهم سماعها.

كل هذا دليل على أن الذوق العام في بلاد المغرب العربي هو نفس الذوق العام في مصر ليس بينهما شديد خلاف. ولعل تونس ومراكش هما أرقى من هذه الناحية، فالحياة فيهما مترفة ناعمة تؤثر الطرب والسماع، وتميل إلى اللهو والاستمتاع، بخلاف الجزائر فأنها عريقة في البداوة مطبقة الجهل والأمية، لا تزال تغلب عليها حياة العشائر الأولى، تشعر القبيلة فيها بأنها قبيلة وكفى، وقلما تشعر بأنها شعبة من الجزائر فضلاً عن أن تشعر بأنها من الأمة المغربية أو الأمة العربية الكبرى. ولعل مدينة وهران قد ضربت الرقم القياسي في البداوة والأمية وفي البعد عن العالم العربي دون أنحاء الجزائر كلها، ومع ذلك فكل مقهى من مقاهيها، وكل بيت عربي فيها، فيه (فونوغراف) لا يخلو من الأسطوانات المصرية، وإننا لنسمع فيها الأنغام الساذجة البسيطة التي تحاكي رسيم النجائب وخبب الجياد إلى جانب الفن والإبداع في أنغام أم كلثوم وعبد الوهاب.

ولما عرض فيها للمرة الأولى الشريط المصري (أنشودة الفؤاد) أقبل عليه هذا

الجمهور العربي في وهران إقبالاً منقطع النظير طيلة ثلاثة أسابيع، وبعد بضعة أشهر عرض للمرة
الثانية وأستمر عرضه ثلاثة أسابيع أخرى فكان الناس إلى الحفلة الأخيرة يتدافعون إليه بحماسة وشوق لا نظير لهما حتى أن منهم من شاهده عشر مرات!
وعندما أزمعت فرقة مصرية للتمثيل الهزلي أن تقوم برحلة في بلاد المغرب قالت عنها جريدة مصرية محترمة إنها ستبوء بالفشل الذريع، وستقنع من الغنيمة بالإياب، أو أنها على الأقل ستكابد في مهمتها ألواناً من المشقة والعناء ما لم تترجم مسرحياتها من اللغة المصرية إلى اللغة المغربية. وقامت هذه الفرقة برحلتها ونجحت في مهمتها نجاحاً باهراً لم يكن يخطر لها على بال، وتذوق المغاربة رواياتها وفكاهاتها وأدركوا مغزى (النكتة) المصرية من ملهياتها من غير أن تضطر إلى ترجمة كلمة مصرية واحدة إلى اللغات المغربية؛ وبعبارة أخرى أن هذه الفرقة وجدت نفسها في بيئة عربية مغربية لا تختلف عن مصر إلا كما تختلف الهيئة المصرية نفسها باختلاف المديريات والأقاليم، ووجدت أن كل ما يقال من وجود لغة مصرية ولغات مغربية هو من الأوهام الباطلة لا أصل لها، وإنما يوجد لسان عربي واحد تتكلمه الشعوب العربية (مصر وأخواتها) بلهجات تختلف اختلافاً لا يحول دون التفاهم بين الناطقين بالضاد، ولا توجد في الدنيا لغة إلا ولها لهجات تختلف فيما بينها اختلافاً كثيراً أو قليلاً.
وكثير من الغربيين من يعتقدون أن الشعوب العربية تتكلم اليوم لغات مختلفة متباعدة فيما بينها، وبعيدة كل البعد عن العربية الفصحى التي أصبحت في نظرهم لغة مواتاً. كما أن الشعوب اللاتينية تتكلم اليوم لغات متباعدة فيما بينها جداً حتى لا يمكن للفرنسي أن يفهم الأسبانية أو الإيطالية دون أن يتعلمها، وهذه اللغات هي الآن بعيدة عن اللغة اللاتينية التي هي أصلها.
وفي هذه الأيام نشرت صحيفة فرنسية تصدر بالجزائر مقالاً عن الحج إلى بيت الله الحرام عنوانه: (اللغة الفرنسية في مؤتمر مكة) زعم فيه كاتبه أن حجاج الجزائر ومراكش وتونس وطرابلس ومصر وسوريا ولبنان وفلسطين والعراق سيتفاهمون في (مؤتمر مكة) لهذا العام باللغة الفرنسية، لأن لكل فئة من هؤلاء الحجاج لغة قومية لا يفهمها الآخرون، ولأن الفرنسية منتشرة بين جميع الطبقات في هذه الأقطار. وأبى أن يرجع إلى الصواب إلا بعد أن رأى بعينيه وسمع بأذنيه بحارة مصريين يتحادثون مع بعض العملة الجزائريين
والمراكشيين من غير أن يكون بينهم ترجمان!
وكان عالم فرنسي من علماء المشرقيات جاء بلاد المغرب مندوباً من وزارة المعارف الفرنسية لدرس اللهجات العامية المغربية، فلبث في هذه البلاد يبحث ويدرس ويستقرئ، ثم رفع إلى الوزارة تقريراً بالنتائج انتهى إليها في دراسته وأبحاثه، ونشر هذا التقرير وأطلعنا عليه فإذا هو مملوء بالأغاليط والأضاحيك، فقد زعم فيه أن عربياً تونسياً تزوج فتاة عربية من بجاية (الجزائر) فلم يستطع الزوجان أن يتفاهما - لتباعد لغتيهما القوميتين - إلا بالفرنسية التي لم تكن تلم بها الزوجة إلا إلماماً قليلا. والحق أن هذا التقرير هو دعوة صريحة إلى إيجاد فروق بين اللهجات المغربية والى تجسيم ما يكون منها موجوداً بالفعل.
وحدثني ذات يوم فنان فرنسي قال: (كنت أعتقد أنه لا بد أن يأتي يوم على المغاربة يصيرون فيه فرنسيساً خُلصاً من حيث تذوق الفن والشعور بالجمال، غير أني رجعت الآن عن اعتقادي هذا، فقد مضى على فرنسا في الجزائر مائة وبضع سنين لم تستطع أثناءها أن تجعل العرب الجزائريين أن يقبلون على الأفلام الفرنسية، أو يطربون لسماع عازف فرنسي مهما كان محسناً بارعاً، أو يتذوقون غناء فرنسياً مهما كان منسجماً ساحراً يستهوي القلوب ويأسر الألباب، على حين نرى المغاربة جميعاً يقبلون الإقبال الذي لا نظير له على الأفلام المصرية وتستهويهم مصر بأنغامها وأغانيها، ويعجبون الإعجاب كله بالفنانين المصريين). ثم قال (ولقد راعني إقبال هؤلاء الناس على شريط الوردة البيضاء وتهالكهم على مشاهدته، فشاهدته أنا أيضاً، ولكنني لم أجد في هذا الشريط ما يعجبني، على أن جميع من في المسرح كانوا يشاهدون عبد الوهاب وكأنما هو ملك كريم قد هبط إليهم من السماء وينصتون لصوته وكأنما هو نغم إلهي يتنزل عليهم من الملأ الأعلى)

وما من شيء له أثر في حياة المغرب العقلية أو الاجتماعية إلا وهو مصري غالباً فمثلاً كتاب (مختصر قليل) في الفقه الإسلامي على مذهب الإمام مالك بن أنس هو كتاب مصري قد جعل أفئدة من الناس في المغرب تهوى إلى مصر، له منزلة سامية في قلوب المغاربة يخصونه بكثير من التقديس والاحترام، ومنهم من يتعبدون بتلاوته كما يتعبدون بتلاوة القرآن الكريم؛ ولم يعد خافياً أمر ذلك الفقيه المرحوم الذي كان يصلي (النافلة) بهذا الكتاب ويقوم به الليل عابداً متهجداً؛ ولا أذيع سراً حيناً أقول أن هذا (المختصر) لا يزال له إلى
الآن في كلية القروبين بفاس (حزّابة) كما للقرآن (حزّابة)، وهم يتقاضون أجوراً أوفر وأسنا مما يتقضاه (حزابة) القرآن العظيم؛ ولتلاوته هذه الراتبة أوقاف كما لتلاوة القرآن أوقاف. وفي بلاد المغرب طبقة من المحافظين يقولون عن أنفسهم إنهم (خليليون)، وأهل المغرب جميعاً هم مالكية ماعدا وادي ميزاب بالجنوب الجزائري وجربة بالقطر التونسي، فأن اكثر أهلهما أباضية، ولكنهم قليلون جداً فعددهم لا يتجاوز الخمسين ألفاً، بينما تعد الجزائر وتونس ومراكش من الأنفس خمسة عشر مليوناً يجلون هذا الكتاب ويرفعونه إلى أعلى مقام، حتى النساء في خدورهن لا يفصل الخصومات التي تثور بينهن إلا الحلف بهذا الكتاب!

ولا يزال المغاربة ينظرون بعين الاعتبار إلى كل من طلب العلم بالأزهر الشريف، ولو أنه كان قليل التحصيل، ويعترفون بالفضل لكل من أقام في مصر أو رآها.

وفي بلاد المغرب طرق صوفية منتشرة بين سائر الطبقات لها أكبر الأثر في العقائد والأخلاق، وأكثر هذه الطرق مستمد من الشيخ البكري المصري، فأتباع هذه الطرق ومريدوها يحبون البكري ويرون لهم فيه (الشيخ الممد) فيرفعونه فوق كل الاعتبارات.

وما أنت بواجد ولا مغربياً واحداً إلا وهو يحفظ كثيراً أو قليلاً من شعر أبن الفارض الصوفي المصري المشهور.

وكل حركة دينية أو أدبية في مصر لها صداها القوي في هذا المغرب العربي، فالأستاذ المرحوم الشيخ محمد عبده المصري أنصار ومريدون. وفكرة الإصلاح الإسلامي التي كان يدعوا إليها أصبحت اليوم في الجزائر مذهباً اجتماعياً تعتنقه الكثرة الكثيفة من الناس وتقوده (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين). وكل أديب كبير في مصر له أنصار وأشياع في بلاد المغرب، فللأديب الإمام الأستاذ مصطفى صادق الرافعي أنصار ومعجبون وهو أكثر الأدباء المصريين تلامذةً وقراءً في هذه البلاد. وللمرحوم قاسم أمين أنصار يدعون المغربيات إلى السفور وترك الحجاب، غير أن دعوتهم لم تجد ملبياً ولا مجيباً فأخفقت إخفاقاً شديداً. وللزعماء المصريين منازلهم من قلوب الناس هنا.

والمطبوعات المصرية تحتل المقام الأول عندنا، سواء في ذلك الصحف والكتب والمجلات. والصحف المغربية لكثرة ما تروي عن مصر وما تنشر من أخبارها تكاد تكون طبعات مغربية لزميلاتها
المصريات. على أن هذه الصحف المصرية الكبرى لا تهتم لبلاد المغرب إلا قليلاً، ولا تتكلم عنها إلا كما تتكلم عن مجهل من المجاهل التي لم تطأها قدم إنسان، فمن خلط في أسماء المدن المشهورة بالمغرب وفي أسماء الأشخاص البارزين إلى حوادث تحوكها عن المغرب وتخبط فيها خبط عشواء.

ويقول الشبان المغاربة الذين يطلبون العلم في جامعات فرنسا إنهم تعرفوا إلى الطلبة السوريين فعرفوا فيهم العروبة والاعتزاز بها ووجدوا منهم إخوانهم وذوي قرباهم، وتعرفوا إلى الطلبة المصريين فعرفوا فيهم رقة الشمائل ودماثة الأخلاق وما شئت من لطف وأدب، وأنكروا منهم هذه (الفرعونية) الجافية التي تجعلنا وإياهم كما قال شاعر العروبة الأستاذ إبراهيم طوقان:

أحب مصر ولكن مصر راغبة ... عني فتعرض من حين إلى حين

أن تأريخ هذه البلاد حافل بالشواهد والبينات على أن المغرب يرتبط بمصر منذ العصر الحجري بكثير من روابط النسب والحضارة والدين

وإن الذي هو ما بيننا ... وما بين مصر لمحض النسب

رباط العروبة يجمعنا ... ويجمعنا ديننا والحسب

ولكن هل يمكن أن يبعث من جديد ما كان بين المغرب ومصر من الروابط وصلات القربى؟

وهران (الجزائر)
محمد السعيد الزاهري
رسائل حاج
من ربوع الغرب إلى بلاد العرب
للمستشرق المجري الدكتور عبد الكريم جرمانوس
أستاذ التأريخ بجامعة بودابست
لثلاثين عاماً خلت وأمنيتي الوحيدة الاشتراك في موكب الحجيج والذهاب إلى مكة، حيث بزغ فجر الإسلام، وانتشرت دعوة النبي الكريم وتعاليمه المقدسة. وقد انبثق في نفسي هذا الشعور أثر مشاهدتي رسوماً فوتوغرافية نشرت في إحدى الصحف الأوروبية الكبرى عن سياحة قام بها أحد الرحالين وتحدث فيها عن عجائب الشرق حيث تسطع الشمس طول النهار، ويريق القمر أشعته الفضية فوق رمال الصحراء في الليل.
وكان الأثر الذي تركته هذه الرسوم والمناظر الفتانة عميقاً في نفسي وباعثاً لإقبالي على تعلم اللغة التركية، وعلى زيارة الشرق مهد الديانات الحديثة ومهبط الوحي المقدس.
ولكن الأمور جرت في شيء من البطء، أي أكثر مما تخيلته في البدء، فمشاغل الحياة والواجبات اليومية الملقاة على عاتقي وقفت عقبة في سبيل تحقيق تلك الأحلام الذهبية التي تطوف بذهني وتجذبني نحو الإسلام. . . وأخيراً دعيت إلى زيارة الهند حيث قضيت بين ربوعها سنوات ثلاثاً لإلقاء محاضرات عن التأريخ في جامعاتها، وهناك اعتنقت الدين الإسلامي في مسجد دلهي العظيم، ومن تلك الساعة أحسست من أعماق روحي بأنني أقترب من الغاية التي أرنو إليها بحيث يصبح في مكنني الطواف بالبقاع الإسلامية المقدسة في مكة، والتعريج على المدينة مقر القبر النبوي الطاهر ومثوى سيد الحق. . .
ولكن كيف أذهب إلى الحج وأنا لا أعرف من العربية حرفاً واحداً؟. . . كيف أدرس (أم اللغات) وأنا في أوربا وبالأخص في بلاد نائية كالمجر لا يوجد بها من يتكلم بهذه اللغة التي هي في نظري أصعب من تعلم أربع لغات أوروبية معاً!!؟ وتلك لعمري كانت من أقوى العقبات التي وقفت حائلاً بيني وبين تنفيذ رغبتي أو تحقيق أمنيتي في حينها.
على أنه كان لي من قوة الأيمان وثبات اليقين ما دفعني إلى الإقبال على تعلم هذه اللغة مهما بلغت العقبات وقامت الصعاب، فبدأت أولاً أدرس العربية بدون معلم وبواسطة كتب
حصلت عليها من المكتبات الأوروبية، ثم عكفت على قراءة القرآن الشريف بمساعدة المعاجم اللغوية، وحفظت عن ظهر قلب معاني الكلمات المبهمة والألفاظ المعقدة. وتابعت السير على هذه الخطة عدة شهور إلى أن أصبحت بفضل الله ورعايته ملماً بأصولها. وفي خلال شهور الصيف أخذت أطالع قصص (ألف ليلة وليلة) والمعجم إلى جانبي، وكثيراً ما لاقيت صعابا كادت تفت في عضدي وتوهن من قواي، كالشعر الجاهلي الذي كان يبدو على الرغم من جماله وموسيقاه مبهما معقدا، فكنت من حين لآخر أقذف بالكتب جانبا وقد قر في عزمي ألا أعود إليه مرة أخرى ليأسي من التقدم وبمرور الزمان انتصرت على جميع الصعاب، ورحت أتفهم العربية في شيء من السهولة واليسر، مع إنني لم أسمع في حياتي صوت متكلم بها؛ ولما أيقنت مقدار ما تبطنه الظروف وأن هناك بعض النقص في إلمامي بالأدب العربي والشريعة السمحاء صممت قبل الشروع في زيارة البقاع الإسلامية المقدسة إلى أن أقيم فترة طويلة من الزمن في مصر حيث الأزهر الشريف مركز الثقافة الإسلامية ومحط العلماء.
وفي الواقع كنت أسعد مخلوق في العالم عند ما ألفيت نفسي أدخر مبلغاً من المال يساعدني على أن أطيل إقامتي على ضفاف النيل السعيد مهد المدنية والسلام.
وعندما وطئت قدماي أرض القاهرة قوبلت بحفاوة عظيمة من جانب أدباء مصر وصحفييها وغيرهم ممن مهدوا السبيل أمامي لاستكمال نواحي دراستي في الأدب العربي، والتعمق في شعاب الدين الحنيف، بحيث أصبح قادراً على صد هجمات كل من تسول له نفسه الاقتراب أو التشويه من عظمة الإسلام في أوربا.

وكانت فكرتي مقترنة دائماً بأن أدرس العربية دراسة جامعية لا دراسة هواية، شأن الكثير من المترفين ممن يعكفون على تعلم اللغات لغرض السياحة أو بقصد القراءة الخفيفة المسلية؛ وكنت أرمي من وراء دراستي إلى القيام بخدمة الإسلام والمسلمين الذين وقعوا تحت نير الاستعمار الأوربي منذ قرون؛ وقد كانت هذه الغاية من أقوى العوامل التي دفعتني للتقرب من المسلمين في الهند وتركيا ومصر. وإن أنس لا أنس الظروف التي لاقيت فيها كثيراً من فقراء المسلمين الهنود، وهم يعيشون في بطون أكواخهم المشيدة من القش، ويستضيئون بأنوار الإسلام فتتحول تلك الأكواخ في أنظارهم إلى قصور وجنات

بحيث يحتقرون مظاهر الجاه والثروة ويطئونها تحت أقدامهم

فالقرآن هو المثل الأعلى لتوجيه الإنسان إلى الطريق السوي الذي يحتم على كل مسلم غيور ألا يحيد عنه قيد شعرة؛ والمسلم الذي لم تعم بصيرته عن تلك الحقائق ويفقه تعاليم دينه فقهاً صحيحاً يرى أن القبس الروحي يتأجج في قلوب المسلمين جميعاً ممن لا ينكصون من التضحية وبذل الواجب، والذين يفنون ذواتهم في ذات الغرض الأسمى، ويأخذون على عواتقهم التغلب على كل أمر والتجول في أنحاء العالم لنشر الدعوة وإظهار فضائل دينهم ومحاسنه

والواقع أننا قد نجد بعض مظاهر هذه القوة في الأيمان عند بعض الأمم الأجنبية الأخرى، لكنني ألفيت في قلوب إخواني المسلمين كنوزاً تفوق في قيمتها الذهب والأحجار الكريمة؛ ولقد عاشرت مسلمين فقراء كانوا لا يحجمون عن أن يقاسموا رفاقهم آخر كِسرة يملكونها من الخبز. . . كم استضافوني في بيوتهم المتواضعة وأعطوني أعظم شيء في الوجود!. . إنهم منحوني إحساس الحب والتآخي، ولقنوني عمل الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعندما أطلقوني من ضيافتهم فاهوا بحكمة نبيهم الكريم: (اطلبوا العلم ولو في الصين)

وعقب وصولي القاهرة قصدت فوراً للإقامة في الحي الوطني المعروف (بسيدنا الحسين)، لكني لم أوفق للحصول على سكن ملائم

لقد كنت من خلال إقامتي الطويلة بتركيا أقطن في غرفة رحبة مؤثثة بالطنافس الوثيرة والرياش الفخم، وكنت أتناول أفخر المآكل الشرقية وأشهاها؛ فمن مظاهر الحياة الإسلامية فن الطهي، إذ يؤثر على النبي الكريم أنه كان يحث الناس على العناية بمسائل الطعام وبالذبيح المحلل، ولا تخفى الفائدة من وراء ذلك، فاتباع الطرق الصحية ووسائل النظافة والعناية باللحم مما يزيد في صحة الأجسام ومناعتها

كانت آمالي إذن قبل القدوم إلى القاهرة أن أقيم في بيت من تلك البيوت العربية الطراز، وبين قوم يرتدون اللباس الشرقي الفضفاض ويتناولون الطعام بأيديهم، ولكن ليس كل ما يتمنى المرء يدركه، فأنني لم أوفق في الحصول على سكن ملائم، فاضطررت إلى الإقامة في نزل أوربي.

ولكم تألمت إذ ألفيت أهل القاهرة لا يلبسون الثياب الشرقية المزركشة، ويستبدلون بالقفطان والعمامة شعار الإسلام - الأزياء الأوربية، كما راعني في البيوت المصرية التي زرتها خلوها من الأثاث الشرقي، وأن أجد الشباب المصري يوجه عناية خاصة للإلمام بأنواع الثقافات الأوربية المتعددة، ويفرطون في جانب لغتهم وقوميتهم ودينهم!!

ولقد قال أحد أصدقائي المصريين في معرض حديث له معي: (يستحيل علينا أن نعود إلى تلك الأثواب الطويلة المهلهلة عندما نبغي الصعود إلى المركبات أو عربات الترام).

ولكني رأيت كثيراً من الناس يرتدون تلك الأثواب وما كان أجملهم في نظري وهم يتسلقون الترام أو السيارة بكل خفة ورشاقة والواقع أن تلك الملابس أفضل بكثير من الأثواب الأوربية الضيقة، ولا سيما القبعات التي نضطر إلى أن نحملها بين أيدينا عندما نجلس أو نزور أو نحيي أحداً

ومن رأيي أن الحصول على الأثاث الشرقي واللباس العربي والتطبع بالعادات الشرقية أمور يسهل اتباعها في القرن العشرين من غير أن يفقد المصريون خصائصهم ومميزاتهم، أضف إلى ذلك أن إحياء الصناعات القومية وإنعاش حال الأسواق الشرقية متوقف على إقبال المصريون على عاداتهم الأصيلة، أما التقليد الأعمى والاتجاه شطر أوربا وترك الثقافة والتراث القومي جانبا فصفات يجب التخلي

عنها. وليت الأمر وقف عند الحد الذي شرحته، بل أن آمالي انهارت دفعة واحدة بمجرد أن زرت الأزهر وتفقدت الأروقة التي كثيراً ما قرأت عنها في شبابي وتخيلتها في أحلامي،. . . فمقاعد التدريس لا تزال كما كانت منذ ألف سنة، وبرامج التعليم ناقصة وغير مستوفاة لشروط الثقافة الحق؛ ولم أر في الأزهر سوى خلية للحكمة وبث التعاليم الإسلامية وقشور من العلوم الحديثة؛ أما المعاهد الدينية فهي نماذج مصغرة لجامعاتنا إذ أن هذا النوع من التعليم يقود الطلاب في سبيل البحث والاستقصاء والتعلم

(يتبع)

عبد الكريم جرمانوس

سكان أعالي النيل - 4

بقلم رشوان احمد صادق

وكان أهم ما يميز الملك والمدير أن كلاً منهما قادر على التكهن في الفصل في الخصومات وكذلك في الأمور القانونية، فكل الأمور التي تؤدي إلى المنازعات مثل القتل والموت كل هذه كان يفصل فيها بواسطة التنجيم والتنبؤ، وكانت هذه مصدر ربح عظيم للأسرة المالكة

والملك هو مصدر القانون وهو مطلق التصرف، فله الحق أن يقتل من شاء حسب إرادته، فسلطته استبدادية. وجماعة الأزندي يكونون وحدة سياسية، ومركز الفرد وسلامته واستغلاله لموارد بلاده الاقتصادية كل ذلك متوقف على قيامه بالواجب عليه نحو النائب والمدير والملك

وكل قبيلة تعرف باسم عميدها، فمتى مات أو قتل تشتت أفرادها. والقبائل هنا ليس لها أي صبغة سياسية ولا اقتصادية ولكنها ذات صبغة دينية. فنظام القبائل مؤسس على النظام الطوطمي، إذ لكل قبيلة حيوان تقدسه وتحرم على أفرادها أكل لحمه، إذ يعتقدون أن أرواح موتاهم تنتقل إليه. والرجل واخوته وأنجالهم يسكنون سوياً على ضفة مجرى مائي، ويعملون معاً في الزراعة والصيد وغير ذلك من شؤون الحياة. ويهتمون بشؤون كل فرد منهم كما يشتركون في الدفاع عن أي فرد يصيبه أذى منهم؛ وأكبرهم سناً يقوم بإلقاء الوعظ والإرشاد على الصغار أما من حيث الزواج، فإذا أراد الرجل أن يتزوج فعليه أن يعطي أقارب زوجته من عشرين إلى أربعين حربة، وهذه الحراب لا تشترى بماله الخاص، بل يهديها إليه والده وأعمامه، وهذا قد أدى إلى توثيق صلة الابن بالأب والأعمام

ومن أهم المظاهر الاجتماعية الشائعة بين الأزندي، والتي يهتم بها كل فرد في مجتمع الأزندي سواء في ذلك الملك والصعلوك هي مسألة الحسد، تلك المسألة التي تلعب دوراً هاماً في حياة الأزندي الاجتماعية، فهم يعتقدون أن أناساً كثيرين يحملون في معدتهم الحسد، وهذا الداء ينتقل من شخص إلى آخر بواسطة الوراثة، فالرجل الحسود أبناؤه الذكور حسودون، وأما بناته فلسن كذلك؛ والمرأة الحسود بناتها حاسدات وأبناؤها بعكس ذلك؛ وكانوا يشقون بطون موتاهم لمعرفة ما إذا كانوا حسدة أم لا

وفي اعتقاد الأزندي أن السبب في سؤ الحظ هو الحسد. فالمرض والموت وفشل الصيد

وقلة المحصول كل ذلك سببه الحسد. ولذلك عند حدوث شيء من هذا القبيل يبحثون عن الحاسد الذي سبب المرض أو غيره، وبعد معرفته يخبرون الرئيس عنه وهو يستدعيه إليه ويأمره أن يكف حسده وأذاه عنهم

والطريقة التي يستعملها الأزندي لمعرفة الحاسد هي طريقة التكهن أو التنجيم وأهم طريقة يستعملونها للتكهن هي الطريقة التي يسميها الأستاذ بريتشارد (بنج والتي يسميها الأستاذ سلجمان - وهذه تتلخص فيما يأتي: يحضرون بعض أنواع السم ويعطونه لدجاجة ويسألونها عند إعطائها هذه المادة عن الرجل الذي يشتبهون في أنه هو الحاسد، هل هو متهم أو برئ؟ فان ماتت الدجاجة التي أكلت هذه المادة السامة فمعنى ذلك أن الرجل متهم، وأنه هو الحاسد، وأما إذا لم تمت فأن الرجل برئ. فان أعيدت العملية مرات وكانت النتيجة ثابتة كان ذلك زيادة في التأكيد، فإذا مات رجل فان أسرته تبحث عن الحاسد الذي كان سبب موته فان عرفوه بطريقة التكهن

السابقة الذكر فأنهم يقتلونه أو يدفع غرامة، وهذه الغرامة تقدر بامرأة وعشرين حربة وإذا قتل رجل فأنه يحنط، والمدير مسئول عن البحث عن الحاسد الذي تسبب في قتله وذلك بواسطة التكهن ولا يقوم بهذا العمل غيره.

وأما في الأحوال الأخرى التي تدل على سؤ الحظ من مرض وغيره كما سبق شرحه فانهم يقومون بالبحث لمعرفة الحاسد بواسطة هذا النوع من التكهن، فإن عرف فإنهم يخبرون النائب عنه حيث يستدعيه ويأمره بأن يكف عن أذاه وحسده عنهم.

وهكذا يفصل في كل الأمور القانونية والمشاكل الاجتماعية بواسطة التكهن، والحكم الأوروبي الآن يرفض الاعتراف بمسألة التكهن الذي شرحناه على الوجه السالف.

ولكن الأزندي تمكن من إيجاد مفر من تشديدات الأحكام الجديدة فلجأ إلى السحر، فإذا مات شخص فأن ذويه يحضرون ساحراً ليقوم بعمل السحر والتعاويذ اللازمة لهلاك من تسبب في موته بواسطة الحسد. ثم ينتظرون أياماً وأشهر ليروا النتيجة، فإذا سمعوا بموت أحد من جيرانهم أو من أعدائهم أو ممن يشتبهون فيهم فأنهم يقومون بعمل التكهن بواسطة الدجاجة كما سبق ذكره ويسألونها فيما إذا كان هذا الشخص الذي مات هو الحاسد الذي أهلكه السحر أم لا

وهذه طريقة أخرى للتخلص من النظام الأوربي الجديد للانتقام من الشخص الذي يتخذ الحسد حرفة له

وللأزندي اهتمام كبير بزراعة الأرض بعكس (الزنوج النيليين أو الحامي النيلي الكثيري الاهتمام بتربية الماشية). فهم يهتمون بتنسيق حدائقهم ومزارعهم بشكل يستحق الإعجاب. وتبدأ الزراعة في شهر مارس إذ يعدون الأرض فيزيلون بقايا الحشائش ويقومون ببعض الأعمال لتطهير الأرض. وأهم المحاصيل التي تزرع عندهم:

1) الذرة تزرع في مارس وتحصد في يوليو

2) الحبوب وتحصد في أغسطس تزرع في أبريل ومايو

3) الذرة (العويجة) تزرع في يوليو وتحصد في أكتوبر ونوفمبر وديسمبر - وسبتمبر.

وعندهم نوعان من الدورة الزراعية: (1) الدورة الخماسية (2) الدورة السنوية والأحادية. فأما الدورة الخماسية، وتكون لمدة خمس سنوات، فهي كما يأتي:

السنة الأولى تزرع ذرة رفيعة وحبوباً زيتية

السنة الثانية تزرع ذرة رفيعة وحبوباً زيتية

السنة الثالثة تزرع ذرة رفيعة وحبوباً زيتية

السنة الرابعة تزرع حبوباً زيتية فقط

السنة الخامسة تترك الأرض للراحة (شراقي)

وأما الدورة السنوية أو الأحادية فهي في سنة واحدة حيث يزرع محصولان في سنة واحدة: الذرة والبطاطا ويلاحظ أن البطاطا تزرع كسماد وتترك في الأرض بعض الأحيان.

والدورة الخماسية هي الدورة التي يتبعها الأزندي في حديقة منزله أيضاً، كما أن الذرة تزرع كسياج يحيط بمنزل الأزندي ويقوم مقام السياج الحديدي حول حدائقنا.

والأستاذ سلجمان يقول إن الأزندي يعتقدون في مخلوق عظيم يسمونه (مبول) ولكنهم لا يدعونه إلا عند الجفاف والقحط.

ويقول إنهم يعتقدون أن الإنسان بعد موته تخرج منه روحان: إحداهما تذهب إلى الحيوان الذي تقدسه القبيلة (الطوطم) والروح الأخرى تذهب إلى القبر فتبقى فيه إلى حين، ثم بعد ذلك تغادره إلى رأس مجرى مائي حيث تبقى مع أرواح أجدادها وهم الآن يقومون بعملية الختان.

الفروق في الحياة الاجتماعية

لكل من الزنوج النيليين وأصحاب الرؤوس المتوسطة

الزنوج النيليون

رعاة

الماشية عماد الحياة

ليس عندهم ضحايا بشرية
لا يأكلون لحوم البشر
الرجال عراة الأجسام وأحياناً يلبسون جلوداً على الكتف، يزينون الشعر بأشكال مختلفة
النساء يرتدين نصف جلباب (ملكوف من الجلد يغطي النصف الأسفل من الجسم من الوسط حتى الركبة ويلبسن أساور من العاج في أعلى العضد،
بعضهم يخلع أسنانه الأمامية مثل النوير
ليس عندهم رؤساء للحكومات وهم ديمقراطيون يحترمون السحرة والمشعوذين ويأخذون رأيهم في بعض الأمور والرابطة الاجتماعية والدينية والاقتصادية والسياسية مبنية على القرابة والجنسية
أصحاب الرؤوس المتوسطة (الأزندا)
زراع ويربون الدجاج
ليس عندهم ماشية
الزراعة هي أهم ما يحترفه السكان وكذلك الصيد
عندهم تضحيات بشرية
كذلك أكل لحم البشر قلت الآن بعد الحكم الأوربي
الرجال يرتدون جلد الأسد أو قميصاً من الخيش أو الخوص أو سراويل. يضفرون شعورهم من منبت الشعر إلى الكتف، ويلبسون قلنسوات من الخوص محلاة بريش الديكة
النساء يستترن بشبكة من ورق الشجر من الأمام والخلف تربط بحزام حول الوسط وأحياناً يرتدين (مريلة) ولا يستعملن الأساور المصنوعة من العاج إلا نادراً
لا يخلعون أسنانهم
حكومتهم منظمة لها صبغة سياسية ورؤساء سياسيون، والرابطة العائلية قوية بينهم
رشوان أحمد صادق
سليل القرد
للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي
عاش في الغاب القرد دهراً طويلاً ... قبل أن يلقى للرقيّ سبيلا
وُلد القردُ قبل مليون عام ... بشراً فارتقى قليلاً قليلا
إنما هذه الطبيعة في تَحْ ... ديدها للحياة ليست عجولا
أيّ شيء ألمّ بالقرد حتى ... هجر الغابَ نجله والقبيلة
إنه لولا العقل كان ضعيفاً ... وعليه الحياةُ عبئاً ثقيلا
واقتنى فطنةً وكان غبيّا ... وابتنى عزّةً وكان ذليلا
وعلى رجليه مشى بعد أن سا ... ر على أربع زماناً طويلا
تخذ الصخرَ بعد نحتٍ سلاحاً ... يتّقي الوحش ضارياً أن يغولا
حادثٌ لم ير الزمانُ على الأر ... ض له في كل الدهور مثيلا
ليس إنسانُ اليوم في كل أرض ... غيرَ قرد في وسعه أن يقولا
منح الدهرُ الأرضَ خيرَ وليٍّ ... وبه كان في القديم بخيلا
إنه في لقائه للضواري ... لم يكن خَوَّاراً ولا إجْفيلا
إن عقل الإنسان خيرُ سلاح ... ولقد تفْضل العقولُ العقولا
ياله من تطوّرٍ حَوَّلَ القر ... دَ لإنسانٍ يُحسنُ التخييلا
سنةُ الله في النشوءِ على الأر ... ض فما إن ترى لها تبديلا
ليس من قدره يحطّ فيَخزَى ... إنه كان للقرود سليلا
ولقد فارق القبيلةَ إلاّ ... أنه ظلّ حبلُهُ موصولا
قبلَ إخلادِه لعائلة لم ... يك إلاّ عن نفسه مسؤولا
ولدته عروسة الغاب من قر ... دٍ جميل فكان قرداً جميلا
عاش أبناؤه دهوراً وما إن ... عرفوا تحريماً ولا تحليلا
بعد فجر الإنسان كان غدُوٌّ ... وأرى أن للغدوّ أصيلا
إن للشمس بعد كل شروق ... يملأ الأرضَ بالضياء أفولا
دُوَلٌ فوق الأرض ذات احتشام ... غير أني في خشية أن تدولا

إنني أخشى للنشوء انقلابا ... فيعود الإنسان قرداً كسولا
وإذا ما خلا من الناس وجهُ ال ... أرض كان الخلوُّ خطباً جليلا
وإذا ما بالعكس عاشوا وجدّوا ... فسيمحون الموتَ حتى يزولا
وليأتي باسم السبرمان نسلٌ ... هو أرقى منهم وأهدى سبيلا
يتقصى كنه الطبيعة حتى ... ليس يبقى شيءٌ له مجهولا
إنما في حياته الصدقُ دينٌ ... لا خداعاً يأتي ولا تضليلا
وترى فوق المنكبين له را ... ساً كبيراً وساعداً مفتولا
وعلى رأسه الكبير ترى شع ... راً أثيثاً تخاله إكليلا
وإذا ما أبصرت عند اللقاء ال ... عينَ منه حسبتها قنديلا
وإذا ما تكاثروا حكموا الأر ... ض بعدل جبالَها والسهولا
أخضعوا أصناف الأشعة حتى ... جعلوا منها للسماء رسولا
(بغداد)
جميل صدقي الزهاوي
البعث!
للشاعر الحضرمي علي أحمد باكثير
مات الغرام وقد بكيتهْ ... ورثيته ما قد رثيتهْ
كفنته ودفنته ... وبدمعيَ القاني سقيته
وأتى الزمان يَصُوْرني ... عن ذكره حتى سلوته
يا ليت شعري، كيف عا ... دَ إلى الحياة اليوم مَيْته؟
أحببته عفَّ اللِحا ... ظ سمعت عنه وما رأيته
كالخلد يرجوها أخو ال ... تقوى ولم يرها - رجوته!
فكرت فيه فشاقني ... وثوى الفؤاد وما دعوته
وطفقت أعبد طيفه ... وأنا الذي بيدي بَرَيته!
بفمي اسمه، أروي به ... ظمأ الفؤاد وما شفيته!
كالثلج فيه، وكلما ... أمسسته قلبي كويته!
بيني الزمان وبينه! ... وتجاورا بيتي وبينه!!
سميته (لولا) مخا ... فة أن يساء وما كنيته
أوحى إلي وما دري! ... وكتبت عنه وما نويته!
ماذا عليه لو صغا ... وعلى مسامعه تلوته!
وهَمَي على عيني سنا ... هـ، وسال في أذنَيَّ صوته!
علي أحمد باكثير
الحرمان
بقلم محمود حسن إسماعيل
أسدلت سترها! وقالت رويدا ... عابد الحسن، واتئد في صلاتك
غب قليلا عن العيون وأنشد ... خفقات الغرام في خلواتِكْ
إن همساً يرفُّ في ساحة المعْ ... بد أخشى ذيوعه من وشاتِكْ!
غب قليلا وفي دمي لك عَهْدٌ ... أنا والحبُّ. . والمنىَ. . لحياتِكْ
خمرتي شعرك العفيف، ويا طُهْ ... ري إذا ما انتشيت من (كاساتك)
وجلالُ الهوى وقُدْس جمالي ... صَبَواتٌ نفحن من أغنياتِكْ
ريُّ روحي إذا ظمئتُ خيالٌ ... مستطار يَرنُّ من أبياتِك
فترنم! فإن روحيَ تصغي ... خلف أستارها إلى نغماتك!
قلت: والنار في دمي كيف تهدأ ... إن حجبت الضياء من قسماتك
إن زادي من الحياة وميض ... رشفته العيون من بسماتك
فتنتي إن رنوت موجة نورٍ ... أشرقت في الجنان من نظراتك
كم طغى البؤس عابثاً بشبابي ... فقبست النعيم من وجناتك
وتوجعتُ فانتحبتِ لشجوي ... سكبت الهناء من قبلاتك
كيف أحيا وفي دمي تُقلق الرو ... ح نوازٍ مفجعاتٌ فواتك!
أنا لهفان والنعيم بكفَّي ... ك دعيني أمت على عتباتك!
قالت: اهدأ! فما عهدتك يوماً ... تستثير النوى دفين شكاتك

كم غزا البين قربنا فتصبر ... ت، ورمت السلوان من ذكرياتك
!قلت: يا لوعتا لظمآن جنّت ... روحه لهفة على رشفاتك
!كم وقفنا حيال قصركِ نبكي ... وخلسنا الغرام من شرفاتك
وشدونا الهوى ملاحن سحر ... رقرق النور طيفها من سماتك
!وشكونا النوى فكاد يطير الحس ... ن فرط الحنان من غُرُفاتك
آه يا زهرتي! لقد شفَّ روحي ... ظمأ محرق إلى نفحاتك
فارفعي الستر بيننا، ودعيني ... أتحسى الضياء من هالاتك
رب ومض من لحظ عينيك ساج ... فجر السحر من سنا لمحاتك
نهلته عيناي فانساب شعراً ... عبقرياً يفيض من نظراتك
!وهنا. . أسدل الستار! ورنت ... خفقة: لهفتا على أمنياتك
(دار العلوم)
محمود حسن إسماعيل
نسيم الفجر
بقلم وهيب رشيد
(من الشاعر الإنجليزي
هب عند الفجر يجتاز البحار ... قائلاً للسحب خلي الطرُّقا
هاتفاً بالسفْن قد جاء النهار ... بزغ الفجر جميلاً عبقاً
أيها الملاح قم شُدَّ القلوع
وسرى في الأفق حراً جذلا ... مرَّ بالناس جميعاً نائمين
سيطر النوم عليهم فَجَلاَ ... سلطة النوم ببرهان مبين
صائحاً قد آن للشمس طلوع
مرَّ بالزهر مكباً نائماً ... في ربى الغابة وسْنان العيون
فجرى فيها نشيطاً باسماً ... يوقظ الزهر بتلويح الغصون
ومضى والغاب بالعطر يضوع
دخل العشَّ على الطير الجميل ... راقداً يحلم أحلام المنى
فأحس الطير بالريح العليل ... هز برديه سروراً ورنا
لحقول القمح بالعين الولوع
وغدا يقطع أرجاء الحقول ... قاصداً ديك الصباح الغَرِدا
فتلقاه بلطف وقبول ... وبلحن ساحر جذل شدا
مرحباً بالصبح، بالفجر الوديع
واتى المعبد قفراً موحشاً ... ما به غير سكون مطبق
أيقظ الحارس فيه فمشى ... يقرع الناقوس قرع المحنَقِ
يا نسيم الفجر أحييت الربوع
فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية
28 - تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا
الناحية الإيجابية من مذهب نيتشه
السوبرمان أو الإنسان الأعلى
للأستاذ خليل هنداوي
وهذه هي الميزات التي يراها نيتشه تميز السوبرمان من الإنسان، يرى أن فضيلة الإنسان فضيلة تحمل إلى الناس جميعهم بدون فرق ولا استثناء، بيناً يرى أن فضيلة السوبرمان لا تعني إلا فريقاً منتخباً ضئيلاً سامياً. ألا ترى أوروبا اليوم جميعها تؤمن بديمقراطية تساوي بين طبقات الناس مهما اختلفت أصولاً وفروعاً. ونيتشه لا يرى في هذه الديمقراطية شيئاً طبيعياً، وهو يؤمن (باللامادة) ويريد أن يخلق طبقة أرستقراطية تتألف من أنواع محدودة، لكل نوع تعاليمه وأعماله وواجباته المكتوبة عليه، وأسفل هذه الأنواع هو مجموع الفئات المتوسطة التي يدور بأيديها دولاب المجتمع. فالنقش والتجارة والصناعة والعلم والفن تحتاج إلى عمال يخدمون برضاهم هذه الصناعات. يطيعون مختارين ويعملون مريدين. هؤلاء هم عبيد لأنهم ينفذون إرادة من هم أسمى منهم. وحق لهم أن تكون منهم الطاعة، وأن يحتملوا من الألم كثيراً لأن الحقيقة قاسية. على أن هؤلاء يجب أن تضمن لهم أسباب حياتهم فيكونون أكثر هناء واطمئناناً

وسعادة من رؤسائهم، لا شغل لهم إلا أن يواصلوا دورة الحياة. . . أما الأيمان الديني عندهم فهو نعمة لا تثمن، لأنه كأشعة الشمس فاقة وجودهم المظلم، يعلمهم القناعة والسكينة ويجعل واجباً عليهم احتمال إرادة غيرهم. وهو الذي يبث في أرواحهم هذا الوهم الجميل القائل بأن هنالك نظاماً للأشياء. وأنهم هم أنفسهم لهم مكان نافع في نظام الكائنات والأشياء. هؤلاء يقول لهم زرادشت: (لكم لكم العبودية والأيمان!). وفوق هذا الفريق المديرين وحارسي الشريعة والذائدين عن النظام والبلاد والمقاتلين وأمير البلاد. أن هؤلاء يدبرون الأمر ويسوسون الملك بسلطتهم. أن هؤلاء هم الذين تخضع لهم إرادة العبيد حين يريدون. أما الفريق الأول فهو فريق السادة والعقلاء وخالقي (القيم الاجتماعية). هؤلاء يجب أن ينفذ تأثيرهم في قلب المجتمع، هؤلاء يجب أن
يهبطوا إلى الأرض ينزلون فيها بين الناس منزلة الآلة الذي يقدسه النصارى. هؤلاء هم السادة ولهم وحدهم صنعت فضيلة السوبرمان.
وهذه الفضيلة لا تتميز من غيرها بأنها فضيلة أرستقراطية فحسب، ولكنها تخالفها في المثل الأعلى الذي ضربته، أما الإنسان الفاضل في الشريعة المسيحية أو شريعة الزهاد فهو الذي يخضع حياته لمثل أعلى، ويضحي بميوله ورغابه في سبيل عبادة الخير والحق. أما العاقل في شريعة نيتشه فهو غير ذلك. العقال هو خالق (القيم) وليست مهنته إلا خلقها! لا شيء في الطبيعة له قيمة بنفسه، أن عالم الحقيقة هو مادة واحدة لا معنى لها ولا غاية إلا المعنى أو الغاية التي نراها نحن فيها ونعطيها إياها. الفيلسوف الحقيقي هو الرجل الذي ينطوي على شخصية قادرة على خلق الوجود، ويبعث في الناس الرغبة ويستهويهم، هو الشاعر العبقري الذي تتألف في نفسه (القيم الاجتماعية) التي يؤمن بها رجال العصر! هو مفكر في الأشياء، لكن تفكيره ليس إلا الشريعة السامية التي تهتز لها أمم! يبدع بحرية ما يشاء مستقل الفكر سائماً من الخير والشر، من الحقيقية وغير الحقيقة. هو يبدع حقيقته، ويخلق شريعته وفضيلته. إنه رجل مجرب لا يفتأ يتحرى عن صور لعوالم جديدة. تراه يضحي بحياته وبسعادته، ويفادي بحياة الآخرين الذين يجرون في مضماره وبسعادتهم دون أن يتزعزع. إنه لاعب جريء يتحدى الحظ، لا يحفل إذا كانت لعبته الحياة أو الموت.
أن العاقل عند نيتشه ليس بذي لروح الهادئ المسالم. هو من لا يعد الناس بالسلام وبالفرح الهادئ باقتطاف ثمرات عملهم. ولكنه يدفعهم إلى الحرب يلمع بين عيونهم الرجاء بالنصر والأمل بالظفر يقول زرادشت:
(إنكم ستتحرون عن أعدائكم، إنكم ستقاتلون وستحاربون من أجل فكرتكم، فإذا غلبت فكرتكم فليدفعكم إخلاصكم إلى السرور بهزيمتها. إنكم تحاربون السلم كوسيلة لحروب جديدة، على أن السلم الصغير هو خير من السلم الكبير
أنا لا أنصح لكم بالعمل، ولا انصح لكم بالسلم، ولكن أوصيكم بالظفر. ليكن عملكم حرباً وسلمكم ظفراً.
يقولون: أن السبب الشريف يقدس الحرب. وأنا أقول لكم: أن الحرب الشريفة هي التي تقدس كل سبب.
لا يجب أن يكون لكم من الأعداء إلا المبغضون لا الحقيرون، وإذ ذاك تكونون أولي زهو وكبرياء بأعدائكم، حتى ليغدو ظفرهم عليكم ظفراً لكم).
أن القتال عند نيتشه هو خير سبب يعمل على التقدم، لأنه يرى مواضع الضعف ومواضع القوة. يرى الصحة والمرض في المادة والأخلاق. وقد يكون القتال تجربة خطرة يريده العاقل ليزيد في حيوية الحياة ويزيد آفاقها سعة. وليدرك قيمة فكرة ما وقدرتها على الإحاطة بمعاني الحياة. الحرب نعمة حسنة في ذاتها وتنبأ نيتشه بأن أوروبا ستدخل في عصر قتال تتطاحن فيه شعوبها في سبيل سيادة العالم.
وبينما كانت (القيم الاجتماعية) الأولى تضع الشفقة في رأس هذه القيم، كان زرادشت يعلم رفاقه بأن الإرادة هي الفضيلة العليا (هذه هي الشريعة الجديدة التي أوصيكم بها، كونوا قساة أشداء) إذ يجب في الحقيقة على المبدع بأن يكون قاسياً عنيفاً إذا أراد أن يخضع الحظ، أو أراد أن يوحي بتعاليم جديدة. أن الشفقة ليست عنده بفضيلة، ولكنها خطر من أكبر الأخطار التي تلاقيه.
ألم يسمع (زرادشت) حول كهفه أصوات اليأس يرددها الرجال الذين يدعونه (تعال!

تعال! قد حان الوقت) فلو أن الشفقة عليهم استهوته إليهم لكتب عليه الغلبة. إنه يحتاج إلى قوة قاسية تصرف عنه تأثير هذا الدعاء الباكي.

بينما كان زرادشت يغادر بيته لاحقاً اليائسين الذين يجأرون له، نزل مكاناً موحشاً خيل إليه إنه مدينة الموتى. هناك الصخور البارزة السوداء والشماريخ الحمراء، حيث لا تنبت عشبة ولا ينجم كوكب ولا يزقزق عصفور. هذا هو واد ينفر منه الحيوان، لا يأوي إليه إلا الأفاعي العظيمة الزرقاء، تأتيه في كهولتها لتعانق الموت فيه. في هذا المكان المروع أبصر (زرادشت) هيكل إنسان قبيح، فلم يشأ أن يتأمله، وَهَمَ بأن يركض ما استطاع فراراً من هذا المسخ. ولكن صوتاً أهاب به كأنه غرغرة محتضر أو بقية ماء في منحدر.

- زرادشت، زرادشت! نبئني بِسري! ما هو الانتقام من الشاهد؟

وفجأة استولت على زرادشت شفقة غريبة، ولكنه سرعان ما استعاد قسوته وصرامته، فأجابه

- أنا أعرفك. . . أنت قاتل الإله، دعني أسر في طريقي؛ أنت لم تحتمل من كان يراك ويطلع عليك في كل ارتعاشك وشناعتك واشمئزازك أنت يا أقبح الرجال! فأخذت ثأرك من هذا الشاهد) خرج زرادشت ظافراً من هذه التجربة التي هلك فيها الإله. أن إله المحبة قد مات وقد خنقته شفقته بإطلاعه على كل نقائص الإنسانية وشناعاتها الخفية. أن شفقته لا تعرف حداً. إنه وطأ الأماكن الأكثر عمقاً والأسحق بعداً من النفوس البشرية. ولهذا مات، لأن الإنسان لم يعد بقادر أن يحتمل شاهداً يقظ العين على خزيه وعيوبه. أحس زرادشت بموجة الحياة تغمر نفسه إزاء هذا المشهد، فغض من طرفه وَهَمَ بان يتابع سبيله، معتقداً بأن متابعته للطريق أجدى عليه من أن يهدر أيام عمره هدراً في سبيل الجلوس إلى (جسد) لا ينفع فيه دواء. وفي صنعه هذا لم ينج من الموت وحده فحسب، بل اكتسب مع نجاته حب هذا الإنسان الكريه. أما الإنسان الكريه الذي كان يبغض الإله والرحماء فانه انحنى خضوعاً إزاء صرامة زرادشت وقبل أن يكون أحد الطارقين باب مثواه

(يتبع)

خليل هنداوي

القصص

من صورة الحياة

الآباء البيض

بقلم حبيب الزحلاوي

عرفته في المدرسة فتى وسيم الطلعة، صبوح الوجه، حيي الطبع، هادئ النفس، فتوددت إليه واكتسبت صداقته

عرفت من خصاله العبوسة والخشونة والتجهم والغضب كما عرفت منها الطيبة والسلاسة والصدق والوفاء.

كان تارة عنيف الحركة حتى الجنون، وطوراً ساكناً كأنه غارق فيها!

عرف معلموه فيه الإقدام بدون تردد، والأحجام بغير سبب، وعرفوا فيه الاندفاع نحو تحقيق رغباته وإرضاء ميوله وبداوته، كما عرفوا فيه الانصراف عنها كأن ليس له رغبات ولا ميول وبداوات!

تسرعوا فسموه (المتناقض) ثم اعتدلوا فأطلقوا عليه أسم (ذي الحدين) الأقصى والأدنى.

كان انكبابه على الدرس، ودقته في المحافظة على الواجب يثيران إعجاب المعلمين به وغيرة رفاقه منه، كما كان توقفه عن الدرس، وإضرابه عن تلقيه بدون سبب، وانتفاضه على الواجب، وتمرده على العلم، وقيامه على النظام، مدعاة للدهشة والاستغراب.

كنا تلميذين متلازمين متجاورين، يفضي كل منا لصاحبه بطوية نفسه ودخيلة أمره، إلا أني كنت ألمح فيه حرصاً على دفن سر شاغل خطير يكتمه عني في أعماق نفسه تفضحه نظراته الحزينة الباكية الذابلة.

كان (ذو الحدين) خشناً في لعبه، بريئاً في تعبيره عن خواطره كالأطفال، صدوفاً عن المعاشرة، مستغرقاً في الوحدة والانفراد كالنساك، وكانت بسماته النادرة حلوة كالجمال الصامت في مظهر عروس ترملت بُعيد الزواج

ما كان أقرب نفسه إلى الرضا والطمأنينة والبشر عندما يكون في المدرسة بين دروسه وفروضه ورفاقه، وكم كان يفارقه مرح النفس وغبطة الروح عندما يعود إلى البيت إذ كان
تلازمه فيه الوحشة والكآبة والحزن!!
كانت ثياب (ذو الحدين) تختلف عن ثياب وهندام التلاميذ، وكان لأمه شغف في إبراز وحيدها بثياب مخملية ليكون بين رفاقه - على حد تعبيرها - كالكوكب بين النجوم، ولعل ولع أمه به وعنايتها بملبسه واهتمامها ببزته هي التي نمت فيه خاصية التأنق والملاحظة والانتقاد، وصيرت لكلامه أداء فريداً ووقعاً خاصاً في النفوس ولكن أنى الخلاص لفتى مثله حسن البزة، صبوح الوجه، لامع الذهن، غريب الأطوار، عريق المحتد، صدوفاً عن المعاشرة، عزوفاً عن مخالطة الناس، أنى له الخلاص من مخالب فتيان تتوثب فيهم غرائز القوة البكر وإبراز قدرتها وسلطانها على الأقران، وتتمطى فيهم الغيرة الآكلة لفقدهم أكثر الصفات والمزايا المتوفرة لهذا الفتى الرفيق؟!!!
ولكن صاحبي كان يتخطى هذه البواعث الشائكة على قنطرة من تبين الفتوة وتعمل الكبرياء واصطناع الترفع عن الاختلاط بتلاميذ في غير ترتيبه! بذلك نمت فيه ملكة العنجهية والتسامي.
كانت ظاهرة الكبرياء عنده دخيلة على طبعه الرضي، غير أنه توسل بها لدرء عوارض طارئة لا شأن له في وجودها، فكان يداريها بالعطف الأخوي، والإحسان الإنساني، والشفقة التي كان يشمل بها كل محتاج من إخوانه التلاميذ، وما أكثر المعوزين في تلك المدرسة التي كانت تضم جميع أبناء العمال في ذلك الحي.
جاءني مرة بثغر باسم ووجهه متهلل متلألئ يقص علي خبر اعتزامه على الالتحاق ببعثة (الآباء البيض) ليتلقى العلم في مدرستهم (الصلاحية) في القدس ويقول: إن الآباء رضوا أن يلحقوه بها، وأنه دفع لهم مبلغاً من المال كان يدخره، وأن رئيس البعثة وعده بأن يصحبه معه وينتزعه من أهله إذا مانعوا، وأنه سيتعلم علوم القساوسة ويعود فيرغم جميع الناس على تقبيل يده باحترام، والاستماع إلى أقواله والإنصات إلى عضاته بخشوع!
لم يكن اهتمامي بالخبر ليوازي فضولي الحافز إلى معرفة العامل الذي جعل صاحبي يطرب للرحيل عن أهله كطرب عصفور في قفص يسقسق ويصفق بجناحيه، وأنت في الحقيقة لا تدري إذا كان طربه للطعام المقدم أو للانطلاق المموق.
لم يكن الخبر هاماً في ذاته، إنما كانت الأهمية عندي في اكتشاف الدوافع التي جعلت هذا
الفتى دائم التأرجح بين كفتي الفرحة القصوى والحزن الأقصى، فتوهمت الفرصة مواتيه تدنيني من مكمن السر!!
رفيقي هذا الذي يحدثني عن سفره بطرب، وعن اعتزام رئيس البعثة انتزاعه من أهله بسهولة، هو وحيد لوالديه، محبوب منهما حتى العبادة.
ما الذي في نفسه منهم يا ترى من البيت ومن أبويه حتى يؤثر المدرسة والتلاميذ عليهم؟
ما الذي في نفسه منهم وهو يفزع إلى الآباء البيض هرباً من والديه مفضلاً الرحيل على البقاء معهما؟
لم يكن في وسعي تحويل الأمر آنذاك وقد كنت فتى أملك قوة اختزان الحوادث لا تعليلها، أدخر عوارض الأشياء لا أنقدها، أنظر إلى كليات المسائل لا جزئياتها، وهكذا صرفت برهة في استقبال خبر السفر كأنها كانت برهة الاستجمام لأعود بعدها إلى صاحبي بنفس قوية، وعزم قاطع، أصرف بهما ذهنه عن هذا الخاطر الطارئ المستحيل التحقيق.
داورت صاحبي بحجة معرفة بواعث هذا السفر المفاجئ، لمحت بالكلام إلى أمر حسبت أنه يكون بمثابة مفتاح للسر، فانقبض مكتئباً وأشاح بوجهه عني كأنه ندم على ما قال؛ لم يمهلني لأعتذر عن سوء تصرفي وتوضيح قصدي وانصرف، أسقط في يدي وأضاع الفضول الفرصة المواتية. . . . . ولكني صممت على عمل شيء.
نجحت أولاً في إبلاغ والده خبر سفره سراً مع الآباء البيض وحاولت إقناع صاحبي بأني لم أكن واشياً نماماً بل كنت المحب صادق المودة، أوثر صداقته وأرعى اطراد تقدمنا

. . .معاً في مسالك الدراسة
لم ينصت إلى أقوالي؛ غضب مني وبكى من والديه؛ قاطعني وانقطع عن الإيواء إلى البيت، وصار كمكوك الحائط ينصرف من بيت عمته الأرملة وليس فيه رفيق أو صديق، إلى المدرسة التي لم يبق له فيها سوى الوحدة والانفراد ورفقة الكتب وحفظ الدروس.
عبثاً حاولت استرضاءه واسترداد وداده. قطع الرأي على قطيعتي، وثبت على عناده، وهكذا صرنا صديقين متباعدين.
جزنا الامتحان سوية، انتقلنا معاً من مدرسة إلى أخرى، زودتنا الكلية البطريركية بشهادتها العليا، طوحت بنا الأقدار فألقت بواحدنا في مصر وبالثاني في أمريكا لا يعرف الواحد عن
صاحبه شيئاً.
في شارع تتماوج فيه عشرات الألوف من نساء مستهترات وسيدات فضوليات من كل جنس متفرجات، يعج بأضعاف الآلاف برجال من كل سن وعمر وقطر ومصر، فيهم العابث المتهتك، وفيهم من هو غير متهتك ولا عابث.
في هذا الشارع الذي لا تهدأ فيه حركة، لا في الليل المنار بمصابيح أضواؤها الجمال والحسن والفتنة، ولا في النهار الذي ينزع فيه الإنسان الدرهم من بين فكي أخيه الإنسان لينفقها في الليل على مباذل المرأة.
في هذا الشارع المكتظ بخلائق كأنها في مهرجان؛ في هذا الشارع تطلق البسمات من الشفاه والغمزات من العيون، وترشق القلوب بسهام النظرات الساحرات؛ فيه يطلق الرجل أعنة الحياء وينضو ثياب الخجل؛ فيه تخلع المرأة العذار وتتشح بالفتنة والشهوة؛ فيه يرتجل الأكمة أبرع عبارات الإطراء الغزلي، وتفتن المرأة في ابتداع شباك الاصطياد؛ في هذا الشرع أنقذني خاتم في إصبع يدي اليسرى من إغراء حسناء لعوب من بائعات البدن؛ في هذا الشارع تصدم البريئات والبريئين من الفضوليين الأغراب بمن لا براءة عندهم ولا فضول، فيحسب المصطدمون والمصطدمين الانزلاق حرية، والاستهتار مدنية، والفجور طابع الأمة.
هذه سيدة قلقة تنتظر المتخلف عن الميعاد! هذا الرجل واقف مطمئن إلى لقاء من وعدته. هذا يعانق تلك، وهذه تقبل هذا قبلات مسكرات، وهذا غريب مشدود يرى ويبصر وكأنه لا يرى ولا يبصر.
في هذا الشارع البهيج الذي يجمع قلب باريس في قبضة الحياة سمعت من يذكر اسمي ولقبي بصوت أيقظ في حاسة غريبة مدفونة في الأعماق منذ أيام الحداثة، فاتجهت صوب رفيق المدرسة الذي لقيني هنا فعرفني، فناداني فاستجبت.
مشينا على غير هدى، تبادلنا ألف تحية وأشواق، يممنا مقهى أعرفه، ولما جلسنا في زاوية منفردة فيه تأملت صاحبي فإذا بالأعوام بدلت من ملامحه وتركت في وجهه بعض التغضن حول العينين، وثنيات واضحة في الجبين، وشعرات رمادية ظاهرة في السالفين، قرأت في نظراته معاني التوطد والثقة بالنفس، ولمحت فيها بقية من آثار الذبول والحزن. أخذنا نتكلم
ونعيد تلاوة صحائف الماضي ونستعرض ذكريات المدرسة بلذة وفرح، ونسرد فصول رواية الحياة الكبرى بين مآسي المرآة وفواجع كسب المال.
أنبلج الصبح انطفأت مصابيح الكهرباء، تبدلت وجوه رواد القهوة وقد أورمها السهر وخنقتها الخمر بوجوه نضرة فياضة بقوة الراحة المستمدة من النوم تستقبل النهار لتستأنف الجهاد في ميادين العمل، بقيت وصاحبي وحدنا الجالسين الهانئين بذكر حوادث الماضي ثم افترقنا على موعد للتلاقي.
كان الليل يجمعني وصاحبي في باريس على مائدة طعام أو شراب، وكان لنا في كل جلسة جولة أو جولات في معترك الحياة، غير أن جلسة الليلة اختلفت عن سابقاتها في الجو الذي هيأه وجود كاهن شرقي أعرفه بصحبة سيدة في المطعم.
جال خاطر مفاجأ في ضميري فابتسمت، استطلعني صاحبي معنى الابتسامة فرغبت إليه أن يقرع بكأسه كأسي فنشرب النبيذ البكر على ذكر صداقتنا البكر!!
نظر إلى متعجباً وقال: هل من طارئ جديد؟
قلت: بلى قال: ما هو قلت: هل في وسعك الآن وقد طويت مرحلة من الشباب

واكتملت رجولتك أن توضح لي أسباب حزنك في حداثتك ونفورك من والديك، وتوقك إلى البعد عنهما، وقطيعتك إياي وقد أفسدت عليك تدبير التحاقك بالآباء البيض؟
أبتسم صاحبي فذكرني بسمة العروس الأرملة وقال: أحسب وجود الكاهن في المطعم بثوبه الأسود الفضفاض ولحيته المسبلة على صدره هو الذي نبه ذهنك إلى هذا الموضوع.
قلت: هو ذاك
سكن صاحبي هادئاً كأنه يفيض ذهنه في قلبه، وأطبق أو كاد يطبق أجفانه كمن يقرأ سطور الضمير في سفر الغيب، وطفق يقول: إشكر لك هذا السؤال، لأن في الإجابة عليه تفريجاً عن كرب مستعص آن أوان البرء منه.
كانت عقدة نفسية عقدتها الحساسية المرهفة والشعور الوجداني فحللتها لوحدي على مهل. أُكرهتْ والدتي على الزواج من والدي الأرمل ولما يكن له من العمر تسعة عشر عاماً بعد، فكان جمالها، ووجاهة أهلها، وزواجها من فتى أرمل، علة جرحت كبرياءها بين أترابها الفتيات، وبثرة تنكأ النكد الأليم والنفور المتواصل ونزق الشباب، فكنت أستشعر أني
الجسر الذي يربط قلبين متنافرين.
كنت ثمرة زواج أنضجتها عناصر الجسد ولم تشملها موجات الروح بوحدات من الحنان والعطف الوالدي إلا بمقدار ما كانت الوسيلة تمهد للغاية!!
ودت لو أكون الوسيلة لإقرار الغاية المثلى من الزواج، ألا أن الغاية كأنها تكونت للاتصال الوقتي الذي يعقبه النفور، فكنت أتمنى لو يتهدم الجسر فيبقى كل قلب على ضفة يشطرها عن أختها نهر الحياة!!
آثرت الصدوف عن مرآي زهرة نبتت عفواً في ارض رملية، وعزفت عن تربة لا حياة فيها ولا رجاء، فلذلك كنت أنكر نفسي وأشفق على الناس يلمّ بهم حزني، وأبكي لشقاء والدي.
كان يعرف والدي في حدة الإحساس والشعور المرهف فأستبدل أبوته لي بأخوة.
أقنعني، لما أبلغته أنت خبر اعتزامي على الالتحاق بالآباء البيض، بأن في ابتعادي عنه مهدمة عاجلاً لحياة تنهار من نفسها ببطء، ويتمنى أن لا أتعجل انهيارها فيبلغ القبر قبل أن أشب وأقوى، وقال دع البيت يحترق بنار هادئة ثم أعمل أنت على بناءه من مواد لا تقبل الاحتراق.
ثم قال لي: لا فائدة من علوم الكهنوت للذين يتهيئون لأن يطلوا على أرجاء الحياة السحيقة من كوات الدين الضيقة، وأن علوم الدين على وجاهتها وقداستها، تغل العقول، وتضيق الأذهان، وتبلد طبيعة الرجولة في الإنسان، وأن الكهنوت صناعة يحترفها الكسالى والبلداء، وأن الرجل الذي يعارك الدهر ويظفر منه بسلاح من الخلق السامي ونبالة القصد، والذي ينصر الإنسانية بروح منبعث من فيض إنسانيته هو، لا من تعاليم تحورت فصيرت جماعات الإنسان عبيداً للأفراد من بني الإنسان.
رأيت دموعاً جالت في عيني صاحبي وتحدرت كالبرد على خديه، ولمحت صور نفسه تشرق وتتجلى في صفحة جبينه وتقاطيع وجهه، وتكور جفونه، وانقباضات حاجبيه وشفتيه.
تناولنا كأسينا فأفرغنا ما بقي فيهما، أترعناهما بالرحيق من جديد، زودت غليوني بالتبغ، وقبيل إشعاله سألت صاحبي: ماذا كان مصيرك لو ذهبت صحبة الآباء البيض وتعلمت تعاليمهم، وتلقحت بمبادئهم، ونذرت الطاعة والعفة والفقر مرضاة لله وطمعاً في الآخرة؟
لا، لا، قال صاحبي: هذا سؤال لي أطرحه عليك، هذا عبء ألقيته عن ضميري منذ اتجهت صوب المادة أعالج شؤونها معالجة عامل عقله في ساعديه وذهنه بين ساقيه، وقلبه في (كرشه)، أجب أنت يا صديقي على هذا السؤال لأني آليت منذ هجرت الأهل والوطن أن ألتزم الآلة فأكون مثلها، تحركها القوة الدافعة، يغذيها الحريص على بقاءها بالزيت والشحم!! قل، أجب، أشرح لأني أتوق إلى معرفة ذلك المصير، مصيري لو صرت كاهناً، لأنه كثيراً ما أقض هذا الخاطر مضجعي، وعكر راحتي، وسلب الرقاد من جفوني على كره مني.
أشعلت غليوني، أخذت أنظر الدخان لأعقد حلقات تتمدد وتتبخر كخواطر الإنسان،

وأرى النار تتأجج وتهمد في قلبه كالرغبات في ضمير رجل، ثم سمعت نفسي تناجيني وضميري يسارني فقلت:
ماذا تراني كنت أكون لو فعلت تلك الفعلة؟ هل كانت تتبلد مشاعري، ويتحجر إحساسي وتتكور نظراتي، ولا تعود آرائي تدور إلا حول نقطة مجهولة في مصير مزعوم طمعاً في وهم ملفق؟
هل كنت أتعامى عن الدنيا وما فيها من بدائع صنعها الإنسان بقدرته فصيرها جنة لمن يطيب له النعيم في الجنات، وجهنم لمن يرتاح إلى الشقاء في الجحيم؟
هل كنت أنطوي على جوفي الخالي ورأسي القحل كما تنطوي الحية على نفسها في الرمال تتلمظ السم من أنيابها في انتظار حياة رغده في فصل الربيع الذي لا شك في إقباله بالخيرات
هل كنت أتوسد فراشاً محشواً بشوك الحرمان!، التحف الكبد أتقلب على جمرات من عذاب الجسد، ليس لي من مجير سوى حقنات الكافور تخمد إلى حين ثورة الأعصاب المتشنجة، والنفس المحمومة، والروح الحائر؟
هل تراني كنت أتوجه صوب السماء الصامتة أطلب الغوث من سكانها الصامتين؟
ماذا تراني كنت أكون لو فعلت تلك الفعلة؟
هل كنت ألبس المسوح وأسكن الأديار النائية، أعد دقائق العمر بين السأم والملل، والرجاء
والخيبة، والشكوك والريب، والاستسلام والخمود؟ هل كنت أعزف عن الدير ومساجينه، والزهد وقتلاه، وأطمئن إلى سكن المدن حيث الزلفى إلى الأغنياء، والسلطان على الفقراء، والراحة للجسد، والشبع للمعد؟
هل تراني كنت أنطوي مع من انطوى قبلي من الأغنياء، أو أتمرد وأأتمر فأصل ذروة العرش فأحمل صولجان، وألبس تاج أتدثر طيالسة القياصرة، وأترك الصليب الثقيل للمتجردين، وأرغم الضعفاء على طاعتي باسم الصليب المقدس؟
صمت قليلاً وكان صديقي يصغي إلي، تجرعت جرعة من الشراب هدأت بها نفسي مما ساورها وباعدت بها عني حمم التصورات والتخيلات وقد ازدحمت في الذهن وأخذت تتدفق كسوائل صهرها البركان لتصل إلي العقل الذي يوازن ويقارن ويفاضل وإذا بي أسألها من جديد أسئلة عالجها لويجي بيرانديللو من قبل، وهي:
أية سيادة لنا على عواطفنا وأفكارنا وإرادتنا وشخصياتنا؟ ألسنا كلنا خاضعين لضروب) التأثيرات النفسية والجسدية وأن ليس لنا وجود شخصي معين؟ ألسنا وجدنا لنكون تبعاً لأعمال الآخرين؟ ألسنا نلعب الدور الذي يفرضه علينا مجتمعنا وبيئتنا وضعتنا، وأننا ننتهي إلى حيث لا نعرف أين نحن، وأننا لا ندري ما إذا كانت شخصيتنا الحقيقية هي (التي نحلم بها، وهي التي نحياها، أو هي التي تتظاهر بها أمام الناس
أسمع يا صاحبي وأصغي إلي، أن إنساناً واحداً في هذا الوجود له السيادة المطلقة على الفكر والعاطفة والإرادة الشخصية، وأنه وحده غير الخاضع لتأثيرات النفس على الجسد، هو وحده المتمرد على البيئة والمجتمع والعرف والقانون، هو الفريد في هذا الوجود، له وجود شخصي معين يعرف البداية كما يعرف النهاية هو صاحب الرسالة، الرسالة التي يضعها الإنسان لأخيه الإنسان، رسالة غير منزلة على القلب، ولا مكتوبة على الحجر، ولا مبعوث بها مع رسول، إنما هي أناة المجاميع، وتوجعات العبيد، وعويل الإجراء، يصورها بالقلم ضمير إنسان مثلي ومثلك يشعر بالأنين والوجع والعويل أكثر مما يشعر بها أولئك الصادرة عنهم أنفسهم، ويحس بالظلم والجبروت والطغيان والقهر الصادرة عن أفراد أشرار يعبثون بالمجاميع، يلهون ويلغون في جسومهم وأبدانهم ودمائهم كما لو أنها نازلة فيه ومنصبة عليه، هذا الإنسان من القلائل الذين يحملون رسالة مساواة الإنسان بأخيه، هذا
الرسول الذي تتمخض الإنسانية فتلده، لا يمكن مطلقاً أن تقيده قيود إكليريكية، أو علمانية، أو تغله سلاسل الملكية أو الإقطاعية، أو تعوقه البرجوازية أو الرأسمالية لأنه خلق في الأصل لأن يكون صاحب رسالة!!
شتان يا صاحبي بين رجل روحاني تطوح به الأقدار والمصادفات فتلقيه بين مخالب المادة فتكتنفه من كل جانب فتغرقه بين طيات لذاذاتها، وبين رجل موهوب لو اجتمعت عناصر الطبيعة، وأتمر الوجود على طمسه والطغيان على وجوده لسخر من

الطبيعة والوجود وبرز كالظاهرة الكوكبية في أجواء الفضاء يلمع ويسطع بين عناصر الكون ليتمها بوجوده!!
شتان بين البارقة من الروح وإشعاعاتها كلها، في كل إنسان نسمة من هذا الروح. أما صاحب الرسالة فهو روح بذاته.
ستعود إلى أمريكا وأرجع أنا إلى مصر، وقد نتلاقى ثانيةً، وقد لا نتلاقى لا في هذا العالم ولا في العالم المجهول، وستبقى أنت كما كنت مجداً في تنظيم مشاريعك الاقتصادية تموه بها على نزعة النسمة من روحك التي أكسدها الاستغراب في المادة، وسأرجع أنا إلى مثل ما أنا كنت عليه في تصوير الجمال بالألفاظ المتناسقة إرضاء لنسمة الروح المصقولة باندماجي فيها، وستلد الأمهات الآلاف مثلك ومثلي، وسيكون لكل منهم اتجاهه الخاص. نعم، وقد تعوق اتجاهه بعض العوامل الخارجية وتعرقله في إظهار ما في وسع نسمة الروح إظهاره من رسالة، ولكنها لم تصده عن إتمامها على الوجه المقنن في خصائصها وعناصرها المقننة!!
كلنا أبناء الطبيعة الهوجاء، والقدر الأرعن، والمدبر العابث، كلنا صرعى الفوضى وضحايا التشتت، إنما الرسول الملهم هو الذي يستجمع من الهوج والرعن والعبث ألواناً زاهية يرسم فيها للحياة صوراً جميلة فاتنة مغرية تجتذب الجماعات المغمورة بالجهالة صوب الغاية من وجود الحياة!!
باخرتان: اتجهت الواحدة صوب الغرب تحمل رجلاً ينزف دمه في عبادة المال حيث أربابه هناك، وألقت الثانية مراسيها في ميناء شرقي تعيد إليه عابداً من عباد الحب والجمال والفن حيث آلهتها هنا!
حبيب الزحلاوي
البريد الأدبي
التعصب اللغوي بعد التعصب الجنسي
ظهرت في إيطاليا أخيراً حركة للعمل على تطهير اللغة الإيطالية من العبارات والكلمات
الأجنبية؛ وبطل هذه الحركة كاتب معروف هو السنيور باولو مونيلي، وقد أذاع دعوته في كتاب شديد اللهجة يدعوا فيه إلى تحرير اللغة القومية العريقة من ذلك السيل من الكلمات والعبارات الأجنبية (البربرية) ويعترف السنيور مونيلي بأن هناك كلمات أجنبية في دوائر الأعمال والرياضة يصعب الاستغناء عنها، ولكنه يرى أنه يمكن الاستغناء عن الكثرة الساحقة من الكلمات والعبارات الدخيلة التي تشوه جمال اللغة الإيطالية وتظهرها بمظهر القصور والفقر في حين إنها من أعرق لغات الأرض وأغناها.
وهذه الحركة التي يدعوا إليها الكاتب الإيطالي بالنسبة للغة الإيطالية ليست إلا طرفاً من الحركة العامة التي ظهرت من قبل في تركيا الكمالية وفي ألمانيا، ثم ظهرت أخيراً في إيران؛ ومما يلاحظ بنوع خاص إنها من أثار النظم الطاغية التي تسيطر على هذه الأمم وتمعن في فهم النزعة القومية وتدفعها إلى حدود التعصب الجنسي والعلمي. ففي تركيا تضطرم الحكومة الكمالية بنزعة بتعصب عميق نحو الإسلام ونحو اللغة العربية التي هي من أبرز مظاهره، وتبذل منذ بضعة أعوام مجهوداً عنيفاً لاستبعاد الألفاظ العربية من اللغة التركية مع إنها تكاد تتفوق فيها على العناصر التركية الأصلية، وإحياء الألفاظ التركية القديمة؛ بيد إنها مع ذلك تضطر إلى الاشتقاق من اللغات الأوربية بكثرة ظاهرة، مما يدل على أن الغاية الحقيقية ليست تحرير اللغة التركية من الألفاظ الأجنبية، بل قتل العناصر العربية فيها تحقيقاً لبرنامج الكماليين في محو كل آثار للإسلام والعربية من الحياة التركية الجديدة. وفي ألمانيا الهتلرية تجري حركة لاستبعاد الألفاظ الأجنبية وتطهير الجرمانية منها. وهذه حركة نستطيع فهمها، في أمة عظيمة كألمانيا ذات لغة عريقة محدثة، وإن كانت فكرة الهتلريين لا تخلوا مع ذلك من عناصر التعصب القومي والجنسي. كذلك أخذت إيران أخيراً تحذو حذو تركيا في حذف الألفاظ العربية من اللغة الفارسية؛ بيد أن حكومة الشاه تجري في ذلك هوادة واعتدال، وتؤكد للعالم العربي أنها لا تبغي سوى غاية لغوية ثقافية ترى تحقيقها بأحياء مجد اللغة الفارسية القديمة.
كتاب عن ضحايا الثورة الفرنسية
صدر أخيراً بالإنكليزية كتاب جديد عن الثورة الفرنسية بقلم دونالد جرير؛ وعنوانه

(حوادث عهد الإرهاب) فهو إذن يتناول هذه الناحية من حوادث الثورة فقط، وهي بلا ريب من أخصب نواحي الثورة وأحفلها بالحوادث الرائعة.

وقد ظهرت عن الثورة الفرنسية في معظم الآداب الحية كتب ومؤلفات لا حصر لها، ومنها آثار جليلة شاملة، ولكن الثورة الفرنسية تبقى أبداً موضوعاً للتأمل والدرس، ولا ينضب معين الطرافة والجدة في حوادثها وأسرارها الدفينة. ومؤلف اليوم ليس قصة، وإن كان ما يورد من الحوادث يفوق القصص من غرابته وروعته، بل هو تأريخ محقق من الوثائق والسجلات والمراجع المحترمة؛ وفيه يقص المؤلف حوادث عهد الإرهاب الذي أزهقت فيه عشرات الألوف، ويصور لنا حالة الفرائس المسوقة من الكبراء والنبلاء، ويسرد حوادث محاكمتهم وإعدامهم في روية واعتدال، وقد انتهى المؤلف إلى القول بأن من اعدموا خلال هذا العهد بواسطة المقصلة يبلغون 594 , 16 نفساً، وأن هناك عدداً أكبر يقدر بين ثلاثين وأربعين ألفاً هلكوا في السجون من المرض والبرد والمعاناة النفسية؛ وتقديره النهائي هو أن خمسة وخمسين ألفاً هلكوا ضحية الثورة الفرنسية، هذا بينما يقدر بعض الباحثين من هلكوا في الثورة الروسية الأخيرة (الثورة البلشفية) بخمسين ألف فقط، ويعرض لنا الكاتب في أسلوب قوي شائق العوامل والأسباب التي يعتقد أنها مبعث هذا العنف والسفك المنظم.

مشروع علمي جليل: سلسلة المعارف العامة

اعتزمت لجنة التأليف والترجمة والنشر إخراج كتب لطيفة الحجم يتناول كل كتاب منها موضوعاً خاصاً علمياً أو أدبياً؛ وترمي بذلك إلى تكوين سلسلة تشمل جميع النظريات الحديثة في الجغرافيا والتاريخ والفلسفة والتربية والطبيعة والكيمياء وغير ذلك؛ وقد سلكت في ذلك طرقاً مختلفة، فأحياناً تترجم كتباً أجنبية إذا رأتها صالحة كل الصلاحية، وأحياناً تؤلف في الموضوع بما يتفق وذوق الجمهور العربي.

وقد بدأت هذا الشهر في إخراج ثلاثة كتب.

(الأول) عرض تاريخي للفلسفة والعلم تأليف أ. وولف وترجمة الأستاذ محمد عبد الواحد خلاف، وهو كما يدل عليه أسمه نظرة عامة في تأريخ الفلسفة والعلم من بدء نشأتهما إلى الآن.

(الثاني) الآراء الحديثة في علم الجغرافيا تأليف ل. ددلي ستامب وتعريب الأستاذ أحمد محمد العدوي مدرس الجغرافيا بالجامعة المصرية.

(الثالث) سكان هذا الكوكب تأليف الدكتور محمد عوض أستاذ الجغرافيا في الجامعة المصرية يبحث في سكان الكرة الأرضية من بني الإنسان من حيث نشأة النوع البشري وتعدد الأجناس ونمو السكان وتوزيعهم على سطح الأرض مع دراسة تفصيلية لحالة السكان ومشاكلهم في مختلف الأقطار.

وستخرج اللجنة في شهر فبراير سنة 1936.

(1) كتاب (البراجماتزم) أو الفلسفة الأمريكية تأليف الأستاذ يعقوب فام.

(2) كتاب (النقد الأدبي) تأليف لاسل أبر كرومبي وترجمة الدكتور محمد عوض.

(3) كتاب (علم التاريخ) وهو بحث في النظريات الحديثة لعلم التاريخ ترجمة الأستاذ عبد الحميد العبادي.

وهكذا ستسير اللجنة على هذا النمط في إخراج أجزاء السلسلة تباعاً في فروع العلم المختلفة.

وقد شجعت وزارة المعارف العمومية اللجنة على هذا العمل بمساعدتها المالية والأدبية.

وترجوا اللجنة باستمرارها في هذا العمل أن تكون منه دائرة معارف عامة تشمل كل الموضوعات العلمية والأدبية.

رئيس لجنة التأليف والترجمة

أحمد أمين

تجربة لاختبار الذكاء

قامت بعض دوائر التربية في اليابان بتجارب عقلية لاختبار ذكاء التلاميذ في المدارس الابتدائية، وجعلت الحد الأعلى لمقدرة التلاميذ 150 درجة واختبرت بهذه الطريقة

سبعة آلاف تلميذ فلم ينل منهم الحد الأعلى أعني 150 درجة سوى 165 تلميذاً فقط وظهر من
التجربة أن اختلاف السن بين الوالدين لا يؤثر تأثيراً سيئاً على الصفات العقلية للنسل؛ ذلك لأنه وجد بين هؤلاء المائة وخمسة وستين تلميذاً النابغين عدد كبير من الأبناء الذين ولدوا من آباء سنهم بين الثالثة والأربعين والخامسة والأربعين، وأمهات بين الخامسة والعشرين والسابعة والعشرين. بيد انه وجد في معظم الحالات أن هؤلاء التلاميذ ولدوا من آباء في نحو الثلاثين وأمهات في نحو الرابعة والعشرين.
وقد ظهر أيضاً أن الوالدين الفتيان لم ينجبوا أبناء في منتهى الذكاء، وأن الزواج الباكر جداً ينتج أبناء لا تفتح مواهبهم العقلية تفتحاً تاماً؛ هذا وقد لوحظ مع الدهشة أن الموظفين والمستخدمين الصغار هم آباء أذكى التلاميذ، ثم يأتي بعدهم التجار، ثم أرباب الصناعات فالمربون فالأطباء فالعمال.
ومما أظهرته التجربة أيضاً أن أذكى التلاميذ هم كذلك أصحهم بنية وجسماً.

آثار العمالقة

يقدم إلينا القصص القديم كثيراً من سير العمالقة والمخلوقات الضخمة التي لم تعرفها عصور التاريخ المدون؛ والظاهر أن أولئك (العمالقة) لم يكونوا مجرد خيال فقط صوره القصص القديم؛ ففي الأنباء الأخيرة أنه اكتشفت في منطقة مانيتوبا في كندا (أمريكا الشمالية) هياكل بشرية ضخمة يبلغ طولها نحو ثمانية أقدام (نحو مترين وثلاثة أرباع المتر)، وأحدها في حالة جيدة من الحفظ، وكان اكتشافها على عمق أربعة أقدام في أحد المحاجر التي تستغل في تلك المنطقة.
وقد استدعيت بعثه من الأخصائيين من علماء التشريح وعلم طبقات الأرض برآسة الأستاذ ديلوري أستاذ علم طبقات الأرض بجامعة وينبج، فصرح بعد بحث الهياكل أنها ترجع إلى عدة آلاف من السنين، وأنها تنتمي إلى جنس من العمالقة كان يسكن غرب كندا قبل مجيء الهنود الحمر بأحقاب بعيدة.
هذا عن العمالقة من بني الإنسان. أما المخلوقات الضخمة التي يذكرها القصص القديم، فتدل الأبحاث العلمية الحديثة على أنها كانت توجد في غابر الأزمان في بعض جهات الصين وأفريقية الجنوبية كما تدل على ذلك بقايا العظام والهياكل الضخمة التي اكتشفت في تلك الأنحاء. وأما الأحياء المائية الضخمة فما زالت توجد حية في بعض البحار وإن كانت
قد غدت نادرة بحالة تؤذن أنها أضحت على وشك الانقراض.

أثر خطي نفيس

لا تزال الأديرة القديمة في مختلف أنحاء أوربا تحتفظ بكنوز من الآثار الخطية القديمة؛ ومن هذه الأديرة دير كرمز منستر بالنمسا، فهو يحتفظ بطائفة من مخطوطات العصور الوسطى، وفي الأنباء الأخيرة أن مكتبة الدولة في بافاريا قد حصلت من هذا الدير على مخطوط اثري نفيس للشاعر الألماني هنيرنخ فون منخن وهو مخطوط يرجع إلى القرن الرابع عشر، وفيه قصص شعرية رائعة مأخوذة من التوراة، وقصص أخرى من العصر القديم حتى عصر كارل الأكبر، وقد تولى شراءه لحساب مكتبة بافاريا الهير فون بابن سفير ألمانيا في النمسا.

وفاة مؤلف موسيقي

من أنباء فينا (النمسا) أن المؤلف الموسيقي الشهير البان برج قد توفي، وكان مولده في فينا منذ خمسين عاماً، ومع انه من تلاميذ المدرسة الإمبراطورية القديمة، فأنه نحا في التأليف الموسيقي نحواً جديداً، وله مقطوعات موسيقية كثيرة، وقطعة (أوبرا) تسمى (فوتسك) نالت نجاحاً عظيماً، وكان إلى ما قبل وفاته بأيام قلائل يقود حفلاً موسيقياً عظيماً في أحد المسارح فينا الكبرى، فأثارت طريقته الجديدة استحساناً عظيماً كما أثارت نقداً عظيماً، ويرى النقدة أنه لم يبلغ ذروة قوته وفنه، وأن الموت عاجله، فأصابت الموسيقى النمسوية بفقده خسارة لا تعوض.

جوائز أدبية نمسوية

ومن أنباء النمسا أيضاً أن جائزة الدولة النمسوية عن الأدب لسنة 1935 قد منحت إلى الأستاذ بركونج، ومنحت جائزة الدولة للموسيقى إلى الأستاذ يوسف مسنر رئيس

فرقة سالزبورج الموسيقية؛ ونال جائزة التأليف الموسيقي المؤلف الموسيقي الشهير الدكتور فريدريخ ريدنجر.

الكتب

كتاب اللآلئ

شرح امالي القالي

للأستاذ أحمد أمين

أخرجت المطابع الشرقية، آلاف الكتب العربية، ولكن - مع الأسف - لم يكن الإخراج في أكثر الأحيان على نمط علمي ولا قريب منه؛ فكثير من الناشرين تجار لا علماء، يهمهم الربح أكثر مما تهمهم الدقة والضبط، فهم يعهدون في تصحيح كتبهم إلى من ليسوا محل ثقة، ولا أمانة، فلا يكلفون بنفسهم عناء جمع النسخ من الكتاب ليستعينوا بها، بل يعتمدون على نسخة واحدة وقد يكون غيرها خيراً منها، ثم لا يرعون الأمانة فيما بين أيديهم. فقد لا يفهمون جملة فيغيرونها أو يحذفونها، وقد لا يستطيعون قراءة كلمة فيضعون كلمة أخرى من عندهم محلها، من غير إشارة ولا تنبيه. فخرج كثير من الكتب وعدمها خير من وجودها، والنار أولى بها من المكتبات. وأمامي الآن وأنا أكتب هذه السطور كتاب الحيوان للجاحظ فلا أستطيع أن أقرأ صفحة منه من غير أن أعثر فيها على عدة عثرات، من نقص، إلى تصحيف، إلى زيادة حرف، إلى لحن، إلى ما شئت من كل ضروب الخطأ - مع أن في مكاتب العالم نسخاً يمكن بموازنتها إخراج نسخة أقرب إلى الضبط أدنى إلى الكمال. ومثل كتاب الحيوان غيره من الكتب الأخرى يطول القول بتعدادها، فنحن إذا عددنا الكتب الصحيحة أو القريبة من الصحة سهل علينا عدها، وإذا عددنا السيئة المغلوطة أعيانا العد، وقد أعرنا بعض العناية لكتب الحديث كالبخاري ومسلم، وكتب اللغة كالقاموس واللسان. فأما غير هذين النوعين فقد كان مجال الخطأ فيه فسيحاً وفي ميدانه متسع للجميع.

وقد سبقنا المستشرقون في النشر وطرقه بمراحل ووضعوا له قواعد وأصولاً؛ ولست أنسى المحاضرات القيمة التي ألقاها في سنة المرحوم (برجستراسر) في كلية الآداب بالجامعة المصرية في كيفية معارضة النسخ القديمة بعضها ببعض وكيفية النشر وما يجوز للناشر وما لا يجوز. . . الخ

وكان كثير من الكتب التي أخرجها المستشرقون مثالاً صالحاً، لأنهم يعدون نشر الكتاب من الناحية العلمية لا يقل قيمة عن التأليف، فالعالم كما يعد من مفاخره أنه ألف كتاباً، يعد من مفاخره كذلك انه نشر كتاباً؛ وكما لا يضن بجهده ووقته فيما ألف، لا يضن بهما فيما ينشر. ومن الأوليات عندهم أن يجمعوا كل النسخ من الكتاب الذي يريدون نشره من مكاتب العالم ما استطاعوا، ويصرفوا الزمن الطويل في مقابلة بعضها ببعض والتعليق عليها وضبط أعلامها وغريبها، ولا يألوا جهداً في إيضاح الغامض وتبيين الشكل، ووضع الفهارس للأعلام والبلدان وما إلى ذلك. فلا عجب أن يصرف الأستاذ (ريت) عشر سنوات في تصحيح كتاب الكامل للمبرد ونشره لأول مرة؛ وفضله وجده ظاهران في الطبعات المصرية التي نشرت بعد، حتى سهل على العالم أن يدفع الثمن الغالي لكتاب طبع طبعة أوربية ولا يدفع الثمن البخس في طبعة له مصرية. أن شئت فوازن بين كتاب الشعر والشعراء لأبن قتيبة المطبوع في أوربا والمطبوع في مصر، فهو في مصر ناقص أكثر من نصفه، ومحرف تحريفاً شنيعاً، وهو في أوربا كامل مضبوط صحيح بقدر الإمكان.

ومما نغتبط أن نرى من أهل اللغة العربية أنفسهم من حذا حذو المستشرقين في نشر الكتب، بل فاق بعضهم أحياناً، فبذل الجهد في التصحيح والتعليق ومعارضة النسخ وعمل الفهارس، وهذه طليعة حسنة نرجو أن تستمر وترقى. فرأينا مثلاً من ذلك فيما تنشره دار الكتب من كتاب الأغاني ونهاية الأرب وغيرهما، وفيما تنشر لجنة التأليف من كتاب السلوك للمقريزي.

ولعل من أجل الأعمال في هذا الباب ما فعله صديقنا الأستاذ عبد العزيز الميمني في نشر كتاب اللآلئ في شرح أمالي القالي للوزير أبي عبيد البكري، فقد اختار كتاباً للنشر فأحسن الاختيار، لأن كتاب الأمالي عدّ - من قديم - أصلاً من أصول الأدب التي اعتمد عليها الأدباء في العصور المختلفة إلى الآن، وقد كان النواة الأدبية الأولى التي

بذرها أبو علي في بلاد الأندلس من علوم المشرق فنمت وأثمرت ونضجت وآتت أكلها كل حين بإذن ربها وقد كانت أماليه المدرسية التي تخرج عليها مشهورو الأدباء في الأندلس ولقيت منهم من العناية ما هي جديرة بها. وكان للأمالي طابع خاص غير الطابع الذي غلب على أمثالها من كتب الأدب كالبيان والتبيين للجاحظ، والكامل للمبرد؛ فكتاب البيان والتبيين طابعه مختار من الأدب صبغ بصبغة الجاحظ من ميل للاستطراد الكثير وتحدث في الشؤون الاجتماعية،

واقتباس من الثقافات الأجنبية، كالثقافة الفارسية والهندية واليونانية، وميل إلى الفكاهة والأحماض؛ وكتاب الكامل غلبت عليه طبيعة المبرد من ميل إلى النحو والصرف، لأن المبرد كان أديباً نحوياً فأحسن ما يعجبه من الأدب ما استطاع أن يخرج منه إلى مسألة نحوية أو صرفية ثم يطيل النفس في ذلك حتى كان الكتاب كتاب نحو؛ وهو لا يستطرد في الشؤون الاجتماعية كما يفعل الجاحظ، ولكنه يعنى بالثقافة العربية مصبوغة بالصبغة النحوية؛ فمظهر الجاحظ مظهر المتكلمين من سعة الإطلاع وتفتيق الموضوع، ومظهر المبرد مظهر النحويين الأدباء من تشقيق اللفظ وتخريجه وإعرابه واستعراض معاني الكلمات في أوضاعه المختلفة.

أما القالي فقد غلب عليه الأدب واللغة اكثر من غلبة النحو والحديث؛ وأكثر ما ألف في اللغة والأدب، فقد ألف البارع في اللغة، وشرح المعلقات، وكتب في الإبل ونتاجها، والخيل وشياتها الخ. فثقافته ثقافة عربية لغوية؛ ثم هو ليس عربياً كالجاحظ والمبرد بل هو مولى للأمويين: كان جده سلمان مولى لعبد الملك بن مروان، ولعل هذا ما حدا به إلى أن يرحل من الشرق إلى دولة مواليه الأمويين في الأندلس؛ وهذا يميزه عن الجاحظ والمبرد بأن علمه كان علم حفظ وجمع ورواية لا تعتمد على السليقة كما يعتمدان. فهو إذا أراد أن يخطب أرتج عليه، ولكنه في درسه واسع العلم غزير الرواية وكان كتابه الأمالي مظهراً لذلك، ينقل القطعة المختارة من العرب في شعرهم ونثرهم وحكمهم وخطبهم ووصاياهم - واكثر ما ينقل عن أستاذه أبي بكر بن دريد - ثم يتبع نقله بتفسيره بما ورد في القطعة الأدبية من ألفاظ لغوية، ويشقق الكلمة اللغوية ويبين معانيها، وكثيراً ما يستشهد على معنى الكلمة ببيت من شعر قديم أو مثل سائر أو نحو ذلك. وكتابه يمتاز بأنه يروي كثيراً من القصص العربية الأدبية، وهي نزعة أتت له من ابن دريد، فقد كانت على ما يظهر محباً لهذا النوع من القصص اللطيف. فأكثر ما يرويه القالي في أماليه من هذا القبيل: فأعرابيات يصفن آباءهن، ومحاورة للفرزدق مع بعض الأعراب، ووصف أعرابي للدنيا وقد سأل عنها، ووصايا رجل لبنيه وامرأة لبناتها الخ؛ فمختاراته ليست جافة جفاف (الكامل)، ولا أدباً بحتاً كأدب (الكامل)، إنما هو أدب فرش له فرش جميل وعد له إعداد أنيق. لم يجرد فيه الظروف من ظرفه، ولم تسلب فيه الحسناء حليها؛ وقل أن يتعرض فيه

للنحو والصرف الثقيلين كما يفعل المبرد ولا للاستطراد الخفيف الروح كما يفعل الجاحظ. إنما خفة روح الأمالي من نمط آخر غير نمط البيان والتبيين، نمط فيه التاريخ والقصص والأساطير أحياناً ممزوجة بالأدب، ثم تفسير لما ورد فيها من غريب اللغة.

ولكن أخذ عليه بعض أشياء في تأليفه، فجاء أحد موطنيه وهو أبو عبيد البكري الأندلسي أمير لبلة وصاحب جزيرة شلطيش، فأراد أن يخدم الأمالي بتكميل نقصها، وتحلية عاطلها، فألف في ذلك (كتاب اللآلئ في شرح أمالي القالي) وأجمل غرضه فيما قدم بين يدي كتابه فقال: (هذا كتاب شرحت فيه من النوادر التي أملأها أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي ما أغفل، وبينت من معني منظومها ومنثورها ما أشكل، ووصلت من شواهدها وسائر أشعارها ما قطع، ونسبت من ذلك إلى قائلي ما أهمل. . . وذكرت اختلاف الروايات فيما نقله ذكر مرجح ناقد، ونبهت على ما وهم فيه تنبيه منصف لا متعسف ولا معاند، محتج على جميع ذلك بالدليل والشاهد والمستعان الله).

ثم جاء الأستاذ عبد العزيز الميمني الهندي أستاذ اللغة العربية بجامعة عليكره فقام في هذا الكتاب مقام يستحق الإعجاب حقاً، ويستحق التقدير حقاً، وقد دلنا منه على علم غزير وإطلاع واسع وأن لم يكن ذلك خافياً علينا من قبل.

فقد أخرج كتاب (اللآلئ في شرح أمالي القالي) إخراجاً علمياً على النمط الذي ننشده، فعارض بين نسخة المختلفة من مكية وألمانية؛ وبذل أقصى الجهد في

تصحيحها، ولاقى عرق القربة في ضبط أعلامها وبلدانها وأشعارها وغريبها، ووقف في كثير من المواضع موقف الحكم بين أبي على وأبي عبيد، ينتصر لهذا حيناً وذاك حيناً بالدليل والبرهان؛ ورأى أن أبا عبيد البكري أقتصر في شرحه ونقده على كتاب الأمالي دون الذيل فوقف الميمني موقف البكري في ذلك، وشرح الذيل ونقده - وراجع في كل ذلك مئات من أمهات الكتب. وسيعجب القارئ كيف وقف على الأبيات المختلفة المنتثرة في هذه الكتب العديدة وعرف مواضعها، ووفق إلى استخدامها، ثم ختم ذلك بتصحيح أغلاط وضبط روايات، وتقييد زيادات، لكتاب الأمالي وذيله المطبوع في مطبعة دار الكتب، فأوفى في ذلك كله على الغاية.

ومنطقه في أحكامه على القالي والبكري منطق صحيح غالباً، وأن أخذ عليه شيء فاستعماله أحياناً عبارات قاسية في النقد مثل (أغلاط مستنكرة) و (متناهية في الاستبشاع) ونحو ذلك مما كنا نود أن يرفق فيه قلمه.

وعلى كل حال فقد أسدى (الميمني) إلى اللغة العربية خدمة لا تنكر، وقدم مثلاً للنشر يجب أن يحتذى.

وكان من فضل كتابه أنه (عصبة أمم) في كتاب، فأبو علي القالي شرقي استوطن قرطبة، والبكري أندلسي الأصل والنشأة، و (الميمني) هندي، ولجنة التأليف ناشرة الكتاب مصرية. فأنعم بهذه الرابطة بين القديم والحديث، وبين المحدثين في أوطانهم المتنائية وأرواحهم المتقاربة!

أحمد أمين

العدد 136 - بتاريخ: 10 - 02 - 1936

على ذكر حوادث دمشق

تاريخ يثور. . .

على ضفاف الوادي، وهضاب فلسطين، ورياض سورية، يثور تاريخ، ويغضب مجد، ويستغيث مظلوم. . .!!

على الوطن الذي ورفت على نيله أول حضارة، والبلدِ الذي هبط على طُوره أول دين، والقُطر الذي انبثقت من ساحله أول ثقافة، تُمتْحن الحرية بمن فرضوا على الملك أول دستور، وتُمْتهن العدالة ممن حملوا للهِ أول كتاب، وتُبتلى الإنسانية بمن أعلنوا للإنسان أول حق. . .!!

على هذه الأقطار الثلاثة التي شع منها السلام والإسلام والخير، يستكلب الطمع، ويشتجر الهوى، وينفجر البغي؛ فالمفاوضات وعيد، والاحتجاجات حديد، والمواعيد مراوغة، كأنما عيِّ المنطق من طول ما مارس العلم! ومات الضمير من كثرة ما دارس الخُلق! وزهق العدل من شدة ما زاول القانون!!

في القاهرة وأورشليم ودمشق، شباب يحمَي على لذع البنادق، ودم يفور على مسِّ الأسنة، وأمل يشرق فيالوجوه الوضيئة، وطموحٌ يومض في العيون الرغيبة، وماضٍ تميز في إبهام الدهر يتمثل في الأذهان الصافية، ومجدٌ تأثَّل في أربعة عشر قرناً يعصف بالنفوس الفتيَّة! فماذا تصنع مُدية اللص في قلب تدرَّع بالأيمان؟ وماذا تبلغ سطوة الباطل من حق تسجَّل في لوح الزمان؟!

يا لله! ألم يَأْن لدعاة المدنية. . . وحماة الحرية. . . ورسل العلم. . أن يروضوا عقولهم على الحقيقة، ويفتحوا عيونهم على الواقع؟! إن هذا الشعب الذي تتحلب أفواههم قَرَما لأكله، لا يزال يعيش في ملك آبائه الفاتحين، ولا يزال مطويَّ الحنايا على العزيمة التي قبض بها من قبل على زمام الدنيا، وشارك في تصريف الأقدار، وأملى إرادته على سجل الزمن! إن حلمه لثقيل، ولكن غضبته مفزعة؛ وإن نومه لطويل، ولكن يقظته مروَّعة! إنه على اختلاف أقطاره لا يزال يحمل في نفسه سر (الجزيرة) التي يعيش فيها الجمل الوقور الصابر، والأسد الهصور المتوثب!!

إن في كبد أوروبا جمرة من العرب منذ غزتها بالدين والمدنية والعلم سفائنُ طارق! ولقد انطفأت البراكين ولما تنطفئ هذه الجمرة! أجْلت العرب عن أرضها بالبربرية الهوجاء والتعصب الحاقد والقسوة الجامحة، ثم كتَّبت الكتائب الحليفة وغزتهم في عقر بلادهم باسم الدين المظلوم في عهد (صلاح الدين)، ثم بالعلم المسموم في عصر (عبد

الحميد)، ثم بالمدينة المغشوشة في عهد (عصبة الأمم)! فما كان الدين والعلم والتمدن إلا ألفاظاً حُمِلت بالكره على معاني الثأر والاستعمار والغصب! ثم أغروا بنا الجهالة والمجاعة والفوضى، ومضوا في ظلال الأمن، يعقدون من دمائنا الذهب، ويتخذون من لحومنا القوت، حاسبين أننا مخدَّرون بالأباطيل فلا نفيق، مُثْقلون بالتقاليد فلا ننهض؛ ولكن المعدن ياغُلْفَ القلوب كريم! وهذا الذي يعلوه غبار لا صدأ! وهاهي ذي سياسة الإرهاب والاغتصاب تجلوه عن شباب عرفوا كيف يموتون، أكثر مما عرفوا كيف يعيشون!! وهاهم أولاء يمشون على ما بلي من هياكل الشيوخ، كما يمشي المَرحون على ما جف من سفَير الشجر!! إنهم يسرعون الخطى إلى الربيع الباسم والجو الطليق، وفي أسماعهم المرهفة دويٌّ لا ينقطع بهذا الهتاف: (لقد فتح آباؤكم ثلاث قارات في ربع قرن، أفتعجزون عن تحرير ثلاثة بلاد في نصف قرن؟)!

إن شباب العرب مصريين وسوريين قد أخذوا موثقهم من الدم الشهيد أن يعيشوا أعزة أو يموتوا كرامًا! فلا تَتَحَدَّوا بالعذاب السفيهِ جنساً برمته وتاريخاً بأسره، ولا تعبثوا بالمعاجم التي تعب فيها اللغويون والمجامع فتسموا النهب تنظيماً والقتل تعليماً والغزو صداقة! جربوا الصداقة بمعناها اللغوي الصحيح تَفِرُوا المال والرجال والسمعة، فان هذا الشعب الذي وقعتم في صفوه، وتعبتم من غزوه، ويئستم من خداعه؛ كان له في السياسة العالمية شأن، وفي اللغة الدولية اصطلاح، وفي قيادة الإنسانية محل، ومن إصلاح المجتمع نصيب! فهو يفهم الصداقة، ويَقْدِر المعاونة، ويكبر التضامن، ويعقد صِلاته بالناس على ضوء شريعته وقرآنه!

إن سلام الشرق منوط بسلام العرب؛ وإن السلام والإسلام لفظان مترادفان على معنى واحد؛ وليس من معاني السلام المهانة، ولا من دلالات الإسلام الاستكانة! إنما هما الحياة القائمة على الحرية والإخاء والمساواة، وهي الأقانيم الثلاثة التي رسمتها الثورة على عَلَمكم المثلث!

بِغير هذا لا يرضى العرب! وبدون هذا لا يحيا العرب! فراجعوا في سياستكم العقل السالم من الهوى، والضمير الخالص من الرِّيبة، وحكموا بينكم وبينهم مبادئ الناس، فانهم - كما تحسون وتلمسون - من الناس!!

احمد حسن الزيات

في وقع الموت

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

ضمني مجلس قال أحد من فيه - وقد ذكر بعضنا وفاة الملك جورج الخامس، وقول الأطباء إنهم لم يشهدوا أعراض مرض معين، وأن قواه كانت تهبط شيئاً فشيأ -: (إن من الصعب على الإنسان أن يواجه الموت وهو محتفظ بعقله)، فقال آخر إن الذي يخفف عنه في هذه الساعة أنه يستسلم للموت ولقضاء الله فيه، فسألته: (هل معنى هذا أنه يقبل على الموت راضياً ويتلقاه مغتبطا؟

فكان جوابه: (نعم. . . . يستسلم فيفقد الموت لذعه ورهبته). . . ولست طبيباً ولا شبهه، ولكني لا أرى هذا ولا أستطيع أن أقتنع به؛ وعندي أن الإنسان لا يزال إلى آخر عمره يثور على الموت ويجاهد أن يدفعه عنه ويقي نفسه منه؛ ولكن جسمه يفقد الحيوية فتذهب معها الإرادة - لا إرادة الحياة، فإنها لا تفارقه أبداً، بل إرادة المقاومة والكفاح بعد استنزاف القوة، ويظل المرء كارهاً للموت مشتهياً للحياة متعلقاً بها، ولكنه يعرف من نفسه أنه لم يعد قادرا على المجاهدة، ويخطئه العون اللازم من الجسم فيكون كالذي فقد في المعركة سلاحه، أو فرغت ذخيرته والأعداء مطبقون عليه، فيوطن نفسه على الموت يأساً من النجاة

والمرء إنما يقاوم الموت بجسمه، وقد يستطيع بقوة الإرادة أن يطيل أمد المقاومة؛ ولكن استمرار المقاومة معناه أن جسمه لا يزال محتفظاً ببقية من القوة مذخورة - بالغة ما بلغت من الضآلة - وبهذه البقية يستطيع أن يجعل لإرادته أثراً ولمقاومته لعدوان الموت مظهراً، فإذا زالت هذه البقية ونضب المعين، لم يبق للإرادة عمل، لأن الأداة التي تعمل بها الإرادة تكون قد فنيت وذهبت

ولا فرق هناك بين من يكافح الموت - في الأحوال العادية الطبيعية - وبين من يقاتل مع جيش. فكما أن الجندي يثبت ويصمد ويتسنى له أن يكر ويفر، ويهاجم ويدافع ما بقي معه سلاحه وعدته، حتى إذا فقد ذلك لم يبق له عمل، كذلك يكون المرء حيال

الموت الذي يدلف إليه ويدنو منه على الأيام ليثبت عليه آخر الأمر. وكل ما هنالك من الفرق أن الموت كامن فينا، وأن أداته الضعف الذي يصيبنا، والهرم الذي يدركنا، والعجز الذي يستولي علينا في النهاية، فهو ليس عدواً يهجم علينا، بل حالة نصير إليها حينما تنفد الحيوية لسبب من الأسباب

وقد راقبت الموت أكثر من مرة، وشهدت كثيرين وهم في سياقه، ثم ماتوا بين يدي، وكان الموت في هذه الحالات كلها على أثر نضوب الحيوية ونفاد القدرة على المقاومة. وكانت إحدى الميتات بسبب النزف، فظل العقل حاضراً لا يغيب ولا تغيم سماؤه، ولا يتعكر صفوه؛ وكان الإحساس بدنو الأجل قوياً، ولاشك أن الرغبة في الحياة كانت عظيمة، والجزع من الفناء كان شديداً، ولكن الجسم لم تكن له قوة تستخدمها الإرادة، فخرج النفس الأخير في سلام ومن غير أن يبدو للناظر أثر للصراع. وبأي شيء يكون الصراع؟؟

وميتة أخرى شهدتها، كان الصراع فيها كأعنف ما يمكن أن يكون، لأن الجسم بوغت بعدوان المرض المنذر، فتنبه فيه كل كامن من قوته، وهبت إرادة الحياة تدفع هذه الغائلة، وكان يخيل إلى وأنا أنظر، كأن إنساناً ألقي به في الماء وهو لا يعرف من السباحة إلا لفظها، وكما يفعل المرء حين يلقي نفسه في الماء ويخشى عليها الغرق، فتراه يضرب بيديه ورجليه بغير حساب أو تفكير ويهز رأسه هزاً عنيفاً، وينفخ ويرغي، كذلك كنت أرى أمي لما أصابتها الذبحة؛ وسكنت الآلام بفضل العلاج يومين، وبدأنا نستبشر، ولكن النكسة جاءت، أو لا أدري ماذا حدث، فجعلت نوبات من الاختناق تعتريها، وبينها في أول الأمر فترات طويلة جعلت تقصر شيئاً فشيئاً حتى صارت دقائق. وكانت أول الأمر تقاوم الاختناق بشدة، وتعالج التنفس بجهد عنيف، يظهر أثره في كل عضلة من عضلات الوجه والعنق، وفي اضطراب الصدر وخفق القلب، وفي دفع اليدين والرجلين؛ وكان همي أن أقوي إرادة الحياة في نفسها وأن أمدها بما يكفي من الأمل والثقة والشجاعة، ولكن كرات الاختناق أوهت قوتها واستنفدت مجهودها، ولم يفارقها الحرص على الحياة، والنفور من الموت، وإنما خذلتها قواها؛ ولم يذهب عقلها ولا ضعف أو كل، ولكن ما خير العقل وما غناؤه وحده؟؟ وبأي شيء يشتد أزره؟ فلما جاءت آخر النوبات كان كل ما وسع الجسم أن يكافح به هذه الغارة أن الشفة السفلى اختلجت مرة أو مرتين، فهمد الجسم وكف القلب عن النبضان وانقطعت الأنفاس

وقد سقت هذه الأمثلة لأقول إن الإنسان لا يستسلم ولا يزهد في الحياة، ولا تفتر رغبته فيها، ولا يضعف كرهه للموت واستهواله للفناء، ولكنه لا يجد مؤازراً من جسمه فييأس؛

وليس هذا استسلاما وإنما هو إدراك لحقيقة بغيضة لا يبقى مفر من مواجهتها وتوطين النفس عليها، والإذعان لها كرها. وخليق بهذا أن يكون مؤلماً، ولكن فترته أقصر من أن يكون للألم فيها قيمة أو حساب، وعلى أن عجز الجسم عن المقاومة، يذهب في رأيي بالألم، لأن الألم فيها أعرف نوع من الاستجابة لوقع الشيء أو الحالة، ومتى فقد الجسم القدرة على الاستجابة للمؤثرات فانه يفقد أيضاً قدرته على الإحساس بالألم أو الحزن أو الجزع أو الفزع، لأن شعوره بذلك يقتضي أن تكون هناك بقية من الحيوية، ولو كانت هناك بقية، لاستمرت المقاومة ولظلت رحى الكفاح بين الحياة والموت دائرة

فلست أوافق الذين يستهولون أن يكون المرء مدركا لمجيء الأجل، لأن إدراك المرء لذلك، معناه أنه يدرك أن جهده نفد، وأن مَعين حيويته نضب وجف، وهذا الإدراك وحده وبمجرده، رياضة سريعة للنفس على السكون إلى المصير المحتوم، لأنه إشاعة للموت في الجسم قبل تجربة وقعه، فكأن الإنسان يوحي إلى نفسه الموت - بفضل هذا الإدراك وبقوته - قبل أن ينزل به، فإذا زاره ألفاه مستعدا له، مهيأ لتلقيه؛ والإدراك تهيّؤٌ، والتهيؤ ينفي الألم ويستل اللذع.

ومن هنا كانت الشيخوخة - أي الضعف - والمرض الطويل أو المضني، بمثابة التدريب على الموت. وكل امرئ يقرن الشيخوخة أو المرض بالموت، ولا يستغربه حين يحل بالهرم أو الذي خامره الداء، ولكن موت الشاب يصدم النفس ويرجها، لأن الشباب -

وهو أوان الحيوية الزاخرة - لا يقترن في الأذهان بفكرة الموت. أما الشيخ الهِمُّ فأن كل من يراه يجري بخاطره أنه هامةُ يوم قريب، وأخلق أن يكون الموت أقرب إلى خاطره وأجرى بباله، وأشد مثولاً وأكثر حضوراً، لأنه أحسَ بنفسه وأدق إدراكا لما خسر من قوته، وعلما بما صار إليه من الوهن والفتور بالقياس إلى ما كان عليه من المنة والنشاط والخفة والمرونة. ويَّألف المرء الضعف واليبس فيألف المصير الذي يرى نفسه ينحدر إليه بسرعة أو على مهل، فيكون هذا كالرياضة له على السكون إلى المآل المحتوم، وهذا هو معنى قولي إن الشيخوخة أو المرض تدريب على الموت.

وهذه الرياضة النفسية - أو التدريب الذاتي - على الموت أفعل وأوقع من كل ما يشاهده الإنسان من عدوان الفناء على الحياة في مظاهرها المختلفة. وأحسب أن المرء حين يرى

غيره يموت، أو يسمع بذلك، يستثني نفسه من هذا المصير وإن كان على يقين جازم من أنه حتم لا رادَّ له ولا حيلة فيه؛ ولعله في ضمير الفؤاد يهنئ نفسه بالنجاة ويشكر الله على أن الموت لم يخطفه هو، وعسى أن يكون الأمل المستمد من غريزة المحافظة على الذات هو الذي يغريه بالتعليق بوهم الاستثناء المستحيل، وهو على كل حال يخفف وقع الخبر، ويجعله محتملا، ويذهب ببواعث الجزع على النفس قياساً على المشهود.

ولكن قدرة المرء على مغالطة نفسه تضعف أمام دبيب الموت إليه على الأيام. ذلك شيء يحسه في نفسه فلا سبيل إلى تجاهله والإغضاء عنه. وكيف يسعه أن يتجاهل اليبس الذي في أعضائه، والتصلب الذي في شرايينه، والفتور الذي يجده، والضعف الذي يعتريه حين يهم بأيسر الأشياء، والعجز عن احتمال ما كان يمر به فلا يعيره لفتة، إلى آخر ذلك؟؟ وكل يوم يمضي به يزيده وهناً على وهن، ويدنيه من القرار الذي يُلفي نفسه هابطاً اليه، فلا يبقى سبيل إلى مغالطة النفس. وكل ما يقدر عليه أمله هو أن يرجو أن يُنسئ الله في أجله، على الرغم مما يكابد من ذلة الشيخوخة ومهانة الضعف والحاجة المتفاقمة إلى الإسناد. فهو مضطر أن يوطن نفسه على الموت، وأن يقصر الأمل على طول المهلة، وليس أجدى عليه ولا أفعل في تخفيف وطأة الموت من هذه الرياضة البطيئة. ومن هنا كان موت الفجاءة مزعجاً لنفوس الأحياء، لأن صدمته لها تجيء على غير انتظار. والله أعلم، فما جربَ الموت أحد وعاد إلينا ليقول لنا كيف كان وقعه - هذا طريق لا يحمل المسافر فيه (تذكرة) ذهاب وإياب، كما يقول ويندل هولمز.

إبراهيم عبد القادر المازني

الوزير ابن كلّس

واضع الحجر الأول في صرح الجامعة الأزهرية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

سألني سائل كيف نشأت صفة الأزهر الجامعية، ومن صاحب الفضل الأول في إسباغها عليه؟ فرأيت أن أنتهز هذه الفرصة لأعرض في هذا الموضوع شيئاً من الشرح والتفصيل ويجب أولا أن ننفي فكرة ذائعة، هي أن الجامع الأزهر أنشئ ليكون جامعة أو معهداً للدرس، فليس ثمة في ظروف إنشائه ما يدل على أنه أنشئ لمثل هذه الغاية، وإنما أنشئ الجامع الأزهر ليكون مسجداً رسمياً للدولة الفاطمية في حاضرتها الجديدة، ومنبراً لدعوتها، ورمز لسيادتها الروحية. أما فكرة الدراسة بالأزهر فقد كانت حدثاً عارضاً ترتب على فكرة الدعوة المذهبية الجديدة؛ ففي صفر سنة 365 هـ، في أواخر عهد المعز لدين الله منشئ الأزهر، ولنحو أربعة أعوام من إنشائه، جلس كبير القضاة علي بن النعمان القيرواني بالجامع الأزهر وقرأ مختصر أبيه في فقه الشيعة في جمع حافل من العلماء والكبراء، فكانت هذه أول حلقة للدرس عقدت بالجامع الأزهر؛ ثم توالت حلقات بني النعمان بالأزهر بعد ذلك، وكان بنو النعمان من أكابر علماء المغرب الذين اصطفتهم الخلافة الفاطمية وجعلتهم دعاتها وألسنتها الروحية، فلحقوا بها إلى مصر، واستأثروا في ظلها برياسة القضاء زهاء نصف قرن؛ وكانت الخلافة الفاطمية تعتمد في توطيد سلطانها بمصر على عصبيتها المغربية، ثم على صحبها وخاصتها من الموالى الأجانب وجلهم من الصقالبة؛ وكانت حلقات أولئك العلماء المغاربة بالأزهر حلقات دعاية روحية وسياسية، تعقد في الغالب للأكابر والخاصة، ولم تكن لها في البداية صفة الدرس العام.

كانت هذه بداية جامعية في معنى من المعاني، بيد أنها لم تكن عامة ولا مستقرة؛ ولكن حدث في عهد العزيز بالله حدث جامعي آخر؛ ففي رمضان سنة 369 هـ جلس يعقوب بن كلِّس وزير المعز لدين الله، ثم وزير ولده العزيز من بعده بالجامع الأزهر، وقرأ على الناس كتاباً ألفه في الفقه الشيعي؛ وكان ابن كلس كما سنرى شخصية ممتازة، تجمع بين السياسة والعلم، وكان نصيراً كبيرا للعلماء والأدباء؛ وكان يعقد مجالسه الفقهية والأدبية تارة بالأزهر وتارة بداره فيهرع إليها العلماء والطلاب من كل صوب، وكانت في الواقع
أول مجالس جامعية حقة عقدت بالجامع الأزهر.

والظاهر أن ابن كلس كان أول من فكر في جعل الجامع الأزهر معهداً للدراسة المنظمة المستقرة؛ وعلى أي حال فهو أول من فكر في تنفيذ هذا المشروع الجامعي؛ ففي سنة 378 هـ استأذن ابن كلس العزيز بالله في أن يعين بالأزهر جماعة من الفقهاء للقراءة والدرس يحضرون مجلسه ويلازمونه، ويعقدون مجالسهم بالأزهر في كل جمعة من بعد الصلاة حتى العصر؛ وكان عددهم خمسة وثلاثين؛ وقد رتب لهم العزيز أرزاقاً وجرايات شهرية وأنشأ لهم داراً للسكنى بجوار الأزهر، وخلع عليهم في يوم الفطر، وأجرى عليهم ابن كلس أيضاً رزقاً من ماله الخاص.

وهنا نجد أنفسنا أمام حدث جامع حقيقي، فق كان أولئك الفقهاء الذين رتبهم ابن كلس للقراءة والدرس بالأزهر، وأقرهم العزيز بالله، أول الأساتذة الرسميين الذين عينوا بالجامع الأزهر، وأجرت عليهم الدولة أرزاقاً ثابتة وباشروا مهمتهم العلمية تحت رعاية الدولة بطريقة منظمة مستقرة؛ وإذن فهنا نستطيع أن نقول إن الأزهر يكتسب لأول مرة صفته الجامعية الحقيقية كمعهد للدراسة المنظمة، وأنه يبدأ هنا حياته الجامعية الحافلة المديدة.

- 2 -

وإذا ما تقررت هذه الحقيقة، فأنّا نستطيع أيضاً أن نقول إن أكبر الفضل في تتويج الجامع الأزهر بهذه الصفة الجامعية الجليلة يعود إلى الوزير ابن كلس الذي أسبغ عليه لأول مرة صفة المعاهد الدراسية العامة، ورتب له أول فريق من الأساتذة الرسميين.

ولقد كان ابن كلس وزيراً عظيماً وعالماً جليلاً؛ بل كان عبقرية سياسية حقيقية؛ وهو أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس؛ واسمه يدل على أصله الذمي؛ أجل، فقد كان ابن كلس يهودياً، نشأ ببغداد، وغادرها في شبابه إلى الشام واشتغل هنالك حينا بالتجارة، وأثقلته ديون عجز عن أدائها ففر إلى مصر في عهد كافور الأخشيدي؛ واتصل به وقام له ببعض الأعمال والمهام المالية فأبدى في أدائها خبرة وبراعة، وطاف بريف مصر يحصل الأموال ويعقد الصفقات، حتى تمكنت منزلته لدى كافور، وأثرى وكثرت أمواله وأملاكه؛ ثم ثابت له فكرة في الأخذ بنصيب من السلطة والولاية، ورأى الإسلام خير طريق لتحقيق هذه الغاية، وكان قد بلغه أن كافوراً قال في حقه لو كان هذا مسلماً لصلح أن يكون وزيراً،

فدرس قواعد الإسلام وشرائعه سراً، وفي شعبان سنة 356 هـ، دخل جامع مصر (جامع عمرو) وصلى به الصبح في موكب حافل؛ ثم ركب في موكبه إلى كافور، فخلع عليه، واشتهر أمره، وعلت منزله، وقوي نفوذه؛ فتوجس وزير مصر جعفر بن الفرات من تقدمه وتمكن نفوذه شراً، وأخذ يدس له الدسائس، ويوغر عليه الصدور؛ فخشي ابن كلس العاقبة، وفر إلى المغرب في شوال سنة 357 هـ، ولحق بالمعز لدين الله الخليفة الفاطمي، وهو يومئذ ينظم مشروعه لغزو مصر، فقدر المعز مواهبه وكفاياته، ووقف منه على أحوال مصر ومواطن القوة والضعف فيها؛ ولبث ابن كلس في خدمته حتى تم فتح مصر على يد جوهر الصقلي. ولما قدم المعز إلى مصر بأهله وأمواله وجيوشه في رمضان سنة 362 هـ، قدم معه ابن كلس، وقلده المعز شؤون الخراج والأموال والحسبة والأحباس وسائر الشؤون المالية الأخرى، فأبدى في إدارتها وتنظيمها براعة وزاد الدخل زيادة واضحة، ثم عهد إليه المعز بشؤون الخاص؛ ولما توفي المعز بعد ذلك بقليل في ربيع الآخر سنة 365 هـ فوض العزيز بالله ولد المعز وخليفته إلى ابن كلس النظر في سائر أموره ثم لقبه بالوزير الأجل؛ ووقعت في حقه وشايات من بعض خصومه فاعتقله العزيز بالقصر بضعة أشهر، ثم أطلقه ورده إلى مناصبه؛ وتضاعفت منزلته لدى العزيز وغدا أقوى رجل في الدولة؛ وبذل ابن كلس

جهوداً عظيمة في تنظيم الإدارة والدواوين، وكان من أكبر بناة الدولة الفاطمية بمصر وموطدي دعائمها ونفوذها.

وليس غريباً أن يحرز رجل مثل ابن كلس تلك المكانة الرفيعة في ظل الدولة الفاطمية مع أنه يهودي الأصل والنشأة؛ فقد كانت الخلافة الفاطمية تصطنع الذميين والصقالبة، وتولهم ثقتها؛ وقد ولى وزارتها فيما بعد، في عصر الحاكم بأمر الله، وزراء يهود ونصارى خلص مثل ابن رسوين، وابن فهد، وعيسى ابن نسطورس، وابن عبدون؛ وتولى بعد هؤلاء كثيرون في عهود مختلفة؛ ونستطيع أن نفهم سر ما كانت توليه الخلافة الفاطمية لوزرائها الذميين من العطف والثقة إذا ذكرنا أنها تتهم من بعض خصومها بالانتماء إلى أصل يهودي، وإنها كانت تتهم في عقائدها.

ولم يكن ابن كلس وزيراً وسياسياً عظيما فقط، بل كان عالماً وأديباً كبيراً أيضاً، وكان يعقد بداره مجالس علمية وأدبية دورية ينتظم في سلكها أكابر الفقهاء والأدباء والشعراء؛ وكان يشرف بنفسه على هذه المجالس، ويشترك في أعمالها، ويغدق العطاء على روادها. وقد أخذ ابن كلس بقسط حسن في التأليف والكتابة، فوضع كتاباً في القراءات، وكتاباً في الفقه، وكتاباً في آداب رسول الله، وكتاباً في علم الأبدان والصحة، ومختصراً في فقه الشيعة مما سمعه من المعز لدين الله، وهو المعروف بالرسالة الوزيرية. وكان يقرأ كتبه على الناس تارة بالجامع الأزهر وتارة بداره، ويجتمع لديه الكتاب والنحاة والشعراء فيناظرهم ويصلهم؛ وكانت موائده دائماً منصوبة معدة للوافدين. وكان كثير الصلات والإحسان، وبالجملة فقد كان هذا الوزير والعالم الأديب مفخرة في جبين عصره، وقد أشاد شعراء العصر بجلاله وجوده، ومن ذلك ما قاله أحدهم حين أصابت الوزير علة في يده:

يد الوزير هي الدنيا فان ألمت ... رأيت في كل شيء ذلك الألما
تأمل الملك وانظر فرط علته ... من أجله واسأل القرطاس والقلما

ومرض ابن كلس في شوال سنة 380 هـ، فجزع عليه العزيز أيما جزع، ولبث يعوده ويرعاه، حتى توفي في الخامس من ذي الحجة. فحزن عليه حزناً شديداً، وأمر بتجهيزه تجهيز الأمراء والملوك، وخرج من القصر إلى داره في موكب صامت محزن، وشهد تجهيزه وصلى عليه بنفسه، ووقف حتى تم دفنه وهو يبكي بدمع غزير، واحتجب في داره ثلاثاً لا يأكل على مائدته والحزن يشمل الخاص والقصر كله؛ وأفاض الشعراء في رثاء الوزير الراحل ومديحه، فوصلهم العزيز جميعاً؛ وعلى الجملة فقد سما ابن كلس في ظل الدولة الفاطمية إلى أرفع مكانة، وترك بوفاته فيها أعظم فراغ، وكان له أعظم الأثر في توطيد حكمها وإدارتها بمصر.

هكذا كانت حياة ذلك الوزير الخطير الذي يدين إليه الأزهر بأول خطوة عملية حقيقية في سبيل الحياة الجامعية؛ ومن المحقق أن تلك الخطوة الأولى في ترتيب الأساتذة والدروس بالأزهر بطريقة منظمة مستقرة، كان لها أثر كبير في تطور الغاية التي علقتها الخلافة الفاطمية بادئ ذي بدء على إنشاء الجامع الأزهر؛ فقد كانت هذه الغاية كما رأينا أن يكون المسجد الجامع الجديد رمز الخلافة الجديدة ومنبرا لدعوتها؛ ولكن يلوح لنا أن الخلافة الفاطمية لم تكن ترمي في المبدأ إلى توجيه الأزهر إلى تلك الناحية الجامعية؛ ذلك لأن الجامعة الفاطمية الحقيقية أقيمت بعد ذلك في عصر الحاكم بأمر الله باسم دار الحكمة أو دار العلم الشهيرة في سنة 395 هـ (سنة 1005 م)؛ ولكن الأزهر كان يومئذ بفعل الظروف والتطورات التي أشرنا إليها قد بدأ حياته الجامعية؛ ومع أن دار الحكمة لبثت مدى حين تنافس الأزهر وتستأثر دونه بالدراسة المتصلة المنظمة، فإنها لم تنبث لصرامة نظمها وإغراق برامجها في الشؤون المذهبية. أن اضطربت أحوالها وضعف نفوذها العلمي؛ هذا بينما كان الأزهر يسير في سبيل حياته الجامعية الوليدة بخطى بطيئة ولكن محققة، ويسير في نفس الوقت إلى التحرر من أغلال تلك الصبغة المذهبية العميقة التي كادت في البداية أن تقضي على مصايره الجامعية الصحيحة.

ونحن نعرف أن هناك مشروعاً للاحتفال بالعيد الألفي للأزهر - وهو عيد يقع بعد نحو أربعة أعوام - ونعرف أن من مظاهر ذلك الاحتفاء بتلك الذكرى الجليلة أن يكتب تاريخ

حافل للجامع الأزهر منذ إنشائه إلى يومنا؛ فمن حق الوزير العالم ابن كلس أن يتبوأ في ذلك التاريخ مقاماً يجدر بفضله في وضع الحجر الأول في صرح تلك الجامعة الكبرى.

محمد عبد الله عنان

الفلم المصري

بمناسبة فلم دموع الحب

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

لا يسع المصري إلا أن يغتبط أعظم الاغتباط عندما يرى تلك الأفلام المصرية الجديدة التي أقدم أبناء مصر على إخراجها بين حين وحين؛ ولا شك في أنها فتح جديد يجب أن نفخر به، ونحرص على المزيد منه؛ وإذا كان الجمهور المصري قد أقبل على رؤيتها ذلك الإقبال الباهر فان في ذلك دليلاً قوياً على مقدار تطلعه إلى أن يرى تلك الصناعة تنمو وتنجح. فالشعب يؤدي واجبه في تشجيع أبنائه من أهل الفن ويجيب مجهود المقدمين منهم إجابة كريمة مستنيرة.

والفلم المصري له مكان لا يستطيع فلم آخر أن يحل محله. فانه يشبع من عواطف المصريين مالا يشبعه خير الأفلام العالمية الأخرى، وذلك أثر من آثار النهضة المباركة التي نحسها في كل ناحية من النواحي. فالشعب المصري يحس بنفسه ويريد أن يرى تلك النفس مصورة أمامه تصويراً فنياً كما يحتاج الإنسان إلى أن ينظر في مرآة ليرى صورة وجهه أو هندامه، وكما يرتاح إلى أن يسمع ترديد آماله ونزعات نفسه ومُثُله العليا.

فكل فلم من تلك الأفلام حديث نفسي يتحدث به الفنان إلى بني قومه. فهي ليست قطعة من الفن فحسب. بل هي رسالة عاطفية يرسلها الفنان من نفسه إلى نفوس الجماهير المتعطشة إلى الحياة والعلو والقوة. ولهذا فنحن إذا ذهبنا لإجابة الداعي إلى فلم مصري كانت إجابتنا أولاً قومية وثانياًفنية.

ومن هذا الاعتبار لا يسع المصري أن يقارن أو يوازن بين الأفلام المصرية، وبين ما تخرجه الشركات العالمية من آيات الفن. لأن الأفلام العالمية إنما تؤدي رسالة واحدة وتشبع ناحية واحدة هي رسالة الفن المحض والناحية الأدبية الصرف، ومنهما كانت تلك الناحية الفنية فهي في المحل الثاني من نفوسنا، ولا يمكن بأي حال أن تحل المحل الأول الذي استولت عليه الآمال والأماني، والرغبة القوية في الحياة، والسمو والاعتزاز بالنفس.

غير أنا نطلب من النفس المصرية أكثر مما تستطيع بذله إذا نحن وقفنا عند حد الأماني القومية؛ بل أن تلك الأماني نفسها قد تخيب ولا تجد ما يستثيرها، أو يعبر عنها إذا لم تتقدم

الناحية الفنية وتعلو إلى المستوى الذي تتطلبه النفوس من الجمال والقوة؛ ولهذا نجد من أنفسنا جرأة على أن نتناول ما يظهر من الأفلام المصرية بالتحليل والنقد حتى نشير إلى ما كنا ننتظره وما كانت نفوسنا تصبو اليه؛ ولهذا نرجو أن يدرك قراء هذه الكلمة قصدنا منها، وهو أن نشير إلى أمور نحب أن تراعى في الأفلام التي يقدمها المخرج المصري. فإذا ظهر أننا على حق فيما نذهب إليه كان مخرج الفلم المقبل على هدى فيما يتطلبه الجمهور المصري منه فيعمل على تحقيقه، وبذلك يكون الغد أقرب إلى الكمال من اليوم. إننا لا نستطيع أن ننكر فضل أولئك الرواد الذين قدفتحوا باب ذلك الفن، ولا نستطيع أن ننكر ما مهدوا من العقبات، ولا ما عانوا من المشقة في سبيل عملهم المجيد، وإنما ندعو بهذه الكلمة إلى التطلع إلى العلا، وبلوغ درجات جديدة من الإتقان. فإذا تكلمنا هنا عن فلم دموع الحب فلسنا نريد أن نخصه بالنقد، بل إنا نتخذه مثلاً في النقد لأنه أحدث الأفلام وأقربها مثولاً في الأذهان.

إن الفلم لا يكون ذا أثر بالغ في النفس إلا إذا كان يخدع الناظر عن المقصد المباشر الذي يرمي إليه الفنان. فان الناظر إذا استغرق في تأمل القصة التي أمامه، كان ميالاً إلى نسيان الحقيقة وأنه إنما ينظر إلى قصة - بل يخال أنه يعيش ويتأمل منظراً من مناظر الحياة؛ وتبلغ مقدرة الفنان ذروتها إذا استطاع أن يخدع الناظر فيجعله لا ينتبه إلى أنه إنما يطالع صفحة صور متحركة بل ينظر منظراً من مناظر الحياة الحقيقية، ويكون هذا الخداع ممكناً إذا عمل الفنان على أن تكون كل الوقائع المعروضة تسير

سيراً طبيعياً لا تكلف فيه، وتتابع تتابعاً طبيعياً من غير تعسف ولا شطط. فإذا شعر الناظر أن هناك قفزة في الوقائع، أو أن هناك ثغرة في التسلسل، انتبه إلى نفسه وصحا من سحر المنظر، وفسدت عليه الغاية التي يقصدها الفنان.

وإذا أردنا أن نضرب أمثلة من فلم دموع الحب على تقصير الفنان في هذا الجانب النفسي لم يصعب علينا الأمر. فأن تصور أية حادثة من الحوادث في تلك القصة يتيح لنا فرصة للتمثيل. فلنأخذ الموقف الأول الذي ظهر فيه فكري أفندي (عبد الوهاب) في حديقة المنزل وقابل الفتاة ابنة صاحب المنزل، فأن المنظر لم يزد على مقابلة جاءت عفواً، ولم يطل أكثر من مدة صب الشاي، ثم استأذن فكري أفندي في الخروج لمقابلة صديق، ومع ذلك قد كانت هذه المدة الوجيزة كافية لأن تجعل الشاب فكري أفندي يهوى الفتاة، ولأن يجعل الفتاة تحب ذلك الشاب، كأنما قد عزم كل منهما ابتداء على أن يحب الآخر إذا رآه! حقاً إن هناك نوعاً من الحب ينشأ للنظرة الأولى، ولكن ذلك الحب لا يستطيع أن يكون من نظرة عابرة جاءت عفواً؛ ولئن كانت النظرة السريعة تعقب الحب فلا بد أن يكون هناك عامل قد ساعد عليها، وأنه من حق النظارة أن يروا ما هو ذلك العامل الذي أسرع بالحب إلى هذا الحد.

على أننا إذا سلمنا أن الحب قد ينشأ من النظرة العجلى، فأنا لا نستطيع أن نسلم أن تبادل ذلك الحب يكون بغير تدرج ولا تقديم، وذلك على الأقل بين أصحاب النفوس المثقفة المهذبة، فكان لا بد للمخرج أن يدبر من الحوادث ما يساعد على إتاحة الفرص لتبادل ذلك الحب وإنمائه، ولكن فلم دموع الحب سار من المقابلة القصيرة الأولى إلى نزهة في الفجر في الحديقة يلتقي فيها الشاب بالفتاة ويبادلها أول ألفاظ التعارف فلا يكادان يسيران معاً دقائق قليلة حتى ترتفع الكلفة، وحتى يندفع الاثنان في تصريحات ودية، وحتى تبادلا الحب تصريحاً. ثم يسير الفلم بعد ذلك إلى نزهة لا مناسبة لها، ولا تفسير يعلل حدوثها، وفيها يتبادل المحبان العهود والمواثيق على أقدس أنواع الارتباط.

ومثل آخر لا يستطيع الناظر إلا أن يصطدم به وهو عندما عاد فكري أفندي من السفر بعد أن تبسم له الحظ ليحمل إلى حبيبته بشرى تحقيق الأمل في الزواج فيجد حبيبته في الحديقة إلى جوار حلمي صديقه، ولم يكن يعرف أن ذلك الصديق له أية علاقة بحبيبته وكذلك لم يكن ينتظر أن يجد تلك الحبيبة في مثل تلك الجلسة الخاصة مع شاب آخر. ومع ذلك فأنه لم يفعل شيئاً أكثر من أن وقف وجعل يتكلم عما جاء له، وكأنه لم يلاحظ شيئاً في وجود حبيبته في الحديقة منفردة مع شاب يناجيها وحيداً. ألم يكن من حق الناظر أن يرى علامة من علامات الاستياء على وجه المحب المتيم؟ ألم يكن على الأقل من حقه أن يرى علامة من علامات الدهشة أو الارتياع على وجه الشاب الذي أتى يحمل كل آماله إلى حبيبته فلا يجدها تطير نحوه كما كان ينتظر؟ وأين كرامته المجروحة؟ وأين حبه الثائر؟ وأين غيرته ونيران حقده؟ ثم ذلك الصديق الذي خانه مع سابق إخلاصه إليه وآسر على سعادته مع ما قدمه له في الأيام الماضية من وده وإخائه. ألا يستحق منه غير ذلك الموقف الفاتر الخامد؟

ويعود فكري أفندي بعد ذلك إلى الدار التي كان قد بناها لتكون داره مع زوجته المنشودة فيبكي ويتضاءل حتى يبلغ مكان صورة تلك الحبيبة الغادرة - ولكنه يقف فيطيل البكاء إلى جانبها ولا تحدثه نفسه بثورة ما - أحقا هكذا يفعل المحب الثائر الحب؟

إننا نخطئ كثيراً لو زعمنا أن الفلم يستطيع أن يبلغ المستوى المطلوب بالغناء وحده، فإذا شئنا الغناء فليكن الفلم صورة لعرض غنائي لا محاولة فيه للتمثيل. فإذا كان ولا بد من المزج بين الغناء والتمثيل فليكن الدور الأكبر مسندا إلى من يستطيع أداءه، وليختر موضوع الفلم اختياراً يسمح بأن يكون للمغني دور لا يحتاج إلى كبير دراية في فن التمثيل. فالحق أن الأدوار الثانوية في فلم دموع الحب كانت لا نسبة بين أدائها وبين أداء الدور الأكبر. فلقد أتقن المعلم حنفي (عبد القدوس) ما شاء له الفن وكذلك أتقن حلمي أفندي (سليمان نجيب) دور الصديق الغادر والغني المستهتر اتقانا يستحق كل الإعجاب، ولو كان هذان الفاضلان هما بطلا القصة لكان الإخراج الفني أبرع وأبدع.

وأما عن الغناء فلست أدري ماذا يرى كل من شهد الفلم فيه، لأن الغناء مرجعه إلى

الذوق ولا يستطاع فيه النقد المنطقي الذي يصح في التمثيل، على أني لا أستطيع أن أكتم ما أحسست به، وذلك أنني لم أسمع إلا تلك الأغاني التي اعتدنا سماعها في الصالات، وفي ليالي الغناء المعتادة، وفي أسطوانات الأدوار الشائعة. وبعد فأنّا نتساءل: أهذا هو الغناء المقصود في روايات الأوبرا أو الأوبريت؟ إننا لم نشهد بعد من تقدم الغناء ما كنا شهدنا بوادره في روايات السيدة منيرة المهدية أمثال كرمن وروزينا وتابيس وغيرها مما عرضته تلك الفنانة الماهرة في وقت ما منذ عشرات السنين، وقد كنا ننتظر أن يسمو الغناء المسرحي بعد ذلك إلى درجة أعلى من تلك، فإذا بنا نعود إلى تلك الأغاني الساذجة المكررة التي اعتدنا سماعها على التخوت أو في الصالات. وإنا لا نشك في أن تلك الأغاني لها جمالها الخاص، ولا سيما عند بعض الأذواق التي يجب أن تخرج عن قيود المألوف إلى التعبير عن عواطف النفوس، وتستدرج السامعين إلى أنواع منوعة بدل تلك الآهات المكررة والأنغام الواحدة المعتادة. وإنه لمن العجيب أن نسمع صوت العود والكمان، بل نقر الدف لحفظ الوحدة في تلك الأغاني كأنما نحن نستمع إلى تخت لا إلى شخص حي يفيض بعواطفه ويترجم عن وجدانه! والحق أن تلك الآلات الموسيقية وذلك النقر الناشز كان له أثر عظيم في تحويل العقل عن الاستغراق في القصة، وإلى إزالة غشاء الخيال عن جو القصة وإعادتها إلى جو آخر تنبه فيه العقل إلى أن الصور التي أمامه إن هي إلا صور متحركة وليست قصة حياة.

ولقد جرى مخرجو الأفلام المصرية إلى الآن على عادة لا نظنها تؤدي بهم أبدا إلى التفوق المنشود، وذلك أنهم يحاولون الاستغناء عن المؤلف الأديب. ولو كان المؤلف الأديب غير ضروري لكان لهم العذر فيما يذهبون اليه، ولكانت رغبتهم في الاقتصاد مفهومة واضحة، إذ لا نستطيع أن نلومهم على اقتصاد مبلغ من المال بدل أن يبذلوه للأديب الذي لا فائدة منه، ولكن الأمر على غير ذلك، فان أول أساس لنجاح القصة أن تكون قصة صالحة مكتوبة كانت أو مترجمة. ولقد رأينا فيما مضى أن أقوى مهارة في التمثيل تضمحل وتنتهي إلى الفشل التام إذا لم يكن دعامة ذلك التمثيل موضوعاً سامياً وقصة رائعة ذات جمال وفن وأدب؛ ونحن إذا استعرضنا المحاولات التي حاولها المخرجون إلى الآن لم نجد أنهم خصصوا لناحية القصة عناية تذكر. وقد يشكو المخرجون من أن الأدباء لا يواتونهم بالمؤلفات اللائقة كما أنهم قد يشكون من أن الأدباء يظهرون لهم من صعوبة المراس ما يجعلهم ييئسون من تعاونهم، ولكننا مع ذلك نريد أن نذكرهم ببعض أرقام قد تكون لها دلالة كبرى فان متوسط ما يناله الأديب الإنجليزي نظير قصة من قصص الأفلام يتراوح بين خمسمائة جنيه وألف جنيه، في حين أن متوسط ما يناله الأديب من هوليوود أكثر من ألف جنيه بلا نزاع؛ وليس من العجيب ولا المحرم أن يفوز المغني بآلاف الجنيهات؛ وكذلك ليس من العجيب ولا المحرم أن يفوز المخرج أو الممثل أو عارض الأفلام بآلاف مثلها، ولكنا نضيف إلى ذلك أنه ليس من العجيب ولا من المحرم أن يفوز الأديب ببعض تلك الألوف، لأنه شريك أساسي في المجهود الفني. ولهذا نرجو أن يعني المخرجون باختيار الموضوعات وألا يضنوا على الأدباء بما يشجع المبرز منهم على التخصص في إخراج ما تحتاج إليه الأفلام المصرية من القصص.

هذه كلمة لا نقصد بها إلا خدمة ذلك الفن الوليد ونحن على يقين من أن القراء مدركون قصدنا منها، وكذلك نرجو أن يحملها المخرجون والفنانون على المقصد السامي الذي نرمي إليه.

محمد فريد أبو حديد

قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكي

وكيل كلية العلوم

بستور المسعور

وصل الفائت

نصب أعداء بستور له فخاً فدعوه إلى أن يجري تجربته عن اللقاح الذي اكتشفه في جمع عام. فأجابهم إلى ذلك، وحقن البهائم على رؤوس الأشهاد بالمكروب الأضعف،

وبعد أيام حقنها بالضعيف ثم بعد أيام بالأقل ضعفا. واصطبر إلى اليوم الذي يحقنها فيه بالمكروب الحي القتال.

- 4 -

وجاء اليوم الكبير الموعود، اليوم الحادي والثلاثين من مايو، فحقنت المواشي جميعها - ما حُصّن منها باللقاح وما لم يحصن - بحقنة قاتلة لاشك فيها من مكروب الجمرة، وقام بحقنها رو، فنزل في الوحل إلى ركبتيه، ومن حوله مصابيح الكحول وقوارير المكروب، فأدهش النظارة بحسن ضربه الإبرة في جلود الحيوانات، وبهدوئه ورزانته وبروده وهو يضربها.

أودع بستور كل سمعته العلمية هذه التجربةَ الدقيقة التي لا تؤتمن، وما فرغ منها حتى أدرك حقيقة الموقف، وأيقن أنه أجاب داعي الرجولة والشجاعة برضائه إجراءها، ولكنه أيقن إلى جانب ذلك أنه أذن للجمهور، وهو المتلوّن المتذبذب، في تقدير علمه والحكم عليه. فلم يطب له نوم تلك الليلة، وقصاها يتلوى ويتقلب على فراشه، وكلما عزه النوم قام عن سريره يطلب الراحة في القيام، ثم هو لا يجده فيعود إلى النوم، وهكذا دواليك، وأوصته زوجته بالصبر ومنّته خيراً فصمت عنها، ودخل معمله وخرج منه مُقطِّب الجبين عابساً، ولا شك عندي أنه هرع إلى الله فصلى ورجا وابتهل، ولو أني لم أقرأ شيئاً من ذلك في الأوراق.

كره بستور الصعود في البالونات، وخشي دائماً عواقب الخصومات في المبارزات، ولكنه لم يجبن ولم يتردد لما دعاه هؤلاء البيطريون إلى هذه التجربة وساقوه عامدين إلى هذا المأزق الخطير.

وجاء اليوم الأكبر الموعد، يوم الثاني من يونيو عام 1881، فجاء الناس من كل حدب وصوب لحضور اليوم المشهود، يوم يحكمون في أمر بستور، فإن خيراً فله، وإن شراً فعليه، وكثر عددهم حتى ضاق بهم المكان الرحيب، وتضاءل إلى جانب هذا الاجتماع كل اجتماع سبقه، وكان في الحاضرين نواب الأمة وشيوخ من شيوخها، وكان فيهم عظماء، وكان فيهم كبراء، ومن كل حسب ونسب لا يظهر في الناس إلا في أعراس الأمراء وجنائز الملوك، وكان فيهم الصحافي الشهير دي بلوفتس حوله جمهرة من رجال الصحافة ومكاتبيها.

ودقّت الساعة الثانية، فخرج بستور إلى الميدان يصحبه رجاله، وفي هذه المرة لم يكن له ولهم من الجمهور إلا الترحيب الصارخ والهتاف المتعالي. فأما الشياه الأربعة والعشرون التي كانت لُقّحت ثم حُقنت فيها الملايين من المكروبات القاتلة فقد وجدوها قائمة تأكل وتجري فرحة مرحة هانئة بالحياة، ولم يجدوا بواحدة منها أثراً من الحُميّ، فكأن مكروب الجمرة لم يخالط دمها، وكأنما كان بينه وبينها ما بين الأرض والسماء.

أما الشياه الأربعة والعشرون الأخرى التي لم تُلقّح، تلك الأربعة والعشرون التي حقن المكروب القتال تحت جلدها من غير أن تُحمى منه وتُحصّن، فقد وجدوا اثنين وعشرين منها راقدة على جنوبها في خط واحد رقدةً تبعث الأسى والحزَن. أما الاثنتان الأخريان فكانتا لا تزالان قائمتين على أرجلهما ولكن في غير اتزان، تجاهدان في سبيل العيش هذا العدوَّ الأخفى الذي ما غالب الحياة إلا غلبها، وكان دم أسود ينضح من أنفيهما ومن شفتيهما ينذر بقرب لحاقهما بالشياه المنبطحة الصريعة من أخواتها.

صاح بَيْطار لأخيه البيطار: (انظر، انظر، فهذه أخرى من التي لم يلقِّحها بستور قد سقطت إلى الأرض!).

- 5 -

حضر عيسى المسيح عرس (كانا) الشهير، فلما نَفِد الخمر وكاد يتعرض أهل العرس للفضيحة شاء يسوع أن يستحيل الماء خمراً فاستحال، ولم يذكر لنا الإنجيل تفصيل ما ظن الناس بصاحب هذه المعجزة، ولا ما فعلوا به عندها. وهذا بستور في الثاني من يونيو عام 1881 يأتي في هذا العصر الحديث بمعجزة لا تقل إعجازا عن تلك التي وقعت في ذلك العصر المقدَّس العتيق فيقوم هذا الجمع الحاشد، على الرغم مما كان من اختلاف أهوائه يحنون رؤوسهم لهذا الرجل القليل، المشلول بعضُه، الذي حمى مواشيهم تلك الحماية التامة الرائعة من قرصات هذه الخلائق الصغيرة التي تقرص

فتقتل في الظلام قتلاً مُؤكّدا. إن هذه التجربة الجميلة التي أجراها بستور على الملأ في بُحبوحة هذا الحقل تقع في نفسي موقعاً شاذاً غريباً، لأنها قصة شاذة غريبة في تاريخ الإنسان وجهاده هذه الطبيعة القاسية. أما شذوذها ففي هذا التهليل والتكبير الذي صحبها، وهذا الترحيب الصاخب الذي ناله بستور من أجلها. فعهدنا بكشوف العلم ألا تقدِّر في حينها، وعهدنا بها أن ينال صاحبها الأذى من أجلها. ألم يودع جاليليو السجن من أجل أبحاثه التي تسببت أكثر من غيرها في الانقلاب الهائل الذي أدى بالدنيا إلى حالها الحاضرة؟ وكم لجاليليو من أشباه وأمثال. كذلك عهدنا بصاحب الفكرة أن تبقى فكرته ويزول فلا يَنْعم حتى بالذكر طيباً كان أو خبيثاً. وإلاّ فما العباقرة الأولون الذين اخترعوا النار واصطنعوا العجلات وابتدعوا الشراع وأنّسوا الخيل؟.

- 6 -

أما بستور فحظه غير حظ هؤلاء جميعاً. فهذا هو قائم في هذا الحقل ومن حوله الأغنام الأربعة والعشرون تشطح وتمرح بين جُثثٍ أربعٍ وعشرين لأخوات لها ماتت شر ميتة. رجلٌ قدير في تمثيله، ومسرحٌ فخم في بشاعته، ورواية خالدة على الدهور، وقد اجتمعت الدنيا إليه تسمع وتنصت، وتُثبت ما تسمع، ثم تدخل في دينه أفواجاً تحارب معه الموت لّما بان لها أن النصر قريب أكيد.

وأحدثت هذه التجربة في الناس تحوّلاً كبيراً. مثال ذلك رجل يدعى الدكتور بَيُوت كانت صناعته علاج الخيل والسخرية ببستور سخريةً مُرَّة. فلما رأى أخيرة الشياه تموت جرى مندفعاً إلى بستور يصيح به: (بالله عليك يا سيدي إلاّ ما حصنتني بهذا اللقاح كما حصَّنت هذه الشياه، ثم حقنتني بذلك المكروب القاتل كما حقنتها فنجَّيتها، فالعالم لابد أن يقتنع بصدق هذا الكشف العجيب!).

وجاءه خصيم آخر مخفوض الجناح يقول: (حقاً إني قصفت بالنُّكات الكثير عن هذه المكروبات، أما اليوم فأنا مخطئ توَّاب!). فأجابه بستور مقتبساً من الإنجيل: (سيكون الفرح في السماء لخاطئ واحد يتوب أكثر منه لتسعة وتسعين من العُدوُل الذي لا يحتاجون إلى التوبة).

أما الصَّحفيِّ الكبير دي بلوفتس فهتف لبستور وهرع يرسل تلغرافه إلى جريدة التيمس والى جرائد الدنيا. قال فيه: (إن تجربة قرية بولي - نجاحاً كاملاً لم يسبق له مثيل).

وتلقت الدنيا هذا الخبر، وأخذت تنتظر ما بعده، فكأنما حسبت في شيء من التخليط أن بستور بعض الأنبياء أرسله الله رحمة بالناس، يحمل عنهم الأثقال ويدفع عنهم الآلام. وخرجت فرنسا عن وعيها فيه فسادت به أعظم أبنائها ومنحته وسام الكردون لأكبر لليجيون دونير وبعثت إليه الجمعيات الزراعية والبياطرة وفقراء الفلاحين ممن حلّ بحقولهم داء الجمرة اللعين، بعثوا أجمعين إلى بستور برقيات عديدة يسألونهُ ألوف الحُقَن من لقاحه الشافي، وأجاب بستور وأعوانه الثلاثة رجاء هؤلاء في نخوة مجيدة أنستهم صحتهم - والعلم كذلك. وكان بستور شاعراً، فأثارت شاعريته في قلبه إيماناً بتجربته، التي كانت، زاد حتى أربى على إيمان من دخلوا في دينه حديثاً.

نعم أجاب بستور السائلين، فقلب معمله الصغير بشارع مصنع للقاح، فكنت ترى الأوعية الكبيرة بأحسيتها على النار تغلي وتتفقَّع ليزُرع فيها مكروب الجمرة بعد إضعافه وتأنيسه. وكنت ترى رو وشمبرلاند يقومان على إضعاف البشلة القوية والتخفيف من عنفها لتعطى شياه فرنسا بعض المرض دون أن تقتلها، وتوخيا الدقة فيما يعملان، ولكن أين الدقة من المسرع الهلع؛ وتهيأ اللقاح، فقام الأعوان جميعاً والعرق يتصبب منهم بتعبئة الجالونات الكثيرة منه في زجاجات تسع الأوقيات القليلة. وكان لا بد أن تكون الزجاجات طاهرة من المكروب كل الطهارة فطهروها؛ كل هذا دون أن يكون لديهم كل الأجهزة اللازمة لضمان العاقبة، يا عجبا لبستور! كيف قام بذلك كله؟ بل هي تجربة واحدة واضحة ابتدعها - أم هو القدر أعثره بها؟ - ملأنه ثقة عمياء ليس عهدي بالتجارب الفُرادى الواحدة أن تملأ رجلا بمثلها.

وفي أثناء تحضير هذه الألقحة كان الأعوان الثلاثة يتحينون الفرص فيفلتون منها ليلقحوا البهائم في شمال فرنسا وفي جنوبها، وأدى بهم المطاف يوما إلى هنغاريا.

لقحوا مائتي شاة هنا، ولقحوا خمسمائة وستا وسبعين شاة هنالك، حتى بلغ ما لقحوه في دون العام مئات الألوف منها؛ ثم يعود هؤلاء اللقّاحون الأفّاقون يجرون أرجلهم من التعب إلى باريس، وفي حلوقهم عطشةٌ إلى شراب يسوغ، وفي قلوبهم عطفةٌ إلى حُبّ يطيب، أو لعلهم كانوا يتوقون إلى ساعة هادئة يقتلونها على دخان الطُبّاق: ولكن أين لهم ذلك وبستور كان يكره رائحة الطباق، أما الحب والشراب فكيف يجوز أن عنده وشياه فرنسا تثغو ثغاء عالياً تطلب الخلاص ممن عنده الخلاص، فلا يكون لهؤلاء الثلاثة الأرقاء رغم شبابهم مندوحة من إطاعة هذا المجاهد المجنون الذي تعبِّدوا له اختياراً، هذا المأمون الذي تجمع فكره وتركّز كيانه وانحشد عزمه على إيجاد هذا المكروب الذي يقتل بعضه بعضاً. فيقومون بالتخففّ من ملابسهم والتشمير عن سواعدهم ثم يقضون الساعات الطويلة إلى جانب مجاهرهم يُحملقون فيها حتى تحمرَّ جفونهم وتتساقط رموشهم. وفي أثناء ذلك يزداد الفلاَّحون صياحا طلباً للقاح، ويزداد أصحابنا انهماكا في تجهيزه فيقعون أثناء ذَلك ومن جرائه في متاعب غريبة لم تكن في الحسبان: دخلت بعض الجراثيم الغريبة إلى الأحسية مع مكروب الجمرة، وإذا باللقاح الضعيف الذي يكفي لقتل الفأر صار يقتل الأرنب الكبير. فقام هؤلاء الأبالسة يتعرفون أصل الخطأ حتى عرفوه، ويتعقبون مدخل هذا المكروب الضال فسدوه، فيأتيهم بستور بعد هذا كله ساخطا صاخبا. ولم ذا؟ لأنهم أضاعوا في هذه التجارب وقتا طويلا ثمينا !. وأراد بستور أن يكشف عن جرثومة داء الكَلَب.

كان ليل المعمل هادئاً إلا من صوت الخنازير وعراك الأرانب، أما الآن فقد غطى على هذا نباح الكلاب المسعورة، وهي تعوي عواءاً يملأ الآذان وقرا والقلوب رعباً، ويطير بالنوم عن أعين الأعوان الثلاثة رو وشمبرلاند وتويبيه. . لهم الله من ثلاثة! ليت شعري ما كان يصنع بستور في حربه رسلَ الموت لولا هؤلاء الثلاثة.

ومضى عام أو دون عام على المعجزة التي جرت على يدي بستور في قرية - حتى أخذ يتضح للناس أن بستور، هذا الصياد الماهر في صيد الميكروب، ليس إلّها معصوماً بل بشراً مخلوقا يخطئ ويصيب. وجاءته كتب عدة تراكمت على مكتبه من مونت بتييه وعشر مدن أخرى في فرنسا، وكذلك من هنغاريا، وكلها تشكو أن الشياه تموت من الجمرة، لا الجمرة الطبيعية المألوفة، ولكن جمرة جاءتها من هذا اللقاح الذي قصد إلى خلاصها، وأنت الأنباء بالسوء من أصقاع أخرى تقص حكايات أخرى عن خيبة هذا اللقاح. ففي بقعة من تلك البقاع اشترى الفلاحون هذا اللقاح، ودفعوا ثمنه نقدا، ولقحوا به قطعانا كاملة من الأغنام، ولما جاء المساء عادوا إلى منازلهم وأراحوا جنوبهم في مضاجعهم وهم يقولون حمدا لله الذي منَّ علينا برجلنا العظيم بستور، ثم طلع الصباح عليهم، فما انفتحت عيونهم حتى وجدوا الحقول قد غطَّتها جثث الشياه النافقة - تلك الشياه التي زعموها حصينة قد ماتت من بزور الجمرة التي تخبَّأت في ثرى هذه الحقول.

وأخذ بستور يكره كل صباح أن يفضّ الكتب التي تأتيه إشفاقاً على نفسه مما كتب كاتبوها، وودَّ لو سدَّ أذنيه فلم يسمع بسخرية الساخر وضحكة الهازئ يأتيه صداها من وراء الأركان. وأخيراً حدث شر ما يحدث له: تقريرٌ خرج من معمل كوخ، تقريرٌ محكمٌ في بروده، دقيقٌ في فظاعته، كتبه ذلك الرجل الألماني القصير الخسيس، وفيه نَفى أن يكون للقاح الجمرة لدى التطبيق نفع أبداً. وزاد همَّ بستور علمُهُ أن كوخ أدق صَيادٍ للمكروب في الدنيا.

قطف بستور القطفة الأولى من ثمار تجربته فكانت حلوة طيبة، ثم أتى يقطف القطفة الثانية فأجزعته مرارتها يقيناً. ولكنه، طيَّب الله ثراه، كان شهماً لا يثنيه الحَدَث الجليل. فلم يكن في جِبلَّته أن يعترف للناس أو لنفسه بأن دعاواه العريضة الطويلة ليس لها هذا العرض ولا هذا الطول الذي ادعاه. وكأني بك تسمعه يتمتم لنفسه: (ألم أقل إن هذه الألقحة تُمرض الشياه قليلاً ولا تقتلها، ثم هي بعد ذلك تحصَّنها من الداء تحصيناً تاماً كاملاً. فهو ذاك، فلألزمْ ما قلت فليس عنه من مَحَيد)

ياله من باحث عظيم! ومع هذا فما أقل حظه من تلك الصراحة النبيلة التي نسى فيها سقراط نفسه ذاته، فلم تخدعهما عن الحق المظاهر، ولم تستهوِهما عنه المنافع. على أن

بستور لا يلام هذا اللوم كله، ففرْقُ ما بينهما واسع واضح، فهذان إنما طلبا الحق على الأسلوب الذي ارتأياه ولم يتطلبا شيئاً سواه، أما بستور فقد ساقه بحثه رويداً رويدا إلى حيث يفقد المرء لبَّه ويُضيِّع رشدَه، إلى صناعة تخليص الأرواح من براثن الموت، وهي صناعة ليس الحق بأهمَّ ما فيها.

وفي عام، 1882 بينما التقارير مكدسة على مكتبه تحمل أنباء المصائب الكثيرة من هنا وهنا، قام بستور وسافر إلى جنيف وألقى على الزبدة المختارة من مجاهدي الأدواء في العالم خطبة رنَّانة موضوعها: (كيف نخلص الأحياء من خبيث الأدواء بحقنها بالمكروبات بعد إضعافها).

وفيها أكَّد لهم بستور: (أن المبادئ العامة قد وجدناها فلا يستطيع المرء أن ينكر أن المستقبل ملئ بآمال عظام. وصاح فيهم: (إننا جميعاً مدفوعون بعاطفة قوية نبيلة، هي حب الحق وحب التقدم بالإنسانية إلى خير مما هي فيه). ولكنه وا أسفاه لم يذكر في هذا الخطاب البديع شيئاً عن الشياه الكثيرة التي ذهب لقاحه بها وقد كان لحفظها وتحصينها.

وكان كوخ حاضراً في الاجتماع، وظل يَطرِف إلى بستور بعينه من وراء نظارته الذهبية ويبتسم في لحيته الكثَّة كلما سمع بستور يقصف بالجمل الرنَّانة، قد عَمِرت باللفظ البديع وأقفرت من العلم الصحيح. وكان بستور يخطب وهو يحس كأن سيفاً خفياً مُصلَتا فوق رأسه. ولما فرغ من خطابه تحدّى كوخَ أن يجادله على رؤوس الأشهاد علماً منه أن كوخ في صيد المكروب خير منه في الحِجاج. فقام كوخ فقال: (سأقنع نفسي بالرد كتابةً على السيد بستور، وسيكون هذا قريباً). وكحَّ، ثم جلس.

(يتبع)

أحمد زكي

الحياة الأدبية في دمشق

للأستاذ علي الطنطاوي

لا شك أن (الرسالة) بسموها عن الفكرة الإقليمية الضيقة، وفتحها أبوابها لأبناء العربية جميعاً، ودعوتها إلى الاجتماع على التوحيد في الدين، والفضيلة في الأخلاق، والوحدة في السياسة، والصحة في اللغة، والجمال في الأسلوب، والتجديد في الأدب. . سيكون لها أثر كبير في تاريخ الصحافة العربية بما سنت من هذه السنة الحسنة التي لم تعرفها من قبل كبريات مجلات مصر إلا قليلا، وبما بلغته من الجمال والإتقان، في الشكل والموضوع؛ وسيكون لها أثر كبير في تاريخ الأدب العربي، بما وضعت للأدب من منهج مستقيم، وما أحيت من الأسلوب العربي، وما قبست من روائع الآداب الأجنبية؛ وسيكون لها أثر كبير في التاريخ العربي العام، بما دعت إليه من الوحدة العربية، وما نشرت من أمجاد السلف، وما وضعت في نفوس الناشئة من قرائها، من العمل للجامعة العربية الواسعة، لا للإقليمية الضيقة. . .

ولا شك أن (الرسالة) اليوم للأقطار العربية كلها، لا لمصر وحدها؛ فكما تفتح (الرسالة) أبوابها للمقالات الوصفية والقصصية، وللقصائد والبحوث التي يبعث بها إليها أدباء الشام والعراق وغيرهما، فلتفتح أبوابها للفصول النقدية، والبحوث المستفيضة عن الحركة الأدبية في هذه البلاد، ولو كانت قاسية شديدة على النفوس، ولو كشفت عن حقائق يحب بعض الناس ألا ينكشف عنها الستار؛ وليس من مصلحة الأدب في شيء أن يظل أدباء مصر والعراق جاهلين مدى الحركة الأدبية في الشام - مغترين بها - وليس من المصلحة أن يبقى أدباء الشام ومصر جاهلين مدى الحركة الأدبية في العراق، بل يجب أن يصف أدباء كل قطر من الأقطار الحياة الأدبية في قطرهم، ومبلغ قوتها أو ضعفها، وسبب تقدمها أو علة قصورها، وأن يحللوا أدواءها وأمراضها، لنتعاون جميعاً على علاجها ومداواتها، وتقويتها وشد أزرها؛ والحياة الأدبية في الشام أحوج شيء إلى المداواة والعلاج، إذا كان في الشام حياة أدبية، لها وجود، ولها آثار يستطيع الناقد أن يصفها ويتحدث عنها؛ وأنا أشك في وجود هذه الحياة، فلا أستطيع أن أجزم بوجودها لأني لا أرى علامة من علامات الحياة في أدباء دمشق وأدبها، ولا أستطيع أن أنفيها، لأن في دمشق أدباء كباراً معروفين، ولأن دمشق - كما يعلم الناس جميعاً - عاصمة من عواصم البيان العربي. . . .

ولقد رجعت أعرض تاريخ الأدب في دمشق منذ عهد الاحتلال إلى اليوم، وأنظر الآثار

الأدبية الخالصة التي أخرجها أدباء دمشق هذه الخمسة عشر عاماً، فلا أجد إذا استثنيت مجلتي الرابطة الأدبية والميزان، ورواية سيد قريش لمعروف الأرناؤط، وكتابي المتنبي والجاحظ لشفيق جبري، ورسائل أئمة الأدب لخليل مردم بك، إذا استثنيت هذه الكتب، وكتابين آخرين أو ثلاثة قد أكون نسيتها، لا أجد أثراً أدبياً له قيمة. وهناك كتب محمد بك كرد علي: خطط الشام، والإسلام والحضارة، وغيرها، ولكنها ليست من الكتب الأدبية الخالصة، وإنما هي كتب تاريخ لا تدخل في موضوع مقالي.

على أن هذه الكتب التي استثنيتها ليست في درجة واحدة من حيث قيمتها الأدبية، فبينا نعد (سيد قريش) عملاً فنياً كبيراً على ما فيها من ضعف العقدة الروائية، وتشابه المناظر، وتكرار الأوصاف، وغلبة النصرانية على أجمل صفحاتها، نعد رسائل (أئمة الأدب) لخليل مردم بك، كتباً مدرسية، موضوعة لطلاب البكالوريا لا تبلغ أن تعد في الدراسات القوية التي تستند إلى طريقة في البحث معروفة، وتكشف عن نواح مجهولة من حياة الأديب الذي تبحث عنه ومن أدبه؛ ثم إن هذه الكتب نفسها إذا قيست بمدينة كدمشق، في مدة طويلة كهذه المدة، لا تعدو أن تكون أثراً ضئيلا لا يدل على حياة. . . . وهذا الأثر على ما فيه من ضعف ينحصر في فنين من فنون الأدب هما: القصة التاريخية، والدراسة التحليلية؛ أما سائر فنون الأدب كالقصة التمثيلية، والأقصوصة القصيرة، والصورة الوصفية، والمذكرات الأدبية، التأملات الفلسفية والشعرية، والدواوين القيمة، والخطب البليغة، وغيرها من فنون الأدب، فلا نكاد نجد لأدباء دمشق فيها أثراً يذكر.

من أجل ذلك لم أقل إن في دمشق حياة أدبية، لأن ما نحن فيه ليس بالحياة ولا بشبه الحياة، ولم أنف هذه الحياة لأن في دمشق أدباء ينتجون، أو يستطيعون أن ينتجوا شيئاً، وإنما أقول إن أدباء دمشق في منزلة بين الموت الكامل، والحياة الصحيحة. هي السبات العميق، والنوم الطويل الذي يشبه نوم الضفادع طول الشتاء، إذ تدخل في ثقب من الثقوب، فتلبث الفصل كله كأنها قطع الحجارة، لا تأكل ولا تشرب، ولا تنق ولا تتحرك. . .

وإلا فما يصنع كتاب دمشق وشعراؤها؟ وأين هي منتجاتهم الأدبية؟ وهل يكفي الشاعر أن يقول كل خمسة أعوام قصيدة واحدة تضطره إليها المناسبات اضطراراً، ثم لا يكون فيها أثر من نفسه، ولا تصف شيئاً من عواطفه؟ وهل يكفي الكتاب أن ينشر كل عامين مقالة تطلب منه، أو مقدمة كتاب يسأل كتابتها؟ بل هل يستطيع أن يملك لسانه الشاعر فلا يقول شيئاً وهو يرى كل يوم ما ينطق الصخر بالشعر من مصائب الأمة ونكباتها، بل وهمومه هو ومصائبه وما يشاهده في حياته في بيته، وحياته في عمله؟. . أليس في حياته سرور وألم، وأمل وقنوط، وضحك وبكاء؟ أفيضحك الشاعر فلا يغني، ويبكي فلا ينوح، وتهز قلبه الحادثات فلا يقول شيئاً؟ أنا لا أستطيع أن أتصوَّر كاتباً أو شاعراً، لا يكتب ولا ينظم، وكل ما حوله يهيج نفسه، ويثير عاطفته. . .

إن أدباءنا يحتجون بأنهم لا يجدون مكاناً ينشرون فيه، وإذا لم يجد الأديب سبيلاً إلى النشر ضعفت همته، وانكسر نشاطه، ولم يجد حافزا إلى العمل، لأن فقد عنصر النشر من أكبر الأسباب في هذا الركود الأدبي. . . وهذا صحيح لا غبار عليه.

وليس في دمشق مجلات أدبية، إلا مجلة صغيرة اسمها (الطليعة) يصدرها نفر من الشباب المثقفين الذين يحملون الشهادات العالية من أكبر معاهد أوربا، ولكن لها منحى خاصاً لا يرضى عنه الناس كلهم، وهي تمشي بخطى مضطربة. وربما اضطر أصحابها إلى إغلاقها كما اضطر من قبل أصحاب (الثقافة) إلى إغلاقها، برغم أن أصحابها من صفوة أدبائنا ومفكرينا، كخليل مردم بك وجميل صليبا وكاظم الداغستاني؛ ثم إن الجرائد اليومية لا تعنى بالأدب عناية كبيرة، ولا تخصص له صفحات دائمة تنفق عليها بسخاء، وإن هذه الصفحات الأدبية التي تزيَّن بها صدور بعض جرائدنا اليومية صفحات فارغة، لا أظن أن أحداً ممن له صلة بالذوق الأدبي يرضى عنها، وما أظن أن أصحاب الجرائد والقائمين عليها يرضون عنها، أو يجدون فيها وفاء مما يؤملون. وإذا ألَّف الأديب كتابا أو قصة لم يجد الناشر، وإذا أنفق عليها من ماله لم يشترها أحد، لأن دمشق بلد تقرأ كثيرا ولكنها لا تشتري؛ وهذه مجلة (الرسالة)، لا تجد في دمشق أديباً أو متأدباً إلا اعترف لك بأنها خير مجلة أخرجت للناس، وأن العالم العربي لم يعرف

مجلة مثلها منذ أنشئت أول مطبعة في مصر، ولا تجد أديباً أو متأدبا إلا وهو ينتظر يوم الثلاثاء ليقرأ الرسالة، وبعد ذلك كله يباع من أعداد الرسالة في دمشق كلها أقل من خمسمائة عدد. . .

هذه حجة الأدباء في تقاعسهم عن النشر، وهي كما ترى حجة مقبولة، ولكنك إذا سألت القراء لم لا يشترون، احتجوا بأن الأدباء لا ينشرون، وإن تقاعسهم وكسلهم علم القراء الزهد في الآثار القيمة والانصراف عن شرائها.، وأنه لابد من أن يضحي الأدباء بقسط من أموالهم وشهرتهم حتى يستعيدوا القراء الذين فقدوهم. على أن الذنب في رأيي ذنب المدارس والمدرسين، لا ذنب الأدباء ولا ذنب القراء، فليس في الشام اليوم من دروس الأدب إلا هذا المقدار القليل الذي يتعلمه الطالب في مقرر البكالوريا. وهذا المقدار لا يحق حقاً، ولا يبطل باطلاً، ولا يصنع شيئاً أكثر من تبغيض الطلاب في الأدب، وتسويده في أعينهم، ذلك لأن شعب الأدب في صفوف البكالوريا تسير في طريق عوجاء أبعد ما تكون عن بث الملكة الأدبية في نفس الطالب. وكيف تكوّن الملكة الأدبية طائفة من أخبار الشاعر وأشعاره يستظهرها الطالب من غير أن يفهمها غالباً، ويحتفظ بها دماغه إلى يوم الامتحان، فإذا أدَّاه ونال الشهادة أهملها، أو دخله الغرور فظن أن معنى (بكالوريوس في الآداب) كاتب أو أديب، فزهد في المطالعة، وانصرف عنها أو طالع ما يقع تحت يده من الكتب والمجلات حتى ابتلى بسوء الهضم، وأصيب بالتخمة العقلية. . . فترْك القراءة وذهب إلى الندَّى (القهوة) يقطع عمره في النرد والشطرنج ثم يعمد إلى الكتابة في موضوع علمي أو فلسفي دوَّنت فيه عشرات المجلدات من غير أن يقرأ منها شيئاً. . .

ثم إن طلاب شعب الأدب في صفوف البكالوريا لا يستطيعون أن يستعينوا بالثقافة العامة التي يتلقونها في المدرسة، ولا يعرفون كيف يستفيدون من علم الغريزة (الفسلجة) أو علم النفس أو التاريخ في بحوثهم الأدبية ولا يعرفون شيئاً من مناهج النقد، وقواعد التحليل الأدبي، لا لأن الطلاب كسالى أو بلداء، فالطلاب يدرسون الأدب الفرنسي فيسيغونه، ويدرسون الرياضة فيفهمونها، ويدرسون أشياء كثيرة غير هذه يضيقون ببعضها ويتبرمون به، ويقبلون على بعضها ويحبونه، ويجدون لذلك كله أثراً في نفوسهم، فإذا جاء الأدب العربي وجدت أكثر الطلاب لم يلذّوه ولم يبق في نفوسهم أثراً.

وسبب ذلك أن أكثر المدرسين عاجزون عن أداء هذه المهمة التي انتدبوا أنفسهم لها، أو اندبهم لها من بيدهم مقاليد الأمور، لشهرتهم الأدبية أو لشهادتهم العالية، أو لشيء غير ذلك له صلة ضعيفة، أو لا صلة له بالأدب قط. وأكثر المدرسين اليوم بين رجلين: رجل ثقف

الأدب العربي القديم ثقافة حسنة، وضرب بالسهم الوافر في علوم العربية نحوها وصرفها، وبلاغتها وعروضها، ونقدها وروايتها، وحفظ أيام العرب وأمثالهم واستطاع أن يفهمها حق فهمها، وينقدها نقد بصير بها، ولكنه عجز عن أن يدرسها ويدرس رجالها دراسة تحليلية صحيحة لجهله الآداب الأجنبية، وجهله قواعد النقد الحديث.

ورجل درس الآداب الأجنبية أو واحداً منها دراسة عميقة، وعرف مناهج البحث، ومذاهب النقاد، وأحسن نقلها إلى الأدب العربي، ولكنه عجز عن فهم الشعر العربي، وجهل علوم العربية، فغدا لا يستطيع إدراك معنى النص العربي فضلا عن نقده أو الحكم عليه.

ثم إن أكثر المدرسين من غير رجال الأدب؛ وإن فيهم من لم يعرفه الناس شاعراً مطبوعاً، ولا كاتباً مجيداً، ولا ناقداً بصيراً، ولا أكثر من ذلك ولا أقلّ. فكيف لعمري نطلب منه غرس الملكة الأدبية في نفوس الطلاب؟ إن مثل هذا الطلب هدم للمنطق الذي يقرر أن فاقد الشيء لا يعطيه.

هذه قيمة الحياة الأدبية في الشام؛ وهذا موطن الضعف فيها؛ فلا صلاح لها إلا بتقويته، ولا نجاح لأمة لا تسخّر أدبها لخدمة قضيتها. فهل يبدأ في حياتنا الأدبية (عهد الإصلاح) المنتظر؟

علي الطنطاوي

أزمة أوربا الدينية في العصر الحاضر

بقلم محمد جلال

يخيل إلينا - كما يرى الكثيرون - أن التصوف هو أظهر حالات النفس وأقدرها على محاسبة الضمير وكشف حقيقته. قال ابن خلدون: (وأصله - أي التصوف -. . . طريقة الحق والهداية) وقال أيضا: (ويتم (بالمجاهدة) وجود النفس الذي لها من ذاتها وهو عين الإدراك) وقال الأستاذ لَالَنْد:

. , ? ' ' ,

أي أن التصوف هو اعتقاد في إمكان حصول اتحاد تام مباشر بين الروح وحقيقة الإنسان. وقال الفيلسوف بِرْجِسون:

? ' , '

ومعناه أن الصوفي الحقيقي هو الذي يتخطى حجاب الحس الذي وضعته الطبيعة البشرية ليواصل بذلك العمل الإلهي.

يتضح من ذلك أن التصوف يحقق شرطي الدين وهما الاعتقاد والعمل. فتلاحظ إذاً أن معظم المتصوفة قد نشأوا في بيئة دينية إلا القليل منهم من ظل يعمل بعيدا عنه في الظاهر. ولما كان للروح العلمية اتجاه يختلف عن الاتجاه الديني في كثير من أغراضه وميوله، مال العلماء إلى التخلي عن الدين ورميه بالنقص. لهذا سنقصر بحثنا الآن على حقيقة الإيمان مع اتصاله بالعلم والفلسفة والتاريخ.

1 - العلم:

أحدث تقدم العلم في القرن التاسع عشر اضطرابا في الحياة الدينية أفضى إلى تمحيص الدين على ضوء القوانين العلمية. من ذلك لوحظ أن نظرية خلق العالم في سبعة أيام - كما هو وارد في معظم الكتب المقدسة - لم تتفق وقوانين العلم الكوني.

فإن اليهودية والمسيحية والإسلام ومعظم الأديان الأخرى نشأت كلها في الشرق فمن المحتمل إذا أنها تكاد تتحد في فكرة علمية واحدة. في فلسطين مثلاً ساد الاعتقاد قديماً أن الأرض محاطة بطبقة صلبة معلقة فيها الكواكب يعلوها عرش الله الذي يثبت الأرض وما عليها وهو منفصل عنها؛ ولكن علم الفلك أثبت أن العالم لا نهاية له، فيكون عرش الله

واقعاً في حيز العالم تجرى عليه سنة هذا الوجود من حركة وسكون. أدى هذا الخلاف إلى رأيين: الأول اتحاد العلم والدين، والثاني انفصالهما

أما الرأي الأول فانه يقرر - على رغم ظواهر الأشياء وما في الكتب المقدسة من اختلاف - أن هناك صلة بين العلم والدين يسهل تحديدها إذا اتفق العلم والدين على معاني الكلمات؛ ففي المثال السابق مثلاً جاء في التوراة أن معنى كلمة يوم: مدة مقدارها عصر لا أربعاً وعشرين ساعة كما نعتقد نحن اليوم؛ على هذا الاعتبار تكون الأرض قد تم تكوينها في ستة عصور - وهذا هو رأي علماء الجيولوجيا.

ويقول الرأي الثاني إن للعلم والدين أسباباً ودواعي خاصة بكل منهما، وقد يتفاوت محيط أحدهما بالنسبة لمحيط الآخر دون أن يتعارضا في شيء. فمقتضى الدين اعتقاد وأمر ثم عمل؛ وأما مقتضى العلم فكشف قوانين هذا الوجود - بما في ذلك الإنسان - وتحقيقها بالطرق التجريبية. وليس من العلم في شيء أن تحمل الجماعة على اتباع هذا النظام أو التخلي عن هذا العرف.

يستوي عنده البار والفاجر؛ وبعكس ذلك الدين، فانه حب وعاطفة ومفاضلة بين البار والفاجر؛ فهو لذلك ضرورة للنظام الاجتماعي، وهذا رأي برجسون في كتابه المشار إليه آنفاً.

أفي ذلك طمأنينة للنفوس؟ قد يكون ذلك. . ولكن ظاهر الشيء غير حقيقته؛ إذ النفس لا تعرف السكون الذي يُزيَّن لها التخير بين طريق وطريق؛ فهي إن خضعت للدين بالأمس فذلك من طبيعتها، وإذا خضعت للعلم اليوم فذلك أيضاً من طبيعتها. وقد لا تخضع غداً لا لهذا ولا لذاك، وعليه فإن هذا التقسيم لم يحقق مأرباً.

2 - الفلسفة:

أما في الفلسفة فالنزاع قائم بين أنصار مذهب الفكر وبين أنصار مذهب العمل يقرر الفكريون أن الذكاء هو خير وسيلة لفهم الحقيقة الواقعة، وفي رأي العمليين أنه وسيلة لتكوين صور لأعمالنا نستعين بها على فهم الأشياء.

فعند الفكريين (أي معظم فلاسفة الغرب والفرنسيين منهم خصوصاً يتقدمهم ديكارت)

تتعين الحقيقة بنفسها؛ وليس في مستطاع الفرد - مهما كانت قدرته - أن يحددها دفعة واحدة،
ولكننا نقرب منها شيئاً فشيئاً مع وفرة مجهودنا الفكري خلال العصور المتطاولة. كان العلم عند اليونان مثلاً مبادئ وأوليات، وقد ترقى بعض الشيء عند العرب، وفي عصر النهضة بأوربا، ومازال يرتقي وستخلص أسسه من شوائب كانت سبباً في تغيير معالم الحقيقة التي لم تغير جوهرها بالنسبة لحاجة الإنسان.
ويرى آخرون أن ليس للحقيقة وجود ذاتي، فهي محض فكرة دعت إليها حاجة الإنسان. فعند اليونان تدل كلمة حقيقة على شيء نسبي - أي أن حاجة الإنسان الفكرية تتطلب حقائق مختلفة حسب الزمان والمكان، وهي بدورها تحقق رغبة علمية واحدة؛ وبما أن حاجة الإنسان غير ثابتة فتكون تلك الحقيقة أيضاً غير ثابتة، وذلك لاختلاف وسائل تحقيقها. فمطرقة الحداد مثلاً كانت حقيقة في الماضي - كذلك مطرقة النجار هي حقيقة اليوم، ورغم ما أثبته العلم والعمل حتى عهد قريب من صحة نظرية نيوتن الخاصة بتجاذب الأجسام، فان أبحاث اينشتين تثبت حقيقة أخرى بعد ما هدمت الأولى؛ أعني أن هناك تناسباً خاصاً في الحياة الفكرية لكل عصر؛ ولا غضاضة إذا أقبلنا بجميع جهودنا على تلك الحقيقة المتغيرة فهي لم تتحدد بغير منفعتها.
مثل وليم جيمس هذا الرأي في أمريكا - وأخذ برجسن ببعض منه، أي الجزء الخاص بتطور الفكر، وتبع المسيو ادوارلروا أستاذه برجسون في ذلك إذ رأى أنه يصعب على الرجل العملي فهم الدين من الوجهة المنطقية. وعليه فان عبارة (الأب والابن وروح القدس) معناها تصوير حقيقة واقعة تنشأ عن ارتباط الفرد بغيره. ويقال مثل ذلك في تفسير وجود عبادة الله وحده - أي كونه ماثلا حقيقة روحاً ودماً (عقيدة سر القربان عند المسيحيين)؛ ويراها آخرون أنها صيغة أمر، أي وجوب تصور حالة العبد أمام ربه كما يجب أن يكون عليها أمام إنسان يرى فيه أصل الحب والتقديس. هو أصل اليقين والشعور الطاهر، وقال بمثل ذلك الأب بالمعهد الكاثوليكي بفرنسا في إحدى جلسات مجمع باريس الديني الأخير إذ رأى أن أوضاع الدين لم تكن غير نواميس للحياة.
التاريخ - 3
شك علماء التاريخ في مصادر التوراة، لأن فيها أجزاء وضعها قديسون، وقد نُقحت من بعدهم. وللآن لم يستقر الأمر على معرفة كيفية حصول ذلك لعدم توفر الوثائق التاريخية
الكافية؛ فلا يبعد إذن أن يكون قد وقع فيها بعض التغيير أو الحذف. مثال ذلك أسفار موسى الخمسة فانه لم يزل أمرها غامضاً حتى اليوم. يوجد عدا هذا بعض تناقض في الآيات من حيث الصورة والمعنى. آمن عيسى عليه السلام في عودته ثانية إلى الأرض، وإن الساعة آتية قبل أن ينقضي العهد الذي نزل هو فيه.
يلاحظ هنا تباين نشأ عما رمز إليه في التوراة من أعمال دنيوية، إذ انقضى عهده وانتهى النظام الوراثي للملك وهو لم يعد بعد. أدى هذا الاعتراض إلى أحداث انشقاق في الكنيسة الكاثوليكية في أواخر القرن التاسع عشر. أخذ رجال الكنيسة من جديد يدرسون الإنجيل من حيث التاريخ والجغرافيا والتشريع، وقد قضى الأب لوازي حياته في التوفيق بين الدين والتاريخ.
نشأ عن تلك الحركة اتجاه جديد في الرأي سمي بمذهب (المثل الاعتقادي) يرى أخذ الأشياء على أنها أمثلة بسيطة شأنها أن تحدث معتقدات تتناسب مع قوة إيمان الفرد؛ فيكون مرمى نظرية نزول المسيح تحديد قيمة مثلى.
على رغم كل ذلك ما زال في النفس بقية تدعوها إلى كشف معتقد جديد وحقيقة أخرى، فيرى برجسن وهنري بوانكاريه أن العقل غير كاف وحده لكشف الحقيقة التي دأب وراءها الإنسان منذ نشأته. فلا بد له أن يتبع هدى روحه كما فعل أفلاطون وغيره.
ويرى أوجست كنت وأتباعه أن الدين نظام اجتماعي قابل للتطور مثل الجماعة في تاريخها من تشريع وأخلاق. ويرى الأستاذ شارل مورا الدين الكاثوليكي لإصلاح النظم الاجتماعية في فرنسا لما فيه من عناصر السلام
ما هي حالة الفرد النفسية إزاء ذلك الانقسام؟
عبر علماء النفس عن ذلك بأنه شعور جديد بشخصية الفرد يدعوه إلى تحديدها من حيث اتصاله بالجماعة، ومن حيث اتصاله بنفسه، مما أدى إلى ترك بعض المعتقدات

والتمسك بأخرى. ولما كانت الجماعة تحمل في ماضيها عناصر مدنيات مختلفة فهي إذاً الدافع إلى هذا الشعور في الفرد. ويختلف الأفراد في قبول ذلك حسب استعدادهم النفسي، وهذا ما نشاهده في القديس بولس إذ اضطربت نفسه متأثرا بعصره، فخرج على الدين ثم عاد إليه متحمساً لتجديده، وذلك بالدرس والمجاهدة النفسية.

يرى بعض رجال الدين أن مثل هذا النوع من المجاهدة محاولة من العبد أن يتصل بالله ليظفر بالغفران. ولكن بعض أتباع لوثر ليسوا في حاجة إلى ذلك، إذ الغفران في رأيهم ملك للجميع، وثقتهم بالله عظيمة لتوزيع هذا الغفران، فلم يكن عندهم إذا هذا النوع من المجاهدة.

وهناك فريق آخر يقال لهم الوصوليون وغايتهم فعل الخير لأنهم مجبرون عليه، وهذا عمل خلو من الشعور بالاتجاه نحو الله كما رأى ذلك رينان

عرضنا في تلك الكلمة الموجزة نشوء بعض تطورات الدين بأوربا، مما يدعونا إلى الاعتقاد أن هناك عوامل أخرى أدت إلى تلك الاختلافات الطائفية غفل عنها رجال الدين والفلاسفة، وهي التي دعت علماء الاجتماع للتعبير عنها بطريقة أخرى غير ما سبق. وذلك موضوع كلمتنا القادمة.

باريس

محمد جلال

بجامعة باريس

بين الماضي والآتي

للأستاذ أديب عباسي

وصلنا عدد (الرسالة) المائة والسادس والعشرون، وقد انتهينا إلى جزء هذه المقالة) الأخير، وكم كانت دهشة المفاجأة إذ فضضت غلاف الرسالة ووجدت بين بحوثها مقال الأستاذ الكبير أحمد أمين (أمس وغداً). وكانت بادرة الفكر التي تلت دهشة المفاجأة أن أهمل الموضوع وأوفر على نفسي عناء المراجعة والتنقيح. ولكنني عدت وقلت قد أكون طرقت الموضوع من ناحية غير التي طرقها الأستاذ، وقد أكون على خلاف معه في الرأي أو بعضه. وقرأت المقال فوجدت أننا نسير والأستاذ بعض الطريق ونفترق في بعضه الآخر. ومن أجل هذا الافتراق أبعث بمقالي هذا إلى (الرسالة) العزيزة).

تمرُّ بزمرة من الشيوخ خلوا إلى أنفسهم وأرسلوا أحاديثهم إرسالاً لا تحده موضوعية البحث الجدي، ولا اندفاع العاطفة المثارة، ولا عصبية الجدل؛ فتكاد لا تحسُّ في حديثهم إلا اللهفة العميقة، والالتياع الشديد على الزمن الفائت، حيث اللذة لا يكدرها ألم، والصفو لا يرنَّقه كدر، وحيث النعيم أبداً مقيم، والمنى أبداً حُفَّل دانية! وينبثُّ إليك من صدق اللهجة واجتماع الرأي وخلوص النية في حديثهم ما يوحي بأن أعصر السعادة المطلقة قد تلكأت عند شبابهم، وترخَّصت فقط لماضيهم، فأقامت ثمِّ لا تبرح ولا تريم؛ لهذا أقحل الحاضر، وعقم المستقبل، وغادر الناس طيب العيش وبشاشة الأمل!

تسمع هذا وخلافه مما تفيض به بقايا العمر وأعقاب السنين من الشيخوخة، فتتدسَّس إليك الحسرة ويغمرك الألم إن تأخر بك الزمن، ولم يحشرك في زمرة الشيوخ هذه، ويجعلك في حشدهم، فيكون لك من السعادة مثل ما يتحدثون ويصفون.

وتقودك رجلاك من حيث أنت إلى زمر أخرى وأفراد آخرين، بعضهم ما يزال - في رأي نفسه - يستعدُّ لخوض معركة الحياة، وبعضهم الآخر - كذلك في رأي نفسه - قد أعدَّ لها العدَّة، وهيأ السلاح، فهو الآن يخوض غمارها ليصطلي بنارها، أو يستاف العطر الذكي عن أزهارها.

وتقف تتسمع، فما يروعك من هذه الزمر مثلُ انشغالها بمستقبلها عن حاضرها، وغفلتها عما في اليد إلى ما يمنيها به الغد، كأن حياة اليوم ليست في العمر ولا في تقدير الزمن،

ويمضون هذا المضي، الغفلةُ عن حاضر الحياة غريبة مدهشة، والثقة في المستقبل قوية آسرة، ويظلُّ هذا دأبهم إلى أن يؤدَّن بركود الشباب، ووشك الانخراط في سلك الشيخوخة المتهدمة. عندها - وعندها فقط - يصحون، ولكن لات ساعة صحو.

وهنا ينقلب الوضع وينكفئ الاتجاه، فتحل الذكرى القريبة أو البعيدة محل العزم، والركود محل النشاط، والعجز محل القدرة، وهكذا بي ماضي الحياة وآتيها، يُسقط الناس كل رصيدهم فيها، ويجعلون منها - على حد تعبير الرياضيين - الكمية المهملة.

وليست هذه الصور التي رسمنا بالصور الخاصة أو الطارئة طروءاً زائلاً، إنما هي صور لها من طبيعة الشعور وخصائص الإحساس ما يجعلها من ألزم الصور للحياة وأكثرها لصوقاً بها وشيوعاً فيها. فالشيخ، أو من كان في حكمه من شبان السنين، يتَّجه إلى الماضي ليلطف عنده مرارة الحاضر، وليتعوض بذكراه عما يفيته العجز وضعف المُنة من لذائذ راهنة يراها ولا يرى السبيل إليها كيف يكون. وقد تقول: لم يؤثر الشيخ أن يرتد بخياله إلى ماضي العمر ولا يرى أن يرسله في مطاوي المستقبل ليلتمس عنده الفرار وينشد السلوان؟ والجواب سهل هين إذا علمنا أن خيال الشيخ يخونه هنا، كما يخونه كذلك منطق الواقع ومنطق الاحتمال. فالشيخ يدرك أن سبيله من بقية العمر هي سبيل نازلة لا صاعدة، وأن كل يوم يمضي يدنيه من النهاية ويقلص لديه بقايا الأمل وأصداء السعادة؛ وإذاً فالحاضر فسحة مسدودة، والآتي سبيل مظلم مخيف؛ أما الماضي فهو السبيل الوحيد الذي يستطيع أن ينساب فيه الخيال دون أن يشله برد الواقع أو تروِّعه بشاعة الحاضر.

وقد تسأل: ألم يكن في ماضي الشيخ الألم كاللذة، والنعيم كالشقاء، والحرمان كالإنالة؟ فكيف يؤثر أن يعيش في ماضيه دون حاضره وآتيه؟ وهنا نرجع إلى حقائق الشعور الراهنة، فيستبين لنا أن الألم الفائت يفقد قيمته مع الزمن حتى لا يبقى منه إلا ذكراه وصداه. وهذه الذكرى - إذا لم يصحب أسباب الألم عند نشوئه حالات ملازمة - تضحى باعثاً على الاطمئنان والراحة. فأنت إذ تفقد كل ما تملك أو تصاب إصابة جائرة في سمعتك أو تجلس إلى حبيب إليك علَّقه المرض بين فكي الفناء والبقاء، بشعر بالغبطة وانفراج الشعور بزوال الخطر، حينما يعوض عليك السعي بديلاً من مالك، وحينما يردُّ إليك الوضع العادل سمعتك، وحينما يتخطى غول الفناء حبيبك فيرده سليماً معافى تنعم بلقائه نعمتك بكل عزيز عليك. وعليه فتلك الأحداث التي كانت يوماً ناراً يقلب عليها الإحساس ويضرَّم الشعور أضحت بعد زوالها مجلبة للراحة والاطمئنان، فلا عجب إذاً من ارتداد الخيال إلى الماضي وعكوفه عليه.

بيد أننا لا ننكر أن ثمة عللاً أخرى غير ما أسلفنا لهذا العكوف من الشيخ على ماضيه وانصرافه إليه عن آتيه وحاضره: منها أن الشيخ إذ يرتدُّ إلى ماضيه يُسِّير الشعور في مسارب أضحت بتكرار الحدوث ممهدة لا تعترضه فيها عقبة ولا تتصدى له عثرة. ومن هنا فكرة (الماضي السعيد) عند الشيوخ، ومن هنا أيضاً ميلهم الميل الشديد إلى المحافظة وإبقاء القديم على قدمه وتجنب كل جديد يصدم الشعور ويدعو إلى تحويله من مجراه المعتاد.

ومن هذه العلل أيضاً ذهاب الرفقة وتخطُّف الموت أبناء الجيل الواحد، بحيث يجئ اليوم الذي يشعر فيه الشيخ أنه غريب في بيئة غريبة، فيزداد حنينه إلى ذلك الرهط الذاهب من جيله، فيستعيد بخياله ذكراهم المحبَّبة وأيامه وأيامهم الحافلة.

يضاف إلى هذا لون معهود من ألوان الدفاع عن النفس بتهوين الحرمان عليها وطلب العزاء لها عنه في الماضي؛ وهو نوع من أنواع تخدير الإحساس ينشأ أول الأمر في دائرة الوعي، ولكنه مع الزمن وتوالي الحدوث والتأثير يتسرب إلى دائرة العقل الباطن ويتخفى في تيه اللاشعور. وعندها يصدر ذمُّ الحاضر عن عقيدة وينطلق عن يقين. وهذه الظاهرة تبدو أجلى وأوضح في حياة الجماعات منها في حياة الأفراد. ومن هنا أن الأمم كلما أهمل حاضرها وأزداد تخلفها عن غيرها من الأمم ازدادت حفولاً بالماضي وتفطناً إليه وعكوفاً عليه. ولعل عبادة السلف عند بعض الشعوب ترجع في معظم الأمر إلى هذا الميل النفسي العميق.

ونعود إلى صورة الشعور كما يرسمها طماح الشباب ويحددها أمله، فنجد أن الشاب إذ يتجه في أمانيه وأخيلته وعمله إلى المستقبل، إنما يجري على طبيعة الشعور وبموجب قواعده. فالحاضر لدى الشاب الذي لم يحدد الضعف وقصر المجال وضيق المضطرب أمله فيه وحدود مسعاه، هو مرقاة منها يرقى إلى غيرها. وإذاً فحاضر الحياة من الشاب هو الدرب، والمستقبل الأفق، ما يفتأ متجدداً مغرياً بالسعي والسير ما بقيت في النفس حوافز السعي والسير. ثم أن حاضر الحياة مزيج من الخير والشر واللذة والألم والنجاح والفشل. أما آتيها فهو كما يرسمه الخيال ويحدده الأمل، خير ونعيم ونجاح. أما الماضي فقد كان

يكون من خياله ما يكون من خيال الشيخ لولا أن صورة المستقبل صورة قوية رائعة لا تدع للتفكير في الماضي إلا ما يدعه القوي للضعيف. وعلى كل فقد ترى من الشباب من ينزوي عن مستقبله ويتجه إلى ماضيه، إن يكن له ماض، فعل الشيوخ الذين غادرهم الأمل وأحالهم الكبر

هذا تحليل مجمل لصور الشعور في ثلاثة أطوار الحياة وفي أزمنتها الثلاثة، لا نعتقد أننا نتحكم فيه أو نفرضه فرضاً على القارئ، لاسيما إذا أزلنا من الصورة جانبي المبالغة والإغراق من تفاؤل رخيص يجعل الحياة ابتسامة طويلة كاذبة، وتشاؤم عبوس دائم التقطيب، كما يتمثلان في حياة نفر من الناس، شأنهم الحقيقي من الحياة شأن الهامش من الصحيفة، فيها وليسوا فيها.

مما وصفنا ترى جليّاً أن حاضر الحياة - وهو كل حقنا فيها - لا ينال من فطنة الشعور إلاّ قدراً ضئيلاً عابراً إذا قيس بما يملأ أخيلتنا ويكظها من صور الماضي والآتي.

وقد تقول: ماذا علينا - إذا كان هذا هو الحال - لنخلّص الحياة من هذا العبث الذي يضيع فيه العمر بين لهفة على الماضي وغفلة عن الحاضر واستشراف للمستقبل؟ وجوابنا أن من طبيعة الحياة أن يتمازج فيها الخير والشر وتُساير اللذة الألم، وانه يستحيل أن تكون الحياة خيراً كلها أو شراً كلها، وانه لهذا أضحى واجباً أن يقبل عليها الناس إقبالاً لا يُفيتهم ما يتيسّر لهم من نعيمها، ولا يفيتهم - كذلك - النظر إلى المستقبل والسعي في سبيله؛ ولن ينقص نظر الناس إلى المستقبل من استمتاعهم بلذات الحاضر إذا عرفوا كيف يحسنون السير في سبيله سيراً معتدلاً حتى لا يضحى مشغلة لهم تزحم حاضر الحياة على نصيبها الذي يجب أن يكون لها من وعي الشعور، بل نحن نعتقد أن المرء يتيسّر له من سعادة الواقع، مع السعي السليم والتطلع إلى المستقبل الذي لا يقطعُ المرء من حياته الحاضرة، أكثر مما يتيسّر له حينما ينقطع عن ماضيه وآنيه ليكبّ على الحاضر وحده يرضع فيه اللذة ويترشف النعيم على الطريقة الخيَّاميَّة.

وهذه الحالة السليمة من الشعور لا تحلُّ حلولا مفاجئاً، كما يحلُّ الوحي، ولا تجئ بالسعي

الهين أو المعتدل، إنما هي حالة تقتضي السعي الأكيد، والتعاون الشديد، من جميع مصادر التوجيه النفسي. ولعل البيت والمدرسة يفوقان في هذا الشأن جميع مصادر التوجيه الأخرى في طول مدى التأثير وعمقه، فالبيت والمدرسة يستطيعان أن ينشئا الجيل الذي لا يقتله الفشل فيرتد إلى الماضي يخدِّر فيه الشعور، ولا يستخفه النجاح، فيستعبده المستقبل ويستذله. ويكون ذلك بأن يتعاون البيت والمدرسة على تعويد الطفل بالتلقين والإيحاء تلقى مؤثرات الحياة برحابة في الصدر، وتوطين للنفس على خير الحياة وشرها على السواء.

ويساعد على تكوين هذه الحالة السليمة من التصور مثل التربية الاستقلالية التي يُرباها أبناء الأمم السكسونية، حيث يتخذ الألم معنى الواقع الذي لابدَّ منه، واللذة معنى الخير يجئ بالسعي، فلابدَّ من تذوُّقه واستمتاعه إلى أقصى حدود الاستمتاع.

ويجب كذلك أن يتعاون البيت والمدرسة تعاوناً حكيماً في الحد من أنانية الصغار الصارخة، وإفهامهم أن فرص النجاح مثل حقهم؛ فلا تمضي حياتهم آمالاً مخيَّبة، وآلاماً موصولة.

كذلك على المدرسة والبيت أن يعوِّدا الناشئ كيف يقف من حوادث الحياة موقف الحياد والاستقلال في التقدير، ومن نفسه موقف المحاسبة والتحليل الدقيق للأوضاع التي تسوقه إليها مجريات الحياة. بذلك يكتسب ثقة في النفس وتقديراً عادلاً للأوضاع، يربحانه من خصومة النفس وغربة الوضع وغرابة الإحساس. . . .

ومن واجب البيت والمدرسة - كذلك - أن يعتاد الصغار تقدير آلام الغير ويستيقنوا أن الناس يتألمون كما هم يتألمون، وأن ما نشاهده من ظاهر السعادة عندهم هو في أغلب الأحيان دون ما نقدِّر ونتوهم.

ومن أول واجبات البيت والمدرسة أن ينشئا الصغار على التفطن إلى جميع مظاهر الجمال وتذوقه في الطبيعة والحياة والفن، فأن في ذلك توسيعاً لمدى اللذة وتغليباً لأسباب السعادة على أسباب الشقاء.

وأخيراً يجب على البيت والمدرسة أن يفقهاأن عملية التربية ليست إعداد المرء للحياة كما تصر نظم التربية القديمة، إنما هي - كما يقول جون ديوي - فيلسوف النزعة

الحديثة في التربية: (الحياة) بذاتها.

أديب عباسي

الرابطة الثقافية بين مصر والشرق العربي

دعوة إلى توثيقها

للأستاذ رفيق اللبابيدي

أحب أن أقرر أولاً أن الأمة العربية مهما تكن شتى في نوازعها السياسية، هي أمة متماسكة ذات وحدة أو كيان واحد في ثقافتها وفي تفكيرها.

وقد اختلفت على هذه الأمة أدوار من الزمن، كما اختلفت فيها أطوار من التاريخ، وكانت تجتمع كلما حز بها أمر من الأمور عند هذه الوحدة الفكرية في قوالب شتى، فالدين كان ولا يزال واحداً، واللغة كانت ولا تزال لغة واحدة، والخوالج النفسية العامة واحدة، والأدب في مقاييسه ونوازعه كان واحداً؛ ولو عدنا رَجْعَنا إلى التاريخ وقلبنا صفحاته، لوجدنا أن الأقطار العربية كانت تجتمع عند الاحتفال بالشاعر النابه والأديب مهما يكن موطنه ومهما تكن نزعته؛ وقد كان الشعر أو الأدب يطوفان في أرجائها يحملان أسم الشاعر أو الأديب طواف الفكرة الدينية أو المذاهب الفقهية، أو النحل الشتى من بلد إلى آخر، أو من قطر إلى قطر.

وبينا كانت هذه الأقطار تسودها النزعات السياسية المتباينة كانت تفسح صدورها للآراء الدينية والمذاهب الكلامية، والاستنباطاتِ التشريعية، تتسرب إليها عن طريق السفارات العلمية بارتحالِ العلماء في مختلف العصور.

وفي بغداد، وفي دمشق، ثم في القاهرة، وبين هذه العواصم التاريخية العريقة في تاريخنا الواحد وماضينا أمثلةٌ صادقة تسجِّل هذا الاتحادَ الثقافي أو هذه الرابطة العلمية، وإن تكن في غير ما نألفه الآن من وسائل يسَّرتها عواملُ الرقي، وسننُ التطور.

ولقد كانت رحلات الفقهاء، وجماعات الأدباء، ورجالات التاريخ من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب تُوثِّق من عُرَى هذه الروابط فاجتمع للعرب من هذا تراث واحد يمثل ذلك الاتجاه الفكري، وإن تكن قد اختلفت طرقه إلى النتائج، وتباينت وسائله فيها؛ ومذاهب الفقه، والنحل المبسوطة في المدوَّنات والمظان التي تسربت إلى المغرب الأقصى والأندلس في أيام ازدهارها ومن هذه إلى الشرق - لونٌ من ألوان هذا الاتجاه كما كان من قبل ذلك للأدب سفاراته في طواف الشعراء والكتاب من دولة إلى دولة، ومن إقليم إلى آخر، ولم

تستطع الأحداث السياسية أن توهن من هذه الروابط أو تفلَّ منها، وإن استطاعت بعضَ الاستطاعة أن تعوق وسائلها، وتقف تقدمها؛ على أني لا أزعم أن أثر هذه الأحداث لم يكن قوياً، ولكني أجيز لنفسي أن أقول إن هذه الرابطة لم تضعف بالرغم من هذه الحوائل، بل صمدت لها حتى اجتاحها الزمن، وانطلقت الأقطار العربية من عقالها فعادت إلى طريقها الأولى ماضية فيها تساير أطوار التاريخ رفعة وضعة، سنة الله في الكائنات جميعها.

ولمصر في نهضتها العلمية والأدبية الآن يد لا تُجحد على الشرق العربي؛ ففي صحافتها روح قوية توحي بهذه الرابطة التي لم تنهزم أمام أحداث الزمن، وفي نتاج بنيها النابهين، وعلمائها ومعاهدها وما تخرجه المطابع من مختلف الكتب والمؤلفات، وما يظفر به القراء في الأقطار العربية من ثمرات هذه الجهود المشكورة - ما يُحِلَّ مصر الكريمة محلَّ الزعامة المختارة المصطفاة؛ والشرق العربي أحوج ما يكون اليوم إلى توثيق الروابط بمختلف ألوانها وأشكالها منه في آونة أخرى؛ فقد تدافعت هجمات الأحداث عليه من كل جانب، وما أشده حين يكون كتلة واحدة على دفعها، وما أهونه عليها حين تتسع شقة البين في روحه وفي تفكيره بين بعضه وبعضه الآخر؛ وأقول في كثير من الاطمئنان إن دعامة هذه الجبهة الشرقية القوية لا تقوم إلا على وحدة في الثقافة ترتكز على رابطة متينة بين الأقطار العربية وبين مصر الزعيمة.

وبعد، فلست أقترح رأياً فطيرا لا يدعمه البحث أو الأخذ والرد بين الأدباء والقامة على هذه الرابطة؛ ولكني أقدم بين يدي هذه العجالة كلاماً يصح أن يكون دعوة إلى خطوات تمهيدية لمعالجة هذا الغرض المنشود، ويشجعني على القولِ أن الأستاذ الزيات في زيارتي الأخيرة له في دار (الرسالة)، قد ارتاح إلى ما بسطته من رغبة في توثيق هذه العُرَى الثقافية، وتعهد أن تقوم الرسالة بالسفارة الأدبية بين أشياع هذه الرابطة.

وإيماني ازداد رسوخا بنجاح هذه الفكرة أو هذه الدعوة، حين تحدثت بها إلى أكثر من أخ من إخواننا هنا في مصر، وهناك في سوريا وفي فلسطين؛ وأعتقد أن الحاجة ماسة إلى زورات علمية يقوم بها شباب مثقفون مؤمنون بفكرة هذه الرابطة الثقافية بين الآونة والأخرى، لا يكون الغرض منها متعة النفس فحسب، بل يكون مع هذا اتصال وثيق بين البيئات العلمية والأدبية هنا وهنالك بإعداد بحوث تبسط فيها الأحاديث في الشؤون
الاجتماعية والأدبية والعلمية، وأن تكون من ثم حلقاتٌ في كل بلد من البلدان العربية تضع لها ميثاقا واحدا ينتظم الجهود الثقافية فيها، مع الحرص على ما للشرق من تقاليد تفرضها أو تحتمها أوضاع الكيان القومي، فقد أخر الشرق كثيرا هذا الاقتباس المشوَّه عن الغرب في أكثر من ناحية من النواحي التي لا تتفق مع تقاليده وروحه، وحالت دون أن يكون له لون من ألوان الامتياز الاجتماعي والأدبي والاستقلال العلمي إلى حد ما يحفظ كرامته. واتجاه الشباب المثقف في مختلف الأقطار العربية يكاد يكون متأثرا بأوضاع شتى ونواح كثيرة متباينة، وهذا يوسع من شقة الخلاف، ويباعد على الزمن بين ما ورثناه من هذه الروابط؛ ذلك لاختلاف الثقافات، واختلاف المناهج التي تفرضها هذه الثقافات؛ وقد يجوز أن يكون مثل هذا في الشرق العربي لو كانت اللغة غير واحدةٍ، أو لو كان التاريخ غير واحد؛ ولكن الأمة العربية مهما تباعدت سياسياً، أمةٌ تراثها واحد روحا وتقاليد؛ فيجب أن يكون اتجاهها واحداً في الثقافة حتى يظل لها هذا التماسك القوي المتين.

فتنظيم هذه الرحلات بين الشباب المثقف وسيلة من الوسائل لتكوين هذه الحلقات الثقافية في الشرق العربي أو خطوة أولى إلى توحيد الاتجاه الثقافي فيه، وتلي هذه الخطوة مرحلة أخرى تكون بعقد المؤتمرات الأدبية وتناول ما تقترحه هذه الحلقات من اتجاهات قوية في النهضة الأدبية والاجتماعية، ووراء هاتين المرحلتين مراحل تقترح ليس هذا مجال بسطها؛ وبين يدي الأستاذ الزيات صاحب الرسالة وشباب مصر المثقف هذه الدعوة، ولعلنا إلى تحقيق هذه الأمنية واصلون.

القاهرة

رفيق اللبابيدي

رسائل حاج

من ربوع الغرب إلى بلاد العرب - 2

للمستشرق المجري

الدكتور عبد الكريم جرمانوس

أستاذ التاريخ بجامعة بوادبست

وشعرت وأنا أجتاز دهاليز الأزهر وأستقبل لأول مرة أروقته وحلقات دروسه بنوع من الرهبة والخشوع والتسليم. فهذا المعهد العظيم موئل الإسلام ومعقله، ومنبع الثقافة الدينية، وحامي حمى اللغة العربية. كان من أسمى أماني أن أندمج في سلك طلابه. وكم كنت في شوق لاهف إلى أن أنهل من ينبوعه الفياض روح الإسلام الحق، وأضيء شمعة معرفتي الخافتة بحيث تتحول إلى شعلة وقادة، وإلى حماسة فائقة داخل جوانحي، وأتعرف إلى شيوخه الذين يقودون العالم الإسلامي بآرائهم وأفكارهم، كما كنت على يقين وثقة أنني بمعاونة هؤلاء العلماء الفطاحل سأمضي في ترجمتي للقرآن الكريم إلى اللغة المجرية بحيث أجعلها في متناول آلاف المسلمين من مواطني.

ومع أن هذه الترجمة كانت عملاً شاقاً مضنياً، فإني كنت أحس من أعماق روحي أنها فرض واجب علي كمسلم مخلص يريد أن يعلي منار الإسلام ويطمح في أن يضيف لبنة صغيرة إلى صرحه العظيم.

وخيل إليَّ وأنا في نشوة روحية عميقة أنني بدأت أظفر ببغيتي وأجزى خير الجزاء عن تلك الليالي الطويلة التي لم أذق فيها طعم الكرى، بل أمضيتها منكباً على دراسة الإسلام وتفهم قواعده وأصوله، وأن كل ما حاق بي من مصاعب سيتبدد، وفشلي سيتحول إلى فوز عظيم وانتصار رائع بمعاونة شيوخ الأزهر ومدهم يد المساعدة إلى عملي المتواضع.

ولكنني رأيت والأسف يملأ جوانحي أن آمالي تنهار دفعة واحدة بحيث أصبحت عاجزاً عن خدمة الغرض الأسمى الذي خصصت حياتي له. علمت بأن هناك وشاة أوعزوا إلى

الشيخ الظواهري بأنني دخيل أرمي إلى الوقوف على أسرار الإسلام وإذاعتها في البيئات العلمية في أوربا! وعلى الرغم من الظنون والشبهات السيئة التي حامت حولي بذلت جهداً
عظيماً لمقاومتها؛ وكان رائدي في تلك المقاومة أن الحق على الدوام في جانبي، وقد كانت سيرة المرحوم الإمام الشيخ محمد عبدة وما لقيه من خصومة صماء خفية، وانتصاره على خصومه أكبر مشجع لي في الثبات أمام حجة خصومي. وقلت لنفسي: أين أنت أيها المصلح العظيم لترى كيف ابتعد الأزهر عن مبادئك العالية، وتجاوز عن رسالتك الرفيعة التي سموت بها فوق الأغراض الوضيعة والمطامع الدنيوية والمنافع المادية.

وعلى الرغم من جهادي الضعيف في مقاومة خصومي، ما كنت لأستطيع أن أبرهن لفضيلة الشيخ الظواهري على إخلاصي وحبي للدين الحنيف، وأني لست دخيلا، ولكنني رجل يؤمن من أعماق روحه بالرسالة المحمدية النبيلة، وأريد أن أحصل على معاونة رجال الأزهر للوقوف على تعاليم الإسلام، مع علمي بأن هذه الشريعة السمحاء ليس بها أسرار يمكن إذاعتها في البيئات العلمية، لأنها ديانة مؤسسة على ثقافة ثابتة مكشوفة للعالم لا تمييز فيها بين الأجناس والألوان. وليس الأزهر سوى الجامعة الإسلامية الحق التي تضئ شعلة الحق، فلا أسرار في جوانبها يمكن إخفاؤها عن رجل أجنبي مهما كانت صفته. ألا يعاقب الله كل مسلم يرمي أخاه بالشرك والكفر والتشكك في عقيدته المقدسة؟ ألا يعاقب أيضاً أولئك الذين لا يقومون بواجب الدعاية والإرشاد للإسلام، والذين يخفون أسرارا في قلوبهم؟ يشهد الله أنني لا أرمي من وراء ذلك أن أوجه التهم جزافا، أني لا أملك هذا الحق، ولكنها صرخة ضعيفة أردت أن أنفس بها عن صدري.

إن الأزهر بحسب نظامه الحالي لا يستطيع أن يؤدي رسالة الإسلام كما يجب. فالنظام الحديث الذي أدخل عليه، والحيلولة دون اجتماع الطلاب في حلقات الدرس كما كانوا قبلا حول شيوخهم، مسخ الأزهر وشوهه، وأفسد ما كان قد بقي له من جمال وجلال وحرمة، وأفقده سيطرته الدينية والاجتماعية في العالم الإسلامي، تلك السيطرة التي ظل متمتعاً بها قرونا عدة. ويلوح لي أن البرامج الحديثة لم تقدم الأزهر خطوة واحدة، لأن المشرفين على تنفيذها جعلوا هدفهم الأسمى فتح أبواب العمل في وجوه الطلاب، وتمكينهم من احتلال الوظائف المدنية دون أن يفكروا في تحميلهم ثقافة الإسلام على وجهها الصحيح وإرشاد المسلمين إلى الخير وتفقيههم، ودعوة غير المسلمين إلى الدخول في دين الله كما نص ذلك القرآن الكريم. يجب إذن أن يترك الأزهر ليكون جامعة الإسلام الحق، وأن يعد طلابه
لحمل رسالة الحق، وتهيئهم للوعظ والارشاد؛ أما فتح أبواب العمل واحتلال الوظائف المدنية فأشياء ثانوية قد تصرف الأزهر عن الغاية التي أنشئ من أجلها.

وعلى الرغم من وجود عدد كبير من العلماء الجهابذة في هذا العهد الإسلامي العظيم فان الضغط أطفأ في قلوبهم روح المعرفة والتعطش إليها. على أن الإسلام في عرفي يحتاج إلى حرية كاملة في البحث والتنقيب والفكر. ولقد ولد الإسلام في مهد الحريات فيجب أن يظل كذلك، لأنه يحث على حب الحقائق والصدق والتغلغل في أعماق المعرفة. وتقدم الأزهر لا يتم بتشييد العمارات المهيبة العظيمة، وإقامة عمد من الرخام والمرمر، وصنع مقاعد الدراسة من الأخشاب الثمينة، وإنما يتم بالتمسك بالعروة الوثقى، وإزالة الصدأ الذي ران القلوب من التمسك ببعض التقاليد والعقائد المزيفة، وفي الإجماع على توحيد كلمة الحق ووضع الأنظمة الإلهية في المكان اللائق بها. ألم يقل الله عز وجل: (خلق لكم ما في الأرض جميعاً) أو كما قال الرسول الكريم (تفكروا في خلق الله، ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا).

ولما يئست من معاونة رجال الأزهر قر في عزمي أن أقوم بدراستي وحدي مستعيناً بمعلم خاص تكرم بتضحية جزء من وقته لتعليمي، كما ألفيت مساعدة عظيمة من بعض أصدقائي بالقاهرة، كالأستاذ محمود تيمور الذي يجمع بين ظرف الشباب وطهارة الشيوخ، والشاب النابه محمد أمين حسونه الذي عرفني إلى طائفة من أدباء مصر وصحفييها، وأعارني مكتبته طيلة إقامتي في مصر، والباحث محمد عبد الله عنان الذي يعد حجة في التاريخ الإسلامي، والشيخ الوقور عبد الوهاب النجار الذي له أتباع وتلاميذ

منتشرون في أنحاء الأرض، وقد كان سبباً في تعرفي بكثير من إخواني المسلمين، وكانت كتب توصيته بمثابة مفتاح يفتح أمامي كل باب.

وفي أواخر فبراير زودني الأستاذ النجار بكتب توصية بمناسبة عزمي على أداء فريضة الحج؛ وكان له الفضل الأكبر في تقديمي إلى (بنك مصر)، ذلك الصرح المالي العظيم الذي يتناول من جملة مشروعاته الاقتصادية تنظيم سبل السفر إلى الأقطار الإسلامية المقدسة. ومما يذكر مع الأسف العميق أن أعمال الحج كانت تقوم بها قبل ذلك شركات ملاحة أوربية لا علم لها بما تتطلبه حاجات الحجاج المسلمين، فكانت بواخرها تحمل المشروبات الروحية، وتقدم إلى الركاب الطعام الأوربي، ولا تكترث بأن تهيئ لهم الماء الكافي للوضوء ولا إقامة مصلى يؤدون فيه الفرائض الشرعية.

أما (بنك مصر) فقد نظم للحج باخرتين كبيرتين تعدان من أكبر البواخر، وزودهما بكل ما يحتاج إليه الحجاج من وسائل الراحة والمأكل بحيث يشعر المسافر أنه لم يفارق بلاده. وقد كانت بغيتي أن أستقل إحدى هاتين الباخرتين، لأنني عددت نفسي مصريا بعد أن شربت من ماء النيل، ولكني لم أتمكن وا أسفاه من نيل بغيتي، فان قانون شركة كلاحة مصر يمنع من نقل الحجاج الأجانب على هذه البواخر، وعلى الرغم من المجهود الذي قمت به وتوسط الهلباوي بك لم أوفق، واضطررت إلى السفر على إحدى بواخر الشركة الخديوية.

وقامت بنا الباخرة باسم الله مجراها تشق برزخ السويس، فرحت أفكر في تاريخ ذلك المضيق الذي كان سبباً في فصل أفريقيا عن آسيا، بل كان فاصلا بين حقبتين من أحقاب التاريخ؛ ومع أنه قرب مصر من أوربا فقد جعل لمصر مركزا سياسياً ممتازاً بحيث أصبحت جزءا من أوربا. وبينما أنا غارق في غمار تلك الأفكار إذ اقترب مني فريق من الحجاج وبدأ التعارف بيننا بسرعة. كان بينهم طبيب هندي تصحبه كريمته، ولكن لسوء الحظ لم يكن هذا الطبيب يعرف اللغة العربية حرفا واحدا، فاضطررنا أثناء السفر إلى التحدث باللغة الإنجليزية. وفي ذات يوم نظر إلى نسخة من القرآن الكريم في يدي، وهي الطبعة التي تولتها المطبعة الأميرية، فأعجب بها أيما إعجاب، وطلب إليَّ أن أبتاع لحسابه ألف نسخة من هذه الطبعة ليبعث بها إلى الهند إذ لا توجد هناك مصاحف جميلة من هذا النوع.

وكان بالباخرة أيضاً حاج مراكشي، يشغل وظيفة قاض في فاس، وكان صبوح الوجه، وقوراً، أميل إلى التزام الصمت، لكنه ما كاد يسمعني أتحدث بالعربية مع أحد الحجاج الأتراك حتى أقبل إلينا واشترك في الحديث. ولشد ما أعجبت بتبحر الرجل في العلوم الإسلامية والفقه، كما أن لباسه الشرقي الفضفاض كان يخلع عليه طابعاً من الرزانة والوقار؛ أما صاحبنا التركي فكان أحد ضباط الشرطة في دمشق، وبعد اعتزاله الخدمة آثر أن يبقى في سورية حيث تعلم اللغة العربية؛ وكان طيلة السفر يشكو مر الشكوى من الأنظمة الحديثة في تركيا وبالأخص ترجمة القرآن وتشويه هذه الترجمة بحيث لا تؤدي المعاني المقصودة، ويظهر سخطه وتبرمه بالغازي الذي يحول دائماً بين المسلمين الأتراك وبين أداء فريضة الحج، ويرهق كل من أراد الحج بالضرائب الفادحة.

من ذلك ترى أننا كنا على ظهر الباخرة من بلاد متباينة، ولكن تجمعنا جامعة الإسلام، وتؤلف بين قلوبنا وتجعلنا نعيش كأفراد أسرة واحدة. فلما اقترب موعد العشاء أخذنا أماكننا على المائدة، وكان يخيل إلى كل من يرانا أننا في برج بابل، فكل منا يتكلم بلغة لا يفهمها الآخر، بيد أننا سوف نصل بعد بضعة أيام إلى جدة وتطأ أقدامنا الأرض المقدسة فنخلع عن أنفسنا تلك الملابس التي تفرق بيننا لنستبدل بها لباس الإحرام الفضفاض بحيث لا يصبح أي فارق بيننا بل نكون سواسية في حضرة رب البيت الكريم.

وبعد انتهاء طعام العشاء بقليل صفرت الباخرة صفيراً عالياً فغادرنا المائدة وتهيأنا للوضوء، ثم صلى كل منا ركعتين قرأ فيهما سورة الإخلاص وقل يا أيها الكافرون.

وكان البحر هادئاً والهواء ندياً والنجوم تتألق في القبة الزرقاء، وراحت الباخرة التي كانت تحمل على ظهرها أكثر من 700 حاج تلقى مراسيها بين هتاف الحجاج ودعواتهم الحارة.

وهكذا ظل الحجاج في هرج ومرج، فكنت ترى البعض يهتف بقوله: لبيك اللهم لبيك، والبعض الآخر مستغرقاً في صلاته، وآخرين صامتين لا يبدون حراكاً، شاخصين بأبصارهم في ذهول نحو الأرض المقدسة التي خرج منها سيد الخلق ورسول رب العالمين.

وما كنت بأقل من هؤلاء الحجاج شعوراً بالغبطة والابتهاج، ولزمت مكاني خاشعاً راكعاً لا تقوى قدماي على الحركة، ودقات قلبي تثب في قوة وعنف بينما يردد لساني في خفوت: لبيك اللهم لبيك. ثم انهمرت الدموع من مآقي ولم أملك أن أمنع نفسي من الاسترسال في البكاء. أجل! أدركت الحق الصحيح ولمست عظمة هذا الدين الحنيف، وعبثاً حاولت النوم في تلك الليلة، بل شرد عقلي واتجهت بتفكيري إلى أعمال الخلفاء، رضوان الله عليهم، وإلى رعايتهم الأمم الإسلامية، وتوزيع أسباب العدالة عليها طبقاً لأصول الشريعة السمحاء.

(يتبع)

عبد الكريم جرمانوس

رثاء

محمد جلبي الشهبندر أحد سراة العراق

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

- 1 -

تحطْمت الآمال من بعد محمود ... فيا سلوتي شحّي ويا عبرتي جودي
قد اجتُثّ روحٌ كان قبل اجتثاثه ... يزين بأثمارٍ له ألفَ أملود
خلا القصرُ ممن كان للقصر مالئاً ... كأن لم يكن في رُدهتيه بموجود
لقد غمدوا السيفَ الصقيلَ بحفرة ... ويا ليت ذاك السيف ليس بمغمود
تجرّد من جسم تضيق حدودُه ... يجوب فضاءً واسعاً غير محدود
نعاه ليَ الناعي فكان نعيُّه ... كصاعقة أو مثل صدمة جلمود
فأدركني يومٌ من الدهر أسودٌ ... فكان لحزني شرَّ أياميَ السود

- 2 -

لقد غاب محمودٌ عن الصحب مضطراً ... ولم يبق منه للصديق سوى الذكرى
كأن لم يكن قد سُرّ أصحابهُ به ... ولا هو في يومٍ بأصحابه سُرّا
بربك لا تَلحُ الحزينَ على البكا ... فإنك لا تدري بما فيه قد أورى
تقول عيوني للسحابة أقلعي ... فأنكِ لا تبكين من كبدٍ حَرّى
على كل قبر مقلةٌ ذات عبرة ... وماذا انتفاع القبر بالمقلة العَبرى
قسمتُ بكآء الشعر بيني وبينه ... فأعطيتُه شطراً وأبقيتُ لي شطرا
ولا تقترح قولاً على الشعر إنه ... بموقفه في يوم محنته أدرى

- 3 -

لقد ظلَّ للموت الزؤام يجاذب ... إلى أن علاه الموتُ والموتُ غالب
أطال الردى همساً بأذن مريضة ... كأن له ديناً فجاء يطالب
ولو حزتُ علماً بالمقادير جئتُها ... أؤّنبُها فيما أتت وأعاتب
يقولون أمراض به أغرت الردى ... وما هي أمراضٌ ولكن نوائب
فيا دمعُ أنت اليوم كالقلب نابضٌ ... ويا قلب أنت اليوم كالدمع ذائب
لقد ندبته نسوةٌ حول نعشه ... وأشْجِ بما كانت تقول النوادب
إذا انطفأ النجمُ الذي كان ساطعاً ... فليس ببدعٍ أن تسود الغياهب

- 4 -

أمحمودُ كنتَ الراجحَ العقل والخلق ... من الباطل الخدّاع تفزع للحق
وكنتَ كنجم لا قرار لسيره ... فتطلع من أفق وتغرب في أفق
وكان لموتٍ قد أصابك سهمُه ... دويٌّ بغرب الأرض أجمعَ والشرق
ولا رُزَء إلاّ كان رتقٌ لشقه ... وليس لشقٍ يفتق الموت من رتق
مضى بصديقي الحرِّ يستعجل الردى ... فليت الردى للحر قد كان يستبقي
بكتك عيون العارفيك بأدمع ... تفيض وللأرض التي ظمئت تسقي
تجنبتَ ضوضاء السياسة آخذاً ... بأيديك أسبابَ التجارة في حذق

- 5 -

حياةٌ ومن بعد الحياة. مماتُ ... وجمعٌ على الأعقاب منه شتات
وهل تغسل القلبَ الحزينِ من الأسى ... إذا العين منها انصبّت العبرات
وإن أثقلت نفسَ الوفيّ فجيعةٌ ... فلا النورُ يُسليها ولا الظلمات
أقول لقومي إن يكن عندكم لمن ... تَفَجَّعَ سلوى في المصاب فهاتوا
وما أجَملَ الأيامَ إمّا لنا وفت ... ولكنما الأيامُ منتقلات
لقد حملوا نعشَ الفقيد لقبره ... فساروا وسارت خلفَه السروات
فما كنت من تلك الجماهيرِ سامعاً ... سوى صرخات بينَها شهقات
- 6 -
على الأرض أمجادٌ كثير قصورُها ... وأكثر منها في العراء قبورها
وما من بقاع ليس يهلك أهلُها ... ولا من سماءٍ ليس تردى نسورها
وما خيرُ دنيا بالزلازل أرضُها ... تميد وبالأمواج تغلي بحورها
إن الجسمُ أودى فالبوارُ نصيبُه ... ولكنما الأرواح ماذا مصيرها
إذا ما حياةُ المرء للمرء فارقت ... فهل من حياة غيرها يستعيرها
وليس لنفسٍ أن تخِيرَ حمامَها ... ولا هو إمّا زارها يستشيرها
إذا النفس دبّ الداء فيها فعالجت ... منيتَها ماذا يكون شعورها
- 7 -
هل الحزنُ إلاّ مقلةٌ تتفجّر ... وألاّ قلوبٌ نارُها تتسعّر
تبعثر شمل البيت بعد اجتماعه ... وأيّ جميع عَوضُ لا يتبعثر
وأجساد موتى في القبور تأسّرت ... وأرواح موتى للبقاء تحَّرر
على أن موتى السابقين إلى الردى ... حياةٌ لأبناءٍ لهم قد تأخّروا
ولم يك يوماً للطبيعة غايةٌ ... سوى النوع إن النوع أبقى وأثمر
لقد عرف الإنسان منها ظواهراً ... ولم يدرِ ماذا في البواطن مُضمر
إذا مات طفل البيت فالخطبُ فادح ... وإن مات ربُّ البيت فالخطب أكبر
- 8 -
لقد جاء ما قد كان يبنيه ذا حسن ... فما تمَّ حتى قام يهدم ما يبني
حزنتُ وما حزني سوى ابن رزيئةٍ ... وما دمعتي في العين إلاّ ابنة الحزن
وما أحدٌ في الناس يدري مصيرَه ... ومن كان لا يدري فيفزع للظن
لقد زيّنت بالزهر قبرَك صحبةٌ ... وعن كل هذا الزهر قبرك مستغن
يخال الفتى علماً له بحقائق ... ولم ينتبه أن الحقائق في الذهن
وليست حياة المرء بعد مشيبه ... وإن قل شكواه سوى التعب المُضني
سمعتُ أحاديثاً وإني لمبدلٌ ... لما نظرت عيني بما سمعت أذني
(بغداد)
جميل صدقي الزهاوي
نذالة التعاسة
للأستاذ عبد الرحمن شكري
كدت أنسى دواعيَ الرفق مما ... قد أرتني نذالة التعساء
يقضمون اليد التي تنتحيهم ... بسخاء ونجدة وإخاء
ويكيدون في الخفاء أو الجه ... رة ألْئِم بجهرهم والخفاء
عشش اللؤم حيثما عشش البؤ ... س سوى في القليل من كرماء
ليس بِدْعاً أليس ما نغص العي ... ش من البؤس باعث الشحناء
كل قلب يبيت من حسك البؤ ... س ملئ بخسة الأدنياء
يتلظى شراً ويرشح غدراً ... ويداجي خوناً بثوب رياءِ
يلؤم المرء وهو غير شقى ... كيف ينأى عن لؤمه في الشقاء
ليزيدنَّهُ اغتيالاً وحقدا ... وافتراساً على حطام الرخاء
وسعُاراً لو أنه نال من أر ... ض لُجَنَّتْ زلازل الغبراء
وهو غلٌ لو حاق بالشمس أمسى ... مثل ذر الرماد وجه ذُكاء
ليس شر البأساء قصراً على النح ... س ولكن كم أشعلت من عداء
وحقود وخسة وسعار ... واغتيال ومكرة ورياء
تفسد الأنفس الكرائم حتى ... تغتدي مقل أنفس اللؤماء

ضاع عطف الرحيم إذ ضاع حسن ال ... خلق في خيم أنفس التعساء
وعظيمٌ ما أفسد النحس من خل ... ق هضيمٍ ورحمة الرحماء
كم شقاء يمضى وفي النفس منه ... أثرٌ واضح لغير فناء
من عوادي سخائم لست تدرى ... هي بالمرء علة الأدواء
أم هي النفس سقمها مثل سقم ال ... جسم من احنة ومن شحناء
مثل ذل الشعوب خَلَّف لؤماً ... بعد فوت من عهده وانتهاء
وصفات الشعب الضعيف لَتُلْفىَ ... في جسوم صحيحة أقوياء
من رياء واحنة واحتيال ... وتعادى تخاذل وافتراء
شيم يدرأ الذليل بها من ... عجزه سطوة من الأعداء
أصبحت شيمة النفوس وإن لم ... يك ذل ولم يكن من عداء
فمنى يلبس الخلائق طرا ... طيب نفس في شملة النعماء
ليس إلا بها نجاء نفوس ال ... ناس طرا من خسة الغبراء
فاطلبنْهُ فيها وإلا فدع نشد ... ان أمر بغير داعي الرجاء
عبد الرحمن شكري
الأمة العربية
بقلم حبيب عوض الفيومي
قد أصبحت وطعامها جِرَّاتُها ... وتعَرَّفَتْ لِعَليمها نَكِراتُها
مبذولةً حُرُماتهُا مفتوحةً ... أسدادها ملحوظةً غِرَّاتها
غلبت مطامعها على أخلاقها ... فهوت بها أحقادها وتِرَاتها
فتخالفت من حقدها غاياتها ... وتشابهت من موتها فتراتها
فكأن خالد لم يَفُزْ بدِمَشقِها ... يوماً ولا خَدَمَ الرشيدَ فُراتها
يا مُخْفِقَ الأسفارِ طَيَّاراً بها ... قد أنجحت بك آنفاً بَكَرَاتُها
نَهَضَت بنفسِكَ فارساً أخلاقُها ... وهَوَت بنفسك طائراً عَرَّاتُها
انظر لنفسك أين موضع فضلها ... لا تلفحنَّك جامحاً جمراتها
ما بالغِنَى فتح البلادَ محمدٌ ... بل بالهدَى دانت له داراتُها
ينجو الكريم مَعَ القليل صِيَانةً ... وتُمِيتُ صاحب حاجةٍ حَسَرَاتُها
وكأنَّ ذلكم البريقَ غِشَاوةٌ ... للنفس تَكْمُنُ تحته عَثراتُها
ومن الدليل على شقَاوَةِ أمَّةٍ ... أن يستنيم إلى النعيم سَرَاتُها
والأرض دارٌ إن تفاضل أهلُها ... بغنى البطون فخيرهُم حشراتُها
الفيوم
حبيب عوض الفيومي
فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية
29 - تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا
الناحية الإيجابية من مذهب نيتشه
السوبرمان أو الإنسان الأعلى
للأستاذ خليل هنداوي
لا ينبغي للعاقل أن يكون قاسياً على نفسه فحسب، ليكن قاسياً على الآخرين أيضاً لا يحفل بهدوء ولا بسلام؛ هو يدرك أن الإنسانية لا تنشط نحو غاية معينة معلومة؛ ولكنه يرى كل شيء في استحالة وتطور؛ يرى من واجب الحياة نفسها أن تعمل على أن تفوق نفسها، ويدرك أن الإنسان ليس من حقه أن يعلل نفسه بأنه بلغ المرفأ سالماً. ليكن كل سلام عنده ذريعة لحرب جديدة، ولتكن حياته طافحة بالحوادث العظام؛ هو لا يتحرى عن السعادة ولا يجهل أن الفرح والحزن هما توأمان متقارنان. وفي استطاعة الإنسان أن يجوز الحياة بدون فرح كبير يعروه، أو شقاء كبير يغزوه، على أن ينقص من قوة حيويته. أما الذي يريد أن يتذوق الأفراح الكبيرة فمن واجبه أن يعرف الأحزان الكبيرة، إذ كل ارتجاج في ناحية يقابله ارتجاج في ناحية أخرى. (أما خالق القيم المؤمن بالحياة، من يريد الحياة عنيفة قوية ما شاءت القوة، فهو يريد أن تكون الارتجاجات واسعة حول نقطة الموازنة؛ يريد أن يعرف القمم العالية للسعادة والشقاء. يريد أن يعرف الانتصارات المسكرة والهزائم الشنيعة. يجب عليه أن يمشي في وقت واحد إلى النصر والى الاندثار. وزرادشت نفسه قد هلك حين بلغ (قمة)

وجوده. والسوبرمان هو - في وقت واحد - الظفر اللامع والاندثار القوي للإنسان.
وبينما ينبغي للعاقل أن يكون قاسياً على نفسه، لا يلتوي إزاء الألم، ينبغي له كذلك أن يكون قاسياً على الآخرين؛ هنالك مصائب وآلام يُعد مخففها فاقداً للإنسانية، وهنالك منحطون ناقصون، جاءوا الحياة اختلاساً، فلا يجوز تأخير فنائهم!.
يقول زرادشت: (في كل مكان ترن أصوات الذين يعظون بالموت، والأرض مفعمة بالذين يجب أن يوعظوا بالموت، أو (بالحياة الأبدية) حتى يقلعوا عن الحياة سراعاً. وللمتشائمين والشكوكيين والمنحطين الذين يئنون ويقولون (ما الحياة إلا شقاء)، لهؤلاء يجب أن يقول العاقل (إذن! ضعوا لحيتكم وآلامكم حداً تنتهي تنتهي عنده وآلامكم، ولتكن شريعتكم مبنية على هذه الكلمة (الانتحار واجب، والانهزام من الحياة واجب)، إذ لا ينبغي للأرض أن تغدو داراً آهلة بالمرضى والبائسين، حيث يفني الإنسان الخالص الجوهر سأماً وشفقة. إذا أردنا أن نستنقذ السلالات الآتية من مشاهد الفاقة والشناعة فلنترك الموت ينزل بمن هو ناضج للموت. ولتكن فينا جرأة على ألا نصرف الساقطين عن السقوط؛ لندفعهم ولنقذف بهم قذفاً حتى يهووا سريعاً. ينبغي للعاقل أن يعرف كيف يتحمل مشهد الألم عند الآخرين، وأن يعرف كيف (يؤلم) ويبث الألم دون أن تجد الشفقة إلى قلبه سبيلا.
هذا هو ما تطلبه النفس العظيمة. يقول زرادشت: (أبالغ أنت شيئاً عظيماً إذا لم تشعر بقوتك وإرادتك التي تعاقب بآلام كبيرة. عرفانك أن تتألم، هذا شيء حقير؛ فالنساء الضعيفات والعبيد يصبحون أسياداً في فن الألم. ولكن ثبات جأشك وعدم انحنائك أمام المصائب المؤلمة والصيحات المؤلمة، هذان هما مظهر العظمة وسرها الصريح).
ينبغي للعاقل أن يتصف - في كل فصول حياته - بطهارة الطفل اللاعب، وصفاء الراقص الباسم، وهناء اللاعب المجدود، وفي مثل (الاستحالات الثلاثة للروح) ينبئ زرادشت بأن النفس الإنسانية يجب أن تكون في استحالتها الأولى (بعيراً) يحتمل بصبر أثقل الأعباء على ظهره، حتى يستطيع أن يجمع الشيء الكثير من التجارب، ثم يستحيل (البعير أسداً) يجأر قائلا: (أنا أريد!) ويتوعد بمخالبه الحادة كل من يحاول العبث بحريته. يجب عليه أن ينتصر على تنين الشريعة المكتوب على كل جزء من جسده بأحرف ملتهبة (يجب عليك!) ثم يسرع في نزع أثقالالمثل الأعلى والحقيقة والخير عن ظهره مما كان يظن حمله خيراً له، وأخيراً، لكي يستطيع أن يدخل في دور (الإنتاج والإبداع للقيم الجديدة) بعد تهديم القيم القديمة، يجب عليه أن يستحيل طفلا يلهو ويلعب؛ (إن الطفل هو صفاء ونسيان، هوأبتداء، هو لعبة، هو دولاب يدور بنفسه حول نفسه). وهكذا يجب على النفس التي تتوق إلى الصعود فوق قمم الحكمة أن تتعلم أن تلعب، وأن تفرح وتمرح طاهرة صافية، يجب أن تكون خفيفة غير واعية تنعتق من التشاؤم والكآبة، ومن كل ما يجعل حياتها سحابة دكناء.
تقول الشريعة القديمة: (ويل لمن يضحك)! وهذا القول عند زرادشت منكر قبيح. أما العاقل فيجب عليه أن يضحك الضحكة الإلهية؛ يجب أن يدنو من محجته وغايته بخطوات خفيفة راقصة طائرة، لا بليدة نادمة؛ إنه يتعزى بالضحك عن نقصه؛ إنه بالرقص والطيران يجوز مستنقعات الكآبة كالرياح العاصفة. يجب على الإنسان أن يتعلم الرقص بنفسه والضحك بنفسه وأن يرتفع وأن يسمو فوق نفسه، وأن تفوق نفسُه نفسَه على أجنحة الضحك والرقص.
يقول زرادشت: (إن إكليل الضحك، هذا الإكليل من الورد، ضفرته أنا على رأسي، وأنا قدست ضحكتي المرحة. إن إكليل الضحك، هذا الإكليل من الورد، ألقى به إليكم يا رفاقي! أنا أقدس الضحك أيها الرجال السامون، فتعلموا أن تضحكوا).
- 3 -
إن من كان مثلي مدفوعاً بشوق غريب للتأمل في مذهب التشاؤم إلى أقصى حد، قد يكون - من حيث لا يريد بذاته - فاتحاً عينه على المثل الأعلى للرجل الحي الطروب المبتهج بالحياة الذي لم يتعلم أن يتحمل الماضي والحاضر فحسب، بل يعمل على إحيائهما معاً، مهما كان الماضي ومهما ذهب المستقبل. ولعل هذا التشاؤم المبطن عمقه بالتفاؤل هو الذي حدا بنيتشه إلى أن يطلب الحياة لنفسه، ولهذه الرواية الإنسانية الشاملة الكاملة، وللوجود الذي يقوم بتمثيل هذه الرواية.

في شهر أغسطس من عام 1881 هبت في رأس نيتشه فكرة القول بالرجعة الخالدة التي أصبحت أساس فلسفة السوبرمان، وما لبثت هذه الفكرة أن ملكت عليه مشاعره كلها. وقد تتلخص هذه الفكرة في هذه الكلمة: إن شحنة القوى التي تهيمن على العالم تتراءى لنا ثابتة سرمدية؛ لا نقدر على أن نفترض لها نقصاً لأنها لو كانت كذلك لوجب زوالها في هذا الدهر الطويل، ولا نقدر على أن نفترض لها نمواً - كالنمو العضوي الذي نعرفه - إذ لو كانت كذلك لافتقر نموها إلى غذاء؛ وما هو هذا الغذاء أو هذا الوقود؟ وعلى هذا لم يبق لدينا إلا الاعتقاد برسوخ هذه القوى وثباتها.

(يتبع)

خليل هنداوي

القصص

مأساة من أسخيلوس

أجامْمنون

للأستاذ دريني خشبة

(ولد أسخيلوس سنة 525 ق. م وعاش سبعاً وستين سنة، وحارب في موقعة ماراثون، وكتب تسعين درامة لم يبق منها غير سبع. وكان يكتب درامات ثلاثية أي تتركب الواحدة منها من ثلاث درامات - أو قل فصول - تستقل كل منها بنفسها، وتكون مع الأخريين وحدة رائعة. وكانت مآسي أسخيلوس غرة في حين عصر بركلس، أزهى عصور الأدب في التاريخ القديم؛ ودرامة اليوم (أجاممنون) هي الحلقة الأولى - أو الفصل الأول - من إحدى ثلاثيات إسخيلوس (الأورستية) نسبة إلى جل المأساتين الأخريين (أورست) بن أجاممنون وضحية الأمومة الأثيمة، ويعدها نقاد الأدب الكلاسكي أروع طرف الأدب اليوناني.)

وإسخيلوس هو أول من سار بتقاليد المسرح القديمة، بل ربما كان واضع أول لبنة في المسرح القديم. وقد كانت الدرامة - أو المأساة - قبله غير معروفة، وكانت المقالة هي المتداولة، وكان القصاصون يقومون بتأدية الأدوار جميعاً. فلما كان أسخيلوس حتم أن يخصص لكل دور ممثل بعينه، والمنشدون أو (الخورس) لهم مكانة رفيعة في درامتي اسخيلوس وسوفوكليس، وأناشيدهم هي شرح الأحداث التي تمهد للدرامة أو تتصل بها.)

- 1 -

نحن في الـ (بلوبيديه)، ذلك القصر العتيق الشاهق، الذي تكتنفه الأسرار، وتهوم في أبهائه وردهاته الألغاز. . .

ومن الـ (بيلوبيديه) تصدر الأوامر، فتصدع بها مملكة آرجوس. . . وتُجيّش الجيوش، وتتحرك الأساطيل. . . وتسيل الدماء أنهاراً!

ومن هذا القصر، يحكم الملكان الشقيقان أجاممنون، ومنالايوس. . . أما أولهما فقد تزوج من الفتاة الكاسرة، ذات الصولة، كليتمنسترا، بطلة المأساة التي نحن بصددها الآن. . .

وأما ثانيهما، فقد تزوج من الفتاة اللينة الغضة؛ المترعة بالمفاتن، هيلين! التي فرت مع عشيقها المجرم باريس. . إلى. . طروادة؟. . والتي شبت بسببها تلك الحروب الطويلة المروعة فذهبت بالنخبة الناضرة من شباب هيلاس وإليوم. . .

والفتاتان شقيقتان، وقد تبناهما تنداريوس العظيم، وزوجهما من هذين الملكين الشقيين، ليزيدا في شقائهما، وليكونا حرباً عليهما وعلى شعبهما البائس لا تنتهي! وليكونا كذلك، ليلاً على هذا القصر العتيق الشاهق - الـ (بيلوربيديه) مظلماً. . . لا تنجاب غواشيه. . . ولا تنقشع دياجيره!!

- 2 -

وفرت هيلين الآبقة، مع باريس الآثم،. . . فهاجت هيلاس، وهبت ريح الحرب، وتدفقت الجيوش إلى أوليس حيث الأساطيلِ في انتظارها، لتمخر بها البحر اللجي إلى مدينة بريام. . .

وودع أجاممنون زوجته. . . وذرفا، وهما يتعانقان، دموعاً حارة سخينة! وأنطلق مع شقيقة الملك البائس المفضوح في عرضه، منالايوس، إلى أوليس. . . ليركبا مع بقية الجند. . . وليبحرا إلى إليوم. . .

بيد أن البحر المضطرب كان ينذر بتحطيم الأسطول إذا هم أن يقلع.
والعاصفة التي أطلق بوسيدون عنانها كانت تثير في اليم موجاً كالجبال. . . وكانت تراوح الشاطئ المرتجف وتغاديه، فتهيل التراب وتسفيه، وتحط صخره من علٍ وتغرق به ما تهاوى عليه من أسطول هيلاس. . .
وانتظروا طويلاً حتى تسكن العاصفة، ويهدأ البحر المصطخب. . . ولكن. . . بلا جدوى!
ثم قيل لهم إن الآلهة عطشى، وأرباب الأولمب ظماء، وإنها لا يرويها إلا دم عزيز غال يسفح، ومهجة شابة غيداء تطل، وإن الآلهة لا ترضى بإحدى أبنتي أجاممنون بديلا!!
لا ترضى الآلهة أن يسفك دم إلا دم إفجنيا العذراء، أو أختها الكاعب إفياناسا، فإذا لم ترو الآلهة فلن تهدأ العاصفة، ولن يسكن العباب، ولن يفتأ البحر يضطرب، ولن يقلع هذا الأسطول اللجب.
وتردد أجاممون! وأضطرم قلبه بحنان الأبوة! ولكن القادة تكبكبوا حوله يلحفون عليه أن
يصغي إلى وحي السماء، ويستجيب لأمر الآلهة. . . فقبل. . . وبكى. . .
- 3 -
وجئ بالعذراء البريئة إفجنيا، ليحتفل بخِطبتها إلى أخيل فيما ادعى الوالد المحزون في رسالته إلى زوجه. . .
ولكن الزوجة تكتشف أن لا خطبة هناك. . . بل هناك قتلة شنيعة تنتظر ابنتها. . . لا لشيء. . . إلا أن تروى الآلهة. . . كما أرجف المرجفون!
وتصبح أضواء الحياة كلها ظلمات في عيني الأم. . . وتحاول إنقاذ الفتاة. . . ولكن. . . عبثاً!. . . لقد تقدمت إفجنيا إلى الكاهن الجلاد بقدم ثابتة، وجأش رابط، ونفس مطمئنة. . . وأعلنت أنها تهب نفسها للوطن. . .! ودمها للآلهة. . . وإنها تستودع الأولمب أباها. . . وأمها. . .!
وأهوى الجلاد. . . الكاهن. . . بسكينه. . . فهريق الدم العزيز الغالي!!
- 4 -
وعادت الأم المضعضعة إلى القصر الشاهق العتيق. . . إلى الـ (بيلوبيديه). . . تجتر هذه المصيبة الدامية، وتغص بتلك الداهية الحمراء!
وتحزن أياماً. . .
ويشمل السواد كل شيء. . . حتى أضواء الشمس، وأفواف الزهر، وآراد القمر!!
كل شيء أسود حالك. . . لا سيما. . . قلب الملكة. . .!
لقد انفردت في هذا القصر العتيق، فهي صاحبة الأمر والنهي فيه، وكل شيء يصدر عن إذنها ويقضى بأمرها. . . والمملكة بأسرها بيديها. . . ومع ذاك. . . ومع كل ذاك. . . فليس في الدنيا العريضة ما ينسيها افجنيا! أو يبعد عن عينيها ذلك المنظر الرائع الرهيب. . . منظر السكين اللامعة تهوى على عنق الفتاة. . .!
إنها أمامها أنى ذهبت وأيّان وجهت. . .
هاهي ذي تمرح في هذه الغيضة من حدائق القصر. . . وتلعب في تلك الردهة من الطابق العلوي. . . وتغرق في هذه اللجة من ديباج السرير. . . وتداعب الظباء في الحظيرة. . .
وتضفر أعواد الزنبق للتماثيل. . . وتنثر الورود والرياحين تحت أقدام الدُّمى. . . ثم. . . . . .
ثم هاهي مسجَّاة فوق المذبح يتفجر من غلاصمها الدم!!
- 5 -
وسكنت العاصفة، وهدأ البحر الجياش، وأقلع الأسطول بمن عليه. . . وحوصرت طروادة. . . وقتل الأبطال الصناديد من الفريقين. . .
وكرت أعوام عشرة. . .
- 6 -
كيف يقتل ابنتي هذا الملك الذي قُد قلبه من صخر؟ كيف سوَّلت له نفسه أن يأذن (لجلاديه بذبحها؟ أين حنان الوالد؟ قربان للسماء؟ أي سماء هذه التي تشره لدماء العذارى؟ لا ظفر أجاممنون بأعدائه! ولا حمله البحر إلى آرجوس كرةٌ أخرى! وروى ثرى طروادة من دمه، كما رويت آلهته من دم ابنتي!!).

ووقر في قلب كليتمنسترا أن تثأر لابنتها. . . ولكن. . . ممن؟ من أجاممنون. . . من أبيها أجاممنون. . .! إذن. . . فلتدبر غيلته في هذه السنين العشر، ولتحشد حولها أعداء هذا القصر العتيق الباذخ. . . ولْتُعَشِّش الأحقاد القديمة، والترات التي تتقلب في أحشاء الماضي. . . ولتجتمع عصابة الشرور فتدبر وتأتمر. . .

- 7 -

ترك أتربوس مُلْك أرجوليس العتيد لولديه، أجاممنون وأخيه، وترك لهما كذلك إرثاً عتيداً من الدم لم يسمع الناس بمثله. . . لن يسمعوا بمثله. . . لأنه دم أعز الأبناء. . . وشِواء لعين أيما شِواء. . .

ذلك أنه كان للملك أتريوس أخ يناوئه من أجل عرش أرجوليس ومايتاخمها من الاقطاعات. . . وكان هذا الأخ (ثيذتيس) يحاول أن يجعل الملك في أبنائه. . . من دون أبناء أخيه. . . ولكن أتريوس وقف على التدبير السيئ الذي يرسم خطط أخوه في الظلام؛ فما كان من أتريوس إلا أن دبر هو تدبيراً دموياً هائلاً. . . قضى به على أخيه وعلى أبناء أخيه. . .

إلا واحداً! تودد إلى أخيه أياماً، وعاتبه في هذه الجفوة التي لا يكون مثلها بين أخوين، فأعتبه. . . ثم دعاه إلى وليمة فاخرة يقيمها له في الـ (بيلوبيديه). . . فقبل ثيذتيس!

وفي اليوم المحدد. . . وبعد تدبير أحكمت حلقاته. . . أقبل ثيذتيس ليؤا كل أخاه، وليتصافح القلبان اللذان ينطوي كل منهما لصاحبه على الحب. . . واصرم الغل والحقد. . .

وحان موعد الغداء. . .

فنهضا إلى خوان عامر مجلل بما لذ وطاب من لحم يملأ قتاره الخياشيم الجائعة، ويسيل لعاب الأفواه المتلمظة. . .

وجلس ثيذتيس المنهوم فأكل حتى امتلأ. . . وما كاد ينتهي حتى كشف له الغطاء عن تلك الغيلة القاسية، التي يتنزه عنها أضرى الوحوش!!

لقد أكل ثيذتيس حتى امتلأ من الشواء الفاخر الذي أعد له من لحم أبنائه. . . وأكبادهم وقلوبهم. . . وهاهي الأصابع والأيدي والرؤوس والأقدام في سفط كبير على مقربة من الوالد البائس. . . شهيد على ذلك!!

وجن جنون الأب المسكين!

ولكنه عوجل هو الآخر بقاصمة الظهر. . . فذهبت روحه تتردى في ظلمات هيدز فيا للوحشية. . . وويل للمتوحشين!!!

- 8 -

وكان إبجستوس يتقلب على وجهه في البلاد.

فلما علم بالمأساة التي ذهبت بأخوته، وبأبيه. . . شرد في الأدغال، ونفر في التيه الذي لا أول له ولا آخر من غاب هيلاس وأنس إلى الوحشية، وسمر إلى الذئاب، وصحب اللصوص وقطاع الطرق. . . وتلبَّث حتى اسند ساعده، واشتد عوده. . . وعاد مستخفياً يدبر أمر هذا الثأر الثقيل، ويرسم الخطط لهذا الدم المطول. . .

ولكن. . . لقد مات أتريوس. . . وحكم من بعده ابناه أجاممنون ومنالايوس. . . وهما اليوم تحت أسوار طروادة يصطرعان مع الطرواديين.

فهل تزر وازرة وزر أخرى؟

أجل!! (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خانوا عليهم. . . فليتقوا الله!!).

إبجستوس!! هذه فرصتك فلا تُفلتها!!

- 9 -

وأتصل إبجستوس بالقصر، وتأكدت بينه وبين كليتمنسترا أواصر الود أولا؛ ثم انقلب الود واتحاد المقصد وبغض أجاممنون وأسرة الـ (أترديه) فصارت غراماً أثيماً وعشقاً فاسقاً ولذاذةً مجرمة.

وعمى قلب الأم. . . وحجبت الغواية بصيرتها؛ فنفت ولديها: أورست الغلام الحَدَث، وإفيانَاسَّا الفتاة الناعسة بعيداً عنها، لتزداد إغراقا في اللذة، ولينام ضميرها الميت فلا يوقظه هذا النسل البريء من صلب أجاممنون!!.

- 10 -

العاصفة تهب بشدة، والحارس المتعب يلفحه البرد القارس فوق سطح القصر الملكي

العتيق، الـ (بيلوبيديه)، والليل الرهيب ينظر إلى القصر الفائض بالأسرار بعين قلقة من تلك النجوم المحملقة؛ وسنوات عشر قد تصرمت، وهذا الحارس المسكين في مكانه من هذا الميدان المعلق بين الأرض والسماء. . . أجل عشر سنين طوال كأنها عشر أحقاب كاملة، وهو يروح ويجئ كأنه آلة الزمن، أو قوس من دائرة الفلك. . وهو يشكو، ويحاول أن، يتسلى بأغنية أو صفير، ولكن الأسرار الهائلة التي يعج بها القصر من تحته تفزعه، فيعزف عن الغناء وعن الصفير. . . ويصل شكواه، ويرسل بثه.
وهن هناك فوق سطح القصر الملكي منذ قيام تلك الحملة المشئومة إلى طروادة. . . وهو إلى هذه الليلة يرقب النيران التي إذا تأججت في رؤوس الجبال كانت بشرى سقوط طروادة!.
وأومض البرق في الظلماء فجأة!. . . واندلعت النيران المنشودة! واستطير الحارس من الفرح؛ وفرك عينيه ليستيقن أنه ليس في حلم. . . ولكن النار تندلع وتندلع. . . إذن انتصرت جيوش هيلاس. . . وسقطت مدينة بريام!.
وأي بأس في أن ينطلق هذا الحارس المسكين فيزف البشرى إلى الملكة. . . لا بأس! ولكنه ما يكاد يخطو خطوة واحدة، مفتراً في ظلمات الليل البهيم عن ابتسامة الجذل، حتى يذكر الأسرار الهائلة التي نسجتها عناكب القدر في القصر. . . فتقلب ابتسامته الجدلة إلى عبوسة قاتمة. . . فيقف مكانه ويصمت!!.

- 11 -

ويدخل المنشدون حديقة القصر، ويهزجون بنشيد طويل حلو ثم تقبل الملكة فيتقدم إليها رئيس الخورس محبياً ويتساءل: (هل من نبأ عن الحملة يثلج الصدر المكروب ويهج النفس المحروبة؟) وتبتسم الملكة ابتسامة خبيثة صفراء، ثم تزف بشرى انتصار الهيلانيين.

- (وكيف؟ لا نصدق! ولكن تكلمي. . . تكلمي أيتها الملكة!).
- (إليوم في قبضة رجالنا! هل أراك فهمت؟)
- (. . .إنها مفاجأة تملأ أعيننا دموعاً)
- (وإنها دموع تؤكد إخلاصكم وطهارة قلوبكم)
- (ولكن هل من برهان أيتها الملكة؟)
- (ما لم يكن بعض الآلهة يخدعني!)
- (ألا تكونين قد استسلمت لغفوة لذيذة فشهدت رؤيا طارئة؟)
- (إن أوهام المنام لم تخدعني قط!)
- (إذن منذ كم سقطت طروادة؟)
- (في نفس هذه الليلة التي كاد صبحها يتنفس؟)
- (وأي رسول حمل إليك النبأ في مثل هذه السرعة؟)
- (النار الآلهية ألمعت به إلى هنا من ذروة جبل إيدا. . . وهشيم الحلنج المتأجج في شعاف الجبال ورؤوس الآكام. . .).

واستطردت كليتمنسترا فذكرت كيف أشعل الهيلانيون النيران في قُلَل الشاطئ الأسيوي، ثم كيف تنقل الوميض فيالسماوات حتى عكسه أفق أرجوليس. . . وطفقت تحشد الكنايات في حديثها، وتنثر الألغاز في ثناياه. . . صادرةً عن غلها المقيم وحقدها القديم على أجاممنون!

- (يا لطنين النصر في طروادة اليوم؟. . . . . أحسب ألا يستطيع أحداً، يميز صيحات السادة الظافرين من صيحات العبيد المقهورين بين جدرانها! إنهم سواء منكودو الحظ، سود الجدود، حقيقون بالرثاء! ومن يدري؟ فلعل الآلهة تغضب فتنتقم ممن دنس هياكلها، وسطا على طُرفها وتحفها بجعلها في جملة الغنائم والأسلاب!. . . ولعل أرواح الضحايا (!) والشهداء تهب من مراقدها مغضبةً حانقة فتقف في سبيل الأبطال الظافرين فلا يعودون إلى أوطانهم!. . . ولكن قلما ساد حق. . . دون أن ترتكب ألف مذمة باسمه!. . .)

- 12 -

ويفطن الخورس إلى ما كان يتناثر في حديث الملكة من ألغاز، ويفطنون إلى هذا الفتور وذاك الضيق الذين كانت تزف في ظلامهما بشرى سقوط طروادة. . . فيعزونه إلى أسبابه التي باتت لا تخفى على أحد في المملكة. . . ثم يتشككون في كل ما

انطلق به لسانها ويحسبونه هذياناً في هذيان!.
وما يكادون يفرغون من نشيد طويل رائع حتى يحضر البشير فيزف إليهم النبأ الصادق ويبشرهم بأوبة الملك، ثم يصف لهم شطراً مما لقيه الجنود تحت أسوار إليوم: (بل ما لقيه الطرواديون يومئذ من مصائب الحصار وكوارث القتل، ثم هذه النهاية التي أبادت دولتهم وقوضت بنيانهم. . .)
بيد أنه سرعان ما يفطن البشير إلى تلك الكآبة التي تُغشَّى نفوس القوم، فيسألهم، ويجيبه رئيس الخورس:
- (لقد كان الصمت. وسيظل. . . ملاذنا أيها البشير!)
- (وكيف؟ أترهبون أحدا في هذا القصر غير مولاكم؟)
- (. . .!. . .؟. . .)
- (أسرار. . . أسرار. . .
- 13 -
وتقبل الملكة كرة ثانية فتلمح تثلج مشاعر المنشدين وتحاول أن تخدعهم عن خافية نفسها فتقول: (هل صدقتم الآن أن إليوم قد سقطت؟! لقد كنتم في مرية من بشراي التي زففت
إليكم لأنكم لم تروا أماكم تلك الفتاة المزهوة التي تكاد تجن من الفرح لهذا النصر المفاجئ الذي انتظرناه طويلاً. . . يا لكم أيها الرجال! وأنت أيها البشير! أترى إلى قرباني الجسد ذي الخوار الذي أعددته أُضحِية لما بشرتنا به؟. . . وسترى كيف ينتشر البخور من مجار المد ومخارق العنبر فيؤرج أجواء آرجوس تحية لملك. تعال. . . تعال أيها البشير فقص عليَّ كيف سقطت طروادة وكيف رغم أنف ملكها!. . . ولكن. . . لا. . . ليست لي فيك حاجة. . . اذهب. . . فلن أسمع قصة ذلك إلا من رجلي. . . أجاممنون. . . ملك أرجوليس ومعقد آمالها!. . . أي فخار للمرأة أكبر من أن تستقبل فيض النور السماوي يتنزل عليها من العلو. . . حين يعود إليها بعلها وعلى رأسه! كليل من غار النصر؟ وأي فخار للرجل أكبر من أن يعود من حلبة الحرب فيجد زوجه وفية له كما تركها مخلصة كآخر عهده بها!؟ حريصة على أسراره. . . قائمة على بيته. . . ساهرة على أبنائه ككلبه الأمين!! ما تزال تحمل ذكرى عناقه الأخير، وتشدو بآخر قبلاته كأحسن أغاريد الحياة!
(. . .يا للفخر. . . يا للفخر)
وتخرج الملكة. . . ولا ينطلي ما زخرفت من قول على أحد!
- (ها قد سمعت مقالة الملكة، فلتكن أذنك ترجمانك الأمين!. . . ولكن. . . حدثنا بأربابك عن أمير هذه البلاد المحبوب، جليل المقام منالايوس. . . هل قدم معكم في أمان إلى أرض الوطن!. . .
ويربد وجه البشير، ثم يمهد لحديثه بمقدمة مجلوة، ويذكر كيف ثارت العاصفة فبعثرت الأسطول المنتصر. . . (وفصلت سفائن منالايوس عن سائر الأسطول، فلا يعلم أحد أين رست به إن كانت قد سلمت من غضبة البحر الذي طفق يتدجى فوقنا كأنه الليل. . .
ولم نصدق أننا نجونا من فورة هذا العباب حتى انبلج الصبح، فصلينا للآلهة، . . . وشكرنا للسماء. . . وابتهلنا إلى الأولمب أن يحفظ منالايوس، وأن يرده سالماً إلى أرض الوطن. . .)
ويأخذ الخورس في نشيد بعضه شدو وبعضه شجو. . . وبعضه سخط على هيلين. . . التي فاز بها من فاز بالحرب. . . وتزوج بها من تزوج بالحرب. . . والتي كانت على جميع من اتصل بها حرباً أي حرب!)
- 15 -
وبينا المنشدون يتغنون بألحانهم، إذا عربة مطهمة، تجرها صافنات جياد، تدخل فجأة فتكون تلقاء القوم. . .
ويكون في العربة أجاممنون الظافر المنتصر، قاهر طروادة؛ والى جانبه تلك النبية المباركة. . . حبيبة الآلهة. . . الفتاة العذراء. . كاسَّندرا ابنة بريام العظيم ملك إليوم المقتول. . . عاد بها أجاممنون من جملة السَّبْي لتكون له. . .
ويحي الخورس مليكهم بلحن حلو من موسيقى السماء، يبللونه بدموعهم ويصهرونه

بحرارة قلوبهم، فيشكر لهم ويثني عليهم، ويقول:
(البقية في العدد القادم)

دريني خشبة
البَريد الأدَبيّ
حلم ليلة صيف

ظهرت أخيراً أول قطعة من مسرحيات شكسبير الخالدة على ستار السينما؛ وهو بلا ريب حادث عظيم في تاريخ الإخراج السينمائي؛ وقد كان رأى النقدة والفنانين أن مسرحيات شكسبير إنما خلقت للمسرح، ومن الصعب أن لم يكن من المستحيل إخراجها بنجاح على ستار السينما؛ ذلك أن مناظرها وخيالاتها لا تسمح رغم روعتها بذلك السبك الذي يطلب في الشرائط المصورة، ولأنها ترتفع أحياناً فوق الوسائل الفنية التي يسمح بها الإخراج السينمائي؛ ولكن فناناً عظيماً هو ماكس رينهارت رأى في مسرحيات شكسبير رأياً آخر، وجالت بذهنه فكرة جريئة هي الأقدام على إخراج بعض هذه القطع الخالدة على لوحة السينما؛ وقد تم إخراج المسرحية الأولى وعرضها، وهي (حلم ليلة صيف)، وقد أتيح لنا أن نشهد هذا الشريط الرائع أخيراً في إحدى دور السينما بالقاهرة، فألفينا فيه عبقرية المخرج العظيم تتجلى إلى جانب عبقرية الشاعر الخالد، ورأينا خيال الشاعر المبدع يبدو على صفحات الواقع الملموس في أروع ثوب؛ ولم يحل دون تحقيق هذه الأمنية. أن القصة كلها أحلام في أحلام، وأن هذه الأحلام تبلغ ذروة الخيال المغرق، وتفيض في عالم الأرواح والأشباح والعالم الآخر.

وسر هذا الإبداع المدهش في إخراج هذه القطعة الخالدة هو بلا ريب في عبقرية المخرج؛ والواقع أن ماكس رينهارت قد بلغ الذروة من قبل في إخراج المسرحيات الخالدة: مسرحيات شكسبير، وجيتي، وشيللر، ولسنج وغيرهم، على المسرح؛ وماكس رينهارت نمسوي يهودي، ولد في مدينة سالزبورج، موطن الفن والموسيقى الخالدة؛ وتلقى تربيته وخبرته الفنية في مدينة فينا أعظم موطن للثقافة الفنية والموسيقية، وظهر قبل الحرب بجهوده المسرحية في أعظم مسارح فينا وبرلين، ثم أستقر في برلين بعد ذلك، وهنالك تبوأ ذروة الفن، وأضحى مرجع المسرح في ألمانيا وكوكبه الساطع؛ ولكن حكومة هتلر جاءت منذ ثلاثة أعوام لتسحق العلوم والفنون والآداب في ألمانيا بكل ما وسعت من شهوات التعصب الجنسي والسياسي، فلم يطق الفنان العظيم - وهو يهودي غير مرغوب فيه - أن يعيش في هذا الجو الكدر، فغادر ألمانيا حيث سطع مجده، ليعمل حيثما تزدهر الأفكار والحريات الفنية؛ وطاف بفينا وباريس ولندن وغيرها، ومر منذ شهر بمدينة سالزبورج مسقط رأسه، فلقي فيها أعظم مظاهر الحفاوة والتكريم، وأطلقت البلدية أسمه على شارع من أشهر شوارعها.

وفي (حلم ليلة صيف) تتجلى عبقرية شكسبير الرائعة في مزج المبكي بالمضحك، وإبراز المفاجآت والمدهشات في ثوب يأخذ باللب، ويذكي العواطف إلى الذروة؛ ومع أن القطعة كانت في بعض تفاصيلها مسهبة، فأن الموسيقى الرائعة التي اقترنت بمناظرها، وهي من مقاطيع مندلزون وفاجنر، كانت ترفع بجمالها وسحرها كل ميل إلى السأم.

والمفهوم أن ماكس رينهارت سيمضي في إخراج قطع أخرى من مسرحيات شكسبير؛ وربما رأينا قريباً هملت أو مكبث، أو تاجر البندقية أو يوليوس قيصر أو غيرها من آثاره الخالدة على مسرح السينما بفضل عبقرية ماكس رينهارت.

بييردي نولهاك

في الأنباء البرقية الأخيرة أن الكاتب والمؤرخ الفرنسي الكبير بييردي نولهاك قد توفي في السادسة والسبعين من عمره. وكان دي نولهاك عضواً بارزاً من أعضاء تلك المدرسة التاريخية الباهرة التي استطاعت أن تجمع بين التحقيق التاريخي والعرض الساحر، والتي تزعمها كتاب ومؤرخون يمتازون بالقوة والطرافة مثل فرانز فونك برنتانو، ولينوتر، ودي نولهاك، وقد كان لهذه المدرسة أكبر الفضل في الكشف عن طائفة من الوثائق والمحفوظات الشهيرة، ودرس دي نولهاك الفلسّفة والأدب القديم، وتفقه في الدراسات اليونانية واللاتينية، وعني منذ فتوته بالتنقيب في أقبية المكاتب العامة؛ ودرس مدى حين فيمدرسة الآثار الفرنسية برومة، وعثر في مكتبة الفاتيكان

على طائفة من الوثائق التاريخية النفيسة، ونشر عن مباحثهعدة مؤلفات منها (مكتبة زعيم إنساني في القرن السادس عشر) و (ثبت المخطوطات اليونانية لجان لسكاريس) و (مباحث عن رفيق بومبونيوس لاكثوس) وغيرها، ووقع دي نولهاك أثناء هذه الفترة على خطية من كتاب (كانزونير) للشاعر الأشهر بترارك وبخطه أيضاً، وقدمها لأكاديمية الآثار، فكانت نقطة باهرة؛ وأثار هذا الاكتشاف اهتمام دي نولهاك بدراسة بترارك، فقدم عنه رسالته الشهيرة عنوان (بترارك والإنسانية) في سنة 1892.

والتحق دي نولهاك منذ سنة 1886 بوظيفة في المكتبة الأهلية، وانتدب للتدريس في نفس الوقت بمدرسة الدراسات العليا؛ ثم عين بعد ذلك مديراً لها واستمر في هذا المذهب حتى سنة 1900، وعين أيضاً أميناً لمتحف فرساي واستمر في هذا المنصب حقبة طويلة، وفي أقبية المكتبة والمتحف بدأت مباحث دي نولهاك المؤرخ، وهي مباحث دلت فيما بعد على أنه في هذا الميدان عبقرية بارزة، ووقع في الأقبية على طائفة من الوثائق والمحفوظات التاريخية النادرة، واستطاع أن يستخرج منها مادة بديعة لكتبه، وأشهر مؤلفات دي نولهاك التاريخية: (فرساي في القرن الثامن عشر) و (الملكة ماري انتوانيت) و (لويس الخامس عشر ومدام دي بومبادور) وغيرها، وفيها تبدو عبقرية نولهاك كمؤرخ وكاتب، ذلك أن حقائق التاريخ تعرض فيها في أثواب ساحرة كأنها الخيال المرسل، وتسطع فيها الصور حتى يخيل إليك أنها حية تغدو وتروح وكأنك تعيش معها وفي عصرها.

وكتب دي نولهاك عدة كتب أخرى ارتفعت باسمه إلى مصاف أقطاب النقد والتفكير الفلسفي منها: (رونسار والإنسانية)، ومنها (قصائد إيطاليا وفرنسا). وانتخب نولهاك عضواً بالأكاديمية الفرنسية وانتظم في سلك الخالدين قبل وفاته بأعوام طويلة.

كتاب عن ذكرى ابن ميمون

احتفلت الطوائف اليهودية في مصر وفي سائر أنحاء العالم، وكذلك احتفلت معظم الهيئات العلمية في مختلف الأقطار بذكرى العلامة والفيلسوف والطبيب اليهودي العربي الأندلسي موسى ابن ميمون، وكان الاحتفال في إبريل من العام الماضي، وذلك لمناسبة انقضاء ثمانمائة عام كاملة على مولد الطبيب الأشهر؛ ولابن ميمون في مصر ذكريات خاصة، فقد كتب فيها معظم مؤلفاته، وتوفي فيها، وكان كبير الربانيين بالقاهرة، وكان طبيباً للسلطان صلاح الدين الأيوبي؛ وكان مولد ابن ميمون في قرطبة في 30 مارس سنة 1135م، في عهد المرابطين، ثم نزح مع أسرته إلى المغرب فالقاهرة حيث اتصل بالسلطان صلاح الدين وعينه طبيبه الخاص. وعكف ابن ميمون على دراسة التلمود وكل ما يتعلق بالقصائد والفلسفة اليهودية، وألف فيها بالعربية، ولكن بحروف عبرية، طائفة من الكتب الفلسفية والدينية مازالت تتبؤا المقام الأول بين تراث اليهودية.

وقد عنيت الحاخامية اليهودية بالإسكندرية بإصدار مجلد ضخم عن هذا العيد العلمي بالفرنسية بعنوان: (الذكرى المئوية الثامنة لابن ميمون) وضمنته ترجمة وافية للطبيب الفيلسوف، وشرحاً قيماً لأهم نظرياته ونصوصه، وشذوراً من مصنفاته بالعربية والعبرية والفرنسية والإيطالية، وأشرف على وضعه وإخراجه الأستاذ دافيد براتو حاخام الطائفية اليهودية بالإسكندرية، ومما يجدر ذكره بهذه المناسبة أن لابن ميمون بين مفكري اليهود وفلاسفتهم المقام الأول، حتى لقد اعتبره بعضهم الرجل الثاني في اليهودية بعد موسى. ولابن ميمون نظريات فلسفية ودينية عويصة، وله شرح نفيس للتلمود ما زال هو الحجة في موضوعه.

القصة في التعليم

في وزارة المعارف اليوم حركة تجديد تسير إلى غايتها بنشاط وقوة، نؤمل من ورائها انقلاباً في وسائلنا التعليمية يدنينا من الهدف الذي نقصد إليه من تعليم أبنائنا.

وقد كان آخر هذه المحاولات، هذا المشروع الذي أشارت إليه الصحف في الأسبوع الماضي، بأن الوزارة تفكر في تدريس كثير من المواد بالمدارس الابتدائية عن طريق القصة. وهو مشروع جدير بأن يثمر ثمرة طيبة لو حَسُنتْ القوامة عليه؛ فما نعرف شيئاً يروق الصغار ويجذب انتباههم مثل القصة، وما نعرف بابا من أبواب الأدب يتسع لكل شيء كما تتسع القصة، فالقصة عند الطفل لون من ألوان اللعب يقبل عليه

بشوق ولذة، ولكنه عند أهل التربية فن من فنونهم يبلغون به مالا يبلغون بسواه من أساليب العلم.

وإذا كان لنا أن نغتبط بهذا المشروع، فإننا نخشى أن تؤدى طريقة تنفيذه إلى ما لا نرجو من جَدْواه، فان القصة فنٌّ واستعداد لا يتوفران لكل شخص، ولا يحسنهما إلا الموهوب؛ فلو أن وزارة المعارف وكلت أمر إنشاء هذه القصص إلى غير القادرين عليه لقضت على الفكرة بالموت قبل أن تظهر لها ثمرة؛ وفي وزارة المعارف رجال درسوا القصة وعالجوها فنجحوا فيما عالجوا إلى حد كبير، وإن لم يكونوا من رجال التعليم. وفي مختلف مدارس الوزارة مدرسون حاولوا القصة ووُفِّقوا في كثير مما حاولوا، فلعل الوزارة تنتفع برأي هؤلاء وهؤلاء.

الإسلام في اليابان

كتبت مجلة (آسيا) في عددها الأخير أنه لن تنقضي أعوام حتى تصبح اليابان كلها إسلامية.

وقد أشارت المجلة إلى الدعاية الإسلامية القائمة بين الشعب الياباني وقالت إن 32 ألفاً من اليابانيين اعتنقوا الديانة الإسلامية منذ ثلاثة أعوام، وإن الإقبال على الإسلام لا يزال مستمراً.

وقد تم إنشاء مسجد (باب الله) في الأسبوع الماضي واحتفل اليابانيون بافتتاحه احتفالاً عظيما.

ويتألف هذا المسجد من ثلاثة طوابق، ويمتاز بمآذنه الشائقة المزدانة بأجمل النقوش كما يمتاز بأبهائه وحدائقه والنقوش العربية التي تزين جدرانه.

وقد رأس حفلة الافتتاح مياه عبد العزيز، وكان يرتدي العباءة والكوفية والعقال؛ وقد ألقى خطاباً شكر فيه لجنة المسجد ثم قال:

(إنه ليسرني أن أرأس هذه الحفلة في اليابان إمبراطورية الشرق الكبرى، وأعتقد أن (باب الله) سيجد كثيراً من اليابانيين الذين يرغبون في دخوله. .).

وبعد أن أشار الخطيب إلى موقف الحكومة اليابانية من الديانة الإسلامية وتنشيط القائمين بالدعوة إليها شرح للحاضرين التعاليم الإسلامية ومبادئ المسلمين السامية وقال:

(إن الديانة الإسلامية التي أجمع العالم على أنها أفضل الديانات لابد أن تنتشر في جميع أنحاء العالم وخاصة في اليابان، ولابد أن تجد من الأنصار ما يجعلها سيدة العالم).

وأشار الخطيب إلى إعجاب العرب المسلمين بالشعب الياباني، وقال إن اليابان تسير في طريق الإمبراطورية الآسيوية الكبرى، وإن الإسلام سيكون في أول هذا الطريق.

من أعاجيب الراديو

أضحى (الراديو) أعجوبة الأعاجيب في عصرنا، يستعمل في كل ما لا يمكن أن يخطر في البال من عظائم الأمور وصغائرها؛ وسنرى في الأعوام القادمة إلى أي حد يمكن أن تقف أعاجيب هذا الاختراع المدهش؛ ومما قرأناه أخيراً في صحف فيينا أن الراديو كان وسيلة مدهشة لنجاة مريض من تناول دواء خاطئ؛ فقد وفد مريض على صيدلي وقدم إليه تذكرة دوائه ليعدها، ثم أخذ المريض الدواء وانصرف، وبعد قليل تذكر الصيدلي أنه ارتكب في صنع الدواء خطأ قد يؤدي بحياة المريض، ولم يكن يعرف عن المريض أو اسمه أو طبيبه شيئاً؛ فهرع إلى شركة للإذاعة اللاسلكية، وفي الحال أذاعت الشركة خلال برنامجها نبأ هذا الخطأ في جميع أرجاء النمسا؛ ووقف الطبيب المعالج مصادفة على هذا النبأ حين كان يستمع إلى الإذاعة، فهرول إلى المريض في منزله ولحق به قبل أن يتناول الدواء القاتل.

الكتب

(محمد)

كتاب توفيق الحكيم

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

عملُ الأستاذ توفيق الحكيم في تصنيف هذا الكتاب أشبهُ شيء بعمل (كريستوف كولمب) في الكشف عن أمريكا وإظهارها من الدنيا للدنيا؛ ولم يخلق وجودها ولكنه

أوجدها في التاريخ البشري، وذهب إليها فقيل جاء بها إلى العالم، وكانت معجزته أنه رآها بالعين التي في عقله، ثم وضع بينه وبينها الصبرَ والمعاناةَ والحذق والعلم حتى انتهى إليها حقيقة ماثلة.

قرأ الأستاذ كتب السيرة وما تناولها من كتب التاريخ والطبقات والحديث والشمائل، بقريحة غير قريحة المؤرخ، وفكرة غير فكرة الفقيه، وطريقة غير طريقة المحدَّث، وخيال غير خيال القاصَّ، وعقل غير عقل الزندقة، وطبيعة غير طبيعة الرأي، وقصد غير قصد الجدَل؛ فخلص له الفن الجميل الذي فيها إذ قرأها بقريحته الفنية المشبوبة، وأمرَّها على إحساسه الشاعر المتوثب، واستلَّها من التاريخ بهذه القريحة وهذا الإحساس كما هي في طبيعتها السامية متجهةً إلى غرضها الإلهي محققةً عجائبها الروحانية المعجزة.

وقد أمدته السيرة بكل ما أراد، وتطاوعت له على ما اشتهى، ولانت في يده كما يلين الذهب في يد صائغه؛ فجاء بها من جوهرها وطبيعتها ليس له فيها خيال ولا رأي ولا تعبير، وجاءت مع ذلك في تصنيفه حافلة بأبدع الخيال، وأسمى الرأي، وأبلغ العبارة؛ إذ أدرك بنظرته الفنية تلك الأحوال النفسية البليغة، فنظمها على قانونها في الحياة، وجمع حوادثها المدوَّنة فصورَّها في هيئة وقوعها كما وقعت، واستخرج القصص المرسَلَة فأدارها حواراً كما جاءت في ألسنة أهلها؛ وبهذه الطريقة أعاد التاريخ حياً يتكلم وفيه الفكرة وملائكتُها وشياطينُها، وكشف ذلك الجمال الروحاني فكان هو الفن، وجلا تلك النفوس العالية فكانت هي الفلسفة، وأبقى على تلك البلاغة فكانت هي البيان. كانت السيرة كاللؤلؤة في الصدفة، فاستخرجها فجعلها اللؤلؤة وحدها.

إن هذا الكتاب يفرض نفسه بهذه الطريقة الفينة البديعة، فليس يمكن أن يقال إنه لا ضرورة لوجوده، إذ هو الضروريَّ من السيرة في زمننا هذا، ولا يُغْتَمَزُ فيه أنه تخريف وتزوير وتلفيق، إذ ليس فيه حرف من ذلك؛ ولا يردُّ بأنه آراء يخطئ المخطئ منها ويصيب المصيب، إذ هو على نص التاريخ كما حفظته الأسانيد؛ ولا يُرمى بالغثاثة والركاكة وضعف النسق، إذ هو فصاحة العرب الفصحاء الخُلَّص كما رُويت بألفاظها؛ فقد حصنه المؤلف تحصيناً لا يُقتحم، وكان في عمله مخلصاً أتم الاخلاص، أميناً بأوفى الأمانة، دقيقاً كل الدقة، حَذِرا بغاية الحذر.

ومن فوائد هذه الطريقة أنها هيأت السيرة للترجمة إلى اللغات الأخرى في شكل من أحسن أشكالها يرغم هذا الزمن على أن يقرأ بالإعجاب تلك الحكاية المنفردة في التاريخ الإنساني؛ كما أنها قرَّبت وسهلت فجعلت السيرة في نصها العربي كتاباً مدرسياً بليغاً بلاغة القلب واللسان، مربياً للروح، مرهفاً للذوق، مصححاً للملكة البيانية.

وحسبُ المؤلف أن يقال بعد اليوم في تاريخ الأدب العربي: إن ابن هشام كان أول من هذَّب السيرة تهذيباً تاريخياً على نظم التاريخ، وأن توفيق الحكيم كان أول من هذبها تهذيباً فنياً على نسق الفن.

مصطفى صادق الرافعي

1 - علم تكوين الجنين (طبع دمشق)
للدكتور شوكت موفق الشطى

2 - دليل الحج والسياحة (طبع الرباط)
للأستاذ أحمد الهواري
للأستاذ محمد بك كرد علي

- 1 -

أصدر الدكتور الشطي في دمشق الجزء الأول من هذا الكتاب، وهو (يبحث في التناسل والجهاز التناسلي في الذكور والإناث، والألقاح والذكورة والأنوثة والوراثة)، وقد تقدم للمؤلف أن نشر كثيراً من الأبحاث الطبية في كتب ورسائل ومقالات. والذي يعنينا هنا أن نقوله إن هذا الكتاب وبعض الكتب الطبية والعلمية التي ظهرت في العهد الحديث في جمهورية سورية تدل على اضطلاع المؤلفين الجدد بعلمهم، مضافاً إليه تمكنهم من العربية. وقد رأينا مصنف هذا الكتاب المفيد يضع ألفاظاً لبعض الكلمات الطبية والعلمية، هذا إلى ما في مجموع كلامه من الرشاقة والجزالة. أما البحث في موضوع الكتاب ودرجته من العلم فهو من شأن الأطباء.

- 2 -

جاءت رحلة الأستاذ الهواري الفاسي من الغرب الأقصى إلى الديار الحجازية المباركة في 310 صفحات محلاة بالرسوم البديعة. وقد قال في وصف كاتبها الأستاذ السيد عبد الحي الكتاني عالم فاس إنه رحل (ونقب، وسأل وكتب، وجمع وحطب، وإن كانت وجهة قلمه غلبت عليها نشوة الوظيف والاهتبال بالموظفين، والإدارات والمديرين، ولكن إذا عُلم أنه يكتب لأبناء هذا العصر زال العجب). ووصفه بأنه (صاحب القلمين واللسانين)، يعني العربية والفرنسية. وقد أورد الأستاذ الكتاني ثبتاً بديعاً بأسماء من رحلوا من القديم إلى اليوم، إلى الحجاز من بلاد الغرب والأندلس، ودل على أماكنها، ومنها المطوط المحفوظ في الخزانة الكتانية بفاس.

ولاحظنا أن المؤلف عني عناية خاصة بذكر أصحاب القبور أكثر من التنويه بأعمال الإحياء في مصر والشام. والقبوريون يظفرون متى شاءوا بما يحبون من الزيارات في كل بلد من بلادالإسلام، ولكن ما يحفظ على هذه الأمة دينها ودنياها هو اليوم الاستمداد من الأحياء، ولذا كان على المؤلف أن ينوه بما يجب أن يقتبسه بنو قومه من جلائل أعمال الحياة في البلاد التي زارها. وقد قدم صاحب الجلالة سيدي محمد سلطان المغرب الأقصى تقريظاً للكتاب على سبيل التنشيط. وعبارة المؤلف تدل على أنه عانى صناعة الكتابة في بلاده، بيد أنه جرى في تدوين رحلته على ما يرضي العامة وأرباب السلطان. . . .

محمد كرد علي

العدد 137 - بتاريخ: 17 - 02 - 1936

العزة

للأستاذ أحمد أمين

استعملت العرب كلمة (العزة) في مقابل (الذلة) فقالوا رجل عزيز ورجل ذليل. وجاء استعمال (العزيز والذليل) في القرآن متقابلتين، فقال تعالى: (أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين). وحكي عن المنافقين أنهم قالوا في حرب الغزوات: (لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل)، وهي كلمة قالها ابن أُبي، ويريد بالأعزة نفسه وصحبه، وبالأذلة محمداً (ص) وصحبه، فرد عليهم الله بقوله: (ولله العزة ولرسوله والمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون). وقد تصدى بعض المسلمين لأبن أُبي وسل سيفه عليه ومنعه من دخول المدينة، وقال: والله لا أغمده حتى تقول: (محمد الأعز وأنا الأذل) فقالها. والسبب في كل هذا أن العرب في الجاهلية كانوا يفهمون العزة في المال والجاه والرياسة والولد ونحو ذلك، فجعلها الإسلام في الدين الحق، وأداء الواجب للناس والله.

وأكثَر العرب من استعمال هذه الكلمة في الجاهلية والإسلام، فكان أبو جهل يقول: (أنا أعز أهل الوادي وأمنعهم)، وقال الشاعر:

بيضُ الوجوه كريمةٌ أحسابهم ... في كل نائبةٍ عِزَازُ الآنُفِ

وفسر الراغب الأصفهاني (العزة) بأنها حالة مانعة للإنسان من أن يُغلب، وجعل اشتقاقها من قولهم أرض عَزَاز أي صلبة، وتعزز لحم الناقة أشتد وصلب.

والحق في أن تحديد معنى العزة في منتهى الصعوبة، وأصعب ما في ذلك رسم الحد الفاصل بين العزة والكبر، وبين الذل والتواضع: وقديماً حاول الناس أن يفرقوا بينهما، فقد روى أن رجلاً قال للحسن بن علي: (إن الناس يزعمون أن فيك تيهاً) فقال: (ليس بتيه ولكنه عزة). وروي عن عمر ابن الخطاب أنه قال: (اخشَوشِنوا وتَمَعْزَزُوا) كأنه خشي إذا أمر الناس بتعود الخشونة أن يلجئهم ذلك إلى احتقار النفس وذلتها فاستدرك ذلك بطلب المحافظة على العزة.

وحاول السهروردي أن يفرق بين العزة والكبر فقال: (العزة غير الكبر لأن العزة معرفة الإنسان بحقيقة نفسه وإكرامها، كما أن الكِبر جهل الإنسان بنفسه وإنزالها فوق منازلها)

ولست أدري لم أهمل علماء الأخلاق من المسلمين هذا الخلق فلم يكثروا الكلام فيه إكثارهم في غيره من الصدق والعدل الكرم والتواضع.

ولو وضعت أنا (قائمة) الأخلاق مرتبة حسب أهميتها للمسلمين لوضعت في أعلاها (العزة)، ولاخترت من الأخلاق ما يبعث القوة والاعتداد بالنفس والرجولة والأنفة

والحمية، ولأقللت جداً من الكلام في التواضع والزهد والخوف ونحو ذلك، لأن قائمة الأخلاق يجب أن تخضع في ترتيبها وتقويمها لعاملين: روح العصر، وموقف الأمة إزاء بقية الشعوب؛ بل أحياناً تنقلب الفضيلة إلى رذيلة، ويكون الحث على هذا النوع من الفضائل داعية إلى الإجرام. فإذا أفرطت أمة في التواضع كانت الدعوة إليه إجراماً، وإذا أفرطت أمة في الزهد كانت دعوة الأخلاقيين إليه دعوة إلى الموت والفناء.

كنت زمناً قاضياً في (الواحات الخارجة) وهي بلاد في منتهى الفقر والبؤس، أغناهم من ملك نُخَيلات وسُوَيعات في عين من عيون الماء، بؤس شامل، وجهل شائع، وضنك يستذرف الدمع، ويستوجب الرحمة. فذهبت يوماً إلى صلاة الجمعة في مسجدها البائس الفقير أيضاً. . فما كان أشد عجبي من خطيب يخطب من ديوان مطبوع يستحث الناس على ألا يقضوا صيفهم في أوروبا، وأنا على يقين أن الخطيب والمسلمين لم يعرفوا أوروبا، ولم يفهموا لها إلا معنى غامضاً، ولم تحدث أحداً منهم نفسه بالسفر إلى مصر فضلاً عن أوروبا، ولكنها قلة ذوق الخطيب وسماجته، وجهله التام بالواقع.

وأؤكد أن أكثر المتكلمين في الأخلاق من المسلمين في مثل حال هذا الخطيب، لا يعرفون زمانهم، ولا يعرفون أمتهم، ولا يعرفون موقف أمتهم من زمانهم. يرونهم أذلة فيدعون إلى الذلة، ويرونهم متواضعين فيلحون في طلب التواضع، ويرونهم زهاداً بالطبيعة لا يجدون الكفاف من العيش فيمعنون في طلب الزهد. فإن هم تلطفوا قليلاً طلبوا منهم الرضا بالبؤس وألصقوه بالقدر، وجعلوا ذلك كله ضرباً من التقوى والإيمان، وهم بذلك يداوون جوعاً بجوع، وجرحاً بجرح، وسماً بسم؛ وكان يجب أن يداووا جوعاً بشبع، وجرحاً بضماد، وسماً بترياق.

تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا ندعو إلى خلق يزيد الأمة ضعفاً، فلا ندعوها إلى الرضا بالقليل وفي إمكانها الكثير، ولا ندعوها إلى الاستسلام للقدر وفي وسعها مكافحة الصعاب ومواجهة الشدائد، ولا ندعوها إلى الذلة وفي استطاعتها أن تعز. والواقع أن أبيات

العزة وأدب العزة وأمثال العزة وقصص العزة إنما تكثر في الأمة أيام عزتها وتختفي أيام بؤسها، فلما كان العالم الإسلامي عزيزاً أنطقتهم بالعزة رماحهم، ثم غلبوا على أمرهم فنطقوا بالتواضع، وتواصوا بالاستكانة، وألفت الكتب والخطب من ذلك الحين تروّح على البائسين حتى لا يشعروا ببؤسهم ولا يملوا أشقاءهم، وما زال الحال على هذا المنوال حتى صار الداء صحة والدواء مرضاً.

وليس غريباً أن يسير الناس على هذه الخطة، ولكن غريباً أن يسير القادة عليها، وكان المفروض أن يكونوا أبعد نظراً، وأطهر قلباً، وأعرف بحقائق الأمور.

أريد بالعزة أن يشعر كل إنسان بكرامة نفسه ويشعر بما لها من حقوق، فلا يسمح لمخلوق كائناً من كان أن ينال منها مثقال ذرة، كما يشعر بما عليه من واجبات فلا يسمح لنفسه أن يعتدي على حقوق الناس مثقال ذرة أيضاً.

وللعزة مظاهر متعددة ووسائل مختلفة، فالناس كثيراً ما يتطلبون الغنى وسيلة من وسائل العزة، وآخرون يطلبون المنصب الحكومي أو العضوية البرلمانية أو العضوية في الجمعيات الراقية أو صداقة العظماء أو حسن الملبس على إنها وسائل العزة، والمتعلمون يطلبون العزة عن طريق الشهادات من ليسانس ودكتوراه ودبلوم ونحو ذلك، وهذه كلها عزة شخصية، وهناك عزة أخرى قومية وهي اعتزاز الفرد بنسبته إلى أمته كاعتزاز الإنجليزي بإنجليزيته والفرنسوي بفرنسيته والألماني بألمانيته، ولهذه كذلك مظاهر متعددة كاحترام كل أمة أعلامها والمحافظة على بعض تقاليدها والافتخار بلغاتها والفخر بآثارها ونحو ذلك؛ وليس يهمني الآن هذا ولا ذاك، إنما يهمني نوع من الشعور يتملك المرء ويشعر منه بأنه إنسان في الحياة لا يمتاز عنه أحد في الوجود في إنسانيته. قد يمتاز الناس عنه في المال أو في الجاه أو في المنصب ولكن لا يمتاز عليه أحد في أنه إنسان، فسائق السيارة وصاحب السيارة سيان في احترامهما أنفسهما وشعورهما بحقوقهما وواجباتهما.

ويسوءني أن أرى الشرقي لا يشعر بالعزة الشعور الواجب، ولا ينزل هذه الفضيلة من نفسه المنزلة التي تستحقها، وأكبر ما يؤلمني في ذلك مظهران:

الأول: استخذاء الشرقي أمام الأجنبي الأوربي وشعوره في أعماق نفسه كأنه خلق من

طينة غير طينته، وكأن الطبيعة جعلت أحدهما سيداً والآخر عبداً، ترى هذا الشعور في المصالح
الحكومية وفي الحوانيت التجارية وفي المجتمعات وفي الشوارع، وفي كل معاملة وفي كل خطوة. بالأمس كنت في محطة السكة الحديدية فذهبت إلى شباك التذاكر وسألت الموظف - في أدب - هل هنا محل صرف التذاكر إلى بلدة كذا؟ فلم يجب، وأعدت السؤال فلم يجب فتولاني شعور ممتزج من غضب وخجل واحتمال لبرودة السؤال وغير ذلك، وما لبث أن جاء أجنبي فسأل مثل هذا السؤال بلغته الأجنبية، فترك الموظف ما في يده وأقبل عليه يكلمه، وأجابه إجابة فيها كل معنى التبجيل والتعظيم، وأختتم كل جملة من جملة بكلمة (سيدي)!، فدهشت من هذا الحال وثرت في نفسي، وتجمع الدم في وجهي، ونلت من الموظف بقدر ما نال مني، ولم أكسب من ذلك كله إلا أن أكتب هذا المقال.
وموقف هذا الموظف تقفه كل الأوساط على اختلاف في مقدار اللياقة والكياسة ولكن الجوهر واحد، فذلك هو الشأن في الأوساط العلمية والتجارية والسياسية، يتكلم الأجنبي كلمة عادية فتكون المثل، وتكون الحكمة، وتكون القول الفصل، ويبدي الرأي فيكون الرأي الناضج والقول الحكيم والغاية التي ليس وراءها غاية، ويطلب الطلب فلا بد أن يجاب، وإذا لم يكن فالاعتذار الحار والوعد بإجابته في ظرف آخر؛ ويدخل المحل التجاري أو يركب القطار أو يدخل النادي فموضع رعاية خاصة؛ ويعمل العمل فيقدر التقدير الغالي في قيمته الأدبية ومكافأته المادية إلى ما يطول شرحه.
وفي هذا من غير شك مذلة للشعور وكبت للنفس واستعباد للمواطن، ومع ذلك يطالبنا السادة الأخلاقيون بالتواضع! لابد أن يفهم الناس في كل مناسبة وفي كل ظرف أن القوم أناس مثلنا لهمك ما لنا وعليهم ما علينا، وأن هؤلاء القوم على أحسن تقدير ضيوفنا لا سادتنا، ومن لحم ودم كلحمنا ودمنا، ولهم عقل ولكن كعقلنا، وسلوك في الأخلاق كسلوكنا، وتصدر منهم الفضيلة والرذيلة كما تصدر عنا، وأنهم ككل البشر يستذلون من أذل نفسه، وأن واجبنا أن نحترمهم في غير مذلة، ونحترمهم لا على حساب احتقار المواطن، وأننا نبادلهم احتراماً باحترام واحتقاراً باحتقار، وأنه إذا حدثتهم أنفسهم بالاعتداء علينا لم نمكنهم، وأن الحكم بيننا وبينهم دائماً أن لنا حقوقاً وعلينا واجبات كحقوقهم وواجباتهم، فإذا طلبوا المساواة فالسمع والطاعة، وإذا طلبوا الإذلال قلنا (لا) بملء أفواهنا.
والأمر الثاني من مظاهر الذلة الذي لا يقل خطراً عن هذا، فهمُ الرئيس لمعنى الرياسة،
فهو يفهمها على إنها غطرسة من جانبه، وذلة من جانب مرءوسه، وإلا لم يكن المرءوس مؤدباً. فرئيس المصلحة ليس لأحد رأي بجانب رأيه، ولا لوكيله ولا لمديري إدارته، عليهم أن يسمعوا في ذلة والعزة له وحده، ثم يتكرر تمثيل هذا الدور من أعلى فنازلاً، فكل من بعد الرئيس الأعلى رئيس من جانب ومرءوس من جانب، فهو كمرءوس حاله ما بيّنا، وهو كرئيس يقلد تقليداً تاماً رئيسه في اعتزازه وإذلاله، وهكذا دواليك، حتى يصل الأمر إلى ما نرى من الباعة في الشارع والجندي، فمثلهم كالقاطرة تصدم العربة التي تقابلها ثم كل عربة تصدم ما بعدها إلى آخر القطار.
ليس لهذا من علاج إلا فهم العزة بمعناها الدقيق، وهو احترام نفسك في غير احتقار أحد، وأن تقف موقفاً له جانبان، فإن نظرت إلى من هو أعلى منك في المنصب والجاه والجنسية فلا تمكنه أن ينال من نفسك ولو ذرة، ولا أن يتعدى حدوده ولو شعرة؛ وإذا نظرت إلى من هو أسفل منك فلا تتعد حدودك، وإذا شعرت باستخذائه وذلته فأرفع مستواه ما استطعت حتى يصل إلى الحدود على أنه ليس هناك أسفل ولا أعلى إلا في مواضعات سخيفة، فمن الذي قال إن كناس الشارع وضيع وفراش المصلحة وضيع، والخادم في المنزل وضيع؟ نعم إن الحالة الاجتماعية فرقت بين الناس في المرتب ونحوه، ولكن القيمة الحقيقية للإنسان وهي ما له من حقوق وواجبات قدر مشترك بين الجميع.
فليس من حقك أن تنادي بائع الجرائد (يولد) ولا خادمك بأحقر الأسماء، ولا فراش المصلحة بما يشعر باحتقاره، وهو مطالب بالأدب معك، وأنت مطالب بالأدب معه، وليس للجندي حق أن يرفع عصاه على بائع لم يتجاوز حدوده، ولا لأي رئيس أن يخرج

عن الأوضاع الأدبية في مخاطبته مرءوسه. فإذا فرغ الرئيس والمرءوس من العمل، وفرغ سائق السيارة ومالكها، وفرغ الضابط والجندي والمعلم والتلميذ فكلهم سواء في الحياة الاجتماعية، وكلهم سواء في الحقوق، لا ذلة لأحد على أحد، ولا اعتزاز من أحد على أحد

(!مذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟)

احمد أمين

السمكة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

حدَّث أحمد بن مسكين الفقيه البغدادي قال: حصلت في مدينة (بلخ) سنة ثلاثين ومائتين، وعالمهما يومئذ شيخ خراسان أبو عبد الرحمن الزاهد صاحب المواعظ والحكم، وهو رجل قلبه من وراء لسانه، ونفسه من وراء قلبه، والفلك الأعلى من وراء نفسه، كأنه يلقى عليه فيما زعموا، وكان يقال له عندهم (لقمان هذه الأمة) لما يعجبهم من حكمه في الزهد والموعظة. وقد حضرت مجالسه وحفظت من كلامه شيئاً كثيراً كقوله: من دخل في مذهبنا هذا، (يعني الطريق) فليجعل على نفسه أربع خصال من الموت: موت أبيض، وموت أسود، وموت أحمر، وموت أخضر، فالموت الأبيض الجوع، والموت الأسود احتمال الأذى، والموت الأحمر مخالفة النفس، والموت الأخضر طرح الرِّقاع بعضها على بعض (يعني ليس المرقعة والخَلَق من الثياب).

وقلت يوما لصاحبه وتلميذه (أبي تراب) وجاريته في تأويل هذا الكلام: قد فهمنا وجه التسمية في الموت الأخضر ما دامت المرقعة خضراء، فما الوجه في الأبيض والأسود والأحمر؟ فجاء بقول لم أرضه، وليس معه دليل، ثم قال: فما عندك أنت؟ قلت: أما الجوع فيميت النفس عن شهواتها ويتركها بيضاء نقية، فذلك الموت الأبيض؛ وأما احتمال الأذى فهو احتمال سواد الوجه عند الناس فهو الموت الأسود؛ وأما مخالفة النفس فهي كإضرام النار فيها، فذلك الموت الأحمر.

قال أحمد بن مسكين: وكنت ذات نهار في مسجد (بلخ) والناس متوافرون ينتظرون (لقمان الأمة) ليسمعوه، وشغله بعض الأمر فراث عليهم، فقالوا: من يعظنا إلى أن يجيء الشيخ؟ فالتفت إلي أبو تراب وقال: أنت رأيت الإمام أحمد بن حنبل، ورأيت بشراً الحافي وفلاناً وفلاناً، فقم فحدث الناس عنهم، فإنما هؤلاء وأمثالهم هم بقايا النبوَّة، ثم أخذ بيدي إلى الاسطوانة التي يجلس إليها إمام خراسان فأجلسني ثمَّة وقعد بين يديّ.

وتطاولت الأعناق، ورماني الناس بأبصارهم، وقالوا: البغدادي! البغدادي! وكأنما ضوعفت عندهم بمجلسي مرة وبنسبتي مرة أخرى، فقلت في نفسي: والله ما في الموت الأحمر ولا الأخضر ولا الأسود موعظة، ولو لبس عزرائيل قوس قزح لأفسد شعر هذه الألوان معناه،

وإنما يجب أن يكون كما يجب أن يكون. ولا موعظة في كلام لم يمتلئ من نفس قائله ليكون عملاً فيتحول في النفوس الأخرى عملاً، ولا يبقى كلاماً؛ وإنه ليس الوعظ تأليف القول للسامع يسمعه، لكنه تأليف النفس لنفس أخرى تراها في كلامها، فيكون هذا الكلام كأنه قرابة بين النفسين، حتى لكأن الدم المتجاذب يجري فيه ويدور في ألفاظه.

وكنت رأيت رؤيا (ببلخ) تتصل بقصة قديمة في بغداد، فقصصتها عليهم، فكانت القصة كما حكيتها أني امتحنت بالفقر في سنة تسع عشرة ومائتين؛ وانحسمت مادتي وقحط منزلي قحطاً شديداً جمع علي الحاجة والضر والمسكنة؛ فلو انكمشت الصحراء المجدبة فصغرت ثم صغرت حتى ترجع أذرعها في أذرع لكانت هي داري يومئذ في محلة باب البصرة من بغداد. وجاء يوم صحراوي كأنما طلعت شمسه من بين الرمل لا من بين السحب، ومرت الشمس على داري في بغداد مرورها على الورقة الجافة المعلقة في الشجرة الخضراء؛ فلم يكن عندنا شيء يسيغه حلق آدمي إذ لم يكن في الدار إلا ترابها وحجارتها وأجذاعها، ولي امرأة ولي منها طفل صغير وقد طوينا على جوع يخسف بالجوف خسفاً كما تهبط الأرض، فلتمنيت حينئذ لو كنا جرذاناً فنقرض الخشب، وكان جوع الصبي يزيد المرأة ألماً إلى جوعها، وكنت بهما كالجائع بثلاثة بطون خاوية، فقلت في نفسي: إذا لم نأكل الخشب والحجارة فلنأكل بثمنها؛ وجمعت نيتي على بيع الدار والتحول عنها وإن كان خروجي منها كالخروج من جلدي لا يسمى

إلا سلخاً وموتاً؛ وبت ليلتي وأنا كالمثخن حُمل من معركة فما يتقلب إلا على جراح تعمل فيه عمل السيوف والأسنة التي عملت فيها.

ثم خرجت بغَلَسٍ لصلاة الصبح، والمسجد يكون في الأرض ولكن السماء تكون فيه، فرأيتني عند نفسي كأني خرجت من الأرض ساعة. ولما قُضيت الصلاة رفع الناس أكفهم يدعون الله تعالى وجرى لساني بهذا الدعاء: اللهم بك أعوذ أن يكون فقري في ديني، أسألك النفع الذي يُصلحني بطاعتك، وأسألك بركة الرضى بقضائك، وأسألك القوة على الطاعة والرضى يا أرحم الراحمين.

ثم جلست أتأمل شأني وأطلت الجلوس في المسجد كأني لم أعد من أهل الزمن فلا تجري علي أحكامه، حتى إذا أرتفع الضحى وابيضت الشمس جاءت حقيقة الحياة فخرجت أتسبب لبيع الدار وانبعثت وما أدري أين أذهب، فما سرت غير بعيد حتى لقيني أبو نصر الصياد

وكنت أعرفه قديماً، فقلت: يا أبا نصر! أنا على بيع الدار فقد ساءت الحال وأحوجت الخصاصة، فأقرضني شيئاً يمسكني على يومي هذا بالقوام من العيش حتى أبيع الدار وأوفيك.

فقال: يا سيدي! خذ هذا المنديل إلى عيالك وأنا على أثرك لاحق بك إلى المنزل. ثم ناولني منديلاً فيه رقاقتان بينهما حلوى وقال: إنهما والله بركة الشيخ.

قلت: ما الشيخ وما القصة؟

قال: وقفت أمس على باب هذا المسجد وقد أنصرف الناس من صلاة الجمعة فمر بي أبو نصر بشر الحافي فقال: مالي أراك في هذا الوقت؟ قلت: ما في البيت دقيق ولا خبز ولا درهم ولا شيء يباع. فقال: الله المستعان؛ احمل شبكتك وتعال إلى الخندق، فحملتها وذهبت معه، فلما انتهينا إلى الخندق قال لي: توضأ وصل ركعتين، ففعلت، فقال سم الله تعالى وألق الشبكة، فسميت وألقيتها، فوقع فيها شيء ثقيل فجعلت أجره فشق علي؛ فقلت له ساعدني فإني أخاف أن تنقطع الشبكة، فجاء وجرها معي فخرجت سمكة عظيمة لم أر مثلها سمناً وعظماً وفراهةً. فقال: خذها وبعها وأشتر بثمنها ما يصلح عيالك. فحملتها فاستقبلني رجل اشتراها، فابتعت لأهلي ما يحتاجون إليه، فلما أكلت وأكلوا ذكرت الشيخ فقلت أهدي له شيئاً، فأخذت هاتين الرقاقتين وجعلت بينهما هذه الحلوى وأتيت إليه فطرقت الباب فقال: من؟ قلت أبو نصر! قال: أفتح وضع ما معك في الدهليز وأدخل، فدخلت وحدثته بما صنعت فقال: الحمد لله على ذلك. فقلت: إني هيأت للبيت شيئاً وقد أكلوا وأكلت ومعي رقاقتان فيهما حلوى.

قال: يا أبا نصر! لو أطعمنا أنفسنا هذا ما خرجت السمكة! أذهب كله أنت وعيالك.

قال أحمد بن مسكين: وكنت من الجوع بحيث لو أصبت رغيفاً لحسبته مائدة أنزلت من السماء، ولكن كلمة الشيخ عن السمكة أشبعتني بمعانيها شبعاً ليس من هذه الدنيا كأنما طعمت منها ثمرة من ثمار الجنة. وطفقت أرددها لنفسي وأتأمل ما تفتق الشهوات على الناس، فأيقنت أن البلاء إنما يصيبنا من أننا نفسر الدنيا على طولها وعرضها بكلمات معدودة، فإذا أستقر في أنفسنا لفظ من ألفاظ هذه الشهوات، استقرت به في النفس كل معانيه من المعاصي والذنوب، وأخذت شياطين هذه المعاني تحوم على قلوبنا فنُصبح مُهيَّئين لهذه

الشياطين عاملين لها ثم عاملين معها، فتدخلنا مداخل السوء في هذه الحياة وتقحمنا في الورطة بعد الورطة وفي الهلكة بعد الهلكة. وما هذه الشياطين إلا كالذباب والبعوض والهوام، لا تحوم إلا على رائحة تجذبها فإن لم تجد في النفس ما تجتمع عليه تفرقت ولم تجتمع، وإذا ألمَّت الواحدة منها بعد الواحدة لم نثبت. فلو أننا طردنا من أنفسنا الكلمات التي أفسدت علينا رؤية الدنيا كما خلقت، لكان للدنيا في أنفسنا شكل آخر أحسن وأجمل من شكلها، ولكانت لنا أعمال أخرى أحسن وأطهر من أعمالنا.

فالشيخ لم يكن في نفسه معنى لكلمة (التلذذ)، وبطرده من نفسه هذا اللفظ الواحد، طرد معاني الشر كلها وصلح له دينه وخلصت نفسه للخير ومعاني الخير. ولو أن رجلاً وضع في نفسه امرأة يعشقها لصارت الدنيا كلها في نفسه كالمخدع ما فيه إلا المرأة وحدها بأسبابها إليه وأسبابه إليها.

وقد كنتُ سمعت في درس شيخنا أحمد بن حنبل هذا الحديث: لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السموات! فما فهمت والله معناه إلا

من كلمة الشيخ في السمكة وقد علمنيها هذا الصياد العامي. فالشياطين تنجذب إلى المعاني، والمعاني يوجدها اللفظ المستقر في القلب استقرار فرض أو شهوة أو طمع؛ فإذا خلا القلب من هذه المعاني فقد أمن منازعتها له وشغله إياه فيصبح فوقها لا بينها، ومتى صار القلب فوق الشهوات ولم يجد من ألفاظها ما يعميه ويعترض نظره إلى الحقائق، انكشفت له هذه الحقائق فانكشف له الملكوت. فإذا وقع بعدُ في واحدة من اللذات ولو (كالرقاقتين والحلوى) استملت الأشياء عليه فحجبته، وعاد بينها أو تحتها، وعميَ عمى اللذة، والحجاب على البصر كأنه تعليق العمى على البصر.

وكنت لا أزال أعجب من سير شيخنا أحمد بن حنبل وقد ضرب بين يدي المعتصم بالسياط حتى غُشي عليه فلم يتحول عن رأيه، فعلمت الآن من كلمة السمكة أنه لم يجعل في نفسه للضرب معنى الضرب، ولا عرف للصبر معنى الصبر الآدمي، ولو هو صبر على هذا صبر الإنسان لجزع وتحول، ولو ضُرب ضَرب الإنسان لتألم وتغير، ولكنه وضع في نفسه معنى ثبات السنة وبقاء الدين وأنه هو الأمة كلها لا أحمد بن حنبل، فلو تحول لتحول الناس ولو ابتدع لابتدعوا؛ فكان صبره صبر أمة كاملة لا صبر رجل فرد، وكان يضرب بالسياط ونفسه فوق معنى الضرب، فلو قرضوه بالمقاريض نشروه بالمناشير لما نالوا منه شيئاً إذ لم يكن جسمه إلا ثوباً عليه، وكان الرجل هو الفكر ليس غير.

هؤلاء قوم لا يرون فضائلهم فضائل ولكنهم يرونها أمانات قد ائتُمِنوا عليها من الله لتبقى بهم معانيها في هذا الدنيا؛ فهم يزرعون في الأمم زرعاً بيد الله ولا يملك الزرع غير طبيعته، وما كان المعتصم وهو يريد شيخنا على غير رأيه وعقيدته إلا كالأحمق يقول لشجرة التفاح: أثمري غير التفاح.

قال أحمد بن مسكين: أخذت الرقاقتين وأنا أقول في نفسي: لعن الله هذه الدنيا! إن من هوانها على الله أن الإنسان فيها يلبس وجهه كما يلبس نعله. فلو أن إنساناً كانت له نظرة ملائكية ثم أعترض الخلق ينظر في وجوههم لرأى عليها وحولاً وأقذاراً كالتي في نعالهم أو أقذر أو أقبح، ولعله كان لا يرى أجمل الوجوه التي تستهيم الناس وتتصبّاها من الرجال والنساء إلا كالأحذية العتيقة. . .

ولكني أحسست أن في هاتين الرقاقتين سر الشيخ ورأيتهما في يدي كالوثيقتين بخير كثير، فقلت على بركة الله ومضيت إلى داري؛ فلما كنت في الطريق لقيتني امرأة معها صبي فنظرت إلى المنديل وقالت: يا سيدي هذا طفل يتيم جائع ولا صبر له على الجوع فأطعمه شيئاً يرحمك الله، ونظر إلي الطفل نظرة لا أنساها حسبت فيها خشوع ألف عابد يعبدون الله تعالى منقطعين عن الدنيا، بل ما أظن ألف عابد يستطيعون أن يُروا الناس نظرة واحدة كالتي تكون في عين صبي يتيم جائع يسأل الرحمة. إن شدة الهم لتجعل وجوه الأطفال كوجوه القديسين في عين من يراها من الآباء والأمهات، لعجز هؤلاء الصغار عن الشر الآدمي وانقطاعهم إلا من الله والقلب الإنساني، فيظهر وجه أحدهم وكأنه يصرخ بمعانيه يقول: يا رباه يا رباه!

قال أحمد بن مسكين: وخيل إلي حينئذ أن الجنة نزلت إلى الأرض تعرض نفسها على من يشبع هذا الطفل وأمه، والناس عمي لا يبصرونها، وكأنهم يمرون بها في هذا الموطن مرور الحمير بقصر الملك، لو سئلت فضلت عليه الإسطبل الذي هي فيه. . .

وذكرت امرأتي وأبنها وهما جائعان مذ أمس، غير أني لم أجد لهما في قلبي معنى الزوجة والولد؛ بل معنى هذه المرأة المحتاجة وطفلها، فأسقطتهما عن قلبي ودفعت ما في يدي للمرأة وقلت لها: خذي وأطعمي أبنك، ووالله ما أملك بيضاء ولا صفراء وإن في داري لمن هو أحوج إلى هذا الطعام، ولولا هذه الخلة بي لتقدمت فيما يصلحك. فدمعت عيناها وأشرق وجه الصبي، ولكن طمّ على قلبي ما أنا فيه فلم أجد للدمعة معنى الدمعة ولا للبسمة معنى البسمة.

وقلت في نفسي: أما أنا فأطوى إن لم أصب طعاماً، فقد كان أبو بكر الصديق يطوي ستة أيام، وكان أبن عمر يطوي، وكان فلان وفلان ممن حفظنا أسماءهم وروينا أخبارهم؛ ولكن من للمرأة وأبنها بمثل عقدي ونيتي؟ وكيف لي بهما؟

ومشيت وأنا منكسر منقبض وكأني كنت نسيت كلمة الشيخ (لو أطعمنا أنفسنا هذا ما خرجت السمكة) فذكرتها وصرفت خاطري إليها وشغلت نفسي بتدبرها وقلت: لو أني

أشبعت ثلاثة بجوع أثنين لحرمت خمس فضائل وهذه الدنيا محتاجة إلى الفضيلة، وهذه الفضيلة محتاجة إلى مثل هذا العمل، وهذا العمل محتاج إلى أن يكون هكذا، فما يستقيم الأمر إلا كما صنعت.

وكانت الشمس قد انبسطت في السماء وذلك وقت الضحى الأعلى، فملت ناحية وجلست إلى حائط أفكر في بيع الدار ومن يبتاعها، فأنا كذلك إذ مر أبو نصر الصياد وكأنه مُستَطار فرحاً فقال: يا أبا محمد ما يجلسك ههنا وفي دارك الخير والغنى؟ قلت: سبحان الله! من أين خرجت السمكة يا أبا نصر؟

قال: إني لفي الطريق إلى منزلك ومعي ضرورة من القوت أخذتها لعيالك ودراهم استدنتها لك، إذا رجل يستدل الناس على أبيك أو أحد من أهله، ومعه أثقال وأحمال، فقلت له أنا أدلك ومشيت معه أسأله عن خبره وشأنه عند أبيك. فقال: إنه تاجر من البصرة وقد كان أبوك أودعه مالاً من ثلاثين سنة فأفلس وأنكسر المال، ثم ترك البصرة إلى خراسان فصلح أمره على التجارة هناك وأيسر بعد المحنة، وأستظهر بعد الخذلان، وأقبل جده بالثراء والغنى فعاد إلى البصرة، وأراد أن يتحلل فجاءك بالمال وعليه ما كان يربحه في هذه الثلاثين سنة وإلى ذلك طرائف وهدايا.

قال أحمد بن مسكين: وأنقلب إلى داري فإذا مال جم وحال جميلة! فقلت: صدق الشيخ: (لو أطعمنا أنفسنا هذا ما خرجت السمكة)! فلو أن هذا الرجل لم يلق في وجهه أبا نصر في هذه الطريق في هذا اليوم في هذه الساعة لما اهتدى إلي، فقد كان أبي مغموراً لا يعرفه أحد وهو حي، فكيف به ميتاً من وراء عشرين سنة؟

وآليت ليعلمن الله شكري هذه النعمة، فلم تكن لي همة إلا البحث عن المرأة المحتاجة وأبنها فكفيتهما وأجريت عليهما رزقاً، ثم اتجرت في المال وجعلت أربِّه بالمعروف والصنيعة والإحسان وهو مقبل يزداد ولا ينقص حتى تمولت وتأثَّلت.

وكأني قد أعجبتني نفسي وسرني أني قد ملأت سجلات الملائكة بحسناتي، ورجوت أن أكون قد كتبت عند الله في الصالحين، فنمت ليلة فرأيتني في يوم القيامة والخلق يموج بعضهم في بعض، والهول هول الكون الأعظم على الإنسان الضعيف يسأل عن كل ما مسه من هذا الكون. وسمعت الصائح يقول: يا معشر بني آدم! سَجَدَت البهائم شكراً الله أنه لم يجعلها من آدم. ورأيت الناس وقد وسعت أبدانهم فهم يحملون أوزارهم على ظهورهم مخلوقةً مجسمة، حتى لكأن الفاسق على ظهره مدينة كلها مُخزيات!

وقيل: وضعت الموازين وجيء بي لوزن أعمالي. فجعلت سيئاتي في كفة وألقيت سجلات حسناتي في الأخرى، فطاشت السجلات ورجحت السيئات، كأنما وزنوا الجبل الصخري العظيم الضخم بلفافة من القطن. .

ثم جعلوا يلقون الحسنة بعد الحسنة مما كنت أصنعه فإذا تحت كل حسنة شهوة خفية من شهوات النفس كالرياء والغرور وحب المحْمَدة عند الناس وغيرها فلم يسلم لي شيء وهلكت عني حجتي، إذ الحجة ما يُبينه الميزان، والميزان لم يدلّ إلا على أني فارغ.

وسمعت الصوت: ألم يبق له شيء؟ فقيل: بقي هذا

وأنظر لأرى ما هذا الذي بقي، فإذا الرقاقتان اللتان أحسنت بهما على المرأة وأبنها! فأيقنت أني هالك؛ فلقد كنت أحسن بمائة دينار ضربةً واحدة فما أغنت عني ورأيتها في الميزان مع غيرها شيئاً معلقاً كالغمام حين يكون ساقطاً بين السماء والأرض لا هو في هذه ولا هو في تلك.

ووضعت الرقاقتان وسمعت القائل: لقد طار نصف ثوابهما في ميزان أبي نصر الصياد. فانخذلت انخذالاً شديداً حتى لو كسرت نصفين لكان أخفُّ علي وأهون. بيد أني نظرت فرأيت كفة الحسنات قد نزلت منزلة ورجحت بعض الرجحان.

وسمعت الصوت: ألم يبق له شيء؟ فقبل: بقي هذا

وأنظر ما هذا الذي بقي، فإذا جوع امرأتي وولدي في ذلك اليوم! وإذا هو شيء يوضع في الميزان، وإذا هو ينزل بكفة ويرتفع بالأخرى حتى اعتدلتا بالسوية. وثبت الميزان على ذلك فكنت بين الهلاك والنجاة.

وأسمع الصوت: ألم يبق له شيء؟ فقيل بقي هذا

ونظرت فإذا دموع تلك المرأة المسكينة حين بكت من أثر المعروف في نفسها ومن إيثاري إياها وأبنها على أهلي. ووضعت غرغرة عينيها في الميزان ففارت فطمّت كأنها لجّةٌ من تحت اللجة بحر. وإذا سمكة هائلة قد خرجت من اللجة وقع في نفسي أنها روح تلك الدموع، فجعلت تعظم ولا تزال تعظم، والكفة ترجح ولا تزال ترجح، حتى سمعت الصوت يقول: قد نجا!

وصحت صيحة انتبهت لها فإذا أنا أقول: لو أطعمنا أنفسنا هذا ما خرجت السمكة!

(طنطا)

مصطفى صادق الرافعي

أساليب الكفاح الدولي بين الأمس واليوم

بقلم باحث دبلوماسي كبير

تثير المشاكل العسكرية والسياسية المالية الحاضرة كثيراً من التأملات؛ وأول ما يلاحظ فيها أن أساليب الحرب والكفاح المادية بين الدول قد طرأ عليها تغيير جوهري حاسم، هذا بينما نرى أساليب الكفاح السياسي تقوم في جوهرها على نفس الأسس التي قامت عليها منذ قرون، ويكفي أن نرجع إلى عشرين عاماً فقط، أعني إلى الحرب الكبرى، لنرى إلى أي مدى هائل تطورت أساليب الحرب؛ ففي أثناء الحرب الكبرى كانت الحرب الجوية لا تزال في بدايتها، وكانت المخترعات والأسلحة الجديدة المهلكة مثل الغازات السامة والدبابات لا تزال في دور التجربة، ولم يعلم يومئذ مبلغ فعلها أو أثرها في تطور أساليب الحرب. أما اليوم فقد غدت الأساطيل الجوية أروع وأفعل وسائل الحرب السريعة المهلكة، وغدت الغازات السامة سلاحاً يعتمد عليه ويحسب حسابه ويتحوط لدرئه والوقاية منه في جميع الأمم المتمدنة، وغدت الدبابات الضخمة وحدة فنية ثابتة في معظم الجيوش الكبرى؛ وهذه أمثال فقط مما ذاع وعرف من أسلحة الحرب المعاصرة، ولكن لا ريب أن هناك أسلحة ووسائل مهلكة أخرى لم تعرف ولم تذع بعد، وإن كنا نسمع عنها بعض الروايات الغريبة المدهشة، ومن المحقق أنها يوم تنشب حرب عالمية جديدة، أو حرب طاحنة بين دولتين عظيمتين، ستقع على العالم وقع الصواعق، وتحدث ثورة جديدة هائلة في أساليب الحرب والقتال.

ونرى من الجهة الأخرى منظراً غريباً من مناظر الكفاح الدولي الحديث هو العقوبات الدولية، فهناك اليوم زهاء خمسين دولة من دول العالم، وبينها عدة من الدول العظمى، تبحث في جنيف في فرض عقوبة جديدة على إيطاليا تكون حاسمة في وقف اعتدائها على الحبشة، وذلك بعد أن فرضت عليها العقوبات الاقتصادية الإجماعية وأحدثت في شؤونها الداخلية والاقتصادية أزمات ومتاعب شديدة، وهذه العقوبة الجديدة تنحصر في حظر تصدير البترول والحديد والفحم إلى إيطاليا، والمقدر إن تنفيذ هذه العقوبة يكون ضربة قاضية على المغامرة الإيطالية في الحبشة، وإنه يؤدي سريعاً إلى شل الحركات العسكرية الإيطالية، لأن إيطاليا تعتمد على الخارج في استيراد هذه المواد الحيوية اللازمة لتموين أسطولها وطياراتها ودباباتها، وكل حركاتها ومشاريعها العسكرية، وحرمانها من هذه المواد يقضي على كل هذه المشاريع والحركات، ويجعل من أساطيلها وطياراتها ودباباتها قطعاً من الحديد والصلب لا حياة فيها؛ ثم نرى الدول تذهب في تفكيرها إلى أبعد من ذلك، فتقدر أن إيطاليا قد استوردت من هذه المواد ما يكفيها زمناً، أو أنها ستظفر على أي حال باستيراد البترول من إحدى الدول التي لا توافق على حظره، فتفكر في وسيلة أخرى هي حظر نقل البترول إلى إيطاليا على سفن الدول المشتركة في توقيع العقوبات، وهذه الدول محدودة معروفة، وإيطاليا لا تملك من سفن نقل البترول ما يكفي لاستيراد ما تبغيه

فهذه وسائل جديدة مبتكرة في ميدان الكفاح الدولي؛ ولكنها لا تخلو من روح القديم أيضاً، بل لا تخلو من وسائله، فهي في الواقع نوع من الحصار السلمي العام، وهي تؤدي إلى نفس النتائج التي يؤدي إليها الحصار العسكري أو البحري، وكل ما هنالك أنه قد أسبغ عليها تأييد دولي عام يجعلها بعيدة عن صفة النضال الشخصي أو المباشر؛ ويقدم إلينا التاريخ الحديث مثلا من هذا الحصار العام الذي يراد به إذلال دولة أو سحقها بالوسائل الاقتصادية، وهو القرار الشهير الذي نابوليون في سنة 1806 والذي يعرف بقرار برلين نسبة إلى البلد الذي صدر فيه؛ فهذا القرار يقضي بوضع الجزائر

البريطانية في حالة حصار تام، وبأن تقطع فرنسا وجميع الأمم التابعة لها جميع علائقها الاقتصادية والمالية مع إنكلترا، وأن تقفل جميع الثغور الفرنسية وثغور الأمم التابعة لها في وجه السفن البريطانية؛ وكان نابوليون يرمي بتنظيم هذا الحصار الاقتصادي المطبق إلى سحق تجارة إنكلترا التي هي سر عظمتها وغناها بعد أن عجز عن مكافحتها بالوسائل العسكرية، ولكن إنكلترا أجابت على هذا الحصار بتنظيم المقاطعة التجارية والبحرية ضد فرنسا واتخاذ الإجراءات الانتقامية المماثلة؛ وقد عانت إنكلترا مدى حين آثار هذا الحصار المرهق، ولكن فرنسا عانت أيضاً من آثاره، ولم يوفق نابوليون إلى تحقيق غايته، إذ كانت سياسته قائمة على الغايات والاعتبارات الشخصية، ولم تفز بنوع من التأييد الدولي العام؛ ومن الواضح أن العقوبات الاقتصادية التي توقعها الآن عصبة الأمم على إيطاليا تقوم على فكرة مماثلة في القصد إلى إضعاف الدول المعتدية (إيطاليا) وإخضاعها بالوسائل الاقتصادية، وهي وسائل فعالة في عصرنا، ولكن الفرق بين قرار برلين، وقرار عصبة الأمم أن قرار العصبة يفوز بما يشبه الإجماع الدولي، وبذلك يتخذ طابعاً دولياً عاماً بدلاً من أن يتخذ طابع الكفاح الشخصي بين دولتين، ويغدو أثره أشد وقعاً وفعلاً.

أما وسائل الكفاح السياسي الذي يضطرم اليوم في أوربا، والذي يراد أن يمهد به للصراع الحربي المقبل، فما زالت تقوم على نفس الأسس التي عرفتها أوربا منذ قرون. وقد مرت عقب انتهاء الحرب الكبرى فترة لاح للعالم فيها أن وسائل الكفاح الدولي القديمة قد عفت، وأن العالم سوف يستقبل عهداً جديداً من الوئام والتفاهم الدولي، وأن المنازعات الدولية يمكن أن تسوى بالوسائل السلمية مثل التحكيم أو الالتجاء لمحكمة دولية عليا؛ وكان للعالم عذره في هذا الاعتقاد وهو يرى عصبة الأمم ومثلها العليا، ومواثيق السلام وعدم الاعتداء يتوالى عقدها منذ ميثاق لوكارنو، ثم يرى ميثاقاً يعقد بتحريم الحرب ونبذها كأداة للسياسة القومية وتنضم إليه أسرة الدول الكبرى كلها؛ ولكن سرعان ما تبدد هذا الحلم، وارتفع الطلاء الخلب الذي كان يغشى هذه المظاهر والدعاوى، وبدت السياسة الدولية في ثوبها الحقيقي القديم، قائمة على نفس الأسس القديمة التي تدفع أوربا ما بين آونة وأخرى إلى معترك الحروب القومية الكبرى.

أما هذه الأسس التي يقوم عليها معترك السياسة الدولية اليوم، فهي اعتبارات السياسة والخصومات والمطامع القومية القديمة، والتوازن الأوربي القديم، الذي يقسم القارة إلى كتل سياسية وعسكرية متشادة متكافئة، لا تكاد تهم إحداها بالتفوق حتى تناهضها أخرى أقوى وأكثر تحفزاً؛ وقد كانت السياسة القومية القديمة تلعب دورها من وراء الستار دائماً حتى إبان ازدهار الدعوة إلى السلام والتفاهم الدولي، أما اليوم وقد اضمحلت هذه الدعوة وانهارت المواثيق السلمية التي عقدت باسمها وفي ظلها، فإن السياسة القومية تسيطر في ميدان النضال بصورة ظاهرة غير منكورة؛ وأوربا القديمة تتجاذبها اليوم عدة جباه سياسية وعسكرية خصيمة؛ وإذا كانت هذه الجباه قد تغيرت أوضاعها عما كانت عليه قبل الحرب الكبرى لتغير في الأوضاع السياسية والجغرافية التي ترتبت على الحرب، فإنها ما زالت تحتفظ في جوهرها بهيكلها القديم؛ فالخصومة الفرنسية الألمانية ما زالت محور التجاذب السياسي والعسكري في أوربا، وحول هذه الخصومة تجتمع القوى المختلفة، فروسيا الشيوعية لأنها تخشى ألمانيا الهتلرية تجنح اليوم إلى الجبهة الفرنسية، بعد أن كانت تجنح من قبل إلى الجبهة الألمانية؛ وفرنسا تحاول أن تستبقي إلى جانبها جميع حلفائها بالأمس؛ أعني بريطانيا العظمى وبلجيكا وإيطاليا؛ وهي تبذل في سبيل استبقاء صداقة إيطاليا جهودا واضحة، ولا ترى بأساً من أن تمالئها في مشروع اعتدائها على الحبشة لأنها تخشى إن هي سلكت سبيلاً آخر أن تلقي بإيطاليا في أحضان ألمانيا، وألمانيا رابضة متربصة تحاول أن تحدث هذه الثغرة في الجبهة الخصيمة؛ ثم إن فرنسا من جهة أخرى تبذل نفوذها في تسيير دول الاتفاق الصغير - يوجوسلافيا، ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا - نحو الغاية التي تعمل لها دائماً، وهي إحاطة ألمانيا بسياج قوي من الدول الخصيمة؛ والواقع إن ألمانيا ما زالت تشعر أنها بازاء هذه الحركة تقع في نوع من العزلة لسياسية والعسكرية يدفعها إلى البحث عن أنصار وحلفاء، وهي قد استطاعت أن تسلخ بولونيا من أحضان فرنسا، ولكن بولونيا ليست قوة كبرى يعتد بها؛

أما بريطانيا العظمى، فهي تشق سبيلها في هذا المعترك، إلى جانب فرنسا في الغالب، ولكن دون خصومة ظاهرة لألمانيا؛ وهي تخاصم اليوم إيطاليا من أجل المسألة الحبشية ومطامعها الاستعمارية في شرق أفريقيا، ولكنها تحاول أن تجتذب فرنسا إلى جانبها في هذه الخصومة، وقد استطاعت أن تحرز بعض النجاح في هذا السبيل.

والخلاصة إن المعترك الدولي في أوربا يقوم اليوم على نفس الأسس القديمة التي كان يقوم عليها قبل الحرب الكبرى: السياسة القومية، والتوازن الأوربي السياسي والعسكري؛ وإذا لم يكن هذا التوازن قد استقر الآن بصورة فعلية فإنه يسير في سبيل الاستقرار، ومتى تم هذا الاستقرار استطعنا أن نعين المعسكرات الخصيمة التي تشترك في الحرب الأوربية القادمة؛ وإذا قلنا الحرب الأوربية فإنما نعني الحرب العالمية، لأن التوازن الأوربي هو أساس التوازن العالمي؛ وليس في العالم بعد أوربا قوة يعتد بقوتها السياسية غير اليابان وأمريكا؛ فأما اليابان فإنها تتخذ لنفسها موقفا خاصا، ولا يمكن تصورها متحدة مع أي دولة أوربية في ميدان غير الشرق الأقصى، وأما أمريكا فإنه يصعب تصورها ملقية بنفسها في غمر المعركة الأوربية مرة أخرى، ومن المحقق أيضاً إن الذي يقود أوربا إلى ميادين الحرب أو السلام هي نفس الدول التي قادتها إلى الحرب الكبرى وهي ألمانيا وفرنسا وروسيا وبريطانيا العظمى وإيطاليا.

وهنالك عنصر لا يمكن إغفاله في تطور هذا المعترك، هو عنصر الدبلوماسية السرية؛ وقد بلغت الدبلوماسية السرية ذروتها قبيل الحرب الكبرى وفي خلالها، وكانت مبعث طائفة من المفاجآت والتطورات الخطيرة التي غيرت مصاير الحرب، ولم ينقطع هذا العنصر السري في الدبلوماسية الأوربية عن العمل في أي وقت، ولكنه هدأ قليلاً عقب الحرب، أمام اضطرام صيحات السلام والتفاهم الدولي؛ بيد إنه يستعيد الآن كل أهميته القديمة، وإذا لم يكن من المستطاع أن نتلمس آثاره الآن في المعترك الأوربي، فإنه بلا ريب سيحدث أثره في الوقت المناسب. وعلى أي حال فإن السياسة الصريحة لم تكن يوما عماد دول عسكرية استعمارية مثل فرنسا وإيطاليا وألمانيا وروسيا؛ وقد رأينا كيف لعبت المساعي السرية دورها في سلخ إيطاليا عن التحالف الثلاثي أثناء الحرب الكبرى فمثل هذه المساعي يبذل اليوم من جميع النواحي، وإيطاليا ما زالت تقف بين الخصمين القديمين - ألمانيا وفرنسا - في مفترق الطريق، ولا ريب أن المستقبل فياض بمختلف التطورات والمفاجآت

الاستعمار والتعليم

للأستاذ ساطع بك الحصري

مدير التعليم العام في وزارة المعارف العراقية

عندما طلب إلي نادي المعلمين إلقاء محاضرة عامة في هذه القاعة خطرت على بالي موضوعات عديدة، اخترت منها موضوع (الاستعمار والتعليم) ولما ذكرت هذا الموضوع في حديث لأحد أصدقائي اعترضني بقوله: (لم اخترت هذا الموضوع وقد تخلصنا من شبح الاستعمار؟) فقلت له حقاً لقد تخلصنا من الاستعمار ولكن بلادنا في اتصال ببلاد لا تزال تلعب فيها أيدي الاستعمار. ولا يسوغ لنا وهذه هي الحال أن نتغاضى عما يضمره الاستعمار من الكيد للأمم المستضعفة؛ زد على ذلك أن للاستعمار أساليب خداعة، فقد عرف المستعمرون كيف يدسون أساليبهم هذه تحت أستار جذابة قد تفوت المرء لأول مرة قبل أن ينفذ إلى دقائقها. وأخشى أن بعض هذه الأساليب قد يصل إلينا ويتسرب إلى أذهاننا وينخر في جسمنا من غير أن نشعر به وننتبه إلى منابعه. لذلك وجب علينا كأمة فتحت عينيها للحياة أن تهتم بهذه المباحث وتمعن في درسها.

لقد أخذ الأوربيون بعد الحرب العظمى يهتمون بسياسة التعليم تنفيذاً لأغراض الاستعمار. وقد عقدوا مؤتمرات عديدة - بعضها قومية وبعضها أممية - للمداولة في هذه الشؤون، وخليق بنا أن ندرس سياسة الاستعمار من حيث علاقتها بالتعليم، ولهذه الملاحظات جئت أتحدث إليكم هذا المساء عن (الاستعمار والتعليم).

تتعلمون أيها السادة أن كل نظام تعليمي يتكيف عادة بمطالب السياسة العامة، لذلك لا بد لنا ونحن نبحث هذا الموضوع أن نعرف أهداف الاستعمار لنصل إلى أهداف

السياسة التعليمية فيه. فلننظر ما هي غاية الاستعمار.
لقد اعتاد علماء الاجتماع أن يقسموا المستعمرات إلى ثلاثة أصناف أساسية من حيث الغايات المتوخاة من الاستعمار وهي: (1) مستعمرات الاتجار (2) مستعمرات الاستغلال (3) مستعمرات الاستيطان.
يبدأ المستعمرون عادة بالاستعمار التجاري، فيختارون ميناء أو نقطة جغرافية مهمة في بلاد ما، فيؤسسون فيها مستعمرة صغيرة يتخذونها مركزاً للاتجار، ومن هذا المركز يعقدون صلاتهم مع داخل البلاد، فيعملون بذلك على احتكار تجارتها، دون أن يستولوا على داخليتها. فغايتهم من هذه المستعمرة تنحصر في (الاتجار)، غير أنهم كثيراً ما لا يقفون عند هذا الحد بل يتغلغلون في داخلية البلاد، ويستولون على جميع منابع الثروة الموجودة فيها، وهم في هذا السبيل لا يكتفون بتأسيس ما تحتاج إليه التجارة من مؤسسات، بل يتوسعون في مؤسساتهم داخل البلاد ويستولون على كل ما يجب الاستيلاء عليه لاستغلال مرافقها. فالغاية الأصلية من مثل هذه المستعمرات تكون (الاستغلال).
غير أن بعض المستعمرين لا يكتفون بذلك أيضاً، فإنهم لا يقصرون حظهم على استغلال المرافق الاقتصادية والثروة، وإنما يرمون أحياناً إلى تركيز سياسة الاستيطان جاعلين من البلاد التي يستعمرونها وطناً جديداً لأبناء جلدتهم. وهذا أهم أنواع الاستعمار وأشدها خطراً.
وهذه الأنواع لا يختلف بعضها عن بعض اختلافاً كلياً لأن كثيراً ما يحول جشع المستعمرين البلاد التي يستعمرونها من شكل إلى شكل آخر من الأشكال الثلاثة التي ذكرناها.
إن أبرز الأمثلة على (مستعمرات الاتجار) هي المستعمرات التي أحدثها الأوربيون في سواحل الصين. أما أحسن الأمثلة على (مستعمرات الاستغلال) فهي الهند حيث تغلغل الإنكليز وكانت أغراضهم الأولية استنزاف المنافع الاقتصادية من تلك البلاد الغنية المترامية الأطراف. وأما أوضح النماذج لمستعمرات الاستيطان فنجده ماثلاً في كندا وأوستراليا حيث أتخذ المهاجرون من الإنكليز وغيرهم وطناً جديداً لهم فيها.
وقد يتطور الاستعمار في بعض المستعمرات من طور إلى آخر. مثل ذلك تحول الاستعمار في الهند من شكل الاتجار إلى شكل الاستغلال، وتطور الاستعمار في كندا وأوستراليا من الاستغلال إلى الاستيطان، ونجد بعض المستعمرات ينفذ الاستعمار فيها بشكلين في وقت واحد. فقد حل الفرنسيون الجزائر مستعمرين لاستغلالها، ثم ما لبثوا أن أخذوا يرمون إلى سياسة الاستيطان في بعض أقسام الجزائر كما هو واقع.
إن الغايات الثلاث التي ذكرناها هي الغايات الأساسية التي عملت عملها في تأسيس المستعمرات. غير إن المستعمرين أخذوا يتوخون من الاستعمار غايات أخرى لا تقل أهمية عنها. منها الغاية العسكرية، فبعض الدول تقصد من وراء استعمارها بلداً ما إيجاد قواعد ارتكاز وحركة لجيشها وأسطولها، وبعض الدول لا تكتفي بذلك بل تعمل على إيجاد جنود من أهل البلاد المستعمرة تضيفه إلى جيشها معززة به قواتها المحاربة، وقد تجللت هذه المطامع في الحرب الكبرى، إذ حاولت كل دولة من الدول الاستفادة إلى أقصى حد ممكن من مستعمراتها، فلم تكتف باستنزاف الثروة منها واستغلال خيراتها لمعيشة جنودها، بل عملت على أخذ أفراد من أهالي المستعمرات زادت بهم جيشها.
وإني لأذكر المارشال (ليوتي) الذي يعتبره الفرنسيون مؤسساً للإمبراطورية في أفريقية الشمالية، وقد أسهب هذا القائد الكبير في الخطبة التي ألقاها عند دخوله عضواً في الأكاديمية الفرنسية في وصف (فوائد المستعمرات للجيش) وأعترف بأن أبناء المستعمرات الذين جندوا في خلال الحرب العالمية قد وفروا على فرنسا بما (قدموه من تضحيات بأرواحهم ملايين من الأنفس الفرنسية
وزيادة على ذلك فقد بين المارشال ليوتي في خطبته أن فرنسا استفادت من مدرسة المستعمرات استفادة كبيرة من جهة (تكوين الضباط والقواد) أيضاً، لأن جل قوادها الذين بلغوا بها إلى النصر الأخير قد نشأوا في بيئة المستعمرات، وشب كبار رجالها

على المعيشة في البلاد المستعمرة فنشأوا خير نشأة لأن حياة المستعمرات تربي في المستعمر الناشئ القوة المعنوية التي هي دعامة من دعامات الجيش. فالقادة المستعمرون في بلاد الاستعمار يضطرون إلى التذرع بالحزم والتدرب على اتخاذ القرارات الآنية وهم بذلك يتكونون رجالاً أشداء في عقولهم وأخلاقهم.

إن الكتاب والمفكرين من رجال الاستعمار لا يقفون عند هذا الحد في تعداد فوائد المستعمرات، بل يسترسلون في شرح فوائدها المعنوية أيضاً، فيقولون إن المستعمرات لا تكون للدولة المستعمرة مناجم ثروة مادية فحسب، بل هي مباءة استغلال للقوة المعنوية أيضاً، إذ تجد هذه الأمم في المستعمرات مجالاً واسعاً للجد والنشاط والإقدام فيزدهر أملها المرجو في المستقبل. فإن الأمم القانعة بحدودها تعتاد التراخي والكسل، بينما تغير المستعمرات نفسية الأمة وتخلق فيها نشاطاً حياً وآمالاً جديدة، ويمكننا أن نشبه تأثير المستعمرات في نفسية الأمم بتأثير الأولاد في نفسية العائلات، فالولد ينشئ للعائلة أملاً للمستقبل ويحملها على العمل، وكذلك المستعمرة تقدم للأمم المستعمرة دافعا جديداً للحياة والكفاح.

بعد أن ألقينا هذه النظرة العامة عن غايات الاستعمار ومراسيها نستطيع أن ننتقل إلى بحث (سياسة التعليم) في الاستعمار.

إن هذه السياسة تتجلى في ثلاثة أنواع من المعاهد التعليمية

أولا - المعاهد التي يؤسسها المستعمر في وطنه الأصلي لخدمة الاستعمار.

ثانيا - المعاهد التي يؤسسها المستعمر في المستعمرات لتربية أبنائه.

ثالثا - المعاهد التي يؤسسها في المستعمرات لتربية أولاد الأهلين في القطر المستعمَر.

فالنوع الأول من المعاهد التعليمية الاستعمارية سيبقى خارجاً عن نطاق بحثنا هذا، أما النوع الثاني من المعاهد التعليمية التي ينشئها المستعمر في المستعمرات لتربية أولاده فهي أيضاً لا تستدعي اهتمامنا كثيراً لأنها تشبه بوجه عام المعاهد التعليمية التي تنشأ في الوطن الأصلي ولا تختلف عنها إلا من حيث زيادة بعض الدروس لإعداد أولاد المستعمرين للقيام بأعمال استعمارية.

والمهم أن ندقق في النظم التي يرسمها المستعمر لتعليم أولاد الأهلين في المستعمرات وأن نستعرض السياسات المختلفة التي ابتدعت في ذلك. إن أقدم هذه السياسات كانت السياسة السلبية في التعليم، وهي تتلخص في عدم تعليم أحد من أبناء الأهلين، وقد ترمي إلى بذل الجهد في محو المتعلمين، وهذه سياسة تجلت بوضوح تام في أوائل القرن التاسع عشر في أمريكا.

ففي أمريكا الجنوبية عندما ثار الأهلون على المستعمرين الأسبانيين كتب القائد العام إلى مليكه يبشره بانتصار جيشه في إحدى المعارك، وكان مما قال في تلك الرسالة التاريخية: (إنه عامل المتعلمين من أبناء البلاد معاملة العصاة وقضى عليهم قضاء ومحاهم محواً، وإنه استأصل بهذه الصورة فكرة التمرد والعصيان من جذورها استئصالاً تاماً). وحتى في أمريكا الشمالية مثلا كان يحظر في الولايات المتحدة الأمريكية تعليم الزنوج القراءة والكتابة؛ وكان كل أبيض يعلم زنجياً يعاقب بالحبس والجلد. وعلى هذا المنوال كانت سياسة الاستعمار في التعليم بادئ ذي بدء في موقف عدائي مطلق تسعى إلى عدم التعليم، وتعمل على محو المتعلمين.

غير إن سياسة الاستعمار لم تستطع الاستمرار على هذه الخطة السلبية ولاسيما في المستعمرات الاستغلالية، لأن المستعمرين وجدوا أنفسهم في تلك المستعمرات في حاجة شديدة إلى الاستعانة بأهل البلاد لاستغلال المرافق الاقتصادية والثروات الطبيعية، وشعروا بضرورة تعليمهم لإعدادهم لتلك الأعمال، ولذلك أخذوا يؤسسون معاهد التعليم في المستعمرات؛ وكان العامل الأساسي لتأسيس هذه المعاهد تخريج طائفة من أهالي المستعمرات يخدمون المستعمر في مصالح الحكومة والشركات؛ وفي المشروعات المختلفة التي تتطلبها مقاصد الاستغلال والاستعمار، هذا من جهة، ومن الجهة الأخرى فكر بعض المستعمرين في مسألة التعليم تفكيراً آخر فذهبوا إلى إنه يجب أن يرافق الفتح السياسي فتح معنوي، بحيث يقترب أهالي المستعمرات من

المستعمرين إلى أن يندمجوا فيهم اندماجاً، وقد فكروا في سبيل تحقيق هذا الغرض أولاً بنشر لغة المستعمر، وثانياً بتعليم أهالي المستعمرات تعليماً ينشئ في نفوسهم حب المستعمر فيستسلمون له عن طواعية.

وقد برز النوع الأول من سياسة الاستعمار أكثر وضوحاً في الهند في ظل الاستعمار الإنكليزي، كما تجلى النوع الثاني في الجزائر بالاستعمار الفرنسي.

وكان الفرنسيون يأملون من سياستهم هذه تقريب المستعمرين إليهم، وظنوا أنهم بنشرهم لغتهم بينهم وإشرابهم ثقافتهم يغرسون حبهم في قلوب الأهلين، لذلك جعلوا للغة الفرنسية محوراً لكل درس في مناهجهم، وقالوا بصراحة إن المدرسة يجب أن تكون قبل كل شيء معهداً لتعليم اللغة الفرنسية، وكذلك اهتموا بمناهج الأخلاق في المدارس لتعليم أولاد المستعمرات كل ما يحبب الأهلين في الفرنسيين، فنجد في مناهج الأخلاق في مدارس الجزائر مثلا قسماً خاصاً في واجبات الأهلين نحو فرنسا، يشغل حيزا مهماً بين الواجبات الأساسية كالواجبات نحو الله، والواجبات نحو الناس. ومما جاء في هذا المنهج (ما يترتب على أهل الجزائر من الواجبات نحو فرنسا، مقابل الحماية التي تسديها إليهم والعدل الذي أدخلته إلى بلادهم، والأمن الذي نشرته في ربوعهم، ونعم التعليم والحضارة التي أغدقتها عليهم. . . الاحترام الذي يجب أن يشعروا به نحو من يدير البلاد باسم فرنسا، والاحترام الذي يجب أن يظهروه نحو العلم الفرنسي)

وهكذا نجد الاستعمار بعد أن ترك السياسة السلبية في التعليم التي وصفناها سلك طريقاً آخر يمكننا أن نسميه: (التعليم لتسهيل عمل الاستعمار)

على إن التجارب القاسية لقصر التعليم على خدمة الاستعمار وحده قد أسفرت عن نتائج سيئة إذ ما عتمت أن أحدثت رد فعل عند أولاد المستعمرات فقد تغيرت أحوالهم بعد مدة قليلة أو كثيرة من تخرجهم من المدارس، وبدلاً من أن يكونوا مطبوعين على حب المستعمر يتفانون في سبيل خدمته وفق الثمرة التي كانت مرجوة من التعليم الاستعماري، أصبحوا على نقيض ذلك يكرهونه ويكافحونه. فأسقط في أيدي المستعمرين وطفق ساستهم وعلماؤهم يفكرون في الموضوع ويدرسونه فيجدون أنفسهم كلما أمضوا في تعليم أولاد المستعمرات بطرائق تضمن محبة الأهلين لهم، تذهب الجهود سدى، إذ لا يلبث أكثر هؤلاء الأولاد بعد تخرجهم أن يقلبوا للمستعمر ظهر المجن، ففكر علماء المستعمرين في هذه المعضلة فوجدوا أن هذه نتيجة طبيعية، لأن ابن المستعمرات إذا ما قرأ تاريخ الأمة المستعمرة ودرس الثورات وقف على مطالب الشعب من الحكومة يتحمس بهذا الحس برغم أنف المستعمر فيشب راغباً في تطبيق ما درسه. وهكذا تطورت آراء المستعمرين في سياسة التعليم ووقعوا في حيرة مربكة لا يدرون ماذا يفعلون.

هل يركنون في المستعمرات إلى عدم التعليم؟ ولكنهم يعلمون إن عدم التعليم لا يمكنهم من استغلال البلاد المستعمرة، إذ يجبر المستعمر في تلك الحالة على ممارسة الاستغلال في المستعمرات بقواه الذاتية فيضطر إلى الإتيان بالعمال من وطنه الأصلي وهو لا يجد في أمته العدد الكافي منهم، وإذا وُجد فاستقدامهم إلى المستعمرات وتشغيلهم فيها يكلفه كثيراً فيغدو المنتوج الاقتصادي أغلى سعراً بحيث لا يستطيع أن ينافس منتوجات غيره في الأسواق العالمية، ومن ناحية أخرى لا يمكن أن يكون العامل مفيداً في أي عمل ما لم يكن قد أخذ بنصيب من التعليم في عصر الصناعة الذي نعيش فيه.

وقد ظل المستعمرون في حيرة من هذه المشكلة: التعليم في المستعمرات يؤدي إلى ثورة الأهلين عليهم، وعدم التعليم في المستعمرات يعيقهم عن الاستغلال! ففكروا كثيراً وأخيراً وجدوا ضالتهم بطريقة مبتكرة في سياسة التعليم وهي: (التعليم بغير تثقيف). فقالوا نعلم أولاد المستعمرات من غير أن نثقفهم. نعلمهم تعليماً ضيقاً جداً يجعلهم آلات صماء في أيدي الاستعمار. وقد بذلت الدول المستعمرة جهودها في وضع نظام للتعليم على هذا الأساس، بجعل التعليم وسيلة ميكانيكية بحتاً إذ يكون لغايات محدودة معينة بدون أن يدخل على هذا التعليم أي عنصر من عناصر الثقافة العامة. وقد تفننوا في إيجاد هذه الأساليب وابتكار طريقة خبيثة لتدريب أبناء المستعمرات على أن يكونوا مسامير في

صفحة خشبية، أو عجلات في آلة ميكانيكية، محرومين من أي لون من ألوان الثقافة العامة
وهكذا اتفقت سياسة الاستعمار التعليمية على وجوب الأخذ بالتعليم بدون تثقيف، وهذا آخر ما وصلوا إليه لحل معضلة التعليم في المستعمرات. وقد بدأ المستعمرون من يوم تفتحت قرائحهم بهذا الابتكار يجاهدون في تحقيق غاياتهم، وقد أرادوا أن يموهوا على الناس ويستروا مقاصدهم المعلومة تحت أستار حيل مختلفة، فقالوا بأن هذا النوع من التعليم الابتدائي والعملي هو الذي يفيد أولاد المستعمرات أنفسهم؛ وادعوا بأن التعليم الثانوي والعالي وكل نوع من أنواع التعليم الأوربي بغير الأهلين؛ وقد بذلوا جهوداً عظيمة ليقنعوا الأهلين بذلك، وقاموا بدعايات كثيرة نشروها لبث هذه الفكرة وتوجيه الأمم المستعمرة إلى هذا الضرب من التعليم
مع هذا جابه المستعمرون مشاكل كبيرة: جوبهوا بحقيقة مرة وهي تعذر السيطرة التامة على التعليم في المستعمرات، إذ في وسع ابن المستعمرات الذي يرغب في التعليم ولا يجد في بلاده العلم الذي يريده أن يقصد إلى بلد آخر في طلب العلم ويجدر بنا أن نذكر في هذا الصدد المناقشات التي جرت في إيطاليا لمعالجة مسألة التعليم في طرابلس الغرب، فعندما أقدموا على إلغاء المدارس الثانوية والعالية والدينية قال أحد رجال التربية في روما خلال مناقشة لهذا الموضوع: إنني لا أوافق على إلغاء هذه المدارس، إذ يجب أن نعلم أننا إذا ألغينا هذه المدارس لا نستطيع أن نمنع الذين يريدون الذهاب من أبناء طرابلس الغرب إلى الجامعة الزيتونية في تونس أو الجامع الأزهر في مصر، وهؤلاء الشبان يحتكون هناك بشبان من أمم مختلفة ويتلقون ثقافات واردة من أنحاء العالم ويرجعون بأفكار أشد وبالاً على سياستنا الاستعمارية. فخير من إلغاء هذه المدارس إذا أن نحدد التعليم في داخل طرابلس الغرب لنؤسس مدرسة عالية نحدد تعليمها ونجعل النشء مرتبطين بها فلا يضطرون إلى السفر إلى الخارج في طلب العلم ويعودون إلى
بلادهم وقد تسممت أفكارهم كما قلت.
إن الخطط التي وضعها المستعمرون في هذا الباب مختلفة باعتبار المشاكل العديدة التي يريدون حسمها فيعمدون لتحقيق كل مأرب من مآربهم بخطة منها. ومما يلفت النظر انتباههم إلى أمر انتقال الطلاب من أبناء المستعمرات من بلد إلى آخر حيث يقتبسون آراء جديدة ويستفهمون نزعات حديثة، لذلك عمدوا إلى تدابير يقدرون من ورائها فصل الأقطار عن بعضها لجعلها مختلفة اللغة.
فقد أخذ الفرنسيون في المغرب يفرقون بين البربر والعرب وغيرهم بحرمان البربر من تعلم اللغة العربية حتى يجعلوهم بعيدين عن التأثر بالمدارس التي تدرس العربية أو ما يكتب بهذه اللغة في الأقطار الأخرى.
وهناك فكرة أحيت بعض الأمل في نفوس المستعمرين وهي السعي لنشر اللغة العامية، وهذه الوسيلة تباعد بين الأقطار العربية وتسهل على المستعمرين أغراضهم. وقد بثوا لهذه الفكرة دعايات منوعة: دعايات بدأها المستعمرون فانطلت مع الأسف على بعض أبناء البلاد المستعمرة إذ أن بعضهم خدعوا بها وروجوا لها، وقد طلا المستعمرون هذه المكيدة تحت عنوان نشر التعليم بين طبقات الشعب وقالوا (ما دام الجمهور في الأقطار العربية لا يعرف اللغة الفصحى غالباً، فيجب تعليمه بلغته المحلية العامية. ولماذا نضيع عليه الوقت في تعليم الفصحى وقواعدها الكثيرة وأساليبها العويصة؟) وقد وجدت هذه الفكرة بعض الأنصار ولا يزال لها مؤيدون في بعض الأقطار العربية مع إنها وليدة الاستعمار!
ومن حسن حظ الأمة العربية أن هذه الفكرة لم تعمر كثيراً في حينها. مع هذا نجد بعض الأوربيين قد أخذوا يعودون إلى هذه الفكرة وصاروا يعتقدون بأن السينما الناطقة والراديو من المسائل التي ستجبر البلاد العربية على أن تفسح مجالاً أوسع للغة العامية لأن التمثيل والكلام باللغة العامية يرضي الدهماء أكثر من الفصحى؛ فيجب علينا نحن أن ننتبه إلى هذا الخطر الأخير خطر انتشار اللغة العامية كما يشتهيه المستعمرون، وهذا الخطر الذي يتمثل أمامنا ربما كان خطراً كبيراً لأن الموضوع يخالطه شيء كثير من المنفعة المادية: لأن التمثيل بالغة العامية يكسب الممثلين أكبر

عدد من النظارة، ولا ريب في أن على كل مفكر عربي أن يحارب هذا السلاح الأخير الذي يرجو منه المستعمرون خيراً عظيماً لمقاصدهم
على حساب الضرر البليغ بالبلاد العربية.

قصة المكروب كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكي وكيل كلية العلوم

بستور والكلب المسعور

وصل الفائت

أكتشف بستور لقاحاً يحصن الشياه من داء الجمرة، وذلك بإضعاف مكروبها ثم حقنه في الشياه، فتقوى بعد ذلك على مقاومة الداء. ونجح اللقاح واهتزت الدنيا له. وبعد زمن أخذت ألقحة بستور تقتل بعض الشياه بدل تحصينها وكثرت الشكوى. فألقى بستور محاضرة في اللقاح ولم يذكر تلك الشكاوي، وتحدى كوخ وكان حاضراً إلى الحجاج فقام وقال إنه يجيبه بالقلم لا باللسان.

ولم يمض زمن طويل على هذا حتى جاء كوخ بجوابه الموعود، فكان جواباً بين الجد والهزل، شديداً فظيعاً؛ بدأ كوخ بقوله إنه أتى من بعض وكلاء بستور بشيء من هذه المادة الثمينة الغالية التي يقال لها لقاح الجمرة، ثم استطرد يسلقه بلسان سليط: أحقاً قال بستور إن اللقاح الأول يقتل الفئران ويعفي الخنازير الغينية! إذن لقد قام كوخ بتجربته فوجده لا يقتل حتى الفئران. وبعض عينات غريبة منه قتلت الشياه!

وهل حقاً قال بستور أن لقاحه الثاني يقتل الخنازير الغينية ويعفي الأرانب؟ إذن لقد قام كوخ بتجربة هذا اللقاح أيضاً في دقة وعناية فوجده يقتل الأرانب، ويقتلها في الأغلب قتلاً سريعاً. ووجد أنه يقتل الشياه أحياناً، تلك الشياه التي أراد بستور من هذا كله أن يحصنها من الموت.

ثم أحقاً يعتقد بستور إن هذه اللقاحات لقاحات من مكروب الجمرة، ومن مكروب الجمرة وحده؟ إذن فقد قام كوخ على حذر بامتحانها، فوجدها تعج بمختلف الأحياء، فمن كل كُرَيّة ومن كل عصية دخلت إليها دخول الضيف الثقيل لا أهلاً به ولا سهلاً وأخيرا، أحقاً إن بستور يتحرق تحرقاً إلى كشف الحقيقة خالصة؟ إذن فلم لم يخبر الناس بجميع النتائج التي جاءت من لقاحه بعد أن شاع استخدامه وذاع؟ لِمَ لَمْ يخبرهم بالحالات الفاشلة الخائبة كما أخبرهم بالحالات الناجحة الصائبة؟

ثم ختم جوابه بقاصمة الظهر، قال: (إن هذا مسلك قد يستساغ في الدعاية لبيت من بيوت التجارة، أما العلم فيجب أن يقيئه قيئاً)

فأجاب بستور على هذا النقد بنشرة تضمنت حجاجاً غريباً لا يجوز حتى على محكّمين في مناظرة بقرية في الريف. استكبر على كوخ أن يدعي أن ألقحته تحوي أخلاطاً من مكروبات. قال: (لقد كانت صناعتي من قديم فصل المكروب وتربيته خالصاً من كل شائبة. صناعة اصطنعتها عشرين عاماً قبل ميلاد كوخ في عالم العلم سنة 1876، فدعواه أني لا أعرف كيف أربي المكروب نقياً لا يمكن أن تكون إلا هزلاً وهذراً)

وأبت الأمة الفرنسية بوطنية صادقة أن تؤمن بأن كوخ استطاع أن يزحزح بطلها العظيم عن عرشه العالي، وأن يبطل ربابته للعلم، وشرك صغراء الأمة في ذلك كبراؤها، وعلى كل حال فما كان ينتظر الناس من ألماني غير هذا؟! وما أسرع ما انتخبوا بستور عضواً في المجمع الفرنسي فمنحوه كبرى المنح التي يطمع فرنسي فيها، وفي يوم جلوسه بين أعضاء المجمع الأربعين الذين يسمونهم بالخالدين قام ارنست رينان بالترحيب به، وهو العبقري الزنديق الذي جعل من يسوع الرب بشراً رجلاً غفر كل شيء لأنه فقه كل شيء؛ عرف رينان أن بستور لو كان ستر الحق لما ذهب هذا بكل فضله، ولم يكن رينان عالماً، ولكن كان له من الحكمة والفطنة ما يدرك به أن بستور أتى بشيء فخم عظيم لما أثبت أن الجراثيم الضعيفة تمنّع الأجسام فلا تنالها الجراثيم القوية، حتى ولو لم تبلغ هذه المناعة مائة في المائة

التقى هذان الرجلان في هذا اليوم المهيب، فالتقى منهما نقيضان: بستور المغامر المحارب الوثاب المليء بشتيت من عقائد هوشت عليه أحياناً وجه الحق، ورينان في ضخامته كالجبل يخاطبه جالساً من علٍ بنفس ساكنة مطمئنة لا تهزها الرياح الهوج، وكيف يهتز جسمه لشيء أو تتحرك نفسه لأمر، وهو قد بلغ به الشك أن أرتاب في وجود نفسه، وارتاب في قِيَم الأعمال فلم يقم لعمل فصيره طول القعود من أسمن

رجال فرنسا.
رحب رينان ببستور إلى المجتمع فأسماه عبقرياً، وقرن أسمه بأسماء أكبر من عرف من العباقرة، ثم عرج يُقرّع صياد المكروب الشيخ المشلول المضطرب تقريعاً خافتاً خافياً، قال: (إن الحقيقة يا سيدي كالمرأة الغَنِجَة اللعوب، لا تملك بالعاطفة الكثيرة تُبذل لها،
وكثيراً ما تأتيك منصاعة بإعراضك عنها. وقد تسلم إليك قيادها فتظن أنك ملكتها فإذا بها تُفلت من قبضتك، فإذا أنت اصطبرت عليها عادت فوضعت عنقها في يدك. ولا يمنعها وداع وما سقط فيه من دموع أن تعود إلى الظهور، ولكنك إذا أحببتها فغلوت لم يكن لك منها غير البين والقطيعة)
لا أظن أن رينان، وهو الحكيم، خال أن كلماته الجميلات هذه سيكون لها أثراً ولو قليلاً في إصلاح المعوجّ من بستور، ولكنها كلمات ترينا في اختصار علة ما لاقى بستور في حياته من فواجع، وهي تعلمنا ما يجر الرجل المجنون على نفسه من المآسي والأحزان إذ هو خال أنه يستطيع قلب العالم في السبعين عاماً التي أذن الله له أن يحياها
- 7 -
بعدئذ أخذ بستور بضع أنابيب من الزجاج في حلوق الكلاب وهي تتلوى وتتضور من داء الكلَب. وكيف استطاع أن يضع هذه الأنابيب في هذه الحلوق لهذه الضاريات؟ لا يعلم هذا غير الله. هذان خادمان قائمان على فكي كلب قوي عصيّ يفتحان فاه كَرْهاً واغتصاباً. وهذا بستور قائماً في وجه هذا الكلب تكاد لحيته تمس هذه الأنياب وفيها الموت المرير. وهذا هو يمص في أنبوبته من حلق الكلب بعض رغائه، ليأتي منه بعينة يبحث فيها عن مكروب الداء. وأحياناً يناله الرشاش من هذا الرغاء فلا يأبه له وقد جاز أن يكون فيه القضاء
أريد الآن أن أنسى ما قلته عن حب بستور للدعاية، فتصوري عينيه الزرقاوين وهما تحدقان في حلق هذا الكلب الهائج المسعور لا يتفق مع هذه الذكرى
ليت شعري ما الذي وجه بستور إلى صيد مكروب الكلَب؟ لقد كان في الوجود عشرات من الأدواء يجهلها العلماء، أدواء قتلت من الناس أضعاف ما قتل داء الكلَب، ولم يكن بها من الخطر على بحّاثة مغامر مثل الذي كان بهذا الداء اللعين الذي لا ينجو صاحبه أبداً، فما هو إلا أن ينفك الكلب من قيده فتقع الواقعة التي لا مردّ لها يترجّح عندي أن شاعريته، والفن الخفي في نفسه، هما اللذان دفعاه إلى اختيار هذا الداء على الأدواء جميعاً. قال بستور: (لطال ما ساورتني صرخات ضحايا هذا الذئب المجنون الذي كان يهبط على الناس في شوارع اربوا لما كنت طفلاً. . .). عرف بستور من صباه
كيف كانت دماء الناس تبرد لصوت كلب مسعور. وكر أنه قبل مائة عام أو دونها كان الفرنسيون يشتبهون في الرجل يحسبونه مصاباً بالكلب فيُذعرون فيقومون عليه فيَسُمونه أو يخنقونه أو يطلقون عليه الرصاص. وشاع هذا حتى سنت القوانين لحماية هؤلاء المساكين. ذكر بستور كل هذا فاعتزم أن يعيد في الناس السلام، ويمنع عنهم هذه الآلام والآثام
بدأ بستور هذا البحث الذي انتهى بأن كان أبدع أبحاثه وأصدقها، فإذا به يبدؤه على عادته بالأخطاء. جاء إلى طفل يموت من داء الكلب فأخذ بعض ريقه وامتحنه فوجد فيه جرثومة غريبة ساكنة فأسماها اسماً لا يتصل بالعلم كثيراً، أسماها (مكروبة الثمانية)، وما أسرع ما حاضر أعضاء الأكاديمية وأشار إلى هذه المكروبة بأن لها صلة بالسبب الخافي لداء الكلب، واستقر على هذا الرأي، واستمر يجري في اطمئنان وراء هذا المكروب، ولكنه لم يلبث غير قليل حتى اتضح له أنه إنما جرى وراء برق خُلّب. فإنه بمعونة عونيه وجد هذا المكروب في أفواه أناس أصحاء كثيرين لم يقتربوا من كلب مكلوب أبداً
على أن هذا الضلال لم يدم طويلاً حتى حملت بستور قدماه إلى الطريق الهادي إلى مخابئ هذه الأحياء، قال لنفسه: (لقد قلّت الكلاب المسعورة في هذه الأيام، والشيخ البيطار بوريل لا يبعث الآن لي منها إلا عدداً يسيراً، والمكلوبون من الناس أشد ندرة من الكلاب؛ فلا بد لنا من إحداث داء الكلب في حيوانات في معاملنا كي نستطيع دراسته في تواصل واستمرار)

وكان بستور فات الستين وكان مُتعباً مجهوداً.
وذات يوماً جاءوا إلى المعمل بكلب سعران اصطادوه بالوهق ضربوه في عنقه ثم شدوا عليه، فأمرهم بستور فأدخلوه وهو ينذر بالشر إلى قفص به كلاب أخرى كي يعضها ويعطيها من الداء مثل الذي به، وجاء رو وشمبرلاند فأخذا من رُغاء فمه بعض الشيء ومصاه في محقن وحقنا به من الخنازير الغينية ومن الأرانب، واصطبرا ينتظران ظهور الداء فيها، فكان يظهر في بعضها أحياناً ويتخلف عن بعضها أحياناً أخرى فساءهما تخلفه، وعض الكلب المجنون أربعة من الكلاب، ومضت ستة أسابيع فإذا كلبان منها هائجان يضربان في جوانب القفص ويعويان، أما الآخران فمضت أشهر لم يظهر فيها عليهما من
الجنون شيء. أمر يحير الباحث ويغيظه، فهو دائماً ينتظر النتائج الواحدة تأتي من المقدمات الواحدة، وقد اتحدت المقدمات هنا فكيف اختلفت نتائجها؟ لقد ضاع اتساق العلم وانسجامه، لا في هذه الكلاب وحدها، بل في الخنازير والأرانب كذلك، فقد يصاب من الستة الأرانب المحقونة اثنان، يمدان برجليهما الخلفيتين إلى الوراء من الشلل، ثم يموتان بعد ارتجاجات من الصرع عنيفة، أما الأربعة الباقية فتظل قائمة تقضم الحشيش قضماً، فكأنما جرثومة الكلب لم تخلط دمها أبداً
وذات يوم خطرت فكرة على بستور، فأسرع إلى رو يحدثه بها، قال: (إن جرثومة الكلب تدخل أجسام الناس بالعض عن طريق الجلد، ثم هي تستقر بعد ذلك في أمخاخهم وقفار ظهورهم. . . إن كل الأعراض تدل على أن هذه الجراثيم التي لا نراها ولا نستطيع كشفها تغير دائماً على الجهاز العصبي. ففي هذا الجهاز العصبي إذن يجب أن نبحث عن هذه الجرثومة. .
ومن هذا الجهاز قد نستطيع تزريعها وتربيتها حتى ولو لم نرها. . . ولعلنا نستطيع أن نتخذ من مخ الحيوان طعاماً لها فننمّيها في جمجمته بدلاً من قبابة الحساء. أن نتخذ من الجمجمة والمخ قبابة وحساء أمر غريب، ولكن من يدري؟. . . ثم إننا اعتدنا أن نحقن الرُّغاء الخبيث تحت جلد هذه الأرانب والخنازير، فما أدرانا أن الجرثومات التي به لا تضيع في أجسام هذه الحيوانات قبل وصولها إلى أمخاخها، لوددت والله أن أرشق هذه الجراثيم مباشرة في هذه الأمخاخ رشقاً)
أنصت رو لهذه الأحلام، وانفتحت عيناه وسعهما ولمعتا لهذه الخيالات. . . لو أن رجلاً غير رو سمعها لظن بستور أصابه مس من جنون. يريد أن يتخذ من مخ الكلاب والأرانب بديلاً من الأحسية! ويريد أن يتخذ من جماجمها بديلا من القبابات! أي عبث هذا وأية خرافة تلك! أما رو فكان أفهم لبستور من أن يظن به خبالاً. قال: (وما منعك من وضع المكروب في مخ الكلب مباشرة يا سيدي الأستاذ؟ أنا أستطيع أن أثقب لك به ثقباً صغيراً لا يؤلم الكلب ولا يفسد مخه. وهذا أمر علي يسير. . .)
فصرخ بستور في وجه رو حتى أخرسه. ولم يكن بستور طبيباً، فلم يدر إن الطبيب يستطيع أن يفعل هذا حتى في الإنسان وهو آمن. لهذا أجزعته الفكرة جزعاً كبيراً. (ثقب
يخترق جمجمة الكلب إلى مخه! يا للفظاعة! والكلب كيف يكون ألمه؟ والمخ بعد هذا كيف يكون صلاحه، إن الكلب يشل حتما! لا، لا آذن بهذا؟)
حنان قلب بستور كاد يفقده أكبر كشف أتاه، ويضيّع عليه بل على الإنسان أثمن تحفة أهداها إياه. وأمام هذه التجربة القاسية الغريبة خارت من بستور قواه، ولكن رو، رو الأمين لسيده، رو الذي نسيه اليوم الناس أو كادوا، رو هذا قام يحمي سيده من خور نفسه، فنجاه بأن عصاه. ذلك أنه اصطبر أياماً قلائل حتى غادر بستور المعمل لبعض حاجته، وعندئذ قام إلى كلب سليم فشممه قليل من الكلوروفورم حتى أفقده الإحساس، ثم ثقب رأسه ثقباً كشف عن مخه الحي، فكان يدق بالنبض دقاً بيناً، ثم أتى بقليل من مخ كلب كان قد مات مكلوباً فسحقه وحقن سحيقه في مخ الكلب النائم برفق شديد وهو يقول لنفسه: (لا شك إن سحيق هذا المخ مليء بمكروب الكلَب، فلعله مكروب دقّ فلم يكن باستطاعتنا أن نراه)
وأصبح الصباح فأخبر بستور بالذي كان. فصاح بستور فيه: (ويلك ماذا صنعت بالكلب المسكين! أين المخلوق التعيس. . . لا شك إنه شل. . . لا شك أنه يموت. . .)
ولكن رو كان سبق فنزل بسرعة على السلم، وفي لحظة عاد والكلب ينط أمامه، وإذا

بالكلب يتمسح بساقي بستور، ثم يدور يتشمم بين قبابات الأحسية القديمة تحت مناضد المعمل. عندئذ أدرك بستور قدر رو ومبلغ ذكائه. وأدرك كذلك أن طريقاً جديداً للتجربة أنفتح أمامه. ولم يكن بستور يغرم بالكلاب، ومع هذا فإن اغتباطه بالذي سمع ورأى أغراه بملاعبة هذا الكلب خاصة. قال لسانه: (أهلا بكلبي العزيز! أهلا بسيد الكلاب). وقالت أحلامه: (إن هذا الكلب سيثبت أن فكرتي عن هذا الداء صائبة)

ولم يمض أسبوعان حتى تحققت أحلامه، فسيد الكلاب أخذ يعوي عواء أليماً حزيناً، وصار يمزق فراشه ويعض قفصه، ثم مات بعد أيام، نعم مات هذه الميتة القاسية، ولكنه ماتها ليحيا من بعده على نحو ما سنعلم ألوف من الناس كانت تموت مثل ميتته بهذه الطريقة اهتدى بستور ورو وشمبرلاند أخيراً إلى نقل هذا الداء إلى الحيوانات نقلا أكيداً؛ أعني إنهم إذا حقنوا المكروب في مائة كلب أو خنزير أو أرنب أصاب الداء المائة كلها، وكأني بك تستمع إلى بستور يقول لصاحبيه: (إنّا لا نستطيع أن نرى المكروب ولا بأقوى العدسات، فلا بد أن هذا يرجع إلى شدة صغره. ولسنا نعرف طريقة واحدة لتربيته

في الأحسية بالقبابات، ولكن في استطاعتنا أن نبقيه حياً في مخ الأرنب، فهذه هي الطريقة الوحيدة لحفظه ونمائه)

أوجِد أو يوجَد أعجب من هذه التجربة في كل الذي كان ويكون من صيادة المكروب، أو في أي علم آخر من العلوم! أم هل مارست تلك العلوم أمراً أبعد ما يكون عن المألوف فيها مثل الذي مارسه بستور وصاحباه: مكروبةٌ غير منظورة، كل الذي يعلمونه عن وجودها أنهم يستطيعون نقلها في الأمخاخ والحبال الفقرية في سلسلة طويلة من الأرانب والخنازير والكلاب، وكل برهانهم على كونها، وأن للكلب مكروباً هي مكروبته، موت تلك الأرانب المحقونة في تشنج وارتعاص، والعواء المزعج لتلك الكلاب التي أعملوا في رءوسها المثقاب

ثم أخذ بستور وأعوانه يحاولون أمراً عجباً لا يقول عاقل بإمكانه، ذلك تأنيس تلك المكروبة الفتاكة التي تُرى. وتعطّلوا في محاولتهم هذه بعض التعطل، فذهب رو وتوييه إلى مصر يدافعون مرض الكوليرا ومات توييه في سبيل ذلك على ما علمت، وذهب بستور إلى بعض زرائب الخنازير في الريف يبحث عن مكروب داء كان تفشى فيها ويطلب لها لقاحاً منه، ولم يطل هذا التعطل طويلاً. واجتنب بستور تلك المنازعات والحجاجات الوضيعة التي كانت تنتهي على الأغلب بذمه والنيل من اسمه وكرامته. وحبس نفسه مع عونيه والحيوانات الشلاّء الخطيرة في معملهم بشارع أُلْم وفي هذه الحبسة أتوا على عدد لا حصر له من التجارب

ووضع بستور رقباء على مساعِدَيه الشابين وأنزلهما المعمل على منضدتيهما فكنت تراهما مكبّين عليها صباح مساء كأنهما بعض الأرقّاء. وكان ينظر ما يصنعانه بإحدى عينيه، وينظر بالأخرى الباب الزجاجيّ للغرفة التي كانا يعملان فيها، فإذا هو رأى أحداً من أصحابهما جاء يدعوهما إلى كأس ببيرة في شُرفة مقهى قريب، أسرع فخرج إلى الدخيل فقال له: (لا، لا، ليس هذا وقته. ألا ترى أنهما مشتغلان؟ إنها تجربة في غاية الخطر ليس في الإمكان أن يقطعاها!)

ومضت على هذه الحال أشهر غبر حسبوا جميعاً عند ختامها أنه لا سبيل إلى إضعاف هذه الجرثومة التي لا ترى، فالمائة من الحيوانات التي يحقنونها بالمكروب بعد محاولة إضعافه

كانت تموت كلها، ومن ترى كان أقرب إلى اليأس في ختام هذه الأشهر؟ أضنك تقول الشيخ العجوز بستور، وأن عونيه الشابين، وقد ملأهما دم الشباب الحار، كانا أعصى من أن يثنيهما هذا الخذلان. إذن لقد أخطأت الحسبان يا سيدي، فالأمر كان على نقيض ذلك

(يتبع)

أحمد زكي

في ميدان الاجتهاد

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

- 2 -

كيف يعود الاجتهاد

ولا بد من عودة إلى ذكر نصوص أخرى فيما كان للسياسة من أثر في نصرة بعض هذه المذاهب على بعض، ولتلك المدارس وأوقافها من أثر في القضاء على الاجتهاد في نفوس العلماء؛ قال الشيخ أبو زرعة في شرح جمع الجوامع: قلت مرة لشيخنا البلقيني: ما يقصر بالشيخ تقي الدين بن السبكي عن رتبة الاجتهاد وقد استكمل الآلة؟ وكيف يقلد؟ ولم أذكره هو استحياء منه لما أريد أن أرتب على ذلك، فسكت عني، ثم قلت ما عندي أن الامتناع من ذلك إلا للوظائف التي قررت للفقهاء على المذاهب الأربعة، وأن من خرج عن ذلك واجتهد لم ينله شيء، وحرم ولاية القضاء، وامتنع الناس من استفتائه، ونسب إلى البدعة، فتبسم ووافقني على ذلك.

وقال الحافظ الذهبي في كتابه (بيان زغل العلم والطلب) عند الكلام على علم أصول الفقه: (أصول الفقه لا حاجة لك به يا مقلد، ويا من يزعم الاجتهاد قد انقطع وما بقي مجتهد، ولا فائدة في أصول الفقه إلا أن يصير محصله مجتهداً، فإذا عرفه ولم يفك تقليد إمامه لم يضع شيئاً، بل أتعب نفسه، وركب على نفسه الحجة في مسائل، وإن كان يقرؤه لتحصيل الوظائف وليقال، فهذا من الوبال، وهو ضرب من الخيال)

وجاء في نيل الابتهاج أن أهل الأندلس التزموا مذهب الاوزاعي حتى قدم عليهم الطبقة الأولى ممن لقي الإمام مالكاً، كزياد بن عبد الرحمن، والغازي بن قيس، وقرعوس ونحوهم، فنشروا مذهبه، وأخذ الأمير هشام الناس به، فالتزموه وحملوا عليه بالسيف إلا من لا يؤبه له

وجاء في نفح الطيب أن سبب حمل ملك الأندلس الناس على هذا المذهب في بعض الأقوال أن الإمام مالكاً سأل عن سيرته بعض الأندلسيين فذكروا له عنها ما أعجبه، فقال نسأل الله تعالى أن يزين حرمنا بملككم، أو كلاما هذا معناه، لأن سيرة بني العباس لم تكن

مرضية عنده، وقد لقي منهم ما لقي مما هو مشهور، فلما بلغ قوله ملك الأندلس مع ما علم من جلالة مالك ودينه، حمل الناس على مذهبه وترك مذهب الأوزاعي

والآن فللشرع في بيان الطريق إلى عود الاجتهاد، وإنه ليس هناك فرصة تنتهز لهذا أقرب من هذه الفرصة التي يتولى فيها أمر الأزهر شيخ من أنصار الاجتهاد، وهو الأستاذ الكبير محمد مصطفى المراغي، ولا ننكر أنه يحيط به هذه المرة عوامل من جهات كثيرة جعلته يصير إلى أمور لم يكن يصير إليها في المرة الأولى، وقد كان يأخذ بالإصلاح فيها غير متأثر بتلك العوامل، ومن هذه الأمور محاولة القضاء على العلوم الرياضية في الأقسام الثانوية بالمعاهد الدينية لتحشر حشرا في الأقسام الأولية، فلا يكون هناك فائدة من دراستها فيها، وكثير منها ليس في نفس طالب القسم الأول الاستعداد لدراسته. ويقال إن الغرض من هذا تفريغ طلاب الأقسام الثانوية لدراسة الكتب الأزهرية كما كانت تدرس قديماً في الأزهر، ولا شك أن ستتبع هذه الخطوة خطوة أخرى في القضاء على هذه العلوم في الأقسام الأولية لتفريغ طلابها أيضاً لدراسة الكتب الأزهرية على تلك الطريقة التي كانت تدرس بها، لأنه لا فرق عند علماء التربية بين هذين القسمين في حياة الطالب، وكلاهما في حياته طور ثقافة عامة لا طور تخصيص لناحية من النواحي العلمية، فما يجري عندنا على أحد القسمين لتلك العلة السابقة لا بد أن يجري على القسم الآخر من أجلها أيضاً، وهناك نعود كما كنا قبل أن نقطع في الإصلاح هذه الأشواط، ولا حول ولا قوة إلا بالله. وإنه إذا كانت العلوم الرياضية قد زاحمت حقاً العلوم الأزهرية في الأقسام الثانوية، فطريق ذلك أن تختصر دراسة هذه العلوم فيها، لا أن يقضى عليها فيها لتحشر حشراً في الأقسام الأولية

ومن هذه الأمور ما نحن الآن بسبيله من أمر الاجتهاد والعمل على فتح بابه، إذ يخطو الأستاذ المراغي في ذلك خطوة لا يرضاها منه أنصار الاجتهاد، ويجعل دستور (لجنة الفتاوى) التي ألفها من علماء المذاهب الأربعة على هذا النحو (أن تجيب الطالب على المذهب أو المذاهب التي يريد الإجابة على مقتضاها، فإذا لم يعين المستفتي مذهباً أجابته بحكم الله المؤيد بالأدلة من غير تقييد بمذهب من المذاهب الشرعية) فلست أدري معنى لهذا التفريق بين المستفتين، وقصر الإجابة بحكم الله على من يريده منهم، وإنه ليجب أن

تخضع لحكم الله مذاهب الفقهاء لا أن يخضع هو لها، فلا يجاب به المستفتى إلا إذا لم يطلب الفتوى على مذهب من مذاهب الفقهاء، فإذا طلب الفتوى عليها أفتى له بها ولو كان حكم الله المؤيد بالأدلة على خلافها، وأنّا لننزلها بهذا منزلة لم يردها لها أصحابها، ونجعل حكمها فوق حكم الله الذي كانوا يطلبونه فيها، وهم بشر يصيبون ويخطئون، ولم يدع العصمة أحد منهم في اجتهاده. وقد حكى ابن عبد البر عن معن بن عيسى بإسناد متصل به قال سمعت مالكاً يقول: إنما أنا بشر أخطئ وأصيبفانظروا في رأيي، فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه وحكى ابن القيم عن أبي حنيفة وأبي يوسف أنهما قالا: لا يحل لأحد يقول بقولنا حتى يعلم من أين قلناه. وذكر صاحب الهداية في كتابه (روضة العلماء) أنه قيل لأبي حنيفة: إذا قلت قولاً وكتاب الله يخالفه؟ قال اتركوا قولي بكتاب الله؛ فقيل إذا كان خبر الرسول يخالفه؟ قال اتركوا قولي بخبر الرسول صلى الله عليه وسلم، فقيل له: إذا كان قول الصحابي يخالفه؟ قال: اتركوا قولي بقول الصحابي

وروى البيهقي عن الشافعي أنه قال: إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقولوا بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوا ما قلت وذكر الشعراني في كتابه (الميزان) أن الأئمة كلهم قالوا: إذا صح الحديث فهو مذهبنا وليس لأحد قياس ولا حجة

فإذا ثبت لنا الآن حكم مؤيد بالأدلة فهو حكم الله الذي يقول به أبو حنيفة ومالك والشافعي وغيرهم، ولو كانت أقوالهم في حياتهم على خلافه، ولا شك أنا إذا أفتينا في ذلك على المذهب الذي يريد المستفتى الإجابة على مقتضاه نكون بذلك قد خالفنا حكم ذلك المذهب الذي جعل صاحبه حكم الله رائده، وتبرأ من قوله إذا صح حكم الله بخلافه؛ وقد كان من الواجب على الأقل أن يكون دستور هذه (اللجنة) ما ذكره الإمام الشوكاني، فإنه بعد أن ذكر أن المقلد لا يصلح للقضاء وأنه لا يحل له أن يفتي من يسأله عن حكم الله في أمر من الأمور قال: فإن قلت هل يجوز للمجتهد أن يفتي من سأله عن مذهب رجل معين وينقله له؟ قلت يجوز ذلك بشرط أن يقول بعد نقل ذلك الرأي أو المذهب إذا كانا على غير الصواب مقالا يصرح به أو يلوح ان الحق خلاف ذلك، فإن الله أخذ على العلماء البيان للناس، وهذا منه، لا سيما إذا كان يعرف أن السائل سيعتقد ذلك الرأي أو المذهب المخالف للصواب

ومن المهم في ذلك أن الإمام الشوكاني لم يبح للمفتي المقلد أن يفتي إلا من يسأله عن قول فلان أو رأي فلان، ولم يبح له أن يفتي من يسأله عن الله أو حكم رسوله أو عن الحق أو عن الثابت في الشريعة أو عما يحل له أو يحرم عليه، لأن المقلد لا يدري واحدا من هذه الأمور على التحقيق، بل لا يعرفها إلا المجتهد؛ وهكذا إن سأله السائل سؤالا مطلقا من غير أن يقيده بأحد الأمور المتقدمة، فلا يحل للمقلد أن يفتيه بشيء من ذلك لأن السؤال المطلق ينصرف إلى الشريعة المطهرة، لا إلى قول قائل أو رأي صاحب رأي. وهذه (اللجنة) قد ألفت من علماء المذاهب الأربعة، فهم مقلدون لا مجتهدون؛ وقد أبيح لهم أن يفتوا من لم يبين مذهبا في فتواه بحكم الله المؤيد بالأدلة، من غير تقيد بمذهب من المذاهب الشرعية ولا يمكن لهم أن يفتوا بهذا إلا إذا خلعوا عن أنفسهم صفة التقليد، وادعوا لأنفسهم صفة الاجتهاد. ولا شك أن أكثر هؤلاء الأعضاء إن لم يكونوا كلهم لا يدعون لأنفسهم هذه الصفة وإنه ليسرنا أن يدعوها لأنفسهم. ولكنه يحول دون ذلك قبولهم أن يفتوا بحكم المذاهب الفقهية من يسألهم عنها وألا يبينوا حكم الله إلا لمن لا يعين في فتواه مذهبا من هذه المذاهب، اللهم إلا أن يدعوا لأنفسهم الجمع بين الصفتين، ويكون هذا من غرائب دستور (لجنتهم) ولكننا نجل إخواننا من أعضاء (اللجنة) عن هذه الدعوى، ونعتقد أنهم سيعملون على إصلاح وجهتها، وصرفها إما إلى الاجتهاد الخالص أو التقليد الخالص، ليكونوا إما مجتهدين بحق وإما مقلدين

فتلك الخطوة التي خطاها الأستاذ المراغي إلى الاجتهاد خطوة ضئيلة جدا، ولا يصح أبداً أن تكون نتيجة لذلك الجهاد الطويل الذي قام به الداعون إلى الإصلاح وفتح باب الاجتهاد من عهد جمال الدين الأفغاني إلى الآن، وهي خطوة من السهل أن ينظر إليها أنصار التقليد إذا آل الأمر إليهم وكأنها لم تكن، ونحن نريد أن نفتح باب الاجتهاد فتحاً

صريحاً يكون في المستقبل حجة لأنصاره، وتكأة يعتمدون عليها، وحجة على أنصار التقليد يؤخذون بها، والفرصة الآن سانحة بالتفاف رجال الأزهر حول الأستاذ المراغي، واختيارهم له جميعاً على أنه رجل الإصلاح وخليفة الإمامين الصالحين: محمد عبده، وجمال الدين

فلنبادر من الآن بالدعوة إلى عقد مؤتمر يجمع علماء الدين الإسلامي في سائر البلاد الإسلامية على اختلاف مذاهبهم، من رجال المذاهب الأربعة، إلى رجال الشيعة الزيدية، إلى رجال الشيعة الإمامية، إلى رجال الأباضية الباقين من فرق الخوارج، إلى أنصار الاجتهاد الذين لا يأخذون بمذهب من هذه المذاهب ليكون فتح باب الاجتهاد في هذا المؤتمر أمراً حاسماً لا يمكن أن يجادل فيه بعد هذا أنصار التقليد، وينظم فيه أمر الاجتهاد تنظيما يفتتح بابه لأهله، ويغلقه دون من ليس أهلا له، ويخط له الطريق إلى معالجة المسائل المهمة التي أدت إلى جمود الفقه الإسلامي، وعدم تمشيه مع حاجة المسلمين، ويعلو به عما نشتغل به الآن من الخلاف في أمور لا أهمية لها، من قراءة سورة الكهف يوم الجمعة، والزيادة المعروفة في الآذان، وما إلى ذلك من الأمور التي نضيع وقتنا سدى في الخلاف فيها

ولقد أراني أبعدت في الأمل بعد أن سكنت من زمن بعيد إلى اليأس، ومضيت في سبيلي لا ألوى على أحد؛ على أني سأمضي في هذا السبيل الجديد بعد أن فتحت بابه على نفسي؛ وأنا امرؤ لا يعرف الإحجام، ولم يعود نفسه إلا الإقدام.

عبد المتعال الصعيدي

رسائل حاج

من ربوع الغرب إلى بلاد العرب - 3

للمستشرق المجري الدكتور عبد الكريم جرمانوس أستاذ التاريخ بجامعة بودابست

كنت لا أزال منزويا في مقدم الباخرة، حينما أسفرت أضواء الفجر الشاحبة عن هذه البقاع الإسلامية المقدسة، فإذا (بجدة) تسمو في السماء اللازوردية، بينما تترامى أمواج البحر على أقدامها، تشقه عشرات البواخر والزوارق في حركة متواصلة، يتصاعد منها صخب داوٍ اختلطت فيه كافة لغات الشرق، فأعادت إلى ذهني المكدود بابل بأسواقها وشعوبها، إلا إن المدينة الخالدة كانت تبدو فوق هذه الحياة اللاغطة، كأنما تسمو خلوداً فوق مظاهر مدنيتنا الحديثة الزائلة وقد برزت منها مآذن في دقة الحراب وقباب كانت شاحبة البياض قبل أن يدنسها دخان بواخر الغرب فكانت ترسو في ظلها المراكب الشراعية حاملة طوائف المسلمين من الهند وجاوة وسومطرا والصين وشواطئ أفريقيا

وأقترب الصباح فاستعد الركاب للنزول وبدءوا يستقلون الزوارق الخفيفة، وكان النساء يرتدين تلك الملابس البيضاء، سافرات الوجوه، لا يجرؤ أحد على أن يتطلع إليهن بنظرة، ومن ذا الذي في قلبه مرض فينظر إليهن في هذه الساعة الرهيبة نظرة اشتهاء؟ وفي الواقع إن الجاذبية الجنسية كانت منعدمة تماماً؟ وقد أبعد الحجاج عن خواطرهم شتى صور الحياة حتى لا يحول شيء بينهم وبين الوصول بقلوبهم إلى نور الله الواحد القهار

وكان على الشاطئ حشد من الحمالين والمطوفين ومراقبي جوازات السفر وفريق من موظفي الحكومة لجباية الضرائب وهم جميعاً يتكلمون لغات شتى. فما إن يهبط عليهم أحد الحجاج حتى يلتقطه المطوف ويقوده إلى الموظفين المختصين وبعد إتمام الإجراءات الرسمية يصحبه إلى المسكن المعد لإقامته

وجاء دوري، فلما سئلت أمام مراقب الجوازات تطلع إلى وسألني عن جنسيتي فأجبته: من بلاد المجر. . . عند ذلك أظهر ارتباكاً، إذ لم يسبق له أن سمع قبل اليوم ببلادنا؛ وأخيراً أسر إليّ بأن مسألتي من المسائل التي يبت الأمير فيها بنفسه. وأشار إلى أحد رجال الشرطة وأمره بأن يقودني إلى دار الأمير لأنه هو الذي بيده سلطة التصريح لي بالسفر

إلى مكة. وكانت دار الأمير تبعد عن الميناء مسافة لا تقل عن نصف ساعة سيراً على الأقدام. ولبيت الأمر فسرت مع ذلك الشرطي نتجاذب أطراف الحديث في طرق معبدة ملساء، غير أنه كان من سوء حظي أن أحد مسامير الخف الذي كنت أنتعله،

برز من موضعه ودخل في قدمي فأحدث لي ألماً شديداً ظل أثره أياماً طوالاً وما إن انتهت مقابلتي للأمير، وقد استغرقت نحو ساعة، حتى عدت إلى الباخرة، وكنت قد نسيت أني تركت أمتعتي في الزورق البخاري، ولقد كان أسفي لضياعها عظيماً، وكم عنفت نفسي لوقوعي في مثل هذا الإهمال الذي كانت نتيجته ضياع الأمتعة بما فيها الكتب! وكدت أقطع الأمل من العثور عليها، ولكن الله سلم، فإن النظام المحكم الذي يقوم به رجال الشرطة في الحكومة السعودية أتاح لي أن أعثر عليها بسهولة في إحدى قاعات الجمرك وعليها بطاقة باسمي. وبعد ساعة قادني المطوف إلى دار الأستاذ محمد ناصيف الذي كنت أحمل إليه كتاب توصية، وما كاد يتلوه حتى رحب بي على طريقة العرب في شوق وترحاب، وغمرني بكل صنوف الكرم التي لن أنساها؛ وتلك لعمري إحدى مفاخر الإسلام التي تتجلى عظمتها في كل مناحي الحياة والأستاذ محمد ناصيف فوق أنه من سراة الحجاز رجل مثقف ثقافة عربية ناضجة، وتضم داره مكتبة زاخرة لا يكاد الإنسانيرى مثيلها في بعض الأقطار الأوروبية أو الأسيوية، وله رفاق يلتفون حوله كأسراب الطيور، ليلتقطوا من حديثه الشهي الحكم البالغة والآيات البينات

تبعد جدة عن مكة بمسافة 79 كيلومترا، وتشبه مبانيها الاستحكامات العسكرية، ودورها مرتفعة ارتفاعاً شاهقاً، وهي مكونة من جملة أدوار، بينما تتوج جدة قباب المساجد المقدسة، واسمة إياها بذلك الطابع الفريد الذي يميزها دون سائر مدن العالم

ومن الغريب أن قناصل الدول والوزراء المفوضين يقيمون في جدة دون أن يتخطوها إلى داخل الأراضي المقدسة؛ ويستحضر رجال الهيئة السياسية طعامهم من الخارج، حتى الماء يجلبونه من مصر، لأن مياه جدة أجاجية غير صالحة للشرب

وتستقبل أسواق جدة عادة زبائن من كافة بقاع العالم، ولا يفتأ تجارها يستحضرون أنواعا من السلع لا تناسب بينها مطلقاً، بل هي خليط من أذواق مختلفة ومشارب متباينة وبعد أن

قضيت في ضيافة الأستاذ محمد ناصيف بضعة أيام صدرت الأوامر بالسماح لنا بالسفر إلى مكة. والواقع أن الفترة التي قضيتها في دار ذلك الشيخ الجليل دفعتني إلى الإيمان الشديد بأن الفوارق الجنسية لا أثر لها مطلقا في الإسلام، بعكس ما نشاهده في الحضارة الأوربية من الإشادة بالقوميات والعصبيات وغيرها من المشكلات الاجتماعية التي تثيرها روح التعصب الأعمى. وصادف أن رافقني في السيارة إلى مكة خمسة عشر زنجياً من أهالي الصومال، وكنا في خلال الطريق لا ننقطع أن نهتف: لبيك اللهم لبيك! وهنا يجدر بي أن أنوه للمرة الثانية بعظمة الإسلام التي تتجلى في عدم التفرقة بين الكبير والصغير والرئيس والمرءوس، فالكل سواسية؛ وقد شعرت بتلك الحقيقة وأنا بصحبة هؤلاء العبيد الفقراء، وقارنت بين ذلك وبين الفروق الشاسعة في أوربا الموجهة نحو احتقار العناصر الضعيفة والتفرقة ين الألوان

كانت السيارة تنطلق بنا في طريق ممهد لا يمله النظر في كل جزء من أجزائه، الطريق سلكه قبلنا ملوك وعظماء وأنبياء منذ مئات السنين، وكانت السيارة كلما مرت بقافلة من القوافل نظر الأعراب إلى تلك الآلة الجهنمية التي تنبعث منها أصوات منفرة وروائح كريهة، في شيء من الحنق والغيظ. فقد أصبح النقل اليوم في أكثر طرق الحجاز بالسيارات تمشياً مع مقتضيات الحضارة الحديثة، مع إن البدو كانوا يربحون الشيء الكثير من نقل الحجاج بالإبل، وكانت النقود التي تدفع إليهم تبقى في حوزتهم، أما السيارة فإن ثمنها وأثمان وقودها وقطع تغييرها تتسرب الآن إلى خارج البلاد، فلا عجب إذا نظر إليها البدو في شيء من الحنق ونقموا على من كانوا سبباً في إدخال تلك (الآلة الجهنمية) إلى الصحراء، وهم يقولون إن الإنسان يجب أن يركب في سبيل الحج أشد الأمور، فلا يخال نفسه ذاهباً إلى سياحة هادئة، ويتذرع بوسائل الراحة والرفاهية مما يلقاه في السيارة؛ وبمقارنة الإبل بالسيارة، نجد إن للأولى قوة احتمال على الجوع والعطش، بعكس السيارة التي تحتاج إلى تجديد الماء كل أربعة ساعات، والوقود كلما نفد، فضلاً عن جهل السائق بميكانيكيتها مما يسبب عطلها في الطريق وتترك الحجاج في العراء إلى أن تقدم سيارة أخرى

أجل! لقد أزعجت السيارة ذلك الهدوء الشامل في الصحراء وأقضت مضاجع الأعراب

وحولت طمأنينتهم إلى نوع من الثورة على الحضارة الأوربية وما تقدمه إليهم من كهرباء وطيارات ولاسلكي

دخلت سيارتنا مكة في منتصف الليل تقريباً فراعني أن أرى الناس في الشوارع، يغطون في نومهم ويحلمون بالجنة التي هم بها موعودون، لا سيما وأنهم أصبحوا على قاب قوسين منها. أهاج هذا المنظر خاطري فأنبثق في نفسي شعور خفي وأنا أستقبل تلك الأرض المقدسة التي وطئتها قدما الرسول وكانت خير منارة للحق، فهددت الناس إلى السبيل القويم

وقصدت لساعتي إلى دار مطوفي، وهي دار رحبة عالية البنيان، بها غرف في الدور الأسفل، أعدت لاستقبال الحجاج الجدد عند وصولهم إلى مكة. وبعد أن رحب بي المطوف سألني عما إذا كنت في حاجة إلى طعام أو شراب فأجبته بالنفي، إذ كنت لا أزال غارقا في نهار من الأحاسيس الخفية، معللا النفس بقرب بزوغ النهار للطواف بالكعبة المقدسة

وما أن غشيت غرفتي واستلقيت على البساط حتى أغمضت عيني واستولى عليّ النعاس، فتخيلت الرسول الكريم وقد بدا أمامي في شكل نوراني، يكاد يخطف الأبصار، وكأنما هو ينشر كلمة الله فيضئ بها العالم يدعو الخلق إلى كلمة الحق، ورأيت الخلفاء الأربعة يتوسطون حلقات من الناس طبقا لقواعد الدين الحنيف، ويسودون العالم بالحكمة والمحبة لا بالعنف والشدة، ثم تخيلت هارون الرشيد وهو يجول أناء الليل في شوارع بغداد ويجوس في خلال أزقتها ودروبها، فيكافئ الأتقياء وينزل عقوبته بالمجرمين، وانبسطت أمامي بلاد الأندلس الزاهرة وقد سادها حكم العرب، فنشروا بين ربوعها العلم والحكمة والفلسفة والفلك والفقه حتى أصبحت هذه العلوم كشجرة مباركة فرعها في السماء، وأظلت بأوراقها اليافعة الخضراء تجاه مكة المكرمة والكعبة الشريفة؛ ولا يظن أحد أن ما شهدته كان من قبيل الرؤيا أو أضغاث أحلام، بل هي أشباح خالدة تطوف بذهن كل مسلم صادق العقيدة متوجه إلى الله بقلب نقي طاهر

وعند انبثاق الفجر نهضنا من النوم على أصوات ملائكية، كأنها هابطة من السماء، تلك هي أصوات المؤذنين يدعون المؤمنين إلى صلاة الفجر التي هي خير من النوم، فقمت مهرولاً، وبعد أن توضأت يممت شطر المسجد الحرام ومعي مطوفي، وكنت أؤدي الصلاة المفروضة طبقاً لإرشاده، ثم بدأت أطوف بالكعبة فسرني أن رأيت ألوفاً من الحجاج، من

كافة الألوان والأجناس، يقبلون في لهفة على لثم الحجر الأسود، وهو رمز تاريخي للإسلام، كان الرسول الكريم يتبرك به ويقبله؛ وتبعه في ذلك الخلفاء الراشدون، وظلت تلك العادة متبعة للآن؛ وقد حاولت ولقد حاولت مراراً أن أقترب منه فكان يبعدني عن بلوغه كثرة الزحام، وبعد مشقة لمست بيدي سطحه الرمادي الأملس، ولكن ما كدت ألثمه حتى رأيت سيدة من أهالي فرجانة تقع على الأرض إثر صدمات عنيفة من الخلف، وكانت تحمل على ظهرها طفلتها المسكينة التي ستصبح حاجة بعد حين، ولقد قدمت هذه المرأة التقية إلى الحج ممتطية صهوة جواد مع بقية أفراد أسرتها، من بلدها في أواسط آسيا فاستغرق سفرهم أربعة أشهر؛ ولقد أخبرتني هذه الحاجة أنها كانت تدخر لهذه الزيارة المقدسة من سنوات بعيدة، وأخيرا حققت حلمها وكانت مبتهجة أشد الابتهاج

وقمت بعد ذلك للسعي بين الصفا والمروة، وهناك نالني كثير من الشقاء والعناء، فجلست بجوار حلاق أخذ يقص خصلة من شعري المبعثر عملاً بالسنة الشريفة، ولبثت في انتظار مطوفي ليأخذني إلى جبل عرفات

إن اللقاء على جبل عرفات لهو الغرض الأساسي تقريباً للحج، فالحجاج الذين يفدون إلى جدة متفرقين، يجتمعون كلهم في يوم واحد ويحشرون إلى صعيد واحد، وهنا تظهر عظمة الدين الحنيف وحكمته، فقد كان مجموع الحجاج فوق عرفات لا يقل عن خمسين ألفاً، مع إن مكة بمساحتها الشاسعة لا تستطيع أن تأوي مثل هذا العدد الوافر وجبل عرفات من أجمل جبال العالم، يصل الماء إليه من (عين زبيدة) في أنابيب، وهو عمل عظيم في ذاته، لأنه يخفف من متاعب الحجاج للحصول على الماء. وهناك تل يطلقون عليه (جبل الرحمة) به مصلى كان النبي عليه الصلاة والسلام يصلي فيه

ولقد رأيت الحرس الوهابي يقيم على تلك البقعة ليمنع الحجاج من إقامة الصلاة بالقرب منها، كما إنهم يحرمون على الحجاج السجود أمام العمد الحجرية المسندة إليها
والوهابيون يعارضون أشد المعارضة في تدخين التبغ، ولكني رأيت أن هذه العادة تكاد تتلاشى، وألفيت كثيراً من الناس يدخنون في الطرق العامة حتى في الجبل وبجوار المصلى، كما أبطلوا عادة الخطابة التي كانت تلقى على ظهر البعير
(يتبع)
عبد الكريم جرمانوس
بين الثريا والثرى
للأستاذ عبد الرحمن شكري
الحمل والجدي والسرطان: هي الأبراج المعروفة بهذه الأسماء، والمعنى هو أن الشباب لا يهتم بما يخبئ له القدر، كما يهتم من يرصد الأفلاك والأبراج ليعرف منها ما يخبئه له القدر
(الناظم)
الشباب
تذكرني الشباب، وقد علونا ... به فوق المجرة والنجوم
ونحن الخالدون، وكان حقاً ... خلوُّ الخالدين من الهموم
سوى الحزن الذي عقباه ضِحْكٌ ... يرن صداه في ضحك الهزيم
وطئنا فوق أطلال الدرارى ... وأشرفنا على بيد السديم
فلا حمل ولا جدي رقبنا ... ولا السرطان ذو البرج العظيم
وما من صولة الأقدار خفنا ... ولا لاحت لنا مثل الغيوم
بأرواح لها في الأفق مسعى ... وتحليق على العيش البهيم
ركضنا في السماء لكل نجم ... حُنُوَّ الطير للزهر العميم
وحوَّلنا وجوه الكون كأسا ... حسوناها ولم تَكُ من كروم
ولم نعبأ بما تُخْفِي الليالي ... ولم نَخْشَ المنية في الهجوم
وأسْلَفَنا الزمان نعيم عيش ... ولم نحذر مقاضاة الغريم
وكنا في ائتلاف الشمل نحكي ... نظام الشهب والدر النظيم
المشيب
سكنا الأرض بعد الأفق دارا ... وأُنزِلنا إلى بطن الأديم
وأُفْهِمْنَا القضاءَ، ما فهمنا ... وقُلْ ما شئتَ في لغو العليم
وكُسِّرَت القوادم والخوافي ... وهِيض العظم في الجسم الكليم
صحونا للحياة، وما تراه ... من الخُلُقِ المُقَبَّحِ والذميم
فمن حذر إلى بخل وذل ... وسوء الظن بالخلِّ الحميم
أَطَلَ الموت من كَثَبٍ علينا ... وظِل الموت أصبح كالنديم
تُرَوِّعُنَا الصروف بكل خطب ... وخطب الموت أهون للفهيم
وضاعت جِدَّةُ الدنيا وصارت ... كأطمار على جسم العديم
يحاربنا التذكر والتمني ... كلا الأمرين يُفْضِي للهموم
وقدما قد نعمنا بالتمني ... وأمَّلْنَا الخلود على النعيم
وليت الذكر، وهو نذير شجو ... يدوم بروقة العهد القديم
سننسى أننا كنا قديماً ... على هام الثريا والنجوم
عبد الرحمن شكري
الليلة الثانية عشرة
للشاعر الحضرمي علي أحمد باكثير
إحدى روايات شكسبير الخالدة يترجمها إلى العربية شعراً الشاعر الحضرمي علي أحمد باكثير، وقد تصرف تصرفاً لا يضير بجمال الأصل، بل يزيده أحياناً وضوحاً وحسناً؛ كما فعل في التورية اللفظية التي قصد إليها شكسبير في كلمتي (الوعل) (القلب) فقد نقل المترجم الصيد من البر إلى البحر ليتسنى له الإتيان بمثل هذه التورية في اللغة العربية، وإلى القارئ المشهد الأول من الرواية:
المشهد الأول - في قصر الدوق

يدخل الدوق و (كريو) وأشراف آخرون، حيث فرقة الموسيقى على استعداد للدوق:
هات ألحانك يا عازف إن ... تكن الألحان للحب غذاء!
هاتها! زدنيَ منها فعسى ... أن يلاقي حتفَه منها امتلاء!
أعِدِ اللحن الذي غنّيتَه! ... إنه طاب على السمع غناَء
كاد من رقته يفني! فلم ... يَدَعِ الشجو له الاذماَء!
رفَّ بالسمع جَنوباً عَطِراً ... سرق الروض شذاه ثم جاَء
قَدْكَ! قف لحنك هذا لم يَعُدْ ... عندي الآن وما قبلُ سَواَء
آه رُوحَ الحب! ما ألطف مس ... راكِ في النفس وأقواك مضاَء
قوةٌ هائلة أنت، فقد ... كدت تطغين على ماضي القضاءْ
قوة حُوَّلَةٌ قُلبه ... أبداً تَبْدين في ألف رواءْ
أين منك البحر عُظماً وقُوَىً؟ ... إنه ماءٌ وأنتِ الكهرباءْ!
تسقط الأنهارُ في البحر فلا ... تعدم التأثيرَ فيه والثّواء
وهمومُ النفس مهما عظُمت ... وسمت أوجا، وشطّت في غلاءْ
دون أمواجكِ في ثانيةٍ ... تتلاشى كالتماعٍ من ضياءْ!
فإذا الغالي رخيصٌ، وإذا ال ... أوج قعْر، وإذا الأسْر عياء
كريو:
مولاي! هل لك في صي ... د البال؟ فالجو حالي
الدوق:
ويلك! هل أنا إلاّ ... في الصيد! والبال بالي!
أعزُّ شيءٍ بجسمي ... قدراً. وأنفَسُ غالِ
أوّلَ ما زلزلْتني ... بطَرْفها القتَّال
وهدتني ... للحبّ بعد الضلال ،(أوليفيا)
هناك صُيِّرتُ بالاً ... مضرِّساً بالنكال
مطارَداً طول أيّا ... مه وطول الليالي!
اكتنفَتْه شِباكٌ ... من كل وجه وحال
خيوطها من همومي ... ونجما من خيالي!!
(يدخل فالنتين)
- هات عنها! ماذا وراءك؟
- ما ير ... ضيك مولاي! لو رُزِقتُ القبولا
-: سلّمتْني عنها الوصيفةُ هذا ال ... ردَّ منها - وما أراه جميلا
لن يرى الكون نفسه وجهَها السَّا ... فرَ سبعاً كسبع يوسف طولا!
نذرَت أن تبقى كراهبة الدَّيْ ... ر عليها نقابُها مسدولا
كل يوم تطوف بالبيت بالدم ... ع يبل الثَّرى ويُحفى المسيلا
كل هذا من أجل موت أخ كا ... ن إليها المحبب المأمولا
رُزِئَتْه فأقسمتْ لَتُديمَنَّ (م) ... أساها عليه دهراً طويلاً
الدوق:
زِهِ! ضمَّتْ إذا - إلهي لك الحم ... دُ! - إلى حسنها الشّعورَ النبيلا!
كان هذا وفاءها لأخيها ... كيف بالله لو أحبّت خليلا!
لَوْ إليها (كوبيد) سدّد يوماً ... سهمه المُذْهَب اللطيف القتولا!
فغدا في فؤادها كلُّ همٍّ ... شاغلٍ - دونه صريعاً قتيلا
واعتلى عرشَ قلبها مَلِك فرْ ... دٌ كفرعونِ مصر دانَ النيلا!
سِرْ أمامي إلى أريكٍ من الزَّه ... ر أهدهِدْ بها الفؤادَ قليلا!
حيث تُلفى خواطرُ الحب في أك ... نافها مرتعاً خصيباً ظليلا!!
علي أحمد باكثير
الشاعر
للسيد رياض معلوف
من كتابه (الأوتار المتقطعة) الذي صدر حديثا
شاعر في شفتيه ... كلمات مُنْزَلةْ!
ضاقت الأرض عليه لطموحهْ

وخيالهْ
جذوة في مقلتيه ... رُوحه المشتعلهْ
قطرة من محجرِ الله ورُوحِه
وجمالهْ
شاعر إن شدا وردَّدا شعرا ... فنياط القلوب من أوتارهْ
ما ابتسام الربيع ألطف ثغرا ... منه حتى لو كان في نَوَّارهْ
ودموع الصباح أطهر دمعا ... منه فوق الخدود من أزهاره
أين شدْو الهزار في الروض منه ... لا يجاريه روضه بهزاره
هو (مُوسِّيهُ) هل سمعت نواحا ... في الليالي أرق من أشعاره
وهو (دَنْتِي) هلا رأيت جحيما ... بكتاب حروفُه جَمْرُ ناره
والمعرى، رغم العمى (ضوء سقط) ... يهتدي التائهون من أنواره
رياض معلوف
يد الأيام
للسيد الياس قنصل
لو كانت الأيام تقضى مرةً ... للمرءِ ما يصبو إليه، معجبا
لخلعتُ عن نفسي ثيابَ رزانتي ... ورجعتُ مسروراً إلى عهد الصَّبى
هي حقبةَ في العمر يحرس صفوَها ... ظلٌّ من الطهر الصميم ظليلُ
وكأنها لخلوِّها من كلِّ ما ... يئدُ العواطفَ للكمال سبيلُ
يسخو الزمان بما لديه على الذي ... رضيَ الوجودُ بأن يريه ضياَءهُ
لكن حُمَّاه ترافق جودَه ... سراً، وتتلف ما يفوق عطاَءهُ
إني بلغتُ إلى الشباب مضيّعا ... من حيث لا أدري جمالَ هنائي
في كل يوم كان يهلك بعضُ ما ... زخرتْ به نفسي من الآراءِ
فإذا التفتُّ إلى الوراء رأيتني ... أشلاء ضمّتها الليالي الماضيَه
ووجدت حولي ما يماثل غربةً ... تغشى بلاقعَها الأماني الذاويَه
والحق أني قد غُبنتُ ولم أفزْ ... إلا بساعات من الآلامِ
ما خبرتي إلا شعور طهارةٍ ... خنقْته في صدري يدُ الأيامِ
(عاصمة الأرجنتين)
الياس قنصل
فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية
تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا - 30
الناحية الإيجابية من مذهب نيتتشه
السوبرمان أو الإنسان الأعلى
للأستاذ خليل هنداوي
لنفترض أن هذه القوى يتفاعل بعضها ببعض تتبعاً لقانون المصادفة والتدابير المتعاقبة، وأن الترتيب اللاحق مؤثر في الترتيب السابق، فما عسى يقوم في أزلية الزمان؟ أرانا إذ ذاك مضطرين إلى القول بأن هذه القوى لم تبلغ بعد نقطة التوازن ولن تبلغها أبداً، إذ لو كان هذا الترتيب في استطاعته أن يظهر يوما ما، لاستطاع إذا أن يظهر لتطاول الزمن الغابر. والعالم - عند ذلك - يصبح جامداً ساكناً لا يتحرك، لأن من المحال أن تضل هذه القوى عن (نقطة التوازن والاستواء) بعد أن أدركتها ووصلت إليها. فنحن إذا أمام القول بأن شحنة من القوى الثابتة المعينة تولد - في هذه الآماد - تدابير لا تنبتر وحالات لا تتناهى. وبما عن الزمان لا نهاية له، وبما إن هذه الشحنة من القوى هي معينة محدودة، فسوف تأتي لحظة - مهما كانت هذه القوى عظيمة ومهما كانت آثارها الناشئة عنها كثيرة - نرى فيها هذه اللعبة الطبيعية غير العاقلة تولد (تدبيراً) أو تهتدي إلى حالة تستقر عندها وتقف عليها.
ولكن هذه الحالة أو هذا الانتقال سيجر وراءه سلسلة تامة من الحالات المتسببة عنه، من حيث أن الحركة العالية تولد ذات الأشياء وتمشي باستمرار على دائرة واسعة. كل حياة خاصة هي جزء من هذا الدور الكلي. وكل فرد قد عاش الحياة ذاتها مرات لا تحصى وسيعيشها إلى الأبد. كل الحالات التي يمكن للوجود أن يبلغها قد بلغها في الماضي مرات متعددة. قد كان مرة، ومرات عديدة سيكون وسيعود. وكل القوى

السابقة متوزعة اليوم توزعها بالأمس
أيها الإنسان! إن الحياة كلها كمرملة ترش دائماً وتجمع دائماً. وكل خليقة من هذه الخلائق لا تنفصل عن الأخرى إلا بقدر تلك اللحظة الطويلة الضرورية لها حتى تعود تلك
الضرورات التي كانت سبب ولادتها، فتعود إلى الظهور. والولادة حالة محلها في (الدور العالمي) وعند ذلك ستجد كل شقاء وكل غبطة، وكل صديق وكل عدو، وكل أمل وكل ضلال، وكل غرسة وكل شعاعة من الشمس، وكل نظام الأشياء، وهذا الدور الذي أنت فيه مثله مثل الحبة سينبثق من جديد
في كل دور من أدوار الوجود الإنساني، لكل إنسان - على الأغلب - ساعة تظهر فيها الفكرة القوية القائلة (بالرجعة الدائمة) لسائر الأشياء. وهذه الساعة التي تبلغها الإنسانية هي ساعة (الهاجرة)
وما إن بدأ نيتشه هذا المذهب حتى سرى في روحه، وغمر فكره، وغلب على قلبه؛ وقد عزم على أن يغامر بعشرة أعوام من عمره، يدرس التاريخ الطبيعي لكي يستطيع أن يبني مذهبه هذا على قواعد علمية ثابتة، ولكنه لاذ بالصمت وأدرك خيبته في زعمه هذا. ولكن فكرة الرجعة الدائمة ظلت تتجاذب فكره، وظل يدور حولها. وهذه الفكرة كانت إحدى هبات (زرادشت) الكبرى إلى رجاله
وقد وضح جلياً تأثير هذه الغمة التي غشيت نيتشه يوم أصبح يؤمن بهذه الرجعة الدائمة. ولن نستطيع أن نتخيل حلاً لمسألة الوجود أظلم وأبهم من هذا الحل، فالوجود لا يعني شيئاً، إنه وليد مقادير عمياء، ينتج من وراء مصادفاته الخالية من الشعور قوى يمتزج بعضها ببعض، فيخلق بعض النماذج على حسب المصادفات. أما الحركة الشاملة للوجود فهي لا تقود جزءاً منه ولا قسما. وإنما هي تدور حول نفسها بدون انقطاع في نفس الدائرة، وهذه الحياة التي نحياها سنكررها إلى ما لا نهاية، دون أن يكون هناك رجاء في التغير. وفي كل لحظة مشحونة بالكآبة والشقاء والسأم سنحياها مرات لا تحصى. فهل في الإمكان أن نتخيل ما يصنع هذا الافتراض في جماعات المنحطين والمرضى والمتشائمين، وفي كل من نرجح كفة شقائهم على كفة فرحهم؟ إن عند أغلب الناس - كما يبدو - فكرة تشبه فكرة العودة الدائمة؛ تظل وإن لم تكن مبنية على مبدأ معين - غير مؤذية ولا ضارة، لأنها تبغي فكرة مجردة خارجة عن الإدراك، لأن مخيلتنا غير قادرة على إخراج هذه الفكرة إلى حيز الحقيقة، ولأن المعارف التي يتلقاها عقلنا لا تعين إلا قليلاً من قوتنا الحاسة. ولكن نيتشه هو الذي يهب الحياة لتعاليمه، وهو يتفلسف بكل وجوده
وقد يشاهد أن الرجعة الدائمة أخذت تظهر في بعض اللحظات ككابوس شيطاني يملأ قلبك رعباً ويقف دقات قلبك، وقسوته على المنحطين والأشقياء بدأت الآن ترتدي غير رداء، وقد وضح ما يريد في صيحته هذه (ليموتوا سريعاً. ليقتلوا أنفسهم، أو ليقتلوا، هؤلاء المنحطون. . . .!! من قبل أن يتمكنوا من قياس هاوية الآلام التي غرقوا فيها، وقبل أن يفقهوا معنى القدر الوحشي الذي يقضي عليهم بان يجرجروا صلبانهم بدون أمل في نجاة، وإذ ذاك تفهم إذا كانت الإنسانية في استطاعتها أن تتحمل هذا المذهب دون أن تزل سريعاً في هاوية اليأس والخوف، أو أن تعتبر فكرة العودة الدائمة كابتلاء يهوى به من لا تصلح حيويتهم
لابد من قوة نفسية خارقة لاحتمال فكرة العودة الدائمة وهذا هو صاحب هذه القوة النفسية يستطيع أن يقول (إذا لم يكن للحياة معنى بذاتها فأنا أعطيها معنى. إنما أنا قطعة من الطبيعة تريد أن تكون دائماً جديدة، تسعى بدون سأم ولا نصب إلى ما لا نهاية في الحلقة ذاتها. إنني سأرتفع وأصعد حتى يتسنى لي أن أتأمل كفنان روعة الحياة المخصبة التي لا تفهم. وسأهتز طرباً إلى لعبة هذه القوى التي أنتجت وحصلت كثيراً من الآثار اللطيفة الرائعة. والتي ولدت الإنسان وستلد السوبرمان. سأتمنى بكل قلبي وإيماني من القوة العمياء أن تبدع شيئاً لامعاً ساطعاً يسمو على الإنسان. وسأحيا يراودني هذا الأمل، وسأجعل وجودي كله وعاء لهذه الفكرة. أريد أن للدائرة التي تتحرك فيها الحياة تحور إكليلا باهراً زاهراً. سأقضي حياتي فرحاً مرحاً، راجياً أن يؤول دوري الذي أمثله إلى نتيجة حسنة. وإذا خسرتُ - في هذا الدور - فلي رجاء كبير فيمن يليني ويأتي بعدي. وهكذا لا يتلاشى من الوجود ضياء الحياة ولا يكفهر. وهكذا الإنسان

المأخوذ بهذه الفكرة التي تزيده نشوة، يصبح في حالة يبصر فيها هزائمه وانكساراته كفدية يسيرة لأفراحه وانتصاراته. يجدها كالنخس الذي يدفعه دائماً إلى التعالي والتسامي، إلى تفوقه على نفسه. وهكذا إذا رجع إلى محاسبة نفسه يرى إن مقدار سروره كان أرجح من مقدار ألمه وإذ ذاك يرضى بكل حمية وشوق فكرة الحياة الخالدة، وفكرة القبول بالحياة التي يكررها إلى الأبد

ولهذه النتيجة تسامى أولئك الرجال المسلمون الذين جمعهم زرادشت في مغارته. فحين عرض عليهم تعاليمه الجديدة وفضائله الجديدة، وفتح عيونهم على جمال الحياة وروعة

الحياة، وحين شفاهم من تشاؤمهم ورفع نفوسهم التي أوشكت أن تنحني تحت أثقال الكآبة والسآمة، جمعهم تحت جنح الظلام أمام المغارة تحت قبة السماء

جلسوا صامتين متهيبين. كلهم في سن الكهولة ولكن قلوبهم تفيض قوة وحياة، وكل) منهم راضٍ بنفسه عن نفسه إذ غدا شيئاً صالحاً على الأرض، وكان سكون الليل المفعم بالأسرار يناجي قلوبهم. عند ذلك تمت أعجوبة الأعاجيب. فالإنسان الأكثر قبحاً جلس ينفخ للمرة الأخيرة، وحين دعاه داعي الكلام قال: هذا السؤال الذي خرج من فمه طاهراً نقياً عميقاً، وجميع من كان حوله يصغون إليه أحسوا إن قلوبهم تهتز وتخفق طرباً

قال: (هأنا - لأول مرة - غدوت راضياً عن حياتي

جميلة الحياة على الأرض. إن يوماً واحداً، إن عيداً واحداً مع زرادشت علماني بأن أحب الأرض

سألت الموت: هل - هنالك - الحياة؟

ألا لتأت مرة أخرى

أصحابي! ألا تريدون أن تقولوا للموت مثلي: هل هنالك الحياة؟ وفي سبيل محبة زرادشت لتكن مرة أخرى)

أفلح إذ ذاك زرادشت. فإن الرجل الأكثر قبحاً، والمسخ الذي قتل بعضه الإله، الذي يتمثل فيه كل قبح وشر وسوء في الإنسانية قد تلقى الآن جمال الحياة، وأدرك أن الألم هو فدية لا مندوحة منها للسعادة، فقال: - بلى للوجود. وبينما كان النبي محاطاً بأتباعه، يتذوق خمرة هذا النصر كان يتهادى ناقوس قديم ذي رنين حاد يعلن ببطء - مجيء نصف الليل - أن نصف الليل هو الساعة الواحدة التي يلتقي فيها النهار الذي انتهى بالنهار الذي سيبتدئ، حيث يصافح الموت الحياة. نصف الليل هو ساعة الصمت الأكبر، حيث النفس المتأملة تتفتح لها التأملات والأسرار الخفية. وبينما كان الناقوس القديم، الرسول الذي يقرع لأفراح الإنسانية وأوجاعها، يعلن بدقاته الأثنتي عشرة عن تلك اللحظة التي يجوز فيها الموت إلى الحياة؛ نرى زرادشت يترك رجاله السامين يلمحون الفكرة الكبرى للرجعة الدائمة غارقة في الألغاز كأنها مزمور رمزي ممطر بالنشوة الدينية

1: ألا احترس أيها الإنسان!

2: ماذا يقول منتصف الليل العميق؟

3: كنتُ أنام، كنت أنام

4: هأنا قد تيقظت من حلم عميق

5: الوجود هو عميق

6: اعمق مما لم يفكر فيه النهار

7: وعميق شقاؤه

8: وفرحه أعمق من ألمه

9: الشقاء يقول لك: اهلك

10: ولكن كل فرح يبتغي الخلود

11: يبتغي الخلود، الخلود العميق

(انتهى البحث في فلسفة نيتشه)

(خليل هنداوي)

القصص

مأساة من أسخيلوس

أجاممنون - 2
للأستاذ دريني خشبه
(!آرجوس)
(!وطني العزيز)
(. . .!أربابي)
(لكم في عنقي دين أبدي من الشكر، وفي فمي لسان رطب لا يفتر عن ثناء؛ فلولاكم ما نسمت هذا العبق الحلو الذي يتأرج به هواء هذا البلد، ولا ظفرت باليوم الخالدة، دولة بريام، ودرة هذا الزمان! أجل! فلقد بدء الآلهة ما ألم بشرفنا القومي، وحاق بعزتنا الوطنية، فقضت أن تكون طروادة نهباً مقسماً لا يحل إلا للهيلانيين، فلا تزال ألسن النيران تعلن في الخافقين حكمة السماء من أبراجها الشاهقة، وصياصيها السامقة، وقصورها الشماء. . . وغداً تصبح صعيداً جُرُزاً وطللاً بالياً. . . من أجل من؟ من أجل امرأة!
أما أنتم يا رعاياي فأشكر لكم إخلاصكم ووفاءكم وتعلقكم بهذا العرش الذي يستمد قوته منكم وما يزال يرتقي بتأييدكم. . . وسننظر فيما تم إذ نحن نازحون عن الديار . . .فنجزي كلاً بما عمل، ولا نقضي عن إساءة المسيء، ولا نتسامح في تألب المتألبين يا آلهة النصر. . . لك الحمد ولك الثناء. . . لا زلت تباركين آرجوس، ولا برحت أياديك تُنَضِّر هذا الوطن)
- 16 -
وما يكاد الملك ينتهي من كلمته حتى تدخل الملكة. . . الملكة كليتمنسترا. . . أو الحية الرقطاء!. . . التي لا تفتأ تتحدث إلى الملأ من حبها للملك، وعن الآلام المبرحة التي عصفت بقلبها أثناء غيابه، والوحشة التي ظلت تخيم على!! (بلبوديه) العتيق الشاهق طيلة هذه السنين العشر. . . وتتحدث عن الإشاعات المحزنة التي تناقلتها الألسن عن الملك المفدى في ميدان إليوم. . . ثم. . ترى ألا بد من كلمة عن هذا الأمير الصغير المنفي. . .
أورست. . . الذي هو (ثمرة حبنا وواسطة عقدنا، والنور الإلهي الذي يغمر قلبينا ويؤلف بين روحينا. . . إنه ينشأ ويشب ويترعرع في كف صديقنا وحليفنا، وحافظ ودنا، الأمير ستروفيوس، صاحب فوسيز، الذي تفضل فحماني في غيبتك، وذاد عن قصرك المنيف تكالب الأرجيف. . .
ولقد كنت أتقلب على إبر الشوك حنيناً إليك، وشوقاً إلى لقائك. . . وكنت أبداً حزينة كاسفة لأن النيران لم تشتمل مؤذنة بأوبتك. . ولكن. . . ها أنت تعود فنعيد الآمال إلى القلوب الواجفة، والإيمان إلى النفوس التي نكأها اليأس، والرجاء إلى كل من عزه الرجاء. . . .)
ثم تختل الملك وتخدعه، عسى أن تنطلي عليه تدبيراتها السود فيلج معها في القصر، وتنفذ فيه الغيلة الرائعة الرهيبة التي رسمتها له، والتي آلت إلا أن تكون بيدها. . . وبسلاح عاشقها الآثم إبجستوس. .
(والآن هلم يا ملكي. . . يا رجاء آرجوس وفخر هيلاس كلها. . . هلم فترجل من . . . تلك العربة الفخمة الفاخرة ذات الأوشية، وطأ أرض القصر العتيد بقدميك الراسختين كما وطأت بها عز طروادة ومنعتها.)
وتكون الملكة قد أعدت بساطاً كبيراً من الخز الأحمر الأرجواني ليمشي عليه الملك، فتأمر قيانها وجواريها أن يبسطنه على المرمر الناصع. . . (ليخطر عليه ملكي، وليتم بهاء اليوم. . . . وأبهة النصر. . . بما عاد رب البلاد ظافراً!)
- 17 -
وتصدع الجواري فيبسطنه
ولكن أجاممنون، الذي كان الوسواس يملأ قلبه، والشك يذوب في كل قطرة من دمه، وسرطان الهم ينهش نفسه الحائرة. . . ظل في عربته متردداً. . .
ذلك إن كاسندرا، تلك النبية الجالسة بجانبه، ابنة بريام التي جلبها معه لتكون خليلة له في الـ - (بلبوديه) - كانت قد تحدثت إلى الملك، فكشفت له أستار الغيب، وتنبأت عما ينتظره من دم. . . وغدر. . . وما ينتظرها هي أيضاً من مثل هذا المصير الأحمر. . .

. . .والقدر المخبوء
وكانت أصداء النبوءة التي ملأت بها كاسندرا روع الملك، ما تزال تتجاوب أصداؤها في قلبه، وتهتف به بألف لسان أن. . . يحترس! فقال للملكة:
(إيه يا ابنة ليداء، وحارسة عرشي وحامية صولجاني! لقد استطالت تهنئاتك بقدر ما استطال نأيي وشط نزوحي عن آرجوس! بيد أنني كنت أؤثر الثناء الموشى من غيرك، وكنت أؤثر ألا أرى فيك تلك الغادة اللعوب من غادات الشرق السحري. . . تتحوى وتتلوى. . وتلقي رجلها بكل مصنوع ومجلوب! ثم ما هذا البساط الأحمر الحريري؟ هل أصبح أجاممنون إلهاً؟ إن البسط الحمراء لا يخطر عليها غير الآلهة. . . فهي حق مقدس لهم. . أما بنو الموتى، فليس أجلب للذعر، وأدنى للرهبة، من أن يتطاولوا على حقوق الأولمب، ويؤثروا أنفسهم بما ينبغي أن يبقى للسماء!. . . . والمجد. . . . بعد كل ذلك. . . لا يعوزه أن يسير على مهاد من المخمل، أو أن يهز أعطافه في حلل الدمقس. . . إيه! الخلود والمجد لمن تنتهي حياته الحافلة في أمان وسلام!)
- (ماذا أيها الملك؟ هلم فحدثني. . . واجل في خافيتك؛ ماذا تريد أن تقول؟)
- (سأجلو لك كل شيء حتى لا يكون خفاء بيننا:)
- (قد تكون نذرت هذا في ملمة نزلت بك!)
- (بديهة حاضرة يا ابنة ليدا؟)
- (وما كان من أمر بريام؟ وبم أستحق هذه النهاية إذن؟)
- (أغلب ظني أنه فرش طريقه بالخز والديباج. . .؟ فحنقت عليه الآلهة؟)
- (أنت تأبه كثيراً لما عسى أن يتقول الغوغاء!)
- (وأي شيء هو أعنف من تقولات الغوغاء؟)
- (من لا حسود له، لا معجب به!)
- (آفة المرأة أنها أبداً تثير الشغب والاضطراب!)
- (حاشاي! بيد أنه من العظمة للمرأة أن تخضع فاتحاً عظيماً (كفاتح طروادة!))
- (أفنحن إذن في معركة حتى يشتد حرصك على الغلبة فيها؟)
- (هلم. . ترجل. . دعني أنتصر على قاهر طروادة!)
- (إذا كان لابد من هذا، فمري أحداً بنزع حذائي، فقد يطلع أحد الآلهة من ذروة الأولمب فيرى إلى أطأ الخز الأحمر الأرجواني بهما، فينقم علي ويثور بي. . . كم أضطرب حين أخطو خطوة واحدة على هذا الديباج؟ . . .)
(تتقدم جارية من جواري الملكة فتنزع حذاءه)
- (إيه. . . قُضي الأمر. . . ولكني أرجوك أن تتقبلي هذه الغريبة النازحة في حنان وفي حب. . . فما تزال السموات يتبسمن كلما اطلعن فشهدتنا نتلطف في استعمال جبروتنا!. . . لقد منحني الجيش إياها من سبي اليوم. . (يترجّل وتظل كاسندرا بمكانها من العربة). . . فأما وقد ظفرت بطلبتك، فإني أمشي على هذا الأرجوان إلى قاعة العرش)
وتتملقه الملكة بكلمات فيدخل إلى قاعة العرش، وتضرع كليتمنسترا إلى سيد الأولمب أن يحرس ما دبرت، وأن يتولى الغيلة التي أعدت للملك ببركاته!!

. . .ويترنم الخورس بأنشودة شفافة، ينعكس في صفائها غدر المرأة وشدة مكرها ثم تتحضر الملكة فتشير إلى كاسندرا قائلة: (. . . هلمي فادخلي أنت أيضاً يا كاسندرا. . . أدخلي. . . ما دامت السموات قد ساقتك إلى هنا لنتقاسم أمواه هذا المطهر القرباني. . . هلمي. . . انزلي من هذه العربة المطهمة التي يبدو أنها نفخت أوداجك بريح الكبرياء!. . . انزلي ولا يؤلمك ما أنت فيه من أسر وذلة ونفي. . . فما أنت بخير من ابن ألكمين العظيم الذي قضى ردحاً طويلاً في ربقة الأسار. . . عند ملك جبار. . . هنا. . . في نفس هذا القصر! إنه لشرف أي شرف أن تخدمي في الـ (بيلوبيديه)، ما دمت قد استسلمت لنزوة أحلامك حتى فقت بها حدودك يا فتاة! انزلي. . . فآن لك أن تشمخي بأنفك، وتتيهي على أندادك، لأنك ستكونين جارية من جواري ملكة آرجوس!)
رئيس المنشدين: (لقد قالت وقد سمعتِ! وكلامهما بين. . . أوه! مالك مكدودة هكذا؟. . . قد تفكرين في الطاعة. . . ولكن. . قد يتجلى اشمئزازك بعد حين!)

كليتتمنسترا - (رضخت أو لم ترضخ. . . لابد من أن تصغي لي!)
رئيس الخورس - (أطيعي يا فتاة. . . قد يكون هذا لصالحك. . . انزلي!)
كليتتمنسترا - (إن النيران المتأججة تنتظر بفارغ الصبر أن تلتهم فرائس المذبحة، وقد نضب معين الرحمة، وغاض ماء الحنان، وليس هناك وقت نضحي به من أجل بكمك أيها الفتاة، فإذا لم تستطيعي التكلم بلساننا فلتؤد يدك ما تريدين أن تجيبي به. . . تكلمي!)
ولكن كاسندرا ما تزداد إلا صمتاً، وما تزداد إلا سكوناً، فيقول رئيس الخورس:
- (. . . . . .يبدو إنها في حاجة إلى ترجمان)
وتتميز الملكة من الغيظ، فتحدج الفتاة بعينين تقدحان الشرر. . . وتنطلق داخل القصر. . . .
- 19 -
ويرثي الخورس للفتاة المنكودة، ويروعه هذا الأسى الذي يتشح به وجهها، وتلك الكآبة التي تجلل جبينها، فيعطف عليها، ويدعوها لتنزل من العربة. . . فأسمع إذن إلى هذا الحديث الشجي:
- (!انزلي. . . أصيخي للقضاء، وسلمي للقدر. . . انزلي)
- (!آى. . . آى. . . أوه. . . أبوللو. . . أبوللو)
- (فيم هتافك الباكي بأبوللو. . . .؟)
- (آى. . . أبوللو. . . أبوللو. . . أبوللو. . . آى، آى، أوه أبوللو. . .؟)
- (ما تنفكين تهتفين بالإله الذي أصم أذنيه عنك؟)
- (آه يا أبوللو يا إلهي! أيها الباني العظيم والمخرب العظيم! بنيت طروادة. . . وحطمتني! وها هي يدك تمتد في غير رفق مرة أخرى فتعبث بي!)
- (اسمعوا يا رفاق! إنها تتنبأ عما يخبئ لها القضاء. . . كأن فيها جذوة من السماء!)
- (أبوللو. . . أبوللو. . . يا باني طروادة. . . يا هادم بنياني. . ماذا هنا؟ أي سماء؟ فيم جئت بي هنا؟)
- (هذا قصر ألا تريديه إن لم تكوني تعرفينه بعد!)
- (آه!. . . حاشا! بل هو كهف رهيب رائع! ممقوت من السماء! ملطخ بدماء الإثم، مضرج بأرواح الشهداء تجثم الجريمة في كل ركن من أرجائه!)
- (يا للآلهة! إنها تشم رائحة الدماء. . . وكأنها قريبة منها بل هي بين ناظريها لا شك!)
- (أجل!. . . أجل. . هناك. هناك. هناك. وهاكم برهان قاطع. . . تشمموا معي. . ولكن. . . لا. . . إني أرى. . . إني أنظر. . . الأطفال الأطهار الذين ذبحوا. . . هاهم يتصايحون بقاتلهم وهاهي لحومهم. . . الشواء!. . . مسكين أبوهم لقد أكل. . .! لقد قرت لحومهم في بطنه!)
- (أيتها الفتاة! لقد طبقت شهرتك الآفاق كنبية تكشف الغيب ما كان منه وما يكون! ولكنك هنا. . . ولا حاجة لهذا المكان الرهيب بأنبياء!)
- (آه!. . . وما ذاك أيضاً! ويلي! جريمة جديدة وحزن جديد، ثمرة مرة من ثمرات الطغيان! إنها تدبر الآن. . . تحت سقفك أيها القصر الهائل! طاعون! طاعون مهلك لا سبيل إلى الفرار منه! من عمل البغضاء العمياء للمحبة المبصرة! الغوث! ويلاه لا غوث!)
- (لا أكاد أستبين هذه النبوءة! لقد كانت الأولى جلية واضحة! وكل مدينتنا ما تزال تتحدث حديث الوليمة المجرمة!)
- (يا شقية! زوجك يا شقية! كيف تجسرين؟ ها هي! إنها تمد يدها الأثيمة! إن الضربة الهائلة تتلو الضربة الهائلة!. . .)
- (ولم أفهم بعد! إن نبيتنا تلغز. . . إن نبوءاتها طلسمات)
- (يا للشبح! ويلاه! ما عساه أن يكون؟ شراك من الموت. . . ومن الجحيم! بل هو شرك الغرفة السوداء. . . غرفة الشريك المجرم! هلمي يا غربان الويل. . . يا أبابيل الأثيم! هوى فوق هذا القصر. . . أو إن اسطعت فارجميها. . . أرجميها!. . . .)
- (أية أبابيل تستنزلين رجومها على القصر؟ إن دعاءك يذهلني! عن قطرات الموت المسمومة تتسرب إلى شغاف قلبي؛ حينما تتسرب لمع الحياة من جراح

(. .القتلى. . . . .! أوه. . . . ما أسرع الحزن انحداراً في القلوب؟
-) ماذا أرى؟ آه. . . أسرعوا. . . أسرعوا فاحجزوا البقرة واحموا العجل! انظروا! انظروا! إنها تأخذ بتلابيبه. . . وتخوض في لبته بسلاحها. . . آه. . . . لقد سقط المسكين يتشحط في دمه الغزير. . .!)
-) لقد كنت أفخر بما أقدر عليه من كشف للغيب، أحدس الآن أن هذا الهذيان لا يدل على خير!! يا للآلهة؟ أبداً لم يكن الترجيم جلياً بيّناً! وأبداً لم يضف الأنبياء إثارة حبور على هذا الكون! إن الأشجان بضاعتهم دائماً، وإن للغو من القول آلتهم إلى أذهان الناس، وهم لا يضربون إلا على أوتار الذعر ليصلوا إلى غور قلوبنا!)
-) ويلي! يا لحظي العاثر! لقد أترعت الكأس بما رويت من قصتي السادرة! لم جئت بي
(إلى هذا القصر معك أيها التعِس؟ ألأموت معك! وماذا أيضاً؟ لأموت؟ لأموت؟
-) ما تزدادين إلا هذياناً وهذراً!؟ وما بك إلا مس؟ وأنا لا ندري: هل حملك إله إلى هذا القصر للتغني حظك العاثر، كما تفننت أختك البلبلة الحزينة من قبل. . .)
-) يا ويح لي! ومن لي بنصيب مثل نصيبها! الحورية الجميلة التي منحتها الآلهة ريشاً وأجنحة؟ لقد سلمت وودعت وفازت بحياة طيبة. . . أما أنا. . . فقريباً أشق بنصل حاد فأكون شطرين. . .!)
-) يا عجباً! أنى لك هذا؟. . . من بذر فيك هذه البذرة السوداء؟ أنى لك تلك الأغنية الكئيبة، وهذا اللحن الحزين؟ من أين تتنزل عليك موسيقاك الباكية؟ من أوحى إليك بهذا الوسواس الخبيث؟. . .)
(البقية في العدد القادم)

دريني خشبة

القفاز

بقلم حسين شوقي

(س) عنده الصفات التي تكفل عادة للمرء النجاح في ميدان الحياة: الذكاء والشباب وحسن المنظر. . ولكنه خجول لسوء الحظ إلى حد بعيد، وقد أفسد عليه خجله أموراً كثيرة وعاق مستقبله، إذ أن س لا يعمل غير عمل متواضع، في محل تجاري متواضع. . ماذا يفعل (س) في خجله؟ ماذا؟ لماذا عالج هؤلاء الإغريق الحكماء الفهاهة بوضع قطع من الحجر في الفم ولم يفكروا في معالجة الخجل؟. .

وإذا كان خجل (س) عاق مستقبله المادي، فإنه كان اشد عليه ضرراً في ميدان العاطفة. . إذ انه برغم كونه في ريعان الصبا لم يعرف الحب بعد. . أو على الأصح لم يتصل بفتاة ما. . مع انه تواقاً بشدة إلى الحب. . كم خفق قلبه في (السينما) عندما يتلاقى المحبان على الشاشة بعد فراق طويل!. وكان إذا عاد إلى منزله بعد مشاهدة مثل هذه المناظر الغرامية، يرتمي إلى المخدة ليدفن فيها حزنه وألمه، ويأخذ في البكاء الشديد. . لم يجد (س) في حياته الجرأة لمغازلة الفتيات، حقيقة إن بعضهن غازلنه، ولكن س لم يكترث لهن، لأنهن كن يتفاوتن في الدمامة، و (س) لا ينظر إلا إلى الجمال، لان الحب في نظره أمر سماوي مقدس. . وكثيراً ما كان يذهب إلى المتنزه العمومي، حيث كان يأمل التعرف بسهولة إلى حبيبة القلب المرتقبة. . فهناك ربما تنسى فتاة منديلها، (أو حقيبة يدها) على أحد المقاعد، فيلتقطه ويقدمه لها، فتتم بهذه السهولة المعرفة بينهما. .

يا للعجب! هاهي أمنية (س) تتحقق، لان المقادير التي تضن علينا بكسب سباق (الدربي)، لاتضنّ علينا بتحقيق أمانينا المتواضعة. .

إليك كيف تحققت أمنية (س):

شاهد (س) ذات يوم سيدة رائعة الجمال (كما تخيلها في أحلامه) تجلس في المتنزه على أحد المقاعد وهي تقرأ كتاباً في يدها باهتمام شديد، فجلس (س) حيالها على مقعد يترقّب فرصة التعرف إليها. . ثم لم يمض زمن طويل على هذا، حتى نهضت السيدة من مكانها ونسيت حقيبة يدها على المقعد (كما تمنى س) فنهض من فوره ليلتقط الحقيبة ويقدمها إليها، ولكن قدوم شرطي في هذه الأثناء أفسد عليه الأمر إذ خشي س إن يحسبه الشرطي

لصاً. . وكان من حظ الشرطي تقديم الحقيبة لها، وقد شكرته السيدة بابتسامة ساحرة وانصرفت. .
. .!مسكين (س)، كم كان مغتماً لخروجه من المتنزه في ذلك اليوم
ولكنه لم ييأس، فعاد في اليوم التالي إلى الحديقة في المكان نفسه، عساه يجدها هناك مرة أخرى، فإذا بالسيدة الحسناء جالسة على المقعد نفسه تقرأ!. . وكان من حسن حظه إن السيدة نسيت في هذه المرة أيضاً حقيبتها على المقعد، لدى انصرافها، فالتقطها وهرع فقدمها إليها، قائلا في تردد شديد:
- إنها المرة الثانية التي تنسين فيها حقيبتك يا سيدتي!
- هذا حقيقي! ولكن كيف عرفت ذلك؟
- كنت هنا بالأمس عندما فقدتها، لقد هممتُ وقتئذ بالتقاطها وإعادتها إليك، ولكن قدوم الشرطي أفسد عليّ الأمر فقد خشيت أن يظنني سارقاً. .
فضحكت السيدة عندئذ ضحكة عالية لسذاجة الشاب وبساطته. . ثم أذنت له في مرافقتها في السير، كما تولت إدارة الحديث بعدما رأته على هذه الحال من الخجل:
- إني لا بد أن أنسى شيئاً عندما أقرأ كتاباً. .
- إن ما تقرئينه لا بد أن يكون ممتعاً جداً حتى ينسيك حقيبتك يومين متواليين. .
- هي رواية بوليسية. . إني شديدة التعلق بالروايات البوليسية لأن حبك الدسائس يتطلب ذكاء نادراً. .
. .كم أسف (س) عندئذ لعدم قراءته قصصاً بوليسية، ولقد بدا عليه الآسف واضحاً
قالت - ربما كان المشي يتعبك؟
- أبداً!
يا لسذاجتها! إن (س) ليصعد معها جبال الهملايا عن طيب خاطر!
- إني مضطرة إلى المشي كل يوم. . لمعالجة الأملاح. . .
تذكر (س) عندئذ اسم دواء للأملاح كان أوصى به طبيب لأخته فصاح قائلا:
- هناك دواء نافع للأملاح أسمه. . . .
ولكنها قاطعته في سحرية:
- دواء؟ صدقني ليس هناك ما هو خير من المشي. . .
وبعد أن تنزها نصف ساعة وصلا إلى باب الخروج فاستأذنت وانصرفت بعد أن وعدته بالحضور إلى الحديقة في اليوم التالي للتريض. . .
كم كان سعيداً في ذلك اليوم! هاهي ذي أحلامه تتحقق! إن جمال هذه السيدة هو أسمى ما يطمح إليه! أما هي، فقد شعرت من فورها (باستلطاف) نحو هذا الشاب الساذج الخجول، لأنها لم تشاهد حولها في وسطها الراقي (إذ كانت من طبقة الأشراف) غير رجال أشبه بالطيور الجارحة. .
وفي اليوم التالي بكر في الذهاب إلى الحديقة، حيث التقى بسيدة أحلامه، وقد تروضا هذه المرة ساعة بدل من نصف ساعة. . .
ثم تقابلا في الأيام التالية. . .
وكانت هذه السيدة الحسناء تلبس دائماً قفازاً أسود طويلاً، ودّ (س). لو نزعته حتى يستطيع أن يطبع قبلة على يديها المحبوبتين. . .
وكان كلما طلب منها ذلك رفضت في لطف. .
وقد ألح يوما عليها فقالت:
- سوف تندم يا عزيزي لو نزعت قفازي. . .
- هل تعنين إن يدك غير جميلة؟
- أجل إن يدي اليمنى بها ست أصابع. . .
- إذن الثم اليد اليسرى
- اليد اليسرى ينقصها إصبع. . .
- فليكن ذلك
- أقول لك إنك سوف تندم
ولكنه ألح إلحاحاً شديداً اضطرت السيدة إزاءه أن تخلع القفاز، ولكنه بدلاً من أن يلثم يدها التي نزعت عنها القفاز، صرخ صرخة مؤلمة ثم سقط مغشياً عليه إذ لمح في

. . .يدها خاتم الخطوبة

حسين شوقي

البريد الأدبي

كتاب لزعيم الاشتراكية الفرنسية

منذ بضعة اشهر توفي الفريد دريفوس الضابط اليهودي الفرنسي وبطل القضية الشهيرة التي هزت فرنسا منذ ثلاثين عاماً وكادت تدفعها إلى غمر الحرب الأهلية؛ وقد صدرت عن هذه المأساة القضائية الشهيرة أثناء وقوعها وبعد عشرات من الكتب بمختلف اللغات، وصدرت بمناسبة وفاة بطلها عدة كتب ورسائل جديدة؛ ومن ذلك كتاب صدر أخيراً بقلم الزعيم الاشتراكي الفرنسي ليون بلوم وعنوانه (ذكريات عن القضية) ' أعني قضية دريفوس؛ ومسيو بلوم رئيس الحزب الاشتراكي الفرنسي، وله ولحزبه مكانة قوية في الحياة السياسية والبرلمانية الفرنسية؛ وقد كان لموقفه أثر فعال في التطورات السياسية الأخيرة وفي سقوط وزارة مسيو لافال، ومسيو بلوم فضلاً عن كونه سياسياً وخطيباً كبيراً؛ كاتب كبير أيضاً، وهو يتولى تحرير المقالات السياسية في جريدة (بوبولير) الاشتراكية، وله فيها جولات رنانة، وقد كان مسيو بلوم وقت وقوع مأساة دريفوس فتى في عنفوانه ولكنه كان قد شق طريقه السياسي، وخاض غمار الحوادث السياسية والحزبية التي أثارتها القضية الشهيرة؛ ونحن نعرف الآثار السياسية والاجتماعية والعقلية العميقة التي أحدثها النضال بين أنصار دريفوس وبين خصومه، وكيف انشطرت الحياة العقلية الفرنسية يومئذ إلى شطرين: أحدهما يتجه إلى تأييد ما يسميه (الحقيقة والعدالة) بتأييد دريفوس، والآخر يتجه إلى تأييد النزعات القومية والعسكرية المغرقة التي أثارت هذه المأساة الشهيرة، ويصور مسيو بلوم في كتابه هذه الحوادث والتطورات تصويراً قوياً، ويشرح لنا البواعث النفسية والعقلية التي كانت تدفع أنصار دريفوس إلى العمل لنصرته وتبرئته. فهؤلاء كما يقول مسيو بلوم كانت تربطهم عواطف قوية هي الثقة في (قوة الحقيقة)، وتدفعهم حماسة مضطرمة إلى ما فوق أنفسهم، ويرى مسيو بلوم شبهاً قوياً بين حادث انهيار شركة بناما ومأساة دريفوس وهي أعظم حوادث هذا العصر، وبين نكبة استافسكي الأخيرة وما تلاها من الحوادث الدموية في فبراير سنة 1934؛ فقد كان من ورائها العسكريون والوطنيون دائماً يثأرون لهزيمتهم في انتخابات سنة 1932؛ وقد كانت دسائس العسكريين والوطنيين مثار قضية دريفوس، والخلاصة أن مسيو بلوم يقدم إلينا في أثواب اشتراكية واضحة، فإنه مع ذلك يسبغ عليها بقلمه وبيانه كثيراً من الأناقة والطرافة. وكتابه جدير باهتمام أولئك الذين تذكي خيالهم وتشجيعهم حوادث المأساة الشهيرة.

وفاة مؤرخ وصحفي كبير

نعت إلينا الأنباء الأخيرة مؤرخاً وصحفياً فرنسياً كبيراً هو فرنسوا جاك بانفيل؛ توفي في نحو الخمسين من عمره، وفي ذروة حياته الأدبية وكان بانفيل كاتباً وصحفياً كبيراً، يحرر القسم السياسي في جريدة (لاكسيون فرانسيز) لسان الحركة الملوكية بفرنسا وكانت مقالاته وبحوثه يطبعها دائماً نفس الطابع الذي عرفت به هذه الجريدة المجاهدة والذي يسبغه عليها كتاب عظام ملكيون مثل شارل موراس وبانفيل. بيد أن بانفيل كان يحرر في صحف أخرى مثل (بتى بريزيان) و (لاليبرتيه) ليس لها مثل هذا الطابع. ومع إن بانفيل كان صحفياً بارزاً يدفعه الغمار الصحفي دائماً إلى المعترك، فإنه لم ينس نزعته الحقيقية، وهي نزعة المؤرخ الذي ينظر إلى الحوادث بروح علمي مستقل؛ وقد ترك لنا عدة كتب تاريخية تشهد ببراعته النقدية وحسن تقديره للحوادث والأشخاص منها تاريخ لفرنسا، وتاريخ للجمهورية الثالثة، ومنها تاريخ لألمانيا المعاصرة حتى قيام هتلر، وتاريخ للطغاة المعاصرين مثل ستالين وموسوليني وغيرها؛ وتمتاز كتبه وبحوثه بقوة التصوير، وسلامة العرض، والبحث العميق.

علم المثلثات والعرب

تعليق على مقال في مجلة نايتشر

في الشهر الماضي ظهر في مجلة نايتشر الإنكليزية مقال من قلم أدجر سمث تناول فيه البحث عن نوابغ العلماء والأدباء الذين ولدوا في الأعوام 1536، 1636، 1737، 1836 بمناسبة حلول العام الميلادي الجديد 1936، وقد جاء في هذا المقال أن ريجيو

مونتانوس كان من أعظم رياضي زمانه، ومن رجالات العلم البارزين في عصره، وإنه كان أيضاً موضع إعجاب وتقدير من ذوي السلطات الزمنية والروحية، وإليه يرجع الفضل في نقل بعض علوم اليونان والمسلمين إلى الغرب، وفي تعريف الأوربيين إليها - كل هذا صحيح لا سبيل إلى نكرانه ولا يختلف فيه باحثان. . . ولكن هناك شيئاً واحداً أحببت التعليق عليه

وهو القول: (بأن ريجيو مونتانوس ألف في الرياضيات وأن كتاب المثلثات هو أول ثمرة من ثمار ريجيو مونتانوس، ومجهوداته في المثلثات على نوعيها المستوية الكروية، كما أنه أول كتاب بحث فيها بصورة منظمة علمية. . .)

اختلف العلماء في محتويات كتاب الذي وضعه ريجيو مونتانوس، وفي نسبتها إليه، فبعضهم يدعى أن كل محتويات الكتاب هي من وضع ريجيو مونتانوس وأنه لم يستعن في ذلك بأحد، وبعضهم يقول بخلاف ذلك، وبقي هذا الاختلاف زمنا طويلاً إلى أن ثبت حديثاً أن ريجيو مونتانوس أعتمد في بحوثه في هذا الكتاب على مؤلفات العرب والمسلمين. ولا عجب في هذا فإليهم يرجع الفضل الأكبر في وضع كثير من نظريات علم المثلثات وموضوعاته، وإليهم لا إلى غيرهم يرجع الفضل أيضاً في تقدمه ورقيه، ولولاهم لما وصل الغربيون فيه إلى ما وصلوا إليه

وينقسم كتاب ريجيو مونتانوس إلى خمسة فصول كبيرة منها ما يبحث في المثلثات المستوية، ومنها ما يبحث في المثلثات الكروية، وقد ثبت لدى الباحثين أن الأصول التي اتبعها ريجيو في الفصل الخامس هي بعينها الأصول التي اتبعها العرب في الموضوع نفسه في القرن الرابع للهجرة - هذا ما توصل إليه العالم المحقق التركي صالح زكي بعد دراسة مؤلفات ريجيو مونتانوس وأبي الوفاء اليوزجاني، ومما يزيد المرء اعتقاداً بهذا كله اعتراف كاجوري بأن هناك أموراً كثيرة وبحوثاً عديدة في علم المثلثات كانت منسوبة إلى ريجيو مونتانوس ثم ثبت حديثاً أنها من وضع المسلمين والعرب، ويوجد غير كاجوري أمثال سمث وسارطون وسيديو وغيرهم من اعترف بأن بعضاً من النظريات والبحوث نسبت في أول الأمر إلى ريجيو مونتانوس وغيره ثم ظهر بعد الاستقصاء خلاف ذلك.

نابلس

قدري حافظ طوقان

كتاب جديد لبول موران

بول موران من أعظم كتاب فرنسا المعاصرين، وهو بلا ريب أحدثهم نزعة، وأوفرهم طرافة؛ وربما كان ذلك يرجع إلى تكوينه وظروف حياته؛ فقد درس في باريس، وأكسفورد، وأدنبورج، ودرس الأدب والقانون، وهيأت له حياته كموظف في السلك السياسي فرصة واسعة للسياحة والدرس؛ واتخذت أشعاره وقصصه الأولى أحدث طابع؛ وظهرت كتبه الأولى ومنها مجموعة القصص المسماة (مفتوح بالليل) و (مغلق بالليل) فكانت تحفا بديعة جديدة في الأدب الفرنسي؛ وأشد ما تبدو قوة بول موران وطرافته في تصوير حياة المدينة، وقد اشتهر بكتابيه عن لندن ونيويورك حيث يصور فيهما الحياة الظاهرة والخفية في تينك العاصمتين الكبيرتين أقوى تصوير وأبدعه؛ وبول موران سائح لا تخمد له رغبة أو هوى، يضرب في أنحاء العواصم الكبرى وينفذ إلى أعماقها وخفاياها، وقد أصدر أخيراً كتاباً عن عاصمة جديدة هي (بوخارست) وذلك بعد أن أقام في رومانيا ردحاً من الزمن؛ وعنوان الكتاب الجديد لا يثير لأول وهلة اهتماماً كبيراً لأن بوخارست ليست من العواصم الكبرى ذات الشهرة الرنانة، ولكن بول موران يسبغ عليها بكتابه سحراً وروعة؛ وهو يرى أن يثير بهذه المناسبة ذكرى بيزنطية وذكرى روسيا القيصرية؛ بيد أنه يتناول المدينة الحديثة وحياتها. ويرى فيها مفترق المدنية الأوربية، وبدء انسيابها إلى الحياة الآسيوية؛ ويصف المجتمع الروماني وخلاله، وميله إلى الطرب والاستهتار، وما يمتاز به من الدعابة والنكتة؛ ثم يصف مجتمع الريف في صور ساحرة، ويرى في خلاله وعاداته طرافة ليست لمجتمع المدينة؛ ويخصص موران فصولاً ونبذاً عديدة لحياة (النور) الذين يكثرون في رومانيا وخلالهم وفنونهم، ويقدم إلينا عن مختلف طبقات الشعب الروماني كثيراً من المعلومات والحقائق المفيدة الطريفة معاً

وبول موران لا يجاوز اليوم الثامنة والأربعين من عمره، ومع ذلك فهو يتبوأ منذ أعوام

طويلة المقام الأول في ثبت الكتاب المحدثين
ذكرى مخترع القاطرة
احتفل أخيراً في إنكلترا بالذكرى المئوية الثانية لمولد جيمس وات مخترع القاطرة البخارية، واتخذ الاحتفال صيغة رسمية، فأقيمت صلاة على روحه في (وستمنسترابي)، ورفع الستار عن لوحة تذكارية أقيمت في بلدته (جرنيوك) من أعمال اسكتلندة، ونثرت زهور كثيرة على أثره التذكاري ببلدة برمنجهام أعظم مصنع لصناعة القاطرات في إنكلترا؛ وأقيم في لندن معرض علمي عرضت فيه نماذج من الآلات والقاطرات البخارية
منذ اختراعها إلى اليوم؛ وقد خصص المعهد الميكانيكي الإنكليزي بهذه المناسبة جائزة تعطى لمن يقوم بأفضل اختراع في ميدان الهندسة الميكانيكية، سواء في إنكلترا أو في غيرها من البلاد
وقصة وات شهيرة في تاريخ الاختراع، فقد ولد في سنة 1736 وكان طفلاً سقيماً فلم يتلق تربيته قبل الثالثة عشرة؛ ودرس الهندسة العملية، واشترك في أعمال وتجارب هندسية خطيرة؛ وفي سنة 1764 توصل إلى الوقوف على سر البخار كقوة محركة، وذلك أثناء إصلاحه آلة بخارية وضع تصميمها جون نيوكمن؛ وفي العام التالي استطاع أن يصنع جهازاً لحفظ قوة البخار، ثم وضع تصميماً لآلة بخارية جديدة صنعت في معامل سوهو بالقرب من برمنجهام، وكان هذا مولد القاطرة الحديثة.
الكتب
الفن الإسلامي في مصر
للدكتور زكي محمد حسن المساعد العلمي بدار الآثار العربية
هذا الكتاب الثمين ليس سوى الجزء الأول من ثلاثة أجزاء وعد المؤلف بإصدارها. إذ رأى أن لتاريخ الفن الإسلامي في مصر حلقات ثلاثا: تبدأ الأولى بالفتح العربي وتنتهي بسقوط الدولة الطولونية، وتشمل الثانية عصر الفاطميين، وتحتوي الثالثة على عصر المماليك. وخص هذا الجزء بالحلقة الأولى وكشف في مستهله عن سر النزعات في هذا الفن بإيراده مقدمة تاريخية سياسية تفصح للقارئ عن أثر كل تطور خاص بسياسة الدولة المصرية في الفن الإسلامي
وطبيعي أن يعني المؤلف الفاضل بناحية البحث في تاريخ فن العمارة وزخرفة البناء الإسلامية عناية خاصة. وليس ذلك لمجرد مطابقة هذه الناحية من الفن لطابع العرب الديني، بل ولأنه أيضاً استرعى أنظارهم وهم البدو ومساكنهم الشعر، ولاءم مزاجهم الرياضي الفني، واتفق وغرضهم من التعمير - على حد ما نعتقد
ولم يستكمل الفن الإسلامي في مصر وضوحه إلا في عصر الطولونيين. وكان فناً مستقلاً عن الفن الذي ازدهر في سامرّا مدينة المعتصم
واستعرض المؤلف تاريخ تلك المدينة منذ نشأتها، ثم واصل عرض آراء العلماء في شان فنها، وأخذ يوازن بين الخطأ في تلك الآراء والصحيح منها
ومن أهم النظريات التي أثبتها اعتبار زخارف سامرّا غير متأثرة بأساليب الفن السيتي إلى حد كبير، كذلك اعتبار أن الجند الترك لم يكن لهم من الناحية الفنية شيء يذكر في عهد الخلفاء العباسيين، وان الفرس بماضيهم الفني المجيد أكثر استعداداً من الترك للتأثير في الفنون الإسلامية، ولو أن ذلك الرأي قال به غيره، إلا أنه عززه بأدلة مما عثر عليه من صور في سامرّا، ولم يفت المؤلف ذكر توافد مهرة الصناع العراقيين والفارسيين والإغريق وغيرهم على سامرّا، فأصبح الفن هناك خليطاً
وتكلم المؤلف في الفصل الثاني من الكتاب عن العمارة الدينية، ولا شك أن العمارة بلغ بها المسلمون شأواً بعيداً، إذ هي عندهم أجلّ الفنون، فابتدعوا فيها وأبدعوا؛ ويعد جامع احمد
بن طولون أهم الآثار العربية في مصر وأقدم شاهد على المدنية الإسلامية فيها. ودحض المؤلف فكرة أن هذا الجامع كان من مساجد المعسكرات. وهي فكرة رائجة بين عدد من علماء الفرنجة
ثم جاء في الفصل الثالث على ذكر العمارة الحربية والمدنية التي لم يبق منها لعهد الأسرة الطولونية سوى قاطر بن طولون. إلا أن مؤرخي العرب ومؤلفي الخطط أفاضوا في وصف مدينة القطائع والبيمارستان وكذا القناطر. وذكر المؤلف بعض

تفاصيل شائقة عن تأسيس مدينة القطائع وعن قصر ابن طولون بها الذي حاكى به قصور الخلفاء في سامرّا. وجاء بوصف ممتع للقصر وما حوى وما أضافه ابنه خمارويه عليه من أبنيه وحدائق. وكان لتنقيب دار الآثار العربية وعثورها في صيف سنة 1932 على أطلال منزل طولوني بالتلال المجاورة لأبي السعود الفضل في الاستدلال على بعض قواعد وأصول العمارة المدنية الخاصة بالعصر الطولوني. وذكر المؤلف أن قناطر ابن طولون شيدت في الجهة الجنوبية الشرقية من مدينة القطائع. ولازالت بعض عقود القناطر قائمة حتى اليوم ومنها يستدل على متانتها وبديع الصناعة فيها: والمعروف أن المهندس النصراني الذي تولى لابن طولون بناء هذه العيون هو نفس المهندس الذي شيد له فيما بعد المسجد الجامع

أما زخرفة المباني للعهد الطولوني التي وردت في الفصل الرابع من الكتاب، فهي اكثر الفنون التي تأثرت بالصناعة العراقية والفن الذي ازدهر في سامرّا. وعالج فيها المؤلف مشكلة اختلف فيها العلماء وهي هل كان موطن هذه الزخارف ومكان نشأتها البلاد المصرية، أم أن الزخارف الطولونية مأخوذة عن الزخارف العراقية في سامرّا؟ ورأى المؤلف في الجمع بين الرأيين حلا لمشكلة: وقد حلل الدكتور محمد حسن الزخارف إجمالاً تحليلاً دقيقاً، لا نستطيع إلا أن نحيل القارئ إلى ما كتبه عنها ثم انتقل في كتابه إلى الفنون القديمة، ومهد لها بكلمة جامعة قيمة. وأتى في الفصل الأول على تاريخ صناعة النسج في مصر وتطورها، فاستغنى شيئاً فشيئاً عن الرسوم الآدمية والحيوانية التي كانت في الفن القبطي، وقوى الميل إلى الزخارف الهندسية، كما لعبت الكتابة دوراً هاماً في هذه الصناعة. وكانت صناعة الحرير والقطن والكتان من الجودة بدرجة إن المباراة بين الكنائس والمساجد والأسواق الخارجية كانت تتزاحم للحصول على

منسوجات مصر. ومع كل فلم يطبع النسيج بطابع إسلامي إلا ابتداء من العصر الفاطمي.

ثم تكلم المؤلف عن الحفر على الخشب، وأبواب استعماله في مختلف أنواع المباني والزخرف. ويمكن اعتبار أن هذا الفن الفتي بقي حافظاً للتقاليد القبطية زمنا طويلاً، بدليل ما كان بقصر ابن طولون؛ وأبان المؤلف ذلك كما أبان النزعة إلى الكتابة على الخشب في عهد ابن طولون. ثم عالج في اقتضاب تطور الخط العربي، ورأى إن المناسبة حسنة لذلك.

وانتهى من ذلك إلى الكلام عن الخزف، ولو أن دراسة الخزف الإسلامي لا زالت صعبة المنال، ولكن مما لا جدال فيه أن الخزف الإسلامي يمتاز بالجودة عن الخزف المصري في العهد القبطي فكان الخزف في العهد الطولوني يصنع من طينة رقيقة. ويمتاز بزخارف ذات بريق معدني، ذي لون أصفر أو زيتوني على أرض بيضاء أو بيضاء مشوبة بالصفرة. وهذه المميزات نفسها نجدها في الخزف الذي عثر عليه في سامرّا

ثم ختم أبحاثه ببحث عن التصوير طريف. وفيه ذكر إن التصوير الذي ينسب إلى مدرسة بغداد كانت تعد سورية أو العراق أو إيران مصدره، وإن فن التصوير لم يزدهر إلا في تلك الأقاليم متأثراً بالتعاليم الفنية التي أخذها العرب عن المانويين واليعاقبة والصينيين. وظلوا لا يفكرون في مصر كمهد لمدرسة من مدارس التصوير الإسلامي حتى كان الاكتشاف المشهور في الفيوم، ذلك الاكتشاف الذي أثبت وجود صور مصغرة إسلامية ترجع إلى القرن التاسع والعاشر والحادي عشر. ولم يترك المؤلف هذا الفصل دون أن يعالج ما يسمونه تحريم التصوير في الإسلام، وقد أجمل القول بأن نظرة في الكتاب الكريم، وفي كتب التفسير، وفي أسباب النزول كافية لأن تثبت إن هذا الزعم باطل لا أساس له وإن كان مكروهاً

وعقد المؤلف للكتاب خاتمة ألم فيها بالصناعات التي عرفتها مصر في فجر الفنون الإسلامية، وذكر في لمحات سريعة تطورها حتى نهاية العصر الطولوني، وأشار إلى أن رجال الفنون والصناعات في القرنين الأول والثاني بعد الهجرة، كانوا من المصريين سواء في ذلك من أعتنق منهم الإسلام ومن ثبت على المسيحية

ولا شك في أن الدكتور زكي محمد حسن قد أحسن دراسة موضوعه وسار ببحثه سيراً هادئاً؛ وكان قديراً في مناقشة حجج علماء الفنون الإسلامية، وفي تدعيم آرائه بالبينة،

وليس ذلك بالأمر الصعب على مثله، وقد راجع عشرات الكتب، ومحص عديد التحف قبل أن يستقر على رأي يبديه في جملة متواضعة، وفي أسلوب سهل رصين، وكان موفقاً في تنسيق بحثه تنسيقاً محكماً حتى كاد يبدو تحفة في ذاته، وساعده جمال الطبع والورق والتجليد على زيادة بهائه ورونقه، وقد يهم القارئ أن يعرف إن المؤلف لم يترك كتاباً قرأه في ذلك البحث إلا وذكره ضمن مراجعه، كما ذيل الكتاب بتراجم أهم الأسماء الواردة في الكتاب وكذلك ذيله بلوحات فوتوغرافية غاية في الإتقان لإيضاح ما تكلم عنه

ولسنا وحدنا الذين نثني على حضرة الدكتور زكي محمد حسن وعلى عمله وجهده هذا، ولا عيب عليه سوى أن يتركك بعد قراءة هذا الكتاب، أو قل دراسته، تتلهف لقراءة المطولات من كتبه.

العدد 138 - بتاريخ: 24 - 02 - 1936

مصر في المعرض!

- 1 -

أليس من حسن توفيق الله أن يجلس المفاوض المصري في قصر الزعفران، ومن ورائه مصر العالمة العاملة محشودة كلها بسودانها وصعيدها وريفها في المعرض! تشدد قوته بروح النهضة، وتؤيد حجته بدليل الحس، وتسند هيبته بروعة الواقع؟

أليس من الجميل عون الله أن يتألف من ذات مصر ومعناها على النحو الذي تراه في المعرض قياس عجيب الإنتاج، وقصيد قدسي الإلهام، وخطاب سحري البيان، ودفاع قوي الأثر، في الوقت الذي بسَّ فيه اللورد لويد عقاربه هنا وهناك، يلسعون بالتمائم، ويدبون بالأراجيف، ويُقَسِّمون رأيهم في الأمر على أن مصر بطبيعة ضعفها متخلفة لا تلحق وتابعة لا تستقل؟!

تعالوا يا طلائع الاستعمار، وصنائع الامتيازات، وثعالب الكرامة! هذه هي مصر الحقيقية قد عرضت عقلها ويدها في ستين فداناً من الأرض لتيسِّر لكم وسيلة الحكم، وتقصر عليكم مدى النظر؛ فلطالما خدعكم عن حقيقتها مغرورٌ يريد الحكم، أو منهوم يرغب المال، أو محروم يطلب الوظيفة.

زوروا المعرض الزراعي الصناعي تجدوا مصر التي لا تقرئونها في صحيفة، ولا تسمعونها في خطبة، ولا تبصرونها في مظاهرة، ولا تقابلونها في ملهى، ولا تحادثونها في حزب! هي تجري مع الزمن في سكون، وتعمل مع الطبيعة في صمت، وتتشقق عن ثمار النبوغ كما تتشقق الأكمام عن أريج العطر في هدوء الغسق!

زوروا أيها المفاوضون عن الحليفة المتجنِّية معرض الجزيرة قبل أن تدخلوا سراي العباسية، تلمسوا في كل ناحية من نواحي النشاط الصناعي ألف دليل ودليلا على نضوجنا المدني؛ لأن الإنتاج الزراعي إذا رجع إلى عمل الله وفطرته، فأن الإنتاج الصناعي مرجعه إلى فكرة الإنسان وقدرته؛ وقد عَدَوْنا ذلك الطَّور منذ سنين، وأصبحنا نُصَرِّف عمل الطبيعة، ونستخدم ثروة الأرض، ونساهم بحذق في ترفيه الإنسان بين الهرم والنيل شاهدي القرون وعَيْني الأسلاف، احتشدت مصر الحديثة حكومةً وأمة، تقدم إلى أمْسها الحساب الذي يبرى الذمة، وإلى يومها الذي يجدد الطريق، وإلى غدها الأمل الذي يحدد الغاية!

الزارع والصانع والتاجر والعالم والأديب والموظف قد اثبتوا بهذا العرض الموفق في إخلاص غير غالٍ ولا مفتعل، أن مصر التي تسير في مؤخرة الدول بسياسة الكلام، تجرى في مقدمة الشعوب بسياسة العمل!

ودلالة ذلك أن بين الأمة وقادتها حجاباً من الجهل والعزلة لا ينفذ منه الشعاع، ولا تنعكس عليه الروح، ولا ترتسم فيه مقاييس التقدم! على أن أكثرنا لا يزيد علمه بهذا البلد المظلوم على علم هؤلاء القادة؛ فقد كنا نرى في المعروضات الأهلية والحكومية نفائس الصناعة ودقائق الفن، من ضروب اللباس والأثاث والآنية والزينة، فيداخلنا الشك في أنها مصرية؟ ولكنا نرى بجانبها الآلة تدور، والصانع يعمل، والمنتوج يخرج كالمعروض في دقته وأناقته، فيستولي على المرء شعور قوى غريب، فيه الخجل من سوء الظن، وفيه اللذة من دهشة المفاجأة، وفيه الاقتناع بصحة النهضة، وفيه الاطمئنان على سلامة الوطن. هذا الإنتاج الفاخر هو الذي يقدمه إليك التاجر الأوربي

في بيوت البيع الكبيرة بلسانه المعسول وغلافه المقبول وكلمته الواحدة وسِمَته المزورة، فتشتريه بالثمن الغالي على أنه وارد من البحر، قد تجشم اكلاف النقل، وتكلف رسوم الجمرك وتكبد أضرار الخسارة، وهو مصري اشتراه الأوربي بالغبن وباعه بالخديعة، وحرم الصانع المصري المسكين أجر العمل بسرقته القِيمة، ومجد الصنعة بسرقته النسبة. وعلة ذلك كله أن المنتج المصري قد جعل الكذب جزءاً من رأس المال، وأن المستهلك المصري قد جعل المساومة شطراً من الثمن، فكان لابد من هذا الوسيط الأجنبي بينهما ليستر بخداعه كذب المنتج، ويبطل بمهارته مساومة المستهلك!

معرض هذا العام قطعة من الفن العجيب عملت فيها يَدٌ صَاعٌ وفكرةٌ فنَّانة؛ فالوزارات والمصالح تتقدمها وزارة المعارف ووزارة الزراعة من جهة، والشركات والجمعيات تتزعمهما شركات بنك مصر والجمعية الزراعية من جهة أخرى، تضافرت كفاياتها وتسايرت رغباتها على تمثيل النشاط المصري هذا التمثيل الناطق الصادق المعبر، فلا تجد عملاً من أعمال اليد، ولا أثراً من آثار الذهن، إلا منظوماً بفن، ومعروضاً بذوق، ومشروحاً بخبرة، حتى أخلاق الموظفين والمنظمين والعارضين والمتفرجين - إذا استثنيت جزءاً من إدارة المعرض - تجري على هذا النسق البديع من الجمال والنظام والدقة! وسنقف بعد هذه النظرة الخاطفة والكلمة العجلى على كل قسم من أقسام المعرض فنستنبئه عن أمره، ونستكشفه عن سره، ثم نطالعك بما نلاحظ من أسبوع لأسبوع. . .

احمد حسن الزيات

الزاهدان - 2

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال أحمد بن مسكين: وانتشر حديث السمكة في أهل (بلخ)، واستفاض بينهم، وكنت قصصتُه عليهم يوم السبت. فلما دار السبت من أسبوعه لقيني شيخهم حاتم أبن يوسف (لقمان الأمة) ومعه صاحبه أبو تراب، فقال: يا أحمد! لكأنك في هذه المدينة قمرٌ طلع بليلٍ فلا يعظ الناس في يوم السبت غيرك؛ ومن سمع فكأنه عاين، وليس على ألسنة أهل بلخ منذ تحدثتَ إلا بِشْرٌ وأبن حنبل، ولا على بال أحد منهم إلا موعظتك وحديثك. والكلام عن الصالحين في مثل ما وصفت وحكيت قُربٌ من حقائقهم، وسموٌّ إلى معانيهم؛ وليس في القول بابٌ له موقع كموقع القصة عن هؤلاء الذين يخلقهم الله في البشرية خلقَ النور، يضيء ما حوله من حيث يُرى، ويعمل في ما حوله من حيث لا يُرى، وفي ظاهره الجمال والمنفعة، وفي باطنه القوة والحياة. ولست أقول لك أذهب فحدِّث الناس، ولكني أقول أذهب فأعط الناس عقلا من الحديث

قال أبن مسكين: فلما صلينا العصر قدمني أبو تراب فجلست في مجلسي ذاك، وهتف بي الناس يريدون الحديث عن بِشر الحافي وما سقط لي من أخباره على الطريقة التي حدثتهم بها من قبل، فابتدئت بذكر موته رحمه الله وأن يومه كأنما اجتمع له أهل خمسٍ وسبعين سنة، إذ خرجت جنازته بعد صلاة الصبح فلم يحصل في قبره إلا في الليل مما احتشد في طريقه من خلق، حتى لكأن في نعشه سرا من أسرار الجنة في هذا، فخرجوا ينظرون إليه، وكانوا يصيحون في جنازته: هذا والله شرف الدنيا قبل شرف الآخرة

ثم قلت: حدثني حسين المغازلي أن بشراً رحمه الله كان لا يأكل إلا الخبز تورعاً عن الشبهات واكتفاء لضرورة الحياة بالأقل الأيسر، وكان يقول في ذلك: يدٌ أقصر من يد، ولقمة اصغر من لقمة. وسئل مرة: بأيّ شيء تأكل الخبز؟ فقال: أذكر العافيةَ فاجعلها إداماً. وقد أعانه على ذلك أنه لم يتزوج، وكان يرى هذا نقصاً في نفسه حتى فضَّل الإمام احمد بن حنبل بأشياء منها أن له أهلا؛ غير أنه قيل له ذات يوم: لو تزوجت تمَّ نُسْكك؛ فقال: أخاف أن تقوم الزوجة بحقي ولا أقوم بحقها، فكانت هذه النية في نفسه افضل من زواجه

وكان مع هذا لا يؤاكل أحدا ولا يسعى إلى لقاء أحد حتى أنه لما رغب في مؤاخاة الزاهد

العظيم معروف الكرخي أرسل إليه الأسود بن سالم وكان صديقا لهما، فقال لمعروف: أن بشر بن حارث يريد مؤاخاتك وهو يستحي أن يشافهك بذلك، وقد أرسلني إليك يسألك أن تعقد له فيما بينه وبينك أخوة يحتسبها ويعتد بها، إلا أنه يشترط فيها شروطاً: أولها أنه لا يجب أن يشتهر ذلك، وثانيها ألا يكون بينك وبينه مزاورة ولا ملاقاة؛ فقال معروف: أما أنا فإذا أحببتُ أحداً لم احب أن أفارقه ليلا ولا نهارا أزوره في كل وقت، وأوثره على نفسي في كل حال؛ وأنا اعقد لبشر أخوةً بيني وبينه ولكني أزوره متى أحببت، آمره بلقائي في مواضع نلتقي فيها إذا هو كره زيارتي

قال حسين المغازلي: وكان هذا كله من أمر بشر معروفاً في بغداد لا يجهله أحد من أهلها إذ لم يكن لبغداد إماما غيره وغير ابن حنبل؛ فما كان اكثر عجبي حين كنت عنده يوماً وقد زاره فتح الموصلي، فقام فجاء بدراهم ملء كفه ودفعها إلي وقال: اشتر لنا أطيب ما تجد من الطعام، وأطيب ما تجد من الحلوى، وأطيب ما تجد من الطيب؛ وما قال لي مثل ذلك قط، وهو الذي رأى الفاكهة يوماً فقال: ترك هذه عبادة! وهو القائل لأبى نصر الصياد: لو أطعمنا أنفسنا هذا ما خرجت السمكة

فذهبت فاشتريت وانتقيت وتخيَّرت، ثم وضعت الطعام بين أيديهما فرأيته يأكل معه وما رأيته أكل مع غيره، ورايته منبسطاً إليه ومالي عهد كان بانبساطه إلى أحد. وقد كنت أخبرته في ذلك النهار بخبر احمد بن حنبل عَلمتُه من إدريس الحداد؛ فانه لما زالت المحنة بعد أن ضُرب بين يدي المعتصم وصُرف إلى بيته، حمل إليه مال كثير من سروات بغداد وأهل الخير فيها، فردَّ جميع ذلك ولم يقبل منه قليلاً ولا كثيراً، وهو محتاج إلى أيسره، وإلى الأقل من أيسره، وإلى الشيء من أمله، فجعل عمَّه اسحق يحسب ما ورد في ذلك اليوم فكان خمسين ألف دينار، فقال له الإمام: يا عم أراك مشغولاً بحساب ما لا يفيدك. قال: قد رددت اليوم كذا وكذا ألفاً وأنت محتاج إلى حبة من دانق. فقال الإمام: يا عم لو طلبناه لم يأتنا، وإنما أتانا لما تركناه

قال المغازلي: فنمت تلك الليلة وأنا أفكر في صنع الشيخ وقد تعلق خاطري به كيف انقلبت الحال معه، وأي شيء هذه الحال، وجعلت أكدُّ ذهني لأعرف الحقيقة العقلية التي سلّطت عليه هذه الضرورة فتسلط النعيم على نفسه، وأنا اعلم أن للقوم علوماً روحانية ليست في

الكتب، فمنها ما لا يتعلمونه إلا من الفقر، ومنها ما لا يتعلمونه ألا من البلاء، ومنها ومنها، ولكن ليس منها ما يتعلمونه من اللذات والشهوات؛ وذهب قلبي إلى أوهام كثيرة ليست في جميعها طائل ولا بها معرفة حتى غلبتني عيناي وأنا من وهج الفكر نائم كالمريض وقد ثقل رأسي واختلط فيه ما يُعقل بما لا يُعقل

فرأيت أول ما رأيت ملكاً جباراً يحكم مدينة عظيمة وقد أطلق المنادي في جمع كل أطفال مدينته فجيء بهم من كل دار، ثم رأيته قد جلس على سريره وفي يده مقراض عظيم قد اتخذه على هيئة نصلين عريضين لو وضعت بينهما رقبة لفصلاها عن جسمها؛ فكان هذا الجبار يتناول الطفل من أولئك فيضع إصبع إحدى قدميه في شقي المقراض فيقرضها فإذا هي تتناثر أسرع مما يقرض المقَص الخيط، ثم يرمى بالطفل مغشياً عليه ويتناول غيره فيبتر أصابعه والأطفال يصرخون؛ وأنا أرى كل ذلك ولا أملك إلا غيظي على هذا الجبار من حيث لا أستطيع أن أمضِيَ فيه هذا الغيظ فاقرض عنقه بمقراضه

ثم رايته يأخذ طفلاً صغيراً، فلما جاءت قدم الطفل بين شقي المقراض صاح: يا رب، يا رب! فإذا المقراض يلتوي فلا يصنع شيئاً وكأن فيه حجراً صلداً لا قدماً رَخْصَة. فتميز الجبار من الغيظ وقال مَن هذا الطفل؟ فسمعت هاتفاً يهتف: هذا بشر الحافي! لا يبلغ تاج ملك في الأرض أن يكون لقدمه الحافية نعلاً عند الله!

وكان إلى يميني رجل يتضوأ وجهه صلاحاً وتقوى، فقلت له: من هذا الطاغية؟ ولم اتخذ المقراض لأقدام الأطفال خاصة؟

فقال: يا حسين أن هذا الجبار هو ذل العيش، وهذا وسمُه لأهل الحياة على الأرض يحقق به في الإنسان معنى البهيمة أول ما يدب على الأرض حتى كأنه ذو حافر لا ذو قدم

قلت: فما بال هذا الطفل لم يعمل فيه المقراض؟

قال: أن لله عباداً استخصهم لنفسه، أول علامته فيهم أن الذل تحت أقدامهم، وهم

يجيئون في هذه الحياة لإثبات القدرة الإنسانية على حكم طبيعة الشهوات التي هي نفسها طبيعة الذل؛ فإذا اطرح أحدهم الشهوات وزهد فيها، واستقام على ذلك في عقد نية وقوة إرادة، فليس ذلك بالزاهد كما يصفه الناس، ولكنه رجل قوي اختارته القدرة ليحمل أسلحة النفس في معاركها الطاحنة، كما يحمل البطل الأروع أسلحة الجسم في معاركه الدامية. هذا يُتعلم

منه فن وذاك يُتعلم منه فن أخر، وكلاهما يرمى به على الموت لإيجاد النوع المستعز من الحياة، فأول فضائله الشعورُ بالقوة، وآخر فضائله إيجاد القوة

قال المغازلي: وضرب النوم على رأسي ضربة أخرى فإذا أنا في أرض خبيثة داخنةٍ قد ارتفع لها دخان كثيف أسود يتضرب بعضه في بعض، وجعلت أرى شعلاً حمراً تذهب وتجيء كأنها أجسام حية، فوقع في وهمي أن هؤلاء هم الشياطين: إبليس وجنوده وسمعت صارخاً يقول: يا بشرى! فلتبك السماءُ على الأرض، لقد أكل بشر الحافي من أطيب الطعام وأطيب الحلوى بعد أن استوى عند حجرها ومدرُها، وذهبُها وفضتها! فعارضه صائح أسمع صوته ولا أرى شخصه: ويلك يا زَلَنْبور! أن هذا شر علينا من عامة نُسكه وعبادته. فهذا ويحك هو الزهدُ الأعلى الذي كان لا يطيقه بشر؛ أنه إعنات سلَّطه على نفسه، فإني دفعت هذا (المغازليّ) الأعمى القلب ليزين له ما فعل احمد بن حنبل من رده خمسين ألف دينار على حاجته، زهداً وورعاً وقوة عزم ونفاذَ إرادة؛ وقلت عسى أن تتحرك في نفسه شهوة الزهد فيحسد أو يغار، أو تعجبه نفسه فيكون لي من ذلك لمَّةٌ بقلبه فأوسوس له فأنا نأتي هؤلاء من أبواب الثواب كما نأتي غيرهم من أبواب المعاصي، ونتورَّع مع أهل الورع كما نتسخَّف مع أهل السخف، ولكن الرجل وفيه حقيقة الزاهد، فقد أعطى القوة على جعل شهوته في اللذة قتل اللذة، وإذا جعلتها في الكآبة قتل الكآبة، وليس الزاهد العابد هو الذي يتقشف ويتعفف، ويتخفف ويتلفف، فإن كثيراً ما تكون هذه هي أوصاف الذل والحمق ويكون لها عمل العبادة وفيها إثم المعصية، ولكن الزاهد حقَّ الزاهد من أدار في الأشياء عيناً قد تعلمت النظر بحقه والإغضاء بحقه؛ فهذا لا يخطئ معنى الشر أن لبَّسناه عليه في صورة الخير، ولا معنى الخير أن زوَّرناه في صورة الشر، وبذلك يضع نفسه في حيث شاء من المنزلة، لا في حيث شاءت الدنيا أن تضعه من منازلها الدنيئة

وما أكل بشر من هذه الطيبات إلا ليبادر بها وسوستي ويردَّني عن نفسه وعن اللّمة بقلبه، فلو أنه أعجبه زهد ابن حنبل ونظر من ذلك إلى زهد نفسه لحبط أجره. فبهذه الطيبات عالج نفسه علاج مريض، وقد غير على جوفه طعاماً بطعام، كما يبدِّل على جلده ثوباً بثوب، ولا شهوة للجلد في أحدهما

قال المغازلي: وثقل النوم على ثَقلةً أخرى فرأيتني في واد عظيم في وسطه مثل الطود من

الحجارة وقد ركم بعضها على بعض. ورأيتني مع بشر أقصُّ عليه خبر احمد بن حنبل؛ فقال أنظر ويحك؛ أن الناس يسمونها خمسين ألف دينار وهي هنا في وادي الحقائق خمسون ألف حجر لو أصابت احمد لقتلته ولكانت قبره آخرَ الدهر

إن المال يا بني هو ما يعمله المال لا جوهره من الذهب والفضة، فإذا كنت بمفازة ليس فيها من يبيعك شيئاً بذهبك فالتراب والذهب هناك سواء. والفضائل هي ذهب الآخرة؛ فهنا تجدد بالمال دنياك التي لا تبقى اكثر من بقائك، وهناك تجدد بالفضائل نفسك التي تخلد بخلودها

ومعنى الغنى معنى ملتبسٌ على العقول الآدمية لاجتماع الشهوات فيه، فحين يرد احمد بن حنبل خمسين ألفاً، يكون هذا المعنى قد صحح نفسه في هذا العمل وجهاً من التصحيح

قال حسين المغازلي: وغطَّني النوم في أعماقه غطَّةً أخرى فإذا أنا في المسجد في درس الأمام احمد وهو يحدث بحديث النبي صلى عليه وسلم: إذا عظَّمت أمتي الدينار والدرهم نزع منها هيبةُ الإسلام؛ وإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حُرموا بركة الوحي. وهم أن يتكلم في تفسيره ولكنه رآني فمسك عنه وأقبل عليّ فقال: يا حسين! إذا اجتزأ شيخك بالرغيف فهذا عنده هو قدر الضرورة، فان أكل الطيبات فقد عرضت حالٌ جعلت هذه الطيبات عنده هي قدر الضرورة. وفي هذه النفوس السماوية لا يكون الجزء الأرضيُّ إلا محدوداً، فلا يكون محصوله إلا ما ترى من قدر الضرورة

ولما صغُر الجزء الأرضي في نفوس المسلمين الأولين ملكوا الأرض كلها بقوة الجزء السماوي فيها، إذ كانت إرادتهم فوق الأطماع والشهوات، وكانت بذلك لا تذل ولا تضعف ولا تنكسر؛ فالآدمية كلها تنتهي إلى بعض صورهم هؤلاء الذين محلُّهم في أعلاها

يا حسين! ألا وإن ردَّ خمسين ألف دينار هو كذلك قدرُ الضرورة

قال حسين: وذهبت أعترض على الإمام بما كان في نفسي من أن هذا المال وان لم يكن من كَسْبه، فقد كان يتحول في يده عملا من أعمال الخير؛ أنسيتُ أن هذه الصدقات هي أوساخ الناس وأقذار نفوسهم، فلم أكد أفتح فمي حتى رأيت الكلام يتحول طيناً في فمي ليذكرني بهذا المعنى؛ وكدت أختنق فانتفضت أتنفَّس فطار النوم والحلم

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

اثر الحضارة الإسلامية في الإحياء الأوربي

للأستاذ محمد عبد الله عنان

عصر الإحياء أو إحياء العلوم من أعظم عصور التاريخ الأوربي؛ وهو بلا ريب مطلع النور والعظمة في حياة أوربا الحديثة وفي تكوينها السياسي والفكري الاجتماعي؛ وفي معترك الإحياء الساطع تذوب ظلمات العصور الوسطى التي خيمت على أوربا منذ سقوط الدولة الرومانية، ويفتر ليلها الطويل عن حياة جديدة تسرى إلى جنبات القارة القديمة، فتلقي من حولها غمر الماضي بقوة، وتستقبل عصوراً جديدة من القوة والعظمة والسيادة في جميع مناحي الحياة

وإنا لنشعر ونحن نستعرض تاريخ الإحياء أننا لا نتلو تاريخ أمم أو شعوب معينة، وإنما نتلو صفحة من أنبل صفحات الإنسانية تبهرنا بما حوت من المظاهر والمعاني السامية للعبقرية البشرية. ولقد كان تراث الإحياء وما يزال تراث الإنسانية كلها، ذلك أن ثمرات التفكير البشري هي ملك الإنسانية في كل زمان ومكان؛ ولم يكن تاريخ الإحياء مدى قرن ونصف في معظم الدول الأوربية سوى تاريخ العلوم والفنون والآداب التي تفتحت في ذلك العصر كما تتفتح الأزهار، والتي بثها إلى ظلمات العصور الوسطى أرواح وأذهان وعقول ارتفعت فوق العصور والمجتمعات التي ازدهرت بها، وسمت بمبادئها ومثلها كما سمت بعبقريتها

ولقد كتب تاريخ الإحياء مدى القرون وما زال يكتب في كل عصر؛ ولكنه يتخذ دائماً طابعه القومي أو المحلي، وقلما يكتب من الناحية الإنسانية المحضة؛ وانك لتشعر حتى فيما يكتب من الناحية الإنسانية أن العوامل القومية والمحلية تتبوأ دائما مكانتها وتغشى فيه كل نزعة أخرى؛ وكثيراً ما تساءلت وأنا استعرض هذه الصفحة الباهرة من تاريخ الإنسانية، كيف يغفل مؤرخو الغرب حين يكتبون تاريخ الإحياء عن استعراض صفحة أخرى من تاريخ الإنسانية لا تقل عن صفحة الإحياء قوة وجمالا وروعة هي الحضارة العربية الإسلامية، وما كان لها من اثر بارز في بعث عصر الإحياء الأوربي؟ والحقيقة أن هذه الناحية من تاريخ عصر الإحياء كثيرا ما تغمط حقها وتنكر علائقها وآثارها في بعثه وتكوينه. بيد أنها تستحق منا نحن الذين يفهمونها ويقدرونها عناية خاصة؛

وليس يكفي أن نكتب تاريخ الحضارة الإسلامية، بل يجب نعالج آثارها في تكوين مختلف المدنيات والحركات العقلية الأخرى؛ ولقد كان الإحياء الأوربي حركة عقلية عظيمة ومطلع حضارة جديدة رائعة، وكان لحضارة الغرب الإسلامي أثرها في بعث هذه الحركة، فمن واجبنا أن نستقصي هذا الأثر وأن نعرضه إلى جانب ما يعرض لنا من تطور حركة الإحياء الأوربي

ومن الصعب أن نحاول استعراض هذا الأثر في مقال أو فصل، ولكنا نحاول فقط أن نلم ببعض أطرافه العامة؛ وأخص ما يبدو هذا الأثر في النواحي الفكرية والاجتماعية من عصر الإحياء؛ ونلاحظ أن طوالع الإحياء ظهرت بادئ بدء في إيطاليا وبدت في الشعر بوجه خاص، وحمل لواءها الأول شعراء عظام مثل دانتي وبترارك، حاولوا أن يعيدوا مجد الشعر الروماني القديم؛ ولم تكن هذه النهضة الشعرية الرائعة رغم اتجاهها إلى مثل فرجيل عميد الشعر الروماني خالية من تأثير المثل الشعرية في غرب أوربا. ذلك أن النهضة الشعرية التي ازدهرت قبل ذلك بنحو قرن في بروفانس

(جنوب فرنسا) والتي كانت حركة (التروبادور) الأدبية في الشعر والقصص من أقوى مظاهرها، كانت قد أحدثت آثارها في الحركة الأدبية في شمال إيطاليا حيث بزغ فجر الإحياء؛ ولم يكن شعر دانتي بعيداً عن التأثر بعوامل الشعر البروفنسي ووحيه، بل لم يكن أسلوب دانتي نفسه بعيداً عن التأثر بالأساليب البروفنسية، ويرى علماء اللغة فوق ذلك أن اللغة الإيطالية الحديثة والتي وضعت أسسها في عصر الإحياء قد تأثرت في تكوينها إلى حد كبير بالروح والتراكيب البروفنسية القديمة؛ ويشيد دانتي نفسه في بعض قصائده الكبرى بعبقرية زعماء الشعر البروفنسي ومثلهم الشعرية، ويرى في تيبول ملك نافار مثلاً أعلى للشاعر؛ فهذه الظواهر والعوامل كلها تدلل على آثار النهضة الشعرية الغربية في شعر الإحياء

هذا ومن جهة أخرى فقد كان الشعر البروفنسي ذاته عرضة لمؤثرات قوية، من الجنوب فيما وراء البرنيه. وكانت الحضارة الإسلامية في الأندلس تنفث آثارها منذ القرن التاسع في شمال أسبانيا وفي غاليس (جنوب فرنسا)، وكان أثرها بالأخص قوياً واضحاً في بروفانس التي كانت مركز الحركة الأدبية في الجنوب منذ القرن العاشر؛ وكانت بروفانس ذاتها مدى حين مستقراً لبعض المستعمرات العربية الغازية التي حملت إلى تلك الأنحاء

كثيراً من التقاليد والمؤثرات الإسلامية، ولاسيما في شعر الفروسية، بل لقد سرت هذه التقاليد والمؤثرات إلى الحركات الفكرية والأدبية في أنكربرديه (لومباردي)؛ فليس غريباً أن نستخلص من تفاعل هذه المؤثرات والعوامل كلها أن شعر الإحياء لم يكن بدايته بعيداً عن التأثر بمؤثرات الحضارة الإسلامية ومؤثرات الشعر الأندلسي عن طريق الشعر البروفنسي

ومما يبعث حقاً إلى الدهشة أن نجد شبهاً عجيباً في الموضوع والخيال والتصوير بين (جحيم دانتي) وهي أعظم وأروع آثاره وبين أثر عربي أقدم هو رسالة الغفران للشاعر الفيلسوف أبي العلاء المعري، مما قد يحمل البعض على الظن بأن دانتي قد وقف بطريقة من الطرق على موضوع رسالة الغفران، وقد كتبت قبل عصره بأكثر من قرنين، ومع أن هذا الرأي لم يؤيد بصفة علمية واضحة، إلا أنه مما يلاحظ في تأييده أن كثيراً من علوم العرب آثارهم العلمية والعربية كانت معروفة في شمال إيطاليا عن طريق البندقية منذ القرن العاشر الميلادي

هذا ونستطيع من الناحية العلمية العامة أن نقول أيضاً أن بعث الإحياء الأوربي لم يكن بعيداً عن التأثر بمؤثرات العلوم الإسلامية؛ فنحن نعرف أن الأندلس كانت منذ القرن التاسع الميلادي نبراس الغرب كله في العلوم، ونعرف أن مدارس قرطبة واشبيلية وغرناطة كانت فيما بعد كعبة الطلاب من سائر أنحاء أوربا، وأن النهضة العلمية في أوربا بدأت قبل عصر الإحياء على يد جماعة من الرهبان النصارى الذين تلقوا العلوم في مدارس الأندلس مثل جربرت الراهب الفرنسي الذي ارتقى عرش البابوية فيما بعد باسم سلفستر الثاني (سنة 999 م) وآبيار وهو أيضاً راهب فرنسي تفقه في الفلسفة والعلوم المعاصرة وطار صيته في أوائل القرن الثاني عشر؛ وكان اعظم ما يتلقى الرهبان العلماء - وهم يومئذ دعاة العلم في الغرب الأوربي - الفلسفة اليونانية عن طريق العلماء والفلاسفة المسلمين، ولاسيما ابن رشد الأندلسي الذي كان أول من عرف العالم الغربي بالفلسفة الأرسطوطالية، وقد ترجمت شروحه المستمدة من الفلسفة الأرسطوطالية في المنطق وما وراء الطبيعة اللاتينية منذ القرن الثاني عشر، وكانت أساسا لكثير من المباحث الفلسفية التي ازدهرت أيام الإحياء الأوروبي في شمال إيطاليا، بل يرى مؤرخو الفلسفة أن

الفلسفة الجدلية الأوربية استمدت من العرب والفلسفة العربية أكثر مما استمدت من قسطنطينية التي كانت مستودعاً لتراث المدنية اليونانية؛ وليس من ريب في أن جهود العرب في ميدان الكيمياء والطب كانت أكبر مستقي للغرب في هذا الميدان؛ فقد كانت الكيمياء العلمية علماً عربياً محضاً، وقد بلغت ذروة ازدهارها في العصور الوسطى في معامل قرطبة واشبيلية وغرناطة، وكان أطباء الأندلس أساتذة الطب في أوربا كلها، وإليهم كان يهرع الطلاب من سائر الأمم الشمالية؛ وكانت مدرسة سالرنو الطبية في جنوب إيطاليا تقوم على تراث الحضارة الإسلامية التي سادت صقلية وجنوب إيطاليا زهاء قرنين؛ وكانت آثار الطب العربي تبدو في هذا الميدان

بصورة قوية بارزة؛ ويمكن أن يقال مثل ذلك على بعض العلوم الأخرى مثل الفلك والرياضيات، وقد بلغت أيضاً في الأندلس شأواً عظيماً

والخلاصة أن آثار الحضارة والعلوم الإسلامية في بناء النهضة العلمية الأوربية واضحة لا يمكن إنكارها؛ وإذا استثنينا ميدان الفنون في نهضة الإحياء، فأنه يصعب علينا أن نتصور ناحية من نواحي هذه النهضة الفكرية الرائعة؛ سواء في العلوم أو الآداب تبعد كل البعد عن التأثر بعبقرية التفكير الإسلامي، سواء مباشرة أو بواسطة عوامل أخرى. بيد أنه مما يؤسف له أن هذه الناحية لا تلقى في المباحث الغربية ما يجدر بها من الشرح والتقدير؛ ويلاحظ أن مؤرخ الإحياء الأوربي يكاد يغفلها بصفة مطلقة، هذا في حين أن مؤرخ العصور الوسطى لا يستطيع أن يغفلها

ولكن معظم مفكري الغرب ومؤرخيه ما زالوا ينظرون إلى تاريخ العرب والإسلام والحضارة الإسلامية ومؤثراتها نظرة خاصة قلما تنجو من مؤثرات الدين والقومية، بل لقد درج فريق منهم على اعتبار العرب ضمن القبائل والأجناس البربرية التي حطمت صرح الدولة الرومانية، واعتبار الغزوات الإسلامية لجنوب أوربا كوارث دينية وقومية؛ وما زالت المباحث التاريخية تبالغ في تقدير مؤثرات الحضارة الرومانية في أمم العصور الوسطى وتعتبرها دائما عاملاً حاسماً في كل تطور فكري أو اجتماعي، هذا بينما نراها تغفل تقدير الحضارة الإسلامية ومؤثراتها؛ ويلوح لنا أن الوقت قد حان لنعمل من جانبنا على تصحيح هذا الموقف، ورفع هذا الإجحاف الذي يلحق بتراث المدنية الإسلامية في

أوربا، والتنويه بما لهذا التراث من الآثار الحاسمة في المدنية الأوربية بوجه عام، وبما له من آثار خاصة في معظم الحركات الفكرية التي قامت في أوربا خلال العصور الوسطى

بيد أنه من الإنصاف أيضاً أن نقول أننا نلمح في بعض المباحث الغربية المستنيرة، أثر هذا التطور في فهم المهام الإنسانية التي أدتها الفتوحات الإسلامية في العصور الوسطى، وفي تقدير التراث العظيم الذي خلفته الحضارة الإسلامية، وما كان لها من آثار خطيرة حاسمة في تطور الحركات العقلية والاجتماعية في تلك العصور؛ ومن الحق أن نقول أن بحوث أولئك العلماء المستنيرين قد رفعت كثيراً من الحيف والإجحاف والريب التي لحقت ذكريات العرب والإسلام في أوربا من جراء الصور والروايات الخاطئة المغرضة التي مازالت تقدم منذ أحقاب عن العرب والإسلام إلى المجتمع الأوربي الحديث

محمد عبد الله عنان

الفردوس الإسلامي المفقود

تحت قناطر جامع قرطبة

للشاعر الألماني هنري هين

(مهداة إلى الأستاذ الزيات)

ترجمة الأستاذ معروف الارناءوط

محرر فتى العرب ومؤلف سيد قريش

أيتها القبة الرفيعة من المنار، لقد ظللت في . . . . .)

الماضي بيت الله. . .)

(هنري هين)

أرأيت سيدي السائح إلى مسجد قرطبة الجامع! أرأيت إلى تلك العُمُدِ المرمرية وقد نهضت على قباب فيحاء واسعة الأرجاء؟

أرأيت إلى مفاتن الفن العربي وقد راحت تطفو على القباب والحنايا والقناطر؟ أرأيت إلى سُوَرٍ من القرآن كيف أذابها الذكاء في شتى الألوان؟

في سبيل الله، وفي سبيل مجده الذي لا يبلى قام هذا الصرح المُشمَخرِ ثم تنَكَّر الزمن وجَهُمت نواحيه، فتنكرت الأشياء وجَهُمت المشاهد، وأرعد في الأفق الذي تسرب إليه صوت المؤذن حلواً صافياً، صوت النواقيس، وقام الرهبان يدعون في أغانيهم الشجية الكئيبة إلى المسيح في محراب كان بالأمس مزهواً بالمؤمنين، وامتلأت السُّوح بالدُّمى والتماثيل، وتقاصرت ظلال الشمس أمام أنوار شاحبة تريقها الشموع والمصابيح!

وقف (المنصور بن أبي عبد الله) في مسجد قرطبة تحت القبة المرمرية وهو يحدِّق إلى العُمُد والحنايا هادئا ناعم الجأش، ثم مضى يتخافت بصوته:
(أيتها القبة الرفيعة المنار، لقد ظللت في الماضي بيت الله، ثم عدت إليك فرايتك تظللين بيتاً غريباً، ثم أصغيت إليك، فإذا بك ترددين صلاة ما كانت لبناتك الأولين!
لقد هَدْهَد الزمن حماستك، وأطفأ كبرياءك، فجمدت على خطبك الكريه، وصبرت لبؤسك
الأليم، ولكن نفسي وقد صاغها الله من معدنٍ ضعيف مازالت - وا رحمتاه لها - ملتاعةً أسوانة حتى أعجزها اليأس عن الصبر فما عادت تطيق شجنها المجاهد!)
وانثنى الفتى العربي إلى الماء المقدس يمسح به رأسه ويغسل جبينه، ثم جفا المسجد وراح إلى فرسه فنهض على ذؤابته فانطلق به يعدو في الطريق، واخذ الهواء المستفيض في الأفق يعبث بغدائره المرسلة ويلاعب ريش قبعته المطرزة!
اشرف الفارس العربي على طريق القلعة حيث تجرى أمواه الوادي الكبير متطامنةً هادئة، فبدت له الخضرة والرياحين والأعناب وشجر اللوز الباسق المتهدل وأزهار البرتقال الكاسية الضافية فلذّ الغناء فغنى، وراحت نغماته العذاب تختلط بأغاني الطيور!
وإنه لكذلك إذا قصر القلعة يلوح له عن بعد فطفر إليه مستروحاً إلى غناء رقيق يستفيض من حواشيه!
في هذا القصر عزلات هانئة أوت إليها (كلارا الفاريس) وهي فتاة طفّارة وثّابة فارق أبوها مغناه إلى أرض (النافار) فاستغدى الغرق في المرح والأهواء خلال غيبته عن القصر!
وقف المنصور بن أبي عبد الله في ناحية دانية من القصر وطفق يُصغي إلى عزيف لذٍّ هادئ، وقد بهرته الأنوار وأشجته الأعراف، فتمايد من الطرب، فنحى ناحية القصر يريد التوغل في جنته بين ورده وأقحوانه!
وكان القصر يعج بالحسان والفرسان، فزرف المنصور إليه فإذا هو بين الراقصين والراقصات والمغنين والمغنيات، ثم عاد ينظر إلى نفسه فإذا هو أملح فرسان هذه الليلة الساهرة شباباً وأعذبهم حديثاً، بل لقد كان أمضاهم في الإغراء والاستهواء؛ ولما استوثق من فتون عينيه، مضى إلى هذه الأسراب الناعمة الطفَّارة، يحدث غانية عن حب أجَنَّهُ في قلبه وحرص ألا يذيعه إلا على مسمع منها، حتى إذا أمله العبث والمجون، طفر إلى غانية أخرى فاحتبسها بين ذراعين محمومتين مشبوبتين، ثم شعر بالملل فارتد عنها إلى ثالثة يعانقها ويخاصرها تحت قباب من المرمر، ثم جفاها إلى أختها ملولا من هوى شديد التقلب!
وكان يمضى إلى حسناء من حسان القصر فيسألها أن كانت عنه راضية وبه ناعمة، ثم يومض بيديه إلى صليب من الذهب يَخطِف بريقه على صدره، ويقسم للكاعب اللّعوب أن
مكانها من صدره مكان هذا الصليب! وإنه لنصرانيته على وفاء غريب!
سكن القصر، فسكنت فيه اللذات والأهواء، وانطفأت تحت قبابه الأنوار والأضواء، وأنقلب الفرسان إلى مضاجعهم صرعى هوى وصهباء، وخلا القصر إلا من ربته الحسناء، وفارسها العربي ذي البهاء، وإلا من شمع ضعيفة السنا والسّناء!
جلست الحسناء الأسبانية إلى فراش ناعم وثير، والفتى العربي جاثم على ركبتي الحبيبة، صريع سهد وأرق، يُريدُ عينيه على إغفاءة لذيذة فتملس هذه الإغفاءة من عينيه الضحوكين!
وإنه لسادرٌ في حمى شديدة من أرق شديد، إذا تلك الحسناء اللعوب تريق على غدائره ماء الورد من قوارير حفّت بالعجب، وازينت بالذهب، وهي بعد منزوفة سكرى من الحبّ والطرب، لقد كانت تفعل ذلك سادرة حيرى، والفتى العربي غريق هواجس وأحلام، وشهيد ذكريات وأوهام، وكان صدره يلوح محتدماً مشبوباً تمزقه الزفرات، وتقطعه الآهات!
ثم ابتعث الحب في قلبه سكراً فسلبها صحواً، فأقبلت إلى فتاها تسعى، وراحت تَلثمُ شفتيه وقد عادتا كاللّظى، وهو في سبحه غريق حب وهوى
وحدَّقت إليه مبهولةً واجمة، فرأت على جبينه وقد عاد مسفوعاً مقروراً غمامةً بلون

الدجى! فشجيت حتى لقد هدَّها الشجى، وبكت وأنصبّ دمعها على جفنيه فاستفاق راعشاً من هذا الندى!

لقد هزَّته وهو يحلم! بلى لقد كان يحلم! وقد رأى في حلمه القصير كأنه لا يزال في مسجد قرطبة الجامع، وخيل إليه أنه لا يبرح يطوف بالماء المقدَّس يغسل به جبينه كأنه عريقٌ في النصرانية أشجاه هذا الذي تمثل ورأى، وشعر بأن جوانب المعبد تميد ميداً، وإن ألوف الأصوات أخذت تطفو على نفسه فلا يستطيع لها رداً!

ثم خيل إليه أنه يسمع قعقعة العمُد، وصليل القباب وهي تنهار، كأن مسجد قرطبة الجامع قد عاف عيشه الخابي، فتداعى مغيظاً مُحنقاً

وتمثّل الناس والرهبان وآلهة النصرانية وقد طوتهم الأنقاض، فاستفاق راعشاً، وأنطلق يعدو في القفر البعيد النواحي شاجناً ناشجاً، وقد خلف حبه في القصر يائساً

معروف الارناءوط

قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكي

وكيل كلية العلوم

بستور والكلب المسعور

وصل الفائت

لم يستطع بستور رؤية مكروب داء الكلب لصغره ومع هذا رباه في مخ الأرانب فتربى، وذلك لان حقن لعاب كلب مسعور في أرنب، ثم أخذ نخاع هذا الأرنب فحقنه في مخ كلب فمات. فعلم بذلك أن مخ الأرنب ونخاعه غذاء طيب يتربى المكروب عليه. واتجه مع أعوانه الشباب إلى تأنيس المكروب ليصنعوا منه لقاحا ففشلوا، ويئس الأعوان الشباب، أما بستور الشيخ العاجز فلم تضعف عزيمته ولا قل رجاؤه

قال الشابان: (انه يا أستاذنا لا فائدة من كل هذا)، وأشاحا بأيديهما في تخاذل إلى الأقفاص بحيواناتها الشلاء وإلى ركام الأنابيب والقوارير

فصوب الشيخ عينه فيهما تصويباً شديداً، وعلته جَهمة خالا معها أن شعره الأشيب المخِفّ تصلب واستقام، وصاح فيهما: (أعيدا هذه التجربة نفسها مرة اخرى، ولو أنها خابت آخر مرة. قد تتراءى لكما الحماقة في الذي اقول، ولكن الشيء المهم الآن أن تظلا غامرين أيديكما في الموضوع الذي أنتما فيه فلا تغسلاها منه فتنفضا عنه). هكذا ظل ينحّسهما حتى يعيدا مرة بعد أخرى تجارب لا أمل فيها ولا رجاء. فهذا كان دأبه دائماً: تُعْوِزه الحجة، ويصرخ المنطق والحقائق غاضبة في وجهه، ومع هذا يتشبث بالتجربة العقيمة، ويتغافل جنوناً عن وحي الرأي العادي السليم، ولكنه تشبثٌ وتغافلٌ يُفضيان أحياناً من طريق الخيبة إلى النجاح المأمول

لكأني بك تسألني لم كان عقيما محاولة تأنيس مكروب الكلب هذا؟ ولم وجبت إضاعة الرجاء في ترويضه؟ أوْجَبَ ذلك يا سيدي أن تاريخ الإنسان كله لم يذكر حالة واحدة أصيب فيها إنسان أو حيوان بهذا الداء ثم اشتَفى. أن هي إلا أعراضه تظهر على المريض، وتبلغ جرثومة الداء إلى نخاعه ومخه، حتى يضيع فيه الرجاء. وأي جرثومة فتّاكة قتّالة! وهذه الجرثومة يا سيدي هي التي حملها بستور وأصحابه عارية على أطراف مشارطهم تكاد تهمّ أن تسقط البلاء عليهم. هذه الجرثومة هي التي مصها بستور وأعوانه في أنابيب الزجاج حتى بلغت إلى شفاههم إلا بوصة واحدة، وإلا قطعة من القطن فصلت بينها وبين أفواههم

وفي ظلمة اليأس الذي هم فيه أشرقت بارقة من الأمل؛ وفي صموت الكآبة التي هم فيها سمعوا نغمة موسيقية حلوة بعثت فيهم الرجاء. ذلك أنهم ذات يوم وجدوا كلباً من الكلاب حُقنت بالمادة الوبيئة شُفي بأعجوبة بعد أن ظهرت عليه أعراض الداء من ارتعاد وعواء، وبعد أسابيع قاموا في لهفة إلى هذا الكلب، وهو أول مشتفٍ من هذا الداء، فحقنوا الوباء في مخه حقناً، ولكن ما أسرع ما أندمل جرح رأسه! وتربص بستور به الموت، ولكن الموت لم يأته، وظل أشهراً يلعب ناشطا في قفصه وقد تمت حصانته كل التمام

قال بستور لرجاله: (الآن أنفتح لنا ما استغلق، وعلمنا أن لنا أملاً في النجاح. . . أن الحيوان إذا جاءه داء الكلب ثم أشتفى منه فلن يعود إليه هذا الداء من بعد ذلك. . .

فلم يبق علينا إلا أن نجد طريقة لإضعاف الجرثومة وتأنيسها). فأمّن رجاله على ما يقول وفي قلوبهم أن لا سبيل إلى تأنيس هذه الجرثومة أبداً

وأخذ بستور في اختراع تجارب مما لا يستطيعها الجن بَلهَ البشر، وانتثرت على مكتبه تخطيطات عدّة منها كأنها الخط الهيروغليفي، وكانت تجتمع عنده في صباح اليوم نتائج تجارب الأمس فيدعو إليه في الساعة الحادية عشرة صباحا عَوْنيه رو وشمبرلاند، فيقرأ عليهما خطة جامحة أخرى يختطّها ليصل بها تحسساً في الظلام إلى هذه الجرثومة التي لا تُرى ولا تُنال رجاء أن يُضْعفها - خطة تأخذ بإصبعه إلى باطن الأرض فتحط به على رأس الجرثومة حطاً

كان يقول لهما بستور: (جرّبا هذه التجربة اليوم)

فيقولان له في اعتراض: (ولكن هذا غير ممكن عملاً)

فيقول بستور: (ومع ذلك أجْرياها، أجرياها بالطريقة التي تتراءى لكما بشريطة أن تُحسناها)

كان مثل بستور في ذلك مثل بتهوفن يُضمن سِنْفُونياته الموسيقية دورا لا يلعبه إلا البوق وهو ليس عنده، ولكنه لا يلبث بعد خلق الدور أن يخلق بوّاقاً. كذلك كان بستور في تلك الأيام يفتن في التجارب افتناناً، ثم بعد ذلك يجد من ذكاء عونيه وحرصهما ضميناً لإنجاحها

وأخيراً اهتدوا إلى طريقة لتأنيس جرثومة الكلب، وذلك بأن استخرجوا قطعة من نخاع أرنب مات من الداء، ثم علقوها مدة أربعة عشر يوماً في قارورة لا تدخلها جراثيم الهواء، فلما جفّت وانضمرت حقنوها في أمخاخ كلاب سليمة فإذا هذه الكلاب لا تموت!

قال بستور: (مات الجرثوم! أو خير من ذلك أُضعف إضعافاً كبيراً)، وتلك النتيجة الأخيرة نطّ إليها بستور نطاً بلا سبب مقبول ولا مبرر معقول. قال: (والآن فلنجفف قطعاً أخرى من النخاع الوبيء اثني عشر يوماً، ثم أخرى عشرة أيام، فأخرى ثمانية ثم ستة، ثم نرى أنستطيع بهذه القطع أن نعطي كلابنا قليل من الداء. . . إذن والله لتحصنت منه

وأخذوا جميعاً في سبيل هذه التجربة الخالية، ومضت أربعة عشر يوما ذرع فيها بستور أرض المعمل رائحاً غادياً بين القوارير والمجاهر والأقفاص المنثورة فيه، وعبس وتسخط، وخط في كراسته الشهيرة ما شاء له الخاطر أن يخط؛ وفي اليوم الأول حقنت كلاب بالنخاع الوبيء الذي جفف أربعة عشر يوماً، وفي اليوم الثاني حقنت بالنخاع الأقوى وباء، ذلك الذي جُفف في القارورة ثلاثة عشر يوماً، وهكذا إلى اليوم الرابع عشر وفيه حقنت الكلاب بالنخاع الذي جفف يوماً واحداً، وبه وباء لا شك يقتل الكلاب لو أنها فوجئت به أول مرة

وظلوا جميعا ينتظرون هذه الكلاب أياماً شابت فيها رؤوسهم، ولكن شيء من داء الكلب لم يظهر عليها أبداً. فانبسطت أسارير هذه الأغوار الثلاثة التي قامت تحارب الموت فتكشر له كما كشر. حقنوا في الكلاب أربعة عشر حقنة وبيئية فلم يصبها من الضرر قليل أو كثير. ولكن هل هي حقاً تحصنت من الداء؟

وخشي بستور أن لا تكون، فأجفل من ذكرى ضياع كل هذه الأعوام في عمل غير نافع. لكأني بك تسمعه يقول لنفسه: (أنا اليوم شيخ عاجز، والأيام تجيء فلا تزيدني إلا عجزاً. . .)، وكان لابد من إجراء التجربة الفاصلة الأخيرة. وكان لابد لبستور أن يتجلّد على

إجرائها مهما كانت عاقبتها. كان لابد له أن يعلم أتحتمل هذه الكلاب بعد كل الذي جرى لها حقنة قوية غير مضعفة من التي تحقن في الكلاب المائة السليمة فتقتل منها المائة وذات يوم ثقب رو في رأس كلبين من هذه الكلاب ثقبا حقن فيه وباء قوياً لم يُضعف. وفعل مثل ذلك في كلبين سليمين لم يحقنا بحقنة أبداً

وبعد شهر أيقن بستور وأصحابه أن النصر أتاهم أخيراً بعد عمل ثلاث سنين. فالكلبان اللذان كانا حقنا أربع عشرة مرة ظلا يجريان في قفصيهما ويلعبان ولم يتوعكا أصلاً، أما الكلبان الآخران اللذان لم يتحصنا فنبحا آخر نباح وماتا من الداء

إن بستور له شخصيتان، فهو مخلص الأرواح وبحّاثة في آن، وهما شخصيتان دائماً متنازعتان، ودائما تجور أولاهما على أخراهما. لذلك ما كاد يطمئن إلى النتيجة الطيبة

التي خرج عليها من هذه الكلاب، حتى دارت رأسه بالخطط الكثيرة يرسمها ليمحو بها داء الكلب من على ظهر هذه البسيطة. فكانت له في ذلك مئات المشروعات كلها سخيفة، دار منها في عالم أدكن من الخيال، وسلك فيها من الفكر سُبُلاً كثر ضبابها واشتد، فلم يستطيع رو وشمبرلاند أن يخترقاه فضلا فيه وضلت فيه زوجه كذلك. وكان ذلك عام 1884، وفي هذا العام نسي بستور مما هو فيه عيد زواجه، فأساء هذا النسيان إلى زوجه، وهي التي عانت في حياتها ما عانت، فكتبت إلى أبنها تشكو: (إن أباك غارق في أفكاره؛ وهو قليل الكلام، قليل النوم، وهو يستيقظ مع الفجر؛ واختصاراً هو يجري في هذا اليوم على نفس الأسلوب الذي جرى عليه منذ التقت حياتانا من خمس وثلاثين سنة كاملة)

ومن تلك الخطط الجامحة أنه رأى أن يحقن هذا المكروب المضعف في كل كلاب فرنسا في دفعة نابليونية واحدة. قال للبيطار الشهير نوكار (يجب أن نذكر أن الإنسان لا يصاب بداء الكلب أبداً إلا إذا هو عضه كلب مكلوب فإذا نحن محونا هذا الداء من الكلاب محوا كاملا. . .) فضحك نوكار من قوله وهزّ رأسه إنكارا، ثم قال له: (إن في باريس وحدها مائة ألف من كلاب وجراء. وفي فرنسا مليونان ونصف مليون منها، فإذا أنت أردت أن تحقنها دفعة واحدة، وأن تحقن كلا منها أربع عشرة حقنة في أربعة عشر يوما، فمن أين لك بالرجال؟ ومن أين لك بالزمان؟ ومن أين لك يا عزيزي الأفخم بهذا العدد من الأرانب؟ بل من أين تأتي بأنخعة وبيئة تصنع منها ألف لقاح فحسب؟

وأخيراً طلعت على بستور فكرة بسيطة أخرجته من ورطته. قال لنفسه: (ليست الكلاب هي التي نعطيها الألقحة، بل الرجال التي عضتها الكلاب. ألا ما أحصر! ألا ما أيسر! يعض الكلب المسعور رجلا فلا يختمر الداء فيه ولا تظهر أعراضه عليه إلا بعد أسابيع. . . إن الجرثومة إذن تستغرق كل هذه الأسابيع لتصل من مكان العضة إلى مخ الرجل. . . إذن نحن نستطيع في هذه الفترة أن نحقن في الرجل حقناتنا الأربع عشرة وبذلك نحميه من المرض قبل اختماره.) وما أسرع ما دعا إليه رو وشمبرلاند وقاموا بتجربة هذا الرأي في الكلاب أولا

فوضعوا كلابا مريضة في أقفاص واحدة مع أخرى سليمة فعضتها. كذلك جاء رو بكلاب أخرى سليمة وحقنها بحقنة فاتكة من نخاع أرنب وبئ، ثم جاءوا بجميع هذه الكلاب، المعضوضة والمحقونة بالوباء، تلك الكلاب التي لاشك هي لاقيةٌ حتفها إذا تُركت لشأنها، فحقنوها جميعا بالأحقنة المحصنة الضعيفة فالأقل ضعفاً حتى استتمت أربع عشرة لكل منها، فما الذي كان؟ كان الفوز كل الفوز، فكل مخلوق من تلك الخلائق صد عن نفسه في استكمال وخفاء هجمة هذا الوباء. وبستور الذي عانى من ألقحة الجمرة الذي عانى، صاح يدعو إلى تأليف لجنة من خير رجال الطب في فرنسا تقوم بامتحان تجاربه والحكم لها أو عليها. وجاء حكم اللجنة فإذا به يقول: (إن الكلب إذا حُصِّن بأنخعة الأرانب الوبيئة التي ماتت من هذا الداء، بأن يُحقن بالتدرج بضعيف الوباء فالأقل منه ضعفاً، فهذا الكلب لا يأتيه الكَلَب أبداً)

فتساقطت الرسائل على بستور من كل صوب، رسائل هالعة من كتب وتلغرافات جاءت تنصب عليه أنصباباً من أطباء مداوين، ومن آباء جازعين، وأمهات راجفات يطلبن الغياث لأطفال لهن عضتها كلاب مسعورة. حتى إمبراطور البرازيل العظيم تنازل من عليائه فكتب إلى بستور سائلاً راجياً

ولن أحدثك كثيراً عن هم بستور في تلك الأيام، ذكر ما كان قاساه من لقاح الجمرة وشتان ما بين الجمرة والكلَب. ففي الجمرة إذا ازدادت قوة اللقاح عن القدر المقدور ماتت شياه من جراء ذلك. أما هنا في الكلَب فخطأ في التقدير يفضي إلى ضياع أرواح البرايا من رجال وأطفال. . . لم يقع أحد من صيادي المكروبات في حيرة مثل هذه، ولم تقع عليه مسئولية

كتلك. . قال بستور لنفسه: (لم يمت كلب من كلابي بسبب لقاحي أبداً. والذي عُضَّ منها فحقن بهذا اللقاح احتمى من الداء احتماء كاملاً. فلا شك أن الذي حدث في الكلاب يحدث في الإنسان. . . ولكن. . .)

ومرة أخرى عاود الأرق هذا البحّاثة المسكين من أجل أنه كشف كشفاً بلغ من الإبداع مبلغاً بعيداً. فكان يرقد على ظهره في سريره وينظر في كتل الظلام التي فوقه فيرى فيها خيالات من أطفال تصرخ في طلب الماء لحلوق جافة مخنقة بالداء، أول شيء

تأباه وتخافه هو هذا الماء، ويخال أنه هو الذي جاءها بداء الكلَب بسبب خطأ في لقاحه فيُجفل من تلك الخيالات إجفالاً

ومرت به ساعة عاوده فيها حب المباغتات على نحو ما يجري على المسارح من المفاجآت، أراد أن يكون بطل الدرامة، فكتب إلى صديقه القديم فرسيل يقول: (أميل كثيراً إلى أن أبدأ بنفسي فاحقنها بهذا المكروب القاتل ثم أدفع فعله بلقاحي، فقد والله بدأت أحس في قلبي الثقة بنتائجه)

ولكن رحمة الله به ساقت إليه أخيراً من حل في التجربة محله فوقته شر ما أعتزم عليه في أمر نفسه: جاءته امرأة من الألزاس تسعى إليه دامعة العين، ودخلت معمله تجر وراءها ولداً لها اسمه يوسف في التاسعة من عمره جرحه كلب مسعور في أمسه الأول أربعة عشر جرحاً، وكان ينشج بالبكاء، وقد ملأه الرعب وارتعدت فرائصه فلم يكد يستطيع سيراً

صاحت ألام راجية: (سيدي بستور، أنقذ ولدي!)

فسألها بستور أن تعود إليه في مساء اليوم، وقام هو لزيارة طبيبين يدعى أحدهما يليبان ويدعى الآخر جرانشيه وكانا من أحبابه ونُصرائه، وكانا في معمله فرأيا فيه كيف استطاع أن يخلص الكلاب من بلواها بعد أن عضتها كلاب مسعورة عضاً شديداً، وفي المساء ذهبا معه إلى الطفل فلما رأى يليبان جروحه عابسة متقيحة ألح على بستور أن يقوم بتلقيحه تواً. قال: (قم يا رجل وابدأ علاجك، فانك أن لم تفعل مات هذا الغلام لا محالة)

وفي هذه الليلة، الليلة السادسة من يوليو عام 1885، حقنت أول حقنة من لقاح الكلَب في أدمي، وقضى الطفل أربعة عشر يوما أخذ فيها أربع عشرة حقنة من إبرة تحت الجلد فلم يصبه سوء، ثم عاد إلى الألزاس فلم يأته بعد ذلك عرض من أعراض هذا الداء المخوف

أبداً

في العدد القادم آخر مقال عن بستور

احمد زكي

أندلسيات:

ابن بسام صاحب الذخيرة

والشاعر أبو مروان الطّبني

للأستاذ عبد الرحمن البرقوقي

ومادمنا قد ترجمنا للفتح بن خاقان صاحب مطمح الأنفس وقلائد العقيان، وقد بان لك من هذه الترجمة أن ابن بسام كان معاصراً للفتح، وأنهما يتشابهان من وجوه شتى أن لم يكن منها إلا أنهما كليهما تصديا للكلام على أدباء عصرهما وشعرائه لكفى؛ نقول . . . .مادام الأمر كذلك كان جميلاً بنا أن نردف ترجمة الفتح بترجمة ضريبه ابن بسام وسيمر بك قربا ما نتعرف به سبب ذكرنا الشاعر أبا مروان الطُّبْني مع ابن بسام في . . .ترجمة واحدة

فإنا إلى هذه اللحظة التي تترجم فيها لابن بسام لم نعثر على ترجمة قد (ثم وإما بعد) عقدها له وأفردها للقول عليه، وإن كان مؤرخو الأندلس وغير الأندلس كثيراً ما ينقلون عن هذا الأديب كعمدة لهم، وثبت فيما يعالجون من تاريخ أدباء الأندلس، حتى أن المقري ذكره في نحو من أربعين موضعاً من نفح الطيب ولم يفرد له على ذلك . . . .ترجمة، وكذلك كثيراً ما ينقل عنه ابن خلكان وغير ابن خلكان

ومن غريب الأمر في هذا الباب، ومن سوء حظ هذا الأديب، بل من تخبط الناس في أمره، أنك ترى النسخ المخطوطة للذخيرة في دار الكتب سواء أكانت المكتوبة بخط مغربي أم المنقولة عنها بخط مصري قد غُمَّ على نساخها وشبه لهم، واختلط الليل بالنهار، فظنوا أن صاحب الذخيرة هو ابن بسام المعروف بالبَسَّامي الشاعر الهجاء البغدادي المتوفى سنة ثلاث وثلثمائة، ونقلوا ترجمة هذا الشاعر من ابن خلكان كما هي وألصقوها بصاحب الذخيرة، وصدق فيهم بهذا التخبط الغريب قول عمر ابن أبي ربيعة:

أيها المنكح الثريا سهيلاً ... عْمرَكَ الله كيف يلتقيان

هي شامية إذا ما استقلت ... وسهيل إذا استقال يمان

واقْعَدُ من هذا في باب التخبط والتخليط أن خطبة الذخيرة الحقيقية كما سيمر بك. . وقد مر
على واضعي فهرس دار الكتب هذا التخليط فلم يتفطنوا إليه، وظنوه صحيحاً، وقالوا إن الذخيرة هي لابن بسام المعروف بالبسامي الشاعر الخ الخ ونقلوا نتفاً من هذه الخطبة المفتلة، وإن كان لهم في هذا الصنيع كل المعذرة. . . (وبعد) فأنا على هذا كله سنقدم إليك صورة وان مُصغَّرة لهذا الأديب الأندلسي العظيم لقد التقطنا أجزاءها من ههنا وههنا
أزلفنا في ترجمة الفتح أن أبا الحسن علي ابن بسام صاحب الذخيرة كان في زمن الملثمين - يوسف بن تاشفين وأولاده - ونزيد هنا أن حياته امتدت إلى أيام أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي رأس دولة الموحدين الذين أدبل لهم من الملثمين وآضوا بذلك ملوك المغرب والأندلس، إذ جاء في نفخ الطيب ما نصه: (وتأخرت وفاته - أي وفاة ابن بسام - إلى سنة 524) ويبدو من هذا أن ابن بسام عاش بعد الفتح بن خاقان نحواً من سبعة عشر عاماً. . .
ولد ابن بسام في شنترين وهي بلدة من الُكوَر الغربية البحرية من أعمال بطليوس، ومن ثم يقال له الشَنْتريني، ومن مؤرخي الأندلس من يقول الشَّنْتمَري نسبة إلى بلدة بالأندلس في الشمال الشرقي لقرطبة يقال لها شنْت مَريّه (أي مريم المقدسة)، وفي هذه البلدة يقول الأديب النحوي أبو محمد بن السيد البطليوسي:
تنكرت الدنيا لنا من بُعدكم ... وحقَّت بنا من معضل الخطب ألوان
أناخت بنا في أرض َشنْتَ مرِيَّة ... هواجس ظن خان والظَّن خَوّان
رحلنا سَوامَ الحمد عنها لغيرها ... فلا ماءها صدَّا ولا النبتُ سعدان
ولم يحدثنا المؤرخون عن مولده ونشأته، ولا عن مشيخته وكيف تعلم، فلا علينا إذا نحن تخطينا هذا واكتفينا بالكلام عليه من ناحية منزلته الأدبية وإيراد شيء من منظومه ومنثوره والقول على أثره الخالد كتاب الذخيرة. . .
كان أبو الحسن علي بن بسام صاحب الذخيرة أديباً كاتباً شاعراً، وكان المنثور أغلب عليه من المنظوم، مثله في ذلك مثل الفتح، فكان منثوره فائقاً بارعاً جميلاً وأن كان يغلب عليه السجع كسائر معاصريه، أما شعره فقد كان دون نثره. ومما عثرنا عليه من شعره أبيات أوردها العالم الأديب أبو الوليد إسماعيل بن محمد الشقندي الأندلسي المتوفي سنة 629 في رسالته البديعة التي يفضل فيها الأندلس وأهل الأندلس على بر العُدوه - مراكش - وأهل بر العدوه، قال الشقندي: وهل منكم من يقول منادياً لنديمه، وقد باكر روضا بمحبوب وكأس، فألفاه قد غطى محاسنه ضباب فخاف أن يكسل نديمه عن الوصول إذا رأى ذلك وهو أبو الحسن بن بسام:
ألا بادر فلا ثان سوى ما ... عهدت الكأس والبدر والتمام
ولا تكسل برؤيته ضبابا ... تغص به الحديقة والمدام
فان الروض ملتثم إلى أن ... توافيه فينحط اللثام
وجاء في نفح الطيب ما نصه: (وقال أبو الحسن علي بن بسام صاحب الذخيرة، وشهرته تُغني عن ذكره، ونظمه دون نثره يخاطب أبا بكر بن عبد العزيز
أبا بكر المجتَبىَ للأدب ... رفيع العماد قريع الحسب
أيلحن فيك الزمان الخؤون ... وُيعرب عنك لسان العرب
وان لم يكن أفقنا واحدا ... فينظمنا شمل الأدب
أَصَدَّقْتَ أن منظومه دون منثوره! أذن لا تتوقع من ابن بسام الأديب الكاتب شعراً من النسق الأعلى، وهكذا شأن أكثر الكتاب كما نبهنا في كلامنا عن الفتح بن خاقان؛ وكذلك ترى أكثر الشعراء الفحول لا يجيدون المنثور وأظنك لا تجهل ما أورده العلامة ابن خلدون في مقدمته شرحاً لهذه الظاهرة: ويبدو لنا أن لابن بسام شعراً كثيراً في أكثر أبواب الشعر لم يتيسر لنا الوقوف عليه، يدل على ذلك تلك الأبيات التي يقولها الشاعر الوشاح الأندلسي أبو بكر بن عبادة القزَّاز في ابن بسام وهي:
يا منيفا على السماكين سامى ... حزت خصل السباق عن بسام
أن تحك مدحة فأنت زهير ... أو تشيب فعروة بن حزان
أو تباكر صيد المها فابن حجر ... أو تبكي الديار فابن خذام

أو نذم الزمان وهو حقيق ... فأبو الطيب البعيد المرامي
وعلى هذا فلنضرب عن ابن بسام الشاعر، ولنعرض لابن بسام الكاتب ولأثره الفذ الخالد كتاب الذخيرة. . .
نقول أن ابن بسام يمتاز من الفتح بأشياء: أهمها أنك لا ترى في أسلوبه ذلك التقعّر وتلك الطنطنة التي تراها في أسلوب الفتح، وإنما ترى أسلوبا هادئ متزنا رصينا جميلا،:. وانك
ترى ابن بسام ناقداً بارعاً كثيراً ما يُعقب على ما يختار تعقيباً يدل على تمكنه ورسوخه في الأدب، ومن ثم كان أكثر من الفتح تقييداً، وعلماً مفيدا،. . وانك تراه أعفَّ لساناً، وأنزه بياناً من الفتح، فلا ترى منه ذلك الإقذاع الذي تراه من الفتح. واليك نموذجاً من تراجمه هو مصداق لما نقول، وهو ترجمته للشاعر الأندلسي أبى مروان بن زيادة الله الطّبْني
(يتبع)
عبد الرحمن البرقوقي
قصة واقعة:
أعرابيّ في حمام. . .
الأستاذ على الطنطاوي
صحبنا في رحلتنا البرية إلى الحجاز، دليل شيخ من أعراب نجد، يقال له (صْلَبّي) ما رأيت أعرابياً مثله، قوة جنان، وفصاحة لسان؛ ولولا مكان النبرة البدوية من لسانه، لقلت قد أنصرف الساعة من سوق عكاظ لبيان لهجته، وقوة عارضته، وكثرة ما يدور على لسانه من الفصيح. . . وكان أبيّ النفس، أشم المعطس، عالي الهمة، كريم الطباع، ولكن فيه جفوة الأعرابي. . .
رافقنا أياماً وليالي، فما شئنا خلة من الخير إلا وجدناها فيه: كان يواسينا إذا أصبنا، ويؤثرنا إذا ضقنا، ويحمينا إذا هوجمنا، ويحرسنا إذا نمنا، ويقنع إذا قسمنا، ويشكر إذا أعطينا، ويصبر إذا منعنا، ويعذر إذا اعتذرنا، ويعفو إذا أسأنا ولين إذا اشتددنا، ولا يشتدّ إذا لنّا. . . على خفة روح، وسرعة جواب، ونكتة حاضرة، وشجاعة نادرة. . . قلنا له مرة:
- إن (صْلبة) في عرب اليوم، (كباهلة) في عرب الأمس، قبيلة لئيمة خسيسة، يأنف الكرام من الانتساب إليها، وأنت فيما علمنا سيد كريم، من سادة كرام، وليس لك في هذه القبيلة نسب، فما بالك تدعى (صْلبي) ولا تغضب؟
- فقال: صدقتم والله، ما أنا من (صْلبة) ولا (صُلبة) مني، أني لكريم العمّ والخال، ولكن لهذا الاسم قصة وأنا قاصّها عليكم
- قلنا له: هات
- قال: كان أبواي مُثكلَين لا يعيش لهما ولد، فلما رزقا بي تاسع تسعة ماتوا جميعاً، وأعجزتهما الحيلة، احتسبا عند الله مصيبتهما بذل الاسم، وسمياني صْلبي
- قلنا: أن سمياك صْلبي عشت؟
- قال: نعم! أن عزرائيل أكرم من أن يقبض روح صْلبي؟ وأرفع من أن يمسه بيد. . .
- وسألناه مرة: هل أنت متزوج يا صْلبي؟
- قال لقد كنت متزوجاً بشر امرأة تزوجها رجل، فما زلت أحسن إليها وتسيء إلي حتى ضقت باحتمالها ذرعاً، فطلقتها ثلاثاً وثلاثين
- قلنا: أنها تبين منك بثلاث، فلم الثلاثون؟
- قال: صدقة مني على الأزواج المساكين الذين لا يجدون ما يطلقون. . .
وطال بنا الطريق إلى تبوك، وكاد ينفذ ما كان معنا من ماء، وخشي القوم الموت، فاقبلوا كلهم على صْلبي، يتذمرون من بُعد تبوك وطول الطريق، فتركهم حتى إذا أنفض كلّ جعبته قال لهم ضاحكاً:
- معكم الحق، أنها بعيدة، ولكني اقسم لكم بالله أني لم أضعها هناك. . . وليس لي في بعدها يدان
ولم يكن صْلبي يعرف المدن الكبيرة، ولم يفارق الصحراء قط إلا إلى حاضرته تبوك (وتبوك قرية فيها ستون بيتا. . .) فلما بلغنا - قافلين - مشارف الشام: أغريناه دخول

الدينة، وجعلنا نصف له الشام: رياضها وأنهارها، وعظمها وعمرانها، فيأبى؛ وكنت صفيّه من القوم خليله ونجيّه، فجعلت أحاوله وأداوره وبذلت في ذلك الجهد، فلم أصنع معه شيئا، لما استقر في نفسه من كراهية المدن وسوء الظن بأهلها. . . فتركناه مرغمين، وودعناه آسفين!

وعدت إلى دمشق، فانغمست في لجة الحياة، وغصت فيها إلى أذنيّ، ونسيت صْلبي وصحبته، وكدت أنسى الصحراء وأيامها؛ ومرت على ذلك شهوراً. . . وكان أمس فلمحت في (باب الجابية) وسط الزَّحم الهائل وجهاً أعرفه، فذهبت أنظر إليه، فإذا هو وجه صْلبي بعينه وأنفه. . . فأقبلت عليه مسروراً:

- صْلبي. . . هذا أنت؟

- قال: لا صْلبي ولا ملبي. . .

- قلت: لم ويحك؟

- قال أنا في طلبك منذ ثلاث، ثم لا تأتي إلي

- فقلت له ضاحكا: وأيّ ثلاث، وأيّ أربع، وأيّ خمس؟ أتحسبها تبوك فيها ثلثمائة إنسان؟ إنها دمشق يا صْلبي فيها ثلثمائة ألف؟. . .

- قال: صدقت والله!

وأخذت بيده فاستخرجته من هذه الزحمة، وملت به إلى نديّ (مقهى) قريب، فجلسنا فيه ودعوت له بالقهوة العربية والشاهي فسر وانطلق يحدثني، فقال:

لما فارقتكم ورجعت أسير في هذه البادية وحيداً، شعرت بالوحشة وحننت إلى هذه الأيام التي قضيتها معكم، فاستعبرت وجعلت ألوم نفسي وأقول: يا نفس ما كان ضرك لو أجبت القوم ورددت الشام فرأيت ما لم تري؟ وانصرفت إلى أهلي فلبثت فيهم شهراً، ثم دعاني الأمير فارتحلت إليه، فإذا عنده رهط من أهل الحضر يريدون دليلاً، فسرت معهم أدلهم حتى بلغت بهم مشارف الشام، فدعوني وألحوا عليّ فاستجبت لهم فدخلوا بي دمشق. . .

فلما بلغنا (الميدان) وصرنا بين البيوت، رأيت سيارة كسياراتكم تلك، ولكنها أكبر وأضخم، ولها نوافذ وفيها غرف، وقد خطوا لها خطين من حديد فهي تمشي عليهما، فقال صاحبي: هذا هو الترام، فتعال نركب فيه

قلت: لا والله ما أحب أن أركبه

فزينوه لي وحببوه إليّ، حتى استحييت منهم لطول ما يسألونني وآبى، فدخلت ويدي على خنجري أن رأيت من أحد ما أكره وجأته به، وعيني إلى النافذة أن رابني أمر قفزت إلى الطريق، وجلست حذراً، فما راعني إلا رجل بثياب عجيبة، قد شق إزاره شقاً منكراً، ثم خاطه حول فخذيه، وارتدى برداء ضيق، قد عمد إليه فصفف في صدره مرايا صغيرة من النحاس ما رأيت أعجب منها، فبدا كأنه قرد. . . ولم أدر ما هو، ثم رجع إليّ ما غرب من عقلي، فقلت رومي مجنون من هؤلاء الروم الذين يحكمون الشام، وخف إن أنا لنت له أن يسطو عليّ، فسللت خنجري لأغمده في صدره إذا هو انتهى إليّ، فقام إليّ صاحبي يقول:

- مالك يا صْلبي، ماذا عراك؟

- قلت: ألا ترى الرومي المجنون؟

- قال: أي رومي يا صْلبي؟ وأي مجنون؟

- قلت: هذا؟ آما تراه؟

- قال: هذا جابي الترام

- قلت: جبّك الله!!

وسكت فقد أقبل هذا القرد على صاحبي، فمد إليه يداً كأنها حجر الرحى، فوضع فيها جُبنة قرشين، فأعطاه بهما فتاتة ورق فما رأيت ولله صفقة أخسر منها، وعجبت من صاحبي إذ يشترى بقرشين اثنين ورقة ما تصلح لشىء، ولكني جلست صامتاً، وما هي إلا هنيهة أخرى حتى أقبل علينا رجل كالأول، رومي خبيث، إلا أنه أجمل ثياباً وأحسن بزة، فأخذ هذه الأوراق فمزقها. . . فثأرت ثائرتي وقلت: هذا والله الذل، فقبح الله أعرابيا يقم على الضيم، ويرضى أن يسام الخسف. . . وقمت إليه فَلَبَّبْتُه وقلت له: يا ابن الصانعة. . . أتعمد إلى شيء اشتريناه بأموالنا، ودفعنا فيه قروشنا فتمزقه، والله لأمزقن جلدة

. . . .وجهك
وحسبت صاحبي سيدركه من الغضب لكرامته، والدفاع عن حقه مثل ما أدركني، فإذا هو يضحك، وإذا الناس يضحكون لما يرون مني، لأن عمل هذا الرجل - فيما زعموا - تمزيق أوراق الناس التي اشتروها بأموالهم!
ولما نزلنا من هذه الآفة، قال لي صاحبي:
- هلم إلى الحمام؟
- فقلت: مالي وللحمام؟
- قال: تغتسل وتلقي عنك أدران السفر
- قلت: أن كان هذا هو الحمام، فمالي بالحمام من حاجة، حسبي هذا النهر أغطس فيه فأغتسل
- قال: هيهات. . . أن الحمام لا يعد له شيء، أو ما سمعت أن الحمام نعيم الدنيا؟
- قلت لا والله. ما سمعت:
- قال: إذن تسمع وترى. وأخذني فأدخلني داراً قوراء في وسطها بركة يتدفق منها الماء فيذهب صعداً كأنه عمود من البلور، ثم ينثني وينكسر ويهبط وله بريق ولمعان: صنعة ما حسبت أن يكون مثلها إلا في الجنان. وعلى أطراف الدار دكك كثيرة مفروشة بالزرابي والأرائك والمتكئات كأنما هي خباء الأمير. فلم نكد نتوسطها حتى وثب إلينا أهلوها وثبة رجل واحد يصيحون علينا صياحاً غريباً، ويصرخون صراخ من به مسّ، فأدركت أنها مكيدة مدبرة، فانتضيت خنجري وصحت بهم: مكانكم، فوالله لا يدنو مني رجل إلا قططت رقبته. . . فأحجموا، وعجبوا ورعبوا، فقال صاحبي: أنه يمزح. ومال علي يعاتبني عتاباً شديداً، فقلت: أفلا ترى صنيعهم بنا، أفتحب أن ندعهم حتى يأخذونا، قال إنهم يرحبون بنا، ويسلمون علينا لا يريدون حرباً ولا قتالاً
فصدقته وأغمدت الخنجر، وظن القوم أنه المزاح، فعادوا إلى حركاتهم وضجتهم، يدورون حولنا بقباقيبهم العالية، ويجيئون ويذهبون، وأنا لا أدري ما هم صانعون، حتى قادونا إلى دكة من هذه الدكك، وجاؤا ينزعون عنا ثيابنا، فتحققت أنها المكيدة وأنهم سيسلبونني خنجري حتى يهون عليهم، فقد عجزوا أن ينالوني وبيدي الخنجر فأبيت وهممت بالخروج، فجعل صاحبي يكلمني ويحلف لي، حتى أجبت واستسلمت، والموت أهون علي من أن أنزل عن سلاحي، وأمنحهم سلبي حتى يسلبوني، ولكنها المدينة دار المذلة والمهانة، وليست بالصحراء، ولو أني لقيتهم في الصحراء لجعلتهم طعمة للوحش والطير. . . حتى إذا تمّ أمر الله ولم يبق إلا الإزار، أرادوا نزعه عني، فقلت: أما من مسلم في هذا البلد؟ أما من عربيّ؟ أتكشف العورات فلا يغير أحد، ولا يغضب إنسان؟
فهدأني صاحبي، وقال: أفتغتسل وأنت متزر؟
قلت: لعن الله نظافة الجسم إذا كانت لا تأتي إلا مع نجاسة النفس، ويحك أتراني أضيع ديني وشرفي وأنكشف بعد هذه الشيبة، وتذهب عني في العرب، فتكون فضيحة الدنيا والآخرة؟
قال: ومن أنبأك أنك ستنكشف؟ هلا انتظرت؟
ودعا غلاما من أغلمة الحمام فقام دوني يسترني، ستره الله، حتى خلعت إزاري واتّزرت بإزار أبيض أعطونيه. . . وكان صاحبي قد تعرّى كما تعريت فأخذ بيدي فأدخلني إلى باطن الحمام فإذا غرف وسطها غرف، وساحات تفضي إلى ساحات، ومداخل ومخارج ملتوية معوجة يضل فيها الخرّيت، وهي مظلمة كالقبر، قد انعقدت فوقه قباب فيها قوارير من زجاج، تضيء كأنها النجوم في الليلة الداجية، وفي باطن الحمام أناس جالسون إلى أجران ضخمة من الصخر، عرى لا يسترهم شيء، فعلمت أنهم من الجن. وتعوذت بالله من الشيطان الرجيم، وجعلت ألتمس آية الكرسي فلا أجدها، فأيقنت لما نسيتها أن جنياً منهم لابد راكبني، وجعلت أبكي على هذه الشيبة أن تكون سخرية صبيان المدن. . . وإني لكذلك إذا بالخبيث يعود إلى يريد أن ينزع عني هذا الأزرار الذي كسانيه. . . فقلت: ويل أمهاتكم! ما ألأمكم! أتأخذون ثيابي وسلاحي، ثم تضنون عليّ بثوب يسترني؟ الرحمة يا مسلمون، الشفقة يا مؤمنون! أأفتضح في الأنس والجن؟

ووثب الجن عليّ وحدقوا بي وهم عرى، فَقفَّ والله شعر بدني، وامتلأت فزعاً؛ فقال صاحبي وهو يضحك: أعطهم الإزار لقد أضحكت الناس علينا
قلت: ويحك، وهل أبقى عريان؟ قال: لا، سنعطيك غيره. أن هذا جديد يفسده الماء فاستخذيت وأطعت، وما خوفي إلا من هؤلاء الجن أن ينفخ على أحدهم فيحرقني، أو يدفعني دفعة فيلقيني وراء جبل قاف!
ودخلت إلى مقصورة من هذه المقاصير، فجلست إلى الجرن حزيناً كئيباً لا أعلم ماذا يجري علي، فبينما أنا على تلك الحال - وإذا بجني عار كأنه قفص عظام، له لحية كشوك السعدان - وودت أنها عشاء لجملي. . . وقد تأبط ليفاً غليظاً - يا شر ما تأبط! - وحمل ماعوناً كبيراً يفور فوراناً فتشهدت واستغفرت وعلمت أنه السم، وأنه سيتناثر منه لحمي - وقصد الجنيّ إليّ - فجعلت أفر منه، أتوثب من جانب إلى جانب، كأنني دجاجة تفر من سكين الجزار وهو يلحق بي ضاحكاً، ويعجب من قبلي ويظن أني ألاعبه وأداعبه، وصاحبي يقسم لي أنه الصابون.
قلت: وما الصابون لا أم لك - أمصابون أنتم في عقولكم؟ هذا هو السم، لقد عرفته. . . -
قال: لا وأبيك أنه الصابون، ولا ينظف شيء مثله.
قلت: ألا شيء من سدر؟ ألا قليل من أشنان؟ -
قال: والله ما أغشك فجرب، ونطق الجني فإذا هو والله كلام الناس، وإذا هو أدمي من أمثالنا، فاطمأنت وجلست بين يديه، وأقبل على يدلكني دلكاً شديداً، وأنا أنظر هل تساقط لحمي، هل تناثر جلدي، فلا أجد إلا خيراً فضننت أنه قد أحسن إلي، وهممت بشكره، لولا أن ظهر أنه شيخ سوء من القوم الذين أهلك الله، فقد كان يتغافلني ويمد يده تحت الإزار، فيمس فخذي وساقي، فقلت: لو نجا منه أحد، لأنجتني هذه الشيبة، وجعلت أهم بهشم أنفه، وهشم أسنانه ثم أدعه، حتى انتهى وصبَّ على الماء سخنا، فشعرت والله كأنما نشطت من عقال، وأحسست بالزهو والخفة، فصحت فأنكرت صوتي، فقلت: ماهذا؟ أينطق على لساني مغن من الجن؟ وأعدت الصيحة فازددت لصوتي إنكاراً، فاستخفني الطرب وجعلت
أغنى وأحدو، فقال لي صاحبي: هل أستطبت صوتك؟
قلت: أي والله، قال: أفلا أدلك على باب القاضي؟
قلت: فض الله فاك. مالي وللقاضي؟ هل أحدثت حدثاً؟ هل آويت محدثاً؟ هل . .
قال: ألا تعرف قصة جحا؟
قلت: لا والله! فمن جحا؟ وما هي قصته؟
قال: كان جحا عالماً تحريراً، إلا أن فيه لوثة، وكان خفيف الروح، فدخل الحمام مرة فغنى فأعجبه صوته، فخرج من فوره إلى القاضي فسأله أن ينصبه مؤذناً، وزعم أن له صوتاً جميلاً، لا يدخل أذن رجل إلا حمله حملاً فوضعه في المسجد
فقال له القاضي: فقم على المنارة فأذن نسمع، فقام فأذن، فلم يبق في المسجد أحد إلا خرج هارباً يتعوذ. . .
فقال له القاضي: أي صوت هذا؟ هذا الذي ذكره الله في الكتاب
قال إصلح الله القاضي، ما يمنعك أن تبني لي فوق المئذنة حماماً؟
ولمح (صلبي) أعرابياً من أهل نجد يمر في الطريق، فقال لي: أنتظر! وخرج يعدو وراءه. . .
ثم لم يعد . . . .!
علي الطنطاوي
وقائع كأنها القصص
السر
بقلم محمد مصطفى حمام
دخلت على الباشا والمجلس حافل والسرور شامل، فلقيني بما عود زائريه من بشاشة وترحيب، وأقبل بعدى آخرون يخلفون أعماراً وألواناً، فمنهم الشيخ العتيق المحطم والفتى الأنيق المهندم، ومنهم الحضري الناعم والفلاح الخشن، فتقبل الجميع بقبول حسن، وأفاض عليهم من عطفه مثل ما أفاض عليهم من عطفه مثل ما أفاض عليّ وجاء الخادم يبشر بزائر جديد شعرت عند سماع اسمه بكثير من السرور، فهو اسم

أحد السراة الظرفاء الذين سمعت عنهم دون أن ألقاهم، وما كان أشوقني إلى هذا اللقاء!

ولم ينتظر الزائر آذن الباشا بالدخول، بل اقبل في أثر الخادم، وإذا نحن نستقبل رجلاً سمهري القامة، بهي الطلعة، وافر الحظ من المهابة والروعة، ولقد أهتز له المجلس تعظيماً وإكباراً، إلا الباشا فلم يعبأ بمقدمه، ولم ينشط لاستقباله، بل صافحه وهو لاصق بكرسيه، ثم أشاح وجهه عنه، وأقبل بالحديث على سواء

وأخذتني من هذا اللقاء السيئ دهشة وعجب، وجعلت التمس للأمر كثيراً من العلل قلت لنفسي: قد يكون القادم من الأنسباء أو ذوي القربى، فلا حاجة بصاحب الدار إلى المبالغة في تكريمه، أو لعل اقتحامه المجلس دون انتظار الإذن هو الذي أغضب الباشا عليه

ورأيت جو المجلس قد أظلم بعد استقرار الضيف الجديد في مكانه، وبد على الباشا ضيق وضجر، وحاول الرجل أن يظفر من صاحب البيت بلفتة إليه، أو إقبال عليه، فلم ينل إلا جفاء وإعراضا

ثم انحنى على الباشا يحاول أن يسر إليه حديثاً، فنهره كما ينهر السائل، وصاح به وشرر الغضب يتطاير من عينيه:

لقد أنقطع ما كان بيني وبينك، فلا تعكر صفاء مجلسي بقدومك، ولا تحاول استرداد مودتي فذلك ما لن يكون

وانصرف الزائر خاسئ البصر، لا يكاد يرى مما حوله شيئا، وودعناه راثين لحاله! وأخذ المجلس يتبدد، حتى لم يبق إلا أنا وصاحب الدار، فلما هممت بالانصراف استبقاني قال الباشا: لعلك أسأت الظن بأدبي؟

قلت: معاذ الله

قال: أضنك في دهشة من سوء لقائي لضيفي، وربما أهمك أن تعرف السر

قلت: لا أرى في معرفته باساً

قال: لا يزال الصديق محباً إلى قلبك، رفيع القدر في عينك، حتى تكشف لك الأيام منه عن عورة لا تستطيع الإغضاء عنها، فمالك يومئذ من ذنب إذا سقط عندك مقداره، وتمكن من نفسك احتقاره

هذا رجل صاحبني خمسة أعوام كاملة، ملأ في خلالها جوانب قلبي، واستأثر دون الأصدقاء بحبي، وجمعت بيننا مجالس بعضها لله وبعضها للشيطان، وفي أمثال هذه المجالس أسخو بالمال وأكون المتلاف المبذال

وكان هذا الرجل زميلي في كل هذه المجالس، ودليلي إليها في أكثر الأحيان وقادني إلى بيت في حي من اجمل أحياء المدينة. نادمنا فيه نسوة ثلاثاً كأنهن الحور العين، فقطفنا منهن ورد الخدود، وداعبنا غصون القدود، وصار هذا البيت معهد غرامنا نسعى إليه بين الحين والحين، ولكن في جنح الليل، وفي غفلة من الجيران

وما هي إلا اشهر معدودات، حتى علمت علم اليقين إن هذا البيت الذي نعبث بنسائه ونلهو، هو بيت صاحبي دون سواه! وان نديماتنا هن امرأته وقريبتاه! هن اللائى نغازلهن ونقبلهن! وهن اللائى ينلن مني أجر العبث بهن، أدفعه سخياً كريماً، ويتقبلنه راضيات فرحات!

ولقد أخذني من هذه الحقيقة المؤلمة هول وفزع، فقد تكشف لي صديقي عن نفس خبيثة وعرض ممزق!

قلت: فهلا كاشفته بما علمت من دخيلته؟

قال: لقد كان عذره اقبح من ذنبه، فقد أفهمني أنه وقد عرف فيّ البعد عن الجريمة المنكرة، وجرب عليّ القناعة بالقبلة والمنادمة، وشهد سخائي في البذل، رأى أن يؤثر نفسه ونساء بيته بمالي، فهو وهن أحق بذلك المال الذاهب هباء، والملقى إلى أناس آخرين، ولم يجد في الأمر ثلماً للعرض ولا نقصاً من الشرف، وما دام الغزل لا يصل إلى نهايته الأثيمة!

وتراءت في عيني صورة الرجل حين رأيته لأول مرة، وقارنت بين جمال المنظر وسوء المخبر، فذكرت قول الشاعر:

وهل ينفع الفتيان حسن وجوههم ... إذا كانت الأعراض غير حسان!

محمد مصطفى حمام

نظرية النسبية الخصوصية
البحث الثالث
مبادئ الميكانيكا الحديثة
للدكتور إسماعيل احمد ادهم
عضو أكاديمية العلوم الروسية
- 1 -
لقد قررت سنّة لورانتز في التقلص أن سرعة النور أقصى سرعة يمكن أن توجد في الكون، وهذه السنّة نتيجة لكون سرعة الجسم كلما أخذت في الزيادة أخذت كتلتها تتقلص من اتجاه حركتها بنسبة رياضية ثابتة، حتى إذا ما قاربت سرعتها سرعة النور بلغ التقلص حداً لا متناهياً، لا يمكن أن يتقلص الجسم المتحرك بعده. فلو فرضنا جسماً يتحرك بسرعة معينة ولتكن (س)، فهذا الجسم حسب قانون التقلص يتقلص بمقدار ثابت مثل (ث) ومقدار هذا التقلص:

1
ث=_____
ن2س2 - 1

لا يمكن أن تتجاوز السرعة (س) فأي وقت سرعة النور (ن) لأن هذا القانون يتلاشى إلى حيث لا يكون له معنى

لنفرض كتلة مادية مثل (ك) مقدار الطاقة الحركة التي بها (ط ح)، وهذه الكتلة تتحرك بسرعة مثل (س)، فهذه الكتلة تقرر قواعد الميكانيكا الكلاسيكية أن طاقتها الحركية:

21ك س2= (ط ح)

غير أن مبادئ النسبية استناداً على قوانين المجال الالكترومغناطيسي، ونظرية (ماكسويل - لورانتز) تقرر أن

ك ن2
ط ح=
_____
ن2 - س2

فمقدار حركة الكتلة الماديّة (ك) لا يمكن أن تتجاوز في سرعتها سرعة النور، حيث أن سرعة الكتلة الماديّة المرموزة لها بالرمز (س) تستنفذ في حركتها جزءاً من مقدار طاقة الحركة (ط ح) حتى إذا ما بلغت سرعة النور سرعتها تكون الطاقة قد استنفذت كلها

- 2 -
لو فرضنا قوتين: سرعة الأولى (س) وسرعة الثانية (س1) وأن هاتين النقطتين أثرتا على نقطة مادية في اتجاه واحد. فتكون سرعة هذه النقطة المادية محصلة هاتين السرعتين ولنرمز بالرمز (س2) فقانون الحركات الكلاسيكي يقرر أن

س2=س + س1 (معادلة 1)

وهذا القانون النيوتوني يتبدل عند اينشتيجا ويتشكل في صورة رياضية أخرى تقررها المعادلة:

س + س1
س2=_____ (معادلة 2)
ن2س + س1 + 1

وهذه الصيغة الجديدة نتيجة لمبدأ ثبات انتشار النور

فمثلا لو فرضنا نظاماً مادياً يبتعد عن الشمس بسرعة 13000 كيلومترا في الثانية، فشعاعه النور الصادرة من الشمس والتي تتحرك نحو هذا النظام بسرعة 00 , 000 ك م في الثانية تكون سرعتها بالنسبة لراصد في النظام المادي:

ك م + 13. 000 ك م في الثانية=313. 000 ك م في الثانية حسب مبادئ 300. 000 الميكانيكا الكلاسيكية. أما قواعد النسبية فتقرر أن سرعة شعاع الضوء للمشاهد حسب قانون تركب السرع كما تقرره الميكانيكا الحديثة هي:

300. 000 + 13. 000
ك م في الثانية 300. 000=_____

300. 000 13. 000
1 + ———
300. 000 2
وهذه النتيجة توضح لنا تماماً أن سرعة النور سرعة مطلقة لا تتغير
- 3 -
إن علم الحركات يرى في الزمان حداً رابعاً للمادة، ولكنه لا يخرج عن كونه ملاحظة رياضية، حيث أن الزمان مطلق ومستقل عن المكان، وقد كان أستاذنا هنري بوانكاريه الشهير يفرض أن الزمان بعد رابع موهوم للمادة ويستند في إثبات ذلك على الرياضيات الثابتة إلا ألبرت اينشتين ومينقوفسكي تمكنا من إثبات أن الزمان له شأن طبيعي كحد رابع للحوادث
إذا فرضنا وقوع حادثتين غير معينتين وكان الخط الواصل بين الحادثتين (خ) مثلاً. فانتقالنا من نظام إلى آخر لا شك سيؤثر في الخط الواصل بين الحادثتين وسيتأثر الخط بانتقالنا ويتغير (راجع مقال وحدة القوانين الطبيعية)
وإذا كان الزمان الفاصل بين أوان وقوع الحادثتين (ت) مثلا ورمزنا لسرعة الضوء بالرمز (ن) كان معنا المعادلة
ف2= (ن2ت2) - خ2 (معادلة 1)، وهذه المعادلة ثابتة لا تتغير حيث فيها (ف) رمز لفاصلة الزمان المطلقة، والحادثات
ك، ى، ن، ت؛ ك1، ى1، ن1، ت1 لو طبقت على قانون التحويل الذي وضعه لورانتز كانت النسبة بين مجموع حوادث الكونين ثابتة حيث أن:
ف2=ن2 (ت1 - ت) 2 - (ك1 - ك) 2 + (ى1 - ى) 2= (ن1 - ن) 2 (معادلة 2)
فإذن ليس الزمان بذلك الموجود المستقل عن المكان بل أنه مندمج فيه، وليس الزمان والمكان بمطلقين بل هما نسبيين إلا أنهما يندمجان في الفاصلة الثابتة الرياضية (ف)
ليس للزمان ولا للمكان شأن طبيعي وإنما اندماجهما يولد معنا حقيقة واحدة. فالمكان امتداد للزمان، أعني أن فواصل حوادث العالم تندمج في (ف) 2 الثابتة الرياضية وتكوّن وحدة هوكون (الزمان - المكان)
هذا الكون لا يتبع نسب وقياسات الحوادث، بل هو مطلق فلكل حادثة أو مجموعة من الحادثات مكانها وزمانها الخاص بها. أما كون (الزمان - المكان) فهو ذو حقيقة مطلقة غير تابعة لقواعد القياس. والمكان في حد ذاته ليس إلا مجموعة فواصل الحوادث، فواصلها الفراغية المتساوية أعني أنه قطاع للعالم في زمان خاص، أو بلغة أبسط هو العلاقة الانتشارية بين الحادثات واندماج المكان بالزمان في الثابتة الرياضية (ف)، توجد علاقة ثابتة بين الحوادث هي الفرق بين مربع الفاصلة الفراغية وحاصل ضرب سرعة النور بمربع الفاصلة الزمانية. هذه العلاقة تؤلف بين الحادثات وحدة ممتازة تحيل الكون عالماً مطلقاً هي منه الصفة المطلقة الوحيدة
- 4 -
لنفرض نظاما ماديا مثل (ظ) يتحرك حركة نسبيةند نظام مثل (ظ1) ولنفرض أن (خ) خط ثابت بالنسبة للنظام الثاني متحرك بالنسبة للأول بسرعة محدودة لترمز لها بالرمز (س) فطول هذا الخط بالنسبة لمشاهد في النظام الأول غيره بالنسبة لمشاهد في النظام الثاني
ولنفرض أن (خ) يمتد من النقطة (م) إلى النقطة (م1) فستبدو كل نقطة حادثة مستقلة عن الأخرى لكل من المشاهدين. وسيرى المشاهد الذي في النظام (ظ1) الحادثين متواقتين. أما المشاهد الذي في النظام (ظ) فان (خ) ستبدو له أطول مما تبدو للمشاهد الذي بالنظام (ظ1) كما وأن كل نقطة من نقطتي الابتداء والانتهاء ستبدوان له حادثتين مستقلتين عن بعض غير متواقتين
ولنفرض أن المحورين (ك م؛ ك1م1) منطبقين على بعضهما كل الانطباق وأنهما موازيين استقامة السرعة (س) للخط (خ) في كل من الكونين (ظ) و (ظ1) فإذا كانت المحاور
م ك، م ي، م ن. . . . . (1)
موازية للمحاور

م1ك1، م1 ى1، م1ن1. . . . . (2)
في كل من النظامين (ظ) و (ظ1) كان:
ك1=ث (ك - س ت) معادلة رقم (1)
ولابد من أن يكون:
ك1=ث كمعادلة رقم (2)
ليتحقق معنا تعادل المركز (م) مع الزمان (ث) ومن انطباق المركز على الزمان نستنتج أن
ك1
ك=ـــ معادلة رقم (3)
ث
وهناتؤدي إلى أن
اس2
ـــ=ـ
ثن2
حيث أن ارمز لمعادلة التقلص
ولما كان المقدار العالي أصغر من (ا) كان ك1ك1
إن الخط (خ) بالنسبة للمشاهد الذي بالنظام (ظ1) أطول مما هو بالنسبة للنظام الأول. ومسألة تقلص الأطوال شيئاً فشيئاً كما تقرره ميكانيكية لورانتز ليست راجعة لتقلص الأجسام في اتجاه حركتها وإنما هي نتيجة لنسبية الأطوال. وليس هذا التقلص حقيقيا بل هو ظاهري حيث أن الواجب لا يمكنه ترتيب حدوث الحادثات كما تقع وإنما يرتبها حسب ما تتراءى له. وتقسيم الزمان والمكان تقسيماً مطابقا لموضوعها في صورة مستقلة عن بعضها لا يمكن إجراؤها في أي حال حيث أن سرعة اندفاع الجسم إذا بلغت سرعة انتشار النور أو ما قاربها بلغ التقلص أقصاه ولم يصبح للجسم عمق لدى النظر، لان الأجسام عندما تبلغ من السرعة هذا الحد تلوح كصفائح رقيقة وحاصل القول أن الأطوال تابعة لحالات المشاهدين الطبيعية من الحركة والسكون

لنفرض ساعة في النظام (ظ). فهذه الساعة سيبدو إشعارها للزمان متأخراً بالنسبة لساعة النظام (ظ) فهذا التقلص في الزمان نتيجة العلاقة بين (ت، ت1) حيث أن:
خ ت=ث خ ت1 معادلة (1)
ولما كان تقلص الأطوال نتيجة للقانون:
خ ك=ثخ ك1 معادلة (2)
فقليل من البحث والاستفاضة في الدرس يكشف عن تساوي كل من
خ ك خ ت=خ ك1 خ ت1
حيث أن
خ ك، خ ى، خ ن، خ ت=خ ك1، خ ى1، خ ن1، خ ت1معادلة رقم (4)
ونخرج من هذا التساوي بحجم الجسم في عالم ذي أبعاد أربعة أو طوله في ذلك العالم
(للبحث بقية)
إسماعيل احمد ادهم
رسائل حاج
من ربوع الغرب إلى بلاد العرب - 4
للمستشرق المجري الدكتور عبد الكريم جرمانوس
أستاذ التاريخ بجامعة بودابست
تتمة
وقف جلالة الملك ابن السعود فوق ذروة (جبل الرحمة) كرمز خالد لعبقرية الأمة العربية، يذرع الفضاء بعين نسر جبار، ويشرف على راحة الحجاج الضاربين بين خيامهم في السهول المجاورة. لكم كان منظره فاتناً خلاباً، والشمس تكنفه وتشرق عليه، بينما يلتف حوله الحرس الوهابي بملابسهم المزركشة وخناجرهم التي تلمع مقابضها في وهج الظهيرة.

وقبيل الغسق تحرك الركاب الملكي شطر (المزدلفة) فظهر في الجو غبار كثيف امتزج بصيحات الوهابيين الذين كانوا يهتفون (نحن أنصار التوحيد، اخوة من أطاع الله)
وليس لأي كاتب مهما بلغت عبقريته أن يصف هذا المنظر وصفاً شافياً، ومن لي بالفصاحة والبيان لأصوره على حقيقته؟
وعند وصولنا إلى (منى) بلغ مسامعنا نبأ محاولة اغتيال الملك، فان ابن السعود ما كاد ينتهي من طوافه للمرة الثالثة حتى داهمه أربعة من اليمنيين وهم يصيحون بأعلى أصواتهم: الله اكبر! الله اكبر! محاولين أن يطعنوه بخناجرهم. فان لليمنيين مهارة وحذقاً خاصاً في استعمال الخناجر، لكنهم لم يصيبوا سوى ولي العهد وهو يهم بإنقاذ أبيه. ثم حمل الجنود على الجناة وحاولوا أن ينزعوا سلاحهم. ولما لم يفلحوا اضطروا إلى رميهم بالرصاص، وأريقت دماؤهم فوق ثرى هذه الأرض المقدسة. وكان الملك الذي طالما خاض غمار حروب ومعارك حتى لم يخل جسمه من شبر واحد من آثار الجروح، هادئا ساكنا فلم تبدُ على وجهه إمارات الجزع، بل قصد لساعته بئر زمزم فتوضأ، ثم عاد إلى إتمام طوافه بالكعبة
وكان للحادث أثره المؤلم في نفوس الحجاج، فاستنكروا بشاعة الاغتيال، وتوغل بعض القتلة في الصفوف فخشي أن يحدث فرارهم رعباً في القلوب. ولقد أحسن الملك صنعاً بعودته السريعة إلى منى ليزيل ما علق بنفوس الحجاج من الرعب، فانه ما كاد يستقر في سرادقه حتى هرعت إليه جموع الحجاج ووفود البلاد لتقدم تهنئتها بنجاته من يد الآثمين. هنا سنحت الفرصة لان أقف وجها لوجه مع العاهل العربي الذي يحكم بلاده بالعدل والشريعة، ويسودها العطف والمحبة؛ فقد كان ابن السعود يجلس في سرادقه تحيط به ثلة من الحرس النجدي، وهم من صفوة الرجال الأشداء، وكانت ملابسهم المزركشة تخطف بسناها الأبصار، يتوج رؤوسهم العقال البدوي، وتتدلى من تحته ضفائر الشعر الكثيف الأسود حتى تصل إلى صدورهم، بينما أقداح القهوة العربية وأكواب الليمون المثلج تطوف على الوفود بين حين وأخر. وعندما غشيت مجلس الملك كان الخطيب الماثل بين يديه قد انتهى من خطابته، فلما التقى طرف الملك بطرفي أومأ إلى أن أتقدم، فجمعت شجاعتي وأنا في نشوة روحية عميقة، ورفعت يدي إلى رأسي إجلالاً واحتراماً ثم تقدمت. . .
لقد قابلت في شبابي وأنا في استامبول، السلطان عبد الحميد، ورافقت السلطان محي الدين في إحدى سياحاته، وزرت السلطان رشادا، وتحدثت إلى كثير من الرؤوس المتوجة في أوربا، لكنني لم أشعر مطلقاً أني وقفت وجهاً لوجه أمام التاريخ ألا في تلك المقابلة، لاسيما عندما رفعت عيني إلى وجه ابن السعود، ولمحت في ثناياه دلائل الحزم والقوة والشفقة والحنان والمهابة والجلال. ولقد لاحظت أن بطرف عينه اليمنى حولاً، بينما العين الأخرى قوية سليمة، والمعروف عن الملك أنه شجاع مقدام، تضرب القبائل بشجاعته المثل، فعندما كان في الحادية عشرة من عمره، قاتل في إحدى المعارك خصما له فقضى عليه بضربة من حسامه: وهو رجل شديد الإيمان بالله، ولقد كان إيمانه من أقوى الأسباب في تأسيسه المملكة السعودية وإحياء مجد الجزيرة العربية
وما كدت أقف أمام الملك حتى خاطبته بصوت جهوري فيه كل معاني الإخلاص: السلام على أمير المؤمنين، أنني أحمد الله على نجاتك من يد ذلك القاتل الأثيم عدو الدين
ومدَّ إليّ ابن سعود يده وصافحتها ثم طلب إلى أن أزوره في قصره؛ وبعد أن شهدت حفلة الاستعراض العسكرية التي أقيمت (بوادي الشهداء) ورأيت ضروباً من الفروسية العربية، تلك الفروسية التي خلقت من الحب أدباً عالياً ومن المرأة صنماً معبوداً توجهت إلى القصر
الملكي بناحية (المعلى) بالضواحي، وهو قصر عظيم شامخ البنيان، يشبه الحصون العسكرية، ويشتمل على عدد كبير من الغرف المتسعة الأرجاء والردهات والأبهاء ذات العمد
وجلست بقاعة الاستقبال، في انتظار التشرف بالمقابلة، فسرني أن التقيت بكثير من أعيان العرب، الذين يأتون للمثول بين يدي الملك بملابسهم الفخمة، فيحادثهم كإنسان يستشير اخوته، ويرسم معهم كل ما يتعلق بسياسة الدولة وتدبير وسائل الرفاهية

والراحة للحجاج. ولقد راعتني البساطة التي ألفيتها متمثلة في الملك والشعب معا، فالرسميات المعقدة التي تتبع في بلاط ملوك أوربا لا وجود لها في هذا البلاط العميق الديموقراطية. والواقع أن ابن السعود هو عاهل الجزيرة العربية بلا منازع، ولم يؤل الملك إليه عن طريق الوراثة، بل آل إليه عن جدارة واستحقاق

وطفقت أستوعب الدقائق إلى أن يحل دوري فأتشرف بالمثول بين يدي الملك؛ وكنت من خلال فترة الانتظار جالساً في مكتب سعادة فؤاد بك حمزة وزير الخارجية، الذي ذكر لي أني أول حاج قدم إلى مكة من بلاد المجر؛ وما كاد يحل دوري حتى تقدمني فؤاد بك حمزة وغشينا مجلس الملك، وبعد أن صافحته أوماً إلى أن أجلس بجواره، وقدمت إلينا القهوة، فرأيته يرشفها بشغف ولذة. ثم بدأ الملك يتحدث إلي فقال: (لقد قدمت من نجد إلى بلاد الحجاز وجبت البلاد من الشرق إلى الغرب لزيارة بيت الله وتفقد حالة الحجاج. وغاية ما أرمى إليه أن أؤلف بين قلوب رجالي متوسلاً إلى الله أن يلهمني وإياهم الصواب في أعمالنا. لقد عنيت عناية خاصة بإقامة الشرائع المحمدية ونشرت الأمن والسلام في أنحاء الجزيرة العربية، وفي وسعك الآن أن تتجول في أقصى بقعة من بقاع الجزيرة دون خوف ولا وجل. وسترى عما قريب أنني سأعيد إلى هذه البلاد عظمتها القديمة حتى تصبح موئل الإسلام كما كانت أيام سيد المرسلين)

إن هذا العاهل العربي العظيم يلمس تماماً مواطن الضعف في كل ركن من أركان بلاده ويعمل على إصلاحه وتقويمه ما استطاع إليه سبيلا؛ فالسلام مع الرقى والتقدم هما الأمران اللذان يعني بهما عنايته بطعامه وشرابه، وإقامة حدود الله مع المحافظة على استقلال الجزيرة هما الغايتان اللتان يسترشد بهما في تأدية واجبه، وهو لعمري الطريق السوي

الذي يجب أن يسير فيه. وملك هذه صفاته وأعماله جدير حقا بأن يخلد التاريخ ذكره في ثبت الوجود

وبعد أن انتهيت من زيارتي استأذنته في الانصراف فقام من مجلسه منتصباً وبسط إلي إحدى يديه الغليظتين وظل قابضاً على يدي برهة وهو يرمقني بعينه المتسعة، وكانت ملامحه تدعو إلى الهيبة والاحترام إلى حد ألفيت نفسي عاجزاً عن أن أرفع إليه بصري، ثم ما لبثت أن هويت بفمي على راحته ألثمها في إكبار وإجلال

ولما أزفت ساعة الرحيل ودعت أصدقائي من سادة العرب وكبار العلماء كالأستاذ محمد شطا شيخ قضاة مكة، ورئيس الشرطة، وبعض الأطباء النابهين، ووصلت إلى جدة حيث قضيت أياماً في ضيافة الشيخ محمد علي وهو رجل علامة يحذق لغات شتى، وقد تجول في أنحاء أوربا، ويعرف الشيء الكثير من عادات الشرق والغرب أقلعت الباخرة فوقفت في مقدمها واجماً ساكناً تتناهبني شتى العواطف، وأنا أودع هذه الأراضي المقدسة التي ربما أراها للمرة الأخيرة. وكلما بعدت بنا الباخرة اغرورقت عيناي بالدموع، فقد خلفت في تلك الديار صداقة جديدة تكاد لعذوبتها تشبه الحب، وذكرى عزيزة هي ثمرة عقيدتي في الإسلام واليوم الآخر. فما اعظم الفرق بين مدنية أصدقائي العرب، إخواني في الله، الذين تشبع في قلوبهم فكرة الاتصال بالواحد القهار فيصدفون عن الماديات، وبين مدنية المغرورين الذين يتهالكون فرقاً وراء قضبان المادة وينقعون غلتهم في شهوة المال!

عبد الكريم جرمانوس

مديرية أسوان

والحد الفاصل بين مصر والسودان

بقلم رشوان أحمد صادق

في الجغرافيا

أتحدث اليوم عن علاقة مصر بالأقاليم الجنوبية واهتمام المصريين بالحدود المصرية الجنوبية منذ بدء التاريخ إلى اليوم فأقول:

أول من أهتم بالجهات التي تتاخم حدود مصر الجنوبية هو الملك بيبي الأول ثاني ملوك الأسرة السادسة فأرسل القائد أونا إلى كروسكو ليجمع بعض أنواع الأخشاب فساعده قبائل تلك الجهات على أداء مهمته واعترفوا بسيطرة الملك بيبي عليهم. ثم أرسل الملك متوسوفيس (وهو الملك الثاني عشر من الملوك الأسرة السادسة) القائد هرخف لغزو بلاد بنت فعاد يحمل البخور والآبنوس والعاج والجلود حملها على ثلثمائة

حمار وحمل معه قزماً من الدنقس أتى به من (بر الأظلال). فلما وصل مصر كان الملك متوسوفيس قد مات وخلفه أخوه الملك بيبي الثاني فسر بخبر القزم فكتب إلى هرخفف يأمر بإحضاره إلى منف، وهذا نص الكتاب: (واصحب معك في السفينة بعض الخفراء لحراسته كي لا يقع في الماء أو يفلت في الليل، لأني أسر برؤية القزم أكثر من جميع ما أحضرت من بلاد بنت)، فحفر هرخفف هذا الخطاب مع خبر غزوته على واجهة قبره في جزيرة الفنتين

وفي عهد الأسرة الثانية عشرة أرسل (اوسرتسن) الأول ثاني ملوك هذه الأسرة القائد هونو إلى بلاد بنت بطريق قفط والقصير لجباية الجزية من أمراء تلك البلاد، فأدى مهمته ثم عاد. وقد جرد هذا الملك حملة بطريق النيل فامتدت حدود مصر الجنوبية حتى الشلال الثاني، وقد عثروا على حجر في هيكل جهة حلفا (نقل الآن إلى فلورنسا) وعليه صورة هذا الملك وبجانبه المشايخ الثمانية لرؤساء القبائل التي تغلب عليها؛ وفي عهد (اوسرتسن) الثالث خامس ملوك هذه الأسرة امتدت حدود مصر إلى شلال سمنه جنوباً، وتوجد آثار هيكل من بقايا أعمال ذلك العصر، كما وجد حجران جعلا الحد الجنوبي للبلاد المصرية مكتوباً على أحدهما ما معناه: (هذا حد مصر الجنوبي الذي عين في السنة الثامنة من حكم الملك أوسرتسن الثالث الخالد الذكر، فلا يجوز لأحد من السود أن يتعداه إلا في سفن تحمل البقر والماعز والحمير)، ووجد على الحجر الثاني ما معناه: أن الملك شيد هذا الحجر في السنة السادسة عشرة من حكمه وجعله حداً فاصلاً بين مصر وأثيوبيا، وله تمثال في تلك الجهة، وتوجد قلعة من آثاره في معتوق. وفي جزيرة ارقو توجد تماثيل وأطلال من آثار الأسرة الثالثة عشرة

وفي عهد الأسرة الخامسة عشرة التي أسسها العمالقة كانت مصر في حالة اضطراب، وهاجر كثير من المصريين إلى أثيوبيا وكونوا معاقل أهمها معقل ارقو، وحملوا معهم كثيراً من طرق الصناعة والفنون المصرية وأصبحوا دولة منظمة في عهد الأسرة الثامنة عشرة، ولم يتم الملك لأحمس الأول أول ملوك الأسرة الثامنة عشرة إلا بمساعدة ملك أثيوبيا الذي زوجه من ابنته وساعده على طرد الهكسوس من مصر؛ ويظهر أن عاصمة بلاد الأثيوبيين هي مدينة نبته عند جبل البرقل بالقرب من مروى ويعرف بالهيروغليفية باسم الجبل المقدس، ودامت العلاقات الحسنة بين مصر وأثيوبيا إلى عهد تحتمس الأول ثالث ملوك الأسرة الثامنة عشرة إذ غزا الأثيوبيين وانتصر عليهم

وفي عهد الأسرة التاسعة عشرة غزا رمسيس الثاني بلاد أثيوبيا وأقام هيكلاً في كلايشه تذكاراً لانتصاراته ويعرف الآن عند سكان كلايشه باسم بيت الولي. ورسم على الهيكل صورة رمسيس الثاني وهو يحارب في عربة، وعدة صور يتضح منه هزيمة الأعداء وتقديمهم القرابين له مثل الخواتم وأكياس الذهب وجلد الفهد وسن الفيل وبيض النعام. وجدد استخراج الذهب والزمرد من وادي العلاقي المعروفة قديماً باسم اكيتا وعلى هذا الطريق قلعة يظن أنها من أعمال رمسيس الثاني

ودامت سلطة مصر على أثيوبيا حتى الأسرة العشرين

بعد ذلك أنفصل أثيوبيا عن مصر، وذلك أن (سمنتوميامون) أحد ملوك الأسرة الحادية والعشرين نفى بعض الكهنة المصريين إلى أثيوبيا فخرجوا عن طاعته واستقلوا تحت إمرة أحدهم وبذلك رجعت حدود مصر إلى ما كانت عليه قبل الغزو

وفي آخر حكم الأسرة الثانية والعشرين هاجم الأثيوبيون مصر وأخذت حدود مصر الجنوبية تتراجع شمالاً حتى استولى الأثيوبيون أيام الأسرة الثالثة والعشرين على صعيد

مصر. على أن بمنخي ملك أثيوبيا بعد أن استولى إلى مصر فوجئ بخروج البلاد عليه وتقاسمها الأعيان لمدة خمسة عشر عاماً إلى أن قام أحدهم ويدعى (ابسمانيك) واستعان بجنود يونانية واستولى على جميع الأراضي المصرية وطرد الأثيوبيين وأعاد الحدود المصرية إلى أسوان. ولقد ذكر (هيرودوت) خبر فرار بعض الجنود المصرية في عهد ابسمانيك مؤسس الأسرة السادسة والعشرين فقال انهم ذهبوا إلى أثيوبيا واستوطنوا هناك وأطلق عليهم اسم (الأوتومولي) وعرفوا بهذا الاسم حتى القرن الأول للميلاد

وفي عهد البطالسة زحف ثامن ملوك هذه الأسرة على مملكة مروى وفتحها ثم سار جنوبا ففتح مدينة أكسوم، ودون خبر فتوحاته باللغة اليونانية على حجر من الرخام في ميناء (أدولس) المعروفة الآن بميناء (زولا) على عشرين ميلاً جنوبي (مصوع وهي ميناء أكسوم) ومع ذلك فقد عادت الحدود مرة أخرى إلى المحرقة في عهد سلفه وبعد وفاة كليوباترا آل حكم مصر إلى الرومان. وأول من تولى مصر من الرومان هو كرنيوليوس جالسن وقد ظهر من بعض النقوش على بعض الآثار أن الملك (نويا كوتاس خوانوس)، ويظن أنه ملك نوبه، أرسل رسلاً في أيام هذا الحاكم إلى فيلة ودخل في حامية الرومان. وحاولت أثيوبيا غزو مصر في عهد ملكتها (كنداكه) حينما كان الرومان مشتغلين بغزو بلاد العرب ولكنها لم تفلح. وفي عهد (نيرون) أرسل حملة للكشف عن منابع النيل فوصلت إلى إقليم كثير المستنقعات ربما كان إقليم السدود الحالي، وكانت المحرقة آخر حدود مصر أيام الرومان كما كانت أيام اليونان، فرأى الإمبراطور (دبوقلشيان) أن خراج البلاد التي بين المحرقة وأسوان لا يفي بنفقات الجند اللازمة لجمعه فلا فائدة من الاحتفاظ بهذه البلاد فاقطعها للنوبة وأعاد الحدود المصرية إلى أسوان وقوى حامية الفنتين

وفي عهد الحكم العربي غزا المسلمون النوبة. قال ابن الأثير (فغزا المسلمون النوبة فرجعوا بالجراحات وذهاب الحدق لجودة رميهم فسموهم رماة الحدق) وفي سنة 21 هـ بث عمرو بن العاص عبد الله بن سعد بن أبي سرح في عشرين ألفاً إلى النوبة فمكث بها مدة ثم صالحهم وقرر عليهم الجزية ثم، استدعاه عمرو إلى مصر ثانية؛ وبعد موت عمر بن الخطاب رضى الله عنه تولى عثمان بن عفان فعزل عمرو بن العاص وولى عبد الله مكانه، وكان أهل النوبة نقضوا الصلح ووصلوا إلى الصعيد فردهم وغزاهم مرة ثانية

وصالحهم على أن يدفعوا 360 رأساً من الرقيق سنوياً على إن يرسل عبد الله إليهم بعض الحبوب. ويقول المسعودي (ولمن بأسوان من المسلمين ضياع كثيرة داخلة بأرض النوبة يؤدون خراجها إلى ملك النوبة وابتيعت هذه الضياع من النوبة في صدد الأمان في دولة بني أمية وبني العباس، وقد كان ملك النوبة استعدى المأمون حين دخل مصر على هؤلاء القوم بوفد أوفدهم إلى الفسطاط ذكروا عنه إن أناساً من أهل مملكته وعبيده باعوا ضياعاً من ضياعهم ممن جاورهم من أهل أسوان وإنها ضياعه والقوم عبيد لا أملاك لهم وإنما تملكهم على هذه الضياع تملك العبيد العاملين فيها. فرد المأمون أمرهم إلى الحاكم بمدينة أسوان ومن بها من أهل العلم والشيوخ وعلم من أبتاع هذه الضياع من أهل أسوان أنها ستنزع من أيديهم، فاحتالوا على ملك النوبة بأن تقدموا إلى من ابتيعت منهم من أهل النوبة أنهم إذا حضروا حضرة الحاكم لا يقروا لملوكهم بالعبودية، وأن يقولوا سبيلنا معاشر المسلمين سبيلكم مع ملككم، يجب علينا طاعته وترك مخالفته، فان كنتم أنتم عبيداً لملوككم وأموالكم له فنحن كذلك. ولما جمع الحاكم بينهم وبين صاحب الملك أتوا بهذا الكلام للحاكم ونحوه مما وقفوا عليه من هذا المعنى، فمضى البيع لعدم إقرارهم بالرق لملكهم إلى هذا الوقت، وتوارث الناس تلك الضياع بأرض النوبة من بلاد مريس المجاورة لأسوان. وصار النوبة أهل مملكة هذا الملك نوعين: نوعاً من وصفنا أحراراً غير عبيد، والنوع الأخر من أهل مملكته عبيد هم من سكن النوبة في غير بلاد مريس). من ذلك يتبين أن الحدود الجنوبية لمصر لم تكن محددة تماماً أيام العرب، إذ أن بعض المصريين كان يملك أراضي داخل حدود النوبة. ويقول المقريزي انه في سنة 870 م وذهب أبو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحميد العمري إلى محاربة النوبة ورجع غانماً. ويفهم من كلام المقريزي أنه في سنة 956 م أغار ملك النوبة على أسوان وقتل جمعا من المسلمين فخرج إليه محمد بن عبد الله الخازن على عسكر مصر من قبل (أنوجور بن الإخشيد) سنة 957 م براً وبحراً وأسروا بعض النوبيين الذين ضربت أعناقهم بعد ما أوقع بملك النوبة، وسار الخازن حتى فتح مدينة أبريم، وقدم إلى مصر سنة 345 هـ بمائة وخمسين أسيرا. وقال أبن الأثير (في سنة 1173 م سار شمس الدولة توران شاه بن أيوب أخو صلاح الدين الأكبر من مصر إلى النوبة فوصل إلى أول بلدهم. وكان سبب ذلك أن صلاح الدين وأهله كانوا يعلمون أن نور الدين كان على عزم الدخول إلى مصر، فاستقر الرأي بينهم أنهم يتملكون إما بلاد

النوبة أو بلاد اليمن حتى إذا وصل إليهم نور الدين لقوه وصدوه عن البلاد، فإن قووا على منعه أقاموا بمصر وإن عجزوا عن منعه ركبوا البحر ولحقوا بالبلاد التي افتتحوها. فجهز شمس الدين وسار إلى أسوان ومنها إلى بلاد النوبة، فنازل قلعة اسمها أبريم فسلمت، فأقام بها ولم ير للبلاد دخلا يرغب فيه، فتركها وعاد إلى مصر بما غنم من العبيد والجواري). وقال المقريزي عن توران شاه هذا ما يأتي: (وأعطاه صلاح قوص وأسوان وعيذاب، وجعلها له إقطاعا، فكانت عيرتها في تلك السنة مائتي ألف وستة وستين ألف دينار، ثم خرج لغزو النوبة سنة 1174 م وفتح قلعة ابريم). واستمر غزو المماليك لبلاد النوبة مثل الظاهر بيبرس وقلاوون وغيرهم. ويقول ابن خلدون إن قلاوون عندما غزا النوبة أرسل السفن بالبحر. ويقول ابن خلدون (ثم انتشر أحياء العرب من جهينة في بلاد النوبة واستوطنوها وملكوها أيام الناصر بن قلاوون وملئوها عيثاً وفساداً، وذهب ملوك النوبة إلى مدافعتهم فعجزوا، ثم صاروا إلى مصانعتهم بالصهر فافترق ملكهم وصار لبعض أبناء جهينة من أمهاتهم، لان أمهاتهم من بنات ملوك النوبة على عادة الأعاجم في تمليك الأخت وابن الأخت فتمزق ملكهم واستولى أعراب جهينة على بلادهم، وليس في طريقة استيلائهم شيء من السياسة الملوكية للأمة التي تمنع من انقياد بعضهم إلى بعض فصاروا شيعا لهذا العهد). إلى أواخر القرن الثامن الهجري. وبقوا كذلك شيعاً على كل شيعة منهم رئيس أو ملك إلى أن قام الفنج في سناد سنة 1505 م إلى الشلال الثالث ثم كان الفتح العثماني لمصر بيد السلطان سليم سنة 1520 فأرسل جيشاً إلى النوبة فملكوها من أسوان إلى الشلال الثالث وعرفوا (بالغز) وعرف حكامهم (بالكشاف) وهكذا انقسمت بلاد النوبة بين ملوك الفنج والكشاف إلى أن كان الفتح المصري للسودان سنة 1820م أي سنة 1236 هـ فخضعت لمصر

وفي عهد محمد علي امتدت حدود مصر جنوباً بعد فتحه للسودان وكانت تدخل أسوان في مديرية أسنا، ثم أحدث تعديلاً بأن ضم مديرية أسنا إلى مديرية قنا وصارتا واحدة، ثم انفصلتا بعد ذلك وامتدت الحدود المصرية إلى أعالي النيل أيام خلف محمد علي خصوصاً

في عهد إسماعيل. واستمرت مديرية أسنا حتى سنة 1887 وكان مركزها أسنا. ولما ازدادت الثورة المهدية في السودان وكادت تمتد إلى الحدود رأت الحكومة تحصين الحدود المصرية بقوة عسكرية وجعلت البلاد هناك تحت الأحكام العسكرية فصدر قرار مجلس الوزراء في 26 أبريل سنة 1888 بقسم مديرية أسنا إلى قسمين: الأول يشمل الجهات التي بين وادي حلفا وجبل السلسلة تتكون منه مديرية الحدود ومركزها أسوان. وأما الأقاليم شمالي جبل السلسلة فتضم إلى مديرية قنا وعلى ذلك ألغيت مديرية أسنا وتكونت مديرية الحدود من مراكز ادفو وأسوان وكرسكو (الآن الدر وحلفا) وضمت بقية البلاد إلى قنا واستمرت مديرية أسوان باسم مديرية الحدود إلى أوائل سنة 1899 حينما تحددت الحدود بين مصر والسودان، وذلك أنه لما أعيد إخضاع السودان عمل اتفاق بين مصر وبريطانيا في 19 يناير 1899 بأن يصبح السودان حكومة مصرية إنجليزية واصبح خط العرض 22 شمالاً هو الحد الفاصل بين مصر والسودان وبناء على ذلك دخلت عشرة بلاد من قرى مصر العليا في حكومة السودان وهي: سرة شرق. فرس. جزيرة فرس. دبيرة. شرة عزب. اشكيت. ارقين. ادغيم. عنقش. دبروسة (وتعرف ألان بالتوفيقية) وبعد هذا التغيير أطلق على مديرية الحدود اسم مديرية أسوان ابتداء من سنة 1899.

رشوان احمد صادق

الخريف

مهداة إلى رفيقي الأستاذ حلمي اللحام

لشاعر الشباب العربي أنور العطار

أَسِىَ القَلْب ' فاسْتَرَاحَ إلى الصم ... تِ وَللصَّمْتِ عَالَمٌ مَسْحورُ

تتَرامَى بِهِ الشجُونُ فَيَعْيَا ... ليسَ شكو الضنى وَليس يثورُ

هَيْكَلٌ مُنْعَبٌ تَكادُ من السُّق ... مِ تَدَاعى أرْكانُهُ وَتَخُورُ

مُوحِشٌ كالخريفِ تَطْفوُ عَلَيْه ... صُوَرٌ جَهْمَةٌ وَخَطَبٌ نكِيرُ

كلُّ شَيْءٍ أَرَاهُ يَذوِي وَيَفْنى ... ثمَّ يمشِي على حِماهُ الدُّثوُرُ

مَلْعَبٌ للحياةِ يَطْفَحُ بالسُّحْ ... رِ ويَشفْى بِسَاحِه اَلمغْرُورُ
أَينَ زَهْوُ الرِّيَاض في مُتع العي ... شِ وَأَينَ الهَوَى وَأَينَ السُّرُورُ
رَقدَتْ في الغُيوب قُمرية الدَّوْ ... حِ وَطَاحَ الهَزَارُ وَالشحُّرْورُ
فَجنَاحٌ على السُّفوحِ هَشِيمٌ ... وَجَناحٌ على الوهَادِ كسيرُ
وَتجَافى السنا عن الأُفَقِ الحل ... وَغشَّى رَفيقهُ الدِّيجورُ
وَتوَلَّت بشائِرُ الأُنسِ عَنهُ ... وَاسْتفَاضَ الأَسى وَصاحَ النذَّيرُ
لمْ تَعُدَ تكْرَعُ الندى شَفَةُ الزَّ ... هرِ وَلم تُسكِرِ النسِيمَ العُطورُ
وَانْطوَت منْ مَبَاهجِ الرُّوحِ دُنيا ... كُلُّها نَائِلٌ وُجُودُ وَخيرُ
هَمَدَ اَلحقلُ فالعِشاشُ خَرابٌ ... هَجَرتْها على اَللَّيالِي الطُّيورُ
فَعَلى ضَاحِكِ الُمروجِ اكتئَابٌ ... وَعَلَى بَاسمِ الدَّغَالِ فُتورُ
وَإذَا الغيمُ في الفَضَاءِ رُكامٌ ... وَإذَا النَهرُ مُغدرٌ مَحرؤُرُ
وَالعَصافِيرُ نُوَّمٌ ليس تصحُو ... وَالفرَاشاتُ جُثَّمٌ لاَ تَطيرُ
وَرَقٌ مائَتٌ تَهاوى عَلَى السَّه ... لِ وَغَنَّتْ بهِ الصَّبَا وَالدَّبورُ
مَلأَ الوَهدَ وَالمَسَاربَ وَالسُّو ... حَ اِغتِمامًا بسَاطُهُ اَلمنشُورُ
غَمَرَ اَلمشعْبَ اَلبعيدَ وَغَطى ال ... واديَ السَّمحَ عصْفُه المَنثُورُ
خَشخَشتْ في الرحابِ أوراقُهُ الغُب ... رُ وَللرِّيحِ بَينَهَّنَ صَريرُ
صُفرةٌ تُوقظُ النؤوم من الشَّج ... وِ وَرَمزٌ إلى الزوَالِ يُشيرُ
تَعصِفُ الصَّرصُر العتيَّةُ بالغَا ... ب فَيهوِى الدَّوحُ الأغَنُّ اَلشجَّيرُ
وَتضيعُ الألحان في هبَّة اَلوِي ... لِ وَيرغو الأذى وَتَطغَى الشرورُ
ليسَ يقرِى الأسماع إلا عويل ... وصراخٌ وأنة وَزفيرُ
تَمَّحى فرحةُ الطبيعةِ في الأر ... ضِ وَيُطوَى حُلْمُ الحياة النظيرُ
وَتُعَفى أرائَكُ الحبِّ وَالِعط ... رِ وَيَبلى الروْضُ الندِيُّ الخضيرُ
تطفحُ السُحبُ في عَنَانِ السموا ... تِ وَيخبو منها السراجُ المنيرُ
وَيَعجُّ الفضاء بالزبَّد المن ... دوفِ والأفقُ كالخِظمَّ يفورُ
وَتغيبُ الأنوارُ إلاَّ شُعاعاً ... يختفي تارةً وأُخرى يَنُور
تَتعزَّى بهِ النفوسُ الوجيعا ... تُ وَيحيا بدِفئهِ المقرورُ
أيَظلُّ الصَّرَّارُ يَرتَعُ في الحق ... لِ وَينأى عن عُشِّه العصفورُ
تِلكَ أُحجَّيةُ الوجودِ تَناهى ال ... فهمُ عنْها وَاستغلقَ التفسيرُ
يا حبيبي أراكَ من حُجُب الغي ... بِ فيزهُو الكونُ السليبُ الحسيرُ
وَيغوصُ الظلامُ في نهرِ الفج ... رِ وَيبهى الصبحُ الأنيقُ الطَّريرُ
يُنشدُ السفحُ وَالتلالُ تُغني ... حيثُ لا مطربٌ وَلا مزمور
تُمرعُ الأرضُ بالنباتِ وَتهت ... زُّ منَ الدفءِ وَالحياةِ الجذور
وَتذوبُ الأنداءُ في اكؤسِ الزه ... رِ وَيُحيى الثرى وَالشرابُ الطهور
وَيطيبُ الهوى وَيحلو التَّساقي ... وَمنَ الحبِ روضةٌ وَغدير
أيها الهاجري أطلت التنائِي ... وَتعايا من صدِّكَ المهجور
سِهدَت مُقلتي وَناجاك قلبي ... وَهفا خاطري وَحن الضمير
عشتُ من طولِ حسرتي بالتمنَّي ... وَقليلٌ من التمني الكثير
تتراءى لناظِري فأنادي ... كَ كأني مُخَبّل ممرور
أنتَ ريحانتي وأنتَ أحادي ... ثي وأنت المُنى وأنت السمير
يا نصيري إذا أظلَّني اله ... مُّ ألوى بي الشقاءُ المرير
طُف بُروحي كما تطوفُ الشُّعاعا ... تُ وَيسري ضياؤُها وَينير
ودعِ الحبَ يزدهر في خيالي ... وَتهدهد به العصورَ العصور
غفَلت عنَى المنونُ فغني ... تُ وَلحنُ الحياةِ قصير
أتعامى عن الفناءِ وَحولي ... محنٌ ليس تنقضي وَثُبور
ألمي صارخٌ وَجرحي ضرىٌ ... وَالهوى يائسٌ وَجَدِّمي عثورُ
وَبنَفسي قيثارةٌ تتشكى ... وأنا الدمعُ وَالأسى وَالشعور
أتسلَّى عن الضَّنى بلُحون ... هي روحُ الحياةِ وَالإكسير
الشَّجا المُّر في حِماها شفاءٌ ... وَالدجى الشاملُ المروَّعُ نور
خاطِري من نشيدِها مستثارٌ ... وَفمي من سُلافِها مخمور

عالَمي مهبطُ الرُّؤى وَمِهادي ... ذهبُ خالصُ وَتبرٌ نثير
وَفضائي مُوشَّحٌ بالغوادي ... وَهِضابي ندًى وَجوِّي مَطير
وَسمواتَي الفسيحاتُ تابو ... تٌ عليهِ من الغيوم سُتُور
أُفُقٌ شاحبٌ تَدثَّر بالسَّحبِ وأغيا في الضبابُ الغمير
لا السَّنا ضاحكٌ بابهَائه السح ... م وَلا النور في مَداَه يمور
فمن الحزنِ وَالجهامةِ قبرٌ ... وَمن الهمِ وَالكابةِ سور
وَتعرى المساَءُ من القِ السح ... رِ فلا روعةٌ وَلا تَصوير
التعاشِيبُ أَعُينٌ جامداتٌ ... هي من طولِ ما ُتحدِّقُ صور
أطفأ العاصفُ المُلحُ سَناَهَا ... وَغَزَاهَا الصقيعُ وَالزمهرير
هاهنَا للجمالِ عرسٌ تَقَضَّى ... مِلءُ أعطافهِ شذاً وعبير
هاهنا كان للجداولِ الحا ... ن لِطافٌ وَللنسيم سَرير
هاهنا حَنَّت العَشَّيات للضِّحُ... ك وَبشَّ الضُّحى وَهشَّ البكور
لا الروابي تفيضُ بالعبق الطَّه ... ر وَلا يطربُ الحقولَ الخرير
هَدأت من جَوى الغرام قلوبٌ ... وَاستراحت من الهَديل ثغُور
وَحشة ما تكادُ تحمله النف ... سُ وَشجوٌ تضيقُ عنه الصدور
أراد المُمَزَّوقُ المُلحمَ داجٍ ... وَحِمَى الأنسِ مُجفلٌ مَذعُور
أَينَ وادٍ رفَّت عليه البشاشَا ... ت وَرَنت أعشاشه وَالوكور
ماج فيهِ الهَوى فعاشت حوافي ... هـ وَضجت من الحياةِ الصخور
أَينَ لا أينَ عالم مستطابٌ ... عاث فيه ركبُ الفناءِ المغير
فأَمحى كالظِّلالِ تنتهبُ الأر ... ضَ وَيخفى انطواؤها المصير
أنور العطار
بين ماض وحاضر
أنشودة
للأستاذ عبد الرحمن شكري
عهدي بالعيش على رَغَد ... عذباً كالماء حساه صَدى
نغم والدهر يُوَقِّعُه ... يسرى كالنشوة في الجسد
يا ليت الهر كمن يشدو ... بأغانٍ أن يُطربْ َيزِد
إن قلتُ أعد نُعمَى عادت ... كترنم ذي النغم الغرد
حسنات كنت بها ثملاً ... ذهبت في الدهر فلم تَعُد
آمال كنت بها شغِفاً ... نظر الولهان إلى الخُرُد
أحلام كنت بها جذلاً ... قد شح النوم وَلم تجُد
وَشباب ذقت به خلداً ... في طرفة عين من أبد
لو دام دوام الخلد لما ... نقع الظمآن من الصَّفد
لو عاد بذلت له ذخري ... من مُطرفي أَوَ مُتلَّدي
بشعاع من أعيش مدى ... دفءٌ للشمس على بُعُد
آب التذكارُ له شبحاً ... أو قبراً شِيدَ لِمُفتَقَد
ما خلَّفَ لي دهرٌ ثقة ... بمآل فيه أو أحد
يا نبع الماضي لو عاد ال ... وُرَّادُ إليك على جَدد
لرجعت إليك رجوع صَدٍ ... لم ينهل قبل وَلم يَرد
وَغدا ماذا يا دهر ترى ... قد قُدِّر لي بضمير غد
عبد الرحمن شكري
صورة. . .
(من صور دمشق في هذه الأيام)
بقلم السيد احمد عبيد
ما أروَعَ القَومَ إذ ضَنُّوا بِعزَّتِهم ... فسَالتِ الشامُ فِتياناً وَولدانا
تدفَّقوا كأتيِّ السيلِ مُقتَحِماً ... لظى جَحيمٍ تُذيقُ الموتَ ألوانا
فلا الأتيُّ بمُخْبٍ من توقدِها ... وَلا الجحيمُ تَصُدُّ السيلَ إن داني
إذا التَقَوا وَالعِدى في وَقْعةٍ فُهما ال ... بُركانُ يقذِفُ (نيراناً) وَ (صوَّاناً)

فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية
تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا - 31
تعليق المؤلف على فلسفة نيتشة
للأستاذ خليل الهنداوي
يتمتع نيتشه بما لا يتمتع به فيلسوف أخر، لان تفكيره قد تناول بالبحث أرباب الفلسفة وغير أربابها. وقد طغت (النيتشية) في الأعوام الأخيرة أي طغيان، فأما المعجبون به فهم يرون فيه المفكر الفرد الصارم العميق في جرمانيا الحديثة، له منزلة (دارون) في الأخلاق. وأما خصماؤه فهم لا يرون فيه إلا ولداً مريضاً، له خطره ومبدؤه الفاسد.
وبينهما يقف الشعب حائراً، تراه من ناحية معجباً بآثار هذا الجبار ومظاهر تفكيره الغريب، ومحترساً من ناحية ثانية من مفكر ناقم على الأخلاق والتقاليد؛ والآن سنعمل على تبيان الأسس الرئيسية التي ترتكز عليها فلسفة نيتشه، والأهمية التي تنشأ عنها.
هدم النقاد فلسفة نيتشه من وجهين: في الوجهة الأولى أبدوا أخطاءها العملية. وفي الوجهة الثانية بينوا خطرها على الأخلاق
إن نيتشه في الطور الثاني من حياته لم يكن يكتسب شيئاً ولم يكن في استطاعته أن يكون عالماً؛ ولقد علمت رداءة صحته التي تحول بينه وبين مواصلة جهوده في البحث. فهو قد بدأ حياته العلمية بدراسة اللغات، ثم لم يلبث أن غادر هذا الميدان إلى غيره؛ وهو لم يكن في سائر العلوم إلا هاوياً، لا يسعى وراء ترقية هذا الفرع وذلك الفرع في العلوم، ولكنه يريد من وراء ذلك أن يبدع مسائل جديدة، أو يكسو المسائل القديمة ثياباً جديدة! فهو لا يؤثر في العلم نفسه ولكن في روح العالم. فان اشتقاقاته التي استنبطها في دراساته للغات القديمة لم تكن لتلائم الحقيقة، ولكن ذلك لم يكن ليحفل به، فهو يبغي أن يظهر طرق درس المسائل الاجتماعية بواسطة الدراسة اللغوية، فالقيمة الجوهرية لملحوظاته الخاصة هي شيء ثانوي عنده، سواء عنده حياتها ومماتها، فهو يكفيه فضلاً أن ينفخ في نفوس هؤلاء الدارسين روحاً جديدة ويفتح لهم آفاقاً جديدة.
ولذلك نراه في آخر أدواره جد قلق، يسعى بواسطة الدراسات اللغوية إلى أن يستكشف
الحياة الاجتماعية، وحضارة ما قبل التاريخ مستعيناً بدرسه ومقارنته بين اللغات
وإذا شئنا أن نوضح بعض خطيئات نيتشه فلا ننس أن آثاره كلها (ذاتية) والحقيقة - غير الذاتية - يراها نيتشه ضرباً من ضروب العاطفة الدينية؛ وإننا لنطلب إلى العالم ألا يحترم إلا الحقيقة، وأن يكون في بحثه عنها خالياً من الأهواء متجرداً عن شخصيته - على قدر الإمكان - وإننا لنعلم أن التجرد عن الذاتية في البحث عن الحقيقة هو خديعة، ونعتقد أن ليس في مقدور أحد أن يتجرد عن شخصيته وينظر إلى الأشياء نظرة خالصة لا تجتلي إلا الأشياء؛ وبهذا ليست كل حقيقة ذاتية قبل كل شيء: وجوهر الموضوع - في البحث العلمي - لا يقف عند ما اغترفه الكاتب من حقيقة، ولكنه يقف على مقدار ما أودع في هذه الحقيقة من ذاته. ونحن على رغم هذا أرانا نؤمن بالحقيقة المجردة، الحقيقة البارزة بحقيقتها خارج إدراكنا وحواسنا، وأرانا نؤمن بالمؤلف ويزيد احترامنا له كلما دنت أفكاره مما ندعوه (الحقيقة المتجردة من الذاتية) لنا الحرية في أن نزن آثار نيتشه بهذا الميزان، ولكن نيتشه كان قبل كل شيء يفتش عن نفسه ويسعى وراء معرة نفسه؛ ولقد كان اهتمامه ضعيفاً في الاطلاع على الأشياء بحقائقها، وإنما وقف اهتمامه كله وجهوده على ما يمثل شخصيته، فخلق من الأشياء خرافات كاذبة، وقد علم أنه بما وصف نفسه حين كتب عن (شوبنهاور وفاجنر) أنه حول الحقيقة إلى خرافات جذابة غريبة، ولأن تكون مظاهر لشخصية نيتشه أجمل وأحرى من أن تكون مظاهر تمثل حقيقة الوجود الخارجي، وبهذا يصبح عبثاً سعينا وراء الحقائق التي عالجها نيتشه والعمل على توفيق بينها وبين الواقع
وهنالك تأثير معاصريه فيه - سواء أحس هو هذا التأثير أم لم يحسه - وفكرته التي جاء بها - إذ جردت من أثوابه الخاصة - تبدو فكرة قديمة ليست بابنة ذاته. فكل الآراء التي عالجها، من قوله بالذاتية وعبادة النفس والثورة على قانون المساواة وعبادة الإنسانية قد سبقه إلى معالجتها أحد معاصريه كما سبق (فلوبير) و (رنان) إلى الكتابة عن المذهب الأرستقراطي. وقد وجد نيتشه في الكاتب (أوجين دوهرنك) عضداً له في

محاربة التشاؤم. واتحد مع (هارتمان) في النفور من الاجتماعيين والفوضويين، واتفق معه في القول باستحالة المساواة بين الناس، فقالا بفضيلة الحرب المدنية، واتفقا على جعل الشفقة مادة
غير صالحة للفضيلة. وكذلك نرى مذهب الرجعة الدائمة يتجلى في كتاب (لبلانكى)! وفي كتاب الدكتور (لوبون: الرجل والمجتمعات). ولكنا - وإن قارنا بين نيتشه وبين هؤلاء المعاصرين - فان هنالك تبايناً شاسعاً مهما كانت الأفكار متقاربة متآلفة. وعلة هذا التباين شخصية نيتشه. ولقد نراه في بعض خطرات يتحامل على هؤلاء الأحلاف، فمقت من (رينان) روحه الكاهنة، ونعت (هارتمان) بالمشعوذ. وليس نفوره هذا وليد حقد أو حسد، وإنما هو وليد طبيعة تختلف جد الاختلاف عن طبائع خصومه. هذه الطبيعة التي تؤمن بأن الشخصية في الفيلسوف هي أكبر قيمة وأجل خطراً من آثار الفيلسوف
على أن هذا لا ينبغي أن يدفعنا إلى إنكار فضيلة كل حقيقة غير ذاتية إكراما لقوة الشخصية عند نيتشه، وإذ ذاك يعم الجور والخطأ في الحكم. وأنني لمعتقد بان المؤرخ والفيلسوف يستطيعان أن يجدا عند نيتشه حقائق جميلة بذاتها. وهنالك آراؤه في (فاجنير) يراها المؤرخ جديرة بالاعتبار لأنها تبدى قيمة الفنان العظيم. وهنالك آراء لنيتشه يجدر بها أن تكون محل مناقشة ومجادلة، على أنني أقول أن عبقرية نيتشه لا تستقر إلا في (الذاتية)
الآن أراني أستشهد بكلمة (لبراندس) قالها في موضع التحدث عن فيلسوفنا حينما قارن بينه وبين خصومه فلاسفة الإنجليز. (قال: وحين نقبل عليه. . . (نيتشه) بعد مغادرتنا لفلاسفة الإنجليز نرى عالماً جديداً حولنا. فالإنجليز هم عقول متشابهة في الصبر والجلد، غرضهم أن يتقنوا الشيء جزءاً جزءاً ثم يجمعوا هذه الأجزاء الصغيرة المتفرقة ليؤلفوا منها شريعة وقانوناً؛ يعملون غير متأثرين بذاتهم؛ وقيمة فلسفتهم تتوقف على ما يعملون لا على ما ترقى إليه ذاتهم؛ أما نيتشه فهو على نقيض هذا المذهب، هو مثل شوبنهاور متنبئ فنان، تستهويك شخصيته قبل أن تستهويك آثاره.) وإذ شئنا إبداء قيمة آثاره فليس لنا أن نتلوها تلاوة كتاب علمي لا تتوقف روعته على روح صاحبه. نتلوها لنرى الروعة فيما بث هذا الرجل من معارف قديمة بسطها وجديدة وضعها
يرى نيتشه في معرض كلامه عن شوبنهاور (أن مذهب المفكر لا شأن له، فكل فيلسوف ممكن انخداعه. أن ذلك الشيء الذي هو أجل من مذهبه - هو نفسه - في كل فيلسوف شيء لا تجده في فلسفته. علة كل الفلسفات والمذاهب هي الإنسان، الإنسان العظيم
(التتمة في العدد القادم)
خليل هنداوي
القصص
مأساة من أسخيلوس
أجاممنون - 3
للأستاذ دريني خشبة
تتمة
- (باريس! لقد خربت زيجتك وبيتك. . . أجل. . . أنت وأختك. . . أوه يا نهر سكمندر المصطخب! لقد جرع أبي منك جرعة، وعلى ضفافك شببت وترعرعت، فيا لشقوتي! أما الآن. . . فإن نبوءاتي تتواثب على شطئان كوكيتوس واشيرون. . .)
- (أو ضحى بحق أربابك عليك أيتها الفتاة! إن آلامك تثب في صدري فتخز أشواكها حبة قلبي. . .)
- (طراودة!! أهكذا سقطت إلى الأبد!! أهكذا تندلع النيران في أبراجك الشواهق! أهكذا ينبطح أبي الملك الشيخ مضرجاً بدمه؟. . . ويلاه. . . بعد لحظات أغرق في لجة من دمي مثلك يا أبي. . .)
- (عود إلى النغمة الملغوزة السالفة!! ما أحسب إلا أن ألهاً قاسياً يدريك بعنف في هذه الحمأة المسنونة!!)
- (نغمة ملغوزة!! لا! لن ألغز يا رفاق! سأجد لكم السر الهائل الذي خبأته الجريمة

السنين الطوال في هذا القصر! هنا! تآمر الآثمون في الظلام. . . وكان الظمأ إلى الدم يشد عزائمهم جميعاً! كانوا يدلفون إلى كهفهم فيتغنون آلامهم ويستنزلون اللعنة على. . . خصمهم. . . وهو منهم، وهم مع ذاك منه. . . أخوهم. . . وهم أخوته وأقاربه. . . قتلوه. . . قتلوه وهو مستسلم للكرى الهادئ. . . أليس كذلك يا سادة؟ أهذه ثرثرة، أم أنا أهذي؟ .)
- (. . .بل أنت قد صورت ما حدث منذ أعوام وأعوام كأنك ترين إليه الآن)
- (هذا من فضل أبوللو عليّ! لقد أمدني بروح من عنده)
- (ولمه؟ هل شغفه حبك مرة؟)
- (. . .؟. . . . . .؟. . . لا أقدر أن أقول؟. . .)
- (!. . . . . .ما كان ضرك لو تلطفت معه)
- (إيه. . . كم كان رقيقاً حينما كان يصارع فؤادي؟)
- (وهل في وسعك أن تضعي حداً لمغامراته؟)
- (لقد وعدته. . . ولكنه خان ميثاقي!. . . أواه! وا أسفاه! تعالي! لقد ثارت الزوبعة من جديد! لا أطيق أن أكتم الحقيقة! انظروا يا رفاق! أول الشجو! ما هذه السمادير التي تغشى سماءكم؟ يا لأفلاذ الأكباد! يا للصغار! إنهم يذبحون بنفس الأيدي التي كان أجدر لو ترفقت بهم وحنت عليهم!. . . يا للهول!. . . أبوهم يمد يده البريئة فيأكل شرائح مشوية من أكبادهم وضلوعهم!. . . إن لهذا قد دبر انتقام دموي هائل. . . وهاهو ذا الأسد! الأسد الجبان النذل، الذي تقلب في سرير صاحب الجلالة - بحر اللذة والدنس!. . . إذ صاحبه نازح يغزو!. . . لا ضير أن يكون أحد أسيراً مرة، ولكن هذا الفاتح العظيم! غازي طروادة! سيد الأسطول اللجب! إنه لا يدري السر الهائل الذي تقبره زوجته. . . السفاحة. . . التي تتحوى كالأفعى، وتهسهس في الظلام المنتشر حول نفسها، وتوسوس إلى شركائها بأفسق الجرائم. . . لقد فاقت في الحب كل مثل فما أدرى بم أشبهها؟ آه! إنها أشنع من سكيلا (هذه الهولة الرائعة، ذات الرؤوس الستة التي تنفث السم، وتغتال رواد البحار!. . .) الآن! الآن ينفذ سهم القضاء عن قوس غدرها. . . والآن! ستعترفون أنني ما ألغزت، وما قلت غير الحق .!. . .
- (الحق كل الحق يا فتاة. . . لقد رويت ما كان من وليمة ذيسيس، وما تم فيها من نهشه لحم أطفاله وهو لا يدري. . . يا للهول. . . ما نزال نقشعر كلما روعنا رجع تلك الذكريات .)
- (!إذن سيموت مولاكم أجاممنون. . . وسترون بأعينكم)
- (!يا شقية! لا تهرفي بهذا الهراء)
- (!ولن أدعو أرباب الخلاص هذه المرة)
- (!وهل خلاص من الموت؟ ولكن عسى ألا يكون قريباً)
- (!أنتم ترجون، بينا غيركم يذبحون. . . أو يكادون)
- (وأيما إنسان يا ترى يضطلع بهذا النكر؟)
- (أيما إنسان! إن السهم المراش يطوي ما بين المشرقين؟)
- (!أجل، ونحن لا نستطيع أن نحدس من يجرؤ على هذه الفعلة)
- (!أنا أقولها؛ وحسبي أنني استطعت أن أكلمكم بلسانكم الهيلاني كواحدة منكم)
- (!وهكذا استطاعت البيثونة من قبل. . .! وكان كلامها ملغوزا دائما كذلك)
- (يا للشجي! يا للجمر المتقد! إنها تقدم! الغوث يا أبوللو! يالي من تاعسة! هذه اللبؤة الآدمية! إنها تضطجع مع الذئب بينا أسدها الهصور نازح عن الديار. . . وأنا! أنا التاعسة قد جئت لأضاعف أحقادها عليه؟ جئت لأجعل السكين مسنوناً أكثر! ها هي ذي تحدث ذئبها أني أنا أيضاً ينبغي أن أذبح جزاءً لي!. . . فيم إذن أبقي على مسوحي وعصاي! عصاي السحرية! لأمزق المسوح ولأحطم العصا! (وتمزق وتحطم) اذهبا إلى الفناء فأني لاحقة بكما! كونا قائديّ إليه! سأتبعكما، أنْعسا حياةً ثانيةً غير حياتي!. . . انظروا انظروا! إن أبوللو ينزع عني المسوح بيديه! آه! أقبلت لترعاني في هذه الأجمة الوبيئة! لتسر قلبك بإهانتي ووخزاتي! بسخرية أهلي من قبل، ولعنات أعدائي ولعنات وطني اليوم! إنهم يزعمونني قديسة شحاذة! أو كاهنة أفاقية! يا للهول؟ ماذا خبأت لي أيها القدر؟ ويْ! الوَضم! السكين المشحوذ! الضربة اللازبة التي تتم بها التضحية!. . . يا سماء! إن الذي يأخذ بثأر الأبرياء ما يزال حياً!. . . ويحك يا قاتل أمه أين أنت؟ خذ

بثأر أبيك أيها الجائل في الآفاق!. . . ويْ! فيما بكائي، وهاهو قاهر طروادة وقاتل بريام يلقى جزاءه وفاقاً! مرحباً يا موت! أنا لا أهاب الردى!
ولكن!. . . الصلاة!. . . الصلاة يا أربابي! أضرع إليكم أن يكون جرحي بالغاً مميتاً فلا يعذبني طويلاً! لتتفق منه حياتي فلا يعترضها شيء. . .)
أيتها الفتاة التي تطعمها الهواجس، حسبك فقد بلغت المدى! وللآلهة أنت! كيف تتقدمين إلى حتفك بقدم ثابتة، ونفس رابطة، وأنت تعلمين الغيب كل شيء؟ لم لا تفرين؟)
- (وأين نفر من المنايا وقد جاء أجلنا؟)
- (كيف! إن لكل مهلة قيمتها!)
- (حم القضاء، قلت لكم يا رفاق! أية مهلة أذن؟ إن الهرب لا يجدي فتيلا!)
- (إيه! رب قتلة شريفة تختم حياة مليئة!)
- (ويلي عليك يا أبي. . . وعلى أبنائك التاعسين!)
(وتتقدم إلى باب القصر. . ثم تقف مذعورة)
- (ماذا يفزعك يا فتاة!؟)
- (ويلاه!)
- (ماذا؟)
- (تلك الغرف السود تضج بزفير الجريمة! القتلى يسبحون في لجة من الدم!)
- (إنها دماء القرابين فلا تفزعي ولا تراعي!)
- (بيت كأنه قبر! لولا هذه الدماء. . .! ولولا ذاك الصلول!)
- (تزودي من الصلول فقد ورمت أنوفكم من عطور الشام وطيوبه!)
- (لأدخل إذن. . . ولأرو بالدمع حظي العاثر، وحظ الملك التاعس. . . أجاممنون! سئمت تكاليف الحياة يا رفاق! لابد أن تقتل امرأة بامرأة، ورجل برجل. . . وتلك أخرى نبوءاتي. . .! سيقتص لي،، ولكل مقتول بريء. . .)
(وتنطلق داخل القصر)
- 20 -
ويقف الخورس مشدوهين لما ألم بهذه الفتاة، ويتحدث بعضهم إلى بعض عما حشدت في حديثها من ألغاز، وبث من طلاسم وأسرار. . . وتقطع حديثهم صرخة داوية داخل القصر. . .!
- (آه! أهكذا أذبح في قصري!؟)
وتزداد دهشة الخورس، وتزداد ثقتهم بنبوءات كاسندرا. . . فالصوت صوت أجاممنون لا غيره!. . . ويهمون أن يدخلوا. . . ولكنهم يتريثون. . . ويعود الملك إلى صراخه:
- (آه. آه! أهكذا وبهذه اليد أضرب حتى أموت!؟)
- ويعود الخورس إلى لغطهم فبعضهم يشير بالدخول ليكونوا شهداء مقتل الملك ويتقاعس بعضهم كأن الأمر لا يهمه. . . . . ثم يشير رئيسهم أن يتريثوا حتى تنكشف جلية الأمر. . .
وإنهم ليهمون أن يقتربوا من باب القصر حتى تنفضح الملكة بينما تلف جثمان القتيل في الوشى الذي أعد لاستقبال الملك الظافر. . . قاهر طروادة!
ولا تستحي أن تعترف بما اقترفت، بل تصرح أنها دبرت الأمر وأخذت له أهبته، وأنها فرحة به مسرورة له. . .
- (يا للجرأة أيتها الملكة الآثمة. . .!)
- (آثمة أو غير آثمة. . . تمدحون أو تقذعون. . . سواء لدي! إنها جثة ملككم أجاممنون، هذه الجثة المدرجة في لفائفها أمامكم. . . وأنا مزهوة بأن قتلته. . .!)
- (أيتها المرأة! أي سوء أختلط بدمك، وإثم خامر قلبك، فتقتلين رجلك وأمير المملكة. . . ابشري بلعنة الجماهير وغضب الآلهة!. . . اليوم يفلت من يديك زمام الأمور. . .)
- (لعنة الجماهير، وغضب المملكة. . . وزمام الأمور! مضحك! سرعان ما تحكمون على ما لا تعلمون! وأين كنتم يا سادة؟ وأين كانت جماهيركم وآلهتكم يوم ذبح أجاممنون الحش طفلته؟. . . أين كنتم يوم أهوى على عنقها بالسكين كما يهوى على رقبة شاه! إفجينا! ابنتي! قطعة قلبي وكبدي!؟ ذبحها أبوها الوحش! لماذا؟ لتهدأ

العاصفة، وتسير السفين باسم الشر مجراها ومرساها!! ماذا تقولون إذن؟ وأين كنتم يا سادة؟ ولم يفلت من يديه زمام أموركم يومئذ؟ لم لم يقصّ عن عرشكم، وتنزل عليه لعناتكم، ويحل عليه غضب آلهتكم؟ آه! ولكنكم تخلطون المين بالحق. . . ودأبكم أن تسارعوا إلى الحكم دون روية ولا تبصرة!)

- (حماسة وقحة وتبجح أثيم! ويل لك حين تؤدين الدين من دمك، إذن تفيقي!)

- (أقسم بأيتيه وأيرينيس، آلهة القوة والمجد!)

- (. . .تقسمين على فسقك وغرامك الدنيء الدنس؟)

- (أجل! على غرامي وحبي. . . حبي لهذا البطل المظلوم إيجستوس الذي دبر لي كل شيء وأعانني على كل شيء. . . وشاركني في هذا الدم! أنا لأن ملككم قتل أبنتي، وذهب إلى طروادة ليغازل خريسيز ويرشف الرضاب الحلو من فم بريسيز، ثم يعود ظافراً وفي ركابه هذه القينة الفاجرة التي جلست بجانبه تسكره بخمر حديثها. . . . . وهو، إيجستوس (لأن له أخوة ذبحوا وأكل أبوهم من لحومهم وشرائح من أكبادهم. . . ثم قتل بعد ذلك!. . . ومن قتله؟ أخوه؟. . . يا للهول!. . . هو الذي ذبح الأطفال الأبرياء! وأطعم أخاه لحومهم وقلوبهم. . .!)

- (المرأة! دائماً المرأة! يا أخت هيلين!! كم أرواح مطهرة فاضت لأن أختك أثمت، وتردت في حمأة الفسق! الفاجرة التي فرت مع عاشقها من خدر زوجها! ثم أنت؟ أنت أختها؟ ومن البذرة السيئة نبتت مثلها؟)

- (عليكم أنفسكم مالكم ولهيلين!)

- (آه أيها الغراب الناعب! رنقي على جثة زوجك، وانعقي. . . هات أغنيتك . . .!المنكرة، ورتلي أنشودة جريمتك في جناز رجلك. . .)

- (حاشاي أن أكون صنعت ما صنعت وأنا بعد زوجته أو هو بعد رجلي! بل صنع هذا وليمة أتريوس! أتريوس أبو أجاممنون! الوحش الذي أطعم أخاه لحم أبنائه! هو الذي ترك لابنه الملك هذا الإرث العظيم. . . قتل. . . فليقتلْ! وليقتل من بعد أبناؤه. . . فيا للقصاص!؟)

- 21 -

وتستطيع الملكة بذلاقتها وقوة برهانها أن تخدع الخورس وأن تقنعهم - إلا قليلاً! فقد قتل الملك ابنته حين قيل له إن السماء تطلب دماً، وهذا منتهى الظلم، وقد قتل أبوه أبناء أخيه وأطعمه لحومهم. . . وهو بذلك ورث أبناءه العذاب. . . والقتل. . . والدم. . .!

وما يكاد الخورس تهدأ ثورتهم. . . حتى يحضر أيجستوس حبيب الملكة. . . وشريكها. . . ومدبر الأمر معها. . . والذي ذبحت اخوته وأطعمت لحومهم أباه المسكين!. . . يحضر والبشر يقطر في وجهه. . . وللنصر المؤزر سورة في قلبه. . . فما يكاد يذكر الماضي المؤلم الذي حل بلاؤه باخوته، وهذه الخاتمة التي حلت بابن أتريوس المسكين (أجاممنون) حتى يثور ثائر الخورس، ويهتف رئيسهم:

- (أكان هذا النذل يتقلب في أحضانك أيتها الملكة على فراش الملك؟. . . أكنتما في نشوة الفسق، وسكرة الغرام، ترسمان للملك هذه القتلة المدبرة،)

ويهم إيجستوس أن يفتك بالخورس وبرئيسهم قبلهم، لولا تدخل الملكة، وأنها ترجو أن تضع حداً للمجزرة. . . .!

فيتوعدهم إيجستوس حين يصبح الأمر له، وحين يحمل رأسه المجرم عرش آرجوس. . . . . ولكن. . . هيهات!

دريني خشبة

البريد الأدبي

وفاة الأستاذ الشيخ محمد زيد بك

استأثرت رحمة الله بالأستاذ العلامة المغفور له الشيخ محمد زيد الابياني، فرزئت بفقده الشريعة الإسلامية التي كان علماً من أعلامها، ورزئ العلم الغزير، والإفتاء الصائب، والخلق الكريم، والتواضع الجم. كان الفقيد من أبناء مديرية الغربية، وتلقى دراسته بدار العلوم، وعين منذ تخرجه فيها لتدريس الشريعة الإسلامية بمدرسة الحقوق؛ ومازال زهاء أربعين عاماً يتبوأ منصة التدريس في هذا المعهد الجليل، متوفراً في نفس الوقت على دراسة الأصول والمسائل الشرعية حتى غدا بحق مرجعها الفذ

وحجتها الثقة؛ وكانت الشريعة الإسلامية إلى هذا العهد تدرس بأساليب عتيقة مضنية، قلما تعاون على خلق العقلية الفقهية الصحيحة، فاستطاع الفقيد بذكائه ومثابرته وعقليته الفقهية المستنيرة أن يختط لتدريسها منهجاً بديعاً قريب المأخذ جم الفوائد؛ ووضع لهذه الغاية عدة مؤلفات قيمة، تشهد له بغزارة المادة وبراعة الاستقراء والعرض هي: شرح الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية، وشرح المعاملات الشرعية، مباحث المرافعات الشرعية، مباحث الوقف. وما زالت هذه الآثار التي تضارع في وضوحها ودقتها وحسن تنظيمها أقوم الشروح القانونية الأوربية، مرجعاً نفيساً لطلاب الحقوق والأزهر، ونبراساً قيماً لرجال القضاء والمحامين

ولا نعرف أستاذاً من أساتذة الجيل المنصرم له ما للعلامة الراحل من فضل وأثر سابغين في بعث النهضة الفقهية الحديثة، وتكوين العقلية الشرعية المعاصرة، بل لا نعرف أستاذاً من أساتذة الجيل المنصرم تخرج على يده مثل تلك الجمهرة الحافلة الممتازة التي تخرجت على يد الشيخ زيد. وقلما تجد بين عظماء مصر وبين زعمائها وساستها ومفكريها وكتابها - وجلهم من خريجي الحقوق - من لم يدرس على يد الشيخ، وليس بين أعلام القضاء وأعلام المحاماة المعاصرين، بل ليس بين رجال القانون والقضاء المصريين جميعاً من لم يتلق عنه ويتخرج على يديه؛ فهؤلاء جميعاً أحداثاً وفتياناً، ونهلوا من غزير مورده، واستطاعوا جميعاً أن يقدروا مواهبه ورفيع خلاله

وكان الفقيد يتمتع فوق علمه الغزير، بأخلاق طاهرة وشمائل باهرة؛ فقد كان جم التواضع والأدب، كثير الحلم والرفق، سباقاً إلى الخير، يعامل طلابه معاملة الأب البار، ويتمتع

بحبهم وتقديرهم جميعاً

طيّب الله ثراه، وشمله بواسع رحمته، وعوض عنه الأسرة القضائية خير عوض (ع)

كتاب عن إبراهيم باشا

صدر أخيراً كتاب بالإنكليزية عن إبراهيم باشا المصري (ابن محمد علي) عنوانه (ترجمة جديدة لإبراهيم باشا بقلم الأستاذ ب. كرابتيس الأمريكي الذي ظل منذ أعوام طويلة قاضياً بالمحاكم المختلطة بمصر؛ والأستاذ كرابتيس يعنى أثناء إقامته الطويلة بمصر بالشؤون والمسائل المصرية الفقهية والتاريخية والاجتماعية ويكتب عنها في مختلف المجلات الأجنبية؛ وقد تزود في وضع مؤلفه الجديد عن إبراهيم باشا بطائفة من الوثائق والمراجع الرسمية وغير الرسمية التي يحتفظ بها سراي عابدين، واستطاع أن يجمع أشتاتاً قيمة أخرى من المعلومات والوقائع المجهولة عن تاريخ ذلك العهد وعن حياة القائد الكبير

وقد كانت حياة إبراهيم دائماً تعتبر في المرتبة الثانية إزاء حياة والد العظيم؛ ذلك أن شخصية محمد علي وجهوده السياسية والإصلاحية الجبارة كانت تلقي حجاباً على جهود ولده إبراهيم، ولم يكن إبراهيم في نظر التاريخ سوى ساعد والده الأيمن وقائد جيشه؛ ولم يكن له ضلع في السياسة أو الشؤون العامة، ولكن الأستاذ كرابتيس يحاول أن ينفي هذا التصوير؛ فقد كان إبراهيم في نظره سياسياً عظيماً كما كان قائداً عظيماً؛ وكان له في السياسة والشؤون العامة أثر فعال؛ بيد أنه لم يكن يتفق دائماً في الفكرة مع أبيه، فقد كان يرى مثلاً أن فوزه بتحطيم الوهابية في الحجاز خطوة أولى في سبيل تحقيق حلمه العظيم بإنشاء إمبراطورية عربية إسلامية، ولكن محمد علي كان دائماً يجانب هذه الفكرة مؤثراً مصانعة السلطان والتفاهم مع الدولة العلية

ويستعرض المؤلف حياة إبراهيم العسكرية، وحملاته وغزواته المختلفة بدقة وإفاضة، ويقول لنا إن أطماع محمد علي لبثت في سبيل التحقيق والنجاح ما بقيت محصورة في بلاد العرب، ولكنها مذ بدأت تتجه نحو الشمال، أخذ الحظ يجانبه والمصاعب تتفاقم في وجهه؛ وقد كان اشتراك مصر في حوادث اليونان ظرفاً مشئوماً جنت منه مصر شر

العواقب. بيد أن محمد علي لم تفتر همته وأطماعه، حين حطم أسطوله في نافارين، فأنشأ دار صناعة جديدة بالإسكندرية؛ وكان ذلك الرجل بعيد النظر يعلق دائماً أهمية كبيرة على قوة مصر البحرية

ويقول لنا الأستاذ كرابتيس إن الزمن لم يفسح مجالاً لإبراهيم ليثبت عبقريته السياسية

بصورة فعالة، ولكن الموت عاجله، ولما يمض على صدور الفرمان بتعيينه والياً لمصر سوى ستة أسابيع؛ وقد توفي في التاسعة والخمسين من عمره، بعد أن عانى تباريح الآلام والمرض ردحاً من الدهر

الحياة الأخرى

ما زالت مسائل الروح والحياة الأخرى تثير على كر العصور طلعة الإنسان وروعه؛ وقد اشتركت أديان الأرض جميعاً؛ والمدنيات في كل قطر وعصر، في التحدث عن الحياة الأخرى، ولكن التفكير الإنساني لم يهتد حتى اليوم إلى نتائج حاسمة في هذا الموضوع الخفي، ومازال في كل عصر يحوم حوله بمختلف الفروض والنظريات. وقد صدر أخيراً كتاب بالفرنسية في هذا الموضوع عنوانه: (الحياة بعد الموت في معتقدات الإنسانية) بقلم كاتب أمريكي هو جيمس تاير أديسون، وقد اتّبع المؤلف في كتابه الأسلوب العلمي، ولكنه يعرض لنا من جهة أخرى في عدة فصول وصور قوية بعض ما ينتاب الإنسانية من أسباب المخاوف والروع من جراء تصور الحياة الأخرى وما وراء الموت. وما زال الموت يروع الأحياء الذين يرون ملايين الموتى يذهبون تباعاً إلى عالم لا يعرف كنهه، ولكن الأحياء يخضعون حتماً إلى قدرهم. ويبسط لنا المؤلف مختلف المعتقدات والنظريات الإنسانية والعلمية في مسألة الحياة والموت، في كل عصر وكل قطر؛ وهذا القسم أمتع أقسام الكتاب، ويلاحظ أن التباين في المعتقدات الإنسانية على كر العصور وفي مختلف الأمم لم يمنع من وجود بعض التماثل بين معتقدات الإنسان الأول وبين معتقدات أرقى المجتمعات؛ والظاهر أن هذا التماثل إنما يرجع إلى أن غريزة الفضول والروع لا تختلف في جوهرها عند الإنسان الهمجي والإنسان المتمدن، فكما أن الجميع سواء أمام الحياة والموت، فكذلك يشعر الجميع بنفس الجزع والفضول والروع

ويحدثنا المؤلف أيضاً عن مختلف النظم والرسوم التي تتبع في مختلف الأديان والأمم للعمل على سلام الروح، وتزكية الراحلين عن هذا العالم إلى العالم الآخر

النقد

(محمد)

كتاب الأستاذ توفيق الحكيم

للأستاذ محمد سعيد العريان

أيكون لي أن أكتب عن توفيق الحكيم في كتابه (محمد) بعد إذ كتب الزيات والرافعي، أم يكون من فضول القول أن يعرض مثلي لذاك وقد كتب الأستاذان الجليلان فأبلغا وبلغا ما لا مطمح لي وراءه. . .؟ ولكن كتابا يصنفه (توفيق الحكيم) عن (محمد) جدير بأن يثير الفضول، وأن يعذر من يقول فيطيل القول. . .

وما لتوفيق الحكيم ولمحمد؟

أما المؤلف فشابٌّ من شباب هذا الجيل درس دراسة أهله في هذه المدارس المدنية التي نقول لمن يدخلها (أنت لست من هذه الأمة التي نسلت من العرب، واهتدت بهدى الإسلام، ونمت من روح الشرق وسر روحانيته؛ فاذهب فالتمس أمة غير أمتك تفخر بمجدها وتباهي بماضيها. . .!)

وأما (محمد) فهو ذلك السر الأعلى الذي يستغلق على من لم يتصل بروحانية هذا الشرق، ويغمض على من لم يتعرف سر هذا الدين، ويستخفي على من لم ينشأ موصول النسب بتاريخ الأدب القديم. . . وأين توفيق الحكيم من ذاك. . .؟

على أم هذا البون البعيد بين توفيق الحكيم وتاريخ (محمد) هو الذي دعاه إلى أن يمد نظره إلى بعيد يتنور هذا السر من مطالعه، ويستشرف لهذا النور من مشارقه! فحياة محمد كانت إلى قريب وقفا على طائفة من أهل العلم، لا يتناولها إلا من أوتي كثيراً من الصبر على المعاناة في استخراجها، وكثيرا من القدرة على تنقيتها من فضول القول وحشو الرواة ولغو القُصّص، وقل من يملك القدرة والصبر على مثل ذاك؛ ثم جاءت طائفة من كرام العلماء. فجهدوا جهدهم في جلاء هذا التاريخ والكشف عنه، فكتب المرحوم الخضري بك، وكتب جاد المولى بك، وكتب الدكتور هيكل، وكتب رضا، فبلغوا مبلغهم في ذاك، واستطاع الناس أن يقرءوا (السيرة) كما ينبغي أن تُقرأ، وأن يعرفوا من تاريخ الرسول ما لم يكن يعرف إلا

الخاصة من علماء هذا الدين.

ولكن أتُرى هؤلاء العلماء - على ما بلغوا من التوفيق فيما جاهدوا، وما أصابوا من الإجادة فيما عملوا - قد استطاعوا أن يحملوا واحداً لا يهتم بسيرة الرسول على أن يقرأ سيرة الرسول، أو ودعوا نفراً من شبابنا الذين لا يحسنون إلا اللهو والعبث إلى التماس الحد في حياة محمد وابتغاء المثل العليا في تاريخه. . .؟ لو أن واحداً من هؤلاء الشباب قرأ شيئاً من ذلك لأفاد وانبعثت نفسه، ولكن أين ما يحمله على أن يقرأ. . .؟ إن هذه الكتب على ما أجدت قد عجزت أو كادت عن اجتذاب هذا النوع من الشباب الذي لا يعرف شيئاً عن محمد ولا يهتم أن يعرف؛ ولكن لرجل الفن سبيلا غير ذلك، وقد عرف توفيق الحكيم سبيله

قصد المؤلف من كتابه إلى عرض حياة الرسول الكريم عرضاً يكشف عن دقائقها ويجلو صورها على أسلوب من الفن بعيد عن فلسفة العالِم وتحقيق المؤرخ، على أن فيه من الفلسفة كما ترى الحادثة بصورتها في حياتنا العادية مرئية مسموعة، تفعل فعلها في النفس وتترك أثرها الفلسفي من غير تعليق ولا بيان؛ وللأستاذ توفيق في فنه باعٌ وذراع. . . فهو قد درس (القصة) دراسة العلم، وفقهها فقه الأدب، وعالجها علاج الفنان المبتكر، وانتج فيها إنتاجاً سيخلد به بين أدباء العربية؛ ولا أغلو إذا قلت إنني لم أقرأ حواراً تمثيلياً في العربية ويلذّني مثل حوار يصنعه توفيق الحكيم بهذه المقدرة الفنية قرأ توفيق مكتب القدماء عن السيرة، وبحاسة الفنان تمثلت له (مناظرها) كما نقلها في كتابه. وهو ضرب من الرواية لا نستطيع أن نضع له اسماً من أسماء الرواية، فهو ليس قصة، وهو ليس رواية، وهو ليس ترجمة تاريخية، ولكنه منها جميعاً؛ وهو مناظر حواريّة، يباعد بينها الزمان والمكان، وتجمع بينها وحدة الموضوع والغرض؛ على انه ليس لمؤلفها شيء من لغة الحوار ولا أسلوب الكلام، فليس له منها أكثر مما للمصور يرسم لك جزءا من الزمان في ورقة، لا ينقل إليك الزمان الماضي ولكن ينقلك إليه، فإذا أنت ترى منه أكثر مما تريك الصورة، وتسمع منه ما لا يُسمعك الرسم الصامت

ولا شك أن المؤلف قد جهد جهداً غير يسير في إخراج كتابه على ما يشتهي، فهو نوع لم يسبق إليه، وباب اخترعه في فن الرواية ليس له حدود مرسومة تهديه السبيل؛ هذا إلى أن الموضوع دقيق، يقتضي الصبر والأناة وحسن الاحتيال؛ وما ظنك بالكاتب المسلم يؤلف

شبه رواية عن محمد، يجري الكلام فيها على لسانه من غير أن يخترع أو يتزيَّد؛ ثم هو مع ذلك يحاول أن يرضي الفن ويلم بدينه في وقت معاً. . .؟ ولكن المؤلف بسبيل هذا الفن قد تصرف في موضعين: أما أولهما فانه كان يجد بعض ما وري عن النبي محكيا بلغة الخبر لا بلغة الحديث، واتجاهه في الموضوع أن يجعل القصة حواراً: كلاماً يجيب كلاما، وخبراً يرد خبرا، فلم يجد أمامه إلا أن يترجم الخبر إلى لغة الكلام لتستقيم له طريقة في الأداء. فمن ذلك مثل ما تقول كتب السيرة: (استأذن فلان على النبي، فأذن له.) يؤديه المؤلف حوارا كما يلي:

-: أيذَن لفلان يا رسول الله. . .

-: أذِنْت

وهذا وإن لم يكن قول النبي - لأن عبارته في الإذن لم تنقل إلينا في الحديث - جائزٌ فيما أراه، فهو باب من رواية الحديث بالمعنى، وقد أجازها رجاله. على أن هذا النوع في الكتاب قليل جداً لا يتجاوز بضع عبارات؛ ولعل أطول عبارة أجراها المؤلف على لسان النبي، هي ذلك الدعاء الذي ترجم له كتاب السيرة بقولهم: (كان النبي صلى الله عليه وسلم يتحنّث في غار حراء. . .) فرأى المؤلف من تمام موضوعه أن يجعل على لسان النبي كلاماً يدعو به ربه في تحنُّثه (ص 31)، وأحسب أن المؤلف كان كثير الحرج في مثل ذاك، فإني لأحس في أكثر من موضع من الكتاب أر كلاما هناك كان ينبغي أن يقوله محمدٌ فلم يقله (المنظر الثالث ف1، النبي وورقة بن نوفل ص 37) أما الموضع الثاني الذي تصرف فيه المؤلف، ففي ترتيب مناظر الكتاب، فهو لم يلزم الترتيب الزمني الذي جرت عليه السيرة، فقدَّم وأخر، ومازج حوادث وحوادث؛ وليس في هذا - على إجماله - ما يعيب المؤلف، فهو لم يقصد إلى أن تكون للكتاب وحدة القصة، بحيث تبنى حادثة على حادثة، وتأتي مقدمة بنتيجة، بل جرى على أن يجعله

مناظر يعطي كل منظر منها أو مناظر صورة خاصة لفكرة أو حادثة بعينها، ثم أن يكون للقارئ من مجموع هذه الصور في النهاية، صورة محدودة للنبي الكريم كما يجب أن يعرفها المسلم

الآن قد فرغت من عرض الكتاب كما أراد مؤلفه وكما دلني على نفسه، وإني لأشهد أن مؤلفه قد وفق توفيقا كبيراً فيما حاول، وبلغ بهذا الكتاب ما لا يبلغ غيره؛ وما أحسب أن لي

في هذه الناحية أن أتكلم عن توفيق الحكيم في فنه، فمن للعربية في فن الرواية مثل توفيق؟ على أن هذا الكتاب باب جديد هو زادَه وأنشأه في فن القصة، فمن الفضول أن تقول له: أنت اخترعت وأنت لم تبلغ حد الكمال. . .!

ولكن طابع توفيق الحكيم وشخصيته الفنية لم يكونا ظاهرين مميزين في أسلوب الحوار وفي تساوق القصة ظهورهما وتميزهما في سائر ما ألّف. وسر ذلك واضح، فهو هنا لم يضع الكلام، ولم يخترع الحادثة، بل نقل وصنف، وداخل ومازج، وإنما تجد طابعه وشخصيته حيث يجد لنفسه الحرية فيما يقول أو فيما يضع: (اقرأ الحوار بين إبليس والحية ص 153 - 157، وموت أبي طالب، وغزوة بدر، وحديث الإفك، وعائشة الغيور) فانك واجد فيها وفي كثير غيرها روحاً وحياة وفناً، فكأنك معها ترى وتسمع وتحس وأكثر الكتاب من لغة الرواة، لاءم بينها المؤلف ما استطاع ليربطها على أسلوب من البيان منسجم، فأيّ جهد حمل من ذاك؟. . . ولكن عبارات وكلمات نقلت على غير وجهها مما أخطأ الأقدمون على نسخه، وعبارات وكلمات جاءت متداخلة من وضع المؤلف، فأخلّت بنظم الكلام في غير موضع، ونبا بها مكانها من ذلك البيان العربي المشرق. على أن ذلك لا يعدو بضع عشرة كلمة في الكتاب كله، فما نراها إلى جانبه بشيء ذي بال

وقد كان جهد المؤلف كبيراً في ربط الروايات المختلفة والتوفيق بينها، ليخلص منها إلى الرأي الذي يرى؛ وكان إلى ذلك حريصا على أن تكون (المناظر) قليلة بقدر ما يتأتى له، فجاء من ذلك أن يجعل الحوار في منظر واحد لأكثر من موضوع، وأذ كان الحديث كله بين المتحاورين من الآثار المروية - لم يغير ذلك شيئاً من نص الكلام كما نقله السلف، ولكنه غير جوه فتغير من ذلك مدلوله؛ فمن ذلك حديث النبي عن زوجاته في الجنة، إلى خديجة وهي تُحتضر، (وفاة خديجة ص 100)؛ ومنه حديث (حُبِّبَ إليّ الطيب والنساء) روايتُه على مسمع عائشة في غيرتها المشبوبة وقد جاءها النبي يهمّ أن يتزوج جويرية بنت الحارث. . .!

وجاء في خبر عثمان بن مظعون أن ملاحاةً كانت بينه وبين لبيد بن ربيعة قبل هجرته إلى الحبشة، وأحسب ذلك كان بين الهجرتين؛ فقد كان عثمان على رأس الفوج الأول إلى الحبشة، ثم عاد فاستجار الوليد بن المغيرة حيناً، ثم خلع جوارَه وكان بينه وبين لبيد

الشاعر ما كان بعد خلْعه جوار الوليد، ثم هاجر ثانية إلى الحبشة (ص105)

ونقل الكتاب في حديث الإفك (ص376 - 377) أن أمَّ مِسْطح قالت: تَعس مسطح. إذ وجدت ما وجدت في وجه عائشة من إعياء المرض؛ والذي أذكره أن أم مسطح قالت ذلك لغير هذا السبب، ولا أرى داعية للعدول عن المأثور في الرواية

أما بعد، فما حاولت بما أسلفت أن أنقد، ولو أنني حاولت لما وجدت؛ وإنما أذكر هذه الهنات كشهادة على براءة الكتاب وكماله؛ وحسب توفيق الحكيم أن يخرج كتاباً عن محمد على نهج جديد في الفن، ثم لا يجد الناقد فيه غير ما قدمت، وإنه لتوفيق من الله أن يتهيأ لحياة محمد أديب كبير مثل توفيق يربط أسمى ما في الفن بأقدس ما في تاريخ الإسلام. وما احسبنا - وهذا الكتاب بين أيدينا - سنشكو القطيعة بعد اليوم بين شبابنا الذين يعشقون الجديد ويقدرون الفن، وبين سيرة النبي الكريم، وإني قد فرغت من قراءة هذا الكتاب منذ قليل لأشعر بالحنين إلى الساعات السعيدة التي قضيتها منه كأني أعيش عصر النبوة، ومارى هذه الحنين سينقضي حتى أعود إلى الكتاب فأقراه مر ومرة ومرات حتى أروي ما بنفسي من ظمأ إلى هذا الكوثر العذب، وهيهات أن أشعر بعد بأني شربت حتى رويت. . .

(شبرا)

محمد سعيد العريان

العدد 139 - بتاريخ: 02 - 03 - 1936
شباب العراق في مصر

قل لأولئك الذين زعموا أن مصر نَبَتْ على العروبة فقطعت الأسباب الموصولة، وأيبست الأرحام المبلولة: تعالوا فانظروا كيف بَثَّتْ بالعراق بشاشة الألفة، ورقَّت لبنيه رفيف القرابة، وأشبلت عليهم أشبال الأمومة! تعالوا فأسالوا شباب الفراتين: هل كانوا على ضفاف النيل في ارض غير أرضهم، وقوم غير قومهم، وبيئة غير بيئتهم؟ لقد كان إقبالهم على محطة لقاهرة كإقبال الربيع، واستقبالهم فيها كاستقبال العافية! نزلوا من القطار على أكتاف البهاليل من شباب النيل، وحلوا في قلوب الميامين من رجال الوادي، وهتفت الجموع الحاشدة بأسمى فؤاد وغازي، وجرت الألسن الخاطبة بلفظي القرابة والوحدة، وتلاقت العواطف الظامئة على وِرْدي الإخاء والمودة. ودخل الطلاب العراقيون في غمار الألوف المتهللة، فتجاذبت الدماء، وتمازجت القلوب، وتعاطفت الذكريات، وتجاوبت الأماني، وترجمت اللغة! ثم كانوا طوال الأسبوع المنصرم غبطة القاهرة وبهجة الأندية وحديث الصحف، يظلون من مطلع النهار إلى مقطع الليل غرقى في احتفاء المدينة بين ترحيب يومض في العيون، وتسليم يفتَرُّ في الشفاه، وإعجاب يدوِّي في الأكف، وكرم يفيض على الموائد، ثم لا يسعفون كل مَشُوق لسعة الحركة ولا يجيبون كل داع لضيق المدة

والحق أن الشباب العراقيين كانوا كما قال الدكتور محجوب: طاقة من شتيت الزهر النضير قدمتها بغداد إلى القاهرة في العيد! مثلوا العراق في الرجولة والعزة، ومثَّله الأستاذ منير القاضي في الوقار والنبل، فكانوا بهذا المظهر الجميل دليل اليقين لمن يطيع في أمتهم الشك، وشاهد الاطمئنان لمن يعقد على نهضتهم الأمل!

كان مبعث الجفاء بين أقطار العرب انقطاع الأسباب وبُعدِ الشقة؛ ثم غشيت كل سماء من سمواتها الزُّهر غمةٌ من أطماع الغرب، حجبت عن العيون الضياء، وعن النفوس الصفاء، وعن العقول المعرفة، فذهب القوم أشتاتاً يتلمس كل امرئ في الظلام طريقه! حتى إذا استيقظ في الوجدان شعور العروبة، وعاد فأشرق في الأذهان نور الدين، أبصرنا فإذا بيننا من بغى الإنسان حواجز تتقاصر عندها الخطى، وتتناكر دونها المعارف!

أزيلوا قائم الحدود، وجدوا دارس الطريق، تتلاق الوجوه وتتعارف الاخوة؛ واعملوا ما يعمل في العراق رسول الوحدة ياسين، وفي مصر أمثال الوزير محمد علي، والزعيم طلعت حرب، تجدوا الاتحاد العربي جارفاً كدعوة محمد، سريعاً كفتوح أمية، خصيباً كحضارة العباس!

هذه هي مصر الصحيحة يا شباب الرافدين! لا يزال دينها دينكم، ولغتها لغتكم، وهواها هواكم! أنها لم تركم ولم تروها لأنها في جوف الحوت! وهأنتم أولاء تسمعون حشرجتها الأليمة في حلقه، وستجيش بين معدته وأضراسه جَيَشان السم الزعاف حتى يلفظها حيةً سليمة كيونس! حينئذ تتجه (ابنة الشمس) إلى مطلع الشمس! وهناك يكون مجد العرب اليوم كما كان هناك مجدهم بالأمس! وليس الشرق موطن الديانات والمدينات بضيق ولا جديب

إن الأرض لتُزَلزَل في كل مكان بالدخيل يا بَنِي (الهلال الخصيب)! وإن تاريخ الجدود لينبجس فواراً حاراً من صحون المساجد الجامعة! هل تذكرون ثورة بغداد في جامع الحيدرخانة؟ هل رأيتم غضبة دمشق في الجامع الأقصى؟ هل علمتم وثبة القاهرة من الجامع الأزهر؟ إن لذلك معنى عجيباً لا يندُّ عن خاطر ولا يلتوي على ذهن، ذلك أن المنارة التي يذكر عليها اسم الله، وأن المحراب الذي يقوم فيه الدين، لا يزال هو الركن الذي يأوي إليه الحق، وإن الإسلام الذي ألف شتيت البدو في الأول، هو النظام الذي يجمع شمل العرب في الآخر!

لقد كانت زيارة الطلاب العراقيين فرصة ميمونة لتوثيق الصلات التاريخية المقدسة، صافحونا بالأيدي، وخاطبونا بالألسن، وسمعونا بالآذان، فانمحت الفوارق العارضة، وانجابت الحجب الكثيفة، واستبان أن الخيال جانٍ على الحقيقة، وإن السماع كاذب على العِيان، وإنَّ الوحدة المستحيلة أمر من الواقع!

نعى البرق شاعر العراق الزهاوي والمصريون والعراقيون في حفلة اتحاد الجامعة، فكان وقع المصاب في نفوس الفريقين واحداً لا يختلف؛ وقام كبير الأدباء فأبن كبير

الشعراء بكلمة تلقاها الأخوان بعاطفة واحدة وشعور مشترك، لأن الزهاوي كان يهزج بأغاريد الفجر على ضفاف دجلة، فتردد أصداؤها الموقظة في ربوات بَرَدى وخمائل النيل وسواحل المغرب! وأدب الزهاوي وأمثاله هو الذي وصل القلوب العربية في مجاهل القرون السود بخيوط إلهية غير منظورة، ولولاها لم تكن هذه الزورة! وبهذه الزورة وأمثالها نتعارف

ونتآلف ونتحد! فتعالوا يا أخلاق المجد الفقيد وأسلاف المجد الوليد نتعاون على دفع الأذى عن العزة المهانة! تعالوا نقرَّ في سمع الزمان أن أمة الرسالة تريد أن تؤدي الأمانة! ولكن قبل ذلك كله: تعالوا نجدد دارس العهد بيننا=كلأنا على هذا الجفاء ملوم

أحمد حسن الزيات

أغنية

للأستاذ أحمد أمين

تعجبني أحياناً بعض الأغاني الشعبية، إذ أراها تمثل روح الشعب وآماله وآلامه - وأراها أصدق في وصف الحياة المتنوعة مما يفعل أدباء اليوم، فكل أغانيهم لا تمثل إلا عاطفة الحب البائس، وما يتبعه من ألم ممض، ولوعة مضنية؛ أما الأغاني الشعبية ففيها الحب البائس، والحب الباسم، وفيها التغني بالبطولة، والشكوى من الظلم

أحياناً فيها فلسفة اجتماعية كالأغنية التي سأعرضها اليوم؛ ومرماها تصوير الهيئة الاجتماعية في صورة الجسم الواحد تتعاون أعضاؤها لتحقيق المصلحة العامة - وهو معنى عرض له الفلاسفة والأدباء في الأمم المختلفة قديماً وحديثاً - فمثّله اليونان مرة بإضراب أعضاء الجسم. قال القلب: لماذا أوزع الدم على سائر الأعضاء ولا ينالني أنا منه إلا قطرات؟ فلأضربَ. وقالت المعدة: ولماذا أهضم أنا أيضاً الأكل كله وليس يصيبني منه إلا قليل، أفما كان الأولى ألا أهضم إلا ما ينالني؟ فلأضرب. وقالت الأسنان: ومالي أنا كالطاحون تطحن دائماً ولا ينالني من الغذاء إلا قدر السمسمة؟ فلأضرب. وقالت الرجل: وأنا دائبة السعي يميناً وشمالاً وليلاً ونهاراً في جمع العيش وتحصيل القوت، ثم حظي من كل هذا فتات الموائد؟ فلأضرب. وقال كل عضو هذا القول أو شبهه، فأضربت الأعضاء جميعاً، فلا الرجل تسعى، ولا اليد تحمل الغذاء إلى الفم، ولا الأسنان تمضغ، ولا المعدة تهضم، ولا القلب يوزع

ثم بعد قليل شعرت المعدة بالجوع ولم تستطع الرجل المشي ولا اليد، أدركت كلها أنها سائرة إلى الفناء السريع، فاجتمعت على عجل وقررت فض الإضراب إذ رأت أن كل عضو يعمل لنفسه ولغيره، وان غيره يعمل لنفسه ولغيره، فالغرم بالغنم والربح على قدر الخسارة

ولحظ هذا المعنى شعراء العرب فقال أبو العلاء المعري فيه:

المرء كالنار تبدو عند مسقطها ... صغيرة ثم تخبو حين تحتدم

والناس للناس من بدو وحاضرة ... بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

وكل عضو لأمرٍ ما يُمارسُه=لا مَشيَ للكف بل تمشي بك القَدَم

أما هذه الأغنية التي أشرت إليها فتمثل هذا المعنى من ناحية أخرى ظريفة، وهي ارتباط الصناع وأرباب الأموال برباط وثيق، لا يمكن أن يستغني أحد عن أحد. وهاهي بعد حذف ديباجتها:

وحصاني في الخزانة، والخزانة (عاوزة) سلم، والسلم عند النجار، والنجار عاوز) مسمار، والمسمار عند الحداد، والحداد عوز بيضة، والبيضة في بطن الفرخة، والفرخة عاوزه قمحة، والقمحة عند القماح، والقماح عاوز فلوس، والفلوس عند الصريف، والصريف عاوز عصافير، والعصافير في الجنة، والجنة عاوزه حِنّا (الخ. . .

أغنية لطيفة حقاً، لا يزال أطفالنا إلى الآن يتغنون بها بتوقيعهم الظريف، وصوتهم الشجي، وهم إذ ينشدونها لم يدروا أنهم يتغنون بفلسفة عالية، وفكرة سامية

قد يلاحظ علنها أن الربط في بعضها محكم كحاجة السلم إلى النجار والنجار إلى المسمار، وبعضها غير محكم كحاجة الحداد إلى البيضة، وحاجة الصريف إلى العصافير، ولكن أظن أن تحكيم المنطق الدقيق الحاد في الأدب كالشعر والأغاني وسائر الفنون مجاوزة للحد، فالأغنية ظريفة لطيفة رغم المنطق

ومن أسباب جمالها هذا النوع البديع الذي يصح أن أسميه (جمال الدوران) أو جمال التسلسل مثل قولهم (لا سلطان إلا برجال، ولا رجال إلا بمال، ولا مال إلا بعمارة، ولا

عمارة إلا بعدل)
وقولهم: (الحجر يكسر الزجاج، والحديد يكسر الحجر، والنار تذيب الحديد، والماء يطفئ النار، والريح تلعب بالماء، والإنسان يتقى الريح، والخوف يغلب الإنسان، والخمر تزيل الخوف، والنوم يغلب الخمر، والموت يغلب النوم)
ومثل قوله: (العالم يعرف الجاهل لأنه كان جاهلاً، والجاهل لا يعرف العالم لأنه لم يكن عالماً) الخ
وبعد فما تاريخ هذه الأغنية ومن واضعها؟ لابد أن يكون فيلسوفاً أو حكيماً بعيد النظر. ومما يؤسف له أن هذه الأغاني والأزجال والمواويل لم يعن عناية الأدب الأرستقراطي، فبينا يعني العلماء والأدباء بنسبة بيت الشعر إلى قائله، والقصيدة إلى منشئها، ويحتدم بينهم القتال على ذلك، إذا بنا لا نجد هذه العناية ولا بعضها في الأغاني والأزجال الشعبية، وهذا
نوع مما أصاب الأدب الشعبي من الظلم. وكم أصابه من أنواع! وها هي الأغاني التي تخترع في عصرنا نجدها على الأفواه ونستعذبها، وتهش لها نفوسنا، ولا نكلف أنفسنا مئونة البحث عن منشئها
ولكن من حسن حظ هذه الأغنية، أو من حسن حظنا نحن، أننا نجد ظلاً لتاريخها، فقد ذكرها الجبرتي في تاريخه في حوادث سنة 1143 هجرية، فيكون عمرها أكثر من قرنين وظلت الأجيال تتعاقبها إلى يومنا
ويظهر من كلام الجبرتي أن واضعها عالم كبير جليل من أكابر علماء الأزهر في القرن الثاني عشر، هو الشيخ الحفناوي أو الحفني؛ كان سيد الأزهر في أيامه، له حلقات الدروس الحافلة بنوابغ الطلبة، يقرأ فيها أعوص الكتب وأصعبها، كجمع الجوامع والأشموني وحاشية السعد؛ وله التآليف الكثيرة في البلاغة والميراث والجبر والمقابلة، كما كان بيته ساحة كرم يغشاه أعيان مصر وعلماؤه وأدباؤها، ويلجأ إليه الفقراء وذوو الحاجات؛ وكان راتب بيته من الخبز كل يوم نحو الإردب، وطاحون بيته دائرة ليل نهار، ويجتمع على مائدته الأربعون والخمسون والستون، إلى هيبة ووقار، حتى يهاب العلماء سؤاله لجلاله
وهو مع هذا كله ظريف أديب، سمع تلميذاً له يوماً يقول:
قالوا تحب المدمس؟ قلت بالزيت حار ... والعيش الأبيض تحبه؟ قلت والكشكار
فضحك الشيخ وقال أنا لا أحبه بالزيت الحار، وإنما أحبه بالسمن، ثم قال:
قالوا تحب المدمس؟ قلت بالمسلي ... والبيض مشوي تحبه؟ قلت والمقلي
وله المواويل الظريفة كقوله:
بحياة يا ليل قوامك وصوم الحَرْ ... تحجز لنا الفجر دا فوت الرفاقه حَرّ
لما يجي الفجر يصبح ركبهم منجرّ ... أزدادِ لَوَعه ولا عمري بقيت انْسَرْ
إلى غير ذلك. فيحدث تلميذه أن الشيخ الحفني قال له يوماً (أحدتك حدوته، بالزيت ملتوته، حلفت ما آكلها، حتى يجي التاجر، والتاجر فوق السطوح، والسطوح عاوز سلم الخ) فحكاية التلميذ ولم يكن سمعها من قبل وروايته لها عن شيخه ترجح الظن أنها من عمل الشيخ الحفني
وقد زاد الشيخ على ذلك فشرح الأغنية على طريقة الصوفية ففسر التاجر بالمرشد الكامل
والمربي الواصل، والتاجر فوق السطوح في مستوى عال، والسطوح لا يمكن صعوده إلا بمعراج الخ وقد كان للشيخ جانب آخر صوفي عظيم
فالأشموني وجمع الجوامع، والحواشي والتقارير، كلها لم تمنع الشيخ العالم الأزهري الجليل من أن يكون أديباً وزجالاً ظريفاً يضع الأغاني والمواويل يتغنى بها الشعب. وهذا يذكرني بما سمعت عن فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الرحمن قراعه المفتي الأسبق - مد الله في عمره - من أنه واضع الدور المشهور: (الله يصون دولة حسنك)
فمن لنا بعلماء الأزهر بين اليوم يشرفون على الأدب كما يشرفون على الدين، ويتعرفون حياة الناس الاجتماعية، ومناحيهم الأدبية، ويضعون الأناشيد الظريفة، والأغاني اللطيفة، ويكونون عنوان الدين وعنوان الظرف، يبتغون فيما آتاهم الله الدار الآخرة، ولا ينسون نصيبهم من الدنيا
أحمد أمين

مواكب سلاطين مصر
للأستاذ محمد فريد أبو حديد
أن أفئدتنا المتعلقة بمصرنا العزيزة تتوق إلى كل ما يرتبط بهذا الوطن المجيد، فكما أن نسميها حبيب وحرها حبيب؛ وكما أن سماءها تأخذ بالألباب في صفائها، وتنعش فيها الأمل بسحابها ومطرها؛ وكما أن حاضرها نزهة الأعين وبهجة الأنفس، كذلك تجد النفس في ماضيها مسارح محبوبة للخيال والفكر. فلنعد إلى عصر من تلك العصور الماضية المجيدة، ولنتجرد من عصرنا الحاضر إلى حين لنفرغ إلى استجلاء بعض لذات تلك الأيام الغابرة، ولنشارك بالفكر مواطنينا الأعزاء الذين ملئوا أيامهم جلالاً وبهجة لنعد إلى القرن الثالث عشر، ولنتخط إليه ستمائة عام على أجنحة الخيال، ولنقف حول ركاب ملوكنا الأمجاد الذين كانوا زينة العصر وحماة الديار عند ذلك، ولنشارك مواطنينا من الأجداد الذين كانوا يصطفون على جوانب الطرق وقلوبهم خفاقة ونفوسهم مملوءة بالإجلال الممزوج بالحب والعطف لهؤلاء الحماة، وللنظر إلى السلطان العظيم وقد أقبل في موكبه والناس يضجون بالدعاء له فيتلقونه بأحسن الاستقبال. حتى إذا ما صار منهم على كثب رفعوا الأكف وقرءوا الفاتحة ودعوا له بالنصر والقوة على حماية البلاد، ولنشارك مواطنينا في ذلك فلقد كان أولئك السلاطين تفيض قلوبهم بخير ما تفيض به قلوب الملوك من حب لخير الرعية وتفان في سبيل مصلحتها العامة.

كان أحد هؤلاء السلاطين الملك الظاهر ركن الدين بيبرس، وكان يلقب بالعلائي البندقداري نسبة إلى الأمير علاء الدين أيدكين البندقداري أحد أمراء الملك الصالح نجم الدين أيوب، وهو الذي اشتراه عندما كان مملوكاً صغيراً ثم آل ملكه إلى السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب، ولهذا يلقبه التاريخ أيضاً بالصالحي النجمي. وقد تعلم وترقى في الوظائف على النظام البديع الذي كان يسير عليه أمراء ذلك العصر في تعليم مماليكهم وترقيتهم حتى صار أميراً قائداً، وذلك لما أظهره من الشجاعة في الحرب ولا سيما في موقعة المنصورة في أيام الملك المعظم توران شاه ابن الملك الصالح أيوب، وهي الموقعة التي هزم فيها الفرنج وأخذ ملكهم لويس التاسع أسيراً، وما زال حتى صار (أتابكاً) للعساكر أي قائداً عاماً لهم ثم استولى على الملك، فكان الثالث من سلاطين الأتراك الذين جرى العرف بتسميتهم سلاطين المماليك

وكانت مصر في أيامهم تحيط بها عنون الأعداء من كل الجهات، فبينا كان أهل أوربا يدبرون الخطط ويجندون الجيوش الجرارة لغزوها، كان أحفاد جنكيز خان ملوك التتار العظام يدفقون جموعهم نحو الشام بعد أن اجتاحوا بلاد العراق وخربوها وأسالوا فيها الدماء أنهارا، فكان العصر عصر حرب ودفاع، وكانت الروح الغالبة روح الحرب والدفاع، وكان واجب الأمة الحرب والدفاع، وكان بيبرس من خير من مثل تلك الروح واستعد بكل قوة للحرب والدفاع، فكانت كل مظاهره مصبوغة بصبغة النضال والكفاح. كان الخليفة العباسي قد جاء إلى مصر مطروداً مشرداً بعد أن نكب التتار بلاد العراق، جاء إلى مصر يطلب فيها الأمن ويلتمس الحماية من سلطانها الأعظم بيبرس، وأحب أن يكافئ ذلك السلطان على حمايته ومساعدته مقدماً، فقلده السلطنة المصرية بصفته الحاكم الشرعي للدولة الإسلامية، وبذلك عمل على تثبيت مركزه وجعله حاكماً شرعياً إلى جانب كونه حاكماً بالسيف. فأمر السلطان فضربت لهذه المناسبة خيمة كبيرة في المطرية، وجلس السلطان على كرسي عظيم في صدرها، وكان طويل القامة مليح الشكل أبيض الوجه مستدير اللحية، وقد اختلط سوادها بالبياض يكاد يغلب عليه. وقد اصطف الأمراء حوله بحسب مراتبهم، لا يلتفت أحد منهم إلى يمين ولا إلى يسار، ولا يكلم أحد من إلى جواره ولا يشير إليه، فلقد كان هذا خروجاً على الآداب المقررة في المجلس السلطاني، ولم تكن ملابس هؤلاء الأمراء قد بلغت بعد ما بلغته من الزينة والزركشة في أيام السلاطين الذين أتوا فيما بعد كالسلطان قلاوون وابنه الملك الناصر محمد، وذلك لأن بيبرس كان لا يجد من فراغه متسعاً للتفكير في غير عدة الجهاد والنضال. فلم تكن ملابس هؤلاء الأمراء غير أقبية (أو جيب) بيضاء واسعة ضيقة الاكمام، ومناطق ساذجة لا ذهب فيها ولا جواهر، بل كانت من القطن المصبوغ، وكانت أخفافهم من جلد بلغاري أسود، فوق تلك الأخفاف خف ثان اسمه السقمان،

وكان فوق الأقبية أو الجيب كمران فيهما حلق وأبزيم ومعلق فيهما صوالق (أو جيوب) جلد كبار يسع الواحد منها أكثر من نصف ويبة من القمح، ويغرز فيه منديل طوله ثلاثة أذرع، وكانت شعورهم مضفورة، وضفائرهم مدلاة في كيس حرير أحمر أو أصفر، وفوق رؤوسهم قلانس صفراء مضربة تضريباً عريضاً

وجلس عن يمين السلطان الخليفة والقضاة من المذاهب الأربعة، فان بيبرس جعل لكل مذهب قاضياً كبيراً بعد أن كانت ولاية القضاة لقاض واحد من علماء المذهب الشافعي. ثم جلس عن يمين القضاة واحد بعض موظفي الدولة مثل وكيل بيت المال أو (وزير المالية كما نسميه الآن)، ثم ناظر الحسبة أو (هو محافظ القاهرة)، وكلاهما من القضاة وأرباب القلم. وجلس عن يساره الوزير ثم كاتب السر أو (الأمين الأول)، وجلس أمامه ناظر الجيش وجماعة من الكتاب الكبار أو كما كانوا يسمونهم الموقنين

ووقف من وراء السلطان صفان فعن يمينه ويساره من الأمراء الكبار وهم رؤساء الأمراء والقواد في الجيوش، وجلس إلى اليمين واليسار على بعد نحو ثمانية أمتار من السلطان ذوو السن من الأمراء القواد وهم أمراء المشورة في الدولة. وجلس بعد ذلك من هم أدنى منهم مرتبة من أكابر الأمراء، والقواد بحسب درجاتهم، فكان أقربهم من السلطان أمراء المئين وهم مقدمو الألوف، وكان كل منهم أميراً على مائة فارس، وقد يزيد عدد فوارسهم عشرة أو عشرين فوق المائة؛ وكان يليهم أمراء الطبلخاناه، وكان كل منهم أميراً على أربعين فارساً، وقد يزيد عدد فرسانهم إلى السبعين؛ وكان بعد هؤلاء جميعاً أمراء العشرات ولكل منهم الإمارة على عشرة فرسان، وقد يزيد عدد فرسانهم إلى العشرين

ونصب منبر وصعد عليه كاتب السر الشريف، فقرأ على الأمراء في ذلك الحشد الحافل كتاب الخليفة العباسي أحمد المستنصر بالله الذي لجأ إلى مصر وأحسن السلطان استقباله، وفيه ثناء طيب من الخليفة على السلطان العظيم فأصبح بذلك ملكاً على البلاد بحق الاستيلاء والسيف، وبحق تقليد خليفة المسلمين الذي كان العالم الإسلامي يرى فيه رمز الحق الشرعي للحكم.

ثم حملت إلى السلطان خلعة الخليفة، فلبسها وهي جبة سوداء، وعمامة بنفسجية، وطوق من ذهب، وقلد بسف عربي. فلما انتهى الاحتفال ركب السلطان بالخلعة والطوق والأمراء حوله وأمامه حسب ترتيبهم، وحمل الصاحب بهاء الدين محمد بن علي ابن حنا تقليد الخليفة، على رأسه وسار قدام السلطان. ثم سار الموكب حتى دخل القاهرة من باب النصر ومر في الشارع الأكبر من المدينة، والسلطان في خلعته الجديدة راكب على فرس عربي

عليه كسوة بديعة من الحرير الأصفر، وقد ركب إلى جواره أحد أمراء المئين راكباً على فرس يحمل المظلة وهي حبرة من الأطلس الأصفر المزركش بالذهب، من أعلاها قبة من الحرير نفسه، وفوقها طائر من الفضة المذهبة

وتلقت الجموع الزاخرة من أهل القاهرة ذلك الموكب بالتهليل والطرب؛ وكان السلطان كلما مر بجماعة ضجوا بالدعاء له بالنصر والفتح وقرءوا الفاتحة تبركاً وتيمناً؛ ومازال ذلك الموكب حتى بلغ القلعة فلم يبق ركن من أركان القاهرة لم يهتز لرؤيته والاشتراك في الحفاوة به

والآن فلنخرج مرة أخرى لنشارك أجدادنا أهل القاهرة في التمتع برؤية موكب آخر سائرين في ركاب السلطان إلى ميدان بجوار القاهرة كان ملوك مصر إذ ذاك يقصدونه للرياضة والتنزه ويلعبون فيه لعبتهم المشهورة وهي (الكرة)؛ وكانوا يخرجون لذلك إلى أحد ميدانين: الأول الميدان الناصري الكبير، والثاني ميدان سرياقوس. وكان الخروج إلى كل من هذين الميدانين في أوقات معينة من السنة، فالركوب إلى الميدان الكبير الناصري كان يقع في شهري سبتمبر وأكتوبر؛ وذلك الميدان على ضفة النيل في جهة بستان الخشاب فيما بين القاهرة ومصر القديمة. وكان الخروج إليه في كل يوم سبت من الشهرين المذكورين. وقد كان بودي لو استطعت في هذه الكلمة أن أصف مواكب خروج السلاطين إلى كل من هذين الميدانين، ولكنني أكتفي بوصف موكب واحد وهو موكب الخروج إلى الميدان الكبير الناصري

خرج السلطان الملك الناصر صباح أول يوم السبت بعد وفاء النيل بادئاً موسم لعب الكرة والصولجان في ذلك الميدان الفسيح؛ وكان خروجه في الصباح، ولكن الشمس

كانت قد بسطت سلطانها على الأحياء فبدأ حرها يشتد وتكاثر الناس وازدحموا على الطريق ليروا السلطان وهو يخرج سائراً نحو الغرب إلى قناطر السباع القائمة فوق الخليج، وذلك في موضع ميدان السيدة زينب الآن، ومن هناك سار نحو النيل إلى الميدان. وكان في أول الموكب فارسان يلبسان ثياباً من الحرير الأصفر وعلى رأس كل منهما كوفية من الذهب على هيئة طاسات الحرب، وكانا يركبان فرسين أبيضين بحلية بديعة من الذهب، وكان على كل من الفرسين كساء من الحرير الأصفر المزركش بالذهب يغطي من تحت أذنيه
إلى موضع السرج. فلما مر هذان الفارسان أقبل في أثرهما السلطان هو راكب على فرس عربي أصيل هيئته وكسوته مثل هيئة فرسي الفارسين المتقدمي الذكر لا فرق بينه وبينهما، حتى كان الناظر إلى الفرسين المتقدمين يظنهما قد أعدا لركوب السلطان نفسه؛ وكان أمام فرس السلطان غاشية السرج يحمله بعض أمراء المماليك الخواص، وهذه الغاشية عبارة عن جلد مزركش بالذهب ليُغطي به سرج السلطان إذا نزل، وكان حامل تلك الغاشية يحركها زهواً وافتخاراً ذات اليمين وذات الشمال، والى جانب حامل هذه الغاشية فارس آخر يضرب على شُبابة، وهي آلة موسيقية لا يقصد بنغمها الإطراب، بل يقصد بها إيقاع المهابة في النفوس
وكان فوق رأس السلطان العصائب السلطانية، وهي من الحرير الأصفر المزركش بالذهب منقوشة باسمه وألقابه. وكانت العادة أن تحمل هذه العصائب فوق رأس السلطان عند الركوب إلى هذا الميدان خاصة وفي يوم العيد، وعندما يدخل إلى القاهرة عائداً من السفر أو إلى مدينة من مدن الشام
ولم يكن في هذا اليوم يستظل بالمظلة، فإن رفعها كان خاصاً بأيام العيد أو عند دخول المدينة أو في المواكب التقليدية الكبرى
وجاء خلف السلطان جماعة الأمراء أولهم المشاة يحفون به على هيئة دائرة، وهم الطبردارية الذين يحملون الأطبار المشهورة ولعلها السيف المعوجة التي يسميها الفرنج (السابر)، وكانوا في العادة من كبار الأكراد، ويليهم بعد ذلك الأمراء الفرسان يسيرون بحسب مراتبهم: فنائب السلطنة، ثم الوزير وأرباب الوظائف الكبرى، ثم المئين مقدموا الألوف، ثم الطبلخانات، ثم أمراء العشرات، ثم المماليك
فإذا ما انتهى الركب إلى الميدان واستقر مجلس السلطان هنيهة في ظلال الأشجار الوارفة التي حول الميدان أمر ببدء اللعب واشترك هو مع الأمراء الكبار فلعبوا الكرة بالصوالج وهم ركوب على الخيل، وانتهزوا فرصة اللعب فاظهروا من المهارة في ركوب الخيل والتحرك فوقها أثناء جريها ما يدهش الألباب
فإذا انتهى اللعب في ذلك اليوم دعا السلطان الاثنين اللذين برزوا في اللعب من الأمراء وانعم عليهما بحوائص الذهب وهي مناطق ثمينة من الذهب يبلغ ثمن الواحدة أحياناً مائتي
دينار أو يزيد؛ وكان هذا التقليد مخصوصاً لكبار الأمراء المقدمين، فكان السلطان بذلك ينعم بالحوائص على كل الأمراء المقدمين تدريجاً حتى يتم إنعامه على الجميع مرة في مدى ثلاث سنوات أو أربع
وبعد أن ينتهي من الإنعام بالحوائص يدعو المبرزين من كل طبقات الأمراء ويهدي إليهم الخيول الجياد، فكان يعطي الأمراء الكبار من أمراء المئين والطبلخانات خيولاً مسرجة ملجمة، ثم يختار بعض أمراء العشرات فيجعل لهم حظاً من ذلك الإنعام أيضاً، ويزيد عطاؤه للمقربين من كبار أمراء حرسه الخاص فيجود عليهم بالجياد عشرات لا آحادا
فلقد كان خروج السلطان إلى ذلك الميدان أحد موسمين للإنعام بالخيول على الأمراء، وكان الموسم الآخر عند خروجه إلى مرابط خيله في الربيع
وبعد، أفلم تكن تلك التقاليد المقررة جديرة بأن نذكرها ونحتفظ بذكراها ليكون جيلنا الحاضر مرتبطاً بالأجيال الماضية ارتباط البناء بالأساس؟
محمد فريد أبو حديد
الجوع الروحاني
لأستاذ جليل ينم عليه أسلوبه
أتحفنا الأستاذ المازني منذ أيام بمقال ممتع (في الحب)، ثم أعقبه بمقال آخر تحدث

فيه عن (الحب الأفلاطوني) و (الوفاء في الحب)
فقال عن الحب أنه (ضرب من الجوع، أو هو إذا شئت نوع من التنبيه تلجأ إليه الطبيعة لتغرينا بما يكفل المحافظة على النوع)
وقال عن الحب الأفلاطوني والوفاء: انهما لا يوجدان مع الصحة والسلامة، وإذا كان من الممكن أن يشبع الجائع بالنظر إلى الطعام في أطباقه على السفرة، فانه يكون من الممكن أيضاً إرضاء عاطفة الحب عند الرجل السليم المعافى بالنظر إلى المرأة والاستماع إلى حديثها، والتمتع بابتسامتها، ورشاقة وقفتها، وحسن جلستها؛ والذي يقنع من المرأة بذلك يكون أحوج إلى الطبيب المداوي منه إلى المرأة)
وقال الأستاذ عن الوفاء: (أما الوفاء فأكرم به وأنعم! ولكن أين في دنيانا من يصبر على طعام واحد وفي وسعه ألا يفعل؟ وإني أسأل القارئ وأعفيه من الجواب العلني: أي رجل لم ينقض عهداً بالوفاء؟. . . والمرأة كالرجل، وشأنها كشأنه، وكذاب من يقول - وكذابة من تدعي - غير ذلك، ولست أدعو إلى شيء. وحاشى أن أفعل، ولكني أصف واقعاً وأقر حقاً لا يكابر فيه إلا منافق يريد أن ينتحل فضلاً على حسابي وحساب الحقيقة)
وأورد الأستاذ في هذا المعنى بيتين من الشعر قالهما قبل أن يهجر القريض - مأسوفاً عليه من مقدري فضله:
يا عقيدي طامن الله حشاك ... لن تراني شاكياً وهي حبالك
أين من (طينتنا) أين الفكاك ... أنت إنسان على فرط جمالك
وإني مع فرط احترامي لآراء الأستاذ وإعجابي بها دائماً، بل وعلى الرغم من إعجابي بأفكاره هذه التي عرضها في مقالة الأخير، أقول إني أحسست بأني شخصياً قد سُببت. وكلما مر نظري على قوله: (كذاب من يقول، وكذابة من تدعي انتفضت وأحسست بالدم يصعد إلى رأسي شأن من يكون مقبلاً على شجار والعياذ بالله! وكلما أعدت البصر في قوله أنه (يقر حقاً لا يكابر فيه إلا منافق يريد أن يفعل كذا وينتحل كذا)، أحسست كأنما تتحشرج في حلقي عبارة: (اختش يا رجل) أو: (أحفظ مقامك يا أخينا أنت وإلا. . . .) أو غير ذلك من العبارات التي تسبق التماسك عادة بين الغريمين!
ذلك باني أنا أومن بالحب الأفلاطوني، وأومن بالوفاء؛ وإن كان الأستاذ قد قال في معرض الكفر بهذين المذهبين: (وأنا لا أدعو إلى شيء وحاشاي أن أفعل)؛ فهأنذا أقول باني أدعو إلى الإيمان بالحب الأفلاطوني وبالوفاء.، وقصاراي أن أفعل!
ولأبدأ أولاً بأن أقول مع الأستاذ أن الحب اشتهاء؛ فإلى هنا نحن متفقان. ولكن يبدو لي مع الأسف أن هذا هو كل ما بيننا من توافق، فانه يقول بعد ذلك رأسا إن الحب تنبيه للجسم ليعمل على حفظ النوع. بينما أنا أتابع الحديث بأن الجوع أنواع، وأن الأصل فيه جوع المعدة إلى الطعام، وأن لكل حاسة من حواس الجسم نوعا من الجوع تكابده وتعمل على إشباعه، وان الأذن مثلاً تجوع وغذاؤها الموسيقى؛ ويحس الجائع في هذه الحالة باشتهاء مُلِح إلى استماع الألحان. والعين كذلك تجوع ولكنها تجوع إلى الجمال، وقد يبلغ من جوعها أن تضطرب أعصاب صاحبها وتفسد عليه شؤونه إلى أن يمن الله عليه بصورة جميلة تقر لها عينه وتطمئن بها نفسه، مع أنه لا يبغي من هذه الصورة أكثر من أن يجلو بها عينيه. وأجهزة الجسم جميعها تجوع. ولعل الحب الذي كتب عنه الأستاذ هو جوع الجهاز التناسلي، وهو الجوع إلى المرأة وليس الجوع إلى الجمال، فأن جميع (الأعراض) البادي في ذلك المقال (تشخص) هذه الحالة
وإذا كنت موفقاً في التعبير فأني أعتقد أن هذا القول فيه ما يكفي لفتح الطريق أمام الحب الأفلاطوني الذي سد الأستاذ في وجهه الأبواب ووقف من دونها يقول: (أين الكذاب الذي يقول أن شيئاً يقوم وراء هذا الباب؟! وأنت أيها المكابر يا من تريد أن تنتحل فضلاً على حسابي وحساب الحقيقة: يا منافق. . يا بن الـ. . .) إلى أخر تلك الثورة التي لا سبيل لي مع الأسف إلى اتقاء أذاها غير أن أنشر هذه الكلمة بدون توقيع، وأترك الفضل بعد ذلك في انتحالها لمن شاء وأمري إلى الله!
أن الحب الأفلاطوني نوع من المغناطيسية الآدمية. وكل متعة المحب فيه أن يكون قريباً من حبيبه. لأن حبه هو حب الروح التي تعمل على حفظ (المزاج) لا حب اللحم والأجهزة السفلية التي تعمل على حفظ (النوع)

ولعل من أبرع الأمثلة على هذه الحالة قول قيس في بعض أشعاره:
تعلقت ليلى وهي ذات تمائمي ... ولم يبد للنظار من ثديها حجم
صغيرين نرعى البهم يا ليت أننا ... صغيرين لم نكبر ولم تكبر البهم
فأنت ترى أن هذا الصبي المحب كان محباً قبل أن يتنبه فيه جهازه الجنسي، ولم يكن يصلح مطلقاً للمحافظة على النوع، بل أن ليلاه لم يكن قد تفتح في جسمها شيء من منبهات ذلك الجهاز. أفلست تسمعه إذ يقول: ولم يبد للنظار من ثديها حجم!
وأنا إذ أقول بوجود الحب الأفلاطوني لا أنكر حب (النوع) ولا أعيبه - وحاشاي أنا أيضاً أن أفعل - بل إني لأقول بإمكان اجتماعهما في نفس واحدة، ولكن الذي يعنيني هنا أن أثبت وجود هذا الحب الأفلاطوني الروحاني البريء الذي أحسه أحياناً، والذي يهمني جداً أن أطمئن غيري على وجوده ليتعلم كيف يحسه هو الآخر عند اللزوم. ذلك لأنه ضرورة من ضرورات الرجل المهذب الذي يريد أن يشعر أحياناً أنه ليس حيواناً دائماً، وأنه قد يسمو في بعض الأوقات فوق اعتبارات هذه المادة المظلمة التي هي جسمه وأجهزته الدنيا
يروى عن (المهدي) أنه لما هرب من المأمون ذهب إلى عمته فوكلت بخدمته جارية لها اسمها ملك، وكانت هذه غاية في الحسن فاحبها المهدي - أعني على طريقتي أنا لا على طريقة الأستاذ المازني - فكره أن يحدثها حديث (النوع)، وأنه قد حصل لجسمه تنبيه ليعمل على بقاء السلالة البشرية في دولة أمير المؤمنين، ولكنه تسامى بحبه إلى الغناء، فبينما هي قائمة على رأسه ذات يوم تَغَنى بهذين لبيتين:
يا غزالاً لي إليه ... شافع من مقلتيه
أنا ضيف وجزاء الض ... يف إحسان إليه
فلما انصرفت الجارية من عنده أخبرت سيدتها بما سمعت من مولاها، فوهبتها له؛ فلما رجعت الجارية إليه بعد ذلك أعاد غناءه، فاكبت الجارية عليه، فدفعها عن نفسه قائلاً: كُفي! ما أنا بخائن! فقالت له أن سيدتي وهبتني لك، فقبلها قائلاً: أما الآن فنعم!
هذه هي كلمتي عن الحب الأفلاطوني وعن الوفاء. وأرى أن القول بأن (طينة) الإنسان لا تتفق مع هذا الخلق العظيم كما يقرر الأستاذ في شعره إنما هو محاجَّة بالأساطير، وتدليل بشيء لم يقل أحد أن له قوة الدليل. ونظيره أن يتقدم الشاهد إلى المحكمة مثلا ليقول أنه
سمع (بالإشاعة) أن فلاناً قتل فلاناً، فان كان مثل هذا الشاهد يجد المحكمة التي تقيم لشهادته وزناً، فسوف يجد حديث (طينتنا) من يستمع له!
وبعد. فما هي مهمة الكاتب الاجتماعي؟ أهي أن يقرر الأمر الواقع أمام الأشهاد الذين يشهدونه، فإذا فرغ من ذلك انصرف عنهم يقنع نفسه بأنه أدى رسالته؟ أم هي أن يتسامى بقرائه إلى المُثل العليا التي تملأ أحلامه وتتجسم في تفكيره حتى ليعتقد فعلاً بوجودها ولو لم تكن موجودة؛ فيبشر لها في كتاباته، ويصبح بذلك أهلاً لحمل هذا اللقب الكبير.
لقد قال فولتير: (إن الله لو لم يكن موجوداً لوجب على الناس أن يوجدوه)، والمعنى أن الناس لا تستقيم لهم حال إلا على أساس أن الله موجود، وانه من ورائهم محيط، يجزي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته. وهذا ما يصح أن نقوله الآن عن الحب الأفلاطوني وعن الوفاء، فان شيئاً من هذا إن لم يكن موجوداً لوجب علينا أن نوجده أن المغريات المادية أصبحت تحيط بالإنسان من كل جانب، وهي تعمل دائبة على أن تعلق بأقدامه وتهوي به في القرار. فما لم يكن له نصيب من تلك المثل العليا ليحتفظ له بمستواه الآدمي العالي ينحط إلى الدرك الأسفل الحيواني
فالأفلاطونية والحالة هذه مزاج لابد منه للمذهب المادي الذي يطغى الآن على المجتمع، ويكاد يوقعه في شر أعماله. فمن لهؤلاء الناس باليد التي تنتشلهم مما هم فيه إن لم يجدوها عند الأستاذ المازني - وأضرابه - وهم كما يحس الأستاذ نفسه قليلون؟
(أفلاطوني)

حوادث الشرق الأقصى

الصراع بين اليابان وأوربا حول سيادة الصين وآسيا

بقلم باحث دبلوماسي كبير

يضطرم الشرق الأقصى كما تضطرم أوربا ويضرم شرق أفريقية بحوادث خطيرة سياسة وعسكرية؛ وتتخذ هذه الحوادث لأول وهلة صبغة محلية، وتبدو متفرقة لا تربطها رابطة عامة؛ ولكن هذه النظرة السطحية لا تعبر عن الحقيقة المستترة؛ ذلك أن هذه الحوادث الخطيرة التي تجوزها القارات الثلاث تربطها جميعاً عوامل وظروف مشتركة: فالحرب الإيطالية في شرق أفريقية هي نتيجة لتطورات السياسة الاستعمارية الأوربية، وتوغل اليابان في الأراضي الصينية هو نفثة من نفثات الصراع بين الجنس الأصفر والاستعمار الغربي، ونتيجة لتطورات السياسة الأوربية العامة، وانشغال أوربا بمعاركها السياسية الداخلية، بل إن هذه الحوادث التي تقع في أماكن وأقطار متباعدة تكون في الواقع وحدة متماسكة الاطراف، فهي جميعاً ثمرة تلك الثورة العميقة الجامعة التي تجيش بها السياسة الدولية منذ بضعة أعوام، والتي تسفر عن نتائجها الخطيرة تباعاً في سلسلة من الحوادث متصلة الحلقات برغم تباعدها وتباينها

وفي الشرق الأقصى في سهول الصين الشاسعة، تضطرم بين أوربا وآسيا معركة هائلة، ربما كانت حاسمة في مصاير الجنس الأصفر والاستعمار الأوربي؛ فاليابان التي هي اليوم زعيمة الجنس الأصفر بلا منازع، تتوغل في أقطار الصين الشاسعة تباعاً غير مكترثة بأية مقاومة محلية أو خارجية؛ وقد كانت الصين قبل الفورة اليابانية الأخيرة تعتبر دائماً ميداناً خصباً للاستعمار الغربي؛ ولا تزال الدول الأوربية الكبرى تبسط نفوذها الاقتصادي على مناطق غنية شاسعة في شرق الصين وجنوبها، وهذه الدول تنظر اليوم إلى مركزها في الصين بعين التوجس والجزع؛ بيد أن المعركة الكبرى تنشب في الحقيقة في شمال الصين الشرقي حيث تلتقي اليابان وروسيا وهما العدوتان الخالدتان اللتان يتمثل في صراعهما اليوم صراع الجنسين الأصفر والأبيض؛ وقد وقعت أخيراً في شمال الصين حوادث ومعارك خطيرة تؤذن بأن هذا الصراع يتخذ اليوم صورة حاسمة؛ فاليابان التي غزت منشوريا واحتلتها منذ سنة 1931، وأقامت فيها إمبراطورية صورية باسم منشوكيو،

تتقدم اليوم في الصين صوب الجنوب وصوب الشرق. ونظرة سريعة إلى خريطة الصين ترينا إلى أي حد وصل التوغل الياباني في الصين الوسطى حتى شمل اليوم مقاطعات برمتها في شهيلي وشاهار، وتعدى السور الكبير إلى حدود بكين عاصمة الصين القديمة؛ وقد استطاعت اليابان أخيراً بحركة ضغط عسكرية وسياسية قامت بها أن ترغم الحكومة الوطنية الصينية (حكومة نانكين) على الموافقة على إقامة نظام سياسي وإداري خاص في بعض المناطق الوسطى بحيث تخرج عن نفوذ الحكومة الوطنية وتقع تحت نفوذ السلطات اليابانية؛ بيد أن اليابان لا تلقى أعظم مقاومة في هذه النقطة من الصين، بل يلوح لنا أن الصين ذاتها قد أخذت تذعن أخيراً للأمر الواقع، وترى التقدم الياباني أمراً لا مندوحة عنه ولا سبيل إلى رده؛ وترى الحكومة الوطنية وعلى رأسها الجنرال شانج كاي شك، أن تطور مصاير الصين على هذا النحو خير من بقائها فريسة لمشاريع الاستعمار الغربي؛ أولاً لأن الصين لا تستطيع مقاومة اليابان، وثانياً لأنها تنشد السلام الداخلي، وتطمح إلى إلغاء المعاهدات الأجنبية التي استطاعت الدول بمقتضاها أن تتوغل في شؤونها ومرافقها، وكذلك إلى استعادة سلطانها ونفوذها في منغوليا والتركستان الصينية، حيث يسود النفوذ الروسي، والتبت حيث يسود النفوذ البريطاني، ولا تستطيع الصين أن تطمح إلى تحقيق هذه الآمال ما لم تعتمد على معاونة حليف قوى كاليابان، هذا فضلاً عن أن هناك من الروابط الجنسية والاجتماعية بين اليابان والصين ما يخفف وقع النفوذ الياباني، ويحمل الشعب الصيني على تفضيله على أي نفوذ أجنبي آخر

وإنما يضطرم الصراع الحقيقي في شمال الصين بين اليابان وروسيا. وقد كانت الحرب اليابانية الروسية في سنة 1904 عنواناً للصراع بين الجنس الأصفر والجنس الأبيض، وكانت هزيمة روسيا في تلك الحرب فاتحة النصر الحقيقي للجنس الأصفر ومثاراً لمخاوف أوربا والاستعمار الغربي في آسيا؛ ذلك لأنه لأول مرة في التاريخ تنتصر دولة آسيوية لم تنفض عنها بعد غمر الماضي المظلم على دولة أوربية عظمى، وترغم أوربا على الاعتراف بتفوقها العسكري والسياسي؛ بيد أن روسيا استطاعت رغم هزيمتها أن تحتفظ بمعظم أملاكها ومناطق نفوذها في الصين؛ ومع أن اليابان

خرجت من تلك الحرب بمغانم استعمارية كبيرة منها استيلاؤها على بورت أرثر، ونصف جزيرة سخالين، والسكة
الحديدية الشرقية، وتوطد نفوذها في كوريا التي غدت فيما بعد مقاطعة يابانية، فإنها
لم تفتأ منذ انتصارها تحاول توسيع نفوذها في تلك المنطقة على حساب النفوذ
الروسي، وما زالت روسيا من جانبها تقاومها بكل الوسائل، وتعمل على وقف
أطماعهما ومشاريعها؛ ولم يحد البلاشفة عن سياسة القياصرة في هذا الشأن، فقد
عملت روسيا السوفيتية بكل ما وسعت على توطيد سياستها ونفوذها في الصين،
ووقفت تناضل اليابان وجها لوجه، وكادت في الأعوام الأخيرة أن تشتبك معها غير مرة
في حرب استعمارية، ومع أنها اضطرت أخيراً أن تبيع لليابان حقوقها في السكة
الحديدية الشرقية تجنباً للاصطدامات الخطرة، فان النضال السياسي ما يزال بين
الدولتين على أشده، وقد أسفر في الأسابيع الأخيرة عن عدة حوادث ومناوشات دموية
دلت على تفاقم خطر الحرب في الشرق الأقصى
ويدور الصراع الآن بين اليابان وروسيا حول منغوليا التي تشغل مساحة شاسعة في
شمال الصين والتي تجاور منشوكيو من الغرب؛ وتنقسم منغوليا سياسياً إلى قسمين
أحدهما منغوليا الشمالية أو منغوليا الخارجية وهي تجاور سيبيريا وتقع تحت السيادة
الروسية، وقد حولها البلاشفة منذ أعوام إلى جمهورية سوفيتية باسم (تشيتا)؛ ومنغوليا
الجنوبية أو منغوليا الداخلية، وقد كانت من قبل وحدة سياسية مستقلة داخلياً تحت
حماية الصين، ولكمن السياسة البلشفية استطاعت منذ سنة 1924 أن تجذبها إلى
حظيرتها وأن تجعل منها جمهورية مستقلة حليفة لموسكو؛ ومن جهة أخرى فان
التركستان الصينية تقع تحت النفوذ السوفيتي، وقد وقعت فيها أخيراً حوادث وتطورات
أدت إلى انفصالها عن الصين؛ وهكذا تسيطر روسيا على معظم أنحاء الصين الشمالية
والغربية، بينما تسيطر اليابان على الأقاليم الشرقية الشمالية وبعض الأقاليم
الوسطى؛ ويحتدم النضال بين الدولتين الاستعماريتين الكبيرتين حول السيادة والغلبة
في تلك الإمبراطورية الصينية الشاسعة التي تنقسم اليوم إلى وحدات سياسية عديدة
تمهد بتنافسها وخصامها المستمر إلى تسرب النفوذ الأجنبي وتوطيده
وتمثل اليابان هذا الصراع الهائل الجنس الأصفر والجامعة الآسيوية، وتستعد لخوضه
بجميع قواها السياسية والعسكرية والاقتصادية؛ وتمثل الروسيا فيه مصالح الجنس
الأبيض والاستعمار الغربي في آسيا؛ ومع أن روسيا السوفيتية لا تحظى بكثير من
عطف الدول الغربية، فإنها تعتبر مع ذلك حاجزاً منيعاً في سبيل الزحف الياباني نحو
الغرب، وتؤيدها
الدول الاستعمارية الكبرى في هذا الصراع؛ ذلك أن تقدم اليابان نحو الغرب والجنوب
يكون معناه انهيار صرح أوربا الاستعماري في الصين، ويكون نذيراً بتقويض السيادة
البريطانية في الهند، والسيادة الفرنسية في الهند الصينية، والسيادة الهولندية في
جاوه وسومطره؛ ونذيراً بتقويض سيادة السوفيت في منغوليا والتركستان؛ وتقويض
صرح الاستعمار الغربي في هذه البلاد والأقاليم الشاسعة الغنية، معناه تقويض سيادة
أوربا الاقتصادية في آسيا وضياع تلك الأسواق الرابحة التي غنمتها في ظل هذه
السيادة التي تؤيدها جميع الوسائل والقوى الاستعمارية المادية والمعنوية
وليس من شك في أن اليابان تتقدم في هذا السبيل بخطى واسعة تزعج أوربا
وتروعها؛ فالصناعة اليابانية التي تدعمها ظروف محلية مدهشة تتقدم في جميع
الميادين بخطى هائلة، وقد غزت التجارة اليابانية الأسواق الآسيوية القديمة بسرعة
مدهشة، وتخطى هذا الغزو إلى أوربا وأخذ يحدث الارتباك والذعر في أسواقها، وأخذت
أوربا تفكر في مصايرها الاقتصادية التي تدعمها في آسيا وأفريقيا سيادة استعمارية
تجوز اليوم في آسيا أمام الغزو الأصفر مأزقاً من أخطر المآزق، والواقع أن اليابان
تخوض غمار النضال مع الغرب في ظروف حسنة جداً، فأوربا تشغل اليوم إلى أقصى
حد بمشاكلها ومسائلها الخاصة؛ وبينما تشخص الأبصار نحو ألمانيا ونهوضها الحربي،
وبينما تشتغل فرنسا بالتحوط لمقاومة ألمانيا وتوطيد تحالفها مع السوفييت، وتشتغل
إيطاليا بحلمها الاستعماري، وتشتغل إنكلترا بمقاومة مشاريع إيطاليا الاستعمارية، إذا
باليابان تحصر اهتمامها ومشاريعها في الصين، وتنذر أوربا وأمريكا في جرأة وصراحة
أن ارفعوا أيديكم عن الصين، وتعلن عزمها على مقاومة أي تدخل أو محاولة

استعمارية جديدة من جانب الدول في الصين، على نحو ما يقرره مبدأ مونرو الأمريكي بالنسبة لأمريكا؛ وقد كانت الدول الأوربية تعتمد من قبل على اضطرام المنافسة بين اليابان وأمريكا حول السيادة في المحيط الهادي، واشتغال اليابان بأمر هذه السيادة والتحوط لضمانها وتوطيدها، وكانت السياسة الأمريكية منذ أعوام تتجه فعلا إلى مناوأة اليابان والحد من أطماعها، ولكن أمريكا اليوم ترتد إلى سياستها القديمة، وتنظر إلى مشكلة الباسفيك بعين أخرى، وترى أن تقتصر على تأمين سلامتها البحرية في شرق المحيط، يدل على ذلك أنها تنازلت عن حمايتها على جزائر الفليبين التي كانت

ترمى إلى اتخاذها من قبل قاعدة لمقاومة اليابان ومناوأتها؛ وإذاً ففي وسع اليابان اليوم أن تعمل حرة من هذه الناحية مطمئنة إلى موقف أمريكا وحيادها؛ وليس في وسع الدول الأوربية من جهة أخرى أن تقوم في الوقت الحاضر بأية حركة مشتركة لوقف الزحف الياباني نحو الغرب، ولا يقف في وجه اليابان اليوم سوى روسيا السوفيتية التي تشتبك معها كما بينا في عدة ميادين ومصالح خطيرة؛ وروسيا السوفيتية تعمل دائماً لمواجهة الخطر الياباني ورده، لأنه ينصب أولاً على سيادتها الاستعمارية الباذخة في آسيا، وهي من جهة أخرى تمثل قضية الغرب في هذا الصراع الجنسي والاقتصادي الخطير؛ ولكن روسيا تواجه في أوربا أيضاً خطراً أخر هو الخطر الألماني. وهو نفس الخطر الذي تواجهه فرنسا، ومن ثم تحالف الدولتين ضد الخطر المشترك؛ والسياسة البريطانية تشد أزر روسيا في هذا الصراع أيضاً، ولكنها تنظر من جهة أخرى بعين الارتياح إلى اشتغال روسيا بمقومة الخطر الياباني لأنه يحول أنظارها عن العمل لمناوأتها في الهند وأفغانستان

والخلاصة أن خطر الحرب يجثم في الشرق الأقصى، كما يجثم في أوربا، وتطورات الحوادث في الشرق والغرب تسير مرتبطة متفاعلة؛ وقد تضطرم شرارة الحرب الأولى في الشرق الأقصى، كما قد تضطرم في الغرب، ولكنها كفيلة بأن تفضي في أي الحالتين إلى إضرام نار الحرب العالمية الجديدة

(* * *)

. . .إبليس يعلّم

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال أحمد بن مسكين: ودار السبتُ الثالث وجلستُ مجلسي للناس وقد انتظمت حلقتهم؛ فقام رجل من عُرض المجلس فقال: أن الحسن بن شجاع البلخي تلميذ الإمام أحمد ابن حنبل كان منذ قريب يحدثنا بأحاديث عن الشيطان، حفظنا منها قوله صلى الله عليه وسلم: أن المؤمن ينضي شيطانه كما ينضي أحدُكم بعيره في سفره. وكان الحسن يقول في تأويله: أن شيطان الكافر دَهينٌ سمينٌ كاسٍ، وشيطان المؤمن مهزول أشعثُ أغبرُ عار. فهل يأكل الشيطان ويدّهن ويلبس ليكون له أن يجوع مع المؤمن ويعرى ويتشعَّث ويغبر؟

قال أبن مسكين: فقلت في نفسي: لا حول ولا قوة إلا بالله! ما أرى السائل إلا شيطان هذا السائل؛ فإن إبليس إذا أراد أن يسخر من العالم ويُسمعه طنزَه وتهكمه حرَّك من يسأله عنه ما هو وكيف هو؛ كأنما يقول له تنبَّه ويحك على معناي فأنت تتكلم وأنا أعمل، وأنت صورة من الرد عليَّ، ولكني حقيقة من الرد عليك، وأنت في محاربتك لي بالوعظ إلا كالذي يريد أن يضرب عنق عدوه بمائة اسم وضعت للسيف. .

قال: وكنت قد سمعت خبراً عجيباً عن أبي عامر قبيصة ابن عقبة الكوفي المحدِّث الحافظ الثقة أحد شيوخ أحمد ابن حنبل؛ وهو الرجل الصالح العابد الذي كان يقال له (راهب الكوفة) من زهده وعبادته واحتباس نفسه في داخله كأنما جسده جدار بين نفسه وبين الدنيا، فقلت والله لأغيظن الشيطان بهذا الخبر، فان أسماء الزهاد والعباد والصالحين هي في تاريخ الشياطين كأسماء المواقع التي تنهزم فيها الجيوش، وما الرجل العابد إلا صاحب الغمرات مع الشيطان، وكأنه يحتمل المكاره عن أمة كاملة بل عن البشرية كلها حيث كانت من الأرض؛ فالناس يحسبونه قد تخلى من الدنيا ويظنون الترك أيسر شيء، وما علموا أن الزهد لا يستقيم للزاهد حتى يجعل جسمه كأنه في نظام آخر غير نظام أعضائه ولا أشق من ذلك على النفس؛ ومعجزة الزاهد أنه مكلف أن يخرج للناس أقوى القوة من المعاني التي هي عند الناس أضعف الضعف؛ ولو أن

ملكاً عظيماً تعب في جمع الدنيا وفتح الممالك حتى حيزَتْ له جوانب الأرض لكان عمله هذا هو الوجه الآخر لتعب الزاهد في مجاهدة هذه الدنيا وتركها

قال أحمد بن مسكين: وقصصتُ عليهم القصة فقلت: كان أبو عامر قبيصة بن عُقبة كثير الفكر في الشيطان يود لو رآه وناقله الكلامَ، وكان يتدبر الأحاديث التي صح ورودُها فيه ويفسر معنى الشيطان بأنه الروحُ الحيُّ للخطأ على الأرض؛ والخطأ يكون صواباً محولاً عن طريقته وجهته، ولهذا كان إبليس في الأصل ملكاً من الملائكة وتحوَّل عن طبيعته حين خلق آدم عليه السلام، أي وجد في الكون روحُ الخطأ حين وجد فيه الروح الذي سيخطئ. فلما هبط آدم من الجنة وحرمها هو وزوجه وذريته كان إبليس لعنه الله هو معنى بقاء هذا الحرمان واستمراره على الدهر، فكأن هذه الآدمية أُخرجت من الجنة وأخرجت معها قوة لا تزال تصدها عنها ليضطربا في الكفاح ملياً من زمن هو عمر كل إنسان، وهذا هو العدل الإلهي، لم يعرف آدم حق الجنة فعوقب ألا يأخذها إلا بحقها، وأن يقاتل في سبيل الخير قوة الشر

وبات أبو عامر ذات ليلة يفكر في هذا ونحوه بعد أن فرغ من صلاته وقراءته، ثم هوَّم فكان بين اليقظة والنوم، وذلك حين تكون العينُ نائمةً والعقل لا يزال منتَبهاً، فكأن العينَ متراجعةٌ تبصر من تحت أجفانها بصراً يشاركها فيه العقل. فرأى شيخُنا أبو عامر صورة إبليس جاءه في زيّ رجل زاهد حسن السَّمْت طيب الريح نظيف الهيئة، وكاد يشَبَّه عليه لولا أنه قد عرفه من عينيه فإن عيني الكاذب تصدقان عنه، وقد علم الله أن الكاذب آدميٌّ قَفَر فجعل عينيه كالعلامات لمن خاض الفلاة

وظهر الشيطان زاهداً عابداً تقياً كأنه دين صحيح خلق بَشَراً فصرخ فيه أبو عامر: عليك لعنة الله! أمعصية في ثوب الطاعة؟

قال إبليس: يا أبا عامر! لو لم تقل المعصية أنها طاعة لم يقارفها أحد. وهل خلقت الشهوات في نفس الإنسان وغريزته إلا لتقريب هذه المعاصي من النفس، وجعل كل منها طاعة لشيء ما؛ فتقع المعصية بأنها طاعة لا بأنها معصية. أولا ترى يا أبا عمر أن الحيلة محكمة في الداخل من الجسم أكثر مما هي محكمة في الخارج عنه، وأنه لولا أن هذا الباطن بهذا المعنى وهذا العمل لما كان لظاهر الوجود كله في الإنسان معنى ولا عمل؟

قال الشيخ: عليك لعنة الله! فما أرى الموت قد خلق إلا رداً عليك أنت ليتبين الناسُ انك الممتلئ الممتلئ ولكنك الفارغ الفارغ؛ بل كل شهواتك سخرية بك وردّ عليك، فلا طعم للذة

من لذاتك إلا وهي تموت، وإنما تمام وجودها ساعة تنقضي؛ ومتى قالت اللذة قد انتهيت، فقد وصفت نفسها أبلغ الوصف

قال إبليس: يا أبا عامر ولكن اللذة لا تموت حتى تلد ما يبقيها حية، فهي تلد الحنينَ إليها وهو لا يسكن حتى يعود لذة تنقضي وتلد

قال الشيخ: معاني التراب، معاني التراب؛ كل نبتة فيها بذرتها. ولكن عليك لعنة الله لماذا جئتني في هذه الصورة؟

قال إبليس: لأني لا ألبس إلا محبةَ القلب الآدمي، ولولا ذلك لطردتني القلوب كلها وبطل عملي فيها؛ وهل عملي إلا التلبيس والتزوير؟ أفتدري يا أبا عامر إني لا أعتري الحيوان قط؟ قال الشيخ: لأن الحيوان لا ينظر إلى الشيء إلا نظرة واحدة هي نظره وفهمه معاً، فلا محل للتزوير مع هذه النظرة الواحدة؛ وصدق الله العظيم: (هل أُنَبِّئكم على من تَنَزَّل الشياطين؟ تَنَزَّلُ على كل أفّاكٍ أثيم) فأنت أيها الشيطان التزوير، والتزوير موضعه الكذب. فمن لم يكذب في الفكر ولا في النظر ولا في الفهم ولا في الرجاء فليس لك عنده عمل

قال إبليس: يا أبا عامر! وهل ترى رحمك الله أعجب وأغرب وأدعى إلى الهزء والسخرية من أن أعظم العقلاء الزهاد والعبّاد هو في جملة معانيه حيوان ليس له إلا نظرة واحدة في كل شيء؟

قال الشيخ: عليك وعليك؛ إن الحيوان شيء واحد فهو طبيعة مسخَّرة بنظامها، ولكن الإنسان أشياء متناقضة بطبيعتها، فألوهيته أن يُقرّ النظام بين هذه المتناقضات كأنما امتُحن فأعطى من جسمه كوناً فيه عناصر الاضطراب وحوله عناصر الاضطراب ثم قيل له دبِّره

فضحك إبليس. قال الشيخ: مم ضحكت لعنك الله؟
قال: ضحكت ممن أنك أعلمتني حقيقة الإبليسية، فالزهاد هم الصالحون لأن يكونوا أعظم الأبالسة
قال الشيخ: عليك لعنة الله فما هي تلك الحقيقة التي زعمت؟
قال إبليس: والله يا أبا عامر ما غلا إنسان في زعم التقوى والفضيلة إلا كانت هذه هي الإبليسية؛ وسأعلمك يا أبا عامر حقيقة الزهد والعبادة. فلا تقل أنها ألوهية تقر النظام بين متناقضات الإنسان ومتناقضات الطبيعة
قال الشيخ: وتسخر مني لعنك الله؟ فمتى كنت تعلم الحقيقة والفضيلة؟
قال إبليس: أولم أكن شيخ الملائكة؟ فمن أجدر من شيخ الملائكة أن يكون عالمها ومعلّمها؟
قال: عليك لعنة الله فما هي حقيقة الزهد والعبادة؟
قال إبليس: حقيقتها يا أبا عامر هي التي أعجزتني في نبيكم
قال الشيخ: صلى الله عليه وسلم فما هي؟
قال إبليس: هي ثلاث بها نظام النفس ونظام العالم ونظام اللذات والشهوات: أن تكون لك تقوى، ثم يكون لك فكر من هذه التقوى، ثم يكون لك نظر إلى العالم من هذا الفكر. ما اجتمعت هذه الثلاث في إنسان إلا قهر الدنيا وقهر إبليس
فان كانت التقوى وحدها كتقوى أكثر الزهاد والرهبان، فما أيسر أن أجعل النظر منها نظر الغفلة والجبن والبلادة والفضائل الكاذب؛ وإن كان الفكر وحده كفكر العلماء والشعراء فما أهون أن أجعل النظر به نظر الزيغ والإلحاد والبهيمية والرذائل الصريحة
قال الشيخ: صدق الله العظيم: (إن الذين اتقوا ربهم إذا مسهم طائفٌ من الشيطان تذكروا فإذا هم مُبصرون)
قال إبليس: يا أبا عامر! ما يضرني والله أن أفسّر لك فإن قارورة من الصَّبغ لا تصبغ البحر، وأنا أعد الزهاد والعلماء المصلحين فأضع في الناس بجانب كل واحد منهم مائة ألف امرأة مفتونة ومائة ألف رجل فاسق ومائة ألف مخلوق ظالم، فلو أنك صبغت البحر بملء قارورة حمراء لما صبغت البحر الإنسانيَّ بالزاهد والمصلح ما دام المصلح شيئاً غير السيف، وما دام الزاهد شيئاً غير الحاكم
قال الشيخ: لعنك الله من شيطان عارم، فإذا وضعت المصلح بين مائة ألف فاسد فهل هذه الطريقة شيطانية لإفساده؟
. . .قال إبليس: ومائة ألف امرأة فتانة مفتونة يا أبا عامر كل واحدة تحسب جسمها
فصرخ الشيخ: أغرب عني عليك لعنة الله!
قال إبليس: ولكن الآية يا أبا عامر. لقد لقيتُ المسيح وجرّبته وهو كان تفسيرها
قال الشيخ: عليه السلام! وعليك أنت لعنة الله! فكيف قال؟ وكيف صنع؟
قال إبليس: ألقيتُ به جائعاً في الصحراء لا يجد ما يطعمه ولا يظن أنه يجد ولا يرجو أن
يظن؛ ثم قلت له: إن كنت روح الله وكلمته كما تزعم فمر هذا الحجر ينقلب خبزاً. فكان تقياً فتذكر فإذا هو مبصر، فقال: ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان. فمثل هذا لو مات جوعاً لم يتحوَّل، لأن الموت إتمامُ حقيقته السامية فوق هذه الدنيا، ولو ملئت له الدنيا خبزاً وهو جائع لم يتحول، لأن له بصراً من فوق الخبز إلى حقيقته السماوية؛ فليس بالخبز وحده يحيا بل بمعانٍ أخرى هي إشباع حقيقته السماوية التي لا شهوة لها ثم ارتقيت به إلى ذروة جبل وأريته ممالك الخافقين كشفتها كلَّها لعينيه وقلت له: هذا كله لك إذا أنت سجدت لي. فكان متقياً فتذكر فإذا هو مبصر: أبصر حقيقة الخيال الذي جسَّمته له وعلم أن الشيطان يعطي مثل معاني هذه الممالك في جرعة خمر، كما يعطيها في ساعة لذة، كما يعطيها في شفاء غيظ بالقتل والأذى، ثم لا يبقى من كل ذلك باقٍ غير الإثم، ولا يصح منه صحيح إلا الحرام. ومن ملك الدنيا نفسها لم يبق لها إذا بقيت له، فهي خيال في جرعة الحياة كما هي خيال في جرعة الخمر
يا أبا عامر؛ أن هذا النظر الذي وراءه التذكر الذي وراءه التقوى التي وراءها الله، هذا وحده هو القوة التي تتناول شهوات الدنيا فتصفّيها أربع مرات حتى تعود بها إلى حقائقها الترابية الصغيرة التي آخرها القبر وآخر وجودها التلاشي
فالبصر الكاشف الذي يجرد الأشياء من سحرها الوهمي، هذا هو كل السر

قال الشيخ: لعنك الله فكيف مع هذا تفتن المؤمن؟
قال إبليس: يا أبا عامر هذا سؤال شيطاني. . . تريد ويحك أن تحتال على الشيطان؟
ولكن ما يضرني أن أفسرها لك. ليس الإيمان هو الاعتقاد ولا العمل، ولو كان من هذين لما شقَّ على أحد ولصلحت الدنيا وأهلها. إنما الإيمان وضعُ يقين خفيّ يكون مع الغريزة في مقرها، ويصلح أن يكون في مقرها لتصدر عنه أعمال الغريزة. وهذا اليقين لا يصلح كذلك إلا إذا كان يقيناً ثابتاً بما هو أكبر من الدنيا فيرجع إليه الإنسان فيتذكر فيُبصر. هناك ميراث من الآخرة للمؤمن، فاليقين بهذا الميراث هو سر الإيمان والعمل الشيطاني لا يكون إلا في إفساد هذا اليقين ومعارضة الخيال العظيم الذي فيه بالحقائق الصغيرة التي تظهر للمغفل عظيمة كما تشب نار أكبر من قرص الشمس ثم يقال للأبله انظر بعينيك فيصدق أنها أكبر من الشمس
ومتى صغر هذا اليقين وكانت الحقائق الدنيوية أكبر منه في النفس، فأيسر أسباب الحياة حينئذ يفسد المعتقد ويسقط الفضيلة، وبدرهم واحد يوجد اللص حينئذ
أما إذا ثبت اليقين فالشيطان مع الإنسان يصغر ثم يصغر، ويعجز ثم يعجز، حتى ليرجع مثل الدرهم إذا طمع الطامع أن يجعل الرجل الغني الكثير المال لصاً من اللصوص بهذا الدرهم
قال الشيخ: لعنك الله! فإن لم تستطع إفساد هذا اليقين فكيف تصنع في فتنة المؤمن؟
قال إبليس: يا أبا عمر أن لم استطع إفساد اليقين زدته يقينا فيفسد، واستحسان الرجل لأعماله السامية قد يكون هو أول أعماله السافلة. وبأي عجيب يكون الشيطان شيطاناً إلا بمثل هذا؟
قال أحمد بن مسكين: وغضب الشيخ فمد يده فاخذ فيها عنق إبليس وقد رآه دقيقاً، ثم عصره عصراً شديداً يريد خنقه فقهقه الشيطان ساخراً منه. وينتبه الشيخ فإذا هو يشد بيده اليمنى على يده اليسرى. . . . . .
(طنطا)
مصطفى صادق الرافعي
الضمير
للدكتور إبراهيم بيومي مدكور مدرس الفلسفة بكلية الآداب
غامض في لفظه غموضه في معناه، ومستتر رغم ما يبرز من آثار؛ هو أقرب الأشياء منا والزمها لنا، بل يكاد كل شيء فينا: (والمرء بأصغريه قلبه ولسانه) بيد أنا إن حاولنا توضيحه توارى بالحجاب وأمعن في الاستتار والخفاء. نؤمن بوجوده دون أن نراه أو نفهم في وضوح حقيقته؛ وكيف ننكره وفي إنكاره إنكار لأنفسنا وهدم الدعامة الأولى من دعائم شخصيتنا؟ يأمر فيطاع، وينهى فيستمع له، ويسر ويحزن، ويخالط عواطفنا وأحوالنا النفسية على اختلافها؛ يعقد محكمته في أسرع من لمح البصر، ويصدر أحكاماً غير قابلة للنقض والإبرام. لذلك اتجه إليه الواعظ في وعظه؛ وناداه رجل الدين في نصحه، وجعله الأخلاقي أساساً لدرسه، وتولاه عالم النفس بالبحث والتحليل
يغلب على الظن أن العرب لم يستعملوا كلمة (ضمير) بمعناها الخلقي والنفسي الذي اصطلحنا عليه الآن؛ فانهم أطلقوها على القلب والباطن والسريرة فحسب. وهذا المعنى، وإن كان يقرب من العرف الحاضر، متميز منه تمام التميز. وفلاسفة الإسلام ومتصوفوه، برغم تحليلهم الدقيق لبعض العواطف النفسية كالعشق والشوق والندم والتوبة لم تجر كلمة (ضمير) على لسانهم إلا في دوائر تختلف كثيراً عما نحن فيه، ويظهر أن العرب قد استعاضوا عن هذه الكلمة بلفظ (زاجر) التي تؤدي معناها بعض الأداء: (من لم يكن له من نفسه زاجر، لا تنفعه الزواجر) فكلمة (ضمير) بمدلولها الفلسفي وضع حديث واستعمال يرجع به العهد فيما نعتقد، إلى أخريات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين حين بدئ في ترجمة كلمة الأجنبية؛ وهذه الترجمة - وإن تكن صادقة في جملتها - مثار غموض واشتباه؛ لأنها تعبر عن الضمير الخلقي والنفسي بلفظ واحد. إلا أن اللغة الفرنسية وقعت في هذا الغموض من قبل واستعملت لفظاً مشتركاً للدلالة على الضمير من حيث مظاهره الخلقية وأحواله النفسية. وقد تنبه الألمان والإنجليز إلى هذا فخصوا الضمير النفسي بلفظ يميزه من الضمير الخلقي، وأصبح لعالم النفس كلمة يدل بها على الضمير غير تلك التي يستعملها الأخلاقي وما

أجدر كل اصطلاح بأن يوضع له لفظ خاص يناسبه؛ غير أنه لا يفوتنا أن نلاحظ أن هذه التفرقة اللفظية إنما يراد بها فقط فصل العلوم بعضها
عن بعض وقصر كل فن على مصطلحات معينة.، وإلا فالواقع يشهد أن الضمير الخلقي هو الضمير النفسي ملحوظاً فيه معنى الخير والشر. فليس في الإنسان ضميران يفصل أحدهما في الأحكام الخلقية ويتولى الآخر الأحوال النفسية. لكل منا ضمير واحد قد تتنوع أسماؤه بتنوع مظاهره ووظائفه
لم يعن الإغريق بموضوع الضمير ولم يدرسوه الدراسة اللائقة به لا من الناحية الأخلاقية ولا من الناحية النفسية، ذلك لأن الأخلاق كانت تعتمد عند فلاسفتهم الأُوَل على أساس اجتماعي. فأفلاطون كان يتعزى عن شقاء الأفراد بما كان يرجو من سعادة الجمعية؛ وارسطو لا يكاد يفصل الحياة الخلقية من الحياة السياسية. نعم أن الأبيقوريين والرواقيين قد نحوا بالأخلاق منحى فرديا، وحاولوا أن يؤسسوا سعادة الفرد على الفرد نفسه؛ ولكنهم ذوو نزعة مادية تتنافى مع التحليل الروحي للضمير. ومن الناحية السيكولوجية نلاحظ أنه فات الإغريق، بل القدامى عامة أن يتميزوا وحجة الظواهر النفسية، التي هي أثر من آثار الضمير. وإن من جهل هذه الوحدة أو قال بنظريات تناقضها لا يستطيع أن يفهم الضمير على وجهه الصحيح. وفوق هذا فانهم كانوا يخلطون بين الضمير وبعض الأحوال النفسية؛ فأفلاطون مثلاً لا يفرق بينه وبين المعرفة، وأصحاب الرواق يطلقونه على معرفة الحق والباطل. وقد بقي أمر الضمير مهملاً إلى أن جاء صوفية القرون الوسطى من مسيحيين ومسلمين فأعاروه جانباً من العناية والدرس. والتصوف، وهو علم القلوب، لا يمكنه أن يغفل مشكلة الضمير وينسى ركناً تقوم عليه المناجاة الروحية. لذلك نسمع رجلاً كأبيلارد بين المسيحيين يحدثنا عن الضمير وأثره في الأعمال الخلقية؛ كما نرى الغزالي مثلاً بين المسلمين يشرح مراقبة النفس وقوة المحاسبة التي يمكن أن تنطبق على الضمير بمعناه الحديث. غير أن هذه المحاولات في جملتها محدودة وجزئية. وإلى رجال العصور الحديثة يرجع الفضل في شرح موضوع الضمير ومنحنه ما يتطلب من عناية ومجهود. وتكاد تكون المدرسة الأيقوسية أول من تنبه إلى هذا الجانب الهام من النفس والى أثره في الأخلاق. ثم تبعتها مدارس أخرى اعتنقت رأيها أو ردت عليها، إلى أن جاء وليم جيمس وبرجسون فدرسا الضمير دراسة نفسية قضت على كثير من النظريات القديمة، وغيرت مجرى التفكير في علم النفس إلى حد كبير. ولم يفت الاجتماعيين المعاصرين أن يعرضوا
لمشكلة الضمير ويوضوحوها على ضوء البينة والظروف الاجتماعية. وهذه الدراسات مجتمعة ترمي إلى تحديد ماهية الضمير وحقيقته، وبيان أصله وطبيعته، وتوضيح قيمته ووظيفته، ثم إلى إثبات تنوعه بتنوع الأفراد والجماعات، وتطوره تبعاً لاختلاف العصور والأجيال
في قرارة نفوسنا وحيث تتكون أفكارنا وتعد أحكامنا، هناك رقيب ملازم يشهدها ويقفنا عليها أولاً فأولاً؛ هذا الرقيب هو ضميرنا والشعور الروحي الذي نحس به على أثر أية حركة من حركاتنا النفسية، والإلهام المستمر الذي ينقل إلينا كل ما يجول بالخاطر. فالمرء حين يفكر يشعر في الوقت نفسه بما يصنع، ويدرك أن تفكيره من عمله وقطعة منه. وكذلك شأنه حين يفارق أو يوازن أو يتذكر معلومات قديمة أو يقضي في أمر بقضاء ما، أو يسر أو يحزن، أو يحب أو يبغض. وشعور الإنسان بتفكيره وإدراكه لخفايا قلبه ليس إلا معرفته لنفسه ووقوف روحه على ما تعمل. وعلى هذا فالضمير جزء لا ينفصل من الظواهر النفسية وأساس لكل أعمالنا الباطنية. هو الشخصية في صورتها البسيطة المجردة ومبعث النور الأول في الحياة العقلية. وخطأ أن نعده قوة مستقلة ومتميزة من الأحوال النفسية كالعين تتميز من الشيء المرئي. فقد انقضى الزمن الذي كان يقال فيه بتقسيم النفس إلى قوى منفصلة تقوم كل واحدة منها بعمل خاص. ولسنا في حاجة لأن نقرر هنا أن في الانفعالات مثلاً قدراً من التفكير لا يصح إنكاره، كما أن الجانب الفكري للإنسان في أرقى صوره مشوب ببعض العواطف والميول. على أن القول بالقوى أن صح بالنسبة لبعض مظاهر النفس، فواضح عدم انطباقه على الضمير الذي هو الشكل العام ونقطة الاشتراك والصورة الرئيسية لكل الأعمال العقلية. والمدرسة الأيقوسية وإن كانت من أول من عني بموضوع الضمير

بين المحدثين أساءت من ناحية أنها عدته قوة قائمة بذاتها وشبهته بأحد النظارة يشهد رواية الحياة النفسية دون أن يقاسم فيها بنصيب

وإذا كان الضمير شعور النفس بما تعمل، فسهل أن نتميز في هذا الشعور درجات بعضها أوضح من بعض. ففي اللحظات التي بين اليقظة والنوم نشعر بما يجري في نفوسنا شعوراً مبهماً غير محدود؛ والأحلام والرؤى تتصل من غير شك بالضمير في أغمض صوره، أو إن شئت فسمها مرحلة العقل الباطن، فإن جاوزنا هذه المرحلة وجدنا أحوالاً نفسية واضحة

بعض الشيء إلا أنها سريعة وغير متمركزة، وما ألصق هذه الأحوال بالأعمال العادية والأمور المألوفة؛ فالضمير يدركها دون أن يقف أمامها طويلا. وبعد هاتين المرحلتين نصل إلى درجة فيها تفكير وروية وتذكر وانتباه وبحث ومجهود. وهنا تبدأ المعرفة الحق ويدرك الضمير عمله في وضوح. وعلماء نفس الطفل المعاصرون وعلى رأسهم كلاريد وبياجيه قد خصوا هذه المرحلة بقدر كبير من العناية، وبينوا كيف يخطو الناشئ نحو إدراك نفسه وتكوين معلوماته؛ ثم تجئ أخيراً مرحلة التفكير الإنساني في أسمى صوره، حيث تعرض المشاكل العلمية والفلسفية، ويجهد الإنسان نفسه في تفهمها وقلبها على وجوهها رجاء أن يصل إلى حل واضح مقنع، وما هذه المرحلة إلا امتداد لسابقتها وصورة مكبرة لها؛ والأبحاث العقلية في جملتها محك للضمير، ومبعث نضال نفسي مستمر يراد به الوصول إلى الأفكار الجلية النيرة

يزداد فهمنا للضمير إذا بينا الخصائص التي تمتاز بها مظاهره؛ وقد عنى جيمس وبرجسون بشرح هذه الخصائص وتوضيحها التوضيح الكافي؛ وأول شيء يلحظه في الظواهر النفسية هو اختلاطها وتشعبها؛ فلا نكاد نجد أنفسنا أمام ظاهرة واحدة منعزلة، بل دائماً أمام مجموعات من أحوال نفسية مختلفة، أو كما يقول جيمس أمام حقول اكتسى بساطها بشتى الأزهار والألوان في ظاهرة نفسية واحدة، تلتقي احساسات متنوعة، وذكريات قديمة، وعادات ثابتة، وأفكار عديدة، وأحكام وتعليلات، وموازنات لا حصر لها؛ وهذه الأحوال النفسية كالأمواج الزاخرة تجري وتتغير من غير انقطاع؛ ومن هنا جاء تعبير جيمس المشهور: يثأر الفكر أو يثأر الضمير. فإحساسنا بشيء في حال اليقظة مختلف عنه في حال النوم؛ وإدراكنا لأمر ونحن متعبون يختلف عن إدراكنا له ونحن مستريحون؛ وشعور هذه اللحظة لا يتكرر مرة أخرى في نفس الظروف والمناسبات التي اقتضته، ولئن بدا تكراره لم يعْدُ ذلك المظهر العام؛ أما التفاصيل والجزيئات فمختلفة لا محالة، وكأن حركة التفكير كنهر جار تتابع موجاته إلى ما لا نهاية دون أن تعود موجة سيرتها الأولى؛ والفكرة الواحدة المستمرة التي تخطر ببالنا من حين لآخر دون تغيير أو تبديل أمر خيالي وبعيد عن الحقيقة. فنحن نحس الآن على صورة خاصة لن تستمر في اللحظة التالية، وما دمنا أحياء فنحن عرضة للتغيير، وما أصدق بسكال حين يقول:

الزمن يشفي الآلام والأحقاد لأنّا متغيرون ولا نحتفظ بشخصية واحدة، فلا المسيء ولا (المُساء إليه يبقيان كما كانا)

بيد أن القول بأن ظواهر النفس في حركة وتغير مستمر ليس معناه أن في تيار الضمير انقساماً أو انفصاماً أو تبايناً. فظواهر النفس في حركتها تدور حول نقطة واحدة وتتصل بأساس ثابت؛ وحياتنا الروحية في هذا الصباح ترتبط بحياتنا أمس دون أن يحدث النوم أي فراغ أو انقطاع في وحدتها. وعلى هذا فالحاضر من أحوالنا النفسية يحمل في طيّاته الماضي ويعد للمستقبل، وفي النفس حركة في انفصال وتغير في ارتباط. ومثل الحياة العقلية في هذا مثل قطعة موسيقية مكونة من نغمات مختلفة ومتميزة قد امتزجت واختلط بعضها ببعض فأنتجت لحناً منسقاً. وما ذاك إلا لأن أحوال النفس جميعاً متصلة بشخصية معينة، ومنجذبة نحو مركز واحد، ومنبعثة من شمس الضمير الوحيدة. وأوضح شيء في عمل النفس أنه يستلزم فاعلاً؛ ففكرة ما إما أن تنسب إليّ أو إليك أو إلى زيد من الناس. والفكرة التي لا أب لها لا أصل لها ولا وجود؛ على أنها إن وجدت فلا سبيل إلى تعرفها والتأكد منها، لأن ما نتبادله من أفكار إنما هو عمل أشخاص معينين محدودين.

من خصائص مظاهر الضمير التي ألممنا بها سراعاً نتبين بطلان المذهب الذري الذي يزعم أن الحياة العقلية بأسرها ترجع إلى جملة أفكار بسيطة التقت وارتبطت ونتجت عنها أفكار أخرى مركبة؛ ومجموع هذه وتلك مسود بقانون تداعي المعاني. فالظواهر

النفسية تتلخص في جملة وحدات وضع بعضها بجانب بعض، وفي مجرد انضمامها ما يكفي لتكوين حياة عقلية. تلك هي نظرية لوك ومن جاء بعده من رجال المدرسة الإنجليزية أمثال هيوم وميل وبين وسبنسر. ولا يبعد عن هذه النظرية كثيراً ما قال به كونديلاك الفرنسي من أن الروح ليست لا مجموعة صور حسية توزعت إلى طوائف عدة فنشأت عنها القوى النفسية المختلفة. وكلتا النظريتين تهدم فكرة الضمير من أساسها، ولا ترى في النفس شيئاً سوى ما يمليه الحس. لذلك قام في وجهها الأيقوسيون من جانب، ومين دي بيران من جانب أخر، مثبتين أن في الروح حياة وقوة تجاوزت المدركات الحسية، ولولا هذه القوة وتلك الحياة ما نظمت آثار الحس، ولا نتجت عنا أفكار مستقيمة. هناك روح، هناك نفس، هناك شخصية، أو هناك ضمير، سمه ما شئت، والمهم أن الظواهر العقلية ليست مجرد أوضاع لصور حسية، أو لوحدات متحجرة لا حياة فيها، ولا تستطيع بالأولى أن تبعث الحياة في غيرها. وأعمال بينيه، ومدرسة فورتسورج الألمانية وجيمس وبرجسون في الخمسين سنة الأخيرة قائمة على شرح هذا الرأي ونصرته

والآن وقد انضح الضمير في مظهره النفسي. يجدر بنا أن نفرق بينه وبين الضمير الخلقي، أو أن نحدد بعبارة أدق مهمته من الناحية الأخلاقية. في حين أن الضمير النفسي يقفنا على ما يجري في داخلنا، ويشاطر في الظواهر العقلية على اختلافها. يعني الضمير الخلقي بإصدار الأوامر الصالحة والحكم على الأعمال الإنسانية. فإذا ما تعلق بالمستقبل بدا أثره كصوت خفي يأمر وينهى، وإذا حكم على الماضي صحبت حكمه عواطف كثيرة من سرور أو ألم. (فصوت الضمير) هو ذلك النداء الخفي والوحي الشخصي الذي يدفعنا نحو غاية أو يصرفنا عنها. وهذا التعبير يظهر من أصل ديني صوفي؛ وقد جاء التحليل النفسي الحديث مزيداً له فإن المرء حين يقضي في أمر بقضاء ما يبدو كأنه تحت تأثير اتجاهات مختلفة، إن ساد أحدها ارتفع صوته وصدر أمره. وإذا كان صوت الضمير مبعث الأمر والنهي فوخزه مصدر الندم والألم. وكم اتجه أشخاص نحو جلائل الأعمال امتثالاً لأصوات ضمائرهم! وكم انصرف آخرون عن الشر لأنهم عانوا وخز الضمير وما جلبه عليهم من شقاء وبلاء

(يتبع)

إبراهيم مدكور

تلخيص كتاب:

الحاكمون بأمرهم

تأليف جاك بانفيل

بمناسبة وفاته في 10 فبراير سنة 1936

للأستاذ عبد الحليم الجندي المحامي

(أيها العظماء! هل تريدون المجد؟ موتوا)

فكتور هيجو

وهذا أيضاً رزء فادح نزل بفرنسا، إذ لم يكد جاك بانفيل يتبوأ مقعده بين الخالدين في كرسي الرئيس بوانكاريه في مارس الماضي حتى اختطفته يد المنون من مجلسه الرفيع؛ وهكذا فقدت فرنسا والمجمع في ثلاثة أعوام متعاقبة ثلاث كفايات متقاربة. فذهب بوانكاريه (الذي لا يرتشى ' ثم ذهب (لويس بارتو) صاحب (ميرابو) وصاحب (دانتون)، وأخيراً مات بانفيل

كان الثلاثة دعاة كبار لمجد فرنسا؛ ولكم شنوا الغارة على موجة الاشتراكية التي انداحت على أرض فرنسا فردتها خطوات واسعة إلى الوراء

كان بوانكاريه في الحرب وفي السلم، وفي قصر الأليزيه أو في (الكي دورسيه) أو في (المحكمة) فرنسيا وفرنسيا فقط؛ وهكذا كان الشهيد (بارتو) حتى في (مصرعه) أما بانفيل فقد كان قلمه قوة فوق القوى. . . ولما استقبله (دوناي) عميد الأكاديمية في 7 نوفمبر الماضي قال له: (إن المجمع يخلي بينك وبين مقعد الرئيس بوانكاريه، فلقد استطعت أن تقول للملأ الأعلى وللعالم أجمع ما كان يمنعه مركزه السياسي من أن يقول)

مات رجل كان فرنسياً من قمة رأسه إلى أخمص القدم. . مات رجل كم حمل على إنجيل (سنت هيلين) ذلك الإنجيل الذي دعا فيه بونابرت إلى خلق الدول التي زلزلت

من بعد إقدام فرنسا في الوجود. . مات أكبر أعداء ألمانيا
في كتابه عن (نابليون) وفي كتابه (تاريخ ثلاثة أجيال)، وفي كتابه (تاريخ فرنسا)، وفي وفي (تاريخ أمتين)، وفي حملاته الكبرى مع شارل موراس وليون ،(الجمهورية الثالثة) دوديه أبطال الحكم الملكي كانت توضع (مقايسة) جديدة لإنشاء جيل جديد
كنت اقرأ له منذ أيام آخر كتاب أخرجه للناس وكان يقعدني العمل أو الكسل عن أن أنقل عنه كلمة للأدباء قراء (الرسالة)، فلما مات وضجت لموته فرنسا، ووقعت معارك (الاكسيون فرانسيز)، وكان الاعتداء على زعيم الاشتراكيين (ليون بلوم) كان علينا أن نلخص كتابه للناس
وضع الناشر على الكتاب عبارة تنبئ عن غاية الكتاب قال: (لا تحكموا عليهم قبل أن تعرفوهم) وقدم المؤلف له بقوله (. . . الدكتاتورية ككثير من الأشياء قد تكون أسوأ نظم الحكم وربما كانت خير نظام؛ ولئن كانت خيراً أو شراً فان الظروف تلجئ إليها أحياناً فيخضع الناس لها دون أن يكون لهم حق الخيار. . فعلى الشعوب ألا تضع نفسها في مثل هذه الظروف. .) ويناقش المؤلف ما يظنه البعض من أن الدكتاتورية اختراع ابتدعه العصر الحديث، فما هي إلا سيرة معادة من سير العصور الغابرة؛ ثم يعبث عبثاً مريراً بأحد الساسة الذي أطلق على أول دكتاتور معاصر لقب (قيصر الكرنفل) فلربما كانت الدكتاتورية سداً يقام أمام طوفان الشيوعية الحمراء أو الديمقراطية الرعناء؛ ولطالما كانت نداءاً حاراً للمساواة بين الناس، أو لتهذيب شِرة رأس المال؛ وكثيراً ما كانت لإقرار نظام النقد إذا شالت به كفة الميزان
يهبط بانفيل ببحوثه إلى أعمق أغوار التاريخ قبل الميلاد فيفتتح الكلام ببحث عن (طغاة الإغريق وأولهم أول مشترع عرفه التاريخ (صولون) ثم (بركليس) ثم يسرع المؤلف بنا إلى روما وأبطالها الأربعة (ماريوس) و (سيلا) و (بومب) و (يوليوس قيصر)، وفي عجالته عنهم يضرب الأمثال ويذكر العبر. فهذا (ماريوس) يجشم جيشه مخاطر الحرب في (توسيديا بأفريقيا) ليثبت أقدامه في روما تماماً، مثلما يغامر (موسوليني) في الحبشة ليقوي أسبابه لدى الطليان. . . وهذان القنصلان (سيلا وبومبي) يخوضان إلى الحكم في بحار من الدم. وهذا (قيصر العظيم) فاتح الغال ومصلح القضاء وعدو الترف في أساليب فشستية تذكر به أحفاد الرومان في القرن العشرين فيديرون أعينهم نحو ذلك الطود الذي يسيطر على مصائر روما منذ أعوام
ثم يطوى التاريخ طياً ليقف كل أمام أول دكتاتور في التاريخ الحديث فيسترعي نظره أن يكون (كرومويل) أول الدكتاتوريين ويكون في نفس الوقت أبرَّ أبناء أمة تسمى (أم البرلمانات)، وكأن الدكتاتورية ظاهرة تبدو مع الثورات دائماً أو مع الديمقراطية أو مع النظام النيابي
نائب كمبردج في سنة 1628 وقائد الخيالة في معترك الثورة سنة 1644، ذلك الفيلق الذي اشتهر بأنه (الشاطئ الحديدي) والذي ارتفع على صهواته كرومويل إلى ذروة الزعامة المطلقة، ذلك مثلما عبر هتلر على أكتاف القُمُص السمراء. وكما وصل موسوليني بقمصان سود؛ فلما قتل شارل الأول واستتب الأمر للدكتاتور أعلن أن الحكم يومئذ للدين، وفي 30 إبريل سنة 1653 ذهب إلى دار النيابة يقول: (هيا يا قوم. . . كفانا سفسطة) وحل المجلس وانفرط عقد المساكين وعلق بيده على باب البرلمان لوحة مكتوباً عليها (. . . غرفة غير مفروشة للإيجار!!!) لكن الأيام مضت وألفى الطاغية نفسه وحيداً فأعاد البرلمان، وأخيراً بعد 14 عاما من الحرب الأهلية مات كرومويل وعاد شارل الثاني بعد أن تعلمت الأمة أن الملكية خير وأبقى، ولكن بعد أن تعلم الملوك درساً
وهذا هو الكردينال العظيم: أبو فرنسا وأبو الأكاديمية يضع يده على مقاليد الحكم فهي فوضى مالها من قرار. فمن ملك حدث في أكناف أم طائشة يهدد ملكه أمراء طامحون، إلى أمراء يمكنون لسيادتهم في الأرض كأنهم رؤوس تعلو مفارقها التيجان، إلى نزاع ديني بين (الهيجنوت) والدولة. . كل ذلك في الداخل، أما في الخارج فيت هيسبورج تقدح عيناه بالشرر؛ لكن الأب (ريشيليو) لا ينهزم، فيسلخ السنوات الأولى من (وزارته) في أخلد كفاح سياسي عرفه التاريخ لوزير، ويضرب الأمراء ضربات ليس فيها إشفاق، ويقتلع نفوذ الهيجونت من الأعماق؛ وبعد أن يوطد دعاماته في الداخل، يبعث إلى النمسا بفيوض الحماسة الفرنسية لتنتصر عليها في معارك دامية!. . كم

يرسم المؤلف من رائع الصور وأسماها لهذا الأب وهو محموم ومحمول على محفة متواضعة يتنقل فيها بين أطراف الدولة ليستولي على قلعة أو ليخضع أميراً أو لينازل النمسا. . .! كل ذلك وهو في (جفن الردى وهو نائم) فان الأمراء لم ينصبوا له أقل من عشر مؤامرات دموية جهلاً منهم أن الفزع لا يعرفه قلب كهذا القلب، بل التهديد يكسب في أمثاله فيضاناً من الحياة، فلا يتردد
في أن يستل من أحضان الملك صديقه (ساتمارس) و (دي ثو) ليقدمهما إلى المقصلة لأنهما وإضرابهما (مجرد خونة من الطراز المبتذل) ثم لا يتردد في أن ينفي من فرنسا أم ملك فرنسا، وبمرسوم من الملك! وبينما يلقاه الهيجنوت فظيعاً في الحرب، يراه زعيمهم (دي روهان) بديعاً في السلام. . . هذا هو حاكم فرنسا المطلق ريشيليو بعد ذلك صفحات مشرقة عن (الملك الشمس) الملك القائل (أنا الدولة) لويس الرابع عشر الذي حكم حكماً مطلقاً أكثر من نصف قرن ليله أزهى عصور الملكية في فرنسا أو في التاريخ.

ثم يعقد المؤلف فصلاً للكلام عن (وسائل الطغيان المستنير) فعنده أن أصحاب الانسكلوبيديا ومنهم (ديدزو) لم يكن فيهم جمهوريون، وحتى فولتير كما كان يسميه فريدريك الأكبر كان يفضل سلطة الفرد. أما صاحب العقد الاجتماعي الذي كان يُفتي ويشير في النظم والدساتير فكان يرى الحكم الجمهوري صالحاً للدولة الصغيرة، أما الدول الكبرى فلم يكن يراه نافعاً لها بل في العقد الاجتماعي دفاع غير قليل دافع به (روسو) عن الحكم المطلق. وفي القرن التاسع عشر فلاسفة كبار كانوا يعتذرون عن الحكم المطلق حكم الفرد المستنير (نصير الإصلاح) الذي كان يسميه رينان أي الطاغية الطيب، وإذا كانت الثورة قد قضت على هذا النظام فان فرنسا عبدته في شخص نابليون. . وفي الحق أنك لا تستطيع أن تنسى - في عصرنا هذا - مقدار ما تحظى به من التأييد نظرية المفكرين الممتازين (المفكرين الأرستقراطيين) وفحواها أن التقدم لا يمكن أن يأتي من الجماهير بل هي تساق إليه وراء طائفة من (الأفراد) الكفاة. . . وكثيراً ما يكونون منها

وفي الثورة الكبرى طغى (روبسبير) فصار قطعة من طغيان الثورة الدموية أو المجزرة، لكأني به جملة من اسمها أو مقدمة من منطقها فلولاه ما أنتجت الثورة نابليون. . . وما أدراك ما نابليون! ابن الثورة في فرنسا، وابن الجماهير في كل الدنيا؛ النجم الذي تلألأ في الأفق على غير ميعاد، والحلم الذي طاف بأجفان الإنسانية حيناً من الليل ثم صحت تتفقده؛ اللاعب الذي كان يحرك الملوك والشعوب على رقعة الدنيا كرقعة الشطرنج؛ الفاتح الذي كان ينثر الحرية، ويبذر المساواة، ويعلم العلم، في المشرق والغرب أني أسال دم الفتوح؛ المنشيء الأمم والجامع الأجناس، واضع تصميم أوربا الحديثة

لقد كان المستبدل الهائل، أو المستبدل العادل، أو الطاغية

كانت كل السلطات في يديه، وكان الخير يتفجر منهما والشر والجريمة أحياناً كان مشرعاً يضع بنفسه (قوانين نابليون)، وكان يدير دفة السياسة في الدنيا، وكان يحيط بالجحفل اللجب في أسترلتر ويكتب إلى جوزفين!! وكان يصدر مرسوم الكوميدي فرانسيز وهو يتفجع أمام حرائق موسكو، وينظر إلى صورة (النسر الصغير) نابليون الذي سماه ألد عداته وهو (شاتوبريان): (شاعر يعمل)؛ أو كما قال أوكتاف إوبري: (ابن الثورة الأكبر الذي أنشأ الدنيا الحديثة على أنقاض ما هدمته الثورة من الدنيا القديمة) والذي بنى الدول حتى بعد أن مات!! فبعث إنجيل سنت هيلين من الموت: إيطاليا وألمانيا وغيرهما في القرن التاسع عشر، ويوجوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا ودول البلقان في القرن العشرين!! حتى إذا فقد إمبراطوريته في قلب القارة دانت له إمبراطورية القلوب في كل الدنيا فاصبح أغنية في فم التاريخ وطنيناً في سمع الزمن

أوليس من الفرنسيين كما قال (دوناي) من يقول اليوم: (ليته يعود!) وهو هو الذي أجهد فرنسا وأضناها؟ وهو هو الذي عبر عن نفسه بقوله: (أفلم يكن أفضل ألا أكون ولدت؟)

هكذا استهلكت فرنسا القرن الماضي بأروع دكتاتورية عرفها البشر. ولما انطفأت شعلة (المارد القرشقي) وبعث من أعلى الصخرة إنجيله في سنت هيلين كانت من

آياته (نظرية الجنسيات) التي أوسعها المؤلف تجريحاً في كتاب (تاريخ ثلاثة أجيال) لأنها أنشأت الدول التي زعزعت فرنسا في القارة، أما هنا فهو لا يناقش وإنما يعرض ويترك القارئ للاستنتاج، فيقدم إليه معجزة أخرى من معجزات الإنجيل تلك هي تسنم ابن أخي نابليون رياسة الجمهورية، ثم تتويجه نفسه مثل عمه إمبراطوراً بالقوة في ديسمبر سنة 1851 ولا يحمل على (نابليون الصغير) كما سماه هيجو، فهو قد شرحه في كتابه (تاريخ ثلاثة أجيال) بما نقله عن بسمارك لما أن قابله نابليون الثالث في بيارتز فقال: حالة عجز كبرى لا يعرفها الناس!

وهنا يعني بانفيل بأن يلفت قارئه إلى طريقة إحداث الانقلاب السياسي، فيقول أن الانقلاب الذي أحدثه نابليون الصغير كالانقلاب الذي أحدثه نابليون الكبير ليجعل نفسه قنصلاً عاماً، كان يقوم على أيدي رجال في يدهم الحكم لأن الانقلاب الناجح تجب له قوة حكومية ليستقر وليستمر

أما دكتاتورية نابليون الصغير فظلت في الداخل طويلاً، ولكنها أم تنجح، وفي الخارج أهدر الدم الفرنسي في المكسيك وأنشأ مبدأ الجنسيات خصوصاً لفرنسا، وكان الإمبراطور نفسه يقول (كيف تظن أن الأمور تسير على قاعدة؟ إن الإمبراطورة ملكية! وأنا جمهوري!! وليس هنالك بونابرتي إلا برزيني)

وجاءت حرب السبعين؛ وانتهت قصة الإمبراطورية، وحاول في سنة 1889 أن ينشئ دكتاتورية على أكتاف الباريسيين فلم ينجح لأنه نسي أن الانقلاب يجب أن يكون بمعرفة رجال في دست الأحكام

بعد ذلك يرتحل بنا (بانفيل) إلى أمريكا اللاتينية رحلة تشبه المغامرات، فيستعرض طغاة غلاظ الأكباد كمصارعي الثيران أو أشد فروسية وعجباً!! ويشرح لك عمل الماسونية وعمل القسس في التدمير والتعمير في دقة تفوق حلاوة القصص وتسمو إلى حكمة التاريخ. وينتقل من المكسيك إلى أمريكا الجنوبية وبطلها (بوليفار) تلميذ الثورة الفرنسية وصاحب خطة (الولايات المتحدة الجنوبية) على نسق اتحاد الشمال؛ هذا الجمهوري الواقعي الذي كان يقول (إن الديمقراطية المطلقة كالاستبداد المطلق، كلاهما طغيان). ثم يتحدث المؤلف عن دول أمريكا الجنوبية وطغاتها، ففي كولومبيا، وفي أورجواي، وبورجواي وشيلي والبرازيل طغاة في كل عشر سنوات، وفي بوليفيا التي خلعت على نفسها هذا الاسم تمجيداً (لبوليفار)، ثم في الأرجنتين التي طغى فيها (ردزاس) المصلح الفظيع، دنا أحد المارة يوماً من بائع متجول يصيح: كَسْتنا! كستنا!) فلما هم بالشراء منه خر الشاري صعقاً لأنه لم يجد في سلته إلا (رؤوس رجال)، لكن الإصلاح والتقدم المادي كان يشفع لهؤلاء الجبابرة، بل ولمثل (بلانكو) طاغية فنزويلا في سنة 1875 الذي قال كلمته المشهورة وهو على سرير الموت يستدبر الدنيا ويستقبل الله

القسيس: يا بني سامح أعداءك

بلانكو: لا أستطيع يا أبت

القسيس: كيف يا بني؟

بلانكو: ليس لي أعداء. . . لقد قتلتهم جميعاً.

(البقية في العدد القادم)

عبد الحليم الجندي

التاريخ في سير أبطاله

ميرابو

ميرابو. . . تلك الأعجوبة

جوته

للأستاذ محمود الخفيف

تتهيأ بواعث الحركات الشعبية وتتلاقى في تياراتها على كر السنين، وما تزال في نموها واطرادها حتى ينفجر سكونها بغتة عن عاصفة، ثم لا تلبث تلك العاصفة أن تتمثل في مظهرين: فكرة ورجل! على هذا النحو هبت العاصفة في فرنسا عام 1789، فأما عقيدتها فكانت ما أعلنته الثورة من مبادئ، وأما رجلها فكان ميرابو أجل، كان ميرابو رجل الثورة في أولى مراحلها، ذلك لأنه حين ألقى بنفسه في بركانها

لم تلبث أن وجدت في لسانه ترجمانها، وفي شخصه عنوانها؛ فلقد نبض قلبه بمشاعرها، وامتلأ رأسه بآمالها، وانطلق لسانه بأناشيدها، وكان لها أكبر عون في حدة ذهنه، ويقظة وجدانه، وقوة جنانه، وسحر بيانه، فألقت إليه مقاليدها برهة، فلما التوت عليه واتخذت طريقاً يفضي إلى هلكتها وجدت فيه الرجل الوحيد الذي يبذل غاية جهده ليحجزها عن وجهها، ثم لما قضى نحبه، لم تدر ما تأكله فأكلت نفسها.

من أجل ذلك لا تستطيع أن تفهم الثورة حق الفهم دون أن تفهم ميرابو، وكذلك لن تستطيع أن تعرف ميرابو أصدق المعرفة إلا في غمار الثورة، فما كان قبل الثورة إلا رجلاً كمن حوله من الرجال، بل لقد كان من عدة وجوه دون الكثيرين منهم، فلما أفاقت على صيحتها نفسه، أصبح الرجل الذي ينعدم قرينه في الرجال!

لكن ما جره عليه نكد طالعه قبل الثورة كان ذا أثر عميق في سيرته يوم جن جنونها، حتى لقد كان الناس على الرغم إكبارهم مواهبه في لبس من أمره دائماً، يفسرون آراءه واتجاهاته بما كان من ماضيه، فصار وهو الكوكب الساطع في سياسة وطنه يعاني مما انعقد حوله من الشبهات أضعاف ما يعانيه من غباء معاصريه ونزقهم.

عودته غلظة أبيه وسوء معاملته إياه الحنق عليه والكراهية له، وأتت سياسته على العكس مما كان ينتظر، وكان من الأشراف الذين يحلو لهم العناد، فلم يدع وسيلة يرى فيها كسر

شوكته إلا جربها، حتى السجن أرسله إليه مرارا بواسطة تلك الخطابات الملكية المختومة التي كان لها حكم القانون.

ولكن السجن لم يردعه ولم يصرفه عن الإسراف والاستدانة ولما هم أبوه أن يرسله إليه مرة أخرى فر هارباً مع خليلة كان قد هام بها على الرغم من احتجاج زوجته، وعلى الرغم من حدب بعلها عليه وإكرام مثواه حين كان يزوره في منزله.

وهنالك في هولندا حينما أنفق ما حملته معها خليلته من المال لم يجد له مرتزقاً سوى الكتابة، فوضع رسالة في الحكم الاستبدادي ذاع بها اسمه بين الناس، وأتبعها غيرها في الاقتصاد وكانت له فيها آراء صائبة، غير أن حياة التشريد قد ألقت به في كثير من مواطن الزلل، فكان يستدين مرة ويستجدي بعض ذوي الثراء حيناً، ويلجأ إلى ناشري الكتب أحياناً يعركهم ويعركونه حتى يتقاضاهم بعض المال ثمناً بخساً لرسائله وما كان ذلك الشقاء ليقهر نفساً لا تقهر، بل لقد أوحى إليه الانتقام من أبيه، فلما علم وهو في غربته بما شجر بينه وبين أمه من نزاع ومقاضاة، كتب رسالة صغيرة يحمل فيها عليه ويرميه بالغباء والجهل في أسلوب لاذع، وأرسل منها عدداً إلى أمه، ولكنها وقعت في يد أبيه، فبلغ الحنق من نفسه كل مبلغ واستعمل نفوذه، فإذا بابنه وخليلته يرسلان إلى فرنسا، حيث ألقيا في السجن كل جزاء فعلته.

وكان السجن في هذه المرة قاسياً إذ حرم عليه أول الأمر كل ما يخفف عنه آلام وحدته، ولكنه استطاع أن يسحر حراسه بقوة شخصه فأتوا له بما طلب من الكتب والورق والصحف، فكان فيها بعض السلوى لنفسه الوثابة

ولقد لبث في السجن بضع سنين، أعاده بعدها أبوه إلى الحياة الطليقة، وهو يظن أن السجن قد نال من كبريائه، ولم يدر أن الأسر قد زاد عوده صلابة، وعلمه كيف يروض نفسه على البأس، وكيف يستهين بالألم إذا فكر أحد في ارغامه، ولذلك عاد إلى التبذير والسفه، ولج في عناد أبيه وسوء معاملة زوجه، ثم اخذ ينشر من الآراء في المال والسياسة ما أغضب عليه كبار رجال الدولة، فهم أبوه أن يلجأ من جديد إلى خطاب مختوم ولكنه هرب وطوف في إنجلترا وبروسيا وسواهما من ممالك القارة وهو لا يكاد يجد ما يتبلغ به.

أكب في أسره على المطالعة، فالتهم ما حمل إليه من الكتب التهاماً، وكانت له مقدرة خارقة

على استيعاب ما يقرأ، ثم هيأت له أسفاره أسباب الخبرة الصحيحة، فصاحب أخلاطاً من الناس، ورافق أنماطاً من الساسة، وشاهد ألواناً من المجتمعات، ومارس ضروباً شتى من الأخلاق والعادات

على أن أصالته كانت أعظم من كسبه كما كان وحي عبقريته أكبر خطراً وأبعد أثراً في تكييف سلوكه من كل ما زودته به الكتب من آراء، ولكن تلك العبقرية كانت في حاجة إلى ما يستثيرها، كانت فيما يحيط به من ظروف العيش، وما يكتنفه من الحوادث

كالجمرة طغى عليها الرماد، فما أن تهب العاصفة حتى تظهر وتتوقد وتبهر جذوتها القلوب والأبصار، وما كانت العاصفة إلا الثورة وهي من وطنه على الأبواب.
بيد أنك تراه الآن ولما تواته الثورة يعيش من نفسه في ثورة! فلقد كان بطبعه عسوفاً عنوفاً لا تعرف نفسه الهدوء كما لا يعرف جسمه الدعة، يميل بكل ما في طاقته إلى النضال والتحدي، فيحمي على المجادلة، ويستعر على الجلاد، ولا يستقر إلا على الظفر والتفوق.
وكان قلبه الكبير مليئا بالأحاسيس، جياشاً بالعواطف، وكثيراً ما كانت حدة عاطفته مبعث مواقفه الفذة ومثار شجاعته حين كانت تستحكم الأزمات فلن يخرج الوطن منها إلا بشجاعته. وكان ذا مقدرة غريبة في إثارة العاطفة في قلوب من حوله حتى لكأنهم منه حيال ساحر عجيب، وهو في فورته يتناول كل شيء ولا يكاد يتجه إلى فكرة حتى يثب إلى غيرها، ولا يكاد يسنح له خاطر حتى تتوارد على رأسه الخواطر، وما كان ليضيق بها، بل لقد كانت على وفرتها اقل من أن تقنع روحه أو تشبع عاطفته. قال أبوه يصف توثب روحه: (إن روحه كالمرأة المتحركة ينعكس فيها كل شيء ولا يستقر فيها شيء)
ولقد كان من أظهر خلاله وأعظم قوى نفسه، شدة تأثيره فيمن حوله، يحس من يقترب منه هيبة خفية لا يتبين مبعثها، وينجذب إليه من يستمع له انجذاباً يبعث على العجب! ولقد بلغ من شدة تأثيره أنه كان يحمل رجال السجن على احترامه بل على محبته، وتلك عجيبة من عجائب النفس لا تزال سراً مستغلقا على الإفهام.
على أن أبرز صفاته جميعاً وأوثقها علاقة بمستقبل حياته، هي قوته الخطابية، فلقد كان ميرابو خطيباً عبقرياً بكل ما تتسق له تلك الكلمة من معنى. وهو عند الكثيرين من المؤرخين أقدر خطيب شعبي في التاريخ الحديث، وأشد الخطباء تسلطاً على أفكار سامعيه
وأسرعهم توجيهاً لمن حوله إلى ما يريد.
كان في أسلوبه رجل فن كأعظم ما يكون رجل الفن، عرف أو على الأصح ألهم اختيار الكلمة القوية وصوغ العبارة التي تجمع إلى إشراق المعنى بعد المرمى وعمق المغزى. وكانت تواتيه عبقريته إذا تسنم المنبر فتسمو به عن مستوى الرجال، فتراهم شاخصة أبصارهم إليه خافقة قلوبهم بما ينطق، فإذا احتدم الجدل أو اشتد الموقف خطراً نظرت فإذا به أعظم مما كان حماسة وأسرع تدفقاً وأكثر إقناعاً ورأيت عبارته ترتفع وتعظم حتى تلائم الموقف، وسمعت في نبرات صوته أزيز نفسه وغليان دمه. كان في جولاته كنابليون في غزواته! تزداد عبقريته ملابسة له كلما ازداد الموقف من حوله هولاً. ولقد فاه بأبلغ عباراته وأبعدها أثراً في نفوس سامعيه في مواقف الحماسة الفائرة كأن كلماته الحيتان الضخمة لن تظهرها إلا العاصفة!
وكان له فضلاً عن ذلك من هيبة منظره وقوة صوته ورنين جرسه وشتى إشاراته كل معدات الخطيب. كان كبير الجرم، قوي الجسم، عريض المنكبين، عظيم الصدر، ترى في وجهه الجاد العابس آثار جراح اندملت كأنك تلمح فيها صرامة الحوادث وصروف الزمن، وكانت ترتسم ملامح وجهه بانفعالات نفسه، كما كانت تلتمع عيناه وتختلجان فتبعثان الرهبة أو تثيران الشفقة. أما عن قوة أعصابه وضبط نفسه وصدق فراسته وتفهم الغاية التي يرمي إليها وتخير أقرب الطرق وأسهلها إلى تلك الغاية فكان في ذلك كله مضرب المثل بين معاصريه.
والآن فلندع مقدرته على الخطابة حتى نشاهد آثارها في مجلس طبقات الأمة وفي الجمعية الأهلية، ويجمل بنا أن نتبين قبل انعقادها بعض آرائه السياسية.
لم تك أصالة ذلك الرجل الفذ في الساسة أقل من أصالته في الخطابة، فلقد جمع إلى حماسة القلب حدة العقل، وإلى ثورة العاطفة اتزان المنطق، وإلى جموح الخيال وضوح المنهج، وإلى وحي العبقرية شمول النظر، وصدق التجربة واتساع الخبرة، وإن المرء ليدهش حقاً إذ يرى ذلك كله في رجل. ولقد صدق جوته حين وصفه في قوله: ميرابو. . . تلك الأعجوبة!!!
كان لهذا الزعيم غرض يرمي إليه ونهج يسير عليه. نشط قبيل الثورة في نشر مبادئه، عندما عاد من برلين للمرة الأخيرة، وكان قد أوفد إليها من قبل الوزير كالون في مهمة سياسية عام 1787 أي قبل هبوب العاصفة بعامين، وخيل إلى أن الوزير إنما

أراد إبعاده، فلما استقل ميرابو ما كان يصله من أجر عاد إلى وطنه مغيظاً محنقاً فشهر قلمه للطعن في كالون ونكر صديق الشعب، وابتدأ الناس يحسون خطره كناقد سياسي، نعم أحس الناس روحاً جديدة في كتاباته واستشعروا أن صاحبها يمتاز ممن عرفوا من الرجال. اقرأ مثل قوله في نقد نكر (ليعلم الذين يحسبون أنهم لا يستطيعون أن يحبوا الله خالقهم أو أن يحبوا الملك والوطن إلا أن يعبدوا نكر، إنهم في ضلالتهم يعمهون. هل فكروا في أن تفاخره بأنه يستطيع أن يعقد أي قرض دون زيادة في الضرائب موضع عار لا موضع فخر؟ هل فكروا في أنه بذلك قد استطاع أن يستهوي أولي الأمر في هذه الدولة، فيدفع بهم إلى حرب تبرأ منها الإنسانية، فضلاً عما يتبعها من خراب مالي؟ وهل يغنيهم ما يعلمون من حسن خلقه وطيب نفسه عن نجاح سياسته كوزير؟) اقرأ هذا وغيره تر أن الثورة قبل هبوبها قد اهتدت إلى زعيمها، وتلق الرجل في مستهل مرحلة جديدة في حياته العجيبة، مرحلة الجد الحكيم والوقار العاقل والجهد المتواصل.

راح يعلن للناس أنه عدو الامتيازات والاستبداد، وأنه لن يقعد عن الجد حتى يرى الناس سواء أمام القانون، ويرى الحرية حقاً يتمتع به كل فرد، ويرى التعليم نوراً ينفذ إلى جميع الطبقات، والرخاء المادي حصناً يقي الوطن غائلة الفاقة. وهل كان للناس مطمع وراء هذا؟ وهل كانوا يتغنون بغير هاتيك الأناشيد؟ ولكن ميرابو لن يقبل أن يسعد الشعب على حساب الملكية! وإذاً فهو يسعى من جانب آخر إلى أن يكون للملكية نفوذها وسيادتها على أن تستمد ذلك من الشعب صاحب الحق. ولئن كان يمقت من أعماق قلبه الفوارق بين الطبقات وقيود العهد الإقطاعي، فان بدنه ليقشعر فرقاً من الفوضى وإنه ليرى الطامة الكبرى في جموح الشعب وتعديه حدوده.

بهذه المبادئ وبما عرف عنه من مقدرة خطابية فائقة، تقدم ميرابو للانتخاب في مدينة إكس ليشون نائباً عن العامة في مجلس طبقات الأمة، بعد أن نأى الأشراف بجانبهم عنه. وعلى الرغم من كيد خصومه له خرج من المعركة ظافراً داوي الصيت

(يتبع)

الخفيف

يوم الوقفة

عرفات. . .

للأستاذ علي الطنطاوي

(وَأَذِّنْ في النَّاسِ بالحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالاً وَعَلى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ، وَيذْكُرُوا اسم الله فِي أَيّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعامِ، فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا البَائِسَ الفَقِيرَ، ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بَالبْيتِ العَتِيقِ)

هنالك ينكشف الغطاء، وتنفتح أبواب السماء، فيتوجه الحجاج إلى الله بقلوب انزاحت عنا ظلمة الأهواء والشهوات، وأشرقت عليها الأنوار، فسمت حتى رأت الأرض ومن عليها ذرة صغيرة تحملها رياح القدرة، ثم سمت حتى سمعت تسبيح الملائكة بألسنة الطاعة، ثم سمت حتى تدبرت القرآن غضاً غريضاً، كأنما نزل به الوحي أمس، وسمعت النداء من جانب القدس: (يا أيها الناسُ إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شُعُوباً وقبائِلَ لِتَعَارَفُوا، إنَّ أَكْرَمكم عِنْدَ الله أتقاكم). فأجابت: لَبَّيك اللهم لبيك!، فردَّدت بطاح عرفات، وأرجاء الحرم، وردَّدت السموات السبع والأرضون السبع: لبيك اللهم لبيك!

هنالك تتنفس الإنسانية التي خنقها دخان البارود، وعلامات الحدود، وسيد مسود، وعبد ومعبود، وتحيا في عرفات حيث لا كبير ولا صغير، ولا عظيم ولا حقير، ولا مأمور ولا أمير، ولا غني ولا فقير

هنالك تتحقق المثل العليا التي لم يعرفها الغرب إلا في أدمغة الفلاسفة وبطون الأسفار، فتزول الشرور، وترتفع الأحقاد، وتعم المساواة، ويسود السلام، ويجتمع الناس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم في صعيد واحد، لباسهم واحد، يتوجهون إلى رب واحد، ويؤمنون بنبي واحد، ويدينون بدين واحد، ويصيحون بلسان واحد: لبيك اللهم لبيك!

هنالك تظهر المعجزة الباقية، فتطوى ثم تؤخذ من أطرافها، حتى توضع كلها في

عرفات، فتلتقي شطآن أفريقية بسواحل آسية، ومدن أوربة بأكواخ السودان، ونهر الكنج بنهر النيل، وجبال طوروس بجبال البلور، فيعرف المسلم أن وطنه أوسع من أن تحده على الأرض جبال أو بحار، أو تمزقه ألوان على المصور فوق ألوان، أو تفرقه في السياسة خرق تتميز من خرق، وأعلام تختلف عن أعلام
ذلك لأن وطن المسلم في القرآن، لا في التراب والأحجار، ولا في البحيرات والأنهار، ولا في الجبال والبحار: (إنما المؤمنون أخوة)، لا (إنما المصريون. . . .)، ولا (إنما الشاميون. . .)، ولا (إنما العراقيون. . . .)
هنالك يتفقد الاخوة إخوتهم، فيعين القوى الضعيف، ويعطي الغني الفقير، ويساعد العزيز الذليل، فلا ينصرفون من الحج إلا وهم أقوياء أغنياء أعزاء
هناك يذكر المسلم كيف مرّ سيد العالم صلى الله عليه وسلم بهذه البطاح مهاجراً إلى الله، تاركاً بلده التي نشأ فيها، وقومه الذين ربي فيهم، وكيف جاء حتى وقف على الحزْورَة، فنظر إلى مكة، وقال: (انك لأحب بلاد الله إلى الله، وإنك لأحب بلاد الله إلي، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت). ثم يستقبل هذه الصحراء الهائلة، ليس معه إلا الصديق الأعظم، يتلفت كلما سار ليتزوّد بنظرة من مكة حتى غابت وراء الأفق الفسيح، فانطلقا يؤمان الغار
هل علمتْ هذه البطاح أن هذا الرجل الفرد الذي قام وحده في وجه العالم كله، يصرع باطله بقوّة الحق، ويبدّد جهاته بنور الإسلام، ويهدي ضلالته بهدي القرآن، والذي فر من مكة مستخفياً، سيعود إليها بعشرة آلاف من الأبطال المغاوير، فتفتح له مكة أبوابها، وتتهاوى عند قدميه أصنامها، ثم تعنو له الجزيرة، ثم يخضع لدينه نصف المعمور؟
هل علمت هذه البطاح أن هؤلاء النفر الذين مروا بها هاربين من جبروت قريش وسلطانها، سيعزون حتى تدين لهم قريش، ثم يعزون حتى يرثوا كسرى وقيصر في أرضيهما، ثم يعزون حتى يرثوا الأرض ومن عليها، وسيكثرون حتى يبلغوا أربعمائة مليون، وسيتفرقون في الأرض داعين مجاهدين فاتحين، ثم يجتمعون في عرفات حاجين منيبين ملبين: لبيك اللهم لبيك!
هنالك وقف سيد العالم صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع يعله حقوق الإنسان، ويقرر مبادئ السلام، وينشر الاخوة والعدالة والمساواة بين الناس قبل أن تنشرها فرنسا بألف عام:
أيها الناس:
اسمعوا مني أبين لكم، فإني لا ادري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا
أيها الناس:
أن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا
ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد!
أيها الناس:
إنما المؤمنون اخوة، لا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه
إلا هل بلغت؟ اللهم اشهد
أيها الناس:
إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى
ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد!
وهنالك وقف يعلن انتهاء الرسالة الكبرى التي بعثه الله بها إلى الناس كافة، ويتلو قوله جل وعز: (اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لكم دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لكمُ الإسلام دِيناً)؛
ويبعث صحابته ليحملوا هذه الرسالة إلى آخر الأرض، ثم يحملوها إلى آخر الزمان فحملوها فأنشأوا بها هذه الحضارة التي استظل بظلها الشرق، ويستظل بظلها الغرب
في عرفات تتجلى عظمة الإسلام، دين الحرية والمساواة والعلم والحضارة؛ ومن عرفات يسمع المسلمون داعي الله يدعو: حي على الصلاة! حي على الفلاح! فيجيبون لبيك اللهم لبيك! وينطلقون ليعلموا للآخرة كأنهم يموتون غداً، ويعملوا للدنيا كأنهم يعيشون أبداً
فلتفسد الأرض، ولتطغ الشرور، وليعصف الحديد، ولينفجر البارود، ولتَغُص الإنسانية في حمأة الرذيلة إلى العنق، فانه لا خوف على الفضيلة ولا على الحق ولا على

السلام، ما دام في الأرض (عرفات)، وما دام في الجو هذا الصوت القدسي المجلجل:
(لبيك اللهم لبيك)!

علي طنطاوي

العراق في مصر

للشاعر الفيلسوف المرحوم جميل صدقي الزهاوي

وهي آخر ما نضمه الفقيد الكريم

حمّلها شباب العراق تحية كريمة لشباب مصر

- 1 -

أتى بعد شوق حافز للمحبينا ... إلى مصر شبان العراق محيينا
أولئك شبان سنقطف عن هوى ... بها من رياض العلم ورداً ونسرينا
رضينا بما في مصر من عبقرية ... وما كل أرض تنبت العلم ترضينا
وكان منانا أن نرى مصر يقظة ... فأفرحنا جمعاً بلوغ أمانينا
سعدنا بمصر والسعادة نعمة ... فحينا تلاقينا وحين تجافينا
وليس لنا عن حب مصر تنكّب ... فما كان هذا الحب إلاّ لَتَا دنيا
وما شعراء النيل إلاّ عنادل ... على سرحة الآداب تشدو فتشجينا

- 2 -

إلا إن مصراً موطن الأدب الحر ... سلام على مصر سلام على مصر
وما مصر إلا البحر يلمع درّه ... ونحن بمصر غائصون على الدر
لقد جمعتنا وحدة عربية ... وأقرب منها بيننا وحدة الفكر
أرى في لقاء الروح للروح فرحة ... تفوق لقاء العين والأوجه الغر
وإن بني مصر الذين تثقفوا ... إذا طلعوا كانوا من الأنجم الزهر
حججناك طوّافين والدافع الذي ... حدانا هو الإيمان بالأدب الحر
وليس كإيمان المنافق إنه ... إذا لم يكن كفراً فشر من الكفر

- 3 -

وجدنا بني مصر الفتاة كواكبا ... تضئ فتمحو بالضياء الغياهبا
إذا غاب نجم لاح نجم وإنما ... تفوق بمصر الطالعاتُ الغواربا
ألا فليمم مصر من طلب العلا ... ومن كان في المجد المؤثل راغبا
وما اسعد الورّاد للعلم إنهم ... إذا صدروا كانوا نجوماً ثواقبا
إذا ما تلقوا من أساتذة لهم ... دروساً حسبت الودق ينصبّ ساكبا
قصدنا فقاسينا متاعب جمة ... فلما رأيناكم نسينا المتاعبا
نصافحكم فيها مصافحة الذي ... يريد لأعلام الهدى أن يقاربا

- 4 -

حججنا بلاد العبقرية والنبل ... نطوف بأركان الثقافة والفصل
معاهد فيها للهدى يثب الفتى ... وليس بها من سار يمشي على مهل
تربّي عقولَ النشء حتى تقيمها ... وما قيمة الإنسان إلاّ من العقل
وكانت فتاة العصر أنقى من الندى ... وكان الفتى للمجد أنضى من النصل
وليس الذي في البحر يسبح زاخراً ... كمن كان في الغدران يسبح والضحل
وليس غنى مصر من المال ناشئاً ... ولكنه في العلم والأدب الجزل
وفي عزة النفس التي قد أبت لها ... على ما بها أن تستنيم إلى الذل

- 5 -

على العقل في كل الأمور المعوّل ... ولولاه لم ينجل للمرء مشكل
وما العقل في الإنسان إلا ابن رأيه ... تولّد فيه آخراً وهو أوّل
وللعقل أنوار بها يهتدي الفتى ... وأبهجْ بأنوار لها العقل يرسل
تبدل في الناس العقول بغيرها ... ولكن نفس المرء لا تتبدل
ورب عقول لم تصادف مثقفاً ... فتلك بلا هادٍ من العلم تعمل
يمثل مصراً في العراق جهابذ ... ونحن بمصر للعراق نمثل
وما العلم في بغداد إلا كصيّب ... توالى لأدران الجهالة يغسل

- 6 -

نصافح إخواناً لنا قد تثقفوا ... فساروا جماعات ولم يتوقفوا
فإن فرقت ما بيننا شقة النوى ... فإنا جميعاً للعروبة نهتف
وإن عصفت ريح بكم في ملمّة ... فتلك بنا يا أمة النيل تعصف
وإن أبعدت أجسامنا عن جسومكم ... فأرواحنا مجموعة تتعرف
ومصر هي اليمّ الذي ظلّ زاخراً ... وإنا وإياكم من اليم نغرف
غداً ستشب الحرب صاخبة اللظى ... فتزهق أرواحاً وتمحو وتتلف
وإن تلاميذ المدارس في غد ... جنود لصون الموطنين تألّف

لنحن بمصر في الثقافة نقتدي ... وبالنجم في تلك المطالع نهتدي
وليس بنا للأمس من لفتة الهوى ... ولكننا نرنو بشوق إلى الغد
ونحترم الرأي القديم وأهله ... ونهتف للتجديد أو للتحدد
نرى أن في التجديد شيئاً مخلداً ... ولكنما التقليد غير مخلد
وذاك طريق للأديب معبد ... وهذا طريق ظل غير معبّد
وما العلم إلا للسعادة سلم ... فمن يتخذ منه الوسيلة يسعد
فإن تبتعد عنا السعادة تقترب ... وإن منا التعاسة نبعد

جميل صدقي الزهاوي

على قبر الزهاوي

بعد أن وُوري التراب شيخ الشعراء وفقيد العرب وقف على قبره الدكتور عبد الوهاب عزام فنثر عليه هذه الزهرات:

اليوم يقع هذا النسر بعد طول تحليقه!

اليوم يصمت هذا البلبل بعد طول تغريده!

اليوم يظفر هذا الجواد بالجمام!

اليوم يستريح هذا الفارس من الآلام!

اليوم تسكن هذه النفس الثائرة!

اليوم تخمد هذه النائرة!

اليوم يرقد الزهاوي في قبره!

كل نفس ذائقة الموت، وإنا لله وإنا إليه راجعون. وإنما الخالد من خلدته آثاره. وسيبقى شعر الزهاوي مدوِّياً بعد مماته، كما كان مدوياً في حياته، ليبعث العزائم الراقدة، ويشعل النفوس الخامدة

ستتلقى مصر والبلاد العربية نعي الزهاوي كما تلقى العراق والبلاد العربية نعي شوقي، فتتجاوب بلاد العرب بالرثاء،

وتتبادل العزاء. نسأل الله أن يعوضها في شاعر العربية خيراً

أيها الشاعر العظيم ستذهب وذكراك بيننا خالدة!

أجميلُ لا تبعد فذكرك خالد ... الذكر للإنسان عمر ثان

ثم وقف الأستاذ الشاعر معروف الرصافي فألقى هذه الأبيات:

أيها الفيلسوف قد عشت مُضْني ... مثل مَيْتٍ وصرت بالموت حيا
ما حياة العظيم إلا خلود ... بعد موت يكون للجسم طيا
سوف يبقى بين الورى لك ذكر ... ناطق بالبقاء لم يخش عِيا
أنت فرد في الفضل حياً ومَيْتا ... حزت في الحالتين ذكراً عَلِيا
سوف أبكي عليك شجوا وإني ... كنت أبكيك في الحياة شجيا

ثم تلاه السيد محمد مهدي الجواهري فألقى هذه القصيدة الباكية:

على رغم أنف الموت ذكرك خالد ... ترن بسمع الدهر منك القصائد
نعيت إلى غر القوافي فأعولت ... عليك من الشعر الحسانُ الخرائد
وللعلم فياضاً فماجت مصادر ... عُنيت بها بحثاً وجاشت موارد
وفلسفة أطلعت في الشعر نورها ... هي اليوم ثكلى عن جميل تناشد
حلفت يميناً لم تشبها اختلاطة ... وقلبي على دعوى لسانِيَ شاهد
لقد كنت فخراً للعراق وزينة ... تزان نواديه بها والمعاهد
وكنت خصب العراقي شاهدا ... إذا أعوزتنا في التباهي شواهد
وكنت أرق الناس طبعاً ونكتة ... وألطف من دارت عليه المقاعد

وأنت ابتعثت الشعر بعد خموله ... نشيطاً فخوض الشعر بعدك راكد
ثوى اليوم في هذي الحفيرة عالم ... بأسرارها، لله بالعقل ناشد
أقام على العلم الصحيح اعتقاده ... عدو لأشباح الخرافات طارد
وكان نقياً فكرة وعقيدة ... عزيزٌ عليه أن تسف العقائد
يقرر أن الدين حب ورحمة ... وعدل، وأن الله لا شك واحد
وأن الذي قد سخر الدين طامعاً ... يتاجر باسم الله، لله جاحد
ثوى اليوم في هذي الحفيرة شاعر ... على الظلم محتج عن العدل ذائد
وشيخوخة مدت على الكون ظلها ... تكافح عن آرائها وتجالد
أَبَا الشعر! إن الشعر هذا محله ... فقد نصت الأسماع والجمع حاشد
وهذي جيوش الشعر والعلم تبتغي ... لها قائداً فذاً فهل أنت قائد
فأين قصيد قد نظمت فريده ... وأين من الشعر البديع الفرائد
وأين النكات المؤنسات كأنها ... حدائق تُسقى بالندى وتعاود
وأين العيون اللامعات زكانة ... زغائب تبدو فوقها ومقاصد
جميلٌ أعان الرافدين بثالث ... من الشعر تنميه بحور روافد
وكان حياة للنفوس ورحمة ... تغاث بها النفوس الهوامد
تطاوعه غر المعاني كأنها ... وصائف تبغي أمره وولائد
أقول لرهط الشعر يبغون باعثاً ... عليه: تثير الشعر هذي النضائد
هلموا إلى قبر الزهاويِّ نقنص ... به نفساً من روحه ونطارد
وإن خيالاً يملأ الشعر رهبة ... سكون على قبر الزهاويِّ سائد
وحجوا إلى بيت هو الفن نفسه ... أنارت (فينيسٌ) ساحَه وعطارد
فإن بيوت الشاعرين مناسك ... وإن قبور النابغين معابد
أبا الشعر والفكر المنبه أمة ... عزيز علينا أنك اليوم راقد
وأن الذي هز القلوب هوامداً ... وحركها في الترب ثاو فهامد
وأن فؤاداً شع نوراً وقوة ... هو اليوم مسودُّ الجوانب بارد
فهل أنت راضٍ عن حياة خَبَرْتها ... ممارسة أم أنت غضبان حارد
أضاعوكَ حياً وابتغوك جنازة ... وهذا الذي تأباه صيدٌ أماجد

أندلسيات:

ابن بسام صاحب الذخيرة - 2

والشاعر أبو مروان الطبني

للأستاذ عبد الرحمن البرقوقي

قال ابن بسام: كان أبو مروان هذا أحد حماة سرح الكلام، وحملة ألوية الأقلام، من أهل بيت اشتهروا بالشعر، اشتهار المنازل بالبدر. أراهم طرأوا على قرطبة قبل افتراق الجماعة، وانتثار شمل الطاعة، وأناخوا في ظلها، ولحقوا بسروات أهلها. . . وأبو مضر أبوه زيادة الله بن علي التميمي الطبني هو أول من بنى بيت شرفهم، ورفع في الأندلس صوته بنباهة سلفهم. قال ابن حيان: وكان أبو مضر نديم محمد بن أبي عامر أمتع الناس حديثاً ومشاهدة وأنصعهم ظرفاً، وأحذقهم بأبواب الشحذ والملاطفة، وآخذهم بقلوب الملوك والجلة، وأنظمهم لشمل إفادة ونجعة، وابخلهم بدرهم وكسرة، وأذبَّهم عن حريم نشب ونعمة، له في ذلك أخبار بديعة من رجل شديد الخلابة يضحك من حضر، ولا يضحك هو إذا ندر، رفيع الطبقة في صنعة الشعر، كثير الإصابة في البديهة والروية. انتهى كلام ابن حيان. قال ابن بسام: وشعر أبي مضر ليس من شرط هذا المجموع لتقدم زمانه؛ فأما ابنه مروان هذا فكان من أهل الحديث والرواية ورحل إلى المشرق وسمع من جماعة المحدثين بمصر والحجاز، وقتل بقرطبة سنة سبع وخمسين وأربعمائة. . إلى أن قال: وجدت في بعض التعاليق بخط بعض أدباء قرطبة قال: لما عدا أبو عامر أحمد بن محمد بن أبي عامر على الحذلمي في مجلسه وضربه ضرباً موجعاً وأقر بذلك أعين مطاليبه، قال أبو مروان الطبني فيه:

شكرت للعامري ما صنعا ... ولم أقل للحذيلمي لعا
ليث عرين غدا بعزته ... مفترساً في وجاره ضبعا
لا برحت كفه مُمَكَّنَةً ... من الأماني فنعم ما صنعا

وددت لو كنت شاهداً لهما ... حتى ترى العين ذل من خضعا
إن طال منه سجوده فلقد ... طال لغير السجود ما ركعا
وابن رشيق القائل قبله:
كم ركعة ركع الضبْعان تحت يدي ... ولم يقل سمع الله لمن حمدهْ
والعرب تقول فلان يركع لغير صلاة إذا كنوا عن عهر الخلوة. .
قال ابن بسام: ولما صنفت كتابي هذا عن شين الهجاء، وأكبرته أن يكون ميداناً للسفهاء، أجريت ههنا طرفاً من مليح التعريض، في إيجاز القريض، مما لا أدب على قائليه ولا وصمة على من قيل فيه. والهجاء ينقسم قسمين: فقسم يسمونه هجو الأشراف، وهو ما لم يبلغ أن يكون سباباً مقذعاً، ولا هجراً مستبشعاً؛ وهو طأطأ قديماً من الأوائل، وثل عرش القبائل. إنما هو توبيخ وتعيير، وتقديم وتأخير، كقول النجاشي في بني العجلان، وشهرة شعره منعتني عن ذكره. واستَعْدَوا عليه عمر وأنشدوه قول النجاشي فيهم فدرأ الحد بالشبهات. وفعل مثل ذلك بالزبرقان حين شكا الحطيئة وسأله أن ينشده ما قال فيه فأنشده قوله:
دع المكارم لا ترحل لبغيتها ... واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي
فسأل عن ذلك كعب بن زهير فقال: والله ما أودّ له بما قال حمر النعم. . . وقال حسان لم يهجه ولكن سلح عليه بعد أن أكل الشُبْرُم. . فهمّ عمر بعقابه ثم استعطفه بشعره المشهور. . وقد قال عبد الملك بن مروان يوما: أحسابَكم يا بني أمية فما أود أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس وأن الأعشى قال فيّ:
تبيتون في المَشْتىَ مِلآءً بطونكم ... وجاراتكم غَرثى يبتن خمائصا
ولما سمع علقمة بن علاثة هذا البيت بكى وقال: أنحن نفعل بجاراتنا هذا؟ ودعا عليه. . فما ظنك بشيء يبكي علقمة بن علاثة وقد كان عندهم لو ضرب بالسيف ما قال: حس!. . . وقد كان الراعي يقول: هجوت جماعة من الشعراء وما قلت فيهم ما تستحي العذراء أن تنشده في خدرها. ولما قال جرَير:
فَغُضَّ الطرف إنك من نمير ... فلا كعبا بلغت ولا كلابا
أطفأ مصباحه ونام - وقد كان بات ليلته يتململ - لأنه رأى أنه قد بلغ حاجته وشفى غيظه. . قال الراعي: فخرجنا من البصرة فما وردنا ماء من مياه العرب إلا وسمعنا البيت قد سبقنا إليه حتى أتينا حاضر بني نمير فخرج إلينا النساء والصبيان يقولون قبحكم الله
وقبح ما جئتمونا به. . والقسم الثاني هو السباب الذي أحدثه جرير أيضاً وطبقته، وكان يقول إذا هجوتم فأضحكوا، وهذا النوع منه لم يهدم قط بيتاً ولا عيرت به قبيلة، وهو الذي صُنّا هذا المجموع عنه، وأغفيناه أن يكون فيه شيء منة، فإن أبا منصور الثعالبي كتب منة في يتيمته ما شابه اسمه، وبقي عليه إثمه.
وحكى أبو عامر بن شهيد عن نفسه قال: عاتبت بعض الأخوان عتاباً شديداً عن أمر أوجع فيه قلبي، وكان آخر الشعر الذي خاطبته به هذا البيت:
وإني على ما هاج صدري وغاظني ... ليأمنني من كان عندي له سر
فكان هذا البيت أشد عليه من عظ الحديد؛ ولم يزل يقلق به حتى بكى إلي منه بالدموع. وهذا الباب ممتد الإطناب، ويكفي ما مر ويمر منه في تضاعيف هذا الكتاب.
ومن شعر أبي الحسن علي بن عبد العزيز بن زيادة الله الطبني مما أخذته عنه قولة:
كم بالهوادج يوم البين من رشأٍ ... يحفو علية وشاح جائر قلق
وكم برامة من ريم يفارقها ... لهفان يثنيه عن توديعها الفرق
ونرجس كفرند السيف ساومني ... مملاً ينسم عَرفُه عبق
نادمته وشباب الليل مقتبل ... والنجم كَفٌّ يحيينا به الأفق
وفتية كنجوم السعد أوجههم ... في أوجه الحادثات الجُوز تأتنق
نلهو برقراقة صفراء صافية ... يكاد ينجاب عن أضوائها الغسق
يسعى بها مرهف كالغصن نعَّمه ... ماء النعيم عليه النوُر والورَق
وأنشدني أيضاً:
يا سالياً عاشقِيهِ ... وعاشقاً كل تِيهِ
ومَن مدامي ونقلي ... بوجنتيه وفيه

هلا حزبت فؤادي ... ببعض مالك فيه
وأنشدني أيضاً لنفسه:
عجباً أن يكون ساكن قلبي ... راتعاً منه في بساتين حبي
ويجازي على الوفاء بِغَدرٍ ... حسبي الله ثم حسبي وحسبي
جازني كيف شئت لا أترك الذن ... ب إذا كان فرط حبك ذنبي
وهذا كقول أبي بكر بن عمار:
لئن كان ذنبي للزمان محبتي ... فذلك شيء لست منه أتوب
وقول عباس بن الأحنف:
إن كان ذنبي في الزيارة فاعلمي ... أني على كسب الذنوب مجاهد
(يتبع)
عبد الرحمن البرقوقي
منشئ البيان ورئيس قلم المراجعة بمجلس النواب
فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية
23 - تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا
تعليق المؤلف على فلسفة نيتشه
للأستاذ خليل هنداوي
تتمة
أما النظر إلى نيتشه من حيث الوجهة الأخلاقية فقد لامه النقاد على غرائزه القاسية وأنانيته الطاغية، وقوته البالغة على الضعفاء. على أن له بعض أراء لو لم يسيء الناس فهمها لآلت إلى نتيجة أخلاقية حسنة؛ فليس يكفى المرء أن يكون فوضوياً هداماً طارحاً عن ظهره التقاليد ليحيا محققا مذهب نيتشه. وليس نيتشه رفيق أولئك الذين يعبثون بالسوبرمان. وهذا نبيه زرادشت كان يطلب إلى الذين يرغبون اتباعه أن ينفذوا مذهبه بقسوة وشدة
(هل أنت شريعة قوية؟ هل أنت شريعة جديدة؟
هل أنت حركة أولى؟ هل أنت دولاب يدور حول نفسه؟ وا أسفاه! ما أكثر أولئك الذين يضطربون بيأس! أرني أنك لست بواحد من هؤلاء الظامئين ولا الطامعين
وا أسفاه! هنالك كثير من الأفكار العظيمة التي ليس شأنها إلا النسمة تهب ثم تتلاشى إنك تقول إنك حر، ولكي أريد أن أعرف الفكرة التي تسيطر عليك، لا النير الذي رحت تهزه
هل أنت حقاً من أولئك الذين يجدر بهم أن يهزوا نيراً؟ أن منهم من طرحوا كل ما منحتهم بعض القيم، بطرحهم ثوب العبودية والإرهاق حيث كانوا يعيشون.)
ونيتشه ذاته يعلن بأن مذهبه لا يحمله إلا إلى طائفة مختارة تستطيع حمله، والقيام بأعبائه؛ وأما الجماعات الأخرى فليس. عليها إلا الإذعان والطاعة والحياة بإيمان. فلا يجدر بنا والحالة هذه أن نسفه آراءه بحجة أن بعض الضعفاء العاجزين المنتفخة نفوسهم زهواً وكبراً قد أخذوا ببعض تعاليمه واقتبسوا نتفاً من مذهبه ليحققوا مطامعهم وليشبعوا جوع أنفسهم وأنانيتهم وليسعوا إلى هدف العظمة. إن نيتشه هو ذاتي قبل كل شيء، ويكفي
اعتقاده هذا أن يهيج الناس عليه. فالإنسان الحاضر هو (ذاتي وغير ذاتي) في وقت معاً. يرى في الحالة الأولى نفع نفسه وفي الحالة الثانية نفع غيره، ويتحرى عن سعادتهم كما يتحرى عن سعادته. على أن النزاع بين الحالتين هو نزاع عنيف وقد تقوي في الإنسان حالة منهما دون أخرى على حسب ميوله القلقة التي تميل به إما إلى ذاته وإما إلى المجتمع. فبعضهم تغلب فيه الذاتية على غيرها، فيضحي بمصالح الغير في سبيل مصلحته؛ وبعضهم يضحي بمصلحته عاملاً على صيانة مصالح الغير. أما نيتشه فهو من القائلين (بالذاتية) الذين يحبون ذواتهم؛ ومذهب أهل حضارة العصر إنما يتجلى في اعتناق مذهب المحبة الشاملة؛ وهذا الاختلاف بين نيتشه وبين معاصريه يكفي لأن يثير في خصومه عداوة عميقة وخصومة عنيفة على هذا الذي لا يرى رأيهم في اتخاذ محبة الغير مثلاً أعلى
على أن هاتين الحالتين ليستا من الحالات المعينة التي لا يتخطاها الإنسان ولا يتعداها، إذ لست أرى أحداً مال بكليته إلى حالة وقطع كل اتصاله بالأخرى. فهناك درجات

متفاوتة في الغرائز، وهذه الدرجات قد تتغير وتتطور بحسب الزمن والعصر والمحيط.
على أننا سنحكم على فلسفة نيتشه الآن حكماً عقلياً واضحاً
إن فلسفة نيتشه هي مثال من أجمل الأمثلة الذاتية الأرستقراطية؛ مثال جميل حي منطقي يحتوي على هدى لكل من يريدون أن يكوّنوا حياتهم ويجعلوا منها مثالاً واحداً يتحدون معه، كما هو الأمر في فلسفة (تولستوي) المناقضة لفلسفة نيتشه. على أن الحل الذي أعطاه نيتشه للمسألة الأخلاقية يتراءى لنا أن احتماله شديد على الأنفس، في الناحية التفكيرية والناحية العلمية، وأن تنفيذ مذهب (السوبرمان) ليفتقر إلى جهود قل أن توجد؛ ونيتشه ذاته يعلن بأن أمثال هؤلاء الأفراد الذين يجد فيهم العبقرية لم يكونوا إلا وليدي المخيلة والخيال
وهكذا يتراءى لنا أن نيتشه لم يخلق ليكون زعيم مدرسة فلسفية حقيقية، إنه سيبقى وحيداً فريداً، أمة وحده بين الناس، كما كان في حالة تفكيره وتأمله؛ على أن مذهبه تارك وراءه تأثيراً كبيراً ينمي في روح الفرد وروح الشعب (الأفكار الذاتية)، وهذا التأثير يتبع خيره وشره الجبلة الخلقية التي تلتصق بالأفراد والشعوب. فهو قد يعمل على تهديم طبائع طغت فيها الأنانية على كل شيء حتى جاوزت حدها؛ قد يعمل على رفع بعض الطبائع، يدرأ
عنها كل آفة ويحميها من كل خطر من الأخلاق والديمقراطية والزهد
يبدو لي أن عمل نيتشه له أثر قوي في بيئة كبيئتنا ولا ريب في ذلك، فإن ما أراه في مظاهرنا الاجتماعية لا يدل على فيض في الحماسة المادية والخلقية. قليل من المفكرين الذين هم في مستواه يعرفون أن يسوقوا الإنسان إلى معرفة نفسه والوقوف إزائها مجرداً؛ وقليل من أصحاب جمهورية الفضيلة من يمزقون - في وضح النهار - هذه الأغشية الرقيقة والأكاذيب الخفيفة التي تستر بها النفس ضعفها وجبنها وذلها وعجزها؛ وقليلون من علماء النفس في وضح وأبان وأحسن البيان عن الحقيقة الذليلة التي ترتدي هذه الأثواب المزركشة: أثواب الشفقة ومحبة القريب والزهد
إن نيتشه كالطبيب الصارم الذي لا تدخل قلبه الشفقة؛ والعلاج الذي يحمله إلى مرضاه، علاج قاس خطر استعماله، ولكنه علاج يخلق العزم والقوة. إنه لا يعزي من يأتيه شاكياً، ولكنه يترك الشاكين تسيل الدماء من جراحهم ليجعلهم أكثر قسوة وأشد احتمالاً للألم. فهو إما أن يشفي مرضاه شفاءً صحيحاً أو يقتلهم؛ قد يخشاه الناس للمرة الأولى ويفرون من مباضعه، ويلقونه باحتراس ووجل! يتساءلون: أليس هذا الإنسان شريراً جلاداً؟ يفرون من طريقه ويختلفون إلى أطباء خفيفة أناملهم، لينة كلماتهم، حلوة علاجاتهم، خالية تعاليمهم من الشدة والصرامة، ولكن نيتشه يلوذ به فريق من المخلصين له ولأنفسهم، يهوون صرامته ويحبون استقامته وخلقه كله. وفي اعتقادي أن هؤلاء لم يكونوا مخدوعين بإعجابهم به وإخلاصهم له، وقد علموا أنه - ليس عن صرامة قلبه ولا معرفته للألم معرفة خاطئة - قد غدا صارماً قاسياً على الإنسانية المتألمة؛ وحياته كلها مشحونة بالحوادث البالغة والمصائب الكبيرة؛ وحظه السيئ الفاجع قضى عليه بأن يكون صادقاً عن الإشفاق على ضعف الإنسانية وفاقتها. إنهم ليقفون بخشوع وجلال إزاء الجبار الذي لم يخضع للذل ولم يلعن الوجود، برغم مرضه العضال. وظل على غبطته ورضاه في الحالة التي كان يصارع فيها الموت والجنون دون أن ينفذ إليه الوهن والضعف، متمماً أنشودته المؤثرة في تمجيد الحياة الفنية الفياضة المخصبة، مناضلاً حتى النهاية - الألم الذي غلب على عقله ولم يستطع أن يقهر إرادته الواعية
لماذا أكرمت نيتشه؟ وما الفائدة التي يجنيها العقل العربي منه؟
حقاً إن بيني وبين نيتشه أسباباً لا أظن انقطاعها يسيراً؛ وقد اختلفت إليه ليالي كثيرة وليس بيني وبين نبيه فاصل. أبثه من روحي ويبثني من روحه. نتألم معاً من الحياة ونرقص لها ابتهاجاً. ولا أدري علة هذا الترابط ومن يستطيع أن يحفظ على التحقيق كل سبب يربط بينه وبين مفكر ما؟ أليست هناك أسباب مختلفة قد تتآلف وقد تتخالف، فتمزج هذا المفكر مع عقلك وقلبك، أو لا تزيدك منه إلا نفوراً؟ وما عسى يكون سر تعلقي بنيتشه إلا سر تعلقي بالحياة؟ كانت الحياة عندي ظلمة حالكة فغمرها نيتشه بفجره. كانت الحياة شكا مراً وقلقاً مستحوذاً عليّ فبدل شكي بايمان، وقلقي بعزيمة لا تتقلقل. كان سفيني مضطربا في خوض لجج الحياة، تهم يد الضلال

بافتراسه، فاستنقذه نيتشه وساقه إلى منارة النجاة!

ذلك فضل نيتشه علي، وأعظم بهذا الفضل! وكيف يريد أولئك الذين لاموني على انكبابي على نيتشه أن أصدف عنه؟ وإنني لواجد فيه علامة من العلامات الواضحة التي تنصبها الحياة للظالين عن مناهجها؛ فنيتشه هو علامة فيض الحياة المتفجرة والإرادة الصارمة. ولعل أولئك السقماء الذين أتوه فروا من مباضعه القاسية وتعاليمه العنيفة لأنهم يريدون علاجاً يبعث في أعضائهم المشلولة الدفء والسكينة، وهو إنما يريد أعضاء تبارك الحياة بالعزم والحركة. إنه قد أحرق العلاجات المخدرة للأوجاع قبل أن يقدموا. فإن كنت صابراً على احتمال قسوته فتعال إلى نيتشه

إن نيتشه ليس بمفتقر إلى جثث - خالية من الإحساس - يحملها على ظهره، وإنما هو يريد رفاقاً أحباء هدامين مثله، قد ادّرعوا الإرادة وصافحوا الألم رفيقاً لا سيداً يقتحمون بإرادتهم وصرامتهم كل شيء كالسيل الجارف؛ لا يصدهم عن غرضهم صاد، ولا يقف سيرهم حاجز؛ يثبون فوق القمم وثباً لا يزحفون زحفاً؛ في نفوسهم عقيدة تفيض حماسة وقوة، يفرضونها على الزمان ولا يجد الزمان إلى إضعافها سبيلا. هؤلاء الرفاق الأشداء يستطيعون أن يمشوا مع نيتشه، ويمجدوا الحياة في كل أدوارها، ويحلقوا فوق آلام الحياة وأفراحها

أن كاتب (فلسفة نيتشة) بالفرنسية يرى في اقتحام نيتشة لبلاده نعمة، لأنه لا يرى في مظاهرها الاجتماعية ما يدل على فيض وحماسة في الناحية المادية والخلقية. وإن نيتشه ليبعث هذا الفيض ويخلق هذه الحماسة في الناحيتين. فإذا كانت فرنسا الحية تفتقر إلى من

يفيض على حياتها حياة، فكيف بشعوبنا التي قتلها التخاذل بينها!

توجه أنى شئت؛ فهل أنت واجد معي إلا قطعاناً هائمة على وجوهها، ورعاة غافلين همهم صفو السمر، وأواصر مقطوعة، وتقاليد حامدة، يتغنى بها القوم حين يريدون الرقص والغناء، وشباباً مخنثين تناسوا رجولتهم، وأهملوا رسالتهم؛ كأنما تلك الراحة الطويلة العريضة قد أورثت أعضائنا الشلل، فإذا وثبت فيها الحياة لم تقدر على الحركة. وارم بطرفك أنى شئت فإنك واجد هذا الموت الاجتماعي وجمود الفكر وكأنا لم يرض فينا يريب الد ... هر حتى أعانه من أعاننا

فأصبح تفكيرنا رياء، والتظاهر بالتقاليد رياء، وهل كان الرياء إلا ثوباً من أثواب الضعف والعجز ترتديه أمة رضيت لنفسها أن تهوي بدلاً من أن تصعد، وإن إغفال علماء الاجتماع عندنا لهذه الظاهرة الخلقية إغفال فيه جناية لا تغتفر. يجلس مفكرنا في جماعة فيفصل لفكره عشرين وجهاً، يأتيهم بوجه ويعرض عنهم بما بقي. ويصلي أحدنا عشرين ركعة، يمنح واحدة الله، ويمنح الباقيات للناس؛ وهكذا غلب الرياء علينا في كل مظاهر تفكيرنا وتقاليدنا. وإنني لأخشى يوماً يرسو فيه الرياء في أنفسنا فيغدو متأصلاً فينا حتى يصبح علامة من العلامات الفارقة لهذه الأمة

هذه هي المظاهر التي غاظت نيتشه يوم أعلن الثورة على الضعف والرياء. وليت شعري من سيبغضه الضعف والرياء في مجتمعنا الحاضر، فيعلن الثورة عليهما وعلى المرتدين أرديتهما!

إن العقل العربي عقل قوى بنشأته، صادق بعزته، وهو لا يحتاج إلى من يبث فيه معنى القوة والصرامة لأنه قائم عليهما. ولكن جيلنا الحاضر اعتنق الفكرة العربية مجردة من معنى القوة والصرامة؛ فتشوهت بذلك الرسالة وضاعت معالمها. إن المجتمع العربي يفتقر إلى من يرد عليه هذه الأمانة التي لا يعلم إلا الله سالبها. والمجتمع العربي بعدها غالب عليه الاضطراب والخزي والظلال. فمن يرد عليه أمانته ويعيد إليه صرامته؟

كنت أتلو مواعظ - زرادشت - فأحس أن قوة جديد أخذت تطغى على قلبي، وأشعر باضطراب في نفسي جعلني أومن بأن الحياة لا يعسر عليها أن يخرج منها ألف حياة. ولم لا!؟. كنت أسير معه وهو يهدم خيالات الرياء، ويضرب التقاليد بعضها ببعض، فأطرب

لشجاعه، وأعجب بنفسي وأسألها: (هل كان في استطاعتك أن تطئي هذه الأرض لولا هذا النبي؟)، ولكن طربي لم يكن طرباً خالصاً لأنني كنت أبغي لمثل هذا النبي الهدام أن يقيم بيننا ليلة واحدة، تنفذ عينه خلالها إلى قلوبنا الطافحة غشاً وخباً، وقصورنا ومعابدنا المفعمة كذباً ورياءً، فينظف هذه القلوب ويدمر هذه القصور

أين أراك يا زرادشت العرب؟ ومتى يكون الموعد؟ فقد اصطلح على إيذائنا كل شيء حتى أنفسنا. تمشى الحياة بنا ونحن ذاهلون، ويتباهى الغير برجولته الصارمة ونتباهى نحن بالخنث، ويستيقظ الفكر في موطنهم ونحن نضرب حوله السدود ونقيم له حدود، نفر من الألم لأنه يضنينا، ونستجدي الفرح من غيرنا استجداء؛ يتحرك كل شيء حولنا ونحن لا ترضينا الحركة ولا تستهوينا اليقظة. نقول بالإنسانية ونشفق عليها، وقائلوها لا يملكون من (إنسانيتهم) شيئاً. يحسون آلام غيرهم ولا يحسون آلامهم. يشدد غيرنا روح (الذاتية) عندهم، ونحن نسعى إلى محوها، كأننا نريد أن نمثل دور الشرق الأول يوم كان يفيض إنسانيته على غيره. . . وقد قتلنا هذا الحب المفرط للغير، وقد قتلنا هذا الزهد الخامل. تسامى غيرنا فوقنا فهم يريدون أن يعرفوا أنفسهم بعد أن وجدوها، ونحن تائهون لما نعثر على أنفسنا

تعال أيها النبي أينما كنت، فهنا كثيرون ممن يرتقبون أوبتك. واحمل مباضعك وائت بنفسك وقلبك وأيقظ أفكارنا وبث فينا الحياة. أعطنا الحياة وخذ منا فديتها. أتريد منا أن نتألم؟ إننا نتألم ونحتمل الشقاء في سبيل الحياة. شدد شعورنا بالحياة وزدنا إيماناً بها. اهدنا إلى أنفسنا وحببنا فيها فقد علمونا أن نمقتها. تعال استأصل جذور الضعف فينا والذل فقد أكلت أنفسنا الاحشاشات. . . تعال ولا تعطنا شيئاً إلا ما نؤدي ثمنه، فقد أدركنا أن كل ما يُعطى ويوهب رحمة يضر بآخذه. تعال يا إرادة القوة والصرامة، فكثيرون هنا يرتقبون وصولك. . . والطريق ممهد، والغاية دانية القطوف

(انتهى)

(دير الزور)

خليل هنداوي.

القصص

مأساة من اسخيلوس

ثار اورست

الدرامة الثانية من (الأورستية)

للأستاذ دريني خشبه

خلاصة الدرامة الأولى

(قدم أجاممنون، ملك آرجوس وقائد الحملة الهيلانية على طروادة، ابنته إفجينا قرباناً للسماء لتسكن العاصفة وليمخر أسطوله عباب الماء؛ فاحزن زوجته كليتمنسترا، وأم الفتاة لا تفكر إلا في ابنتها، وزادتها وحدتها في قصر البلوبيديه وحشة، وجعلت من حياتها قفراً مظلماً حتى اتصلت بابجستوس ابن عم أجاممنون الذي ذبحت اخوته وأطعم أبوهم لحمهم وهو لا يدري، ثم قتل هو أيضاً، وكل ذلك بتدبير أتريوس أبي أجاممنون. . . وهنا تجتمع الأحن وتتضافر الأحقاد، ثم تنقلب العلاقة إلى حب فعشق دنئ. . . فتآمر على قتل أجاممنون حين يعود من طروادة. . . ويعود أجاممنون ظافرا وتكون معه كاسندرا ابنة بريام ملك طروادة التي تتنبأ بمقتل الملك، وبمقتلها أيضاً بيد الملكة زوجها وبتدبير ايجستوس. . . وتخدع الملكة زوجها فيمشي على بساط الديباج الأحمر فتغضب الآلهة، لأن المشي على الديباج حق خالص من حقوقها. . ويقتل الملك وتقتل كاسندرا في أثره. . . ويستوي ايجستوس على عرش آبائه مشتركا مع كليتمنسترا في حكم آرجوس رغم سخط الشعب ولعنات الجماهير. . .)

- 1 -

قتل أجاممنون!

وخلص العرش لأيجستوس ولعشيقته الملكة الفاجرة , كليتمنسترا. ولكنه كان عرشاً شائكاً، ظاهره فيه الرحمة، وباطنه فيه اللعنة الأبدية، وسخط الأرباب وبغض العباد. . . وكانت الأم الآثمة قد أبغضت كل ما يثير في قلبها ذكرى أجاممنون. . . وكيف لا تبغضه وها هي ذي حياتها تنقلب فتكون لذاذة خالصة، وهوى مجرماً، وغراماً تخامره شهوة التشفي، وتختلط بغمراته حمى الانتقام! إذن هي تبغضه، وهي تغلو في بغضه لأن عيونها في طروادة حملت إليها ما كان من غرامه الشديد بخريسيز إحدى سبايا الحرب، ثم ولعه الفائق بأختها بريسيز التي خاصم فيها أخيل؛ ولم يبال أن يهجر الميرميدون حلبة إليوم من أجلها. ولم يكن يحسبه هاتين، بل عاد من حومة الحرب فاقتحم القصر العتيق الشاهق بعربته المطهمة، وإلى جانبه خليلة ثالثة من خليلاته

الكثيرات، هي هذه النبية المباركة البائسة. . . كاسندرا، ابنة بريام، وحميمة أبوللو في الزمن القديم!
أبغضته كليتمنسترا إذن، وأبغضت كل ما يثير ذكرياته في فؤادها. . . ولو كان أبناؤها الذين حملت بهم من صلبه! وهي تقسو وتقسو، وتغلو في قسوتها، حتى لتأمر بابنها الواحد أورست، وكان حدثاً لا يعرف من الدنيا إلا أن نصفها أبوه. . . ونصفها الآخر أمه. . . فيُنفى إلى أقصى الأرض، وليكون بمعزل عن هذه الحاشية الموبوءة التي قد تثير فيه نخوة الرجولة حين يشتد عوده وينضج قلبه، فلا يكون له هم إلا الأخذ بثأر أبيه، والفتك بقاتليه. . .
- 2 -
أما اخته، أما اِلِكْترَا، فقد بقيت في القصر لتشهد الفصل الأخير من المأساة. . . أو لتشهد كل الفصول الدامية التي تتركب منها المأساة! لقد بقيت على كره منها لنعيش عيشة الرقيق، وتحيا حياة الخدم، ولترى إلى أمها تتقلب بين ذراعي عاشقها وملء حضنه، ولتنعم على خرائب أسرة الأتريديه، ولتبني على أنقاضها القصور والعلالي!
بقيت إلكترا لتبكي دائماً. . . ولتبكي دماً! يا للعذارى!! لقد كانت في ملاعب شبابها تحلم بمُلكٍ وبتاجٍ وبشعب يسجد تحت قدميها، وهي اليوم تتشهى الموت فلا تجد إليه سبيل!! لقد كانت بالأمس تمرح بين قلبين يغمرانها بالحب، وأبوين يلقيانها بالبشاشة، وهي اليوم لا عزاء لها إلا وقفة باكية بقبر أبيها المقتول، ووقفة تتصدع لها جوانب نفسها عند مخدع أمها العاشقة. . . الفاسقة. . . وهل في إحدى الوقفتين عزاء؟!
بقيت الكترا ترقب رسول السماء الذي يأخذ بثار أبيها،، وبقيت لتكون رائد هذا الرسول يوم يجيء. ولم يكن لها من ولي ولا حبيب في هذا القصر الشاهق العتيق إلا هذه العجوز
الشمطاء الطيبة، مرضعة أورست، التي بكت أحر البكاء وآلمه وأوجعه يوم أخذوا منها ولدها - كما كانت تدعوه - ليُنفى في أقصى الأرض
لقد كانت هذه العجوز الشمطاء امرأة ثاقبة الفكر، رحبة الصدر، شديدة الإيمان في السماء! فكانت تواسي الكترا وتأسو جراحاتها، وتمنيها الأماني، وتزخرف لها الأمل، وتذكر لها أن عين سيد الأولمب الساهرة لن تغفل عن لؤماء قصر آل (بيلوبيديه) وإنها ترعى فتى القصر في منفاه، حتى إذا آنست فيه استواء أرسلته كالصاعقة على المجرمين؛ فنقض بنيانهم، وزلزل أركانهم، وانتقم لأجاممنون!
وكان قاهر طروادة قد جلب معه غير كاسندرا عدداً وافراً من السبايا الطرواديات، فاستطاعت المرضعة العاقلة، المحنكة، أن تجعل منهن جندا لها، وحاشية مخلصة لفتاتها المعذبة، يخففن من برحائها، ويكن لها أهلاً كلما عزها الأهل
ومضت سنوات عشر فسقطت طروادة
ومضت سنوات عشر بعد مقتل أجاممنون
واشتد ساعد أورست، وعاد ليبطش بالقتلة السفاكين وبدأت المأساة الثانية
- 3 -
لمن هذه الأشباح السادرة التي تهرول بين المقابر مُهطِعة إلى رمس أجاممنون؟
إنها تختلط بغبشة السباح وتمتزج صُعداؤها بأنفاسه، وإنها لتضمر في قلوبها لظى ينعكس في ذاك الشفق الذي يضطرم به الشرق. . . حيث يسبح البنفسج في حمرة الدم!!
آه! أنه شاب غرانق، سمهري، مجلل بالسواد يجثو فوق الثرى. . . يبكي ويصلي!! وإن بالقرب منه لصديقاً ينتظره. . . ويذرف دموعه من أجله. . . فيا للمودة في الرزء، ويا للإخلاص في الشدائد!! اسمع إلى الشاب المحزون، يخاطب تمثال هرمز النصفي المنتصب فوق القبور، ثم يكلم من بالقبور:
- (يا هرمز اللطيف، يا إله الأرواح وحاديها إلى هيدز، أيها الساهر على هذه المقبرة وعلى كل مقبرة. . . العوْن العوْن!)
ويضع خصلتين من الشعر على قبر أبيه، ويقول: (هأنذا أضع خصلة من الشعر هنا تحية لأيناخوس الذي رويت بمائه، وترعرعت على شطئانه. . . وأخرى تحية للموتى. . . يا رحمتا لك يا أبي! هكذا شاءت قسوة المقادير ألا أكون قريباً منك فأذرف عبرتي الطاهرة فوق ثراك، وأروي الصفاح المركوم فوق جثمانك بالغيث الغزير الذي أرسلته

(!من أجلك في دار غربتي
- 4 -
ويقلّب وجهه في بنفسج الشرق المموّه بالقرمز، فيلمح نسوة يتعثرن في سبيلهن بين المقابر، ميممات شطر قبر أبيه! فيوجس في نفسه خيفة، ويحسب أن جديداً من نكد الحياة قد ألم بالبقية الباقية من دم أجاممنون في الـ (بيلوبيديه!)
ولكنه سرعان ما يعرف بينهن أخته! أخته بعينها! هي! هي الكترا! وهي تحمل كالأخريات زقاً صغيراً وتقبل قُدُماً إلى المقبرة. . .
- (صديقي! هلم نختبئ لنرى بيلاديز!)
ويختبئ أورست وصديقه بيلاديز، وتقبل النسوة في إثر الكترا الواهية التي حطم قلبها الحزن، وأوهن جسمها الأسى. . . ويأخذن في نشيد باك يتفجر في موسيقاه الدم. . .
ويمتزج شجوه بالدموع. . . ويشرن إلى القبور وبينها هذا القبر، ثم يتلفتن فيرين القصور النائية وفوقها هذا القصر!. . . فيرثين لآرجوس ويرثين للفتاة المحزونة الواقفة بينهن. . . ويصلن ترنيمتهن. . . فيذكرن نأيهن الذي شط واستطال عن الأوطان
ويذكرن هذه الشباك المحكمة من الجواسيس والعسس المنشرة فوق آرجوس، تلتقط الأبرياء والمظلومين ليروي من دمائهم إيجستوس، ولنجهز من شبابهم النضر ضحايا لفسق الملكة!. . .
وتتكلم الكترا، بعد أن تذرف عبرة أو عبرتين، فتستثير المنشدات فيما أمرتها أمها الآثمة أن تفعل بزقاق الخمر. . . في هذا المكان القفر. . . إلا من الذكريات!
- (من زوجتك التي، أبي يا قربانا (فماذا أقول؟ هل أقول إذا صببت قرباني الخمري، سفكت دمك غير راحمة، نُشْداناً للذة، وحرصاً مجرماً للهوى؟) أم أقول (لتهدئي يا رفات! ولترضيْ بالغدْرة الكبرى التي دبرت لك، فلا تنتفضي تحت أطباق الثرى لترسلي الويل على الظالمين؟)، أم أصبها وألقي الرقاق ثم أنثني كأن ليس بي من تكلمن بحق مودتي عليكن، فنحن في الهم شركاء، (!ذلك النائم حزن مقيم ووجد دفين ولا تحبسن محض النصح
عن فتاتكن، ولا تخشين في البلاط الدنس أحداً، فالأقدار قد شاءت أن تبسط كفها القاسية في هذه المأساة على رقاب السادة وأعناق العبيد، حتى يكونوا سواسية. . .)
- (حُبّاً يا أميرة وطواعية. . . إن قبر أبيك يفرض علينا النصح لك
- (إذن. . .!!)
- (إذن فاضرعي أن يسمع الأصدقاء لصلاتك، وتصغي قلوبهم لتوسلاتك!)
(الأصدقاء؟! أي أصدقاء يعنيهم ما أصلي وما أتوسل؟)
- (أنت، وذلك النائي عن هذا الديار!)
- (من تعنين بحق الآلهة عليكن؟)
- (أورست!! أخاك يا أميرة!! صلي من أجله واظرعي للآلهة أن تسعفك به!)
- (آه! للآهة دَرُّكنَّ إذن!)
- (ثم فكري في هذا الدم المسفوك، وفي أصحابه الأشرار الفجرة!)
- (وكيف؟. . . . . .)
- (قد ترسل الآلهة نقمتها. . .)
- (ولمه! وعلى رأس من؟)
- (على رؤوس المجرمين!)
(ويلاه! المجرمين؟! ومن هم المجرمون؟. . . يا سماء!. . . يا سيد الأولمب! رحماك يا إلهي! اللهم أرع أخي يثأر لأبي. . . من. . . ممن يا عذارى إليوم؟! ممن؟ آه يا روح أبي! رفرفي في سماواتك! وانتفضي في هيدز! وتعالي فأرسلي أورست يثأر لك!)
وتترنم المنشدات، وتأخذ السكترا في صب الخمر
- (يا للآهة! ماذا أجد؟ خصلتان من الشعر؟)
- (خصلتان من الشعر؟ من رأس من يا ترى؟)
وتضع الشعر عند رأسها فيبدو الشبه كبيراً، فتنزعج. . .
- (ماذا بك؟ فيم تمنقعين هكذا؟. . .)

- (إنهما من رأسه!. . . من رأسه هو! من رأس أخي؟)
- (ربما يا أميرة! ولكن! كيف جازف بنفسه في هذه البرية الوحشة؟ من أرسله؟)
. . .وتنظر السكترا حول المقبرة فترى آثار أقدام
- (وما هذا أيضاً؟. . . آثار أقدام!ـ . . لا ريب إذن! أنها آثاره يا عذارى! ولكن!!. . . إنها آثار رجلين لا رجل واحد!. . . آه. . . قد يكون صديقاً. . . يا سماء!. . .)
ثم يظهر أورست فجأة، ويقول:
- (إذن! قد سمعت السماء صلاتك!)
. . .فتنزعج السكترا، وتدهش المنشدات
- (من!! من الرجل؟. . .)
- (أنا؟ أنا هو؟. . . أنا من كنت تهتفين باسمه الآن!)
- (أوه! أتخدعنا يا صاح؟ اذهب! وحسبنا ما نحن فيه!)
- (أخدعك؟ إذن اخدع نفسي!)
- (سخرية!ـ . . اذهب، اذهب!)
- (سخرية!ـ ز.؟ بمن؟ بى؟. . . اسخر بنفسي؟)
- (أفأنت هو حقاً؟. . .)
- (. . .؟؟. . .)
ويبكي أورست!
- (؟ أورست؟ أخي؟. . .)
- (أفي مرية أنت؟ السكترا؟. . . خذي هذا الشعر؟ أيضاً. . . خذي! هاتى رأسك . . .) وانظري!. . . . . ولكن انظري أيضاً! أليس هذا هو الجلباب نفسه الذي خاطته يداك؟ إنه هو. . . اللحمة والسدى!! والصور المطرّزة!ـ . . لا. . . لا. . . لا يقتلك فرحك! ليس لنا الآن أن نفرح بهذا اللقاء المفاجئ بين يدي ذلك القبر المنفرد! إن لنا لساعة!. . . اكبحي جماحك، وهيمني على فؤادك! فلنا أعداء. . . وهم أقرب الناس إلينا. . .)
- 5 -
ولم يكذب أورست، فلقد كاد الفرح يقتل السكترا؟ إنها لم تره منذ عشرين سنة؟ ثم. . . أليس هو الآن بين يديها بعد طول انتظار. . . وأحلام. . . وأماني؟. . . أولم تكن هذه اللحظة فقط، تصلي للسماء، وتضرع للآلهة، أن ترسل لها أورست؟ اليست السماء قد
صغت، والآلهة قد استجابت؟
لقد كانت أمها رأت في نومها حلماً مزعجاً ممضاً. . . رأت أنها تلد أفعى هائلة، ذات أنياب! وإنها تأخذها فتضمها إلى صدرها. . .! يا للهول! ذات أنياب! وإنها تأخذها فتضمها إلى صدرها. . .! يا للهول! إن الملكة تنتفض من نومها مذهولةً مروعة!. . . وإنها لتذكر أجاممنون فجأة. . . تذكره بعد عشرين سنة! وتذكر أورست المنفي بأمرها في أقصى الأرض! وإنها لتهب من السرير الديباجي الوثير. . . وتنثر ذراعي إيجستوس الجبارتين الملفوفتين حول خصرها!. . . وإنها لتنطلق في القصر مذعورة في أبهائه. . . إلى. . . بهو العبيد والخدم. . . بهو العذارى الطرواديات، حيث تنام إلكترا على فراش من الشوك، تفكر في عشرين سنة مملوءة بالدم. . . مملوءة بالدم. . . مملوءة بالدم. . .
وإن الملكة لتوقظها من أحلامها، وتأمرها، وسائر الطرواديات، فينطلقن إلى المقابر بزقاق الخمر، يسقين الثرى، ويقربن إلى أجاممنون. . . ويرضين روحه الغضبى!!
ولكن، ولكن الصلاة تنقلب، والقربان يصعد إلى السماء فيغضب الآلهة، فترسل أورست، ويتحقق الحلم الأسود. . . . الأفعى! الأفعى ذات الأنياب، يتدفق منها السم الزعاف!!
ويصليان لزيوس صلاة حارة، ويضرعان إليه أن يكون معهما فيما قادمان عليه من ذلك الهول الأكبر. . . فإذا ارتفع صوتهما، وعلا جُؤارُهما، تقدمت رئيسة المنشدات فابتهلت إليهما أن يتكلما همساً - (فقد تسمعكما أُذن شر فيفشل سعيكما وتذهب ريحكما، ولا تقوم لكما قائمة من بعد!) فيطمئنها أورست - (ليفرخ روعك أيتها السيدة الصالحة! فلقد أرسلني أبولو لآخذ بثأر أبي، فإن لم أفعل، فليجمد دمي حتى يكون كالثلج في عروقي! لا بد أن يشربا بالكأس التي أفرغاها في فم هذا الثاوي هنا. . . يتطلع إلى ما

يفعل له أبناءه، وآخر أثاره منه في هذه الحياة!)
ويتقدم الفتى والفتاة فيصليان على قبر أبيهما صلاة حارة، ثم يعطيانه موثقاً صادقاً أن يثأرا له، ولو كلفهما الأثآر له هذه الصبابات من الدم التي أبقى عليها الأسى في عروقهما
ويلتمسان منه العون، ويضرعان إلى السماء أن تكون معهما، والى الآلهة أن تسدد خطاهما
(البقية في العدد القادم)
دريني خشبة
البريد الأدبي
وفاة الأستاذ جميل صدقي الزهاوي
كانت أعراض الشيخوخة وأزمات الداء قد أخذت منذ حين تصارع في غير هوادة حيوية القلب الفتي والعصب الشاعر في هيكل الزهاوي، وكان الزهاوي يأبى أن يهادن الزمن الغلاب، فهو حركة فكرية دائبة وجملة عصبية ثائرة، لا يفتر ليله عن الفكر، ولا يكل نهاره من الحديث؛ وحديثه المتصل في قصر الإلهام، وفي دار الدفتري، وفي مقهى (أمين) إذابة لجسمه وإحراق لعصبه، لأنه لا ينفك منفعلاً بشعوره متأثراً بطبعه. وحياة الزهاوي كلها تفكير في قصيدة، أو قراءة في كتاب، أو محاضرة في حديث
ذهب الزهاوي يوم الأحد الماضي متأخراً على غير عادته إلى قهوته المختارة في منعطف شارع خالد بن الوليد ببغداد، وكان أصدقاؤه وتلاميذه وسماره قد تحلقوا حول مقعده الخالي ينتظرون كاهن أبوللو وشاعر الفكر الحديث؛ دخل متوكئاً على ذراع خادمه محمود، وهو يبسم لجلاسه بسمة السراج الفاني والأمل الشاحب؛ ثم شكا بعد شوط من الحديث الممتع ألماً في أعلى كتفه الأيمن عزاه إلى كثرة ما كتب ليلة الأمس، إذ قضى ليله ينظم قصيدة أخرى يحيي بها مصر على لسان الوفد النيابي الذي سيزورها عما قريب؛ ثم اجتزأ بأكل قليل من الكمأة ولم يعد إلى الغداء في البيت، واقترح على صديقه الأستاذ بحري صاحب العقاب أن يذهبا إلى السينما فيشاهد فلماً مصرياً ورد بغداد منذ قريب، ولكن الألم اشتد بَرْحه والقلب زاد وجيبه؛ فأقبل على صديقه وقال بلهجته الخاصة: (يا أفندم! إن هذا الألم يكاد يقضي عليّ، وهذه النوبات العصبية تنهك قواي. . يا أرحم الراحمين أنقذني من هذه الآلام!) ثم رغب أن يعود إلى داره؛ ولم يكد يدخلها حتى أحس بالداء يتسع وبالنفَس يضيق، فدعوا إليه الطبيب حوالي الساعة الرابعة بعد ظهر الأحد ولكنه كان قد فارق الحياة!
ريعت بغداد بالنعي المفاجئ والخبر الأليم، ولملكها الجزع على لسانها الذي أخرسه الردى، وقلبها الذي أسكته القدر، وتقاطر الناس على دار الشاعر الهامد يتقدمهم الوزراء والعلماء والنواب والأعيان والقادة؛ وفي الوقت المحدد للجنازة من ظهر يوم الاثنين خرج النعش محمولا على أكتاف عشرين طالباً من طلاب الفتوة فوضعوه في السيارة، وجلس من خلفها
الشاعران الكبيران رضا الشبيبي ومعروف الرصافي، ومن أمامها اثنان من أقارب الفقيد. فسارت تحيط بها السريتان الأولى والثانية من الفوج الأول، تتقدمها فوق الجوالة وفرق الفتوة للمدارس الثانوية والعالية ودور المعلمين ومع كل فرقة إكليلها، ويمشي وراءها الوزراء الحاليون والسابقون والمديرون العامون وكبار الضباط ووجوه البلاد وجماهير الشعب حتى بلغت الأعظمية فصلوا عليها في مسجد الإمام أبي حنيفة؛ ثم حملتها فرقة من فرق الفتوة إلى مرقدها الأخير في باحة (دار العلوم العربية) على مقربة من ضريح الإمام الأعظم. تغمد الله شاعر العروبة بالرحمة وعزى فيه الأمة العربية خير العزاء
ذلك خبر تلقيناه بالطيارة آخر الوقت فسجلناه عن الرجل الذي مات، أما الزهاوي الصديق الشاعر الفيلسوف، فسنعود إليه ثم نعود
ندوة الزهاوي
روت (البلاد) أن رجال الأدب في بغداد أبدوا رغبتهم الملحة في أن تجعل الحكومة دار الأستاذ الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي (ندوة للأدباء) في بغداد، واقترح أحدهم بأن تقوم الحكومة بشراء هذه الدار وترتيبها وتنسيق أثاثها بما فيها كتب الأستاذ ومخطوطاته ودواوينه على غرار دار (شكسبير) في إنكلترا، ودار (جوته) في ألمانيا، و

(فكتور هوجو) في فرنسا؛ وليس ذلك كثيراً على وفاء العراق، ولا غريباً من حكومة الهاشمي
تأبين الزهاوي
كذلك روت الجريدة أن جمهرة من كبار رجالات العاصمة وأدبائها اعتزموا إقامة حفلة تأبينية كبرى لفقيد العربية، وشيخ القريض الزهاوي في يوم أربعينه، وستكون الحفلة تحت إشراف الدولة، وسيدعى لها كبار الأدباء والشعراء في الشرق العربي
أسبوع المتنبي في الجامعة المصرية
حالت الحوائل السياسية المعروفة دون إقامة هذا الأسبوع في الموعد الذي حدد له من قبل، وقد استقر اليوم قرار كلية الآداب على أن يقوم في قاعة الجمعية الجغرافية الملكية في الساعة السادسة من مساء الأيام الآتية على النحو الآتي:
الثلاثاء 10 مارس: خطبة الافتتاح لساحب السعادة الأستاذ مدير الجامعة، و (المتنبي شاباً)
للدكتور طه حسين
الأربعاء 11 مارس: (سيف الدولة الحمداني) للأستاذ عبد الحميد العبادي، ثم (المتنبي وسيف الدولة) للأستاذ أحمد أمين
الخميس 12 مارس: (كافور الأخشيدي) للدكتور حسن إبراهيم حسن، ثم (المتنبي في مصر) للأستاذ أحمد الشايب
السبت 14 مارس: (المتنبي من خروجه من مصر إلى وفاته) الأستاذ مصطفى السقا، ثم (أسلوب المتنبي) للأستاذ عبد الوهاب حموده
الاثنين 16 مارس: (المتنبي والنحاة) الأستاذ إبراهيم مصطفى، ثم (فلسفة المتنبي) للأستاذ مصطفى عبد الرزاق
الثلاثاء 17 مارس: (مكانة المتنبي في الأدب العربي) للدكتور طه حسين
قبر أبي عبيدة عامر بن الجراح- 2 - الرقيم - 1
قرأت في الصفحة 376 من المجلد الأول من دائرة المعارف الإسلامية التي يقوم بترجمتها لفيف من شباب مصر الناهض، أن أبا عبيدة عامر بن الجراح توفي بالطاعون عام 18هـ في أمواس وأن قبره بجامع الجراح في دمشق
والراجح أن أبا عبيدة توفي شرق الأردن بالطاعون الذي ينسب إلى عمواس (لا أمواس كما ترجمت خطأ) وعمواس هذه قرية تقع بين القدس ويافا. ولعل وباء الطاعون تفشى فيها أولاً ثم انتشر في جميع البلاد السورية فمات به خلق كثير منهم أمين الأمة ومعاذ بن جبل وضرار بن الأزور وشرحبيل بن حسنه ويزيد بن أبي سفيان. ودفنوا جميعاً في غور الأردن، ولا تزال قبورهم ماثلة للعيان عدا قبر يزيد الذي اندثرت معالمه ولم يبق له أثر
وقد رمم ضريح أبي عبيدة في عهد السلطان بيبرس كما جاء في الكتابة المنقوشة عليه، وهذه صورتها عنها:
(بسم الله الرحمن الرحيم)
(وأمر بإنشاء هذه القبة المباركة على ضريح أبي عبيدة الجراح رضي الله عنه مولانا السلطان الأعظم سيد ملوك العرب والعجم ركن الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين أبو الفتح بيبرس ابن عبد الله قيم أمير المؤمنين خلد الله ملكه ابتغاء مرضاة الله ورسوله مما
وقفه عليه وحبسه من نصف مناصفات دير معل تونين من حمص من عمل حصن الأكراد المحروس تحبيساً مؤبداً دائماً أثاب الله واقفه بجوده وكرمه يوم يجزي الله المتصدقين ولا يضيع أجر المحسنين- وذلك بنظر الأمير الأعز الأجل الكبير نسله ناصر الدين الجامنكلي الظاهري السعدي نائب مملكة عجلون المحروسة في ذي الحجة سنة ستمائة وسبعة وخمسون)
وجاء في الصفحة 243 من المجلد الثاني من دائرة المعارف الإسلامية أيضاً أن الرقيم (قد تكون جهة في شرق الأردن قريبة من عمان)
أقول قد تكون الرقيم هذه قرية الرجيب التي تقع إلى الشرق من عمان على مسافة تسعة كيلومترات منها، لأن البدو كثيراً ما يقلبون القاف جيما والميم باء
ويوجد في هذه القرية مناور عديدة نمت بجوارها أشجار برية قديمة العهد. والسبب

في قدمها هو احترام البدو لها وتحريمهم قطعها لاعتقادهم أنها كانت تظلل الكهف الذي نام فيه الفتية المذكورون في القرآن ولبثوا فيه ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا ويقدس البدو والفلاحون هذه الكهوف كتقديسهم لأي مزار أو مقام
والرقيم من المنازل التي كان يرتادها الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك للهو والصيد، وفيه يقول الشاعر:
أمير المؤمنين إليك نهوى ... على البخت الصلادم والعجوم
فكم غادرت دونك من جهيض ... ومن نعل مطرحة جذيم
يزرن على تنائيه يزيداً ... بأكناف الموقر والرقيم
تهنئه الوفود إذا أتوه ... بنصر الله والملك العظيم
والموقر المذكور بجانب الرقيم هو قصر أو حصن أموي - ولعله من بناء يزيد - يقع على مقربة من الرقيم (أو الرجيب)
وقد ورد في أحسن التقاسيم للمقدسي أن الرقيم (قرية على فرسخ من عمان على تخوم البادية فيها مغارة، لها بابان صغير وكبير، ويزعمون أن من دخل الكبير لم يمكنه الدخول من الصغير. وفي المغارة ثلاثة قبور تسلسل لنا من أخبارها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: بينما نفر ثلاثة يتماشون إذ أخذهم المطر فمالوا إلى غار في الجبل، فانحطت إلى فم
(غارهم صخرة من الجبل فأطبقت عليهم
وهذا القول ينطبق تمام الانطباق على ما نشاهده اليوم في قرية الرجيب، وما نسمعه من القصص والأساطير التي تروى عن كهوفها ومغاورها.
عمان
بهاء الدين طوقان
مديرية أسوان
قال الأديب رشوان أحمد في مقاله في العدد الماضي من الرسالة: (إن الملك منوسوفيس (وهو الملك الثاني عشر من ملوك الأسرة السادسة) أرسل القائد هرخف إلى بلاد بنت) ظناً منه أو خطأ في مصدر النقل أن هذه البلاد جنوب صعيد مصر لقوله (وفي عهد الأسرة الثانية عشرة أرسل اسرتسن الأول ثاني ملوك هذه الأسرة القائد هرنو بطريق قفط والقصير لجباية الجزية. . .)
أما هجرة المصريين في عهد قلاقل الأسرة الخامسة عشرة فقد كانت إلى نبتة أو نباطي وهي عاصمة بلاد النوبة لا أثيوبيا، ولم تكن مملكة أثيوبيا مجاورة للملكة المصرية إلا بعد غزوة ملوك مصر للنوبة والكوش، وقد غزا بعنخي ملك النوبة مصر أيام حكومة الآشوريين، وهذه الغزوة هي التي يخطئ فيها بعض المؤرخين فيسمونها غزوة الزنوج لمصر
وقد ذكر أن (رمسيس غزا بلاد أثيوبيا وأقام هيكلاً عند كلايشة) ولكن المعروف أن رمسيس الثاني غزا النوبة وسطر حروبه وانتصاراته على معبد أبي سمبل، وأما كلايشة وهيكلها المسمى بيت الوالي (لا بيت الولي) فيقال أن الهيكل من عمل اسرتسن الثاني.
ولم تكن كلايشة وأبو سمبل تابعيتين لأثيوبيا ولا لكوش في وقت ما، وما زالتا من القرى النوبية، وهما اليوم من أعمال مركز الدر، فكلايشة في أقصى الشمال وأبو سمبل في أقصى الجنوب
والكاتب جغرافي ولكنه لم يلتفت إلى تقسيم وادي النيل في كلامه التاريخي، فالمعروف جغرافياً أن مصر جنوبها النوبة، وجنوب النوبة السودان، وفي الجنوب الشرقي من
السودان أثيوبيا أو الحبشة كما تسمى الآن
ولم يذكر غزوة علي بابا ملك النوبة أيام عنبسة آخر ولاة العباسيين لمصر واستيلائه على صعيد مصر، وأما الفنج فقد كان عاصمة ملكهم في سنار (لا في سناد) وقد تكونت مملكة الفنج في حوض النيل الأزرق واستولت على جزء من أثيوبيا، والجزء الجنوبي من النوبة
أما الحكومة الكشاف التي بدأت في بلاد النوبة تعد فتح السلطان سليم، فقد كان الحكام من الأتراك؛ وأول من تولى حكم النوبة وخاصة الإقليم الممتد من الشلال

الأول حتى آخر مديرية دنقلة كان ألبانياً يدعى حسن قوسه وهو رأس أسرة الكشاف الحالية بمركز الدر، ولم يتعرض محمد علي باشا لأحفاده في حكمهم عند غزوته للسودان، لأن الحاكم قدم له فروض التابعية وساعده على نقل الجيوش إلى السودان، وقد رضى بتقديم الضرائب لوالي مصر على أن يعفي أبناء الإقليم من الجندية، وكان ذلك حتى اليوم، ولكن نفوذ الحكام أخذ يتلاشى إلى أن قضى على سلطة الكاشف الروحية في أواخر أيام توفيق باشا. أما معاهدة 1899 فتنص على أن حدود نصر هي (فرس) جنوب حلفا بقليل، وما فرس إلا جزيرة في عرض النهر، ولكن الإنجليز وضعوا حدهم أمام فرس على ضفتي النيل الشرقية والغربية مع أن هذا الحد ليس بفاصل طبيعي

يوسف سميع

العدد 140 - بتاريخ: 09 - 03 - 1936

المعنى السياسي في العيد

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

ما أشد حاجتنا نحن المسلمين إلى أن نفهم أعيادنا فهماً جديداً نتلقاها به ونأخذها من ناحيته فتجيء أياماً سعيدة عاملةً تنبه فينا أوصافها القوية وتجدد نفوسنا بمعانيها، لا كما تجيء الآن كالحةً عاطلةً ممسوحةً من المعنى، أكبر عملها تجديد الثياب، وتحديد الفراغ، وزيادة ابتسامة على النفاق

فالعيد إنما هو المعنى الذي يكون في اليوم لا اليوم نفسه، وكما يفهم الناس هذا المعنى يتلقون هذا اليوم؛ وكان العيد في الإسلام هو عيد الفكرة العابدة، فأصبح عيد الفكرة العابثة؛ وكانت عيادة الفكرة جمعها الأمة في إرادة واحدة على حقيقة عملية، فأصبح عبث الفكرة جمعها الأمة على تقليد بغير حقيقة، له مظهر المنفعة وليس له معناها

كان العيد إثبات الأمة وجودها الروحاني في أجمل معانيه، فأصبح إثبات الأمة وجودها الحيواني في أكثر معانيه؛ وكان يوم استروح القوة من جدها، فعاد يوم استراحة الضعف من ذله؛ وكان يوم المبدأ، فرجع يوم المادة!

ليس العيد إلا إشعار هذه الأمة بأن فيها قوة تغيير الأيام، لا إشعارها بأن الأيام تتغير؛ وليس العيد للأمة إلا يوماً تعرض فيه جمال نظامها الاجتماعي، فيكون يوم الشعور الواحد في نفوس الجميع، والكلمة الواحدة في ألسنة الجميع؛ يوم الشعور بالقدرة على تغيير الأيام، لا القدرة على تغيير الثياب. . . . كأنما العيد هو استراحة الأسلحة يوماً في شعبها الحربي

وليس العيد إلا تعليم الأمة كيف تتسع روح الجوار وتمتد حتى يرجع البلد العظيم وكأنه لأهله دار واحدة يتحقق فيها الإخاء بمعناه العملي، وتظهر فضيلة الإخلاص مستعلنةً للجميع، ويهدي الناس بعضهم إلى بعض هدايا القلوب المخلصة المحبة، وكأنما العيد هو إطلاق روح الأسرة الواحدة في الأمة كلها

وليس العيد إلا إظهار الذاتية الجميلة للشعب مهزوزةً من نشاط الحياة؛ ولا ذاتية للأمم الضعيفة؛ ولا نشاط للأمم المستعبدة. فالعيد صوت القوة يهتف بالأمة: أخرجي يوم أفراحك، أخرجي يوماً كأيام النصر!

وليس العيد إلا إبراز الكتلة الاجتماعية للأمة متميزة بطابعها الشعبي، مفصولة من الأجانب، لابسةً من عمل أيديها، معلنة بعيدها استقلالين في وجودها وصناعتها، ظاهرة بقوتين في إيمانها وطبيعتها، مبتهجة بفرحين في دورها وأسواقها. فكأن العيد يوم يفرح فيه الشعب كله بخصائصه

وليس العيد إلا التقاء الكبار والصغار في معنى الفرح بالحياة الناجحة المتقدمة في طريقها، وترك الصغار يلقون درسهم الطبيعي في حماسة الفرح والبهجة، ويعلمون كبارهم كيف توضع المعاني في بعض الألفاظ التي فرغت عندهم من معانيها، ويبصرونهم كيف ينبغي أن تعمل الصفات الإنسانية في الجموع عمل الحليف لحليفه، لا عمل المنابذ لمنابذه. فالعيد يوم تسلط العنصر الحيّ على نفسية الشعب

وليس العيد إلا تعليم الأمة كيف توجه بقوتها حركة الزمن إلى معنى واحد كلما شاءت؛ فقد وضع لها الدين هذه القاعدة لتخرِّجَ عليها الأمثلة، فتجعل للوطن عيداً مالياً اقتصادياً تبتسم فيه الدراهم بعضها إلى بعض، وتخترع للصناعة عيدها، وتوجد للعلم

عيده، وتبتدع للفن مجلي زينته؛ وبالجملة تنشئ لنفسها أياماً تعمل عمل القواد العسكريين في قيادة الشعب، يقوده كل يوم منها إلى معنى من معاني النصر هذه المعاني السياسية القوية هي التي من أجلها فُرض العيدُ ميراثاً دهرياً في الإسلام ليستخرج أهل كل زمن من معاني زمنهم فيضيفوا إلى المثال أمثلة مما يبدعه نشاط الأمة، ويحققه خيالها وتقتضيه مصالحها

وما أحسب الجمعة قد فرضت على المسلمين عيداً أسبوعياً يشترط فيه الخطيب والمنبر والمسجد الجامع، إلا تهيئةً لذلك المعنى وإعداداً له. ففي كل سبعة أيام مسلمة يومٌ يجيء فيشعر الناس معنى القائد الحربي للشعب كله

ألا ليت المنابر الإسلامية لا يخطب عليها إلا رجال فيهم أرواح المدافع، لا رجال في أيديهم سيوف من خشب. . . .

مصطفى صادق الرافعي

رسوم الفطر والأضحى في عهد الدولة الفاطمية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كانت الدولة الفاطمية في مصر دولة البهاء والبذخ والترف في الحياة العامة وفي الحياة الخاصة؛ وكانت مواكب الخلافة الفاطمية ورسومها الفخمة دائماً مثار الروعة والإجلال، وكانت أعيادها ومواسمها الباهرة مثار البهجة والفرح العام؛ ومازالت آثار من تلك الرسوم والمواسم الشهيرة تمثل في كثير من أعيادنا ورسومنا وتقاليدنا الدينية؛ فإذا رأيت بعض هذه الأعياد والمواسم يجنح إلى نوع من الفخامة، وإذا رأيت بعض هذه الرسوم يتشح بأثواب من الرونق والبهاء، فإنما ذلك يرجع في الأغلب إلى أثر الدولة الفاطمية في بث هذه الروح الباذخة البهجة إلى كثير من نواحي الحياة العامة والخاصة في مصر الإسلامية

وربما كان من الشائق الممتع، وقد قضى المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها عيد الأضحى المبارك، أن نقف على طرف من الرسوم والتقاليد التي كانت تجري عليها الخلافة الفاطمية في الاحتفاء بهذا العيد الإسلامي الجامع؛ وقد كان للخلافة الفاطمية أعيادها ومواسمها الدينية الخاصة، إلى جانب العيدين الإسلاميين الرئيسيين، وهما عيد الفطر وعيد الأضحى؛ وكانت تحتفي بهما في حفلات ومظاهر رسمية رائعة؛ وكان موكب العيد من أعظم مواكب الخلافة الفاطمية؛ ففي ليلة عيد الفطر كان يعقد في الليل بالإيوان الكبير الذي يواجه مجلس الخليفة سماط ضخم يبلغ طوله نحو ثلثمائة ذراع في عرض سبعة أذرع، وتنثر عليه أنواع الفطائر والحلوى الشهية مما أعد في دار الفطرة الخلافية؛ فإذا انتهى الخليفة من أداء صلاة الفجر عاد إلى مجلسه، وفتحت أبواب القصر والإيوان على مصاريعها، وهرع الناس من جميع الطبقات إلى السماط الخلافي وتخاطفوا ما عليه بحضور الخليفة ووزرائه؛ وحينما تبزغ الشمس يركب الخليفة في موكبه إلى الصلاة ويخرج من باب العيد إلى المصلى؛ وقد انتهت إلينا عن هذه المواكب الفاطمية من أقوال المؤرخين المعاصرين صور تبهرنا بروعتها وجمالها؛ ونحن نحيل القارئ على تلك الفصول الشائقة البديعة التي ينقلها إلينا المقريزي عن هذه المواكب الخلافية الرائعة ونكتفي بأن ننقل إليه هذه الصورة الموجزة من أقوال المسبحي مؤرخ العصر الأول من الدولة الفاطمية، قال: (وفي يوم العيد ركب العزيز بالله لصلاة العيد وبين يديه الجنائب

والقباب الديباج بالحلي، والعسكر في زيه من الأتراك والديلم والعزيزية والأخشيدية والكافورية، وأهل العراق بالديباج المثقل والسيوف والمناطق الذهب. وعلى الجنائب السروج الذهب بالجوهر، والسروج بالعنبر، وبين يديه الفيلة عليها الرجلة بالسلاح والزرافة، وخرج بالمظلة الثقيلة بالجوهر وبيده قضيب جده عليه السلام فصلى على رسمه وانصرف)

فإذا عاد الخليفة من الصلاة كان ثمة سماط آخر أبهى وأروع وهو السماط الثاني لعيد الفطر؛ فيجلس الخليفة في مجلسه وأمامه مائدة من فضة يقال لها المدورة وعليها أواني الذهب والفضة غاصة بأفخم الأطعمة وأشهاها؛ وقبالة المائدة الخلافية سماط ضخم يتسع لنحو خمسمائة مدعو، وقد نثرت عليه الأزهار والرياحين وصفت على حافتيه الأطباق الحافلة بصنوف الشواء والطيور والحلوى البديعة، وجلس إليه رجال الدولة والعظماء والأكابر من كل ضرب وأكل من شاء دون إلزام حتى لا يرغم على

الإفطار من لا يرى الإفطار في ذلك اليوم؛ وعند الظهر ينفض المجلس وينصرف الناس
وأما عيد الأضحى أو عيد النحر كما كانت تؤثر تسميته في ظل الدولة الفاطمية تنويها بأبرز مظاهره ألا وهي نحر الأضحية، فقد كان يحتفى به بركوب الخليفة إلى الصلاة على النحو المتبع في صلاة عيد الفطر ثم يخص بسماط حافل يقام في أول يوم منه. بيد أنه يمتاز بركوب الخليفة فيه ثلاث مرات متوالية في أيامه الثلاثة الأولى، ويمتاز بالأخص باشتراك الخليفة نفسه في إجراءات النحر؛ وكان قيام الخليفة بهذا العمل من أروع المظاهر والمراسيم التي جرت عليها الخلافة الفاطمية في الأعياد العامة. فلنتصور أمير المؤمنين متشحاً بثوب أحمر قان يسير في موكبه ماشياً إلى دار النحر الخلافية - وقد كانت تقوم في ركن خارجي من القصر - وبين يديه الوزير وأكابر الدولة والأساتذة المحنكون (وهم المشرفون على شؤون الخاص) ويكون قد اقتيد إلى النحر واحد وثلاثون فصيلا وناقة أمام مصطبة يعلوها الخليفة وحاشيته، وقد فرشت حافتها بأغطية وبطائن حمر يتقى بها الدم، وحمل الجزارون كل بيده إناء مبسوطا يتلقى به دم الضحية؛ ثم تقدم رؤوس الأضاحي إلى الخليفة واحدة فواحدة، فيدنو منها وبيده حربة يمسك بها من الرأس، ويمسك القاضي بأسل سنانها ويجعله في عنق الدابة فيطعن بها الخليفة، وتجر من بين يديه حتى يأتي عليها
جميعاً، وكلما نحر الخليفة رأساً جهر المؤذنون بالتكبير؛ وتقدد الضحية الأولى، وتفرق قطعاً صغيرة في الأولياء والمعتقدين؛ وفي اليوم التالي ينظم نفس الموكب إلى المنحر، وينحر الخليفة سبعة وعشرين رأساً؛ وفي اليوم الثالث ينحر ثلاثة وعشرين؛ ويجري توزيع لحم الأضحية خلال هذه الأيام الثلاثة على أرباب الرسوم في أطباق خاصة للتبرك، ويقوم بالتوزيع قاضي القضاة وداعي الدعاة، ويخص نقباء الدعوة وطلبة دار الحكمة (دار العلم) بقسط من اللحوم الموزعة؛ فإذا انقضت مراسيم النحر خلع الخليفة عند العودة إلى القصر على الوزير ثيابه الحمر ومنديلا ملوكياً بغير سمة، والعقد المنظوم، فيركب الوزير وعليه الخلع المذكورة في موكب حافل من القصر شاقا القاهرة حتى باب زويلة، ثم يدخل من باب القنطرة إلى دار الوزارة، وبذلك تنتهي حفلات النحر
وكان الخليفة العزيز بالله أول من سن سنة إعطاء الضحايا وتفريق لحومها في أولياء الدولة على قدر مراتبهم، وكان ما يخرج منها غير ما يذبحه الخليفة بنفسه يبلغ بضعة آلاف من مختلف الأصناف هذا عدا ما يفرق في أرباب الدولة من الخلع والأموال؛ وقد انتهت إلينا من روايات المؤرخين المعاصرين تفاصيل دقيقة عن مقادير النفقة في تلك المواسم، ومنها أن نفقة سماطي الفطر والأضحى كانت تبلغ زهاء أربعة آلاف دينار؛ ويذبح من البقر والجاموس والنوق في أيام النحر نحو ألفين وخمسمائة، ومن الغنم ألفين وأربعمائة؛ وقد أشرنا إلى ما كان يوزع في عيد الفطر في أرباب الدولة من صنوف الفطائر والحلوى، وكيف كان يسمح للكافة باقتحام إيوان القصر لنهب السماط الخلافي أمام عيني الخليفة ذاته؛ وعلى الجملة فقد كانت الخلافة الفاطمية تبدي في المواسم العامة من ضروب البذخ والبهاء والبهجة، ما يسبغ على هذه المواسم أثوابا ساطعة من الرونق والجمال والسحر
وقد كان هذا البذخ الذي تنثره الخلافة الفاطمية حولها ينفث في الشعب ذاته حب الظهور والمرح، فكانت القاهرة تلبس في تلك المواسم حلة أنيقة باهرة وتحفل شوارعها ومحالها ودورها بأنواع الزينة القشيبة؛ وكانت في الليل تبدو كأنها شعلة ساطعة من الأنوار؛ وكان القصف والمرح يخرجان أحيانا في تلك المواسم عن حد الاعتدال حتى أن ولاة الأمر لجئوا غير مرة إلى إلغاء بعض الرسوم وتقييد بعض الحريات؛ وفي عهد الحاكم بأمر الله ألغي
الاحتفال ببعض المواسم التي كان القصف يخرج فيها عن حدود الاعتدال مثل عيد الشهيد، وحرم شرب الخمور والركوب في الخليج، وخروج النساء، واشتد الحاكم في ذلك حتى كانت القاهرة تغدو أحياناً في أثواب قاتمة من السكون والإقفار والروع. بيد أنه فيما خلا هذه الفترات القليلة، كانت الخلافة الفاطمية دائما عند تقاليدها الباهرة تنثر حولها حلل البذخ والبهاء والترف في كل المواسم والمناسبات
هذه لمحة سريعة فيما كانت ترتبه الخلافة الفاطمية من الحفلات والرسوم الباذخة

لاستقبال العيدين الإسلاميين الرئيسيين؛ ولم تكن الخلافة الفاطمية أقل بذخا وبهاء في الاحتفاء بباقي المواسم والأعياد الأخرى كيوم عاشوراء، ويوم الغدير، ويوم النيروز، وعيد الشهيد وغيرها، فقد كانت تسبغ عليها جميعاً أقصى مظاهر الروعة والفخامة، وكانت هذه المواسم والأعياد لدى الشعب المصري أياماً مشهودة تفيض بهجة وحبوراً؛ وكانت الخلافة الفاطمية ترمي بترتيب هذه الرسوم الباذخة إلى غايتين: الأولى أن تبث هيبتها الدينية بما تسبغه من الخطورة والخشوع على بعض المظاهر والرسوم، والثانية أن تغمر الشعب المصري بسيل من الحفلات والمآدب والمواكب الباهرة، وأن تأسره بمظاهر جودها الوافر، وأن تنثر عليه ما استطاعت من آيات البهجة والمرح، كل ذلك لكي تكسب ولاءه وعرفانه وتأييده؛ وقد كانت الخلافة الفاطمية تشعر دائما أنها لم تكسب كل ولائه وتقديره، وان سياستها المذهبية تبث إلى نفسه شيئا من الوحشة والريب؛ بيد أنه يجب أن نقول من جهة أخرى إن الدولة الفاطمية كانت بحق دولة البهاء والبذخ الواسع، وكانت هذه الرسوم والمظاهر الرائعة من بعض مظاهر قوتها وعظمتها وغناها؛ وكانت هذه الروح الفخمة الباذخة تطبع كل رسومها ومظاهرها، في القصر وفي الخارج، وفي السياسة والدين والإدارة، وفي الحياة العامة والحياة الخاصة؛ وقد سرت آثار كثيرة من هذه المظاهر والرسوم الفخمة الشائقة إلى كثير من القصور والدول الإسلامية التي تعاقبت على مصر بعد الدولة الفاطمية؛ وقد نلمس إلى اليوم في بعض الرسوم والنظم الدينية، وفي بعض مظاهر أعيادنا ومواسمنا

لمحات من آثار البذخ الفاطمي

محمد عبد الله عنان

التعليم والحالة الاجتماعية في مصر

للأستاذ إسماعيل مظهر

قرأت في العهد الأخير تقريرين عن التعليم في مصر كتبهما عالمان استقدمتهما وزارة المعارف لينظر كل منهما في ناحية خاصة من نواحي التعليم ودرجاته، وأفضى كل منهما بآراء ناضجة فيما كلف به من بحث. فكتب مستر مان مفتش المدارس وكليات المعلمين بإدارة المعارف بإنجلترا تقريراً مدعماً بالإحصاءات فائضاً بالأفكار والنظريات، وكتب مسيو كلاباريد أستاذ علم النفس في كلية العلوم بجامعة جنيف تقريراً آخر عمد فيه إلى نظريات حديثة في علم النفس والتربية لا نعلم مقدار ما فيها من خطأ أو صواب، لأن الحكم على مثل هذه الأشياء يجب أن يرجع فيه إلى أهل الاختصاص، وإن كانت النظرة العاجلة التي ألقيتها على هذا التقرير قد أقنعتني، وقد أكون مخطئاً، بأن نظريات كلاباريد ربما تكون قد أسلمت به نتائج لا يؤيدها الواقع ولا تسندها الحقائق التي يعرفها كثير من المصريين معرفة أولية لا تحتاج إلى نظر علمي ولا إلى استنتاج من مقدمات

هذا إلى أن العالمين الأوربيين إن كانا قد بحثا في التعليم المصري كل من ناحية اختصاصه، فإن بحثهما إنما جاء قاصراً على الدائرة التي عينتها له وزارة المعارف وفي ضوء المعلومات التي زود بها، وفي الحدود التي رسمت للتعليم في مصر منذ خمسين سنة مضت. فإن كانا قد أحسا بشيء من النقص، أو وقع لهما شيء يستحق النقد، فإنما وقع لهما في ما هو داخل في هذه الحدود أو مشمول بها. فلم ينظرا مثلا فيما يجب أن يؤدي التعليم في مصر من حاجات الحياة العامة فيها، وفي علاقة التعليم بالحالات الجديدة التي تكتنف الحياة المصرية في تطورها الحديث. على أن هذا لا ينزل من مكانة ما كتب العالمان الفاضلان أو يقلل من قيمة آرائهما. فإن المصريين أنفسهم أحق بأن يتلمسوا مكان النقص الذي يحسونه في التعليم من ناحية علاقته بالحياة عامة، وبالحالة الاجتماعية خاصة

ومهما يكن من أمر الباحث الأوربي في الشؤون المصرية، ومهما يكن من علمه وتمكنه فيه، فأنه من المتعذر عليه كما قال مستر مان في تقريره أن يلم به إلمام المحيط بالحقائق الأساسية التي يحس بها المصريون أنفسهم من غير استعانة بآراء أو نظريات. ذلك بأن لكل أمة إحساساً بما يعتورها من نقص لن يفقه الغريب عنها شيئاً من خصائصه إلا بالجهد الشديد وطول التأمل والتفكير. مثل ذلك أن التقريرين اللذين وضعهما العالمان الأوربيان لم يلمسا الحقائق الأولية في حياتنا الاجتماعية وعلاقتها بالتعليم؛ ذلك في

حين أن كل مصري يشعر شعوراً عميقاً بأن عصراً من عصور التطور الفكري قد آذن بأن تشرق شمسه في سماء مصر، وأن عصراً آخر قد أخذ في الأفول. أضف إلى ذلك أننا نشعر بأن حالاتنا الاجتماعية قد اتجهت في تطورها متجهاً ألقى على التعليم في مصر عبئاً جديداً لم يشعر به آباؤنا، وقد نشعر بعض الأحيان بشيء من القلق، وقد نشعر بأن هذا القلق قد يتضاعف بعض الأحيان حتى ليذهب بالبعض إلى حد اليأس من مستقبل آلاف الطلبة الذين يتعلمون اليوم في المدارس وتخرجهم الكليات زرافات كل عام. بل إننا أخذنا نشعر بكل ما شعر به الأستاذ هنري جيمس عندما قال: إن الاحتفاظ بحالة اجتماعية ثابتة الدعائم قوية الأركان في جمعية يكتب على المتعلمين فيها عيش الفقر والذلة، لأمر فيه من البعد عن حقائق الطبع البشري بقدر ما في محاولتك بناء هرم يرتكز على رأسه لا على قاعدته من بعد عن حقائق الطبيعة الكونية

ولقد يماري مفكر في أن ذلك الشعور العميق الذي يكتنف تفكير الكثيرين من المصريين إنما له أسبابه الغامضة البعيدة عن إدراك الذين لا يفكرون في التعليم إلا بقدر ما يفكرون في أداة تخرج متعلمين، ولا يزيد خطره في نظرهم عن خطر آلة تخرج أحذية أو لفافات تبغ في نظر عامل يجهل حقيقة الآلة التي يديرها، ولا يعرف عنها إلا أمرين: شكلها الظاهر، وثمرها الذي يجنيه منها

على أن الثمر الذي أخذنا نجنيه من أداة التعليم عندنا قد جدت عليه ظاهرتان جديدتان: الأولى أن طعمه قد أخذ يتغير، والثاني أن صنفه أخذ ينحط مع كثرة الإنتاج. ولا شك في أنهما ظاهرتان يعلل بهما كثير من الظواهر الاجتماعية التي تمر علينا في كل يوم صور منها، وأخصها كثرة العاطلين من المتعلمين، والجهد الذي يلقاه المجدون منهم في تحصيل رزقهم الحلال

ولا ريب في أن هذه الظاهرات ترجع إلى أسباب أخذت تتجمع منذ أكثر من نصف قرن من الزمان، حتى أفضى بنا التطور إلى الحالة التي تكتنفنا اليوم. ولما كان الغرض الذي أرمي إليه من نشر هذه المقالات إنما يتجه إلى وصف العلاقة التي تقوم اليوم بين التعليم

والحالة الاجتماعية والمهمة الكبرى الملقاة على عاتق التعليم في تنظيم الحالة الاجتماعية ودرء الأخطار التي قد يتعرض لها المجتمع المصري بقدر ما في مستطاع التعليم أن يدرأ منها، وجب أن أظهر أولا أن أشد الأخطار التي يتعرض لها الكيان الاجتماعي في مصر من ناحية التعليم أن الشاب المتعلم في مدارسنا العليا يفقد مع التعليم استقلاله الذاتي، باعتباره قوة لها حقيقة مستقلة عن القوى الأخرى التي تكتنفها. وقد يشعر بذلك الشاب المتعلم، وقد يشعر به الذين يعلمون أولادهم، حتى لقد نجد أن بعض القادرين على التفكير ينظرون نظرة تشاؤم إلى المستقبل القريب، وإن لهم في ذلك لحقا، وإن لهم في تشاؤمهم لأسبابا تبرره وحقائق تعلله، ومن أجل أن نظهر تطور الحالات التي أفضت بنا إلى هذه النتائج ينبغي لنا أن نذكر حقائق خمسا نرجع فيها إلى تاريخنا بعض الشيء:

أولا: حكمت مصر منذ أبعد العصور على نظام تباين الطبقات الاجتماعية، وعلى أساس الفوارق في الحقوق العامة؛ غير أن الطبقات أخذت تتقارب حقوقها الطبيعية وتنتفي من بينها الفوارق من عهد قريب، فالكل الآن متساوون أمام القانون، ولكل مصري حق الانتخاب والحكم من طريق مجلس النواب. فأخذ مظهر وجود طبقتين متمايزتين في الحقوق المدنية يزول شيئاً بعد شيء، فلقد كانت مصر القديمة مكونة من ثلاث طبقات هم: الحكام والكهنوت والشعب؛ ومنذ غزو الاسكندر وحكم البطالسة إلى حكم المماليك حتى بدء الاحتلال الإنجليزي كانت هناك طبقات تختلف حقوقها وامتيازاتها؛ أما الآن فقد انتفت هذه الفوارق نظرياً، ونقول نظرياً لأننا لا نزال نشكو من بعض مساوئها، بالرغم من أن أصغر فلاح في مكنته أن يقاضي أعظم عين في البلاد، وأن يأخذ حقه منه إن كان له حق

ثانياً: بالرغم من أن نظام الطبقات المتباينة في الحياة والحقوق هو النظام الذي اتبع في مصر منذ أبعد العصور، وبالرغم من أن حالة مصر الاجتماعية من خمسين سنة مضت كانت تكفل الاستقلال المادي لطبقتي ذوي الامتيازات والفلاحين معاً؛ بأن تحمل طبقة الفلاحين، وهي الطبقة العاملة، العبء كله، بأن تكفي نفسها وتكفي حاجات حكامها بقدر الاستطاعة، فأن الحالة الجديدة، حالة التساوي أمام القانون في الحقوق،

قد أحدثت ظاهرة اجتماعية جديدة، كان سببها أن الفلاح قد خرج من كونه عاملا لا حق له في ملكية الأرض، إلى رجل حر له حق العمل متى شاء والانقطاع عنه متى أراد، وله فوق ذلك حق
الملك، بل نقول إنه انتقل من عامل إقطاعي إلى رجل حر، فقامت على هذه ظاهرة اجتماعية جديدة
ثالثاً - هذه الظاهرة الاجتماعية الجديدة التي قامت على تحرير الفلاح المصري وعتقه من نظام الإقطاع الذي ظل خاضعاً له طوال القرون، قد قلب آية الحياة الاجتماعية في مصر. فإن هذا الفلاح لم يكن ينقصه شيء ليكون مستقلا تمام الاستقلال في حياته إلا قانون يحميه، ونظام اجتماعي يجعله يشعر بأنه قوة لها أثر قي الحياة؛ فلما وقع ذلك بالفعل أصبحت الطبقة الدنيا أي طبقة الفلاحين المسخرين التي كان عليها أن تحفظ استقلالها واستقلال الطبقة التي تعلوها، سيدة نفسها، وأصبحت طبقة الملاك وأصحاب الجاه كما كانت في الحالة الأولى عبئاً عليها، ولكن في صورة جديدة، هي صورة أخذت شكل صراع خفي بين طبقتين
رابعاً - ولقد انحصر مظهر هذا الصراع في طبقة تحررت من قيود النظام الإقطاعي وهي الطبقة المنتجة العاملة بيدها، فأصبحت مستقلة بنفسها. وهي طبقة قادرة على الحرث والغرس والحصاد في بلاد لن يزرعها غيرها، ولن ينتفع بها غيرها؛ فهي مستقلة مادامت من فوق الأرض التي يغذيها النيل بشرايينه المحيية؛ وهذه الخطوة الجديدة أحدثت ظاهرة أخرى
خامساً - عكفت الطبقة الأخرى، طبقة أصحاب الجاه على مطلب آخر تتقي به النتائج التي تترتب على استقلال الطبقة العاملة ولم تجد من وسيلة أقرب من تعليم أولادها ليكونوا حكام البلاد. ولكن طبقة الفلاحين أخذت تزاحم الطبقة الأولى في هذا المضمار، فأخذ الأثرياء منهم يعلمون أولادهم ليكونوا حكاما فنجحوا. ولكن بعد أن ملئت الحكومة بما تحتاج من حكم وكتبة قام شعور جديد بأن أولاد موظفي الحكومة والأثرياء الذين أخرجوا أولادهم من محيط الفلاحة إلى محيط العلم أقل استقلال مع تعلمهم من أبناء الفلاحين الجهلاء. وأصبحنا الآن والموقف بين متعلم عاطل يتطلع إلى مرتب أبيه أو ثروته ليعيش، وفلاح جاهل لا عمدة له في الحياة إلا خبرته الموروثة في فلح الأرض وقوة عضلاته ومحراثه وفأسه وماشيته. فهو رجل مستقل تمام الاستقلال في الحياة، على العكس من المتعلم العاطل. فإذا كانت الغاية من التعليم تخريج رجال مستقلين يكافحون في الحياة كفاح المنتج لا كفاح
المستغل لكفاح غيره، رأينا أن التعليم لم يف ببلوغ الغاية الأخيرة منه، مادمنا نرى أن ابن الفلاح بخبرته الموروثة مستقل في حياته منتج بعمله، في حين أن المتعلم يفقد مع التعليم استقلاله الذاتي ويتطلع دائماً إلى حياة الركود لا إلى حياة الكفاح التي لم يهيئ له تعليمه طريقها الواجب
على أن قليلا من التأمل في هذه الالمامة التي ألممنا فيها بأوجه التطور الاجتماعي الذي انتابنا منذ خمسين سنة خلت، يحمل المفكر على المضي خطوة أخرى في تأملات إذا أحطنا بها نكون قد فرغنا من التمهيد للفكرة التي نريد أن تكون الدعامة التي يقوم عليها أساس التعليم في مصر، فنرى ما يأتي:
أولا: إن طرق التعليم التي عكفنا عليها إلى الآن شطرت الأمة معسكرين: الأول معسكر المتعلمين على القواعد الأوربية التي اتبعناها في مدارسنا، وخرجوا بهذا التعليم عن جو ثقافتنا التقليدية، فأصبحوا نصف مصريين؛ والثاني معسكر الفلاحين الذين أبعدناهم عن الثقافة الحديثة، وحافظنا على ثقافتهم التقليدية فصاروا بذواتهم في القرن العشرين، وبعقليتهم في مصر الفرعونية
ثانياً: كونَّا بهذا طبقتين غير متجانستين، بل مختلفين تمام الاختلاف، بحيث لا تجمع بينهما من رابطة إلا الرابطة الطبيعية التي هي رابطة الدم؛ فكنا في ذلك أشبه بالمستعمر الذي يرغب دائماً في أن يزيد من الصدوع التي تفصل بين طبقات الأمة، لا أشبه بالمصلح الذي يعمل دائماً على أن يرأب تلك الصدوع ويقرب بين الطبقات حفظاً للتوازن الاجتماعي. ولا شك في أن هذه السياسة تؤدي بطبعها، وعن غير قصد، إلى حرب الطبقات التي نحن مقدمون عليها حتماً إذا استمر التعليم على نماذجه الحاضرة وأخذت تلك الصدوع والفوارق تزيد عاماً بعد عام

ثالثاً: دليلنا على هذا أن ابن الفلاح إذا أثرت فيه الثقافة الحديثة، سواء أكان تعليمه في مصر أم في إحدى جامعات أوربا، أصبح لا ينشق في جو بلاده نسيم الثقافة التي نشأ فيها، فتلحظ فيه روح التبرم بأبيه الفلاح وأمه الفلاحة، وتأنس فيه نزعة قديمة تدفعه دائماً إلى حب العودة إلى الجو الذي نشأ فيه، فتراه قلقاً غير مستقر، هدَّاماً لا بنَّاءً، يريد لو تتاح له الفرصة ليعود إلى الجو الذي كان فيه؛ فإذا أعيته الحيلة، كما يحدث دائماً، واضطر إلى
البقاء في جو بلاده، هجر الريف، مرباه الأصيل ومربى آبائه وأجداده منذ قرون طويلة ومنشأ تقاليده منذ أزمان لا تعيها الذكريات، ليسكن في مدينة من المدن، فيفضلها مع عيش الفقر والعوز على الريف مع عيش الراحة والهناءة؛ وتراه ينزع إلى البطالة في مدينة دون العمل الذي هو أجدر بحياة الرجولة في الريف. ومن هنا تتكون الطبقات المتبرمة بالحياة، العاملة على الهدم دون الإصلاح، النزاعة إلى الأفكار المتطرفة والثورات. أولئك الذين عناهم العلامة هنري جيمس في كلمته التي سقناها من قبل رابعاً: وأنت أينما وليت وجهك رأيت أثر المعسكرين اللذين كونهما التعليم المصري ظاهراً جلياً. فأنت تنتزع الولد من حضن أبيه الفلاح وأمه الفلاحة، فكأنك تنزعه من حضن (مصر الفرعونية)، لتنشئه في حضن (مصر الأوربية)، وتخرجه بعد ذلك قاضياً أو محامياً أو مهندساً أو تاجراً أو رجل إدارة أو غير ذلك، ولكن بروح أوربية تكسوها ثياب مصرية شفافة؛ وبالأحرى تخرج رجالاً انبتت صلتهم بتقاليدهم الثقافية القديمة. وأنت في دور العدل وفي المتاجر وفي مركز الإدارة وفي عيادة الطبيب ومكتب المهندس، واقع في كل دقيقة على مظهر من مظاهر التفرقة بين المعسكرين. فالفلاح البعيد عن مدنية المدن، وبالأحرى البعيد عن جو الثقافة الأوربية الذي نشأ فيه القاضي والمحامي والتاجر ومأمور المركز ومعاون الإدارة وطبيب القرية، يمثل معسكر مصر الفرعونية؛ أما هؤلاء فإنما يمثلون (مصر الأوربية)، ولا شك في أن هذا مظهر من مظاهر الانحلال الاجتماعي، لا يسأل عنه في مصر شيء بقدر ما يسأل التعليم
خامساً: بالرغم من أن المتعلم قد نزع بفكره نزعة أبعدته عن ثقافة آبائه التقليدية، فقد أثرت تلك الحال في مزاجه وتصوراته ونظراته الفنية في الحياة، تلك النظرة التي يجب أن تكون مصرية صميمة، ويجب أن نحافظ عليها نقية على سجيتها لنكون مصريين جديرين بالمصرية، وكان من نتائج هذا أن المتعلمين يفضلون أقذر قرية أوربية على ريفنا الجميل وبحيراتنا الفاتنة، حتى لقد كادت تقوى النزعة الأوربية فينا على وحي النيل نفسه؛ والسبب في هذا أننا كنا خلال الخمسين عاماً الماضية كالمنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى، إذ انتزعنا من أرواح ناشئتنا (مصريتها)، ولم نترك فيها من المصرية إلا لون البشرة، ولقحناهم بالروح (الأوربية) فلم نبق مصريين كأهل الريف، ولم نستطع أن نكون
أوربيين كفتيان (بيكادلي سركس)
سادساً - بدأت هذه الحال تؤثر في مرافقنا الحيوية، حتى لقد نزعنا إلى القول بأن كل ما هو أوربي جميل، وكل ما هو مصري رديء؛ وكل فكرة مصرية لعب ولهو، وكل فكرة أوربية جد ورجولة؛ وكل فن مصري بُدائيٌّ وغير متفق وروح العصر، وكل فن أوربي مهما كان فيه من بعد وتضاد مع نزعتنا وتقاليدنا المصرية بل ومع آدابنا المرعية والعرف الإنساني، وحضارة وتمدين؛ وشملت هذه الحال فتياننا وفتياتنا، فألسنتهم لا تتحرك إلا بكل ما هو أوربي غربي، وقلوبهم لا تهفو إلا لكل ما هو بعيد عن المصرية ولا شبهة في أن المعسكرين يتهيآن الآن: الأول للعمل على خراب الريف، والثاني لا حول له ولا قوة، فسوف ينهزم ليترك الريف خراباً. وإنما يخرب الريف بخراب القلوب التي يجب أن تؤمن بأن الريف هو مصر، وأن مصر هي الريف، وأن المدن أسواق لذلك الريف لا أقل ولا أكثر. وإنما يخرب الريف بأن نحب المدينة ونهجر الريف، فكأننا هجرنا مصر. ولا مخرج لنا من هذا إلا بأن نصل ثقافتنا الحديثة بثقافتنا التقليدية؛ فيكون المصري فلاحاً مصرياً روحاً ونزعة وخلقاً، ثم قاضياً ومحامياً وطبيباً ورجل إدارة من بعد ذلك. يجب أن تكون ماهيتنا مصرية وأعراضنا أوربية، لا أن نعكس الآية بأن نعمل أولاً على محو مصريتنا، فإذا تم لنا ذلك رحنا نتيه بأننا أتينا بأعراض أوربية ولقحنا بها ذوات لا ماضي لها، وبالأحرى لا ماهية لها
تلك مقدمات لابد منها إذا أردنا أن نبحث حالتنا الاجتماعية من جهة علاقتها بالتعليم.

وسنرى في البحوث التالية كيف يمكن أن نستفيد منها
إسماعيل مظهر
قصة المكروب
كيف كشفه رجاله
ترجمة الدكتور أحمد زكي
وكيل كلية العلوم
بستور والكلب المسعور
وصل الفائت
اكتشف بستور لقاحا لداء الكلب هو عبارة عن 14 حقنة من مكروبه بعد إضعافه إضعافا متفاوتا في المقدار يحقن به المريض. وجرب هذا في الكلاب فكان النجاح. فلما أراد تجربه في الآدميين تخاذل وخشي العاقبة حتى جاءه ولد عضه كلب مسعور فأشار عليه الأطباء بتجربة اللقاح فيه لأنه ميت لا محالة ففعل ونجح اللقاح، وكان أول لقاح نجح في آدمي
عندئذ ذهبت عن بستور مخاوفه، وفارقته وساوسه. فكان موقفه من هذا الطفل هو عين موقفه من أول كلب حقنه رُو باللقاح في مخه بغير رضا أستاذه. خشي بستور على الكلب أن تُثقب جمجمته، فلما ثَقَبها رُو بغير علمه وصحّ الكلب من بعد ذلك، أكَبّ بستور على رؤوس الكلاب تثقيباً وعلى جماجمها تخريقاً. وهاهو ذا الآن يخشى عاقبة اللقاح الجديد على الطفل المكلوب؛ فلما صح الطفل واشتَفىَ من دائه، ماتت في نفس بستور شكوكه ومخاوفه، تلك الشكوك والمخاوف التي لم تتغلغل أبدا في نفسه تغلغلا كبيرا، ومع هذا تراءت له جسيمة واضحة، أرته إياها نفسه الفنّانة وهي تكثّر القليل وتجل الغامض. ثم إذا به يصيح للدنيا يُعلن أهل الأرض أن في إمكانه دفعَ الكلَب عنهم وحمايتَهم من بلواه
وأخذت جماهير المكلوبين المعذبين تتدفع إلى معمله بشارع ألم تطلب ربّه، ربّ المعجزة الكبرى. وجاء على هذه الحُجر القذرة القليلة حينٌ من الدهر وقف فيها البحث العلمي وقوفا كاملا. واشتغل بستور وعَوْناه في فرز الخلائق التي اجتمعت عليهم من كل أمة. وتعدّدت لغاتهم، فكنت تسمع أنغاماً متنافرة، وألسنة متباينة، كلها تصيح صيحة واحدة: (بستور!
أنقذنا!) فلبى نداءهم وأنقذهم؛ هذا الرجل الذي لم يكن طبيباً يوماً ما؛ هذا الرجل الذي كان يقول في سخرية يمازجها العُجْب: (هل أنا إلا كيميائي؟). نعم أنقذهم رجل العلم هذا الذي قضى حياته ينازع الأطباء ويخاصمهم خصاماً مرّاً؛ أنقذهم بأن حقنهم بتلك الأربع عشرة حقنة من مكروبه المجهول المضعَف بعضَ الإضعاف؛ تلك الأربع عشرة المعقّدة التي لم يستسغها عقل أو يألفها منطق: حَقَن تلك الأربع عشرة فيهم ثم ردّهم بعدها مُعافين إلى أركان الأرض الأربعة
وجاءه من روسيا من بلدة سملنسك تسعة عشر فلاحا من الموجيك عضهم ذئب مسعور قبل ذلك بتسعة عشر يوماً. وجرح الذئب خمسة منهم جروحاً بالغة فعجزوا عن السير فلم يكن بد من إرسالهم إلى المستشفى الكبير. وكان منظر هؤلاء الروس غريبا في طواقي الفرو فوق رؤوسهم وهم ينادون: (بستور! بستور!) وهي الكلمة الوحيدة التي عرفوها من لغة البلد الذي حلّوا فيه
وثارت ثائرة باريس - على نحو لا يعرفه إلا باريس - قلقاً على هؤلاء المنكوبين الذين لا مفرّ لهم من الموت بعد أن طال الزمن عليهم مذ عضهم الذئب بنابه. وتحدّثت باريس فلم يكن لها غير هذا من حديث. وقام بستور ورجاله بحقن الألقحة في هؤلاء المناكيد الذين نضب حظهم من الحياة وقل رجاؤهم فيها. فالعشرة كان يعضهم الذئب فيموت منهم على المعروف ثمانية، فكان على هذا الحساب لابد أن يموت من أصحابنا خمسة عشر
قال الناس حيثما اجتمعوا: (من الجائز أن يموتوا جميعاً فلا ينجو منهم أحد؛ فقد مضى على عضهم أسبوعان وزيادة. مساكين والله! وستظهر عليهم أعراض الداء، وستكون شديدة فظيعة. ضاع الرجاء فيهم وحُمّ القضاء!)
ولعل الناس صدقوا فيما قالوا! ولعلهم حقا جاءوا بعد فوات الأوان! وعزّ على بستور الطعام، وعزّ عليه النوم، فأنه خاطر فأمر رجاله فحقنوا الألقحة الأربع عشرة في

هؤلاء التعساء صباح مساء ليقتصدوا نصف الأيام الضائعة عسى أن يلحقوا بالداء فينفع الدواء

وأخيراً صاح بستور صيحة الفخر العالية، وصاحت باريس وفرنسا والدنيا أجمع صيحة الشكر، وأنشدت أنشودة النصر حارّة داوية. فاللقاح أنجى الفلاحين الروس إلا ثلاثة. فعاد الناجحون إلى بلادهم فاستقبلهم بذلك السرور الرهيب الذي تجده القلوب إذا هي دُعيت

للترحيب بميّت منشور، للترحيب بهؤلاء الرجال المرضى الذين ودّعوا بلادهم والأمل منهم مقطوع، فزاروا لا شك حرماً قدسيا لولي من أوليا الله، ثم عادوا يسعون على أرجلهم إلى ديارهم سعي الأحياء. وبعث قيصر الروس الأعظم إلى بستور صليب القديسة حنا الماسي ومائة ألف من الفرنكات ليبدأ بها في بناء بيت لصيادة المكروب. فقام هذا البيت في شارع ديتو وهو المعمل الذي يُسمى اليوم معهدَ بستور. وجاءه غير المائة ألف مال من العالم أجمع، من كل قطر من أقطاره، وكل ركن من أركانه، حتى تكدّست لدى بابه الملايين من الفرنكات ليبني بها المعمل ليقتنص فيه مكروبات فاتكة أخرى، وليجد لها فيه ألقحة ماضية أخرى. نعم تكدست الملايين على بابه، فقد كانت عاطفة قوية تلك التي أندت أكُف هذا الخلق الكثير، عاطفة قوية كالتي تثيرها المصائب إذا نزلت بالناس فادحةً شاملة

وتم بناء المعمل؛ ولكن كان عمل بستور في الحياة قد تم كذلك. فلقد كان نصره الأخير كبير الوقع في نفسه، ثقيلا على فقار ظهر احتملت أثقال العمل الشديد مدة أربعين عاماً في تواصل لم يُسمع بمثله أبدا، فناء جسده تحت آخر الأحمال، وانقطع وتره بآخر الأثقال، فمات في عام 1895 في بيت صغير كان على مقربة من البيوت التي حفظوا بها عندئذ كلابه المسعورة في فلنوف لياتنج ' على أطراف باريس. ولفظ آخر أنفاسه كما يلفظها الكاثوليكي العريق في كَثْلَكَته أو الصوفيّ وقد كانه طوال حياته: في إحدى يديه كان الصليب، وفي اليد الأخرى كانت يد أكثر أعوانه صبرا وأقلهم شهرة وأكبرهم خطرا - تلك مدام بستور. وكان حول سريره عَوْنه رو وعونه شمبرلاند، وأعوانه الباحثون الآخرون؛ أولئك البُحَّاث الذين براهم نشاطه الجمّ في حياته برياً؛ أولئك البحاث الذين أسلموا له المقاد فدار بهم في هجيرة العمل دوراناً مستديماً قاسياً مرا؛ أولئك الأعوان الذين أوحى إليهم من وحيه واقتبس لقلوبهم قبساً من قلبه؛ أولئك الخلصاء الذين خاطروا بأرواحهم في إنفاذ خططه الجامحة في محاربة الموت، قاموا اليوم حول سريره يودُّون أن يفتدوه لو أمكن الفداء

هكذا انتهت حياة هذا الرجل خير انتهاء. هذا الإنسان الغالي في إنسانيته، صائد المكروب ومنجي الأرواح، الثائر الوثّاب، الناقص الخطّاء!

ولكن لبستور خاتمة حياة أخرى يتجه لها خاطري أكثر من اتجاهه لهذه. كانت في عيد ميلاده عام 1892 حين استتم سبعين عاماً كاملة، فاحتفلوا به في السربون بباريس احتفالاً عاماً رائعاً كبيرا أهدوا إليه وساما. وكان لستر حاضراً، وكان رجال كثيرون مشهورون من أمم أخرى حاضرين، فاحتل هؤلاء العظماء رقعة المكان الدنيا حيث مجالس العظماء، واحتل الطبقات العليا من حولهم شباب فرنسا وطلاّب السربون والكليات والمدارس العليا؛ وامتلأ المكان بالأحاديث، واختلطت به أصوات فيها رنة الشباب. وفي برهة قصيرة انقطعت الأحاديث، وهدأت الأصوات، وخيّم على المجتمع صمت رهيب؛ ففي الممشى تراءى بستور يجر خطاه عرجا؛ وقد أخذ رئيس الجمهورية بذراعه واتجه الاثنان إلى المنصّة في رأس المكان، وصدحت موسيقى الحرس الجمهور بدور جَلْجَلَ في الفضاء، كذلك الذي يُتَحي به الأبطال العظماء وقد عادوا من ساحة النصر بعد أن روَّوْها عبثاً بدماء الأعداء، وحجبوا آثراها بغير طائل بألوف الأشلاء

بستور يموت

وكان في الحاضرين لِسْتر أمير الجرّاحين، فقام واحتضن بستور؛ وهتف الشيوخ الإجلاء من مجالسهم، والشبان الطلاّب من شرفاتهم، حتى ارتجت الحيطان؛ وأخيراً جاء دور الكلام لصاحبنا صياد المكروب الشيخ، وكان قد ذهب عنه صوته الحديد الرعّاد الذي كان يرفعه في الخصومات عاليا، فقام نجله يقرأ عنه خطابه؛ وكان ختام هذا الخطاب أنشودة للرجاء، لا بما تضمنته من خلاص الأنفس، بل على الأكثر بأنه دعوة دينية حارة تفتح للرجال سبيلا جديداً من الحياة؛ وكان بها يدعو شباب الجامعة وطلبة المدارس

العالية، قال:
لا تسوموا أنفسكم التشككَ في الأشياء، فالتشكك أرض قاحلة لا تُنبت، وسحاب جَهام)
لا يُمطر؛ ولا تحملوها على الريبة في قيم الأمور وأوضاعها فتحملوها على الزهادة
وتُفقدوها الثقةَ بالله. واحذروا أن تركنوا إلى اليأس من أجل ساعات سوداوات تأتي
على الأمم! ذلك أن لكل حالة غاية، ولكل كرب نهاية، والليل الأسود يعقبه النهار
الضاحي. اطلبوا العيش في المعامل والمكاتب، ففي أجوائها الساكنة تجدون طمأنينة
النفس وسلامها. سلوا أنفسكم: ماذا صنعتِ أيتها الأنفس بالذي كان من تعليم
وتثقيف؟ فإذا تقدمت السنُّ بكم فسلوها ثانية: وماذا صنعت لهذا البلد الذي من أرضه
كان غذاؤك ومن مائه كان ماؤك. حتى إذا جاءتكم الشيخوخة فلعلكم عندئذ تجدون
أكبر الهناءة في الإحساس الغَمْر اللذيذ بأنكم ساهمتم مع
المساهمين وعملت مع العاملين بطريقة أياً كانت لتقدم هذه الإنسانية ولخيرها. . .)
(انتهى بستور)
أحمد زكي
المازني العاشق. . .!
للأستاذ (أبو سلمى)
ما قرأت كلمة أستاذنا المازني (في الحب والمرأة) إلا أيقنت أن هنالك مؤامرة على
الحب - وا حسرتا - فجزعت. . . . . لا على الأستاذ المازني فإنه إذا لوح بيده أو زوى
ما بين عينيه رفع خصومه الرايات البيض. . . .
ولا على المرأة. . . فإن لها من لسانها الطويل - بقطع النظر عما إذا كان وراءه شيء
أم لا - ما قد تستطيع به الوقوف أمام المازني. . .
ولكني جزعت على الحب في هذا الزمن الذي طغى فيه العقل - أو مجموعة
الاختبارات والأمزجة والطباع - ولو أستطيع لرميت به (أي العقل) مربوطا بكتلة من
الحديد تثقله - إلى الهوة السحيقة التي تليق به
والمازني عزيز على إخوانه وتلامذته - وأنا منهم - المنتشرين في كل قطر، وحبيب إلى
قلوبهم - وهم عدد النجوم - وما كان لمثلي أن يرفع يده وهي شلاء أمامه، ولكن حملته
على الحب والمرأة أثارت عليّ جنودا لا قبل لي بها، تعرف عطفه عليّ وحبه لي، وهو
أدرى بقوتها. .
ومادام المرء يخلق كل يوم خلقاً جديداً فلم لا نأخذ الخلقة التي نميل إليها وتستهوينا؟
ومادام الإنسان يتحول إلى صور شتى فلم لا نهفو إلى الصورة التي تروق في أعيننا؟
والحياة قصيرة، والهوى فضّاح، فلأعد إذاً إلى أعماق الماضي، إلى المازني الفتى الذي
دفنه:
مات الفتى المازني ثم أتى ... من مازن غيره على الأثر
أزيل عنه اللفافات وأبعثه بشراً سوياً تتوهج عيناه بنور قلبه. . .
أيها الفتى المازني! أين أنت من المازني الذي أتى على الأثر وتكون لنا عوناً
عليه؟!. . . ألست أنت الذي كنت تطوف حول دار الهوى وتتمتم وعيناك نديتان:
أوصدوا الأبواب بالله ولا
تدعوا العين ترى فعل البلا
وامنعوا دار الهوى أن تبذلا
إن للدار علينا ذمما ... وقبيح خونها بعد الخراب
من قصيدة (الدار المهجورة)
ألست أنت الذي كان يحوم حول الحمى في الليل مضلل الرقيب، وجامع الحبيب
بالحبيب - ولا أدري إذا كنت تلبس طربوشاً أم لا - فتنظر إلى شباك حسنائك وروحك
تتراءى خلف مقلتيك حيناً وفوق شفتيك حيناً آخر، حتى إذا رمتك باللحظ زفرت
وأنشدت:
ما أفصح اللحظ يا حبيبي ... وأعذب البث بالعيون
لحظ يضيء الذي توارى ... في ظلمة الغابر الدفين
من قصيدة (لحظ الحبيب)
فإذا هبطت - هي - إلى الحديقة واختبأت بين الأغصان أنبأك همس الأزهار عن مكانها
فتقول:

وودت لو تنفع الأماني ... لو كنت لدناً من الغصون
وليتني صيدح يغني ... في ظلك الوارف الأمين
من قصيدة (لحظ الحبيب) أيضا
فإذا نادتك وظهر اللفظ من بين شفتيها مشتعلاً يهديك إلى دنيا الغرام هتفت أنت:
أظل إذا اسْتَكَّ في مسمعي ... يرفّ عليّ جناح الغرام
شفاه يؤججن أنفاسه ... ويلثمن ألفاظهن الظوامي
من قصيدة (لفظ الحبيب)
وتدلف إليها، ويلفكما الليل في طياته (كما يغيب سر المرء كتمان) والكلام لك، فتناجيها:
عجب كيف يرتضي البعد عنا ... من عبدنا في حسنه الله جلاّ
أنت أفسدتني وعلمتني الحب ... فهلاّ أصلحت مني هلاّ
كان خيراً من السهاد رقادي ... في حمى ظلك الوريف وأحلى
من قصيدة (المناجاة)
وتشير إليك بتلك اليد التي كنت تعتقد أنها تفتح لك طريق سعادتك فتطمئن إلى الصدر الرحيب، وتغفو بين الأحلام على ترنيمتها:
نم هنيئاً في ظلي الفينان ... وانس بَرْحَ الهموم والأشجان
وانس ما كان من زفير على الهج ... ر ودمع يجري بغير عنان
هذه راحتي على وجهك الغض ... وروحي وريفة الأفنان
وفؤادي مرفرف بجناحي ... هـ حنانا فانشق نسيم الحنان
من قصيدة (رقية حسناء)
وحينما تقضي لبانات الفؤاد المعذب تودع الحبيب وتقول:
ودعته والليل يخفرنا ... والبدر يرمقني وأرمقه
ولرب خدّ بت ألثمه ... والدمع يطفئ ما أحرّقه
والورد أقطفه لوجنته ... والشوك في قلبي مفوّقه
من قصيدة (ليلة وداع)
ثم يلج الوجد فيوشي جنبات الأفق ويصبح الفتى المازني (مثلا شروداً في الهوى. . .) وبعد، فحالات أستاذنا المازني كلها حسنة مشرقة إشراق الابتسامة العذبة، ولكن أحسنها عند إخوان الصفا هي هذه الصفحة العطرة التي تندي شبابا وصبابة، فإذا أراد أن يعفى على أثرها ولو بالسيف، فليعلم أننا نجتليها ولو من بين الغمام لامعة وهاجة؛ وإننا وإن دوى في الآفاق صوته المرنان يُسمع الصم، نرجو منه أن يعلم أن هذا الصوت الداوي الآن - بشأن الحب المرأة - يتسرب من بين الطبقات ويصلنا ناعماً ليناً ويقف على أبواب القلوب
وإن هذا الحب الذي أصاب منه (شبعه) كان غذاءه الوحيد فكان يئن ويحن وينشد:
غذائي الحب يا من فيه حرمان ... مني له أبداً ما عشت نشدان
وهل غذائي إلاّ أن أراك وأن ... يمر بالسمع لفظ منك فتان
ما لذة القلب خلوا من دخيل هوى ... ما الليل إن لم يكن بالصبح إيقان
مالي بغير الهوى في العيش من أرب ... ولا بقلبي أحقاد وأضغان
من (مناجاة هاجر)
والشعر. . . - لقد نسيت - الشعر الذي قلت عنه إنه يلبس الحب أستاراً تبعده عن الحقيقة. . . ومن يعلم؟ فلعله يؤدي رسالة الشعر، ويحسن صنعاً خوفا من ألا يكون وراء الأستار شيء من الحقيقة - كما تقول الأساطير -
نعم أنت كنت تقول في الماضي:
أما يرى غايتي في الشعر واحدة ... وإن تباين أوزان وأوزان
فما أحوك على الأيام قافية ... ألاّ وفيها على حُبِّيه عنوان
وما قيمة الشعر إذا لم تردده شفتان مرتجفتان أو. . . . لم تله به قدمان صغيرتان ولكنني أخشى. . . وهنا أضع يدي على قلبي. . . . أخشى أن يكون كلامك عن الحب والمرأة نتيجة استبدادٍ بك. . . ومَّمن؟. . . من امرأة؛ فندِينك بقولك:
وإنني عاشق كتوم ... يبطن غير الذي يقول

(القدس)
أبو سلمى
التاريخ في سير أبطاله
ميرابو - 2
ميرابو. . . تلك الأعجوبة!
جوته
للأستاذ محمود الخفيف
وكان الملك قد أخذ بنصيحة نكر حين اشتدت الضائقة المالية فأجاب الشعب إلى دعوة مجلس طبقات الأمة إلى الاجتماع وهو مجلس قديم شهدت فرنسا آخر اجتماع له عام 1614، وقد حدد لاجتماعه اليوم الخامس من شهر مايو سنة 1789، وكان الغرض من اجتماعه، مشاورة نواب البلاد في مخرج من الأزمة المالية
ولكن هل كانت الضائقة المالية كل ما يشكو منه الشعب؟ كلا؛ إن فرنسا إذا أردنا الواقع كانت على أبواب عصر جديد، بل إن تاريخ العالم كان في مستهل فصل جديد!
فما كانت الثورة مهما اختلفت مظاهرها إلا أوبة الشعب من غمر القرون أو من مجاهل النسيان، كانت حركة لا محيص عنها، حركة أدى إليها تطور الزمن على وجه معين بحيث لم تكن الأيام لتلد غيرها
هاهو ذا الأفق الباسم تنشق جوانبه عن جبين الصباح بعد ليل طال واشتدت حلكته، ولكن ما تلك الخطوط الحمراء التي يراها ميرابو ويوجس في نفسه خيفة منها؟! إنه يرى فيها نذير الشر والفزع الأكبر. ياله من رجل عجيب! إنه يتشاءم والقوم متفائلون؛ إنه يرى ما لا يرون، ولكن لينتظر ما تأتي به الأيام!
الشعب مبتهج يبسم له الأمل ابتسام الربيع من حوله، أنظر إليه غداة افتتاح المجلس في طريق نوابه تكاد تنشق حناجره وتدمى أكفه من كثرة ما يهتف وما يصفق. يا لله! ما له يطرق في وجوم كلما مر به أحد السادة من النبلاء أو القساوسة؟ هل آن لتلك الجموع أن تفرض سلطانها وتجير القوم على الاعتراف بها؟ من ذلك الرجل العابس المهيب الذي تتناقل الألسن اسمه وتتدافع الجموع لرؤيته؟ أنه بعينه نائب اكس الكنت ميرابو!
اتخذ ميرابو كرسيه وسط العامة، وقد تهامس الأشراف عند دخوله المجلس وتخاطبوا بالأحداق، على أنه كان يزدريهم أكثر مما يزدرونه، ويمقت في أشخاصهم العهد القديم ونظمه وتقاليده
ودخل الملك القاعة في حاشيته التي تجلى فيها ترفع الملكية واستكبارها، وألقى على النواب خطابا ارتاحوا إلى ما جاء فيه من أماني، وهتفوا لما تضمنه من عبارات العطف، ثم قام نكر فأكدَّ رؤوس سامعيه بخطاب طويل نصفه أرقام!
تبع الأشراف والقساوسة الملك إلى خارج القاعة وبقى العامة في أماكنهم وبينهم ميرابو يشيع الملك ووزيره بنظرات المقت والسخط. ولقد رأى النواب في ملامح وجهه إمارات الغضب، وفسرها الأشراف بأنها مظاهر الحقد الدفين والغل الشخصي ولكن ميرابو أصبح اليوم غيره بالأمس فلقد ودع حياة السفه والتمرد، وأصبح السياسي المتزن المهيب الجانب، الذي يتوقف مصير الحوادث على ما يصدر عنه من قول أو فعل
إنه لا يطمئن إلى المستقبل ويرى الأمور تنذر بالكارثة ما لم تعالج بالحكمة. ولقد درس نفسية الشعب خارج المجلس وعرف أن له أطماعا لابد من تحقيقها. لم يكن الناس ليرضوا أن تؤخذ الأصوات في المجلس باعتبار الطبقة فيفوز الممتازون، ولا يكون لمساواة العامة إياهم في العدد أية قيمة. وكان الشعب ونواب الشعب يلحون في أن يكون التصويت باعتبار الرؤوس. كذلك كان الشعب يطمع أن يكون للمجلس مكان مستديم في النظام الحكومي، ويكون لما يصدر من آراء أثر في سياسة الدولة. وكان ميرابو يسعى جهده في أن تعلن الحكومة موافقتها على ذلك في أولى جلساته خشية أن ترغم على ذلك فيما بعد فيؤثر ذلك أسوأ الأثر في مجرى الحوادث، ولكن الحكومة أغفلت الأمر، فكان محقاً في حنقه وتبرمه
كان يفطن ميرابو أكثر مما يفطن غيره إلى انبعاث الشعب واحتضار الملكية. وكان يرى الملكية وقد أثقلتها تقاليد الماضي تكاد تسقط من الإعياء، حتى لقد قيل عن

لويس السادس عشر إنه ورث عن آبائه الثورة والعرش معاً! ولقد كان هذا الملك المسكين يهرول تارة ليدرك الزمن فتنقطع به الأسباب، ثم يكلف الأيام ضد طباعها حيناً فتسخر منه الأيام! وكان ميرابو يرى بنافذ بصره أن سلامة الملكية وسلامة الوطن كلتاهما تتوقف على التوفيق بين الملك والشعب، ولا سبيل لنجاح الثورة غير هذا السبيل

أرسل إلى نكر يقول له: (صدقني أيها الوزير أن مصير الملكية في فرنسا متوقف على ما سيكون من أمر هذا المجلس، وخير لك ولهذا البلد المسكين أن تواجه المجلس بما يحقق أماني الشعب)

ولقد أعد ملتمسا ليتقدم به إلى الملك في الجلسة الأولى؛ ويقال إن الملك بادر إلى الخروج عقب انتهاء الاجتماع لما علم من عزم ميرابو. ومما جاء في هذا الملتمس: (أضف إلى مآثرك أيها الأمير المعظم إجابة الشعب إلى رغبته يبق الصولجان في يدك، فإنني أخشى إن رفضت أن يشهر في وجهك.)

يا لهذا الرجل من بطل! كيف ينقلب سلوكه هذا الانقلاب المدهش؟ إن المرء ليلمس أهم ناحية من نواحي عظمته في ذلك التحول، وما عرف التاريخ قبله رجلا درج من مثل ماضيه فوصل إلى مثل ما أتيح له من مجد وعظمة وكمال سياسي

كان منطق الحوادث يقضي بأن يرى ميرابو في الثورة فرصة لشهواته ومرتعاً لمآربه، فيصبح في غمرتها الرجل الأحمق الذي يهدم ولا يعرف غير الهدم، ويبطش ولا يستطيع أن ينهض لغير البطش. ولكنه ما عرف الهدم، وما كان رائده سوى البناء كأحسن ما يكون البناء! وذلك لعمري من عجائب الأيام! ولكنه سر العبقرية

أجل! لقد جد الزمان فأثار جلال الموقف كامن مواهبه، ولامس موضع العظمة من قلبه، ورأى في الثورة حادثاً نبه نفسه إلى حقيقتها، أو قل إنه وجدها كفؤا له كما وجد نفسه كفؤا لها

وسنرى أن جهاده منذ اليوم سيكون شاقاً مريراً، فإن من يعنيهم أمر الوطن من الوزراء ورجال الدولة من أمره في ريبة، لا يأمنون أن يتخذ من حرج الأمور وسيلة إلى أغراضه الخاصة كما كانوا يزعمون، بله ما كانوا يضمرونه له من حقد وما كانوا يكنونه من حسد، حتى المستنيرين من معارفه ومقدري نبوغه لم يكونوا أقل من هؤلاء حذرا منه، وكانوا فوق ذلك يترفعون في صلف عن مدارسة رجل له مثل ذلك الماضي! مما كان يملأ قلبه غيضاً. والملك؟ أيستطيع أن يصل إليه وله من بطانته أسوأ حجاب؟ وهو لا يثق في نواب العامة، ويخاف أن يؤدي نزقهم وجهلهم إلى الكارثة. قال يصفهم ذات يوم: (أكثر من خمسمائة عضو لا يعرف الرجل منهم جاره! أتوا من جميع أنحاء المملكة، لا يجمعهم نظام، ولا يلم شملهم زعيم، ولن تجد بينهم ذا نفوذ، أو تتبين فيهم من يأخذ نفسه بأي ميثاق من مواثيق الطاعة، وكلهم ميال إلى أن يُصغي إليه قبل أن يصغي هو إلى أحد. . .)

أرأيت موقفاً أشد من هذا الموقف حرجاً؟ ولكن هل كان حرج الموقف يعمي بصيرته عن سبيل الرشاد، أو يدفع السأم إلى قلبه؟ كلا فما خلق مثله إلا للشدائد، وما يظهر جلده أكثر ما يظهر إلا في الملمات. وهل كانت تستطيع السفينة أن لم تسير بلا ربان في مثل تلك الأنواء؟ ومَن ربانها إن لم يكن هو ربانها؟ لم تمض أيام حتى صار بين نواب العامة المقدم عليهم، يستقيمون على ما يرسم من طريقة وإن لم يعلنوا زعامته لهم، ويتجهون بأنظارهم إليه إن سدت في وجوههم المسالك وإن لم يظهروا له ما هو جدير به من عطف ومحبة، ولكنه كأخيل، لم يكن ليصده عن مصلحة وطنه ما ينال شخصه من إهانة، وفي ذلك من سر عظمة الرجل ما هو جدير بالإعجاب

وكان إلى جانبه الأب سيس، ينقل إلى نواب العامة ما يوحيه إليه، وكان هذا الرجل قد أثر صفهم على صفوف الأشراف كما فعل ميرابو من قبل؛ وكان لشخصه في قلوبهم مكانة قوامها الحب، إن لم يكن قوامها الإعجاب

أخذ الأشراف ورجال الدين يجتمعون كل طائفة في حجرتها، وعولوا على أن يكون إقرار المسائل باعتبار الطبقة؛ ولو طاوعهم العامة إلى ذلك لكان للثورة اليوم سيرة غير سيرتها. ولكن أنى للعامة أن يقروا على أنفسهم عملا يطوي بهم القرون إلى

الوراء، وهم يتعجلون الزمن، ويودون لو يسبقونه إلى تحقيق الأمل الوليد؟ على أنهم ما كانوا يريدون بملكهم الطيب شرا حتى ذلك اليوم، ولكن شطط رجال البلاط وسوء تدبيرهم سيجعل من هذا المجلس هيئة تقلب نظام الحكم في فرنسا، بل وتدفع تاريخ البشر إلى طريق جديد

وما كان ميرابو ليرضى أن يطيع أصحاب الامتياز إلى غرضهم الشائن وإن كان يخشى أن يؤدي إحراج العامة وإعناتهم إلى التذمر فالهجوم، فيتدخل الملك وهو لا يريد أن يتدخل الملك إلا بما يرضي الشعب؛ هو لا يحب أن تبغي إحدى القوتين على الأخرى، ولذلك فهو يسعى ويواصل السعي، ويدعو ويكرر الدعوى إلى الأناة، حتى يصيخ له من صفوف العامة رجل رشيد لم يكن سوى سيس، وسرعان ما يأخذ العامة بنصيحته على لسان سيس، فيقفون من الأشراف موقفاً حكيما هو انتهاج السياسة السلبية، فيأبون أن ينتخبوا لهم هيئة

داخلية تشعر بقبول انعزال مجلسهم، كما يرفضون أن يتسلموا الرسائل الموجهة إليهم باسم رجال الطبقة الثالثة

كان يرجو ميرابو أن يخرج العامة من المأزق دون شحناء ولا اعتداء، ولكن العامة انتظروا حتى ملوا الانتظار، فاقترح عليهم قرب نهاية مايو أن يرسلوا إلى رجال الدين، وقد أنس في فئة منهم العطف على العامة، يدعونهم باسم الله وباسم الإنسانية والسلام أن ينضموا إليهم

وفي اليوم العاشر من يونيو أقترح سيس إرسال دعوة نهائية إلى رجال الطبقتين يطلبون انضمامهم إلى صفوف العامة؛ وسواء قبلوا الدعوة أو لم يقبلوها يجتمع نواب العامة وحدهم للعمل باسم الشعب الفرنسي كله. وأخيراً حين رفض رجال الطبقتين دعوة العامة أعلنوا في اليوم السابع عشر من يونية قرارهم الخطير أنهم هم (الجمعية الأهلية) فخطوا بذلك أول خطوة نحو الثورة

أشفق ميرابو وقد فهم مغزى هذا القرار على الجمعية وأيقن أن الملك لابد مجيب على ذلك بضربة حاسمة، إذ ما الذي يمنعه أن يباغتهم بمرسوم يحل به المجلس كله؟ ولذلك فقد احتاط للأمر وتوقى الخطر قبل حدوثه. فتقدم إلى الجمعية باقتراح قبلته وأعلنته، ومؤداه أن نواب الأمة يقررون أن الضرائب القائمة غير شرعية، ولكنهم لا يمانعون في جمعها مادامت الجمعية منعقدة؛ وكانت هذه خطوة سديدة موفقة من جانب ميرابو

على أنه ظل يحسب للموقف حسابه. فما كان الأشراف ورجال البلاط ليقابلوا عمل الجمعية بالسكون، وكان ميرابو قد واجه ثورة النواب في نقاشهم قبل أن يطلقوا على جمعيتهم ذلك الاسم، وطلب إليهم أن يبحثوا عن اسم آخر لا يتضمن مثل ذلك التحدي، ولكنهم أعرضوا عنه فلم يجبن عن أن يعلن فيهم (أن نفوذ الملك وحقه في (الفيتو) لابد أن يكون أمراً أساسياً في الدستور، وبغير ذلك فانه يفضل أن يقيم بالقسطنطينية على أن يعيش في فرنسا، لأنه لا يرى أخطر من تسلط ستمائة رجل على شؤون الدولة)

ولقد ذاعت الإشاعات يومئذ أن ميرابو أخذ من الملكة مبلغاً طائلا، وهكذا يأبى شؤم طالعه إلا أن يلازمه فيرمى بالخيانة منذ ذلك التاريخ الباكر

اعتزم الملك نقض قرارات الجمعية، وعول على الذهاب بنفسه إليها، وحدد لذلك اليوم الثالث والعشرين من يونيه، وفي صباح اليوم العشرين من ذلك الشهر حين لم يستطع نواب الشعب الاجتماع في دار الجمعية بحجة إعدادها لدخول الملك فقد توجهوا إلى ملعب التنس المجاور لها؛ وهناك وقد أخذ الحماس من قلوبهم كل مأخذ أقسموا أنهم لن ينفضوا حتى يضعوا للأمة دستوراً، فكان هذا أحد أيام فرنسا المشهورة

ما للسفينة عجلى تسخر بالأنواء وتستخف بما يحيط بها من موج كالجبال؟ أدر الدفة يا ربانها ليس لها غيرك يوجهها إلى شاطئ السلامة!

دخل الملك في اليوم الموعود، وقد تكلف أكثر ما يطيق من الجد والحزم، وأعلن نقض قرارات 17 يونيه، وأمر أن تجلس كل طبقة على انفرد ليكون صدور الأصوات بالمجلس لا بالرؤوس، وعلى الجميع أن يصدعوا بما يؤمرون وإلا فانه (سيعمل ما تقتضيه مصلحة البلاد معتبراً نفسه نائبها الوحيد)

طرب الأشراف ومن يشايعونهم من رجال الدين لذلك الوعيد، وقاموا إلى مجلسهم

بعد مبارحة الملك القاعة، وبقى نواب العامة في مكانهم جامدين. أخذتهم الحيرة فلا يدرون ماذا يفعلون، واستولى الرعب على أفئدتهم، فعلى وجوههم صفرة كئيبة، وفي عيونهم دهشة ومسكنة، ولكن ميرابو لم يخلق الفزع لمثله، فوثب من مكانه وفي عينيه الواسعتين نظرات الليث، وراح يزأر فيهم مذكراً إياهم بقسمهم. فأعاد إلى قلوبهم الحمية، ثم دار بعينيه فإذا كبير الأمناء يسأل النواب في صلف: (ألم يسمعوا أمر الملك؟) وفي تلك اللحظة الرهيبة التي ولدت للعالم عصراً جديداً يأبى القدر إلا أن يجعل من ميرابو ترجمانه، فيصرخ في رسول الملك قائلاً: (نعم أيها السيد! سمعنا ما أوعز إلى الملك بإلقائه علينا، ولست أنت، ولم يكن لك من مركز أو حق يبيح لك الكلام في هذا المجلس. نعم لست أنت الذي يذكرنا به. إذهب فقل لمرسيلك إننا هنا بإرادة الشعب، فلن نبرح مكاننا إلا على أسنة الحراب)

وتصايح النواب قائلين: (هذه إرادة الشعب). (الشعب لا يتلقى أوامر من أحد)، وقام سيس يذكرهم أنهم اليوم ما كانوا بالأمس؛ ولم يخن ميرابو حضور ذهنه وسط تلك الحماسة، فأعلنت الجمعية اقتراحه بأن رجالها منذ اليوم في حصانة، وأن التعدي عليهم جريمة كبرى!

أرأيت كيف هيأت بسالة ذلك الرجل له موقفاً أصبح فيه بحيث يتوقف مصير الحوادث على ما يفعل أو يقول؟ وسرعان ما تجاوبت أنحاء فرنسا أنباء ذلك الرد التاريخي، وجرى اسم ميرابو على كل لسان في باريس وطبع شخصه في كل قلب من ذلك اليوم أصبح ميرابو زعيم الشعب غير مدافع، وأن تم له ذلك فعلا من قبل، وإذا كانت الحوادث تخلق الرجال كما يقولون، فمن الرجال من يخلق التاريخ. وما تاريخ البشرية إذا أردت اليقين إلا تاريخ عظمائها. ولقد كان ميرابو من هؤلاء النفر الذين يربون جيلا ليلدوا غيره! وإني لأجرؤ فأزعم أنه عندي أول زعيم شعبي بالمعنى الحديث. إذ كان التاريخ يومئذ ينتقل من فصل إلى فصل كما رأينا

وكان انتقاله هذه المرة على أساس جديد، على أساس شعور الفرد بوجوده في شكل ديمقراطي لم ير العالم نظيره منذ ديموقراطية أثينا. أجل، لقد جاءت الأنباء من وراء المحيط بانتصار الحرية على يد بطل من أهم أبطالها هو واشنطن؛ ولكن الفرق بين الحركتين كالفرق بين الرجلين؛ فتلك حركة سياسية في شعب يخوض غمار الحرب إلى حقه الذي اغتصبه الأجانب من أعدائه، وهذه حركة اجتماعية كانت أول أمرها سلمية في شعب يستخلص حقه من ساداته وكبرائه؛ وذلك رجل يشهر السيف ويصل إلى غرضه بالحديد والدم، وهذا رجل لا يعرف إلا القلم ولا يرى سوى المنبر طريقاً إلى غرضه!

(البقية في العدد القادم)

الخفيف

تلخيص كتاب: الحاكمون بأمرهم

تأليف جاك بانفيل

بمناسبة وفاته في 10 فبراير سنة 1936

للأستاذ عبد الحليم الجندي المحامي

تتمة

طاف بنا بانفيل في النصف الأول من كتابه بطغاة التاريخ ليقدم إلينا طغاة العصر الحاضر؛ فنحن الآن في روسيا القيصرية حيث الشعب يجزي قياصرته الإرهاق الفظيع بالإرهاب الأفظع؛ وإن تعجب فاعجب لهذا القدر الساخر الذي جعل من أكبر القياصر حبّا للشعب أكبر صرعى الإرهاب وهو القيصر (نقولا الثاني). . نشطت الشرطة في أعقاب ذلك المصرع ولكن نشاطها كان متجها نحو (الأنفار) لا نحو القادة، فنجا من طغيانها دعاة جيهنميو (كالفالديمير أوليانوف) أولئك الذين جعلوا شعارهم (كل شيء، أو لا شيء)

نفي الفتى - بل الأستاذ - فالدمير سنتين في سيبريا، وفي سنة 1896 ألف جمعية الكفاح، وفي سنة 1903 افتتح مؤتمر بروكسل للعمال، وعقب ذلك أنشأ في لندرا حزب العمال الروس الديمقراطي

وفي سنة 1905 اندلع لهيب الحرب بين اليابان وروسيا فكانت فرصة نادرة، فمشى إلى قصر الشتاء مائتا ألفٍ من العمال يحدوهم قسيس ليقدموا إلى سدة القصر

ملتمساتٍ متواضعة، فقابلتهم المدفعية بالنار على عتباته، وكأن أركان الإمبراطورية الأربعة كانت في الانتظار، إذ شجرت القلاقل في كل ناحية وذُبح الغراندوق سرج، وساد الإضراب في أرمينيا وبولنيا وسبستبول؛ وعبر فالدمير - لينين - الحدود ليختبئ في موسكو، وليؤلف جيش الثورة الذي قاوم الحكومة تسعة أيام ثم انهزم، ففر ليتين وراء الحدود ليكون الحزب البلشفي في سنة 1912 وليرقب الفرصة المتاحة ومضت سنوات سبع كان على لينين في منفاه أو في مهربه أن يدبِّر فيها للثورة تدبير الأستاذ الخبير، فلقد كان يقول: (إن الثورة فن)

وفي سنة 1914 عندما ارتفع بخار الدماء في سماء الدنيا هدأت أعصاب لينين! وأخذ يتحرك، فأهاب بالعمال في العالم أجمع أن يُلقوا السلاح ليتخلصوا من الطواغيت إلى الأبد، وليجعلوا من رأس المال أسطورة تُحكى للناس، أُزيلت من عالم الواقع الحاضر، وجاءت الظروف تضع الأحجار في بنيان هذا الطاغية - والمصادفة دائما في خدمة الدكتاتوريات - إذ سرت الرعدة في كيان الإمبراطورية الذي شاخ؛ فالحرب بدت مجزرة فاشلة، والفيالق أخذت تتذمر فقامت قيامة العمال في 8 مارس سنة 1917، وفي 100 ساعة فقط هوى عن العرش آخر أبناء رومانوف

وتطلعت الثورة تريد رأس حكيم يحركها. . وتطلع لينين إلى الألمان فنقلوه إلى روسيا في قطار مسلح في حاشية من ثلاثين هداماً من زملائه، ووصل الركب إلى روسيا، وأخذ لينين يناضل الحكومة المؤقتة لتكف عن مواصلة القتال في الحرب الكبرى، فوجهت إليه تهمة الخيانة العظمى وأوشكت أن تظفر به، ففر من جديد ليعود بعد شهور ومعه (الفنان الأكبر) فنان الثورات (تروتسكي)

وضع الفنان الأكبر خطةً هي آية الفن الثوري الحديث؛ فعمد إلى المصالح الميكانيكية، وهي التلغراف والتلفون والبريد والكهرباء والسكة الحديد؛ وعهد في الاستيلاء عليها إلى فئة قليلة من المحاربين في زي عمال، وأمّر عليهم طائفةً من المهندسين المهرة، فلم يمض يومان حتى كانت هذه السواعد الفتية قد وصلت إلى نتائج باهرة برغم قلة عددها، إذ كان اتحاد الغاية مع تشعب الأهداف الأولية سبباً في عجز الجيش وضعف حيلة الحكومة عن مواجهة المخربين، وهكذا استطاع (تروتسكي) أن يعزل العاصمة عن الإمبراطورية، ثم استطاع أن يصدر الأوامر إلى أنحاء الأرض النائية؛ وبعد مناورات هندسية أخرى سار بفيلق صغير صوب القصر وسلط عليه شواظاً من جهنم ترسله مدافع الطراد (أوردرا) فتفتحت الأبواب للطارق الفظيع ودعا إليه (لينين)!. .

واستسلمت روسيا إلى الشيطان، ودان له النواب في مجلس (الدوما) وابتدأ لينين يحكم باسم الحق والعمال، ففرغ من الألمان بالمعاهدة، وتفرغ إلى روسيا بالحديد والنار ليفرض عليها أفظع طغيان يرتعد من هوله التاريخ، ويتضاءل أمامه وألف نيرون (نيرون)!

ثم عجزت نظمه جميعاً وقامت جورجيا تطلب استقلالها فسار إليها (تروتسكي) في جحفل أغبر ليمسح حركتها من الوجود؛ وبدا لعين الطاغية الأعظم فشل مشاريعه فأخذ يقول: (لقد هدمنا أكثر مما نستطيع بناءه) وأخير أصابه الشلل وشب إلى جانبيه طاغية جديد هو ستالين

ومات لينين وخلفه ستالين، فاستهل حكمه البلشفي أبرع استهلال، إذ طوح بتروتسكي إلى أقصى الأرض ليُنبذ من دولةٍ إلى دولة كأنه الطاعون؛ وليكتب في الصحف كل يوم ليعيش. . (وهكذا - مثل ساتيرن - تأكل الثورات بنيها) واخترع ستالين نظام السنين الخمس، وطنطنت له الإذاعات والإعلانات في مشارق الأرض ومغاربها، ثم خفت الصوت وسكنت العاصفة لما مُني به المشروع من إخفاق

أما الشعب فما يزال جائعاً كما كان قبل الثورة؛ وأما الأمية فما تزال - على الرغم من الإحصاءات الرسمية - متفشية؛ وأما الإنتاج والرغبة فيه، وأما الرواج والحضارة، وأما الشعراء المستقلون والكتاب، فكل أولئك ومعهم خمسة ملايين من الناس نفوا من روسيا في الجزر الروسية أو في سائر أرجاء الكوكب المعمور

ولابد أن يرتفع هذا الكابوس عن روسيا إذا مات طاغيتها الجاثم على صدرها فهو نظام لم يبدأ من الشعب ولن ينتهي إليه

بعد ذلك يبهرك (بانفيل) بوثبة بديعة من وثبات السحر البلاغي تخلبك طلاوتها لأنها تنقلك كسائح في الجنة إلى قطر إسلامي شقيق فإذا بك أمام يراعةٍ منتشيةٍ كلها

. .إعجاب، وإذا بك بين يدي (أتاتورك) العظيم
يقدم المؤلف تركيا الجديدة بكلمة لأحد مندوبيها في مؤتمر لوزان موجهة إلى أعضاء المؤتمر: (لماذا تريدون معاملتنا كالمتوحشين؟ إننا جميعاً في هذا الوفد نحمل شهادة الدكتوراه في الحقوق من جامعة باريس!) وأنت تكاد تلمس من العبارة أية جماعة تأخذ بيد مصطفى كمال وتعاونه، وأية أفكار جديدة تنشرها هذه القوى الناهضة، دون قعقعة أو جلبة على طرائق موسوليني وهتلر وستالين، ففي مصطفى كمال كثير جداً من (واشنطن) وفيه أيضاً من (جنكيز خان)
ولد في سنة 1880 وتعلم بالمدارس الحديثة وتلقى العلوم الحربية وصار (كابتن) في سنة 1904، وفي سنة 1912 اتهم في مؤامرة على السلطان، ثم عمل في جيش القوقاز وفي الجزيرة أيام الحرب الكبرى
وعندما هادنت تركيا الحلفاء وأراد الباب العالي أن يبيع الأتراك لإنجلترا رفض كمال تسريح قواته، ووقف في وجه الحكومة ونازل اليونان فقذف بهم وبالإنجليز من ورائهم إلى أعماق البحر الأبيض المتوسط؛ ثم سحق الثورة الكردية وعقد معاهدة لوزان، وأنشأ المجلس الوطني الكبير، وألغى الخلافة، وصار الغازي رئيساً للجمهورية ونفح في الصور ليبعث الأتراك من جديد!
وألغى الطربوش لتُلبس القبعة؛ وطاف مصطفى كمال في البلاد يهيب بها أن تستجيب لندائه؛ ورُفع الحجاب ووضع القانون المدني، وصار الزواج مدنياً بعد أن كان دينياً، وأدخلت الحروف اللاتينية في الأبجدية التركية
وهكذا جعل الغازي من أمته التي كانت مضرب المثل في الجمود، شعباً يستسيغ الإصلاحات الطافرة، ولو جاءته في سرعِة الأفْلام .!!.
وبعد أن قضى على الحاضر المضارع التفت إلى الماضي ليستخدم العلم والتاريخ في مجد أمته؛ وليس فخرها في (عثمانيتها) بل فخرها في أنها (تركية)، ولم يعدم البحاث والمنقبون عن الآثار في الأناضول معالم ومشاهد وآثاراً تثبت قدم الأتراك وآبائهم (الحيتين)؛ ثم اتجه الرجل العظيم إلى تطهير اللغة التركية من الغريب، وعمل رجاله في ذلك أعمالا جبارة، لكأنهم يخلقون الناس معهم من تاريخ نهضتهم فحسب! فمنذ عامين فقط شيعت الجموع شاعراً قومياً، ومشى الشباب وراء جثمانه وهم لا يفهمون شعره كما كان يجب، لأن لغته أصبحت لغةً قديمة. . .!! ولذلك فقد نفذت المعاجم من الجديدة أول ما عرضت في الأسواق
يُعطيك هذا العمل الأخير خير فكرة عن قوة اتجاه هذا الدكتاتور نحو الإنشاء؛ حقاً إن التركي يلقي هذه الهزات التي يهتز لها كل كيانه بعلامات استفهام وعلامات تعجب، لكنها ستجره معها يوماً على كل حال
يقولون إنه يعيش كأبطال الأساطير بين اللهو والقصف، ولربما بدا وجهه للناس بعد عشرين عاماً كوجه سلطان من السلاطين، لكن الذي لا مراه فيه أن قدم الدليل الناهض
على مقدار ما يحقق الرجل القادر للشعب القادر من رغبات الانتصار وفي التقدم
ثم يقول المؤلف - فهذه غايته من مؤلفه - (وإنا لا نحسب أن الشعب الفرنسي يُسيغ هذه الطرائق فالثورة الكبرى نفسها لم تستطع أن تقسره على أن يقبل حتى الأسماء الجديدة لشهور السنة! مع ما في هذه الأسماء من الملاءمة والاتساق!!)
والآن إلى قيصر!
لا قيصر الكرنفال، ولكن عبقرية أمةٍ زاخرة بالكفايات حافلةٍ بالمواهب ما أسرعها في الاستجابة إلى حاجات الساعة وضرورات السياسة تستعرض الماضي من مفاخرها لترفع على القوى منها عمد المستقبل المجيد
وليفهم القارئ الفاشستية يجب أن يرتد ببصره إلى سنة 1915 عندما ساقت إيطاليا جيوشها إلى الساحة إثر نزاع بين المحايدين من أتباع (جبوليتي) والمتدخلين من أشياع (دانونزيو)، فلما انعقد لواء الظفر للحلفاء حسب الساسة من رجال المدرسة القديمة أن الأمور ستجري رتيبة، وستعود سيرتها الأولى دون أن يحسبوا للتيارات الجديدة حسابا
نشأ موسوليني لأبٍ يطرق الحديد، علمه شديد القوى؛ ثم صار معلماً، ولكن ثوريا، فطردته ثوريته من وظيفته وهاجر إلى سويسرا فلم تطب لها ضيافته، ثم عاد إلى

إيطاليا ليؤدي الخدمة العسكرية، ثم ارتد يضرب في الآفاق من جديد ليتتلمذ على (سيزار باتستي) في النمسا، وهنالك عثر على الكنز المفقود؛ فلقد كان (باتستي) فيلسوفا وداعيةً وطنيا من أكبر الغلاة حتى امتلأ ذهن تلميذه بجمهرة من أفكاره الوطنية امتزجت باشتراكيته فصيرته رجلاً من طراز خاص. ولما ولاه أستاذه تحرير جريدة (بوبولو) لم يكن يكتب، ولكنه كان يحارب، ولم تكن جمله عبارات وإنما كلماتٍ من لحم ودمٍ؛ لذلك الزمه البوليس بترك النمسا فتركها إلى سويسرا لينشئ الجمعيات ويدبر ثورةً للعمال الطليان

وفي سنة 1914 حسب الفرصة أتيحت له عندما قتل ثلاثة من العمال، وانتشر الإضراب وأعقبته القلاقل، ولكن الفشل كان من نصيبه، حتى إذا أعلنت الحرب الكبرى وانقسم الرأي العام جرد موسوليني قلمه ليحارب، ودخلت إيطاليا الحرب. وفي 22 مايو سنة 1915 يوم تجريد الحملة عبر موسوليني عن رسالته في كلمة بليغة قال: (. . لقد تحملنا من الخسائر ما تحملنا في السنوات الفارطة. وها قد دنت ساعة الخلاص: فلتفتتح إيطاليا

(لنفسها عهداً جديداً في العالم، ولتنل قسطها من السيادة في الأرض

واشترك موسوليني في الحرب ورجع بأربع وعشرين رصاصة في جسده؛ وفي سنة 1917 ألقى الطليان سلاحهم وعادت الجيوش مهزومة ساخطة، وضربت الأزمة الاقتصادية بجرانها على كل الطبقات، ولاحت في الأفق معالم الشيوعية الحمراء، وشرعت موسكو تبعث رسلها وأموالها إلى إيطاليا، وابتدأت القلاقل والمجازر في كل المدن الإيطالية على مسمع من الحكومة

ولما وجد موسوليني أن رجال الحكومة خروا صما وعمياناً أمام الطوفان، هب ليلقاه بجسمه وبصحيفته، وبحزب جديد؛ فلم تمض شهور ستة حتى كان له من الأتباع خمسة وعشرون ألفا

وفي 3 ديسمبر سنة 1919 أعلن الشيوعيون الإضراب العام وفرض القوم سلطانهم في كل مكان بمذابح مروعة، يقشعر من هولها الإنسان، والحكومة لا تتحرك، وكأن الأقاليم لا تُسمع روما صرخاتها الموجعة! ثم أخذ العمال المهندسين رهائن في 29 أغسطس سنة 1920، واحتلوا المعامل، وأطلقوا الرصاص على الجيش ونهبوا مخازن السلاح. . . وهوت العملة، ولم يبق للنقد سعر، وتساءل الناس: (إلى أي طريق نحن مسوقون؟)

كل ذلك والحكومة كأنها ليست في روما ولا في أي مكان.

عندئذ نظم موسوليني رجاله ليحاربوا الثوار حرب عصابات حيثما ثقفوهم، فأعادوا الأمن، وطمأنوا الناس، وخفق باسمهم كل فؤاد مروع؛ وأخذ ينضوي تحت لوائه الأب الهلوع، والأم المثكال. وفي سنة 1921 دخل الانتخابات وخرج منها ظافراً بخمسة وثلاثين نائباً، كان يتزعمهم في البرلمان كأمهر ما يتزعم السياسي العتيد؛ ثم عقد مع الاشتراكيين (هدنة!) ليدبر لهم مقتلاً. . . وفي أكتوبر عقد المؤتمر الفاشستي من 2200 شعبة تمثل 310 آلاف، وتلا الرجل برنامجه: (السلام في الداخل والقوة في الخارج) فصفقت له الأمة بجموعها

وفي سنة 1922 كانت الحكومة تتساقط كقصور الورق، وعجز الملك عن تأليف وزارات استقرار، وكان الرعب الشيوعي يتفاقم، فلم يتردد الفاشزم عن احتلال مدائن بأسرها لتطهيرها من الطاعون الأحمر؛ وأعلن الشيوعيون الإضراب؛ وأعلن موسوليني تجنيد

رجاله ليعملوا بدلاً من المضربين، وأنظر الحكومة ثمانية أيام على البغي الشيوعي، وإلا فهو حال محلها؛ وختم نداءه بصيحة داوية: (يا رجال الفاشست. . . إن إيطاليا لنا)

وفي ثمانية أيام عاد دولاب الأعمال إلى الانتظام، فكتب موسوليني إلى رئيس الحكومة يقول: (إن الأمة تعبت من هؤلاء الحكام الذين يترددون بين الدناءة والإهمال) فأجابه بدعوته إلى الاضطلاع معه بأعباء الحكم، فرفض إلا أن يعطى هو الوزارات الهامة؛ وختم رفضه قائلاً: (إن لديه من القوة ما يكفي لينال دست الأحكام) وأعلن الزحف على روما. . . وزحف الفتيان على روما فعلاً؛ وطلب الوزير من الملك أن يعلن حالة الحصار، فرفض جلالته، لأنه كان يعلم ما هي الفاشزم، ولأنه عهد بالوزارة في الغد إلى موسوليني

كان بعد ذلك ما كان مما يعلمه الكافة من بعث إيطاليا كرةً أخرى لتضارع أكبر دولات التاريخ. وبعد ثلاثة عشر عاما من جهود فرق البشر في كل مرافق الدولة، غدت إيطاليا أمة تعرف الدنيا كلها مقدارها

ويختتم المؤلف بتحية الدكتاتور البارع داعياً له الله أن يقيه رد الفعل الذي يصيب الكثيرين من رجال الثورات. ثم يقول ناصحاً أمته على عادته في ختام حديث كل جبار - (فليحذر المقلدون من الفرنسيين، ولا يحسبوا أن هذه الأساليب مأمونة عواقبها في فرنسا؛ والإنتاج الطائفي الذي يقوم عليه نظام موسوليني لا يمكن أن يطيقه فرنسي واحد؛ وقبل أن ننسخ صورة طبق الأصل يجب أن نفهم ماذا ننسخ)

وهذه شبه جزيرة الأندلس: نشأت فيها دكتاتورية مخفقة على يد بريمو ديريفرا في أسبانيا، لأنها لم تخلق غذاء للرأي العام، ولأن رجلها لم تكن له فكرة محدودة يتبعها، كما نشأت فيها دكتاتورية من أبدع الدكتاتوريات في البرتغال على يد الأستاذ سالازار. . . ترك الأستاذ سالازار كرسيه في الجامعة بعد أن هتف به الرأي العام لإنقاذ الجمهورية إثر رفض شروط القرض التي شرطتها عليها عصبة الأمم، فوضع الأستاذ شروطه قال: (. . . وليمنحني الشعب ثقة ليس لها حدود، وله ألا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ولكن عليه الطاعة عندما آمر. . .) وهنا يُعنى المؤلف بإظهار مدى تأثير ثقافة المؤلفين الفرنسيين في الساسة المعاصرين، فينوه بآثار صديقه (شارل موراس) الذي اتهم بتدبير الاعتداء على (ليون بلوم) في جنازة المؤلف!! ثم يشرح المؤلف طريقة سالازار وهي: الدولة أولاً

والديموقراطية ثانيا، ويختتم كلامه بقوله: (يقولون عن جمهوريتنا إنها جمهورية الأساتذة. . . والحق إن البرتغال هي بلا مراء جمهورية الأساتذة) فأن نظام سالازار ما يزال يؤتي ثمراته البديعة منذ عشر سنوات

وهذا آخر رجال الحكم المطلق (أدولف هتلر) يتصدى له المؤلف في ريبة الخصم، ولكن في نزاهة الباحث، فهو خطيب خارق للعادة، وداعية في الهواء الطلق، نشأ بناء، ثم حارب في الحرب الكبرى، ولما حاول الانقلاب مع لودندورف سجن شهوراً كتب فيها كتابه (كفاحي) فغدا الكتاب إنجيلا للألمان، ولو أنه كأثر من آثار الفكر لا يساوي حبة من خردلة، ففيه كلام فارغ عن اليهودية والآرية، وفيه كلام عن استرداد النمسا - من النمسا! والأزاس واللورين من الخصم الخالد. . . فرنسا، والتيرول من إيطاليا؛ وفيه كلام عن الحركة الاشتراكية

وفي سنة 932 كانت هذه الأمة التي تخلبها التشكيلات العسكرية قد انخرطت أغلبيتها في سلك (فرق الهجوم) و (أصحاب القمص السمراء) فكان هتلر يسيطر على مصائر ألمانيا، وفي 30 يناير سنة 933 دعاه هندنبورج للوزارة فلبث غير قليل ليعمد إلى (شليشر وزوجته) فيقتلهما، وليطهر الحزب من (روهم) على طريقة (الجانجستر) في شيكاغو؛ وأخذ هتلر وجيبلز يغنيان الأناشيد للشعب الألماني. وكلما خطبوا صدحت الموسيقى فانتشى الشعب من الموسيقى ومن الأغاريد وسار وراء فرسانه

وبدأت محاولة التعقيم، وحرب الكنيسة، وتشريد اليهود في ألوان قاتمة من التعذيب، وبدأت وسائل الجهاد الداخلي والنشاط القومي توجهها كفايات ممتازة. . . أما عن الخطة الاجتماعية فأن الشك يساور الأنفس، فهناك ملايين من العاطلين محشودة في (معسكرات العمل) لن تُوَجه في الغد إلا إلى الميدان !. .

أما هتلر فما يزال في طريقه

فلتصح فرنسا

وبعد (فالدكتاتورية نظام ككل النظم) ولقد تكون خير شرعة شرعت للناس، إذا دعت إليها ظروف الساعة؛ وقد لا تكون إذا لم تدع إليها الظروف. . . وإذا كانت العمليات الجراحية بغيضة إلى نفوسنا، فلنعمل على ألا تكون فينا جراح، لأننا لن نستطيع عند وجودها أن

نتفادى مشرط الجراح

ولابد مما ليس منه بد

عبد الحليم الجندي

الحياة الأدبية في بغداد

بقلم الأستاذ عبد الوهاب الأمين

تمهيد:
ذكرني مقال الأستاذ (علي الطنطاوي) عن الحياة الأدبية في دمشق بحياتنا الأدبية في بغداد، وحبب لي العزم على دخول المضمار، وأغراني بالبحث عن التراث الأدبي الذي خلفته عصور الذهب وعصور الزوان لعاصمة الرشيد!

وليس جديداً عندي مثل هذا البحث فقد كنت أردده في فرص عديدة سابقة، ولكن صدى هذه البحوث لم يكن يبلغ الآذان؛ أما الآن فقد رغبت أن يكون ذلك في (الرسالة) الغراء، وهي المجلة المقروءة في كل قطر عربي، رغبة مني في إطلاع إخواننا في بقية الأقطار على أن سوء الحال لا يمكن أن يبلغ بالأدب ما بلغه في بغداد!

قبل عشر سنوات

لو أتيح للقارئ الكريم أن يتصفح الصحف والمجلات قبل عشر سنين لما فاته أن يلحظ فيها طيف اليقظة الأدبية وهي في مهدها، ولرأى من كثرة ما ينشر في الصحف حينذاك من الشعر على الأخص، ومن بقية الفنون الأدبية، وإن كانت بصورة بدائية، روحاً أدبياً يبشر بمستقبل لا بأس به، ولكان في وسعه أن يتجوز في تسمية تلك الحركة نهضة أدبية قد يأتي عليها زمن تصل فيه إلى النضوج فتؤتي أكلها أدباً جديداً وأدباء مبدعين!

غير أن حقيقة الواقع ليست كذلك! فها نحن أولاء الآن قد خسرنا حتى تلك الحركة البدائية البسيطة؛ وقد ماتت كل المحاولات التي كان القصد منها بعث الروح في الأدب العراقي في كل مناسبة عرض لها بعض الذين خيل إليهم أن في العراق تربة صالحة لمثل تلك المحاولات

وقد اشترك كاتب هذه السطور وساهم في إنشاء بعض الصحف ا [لأدبية فكانت تُغتصَر الواحدة منها تلو الأخرى، فلما يئس وانزوى وترك العمل أخذ بعضهم يلومه، وزاد اللوم في بعض الأحيان حتى بلغ التعنيف! كأن من واجب الأديب أن يستقل بالتضحية وحده، فإن أحجم أو قصر أو تردد فقد أجرم!

وقد كان سبب ذلك الهمود والموت الأدبي في جميع الحالات واحداً لم يتغير ولم يتأثر بتطورات الزمن. فكأن هذا النبات لم يخرج من هذه الأرض، وكأن في طبيعة كليهما ما ينفره من الآخر

فما هي علة هذه الرجعية؟

جناية السياسة والصحافة على الأدب

لست أقصد بالسياسة العمل السياسي، فان ذلك خارج عن بحثي كما أنه خارج عن صلاحيتي! وإنما أقصد أولئك الأشخاص الذين بدءوا حياتهم أدباء ثم انقلبوا سياسيين، ومقدار ما في هذا العمل من الجناية على الأدب! وبعبارة أدل: أولئك الأشخاص ذوي الأطماع السياسية الذين لم تمكنهم شخصياتهم من الخوض في غمار السياسة رأسا، فقدموا لأطماعهم بالاشتغال في الأدب واضعين تلك الغاية نصب أعينهم، فلما ظهرت أسماؤهم على الأفواه تركوا الأدب وانصرفوا إلى السياسة!

هؤلاء أساءوا إلى الأدب أولاً وإلى السياسة ثانياً. . . أساءوا إلى الأدب لأنهم لم يخصوه بنشاطهم ورغبتهم وإنما جعلوه مطية لأطماعهم، وأساءوا إلى السياسة لأنهم جعلوا فيها هذه السابقة

ومن هنا يتبين السبب في تلك النهضة التي حسبنها (أصلية) وما كانت في الحقيقة إلا وسيلة بعض المرتزقين من حملة القلم؛ ولو رجعنا إلى الأسماء التي كانت تذيل بها قصائد الصحف والمجلات قبل عشر سنين، ومقالات ذلك العهد ومحاضراته، لوجدناها من أضخم الأسماء وأعلاها في عالم الوظيفة والسياسة الآن

وقد جرى ذلك على الصحف اليومية، فإن كل صحيفة صدرت في العراق كانت في مبدأ أمرها خالصة لوجه الأدب أو تخصه بأكبر عناية، فأصبحت كل الصحف تقريباً لا تنشر القطعة الأدبية أو القطعة الشعرية إلا في الأسبوع أو الأسبوعين مرة!

وقد كانت جريدة (البلاد) - وهي كبرى جرائد العاصمة - في أول مبدئها تخص (الأدب) بثلث صفحاتها يومياً، وكانت تستكتب الأدباء والشعراء وتنشر لهم وتدعو لأدبهم، وكانت وقتذاك تصدر في ست صفحات فقط، والآن بعد أن زيدت صفحاتها إلى ثمان فقد تركت الأدب مرة واحدة، ولم تعد تنشر شيئاً منه إلا في بعض المناسبات القاهرة

وكذلك قل في الصحف الباقية اليومية منها والأسبوعية، فانك لن تجد فيها إلا ما هو أقرب إلى الأدب السياسي في بعض الأحيان منه إلى الأدب الخالص

ومما يؤلم ويستفز النفس أن الصحف في العراق لا تتكبد في نشر الأدب شيئاً مادياً، بل كل ما ينشر فيها تقريباً (أدب تبرع) وليس أدباً مأجوراً، وهو بذلك أقوم وأفيد بطبيعة الحال من ذلك الأدب الذي تستنطقه المادة، ولكن أصحاب الصحف (الأدباء) لا يكلفون أنفسهم عناء الاستكتاب، بل قد وصل الأمر بهم إلى الاقتصار على الأخبار والأمور السياسية وإهمال الناحية الأدبية بالمرة!

وهذا ما يثبط عزم الأديب العراقي، ويفت في عضده ويكسر من خياله وهمته، فهو لا يخسر التشجيع والتعضيد فقط، بل عليه أن يجتاز الصحافة اجتيازاً، وفي ذلك ما فيه من المغامرة والخسران، فإن من البديهي أن مهمة الصحافة هي التمهيد للأدب والدعوة له وتقديمه، لا الوقوف في وجهه وتثبيط عمله بطريق غير مباشر!

المؤلف والناشر

أكثر ما ينشر في بغداد بل كله كتب مدرسية غير مستكملة حتى الشروط المطلوبة في مثل هذه الكتب، وأكثرها مترجم ومقتطع من الكتب الغربية، وهي تبدل حسب مناهج التعليم كل سنة، وفي بعض الأحيان في أقل من السنة! ولو استثنينا بضعة كراريس في المسجلات الأدبية كالسهام المتقابلة، وبضعة أقاصيص ابتدائية للأستاذ محمود أحمد، كمصير الضعفاء وما إليها، فلن نجد كتاباً أدبياً نشر في السنين الأخيرة غير لب الألباب للسهروردي، والمجمل في الأدب العربي لمحمد بهجة الأثري، وتاريخ العراق بين احتلالين لعباس العزاوي!

هذا كل ما هنالك!

وفي هذا كل معاني الفقر! وإنه ليجرح عزة هذه الأمة وكرامتها أن تقفر هذا الإقفار من الأدب الذي هو قوام الحياة، وإنه لأقطع دليل على أن هذه الخلائق لم تستوف ضرورات الحياة، ولم تصل بعد إلى إدراك معانيها وتشوفها، وأنهم - بأدبهم - يعيشون كلاًّ على غيرهم!

فليس هناك إذن لا (مؤلف) ولا (ناشر)، وإن وجد أحدهما فليس بينه وبين الثاني تفاهم،

وإن وجد كلاهما فانهما يكونان وقتئذ أقرب إلى المرابين منهما إلى المشتغلين بالمعنويات والخدمة العامة

والمطبعة العراقية فقيرة إلى حد مزر، فهي لا تزال على نمط المطابع قبل عشرين سنة؛ وهناك جريدة يومية كانت تطبع بمطبعة تدار باليد إلى زمن قريب؛ وليس هناك من نوع اللينو تايب غير واحدة في مطبعة الحكومة! وبالطبع ليس هناك (روتغراف) أو شبهه! ومن هنا نعرف سبب إقبال القارئ العراقي على الجرائد المصرية المصورة، إذ ليس في العراق جريدة أو مجلة مصورة!

القارئ

يتذمر أصحاب الصحف من مشكلة (القراءة) وهي أن باعة الصحف يتفقون وبعض القراء على السماح لهم بتصفح جميع الصحف اليومية لقاء أجر زهيد يستعيضون به عن شرائها، وأن الصحفيين بهذا (الداء) كما يسمونه يلقون أشد العنت والإرهاق والعسر في تحسين صحافتهم! ولا أكذب القارئ أني شهدت مرات عديدة قسما من المشتغلين بالصحافة اليومية يتبعون هذه الطريقة سراً وجهراً، وذلك لأنهم يجدون من الصعب منح الصحيفة العراقية ثمنها لأنها في الحقيقة لا تساويه! وهذا إقرار مزر لا يجد الإنسان معه إلا الوقوف مكتوف اليد!

وليس من الحق لوم القارئ العراقي وحده، فان هذا الشخص الذي لا يسخو على صحيفته بثمنها يبذر في شراء الصحف المصرية اليومية منها والأسبوعية والشهرية تبذيراً، فهو يشتري الصحيفة المصرية اليومية بضعف ثمن الصحيفة العراقية! ولا يبخل على المجلة المصرية بثمن عددها الذي قد يبلغ في بعض الأحيان ثمن اشتراك نصف سنة في مجلة عراقية!

فالجلي من هذا أن القارئ العراقي لا يضمر العداء لصحيفته، وأن الأديب العراقي لا يحجم عن تغذيتها، بل السبب في كل ذلك هو شيء من سوء التفاهم القائم على إهمال مصلحتيهما. فالصحفي يريد التشجيع بدون مقابل، والقارئ يريد التحسين بدون

مقابل، وكلاهما لا يحرك ساكناً في دفع هذا (المقابل)
خلاصة
إذن فالأدب على أسوأ أحواله في بلاد الرافدين؛ وبغداد التي كانت في وقت مضى منبع الحكمة والأدب والشعر تنتظر بريد الأسبوع لتتلقف الصحف المصرية تلقفاً، وتغذي حاجتها من الأدب المصري، حتى لقد يعلم القارئ العراقي عن أحوال مصر الداخلية والخارجية وعن شخصيتها الكبيرة ما لا يعلمه عن أمور العراق الداخلية وما يتصل بمعاشه وحياته! وحتى بلغ الأمر بنا أن تعودنا الإطلاع على ما يخص العراق من مصادر خارجية، كأن ليس في البلد صحافة وصحفيون، وكأنه لا يعيش لأهله، ولا يعيش أهله له!
فإن كان الأستاذ (علي الطنطاوي) قد همه ألا تكون في (دمشق) حياة أدبية، فلست أجدني إلا مضطراً زيادة همه! فإننا في بغداد ننظر إلى دمشق بعين التطلع، وننتظر أن يصلنا منها ما يروي أرواحنا العطشى إلى الأدب! وإن كان حضرته ينعى عليها هذا الخلو والإقفار، فماذا سيقول عن عاصمة الرشيد؟
لو كان الوقت والمجال يسمحان بالتبسط في شرح بعض الأمور التي تتعلق بالحياة الأدبية في بغداد، كما نسمي هذا الموت تجوزاً بالحياة، لأطلعت القارئ على أحوال منه قد لا تسره، ولكني لا أكون بذلك إلا كالكاشف عن جيفة! فشكراً لضيق الوقت والمجال على حسن صنيعهما!
(بغداد)
عبد الوهاب الأمين
الرسالات
للسيدة وداد سكاكيني
أتى على الإنسان حين من الدهر كانت تعبث به الأحداث، وتدور عليه الأفلاك، وهو في شرق الأرض تسوده الفوضى والجهالة، ويقوده الظلم والطمع؛ فكان كل امرئ ينتبذ مكاناً يحميه ويركن إليه هرباً من بطش فرعون وطغيانه الجارف
في ذلك العهد المظلم كانت امرأة مسلوبة الأمان، مشبوبة الفؤاد، تسير إلى جانب نهر زاخر، حاملة وليدها، حائرة في خطواتها، فأوحيَ إليها أن تلقيه في اليم، وهي مطوية الحنايا على أمل باهر ووعد أكيد. . . ثم يأتي عهد يكون فيه موسى كليم الله ورسوله
حمل هذا النبي رسالة إلى بني إسرائيل، فانجلت غواشي الذلة عن عيونهم الدامعة، وتجلت لهم الحقيقة البارعة؛ لقد أنقذهم من جور الفراعنة، وأهدى إليهم الأمن والحرية، فتمت كلمة الله في أول دين هبط على الطور
ثم غبرت عصور وتعاقبت أحقاب، فإذا الرومان يعيثون في الأرض فساداً، ويملئونها حرباً واعتسافاً، وإذا كل قيصر جبار يستعبد الأمصار ويخرب الديار، فكانت الأفواه شاكية، والعيون باكية، تستغيث وتستجير، والأسماع المرهفة لا تبدي ولا تعيد، فأشفق الله على خلقه الضارعين وهو أرحم الراحمين؛ لقد أرسل إليهم عيسى بن مريم كلمته الخارقة، وأيده بروح القدس، فأقبل عليهم بدين الرحمة والمحبة والوئام، وخلص القوم من مظلمة الرومان ومرارة الحرمان
ولبث العرب في جاهلية جهلاء، ووثنية نكراء، وبؤس ملحف، وعيش مرهق، وقد كان قيصر الطاغي على عاتق من شبه جزيرتهم، وكسرى الباغي على عاتق آخر، وهم يُصْلون في أرضهم الجدباء نار الصحراء وشح الماء، فكان من رحمة الله أن بعث فيهم رسولاً من أنفسهم؛ لقد طلع عليهم محمد بن عبد الله بهدى كبير وخير كثير، فأخرجهم من الظلمات إلى النور، ودانت له البداوة الأبية الشتيتة مجتمعة تحت راية القرآن، حتى بعثت من بطاحها القفراء ورمالها الرمضاء، إلى مدن ورحاب الدنيا حضارة وحرية وعلماً، فتهدّم مجد فارس، وتحطم عز الرومان، وأتم الله نعمته على العرب بدينه الحنيف، وإذا بفجر الإسلام الساطع يكشف الآفاق، ويشرق على الإنسان بنور الإخاء والحرية والمساواة، فكان
سباق الأمم الحديثة التي تزعم أنها تسير على هدى، وتدعي الحفاظ على الحق والسلام
ثم يمخر بنو الإنسان خضم الزمن حتى يصلوا إلى شواطئ العصور الحديثة؛ فإذا انتهت

رسالات الدين التي نزلت على الشرق، بدأت في الغرب رسالات الدنيا، وبينا الناس (بأوربة) في ذهول وخمول، تنقض ظهورهم المظالم، وتكوي جلودهم المغارم، وبعضهم يرسف في الأصفاد بالسجون، كان جان جاك روسو ومنتسكيو وفولتير ينشرون الكتب ليبصروا الشعب باستبداد الملوك، واستعباد الأمراء، وإذا هم ثلاثة رسل للثورة الفرنسية، وإذا مداد دُوِيِّهم، وصرير أقلامهم، ينقلبان بعد قليل إلى دوي مدافع وسيول دماء؛ ثم تسكن الفتنة، وقد أعلنت حقوق الإنسان

وتتفتح الأعين في أرجاء الأرض على ضوء الحرية، فتقوم رسلها في كل أمة، وتسري عدوى المساواة إلى كل ملة، ثم يجر ذلك إلى مغانم شتى، ومطامع قصوى؛ وبعد أن تصرم قرن والناس في بحران سياسة ملتوية، احتدمت الحرب الكبرى، فهزت العالم هزاً عنيفاً. فلما وضعت الحرب أوزارها قام الناس من وقعها الأليم كأنهم ينسِلون من القبور

وتقوى في الناس عقيدة الرسالة ويسمونها زعامة، فينهض في الهند غاندي بجسم ضئيل وروح جبار، فيهز سيدة البحار، ويظهر في الترك مصطفى كمال فيخلقهم خلقاً جديداً، ويطلع في الألمان هتلر فيعيدهم سيرتهم الأولى، وتضيق إيطاليا بموسوليني فيغزو الحبشة بناشئة الطليان

أما في الشرق، فيعين الله الشرق! لقد حمل الرسالة فيه بمصر سعد زغلول، فبعث العروبة من مرقدها، وأيدها بروح منه، ونادى في الشرق أن حطموا الأغلال فتنالوا الاستقلال

المصلحون في الدنيا كثير، وهم رسل لأقوامهم، وإذا رجعنا إلى التاريخ قرأنا فيه صفحات دامية عما يعانون في جهادهم لتحرير الرقاب العانية من رباق الجهل والوهم والاستخذاء والاستبداد

وبعد فالشاعر رسول يصور بشعوره الصادق آلام أمته، ويجلو آمالها بروح العبقرية والإلهام

والأديب رسول حين يوجه الناس في آثاره إلى سبيل الخير وطلب الحق ومعرفة الجمال

والمعلم رسول يثقف العقول ويهذب الأرواح، فيبني الأمم وينشئ الرجال

والعلماء المصلحون والأطباء المكتشفون، جميعهم رسل الإنسانية المتألمة يسدون إليها الخير والإحسان

كل أولئك رسل أبرار يخطون لأممهم المجد والخلود، ولا تكاد رسالاتهم تحصى؛ فلئن جعل الله رسالات الدين خيراً وأبقى، فان عنده رسالات الدنيا في درجة عليا

(دمشق)

وداد سكاكيني

نظرية النسبية الخصوصية

البحث الثالث

مبادئ الميكانيكا الحديثة

للدكتور إسماعيل أحمد أدهم

عضو أكاديمية العلوم الروسية

- 6 -

القيمة التفاضلية في الهندسة الأوقليدية لخط تعينها المعادلة:

خ ف2=خ ك1 + خ ى1 + خ ز1 معادلة (1)

وهذه القيمة التفاضلية تتغير في كون (الزمان - المكان) أعني في عالم مينقوفسكي إلى ما تعنيه المعادلة:

خ ف2=خ ك1 - خ ى1 - خ ن1 + ن خ ت1 معادلة (2)

وهذه المعادلة تقابل كمية ثابتة (ث) التي هي نتيجة لمعادلة التقلص التي كشف عنها لورانتز

- 7 -

قلنا في البحث الأول عن الزمان ونسبيته إن اينشتين غير موضوع الهندسة من الأشكال التي يرسمها انتشار النقط المادية إلى الأشكال التي يخطها انتشار الأمواج النورية. وهذه الحقيقة قامت عليها هندسة مينقوفسكي معتبرة طول جسم ما ضرباً

من مباحث علم الحركة
في نظر هندسة مينقوفسكي أن المادة ليست إلا مجموعة متواليات الحوادث في نقطة واحدة. ومجموع توالي الحوادث في نقطة يشكل خطاً من خطوط عالم مينقوفسكي. وهذا الخط ينشأ داخل كون (الزمان - المكان) من تحرك نقطة (حادثة والقانون الذي يعّين طول خط يصل بين حادثتين الأولى مثل (أ) والثانية مثل (ب) تعينها المعادلة التفاضلية
ب
خ فمعادلة (1)
إذ فيها (خ ف) العنصر التفاضلي الثاني للرقم الأول: وهذه المعادلة تجرنا إلى اعتبار المادة مجموعة الحادثات المنتظمة في حركتها في الفاصلة (خ ف)
لنتصور جزيئاً من المادة مستندا إلى نظام كونيّ، فهذا الجزيء المادي كل نقطة فيه تحتفظ بمكانها النسبي تجاه محورها، ويكون انطباقها على محورها في المكان مشفوعاً بانطباقها في الزمان، فكل نقطة في هذا الجزيء المادي تقع في نظام معين بالنسبة للكون المسند إليه بصورة ثابتة. وكل حركة في هذا الجزيء تتبع نظام الكون المنسوبة إليه، فحوادث الماضي والحاضر والمستقبل تحدث بدقة على خط النظام المسيطر الشامل للكون التي تحدث بالنسبة إليه الحوادث. فجزيء المادة، لما كانت الفاصلة (خ ف) تساوي المركز (م) كان:
خ ف2=ن2خ ت2 - خ ظ2 (معادلة رقم (1))
فلو أبدلنا الرمز (ت) الدال على الزمان في المعادلة السابقة إلى كان:
خ ف=ن خ (معادلة رقم (2))
ومن هذه المعادلة نستنتج أن:
ب ب
خ ف=نخ (معادلة رقم (3))
أأ
حيث أن الرمز (خ رمز لفاصلة الزمان الخصوصية بجزيء المادة المسند للنظام الكوني في صورة ثابتة
وإذا حولنا المعاني الرياضية التي في المعادلات السابقة إلى عبارات عادية أفادت مساواة خط جزيء المادة بحاصل ضرب سرعة النور في الزمان الخاص لهذا الجزيء المادي المسند للنظام المادي، أو بتعبير آخر أن العلاقة بين فاصلة الحوادث لعالم ما وسرعة النور توجد معنا الزمان الخاص بجزيء المادة؛ بمعنى أن قياس الزمن في جزيء مادي مسند إلى نظام كوني يكون بساعة أو كرونومتر مستندا إلى هذا النظام نفسه بصورة ثابتة
- 8 -
لنفرض نقطة مادية مثل (ق) فمبدأ الاستمرار يقرر أن هذه النقطة المادية تتحرك حركة
مستقيمة منتظمة إذا لم يؤثر في حركتها مؤثر. ولنفرض حادثتين: الأولى مثل (أ) والثانية مثل (ب) في خط حركة النقطة المادية (ق)، ولنفرض أن الحادثة الأولى (أ) تسبق الحادثة الثانية (ب)، ولما كان هنالك خطوط المجال الانتشاري بين الحادثتين فأننا نرمز لمجموعها بالرمز (خ ص) ولواحدها بالرمز (خ). فلتعيين خط من هذه الخطوط نبدأ من عند الحادثة (أ) التي حدثت في النقطة (م)، ولنفرض أن هذا الخط مسنود بصورة ثابتة لنظام مثل (ظ) ومتحرك بالنسبة لآخر مثل (ظ1)، وإذا انتهينا بالخط عند الحادثة (ب) التي حدثت في النقطة (م1) حيث يقوم بها متحرك مثل (ق1) يتحرك من (م1) إلى (م)
وإذا فرض أنه كان خط حركة النقطتين المتحركتين (ق) و (ق1) منطبقين على بعضهما تمام الانطباق، وكانت النقطة المادية المتحركة المرموزة لها بالرمز (ق) منطبقة على النقطة (م)، والنقطة المتحركة (ق1) منطبقة على (م1) فخطوط الحركة بين هاتين ستكون مختلفة إذا ما تحركتا، وحركة (ق) تكون منتظمة وسيرها مستقيما، كما أن (ق1) تكتسب تعجيلا خلال حركتها من (م1) إلى (م)
فإذا فرض أن حدثت الحادثة (أ) في الآونة (ت1) والحادثة (ب) في الآونة (ت2)

فستكون حركة كل من النقطتين الماديتين (ق)، (ق1) محصورة بين الأوانين (ت1) و (ت2) والنقطة المادية (ق1) تتخذ الوضع الذي تنم عنه الرموز الرياضية
ك + خ ك؛ ى + خ ى؛ ز + خ ز
في الآونات (ت1) و (ت خ) و (ت) فيكون معنا المعادلة:
خ=خ ت. . . . . معادلة (1)
هذه المعادلة تعين خطوط حركة الحادثتين عند الانتقال من خط سير النقطة المادية (ق1) إلى خط سير النقطة المادية (ق) كما وأنها تعين أصغر أقواس الخطوط التي تربط النقطتين ببعض. والفاصلة (خ ف2) تعينها المعادلة
خ ف2=- خ ك2 - خ ى2 - خ ز2ن2خ ت2
فإذا ما حولنا الرمز (خ ف) إلى الرمز (ن خ ت) لنشأ معنا المعادلة:
خ ك 2 خ ي 2 خ ن2
خ ف2=ن2خ ت2 1 + +=ن2خ 2. . . . . معادلة (1)
خ تخ ت خ ت
فلو رمزنا بالرمز (س) إلى سرعة النقطة المادية المتحركة (ق1) في آوان الزمان (ت) كانت المعادلة الدالة عليه:
ن2خ 2=ن2خت2 (ا - س2ن2). . . . . معادلة (2)
أو أن:
ا - س2ن2=1ث2. . . . . معادلة (3)
فيكون معنا أن:
ن2خ ت2
ن2خ 2 =. . . . . معادلة (4)
ث2
ومن هذه المعادلة نستنتج أن
خ تث. . . . . معادلة (5)
ولو حولنا هذه العبارات الرياضية إلى عبارات عادية لأفادت أن خط العالم الواقع بين الحادثتين (أ) و (ب) والمنطبقة على خط حركة النقطة المادية (ق1) يكون زمانها بالنسبة لنظام مثل (ظ) تتحرك إزاءها حركة انتقالية مستقيمة أقل من مقدار الزمان بين الحادثتين. وكلما ازدادت سرعة النقطة المادية (ق) بالنسبة إلى النظام (ظ) أخذ الزمان في التقلص حتى يتساوى شطرا المعادلة رقم (5) فيكون معنا المعادلة:
بب
خ ت ث معادلة (6)
أأ
ولو حولنا هذه المعادلة هذه المعادلة إلى كلام عادي لأفادت أن النقطة المادية (ق1) في حركتها من (أ) إلى (ب) كلما أخذت في الانحراف عن خط سير الحركة المنتظمة المستقيمة كانت سرعتها بالنسبة إلى (ق) أكبر. ولما كانت الفترة الواقعة بين الآونتين (ت1) و (ت2) ثابتة لا تتغير فزمان النقطة (ق1) يتناقص بهذا المقدار ويكون الخط المنطبق على خط سير النقطة المادية المتحركة حركة مستقيمة منتظمة أطول خط بين هاتين النقطتين

من المعادلات التي سبق ذكرها نستنتج المبادئ الآتية:
أولاً: سرعة النور سرعة محدودة لا تتغير لا في المكان ولا في الزمان. وسرعتها مستقلة عن حركة مصدرها، وتنتشر في الفضاء وبين الأكوان بسرعة ثابتة
ثانيا: قوانين الميكانيكا الكلاسيكية (مبادئ نيوتن) لا تسري على حركة وسرعة النور والأمواج الكهربائية والإلكترو مغناطيسية، ولا على حركة وسرعة الحادثات التي تقرب في سرعتها من سرعة النور، وإنما يسري عليها قوانين اينشتين الميكانيكية
ثالثاً: ليس للزمان حقيقة منفصلة عن المكان بل كلاهما يتحدان في فاصلة واحدة هي الفرق بين مربع الفاصلة المكانية وحاصل ضرب سرعة النور بمربع الفاصلة الزمنية، وهذه الفاصلة هي الفاصلة المطلقة الوحيدة في عالم الحادثات
رابعاً: أطوال الأجسام تتبع حالات مشاهديها وتتغير تبع حركتهم وسكونهم فالأطوال

نسبية للمشاهدين
خامساً: ليست المادة كما يعبر عنها العلم الطبيعي الكلاسيكي بأنها كل ما كان لها امتدادات ثلاثة في المكان، بل المادة مجموعة توالي الحادثات في نقطة واحدة، بمعنى أن العالم ليس إلا مجموعة من الحادثات، وتوالي عدد من هذه الحادثات في نقطة واحدة يلقي في روعنا معنى المادة
سادساً: الزمان الخاص بحادثة ما هو مجرد العلاقة بين فاصلة الحادثة وسرعة النور
سابعاً: الخط المستقيم الواصل بين حادثتين هو أطول خط بين هاتين الحادثتين
(تم البحث الثالث)
إسماعيل أحمد أدهم
صور الصداقة والعداوة
للأستاذ عبد الرحمن شكري
وَفِيٌّ غادر سمْحٌ حَقود ... أرى الأضداد فيك إلى لقاءِ
أمَدْحك لي انتقام من عدو ... أساء إليك أم محض الثناء
وفاؤك كي أبادلك التحايا ... أذَا سبب التقرب والتنائي؟
وكيما أصطلي وأشن حرباً ... على من مدحه لك كالهجاء
أتخدعني ولم تلحق بسني ... وَلم تظفر بخُبريَ أو بلائي
وتمذق لي إخاءك مذق حقد ... علي وما أصبتك بالعداء
تحاربني وتحسب أن ستخفي ... عداؤك ليس يظفر بالخفاء
كشأن نعامة للرأس تخفي ... وتحسب مالها في الناس رائي
ولست بأول المخفين بغضاً ... نما بين المحبة والإخاء
عرفت الناس قبلك يا خليلي ... وذقت الغدر من حلو الوفاء
فان كان الولاء كما أراه ... فويلي من وفائك والولاء
وبعداً للمديح وإن تغالي ... وسحقاً للمروءة والصفاء
سل الخلان ما فعلوا بقلبي ... وهل أبقوا لشدقك من غذاء
وهل أبقوا لبطنك منه شِلْواً ... مريراً لا يساغ على عداء
أعيذك أن أراك شبيه قوم ... رجولة بعضهم فقد الحياء
وهم فقدوه من ذل وعار ... وهم فقدوه من فقد الأباء
وكم أخفوا رخاوتهم بهُجْرٍ ... كمن فقد الحياء من النساء
وهم مثل الهَلوك رمت رجالاً ... بما قد صح فيها من هجاء
على الأبواب واقفة تنَزَّي ... وترمي القوم من دان ونائي
وتحسب أنها نفضت خناها ... كجلد الكلب هُزَّ لنفض ماء
فلا يعديك خلقهم فإني ... رأيت الخُلْق يعدي كالوباء
صفحت ولو أردت بلغت ثأري ... وقد عُرِفَ اقتداريَ في الرماء
فان يأبوا وإن تأبى سكوتي ... فَما صمتي بعيٍّ الأدعياء
ولا يُعْليك بين الناس خفضي ... ولم تبعد بأفقك عن سمائي
لتنزلني إلى حيث استقرت ... بك الدنيا تفنن في العداء
تخبِّرُني اللحاظ بغل قوم ... على ما نلت من فرص الرخاء
وكنت أظنه حسداً لقولي ... فخلت الصمت أقرب للنجاء
ولو سمعوا بموتيَ ما استراحوا ... ولا يشفي حقودهمُ فنائي
أرادوا لي الممات ولو دهاني ... لفرط الحقد أحسد للفناء
فلا يرضيهمُ عيشي رخياً ... ولا يرضيهمُ مني عفائي
وفي الدنيا الدنيئة هان سمْحٌ ... تعالى عن سلاح الأدنياء
إذا ما أحرجوا سمحاً كريماً ... تَدَرَّع بالقواذع في الرماء
دعوني صامتاً فالصمت أوقى ... لكم إن لم تصولوا بالغباء
أُداجي الناس ما داجوا وإني ... لأزهد في الدِّهانِ وفي الرياء
ولكن الحياة لها قضاء ... فمن يأباه يزهد في البقاء
وما أدري لَدُنْ أَلْفِي عدُواً ... أأبله أم تبالَهَ بالعداء
أَخَوَّفَهُ أذاي أخو دهاء ... أَخَوَّفَهُ ذكائيَ واعتلائي
أَنمَّقَ وعده بالخير إما ... تمادي من تمادى في الجفاء

أسَعْيُ سعاية أم قول واشٍ ... يُحَكِّمُهُ المُحَكَّمُ في الخفاء
أَرَجَّاهُ مُرجِّى الخوف منّي ... ضلالاً نيل عونِيَ أو ثنائي
أعَدْوي في التثاؤب من كسول ... كعدوي في العداوة والإخاء
أرشح اللؤم في رهط وضيع ... يفيض بما يشاء من الأداء
ومن عرف الأنام رأى أموراً ... مُرَعْبَلَةً كرعبلة الكساءِ
أراها كلها صُوَراً تَنَزَّى ... تَنَزِّي الآل في الخرق الخواء
سراب لست أتبعه فأخشى ... هلاكاً لا ولا هو من رجائي
أنا المرء الذي عرف البرايا ... فلا يردى لعاد أو لشائي
ومن خَبَرَ الأنامَ لِصُنْعٍ فنٍّ ... فكل الخلق من صُور الأداءِ
تراموا بالهجاء فإن أصابوا ... فرهطهم الملطخ بالهجاء
أليس الرهط فرداً ثم فرداً ... وأوصافاً لها عدوى الوباء
نعتم رهطكم لما نعتم ... نفوسَكم بأوضار الرماء
نفوسكم معرَّة كل رهط ... ومدرجة الشعوب إلى الفناء
ومهزلة المكارم والمعالي ... وهل لؤم يؤول إلى علاء
لعلكم حسبتم كل شر ... إلى عود بخيرٍ وانتحاء
عبد الرحمن شكري
أحلام ورموز:
أنا قبر
بقلم السيد زكي المحاسني
يا حبيبي حبي يضيق كلاماً ... ليت أني أبينُه أنغاما
نغماً تفهم الجوارحُ منه ... ويريح العذاب والآلاما
أنت أُغرودة على الدهر تعلو ... عن سماع يغدو ذووه رغاما
أنت لحن سمعتُه فرماني ... ضائع الرُّشد حائراً مستهاما
ربما قد شككْتُ في صدق عيني ... فحسبت الذي رأيت مناما
كيف فرَّت حقيقةٌ من يد الحِ ... سِّ فصارت في مزعمي أوهاما
أأنا ذاك أم أُعيد وجودي ... بعدما كنتُ في فنائي رماما
أغلِق الكُوةَ المنيرة واملأ ... ني ظلاماً حتى أصير ظلاما
علني أسترد صورةَ ما فا ... ت وعلّي أرُدُّها أحلاما
ها هو السبح يدَّني من أمامي ... واجماً وجهه يلوح كهاما
جللت منكبيه بردةُ بؤس ... جعلتْها الأسفارُ تبدو قتاما
مَدَّ لي كفَّهُ الهزيلةَ والرج ... فةُ في ثغره وقال: سلاما
لم أكد أهتدي إليه فأرجع ... تُ الخوالي إليَّ عاماً فعاما
ثم لَّما عرفتُه غاب عني ... وكفاني ولو يزورُ لماما
رُدَّ ضوْئِي واحملْ إليهِ حياتي ... واسقِني في سُلوِّ همي مُداما
داوني مثلما يداوَى عليل ... خاف أهلوه أن يموتَ سَقاما
أغْدُ بي في الرياض واقصص حديثاً ... أتّخِذْ منه سَلوةً وجَماما
أنا أهوى الحَياةَ من كلِّ آتٍ ... وأرَجّي من البقاء دَواما
إحتَفْر هُوَّةً وأنْزلْ إليها ... ذِكرياتي وأردُم عليها رِجاما
وكأني أمُرُّ يوماً عليها ... فتنادي: ألا رعيت ذِماما
فأُبَكّي لها وأسفح دمعي ... فتُبلُّ الدموعُ منها أُواما
أنا قبرٌ وفيّ مَيْتٌ توارى ... وبكائي عليَّ كان لزاما
ليلة في (الحمراء)
(عن شاتوبريان)
بقلم السيد ناجي الطنطاوي
ولي ذكريات أودعت مهد مولدي ... عذاب وعهد في رباه أنيق
فهل تذكرين اليوم يا أخت ما مضى ... فأني إلى تلك الديار مَشُوق
وهل تذكرين (الكوخ) حين تضمنا ... إلى صدرها الأم الحنون فنجذل
وشَعراً لها قد بيّض الشيب جُلَّه ... نداعبه طوراً وطوراً نقبِّل؟
وهل تذكرين القصر والنهر دونه ... يبلّله والبرج فيه قديم؟

إذا قرع الناقوس أعلن صائحاً ... بأن نهار الأمس عاد يقوم
كذا العندليب الخفُّ هل تذكرينه؟ ... يلامس سطح الماء حين يطير
وللقصب الزاهي انحناء وعندما ... نرى الشمس في ماء الغدير تغور
فهل من معيد لي (هيلين) ودوحةً ... بها وجُيلاً كيف لي أن أراهما؟
تسبب لي ذكراهما الوجد والجوى ... لأنيَ لا أهوى ربوعاً سواهما
في غمرة الهوى
بقلم السيد الياس قنصل
لا تحزني إن كنتِ عاشقةً ولا ... تستسلمي لتفجّع وبكاء
الحبّ لا يُشقي وإن حمل الردى ... بفوادح الكباتِ والأرزاء
هو نفحةٌ علويةٌ سحريةٌ ... تسبي الفؤاد بلطفٍ الاستهواء
تحبو الخليَّ جناحَ وهمٍ خالدٍ ... يسمو به عن سائر الأحياء
لا تحزني، فجمالكِ الفتان قد ... تذويه عاديةٌ من البلواء
والحزنُ ينفث في الحياة وكأسها ... ما ليس تنفثه سوى الرقطاء
وتأملي تجدي تباريح الهوى ... قد ميزتكِ برقةٍ وسناء
ما كنت قبل اليوم إلا دمية ... تحوي ضروب الحسنِ دون رواء
يأتي الربيعُ فلا ترين جماله ... إلا بعطرِ زهوره الميلاء
وتدغدغ النسماتُ وجهكِ حيث لا ... تلقى سوى لون بلا إغواء
وإذا تمايلت الغصونُ وصفَّقت ... أوراقها في الروضة الغناء
لم تدركي معنى تمايلها، ولم ... تقفي على همساتها الخرساء
ما كان قلبك رغم كل حنوّه ... إلا شبيه الصخرةِ الصماء
واليوم بتِّ وقد عرفتِ لُغَي الهوى ... نبتَ الخلودِ ومهبطَ الإيحاء
فإذا رنوتِ إلى السما عند المسا ... ورأيت سلك الأنجم الزهراء
أدركتِ شيئاً لم يكن لك ظاهراً ... وكشفتِ سرّ القبة الزرقاء
أمسيتِ أقرب للذي أمر الورى ... بالحبّ، لا بالحقد والبغضاء
سرّي إذن، وليمحُ عنكِ الحزن ما ... يجتاز قلبك من هوى وهناء
(عاصمة الأرجنتين)
الياس قنصل
أندلسيات:
ابن بسام صاحب الذخيرة - 3
والشاعر أبو مروان الطُّبْني
للأستاذ عبد الرحمن البرقوقي
أَلاَ يحسن بنا بعد أن أوردنا ترجمة ابن بسام للشاعر أبي مروان الطبني أن نردفها بترجمة الفتح بن خاقان لهذا الشاعر حتى ترى فرق ما بين الترجمتين فتتم الموازنة بذلك بين هذين الأديبين من جهة، وحتى نوفي ترجمة هذا الشاعر حقها بما في ترجمة الفتح من زيادة على مما في ترجمة ابن بسام من الجهة الأخرى. نعم، قال الفتح في المطمح في حق الطبني: من ثنية شرف وحسب، ومن أهل حديث وأدب، إمام في اللغة متقدم، فارع لرتب الشعر متسنم، له رواية بالأندلس ورحلة إلى المشرق، ثم عاد وقد توج بالمعارف المفرق، وأقام بقرطبة علماً من أعلامها، ومتسنما لترفعها وإعظامها، تؤثره الدول، وتصطفيه أملاكها الأول، ومازال فيها مقيما، ولا برح عن طريق أحانيها مستقيما، إلى أن اغتيل في إحدى الليالي بقضية يطول شرحها، فأصبح مقتولا في فراشه، مذهولا كل أحد من انبساط الضرب إليه على انكماشه؛ وقد أثبت من محاسنه ما يعجب السامع، وتصغي إليه المسامع؛ فمن ذلك قوله:
وضاعف ما بالقلب يوم رحيلهم ... على ما به منهم حنين الأباعر
وأصبر عن أحباب قلب ترحلوا ... ألا إن قلبي سائر غير صابر
ولما رجع إلى قرطبة وجلس ليرى ما احتقبه من العلوم، اجتمع إليه في المجلس خلق عظيم، فلما رأى تلك الكثرة، وماله عندهم من الأثرة قال:
إني إذا حضرتني ألف محبرة ... يكتبن: حدّثني طوراً وأخبرني
نادت بمفخرتي الأقلام معلنة ... هذي المفاخر لا قعبان من لبن
وكتب إلى ذي الوزارتين أبي الوليد ابن زيدون:

أبا الوليد وما شطت بنا الدار ... وقلّ منا ومنك اليوم زوّار
وبيننا كل ما تدريه من ذمم ... وللصبي ورق خضر وأنوار
وكل عتب وإعتاب جرى فله ... بدائع حلوة عندي وآثار
فاذكر أخاك بخير كلما لعبت ... به الليالي فان الدهر دوار

عود إلى الذخيرة

فقد آن لنا أن نعود إلى القول على كتاب الذخيرة في محاسن أهل (وأما بعد) الجزيرة، وهو الأثر الفذ الباقي للمترجم له أبي الحسن علي بن بسام؛ ولولا أن لهذا الكتاب شأناً غير شأن سائر نظائره لما عرضنا للقول عليه والتعريف به، إذن لنلق عليه نظرة ليس منها بد؛ ولا سيما بعد أن بشرنا صديقنا الأستاذ الكبير محمد كرد علي بك بأن هناك لجنة من أفاضل المستشرقين تألفت برياسة العلامة المستشرق الفرنسي الأستاذ ليفي بروفنسال لا خراج هذا الكتاب الضخم الخالد الذي حُرِمت منه المكتبة العربية هذا الزمن الأطول. . .

وضع قديماً أبو عبد الله هرون بن علي بن يحيى بن أبي منصور المنجم البغدادي المتوفى سنة 288هـ كتاباً اسمه (البارع) في أخبار الشعراء المولدين جمع فيه مائة وواحداً وستين شاعراً، وافتتحه بذكر بشار بن برد وختمه بمحمد بن عبد الملك بن صالح، واختار فيه من شعر كل واحد عيونه، وقال في أوله: إني لما عملت كتابي في أخبار شعراء المولدين ذكرت ما اخترته من أشعارهم وتحريت في ذلك الاختيار أقصى ما بلغته معرفتي وانتهى إليه علمي؛ والعلماء يقولون: دل على عاقل اختياره. وقالوا: اختيار الرجل من وفور عقله. وقال بعضهم: شعر الرجل قطعة من كلامه، وظنه قطعة من عقله، واختياره قطعة من علمه. وطول الكلام في هذا وذكر أن هذا الكتاب مختصر من كتاب ألفه قبل هذا في هذا الفن، وأنه كان طويلاً فحذف منه أشياء واقتصر على هذا القدر. ثم جاء بعده أبو منصور الثعالبي المتوفى سنة 429هـ ووضع كتابه (يتيمة الدهر في شعراء أهل العصر)، وجعله ذيلاً لكتاب البارع؛ هذا ثم جاء أبو الحسن علي بن الحسن الباخرزي المتوفى سنة 467هـ؛ وألف كتاباً اسمه (دمية القصر وعُصرة أهل العصر)، وجعله ذيلاً لكتاب يتيمة الدهر؛ ثم جاء أبو المعالي سعد بن علي الوراق الحظيري المتوفى سنة 568هـ وصنّف كتاباً أسماه (زينة الدهر)، وجعله ذيلاً على دمية القصر؛ وأخيراً ظهر العماد الكاتب الأصبهاني المعروف بابن أخي العزيز والمتوفى سنة 597هـ، ووضع كتابه المسمى (خريدة القصر وجريدة أهل العصر)، وجعله ذيلاً على زينة الدهر للحظيري. هذا في المشرق، وأنت فانك تعلم أن الأندلسيون كثيرا ما يحذون حذو المشارقة في سائر مناحيهم؛ ومن ثم نحوا نحوهم في وضع هذا النوع من التواليف، فوضع الأديب الكاتب الشاعر أبو عمر أحمد بن فرج - وكان معاصراً للخليفة الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر - كتاباً اسمه (الحدائق) قدمه للخليفة المستنصر وعارض به (كتاب الزهور) لأبي محمد بن داود الأصبهاني ولم يورد فيه لغير أندلسي شيئاً - وسنترجم لهذا الأديب - ثم جاء من بعده صاحبنا أبو الحسن علي بن بسام فوضع كتاب (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) وجعله ذيلا على حدائق ابن فرج. وفي عصره صنف الفتح بن خاقان كتابي القلائد والمطمح، وجاء بعدهما الأديب أبو عمر بن الإمام وذيل على الذخيرة والقلائد بكتاب اسمه سمط (الجمان وسقيط المرجان) ذكر فيه من أخل ابن بسام والفتح بتوفية حقه من الفضلاء، واستدرك من أدركه بعصره في بقية المائة السادسة؛ وذيل على هذا الكتاب أبو بحر صفوان بن إدريس الكاتب الأندلسي الكبير بكتاب سماه (زاد المسافر) ذكر فيه جماعة ممن أدرك المائة السابعة. وهنا نذكر أن أكثر هذه الكتب مفقود كما أن هناك تواليف كثيرة من هذا القبيل لم نسمع بها فضلا عن أنها غير موجودة. فلقد أخبرنا الإمام أبو محمد بن حزم في رسالته التي يشيد فيها بفضائل الأندلس أن للشاعر الوشاح أبي بكر عبادة بن ماء السماء كتاباً في أخبار شعراء الأندلس أثنى عليه وقال أنه كتاب حسن معناه. وحدثنا أيضاً بأغرب من هذا وهو أن من بين الكتب التي وضعت للخليفة الحكم المستنصر كتاباً في أخبار شعراء (أَلبِيَره) في نحو عشرة أجزاء. . . فتأمل. . . ومما يتصل بهذا وما هو أقعد في باب الغرابة ما حدثنا به ابن حزام أيضاً من أن هناك شاعراً أندلسياً كان في عصر جرير والفرزدق اسمه أبو الأجرب جَعْوَنَة بن الصِّمّة الكلابي يقول ابن حزم في حقه: ونحن

إذا ذكرنا أبا الأجرب في الشعر لم نباه إلا جريرا والفرزدق لكونه في عصرهما؛ ولو أنصف لاستشهد بشعره فهو جار على مذهب الأوائل لا على طريقة المحدثين. وحكى ابن سعيد صاحب كتاب المغرب قال: إن عباس ابن ناصح الشاعر الأندلسي لما توجه من قرطبة إلى بغداد ولقي أبا نواس قال له أنشدني لأبي الأجرب قال: فأنشدته، ثم قال: أنشدني لبكر الكناني، فأنشدته؛ فأين شعر هذين الشاعرين الأندلسيين العظيمين؟ إنا وا أسفاه لم نعثر لهما على شيء قط. . . . . ثم وأين كتاب المسهب للحجاري، وكتاب المغرب
لابن سعيد، وكتابا المبين والمقتبس لمؤرخ الأندلس الأكبر أبي مروان حيان ابن خلف!؟. . . وأين وأين. . .!؟
أين سكناك لا أين لهم ... أحجازا أوطنوها أم شاما
فاسألنها واجعل بكاك جواباً ... تجد الدمع سائلا ومجيباً
عبد الرحمن البرقوقي
القصص
مأساة من أسخيلوس
ثأر أورست
الدرامة الثانية من (الأورستية)
للأستاذ دريني خشبة
تتمة
- 6 -
ويسأل أورست عن هذه الزقاق من أرسلها، وعن هذه الخمر فيم يصبانها على ثرى أبيه، وقد تصرمت السنون على جدثه، فتحدثه رئيسة المنشدات عن رؤيا الملكة:
- (رؤيا! حلم! أيها الأمير! حلم مزعج مروع أقض مضجعها؛ وأذهلها عن نفسها! انبجست عن ضميرها المضطرب الملوث بالآثام!)
- (رؤيا! وأي رؤيا هذه؟)
- (حملت واستكرشت، ثم وضعتها أفعى هائلة)
- (أهذا كل شيء؟)
- (. . .لقد هبت مروعة مشدوهة، وطفقت تصيح وتصخب كأنها طفلة جائعة)
- (الحية الرقطاء! وأي غذاء يرد شرهها! زادها الله سغباً!)
- (لقد كانت تمسك صدرها بيديها، كأنها تخمد فيه ناراً!)
- (. . .وكيف لم ينفث السم في ثدييها)
- (كلا! بل لقد قطر ثدياها دماء. . . لا لبنا!)
- (. . .يالها من رؤيا. . . لو تتم!)
ثم انطلقت تصيح في أبهاء القصر، وهب العذارى يحملن المشاعل ويغسلن ظلام الليل؛
(. . .وأمرت بهذا القربان الخمري فصُبّ في تلك الزّقاق، وحملناه إلى قبر زوجها! الغادرة الفاجرة! ليشفى سعارها! يا آلهة الأولمب! ويح لك يا أرض!)
- الآباء! رحمة لك يا قبر! يا سيد الأولمب! يا ربات المقادير! أكتبي أن أكونه، أكتبي أن أكون هذا الأفعوان الهائل الذي يقر فوق صدرها. . . لن يردني شيء! سأغمد خنجري في الصدر الذي شببت فوقه! سأمزق الأثداء التي قطرت في فمي علقم الحياة!
اكتبي يا ربات المقادير! لتمت موتة دامية! سأذبحها! أنا الأفعوان لا ريب! اشهدن أيتها العذارى! سجلي يا سماوات! هلم ببلاديز! هلم يا صديقي لنأخذ فيما قدمنا له؛ وأنت يا إلكترا كوني رائدنا في القصر؛ تحسسي لنا أخباره، وقصي آثاره، فإذا أزفت الآزفة لم تفلتهم الغيلة التي دبرناها لهم، كما دبروها لمولاهم من قبل؛ ولم يفلتهم الشرك الذي نصبوه بأيديهم، وآن لهم أن يقعوا فيه. . . . . ليذوقوا وبال أمرهم مادام أن النفس بالنفس! هلمي إلكترا! سأبدو أمام البوابة الكبرى معي صديقي ببلاديز في زي مهاجرين، وسنتحدث بلهجة أهل هذه البرية التي نثقفها جيداً، يا للآلهة! إن أحدا من أهل القصر لن يمنحنا ابتسامة، أو يتصدق علينا بنظرة. . .!!
لا علينا! بيد أننا سنترصد لأبجستوس، فإذا حانت لنا منه غفلة فسننقض عليه وننفذ خناجرنا فيه! إلكترا! ارقبي القصر جيداً، واحذري أن تحركي لسانك بكلمة تفسد علينا

كل شيء. . . . تكلمي إذا كان في الكلام خير لنا. . . . . وإلا. . . . . فالصمت. . . .
الصمت الذي يشبه الكبرياء يا أختاه. . . وأنتن أيتها العذارى. . . هاتين موثقكن
(. . .(يقسمن له أنهن معه) إذن. . . إلى اللقاء
- 7 -
(المنظر: أمام قصر البلوبديه)
يهزج المنشدات بلحن طويل حلو، ويتغنين أشجان القصر العتيق، ويرددن ذكريات)
(. . .الماضي المظلم المضرجة بالدم، ويلمعن إلى الهول الأكبر الذي ينتظر المجرمين
(يدخل أورست ويطرق باب القصر)
أنتم يا من هنا؟. . . (ويطرق ثانيةً). . . يا أهل هذا المنزل الرحب. . . (ويستمر في) -
الطرق). . . يا سادةَ هذه الدار!. . . الأمير إيجستوس! أريد الأمير إيجستوس! ماذا؟ ألا
من أحدٍ هنا. . . في الدار المضيافة. . . (يطرق بعنف)
!البواب: (هيه! من؟ من أنت؟ (في غضب) من أين أقبلت؟ تكلم أيها الريفي
لقد جئت لسادة هذا القصر بأخبار هامة. . . غريبة. . . فالبدار البدار أيها البواب!. . .) -
قل لهم إن بالباب رجلا من بدو البرية يريد لقاءهم. . . هيا. . . و. . . اسمع أيها البواب.
. . اسمع، أرجو أن. . . لقد أوشك الليل يرخي سدوله، ولا بد لابن السبيل من ملجأ
كريم يأوي إليه. . . فحبذا لو لقيت أيًّا من ذوي الشأن هنا - وحبذا لو كان رجلاً. . . إن
لديَّ أنباءً هامة، وقد أرتبك إذا ألقيتها لامرأة. . . أما إن كان رجلا. . . فالرجل يصارح
الرجل من دون ما حياء. . . بل لا يكاد ذهنه يشرد في حضرته كما قد يشرد في حضرة
(. . . . . .امرأة
(تدخل كليتمنسترا)
ماذا أيها السيد؟! غريب لاجئ! مرحبا مرحبا. . . إن قصر البلوبديه لن يضيق بالجائع) -
المعتر، ولا بالطامئ الصادي. . . انزل أهلا، وحل سهلا. . . ولكن. . .! يبدو عليك أنك
(. . .رسول ولديك أنباء! إذن. . . ما وراءك؟ هذا إن لم تكن رسالتك للأمير
أنا؟. . . أجل. . . رسول! لقد قدمت من بلدتي دُوليس، إلى آرجوس، في بعض) -
شأني. . . و. . . بينا أنا في بعض الطريق، إذا رجل طوال وقور الهيئة يلقاني فجأة
ويسألني إلى أين؟ لم أكد أجيبه أنني ميمم شطر آرجوس حتى لهث لهثة شديدة
وقال: إذن لي رجيّة عندك ما أحسبك إلا مؤديها لي. . . ومناني بالخير الكثير، ووصل
حديثه فقال: إذا كنت في آرجوس فاقصد من فورك قصر الإمارة. . . البلوبيديه
الشاهق. . . والق ال. . . ملـ. . . الأ. . . مير. . . ونبّئه أن أورست قد قضى نحبه. . .
مات. . . ثم سلهم، هل يرون أن تنقل رفاته فتقر في ثرى الوطن. . . أم يؤثرون أن
تظل حبيسةً في دار الغربة كما عاش صاحبها إلى آخر أنفاسه مشرداً في أقصى
الأرض، طريدا من رحمة أبويه. . . أما الرجل فقد ذكر لي أنه ستروفيوس وأنه من
فوسيز. . . وقد ألح في أن أعود إليه برد على ما طلب. . . و. . . و. . . فاتني أن أذكر
أن رفات الأمير الصغير ما تزال محفوظةً في إران نحاسي. . . و. . . أنه يبكيها. . .و. .
. ولكن يا سيدتي بحق الآلهة عليك! لقد ذكرت كل شيء. . . هل أديت الرسالة للأذُن
التي طلب مني الرجل أن تعيها؟ إذ ينبغي
(أن يعلم أبَوَا الأمير قبل كل أحد
ويلاه! يا للداهية تنعت في هذا الخبر الأسود! إيه أيتها اللعنة التي ما تفتأ ترنق على) -
هذا القصر! إيه يا عُقاب الردى هويت من شاهق على حَمَلِنَا! إيه يا سهم المنية
اخترمته من بُعد! بينا كنت أحسبه في مأمن من مزالق الحتوف، إذا هو يموت،
ويغادرني في تعاستي وحدي! أورست! يا رحمتا لك يا بُني! لقد كنت أدخرك لتشفي
أوجاع هذا البيت. . . يا أملي الوحيد! يا آخر رجاء لي في الحياة! لقد جاء النعي فلا
(. . .!شك
وا أسفاه! كم كنت أود لو أتيت بالبشريات الغُر لأنال رفد هؤلاء السادة الأثرياء!) -
!ولكن! لا عَليّ! فلقد ظل قلبي يحدثني عما في النبأ الذي حُمّلت من شر
(إ. . . إ. . . إنما!. . . ما لي ولذاك! أيتها الأميرة! أمن رد على ستروفيوس. .؟
ليطمئن قلبك على الرفد أيها الرسول! ولا يحزنك أنك جئت إلينا بهذا النبأ، فقد كان) -
غيرك يجيء به لو لم تفعل. . . والآن. . . هلم أيها الخادم بالضيف الكريم إلى أفخر
غرف الضيافة، وليصحبه تابعه، ولتكرم مثواه،، فما أظنهما إلا قد أظناهما السفر، ونال

(منهما الطريق. . . أما نحن، فسنبلغ الملك وسنرى ماذا يكون في مسألة الرفات
(يخرج الجميع ماعدا المنشدات)
- 8 -
(تدخل مرضع أورست)
رئيسة الخورس: (هيا يا وصيفات القصر! صلاةً مباركة للآلهة أن تحرس أورست وأن تلحظه بعين الرعاية. . . وصلاة مباركة على روح الوالد القتيل، الذي لابد هو راع ولده الذي جاء ليثأر له من الآثمين!. . . هيه! من؟ مرضعة أورست؟ كيليسّا؟ ماذا جاء بك يا كيليسا؟! تبكين؟ ماذا يبكيك يا طيبة القلب؟!)
- عِمَنْ مساء يا عذارى طروادة! لا شيء! فقط،. . . لقد طلبتْ إليّ الملكة أن أدعوَ) إليها أميرها إيجستوس ليتلقى بأذنيه أنباء النعي! ويلاه! ويلاه عليك يا أورست! يا طفلي العزيز! شجن جديد يغطش سماءك أيها القصر! أنت يا مأوى الأشجان وكهف الأسرار! يا بيت أتريوس كم مصيبة خبأتها لك الأقدار؟! آه يا طفلي! يا من غذوتك من ثدييّ لبن المحبة والحنان! أنا كيليسّا المفجوعة فيك. . . أنا التي غذوتك ونشّأتك وسهرت عليك بأمر
أبيك الملك! أنا التي كنت أفديك بالحياة. . . لقد انتزعوك مني. . . ونفوك في أقصى الأرض حتى لا تروع أحلامهم وتقف في سبيل لذاتهم! اللئام. . .! أنا أذهب الآن لأدعو إيجستوس! لأملأ سمعيه بخبر وفاتك! يا ولدي. . . يا ولدي (!. . .
- مسكينة! يا ويح لك يا كيليسّا! ولكن!. . .، اهدئي، فان لنا لسؤالاً نحب أن تجيبي) عنه (!. . .
- (. . .؟. . .؟. . .)
- (وبم أمرت الملكة؟ هل أمرتك أن يأتي إيجستوس ومعه أحد؟)
- (لا أفهم. . . أفصحن بحق الآلهة عليكن!)
- (نعني، هل يأتي وحده، أم يكون معه حرس؟)
- (لا! بل أمرت أن تكون حوله فرقة من حملة الرماح!)
- صه!. . . لا. لا. . . إياك يا كيليسا! قولي له إن الملكة تريد أن تذهب إليها بمفردك.) و. . . نرجوك!. . . نحن نترك البقية لحسن فهمك .)
- (ماذا؟. . . وهل لكن الحق في إصدار أوامر؟)
- (لا. . . ولكن إن كنت حقاً وفية لأورست فلا تقولي إلا ما أشرنا عليك به!)
- (لست أفهم!. . . لقد أردى أورست وكان منتهى آمالنا. . . فماذا نرجو بعد؟)
(وتبكي)
- لترقأ عبرتك يا كيليسا! وليفرخ روعك! هوني عليك يا طيبة القلب، فقد يكون حياً) يرزق! من يدري؟ لقد ألقي إلينا أن .)
- (ماذا؟ نبوءة! نبوءة بالله عليكن؟. . أم سمعتن أنباء خاصة؟)
- (صه. . .! هيا هيا. . . اذهبي إلى إيجستوس وليقصد إلى الملكة وحده!)
(تخرج كيليسا)
(وتصلي المنشدات من أجل أورست، ضارعات إلى الآلهة أن تكون معه؛ والى هرمز أن يحرسه)
- 9 -
(يدخل إيجستوس)
- هيه!. . . هأنذا قد أتيت! ياله من خبر! أين الغريبان! ماذا؟ أحقا مات أورست؟! ما) كنا نؤثر أن يموت! يا للجرح الذي ينغل في أحشائك أيها القصر؟ هاك فادحا آخر ينوء بكلكله عليك! ولكن!. . . لا. . . لا أصدقه! لا أصدقه. . .! أنا في شك من النبأ مريب! المرأة! لقد زخرفوا لها الخبر الأسود وقذفوا به في روعها! أكبر ظني أنها إشاعة لا تلبث أن تذوب! خبرن يا وصيفات! أحق ذاك النبأ؟)
- لقد سمعنا كما سمعت! ولكن!. . . لتدخل أنت، ولتلق الطارقيْن الغريبيْن! فقد خُيّل إلينا أنها مجرد إشاعة! وقد تجلو الحقيقة حينما تواجههما)
- ما احسبني أصدّقهما إلا أن يقولا رأيناه يجود بآخر أنفاسه! إن لي لعقلاً، وإنه لا تجوز عليه الأباطيل!)
(ويخرج)

وما تكاد المنشدات يترنمن بأنشودة قصيرة يصلين فيها لزيوس حتى تُسمع صرخة من الداخل:
- (آه. . . آه. . . ذُبحت! لقد ذُبحت!)
المنشدات: - (ها!. . . اشتدي أزمة!)
- (. . .آه. . . آه)
- . . .!لقد نفذ السهم وقضي الأمر
(يدخل أحد الخدم)
- ويلاه! قتل الأمير! أخبروا الملكة!. . . ويلاه! افتحوا البوابة لأميرة القصر! (تحاول) المنشدات فتح البوابة فلا تستطعن) أنتن ضعيفات! ليفتحها الرجال الأشداء! الغوث الغوث! آه. . . لا غوث اليوم، لقد انتهى كل شيء! أين الأميرة! أين الملكة! أين كليتمنسترا؟ يا ويح لها حين يفجعها النبأ!. . .)
- 10 -
(تدخل كليتمنسترا)
- (من ذا يصيح ويصخب هنا؟ ماذا؟ أنت الذي تصخب أيها الخادم؟)
- (أ. . . أنا. . .؟)
- (ماذا؟ تكلم!)
- (لقد انتفض الأموات تحت أطباق الثرى فذبحوا الأحياء! هنا في هذا القصر!)
- (آه! الخديعة! جلوت السحر وكشفت الطلّسم! هلم فهات لي بلْطا! وليكن حديداً مشحوذا! هلم هلم! عليّ وزر هذا العمل أو لي خيره! لأصارع الأقضية، ولأُنازل المقادير هذه النوبة أيضا!)
(وينزاح ستر فيبدو أورست وأمامه جثة إيجستوس وإلى جانبه بيلاديز)
أورست: (آه. . .! هَلاَّ! هذي أنتِ! لقد فرغت من إيجستوس، وقد جاء دورك!. . .)
(كليتمنسترا وقد هالها مقتل إيجستوس)
- (قُتِلْت! ويلاه! سكتت نأمتك، وشالت نعامتك، يا أعز الناس عليّ!)
- (أعز الناس عليك! ها ها ها. . . إذن سترقدين إلى جانبه آخر الدهر ليتم له وفؤك يا آثمة!)
(ويهم أن يفتك بها فتعرف فيه ولدها)
- (أورست! أهو أنت؟ ولدي! حاشاك! ارحم هذا الصدر الذي طالما دلّلَك، والثدي الذي طالما أرضعك!)
(ينثني أورست ليستشير صديقه)
- (بيلاديز! أشر عليّ يا أعز الأصدقاء! هل تفل الرحمة من غرب هذا السيف من أجل أمي؟)
- إذن أين ما أوحي إليك من لدن أبوللو؟ وأين النبوءة الصادقة وما ناشدتك السماء أن تؤديه لها؟ روِّ سيفك غير راحم يا أورست. كن صديق السماء واغسل بغضبتك أدران الأرض!)
- (آه. . . شكراً لك يا بيلاديز! حقاً إنك المخلص الأمين! أنا أبداً في حاجة إلى مشورتك! سأقتلك إذن يا أدنس الأمهات! سأقتلك لتخرّي إلى جانب عاشقك المجرم النجس! لقد فضلته على ملكك في الحياة، فقري معه بعد الموت! حبيبك المتيم الذي كان غيره أجدر بحبك لو عرف قلبك إثارة من الطهر! يا فاسقة!)
(ويهم أن يفتك بها ثانية)
- (أورست! لقد أرضعتك، وكنت آمل أن تكون سندي في شيخوختي!)
- (سنداً لها! الفاسقة! وكيف يظلني سقف وقاتلة أبي! مثلومة العرض!)
- (قدر محتوم يا أورست!)
- (والقدر المحتوم هو الذي يكتب عليك ما تلقين اليوم)
- (ولعنة أمك! ألا تخيفك يا أورست!)
- (أمي التي قذفت بي من حالق فريسة لأشجان الحياة!)
- (أنا قذفت بك من حالق؟ حاشا! لقد أرسلتك إلى أعز الأصدقاء ليكلأك ويرعاك!)
- (لقد كانت مقايضة خاسرة بالنسبة لي! حرية وملك، بعبودية وذل!)
- (وأين الأعطيات التي بعتك بها يا بني؟)

- (الأعطيات؟ يا للعار حين نخوض في ذلك من غير ما احتشام؟)
- (قد لا تذكر أيام أن أنحرف أبوك وضل!)
- (لا تنحي على الغائب بلائمة!)
- (ألا تقدر لأواء أم محزونة مهجورة، يا أورست!)
- (بلى! وأعرف أنها ظفرت بكل ما تشهت!)
(ويهم أن يقتلها)
- (آه! أتقتل أمك يا بني؟)
- (أنا؟ أنا لا أقتلك! ولكن تقتلك آثامك!)
- (ها!. . . وأين تهرب من هامة أمك إذا قتلتها!)
- (وأين أهرب من هامة أبي إذا خلّيتك يا آثمة!)
- (كأني أخاطب فيك قبراً فلا يسمع!)
- (أجل وهو قبر أبي الذي يضرب وجهك بزفير جهنم!)
- (آه! الأفعى! لقد ولدتها وربيتها. . . وهاهي ذي تنفث سمها في حياتي!)
- (إذن: هي رؤياك قد جعلها أبوللو حقا!)
- (تبدو كليتمنسترا كأنما يكاد يغمى عليها . . .!. . .)
- (القصاص يا أتعس الأمهات! لقد زرعت وزراً، فلتجن اليوم أوزاراً!)
(تنطلق كليمنسترا داخل القصر فيعدو أورست في أثرها)
- 11 -
ويذكر المنشدات - عذارى طروادة التاعسات - أوطانهن، وما حاق بإليوم وبريام من دماء وتقتيل. فيتغنين آلامهن، ويرجعن ذكرياتهن، ويهتفن بعروس الهلسبنت، ويناجين العظام النخرة التي نامت إلى الأبد تحت أسوارها. . .
. . . . . ثم
ثم ينزاح ستر صفيق عن أورست. . . بين الجثتين الجبارتين جثة أمه الفاسقة كما دعاها. . . وجثة إبجستوس المتهتك، الذي لم يطهر ثأره بالحفاظ والنقاء. . . بل لطخه بفضائح الدعارة وحياة الهوى التي عاقر خمرها مع كليتمنسترا
- (اشهدن يا عذارى! هاهما قاتلا أبي، وهادما مجد الوطن! لقد استويا بالأمس على عرش آجوس فلطخاه بالإثم، وهما اليوم مجندلان فوق ثرى واحد. . . وبيد واحدة. . . وهو من البر بالأقسام! أجل! لقد برا بيمينهما. . . أليس أحدهما قد أخذ الموثق على صاحبه أن يقتلا مولى هذا القصر. . . وأن يقتسما النتيجة؟ إذن: لقد برت بيمينها. . . ولقد حاق بهما المكر السيئ، وعلقا في الشرك الهائل الذي حاكاه أولاً. . . فمدت لهما فيه السنون والأيام!. . . ولكن. . .! وا أسفاه! لقد جشمتني المقادير مهمة ملعونة. . .! وكيف؟ أنا. . . أورست المسكين قاتل أمه! يا للشقاء!. . . أبوللو. . . أبوللو. . . كن شاهدي يا سيد الشمس!. . . لقد أمرتني. . . وأوحيت إلي أن اقتل أمك واحمل بعدها غصن الزيتون!. . . فلو لم أفعل لكان شقائي أدهى وأنكى! وكيف أطيق صبراً على قاتليْ والدي؟! وأنا ابنه الوحيد. . . والسماء تطلب دمه من رجولتي!
وأنتن يا طرواديات! تكلمن بحق السماء! أترين إليّ مذنباً ينقض ظهره الإثم. . . أم بريئاً امتشقت العدالة سيفها بيمينه. . .! أيها الأصدقاء! لقد قضت السماء أن أقتل أمي. . .! أمي التي ظلت حياتها سلسلة من المخازي ومستنقعاً من الفضائح. . . حياتها التي كانت تحديّا يا للسماء. . . لقد أقدمت وفوبوس يحدوني. . . لم يكن لي رائد سواه. . . ولا كنف إلا كنفه. . . . . هلم يا شعب الأرجيف المجيد. . . كن شاهدي ومؤيدي. . . وأنت يا عمي منالايوس. . . ستأتي. . . ستعود إلى الوطن يوماً وتقر ما أقدمت عليه بوحي السماء!. . .
لن يلومني أحد. . . فإذاً. . . . . فلن أضيق بالمنفى من جديد. . . سأذرع الأرض ثانية. . . سأجوب الآفاق. . ولكن راضياً مطمئن النفس. . . لأني ثأرت لوالدي. . . ولشرف آرجوس كلها)
- (حاشا حاشا أيها الأمير! لن يلومك أحد على ما فعلت فلا تحرك لسانك بهذا اللغو. . . ولا تملأ نفسك بذاك التشاؤم. . . لقد أعدت للأرجيف حريتهم وشرفهم حين حطمت رأس الأفعى، وتنيّت بذنبها!)
- 12 -

ولكن الأمير الشاب ما يزداد إلا ذعراً حين يرى إلى أمه مضرجة بدمائها. . . وسرعان ما تكظ وجدانه رؤى كالحة وأشباح. . . ثم تستيقظ في نفسه كلماتها الأخيرة: (وأين تهرب من هُولني يا أورست؟ إن هامتي ستلاحقك في كل مكان صارخة في وجهك: يا قاتل أمه!. . .) فيجن جنونه. . . ويصيح ويصرخ ويصخب. . .

- (ويلاه! آه. .! ما هذه السمادير التي ترقص في حبر من الظلام! آه! أين المهرب؟

- (!اطمئن يا أعز الأبناء! إنها أوهام يا أورست! هدّئ من روعك)

(!ليست أوهاماً يا عذارى! ويلاه. .! إنها تنقض علي! هامة أمي!. . . هاهي. . . آه

- (. . .بل هي صورة هذا الدم الذي ما يزال يلوث يديك. . . اطمئن

- (لا. . . أنا بريء! أدركني يا إلهي أبوللو! يا سيد الشمس هذه الجرجون المهلكة الثعابين تتحوى فوق رؤوسها. . . عيونها تقدح الشرر. . . اللهب يندلع من أفواهها. . . السم!. .)

- (أدع أبوللو. . . أدع فهو بك بر رحيم؟)

(!آه!. . . إنها تنشب أظفارها. . . الهرب. . . الهرب)

دريني خشبة

البريد الأدبي

جون نيتل ومشروعه لتعليم الفلاح المصري

جون نيتل من أنبه الكتاب السويسريين ذكرا، وأجملهم أسلوباً، وأصدقهم فناً في نقل صور البلاد، والقيام بتحقيقات اجتماعية رائعة، وقد تجلت موهبته لا في دقة الملاحظة فحسب، بل في سحر أسلوبه وسلاسة عباراته، بحيث تنفذ إلى نفس القارئ وتحدث في عواطفه أعمق تأثير

ومما يدل أبلغ الدلالة على تفوق هذا الكاتب في فنه أنه برغم كونه سويسريا استطاع أن يثبت شخصيته أمام الإنجليز، وتمكن في روايته (الدكتور إبراهيم) من أن يدفعهم إلى الاعتراف بأن ثمرة تعليمهم في مصر هوت إلى الحضيض، وأن استعمارهم أصبح كابوساً لا يطاق لشعب نشر ألوان الحضارة والمعرفة، على حين كانت أوربا تغط في ظلمات الجهالة ومخلفات القرون

ويبدو لنا أن حالة الفلاح المصري أحدثت تأثيرا عميقاً في نفس هذا الكاتب، وجعلته أشد عطفاً عليه، وأميل إلى أن ينقل لقرائه صوراً رائعة من أفكاره ومعتقداته وسوء حالته المعيشية، مع حث المصريين على تجهيز قوافل برية ونيلية تؤلف من متاحف صغيرة متحركة، وتزود بآلات للسينما وأجهزة علمية لتغزوا الجهل المتفشي في القرى والدساكر وتقضي عليه قضاء مبرما

ولقد حدث من سنوات أن قام جون نيتل برحلة طويلة إلى مراكش حيث الاستعمار الفرنسي يرتع في بلد فطري، فما كاد يستقر هناك بضعة شهور حتى ثارت ثائرته على مظاهر الاستبداد الفظيعة، وكتب كتابه المشهور (مراكش وعبد الكريم) فغضبالفرنسيون لصراحته، وأحدث ظهور كتابه ضجة هائلة في الأوساط الاجتماعية والسياسية بفرنسا

ويظهر أنه وضع روايته الجديدة (الدكتور إبراهيم) عن مصر وهو على ثقة من أنه سيستهدف لغضب الإنجليز ونقمتهم، وتبرم صحافتهم بصراحته، لكنه لم يحفل بهذا كله ومضى يسرد الوقائع بين سطور كتابه ويصورها بريشة الكاتب الواقعي الذي لا يخضع لسلطان سوى سلطان فنه، غير عابئ بالحملات الشديدة التي أعلنت عليه، ولا بمختلف الانتقادات النارية التي استقبلت بها الصحافة الإنجليز كتابه

غير أن هذا الكتاب العظيم صادف هوى في نفوس الأمريكيين الذين يشيدون بمظاهر العدالة، فمجدوا شخصية جون نيتل وأفردوا لكتابه الفصول الطوال لافتين الأنظار إلى ما يجري في الريف المصري من تفشي الأمراض والجهل الفاضح والوقوع تحت أثقال ديون المرابين الأجانب

ففي هذه القرى لا يصرف قرش واحد لنظافة البيوت والطرقات ونقل القاذورات وتجفيف المستنقعات، حتى لقد تبلغ الدرجة فيها أن تبقى رمم الحيوانات ملقاة بين المساكن فتتجمع عليها أسراب الجوارح والذئاب وتتصاعد منها روائح خبيثة

وفي أسواق القرى لا يوجد مرحاض واحد يفي بحاجة من يؤمه من التجار الذين يضطرون لقضاء حاجاتهم في أركان الأسواق لتبقى هذه القاذورات هدفاً لأسراب

الغربان والطيور والكلاب وجامعي الأحطاب، أو تلقى بقيتها في الترع والقنوات. فالعمل على تجنب الأضرار الناشئة من الماء الملوث الآسن يجب أن يكون قبل تدبير الماء الصالح للشرب في القرى، وهذا لا يتأتى إلا بإرشاد الفلاح إلى طرق النظافة، وتوقي الأمراض المعدية، ولن يكون إرشاده إلا بتجهيز قوافل علمية تطوف بمساكنه من وقت لآخر وتعمل على أن تنشل الفلاحين المساكين من وهاد القذارة والجهل، وتخرج بهم من الظلمات إلى النور

ولقد كانت المحاضرة التي ألقاها جون نيتل في مساء الأربعاء الماضي بقاعة يورت التذكارية تحت إشراف معهد جان جاك روسو للتربية بجنيف، تدور حول هذه المشكلة، مشكلة إصلاح حال الفلاح المصري ورفع مستواه الاجتماعي مع المحافظة على تقاليد أسلافه. فذكر المحاضر بأن كل فكرة ترمي إلى تعليم الفلاح بقصد انتزاعه من أرضه ونزوحه إلى المدن هي محاولة فاشلة، فالواجب تشويق الفلاح إلى أرضه وتنمية مداركه وتوسيع آفاق فكره ومعارفه العامة؛ فإذا أردنا مثلاً أن نرشده إلى الأحوال الجوية ومعرفة سير الكواكب كان علينا أن نزوده ببعثة فلكية مكونة من محاضرين بارعين، مزودين بسيارات بها آلات ومراصد فلكية، فيحل أعضاء البعثة بقريته يوما أو بعض يوم، ويجمعون الفلاحين في مكان واحد ثم يلقون عليهم محاضرات بلغة بسيطة سهلة عن علم الفلك وحركة الكواكب والنجوم مع مساعدتهم على استيعاب هذه المعلومات بواسطة المجاهر الفلكية

وهب أننا نريد أن نلقي على فلاحي قرية كذا درساً في النظافة والصحة العامة، فنوفد إليهم قافلة صحية بمتحفها الصحي المؤلف من نماذج مختلفة الأشكال، وبأفلام سينمائية معها نشرات مكتوبة في اللغة العامية يستطيع المربون الذين يرافقون القافلة أن يتلوا منها نصائح عملية على جماهير الفلاحين المحتشدين لاستقبالهم فالتعليم الحديث بواسطة القوافل العلمية هو الوسيلة التي يرمي إليها مشروع جون نيتل لرفع مستوى الفلاحين، إذ لا فائدة ترجى من إنشاء المدارس لتعليمه مبادئ الحساب والجبر وقواعد اللغة والرياضة إلى جانب تزويده بالمعارف العامة وتثقيفه الثقافة الشعبية الصحيحة التي تساعده على تربية الجيل الجديد تربية خالية من الجمود وشوائب الجهل

ونوه المحاضر بأنه لا يرمي إلى أن يظهر في مشروعه بمظهر من يملي إرادته، ولكنه مشروع مفيد وضع بعد دراسات طويلة للتضامن مع الذين يهمهم رفع مستوى الفلاحين، وتحسين أحوال معيشتهم، كما أن تحقيقه على الوجه الأكمل يقتضي عشرات المئات من الشبان المتعلمين أن يساهموا في إسداء هذه الخدمة الإنسانية الجليلة؛ وإن في استخدامهم لهذا الغرض لحلاً لجانب كبير من مشكلة الشبان المتعلمين ومكافحة الأمية في القرى والدساكر

وأهاب المحاضر في ختام محاضرته بأن في تغافل الحكومة وفي تركها الفلاح غارقا في محيط جهله خطرا عظيما على مستقبل الأمة، لأنه سيصبح في مصر طبقتان بينهما هوة عميقة: الشباب المتعلم في المدارس العالية وفي معاهد أوربا، وجمهور الفلاحين الذين يظلون بعقلية القرون الوسطى ويعيشون تحت إرهاب أساليب عصور الظلام

كتاب الذخيرة لابن بسام

نعرف أن لابن بسام الأديب الأندلسي الكبير أثراً حافلا عن حياة الأندلس الأدبية والسياسية في القرن الخامس الهجري، وهو (كتاب الذخيرة في التعريف بمحاسن أهل الجزيرة)، وإلى أعوام قلائل لم نكن قد ظفرنا بعد بنسخة كاملة من هذا الأثر الحافل؛ وكل ما انتهت ألينا منه نسخ مغربية وأندلسية ناقصة، ولكن العلامة المستشرق الأستاذ ليفي بروفنسال مدير مدرسة الدراسات العليا في مراكش قد ظفر بعد البحث الطويل في إحدى مجموعات المغرب بنسخة كاملة من كتاب الذخيرة؛ والأستاذ بروفنسال حجة في شؤون (الغرب الإسلامي) أعني الأندلس والمغرب وله مؤلفات قيمة عن عرب أسبانيا والمغرب، وقد نشر فوق ذلك طائفة نادرة من الكتب والوثائق عن تاريخ الأندلس والمغرب الأقصى: منها الجزء الثالث من كتاب البيان المغرب، ووثائق عن ابن تومرت (المهدي)، وجزء من تاريخ ابن حيان. ومن مؤلفته كتاب بالفرنسية عن أحوال الأندلس أيام الدولة

الأموية، وقد تألفت أخيراً لجنة من أفاضل المستشرقين برياسة العلامة المذكور لتقوم على طبع كتاب الذخيرة وتحقيقه وتذييله، وربما شغل الكتاب أربعة مجلدات كبيرة؛ وهو ينقسم إلى أربعة أقسام: الأول خاص بقرطبة وأعيانها؛ والثاني خاص بغرب الأندلس وأعيانه وأخبار بني عباد؛ والثالث خاص بأخبار بلنسية وأعيانها؛ والرابع خاص بأخبار الجزيرة. ولدينا في دار الكتب من كتاب الذخيرة نسخة ناقصة تحتوي على قسمين منه فقط هما الأول والثاني

وقد استفاد من كتاب الذخيرة كثير من العلماء المشتغلين بتاريخ الأندلس مثل دورزي وسيبولد، وذلك قبل أن يوجد نصه كاملا؛ والكتاب من أنفس آثار الأدب الأندلسي، وقد كتب بأسلوب بديع، وبه معلومات قيمة عن أحوال دول الطوائف خلال القرن الخامس الهجري، وليس من ريب في أن نشره سيكون خدمة جليلة للتاريخ الأندلسي

تراث جاك بانفيل

أشرنا في عدد سابق إلى وفاة الكاتب والمؤرخ الفرنسي الكبير جاك بانفيل. وقد قرأنا أخيرا في إحدى المجلات الفرنسية الكبرى فصلا عن الكاتب الراحل للعلامة المؤرخ أوكتاف أوبري الذي زار مصر منذ حين وألقى بها عدة محاضرات تاريخية شائقة، يصف فيها تراث بانفيل التاريخي ويحلل مواهبه وكفاياته كمؤرخ وفيلسوف للتاريخ. وقد كان بانفيل قبل كل شيء كاتباً سياسيا؛ وكان رجل جدل قوي يذود عن آرائه بيقين وحرارة؛ وكانت تغلب عليه الروح الفلسفية في كتابه التاريخ. ويرى الأستاذ أوبري في كتابيه (تاريخ فرنسا) و (نابليون) أثرين جليلين يمتازان بقوة خاصة. وقد كان بانفيل ملوكياً يؤمن أشد الإيمان بالملوكية ونظمها وتقاليدها؛ وكان يدافع عن عقيدته في هذا الوسط الجمهوري المضطرم بحرارة المؤمن. ومن ثم كان رأيه في الثورة الفرنسية واعتبارها حركة دموية طائشة. وهو في هذا يتفق مع كتاب عظام ناصروا الملوكية مثل لامرتين؛ بيد أنه يفوقهم جميعاً في حرارة إخلاصه للملوكية وشدة وطأته على الثورة. ويعتبر الأستاذ أوبري كتابه

عن نابليون أفضل مما كتب عنه تاين وميشليه؛ ويرى في كتابه (تاريخ الأجيال الثلاثة) صورة صادقة قوية من أحداث فرنسا ومحنها ومواطن عظمتها وضعفها منذ واقعة واترلو حتى معاهدة فرساي

بيد أن بانفيل يبدو في ذروة قوته كفيلسوف مؤرخ في كتابه الأخير، وهو كتاب (الحاكمون بأمرهم)، وقد استعرض فيه تاريخ الطغاة والطغيان منذ العصور الغابرة؛ ويبدي بانفيل في بحثه وتحليله لخواص الطغيان والطغاة مقدرة تطبعها رزانة خاصة؛ ويرى أوبري أن أثر بانفيل عن الطغاة يجب أن يتبوأ مكانه بجوار كتاب (الأمير) للفيلسوف الإيطالي مكيافيللي، برغم أن بانفيل يهتدي في كتابه بمثل أخلاقية واجتماعية غير تلك التي يهتدي بها مكيافيللي في كتاب (الأمير). ولتقدير الأستاذ أوبري لتراث بانفيل التاريخي أهمية خاصة لأنه يتبوأ مكانة سامية بين مؤرخي فرنسا المعاصرين

أحرب أم سلام

نشر الكاتب الإنكليزي الكبير الدوس هكسلي حفيد العلامة هكسلي مقالا عن مصاير السلام يقول فيه إن عام 1936 سيكون عاماً حاسماً في تاريخ البشرية. ذلك أنه إما أن يكون عام حرب أو عام سلام؛ إما أن يستطيع الساسة فيه أن يحتفظوا بسلام أوربا وإما أن تفلت الحوادث من يدهم وينحدر العالم إلى الحرب

والدول التي تسيطر على مصاير العالم اليوم هي سبع: بريطانيا العظمى وفرنسا والولايات المتحدة والروسيا - وهذه في نظر الكاتب هي الدول (الراضية) - ثم ألمانيا وإيطاليا واليابان، وهذه هي الدول (غير الراضية)، وذلك لأن الاحتكار الاستعماري والاقتصادي الذي تنعم به الدول الراضية قد اشتدت وطأته في الأعوام الأخيرة من جراء السياسة القومية التي تتبعها، والنظم الجمركية والاقتصادية التي تنظمها، لتوطيد تجارتها وسحق تجارة الدول الأخرى. والدول غير الراضية لها كل الحق في أن تنقم على الدول الراضية هذا الاستئثار؛ ذلك لأن مستوى الحياة في إيطاليا وألمانيا واليابان يهبط بالتدريج، وسيستمر على هذا الهبوط؛ والحياة في هذه البلاد تغدو كل يوم أشد وطأة، حتى أصبحت ترى أن المغامرة بخوض الحرب أفضل من أي سلام مسكين

تجنبه في ظل هذه الظروف التعسة. وقد قامت في هذه الدول الثلاث حكومات تعد شعوبها بأن ترد بالقوة القاهرة عنها هذا
الحيف؛ فأما اليابان فقد انقضت على بعض أقاليم الصين؛ وتحاول إيطاليا أن تفتتح الحبشة؛ وربما أقدمت ألمانيا في فرصة قريبة على محاولة نيل الترضية اللازمة، وربما كان ذلك على حساب روسيا أو أوربا الوسطى
وقد شهدت السياسة الدولية تطوراً عظيما في المبادئ، وذلك بتطبيق مبادئ وإجراءات إجماعية (أخلاقية)؛ ولكنا إذا أردنا السلام وجب أن نشتد في تطبيق هذه المبادئ الإجماعية إلى حدود أخرى؛ وإذا كانت إيطاليا تتبع سياسة غاشمة فذلك لما حاق بها من الظلم؛ وليس ثمة وسيلة واحدة لدفع هذا الحيف عن الدول غير الراضية سوى معاملتها ومعاملة دول أوربا الوسطى بعدالة
ويرى الكاتب أن الحرب والسلام بيد الدول نفسها، فإذا أصرت الدول الراضية على التمسك باحتكارها الاقتصادي الذي كسبته بوسائل غير عادلة، وإذا حاولت أن تتسلح حتى الذروة لتحتفظ به، فإن الحرب واقعة لا محالة
وأما إذا اعتزمت الدول الراضية أن تسير طبقاً لمبادئ الأخلاق، وهي في نفس الوقت مبادئ حسن التصرف، فان السلام يغدو محققاً مكفولا
الحياة المصرية المعاصرة
ظهر أخيراً في إنكلترا كتاب عن الحياة المصرية منذ أواخر القرن الماضي حتى يومنا، عنوانه (حياة في مصر) بقلم سيدة إنكليزية، أنفقت طول حياتها في هذه البلاد هي السيدة مابل جايارد. ويتناول هذا الكتاب وصف الحياة المصرية منذ أواخر عهد إسماعيل حتى سنة 1935؛ أعني خلال ستين عاما. وكان والد السيدة مابل موظفاً في الحكومة المصرية منذ أوائل عهد الاحتلال؛ وكانت مس مابل يومئذ فتاة ناشئة، فقطعت حياتها الحافلة في هذه البلاد، بين الإسكندرية ومصر، وشهدت تطورات الحياة المصرية في هذه الحقبة، واتصلت بكثير من الشخصيات البارزة في هذا العهد، ووقفت على كثير من الشؤون والمعلومات العامة والخاصة. وتقدم المس مابل في كتابها عن مصر صوراً ساحرة لهذا العهد الذي كانت الحياة فيه ما تزال ناعمة هينة؛ وتصف لنا مدينة القاهرة والمجتمع القاهري في أواخر القرن الماضي، حين كانت لا تزال في طور نشوئها العظيم؛ وكانت لا تزال مدينة شرقية تحتفظ بكامل جمالها وسحرها الشرقي الذي مازال يملأ مخيلة الكتاب والسائحين؛
وتصف لنا الإسكندرية في أوائل عهد الاحتلال وتروي لنا كيف كانت الحياة فيها أحياناً صعبة غير أمينة، وكيف كانت محط المغامرات والمفاجآت المكدرة
وتقدم لنا المس مابل صوراً ممتعة عن البلاط الخديوي في هذه الحقبة، وعن الخديويين وعن أكابر سيدات الحرم الخديوي الذي اتصلت به المؤلفة وعرفت كثيراً من رسومه ومظاهر الحياة فيه؛ وتصف لنا الإسكندرية والقاهرة أيام الحرب الكبرى، وكيف تحولت العاصمتان الكبيرتان إلى شبه محطة عسكرية هائلة، ثم تصف لنا ما طرأ على الحية المصرية بعد الحرب الكبرى إلى يومنا
وكتاب المس مابل طريف تجدر قراءته في هذه البلاد، وإن لم يكن يخلو من بعض نواحي التحيز والتحامل التي قلما تخلو منها كتب الأجانب، وبخاصة الإنكليز، عن مصر
الفوكلور المراكشي
تعتبر اليوم دراسة المعتقدات والعادات والتقاليد الشعبية من الدراسات الأثرية المفيدة في تاريخ الشعوب وتاريخ الحضارة؛ وقد اتسعت هذه الدراسة وتقدمت في عصرنا حتى أضحت تكون فرعاً خاصاً يطلق عليه (الفوكلور) أو دراسة المعتقدات الشعبية. ومن المؤلفات التي ظهرت أخيراً في هذا الموضع كتاب للدكتورة فرانسواز ليجي عن (الفوكلور المراكشي) وقد عاشت الدكتوره ليجي في مراكش أعواماً طويلة، ودرست المجتمع المراكشي دراسة مستفيضة، ووقفت على معتقداته وتقاليده القديمة التي لم تنجح المدنية الفرنسية المفروضة في إزالة معالمها؛ وتناولت المؤلفة معتقدات الشعب المراكيشي الدينية، وعاداته الاجتماعية، وما تداولته الأجيال منذ العصور الغابرة في شأن الخليقة وآدم والبر والبحر والحيوان والنبات والطير، من الأساطير والأمثال السائرة؛ وتسوق لنا المؤلفة أمثلة طريفة من هذه المعتقدات في شأن بعض الأشجار والأزهار فتقول: (إنهم يعتقدون أن بعض النباتات ليست من خلق الله ولكنها

من خلق الشيطان، وهذا شأن التبغ مثلاً؛ وأما شجرة الكرم وشجرة التين فقد حملهما آدم من الجنة؛ وقد نبتت الورود وزهر البرتقال من دموع النبي، ونبتت شجرة الرمان من الأزهار التي نثرتها فاطمة الزهراء ابنة النبي حينما علمت بموت ولديها الحسن والحسين)، ويعتقدون أيضاً أن بعض الحيوانات كانت بشراً ومسخت، عقاباً لها على سيئاتها

والكتاب طريف في موضعه وفي مباحثه وخصوصاً فيما يتعلق بتقاليد القبائل البربرية وعاداتها؛ وفي مباحثه ما يلقي كثيراً من الضوء على المجتمع المغربي في تطوراته المختلفة، وفي ظل الوثنية والإسلام، وما لا يزال حياً في معتقداته وتقاليده من تراث العصور الغابرة

العدد 141 - بتاريخ: 16 - 03 - 1936

رعاية الفلاح واجب قومي

أشارت الرسالة في عددها الماضي إلى المحاضرة القيمة التي ألقاها نزيل مصر، المستر جون نيتل الكاتب السويسري الكبير، عن تعليم الفلاحين ووجوب الاهتمام بثقافتهم القروية والصحية، فذكرتنا هذه المحاضرة بمسألة لا تزال تثير في نفوسنا شجناً، هي مسألة الفلاح المصري بوجه عام

أجل إن مسألة الفلاح المصري مسألة تجدر بعناية كل مصري يقدر الدور الخطير الذي يضطلع به الفلاح في حياة هذه البلاد؛ فالفلاح عماد الإنتاج القومي، وجهوده عصب الثروة المصرية العامة، وهو منبع الذكاء المصري العامل؛ يؤدي للخزينة العامة من دخله ما لا يؤديه أي مصري آخر من ذوي المناصب أو المهن أو المال

ومع ذلك فالفلاح المصري أقل أبناء الأمة حظاً من عناية أولي الأمر، بل يكاد يكون منهم نسياً منسياً؛ فقلما يفسح له مجال في المشاريع والمرافق العامة، وقلما تقدر حقوقه ومصالحه قدرها الحقيقي؛ وبينما نرى جميع الطبقات والطوائف من الموظفين وذوي المهن والطلبة والعمال، بل وذوي المال، كلا تدأب على مطالبة الحكومة وأولي الأمر بتحقيق ما تنشد من الحقوق والمزايا، إذا بالفلاح يلزم الصمت والسكينة، ويرقب مصيره قانعاً بالأمل، راضياً بحكم القدر، معتمداً على الله ثم على نفسه ودأبه المتواصل

بل نلاحظ مع الأسف والألم أن أصوات قادتنا ومصلحينا ترتفع في كل وقت مطالبة بتحقيق مختلف المشاريع الإصلاحية العامة، ولكن قلما يرتفع منها صوت من أجل الفلاح والعناية بانتشاله من ذلك المنحدر السحيق الذي قضى عليه أن يعيش فيه؛ وإذاً فمما يثير الشكر والعرفان أن يرتفع بيننا صوت إنساني كصوت ضيفنا المستر نيتل، مطالباً للفلاح بما نقصر نحن في المطالبة به من عناية هو خليق بها

يعيش الفلاح، عصب الشعب المصري وكثرته الساحقة، في نفس الحالة التي يعيش عليها منذ آلاف السنين، في غمر من الجهل المطبق والأمراض الفتاكة، تعوزه أبسط وسائل الصحة والنظافة؛ ولا يكاد يخرج من كده ودأبه المتواصل بأكثر من القوت الضروري، بل لا نعرف في بلد من البلاد المتمدنة طبقة اجتماعية ينحط منسوب العيش فيها إلى هذا الدرك الأسفل الذي تنحط إليه معيشة الفلاح المصري

ويؤدي الفلاح إلى خزينة الدولة نحو خمسة ملايين جنيه ضريبة عقارية، ويؤدي أكثر منها ضرائب أخرى مباشرة وغير مباشرة، فهو بذلك من أكبر المساهمين في تكوين الدخل العام؛ ومع ذلك فهو لا يصيب من النفقات العامة قسطاً يذكر، سواء في التعليم أو الصحة أو المنشآت والمرافق العامة. صحيح أن الدولة تنفق الملايين على أعمال الري والصرف التي ينتفع بها الفلاح، ولكنها إنما تنفق في الواقع على إدارة الثروة المصرية العامة وإحيائها؛ ومن العدالة بل من مصلحة البلاد الحيوية أن يحظى الفلاح بنصيب حسن من الإصلاحات الاجتماعية التي ترمي إلى رفع مستواه الصحي والعقلي، ففي تقدم صحة الفلاح وتقدم ثقافته ثروة حقيقية للبلاد، وزيادة في قواها المنتجة الاقتصادية والاجتماعية

وليس الفلاح بحاجة إلى التدليل على قدره وأهميته في حياة البلاد؛ فهو يعمل متوارياً في صمت، ولكن شرايين الحياة المصرية كلها تمت بصلة وثيقة إلى عمله وإنتاجه؛ وهاهو ذا المعرض الزراعي الصناعي القائم الآن أسطع دليل حي على ما لهذا الفلاح

المتواضع من جليل القدر في الإنتاج العام، وما يستطيع أن يقوم به من المعجزات الزراعية والصناعية إذا تعهده ولاة الأمر بالعناية الرفيقة والإرشاد المستنير
إن الفلاح مستودع الذكاء المصري، وأبناء الفلاحين هم صفوة القادة والزعماء وأكابر رجال الدولة والحكومة، فكيف يعدم الفلاح بين أبنائه أنصاراً يطالبون بحقوقه في الرعاية العامة، وبقسطه من العناية الصحية والثقافية؟ لقد كانت صحة الفلاح وعقله وروحه وما زالت عصب مصر الزراعية والاقتصادية، وقد كانت ستغدو عصب الدفاع عن مصر؛ فإذا شاءت مصر أم تحافظ على قواها المنتجة، وأن تشحذها وتضاعفها، فعليها ألا تدخر وسعاً في العناية بجسم الفلاح وعقله وروحه
وإذا كنا نستطيع أن نسجل لبعض الوزارات المصرية شيئاً من الفضل في الاهتمام بأمر الفلاح، ولا سيما في تقرير التعليم الأولي، وإنشاء بعض المستشفيات والمؤسسات الصحية، وردم البرك، وغيرها، فأنه لا يسعنا إلا أن نلاحظ أن هذه المشروعات تسير بخطى بطيئة جداً، وأن ما تم منها لا يعدو بداية ضئيلة. ومن حق الفلاح، وهو الذي يكون أغلبية الأمة الساحقة، ويساهم بأكبر قسط في إنتاجها الحيوي، ويتحمل معظم الأعباء والتكاليف العامة، أن يفوز من ولاة الأمر، ومن مشاريع الإصلاح العامة بأوفى نصيب

(* * *)

ولود وعقيم

للأستاذ أحمد أمين

ركبَتْ من أول محطة لترام مصر القديمة وهي كهلال الشك، جلد على عظم، وعلى يديها طفل قد جلل بالبياض، وعصبت عيناه، وغطي رأسه ووجهه بشاشة زرقاء وركب في المحطة التالية سيدة نصَف، أطيب شطريها الذي ذهب، ممتلئة البدن، سمينة الضواحي، فحيت الأولى، وتحادثتا
والنساء سريعات التعارف، تراهن في طرفة عين يتحدثن إلى من لم يعرفن قبل في أدق الأمور، وأعمق الأسرار، حتى كأنهن صديقات العمر، ورفيقات الصبى؛ فهن يتحدثن بعد دقيقة في السعادة والشقاء، وأوصاف الأزواج وعيوبهم، والحموات ومصائبهن ومضايقتهن، والدخل والخرج؛ وقد ينتقلن إلى ما هو أدق من ذلك وأصعب، مما لا يستطيع الرجال أن يتكلموا في بعضه إلا بعد عمر طويل، وصداقة متينة، ومشاركة في السراء والضراء
وبعد لحظة صرخ الطفل وأمعن في الصراخ، تحاول أن ترضعه ليسكت فلا يسكت، وتنميه فلا ينام، وتتبع معه كل الأساليب التي تعلمتها في إسكات الأطفال فلا تنجح، وأخيراً تدعو عليه بالموت فلا يستجاب لها

الثانية - ما له؟ -

الأولى - رمدت عيناه من أيام ثلاثة فشرّبني المر، وفي الليلة الماضية لم أذق طعم النوم، وأنا طول الليل واقفة على رجلي أذرع الحجرة من أولها إلى آخرها ومن آخرها إلى أولها، وكلما هدأ وبدأ النوم ذهبت إلى السرير لأنيمه وأنام فيصرخ ويكرر النغمة عينها ويمثل الدور نفسه إلى الصباح، حتى دار رأسي، ومللت الحياة، وتمنيت الموت، ولم أر للحياة طعما مذ رأيت الأولاد، وهانا ذاهبة إلى طبيب العيون

أمعك أولاد أخر؟

نعم - معي خمسة وهذا سادسهم؛ وقد حاولت بكل الوسائل أن أمنع الحمل بعد أول ولد ففشلت وفشلت. ومرة حاولت أن أخلص من جنين فكدت أخلص من نفسي وبقى الجنين. ومرة أصبت بنزيف شديد فعرضت نفسي على طبيب فقال إنه إجهاض، وليس من أمل كبير في بقاء الجنين؛ ثم أمرني أن ألتزم سريري ولا أتحرك، وأنام على ظهري دائماً،
وكتب لي دواء يمنع النزيف. فامتنعت من شرب الدواء، وأكثرت الحركة، وعملت كل شيء عكس ما نصح الطبيب رغبة في الإجهاض، ثم مع هذا كله ارتفع الدم وثبت الجنين. وهذا هو الذي على يدي

و (اسم الله عليهم) كلهم ذكور؟

لا والله! أربعة ذكور وبنتان، وكلهم في الهم سواء، وكل يوم نوع جديد من أنواع العذاب. ففي آخر السنة نضع يدنا على قلبنا عند الامتحان؛ وتظهر النتيجة، فهذا نجح،

وهذا سقط بلا ملحق، وهذا له ملحق؛ ونمضي الإجازة في عناء! وتبتدئ السنة، فمن نجح في الشهادة الابتدائية ظهر متأخر الترتيب فلا نجد له مدرسة أميرية تقبله؛ والشهادة في يد، والمصاريف في يد، والمدرسة في رفض! ثم هذا صحيح وهذا مريض، وهذا ذاكرَ وهذا لم يذاكر. ولا تسألي عن وقت ذهابهم إلى المدرسة! هذا يبحث عن جزمته فلا يجدها، وهذا عن طربوشه فلا يجده، ونرى الفرد جورب في حجرة وفرداً آخر في حجرة أخرى، فلا يكادون يذهبون إلا وقد بلغت الروح الحلقوم. وعند مجيئهم من المدرسة هذا يغضب على الأكل وهذا يرضى، وهذا ينازع ذاك، ولا ينقذنا من كل هذا إلا نومهم. ثم هذا الشهر شهر أقساط المصاريف، وهذا شهر كسوة الصيف، وهذا شهر كسوة الشتاء، وماهية الزوج لا تكفي هذا وذاك، والعيش كله عناء في عناء. وأنت؟ أليس عندك أولاد؟

كان منظراً غريباً، فقد طفرت الدمعة فجأة من عين السيدة الثانية، فلما أخرجت منديلها ومسحت دمعتها قالت: أبى الله أن يرزقني في حياتي ولداً، وطالما دعوته وسألته! وحججت مرة، وكان أكبر همي من حجي أن أقف في أشرف بقعة وأسأل الله أن يهبني ابناً أو بنتاً! وليكن الابن ذكياً أو غبياً، ولتكن البنت جميلة أو دميمة؛ فأنا راضية بأي مولود على كل حال، ولكنه - سبحانه وتعالى - لم يفعل، وفي القرآن الكريم: (يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور، أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيما) فقد شاء أن يجعلني من الصنف الأخير - لتمنيت أن يكون لي أولاد، وأتحمل فيهم أضعاف ما ذكرتِ من عناء. ثم أراهنك أني أكون سعيدة مغتبطة لا أشكو ولا أتألم - لقد طرقت كل الأبواب لذلك فلم أنجح، ذهبت إلى الأطباء فعملوا لي عملية، واحتملت في سبيلها كل الآلام؛ وذهبت إلى المشايخ فرقَّوا وعزَّموا؛ وذهبت إلى الشيخات (فحصَّرن) وبخرن و (وصفن)؛ وقالوا تخافين؛ فخفت ونزلت القبر، وركبت وابور (لونابارك)؛ وقالوا وقالوا، وفعلت وفعلت، فذهب ذلك كله هباء، ورزقني الله مالاً كثيراً استطعت أن أفعل به كل ما وصفوا حتى السفر إلى أوربا واستشارة أطبائها، ولكن إذا أبى الله فماذا يفعل العبد؟

لم يبق لي من ذلك كله إلا التلهف على الولد والحسرة الدائمة؛ وكل شيء حولي يذكرني بالأولاد فيثير أشجاني وأحزاني. لقد رأيت في حديقتي أشجار البرتقال والليمون تحمل أثمارها فقلت يا لله! أتسبل نعمك على الأشجار فتحمل كل عام أثمارها، وتضنّ علي فلا أحمل مرة ثمرة! وعندي قطة تحمل دائماً وتضع ما لا يعد من الأولاد، وكلما حملت ذكرتُ حملي، وكلما ولدت بكيت أولادي الذين لم يوجدوا بعدُ؛ وأرى الفقيرات البائسات العاريات في الشارع كل واحدة منهن تحمل في بطنها ولداً، وترضع ولداً، وتجر ولداً، فيتجمع الحزن في قلبي، وتنفجر منه عيني؛ واسمع (معارفي) وصواحبي، هذه ولدت، ثم هذه ولدت، ثم هذه ولدت، فأقول لم يبق عقيما إلا أنا، ولم يتخصص للشقاء غيري! رزقني الله مالاً ولم يرزقني ولداً، وليته رزقني ولداً ولم يرزقني مالاً؛ ولو كان الولد يشرى بكل ما أملك لاشتريته وكنت سعيدة؛ بل لو كان يشرى بعينيّ لاشتريته وكنت رابحة في صفقتي. وما الدنيا والمال؟ وما الحياة بغير الولد؟ لقد كنت في أول أمري أطلب الولد خشية أن يتزوج زوجي غيري، فلما أمنت جانبه، واطمأننت من ناحيته، طلبت الولد لأنه طبيعتي ولأنه حياتي بعدي، ولأنه موطن انتساخ روحي، ولأني امرأة قد خلقت للأمومة. لقد أحسست بهذه الأمومة في صغري فعملت العرائس إرهاصاً لأمومتي، ثم تزوجت تهيؤاً لهذه الأمومة، فلما تقدمت في السن ولم أجد الأمومة رأيتني فقدت طبيعتي، ورأيتني في الحياة مقدمة بلا نتيجة، أو قبة بلا شيخ، أو لوزة فارغة، وأنا والعروس من الحلوى، والعروس من القطن سواء، كلنا لا يلد. ليس لي أمل في السلوة إلا بالموت. فهو وحده بلسم الهموم، ومقبرة الأحزان! وهنا ختمت حديثها - كما بدأته - بالدموع

قالت الأولى: والله لو ذقتِ مرارة الأولاد ما تمنيتِهم؛ ولو جربتِ سهر الليالي ما اشتقتهم؛ ولكن أحب شيء إلى الإنسان ما منع؛ والقصر من بُعد أجمل منظراً من سكناه؛ والخيال دائما ألذ من الحقيقة. لقد كان مرة أكبر أولادي يبكي وهو رضيع ولا نعلم سبباً لبكائه، ويبكي ويشتد في البكاء حتى بلغ معنا الهم مبلغه، وإذا بزفة عريس تمر من تحت بيتنا،

فأضحكني زوجي أبو الطفل إذ قال للعريس: (غُرْ) غداً تخلف (وترى) - لو تمنيت الآن شيئاً لتمنيت أني لم أكن تزوجت، وإن تزوجت فلم أكن (خلفت) - أتبادلني؟ وضحكت؟
قالت الثانية وتأوهَتْ: وكيف يمكن البدل؟ إنما أريد أولاداً مني لا منك، أريد كبدي تمشي على الأرض أربيها، ولا أريد كبك أنميها وأغذيها - وأنت أيضاً لا تعبرين عما في نفسك تعبيراً صادقا، فمن تهون عليه أولاده؟ إنما ينفع البدل إن كان قدر لي الله أن أكون ولوداً وأن تكوني عقيما
قالت الأولى: أتريدين الحق يا أختي؟ الدنيا كلها تعب فلا ولود في راحة، ولا عقيم في راحة، ولا متزوجة سعيدة، ولا عزبة سعيدة
ووصل الترام إلى العتبة فنزلتا، هذه إلى طبيب أبنها وتلك لبعض شؤونها
قال صاحبي: ولكن كيف أمكنك أن تسمع هذا الحوار؟ قلت: هذا سر الصنعة.
أحمد أمين
الدينار والدرهم - 4
للأستاذ مصطفى صادق الرافعي
قال احمد بن مسكين: وأزفَ ترحُّلي عن (بلخ) وتهيأتُ للخروج، ولم يبق من مدة مقيلي بها إلا أيام يجيء فيها السبتُ الرابع. وكانت قد وقعت مُمَارةٌ بيني وبين مفتي (بلخ) أبي أسحق إبراهيم بن يوسف الباهلي تلميذ أبي يوسف صاحب الإمام أبي حنيفة، ويزعمون أنه شحيحٌ على المال وأنه يَتَغَلَّلُه من مُسْتَغَلاَّت كثيرة، فكأنما غَشِيَتْه غمامتي، فهو لا يرى أن أتكلم في الزهد، ويحسب هذا الزهد تماوُتَ العبَّاد ونَفْضَ الأيدي من الدنيا وسوءَ المصاحبة لما يُنعم الله به على العبد، وخذلانَ القوة في البدن، وما جرى هذا المجرى من تزوير الحياة بالأباطيل التي زعم أنها أباطيل الطاعات وما أقربها من أباطيل المعصية. ولم يكن هذا المفتي قد سمعني ولا حضر مجلسي، ولولا الذي لم يعرفه من ذلك لقد كان عرف
وجادلتُه فرأيته واهنَ الدليل، ضعيفَ الحجة، يُخَمَّنُ تخمين فقيه، وينظر إلى الخفايا من حقائق النفوس نظر صاحب النصَّ إلى الظاهر، كأن الحقيقة إذا ألقيت على الناس مضت نافذة كفتوى المفتي. . . ويزعم أن الوعظ وعظُ الفقهاء، يقولون هذا حرام فيكون حراماً لا يُقارفه أحد، وهذا حلال فيكون حلالاً لا يتركه أحد؛ وهو كان بعيداً عن حقيقة الوعظ ومداخله إلى النفس وسياسته فيها، ولا يعرف أن الحقيقة كالأنثى إن لم تزين بزينتها لم تستهو أحدا؛ وأن الموعظة إن لم تتأدَّ في أسلوبها الحي كانت بالباطل أشبه، وأنه لا يغير النفسَ إلا النفسُ التي فيها قوةُ التحويل والتغيير كنفوس الأنبياء، ومن كان في طريقة روحهم، وأن هذه الصناعة إنما هي وضع نور البصيرة في الكلام لا وضعُ القياس والحجة، وأن الرجل الزاهد الصحيح الزهد، إنما هو حياة تلبسها الحقيقة لتكون به شيئاً في الحياة والعمل. لا شيئاً في القول والتوهم، فيكون إلهامها فيه كحرارة النار في النار من واتاها أحسها
ولعمري كم من فقيه يقول للناس هذا حرام، فلا يزيد هذا الحرام إلا ظهوراً وانكشافاً مادام لا ينطق إلا نطق الكتب ولا يحسن أن يصل بين النفس والشرع، وقد خلا من القوة التي تجعله روحاً تتعلق الأرواحُ بها وتضعه بين الناس في موضع يكون به في اعتبارهم كأنه آتٍ من الجنة منذ قريب، راجعٌ إليها بعد قريب
والفقيهُ الذي يتعلق بالمال وشهوات النفس ولا يجعل همَّه إلا زيادة الرزق وحظ الدنيا - هو الفقيه الفاسدُ الصورة في خيال الناسُ يفهمهم أولَ شيء ألاَّ يفهموا عنه إذ حرصه فوق بصيرته، وله في النفوس رائحةُ الخبز وله معنى خمسٌ وخمس عشرة. . . وكأن دنياه وضعت فيه شيئاً فاسداً غريباً يفسد الحقيقة التي يتكلم بها؛ ولست أدري ما هو هذا الشيء ولكني رأيت فقهاء يعظون ويتكلمون على الناس في الحرام والحلال وفي نص كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ثم لم أجد لكلامهم نفعاً ولا رداً، إذ يلهمون الناس بأرواحهم غير المعنى الذي يتكلمون فيه؛ وتسخر الحقيقة منهم - على خطرهم وجلال شأنهم - بذات الأسلوب الذي تسخر به من لص يعظ لصاً آخر فيقول له لا تسرق. . .
قال ابن مسكين: فلما دار يوم السبت أقبل الناس على المسجد أفواجاً، وكانوا قد تعالموا إزماعي الرحيل عن بلدهم - وجاء (لقمان الأمة) في أشياعه وأصحابه، وجاء أبو اسحق المفتي في جماعته؛ واستقر بي المجلس فنفذْتُ الناسَ بنظري فكأنهم نبات

غطى الأرض، فأذكرني هذا شيخنا السريَّ بنَ مُغلَّس السقَطي، وكان قد لزم داره في بغداد لا يخرج منها ولا يراه إلا من قصد إليه، وهممتُ أن أجعل الموعظة في شرح كلمته المشهورة: لا تصحُّ المحبة بين اثنين حتى يقولَ أحدهما للآخر: يا أنا. وما نقلوا عنه من أنه قال مرة لبعض أصحابه: منذ ثلاثين سنة وأنا في الاستغفار من قولي (الحمد لله). فقال صاحبه: وكيف ذلك؟ قال: وقع ببغداد حريق فاستقبلني رجلٌ فقال: نجا حانوتك. فقلت الحمد لله؛ فأنا نادم من ذلك الوقت على ما قلت إذ أردتُ لنفسي خيراً من الناس. قال ابن مسكين: ولكني أحببت أن أكلم المفتي ومالَ المفتي؛ فحدثتهم حديث معرفتي بالسّري أني سمعتُ يوماً غيْلان الخياط يقول: إن السري كان اشترى كُرّ لوز بستين ديناراً وأثبته في رزنامجه وكتب أمامه: ربحه ثلاثة دنانير؛ فلم يلبث أن غلا السعر فبلغ تسعين ديناراً؛ فأتاه الدلال الذي كان اشترى له فقال: أريد ذلك اللوز. قال الشيخ: خذه. قال: بكم؟ فقال بثلاثة وستين ديناراً. وكان الدلال رجلاً صالحاً فقال للشيخ: إن اللوز قد سار الكُر بتسعين. فقال السري: ولكني عقدت بيني وبين الله عقداً لا أحلُّه، فلست أبيع إلا بثلاثة وستين ديناراً. فقال الدلال: وأنا عقدت بيني وبين الله عقداً لا أحله ألاّ أغشَّ مسلماً، فلست أشتري منك إلا بتسعين؛ فلا الدلال اشترى منه والسريُّ باعه

قال أحمد بن مسكين: فلما سمعت ذلك لم تكن لي همةٌ إلا أن ألقى الشيخ وآخذ عنه، فلم أعرَّج على شيء حتى كنت في المسجد الذي يصلي فيه فأجده في حَلْقته وعنده ممن كنت أعرفهم: عبدُ الله بن أحمد بن حنبل وإدريس الحداد وعلي بن سعيد الرازي، وحوله خلق كثير وهو فيهم كالشجرة الخضراء بين الهشيم تعلوه نَضْرةُ روحه وكأنما يُمدُّه بالنور عِرق من السماء فهو يتلألأ للعين؛ ولا يملك الناظر إليه أن يحس في ذات نفسه أنه الأدنى من رؤيته في ذات نفسه أن هذا هو الإنسان الأعلى

ورأيت على وجهه آلاماً تمسحه مسحةَ الأشواق لا مسحة الآلام، فهي آثارُ ما يجده في روحه القوية، لا كآلام الناس التي هي آثار الحرمان في أروحهم الواهنة الضعيفة فلا تمسح وجوههم إلا مسحة الغم والكآبة. وما يخطئ النظر في تمييز آلام السماء على هذه الوجوه السعيدة من آلام الأرض في الوجوه الأخرى فأن الأولى تتندَّى على روح الناظر بمثل الطَّل إذا قطَّره الفجر، والأخرى تتَنَوّرُ كما تَهيج الغَبرةُ إذا ضربت الريحُ الأرض

كان الشيخ في وجود فوق وجودنا فلا تتلون له الأشياء ولا تعدو عنده ما هي في نفسها، ولا يحمل الشيء له إلا معناه من حيث يصلح أو لا يصلح، ومن حيث ينبغي أو لا ينبغي. فإنما تتلون الأشياء عندما يضع الشيطانُ عينَه في عين الناظر إليها؛ وإنما تزيد وتنقص في القلب عندما يكون روح الشيطان في القلب؛ وإنما يشتبه ما ينبغي وما لا ينبغي عندما يأتي الشيء من جهتين: جهته من طبيعته هو، وجهته من طبيعتنا نحن. وبهذا قد يجمع الإنسان المال ثم لا يجد في المال معنى الغنى، وقد تتفق أسباب النعيم ولا يكون منها إلا الذل. وكم من إنسان يجد وكأنه لم يجد إلا عكس ما كان يبغي، وآخرَ لم يجد شيئاً ووجد بذلك راحته.

قال ابن مسكين: وما كان أشدّ عجبي حين تكلم الشيخ فقد أخذ يجيب على ما في نفسي ولم أسأله كأن الذي في فكري قد انتقل إليه؛ فروى الحديث: إذا عظَّمتْ أمتي الدينارَ والدرهم نُزع منها هيبة الإسلام، وإذا تركوا الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر حُرموا بَركةَ الوحي. ثم قال في تأويله:

إن ملك الوحي ينزل بالأمر والنهي ليخضع صولةَ الأرض بصولة السماء، فإذا بقي الأمر بالمعروف والنهيُ عن المنكر بقي عملُ الوحي إلا أنه في صورة العقل، وبقيت روحانية الدنيا إلا أنها في صورة النظام، وكان مع كل خطأ تصحيحُه فيصبح الإنسان بذلك تنفيذاً

للشريعة بين آمرٍ مطاع ومأمور مطيع، فيتعامل الناس على حالة تجعل بعضَهم أستاذا لبعض، وشيئاً منهم تعديلا لشيء، وقوة سندا لقوة؛ فيقوم العزمُ في وجه التهاون، والشدة في وجه التراخي، والقدرة في وجه العجز. وبهذا يكونون شركاءَ متعاونين، وتعود صفاتهم الإنسانية وكأنها جيشٌ عامل يناصر بعضه بعضا فتكون الحياة مفسرةً مادامت معانيها الساميةُ تأمر أمرها وتلهم إلهامها ومادامت ممثَّلة في الواجب النافذ على الكل

والناس أحرار متى حكمتهم هذه المعاني فليست حقيقة الحرية الإنسانية إلا الخضوع للواجب الذي يحكم، وبذلك لا بغيره يتصل ما بين الملك والسُّوقة وما بين الأغنياء والفقراء اتصالَ الرحمة في كل شيء واتصالَ القسوة في التأديب وحده. فبركة الوحي إنما هي جعل القوة الإنسانية عملا شرعيا لا غير

أما تعظيم الأمة للدينار والدرهم فهو استعباد المعاني الحيوانية في الناس بعضِها لبعض، وتقطُّعُ ما بينهم من التشابك في لحُمة الإنسانية، وجعل الكبير فيهم كبيراً وإن صغرت معانيه والصغير فيهم وإن كبر في المعاني؛ وبهذا تموج الحياة بعضها في بعض ولا يستقيم الناسُ على رأي صحيح، إذ يكون الصحيح والفاسد في ملك الإنسان لا في عمل الإنسان، فيكنز الغني مالا ويكنز الفقير عداوة كأن هذا قتل مالَ هذا وكأن أعمالا قتلت أعمالا، وترجع الصفاتُ الإنسانية متعادية وتباع الفضائل وتشترى، ويزيد من يزيد ولكن في القسوة، وينقص من ينقص ولكن في الحرية، وتكون المنفعة الذاتية هي التي تأمر في الجميع وتنهي، ويدخل الكذبُ في كل شيء حتى في النظر إلى المال فيرى كل إنسان كأنما درهمهُ ودينارُه أكبر قيمة من دينار الآخر ودرهمه فإذا أعطي نقص فغش، وإذا أخذ زاد فسرق؛ وتصبح النفوس نفوساً تجارية تساوم قبل أن تنبعث لفضيلة وتُماكِسُ إذا دُعيت لأداء حق، ويتعامل الناس في الشرف على أصول من المعِدة لا من الروح، فلا يقال حينئذ إن رغيفين أكثر من رغيف واحد كما هي طبيعة العدد، بل يقال إن رغيفين أشرفُ من رغيف كما هي طبيعة النفاق

أما التجارة وهي التفسير الظاهر لمعاني النفوس فتصبح بين الغش والضرر والمماكرة، وتكون يقظة التاجر من غفلة الشاري وتفسد الإرادة فلا تحدث إلا آثارها الزائغة. وما التاجر في الأمة القوية إلا أستاذ لتعليم الصدق والخلق في الموضع المتقلب فكلمته كالرقم

من العدد لا يحتمل أزيد ولا أنقص مما فيه، ويمتَحَن بالدنيا والدرهم أشدَّ مما يمتحن العابد بصلاته وصيامه. وقد شهد رجل عند عمر بن الخطاب في قضية فقال عمر: ائتني بمن يعرفك، فأتاه برجل أثنى عليه خيراً، فقال له عمر: أنت جاره الأدنى الذي يعرف مدخله ومخرجه؟ قال: لا، قال فكنت رفيقه في السفر الذي يستدل به على مكارم الأخلاق؟ قال: لا. قال: فعاملته بالدينار والدرهم الذي يستبين به ورعُ الرجل؟ قال: لا

قال عمر: أظنك رأيته قائماً في المسجد يُهَمْهِمُ بالقرآن يخفض رأسه طوراً ويرفعه أخرى. قال: نعم

قال: فاذهب فلست تعرفه

وإنما التاجر صورة من ثقة الناس بعضهم ببعض وإرادة الخير واعتقاد الصدق، وهو في كل ذلك مظهر توضع اليد عليه كما تجسُ اليدُ مرض المريض وصحته

فإذا عظمت الأمة الدينار والدرهم فإنما عظمت النفاق والطمع والكذب والعداوة والقسوة والاستعباد؛ وبهذا تقيم الدنانير والدراهم حدوداً فاصلة بين أهلها، حتى لتكون المسافة بين غني وفقير كالمسافة بين بلدين قد تباعد ما بينهما. وإنما هيبة الإسلام في العزة بالنفس لا بالمال، وفي بذل الحياة لا في الحرص عليها، وفي أخلاق الروح لا في أخلاق اليد، وفي وضع حدود الفضائل بين الناس لا في وضع حدود الدراهم، وفي إزالة النقائص من الطبع لا في إقامتها، وفي تعاون صفات المؤمنين لا في تعاديها، وفي اعتبار الغني ما يُعمل بالمال لا ما يجمع من المال، وفي جعل أول الثروة العقل والإرادة لا الذهب والفضة

هذا هو الإسلام الذي غلب الأمم، لأنه قبل ذلك غلب النفس والطبيعة

(طنطا)

مصطفى صادق الرافعي

عصر الخفاء

البارون فون أوفنباخ

داعية ومغامر ومشعوذ

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كان القرن الثامن عشر عصر الخفاء في أوربا، تزدهر فيه الدعوات والحركات السرية، ويزدهر فيه أقطاب الدعاة السريين؛ ففي أوائله نرى حركة البناء الحر (الماسونية)

تتغلغل في أنحاء أوربا، وتقوم طائفة أخرى من الحركات والجمعيات السرية؛ وفي أواخره نرى طائفة من أقطاب المغامرين الذين يتشحون بأثواب الخفاء والشعوذة يجوبون أوربا من أقصاها إلى أقصاها، ويثيرون الروع والدهشة أينما حلوا؛ ولهؤلاء الدعاة المغامرين سير عجيبة تفيض بها سير القرن الثامن عشر، وتبدو كأنها قصص مغرق، بيد أنها ترجع في الغالب إلى كثير من الحقيقة، وكل ما هنالك أن هذه الحقيقة يكتنفها كثير من الغموض والخفاء يرجع إلى ظروف العصر والمجتمعات التي ظهر فيها أولئك الدعاة المغامرون

ومما يلاحظ أن معظم المغامرين والدعاة السريين الذين ظهروا في هذه الفترة هم يهود أو ينتمون إلى أصل يهودي، وأن معظم الحركات والدعوات السرية التي ازدهرت فيها ترجع أيضاً إلى أصل يهودي، أو نلمس فيها على الأقل وحي الدعاية اليهودية؛ وهذه الملاحظة ترجع في الواقع إلى ظاهرة تاريخية أعم، وهي أن اليهودية كانت منذ العصور الوسطى مستقى أو مبعثاً لكثير من الحركات والجمعيات السرية التي قامت في أوربا، ومعظمها يرمي إلى غايات هدم دينية أو اجتماعية، تقصد بها النصرانية ومبادئها وعقائدها قبل كل شيء

وقد كانت (الكابالا) اليهودية منذ العصور الوسطى أكبر مصدر لهذه الدعوات والرموز السرية. والكابالا شهيرة في تراث اليهودية الروحي والفلسفي، وهي عبارة عن مزيج من الفلسفة والتعاليم الروحية، والرموز السحرية، يتوارثها أحبار اليهودية ودعاتها منذ أقدم العصور، وأخص تعاليمها الروحية أن الله وهو الكائن المطلق الخالد ينفث من نفسه إلى عالم الأرواح النقية، وأن روح الإنسان تنتقل من جسم إلى جسم حتى تعود في النهاية إلى

الله وتفنى فيه؛ ولكن الكابالا اشتهرت بالأخص برموزها السرية وتعاويذها السحرية، وقد كانت هذه مدى العصور تراث الخفاء في يد الدعاة والمشعوذين، يستغلون به سذاجة الكافة، ويتخذونه سلاحاً قوياً لبث دعواتهم وتحقيق غايتهم في مجتمعات مؤمنة يروعها السحر والخفاء على كر العصور

وقد بلغت هذه الدعوات والتعاليم السرية اليهودية ذروة القوة والذيوع في القرن السابع عشر؛ وكانت بولونيا، وبالأخص مقاطعة بودوليا التي كانت يومئذ منزلا لطوائف كثيرة من اليهود، مركزاً للدعوة الكابالية؛ وكانت هذه الدعوة تتمخض من آن لآخر عن فورات دينية يتردد صداها في المجتمع اليهودي كله. وفي أواسط القرن السابع عشر ظهر في تركيا شابتاي زيبى، وهو داعية يهودي زعم أنه المسيح المنتظر، فأثار ظهوره ومزاعمه فتنة كبيرة في المجتمع اليهودي؛ ولم يكن (المسيح المنتظر) سوى داعية ماهر من دعاة (الكابالا)؛ وفي أواسط القرن الثامن عشر ظهر في بولونيا عدة متعاقبة من الدعاة الكابالين، أشهرهم إسرائيل البدولي الذي أسس طائفة (الحسديم)؛ وكان إسرائيل بارعاً في ضروب الشعوذة واستخدام الرموز والتعاويذ السحرية، فلقيت دعوته صدى كبيراً، والتف حوله كثير من اليهود الذين خرجوا على تعاليم (التلمود) وتقاليده

وفي ذلك الحين أيضاً ظهر داعية من أعظم دعاة الكابلا، وأشدهم خفاء وغموضاً، فأثارت شخصيته الغامضة، وحياته العجيبة، ومزاعمه الخارقة، وبذخه الطائل أيما روعة ودهشة في مجتمعات أوربا الوسطى. واسم هذا الداعية الغريب يعقوب فرنك، وكل ما نعرف عن نشأته وحياته الأولى أنه ولد في بولونيا، وكان في حداثته يشتغل بتقطير الخمور؛ ثم تجول حيناً في بلاد القرم وفي تركيا، ودرس تعاليم (الكابالا) ورموزها دراسة عميقة، واتصل بأنصار شابتاي زيبى ودعاهم إلى لوائه، ثم عاد إلى بودوليا منزل الحركة الكابالية، وهنالك أسس في سنة 1755 طائفة جديدة تعرف بجماعة (الزوهاريين) نسبة إلى (زوهار) أو كتاب الضوء، وهو من الكتب العبرية الكابالية؛ ولم يلبث أن ذاعت دعوته وقويت عصبته؛ ونهض لمقاومته جماعة (التلموديين) الرجعيين، ونشبت بينهما خصومة قوية، فالتجأ فرنك إلى حماية أسقف كامنيك وأفضى إليه بميوله النصرانية، وأحرق التلمود علناً؛ وعاونه الأسقف على مقاومة خصومه حيناً ولكنه لم يلبث أن توفى، واشتد الأحبار اليهود في

مهاجمة فرنك ومطاردته، وأوقعوا به لدى حكومة وارسو، ولدى مبعوث البابا، وصوروه للسلطات الدينية والمدنية يهودياً مرتداً، ونصرانياً مماذقاً، وأن دعايته خطر على

العقائد المرعية، فهبت السلطات لمقاومته، وبدأت يد المطاردة تعمل لسحق (الزوهاريين) وتشريدهم

والواقع أن مذهب فرنك لم يكن يهودية خالصة ولا نصرانية خالصة، بل كان مزيجاً غريباً من اليهودية والنصرانية والوثنية؛ ولم تكن بولونيا مهداً خصباً لمثل هذه الدعوات الجريئة؛ فلم يمض بعيد حتى قبض على فرنك بتهمة الارتداد الكاذب ونشر الإلحاد والكفر، وزج إلى قلعة شنتشوف، وبادر كثير من أنصاره بالفرار إلى تركيا، واعتنق الكثلكة كثير ممن بقى منهم في بولونيا، ولكنهم بقوا يهودياً في سرائرهم، وقبض على عدد منهم، وحكم على البعض بالأشغال الشاقة، ولكن كثيرين منهم استطاعوا أن يتقوا بستار الكثلكة ويل المطاردة؛ ولقي الذين هاجروا إلى تركيا عنتاً واضطهاداً من السلطات الدينية في مولدافيا، وانقض عليهم العامة ونهبوهم، وتفرقوا في كافة الأنحاء. أما يعقوب فرنك فلبث يرسف في سجنه حتى سقطت قلعة شنتشوف في أيدي الروس في سنة 1772، وعندئذ أطلق سراحه؛ فتجول حيناً في بولونيا وبوهيما ومورافيا متشحاً في الظاهر بثوب الكثلكة، وهو يجمع الأموال والرسوم الفادحة من أنصاره وأبناء جلدته، ويثير الروع والإجلال بين الكافة بمظاهر بذخه؛ وكان مذهب الزوهاريين قد ذاع في المجتمعات اليهودية في تلك الأنحاء، وكانت تعاليمهم أكثر جنوحاً إلى النصرانية، فهم ينكرون التلمود، ويسلمون بالتثليث والحلول، ولكن ينكرون أن المسيح وحده أهل للحلول؛ وكان هذا المزيج بين المذاهب والتعاليم المختلفة ملاذ الدعاة في كل عصر، فهم يزعمون دائماً أنهم ينشئون مذهباً أو ديناً جديداً، ولكنهم يعمدون دائماً إلى الاقتباس من المذاهب والأديان القائمة، ويسبغون على مزيجهم نوعاً من الجدل الغامض للتمويه على العامة والبسطاء

على أن يعقوب فرنك غدا مذ قوضت دعائم طائفته رجلا آخر، فهو لم يبق بعد داعية يتزعم مذهباً جديداً؛ ولم يبق بعد اعتناق الكثلكة يهودياً ينفث دعاياته إلى أبناء دينه؛ بل غدا في الواقع شخصية جديدة يحوطها خفاء من نوع جديد؛ ذلك أنه ظهر فجأة في المجتمع الرفيع، يعيش في بذخ شرقي طائل، ويحيط نفسه بحاشية كبيرة فخمة، ويدهش المجتمعات

الرفيعة في ألمانيا والنمسا بروعة مظاهره وفيض بذخه؛ ومازالت حياة فرنك في تلك الفترة لغزاً، وما زال مصدر تراثه المدهش سراً على التاريخ؛ ومن ذلك الحين يعيش فرنك في فينا وفي برون على مقربة منها، تحيط به أروع مظاهر الفخامة والبذخ، كما يحيط به أعمق الأسرار وأغرب المزاعم؛ ولبث فرنك مدى حين يدهش البلاط النمسوي وكل مجتمع فينا الرفيع بشخصيته الخفية، وحياته الفخمة الباذخة؛ وكانت له ابنة حسناء تدعى (حوه)، استطاعت أن تتقرب من الإمبراطورة ماريا تيريزيا، وأن تنال لديها حظوة ونفوذاً، وأن تمهد لأبيها كثيراً من السبل؛ ولكن الريب الذي يلاحقه أينما حل كان يحيط دائماً بشخصيته ومحيطه ووسائله ومزاعمه؛ ولم يلبث أن اضطر إلى مغادرة النمسا ليتقي شر الاتهام والمطاردة، وعندئذ تحول إلى مدينة أوفنباخ بألمانيا على مقربة من فرانكوت، واستقر بها مع حاشيته الكبيرة، وعاش هنالك بنفس البذخ الطائل الذي كان مثار الروع والدهشة والإعجاب أينما حل

وعاش فرنك في أوفنباخ أعواماً طويلة، وتسمى بالبارون فون أوفنباخ، وهو لقب يغلب عليه في كتب التاريخ والقصص؛ وأثار بروعة بذخه ومظاهر طلعة المجتمع الألماني ودهشته كما أثار دهشة المجتمع النمسوي من قبل. ويقدم إلينا المؤرخ الألماني بيتر بير وصفاً روائياً شائقاً لحياة فرنك العجيبة وبذخه المدهش فيقول لنا: (كانت له حاشية من بضع مئين من الفتيان والفتيات اليهود ذوي الحسن الرائع؛ وكان يذاع أن صناديق المال تنهمر عليه في كل يوم ولا سيما من بولونيا، وكان يخرج كل يوم في موكب حافل ليقيم شعائره في العراء، في عربة تجرها جياد مطهمة، ومن حوله عشرة أو اثنا عشر فارساً بروسيا في حلل حمراء خضراء موشاة بالذهب، وقد شهروا الرماح ووضعوا في قلنسواتهم رموزاً من النسور أو الوعول أو أهلة وشموساً وأقماراً؛ وكان الماء يصب دائماً حيثما كان يقيم شعائره؛ وكان يؤم الكنيسة في مثل هذا البذخ، وهنالك يؤدي القداس بطريقة خاصة، وفي خشوع خاص؛ وكان أنصاره يعتقدون فيه الخلود، بيد أنه توفى في سنة 1791؛ ودفن في بذخ يعدل بذخ حياته، وسار وراء نعشه موكب من ثمانمائة؛ بيد أن سر ثرائه وبذخه دفن معه في قبره؛ وانحدرت أسرته بعد

وفاته إلى حالة من البؤس تدنو إلى التسول؛ وعبثاً حاولت تستدر عطف أنصاره أو صدقتهم؛ ولم يمض سوى قليل حتى غمرها النسيان
(والعدم، واضطرت لكي تعيش أن تزاول أعمال الحياة الفانية
هذه في قصة يعقوب فرنك وقصة حياته العجيبة. قصة مغامر ومشعوذ بارع استطاع أن يستغل ظروف عصره، وما كان يسود مجتمع عصره من إيمان وتعلق بالخوارق والأساطير. بيد أنه من الخطأ أن نقف عند هذه الصورة الظاهرة من حياته. ذلك أن حياة فرنك كانت سراً من الأسرار التي لا تنفذ إليها طلعة الكافة، وكان وراء هذه الحياة الفخمة الباذخة ناحية أخرى يغمرها الخفاء المطبق. كل كان فرنك يعمل لنفسه وبوسائله الخاصة أم كان يعمل بوحي قوة خفية أخرى تمده بأسباب البذخ الطائل وتدفعه إلى المجتمع مزوداً بتلك المظاهر الرائعة لكي يعمل الرائعة لكي يعمل على بث داعية معينة وتحقيق أغراض معينة؟ وتحقيق أغراض معينة؟ لقد كان العصر الذي ظهر فيه فرنك عصر الخفاء حقاً، وكانت موجة من الخفاء والتعلق بالخوارق والمجهول تغمر مجتمعات أوربا الرفيعة وتملك عليها تفكيرها وأهواءها؛ وفي نفس الوقت الذي ظهر فيه فرنك مسلحاً بأسراره ومظاهره العجيبة، ظهر يوسف بلسامو أو الكونت كاجيلو سترو مسلحاً بمثل هذا الخفاء وأثار دهشة المجتمعات الرفيعة ولا سيما في فرنسا بمظاهره وأعماله العجيبة ومزاعمه الخارقة؛ وظهر في نفس الوقت مغامر آخر من نفس الطراز وإن كان أقل روعة وتأثيراً، وهو الكونت سان جرمان واقتفى أثر زميله في التذرع بالخوارق. ومما يلفت النظر أن الثلاثة كانوا يهوداً. وقد كانت اليهودية يومئذ مبعث الحركات والدعوات السرية، وكانت الكابالا اليهودية كما أسلفنا مستقى خصباً للدعاة السريين فيما يعرضون من ضروب الرموز والأساليب السحرية، وكانت حركة البناء الحر (الماسونية) يومئذ تضطرم في جميع أوربا؛ وقد أثبت البحث الحديث أن لحركة البناء الحر أغراضاً خفية غير الأغراض الإنسانية التي تتظاهر بها، وأنها تعمل لغاية ثورية شاملة هي سحق الأديان والمعتقدات القائمة كلها، وإدماج الإنسانية كلها في نوع من التفكير الحر المطلق والمساواة الاجتماعية المطلقة. ويرى بعض الباحثين أن الثورة الفرنسية كانت مؤامرة (ماسونية) ونفثة من نفثات البناء الحر، وأن محافل البناء الحر هي التي نظمت خططها وبرامجها الأولى، بل يرى بعض الباحثين أن الثورة البلشفية الحديثة ليست بعيدة عن تأثير البناء الحر، وأن ما ترمي إليه من إحداث ثورة عالمية يطابق نفسه الغاية التي يعمل لها البناء الحر؛ وقد كان أولئك الدعاة المغامرون
الذي خلبوا الباب أوربا في القرن الثامن عشر يتصلون بمحافل البناء الحر اتصالاً وثيقاً وإن يكن خفياً. أفليس لنا نعتقد بعد ذلك أن يعقوب فرنك لم يكن مغامراً أفاقاً يعمل لنفسه ولمطامعه الشخصية، وأنه بالعكس كان داعية خطيراً يبعث حركة خطيرة لها صلة بخطط البناء الحر وغاياته؟ وأنه كان يستمد المال الوفير والنصح والحماية من قوة خفية أعظم؟ هذا ما نرجح. وهذا ما يؤيد خفاء حياته وخفاء وسائله ومزاعمه وغاياته، واتشاحه بثوب الدعوة الدينية التي كانت على كر العصور ملاذاً لمختلف الدعوات والغايات.

محمد عبد الله عنان

فلاسفة الإسلام والتوفيق بين الفلسفة والدين

للدكتور إبراهيم بيومي مدكور

مدرس الفلسفة بكلية الآداب

سيداتي، سادتي!

أشكر قسم الخدمة العامة بالجامعة الأمريكية على أن هيأ لي فرصة للتحدث إليكم الليلة في موضوع جاف ودقيق؛ ولست أدري هل دقته منشأ جفافه، أم جفافه زاد في دقته وغرابته؛ ومهما يكن فالذي أستطيع أن أؤكده لكم أنكم لستم بصدد موضوع من تلك الموضوعات الطريفة المسلية التي تمر بالمستمع في شوق ورغبة وهدوء وسكون، وقد أعذر من أنذر! على أن لي في سعة صدركم وعظيم انتباهكم ما يشجعني على القول برغم ما يصادفني من صعوبات. وما فكرت في أن أخوض معكم غمار هذه الأحاديث إلا رغبة مني في أن أوجه النظر إلى شطر من الثقافة الإسلامية أهمله أهله وتغافل عنه ذووه. وأعني بهذا الشطر الدراسة العقلية والبحث النظري في

الإسلام. للإسلام فلسفة انفردت بخصائصها ومميزاتها وأضحت ذات شخصية مستقلة.
فليست مجرد الفلسفة الأرسطية مصوغة في عبارات عربية كما يزعم رينان، ولا فلسفة مدرسة الإسكندرية منسوبة فقط إلى بعض رجال الإسلام كما يدعي دهيم. كلا بل هي فلسفة ذات موضوع خاص ومشاكل معينة وطريقة البحث جديدة إلى حد كبير.
هذه الفلسفة مجهولة ومهملة إلى درجة لم تصل إليها فيما أعتقد أية فلسفة أخرى.
فرجالها لا يكادون يعرفون، وكتبهم ليست أعظم حظاً منهم؛ ولا يزال قدر منها مخطوطاً إلى اليوم دون أن يفكر أحد في طبعه ونشره. ولو لم يقيض الله لهذا التراث بعض المستشرقين لما عرف عنه شيء وتقي في طي الكتمان إلى الأبد. وما أجدرنا أن نقوم نحن على إحياء مجدنا والإشادة بذكر رجالنا كي يتصل حاضرنا بماضينا ونؤسس نهضتنا على أسس متينة من القديم الحي والجديد النافع
قلت أيها السادة إن موضوعنا دقيق، وعنوانه كاف للدلالة على ما فيه من أمور شائكة ومشاكل عويصة. فان الأبحاث الدينية في جملتها مثار اتهامات وتأويلات وشبه لا حصر لها. وقد ساد بلدنا في العشرين سنة الأخيرة روح اتهام خبيثة ترمي بالإلحاد والزندقة والتمرد والكفر كل من حاول تفسير ظاهرة من الظواهر الدينية تفسيراً تاريخياً أو عقلياً.
لذلك تحاشى كثير من الباحثين هذا الميدان وتجنبوه اتقاء لما فيه من شرر متطاير وعراك ونضال. غير أني أشعر بنسمة من نسمات التسامح الإسلامي القديم تهب علينا من جديد، وألمح في صفوف قادة الرأي والمفكرين اتجاها نحو الحرية وسعة الصدر وطلاقة التفكير. ولا أدل على هذا من خمود تلك النعرة القديمة، نعرة الإباحيين والمستمسكين واللادينيين والدينيين. ويغلب على ظني أنه لو كان تقدم الزمن عشر سنين بكتاب ككتاب (حياة محمد) مثلاً للدكتور هيكل لعد في صف المؤلفات المحاربة المطرودة. أما اليوم فانه مقروء ومرغوب فيه بشكل يدعو إلى الإعجاب والتقدير.
وليس هناك شك في أن لفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي يداً في هذه النزعة الصالحة والتسامح الجديد. وإذا كانت النفوس اليوم أكثر استعداداً لتفهم مسائل الدين في جو حر طليق فأني لا أرى غضاضة في أن أتحدث عن بعضها. على أني لست في هذا الحديث إلا رسول الأمين والناقل الصادق لما قال به فلاسفتكم الأقدمون. فمهمتي أن أنقل إليكم آراء كبار فلاسفة الإسلام، وأردد بينكم أصواتاً تقادم بها العهد، وأبعث من تحت الرغام أشباحاً طال رقادها، وأبين لكم كيف حاول الفارابي وابن سينا وابن رشد التوفيق بين الفلسفة والدين
الدين وحي الله، ولغة السماء وغذاء القلوب، ومصدر الأوامر والنواهي. فكيف نوفق بينه وبين الفلسفة التي هي صنع البشر ولغة الأرض، ومجال الأخذ والرد والبحث والتعليل؟ كيف نوفق بين الحقيقة الدينية والحقيقة الفلسفية، والأولى عمادها الإلهام، والثانية أساسها البرهان؟ كيف نوفق بين السمعيات والعقليات، بين المسلمات واليقينيات؟ كيف نوفق بين أفكار العامة المبنية على البساطة والسهولة، وآراء الخاصة الناتجة عن التفكير الزائد والتأمل العميق؟ مهمة شاقة قطعاً ومحاولة يعز أن تكلل بالنجاح. ولكنها ضرورية لقوم عاشوا في العالم الإسلامي واعتنقوا الإسلام، وكانت دراستهم بل حياتهم كلها خاضعة للجو المحيط بهم، ومتأثرة بمختلف العوامل والظروف التي استولت على عصرهم. فلم ير الفلاسفة المسلمون بداً من محاولة التوفيق بين معتقداتهم وأبحاثهم. وهذه المحاولة هي حجر الزاوية في فلسفتهم وأخص خصائصها، وبها تتميز من الفلسفة الأرسطية وتبدو في ثوبها الفذ المستقل. ففي كل خطوة من خطاهم، وفي كل بحث من أبحاثهم، صوب هؤلاء الفلاسفة نحو هذا الغرض واتجهوا نحو هذه الغاية. وكان لمجهودهم أثر يذكر في انتشار الفلسفة ونفوذها إلى صميم الدراسات الإسلامية الأخرى. ويعد الفارابي أول من سلك سبيل هذا التوفيق وأظهره في شكل مهذب منسق. ثم أتى بعده ابن سينا فسار على سنته واهتدى بهديه، ووسع طريقته وكمل ما فاته، إلا أن محاولة التوفيق التي قام بها هذان الفيلسوفان لم ترق لدى الغزالي، فشن عليها الغارة وأثار عليها حرباً شعواء ونقض أصولها وفروعها وأعمل معوله في هدم بنائها الفخم وأركانها المتينة؛ وكتابه تهافت الفلاسفة قائم على انتزاع أحجار هذا البناء الواحد بعد الآخر، وإثبات أن الفلاسفة أساءوا إلى الفلسفة والدين معاً بمحاولتهم التوفيق بينهما. وقد جاء ابن رشد

أخيراً مدافعاً عن أسلافه الفلاسفة ومبيناً ما في حجج الغزالي من مغالطة وسفسطة. ولم يمنعه تعصبه الزائد لأرسطو وعنايته الكبيرة بالفلسفة القديمة من أن يقف على هذه المشكلة ثلاثة كتب هامة هي: تهافت التهافت في الرد على الغزالي، وفصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، ومناهج الأدلة في عقائد الملة. ولا يعنينا كثيراً أن نعرف ما إذا كان هؤلاء الفلاسفة مخلصين في عملهم أو غير مخلصين، فهذه مسألة تتجاوز دائرة بحثنا وتتعلق بأشخاصهم وصلتهم بربهم. وما لنا نتتبع بواطن الناس وقد دلت ظواهرهم على حسن نيتهم؟ ومن لنا بالوقوف على أمر هذه البواطن والله وحده هو الذي يتولاها ويدرك كنهها وخفاياها؟ على أن البحث عن السرائر مقرون غالباً بالشك وإلصاق تهم بأشخاص لم يقم دليل من أقوالهم وأفعالهم على اتهامهم. فلندع هذا جانباً، ولنقنع بأن نقرر أن فلاسفة الإسلام الذين نتحدث عنهم خلفوا كتباً تشهد برغبتهم الأكيدة في التوفيق بين دراستهم وعقائدهم، وفلسفتهم كلها قائمة على هذا الأساس

واضح أن التوفيق يستلزم على الأقل جانبين متقابلين وطرفين متنافرين. ومهمة الموفق أن يبعد أسباب الخلاف ويقرب الشقين المتباعدين؛ وهذا ما حاوله الفارابي وابن سينا في ربط الفلسفة بالدين، فقد كان أمامهما من جهة الفلسفة الأرسطية تراث الإغريق وأسمى صورة لما أنتجه العقل الإنساني في ذاك الزمن، كما كانا يعتنقان من جهة أخرى عقائد الإسلام والملة الحنيفية السمحاء التي تدعو إلى تحرير الإنسان من قيوده وتوجيهه نحو البحث والنظر. وفي فلسفة أرسطو نواح لا تلائم أصول الدين، كما أن في الإسلام تعاليم قد لا تتفق ظواهرها والروح الفلسفية؛ فعنى الرجلان بصبغ مذهب أرسطوا بصبغة دينية وكسوة الدين بثياب فلسفية، وبذا أصبحت الفلسفة دينية، والدين فلسفياً؛ أو بعبارة أدق أصبحت فلسفتهما ديناً ودينهما فلسفة. وليس في مقدورنا أن نأتي هنا على تفاصيل أوجه التوفيق التي حاولاها، وإنما نكتفي بالمسائل الرئيسية التي أدخلاها في الفلسفة والدين معاً. فنتبين النقط التي خالفا فيها أرسطو والحلول التي عرضناها لبعض المشاكل الدينية. وعلى هذا فأوجه التوفيق تنقسم إلى شعبتين، تتصل إحداهما بالفلسفة والأخرى بالدين، وكأن الموفقين شاءا أن يخطوا بالفلسفة نحو الدين في الوقت الذي قربا فيه الدين من الفلسفة؛ وكأن التصالح بين الطرفين، إن صح هذا التعبير القضائي، تم على تساهل متبادل وتضحية مشتركة. في الفلسفة الأرسطية ثلاث مسائل جوهرية تبعد عن تعاليم الإسلام: الأولى فكرة الإله ومدلولها الصحيح وتحديد صفات البارئ وخصائصه؛ والثانية الصلة بين الله والعالم وبيان ما إذا كانت الحركة والمادة محتاجتين إلى الله أو غير محتاجتين؛ والثالثة النفس وخلودها، نظرية كلامية ميتافيزيقية، وأخرى فلكية طبيعية، وثالثة سيكلوجية. هذه هي النقط الثلاث الهامة التي تباعد بين آراء أرسطوا وما جاء به الإسلام، وفي التعاليم الإسلامية من جانب آخر مشكلتان عظيمتان هما: مشكلة النبوة ومشكلة السمعيات. وقد شغل الفلاسفة بهما وعنوا بتفسيرهما تفسيراً علمياً ينطبق على مبادئ البحث العقلي. وسأعرض عليكم سريعاً أوجه الخلاف هذه وطريق علاجها

لم يعن أرسطو عناية خاصة بمعرفة الله، ولم يعتبرها غرضاً رئيسيا لفلسفته، ولم يدخلها في قوانينه الأخلاقية ولا في نظمه السياسية، ويظهر أنه نظر أولاً إلى العالم الحسي وبين أسبابه وعلله دون أن يفكر في قوة خفية تدبره، وبعد أن استكملت الطبيعة وسائلها وانتظمت الأفلاك في سيرها انتهى به المطاف إلى محرك أول أخص خصائصه أنه يحرك غيره ولا يتحرك هو. هذا المحرك الساكن أو المحرك الصوري هو الإله في رأيه، ولا يذكر من صفاته إلا أنه عقل دائم التفكير، وتفكيره منصب على ذاته. فإذا ما طالبته بتفاصيل أكثر وبيان أشمل ألفيت نفسك أمام صمت عميق وسكون مطبق. ذلك لأنه يتحرج عن الكلام في المسائل الدينية، ويعدها فوق مقدور البشر، ويصرح بأن الكائنات الأزلية الباقية وإن تكن رفيعة مقدسة ليست معروفة إلا بقدر ضئيل. وليت أرسطو وقف عند هذا الحد، بل جاوزه إلى ما هو أقبح وأشنع، فإن نظرياته المختلفة تشعر بتردد بين الوحدة والتعدد. حقاً إنه ينادي بالوحدة مردداً قول هومير إنه (ليس حسناً أن يكون هناك سادة

متعددون) ويلاحظ أن وحدة نظام العالم تستلزم وحدة سببه الغائي، ولكنه يقرر في مقام آخر أن لكل فلك محركا خاصاً لا يختلف كثيراً عن المحرك الأول والإله الأعظم. فالأفلاك وحركاتها تقوده إلى التعدد وإن جهر بالوحدة وبرهن عليها، وبذا لم يستطع التخلص تماماً من التقاليد الإغريقية القديمة التي كانت تعتبر النجوم آلهة. ففكرة الإله عنده غامضة وغير متمشية مع مذهبه، ولا تشغل حيزاً واضحاً في فلسفته، وأراني في غنى عن أن ألاحظ أن هذه الفكرة تختلف كل الاختلاف عن العقيدة الإسلامية. لذلك اضطر الفلاسفة المسلمون أن يبينوا حقيقة الله ويشرحوها شرحاً لا يدع مجالاً للإبهام والشك؛ وقد أثبتوا أن الله هو الموجود الأول والسبب الحقيقي لسائر الموجودات، وأنه منزه عن الشريك والنظير والمثيل والضد، هو الإله الواحد الحي القادر العليم الحكيم السميع البصير. يقول الفارابي: (الموجود الأول هو السبب الأول لوجود سائر الموجودات كلها وهو بريء من جميع أنحاء النقص. . . فوجوده أفضل الوجود وأقدم الوجود ولا يمكن أن يكون وجود أفضل ولا أقدم من وجوده. . . فهو أزلي دائم الوجود بجوهره وذاته من غير أن يكون به حاجة في أن يكون أزلياً إلى شيء آخر يمد بقاءه، بل هو بجوهره كاف في بقائه ودوام وجوده. . . وهو مباين بجوهره لكل ما سواه ولا يمكن أن يكون الوجود الذي له لشيء آخر سواه). وفي هذا المعنى يقول ابن سينا إن (الأول لا ند له ولا ضد له ولا جنس له ولا فصل له فلا حد له ولا إشارة إليه إلا بصريح العرفان العقلي. وهو معقول الذات قائمها، فهو قيوم بريء عن العلائق والعهد والمواد وغيرها مما يجعل الذات بحال زائدة. وقد علم أن ما هذا حكمه فهو عاقل لذاته معقول لذاته. تأمل كيف لم يحتج بياننا لثبوت الأول ووحدانيته وبراءته عن الصمات إلى تأمل لغير نفس الوجود ولم يحتج إلى اعتبار من خلقه وفعله وإن كان ذلك دليلاً عليه، لكن هذا الباب أوثق وأشرف، أي إذا اعتبرنا حال الوجود فشهد به الوجود من حيث هو وجود، وهو يشهد بعد ذلك على سائر ما بعده في الوجود. وإلى مثل هذا أشير في الكتاب الإلهي: (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم). أقول هذا حكم لقوم؛ ثم يقول: (أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد؟) أقول إن هذا حكم الصدِّيقين الذين يستشهدون به لا عليه)، وقد برهن الفيلسوفان على وحدة الله بطريقة مبتكرة وفي مهارة ولباقة خلابتين، وإذا كان الله واحداً فإنا لا نستطيع أن نتصور له صفات خارج ذاته، بل هو عالم حي سميع

قادر بذاته. (فليس يحتاج في أن يتعلم إلى ذات أخرى يستفيد بعلمها الفضيلة خارجة عن ذاته، ولا في أن يكون معلوماً إلى ذات أخرى تعلمه، بل هو مكتف بجوهره في أن يَعلم ويُعلم، وليس علمه بذاته شيئاً سوى جوهره، فإنه يعلم وأنه معلوم وأنه علم، كل ذلك ذات واحدة وجوهر واحد) فالفارابي وابن سينا يقولان، كالمعتزلة، بوحدة الذات وبلغيان الصفات الخارجة عنها، وفكرة الإله عندهما أساس الذهب جميعه، وكل المسائل الأخرى متفرعة عنها. وفي هذا ما يبين مسافة الخلف بينهما وبين أستاذهما أرسطو

لم يفارق فلاسفة الإسلام أستاذهم في هذه النقطة فحسب، بل انفصلوا عنه في مسألة أخرى هي نتيجة لهذه، ألا وهي الصلة بين الله والعالم. وذلك أن أرسطو وقد قال بقدم المادة والحركة لم يدع لله مكاناً في هذا العالم. نعم إنه يسميه المحرك الأول ومعنى هذا أنه علة فاعلية، ولكنه يعود فيقول إنه محرك ساكن؛ وكل ما هنالك أن العالم يتجه إليه في حركته. فهو غرض وغاية فقط؛ وليس تأثيره في العالم بأكثر من تأثير التمثال الجميل في نفس المعجب به. وإله هذا شأنه يتنافى مع ما يصرح به القرآن من أن الله خالق كل شيء. فلا المادة ولا العالم يتصور لهما وجود بدون الله. والتغيرات الكونية على اختلافها ترجع إلى الخالق المبدع جل شأنه. إزاء هذا التناقض الواضح فجاء الفارابي وابن سينا إلى حل وسط فقالا إن المادة مخلوقة وقديمة. خلقها الله بفيض من عنده أولاً وتعهدها بعنايته ورعايته فيما بعد. وكلمة (فيض) هذه ليست من الكلمات التي تمر بنا دون أن نعيرها أية أهمية فإنها ذات مدلول خاص وأهمية تاريخية. ويراد بها أن الله وهو عقل محض وتفكير مستمر قد صدر عنه العقل الأول كما يصدر الضوء عن الشمس، وعن العقل الأول صدر العقل الثاني وهكذا إلى العقل العاشر. وهذه العقول مرتبة ترتيباً تنازلياً فأسماها العقل الأول وأدناها العقل العاشر. وهي موزعة على الأفلاك المختلفة لتمدها بالحركة وتحقق فيها النظام. ويختص العقل

العاشر أو العقل الفعال بالعالم الأرضي وعنه صدرت المادة التي هي مخلوقة وقديمة في آن واحد. يقول الفارابي: (وأول المبدعات عنه شيء واحد بالعدد وهو العقل الأول ويحصل في المبدع الأول الكثرة بالعرض لأنه ممكن الوجود بذاته، واجب الوجود بالأول، ولأنه يعلم ذاته ويعلم الأول. وليست الكثرة التي فيه من الأول لأن إمكان الوجود هو لذاته وله من الأول وجه من الوجود. ويحصل من العقل الأول بأنه واجب الوجود وعالم بالأول عقل آخر ولا يكون فيه كثرة إلا بالوجه الذي ذكرناه. ويحصل من ذلك العقل الأول بأنه ممكن الوجود وبأنه يعلم ذاته الفلك الأعلى بمادته وصورته التي هي النفس. والمراد بهذا أن هذين الشيئين يصيران سبب شيئين: أعني الفلك والنفس. ويحصل من العقل الثاني عقل آخر وفلك آخر تحت الفلك الأعلى. وإنما يحصل منه ذلك لأن الكثرة حاصلة فيه بالعرض كما ذكرناه بديا في العقل الأول، وعلى هذا يحصل عقل وفلك من عقل، ونحن لا نعلم كمية هذه العقول والأفلاك إلا على طريق الجملة إلى أن تنتهي العقول الفعالة إلى عقل فعال مجرد من المادة؛ وهنالك يتم عدد الأفلاك؛ وليس حصول هذه العقول بعضها من بعض متسلسلاً بلا نهاية، وهذه العقول مختلفة الأنواع كل واحد منها نوع على حدة، والعقل الأخير منها سبب وجود الأنفس الأرضية من وجه، وسبب الأركان (العناصر) الأربعة بواسطة الأفلاك من وجه آخر)، ويقول ابن سينا كذلك إن (الأول يبدع جوهراً عقليا هو بالحقيقة مبدع ويتوسطه جوهراً عقلياً وجرماً سماوياً. وكذلك عن ذلك الجوهر العقلي حتى تنم الأجرام السماوية وتنتهي إلى جوهر عقلي لا يلزم عنه جرم سماوي. فيجب أن تكون هيولي العالم العنصري لازمة عن العقل الأخير وعلى هذا فالفارابي وابن سينا يثبتان الخلق الذي جاء به القرآن وإن كانا يصورانه بصورة عقلية روحية، ويسلمان مع أرسطو بقدم العالم وإن اعترفا بمبدئه

(يتبع)

إبراهيم مدكور

التاريخ في سير أبطاله

ميرابو - 3

ميرابو. . . تلك الأعجوبة!

جوته

للأستاذ محمود الخفيف

تتمة

صارت الغلبة للشعب، فلقد وقف ميرابو وقفة حاسمة كان في الثورة كما رأينا نجاتها؛ وليت شعري هل يحمل عمله هذا على الهدم أم هو يحمل على البناء؟ أتراه يوجه السفينة إلى حيث لا عاصم لها من الموج، أم تراه يجنبها الصخرة المعترضة؟ أدر الدفة يا ربانها! لكن الربان اليوم يزجيها ويستحثها! أكان عن طيش ذلك أم عن خبل؟ كلا فأنى لليطش أو الخبل أن يبلغا هذا الرأس الأشم؟ أولم ير الأشراف يأتمرون بالثورة ويرى الملك يتنمر بغتة ويهم أن يأتها من مقتلها؟ إنه يعرف ما يفعل يدرك متى يتخذ الهجوم سلاحاً ومتى يجعل من الصبر مثابة وأمنا. وإنك لتراه يجمع في ذلك إلى إقدام القائد حنكة السياسي

أكبرته باريس وكانت قد أعجبت بما قرأت له في صحيفته التي كان يصدرها دفاعاً عن آرائه، واليوم تخلص له الحب، ولو كان للرجل يومئذ مآرب خاصة كما تقول عنه خصومه لكان له من تلك الشهرة أعظم فرصة، ولكنه وقف من باريس موقف الحذر الفطن، إذ كان يخشى أن تنقلب الثورة من مظهرها الدستوري إلى مظهر دموي هو عنده الطامة الكبرى

ولكنه إذ يعمل على تفادي الخطر من ناحية الشعب لم يكن يأمن جانب البلاط، ولم ير في إذعان الملك وحمله السادة الممتازين على مجالسة العامة إلا سكون المتحفز الذي يتربص بالجمعية الدوائر ليضربها الضربة القاضية

ولم تلبث الحوادث أن أيدت ما رأى، فقد طافت شائعات السوء بالجمعية ثم أيقنت أن الملك يحشد حول باريس وفرساي من جنده نحو أربعين ألفاً، وأنه موشك أن يعود إلى سالف موقفه منها وهو اليوم بهؤلاء الجند أشد بطشاً وأعظم حولاً، ولقد أنكر ميرابو

هذه السياسة المذبذبة من لدن ذلك الملك الذي كان بسياسته يوقظ لفتنة ويحركها؛ وتساءل في دهشة وفي
قوة حجة: (إذا كان الملك يريد أن ينفرد بالأمر دوننا فلم دعانا إليه؟ وإذا كان قد دعانا لحاجة إلينا فكيف يسوغ له أن يشهر السلاح في وجوهنا)؟
وتطلعت الجمعية إلى رجلها من جديد وانتظرت باريس منه القول الفصل، ووثب ديموستين الفرنسي مرة ثانية إلى الصدر فهز جنبات القاعة بل جوانب فرنسا بخطاب من أبلغ ما فاه به. ثم أراد أن يأخذ الطريق على من يكيدون للجمعية بالدس فاقترح أن ترسل وفداً إلى الملك يعلن له ولاءها ويرجوه أن يسحب الجند من حول باريس.
ولقد جعلت الجمعية ميرابو على رأس ذلك الوفد؛ فلما جاء الملك أجاب متهكما: (إنه وحده الذي يحرك جنده كما يريد، وإذا كان النواب يخافون هؤلاء الجند فلينسحبوا إلى ما وراء باريس؛ وبعد ذلك بيومين عزل (نكر) من الوزارة يوم 11 يوليو سنة 1789
أدرك ميرابو أن الكارثة واقعة لا محالة. ولم تنقض ثلاثة أيام على عزل نكر حتى حملت باريس السلاح ودكت ذلك الحصن العتيد سجن الباستيل رمز الطغيان والعبودية دخلت الثورة في دورها الدموي الرهيب؛ ولقد ذعرت الجمعية وخشيت أن تقع الحرب الأهلية فتقضي على الثورة والجمعية معاً؛ وكان رجلها غائباً عنها لما علم من وفاة أبيه.
فلما عاد عاودها الأمل وأوفدت وفداً جديداً يعيد على الملك ملتمس الجمعية، ووقف ميرابو ينصحه قائلا: (بلغوا الملك أن جنوده الذين أحاطوا بنا من كل صوب قد غمرتهم أيدي أمرائه وأميراته ورجال حاشيته بالهدايا والتحف. وأن هؤلاء الجند وقد بهرهم بريق الذهب ولعبت برؤوسه الخمر باتوا يتغنون بسحق فرنسا وكل ذلك في اليوم السالف لليلة سان بارنلميو)
ولكن هاهو ذا رسول من قبل الملك ينبئ الجمعية بأنه في الطريق إليها، وهاهو ذا ميرابو ينصح إليها أن تلاقيه جادة صامتة معلنة حدادها على من قتلوا في باريس قائلا: (إن في صمت الشعوب درساً للملوك)
وجاء الملك يستعين بالجمعية على تهدئة الحال في باريس ثم يدخلها في رهط من النواب معلناً رضاءه عما اتخذته بعد سقوط الباستيل! ويسحب الجند منها ومن فرساي!
وكانت باريس بعد أن أعلنت غضبتها قد سيطرت على الموقف فألفت الحرس الوطني وجعلت رياسته للافيات وانتخبت بابي عمدة لها وأسست كثيراً من الصحف والنوادي الثورية
أدر الدفة يا ربانها! لقد أحدق الخطر بها، فالربان مشفق يرقب مجراها وهو أشد حذرا وأكثر تشاؤما. لقد وقع ما كان يخشاه وجرت الدماء في باريس، وطاف شبح الفوضى بالأقاليم، وبات الشعب في سكرة النصر يتوعد ويتوثب، والملك لا يزال ألعوبة في يد بطانته وعلى الأخص في امرأته، والمهاجرون من الأشراف يؤلبون أوربا على الثورة، وغول الخراب المالي يطالع البلاد من كل ناحية
ولكن الربان وسط العاصفة لا يعرف اليأس سبيلا إلى قلبه. زار باريس فهبت تزاحم مهرجانه باريس، وطاف بخرائب الباستيل يشهد مصرع الظلم فامتلأت عربته بالزهور، ورأى الحرية الحمراء تعلن عن نفسها في أجواء المدينة راقصة صادحة، فهل أطربه ما سمع وما رأى؟ كلا بل أمضه ذلك وأزعجه
زادت الحوادث مهمته صعوبة ولكنها لم تفل من عزمه، ولعله كان يأمل أن يجد في اشتداد الأزمة مخرجا من الأزمة! وإن بدا ذلك متناقضا. كان يرجو أن يكف أعوان الملك من غلوائهم، ويصالحوا على الثورة نفوسهم، ولكنه ما لبث أن عرف أنهم لا يزالون يبيتون لها وهم بذلك يرسمون طريقهم إلى الهاوية ويجرون معهم ملكهم المسكين. ومن له بأن يدرك هؤلاء عاقبة طيشهم؟
يا لله! ألم يأن للذين استذلتهم شهواتهم وحطهم كبرياؤهم أن يفيقوا من غمرتهم؟ ما بال فرساي تتحدى في أشخاصهم باريس؟ ما بال أوانس البلاط وفرسانه تخف أحلامهم فيهينون في حفل بهيج يقيمونه لفرقة سويسرية من فرق الحرس الملكي شعار الثورة ويسخرون من مبادئها؟ يا ويحهم! ألم يكفهم ما باتوا فيه يتقلبون من نعمة، فهم ضاحكون ممن يبيتون على الطوى ويفيقون على الوساوس والأوهام؟ ولكن باريس ترسل إلى أختها رهطا من نسائها وغوغائها، فإذا الملك وحاشيته رهائن عندها

يتخذ على الرغم منه من التويلري سجنا له!
أدر الدفة يا ربانها! لكنها جمحت اليوم والتوت عليه. وأنى للجمعية أن تقنع بما كانت تقنع به بالأمس؟ لقد صارت الكلمة لعامة باريس وأندية باريس وصحف باريس!
وإن المرء ليتساءل لم يخاف ميرابو كل ذلك الخوف من خطوات الشعب وانتصاراته؟ والجواب على ذلك يسير، فقد كان يرى في خطة الشعب ما يباعد بينه وبين الملكية وما
يحمل الملك وبطانته على الجد للقضاء على الثورة وهو لا يرى لها نجاحاً إلا في التوفيق بين القوتين، هذا إلى ما كان يخشاه من احتمال تدخل أصحاب العروش لحماية عرش فرنسا إذ كان المهاجرون لا يفتأون يوقعون بينهم وبين شعبهم العداوة والبغضاء، وأهم من ذلك كله فقد راحت الجمعية تعلن حقوق الإنسان وتثير عقيم الجدل حول الدستور، دون أن تتناول مشاكل البلاد الأساسية بالحل. فلقد ظلت الحالة المالية على ما هي عليه إن لم تكن ازدادت سوءا، وتعقد الموقف السياسي بين فرنسا وإنجلترا والنمسا، ومما ضاعف حرج الموقف أن الجمعية رأت ألا تجعل للملك سلطة فعلية في الاعتراض على القوانين، وفي إعلان الحرب والسلم، ولقد هال ذلك ميرابو فقال يوماً لصديقه لامارك: (إن البلاد مقدمة على أشد ضروب الفوضى، وما لم تتدارك الملكية فالفناء مصيرها حتما، ويوم يحيق بها الفناء وتضرب الفوضى بجرانها يساق الشعب إلى الرضى بالاستبداد المطلق، إذ يكون المستبد في تلك الحال في نظره هو المنقذ المصلح). وإنك لتراه بهذا كأنما يرى المستقبل ويصف لك مذابح سبتمبر وعهد الإرهاب وديكتاتورية روبسبير مما يدل على لقانة مدهشة!
وقف في الجمعية وكانت قد انتخبته رئيساً لها يدافع في عزم وقوة عن حق الملك في الاعتراض على القوانين، داعياً بكل ما في وسعه إلى تقرير مبدأ الملكية الدستورية؛ ولا تسل عما كان يبذله من جهد أعانته عليه قوة بدنه، وعما كان يعرض من آراء أوحت بها إليه دقة فهمه، وبعد نظره، وصدق تجربته؛ وهو في هذا الموقف الذي يؤود حمله الجبابرة لا يغفل شؤون وطنه فيفاوض (بت) في إنجلترا، ويتلمس حلا لإرضاء النمسا، ويلقي على الجمعية البيانات المسهبة في المشكلة المالية، ويلفت إليها أصحاب الرأي. وجملة القول أنك تراه يعمل عمل رئيس حكومة، وإن لم يكن له مركزه، حتى لقد وصفه كاي ديمولان بطل الهجوم على الباستيل بأنه (قنصل أكثر منه رئيس جمعية دستورية)
ألا ترى في ذلك الإخلاص كأروع ما يكون الإخلاص، وتلمس فيه الرجولة كأقوى ما تكون فيه الرجولة؟ ألا ترى كيف ينسى الرجل نفسه، ولا يذكر إلا وطنه؟ ولكن الجمعية وا أسفاه قد خذلته حين كان ينتظر منها العون. وظلمته حيث كان يطلب إليها الإنصاف!
أخذ الشك في نياته يتسرب إلى نفوس النواب، والشك إذا تملك النفس يعمي ويصم، وليس مثله داء يبدل عرف الناس نكرا، ويجعل نهارهم ليلا، ويلبس الحق بينهم بالباطل. أنظر
إلى هؤلاء النواب كيف يرون في رجلهم اليوم رجل الأمس، تخيفهم طويته وإن أعجبتهم حجته، أو تريبهم حماسته وأن هزتهم فصاحته، وتدفعهم إلى معارضته بديهته وإن أنقذتهم يقظته! ولكن أخيل الثورة لم تلن قناته وإن جاء غمزها ممن يعمل لهم، ولم تنفك عنه عبقريته وإن التوت عليه الأمور أو كادت؛ وظل يبسط آراءه للناس وينذرهم أن الثورة تقتل نفسها إن جرد الملك من سلطانه وجعل التشريع والتنفيذ جميعاً للشعب. وكان قد أدرك يومئذ أن الملك بعد أن صار رهينة في باريس، وبعد أن ترامى إلى سمعه وسمع حاشيته ما يريد العامة بنفوذه، وما تقول الصحف عنه، لابد أن يفكر في الالتجاء إلى أعداء البلاد، وما لبث ميرابو أن تحقق من ذلك، إذ علم أن المفاوضات كانت جارية بين البلاط الفرنسي والبلاط النمسوي؛ ومعنى هذا أن الحرب عما قريب ستكون كبرى مصائب البلاد!
وفي هذا الجهد الذي يبذله ميرابو دليل على مقدرة فائقة في السياسة تزيد إعجابنا بهذا الرجل، ويدحض فرية من يصفون أعماله بالهدم، وتسخر ممن يذكرونه فيجرؤن على تسميته كبير الغوغاء! على أن لكل عظيم حساده وأعداءه، كما أن له مناصريه وأصفياءه. وليست الحنكة السياسية فحسب ما ينطوي عليه موقف ميرابو، بل إن

المرء ليعجب ببسالته، حين يواجه الثوار بتلك الآراء وحين يترفع عن تملق الشعب واسترضائه، وحين يجعل الإخلاص لما يرى أنه الحق فوق العواطف والأهواء الشعبية، ولو لم يكن له غير ذلك من المآثر والصفات، لعد بذلك الخلق وحده عظيما من العظماء!

يئس ميرابو من النواب ولكنه لم ييئس من نفسه وسنراه اليوم يخطو خطوة جعلها خصومه كبرى خطيئاته، وأود لو أجعلها كالعنوان من حسناته لولا ما أحاط بها من ظروف وما اكتنفها من ظنون، بل وما لحق بها من عيوب!

كان طبيعياً أن يلجأ إلى الملكية بعد أن أعياه صرف الشعب عن غيه، وبعد أن حيل بينه وبين منصب رسمي يستعين فيه بالقوة على تنفيذ سياسته. ولو أن نواب الجمعية أدركوا حقاً مصلحة وطنهم لعلموا أن هذا الرجل كان يومئذ خير من يضطلع بأعباء الحكم. ولكنه حين اقترح عليهم السعي إلى استبدال الوزارة القائمة بوزارة قوية بادروا إلى إصدار قرار يحرم الوزارة على كل عضو من أعضاء الجمعية، وما كان المقصود بهذا القرار سوى ميرابو وحده!

ولقد ثارت ثائرته لهذا القرار، فلم يتمالك أن صاح بالنواب قائلا: (سوف تذرفون الدمع دماً على ما تفعلون). وندم ميرابو أشد الندم أو قل أسف أشد الأسف على أن لم يكن بباريس عقب سقوط الباستيل، إذ لولا غيابه عنها لتشييع رفات والده لانتخب عمدة لها بدل باي، ولقد كان هذا المنصب يمكنه من صد تيار العنف أو على الأقل يمهد له سبيل الاتصال بالملك.

وهل كان في تطلع ميرابو إلى الحكم ما يشينه؟ كلا بل إن في ذلك ما يزيدنا احتراماً له وتقديراً لسياسته مادام الحكم إحدى وسائله إلى تنفيذ غرض يعتقد حقاً في صلاحيته، فضلا عن دفعه به خطراً يكاد يجتاح البلاد. وإن أعجب فعجب عد ذلك من نقائصه أو من نقائص أي زعيم في مثل موقفه يرى في الحكم طريقا إلى الخلاص! إن النقيصة كل النقيصة ألا يسعى الزعيم في تلك الحيلة ما وسعه السعي للوصول إلى الحكم

خطا ميرابو خطوته نحو الملكية ووسط صديقه لامارك لدى البلاط، وأخيراً قبل الملك أن يستعين بآرائه، وصار ميرابو منذ مايو سنة 1790 المستشار السري للملك! وهنا يأبى سلوكه الخاص إلا أن يختلط بسياسته العامة فيلحق بها كثيراً من الشوائب أطلق الناس فيما بعد من أجلها ألسنتهم فيه بكل فاحش من القول وباطل من الاتهام. وبيان ذلك أن ميرابو وقد غرق في الدين من أخمصيه إلى قمة رأسه بسبب تبذيره من ناحية وبسبب انشغاله بشؤون وطنه عن شؤونه الخاصة من ناحية أخرى، قد قبل أن يدفع عنه الملك ديونه وأن يجعل له أول كل شهر ستين ألفاً من الفرنكات

أيفسر عمله هذا بالخيانة؟ ويعتبر قبوله المال رشوة؟ هل غير خطته فمالأ الملك على حساب أمته في نظير ما أخذ من مال؟ كلا! بل لقد ظل أميناً لمبدئه وفياً لوطنه، إذاً فمن الظلم أن يفسر عمله بالخيانة، ومن الإسراف أن نعتبر قبوله المال رشوة، بيد أني وإن نفيت الخيانة والرشوة عنه وشايعت من يعتبرون هذا المال مكافأة له على خدماته، لا يسعني إلا أن أقرر أنه ليؤلمني أن يلجأ من كان له مثل عظمته وبسالته إلى العمل في الخفاء مهما كان من نقاء طويته ومهما جر ذلك من غضب الشعب عليه، كذلك ما كان لزعيم أن يبيع خدماته بالمال ولو عدم قوت يومه

أخذ ميرابو يقدم التقارير للملك، كما أخذ يدافع بكل ما في نفسه من قوة عن مبدأ الملكية

الدستورية، ولكن الجمعية أوشكت أن تتم الدستور في سبتمبر وجعلت حق الملك في الاعتراض على القوانين حقاً معلقاً، ولم يسع الملك سوى الإذعان، فلقد أصبحت باريس قوة خطيرة وظهر اليعاقبة أبطال الإرهاب فيما بعد واستهان الناس بالملكية واجترأت عليها الصحف والأندية

على أن الأمر قد أصبح اليوم أعظم خطراً من الدستور وما يتعلق بالدستور. فلقد يئس الملك من الثورة وما تدعوا إليه ويئس أصحاب الثورة من الملكية وما تحافظ عليه، ولذلك لم يكن عجباً أن يلجأ الملك إلى أعداء فرنسا، وأن يلجأ الثوار إلى الاستعداد واليقظة حتى لقد عول الملك على الهرب سراً!

وكان ميرابو الرجل الوحيد الذي لم يأخذه دوار الزوبعة فألم بالموقف من شتى

نواحيه، وتمثلت لعينه الساهرة تلك الهوة السحيقة التي أوشكت أن تتردى فيها البلاد، فتلفت حوله عله يصيب من يعينه، فهذا موقف يتطلب معونة الرجال، ولكن بصره وا أسفاه ارتد إليه خائباً، فلقد أبى سوء طالعه، أو على الأصح سوء طالع فرنسا إلا أن تحرم من خبرة الرجل الوحيد الذي كان يستطيع خدمتها، إذ أحيط بالريبة من جميع الجهات. تطلع إلى الملكة وكان يقول: (إنها الرجل الوحيد في حاشية الملك)، ولكن الملكة لم ترى فيه سوى صعلوك يتكلف خلال العظماء على حساب الظروف، وتطلع صوب الملك، ولكن الملك ما وثق به يوماً وما كان يرى فيه إلا خصما يظهر عكس ما يبطن، ولذلك اتقى شره فاشتراه بماله واحتمى خلفها. كتب شاتوبريان بعد الثورة يقول: (كانت المأساة الحقيقية أن الملك في أحرج أيامه لم يثق في هذا الرجل، وما كان يضره أن جاء ذلك متأخراً. وما كان يضره أن يعمل بنصائحه أو أن يتقبلها قبولاً حسناً ولو في ظاهر الأمر، وأي مأساة لعمري أفظع من أن تهيئ الأقدار رجلاً مثل هذا، وفي مثل هاتيك الظروف فلا ينتفع به؟! على أنه وقد أعوزه الرجال قد اهتدى إلى رجل واحد، وذلك هو شخصه، هو نفسه، فأطلع الملك على جلية الأمر ذاكراً له أن الهرب معناه التنازل عن العرش وضياع حقه فيه، وما على مولاه سوى أن يخرج في جيشه إلى مدينة غير باريس فيتحاكم إلى شعبه طالباً إنصافه ومعونته معلناً رضاءه عن مبادئ الحرية والمساواة، ولو فعل لانتصف له الشعب، ولكنه لم يفعل وما كان مثله ليستطيع ذلك، وليس من يفكر في الهرب بقادر على أن يواجه الحقائق

ولكن هل يدنو اليأس من ميرابو؟ كلا. فما كان ليزداد على الشدة إلا مضاء وعزماً، فوقف كالطود يتلقى عن البلاد السهام ويطرد عنها شبح الحرب، ويجد في إنقاذها من الجوع، ويسعى في التقريب بين الملك والثورة، يواصل العمل طيلة يومه وشطرا من ليله حتى لقد قال عنه كاي ديمولان: (لقد كان يوم هذا الرجل بعشرة أيام من عمر غيره)

ولكن الموقف ازداد سوءا على سوء حين وقفت الجمعية موقفها من رجال الدين وأعلنت الدستور المدني للكنيسة بحيث صار منصب الأكليروس بالانتخاب على أن تدفع لهم الحكومة أجرا ويستولي على أراضي الكنيسة وعشورها مما أغضب البابا وأزعج الملك فأعلن اعتراضه على قرارات الجمعية، ولكن أنى للجمعية أن تفرض له اليوم وجودا؟ لقد أجابت على عمله بأن من لا يقسم اليمين على احترام ذلك الدستور جزاؤه الطرد

أدر الدفة يا ربانها! لكن الأيدي تتكالب اليوم عليها والريح جانحة عاتية. والربان يغالب المرض ويتحامل على أعصابه، بل ويستمهل الموت. ما باله يدخل الجمعية في مارس سنة 1791 مصفوراً مضعوفاً على خلاف عادته، ما باله يكتنز كل يوم وما بال بريق عينيه يتضاءل لولا ما يشع فيهما من يقين وعزيمة؟ ترفق أيها الموت بالربان! إنه رجل أمة بل إنه أمة في رجل!

يا لقسوة القدر! ولكن أنى لجسم مهما كانت قوته أن يطيق مثل ذلك المنصب؟ وحسبك أن تعلم أنه خر مغشياً عليه في أواخر مارس وهو في طريقه إلى الجمعية ولكنه على الرغم من ذلك وصل إليها وألقى خطاباً مطولاـ لا. إنه يسر إلى صديق من أصدقائه أنه يموت!

وفي أوائل أبريل في أشد ما تكون الحاجة إليه يرقد هذا الطود الأشم، ويحيط الناس بمنزله من جميع الطبقات والهيئات، والأطباء يصدرون تقاريره مرة كل ثلاث ساعات، والملك يستفسر في السر مرات وفي العلن مرات، والأندية تستنبئ عنه بلا انقطاع، والشعب يعلق أنفاسه في انتظار ما يطمئنه وقد غشيه من الهم ما غشيه

والرجل عظيم في الموت كما كان عظيما في الحياة، يقول لصديق يستند له رأسه: (ليتني أعيرك هذا الرأس) ويسمع صوت المدفع فيقول: (أهكذا يحتفى بدفني كأخبل) ويتذكر الملكية فيقول والأسف يمزق نياط قلبه: (إني أحمل معي الملكية إلى القبر)

ويفيق الناس من غشيتهم على الخبر الفاجع، فتفيض عيون وتدمى قلوب، ويخرج شعب بأسره يشيع

جثمان رجله، وتقضي العاصمة أياماً في حدادها، ويجهش أشداء الرجال بالبكاء في طرقات الجمعية وفي ردهات البلاط، ثم. . . ثم تسير السفينة بلا ربان!

إنه فرد ينقص من البلاد، ولكن فرنسا يزعجها ويهولها ما ترك وراءه من فراغ، ولم

تلبث الكوارث أن داهمتها من كل صوب، فلقد فر الملك وألقي القبض عليه عند الحدود، ثم وقف عن عمله، واندلعت فرنسا في طريقها إلى الحرب، ثم إلى إعدام الملك، ثم إلى المذابح الأهلية وعهد الإرهاب!

ولو عاش ميرابو عاماً واحداً لتغير تاريخها، بل وتاريخ العالم؛ ولكن للقدر أحكاما مباغتة هي التي تصنع التاريخ!

الخفيف

التعليم والحالة الاجتماعية في مصر - 2

للأستاذ إسماعيل مظهر

أظهرت في المقال السابق الوجوه التي تربط بين التعليم والحالة الاجتماعية، وعددت كثيراً من التأملات التاريخية التي قد يكون لها اتصال كبير أو صغير بالحالات الجديدة التي تكتنفنا، غير أن الاقتصار على تعديد وجوه الارتباط بين التعليم والحالة الاجتماعية، والقول بأن التعليم يجب أن يتجه اتجاهاً اجتماعيا، أمر يجب أن يعزز بإظهار المخاطر الشديدة التي يتعرض إليها كياننا الاجتماعي من جراء الفصل بين سياسة التعليم، وبين ملابساتها الاجتماعية

ولقد ظهر في العهد الأخير أن القائمين بأمر التعليم قد اضطروا في مواقف عديدة أن يتجهوا إلى معالجة بعض الأمور علاجاً قائماً بعض الشيء على طبيعة الحالات الاجتماعية. وإني لآسف إذ أقول إنهم لم ينجحوا فيما قصدوا إليه. وليس السبب براجع إلى قصور منهم، أو تقصير عن أداء واجباتهم كاملة، وإنما يرجع في الحقيقة إلى أن سياسة التعليم الحاضرة لا تواتيهم بكل الأسباب الضرورية التي تمكنهم من تنفيذ برامج تتفق وما تتطلب الحالة الاجتماعية من صنوف العلاج. ولا أريد أن أعدد هنا حالات بذاتها، وإنما أريد أن أبحث في مجمل الظواهر التي تترتب على الفصل بين سياسة التعليم والملابسات الاجتماعية، قدر ما تتيح لي تجاربي القليلة

كتب الفيلسوف هربرت سبنسر في أواخر القرن الفارط مقالاً عنوانه (الكائن الاجتماعي) شبه فيه بنية الاجتماع الإنساني بكائن متغضن، وأخذ يقيس الظواهر المتقابلة فيهما ويوازن بين حالات خاصة في جسم الفرد وجسم المجتمع. ولا شك في أن هذا الفيلسوف الكبير قد غفل عن أمر ذي بال جعل بحثه هذا محتاجاً إلى كثير من التحوير، بل لا نبالغ إذا قلنا إن غفلته عن ذلك الأمر قد أثرت في النتائج التي حاول الوصول إليها فجاءت مفككة غير موصولة ولا مؤدية إلى فكرة محدودة ينتهي إليها البحث. ذلك بأن بين الحي والكائن الاجتماعي فروقاً رئيسية تميز بينهما تميزاً لا يقف عند حد الظواهر، وإنما يتعدى إلى التكوين الوظيفي فيهما. وقد يعلم الذين يدرسون علوم الأحياء أن الحي يتكون من خلايا دقيقة هي وحدات بسيطة التركيب تحتوي على نواة هي سر الحياة فيها. ولكن اجتماع هذه الوحدات البسيطة التركيب ينتج حياً عويص التركيب معقد التكوين جهد ما نتخيل. ذلك في حين أن الكائن الاجتماعي إنما هو كلٌ بسيط التكوين يتركب من وحدات غاية التعقيد وعلى معرفتك هذا الفرق الوظيفي، يتوقف وصولك إلى النتائج الصحيحة. فالخلايا لا قوام لها ولا حياة بغير اندماجها في بينية الكل الحي. أما الوحدات (الذوات العاقلة) التي يتركب منها الكائن الاجتماعي، فكلما كانت أكثر استقلالا عن ذلك الكائن برز أثرها وتميزت وظيفتها واستبانت قيمتها ورجل فرعها وأصبحت قوة قادرة على التأثير في الكائن الاجتماعي بما يحفظ عليه حياته الاجتماعية ويحركه نحو الرقي الاجتماعي ويبث فيه روح التطلع إلى الارتقاء المدني، وبالجملة على جعله كائناً اجتماعياً معتزاً بأثره العملي في الحياة ذلك على الضد مما لو اندمجت هذه الوحدات العاقلة في بنية الكائن الاجتماعي. فإنها إذ ذاك تفقد استقلالها وقوتها على التأثير بالعمل على رقي الجماعة، لأن اندماجها هذا إنما يسلبها القدرة على التفكير والتأمل في حقائق الأشياء، ويفقدها أخلاقها الشخصية، وبوجه عام يدمجها في ما يسميه الاجتماعيون (عقلية الجماهير)

هذه حقيقة أولية، على ما فيها من تعقيد وحاجة إلى فهم، من الضروري أن نعيها وأن نجعلها نصب أعيننا كلما فكرنا في وظيفة التعليم باعتباره عاملاً من عوامل استقرار الحالات الاجتماعية في كل أمة من الأمم. أما وقد وعيناها فإنا نتساءل: أيفي التعليم عندنا بإخراج رجال فيهم من الاستقلال الخلقي والعلمي ما يجعلهم في المستقبل قوى

مؤثرة في الكائن الاجتماعي، أم على العكس من ذلك يخرج رجالاً قُسّعاً يكتفون من الحياة بالاندماج في جسم الكائن الاجتماعي، فيظلون طوال أعمارهم مغمورين في عقلية الجماهير؟ وإني لآسف إذ أقول إن تعليمنا بعيد عن أن يخرج رجالاً مستقلين على النمط الذي تتطلبه طبيعة الحالات الاجتماعية الجديدة التي أخذت تشعرنا بانا مقدمون على انقلابات فكرية خطيرة.

إذن فواجب التعليم ينبغي أن ينحصر في إخراج رجال مستقلين بعيدين عن التأثر بروح الجماهير. وتكوين استقلال الفرد يجب أن يكون بداءة التعليم ونهايته. أما العمل على شحن العقول بشتى المعلومات العلمية وتكوين ملكات خاصة في الأدب والفن، فلن يكون لها من أثر في الحياة، ولن تقوم من عوج الكائن الاجتماعي ما لم يسبقها الاستقلال الذاتي وتدريب الملكات الخاصة على مماشاة ما تتطلبه مقتضيات ذلك الاستقلال

ولقد أظهرنا في المقال السابق أن ابن الفلاح أكثر استقلالا من الناحية العملية من المتعلم الذي فقد استقلاله الذاتي بحكم الظروف التي نشأ محاطاً بها. غير أن استقلال الفلاح العامل استقلال ناقص، إذ هو استقلال أشبه بالاستقلال الحيواني منه بالاستقلال الإنساني، ذلك بأن عدته في هذا الاستقلال تقوم على قوة عضلاته وعلى صبره واحتماله ورضاه بمحيطه الذي يعيش مكتنفاً به. وعامة ذا ليس فيه شيء من مؤهلات الاستقلال الإنساني، وإنما هو استقلال يشارك فيه الفلاح كثيراً من الحيوانات. وعلى ذلك نجد أن ما عندنا من مكملات الاستقلال الفردي عند الفلاح تنقصه الناحية الثقافية التي تمكنه من أن يصبح ذا أثر عملي في تكييف حالات الكائن الاجتماعي. ولكن هذا الاستقلال مهما كان فيه من ضروب النقص فهو استقلال على كل حال. أما المتعلم المتعطل فحالته تناقض هذه الحال. فان تعليمه لم يمكنه من أن يكون مستقلا من ناحية الثقافة، في حين أن نشأته ومحيطه قد سلباه ناحية الاستقلال الأخرى أما الأسلوب الذي يجب أن يتنحى في التعليم حتى يكون أداة صالحة لتخريج رجال مستقلين ذوي أثر في تكييف حالات الكائن الاجتماعي، فسنفرد له بحثاً خاصاً. وسنقصر كلامنا الآن على المخاطر التي يتعرض لها كياننا الاجتماعي من وجود فلاحين استقلوا حيوانياً، ومتعلمين فقدوا كل ضروب الاستقلال

على الرغم من أن الأخطار التي يتعرض لها مجتمع تناحرت عليه كل هذه الظواهر كثيرة متعددة، فأن أعظم هذه الأخطار وأشدها أثراً في مستقبله، إنما ينحصر في حدوث ما يدعوه الاجتماعيون (التطفل الاجتماعي). والتطفل الاجتماعي حالة ترهق فيها طبقات غير عاملة طبقات عاملة بمطلوبات حياتها. ولهذا التطفل مظاهر عديدة أخبثها أن تكون الطبقة المتطفلة هي بذاتها صاحبة السلطة العليا في المجتمع، كما حدث في أوروبا في خلال القرون الوسطى، وكما هي الحال في كثير من ممالك الشرق في حالته الحاضرة. والويل لمجتمع تسود فيه هذه الحال

التطفل حالة طبيعية لا سبيل إلى نكرانها. فهنالك حيوانات تتطفل على نباتات، ونباتات تتطفل على حيوانات. وقد يتطفل حيوان على حيوان، أو نبات على نبات. فهو ظاهرة تكاد تشتمل كل نواحي العالم الحي، وتحتكم في الكثير من مظاهره الجلي. غير أن نظرة واحدة

في هذه الحقيقة الطبيعية تظهرك على أن التطفل حيثما كان وأنى كانت وسائله ومظاهره، لن ينتج إلا هدماً في الحياة، ولن يبرز إلا فسادا، ولن يؤدي إلا إلى إرهاق شامل في القوى الحيوية تختلف درجاته ومظاهره ونتائجه باختلاف الظروف. وقلما يستطيع عالم طبيعي أن يخص تلك الظروف التي يتجلى فيها فعل التطفل في عالم الأحياء، فان ذلك من الأشياء التي يستعصي على العلم تعديد مظاهرها عامة وخاصة، وفعل كل متطفل في مختلف الظروف، على كل متطفل عليه في متباين الحالات. وإنما يستطيع الإحيائي أن يدرس ظواهر التطفل في حالات يقف عليها، وأن يدرس أثر الحي المتطفل في بنية الحي المتطفل عليه، محصياً في كثير من الحالات أوجه العلاقة بينهما وتأثير دورة حياة الحي المتطفل في حاضنه

ولن يعدو العالم الاجتماعي هذه الحال عينها. فليس في مستطاعه أن يحصي أوجه التطفل الاجتماعي في مجتمع بعينه، ولا يدرس الحالات درس توفر على دقائقها وتدرجاتها التي تكفل له الوصول إلى نتائج مقطوع بصحتها قطعاً تاماً. والعلم

الاجتماعي أضعف وسائل من العالم الطبيعي. فان هذا بين جدران معمله، يستطيع أن يحصر الحالات ويحدد الظواهر، في حين أن زميله الاجتماعي إنما يتأمل من حالات عامة غير محصورة ولا محددة تحديداً يجعل الحكم القاطع على أصولها وظواهر أمراً سهلا هيناً. غير أن هذا كله لن يحول بين الباحث الاجتماعي وبين تبين الحالات الكلية التي يتخذ درس مظاهر التطفل الاجتماعي وسيلة إلى اكتناهها.

من الحالات الكلية في التطفل الاجتماعي، بل ومن أظهر تلك الحالات أثراً في الجماعات الحديثة عامة، وفي مصر خاصة، تسلط غير ذوي الكفايات، وإن شئت فقل المتعطلين، على موارد ما تنتج الأيدي العامة من ناحية، وعلى إنتاجها نفسه من ناحية أخرى، من غير أن يكون لهؤلاء المستغلين أي ضلع في تكوين المورد أو في الإنتاج.

من هنا تحدث حالة من حالات التطفل الاجتماعي تستنفذ فيها أيد متعطلة ثمرات الجهود التي أيد عاملة، بغير أن تنال الأيدي العاملة من ثمرات جهودها ما يكفي لحفظ حيويتها أو قدرتها على العمل والإنتاج. فان من شأن المتطفل أن يجتهد في استغلال حاضنه بكل صور الاستغلال، وأن يبلغ من الانتفاع بحيويته جهد ما يستطيع، وكلما قلت قوى المقاومة في الحاضن ازداد

المتطفل شرة وبأساً، حتى ينتهي الأمر بحدوث ما يسميه الاجتماعيون (بالتنكس الاجتماعي) وهي حالة تتساوى فيها طبقات المجتمع لا من حيث الكفايات العليا ولكن من حيث العجز عن العمل المنتج. وما لهذا الأمر من نتيجة إلا الفوضى الغامرة، ولا ينكر أحد أن في مجتمعنا هذه الظاهرة الخبيثة. فالأيدي العاملة لا تنال من منتوج عملها ما يكفي للاحتفاظ بحيويتها، والأيدي المتعطلة تبدد ثمرات تلك الجهود. وعلم ما يترتب على ذلك عند الله.

ومن تلك الحالات هجر الريف والعيش في المدن. ولقد بحث هذه الظاهرة كثير من الكتاب منهم: أدمون ديمولاند الفرنسي، والأستاذ استن فريمان الإنجليزي، في بحوث مستفيضة عالجوا فيها الحالات التي نشأت في فرنسا وإنجلترا وعطفوا بعض الشيء على حالات نشأت في غيرهما من بلدان أوربا. ولا جرم أن هذه الحالات تتشابه. فالأسباب التي تدعو الفرنسي أو الإنجليزي إلى هجر الريف والإقامة في المدن، أو بالأحرى حب التّحضر (بمعنى المعيشة في الحواضر) تكاد تكون نفس الأسباب التي تحمل المصري على أن يفعل ذلك. غير أن النتائج تختلف باختلاف البلدان على مقتضى ما في كل شعب من الاستعداد والصفات، وفي الأكثر على مقتضى الثقافة التقليدية التي يختص بها كل شعب من الشعوب

ولسوف نبين في مقال آت فكرتنا في أثر الثقافة التقليدية في الكيان الاجتماعي بكل أمة من الأمم. ونكتفي الآن بأن نقول إن شعبا كالشعب المصري الزراعة ثقافته التقليدية منذ أبعد عصور التاريخ، لابد من أن يتأثر بزيادة الميل إلى التحضر تأثراً عظيما لا يحسُّه شعب آخر ثقافته التقليدية غير زراعية. بل على الضد من ذلك أعتقد أن الشعوب التي تكون ثقافتها التقليدية صناعية أو تجارية، يجب أن تحتمي بحياة التحضر صيانة لمصالحها العامة. أما تحضُّر شعب ثقافته التقليدية الزراعة، فتلك هي الطامة الكبرى على كيانه الاجتماعي؛ وتلك هي الطفرة العظيمة إلى أبشع صور التطفل الاجتماعي

ونحن نعلم علم اليقين بأن مدننا المصرية مدن غير صناعية بالمعنى المفهوم من ذلك في أوربا. بل أعتقد وأظن أنني أعتقد بحق، أن مدننا ليست إلاَّ أسواقاً تستهلك فيها منتوجات الريف؛ وهذه الحقيقة وحدها كافية لأن تظهرنا على أن ميلنا إلى التحضر، مع التعطل عن العمل يرهق المنتج ويرهق السوق المستهلكة؛ لأن المتعطل في الواقع عبء على الجمعية؛

ذلك بأنه قوة مستنفدة لا قوة منتجة من ناحية، ولأن الحاجات التي يستنفدها لا ينتج ما يقابلها لصالح الجمعية من ناحية أخرى. وبذلك يصبح المتعطل عبئاً على الحاضرة التي يسكنها، وعبئا على العناصر المنتجة معاً. وهنا يتضاعف تطفله، إذ يصبح متطفلاً باعتبارين: الأول أنه يزاحم أهل المدن ويشاركهم أرزاقهم من غير إنتاج من ناحية، والثاني أنه يرهق العناصر العاملة في الريف بأن يستهلك ولا ينتج. وبالأحرى بأن يأخذ ولا يعطي

ومن تلك الحالات ما يسميه الاجتماعيون (الجشع الاجتماعي) ولا أريد هنا أن أطنب في

تعريف (الجشع الاجتماعي) ولا أن أناقش في مختلف التعاريف التي وضعها المؤلفون الذين أتيح لي الاطلاع على مؤلفاتهم، وإنما اقتصر على ذكر حالات يستطيع القارئ أن يدرك منها، مطبقة على حالات تقوم بين ظهرانينا، ما يقصد بالجشع الاجتماعي وعندي أن أخبث ما يؤدي إليه الجشع الاجتماعي من تكييف عقلية طبقات خاصة في مجتمع ما بمقتضياته، إنما ينحصر في أن تتطفل جماعات، لا أفراد، على جسم الكائن الاجتماعي. وقد تلبس الجماعات التي تنتابها سورة الجشع الاجتماعي صوراً مختلفة، فمن اتحادات تجارية إلى اتحادات صناعية إلى جمعيات علمية أو اقتصادية أو سياسية، تتخذ التأثير في عقلية الجماهير بمختلف، الوسائل طريقاً تسلكه إلى غرضها الذي ترمي إليه، والذي يجعلها جديرة بأن تنعت بأنها جماعات مصابة بجنون الجشع الاجتماعي. أما ذلك الغرض فينحصر في أن تنال من الجمعية أقصى ما يمكن أن تصل إليه من الربح المالي أو النفوذ أو السلطة أو الجاه أو الحكم بأقل جهد ممكن أن يبذل أو تضحية من ناحيتها

وفي مثل هذه الحالات تتضاعف خبائث التطفل الاجتماعي بأن يصير تطفلاً (مركباً) لا تطفلا بسيطا. ونعني بالتطفل (المركب) أن هذه الجماعات المصابة بجنون الجشع الاجتماعي يكون فيها عنصر خاص يعيش متطفلاً على جسم الجماعة نفسها. ذلك العنصر هو عنصر انتهازي لن تسلم منه جماعة أصيبت بذلك المرض الخبيث. فكما أن الجماعة تتطفل على جسم المجتمع، يتطفل ذلك العنصر الذي هو (واجب الوجود) فيها بمقتضى تكوينها النفسي، على بقية عناصرها

وتسير قافلة المتطفلين، ولكن إلى البوار الصرف. مثلها كمثل حُيَيَّات زرعت على مادة

هلامية في زجاجة اختبار في معمل من المعامل. فأنها تتكاثر ثم تتكاثر، حتى إذا ملئ فراغ الزجاجة واستحالت المادة الهلامية أجساماً حية انتكس الأمر وبدأت الأحياء تنحدر إلى الهلاك المحتوم

هذه إلْمَامَات موجزة في حالات نشاهدها قائمة من حولنا. فهل يمكن أن نتخذ التعليم أداة إصلاح نتقي بها بعض ما يكتنفنا من شرور وخبائث؟ وهل يمكن للتعليم أن يؤدي إلى الأجيال المقبلة رسالة إصلاح عملي يرفع عن كاهلهم بعض ما نتوقع لهم من متاعب؟ أظن أننا نستطيع أن نجيب بالإيجاب، وموعدنا البحوث الآتية

إسماعيل مظهر

ذكرى ساقية!

للأستاذ علي الطنطاوي

(كل ما في الوجود يولد ويحيا ويموت . . . . . :

ألا تمر بالدار ألف مرة فلا تلتفت إليها، ولا تحس بها. ثم ترى فيها إنساناً يتصل قلبك بقلبه، أو يمتلئ فؤادك بحبه، فإذا هذه الدار (تولد) في فكرك و (تنمو) وتزداد لهذا الإنسان حباً، فتزداد الدار عندك حياة؛ ثم ينزح الحبيب عن الدار، فإذا هي (تموت) وإذا أنت تألم لموتها، وتبكي فيها ذكريات لك عزيزة، وماضياً لك حلواً؛ ثم تمحو الأيام هذه الذكر، وتنسيك هذا الماضي، فإذا الدار قد عادت إلى العدم، كما بدأت من العدم، وإذا أنت تمر بها من بعد ألف مرة، فلا تلتفت إليها، ولا تحس بها؟ . . .)

من مقالة قديمة

(علي)

هي ساقية صغيرة عرفتها من يوم عرفت الدنيا، تجري في رحبة (الدَّحداح)، في ظاهر دمشق، فكنت أزورها دائماً، وأجلس إليها راضياً وساخطاً، مسروراً ومكتئباً، شجيّ النفس وخليّ البال، فأحدثها حديث سروري ورضاي، وأبثها شجوي واكتئابي، فأجد فيها الصديق الوفيّ، حين عزّ في الناس الصديق، والأخ المخلص حين ارتفع من الأرض الإخلاص؛ وكنت أفرّ إليها كلما نابتني من الأيام نائبة، أو نالني الدهر بمكروه، فأجد فيها عزائي وأنسي، وراحة نفسي. . . فررت إليها أمس كما كنت أفرّ، فإذا الأرض غير الأرض، وإذا الساقية قد عدا عليها الزمن فمحاها، وأقام دار البستاني على رفاتها. . .

فجلست على حافتها الجافة، أودّع هذه البقعة الحبيبة إليّ، قبل أن تبتلعها المدينة الضاجة الصاخبة التي ابتلعت ما كان حولها من حقول واسعة، ورياض وجنات، وأشيع حياة لي في هذه الساقية كلها سعادة واطمئنان، عشتها كما تعيش الضفادع، غير أن

الضفادع تسبح في ماء الساقية، وتنام على كتفها، وأنا أسبح في ذكرياتي التي أودعتها حافتيها، وآمالي التي رأيتها من خلال أمواهها. . . وهل يعيش ابن آدم إلا في الساقية والطريق، والقمر والمئذنة؟ أليس في كلّ ساقية يجلس إليها، وكل طريق يسلكها، وفي القمر الذي يتأمل صفحته في الليالي البيضاء، والمئذنة التي يرى هلالها من شباك غرفته، أليس في كل ذلك - أثر من نفسه - وقطعة من حياته؟ . .

رحمة لك أيتها الساقية. . . منذ كم أنت تجرين وتسرعين، أفبلغت غايتك بعد جري القرون، أم قطعك عنها عدو جبار، أم ادركك عجز الشيخوخة وضعف الهرم، فجف ماء حياتك، كما تجف الحياة في عروق الشيخ القحْم، وفروع الشجرة النخرة، وجدر البيت الخاوي؟

وهل كنت تجرين يوماً واحداً لو عرفت أن غايتك الفناء وأنك إنما تسعين إلى أجلك برجلك؟ وهل كان يبني الباني، ويزرع الزارع، ويعمل العامل، لو عرف أن أجله أدنى إليه من أمله، فبينما هو ينتظر إشراق الفجر، إذا احتوته ظلمة القبر، وبينما هو يحلم بالسراب، إذ واراه التراب؟

وهل كان يطمع في الحياة طامع لو عرف أن كل يوم يزيد من حياته إنما ينقص من حياته، فإذا بلغ كمال الحياة فقد صار إلى الموت؟

إن الإنسان يأمل أن يملك الدنيا ويعيش إلى الأبد، وأنت تأملين أن تصيري نهراً ثم تصبحي بحراً، والله يريد أن تتم حكمته في الحياة فيسعى كل ساع إلى الفناء، يدعوه الأجل، ويحدوه الأمل. . . ولا رادّ لما أراده الله!

وهل كنت تذكرين أيتها الساقية أصدقاءك وأحباءك وتحنين إلى ذكراهم، وتبكين عهدهم؟ أم قد أمات حسك تقلب الأيام وغدر الزمان، فأقبلت تجرين، لا تذكرين ماضياً ولا تحفلين حاضراً ولا تنتظرين آتياً؟

وهل تذكرين يوم فرننا إليك من شيخ الكتاب القاسي، وعصاه الطويلة التي كان ينال بها رؤوسنا وهو على سرير ملكه، في هذه الغرفة الضيقة، المثقبة الجدران المسدودة النوافذ، الفاسدة الهواء؟ لقد مللنا البقاء في هذا السجن الرهيب، فشكونا إلى أهلينا فما وجدنا مشكياً فتجاوزنا (البحرة الدفاقة) وتخطينا هذا السياج، ولجأنا إليك فما وجدنا منك إلا الكرم والعطف والإحسان؟ آمنت خوفنا، وبدلتنا بمدرسة الشيخ وعصاه، هذه الدنيا الفسيحة وهذه الحقول التي لا تنتهي، فطابت أنفسنا بجمال الكون، وانجلت أبصارنا بمرأى البساتين، ونظرنا من هنا فإذا قبة النسر ومآذن الأموي تشرف علينا جليلة عظيمة، فاستشعرنا جلال الدين وعظمته، ونظرنا من هناك فإذا قاسيون يطل علينا مشمخراً عالياً، تقوم عليه الدور البيضاء، والقصور الحمراء، فأحسسنا جمال الدنيا، وسموّ المجد، وعزة الغنى. . . وأدركنا بعقولنا الصغيرة أن الشيخ كان على ضلال، وأن أهلنا كانوا على خطأ، وأن العلم قد يحصل في الدنيا الواسعة، والبقاع الجميلة، أكثر مما يحصل في السجون والكتاتيب، وأن جمال الحقل، أبلغ في التهذيب من عصا الشيخ

في تلك الساعة عرفتك أيتها الساقية، فمنحتك الودّ والإخلاص، وجعلتك صديقي إذ لم أجد بيتي ومدرستي صديقاً، وكنت أرى طيفك في أحلامي، فأهش لك وأنا غارق في منامي، وأتخيل صفاءك وعطفك، وأنا بين يدي الشيخ الجبار، يقرع رأسي بالعصا، ويصرخ في وجهي بصوته الأجش الخشن:

- يا ولد يا خبيث. . . والله إن عدت إلى الهرب كسرت ساقيك، فلا أرد عليه، وإنما أستر وجهي بكفي، وأضحك بصوت غريب، فيظنني أبكي، فيدعني. . . وينصرف إلى غيري فأنظر من بين أصابعي، حتى إذا رأيته قد غفل عني قفزت إلى الشارع، فاختبأت في (جامع التوبة) أو أخذت طريقي إليك، فآكل من الثمار التي حولك، وأشرب من مائك، وأصافحك بيديّ شاكراً، وأمسح بكفيك وجهي. . . هل تذكرين ذلك أيتها الساقية؟ . .

- هل تذكرين كيف جئناك بعد ذلك، وقد تخلصنا من الشيخ ودخلنا المدرسة، فوجدنا ساحة رحبة ومعلمين كثيرين، وحصصاً قصيرة، ولكنا لم نجد عطفاً ولا ابتساماً؛ كان معلم الحساب يحبب إلينا شيخ الكتاب، حتى نراه إلى جنبه نعيما، كنا نرى طيفه أمامنا حيثما سرنا بشاربيه الكبيرين، وتقطيبه الدائم، ونظارته التي يحدرها أبداً إلى أرنبة

أنفه، وصوته الذي يشبه صوت من يتكلم من وسط برميل، فكنا نرتجف من خياله، ونخشاه أبداً، إلا إذا أصبحنا في حماك، فأننا نأمن، ونطلق أنفسنا على سجيتها، فنسخر من المعلم، ونقلد الشيخ، ونمرح ونعدو، ثم نعود إلى الدار ونحن ممتلئون قوة ونشاطاً، فإذا سألنا الأهل: أين كنتم؟ قلنا: كنا في المدرسة، وإذا سألنا المعلم قلنا: كنا في البيت! فيصدقوننا جميعاً. . . أوليسوا قد حملونا على الكذب حملا حين كرّهوا إلينا العلم، ودفعونا إلى الفرار، وعاقبونا على الصدق، ولم ينتبهوا إلى الكذب؟

وهل تذكرين يوم جاءت دمشق أولُ سيارة، وكنا جالسين حولك نتحدث حديث الحرب وما يمكن أن يصل إلينا من أخبارها، فما راعنا إلا عربة غريبة الشكل، تسير من غير أن يجرّها حصان، فطار الفزع بألبابنا، وفررنا نحسب أن الجن تسيرها، ثم سمعناهم يدعوننا، ورأينا ضباطاً تلمع الأوسمة على صدورهم والسيوف على جنوبهم، فأمرونا أن نلقي الأحجار فيك أيتها الساقية ليمر عليها (الأطنبير) فأطعنا وفعلنا مكرهين؟ ومن كان يستطيع أن يخالف أمر ضابط من ضباط جمال باشا؟. . . فلما مرت هرعنا إلى دورنا نخبر أهلنا أن عربة تمشي من غير أن يجرها حصان. . . فتنبري لي عمتي، وتكذبني وتسبني:

- أخرس يا كلب، يا كذاب. . . إن هذا مستحيل

ولكن عمتي التي أبت أن تصدق أن في الدنيا سيارة تمشي بنفسها، قد عاشت حتى رأت الكهرباء. . . والتلفون. . . . والراديو. . . . ورأت الدبابة والمصفحة والمتراليوز. . . ثم رأت أثر الحضارة في أنقاض دمشق. . . فصارت متهيئة لتصدق كل شيء!

وهل تذكرين كيف عدنا إليك أيتها الساقية فإذا أنت حردة غضبى، قد وقفت عن سيرك، وضللت طريقك، فتطلعت إلى اليمين والشمال، والأحجار قائمة تسد عليك سبيلك فعالجناك واعتذرنا إليك، وطيبنا قلبك، وفسحنا لك السبيل، فجريت مضطربة، متغيرة الوجه، تبكين أيامك الماضية، وتخافين ما يأتي به الزمان؟

وهل تذكرين يوم كنا حولك ونحن آمنون مطمئنون، فإذا الأرض قد ارتجت، وإذا الجيش التركي الذي كنا نخافه ونخشاه قد ذلّ بعد عزّ، وضعف بعد قوة، وفر متفرقاً حائراً لا يدري أين يقصد، ومن ورائه العرب والإنكليز، يدخلون الشام ظافرين، فسررنا وفرحنا، وصفّقنا وهتفنا. ولكنك جريت واجمة حزينة، لأن حياتك الطويلة وما رأيت من دولة الدول، وهلاك الملوك، علمتك أن من يؤمن لمن يتبع دينه، كمن يدخل النار ويرجو ألا تحرقه؟ ثم حققت الأيام ظنك، وصدقت حدسك، فقلنا: يا ليت! (وهل تنفع شيئاً ليت؟!)

وهل تذكرين يوم كنا جالسين إليك، وحولنا هذه الحقول تمتد آمنة إلى ما لا يدركه البصر، وإذا بعدو جبار، يأتي من وراء الحقول الآمنة، فيشقها شقاً منكراً، ويثغر فيها ثغرة هائلة حتى إذا بلغك ألقى عليك نظرة ازدراء واحتقار، ثم سار في طريقه حتى بلغ سفح الجبل، فتمطى ثم تمدد ثم نام نومة الأبد؛ وإن رأسه لفي الصالحية، وإن رجليه لفي حيّ النصارى. . . فلما رآه أحبابك وأصحابك آثروه عليك، فلم يعد أحد يستطيب الجلوس إلى ساقية صغيرة، بعد أن فتح (شارع بغداد) ليجول فيه الشبان كل يوم (بين حي النصارى والصالحية) مرجلة شعورهم، مصقولة وجوههم، يسيرون مائلين مميلين. . . فصبرت وتجلدت، ورجعت تجرين كما كنت منذ ثلاثة آلاف سنة. . . كأنك لا تحفلين شيئاً؟

لقد عشت عزيزة مكرمة، منذ وطئت هذه الأرض أول مرة، فلم ينتهك حرماتك أحد، ولم يعث في حرمك الآمن عائث، رغم الحوادث والأرزاء، أفانتهى بك الأمر أن يقتلك بستاني؟. . . لقد سقيت هذا البستاني وأباه وجدّه ومن قبلهم إلى أربعة آلاف جد، أفكانت عاقبة هذا الإحسان أنه لم يبن بيته إلاّ على رفاتك، ولم يكن أساس منزله إلاّ قبرك؟ لا بأس أيتها الساقية، فإن الإنسان مذ كان منكر للمعروف جاحد للإحسان . . .

لا بأس، فأن ملكاً لن يدوم، ولقد رأيت الترك والروم واليونان، فهل رأيت ملكاً يبقى، أرأيت الدنيا دامت على أحد؟ أما كانت دولة الترك عظيمة؟ أما جلّت دولة الرومان؟ أبقي من هذا كله شيء؟ لا، يا أيتها الساقية إنه لا يبقى إلا الإسلام، لأنه من ملك الله الباقي. . .

رحمة لك أيتها الساقية، وسلام على تلك الأيام الجميلة التي عشت فيها إلى جنبك، لا

أعرف هم الدنيا ولا نكد الحياة، لقد كنت أفرّ إليك من عصا الشيخ، وعقاب المعلم، فتؤويني وتحميني، فلمن أفر اليوم من حياتي التي ضاقت على، ونفسي التي برمت بها؟
لقد ضعتُ كما ضعتِ أيتها الساقية، وجفْت آمالي كما جففت، وانتهى بي المطاف أن أكون شيخ كتاب! ولكن لا بأس أيتها الساقية. . . فأن الدنيا لا تدوم على حال. فرحمة لك، وعلى ذكراك السلام!
علي الطنطاوي
أندلسيات:
4 - ابن بسام صاحب الذخيرة
والشاعر أبو مروان الطُّبْني
للأستاذ عبد الرحمن البرقوقي
أما كتاب الذخيرة فليس أصدق في التعريف به مما جاء في تصديره أو مقدمته أو مدخله أو خطبته، وإذ أن خطبة هذا الكتاب طويلة فلنجتزئ بذكر ما يهمنا منها، وهنا ننبه القارئ إلى أن مستهل هذا الكتاب الموجود في النسخ الموجودة بدار الكتب المصرية هو غير مستهل الخطبة الحقيقي. وإليك هذا المستهل كما هو في النسخ المذكورة:
(الحمد لله الذي أبرز قمر الآداب في سماء الكمال، وجعل لها أهلا كالنجوم يقتدى بهم ويهتدى مدى الأيام والليال، وصلاةً وسلاما على السيد السند الرسول المفضال، وأصحابه وأزواجه والآل، ما صدح هزار الفصاحة على أغصان فنن البلبال، وبعد: فيقول صاحب العزلة والانفراد أبو عبد الله عبد الملك بن المنصور بن عبد البر بن عدي بن هشام بن أحمد بن بسام: أني كلِفْتُ منذ زمان بأن أعد محاسن أهل جزيرة الأندلس، ورأيت العزلة والانفراد عن هذا العالم في هذا الزمان، واجبةً بحسب الإمكان، وأردت قطع التردد عن مجالسة الرجال، لا سيما والفكر مشغول في بحر التفكير فيما كلفت به وأدركته بعد أمة. ولا أدعي أني اخترعته ولكني لعلي أحسنت حيث أتبعت، وانتقيت (ما جمعت، وتألّفت على الشارد، واغتنيت عن الغائب بالشاهد. . . الخ الخ وهذا كلام كما ترى غث بارد مغسول لا يصدر عن مثل ابن بسام، ولعله تلفيق حَمْقىَ النساخين، يضاف إلى ذلك أنه ورد فيه اسم ابن بسام وخطأ فليس اسم ابن بسام عبد الملك ابن المنصور. . . وإنما اسمه عليّ وكنيته أبو الحسن لا أبو عبد الله. . . إذن هذا كلام مفتعل. ومستهلّ الخطبة الحقيقي هو كما ورد في نفح الطيب ما يأتي:
(أما بعد) حمداً لله ولي الحمد وأهله، والصلاة على سيدنا محمد خاتم رسله، فأن ثمرة هذا الأدب، العالي الرتب، رسالة تنثر وترسل، وأبيات تنظم وتفصل، تنثال تلك انثيال القطار، على صفحات الأزهار، وتتصل هذه اتصال القلائد، على نحور الخرائد، ومازال في أفقنا
هذا الأندلسي القصي إلى وقتنا هذا من فرسان الْفَنَّين، وأئمة النوعين، قوم هم ما هم طيبَ مكاسر، وصفاء جواهر، وعذوبة موارد ومصادر، لعبوا بأطراف الكلام المشقّق، لعب الدجن بجفون المؤرق، وجدّوا بفنون السِحْر المنمّق، جد الأعشى ببنات المحلق، فصبوا على قوالب النجوم، غرائب المنثور والمنظوم، وباهوا غرر الضحى والأصائل، بعجائب الأشعار والرسائل، نثر لو رآه البديع لنسي اسمه، أو اجتلاه ابن هلال لولاه حكمه، ونظم لو سمعه كثّيّر ما نسب ولا مدح، وتتبعه جَرول ما عوى ولا نبح، إلا أن أهل هذا الأفق، أبوا إلا متابعة أهل الشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعادة، رجوع الحديث إلى قتادة، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب، أو طنّ بأقصى الشام والعراق ذباب، لحنوا على هذا صنما، وتلوا ذلك كتاباً محكما، وأخبارهم الباهرة، وأشعارهم السائرة، مرمى القصيه، ومناخ الرديه، لا يعمر بها جنان ولا خلد، ولا يصرف فيها لسان ولا يد، فغاظني منهم ذلك، وأنفت مما هنالك، وأخذْت نفسي بجمع ما وجدت من حسنات دهري، وتتبع محاسن أهل بلدي وعصري، غَيرةً لهذا الأفق الغريب أن تعود بدُورُهُ أهِلَّة، وتصبح بحورُه ثماداً مضمحلة، مع كثرة أدبائه، ووفور علمائه، وقديماً ضيعوا العلم وأهله، ويا رب محسن مات إحسانه قبله، وليت شعري من قصر العلم على بعض الزمان، وخص أهل المشرق بالإحسان، وقد كتبت لأرباب هذا الشان، من أهل الوقت والزمان، محاسن تبهر الألباب، وتسحر الشعراء والكتاب، ولم أعرض

لشيء من أشعار الدولة المروانية ولا المدائح العامرية، إذ كان ابن فرج الجياني قد رأى رأيي في النَصفه، وذهب مذهبي من الأنفَه، فأملى في محاسن أهل زمانه، كتاب الحدائق معارضاً لكتاب الزهرة للأصفهاني، فأضربت أنا عما ألّف، ولم أعرض لشيء مما صنّف، ولا تعدّيت أهل عصري ممن شاهدته بعمري، أو لحقه أهل دهري، إذ كل مردّد ثقيل، وكل متكرر مملول، وقد مَجَّت الأسماع (يا دار ميَة بالعلياء فالسّند) إلى أن قال بعد ذكره أنه يسوق جملة من المشارقة مثل الشريف الرضي والقاضي عبد الوهاب والوزير ابن المغربي، وغيرهم ممن يطول ما صورته. . . وإنما ذكرت هؤلاء ائتساء بأبي منصور، في تأليفه المشهور، المترجم بيتيمة الدهر، في محاسن أهل العصر. . .

هذا هو كل ما أورده المقري من خطبة الذخيرة، ومن هذا الموضع تبتدئ بقية الخطبة المثبتة في النسخ الموجودة في دار الكتب، فإذا أردت أن تجمع أطراف خطبة الذخيرة فهذا الذي أوردناه هنا هو الشطر الأول منها، لا ما هو مذكور في النسخ التي بين أيدينا حتى إذا وصلت إلى هذا الموضع وهو: - وإنما ذكرت هؤلاء ائتساء بأبي منصور في تأليفه المشهور المترجم بيتيمة الدهر في محاسن أهل العصر - وهذا هو ما أراده المقري واقتصر عليه - فارجع إلى هذا الموضع في خطبة الذخيرة الملفقة وامض منه إلى نهايتها وبذلك تجتمع لك الخطبة وتكمل، وهي خطبة على طولها بارعة جميلة، فارجع إليها في الذخيرة إن شئت؛ وما حفزنا إلى القول عليها وإيراد ما أوردناه منها إلا هذا التخليط الذي اعتور النسخ بأيدينا. . .

هذا وقد كسر ابن بسام الكتاب على أربعة أقسام: القسم الأول لأهل حضرة قرطبة وما يصاقبها من موسطة بلاد الأندلس، وهذا يشتمل من الأخبار وأسماء الرؤساء وأعيان الكتاب والشعراء على جماعة. . . الخ الخ، والقسم الثاني لأهل الجانب الغربي من الأندلس وذكر حضرة أشبيلية وما اتصل بها من بلاد ساحل البحر المحيط الرومي وفيه من الأخبار وأسماء الرؤساء وأعيان الكتاب جملة موفورة. . . الخ الخ، والقسم الثالث ذكر فيه أهل الجانب الشرقي من الأندلس ومن نجم من كواكب العصر في أفق ذلك الثغر الأعلى إلى منتهى كلمة الإسلام هنالك. . . الخ الخ، والقسم الرابع لمن طرأ على هذه الجزيرة من أديب شاعر وكاتب ماهر ووصل بهم ذكر طائفة من مشهوري المشارقة ممن نجم في عصره. . . الخ الخ

فأنا نضرع إلى الله سبحانه أن يوفق جماعة المستشرقين الذين أزمعوا طبع (وبعد) هذا الأثر النفيس حتى يخرجوه سليما معافى بارئاً مما ألمّ به من التحريف الذي شوه محاسنه، وكاد يطمس معالمه إنه سميع الدعاء

عبد الرحمن البرقوقي

منشئ مجلة البيان ورئيس قلم المراجعة بمجلس النواب

الهاربون من القضاء

للأستاذ عبد الرحمن شكري

أتظل موهون الجنانِ مروَّعاً ... قلِقاً من الآفات والأقدار
تخشى الحياة ولست تخشى ميتة ... هبها نصيب الموت في الإصغار
قلقاً تُطِلُّ على الحياة كأنما ... منها وقفت على الشفير الهاري
تخشى الحياة وكذبها وسَفالها ... وصيا لها في قسوة الغَدَّار
والحي يأكل من حياة مثيله ... لحسن الضواري للدم المدرار
وتطاول المغمور ينحو نابها ... كتطاول الغرقان في التيار
متشبثاً منه بعِطَفْي سابح ... ليجره لمهالك وبوار
كل يخال الدهر إن هو عاقه ... خطب الجميع بقاصم الأعمار
والموت يعصف بالدهور وأهلها ... فكأنها صور الخيال الساري
فعلام تخضع للتناكص والأسى ... وتخاف حكم الله في المقدار
والقلب يلمسه الأسى فيهزه ... وكأنه وتر من الأوتار
وعلام ترتقب الزمان وصرفه ... والغيب وهو مُحَجَّبٌ متواري
عمري لو أن الغيب عاجل وانقضى ... لقرأته خبراً من الأخبار
فمن ترى صور الحياة صحائفا ... وكأنها سِفرٌ من الأسفار
لا إنها أمر تزاول صرفه ... وتظل تعدو منه في مضمار

أو تغتدي بين الأنام مغامراً ... تسعى على سنن لهم وشعار
فإذا أسيت أسيت طرفة ناظر ... وإذا نسيت نسيت كل عثار
وكذبت ما كذب الأنام ولم تجد ... في قسوة من خسة وشنار
ونسيت ما جلب الزمان لأهله ... من محنة أو مهلك ودمار
فتقول للقلب المَروع إذا نزا ... حذر الحياة وصولة الأشزار:
يا هارباً من صولة المقدار ... أتراك تفلت من يد الأقدار
أهرب إذا ما اسْطعْتَ في أزل الدُّنَى ... أو في مدى الآباد والأدهار
أو في الممات وما تلاقي خلفه ... بين الفناء ومعقل الأسرار
تعدو ويدركك الذي خلَّفَته ... كالليل ليس يفر منه الساري
كلُّ من العيش المرَوَّع هارب ... لو فاز خلْقٌ في الدنى بفرار
بالفن أو بالعلم أو بمجانة ... أو بالسطا والجند والأنصاو
فإذا القضاء مآلهم ونفاذه ... كحصاد كل وسائل المختار
سل صفحة التاريخ كم قوم به ... أجراه مجرى الدهر في مضمار
أقوام أدهار مضت بعض لها ... ذكرى وبعض مالها من داري
قد أبدلوا طبع السَّفَال بأنفس ... من طبعها المتصاعد السَّوَّار
صاروا إذ اغَضبِوا وإن سُرُّوا وإن ... درجوا لأمرٍ ثالثٍ بمدار
يتمرَّغون مجانة فنفوسهم ... وجسومهم كمزابل الأقذار
وصموا الشباب ولم يكن من طبعه ... خلق اللئيم العاجز الغدَّار
إن الشباب مروءة وسذاجة ... وترفع ينبو عن الأوضار
تَخِذوا السَّفاَلَ مِجَنَّهُم ليصونهم ... من صولة الغلاَّب والمغوار
فغدا السَّفاَلَ سعادةً ومسرة ... عبث الخنا ومجانة الفجار
نبِذوا الحياء وكيف ترجو أمة ... للنائبات مجانة العُهار
قد خِيلَ في فقد الحياء رجولة ... فقد الحياء رجولة الدُّعار
طبع المجانة عم حتى خلته ... كيداً يحاك عليهمُ بِسَرَارِ
أم وُرِّثوه عن الجدار غنيمة ... يطفو الذليل بها على الأقدار
ويُذِلُّ من عنت الحياة وضيمها ... بسعادة المجانِ والفجار
وتكايدوا كيد العبيد ولم يكن ... كتنابُذ بطبائع الأحرار
واستمرأوا مرعى الغباوة والخنا ... إلْفَ السجون لطول عهد إسار
هزموا الدهور الغازيات بهز لهم ... فمضت وظلوا رهن عُقْرِ الدار
فإذا الدهور جديدة قهَّارة ... وإذا اللئام فريسة الأدهار
درجوا على دَرَج الحياة إلى الردى ... من بعد جهلٍ راقهم وصَغارِ
من الشعر الرمزي
رمز الخريف
مهداة إلى الشاعر (أنور العطار) صاحب مقطوعة الخريف
المنشورة في العدد 138 من الرسالة
للأستاذ خليل هنداوي
خلِّ عنك النحيبَ، فالعيش ثغر ... ضاحك، والحياةُ حلم نضير
لا أرى في الخريف خطباً نكيراً ... إن مقت الخريف خطب نكير
هل رأت في الخريف عيناك إلا ... وحشة كالتي حوتها القبور
هل رأيت العشش إلا خراباً ... (هجرتها على الليالي الطيور)
هل رأيت الحياة إلا سراباً ... كل ما حوله أسى وغرور؟
لا تقل: يهمد الثرى! فهو حي ... إنما للحياة فيه تفور
إن في باطن الخريف ربيعاً ... فيه من روعة الربيع الكثير
قد تمشت في الحياة بصمت ... واستفاقت تحت التراب الجذور
ورويداً! كل المسارب تخض ... رُّ، وتهتز في المروج زهور
وإذا بالحياة تضحك ضحكاً ... فحفيف، ونغمة، وخرير
كل شيء - فيه - يغير ثوباً ... وجمال الطبيعة التغيير
ما عليها لو بدلتا قشوراً ... بقشور، هل الحياة قشور؟
لم تزل في عشاشه بهجات ... وأرانيم في الفضاء تطير

حيث يروي العصفور لحناً ويصغي ... لصداه، فيجْفلُ العصفور
إن في صفرة الخريف فناء ... فيه رمز إلى البقاء يشير
لا تمثل سماء كونك بالنع ... ش عليه من الغيوم ستور
إن كوناً تنكَّب الفن عنه ... هو كون مستقبح مهجور
فاتخذ عالماً تطوف الشعاعا ... ت عليه والنور فيه يمور
وعصافيره على الدهر تشدو ... وأزاهيره يفوح منها العبير
عالماً فيه روعة ورواء ... وفضاء يشع فيه الحبور
عالماً واسعاً تضيق به الآ ... فاق، فيه الرضا وفيَه السرور
لا تخف سطوة الخريف إذا انقض ... على دوحك الشجير يغير
قل له: نق تربتي من هشيم ... ما له في الحياة إلا صرير
قل له: عرَّ دوحتي من بقايا ... طرحتها لكي تعيش زهور
قل له: عرَّ خاطري من تقالي ... د أباها عقلي وعاف الضمير
فمن الشجو والخريف حياة ... ومن الحب والربيع قبور
ما على اللحن أن يكون جميلا ... وهو لحن - كما ذكرت - قصير
كن جديداً على الحياة ففي الج ... دَّة يهتز كونك المسحور
لست أبغي قيثارة تشكي ... لحنها الدمع والأسى والشعور
أعطها للخريف، وانحت سواها ... ذات لحن تهوى عليه الصدور
هات قيثارة تسيل غناء ... لا يرى منفذاً إليها الدثور
هات قيثارة لها نغمات ... (هي روح الحياة والإكسير)
هي فرق الأفراح حين تغني ... وهي فوق الأحزان حين تثور
هي روح ترى الظلام وتزهو ... بضياء الحياة حيث ينير
هي نور يكسو الطبيعة لوناً ... حين يخبو من الطبيعة نور
هي لحن يطغى على كل لحن ... حيث لا معزف ولا مزمور
هي طيب يبث في الوهد عطراً ... حين لا يغمر الوهاد عطور
هي فن يجلبب الكون بالحس ... ن إذا ما طغت عليه الشرور
(دير الزور)
خليل هنداوي
أغلال تتحطم!
وثاروا فجن جنون الرياح ... وزلزلت الأرض زلزالها
وأهيب ما كان يأس الشعوب ... إذا سلح الحق أعزالها
(شوقي)
ما اغترابي عن الحمى وابتعادي ... كبدي في اللَّهيب أُختُ فؤادي!
نبأ هزَّني وهاج شئوني ... رائحٌ بالشجونِ بالدمع غادِ
ما تراني إذا سجا الليلُ أسوا ... ن لهيفَ الفؤاد نِضو سُهاد
أسألُ النَّجْمَ همة عن عرين ... فتَك الظلم فيه بالآساد
وأناجي الرياح ماذا لديها ... عن رفاق الصبى وعن أندادي
اعصفي يا رِياحُ ما شئتِ هوجاً ... كلُّ نفسي عواصف وعَواد
اللظى في الحشا وتحت جفوني ... وعلى مَفرشي وفوق وسادي
إن أنم ساعة يقلِّبنيَ الحُل ... مِ على جمره وفوق قتادي
أألذ الكَرى وطرفي دامٍ ... وخفوقي في لهفةٍ وأتّقاد
وبلادي تئن من عَبَثَ الجْو ... رِ وترغى كالليثِ في الأصفاد
تمهرُ المجد أسدها ثم تجري ... للمعالي على رؤوس الصِّعاد
حطِّموا أيها الرعاة المزامي ... رَ وكفكِفْ دمع الهوى يا حادي
ثم سيروا خلف القطيع خشوعاً ... موْكِباً من جلالة واتِّئادِ
أيُّها البلبلُ الطروبُ دع الأغ ... صان تبكي واسكتْ عن الإنشاد
طِرْ إلى حيث وُسِّدت شُهداءُ ... في بطاح العُلى طوالُ النِّجار
فاشد في مرْبِض الضحايا وغرِّد ... فوق أشلائِها الظِّماء الصوادي
واتلُ فوقَ الرؤوس أعذبَ لحن ... فلحونُ الطيور خير ضماد
الوفاء الوفاء يا بلبلَ الأي ... ك! أتشدو وليس في الشام شادِ؟

بل أقِم أيها الرفيقُ ورَنّم ... وتنقَّلْ بين الرُّبى والبوادي
وأشد ما شئت عند مُنبلج النو ... رِ، طروباً، وفي مثارِ السواد
. . .ربما كنت هاهنا أيها البل ... بلُ تبكي على شهيدٍ جوادِ
أيها الزهرُ في الرُّبى! أغمِضِ الأجف ... فان حزناً واذْبُلْ على الأعواد
أو قَيِّممْ رَوْض الضحايا فَرفرِفْ ... فوق أعراسها وفي الأعياد
!كيف تزهو والزهر في النيربِ السا ... جِم باكٍ والورد في الشام صاد؟
بل تَفَتحْ هنا ورُفَّ نديا ... وانشر العِطْرَ منك في كل واد
. . .ربما كنت أيها الزهرُ تُروي ... من دِماءٍ جاءتكَ مثلَ العِهاد
يا ثرى موطني تباركت تربا ... أنتَ من أدمُع ومن أكباد
حيثما ألتفت فثمَّ ضريح ... لشهيد أو ساحة لجلاد
كم شهيد كأنه بسمةُ المج ... دِ ورَيحانة العُلى والجهاد
خَرَّ في حومةِ النِّضال ينادي: ... موطِني موطني! بلادي بلادي
مات واسمُ الحمى على شفتيهِ ... كالندى فوق ذِلِلِ الأوراد
أو هو أسم الحبيب طوَّف معْسو ... لاً بثغر المحِبِّ عند الرُّقادِ
أيها الشرق هَبَّةً للمعالي ... طال لُبْثُ السيوف في الأغماد
إنما العيشُ صرْعةٌ في جهادٍ ... والرَّدى في تذلّلٍ وانقياد
صرخة أيها الأسيرُ تفري ... لصَداها حبئلُ الصياد
تجْفِلُ العاديَ المغيرَ وتهوي ... صاعقات على رؤوسِ الأعادي
أيها الشرق إنما أنت مَجْلَي الن ... ورِ والكونُ في ثيابِ الحِداد
إنما أنت مهْبطُ الوحي والأج ... يالُ تلهو بها أكفُّ الجماد
دّرَج الأنبياءُ فوق روابي ... كَ، وشعت منائِرُ الإرشاد
علَّموا الكون رحمة العبد للعب ... د ونبذ الذحول والأحقاد
وهدوْه سُبْل المحبة والخي ... ر وَنَقَّوه من شرور الفساد
فاهتدي بعد حيْرةٍ وضلالٍ ... وصفا بعد حلكة واربداد
أيهاذا الغرب المِدلُّ رُويداً ... والنُّهى - لو عَلِمت - في الإرواد
شَدَّ ما ترهق الضعيف عذاباً ... تتداعى له على الاطواد
فكأن الأيامَ ليست تَوالي ... وكأن الزمان ليس يعادي
إيه يا غرب، والحديث شجون ... والدُّنى بين هدأةٍ ولداد
ما جنينا حتى صببت علينا ... مُرهقاتِ الأذى والاستعباد
كيف تنسى أيام كنا نجوماً ... ساطعاتٍ في كلِّ صقع وناد
يوم كنا تاجاً على مفرق الأ ... ض وشمساً من حكمة ورشاد
والزمان الحرونُ بين يدينا ... مُستذلٌّ الصُّروف سهلُ القياد
فملأنا السماَء والأرضَ نوراً ... وأفضنا عليك أفضل زاد
وملكنا بالعدل ناصية الكو ... نِ زماناً، أغوارِه والنِّجاد
ثم جار الزمان وانقلب الده ... ر فنامت على الغصون الشوادي
وخبا للخلود أعذب لحن ... وكبا للرُّقي خيرُ جواد
يا جمال الحياة يا بهجة الكو ... ن وإرث الأجداد للأحفاد
يا دموع الأسير، يا غضبة اللي ... ث على القدِّ، يا رجاء العباد
. . .!يا ضياء النفوس، يا شمس يا حرِّ ... ية الغابِ، يا ابنة الآباد
نحن زهرٌ وأنتِ أعذب طلٍّ ... نحن عمي وأنتِ أرحمُ هاد
قد مهرناك من دماءِ غوالٍ ... وفرشنا الطريق من أجسادِ
فاخطري فوقها وتيهي دلالاً ... واسحبي الذيل في الربى والبوادي
وطئي أعُيناً ودُوسي قلوباً ... كلها من تمرُّدٍ وعنادِ
وامرحي فوق أرؤُسٍ لك ذلت ... لا لباغ مضرج الناب عاد
حلقي فوقنا وَرُفي لنحيا ... قد سئمنا الحياة في الأقياد
واسطعي في القلوب نوراً من الله ... وثوري بأنفس الهجادِ
صدئ القد في الأكف وفي الأق ... دام، والغُلُّ حزَّ في الأجياد
أيها الغريب قد أنفنا من النو ... م وضقنا بالذل والأصفاد
فوثبنا إلى النضال أسودا ... مثل آبائنا العلى الأمجاد

وخضبنا دغالنا بالدم الحر ... وضاق الفضاء بالأجناد
أَرْهِق الشَّرْقَ ذِلَّةً وَأَذِقْهُ ... كل ما شِئْتَ من أذى واضطهاد
نحْنُ نَبْغي الحياةَ، والسَّيْفُ لَنْ ... يُغْمَدَ يا غَرْبُ قَبْلَ نَيْلِ المرادِ
(ابن دمشق)
القصص
درامة من اسخيلوس
محاكمة أُورست أو ربات العذاب
(الدرامة الثالثة من الأورستية)
أول كوميدية إلهية مسرحية عرفها التاريخ
للأستاذ دريني خشبة
خلاصة الدرامتين الأوليين
(ذهب أجاممنون ملك آرجوس لفتح طروادة ولكن الريح العاصف حالت دون قيام الأسطول فضحى بابنته أفجينا ليهدأ ثائر البحر وأغضب بذلك زوجه كليتمنسترا التي انتهزت فرصة غيابه واتصلت بألد أعدائه إيجستوس اتصلا شائنا ونفت ولدها أورست حتى لا يعكر عليها صفو غرامها - ويعود أجاممنون بعد عشر سنوات فتقتله زوجته وعاشقها. . . وتمضي عشر سنوات أخرى فيكون أورست قد شب واشتد عوده فيعود ليثأر لأبيه من أمه، فيلقى أخته عند قبر والده تصب عليه خمراً مرسلة من الملكة بسبب رؤيا مفزعة خلاصتها أنها رأت نفسها تلد أفعى وتضمها إلى صدرها فتنفث فيه سمها ويتعارف الأخ إلى أخته ويتفقان على الخطة ويطرق أورست باب القصر الملكي متنكراً فتلقاه الملكة ولا تعرفه مع أنه ابنها فيدعي أنه قادم من لدن الأمير الذي كانت قد نفت ولدها عنده وأن ولدها قد مات. . .! وهكذا تجوز الحيلة على الملكة فترسل في طلب ابجستوس لتنهي إليه الخبر ولكن أورست يلقاه منفرداً ويقتله، فلما تجيء الملكة وتشهد مقتل حبيبها تعرف كل شيء وتعرف أن القاتل ولدها لا غيره. . . ثم ينقض أورست على أمه فيقتلها بعد جدل طويل
ولكن أورست يكون قد ارتكب أكبر جريمة تعاقب عليها الآلهة وهي قتل الوالدين فتتمثل له هامة أمه وتفزعه وتروعه حتى يجن جنونه فينطلق إلى معبد أبوللو يتوسل إليه أن يحميه
(لأنه هو الذي أمره بإنفاذ هذه الجريمة. . . ومن هنا تبدأ الدرامة الثالثة
- 1 -
المنظر: (في الأديتون - صومعة أبوللو - في دلفى)
نحن في الأديتون. . . في مثوى أبوللو الخاص؛. . وقد قامت بيثونة الإله الكبير، سيد الشمس، ورب القوس، وصاحب السهام الذهبية. . . تصلي للأرض المباركة، ولا بنتها ذيميس، ولإحدى بنات النيتان. . . فوبيه. . . التي تشبه باسمها فوبوس. . . الذي هو أبوللو. . .
والبيثونة، كاهنة أبوللو، ذات لسان رطب، وهي لا تكل من أن تستطيل صلاتها، فتذكر مينرفا وما روى الناس من أساطير عن مينرفا. . . و. . . تنتهي بعد لأي صلواتها. . .
وندخل معها إلى مثوى أبوللو؛ ولكنا نخرج مذعورين وجلين، كما تخرج هي وجلة مذعورة. . . لأننا نرى أورست المسكين راكعاً بين يدي تمثال الإله يبكي. . . ويصلي. . . ويضرع إلى أبوللو أن يحميه من ربات العذاب. . . الزبانيات الضاريات. . . اللائى رحن يطاردنه في كل حدب، ويأخذن عليه سبيله في كل صوب. . . وبودّهن لو تمكنّ منه فهرأن لحمه، وحطمن عظامه، ثم دفعنه في حميم فليجتون، بما قتل أمه وأغضب الآلهة
وتذعر البيثونة لأنها ترى إلى إحدى يدي أورست ملطخة بالدم الذي سفحه، وترى إلى يده الأخرى تحمل غصناً غضاً نضيراً. . . هو غصن الزيتون؟! وكيف يجتمع الدم المسفوك، وغصن الزيتون؟
مسكين أورست! لقد ركع بين يدي التمثال يصلي ويبكي، ومن حوله الزبانيات الضواري يتربصن به. . . هؤلاء الجرجون السفاحات. . . اللائى تتحوى الأفاعي في رؤوسهن، ويغلي السم في أنيابهن، ويضطرب الموت الأسود في أظفارهن!!
ويسقط في يد البيثونة، ولكنها تدعو لمولاها أبوللو أن يحمي بيته من هؤلاء المتمردات

- 2 -
وينفتح باب الصومعة على مصراعيه، فنرى أبوللو نفسه، ونرى أورست المعذب ما يبرح يبكي ويصلي، ونرى إلى الجرجون من حوله يكدن يبطشن به، ولكن أبوللو يكلمه ويحتفي
به ويذهب عنه الروع الذي يضنيه
- (ليفرخ روعك يا أورست فأنا ربك وحارسك وسأظل آخر الدهر معك. . . قريباً منك أو بعيداً عنك. . . تراني أو لا تراني. . . دائماً معك. . . دائما. . . وسأكون أعدى أعداء من عداك. . . حتى ولو كان من أعدائك هؤلاء الجرجون آلائي ترى. . . فأنه لن يصل إليك منهن ضر، ولن يصيبك منهن أذى. . . فإني قد ألقيت عليهن غفوة، وأسكرت مقلهن بخمرة الكرى، فهن في سبات عميق حتى تكون بنجوة منهن. . . الشريرات عدوات الآلهة والناس أجمعين. . .)
ويهدأ أورست قليلا، لأنه ينظر فيرى إلى الجرجون ساكنات نائمات كما أخبر الإله، ويصل أبوللو حديثه فيقول: (. . . وليس عليك إلا أن تنطلق من فورك هذا فلا تلوي على شيء حتى تكون في معبد مينرفا فاسجد تحت قدميها سجدة تستجمع فيها نفسك وقلبك وآلامك. ثم تبثها شكواك وتتوسل إليها أن تأذن فتحكم بينك وبين الزبانيات، ربات الذعر، هذه الجرجون؛ ولا تخش عقدة في لسانك فسأكون إلى جانبك، وسأنافح عنك وأشد أزرك، ولن يؤودني أن أضع عنك هذا الوزر الذي يثقلك، مادمت أنا الذي أمرتك أن تقتل أمك الفاسقة. . . وستنطلق الجرجون في إثرك، فإذا أدركنك فلا يروعنك أن يأخذنك فيلبْبْنك تلبيبا، ثم لا يروعنك أن يتواثبن بك فوق الآكام ويسحبنك فوق النؤى ويطوحن بك فوق البحر اللجي. . . فانك واصل بأذني، وعلى عيني إلى حيث ألقاك في معبد مينرفا)
فيكفكف أورست عبرته ويقول: (تباركت يا سيد الشمس وتقدست أسماؤك، ولا غفلت عينك الساهرة عن عبدك المنيب. . . ولا زلت تدركني برحمتك يا أرحم الراحمين!)
فيجيبه أبوللو: (ولا زلت أوصيك بالتجمل والصبر، فلا تقذف بالروع في قلبك، ولا تدع للذعر إلى روحك سبيلا، وسأوصي بك أخي هرمز، حامل الأرواح إلى ظلال هيدز، يمهد لك، ويوطئ سبيلك حتى تكون في مُتوجَّهك)
ثم يرف أبوللو فيكون في السماء. . . ويخرج أورست
- 3 -
وتنعقد سحابة في جو الصومعة، ثم تنكشف عن شبحٍ قاتم سادر، هو شبح كليتمنسترا. وكأن نوم الجرجون يشدهه فيقول:
- (يا هياهْ! يا هياه! هَياَ! هَياَ! جورجون! غطيط! تنامين وأذرع الظلمات مفضوحةً بمن قتلني! انهضن يا ربات! إنهم يصرخون في وجهي: مجرمة! آثمة! أنا؟ أنا مجرمة وقد قتلني ابني الذي حملته وغذوته؟. . . ما شغلكن إذن إذا نمتن عن هذا الوزر؟ ألم أكن أقرب لكن القرابين وأضحي الأضحيات من خمر كلها غَوْل في دجنّة الليل؟! أفهكذا تضيع إضحياتي عندكن وينجو قاتلي دون أن تمسكن به؟ انهضْن! انهضن فحسبكن ما ألم بكن من كرى! انهضن فقد لاذ بالفرار قاتلي غير مبالٍ بكن؟ أنا كليتمنسترا؟ أهتف بكن يا ربات الظلمات! أنا. . . القتيلة التي يسبح ظلها في مملكة الأحلام!)
- (. . .خيخ!. . . خيخ. . .! خيخ. . .! خيخ)
- (خيخ؟. . . ما هذا الفخيخ يا ربات؟ إنه يضطرب في حلوقكن فيكون شخيرا، ثم يرتد في أنوفكن فيكون نخيراً! هَيا! لقد أفلت قاتلي! ولدي! لقد كلأته قدرة سماوية بينا أنا مهجورة هنا!)
- (. . .غيط. . . خيخ. . .! غيـ)
- (غيط! ما هذا الغطيط وقد انفتل قاتلي! ما أنتن هنا؟ أورست ابني. . . أطلق ساقيه للريح يا ربات، فمن غيركن يأخذه بقتلتي؟)
- (. . .أو. . . هـ)
- (!أوه؟ هَيا! البدارَ البدار! يا للضنى)
- (. . .أو. . . هـ)
- (!حتى النوم والتعب يشدان أزر المتآمرين)
- (!خيـ. . . . خ. . . (وتستيقظ الجورجون) أمسكن! أمسكن! مِن هنا! من هناك! حذار)

آي! أنتن تتصدين المجرم في شبكة أحلامكن! وما تبرحن متثائبات! يا للعار؟ انهضن) -
يا ربات ولا تستسلمن لهذا الخمول! بحسب قلوبكن وخزة من ضمير حي لو يستيقظ!
(!!هَياً هَيا! اقصصْن أثره! ولينزع شِواه زفير من جحيم أنفاسكن هيا هيا
(ويغيب الشبح)
- 4 -
وتنهض الجورجون فيروعهن ألا تجدن أورست وقد طاردنه طويلا، وكدن يبطشن به لولا
احتماؤه بصومعة أبوللو. . . ويبر من ويتسخطن. . . ويشتد غضبهن على أبوللو نفسه،
لأنهن يفطن إلى أنه هو الذي ألقى عليهن هذا النعاس الذي صرفهن عن واجبهن. . .
(غير مبال أن تخرق قانون الآلهة، ولا مبال أن يتلطخ وحيدك بالإثم والدم، كأنك تتحدى
ربات المقادير. . . ولكن هيهات! هيهات أن تستطيع حماية هذا الآثم الذي يلوذ بك. . .
فأنك ستشهده بعينيك يتلظى في حر جهنم. . . وستضاعف حمايتك العمياء له
عذابه. . . . . .)
وما يكدن يفرغن من برمهن، ويمسكن عن قولة السوء التي أرسلنها، حتى يبدو طيف
أبوللو:
- (. . . . أغربن اغربن! آمركن ألا تبقين في صومعتي! هَلاَ! وإلا فستبيدكن نفثات
الثعبان الذي يتحوى في قوسي! الأرقم! أتجهلنه؟ أغربن يا سبب شقاء الناس ونافثات
السم في جراح البرايا! لا تنتهكن هذا الحرم المقدس الأطهر بظلالكن البشعة،
النكراء! أغربن من هنا، وتعثرن بالموت والأرزاء في سبل الشباب الذي تذوين،
والحيوات التي تشقين والأنفاس البريئة التي تحشرجن في صدور الأطفال. . .!
بحسبكن أنين الموتى، وجؤار القتلى، وسكرة الموت؛ تخضض المفجوعين والمفئودين!
أغربن من هنا. . . . وليكن مأواكن في مغارة ذئب أو كهف سبع ينهش فريسته التي ما
تزال تئن وتتوجع. . . فصومعتي أطهر من أن تدنسها أدرانكن! أغربن قلت لكن، فما
(!انفكت لعنة السماء عليكن وغضب الآلهة والناس أجمعين! هيا. . . هيا. . . يا هتاه
- (أيها الإله أبوللو! أصغ إلينا وع! أنت لم تكن شريك هذا المجرم الذي حميت في
(. . .وزره فقط (حين قتل أمه) ولكنك كنت الآمر الموحي؛ فعليك يقع الجرم كله
- (. . . .وما برهانكن؟ هراء. . . هراء
- (!!نبوءتك التي أوحيت بها. . . . تقضي أن يقتل الغلام أمه
(!لقد صرحت، غير متردد، لابد أن يثأر الفتى لأبيه)
- (!وها قد تقبلت الغلام، وما انفك الدم يقطر من يديه
- (!لا. . . . ولكني أمرته أن يستغفر لذنبه هنا
- (ولكنه لم يأت ليستغفر، بل أتى يلوم ويعتب ويعذل. . . يعتب عليك ويعذلك يا
(حاميه!؟
- (!!وأنتن؟ ماذا جاء بكن وأنتن غير جديرات بأن تقربن قدسي
- (!وظيفتنا يا سيد الشمس! هذا عملنا الذي ارتضينا يوم اقتسم الآلهة شؤون الحياتين
- (ماذا؟ عملكن؟ وما عملكن يا ربات الذعر؟)
- (!أن نقتص آثار قبلة الآباء وننفيهم من الأرض)
- (وماذا تصنعن بمن يقتلن أزواجهن من النساء؟)
- (!!هذا دم لا يعنينا لأنه من دماء ذوي القربى، فلا شأن لنا به
- (بعدتُن عن الشرف والنبل إذن، وعن العدالة كذلك! أن ذلك ينافي القداسة الزوجية
التي تقر بها حيرا لزوجها زيوس سيد الأولمب، وينافي ما قضت به ربة الحب من
وجوب الوفاق والمحبة بين الزوجين. . . إن العلاقة بين الزوج وزوجه أكبر من أن تكون
قسما اقسماه! فإذا حدث أن قتل أحدهما الآخر ولم يثر ثائركن لهذا القتل فمن يأخذ
المجرم بجرمه؟ وماذا تكون الحياة إذا لم يكن فيها قصاص؟! إنكن إذن تطاردن
أورست ظالمات!! فبينا تأخذن بالشدة والعنف مجرماً لا تقع عليه - في الحق - جريرة
ما صنع، إذا أنتن تغضين عن مجرمين ضجت الدنيا بآثامهم وتلطخت الفضيلة بأوزارهم،
فما لكن كيف تقضين؟! وليكن الأمر ما يكون، فسيعرض الأمر كله على مينرفا لترى
(!فيه رأيها
- (!مهما حاولت فلن نعفي القاتل من أن يلقى جزاء ما جنت يداه

- (!!اقصصن أثره إذن وافعلن ما بدا لكن)
- (!ولكن لا تستهزئ بحقنا المقدس في ثنايا كلمك)
- (أنا لا يعنيني حقكن المقدس ولا أبالي به أو بكن!؟)
- إن رائحة الدم المسفوك. . . . دم الأم المذبوحة. . . قد أتى بنا إلى هنا، . . . . . .)
(!ولا بد من أن نقتحم هذا المأوى ونقبض على المجرم
وسأحمي هذا اللائذ بي إلى النهاية! سأناضل عنه مادامت العماية تغطش أبصاركن!
أنني إذا تخليت عنه، وتركته لبطشكن، غير متأب ولا ناقم فستضج السماء والأرض، وتزلزل الجبال. . . وتنقم الإلهة. . . ويسخط الأولمب. . . أغربن. . . أغربن! هيا. . . يا
(!ربات الذعر. . . زادتكن السماء مسخاً
(وتنطلق الجورجون. . . ويغيب أبوللو)
(البقية في العدد القادم)

دريني خشبة

صانعة الكراسي

للكاتب الفرنسي (جي دي موباسان)

ترجمة السيد فؤاد نور الدين

أقام المركيز دي برتران حفلة شائقة على نخب صيد العام الجديد. فدعا أصحابه من أهل البلد. فالتف حول المائدة عشرة رجال تصحبهم ثماني نساء من ذوات الحسن والدلال؛ وكان الخوان موقراً بصنوف الزهر الزكي، وضروب الثمر الشهي؛ وقد ألقت مصابيح الكهرباء أنوارها المتلألئة على هذه الأنواع المختلفة من الزهر والثمر والطعام، فماجت تحتها موجاناً يستفز الشهية ويستقطر اللعاب

جلس في صدر المائدة على مقربة من المركيزة طبيب البلدة، وهو رجل متقدم السن، وقور الهيئة، يبدو على وجهه طابع الفطنة والذكاء

كانوا جميعاً يتجاذبون ألواناً ممتعة من الحديث اللذيذ والكلام الرقيق، فلما انتقلوا إلى حوار الحب، وماهية الحب، انبعثت بينهم تلك المناقشة الخالدة التي يراد منها أن يفهم: هل الحب المحض يدرك القلب المرء مرة في حياته أو أكثر؟

فكانت تورد أمثلة لأناس تيم قلوبهم الحب الصحيح مرة فحسب، وكانت تورد أمثلة لأناس آخرين أحبوا بعنف وقوة وهيام أكثر من مرة

كان الرجال بنوع عام يشبهون العشق بالأمراض، فكما أن هذه تعتور جسم الإنسان دوماً، فالعشق أيضاً يصيب فؤاده كثيرا ويكون في كل مرة من العنف والقوة والهياج بحيث يُؤَثْر العاشق الموت إذا ما اعترضت سبيله علة من العلل

أما النسوة فكان رأيهن يستند أكثر ما يستند على الخيال والشعر، وينأى عن النظر والفكر. فكن يثبتن في حماس واندفاع أن الحب المحض، الحب العظيم لا يمكن أن ينبعث في القلب إلا مرة فحسب، حتى إذا تمكن منه ألهاه عن كل أمر، فأحرقه وألهبه، وكان فعله فيه فعل الصاعقة في الشجر والنبت، فكما أن هذه تحبس عنهما النمو والنشوء الجديدين، فهذا الحب أيضاً - يجعل القلب قفراً فارغاً لا يمكن أن تنشأ فيه أحلام تشبه أحلامه الأولى ولا أن

تنبت فيه مشاعر تشبه مشاعر هيامه الماضي وعهده السالف

كان المركيز يدحض هذا الاعتقاد بكل ما أوتي من ذلاقة لسان، ومن حجة وبيان كان يقول:

- أؤكد لكم يا سادتي أن الإنسان في مقدوره أن يعشق أكثر من مرة بكل جوارحه وبكل قواه. إنكم تعددون لي أمثلة أناس انتحروا من أجل الحب كأنهم عاجزون عن أن يعيشوا ليعشقوا ثانية. غير أني أجيبكم: إن هؤلاء الناس لو أهملوا الانتحار وتحاشوا هذا الحمق المجنون، لألفوا في الحياة ما يثير الحب جديداً في قلوبهم الجريحة ويحي موات الأمل في نفوسهم اليائسة، لأن من هام عاد إلى الهيام، ومن احتسى أولى الكؤوس عاد إلى سواها. تلك طبيعة المرء لا منصرف عنها ولا محيد

لما أتم المركيز خطابه وأعلن رأيه، انحدرت الأنظار إلى الطبيب تنتظر منه الحكم الأخير. قال:

- أنا لا أخالف المركيز في رأيه، فالهوى تتعدد فصوله وتتابع طوارئه على الفؤاد. غير أني عرفت فيما عرفت هوى دام خمساً وخمسين سنة، وما خمدت ناره ولا انطفأ

أواره إلا بالموت
قال المركيز وهو يفرك يديه:
- ترى أهذا الحب محمود؟ وما وراءه من أمان وأحلام؟ وأي سعادة في أن يعيش المرء خمساً وخمسين سنة على غرام واحد؟
فابتسم الطبيب ابتسامة خفيفة وهو ينظر إلى المركيزة:
- إن الشخص الذي أتاح له القدر أن يكون معشوقاً طول هذه المدة كان رجلا وأنتم تعرفونه جميعاً، هو السيد شوكه صيدلي الناحية. أما المرأة العاشقة فلستم تجهلونها أيضاً، هي صانعة الكراسي العجوز التي كانت تفد أحياناً إلى القصر هاهنا:
بدت على وجوه النسوة ملامح الدهش ودلائل الاشمئزاز، كأنما الحب لا ينبغي أن يصيب فيما يصيب إلا المخلوقات المترفة المتميزة التي تستحق وحدها أن يبدي الناس لها عطفا واهتماماً
قال الطبيب:
- منذ ثلاثة شهور دعيت إلى جانب هذه العجوز وهي على فراش الموت، وكانت قدمت في عربتها التي اتخذتها مسكناً لها وآلة ركوب تطوف البلدان عليها. يجر هذه العربة فرس مهزول ناحل لا شك أنكم رأيتموه. ويصحب العجوز كلبان أسودان هما صديقاها وحارساها. كانت دعت القسيس أيضاً لتكشف لنا عن رغباتها الأخيرة فنكون منفذين لوصيتها. فقصت علينا جميع أطوار حياتها. الحق إنني لم أسمع قصة أشد تأثيراً في النفس وأكثر غرابة في الأذن من قصتها. كانت حرفة والديها صنع الكراسي. ولم يكن لها سكن خاص في أرض معينة، فإنها طفلة كانت تطوف البلدان ممزقة الثياب معتلة الجسم يثير منظرها نفوراً واشمئزازاً. وكان أبواها كلما بلغا إحدى القرى وقفا عند مدخلها وأنشأ يصلحان الكراسي العتيقة والمقاعد القديمة تحت ظل الأشجار وهي تتدحرج لاعبة ضاحكة خلال أعواد العشب المشرئبة. فإذا ابتعدت قليلا عنهما أو أخذت في الحوار مع الصبية، فإنها لا تلبث أن تسمع صوت أبيها المغضب يقول لها: (ارجعي يا وقحة). فكانت هذه الجملة، الجملة الوحيدة التي تسمعها من أبيها
ولما ترعرعت بعض الشيء أرسلاها تلتقط أو تبتاع ما فسد من المقاعد. فكانت في تنقلها من مكان إلى مكان تتعرف إلى الصبيان وتأنس إلى الحديث إليهم. على أن ذويهم كثيراً ما صدوهم عنها وهم ينتهرونهم أشد الانتهار، ومنهم من كان يقول لولده: (ألا اقطعن الكلام مع هذه الشريدة الحافية الأقدام)
أما الفتية الصغار فما أكثر ما قذفوها بالحجارة من غير أن ينبس فوهها بكلام! وكان بعض النسوة أعطينها قليلا من دراهم، فاحتفظت بها وحرصت عليها
وبينما كانت تجوز هذا البلد في أحد الأيام وقد بلغت الخامسة عشر ربيعاً من عمرها، إذ صادفت خلف المقبرة شوكه الصغير وهو يبكي أحر البكاء، لأن رفيقاً له سرقه درهمين. فآلمها وهي البنت المسكينة، أن ترى طفلاً حضرياً يذرف دموعاً سخينة من حيث لا مواسي له ولا صديق. فدنت منه وما كادت تقف على سر بكائه حتى وضعت في يديه تلك الدراهم القليلة التي احتفظت بها. وكان طبيعياً أن يبتهج الطفل بالدراهم فأخذها ومسح دموعه. وكان منها أن جنَّت فرحاً بعمله، فأنشأت تعانقه وتضمه إلى صدرها وتقبله تقبيلاً حاراً دون أن يمانع الولد أو يصدها عنه لأنه كان لاهياً بفحص النقود ثم انصرفت عنه وقد فاض قلبها محبة لهذا الطفل
ولم يكن أحد يعلم ماذا جال في رأس هذه التاعسة من خواطر وأحلام، أتعلقت به لأنها ضحت في سبيله بثروتها المتجمعة من التشرد والانتقال، أم لأنها منحته أول قبلة وثب قلبها لها؟
خفي ذلك على الصغار والكبار
وظلت أشهراً تتمثل في خاطرها زاوية المقبرة التي شهدت فيها هذا الغلام وشرعت تسرق أبويها ما تصل إليه يدها من دراهم أملاً في لقائه ومصادفته. وكان في يدها آخر الأمر فرنكان. على أنها هذه المرة بدلاً من أن تلمح فتاها في محل منعزل، رأته خلف قضبان حانوت أبيه: بهي الطلعة نظيف الثياب، والقناني الحمراء والخضراء والصفراء تحيط به من كل جانب. فازدادت له حباً وبه كلفاً، وبهرها ما ألفت لديه من مجد بادٍ في هذه المياه المصبوغة، ومن جلال ظاهر في هذه الزجاجات البراقة
فاحتفظ خاطرها بذكراه مدة، حتى صادفته في السنة التالية خلف المدرسة يلعب مع

رفاقه، فهجمت عليه وقبلته تقبيلاً عنيفاً ربع له الولد وأخذ في الصراخ. لكنها سرعان ما وضعت في يده ثلاثة فرنكات هش لها الغلام وطرب، وحملق في وجهها في دهش وتعجب تاركا نفسه لها تداعبه ما رغبت في المداعبة، تعانقه ما اشتهت من عناق وظلت أربع سنوات تقدم إليه ما تجمعه فيأخذه منها مقدماً إليها القبلات عن رضى وسرور. أعطته مرة فرنكين ومرة خمسة فرنكات، وهي قطعة كبيرة جعلته يضحك لها ويرقص طربا

لم تكن تفكر إلا فيه؛ أما هو فكان ينتظر عودتها ويرقب شخوصها إليه بصبر فارغ وشوق لجوج، حتى إذا أبصرها، جرى إليها مسلماً خده لقبلاتها، ويده لدرهمها. وما أشد خفقان قلبها عند ذاك!

وتوارى الغلام حقبة من الزمن عن عيانها لأنه انتقل إلى مدرسة أخرى. وعرفت هي انتقاله بمهارة وحذق، فأبلت في السياسة بلاء حسناً حتى حملت أبويها على المرور من هنا في الصيف. وكان مضى عليها سنتان دون أن تراه. فلما أبصرته كادت لا تعرفه. لأنها رأت أمامها بدلا من طفل الأمس فتى تفتحت ورود الصبا في وجهه، وابتسمت زهور

اليفاعة في قده

نظرت إليه نظرة شوق ولهف. وكان منه أن تظاهر بعدم رؤيتها، ثم خطا أمامها ببزته الأنيقة ذات الأزرار الذهبية يملأ صدره زهو وافتخار، ويعلو برأسه أنفة واستكبار وانصرفت عنه والدموع تسح من عينيها والزفرات تتصاعد من قلبها. وأصبحت بعد ذاك

العهد أليفة أحزان، وصديقة آلام

وانطوت الأعوام متوارية خلف حجاب الفناء، وفتاتنا لا تنقطع عن الشخوص كل عام إلى بلده لتراه دون أن تجرؤ هي على تحيته، ودون أن يتنازل هو بإلقاء نظرة عليها كانت تهواه بكل جوارحها، وهاكم ما أسرته لي (إن هذا الرجل يا سيدي الطبيب، الرجل الوحيد التي رأته عيناي، وما علمت بعد ذاك إذا كان يعيش في العالم سواه) ومات أبواها واستمرت في حرفتهما، وقد صحبت من بعدهما بدلا من كلب واحد، كلبين هائلين يخشى الدنو منهما

وكان يوم دخلت في هذا البلد، فرأت امرأة في نضارة الصبا وربيع الحياة تصحب شوكه حبيبها، وقد تأبطت ذراعه وهما يخرجان من الحانوت معا

لقد تزوج إذن شوكه!

وفي مساء اليوم ألقت نفسها في الغدير القائم خلف المحكمة. واتفق أن رجلا كان يمر هناك، فأنقذها وقادها إلى منزل شوكه، فنزل هذا لعلاجها، ودلك بيديه مكان الألم من جسمها دون أن يتظاهر بعرفانها. ثم ما لبث أن قال لها بصوت جاف: (أأنت مجنونة؟ لا ينبغي أن تكوني هكذا حيواناً)

هذه الجملة وحدها بعثت فيها البرء والشفاء. ألم يتكلم إليها؟ حسبها ذلك! وظلت هائمة مغتبطة أمداً طويلا

قضت كل حياتها تذكر شوكه ولا تفكر في غيره. وكانت تلمحه في سنيها خلف الزجاج، وما أكثر ما ابتاعت عقاقيره وأدويته لا تبغي من شرائها إلا رؤيته والحديث إليه وكما ذكرت لكم بديا، ماتت هذا الربيع وقد رجتني بعد أن قصت عليّ قصتها أن أحمل إلى هذا الذي أحبته حب العابد لمعبوده، جميع ما ادخرته من مال. لأنها كما اعترفت لم تشتغل إلا لأجله، تجوع أحياناً لتدخر له بعض المال. فإن ذكرها بعد وفاتها مرة واحدة فستشعر في

قبرها بالسعادة والهناء

أعطتني عشرين وثلثمائة وألفين من الفرنكات. فقدمت العشرين فرنكا إلى القسيس لأجل دفنها، وأخذت الباقي لما فاضت روحها، وقصدت منزل شوكه، فلما دخلت كان وزوجه يتناولان طعام الغداء وقد جلس الواحد أمام رفيقه، والاحمرار يكسو وجهيهما، والسعادة تسبل عليهما ظلها الوارف وبشرها الطافح. طلبا إلي الجلوس فجلست، وقدما لي كوبا من مشروب (الكيرسك) فتناولته شاكراً وبدأت أنقل لهما القصة بصوت مضطرب حزين، لأني زعمت أنهما سيبكيان ويحزنان على أن شوكه ما كاد يفهم أن هذه الأفاقة الشريدة تضمر له حباً وولاء حتى جن جنونه وثارت ثائرته وشرع يثب من السخط والغضب كأنما سلبته المسكينة من المجد والشهرة، ومن العزة والشرف

شيئاً كثيرا. أما الزوجة فكانت تصيح والغيظ يملؤها (يالها من نذلة! يالها من نذلة!)
ثم نهض شوكه وألقى بقبعته على الوسادة وأخذ يذرع أرض الغرفة جيئة وذهاباً كأنه
أحد المجاذيب وكان يتمتم: (أو يمكن هذا يا دكتور؟ إن ذا لشيء فضيع! ما العمل؟ يا
ليتني عرفت الأمر في حياتها! فلكنت أسوقها سوقاً إلى السجن بقوة الدرك)
فلبثت أنا كالمشدوه مما سمعته أذناي ورأته عيناي لا أدري ما ينبغي لي من قول ومن
عمل. على أنني عقبت كلماتي: (سيدي إنها أوعزت إليّ أن أحمل إليك ما تركته من
نقود، وقدرها ثلثمائة وألفان من الفرنكات. ولما كان ما نقلته لك من حديثها قد أثار
فيك سخطاً وسوءاً، فلعل من الخير أن نهب النقود بعض الفقراء والمساكين)
نظرا وقد أفقدتهما الحيرة كل حركة!
فأخرجت المال من محفظتي، هذا المال المتجمع من بلدان عديدة والمدَّخَر من جميع
النقود من ذهب وفضة وغيرهما. وسألته قائلا: (ماذا عزمت؟)
قالت السيدة شوكه: (مادامت ربة المحتضرة الأخيرة تقضي بذلك. فأرى من الصعوبة
رفض إرادتها)
وقال الزوج واحمرار الخجل باد عليه: (إن هذا المال ينفعنا في اقتناء بعض الحاجيات
لأطفالنا)
قلت عند ذلك بصوت جاف: (كما تشاء)
قال: (هاته مادامت أوعزت إليك ذلك. فلن تعوزنا الوسيلة في إنفاقه إنفاقاً جميلا)
فقدمت إليهما الدراهم وصافحتهما وانصرفت
وجاءني شوكه في غد اليوم، وابتدرني قائلا: (هذه المرأة تركت عربتها، ماذا فعلت
بها؟). قلت:
- لاشيء، خذها إذا أردت. قال:
- إنها تنفعني؛ سأجعل منها كوخاً لحديقتي
وهم بالانصراف فناديته قائلا: (إنها تركت أيضاً فرسها وكلبيها، ألا تريدها؟ فوقف
مندهشاً وقال: (آه! كلا، لا حاجة بي إليها، ما أصنع بها؟ خذها أنت.) وأخذ يضحك ومد
يده إليّ فصافحته بمودة، إذ لا ينبغي للطبيب والصيدلي أن يكونا عدوين
احتفظت بالكلبين، أما الفرس فقدمته إلى القسيس، وأفاد شوكه من العربة كوخاً
لحديقته، وابتاع بالنقود خمسة أسهم في الخط الحديدي
هذا هو يا سادتي الحب العميق المحض الذي صادفته في حياتي
وصمت الطبيب
فأخرجت المركيزة من صدرها آهة حبيسة، وقالت والدموع تلألأ في عينيها:
(الحق أن النساء وحدهن يعرفن الحب!)
(حلب)
فؤاد نور الدين
البريد الأدبي
الأرحام المبلولة
أنكر علينا الدكتور زكي مبارك في (البلاغ) قولنا في افتتاحية العدد 139 من الرسالة:
(وأيبست الأرحام المبلولة)، وظن أن الذي ورطنا في وصف هذا الموصوف بهذه
الصفة إنما هو حرصنا على هذه السجعة التافهة! ومعاذ الله أن نكره كلمة على غير
موضعها طمعاً في زينة لفظية نعتقد أن خصيصة الجمال فيها جريانها مع الطبع
والصدق
لعل إنكار الأستاذ أن يكون آتياً من إحدى جهتين: إما استعمال اللغة
وإما مراعاة الذوق. فأما اللغة فحسبنا أن نورد هنا ما ذكره (لسان
العرب) ولا نزيد عليه. قال في مادة (بلل) (. . . وبل رحمه يبلها بلا
وبلالا: وصلها. وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم: بلوا أرحامكم
ولو بالسلام، أي ندُّوها بالصلة. قال ابن الأثير: وهم يطلقون النداوة
على الصلة كما يطلقون اليبس على القطيعة، لأنهم لما رأوا بعض
الأشياء يتصل ويختلط بالنداوة، ويحصل بينها التجافي والتفرق باليبس،
استعاروا البل لمعنى الوصل، واليبس لمعنى القطيعة، ومنه الحديث:
فإن لكم رحماً سأبلها ببلاها: أي أصلكم في الدنيا ولا أغني عنكم من

الله شيئاً. . . أبو عمرو وغيره: بللت رحمي أبلها بلا وبلالا: وصلتها وندیتها. قال الأعشى:

أما لطالب نعمة تممتها ... ووصال رحْم قد بردت بلالها

وقال الشاعر:

والرحم فابللها بخير البُلان ... فأنها اشتقت من اسم الرحمن

وأما الذوق فهناك ذوقان: ذوق أبناء العرب، وذوق (أبناء البلد)، فأما ذوق أبناء العرب فقد رأيت حكمه في هذا الاستعمال من وروده في الحديث والشعر، وتسجيله في معاجم اللغة وكتب الأدب؛ وأما (ذوق أبناء البلد) فقد يجد فيه شيئاً، ولكنه الشيء الذي يجده العامي في مثل قوله الله تعالى: (آتوني زبر الحديد) أوفي مثل قول الشاعر: (ومن يك) ومثل هذا الذوق العابث ينبغي أن نراعيه إلى حد ما، وإلا ذهب كلام الناس كله هزؤاً بين (نكتة) و (قافية)

كلمة قصيرة اختلستها من المرض الملازم يا دكتور فمعذرة

الزيات

الحركة الأدبية

حفلت القاهرة في الأيام الأخيرة بمجالس العلم والأدب، فكأنها سوق من أسواق الكلام التاريخية في أزهى عهوده وأحفل أيامه، فأنت لا تنفك آخر النهار وأول الليل تسمع أبلغ الخطب وأجود القصائد وأنفس المحاضرات في حفلات الترحيب وموائد التكريم وقاعات الثقافة، وقد كان لوفود إخواننا الفلسطينيين والعراقيين أثر قوي في هذه الحركة. ولقد قام (أسبوع المتنبي) الذي أعدته الجامعة المصرية في المكان والأزمان التي أعلناها من قبل، وكان ما سمعناه إلى اليوم من المحاضرات التي ألقيت فيه فخراً لكلية الآداب تستحق عليه التهنئة؛ وعسى أن يساعدنا التوفيق فنثبت شيئاً منها في أعدادنا المقبلة

مديرية أسوان

قرأت في عدد الرسالة 139 نقدا على بعض ما جاء في مقالي عن مديرية أسوان يدور

(1) على أن بلاد (بنت) هي في آسيا من بلاد الفينقيين. وهذا خطأ، والصواب أنها كما ذكرت في أفريقيا، وموضعها الآن المنطقة المعروفة بالصومال الفرنسي والإرترية؛ وقد بينها الأستاذ برستد على الخريطة في كتابه صفحة 102

(2) اعترض على كلمة (أثيوبيا) اعتراضاً غير وجيه، فأن أثيوبيا كلمة يقصد بها الأراضي الواقعة جنوب مصر، وهي كلمة يونانية استعملها هيرودوت، واراتستين، وبطليموس، وبينوها على خرائطهم. (انظر كتاب الأستاذ كلتي المسمى الفصل الأول وعنوانه

(3) ذكر أن تسمية الهيكل الموجود بجهة كلابشه منذ عهد رمسيس الثاني باسم بيت الولي خطأ وأن الصواب الوالي، وقولنا الأصح لأن الغرض من الولي هو القديس لاعتبارات تتعلق بتاريخ مصر القديم لا يجهلها أحد. والمهم أن يذكر الناقد النص الذي يعتمد عليه، والمرجع الذي يرجع عليه، حتى يكون على كلامه مسحة من الثقة. ذلك ما عنانا أن نرد عليه من النقد، أما ماعدا ذلك فلا قيمة له

رشوان أحمد صادق

ذكرى مأساة غرامية شهيرة

تعنى الأوساط الأدبية الفرنسية دائماً بتتبع الحوادث والذكريات الأدبية، ومن ذلك ما نوهت به بعض الصحف الأدبية أخيراً من مرور مائة عام كاملة على صدر كتاب لمؤلفه مكانة خاصة في الأدب الفرنسي. وذلك هو كتاب (اعترف طفل من أبناء العصر) ' لمؤلفه الشاعر الغنائي الفرد دي موسيه. وفي هذا الكتاب يعرض الشاعر فصلاً ساحراً محزناً معاً من حياته العنيفة المضطربة، ذلك هو قصة غرامه مع الكاتبة القصصية الشهيرة جورج ساند؛ وقد كانت هذه الكاتبة التي تضطرم شغفاً وجوى تهيم في غمر الحب بلا انقطاع، وتتقلب تباعاً بين أذرع عشاقها المتوالين؛ وكان جلهم من كتاب العصر ومفكريه؛ وكانت قبل هيامها بالشاعر خليلة لجول ساندو الكاتب، ثم هامت من بعده بالشاعر ميرميه، ولكن حبهما لم يكن سوى مأساة قصير المدى. وفي ذات يوم

من أيام أبريل سنة 1833، كانت جورج ساند تتناول طعام العشاء في حفل راق، وكان جارها فتى أنيقاً يحدثها بحرارة عن بعض قصصها؛ ولم يكن هذا الفتى الأنيق سوى الفرد دي موسيه؛ وفي نفس المساء هامت جورج ساند بالشاعر الفتى، وبث إليها جوى يضطرم؛ ولم تمض أسابيع قلائل حتى غدت صاحبته، وغدت باريس بأسرها تتحدث بهذا الغرام الجديد؛ وبعد بضعة أشهر سافر العاشقان إلى البندقية؛ ثم تسربت بعد ذلك عوامل الوهن إلى غرامهما، وانتهت قصتهما الغرامية المشجية بعد أربعة عشر شهراً في آلام ومعاناة، وأوحت هذه المأساة الغرامية إلى الشاعر موضوع كتابه الأشهر (اعترف طفل من أبناء العصر). ولم يخطئ أهل العصر في فهم ما قصد إليه الشاعر وما يعنيه بطريقة مستورة؛ ولم تحاول جورج ساند يومئذ أن ترد عليه أو تثير حول الموضوع أية مناقشة، خصوصاً وأن رواية
دي موسيه كانت على ما يظهر تصور الحقيقة كما هي، ولهذا اعتبرت يومئذ هي القول الفصل
ولكن الشاعر لما توفي بعد ذلك في سنة 1850، رأت جورج ساند أن تقول كلمتها في مأساة غرامها؛ فكتبت كتابها المسمى (هي وهو) تصحح فيه بعض الوقائع والتفاصيل، فأثار كتابها يومئذ فضيحة أدبية واجتماعية؛ ورد عليها بول دي موسيه ولد الشاعر في كتاب عنوانه (هو وهي)
ومن ذلك الحين ظهرت عشرات الكتب والقصص عن علائق العاشقين الشهيرين؛ وأشهر هذه الكتب وأقيمها هو بلا ريب كتاب شارل موراس الكاتب الكبير ومحرر جريدة (لاكسيون فرانسيز) وعنوانه (عشاق البندقية) ومع ذلك فلم يكن هو الكتاب الفصل في أمر هذه العلائق الدقيقة بين شخصيتين من أعظم شخصيات القرن التاسع عشر؛ فقد ظهرت بعد ذلك مكاتبات ووثائق لم تنشر من قبل وفيها حقائق وتفاصيل جديدة تلقي ضياء جديدا على تلك المأساة الغرامية الشهيرة
بيد أنه مما يلفت النظر أن هذه المكاتبات والوثائق الجديدة تؤيد رواية دي موسيه في مجموعها، وأن جورج ساند قد عمدت قصداً إلى تغيير بعض الحقائق والتفاصيل في كتابها (هي وهو)

مؤسس الأدب اليهودي الشعبي

تحتفل الدوائر اليهودية الأدبية بذكرى أديب يهودي كبير هو منديل سفوريم مؤسس الأدب اليهودي الشعبي وقد ولد هذا الأديب في إحدى بلاد لتوانيا منذ مائة عام كاملة في سنة 1836؛ واسمه الحقيقي هو شولم يعقوب ابراموفتش؛ ودرس الأدب والعلوم قراءة لأنه لم يظفر بتربية مدرسية منظمة؛ وكان الشعب اليهودي يعيش يومئذ في روسيا في ظل طغيان مطبق ويعاني أمر ضروب الاضطهاد والزراية والفاقة؛ وكانت قد ألفت في ذلك الوقت جمعية من الشباب اليهود المتنور تسمى (مسكليم) أعني الطلائع المثقفة وغرضها أن تعمل لإدخال الأفكار والمدنية الغربية إلى طوائف الشعب اليهودي التي ما زالت تعيش في ظل تقاليدها العتيقة؛ فانضم منديل سفوريم إليهم؛ وكان الكتاب اليهود يكتبون يومئذ إما بالروسية وإما بالعبرية، فسار منديل في أثرهم وأصدر أول كتبه بالعبرية، ولكنه لاحظ أن سواد
الشعب اليهودي يتحدث باللغة اليهودية وهي مزيج شعبي من الألمانية المحرقة وعناصر أخرى عبرية وروسية وغيرها، ورأى أن غزو أذهان هذا الشعب لا يكون إلا بمخاطبته بلغته الأصيلة؛ عندئذ فكر منديل في الكتابة باليهودية؛ وكان عملا شاقا لأن هذه اللغة لم تكن لها أصول نحوية أو لغوية، وإنما كانت لغة الحديث الطائر. ولكن منديل كان فناناً ذا مواهب ممتازة، فاستطاع أن يخرج هذه اللغة الشعبية لغة أدبية تصلح للكتابة والقراءة؛ وكتب فعلا باليهودية لأول مرة؛ ووصف للشعب اليهودي حياته المظلمة العتيقة، وذلته الخالدة، وبؤسه المطبق؛ وأخذ يبث إليه روح النهوض والتحرر، وذلك في روايات شعبية جذابة. ولم يستطع كاتب يهودي غير منديل أن يصف نقائص أمته بمثل قوته وجرأته ودقته، فقد وصف طوائف الشعب اليهودي، الأغنياء والفقراء ورجال الدين والمفكرين وصفا قويا، ولم يخف نقيصة أو مأخذا، بل كان شديد الوطأة عليهم جميعاً، لا يذلله ويستدر شفقته سوى بؤس الشعب اليهودي
ولمنديل سفوريم عدة قصص شهيرة منها (الفرس) (رحلة بنيامين) (تروا) (خاتم السعادة) وفيها يصف المجتمع اليهودي في خلال القرن التاسع عشر في مختلف

صوره؛ وفي قوة وصراحة لم تعرفا من قبل؛ ومن الغريب أنه استطاع أن يجعل من هذه اللغة اليهودية المبعثرة أداة قوية فصيحة للتعبير الحي؛ وأن يقود الطريق لجعلها لغة أدب يهودي جديد؛ وقد سار في أثره عدة من أكابر الكتاب اليهود في القرن التاسع عشر فكتبوا باليهودية، التي غدت في يومنا لغة أدب يهودي جديد وتوفي منديل سفوريم في سنة 1917 وقد أربى على الثمانين بعد أن توطدت دعائم الأدب اليهودي الجديد الذي كان أول من وضع دعامته الأولى

وداع الحرية

يجد المؤرخ والقصصي معاً مادة بديعة في مصرع يوليوس قيصر؛ فقد كان حادثاً من أنبل وأعظم حوادث التاريخ، وكان بأدواره وتفاصيله قصة ساحرة. وقد صدرت أخيراً بالإنكليزية قصة عنوانها (وداع الحرية للكاتبة الإنكليزية فيليس بنتَلي، وهي قصة تاريخية رائعة، تستعرض فيها المؤلفة حياة قيصر ومجده الباذخ ومصرعه المفجع. وتصف لنا مس بنتلي خلال قصتها من الشخصيات الرومانية الشهيرة التي عاشت حول قيصر، وصادقته أو ناهضت مجده مثل بومبي، وكانو، وكراسوس، ثم بروتوس قاتل قيصر. ولم تجد الكاتبة أمامها كبير مجال للتوغل في ميدان الخيال، ذلك أنها إنما تعرض عصرا بحوادثه وأطواره، وتجد مادة غزيرة في التفاصيل التاريخية الكثيرة التي تقدمها إلينا الروايات المعاصرة والتواريخ القديمة. بيد أنها تجد أمامها مادة للحديث عن الأتوقراطية، والديموقراطية؛ وهي تحمل ما استطاعت على الأوتوقراطية وجميع مظاهرها وتمجد الحرية والديموقراطية؛ على أنها لا تجد ما تقوله في مديح تلك الديموقراطية الرومانية التي مات في سبيلها قيصر واتخذ امتهانها ذريعة لاغتياله. ونحن نذكر أن بروتوس وزملاءه المؤتمرين بحياة قيصر كانوا يعملون باسم الديمقراطية، ويتخذون من بعض مظاهر قيصر وتصرفاته حجة عليه بأنه يجنح إلى الإمبراطورية والحكم المطلق. وقصة مس بنتلي حسنة السبك من هذه الناحية، بيد أنه يمكن من جهة أخرى أن يقال إنها لم تقدم إلينا جديداً في الاستعراض أو الوصف، لأنها إنما تقتصر على الشخصيات والحوادث التاريخية الجافة. وهذا عيب نلمسه أحياناً في كثير من القصص التاريخية. ولكن مس بنتلي تقدم إلينا على أي حال قصة ممتعة تسحر بروعة أسلوبها

العدد 142 - بتاريخ: 23 - 03 - 1936

إلى أخي الزيات

للأستاذ أحمد أمين

سعيت أمس لعزائك، في (رجائي) و (رجائك)، فرأيتك واجماً ساهماً، مولهاً مدلهاً، فانعقد لساني، وتخلف ذهني، وفاض دمعي

وكيف أستطيع عزاءك وما استطعت أن أعزي نفسي؟ أو كيف أستطيع أن أخفف ما بك وما استطعت أن أخفف حزني؟

رأيت بك كمداً باطناً، وحزناً مكتمناً، فعلمت أنك تتجرع غصص الهم، وتختزن برحاء الكرب، فتمنيت أن تخفف عنك بصرخة، وتنفس عن نفسك بدمعة، ولكن عز الصبر، وعز الدمع، فما هي إلا زفرات تذيب لفائف القلوب وتنفطر لها المرائر

واو رحمتاه لك! لقد كان (رجاء) قبلة رجائك، ومعقد آمالك، وحديث أحلامك، وملء سمعك وبصرك، تشوفته حياتك، وترقبته مطلعَ شبابك، حتى جاد به الزمان البخيل، فربطت اسبابك بأسبابه، وتعلقت بأهدابه، فلما شمت مخايله، ورقبت منه النجح، عدا عليه الدهر الذي لا يرعى ميثاقاً، ولا يثبت على عهد، فأخلف ظنك، ونقض أملك، فإذا الدنيا أضغاث أحلام، ووساوس أطماع

ولكن يا أخي - ما الجزع مما لابد منه، وما الهلع مما قدر، ومثلك من يعرف مقدار الحياة وهوانها، أفليست إلا مرسحاً تمثل عليه أدوار مختلفة، مرة مهزلة، ومرة مأساة، ونحن في حين ممثلون، وفي حين ناظرون. وليس لنا أن نبالغ في الألم، ونغلو في الجزع، فقد كان يكون لذلك وجه من الحق لو ذهب من ذهب أبداً، وعشنا بعده أبداً، وإنما الأمر دور يعقب دوراً، ولا حق منا إثر سابق، وإنا لله وإنا إليه راجعون

وأية سعادة نجدها في هذه الحياة حتى نحزن على الراحل، ونبكي على الميت، ونود أن لو بقى ليستمتع بها، ويتذوق طيباتها، إنما هي سلسلة عناء، وضروب شقاء، تنوعت

ألوانها، واتحدت حقيقتها، ولو أنصفنا لغبطنا من مات، وأشفقنا على من بقى، ومن مات في صباه فقد اختصر الحياة واختصر همومها وأحزانها، ووفر على نفسه عبئاً ثقيلاً ينتهي مختصره بما ينتهي مطوله، وخير للزهرة أن تذهب وهي ناضرة تعجب الناس، من أن تذهب وهي ذابلة يعافها الناس

فخذ الحياة كما هي، ليل ينقضي في أثر ليل، وقوم في أثر قوم، وحادث يستذرف الدمع يعقبه حادث يخفف الهم، وقل كما قالت الخنساء:

فلولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي

وما يبكون مثل أخي ولكن ... أعزي النفس عنه بالتأسي

وليس الوفاء للميت بالإفراط في الحزن، والإمعان في البكاء، إنما الوفاء بمقابلة دواعي الحزن بدواعي الصبر، وليست الحكمة في إضعاف الحي من أجل الميت، إنما هي في أحياء الحي من أجل الحي والميت

وقد أخطأ الناس فغلوا في استفظاع الموت والاحتفاء به، وهولوا في الاستكثار من مظاهره، ولو عقلوا لقابلوه كما يقابل كل قانون طبعي في هذا العالم، زهرة تنضر وتذبل، وشمس تطلع وتغرب، ونجم يتألق ويأفل، وسماء تصحو وتغيم - ولو عقلوا أيضاً لرددوا هذا المعنى في نفوسهم، واطمأنت له عقولهم؛ فإذا كان فهو ما تخيلوه، وإذا حدث فهو ما توقعوه، وإذن لخف الألم وانقطع الجزع

أي أخي - ليكن ما أراده الله، ولنلوّن حياتنا بلون من ألوان التصوف، رضاء بالقدر، واستخفاف بالعالم وما فيه، وطمأنينة إلى قوانينه، وإيمان بعظمة الله وسلطانه، والتجاء إليه أن يتولاك برحمته ويظلك بإحسانه

أي أخي - لقد أصبحت منسرق القوة، ضعيف البنية، مرهف الحس، رقيق الصحة - ولئن كان الانتحار جريمة لا تغتفر، ويأساً لا يرضاه الله، فليس هو - فحسب - في إطلاق عيار ناري، أو إلقاء النفس في اليم، أو ما عهدت من ضروب إزهاق الروح، ولكن من ضروبه أيضاً الاستسلام للحزن والتسمم بالغم، والاسترسال في أسباب الكرب، فهو انتحار بطيء ولكنه شر من الانتحار العاجل أعيذك بالله منه، وأربأ بنفسك عنه

فهوّن على نفسك، وإن خاب رجاؤك في (رجاء) فحقق الله أملك في (علاء) وعش له ولنفسك وللناس

أحسن الله عزاءك، وأجمل صبرك، وأجزل أجرك

أحمد أمين

دُعابةُ إبليس

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

أما إني سأقصُّ هذه الحكايةَ كما اتفقتْ، لا أزيِّنها بخيال، ولا أتَزَيَّدُ فيها بخبر، ولا أولِّد لها معنى؛ فإنما هي حكايةُ خبث الخبيث فنها حذقُه ودهاؤه، ورقتها غلظته وشره، ومعانيها بلاؤه ومحنته؛ وأعوذ بالله من الشيطان الرجيم واللهُ المستعان

لما فكرتُ في وضع مقالة (إبليس) من أحاديث (ابن مسكين) وأدرتُ رأيي في نهجها وحدودها ومعانيها، جعل فكري يتقطع في ذلك، يذهب ويجيء كأن بيني وبينه منازعة، أو كأن في نفسي شيئاً يثنيني ويقطعني عن العزم؛ وخيِّل إليّ حينئذ أن (إبليس) هذا منفعةٌ من المنافع. . . وأنه هو قانون الطبيعة الذي نصُّ مادته الأولى: ما أعجبك فهو لك، ونصُّ مادته الأخيرة: ما احتجتَ إليه فثمنُه أن تقدرَ على أخذه . . .

وهجَس في نفسي هاجسٌ أن (إبليس) قائم في لفظ الحرية كما هو قائم في لفظ الإثم، وأنه إن يكن في قلوب الفُساق فهو أيضاً في أدمغة الفلاسفة؛ ولئن كان في سقوط أهل الرذيلة إلى الرذيلة، فهو كذلك في سموّ أهل الفن إلى الفن. . . قال الهاجس: وإن (إبليس) أيضاً هو صاحب الفضيلة العملية في هذا العصر المادي، فهو من ثمّ حقيقٌ أن يلقّبوه صاحب الفضيلة . . .

ولكني لم أحفل بهذه الوساوس ولم أعُجْ على شيء منها، واستعنت الله وأمضيتُ نيتي على الكتابة، وأخذتُ أقلِّب الموضوع، وأنبّه فكري له، وأستشرفُ لما يؤدِّي إليه النظر، وأتطلَّع لما يجيء به الخاطر، وألتمس ما أبني عليه الكلام كما هي عادتي؛ فلم يقع لي شيء البتة كأنما ذهب أولُ ابتداءِ الموضوع فلا أولَ له ولا سبيل إلى اقتحامه، وكأنه من وراء العلم فلا يُبلغ إليه، وكأنه من التعذُّر كمحاولة تصوير حماقة الحياة كلها في

كلمة
ومن عادتي في كتابة هذه الفصول التي تنشرها (الرسالة) أن أدع الفصلَ منها تقلِّبه الخواطر في ذهني أيام الثلاثاء والأربعاء والخميس، وأترك أمره للقوة التي في نفسي فتتولد المعاني من كل ما أرى وما أقرأ وتنثال من ههنا وههنا، ويكون الكلام كأنه شيء حيٌّ أريدَ له الوجودُ فوُجد
ثم أكتب نهار الجمعة ومن ورائه ليلُ السبت وليلُ الأحد كالمدد من وراء الجيش إذا نالتني
فترة أو كنت على سفر أو قطعني عن الكتابة شيء مما يعرض
وفي أسبوع (إبليس) لعنه الله مرت الأيام الثلاثة وفيها ثلاثة ألوان: ضجَرٌ لا رَوْحَ فيه، وكسلٌ لا نشاط معه، واضطراب لا مِساك له. وأطلتُ التفكير يوم الخميس فكانت تعتريني خواطر مضحكة، فيعرض لي مرة أن أصور إبليس امرأة ليكون إبليس الجميل. . . وتارة أتوهم أن إبليس يريد أن يكون شيخاً كبعض رجال الدين الذين لا تزال تطلع على خائنة منهم، ليقال إبليس التقي المصلي. . . وحينا أظن أنه يريد أن يكون كاتباً مؤلفاً شهيراً ليقال إبليس المفكر المصلح. . . وخطر لي أخيراً أنه يريد أن يكون حاكماً ملحداً شيوعياً فاجراً ليكون إبليس التام لا إبليس الناقص. . .
ولما ذهبت الأيام الثلاثةُ باطلاً خيّل إليّ أن إبليس أخزاه الله يسألني عن المقالة: إلى أي شيء انقلبتْ. . .؟ فشقَّ ذلك عليّ واغتممتُ به، غير أني اطمأننت إلى يوم الجمعة وأن وراءه ليلتين. وكانت قد غربت شمسُ الخميس فقلت فلأخرجْ لأتفرَّج مما بي، وعسى أن أجمع نفسي للتفكير إذا جلستُ في النديّ، ولعله يقع ما أستوحيه أو ينفتح لي بابٌ في القراءة
وخرجتُ فلم أجاوز الدار حتى ابتدرني من هبط عليه الخبر من القاهرة أن نسيباً لنا من العظماء توفي أخوه اليوم. فقلت: لا حول ولا قوة إلا بالله؛ ضاع يوم الجمعة إذ لابد من السفر لتشييع الجنازة وحضور المأتم، ثم قلت: لعل في هذا السفر استجماماً ونشاطا فأستدركَ الأسبوع كلّه في يومين، وإنما الاستكثارُ بالقوة لا بالزمن، ولا يدَ لإبليس في الموت والحياة، فليس إلا اطّراحُه وقلةُ المبالاة به، وإنما هي خطرات من وساوسه
وأصبحتُ في القاهرة ومشيت في الجنازة قبل الظهر مسيرة ساعة كاملة؛ وكانت الشمس ساطعةً تتلألأ وأنا مُثقلٌ بثياب الشتاء، وكنت أتوقع أن يكون اليوم من أيام الريح المجنونة. فلما انتهينا إلى الصحراء هبّت الريحُ هبوبا ليناً ثم زَفَّتْ فكانت إلى الشدة ما هي، ولكنها ماضية تَسْفي الرملَ في الأعين فيأخذ في أجفاني أكالٌ وتهييج، وليس معي شيء أتَّقيها به. غير أني شغلت فكري برؤية المقابر وجعلتها في نفسي كالمقالة المكتوبة سطراً وراء سطر؛ وقلت: ههنا الحقيقة في أول تفسيرها، وغير المفهوم في الحياةُ يفهم هنا
ثم رجعت مُنَدَّى الجسم بالعرق وعليّ نَضْحٌ منه، وكان القميص من الصوف، وبصدري أثر من النزلة الشُّعبية؛ وإذا تندَّى الصوف وجب نزعه وإلا فهي العلةُ ما منها بد
ثم لم تكن غير ساعة انخرقت الريح وجعلت تعصف وبَرَدَ الجو فأيقنت أنه الزكام، وقلت في نفسي: هذا بابٌ على حِدَة، والمقالة ذاهبة لا محالة فيستخلِّف الذهن ويتبلَّد؛ والشيطانُ كريم في الشر يعطي من غير أن يُسأل. . . .
وثقل ذلك عليّ فكان الغم به علةً جديدة، بيد أني لم أزل أرجو الفرصة في أحد اليومين السبت والأحد. وقلت: إن من البلاء الفكرَ في البلاء، ولعل من السلامة الثقة بالسلامة؛ فإذا نبهتُ العزيمة رجوتُ أن يتغلغل أثرها في البدن كله فيكون علاجاً في الدم يحدث به النشاط ويُرهَفُ منه الطبع وتجمُّ عليه النفس. وفي قوة العصب كهربائية لها عملها في الجسم إذا أحسن المرءُ بعثَها في نفسه وأحكم إفاضتها وتصريفَها على طريقة رياضية؛ ولهي الدواء حين يعجز الدواء وهي القوة حين تخذل القوة
فاعتزمتُ وصمَّمتُ واحتلتُ على الإرادة وتكثرتُ من أسباب الثقة وترصّدتُ لها السوانح العقلية التي تسنح في النفس وقلت لإبليس: اجهد جهدك فما تذهب مذهباً إلا كان لي مذهب؛ ولكن اللعين أخطر في ذهني قول القائل يسخر بذلك الكاتب البغدادي لو قيل: كم خمسٌ وخمسٌ لاغتدى ... يوماً وليلتَه يَعُدُّ ويَحْسُبُ

ويقول: مُعْضِلةٌ عجيبٌ أمرُها ... ولئن فهمتُ لها، لأمْرِيَ أعجبُ
خمسٌ وخمسٌ ستةٌ أو سبعة ... قولان قالهما الخليلُ وثعلبُ
ثم أجمعتُ الرجوعَ من يومي إلى (طنطا) لأتقي البردَ بعلاجه إن نالني أثره، وكان عليَّ وقتٌ إلى أن يقوم القطار، فذهبتُ فقضيت واجباً من زيارة بعض الأقارب في ضاحية (الجيزة)، ثم ركبت الترام الذي أعلم أنه ذاهب إلى محطة سكة الحديد
وجلست أفكر في إبليس ومقالته، والترام ينبعث في طريقه نحو ثلث الساعة، حتى بلغ الموضوع الذي ينعرج منه إلى المحطة، وهو بحيال (جمعية الإسعاف)، حيث تنشعب طرق أخرى؛ وكنت منصرفاً إلى التفكير مستغرقاً فيه، طائف النظرات على الجو، فما راعني إلا اختلافُ منظر الطريق؛ وأنتبه فإذا الترام يَمْرُق مروق السهم في تلك السبيل الصاعدة إلى (الجيزة). . . . من حيث جئت
فلعنت الشيطان وتلبثتُ حتى وقف هذا الترام فغادرته ورجعت مهرولا إلى ذلك المنشعب،
فصادفت تراماً آخر، فوثبت إليه كأني أُحمل إليه حملا، ودفعت الأجرة، وانطلق فإذا هو منصبٌّ في تلك الطريق عينها الذاهبة إلى الجيزة من حيث جئت. . . ولا أستطيع الانحدار منه وهو منطلق، فتسخَّطت ولعنت الشيطان مرة أخرى، ورأيت أن عبئَه قد ترادَفَ، فلما سكن الترام رجعت مهرولا إلى ذلك المنشعب ولم يبق من الوقت غير قليل
وأنظرُ ثمَّ فإذا ترامٌ وراء ترام، وإذا قد وقعت حادثة لإحدى السيارات واجتمع الناس وسُدَّت الطريق. . . . فجعلت أغلي من الغيظ، ولعنت هذا الدعابة الخبيث، واذكرني اللعين نادرة الأعرابي الذي عضه ثعلب، فأتى راقياً، فقال له الراقي: ما عضك؟ فاستحى أن يقول ثعلب، وقال: كلب، فلما ابتدأ الرجل برقية الكلب قال له الأعرابي: واخلط بها شيئاً من رقية الثعالب. . . . .
ثم إني لم أر بدا من بلوغ المحطة على قدمي لأتمّ على عزيمتي في مراغمة اللعين، فأسرعت أطوي الأرض وكأنما أخوض في أحشائه، وكان بصدري التهابٌ فهاج بي، غير أني تجلدت واتسعت لاحتماله وبلغت حيث أردت
ثم ذهبت ألتمس في القطار عربة خاصة أعرفها، كانت من عربات الدرجة الأولى فجعلوها في الثانية يرفهون بها بعض الترفيه على طائفة من المسافرين؛ وأصبت فيها مكاناً خالياً كأنما كان مهيأ لي بخاصة. . . فانحططتُ فيه إلى جانب رجل أوربي أحسبه ألمانياً لتفاوت خلقه وعنجهيته؛ وجلست أنفس عن صدري ثم أقبلت أسخر من إبليس ونكايته، وجعلت أتعجب مما أتفق من هذا التدبير
وتحرك القطار وانبعثت وكان الأوربي إلى جانبي مما يلي النافذة وقد تركها مفتوحة فأحسست الهواء ينصب منها كالماء البارد وأنا متند بالعرق؛ وترقبت أن يغلقها الرجل فلم يفعل، فصابرته قليلاً فإذا هو ساكن مطمئن يتروح بالهواء وكأنما يشربه، وتأملته فإذا شيخٌ في حدود الستين أو فوقها غير أنه على بقية من قوة مصارع في اكتناز عضله واجتماع قوته ووثاقة تركيبه، فأيقنت أن الهواء من حاجته، وهممت أن أنبهه أو أقوم أنا فأغلق النافذة، ولو شئت أن أفعل ذلك فعلت، غير أن الشيطان أخزاه الله وسوس لي أن هذا الرجل أجنبي غربي وأنت مصري شرقي فلا يحسن بك أن تُعلمه وتعلم الحاضرين أمامكما أنك أنت الأضعف على حين أنه هو الأسن، وكيف لا تقوم لما يقوم له وقد كنت تباكر
الماء البارد في صميم الشتاء، وكنت لا تلبس في أشد أيام البرد غير ثياب الصيف، وكنت تحمل كذا وكذا ثقلاً وتعاني كذا وكذا من ضروب القوة، وكنت تلوي بيديك عود الحديد وكنت وكنت
فتذممت والله مما خطر لي؛ وأنفتُ أن أنبه الرجل، ورأيت عملي ضعفاً وفسولة، ولم أعبأ بالهواء ولا بالعرق ولا بالنزلة الشعبية ولا بالزكام، وتركت الأوربي وشأنه، وأقبلت على كتاب كان في يدي وتناسيت أن هذه النافذة جهةٌ من تدبير إبليس؛ وكان القطار مزدحماً بالراجعين من المعرض الزراعي الصناعي وبعض الناس وقوف فلا مطمع في مكان آخر. . .
ولبثت ساعة ونصف ساعة في تيار من هواء فبراير ينصب انصباباً ويعصف عصفاً وكأني أسبح منه في نهر تحت ظلمة الليل الماطر، والناس معجبون بي وبالأوربي،

وهذا الأوربي معجب بي أكثر منهم وقد رأى مكاني وعرف موضعي؛ وكان إلى يميني مجلس بقى خالياً ولم يقدم أحد على أن يجلس فيه خوفاً من الهواء ومن الرجل الأوربي. . .

ثم تراءيتُ أنوار محطة (طنطا) ولم يبق من هذه المحنة غير دقيقتين؛ فوالله الذي لا يحلف بغير اسمه عز وجل، لقد كان إبليس رقيعاً جلفاً بارداً ثقيل المزاج إذ لم أكد أتهيأ للقيام حتى رأيت الرجل الأوربي قد مدَّ يده فأغلق النافذة. . .

ورجعت إلى داري وأنا أقول: ثم ماذا يا إبليس؛ ثم ماذا أيها الدُّعبب؟ وحاولت أن أكتب أو أقرأ فلم أتحرك لشيء من ذلك، وكانت الساعة العاشرة ليلاً فصليت وأويتُ إلى مضجعي

ثم أصبحت يوم السبت فإذا كتاب من الأستاذ صاحب (الرسالة) أنه سيطبع عددين معاً فيريد لهما مقالتين إذ تغلق المطبعة أيام عيد الأضحى، وكان أملي في المقالة الواحدة مخذولاً مما قاسيت فكيف لي باثنتين؟

واختلط في نفسي همٌّ بهمّ وما يفسد عليَّ أمري شيء مثلُ الضيق فإذا تضايقت كنت غير من كنت؛ ولكني تيقظت وتنبهت وأملت العافية مما أجده من ثقلة البرد وضعفته، وأحدثت طمعاً في النشاط إذا جلست للكتابة في الليل فإني بالنهار أعمل للحكومة

فلما كان الليل لم أجد أمري على ما أحب، وجلست متفترا معتلاً وثقل رأسي من ضربة النافذة وتسلط علي ظن المرض والعجز عن الكتابة، وانتقض الأمر كله فرأيتني أشقُّ على نفسي بلا طائل، فكان من صواب التدبير عندي أن استجمَّ بالنوم ثم أنهض في السحر للكتابة. فأوصيت من يوقضني وحررنا الساعة المنبهة على تمام الثانية بعد منتصف الليل

وأحسست أني جائع وأن معدتي مشحوذة ونسيت كل ما أعرف من الطب؛ وجاءوني بشواء وحلوى وما بينهما، فحططتُ فيه ولففت الآخر بالأول، ثم قمت أريد النوم فإذا الطعام كان أشد علي من نافذة القطار، وكان الذي في الفكر من المقالة أثقل من الذي في المعدة من الطعام، وساء الهضم في الدماغ والبطن جميعاً

وجعلت أتناوم وأرخي أعضائي وأتوهم الكرى وأستدنيه بكل ما أعرف من وسيلة ثم لا أزداد على ذلك إلا أرقاً، وتمرد الفكر وأحسست رأسي يكاد ينفجر وصرت أتململ ولا أتقارُّ، وتوهمت أن لو كان لي عقلان ما استطعت كتابة المقالة عن إبليس لعنه الله.

واذكرني الخبيث نادرة مضحكة: أن رجلا كان يركب حماراً ضعيفاً وكان يبعثه فلا ينبعث، فجعل يضربه فقيل له: ارفق به. فقال إذا لم يقدر يمشي فَلِم صار حماراً. . . .؟

وقذفت بنفسي من الفراش ونظرت في الساعة فإذا هي موشكة أن تبلغ الثانية ولم أحس الرقاد بعد، فأسرعت إلى المنبهة وحررتها على تمام الساعة الرابعة صباحا؛ وأيقنت أن الشيطان يرهقني طغياناً وكيدً فطفقت ألعنه وما أحسبه إلا قد رأى اللعن مدحاً فهو يستزيدني. . .

ثم رجعت أحاول النوم فما كان هذا الليل إلا شيئاً واحداً أوله آخره إلى أن طلع الفجر وجاء يوم الأحد وهو يوم عطلة الأوربيون فما أشد عجبي إذ تركني فيه إبليس كأنهم لا يَدَعون له وقتاً في هذا اليوم. . . . .

والآن يزيَّن لي الخبيث أن أختم هذه المقالة بـ. . . . بـ. . . .

ولكن لا. لا.

(طنطا)

مصطفى صادق الرافعي

أوربا على المنحدر

من فرساي إلى لوكارنو - 1

مسألة الرين وسلام أوربا

بقلم باحث دبلوماسي كبير

وقع في السابع من مارس الجاري حدث عظيم في السياسة الدولية لازالت أصداؤه تدوي في أرجاء أوربا، ولازالت آثاره ونتائجه موضع البحث الخطير في دوائر السياسة العليا. ذلك هو إقدام الحكومة الألمانية على إلغاء ميثاق لوكارنو الخاص بتأمين السلام

على ضفاف الرين، وإقدامها في نفس الوقت على إلغاء آخر التعهدات والقيود العسكرية التي فرضتها عليها معاهدة الصلح، ووضع فرنسا وأوربا أمام الأمر الواقع باحتلال منطقة الرين الشرقية التي قضت معاهدة الصلح بتجريدها من السلاح ومن كل وسائل الدفاع العسكرية

ولم يكن عمل ألمانيا مفاجأة مطلقة، فقد كان معروفاً منذ أسابيع أنها تفكر في انتهاج مثل هذه الخطة، وأنها تترقب الفرصة لتنفيذها؛ ومنذ أسابيع تتحدث الصحافة الألمانية عن منطقة الرين ووجوب تسليحها استكمالاً لحقوق السيادة الألمانية وصوناً لشرف ألمانيا وكرامتها، ومنذ أسابيع تتحدث الصحافة الفرنسية عن نيات ألمانيا، وما يجب على فرنسا أن تتخذه إذا أقدمت ألمانيا على تنفيذها

وقد نفذت ألمانيا خطتها، واحتلت منطقة الرين الحرام فصائل من الريخسفر (الجيش الألماني) في نفس الوقت الذي ألقى فيه الهر هتلر من منبر الريخستاج الذي عقد خصيصاً لهذا الغرض خطابه القوي الجامع عن موقف ألمانيا تجاه السياسة الأوربية، وتجاه فرنسا، وأعلن فيه إنكار ألمانيا لنصوص ميثاق لوكارنو، وإعادة حقوق السيادة الألمانية كاملة على منطقة الرين

ويجب لكي نفهم حقيقة هذا الحدث السياسي والعسكري الخطير، وحقيقة البواعث التي حملت ألمانيا على انتهاجه، ومدى تأثيره في السياسة الأوربية، أن نستعرض أولا نصوص معاهدة الصلح (معاهدة فرساي) الخاصة بمنطقة الرين، ثم نصوص ميثاق لوكارنو الخاص بتأمين السلام على ضفاف الرين، وأن نتتبع تطورات السياسة الأوربية الأخيرة التي

مهدت إلى هذا الطور الخطير الحاسم

معاهدة فرساي ومنطقة الرين

كان ضمن الشروط والأغلال الفادحة التي فرضتها معاهدة الصلح على ألمانيا أن تجرد مناطق الرين الألمانية من سلاحها سواء ما كان منها غرب هذا النهر ملاصقاً للحدود الفرنسية والبلجيكية أو ما كان منها شرقي هذا النهر على بعد خمسين كيلو مترا داخل ألمانيا ذاتها. وقد أدمج تجريد منطقة الرين الألمانية من السلاح في المواد 42 و43 و 44 من معاهدة فرساي، وهذا نصها:

يحضر على ألمانيا أن تستبقي أو تنشئ تحصينات سواء في الضفة اليسرى من الرين، أو في الضفة اليمنى غرباً على مدى خط طوله خمسون ميلا شرقي النهر (42)

يحظر أيضاً أن يستبقى أو يحشد في المنطقة السابقة قوات مسلحة سواء بصورة دائمة أو بصورة مؤقتة، وكذلك يحظر إجراء أية تمرينات عسكرية مهما كان نوعها، أو الاحتفاظ بأية إجراءات مادية لتسهيل التعبئة (43)

إذا خالفت ألمانيا بأي صورة ما نصوص المادتين 42 و43، فإنها تعتبر أنها قد ارتكبت عملا عدائيا ضد الدول الموقعة على هذه المعاهدة، وأنها تحاول تعكير السلام العالمي (44)

فهذه المواد الثلاث تجعل من ولايات الرين الألمانية منطقة محرمة من الوجهة العسكرية على ألمانيا؛ والغرض من وضعها تحت هذا النظام واضح، وهو أن تبقي أبواب ألمانيا الغربية مفتوحة أمام الجيوش الفرنسية والبلجيكية المرابطة على الحدود بحيث تستطيع في حالة وقوع حرب أو أعمال عدائية أن تقتحم الأراضي الألمانية في الحال قبل أن تستطيع الجيوش الألمانية تخطي المنطقة الحرام ومواجهة الغزاة

وكان هذا الشرط الفادح إلى جانب تجريد ألمانيا من السلاح وإنزال جيشها إلى مائة ألف، وتقييدها بأشد القيود فيما يتعلق بالمنشآت البحرية والجوية وصنع الذخائر، أشد ما يحز في نفس ألمانيا ويصدم عزتها كدولة عظمى لها ماض عسكري مجيد بين دول القارة العظمى، ولكن ألمانيا استطاعت بعد كفاح طويل شاق أن تحطم نصوص معاهدة فرساي وأن تتحرر منها تباعا؛ وكان آخر ظفر لها في هذا الميدان في شهر مارس من العام الماضي حينما أعلنت على لسان زعيمها هير هتلر بطلان النصوص العسكرية في معاهدة فرساي وتقرير

حريتها المطلقة في اتخاذ أي إجراءات تراها للدفاع عن نفسها، وتقرير الخدمة العسكرية الإجبارية؛ وذلك ردا على ما قررته فرنسا يومئذ من إطالة الخدمة العسكرية؛ ولم يكن باقياً من القيود العسكرية التي فرضت على ألمانيا سوى تجريد

منطقة الرين وتحريمها كما تقدم، وكان هذا النظام التي رتبته معاهدة الصلح قد تأيد بعهد جديد عقد بين ألمانيا وأعدائها السابقين لتأمين السلام على ضفاف الرين، ونعني به ميثاق لوكارنو؛ ولكن ألمانيا رأت أخيرا في عقد الميثاق الفرنسي الروسي الجديد ما يحملها على اعتبار ميثاق لوكارنو باطلا منقوضاً؛ ومن ثم فقد أعلنت على لسان زعيمها في السابع من الشهر الجاري بطلان ميثاق لوكارنو، وبطلان نصوص معاهدة الصلح الخاصة بتحريم منطقة الرين، التي تحتلها الآن قوات عظيمة من الريخسفر (الجيش الألماني) وبذلك أتمت ألمانيا تحطيم آخر الأغلال العسكرية التي فرضت عليها في فرساي

ميثاق لوكارنو

وهكذا نرى أهمية الصلة المباشرة بين تجريد منطقة الرين وبين ميثاق لوكارنو؛ فميثاق لوكارنو يؤيد النظام الذي قررته معاهدة الصلح لمنطقة الرين. وقد عقد ميثاق لوكارنو في سنة 1925؛ وكانت ألمانيا في الواقع أول من سعى إلى عقده. ذلك أن السياسة الألمانية كانت تقوم في ذلك الحين على فكرة التوفيق والتفاهم والتعاون؛ وكان عميدها يومئذ الدكتور شتريزمان يرى أن ألمانيا تكسب بالتفاهم مع فرنسا أكثر مما تكسب بالخصومة والمقاومة، وعرضت ألمانيا يومئذ أن تعقد مواثيق بتأمين السلامة المتبادلة وعدم الاعتداء والتحكيم؛ وعقد مؤتمر لوكارنو على أثر ذلك وشهده ممثلو الدول ذات الشأن وفي مقدمتها ألمانيا وفرنسا وبريطانيا العظمى، وأسفر المؤتمر عن عقد ميثاق بالضمان المتبادل بين ألمانيا وفرنسا وبلجيكا وبريطانيا العظمى وإيطاليا، وعن اتفاقات بالتحكيم بين ألمانيا وبلجيكا وألمانيا وفرنسا، وألمانيا وبولونيا، وألمانيا وتشيكوسلوفاكيا. وكانت فكرة ألمانيا ترمي إلى قصر الميثاق على منطقة الرين، أعني حدود ألمانيا الغربية، ولكن فرنسا أصرت على أن يشمل الضمان الحدود الشرقية، وأن يسمح لفرنسا بمعاونة بولونيا في حالة خرق معاهدة التحكيم الألمانية البولونية؛ وأصرت إنكلترا من جانبها على أن يقصر تعهدها بالضمان على منطقة الرين.

وكان أهم نتائج مؤتمر لوكارنو بالطبع هو ميثاق السلامة الشهير الذي سمي بهذا الاسم، والذي عقد في 16 أكتوبر سنة 1925

وقد أدمج هذا الميثاق الشهير في الملحق (ا) من معاهدات لوكارنو، متضمناً لخمس مواد؛ ونص في ديباجته على أن الدول الموقعة عليه وهي ألمانيا، وبلجيكا، وفرنسا، وبريطانيا العظمى، وإيطاليا تقوم بعقد هذا الميثاق سعياً إلى تحقيق رغبة الشعوب التي عانت ويلات الحرب الكبرى في السلامة والحماية

وتنص المادة الأولى من الميثاق على أن هذه الدول المتعاقدة تضمن ضماناً مشتركا جامعاً بقاء الحدود والأوضاع الأرضية القائمة بين ألمانيا وبلجيكا، وبين ألمانيا وفرنسا، وعدم انتهاك هذه الحدود والأوضاع التي قررتها معاهدة الصلح المعقودة في 28 يونية سنة 1919، وكذلك تضمن مراعاة نص المادتين 42 و43 من المعاهدة المذكورة وهما الخاصتان بالمنطقة المجردة

وتنص المادة الثانية على أن ألمانيا وبلجيكا، وكذلك ألمانيا وفرنسا تتعهد كل منهما إزاء الأخرى ألا تعتدي عليها بأي حال أو تغزوها أو تلجأ إلى محاربتها مع استثناء الأحوال الآتية: (1) استعمال حق الدفاع الشرعي أعني مقاومة انتهاك العهود المشار إليها أو انتهاك نص المادتين 42 و43 من معاهدة الصلح إذا اتخذ هذا الانتهاك صفة عمل أو اعتداء لا مبرر له، واقتضى حشد القوات المسلحة في المنطقة المجرد اتخاذ الإجراءات السريعة (2) اتخاذ الإجراءات التي تنص عليها المادة 16 من عهد عصبة الأمم (وهي الخاصة بتوقيع العقوبات الإجماعية على الدولة المعتدية) (3) العمل تنفيذاً لقرار تتخذه الجمعية العمومية للعصبة أو مجلسها طبقاً لنص المادة 15 فقرة 7 من ميثاق العصبة (وهي الخاصة بإجراءات التوفيق والتسوية عند وقوع الخلاف)

وتنص المادة الثالثة على أنه بناء على التعهد المدون في المادة الثانية تتعهد ألمانيا وبلجيكا، وألمانيا وفرنسا، بأن تعمل كل منهما على تسوية أي خلاف يقع بينهما مهما كان نوعه بالوسائل السلمية وطبقاً للإجراءات المبينة بعد، إذا لم يمكن تسويته بالوسائل الدبلوماسية المعتادة وأن كل خلاف يقع بين الفريقين خاصاً بحقوقهما المتبادلة يعرض للتحكيم القضائي ويتعهد الفريقان بالخضوع لقراراته؛ وتعرض

المسائل الأخرى على لجنة للمصالحة، فإذا لم يقبل الطرفان حكمها أحيلت المسألة على مجلس عصبة الأمم ويتبع المجلس في شأنها

نص المادة 15 من ميثاق العصبة

وتنص المادة الرابعة على أنه إذا ادعى أحد المتعاقدين بأنه وقع انتهاك لنص المادة الثانية من هذه المعاهدة أو نص المادتين 42 و43 من معاهدة فرساي، فأنه يعرض الأمر على مجلس العصبة؛ وأنه إذا اقتنع المجلس بوقوع هذا الانتهاك فأنه يدعو الدول الموقعة على هذه المعاهدة حالاً، وهي تتفق فيما بينها بالإجماع على معاونة الدولة التي وقعت ضدها المخالفة؛ وأنه إذا وقع انتهاك للمادة الثانية من هذه المعاهدة أو المادتين 42 و43 من معاهدة الصلح، فإن باقي الدول الموقعة تتعهد بمعاونة الدولة التي وقع ضدها الانتهاك حالما يثبت أن الاعتداء وقع دون مبرر، سواء كان ذلك بعبور الحدود، أو وقوع الأعمال العدائية أو حشد القوات المسلحة في المنطقة المجردة؛ هذا ويصدر مجلس العصبة قراراته في الموضوع الذي يرفع إليه طبقاً للفقرة الأولى، وتتعهد الدول الموقعة أن تتبع توصياته بشرط أن يوافق عليها بالإجماع من جميع الأعضاء ماعدا ممثلي الفريق الذي ارتكب الاعتداء

وتنص المادة الخامسة والأخيرة على أن الدول الموقعة تضمن تنفيذ نصوص المادة الثالثة من هذه المعاهدة. . . الخ

هذه خلاصة وافية لميثاق لوكارنو؛ ونلاحظ أن الميثاق يرمي قبل كل شيء إلى تأمين السلام بين فرنسا وألمانيا عن طريق تأمين سلامة الحدود الألمانية الفرنسية، وأنه يؤيد معاهدة الصلح بقوة فيما أوردته خاصاً بتجريد منطقة الرين من وسائل الدفاع، وأنه ينوه بصفة خاصة بالأهمية التي تعلقها فرنسا على استبقاء هذه المنطقة بحالتها التي قررتها معاهدة الصلح؛ ونلاحظ من جهة أخرى أهمية الميثاق فيما يتعلق بتسليم ألمانيا نهائياً بالأوضاع والحدود التي قررتها معاهدة الصلح على ضفاف الرين، وفيما ينطوي عليه ذلك من نبذها نهائياً فكرة المطالبة بتعديل حدودها الغربية واستعادة ولايتي الالزاس واللورين

ونستطيع أيضاً أن نقدر أهمية النتائج الخطيرة التي تترتب اليوم على إنكار ألمانيا لنصوص معاهدة الصلح، ونصوص ميثاق لوكارنو؛ فهي تحطم اليوم آخر أغلال فرساي العسكرية وتحقق سيادتها العسكرية كاملة في منطقة الرين، وتواجه خصيمتها القوية (فرنسا) فيما يتعلق بوسائل الدفاع عن حدودها وجهاً لوجه؛ ثم هي تعلن ضمناً أنها لا تقبل

الأوضاع والحدود المقررة لحدودها الغربية، وأنها في حل من أن تعود غداً إلى المطالبة بالالزاس واللورين

هذا وسنعرض في فصل آخر إلى بواعث والأسباب التي تذرعت بها ألمانيا لتحقيق غايتها والى الآثار الدولية التي يمكن أن تترتب على تصرفها

(للبحث بقية)

(* * *)

3 - التعليم والحالة الاجتماعية في مصر

للأستاذ إسماعيل مظهر

أرى واجباً عليَّ قبل المضي في موضوع هذا المقال أن أبدأ باستدراك لابد منه. فقد عاب عليَّ بعض أصدقائي من المفكرين أني أنكرت فيما كتبت ناحية ذات شأن من نواحي الحياة في مصر ولم أعرها التفاتاً. ويعتقد هؤلاء الأصدقاء أن لتلك الناحية خطرها في صبغ الحالة الاجتماعية في مصر بصبغة خاصة. ولو أنهم عنوا بتلك الناحية شيئاً غير الأزهر إذن لكان لما يعيبون به عليَّ من الوزن قدر غير يسير؛ أما وأنهم يعنون الأزهر ويقولون بأنه معسكر ثالث من معسكرات العوامل المؤثرة في الحالة الاجتماعية في مصر، ينبغي لنا أن نحسب حسابه، وأن نتناوله بالتحليل والنقد، وأن نزن أثره في تكييف الحالات الاجتماعية، فأكبر ظني أني لن أسلم برأيهم مهما ساقوا في سبيل إثباته من بينات. ذلك بأن بينة واحدة تكفي لهدم جميع ما يقيمون من دلائل، فأن القوى التي تؤثر في حالة اجتماعية بعينها، إنما هي القوى الموجبة لا القوى السالبة، والأزهر، ولا شبهة، قوة سالبة. قوة اتجهت بكل ما فيها من عوامل الحياة إلى الأخرويات لا إلى الدنيويات

وأنت ترى في كل الأطوار التي تقلبت فيها الأمم منذ بداءة العصر الإنتاجي الحديث أن القوى السالبة فيها انحصرت في فئتين: الأولى رجال الدين، والثانية رجال الحكومة، وهما بما فيهما من صفات السلب والمحافظة كانتا في كل الحالات دريئة طالما حمت جسم المجتمع من كثير من الهزات العنيفة والانقلابات الخطيرة التي يجنح إليها الغلاة من المصلحين أو السياسين، وإن لهذا الموضوع لظرفاً آخر غير هذا الظرف قد يتاح لنا فيه أن نبحثه بحثاً أوفى

فرغنا في مقالنا الثاني من الكلام في التطفل الاجتماعي وأحطنا ببعض ظواهره، وأثبتنا أن هذه الظاهرة تنخر في عظام مجتمعنا كما ينخر السوس الحب. واليوم ننتقل إلى ظاهرة اجتماعية أخرى، لا تقل عن ظاهرة التطفل الاجتماعي فعلاً وأثراً، تلك ما أسميه ظاهرة (الرجعية)، ولا أعني بها رجعية فكرية أو سياسية أو غير ذلك، فلو أنها كانت من هذا الطابع لهان الخطب، ولما أعرتها كبير اهتمام. ذلك بأني أعتقد أن بعض ظواهر الرجعية، كالرجعية الفكرية أو السياسية، وما يجري مجراهما، تحمل في تضاعيفها أسباباً تولد قوى

ارتقائية، وإنما أعني بها الرجعية الاجتماعية، وأكبر ظواهرها عزوفنا عن التفقه بفقه ثقافتنا التقليدية

ولا مرية في أننا نحتاج إلى تعريف هذه النظرية الجديدة التي نسوقها اليوم لتكون أساساً في علاج حالات اجتماعية بعينها. بل نقول إن بعدنا عن درس هذه النظرية كان سببا من الأسباب الرئيسية التي هيأت المقتضيات الأولية للشعور بأننا قد أقدمنا على أزمات اجتماعية قد تكون في المستقبل بالغة منتهى الخطورة

أما ما نعني (بالثقافة التقليدية) فمجموعة الحالات والملابسات التي ينشأ شعب من الشعوب مكتنفا بها من حيث طبيعة الأرض والإقليم، وما يتطلب ذلك من العكوف على فن خاص من فنون الحياة. وبمعنى أوسع تدل الثقافة التقليدية على العناصر التي ورثها شعب من الشعوب على مدى الأزمان من طريق التأثر الطبيعي بالبيئة والمحيط، كما تدل على مجمل ما ثبت في عقليته باللقاح السُّلالي من عادات وأساطير وعلوم وآداب، نشأت بنشأته في مرباه الأصيل. وعى الجملة نقول إن الثقافة التقليدية لشعب من الشعوب إنما هي في الواقع جماع ما يرث من صفات حيوية ومعتقدات وفنون عن أسلافه الأولين

وما كان لشعب من الشعوب أن يحاول الإفلات من أقطار ثقافته التقليدية إلاّ وباء بالفشل المحقق فيما يحاول. ذلك بأن الثقافة التقليدية هي الأصل الذي يرتكز عليه الطبع الماثل في أخلاق الأمم وطرق سلوكها في الحياة. وما قولك في ثقافة يرتشفها الطفل مع ما يرتشف من لبن أمه وهو رضيع ويشب مكتنفاً بها إذا يفع، ويفتن بفنونها إذا تَفَتى، ويغرم بها إذا اكتهل، ويموت وهي مرتسمة في تصوراته جميعاً إذا هَرِم. لا مرية في أنها تصبح جزءاً من طبعه وركناً من أركان نفسه، بل إن شئت فقل إنها الركن الأصيل في حياته النفسية والعقلية، وماعداها توابع لها ولواحق بها. وإنما تتأثر التوابع بالأصل، وتتكيف اللواحق بالأرومة، فما من ثقافة حديثة تضاف إلى ثقافة تقليدية إلاّ وتكيف الدخيل تكيفاً يتابع فيه ما يحتاج إليه الأصيل من ملابسات. مثل ذلك أن الطبع المصري، وإن شئت فقل (المصرية)، لن تنسخ منها الأوربية شيئاً إن هي احتكت بها، وإنما تتكيف (الأوربية) بعوامل (المصرية) إن هما تنافستا في ميدان واحد. وليس في ذلك أي خطر على كياننا التقليدي. ولكن الخطر كل الخطر في أن نضعف من مصريتنا بالبعد عن ثقافتنا التقليدية

فتكمن في تضاعيف النفس ولا تظهر إلاّ ضعيفة منهوكة، ونقوي من (الأوربية) فنأخذها غير مكيفة بمقتضيات ثقافتنا التقليدية. ناهيك بأننا لسنا أوربيين بالدم والتقاليد، فلا نستطيع أن نفهم من روح الأوربية على ما يفهمها الأوربي إلاّ ظواهرها الكاذبة، فنصبح وقد قمعنا مصريتنا من ناحية، ولحقنا عقولنا (بالأوربية) من جهة أخرى. وما كل هذا إلاّ طلاء خادع ومن ورائه تختفي الحقيقة التي يجب علينا جميعاً أن نفطن إليها، وأن ندرسها أوفر الدرس، وأن نكب على تفهم روحها أقوم فهم، حتى نستطيع أن نهيئ للأجيال الآتية سبيل التكيف بروح العصر تكيفاً مطابقاً لثقافتنا التقليدية، فنخطو بثبات نحو حالات اجتماعية أثبت من حالاتنا الحاضرة. وفيما تقدم من شرح مجمل ما نعني (بالرجعية الاجتماعية): فهي قمع لمقتضيات التكيف بثقافتنا التقليدية من طريق

الفصل بين هذه الثقافة الموروثة وفنون الحياة في العصر الحديث

تتصل ثقافة الشعوب التقليدية اتصالاً وثيقاً بحالاتها المعاشية أولاً، فإذا استكملت هذه الثقافة الأسس المعاشية التي تعين الشعوب على البقاء، أثرت هذه الثقافة تأثيراً آخر في مزاج الشعب، نهايته أن تتكيف فيه أشياء ثلاثة هي في الواقع ظواهر هذه الثقافة. الدين واللغة والفن، وفي هذه الأشياء جماع ما يتجلى لناظريك في الأمم من الخصائص الأخرى كالخلق والحالات النفسية والشعورية إلى غير ذلك

ولابد لنا من أن نضرب بعض الأمثال لتفصح بعض الشيء عن حقيقة هذه النظرية. فالبداوة مثلاً ثقافة تقليدية لكل القبائل التي تعيش متبدية، وجميع ما يتصل بالبداوة أس من الأسس التي تقوم عليها ناحية من نواحي الحياة في أهل البدو، والبداوة لأهل البادية بداية الحياة، لأن فيها تتجلى روح القبيلة التي بها تحتفظ الجمعية ببقائها وتصون كيانها، ومن مجموع التصورات والإدراكات التي تتمثل لأهل البادية تنشأ الفكرة الدينية ثم تنشأ اللغة ثم ينشا الفن، وبعد ذلك تتحور الأخلاق فتأخذ طابعاً خاصاً، ومن ثم يتكون قانون العرف البدائي، وهلم جرًّا. فهل من المستطاع مثلاً أن تنفك جمعية طبيعتها البداوة عن كل ما توارثته على مدى الأجيال، وتنسلخ عن كل ما انتقل إليها عن أسلافها الأقدمين، فتلبس من الأخلاق ثوباً جديداً وتتبدل من التصورات والأفكار والأخيلة والعقائد واللغة والفن غيرها مما لا علاقة له بثقافتها التقليدية، ثم تستطيع بعد ذلك أن تحتفظ بكيانها الأصيل من غير

أن يهز ذلك التغير الطارئ أعماق وجودها هزاً عنيفاً شديداً؟

كذلك الحال في أمة أخرى ثقافتها التقليدية صناعية كإنجلترا أو فرنسا مثلاً. فإن انفكاك أمة منهما من الصناعة معناه تحطيم لروحها الموروث، بل ولكل ما تقوم عليه حياتها أدبية ومادية من القواعد الأصلية في نفسيتها وغرائزها. وأظن أن المصريين لا يخرجون من مقتضى هذه القاعدة. فإن لمصر ثقافة تقليدية هي الثقافة الزراعية التي ورثناها بحكم وجودنا على ضفاف النيل. وواجبنا كأمة رشيدة أن نقيم كياننا أصلاً على أساس هذه الثقافة الموروثة ثم نكملها بمقتضيات ما يتطلب هذا العصر من ضروب الثقافات الأخرى. أما عكس هذه الآية، وذلك ما ننتحيه الآن مع الأسف، فنهايته الخراب العاجل والدمار الشامل

إن ما يزرع من أرض هذا الوادي الخصيب في هذا الزمن جزء قليل مما يمكن استغلاله، ولكنه على قلته لا يستغل الاستغلال الوافي، ولهذا أسباب يطول بنا شرحها، وإنما نذكر ذلك لنقول بأن كل عاطلي هذا الزمان إنما هم عاطلون بحكم الثقافة التي تلقوها وبحكم الظروف التعليمية التي نشأوا محوطين بها، وإن بلاداً كمصر تستطيع أن تعضد من السكان ضعف ما تعضد الآن، من العجيب أن تقوم فيها مشكلة تعرف بمشكلة البطالة، وأن تؤلف في سبيلها اللجان، وتعصر الأفكار، وتسهر الأعين الليالي الطوال، ونصف الأرض المزروع فيها يكاد يكون بوراً، والنصف المزروع لا يغل أكثر من نصف ما يجب أن يغل إذا أحسن القيام عليه بالطرق العلمية الحديثة، وأكبر ظني أن السبب المباشر في قيام هذه الحال إنما يرجع إلى أننا نسينا أن لنا ثقافة تقليدية يجب أن تكون أساس الحياة في هذا الوادي. وإذن يجب أن تقوم سياسة التعليم أول شيء على فكرة الاتصال بثقافتنا التقليدية

لقد مضينا حتى الآن نقيم قواعد التعليم على النظريات، لا على طبيعة بلادنا. لهذا نرى أن كل النتائج قد اتجهت اتجاها سلبياً، لا اتجاها إيجابياً وعكس ذلك ما نطلب أن يكون جدت في مصر مشكلة عرفت بمشكلة العاطلين من المتعلمين، وما من سبب لهذه المشكلة في الواقع إلا السياسة التي جرى عليها التعليم في بلادنا بالفصل بين ثقافة أولادنا التي يتلقونها بين جدران المدارس وثقافة آبائنا الأقدمين. وحدث في مصر أن انشقت معسكرين لا اتصال لأحدهما بالآخر، معسكر المتعلمين العاطلين الذين لا اتصال لهم بثقافة بلادهم التقليدية، ومعسكر الفلاحين الذين اتصلوا كل الاتصال بثقافة بلادهم الأصلية، من غير أن

يلقحوا بشيء من مقتضيات الحياة في العصر الحديث. وبدأت في مصر روح التبرم بالحياة المصرية، نتلقى كل يوم ألواناً مما ينتج على يد المتعلمين الذين إن لم تعوزهم الهمة إلى العمل فقد يعوزهم المجال الذي يعملون فيه بقدر ما هيأهم التعليم النظري الذي عكفوا عليه. ولسوف نتقدم خطوة بعد أخرى متمادين في العمل على زيادة عدد

معسكر العاطلين مادمنا نعكف على تعليم أولادنا على أساس النظريات لا على أساس العمليات، ومادمنا نخرج رجالاً لا يعرفون عن طبيعة بلادهم شيئاً. ولن أكون مبالغاً إذا قلت إن ابن الفلاح الذي يتخرج في كلية من الكليات العليا ليس بأكثر علماً بطبيعة بلاده من زميله ابن المدينة الذي يتخرج وإياه في معهد واحد. فإذا لم يجدا لهما مرتزقاً أصبحا صنوي بطالة، ولم يمتز ابن الفلاح على ابن المتحضر بشيء مما امتاز به جدودهما من أهل الريف من قدرة على الإنتاج والعيش بما تغل سواعدهم من ثمرات الأرض

ويخيل إليّ، وربما كنت على كثير من الحق فيما أتخيل، أن الخطأ الذي نلحظه في سياسة التعليم في بلادنا غير قاصر على قمع ثقافتنا التقليدية عن أن يكون لها أثر في تكويننا العقلي والخلقي، بل إننا أضفنا إلى هذه الخطيئة خطيئة أخرى هي أننا عملنا دائماً على تضخيم المعلومات التي يتلقاها الطلبة في مدارسنا الثانوية والكليات. فقد يخرج المتعلم إلى ميدان الحياة العملية بعد حياة أمضاها في جو من النظريات الصرفة، وهو يعتقد أنه قد مليء علماً بالحياة، ثم لا يلبث أن ينكشف له الحق وإذا به يرى أن كل ما يعرفه من نظريات العلم والأدب والفن لا يكفيه رزق يومه ولا يغنيه عن الاكباب على ناحية أخرى من نواحي الحياة العملية يدرسها لتكون له في الحياة عوناً على تحصيل الرزق. ولا شك أن ذلك يحدث ارتجاجاً عظيماً في حياة شاب ملأه الأمل في الحياة والزهو بما تجمع في رأسه في المعلومات. وما من ريبة في أن هذه الصدمة المعنوية لها أثرها البالغ في سلوك الشاب وتفكيره ربما لازمه طوال حياته

يعكف الشاب المصري بين جدران معهده على ناحية نظرية من العلوم البعيدة عن تجارب الحياة ويتلقى أنواع المعارف المختلفة ويمضي مكباً عليها عمراً حتى يكون له نظرة خاصة ويتجه بفكره وقلبه اتجاهاً معيناً وينشئ في عقليته قيما للأشياء وفناً ينظر من طريقه في الحقائق. وعلى الجملة يتكون منه طريق معارفه تكويناً يهيئه لأن يكون وحدة مستقلة في جسم اجتماعي. فإذا استبان له الواقع وواجه الحياة بما استجمع من معارف فعلم أن للحياة طريقا آخر غير الطريق الذي صرف فيه عمر وأن لها قيماً أخرى غير القيم التي يؤمن بها. وأن لها فناً غير فنه الذي ينظر من طريقه في حقائق الوجود، انقلب على الماضي ثائراً ومن المستقبل يائساً، وخيل إليه أن المجتمع جنى عليه فسلبه سلاح العمل وجرده من عدة الهجوم والدفاع في ميدان المنافسة الاجتماعية. وما بالك بهذا الشاب نفسه إذا هو أراد أن يرتد إلى مصريته فيصبح فلاحا كأبيه وأن يتصل مرة أخرى بثقافة بلاده التقليدية، فيتضح له أن علمه بطبيعة بلاده ضئيل، وأن معرفته بطريقة الحياة فيها لا توانيه بالعدة الكافية للحياة في وسط مصري أصيل، الفلاح سداه والفلاحة لحمته؟

من الأخطاء التي لا ينبغي لنا أن نغفل عن وزنها وزناً صحيحاً أن تعليمنا الأدبي في الكليات ينقل إلى الأذهان صوراً من الأخلاق وفنوناً من السلوك ومذاهب من الفلسفة النفسية تختلط في عقليتنا اختلاطاً عظيما حتى لنكوّن منها مقاييس جديدة بعيدة جد البعد عن المقاييس الخلقية والسلوكية التي يؤمن بها الفلاح الساذج. فإن عصور الظلم والاستبداد التي عانى فلاح مصر في خلالها الأمرين، وتوالي الدول في الحكم على ضفاف النيل قد طبعت الخلق المصري بطابع خاص وصبغته بصبغة خاصة، ويجب أن يعنى بدرسها المصري المتعلم أوفى الدرس وأن يكب على تفهمها كل اكباب، قبل أن يظن أنه قادر على أن يعايش ذلك الفلاح الخشن الجاهل، وأن يعلم في أول ما يجب عليه أن يعلمه من جهة العلم بالنظريات قد عوضته عنه الطبيعة ذكاء حاداً وقدرة على التحايل وفطنة في إدراك الحقائق، وأيقظت فيه قوى العقل الباطن إيقاظاً شديداً حتى يكاد يكون عند بعضهم إلهاماً في توقع الأشياء وحدوثها. أضف إلى ذلك أن طبيعة البلاد ثقفته بثقافة ورثها على مدى العصور. ثقافة أحيت فيه روح اليقظة يتلقى بها الأحداث مكتمل الهمة ثابت القلب قوي الجنان عظيم الثقة بنفسه. فأن بلاداً تتوالى فيها دورات الزراعة كبلادنا، ويفيض فيها النيل في مواعيد محدودة، قد غرست في نفسه بالتجربة أن الحياة فرص يجب انتهازها، وعلمته أن إهمال ساعة أو يوم قد يفوت عليه رزق عام. هذا الفلاح الذي اكتملت ثقافته العملية من هذه النواحي وأمثالها، وهي

كثيرة متعددة، هو بذاته موضوع درس عميق لا يستغني عن معرفته مصري يريد أن يعيش من فوق أرض مصر وعلى ضفاف نيلها مرتزقاً بغلاتها
مفتناً في إحياء خيراتها. ولا شك في أن هذه الناحية الضخمة من نواحي ثقافتنا التقليدية مهملة في معاهدنا كل الإهمال، فالمصريون مع الأسف أجهل الناس بتاريخ بلادهم، ذلك في حين أن تاريخ كل شعب جزء لا يتجزأ من ثقافته التقليدية
فالشاب المتعلم الذي يدرس مذاهب اليونان الفلسفية وتاريخ روما واليونان ومذاهب الأدب ومقدمة القوانين إلى غير ذلك مما يتلقى الشباب بين جدران معاهدنا، من غير أن يتصل بثقافة بلاده التقليدية، شاب مصري بالاسم لا بالروح ولا بالتقاليد. هو يجهل طبيعة بلاده وخلق أهله وتاريخ العصور التي توالت على وطنه وشكل الحكومات التي تناوبت الحكم فيه، والميراث الذي ورثه عن أجداده الأقدمين. ولا ريبة في أن شاباً هذا شأنه إنما يخرج من معاهد العلم متعلماً جاهلاً، وإن شئت فقل يخرج متعلماً مشحون الذهن بالكثير من المعلومات التي من شأنها أن تفصله عن طبيعة بلاده وتصيره في محيطه غريباً، كأنه غلطة جديدة في طبيعة شيء قديم. ومن هنا يكون عجزه عن الكفاح في الحياة وعن الاتصال بالأرض التي أنشأته وأنشأت السلالة التي انحدر منها منذ أقدم عصور التاريخ
والمحصل أننا مشرفون على أزمات اجتماعية أساسها الظاهر الآن كثرة العاطلين من المتعلمين الذين فصل التعليم بينهم وبين ثقافة بلادهم التقليدية فأصبحوا فيها غرباء، وسنعالج في المقال التالي مجمل ما صورنا حتى الآن من نقائص حياتنا الاجتماعية من حيث علاقتها بالتعليم
(يتبع)
إسماعيل مظهر
فلاسفة الإسلام والتوفيق بين الفلسفة والدين - 2
للدكتور إبراهيم بيومي مدكور
مدرس الفلسفة بكلية الآداب
لاحظنا فيما سبق أن الفارابي وابن سينا وقفا موقفا وسطا بين الآراء الفلسفية والتعاليم الدينية فيما يتعلق بالصلة بين الله والعالم. أما مشكلة الروح وخلودها فقد فارقا فيها أرسطو تمام المفارقة، ذلك لأن الذي ينكر هذا الخلود يهدم المسئولية من أساسها، ويقضي على غاية الأخلاق والقوانين والشرائع، ونحن نعلم أن أرسطو ينقد نظريات الفيثاغوريين والأفلاطونيين الذين يقولون إن النفس جوهر روحي متميز من الجسم تمام التميز، ويعلن أن النفس صورة الجسم؛ ويقرر بجانب هذا أن الصورة لا تستطيع البقاء بدون المادة، وإذن فمنطق مذهبه يؤدي إلى النتيجة المحتمة، وهي أن فناء الجسم يستلزم فناء صورته وهي النفس، وعلى الجملة فأرسطو لا يتكلم عن مشكلة الخلود إلا عرضاً، وليته حين تعرض لها جاء بشيء مقبول، بل أفكاره فيها متناقضة متهافتة، على العكس من هذا نجد رأي الإسلام في هذه النقطة واضحاً وضوحاً لا يقل عن النقطتين السابقتين، فإن تعاليمه تقضي ببقاء الروح وخلودها وإلا لم يكن للثواب والعقاب معنى، وهذا هو الرأي الذي أخذ به الفارابي بعد تردد، وانتصر له ابن سينا انتصارا عظيما ودافع عنه دفاعا مجيدا، يقول: (إذا حصلتَ ما أصَّلْتهُ لك علمت أن كل شيء ما من شأنه أن يصير صورة معقولة وهو قائم الذات، فأنه من شأنه أن يعقل فيلزم من ذلك أن يكون من شأنه أن يعقِل ذاته. . وكل ما يكون من هذا القبيل، فغير جائز عليه التغيير والتبديل) وفي كتاب النجاة بحث طويل عنوانه (فصل في أن النفس لا تموت بموت البدن). وفي هذا الفصل يحاول ابن سينا من طريق عميق ومضن إثبات خلود النفس
هنا تنتهي أيها السادة الشعبة الأولى من شعب التوفيق بين الفلسفة والدين. وقد رأيتم أنه كلما اصطدم رأي أرسطو بأصل ديني مال الفلاسفة المسلمون نحو تعاليم الدين أو فسروها تفسيراً ينطبق على ما ذهب إليه فيلسوف الإغريق. ونحن لا ننكر أن الفارابي وابن سينا كونا نظرية كلامية جديدة متعلقة بالإله وصفاته. وهذه النظرية تقربهما من مبادئ الإسلام بقدر ما تبعدهما عن أستاذهما أرسطو. إلا أنها في الوقت نفسه متعارضة في لفظها وروحها

مع كثير من النصوص الدينية. لذلك كانت مثار اعتراض وموضع أخذ ورد لدى مختلف الطوائف والفرق الإسلامية. ونستطيع أن نقول إن المدرسة الفلسفية العربية إذا كانت قد نجحت في أن تلفت الأنظار نحوها فذاك راجع إلى أبحاثها الدينية، غير أنها لقيت كذلك حتفها من هذا الطريق. وفكرة الخلق أو (الفيض) التي قال بها الفارابي وابن سينا لا تقنع رجل الدين في شيء كثير، وليس لها من الخلق إلا اسمه وصورته دون حقيقته ومعناه. وهذا بالدقة ما أخذه عليها الغزالي وحمل عليه حملة عنيفة سنعرض لها بعد قليل

والآن ننتقل إلى الشعبة الثانية حيث نفسر بعض الأمور الدينية تفسيراً علميا. وأول هذه الأمور النبوة التي هي عماد الدين وأساسه. فإن قيمة الإسلام وكل دين سماوي موقوفة على التسليم بالوحي وقبوله عقلا. وأن من ينكر الوحي أو يستبعد حصوله يطعن الدين في ركنه الأول وأساسه المتين. لهذا لجأ الفلاسفة المسلمون إلى إدعام النبوة على قواعد فلسفية وسيكلوجية. وأثبتوا أن الإلهامات الخفية التي يصل إليها الأنبياء ليست إلا ضربا ساميا من المعلومات الإنسانية. وسنعرض لهذه النظرية بوجه خاص بعدُ

وأخيراً لم يبق أمامنا إلا السمعيات، وهي كما تعلمون تلك الحقائق الدينية التي أخذت عن الكتاب والسنة واعتمد فيها على السمع وحده كالرسل ومعجزاتهم والملائكة وصفاتهم واليوم الآخر وما فيه من سعادة وأهوال، وسنكتفي بذكر أمثلة من هذه السمعيات لنتبين كيف حملها الفارابي وابن سينا على محمل فلسفي. قد يكون من الفضول أن أنقل إليكم رأي المتكلمين وأهل السنة خاصة في الملائكة والعرش واللوح والقلم والحشر والنشر. فهم يذهبون إلى أن الملائكة كائنات نورانية لطيفة قابلة للتشكل بمختلف الأشكال، لا تأكل ولا تشرب ولا تعصي الله أبداً، ويفهم بعضهم العرش واللوح والقلم على حقيقتها الحسية، ويعتقدون أن الحشر والنشر لن يكونا للأرواح فقط، بل سترد إلينا أجسامنا ونعود سيرتنا الأولى. أما الفارابي فيرى أن الملائكة ليست شيئاً آخر سوى تلك العقول التي تحرك الأفلاك المختلفة والتي حدثتكم عنها قبل. واللوح والقلم لا يقبلان تغييراً آخر غير هذا التفسير المعنوي الروحي. وهاهو ذا الفارابي يعبر عن رأيه قائلا: (لا تظن أن القلم آلة جمادية واللوح بساط مسطح والكتابة نقش مرقوم بل القلم ملك روحاني واللوح ملك روحاني والكتابة تصوير الحقائق. فالقلم يتلقى ما في الأمر من المعاني ويستودعه اللوح بالكتابة الروحانية فيُبعث القضاء من القلم والتقدير من اللوح. أما القضاء فيشتمل على مضمون أمر الواحد والتقدير يشتمل على مضمون التنزيل بقدر معلوم، ومنها يسبح إلى الملائكة التي في السموات يُقبض إلى الملائكة التي في الأرض ثم يحصل المقدر في الوجود). والحشر والنشر والثواب والعقاب منصبة كذلك على الروح فهي التي تسعد وتنعم أو تشقى وتألم. فليس هناك صراط ولا ميزان حسيان، بل تلك أمثلة وتصويرات يراد بها التعبير عن الحقيقة الروحية، وقد سار ابن سينا على طريقة الفارابي ففسر العرش تفسيراً فلكياً عقلياً، وصور الجنة والنار بصور روحية تناسب نعيم النفس وشقاءها

هذه هي محاولة التوفيق بين الفلسفة والدين التي قام بها الفارابي وابن سينا. وإذا ما تتبعنا تاريخ الفلسفة وجدنا أن الإغريق من قديم احتفظوا بمكان للدين في مذاهبهم الفلسفية. وقد عنيت مدرسة الإسكندرية بهذه المسألة عناية خاصة، وكثيراً ما أثبت أفلوطين أن الأفكار الدينية لا تتعارض مع الآراء الفلسفية. إلا أن المسلمين قد برهنوا في هذا المضمار على مقدرة وكفاءة لم يسبقوا إليهما. ولئن كان رجال الكنيسة قبلهم قد أدخلوا بعض المبادئ الرواقية والأرسطية في تعاليمهم فإنهم لم يوفقوا في أن يكونوا من ذلك مزيجاً صالحاً متناسق الأجزاء

بيد أن محاولة التوفيق التي قام بها الفارابي وابن سينا وإن تكن محكمة وممتازة على سابقتها لم ترق لدى الغزالي كما قلت لكم من قبل. وقد ألف كتابه تهافت الفلاسفة ليناقش فيه آراء الفلاسفة وينقضها جميعاً، ويحتوي هذا الكتاب على عشرين مسألة، ثمان منها تتعلق بالبارئ وصفاته، وأكبر مأخذ يأخذه الغزالي في هذا الجزء على فلاسفة الإسلام هو أنهم ألغوا الصفات وأنكروا علم الله بالجزئيات، وقد تهكم عليهم تهكما شنيعاً في هذا الصدد قائلا: (وليتعجب العاقل من طائفة يتعمقون في المعقولات

بزعمهم، ثم ينتهي أخر نظرهم إلى أن رب الأرباب ومسبب الأسباب لا علم له أصلا بما يجري في العالم، وأي فرق بينه وبين الميت إلا في علمه بنفسه؟ وأي كمال في علمه بنفسه مع جهله بغيره؟ وهذا مذهب تغني صورته في الافتضاح عن الإطناب والإيضاح)، وفي ثماني مسائل أخرى يرد على فكرة الخلق التي ذهب إليها الفلاسفة مبيناً أنها ترمي إلى خلق صوري لا يكاد يبدو له أثر في الوجود. ثم ينتقل بعد هذا إلى خلود الروح فيبين في مسألتين أخريين أن الفلاسفة لم يستطيعوا البرهنة على هذه النقطة في وضوح. ولا يقبل الغزالي كذلك التفسير النفسي السيكلوجي للنبوة ويرفض رأي الفلاسفة فيه. وأخيراً يهاجم حجة الإسلام الفلاسفة هجوماً عنيفاً فيما يتعلق بالحشر والنشر ويأخذ عليهم أنهم ينكرون أصلا ثابتاً من أصول الدين. وفي نهاية هذه القضية الطويلة يعلن حكمه ويعد الفلاسفة السابقين مبتدعين في سبع عشرة نقطة وكفاراً لثلاث هي قولهم بأن الله يعلم الكليات لا الجزيئات وادعاؤهم قدم العالم وأبديته وإنكارهم لحشر الأجساد

لسنا بصدد أن نستأنف في هذه الجلسة حكم الغزالي السابق، لا سيما وقد صادف عين الحقيقة في مواطن كثيرة. إلا أنا نلاحظ أن صاحبه متحد أحياناً ومبالغ في نقده. ولا أدل على هذا من أنه اعتنق بعض الآراء التي نقدها والتي قال بها الفلاسفة فهو يفسر مثلا علم الله تفسيراً يشبه كل الشبه تفسير الفلاسفة ويعتقد بخلود الروح ويعده مبدأ ثابتاً من مبادئ الإسلام. وموقف الغزالي هنا ضعيف في الحقيقة للغاية، فإن صوفياً وتكلما يرد على أشخاص يثبتون خلود الروح يناقض نفسه تمام المناقضة. وفكرة النبوة الفلسفية التي يرفضها الغزالي في تهافته يقول بها في كتابه المنقذ من الضلال

أمام هذا التناقض لم يتردد ابن رشد في أن يرفض ما قاله الغزالي وأن يثبت (تهافت التهافت). وقد بذل عناية كبيرة في الدفاع عن أرسطو وإخوانه الفلاسفة المسلمين. ذلك لأنه كان يرى مثلهم ضرورة التوفيق بين الدين والفلسفة وترك كل واحد منهما آمناً بجانب الآخر. ويعلن أن شبه الخلاف بين هذين الطرفين راجعة إلى الخرافات التي ألحقت بالدين، أو إلى الادعاءات الفلسفية التي يدعيها من يزعمون أنهم حكماء وليس لهم من الحكمة نصيب. وهذه الأباطيل جنت على الدين والفلسفة وباعدت بينهما؛ (فأن الأذية من الصديق هي أشد أذية من العدو، أعني أن الحكومة هي صاحبة الشريعة والأخت الرضيعة فالأذية ممن ينسب إليها أشد الأذية مع ما يقع بينهما من العداوة والبغضاء والمشاجرة وهما المصطحبتان بالطبع بالجوهر والغريزة). غير أن ابن رشد سلك إلى التوفيق بين الفلسفة والدين سبيلا أخرى غير تلك التي سلكها الفارابي وابن سينا. فأنه كان يعتقد أن سلامة الدين والفلسفة أن يعزل كل واحد منهما عن الآخر، فلا تضاف عناصر فلسفية إلى تعاليم الدين، ولا تصبغ الفلسفة بصبغة دينية. لأن لغة رجال الدين يجب أن تختلف عن لغة الفلاسفة مادام الدين للشعب والفلسفة للخاصة. وكم عاب فيلسوف الأندلس على صاحب تهافت الفلاسفة تقديمه للجمهور بعض المشاكل العويصة التي لا يستطيع فهمها ولا استساغتها

بيد أن هجوم الغزالي كان عنيفاً، وصدمة الفلسفة على يديه كانت قوية. لهذا لم يفلح فيها علاج ابن رشد ولم يرفع من شأنها انتصار فيلسوف قرطبة لها، وبقيت مهملة منظورا إليها نظرة ازدراء واحتقار أو توجس وخيفة طوال السبعة قرون الأخيرة. وكأن حملة الغزالي صادفت هوى في تلك العقول الضعيفة التي لا تقوى على البحث والنظر، فرأت أن أيسر سبيل لديها أن تهجر الفلسفة وشؤونها وتحاربها بكل الوسائل ولست في حاجة لأن أذكركم بتلك السنة التي سار عليها مؤلفو هذه القرون المظلمة من التساؤل عن حكم الدين في كل فن من الفنون، هل دراسته واجبة أو مسنونة أو مستحية أو مكروهة أو محرمة. وكثير منكم يذكر هذه الأبيات المشهورة التي صدرت بها حواشي الكتب في القرنين الحادي عشر والثاني عشر:

إن مبادئ كل فن عشرة ... الحد والموضوع ثم الثمرة
وفضله ونسبه والواضع ... والاسم الاستمداد حكم الشارع
مسائل والبعض بالبعض اكتفى ... ومن درى الجميع حاز الشرفا

فباسم الشرع حرمت علوم وأبيحت أخرى، وتحت تأثير هذه الرقابة أهملت أجزاء

الفلسفة المختلفة، ولم يدرس منها إلا المنطق الذي كان نفسه موضع تحريم أو تحليل واستحباب أو إباحة. وقد عقد الأخضري أحد مناطقة القرن العاشر الهجري في سُلّمه فصلا عنوانه: (في جواز الاشتغال به) وتحت هذا العنوان يبين حكم الشرع في دراسة المنطق وآراء الباحثين في هذا الصدد، ويوضح ذلك في أبيات طريفة يلذ لي أن أسردها عليكم

والخلف في جواز الاشتغال ... به على ثلاثة أقوال
فابن الصلاح والنواوي حرما ... وقال قوم ينبغي أن يعلما
والقولة المشهورة الصحيحه ... جوازه لكامل القريحه
ممارس السنة والكتاب ... ليهتدي به إلى الصواب

والباحثون الأول ما كانوا يقفون عند نقطة كهذه، ولا يرون غضاضة عليهم في أن يدرسوا أية مادة كيفما كان نوعها. والغزالي بوجه خاص زج بنفسه في المدارس والفرق الإسلامية المختلفة. فدرس العلوم الكلامية على اتساعها، واتصل بالباطنية وتعرف أسرارها، ولم يخش باساً من قراءة الكتب الفلسفية واعتناق الطرق الصوفية. ومعرفته بدقائق الفلسفة وجزئياتها لا تقل عن الفلاسفة المختصين أمثال ابن سينا وابن رشد. وما كان يضير أحداً في ذاك الزمان أن يقرأ شيئاً ويتفهمه، فإن ارتضاءه قبله وإلا نبذه، ولم يخطر ببالهم أن مادة ما تستطيع أن تهدم الدين أو تنتقص أصوله. فلما قصر الجهد وعجز الناس عن الدراسة والبحث لجأوا إلى حماية أنفسهم بوسائل سلبية واستتروا وراء حجاب واه من حرمة الدين أو كراهيته فجنوا على أنفسهم ودينهم في آن واحد. وهكذا شأن عقيدة لا يرجع تدهورها غالباً إلى نقص في طبيعتها، بل إلى ضعف معتنقيها وفساد عقولهم وعجزهم من مسايرة الزمن

يجدر بنا، أيها السادة، وقد أتممنا هذه النظرة التاريخية العجلى أن نستخلص منها درسا ينفع للحاضر. فإن الماضي لا يدرس للماضي فقط، بل لما يمليه من نصائح وعبر مفيدة في الحاضر والمستقبل، ونصيحة الليلة أن نفسح المجال للدراسة والبحث أيا كان نوعهما دون أن نخشى على الدين بأسا. لندع العلم يقرر قضاياه ويوضح نظرياته، فهو إن لم ينصر فلن يخذله، وإن لم يؤيده فلن يقوى على هدمه. والعلماء الذين يبدو عليهم أنهم تجردوا عن تقاليد الأديان هم أكثر الناس اصطداماً بالمشاكل الدينية. ولئن كان القرن الثامن عشر قد دفع بعض المفكرين، تحت تأثير النهضات العلمية، إلى التشبث بأهداب المذهب العقلي واطراح كثير من الحقائق الروحية والنقلية، لقد جاء القرن التاسع عشر وأوائل القرن الحاضر مؤيدة للدين وواضعة إياه على أساس القوانين العلمية والنظم الاجتماعية. فأنصار مذهب البرجماتزم وعلى رأسهم جيمس ينادون بأن الحقيقة الدينية هي عماد الحقيقة العلمية، ذلك لأن الأولى نتيجة التجربة النفسية والوحي المباشر. وأصحاب المدرسة الاجتماعية الحديثة قد أثبتوا في جلاء أن جل النظم الاجتماعية، إن لم يكن كلها، نشأ في حجر الدين وتحت كنفه. فالعلم والدين متضافران إذن، أو على الأقل لا يستطيع واحد منهما أن يعدو على مكان الآخر. ومن الغريب أنه ما تجاهل باحث المبدأ الديني إلا واضطر للتسليم به أخيراً؛ ولا حارب رجال الدين علما إلا وانتهوا إلى دراسته بعد قليل.

فأرسطو الذي لم يفكر مبدئيا إلا في الطبيعة وعللها والأفلاك ومحركاتها سيق في آخر الأمر إلى إثبات محرك أكبر تتجه نحوه القوى وتشتاق إليه. و (كانت) الذي أنكر فكرة الإله في الدائرة الميتافزيقية عاد فأثبتها في أبحاثه الخلقية، وفي أوائل القرن الثالث عشر الميلادي حاربت الكنيسة الفلسفة الأرسطية وأحرقت كتبها، وحكمت بأقسى العقوبات على قرائها. ولكنها لم تلبث أن عادت فاعتنقت هذه الفلسفة وأضحى أرسطو أستاذ اللاهوت المسيحي الوحيد. وفي القرن السابع عشر حوكم جاليليو من جراء قوله بحركة الأرض، واليوم لا ترى الكنيسة ضيرا في اعتناق هذه النظرية. فإذا كان لنا أن نستفيد من هذه التجارب فواجبنا أن نترفع عن الخصومات الباطلة والنزاع الفاسد بين العلم والدين، وإذا كنا نريد أن نؤسس نهضتنا على أسس متينة فعلينا أن نفسح المجال للدراسة والبحث وأن نسير وراء الحقيقة كيفما كان مصدرها؛ والحكمة ضالة المؤمن يطلبها أنى وجدها

إبراهيم مدكور

في تاريخ الفقه الإسلامي

ثلاث محاضرات

للدكتور يوسف شخت
الأستاذ بجامعة كونيكسبرج، والأستاذ بالجامعة المصرية

- 1 -

إن الغرض من المحاضرات الثلاث التي أتشرف بإلقائها عليكم هو أن أتحدث إليكم عن الطريقة التي يجري عليها العلم الأوربي في درس الشرع الإسلامي، وعن بعض النتائج الهامة التي أسفر عنها هذا الدرس. وقد بدا لي أن هذا الموضوع خليق بأن يثير اهتمامكم من أكثر من وجهة واحدة، فأن مصر كبلد إسلامي حديث لا يمكن إلا أن تهتم ببحوث علمية ترمي إلى إظهار خاصة من خصائص الإسلام، والعلم الأوربي من جانبه ينبغي ألا يهمل الاتصال بالعلم الإسلامي المعنيّ بهذا الموضوع. ورغم اختلاف المبادئ والطرق والمصالح التي تفصل هاتين المدرستين إحداهما عن الأخرى، فقد ألفت بين بحثيهما في الشرع الإسلامي آصرة مشتركة جوهرية، هي روح البحث العلمي الذي يحدو المستشرقين الأوربيين اليوم، كما كان يحدو علماء الإسلام من عهد القرون الوسطى. هذا العتاد المشترك يبعث على أشد التفاؤل بتعاون مثمر قائم على الاحترام المتبادل بين العلماء الشرقيين والغربيين في هذا الباب، تعاون لا يوهن في تعلق فريق منهما بالتقاليد واستمساك الفريق الآخر بأساليبه العلمية، وإني لأرجو أن يكون في مقدوري المساعدة على تنمية التفاهم بين الفريقين؛ وليس في نيتي أن أعرض صورة عامة للشرع الإسلامي، وأن أكرر كثيراً من الأشياء المعلومة لكثرتكم بلا شك، بل أتكلم عن مسائل خاصة في تاريخ هذا الشرع تناولها علماء أوربة متوخيا عرضها عليكم في صورة قد تثير اهتمام حتى غير الاختصاصين منكم

ولنبدأ بالمسألة العامة - مسألة تاريخ الشرع الإسلامي؛ فهذه المسألة تمكنني من اطلاعكم على ما بين وجهتي النظر من اتفاق تام، فعلماء الإسلام يرون في الشريعة تعبيراً عن الإرادة الإلهية التي لا تبدل فيها؛ وقد كان مع هذا المبدأ من المسلّم به دائماً أن تعبير الفقه

عن هذا القانون الإلهي مرّ بدور تاريخي حتى أن بعض المؤلفين المسلمين عنونوا مؤلفاتهم (بتاريخ التشريع الإسلامي)؛ وقد جهد علماء أوربة ببحث هذا التطور دون أن يكون لهم بمسائل العقائد شغل، وتناولوا بهذا الروح تاريخ الشريعة، والعلماء المسلمون أنفسهم، على الرغم من اعتقادهم بقدسية الشريعة وصبغتها الإلهية، يسلمون بأن أحكاماً من أحكامها كانت موجودة فعلا في شرائع أخرى قبل أن يقرها التشريع الإسلامي؛ ولنضرب لذلك مثلا واحداً هو القصاص، فأن مبادئه التي عدلها وأكدها القرآن والسنة ترجع إلى القوانين العرفية عند العرب قبل الإسلام. فالعلم الأوربي يبحث فيما يسمى بالعلاقات بين الشريعة والشرائع التي سبقتها بهذا المعنى التاريخي المحض - ذلك المعنى الذي لا يضير ما في علم أصول الفقه الإسلامي من الحقائق، ومعلوم جيداً أن العلماء المسلمين أنفسهم يطبقون على الأسانيد قواعد نقدية، وهذا النقد الذي وسَّع النقاد من علماء أوربة دائرته، وذهبوا فيه بعيداً، قد بات أداة للعمل لا يستغني عنها العلم الأوربي - أداة ليست سلبية محضة، بل قد أعانتنا على تقرير صحة الكثير من الأحاديث. في هذا كله يمكن أن يوجد، بل يوجد فعلا اختلاف كبير في الأساليب والنتائج بين علماء الشرق والغرب، ولكن لا وجود لخلاف جوهري، لأن مبادئ عقائد الإسلام لا تؤثر في دراستنا التاريخية للشرع الإسلامي. هذه المدرسة الأوربية لا تقف عند حدود الشريعة، التي تلتزم غايتها الأساسية بطبيعة الحال، بل تتجاوزها أبحاثها إلى وجهات عدة، فتتناول القوانين الأخرى المتصلة بالشرع الإسلامي اتصالا مباشراً، سواء أكان ذلك باندماج سنن تلك القوانين في الشريعة الإسلامية بالمعنى الذي أسلفنا بيانه، أم كان بتأثير الشريعة في تلك القوانين والسنن، والمقصود بذلك قوانين العرب أيام الجاهلية من جهة، وقوانين الشعوب التي دخلت في دولة الإسلام من جهة أخرى؛ مثال ذلك هو التشريع الخاص بالأسبان المسيحيين الذين يتكلمون العربية وهم المسمون بالمستعربين. ويتناول الدرس أيضاً موضوعاً واسعاً، هو العرف القائم بين الشعوب الإسلامية نفسها. إننا نعلم أن هذا العرف الذي يطلق عليه أسماء مختلفة كالعادة والقانون والدستور الخ قد نشأ إلى حد ما في بلاد

الإسلام تقريباً، إلى جانب الفقه المعترف به رسمياً؛ وشرح تاريخ هذا العرف وبيان علاقته بالشريعة أمر لا غنى عنه في تفهم جملة الحياة التشريعية عند الأمم الإسلامية تفهماً صحيحاً؛ وقد شهدنا في خلال السنوات الأخيرة تطوراً جديداً في العلاقات القائمة بين الشريعة والقانون بتلك التعديلات التي أدخلتها مصر على الأحوال الشخصية. وأخيراً فالعلماء الأوربيون يعنون بالمظهر الاجتماعي للشرع الإسلامي، لأن الشريعة الإسلامية أحسن مثال وأهم مظهر لما يسمى (بالقوانين المقدسة). وبهذا لا نريد مطلقاً أن نضع الشريعة في مستوى واحد مع سائر الشرائع، بل نحرص كل الحرص على إظهار خواصها الفردية ابتغاء الوصول إلى تقدير مركزها الفريد بين الشرائع والقوانين الأخرى. فإذا كان علمنا يضع الشريعة في أفق أبعد زاعماً أن تلك الشريعة ليست حقيقية شاذة لا علاقة لها بما حولها، فإنما نفعل هذا لكي ندرسها أوفى درس ممكن من كل جهاتها. كذلك لا يهمل العلماء في أوربا درس الشرع الإسلامي على طريقته التقليدية الخاصة، فإن هذه الدراسة شرط لازم يمهد لكل بحث تاريخي. ولعل في هذه الملاحظات التمهيدية ما ينيلكم فكرة عامة من هذه الوجهة الهامة من بحوثنا وغاياتنا

وقبل المضي في التفاصيل قد يحسن أن أقول كلمة عن تاريخ هذه الدراسة في أوربا. فوجودها يرجع إلى عهد قريب لأنها مدينة بأصلها للنهضة العظيمة التي تناولتها البحوث الإسلامية في أوربا في النصف الثاني من القرن الماضي. والمشجعان الكبيران على البحوث الإسلامية العامة هما في نفس الوقت واضعا أساس البحث العلمي في الشرع الإسلامي، وأعنى بهما الأستاذ المجري الكبير (توفي في سنة ألف وتسعمائة وواحد وعشرون) والأستاذ الهولندي المحترم الذي بلغ أخيراً الثامنة والسبعين من عمره، والى اسمي هذين الصديقين الجليلين يجب أن نضيف اسم عالم ألماني قضى قبل الأوان في سنة ألف وتسعمائة وثلاث وثلاثين في الخامسة والأربعين من عمره، واعني به المرحوم المأسوف عليه الأستاذ وإني لأعتبر نفسي تلميذا لـ , وأنا شاعر بجميلهما أعمق الشعور، فخور بهما حق الفخر

إن أولى المسائل الخاصة التي سأعالجها هنا تتعلق بالقانون العرفي عند العرب في زمن الجاهلية، وهو كالأرض التي كانت تنمو عليها شجرة الشريعة العظيمة، ولهذا السبب فإنه يدخل في نطاق أبحاثنا كما ألمعنا آنفاً. هنالك رأي سائد إلى اليوم يعتبر الحياة القانونية في جزيرة العرب قبل الإسلام مما لا يمكن درسه لانتفاء المصادر المباشرة، ويزعم أن تلك الحياة كانت فطرية بسيطة بحتة. ولقد مكنتنا أبحاث السنوات الأخيرة القائمة على الانتفاع

بمصادر غير مباشرة من تصحيح هذا الرأي. فلم يكن فطرياً سوى أحوال البدو، يشهد بذلك الشعر القديم وأخبار القبائل ويؤيده ما يصادفه المرء عند البدو اليوم. أما المدن ومنها مكة التي كانت مركزاً تجارياً ذا صلة باليمن وسورية البيزنطية والعراق الساساني، والمدينة التي كانت مركز زراعة النخيل مركزاً يضم جالية كبيرة من اليهود - نقول: أما المدن، ومنها ما ذكرناه، فكان لها بلا ريب قانون أكثر نمواً لم يمكن إلا أن يتأثر بالعوامل الخارجية التي ذكرناها، ويمكننا أن ننسب بالتفاصيل إلى الأصل البدوي أشياء منها النظام الاجتماعي وأحكام العائلات والمواريث وقانون القصاص - وكل هذا بقى سارياً على أهل المدن أيضاً - ويمكننا أن ننسب إلى التطور المدني الموافقة على قواعد مفصلة تطبق على العقود ووضع أشكال معينة للشركات واستعمال وثائق مكتوبة - كل هذا في مكة - ومعاملة بعض العقود الزراعية في المدينة. فكل هذه العناصر لم تبق بمعزل بل اتسع تداخلها بتأثير العلاقات التجارية التي تساعد على نموها الأشهر الحرم والأسواق الكبرى، حتى أن بلاد العرب كانت في القرن السادس بعد الميلاد محكومة بقانون عرفي متشعب الأطراف، وهذا يطرح مسألة تحليل هذا القانون تحليلاً مفصلاً سأقدم لكم مثالاً منه

الحالة في الشرع الإسلامي هي أن العنصر الجوهري في كافة العقود يتألف من الإيجاب والقبول اللذين يعبران عن تراضي المتعاقدين، وهذا التركيب القانوني للعقود من إيجاب وقبول تجمع مذاهب الفقه على التسليم به كأنه أمر طبيعي دون أن يتناقض بعضها مع بعض، وهو لابد أن يكون سابقاً لتلك المذاهب فضلا عن أنه لا صلة له بالمبادئ الإسلامية المحضة كمنع الربا ومنع الغرر التي تبنى عليها كافة الأبواب

المتعلقة بأحكام العقود من الشريعة. وهذا كله ودلائل أخرى تحمل على الاعتقاد بأن تلك العبارة القانونية عن طبيعة العقود ترجع إلى القوانين العرفية فيما قبل الإسلام. أجل إن هذه الفكرة القانونية تكاد تكون شاذة شذوذاً تاماً في تاريخ القوانين القديمة. فإن الأمر المعني هنا ليس بذلك الدور الطبيعي الواضح الذي كان للإيجاب والقبول دائماً في الحياة الاقتصادية باعتبار أنها مقدمة العقود المتواضع عليها بمحض التراضي؛ ولكن النقطة الحاسمة هي أن الإيجاب والقبول يعتبرهما النظر القانوني عنصراً جوهرياً في العقود، وأولئك الذين درسوا الشرع الإسلامي أو القوانين الحديثة فقط يمكن أن يلوح لهم هذا ضرورياً، بيد أن التاريخ يدلنا على أن الأمر ليس كذلك؛ لأن مثل هذا التركيب القانوني للعقود لم تعرفه القوانين القديمة اللهم إلا الشرع الإسلامي والقانون البابلي الحديث. فإن هذا القانون يعطي نمطاً من صيغة تعاقدٍ يتفق تماماً ونظرية العقود التي أسلفنا بيانها، بحيث أن نفس العقود البابلية الحديثة لو ترجمت إلى العربية يمكن أن تبدو بين الوثائق الإسلامية القديمة المبنية على النحو الآتي: (هذا ما اشترى فلان من فلان. . . وباع هو إياه. . . بتراض منهما. . .). هذه الحقيقة الواقعة تحدو بنا إلى التساؤل: أتوجد علاقة تاريخية بين هاتين الظاهرتين؟ إن الفارق الزمني ليس بكبير مهما يظهر منه عند اللحظة الأولى، فإن الوثائق البابلية الحديثة تبتدئ من أواخر القرن الثامن قبل الميلاد وتستمر إلى نهاية الآداب البابلية حول الميلاد، والقانون العرفي العربي كان قد اكتمل تطوره في القرن السادس بعد الميلاد. بيد أن بعض خواصه قد يرجع إلى ما قبل ذلك. وليس يدعو إلى العجب أن تبقى صيغة وثائق جمدت خلال سبعة قرون لكافة الأعاصير السياسية والاجتماعية والاقتصادية في العراق - نقول: ليس عجيباً أن تبقى مثل تلك الصيغة التعاقدية بعد ذلك زماناً، وإن كنا لا نستطيع الجزم بهذا لأننا لا نعلم شيئاً عن تلك الفترة. على أن الاستمرار التاريخي للبيئة مؤكد على الأقل؛ ذلك أن العراق كان يسكنه منذ القرن الثامن قبل الميلاد وعلى الرغم من تبدل الأسر الحاكمة أولئك السكان الآراميون الذين لم يزالوا يسكنونه في خلال الفتح العربي والذين سماهم العرب بالنبطيين. أما القانون المعرفي العربي فإن التأثر الذي يمكن أن يكون تناوله من جانب العراق ليس أقل احتمالا من التأثير الذي أصابه من ناحية سورية، وهذا مؤكد لأن التجارة العربية كانت تتجه نحو القطرين على السواء. وصفوة القول أنه من الراجح رجحاناً كافياً أن صيغة العقود ذات الجانبين أي الإيجاب والقبول قد توورثت من القانون البابلي الحديث. وقد ألمعنا إلى أن تلك الفكرة القانونية في انعقاد العقود ليست بالوحيدة الإمكان، فإن هنالك فكرة أخرى منتشرة انتشارا واسعاً في القوانين القديمة تعتبر العنصر الجوهري موجوداً في تصرف واحد من المتعاقدين. مثال ذلك أن ينعقد البيع بنزول البائع عن حقه في الشيء المبيع للمشتري في مقابل ثمن معين. ويظهر من الاصطلاحات العربية أن القانون العرفي قبل الإسلام كان قد عرف هذه الفكرة في طبقة سابقة لدخول الصيغة التبادلية في العقود، وهذه الاصطلاحات بلا شك إلى الزمن الجاهلي أيضاً. فبينما الاصطلاح الفني المقبول يعبر رأساً عن معنى العقل الذي يقع عليه فإن الاصطلاح الخاص بالعرض - وهو الإيجاب - يتناقض تناقضاً ظاهراً مع الدور المخصص لفعله لو اعتبر العقد، كما هو الواقع، آتياً من الجانبين. فهو يصف العرض الذي هو فعل البائع في مثالنا السابق كأنه يجعل العقد واجباً نهائياً مختوماً عليه لا رجوع فيه، بدليل معنى كلمة الوجوب في شواهد كثيرة؛ منها حديث مشهور إذ يقول النبي عن رجل أسلم ثم استشهد على الأثر: وجبت له الجنة. وعلى النقيض من ذلك فإن العقد ذا الجانبين لا يصير واجباً إلا بقول عرض سابق، بينما التصرف من جانب واحد على نحو ما أسلفنا يطابقه ذلك الاصطلاح تماماً. إن هذا العصر الجاهلي يكشف لنا عن أرض عذرية واسعة خصيبة لأبحاث مستقبلة

والمسألة الثانية التي أود أن أتناولها تتصل بعصر هو أحسم من غيره في تاريخ الشرع الإسلامي أعني عصر فقهاء المدينة السبعة. وقد كان الاعتقاد إلى الآن أن عمل هؤلاء الفقهاء الأولين للإسلام كان وضع نظام للفقه يطابق حاجات عصورهم المختلفة. ولكن الأبحاث التي جعلتنا أكثر معرفة بحالة القانون العربي في العصر السابق للإسلام هي نفسها التي علمتنا أن نقدر عمل هذا العصر الآخر بأدق مما كنا نفعل، فهذا العمل قبل

كل شيء إدخال المبادئ الإسلامية في قانون كان قد نما إذ ذاك نمو كافياً. وأصحاب الفضل الأكبر في إدخال المبادئ الإسلامية في القانون العرفي الجاهلي كانت تضمهمّ دوائر الأصحاب والتَّابعين وتابعيهم في المدينة. كانوا يعملون على نفاذ الحياة بأسرها ومنها الحياة التشريعية بقواعد دينية أخلاقية، وهذه القواعد كانوا يستمدّونها ويستنتجونها قبل كل شيء من الآيات القرآنية الشرعية ثم من الأحاديث. فالأحاديث التي كانوا يأخذون بها ترجع بلا شك إلى عصر قديم جداً. ومن الجدير بالذكر أن الأبحاث الحديثة أفضت بالعلم الأوربي إلى تعديل تشككه في صحة بعض الأحاديث - ذلك التشكك الذي كان يغالى فيه أحياناً. فكثير من تلك الأحاديث لا يذكر أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله التي كانت تصير قواعد جديدة، بل يذكر أن النبي قرر وأجاز عادات أصحابه باستصوابها صريحا أو ضمنياً دون أن يستنكرها. وهذا هو البرهان المباشر لما نسمّيه استمرار السنن القانونية السابقة في الشرع الإسلامي. ولقد كان من نتائج هذا التطبيق المحتوم المنظم لأعمال القرآن والسنة أن اشتمل نظام من (الأوامر والنواهي) على جميع أبواب الحياة القانونيَّة حتى التي لم ينص القرآن عليها صراحة. وروح هذه (الشريعة المقدسة) تختلف أصلاً عن روح القوانين المدينة كالقانون الروماني مثلا. فأن أمثال هذا القانون تتناول قبل كل شيء الحقوق المشتقة من أفعال معينة ذات قيمة قانونية، على حين أن الشرائع المقدسة تعني الحكم على الأفعال من حيث أنها مباحة أو محظورة. وهذا بيّن من الاصطلاحات الفنية: إن التدرج العام لأعمال الإنسان من واجبة أو مفروضة ومندوبة ومباحة أو جائزة ومكروهة ومحظورة تعبر عن صفاتها الدينية والأخلاقية. ولكن كلمة الواجب لم تدل في الاصطلاح الجاهلي - كما رأينا - على المفروض بل دلّت على الصحيح وقد تستعمل في هذا المعنى أحياناً في كتب الفقه أيضاً: ونحن نشهد حقيقة على تراجع للعنصر القانوني المحض بتأثير القواعد الأخلاقية. حتى نفس نظام المصطلحات الدالة رأساً على أنواع الصفات القانونية وهي مشروع وصحيح ومكروه وفاسد وباطل إلى غير هذا، تأثرت بتلك النظرية الدينية: فالصفة العامة وهي المشروعية، مشروعية البيع مثلاً، تشتمل حكما من هذا النوع الديني الأخلاقي؛ ثم إننا نجد صفة الكراهة تطلق على أفعال قانونية مشروعة صحيحة يليها شيء من المنهي عنه. ومن الجدير بالذكر أيضاً أن هذا النظام المدرج الثاني أقل تفصيلاً من التدرج الأول، وأن بعض المصطلحات الدالة على الصفات القانونية المحضة كاللازم والنافذ والبات قد بقى بلا تحديد حاسم دقيق. وأخيراً فأن اصطلاح (الجائز) أصبح مترادفاً لاصطلاح (الصحيح) ويدل على أن الأفعال التي يطلق عليها لا بأس بها من حيث التقدير الديني الأخلاقي فهي بهذه المثابة صحيحة. وإذا قيل إن أمان المسلم الواحد مثلاً جائز فمعنى ذلك من جهة أنه غير آثم في منحه هذا الأمان، ومن جانب آخر أنه لا اعتراض على هذا الفعل، وأنه من أجل ذلك يعتبر صحيحاً. ومن هذا كله يتضح ما للتقدير الديني الأخلاقي للأعمال من أهمية ومن أولوية على الصفات القانونية المحضة في الشرع الإسلامي. وليس هذا بأقل وضوحاً في نظام الأحكام الشرعية نفسها. فإن الجانب الأكبر من أحكام المعاقدات مثلا يتسلط عليه الميل إلى استخلاص كل النتائج من تحريم الربا والميسر؛ أما أحكام العقوبات فأنها لا تتناول إلا جانباً بسيطاً من الأفعال المحرمة، بحيث يكون للأوامر والنواهي صبغة أدنى إلى أن تكون أخلاقية منها إلى الصبغة القانونية. إن مصدراً من مصادرنا الكبرى فيما يتعلق بهذا العصر هو على الرغم من تاريخه الأحدث قليلاً كتاب الموطأ لمالك بن أنس. إنه جدير بالذكر أن أقوال الفقهاء السابقين يتلو بعضها بعضاً في أبوابه التي تتصل بالأوامر الأخلاقية وبكافة الأحوال الشخصية والمواريث - تلك الأحكام التي ترى صبغتها الدينية بادية ظاهرة - في حين أن هذه الأقوال نادرة في كثير من الأبواب المتصلة بالقانون التجاري الذي كان بعيداً عن دائرة الأخلاق قليل الاكتراث له لا يثير مناقشات أهل الدين. فهذه الأبواب من جهتها تمتاز بتغلب مصطلحين فيها وهما السنة والإجماع. فمعنى السنة في كتاب الموطأ هو العرف والعادة المسنونة في المدينة، لا سنة رسول الله فقط، والفرق بينهما من جهة الاصطلاح ظاهر. أما الإجماع فمقتضاه في كتاب الموطأ غالباً أن سنة من السنن القانونية لم يستنكرها واحد من الأئمة لأسباب دينية أخلاقية. ويجب أن نذكر إلى جانب كتاب الموطأ لمالك بن أنس

مصدراً آخر هاماً لذلك الدور من تاريخ الشرع الإسلامي، وهو كتاب اختلاف الفقهاء لابن جرير الطبري، فهو على الرغم من القليل الذي انتهى إلينا منه؛ أكثر دلالة من الكتاب الأول. مثال ذلك أن الطبري يعلمنا أنه كانت هنالك عشرة اختلافات أساسية بين مذهب سعيد بن المسيب (أشهر فقهاء المدينة السبعة) وإجماع مذاهب الأجيال التالية، وهو شيء لا يظهر من المواضع العديدة التي أورد مالك فيها من هذا المرجع تأييداً لآرائه الشخصية. وثمة مصدر ثالث رئيسي لدراسة هذا العصر، هو كتاب أخبار القضاة لأبي بكر وكيع القاضي (توفي سنة ثلثمائة وست) فهو جامع لأخبار قضاة الأمصار الكبرى في الدولة الإسلامية طائفة طائفة على الترتيب الزمني من الابتداء إلى عصر المؤلف مبيناً ظروف توليتهم وعزلهم مفصلاً الحوادث التي وقعت طوال ولايتهم مورداً قضاياهم الهامة وأحاديثهم وشعرهم إلى غير ذلك من المعلومات. ويفيدنا هذا الكتاب عن مظهر آخر للحياة التشريعية وهو تطور بالعمل القضائي، فأن قضايا هؤلاء القضاة الأقدمين وعلى رأسهم الخلفاء الراشدين قد ساهمت مساهمة كبيرة في نمو الفقه. ولندع جانباً موادّ أخرى لم يتناولها البحث إلى الآن كتلك الموادّ التي يشتمل عليها تفسير ابن جرير الطبري الكبير، وننتقل إلى المصدر الهامّ الرابع لأبحاثنا عن ذلك العصر، ونعني به المعلومات الواردة في كتب الأحاديث وما يتعلّق بها. فقد أسلفنا القول بأن الفقهاء الأقدمين كانوا يأخذون القواعد التي كانوا يطبقونها على القانون

العرفي من القرآن والأحاديث التي كانوا يرونها صحيحة فلذلك ليس من العجب أن نجد إلى جانب الأحاديث كثيراً من القضايا والأحكام تتعلق بها لاسيما في الجامع الصحيح للبخاري. فإن صاحبه في تراجم الكتب والأبواب كثيراً ما يذكر آراء الفقهاء التي تدخل في موضوعه حتى ولو لم تتفق والأحاديث المذكورة أو أعوزت الأحاديث كل الاعواز. وإن لنا الحق في أن نفترض أن كل حديث ذي صلة بمسائل الفقه كان يلازمه أصلا رأي فقهي مطابق له حتى ولو كان هذا الرأي قد اختفى. والأحاديث - سواء أكانت صحيحة أم مطعونا فيها - هي في الواقع مصدر من الدرجة الأولى لفهم هذا التطور القديم للفقه، وعلى الباحثين أن يطابقوا بين الآراء الفقهيّة التي تعبر عنها الأحاديث وحالة الأشياء الحاصلة بعد استكمال الفقه على صورته النهائية. وأود أن أورد لكم بضعة أمثلة لهذه الطريقة - طريقة المطابقة بين الأحاديث الشرعيّة والفقه فالنص الأساسي للّعان، وهو مثالنا الأول، هو الآية الآتية: (والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلاّ أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين. والخامسة أنّ لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين). هذا النص لا يفصل في مسألة النكاح: أيقتضي اللعان فسخه ضرورة أم لا. فجميع مذاهب الفقه تقول بالإيجاب، وتستند في ذلك إلى أحاديث. ولكن تلك الأحاديث تثبت هذا الرأي بصورة جازمة قوية حتى أن الرأي العكسي لابد أن يكون قد وُجد قبل تأليف المذاهب. ويقال إن مصعب بن الزبير قد أخذ بهذا الرأي الآخر، لكن هذا القول لا أصل له؛ ولكن الخبر المنفرد عن عثمان البَتي أنه كان يرى ذلك فيؤكده متن الأحاديث نفسه. فأما فسخ النكاح عند اللعان فقد يحتمل أن يكون على ثلاثة وجوه: أن يفسخ النكاح بالطلاق الذي يجب أن يصدر عن الزوج، أو أن يفسخه القاضي المشرف على أداء اللعان، أو أن ينفسخ بوقوع اللعان نفسه. والرأي الأول يطابق بلا ريب المعنى الواضح لطائفة كبيرة من الأحاديث، بينما لم يبقَ له أثر ما في الأقوال المروية عن الفقهاء الأقدمين ماعدا جدال منفرد ضدّه؛ ولابد أن يكون قد اندثر من زمن بعيد، وقد فسّرت تلك الأحاديث على أنها مؤيدة للرأي الثاني، وهذا الرأي تشهد به أحاديث أخرى كثيرة، ويصفه الزهري بأنه سنّة، وهو مذهب الحنفية؛ ومن الراجح على الظن أن مالك بن أنس قد أخذ به شخصياً في حين أن المالكية قد آثروا عليه الرأي الثالث. وهذا قد أخذ به الشافعي ومن بعده الشافعية أيضاً؛ لكننا لا نجد أحاديث تؤيده. وهكذا يظهر من مقارنتنا للأحاديث بالمذاهب الفقهية تطوّر بيّن يتجه اتجاها معينا

فأحكام القصاص - وهو مثالنا الثاني - مبنية على آيات عديدة، منها الآية التالية: (يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم القصاص في القتلى الحرّ بالحرّ والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عُفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان) وقد فسرت هذه الآية تفسيرات مختلفة. منها تفسير يلوح أنه مطابق لمعناه الظاهر، يفيد في الواقع أن

رجلا حراً لا يمكن أن يُقتل إلا في رجل حرّ وفي المرأة امرأة فقط، وأنه في الحالات الأخرى يجب أداء الدية بدلا من القصاص. ويزعم أصحاب ذلك التفسير في نفس الوقت أن هذه الآية قد نسختها آية أخرى تنص على القصاص العام وهي الآية الآتية: (وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسنّ بالسنّ والجروح قصاص، فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون). كذلك أجمعت المذاهب الآن على أن الرجل يُقتصّ منه بالمرأة. وقد فسرت الآية الأولى أيضا بهذا المعنى استناداً إلى حديث لا شك في صحته مؤدّاه أن النبي أمر بقتل رجل في امرأة. ومع هذا كله فقد وُجد الرأي القائل بأنه لا ينبغي أن يُقتل رجل في امرأة، ويُذكر من أصحاب هذا الرأي عمر بن عبد العزيز والحسن البصري وعطاء وعكرمة، ولكن لا يكاد يوجد حديث يؤيد هذا الرأي، وهذا المثال يفيدنا علماً بأنه - ولو أن كل حديث يطابق قولاً فقهياً - فالعكس ليس كذلك وأن بعض الآراء الفقهية يمكن أن يكون مستقلا عن الأحاديث. ومثل هذا يُقال في مسألة العلم بهل يقتل كثيرون في شخص واحد إذا اشتركوا في قتله؟ ولما كان أصحاب هذا القول الذي أخذت به مذاهب أبي حنيفة ومالك والشافعي يعوزهم حديث لا مطعن فيه، فقد كانوا مضطرّين أن يستندوا إما إلى حديث لم يكن دليلا قاطعاً وإما إلى آراء بعض القدماء، وهو مما أثار انتقادات خصومهم

ولعل هذا يكفي في وصف ذلك العصر الخصيب من تاريخ الفقه الإسلامي. وحسبنا أن نلاحظ ختاماً لهذه المسألة أنه يمكننا بالانتفاع بالمصادر الميسورة اليوم أن نفهم فهماً دقيقاً تلك الوظيفة التشريعية التي قامت بها شخصيّة قديمة كشخصية إبراهيم النخعي. وبهذه الإشارة إلى ميدان واسع لأبحاث مستقبلية عظيمة الشأن نختم هذا الحديث الأول

يوسف شخت

الحجر المؤابي

بقلم جريس القسوس

اكتشف الحجر المؤابي في قرية ديبون القديمة (ذيبان) الواقعة ما بين نهر أرنون القديم (أو الموجب الحالي) ومادبا في أقصى شمال مؤاب (الكرك اليوم)، وتبعد ذيبان عن نهر أرنون نحو أربعة أميال إلى الشمال؛ وقد كانت قديماً قاعدة ملوك مؤاب في عصورهم الذهبية، أي التي سيطروا فيها على مؤاب الشمالية، ومؤاب الجنوبية. وفي سنة 1868 راد قس ألماني أسمه ف. كلاين القسم الشمالي من مؤاب، ومر في طريقه بذيبان، فعثر فيها على حجر مسنود إلى جانب سور المدينة القديم، منقوش على أحد جوانبه كتابة باللغة العبرانية القديمة، ويظن ترسترام أن الرومان استعملوه في بناء سور المدينة، غير أنه زحزح من مكانه الأصلي بسبب طارئ طبيعي ربما كان زلزلة. ويعتقد ترسترام أيضاً أن الحجر دحرج من مكانه بسبب الزلزلة التي حدثت سنة 1837، ولا يرى أن هذا الحادث متقدم عن ذلك التاريخ، إذ أن الكتابة لا تزال ظاهرة للعيان رغم تعرضها الطويل للشمس والهواء والمطر، وإذا اعتبرنا قوله هذا صحيحاً، تكون الكتابة قد ظلت معرضة للحوادث الطبيعية والتغيرات الجوية مدة إحدى وثلاثين سنة فقط

أدرك ذاك القس الألماني قيمة هذا الأثر، وأراد أن يبتاعه مبدئياً، أملا أن يبعث به إلى متحف برلين، إلا أنه لم يوفق في مهمته هذه، إذ ما كاد بدو بني حميده، القاطنين في تلك الديار يدركون قيمة هذا الحجر حتى ثار النزاع بينهم فانقسموا فريقين، كل فريق يرغب في اغتصابه واحتكار ثمنه. غير أن أحد الفريقين أدلج إليه مع سوّاح فرنسيين: ولما لم يتمكّنوا من نقله لثقله، خفّفوا من كثافته بفؤوسهم، وأخيراً حطّموه إلى عدة أقسام، حملوها على بغال وقطعوا بها نهر الأردن، فتمكّن بذلك السوّاح الفرنسيون من شرائه ونقله إلى متحف اللوفر بباريس، ولا يزال هناك إلى اليوم. وقد أخذ عنه قالب من الجبس لكي يحفظ في المتحف البريطاني. ولا صحّة لما أورده المؤلف هرمان هلبرخت من أن الحمايدة حطموا هذا الحجر، أملين أن يعثروا في داخله على كنز. ولقد جمعت قطع هذا الحجر، وعددها ثمان عشرة. وصُفّت صفّاً فنيّاً، وشُدَّ بعضها إلى بعض بقوالب حديدية متينة. حتى

استطاعوا أخيراً قراءة كل ما هو منقوش عليه
أما طول هذا الحجر فنحو ثلاثة أقدام ونصف قدم، وعرضه قدمان. وهو شبيه في مظهره الخارجي بعواميد أسر حدون الآشوري الحجرية الموجودة في متحف برلين. ولقد نقش عليه مائتان وستّون كلمة في أربعة وثلاثين سطراً، وذلك بالخط العبراني القديم
وللكتابة على هذا الأثر فضلٌ كبيرٌ على تاريخ الحضارة، لأنه حفظ لنا أنموذجاً من النحو والإنشاء العبراني القديم، ليس هذا فحسب، بل من الخط العبراني القديم أيضاً. فمن هذا الأنموذج يتّضح لنا شكل الحروف الهجائية السامية القديمة، هذا عدا أنه يساعد على دراسة تطور الخط الإغريقي
أما فحوى هذه الكتابة فهو مكّمل لما ورد في سفر الملوك الثاني (الإصحاح الثالث) من التوراة، من الحوادث عن مؤاب في القرن التاسع قبل الميلاد وذلك في عهد ميشاع ملك مؤاب الذي كان معاصراً لأحازيا ويهورام ملكي إسرائيل، ويهوشافاط ملك يهوذا. فبينما تورد التوراة قصة اتحاد يهوشافاط ويهورام وإنفاقهما على إخضاع مؤاب في عهد ميشاع، ترى ميشاع يخطّ لنا على هذا الأثر الخالد الأسباب التي أفضت إلى هذه الحرب، وكيف أن عُمْري ملك إسرائيل وابنه آحاب أخضعا الكرك، وامتلكا أرض مادبا؛ وكيف أن ميشاع تمكن بمعونة إلهه كيموش من استرجاع هذه البلاد، واغتنامه من الإسرائيليين مدينتي عطاروث ونبو وغيرهما من المدن الحصينة؛ وكيف أنه أعمل السيف في رقاب بني إسرائيل القانطين عطاروث تخليداً لاسم كيموش، وفيه يحدث ميشاع أيضاً عن اعتزامه على تحصين مدن مؤاب، وبناء قصر له في الكرك الحالية، وحفر آبار ماء فيها. أما عبادة مؤاب في عهد ميشاع، كما يظهر من هذا الأثر، فوثنية؛ إذ أن كيموش عندهم يقابل يهوه عند إسرائيل (سفر العدد ص 21: 29) (والقضاة 11: 24). والديانة عند ملكيهما أساس الوطنية والقومية الصحيحة؛ كما أن الملك أقرب فرد في الشعب إلى الإلهة. أما ماعدا كيموش فهناك (دودة وقد ورد اسمه في الكتابة على الحجر المؤابي، وإليك ترجمة ما كتب على هذا الحجر الأثري نقلا عن الكتاب الإنكليزي '
أنا ميشاع بن كيموش. . . . . ملك مواب الذيبوني)
كان والدي ملكا على مواب مدة ثلاثين سنة، وأنا ملكت بعد والدي
وأنا الذي شيدت هذا المكان العالي لكيموش في مع. . . . . (مكان الخلاص العالي)
حيث أنه أنقذني من. . . . . (مهاجميّ)
ولأنه جعلني أحقق كل ما أردت وأملت أن أفعله بمن كرهوني ولقد أنزل عمري ملك إسرائيل كلّ بلية بمواب أياماً عديدة، لأن كيموش كان ناقماً على وطنه، ولقد خلفه ابنه على العرش، وهذا بدوره رأى أن يسحق مواب، وفي عهده رأى. . . . (هذا) وأنا حققت ما كنت أؤمل أن يحل به وببيته، وهكذا هلك إسرائيل على بكرة أبيه إلى الأبد. لقد احتل عمري أرض ميدبا وسكنها طيلة حياته، ونصف حياة بنيه أي مدة أربعين سنة، ولكن كيموش استردها في أيامي
وأنا الذي بنيت بعلميعون، وأنا الذي حضرت هناك سدّ الماء وبنيت قرياثان. ولقد سكن أبناء جاد في أرض عطاروث منذ القدم. وبنى ملك إسرائيل مدينة عطاروث لنفسه وأنا حاربت هذه المدينة وامتلكتها، وفتكت بجميع أهلها
هذه المدينة مطمح أنظار كيموش ومواب. . وأنا الذي جلبت إلى ذلك المكان . . . . . موقد مذبح (دوده) وجررته أمام كيموش في قيرايوث. وأنا الذي جعلت ورجال أيضاً يسكنون هناك
ولقد قال لي كيموش (إذهبْ وخذ نبو من إسرائيل عنوة. فذهبت عشاء وحاربتها من مطلع الفجر حتى مطلع القمر مساء وأخذتها، وذبحت أهلها، سبعمائة رجل و. . . (ولد) وامرأة و. . . (جارية) وفتاة، وكرّست المكان لعشتار كيموش. ثم أخذت. . . (عبيد) يهوه وجررتهم أمام أعين كيموش
ولقد بنى ملك إسرائيل ياحاص حيث أقام في حين مقاومته لي؛ لكن كيموش دفعه أمامي. ولقد أخذت من مواب مائتي رجل، وكل الشيوخ هناك، وقدتهم ضد ياحاص فامتلكتها وأضفتها لذيبان
لقد بنيت وسور يعارم، وسور موند؛ وجعلت لها أبواباً، وأقمت فيها حصونا، وشيّدت دار

الملك. ولقد حفرت مجاري لجمع المياه وسط المدينة. ولما لم تكن بئر وسط المدينة أمرت السكان أن يحفر كلّ واحد منهم بئراً داخل بيته
وأنا الذي حفرت الحفرة في بمساعدة أسرى إسرائيل الذين كانوا في قبضتي أنا الذي بنيت عراعر، وفتحت الطريق العامّة إلى أرنون. وأنا الذي بنيت بيت بامورث وقد كانت خراباً. وأنا الذي بنيت بِصِره التي كانت مهدمة. . . أما. . . ذيبان فقد كان خمسين لأن ذيبان كانت تحت طاعتي. ولقد صرت ملكا. . . مائة، في المدن التي أضفتها إلى مملكتي. وأنا الذي بنيت. . . ميدبا وبنيت دبلاثان. أما بيت بعلميعون فقد قدت إليها. . . غنم الأرض. أما فيما يخص حورنايم فقد سكنها. . . و. . . وأمرني كيموش أن أنحدر وأحارب حورنايم؛ فانحدرت. . . كيموش في أيامي و. . . . من هناك. . . . . وأنا. . . . . .) اهـ
الجامعة الأمريكية
بيروت
جريس القسوس
في ميدان الاجتهاد
للأستاذ عبد المتعال الصعيدي
- 3 -
أصول الاجتهاد
إن أول شيء يجب أن ينظر إليه في ذلك هو ما يقوم عليه الاجتهاد من الأصول التي يرجع إليها فيه، فإن هذه الأصول إذا تركت على حالها كان ما نرجوه من فتح باب الاجتهاد قليل الثمرة، ضئيل الفائدة، ولا يؤدي إلى ما نطمح إليه من التمهيد لتشريع فقهي يجتمع فيه المسلمون على اختلاف مذاهبهم، ويتضافرون على استنباط الأحكام التي لا أثر فيها لتعصب مذهبي، ولا لحقد سياسي؛ كما تأثر بذلك اجتهادهم في الأزمان الماضية، فعمل فيه كل فريق وحده، وأخذ في ذلك بالطريق الذي يوافق هواه ومذهبه، حتى تباعدت مذاهبنا الفقهية، وأصبح الجمع بينها عسيراً مع بقاء هذه الأصول على أشكالها الحاضرة، فالسني لا يعمل إلا بإجماع أهل السنة، ولا يثق إلا بالأحاديث التي رويت في صحيح البخاري وغيره من الكتب المعتمدة عنده، والشيعي لا يعمل إلا بإجماع أهل الشيعة، ولا يثق إلا بالأحاديث التي رواها أئمته، ولا يذعن لما روي في صحيح البخاري ونحوه، كما لا يذعن السني لما يذعن له، وهكذا غير السني والشيعي، حتى أصبح كل فريق لا ينظر فيما عند الفريق الآخر من الأحاديث والأحكام، وتقطعت بهذا بيننا الأسباب، وبقيت الأحقاد القديمة تعمل إلى الآن عملها فينا مع زوال أسبابها، وذهاب عواملها
وهذا إلى أن هذه المذاهب التي نعاديها قد يكون فيها أحكام أحسن من أحكامنا، فإذا نظرنا فيها استفدنا ذلك منها، مع ما نجنيه من جمع الكلمة، والتقريب بين فرق المسلمين في هذه الأيام العصيبة
والأصول التي يرجع في الاجتهاد إليها أربعة أصول:
(1) الكتاب، وهو القرآن الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم منجما من ليلة اليوم السابع عشر من شهر رمضان للسنة الحادية والأربعين من ميلاده إلى تاسع ذي الحجة يوم الحج الأكبر للسنة العاشرة من الهجرة، حيث أوحي إليه بآخر آية نزلت عليه (اليوم أكملت
لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا)
(2) السنة: وهي ما صدر من النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير، وقد جاءت السنة مبينة للقرآن، ومفصلة له، كما قال تعالى: (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون) فكان يبين ما أراد القرآن أحياناً بالقول وحده، وأحياناً بالفعل وحده، وأحياناً بهما معاً، كما صلى وقال (صلوا كما رأيتموني أصلي) وقد أمر الله في القرآن باتباعه فقال: (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)
(3) الإجماع: وهو اتفاق المجتهدين من المسلمين في عصر من العصور على حكم من الأحكام الشرعية
(4) القياس: وهو إلحاق ما لم يرد فيه نص عن النبي صلى الله وسلم بما ورد فيه ذلك بناء على وجود مشابهة بينهما

فأما القرآن الكريم فهو أصل هذه الأصول الأربعة، وقد حفظه الله تعالى لهذه الأمة الكريمة سالماً من التغيير والتبديل، وقد كان له كتاب يكتبونه على عهد النبي صلى عليه وسلم، قيل إنهم كانوا ستة وعشرين، وقيل إنهم كانوا اثنين وأربعين، وكان ما يكتب منه يوضع في بيت النبوة، وكان بعض هؤلاء الكتاب يكتبون منه صورة لأنفسهم، وكان بعض الصحابة يحفظه جمعيه، وبعضهم كان يحفظ كثيراً منه، وقد هيأت هذه الأسباب كلها حفظه بين المسلمين إلى يومنا هذا، واتفاقهم على ألفاظه ونصوصه، وهم لا يختلفون إلا في فهم بعض هذه النصوص، ومن السهل جمعهم عليها، أو تقريب مسافة الخلف بينهم فيها

وأما السنة فكانت لا تكتب في عهد رسول الله لئلا يؤثر أمرها في القرآن الكريم، ولم يكن يكتبها على عهده إلا نفر قليل، مثل عبد الله بن عمرو بن العاص وغيره، فلما كان عهد عمر بن الخطاب أراد أن يكتبها فلبث شهرا يستشير ويستخير، ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له، فجمع الناس وقال لهم: إني كنت ذكرت لكم من كتاب السنن ما قد علمتم، ثم تذكرت فإذا أناس من أهل الكتاب من قبلكم قد كتبوا مع كتاب الله كتباً، فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله، وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء

فمكث أمر السنة على هذه الحال مدة طويلة تبلغ نحو مائة سنة بعد الهجرة، وهي في هذه المدة كلها لا تؤخذ إلا بالرواية، ولا تحفظ إلا في الصدور، فلما جاء عهد عمر بن عبد

العزيز على رأس المائة الثانية من الهجرة، بدأ الاهتمام بتدوين السنة خوفاً عليها من الضياع، أو أن يدخل فيها ما ليس منها، وكان هذا الملك الصالح أول من أهتم بذلك، فكتب إلى عامله بالمدينة وهي مجمع رجال السنة، وكان أبا بكر بن محمد بن عمر بن حزم، أن انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أو سنته فاكتبه، فأني خفت دروس العلم، وذهاب العلماء

ولكن هذا التدوين جاء متأخراً عن أوانه، ولم يحصل إلا بعد تشعب الأحاديث النبوية واختلافها اختلافا كبيراً يرجع بعضه إلى اختلاف الأمصار، وانقطاع بعضها عن بعض في تلك العصور فسار إلى كل مصر بمن نزل فيه من الصحابة من تلك الأحاديث ما لم يسر إلى المصر الآخر، وقد كان منها ما يحفظ بلفظه، ومنها ما يروى بمعناه على حسب ما فهمه السامع من رسول الله صلى الله عليه وسلم، والأفهام تختلف في ذلك، بل قد يختلف فيه السمع نفسه؛ كما روى مالك عن عبد الله بن أبي بكر عن أبيه عن عمرة بنت عبد الرحمن أخبرته أنها سمعت عائشة تقول - وذكر لها أن عبد الله بن عمر يقول إن الميت ليعذب ببكاء الحي - فقالت عائشة: يغفر الله لأبي عبد الرحمن. أما إنه لم يكذب ولكنه نسي أو أخطأ، إنما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بيهودية يبكي عليها أهلها، فقال: إنكم لتبكون عليها وإنها لتعذب في قبرها

ويرجع بعض ذلك الاختلاف أيضاً إلى ما حصل من انقسام المسلمين ذلك الانقسام السياسي - إلى جماعية وشيعة وخوارج - واستفحال أمر تلك الخصومة السياسية فعمل ذلك في التبعيد بين إفهام المسلمين ما لم يعمله اختلاف الأمصار فيها

وقد كان الخير كل الخير تدوين السنة في الزمن الذي جمع فيه القرآن الكريم، ولم يكن هناك خوف بعد جمع القرآن أن تلتبس به السنة النبوية، أو أن نقع من ذلك فيما وقع فيه أهل الكتاب من قبلنا. لأن أهل الكتاب لم يكتبوا كتاب الله كما كتبناه؛ وإنما كتبوا تلك الكتب وأكبوا عليها، فالفرق في ذلك كبير بيننا وبينهم، فلو أن السنة النبوية دونت في ذلك العهد لكان لنا منها سنة متفق عليها، أو تقرب على الأقل مسافة الخلف بيننا فيها

وإذا كنا قد فاتنا من هذه الغاية الحميدة ما فاتنا، فقد يكون في هذا الخلاف في السنة النبوية خير كبير لنا، وقد عد هذا الخلاف فعلاً رحمة بالناس؛ وقيل إن اختلاف الأئمة رحمة

وتوسعة، ولكن هذا القول لا يؤخذ على إطلاقه، بل تقف تلك الخصومة السياسية دونه، وتجعل في هذا الخلاف ما لا يكون معه رحمة خالصة، وتوسعة عامة

وإنه ليمكننا الآن بعد ذهاب تلك الخصومة أن نعتبر من اجتهاد أئمة الشيعة والخوارج ما نعتبره من اجتهاد أئمة أهل السنة، ولا يقوم ما يحول دون ذلك إلا تغالينا في علم الجرح والتعديل الذي وضعناه بجانب علم الحديث، مع أن هذا العلم لا يعتمد إلا على

ظواهر الرجال، وغاية ما يفيده الظن دون اليقين ولا يوجد ما يمنعنا بعد التخفيف من ذلك التغالي من أن نعتمد من رجال كل من أهل السنة والشيعة والخوارج من اعتمدوه، ونرفض منهم من رفضوه، وكذلك لا يوجد ما يمنعنا بعد التخفيف من ذلك التغالي أيضاً من الانتفاع بالحديث الضعيف في التشريع، والأخذ به عند الحاجة إليه، فلا نرفض من الأحاديث إلا ما ثبت أنه موضوع بيقين، ولا نتهم من رجال الحديث إلا من ثبت عليه الكذب قطعاً، ورب حديث ضعيف يكون هو الصحيح، ورب رجل متهم يكون هو الرجل الثقة

وأما الإجماع فقد اختلف في أمره، حتى قال فيه أحمد بن حنبل رضي الله عنه: (من ادعى الإجماع فهو كاذب، لعل الناس قد اختلفوا، ولكن يقول لا نعلم الناس اختلفوا إذا لم يبلغه)؛ وقد حمل بعض فقهاء الحنابلة ذلك على غير إجماع الصحابة، أما إجماعهم فحجة معلوم تصوره، لكون المجمعين ثمة في قلة، أما بعدهم فأنهم في انتشار وكثرة، وكذلك نقل عن الشافعي ما يفيد أنه لا يقول بوجوده إلا في الفرض الذي لا يسع أحداً جهله، من الصلوات والزكوات وتحريم الحرام، وأما علم الخاصة الذي لا يضير العوام جهله، فيقول فيه نحو ما قاله أحمد بن حنبل

وقد اتفقوا جميعاً على أنه لا يد من استناد الإجماع إلى نص من كتاب أو سنة، وإذا كان هذا شأنه معهما فلا يكون لعده من أصول الاجتهاد شأن كبير بعدهما، على أنا إذا أبقيناه الآن بين هذه الأصول، وأردنا أن نرجع إليه فيما نروم من فتح باب الاجتهاد، فسنجد أنفسنا أمام الإجماع لأهل السنة، وأمام إجماع ثان يغايره للشيعة، وأمام إجماع ثالث يغايرهما للخوارج، وهلم جرا، وإني أوثر أن نقف وجهاً لوجه أمام النصوص التي لابد من استناد الإجماع إليها، على أن نقف جامدين أمام هذه الاجماعات المتعددة، فمن الممكن معالجة هذه النصوص بتأويل أو غيره، ومن الممكن الجمع بينها بوجه من الوجوه التي

تتفق فيها الكلمة، أما الإجماع لا يقبل تأويلاً ولا جمعاً، ولهذا أرى أن نحذف هذا الأصل من الأصول التي يرجع إليها في الاجتهاد، وأن نرجع مباشرة إلى النصوص التي لابد من استناده إليها، فقد يفتح الله علينا فيها بفهم جديد غير ما فهموه منها، وقد نصل بذلك إلى حل كثير من مشاكلنا الفقهية، ولا يوجد أمامنا من هذا الأصل عقبة تقف في سبيلنا

وأما القياس فهو الأصل الذي بقي لنا من أصل الرأي الذي كان يأخذ به بعض كبار الصحابة مثل عمر وعثمان وغيرهما، وكان يعرف به قوم من الفقهاء يلقبون بأهل الرأي، وهو أتم من القياس شمولا، وأكمل منه اتساعاً، إذ كان على ما يظهر من فتاويهم عبارة عن الحكم الذي بيني على القواعد العامة للدين كقوله صلى الله عليه وسلم: (لا ضرر ولا ضرار) وقوله: (دع ما يريبك إلى ما لا يريبك) ولم يكونوا يهتمون بأصل معين يشبهون بمحله الحادثة التي يفتون فيها، كما يجب ذلك في القياس، ومن هذا إسقاط عمر سهم المؤلفة قلوبهم مع أن القرآن عدهم من المستحقين، وإسقاطه الحد عن السارق عام المجاعة، وتركه التغريب في الزنا بعد أن لحق أحد المغربين بالروم وتنصر، وجعله الطلاق الثلاث بكلمة واحدة ثلاثا بعد أن كان واحدة على عهد رسول الله وعهد أبي بكر وصدر من إمارته، وله من ذلك كثير

وقد حدث بعد هذا أن أخذ قوم يذمون هذا الرأي، وكان ذلك بعد ظهور العناية بجمع السنة وتدوينها، وقيام فئة من العلماء بذلك عرفوا بأهل الحديث، فشنوا غارة شعواء على أهل الرأي، وأخذوا يقولون إن الشريعة أجل وأرفع من أن تكون مجالا لآراء أهل الرأي من العباد، لأنها من الله كتاباً كانت أم سنة، وما كان كذلك يكون أبعد من الخطأ والاختلاف، والرأي من الإنسان، وهو عرضة لأن يخطئ وأن يصيب، وهنا يكون الاختلاف والفرقة، وقد نهينا عنهما - إلى غير هذا من أقوالهم في التشنيع على أهل الرأي

وهي كما ترى أقوال فيها كثير من الغلو، لأن الرأي إذا كان مبنياً على القواعد العامة للدين فهو من الله أيضاً، وهذه الفرقة التي يخشونها منه حاصلة بدونه كما نرى، وليست كل فرقة مذمومة في الدين، إنما المذموم فيه الفرقة المؤدية إلى التنابذ والتخاصم، والاختلاف في الرأي لا يصح أن يؤدي إلى شيء من هذا، مادام يكون رائدنا فيه الإخلاص وصدق النية

وقد وجدت هذه الأقوال في ذم الرأي آذاناً صاغية من الجمهور، وكان لهذا أثره في نفوس
أنصاره، فأخذوا يتقربون إلى أهل الحديث، ويتركون الاعتماد على هذه القواعد العامة الثابتة في الدين باليقين، إلى أن صاروا من هذا الأصل الجليل إلى قاعدة القياس التي لابد فيها من الاعتماد على أصل معين من الحديث الثابت بالظن
وإني أرى في هذا الأصل أيضاً أن نرجع فيه إلى ما كان عليه في عهده الأول من الشمول والاتساع، ولا نقتصر فيه على إلحاق الشبيه بالشبيه، ولا يخفى أن السنة قد اختلفت رواياتها اختلافا كبيرا ولابد من تحكيم الرأي فيها تحكيما مطلقا، ولست أدري معنى لتحرجنا الآن من تحكيم الرأي في علم الفقه وهو من الفروع بعد أن صرنا أخيرا إلى تحكيمه في علم الكلام وهو من الأصول، وقبلنا فيه عند تعارض دليل العقل النقل أن نرجح دليل العقل على دليل النقل، ويكون هذا بتأويل دليل النقل أو ترك أمره إلى الله تعالى
وهذا هو ما أراه في هذه الأصول الأربعة التي يقوم عليها الاجتهاد في الإسلام، وقد اقترحت في مقالي الثاني في هذا الموضوع عقد مؤتمر إسلامي من جميع المذاهب الإسلامية الباقية لفتح باب الاجتهاد فتحاً صريحا، وتنظيم أمره تنظيما يقضي على ما يساور نفوس أنصار التقليد من الخوف على الذين من فتحه
وهناك أمر خطير له أثره في تسهيل أمر الاجتهاد علينا، وفي القضاء على هذه العزلة في الاجتهاد بيننا وبين باقي الطوائف الإسلامية، وذلك هو تأليف كتاب في الفقه على جميع المذاهب الإسلامية، تجمع فيه أقوال الأئمة من سائر المذاهب المعمول بها الآن وغيرها، وتبين فيه مآخذها التي اعتمدوا عليها فيها، وهذا هو العمل الخطير الذي يجب أن يمهد به لفتح باب الاجتهاد من يدعون الآن إلى فتح بابه، وهذا هو باب المجد مفتوح على مصراعيه للرجل الذي نريد منه البدء بالعمل قبل أن تفوت عليه فرصته، ويكون للتاريخ بعد ذلك حكمه فيه، وقد بلغت اللهم فاشهد
اللهم إني لا أدعي العصمة فيما قلت، وفيما سأقول في هذا الموضوع، وإنما أريد أن أعرض رأيي فيه على صفحات مجلة (الرسالة) الغراء، فأن كان صواباً فمن الله، وإن كان خطأ فمن نفسي، وإني حيثما أعرض رأيي في ذلك على صفحات هذه المجلة، فأنه سيصبح في يوم ظهورها مقروءاً لألوف الألوف من علماء الدين وغيرهم، فتشترك فيه الآراء،
وتمحصه البحوث، وهذه وسيلة لتمحيص الرأي لم تكن متوفرة لأهل الاجتهاد الأول، وستكون لنا عوضاً مما قد يمتازون به علينا من سعة الإطلاع والعلم
عبد المتعال الصعيدي

صورة من الحياة العلمية في مصر

تقي الدين السبكي

بقلم محمد طه الحاجري

لا أحسب أن مصر قد ظفرت في عصر من عصورها الإسلامية بما ظفرت به في عصر المماليك من مظهر علمي سابغ، وأثر في تاريخ الفكر العربي خالد، وصوت طائر مرنان في أنحاء الإمبراطورية المصرية بما لعلمائها من نفاذ في البصيرة، وعمق في التفكير، وقوة في المناظرة، وشمول في المعرفة، وإحاطة مدهشة بآثار السلف، وإبداع في شتى نواحي العلوم النظرية والشرعية، فمقدار ما وسم به هذا العصر من سطحية في أدبه، وتفاهة في الصور الشعرية المنبعثة عنه، وضعف في الأسلوب الأدبي المتعارف فيه؛ كان عجيباً جهد ما يبلغه العجب في ذلك الجو العلمي السائد به، والروح العلمية الحق المهيمنة على رجاله، على ما كان يفهم من مدلول العلم إذ ذاك.
ولا تحسبنا بحاجة إلى الاستشهاد لذلك المظهر الرائع، فإن نظرة عامة إلى كتب الطبقات المصنفة في ذلك العهد مثل الدرر الكامنة، والضوء اللامع وغيرهما تشهد لهذا القول شهادة قاطعة لا تحتمل شبهة ولا تحتاج إلى مراجعة. وبمقدار ما كان يسود هذا العصر من اضطرابات سياسية مترادفة، وفتن في بلاد الأمراء متعددة، حتى لتعد سبعة عشر سلطاناً تولوا أمر البلاد مدة حياة رجل واحد كهذا الذي نترجم له، ثم ما يستتبع ذلك من فوضى في الحياة العامة لا يحدها حد ولا يضبطها ضابط؛ كانت النهضة الفكرية مطردة في سبيلها، والحياة العلمية تقدم للناس أحسن مثلها، والعلماء

يقومون على مذهبهم في الحياة بالرعاية والتقدير، لا يكاد يلفتهم عنه ما تعتلج به البلاد من الفتن، وما تموج به من الاضطراب

ولسنا الآن بصدد التعليل التاريخي لهذه الظاهرة التي لا نزاع في حقيقتها، وإنما سبيلنا أن نسجلها هنا لنلفت أنظار بعض القراء عندنا إلى أن التاريخ الفكري شيء غير التاريخ السياسي، وأنه لا ينبغي أن يصرفنا إنكار أحدهما عن الإعجاب بالآخر، وإنا لنرجو أن يتجه البحث العلمي اتجاهاً جدياً دائباً إلى إثارة دفائن هذا العصر العلمي المجيد في تاريخ مصر، وأن يعنى القوم عناية بليغة بكشف آثاره وتنور أسراره، فإن في ذلك متاعاً للروح العلمية التي تتمشى في نفوسنا، وقياماً بحق مصر الكريمة علينا، وتغذية للروح القومية

التي نحاول بكل سبيل تقويتها وتعزيزها في قلوبنا

وإذا كانت الصورة المقيتة التي تركها التاريخ السياسي والدرس المقتضب لهذا العصر في أذهاننا، قد صرفتنا عنه إنكاراً له، حتى ليود بعض الناس لو لم تكن هذه الفترة في تاريخ مصر؛ فإن الصورة الجميلة الرائعة التي تركها التاريخ الفكري لمصر عن هذا العهد جديرة أن تصرفنا إليه وتحببنا فيه، وتجعل منه مفخرة لنا تخفق لها قلوبنا، ومثلا عالياً لطلابنا ورجال العلم عندنا؛ حينما يستطيع البحث العلمي أن ينفض التراب عن هذه الصورة، ويجلوها للناس كريمة رائعة

وإنه ليغبطنا أن نقدم اليوم وجهاً من وجوه هذه الصورة، في شخص رجل من رجال ذلك العهد، لا نخطئ إذا قلنا إنه من خير ما يمثل هذا العصر تمثيلا يملأ قلوبنا روعة وإكباراً، ويهز مشاعرنا حباً وإعجاباً، وإن كنا نأسف لأن أسباب البحث لم تهيأ لنا كما ينبغي لعرض هذه الشخصية في أكمل مجاليها: ذلكم هو العلامة الشيخ تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي

- 1 -

ولد تقي الدين في شهر صفر سنة 683هـ (أغسطس سنة 1284م)، في أسرة شريفة النسب، كريمة الحسب، تنمى إلى قبيلة الخزرج الأنصارية من بطن منها يقال لها أسلم، كما أثبت ذلك النسابة المصري شرف الدين الدمياطي، وقد أشار إلى هذا النسب الشاعر المصري ابن نباتة في مدائحه للشيخ عبد الكافي السبكي أبي تقي الدين:

وبيت فضل صحيح الوزن قد رجحت ... به مفاخر آباء وأبناء

قامت لنصرة خير الأنبياء ظبا ... أنصارهم واستعاضوا خير أنباء

أهل الصريحين من نطق ولحن ظبا ... أهل الربيحين من نصر وإيواء

كما ذكره أيضاً القاضي صلاح الدين الصفدي في كتابه (أعيان العصر). وقال ابن فضل الله العمري في كتابه (مسالك الأبصار) في ثنايا كلامه عن الشيخ تقي الدين: (جواد جرى على أعراقه، وجاء على أثر سباقه. من عصابة الأنصار حيث يعرف في الحسب التليد، ويدخر شرف النسب للمواليد. . . . بزغ من مطلع الصحابة رضي الله عنهم، ونزع به عرقه إلى التابعين لهم بإحسان. وهو مثلهم إن لم يكن منهم)

ويظهر أن قبيلة (أسلم) التي ينتسب إليها تقي الدين لو تظل متميزة في مصر كما كان بعض القبائل الأخرى، بل اندمجت في المصريين وذهبت فيهم، ولعله لهذا السبب لم يذكرها المقريزي في رسالته (البيان والإعراب) بين القبائل التي بنى عليها رسالته. وإنما بقي نسب بيت السبكي معروفاً لمكانته الاجتماعية التي سنشير إليها. والحق أن ذلك البيت كان بيتاً مصرياً صميماً انطبع بالروح المصرية وسرت فيه، كما ظهر ذلك جلياً في المقدمة الجميلة التي كتبها أحد أفراد هذا البيت: بهاء الدين أبو حامد أحمد بن تقي الدين السبكي لشرحه على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني. فقد كتب فيها فصلا عن مصر وطبيعتها ومزاجها وأثرها في أهلها. كما يبدو ذلك في عاطفة الشيخ تقي الدين نحوها حينما كان يتولى قضاء القضاة في الشام، فقد كان يتمنى أن يأتيه أجله في مصر: أمنية من ثلاث

أما مكانة هذا البيت الاجتماعية فيظهر أن منصب الوزارة كان فيه، فقد قرن اسم جد تقي الدين الثاني كما جاء في سلسلة النسب الذي أثبته شرف الدين الدمياطي، بلقب الوزير. كما أشار إلى ذلك ابن فضل الله العمري فيما كتب عن الشيخ تقي الدين. فقال:

(ثم خرج من بيت الوزارة حيث تتقامر النجوم، وتتناصر ثم تتناصف الخصوم . . .)
وهكذا نرى أنه قد أتيح لشيخنا الجليل عرق في الشرف راسخ، ومكان في المجد باذخ، وأنه قد أمدته في حياته وراثة نبيلة، وأعانته من قومه مكانة جليلة. إلى بيئة علمية خالصة ترى في العلم وحده المثل الأعلى والغاية المثلى، فقد كان أبوه زين الدين عبد الكافي السبكي من علماء العصر وفضلائه، وكان قد أدرك الإمام الكبير تقي الدين ابن دقيق العيد وصحبه وأخذ عنه وتأثر به؛ وكان ذلك الإمام آية عصره في سعة العلم ونفاذ البصيرة وقوة الخلق، حتى يقول تاج الدين السبكي في طبقاته: (ولم ندرك أحداً من مشايخنا يختلف في أن ابن دقيق العيد هو العالم المبعوث على رأس السبعمائة المشار إليه في الحديث المصطفوي النبوي) وقد عرض عليه قضاء القضاة في مصر، وناهيك به منصبا، فتأبى وتمنع واستعصم بخلقه القوي وإيمانه المتين. ولكنهم مازالوا به حتى قبل، وإذا صار قاضي القضاة كان لابد له في دينه وورعه أن يتحرى جهده في تعيين نوابه على الأقاليم من صفوة العلماء. فكان زين الدين السبكي من أعيان نوابه كما كان من أعيان أصحابه: ولاه قضاء الشرقية والغربية
(يتبع)
محمد طه الحاجري
صديق البلاء
للأستاذ عبد الرحمن شكري
يغدر الناس في الشقاء ولكن ... غدره في الرخاء لا في الشقاء
إن تَفِدْ نعمةٌ عليَّ تَلَظَّى ... حسداً لي وكان من أعدائي
فإذا الدهر مال بي كان بَكّا ... ءً على محنتي وطول بلائي
المُواسِي في الحزن حتى إذا ما ... كنتُ في غضبة سطا بالعداء
في سقامي حلو الحديث شَهِيٌّ ... وهو يرجو أن لو يُخَلَّدَ دائي
فإذا ما صححت عاود بغضي ... وَيْله لو أُعَدَّ في الأقوياء
لدهاه الأسَى وطال عليه ال ... هم حتى يموت بالبرحاء
إنْ هجاني العدو أحْسَنَ قولا ... دافعاً فِرْيَةَ العِدَى بالثناء
فإذا ما مُدِحْتُ هَمَّ بقتلي ... ورماني بقذعه والهجاء
يا صديق البَلاء عطفك في النح ... س رياءٌ أبْغِضْ به من رياء
إيْهِ يا قلب ما دهاك من الخ ... لان أدهى من صولة الأعداء
خِلْتَ أن الصديق مثل نسيم ... نافع لازم قليل العناء
لا تنال الحياة إنْ لم تَنَلْهُ ... بره كالإخاء خير غذاء
إنْ تقدمتَ لا يعوقك منه ... عائق في منادح الأرجاء
ويعي ما تقوله ثم لا يل ... بث حتى يذيع في الأنحاء
مِنْ مديح تُطْري به مجدك الأم ... جد أو لبك السَّنِيَّ الذكاء
إنْ تُرِدْهُ تَجِدْهُ أو لم تُرِدْهُ ... لم تَخَفْ منه زورة الثقلاء
ما اختفى في دَخِيلَةٍ منه إلا ... ما بدا ظافراً به كل رائي
وَيْكَ إن النسيم قد يُرْمِدُ الطر ... ف بسافي التراب والأقذار
وهو مثل الصديق حراً وبرداً ... في اختلاف الحالات والأجواء
وَلَهُ غدرة إذا اعتكر الج ... ووأنحى بالصرصر الهوجاء
وعلى غِرَّةٍ يبلك بالمط ... رة مِنْ بعد رونق وصفاء
وهْوَ خِدْنُ الممات واسطة العد ... وى رسول الوباء والأدواء
عبد الرحمن شكري
فاجعة الروض
بقلم أمجد الطرابلسي
مالي أرى الروضَ بدا واجماً ... كاثّاكِلِ المفؤودِ في لَوْعَتِهْ
والطيرَ في أفيائِهِ ساهِماً ... يَشرَقُ بالأدْمُعِ من حَسْرَتِهْ
من حَطَّم الكأسَ وَقَدَّ الوَتَرْ ... وأبْدَلَ العُرْسَ تُرَى مأتَما؟
من أخرسَ الطيرَ وأردى الزّهَرْ ... وهذه الأفنانَ من هَشّما؟
قلتُ له: يا روضُ ماذا دَهاكْ ... ومنْ كَسا بِشْرَكَ هذا الوُجومْ
قالَ: سَمومٌ أوْرَدَتْني الهَلاكْ ... وكيفَ أستطيعُ نِضالَ السَّمومْ!

دَكَّتْ على البُلْبُلِ أوطانَه ... وطَوَّحَتْ بالزَّهْرِ فَوْقَ الرَّغامْ
وحَطمَتْ دوحي وأفنانَهُ ... ثُمّ مضتْ تَضْحَكُ وَسْطَ الظلامْ
فَقلْتُ يا خالِقَ هذي الرِّحابْ ... الرَّوْضُ لا يَعْرِفُ مَعْنى الأذى
ففيمَ سَلَّطتَ عليهِ العذابْ... حتى قضى الزَّهْرُ وماتَ الشَّذا
ألم يكُنْ أمسِ نديَّ الظِّلالْ ... مُوَرَّفَ الآصالِ عَذْبَ البُكَرْ
يَشدو بنعماكَ وهذا الجَلالْ ... ما غَرَّدَ الطَّيْرُ وَرَفَّ الزَّهَرْ
ربّاه إن الرَّوْضَ عَذْبٌ هَنيء ... وليسَ فيه شِرَّةُ الزَّوْبَعَهْ
وأنتَ لا ترضى عذابَ البريء ... كلا ولا يُرْضيكَ أن تَفجَعَهْ
رحماكَ لا تجعلْ نيوبَ الذئابْ ... تَفْترِسُ الشاةَ وَلم تُذْنِبِ
أو فامنحِ الشاةَ سِلاحَ الغِلابْ ... وأعَطِها النّابَ مَعَ المِخْلَبِ
الظلم يُصْوي وَيُّمض النفوس ... فأحطم أيا ربِّ يَدَ الظالم
لا تبسم الأكوانُ بَعْدَ العُبوس ... أو تَصْرِف الجوْرَ عَن العالم
أمسِ سمعْتُ الحملَ الوادِعا ... وَهُوَ من السكين يَلْقَى العَذابْ
يقولُ: إن المِبْضَعَ القاطِعا ... أرضى لِنَفسي من شَمات الذئاب
اطبع على العدل قلوبَ البشر ... أوْ فَليَكُنْ كلُّ الورى مجْرما
لا تنبتَ الأشواكَ بين الزَّهرْ ... فالشَّوكُ لا يُحسِنُ أنْ يرْحما
كم حُرمَ الشّاعِرُ طيبَ الكرى ... وآفةُ الإنسانِ فَرْطُ الشّعورْ
فَصُغْ مِنَ العَطْفِ قلوبَ الورى ... يا خالِقي أو قُدَّها من صُخورْ
مَنَحْتَني يا رَبّ هذا الفُؤادْ ... فكانَ لي كلَّ الأسى والشقّاءْ
يا ليتَ هذا القلبَ كانَ الجمادْ! ... وليت هذا العَقْلَ كان الغَباءْ!
أيَنْدُبُ البُلْبُلُ أحْدانَه ... ليَطْرَبَ الرَوْضُ وَأفْنانُه!
وَيُنْشِدُ الشاعِرُ أشْجانَه ... لتُطْرِبَ العالَمَ ألحانُه!
رَبِّ حَرامٌ أنْ تُقيم السّماءْ ... عُرْساً إذا لَفَّ البِطاحَ الدُّجى
وأنْ يُشادَ المَجْدُ فَوْقَ الدّماءْ ... وَيَشْرَبَ الزَّهْرُ دموعَ النَّدى!
رَبِّ خَنَقْتَ الزَّهرَ غَضَّ لإهابْ ... عَذْبَ الصِّبى يؤُذيهِ لَفْحُ الرّياحْ
فابعثْ إلهي النَّسَماتِ العِذَابْ ... تُداعِبُ الوَرْدَ وَتُحْي الأقاحْ
النَّرْجِسُ الرّفّافُ يا خالِقي ... كَيْفَ يُطيقُ الهَوْلَ والعاصِفَهْ؟
ارْحَمْهُ رَبّاهُ ولا تُرْهِقِ ... فإنَّهُ في رِقَّةِ العاطِفَهْ!
والبلبلُ المِسكينِ ماذا جنَى؟ ... هل يُحْسِنُ البُلبلُ غيرَ اللّحونْ
لِمْ هَدَّمَ الإعْصارُ ما قَدْ بَنى؟ ... لِزُغْبِهِ بَيْنَ حَنايا الغُصون
هاهُوَ ذا يَسْتَصْرِخُ الظّالما ... لكنّما الظّالِمُ لا يَسْمَعُ
وَيلك كَفكِفْ دمعكَ الساجِما ... فالكونُ لا تَعْطِفُهُ الأدمُعُ!
خَلِّ البُكى والبَثَّ يا بُلْبُلُ ... لا يُطْرِبِ الإنْسانَ هذا النُّواحْ
تَنْدُبُ يضحَكُ الجَدْوَلُ ... فاحْجُبْ عَنِ الأبصارِ هذي الجراحْ
دمشق
أمجد الطرابلسي
دراسات أدبية
في الأدب الإيطالي الحديث
بقلم محمد أمين حسونه

إن العبقرية القصصية الممثلة اليوم في أعمال طائفة من الأدباء الإيطاليين، لم يعن بها مع الأسف واحد من النقدة أو المشتغلين بالآداب العربية، ومعظم الذين تحدثوا عن نهضة القصة وقفت معلوماتهم عند جبرائيل داننزيو شاعر بسكارا؛ مع أن الفن الروائي الحقيقي يبدأ بعد عصر داننزيو، بل إن الفضل في تقدم القصة الإيطالية يعود إلى تألب العناصر على الجو الشعري الحالم، وانتفاء روح المرح، وفي التحدث عن الذات، وهي الصفات التي يرتكز عليها فن داننزيو الأدبي

وليس هذا معناه أننا نغمط داننزيو حقه، بل الواقع الذي يجب الاعتراف به أن زعماء الصفوف الذين سبقوا داننزيو، كانوا إما شعراء أو نقدة أو كتاب مسرحيات أو تراجم، ولم يتمخض الجيل الأدبي عن عبقريات أو مواهب قصصية مطلقا، لأن العصر كان فوضى، لا مقاييس تحده، ولا معالم يعرف بها، وقد شبه النقادة ريشارد جارنت هذا

العصر - في كتابه بأنه يحاكي المدرسة الفلسفية الإغريقية، التي وقعت تحت سيطرة الإمبراطورية الرومانية الفكرية
على أن الفضل في تفتح أذهان الأدباء الإيطاليين إلى الفن القصصي، إنما يعود إلى جيته وفيكتور هيجو وبلزاك وموباسان فهم في الواقع أساتذة المدرسة الأدبية الحديثة في إيطاليا، وفي مؤلفاتهم تتلمذ جيل الأدباء في أواخر القرن التاسع وأوئل القرن العشرين، وهي ظاهرة غريبة، فإن الأرض التي أنجبت في القرن الثالث عشر أستاذ الأقصوصة جيوفاني بوكاتشو، ظلت مجدبة زهاء ستة قرون إلى أن بزغ نجم داننزيو في سمائها
وقبل التحدث عن شاعرية داننزيو وفنه، نرى من الخير ألا نهمل الأثر البارز الذي غرسه أستاذه كاردوتشي في نفسه. والواقع أن كاردوتشي مؤسس مدرسة أدبية عظيمة لا نعرف لها مثيلا في الآداب الإيطالية. اللهم إلا تلك الجهود القيمة التي سجلها دانتي، وفي مدرسة كاردوتشي تتلمذ بنزبني وجراسيا ديلليدا وبيراندللو وجيوفاني بابيني وغيرهم من أعلام الأدب الحديث ولكارودتشي يرجع الفضل في تحويل الأدب الإيطالي من الصيغة القومية
الخالصة إلى النزعة الإنسانية والخروج برسالته من الحيز المحلي الضيق إلى المحيط العالمي وبث روح الإخاء المشتركة، وهي التي أملت عليه ملاحم: الربيع، والأم، وترنيمة الشيطان، وصقلية تحت سيوف العرب الخ. . .
ولقد خدم كاردوتشي الأدب الإيطالي كنقادة أكثر مما خدمه كشاعر، ومن هنا استطاع داننزيو أن يحمل تقاليد أستاذه مع محافظته على الطابع الخاص به. ويتمثل هذا الطابع في غمر قصصه بعناصر الاستمتاع وصبغها بألوان من الشهوة الصارخة المتأججة، فهو كفنان رجل عابد للجمال، متأمل للحياة من خلال أحاسيسه، يخضع الفن لسلطان العاطفة أكثر مما يخضعه لسيادة العقل. ومعظم أبطاله شهوانيون، لا تطيب الحياة لهم إلا في جو من القبلات والعناق، يقدرون معايير الجمال عن طريق الشهوة، وينبذون الفكر والتأمل فحياتهم داعرة متهتكة
والذين يعرفون شاعرية داننزيو في رواياته الرائعة، كانتصار الموت والفرح والنار يستطيعون أن يستشفوا من خلال سطورها روحه الهائمة، التواقة إلى عبادة الجمال والتمرغ في أحضان الفن الشهواني وأوكار الحب المبتذل الرخيص
على أن داننزيو استطاع عن طريق نزعته إلى المجد، أن يعيد إلى الأدب الإيطالي جو الوطنية الصارخ، وأن يضع لجيوش بلاده أناشيدها الحماسية التي ترتلها في ساحات الوغى والقتال
ولم يكن استيلاؤه على فيومي إلا نوعاً من الأساليب الشعرية، فبعد أن خرق معاهدات الصلح وسير أساطيله لاحتلال هذه المنطقة الحرة أذاع بياناً على العالم قال فيه: (أستحلف فرنسا التي أنجبت هيجو وأمريكا التي خرج منها لنكولن وإنجلترا التي خلقت ملنون أن تكن شاهدات عدل على ما أتيته. أنا ابن الوطن الجندي المتطوع الذي دفعته الغريزة الإنسانية إلى أن يضم الرضيعة فيومي إلى أمها إيطاليا)
وفي قصيدته الحماسية الرائعة التي خاطب بها كبلنج شاعر الاستعمار البريطاني بمناسبة حرب الحبشة، تبدو أمامنا قوة شاعريته الظامئة نحو المجد إذ قال: (إن الرياح الأفريقية القائضة التي تسفع وجوهنا اللاتينية الجميلة لا تعادل جزءا من قوة إعصار البطولة التي تهب على قريحتي كلما فتحت دواوينك لأترنم بأناشيدك الاستعمارية في الهند وإفريقيا.
فأراني في كهولتي عاجزاً عن أن أقود جيش بلادي إلى (فيومي) أخرى، فهيا يا أبنائي إلى النصر. . . لأن مصير مجد الإنسانية الجديد متوقف على انتصار (الرومانية) ضد (البربرية) وحلفاء البربرية. . . إن الحرب ضرورة عالمية لخلق جيل جديد وإعادة شباب الإنسانية وتطهير الأجسام والأرواح وإنعاش بطولة التاريخ)
ومن رأي داننزيو أن إيطاليا الفاشستية ترى في اسم قيصر رمزاً أبدياً لأعظم ضروب مجدها الوطني وأن غاية ما يتمناه اليوم استعادة مجد روما القديم الذي تألق في عصر قيصر
بنزبني
وعلى الضد من داننزيو، نرى زميله جيوفاني بنزبني ينحو في فنه منحى جديدا، ويؤدي

رسالة أستاذه كاردوتشي عن سبيل آخر هي معالجة مشكلات العصر في ضوء من الانتقاد المر اللاذع
وعلى الرغم من أن بنزبني ولد في نفس العام الذي ولد فيه داننزيو فإن اسمه كأديب وقاص لم يعرف إلا في السنوات الأخيرة للحرب العظمى. أي في الوقت الذي بدأ الإيطاليون يتمردون فيه على أساليب داننزيو الشعرية وفنه الأناني. وقد استطاع بنزبني أن يقضي تماما على نفوذ زميله عن طريق الحملة المدبرة التي تولى قيادتها أدباء الشباب في فلورنسا وغيرهم من الملتفين حول جريدة (الصوت)
ولا يخفى ما لبنزبني من النفوذ القوي في دوائر الصحافة الأدبية فهو يعاونها بين وقت وآخر بالمساعدات المادية والأدبية
وأكثر ما نلمحه في فن بنزبني الروائي خلوه من الأساليب المعقدة والنزوع إلى حياة الطبيعة الهادئة والرجوع بالإنسانية إلى طفولتها الأولى كما في روايته (العالم يدور) وتعرضه لمتاعب الحياة المادية في شيء من السخرية اللاذعة والنقد المر ممتزجاً بمسحة من روح الفكاهة والمرح البريء. وقد استطاع في روايتيه الرائعتين (ارمندا التعسة) و (مصباح ديوجين) أن يحلق بنا في جو تمور فيه الأشباح المعذبة من جراء المشكلات الأخلاقية في العصر الحديث
جراسيا ديلليدا
ولعل جراسيا ديلليدا هي القصصية الوحيدة التي تبتعد بفنها الروائي عن الجو العالمي لتعيش في دائرة جزيرتها الضيقة (سردينيا) بين القرويين ورعاة الأغنام لتصور حياتهم أروع تصوير في مؤلفاتها التي تحمل طابعي السذاجة والبراءة والدعوة إلى التمسك بأهداب الفضيلة
وعلى الرغم من أن هذه القصصية المجيدة أحرزت جائزة نوبل في الأدب، وانتخبت عضواً في أكاديمية روما وفي مجمع الخالدين الذي أسسه موسولني عام 1926، وعلى أنها محور الحياة الأدبية في إيطاليا، فهي عزوف عن الشهرة، وتتحاشى جهدها الظهور في المحافل والأندية، أو بث الدعاية لفنها في الصحف والمجلات
وقد تجلت موهبة ديلليدا القصصية في روايتها (الأم) التي ظفرت من أجلها بجائزة نوبل، وهي عبارة عن مأساة قسيس شاب نفذ الحب إلى أعماق قلبه فقهره واستولى على لبه حتى غلب على أمره وأصبح خاضعاً لسلطانه بحيث أفسد عليه وظيفته الروحية المقدسة
ولكن ليس هذا كل ما في الأمر، (فالأم) التي خصصت حياتها لمحبة ابنها ووهبته للكنيسة وخدمة مجد الله حتى غدا قسيسا يصل بينها وبين السموات المشرقة، هذه الأم قدمت من الريف يوما تطلب ابنها فإذا بهذا الذي أودعته ذرات حياتها وتفكيرها، وعلقت عليه آمالها في الحياة الأخرى، تأسره امرأة فيصغي لنداء القلب، ويهجر مركزه الكنسي كي يتفرغ لشؤون الحب والحياة
وفي الساعة التي تذهب فيها الأم إلى الكنيسة لتضرع إلى الله واجفة القلب، دامعة العين أن يحرس وحيدها ويلهمه الرشد، إذا بالابن يتقدم في خطى ثابتة نحو المحراب الذي تصلي الأم على مقربة منه ليتجرد من ملابسه الدينية ويخرج من الكنيسة، فتصعق الأم وتفيض روحها إلى جانب المحراب
وقد أصبح (الأم) عنوانا مألوفا في إيطاليا، فإن ملحمة كاردوتشي الشعرية التي ظفر من أجلها بجائزة نوبل كانت موسومة باسم الأم، ومعهد الأمومة الدولي الذي أسس بسردينيا أطلق عليه اسم (الأم)
وقد ذكر النقادة الإيطالي ستاينس رويناس محرر صحيفة التريمونا، في دراسة أدبية عن قصص ديلليدا: (أن فنها الروائي يدور حول التفاؤل بالخير لأنها تؤمن بأن الله دائماً ضد
الشر. وهي صانعة ماهرة أكثر منها فنانة مبدعة، وبالنسبة لتصوير عادات بلدها مثالة ذات ضمير حي، أما رسم العواطف الخارجية عن محيطها ففي سذاجة فطرية بسيطة)
ولم تشذ عن هذه القاعدة إلا في رواية واحدة هي الابابة فهي مصبوغة بعاطفة إنسانية عميقة، وقد كتبتها بعد زواجها ونزوحها عن جزيرتها إلى روما حيث كان أثر انعكاس الحياة الجديدة قوياً في نفسها

أما قصتها الرائعة (السيدة الصامتة ذات الشعر الفضي) ' فهي عبارة عن تاريخ حياتها وقد كتبته بأسلوب بسيط جذاب، فقصت نشأتها في قرية نورو بسردينيا وتفوقها في الآداب وهي لا تزال طالبة بالمدرسة الثانوية حتى ظفرت بجائزة قدرها خمسون ليرة كانت إحدى المجلات قد رصدتها لأحسن قصة تقدم إليها
وتحدثت عن زواجها وعن الفضائل الشائعة في بلدها وتعلقها بجبال سردينيا وتجارها وأشجارها، وهي في هذا تقول: (أهلها هم أهلي، أرضها ووديانها شطر من كياني، فلماذا أفتش عن موضوعات قصصية وراء الأفق، مادمنا نستطيع أن نفتح أعيننا على مآس وفواجع تقع في كل ساعة بين أيدينا؟ إنه لمن العار ألا نكون في جانب الصدق. ألا نرسم الحياة التي نعيش في داخل نطاقها، ولو كانت ضئيلة تافهة، أما التعبير عن الاحساسات الخارجة عن دائرة شعورنا الحقيقي فسقوط فني بشع، إنني أكتب لنفسي اليوم، وبحكم شعوري الخاص، أما توقع النجاح فأتركه للمستقبل)
وبالإجمال فأن ديلليدا تمكنت من أن تقدم للعالم صورا واضحة من حياة أهل الجزيرة الصخرية النائبة التي لم تصل الحضارة الأوربية إلى بعض أطرافها وأن تصف عاداتهم القديمة وأساليبهم في العيش حيث يؤمن الناس بمبدأ المساواة بين الجنسين وإعدام المرأة إذا ثبت عليها جريمة الزنا
(يتبع)
محمد أمين حسونه
القصص
درامة من اسخيلوس
محاكمة أورست - 2
(الدرامة الثالثة من الأورستية)
المنظر: (في الأكروبوليس بأثينا)
الزمن: (بعد فرار أورست من الأديتون بحقبة غير قصيرة)
(يدخل أورست)
للأستاذ دريني خشبة
- 6 -
- (مينرفا يا ربة العدالة!
هاهو ذا أورست، المنبوذ الطريد، يلجأ إليك بعد لُغوبٍ وأَين، وكد وعناء، يستظل بظلك الوارف، ويلتمس الإنصاف في جوارك، والعدل في حماك، طاوياً إليك القفار من لدن أبوللو، إلهي الذي أنفذني إليك غير مدنس بوزر ولا مُضرّج اليدين بدم، بعد إذ نشأت ربيب غربة وحلْف آلام. . . أصلي لك يا مينرفا وأتبتل! وألوذ بك وأتوسل، أن تتأدني فتنظري في أمري، وتشدي بعدالتك أزري، وتفصلي في الحادث الجلل الذي انتدبني أبوللو له. . . فكان شجني. . . وكان حَزَني!)
وما يكاد أورست يفرغ من صلاته وبثه حتى تدخل ربات الذعر فيروعهن أن يرينه متحنثاً في معبد مينرفا
- (هيا!! إنه هو بعينه! وإن الدم ما ينفك يقطر من يديه الآثمتين! إنه هنا، وقد ذرعنا الأرض باحثات عنه! وإنا لنشم رائحة الدم تنتشر عنه! لنحط به؟ لن يفلت هذه المرة هذا القاتل! لقد اختبأ من قبل في صومعة أبوللو، وهو اليوم يأوي إلى الأكروبوليس ويسجد بين
يدي صورة! صورة الخالدة مينرفا! يحسب أنها تضع عنه وزره! تعال تعال! لنمزق لحمك الغض الطري، ولتغتذ بشبابك البض الفينان! ولنقذف بك في حميم الجحيم! إنك لن ترى هناك مظلوما. . . بل هم جميعاً مثلك. . . قتلة. . . آثمون. . . عتوا على أنفسهم وعلى الآلهة وعلى الناس! كل يلقى جزاءه ثمة! فلتسجل عليك هيدز كما سجلت عليهم!)
معاذ الحق يا ربات الذعر! لقد ثقفت الحكمة في معاهد الشفاء! وسترين أنني أدفع عن نفسي تلك التهمة الباطلة، لأن سلطاناً علويا يحل عقدة لساني! هاهي ذي يدي نقية بريئة طاهرة لا أثر للجريمة فيها! لقد اطهرت من الدم الذي ترين أن تأخذنني به، لأن أبوللو، تبارك وتقدس، قد صب عليها شؤبوب رحمته! أنا لم أكن يوماً مجرماً ولا قاتلاً يا ربات؟! ولقد عشت في قوم غرباء سنين عددا، فلمَ أكون مجرماً وقاتلاً اليوم!؟

لم لم أسيء إلى أحد قبل هذه المرة إن كنت آثماً شريراً مجبولاً على إيذاء الغير؟ ستمر الأيام، والزمن وحده زعيم بإظهار براءتي! وهأنذا أدعو مينرفا بفم نقي وشفتين طاهرتين، ولسان خير مُبرَّا أن تسمع إلى نجواي، وتستجيب لندائي، وتكون الفيصل الحق بيني وبينكم؛ فقد كنت، وكل مواطني، عبادها الأمناء. . . وهي لا بد مصيخة إلى صرختي. . . مهما تكن بعيدة الآن في بعض شأنها.)

- (لا يقرن في نفسك أبدا أن يحميك أبوللو، أو تدفع عنك مينرفا ما قدر عليك أن تلقاه جزاء على ما اجترحت وفاقاً!! ستذهب على وجهك على أرض كلها حسك، وفي سبيل موحشة إلا من الهموم والحسرات! خَرسْت! يا قاتل أمه! سنمزق لحمك الذي يتدفق فيه دم خطاياك، وسنأكلك حياً لتكون قرباناً للبطن الذي حملك، فبقرته جزاء له!! ويل لك. . . ويل لك! اصغ إذن لأنشودة موتك، قبل أن نبطش بك!)

- 7 -

وتعزف موسيقى الجحيم!!

فاستمع لها فماً من الرعد، وبوقاً مفزعا من أبواق الدار الآخرة، ولساناً كله ذعر من ألسن هيدز!! لقد طفقت ربات العذاب يرقصن ويغنين، وينفخن في مزامير الموت، فأنكرن من أبوللو حمايته للمجرم الذي سفك دم أمه، ووقوفه في سبيلهن من بعد يمنعهن حقهن في تعذيب القاتل، وتشَكّين من زيوس الذي يمقتهن بغير الحق، مع ما خصتهن ربات القضاء

من فضل على الآلهة. . . وتودعن أورست بالويل والثبور، وعظائم الأمور وبالظلمة الغاشية التي تتردى فيها روحه بعد أن يبطشن به

وفيما هن يتغنين أغنيتهن المنكرة، إذا مينرفا تقبل. . . فَيَصْمُتْن!!

- (أوه! لقد تردد في أذني دعاؤكم يا صحب، إذ أنا أجول في الأرض المفتوحة باسمي على شطئان الهلسبنت، فرأيت أن أعود إليكم، حاثة المطى التي تعرج في السموات، حاملة درعي إجبس، فما هي إلا أن خفقت خفقة أو خفقتين، حتى آبت إلى معبدي! ما بالكم؟ من هذا المسكين الراكع عند قدسي المحرم؟ وأنتن! العياذ بالأولمب؟ إنكن لا تشبهن أحداً من الناس، ولا أحدا من الآلهة؟ يا للنكر؟! ولكن. . . معذرة. . .!

- (تباركت يا ابنة زيوس سيد الأولمب وكبير الآلهة! نحن بنات الليل الدجوجيّ. . . ساحرات السُّفْل. . . موطننا الأعماق من هذه الأرض!)

- (أعلم ذلك كله. . . أسماءكن ومثواكن)

- (وتعلمين ما انتدبنا له القدر. . . صيد القتلة وتطهير الأرض من المجرمين!)

- (وإلى أين ينتهي بالقاتل، سافك الدماء، مطافه في هذه الدنيا؟)

- (إلى حيث لا فسحة أمل، ولا مهلة لِسَرّأء!)

- (إذن أنتن تحاصرنه هنا الآن؟)

- (مادام قد رضى لنفسه أن يكون قاتل أمه، ومهرق الدماء!)

- (أعن رضى؟ أم قسره على ذلك شجن لم يكن له به يدان!؟)

- (وأي شجن يقسر على قتل الوالدين؟)

- (لقد سمعت طرفاً واحداً. . . فلأسمع من الطرف الآخر)

- (إن المتهم ليعجز عن الحلف، ومن يدري؟ فقد يقسم حانثا؟؟)

- (يبدو لي أنكن تؤثرن مظهر العدالة على العدالة نفسها؟!)

- (وكيف يا ربة الحكمة الزاخرة؟ خبرينا!)

- (إي وأرباب الأولمب! لا تأبهن بنصر يأتي عن يمين كاذبة!)

- (إذن سَلِيه! واحكمي بيننا بالحق!)

- (وهل تقبلْن أن يكون قراري القرار الفصل؟)

- (أجل! إقراراً لما لك من فضل! وما لأبيك من نبل)

- (إذن، أجب أيها البائس بدورك! ولكن، اذكر لنا أولاً: ما أنت؟ وما موطنك؟ وأي غم يلم بك؟ ثم ادفع التهمة عن نفسك إن تكن باطلة، واذكر إن كنت على حق إن صح أنك قتلتها. . . إني لأراك تلوذ بوثني، وتستجير بقدسي، قل. . . أجب. . . تكلم. . . قل الحق. . . والحق الصراح)

وكفكف أورست عبراته، وقال:

- (إلهتي ربة العدالة)

لو كنت مجرماً سفاك دماء ما جسرت أن ألوذ بك، ولما قويت على اقتحام قدسك وتدنيس بساطك والتعلق بوثنك، وإن سفاكا مجبولا على الشر لن يستطيع أن ينبس بدعوى كاذبة في حضرة مينرفا ربة العدالة التي تستشف الأسرار وتدرك خافية القلوب وخائنة الأعين بلمحة طائرة من عينها الصائبة. . . ولقد وقفت أمام آلهة أخرى من قبل، فما كنت أجسر على قولة أرسلها إلا أن تكون حقاً. . . . . إذن، أنا مواطن من آرجوس، وأبي، يا ويح له من أب، أحد عبادك المخلصين؛ إن لم يكن أحبهم إليك. . . أجاممنون يا ربة العدالة! أجاممنون قائد جندك وأمير أسطولك، الذي أعنته على أعدائك، فأنتصر على بريام وقهر إليوم، وعاد ليسبح بحمدك ويشكر لك. . . ولكن! يا للهول! لقد دبرت له زوجته الآثمة. . . أمي. . . أمي التي خانت عهد زوجها، وداست عرض مملكتها، وفتحت قلبها لغير رجلها. . . أمي هذه يا ربة العدالة قد دبرت لرئيس جندك، وأخلص عبادك قتلة غادرة، تكتنفها الظلمات، وتضرب من حولها الأسرار، فذبحته يوم عودته من الجهاد في سبيلك والذود عن اسمك، غير راعية فيه إلاً ولا مبقية على عهد. . . . . .

ثم لم تبال أن تعترف، وجثته بين يديها، أنها قتلته. . . وأنها صاحبة دمه. . . . . وكانت قد قذفت بي، إذ أنا طفل أحوج ما يكون إلى حضن أم وفؤاد أب، إلى أعماق منفى سحيق مقفر، أعاني الذل وأدرج في حجر التعاسة، فلما شببت وبلغت الحلم، كان أول واجب علي في الحياة أن أثأر لأبي المظلوم، من أمي الآثمة، فعدت إلى آرجوس وقتلتها. . . أجل. . . قتلتها. . . قتلت المرأة التي قتلت أبي. . . أقر. . . أعترف. . . قتلت أتعس الأمهات، فهل سمعتن يا ربات العذاب وزبانيات جهنم!؟. . . . . ذلك إذن وزري، إن كان في مثل هذا العمل وزر. . . وقد شاركني فيه أبوللو. . . أوحى إلي أن أقتل أمك. . . . .. فقتلتها. . . ولو لم تكن آثمة من قبل ما أرقت قطرة واحدة من دمها

(. . .هذه يا ربة العدالة قضيتي فرَيْ رأيك فيها وأنا قابله. . . وسأخضع له . . .وأجهش أورست بالبكاء. . . فبدا التأثر الشديد على وجه إلهة العدالة قضية معضلة، وكان حري بكم يا بني الموتى ألا تضطلعوا بها. . . بل أنا نفسي أكاد) - أجاوز حدودي حين أقيم من نفسي فيصلاً فيها بينكم! وَيْ! لقد أقدمت على عجل إلى أثينا. . . مقدسي وطوبايْ. . . فيالك من لاجئ مهيض الجناح، مبَلبل الروح. . . في حين تبدو صحيفتك غراء ناصعة!. . . ولكن!. . . أصغ إلي يا أورست! لقد كدت أدعوك مواطناً. . . لولا ما ينبغي لك من إيضاح براءتك، وتمهيد طريقك، ورأب الصدع الذي تلج منه إلى اتهامك ربات الذعر. . . اللائى يأبين إلا أخذ المجرم بجرمه. . . لأنه عملهنّ، ولا محيص من أدائه لهن. . . فجلِّ برهانك، وأعد حجتك، وأيد حقك بيقين يقشع الشك. . . حتى أعود بالمحلفين العدول من أثينا، لأشركهم في هذه الحكومة الشائكة، والقضية المربكة. . .)

(تخرج مينرفا)

- 8 -

ويستولي طائف من الشك على ربات الذعر، وتروعهن عن مينرفا هذه النعومة التي لقيت بها أورست، فيهزجن بنشيد طويل من موسيقى الجحيم، كله قصف وكله رعد، وكله ودق يخرج من هذه الأفواه الشائهة، والألسن التي تتلوى كألسن النيران. . . وينعين على الإنسانية ما يعصف بها من ظلم إذا انتصرت الجريمة، ولم يقف في سبيلها قصاص. . . (هنالك تنقلب الدنيا فتصبح مباءةً للاثم، وهنالك يغدو الناس شراذم من اللصوص وقطاع الطرق والسفاكين، وهنالك لا يأمن والد على نفسه من ولده، ولا أم هي مطمئنة على حياتها من أبنائها. . . ويومئذ تعم الشرور وتطغي الويلات. . . حتى لا يكون شبر من الأرض فيه أمان لآمن، مادمنا نحن نائمين عن المجرمين لا نأخذهم بآثامهم، ومادام هؤلاء الأرباب يضربون سلطانهم علينا، ويتدخلون في شؤوننا، من غير حق ولا برهان مبين. . . . . .)

وتدخل مينرفا، فتهتف بسادن المعبد قائلة:

أذِّنْ في عبادي بالصمت أيها السادن، أو انفخ في صورك حتى تردد أصداؤه في) - السموات معلنة انعقاد محكمة العدل، فلا ينبس أحد ممن بالمدينة الخالدة بكلمة، ليعوا شريعتي، ولينقشوها في صفحات صدورهم، ولتخلد ثمة إلى ما أشاء!)

(ويظهر أبوللو فجأة فتقول ربات الذعر:)
- (أيها الإله أبوللو! فيم أقبلت؟ ألتشارك في قضية ليس لك فيها شأن؟)
- (لقد أقبلت لأبرهن على براءة هذا الضارع البائس الذي لاذ بي، وصلى لي، وسألني معونتي لأضع عنه الوزر الذي تأخذنه به. . . وأقبلت كذلك لأدافع عن نفسي فيما يخصني من هذه القضية، لأني شريك في مقتل كليتمنسترا. . . . . أيتها الربة العادلة مينرفا! خذي في سؤالنا بما يبدو لك. . . فأنا منصتون!!)
فتقول مينرفا: (إذن نبدأ القضية، ولقد سمعت حديث الاتهام من أفواه هؤلاء فكانت حجتهن دامغة وبرهانهن ساطعاً.)
فيشيع البشر في أوجه ربات الذعر وتخاطب رئيستهن أورست قائلة:
- ها قد سمعت. . . وسمعت من قبل كلماتنا القلائل حينما اتهمناك وأقمنا عليك البينة، فهلم فتحدث، ولتتحدث باختصار كما تحدثنا نحن من قبل، ولتجب عن هذا السؤال أولاً: أولم تذبح أمك يا أورست؟!)
- (أنا لا أنكر أنني ذبحتها يا ربات!)
- (قُضي الأمر! ها قد فرغنا من ثلث المعركة!)
- (تهْن ما شئتن؛ فأنكن لم تصرعنني بعد!)
- (ها!. . . بقي عليك أن تخبرنا كيف ذبحتها؟)
- (بأبيض ذي شفرتين! أرسلته فوق رقبتها، وخوّضت به في صدرها، فقطعت وتينها!)
- (وهل حرضك على هذه الجريمة أحد؟)
- (بأمر أبوللو كما يشهد هو بذاك!)
- (أمرك الإله، سيد الشمس، أن ترتكب جريمة قتل الأم؟)
- (أمرني بها، وأنا مؤمن بما فعلت، مطمئن إليه!)
- (ها. ها. سرعان ما تغير لهجتك حينما يسمُك القضاء العادل!)
- (سينتفض أبي في رمسه فيحل محلي! أنا لا أخشى شيئاً!!)
- (آي! وهكذا تعتمد على العوْن يمدك به الموتى! يا قاتل أمه!)
- (إن هذه الأم تحمل وزراً مضاعفاً وإثماً أنكر من إثمي، إن يكن لي إثم!)
- (وكيف؟ قص على المحكمة!)
- (أجلْ! فلقد ذبحت بعلها. . . وذبحت أبي!!)
- (لقد خلصت من أوزارها بالموت!)
- (لقد خلصت من أوزارها بالموت؟! ها. ها. . . عجيب أمركن! مالكن كيف تحكمن؟ لقد قتلت زوجها. . . وقتلت أبي وعاشت سنوات عشراً. . . فأين كنتن؟! لِمَ لم تقصصن أثرها كما تقصصن أثري!)
- (ذلك لأن رحماً لا تصلها بمن قتلت! ولا رابطة من دم!)
- (إي! وأنا؟ أي رابطة من الدم تصلني بمن قتلت؟ ألمجرد حملها بي وأنها ولدتني؟)
- (أكبر رابطة أيها اللعين! لقد غذتك إذ أنت في أحشائها، واحتملت كثيراً من أجلك!)
- 9 -
وكأنما ضاق أورست ذرعاً بربات الذعر فهتف بأبوللو يقول:
- (والآن يا إلهي أبوللو أدِّ شهادتك، وليفض بالحق لسانك! هل كنت على حق حين قتلت أمي؟! إني لا أنكر مما صنعت شيئاً، ولكني جد محتاج إلى دفاعك. . . فقط. . . لتجلو الحقيقة لهذا المجلس الموقر، ولكل الحاضرين هنا!!)
فينهض أبوللو، ويرسل حديثه في جلالة ووقار:
- (أصارحكم القول يا جميع من حفل بهم هذا المعبد المقدس، ولا أحسب أحداً منكم يساوره الشك فيما أقول. . . أنني أبداً ما أوحيت بشيء إلى رجل أو امرأة، إذ أنا متربع على عرشي في السموات العُلى، إلا عن أمر يصدره لي أبي بصدد هذا الشيء!! وهذا ما كان فيما نحن بصدده الآن. . . أرجو ألا تلغطوا. . . بل آمركم بالأصالة عن أبي!!!)
فتضطرب ربات الذعر وتقول كبيرتهن:
- (وتقول إن أباك - زيوس سيد الأولمب - هو الذي أذنك أن توحي إلى أورست فيثأر لمقتل أبيه، في حين لا يبالي بمقتل أمه؟!)
- (وبم يبالي؟! وماذا يقدس فيها، حين يعود رجل له وقاره وتدينه، وأيمانه الذي لا يحد

بربه زيوس، ظافراً من ساحة الحرب، فتذبحه زوجته الآثمة بعد أن تنصب له الأحابيل في كل شبر من قصره؟! أي زوجة هذه التي تعبث بشرف زوجها، وتمزق عرضها، وتنفي ولدها، وتذل ابنتها، وتدوس الشرائع والحرمات!؟)
- إذن هو أبوك زيوس الذي يرثي لهذا الأب المسكين الذي قتلته زوجته! أمرك عجيب) يا سيد الشمس! أبوك زيوس ينصر أورست لأنه يثأر لأبيه! إذن لم وضع زيوس نفسه الأغلال في عنق أبيه كرونوس وسجنه آخر الدهر؟ أليس هذا نقيض ذاك؟ أجب! تكلم! وأنت يا ربة العدالة! وأنتم أيها المحلفون! أعيروه أذناً صاغية!)
- اخسأن أيتها الهولات! شاهت وجوهكن! يا عدوات السماء! إن مولاكن قد صنع ما صنع بأبيه ليكفي العالم شره - وهو مع ذاك لم يرق دمه!)
- إذن كيف تدافع عن هذا الطريد الذي هراق دم أمه؟ وكيف تخول له أن يتربع على عرش آرجوس؟ وكيف يتسنى له أن يقدم قرباناً عن فعلته؟ وهل قربان إلا هو؟!)
- آه! إنكن تزعمن دائماً أنه ابن كليتمنسترا!! وليس بعد هذا ضلال! إنه ليس من أهلها، لأنها عمل غير صالح!! إن أورست ابن أجاممنون فحسب! لأن أجاممنون هو الذي غرس بذرته، وإن يكن قد غرسها في أرض حمِئة ذات أوباء! ولو شاءت السماء لغرست البذرة في أرض أخرى - في أرض حقيقية - في حديقة - ثم لنشأ أورست عوداً فيناناً من غير أم. . . . . يا ربة العدالة! مينرفا يا ابنة زيوس العظيم! لقد أرسلت أورست ليرفل في ظل رحمتك النامي، وليحظى بحمايتك، وليسجد تحت قدميك، هو وشعب الأرجيف الكريم! أعيدي إليه وقاره وطمأنينته إذن، فهو جدير بهما! ليعد إلى شعبه الباسل ليظلوا إلى الأبد عبادك المخلصين! إنه بريء! إنه بريء!)

فتقول مينرفا:

- كفى! كفى! حسبنا ما سمعنا! والآن، أعطوني موثقكم أيها المحلفون! عاهدوني على أن تؤدوا الشهادة غير متحرفين! ليكن الحق وحده رائدكم حين تدلون بآرائكم!)

(البقية في العدد القادم)

دريني خشبة

البريد الأدبي

رجائي ورجاء الزيات

كان لي ابن لم يكن يعدّ الثامنة من عمره، وفي مثل هذه الأيام من العام الماضي أطلقته - على رغمي - بين أفياء الجنة يتعجل نعيمها. وبقيت أتجرع غصص هذه الدنيا، لموته حيناً ولحياتي أحياناً

جرى عليَّ هذا الفراق الأبدي فحزنت وتكاءدني وصف هذا الحزن فأنا إلى اليوم أجد مسّه، ولا أستطيع بثه. ولقد كذبت الشعراء حين جعلوا الحزن ناراً تتقد، وتصطلي حرها الكبد. وحين زعموه حسرة تقطع النفوس، ولا تشفي منها الكؤوس. وحين تصوروه أسفاً قاتلا، وموتاً نازلا. وحين شبهوا زفراته بشواظ النار، ودموعه بالسحاب المدرار

والحق أن اللفظ يعيا بوصف حزني كما عي قلبي باحتماله. وما عيننا بوصف النعمة زائلة، إلا حين عجزنا عن فهمها ماثلة. وكيف نتصور وجوداً كانت روائح الجنة في رياه، والسلام أولى دعواه وأخراه

سميت فقيدي (رجاء) وما شغلت نفسي حين اخترت له هذا الاسم أن أكون فيه مقلداً تابعاً، وإنما ارتجلته من قلبي يوم عقدت الرجاء برجاء، وأملت أن يكون خاتمة الشقاء، وبداية الصفاء

يعلم الله يا أخي أن نعيك لرجائك قد أعاد حزني جذعاً، كما كان يوم صادفني وفيّ بقية من الأسر أقوى بها على بعض الأمر، فأما اليوم وقد انهدت قواي بما أخذ مني الأسف وما أبقى، فإني أراك قد نعيت إليّ نفسي بهذا النعي، وما قصدتَ بذلك بغياً عليّ. ولكني أنا الذي أعددت نفسي لرمسي، بين يومي وأمسي

عرفتك أديباً مثقفاً خدمت الأدب أستاذاً ومؤلفاً ومترجماً وناقداً، ثم رأيتك منذ أعوام تجمع هذه المزايا في صحيفتك الخالدة (الرسالة). وكان من حق مثلك على الأيام أن ترفه عنه وتعفيه من معضلات رزاياها حتى يفرغ لواجبه وينهض بعبئه

عرفتك وادع النفس، هادئ الخلق، حليما لا تثار، ولا تُغلب على الوقار. وكان من حق

مثلك على الأيام ألا تخرجه عن وقاره. ولا تضجره بحلمه. بل تتركه لهذه الوداعة وتلك الطمأنينة، يرتع الأخوان في بحبوحتها ويفيئون إلى ظلها كلما لفحهم هجير الرعونة، وآذاهم لهب الشغب. ولكن الأيام لم تمسّك بهذا الخطب الجليل إلا بعد أن عجمت عودك فوجدته صُلبا، وقرعت صفاتَك فوجدتك صَلدا، ذلك هو ظن إخوانك الذين عرفوا إيمانك بالله قويا، وعرفوك للفضيلة وفياً، فلتكن بثواب الصبر حريّا

وبعد، فاقبل عزاء رجل أشبه أمره أمرك، وأدرك - إن ضقت بالدنيا - عذرك. فساق ماضيه وحاضره سلوى تتحدث بلسان الواقع ولا تلجأ إلى خيال الواعظ

ومن عرف الأيام معرفتك لقي حوادثها في درع من الصبر مضاعفة، وشهر على الجزع مشرفيات مرهفة.

أنت يا فوق أن تعزَّى عن الأحل ... ام لباب فوق الذي يعزيك عقلا

وبألفاظك اهتدي فإذا ع ... زَّاك قال الذي قلت قبلا

قسيمك في الحزن

محمود مصطفى

مدرس الأدب للمتخصصين في مادته بالجامعة الأزهرية

السخاوي

طالعنا الأستاذ الباحث المحقق مؤرخ العصر محمد عبد الله عنان على صفحات الرسالة الغراء بنتائج تحقيقاته. . . . وقد أفاض إفاضة عظيمة فيها للإمام العالم أبي الفضل محمد السخاوي ولما لموسوعته الضوء اللامع من قيمة أدبية وأثر تاريخي عظيم

وقد ذكر الأستاذ عنان في إحدى مقالاته بالرسالة أن للسخاوي أثرين من نوع خاص ولهما أهمية خاصة إلى أن قال: (وقد انتهى كلاهما إلينا. أولهما كتاب تحفة الأحباب وبغية الطلاب في الخطط والمزارات والبقاع المباركات) الخ. . . وقد سارت دار الكتب الملكية في فهرستها على غرار الأستاذ عنان فنسبت الأثرين في فهرستها إلى الإمام السخاوي

وقد أتيت على ترجمة الإمام السخاوي قراءة وقتلتها بحثاً فلم أظفر بين مؤلفات السخاوي بهذين الأثرين اللذين نسبهما الأستاذ عنان للسخاوي كما نسبتهما دار الكتب وليست هناك حجة تقوم بإزالة هذا اللبس أصدق مما خطه الإمام السخاوي في ترجمته لنفسه بالضوء اللامع

وأما الأثر الذي عناه الأستاذ عنان (الخطط والمزارات) فهو للعالم الجليل محمد بن أحمد الحنفي السخاوي وقد فرغ من تأليفه سنة 956هـ وكان حياً سنة 960هـ وقد عده ابن مخلوف في طبقات المالكية

أما الإمام السخاوي صاحب الضوء اللامع والمؤلفات العديدة التي عدها في ترجمته فقد توفي سنة 902هـ

فإحقاقاً للحقيقة وصوناً لمعالم التاريخ نأمل أن يجزم رجال التاريخ أن الأثرين اللذين عناهما الأستاذ عنان ليسا للإمام السخاوي صاحب الضوء اللامع. . كما نتقدم بالرجاء إلى العالم المثقف محمد أسعد براده مدير دار الكتب أن يصحح ذلك في فهارس الدار والسلام على من عمل الخير أو سعى إليه.

(جرجا)

محمود عساف أبو الشباب

الأدب الألماني في المنفى

لم تقتصر الثورة الاشتراكية الوطنية الألمانية على تحطيم النظم والأوضاع السياسية الألمانية الجمهورية والديموقراطية، ولكنها حطمت صرح الحياة الألمانية القديم كله، وشملت آثارها كل نواحي الحياة الاجتماعية والفكرية والثقافية؛ وكان من آثارها الظاهرة تدهور العلوم والفنون والآداب في ظل النظم الطاغية الجديدة؛ وكان قيام الحكومة الهتلرية محنة حقيقية للأدب الألماني؛ فغادر ألمانيا عدة كبيرة من أقطاب الكتاب والمفكرين، فراراً من يد المطاردة والاستعباد الفكري؛ وكان الكتاب والعلماء اليهود في مقدمة من هرعوا إلى المنفى، ولكن الأمر لم يقتصر على هؤلاء، فقد غادر الوطن القديم جمهرة من أكابر الكتاب الألمان (الآريين) لأنهم لم يطيقوا الحياة في ذلك الجو المضطرم بشهوة الانتقام السياسي، وكان في مقدمة هؤلاء عميد الأدب

الألماني المعاصر توماس مان حامل إجازة نوبل، وأخوه هزيخ مان، ونشأ منذ ثلاثة أعوام، أي مذ قامت الحكومة الهتلرية في المنفى أدب مستقل يتمتع في الخارج بكامل حريته، وإن يكن يعاني صعاب المنفى ومتاعبه. ذلك لأن الحكومة الهتلرية لم تقتصر على مطاردة زعماء الأدب الألماني، بل عمدت أيضاً إلى محاربتهم في أرزاقهم المستقبلة، فحظرت على الناشرين الألمان أن يعاملوهم، ومنعت كتبهم من دخول ألمانيا، ولكن ذلك لم يفت في عزم أولئك الكتاب الأحرار، فقد لقوا ضيافة حسنة في إنكلترا وفي فرنسا وفي سويسرة، ورحبت دور النشر في هذه البلاد بالتراجم الإنكليزية والفرنسية لكتبهم الجديدة، وأخذ الأدب الألماني الرفيع ينمو ويزدهر في المنفى

وقد نشأ الأدب الألماني في المنفى سامياً بطبيعة الظروف التي أحاطت به، وكان طابع الكفاح والعرض السياسي ومقارعة الفكرة والعاطفة يغلب عليه أولا؛ ومن هذا النوع كتاب هيزيخ مان (البغضاء) وهو كتاب تاريخي رائع، وقصة سياسية بقلم ليو فويختفانجر عنوانها (أخوة أوبنهايم) ظهرت في أمريكا سنة 1933؛ وأخرى بقلم بالدر أولدن وعنوانها (قصة نازي) وقد ظهرت في إنكلترا.

ولم يفقد الأدب الألماني عبقريته في المنفى، فقد دلل على أنه ما زال يحتفظ بهذه العبقرية في سلسلة من الكتب والقصص القوية المختلفة في نوعها وفنها؛ ونستطيع أن نذكر منها (هندنبورج) بقلم رودلف أولدن؛ و (شباب هنري الرابع ? لهزيخ مان، وآخر المدنيين لارنست جليزر، (والمائة يوم) ليوسف روت، و (النغم المؤسي) بقلم كلاوزه مان، ويوجد الآن تحت الطبع عدة كتب وتراجم هامة منها: ترجمة لبطرس الأكبر، وأخرى لهتلر. ويلاحظ مع ذلك أن الصبغة التاريخية والسياسية مازالت تغلب على معظم الكتب الممتازة بين تراث الأدب الألماني في المنفى. مثال ذلك كتاب (هندنبورج) لرودلف أولدن؛ وقد كان أولدن محامياً كبيراً ومحرراً في جريدة (البرليز تاجبلاط)؛ وكتابه ينم عن قوة في العرض ودقة في التمحيص والتصوير؛ وفي رأيه أن الماريشال الراحل، عميد الجمهورية الألمانية ورمز ألمانيا مدى أعوام طويلة، لم يكن سوى بروسيا؛ وأنه لم يكن رجل سياسة وتفكير قط، وإنما كان جندياً يؤمن بسيادة الطبقات، وأن سيادة الطبقة البروسية هي مصدر قوة ألمانيا وعظمتها، وعما قليل أيضاً يصدر كتاب (هتلر) لاميل لودفيج والمنتظر أنه كباقي تراجمه سيكون قطعة رائعة من التصوير النفسي

وكذلك كتب القصص، فأن يوسف روت يصور لنا في قصته (المائة يوم) صورة الطاغية (نابليون) الذي يكفر في العزلة والمنفى عن جرائمه وزلاته، ويتدبر الآلام والمظالم التي أنزلها بالأمة والشعب والوطن، ثم هو يقضي وحيدا، ويغمر أعوامه الأخيرة فراغ هائل،

ويرقب العالم الخارجي فشله وسقوطه؛ ويكتب يوسف روت بأسلوب ساحر، ونزعة غنائية مؤثرة حتى ليخيل إليك أنه يمزج الشعر بالنثر. ويقدم إلينا أرنست جليزر أيضاً في (آخر المدنيين) قصة سياسية هي تاريخ ألماني هاجر إلى أمريكا منذ نصف قرن وعاش في العالم الجديد بأمل العودة إلى وطنه، ولكنه لم يعد إلا قبيل قيام الحكومة الهتلرية، ويصف لنا المؤلف حياة المجتمع الألماني في الريف عقب الحرب، وروعة الهزيمة، ونكبة التضخم المالي، واعتقاد الشعب أن الذنب في ذلك كله يرجع إلى (البروسيين) وكيف أن الشعب لم ينضم إلى الحركة الهتلرية إلا باعتقاد أنها كفاح ضد السيادة البروسية. ثم يصف لنا بعد ذلك روعة اليأس الذي استحوذ على بطله حينما رأى ألمانيا الديموقراطية قد حطمت وغاضت، فغاضت معها آماله ثم حياته

ويرى النقدة أن أبدع كتب الموسم كتاب هينريخ مان (شباب هنري الرابع)؛ ويرد المؤلف في كتابه على الملاحظة التي تلاحظ في أدب المنفى، وهو أنه أدب تاريخ، ويقول لنا، أجل إن الأدب الألماني في المنفى يجب أن يكون تاريخياً، ومن التاريخ تستخرج العظات والعبر، ويستمد الأمل في المستقبل ويصف لنا المؤلف حياة هنري الرابع ملك فرنسا ومحقق وحدتها في أسلوب بديع هادئ، وفي عرض قصصي ساحر مؤثر

وهكذا ينشأ خارج ألمانيا، وفي ظلال المنفى، أدب ألماني جديد، قوي حر، تميز باستقلاله وحياته الجديدة في ظلال حرية غاضت من أرضه ومهاده، وهو يتجه بأمله

إلى المستقبل القريب
بعض عناوين وأسماء
بعث إلينا أديب يستفهم عن عناوين بعض الكتاب الحديثة التي تستعرضها (الرسالة) بلغاتها الأصلية، ويرجو أن تكتب الرسالة دائماً عناوينها الأصلية وأسماء مؤلفيها بالإفرنجية. وهذا ما تفعله الرسالة في الواقع في معظم الأحوال، وإذا كنا نكتب أسماء المؤلفين أحياناً باللغة العربية فقط، فذلك اعتماداً منا على شهرة أولئك المؤلفين وعلى فطنة القارئ. وفيما يلي بعض العناوين والأسماء التي استفهم عنها الأديب المذكور في كتابه:
العدد 143 - بتاريخ: 30 - 03 - 1936
إلى أخي الزيات
الخيال العاقل
تحية صديق مشارك في الحزن آمل في العزاء
للدكتور طه حسين بك
أعرفت قط خيالاً عاقلاً أيها الأخ العزيز؟ أما أنا فقد عرفته أمس، ولم أتكلف في معرفته مشقة ولا جهدا، ولم أنفق في البحث عنه قوة ولا وقتاً، بل لم أبحث عنه وإنما سعى إلي، أو قل هممت أن أدعوه فاستجاب لي قبل الدعاء، ولكني لم أدعه لأعرفه، فإن عهدي به بعيد، بعيد جدا لا أكاد أذكر أوله، وإنما أعلم أنه رفيقي منذ بدأت أفكر، بل منذ استقبلت الحياة، ما أكثر ما زين لي الأشياء حتى كلفت بها ورغبت فيها، وما أكثر ما بغض إليّ الأشياء حتى نفرت منها وضقت بها، وما أسرع ما اخترع لي أشياء لم أكن أعرفها ولا أقدرها، فإذا هي تملأ قلبي أملا ورجاء، وتدفعني إلى العمل والنشاط، وإذا هي تملأ قلبي يأساً وقنوطاً، وتدفعني إلى الفتور والخمود والانزواء
لقد خلق لي عالماً كاملا بعيد الآماد، متنائي الأرجاء مختلف الألوان، قضيت فيه أيام الصبى وما أكثر ما تمنيت أن أعود إليه، ثم خلق لي عالما آخر ليس أقل من ذلك العالم سعة وتنوعاً واختلافاً، ولكنه مزاج من الجمال والقبح، ومن اللذة والألم، ومن اليأس والأمل، قضيت فيه أيام الشباب وما زلت أتمنى أن أعود إليه، ثم هو يرافقني الآن فيزين لي الحياة قليلا، ويقبحها في نفسي كثيراً، ويحاول أن يخلق لي ما يسر، ويحاول أن يخلق لي ما يسوء، فأطيعه حيناً، وأعصيه أحياناً، ولكنه وفي لي دائماً كلما أردت استعانته على الكتابة والإنشاء؛ وأعترف أيها الأخ العزيز بأني كنت مقتصداً أشد الاقتصاد في الالتجاء إليه والاستعانة به، لأني أعرفه جريئاً مسرفاً في الجراءة، نشيطاً غالياً في النشاط، يخترع من الصور وفنون المعاني ما لا أطيق أن أعرضه على بيئاتنا الاجتماعية التي تقتصد في الاطمئنان إلى وحي الخيال
عرفته وفياً نشيطاً متأهباً دائماً للمعونة كلما دعوته أو فزعت إليه، مقدماً من هذه المعونة أكثر مما أسأله، وأعظم جداً مما أقترح عليه. وقد دعوته أمس فاستجاب لي مسرعاً غير
مبطئ ولا متثاقل، بل أشهد لقد كان يكاد يتمزح نشاطا ومرحاً، ولقد كنت أتهيأ للكبح من جماحه والرد من نشاطه، وأخذه بكثير جداً من الأناة والقصد كما تعودت دائماً، ولكني لم أكد أعرض عليه ما كنت أريد أن يعينني على الأخذ فيه حتى كفكف من نشاطه، واتأد في غلوائه، وابتسم ابتسامة الهادئ المطمئن، وقال في صوت الراضي الرزين في غير عجز مؤلم، ولا قصور موئس: (إليك عني فلست مما تريد في شيء). ذلك أني كنت أريده على أن يمدني بما أصور به فصلاً من حياة النبي الكريم في هذه الأيام التي يذكر فيها المسلمون أكبر حدث من أحداثهم، وأعظم عبرة من عبرهم، والتي يعود فيها المسلمون قروناً طوالا من الزمان ليشهدوا ذلك اليوم العظيم الذي خرج فيه النبي وصديقه الصديق من مكة مهاجرين إلى الله بآمال سيفنى الزمان قبل أن تفنى، وإيمان سيزول هذا العالم قبل أن يدركه ضعف ويسعى إليه فتور، وثقة بنصر الله عاشت عليها الأجيال التي لا تحصى، وستعيش عليها الأجيال التي لا تحصى، وسيستمد المسلمون منها أبدا قوة على الجد والكد. واستقبال الحياة بما فيها من خير وشر، ومن حلو ومر، ومن محنة ونعمة
نعم دعوته أيها الأخ العزيز إلى أن يلهمني بعض ما تعود أن يوحي إلي من الصور فأعرض في غير غضب، وامتنع في غير بخل، وألح في الأعراض والامتناع، فلما ألححت

عليه تبينت منه الاستحياء وإيثار العافية، والضن بنفسه على ما لا يحسن، وتجنيبها ما لا يطيق. وإذا هو يقول لي في لهجة الهادئ المطمئن: استعني فيما شئت، فقد عرفت قدرتي على الاختراع والابتكار، وحسن بلائي في لبس الحق بالباطل حتى يصبح زينة كله، ولكن من الحق ما هو أرفع من أن أسمو إليه مهما أكن قوي الجناح، وأوضح من أن أجليه مهما أكن قوي النور، وأسطع من أن أوضحه مهما أكن نافذاً بعيد الهم، وأنصح من أن أزينه مهما أكن ماهراً في اختراع الزينة وابتكار الجمال

ولئن حدثتك عن هذا الرجل الكامل لأحدثنك حديث العقل، أستغفر الله، فما يستطيع العقل أن يحدثك عنه كما يجب، لأنه أكرم وأرفع وأرقى من أن يبلغه العقل، كما أنه أكرم وأرفع وأرقى من أن يبلغه الخيال. اجتهد في أن تتمثل ما أتيح للناس أن يعرفوا من حياته، ثم انظر فيه واستمد منه فلست محتاجاً مع ذلك إلى معونة عقل أو خيال انظر إلى الناحية الحزينة من حياته، واقصص على نفسك أطرافاً منها، فإن لم تملأ قلبك

عبرة وعظمة وجمالاً وحباً وإكباراً دون استعانة بعقل أو خيال، فلست إنساناً ولست من الإنسانية في شيء

انظر إلى هذا الذي ذاق اليتم جنيناً إن كان للأجنة أن يذوقوا المعاني والآلام، ثم لم يكد يستقبل الحياة ويتقدم في الصبى حتى ذاق اليتم مرة أخرى، ففقد أمه بعد أن فقد أباه، ثم لم يكد يتقدم خطوات أخرى في الصبى حتى ذاق اليتم مرة ثالثة ففقد جده بعد أن فقد أبويه، ثم ألحت عليه حياة فيها شدة وجهد، وفيها حرمان وفقر، وفيها ضيق وضنك، ثم تظاهرت هذه الآلام كلها على نفسه الكريمة الناشئة فلم تستطع أن تبلغها ولا أن تنال منها، لأن الله قد قطع الأسباب بين هذه النفس المصفاة وبين البؤس والشقاء. ثم امض معه خارجاً من الصبى داخلاً في الشباب متقدماً فيه، فإذا الحياة كما هي شديدة شاقة ثقيلة ضيقة، ولكنه مبتسم الشباب كما كان مبتسم الصبى، وادع النفس رجلاً كما كان وادع النفس طفلاً. إنه يجد ويعمل، إنه يكد ويكدح، إن الحياة تبسم له أحياناً، إن الناس من حوله يحبونه ويقدرونه ويكبرونه ويثقون به، ويطمئنون إليه ويلتمسون به العافية والسلم، ويحكمونه فيما شجر بينهم من خلاف، فلا يعرضه ذلك لبطر ولا لأشر، لأن الله قد قطع الأسباب بين نفسه المصفاة وبين ما يشوب حياة الناس من الأشر والبطر والغرور. ثم انظر إليه وقد اختاره الله لخير ما يؤثر به عبداً من عباده، وحمله أثقل أمانة حملها أحداً من خلقه، فإذا هو يلقي هذا العبء الثقيل جلداً له، صبوراً عليه، ناهضاً به ماضياً فيه، لا يعرف كلالاً ولا ملالاً ولا فتوراً، لأن الله قطع الأسباب بين نفسه المصفاة وبين ما يشوه حياة الناس من الكلال والملال والفتور

ثم انظر إليه يذوق الثكل بعد أن ذاق اليتم، ويمتحن في نفسه وسمعته، ويمتحن في صحبه وأوّلي نصره، ويمتحن في بنيه، ثم يمتحن في زوجه التي جعلها الله له رحمة يسكن إليها ويعتز بها، ثم يمتحن في دينه، ثم يمتحن في كل شيء، ثم يمتحن في كل إنسان، فإذا هو كما هو، باسم الكهولة كما كان باسم الشباب وكما كان باسم الصبى، لا يعرف الضعف ولا اليأس ولا هذا الاكتئاب العقيم إليه سبيلاً، لأن الله قطع الأسباب بين نفسه المصفاة وبين الضعف واليأس والاكتئاب العقيم

ثم انظر إليه وقد أنكر قومه وأنكره قومه، وقد ضاقت به مكة وضاق به ما حول مكة، وقد لقي المحن التي لا تحتمل والمكروه الذي لا يطاق، فلم يدركه نكول ولا استسلام، وإنما فتحت له أبواب الأمل، وفرج عنه تأييد الله له ما تضايق من الأمر، فإذا هو يهاجر إلى يثرب، أفتراه اطمأن فيها إلى الدعة ونعم فيها بالخفض واللين؟ كلا، ما هذه الحروب التي لا تنقضي، والتي يمتحنه الله فيها بالنصر حيناً وبغير النصر حيناً آخر. ما هذا الجهد الذي لا ينقضي؟ ما هذا الضيق الذي يضطره أحياناً إلى الجوع؟ ما هذه الخيانات تأتيه من المنافقين؟ ما هذه الخيانات تأتيه من حلفائه من يهود؟ ما هذا الموت يتخطف أعز أصحابه عليه وآثرهم عنده؟ أفتراه يئس لذلك أو ضعف عن احتماله، أو اضطره شيء من ذلك إلى أن يحيد عن طريقه المستقيمة قيد شعرة؟ كلا! لأن الله جعل نفسه الكريمة مضاء كلها، وإباء كلهَا، وصبراً كلهَا، وثقة بالله كلها. ثم انظر إليه وقد تقدمت به السن، ولم يبق له من بنيه وبناته إلا فاطمة رحمها الله،

وإذا الأيام تبسم له، وإذا الأمل يشرق أمامه وإذا المبشرات ينبئه بأن الله قد رزقه غلاماً فيسميه باسم أبيه إبراهيم، وإذا قلبه مسرور محبور، وإذا هو يشرك المسلمين معه في سروره وحبوره فيبشرهم بما بشر به، ويجد المسلمون أن عينه قد قرت فتقر عيونهم، وأن نفسه قد طابت فتطيب نفوسهم، وأن قلبه الكريم يتفتح للأمل فتتفتح قلوبهم للآمال، ولكن الله يأبى ألا أن يمتحنه شيخاً كما امتحنه صبياً وشاباً وكهلاً وإذا إبراهيم ينزع منه ولما يتم الرضاع. افتراه جزع لذلك أو أدركه ما يدرك الشيوخ من وهن وضعف. كلا. إن الله قد قطع الأسباب بين نفسه المصفاة وبين الوهن والضعف. لم يتم إبراهيم رضاعه في الدنيا فسيتمه في الجنة. وانظر إلى أبيه وإنه ليسعى في جنازته محزوناً، ولكن حزن الكرام لا حزن اليائسين ولا حزن القانطين، وإنه ليقوم على قبره وأنه ليعنى بتسوية القبر وترويته وصب الماء عليه، وإنه لينصح المسلمين إذا عملوا عملا أن يتموه وإن لم يكن لذلك غناء ظاهر، لأن من كمال العقل أن يحسن الرجل ما يعمل. ثم انظر إليه يعلن إلى ربه أنه راض بقضائه، مذعن لأمره مؤمن بحكمته، ويعلن إلى ابنه أنه محزون لفقده. ثم انظر إليه إن عينيه الكريمتين لتدمعان. وما يمنعه أن يبكي وإن البكاء ليتم مروءة الرجل أحياناً؟ ولكن انظر إليه، أترى شيئاً من حياته قد تغير؟ أترى شيئاً من رأيه في الحياة قد تغير؟ كلا. ما كان للأحداث في هذه الدنيا أن تغير نفساً هي أكبر من الدنيا؟

قلت لهذا الخيال ما رأيت كاليوم خيالاً عاقلاً رشيداً. إن في حديثك لعبرة لمن أراد أن يعتبر. قال وأي غرابة في أن يعقل الخيال ويرشد إذا تحدث عن محمد، وإن كان من طبعه الطموح والجموح؟. قلت لأنقلن حديثك هذا إلى صديق محزون جزع. قال: انقله راشدا إلى صديقك والى كل محزون جزع، فما أرى أن مسلما يتمثل حياة محمد من هذه الناحية من نواحيها ثم يعرف اليأس أو الجزع إلى قلبه سبيلا.

طه حسين

فلسفة قصة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

هلكت خديجةُ زوجُ النبي صلى الله عليه وسلم وهلك عمه أبو طالب في عام واحد في السنة العاشرة من النبوة، فعظمت المصيبة فيهما عليه، إذ كان عمه هذا يمنعه من أذى قريش، ويقوم دونه فلا يخلصون إليه بمكروه؛ وكان أبو طالب من قريش كالعقيدة السياسية، هي بطبيعتها قوة نافذة على قوة القبيلة، فمن ثم كان هو وحده المشكلة النفسية المعقدة التي تعمل قريش جاهدة في حلها، وقامت المعركة الإسلامية الأولى بين أرادتهم وأرادته، وهم أمة تحكمهم الكلمةُ الاجتماعية التي تسير عنهم في القبائل وتاريخهم ما يقال في الألسنة من معاني المدح والذم، فيخشون المقالة أكثر مما يخشون الغارة، وقد لا يبالون بالقتلى والجرحى منهم، ولكنهم يبالون بالكلمات المجروحة

فكان من لطيف صنع الله للإسلام، وعجيب تدبيره في حماية نبيه صلى الله عليه وسلم - وضع هذه القوة النفسية في أول تاريخ النبوة، تشتغل بها سخافات قريش، وتكون عملا لفراغهم الروحي، وتثير فيهم الإشكال السياسي الذي يعطل قانونهم الوحشي إلى أن يتم عملُ الأسباب الخفية التي تكسر هذا القانون؛ فأن المصنع الإلهي لا يخرج أعماله التامة العظيمة إلا من أجزاء دقيقة

أما خديجة زوجُ النبي صلى الله عليه وسلم، فكانت في هذه المحنة قلباً مع قلبه العظيم، وكانت لنفسه كقول (نعم) للكلمة الصادقة التي يقول لها كل الناس (لا)، وما زالت المرأة الكاملة المحبوبة المحبة هي التي تعطي الرجل ما نقص من معاني الحياة، وتلد له المسرات من عواطفها كما تلد من أحشائها، فالوجودُ يعمل بها عملين عظيمين أحدهما زيادةُ الحياة في الأجسام والآخر إتمام نقصها في المعاني

وبموت أبي طالب وخديجة أفرد النبي صلى الله عليه وسلم بجسمه وقلبه ليتجرد من الحالة التي يغلب فيها الحس إلى الحالة التي تغلب فيها الإرادة، ثم ليخرج من أيام الاستقرار في أرضه إلى الأيام المتحركة به في هجرته، ثم لينتهي بذلك إلى غاية قوميته الصغيرة المحدودة فيتصل من ذلك بأول عالميته الكبرى

وأراد الله تعالى أن يبدأ هذا الجليل العظيم من أسمى خلال الجلال والعظمة ليكون أولُ

أمره شهادةً بكماله، فكانت الحسنةُ فيه بشهادة السيئة من قومه، فحلمُه بشهادة رُعونتهم، وأناته بدليل طيشهم، وحكمته ببرهان سفاهتهم، وبذلك ظهر الروحاني روحانياً في المادة

قالوا فنالت منه قريش، ووصلوا من أذاهُ إلى ما لم يكونوا يصلون إليه في حياة عمه، حتى نثر بعضهم التراب على رأسه، كأنما يُعلمونه أنه أهون عليهم من أن يكون حراً فضلا عن أن يكون عزيزاً فضلا عن أن يكون نبياً؛ قلوا فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته تغسل عنه التراب وتبكي كانت تبكي إذ لا تعلم أن هذا التراب على رأس النبي العظيم هو شذوذ الحياة الأرضية الدنيئة في مقابلة إنسانها الشاذ المنفرد. هذه القبضة من التراب الأرضي قبضة سفيهة تحاول رد الممالك الإسلامية العظيمة أن تنشأ نشأتها وتعملَ عملَها في التاريخ؛ فهي في مقدارها وسخافتها ومحاولتها كعقل قريش حينئذ في مقداره وسخافته ومحاولته

أما النبي صلى الله عليه وسلم فقال لبنته: يا بنية لا تبكي فإن الله مانعٌ أباك. حسبتْ ذلك هواناً وضيْعةً فأعلمها أن قبضةً من التراب لا تطمرُ النجم، وأن هذه الحثْوة الترابية لا تسمى معركة أثارتها الخيل فجاءت بنتيجة، وأن ساعة من الحزن في يوم لا يحكم بها على الزمن كله، وأن هذه النزوة التي تحركت الآن هي حمقُ الغباوة قوتها نهايتها أي ليس للنبي كبرياء ينالها الناس أو يَغُضون عنها .(يا بنية لا تبكي فإن الله مانع أباك) فيأتي الدمعُ مترجماً عن المعنى الإنساني الناقص مثبتاً أنه ناقص؛ إنما هي النبوَّةُ قانونها غيرُ ما اعتادت النفس من أفراح وأحزان، وهي النبوة تجعل المختار لها غير محدود بجسده الضعيف، بل حدوده الحقائق التي فيها قوتها؛ فهو في منَعَة الواقع الذي لابد أن يقع، فلو أمكن أن يحذف يوم من الزمن أو يؤخر عن وقته أمكن أن يؤَخر النبيُّ أو يُحذف

لا والله ما يقول هذه الكلمة إلا نبيٌّ وسع التاريخ .(يا بنية لا تبكي فإن الله مانعٌ أباك) في نفسه الكبيرة قبل أن يوجد هذا التاريخ في الدنيا، فكلمته هي الأيمان والثقة إذ يتكلم عن موجود

ترابٌ ينثره سفيه على رأس النبي. ويحك يا حقارةَ المادة إن ارتفاعك لعنة، إن ارتفاعك لعنة

قالوا: وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده إلى الطائف يلتمس من ثقيف النصر

والمنعة له من قومه: فلما انتهى إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادتهم وأشرافهم فجلس إليهم فدعاهم إلى الله وكلمهم بما جاءهم له من نصرته والقيام معه في الإسلام على من خالفه من قومه، فلم يفعلوا وأغرَوْا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى حائط لعُتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه. ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد صلى الله عليه وسلم إلى ظل حُبْلة من عنب فجلس فيه وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان ما لقي من السفهاء

فلما اطمأن صلى الله عليه وسلم في مجلسه قال: اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس؛ يا أرحم الراحمين، أنت ربُّ المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؛ إلى بعيد يتجهَّمني أو إلى عدو ملكته أمري؛ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بك بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك أو يحل عليّ سخطك، لك العُتْبى حتى ترضى لا حول ولا قوة إلا بك

أَلا ما أكمل هذه الإنسانية التي تثبت أن قوة الخلق هي درجة أرفع من الخلق نفسه؛ فهذا فنُّ الصبر لا الصبر فقط، وفن الحلم لا الحلم وحده

قوة الخلق هي التي تجعل الرجل العظيم ثابتاً في مركز تاريخه لا متقلقلاً في تواريخ الناس، محدوداً بعظائم شخصيته الخالدة لا بمصالح شخصه الفاني، ناظراً في الحياة إلى الوضع الثابت للحقيقة لا إلى الوضع المتغير للمنفعة

وما كان أولئك الأشرافُ وسفاؤهم وعبيدهم إلا معاني الظلم والشر والضعف تقول للنبي العظيم الذي جاء يمحوها ويُديل منها: إننا أشياء ثابتة في البشرية

لم يكن منهم الأشراف والسفهاء والعبيد، بل كان منهم العسفُ والرِّق والطيش، تسخر ثلاثتها من نبي العدل والحرية والعقل فما تسخر إلا من نفسها
صغائر الحياة قد أحاطت بمجد الحياة لتثبت الصغائر أنها الصغائر وليثبت المجد أنه المجد. كان الفريقان هما الفكرتين المتعاديتين أبداً على الأرض: إحداهما عش لتأكل وتستمع وإن أهلكت؛ والأخرى عش لتعمل وتنفعَ الناسَ وإن هلكت
كانت الأقدار تبادي هذا الروح الواسعَ بذلك الروح الضيق لينطلق الواسعُ من مكانه ويستقبلَ الدنيا التي عليه أن ينشئها. فأولئك الأشراف والسفهاءُ والعبيد إن هم إلا الضيقُ والركودُ وذلُّ العيش، حول السعة الروحية والسموّ وطهارة الحياة
وقف المعنى السماويُّ بين معاني الأرض؛ ولكن نور الشمس ينبسط على التراب فلا يعفِّره التراب، وما هو بنور يضيء أكثر مما هو قوة تعمل بالعناصر التي من طبيعتها أن تحوِّل في العناصر التي من شأنها أن تتحول
وكان بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين أولئك المستهزئين قوةٌ أخرى هي القدرة التي تعمل بهذا النبي للعالم كله، وبهذه القدرة لم ينظر النبي إلى قريش وصوْلتهم عليه إلا كما ينظر إلى شيء انقضى، فكان الوجود الذي يحيط به غير موجود وكانت حقيقةُ الزمن الآتي تجعل الزمنَ الحاضر بلا حقيقة
والى هذه القدرة توجه النبي صلى الله عليه وسلم بذلك الدعاء الخالد يشكو أنه إنسان فيه الضعف وقلةُ الحيلة، فينطق الإنساني فيه بالشطر الأول من الدعاء يذكر انفراده وآثارَ انفراده ويتوجع لما بينه وبين إنسانية قومه؛ ثم ينطق الروحانيُّ فيه بعد ذلك إلى آخر الدعاء متوجهاً إلى مصدره الإلهي قائلاً أولَ ما يقول: إن لم يكن بك عليَّ غضبٌ فلا أبالي
ولعمري لو نطقت الشمس تدعوا الله لما خرجت عن هذا المعنى ولا زادت على قوله أعوذ بنور وجهك، تلتمس مصدر النور الأزلي حياطةَ وجودها الكامل
ولقد هزءوا من قبل بالمسيح عليه السلام فقال للساخرين منه: ليس نبي بلا كرامة إلا في وطنه وفي بيته، وبهذا رد عليهم ردَّ من انسلخ منهم، وقال لهم قول من ليس له حكم فيهم، وأخذهم بالشريعة الأدبية لا العملية؛ إذ كان عليه السلام كالحكمة الطائفة ليست لكل قلب ولا لكل عقل، ولكنها لمن أعدَّ لها، وشريعته أكثُرها في التعبير وأقلُّها في العمل، ولم تجئ بالقوة العاملة فلم يكن بدّ من أن تضع الموعظةَ في مكان السيف، وأن تكون قائمة على النهي أكثر مما هي قائمة على الأمر، وأن تكون كشمس الشتاء الجميلة لا تغلي بها الأرض وإنما عملها أن تمهّد هذه الأرض لفصل آخر
أما نبينا صلى الله عليه وسلم فلم يجب المستهزئين إذ كانت القوة الكامنة في بلاد العرب كلِّها كامنة فيه، وكان صدرُه العظيم يحمل للدنيا كلمة جديدة لا تقبل الدنيا أن تعامله عليها إلا بطريقتها الحربية؛ فلم يردَّ ردَّ الشاعر الذي يريد من الكلمة معناها البليغ ولكنه سكت
سكوت المشترع الذي لا يريد من الكلمة إلا عملها حين يتكلم. وكان في سكوته كلام كثير في فلسفة الإرادة والحرية والتطور وأن لابد أن يتحول القوم وأن لابد أن يتفطَّر هذا الشجرُ الأجردُ من ورق جديدٍ أخضرَ ينمو بالحياة
لم يتسخط ولم يقل شيئاً وكان كالصانع الذي لا يردّ على خطأ الآلة بسخط ولا يأس بل بإرسال يده في إصلاحها
قالوا: ورأى ابنا ربيعة عتبة وشيبة ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من السفهاء فتحركت له رَحُمهما فدعوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له عدَّاس، فقالا له: خذ قِطْفاً من هذا العنب وضعه في ذلك الطبق ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه. ففعل عداس ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلما وضع يده قال: بسم الله، ثم أكل؛ فنظر عداس إلى وجهه ثم قال: والله إن هذا لكلام ما يقوله أهل هذه البلدة
فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومن أهل أي البلاد أنت يا عداس وما دينك؟
قال: أنا نصراني وأنا رجل من أهل نيَنَوى. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قرية الرجل الصالح يونس ابن متي. قال: وما يدريك ما يونس بن متي؟ قال صلى الله عليه وسلم: ذاك أخي كان نبياً وأنا نبي

فأكب عداس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل رأسه ويديه ورجليه
يا عجباً لرموز القدر في هذه القصة
لقد أسرع الخير والكرامة والإجلال فأقبلت تعتذر عن الشر والسفاهة والطيش،
وجاءت القبلات بعد كلمات العداوة
وكان ابنا ربيعة من ألد أعداء الإسلام، وممن مشوا إلى أبي طالب عم النبي صلى الله
عليه وسلم من أشراف قريش يسألونه أن يكفَّه عنهم أو يخليَ بينهم وبينه، أو ينازلوه
وإياه حتى يهلك أحد الفريقين، فانقلبت الغريزة الوحشية إلى معناها الإنساني الذي
جاء به الدين لأن المستقبل الديني للفكر لا للغريزة
وجاءت النصرانية تعانق الإسلام وتعزُّه إذ الدين الصحيح من الدين الصحيح كالأخ من
أخيه، غير أن نسب الاخوة الدمُ ونسب الأديان العقل
ثم أتم القدر رمزه في هذه القصة، بقِطف العنب سائغاً عذباً مملوءا حلاوة؛ فباسم
الله كان
قطفُ العنب رمزا لهذا العنقود الإسلامي العظيم الذي امتلأ حَبًّا كلُّ حبة فيه مملكة
(طنطا)
مصطفى صادق الرافعي
أوربا على المنحدر
من فرساي إلى لوكارنو - 2
مسألة الرين وسلام أوربا
بقلم باحث دبلوماسي كبير
لماذا أقدمت ألمانيا على تصرفها الجريء فأعلنت إلغاء ميثاق لوكارنو واحتلت منطقة
الرين المجردة في هذا الظرف العصيب الذي تجوزه أوربا؟ لقد شرحت ألمانيا وجهة
نظرها وبسطت البواعث التي أملت بتصرفها في مذكرتها التي قدمتها إلى الدول
الموقعة على ميثاق لوكارنو في السابع من مارس؛ وكذلك على لسان زعيمها الهر
هتلر في الخطاب الذي ألقاه في نفس اليوم في مجلس الريخستاج؛ وتؤكد ألمانيا في
الوثيقتين أن السبب المباشر لتصرفها هو عقد الميثاق الفرنسي الروسي الذي أبرم
أخيراً، فألمانيا ترى في عقد هذا الميثاق خطراً يهدد سلامتها، ونقضاً من جانب فرنسا
لميثاق لوكارنو يبرر تصرفها، وهي تشرح وجهة نظرها في مذكرتها فيما يلي:
إن ألمانيا منذ عقد الميثاق الفرنسي الروسي في 2 مايو سنة 1935، قد لفتت نظر)
الدول الموقعة على ميثاق لوكارنو أكثر من مرة. إلى أن العهود التي قطعتها فرنسا
على نفسها في الميثاق الجديد لا تتفق مع العهود التي قطعتها على نفسها في
لوكارنو؛ وإنه لا ريب في أن الميثاق الفرنسي الروسي موجه إلى ألمانيا وحدها
وبالذات، وأن فرنسا ارتبطت فيه إزاء روسيا بعهود خاصة في حالة وقوع حرب بين
ألمانيا وروسيا، وهذه العهود تنافي عهد عصبة الأمم والتزامات ميثاق الرين (ميثاق
لوكارنو) المؤسسة عليه؛ وتحالف فرنسا على هذا النحو مع دولة مدججة بالسلاح ضد
ألمانيا يخلق حالة جديدة، ويقضي على نظام السلام في الرين بأكمله، ويجعل ألمانيا
في حل من تعهداتها السابقة الخ. . . . .)
والى جانب هذا السبب المادي المباشر الذي تتقدم به ألمانيا لتبرير تصرفها، يقدم إلينا
هير هتلر في خطابه عدة أسباب قومية معنوية تتعلق بشرف ألمانيا وكرامتها وحقها
في الحياة سيدة حرة، فألمانيا تريد أن تعيش في سلام، ولا تفكر مطلقاً في الاعتداء
على أحد، ولكنها تريد أن تعيش مع باقي الدول على قدم المساواة، وأن تتمتع بنفس
الحقوق والمزايا التي
تتمتع بها جميع الدول الأخرى، وأن تحتل المكان اللائق بعظمتها؛ وهي لا تستطيع أن
تحقق هذه الآمال المشروعة إذا لبثت مصفدة بأغلال معاهدة الصلح ونصوص ميثاق
لوكارنو الذي يحرمها من السيادة على منطقة الرين، وهي نحو خمس ألمانيا
الميثاق الفرنسي السوفيتي
ويكرر الهير هتلر في خطابه أن السبب المباشر الذي يملي بهذا الموقف على ألمانيا
هو عقد الميثاق الفرنسي السوفيتي؛ ذلك أن فرنسا تتعهد بمقتضى هذا الميثاق عند
وقوع حرب بين روسيا وألمانيا بالتزامات عسكرية تنافي عهد عصبية الأمم وميثاق
لوكارنو، وأنها تغدو عندئذ مضطرة إلى مهاجمة ألمانيا؛ وإذاً فعقد فرنسا لمثل هذا

الميثاق مع دولة مسلحة من الرأس إلى القدم كروسيا موجه بلا ريب إلى ألمانيا، والى ألمانيا وحدها، وهي بذلك تخلق موقعاً جديداً يتنافى مع تعهدات ميثاق لوكارنو
وقد عقد الميثاق الفرنسي السوفيتي في الثاني من مايو الماضي بعد مفاوضات طويلة بين فرنسا وروسيا، واحتجت ألمانيا على عقده يومئذ لدى الدول الموقعة على ميثاق لوكارنو؛ ثم أبرم هذا الميثاق أخيراً وأصبح بذلك وثيقة نهائية لها خطرها في سير السلام الأوربي
ويتألف الميثاق المذكور من خمس مواد وبروتوكول تفسيري. وتنص المادة الأولى منه على وجوب التشاور السريع بين الدولتين تطبيقاً للمادة 10 من ميثاق العصبة إذا وقع على إحداهما اعتداء لا مبرر له (والمادة العاشرة من الميثاق هي الخاصة بمقاومة كل اعتداء على استقلال أي عضو من أعضائها) وتنص المادة الثانية على وجوب تقديم المساعدة السريعة للفريق المعتدي عليه طبقاً للمادة 15 فقرة 7 من ميثاق العصبة إذا لم يتخذ مجلس العصبة في الأمر قراراً سريعاً. والمادة الثالثة تقرر التعهد بالمساعدة والمعاونة في حالة الاعتداء الذي لا مبرر له طبقاً لنص المادتين 17 و16 فقرة 3 من ميثاق العصبة. وتنص المادة الرابعة على أن هذه التعهدات لا تمنع الطرفين بأي حال من القيام بالتعهدات التي يفرضها الميثاق. وتنص المادة الخامسة على مدة الميثاق، وعلى أن المعاونة المشار إليها فيه قاصرة على أوربا؛ ولا يطلب تنفيذ التعهد الخاص بالمعاونة إذا لم يكن الاعتداء واقعاً على أرض الطرفين المتعاقدين ذاتها. ويتضمن الميثاق أيضاً تحفظات خاصة باحترام المواثيق والعهود السابقة ولا سيما ميثاق لوكارنو، وينص أيضاً على إمكان عقد ميثاق محلي شرقي، وعلى أنه يتسنى لأي دولة يهمها أمر السلامة العامة أن تشترك فيه
هذه هي خلاصة الميثاق الفرنسي السوفيتي الذي اتخذت ألمانيا من عقده ثم إبرامه ذريعة لموقفها الأخير، وقد بدأت ألمانيا بالفعل على أثر عقد الميثاق بنحو ثلاثة أسابيع (في 25 مايو سنة 1935) بتقديم احتجاجها على عقده إلى فرنسا والى باقي الدول الموقعة على ميثاق لوكارنو
بيد أنه يلاحظ أن تذرع السياسة الألمانية بالميثاق الفرنسي السوفيتي ليس إلا وسيلة ظاهرة أو مباشرة لتبرير تصرفها في استعادة سيادتها على الرين؛ ويلوح لنا أن هذه الخطوة الجديدة التي اتخذتها ألمانيا الهتلرية لتحطيم البقية الباقية من الأغلال العسكرية التي فرضتها معاهدة الصلح إنما هي حلقة جديدة في برنامج مقرر ترى ألمانيا تنفيذه ضرورياً لاستعادة مركزها العسكري القديم، وهيبتها القديمة كدولة عظمى؛ وقد رأيناها تتخذ في العام الماضي من تقرير فرنسا إطالة الخدمة العسكرية ذريعة سريعة لإلغاء نصوص معاهدة الصلح الخاصة بتحديد تسليحات ألمانيا، وتقرير الخدمة العسكرية الإجبارية، وإبلاغ الجيش الألماني إلى ستمائة ألف؛ وليس إلغاء ألمانيا لنصوص معاهدة الصلح الخاصة بتحريم منطقة الرين ونصوص ميثاق لوكارنو إلا تتمة لهذه السياسة التي ترمي إلى تحرير ألمانيا تحريراً شاملاً من كل الأغلال التي صفدت بها معاهدة فرساي سيادتها السياسية أو العسكرية؛ وقد رأينا أن ميثاق لوكارنو لم يكن إلا تأييداً لنصوص معاهدة الصلح الخاصة بمنطقة الرين
ماذا ترتب على موقف ألمانيا
ماذا ترتب على الخطوة الجريئة المزدوجة التي اتخذتها ألمانيا في السابع من مارس؟ إن دوائر السياسة العليا في أوربا كلها ما زالت تشغل منه ثلاثة أسابيع بما قد يفضي إليه تصرف ألمانيا من العواقب الخطيرة؛ وقد كانت الدول الموقعة على ميثاق لوكارنو وفي مقدمتها فرنسا أشد الدول اهتماماً بالموقف الجديد الذي خلقته ألمانيا بتصرفها؛ ففرنسا ترى أن ألمانيا قد انتهكت عهودها مرة أخرى وأن هذا الانتهاك الجديد خطر على سلامتها، وتؤيدها بلجيكا في رأيها واعتقادها
وقد رأينا أن ميثاق لوكارنو ينص على الإجراءات التي تتبع في حالة مخالفة نصوصه أو نصوص معاهدة الصلح الخاصة بمنطقة الرين ضد الدولة التي ترتكب المخالفة؛ وهذه الإجراءات هي التي اتبعت في الحال عقب تصرف ألمانيا؛ فقد اجتمعت دول لوكارنو وهي فرنسا وبريطانيا العظمى وبلجيكا وإيطاليا في مؤتمر عقد أولا في باريس ثم نقل إلى لندن، واستدعى في الحال مجلس عصبة الأمم إلى دورة خاصة تعقد في لندن أيضاً لبحث الموضوع طبقاً لنصوص ميثاق العصبة التي يحيل إليها ميثاق لوكارنو؛ وكان

المفروض أولا أن مؤتمر لوكارنو لم يجتمع إلا ليسجل انتهاك ألمانيا لمعاهدة الصلح وللميثاق وأن مجلس عصبة الأمم لم يجتمع إلا ليسجل مثل هذا الانتهاك وليتخذ ما يقضي به ميثاق العصبة من إنصاف الدولة المعتدى عليها وتقرير العقوبات الاقتصادية على الدولة المعتدية، إذا هي لم تذعن للتسوية الودية؛ وكانت هذه هي أول وجهة للسياسة الفرنسية، وكانت فرنسا أشد دول لوكارنو غضباً وتشدداً باعتبارها هدف (الاعتداء) الألماني، وكانت ترجو أن تحمل باقي الدول الموقعة معها، ولا سيما بريطانيا على اتخاذ سياسة الشدة والإرغام وحمل ألمانيا على سحب جنودها من الرين قبل التفاهم معها على أية تسوية جديدة؛ ولكن ظهر منذ المقابلات والمباحثات الأولى أن الاتفاق لم يكن تاما بين دول لوكارنو، وأن فرنسا تكاد تقف وحيدة في تشددها لا يؤيدها سوى بلجيكا إلى حد ما. ذلك أن إنكلترا لا تنظر إلى تصرف ألمانيا بنفس العين، وترى أنه قد حان الوقت منذ بعيد لأن تفوز ألمانيا بحقها في المساواة في التسليح والضمانات السلمية، وأنه ليس من العدالة ولا من الممكن أن ترغم أبد الدهر على قبول هذا الإرغام والإجحاف، وأنه خير للسلام الأوربي أن يسمح لألمانيا بالتعاون مع باقي الدول العظمى على قدم المساواة والتفاهم؛ هذا ومن جهة أخرى فقد رأت إنكلترا الفرصة سانحة لأن تلقي على فرنسا درساً في قيمة التعاون البريطاني، وأن تؤاخذها بطريقة عملية فعالة على موقفها في المسألة الحبشية وعلى ما أبدته من التلون والمخادعة والمماذقة في مؤازرة إيطاليا وتفويت غرض السياسة البريطانية من الضغط على إيطاليا وفرض العقوبات الاقتصادية عليها عن طريق عصبة الأمم؛ أما إيطاليا فقد رأت أيضاً فرصة سانحة للمساومة والمطالبة بإلغاء العقوبات المفروضة عليها إذا أريد أن تقوم بنصيبها من العهود المفروضة في لوكارنو

لهذا كان تصدع جبهة ميثاق لوكارنو ظاهرا؛ وكانت ألمانيا من جهة أخرى قد وضعت الدول أمام الأمر الواقع بمقترحاتها السلمية التي سجلها هتلر في خطابه، وخلاصتها أن ألمانيا على أهبة لأن تعقد ميثاقا بعدم الاعتداء مع فرنسا وبلجيكا لمدة خمس وعشرين سنة لكي تضمن سلامة الحدود بين ألمانيا وبينهما وأن تعفي إنجلترا وإيطاليا من ضمان هذا الميثاق، وأن تعقد ألمانيا بينهما وبين الدول الغربية ميثاقا جويا بعدم الاعتداء؛ وأنها أي ألمانيا على أهبة للعودة إلى عصبة الأمم بعد أن تقرر حقها كاملا في المساواة وأعيدت سيادتها كاملة وزال بذلك سبب خروجها من العصبة؛ وأنها تؤمل أن توضع تسوية معقولة لمسألة المستعمرات، وأن يفصل عهد عصبة الأمم من معاهدة فرساي؛ فهذه الاقتراحات الإيجابية كانت أيضاً عاملا آخر في شل سياسة العنف والمقاومة وتمهيد الطريق إلى محاولة أوربية جديدة في سبيل التفاهم وعقد المواثيق الجديدة

ولا حاجة بنا لأن نتبع هنا تلك المباحثات والمفاوضات المشعبة التي تدور في لندن منذ أكثر من أسبوعين؛ ويكفي أن نقرر أن السياسة الإنكليزية فازت بتحقيق الشطر الأول من برنامجها فحالت دون الصدام الخطر الذي كانت تثيره سياسة العنف حتما، وحملت فرنسا على التزام جانب الاعتدال والتروي، واتخذت لنفسها مرة أخرى دور الوساطة والتوفيق؛ ومهدت لاشتراك ألمانيا في المفاوضات الدائرة لتصفية الموقف وعقد تسوية جديدة على الأسس التي تقترحها إنكلترا بالاتفاق مع دول لوكارنو. وقد تمت المرحلة الأولى من هذه المفاوضات بعقد اتفاق تمهيدي بين دول لوكارنو وهي إنكلترا وفرنسا وبلجيكا وإيطاليا خلاصته أن تتعاون هيئات أركان حرب هذه الدول في وضع الخطط اللازمة لرد الاعتداء المدبر، وأن يرفع الميثاق الفرنسي السوفيتي إلى محكمة لاهاي لتقرير ما إذا كان مخالفاً لميثاق لوكارنو أم لا؛ وفي أثناء ذلك يجب أن تسحب ألمانيا جنودها من منطقة الرين، إلى مسافة عشرين كيلومتراً داخل حدودها الغربية وتحتل هذه المنطقة قوة رمزية من الجنود الدولية حتى تتم التسوية النهائية، ولا تزيد ألمانيا جنودها في منطقة الرين عما هي عليه، ولا ترسل إليها مواد حربية، ولا تنشئ فيها مطارات أو تحصينات، وتتولى الإشراف على تنفيذ هذه الشروط لجنة دولية محايدة؛ وتتعهد فرنسا وبلجيكا من جانبهما بالمحافظة على الحالة الراهنة عند الحدود، وهذا مع تعهد دول لوكارنو بالمحافظة على تعهداتها تأميناً لسلامة فرنسا، فإذا وافقت ألمانيا على هذه التسوية التمهيدية فإنها تدعى للاشتراك في

مفاوضات عامة تجري على أسس مقترحات هتلر، وحل مسألة الرين، وعقد ميثاق جديد بالضمان المتبادل يحل مكان ميثاق لوكارنو. وإذا رفضت ألمانيا هذه التسوية فإن دول لوكارنو تعيد النظر في الموقف كله؛ وإلى كتابة هذه السطور لم تكن ألمانيا قد قالت كلمتها. على أنه يلاحظ أن الاتفاق التمهيدي مع ميله نحو الوفاق ينافي مبدأ المساواة الذي تصر ألمانيا على تطبيقه، ولهذا يرجح أن ترفضه ألمانيا أو أن تدخل عليه من التعديلات ما يحقق في نظرها مبدأ المساواة الحقة، وعلى أي حال فإنه لابد من مفاوضات ومراجعات طويلة أخرى قبل أن تحظى مسألة الرين بحل يستقر معه سلام أوربا مدى حين

وليس من ريب من أن ألمانيا قد قطعت بتصرفها الجريء خطوة حاسمة في سبيل استكمال سيادتها وهيبتها كدولة عظمى وفي أنها ستخرج ظافرة من هذا النضال السياسي، ذلك أن الدول الغربية، وأوربا كلها، ترتعد كلما لاح لها شبح الحرب؛ بيد أن تصرف ألمانيا في مسألة الرين سيغدو أيضاً نذيراً جديداً لفرنسا يحملها على مضاعفة حذرها واهبتها للمعركة القادمة الكبرى

(* * *)

خواطر

في الحياة والموت

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

كلما فكرت في أمر الموت ازددت حيرة، وكنت أظن أن إطالة الفكرة فيه رياضة حسنة عليه. وأن ذلك جدير بأن يصغر الدنيا في عيني، ويجعلني بالحياة أقل احتفالا، فإذا الأمر على خلاف ذلك، والحال على نقيضه. وما أظن بغيري إلا أنه مثلي، وقد أقول لنفسي حين أخلو بها - وقلما أفعل هذا الآن - إن كون المرء يحيا ليموت ليس بالغاية أو النهاية التي يسكن إليها الحي ويطيب بها نفسها، وما أشبه ما يفعل بنا هذا القدر الجاري علينا بما نصنعه نحن بخراف العيد - نسمنها لنذبحها آخر الأمر، وفرق ما بيننا وبين الخراف أن هذه تزداد لحماً وشحما وأنا نزداد علماً وفهماً؛ ولا أدري من الذي قال إن الحياة مدرسة، ولكن الذي أدريه أنها أعجب المدارس وأخفاها - ولا أقول أقلها - حكمة، ذلك أن التعلم فيها يستمر إلى نهاية العمر، ولا سبيل إلى اختصار الأمر أو الاجتزاء ببعض العلم عن بعضه، لانتفاء الإرادة الشخصية، ولأن المدرسة هي الدنيا كلها، فلا خروج منها إلا بالخروج من عالم الأحياء، والعالم والجاهل سيان، واللبيب كالغبي، والساعي في وزن القاعد، والمصير واحد، والمآل لا يختلف، وكل من في هذه المدرسة العجيبة يتلقى علومه الخاصة التي لا تشبه دروس غيره، ولا ترى أحداً يسأله هل حذق الدرس أم أهمله ونسيه؟ وكل واحد عالم وجاهل في آن معاً، يعرف ما أتيح له أن يعرف، ويجهل ما عدا ذلك أجمعه. وقل أن ينتفع أحد بما تعلم في حياته لأنه يدفن معه في قبره، ويلف عليه وعلى تجاربه ومعارفه كفن واحد. وكم تساءلت - وأنا أتدبر هذا كله - عن الحكمة في تضييع ما أفاد الإنسان في حياته من العلم والخبرة؟؟ ذلك أن كل ما حصل في حياته يموت معه، ولا سبيل إلى استنقاذ التجاريب والمعارف والانتفاع بها بعد أن يقضي صاحبها نحبه ويستوفي أجله. فهل هذه يا ترى خسارة تصيب الإنسانية كلما مات منها فرد، أم لا خسارة هناك عليها ولا ضير؟؟ من يدري؟ وسهل أن يفهم المرء أن يخلق ليحيا، ولكن العسير أن تجعله يفهم أنه يخلق للممات. فلماذا يكون هذا هكذا؟ وإذا صح أن الحياة مدرسة، أفلا يكون الأصدقاء والأشبه بالواقع أن نقول

إن غايتا تدريب الأحياء على الموت وإعدادهم له؛ ذلك أن الإنسان يموت منه كل يوم شيء، وشجرته لا تزال تتساقط ورقاتها وزهراتها واحدة في إثر أخرى، حتى تصوح وتعطب، وانظر ما يفعل الزمن بآمالنا ورغائبنا ومساعينا وبأجسامنا ونفوسنا؟؟ والآمال يدركها الحين، والشباب يذهب، والصباحة يغيض ماؤها، والنشاط ينضب معينه، والشعر الأسود يبيض، والقوة تسترق، والقناة المعتدلة تتقوس، والسمع يثقل، والنظر يضعف، والشهوات تفتر، والعجز يدب دبيبه شيئاً فشيئاً. حتى يوافي الأجل فيكون كل هذا تمهيداً له تتدرب به النفوس على السكون إلى الموت. حتى كر الأيام إيذان مستمر بالموت الزاحف، وليس يسع الإنسان حين يتأمل ذلك إلا أن يشعر أن كل يوم يعيشه، هو يوم يموته، والواقع أن الإنسان في يومه غير ما كان في أمسه، لأن الحياة قائمة

على التحول، أو هي دائرة على الموت إذا شئت، ولا سبيل فيها إلى بقاء شيء أو ركود حال، وكل ساعة تمضي علينا تمضي بشيء منا، أو على الأصح بصورة من صور وجودنا وحالة من حالات نفوسنا وأجسامنا، وكون المرء يتغير معناه أنه يذهب ويجيء غيره، ويموت ثم يخلق خلقاً آخر، ولكن سرعة التعاقب في الخلق تجعل الصورة الجديدة مولدة من القديمة الفانية وشبيهة بها شبها يخفي وجوه الاختلاط: والذي يديم النظر في المرآة لا يفطن إلى التغير الذي حدث، ولكن الذي يبعد عهده بالمرايا لا يسعه إلا أن يرى أن صورته قد تغيرت، وحالت عما كان يعرف

فالموت يعيث فينا نهارا وليلا. وصباحا ومساء، وكل إحساس أو رأي أو اعتقاد لنا يتغير، هو ضرب من الموت يدركنا، والشيخوخة والأمراض وما يصيبنا من خيبة في آمالنا أو إخفاق في مساعينا - رياضة لنا على ما نحن صائرون إليه من المآل. وقد أتساءل أحياناً عن معنى حياة مجهولة للموت ودائرة عليه ومتسربة فيه - في كل حيلة ومظهر؟؟ ولا جواب هناك أعرفه لسؤالي، وقد يئست من إمكان الاهتداء، حتى لم أعد أحفل لا الحياة ولا الموت، أو أبالي كيف أكون في يومي، وماذا يكون من أمري في غدي. وهل الإنسان إلا مقبرة متحركة؟؟ بل أنا أبالي - كما قدمت في مستهل هذه الكلمة - ولكني أغالط نفسي، وأصرفها عن النظر إلى هذا الجانب الأسود، وألهيها وأسليها بما أستطيع أن أرقيه على جوانب العيش من ضوء يردها مشرقة ضاحكة.

ومن هنا نشداني للفكاهة وحرصي على الوقوع عليها. ومتى تساوى الحزن والفرح، وتعادل الغضب والرضى، وكان الاهتداء في وزن الحيرة والضلال، وصار البكاء والضحك سبين، فالضحك أولى إذا قدرت عليه؛ والدنيا مأتم، فما أحقنا بأن نسري الناس، أو نسري عنهم، أو نذهلهم لحظات عن تنغيص حياة مبطنة بالموت، وذلك يتطلب الإرادة، ولكن الإرادة تكتسب

إبراهيم عبد القادر المازني

التعليم والحالة الاجتماعية - 4

في مصر

للأستاذ إسماعيل مظهر

أظهرت في مقالي السابق أن لكل أمة من الأمم ثقافة تقليدية ترثها من أسلافها، وأبنت أن هذه الثقافة تصبح بالوراثة قطعة من غريزتها وجزءاً من فطرتها، لا تنفك عنه أمة من الأمم أو تكون قد انفكت عن أخص مميزاتها وأعظم مظاهرها الاجتماعية. وعقبت على ذلك كله بمجمل العلاقات التي تربط كل أمة بثقافتها التقليدية إظهاراً لوجهة نظري في هذه المسألة الحيوية

على أن ما أحطت به في مقالي السابق قد قصر على بيان العلاقة التي تربط الثقافة التقليدية في كل أمة بمظاهرها الاجتماعية من حيث أنها مظاهر اقتصادية لا غير. والآن أريد قبل أن أختم هذه البحوث أن أظهر أن لنظريتي في الثقافة التقليدية أثراً في تكوين العقلية الفردية وتكييف العقلية الجماعية، مُنشَّأةً في كل أمة من الأمم بمقتضى الظروف والحالات التي لابستها منذ أقدم عصورها التاريخية

ومن أجل أن نبين عن حقيقة ما نقصد إليه نقصر الكلام على أخص الظواهر التي ثارت من حولها عجاجة النقد وكثر فيها الجدل حتى أصبحت من عقلية الجمهور المتعلم جزءاً لا يتجزأ

ولا ريبة أن في حياتنا الحاضرة مظاهر، هي بحكم العصر الذي نعيش فيه والحالات التي تكتنفنا، أجلى من غيرها وأبين في تكييف عقليتنا من كل الظواهر الأخرى، وأقصد بذلك الأدب من ناحية، والوطنية من ناحية أخرى

وأول ما يبدر إلى ذهن الباحث في هذا المقام أن يسأل: أمن علاقة بين الثقافة التقليدية والأدب؟ أهنالك من صلة بين هذه الثقافة والوطنية؟ أيكون لماضي الأمم أثر في تكوين أدبها وصبغ وطنيتها بصبغة خاصة، وهل من رابطة تربط بين تصورات ومشاعر وعواطف درجت عليها القرون، وبين أبناء جيل يخيل إليهم أنهم نفضوا أيديهم من الماضي وأنزلوا عن كواهلهم تراب الأزمان الغابرة، فأصبحوا خلقاً جديداً، وأمة مستحدثة من عناصر لا تمت إلى القديم بسبب من الأسباب؟

وما كان لباحث أن يسأل هذا السؤال، وما كان لهذا السؤال أن يدور في مخيلة مفكر، لو أن لنا بثقافتنا التقليدية صلة أو كان لهذه الثقافة علاقة بأدبنا، أو صلة بوطنيتنا. وإنما

يدور هذا السؤال في مخيلة كل مفكر يحكم أننا قطعنا صلتنا بالماضي، وفرطنا عقد رابطتنا بمصر القديمة، وبالأحرى حللنا العقدة التي تصل بين حبل حياتنا الحاضرة والخيوط التي تتكون منها شبكة حياتنا الماضية، ولا شك في أن الفرد ثمرة الماضي، قبل أن يكون ابن الحاضر، وصلته بذلك الماضي صلة وراثة. أما صلته بالحاضر فصلة ضرورة

ولا مرية في أن هذا السؤال غير طبيعي في أمة أحكمت صلتها بماضيها، ووثقت روابطها بثقافة آبائها الأولين. فهو بمثابة أن تسأل مثلاً: أمن علاقة بين دمي الذي يجري في عروقي ودم جدي أو جد جدي؟ وهل بين تصوراتي ومشاعري وميولي، وبين طبيعة الأرض التي تغذيني والهواء الذي ينميني والسماء التي تظلني؟ ذلك بأن الأمم متى أحكمت صلتها بماضيها ونشقت دائماً عبير الروح الذي سرى في كيانها منذ أبعد العصور لن تشعر يوماً بأنها في محيط غير محيطها الطبيعي، أو أنها في بيئة غير بيئتها الفطرية، فيظهر أثر ذلك كله معكوساً في جماع مظاهرها وبخاصة في آدابها وفي وطنيتها. أما ونحن نشعر الآن بأن أدبنا أدب مصنوع لا أدب فطري، وأن وطنيتنا وطنية ظاهرية لا وطنية حقيقية، فإنه من الطبيعي أن نسائل أنفسنا عن سبب ذلك، ومن الطبيعي أن نجد الجواب في النظرية التي أدلينا بها من قبل في العلاقة التي تقوم بين المظاهر الاجتماعية والثقافة التقليدية التي تختص بها كل أمة من الأمم، وتختص مصر بصورة منها

قرأت منذ سنوات قصيدة في مجلة (أبولو) عنوانها (قبرة شيلي)، وعكفت كعادتي في كل ما أقرأ من المترجمات على مقابلتها بالأصل، فألفيت أن الشاعر المترجم قد أجاد في المحافظة على المعاني الأصيلة قدر ما تهيئ أوزان الشعر وقوافيه ومفردات اللغة العربية لمترجم أن ينقل شعراً من الإنجليزية إلى العربية، ولقد أحسن الشاعر المترجم سبك المعاني في قالب عربي يلائم روح التجديد مع المحافظة على جرس الأسلوب العربي، فأكبرت القصيدة وأعدت تلاوتها مرات مبالغ في الوقوف على ما فيها من أوجه النقد ووزنها على مقتضى المعايير التي أومن بها في تقييم الشعر، ولم ألبث أن أحللتها بين ما أعتقد أنه من جيد الشعر الحديث، غير أني بعد كل هذا كنت أشعر بأن في القصيدة ماهية أخرى تبعدها عن

طبعي، وتقصيها عن تصوراتي وتجاريبي، وتلقي في روعي أبى غريب عن الجو الذي تخلقه من حولي. فلا الجو الذي وضعه (شيلي) وغشاه بالسحاب القاتم الشديد السواد هو الجو الذي أعرفه، ولا الغناء القوي الحنون الذي ترسله قبرته هو نفس الغناء الذي أعهده في قبراتنا، ولا لونها الأصفر الزِّرْيابي الذي يجعلها تحت السحب السوداء كأنها شرارة من لهب، هو لون القبرة المغبرة السفعاء التي أنسها في حقولي. كذلك رأيت في ذكر السيول والأمطار الغامرة التي ترسلها سماء إنجلترا شيئاً جديداً لا علاقة له بمحيطي ولا صلة له ببيئتي، وعلى الجملة شعرت بأني أقرأ خيالاً إنجليزياً في شعر عربي. خيال يجذبني من ناحيته إلى ثقافة غير ثقافتي التقليدية بل يقصيني عن تجاريبي ومشاهداتي، وأن كل ما تهيئ لي القصيدة من قدرة على التصور هو ما تحمل ألفاظها العربية من معانٍ أتخيلها تخيلاً وأصورها تصوير الحدس والوهم، وأن آلة الأداء، وهي اللغة العربية هي الناحية الوَحِدة التي تقربني بعض التقريب من الجو الشعري الذي تكيف به القصيدة مشاعري، ولا شك في أن الشعر شيء، وآلة أدائه شيء آخر، وإنما يكون الشعر متصلاً بطبع الإنسان متى استمد عناصره من ثقافة تقليدية لا يعنت التصور إدراكها، ولا يتعب الخيال تصويرها، فيشتمل على نواحي النفس ويخاطب الروح بديئة قبل أن يخاطب العقل

عقبت على هذا بقراءة قصة مترجمة عن كاتب روسي مشهور، فآنست فيها شططاً في الوصف ومغالاة في التقدير، وتحليلات نفسية معقدة غاية التعقيد، بعيدة كل البعد عن بساطة الروح المصري الذي أنسه في الفلاح الساذج الذي نشأت محوطاً بثقافته التقليدية، ولا أريد أن أبحث شخصيات هذه الرواية لأحكم أنه كان في الدنيا شخصيات حقيقية تقابل الشخصيات التي وضعها الكاتب وحلل نفسياتها، وإنما أريد أن أقول إن تحليل ذلك الكاتب مهما كان فيه من حق وبعد عن المغالاة، وسواء أكانت الصفات التي أضفاها على شخصياته تلك صفات يمكن لنفس بشرية أن تنطوي عليها، أم إنها شخصيات خيالية لا تقوم لها حقائق في الخارج، فجل ما أرمي إليه أن أقول إنها

شخصيات لا تربطني بها رابطة ولا تصلني بها صلة، وأن محيطي الذي أعيش فيه ينكر وجودها وينفي حقيقتها، بالرغم من أن شخصاً آخر في محيط آخر قد يرى أنها شخصيات طبيعية، بل قد يجسمها خياله على مقتضى تجاريبه التي يشهدها في حياته ولا أقصد بذلك أن مثل هذا الأدب غير مفيد في توسيع مجال الخيال، وتنويع الصور المتخيلة وتوطيد قواعد الأدب المصري من حيث صلته بالآداب الأخرى. وإنما أقول إنه مهما كان فيه من المميزات فهو أدب دخيل لا أدب أصيل. أدب لا علاقة له بثقافتنا التقليدية، فهو من طبع غير طبعنا وفطرة خلاف فطرتنا. إنما هو أدب تصويري لا أدب حقيقي، مقيسة معابيره بمقياس حياتنا الخاصة ومحيطنا الخاص. أدب لا تهضم منه فطرتنا إلا القليل النادر. هذا على اعتبار أن العلم بالأدب شيء وهضمه وتمثيله في الروح شيء آخر، ولن يكون للأدب من أثر في الحياة إلاّ بأن تمثله الروح فيصبح جزءاً منها، فتسترشد بِمُثُله، وتتعظ بِمثُلاته، وتدرك منه الحقائق إدراك استيعاب لا إدراك علم بها دون الإيمان بما فيها من حق وواقع

وما أريد أن أستطرد في ضرب الأمثال فإن فيما أوردت منها غنى عن ذكر غيرها. ذلك بأن كثيراً مما نقرأ في الصحف والمجلات وكثير من المؤلفات يجري هذا المجرى ويسيل هذا السيل، حتى لقد أصبح أدبنا الحديث لكثرة ما فيه من الرقع والرتوق، ولكثرة ما فيه من صور الأمم الأوربية كأنه (عصبة أمم) أخرى، ولكن في صحف سطرت بكلمات عربية

في وسط هذه الصور العجيبة المتنافرة، وفي غمرة تلك الفوضى السائدة في الأدب على مختلف ألوانه، وعلى متضارب وجوهه، ومتباين ضروبه، أتقع على الأدب المصري الصحيح الذي يمثل الروح المصرية؟ بكلمة واحدة أقول (لا)؛ وبودي لو يتسنى لي أن أكتب كلمة (لا) في صحيفة وحدها وبأكبر قطع تعرفه المطابع العربية

يشعر كل المشتغلين بالأدب، أدباء كانوا أو طلاب أدب، نقاداً كانوا أو قارئين، بأن بين الأدب الذي يعكفون على درسه أو قراءته وبين نفوسهم بوناً شاسعاً، وأن بينه وبين أرواحهم الممثلة في أخيلتهم ومشاعرهم وعواطفهم وأمزجتهم صدعاً متنائيا. وقد يأخذهم القلق حيناً، وقد تتملكهم الريبة أحياناً في أحقية ذلك الأدب بالبقاء في بيئة لا تعرفه ولا يعرفها، ولكن قلقهم لا يلبث أن يهدأ، وريبتهم لا تني إلا قليلا حتى تزول، إذ يرون أن ذلك الأدب أدب الساعة لا أدب العمر، مستدلين على ذلك بأن الآثار الأدبية التي ظهرت في العشرين عاماً الماضية لم يفلح جماعها في تكوين مذهب واحد ثابت الدعائم قوي الأركان

محدود الغايات بيِّن المثل، فعاش ولم يمت. أما السبب في أن كل إنتاجنا الأدبي إنما هو للفناء فراجع إلى أنه أدب مسروق أو على الأقل أدب مسلوب من آداب الأمم الأخرى وليس فيه من أثر المصرية إلا أنه مكتوب بلغة عربية، ولكن بأساليب أصبحت بدورها أضعف من أن تحسن أداء رسالة الأدب

ولقد سمعت بعض المشتغلين بالأدب يقولون إن نقل الآداب الأوربية إنما هو بمثابة دم جديد يغذي أدبنا بالحياة، ويمده بأسباب البقاء. غير أن هذا الرأي على ما في ظاهره من حق، فإنه أشبه بحق يراد به باطل. ووجه الباطل فيه أنهم يفرضون أن لنا أدباً يغذيه الأدب الأوربي، وذلك ما لم يقم عليه أقل دليل حتى الآن. فأين الشعر المصري الحقيق بأن يدعي شعراً مصرياً؟ وأين القصة المصرية التي تصور حياة مصر تصويراً صحيحاً مقتطعاً من الطبع المصري ومن الثقافة المصرية الصحيحة؟ بل أين الأديب الذي عكف على درس العقلية المصرية وقصر جهده على تفهم الروح التي تنطوي عليها ضلوع ذلك الفلاح الساذج الذي هو لغز الألغاز وسر الأسرار؟ أين الأديب الذي أحاط بتاريخ مصر منذ أبعد عصورها وكون من ذلك التاريخ صوراً تظهر معكوسة في أدبه شعراً أو نثرا، وأين الأدب الذي يصور ما نزل بنا من نوائب الدهر وبلايا الأيام، وما حاق بنا من مظالم يصرخ بها تاريخنا، بل أين الأدب الذي يرينا كيف ابتلع الفلاح الساذج الهادئ الطبع اللين الجانب بما فيه من قوة المقاومة السلبية، الفرس والروم والرومان والعرب والمماليك والأتراك، ولا يزال مستعدا لابتلاع خمسين قيصرية من أمثال هذه القيصريات العظام وهو قابع في عقر حقله الصغير وفي كسر بيته الطيني، تاركا دورات الحظ تدور بالسعد حيناً وبالنحس حينا آخر، وما يهمه في الحياة من شيء إلا أن يضحك ساخراً من الأمم والأقدار

على أن الإطناب في مثل هذه الأشياء تحصيل حاصل، والاستطراد في ذكر الشواهد عبث، لأننا نشعر شعوراً كاملا بأن الأدب المصري اسم على غير مسمى، وإن شئت فقل إنه فرض لا حقيقة له. وإنما أقصد بالأدب المصري الأدب المقتطع من حياتنا ومن أنفسنا ومن أخيلتنا. الأدب الذي إذا قرأته تبينت فيه مصر وأرض مصر وسماء مصر وتاريخ مصر، وعلى الجملة كل ما توحي به مصر من الموحيات الدفينة في نفوسنا، الرسيسة في طبعنا، الحائرة في أرواحنا

أما السبب في كل هذا فهو أننا بعدنا عن ثقافتنا التقليدية، بل إننا قطعنا صلتنا بالماضي وهمنا في فلوات لا نعرف فيها طريقا يسلك، لا إلى الأمام لنصير أوربيين صرفاً، ولا إلى الوراء لنعود إلى مصريتنا مرة أخرى. وإذن فنحن في التيه، ولكنه التيه الذي سوف لا نخرج من ظلماته مادمنا غير قادرين على تقييم حقائق وجودنا تقييما صحيحاً، ومادمنا عاجزين عن أن ندرك تلك الحقيقة الأولية، حقيقة أن ثقافتنا التقليدية هي الملجأ الأخير الذي يوقظ فينا (الروح المصرية) التي من طريقها نكوّن الأدب المصري. الأدب المصري الذي ينبغي أن يكون من حيتنا الأدبية بمثابة الجهاز الهضمي في الحيوان، فيه تهضم الآداب الأخرى، ثم تتمثل أدباً جديداً ملائماً لآدابنا ومشاعرنا وأخيلتنا، وفي الوقت ذاته تطرد النفايات. تلك النفايات التي تسمم أدبنا الآن وتفسده، لأن أدبنا الجديد أضعف من أن يفرزها إلى خارج جسمه المتهدم الضئيل

هذا من حيث الأدب. أما الوطنية المصرية ووصفها بأنها وطنية ظاهرية، فلا يرجع إلى حب الأغراب، ولا إلى حب النقد بغير دليل يقام أو حجة مقبولة. لهذا نقسم الوطنية قسمين: قسما يمثله الشباب المتعلم وعلى رأسه الأحزاب، وقسما يمثله الفلاح الساذج

على أنه ينبغي لنا قبل الاستطراد في شرح مزايا القسمين أن نتعرف كيف نشأت الوطنية، ومن أي نبع تستمد تصوراتها. وما من شك في أن الوطنية المصرية إنما استمدت أولى خطواتها من آداب الثورة الفرنسية الكبرى فلبت نظام الحياة في أوربا في أواخر القرن الثامن عشر. والدليل القاطع على هذا أنه منذ عصر عرابي إلى اليوم ترى أثر القسمين واضحاً جلياً في كل ما أدت الوطنية المصرية من الخدم الجسام لمستقبل مصر الحديثة. فالقسم الأول يأتم بالنظريات التي ذاعت في فرنسا في عصر ثورتها، وظل مؤتماً بها حتى بدء الحرب العظمى، والقسم الثاني ظل مستمسكا بتصوراته القديمة التي عكف عليها طوال العصور التي ظلت فيها مصر ميداناً لتطاحن الأمم والقيصريات

أما الفئة الأولى، وهي الفئة التي عكفت على النظريات الأوربية تستمد منها تصورات الوطنية، فكانت في كل الأدوار التاريخية منذ ستة عقود من الأزمان ذات الأثر الواضح في تكييف الظروف التي لابست كياننا السياسي. فهي التي بثت الروح الجديدة، وساقتها في طريق أجبر مقاوميها على أن يعدلوا من موقفهم إزاءها تدريجيا على مقتضى قوتها أو

ضعفها حتى أصبحنا اليوم وفي حياتنا السياسية عنصر جديد لم تعرفه مصر منذ عشرين قرناً من الأزمان. غير أنه مهما قيل في هذه الوطنية مظاهرها قاصرة على تصورات فئة قليلة العدد مقيسة بتبعية الذين يؤمنون بالوطنية مسبوكة في القالب الذي صوره الفلاح المصري ليكون حداً لوطنيته. وأن كلامنا إنما ينصب على وطنية هذا الفلاح دون غيرها

قد تعجب ويشتد بك العجب إذا أنا قررت هنا أن الفلاح المصري شديد الوطنية مغال فيها، بل متطرف في وطنيته أشد تطرف، ولكنك بجانب هذا تسأل أين الآثار التي تتجلى فيها هذه الوطنية، فأجيبك بأنها تظهر كل يوم على صفحات جرائدنا الأخبارية، وتشغل بها الحكومة في أكثر أيام السنة، ألا تقرأ كل يوم أن فلاحاً حز رقبة أخيه لأنه اعتدى على حقله فهد جزءا من حدوده؟ ألا تسمع أن أسرة شهرت السلاح في وجه أخرى لأن أحد أفرادهما أراد أن يأخذ نصيب آخر من الماء، وأن الموقعة انجلت عن قتيل وجرحى وأسرى هم رهن التحقيق؟ إذن فاعرف أن هذه هي الآثار التي تترتب على وطنية الفلاح المصري. أما الوطنية نفسها فتنطوي على حب الحقل والدفاع عنه بالمال وبالولد وبالروح،، ذلك بأن الفلاح الذي فقد حقوقه المدنية والسياسية طوال عصور قلما تعيها الذكريات، ونزل به من الفادحات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، لم

يصبح عنده في الدنيا من شيء ذي قيمة إلاَّ ذلك الحقل بحدوده الأربعة، وإلاَّ ذلك النزر من الماء الذي يجود عليه بالرزق الحلال

أما السبب في أن تنضمر الوطنية المصرية حتى تصبح في نظر الفلاح الذي هو أهم عناصر مصر الحيوية، محوية في داخل هذه الحدود الضيقة، فراجع إلى أسباب تاريخية. فأنه منذ غزو الاسكندر المقدوني، ومن قبله بعشر سنين، أي منذ أن طرد الفرس آخر ملوك الفراعنة واسمه (نقطانيبو) لم يسد المصريون في بلادهم يوماً واحداً، وظل المصريون بين الحقول يزرعونها ليعولوا أنفسهم ويعولوا أسيادهم الذين يتسلطون عليهم من أية أمة كانوا وبأي دين دانوا، فلقد استطاع المصريون قبل الغزو الفارسي الأخير أن يستردوا حريتهم المرة بعد المرة، عقيب كل غزو دهمتهم به أمة أجنبية كالهكسوس وغيرهم، وأن يقيموا على عرش بلادهم أسراً من الفراعنة تحي تقاليد الحكم والثقافة واللغة، تلك التقاليد التي نشأت وربت في مدى عصور لا تعيها الذكريات. ولكن تلك

الغزوة كانت آخر عهد ملوك الفراعنة الذين تجري في عروقهم الدماء الوطنية بالحكم على ضفاف النيل والى آخر الدهور. فمنذ فتح الاسكندر خضعت مصر إلى ألف سنة لحكم هِلِّيني الحضارة من مقدونيين ورومان، وفي نهايتها صارت مصر جزءاً من جسم الإسلام، فبدلت تبديلاً، وأصبحت لها لغة أخرى، ونظام اجتماعي لا عهد لها به، ودين جديد، ونبذ الإلهة الذين عبدوا في مصر على أنهم آلهتها الخواص الآلاف من السنين نبذاً أبدياً، ثم دفنوا في ثراها

ومنذ ذلك التاريخ لم يفز مصري أصيل بالحكم على شطآن النيل، بل لقد مرت عصور طويلة كعصر البطالسة مثلا، لم يكن في الحكومة كلها من مصري شغل مركزاً أكبر من مركز صَرَّاف يجبي الأموال. بل رأى المصريون معابدهم المقدسة تستباح فيتخذها المقدونيون موضعاً للهوهم وعبثهم وسكرهم وعربدتهم ورأوا الفرس يذبحون عجلهم المقدس من قبل ذلك

ولقد كان لهذه الملابسات التاريخية آثار كيَّفتْ الوطنية المصرية فحدتها بحدود الحقل المقدس، وإنما صار الحقل مقدساً في عين المصري لأنه كان الملجأ الوحيد الذي لجأ إليه فحماه من الانقراض التام. ولولا ذلك الحقل إذن لأصبحت مصر اليوم إما رومية وإما لاتينية. ولكن الحقل قام سداً بين الغزاة وبين المصريين أين منه سد يأجوج ومأجوج. ذلك بأن ثرى مصر لا يزرعه إلا المصري ولن يقوى عليه غير المصري. لهذا عبده المصريون بعد (أبيس)، وقدسوه في الأعصر الحديثة تقديسا ليس فوقه عندهم من شيء إلا خشية الله. ففي الحقل وقوته وفي طرف منه قطعة سويت لا تزيد مساحتها عن بضعة أقدام مربعة فرشت بنبات الحلفاء هي مُصَلاَّه. فالحقل للفلاح عالم صغير مقدس يذود عنه بالروح ويبذل في سبيله الدم، لأنه ملجؤه الأخير وملاذه ومبتغاه فلا عجب إذن في أن تنحصر الوطنية المصرية، وإنما نعني به وطنية السواد من أهل مصر، في حدود ذلك الحقل ولا تتعداه. وكيف تتعداه وقد آنست فيه الحياة آلاف السنين واستقرت في تربته الأجيال ثم الأجيال؟

وكما أننا عجزنا عن أن نكون أدباً مصرياً صحيحاً قوي الروح والأخيلة، بأن بعدنا عن ثقافتنا التقليدية، فكذلك عجزنا عن أن نخرج، لهذا السبب عينه، وطنيتنا من حدود الحقل

إلى حدود مصر، وليس هذا وحده السبب في أن وطنيتنا ظاهرية، بل إن هنالك سبباً آخر يتجلى في أن الفريق الأول من وطنيينا، وهم الذين يستمدون تصوراتهم الوطنية منقولة من أوربا، لم يتغلغلوا في صميم مصر ليفهموا حقيقة السبب في ضعف الوطنية المصرية، وإنما يجب علينا أن نعكف على ثقافة تقليدية ننتزعها من صميم مصر لتكون عوننا في بناء صرح المجد كاملا اقتصادا وأدباً ووطنية

أما فشلنا في هذا حتى الآن فإلى أي شيء نعزوه؟ إلى السياسة التي جرى عليها التعليم في بلادنا بغير جدال. وسنظهر في البحث التالي، جهد مستطاعنا، كيف ننجو بثقافة تقليدية مستحدثة تنقذنا من البوار المحتوم

تخالف الأستاذ الكاتب في بعض ما جاء في مقاله (الرسالة)
وخاصة في وطنية الفلاح واقتصارها على الحقل، وقد نشرناه
عملا بحرية الرأي

إسماعيل مظهر
تخالف الأستاذ الكاتب في بعض ما جاء في مقاله وخاصة في وطنية الفلاح (الرسالة) واقتصارها على الحقل، وقد نشرناه عملا مجرية الرأي

في تاريخ الفقه الإسلامي

ثلاث محاضرات

للدكتور يوسف شخت
الأستاذ بجامعة كونيكسبرج، والأستاذ بالجامعة المصرية

- 2 -

قدمنا في محاضرتنا الأولى بضع ملاحظات على الطريقتين الشرقية والغربية لدرس تاريخ الفقه الإسلامي، وأبدينا الكلام عن بعض مسائل متعلقة بعصرين هامين من تاريخ الشريعة: العصر التمهيدي وهو ما قبل الإسلام، والعصر الأساسي وهو زمن فقهاء المدينة السبعة. وتتناول محاضرتنا هذه دوراً ثالثاً: الدور الذي تكونت فيه المذاهب. فأول من أسس مدرسة في تاريخ الشرع الإسلامي هو - كما نعلم الآن - محمد بن إدريس الشافعي. وكونه المؤسس لعلم حقيقي في الفقه أمر يظهر بجلاء من كتابه الموسوم بالرسالة في أصول الفقه الذي بحث فيه عن طريقة هذا العلم، كما يبدو من النظام الباهر الذي وضع عليه الشريعة في كتابه الكبير المسمى (بالأم) وفضله هو أنه بعث اليقظة في الفكرة الفقهية الإسلامية، وأنه لا يبرهن عند الحاجة إلى الدلائل وابتغاء الوصول إلى نتائج عملية فقط، بل يبرهن دائماً ومبدئياً، وأنه يبحث أيضاً عن شروط الاحتجاج التشريعي وطرقه بوجه عام. وكتابه العظيم يتيح لنا إدراك طبيعة فكرته الفقهية وعناصرها إدراكا تاماً ويمكننا من مقابلتها بآرائه في طريقة علم الفقه المعروضة في كتاب الرسالة، وخاصتها البارزة هي الدقة والجلاء اللذان يحملانه على مخالفة كثير مما كان مسلماً به قبله دون أن يضيق بهذا أفق تفكيره، ودون أن يحصر نفسه في دائرة مخصوصة، فأن اجتهاد الشافعي ليتجه على الأخص إلى تنظيم الفقه؛ ونراه يعمل بلا انقطاع على إيجاد تماسك بين الأحكام المنفردة وعلى التحاشي عن أي تناقض بين نتائجها الأخيرة؛ ومهما يكن من أمر السابقين واللاحقين في هذا الشأن فإن الشافعي كان له أعمق الأثر في تنشئة طريقة القياس التي ظلت من مميزات علم الفقه؛ ونقصان التعريفات والتحديدات القانونية الفنية في الشرع الإسلامي يتصل مباشرة بالدور الحاسم الذي يقوم به القياس. من الطبيعي جدا أن ذلك النجاح العظيم الذي لم يسبق له مثيل، والذي افتتح في تاريخ الشرع الإسلامي عصراً جديداً قد أحدث ضجة واسعة، وأفضى إلى تأسيس المذهب الشافعي. ولكن كل هذا لا ينطبق على المذاهب التي سبقته: وعلى الأخص المذهبين الحنفي والمالكي؛ والأرجح أنها نزعات عامة كانت قد بدت في نواح مختلفة، وما بينها من الخلاف يرجع قبل كل شيء إلى أسباب جغرافية ومدنية عامة: إما بتنوع القوانين العرفية المندمجة في الفقه؛ وإما باتحاد العمل والعلم في نواح متماسكة؛ أما اختلاف الأساليب والطرق الفقهية فليس له إلا المقام الثاني، كذلك مذهب الحجاز لم يكن تقليدياً من حيث المبدأ بل من حيث أنه يمثل السنة المدنية؛ ومذهب العراق لم يكن أوسع حرية من ذلك بل كل ما هنالك أنه متفق وتطور حياة العراق المادية والفكرية التي تعرضت لكثير من التأثيرات الخارجية، وامتزجت بكثير من العناصر الأجنبية. كان هذان المذهبان في مرحلتهما القديمة يحتاجان إلى تنظيم محكم، فهما لم يرتبا صفوف أتباعهما إلا بتأثير المذهب الشافعي وعلى غراره، فاختار كل واحد منهما شخصاً ممتازاً ينتسب إليه، جديراً بتمثيله، والأدلة كثيرة على هذه الطريقة من النظر في نشأة المذاهب الفقهية: فلقد ظلت التسميتان الأصليتان من (أهل العراق) و (أهل الحجاز) تطلقان على أصحاب هذين المذهبين حتى بعد عصر مؤسسيهما المزعومين أبي حنيفة ومالك، في حين أن أصحاب الشافعي كانوا ينعتون بهذا الاسم منذ أول الأمر؛ وأنه لا يزال موضع شك في عدد كبير من الفقهاء أن يعتبروا أعضاء للمذهب المالكي، وخصوصاً للمذهب الحنفي أو يعتبروا فقهاء مستقلين، على حين أن مسئلة كهذه لا تلحق الشافعية. أما مالك فأن الشهرة الشخصية العظيمة التي ظل يستمتع بها طوال حياته لابد أن تكون قد ساعدت على اختياره رئيساً ناسبا لمذهب الحجاز؛ بيد أن هذه الشهرة قد عزتها إليه المصادر المتناهية في القدم لنقده الدقيق للأحاديث ولرجالها لا لاجتهاده التشريعي البحت.

وكون الشافعي قد ميزه بين أهل المدينة بأن ألف كتابا صغيراً فيما خالف فيه مالكا من المسائل ليس بعجيب لأن الشافعي أخذ العلم منه. ونفس النجاح العظيم الذي لقيه الكتاب الموّطأ لمالك وحده بين عدد من الكتب المماثلة له يمكن أن يعلل أبسط تعليل إذا لم نعده كتاباً مبتكراً ذا آراء شخصية بل عددناه كتابا يعبر عن إجماع المدنيين في عصر المؤلف ملتزماً الطريقة الوسطى مجتنباً التطرف في المسائل المختلف فيها. ولدينا ما يحملنا على الاعتقاد بأن مالكا قد توخا الغرض وهو شاعر بذلك كل الشعور. أما في المذهب العراقي فواضح أن أبا حنيفة يشغل من حيث تطوّر آرائه مكاناً أقل شأناً بكثير من مكانة أصحابه أبى يوسف وزفر ومحمد بن الحسن الشيباني. وإنما يرد ذكرهم كثيراً على هذا الترتيب في الكتب الأقدم عهداً؛ وانمحاء ذكر زفر وثبوت ثالوث أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد، وكذلك وضع قواعد للإيثار عند الاختيار بين آرائهم المختلفة - كل هذا يرجع تاريخه إلى عهد متأخر نسبياً. وليس لأبي حنيفة فيما عدا الفقه الأكبر - وهو عقيدة وجيزة ذات روايات مختلفة بعضها موضوعة ولكن واحدة منها صحيحة - ليس له فيما عدا ذلك كتاب صحيح من تأليفه؛ لأن مسانيد أبي حنيفة قد جُمعت فيما بعد من أحاديث وردت في كتب أصحابه؛ والأقوال الواردة عنه في مؤلفات تلاميذه لا يتجاوز غالبها المراجعات العامة، يسندون بها إليه آراءهم الشخصية، وهذا يحمل على افتراض أنه لا يرجع إلى اجتهاد أبي حنيفة الشخصي من تفاصيل المذهب الحنفي إلا شيء قليل وعلى الرغم من ذلك فأن المصادفة السعيدة قد مكنتنا من أن ندرك على الأقل ناحية من شخصيته التشريعية. فقد حكى محمد ابن الحسن الشيباني في كتابه المسمى بالمخارج في الحيل ما يأتي: (سئل أبو حنيفة عن أخوين تزوجا أختين فزفت كل واحدة منهما إلى زوج أختها ولم يعلموا حتى أصبحوا فذكر ذلك لأبي حنيفة وطلبوا الحيلة فيه فقال أبو حنيفة (ليطلق كل واحد من الأخوين امرأته تطليقة ثم يتزوج كل واحد منهما المرأة التي دخل بها مكانها فيكون ذلك جائزاً لأنها منه في عدة ولا عدة عليها من الزوج الأول). قال محمد وقد جاء في هذا حديث عيبناه). ولا يسع أحداً أن يزعم أن هذه الحكاية ليست إلا افتراء موضوعا أريد به تعظيم حكمة أبي حنيفة، لأن عين ذلك الجواب موجود أيضا في كتاب الآثار لنفس المؤلف مروياً عن أبي حنيفة عن حماد عن إبراهيم النخعي. وأما الحديث الآخر الذي عابه الشيباني نفسه فقد احتفظ به شمس الأئمة السرخسي في كتاب المبسوط قال فيه (ذُكر لهذه المسألة حكاية أنها وقعت لبعض الأشراف بالكوفة، وكان قد جمع الفقهاء رحمهم الله لوليمته وفيهم أبو حنيفة رحمه الله وكان في عداد الشبان يومئذ، فكانوا جالسين على المائدة إذ سمعوا ولولة النساء، فقيل ماذا أصابهن، فذكروا أنهم غلطوا فأدخلوا امرأة كل واحد منهما على صاحبه ودخل كل واحد منهما بالتي أدخلت عليه، فقالوا إن العلماء على مائدتكم فسلوهم عن ذلك فسألوا، فقال سفيان الثوري رحمه الله: فيها قضى عليّ رضي الله عنه: على كل واحد من الزوجين المهر وعلى كل واحدة منهما العدّة فإذا انقضت عدّتها دخل بها زوجها، وأبو حنيفة رحمه الله ينكت بإصبعه على طرف المائدة كالمفكر في شيء، فقال من إلى جنبه أبرز ما عندك، هل عندك شيء آخر، فغضب سفيان الثوري رحمه الله، فقال ماذا يكون عنده بعد قضاء عليّ رضي الله عنه، يعني في الوطء بالشبهة. فقال أبو حنيفة رحمه الله: عليّ بالزوجين، فأتي بهما فسأل كل واحد منهما: هل تعجبك المرأة التي دخلت بها؟ قال نعم، ثم قال لكل واحد منهما طلّق امرأتك تطليقة فطلّقها، ثم زوّج من كل واحد منهما المرأة التي دخل بها، وقال قوما إلى أهلكما على بركة الله تعالى. فقال سفيان رحمه الله: ما هذا الذي صنعت. فقال: أحسن الوجوه وأقربها إلى الألفة وأبعدها عن العداوة، أرأيت لو صبر كل واحد منهما حتى تنقضي العدّة أما كان يبقى في قلب كل واحد منهما شيء بدخول أخيه بزوجته. . . فعجبوا من فطنة أبي حنيفة رحمه الله وحسن تأمله). والفرق بين المسألة الفقهية في الأولى والقصة الروائية في الثانية واضح. ومن المهم أن نعرف أن مثل هذه الحكايات الرامية إلى تعظيم أبي حنيفة قد استطاع معاصرو الشيباني من إذاعتها حتى يعيبها هو. وليست الحكاية هذه الحكاية بالوحيدة من نوعها، بل توجد أخرى تشبهها كل الشبه. فالشيباني يروي في كتابه المذكور ما يلي:

حدثني حفص بن عمر أن رجلا أتى أبا حنيفة ليلا فقال إني كنت مع امرأتي. . . إذ)

تغضبت علي. . . فأبت أن تكلمني فقلت لها أنت طالق لئن لم تكلميني الليلة. . . فأبت أن تكلمني. . . وأخاف أن يطلع الفجر ولم تكلمني فتذهب مني. فقال أبو حنيفة ما أجد لك من حيلة إلا في خصلة واحدة. . . اذهب فقل لها تذكرين أنك عربية وأني إنما خرجت الساعة فسألت عن أبويك فإذا أمك نبطية. فأتاه فقال: يا عدوة الله الخ.

وهاهو ذا السرخسي أيضاً يورد لهذه الحكاية صورة روائية (.فقالت: كذبت والله محضة: (أنه قال للرجل ارجع إلى بيتك حتى آتي بيتك فأتشفع لك فرجع إلى بيته وجاء أبو حنيفة رحمه الله في أثره وصعد مئذنة محلته وأذّن فظنّت المرأة أن الفجر قد طلع. فقالت: الحمد لله الذي نجاني منك. فجاء أبو حنيفة رحمه الله إلى الباب وقال قد برت يمينك وأنا الذي أذنت أذان بلال رضي الله عنه في نصف الليل). ولا يسعنا أن نشك في أن الصيغة الأولى لهذه تاريخية والأخرى خيالية. والمغزى أن أبا حنيفة كان فقهياً عملياً كثير الحيل حتى أن الجيل الذي تلاه بالغ في وصفه بتلك الصفة التي لابد أن تكون بدت له من خصائص أبي حنيفة الشخصية بالحكايات الموضوعة: ومن الغريب أن نلاحظ أنه في زمن متأخر صار أبو يوسف هو الذي اشتهر عند القصاص بأنه مثال الفقيه المبتكر للحيل العملية والشيباني أحرى من أصحابه بأن يشغل بين الحنفية مكاناً يشبه المكان الذي يشغله مالك بين المالكية. ومن سوء الحظ أنه ليس بين أيدي الجمهور إلى الآن من كافة كتب الشيباني إلا موجزان وهما كتاب الجامع الصغير المطبوع في بولاق وكتاب المخارج في الحيل السالف الذكر الذي نشرناه نحن (وطبعات مؤلفين من مؤلفاته الأخرى طبعت في الهند نادرة جداً فهي كأنها غير موجودة) وليس كتاب المخارج في الحيل إلا في موضوع محدود، وبناء الجامع الصغير على مسائل منفردة - وهو ترتيب تطرف فيه الشيباني في هذا الكتاب تسهيلا للحفظ - لا يسمح لنا باستخراج المبادئ التي تقوم عليها الأحكام إلا من طريق الاستنتاج غير المؤمن. ومؤلفات الشيباني الرئيسية موجودة مع ذلك في مخطوطات قديمة صحيحة موجود منها قسم عظيم جداً في مكاتب استانبول. أتيح لي أنا شخصياً أن أنشر في مؤلف ذي ثلاث أجزاء فهرستاً لتلك المخطوطات ولغيرها تهم مؤرخي الفقه، وتسمح هذه الفهارس لمن أراد، أن يطلع عليها بسهولة ويتولى طبعها. والحاجة قبل كل شيء إلى تعريف كتاب الأصل الذي هو أوسع مؤلفات الشيباني وكتاب الجامع الكبير. ومع كل منهما يوجد عدد كبير من شروح وتلخيصات وحواش الخ تسهل دراستهما. ويكاد لا يقل عن هذين الكتابين أهمية كتاب الزيادات وقد شرح أيضاً مراراً كثيرة، وكتاب زيادة الزيادات، يدل عنوانهما على غرضهما أي إتمام ما في المؤلفين الكبيرين، ثم كتاب الآثار، ثم كتاب الحجج. وهذا الكتاب، ومعه مسانيد أبي حنيفة التي لا يزال أقدم رواياتها غير مطبوعة أيضاً، يعلمنا الأساس السني لا للمذهب الحنفي فحسب، بل للمذهب العراقي في العصر السابق له أيضاً. وكتاب الحجج هو أول مثال لما ألف في اختلاف المذاهب، وصاحبه يعنى بوجه خاص بأنواع الخلافيات بين أهل الكوفة وأهل المدينة، فأنه يسمي الحنفية والمالكية على هذا النحو. ولكي نقدر أصول المذهب الحنفي حق القدر ينبغي أن نطلع على نصوص هذه الكتب بعينها. ذلك أن مذاهب الفقه المختلفة لا تميزها مبادئ أحكامها فحسب بل تميزها أيضاً قائمة المسائل التي تدرس في كل واحد منها، مع طبيعة هذه المسائل. ففي باب الغصب مثلا يتناول مالك بالبحث قبل كل شيء الحالات التي يكون فيها الشيء المغضوب مثلياً، فيحمله هذا على الميل إلى مصلحة الغاصب حتى لا يكون عليه إلا أن يعوض من الشيء المغضوب كمية مماثلة. أما الشافعي فعلى النقيض من ذلك يعنى بالحالات التي يُدخِل فيها الغاضب تعديلا على الشيء المغضوب، فيميل بذلك إلى تحميله التبعة عن كل ضرر قد ينشأ عن ذلك التعديل بحيث يصبح موقعه عند الشافعي أسوأ بكثير مما هو عند مالك. أما مبادئ مذهب الشيباني فنحن عاجزون عن الحكم عليها إلى الآن لانتفاء النصوص. وطبع هذه النصوص لازم أيضاً باعتبار أنها المبدأ للبحث عن تطور الأحكام داخل المذهب الحنفي، والقاعدة العامة هي أن المسائل التي قررتها الكتب السابقة تنضم صراحة أو على الأقل إضماراً إلى الكتب اللاحقة التي تكون من جنسها، فالمسائل التي ترد في كتاب لأول مرة تمثل على وجه الإجمال النتائج التي استحدثتها المباحثات وتطور الأقوال بين هذا الكتاب والكتب التي سبقته. وهذه الطريقة التي تنطبق بطبيعة الحال على كافة

المذاهب الفقهية ستسمح لنا بأن نتبع عن كثب تاريخ أحكامها وأقوالها
ونحن إلى الآن لم نذكر المذهب الحنبلي. وكثير من الفقهاء المسلمين وفي جملتهم
ابن جرير الطبري قد آخذوا أحمد بن حنبل الذي يعتبره الجمهور مؤسساً لهذا المذهب
بأنه محدث فقط وليس بفقيه، ولم يكن من الميسور لنا إلى الآن أن نقرر ألهذا الرأي
ما يبرره أم لا. ولكن كتاب المسائل الموجود منه ثلاث روايات لم يطبع منها إلا واحدة
طبعة خاصة يصعب الحصول عليها - أقول إن كتاب المسائل هذا الذي يشتمل على
أجوبة الإمام أحمد بن حنبل على المسائل التي وجهت إليه في كافة أبواب الفقه كما
يشتمل كتاب المدونة الكبرى على أجوبة مالك ابن أنس يسمح لنا بأن نؤكد أن الإمام
أحمد نفسه أراد أن يكون فقهياً لأنه كان يعلم مذهباً فقهياً مفصلا لا يقتصر على شرح
الأحاديث. ولهذا ينبغي ألا نعتبر مجموع أحاديثه الكبير المشهور بالمسند كأنه مؤلف
قائم بذاته فحسب، بل نعتبره أيضاً كتاباً يضع الإمام أحمد فيه الأساس لمذهبه الفقهي.
ولا يعني هذا أنه أسس المذهب السني السلفي في الفقه بنفس المعنى الذي أسس
الشافعي مذهبه على مقتضاه، لأننا نجد قبله
وبعده فقهاء عديدين ذوي صبغة سنية سلفية، ومذهبهم مستقل عن مذهب الإمام
أحمد. ويلوح مع ذلك أن دائرة تلاميذه بمذهبهم كانت الوحيدة التي بقيت من تلك
الطريقة السنية السلفية المصبوغة بالأخذ بالأحاديث قبل كل شيء في الشرع
الإسلامي
وإني لأختتم هذه المحاضرة الثانية متمنياً أن تنشر الكتب الحنفية العظيمة الشأن التي
أسلفنا الإشارة إليها أقرب ما يمكن، فأن هذا الميدان ميدان خصب للتعاون بين
العلماء الشرقيين والأوربيين. ذلك التعاون الذي ألمعت إليه في بدء حديثي الأول، فأن
فقهاء اليوم باشتراكهم في تحقيق هذا الغرض سوف يعودون بفضل إحياء ماضي
علمهم كما قد فعلوا بطبع كتاب الأم للإمام الشافعي

يوسف شخت

بين شكسبير وابن الرومي

للأستاذ عبد الرحمن شكري

ليست هذه المقالة موازنة بين شاعرين، وإنما هي صلة بين قصيدتين لتقارب
موضوعهما، وأعني قصيدة رثاء مارك أنطونيوس ليوليوس قيصر، وحث الجمهور على
الأخذ بثأره، وقصيدة ابن الرومي في رثاء أهل البصرة عندما دخلها صاحب الزنج وفتك
بأهلها وسبى نساءهم ومثل بهم أشنع تمثيل، وفي هذه القصيدة يحث ابن الرومي
جمهور المسلمين عامة وأصحاب الشأن في الدولة العباسية تعريضاً على الأخذ بثأر
أهل البصرة والنفير لقتال صاحب الزنج، وتقاربت القصيدتان في نظري أيضاً لمهارة ما
أرى فيهما من الأسلوب الخطابي والقدرة على السيطرة على الجماهير بمختلف
الأساليب الخطابية. فينتقل القائل فيهما من باعث للشعور إلى باعث، ومن عاطفة
إلى عاطفة، ومن حيلة في إثارة النفوس إلى حيلة أخرى، ومن حجة إلى حجة، ومن
ترغيب إلى إرهاب، ومن حنان إلى استفظاع، ومن رقة الذكرى الماضية إلى هول
الكارثة، وتقرأ القصيدة منهما فتحس كأنها قطعة موسيقية توقع على مختلف الأوتار
والآلات والأصوات لتعبر عن مختلف الأحاسيس، وتمتاز قصيدة شكسبير في أنها أبرع
ما قرأت في شعر الغربيين من هذا النوع من التأثير الخطابي، كما تمتاز قصيدة ابن
الرومي في أنها أروع ما في اللغة العربية من هذا التأثير الخطابي وأكثره تنويعاً
لأساليب التأثير، ولا يقتصر تأثير القصيدة على كثرة وسائل إثارة النفس كما ذكرت،
ولكن الشاعر فيها يستخدم تكرار بعض الأساليب والعبارات تكراراً يراد به زيادة التأثير
الخطابي، والقصيدة لا تمتاز في ألفاظ أو عبارات منمقة فخمة، ولكنها تشعر القارئ
كأنها قيلت ارتجالا أو أن إحساس الشاعر كان أسرع من أن يدع له مجالاً للأغراب في
اللفظ والتنميق الصناعي، ففخامتها فخامة الشعور المتدفق، وعندي أن القصيدة
خطبة أكثر منها قصيدة تقرأ في دعة وسكون، فيكون أثرها أتم وأعم إذا تخيل القارئ
كارثة البصرة وما حل بها، وشارك الشاعر في شعوره وفي رغبته في إثارة أهل بغداد.
ثم إذا هو قالها على أسلوب الخطباء متتبعاً اختلاف أساليب الشاعر في إثارة النفس
مغيراً من صوته ولهجته في إلقائها حسب تغير تلك الأساليب، فإنه يجد فيها روعة لا
مثيل لها في نوعها في اللغة العربية

وقصيدة شكسبير تختلف من أجل أن الخطيب كان مضطراً أن يداهن الذين يريد إثارة الرومان عليهم، فحمدهم على أن سمحوا له برثاء يوليوس قيصر، ونفى عن نفسه العداء لهم كما نفى عن نفسه القدرة تمهيداً لإظهار قدرته، وكي يظن السامعون أن أثر المأساة هو الذي أثارهم لا قدرته الخطابية. ثم جعل يمدح قتلة يوليوس قيصر ومزج مدحه إياهم بالسخر الخفي، ثم ذكر فضل يوليوس قيصر على الرومان وكشف لهم عن جثته وأراهم جروحه الدامية وجعل يستدرجهم من طريق الرحمة والإقرار بفضل المقتول إلى النقمة على القتلة ومجاهرتهم بالعداء والتشنيع، وابن الرومي لم يكن في حاجة إلى مداهنة صاحب الزنج فكان يسميه اللعين من أول الأمر، ويكيل له الهجاء صاعا بعد صاع، ولكن انظر كيف يتدرج من التوجع لما حل بالبصرة إلى وصف دقيق لما أصابها من الزنج، ويبدأ وصفه بدخول الزنج المدينة فيقول:

دخلوها كأنهم قطع اللي ... ل إذا راح مدلهم الظلام

ثم يذكر كل ما حدث من قتل وذبح وهتك للأعراض وسبي وإحراق وتخريب وتمثيل حتى يأخذ الفزع بالقارئ مأخذه ثم يلتفت إلى الذكرى فيتذكر رخاء أهلها ونعيمهم وعمار المدينة وبهجتها، ثم يتوجع ويظهر الحياء من خذلانهم، ويذكر الناس بمحاسبة الله ومخاصمة النبي إياهم

ثم يلوح للناس بالعار اللاحق بهم ويحضهم على الأخذ بثأر أهل البصرة. والقصيدة طويلة تقع في أكثر من ثمانين بيتاً، ولما كان أثرها الخطابي يزداد من تراكم قول على قول وإثارة على إثارة لا من بيت القصيد أو من قطع ممتازة. فكل اقتطاف منها لا ينصفها، ولاسيما أن أسلوبها ليس بالأسلوب الذي يقرأ في دعة لديباجته بل يقال جهراً مع تنويع الصوت حسب مرمى الشاعر الخطيب

ويخل لي أن حافظ إبراهيم كان متأثراً بروح هذه القصيدة عندما نظم قصيدته في رثاء قصر الجزيرة وقصيدته في زلزال مسينا

ومن تكرار ابن الرومي المطرب المؤثر ترديده اللهف في قوله:

لهف نفسي عليك أيتها البص ... رة لهفاً كمثل لهب الضرام

لهف نفسي عليك يا فرضة البل ... دان لهفاً يبقى على الأعوام

لهف نفسي لجمعك المتفاني ... لهف نفسي لعزك المستضام

أو ترديدكم في قوله:

كم ضنين بنفسه رام منجى ... فتلقوا جبينه بالحسام

كم أخ قد رأى أخاه قتيلا ... تَرِبَ الخد بين صرعى كرام

كم رضيع هناك قد فطموه ... بشباً السيف قبل حين الفطام

أو ترديد من في قوله:

من رآهن في المساق سبايا ... داميات الوجوه للأقدام

من رآهن في المقاسم وسط ال ... زنج يقسمن بينهم بالسهام

من رآهن يتخذن إماء ... بعد ملك الإماء والخدَّام

أو ترديد أين في قوله:

أين ضوضاء ذلك الخلق فيها ... أين أسواقها ذوات الزحام

أين فلك فيها وفلك إليها ... منشئات في البحر كالأعلام

أو ترديد أفعال الأمر في أخريات القصيدة، وهذا الترديد ما هو إلا ناحية من نواحي أسلوبها الخطابي ومثل من أمثلته وطريقة من طرقه المؤثرة، والأسلوب الخطابي نفسه ما هو إلا ناحية من نواحي الإجادة الشعرية التي تتعدد وسائلها في القصيدة، وفي القصيدة ناحية تزيد ألمها في النفس وهي إعادة الشاعر عرض فظائع القتل والتخريب والتمثيل بعد أن ينتقل بالقارئ أو السامع في هدوء إلى ذكرى نعيمها الزائل، وبعد أن يهدئ من روعه بعرض مناظر أمنها وسعادتها ودعة أهلها الماضية فكأنه ينكأ القرح بعد أن يضمده، ويضرب القلب بعد أن يربت عليه، ويجذب الأعصاب بعد أن تسكن

عبد الرحمن شكري

الإمبراطورية الآسيوية هل تصبح حقيقة تاريخية

بقلم جورج حداد

لقد مرت على القارة الآسيوية قرون ازدهرت فيها إمبراطوريات عديدة، ووحدت

قسما غير يسير من هذه القطعة من الأرض، ولا نقتصر في ذكر هذه الإمبراطوريات على ما قام منها في العالم القديم. كإمبراطورية البابليين، والآشوريين، والفرس، وإنما هنالك دول إمبراطورية واسعة نشأت في العصور الوسطى بعد سقوط دولة الرومان وأهمها الإمبراطورية العربية التي سيطرت على آسيا الغربية والوسطى، وامتدت إلى حدود الصين، وهكذا كانت القارة الآسيوية إذ ذاك تحكمها إمبراطوريتان كبيرتان إمبراطورية أبناء ماء السماء (الصين) في الشرق، وإمبراطورية أبناء يعرب في معظم القسم الباقي. انقرضت بعد ذلك إمبراطورية العرب وضعفت إمبراطورية الصين وتغيرت حالها وبدأت العصور الحديثة تحدثنا عن قيام إمبراطورية يابانية كانت قليلة الشأن حتى منتصف القرن الماضي، ومن ثم أخذت تزدهر وتنمو حتى ليخال المطلع على شؤونها أنها ستبني إمبراطورية آسيوية لم يعرف التاريخ لها مثيلاً

إن حكاية تقدم اليابان والحق يقال حكاية عجيبة وأعجب ما فيها تلك السرعة التي قضت فيها على نظامها القديم منذ ثورة 1868 الدستورية، وأنشأت لنفسها قوة حربية في البر والبحر حتى أصبحت تضاهي أعظم دول الأرض، وكذلك يدهشك نجاحها في إنشاء قوة صناعية لا تقل عن قوى أهم دول أوربا وأمريكا الصناعية اليوم. ثم نجاحها في مناوأة جارتيها الكبيرتين الصين والروسيا، واكتساحها قسما من ممتلكاتها. فروسيا القيصرية والصين الإمبراطورية قد عجزتا بين أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحاضر عن صد هجوم اليابان فأعطتها الأولى نصف جزيرة سخالين وبور آرثر، وأعطتها الثانية جزيرة فورموزه مع منحها شبه جزيرة كوريا الاستقلال، وكان استقلال كوريا خطوة نحو استيلاء اليابان عليها. فلم تأت سنة 1910 إلا وكانت حكومة الميكادو صاحبة الأمر فيها، ولم تنته الحرب العالمية وتوقع معاهدة فرساي إلا وكانت اليابان قد وضعت يدها على بعض مستعمرات الألمان السابقة في المحيط الهادي وأصبحت من الدول الكبرى التي يحسب لها حساب في السياسة العالمية وخصوصاً في المحيط الهادي

لم تقف مطامع اليابان في القارة الآسيوية عند حد الاستيلاء على كوريا وبعض الجزر فهي عدا شعورها الوطني المتين وعزتها القومية تشعر بحاجة إلى التوسع، وحالتها تشبه حالة إنكلترا وجميع الدول الصناعية الكبرى. فمساحة جزرها تبلغ تقريباً مساحة الجزر البريطانية، وعدد سكانها يزيد على عدد سكان بلاد الإنكليز، وما تنتجه اليابان من المواد الغذائية لا يكفيها، كما أنه ليس فيها من المواد الأولية ما يكفي حاجات صناعتها. فكوريا هي مركز تصدير الأرز إلى اليابان، ومنشوريا التي كانت من ملحقات الصين منذ ثلاث سنوات غنية بالمعادن، وهذه حوادث السنوات الأخيرة قد أرتنا كيف اهتمت حكومة الميكادو بمنشوريا، وأرسلت جيوشها إليها وتمكنت من فصلها تماماً عن الصين، وإقامة حكومة مستقلة فيها تحت نفوذها، وهكذا أتيح لها أن تسيطر على خمسين مليوناً من النفوس في منشوريا وكوريا، بينهم قسم من رعاياها اليابانيين، والمواصلات سريعة والعلاقات متينة بين هذه الملحقات البرية وجزر اليابان واليوم هل وقفت مطامع اليابان عند هذا الحد؟ إن حوادث هذه الأيام تجيبنا بالنفي، وماذا يريد اليابانيون إذاً؟ أنهم يريدون انفصال المقاطعات الخمس في شمال الصين عن حكومة نانكين فتقيم حكومة مستقلة كما حصل في منشوريا وتقبل مراقبتهم ونفوذهم، وأخيراً قد تطلب هذه المقاطعات الحكومة الملكية فتقبل حكم إمبراطور منشوريا الحالي الذي كان إمبراطور الصين كلها في عام 1911. عندئذ يتم تشكيل إمبراطورية كبرى من منشوريا والمقاطعات الخمس يبلغ عدد سكانها 120 مليوناً من النفوس، وتحميها الدولة اليابانية، وبعد مدة قد يذكر إمبراطور منشوريا حكومة نانكين الجمهورية بأن الصين كانت موحدة في العصور السابقة فيزحف بجيوش منظمة تعضدها حكومة اليابان على نانكين، فيتم وضع أيدي اليابان على بلاد الصين كلها، ولا يغربن عن الذهن أن الصين كانت قديماً تحكم تركستان الصينية والتيبت وتحمي عدا منشوريا وكوريا ومنغوليا الهند الصينية أيضاً، فهل تفكر اليابان في ضم هذه كلها إلى إمبراطوريتها الواسعة؟ إنها بدون أن تضم هذه المقاطعات تكون بعد أن يتم استيلاؤها على ما يعرف بالصين الأصلية قد حكمت إمبراطورية يزيد عدد سكانها عن ربع سكان العالم، وتكون إمبراطوريتها في قارة واحدة غير مجزأة منتشرة أقسامها في جميع القارات كالإمبراطورية البريطانية

إن سياسة اليابان سوف لا تتغير. فقد أرادت منذ 1915 أن تفرض حمايتها الاقتصادية والسياسية على الصين، ولكنها فشلت. إلا أنها واصلت جهودها فتوصلت في السنوات الثلاث الأخيرة إلى نتيجة باهرة، وقد تتوصل إلى أكثر من ذلك بعد بضعة شهور. إن ما طلبه زعماء المقاطعات الخمس في شمالي الصين هو تشكيل هيئة تسمى المجلس السياسي الشمالي للجمهورية الصينية له استقلاله الإداري ويشبه مجلس منغوليا المستقل، ويكاد يتم انفصال هذه المقاطعات عن الصين وعلى هذا المبدأ، ولكن تحت سيطرة حكومة طوكيو اليابانية. ومهما يكن فإن اليابان مستعدة أن تبذل جهوداً جبارة لتحقيق برنامجها في الصين. غير أن الولايات المتحدة ذات قوات كبرى في المحيط الهادي وجيوش روسيا السوفيتية بالمرصاد على نهر الآمور وأسطولها رابض شرقي فلاديفستك

هذا وقد لوحظ مؤخراً شيء من التطور في العلاقات بين بريطانيا العظمى وروسيا نظراً لمصالحهما المشتركة في الشرق الأقصى، وهذا التقارب بين الدولتين الكبيرتين يعد من أشد الحوادث بروزاً في السياسة الدولية. فاليوم قد تبدلت الحال بين الدولتين وزال ذلك التنافر في مصالحهما إن كان في جهات بحر البلطيق أو في جنوب شرقي أوربا، وفي الشرق الأدنى والهند والشرق الأقصى. فقد كادت مطامح روسيا القيصرية في الماضي تؤدي إلى الحرب مع إنكلترا نظراً لاحتكاك مصالحهما أكثر من مرة في تركيا وفارس وأفغانستان وعلى حدود الهند، ولكن الخطر الألماني الذي يهدد الدولتين هو الذي أجبرهما على تناسي العداوة وحملهما قبل الحرب الكبرى على الاتفاق سوياً ضد حكومة برلين. وعادت العلاقات بعد الحرب الكبرى فساءت بين الدولتين لأن خطر الشيوعية الآتي من موسكو هال بريطانيا العظمى، ولأنه كان من رأي روسيا إعادة النظر في معاهدات 1919، غير أن روسيا تحققت بأن قلب تلك المعاهدات لا يأتي إلا بعد حرب لا تعلم إذا كانت تسفر عن نتائج أحسن من نتائج الحرب الماضية. فهي اليوم تريد السلم وهذا ما تريده إنكلترا أيضا. وقد أصبحت مدفوعة بسياسة اليابان الهجومية إلى التفتيش عن صداقة دول ذات مصالح في الشرق الأقصى. والتعاون بين بريطانيا العظمى وروسيا يفي بمصالح الدولتين خصوصاً لأن تلك المصالح لا تصطدم اليوم على طول الخط الممتد من البلطيق إلى الشرق الأقصى. فقد انقضى عهد مطامح القياصرة في القسطنطينية وأجزاء الدولة

العثمانية وزال النزاع بين إنكلترا وروسيا في خليج فارس وأفغانستان. وليس لروسيا مطامح في الهند اليوم لأنه ليس لها أسواق تجارية فيها إن كان في الصادر أو في الوارد، وكذلك ليس لها رؤوس أموال تثمرها هناك. والروسيا تهتم بإنهاض قواها في الداخل قبل كل شيء ولذلك تحتاج إلى السلم. وأما في الشرق الأقصى فإنها تريد ضمان وحدة الصين، وسياستها هناك تشبه سياسة إنكلترا في الدولة العثمانية في القرن الماضي. فهي تنظر بعين الحسد - كما تنظر إنكلترا أيضاً - إلى توسع اليابان على حساب الصين

إن وزارة الخارجية الإنكليزية اليوم تريد أن تعوض عن خطيئتها قي سياستها نحو الروسيا منذ عشر سنوات. فالخطر الياباني الذي لم تشأ حكومات إنكلترا السابقة أن تراه والخوف الذي يهدد مستعمرات إنكلترا لم يعد مجرد خرافة. إن اليابان اليوم تتسلط على ثلث الإمبراطورية الصينية السابقة وعما قريب ستبدأ الحرب الحقيقية بين إنكلترا واليابان في آسيا الوسطى حيث تدافع اليابان عن استقلال الأمة الصينية وتطالب إنكلترا بإعطاء الصين ما أخذته منها. وسوف لا تقف عند هذا الحد، بل ربما وضعت أساساً لسياستها هذه العبارة التي بدأ رجال السياسة في اليابان يرددونها وهي (آسيا للأسيويين) كما وضع الرئيس منرو منذ أكثر من قرن خلا مبدأ لسياسة حكومة الولايات المتحدة (أمريكا للأمريكيين) واليابانيون ماضون في تنفيذ برنامجهم وعندما يصبحون على أبواب (كاشغار) في تركستان الصينية، لا يصعب عليهم الهجوم على الهند

ومن المحقق أن إنكلترا لا تقف مكتوفة اليدين أمام هذه الأخطار، فهي تقوم بتحصين سنغافورة، وستدفع ثمن ذلك باهظاً - نحو 30 مليون جنيه. غير أن هذه القاعدة الحربية ليست كافية أمام أمة تستعد لفتح آسيا كلها. وإنكلترا وحدها لا يمكنها الوقوف في وجه هذا الخطر الأصفر، وهي لذلك تسعى للحصول على مساعدة الدول الأخرى،

ويظهر أنه لابد للوقوف في وجه الخطر الياباني من اتفاق بين الدول الأربع: الروسيا وإنكلترا وفرنسا والولايات المتحدة. ويقول أحد الصحفيين الروس بهذه المناسبة إن نظام الضمانات المشتركة لأجل السلام لا يجب أن يكون كمظلة يمكن وضعها في مخزن الحبوب لكي تأكلها الفيران ثم إخراجها لاستعمالها ضد حرارة الشمس، لأن هذه المظلة متى ما أكلت قماشها الفيران لا يمكن استعمالها للوقاية من حرارة الشمس. والصحفي يؤكد أن روسيا
مستعدة للتضحية في سبيل توطيد السلم ولتأييد الدول في نزاعها ضد الذين وضعوا مبدأ لهم سياسة الهجوم. وهكذا فإن أساس الاتفاق موجود بين إنكلترا وروسيا. وسيظهر التاريخ إلى أين تؤدي سياسة التوسع الياباني وفي أي مرحلة من سيرها نحو بناء إمبراطوريتها الآسيوية ستقفها دول أوربا وأمريكا
(حلب)
جورج حداد
على شواطئ الآستانة
ساعة في متحف (طوب قبو)
للأستاذ كمال إبراهيم
وقصدت إلى دار السلطان، ومنازل الخلائف من آل عثمان، وقد أصبحت بما فيها متحف الزائر، ومُجتلَى الناظر، ومطاف المتفرج، بعدما كانت تطاول السماء في رفعتها، وتُصاول العُصم في منعتها، وكانت في حمّى كبطون القلاع، ومن يحم حولها يوشك أن يقع في شراك الموت
أجل، وكانت هذه المغاني التي نطيف بها اليوم، تفيض بالنعيم، وتختال في جلال الملك، وتزدهي بأبهة السلطان، وكان الزمان قد بسم لها بسمة الإقبال، ثم أغفى عنها حيناً، ولكنها إغفاءة اليقظان، فما لبث حتى بعدها حتى اهتاجت هوائجه، وانباجت بالشر بوائجه، فأحال حالها، وأهلك أهلها، وأباد سلطانها، وتركها عبرة للمعتبر، وعظةً للناظر: ثم انقضت تلك السنون وأهلها ... فكأنها وكأنهم أحلام
وكانت كجنة الخلد، موشيَّة الأديم، رفّافة النسيم، دانية الظلال، زهراء ناضرة، وعرائس القصر في مقاصيرهن، يصورن مباهج الحياة، وإشراق السعادة، وفتنة الوجود، فإذا ما خطرن في مطاف وشبهن، وسرن متثاقلات بحَلْيهن وحُللهن، خلت السعادة حيث كُنَّ، تقيم إذا أقمن، وترحل حيث يرحلن
من الهيف لو أن الخلاخل صُيرت ... لها وُشُحاً جالت عليها الخلاخل
مها الوحش إلا أن هاتا أوانسُ ... قنا الخط، إلا أن تلك ذوابل
وجنبات القصر موّاجة بالحشم والعبيد، والأبواب قائمة بالحجاب، والجميع ناكسة أبصارهم، عانية رقابهم، لعزة الملك، ورب الصولجان، وظل الله على الأرض. .
واليوم، واهاً لها اليوم، قد أقفرت من ذويها، وثكلت ساكنيها، وأصبحت خبراً يروى، وكتاباً يقرأ ويطوى
كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيس ولم يسمر بمكة سامر
دخلت إلى تلك القصور المعروفة بـ (طوب قبو) وقد باتت متحف المتفرجين، وملهى الزائرين، يرودون الأبصار في آثار السلطنة الماضية، ويطوفون بين الأركان الباقية، ويتقلبون فيما خلفه الخلفاء، من عروض ومتاع، وحلل ونفائس، يقابل الداخل عن شماله، غرفة السلطان تصاقبها أخرى لمجلس وزرائه، وقد أبقيتا على ما كانتا عليه، وفي أعلى المجلس روشنٌ أعدّ لجلالته، يُشرف منه على جلساته، فإذا خرجت منه أفضى بك الطريق إلى قصور متفرقة جعل في كل منها صنف من العروض والأثاث، واللباس والحلل، والحلي والشارات، مما كان في بيوت السلاطين، وقد نسقت في معارضها أبدع تنسيق، ونمقتها يد الفن أجمل تنميق، وما هي غير نفائس العصور، وتحف الحياة ومعجزات الصناعة، وبواكير البراعة، التي أنفق حذقة الصناع فيها حياتهم، وحبسوا في نمنمتها جهودهم وأوقاتهم، فجاءت تخطف الأبصار بروائها، وتذهل الألباب بأناقتها وزخرفها. .
ينتهي الطائف بعد هذا إلى بيوت السلاطين، وقد أبقى كل منها على ما كان عليه في عهد من عاش فيه، وهي متصلة متداخلة، يفضي بك بعضها إلى بعض، ويسلمك منها مجاز إلى مجاز، حتى تضلك السبل، وتنفذ معك الحيل في تعرج الموالج والمخارج،

ولولا دليل معنا خرِّيت لعمي علينا القصد، وأنفقنا الزمن في أخذ ورد
سرت في هذه القصور، وصور الماضين تمر من أمامي صامتة ناطقة، فصرت أقيم في كل ركن مشهداً، ومن كل حجر معبداً، وفي كل لوح منظراً مخلداً، حتى توزعتني الصور والرسوم، وغشيتني الأشباح والطيوف؛ وازدحمت في خاطري الأخيلة والذكريات؛ هاهي ذي الآثار الصامتات قد انتصبت لناظري حزينة تتوارى كأشباح الموتى، وهذه قواعد البيت كأنها بعض قواعد الأهرام، تفيض بعبر الدهر، وتنطق بغوائل الزمن وفجاءات القدر كل يوم، ومن يدري ما تخبئ لها الأيام بعد حين، وقد أصبحت بين عشية وضحاها كما تراها

عمرت للسرور دهراً فصارت ... للتعزي رباعهم والتأسي
فلها أن أعينها بدموع ... موقفات على الصبابة حبس
ذاك مني وليست الدار داري ... في اقتراب منهم ولا الجنس جنسي

أجل سرت في تلك القصور، وكأني بمواكب السلاطين الحافلة، غادية راحة في أيام الجمع والأعياد، وكأني بخليفة المسلمين قد خرج من قصره، في طلعة الخلافة، وأبهة الملك محفوفا ببطانته، مزفوفا من رعيته، تستره عن الناظرين، صفوف الحجاب، وهياكل
الحرس، وقامات الشرطة بملابسهم المفوفة، وأوسمتهم المزخرفة، ومن ورائهم جماهير الشعب المحتشدة على طواري الدرب الكبير متدافعة، وقد استطالت الأعناق إلى اجتلاء تلك الطلعة المباركة، وأنفاس المصلين تملأ الجامع القديم (أياصوفيا) بالدعوات الصالحات، والكلمات الطيبات والابتهال إليه تعالى، أن يمد في حياة خليفة المسلمين، وينصره على القوم الكافرين
ويصاقب تلك القصور إلى شط البحر، جنة لفّاء، روحاء زهراء، يخترقها درب عريض، قامت على جانبه أشجار فينانة، وارفة غيدانة، مبسوطة الأمليد، ملتفة العساليج، وقد عقدت فروعها من فوقها سماء من الأوراق، تزري بزرقة السماء، حجبت شمسها إلا خيوطاً منها، فكانت كما قالت بنت زياد في وصف واد:

حللنا دوحه فحنا علينا ... حنو المرضعات على الفطيم
تصد الشمس أنّى واجهَتنا ... فتتحجبها وتأذن للنسيم

وذكرت حين سرت هناك غريب اللسان، قول أبي الطيب في شعب بوان:

ولكن الفتى العربي فيها ... غريب الوجه واليد واللسان
ملاعب جنة لو سار فيها ... سليمان لسار بترجمان

سرت في ذلك الدرب الظليل، ونواسم البحر الندية تجوس خلال أدواحه، وتتقلب بين أزهاره وأوراقه، فعبق شذاها، وطاب رياها، تلامس الوجه، فيتفتح لها الصدر، وتخلص لها الروح، أفضى بي السير إلى مسالك تنشعب من ذلك الدرب، تكتنفها ملاعب وميادين، ودارات ورحب، فإذا أمعن السائر في السير بدا له البحر متسع الأفق، وتزاحمت الآستانة لناظريه متعالية على ضفاف البسفور، وقد احتضنت الماء، وعانقت السماء، فكانت فتنة العالم، وسحر الوجود. فإذا ما بلغ شط البحر، وقد شطت بخياله تلك الصور والذكر، لاح له ذلك التمثال الفخم، وسط رحبة من الأرض، لرجل (تركيا) اليوم، فيعود به هذا المشهد الحديث، إلى الحقيقة بعد خيال، والى الحاضر بعد غياب، والى الساعة التي هو فيها بعد استغراق طويل

كمال إبراهيم
المدرس في دار المعلمين ببغداد

الحركة الفكرية في السودان

بقلم حيدر موسى

طريف جداً أن نسمع حديث أبناء العروبة عن الحركات الأدبية في بلاد الشرق المختلفة، وجميل جداً أن تكون (الرسالة) الفيحاء ميداناً رحباً نرى فيه تلك الأقلام القوية تصول وتجول فنعجب بها وتمتلئ نفوسنا بشتى الاحساسات الحلوة التي لا تتعدى حب أبناء الضاد لبعضهم، وقد عزمت حين قرأت تلك المقالات الطلية أن أرفع صوتي الضعيف بين تلك الأصوات الداوية العالية وأرسل ضوءاً على الحركة الفكرية في وطني السودان، ليعرف إخواني أبناء أسفل الوادي شيئاً قليلا عن النهضة القلمية في أعلى الوادي، فلعل حديثي يقع في نفوسهم الكريمة موقعاً حسناً ولعله لا يكون

ممجوجاً
إن أدب السودان يسير وراء الأدب المصري ويتبعه خطوة خطوة، نظراً للجوار ولتشابه الأخلاق والعادات وغير ذلك من الأوصاف التي فرغ رجال التاريخ من سردها ووفقوا في ذلك توفيقاً عظيما. ولذلك أود ألا أكرر لأن التكرار تمجه الأذواق السليمة أجل إننا نسير وراءكم ونحاكيكم كما يحاكي الطفل أخاه الأكبر، لكن سيرنا ببطء وبخطوات متزنة لأننا نخشى الكبوة ولنأمن سوء العاقبة. إن صحفكم على اختلاف أنواعها ومذاهبها مقروءة لدى كل الطبقات في المدن الكبيرة ويطالعها المتعلمون في القرى، وللصحف الأدبية الراقية التي تبعث بها إلينا مطابعكم المحل الأول، فترى الشبان كانوا يتأبطون (السياسة الأسبوعية) في إبان حياتها، وعندما اختفت وظهرت (الرسالة) وسدت الثغرة تهافتوا عليها وخطبوا ودها فإذا أنت تراها بأيديهم في النوادي والمجالس والمنازل ثم في عربات الترام أيضاً حتى صارت قراءتها محتمة على كل أديب ومتأدب، وسل الأستاذ الزيات يحدثك بالأرقام عن مبلغ ذلك الذيوع والانتشار الواسع الذي قل أن تحظى به غير الرسالة، وصدقوني يا أحبائي القراء فلست أقول هذا القول تقرباً من الأستاذ. بل أقول الحق كأي رجل حر
الشباب السوداني متطلع دائماً إلى العلياء، وخصص جهده ووقته - في الوقت الحاضر - للإلمام بمختلف الآداب والفنون، وللموظفين وهم خيرة المتعلمين النصيب الأوفر في هذا الميدان رغم ضيق وقتهم وقلة مالهم، فترى النوادي بها جمعيات أدبية تقوم بتنظيم
المحاضرات والمناظرات جهد المستطاع، حتى النوادي الرياضية لم تهمل الأدب بجانب اشتغالها بترقية الروح الرياضية. كذلك تعنى النوادي المختلفة بإقامة حفلات تمثيلية تعرض فيها الروايات العربية والمصرية، ويسرني كل السرور أن القصة السودانية قد صار لها شأن في عالم التمثيل السوداني، ولا أكون مبالغاً إذا قلت إنها اكتسحت أو كادت تكتسح الروايات غير الوطنية، وكل هذه الروايات البلدية موضوعة بالشعر الشعبي المسمى (الدوبيت) وهو كالغناء يقع في نفوس السامعين موقعاً حسناً وبنغمة حلوة تثير الحماسة؛ ودعني أعرفك بأسماء هذه الروايات فمنها (مصرع تاجوج ومحلق) وهي معروفة لدى المصريين، وقد نشر ملخصها في بعض المجلات المصرية ثم رواية (خراب سوبا) ورواية (فتاة المستقبل) ورواية (البتول) وغيرها وقد أعيد تمثيل الروايات كثيراً نظراً للإقبال العظيم الذي قوبلت به من الجمهور المتعطش لكل ما هو سوداني أصيل، وهذا شعور طيب بالقومية يسرني أن أنوه عنه في هذا المقام ليعرف أبناء العروبة أي شعب نبيل في أعلى الوادي، وإن كنا نخجل أن نشيد بأعمالنا وهذه عادتنا ولا سبيل إلى الخلاص منها. فينا الشعراء والأدباء، وفينا المجددون والمحافظون، لكن التجديد غالب، والفضل للشباب الذي هو الحركة والنشاط. أما حركة التأليف فضعيفة لغلاء أجرة المطابع ولعدم وجود ناشرين يتولون إخراج الكتب، ويوجد الآن أدباء وشعراء يملكون كتبا ودواوين شعرية وهم حائرون لا يعرفون كيف يخرجون هذه الآثار الأدبية التي هي فخر للسودان، والحقيقة أن هذه المشكلة مسألة المسائل ويتألم لها الأدباء ولا يدرون لها حلا، ولذلك لا تجد كتاباً قيماً أخرج للآن في السودان لا لعقم في القرائح. كلا: بل للعذر الذي بيناه
أما الصحافة فحدث عنها ولا حرج، فلدينا الآن جريدة حضارة السودان، وجريدة السودان، وتصدران في الأسبوع مرتين، وجريدة النيل اليومية وملحقها الأدبي الأسبوعي، ومجلة الفجر وهي نصف شهرية، كذلك لكلية غردون مجلة خاصة لا تقف فائدتها على الطلاب فحسب، بل لا تخلو من فائدة، ولجمعية الكشافة مجلة أيضاً تتناول أحياناً بعض الموضوعات الأدبية، وقد اختفت بعض المجلات كمجلة النهضة السودانية، ومجلة مرآة السودان نظراً لقلة المال وفداحة أجرة المطابع، وقد كان لاختفائهما أثر سيئ في القلوب، وفي نظري أن صحفنا السودانية لو وجدت الإقبال الذي هي أهل له في البلاد العربية
وخاصة في مصر لما تعثرت ولما اختفت أو شكت من قلة الإقبال والمال، ولأدت خدمات مضاعفة لوطننا الناشئ المحتاج للدعاية الواسعة، ليرتفع صوتنا في الأصقاع البعيدة، وليصير شأن غير شأننا الحاضر
إننا نتسابق في اقتناء الكتب المصرية والصحف المصرية، وقد استفدنا كل الفائدة من

ذلك، ففتحت عيوننا، وتذوقنا الأدب، وعرفنا الحياة، أفليس من المستحسن أن تساعدونا بقراءة صحفنا والتعليق على إنتاجنا الأدبي، لتنيروا لنا الطريق بصائب نصحكم وتجاربكم؟ وفي رأيي أن (الرسالة) خير من يقوم بهذه المهمة نظراً لانتشارها العظيم في السودان، ولوجود فطاحل الأساتذة في أسرتها

إننا شرحنا حالنا لأبناء العمومة في مصر أكثر من مرة، وقلنا أننا نعرف كل شيء يجري تحت سماء مصر، ونتألم إن ألمت بها ملمة، ونفرح إذا نالت ما تصبو إليه من رفعة وحرية، وليس غريبا إذن إن طلبنا منهم أن يعاملونا بالمثل. نعم إننا أقل منهم علما وثقافة وبمعونتهم يمكننا أن نسير نحو النور وصوب الثقافة الحقة التي هي أمنية كل سوداني، حتى الجهلاء من المسنين قد بدأوا يتعلمون القراءة وعرفوا فائدتها

أخيراً، فتطوع الشباب وانبرى للقيام بهذا الواجب والنتائج تدعو للتفاؤل الشديد كثر الجدل بين الشباب السوداني عن الأدب القوي الذي دعا إليه الأستاذ الجليل أحمد أمين، فاشتد النقاش بين مؤيد ومعارض ولم تعرف النتيجة بعد

لعل من الطريف أن نذكر أن بعض الصحف السودانية تعارض في نشر القصائد الغزلية على صفحاتها، وحجتها في ذلك غير مقبولة لأن الغزل معروف من قديم الزمان، ولكننا نحاول التوفيق بين آرائها وآرائنا فعسى أن نوفق

هأنا قد تحدثت عن بعض النواحي، فعلى إخواني أدباء السودان أن يتمموا ما بدأت

حيدر موسى

صورة من الحياة العلمية في مصر

تقي الدين السبكي - 2

بقلم محمد طه الحاجري

وفي أثناء هذه الولاية ولد له تقي الدين، وفي هذا البيت الكريم الذي ترفرف عليه روح العلم والورع نشأ نشأة مباركة بين أبيه وعمه الشيخ صدر الدين أحد أفاضل العلماء، يرعيانه ويتوليان أمره. وينشئانه أحسن تنشأة وأكرمها؛ فقد رأيا فيه ملامح النجابة والذكاء والإقبال على العلم والجلد عليه، والانصراف عن اللهو ولذائذ الحياة، ما جعلهما يتنوران من خلاله أنه سيكون إماماً من أئمة العلم ورجلاً من رجال الخلق والفضل.

فقد حكي عنه أبنه تاج الدين (أنه كان يخرج من البيت صلاة الصبح فيشتغل على المشايخ إلى أن يعود قريب الظهر، فيجد أهل البيت قد عملوا له فروجا، فيأكل؛ ويعود إلى الاشتغال إلى المغرب؛ فيأكل شيئاً حلوا لطيفاً، ثم يشتغل بالليل؛ وهكذا لا يعرف غير ذلك. . . . . وكأن الله قد أقام والده ووالدته للقيام بأمره، فلا يعرف شيئاً من حال نفسه.)

لقد كانت طفولة عجيبة، تلك الطفولة الجادة العاملة الوقور المنصرفة عن اللهو واللعب ومنازع الصبيان، ولقد عجب أبوه نفسه مرة من هذه الظاهرة، ورأى في انصراف ابنه عن عبث الأطفال، والنيل من لذائذ الطعام أمر لا يتفق مع سنه الصغير فأشار على أمه أن تعطيه درهما أو درهمين عله أن يرى في السوق شيئا يشتهيه فيشتريه، فعقدت له أمه منديلا على نصف درهم، وهو يروح به ويغدو، إلى أن ضاق بحمله، فألقاه إلى أمه، وقال لها ما شأني بهذا، وما أصنع به؟ . . .

وإن هذه الأحاديث التي يرويها تاج الدين عن أبيه جديرة بأن تكون صحيحة، وهي ترسم لنا صورة لتقي الدين الطفل، تتسق كل الاتساق مع صورة تقي الدين الرجل الكهل؛ فكأنما كان ثمة روح من عند الله أخذت توجهه منذ مولده إلى غايته المقدورة، وترسم له السبيل إليها، وتحوطه أن ينحرف عنها. ولسنا نشك في أنه ثمرة كريمة مباركة لكل الظروف التي قدمنا ذكرها

وكان الأب ما يفتأ يذهب إلى مصر ليلقي بها قاضي القضاة فكان يستصحب معه ابنه ليزيره معاهد العلم، ويشهده ربوع الفضل، فمرة يزور به مدرسة الحديث الكاملية ويدخل

به على شيخ الإسلام تقي الدين ابن دقيق العيد. ومرة يذهب به إلى ابن بنت الأعز، وأخرى إلى غيره من علماء العصر، وهو فرح به مستبشر، والولد يرى هذا السمت وهذه الهيبة وذلك الوقار وتلك المثل العليا لما انطوت عليه نفسه. فيتوثب قلبه، ويمتلئ صدره بهجة وطموحا

ثم عزم الأب أن يقيمه في القاهرة بين أولئك الأعلام، وفي ذلك الجو العلمي؛ وكان قد

تفقه وحفظ كتاب التنبيه؛ ولكنه حين عرض الأمر على ابن دقيق العيد عارض فيه وكأنما استصغر سنه، وأشفق عليه من الغربة. فقال لأبيه: عد به إلى (البر) حتى يصير فاضلاً. فعاد به، وفاته ما كان يحرص عليه أبوه، فيما يظهر، من التتلمذ على شيخ الإسلام والأخذ عنه، والتشيع بمبادئه؛ فأنه لم يعد إلى القاهرة إلا بعد وفاة ابن دقيق العيد أي نحو سنة 702هـ (1302م)

جاء تقي الدين إلى القاهرة ولم يكد يبلغ العشرين من عمره، وهو يتوثب رغبة إلى ارواء غليله العلمي في هذه البيئة العلمية الخالصة التي تتجاوب فيها أصداء العلم المختلفة، وتقوم بها المناظرات بين الآراء المتباينة، وكان بها طائفة من الأئمة الأعلام في مختلف الفنون:

كان بها ابن الرفعة شيخ الشافعية، وإمام الفقهاء، وبه تفقه السبكي

وكان بها في الأصول والمعقولات الإمام النظار علاء الدين الباجي، وكان رجلا واسع الباع في المناظرة، مستقل الرأي في الاستنباط، (لا يفتي في مسألة حتى يقوم عنده الدليل عليها، فإن لم ينهض عنده قال: مذهب الشافعي كذا، والأصح عند الأصحاب كذا، ولا يجزم) كما يقول عنه صاحب طبقات الشافعية؛ وما نشك في أنه كان قوي الأثر في تقي الدين، عظيم اليد على قوته في الجدل، مشجعاً على الاستقلال في الرأي، حتى ليعدون له مسائل كثيرة من فروع الفقه انفرد بالرأي فيها دون إمامه الشافعي وأصحابه وخلفائه؛ وإذا كان مرجع هذا في أول الأمر إلى فطرته السليمة، وبصيرته السديدة، وإدراكه القوي؛ فإن لمثل ذلك الإمام فضل التسديد وتقوية تلك النزعة الفطرية، وحمايتها من عوامل الضعف

وكان بها في فن الحديث العلامة الكبير الحافظ شرف الدين الدمياطي إمام أهل الحديث، وأستاذ الأستاذين في معرفة الأنساب، وكان صديقاً لأبي تقي الدين مكبراً له، فاختص الابن

بأكبر الرعاية، وأقبل تقي الدين على درسه بالمدرسة المنصورية وأكثر من صحبته والملازمة له والأخذ عنه بتلك الحافظة المدهشة التي يقولون عنها: إنه كان ما يكاد يسمع شيئاً حتى يحفظه، ولا يحفظ شيئاً فينساه وإن طال عليه الأمد وبعد به العهد، حتى صار آية في فن الحديث ومعرفة الرجال والجرح والتعديل، ولكنه لم يدرك شرف الدين إلا وهو شيخ هم كبير في عشرة التسعين فكان شديد الحرص على صحبته وملازمته حتى لا يكاد يتركه، ثم لم يلبث شرف الدين أن مات فجأة عقب مفارقته له في 15 ذي القعدة سنة 705، ولم يكن قد أشبع رغبته من فن الحديث بعد، فلازم بعده كبير أهل الفن في عصره، الحافظ سعد الدين الحارثي

وكان بها في علوم العربية أبو حيان الأندلسي وكان عليه طابع المدرسة الأندلسية من الحفظ والتوسع في رواية الشعر واللغة والقراءات، والتبحر في معرفة قواعد النحو ومذاهبه، وأثر من المدرسة المصرية من النظر والمقابلة والمراجعة وروح النقد والتحليل، فتتلمذ تقي الدين له، وقرأ عليه كثيراً من كتب النحو مثل كتاب سيبويه وكتاب ابن عصفور وغيرهما، وكان أبو حيان يمرن تلاميذه على صناعة النظم، فيقترح عليهم عروضاً خاصاً وبحراً معيناً ينظمون عليه، ولتقي الدين قصيدة على حرف الزاي جاءت من هذا السبيل، ولعلها خير ما صنع من الشعر، فلم يكن له في هذا الباب سليقة، وقد غلب عليه المذهب الفكري النقدي، فجاء شعره نازلا ركيكا، وسنعرض شيئاً منه في هذا البحث متى عرضت المناسبة

ثم لا ننسى من شيوخه الذين تركوا فيه أثرا بليغاً، وإن لم يكن من الناحية العلمية المحضة، تاج الدين بن عطاء الله السكندري، وكان من حسن حظه أنه ترك الإسكندرية؛ واستوطن القاهرة، وبقي بها يعظ الناس ويرشدهم، ويحدث تلاميذه ويبصرهم إلى أن مات سنة 709 وكان إمام أهل التصوف، جميل السياق، صافي الأسلوب، ساحر العبارة، فنال في الناس مكانة عالية، ومال إليه تقي الدين وصحبه، وانعقد بينهما حب قوي وعلاقة مؤكدة. وظل أثر الروح الصوفية التي كانت على أخلص ما يكون في ابن عطاء الله ظاهرا قوياً في تلميذه تقي الدين في شتى أدوار حياته، وكثير من أقواله وتصرفاته

وكان من شيوخه كذلك الشيخ تقي الدين ابن الصائغ في القراءات، والشيخ شرف الدين
البغدادي في المنطق والخلاف، والشيخ علم الدين العراقي في التفسير، والشيخ عبد الله الغماري المالكي في الفرائض
وقد رحل إلى الإسكندرية وسمع من رجال الحديث فيها، وكان بها طائفة منهم يرحل إليهم طلاب الحديث مثل أبي الحسن الصواف
وإلى ذلك الحين كان قد نضج وامتلأ وصلب عوده، ورأى فيه شيوخه رجلاً يناظرهم كلا في فنه، فجعلوا يملؤن المجالس بذكره والثناء عليه والإعجاب به، حتى استطار أمره،
وامتلأت أندية القاهرة بالحديث عنه. ولم يبق إلا أن يرحل إلى الشام ليسمع من محدثيها فتتم له الغاية في فن الحديث
وكذلك رحل إلى الشام رحلته الأولى في سنة 706 (1306م) وسمع من رجالها أمثال الذهبي والمزي والبرزالي وابن الموازيني وابن مشرف، وعقد بها المجالس للمناظرة، فتجلت هناك عبقريته، وسمت في نظر القوم منزلته، وامتلأ علماؤها إعجاباً به، ومكث بها عاماً يسمع ويناظر، حتى أصبح حديث الناس في الشام كما كان حديثهم في مصر؛
وبذلك أشرف على الغاية في بعد الشهرة وذيوع الصيت
يتبع
محمد طه الجري
الطالب. . .
للشاعر الوجداني أحمد رامي
مشرق كالضحى مع الصبح غاد ... في إهاب من الشباب النادي
يطلب العلم من معاهده الغ ... رّ ويروي من نجعة الورّاد
طلعت شمسه على الدار فازدا ... ن ضحاها باليمن والإسعاد
وعلى ثغره ابتسامة بشر ... بعثتها هشاشة في الفؤاد
هو في البيت حبَّة القلب والعي ... ن مناط الآمال قصد المراد
فرح الأهل يوم أشرق فيهم ... كوكباً لاح في سماء الوادي
شبّ فيهم طفلاً صبيح المحيَّا ... كابتسام النّوار في الأعواد
ومشى الطفل في الربوع صبيّاً ... يقبس المجد من سنا الأجداد
ثم أضحى فتى يتوق إلى الفه ... م ويمضي إلى سبيل الرشاد
مازه فوق سنّه خلة الفط ... نة في الرأي والذكا الوقاد
لا تراه إلا يجيل سؤالا ... دقّ في كنهه طريق السداد
أو تراه إلا يقول جوابا ... يترك الرأي واضح الاعتقاد
نعمة أسبغت عليه من الله ... وفضل من السميع الهادي
أيها الطالب الطموح إلى المج ... د تقدّم دنياك دار الجهاد
قف أمام الكتاب وأقرا كلام ... الله يهدي إلى صلاح العباد
واستملَّ الحديث ينطق بالحق ... ويدعو إلى كريم الوداد
وتمعن فيما افاض أولو ال ... ألباب من حكمة ومن إرشاد
وانظر السابقين في حلبة المج ... د وطوّف بكعبة القصّاد
قد عقدنا عليك كل الأماني ... منذ نادى البشير بالميلاد
صوت المتنبي
مهداة إلى الجامعة المصرية بمناسبة (أسبوع المتنبي) فيها
للشاعر الحضرمي علي أحمد باكثير
من الملأ العُلْوي، من عالم الخلد ... أُهِلُّ عليكم بالتحيات والحمد!
تقحّمت حُجب الغيب حتى أتيتكم ... لأجزيكم عن بعض إحسانكم عندي
قطعتُ حدودَ (الأين) في متطاولٍ ... مِن اللوحِ يفنى البعدُ فيه من البعد!
كأن الفضاء اللانهائي سائرٌ ... على كُرَةٍ لا حد فيها سوى حدي
إذا ما ركضت السير في فلواته ... تشابه ما قبلي عليَّ وما بعدي!
إلى أن تجاوزت النجوم جواذباً ... إليهنَّ عِطفي، غير أن لسن من قصدي!
يناشدنني - والنُّور ثَمَّ لسانُها - ... لأنشِدها شعري، وأُصفيها ودي
ولو لم تكن (مصرٌ) و (جلَّقٌ) الهوى ... و (بغداد) لم أبخل عليها بما عندي

معانٍ قضى فيها الشباب مآربي ... وسلَّت بها كُبرى العزائم إفرِ لدي
وأمليتُ في الدهر غرَّ قصائدي ... فغنى بها الأجيالَ في السهل والنجد
قطعت حدود (الأين) حتى أتيتكم ... فمن (لمتى) ما بيننا قام كالسَّدِّ؟
أجل؛ ألف عام حال بيني وبينكم ... فلولا سبقتم، أو تأخر بي عهدي!
سعدتُ بلقياكم وفزتم برؤيتي ... لو أن يد المقدار ألغته في العدّ!
ألا فتزحزح يا زمان! لشاعر ... يريد فلا تقوى الجبال على صدي
أغرك أنَّ الأرض قد شربت دمي؟ ... وانَّ عيون الشُّهب قد شهدت لحدي؟
رويدك! قد خلدتُ في الشعر محضَهُ ... ولم يبق منه للتراب سوى الدُّردي!
فها هو في الأجيال ينساب صافيا ... إلى ابنٍ. . إلى ابنٍ. . من أبيهـ . من الجد
يزيد على الأيام كالخمر سورةً ... لو أنَّ حُميَّاً الخمر تَهدى كما يَهدي
أنا الخالد الساري بأعصاب شَعبه ... وما شعبُه بالنَّزْر أو ضَرِعِ الخدّ
بني مصر! أنفاس الخلود عليكم! ... ونشرُ الخزامى والرياحين والورد!
سبقتم إلى تكريم ذكراي غيركم ... وقِدماً سبقتم للمكارم والمجد!
رأيت (بلاد الضاد) عقداً منظما ... ولكنَّ (مصراً) فيه واسطةُ العقد
قضيت لمصر بالأمامة بينها ... وهل لقضاءٍ شئته أنا من ردّ؟!
ومَن غيركم أهدى إلى (الضاد) شاعراً ... (كشوقي) ومنطيقاً كجباركم (سعد)؟
أحبهما؛ لا بل أقدّس فيهما ... مشابه من عزمي وأصداء من وجدي!
أعدتم إلى (الفصحى) الحياة فزحزحت ... بأيدكمُ كابوس تُبَّتَ والصُّعْدِ!
هي الضاد لن يذوي على الدهر عودها ... وقد خصّها (الذكر) المقدَّس بالخُلد!
ستبدأ مِن حيث انتهت سائر اللُّغى ... خُطاها إلى حدّ يجل عن الحدّ
ولا تعتبوها فهي بعدُ صغيرةٌ ... ولم يتنفّس صدرها بعدُ عن نَهد!
على أنّها بالرغم من صُغْر سنها ... لناعسة الجفنين ميَّاسة القدّ!
يكاد يصيح الحب بين شفاهها: ... (أنا الحب! ما أخفيه فوق الذي أبدي!)
(تمنّ يلذ المستهام بمثله ... وإن كان لا يغني فتيلا ولا يجدي)
(وغيظ على الأيام كالنار في الحشا ... ولكنه غيظ الأسير على القِدّ)
فلو عشتُ في هذا الزمان وأهله ... لغيّرتُ من نهجي وضاعفتُ من جُهدي!
وكنت تنكبت الملوك ومدحها ... فليسوا بأكفائي وإن نالهم حمدي
(وأتعس خلق الله من زاد همه ... وقصّر عما تشتهي النفس في الوُجْد)
يقول أناس إنني قد هجوتكم ... فإما أرادوا الشّر أو جهلوا قصدي
ولم أهجُ إلا حالةً غاظني بها ... وقوف بني الأحرار بين يدَيْ عبد
ولستُ أبالي مادحاً لي وهاجيا ... فقد رويَتْ نفسي من الصِّيت والمجد
ولي منهما ما لم يَنله مملَّكٌ ... ولا شاعر قبلي ولا شاعر بعدي
ولكنني أصبحت رمزاً لمجدكم ... يضمكم روضي ويجمعكم وِرْدي
فمن نالني بالسوء نالكُم به ... لذاك، ويعوي ضدَكم مَنْ عوى ضدي
أبى الله إلا أنَّ مجديَ مجدُكم ... وإنْ رغم الشاني، ومجدُكم مجدي!
أبوكم أبي يوم التفاخر (يعرب)! ... وجدّكم (فرعون) أضحى بكم جدي!!
تألَّهَ، و (التاريخ) طفلٌ ومُلكه ... تَبَسَّمُ ذاك الطفل نُوغيَ في المهد!!
تُكَلَّلُ بالريحان هاماتُ ضيفه ... وتُنضَحُ أبهاء النِّدام بما وَرْدِ
وقد أعلنت فيها المجامر وَجْدها ... فضَّعدن أنفاسا من العود والنِدّ
تقوم عليهم في شفوف رقيقة ... جوارٍ كمثل اللؤلؤ النَثر والنّضْد
يطفن عليهم بابنة الكرم حُرةً ... وبالنُقْل بعد اللحم والزُبد والشَّهد
فلا غرو في دعوى النبوة مثلُه ... وليس له فوق البسيطة من ند!
ويعجبني الجبَّار! إذ هو قوّة ... يهيم بها قلبي وأعبدها جُهدي!
كذا فلتكن فتيان يعرب إنْ تُرِد ... حياةً لها ما بين أعدائها اللَّدَّ!
حرام عليكم أن يقوموا وتقعدوا ... وأن تهزلوا والقومُ ماضون في الجد
كثيرٌ عليهم بعدُ أن تَقِفُوهُم ... بني اللؤم منكم موقف الند للند
فكيف بأن يعلوا عليكم ويضربوا ... على العُرب دون العزّ سدًّا على سدّ!
رفعتم شباب النيل أمس لوآءها! ... فنفَّسْتمُ كربي وبرَّدتمُ وجدي
وثرتم على الحامي العتيد وصحتمُ: ... (نعيش كراماً أو نغيّب في اللحد!)

بنفسي دماءً أهرقتِ في جهادكم ... تحنُّ إلى أسلافها قبل في (أُحد!)
جريرتها أن كُلِّفَتْ حملَ قيدها ... وما خُلِقتْ إلا قضاءً على القيد!
أضاء سناها (بالشآم) فروَّعتْ ... عِداها وردّتها إلى خُطّةٍ قَصْد
أرى الحق في الدنيا يُرَدُّ لقاهر ... ولم أره يوماً يرد لِمُسْتَجَدِ!
(فإن لم تُنلكم نَصْف قوم مودّةً ... أنال القنا. والخوف خير من الود)
ولن تبلغ الأعداء من مصر مطمعاً ... وقد زأرت فيها اللبوءُ مع الأسْد!
تناهت سلالات الجبابرة الأولى ... بنو هيكل الدنيا إلى هيكل فرد
تقوم عليه أمة عربّية ... رسالتها هدى الشعوب إلى الرشد
على كاهل الدنيا استقلت بموطنٍ ... من (المغرب الأقصى) إلى (الشطّ) ممتد
إذا هتفت (مصر) بلحن جهادها ... تعالى صداه في (العراق) وفي (نجد)
وخفّ له في (حضرموت) مهلّلٌ ... وجلجل في آفاق (تونس) كالرعد
رأيت (بلاد الضاد) عقداً منظما ... ولكنَّ (مصراً) فيه واسطة العقد
قضيت (لمصر) بالإمامة بينها ... وما لقضاء شئته أنا من رد!
علي أحمد باكثير
خيبة رجاء
إلى الوالد الواجد الأستاذ أحمد حسن الزيات
للأستاذ محمود غنيم
راح كأن لم يوجد ... يا ليته لم يولد
ما اليُتْم فقْد والدٍ ... أليُتم فقد الولد
يا غرة الفرقد هـ ... لاَّ عشت عمر الفرقد
عيد الربيع قد أتى ... ما لك لم تعّيد
ما لك لم تبسم له ... عن لؤلؤ منضد
ما فعلت نسمته ... بخدك المورد
يأيها العصفور قم ... بين الطيور غرد
قم املأ البيت نشا ... طاً بين لهوٍ وَدَدِ
البيت ما لم تأوه ... كالدير أو كالمسجد
أعزز على أبيك أن ... تصمت صمت الأبد
ما أبعد الصبر على ... فقد الصبي الأملد
صادٍ أصاب مَنهَلاً ... لكنه لم يَرد
وإنما أطفال هـ ... ذا اليوم أبطال الغد
ويح البنين ويحهم ... في الموت أو في المولد
هم عودوا قلبي الأسى ... وقبلهم لم أعتد
لسقمهم وموتهم ... حزازة في الكبد
تخطفهم يد الردى ... ونحن مكتوفو اليد
ليت الذي يسلهم ... يسعد بالتجلد
ليت لنا أفئدة ... منحوتة من جلمد
كم عاقر بدونهم ... يعيش عيش المفرد
ووالد من همهم ... يشيب قبل الموعد
أحمد يا خير أب ... خطبك خطب البلد
رِيعَ الشَّرى بأسره ... إذ مات شبل الأسد
الخطب غير هيّن ... والصبر غير مسعد
والشعر غير طيّع ... ماذا أقول سيدي
ما لمِصُاب أحمد ... غيرُ يراع أحمد
(كوم حماده)
محمود غنيم
دراسات أدبية
في الأدب الإيطالي الحديث
بقلم محمد أمين حسونة

البيراندلية الحديثة
ويكاد لويجي بيراندللو يعد ألمع شخصية في الأدب الإيطالي الحديث، كما أنه أعظم كاتب مسرحي في هذا العصر. وهو من الأدباء الذين تأثروا إلى مدى بعيد بنظريات العلامة النفساني سيجموند فرويد، وقد استطاع أن يجسم تضاعيف هذه النظريات في رواياته التي تدور حول رسم وتصوير العواطف الخفية التي تسبح في العقل الباطن، وتظهر الآونة بعد الأخرى على سطح العقل الواعي فتصطدم بالتقاليد والنواميس الطبيعية
على أن أشد ما يؤسف له هو أننا لم نفهم بيراندللو إلا من حيث أنه كاتب مسرحي فقط، أما من وجهة أنه قاص عبقري فلا يزال مجهولا رغم ما أنتجه من القصص الممتازة التي تدل على قوة الملاحظة وخلق الشخصيات الناضجة التي تطابق الواقع وما امتاز به من تحليل الشخصية ورد العناصر إلى أصولها
بيراندللو - في عرف بعض النقدة - رمز للعالم الحديث فهو يشعر شعوراً عميقاً بالزمن الحاضر المضطرب بسبب الحوادث والماديات اللاصقة به. ونحن إذا شاهدنا مسرحياته لنقارنها بقصصه شعرنا باضطراب وعدم استقرار. بل لما وجدنا شيئاً نتعلق به لننجو بأنفسنا، فكأننا في بحر مضطرب ثائر لا يهدأ، وكل بطل من أبطاله ليس الواقع إلا (هملت جديد) لا يعرف معنى للاستقرار. وكلما تعمق في الحياة ازداد اضطرابا، فهو أمام الحياة في حالة ذعر وخوف
وشخصية بيراندللو نفسها تعد مثالا حياً للمضطربين الذين لا ينشدون الراحة إلا في حالة ثورة فكرية، وقد أطلق عليه دانبيل روبس في كتابه , لقب (البلشفكي العقلي)، أي أنه صاحب مذهب شيوعي متطرف بالنسبة للفكر الإنساني، على أننا لا نقر هذه التسمية الخاطئة، لأن الشيوعية المتطرفة تفكر في إعادة البناء بعد الهدم، على حين أن بيراندللو
يهدم ولا يبني
ويدور فن بيراندللو الروائي حول الشعور بالحياة، ويؤدي إلى فكرة مبهمة عامة، فإذا ما تطورت برزت أمامها عقبات لصدها عن اتخاذ طريقها الطبيعي، وأهم هذه العقبات ما يتعلق بالدين والأخلاق والقوانين، وما يجري للإنسان في حياته العادية أما أدبه فيرتكز على نظريات فلسفية يعبر عنها بلسان أبطاله، وليس الأدب في نظره سوى وسيلة للحياة في الخيال وللفرار من المتاعب المادية. فإذا فكر في موضوع رواية مسرحية أو قصة استسلم إليها وأحس أنه بعيد وسطه الحقيقي ليحلق في الجو المصطنع الذي يبتكره خياله. وهو في هذا يقول: (لا سيادة لنا مطلقا على أفكارنا وعواطفنا ورغباتنا، وأننا لسنا سادة بشخصياتنا، بل إن هذه الشخصية تخضع غالباً لأحكام الكون ولجميع ضروب التأثيرات النفسية. وأنه ليس لنا كيان شخصي معين بل إن شخصيتنا تتبع أعمال الغير، فنحن نلعب الدور الذي تفرضه البيئة ويفرضه المجتمع. وأننا سوف ننتهي إلى حيث لا نعرف)
ويخيل إلى أن بيراندللو يشبه من ناحيته الفلسفية عمر الخيام الذي كان ينادي بالقضاء والقدر، والى أن أساس الكون ومحور نظامه ليس إلا الاضطرار والجبر. فالقدر في نظر كل منهما أزلي والقضاء أعمى، ولسنا سوى آلات في يد الدهر، تحركنا كما تحرك الريح الشجر، فليس لنا من إرادة ولا في وسعنا أن نستقل بآرائنا إنما نحن (رخاخ) في رقعة شطرنج
يعارض النقادة الإيطالي النابه فردريك ناردیللي في كتابه المسمى (حياة ومتاعب بيراندللو , - الرأي القائل بوجوب فصل حياة الفنان الخاصة عن فنه كيما يتسنى الحكم عليه أو في صالحه، فيصف لنا في أمانة وبساطة المصائب التي لاقاها بيراندللو في كافة أدوار حياته وارتباطها بفنه، فقد ولد بيراندللو وشب في جزيرة صقلية، ولذا فمن السهل أن نجد ظل الحياة الصقلية واضحاً عميقاً في رواياته ونجد أيضاً رسم التقاليد والعادات والحياة الاجتماعية الصقلية في عصر النهضة، والإشارة عن طريق خفي في إحدى مسرحياته بما وقع لأمه في بدء شبابها. فقد ظل والده بعد العام الأول من زواجه يعاشر ابنة عمته الأرملة، فحملت منه بما أدى إلى أن يمنحها هبة مالية بمثابة بائنة تساعدها على الزواج في بلد آخر

ففي رواية بيراندللو المسماة اكساء العارين يرسم لنا بطلته وهي أرملة تسمى أرزيليا حاولت أن تحمل الناس على الاعتقاد بأن محاولتها الانتحار كانت بسبب هجر خطيبها، ولكن الواقع أنها هي التي خدعته. وقد حاولت الانتحار لأنها ضبطت في حالة مريبة مع رب الأسرة الذي تعمل مربية لأولاده. وفي خلال ذلك مات الطفل الذي عهد إليها بتربيته تحت تأثير حادث خفي، وقد أنقذت أرزيليا من الانتحار بأعجوبة. فتألب الصحفيون حولها وأخذوا يمطرونها بوابل من الأسئلة، لأن الرأي العام مهتم بمسألتها، ولكن بعد فوات زمن طويل جعل الناس يستوضحونها الأسباب التي حملتها على الانتحار، فلم يسعها أمام إلحاحهم سوى الاعتراف بالحقيقة والبوح بالسر، وعندئذ سقط القناع، وأمام حرج موقفها وتبكيت الضمير عاودت الانتحار وفي هذه المرة نجحت

فتأثير الحادث الذي سمعه بيراندللو وهو في حداثته من أبيه كان لا يزال لاصقاً بذهنه، فلم يجد بداً من أن يصوغه في قالب روائي وأن يخلع عليه طريقته في تأليف مسرحياته واضعاً أشخاصه في حالة إبهام وغموض وتجلد أمام الآلام، مسدلا القناع على وجوههم، ولكن هذا القناع لا يلبث أن يمزقه بعد حين ليعيد إليهم شخصياتهم الحقيقية

أما في روايته (المرحوم ماثياس باسكال) ففيها لأول مرة يعالج الخيال والواقع والحياة والموت والجنون والحكمة، وهي تدور حول تحليل شخصية رجل فقير يدعى ماثياس باسكال هرب من زوجه وحماته لشراسة طبعهما، قاصداً الهجرة إلى أمريكا، غير أنه وقف في طريقه بمونت كارلو ليجرب حظه على مائدة الروليت فاسعفه الحظ وربح أرباحا طائلة، وحدث في اليوم التالي لاختفائه أن وجدت جثة غريق مجهول في النهر فزعم أهل قريته أنها جثة ماثياس ودفن على هذا الزعم وتسربت الحادثة إلى ماثياس عن طريق الصحف وهو في مونت كارلو فقرر أن يعيش مختفيا وأن يتجرد من شخصيته الحقيقية ليعيش متحررا من الروابط الاجتماعية، لكنه بعد أن يتعرى من شخصيته يفقد توازنه بدليل أنه يقول: (إن الشيء الوحيد الذي أؤكده هو أنني كنت أدعى ماثياس باسكال). بل ربما نسى أنه كان يدعي بهذا الاسم!

وكثيراً ما يعيب النقدة على بيراندللو أنه يغرق في الخيال وفي عمق التفكير، ولكن في مؤلفات هذا الكاتب المتدفق الثائر نجد أن فنه سبق الحياة في الكشف عن حقائق ملموسة.

وعلى الرغم من أنه ابتكر شخصية ماثياس باسكال فقد طابق خياله منطق الحقيقة مطابقة تامة إلى حد أن حادث ماثياس باسكال وقع بالفعل في إيطاليا بعد تأليفه هذه الرواية بعشرين عاماً!

وهناك روايته الأخرى الموسومة بعنوان (ايف ولين) وخلاصتها أن شاباً من رجال الأعمال تزوج من فتاة اسمها ايفلين وعاشا عيشة اللهو والحب، ووقع الزوج في عجز وضيق مالي فلجأ إلى التزوير في حسابات عملائه، وقبل أن يفتضح أمره فر من وجه العدالة تاركا امرأته الشابة وطفلا له منها، وعطف عليهما محامي الزوج وآواهما في بيته وأصبحت المرأة في حكم زوجته وأنجبت منه طفلة وقد مر على حياتهما الهادئة المطمئنة أحد عشر عاماً، عاد بعدها الزوج الهارب كأشد ما يكون حباً وهياماً بامرأته. وهنا يظهر لنا ازدواج الشخصية كأوضح ما يكون جلاء، فقد حارت المرأة بين زوجها القديم وزوجها الجديد، وإنها لتذكر حياتها القديمة بما فيها من ألوان زاهية مرحة كلها الهوى والشباب وتقابل بينها وبين الحياة التي تحياها، فطابعها الوقار والرصانة والركود والانصراف إلى الواجبات. وأن لها من زوجها الأول طفلا هو اليوم شابة قوي جميل، ومن زوجها الثاني طفلة تحبها حباً يعادل حبها لولدها الشاب. وكلاهما يمثل ناحية خاصة من حياته بألوانها وصورها المتباينة. وإنها لتحن إلى حياتها الأولى المفعمة بالنشاط والهوى والشباب ولكنها تؤثر حياتها الراهنة بما يحوطها من وقار وإذعان وانصراف عن اللهو إلى الجد الصارم. وهي في حياتها الأولى يدعوها زوجها متحبباً إليها (ايف) وزوجها الثاني متحببا أيضاً (لين). وكل شطرة من هذا الاسم تثير في نفسها صورا ومعاني وألوانا مختلفة لا سبيل إلى التوفيق والملاءمة بينها وتنتهي الرواية بأن ترضى بحياتها الراهنة وأن يذهب ابنها الشاب ليعيش مع أبيه ولكنها مع ذلك لا تزال تحب زوجها الأول وتحن إلى حياتها القديمة وتشتهيها، وإنما هي قنعت بحياتها الراهنة

لظروف لا تستطيع أن تتحداها
وقد ظن البعض أن هذه الرواية وليدة الخيال فمن المحال أن يقع في الحياة ما يشابهها، ولكن الحوادث أثبتت أن في الحياة مشكلات لا تقل في غرابتها عن فن بيراندللو، فقد وقعت في بودابست أخيراً حادثة تزوير، ارتكبها شاب يدعى فرادلبير، وفر إلى بلاد أخرى تاركا زوجه وطفلة، فاقترنت المرأة بعد أن يئست من عودة الزوج وأنجبت من زوجها
الجديد طفلا، وقد رجع الزوج الأول بعد مرور أربعة عشر عاما ووصل إلى علمه زواج امرأته! وشغلت القضية أذهان الجمهور زمناً وأصبحت حديث الأندية والمجتمعات إلى أن مثلت مسرحية بيراندللو هناك فظن أكثر الناس أن المؤلف إنما يشير إلى هذه الحادثة بينما هو كتب مسرحياته قبل الحادثة بثمان سنوات!
(يتبع)
محمد أمين حسونة
القصص
درامة من اسخيلوس
محاكمة أورست - 3
(الدرامة الثالثة من الأورستية)
تتمة
للأستاذ درني خشبة
- 10 -
واهتزت مينرفا فوق عرشها المموّد، وتوجهت بالقول إلى المحلّفين العدول من الأثينين:
- (أيها الأثينيون! أنتم يا من اجتمعتم للنظر معي في قضية هذا الدم المسفوك لأول مرة في تاريخ الإنسانية! أصغوا وعوا! إن شعب ايجيوس العظيم ليتلفّت قي أقصى الأرض ينظر هل ما يزال هذا البيت الذي أسِّس على التقوى وشيدت دعائمه على العدل، عند حسن ظنهم به، ورجائهم فيه!؟ إن بحسْب الأكروبوليس فخرا أن أقامَتْه الأمازون تقديساً لمجد إيرس الخالد، إذْ كن يقتفين أثر ثيذيوس، فنسين ذَحَلَهن، واطّرحْن إِحَنهُن، لأنه لاذ بهذا الجبل. . . فهل كثير أن تنسوْا أضغانكم، قبل أن تعطوني موثقكم، فلا تميلوا ولا تحيدوا، ولا تعدلوا عن سبيل الحق، حين تعطون أصواتكم، إما لأورست، وإما عليه!! إنكم هنا لا تخشون عنتا ولا ترهبون رهقا، وإنكم لرضيّون مخلصون، وإنكم لتتفجّر قلوبكم حنانا ورحمة! وإني هنا لأباركك، وأنزل شآبيب رحمتي عليكم، مادمتم خابتين خاشعين، تَصَّدَّعون من خشيتي! وإني أبدا ساهرة عليكم، أوليكم معروفي، وأرزقكم بركتي فأنتم دائماً شعبي، وأنتم آخر الدهر أمتي. هلموا إذن فاكتبوا أصواتكم، ونقوا سرائركم، وبَروا أيمانكم، ألا تميلوا ولا تأثموا. . . وحسبكم ما قدمت لكم!!)
وهوّمت ربات الذعر تهويمةً ثم قالت:
- (على أننا نرجو ألا يحتقرنا الملأ، وألا تعدي وجود في أرضك تدنيساً لها!!)
فينهض أبوللو ويقول: (بيد أنني أحذركن يا ربات، ألا تجعلن نبوءاتي عبثاً، فأن أبي سيد الأولمب يؤيدني فيها جميعا)
- (نبوءاتك عن آثام الفجرة الكفَرة، التي ستلطخ الإنسانية منذ اليوم!!)
- (وأين كنتن يا ربات يوم أن قتل إكسيون أبا زوجته؟ أليس أبي قد اقتص منه بيده؟)
- (اهرف يا أبوللو بما شئت! ولكن ثق أننا لن نبرح هذه الأرض مادمت أنت فيها تحض على القتل، وتحرض على الجريمة وتغوي الناس على الفساد!)
- (ولن تبرح الآلهة، كباراً وصغاراً، تحمي عبادها من شروركن!)
- (كما تحمي عبدك الآن وقد ارتكب أشنع الجرائم، وكما تحمي عبادك دائماً؟)
- (وإذا لم تحم الآلهة عبادها وتدركها بالرحمة وقت الشدة فمتى تصنع هذا؟)
- (ولم يبق إلا أن ترشوا صغيرات الآلهة بقدح من الخمر فيضللن ضلالك، وتنعكس الشرائع!؟)
- (وليتني أستطيع إضلالكن فلا تجرعن البرايا سمومكن!!)
- (هيه!! لقد عيل صبرنا!! ألا متى ننتهي من هذه القضية فنترك لك هذه الأرض بمن

(!!فيها
وحين يفرغان من هذا الحوار يكون المحلفون قد فرغوا من وضع الأوراق التي تشمل)
أصواتهم في صندوق الاقتراع. . . . . .)
!ثم تقول مينرفا: (وعلي الآن أن أبدي رأيي حراً بحيث لا يتأثر به أحد منكم
أنا في صف أورست!! أجل أنا في صف أورست!! أنا مينرفا، التي لم تلدني أم، لا
أبالي كثير بأم قتلت لأنها خانت بعلها، وذبحته، وخربت بيتها من معاني الأبوة والأمومة
طوبى لك يا أورست! إذا تساوت الأصوات لك وعليك فإن صوتي يرجح حقك، ويؤزر
(!براءتك!! طوبى لك يا أورست
فينتشي أورست من رهبة وفرح ويقول، مخاطباً أبوللو (يا إلهي أبوللو! النتيجة يا
إلهي!! لي أم عليّ؟!)
وتلحظ ربات الذعر ما ترمقها به الأنظار المستهزئة فتخاطب مينرفا قائلة: (أيتها الربة
(!مينرفا! أترين إليهم كيف يلمزونني؟
فيقول أورست: (إن ساعة خلاصي أو نجاتي تقترب حثيثة!!)
!فتقول ربات الذعر: (وإن ساعة إثبات حقوقنا أو تجريدنا منها لتقترب حثيثة أيضاً
ويهتف أبوللو بمن يفرزون الأصوات قائلاً: رويدكم أيها الفرازون! دققوا جهدكم في
فرز الأصوات! وإياكم أن تخطئوا في واحد منها، فرب زلة من أحدكم تقلب الحق
(!!زوراً، وترسل البريء إلى سواء الجحيم
ويسر رئيس الفرازين كلاماً إلى مينرفا فيعلوا البشر أسارير وجهها وتقول: (بشراك يا
أورست! لقد وضع عنك وزرك واطهرْت من هذا الدم!! الأصوات متساوية لك وعليك،
وصوتي يبرئك ويرجح حقك! فالبشرى لك!)
:ويستولي على أورست طائف من الذهول، فيسجد بين يدي مينرفا ويقول
مينرفا! إلهة العدالة! تباركت وتقدست! اليوم فقط صرت خليقاً بأن أكون مواطناً) -
من آرجوليس! لقد نشأت في دار غربة، نضوهم وحليف آلام، ولم أكن أفكر إلا في
الخلاص من حياتي المرة المترعة بالمتاعب، فتردين لي أنت اعتباري وطمأنينتي
وميراثي في عرش آبائي. . . في لحظة عادلة تحت بيتك المكرم!! تقدست وتباركت يا
مينرفا! يا ابنَة زيوس سيد الأولمب العظيم! زيوس حارسي الأمين، الساهر على
رعاياه من ذروة جبل إيدا! سلام إلى الأبد يا مينرفا المباركة سلام إلى الأبد بين
آرجوليس وبين أثينا الخالدة التي تباركينها وتحرسينها؟ لن تكون بينهما حرب ما عشت،
فإذا قضيت فلن تكون حرب بينهما كذلك! فإذا حدثت أميراً من أمراء آرجوس نفسه
بأن تكون هذه الحرب، فسأنتفض تحت ركامي لأجعل حياته شِقْوةً لا تحتمل، وأروعه
بأطياف من الذعر تأخذ عليه سبيله أنى توجه، وتصير أيامه ظلمة، وأضواء الحياة في
قلبه وعينيه مرارة وديجورا! هذا موثقي وتلك أقسامي يا ربة العدالة! أما إذا حافظ
شعبي على السلام بين بلادينا، فسارفرف عليه بالمحبة وأصلي من أجله في أعماق
هيدز! وداعاً يا مينرفا! وداعاً يا حارس أثينا الأمين! زيدي في مجدها وامنحيها البركة
(!والجلود
(ويسجد سجدتين ويغادر الأكروبوليس)
- 11 -
أما ربات الذعر فتأخذهن الحنقة، وتضطرم نفوسهن بالغضب وتنقلب كل منهن بركانا
يقذف بالحمم؛ ويطفقن يتوعدن ويزمجرن ويتغنين نشيداً من أناشيد الجحيم جرسه
رعد، ونغمه شواظ من نحاس يتردد في أفواههن، ويتحشرج في حلوقهن، ثم ينذرن ألا
يذرن على أرض مينرفا مسبحاً باسمها ولا دياراً؛ وينهين نشيدهن بالبكاء على مجدهن
:الضائع، والرثاء لحقهن المغصوب. فتهتف مينرفا بهن
على رسلكن يا ربات! فيم هذا الغضب، وهذه الضجة لِمَهْ؟! لقد رضيتن بي حكما) -
فيما اختلفتن فيه، ولقد أخذ العدل مجراه، وسارت القضية بكل أمانة وكل إحسان. . .
ولقد كانت براءة أورست ناصعة بحيث يكون من الظلم لو أننا أخذناه بما أردتن أخذه
به. . . فلنفئ جميعاً إلى الحق، فهو دائما أبلج. . . . . علام هذا النذير يا ربات؟ ما
لأثينا الخالدة الآمنة النائمة في رعايتي، القارة في كنفي، وما لهذا الضغن الذي يغلي
في قلوبكن؟! قمين بكن ألا تكن حربا على هذا الشعب الذي يسبح باسمي ويولي وجه
شطر معبدي، وأنا أضمن لكن محبته، وأضمن لكن إجلاله، وأضمن لكن أن يقيم

. . .الهياكل باسمكن، وُيطنّب المعابد لكن

ولكن ربات العذاب تغلو في النذير غلوا لا يليق بالآلهة، وتعود إلى ترديد النشيد الممقوت، نشيد جهنم الذي كله قصف وكله رعد، فترى مينرفا أن تأخذهن هذه المرة بالحزم، إشفاقا منها على أثينا الخالدة أن يصيبها مكر ربات العذاب
- (إذن. . . فأنتن تعرفن أنني وحدي أملك مفاتح زيوس. . . أبي. . . سيد الأولمب! أجل. . . أنا صاحبتها. . . وهي مسخرة لي وحدي، من دون الآلهة أجمعين. . . مفاتح زيوس، مفاتح نقمته. . . نقمته. . . هل سمعتن؟! المفاتح التي إن أردت حركتها فأرسلت عليكن صواعق السماء وشهبها الرواصد! وهنالك، وهنالك فقط، تندمن على ما فرطتن في حقي، وهنالك تلقين السَّلَمَ راغمات يا ربات، وهنالك أيضاً تسلم أثينا من شروركن؛ وتسلم جناتها من قحطكن، وقصورها من خرابكن
هل هذا خير؟ أم خير أن تقاسمنني محبة هذا الشعب البريء فيسبح لكن ويقدم الضحايا
(!لكن، فتقطفن لأول مرة في حياتكن أول ثمرة شهية من أولياء مخلصين؟
- (ويلاه! يا لسوء حظوظنا، ويا لشؤم منقلبنا؛ لقد رضينا بالقسمة الضيزى إذ تقسّم الآلهة الشعائر في أول الأزل، ورضينا بهذا المأوى المظلم الدجوجي في أعماق السفل، ورضينا بسخط الناس ومقت الأرباب لما اضطلعنا به من تعذيب المجرمين وأخذ الآثمين بآثامهم. . . أفما كان بحسبنا كل أولئك حتى تجردنا صغار الآلهة حتى من هذا الحق الهضيم!! ويلاه! أدركنا يا أمنا الأرض! الغوث الغوث يا آلهة الظلمة. . .!)
وتلحظ مينرفا أن تهديدها قد فل من غرب ربات الذعر، فقللن من غلوائهن، وخففن من خيلائهن، فرأت أن تلين معهن، وذلك من حسن سياسة ربة الحكمة:
- (أنا لم أمتهن بحال ربة الأرض، مولاتكن المقدسة، ولم أمتهن كذلك آلهة الظلام، فهم جميعاً أكبر مني سنا، وأكثر تجربة، ولكني والحمد لأبي سيد الأولمب، قد رزقت من الحكمة والحصافة قدراً أتيه به على جميع الآلهة، وأفاخر به كل الأرباب. على أنني أعرض عليكن أن تقمن معي في هذا المعبد المبارك راضيات، تتقبلن صلوات الشعب وأضحياته، على أن توقينه غضبكن، وتجنبنه أرزاءكن، وحسبكن أن تقاسمنني ما هو حق خالص لي)
- (نقاسمك؟! وأي نصيب يخلص لنا في معبدك يا مينرفا؟)
- (!نصيب لا يصيبكن فيه غضب من الناس ولا من الآلهة، فلا تأبينه)
- (أفإن قبلنا غرضك. أفتكون لنا حقوق ثمة؟)
- (!حقوق وأي حقوق! لن تكون سعادة في بيت إلا بمشيئتكن)
- (وهل تضمنين لنا هذا؟)
- (!بحيث تباركن عبادكن يا ربات، فلا تنزلن بهم رزاياكن؟
- (وتؤكدين لنا هذا الحق طوال الأبد؟)
- (ولماذا أعد، وأنا في الحالين لن أخسر شيئاً؟
- (!قديرة يا مينرفا! لقد أسكنت غضبنا)
- (!أقمن معي إذن، واكسبن محبة شعبي)
- (وهل لنا أن نتغنى أناشيدنا هنا؟ (وأنتم تمقتونها يا آلهة؟!))
- (تغنين ما شئتن (إلا أناشيد الجحيم)، تغنين أناشيد الجمال والشمس المشرقة، تغنين أناشيد القمر البازغ والطبيعة المتبرجة، تغنين أناشيد اليمن والإقبال يا ربات! تغنين أناشيد الإسعاد تمزجنها بموسيقى السماء، وإني أباركها جميعا، وقد أتغنى بها معكن!)
- (!إذن رضينا بما أشرت يا مينرفا)
- (وإذن، فإني أعاهدكن على الحق تارة أخرى، وأن نحكم بالعدل بين ذوي الخطايا والأوزار، فكل من تأكد لنا إجرامه، فلكن أن تفتكن به، وتؤاخذنه بما كسبت يداه)
- (ولك إذن ألا نضار أحدا، وألا نمس حقلا ولا غيضة ولا بستاناً بأذى. . . فليكثر الخير! ولتمتلئ الأرض المخضرة قطعاناً؟ ولتمطر السماء منا وسلوى)
- (سجلوا أيها الأثينيون! أيها المحلفون سجلوا! سجلوا يا سادة أثينا، واعلموا أن الشر إذا نزل بأهله فحسب، فهو خير للجميع! واعلموا كذلك أن من الخير ما ينبت من شر محض، وأن لكم أن تأمنوا ربات العذاب مادمتم مخلصين مطهرين. . .

لتكن أرضهم منضورة بأفواف الزهر، ولتبعد عنهم رزايا الزمان؛ وليأمنوا غدرات) -
(!الأيام، وليرفرف عليهم فيءٌ من اليمن، ولتباركهم السماء دائماً
(!إذن تمت نعماؤنا يا ربات، فليتم إلى الأبد السلام) -
وتأمر مينرفا فيقام حفل ضخم ينشد فيه الجميع نشيد السلام، ويضمخ المعبد ببخور المسك والعنبر والند؛ ثم ينادي المنادي فيصمت الجميع لحظة، وإذا هرمز الكريم يبدو . . .من عليائه؛ ويهبط قليلا قليلا
ويتقدم إلى ربات الذعر فيقودهن إلى مملكة السفل. . . إلى عالم الظلمات. . . . إلى . . . . .!أعماق الأرض، حيث مقرهن، وحيث مستودعهن
وهكذا تكتفي أثينا شرهن بفضل مينرفا الحازمة. . . وهكذا يقرر القصاص ولو من الآباء. . وهكذا يسود العدل ويعم الإحسان
درني خشبة
البريد الأدبي
في ترجمة السخاوي أيضا
نشرت الرسالة في عددها الماضي (العدد 142) كلمة للأديب محمود عساف أبو الشباب يشير فيها إلى نقطة وردت في بحث كنت نشرته في الرسالة منذ أشهر عن الحافظ شمس الدين السخاوي في العددين 103 و104 الصادرين في شهر يونية الماضي
ومن الغريب أن نفس الأديب كان قد نشر نفس الكلمة في الرسالة في العدد 107 الصادر في 22 يولية الماضي، وهو يعيد نشرها الآن بعد عشرة أشهر مع تحوير يسير فيها
أما الملاحظة التي يلح الأديب في إثباتها وتكرارها فهي أني قد ذكرت في الفصل الذي كتبته عن تراث السخاوي أنه ترك ضمن آثاره أثرين هما (تحفة الأحباب وبغية الطلاب في الخطط والمزارات والبقاع المباركات) و (الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ) وأن في نسبة هذين الأثرين للسخاوي خطأ محققاً يجب تصحيحه، وأنه أي صاحب الملاحظة، قد درس ترجمة السخاوي وقتلها بحثاً فلم يظفر بين مؤلفاته بذكر لهذين الأثرين
وجوابي على هذه الملاحظة هو أن في نسبة الأثر الأول أي (تحفة الأحباب) للسخاوي شك لم يتسع وقتي لتحقيقه واستجلائه، وفي نسبته لسمي السخاوي الآخر أيضاً شك لا أستطيع القطع معه بصحة هذا النسبة وذلك رغم ما ورد في شأنها في بعض الكتب المتأخرة؛ وهذا الشك في نسبة (تحفة الأحباب) للسخاوي معروف في البيئات التي تعنى بدراسته، بيد أن البحث لم ينته في ذلك إلى رأي حاسم
وأما نسبة الأثر الثاني أعني كتاب (الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ) إلى الحافظ السخاوي فليس فيها ذرة من الريب. فالسخاوي يذكره في ترجمته لنفسه بين مصنفاته في التاريخ بعنوان (الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التواريخ) (راجع الضوء اللامع في مخطوط دار الكتب المصور المجلد الرابع القسم الأول ص75 و76) ويذكر السخاوي أيضاً في نهاية كتابه أنه أتمه بمكة سنة 897هـ؛ وقد طبع هذا الأثر أخيراً فعلى الأديب أن يراجعه ليتحقق
وأما كون السخاوي لم يذكر أثراً معيناً من آثاره في ترجمته، فيكون دليلا على أنه لم يكتبه، فتدليل خاطئ؛ ذلك لأن السخاوي يقف في ترجمة نفسه في الضوء اللامع حتى سنة 897هـ أو أوائل سنة 898هـ أي قبل وفاته بنحو خمسة أعوام، (وقد توفي بمكة سنة
902 هـ) وقد كتب السخاوي في تلك الفترة التي تقدمت وفاته عدة كتب ورسائل أخرى لم يشر إليها في الضوء اللامع
وأخيراً أرجو أن يعتقد الكاتب الأديب أن القول الفصل في مثل هذه الدراسات لا يمكن أن يكتفي فيه بالقول المرسل أو الاستناد إلى بعض الروايات الضعيفة، ومازال الأمر فيما يتعلق بالأثر الأول في حاجة إلى استكمال البحث، وهو بحث أرجو أن يتسع وقتي لإجرائه متى توفرت مواده ومصادره الوثيقة
محمد عبد الله عنان
كتاب جديد عن هتلر
صدر أخيراً كتاب جديد عن هير هتلر، وقد صدرت في الأعوام الثلاثة الأخيرة كتب

عديدة عن زعيم ألمانيا الجديدة منها ما يرتفع به إلى السماكين كزعيم ومصلح، ومنها ما يصوره زعيما عادياً لم ترفعه إلى مركزه أية عبقرية أو مواهب خاصة، وإنما رفعته إليه ظروف خاصة. ولكن الكتاب الجديد يمتاز بالتمحيص الهادئ والتصوير الدقيق؛ وهو من قلم كاتب وسياسي فرنسي كبير هو مسيو فرانسوا دي تسان وعنوانه: (ها أودلف هتلر) وقد كان مؤلف الكتاب مدى أعوام طويلة وكيلا لوزارة الخارجية، وهو من الكتاب الساسة الذين توفروا على دراسة الشؤون الدولية دراسة عميقة متزنة. وكتابه عن هتلر أكثر من ترجمة لهذا الزعيم، فهو في الواقع تاريخ كامل للحركة الاشتراكية الوطنية في الأعوام الثلاثة الأخيرة، وفي سائر وجوهها ومناحيها

ويحاول مسيو تسان أن يعرض حديثه عن هتلر وعن الاشتراكية الوطنية عرضاً محايداً مجرداً عن الشهوات والنزعات الخاصة. وهو يحاول حتى في سرد الحوادث الدامية المروعة التي اقترنت بقيام حكم النازي أن يبتعد عن التفاصيل والتعليقات المثيرة، ويكتفي بالإشارة الطائرة إلى كثير من ضروب الاضطهاد والفظائع التي نزلت بالأحزاب المعارضة وباليهود. بيد أنه لا يسعه إلا أن يقدم إلينا ألمانيا على ضوء هذه الحوادث المثيرة مشبعة بروح العصور الوسطى، متشحة بثوب ظاهر من الهمجية، مستندة إلى القوة الغاشمة وحدها في فهم القانون والحق. ويستعرض المؤلف الحوادث المتعاقبة منذ قيام

الحكم الهتلري حتى وفاة هندنبورج واتشاح هتلر بثوب (الزعامة)، ويفصل لنا حادثة إحراق الريخستاج، وحوادث 30 يونية الدامية، ويشرح لنا النظم والأساليب النازية الجديدة التي أدت إلى توحيد ألمانيا وسحق النظم الاتحادية القديمة، وإقامة أمة موثقة العرى في قبضة طاغية هو في نفس الوقت رئيس حكومة ورئيس دولة.

وبين لنا مسيو تسان آثار النظام الجديد في تعبئة الشباب وسحق الآراء الشيوعية، وتحطيم اليهودية، وإخراج اليهود من حظيرة القانون، وإضعاف شوكة الكثلكة، وعلى الجملة في إنشاء (الدولة الشاملة التي تغذيها تخيلات زعيم متصوف، والتي تعتمد على قوة عسكرية تزيد كل يوم، ومازالت وجهة استخدامها في المستقبل لغزاً لحضارتنا وللعالم). كذلك يشرح لنا مسيو تسان آثار الإجراءات الدامية التي اتخذها الزعيم بيديه في 30 يونيه، وكيف أنها وقعت تحت تأثير (الريخسفر) (الجيش) وسحقت نفوذ ذوي الأقمصة السمراء، واستبعدت من الحركة عناصر المغامرين، ووضعت حداً لمنافسة فرق الهجوم للجيش؛ وكيف انتهى تعاون الريخسفر مع هتلر إلى إلغاء النصوص العسكرية في معاهدة الصلح، وإقامة جيش ألماني جديد قوامه ستمائة ألف

ولم يكن ميسوراً أن تقع هذه الانقلابات الشاملة دون تعبئة الرأي العام وتوجيهه، ومن ثم فقد لجأت الحركة النازية إلى أشد أساليب الدعوة، واتخذت الفكرة الجنسية والجرمانية أساساً لدعوتها، ونظمت هذه الدعوة بشتى الوسائل، بالمسرح والسينما والراديو والكتابة. كذلك حشدت الجامعات والمدارس والحركة التعليمية كلها لتأييد المبادئ النازية، وأنشئ معهد لصوغ التاريخ القومي طبقاً للنظريات النازية، وأضحت الحركة الفكرية كلها أداة نافذة في يد النظام الجديد تهيئ بها النشء والشباب للخضوع المطبق

ويشرح لنا المؤلف أدوار الحركة التي نظمت لسحق اليهودية منذ بدايتها وكيف أنها انتهت إلى وضع اليهودية من الوجهة الاجتماعية والاقتصادية في نوع من العزلة المطبقة التي تشبه نظام (الجيتو) في العصور الوسطى

ويتناول المؤلف تطورات السياسة الألمانية الجديدة في هذه الفترة وموقف ألمانيا من المعاهدات ومشاريعه السلام، ودعاواها في المستعمرات، وكل ما يتعلق بهذه الشؤون، وما أحرزته في هذا الميدان من النتائج

وقد كتب الكتاب بأسلوب قوي متزن تطبعه نزعة السياسي الهادئ والمؤرخ المحقق

المباراة الصحفية الأدبية

بيان من إدارة المطبوعات

إلحاقا بمشروع حضرة صاحب الدولة علي ماهر باشا الخاص بالمباراة الصحفية الأدبية تتشرف إدارة المطبوعات بأن تذيع على حضرات الصحفيين والكاتبين بأن اختيار دولته قد وقع على حضرات أصحاب الفضيلة والمعالي والسعادة الآتية أسماؤهم بعد رؤساء اللجان التحكيم كل في الموضوع الذي يخصه وترك لكل من حضراتهم حرية اختيار

زملائه أعضاء لجنته، وستذيع الإدارة قريباً أسماء الجميع كما أنها ستذيع ما قد يتراءى لهذه اللجان من توجيهات وإرشادات وقواعد وأسس
وقد تفضل دولة الوزير فأمر بامتداد مدة تقديم الموضوعات إلى أمد نهايته 10 أبريل سنة 1936 في غير تحديد لحجم ما يكتب وفي مطلق الحرية للكاتب فيما يريد إبداءه من آراء ومقترحات وأن التفضيل يكون للرسالة العملية النتائج، وليس ثمت من حاجة إلى التطويل فيما هو ظاهر جليّ، وأن العبرة كل العبرة في حسن التصوير ودقته، والإلمام الصحيح بشتى نواحي الموضوع العملية الإنتاجية. كما أن دولت قد أشار بترك الحرية المطلقة لحضرات المتقدمين من الصحفيين والكاتبين في أن يرجئوا نشر رسائلهم إلى ما بعد ظهور نتائج المباراة أو أن ينشروها من الآن فيما يختارون من صحف ومجلات
كذلك أمر دولته أن تطبع الرسائل الفائزة في كتاب خاص رغبة في إذاعتها والاستفادة من وجاهتها ونشر للثقافة وحسن الإفادة، وأن يذاع منها من محطة الإذاعة الحكومية اللاسلكية ما تشير به لجان التحكيم تعميما للفائدة بأوسع ما يكون
وترجو إدارة المطبوعات - رغبة منها في عدم إضاعة الوقت - أن يتكرم حضرات الراغبين في دخول هذه المباراة بإرسال خمس صور مما يكتبون في الموضوع الذي يختارونه إلى حضرات أصحاب الفضيلة والمعالي والسعادة رؤساء اللجان كل فيما يخصه وهم حضرات:
الموضوع الأول: رسالة الأزهر في القرن العشرين
رئيس لجنة التحكيم: حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي
شيخ الأزهر الشريف والمعاهد الدينية
الموضوع الثاني: اللغة والدين والعادات باعتبارها من مقومات الاستقلال
رئيس لجنة التحكيم: سعادة الأستاذ أحمد لطفي السيد باشا مدير الجامعة المصرية
الموضوع الثالث: أثر الحافز الشخصي في تطور الإصلاح الاجتماعي والوسائل العملية لتوجيهه للخير العام
رئيس لجنة التحكيم: الأستاذ الكبير مكرم عبيد نقيب المحامين
الموضوع الرابع: البطالة ووسائل علاجها. والتعليم الإقليمي وأثره في علاج البطالة
رئيس لجنة التحكيم: حضرة صاحب السعادة أحمد عبد الوهاب باشا وزير المالية
الموضوع الخامس: التربية الوطنية الاستقلالية وأثرها في بناء الأمة
رئيس لجنة التحكيم: الأستاذ الكبير محمود فهمي النقراشي
الموضوع السادس: عدة النجاح لرجل القرن العشرين
رئيس لجنة التحكيم: حضرة صاحب السعادة الدكتور حافظ عفيفي باشا
الموضوع السابع: تدعيم الحياة الدستورية والوحدة الوطنية وتكوين الوطني المستنير
رئيس لجنة التحكيم: حضرة صاحب العزة الدكتور بهي الدين بركات بك
الموضوع الثامن: ترقية الفلاح اجتماعياً
رئيس لجنة التحكيم: حضرة صاحب السعادة محمد طلعت حرب باشا
الموضوع التاسع: استثمار نهضة المرأة المصرية للخير العام
رئيس لجنة التحكيم: حضرة صاحب السعادة علي الشمسي باشا
الموضوع العاشر: وضع نشيد وطني قومي
رئيس لجنة التحكيم: الأستاذ الكبير الدكتور أحمد ماهر
حول المباراة الأدبية
. . .ورد إلينا من إدارة المطبوعات ما يأتي
إلحاقاً لمشروع حضرة صاحب الدولة علي ماهر باشا الخاص بالمباراة الصحفية الأدبية وموضوعاتها العشرة السابق إذاعتها
تتشرف إدارة المطبوعات بأن تذيع أيضاً أن دولته قد أمر بإضافة الموضوعين الآتيين ليكونا ضمن موضوعات المباراة المتقدمة وهما:
1 - سلامة الدولة في حفظ الأمن والنظام واحترام القانون
2 - البوليس - وهو من حراس القانون - صديق الشعب - ووجوب مساعدة الشعب له في أداء واجباته

وستذيع الإدارة قريباً أسماء حضرات رئيس وأعضاء لجنتي التحكيم في هذين الموضوعين الذين سيتفضلون بقبول المساهمة في هذه الخدمة الثقافية العامة
العدد 144 - بتاريخ: 06 - 04 - 1936

!!ولدي

يا قارئي أنت صديقي فدعني أُرِقْ على يديك هذه العَبرات الباقية! هذا ولدي كما ترى، رُزِقْته على حال عابسة كاليأس، وكهولة بائسة كالهرم، وحياة باردة كالموت، فأشرق في نفسي إشراق الأمل، وأورق في عودي إيراق الربيع، وولّد في حياتي العقيمة معاني الجِدّة والإستمرار والخلود!

كنت في طريق الحياة كالشارد الهيمان، انشد الراحة ولا أجد الظل، وأُفيض المحبة ولا أجد الحبيب، وألبس الناس ولا أجد الأنس، وأكسب المال ولا أجد السعادة، وأعالج العيش ولا أدرك الغاية!! كنت كالصوت الأصم لا يرجعه صدى، والروح الحائر لا يقرُّه هدى، والمعنى المبهم لا يحدده خاطر!! كنت كالآلة نتجتها آلةٌ واستهلكها عمل، فهي تخدم غيرها بالتسخير، وتميت نفسها بالدءوب، ولا تحفظ نوعها بالولادة؛ فكان يصلني بالماضي أبي، ويمسكني بالحاضر أجلي، ثم لا يربطني بالمستقبل رابط من أمل أو ولد. فلما جاءني (رجاء) وجدتني أولد فيه من جديد؛ فأنا أنظر إلى الدنيا بعين الخيال، وأبسم إلى الوجود بثغر الأطفال، وأضطرب في الحياة اضطراب الحي الكامل يدفعه من ورائه طمع، ويجذبه من أمامه طموح! شعرت بالدم الحار يتدفق نشيطاً في جسمي، وبالأمل القوي ينبعث جديداً في نفسي، وبالمرح الفتيَّ يضج لاهياً في حياتي، وبالعيش الكئيب تتراقص على حواشيه الخضر عرائس المنى! فأنا ألعب مع رجاء بلُعبه، وأتحدث إلى رجاء بلغته، وأتبع عقلي هوى رجاء فأدخل معه دخول البراءة في كل ملهي، وأطير به طيران الفراشة في كل روض ثم لم يعد العمل الذي أعمله جديراً بعزمي، ولا الجهد الذي أبذله كفاء لغايتي، فضاعفت السعي، وتجاهلت النصَب، وتناسيت المرض، وطلبت النجاح في كل وجه! ذلك لأن الصبي الذكي الجميل أطال حياتي بحياته، ووسَّع وجودي بوجوده، فكان عمري يغوص في طوايا العدم قليلاً قليلا ليمد عمره بالبقاء، كما يغوص أصل الشجرة في الأرض ليمد فروعها بالغذاء شغل رجاء فراغي كله، وملأ وجودي كله، حتى أصبح شغلي ووجودي! فهو صغيراً أنا، وأنا كبيراً هو؛ يأكل فأشبع، ويشرب فأرتوي، وينام فأستريح، ويحلم فتسبح روحي وروحه في إشراق سماوي من الغبطة لا يوصف ولا يحد!!

ما هذا الضياء الذي يشع في نظراتي؟ ما هذا الرجاء الذي يشيع في بسماتي؟ ما هذا الرضى الذي يغمر نفسي؟ ما هذا النعيم الذي يملأ شعوري؟ ذلك كله انعكاس حياة على حياة، وتدفق روح في روح، وتأثير ولد في والد!؟

ثم انقضت تلك السنون الأربع! فصوحت الواحة وأوحش القفر، وانطفأت الومضة وأغطش الليل، وتبدد الحلم وتجهم الواقع، وأخفق الطب ومات رجاء!!

يا جبار السموات والأرض رحُماك!! أفي مثل خفقة الوسنان تبدَّل الدنيا غير الدنيا، فيعود النعيم شقاء والملأ خلاء والأمل ذكرى؟! أفي مثل تحية العجلان يصمت الروض الغرد، ويسكن البيت اللاعب، ويقبح الوجود الجميل؟! حنانيك يا لطيف! ما هذا اللهيب الغريب الذي يهب على غشاء الصدر ومراق البطن فيرمض الحشا ويذيب لفائف القلب؟ اللهم هذا القضاء فأين اللطف؟ وهذا البلاء فأين الصبر؟ وهذا العدل فأين الرحمة؟

إن قلبي ينزف من عيني عبرات بعضها صامت وبعضها معول! فهل لبيان الدمع ترجمان، ولعويل الثاكل ألحان؟ إن اللغة كون محدود فهل تترجم اللانهاية؟ وإن الآلة عصب مكدود فهل تعزف الضرم الواري؟ إن من يعرف حالي قبل رجاء وحالي معه يعرف حالي بعده! أشهد لقد جزعت عليه جزعا لم يغن فيه عزاء ولا عظة! كنت أنفر ممن يعزيني عنه لأنه يهينه، وأسكن إلى من يباكيني عليه لأنه يُكبِره، وأستريح إلى النادبات يندبن الكبد الذي مات والأمل الذي فات والملك الذي رُفع!

لم يكن رجاء طفلا عاديا حتى أملك الصبر عنه وأطيع السلوان فيه؛ إنما كان صورة الخيال الشاعر ورغبة القلب المشوق! كان وهو في سنه التي تراها يعرف أوضاع الأدب، ويدرك أسرار الجمال، ويفهم شؤون الأسرة ويؤلف لي (الحواديت) كلما ضمني وإياه مجلس السمر! كان يجعل نفسه دائما بطل (الحدوتة) فهو يصرع الأسود التي

هاجمت الناس من حديقة الحيوانات، ويدفع (العساكر) عن التلاميذ في أيام المظاهرات، ويجمع مساكين الحي في فناء الدار ليوزع عليهم ما صاده ببندقيته الصغيرة من مختلف الطير!

وا لهف نفسي عليه يوم تسلل إليه الحمام الراصد في وعكة قال الطبيب إنها (البرد)، ثم أعلن بعد ثلاثة أيام أنها (الدفتريا)! لقد عبث الداء الوبيل بجسمه النضر كما تعبث الريح السموم بالزهرة الغضة! ولكن ذكاءه وجماله ولطفه ما برحت قوية ناصعة، تصارع العدم بحيوية الطفولة، وتحاجُّ القدر في حكمة الحياة والموت!!

وا لهف نفسي عليه ساعة أخذته غصة الموت، وأدركته شهقة الروح، فصاح بملء فمه الجميل: (بابا! بابا!) كأنما ظن أباه يدفع عنه ما لا يدفع عن نفسه!

لنا الله من قبلك ومن بعدك يا رجاء، وللذين تطولوا بالمواساة فيك السلامة والبقاء!

أحمد حسن الزيات

تجديد الإسلام

رسالة الأزهر في القرن العشرين

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

هذه هي الكلمة التي لا يقابلها في خيال الأمة المصرية إلا كلمةُ (الهرم). ،(الأزهر) وفي كلتا اللفظتين يكمن سرٌّ خفي من أسرار التاريخ التي تجعل بعض الكلمات ميراثاً عقلياً للأمة، يُنسي مادة اللغة فيها، ولا يبقي منها إلا مادة النفس، إذ تكون هذه الكلمات تعبيراً عن شيء ثابت ثبات الفكرة التي لا تتغير، مستقر في الروح القومية استقراره في الزمن، متجسم من معناه كأن الطبيعة قد أفردته بمادته دون ما يشاركه في هذه المادة؛ فالحجر في الهرم الأكبر يكاد يكون في العقل زماناً لا حجراً، وفناً لا جسما؛ والمكان في الأزهر يغيب فيه معنى المكان، وينقلب إلى قوة عقلية ساحرة، توجد في المنظور غير المنظور

وعندي أن الأزهر في زمننا هذا يكاد يكون تفسيراً جديداً للحديث: (مصر كنانة الله في أرضه)، فعلماؤه اليوم أسهم نافذة من أسهم الله يرمي بها من أراد دينه بالسوء فيمسكها للهيبة ويرمي بها للنصر، ويجب أن يكون هذا المعنى أول معانيهم في هذا القرن العشرين الذي ابتلى بملء عشرين قرناً من الجرأة على الأديان وإهمالها والإلحاد فيها

أول شيء في رسالة الأزهر في القرن العشرين، أن يكون أهله قوة إلهية معدَّة للنصر، مهيأة للنضال، مسددة للإصابة، مقدرة في طبيعتها أحسن تقدير؛ تشعر الناس بالاطمئنان إلى عملها، وتوحي إلى كل من يراها الإيمان الثابت بمعناها؛ ولن يأتي لهم هذا إلا إذا انقلبوا إلى طبيعتهم الصحيحة، فلا يكون العلم تحرفاً ولا مهنة ولا مكسبة، ولا يكون في أوراق الكتب خيال (أوراق البنك). . . . بل تظهر فيهم العظمة الروحانية آمرة ناهية في المادة لا مأمورة منهية بها، ويرتفع كل منهم بنفسه، فيكون مقرر خلق في الحياة قبل أن يكون معلم علم في الحياة، لينبث منهم مغناطيس النبوة يجذب النفوس بهم أقوى مما تجذبها ضلالات العصر؛ فما يحتاج الناس في هذا الزمن إلى العالم - وإن الكتب والعلوم لتملأ الدنيا - وإنما يحتاجون إلى ضمير العالم

وقد عجزت المدنية أن توجد هذا الضمير، مع أن الإسلام في حقيقته ليس شيئاً إلا قانون هذا الضمير، إذ هو دين قائم على أن الله لا ينظر من الإنسان إلى صورته ولكن إلى عمله؛ فأول ما ينبغي أن يحمله الأزهر من رسالته ضمائر أهله

والناس خاضعون للمادة بقانون حياتهم، وبقانون آخر هو قانون القرن العشرين. . . فهم من ثمَّ في أشد الحاجة إلى أن يجدوا بينهم المتسلط على المادة بقانون حياته ليروا بأعينهم القوى الدنيئة مغلوبة، ثم ليجدوا في هذا الإنسان أساس القدوة والاحتذاء فيتصلوا منه بقوتين: قوة التعليم وقوة التحويل. هذا هو سر الإسلام الأول الذي نفذ به من أمة إلى أمة ولم يقم له شيء يصده إذ كان ينفذ في الطبيعة الإنسانية نفسها

ومن أخص واجبات الأزهر في هذا القرن العشرين أن يعمل أول شيء لإقرار معنى الإسلام الصحيح في المسلمين أنفسهم، فإن أكثرهم اليوم قد أصبحوا مسلمين بالنسب لا غير. . . وما منهم إلا من هو في حاجة إلى تجديد الإسلام. والحكومات الإسلامية عاجزة في هذا بل هي من أسباب هذا الشر، لأن وجوداً سياسياً ووجوداً

مدنياً. أما الأزهر فهو وحده الذي يصلح لإتمام نقص الحكومة في هذا الباب؛ وهو وحده الذي يسعُه ما تعجز عنه؛ وأسبابُ نجاحه مهيأة ثابتة إذ كان له بقوة التاريخ حكم الزعامة الإسلامية، وكانت فيه عند المسلمين بقيةُ الوحي على الأرض، ثم كان هو صورة المزاج النفسي الإسلامي المحض. بيد أنه فرَّط في واجب هذه الزعامة وفقد القوة التي كان يحكم بها وهي قوة المثل الأعلى التي كانت تجعل الرجل من علمائه كما قلنا مرة: إنساناً تتخيَّره المعاني السامية تظهر فيه بأسلوب عملي فيكون في قومه ضرباً من التربية والتعليم بقاعدة منتزعة من مثالها مشروحةٍ بهذا المثال نفسه. والعقيدة في سواد الناس بغير هذا المثل الأعلى هي أول مغلوب في صراع قوى الحياة

لقد اعتاد المسلمون من قديم أن يجعلوا أبصارهم إلى علماء الأزهر فيتَّبعونهم ويتأسَّون بهم ويمنحونهم الطاعة وينزلون على حكمهم ويلتمسون في سيرتهم التفسير لمشكلات النفس، ويعرفون بهم معنى صغر الدنيا ومعنى كبر الأعمال العظيمة؛ وكان غنى العالم الديني شيئاً غير المال بل شيئاً أعظم من المال إذ كان - يجد حقيقة الغنى في إجلال الناس لفقره كأنه مُلك لا فقر. وكان زهده قوة حاكمة فيها الصلابة والشدة والهيبة والسمو وفيها كل سلطان الخير والشر لأن فيها كل النزعات الاستقلالية؛ ويكاد الزهد الصحيح يكون هو وحده القوة التي تجعل علماء الدين حقائق مؤثرة عاملة في حياة الناس أغنيائهم وفقرائهم، لا حقائق
متروكة لنفسها يوحشُ الناسَ منها أنها متروكة لنفسها

وعلماء الأزهر في الحقيقة هم قوانين نفسية نافذة على الشعب، وعملهم أردُّ على الناس من قوانين الحكومة، بل هم التصحيح لهذه القوانين إذا جرت الأمور على عللها وأسبابها؛ فيجب عليهم أن يحققوا وجودهم وأن يتناولوا الأمة من ناحية قلوبها وأرواحها، وأن يُعدُّوا تلاميذهم في الأزهر كما يعدون القوانين الدقيقة لا طلاباً يرتزقون بالعلم

أين صوت الأزهر وعمله في هذه الحياة المائجة بما في السطح وما في القاع. . . وأين وحي هذه القوة التي ميثاقها أن تجعل النبوة كأنها شيء واقع في الحياة المصرية لا خبرٌ تاريخي فيها.؟

لقد أصبح إيمان المسلمين كأنه عادة الإيمان لا الإيمان نفسه، ورجع الإسلام في كتبه الفقهية وكأنه أديان مختلفة متناقضة لا دين واحد. فرسالة الأزهر أن يجدد عمل النبوة في الشعب، وأن ينقي عمل التاريخ في الكتب، وأن يبطل عمل الوثنية في العادات، وأن يعطي الأمة دينها الواضح السمح الميسر وقانونها العملي الذي فيه سعادتها وقوَّتها

ولا وسيلة إلى ذلك إلا أن يكون الأزهر جريئاً في قيادة الحركة الروحية الإسلامية، جريئاً في عمله لهذه القيادة، آخذا بأسباب هذا العمل، ملحاً في طلب هذه الأسباب، مصراً على هذا الطلب. وكل هذا يكون عبثاً إن لم يكن رجال الأزهر وطلبته أمثلةً من الأمثلة القوية في الدين والخلُق والصلابة لتبدأ الحالة النفسية فيهم، فإنها إن بدأت لا تقف؛ والمثل الأعلى حاكم بطبيعته على الإنسانية، مطاعٌ بحكمه فيها، محبوبٌ بطاعتها له
والمادة المطَّهرة للدين والأخلاق لا تجدها الأمة إلا في الأزهر، فعلى الأزهر أن يثبت أن فيه تلك المادة بإظهار عملها لا بإلصاق الورقة المكتوب فيها الاسم على الزجاجة. . .

ومن ثم يكون واجب الأزهر أن يطلب الإشراف على التعليم الإسلامي في المدارس وأن يدفع الحركة الدينية دفعاً بوسائل مختلفة؛ أولها أن يحمل وزارة المعارف على إقامة فرض الصلاة في جميع مدارسها، من مدرسة حرية الفكر. . فنازلاً؛ والأمة الإسلامية كلها تشد رأي الأزهر في هذا. وإذا نحن استخرجنا التفسير العملي لهذه الآية الكريمة: (أدعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) دلتنا الآية بنفسها على كل تلك الوسائل، فما الحكمة هنا إلا السياسة الاجتماعية في العمل، وليست الموعظة الحسنة إلا الطريقة النفسية في
الدعوة

العلماء ورثة الأنبياء؛ وليس النبي من الأنبياء إلا تاريخ شدائد ومحن، ومجاهدة في هداية الناس، ومراغمة للوجود الفاسد، ومكابدة التصحيح للحالة النفسية للأمة. فهذا

كله هو الذي يورث عن الأنبياء لا العلم وتعليمه فقط
وإذا قامت رسالة الأزهر على هذه الحقائق، وأصبح وجوده هو المعنى المتمم للحكومة المعاون لها في ضبط الحياة النفسية للشعب وحياطتها وأمنها ورفاهتها واستقرارها - اتجهت طبيعته إلى أداء رسالته الكبرى للقرن العشرين بعد أن يكون حقق الذرائع إلى هذه الرسالة من فتح باب الاجتهاد وتنقية التاريخ الفقهي وتهذيب الروح الإسلامي والسمو به عن المعاني الكلامية الجدلية السخيفة، ثم استخراج أسرار القرآن الكريم المكتنَّة فيه لهذه العصور العلمية الأخيرة؛ وبعد أن يكون قد اجتمعت فيه القوة التي تمسك الإسلام على سنته بين القديم والجديد، لا ينكره هذا ولا يغيره ذاك؛ وبعد أن يكون الأزهر قد استفاض على العالم العربي بكتبه ودعاته ومبعوثيه من حاملي علمه ورسل إلهامه
أما تلك الرسالة الكبرى فهي بث الدعوة الإسلامية في أوربا وأمريكا واليابان، بلغات الأوربيين والأمريكيين واليابانيين في ألسنة أزهرية مُرهفة مصقولة لها بيان الأدب ودقة العلم وإحاطة الفلسفة، وإلهام الشعر، وبصيرة الحكمة، وقدرة السياسة؛ ألسنة أزهرية لا يوجد الآن منها لسانٌ واحد في الأزهر، ولكنها لن توجد إلا في الأزهر؛ ولا قيمة لرسالته في القرن العشرين إذا هو لم يوجدها فتكون المتكلمة عنه والحاملة لرسالته. وما هذه البعثات التي قرر الأزهر ابتعاثها إلى أوربا إلا أول تاريخ تلك الألسنة إن الوسيلة التي نشرت الإسلام من قبل لم تكن أجنحة الملائكة ولا كانت قوة من جهنم؛ ولا تزال هي هي التي تنشره، فليس مستحيلا ولا متعذرا أن يغزو هذا الدين أوربا وأمريكا واليابان كما غزا العالم القديم. ولم يكن السلاح من قبل إلا طريقة لإيجاد الإسلام في الأمة الغريبة عنه حتى إذا وجد تولىَّ هو الدعوة لنفسه بقوة الناموس الطبيعي القائم على أن الأصلح هو الأبقى، وانحازت إليه الإنسانية لأنه قانون طبيعتها السليمة، ودين فطرتها القوية، وقد ظل الإسلام ينتشر ولم يحمله إلا التاجر كما ينتشر وحاملهُ الجيش؛ فليس علينا إلا تغيير السلاح في هذا العصر وجعله سلاحا من فلسفة الدين وأسرار حكمته. فهذا الدين
كما قلنا في بعض كلامنا أعمالٌ مفَّصلة على النفس أدق تفصيل وأوفاه مصلحة، فهو يعطي الحياة في كل عصر عقلها العملي الثابت المستقر تنظّم به أحوال النفس على ميزة وبصيرة، ويدع للحياة عقلها العمليَّ المتجدد المتغير تنظم به أحوال الطبيعة على قصد وهدى. وهذه هي حقيقة الإسلام في أخص معانيه لا يغني عنه في ذلك دين آخر ولا يؤدي تأديته في هذه الحاجة أدبٌ ولا علم ولا فلسفة كأنما هو نبع في الأرض لمعاني النور بازاء الشمس نبع النور في السماء
ليس على الأزهر إلا أن يوجد من الإسلام في تلك الأمم ما يستمر، ثم الاستمرار هو يوجد ما يثبت، والثابت يوجد ما يدوم. وكأن النبي صلى الله عليه وسلم قد أشار إلى هذا في قوله: نضَّر الله امرءا سمع مني شيئاً فبلغه كما سمعه، فربَّ مُبلَّغ أوعى له من سامع
أما والله إن هذا المبلَّغ الذي هو أوعى له من السامع لن يكون في التاريخ بأدق المعنى إلا أوربا وأمريكا في هذا الزمن العلمي إذا نحن عرفنا كيف نبلغ
أنا مستيقن أن فيلسوف الإسلام الذي سينتشر الدين على يده في أوربا وأمريكا لن يخرج إلا من الأزهر، وما كان الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله إلا أول التطور المنتهي إلى هذه الغاية، وسيكون عمل فلاسفة الأزهر استخراج قانون السعادة لتلك الأمم من آداب الإسلام وأعماله ثم مخاطبة الأمم بأفكارها وعواطفها والإفضاء من ذلك إلى ضميرها الاجتماعي فإن أول الدين هناك أسلوبه الذي يظهر به
هذه هي رسالة الأزهر في القرن العشرين ويجب أن يتحقق بوسائلها من الآن؛ ومن وسائلها أن يُعالن بها لتكون موثقاً عليه. ويحسن بالأزهر في سبيل ذلك أن يضم إليه كل مفكرا إسلامي ذي إلهام أو بحث دقيق أو إحاطة شاملة؛ فنكون له ألقاب علمية يمنحهم إياها وإن لم يتخرجوا فيه ثم يستعين بعلمهم وإلهامهم وآرائهم. وبهذه الألقاب يمتد الأزهر إلى حدود فكرية بعيدة ويصبح أوسع في أثره على الحياة الإسلامية ويحقق لنفسه المعنى الجامعي
وفي تلك السبيل يجب على الأزهر أن يختار أياماً في كل سنة يجمع فيها من المسلمين (قرش الإسلام) ليجد مادة النفقة الواسعة في نشر دين الله. وليس على

الأرض مسلم ولا مسلمة لا يبسط يده، فما يحتاج هذا التدبير لأكثر من إقراره وتنظيمه وإعلانه في الأمم
الإسلامية ومواسمها الكبرى وخاصة موسم الحج. وهذا العمل هو نفسه وسيلة من أقوى الوسائل في تنبيه الشعور الإسلامي وتحقيق المعاونة في نشر الدين وحياطته، وعسى أن تكون له نتائج اجتماعية لا موضع لتفصيلها، وعسى أن يكون (قرش الإسلام) مادة لأعمال إسلامية ذات بال وهو على أي الأحوال صلة روحية تجعل الأزهر كأنه معطيه لكل مسلم لا آخذه.
والخلاصة أن أول رسالة الأزهر في القرن العشرين اهتداء الأزهر إلى حقيقة موضعه في القرن العشرين (وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين).
(طنطا)

مصطفى صادق الرافعي

النهضات القومية العامة في أوربا وفي الشرق

للدكتور عبد الرزاق السنهوري

عميد كلية الحقوق ببغداد

تمهيد:

دعتني لجنة الثقافة بدار المعلمين لإلقاء محاضرات عامة، فترددت في اختيار موضوع هذه المحاضرات، ذلك أني رجل أشتغل بالقانون، والناس لا يرحبون كثيراً لا بالقانون ولا برجال القانون، وكيف يستسيغ الناس القانون، وهو جاف لا طلاوة فيه، أو ترحب برجال القانون، وهم رجال صناعتهم الخوض في المنازعات، فإن لم توجد خلقوها خلقا؟ هذه هي سمعة رجال القانون عند الجمهور، ولا أحاول أن أدافع عنهم، وإن كنت منهم، فإني أخشى أن ينازعوني حق النيابة عنهم والتحدث باسمهم. لذلك آثرت أن أتجرد الليلة عن هذه الصفة، وأن أتقدم إليكم بموضوع لا شأن له بالقانون، واخترت أن يكون موضوعي عن النهضات القومية في أوربا وفي الشرق
ولست أزعم أنني توفرت على دراسة موضوعي دراسة دقيقة، فإن الدراسة الحق لهذا الموضوع تقتضي الخوض في فلسفة التاريخ والاجتماع، مما أعفيكم منه، كما أعفيكم من سماع الأحاديث القانونية الجافة. لذلك سترونني هذه الليلة أمس موضوعي مساً خفيفاً، في رفق وهوادة، محاذرا أن أثقل عليكم أو أن أثقل على نفسي، راجياً العذر إذا قصرت في التعمق، فإن الغرض الأول الذي توخيته من هذه المحاضرات، ليس هو الغرض العلمي. بل هي الرغبة في استخلاص بعض الدروس للشعوب الشرقية في نهضاتها الحديثة، في ضوء التجارب التي مرت بها الأمم الغربية ومادمت سأتكلم في النهضات القومية، ومادامت النهضة تقوم على روابط، فإني أبدأ بتحديد معنى الرابطة، تمهيداً للكلام في النهضات القومية
الرابطة وحدة تجمع طائفة من الناس، وتقرب ما بينهم، وتميزهم من الطوائف الأخرى، فالرابطة إذن لها وجهان: وجه إيجابي، هو ذلك التقريب، وكلما توثقت أواصره كان في ذلك الخير كله. ووجه سلبي، هو ذلك التنافر والتباعد ما بين طائفة وأخرى، وكلما أغرق فيه كان تعصباً، والتعصب كريه مذموم
ولابد من وجود الروابط في الجمعيات البشرية، وتفرق الناس شيعاً وأحزاباً. نعم لو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة، ولكانت هناك رابطة واحدة تربط الناس جميعاً، هي رابطة الإنسانية، ولكن ذلك المثل العالي لم يتحقق حتى الآن، وقد لا يتحقق إلى مدة طويلة، بل قد لا يتحقق أبداً، لذلك يجب أن نواجه الأمر الواقع، وأن ننظر على أي أساس يتميز الناس أمماً وشعوباً
ولنبدأ باستعراض التاريخ استعراضاً سريعاً، لنستخلص منه الروابط المتعاقبة التي ربطت الجمعيات البشرية في أوربا، منذ العصور الوسطى إلى الآن. إن المستعرض لتاريخ الغرب يستطيع أن يقرر أن الجمعيات البشرية قد تقاربت وتباعدت، على أسس اختلفت باختلاف مراحل التاريخ. ففي العصور الوسطى كان الأساس هو الدين، إذ تجمعت الشعوب الغربية وقامت وحدتها على الدين المسيحي، ثم أخذت رابطة الدين تنحل شيئاً فشيئاً، وأخذت تحل محلها رابطة الوطن، ومازالت أواصر الوطنية تتماسك، ثم تتوثق، حتى قوى التعصب لها، وحتى قامت الحروب ما بين الشعوب المختلفة في

الوطن وإن اتحدت في الجنس، وبقى الأمر كذلك حتى مستهل القرن التاسع عشر، إذ قويت رابطة الوطن بعد نشوب الثورة الفرنسية وحروب نابليون، ثم أخذت رابطة أخرى في الظهور، رابطة تقوم لا على فكرة الوطن ولا على فكرة الجنس، بل على فكرة الكفاح ما بين الطبقات، ووجوب سيادة طبقة العمال، وبهذه الرابطة نادى الاشتراكيون، وأخذ أمر الاشتراكية يقوى شيئاً فشيئاً، ومذاهبها تتنوع وتتشعب، حتى الحرب الكبرى، إذ استفحل شأن الاشتراكية بارتماء الروسيا في أحضان البلشفية.
على أن رابطة الوطن، وقد وقفت إلى جانبها رابطة أخرى مقاربة لها هي رابطة الجنس، لم يفتر نشاطها، بل نزلت إلى ميدان النضال. وهانحن اليوم نشهد عراكا عنيفاً ما بين رابطتي الوطن والجنس من جهة، ورابطة الطبقات من جهة أخرى
هذا بيان إجمالي عن الروابط التي تعاقبت على أوربا منذ العصور الوسطى إلى اليوم: من رابطة الدين، إلى رابطة الوطن، إلى رابطة الجنس، إلى رابطة الطبقات، ونحن نفصل الآن ما أجملناه

1 - العصور الوسطى: رابطة الدين

قلت إن الشعوب الأوربية كانت تجمعها في العصور الوسطى جامعة الدين، وكانت الدولة لا تقوم على القومية أو الوطنية في تلك العصور، بل كانت الدولة والقومية منفصلتين إحداهما عن الأخرى منذ العصور القديمة، فقد كانت اليونان قومية واحدة تتنازعها دول متعددة، وكانت الرومان قوميات متعددة تندمج في دولة واحدة. ولما جاءت العصور الوسطى تجمعت الشعوب الأوربية في ظل الدين المسيحي، يقود زمامها سلطتان: سلطة روحية هي سلطة البابا، وسلطة زمنية هي سلطة الإمبراطور.
واستندت الكنيسة إلى السلطة الزمنية دهوراً طوالا، فإن المسيحية كان قد اشتد كاهلها في ظل الإمبراطورية الرومانية، إذ بعد أن ناوأتها هذه الإمبراطورية زمناً طويلا، واضطهدت معتنقيها، وسامتهم الخسف والعذاب، تغلبت قوة الإيمان، وانتصرت المسيحية، واتخذتها الإمبراطورية الشرقية ديناً رسمياً للدولة
ولما سقطت الإمبراطورية الرومانية شعرت الكنيسة بحاجتها إلى سلطة زمنية تستند إليها، وبقى المثل الأعلى للشعوب الغربية هو أن تتجمع في ظل الكنيسة. وقد تحققت هذه الأمنية إلى حد كبير في آخر القرن الثامن، وقام بتحقيقها شارلمان، فقد وحد غرب أوربا بعد أن أخضعها لسلطانه، وتوجه البابا ليو الثالث في سنة 800 في كنيسة القديس بطرس، إمبراطورا على العالم المسيحي، وخليفة للقياصرة من الرومان، وأعاد الإمبراطور أوتو الجرماني وحدة العالم المسيحي مرة أخرى في القرن العاشر، أما الكنيسة نفسها فقد كان ظلها ينبسط على العالم المسيحي، يحقق وحدة هذا العالم، وقد كان لها أعوان منبثون في كل قطر وبلد، يؤيدون سلطانها، وينفذون إرادتها، وسلاح الكنيسة إذ ذاك هو الغفران والحرمان، تغفر لمن تشاء، وتحرم من تشاء، فكلمتها نافذة مطاعة، والعالم المسيحي ينظر إليها رمزاً لوحدته
وبقيت الرابطة الدينية قوية متينة دهوراً طوالا، ثم أخذت في الانحلال، ويرجع السبب في انحلالها إلى الحروب الطويلة التي نشبت ما بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية، وإلى اتصال العالم المسيحي بالعالم الإسلامي بعد انقضاء الحروب الصليبية، مما خفف من حدة التعصب الديني، وإلى الإصلاح الديني الذي كان من شأنه أن يشق العالم المسيحي إلى
كثلكة وبروتستانتية، وأخيراً، وبنوع خاص إلى عصر النهضة في العلوم والفلسفة، تلك النهضة التي افتتحت بها العصور الحديثة في أوربا، فبدد نور العلم ما كان قد تلبد من غياهب التعصب، وانقشعت ظلمات الجهالة، وميز الناس بين الروابط المدنية والروابط الدينية، فحكموا في الأولى عقولهم، وفي الأخرى ضمائرهم، وأعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله.

2 - العصور الحديثة: رابطة الوطن ورابطة الجنس

وننتقل الآن من المرحلة الأولى إلى المرحلة الثانية، من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة، وقد بدأت هذه العصور في أوربا منذ القرن السادس عشر، وبدأت معها رابطة الوطن تحل محل رابطة الدين، وقد كان يمنع من توثق رابطة الوطن في الماضي أمران: (الأمر الأول) رابطة الدين وقد رأينا كيف تفككت هذه الرابطة. (الأمر الثاني) شيوع النظام الإقطاعي في الشعوب الأوربية، وقد كان من شأن هذا النظام

أن يفكك سلطان الدولة، وأن يوزعه بين النبلاء، فلم تكن تقوم للدولة ولا للقومية قائمة في ظل هذا النظام. ثم أخذ يزول شيئاً فشيئاً، ويرجع السبب في ذلك إلى تقدم التجارة والصناعة؛ مما جعل طبقة التجار والصناع وهي الطبقة الوسطى ذات شأن كبير. فأضعفت من سلطان الأرستقراطية والنبلاء، وحلت البرجوازية التجارية والصناعية محل الأرستقراطية النبيلة، واستندت إليها السلطة المركزية، واستعانت بها في توطيد سلطانها وهدم سلطان النبلاء

وغرس تقدم التجارة والصناعة عند الأمم الغربية حب الاستعمار سعياً وراء أسواق جديدة للتجارة، أو جرياً وراء الحصول على المواد الأولى للصناعة، وقويت نزعة الاستعمار عند الدول الغربية الكبرى، وتنافست، فقامت الحروب بينها، وزادت كل أمة شعوراً بقوميتها، وهكذا نرى أن الاستعمار كان من شأنه أن يقوي الوطنية، وأن يذكي نار التعصب للقومية

وقد بلغت رابطة الوطنية أوجها من القوة بعد نشوب الثورة الفرنسية وحروب نابليون، وبقيت قوية عنيفة طوال القرن التاسع عشر، رغماً عن حركة الرجعية التي رفع لواءها مؤتمر فينا. وأخذت القوميات التي لم تستكمل استقلالها تكافح في سبيل هذا الاستقلال، وخرجت منتصرة من هذا الكفاح. فاستقلت اليونان عن الدولة العثمانية، والبلجيك عن هولندا، وإيطاليا عن النمسا، وأخفقت بولونيا والمجر، ولم يقدر لهما النجاح إلا بعد الحرب

الكبرى، واستقلت بعض ولايات البلقان، وتكونت الإمبراطورية الألمانية، بعد أن اصطدمت القومية الألمانية بالقومية الفرنسية، وجر هذا الاصطدام إلى حروب دامية وأهوال

على أن تقدم الصناعة بنوع خاص، لاسيما في القرن التاسع عشر، كان له أثران خطيران غير تقوية روح الوطنية والنزعة الاستعمارية. (الأثر الأول) تقويته روح الديمقراطية، التي بدأ غرسها الثورة الإنجليزية، وأنبتتها الثورتان الأمريكية والفرنسية. وللديمقراطية حديث طويل، يصح أن يكون موضوعاً مستقلاً لسلسلة من المحاضرات. (الأثر الثاني) غرسه روح الاشتراكية، وهنا نرى عجباً. فإن الصناعة، التي قوت رابطة الوطنية، أوجدت إلى جانبها رابطة أخرى مناقضة لها كل المناقضة، هي رابطة الطبقات. إذ قويت طبقة العمال بفضل تقدم الصناعة الكبير، وأخذت تشعر بقوتها، وتجمعت كتلاً كتلاً، وسرى روح التفاهم ما بين العمال من جميع القوميات، وصاح فيهم ماركس صيحته المشهورة: (أيها العمال من جميع أنحاء العالم، هلموا إلى رفع لواء الاتحاد)، وعارضت روح الطبقات روح الوطنية، وبدأت الاشتراكية تدخل في دور عملي، ولم يعد بد للأمم الأوربية من أن تواجه هذه الحركة الجديدة

وقبل أن ننتقل من الوطنية إلى الاشتراكية، نقف قليلاً، لنعرف معنى الوطنية التي أكثرنا من الإشارة إليها، فقد تحاشينا تعريفها حتى الآن، إذ ليس من السهل تحديد هذا المعنى الدقيق، فالوطنية جامعة تقوم على روابط طبيعية وأخرى صناعية، وأول الروابط الطبيعية هو وحدة الجنس والدم، ويلي هذا وحدة الإقليم الجغرافي. ثم وحدة اللغة، ويترتب على هذه الوحدات المختلفة وحدة لتاريخ ووحدة التقاليد، هذه الروابط الطبيعية التي تجمع ما بين أبناء شعب واحد، وتجعل من هذا الشعب وطناً يشعر بذاته. فإذا اقترنت بهذه الروابط الطبيعية رابطة أخرى صناعية، هي وحدة النظام السياسي، فقد استكملت الوطنية ذاتيتها، واستجمعت مقوماتها ومشخصاتها، وإذا انظم إلى كل هذه الروابط وحدة الدين، فقد بلغت الوطنية الأوج من عنفوانها وقوتها. على أن اجتماع كل هذه الروابط ليس ضرورياً لتكوين الوطن، فوجود بعضها يكفي. والمهم أن يتوحد المكان الجغرافي والنظام السياسي، ويتبع ذلك وحدة التاريخ ووحدة التقاليد. فقد تضم رقعة جغرافية قوماً مختلفي الجنس، ولكن يتحد تاريخهم وتقاليدهم، فإذا انضموا إلى نظام سياسي واحد كوّنوا وطناً، وقد يتفرق أبناء الجنس الواحد بين أوطان متعددة، كل وطن له مقوماته الذاتية من لغة وتاريخ وتقاليد، وقد يتجمع القوم متحدين جنساً مختلفين ديناً، ولا يمنع اختلاف الدين من تكون الوطن، ومن هنا نرى أن رابطة الوطن لا تتفق تماماً مع رابطة الجنس والدم. فالرابطة الأولى فيها شيء من العوامل الصناعية تعززها وتقويها، والرابطة الثانية، رابطة الدم، تقوم على الطبيعة ذاتها، ولا تعارض بين رابطة الوطن ورابطة الجنس والدم، حتى لو ضم

الوطن الواحد أجناساً مختلفة. إلا إذا أسيء فهم الوطنية، وأخذت لا على أنها صلة حب وتآلف بين هذه الأجناس، بل صلة كراهية ومقت لكل قومية أخرى
(يتبع)

عبد الرزاق السنهوري

صور من القرن الثامن عشر

جاكومو كازانوفا

جوَّاب مجتمع ومغامر مرح

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كان القرن الثامن عشر في أوربا عصر الخفاء والدعوات السرية، والثورات الفكرية والاجتماعية؛ وكان أيضاً عصر المغامرات الشائقة، والحياة المرسلة الناعمة، والعيش الخفض، وازدراء التبعات، عصر المرح والطرب الميسور

وليس معنى ذلك أن القرن الثامن عشر كان عصرا ذهبيا يزهو فيه المجتمع ويزدهر؛ فقد كان في الواقع عصر الأزمات السياسية والاجتماعية والاقتصادية المتوالية؛ ولكنه كان عصر تطور فكري عميق يبلغ المجتمع فيه ذروة أزمته الروحية والنفسية، ويصل إلى نوع من اليأس والاستهتار، ويلتمس في حياة النسيان والعيش المرح عزاء ومتنفسا

وقد تناولنا في مقال سابق شخصية من أعجب شخصيات هذا القرن وداعية من أغرب دعاته، ونعني يعقوب فرنك أو البارون فون أوفنباخ ورأينا كيف كان القرن الثامن عشر مهبط الدعاة والمغامرين من كل ضرب، وكيف كان الخفاء يغمرهم ويثير من حولهم كثيرا من الدهشة والروع، وكيف كان أولئك الدعاة المغامرون يخلبون ألباب مجتمعات هذا العصر برائع شخصياتهم ومظاهرهم، وظرف خلالهم وشمائلهم، وسحر مزاعمهم وأقوالهم، وخفاء غاياتهم ووسائلهم

والآن نتناول شخصية أخرى من أعجب شخصيات هذا القرن أيضا، ولكن من طراز آخر، هي شخصية جاكومو كازانوفا

كازانوفا! مغامر جريء يخلق لنفسه من العدم شخصية باهرة، ويدخل الحياة من باب ذهبي، ويستقبلها بابتسامة خالدة؛ ويفتتح المجتمع الرفيع بذكائه ودهائه وخبثه، وظرف خلاله وشمائله؛ ويرتفع في ميدان المغامرة إلى الذروة، ويهبط إلى الدرك الأسفل؛ ويستمرئ أمتع المسرات والملاذ، كما يتذوق أمر ضروب السقوط والفاقة؛ وينحدر من فتوة باهرة ظافرة برفاهة العيش الساطع المرح، إلى كهولة حافلة بصنوف الخيبة واليأس، ثم

إلى شيخوخة مظلمة مغمورة بائسة، ثم إلى عالم العدم في قبر ناء مجهول

لم يكن كازانوفا شخصية عظيمة تجدر بالخلود في صحف التاريخ؛ ولكنه كان شخصية من نوع خاص تنحرف بطرافتها وغريب أطوارها عن سلك المجتمع الوديع الهادئ، ولكن تنفث في نفس الوقت بقوتها واضطرام خلالها أينما حلت في جوانب هذا المجتمع كثيرا من الفضول والسحر، وتغزو بمرحها وأناقتها قلوب أولئك الذين يعبدون الجمال والظرف مهما اتخذوا من أثواب خلابة طائرة؛ وقد كان كازانوفا يتشح بأثواب خلابة طائرة، ولكن مؤثرة ساحرة، ولم يكن يهمه في الحياة سوى النجاح مهما كان خلبا، والظفر بتحقيق أهوائه مهما كانت ومهما كانت الوسائل والصور؛ وقد ترك لنا فوق ذلك عن حياته الغريبة الحافلة مذكرات طلية شائقة مازالت تعتبر إلى يومنا تحفة أدبية فنية لها قيمتها ولها سحرها

ولهذا يظفر كازانوفا من التاريخ بالذكر والتدوين، وتغدو سيرته العجيبة سجلا حافلا لخلال عصره، وتغدو موضوعا ومستقى لأقلام بارعة تخرج عنها المؤلفات الحافلة

ولد جاكومو كازانوفا في الثاني من شهر أبريل سنة 1725 بمدينة البندقية؛ وكان أبوه جايتانو ممثلا متواضعا ألقى به إلى البندقية وإلى المسرح قدر غريب، ذلك أنه هام في صباه بممثلة حسناء تدعى لافراجوليتا، وترك من أجلها أسرته وموطنه بارما، واحترف الرقص والتمثيل؛ ثم فتر هواهما بعد ذلك وتركته الممثلة لتجري وراء مغامرات أخرى، فاستبقى من بعدها حرفته، والتحق للعمل بأحد مسارح البندقية؛ وكان يقيم في المنزل المواجه لمسكنه صانع أحذية يدعى فاروزي وزوجته مارسيا وابنتهما الحسناء جوفانا أو زانيتا، فنشأت بين جايتانو وزانيتا علائق غرامية، ثم فر العاشقان ذات يوم

وعقدا زواجهما في فبراير سنة 1724، وبعد عام ولد ابنهما جاكومو
ولم تلبث زانيتا أن حملها تيار المسرح، فظهرت إلى جانب زوجها، وانفق الزوجان بضعة أعوام في التجول من مدينة إلى أخرى ومن مسرح إلى آخر؛ ثم أصيب الزوج أثناء وجودهما بالبندقية بمرض خطير أودى بحياته في أواخر سنة 1733
وكان جايتانو كازانوفا فتى وديعا حسن الخلال، يؤثر الانزواء والعزلة؛ أما زانيتا فقد كانت بالعكس فتاة ذكية ماكرة مضطرمة النفس والأهواء؛ وكانت ممثلة بارعة تمتع بكثير من الظرف والسحر؛ وكانت دائمة التجول في عواصم القارة، من لندن إلى بطرسبرج، تحرز
النجاح والظفر أينما حلت؛ وكان مستقرها الأخير في مدينة درسدن حيث عينها مختار سكسونية ممثلة مدى الحياة، وهنالك أنفقت بقية حياتها حتى توفيت سنة 1776
وكانت زانيتا قد رزقت غير جاكومو بثلاثة أبناء آخرين وابنتين، وتركتهم جميعاً بالبندقية لدى والدتها مارسيا فاروزي؛ وكانت مارسيا امرأة بسيطة جاهلة ولكن ذكية مخلصة، فكرست كل نشاطها وعنايتها لتربية أحفادها ولاسيما كبيرهم جاكومو؛ ويشير كازانوفا في مذكراته إلى ذلك الحرمان من عطف أبويه، ويقول لنا إنهما لم يكلماه قط، ويشير أيضاً إلى عطف جدته ورعايتها ويقول لنا إنه كان طوال حياته يذكرها بالحب والعرفان والإجلال
ونشأ جاكومو ضعيفاً سقيما، ولكن تبدو عليه إمارات الذكاء والنجابة؛ وكان للأسرة صديق من أعيان المدينة يدعى جورجو بافو، فاهتم بأمر الصبي العليل؛ وكان بافو جوادا طيب القلب، ولكن فاسد الخلال والسيرة؛ وكان شاعرا، ولكن شعره يفيض تهتكا وفجورا؛ فنصح بإرسال الصبي إلى بادوا ليتعلم في معاهدها ويستفيد من هوائها؛ وكانت زانيتا والدة جاكومو يومئذ في البندقية، فنزلت عند هذا النصح، وحملت جاكومو إلى بادوا، ورتبت مقامه هنالك؛ وأقام جاكومو مدى حين عند امرأة سلافية، ولكن ما لبث أن عاف المكث لديها لسوء المعاملة ورداءة المسكن والطعام، ثم نقل على أثر ذلك إلى منزل معلمه الأب جوزّي، فارتاحت نفسه لمقامه الجديد، وأقام لدى أستاذه منعما مكرما
وقضى كازانوفا بضعة أعوام عند معلمه، ودرس قليلا من اللاتينية واليونانية والنحو. وكان تقدمه سريعاً حتى أن الأب جوزي ما لبث أن اختاره لمعاونته في التدريس؛ وكان كازانوفا قد ناهز يومئذ الخامسة عشرة، وأخذت تبدو عليه إمارات الاضطرام الكامنة في جوانحه والتي ورثها عن والديه، فبدأ يقرأ الكتب المثيرة، ويزعج معلمه بمختلف الأسئلة المحرجة، ويحدج أخت معلمه بتينا - وهي فتاة في نحو العشرين من عمرها - بنظرات ملتهبة. ولما انتهت دراسته الابتدائية، دخل مدرسة الحقوق في جامعة بادوا الشهيرة، وأطلق لنفسه عنان الحرية، وأخذ يغشي دور اللهو والميسر، فانزعج معلمه، وانزعجت جدته وبادرت إلى بادوا وصحبته معها إلى البندقية، وهنالك استأنف دراسته وفي البندقية تفتحت غرائزه وأهواؤه، وانكب على صنوف اللهو؛ ولكنه مع ذلك كان يتذوق دراسته وحياته العلمية، وكان ذلك الفتى اليافع الذي يضطرم ظمأ إلى اللهو والمرح،
يضطرم في نفس الوقت ظمأ إلى العرفان والدرس؛ وكان في الثامنة عشرة يأخذ بقسط حسن من الأدب والفلسفة والمبادئ العلمية، ولم يكن خلال عبثه ولهوه ليغضي عن التفكير في مستقبله؛ فلم يمض سوى قليل على عوده إلى البندقية حتى استطاع أن ينتظم في سلك رجال الدين وأن يحصل على وظيفة دينية صغيرة. أجل استهل كازانوفا حياته العملية قساً، وهو الذي خاض فيما بعد غماراً من اللهو والفجور قلما يخوضها بشر! ولم يكن ذلك منه ورعاً أو رغبة في خدمة الدين، ولكن الانضواء تحت لواء الكنيسة كان يومئذ وسيلة فريدة لأبناء الشعب الذين يطمحون إلى مستقبل ما؛ وكان ذلك المنصب المتواضع الذي لا يحتم عليه الارتباط بعهد الكنيسة، يفتح له كثيراً من الأبواب المغلقة، ويحقق له كثيراً من المزايا التي تعاونه على التقدم في سبيل الحياة
ولم يمض سوى قليل حتى استطاع كازانوفا أن يجوز إلى المجتمع الرفيع وأن يعترف بكثير من الكبراء والنبلاء؛ وكان بين هؤلاء، غير صديقه وحاميه القديم بافو، سيد يدعى مالبيرو، وهو شيخ سابق، وثري منعم، يعيش في قصر فخم، ويجمع حوله جمهرة من

الخلان الظرفاء، يتسامرون ويتحدثون عن اللهو والنساء والحب، كما يتحدثون عن السياسة والمسرح؛ وألفى مالبيرو في القس الفتى رفيقاً مؤنساً فاصطفاه واتخذه سميره وخله الحميم ومعاونه على تنظيم حفلاته الأنيقة؛ وكان كازانوفا في الواقع يتمتع في هذا الميدان بكثير من حسن الذوق والشمائل الرقيقة، فيتقدم لخدمة السيدات برشاقة ويخلب ألبابهن بظرفه، ويسبغ بحركاته وأحاديثه على الحفل كله مسحة من البهجة والرواء

وكانت البندقية يومئذ - في منتصف القرن الثامن عشر - منزل اللهو والمرح، تموج في الليل بالمسارح ودور اللهو، وتغمرها لمحة ساطعة من بهائها السابق؛ وكان الحب يرفرف على أرجائها وتنساب القوارب النحيلة في شوارعها المائية تحمل أزواج المحبين تحت جنح الظلام وأضواء القمر، وتقرع كؤوس الهوى في كل ناحية، ويسود الحبور والبهجة؛ وكان كازانوفا يخوض هذه الغمار المرحة سعيدا منعماً، ويستمرئ هذه المناظر البديعة التي تقدمها إليه المدينة التالدة، في ظل الرعاية التي يشمله بها صديقه وحاميه السيد مالبيرو

بيد أنه لم يلبث أن فقد هذه الرعاية. ذلك أنه كان للسيد مالبيرو صاحبة فتية حسناء تدعى تيريز، وكان كازانوفا يرنو إليها ويحوم حولها، ففي ذات يوم استطاع أن ينفرد بها في أحد

المخادع، وبينا هو يبثها جواه، إذ فاجأهما مالبيرو فانهال عليه ضرباً بعصاه، وطرده من منزله شر طرد، وفقد كازانوفا بذلك أكبر عضد، وأقصى عن ذلك المجتمع الساطع الذي كان يغشاه؛ وتولته على أثر ذلك نوبة من اليأس والكمد؛ وكانت جدته قد توفيت قبل ذلك بقليل، فأخذ يتصرف في مقتنيات المنزل ويبددها، واضطر الوصي على أخوته إلى التدخل، ووصل الأمر إلى القضاء فقبض عليه وأودع السجن؛ وفقد أثناء ذلك منصبه الديني وأخرج من حضيرة الكنيسة؛ ولما أطلق سراحه بعد ذلك بقليل، شعر أن البندقية تضيق به وبمشاريعه وأنه لم يبق له فيها أمل أو مقام

وكانت أمه قد كتبت إليه توصيه بالسفر إلى أسقف كالابريا فهو صديق لها وفي وسعه أن يعاونه وأن يوصي به؛ فعول عندئذ على السفر إلى رومه، ولكن الأسقف كان قد غادرها إلى مقر وظيفته في الجنوب؛ وكانت نقوده القليلة قد نفدت، وساءت حاله، واضطر أن يلتمس العيش بأخس الوسائل؛ وتعرف أثناء الطريق بتاجر يوناني يتاجر في الزئبق، واتفق معه على طريقة لغش الزئبق وتحصيل ثمنه مضاعفاً، واستطاع بهذه الوسيلة أن يكسب قدراً من المال؛ ووصل أخيراً إلى مارتيرانو مقر الأسقف، ولكنه شعر بآماله تتحطم حينما رأى حالة الأسقف الزرية من منزل قفر متهدم، وبؤس ظاهر، وعزلة قاتلة؛ فارتد أدراجه إلى نابولي ومعه بقية من المال؛ وهنالك بسم له الحظ، وقضى بضعة أيام سعيدة، تعرف خلالها بامرأة حسناء تدعى لوكريزيا وتوثقت علائقه معها بسرعة، وكانت في الواقع أول صاحبة حقيقية خضعت لسلطان هواه ثم نراه بعد ذلك في رومه يطرق الأبواب ويحاول أن يشق طريقه؛ وقد كان عندئذ موفقاً إذ استطاع أن يلتحق بوظيفة في حاشية الكردينال اكوافيفا؛ وقضى حيناً في رومه يستزيد من الدرس وينعم بصحبة لوكريزيا، ويهيئ لنفسه جواً من الرعاية والعطف بذكائه وذلاقته ورقة شمائله

على أن هذه الحياة الهادئة المستقرة لم تكن لتروق فتى مضطرم الجوانح مثل كازانوفا، فقد كانت نفسه الوثابة الظمأى إلى المغامرة تحمله إلى آفاق أخرى؛ وكان شبح المرأة يثيره ويلهبه أينما وجد؛ وسرعان ما لفت الأنظار بفضائحه ودسائسه الغرامية وتفاقم الأمر حينما أتهم بإغراء سيدة تمت إلى بعض الأحبار بصلات وثيقة؛ ففقد وظيفته ومركزه مرة أخرى،

ورأى نفسه مرغماً على مغادرة رومه فغادرها إلى قسطنطينية يحدوه دائماً ظمأ المغامرة وتدفعه طلعة التجوال

ثم عاد إلى البندقية ولكن عاد إليها في ثياب ضابط. ذلك أنه مر في طريقه بالمعسكرات النمسوية والأسبانية، وحصل على ترخيص بالانتظام في سلك الجيش، وقدر أنه يستطيع أن يخلق له في ظل هذا الثوب حياة جديدة، ولكنه لم يحرز ترقية نظراً لسوء سلوكه، فخلع ثوبه العسكري واشتغل مدى حين كاتباً في مكتب محام، ولكنه لم يسكن طويلاً إلى هذا المنصب الوضيع؛ وأخيرا ذكر أنه يستطيع العزف على

القيثارة مذ كان صبياً يدرس في بادوا، فانتظم عازفاً في إحدى الفرق المتواضعة؛ وفي ذات ليلة تعرف بسيد كبير وشيخ سابق يدعى براجادين في حفلة كان يعزف فيها، وقدر أن أصيب هذا الشيخ في نفس الليلة بنوبة صرع، وكان كازانوفا إلى جانبه في قاربه، فهرع إلى غوثه واستدعى له طبيباً، ولبث يعنى به حتى شفى، فعرف له براجادين هذه اليد، وقربه إليه وأنزله بقصره الفخم وأجرى عليه النفقة الواسعة، واستطاع كازانوفا في نفس الوقت أن يؤثر في مضيفه بمزاعمه في معرفة الغيب وضروب السحر، وأن يكسب ثقته، وأن يعود بفضل رعايته فيغزو ذلك المجتمع الرفيع الذي أقصي عنه مدى حين

(للبحث بقية)

(النقل ممنوع)

محمد عبد الله عنان

عشر كلمات

مهداة إلى (الأستاذ الزيات)

للأستاذ علي الطنطاوي

- 1 -

قال الله تعالى: (يا أيها الّذينَ آمنوا اصبروا وصابروا) (ولنَبْلُوَنّكم بشيء من الخوفِ والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، وبشّر الصابرين). (ولنَبْلونكم حتى نعلَم المجاهدين منكم والصابرين). (واستعينوا بالصبر والصلاة إنّ الله مع الصابرين) (إنما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب)

- 2 -

قال أبو سنان: دفنت ابني سناناً، وأبو طلحة الخولاني جالس على شفير القبر، فلما فرغت قال: ألا أبشرك؟ قلت: بلى. قال: حدثني أبو موسى الأشعري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم، فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم، فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنّة وسموه بيت الحمد

وعن أنس قال: اشتكى ابن لأبي طلحة فمات وأبو طلحة خارج ولم يعلم، فلما رأت امرأته أنه قد مات هيأت شيئاً ونحّته في جانب البيت، فلما جاء أبو طلحة، قال: كيف الغلام؟ قالت قد هدأت نفسه، وأرجو أن يكون قد استراح؛ فظنّ أبو طلحة أنها صادقة، ثم قربت له العشاء، ووطّأت له الفراش، فلما أصبح اغتسل، فلما أراد أن يخرج أعلمته بموت الغلام، فصلى مع النبي صلى الله عليه وسلم ثم أخبره، فقال: لعّله أن يبارك لكما في ليلتكما، فجاءهما تسعة أولاد كلهم قرءوا القرآن

- 3 -

قال محمد بن خلف: كان لإبراهيم الحربي ابن، وكان له إحدى عشرة سنة، قد حفظ القرآن، ولقنه من الفقه شيئاً كثيراً، فمات، فجئت أعزيه، فقال لي: كنت اشتهي موته. فقلت: يا أبا اسحق، أنت عالم الدنيا تقول مثل هذا في صبيّ قد أنجب، ولقنته الحديث والفقه؟ قال: نعم،

رأيت في النوم كأن القيامة قد قامت، وكأن صبياناً بأيديهم القلال فيها الماء، يستقبلون الناس يسقونهم، وكأن اليوم حار شديد حره، فقلت لأحدهم: اسقني من هذا الماء، فنظر إليّ فقال: لا، ليس أنت أبي، فقلت: فأيش أنتم؟ قال: نحن الصبيان الذين متنا في دار الدنيا، وخلفنا آباءنا نستقبلهم فنسقيهم الماء، فلهذا تمنيت موته

- 4 -

كتب سعيد بن حميد إلى محمد بن عبد الله: ليس المعزّى على سلوك السبيل التي سلكها الناس من قبله، والمضيّ على السنة التي سنها صالحوا السلف له، وقد بلغني ما حدث من قضاء الله في أم الأمير، فنالني من ألم الرزية، وفاجع المصيبة ما ينال خدمه الذين يخصهم ما خصه من النعم، ويتصرفون معه فيما تناوله الله به من المحن، فأعظم الله للأمير الأجر، واجزل له المثوبة والذخر، ولا أراه في نعمة عنده نقصاً، ووفقه عند النعم للشكر الموجب للمزيد، وعند المحن للصبر المحرز للثواب، إنه هو الكريم الوهاب، ورحم الله الماضية رحمة من رضى سعيه، وجازاه بأحسن عمله، ولو كانت السبل إلى الشخوص إلى باب الأمير سهلة، لكان الله قد أجلّ الأمير عن أن

يعزيه مثلي بالرسول دون اللقاء، وبالكتاب دون الشفاه؛ ولكن الكتاب لقاء من لا سبيل له إلى الحركة، وقبول العذر عمن حيل بينه وبين الواجب

- 5 -

لما حضرت الإسكندر الوفاة كتب إلى أمه أن اصنعي طعاماً ويحضره الناس، ثم تقدمي إليهم ألا يأكل منه محزون، ففعلت، فلم يبسط أحد إليه يده، فقالت: مالكم لا تأكلون؟ فقالوا: إنك تقدمت إلينا ألا يأكل منه محزون، وليس منا إلا من أصيب بحميم أو قريب. فقالت: مات والله أبني، وما أوصى إليّ بهذا إلا ليعزيني

- 6 -

كتب ابن السماك إلى الرشيد يعزيه عن ابن له: أما بعد، فإن استطعت أن يكون شكرك لله حين قبضه، أكثر من شكرك له حين وهبه فافعل، فإنه حين قبضه أحرز لك هبته، ولو سلم لم تسلم من فتنته، أرأيت حزنك على ذهابه، وتلهفك لفراقه؟ أرضيت الدار لنفسك

فترضاها لأبيك؟ أما هو فقد خلص من الكدر، وبقيت أنت معلقاً بالخطر؛ واعلم أن المصيبة مصيبتان إن جزعت، وإنما هي واحدة إن صبرت، فلا تجمع الأمرين على نفسك

- 7 -

قدم رجل من عبس، ضرير محطوم الوجه على الوليد، فسأله عن سبب ضرّه، فقال بت ليلة في بطن واد ولا أعلم على الأرض عبسياً يزيد ماله على مالي، فطرقنا سيل فأذهب ما كان لي من أهل ومال وولد، إلا صبياً رضيعاً، وبعيراً صعباً، فندّ البعير والصبي معي، فوضعته واتبعت البعير لأحبسه، فما جاوزت إلا ورأس الذئب في بطنه قد أكله، فتركته واتبعت البعير فاستدار ورمحني رمحة حطم بها وجهي، وأذهب عيني. فأصبحت لا ذا مال ولا ذا ولد

فقال الوليد: اذهبوا به إلى عروة ليعلم أن في الناس من هو أعظم بلاء منه، وكان عروة بن الزبير أصيب بابن له وأصابه الداء الخبيث في إحدى رجليه فقطعها، فكان يقول: كانوا أربعة - يعني بنيه - فأبقيت ثلاثة وأخذت واحداً، وكن أربعاً - يعني يديه ورجليه - فأخذت واحدة وأبقيت ثلاثة؛ أحمدك، لئن كنت أخذت لقد أبقيت، ولئن كنت أبقيت لقد عافيت. وشخص إلى المدينة فأتاه الناس يبكون ويتوجعون، فقال: إن كنتم تعدونني للسباق والصراع فقد أودى، وإن كنتم تعدونني للسان والجاه فقد أبقى الله خيراً كثيراً. .

- 8 -

وعزى موسى بن المهدي سليمان بن أبي جعفر عن ابن له فقال: أيسرك وهو بلية وفتنة، ويحزنك وهو صلاة ورحمة؟

وعزّى سهل بن هارون فقال: التهنئة على آجل الثواب، أولى من التعزية على ما حلّ من المصيبة

وقال عبد الله بن الأهتم: مات لي ابن وأنا بمكة، فجزعت عليه جزعاً شديداً، فدخل عليّ ابن جُريج يعزيني، فقال يا أبا محمد، اسلُ صبرا واحتساباً، قبل أن تسلو غفلة ونسياناً

وعزّى عليّ كرم الله وجهه الأشعث عن ابنه، فقال: إن تحزن فقد استحقت ذلك منك الرحم، وإن تصبر فإن في الله خلفاً من كل هالك، مع أنك إن صبرت جرى عليك القدر وأنت مأجور، وإن جزعت جرى عليك القدر وأنت آثم

- 9 -

جزع رجل على ابن له فشكى ذلك إلى الحسن، فقال له: هل كان أبنك يغيب عنك؟ قال: نعم، كان مغيبه عني أكثر من حضوره. قال: فاتركه غائباً، فإنه لم يغب عنك غيبة الأجر لك فيها أعظم من هذه الغيبة

- 10 -

وكتب بعض الكتاب معزياً: لو كان يمسك من أذى يشترى أو يفتدى، رجوت أن أكون غير باخل بما تضن به النفوس، وأن أكون سترا بينك وبين كل ملم ومحذور، فأعظم الله أجرك، وأجزل ذخرك، ولا خذل صبرك، ولا جعل للشيطان حظا فيك ولا سبيلا عليك

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته
علي الطنطاوي
التعليم والحالة الاجتماعية في مصر - 5
للأستاذ إسماعيل مظهر
لقد بلغنا من البحث ذلك المبلغ الذي يهيئ لنا أن نخلص إلى النتائج، فقد شرحنا الأسباب التي أفضت بنا إلى تخريج متعلمين عاطلين لا عمل لهم، ولا بيئة يمكن أن ينتفع فيها بما تعلموا، وصورنا مجمل النتائج الاجتماعية التي تترتب على هذه الحال، وطبقنا النظريات الاجتماعية فاستنبطنا منها صورة لما سوف يكون عليه مجتمعنا في المستقبل القريب والنتائج السيئة التي ستظهر آثارها جلية واضحة في عجزنا عن الاحتفاظ بحملة اجتماعية ثابتة قوية الأركان، وعطفنا من ثم على وصف صورة من أدبنا ووطنيتنا، وعزونا كل النقائص إلى نظرية جديدة محصلها أن الانفصال عن ثقافتنا التقليدية كان سبباً في أن نصبح ككائن حي لا معدة له، يأكل ولا يهضم، فتراكمت في كيانه كل النفايات التي لا تلائم طبعه ولا تتفق ومزاجه، وأن ذلك كان سبباً في ألا تظهر له شخصية خاصة به، وأصبح كلاًّ على غيره بأن فقد استقلاله الذاتي في الحياة

ويجدر بنا بعد ذلك أن نعين مم تتكون الثقافة التقليدية، ليتيسر لنا أن نحدد البحث تحديداً منطقياً مقبولا، فإن لكل ثقافة تقليدية اختصت بها أمة من الأمم مكونات تنتهي إلى أصول بعينها؛ وعندي أن للثقافة التقليدية عنصرين: الأول عنصر عقلي، والثاني عنصر معاشي، وكلاهما موروث؛ فالأول يتكون وراثة من اللغة والدين والتاريخ والأدب والفنون الخ، والثاني يتكون وراثة من كل ما يتعلق بالأحوال المعاشية، وهي في مصر الزراعة وما يتعلق بها من المنتجات، ومن أجل أن يكمل استقلال الفرد استقلالا عملياً في الحياة، ينبغي أن يتجه تنشيئه إلى أصل أساسي، وبالأحرى إلى سياسة عملية ترمي إلى وصله بالعنصرين وصلا وثيقاً، حتى يستطيع أن يمثل جميع ما يلقح به من مقتضيات الثقافة الحديثة، فيكفيها على حسب ما تتطلبه حاجات ثقافته التقليدية، وأن ينفي عن جسمه كل ما هو غير ملائم له، فيضل سليما؛ شأن كائن اتصف بكل ما تمده به حيوية مكتملة من الصفات الضرورية للحياة، وتتكافأ في كيانه كل الأعمال المنظمة التي ترجع إلى قدرة أعضائه على تنظيم وظائفها المتبادلة تنظيما دقيقاً يساعد الطبيعة على أن تفسح له في الحياة مركزاً جديراً بما يتصف به من صفات، وبما له من مقدرة على الاستقلال بذاته

تتصل مصر بثقافتين من أمجد الثقافات التي خلفها النوع الإنساني: ثقافة العرب: ديناً ولغة؛ وثقافة المصريين: فناً وحياة؛ ولاشك في أن الثقافتين تمتزجان الآن في المصريين امتزاجاً عظيما، حتى ليتعين علينا أن نقول إن ما نعني بالثقافة التقليدية ينحصر فيما ينتج مزيج الثقافتين القديمتين من حالات تشعر بأن ماضينا مكون منها، وأن دمنا ملقح بها، وأن تصوراتنا وأخيلتنا ومشاعرنا وجماع ما فينا من صفات إنما تنعكس عنها وتنبعث منها. وكذلك إذا قلنا (المصرية) فإنا لا نعني بها شيئاً إلا مزيج تينك الثقافتين المجيدتين اللتين كونتا لنا على مرور العصور تراثاً قوياً نستند إليه، ودعامة مثلى لمجد ينتظرنا إذا نحن استوحيناهما واسترشدنا بوحيهما، واتخذناهما أساسا نقيم عليه لمستقبلنا، ولم نعزف عنهما شأننا الآن

وإذن يكون لنا من ثقافتنا التقليدية ناحيتان: الأولى ثقافة تزودنا بها اللغة العربية والدين الإسلامي؛ وهذه الناحية تكون أكثر ما فينا من نزعات الأدب والعلم؛ والثانية ثقافة تزودنا بها مصر لقديمة؛ وهذه بدورها تكون متجهنا الفني والمعاشي، ومنهما معا يتكون ذلك التراث الخالد الذي ندعوه ثقافة المصرين التقليدية

ولن يكون هذا البحث كاملا إلا إذا عرفنا قيمة اتصالنا بهذه الثقافة ومقدار ما نحتاج إليها في تكوين نهضتنا الحديثة تكوينا نضمن معه الثمرة العملية التي ترجى من جيل جديد قادر على الكفاح في الحياة، والعمل المنتج الذي يعيننا على إقرار الحالات الاجتماعية على أساس ثابت، وآمل أن أكون قد أفلحت بعض الشيء في تصوير ذلك في سياق هذا البحث

لا ريبة في أن التعليم العام هو الأداة التي تمهد لنا سبيل الاتصال بثقافتنا، ولقد وضح لنا حتى الآن أن السياسة التي جرى عليها التعليم في بلادنا قد أضعفت من وسائل هذه الأداة أضعافا ظهر أثره جليا في كل مرافقنا، بل وفي كل نواحي حياتنا عقلية

ومادية
عمد الأوربيون منذ عصر النهضة الأدبية الحديثة إلى الاتصال بثقافتين أوربيتين كانتا العماد الأول والسنادة العظمى في تلك النهضة. عمدوا إلى ثقافة اليونان وثقافة الرومان، حتى لقد غالوا في ذلك باتخاذ اللغة اللاتينية لغة رسمية في العلم وفي الأدب وفي الفن، فأحيوا بذلك ثقافتين لم يكن لهم مناص من إحيائهما لتكونا الوصلة بينهم وبين ماض صبغ ثقافته حوض البحر المتوسط قروناً بصبغة خاصة ولون خاص؛ ولا تزال جامعات أوربا
حتى اليوم تعنى العناية كلها بتلقيح عقول الناشئين بتراث الثقافتين معاً، بل وتجعل درس اللغتين اليونانية واللاتينية أصلا من أصول التثقيف العالي، فلم كان ذلك؟ ولأي من الأسباب الحيوية التي شعر بها الأوربيون في بدء نهضتهم ترجع هذه الظاهرة؟ إنها ترجع كما قلنا إلى أن الثقافة التقليدية هي الأصل الذي يجب أن يضل ثابتا في بناء الأمم الأدبي والاجتماعي، ليكون ملقحا للآراء والنظريات وضروب الثقافات الدخيلة، احتفاظا بالطابع الأصيل في الأمة، ذلك الطابع الذي هو جزء من كيانها وقطعة من وجودها، وليكون في الوقت ذاته العدة في تمثيل ما يتصل بثقافة الأمة من الثقافات المنتحلة غير الأصيلة، وتكييفها تكييفا يتفق ونزعاتها ومشاعرها وأخيلتها، وعلى الجملة يتفق وثقافتها التقليدية. فهل اتبعنا في نهضتنا هذا السبيل القويم؟ وهل كفل لنا التعليم الوصول إلى هذه الغايات العليا؟
كلاَّ. لم يكفل لنا التعليم شيئاً من هذا. وأقصد به التعليم بناحيته: الناحية التي تمثل وراثتنا عن العرب لغة ودينا، وأعني بها الأزهر، فإنه لم يلقح بشيء من الثقافات الحديثة التي يجب أن يلقح بها لتكون له بمثابة الدم الجديد يجري في العروق القديمة. وكذلك لم تعن الناحية التي تمثل ثقافتنا الدخيلة: أي الثقافة الأوربية وأعني بها ناحية التعليم الزمني، بأن تكوّن فينا تلك الفطرة التي تصلنا بثقافتنا التقليدية لتكون معملا حديثاً يتحلل فيه ما يصلنا عن أوربا، ويخرج منها مصبوغاً بصبغة مصرية أصيلة. ومثل الأزهر في ذلك كمثل كائن حي هَضمَ ولم يأكل، ومثل التعليم الزمني كمثل كائن حي أكل ولم يهضم. فناحية جائعة وناحية متخومة
لقد ظل اتصال الأزهر بذلك الجزء الذي يمثله من ثقافتنا التقليدية غير مكيف بمقتضيات العصور والحالات التي قامت خلالها وهو أقل تكيفاً بمقتضيات هذا العصر منه بمقتضيات كل عصر مضى. أما إذا كانت كلمة الثقافة تدل على تكييف الذهن تكييفاً تاريخياً أول شيء - ونقصد بالتكييف التاريخي خلق تصورات جديدة من تاريخ الأمم القديمة - فما من شك إذن في أن الأزهر لم يتصل بالثقافة التقليدية من ناحيتها التي تخلق هذا التصور، وإنما اتصل بناحية من الثقافة التقليدية صدت التصوّرات عن الابتعاث في سبيل الابتكار. وكذلك ظل تعليمنا الزمني بعيداً عن الاتصال بثقافتنا التقليدية من جميع نواحيها تقريباً. ومن هنا
ذلك الصدع المتنائي الذي نلحظه قائما بين الناحيتين
ولقد يخيل إلى أن ما مضينا فيه من بحث هذه الناحية كاف للبيان عما نقصده من ضرورة الاتصال بثقافتنا التقليدية من الوجهة العقلية. أما الوجهة الفنية المعاشية، وهي الناحية التي لها الأثر الأكبر في علاج الحالات الاجتماعية التي قامت حفافينا من الناحية الاقتصادية، فتلك ما سوف أصور كيفية الاتصال بها تصوراً عملياً لأن ذلك هو الغرض الأول من بحثنا هذا
إذا كنا ما قلنا صحيحاً من أن البطالة في مصر والتعليم أمران متصلان أشد الاتصال، باعتبار أن أحدهما مرض والثاني علاج، فالواجب يقضي علينا بعد أن أظهرنا أوجه الاتصال أن نبين عن الطريق العملي الذي يجعل العلاج ناجعاً في القضاء على الداء.
ولما كانت ثقافتنا التقليدية من الوجهة المعاشية هي الزراعة تحتم علينا بحكم الضرورة أن ننقل درجتي التعليم الأوليين، أي الابتدائي والثانوي، وهما الدرجتان التكوينيتان في مراحل التعليم، من المدن إلى القرى، وأن نقيمهما على سياسة تختلف اختلافاً تاماً عن السياسة التي يجريان عليها الآن
تجري سياسة التعليم الآن في هاتين المرحلتين على أساس نظري بعيد عن أن يجعل لنا أي اتصال بثقافتنا التقليدية، من وجهتيها العقلية والمعاشية. وإني لا أكون مغالياً إذا قلت إن هذه السياسة لا تصلنا بثقافة أوربا أيضاً بحيث تجعلنا قادرين على فهم ما ننقل

منها فهماً صحيحاً مفيداً. وما قولك في شاب يخرج من التعليم الثانوي جاهلاً بلغته العربية وأصولها وآدابها غير متصل بآداب دينه، غير عارف بشيء من تاريخ بلاده، وبالأحرى من تاريخ العرب أو تاريخ مصر، عاجز عن التعبير تعبيراً صحيحاً بأي من اللغتين الأوربيتين اللتين يتلقاهما في مراحل ذلك التعليم؟ أضف إلى ذلك أنه بجانب هذا يخرج من التعليم الثانوي غير متصل بشيء من ثقافة بلاده التقليدية من الوجهة المعاشية، غير متصل بطبيعة الأرض التي أنشأته أو بطرق استغلالها مشحون الذهن بنظريات وأوهام يتعذر معها أن يعايش الفلاح وأن يدرك شيئاً من سر حياته وتقاليده وخطراته ونفسيته. فكأننا بهذا التعليم نخلق من حوله جواً مصطنعا وبيئة عقلية غريبة عن طبعه؛ فيصبح بذلك أداة عاطلة في جسم الاجتماع وبزرة حية للتبرم من الحالات القائمة من حوله في مرباه، بل

ومنشأ للقلق ومرتعا لغرس الأفكار المتطرفة الخاطئة؛ وعلى الجملة يكون موضعا خصبا لغرس بذور الشر والفساد، والعمل على قلب النظم الاجتماعية طمعاً في الحصول على نظم تلائم كفاياته وتتفق ومؤهلاته التي أهله لها التعليم. ذلك بأن كل عقلية لها تكوين خاص تنشد من طريقه دائماً البيئة التي ترضيها، وعجز المتعلم العاطل عن الإنتاج إنما يحمله بمقتضى موحيات عقله الباطن على أن يعمل على تكوين البيئة التي تلائمه متخذاً من النظم الاجتماعية التي نشأ فيها مادة يجرب فيها مقدار ما في نفسه من قوة التحليل، لا من قوة التشييد، على خلق البيئة التي ترضيه، والنظم التي توائم عقليته وكفاياته

إن الخطوة الأولى التي ندعو إليها وهي نقل درجتي التعليم الأولين من المدن إلى القرى، لخطوة ضرورية في علاج سياسة التعليم، وهي الخطوة الأساسية في وصل التعليم بثقافة البلاد التقليدية من الوجهة المعاشية. أما الخطوة الثانية فتنحصر في إقامة مدارس الحقول، فتشيد المدرسة على أرض فسيحة تكفي لأن تكون ميداناً يتعلم فيه الطلاب طرق الزراعة العلمية على القواعد الحديثة، ويجب مع هذا أن تلغى الشهادة الابتدائية ويكتفى بشهادة التعليم الثانوي، وأن يبدأ الطالب حياته التعليمية من الثامنة، ويفرغ من تعليمه الثانوي بعد عشرين سنة، فيخرج من المدرسة وله من العمر ثماني عشرة سنة أو عشرون سنة. فإذا أراد أن يتخصص بعد ذلك في التعليم العالي فله ذلك ولكن بعد أن يكون قد اتصل بثقافة بلاده التقليدية، وقامت معلوماته على أساس عملي رشيد، يكون إليه مرد رزقه إذا تخصص وعجز عن كسب رزقه الحلال.

هذا هيكل من الرأي يحتاج إلى شرح وجيز. فأننا لا نعني أن تعليم الطلاب في تلك المدارس الزراعة العملية يجب ألا يصل الطالب بالناحية النظرية، وإنما نعني أن يكون أساس التعليم فيها الزراعة العملية وما يتصل بها من العلوم، وبجانب ذلك تعليم نظري قائم في أول الأمر على الاتصال بثقافة المصريين التقليدية من الوجهة العقلية، مع العناية بأمر اللغات الأوربية عناية كبرى حتى يتيسر لنا الاتصال بثقافة العصر اتصالاً وثيقاً صحيحاً

أضف إلى ذلك أن الطالب ينبغي أن يلقن كل ما يتصل بالإنتاج الصناعي من الوجهة الزراعية، فيخرج ملماً بطائفة من الصناعات المتصلة بمحصولات بلاده الزراعية عارفاً بسرها ووجهة الانتفاع بها. وإني لن أغلي إذا قلت إن كثيراً من الذين ينجحون من أهل أوربا في بلادنا أكثر اتصالا بثقافة بلادنا التقليدية من الوجهة المعاشية من الطالب المتخرج في كلية عليا من كلياتنا. وفي هذا سر نجاحه العملي وسر عطل شبابنا عن العمل. ولهذا يتحتم علينا أن ندعو إلى نشر الصناعات، ولكن الصناعات التي تتصل أو شيء بمنتوجاتنا الزراعية، وأن نصدف عن غيرها لأنها لا تفيدنا شيئاً في حياتنا المعاشية أو تثبيت حالاتنا الاجتماعية المرتجة الشاذة. وبخاصة إذا وعينا أن دور التعليم على اختلاف نواحيها تخرج كل عام عدداً من المتعلمين تعليما غير عملي زائداً عن حاجة البلاد.

وإنما يجب أن يتجه التعليم في الحقول إلى غاية أخلاقية، محصلها أن يغرس في طبيعة المتعلمين تصور جديد في شرف المهنة التقليدية التي ورثناها عن أسلافنا، ألا وهي الزراعة. فإن التلميذ يجب أن يضع يده في كل عمل يمكن أن يؤديه الفلاح بنفسه، وأن يتصل من طريق عضلاته بكل ما تتطلب مهنة الزراعة من أعمال

جسمانية، وأنه لا يرى في ذلك شيئاً خادشاً لعزته أو مذلا لنفسه
أورثتنا الحكم التركي المشؤوم عادة احتقار الفلاح، لأن كلمة (فلاح) كانت توازي عند التركي أحط ألفاظ الشتم وأشنع كلمات السباب. ولطول الأمد الذي اعتدنا أن نسمع فيه هذه الكلمة مؤدية ذلك المعنى غرس في طبيعة المصريين أنفسهم، بطريق التكرار ومستوعيات العقل الباطن، ميل إلى احتقار الفلاح واحتقار مهنته، والاعتقاد بأن العمل اليدوي في الزراعة إنما هو عقاب نفسي مرهق للنفس خادش للذة. وأنت ترى أن الأعراب في مصر قد انتحلوا هذه العادة. فإنك إذا سألت أعرابياً أفلاح أنت؟ أجابك على الفور: (كلا! أنا عربي!) ولكن بنبرات تدل على أنه يعتبر الكلمة اعتداء على مكانته السامية، وقد يكون من خشاش الناس ومن ذؤبان العرب، مهلهل الثياب قذر المنظر والمخبر.
ولم يقف الأمر عند هذا، بل إنك تجد أن الفلاح إذا قضى خدمته العسكرية وسرح من الجيش أنف أن يعود إلى الحقل أو أن يحمل المحراث أو يقود الماشية؛ فإذا عجز عن أن يكون شرطياً، قضى وقته في القرية عاطلا أو محترفاً حرفة أخرى غير الزراعة، فتجده نجاراً أو حداداً لا يملك قوت يومه. وقد يتطرف بعضهم في احتقار مهنة آبائه فيغشى المجالس عازفاً على قيثارة، لأنه كان في موسيقى الجيش، مستجدياً بها، كأنما هو يعتقد أن الاستجداء بالعزف على قيثارة أشرف من العمل في الحقول.
ولاشك في أن هذه الظاهرة قد أورثت نقصا نفسيا يمكن تعليله علمياً، ولكن ليس هنا مكان إيضاحه. ولكن ذلك لا يحول دون القول بأن هذه الظاهرة من السهل علاجها بأن نعود أولادنا الاعتقاد بشرف المهنة التي تربي جسومهم، وعليها قامت مدينتهم منذ أقدم العصور، على أن نفهمهم أولاً أن لهم مدنية وماضيا جديرين بالاحترام
والمحصل أننا لن نخلص من نتائج البطالة إلا بالالتجاء إلى إقامة سياسة التعليم على قواعد جديدة أساسها الأول الرجوع إلى ثقافتنا التقليدية، فنخرج رجالا مستقلين بأنفسهم يعرفون كيف يرجعون إلى حضن أمهم الأولى (مصر) إذا أرادوا الحياة سعيدة هنية. ومن أجل أن نصل إلى هذه النتيجة ينبغي لنا أن ننتحي أسلوباً معيناً ينحصر في تنفيذ الآتي:
أولاً - جعل مدة التعليمين الابتدائي والثانوي عشر سنوات يمتزج فيها التعليم النظري بالتعليم العملي الزراعي، وأن يغرس في الطلاب روح الاعتقاد بشرف مهنة آبائهم التقليدية، وأن يقترن هذا التعليم بتلقين الصناعات الزراعية وبخاصة ما يتعلق بالزراعة العملية منها
ثانياً - درس تاريخ العرب والمصريين درساً تحليلياً وافياً
ثالثاً - درس مبادئ العلوم والآداب العامة، وهي الجهة التي تلقح بها عقولنا من الثقافة الحديثة
رابعاً - درس آداب العرب ومبادئ الدين العليا.
خامساً - درس عقائد المصريين القدماء وطرق معيشتهم وآثارهم وأعيادهم، وعلى الجملة كل ما يتعلق بحياة الجماعة في مصر القديمة
وهنالك بجانب هذا أشياء يجب أن يهيأ الناشئ بمعرفتها ولكنها جميعاً تفاريع عمل هذه الأصول فلا محل لذكرها
فإذا تخرج الطالب وله من العمر ثماني عشرة سنة أو عشرون أصبح على الحكومة له واجباً تؤديه، هو أن تمنحه قطعة من أرضها المملوكة لها يؤدي لها ثمناً قليلاً على أقساط طويلة، وأن تمده برأس مال إن احتاج إليه يسدد مع ثمن الأرض ليكون عونه على إعداد عدته لحياة العمل والكفاح
هذا طريق الخلاص، وهو وحده طريق القضاء على البطالة، وإخراج جيل جديد منشَّأٍ على
طرق عملية، جيل مكافح عامل خال من آثار الأمراض الاجتماعية، جيل يشعر بأنه مستقل في الحياة وأن له عزة الرجولة وشرف الانتساب إلى مصر الخالدة، جيل، هو جيل الاستقلال الحقيقي والعمل لمجد النيل
إسماعيل مظهر

قصة المكروب
كيف كشفه رجاله
ترجمة الدكتور أحمد زكي
وكيل كلية العلوم
الدفتريا
بين واجد سمها الفرنسيّ، وكاشف ترياقها الألماني
- 1 -
في عام 1888 ألقى بستور من كفه المشارط والأنابيب، ونفض يده من الأبحاث، فقام تلميذه أميل رو فالتقط الذي ألقاه أستاذه، وغمر يده في الذي ترك سيده، واتخذ لنفسه بحثاً مستقلاً. فلم يمض قليل من الزمن حتى اكتشف سّماً غريباً يتحلّب من بَشِلاّت الدفتريا سمّاً تقتل الأوقية المركزة منه خمسة وسبعين ألف كلب كبير وبعد هذا بسنوات قليلة، بينا كوخ يخفّض من رأسه نحت وابل الشتائم واللعنات التي صبها عليه من كانوا آمنوا بعلاج سلّه المزعوم ثم خُدِعوا فيه وجَنَوا منه الثُّكْل والأحزان، قام أحد تلاميذه، وكان شاعراً، فخفّف من إخفاق أستاذه كوخ بأن كشف في دم الخنازير الغينية عن مادة غريبة إذا هي التقت بسم الدفتريا ذهبت بشره وجعلته بَرداً على الناس وسلاما، وكان اسم هذا الشاعر العالم أميل بارنج
اكتشف أميل الفرنسي سم هذا الداء، واكتشف أميل الألماني ترياقه، فأحيا الأميلان الأمل في أنفس الناس بعد أن أضاعه كوخ بنكبته الكبرى؛ فعادوا ولو إلى حين يرجون أن تصبح المكروبات أصدقاء الإنسان بعد أن كانت أعداءه، وأن تصير لُعبات لا تضر، يتَلَّهى بها البُحاث ويتسلون من سأم وعناء
قام هذان الشابان بتجاربَ أي تجاربَ لاستقصاء هذا الداء؛ قاما بها في هلع مجنونٍ ليخلّصوا أرواح البرايا. شقا طريقهما إلى غايتهما في مجزرة لم تسمع الدنيا بمثلها. جزرا فيها عدداً لا يحصى من الخنازير الغينية، جزراها ليخلّصا من الموت عدداً أكبر لا
يحصى من الأطفال المساكين. ففي الأمساء كانت معاملهم كميادين القتال في الأزمان الخوالي، حين كان الجند تُبقر بطونهم وتقطّع أوداجهم بالحراب تارة والنبال تارة أخرى. ضرب رو بأظفاره كالغول في أطحلة الموتى من الأطفال، ودار بارنج بين الدماء في ظلام من الجهل دامس حتى اصطدم أنفه بباب انفتح له عن حقائق وضّاءة باهرة ما كانت لتخطر على بال الإلهة
ولكنهما دفعا عن كل تجربة ناجحة ثمناً غالياً: ألفَ تجربة فاشلة، ولكن مع هذا، وبرغم هذا، قد اكتشفا الترياق
وما كان لهما أن يكتشفاه لولا أن سبقهما كشفٌ متواضع قام به فردريك لُفلار صياد المكروب الذي حمل على شفته شارباً ألمانيا حربيا علا واستطال حتى حجب بصره، فكان إذا نظر في المجهر نحّاه عن عينه؛ وكان يعمل لُفلار إلى يمين أستاذه كوخ في زمن البطولة الأولى حين كان يتصيد مكروب السل. ففي أوائل ذلك العقد التاسع من القرن الغابر كانت وطأة الدفتريا شديدة جداً، والدفتيريا داء تشتد وطأته وتلين في القرن الواحد مراراً. وامتلأت في المستشفيات عنابر الأطفال بالمرضى، وعلت أصوات أهليهم بنحيب لا فائدةَ منه تعود ولا نفع يُرجى، وخرجت من تلك الحلوق الصغيرة سعلة تصحبها قرقرة تنذر بأن الاختناق قريب، وتراءت وجوههم الصغيرة الزرقاء في وساداتهم البيضاء وقد ازرقّت من فعل اليد الخفية التي عصرت حلوقهم وضغطت على قلوبهم. ومشى الأطباء في هذه الأروقة يسترون يأس القلوب ببشاشة الوجوه، وساروا من سرير إلى سرير لا حول لهم ولا قّوة إلا أن يدسّوا في حلق طفل مختنق أنبوبة في هذا الغشاء الذي يسد عليه منفذ الهواء يحاولون بذلك أن يفتحوا له منفذاً إلى رئتيه
وقذفت خمسة أسرة من كل عشرة بأحمالها إلى رواق الأموات. وكان في أسفل الدار، وكان به لُفلار يعمل بجد لا يفتر، وهمة لا تضعف. كان يغلي مشارط، ويحمي في النار أسلاك البلاتين، ويدخلها إلى هذه الحلوق الجامدة من تلك الأجسام الهامدة التي أخفق الأطباء في طلب الحياة لها؛ ثم يخرجها منها وقد حملت مادة شهباء، فإما أن يدخلها في أنابيب رفيعة يسدها بنتافات من القطن بيضاء، وإما أن يضع عليها الأصباغ

ثم ينظرها بالمجهر فيريه بَشِلاّتغريبة منتفخة الأطراف، وقد تنقّطت وتخططت بصبغته الجميلة الزرقاء، وكشف عن
هذه البشلة في الحلوق جميعها، وأسرع يطلع أستاذه كوخ عليها
لاشك أن كوخ أخذ بيد لفلار أخذا وهو يكشف عن هذه البشلة. وكأني بك تسمع كوخ
يقول له: (لا فائدة من النط إلى استنتاجات غير ناضجة، يجب عليك أول شيء أن
تربيِّ هذا المكروب نقيا، ثم عليك بعد ذلك أن تحقنه في حيوانات، فإذا هي أصيبت
بمرض يشبه دفتريا الإنسان تماما، إذن. . . .) كيف كان يضل لفلار وإلى جانبه هذا
المتحذلق الشديد في حذلقته، هذا الحذر الغالي في حذره، طَلاّبُ الحقيقة وسيد قنّاص
المكروب؟ كيف كان يضل لفلار وإلى جانبه هذا الداهية ينظر إليه ازورارا من نظارته
التي ما كانت تفارق عينيه أبدا؟
وامتحن لفلار جثة طفل بعد أخرى، وفتش في كل جزء من أجزائها وهي طريحة تبعث
الأسى في القلوب، وصبغ مائة سليخة مختلفة من كل عضو من أعضائها، ثم حاول أن
يربيِّ هذه البشلات المخططة نقيّة، وأفلح في ذلك سريعا، ولكنه لم يجد هذه البشلات
حيثما بحث في الأجساد إلا في الغشاء الذي بحلوقها، ودائما في هذه الحلوق، إلا طفل
أو طفلين، كان يقع على هذه البشلات المنتفخة الأطراف، فتفكّر لفلار: (كيف تأتى
لهذه المكروبات القلائل التي لا تحلّ من الجسم إلا في الحلق، كيف تأتىَّ لها وهي لا
تفارق مكانها أن تقتل الطفل بمثل هذه السرعة؟ ولكن لعل الأولى بي أن أتبع ما قال
السيد كوخ). وبدأ يحقن زريعاته من البشلات النقية في الأرانب في قصباتها الهوائية،
وفي الخنازير الغينية تحت جلودها. وما أسرع ما ماتت هذه الحيوانات. ماتت في
يومين أو ثلاثة كما يموت الطفل أو كانت أسبق إلى الموت. ثم أخذ يبحث عن
المكروبات في أجسام هذه الحيوانات فلم يجدها إلا حيث دخلت الحقنة فحسب. . . . .
وأحيانا أعوزه وجودها حتى هنالك، إلا أن تكون وحدات منها قليلة ضعيفة لا تقوى
على الإضرار ببرغوث صغير.
وتساءل لفلار: كيف أن قليلا من بشلات تحل من الجسم في ركن قصِيّ منه، كيف أنها
في قلتها وعزلتها تستطيع أن تصرع هذا الجسم وهو في عظمه أكبر منها ملايين
المرات
وكان لفلار باحثاً أميناً لا يفوقه في أمانته من البُحّاث أحد. وكان دقيقاً بطبعه فكانت
تواتيه الدقة بغير عناء. وكان أقل الرجال حظا من الخيال الجامح فلم يتدخل شيء منه
في نتائجه الدقيقة فيزينها - أم هو يفسدها - بالذي ليس منها. وجلس يوما إلى مكتبه
وكتب رسالة
علمية تتضمن خلاصة بحثه، فكانت مقالة متواضعة، باردة، لا تؤمل قارئها في شيء،
ولا تحمسه لأمر. كانت على نقيض ما يكتب المحامون. وجادل فيها أمر هذه البشلات،
أهي سبب الدفتريا وجرثومتها أم هي غير ذلك. ذكر كل الحقائق التي قد تؤدي إلى أنها
جرثومتها حقا، وذكر كل الحقائق التي قد تؤدي إلى نقيض ذلك. تشبث بالأمانة تشبثا
كبيراً، وكتب كل ما قد ينفي أن تكون هذه البشلة سبب الداء: وكأني بك تسمعه إذ
يحدث نفسه وهو يكتب فيقول: (قد تكون هذه المكروبة هي السبب، ولكني في عدد
قليل من جثث الأطفال لم أستطع أن أجدها. . . والحيوانات التي حقنتها لم يصبها
شلل كالذي يصيب الأطفال. . . والحقيقة التي هي أشد مناقضة لي هي أني وجدت
نفس هذه المكروبة - وهي تقتل الأرنب والخنزير الغينيّ - في حلق طفل ليس عليه
من أعراض الدفتريا شيء)
وغالى في أمانته فلم يقدر بحثه الجميل الذي أتاه حق قدره، ولكنه في أخر رسالته
كتب فقرة أوحى فيها بحل المعضل وفك المشكل وإيضاح السبيل إلى سر هذا الداء،
إيضاح السبيل إلى غيره لا إلى نفسه، إلى الفرنسي رو وإلى الألماني بارنج اللذين
جاءا من بعده وكانا أشد منه خيالاً وأنفذ به في المشكلات المعضلات بصيرة. غريب
أمر لفلار! عرف السبيل الذي يسلكه لبلوغ الغاية، ولكن بدل أن يتحرك هو ويقوم
على قدميه فيسلكها، إذا به يدل غيره فيفوز سواه بالحمد دونه. قال لفلار: (إن هذه
البشلة تبقى على رقعة قليلة لا تخرج عنها في غشاءٍ ميّت في حلق الطفل المريض.
وتبقى كذلك في مساحة ضيقة لا تعدوها تحت جلد الخنزير الغيني بعد حقنه. فهي لا
تتكاثر فتصير ملايين وتعم الجسم كما نتوقع ولكنها مع ذلك تقتل حيث هي من مكانها!

فكيف يكون هذا؟ لابد أنها تصنع سّما يخرج عنها فيسير وحده في الجسم حتى يصل إلى موضع منه قتّال. فلابد من التفتيش عن هذا السمّ ولابد من وجوده. فتشوا عنه في جثث الأطفال، أو فتشوا عنه في أجسام الخنازير الغينية التي قتلها الداء. نعم. نعم. أو فتشوا عنه في الحساء الذي تنموا فيه البشلة وتربو. . . إن الرجل الذي يكشف عن هذا السم سيثبت ما عجزت أنا عن إثباته)

هذا هو الحلم الذي أرآه لفلار؛ هذه هي الرجية التي ارتجاها؛ هذا هو المفتاح الذي وضعه لفلار في كف رو، والذي فتح به رو ما استغلق على لفلار

في العدد القادم: كيف أكتشف رو سم الدفتريا

أحمد زكي

الحياة الأدبية في لبنان

بقلم سامي الشقيفي

كتب الأستاذ علي الطنطاوي في عدد سلف من (الرسالة) عن الحياة الأدبية في دمشق، وفي عدد آخر تكلم الأستاذ عبد الوهاب الأمين عن الحياة الأدبية في العراق، فكان من الإنصاف لإتمام الفائدة أن نتكلم عن الحياة الأدبية في لبنان

ظواهر الحركة الأدبية في لبنان راكدة كما في سوريا والعراق. فالصحافة الأدبية تكاد تكون معدومة، أما التأليف والنشر فتمر الأسابيع والأشهر دون أن تخرج المطابع كتابا نفيسا؛ وجمهور الشباب معرض عن المنتوجات الأدبية العربية - الواقع أن إقبال الشباب في الأقطار العربية على الثقافة الأجنبية (وان يكن نفخ روحاً جديداً في الأدب العربي) قد أضر كثيرا بالحركة الأدبية خصوصاً في لبنان. فشبابنا المثقف حائر بين الأدب الغربي (العالمي حقاً) والأدب العربي الناقص بازائه. يقبل على الأول لأنه يرضي ذوقه وثقافته، ويجذبه إلى الأدب العربي نوع من الشعور الوطني. في مصر والعراق وسوريا - وهي بلدان مسلمة - يتعلم الشبان القرآن منذ صغرهم فينشئون وفي نفوسهم ملكة عربية لا تستطيع الآداب الأجنبية أن تطغي عليها. وليس الأمر كذلك في لبنان. ولولا البكالورية اللبنانية التي توجب على الطلاب درس الأدب العربي لأهمله هذا النشء الجديد دون ما تبكيت

وقد كانت الحركة الأدبية عندنا في لبنان إلى الأمس القريب تنجلي بقصيدة رثاء أو مدح أو مقالة شكوى أو كتاب لا يتعدى موضوعه المبتذل الفارغ؛ ولكن من الإنصاف أن نقول إن البعض من أدبائنا نشروا كتباً لا بأس بها وإن كان لا يرضى عنها الذوق الأدبي السائد اليوم، ومن هؤلاء الأدباء أمين الريحاني صاحب (ملوك العرب - ابن سعود - فيصل الأول - قلب العراق)، وعمر الفاخوري صاحب (غاندي - أناتول فرانس)، ولبيب الرياشي وجميل بيهم، وميخائيل نعيمه مؤلف (المراحل - جبران)، وسلمى صائغ كاتبة (النسمات) ونظيره زين الدين مؤلفة (السفور والحجاب)

وقد أثر على النشاط الأدبي عندنا المجتمعات التي كانت تعقدها سيدات على جانب وافر من العلم والذكاء، وهذه المجتمعات تشبه في أكثر النواحي صالونات أديبات فرنسا في

القرن التاسع عشر. ومن أشهر سيداتنا الأديبات سلمى صائغ وحبوبة حداد وماري يني وجوليا طعمه. أما الصحافة التي يتجلى فيها النشاط الأدبي فقد كانت المجلات النسائية العديدة كالمرأة الجديدة والحياة الجديدة ومينرفا والخدر - وكان الاعتقاد السائد بين الأدباء أن المثل الأعلى في الأدب هو أدب القرن السابع عشر الفرنسي (وإن كانوا لم يطلعوا عليه)؛ والمتطرفون منهم كانوا يقتبسون من العصر الرومانتيكي - أما اليوم وقد نضج هذا الفوج من الأدباء الذين ذكرناهم ولا يرجى منهم أفضل مما أنتجوا، فقد هدمت حركتهم الأدبية وتوقفت مجلاتهم وأفسحوا المجال لغيرهم. فعندنا الآن فوج من الأدباء الشبان (لا يزالون زغب الحواصل فلم يطيروا بعد في الأجواء) كما قال أحد الكتاب، إلا أنهم أثروا على الأدب في لبنان. منهم عصبة العشرة التي بثت روحاً جديداً في الأدب ووجهت خطواته على غرار الأدب الغربي الحديث؛ ولكن حركتها ما عتمت أن سكنت ولما تؤد رسالتها على الوجه الأكمل الذي كانت ترجوه. وقامت أخيراً ندوة الاثني عشر تضم عددا من الشبان المثقفين ثقافة عالية يجتهدون للنهوض بالأدب في لبنان نهضة صحيحة من كل نواحيه؛ والأدب في لبنان يتجه نحو القصة لأنها تتحمل الدروس النفسانية ولأنها من أرقى صور الأدب؛ ومن أبرز الذين

يعنون بالقصة خليل تقي الدين وتوفيق عواد ورئيف الخوري، وقد تطورت عقلية النشء الجديد من الأدباء على نحو الأدب الفرنسي الحديث حتى أن عندنا ما يدعونه الأدب العاري يبشر به فؤاد حبيش؛ وعندنا الأدب الشعبي ينشره توفيق عواد ورئيف الخوري؛ وهم يرون أن الأدب يجب أن يستمد مواده من كل مظاهر الحياة لا من خفايا النفس وعواطفها فقط

أما النقد الأدبي على الأساليب العلمية الحديثة فحامل لوائه في لبنان فؤاد البستاني الذي كان له الفضل الكبير في توجيه الشبان نحو الثقافة العربية بنشره سلسلة (الروائع)، وهو الآن يعد كتاباً عن عواصم الأدب يبحث في تأثير المحيط على الأدب.

فلكي يفهمنا الأدب العباسي ويطلعنا عليه يصف لنا بيئته في بغداد؛ وفضل فؤاد البستاني الأكبر أنه دون سواه من الأدباء يشجع من يرى فيه سمات الأديب فيحثه على التأليف والنشر ويعضده بنفوذه الأدبي الكبير. وثمة نقادة آخر يمكننا أن نقارنه في كثير من النواحي بالأستاذ أحمد أمين، هو جبرائيل جبور الذي ينشر الآن كتاباً ضخماً عن عمر بن أبي ربيعة (دون جوان)

العرب

وأما في الشعر فقد ساد أول الأمر محافظون ينظمون في الرثاء والمديح والغزل والفخر أيضاً لا يحيدون كثيراً عن أمراء الشعر في الأعصر الماضية، إنما كان يلمع في شعرهم وميض من التجدد وتسمع في أبياتهم رنة موسيقية عذبة. ومن أشهر الذين أجادوا أمين تقي الدين وبشاره الخوري. ثم جاء الشاعر الياس أبو شبكه فتطور معه الشعر بما حمله إليه من نفس صادق وبخروجه عن أدب المناسبات والمواضيع الجوفاء؛ وخطا يوسف غصوب بالشعر خطوة واسعة موفقة بديوانه (القفص المهجور).

وكان المرحوم أديب مظهر أول من أدخل إلى الشعر العربي نظرية الشعر الرمزي التي يعتنقها اليوم شعراء مجيدون حقاً كصلاح لبكي وأمين نحله وسعيد عقل الذي نشر مسرحية شعرية موفقة جداً (بنت يفتاح). لن أسهب في الكلام عن الشعر الحديث في لبنان ولكن أكتفي بالقول أنه من أرقى ما عرفته الآداب العربية. وثمة شعر لبناني محض يمثل فرعاً لنفسه هو الشعر العامي، وقد ارتقى جداً وزعيمه الأول رشيد نخلة؛ ولقد تطور هذا النوع من الشعر على غرار الشعر الحديث؛ ومحدث هذا التطور ميشيل طراد فهو أيضاً ينهج نهج الشعراء (الرمزيين)، والشعر اللبناني هذا يمتاز بشدة تأثيره على النفس

وكان من إقبال اللبنانيين على الآداب الأجنبية أنهم أضحوا يؤلفون بهذه اللغات. وكُتُب الريحاني وجبران بالإنكليزية مثلاً مشهورة؛ وهنالك كتب في السياسة والحقوق باللغة الفرنسية. وآخر ما أنتجه اللبنانيون من دواوين شعر فرنسي كان له دوي بعيد في فرنسا ونال لأجله بعضهم الجوائز من محافل الأدب العالية كشارل قرم الذي نال جائزة ادجاربو في فرنسا لديوانه الجبل الملهم، وغيره أيضاً

وينشط اللبنانيون جداً للتأليف باللغات الأجنبية، ولنقل أفضل مؤلفاتهم العربية إلى الفرنسية ليطلعوا الغرب على ثقافتهم (وهي مظهر رقيهم) ويأخذوا مكانهم في الأدب العالمي

والخلاصة أننا لسنا متشائمين من حال الأدب عندنا. بل ما نراه حولنا من مظاهر النشاط الكامن يبشرنا بمستقبل زاهر وبأن الحركة الأدبية في لبنان ستخطو خطوات بعيدة جداً

سامي الشقيفي

في تاريخ الفقه الإسلامي

المحاضرة الثالثة

للدكتور يوسف شخت

الأستاذ بجامعة كونيكسبرج، والأستاذ بالجامعة المصرية

تكلمنا في المحاضرتين السابقتين عن مسائل تتعلّق بثلاثة أدوار قديمة من تاريخ الشرع الإسلامي، وهي العصر الجاهلي - وليسمح لي بإدخاله في هذا النطاق الواسع - وعصر فقهاء المدينة السبعة، والعصر الذي تكونت فيه المذاهب الكبرى. فالآن، ونحن مستمرون على السير بموجب الترتيب الزمني، ننتهي إلى دور تندر مصادره؛ فمن العجب أن نلاحظ أنه لم يبلغنا إلا القليل جداً من مؤلفات الزمن بين بدايات المذاهب

(التي توجد لها مصادر معاصرة ولو لو تطبع كلها) والنهضة العظيمة التي بلغها علم الفقه في القرن الخامس للهجرة، ونتيجة هذا الدور لابد أن تكون ذلك بالتنظيم والتنسيق للفقه الذي نشاهد أكمل مظاهره عند المذاهب الثلاثة في وقت واحد تقريبا: للحنفية على يد القدوري، وللشافعية على يد الغزالي، وللمالكية على يد سيدي خليل. ويلوح أنه ليس مستحيلاً أن نتمكن من اكتشاف وثائق أكثر تبياناً لهذا الدور الغامض، إذا ما وجدنا أن بعض مؤلفات أبي جعفر الطحاوي الفقيه المصري المشهور وبعض الكتب الأخرى التابعة لذلك العصر قد كانت حليفة البقاء. وقبل أن يتحقق هذا الأمل علينا أن نقتبس معلوماتنا من الكتب التي تعالج اختلاف الفقهاء، وهي كتب هدتنا المصادفة الغريبة إلى عدد غير قليل منها راجع إلى القرن الرابع الذي نبحث عنه، وهذا مما يبرر بضع ملاحظات على هذا النوع من كتب الفقه على العموم. فقد ذكرنا في محاضرتنا السابقة أول كتاب وضع في هذا الفن وهو كتاب الحجج لمحمد بن الحسن الشيباني. فهذا الكتاب يشترك مع بضع رسائل للشافعي في غرض يحتمل أنه أحدث هذا الفن كله، وهو مجادلة المعارضين التي تستلزم بطبيعة الحال إبداء آرائهم. وأما كتاب اختلاف الفقهاء لابن جرير الطبري الذي ذكرناه أيضاً قبلاً فيحل فيه محل هذا الغرض شيء آخر، هو المقارنة والموازنة بين أقوال المتقدمين تأسيساً لمذهب المؤلف نفسه؛ وأن هذا الكتاب أولى أن ينسب إلى القرن الثالث وإن كان مؤلفه قد مات في سنة ثلاثمائة وعشر. وهذان النوعان من كتب الاختلاف ظلا قائمين إلى القرن الرابع، وإلى جانبهما قد نشأ نوع آخر، وهو نوع الكتب التي تُثبت الآراء المتنافسة لغرض علمي محض. وأحياناً نجد المؤلف الواحد قد ألف في الاختلاف أكثر من كتاب واحد. من ذلك أن الطحاوي الذي أسلفنا ذكره ألف كتاب شرح معاني الآثار، وغرضه الراجح هو المجادلة بحيث أنه لا يذكر حتى أسماء خصومه، ولكن له أيضاً كتاب اختلاف الفقهاء الذي يدلي فيه برأيه الشخصي على أثر عرض الآراء المختلفة والأدلة الدالة عليها. وقد ألف معاصره محمد بن إبراهيم بن منذر النيسابوري كتاب الاختلاف الذي يمثل هذا النوع الثاني، كما ألف أيضاً كتابين من النوع الثالث وهما كتاب الإشراف على مذهب أهل العلم، والكتاب الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف؛ وهذا الاهتمام العلمي المحض قد حمله أيضاً على أن يجمع في كتاب الإجماع المسائل التي لا اختلاف فيها. أما المسائل المختلف فيها ضمن المذهب الحنفي فلدينا الروايات الثلاث لكتاب مختلف الرواية لأبي الليث السمرقندي، وهو أيضاً من النوع الثالث العلمي المحض. وقد ذكرت كل تلك الكتب تفصيلا لأنها على العموم غير معروفة إلا للقلائل برغم أهميتها، ولأنها لم تطبع بعد إلا شرح معاني الآثار للطحاوي. وأما أكثر الكتب المؤلفة في هذا الموضوع في زمن متأخر في القرن الخامس وما بعده، فلا يمكننا أن نوازي بينها وبين تلك المصادر القديمة، ولا ينبغي أن نعتبرها وسيلة يعتمد عليها في الحصول على معلومات جلّية، لأن تلك الكتب كثيراً ما تناقض نفسها وتناقض حقيقة الأمر، أي أقوال المذاهب المشهورة. وذلك لأنها ليست قائمة على معلومات مباشرة بل يتوقف بعضها على بعض. كذلك كتاب الميزان للشعراني ليس إلا تغييراً لكتاب (رحمة الأمة في اختلاف الأئمة) للدمشقي، وهذا بدوره مختصر لكتاب الإشراف على مذاهب الأشراف لابن هبيرة إلى حدّ أن جميع الأغلاط الموجودة في ذلك الكتاب تتكرر في هذين. وينبغي ألا نؤاخذ ابن هبيرة بشدة بهذه الأغلاط لأن كتاب الإشراف ليس إلا رواية مستقلة لفصل من كتابه الكبير المسمى بالإفصاح عن معاني الصحاح، وهو شرح مفصل للأحاديث الصحيحة، ومضمون كتاب الإشراف كله وارد في كتاب الإفصاح شرحاً للحديث النبوي المشهور: اختلاف أمتي رحمة

إن أخبار المتأخرين من المؤلفين عن مبادئ مذاهبهم وأقوال الفقهاء الأقدمين يجب أن تقابَل

على العموم بتحفظ شبيه بالتحفظ الذي ينبغي أن تقابل به كتب الاختلاف الأحدث عهداً، حتى ولو كان أولئك المؤلفون من أصحاب المذهب الذي يتحدثون عن أئمته. فإنا نشاهد في المذاهب ابتداء من القرن الخامس افتقاراً للروايات فيما يتعلق بأقوال أصاحبها الأولين، وهو مما يجعل دراسة مؤلفاتهم الأصلية أحرى وأوجب. وإني لأستمدّ أمثلتي من كتاب المخارج في الحيل لمحمد بن الحسن الشيباني السالف الذكر الذي لا ريب في صحته مقارناً له بشرح السرخسي المتأخر لأقوال محمد بن الحسن

المروية في كتاب المبسوط. فالشيباني يقول في مسألة معينة على وجه الإجمال: (لا آمن أن يبرئه بعض الفقهاء.) ولكن السرخسي يعترف بأنه لا علم له بمن قال بهذا القول. والشيباني يقول في التحليل: إذا قال واحد منهم هذه المقالة (أي لو قالت الزوجة تزوجني فحللني، أو قال الزوج الأول تزوج هذه المرأة فحللها لي، أو قال الزوج الثاني أتزوجك فأحلك لزوجك الأول) لم تحل للزوج بهذا النكاح الثاني)؛ فالسرخسي في تعليقاته على هذا الكلام يقول: إن النكاح الثاني عند الشيباني صحيح، لكن التحليل في هذه الظروف لا يحصل، في حين أن النكاح الثاني عند أبي يوسف فاسد غير صحيح؛ ولكن السرخسي في موضع آخر ينسب القول الأول إلى أبي يوسف، والقول الثاني إلى محمد بن الحسن الشيباني. ويقول السرخسي في مسألة أخرى إنه يُنسَب إلى أبي يوسف قولان متناقضان دون أن يستطاع اعتبار أحدهما سابقاً، والآخر متأخراً، فهو مع ذلك يجهد نفسه في التوفيق بين القولين بوجه مفتعل.

ويقول السرخسي في الحيل المستعملة لمنع الشفعة: (وعند محمد رحمه الله هو مكروه أشد الكراهة) وهذا ليس صحيحاً لأن الشيباني قد جمع أمثال تلك الحيل في باب طويل من كتابه المتقدم ذكره نقرأ فيه كلاماً كهذا: (أرأيت رجلا يريد أن يشتري داراً، ويخاف أن يأخذها جارها بالشفعة فكره أن يمنعه من ذلك فيظلمه، وكره أن يعطيه الدار فيدخل عليه ما يُكرَه. هل عندك في ذلك حيلة؟ قال: نعم الخ). وإليكم مسألة تدل على أن رأياً نُسب خطأ إلى أبي حنيفة قد ظفر بأن يصبح مسلم به في المذهب كله: فنقرأ في الفتاوي العالمكيرية: (فاعلم بأن الوقف على قول أبي حنيفة رحمه الله لا يصح مضافاً إلى ما بعد الموت بطريق الوصية، هكذا ذكر الخصاف رحمه الله، ومحفوظنا أن الوقف عند أبي حنيفة رحمه الله صحيح إذا كان مضافا إلى ما بعد الموت أو كان موصى به) ومع ذلك فالخبر الذي ذكره الخصاف هو الصحيح، لأن هذا يظهر من قول الشيباني نفسه في كتاب المخارج في الحيل. وقد أمكن أيضاً أن تتسرب أخبار ملفقة إلى حواشي كتب الشيباني حتى في زمن قديم جداً، وينبغي لهذا كله أن يتحاشى المرء قبول شهادة كتب أحدث عهداً في أقوال الأئمة الأقدمين من دون تمحيص. وسبب تلك الأغلاط يرجع قبل كل شيء إلى تضاؤل الاهتمام بآراء فقدت أهميتها العملية بعد التدوين النهائي للأحكام في المذاهب، ويرجع أيضاً إلى الظن الطبيعي أن تلك الأحكام المدونة هي عين الآراء الشخصية للأئمة الأقدمين، ويرجع أخيراً إلى استبدال عبارات مثل (في قياس قول أبي حنيفة) بعبارات أخرى مثل (في قول أبي حنيفة) فحسب، وهو شيء نراه حتى في الكتب القديمة جداً

وأخرى المسائل التي سنبحث عنها هي مسألة القانون العرفي في بلاد الإسلام، فبينا أن العلاقة بين الأحكام الشرعية والأحكام العرفية - كما رأينا - وجهة مركزية من تطور الفقه نفسه في الأدوار الأقدم عهداً فإن هذه العلاقة تصبح بعد ذلك عندما استقر الفقه في صورته النهائية مطلباً مستقلاً. ومن بينات القوة الروحية العظيمة التي استمتعت بها الشريعة أنها بلغت حد فرض نفسها على القانون العرفي؛ وإن كان هذا القانون قد بلغ من ناحيته أو كاد يبلغ حد احتكار العمل القانوني من الوجهة المادية؛ وهذا باد من أن الناس تحققوا وجود قانون عرفي يعارض كثيراً من الأحكام الشرعية، وأنهم فسروا هذا من الوجهة التاريخية بأن الأجيال المتأخرة لم تبلغ شأن السلف الصالح، ومن الوجهة الأخلاقية بمبدأ الضرورة التي أغنت عن العمل بالأحكام الشرعية. وعلى هذا النسق أوجد عالم مصري معاصر فيما يتعلق بالخلافة التي تناءى تاريخها أصلا عن قواعد الشرع، قواعدَ ثانوية موجهة إلى التطبيق العملي ولكنها مع ذلك مصنوعة على طراز تلك القواعد الشرعية. فأما ما يتعلق بالفقه فقد رأى أهله أن يوفقوا بينه وبين العرف على قدر المستطاع مما أفضى في التطور المتأخر للمذهب المالكي المغربي خصوصاً إلى أن يجيزوا عدة تصرفات عرفية لم تكن تعرفها الشريعة من قبل. أما العمل العرفي فكثيراً ما حاول أصحابه أن يحتفظوا بمظاهر المطابقة للشريعة على الأقل، في حين أن حقائق الأمور كانت بعيدة عنها بعداً شاسعاً؛ وهكذا أقاموا في حالة أخذ السارق والسكران عند ارتكاب الجريمة حدود السرقة والشرب رأساً معتقدين اعتقاداً صميما أنهم يطبقون الشريعة ولكن دون أن يعنوا بالإجراءات الدقيقة

التي فرضتها الشريعة، وهكذا ذهب بعضهم إلى حد ذبح مجرم يستحق الموت وفاقاً لقواعد ذبح الضحايا. وأنظمة المحتسبٍ وناظر المظلم لا يراد بها إلا اجتياز الهوة التي تباعدت شقتها بين منطقة الشريعة ومنطقة الحياة القانونية العرفية، فلهذا ليست من الشريعة المحضة؛ ومنذ الزمن القديم كانت حاجة الشريعة محسوسة إلى أن يندمج فيها العرف القانوني وأن تتيح لمن يهمهم الأمرُ الوسائلَ لعقد تصرفات تقتضيها العادة مع مراعاة أحكام الشريعة الإلهية التي تجمع بين المخارج البسيطة والطرف الفقهية الأريبة. فبهذه الحيل يصل المرء من طريق تصرفات شرعية إلى نتائج تطابق الحاجات العملية، ولكن لا تسّلم بها قواعد الفقه رأساً، فهي من جهة الفقه مخارج ومواضعات، ومن جهة العرف جهود في جعل العرف مقبولاً موافقاً للشرع

وقد أنشأ الحنفية هذا الفن من الفقه وتعهدوه، ونجد أن أبا يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني على رأس سلسلة طويلة من الفقهاء قد ألفوا في الحيل؛ وقد انتهى إلينا كتاب محمد بن الحسن كاملا، (وهو المسمى بكتاب المخارج في الحيل الذي ذكرناه مراراً)، ويشتمل على مسائل عديدة نقلها صاحبه من كتاب أبي يوسف. أما المذاهب الأخرى فالحيل فيها أقل شأناً منها عند الحنفية، حتى أن الشافعي والبخاري الذي كان نفسه شافعياً وغيرهما قد حاربوا الحيل حرباً عواماً. ولم يمنع هذا أن المتأخرين من الشافعية قد أحسوا بالحاجة إلى تأليف كتب في الحيل على مثال كتب الحنفية وأن ينسبوا إلى الشافعي نفسه من المخارج العملية ما قد ورد في كتاب محمد بن الحسن الشيباني؛ وقد أفرد الحنبلي الكبير ابن قيم الجوزية للحيل بحثاً طويلاً، وبرغم مناهضته للمكر ومنعه للفرار من أحكام الشريعة وصل في بحثه إلى اعتبار كثير من تلك المخارج مشروعاً خاصة في دائرة التصرفات التجارية. وأشهر كتاب في هذا الباب هو كتاب الحيل والمخارج المنسوب خطأ إلى أبي بكر أحمد بن عمرو الخصاف الحنفي، فالواقع أن كتابه الحقيقي ليس إلا رواية لكتاب المخارج في الحيل للشيباني، وقد عنى الخصاف بأن يستبعد منها كل إشارة قد تدل على مؤلفه الأصلي؛ والكتاب الذي اشتهر به هو تأليف عظيم الشأن لمؤلف مجهول عاش في حوالي سنة أربعمائة، وهو مصدر فريد في بابه لمعرفة القانون العرفي الذي كان يعمل به في ذلك الزمن في العراق (كما نظن) يكشف لنا عن مستواه العالي واصطلاحاته الراقية، وهذا القانون العرفي يميزه الدور الهام الذي يقوم به الإقرار، فإنه لا سبيل إلى الرجوع فيه، ولهذا يصلح جيداً لأن يكون مبعثاً للنتائج القانونية المقصودة، كما يميزه دور العدول الأمناء الذين يثق بهم المتعاقدان يقومون بالتوسط بينهما في علاقتهما التعاقدية، وكما تميزه أيضاً كثرة استعمال الوثائق المكتوبة، فكل هذه الخصائص توجد مجتمعة في كتب (المواضعة)، وهي وثائق يكتبها المتعاقدان وليست لها قيمة قانونية مباشرة، لكنها تصلح لإثبات حقيقة الأمر فيما بين المتعاقدين من العلاقات التي لا يكشف عنها بل يسترها عادةً عدد من التصرفات والإقرارات الموضوعة؛ وتحفظ هذه الوثائق - أي كتب المواضعة - مع الوثائق الفقهية الحقيقية التي توضح وظيفتها عند عدل أمين يثق به المتعاقدان ويعمل هو بمقتضاها فيما بينهما ابتغاء معاملتهما بالعدل والإنصاف ومنع أي منهما عن أن ينتفع بتصرف أو إقرار منفرد لما فيه ضرر لمصلحة الآخر. وإليكم مثالاً قد يوضح كل هذا إيضاحاً تاماً: (قلت: رجل له على رجل مال، فوكل رجلاً أن يتقاضى هذا المال ويستخرجه على أن له نصفه أو ثلثه، هل يجوز هذا؟ قال: لا، وإن وكله على هذا الشرط فاقتضى المال كان له أجرة مثله لا يجاوز بها ما جعل له. . . قلت: فهل في هذا من حيلة؟ قال: نعم، الحيلة في ذلك أن يقر الذي باسمه المال لابن هذا الوكيل أو لرجل يختاره الوكيل بثلث المال بحق عرفه له ويوكله بقبضه. . . ثم يوكل الذي باسمه المال والمقر له بالثلث هذا الوكيل باستيفاء المال واستخلاصه فإن خرج المال كان للمقر له الثلث من ذلك. . . . قلت: فإن قال صاحب المال: أرأيت إن أقررت بثلث المال لمن يريد الوكيل فإذا وقعت الشهادة على ذلك لم يقم هذا الوكيل باستيفاء المال أو أحدث حدثاً تبطل به الوكالة فقد صار هذا الرجل شريكا لي في المال بثلثه، فما الحيلة؟ قال: يعدلون كتاب الإقرار على يدي من يثقون به ويكتبون مواضعة بينهم تكون على يدي العدل يعمل بما فيها ويحملهم عليها، فإن خرج هذا المال بتقاضي الوكيل وقيامه كان لهذا الرجل الثلث. . . وإن لم يخرج من المال شيء أو لم يقم بذلك أو أحدث حدثاً تبطل الوكالة به لم يكن للرجل المقر له بثلث

المال شيء ورد العدل منهم الكتب على من يجب ردها عليه، ويحكون في المواضعة أمرهم كله ليعمل العدل بينهم بذلك)

والمصدر الثاني الرئيسي لمعرفة القانون العرفي في بلاد الإسلام هو الشروط والوثائق.

ويوجد إلى جانب الدور الهام الذي تؤديه الوثائق المكتوبة في باب الحيل كتب كثيرة في الشروط عند الحنفية كما هي موجودة عند المالكية والشافعية. وجدير بالذكر أن أكثر المؤلفين لكتب الحيل من الحنفية ألفوا أيضاً في الشروط، وأنهم من جانب آخر قد اشتغلوا غالبا بالوصايا والأوقاف أيضاً بصورة تجعل من الممكن أن يستبين المرء في الكتب الحنفية على مرور القرون ميلا ظاهرا إلى البحث عن الموضوعات ذات الأهمية العملية، وتلك الأهمية العملية لكتب الشروط ناتجة عن نفس وجودها، ذلك أن الفقه لا يقبل إلا الشهادة الشفوية ولا يستلزم وثائق مكتوبة، وذلك العلم وحده لم يفلح في جعل الشروط في ذلك المركز العظيم الذي هي فيه من عمل الفقه. وترجع عادة تحرير التصرفات إلى العصر الجاهلي، فقد ظهر أن الوثائق في ذلك الزمن لم تكن محض مذكرات يستعين بها الشهود (كما هي الحال في علم الفقه) بل كانت وثائق مستقلة تنطق بمضمونها لا ريب أنها لم تزدوج بالشهادة الشفوية إلا في مرحلة ثانوية؛ وقد أقر القرآن هذه الحالة في نوع من العقود في الآية التالية: (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه، وليكتب بينكم كاتب بالعدل، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب، وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا، فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل، واستشهدوا شهيدين من رجالكم، فإن لم يكن رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى، ولا يأب الشهداء إذا ما دُعوا، ولا تسئموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله، ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها، وأشهدوا إذا تبايعتم، ولا يضار كاتب ولا شهيد، وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم، واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم. وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة، فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي أؤتمن أمانته وليتق الله ربه، ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه والله بما تعملون عليم.) وفي آية أخرى ذكر القرآن الوثائق المكتوبة في إعتاق الرقيق على أنها شيء معروف: (والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً.) حتى الاصطلاح الخاص بالإعتاق التعاقدي في مصطلح الفقه، وهو الكتابة، يدل على أن ذلك كان مكتوباً في الغالب على الأقل؛

والأمر السابق الذكر وهو أن الشروط والوثائق تقوم في تطبيق الشريعة العملي بدور أهم بكثير مما يعينه لها علم الفقه - ذلك الأمر لا نفهمه إلا ببقاء عادة ثابتة قديمة تقتضي تحرير العقود بالكتابة؛ ومن الراجح أن تلك العادة الموجودة في القانون العرفي العربي الجاهلي كانت تأثرت بنفوذ التمدن العراقي، فإن العراق مشهور بالدور الهام الذي قامت به الوثائق المكتوبة في حياته القانونية والأدبية منذ زمن قديم جداً. أما الوثائق التي تبينها وتوضحها كتب الشروط، وكذلك الوثائق الأصلية التي احتفظ بها فهي تتفق بطبيعة الحال في مضمونها المادي مع أحكام الشريعة الإسلامية بحسب الظروف والإمكان، وخصائصها البارزة لا تظهر إلا في صيغتها التي تغيرت تغيراً كبيراً على كر القرون، لكنها كانت دائماً خاضعة لقواعد فنية صارمة. وإليكم خاصة جديرة بالذكر تشترك فيها كتب الشروط القديمة بأجمعها: قد تلونا آنفاً آية قرآنية تنص على أن (الذي عليه الحق) يكتب ويمل؛ وأما في كتب الشروط القديمة فالقاعدة الأساسية هي يملي الكتاب المدين (أو من يقوم مقامه من المتعاقدين) على المديون (أو القائم مقامه) وأن يقرّ هذا بصحة الوثيقة ويُشهد على ذلك الشاهدين

وثمة مصدر ثالث لدراسة القانون العرفي، وهو التشريع المدني الدنيوي في بلاد الإسلام. ومن الحق أن الشريعة الإسلامية لا تعترف بتشريع مستقل يقوم إلى جانبها، وتلك التشريعات المدنية حتى في أوائل العصور الحديثة لم تزعم أكثر من أن تكون ملحقات بالشريعة في الدائرة التي سمحت لها بها؛ والواقع أن تلك التشريعات كثيراً ما جاوزت هذه الحدود. وأشهر مثال لمثل تلك التشريعات هو ما يسمى

(بالقانوننامجات العثمانية)، فإنه بينا كانت أكثرها تتصل بمسائل إدارية، قد ردتها الشريعة إلى اختصاص الدولة، فإن أول قانون من هذه القوانين وهو (قانوننامه) السلطان محمد الفاتح بنظم العقوبات أيضاً والأحكام الشرعية في الواقع لم تنفذ في تلك المنطقة أحياناً كثيرة، وتفترض هذه القانوننامه أن القصاص يمكن إجراؤه بخلاف الحدود، وقد وضعت بدلا منها قانوناً جنائياً كاملا يختلف أصلا عن أحكام الشريعة، وإن كان يذكرها في مواضع عديدة ويستعير منها بعض القواعد الأساسية؛ ويمتاز هذا القانون الجنائي بالدور الهام الذي تؤديه الغرامات المالية المختلفة المبالغ تبعاً لثروة المذنب. حتى الزاني بشرط أن يثبت عليه البينة وفاقاً لقواعد الشريعة يعاقب عليه بغرامات مختلفة القدر على حسب كونه متزوجاً أو غير متزوج (وتهمنا ملاحظة التعديل الذي أدخل بهذا على فكرة الإحصان في الشريعة) والأرقاء لا يدفعون إلا نصف المبلغ المفروض على الأحرار، والسكر أيضاً (وهو يقوم مقام الشرب في الشريعة) لا يعاقب عليه إلا بالتعزير؛ وهو يُترك في الشريعة لتقدير القاضي، وأما في هذه القانوننامه فالتعزير دائماً ضربات بعصا مقرونة بغرامة مالية، ويطبق نفس هذا التدبير على السرقة ولا يقام الحد إلا في سرقة الخيل؛ ويكون في هذه الحالة إما قطع اليد وإما غرامة باهضة جداً، ولابد من أن هذه الجريمة كانت تعتبر خطيرة بصفة خاصة؛ وجلي أن هذا القانون الجنائي يراد به أن يحل محل القسم المطابق له من الفقه تماماً لا إكماله فقط، لكنهم على كل حال يتحاشون أن يقولوا بهذا صراحة ويطلقون عبارات من قبيل (السياسة في مقابلة الجنايات) أو (بدل السياسة) على إبدال الحدود بالغرامات المالية؛ وقد اتخذت هذه القانوننامه أنموذجاً للقوانين العثمانية التي تعالج نفس الموضوع

وعلاقة أخرى بين الشريعة الإسلامية والتشريع المدني، تخالف كل ما تقدم مخالفة تامة، توجد في الدور الأخير من تاريخ الشرع وهو تطوره المعاصر، وحسبنا أن نذكركم بالتعديلات التي أدخلت منذ سنة ألف وتسعمائة وعشرين على الأحوال الشخصية في مصر؛ ولسنا نريد أن نبحث الآن عن تلك الظاهرة المهمة للحياة القانونية المصرية لأن الوقت الذي نملكه قد انتهى. وإنما نستشهد بها هنا كدليل على أن العلم الأوربي الذي يشتغل بتاريخ الفقه الإسلامي لا يتناول الأزمان الماضية فقط، بل يجهد في استيعاب الحياة الحاضرة أيضاً، وأن موضوعه الواسع ليس ميتاً جامداً بل لا يزال قوياً متطوراً. فإن كنت قد وُفقت إلى إطلاعكم على شيء من الروح العلمية الخالصة المهيمنة على دراستنا هذه فقد حققت بعض الغرض من هذه الأحاديث كل التحقيق

يوسف شخت

صورة من الحياة العلمية في مصر

تقي الدين السبكي - 3

بقلم محمد طه الحاجري

- 3 -

وبعد أن قضى من الشام حاجته عاد إلى مصر سنة سبع، فاستوطن القاهرة، وانقطع فيها لتصنيف الرسائل والكتب، وتعليق الشروح، والجلوس للطلاب. وقد ألقيت إليه رياسة الشافعية، فجعلت الأسئلة والاستفتاءات ترد عليه من أنحاء الشرق العربي كثيرة متلاحقة، وهو يجيب عليها ويفتي فيها. وكان من عادته - كما ذكر ابنه تاج الدين - أن يشرك في بحثها ومناقشتها أبناءه وتلاميذه، إلا أن تكون متعلقة بأحوال المتصوفة وأهل الباطن فيكتم أمرها وأسماء أصحابها وما يراه فيها. إذا كان ذلك خارجا عن حدود النظر العقلي والاستدلال المنطقي

وقد لبث على ذلك - منذ عودته من السماع بالشام إلى رجوعه إليها قاضي قضاتها - أثنين وعشرين عاماً، حج في أثنائها ثم ذهب إلى المدينة لزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان ذلك سنة 716هـ

ولم يل تقي الدين في هذه الفترة عملاً يتصل بالسلطان، أو أمراً من أمور الدولة، على كفايته ومقدرته، فقد كانت تنقصه المرونة الخليقة التي تقضي بالتزلف والتودد، ثم بالمصانعة والمداهنة والإغماض في الحق أحيانا؛ ولهذا كانت مادة عيشه تافهة ضيقة مهددة بما تقضي به شهوات الأمراء وغايات المزدلفين؛ فكل ما نعرف من هذا أنه تولى مشيخة جامع ابن طولون فترة من الزمن، وكان يأتيه منها رزق زهيد مما

وقفه عليه الملك المنصور حسام الدين لاجين (696 - 698هـ 1296 - 1298م) ولكن هذه المشيخة لم تلبث أن طارت من يده وأخذت منه سنة 719 (1319م). وله في هذا المقام شعر نورد شيئا منه، لأنه - مع ركاكته - يدل على روحه العلمية الخالصة التي تضع العلم فوق كل اعتبار:

كمال الفتى بالعلم لا بالمناصب ... ورتبة أهل العلم أسنى المراتب
فلا تعدلن بالعلم مالاً ورفعة ... وسمر القنا أو مرهفات القواضب
وهب أدبرت دنياك عنك فلا تبل ... فعنها لقد عوضت صفو المشارب
فما قدر ذي الدنيا؟ وما قدر أهلها؟ ... وما اللهو بالأولاد أو بالكواعب؟
إذا قست ما بين العلوم وبينها ... بعقل صحيح، صادق الفكر، صائب
فما لذة تبقى، ولا عيش يقتنى ... سوى العلم أعلى من جميع المكاسب

وهكذا كانت روحه العلمية الغلابة التي كان يتعزى بها عما فاته من متاع الدنيا. وقد ظلت هذه الوظيفة محتجزة دونه حتى عام 727 (1327) فعادت إليه وبقيت في يده إلى سنة 739هـ حينما اختير لقضاء الشام

وسبب آخر من أسباب الحياة المحدودة كان في يده، ولم يخل كذلك من شهوات العابثين في انتزاعه: ذلك هو وظيفة التدريس بالمدرسة المنصورية، وكانت مسندة أول الأمر إلى قاضي القضاة جمال الدين الزرعي، ثم عين قاضي قضاة الشام 723 (1323م) فحل تقي الدين السبكي محله، وكان جديراً بذلك. ولكن الزرعي لم يطل في قضاء الشام مقامه، فلم يلبث عاماً حتى عزل عنه. وكان صديقاً لأرغون نائب المملكة المصرية في ذلك الحين، فبلغه ذلك وهو بالحجاز، فشق عليه أن يحرم صديقه مكانه في مصر والشام؛ واستشاط غيظاً وحنقا على تقي الدين، وأقسم ليزيلنه عن مكانه، ويعيدن إليه صاحبه، متى عاد إلى مصر؛ وترامت بذلك الأخبار إلى الشيخ، ولم يكن له ما يكفل رزقه غير هذه الوظيفة، وكاد يصبح ضحية شهوة جامحة، لولا أن أرغون ما كاد يصل إلى مصر حتى قبض عليه في بعض ما كان يسود ذلك العهد؛ ففل بذلك من حده، ووقي الشيخ شر نزوته وكيده

هذا كله والعهد عهد الملك الناصر ابن قلاوون، وهو خير عهود ذلك العصر، وأقلها خضوعا للنزوات الطائشة

وقبل أن ندع هذا الدور من حياة تقي الدين السبكي، نرى أن لابد من الإشارة إلى مجهود من مجهوداته العلمية الموفقة، قام به في تلك الفترة، وقد رفع كثيراً من شأنه، وكان له أثر غير صغير في حياته، فيما نحسب، ذلك هو رده على أبي العباس ابن تيمية في مسألة الطلاق ومسألة الزيارة. وقد كتب رده على كل من المسألتين في كتابين: أحدهما موجز مجمل، والآخر كبير مفصل؛ ويظهر أنه قد أبدى في رده مقدرة فائقة في النقد والبيان،

وأبان عن سعة اطلاع وحضور بديهة، كما بعد عن الشطط والتجريح، والتزم جانب الإنصاف والمعدلة، مما دعا إلى إعجاب الأشاعرة به، وإكبار ابن تيمية نفسه له، وثنائه عليه فيما كتبه دفعا لنقده

واحسبني لا أبعد عن الصواب إذا زعمت أن هذا الرد كان السبب في توجه نظر السلطان إليه، واختياره لقضاء الشام، بعد أن لبث ذلك المنصب لعبة للأهواء منذ مات جلال الدين القزويني سنة 719 (1319) حتى سنة 739هـ. وإصراره على ذلك على إصراراً ذهبت معه كل محاولات الطويلة في التملص من هذا التقليد، ووهن معه كل ما نذرع به لقاء هذا الأمر الذي يقدر عاقبته، ويعرف حق المعرفة خطورته

ذلك أنه وإن كان قد ذهب في رده مذهباً علمياً خالصا فقد تناول به مسألة تعني أولي الأمر كما تعني العلماء، فإن ظهور ابن تيمية في الشام بمذهبه الذي ينقض مذهب الأشاعرة، وانتصاره له بكل ما أوتي من قوة في البيان والمناظرة، فرق أهل الشام فرقتين، واجتذب إليه طائفة غير قليلة من أعيان العلماء أمثال المزي والذهبي والبرزالي: خرجوا على الأشعرية وهي المذهب الرسمي للدولة منذ كان الأيوبيون إلى ذلك العصر، بعضهم في صراحة وجلاء، وبعضهم في تنكر واستخفاء، وسنرى فيما يلي بعض الظواهر في هذا مما يؤيد ما نذهب إليه من أن اختيار السبكي لقضاء الشام كان منظوراً فيه إلى هذه الحالة، مرجواً منه القضاء على هذه الفتنة.

وهكذا تولى السبكي قضاء الشام في 19 جمادى الآخرة سنة 739 (2 يناير سنة 1339)، فغادر مصر إليها، وانتقل بذلك من حياته البسيطة الساذجة، إلى حياة مركبة معقدة، وترك بيئته الهادئة الوادعة التي ترفرف عليها روح العلم، وتسري فيها نفحات الأبوة الكريمة، إلى ذلك المضطرب الواسع الذي يموج بشتى النزعات ومختلف النزوات؛ وتسوده روح خبيثة في مذاهب يزعمون لها صفة الدين تقتتل، وشهوات باسم الحكم تفرض وتنفذ، وأين يذهب السبكي في مثل هذا الجو؟ وهو المطبوع على الصراحة في الحق، والصلابة في الخلق، والاستقامة في الرأي، إلا أن يصبح غرضا للمعاندة والمضاجرة والشهوات الخبيثة الفاجرة؛ ولهذا نجد ابنه تاج الدين يقول في هذا الصدد بلهجة مريرة: (فقبل الولاية يا لها غلطة أف لها، وورطة ليته صمم ولا فعلها) وسنرى فيما يلي صوراً مختلفة لهذه الحالة

وإنما نعرض الآن حياته العلمية في الشام عرضا موجزاً، فنلاحظ أن أغلب مصنفاته كتبها في الفترة التي قضاها بمصر كما نص على ذلك ابنه، ولا ريب أن هذه الحياة الجديدة بما تفرضه من تكاليف ومشاق قد شغلته عن العلم بعض الشيء؛ هذا إلى كبر سنه، فقد تولى قضاء الشام وهو في حدود الستين، فكانت دواعي التأليف قد فترت في نفسه، حتى لنراه في أواخر حياته يميل إلى التأمل، ويجنح إلى (المراقبة)، ويزهد فيما كان مشغوفا به من قبل من المناظرة العلمية على قواعدها المقررة

على أنه قد كتب في الشام أبحاثا جليلة يتجلى فيها عمق التفكير ونفاذ البصيرة والإحاطة، ونجد بعضا منها في ثنايا كتب ابنيه: بهاء الدين أبي حامد أحمد بن علي السبكي، وتاج الدين عبد الوهاب صاحب الطبقات

ثم إنه ما كاد يصل إلى الشام حتى جلس للتحديث في (الكلاسة) وسمع منه أئمة الحديث في عصره كلمزي والذهبي والبرزالي، وقرأ عليه جميع معجمه ابن أبن عمه الحافظ محمد بن عبد اللطيف السبكي. ثم تولى سنة 742 (1341م) مشيخة دار الحديث الأشرفية خلفا للحافظ جمال الدين أبي الحجاج المزي، وفي سنة 745 (1344م) تولى التدريس في (الشامية البرانية) خلفا لأستاذها شمس الدين ابن النقيب، كما تولى خطابة الجامع الأموي وباشرها مدة لطيفة

(يتبع)

محمد طه الحاجري

عند بحر مويس شتاء

للأستاذ عبد الرحمن شكري

كم خشع العابر من قبلنا ... على ضفاف النهر وقت الأصيل
أو في مساء إذ ترى ظلمة ... قد عشَّشت في الدوح دوحا كغيل
وربما كنا الأولى قد مضوا ... وإن نأى الظن وعز الدليل
وما الذي ينأى بنا عنهمُ ... من منظر أو خاطر أو ميول
كم منظر تحسب إمَّا بدا ... من أخذة الفكر ووهم الذهول
انك - والقلب خبير به - ... أجَلْتَ قِدْما فيه لحظ المجيل
الدوح كالمفْكِر في هدأة ... إذ سكن الجو سكون الكهول
أو ثاكلات طال ثكل بها ... فَسَكَّنَتْ من شجوها والعويل
أو صمتت من طول ما عُمّرَت ... كصمتة الشيخ الوقور الجليل
والنهر كالزئبق في لمعة ... وركدة ما إنْ بها من مسيل
عهدته في صيفه لؤلؤا ... لو أن للؤلؤ سيلا يسيل
والسحب كالأشجار قد عرشت ... في الأفق تبدو مثل ظل ظليل
أو قطع من حلم غامض ... أو كمثار النقع أو كالطلول
والجو قد روَّع من قره ... كأنه قر ممات يصول
أنفاس ثغر الموت في قره ... تخرج من ثغر لجسم مَخِيل
والأرض غبراء سوى ما بدا ... من عشبها منتثرا كالفلول
كأنما الدجن غدا تربها ... وتربها الجهم كدجن سديل
تشابهت في اللون عهدي بها ... في صيفها واللون غير القليل
عهدي بها كالحود في عرسها ... زاهية الأصباغ شتى الذيول
خِيلَ حدادا إذ دجا لونها ... وهو كعقب العرس حتم البديل

خلاعة للصيف خلابة ... وفي الشتاء الحسن جم الفصول
تباين الحسنان في روقة ... لكنه زاد جلال الجميل
كم متعة جاءت بها رهبة ... كرهبة البرق وعادي السيول
لحن على الماء
بقلم العوضي الوكيل
ركبت زورقاً على النيل، ومعي ثلاثة من أصدقائي، وهب الله أحدهم نعمة حسن الصوت وقد غنى صاحبنا فأجاد، وما منا إلا طرب له واستعاد . . .
وهذه القصيدة صدى هذا الغناء:
تَغَنَّ، فما أحلى أغانيك في الماء ... لها في نواحيه هواتفُ أصداءِ
تغن بألحان تواكَبنَ في النُّهى ... قديماً ولا تمهل سكوني وإصغائي
تغن فإن الماء حولك ظامئٌ ... إليك، فبلل بالغناءِ صدى الماءِ
ترقرق كالنسم الوديع هنيهةً ... وغضَّن منه السطح في غير إغضاء
كأن له نفسا إليك مشوقةً ... وروحاً يتيه اللحن منها بأعضاءِ
ينازع في الأنغام جوّا مُشَعْشَعاً ... بها، لم تخالطه نواشز ضوضاء
ألا غَنِّنَا. . . . وابسط أغانيك كلها ... بصوت كنفح الزهر، أو طلعة البدر
حماداك أن نصغي إليك بمهجةٍ ... تفيض بآلام شداد يدا الدهر
تثير بها ما لم ترج مثاره ... وتحيي بها ما لم يَدُرْ لك في فكر
وتبعث فيها ماضيا قد نسيته ... ولكنه لم ينس عهدي وما أدري
تعيد بها من دارس العمر حقبة ... تصورها الأوهام. . . ليست من العمر
ألا غننا. . . حسبي من اللحن نغمة ... تفيض على الأرواح كالنهل الغمر
نعم. . . وامزج الماء الصفي بلحنك ال ... صفي فإن اللحن في الماء ذائبُ
فإن نحن أومأنا إليه برشفةٍ ... فبالنور صرفاً قد تمتع شارب
وموجان من ماء ولحن تواكبا ... ويا حبذا في الحس هذا التواكب
أُمَيةُ تُبْعَث
جزاكم ذو الجلال بني دمشق ... وعز الشرق أوله دمشق
(شوقي)
للأستاذ أمجد الطرابلسي
شِعْري أَرَدْتُ لَهُ عُلًى وَخُلودا ... فَنظَمْتُهُ لِبَنِي الشام عُقودا
وَجَعَلْتُهُ لَحْناً يَفِيضُ بِحُبِّهِم ... وَيَرِنُّ في سمْعِ الزَّمانِ نَشيدا
آليتُ لا أَنْفَكُّ أَهْتِفُ باسمِهِمْ ... طَرَباً وَأُعْلِنُ فَضْلَهُمْ تَغْريدا
وَأَهِزُّ مِنْهُمْ في السّلام بَلابلاً ... تَشْدو الحياةَ، وفي القَتامِ أُسودا
وَأَصوغُ منْ يَوْمِ الجِهادِ مَلاحِماً ... تُرْوى، وَأَنْطِقُها الرُّبى والبِيدا
حتى أرى وطني تَحَرَّرَ وانْبرَى ... يطوي الشُّعوب إلى السماءِ صعودا
أدِمِشقُ يا مهوى رؤايَ، وما أرى ... إلا بمغناكِ المقامَ رَغيدا
هلا أبيحُكِ خافقي ولحونَه ... وَأَخصُّكِ التبجيلَ والتمجيدا
من فيض سحرك قد قبستُ قصائدي ... فَوقفتهُا لك نُدْفةً وقصيدا
سأحوكها تحكي شذاكِ لطافة ... وأصوغها تحكي رُباك ورودا
وأنا المحِبُّ، وما سواكِ حبيبةٌ ... أشدو بحُسنِكِ يا شامُ عميدا
يا غضبة أُمويةً من جِلِّق ... حطمتْ سلاسلَ صُلْبةً وَقيودا
ضجَّت لها كل الشعوب؛ أما ترى ... كيف استفاضت في الدُّنى ترْديدا
ألمت دِمشقُ من الخنوع فزمجرت ... أنَفاً وطبقتِ الفضاءَ رعودا
وَقفت تناضل كاللَّلباةِ جراءة ... لا شِرَّة حفلَتْ ولا تهديدا
لم تسمع الدنيا بمِثْلِ ثباتِها ... درْساً يهيج المرْهق المصفودا
خمسون يوماً في الجهادِ مجيدةٍ ... كانت فخاراً للشام مجيدا
حشدت جحافلَها لُبىً وضَياغماً ... صُبراً تَعافُ مذَلةً وسجودا
رَضىَ الإلهُ عن الشبابِ فإنّهُ ... أضحى لنهضتِنا لواً وَعمودا
ضحى الأمانيَّ العِذابَ كَخُلقه ... ومضى يخلفُ للمكارم عيدا
رضىَ الإله عن اللباةِ فإنها ... شادت بناءً للفخار عتيدا

مهرَت حماها والعُلى أكبادها ... ومشت يهيج نضالُها الرِّعديدا
رَوْضُ تجهَّز لِلْجهاد فلم يدع ... دَوحاً وَلا زَهراً ولا أُملوداً
لو كنتَ تشاهِدَه غداة كفاحِه ... لرأيتَ جيشاً للنِّضالِ حَشيدا
أو كنت ثمة شاهداً أطفاله ... لرأيتَ جُنداً عُدة وعديدا
صبرَوا على مُرِّ الطَّوى وتحملوا ... فقراً على غير الأباة شديدا
حَفُّوا بِألوية الجهاد وأقسموا ... ألا يكونوا للقويِّ عبيدا
كلٌّ يسيرُ إلى الأمامِ مشمِّراً ... وقد استعد لأن يعود شهيدا
وَعِتادُه قِطعُ الصفا لكن في ... إيمانه ما يصدعُ الجلمودا
وفؤادُه بين الأضالع شعلة ... حرى تشعُّ عزيمة ووقودا
سقطوا أمام بيوتهم، وسط الحمى ... صرعى فما حفلوا لظى وحديدا
شهداءُ مثلُ الزهر في أكمامه ... كانوا على ظلم القويِّ شهودا
يا ابْنَ الحضارة، هلْ علمِت حضارة ... تروى دماً وَمدامعاً وَكبودا
ركزتْ على الدَّمِ والجماجِم عرشها ... ثم ارْتدت زُورَ الطّلاء برودا
لبست بياضاً ناصعاً لكنها ... أخفت قلوباً كالضغائن سودا
يا منقذ الحرِّية الزهراءِ في ... زمن غدوْت لِلَيْلِهِ فرقودا
أعلنتَ للإنسان حقاً اقدساً ... وَأدتْهُ طاغيةُ العروش عهودا
دَرْسٌ غذوْتَ به الشُّعوبَ جميعها ... فكسرتَ أغلالاً وَهِجت هجودا
أتلومُ شعباً هَب يبعثُ مجدهُ ... وَيُعيد فخراً كالخلود تليدا
يمشي على لهبِ اللظى لحقوقهِ ... وَيخوضُ لاستقْلاله (البارودا)
قالوا: حَقودٌ! قُلتُ طاشَ خَيالُكم ... فَفتى العُروبةِ لا يكونُ حقودا
وهو يطلبُ استقلاله بدمائه ... لا يجتدي كرماً ويسألُ جودا
رُدوا له الحقَّ السليبَ مسلماً ... تَجدوهُ إلْماً صادقاً وَوَدودا
الشرقُ سمْحٌ منذ كانَ وإنما ... مُلئت حضارتُكم قذى وَحقودا
يا جيرةً ضمدوا جراحة جلّق ... إذ جُرْحها يتلمَّسُ التضميدا
لله نصرتُكم أخاكم إنّها ... قد أصبحتْ مثلاً يسير شرودا
كانتْ على القربى المِلحَّة آية ... جُلى، وَرَمزاً ساطِعاً مشهودا
قُلْ لِلْغويِّ يرى العروبةَ أنهراً ... لا تسْتقى ويرى الوفاقَ بعيدا
إن العروبة في المواطِن كلها ... ضمِنَتْ لها آلامها التوحيدا
جسدٌ يئنُّ إذا اشتكى عضو به ... من ذا رأى شِلواً يعيش وحيدا
يا يومَ عادَ المصطفونَ إلى الحمى ... ضَمِن الزمانُ لمجدِكَ التخليدا
في جيد هذا الشرق كنت قُلادة ... وأراك في عمر الجهاد فريدا
ما مرَّ يوم أو مررت بخاطري ... إلا سطعت لناظريَّ جديدا
يا يوم عادوا والجلالُ يحفُّهم ... لا السِّجن قد هابوا ولا التشريدا
طلعوا علينا كالكواكب رفعة ... وهفوا على هامِ الرِّجالِ بُنودا
سل مُقلتي لما بدت رُكبانُهم ... هل بُدّدت عبراتُها تبديدا
واسأل فؤادي هل أهلَّ مصفِّقاً ... أو هل شدا في رَكبهِمْ غِرِّيدا
زَحَفَتْ دمشق تحوطهم بقلوبها ... وْلداً وأشياخاً تَدبُّ وغيدا
تتزاحَمُ العَبَراتُ في آماقهِم ... فرحاً فتنثْرُ لُؤلُؤاً منضودا
كدَّوا الحناجِرَ فرْحةً بإيابهم ... وتدافعوا مثل الأتيِّ وُفودا
أرأيتَ كيف طغى العُبابُ على الثرى ... أو كيف تحتضِنُ الرؤومُ وليدا
يا من رأى المأسورَ عاد مكرَّماً ... والآسِرَ المأفون فرَّ طَريدا
يطوي البحارَ السود يطلب ملجأً ... وَحِمىً وَيضربُ في البلاد شريدا
أنى تحَّولَ فالسماءُ صواعق ... والأرضُ فاغرةٌ هُوى ولحودا
وأمامه أنى تقلبَ نِسوْةٌ ... يخْمشن أجياداً زَهَتْ وخدودا
ذُقْ ما يذُوقُ الظالمون! ومن يُهِنْ ... أنَفَ الشعوبِ يهُنْ وَيَقض كميدا
وفد الشام ويا رسول جهادها ... أني حللت تر القلوب مهودا
الله والشعب المبارك عزمه ... قد أولياك النصر والتأييدا
فاسحب من الحب الثمين سوابغاً ... واصحب من العطف العميم جنودا

واهبط رباعاً من (فَرَنْسةَ) خُضِّبت ... بِدَمِ الأباةِ سباسباً ونجودا
دكّت حصونَ الظالمين سيوفُهم ... والظلمَ تذروه السيوف بديدا
جِئْهُمْ فَبثْهم السلام وقل لهم: ... (يا من نشرتم لِلْحقوق بنودا
يا موقدين لهيب أروع ثورةٍ ... تركت عروش المالكين حصيدا
والمرسلين على الظلوم صواعقاً ... والباذلين مع الضعيف جُهودا
لا تكتبوا بشبا السِّنان عهودكم ... فالحبُّ أصدق موثقاً وعهودا
(ضِنوا بهذا الشعب يوماً أن يهي ... إعجابه بِنِضالكم ويبيدا
يا وَفدُ سر بحمى الإله وحِفظه ... واستنجزِ المأمول والموعدا
وارجع إلينا بالحياةِ مظَفّراً ... واسطع بشائرَ في الحمى وسعودا
أمجد الطرابلسي

القصص

درامة من اسخيلوس

المتضرّعات

للأستاذ دريني خشبة

مقدمة:

كتب إسخيلوس هذه الثلاثية الرائعة وهو شاب في مقتبل حياته، ولم يبق منها، وا أسفاه، غير الدرامة الأولى، أما الثانية والثالثة فما تزلان مفقودتين. وقد استطاع العلماء الجهابذة من الألمان الحصول على مغزاهما، وبهذا تمت لنا الثلاثية بموضوعها وإن لم تتم بمبناها. والدرامة تنبع من أسطورة يو التي نشرتها الرسالة آنفا والتي تتلخص في أن زيوس كبير أرباب الأولمب أحب الفتاة يو حباً مبرحا فكان يختلف إليها سراً مخافة أن تضبطه وإياها زوجه حيرا فيحدث ما لا تحمد عقباه. . . ولكن. . . وقع ما خافه زيوس. . . فبينما كان يلهو بحبيبته مرة إذ لمح زوجه مقبلة. . . فأسقط في يده. . وسحر يو بقرة بيضاء. . . وراح يدعي أنه يرعاها. . . ولكن الحيلة لم تنطل على حيرا فسألته أن يمنحها البقرة علامة على حبه لها، فأجابها. . . وناطت بها حيرا خادمها الفظيع آرجس، ذا المائة عين يحرسها ويلحظها أنى سارت وأيان توجهت. . وذاقت يو الأمرين من هذه الحال حتى لقيت أباها رب أحد الأنهار مرة فتحدثت إليه بما كان من أمرها مع زيوس. . ولم يطق سيد الأولمب صبراً، فأنفذ ولده الصناع هرمز إلى آرجس ليحتال عليه ويقتله وينقذ يو من شره. . . وأفلح هرمز في مهمته، ولكن حيرا نقمت على البقرة وسلطت عليها ذبابا ساماً ما فتئ يقرصها ويعضها حتى تصالح زيوس وحيرا، ورجاها أن تطلق سراح يو فقبلت، على شريطة أن تنطلق من هيلاس كلها!! وقبل زيوس، وأعاد إلى يو صورتها. . . وأنفذها إلى. . . شطئان مصر. . . حيث تزوجت بفرعونها العظيم. . . وكان من نسلها هؤلاء النسوة المتضرعات، اللائى يتحدث إسخيلوس عنهن في هذه الثلاثية

ونحن نعتمد في تلخيص الدرامة الأولى الباقية على ترجمة لويس كامبل (طبعة إكسفورد) الشعرية، أما الدرامتان الأخريان المفقودتان (مصلحات فراش النوم) و (دانايديز) كما ذكرهما الأستاذ جلبرت موري في تاريخه عن الأدب الإغريقي (طبعة أبلتون ص217) فسنخلصهما معاً معتمدين في ذلك على الأستاذ هـ. ا. جربر ص 142

يرجع بنا إسخيلوس إلى عصر موغل في القدم، حتى ليكاد أن يكون عصرا خرافياً ذلك هو العصر الذي كان في إيجبتوس أميراً على مصر السفلى. . . إيجبتوس الذي لا يعرفه التاريخ. . .

وكان لهذا الأمير خمسون ابناً، وكان لأخيه دانوس خمسون ابنة، فأراد إيجبتوس أن يزوج أبناه الخمسين من بنات أخيه الخمسين، برغم ما في هذا الزواج من مخالفة لشرائع الدين في مصر في هذا الزمان، ذلك أن هذا الدين الذي كان يبيح زواج الأخ من أخته، كان مع ذاك يحرم زواج ابن العم من بنت العم، ويعتبره - لو تم - نوعاً من الزنى

لذلك صمم دانوس، التقي الورع المتعبد، المتفاني في طاعة الآلهة، ألا يتم هذا الزواج وسبب آخر جعل دانوس يغلو في تصميمه، ويتشبث به، برغم ما تجره عليه عداوة

أخيه، أمير مصر العظيم، من بلاء وأرزاء
ذلك أنه كان لا ينوي تزويج واحدة من بناته الخمسين قبل أن يودع الحياة، وقبل أن يجيئه الموت، وقبل أن يجرع كأس المنون حتف أنفه! وكيف؟
لقد ذكر دانوس، حين كلمه أخوه الأمير في بناته الخمسين، تلك الرؤيا المفزعة التي أريها إذ هو شاب في غضارة الشباب، فأقضت مضجعه، وطمست مباهج الحياة في قلبه، وتركته لا يفكر إلا في هذه النهاية المريرة التي تدحرجه إلى شفاها الأيام؛ ويقذف به في هاويتها الزمان الغدار!!
رأى دانوس، إذ هو نائم فوق ضفاف النيل السندسية المعشوشبة، في ليلة مقمرة من ليالي الصيف الجميل الفضي، أن زوجاً من أزواج بناته يقتله، ويغمد خنجره ذا القبضة الذهبية
في أحشائه، ثم يقذف بجثته الممزقة بعد ذلك في النيل، فتحملها أواذيه إلى اليم المصطخب، إلى حيث لا يدرك لها قرار!!
(إذن لن أزوج واحدة من بناتي!!)
وذهب في الأرض على وجهه يلقي الكهان وسدنة الآلهة ليفسروا له الرؤيا، فما زاده لقاؤهم إلا ترويعاً، لأنهم جميعاً أكدوها له. . . وإذن. . . (فلن أزوج واحدة من بناتي!!)
- 3 -
وألح إيجبتوس على أخيه، ولكن دانوس ظل يمطله. . ويمطله
وأعد دانوس مركباً كبيراً حمل فيه بناته. . وأبحر في ظلام الليل. . . إلى مملكة جدته. . . جدته يو. . . حبيبة زيوس سيد الأولمب وكبير الإلهة. . . . ليبارك ذراريها، ويسهر على أحفادها!
وقد ضرب في البحر، ولعبت بمركبه الأنواء، وطفق يلقي مور اليم وتناحر الموج ما أرخص له الموت. . . لولا أن استوى على شاطئ آرجوس، فنزل وقد بلغ منه الأين، وحطمه النصب
- 4 -
وسار ببناته حتى بعد قليلا عن الشاطئ، وحتى كان في البقعة المباركة المطهرة، التي جعلتها آرجوس حرماً للآلهة، وأقامت فيها التماثيل لأربابها. فوقف دانوس يعرّف بناته بسادة الأولمب، وانطلق البنات يغنين لآلهة هيلاس، ويقرئنهن السلام من آلهة النيل، وطفقن يهزجن بنشيد طويل حلو، تنضحه الدموع وتصهره حرق في الضلوع، ويفيض منه الموجعان الشجو والشكو!!
وإنهن لفي صلاتهن وتغنيهن، وإذا رجل طوال سامق، بادي الهيبة موفور الوقار يخرج إليهن فجأة من الأدغال القريبة، فيقف لحظة يرنو إليهن، ثم يتقدم فيسألهن:
- مَن النَّسوةُ المهاجرات في هذا الزي الغريب! منظر عجب وآلهة الأولمب!) الشاكيات الباكيات في ثياب بربرية، لا أرجفية ولا إغريقية؟! منْ؟ ما هذه الأفنان الناضرة؟ أمن الزيتون هي! وفيم وضعتُنها عند أقدام التماثيل يا مهجرات؟ تماثل آلهتنا، وأوثان أربابنا المباركة؟)
وتتقدم إليه كبراهن فتسائله:
- إن يكن قد بدهك زينا فمن أنت! أمواطن من آرجوليس؟ أم موكل بهذا الحرم تحرسه وتقوم عليه؟ أم عظيم من آرجوس ونابه من حكامها؟ هل للسيد أن يجيب؟)
وهش الرجل وبش، وتبسم ضاحكا من قول الفتاة، ثم تلطف فذكر له أن ببلاسجوس بن باليختون، ملك آرجوس وحامي ذمارها؛ وأوضح فذكر شعبه وأملاكه ومدائنه، وهذا السهل وذاك الجبل وتلك الوهاد. . . وهاتيك البطاح
واهتزت الفتاة من رهبة وقالت: (إذن. . . فنحن نمت إلى آرجوس بوشائج القربى، نحن يا مولاي من نسل البقرة المشردة على حفافي النيل. . . هرعنا إلى آرجوس نلتمس الحمى!)
- من نسل البقرة المشردة؟ وتمتن إلى آرجوس بوشائج القربى؟ عجيب وآلهة الأولمب؟ إن ملامحكن لا تدل على أصل إغريقي البتة!! وربما كنتن من هذه القبائل الضاربة في أباطح إفريقيا. . . من مصر. . . أو من أثيوبيا يا بنات! أو عسى أن تكن هنديات من اللائى يضربن أفخاذ الإبل هنا وهناك في جنبات آسيا. . . آه! لا لا، بل

عسى أن تكن أمازونات يا فتيات!! أمازونات لا يعرفن الرجال قط. . . يغتذين باللحم النيئ!. . . خبرنني بحق الآلهة عليكن. . . إن كنتن تمتن بوشيجة إلى آرجوس فكيف كان ذلك؟. . .)
- (قد يعرف الملك ما كان بين سيد الأولمب وبين يو من علائق!)
- (أجل، أعرف. . . أعرف. . . ولكن ماذا كانت عاقبة يو؟)
- (لقد سحرتها حيرا بقرة. . .)
- (وزيوس؟. . .!)
- (سحر نفسه عجلا جسدا له خوار!)
- (ثم. . . . . .)
- (ثم لم تبال به حيرا، بل وكلت ببقرتها حارساً غليظاً ذا مائة عين!)
- (مائة عين؟ حارس ذو مائة عين من أجل بقرة واحدة؟ يا له من راع!)
- (أجل. . . آرجس أيها الملك، الذي قتله هرمز)
- (ولما قتله هرمز، هل أطلق سراح البقرة؟)
- (لا، ولكنها أرسلت عليها الذبابة السامة تعضها، وتنغص حياتها، وتزيدها شقاء على شقاء
- (وأين انتهى بها المطاف يا فتاة!)
- (خاضت البحر اللجي حتى كانت على شواطئ مصر حيث تتدفق أمواه النيل. وثمة أعاد إليها زيوس شبابها وعنفوانها وأولدها إبافوس. . . منشئ ممفيس
- (وهلا تذكرين لها أطفالاً آخرين؟)
- (بلى. ولدها (بل) وقد أنجب بل ولدين كريمين، أبانا هذا الشيخ. . . و. . .)
- (أباكم؟ ما أسمه؟. . .)
- (دانوس أيها الملك ونحن بناته الخمسون. . .)
- (وأخوه؟ ما اسم أخيه؟)
- (إيجبتوس أمير مصر وملكها. . . والآن! هل تأكدت من صدق منشئنا؟)
- (لا ريب! حصحص الحق! ولكن اذكري لي! فيم هاجرتن من بلادكن؟)
- (أوه!! إنه لأمر يهيج أشجاننا أيها الملك!؟ يا للدنيا التي تكظها الآلام. . .)
- (إن لكن لشكاة يا فتيات، فلا تخشين أن تبحن بها، إنكن بحضرة ملك آرجوس وإن هذه الأفنان التي وضعتنها عند أقدام إلهتنا لنتكلم عن شكاتكن. . .!)
- (إن كان لابد أن تعرف، فقد رفضنا أن نكون خولا لعمنا إيجبتوس! لقد أرادنا على أن نكون متعة لأبنائه الخمسين فرفضنا، لأن شرائعنا تأبى ذلك. . . وها قد لجأنا إليك لتحمينا فلا تسلمنا لعمنا أبدا!)
- (يا للهول!! إني لألمح لهب الحرب يومض في ظلماء المستقبل!)
- (ولكن زيوس سيكون إلى جانبك!)
- (أواه! قد أجر الحراب على آرجوس! من يستطيع أن يمنع إيجبتوس حقه فيكن؟)
- (الآلهة تستطيع ذلك إذا أيدت قضيتنا وآزرتنا أيها الملك. . . الآلهة تنصر الفضيلة دائماً!)
- (على كل. . . أنا لا أستطيع أن أبرم في ذاك أمراً دون أن أستشير شعبي ورجال دولتي!)
- (أنت الحكومة وأنت الشعب وأنت الدولة!)
- (كلا يا فتيات! أنا ملك آرجوس فحسب! لا بد من الشورى!)
- (إذن. . .!)
- (إذن ماذا يا فتيات!)
- (إذن. . . وحق آلهتك. . . لنشنقن أنفسنا في جذوع هذه التماثيل! ولتكونن مأساتنا خزياً أبدياً في شرف آرجوس لا تمحوه الأيام!!)
- (وا حربا! على رسلكن يا فتيات! لا تسئن الظن بشرف آرجوس وشجاعة ملكها. . . ولكنا هنا قلب واحد ينبض بأحاسيس واحدة! بيد أنني أدلكن على مخرج من هذا المأزق الحرج. . . ليذهب أبوكن - هذا الشيخ - بهذه الأفنان الناضرة، فليلقها لدى أقدام الآلهة في معبد المدينة حيث يعكف الشعب على أربابه يبتهل إليها ويصلي لها. . . فإذا سأله في ذلك أحد، فليبث شكواه، وليذرف دموعه، وليكسب إلى جانبه

الجماهير الحاشدة التي نحكم باسمها ونستمد منها سلطاننا! فهنالك، وهنالك فقط، يستطيع ملك آرجوس أن يؤيدكن، وأن يحميكن. . . أما أن أعدكن بالحماية من غير أن أرجع إلى شعبي. . . فـ. . . فأنا أخشى أن يقولوا إني أذهبت ريحهم وهرقت دماءهم فيما لم يكونوا منه بسبيل!!)

- 5 -

ويُنْفذ الملك مرشداً مع دانوس يدله على الطريق إلى معبد آرجوس الجامع، ويودع البنات لينطلق بدوره، فيؤيد قضيتهن بين وزرائه، وليرقق قلوب الشعب من أجلهن، وليضمن لهن مؤازرة آرجوس كلها

ويأخذ الفتيات في صلاة طويلة كلها آمال وكلها أماني، وكلها ضراعة وكلها ابتهال، وكلها تذكير للآلهة بما حاق بذرية يو التعساء، ثم ثناء على أرباب الأولمب لا ينتهي!

- 6 -

وفيما هن يصلين هذه الصلاة الطويلة، إذا أبوهن، دانوس الشيخ، يدخل عليهن فجأة، حامل إليهن البشرى

- (ليهنكن يا فتيات!! ليهنكن! لقد ضمنا أصوات الشعب وتأييد آرجوس!)

- (أبانا! بوركت! يا للبشرى! ولكن. . . قص علينا كيف تم ذلك بحق الآلهة عليك!)

- (ما كدت أجوس خلال آرجوس حتى تكبكب الشعب حولي، مأخوذاً بغرابة بزتي وعجيب هيئتي. . . وزادهم إجلالاً أني ظهرت فيهم كضيف للملك وصديق لآرجوليس؛ فلما نثرت الأفنان عند أقدام الآلهة، وصليت وبكيت، وبثثت شكواي، رثى الأرجيف الكرماء لي، فناشدتهم أن يؤازروني، ويشددوا عضدي، ضد عدوي الغاشم الذي أراد أن يفضحني فيكن، ويجر الخزي عليكن. فهتفوا لي، وحيوني تحية الأبناء الأمناء، وأعطوني موثقهم على افتدائي بأزكى الدماء. . . وعاهدوني على أن يذودوا العالمين دوني. . . ثم هالني أن أرى السماء ترسل أضواءها فتملأ أركان المعبد بهاءً وتكسبها رونقاً ورواء. . . وأقبل الملك فهتف الشعب له، والتفوا حوله، فخطبهم في شأني وحذرهم أن يغضبوا زيوس ربهم إذا لم يؤازروني، وينصروني، ويؤيدوا حقي على باطل عدوي. فهتفوا بلسان واحد أن كيف لا ينصرون لاجئاً إلى قدس زيوس، مستجيراً به، مستشفعاً بآرجوس يرجو حماها! ثم عرضوا آخر الأمر أن أقيم بين ظهرانيهم كواحد منهم، وأن تكون لكن من الحقوق ما للأرجيفيات، غير خائفات ولا مروعات. . . هذه يا بناتي قصتي، وهذه أقضية السماء فاشكرن لها وتبتلن)

(البقية في العدد القادم)

دريني خشبة

البريد الأدبي

أخي الأستاذ الزيات

لا أقدر أن أعلل المصادفة التي جعلتني أكتب قبيل شهر هذه المقطوعة (الاتصال):

(لم تخلق الحياة جزءا يستطيع أن يعيش متصلا،
حتى الأموات الذين أتموا دوراتهم يبقى اتصالهم بأرواحنا،
والأحياء أنفسهم هل يستطيعون أن يعيشوا بغير أموات؟
هم في يقظاتهم يمشون وراء خواطرهم وأفكارهم
وهم في أحلامهم يعيشون في جزائرهم النائية. . .)

ثم قدمت لي المصادفة كتاب (المرملة) لماترلنك، فلمست بدهشة وتأثير (صوفيته العميقة) وإحساسه بالموتى الذين لا يموتون

(لا حياة لنا إلا الموت، وما الموت إلا شيء يضيع فالريح مقيم ولا شقاء! حيثما يقيم ينفذ إليها نصب ولا حزن ولا شقاء! حيثما يقيم فالريح مقيم ولا شيء يضيع لنكن مطمئنين فالموت لا يحفظ لنا شيئاً أكثر تجهماً من الحياة، وما الموت إلا حياة لا نصلِّ من أجل الموتى! ولكن لنأتهم مبتهلين فان ما يملكونه لتقديمه إلينا أكثر مما نملكه لتقديمه إليهم)

ثم جاءت كلامة الأستاذ أحمد أمين تحمل إليك التعزية في الرجاء الذاهب والكوكب الغارب!

يقول بوذا: (لا تقيد نفسك بالمحسوسات، فالتقيد بها يشقيك. . . عش متجردا من كل حب محسوس وعلاقة محسوسة) وقد أجد في هذه الكلمة كل الشفاء لو تستقر في

النفس. ولكن النفس التي تؤلف كل هذا المحسوس وترتبط به في كل لحظة وتعيش معه في كل مكان، كيف ينزع منها ولا تجد لنزعه مرارة؟ وكيف لا تحس به النفس وهي تغذيه كل يوم بدموع!

جميل أن أعيش بعيداً عن المحسوس، وأجمل منه هذا العقل الذي يغرس في قلبي هذا الإيمان المجرد؛ وهل أستطيع أن أبلغ الإيمان المجرد إلا بعد أن تجردني الحادثات وتنثر أوراقي كالشجرة التي لا تلمس نفسها وتحس وجودها إلا بعد أن تتجرد من أوراقها وأزهارها. ولا يأتي التجرد من غير ثمن!

ثمن هذا التجرد شقاء نتحمله، وألوان من العذاب نتذوقها، وقطع من أكبادنا تمشي على الأرض إلى الأرض!

لا أستطيع أن أقول لك: (تعز يا أخي بالتجرد!) وهذا التجرد نفسه يحتاج إلى تعزية. ولا أن أقول: (انفض يديك من الصغير المفقود) فانه جر إلى التراب قطعة من كبدك معه. ولكن دع هذه القطعة فيها حركة وفيها حياة. . . تحيا تحت التراب كما تحيا فوقه. . . ومتى رأيت أن الحياة تعمل هناك كما تعمل هنا، وأبصرت أن الحياة التي تتمشى في جذور الأرض هي التي تتمشى في مطالع أزهارها. كان لك من هذا عزاء، لأنك تأمن على هذه القطعة التي سلخت منك. وفي الذكرى المتصلة حياة، وفي الرجاء المتصل الذي لا ينقطع ألف حياة.

خليل هنداوي

حول راثي الأندلس المجهول

يرجع الفضل في العودة إلى إثارة البحث عن صاحب القصيدة التي نشرها، للمرة الأولى، الدكتور صوالح محمد بالجزائر سنة 1919، إلى صديقي السيد عبد الرحمن حجي، مدرس اللغة العربية بمدرسة أبناء الأعيان بسلا. واتخذ ميدانه وطلب من المشتغلين بالأدب (عدد 131 - 6136) (الرسالة) الأندلسي أن يعلنوا عن صاحبها إذا عرفوه، فلم يجيبه أحد سوى السيد محمد عبد الله عنان الذي حاول في مقالة نشرتها له (الرسالة) أيضاً عدد (133 - 20136) تحقيق فترة الدهر التي يرجع إليها قرض القصيدة تسهيلا في البحث عن صاحبها وعصره. وقال السيد حجي إنه عرض القصيدة على المؤرخ المغربي السيد محمد بن على الدكالي السلوي فذكر له أن صاحبها كما يفهم من القصيدة من المرية، ولعله أبو جعفر بن خاتمة، وقد تكون مذكورة في كتابه (مزية المرية) الذي في دير الأسكوريال نسخة منه. وقال السيد حجي أيضا إن الدكتور صوالح قال في كتابه إن هذه القصيدة من جملة القصائد التي بعثها مسلمو الأندلس يستغيثون بها السلطان العثماني بايزيد الثاني. ولم نعثر نحن على هذا القول في الكتاب المذكور

أما نسبتها إلى أبي جعفر أحمد بن خاتمة فهو غلط تاريخي، فقد مات هذا في اليوم السابع من شهر شعبان سنة 770 (فهرست أبي عبد الحضرامي السبتي، التي ألفها له الخطيب بن مرزوق (النفح، ج3، ص244، ط القاهرة)

وابن خاتمة من معاصري لسان الدين بن الخطيب المشهورين وله معه مكاتبات. وله أيضا في الوزير قصائد (النفح، ج3، ص433 ط القاهرة). ومن جهة أخرى، فقد ترجم الوزير في الإحاطة لابن خاتمة وعَدّه من أصدقائه (الإحاطة، ج1، ص174، ط القاهرة 1319)

فليست القصيدة إذاً لابن خاتمة الذي مات، على الأقل، منذ 80 سنة قبل الفترة التاريخية التي قيلت فيها والمُستَنْتَجَة منها، كما لا يمكن أن تجيء في كتابه (مزية المرية)

وجاء البيت 77 من القصيدة هكذا:

ترى في الأسى أعلامَها وهي خُشَّع ... ومِنْبرها مُستَعِبرٌ وسَريرُها

سقطت (في) من صدره في الأصل وفي (الرسالة)، إلا أن ناشر الأصل نَبّه عن ذلك في آخر الكتاب في جدول التصحيح. ولعل صديقي حجي أغفل النظر إلى الجدول

حول ذخيرة ابن بسام أيضا

واهتيل الكتابة إلي (الرسالة) التي مضى لها الكلام حول ذخيرة ابن بسام (عدد 115) لأزيد أن النسختين المعروفتين اليوم بالمغرب الأقصى من هذا التأليف هما:

1 - نسخة ينقصها الجزء الرابع في خزانة السيد عباس بن إبراهيم، أحد قضاة مدينة مراكش الحاليين

2 - نسخة أخرى ينقصها الجزء الرابع أيضا، كانت لأوقاف مدينة تطوان بمنطقة النفوذ الأسباني بالمغرب، ولكن شخصا توصل إلى اقتنائها وحملها إلى الرباط بمنطقة النفوذ الفرنسي. وقد اقتنتها منه الحكومة المغربية لخزانة الرباط العمومية. وقد دخلتها فعلا، وقيدت برقم (1324) بدفتر المخطوطات العربية الثاني. ولم يقتنها السيد ليفي بروفنسال لنفسه كما شاع ذلك بالمغرب. وقد استعارها أخيراً السيد ليفي بروفانسال الأستاذ بجامعة الجزائر بواسطة خزانة مدينة الجزائر الأهلية. ولعله لينشرها أو ليقارنها بأخرى. ومما لاشك فيه أن بخزائن المغرب نسخا أخرى لا تزال مجهولة

عبرات حرار

ولتسمح لي (الرسالة) مرة أخرى، لأنتهز هذه الفرصة أيضاً لأوجه هذا السؤال إلى السيد عبد القادر المغربي رئيس المجمع العربي بدمشق سابقاً

سيدي:

قلتَ في (مجلة مجمع اللغة العربية الملكي) (عدد 1 صفحة 338):

إن العرب إن لم يصفوا الدّموع بلفظ الحَرَارة فانهم وصفوها بمرادف الحرارة، أعني (السخونة والإحراق). . .

والفرق بين العربي والإفرنجي: أن الأولين ينسبون السُّخونة إلى عين نفسها، والإفرنج ينسبون الحرارة إلى دموعها

فما رأيك يا سيدي في قول الخنساء:

مَنْ كان يوماً باكِياً سَيّداً ... فليبكه بالعَبرَات الحرار

(سلا - المغرب الأقصى)

محمد حصار

كتاب هام عن المسألة الفلسطينية

أثارت المسألة الفلسطينية في العهد الأخير كثيراً من الاهتمام وصدرت عنها وعن تطوراتها كتب كثيرة، ولكن معظم هذه الكتب تميل إلى الناحية اليهودية وإلى تأييد السياسة البريطانية وإنشاء الوطن القومي اليهودي، وقلما ينصف العرب أو يقدر مطالبهم وحقوقهم قدرها؛ بيد أنه ظهر أخيرا كتاب بالإنكليزية عن المسألة الفلسطينية عنوانه (فلسطين العربية) بقلم السيدة بياتريس ستيوارث إركسن يؤثر الناحية العربية بكثير من الشرح والتفصيل، ويميل إلى إنصاف العرب وتصوير وجهة النظر العربية تصويراً عادلاً. وتمهد المؤلفة لبحثها باستعراض تاريخ فلسطين منذ أقدم العصور حتى الحرب الكبرى، ثم تاريخ المسألة الصهيونية منذ فاتحة القرن الماضي حتى سعي اليهودية إلى عرض تأييدها ونفوذها على الحكومة الإنكليزية مقابل إنشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين، وصدور عهد بلفور الشهير بإنشاء الوطن القومي، ثم قيام الانتداب البريطاني على فلسطين

وتشير المؤلفة إلى إغفال رأي العرب فتقول إن منح فلسطين لتكون وطناً قومياً لم يرجع فيه إلى رأي السكان (الفقراء) الذين كانوا حلفاءنا. كذلك لم تقدر فيه عواقب تدفق الهجرة إلى بلد صغير محدود الموارد، ولم تكن هناك سياسة ثابتة لمعالجة الموقف الذي ينشأ عن ذلك، وهي سياسة كان يجب أن تقوم على استشارة ذوي الشأن جميعاً، وأن يراعي فيها تنفيذ الشطر الثاني من تصريح بلفور الخاص بأنه (لن يعمل شيء يمكن أن يضر بالحقوق المدنية أو الدينية للطوائف غير اليهودية من سكان فلسطين)، ولا ريب أن تعيين هذه الحقوق الدينية والمدنية كان من شأنه أن يفر كثيراً من سوء التفاهم، وأن يحمل العرب على الثقة بالدولة المنتدبة، وأن يزيد في احتمال التعاون بين مختلف العناصر

وقد هرع اليهود إلى البلاد لا كمهاجرين بل كفاتحين، وشعر العرب بأنهم حرموا كل

نصيب في النفوذ والحكم؛ وكان المندوب السامي الأول يهودياً، فكان تعيينه ضربة للعرب. وتعاقب المندوبون الساموت وتعاقبت الوزارات البريطانية ولم يجد العرب إنصافاً، وألفت
السلطات يدها مغلولة بنصوص الانتداب، واستمر الاحتكاك بين العرب واليهود؛ وزادت المنازعات الدينية الأمور تعقيداً، وكانت تنتهي أحياناً بسفك الدماء. بيد أن اليهود لم يكتفوا بما بلغه الوطن القومي من التوطد والتقدم، فهنالك (حزب الإعادة) الذي يتزعمه فلادمير جابوتنسكي، وهو يطالب بإطلاق الهجرة اليهودية من كل قيد، وحماية المستعمرين بمنحهم حقوقاً ومزايا خاصة، وغير ذلك من المطالب المتطرفة
ولا ريب أن العرب يقابلون كل هذه المطالب والدعاوى بالإنكار والمقاومة؛ ومن المستحيل أن تعاون الأحوال القائمة على وضع أي حل مرض للمسألة الفلسطينية
وتقترح المؤلفة من عندها حلا يقوم على التوزيع الجغرافي، وترى تقسيم فلسطين إلى قسمين يكون كل منهما دولة خاصة، فتكون إحدى الدولتين عربية وعاصمتها بيت المقدس وثغرها يافا؛ وتكون الأخرى يهودية وعاصمتها وثغرها تل أبيب، وتنضم الدولتان إلى عصبة الأمم؛ وتعتبر بيت المقدس وحيرون وطبرية وصفد وبيت لحم مدناً دينية تخضع للنظم والقوانين التي تضعها عصبة الأمم، وتبقي حيفا ثغراً حراً، وتضم شرق الأردن إلى فلسطين العربية
والخلاصة أن المؤلفة تبدي كثيرا من الاعتدال في عرض المسألة الفلسطينية وتخص الناحية العربية بكثير من الإنصاف والعطف، وتبدي شجاعة في عرض القضية العربية يندر أن يبديها قلم أجنبي. ومن ثم فان كتابها خليق باهتمام العرب، وهو بلا ريب وثيقة مفيدة في عرض القضية العربية في إنكلترا وفي أوربا
قصص فلسطينية
صدرت أخيرا ترجمة إنكليزية عبرية من القصص الفلسطينية عنوانها أعني (قافلة فلسطين) بقلم الكاتب اليهودي موشي سميلانسكي وهذا الكاتب القاص معروف بين مواطنيه بقوة تصويره وطرافة خياله. ويحتوي كتابه المذكور على إحدى عشرة قصص فلسطينية، عن اليهود والفلاحين والبدو، ويميل سميلانسكي بنوع خاص إلى تصوير الحياة الريفية، ويجد هذا النوع من الصور. وبين القصص المذكورة عدة تمتاز بحسن السبك والمفاجآت المدهشة، وبينها عدد يمتاز بحسن التصوير والدراسة الطبيعية والنفسية العميقة ولاسيما فيما يتعلق بدسائس القرية، ووصف الحياة الريفية ذاتها وحياة الفلاحين وأعمالهم
في الحقل والمنزل، ومما يلاحظ أن الكاتب حتى في دراساته الوصفية يجانب الإسهاب الممل، ويقتصر في الوصف واللفظ على ما لابد منه لإظهار الصور والمعاني
طريقة المجمع اللغوي في كتابة الأعلام الأعجمية
وافق مجمع اللغة العربية الملكي على القواعد الآتية في كتابة الأعلام الأعجمية وهي:
1 - أن يكتب العلم الإفرنجي بحسب نطقه في اللغة الإفرنجية ومعه اللفظ الإفرنجي بحروف لاتينية بين قوسين في البحوث والكتب العلمية على حسب ما يقرره المجمع في شأن كتابة الأصوات اللاتينية التي لا نظير لها في العربية
2 - تكتب أسماء الأعلام بحسب النطق بها في لغتها الأصلية أي كما ينطق بها أهلها وليس كما تكتب. مع مراعاة ما يأتي:
3 - جميع المعربات القديمة من أسماء البلدان والممالك والأشخاص المشهورين في التاريخ التي ذكرت في كتب العرب يحافظ عليها كما نطق بها قديماً، ويجوز أن نذكر الأسماء الحديثة التي شاعت بين قوسين، وإذا اختلف العرب في نطقين رجح أوثقهما
4 - أسماء البلدان والأعلام الأجنبية التي اشتهرت حديثاً بنطق خاص وصيغة خاصة مثل باريس وإنجلترا والنمسا وفرنسا وغير ذلك تبقى كما اشتهرت نطقاً وكتابة
5 - الأعلام القديمة يونانية ولاتينية ينظر في وضع قواعد خاصة بها
6 - الأعلام السامية القديمة التي تكتب بحروف الهجاء الخاصة بها توضع لها قواعد خاصة بها
7 - اللغات التي لا تزال تكتب بالحروف العربية، ولكن فيها أصواتاً ليس لها حروف عربية، ولهذه الأصوات في لغاتها حروف خاصة اصطلح عليها كالفارسية والملاوية والهندستانية والتركية في الحكم العثماني، ترى اللجنة بشأنها أن تدرس هذه الأصوات

الخاصة وتتخذ لها الحروف التي وضعها لها أهلها
8 - بعض القبائل والبلاد الإسلامية لها لغة خاصة لا يستعملونها غالباً في الكتابة، وإنما يكتبون باللغة العربية، ولكن لها أعلاماً بعض أصواتها لا يطابق الحروف العربية، وقد وضعوا لها إشارات لتأدية هذا النطق، وفي بعض الأحيان تكون هذه الإشارات متعددة للصوت الواحد - ترى اللجنة بعد البحث أن يختار أحد الاصطلاحات في كتابة هذه الأعلام
وانتهى المجمع من المناقشة في هذا القرار بوضع الحرف - جاف - ويكتب كافا على شرطتها ثلاث نقط
9 - الأسماء الأجنبية النصرانية تكتب كما عربها نصارى الشرق. فمثلا يقال بطرس في وبقطر في وبولص في ويعقوب في وأيوب في وهكذا
10 - قبلت اللجنة إدخال الحروف ورسمته باء تحتها ثلاث نقط و (تش ورسمته جيما تحتها ثلاث نقط، وورسمته زايا فوقها ثلاث نقط، وورسمته كافاً فوقها ثلاث نقط وهو حرف الجاف، وقد أرادت اللجنة من إدخال هذه الحروف للإشارة بها إلى بعض الأصوات التي لا توجد في العربية واختارت هذه العلامات لتداولها في اللغات الفارسية والتركية والهندية والملايوية
11 - قبلت اللجنة أن يكتب الحرف واوا بثلاث نقط فوقها وقد عدلت اللجنة عن كتابة (ف) بثلاث نقط لأن هذا الحرف مستعمل في بلاد المغرب إشارة إلى الحرف (جاف) أي الكاف المعقودة، وفي الملايو إشارة إلى الحرف لتعيين بعض الأصوات في الأعلام الإفرنجية
1 - اللغات التي لا تزال تكتب بالحروف العربية ولكن فيها أصواتاً تخالف أصوات الحروف العربية ولهذه الأصوات في لغاتها حروف خاصة اصطلح عليها كالفارسية والملايوية والهندستانية، ترى اللجنة بشأنها أن تدرس هذه الأصوات الخاصة وتتخذ لها الحروف التي وضعها لها أهلها
وقد درست اللجنة هذه الأصوات الخاصة المشار إليها ووضعت فيها ثلاثة قرارات:
(أ) الحرف (انج) في لغة الملايو. يرسم نون وجاف وهو يرسم في لغة الملايو غينا فوقها ثلاث نقط
(ب) الحروف الهندية المرسومة راء ذات أربع نقط، وتنطق بين الراء والضاد، وكذلك الراء التي فوقها طاء يكتفى بكتابتها راء عربية. وكذلك الذال التي فوقها أربعة نقط يكتفى بكتابتها دالا عربية
(جـ) بعض أسماء البلاد في الجزائر والهند الشرقية ومقاطعة موريتانيا وما يليها تنتهي بحسب نطق أهلها بفتحة مثل ولات ومندر وبعضهم يكتب بعد الحرف الأخير المفتوح تاء مربوطة، وترى اللجنة أن تختم كل الأعلام التي من هذا القبيل بتاء مربوطة وقد اتبع ابن بطوطة هذه القاعدة
2 - حرف - بالإنجليزي يكتب ألفا. وإذا كان في أول الكلمة كتب ألفاً عليها همزة. والحروف الإنجليزية , , وكل ما أشبهها في النطق تكتب بالعربية ياء. وإذا كان الحرف ممالا في اللغة الأجنبية، وضعت ألف قصيرة قبل الياء لتدل على أنه ممال كالعدد (8) للدلالة على الإشمام مثل كوته والحرف الأول هو حرف الجاف
3 - تكتب الأعلام التركية كما كتبها الترك بالحروف العربية حسب الاصطلاحات المتداولة عندهم، قبل اتخاذ الحروف اللاتينية وما جد بعد ذلك فحكمه حكم اللغات الإفرنجية
4 - الأعلام الأجنبية المنتهية في نطقها الأصلي بألف تكتب بالألف إلا فيما عربه العرب بالتاء المربوطة، كبخارى وبصرى وكسرى وعيسى وموسى
5 - الإمالة:
- رأت اللجنة أن توضع علامة أشبه بالمدة الرأسية للدلالة على هذا الصوت كما في مثلا فتكتب هكذا جيبور مع وضع مدة رأسية فوق الياء ولذلك يكتب حرف كما ينطق به أهل كل لغة، لأنه في الألمانية ينطق (ي) وفي الأسبانية (خ) كما هو في موخاكار وكذلك رأت اللجنة أن تضع علامتين للدلالة على حرف وحرف المخفف والمثل على الأولي فتكتب في العربية (زان ده لوز) بوضع ثلاث نقط فوق الزاي وعلى اللام علامة رقم (7) للدلالة على هذا الصوت والثانية كما في فتكتب في العربية كوته وعلى

الجاف علامة تشبه رقم (8) كما سبق ذلك
حول كتاب الذخيرة أيضاً
للمرة الثانية نرى في سيدة الصحف العربية (الرسالة) الغراء التنويه التام بالعلامة المستشرق الفرنسي الأستاذ ليفي بروفنسال إذ كان السبب الوحيد في استكشاف أثر حافل عن تاريخ الأندلس هو نسخة كاملة من كتاب (الذخيرة) لابن بسام، وساعده على ذلك أنه كان مديراً لمعهد المباحث العالية المغربية برباط الفتح، فقد نوهت به للمرة الأولى في العدد (115) بقولها (. . . لبث يبحث وينقب أعواماً طويلة في خبايا المكاتب المغربية حتى
ظفر بنسخة حسنة كاملة من كتاب: (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) وقالت مثل ذلك في العدد (140)
على أن الحقيقة ونفس الأمر خلاف ما كتبته الصحف الأوربية وخلاف ما نقلته الرسالة. والحقيقة التي لا يشوبها شيء هي أن كتاب الذخيرة كان في خزانة القائد الأكبر السيد اليزيد ابن الصالح الغماري (القاطن بغمارة من أعمال تطوان) من جملة الآثار النفيسة الموجودة بخزانته القيمة التي خلفها أسلافه الكرام حبوساً على عائلته أولاد صالح. وفي ذات يوم أتاه بعض أصدقائه وطلب من إعارة الذخيرة على أن يلتزم بطبعها والريع يقسمه بينهما، فاستحيا منه القائد ومكنه منها، فذهب تواً إلى خزانة المخزن الكبرى بالرباط وطلب من رئيسها شراءها منه فأخذها وأجله للغد، وفي الغد ذهب للخزانة فأعطاه الرئيس (3000) فرنك ثمن الذخيرة، فأبى من البيع، فلم يرض الرئيس بردها له قائلاً: إن المخزن الشريف أرادها فخذ الثمن أو اذهب؛ فلم ينفعه إلا أن اخذ الثمن وذهب لسبيله. تلك حقيقة قصة كتاب (الذخيرة) واكتشافها ونحن لا ننكر فضل الأستاذ ليفي بروفنسال فهو كما ذكرت (الرسالة) الغراء وزيادة، وإن ننس فلا ننس جهوده التي بذلها نحو الكتب الإسلامية، وإنما نحب إظهار الحقيقة ليس إلا. ومن الكتب التي اعتني بنشرها هذا الأستاذ ولم تذكرها الرسالة: المجلد الأول من (الجامع الصحيح) للإمام أبي عبد الله البخاري المكتوب بخط ورواية أبي عمران موسى بن سعادة الأندلسي، نقل منه نسخاً عديدة بالتصوير الشمسي ومعه كتاب (التنويه والإشادة بمقام رواية ابن سعادة) للعلامة المحدث الشهير صاحب الفضيلة السيد محمد عبد الحي الكناني، والقسم الثاني من (الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام) لذي الوزارتين لسان الدين بن الخطيب، وكتاب (مفاخر البربر) مجهول المؤلف، و (نخبة تاريخية) جامعة لأخبار المغرب الأقصى جمعها من كتب شتى، و (نبذ تاريخية) في أخبار البربر في القرون الوسطى انتخبها من كتاب مفاخر البرير المتقدم وغيرها من الكتب
(فاس - المغرب الأقصى)
إدريس الكتاني
العدد 145 - بتاريخ: 13 - 04 - 1936
اللغة والدين والعادات باعتبارها من مقومات
الاستقلال
للأستاذ مصطفى صادق الرافعي
ليست حقيقة الأمة في هذا الظاهر الذي يبدو من شعب مجتمع محكوم بقوانينه وأوضاعه؛ ولكن تلك الحقيقة هي الكائن الروحيُّ المكتنُّ في الشعب، الخالص له من طبيعته، المقصورُ عليه في تركيبه؛ كعصير الشجرة لا يُرى عمله والشجرة كلها هي عمله
وهذا الكائن الروحي هو الصورة الكبرى للنسب في ذوي الوشيجة من الأفراد، بيد أنه يحقق في الشعب قرابة الصفات بعضها من بعض؛ فيجعل للأمة شأن الأسرة، ويخلق في الوطن معنى الدار، ويوجد في الاختلاف نزعة التشابه، ويرد المتعدد إلى طبيعة الوحدة، ويبدع للأمة شخصيتها المتميزة، ويوجب لهذه الشخصية بازاء غيرها قانون التناصر والحميَّة؛ إذ يجعل الخواطر مشتركة، والدواعي مستوية، والنوازع متآزرة، فتجتمع الأمة كلها على الرأي: تتساند له بقواها، ويشد بعضها بعضاً فيه. وبهذا كله يكون روح الأمة قد وضع في كلمة الأمة معناها
والخلق القومي الذي ينشئه للأمة كائنها الروحي، هو المبادئ المنتزعة من أثر الدين

واللغة والعادات، وهو قانون نافذ يستمد قوته من نفسه، إذ يعمل في الحيِّز الباطن من وراء الشعور، متسلطا على الفكر، مصرِّفاً لبواعث النفس؛ فهو وحده الذي يملأ الحي بنوع حياته، وهو طابع الزمن على الأمم، وكأنه على التحقيق وضعُ الأجداد علامتهم الخاصة على ذريتهم

أما اللغة فهي صورة وجود الأمة بأفكارها ومعانيها وحقائق نفوسها، وجودا متميزا قائما بخصائصه؛ فهي قومية الفكر، تتحد بها الأمة في صور التفكير وأساليب أخذ المعنى من المادة. والدقة في تركيب اللغة دليل على دقة الملكات في أهلها؛ وعمقها هو عمق الروح ودليل الحس على ميل الأمة إلى التفكير والبحث في الأسباب والعلل؛ وكثرة مشتقاتها برهان على نزعة الحرية وطماحها، فإن روح الاستعباد ضيق لا يتسع، ودأبه في المستعبدين لزوم الكلمة والكلمات القليلة

وإذا كانت اللغة بهذه المنزلة، وكانت أمتها حريصة عليها، ناهضة بها، متسعة فيها، مكبرة

شأنها، فما يأتي ذلك إلا من روح التسلط في شعبها، والمطابقة بين طبيعته وعمل طبيعته، وكونه سيد أمره، ومحقق وجوده، ومستعمل قوته، والآخذ بحقه. فأما إذا كان منه التراخي والإهمال، وترك اللغة للطبيعة السوقية، وإصغار أمرها، وتهوين خطرها، وإيثار غيرها بالحب والإكبار؛ فهذا شعب خادم لا مخدوم، تابعٌ لا متبوع، ضعيف عن تكاليف السيادة، لا يطيق أن يحمل عظمة ميراثه، مجتزئٌ ببعض حقه، مكتفٍ بضرورات العيش، يوضع لحكمه القانون الذي أكثره للحرمان وأقله للفائدة التي هي كالحرمان

لا جرم كانت لغة الأمة هي الهدف الأول للمستعمرين؛ فلن يتحول الشعب أول ما يتحوّلُ إلا من لغته؛ إذ يكون منشأ التحول من أفكاره وعواطفه وآماله، وهو إذا انقطع من نسب لغته انقطع من نسب ماضيه، ورجعت قوميته صورة محفوظة في التاريخ، لا صورة محققة في وجوده. فليس كاللغة نسب للعاطفة والفكر؛ حتى إن أبناء الأب الواحد لو اختلفت ألسنتهم فنشأ منهم ناشئ على لغة، ونشأ الثاني على أخرى، والثالث على لغة ثالثة، لكانوا في العاطفة كأبناء ثلاثة آباء

وما ذلَّت لغةُ شعب إلا ذلَّ، ولا انحطت إلا كان أمره في ذهاب وإدبار. ومن هذا يفرض الأجنبي المستعمر لغته فرضاً على الأمة المستعمرة، ويركبهم بها، ويشعرهم عظمته فيها، ويستلحقهم من ناحيتها؛ فيحكم عليهم أحكاماً ثلاثة في عمل واحد: أما الأول فحبس لغتهم في لغته سجناً مؤبداً؛ وأما الثاني فالحكم على ماضيهم بالقتل محواً ونسياناً؛ وأما الثالث فتقييدُ مستقبلهم في الأغلال التي يصنعها؛ فأمرهم من بعدها لأمره تَبَع

والذين يتعلقون اللغات الأجنبية ينزعون إلى أهلها بطبيعة هذا التعلق إن لم تكن عصبيتهم للغتهم قوية مستحكمة من قِبَل الدين أو القومية. فتراهم إذا وهنت فيهم هذه العصبية يخجلون من قوميتهم، ويتبرءون من سلفهم، وينسلخون من تاريخهم، وتقوم بأنفسهم الكراهةُ للغتهم وآداب لغتهم، ولقومهم وأشياء قومهم؛ فلا يستطيع وطنهم أن يوحي إليهم أسرار روحه؛ إذ لا يوافق منهم استجابة في الطبيعة، وينقادون بالحب لغيره فيتجاوزونه وهم فيه، ويرثون دماءهم من أهلهم ثم تكون العواطف في هذه الدماء للأجنبي؛ ومن ثم تصبح عندهم قيمة الأشياء بمصدرها لا بنفسها، وبالخيال المتوهم فيها لا بالحقيقة التي تحملها، فيكون شيء الأجنبي في مذهبهم أجمل وأثمن لأن إليه الميل وفيه الإكبار والإعظام، وقد يكون الوطني مثله أو أجمل منه بيد أنه فقد الميل، فضعفت صلته بالنفس، فعادت كل مميزاته لا تميزه

وأعجبُ من هذا في أمرهم، أن أشياء الأجنبي لا تحمل معانيها الساحرة في نفوسهم إلا إذا بقيت حاملة أسماءها الأجنبية، فإن سمِّي الأجنبي بلغتهم القومية نقص معناه عندهم وتصاغر وظهرت فيه ذلة. . . وما ذاك إلا صِغَر نفوسهم وذلتها، إذ لا ينتخون لقوميتهم فلا يلهمهم الحرف من لغتهم ما يلهمهم الحرف الأجنبي

والشرق مبتلى بهذه العلة، ومنها جاءت مشاكله أو أكثرها؛ وليس في العالم أمة عزيزة الجانب تقدم لغة غيرها على لغة نفسها، وبهذا لا يعرفون للأشياء الأجنبية موضعاً إلا من وراء حدود الأشياء الوطنية؛ ولو أخذنا نحن الشرقيين بهذا، لكان هذا

وحده علاجاً حاسماً لأكثر مشاكلنا
فاللغات تتنازع القومية، ولَهيَ والله احتلال عقلي في الشعوب التي ضعفت عصبيتها؛ وإذا هانت اللغة القومية على أهلها، أثرت اللغة الأجنبية في الخلق القومي ما يؤثر الجو الأجنبي في الجسم الذي انتقل إليه وأقام فيه
أما إذا قويت العصبية، وعزت اللغة، وثارت لها الحَمِيّة؛ فلن تكون اللغات الأجنبية إلا خادمة يُرتَفَق بها، ويرجع شبر الأجنبي شبرا لا متراً. . . . وتكون تلك العصبية للغة القومية مادةً وعوناً لكل ما هو قومي؛ فيصبح كل شيء أجنبي قد خضع لقوة قاهرة غالبة، هي قوة الإيمان بالمجد الوطني واستقلال الوطن؛ ومتى تعين الأول أنه الأول، فكل قوى الوجود لا تجعل الذي بعده شيئاً إلا أنه الثاني
والدين هو حقيقة الخلق الاجتماعي في الأمة، وهو الذي يجعل القلوب كلها طبقة واحدة على اختلاف المظاهر الاجتماعية عالية ونازلة وما بينهما، فهو بذلك الضمير القانوني للشعب، وبه لا بغيره ثبات الأمة على فضائلها النفسية، وفيه لا في سواه معنى إنسانية القلب
ولهذا كان الدين من أقوى الوسائل التي يعول عليها في إيقاظ ضمير الأمة، وتنبيه روحها، واهتياج خيالها؛ إذ فيه أعظمُ السلطة التي لها وحدها قوة الغلبة على الماديات. فسلطان الدين هو سلطان كل فرد على ذاته وطبيعته؛ ومتى قوى هذا السلطان في شعب، كان حمياً
أبيّاً، لا ترغمه قوة، ولا يعنو للقهر
ولولا التدين بالشريعة، لما استقامت الطاعة للقانون في النفس؛ ولولا الطاعة النفسية للقوانين، لما انتظمت أمة؛ فليس عمل الدين إلا تحديد مكان الحي في فضائل الحياة، وتعيين تبعته في حقوقها وواجباتها، وجعل ذلك كله نظاماً مستقراً فيه لا يتغير، ودفع الإنسان بهذا النظام نحو الأكمل، ودائماً نحو الأكمل
وكل أمة ضعف الدينُ فيها، اختلت هندستها الاجتماعية، وماج بعضها في بعض؛ فإن من دقيق الحكمة في هذا الدين أنه لم يجعل الغاية الأخيرة من الحياة في هذه الأرض؛ وذلك لتنظيم الغايات الأرضية في الناس؛ فلا يأكل بعضهم بعضا، فيغتني الغني وهو آمن، ويفتقر الفقير وهو قانع، ويكون ثواب الأعلى في أن يعود على الأسفل بالمبرَّة، وثواب الأسفل في أن يصير على ترك الأعلى في منزلته؛ ثم ينصرف الجميع بفضائلهم إلى تحقيق الغاية الإلهية الواحدة، التي لا يكبر عليها الكبير، ولا يصغر عنها الصغير؛ وهي الحق، والصلاح والخير، والتعاون على البر والتقوى
ومادام عمل الدين هو تكوين الخلق الثابت الدائب في عمله، المعتز بقوته، المطمئن إلى صبره، النافر من الضعف، الأبي على الذل، الكافر بالاستعباد، المؤمن بالموت في المدافعة عن حوزته، المجْزِيّ بتساميه وبذله وعطفه وإيثاره ومفاداته، العامل في مصلحة الجماعة، المقيد في منافعه بواجباته نحو الناس - مادام عمل الدين هو تكوين هذا الخلق - فيكون الدين في حقيقته هو جعل الحس بالشريعة أقوى من الحس بالمادة؛ ولعمري ما يجد الاستقلال قوة هي أقوى له وأرد عليه من هذا المعنى إذا تقرر في نفس الأمة وانطبعت عليه
وهذه الأمة الدينية التي يكون واجبها أن تَشْرُف وتسود وتعتز، يكون واجب هذا الواجب فيها ألا تسقط ولا تخضع ولا تذل
وبتلك الأصول العظيمة التي ينشئها الدين الصحيح القوي في النفس، يتهيأ النجاح السياسي للشعب المحافظ عليه المنتصر له؛ إذ يكون من الخلال الطبيعية في زعمائه ورجاله، الثبات على النزعة السياسية، والصلابة في الحق، والإيمان بمجد العمل، وتغليب ذلك على الأحوال المادية التي تعترض ذا الرأي لتفتنه عن رأيه ومذهبه: من مال، أو جاه، أو
منصب، أو موافقة الهوى، أو خشية النقمة، أو خوف الوعيد، إلى غيرها من كل ما يستميل به الباطل أو يرهب به الظلم
ولا يذهبن عنك أن الرجل المؤمن، القوي الإيمان، الممتلئ ثقة ويقيناً ووفاءً وصدقاً وعزماً وإصراراً على فضيلته وثباتاً على ما يلقي في سبيلها - لا يكون رجلاً كالناس؛ بل هو رجل الاستقلال الذي واجبه جزء من طبيعته وغايته السامية لا تنفصل عنه، هو رجلُ صِدْقِ المبدأ، وصدق الكلمة، وصدق الأمل، وصدق النزعة؛ وهو الرجل الذي ينفجر في

التاريخ كلما احتاجت الحياة الوطنية إلى إطلاق قنابلها للنصر
والعادات هي الماضي الذي يعيش في الحاضر، وهي وحدة تاريخية في الشعب؛ تجمعه
كما يجمعه الأصل الواحد؛ ثم هي كالدين في قيامها على أساس أدبي في النفس،
وفي اشتمالها على التحريم والتحليل؛ وتكاد عادات الشعب تكون ديناً ضيقاً خاصاً به،
يحصره في قبيله ووطنه، ويحقق في أفراده الألفة والتشابك، ويأخذهم جميعاً بمذهب
واحد: هو إجلال الماضي
وإجلال الماضي في كل شعب تاريخي، هو الوسيلة الروحية التي يستوحي بها الشعب
أبطاله، وفلاسفته، وعلماءه، وأدباءه، وأهل الفن منه؛ فيوحون إليه وحي عظائمهم
التي لم يغلبها الموت؛ وبهذا تكون صورهم العظيمة حية في تاريخه، وحية في آماله
وأعصابه
والعادات هي وحدها التي تجعل الوطن شيئاً نفسياً حقيقياً؛ حتى ليشعر الإنسان أن
لأرضه أمومة الأم التي ولدته، ولقومه أبوة الأب الذي جاء به إلى الحياة. وليس يعرف
هذا إلا من اغترب عن وطنه، وخالط غير قومه، واستوحش من غير عاداته؛ فهناك
هناك يثبت الوطن نفسه بعظمة وجبروت كأنه وحده هو الدنيا
وهذه الطبيعة الناشئة في النفس من أثر العادات هي التي تنبه في الوطني روح التميز
عن الأجنبي، وتوحش نفسه منه كأنها حاسة الأرض تنبه أهلها وتنذرهم الخطر
ومتى صدقت الوطنية في النفس، أقرت كل شيء أجنبي في حقيقته الأجنبية؛ فكان
هذا هو أول مظاهر الاستقلال، وكان أقوى الذرائع إلى المجد الوطني
وباللغة والدين والعادات، ينحصر الشعب في ذاته السامية بخصائصها ومقوماتها؛ فلا
يسهل انتزاعه منها ولا انتسافه من تاريخه؛ وإذا ألجئ إلى حال من القهر، لم ينخذل
ولم
يتضعضع، واستمر يعمل ما تعمله الشوكة الحادة: إن لم تترك لنفسها، لم تعط من
نفسها إلا الوَخْز. . . . . .
(طنطا)
مصطفى صادق الرافعي
النهضات القومية العامة في أوربا وفي الشرق - 2
للدكتور عبد الرزاق السنهوري
عميد كلية الحقوق ببغداد
وإذا كانت حركة الرابطة الوطنية بقيت قوية عنيفة في أوروبا طوال القرن التاسع
عشر كما قدمنا، فإن هذه الحركة قد اقترنت بها حركة رابطة الجنس، ولم تتعارض
الحركتان. فإن الوطن الفرنسي والوطن الإيطالي والوطن الأسباني، وغير هذه من
الأوطان اللاتينية ترعرعت واشتدت ولم تتعارض مع الجامعة اللاتينية؛ على أن اتفاق
رابطة الوطن مع رابطة الجنس يظهر رائعاً أخاذاً إذا انتقلنا إلى الشعوب الجرمانية؛
فكل شعب له وطنه؛

النهضات القومية العامة في أوربا وفي الشرق - 2
للدكتور عبد الرزاق السنهوري
عميد كلية الحقوق ببغداد
وإذا كانت حركة الرابطة الوطنية بقيت قوية عنيفة في أوروبا طوال القرن التاسع
عشر كما قدمنا، فإن هذه الحركة قد اقترنت بها حركة رابطة الجنس، ولم تتعارض
الحركتان. فإن الوطن الفرنسي والوطن الإيطالي والوطن الأسباني، وغير هذه من
الأوطان اللاتينية ترعرعت واشتدت ولم تتعارض مع الجامعة اللاتينية؛ على أن اتفاق
رابطة الوطن مع رابطة الجنس يظهر رائعاً أخاذاً إذا انتقلنا إلى الشعوب الجرمانية؛
فكل شعب له وطنه؛ وكثيراً ما حاربت بروسيا في الماضي دولاً أخرى جرمانية؛ وكثيراً
ما حاربت النمسا وانتصرت عليها، ومع كل ذلك فإن الشعوب الجرمانية لا ينسيها
الإغراق في وطنيتها أنها تنتسب جميعاً إلى جنس واحد، وأن دماً واحداً يجري في
عروق الجميع
على أن ائتلاف رابطة الوطن مع رابطة الجنس يختلف قوة وضعفاً. فالرابطتان أضعف
ما تكونان ائتلافاً إذا كانت رابطة الوطن قوية متماسكة، تستطيع القيام على رجليها

دون حاجة إلى معين؛ والمثل لذلك الوطن الفرنسي والوطن الإيطالي، والرابطتان أقوى ما تكونان ائتلافاً إذا ضعف وطن، فيستمسك بوطن آخر قوي من جنسه، كما هو الحال بين النمسا وألمانيا، وكذلك إذا كان كل وطن ضعيفاً بذاته قوياً باجتماعه مع الأوطان الأخرى من جنسه، كما هو الحال بين الأقطار العربية؛ وأخيراً إذا اندمجت جنسيات متعددة في إمبراطورية واحدة، ثم أخذت هذه الإمبراطورية المصطنعة في الانحلال، فإن حركة الجنسيات تقوى في هذه الحالة، وتتمخض عن حركات استقلالية، كما وقع هذا الأمر للإمبراطورية النمسوية وللإمبراطورية العثمانية

وقد آن لنا أن ننتقل إلى المرحلة الثالثة في النهضات القومية الأوربية، وهي المرحلة الحاضرة، وقد بدأت منذ فجر القرن العشرين، وبنوع خاص بعد الحرب الكبرى

3 - الوقت الحاضر: رابطة الوطن والجنس ورابطة الطبقات

نشهد في الوقت الحاضر في أوروبا صراعاً عنيفاً ما بين رابطتين، وكفاحاً مستعراً ما بين

نظامين من نظم الحكم. أما الرابطتان فإحداهما رابطة الوطن وتعززها رابطة الجنس، والثانية رابطة الطبقات أو الحركة الاشتراكية. وأما النظامان فأحدهما هو النظام الديمقراطي، والآخر هو النظام الدكتاتوري

وما بنا أن نعني بحركة ضعيفة ولدت عرجاء بعد أن تمخضت عنها آلام الإنسانية من أهوال الحرب الكبرى، وتلك هي رابطة البشرية، تنتظم بني البشر كافة في جامعة واحدة، يسمونها اليوم بعصبة الأمم. فإن رابطة البشرية هذه لا تزال وليداً بين الحياة والموت، فلندع لها بالبقاء ولنتركها جانباً

ولنستعرض الكفاح الذي نشهده الآن في أوروبا بين رابطة الوطن ورابطة الطبقات ليس هذا الكفاح وليد القرن العشرين، بل هو قد بدأ منذ القرن التاسع عشر، وقد تعقبنا أصوله في لمحة سريعة عندما كنا نتكلم في تقدم الصناعات الكبرى الذي قوى هاتين الرابطتين المتناقضتين. والآن نعرض لهذا الكفاح في شيء من التفصيل، فنتكلم في الاشتراكية وقد قامت على رابطة الطبقات، ثم نتكلم في الفاشية والنازية، وقد قامت الأولى على رابطة الوطن والأخرى على رابطة الجنس

أ - الاشتراكية

بدأت الاشتراكية تتأصل جذورها في أوروبا منذ القرن التاسع عشر. وقد نبتت في تلك التربة الصناعية التي سبق لنا ذكرها، إذ كثر عدد الطبقات العاملة، واستغلهم أصحاب رؤوس الأموال استغلالاً تأباه الإنسانية. فوجدت الاشتراكية جواً صالحاً تترعرع فيه وتزدهر. على أن المذهب الاشتراكي لم يكن وليد القرن التاسع عشر، فهو مذهب قديم، يمكن أن نرجع أصوله إلى أفلاطون الفيلسوف اليوناني المعروف، وقد كان يقول بالشيوعية في الملكية وفي الأسرة، ووضع كتابه (الجمهورية) يؤيد فيه هذا المذهب. وقام في أوائل القرن السادس عشر توماس مورا يقول بالشيوعية في المال دون الأسرة، في كتابه (جزيرة أتوبيا). ولكن الاشتراكية لم تأخذ شكلاً علمياً منظماً إلا بقلم زعيمها الأكبر كارل ماركس نبي الاشتراكية في أواسط القرن التاسع عشر

وللاشتراكية فلسفة علمية ولها خطط عملية. أما فلسفتها فنظرة مادية إلى وقائع التاريخ، وتفسير هذه الوقائع تفسيراً اقتصادياً محضا. وهذا ما يسمى عادة بالمادية التاريخية أو

بالتفسير الاقتصادي للتاريخ. أما خططها العملية فقد انقسم أنصارها بالنسبة لها إلى فريقين: فريق معتدل يقول بالعمل في الدائرة الدستورية، والوصول إلى الحكم من طريق النظم النيابية المشروعة، أي اتخاذ الديمقراطية وسيلة لتحقيق الحكومة الاشتراكية. وفريق متطرف يقول بعدم الجدوى من كل هذه الخطط، ولابد من الثورة والانتقاض على الديمقراطية الرأسمالية وهد أركان النظام النيابي، والاستيلاء على الحكم بالقوة، حتى تتحقق الحكومة الاشتراكية. وكان كارل ماركس قد أسس الدولية الأولى في سنة 1864 في لندن، حتى يجمع شتات العمال من جميع أطراف العالم. ثم لما انقسم أشياعه إلى الفريقين المتقدمي الذكر، أسس الفريق المعتدل الدولية الثانية، وأسس الفريق المتطرف الدولية الثالثة، وهي دولية موسكو المعروفة

وأقول لكم كلمة موجزة عن المادية التاريخية أو التفسير الاقتصادي للتاريخ، حتى

نتفهم المذهب الاشتراكي من ناحيته الفلسفية. تتلخص هذه المادية التاريخية في فكرة جوهرية، هي أن الحاجات المادية للإنسان والعوامل الاقتصادية التي تحيط به هي التي تسيّر التاريخ وتكيّف الحوادث. وكل حوادث التاريخ ومراحله المتعاقبة لا يمكن تفسيرها إلا تفسيراً اقتصادياً؛ وليس للإنسانية إلا تاريخ واحد، هو تاريخها الاقتصادي المادي؛ أما الدين، وأما الأخلاق، وأما المثل العليا، وأما العظمة والبطولة، فكل هذا شيء مرده إلى المادة، تحكمه وتسيطر عليه. فالمذهب الاشتراكي ينظر إلى الحياة كوحدة لا تقبل التجزئة وهي وحدة المادة لحمتها وسداها

والى جانب فكرة الوحدة المادية للحياة توجد فكرة الحتمية، فالعالم مسير لا مخير؛ وكل ما يقع في العالم من حوادث هو من عمل الإنسان، ولكنه عمل دفعته إليه الظروف دفعاً، فلا اختيار له فيه ولا إرادة. ويقول لنا انجلز شريك ماركس في تأسيس المذهب الاشتراكي الحديث: لا تظنوا أن الحركات الفكرية الكبرى التي تظهر من وقت لآخر هي وليدة أفكارنا، بل هي وليدة الظروف الاقتصادية الملابسة، كان لابد من وجودها فوجدت، وسخر لها أناس يقولون بها. ولو أن مارتن لوثر مؤسس البروتستانتية لم يوجد لوجد لوثر آخر يدعو إلى ما دعا إليه لوثر الأول. وماركس نفسه، إذا كان قد قال بالمادية التاريخية فذلك لأنها فكرة ولدتها ظروف البيئة الاقتصادية، وكان حتما أن يقول بها رجل أراد القدر أن يكون ماركس. وأبطال التاريخ يولدون كما تولد الحركات الفكرية الكبرى، تنشئهم الظروف الاقتصادية؛ فنابليون وكروموبل وقيصر وغيرهم من عظماء التاريخ جاءوا في الساعة التي كانوا لابد أن يجيئوا فيها، ولو لم يجيئوا هم بالذات لجاء غيرهم، فيتغير الاسم ويبقى الرجل. وكل عصر له أبطاله، إذا لم يجدهم عفواً فانه يخلقهم خلقاً. وإذا لم توجد البطولة الحق في الرجل الزعيم، فإن حاجات الوقت المادية والمصالح الاقتصادية تنفخ فيه روح بطولة مصطنعة وتجعل منه رجل الساعة. هذا هو رأي انجلز في البطولة والأبطال

فالعظمة ليست إذن إلا صنع الجيل وبنت البيئة. أما العوامل الحقيقة التي تصنع التاريخ صنعاً، فليست هي بطولة العظماء، إنما هي القوات الاقتصادية، تبدأ في تغيير الفكر البشري، ثم تدفعه إلى الأمام. وهكذا يرتبط بالعمل، ويسوق ذاك إلى هذا. ومصدر كل من الفكر والعمل إنما هو العامل الاقتصادي، مثل ذلك تقدم الصناعات الكبرى وتكدس رؤوس الأموال. هذا هو العامل الاقتصادي الذي يحكم العالم في العصر الحاضر. وقد أوجد هذا العامل طبقة أصحاب رؤوس الأموال، أو البورجوازية، قوية مسيطرة على أقدار العالم. ولكن هذا العامل الاقتصادي نفسه أوجد أيضاً طبقة العمال تستغلهم البورجوازية وتسلبهم ثمرة جهودهم. هذا الوضع الاقتصادي هو الذي أوجد حركة فكرية عند طبقة العمال، وقد شعروا بالظلم يحيق بهم. وهذه الحركة الفكرية هي التي تدفعهم إلى العمل. فالعامل الاقتصادي هو الذي أوجد البورجوازية، والبورجوازية هي التي أوجدت العمال، والعمال هم الذين سيهدمون البورجوازية. وقد كتب كارل ماركس في منشوره المشهور إلى الحزب الاشتراكي سنة 1848: (إن البورجوازية لم يقتصروا على صنع الأسلحة التي ستقتلهم، بل هم هيئوا أيضاً الرجال الذين سيضربون بهذه الأسلحة)

فقيام البورجوازية وسيطرتهم على العالم الاقتصادي، وسقوطهم بعد ذلك على يد العمال، كل هذه حوادث تدفع إليها الإنسانية دفعاً من طريق العوامل الاقتصادية؛ فالرجال إذن مسخرون، علموا أو لم يعلموا، لخدمة حاجات اقتصادية اقتضتها البيئة التي يعيشون فيها، وهم يظنون أنهم يعملون لأغراض مادية. فلوثر مثلاً كان يعتقد أنه يعمل لمجد المسيح، والواقع من الأمر أن ثورته لم تكن إلا سداً لحاجة البورجوازية الألمانية التي كانت تستغلها الكنيسة الرومانية. وليس الرجال في نشاطهم بوجه عام إلا ممثلين لطبقات اقتصادية،

يجيبون نداءها، ويسدون حاجتها. اسمعوا ما يقوله كارل ماركس في كتابه (بؤس الفلسفة) رداً على ما كتبه برودون في كتابه (فلسفة البؤس): (إن الروابط الاجتماعية متصلة اتصالاً وثيقاً بقوات الإنتاج، فالناس إذا حصلوا على قوات منتجة جديدة يغيرون طرق الإنتاج، وإذا غيروا طرق الإنتاج وغيروا كذلك نظام كسبهم للعيش فقد غيروا في جميع روابطهم الاجتماعية. هذه هي طاحونة الهواء تنبت وسطاً إقطاعياً يسوده النبلاء.

أما الطاحونة التي تدور بالبخار، فتنبت وسطاً صناعياً يسوده أصحاب رؤوس الأموال. ونفس الرجال الذين يقيمون روابطهم الاجتماعية على مقتضى الطرق المادية للإنتاج هم الذين يصوغون أيضاً المبادئ والأفكار والحدود وفقاً لروابطهم الاجتماعية)

فالعوامل الاقتصادية التي تصنع التاريخ في رأي ماركس وانجلز هي وسائل الإنتاج، يضاف إليها وسائل النقل وتداول الثروة والبيئة الجغرافية التي تقوم فيها العوامل الاقتصادية

وكل هذه العوامل الاقتصادية تدور حول نقطة واحدة، هي الكفاح ما بين الطبقات.

فالكفاح ما بين الطبقات يسود جميع النظم الاجتماعية: يسود النظام السياسي، وما تاريخ الحكومة إلا تاريخ نضال مستمر ما بين طبقة وأخرى تتداول السيادة والسلطان؛ يسود النظام القانوني، وما القانون إلا صورة منعكسة من وسائل الإنتاج الاقتصادي، وهو لم يوجد إلا لحماية المصالح الاقتصادية، أي حماية مصالح الطبقة السائدة؛ يسود الدين والفلسفة والأدب والأخلاق، وإذا لم يكن الأصل في هذا كله عاملاً اقتصادياً فإن هذه العوامل الأدبية تتطور بعد نشوئها وفقاً للحاجات الاقتصادية ولمصالح المتغلب من الطبقات

ثم ينتقل ماركس وانجلز من بسط النظرية إلى تطبيقها على الحوادث التاريخية. فعندهما أن النظام الإقطاعي هو الذي خلق العصور الوسطى تسود فيها طبقة النبلاء، وأن نظام الصناعة الكبرى هو الذي خلق العصور الحديثة تسود فيها طبقة البورجوازية، وأن الكارثة لابد واقعة: والكارثة لفظ له مدلوله في إنجيل الاشتراكية، فالاشتراكيون يتربصون الدوائر بالبورجوازية، ويترقبون الوقت الذي سيحين لانتقال محتم إلى عصر جديد تحل فيه الكارثة بالبورجوازية على يد العمال

فماركس يستغل إذن نظريته في المادية التاريخية ليخدم بها مذهبه الاشتراكي، فينادي بالكفاح ما بين الطبقات، ويحاول أن يوحد العمال في جميع أنحاء العالم، ويشعلها حربا زبونا بين نبي الإنسانية جمعاء، حرباً تقوم لا بين وطن ووطن، ولا بين جنس وجنس، بل بين طبقة وطبقة: بين البورجوازية والعمال، فتسقط البورجوازية ويسود العمال

ونحن لا نعرض بنقد أو بتحبيذ للمذهب الاشتراكي ونقتصر على أن نستخلص مما قدمناه أن هناك نزعة في أوروبا وجدت منذ القرن التاسع عشر وقالت برابطة الطبقات، وعارضت الروابط المبنية على الوطن والجنس، واعتبرت العمال في جميع الأوطان ومن جميع الأجناس إخواناً متآلفين. وهم جميعاً خصوم للبورجوازية في جميع الأوطان ومن جميع الأجناس. وقد أخذت هذه النزعة تشتد شيئاً فشيئاً طوال القرن التاسع عشر، ثم دخلت في دور عملي حاسم أثناء الحرب الكبرى، حيث قامت البلشفية في الروسيا، وأصبحت الاشتراكية مذهباً عملياً لنظام قائم من الحكم، أقامه لينين على أنقاض القيصرية، بعد أن اقتلعها واجتذها من أصولها. وأوجد انقلاب سنة 1917 النظام السوفيتي في الروسيا في ظروف معروفة، ولا يزال هذا النظام قائماً في الروسيا حتى الآن

ويذكرنا القرن العشرون، بالنسبة لقيام الاشتراكية وانتشارها في العالم برغم مقاومة الحكومات لها بالقرن التاسع عشر، بالنسبة لقيام الحركات الوطنية وانتشارها في أوروبا برغم مقاومة الحكومات الرجعية لها. والشبه غريب بين الحرب الكبرى وحروب نابليون، وبين مؤتمر فرسايل المحافظ ومؤتمر فينا الرجعي

على أننا نريد أن نبسط الحقائق كاملة، فليس من الدقة في شيء أن نقول إن الاشتراكية بقيت وحدها في الميدان، بل يجب أن نفتح أعيننا على ما يجري الآن أمامنا من صراع عنيف بين الاشتراكية والوطنية. فإن الحركات القائمة على رابطة الوطن ورابطة الجنس لم تخمد جذوتها في أوروبا، بل هي قد زادت اشتعالاً. وكأن حرب الطبقات التي شهرتها البلشفية في وجه العالم، تلك الحروب الشعواء التي أذكى نارها العمال صاروا لها وقوداً، وهم يريدون من ورائها أن يبسطوا سلطانهم، وأن يحكموا بالسيف والنار، تلك الحرب العنيفة القاسية قد استفزت دعاة الوطنية في أوروبا وألبتهم فوقفوا صفوفاً متراصة أمام هذا العدو المشترك. ووقعت الواقعة، ونشب عراك دموي بين دعاة الاشتراكية ودعاة الوطنية، وانضوى دعاة الوطنية في أقوى مظهر من جهادهم تحت لواء حركتين مشهورتين: هما

الفاشية الإيطالية تحت قيادة موسوليني، والنازية الألمانية تحت قيادة هتلر. ووقف كل من هاتين الحركتين سداً منيعاً أمام تيار البلشفية الجارف، ووقف كل منهما يريد أن يبسط سلطانه. ونرجئ الكلام فيهما إلى المحاضرة القادمة

عبد الرزاق السنهوري

صور من القرن الثامن عشر

جاكومو كازانوفا - 2

جوَّاب مجتمع ومغامر مرح

للأستاذ محمد عبد الله عنان

قضى كازانوفا صباه وفتوته الأولى محروماً من عطف والديه، يجوز حياة مضطربة، ويتقلب بين شظف العيش ورفاهته، ويلقي بنفسه المضطرمة إلى غمار من اللهو والإدمان والخلاعة، ويلتمس متاع الحياة بأي الوسائل. وكان يرى لهواً ولعباً، ولكن الحياة الناعمة تتطلب الرزق الوفير، ولابد أن يجد كازانوفا لنفسه وسائل الارتزاق. وكانت المقامرة يومئذ رذيلة المجتمع الرفيع، ولكنها كانت أيضاً ملاذ المغامرين من كل ضرب، يلتمسون بها الرزق والثراء؛ وكازانوفا مقامر بارع، فلم لا ينزل إلى هذا الميدان؟ وبسم له الحظ في المقامرة، وانتظم في سلك المقامرين المحترفين الذين يستحلون كل الوسائل للكسب أو للسرقة المستترة؛ ورأى فوق ذلك أن يتشح بثوب الخفاء، وأن يحترف الشعوذة وكشف الأسرار؛ وكانت الأذهان يومئذ تشغف بالخفي والمجهول، وكان كازانوفا يجيد هذا الضرب من الشعوذة، وقد رأيناه يتخذه سبيلا لتمكين نفوذه لدى صديقه وحاميه الجديد السيد براجادين

وهكذا نزل كازانوفا إلى ميدان المغامرة مسلحاً بأسلحة العصر، يلتمس الرزق من طريق المقامرة، ويلتمس النفوذ من طريق الشعوذة، ومن ورائه عصبة من الأصدقاء الأقوياء الذين يخلبهم بروائه وظرفه وشعوذته؛ وكانت هذه الحياة في نظر المغامر هي المثلى، وكان يرى المجتمع من حوله موبوءاً يموج رذيلة وفساداً، ويرى الشرف والكرامة والنزاهة وكل ما إليها كلمات جوفاء لا يتحلى بها أرفع من يسودون المجتمع من أمراء وأحبار وسادة، فكيف يطلب إليه هو أن يخضع حياته لمثل هذه الأباطيل؟ وكان كازانوفا ينزل يومئذ عن السيد براجادين كما رأينا، ويعيش منعما مرفهاً، يقضي أيامه في لهو ولعب ونزه وغزل لا ينقطع، يجوب شوارع البندقية المائية في قاربه الوثير، ويتسقط مواعيد الحب كل مساء. وكانت المرأة عنده غاية الغايات، وكان الحب فنه ومهنته

التي كأنه فطر عليها بطبيعته وخلاله وعواطفه، وكان مسلحاً لهذه الغاية بأخص الصفات التي تذلل له غزو القلوب، فقد كان بديع القد والتكوين، وسيم الطلعة، ذا سمرة جذابة؛ وكانت عيناه الواسعتان تشعان سحرا وذكاء وشهوة؛ وكان ذا شخصية جذابة، حلو الحديث والشمائل، جواداً، جم الأدب والظرف، يضطرم حباً وجوى؛ وكانت له فراسة خاصة في تفهم عقلية المرأة وميولها؛ وكان ظفره المتوالي في الحب يذكي عزائمه ورغباته، ويدفعه دائماً إلى البحث عن غزوات جديدة؛ وكان يشعر شيئاً فشيئاً أن البندقية لم يبق فيها ما يمكن أن يغزوا وأن يستمرئ، وأن إيطاليا كلها قد غدت تضيق بجولاته ومغامراته؛ وكانت فرنسا تجذبه يومئذ بشهرتها وروعة الحياة الساطعة التي يحياها المجتمع الرفيع فيها؛ وسرعان ما سنحت له الفرصة لتحقيق أمنيته، فسافر إلى باريس ليخوض غمار هذه الحياة الساطعة، وكان يومئذ في نحو السادسة والعشرين

وكان المجتمع الفرنسي، ينحدر يومئذ، في عهد لويس الخامس عشر، إلى نوع من الخمول الباهر، ويستمرئ حياة عاطلة من المثل المعنوية الرفيعة، فياضة بالرغبات والشهوات الوضيعة؛ وكانت دولة الغانيات، من أمثال دوباري وبومبادور هي صاحبة الحول والسلطان يومئذ؛ وكان يلتف حول هذا الملك الخليع بلاط وضيع الخلال، يضرب بتهتكه وانحلاله للمجتمع الرفيع أسوأ المثل؛ وكانت حياة هذا المجتمع - مجتمع النبلاء والسادة - كلها لهو ولعب وحب وغزل وفساد ورياء؛ فإلى هذا المجتمع الباهر الخامل معاً هبط كازانوفا يبحث عن طالعه في عالم الحب؛ وهنالك تعرف منذ مقدمه بمواطنه الممثل الشهير ماريو باليتي وزوجته سلفيا، وكانا يومئذ من أعلام مسرح (الكوميديا الإيطالية)؛ فعلمه شيئاً من اللغة الفرنسية، وعرفه بكثير من الشخصيات البارزة من

رجال ونساء؛ واندفع كازانوفا إلى هذا العالم الجديد يتذوق مسراته، ويتابع غزواته النسائية بين الممثلات والراقصات وسيدات المجتمع الرفيع؛ وهو يذكر لنا في مذكراته التي نشير إليها فيما بعد، طائفة من أسماء هؤلاء اللائى ظفر بهن في تلك الفترة مثل ميمي ابنة السيدة التي نزل عندها، والآنسة فزيان وهي فتاة أجنبية زائرة، ولويزون مورفي الشهيرة التي أدخلت (حريم) لويس الخامس عشر فيما بعد، والآنسة سنت هيلير، وسيلفيا زوجة صديقه، وغيرهن؛ واستطاع كازانوفا في نفس الوقت أن يتذوق طرفاً من الحياة الأدبية، وأن يتصل ببعض كبار الأدباء والكتاب مثل فونتينل ودلامبير والأب فوازنون ومدام دي بوكاج، وأن ينظم بعض القصائد، وأن يترجم بعض القطع والرسائل

وعاد كازانوفا إلى البندقية (سنة 1753) وقد فاضت نفسه غبطة وزهوا بما تذوق من صنوف اللهو الرفيع، وما حقق لنفسه من ظفر في ميدان الحب، وبدت له البندقية عندئذ ضيقة متواضعة، بالنسبة لما رأى وشهد في باريس؛ وذكت أطماعه وأمانيه، وزاد غروراً وترفعاً واستهتاراً، وأخذ ينظر إلى هذا المجتمع البندقي من عل، ويتصل بالكبراء والسفراء ولاسيما سفير فرنسا الأب دي برني؛ ولم يكن كازانوفا متحفظاً في أقواله أو أعماله. فكان يطلق العنان لآرائه المتطرفة، ويزاول الشعوذة علناً، وكان يثير على نفسه السخط في كل ناحية، وكانت علائقه الغرامية موضع الحديث ومثار النقمة؛ وكان ثمة جماعة من النبلاء والكبراء الذين يضايقهم بلسانه ومنافساته الغرامية يتربصون الفرص لسحقه؛ وكان من هؤلاء كبير من كبراء الدولة هو (الشيخ) كوندلمر النائب العام؛ وكان لهذا الشيخ القوي صاحبة تدعى مدام زورزي سطا عليها كازانوفا وانتزعها منه، فاعتزم التنكيل به، وأطلق في أثره جواسيس الشرطة يقدمون عنه التقارير القاذفة، وفيها أنه يتصل بالسفراء الأجانب بعلائق مريبة، ويخدع البسطاء بمزاعمه السحرية، ويعيش على نفقة الغير، ويغوي البنات والنساء المتزوجات، ويسخر من الدين، وينتمي إلى البناء الحر (الماسونية)، وغير ذلك من التهم الخطيرة التي تكفي لإدانته وإهلاكه

وعلى أثر ذلك قررت محكمة التحقيق (التفتيش) اعتقال المتهم، وفي فجر 26 يوليه سنة 1755 ذهب مدير الشرطة مع ثلة من رجاله إلى منزل كازانوفا واعتقله، وأخذه مصفدا إلى قصر الدوجات؛ وهنالك ألقي به إلى السجن المواجه في غرفة لا هواء فيها ولا نور تعمرها الجرذان والحشرات المختلفة، وتكاد لانخفاضها تقصر عن إيواء قامته المديدة؛ وفي الحادي والعشرين من أغسطس قضت محكمة التفتيش بإدانته في التهم التي نسبت إليه ولاسيما الطعن في الدين، وقضت بسجنه خمسة أعوام في سجن (الرصاص) الشهير (بيومبي) وهو الذي اعتقل فيه. وقضى كازانوفا أيامه الأولى في السجن في ذهول ويأس يكاد يمزقه الغيظ والكمد، وكان منقطع الصلة بالعالم الخارجي، لا يعرف شيئاً عن سبب اعتقاله أو مداه؛ وكان يؤمل بادئ ذي بدء أن يسترد حريته بسرعة بمؤازرة بعض أصدقائه الأقوياء، ولكن الشهور تعاقبت عليه دون أن ينفذ إلى وكره المظلم شعاع من الأمل، وأعقب الصيف الخريف ثم تعاقبت الفصول، عندئذ ترك اليأس جانباً، واستعاد عزمه وقوة نفسه، وعول على الفرار؛ وما زال يعمل في خفاء وصمت، ويغالب الصعاب والرقابة الصارمة حتى نضج مشروعه. وفي ليل اليوم الأول من نوفمبر، فر كازانوفا مع شريكه وجاره في السجن الأب بالبي، وذلك بأن خرقا عرش الغرفة الرصاصي، واستطاعا بعد مجهود عنيف مروع أن ينحدرا من جدران القصر إلى ميدان القديس مرقص، واستقلا زورقا حملهما في جوف الظلام بعيدا عن مواطن الخطر؛ ولم يأمن كازانوفا على نفسه حتى جاز حدود البندقية إلى ارض بورجو دي فالزجانو المجاورة، وبذلك أمن شر مطارديه واستطاع أن يتنفس نسيم الحرية مرة أخرى

وتركت تلك المحنة في نفس كازانوفا اعمق الأثر، وكان قد جاوز الثلاثين يومئذ، واستحالت لديه نزعات الحداثة إلى نوع من التفكير المتزن، وأخذت الأطماع والأماني تغلب على نفسه، وتخضع لديه نزواته المضطرمة؛ وكان همه دائماً أن يغزو المجتمع الرفيع، ولكن غزو المجتمع الرفيع يقتضي مالا ومغامرة؛ وكان المجتمع الباريزي الذي عرفه حيناً وتذوق فيه لذة الظفر والأمل يجذبه دائماً ويلوح له بأعظم الأماني؛ ولهذا نراه في باريس في يناير سنة 1757 يبحث عن طالعه كرة أخرى؛ وكان صديقه

وحاميه القديم السيد براجادين يمده بمرتب حسن، وكان صديقه الأب دي برني سفير فرنسا السابق في البندقية قد عاد إلى فرنسا، وتولى وزارة الخارجية، فتقدم إليه يطلب عونه، فأوصى به بعض كبراء الدولة؛ وكانت المشكلة المالية أهم ما يشغل فرنسا يومئذ وفي سبيل حلها تقدم أغرب المشاريع والاقتراحات. وكان من بين المشاريع التي وضعت لإيجاد بعض المال أن تصدر الدولة (أوراق يانصيب) يغطي إيرادها نفقات المدرسة الحربية التي أنشئت يومئذ لتخريج ضباط للجيش الفرنسي؛ وكان يضطلع بالمشروع أخوان إيطاليان يدعوان كالسابيجي، فاتصل كازانوفا بذوي النفوذ والمشرفين على العمل، وكان يتمتع في ذلك الميدان ببعض الخبرة ويقدم عن المشروع آراءه وملاحظاته، فرؤى أن يعين مديرا للمشروع بمرتب ضخم وعمولة حسنة، وصدر بالمشروع قرار وزاري في أكتوبر سنة 1757

وهكذا تبوأ كازانوفا منصباً خطيراً مربحا يحقق له تلك الحياة الناعمة المستقلة التي طالما طمح إليها، واتخذ له مسكنا فخماً في ضاحية سان دني يموج بالنعم والحشم. وأقبل الناس على شراء أوراق اليانصيب الحكومية إقبالا حسنا؛ ووقع السحب الأول في إبريل من العام التالي وأسفر عن نتائج مرضية؛ ثم وقع مراراً خلال العامين التاليين، وظفرت المدرسة الحربية بكل النفقات اللازمة؛ وحقق كازانوفا لنفسه ربحاً وفيراً يقال إنه بلغ مائة ألف في العام، هذا عدا ما كان يربحه من أعمال التنجيم والشعوذة التي لم ينقطع عن مزاولتها؛ وعهد إليه أثناء ذلك ببعض المهام الرسمية السرية فأداها بنجاح؛ وعهد إليه أيضاً بمهمة مالية في هولندة فأسفرت عن نتائج مرضية؛ وهكذا ذاع اسمه وتوطد مركزه، وزاد ثراؤه، وشعر لأول مرة في حياته بأنه غدا الرجل الذي طمح أن يغدو، ينثر الذهب من حوله بلا حساب، ويحقق لنفسه أعز الرغبات والأهواء والأماني

واتخذ كازانوفا لنفسه خارج باريس مسكناً آخر غير مسكنه الباريسي أنيقاً وثيراً به حاشية باهرة، وخيل مطهمة. وهنالك كان يقظي معظم أوقاته في متاع ومرح، يطلق لنفسه عنان الهوى والحب، ويستمرئ غزواته النسائية بلا انقطاع؛ وكان كازانوفا يعشق الحياة الفخمة، ويتعلق بمظاهر العظمة والأناقة، ولكنه لبث دائماً ذلك المحب النهم الذي تغلب لديه الغرائز الوضيعة، والذي يسعى إلى إرضاء شهواته المضطرمة بأي الوسائل، وفي أي الظروف والمناسبات

وانفق كازانوفا في باريس بضعة أعوام في عيش طروب خفض يغزو جميع القلوب، وينعم بوصل السيدات والغانيات من كل ضرب ويزاول التنجيم والشعوذة؛ وكان يتسمى عندئذ بالشفاليه دي سنجال، أو الشفالييه سنجال دي فاروزي، ويبهر الناس بروعة مظاهره وأساليبه، ويتقرب من الأكابر، وينعم بالجاه والنفوذ والثراء. بيد أن هذه الحياة الباهرة كانت تنضح دائماً عن جوانب وثغرات مريبة؛ ذلك أن كازانوفا لم يكن متحوطاً في مغامراته وعبثه؛ ولم يكن يحجم عن أي الوسائل لاستلاب المال أو القلوب؛ ومن ذلك أنه اشترك في حادث تزوير أوراق مالية، وأغرى عدد من أكابر السيدات، ومنهن المركيزة دورفي التي خدعها واستحوذ على قلبها ومالها بشعوذته؛ وسطا على كثير من الأزواج والآباء، فاستلب منهم زوجاتهم أو بناتهم، واتصل بجماعة خطرة من الأفاقين ولصوص المجتمع الرفيع يدبر معها الخطط والمشاريع المريبة؛ وذاعت هذه الوقائع والفضائح المزرية، وكادت تدفع بالمغامر الجريء إلى غمار لا تحمد عواقبها، ولكنه آثر الهجرة مرة أخرى، ويمم عندئذ شطر هولندة مزوداً ببقية من المال والجاه وتوصيات بعض الأكابر

ونزل كازانوفا في لاهاي سنة 1759؛ واستأنف هنالك حياة البذخ والطرب، يعيد سيرته التي جازها في كل المواطن، عاشقاً مضطرماً تحمله شهواته حيثما يحمله ظفره، وتسقطه فرائسه بين أذرعه تباعا، ويبتز المال من هنا وهنالك بكل الوسائل والحيل، ويستمرئ حياة الخديعة والشعوذة والغواية إلى الذروة، ويثير حوله بعد حين نفس الشكوك والريب التي يثيرها أينما حل؛ وإذ يشعر بأن وسائله وحيله ومظاهره كلها قد نفقت، وأن الجو يتجهم من حوله، يعتزم الرحيل والنقلة. وهكذا غادر كازانوفا لاهاي كما غادر باريس من قبل مثقلاً بالريب والفضائح، وهبط إلى لندن في خريف سنة 1763 تحدوه آمال وأماني أخرى

(للبحث بقية)
(النقل ممنوع)
محمد عبد الله عنان
الخصيان
أصل العادة وتاريخها وانتشارها
للدكتور مأمون عبد السلام
هوت الغيرة الجنسية بالإنسان إلى دركة ما دون الوحوش، فوسوس إليه الشيطان أن ينتزع الرجولة من الأبرياء ليتخذهم خداماً يأتمنهم على عرض نسائه وحفظة لطهارتهن. هذا هو الأصل في اتخاذ الخصيان. وهي عادة لجأ إليها الصينيون والهنود والبابليون والفرس من عصور خالية، فقد أخبرنا هيرودوت بما كان للخصيان من السطوة في دولة الفرس في عهده
وقد عرفهم العرب من قديم فقالوا: (خصي بصي ومخصي، وتقول العامة طواشي، وهي كلمة مولدة ليست من كلام العرب. فقد كان من عادة العرب الجاهلية أن يخصوا أسراهم كما كان يفعل قدماء المصريين؛ وتجد ذلك مصوراً على جدران مدينة حابو، وكما يفعل الأحباش الآن. وهذه العادة قديمة في مصر، فقد عثروا في هرم أوناس على مخطوط عرف منه أن حوريس سل خصيتي سيت. وقد اتخذ الفراعنة الخصيان في قصورهم فبلغوا من النفوذ والسطوة ما حدا بهم إلى قتل أمانيميس وهو الفرعون الثاني من العائلة الثانية عشرة
ونظراً للاعتقاد السائد بأمانة الخصيان فقد أطلق اسم الخصي على أمناء فرعون وملوك بني إسرائيل، فقد جاء في سفر التكوين (1: 39): (وأما يوسف فأنزل إلى مصر واشتراه فوطيفار خصي فرعون رئيس الشرط) وكلنا يعلم أن فوطيفار وهو العزيز كان متزوجاً وقد راودت زوجه يوسف عليه السلام عن نفسه فأبى واستعصم وقد اتخذ بنو إسرائيل الخصيان كما ذكر في الكتاب المقدس (الملوك الثاني 32: 9 - 33 و15: 24 وأخبار الأيام الأول 1: 28 وإستير 1: 6 - 2) وقد حرمت التوراة اتخاذ الخصيان وخصاء الحيوان، فقد جاء في سفر التثنية (1: 23): لا يدخل مخصي بالرض أو محجبوب في جماعة الرب. وجاء في سفر اللاويين: ومرضوض الخصية ومسحوقها ومنزوعها ومقطوعها لا تقربوا للرب
وقد أخذ الإغريق هذه العادة عن الشعوب الأسيوية التي غزاها الاسكندر المقدوني فانتشرت بينهم بعد موته؛ واسم الخصي عندهم يونوقوس (ومنها الكلمة الإفرنجية بونوق
واشتقاقها من يونو بمعنى الفراش وايقيون بمعنى الحارس أي حارس فراش الزوجية)
وقد أدخل هذه العادة هليو جابال إلى رومه في عهد الإمبراطورية أي في نهاية القرن الثالث وتفشت بعد ذلك في الدولة البيزنطية
وقد حتمت بعض العبادات الخصاء على اتباعها ليتفرغوا للتعبد كما كان يفعل كهنة الهياكل الوثنية السورية القديمة
وقد جاء ذكر الخصيان في إنجيل متي (12: 19): (لأنه يوجد خصيان ولودوا هكذا من بطون أمهاتهم، ويوجد خصيان خصاهم الناس، ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات. من استطاع أن يقبل فليقبل) وقد اعتمد بعض المسيحيين المتقدمين على هذه الآية وخصوا أنفسهم ليتحرروا من الوقوع في الخطيئة. وأول من فعل ذلك أوريجانوس الإسكندري المولود سنة 185 أو سنة 186 ميلادية، وقد أحسن أبوه تهذيبه فتلقى العلم على أكابر علماء المسيحية أمثال بانطينوس وكليمان في المدارس الكاتدرائية وهي مدارس دينية كانوا يتلقون فيها الفقه المسيحي والعلوم الإغريقية (على نحو الجامعة الأزهرية في الإسلام)؛ وقد خصى نفسه زهداً منه في الحياة الدنيا ورغبة في تلقين النساء العلم. وقد قضى ثمانية وعشرين عاماً بالإسكندرية رحل خلالها إلى رومه وإنطاكية وبلاد العرب خدمة للدين والعلم
وقد اقتدى الكثير من المسيحيين بأوريجانوس فظهرت في القرن الثالث المسيحي فرقة الفليسيين نسبة إلى فيلسيوس العربي رئيسهم الذي قال إن الخلاص لا يتم إلا بالخصاء؛ فكانوا يخصون أنفسهم ومن يقع في أيديهم تقرباً إلى الله تعالى. وقد ثبت المجمع النيقادي الذي عقده الإمبراطور قسطنطين الخصاء في قوانينه فاستمرت

العادة بين بعض الطوائف المسيحية حتى حرمها البابا ليو الثالث عشر
ورغماً عن ذلك فقد استمر بعض الروسيين إلى أول الثورة الشيوعية على اتباعها، فقد كان منهم فرقة من الخصيان المتعبدين اسمها سكوبسي أي الخصيان
وكان من عادة الطليان أن يخصوا الأولاد قبل البلوغ ليحافظوا على نعومة أصواتهم وحدتها للغناء في الكنائس والمسارح إذ كانوا يمنعون النساء من مزاولة ذلك. فحرم هذه العادة البابا اكليمنس الرابع عشر ولكنه لم يتمكن من إبطالها حتى في رومه عقر داره
ويحرم الدين الإسلامي الخصاء في الإنسان والحيوان، وورد في ذلك أحاديث؛ وقد اعتبر أبو العباس رضي الله عنه الخصاء عملية شيطانية يحرمها المولى
وقد دفعت أبهة الملك معاوية بن أبي سفيان فجارى ملوك الروم في اتخاذ الخصيان فكان أول من أتخذهم في الإسلام كما ذكر المسعودي. ومن ثم تفشت هذه العادة في الدول الإسلامية وخاصة عند بني عثمان وعنهم أخذنا كلمة (أغا) للخصي، وأصل الكلمة أقا بالفارسية بمعنى السيد؛ ويعني بها العثمانيون الأخ الأكبر وصف الضابط ورئيس فرقة الانكشارية، ثم أطلقت على الخصي، وقد انتشر هذا الاسم في ممتلكات آل عثمان كالشام ومصر والجزائر وغيرها
وكان جميع خصيان مصر وشمال إفريقيا وبلاد العرب والشام وتركيا من السود والحبشان، وأصلهم من الرقيق يخصونهم في بلدة باجرمي بالسودان
وقد تكلم عن الرقيق بمصر بورخهاردت وهو رحالة سويسري كان في خدمة الإنجليز جاء إلى مصر وقام في 22 فبراير سنة 1813 من أسوان إلى بلاد النوبة، وكان يحكمها إذ ذاك أولاد حسن كاشف الثلاثة، فذكر أن بورغو غرب دارفور كانت مكان خصاء الرقيق ومنها كان يحملون إلى سواكن ومكة والمدينة ومصر، ولكن السواد الأعظم من الخصيان يرسلون إلى أوروبا وتركيا كانوا من الرقيق الذي كان يحمل إلى أسيوط، وكانوا يخصون في قرية تسمى زاوية الدير قرب أسيوط، وكان يقوم بهذه العملية راهبان من أهلها حازا شهرة كبيرة في ذلك. وكانا محط ازدراء المصريين جميعاً؛ ولكنهما كانا يقومان بهذه العملية تحت حماية الحكومة مقابل ضريبة سنوية يدفعونها
ونسبة الوفيات من الخصاء منخفضة بعكس ما قد يعتقد، فقد مات من جرائها اثنان من ستين ولدا خصوا في خريف سنة 1813، ولا تزيد النسبة في العادة على اثنين في المائة. وكانت عادتهم أن يقوموا بهذه العملية حال وصول القافلة من دارفور أو سنار ويختار لها الأولاد من سن الثامنة إلى الثانية عشرة الذين يمتازون بقوتهم وتناسق أعضائهم وذكائهم
وكانت أجرة العملية ستين قرشا. وقد بلغ متوسط ما كان يخصي بأسيوط مائة وخمسين خصياً في السنة، وكان ثمن الخصي بأسيوط في هذا العهد ألف قرش ويقول بورخهاردت إنه في سنة 1811 أمر محمد علي باشا أن يخصي مائتا عبد دارفوري
ليرسلهم هدية سنية إلى السلطان الأعظم بالأستانة. وقد روي أن الخصيان البيض قليلون بتركيا، وأنه رأى بالحجاز عدداً من الخصيان الهنود في خصوا في بلاد الهند وأرسلوا هدية إلى الحجاز
وقد رجع بعض العرب إبان الحرب الوهابية الأولى إلى عادتهم في الجاهلية وهي خصاء الأسرى، وذلك أن الشريف غالب أمير مكة أسر أربعين رجلا من قبيلة يمنية وهي قبيلة تدين بالمذهب الوهابي، وكان في حرب معهم فأمر بأن يخصوا ثم يفك أسرهم فماتوا من جراء ذلك سوى اثنين رجعا إلى قبيلتهما بعد أن التأمت جراحهما؛ وقد امتلأ قلباهما بالحقد والضغينة فقتل أحدهما ابن عم الشريف غالب في إحدى المعارك، وأما الآخر فقتل وهو يحاول اقتحام خيل الشريف ليقتله بنفسه
وينجم عن الخصاء أن يبطل فعل الغدد الجنسية وخاصة إفرازاتها الداخلية التي لها تأثير كبير في التوازن الفسيولوجي والجنسي؛ ويكون التأثير على أشده في الصغار ويقل كلما كبر سن من يراد خصاؤه، فينمو الصبي المخصي كالأنثى فلا ينبت شعر وجهه، ويكون صوته رفيعاً وعظامه كعظام النساء وعضلاته لينة ويتضخم عجزه، ويصبح أكثر ميلاً إلى الدس والإيقاع. ويكون التأثير في البالغ أقل ظهوراً فيضعف شعر الذقن

أو قد يختفي، ويتغير الصوت. ويتعرض الرجل بعد الخصي لاضطرابات عصبية شديدة ولأفكار سوداوية تنشأ عن جمود العاطفة الجنسية، أما إن خصي الرجل وهو كهل فالتغير لا يكون ملموساً

وقد يتسرب إلى الذهن أن الخصاء يضعف من حدة العقل والشجاعة وهذا خطأ محض، ففي التاريخ أدلة تثبت ما كان للخصيان من القوة والبأس والتبحر في العلوم وعلو الباع في سياسة الأمم وقيادة الجيوش. فمن الخصيان الذين خلد التاريخ أسماءهم باغوص الفارسي الملقب بصانع الملوك، وفافورينوس الفيلسوف صديق بلوطارخ، وأرسطو نيقوس القائد البطليموسي، وفوطين وزير بطليموس، وأيوتروب وزير اركاديوس

وكان للخصيان شأن عظيم في عهود كثيرة من التاريخ الإسلامي وخاصة بمصر فكان أظهرهم الأستاذ أبو المسك كافور الاخشيدي الذي انتزع الملك لنفسه وخطب باسمه على المنابر، ثم الطواشي محسن الصالحي، والطواشي صبيح في آخر عهد الدولة الأيوبية. وقد

أشار إليهما المرحوم ميخائيل بك شارويم في كتابه (الكافي) عند كلامه عن أسر المصريين لملك فرنسا فقال إنه لما اشتد الأمر على الفرنسيس وقلت عندهم الأقوات وصعب لذلك عليهم المقام قبالة المسلمين رحلوا يريدون دمياط فاقتفى المسلمون أثرهم فانحاز الملك لويز بمن معه من الملوك والأمراء إلى بلد هناك وطلبوا الأمان فأمنهم الطواشي محسن الصالحي ثم غدر بهم وأحضرهم أسرى إلى المنصورة فقيد الملك لويز وجعله في دار كان ينزلها كاتب الإنشاء فخر الدين بن لقمان وآثارها لا تزال باقية إلى الآن وقد تهدم أكثرها ووكل به الطواشي صبيح المعظمي، وفي ذلك يقول الشاعر مهدداً الفرنسيس:

دار ابن لقمان على حالها ... والقيد باق والطواشي صبيح

وليس أمر خليل أغا وما كان له من السطوة في عهد إسماعيل عنا ببعيد.

مأمون عبد السلام

قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكي

وكيل كلية العلوم

الدفتريا

بين واجد سمها الفرنسيّ، وكاشف ترياقها الألمانيّ

ومضت أربع سنوات تحققت بعدها نبوءة لُفلار، وبم تحققت؟ بتجربة تظهر لك غاية في السخافة، والحقيقة التي لا شبهة فيها أنها تجربة أوغلت في الخيال وتفانينه بقدر ما بعدت عن دائرة الحقيقة واليقين. تجربة ما كان يحسب حاسب إلا أنها تنتهي بقتل الخنزير الغيني الذي استُخدم فيها غرقاً؛ ولم تكن هذه التجربة بدعاً في الذي أوحاه هذا العصر من تجارب، فبحث المكروب في باريس كان عندئذ على أشده حدّة وعنفاً، يصدر عن قلوب هائجة محمومة لا عن عقول هادئة باردة، ففي هذا العصر كان بستور خائر القوى، منهدم الكيان، بعد نُصرته التي كانت من كشفه فكسين الكلب، فقنع بأن يشرف في ضعفه على بناء المعهد بالمليون فرنك الذي كان يقام في شارع ديتو وكان في باريس في هذه الفترة متشكنيوف وكان رجلا جموحا احترف البحث في المكروب فسلك فيه سبيلا وسطاً بين العلم والشعوذة، وكان جاء باريس من أوديسا الروسية ليجشأ فيها بنظريات غريبة تتحدث عن بلع كرات الدم البيضاء للجراثيم؛ وأخذ في هذا العصر أشياع بستور يحزمون مجاهرهم في عيابهم ويسافرون إلى سيجون في الهند الصينية وإلى أستراليا، يقصدون إلى كشف مكروبات لأدواء عجيبة لم يكن لها وجود أبداً. وفزعت أمهات كثيرات إلى بستور، والأمل يملأ قلوبهن، يرجونه في كتب لا عد لها أن يُنجي أولادهن من أمراض شنيعة عديدة، ولكن بستور كان رجلا مجهوداً منهوكا كتبت إليه إحداهن تقول: (إنك لو شئت لوجدت دواء لهذا الداء اللعين الذي يدعى بالدفتريا، انك لو فعلت لأعطيت الحياة لأطفالنا وكان لك ثواب ذلك، أننا نذكرك لهم، ونحفّظ اسمك

إياهم بأنك رب خير للإنسانية كبير عميم
ولكن بستور كان قد غاض معينه، فلم يبق فيه إلا ذَماء، فقام عنه رو يحاول محو الدفتريا من على ظهر الأرض، وأعانه في هذا يرسين وهو رجل لا يهاب الموت، كان من نصيبه بعد ذلك أن اكتشف جرثومة الموت الأسود فنال بها مجداً كبيرا، ولم يكن الذي أتاه رو من ذلك علما، إنما كان جهادا وحرباً. كانت تحدوه عاطفة قوية فاقتحم السبل إلى غايته اقتحاماً، فلم يتريث كما يتريث المكتشفون لاختطاط الخطة ومصابرة الفرصة في دهاء وافتنان. ولست أقول إن (رو) بدأ بحثه من أجل هذا الكتاب الذي كتبته تلك البائسة تسترحم فيه بستور، ولكني أريد أن أقرر أن رو بدأ بحثه وأكبر همه تخليص الأرواح لا علم الحقائق، فهذا البيت في شارع ديتو ما كان يضم إلا رجالا إنسانيين همهم خلاص البشرية وتخفيف ويلاتها، يستوي في ذلك ربّه الشيخ المشلول، وغاسل القناني الخامل الحقير. كلهم كانوا يعملون لخلاص الناس، وهذا طيب جميل، ولكنهم حادوا من أجله أحياناً عن السبيل الذي لا بد من سلوكه لبلوغ الحقيقة. . . .
ومع هذا، وبرغم هذا، فقد كشف رو كشفاً رائعاً مجيداً
كانت الدفتريا تفتك بباريس فتكاد ذريعاً. فذهب رو ويرسين إلى مستشفى الأطفال فوجدا هناك نفس البشلة التي كان وجدها لُفلار. فربوها في حساء بقارورة، وترسما الخطى المعروفة، فحقنا مقادير كبيرة من هذا الحساء في كثير من طيور وحيوانات منحوسة الطالع فماتت ضحية العلم، دون أن تعلم بما ضحت، فترضى وتطيب نفساً عن نصيبها. ولم يكن هذا الذي بدءا فيه بحثاً كثير النفع كثير الإنتاج مستنيراً، ولكنهما لم يلبثا أن وقعا وشيكا على الدليل الذي أعوز لُفلار، فإن الحساء شلّ الأرانب. ذهب مفعوله في أوردتها فلم تمض إلا أيام قلائل حتى سارت تجر أرجلها الخلفية وراءها عرجا. فسر أصحاب التجربة سروراً كبيراً. وزحف الشلل إلى أجسامها حتى بلغ أكتافها وأرجلها الأمامية ثم ماتت في شللها وبللها ولزاجتها شرّ ميتة
قال رو وقد ملأته رغبة شديدة في الإيمان بالذي يقول: (إن هذه البشلة تقتل الأرانب على نحو ما تقتل الأطفال. . . . لابد إذن أنها هي سبب الدفتريا الذي لا شك فيه، ولابد أني واجد الآن هذه الجرثومة في هذه الأرانب. واستخرج عدداً كبيراً من الأنسجة من كل ركن
من بضعة جثث من هذه الأرانب، واستخرج أطحلتها وقلوبها، وزرع منها زريعات كثيرة، ولكنه لم يجد بها بشلة واحدة. أنها أيام قلائل فقط مضت منذ حقن بلايين من البشلات في كل أرنب منها. ولكن هاهي ذي ملقاة أمامه، قد انتزع أحشاءها، وقطّع أوصالها، وفتش فيها مبتدئاً بأنوفها الحمراء منتهياً بما تحت ذيولها البيضاء، ولكنه لم يعثر بها على بشلة واحدة. إذن فما الذي قتلها؟!
فجاءت نبوءة لُفلار تمر سريعة كالبرق بخاطره. فتفكر وقال: (لابد أن هذه البشلات تصنع سما وهي في الحساء، ولابد أن هذا السم هو الذي يشل ويقتل
وانبعثت فيه روح البحث الصحيح، روح المعرفة للمعرفة، فنسي الأطفال وبلواهم، وأكبّ على الخنازير الغينية والأرانب يثخنها قتلا وجزرا، فقد وجب عليه أن يثبت أن هذه البشلات تعصر سماً من أجسامها الدِقّاق
وبدأ هو ويرسين يدوران يتحسسان في الظلام عن تجارب تهديهم إلى إثبات ما يبغيان إثباته. وطال تحسسهما، وبعدت طرائقهما عن طرائق العلم. ولهما العذر في ذلك، فلم يكن لديهما في هذا الباب طرائق معروفة، ولم يكن سبقهما فيه سابق فيترسمون خطاه على هدى وبصيرة. ولم يسمع أحد قبلهما بأن باحثاً فصل سماً من أجسام المكروبات، إلا بستور فقد كان حاول شيئاً لم يستتمه من هذا. كانا وحدهما في ظلمة هذه الجهلة. ولكنهما استطاعا أن يقدحا عود كبريت. . . قالا: (إن البشلة لابد تصب سمها في الحساء، كما تصب سمها في دم الطفل وهي مقيمة على غشاء حلقه).
بالطبع هما لم يثبتا هذا
ووقف رو حجاجه النظري، وسئم الدوران منه في دائرة لا تنتهي، واعتزم حل المُعْضل في المعمل بيديه. وجد أن التلمس في هذا العماء لا يجديه نفعاً. وجد أنه كرجل اختل محرك سيارته فتعطلت، فأراد أن يصلحه وهو لا يدري من عمل المحركات شيئاً. فكان الأولى به أن يتعلم كيف تعمل المحركات أولا. فقام إلى قارورات من الزجاج كبيرة، ووضع فيها أحسية خالية من المكروب طاهرة، ثم بذر فيها بشلات نقية من الدفتريا،

ثم أودعها في المدافئ لتربى. فلما بقيت فيها أربعة أيام وتم نضجها قال رو: (والآن فعلينا فصل الحساء من المكروب). وجهز الاثنان لذلك جهازا غريبا، مُرشّحاً له شكل الشمعة إلا أنه أجوف، صنعاه من مادة صينية دقيقة اكتنزت حباتها وضاقت مسامها فأذِنت بنفاذ
الحساء ورفضت فوات المكروب فيها. ونصبا هذه الشمعات الجوفاء في مخابير من الزجاج لامعة صقيلة، وقاما يصبان الأحسية فيها على حذر شديد مخافة أن يصيبهما رشاش قاتل منها، ولكنها أبت أن تنفذ من الشموع إلى المخابير، وأخيراً استطاعا أن ينفذاها بهواء مضغوط ضغطا شديدا، فلما تم لهما ذلك تنفسا الصعداء وهما يصفقان على المنضدة، ذلك الراشح الرائق قد تراءى في قواريره الصغيرة أصفر كالكهرمان ولم تكن به جرثومة واحدة
وتمتم رو لنفسه: (هذا السائل لا شك يحتوي السم. نعم لقد حبست الشموع ما كان به من جراثيم، ولكنه مع هذا لابد أنه يقتل الحيوانات، وهرج المعمل ومرج بالمساعدين وهم يحضرون الخنازير والأرانب، فلما حضرت ذهبت إبر المحاقن في بطونها بهذا السائل الذهبي، ضربتها فيها يد رو، وهي يد خفيفة بارعة
وانقلب رو فصار فتاكا سفاحاً، وملأ قلبه حب القتل، فلم يجيء إلى معمله يوماً إلا وفي نفسه رغبة كرغبة المجنون أن يجد حيواناته قتيلة صريعة. وكأني بك تسمعه يصيح إلى يرسين: (إن السم لابد فاعل فعله الآن فيها، لابد أنه ضارب بنابه الآن في مقاتلها)، ثم هما ينظران معاً فلا يجدان ما يشفي غليلهما ويؤمن على نبوءتهما، فلا الشعور انتفشت، ولا الأرجل الخلفية شلت فتجرجرت، ولا الأجسام ارتعشت وانتفضت كان وقع ذلك شديداً عليهما. بعد كل هذا التعب، وكل هذا التجريب والتفنين في دقة وحذر، تظل هذه الحيوانات تقرض بقولها في أقفاصها قرضاً، وتثب فيها وثبا، وتتغازل ذكورها وإناثها وتتهارش هذا الهراش السخيف الذي لابد منه لإيجاد النسل وتواصل الجنس. . . إنها تملأ أمعدتها وتشبع شهوتها ولا تأبه لشيء. أما هؤلاء الأناسي المردة الطوال الذين أحسنوا غذاءها هذا الإحسان فليحقنوا في أوردتها أو في بطونها من ذاك الحساء ما شاءوا. أيدعونه سما؟ لقد طال بهم الخيال، وكذب الخال. إن يكن سما فهو لا يزيدها إلا هناءة وطيب حال
وحاول رو مرة أخرى فحقن مقادير أكبر من حسائه في طائفة حيواناته، ثم في أخرى، ثم في أخرى، ولكن من غير جدوى. لم يكن في الحساء سم
لو أن رو رجل عاقل عادي لكفاه الذي جرى، واقتنع بأن الحساء الذي أودعه المدفأ أياماً ثم
رشحه لم يكن به سم قط. ألم يكفه هذا العدد العديد من الحيوانات التي ضاعت سدى؟ ولكن رو - ولتحمده الأمهات والأطفال المساكين، ولترعه الملائكة التي تحفظ البحاث المجانين - ولكن رو كان في تلك الساعة مجنونا. أصابه مس كالذي كان يصيب أستاذه بستور فيجعله يرى الصواب في الذي يراه الناس أجمع خطأ، ويقدح ذهنه فتخرج منه التجربة المستحيلة الناجحة. كأني بك تسمع هذا الرجل المسلول ذا وجه الصقر يصيح لنفسه: (هنا، في هذا الحساء سم لا محالة). وكأني بك تراه يدور في معمله يصيح هذه الصيحة إلى القوارير المصففة على الأرفف التربة، وإلى الأرانب والخنازير الغينية، وهي لو استطاعت لضحكت من هذا المجهود الخائب الذي بذله ويبذله رجاء قتلها. (لابد من سم في هذا الحساء الذي نمت فيه بشلات الدفتريا، وإلا فكيف ماتت الأرانب إذن؟)
وأخيراً، بعد أن قضى الأسابيع يحقن أحسيته في الحيوانات ويزيد مقدار ما يحقن فيها كل مرة، أخيراً عزم على أن يحقن في الخنزير ثلاثين مقداراً من الحساء دفعة واحدة، ففعل وكاد يغرق الخنزير بحسائه. كان مثله في ذلك مثل المقامر الذي سئم الخسارة، فلما يئس جازف فوضع على الرقعة كل ماله. حتى بستور ما كان ليجسر هذه الجسارة فيحقن الخنزير الغيني الصغير تحت جلده بخمسة وثلاثين سنتميتراً من الحساء كما فعل رو. أليس في هذا المقدار لو أنه ماء نقي ما يقتل الخنزير بمجرد حجمه. وهو إذا مات فأي نتيجة تستخرج من هذا عن وجود السم في الحساء. . . .
ولكن رو لم يأبه لذلك، فدفع بهذا المقدار من الحساء وهو كالبحر في بطن الخنزير. ودفع بمقدار مثله في وريد بأذن أرنب، فكان كمن صب جردل ماء في أوردة إنسان

متوسط الجرم
ولكن بهذا الأسلوب الغريب كتب رو اسمه في لوحة المجد، فعلى الناس أن يخلدوها على الدهر ويحفظوها من البلى ما بقي على ظهر هذه البسيطة إنسي. احتمل الأرنب والخنزير تلك الشربة الهائلة وصمدا لجرمها الكبير، وهَنِئا بالسلامة ونعما بالعيش يوماً أو يومين بعد هذا، ولكن لم يمض على ذلك غير ثمان وأربعين ساعة حتى انتصب شعراهما على ظهريهما، وأخذا يتنفسان اختلاجا. وماتا بعد خمسة أيام، وظهرت عليهما نفس الأعراض التي ظهرت على الحيوانات الأخرى التي ماتت عقب حقنها بمكروب الدفتريا نفسه لا بحسائه المرشَّح. وبهذا اكتشف رو سم الدفتريا. . .
لو أن الأمر اقتصر على هذه التجربة، وما تضمنته من جرعة هائلة من حساء ضعيف السم، إذن لضحك قناص المكروب منها ومن صاحبها رو، ولتخذوا منها فكاهة فاضحة: (إن تكن قارورة كبيرة من مكروب الدفتريا لا تخرج إلا هذا السم القليل حتى ليحتاج إلى أكثر هذه القارورة لقتل خنزير غيني صغير، فأنى لبشلات قليلة تحل في زور الطفل أن تصنع من هذا السم ما يكفي للقضاء على جرمه الكبير! هذا حمق أي حمق!)
ومع هذا فرو حل بذلك العقدة الأولى. وبهذه التجربة السخيفة قدح أول قدحة وأطار أول شرر شعّ في ظلمة الطريق فعرف به إلى أي ناحية يتجه وعلى أي جنبيه يميل. فأخذ يتحسس طريقه بين الأحراج ويشق سبيله بين الأدغال بطائفة من التجارب الدقيقة حتى انفتح له السبيل بغتة عن أرض عراء فعرف مكانه واستوثق مما هو فيه. واستغرق في ذلك شهرين عرف بعدهما السبب في ضعف السم بحسائه. واتضح له أنه لم يكن ترك الحساء ببشلاته في المدفأ مدة كافية، فلم تتمكن البشلات من العمل فلم تصنع من السم ما تعودت أن تصنعه. وعلى هذا صنع حساء جديداً ووضع فيه بشلات جديدة أودعها المدفأ وأبقاها هناك في حرارة كحرارة الجسم مدة اثنين وأربعين يوماً. فلما أخرجها أخرج سماً كأقوى ما تكون السموم، وحقن القليل منه في حيواناته فصنع بها ما لا يُصنع. وأخذ في تقليل مقدار ما يحقن فيها عسى أن يقلل فتكه بهذه الحيوانات ولكنه حاول عبثاً، وظل ينظر بعين واسعة وقلب مغتبط تياه إلى القطرات القليلة من هذا السم تذهب بالأرانب وتقتل الشياه وتلقي بالكلاب صريعة. ثم أخذ يتلهى بهذا السائل الفتاك، فجففه، وأراد دراسة كيميائه فأخفق. ثم ركّزه تركّيزاً كبيراً، ووزن ما ركّز، ثم عكف يجري عمليات حسابية طويلة فوجد أن الأوقية منه تقتل 600000 خنزير غيني، أو 75000 كلب كبير. ووجد أن الخنزير الغيني الذي يناله من هذا السم جزء من 600000 جزء من الأوقية تتحول أنسجة جسمه فتكون كأنسجة جسم الطفل الذي يموت بالدفتريا
هكذا أوّل رو حلم لفلار وحقق نبوءته؛ وعلى هذا النحو كشف عن رسول الموت السائل الذي يتحلّب من أجسام هذه البشلات الصغيرة الحقيرة كشف رو لنا عن الطريقة التي تقتل بها هذه البشلات الأطفال، ولكنه لم يكشف لنا عن طريقة ندفع بها شرها، والكتاب الذي
بعثته تلك الأم البائسة لبستور تسأل فيه دواء لهذا الداء بقي على المكتب لا يجد له جواباً، ومع هذا فعمل رو بلغ أمره الأطباء فتعلموا كيف يربون تلك البشلات من حلوق المرضى من الأطفال، وأثمر عدة اقتراحات بغرغرات نافعة يغسلون حلوقهم بها، ولكن رو لم يكن له صبر بستور ولا حيلته
في العدد القادم: بارنج يكتشف ترياق الدفتريا
أحمد زكي
نشأة مقاييس الذكاء
للأستاذ علي محمد فهمي
مدرس التربية التجريبية المساعد بمعهد التربية للبنين
ليس علم النفس بالعلم الحديث، بل هو قديم من أيام أرسطاطاليس، ولكنه لم يثمر إلا في القرن العشرين ومن ثم صار علماء علم النفس يبحثون بجد في العقل وكنهه، وفي الذكاء وأصله، فاستفادت التربية من قياس ذكاء الأطفال. وقد قطعت الأبحاث في محاولة قياس الذكاء عدة مراحل أهمها أربع:
المرحلة الأولى

في هذه المرحلة لاحظ الباحثون بادئ الأمر أن هناك تبايناً بين الأفراد في الفهم والتفكير والتذكر والقدرة على التعلم وإن هذا التفاوت يختلف باختلاف الجنس والعمر والبيئة، وكانت الجهود كلها موجهة إلى محاولة تعيين مقدرة المرء العقلية بواسطة شكل جسمه وخاصة الرأس والعاهات الخلقية التي في الإنسان، فأول ما نشأت فكرة إيجاد مقاييس للذكاء كانت عبارة عن مجرد فحص الحالة الجسمية

وكان أول من تناولها بالبحث والكتابة فيها الأستاذ لافاتير سنة 1772 فقد نشر في هذه السنة بحثاً عن معرفة صفات الإنسان العقلية والنفسية من ملامح الوجه

ثم نشر جول صاحب نظرية الجمجمة كتابا عن معرفة صفات الناس من أشكال رءوسهم وقياس عظامهم الجمجمية فعمل خريطة للعقل وقسمه إلى ملكات وكانت الملكة تكبر أو تصغر بحسب قوتها وضعفها ويسمى هذا العلم بعلم الفراسة

ثم تبعه في بحثه الدكتور بل سنة 1806 ثم داروين سنة 1872 وكانا يعتبران أن صفات الشخص العقلية تعرف من حالة عضلاته، فالخائف مثلا تظهر عليه علامات كأن تفتح عيناه وترتعش ركبتاه وغير ذلك من علامات الخوف؛ فإذا كان الخوف مستمراً فانه يترك في وجه الشخص طابعا يدل عليه، ولكن ثبت خطأ هذه النظرية إذ قد توجد علامات مشتركة بين حالات مختلفة فلا يمكن مثلا التمييز بين علامات الضحك من السرور وعلامات الضحك من الاستغراب والاستهزاء

قام بعد ذلك الأستاذ لمبروزو الأخصائي في علم الإجرام بمباحثه وأتى بفكرة جديدة وهي الحكم على صفات الناس العقلية والنفسية من العلامات التشريحية فهو يقول بأن هناك وصمات وتشويهات معينة في الجسم يدل وجودها فيه على ميل فطري للإجرام، فمثلا كبر الرأس وشكله وعدم مساواة نصفيه وعرض الجبهة وضيقها والأنف العريض والمقلوب والمفرطح وسقف الحلق الضيق والمرتفع - ويكون عادة على شكل 8 - والآذان عديمة الحلمة والمشوهة والكبيرة الحجم، كل هذه العلامات أو العاهات كما يقول الأستاذ لومبروزو هي علامات صحيحة للإجرام موجودة مع الطفل من يوم ولادته. وعلى ذلك فهو يرى أن الشذوذ في الخلقة يرجع إلى شذوذ في النفس والعقل. وقد نشرت ملاحظات هذا العالم وتجاربه هو ومساعدوه في أواخر القرن التاسع عشر، ولكن على توالي الزمن اقتنع العلماء بأن الحكم على العقل أو النفس بمجرد مشاهدة الخلقة حكم لا قيمة له بل يجب اختبار الصفات العقلية والنفسية باختبارات عقلية سيكولوجية

هدأت الأفكار بعد ذلك نوعا ما وتحولت عن نظرية لمبروزو وعلاقتها بالإجرام: هنالك نشط الباحثون واستنفذوا جهدهم في البحث فوصلوا إلى أن كبر حجم الجمجمة دليل على كبر حجم المخ، وكبر حجم المخ دليل على الذكاء والعكس، غير أنه فاتهم للأسف أن الذكاء لا يقدر بكبر حجم المخ ولا بصغره وإنما يقدر بسمك المادة السنجابية وكثرة تلافيف المخ الخ. وقد نشط الأستاذ بيرسون في بحث هذا الرأي فأجرى تجاربه على 500 طالب من جامعة كولومبيا بأمريكا فوجد أن العلاقة بين حجم المخ والذكاء تكاد تكون معدومة

المرحلة الثانية

بعد ذلك ظهرت في أوروبا في القرن التاسع عشر ثلاث حركات علمية مهدت السبيل لظهور المقاييس العقلية وهي:

أولا: ظهور علم النفس التجريبي في ألمانيا على يد ويبر الذي اهتم بدراسة الاحساسات وحاول أن يطبق عليها روح القرن التاسع عشر وهي الروح العلمية التجريبية. وتبعه عالم ألماني اسمه فخنر ثم تبعهما سلسلة علماء حتى جاء وند وأنشأ أول معمل لعلم النفس في ليبزج سنة 1879، وكان متجهاً لدراسة الاحساسات لوجود فلسفة الترابط في إنجلترا في ذلك الوقت، وفلسفة الترابط هذه تقول إن أصل كل حياة فكرية هي الاحساسات، وإذن

فالاحساسات هي أساس نشوء الحياة العقلية، ولذلك عمد وند لدراسة زمن الرجع وهو الزمن الذي ينقضي بين وصول المؤثر وبين حصول الرد عليه، لأنه دليل على سرعة العمليات العقلية، وكان يساعده في أبحاثه الأمريكي كاتل الذي لاحظ أن الأشخاص يختلف بعضهم عن بعض في زمن الرجع، وكانت أبحاثه ضد رغبة أستاذه وإن كانت تعتبر الآن من الينابيع التي غذت المقاييس العقلية

ثانياً: دراسة الوراثة في إنجلترا: وأول من بدأ بدراستها هو فرنسيس جالتون وهو أحد أقارب داروين واشترك معه في أبحاثه في نظرية النشوء والارتقاء، ولكن داروين كان كل همه دراسة وراثة الإنسان من وجهة الجسم فقط فاهتم جالتون بدراسة وراثة الصفات العقلية، وقد نشر سنة 1883 كتابه (أبحاث في القوى العقلية) وبه عدة أبحاث خاصة بالخيال ومحاولات بسيطة لقياس الصفات العقلية، ثم فتح في لندن معملا للقياس العقلي والجسمي، وسماها مقاييس انتروبولوجية (خاصة بدراسة البشر)

على أن بحث السير جالتون هذا وإن كان خلوا من الملاحظات والنتائج إلا أنه يعد أول عالم فكر في موضوع الذكاء وقياسه

ثالثاً: حركة علم النفس الطبي في فرنسا: أخذ علم النفس يتجه اتجاها عمليا في فرنسا وذلك لأن الفرنسيين مهتمون بالطب، ولأن علم النفس يتصل بالطب اتصالا تاما، ومن الموضوعات التي كان لها أثر في القياس العقلي ظهور مسألة قياس ضعفاء العقول فأخذ الناس في القرن الثامن عشر يهتمون بهم ويتفهمون حالتهم ويحاولون علاجهم. ساعد على ذلك عثور صياد في غابة بفرنسا على طفل في حالة همجية، فأخذه إلى باريس وفحصه الأطباء وعهدوا بتربيته إلى فيلسوف طبيب اسمه إتار وكان طبيبا في معهد الصم والبكم، فجرب على الطفل الطرق الحسية ليرى تأثيرها على تعليمه وتحوله من الهمجية، وبعد مضي مدة وجد أن التقدم في حالة الطفل بطيء فأرسله إلى معهد خيري، حيث كان يشتغل طبيب اسمه سيجان وكان تلميذاً لأتار فلم ييأس هذا من استعمال الطرق الحسية مع الولد حتى نجحت وتقدم الولد تقدما ملموسا

ذلك إلى إنشاء مدرسة لتربية ضعفاء العقول على طريقة وشاع استعمال هذه المدارس ثم جدت مشكلة الحكم على عقل الطفل فحمل ذلك وزارة المعارف في فرنسا على إنشاء لجنة

لدراسة هذه المشكلة، وكان من بين أعضائها بينيه الذي عمل أول مقياس عملي للذكاء سنة 1904

المرحلة الثالثة

ذكرنا أن كاتل كان يبحث مع وند في ألمانيا وزار جالتون في لندن، ولما عاد إلى أمريكا عين مدرساً لعلم النفس فنشر سنة 1890 برنامجاً للقياس العقلي اقترح فيه أن تطبق مقاييس خاصة على طلبة مدرسته، وكانت المقاييس بسيطة تقاس بها القوى الحركية والتمييز الحسي ومظاهر أولية للذاكرة والحكم

نشر كاتل هذه الاختبارات في مجلة إنكليزية ذيلها جالتون بالتعضيد فآثر نشرها في أوربا وأمريكا وطبقها علماء النفس حتى أنه في سنة 1896 استأجر جاسترو مكانا في معرض شيكاغو وأخذ يختبر ذكاء الأشخاص نظير أجر، ثم أخذ كاتل في تطبيق هذه الاختبارات على الطلبة في جامعة كولومبيا نشرت نتائجها سنة 1901 وقارن جلبرت نتائج هذه الاختبارات التي عملت على الطلبة بنتائج حكم المدرسين على الطلبة أنفسهم، فوجد أن الاتفاق بين الاثنين ضعيف جدا

ومن ذلك نرى أن هذه المقاييس لم تكن مضبوطة، ولم تدل على الذكاء تماما، لأنها تقيس قوى فردية ليس بينها وبين القوة العقلية العامة علاقة متينة، وقد أدى هذا النقص إلى التحول عن هذه المقاييس وأصبحت جامعة كولومبيا تحت رئاسة مركزا للبحث في هذه المقاييس، وبالتدريج تغلبت الروح العلمية فأخذ علم النفس صبغه طبية في فرنسا، وابتدأ الفرنسيون يهتمون بقياس العمليات العقلية ذات الأهمية الظاهرة في الحياة، وفي سنة 1896 ظهر مقال للعلامة بينيه في مجلة السنة النفسانية التي اتخذها مسرحا لنشر أبحاثه المختلفة، وكان يحرر الجزء الأعظم منها بنفسه باذلا في ذلك مجهودا كبيرا ومهتماً من البداية بمسألة الذكاء وقياسه معالجا إياه من نواح عدة، وقد لخص بينيه الأبحاث التي عملت قبل ذلك وحمل على الاختبارات الموجودة حملة شديدة إذ كانت تقيس قوي عقلية بسيطة ليست مهمة في الحياة، فكانت حسية وحركية، ولكن الناس لا يتميزون في الذكاء بقوة الإحساس والحركة وإنما يتميزون بقوة الحكم والخيال والذاكرة. وذكر بينيه أيضا في مقاله أنه لابد لقياس الذكاء من ترك المقاييس القديمة والبحث عن أخرى لقياس القوى

العقلية العليا، فكان لهذا المقال أثر كبير نقل مقاييس الذكاء من نظريات إلى معامل، وأبطل استعمال الأجهزة النحاسية التي كانت تستعمل، ومن ذلك الحين تدفقت الاختبارات العقلية التي قام بها فريق كبير من العلماء، على أننا لا يمكننا نتبع كل هذه الاختبارات وإنما نتكلم على أهمها وهو اختبار بينيه

ولد الفرد بينيه بمدينة نيس من أعمال فرنسا سنة 1857 وحصل على إجازة الحقوق سنة 1878 ثم عكف على دراسة الطب وتتلمذ للعالمين المشهورين وقتئذ فيريه وشاركوه ولاسيما الثاني منهما فقد بث فيه روح الاهتمام بدراسة نفسيات الشواذ من الناس. ثم تعاون بينيه مع آخرين على إنشاء معمل للأبحاث النفسية في السربون ثم أصبح هو مديراً لهذا المعمل وكان أحد أعضاء اللجنة التي شكلتها وزارة المعارف الفرنسية لاختيار ضعاف العقول فخطر له أن يدعم عمله في هذه اللجنة ببحث قيم يتخذ أساساً وعوناً لبقية البحوث في المستقبل؛ وبدأ عمله بالبحث في ماهية ضعف العقل، ومن هو ضعيف العقل من الأولاد الذي يحتاج إلى تعليم خاص، وقد خصص جهوده كلها ومواهبه العلمية لإنجاز هذا العمل وعكف عليه زمناً لا يقل عن سبع سنوات وفق فيها إلى غرضه وأخرج مقياساً علمياً عملياً حقاً، وظهرت له سلسلة أبحاث في المقاييس العقلية. وقد رأى أن الانتباه الإرادي والذكاء مرتبطان لدرجة أنه يمكن اتخاذ مقاييس الانتباه دليلا على الذكاء فوضع اختبارات عديدة منها زمن الرجع وإعادة بعض أعداد والسرعة في عدد دقات الكرنومتر.

وقام عالم ألماني آخر اسمه ايبنجوس سنة 1897 وعمل اختباراً سماه طريقة ويسمى الآن طريقة التكميل فدلت الاختبارات التكميلية على أنها من أحسن الاختبارات للذكاء، والأساس الذي بني عليه هو اعتقاده أن الذكاء لا يتجلى في إدراك المؤثرات متفرقة وإنما يتجلى في ضم المؤثرات بعضها إلى بعض لتركيب وحدة كلية، ففي الجملة الواحدة مثلا لا يتجلى الذكاء في فهم كل كلمة على حدة بل في فهم الجملة كلها وهي فكرة وجيهة جداً، وقد استمر البحث حتى سنة 1905 حين ظهر أول مقياس كامل للذكاء من عمل بينيه ومساعده سيمون ثم عدلاه في سنة 1908 وفي سنة 1911 وترجم مقياس سنة 1908 إلى لغات عدة فأحدث أثراً كبيراً في العالم وجرب في بلاد كثيرة وقد سخر بعض الناس من مقياس بينيه وقالوا إنه ليس له فائدة عملية، ولكن أكثر العلماء رأوا فائدته وكان بينيه

مشبعاً بالروح العلمية الحديثة، وظل يدخل إصلاحات عدة في مقياسه ومات سنة 1912

وقد كان من نتيجة تجربة مقياس بينيه في بلاد كثيرة أن تجلت الحاجة إلى تعديله بما يلائم حالة كل بلد منها، ولذلك ظهرت له تنقيحات عديدة منها خمسة أو ستة في أمريكا وتعديل أو اثنان في ألمانيا وإنجلترا، وأهم هذه التنقيحات تنقيح الأستاذ تيرمان الأمريكي وكان أستاذاً بجامعة استانفورد وسمي التنقيح باسم الجامعة

وكان ترمان مهتما بمسألة القياس العقلي حتى قبل ظهور مقياس بينيه، فقد ألف بحثاً في العبقرية والغباوة حاول به أن يوجد أسئلة تميز بين الأذكياء والأغبياء وقد نشر أبحاثه هذه في سنة 1906 ولما نشر مقياس بينيه اهتم به اهتماماً كبيراً وابتدأ بمساعدة شلد في تعديل هذا القياس بأن ضم إليه عددا من اختباراته وأوجد مقياساً منقحاً ولكن أهم من ذلك أنه أدخل في تنقيحه فكرة جديدة ليست من عنده ولكنها من عند عالم ألماني يدعى استرن وهي فكرة نسبة الذكاء، وقد كان بينيه يعتمد في مقياسه على تأخر أو تقدم العمر العقلي عن العمر الزمني، ولكن التجربة دلت على أن هذه الطريقة ليست دقيقة، فمثلا إذا فرضنا أن ولداً عمره العقلي 7 سنوات والزمني 5 سنوات فإن تقدمه العقلي على حساب بينيه يكون مماثلا لولد عمره العقلي 12 سنة وعمره الزمني 10 سنوات أما استرن فيقول إن ذكاء الأول أكبر من الثاني لأن نسبة الذكاء في الأول أكبر منها في الثاني، فنسبة ذكاء الأول 57=1. 4 بينما في الثاني 1012=1. 2 - أخذ ترمان هذه الفكرة نفسها

وأضافها إلى مقياسه المنقح إلا أنه ضرب هذه النسبة في 100
لكي يتلافى الكسور فتكون نسبة ذكاء الأول 140 والثاني
وقد نقل الأستاذ القباني اختبار ستنفرد بينيه هذا إلى 120
العربية بعد أن أدخل كثيراً من التعديلات الضرورية عليه
لجعله ملائماً للبيئة المصرية
المرحلة الرابعة
- :كل المقاييس التي ذكرت لفظية وقد اعترض على هذا النوع من المقاييس
(1) لأن الطالب الذي تكون بيئته لا تساعده على التعبير يظلم في هذه البيئة، ولذا
فالتلميذ الذي من وسط اجتماعي راق يكون أذكى من تلميذ من وسط اجتماعي فقير،
لأن الأول يسمع مناقشات ويشترك فيها بينما لا يقابل الثاني من أبيه أو أمه إلا بالزجر
والضرب
(2) وهناك أطفال لا تتوفر عندهم ملكة الكلام أو غير متمكنين من اللغة الموضوع بها
الاختبار
(3) وهناك أطفال من ذوي العاهات كفاقدي السمع والنطق يصعب اختبارهم بهذه
المقاييس اللفظية
(4) في بعض البلاد تختلف اللغة الدراجة التي يتعلمها الطفل عن لغة الاختبار كمصر
مثلا
كل ما تقدم أدى إلى البحث عن اختبارات أخرى تصلح لهذه الحالات كلها ولذا عملت
اختبارات عملية بمعنى أن المطلوب فيها سؤال لا يجاوب عليه باللفظ، ولكن يكلف
المفحوص بالقيام بعمل يعمله أمام المختبر، ومن أمثلتها لوحة الأشكال - وبها أشكال
مختلفة مجوفة يعطى للطالب أجسام مماثلة لها بحيث يضع كل جسم في الشكل
المجوف
المماثل له، وهناك لوحات سهلة التركيب وأخرى صعبة التركيب يمكن في مثل هذه
اللوحات احتساب عدد تغيير القطع حتى يجد الولد القطعة المطلوبة وحساب الزمن
الذي يستغرقه المختبر في إتمام تركيب اللوحة
وهناك نوع آخر من هذه الاختبارات يسمى اختبار التواهات مثل بيت جحا ولكنها
مرسومة على ورق فيدخل الطالب من باب ويخرج من آخر
وهناك نوع ثالث وهو لوحة الصور يلصق عليها صورة مقطوع منها أجزاء، وهذه الأجزاء
تعطى للتلميذ ويطلب منه تكميل الصورة
كل هذه الاختبارات فردية تعطى لكل فرد على حدة فتطبيقها يحتاج إلى وقت كبير
ولذا فنحن في حاجة إلى اختبارات لا تحتاج إلى وقت كبير فاخترعت اختبارات جمعية
إذ فكر من تلاميذ في عمل اختبار جمعي، وقام علماء النفس بأمريكا بعمل اختبارات
جمعية، فألفوا مقاييس الجيش، وأطلقوا على الأول منها مقياس وهو من النوع
اللفظي على الثاني وهو اختبار عملي جمعي تستعمل فيه الصور، وقد ارتاح رجال
الجيش إلى نتيجة هذه الاختبارات فانتشرت من أمريكا إلى بقية العالم
علي محمد فهمي
في المباراة الأدبية
استثمار نهضة المرأة المصرية للخير العام
للآنسة فتحية عزمي
كانت نهضة المرأة في مصر إحدى ثمار الفورة الوطنية المباركة التي انبجست من
قلوب أبنائها البررة عام 1919؛ وإذا كانت الثورات التي حدثنا عنها التاريخ قد أفادت
العالم من كل نواحيه، وخلقت روحاً جديداً من التطور في كل مرافقه، فإن مصر هي
الأخرى قد جنت من وراء ثورتها الفتية نهضة مباركة بدأ أثرها جليا في السنين الأخيرة
في الأدب والفنون والعلوم والاقتصاد والسياسة. وكان من أبرز هذه المظاهر وأروعها
خروج المرأة المصرية من معقل التقاليد العتيقة المرذولة إلى الحياة العملية الصحيحة
بعد الجهل المخيم والخمود الطويل. . .
لقد مضى على المرأة المصرية حين من الدهر لم تكن شيئاً مذكوراً حتى نفخ الزعيم
الخالد (سعد) العظيم في صُور الثورة فلبت مع الملبين، وترامت في ميدان الجهاد مع
المترامين، فرأينا كيف يجتذب صوت الداعي الأخاذ النقاذ خدور العذارى والسيدات إلى

حيث النداء والتضحية، وكيف أن المرأة المصرية الحيية الساذجة قد ألقت عنها خمارها لتجابه بوجهها الحديد والنار في جانب الرجل، تشد عضده بمظهرها الحماسي الجريء، وتبعث في نفسه روح البسالة والإقدام، فيسارع إلى الموت باسماً لا ينكص ولا يتزعزع، وهكذا سجل التاريخ للمصرية في ذياك العام المجيد صفحة فخار ستبقى خالدة مادامت مصر ومادامت الوطنية والحرية، كما سجل للمرأة البدوية وراء الأجيال السحيقة يوم تبعت رجلها في الحروب تؤازره وتشجعه وتنشد خلفه أناشيد الحماسة والنصر فيشتد ساعده ويثبت جنانه فلا يتجلجل ولا يتحلحل إلا إلى نصر محقق حيث يعود إليها مزهواً بإكليل الظفر، أو إلى قبر في الفلاة موحش حيث الشرف كل الشرف والخلود كل الخلود. . .

فنهضة المرأة الحق في مصر لم تكن إلا وليدة الثورة، وكل ما قام قبل هذا التاريخ لترقية مستواها لم يكن إلا محاولات ضئيلة لا تكاد تذكر إلى جانب تلك الطفرة الهائلة التي قذفتها إليها الثورة، وهنا يحق لنا أن نحني الرأس في هذا المقام إجلالا لذكرى زعيمنا الخالد الذي تفجر من فيض وطنيته ما ننعم فيه الآن من نهضات عمت مرافقنا الحيوية، ثم نحيي في جثمانه الهامد الوطنية الصحيحة والوجدان الحي والتضحية الفادحة والعمل الخالد المقيم. . .

وأخذت بعد ذلك نهضة المرأة المصرية تسير سيرها الحثيث نحو التقدم المنشود ففتحت أمامها موارد العلم لتغترف ما شاءت حتى صارت إلى ما هي عليه الآن من رقي وثقافة يكادان أن يضعاها في مستوى زميلتها الغربية، ولكن هل آتت هذه النهضة أكلها حقا؟ وماذا كان اثر هذه النهضة في الحياة العامة؟؟

لا يسع كل منصف إلا أن يحكم معنا أن تعليم المرأة لدينا قد بلغ شوطاً بعيداً وخاصة في الأعوام القلائل الأخيرة، فمنا الآن الأديبات والطبيبات والحقوقيات وغيرهن ممن نلن من الثقافة العالية نصيباً وافرا، ولكن العمل الرئيسي الذي خلقت له المرأة يؤول اليوم تدريجياً إلى الإهمال: فالشؤون المنزلية وتربية الأولاد وإعدادهم للحياة الصحيحة ثم تفهم الحياة الزوجية ودرسها درسا وافيا، كل ذلك أضحى في نظر سيداتنا وخاصة المثقفات منهن شيئا ثانويا أولى منه إتقان أدوات الزينة والجري وراء الأزياء الحديثة حتى أصبحنا في خشية من انطباق قول الآنسة دي سكودراي علينا: (أن فتاة تنسى النظر إلى السماء لا تحسن شيئا على الأرض!!)

إن النساء أتين العالم لعمل الحساء وإنسال الأولاد وماعدا هذا فأنهن يظهرن بمظهر (كلمة مريرة قالها موليير عن المرأة، وهي وإن كانت تهكما لاذعا كاد صاحبها (مزعج يخرج بها إلى حد المغالاة، أو جاوزها فعلا، إلا أن فيه إشارة إلى الوظيفة الأولى للمرأة التي أشرنا إليها من قبل. وأنه لخليق بالمرأة المصرية وقد ضربت في الثقافة العامة بسهم وافر أن تضع نصب عينيها الرسالة التي أوجدتها الطبيعة من أجلها وتؤديها على أتمها خالصة في سبيل الله والواجب، ومن ثم تضرب في خضم الحياة العملية ما شاء لها الفكر الوقاد على ضوء الخبرة والمعرفة. أما أن تعنى بالأمور الفرعية دون تقويم الأساس وتمكينه فهذا ما لا يقره منطق سليم ولا تبيحه نفس الطبيعة التي فطرت كل شيء لغرض معين وهيأته لرسالة محدودة

في يقيني أن خير استثمار أن خير استثمار المرأة العصرية للخير العام ينحصر في شيء واحد وهو: تشييد صرح حياتنا الاجتماعية على أساس مكين ونظام متقن؛ وإذا كانت نهضة المرأة عندنا قد قامت على تعليمها فأحرِ بنا أن نستغل هذا التعليم لتمهيد سبل السعادة لأزواجنا ومعاونتهم على العيش، ثم تدبير بيوتنا وتثقيف أولادنا ثقافة أخلاقية وعلمية ووطنية ليشبوا رجالا بكل ما في هذه الكلمة من معنى سام جليل؛ ومتى تركزت حياتنا الاجتماعية على هذه الأسس الوطيدة صلحت حياتنا العامة وأعددنا للوطن أشبالا تغذوا بلبان الوطنية واهتدوا بهدي العلم إلى سواء السبيل

صدقوني أنّا لسنا بحاجة إلى المرأة المثقفة العالية بقدر حاجتنا إلى الأم الصالحة أو (المدرسة الأولى) كما نعتها الكتّاب والشعراء قديما، وهاهي تي البلاد تئن من أقصاها إلى أقصاها من كابوس البطالة الذي يجثم على أنفاسها ويزداد هولاً يوماً بعد يوم باطراد زيادة عدد المتعلمين الذين تلفظهم المدارس كل عام لمواجهة الحياة العملية

حتى ضاقت بهم سبلها وغصت بهم على رحبها، وهذا الجيش الجرار من شباب الأمة المتعلم العاطل أولى منا نحن معشر النساء المثقفات بالعمل، فبماذا يمكن إذاً استثمار نهضة المرأة المصرية للخير العام؟؟

ليس هناك سوى رد واحد على هذا السؤال، هو ما قلته، وهو أن خير طريقة لهذا الاستثمار هو الاستثمار الاجتماعي المعنوي الذي ذكرت لا الاستثمار المادي كما يمكن أن يفهم من كلمة (الاستثمار) وذلك لأن هذا الاستثمار المادي الأخير نحن في غنى عنه بما لدينا من أيد عاطلة عديدة أحق بالتشغيل من جهة، وعدا ذلك فإن استثمار نهضة المرأة المصرية اجتماعيا يركز حياتنا العامة ويسيرها في طريق التطور المرجو غير بطيئة ولا وجلة

ويبدو لنا من أخبار الغرب التي يحملها إلينا البريد الأوربي الأخير من أن العالم قد بدأ يحس مدى خطئه في قصر تعليم المرأة على ثقافتها فحسب دون العناية بالغرض الأساسي الذي خلقت له؛ فهذي الآن فرنسا تحارب فكرة إعطاء الحقوق السياسية للنساء ومساواتهن بالرجال؛ وها نحن أولاء نرى ألمانيا وإيطاليا تضمان في جملة أنظمتها الجديدة أن تعود المرأة إلى سالف عصرها من التزام البيوت والقيام على تربية الأطفال، ومنعهن ما أمكن من تعاطي أعمال الرجال. وقد قرأنا للأستاذ محمد كرد علي ملخصاً لكتاب ظهر أخيراً في فرنسا حول هذا الصدد للدكتور روبرتوش بدأه بكلام لثلاثة من مشاهير الكتاب أحدهم

تيودور جوران قال: (إن رفعة المرأة بلية صدرت إلينا من البلاد الأجنبية ولا سيما من أمريكا وجرمانيا وبلاد الشمال، وكان هذا النفوذ المتألف من كل غريب يكفي أن يكون منه إنتاج قد يتلاءم مع تركيبنا الفرنسي) وقال روبر كبيو: (من السهل الدلالة على أن دعوى رفع شأن المرأة كانت أبداً وليدة المذهب الاشتراكي فقد نرانا نسقط فيها على أفكار اشتراكية بعينها، وعلى معان لهم وتغيرات، وعلى كلمات ما برح الاشتراكيون يرددونها مع سفسطات كانت ولا تزال مألوفة لهم، وما المرأة إلا أعدى عدو لرفعة شأنها، فهي موقنة بأنها تخسر من نفوذها الخاص أربعة أضعاف ما تربحه من نفوذها العام، ولا يتأتى مما ترمي إليه إدخال أدنى إصلاح على النظام الاجتماعي) وقال الثالث تينابر (إن حقوق النساء وتحريرهن الأدبي هذا حسن وجميل، ولكن يا سيداتي حررن أنفسكن أولاً من الخياطة، فإن لم تكن لكن هذه الشجاعة فلا تطالبن إلى أن تحصلن على ما بقي) وقد استعرض المؤلف في كتابه نهضة المرأة نشأتها إلى اليوم وحللها تحليلاً دقيقاً عاب عليها عنايتها بثقافتها دون الغرض الرئيسي الذي هيأتها له الطبيعة.

من هنا نرى أن أعرق الأمم الغربية في النهضة النسوية قد بدأت تتحسس مدى خطئها في توجيه المرأة إلى غير ما خلقت له ولم يعد بين هاته الدول من أخذتها هذه المدنية الطاغية عن جادة الطريق سوى تركيا الحديثة التي خالت أنه لم يبق بينها وبين مساواة العالم المتمدين سوى هذه الغلطة الاجتماعية النسائية فأبت إلا أن تشرب الكأس حتى الثمالة، وما أشك أنها ستجني ثمرة هذا التقليد الأعمى علقما وصابا كما جنته براقش

قدر لرجلك قبل الخطو موضعها ... فمن علا جبلاً عن غرة زلجا

ولنتدبر نحن في المستقبل قبل أن نخطو إليه، ولنتبين من أي طريق تسوق المدنية الغرور، ولنستمع صوت الطبيعة الغضبى تصرخ في وجوهنا: لقد خلقت المرأة لتكون نظام الأسرة وتكمل الشطر الثاني من حياة الرجل، وتقدم له وللعالم كأس السعادة مترعة هنيئة، فلا يخلبنكم بريق المدينة الخادع الكاذب فتعبثوا بنظمي وتقلبوها رأساً على عقب، لا يصيبكم ما أصاب من قبلكم من المتعنتين المستكبرين. . .

وبعد. . . فهذا رأيي في استثار المرأة المصرية للخير العام أدلي به راجية أن أكون بذلك قد أرضيت الواجب والضمير، وإن كنت قد عرضت نفسي للوم البعض من سيداتي

المثقفات ممن يرين في الحياة غير رأيي، ولا يفوتني هنا أن أهمس في آذان هؤلاء أنه خير للمرأة من حياة زوجية سعيدة يحفها البنون وترف عليها الهناءة من مجد عريض يكلل هامتها ووسام نبيل تحمله. ذلك لأن المرأة خلقت للرجال والرجل خلق للعمل، وأن مجد المرأة حداد ظاهر على إسعادها كما قالت مدام دي استال، فلا تغامروا بالمرأة في تجربة قد أدرك العالم المتمدين خطأها ولا تستثمروها في غير ما خلقت له

وإلا تكونوا كطالب الماء من الصخر، أو مستنبت الزرع في المهمه القفر
ومكلف الأيام ضد طباعها ... متطلب في الماء جذوة نار!!

فتحية عزمي

صورة من المجتمع الجزائري

إني أرى في المنام!

للأستاذ محمد سعيد الزاهري

عضو جمعية العلماء الجزائريين

خرج من السوق خائباً مكتئباً، ملامحه عليها غبرة ترهقها قترة، تدل على ما يأكل نفسه من الهم القاتل، والحزن العميق، يحمل في إحدى يديه (قفة) فارغة لا شيء فيها، وفي الأخرى (سبحة) غليظة جداً، وهو يقول بصوت واضح مسموع: (هذا ما يريد لي فلان، وهذا ما يريد لي فلان. . .) وذكر ناساً بأسمائهم من رجال الإصلاح الإسلامي في الجزائر، ومضى يردد ما يقول إلى مسافة بعيدة من السوق

هو (شيخ) لإحدى الطرق الصوفية في هذه البلاد. قد وهن العظم منه واشتعل الرأس شيبا. تراه فترى وجها كالحا مسنوناً، ولحية قذرة صفراء كان دخاناً كثيفاً لا يزال يتعهدها ويغشاها من حين إلى حين. كان يعتنق طريقة صوفية، فلما لم يجد فيها معاشا تحول عنها إلى طريقة أخرى يعيش فيها حميلة أحبابها ومعتنقيها، فلا يدع وليمة ولا جنازة لأحدهم إلا هرول إليها متعرضا لما قد يكون فيها من صدقات أو نفحات. ولقد مرد على هذا الأسلوب من التكسب فأتقنه وتفنن فيه، فهو يبث العيون والأرصاد يتنسمون له أخبار الأفراح والأتراح، ويُرسل في المدائن حاشرين يأتونه بالزوار والمريدين يرجون مغفرته ويلتمسون منه البركة والخير! ويرتكب هؤلاء الدعاة الذين يدعون الناس إليه ضروباً من الترغيب والترهيب، فينحلونه المناقب والصالحات، والخوارق والمعجزات! فيزعمون (أن من يطيع الشيخ فقد أطاع الله) وأن الرسول (ص) لا يفارق الشيخ طرفة عين، وأن من اتبع الشيخ فجزاؤهم عند ربهم جنات عَدْن يدخلونها، وأن من خالفه مأواهم النار وبئس المصير

وقفوا ذات يوم على فاكِهيّ وقالوا له: إن شيخنا يقرئك السلام ويقول لك يا بني إني أرى في المنام كأنك تتخبط في ضحضاح من النار وأنت تستغيث فلا تغاث حتى استغثت بي، وذكرتني باسمي فأخذت بيدك، وأنقذتك من الهلاك. وتعبير هذه الرؤيا هو أنك رجل قد غرق في ذنوبه وخطاياه، ولا خلاص لك إلا بأيدينا. . . ثم لا يزال هؤلاء بالرجل يزينون

إليه الشيخ، ويحثون على زيارته، حتى يقع في الفخ، ويزور الشيخ ويأخذ عنه (الوسيلة). وهنا يصير مريداً ممن يرزقون الشيخ، ويؤدون إليه كل ما هو في حاجة إليه من طعام وشراب ومن نقود ومتاع

ولقد مد الشيخ أحبولته مرة أخرى فاصطاد رجلا مخلصاً بسيطاً، طيب القلب. يقال له (علاّل)، وكان هذا عاملا مجداً يدر عليه عمله كسباً وفيراً، وخيراً كثيراً. وكان سمحاً كريماً، فكان يرزق الشيخ ويقوت عيال الشيخ، ويجزل له العطايا والهبات. فلم يكن يشتري لنفسه شيئاً إلا اشترى مثله للشيخ، ولا قضى لنفسه حاجة إلا قضى للشيخ حاجة مثلها، فإن اشترى لنفسه رطلا من البن أو العنب اشترى للشيخ من ذلك رطلا أو رطلين اثنين، أو فصل لنفسه عباءة فصل للشيخ عباءة أحسن منها وأغلى وهلم جرا واتفق أن صاحباً لعلاّل قدم من الحج فأهدى إليه عمامة حجازية من الحرير الغالي، فأهداها بدوره إلى شيخه، وأن صاحباً له أخر قدم من فاس فأهدى إليه (جلاّبة) من القماش الرفيع الذي يلائم مرح الشباب، ولا يصلح للشيخ الفاني، وأراد الرجل أن يرتديها فتذكر الشيخ فاشترى له (جلاّبة) تناسب الشيخوخة ووقارها بقيمة تفوق قيمة (جلابته) الأولى، وارتداها في يوم جمعة، وما هي إلا أن رآها الشيخ عليه حتى أرسل إليه من يحثونه على أن يهديها إليه، فانتزعها لفوره من على ظهره ووهبه إياها، فأرسل الشيخ بالعمامة و (الجلابة) إلى السوق فباعهما ببعض ثمنهما؛ وشهد (علال) صفقة البيع، وظن أنهما سرقتا من الشيخ فسأل الدلال عنهما فأخبره بالواقع، فكبر عليه أن تباع (هديته) وهو يسمع ويرى، فاشتراهما للمرة الثانية، وجعل يحدث نفسه ويقول:

ترى أبلغ من هواني على الشيخ أن يبيع ما أهديه إليه؟ وما هو مصير هدياتي) الأخرى؟

أم بلغ من هوان الشيخ علي نفسه أن يتاجر بما يهدي إليه الناس؟ وعلى أية حال فأنا لا أرضى لنفسي هذا المصير. وأحس الشيخ أن الرجل قد بدا يتنكر له ويجفوه، فخشي أن يفلت من يديه، ويولي عنه مدبراً. فعزم في نفسه أمراً، وعزم أن يلعب آخر دور في الرواية، وكان يعلم أن عقيلة علال تملك حلياً ومصوغا ومبلغاً من المال، فدبر للاستيلاء على ذلك حيلة من عمل الشيطان، فبلغ بها ما أراد. وذلك بأن أرسل إليها نساء ماكرات من اللائى قد أعدهن لمثل هذا الأمر، فقلن لها: إن سيدنا يقرئك السلام، ويقول لك يا بنيتي إني

أرى في المنام أنك كنت مضطجعة نائمة، فجاءت امرأة أخرى فاختطفت منك غطاءك الذي يغطيك وكان من الحرير الأبيض بياض الثلج، فوثبت أنت من سريرك فزعة مذعورة تستغيثين وتملئين الدنيا ولولة وصياحاً: (غطائي! غطائي! ستري! ستري!) فاجتمع عليك خلق كثير، فكان اجتماعهم هذا ضغثاً على إبالة، وزاد في مصابك ولوعتك أن أحداً منهم لم يتقدم لإغاثتك، حتى جئت أنا وانتزعت من الغاصبة غطاءك ورددته عليك. ثم قلن لها إن تعبير هذه الرؤيا هو أن امرأة أخرى ستأخذ منك زوجك ولا يرده عليك سوى سيدنا، وهو يستطيع أن يدفع عنك هذا البلاء سلفاً من الآن، بشرط أن تدفعي إليه ثلاثة آلاف فرنك مقدماً. فرجعت السيدة إلى نفسها تبحث حياتها الزوجية فلم تعثر على أدنى شيء ينبئ بصدق هذه الرؤيا فلم تطاوعها نفسها أن تتهم زوجها ظلماً بغير حق أو أن تظن به الظنون، وهي ما علمت عليه من سوء. فلم تكترث لهذه الرؤيا، وقالت إنها أضغاث أحلام. ولكن الشيخ كان جاداً غير هازل، فدس إلى فتاة من الفتيات اللائى ينتمين إليه من أوهمتها أن الشيخ قد دعا الله لها أن يرزقها زوجاً كريماً، وأن الله قد استجاب له فيها، وقال: (إني أرى في المنام أن فلانة قد زُفت إلى علال في احتفال رائع مهيب. وكانت هذه من الآنسات العانسات، ففرحت وأعطت الشيخ من العطاء الجزيل ما أرضاه، وجعلت منذ ذلك اليوم تعرض لعلال، وتبدي له من زينتها تفتنه وتغريه حتى وقعت من نفسه، ومال إليها، وشرع الشيخ يمهد لها الطريق، فدس إلى علال من يهدمون عليه أسرته الهانئة السعيدة، ويملؤون سمعه بما يفرقون به بين المرء وزوجه. وما هي إلا أن وقع بين الزوجين خلاف بسيط حتى أخرج علال أم ولده من دارها وأطلق سراحها. وسرعان ما التف به أعوان الشيخ وأحكموا الصلة بينه وبين الفتاة العانسة، وعقدوا له عليها من ليلته عقدة النكاح

وأتى على المطلقة حين من الدهر تجرعت فيه طعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً، وذاقت من مصائب الدهر وأرزائه ما لا يعلمه إلا الله، فلقد خسرت زوجها على حين غفلة، وهي أشدّ ما تكون حباً له واطمئنانا إليه، وإخلاصاً له وحدبا عليه. وهي تخشى أن ينتزع وحيدها من بين أحضانها، وهي لا تُطيق أن تتحطم سعادتها وهناءتها ليتم هناء عدوتها؛ ولقد فكرت في الانتحار، وهمت به مراراً لولا إبقاؤها على وحيدها، ولكنها التجأت أخيراً إلى الشيخ مذعنة طائعة، قد أسلمت له وجهها، وفوضت إليه أمرها، ترجوه أن يعيد إليها زوجها، وله

بعد ذلك ما يشاء ويختار، فرفع القيمة هذه المرة، وجعلها عشرة آلاف فرنك تدفعها إليه نقداً. وبعد توسلات ومساومات رضي فتسلم منها خمسة آلاف نقدته إياها، وباعت فيها بعض ما تملك من حلي ومصوغ. وقعدت في دارها تنتظر النتيجة على أحر من الجمر

وطفق الشيخ يتودد إلى (علال) ويلاطفه حتى نسى الماضي القديم، وأحله من نفسه محل الثقة والرضى. وما استيقن الشيخ من الرجل حتى قال له ذات يوم - وهما على انفراد -: يا بني إني أرى في المنام أنك لست بخير في أهلك هذه التي لم تتعظ بكونها قضت زهرة أيامها عانسة بائرة، فقد حادت عن طريق الشرف والاستقامة من غير أن تحفظ لك غيباً أو تعترف لك بجميل. وأنا كما تعلم إذا رأيت الرؤيا جاءت كفلق الصبح.

وكان الشيخ قد أوعز إلى بعض أعوانه فأخبروا علالا بأن عرضه أصبح مضغة في الأفواه، تلوكه ألسنة السوء، وأن النساء في الحمامات وفي الولائم والمناحات يسلقن أهله بألسنة حِداد. فما كذب الرجل فيما سمع، وأسرع إلى (خيْرةَ) ففك عصمتها وأعلنها بطلاقها، وهي ما تزال بعدُ عروساً في خدرها، ولم ينصل خضابها. وغدا عليه الشيخ في وجوه من أعوانه وشركائه 0يتوسل إليه) أن يراجع زوجته الأولى، ويقول له: يا يني إني أرى في المنام أن جبريل عليه السلام قد زوجكها من فوق السموات

العلى، فأذعن الرجل، ولم يكد ينقضي يومه ذاك حتى كانت قد جليت عليه مرة أخرى لقد اطمأنت (خيرةُ) إلى الأيام، وحسبت أن زواجها هذا قد جعل حداً لوحدتها وشقائها، وظنت أنها بهذا الزواج مقبلة على حياة منزلية هانئة سعيدة لا حزن فيها ولا عناء فإذا بها تتلقى هذه الصدمة العنيفة القاسية الأليمة التي لا رحمة فيها، فتملأ نفسها حيرة واضطراباً، وتملؤها ظلمة ويأساً، فلم تطق الصبر ولا الاحتمال، فتحنق وتثور انتقاماً لنفسها، فإذا هي تنقم من نفسها، وقد ضلت السبيل، واندفعت في الغي وسقطت في الهوة التي لا قرار لها

وأراد الشيخ أن يحج إلى بيت الله الحرام لا إيماناً واحتساباً لأنه ممن يزعمون أن زيارة الضريح الفلاني تعدل عند الله ثواب حجة وعمرة معاً؛ ولكنه يريد التكسب والارتزاق، فطاف على الناس يستعينهم على الحج، فيزعم لهذا أنه سيدعو له الله تعالى عند البيت المحرم، ويزعم للآخر أنه سيستغفر له عند مقام إبراهيم، ويتناول على ذلك أجره سلفاً. أما الذين يستلمُ منهم سلفاً أثمان (الأردية) و (العمائم) و (السبحات) وما إلى ذلك مما سيحمله

لهم معه من الحجاز فهم كثيرون جداً، لا يكاد يأخذهم إحصاء. وانتهى به المطاف إلى ضحيته (خيرة) فدخل عليها وهي في منزلها، وقد أثرت من حياتها الجديدة الماجنة وأصبحت ذات مال فخجلت لمرآه وأدركها الحياء، غير أنه أخذ يزين لها ما هي فيه، ويزعم لها أن الله قد غفر لها جميع ما اكتسبت من الخطيئة والإثم. وقال لها: يا بنيتي إني أرى في المنام أن سيد الوجود (ص) يقول لك: طوفي بالبيت العتيق وزوري قبري تخرجي من ذنوبك كيوم ولدتك أمك، فإن لم تستطيعي إلى الحج سبيلا، فليحج عنك هذا الرجل الصالح (يعني الشيخ نفسه). ولم يزل بها حتى آمنت له، ودفعت إليه سائر النفقات ليحج عنها. فلما آب جاءها ببعض الهدايا مكتوباً عليها: (إلى الحاجة خيْرة)!

كان الناس في بحبوحة من اليسر والرخاء تملأ أيديهم الدراهم والدنانير فكان الشيخ في نعيم وعيش رخيم، يأتيه رزقه رغداً من كل مكان: هذا يعطيه رطلاً من اللحم ويحمله له راتباً يومياً، وذاك يعطيه شيئاً من الخضر والفواكه، ويجعله له عطاء غير مجذوذ، وذلك يهدي إليه قنطاراً من السميد، ويجعلها له جراية شهرية وهكذا الخ الخ، فكان إذا دخل السوق خرج منها و (قفته) ملآى - مجاناً - بكل ما هو في حاجة إليه.

فلما أعسر الناس، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم من شدة ما يعانون من ضنك وضيق نضبت موارد الشيخ، وانقطعت عنه الرواتب والعطايا، ولم يعد يملأ (قفته) بالمجان، ولم يعد يلتمس لنفسه صدقة جارية عند أحد الباعة إلا وجدها قد بطلت. وقطعت الأزمة دابرها، فالأزمة إذن هي السبب الأول في مصاب هذا الشيخ، وزملائه من الأشياخ، فإن كان لابد لهم أن يلوموا هذه الأزمة الخانقة، وليلوموا بعدها هذه اليقظة الشاملة التي شملت الدنيا كلها، ثم يأتي بعد ذلك دور هؤلاء المصلحين

(وهران)

محمد السعيد الزاهري

الحياة الأدبية في الحجاز

بقلم عبد المجيد شبكشي

كان الأدب العربي مثال الكمال والروعة والازدهار والانتشار في دولة الأمويين وفي صدر الدولة العباسية. وكان نصيب الحجاز من هذا الازدهار طيباً مرموقا، واقتضى خلوه من الأحداث السياسية أن يحيا مغموراً حتى تجرد من العلم والثقافة وصفر من الرجال الممتازين، وعملت الهجرة على محو مقوماته ومميزاته

ثم بدرت بادرة من بوادر النهوض ونسمة من نسمات الحياة بعد فنفخت في الحجاز روح اليقظة الفكرية فأخذ يسترجع ماضيه بفضل جهود البعض من أبنائه المخلصين الذين جرى في عروقهم الدم الحجازي الحر فتأثروا لتدهوره تأثراً قوياً جعل قلوبهم تتقطع أسفاً وحزناً على الماضي العزيز الذي ذهب هباء منثوراً وغرق الحجاز بعده في الجهالة وأضاع تراثه المجيد

سرت اليقظة في أفكار بعض شباب الحجاز وأحسّوا بالواجب الوطني وتنبهوا إلى فضل الأدب في نهضات الشعوب فتأسست لجان للاجتماع، ونواد للأدب حيث قاموا فمثلوا حركة أدبية لا تشوبها شائبة بالنسبة إلى تلك الحالة وبالنسبة أيضاً لعدم وجود

مؤهلات كافية لدرس الأدب، حتى المدارس كانت إذ ذاك بسيطة جداً يتخرج منها التلميذ وهو لا يعرف من مواضيع الحياة شيئا
ثم جاء دور التكوين للنهضة الفكرية وكان ذلك قبل عشرة أعوام تقريباً نظم في خلالها أدباء الحجاز الشعر وكتبوا النثر ونشروا نماذج منه وأعلنوا عن أفكارهم وسجلوا آراءهم، فشعر الحجاز حينذاك بدبيب الحياة يتمشى فيه، وأحس بجمال الأدب والفن معاً، وحينذاك قام أحد أدباء الحجاز البارزين وأصدر كتاباً أدبياً يضم بين دفتيه مختارات لأدباء الحجاز فأثبت للأمة أن هناك أدباً راقياً يدعى الأدب الحجازي. وقد تجد في هذه المجموعة روح الحجاز الأدبية ممثلة من حيث صحة النزعة وبساطة التفكير وجماله، فكان عمل هذا الأديب بشير يقظة فكرية منظمة، وقد كان الأدب الحجازي في ذلك العهد بسيطاً شأن كل شيء في بدايته. ولكن الأفكار كانت سائرة مع الحياة متأثرة باتجاهها فلم يمض وقت طويل حتى نضجت تلك الأفكار، وازدهر الأدب بعض الازدهار، ولولا ما نشأ بعد من عوائق
شتى وقفت بالحرية الفكرية بعض الشيء لاضطرد تقدمها. ونستطيع أن نقول بحق إن الموفقين من شباب الحجاز في الناحية الأدبية قليلو العدد جداً، والكتاب البارزين في الحجاز لا يزيدون على عشرة، ولكن أقلامهم الممتازة هي التي صورت مبلغ تأثر الحجاز باليقظة الفكرية ومدى إدراكه. أما قراء الأدب فكثيرون وهم ممن أنجبتهم المدارس الحالية، وهؤلاء بلا شك يرجى لهم مستقبل طيب مرموق
والحجاز اليوم بفضل الله ثم بفضل جهود أبنائه المخلصين متقدم بخطوات واسعة إلى الأمام، وميال إلى احتذاء أدب مصر ونزعتها الفكرية، ولا غرابة إذ شابه البعض من أدباء الحجاز بعض أدباء مصر في روحهم الأدبية وصار يكد ويجتهد في الحصول على ما يريده فوق ذلك من المثل الأعلى حتى يدرك المرمى الذي يقصده!
والأدب الحجازي اليوم رمز لما في أفئدة الحجازيين من عواطف وإحساس وحب وولاء، ولما في نفوسهم من شعور وكرم أخلاق، ولما في ضمائرهم من مبدأ واستقامة وغرام عميق بالحرية. وتختلف الأوساط الأدبية اليوم باختلاف قوتها ومداركها وتطورها وتجددها وبما يستتبعه هذا الاختلاف من تأثر بأساليب النقد البريء والتأمل الممتع والبحث الناضج، أو النقد المتهافت والنظرات الجوفاء والبحث الضعيف الخ، وهذا الاختلاف يعطينا صورة واضحة للتطور والتجدد في الأفكار تتحد مع نواميس الكون في نشوئه وتطوره. وليس غريباً على الحجاز أو الحجازيين أن يتأثروا بمؤثرات هذا العصر الحديث وفنونه ونزعاته، وأن تكون حياتهم ميالة إلى اقتباس أساليب جديدة في الحياة والأدب، فإن ذلك من بوادر النجاح وأسبابه، وهو دليل اليقظة، ونؤمل أن ينال الحجاز نصيبه من التقدم والشهرة والحرية التي هي من مبادئ الحياة الصحيحة في هذا العصر. على أن هذا الروح الأدبي السامي المتمثل اليوم في الحجاز حسب ما هو مشاهد وملموس هو بلا شك تأثر صحيح ومعقول، وهو المأمول أيضاً لبلاد لها ماض أدبي حافل
وأدباؤنا يشعرون ويتأثرون بعوامل الحياة الفكرية ويجيدون التصرف في فنون القول ويبدعون في سبك العبارات ووضعها في قالب من الحكمة والذوق ليحوزوا قصب السبق في معترك الحياة الأدبية وليرفعوا اسم بلادهم عالياً، وهذا ما يرجوه ويناصره كل أديب حجازي وهب موهبة الإحساس والشعور بالحياة وفرائضها - وليس ولله الحمد ثمة ركود
ولا فتور في النفوس والأفكار
(مكة)
عبد المجيد شبكشي
صورة من الحياة العلمية في مصر
تقي الدين السبكي - 4
بقلم محمد طه الحاجري
تتمة
ولقد خلفت له هذه الولايات متاعب غير قليلة، وأثارت عليه دفائن من الحقد وسخائم القلوب، فقد نقم عليه ولايته قضاء الشام قوم من أهلها كانوا يطمعون فيها؛ وأخص هؤلاء أسرة جلال الدين القزويني قاضي قضاة الشام من قبل، وطبيعي أن يأخذ ذلك

الحقد سبيله من السعاية والوشاية والتحريض عليه والتنفير منه؛ ثم كانت ولايته لخطابة الجامع الأموي مما زاد الأمر ضغثاً على إبّالة؛ فقد كانت الخطابة في بيت القزويني كذلك، ويقول زين الدين عمر بن الوردي في تاريخه: (لما توفي الخطيب بدر الدين محمد بن القاضي جلال الدين القزويني خطيب دمشق تولى السبكي الخطابة، وجرى بينه وبين تاج الدين عبد الرحيم أخي الخطيب المتوفى وقائع، وفي آخر الأمر تعصبت الدمشقة مع تاج الدين، فاستمر خطيبا). وكذلك أغضبت ولايته مشيخة دار الحديث الأشرفية قوما من أهل الشام كانوا يرشحون شمس الدين بن النقيب، ولقد سيقت إليه هذه الولاية وهو كاره، إذ كان قد رأى أن الذهبي هو الأحق بها وقد عينه لها، لولا سلطان الشهوات كما سنرى ذلك

هذا وجه من وجوه الحالة في الشام، وقبيل مما كان يسبب له المتاعب والآلام؛ وهناك وجه آخر يتعلق بما أشرنا إليه من قبل عما أوجده مذهب ابن تيمية من تفريق وخروج على المذهب الرسمي السائد

وقد رأينا أن اختياره كان منظورا فيه إلى تلك الحالة من السلطان، ونقول الآن إن القوم في دمشق كانوا يرون فيه ذلك أيضا، وكانوا يأملون أن يخلصهم من آثار (الحنابلة) وما أثاره زعيمهم القوي الجديد؛ ولعل المطامع الشخصية حسبت في ذلك سلما يمكن أن ترتقيه وتصل إلى أغراضها في مظهر ديني سابغ؛ ولكن تقي الدين كان أحكم من أن ينخدع بمثل هذا، كما كان أكبر من أن يخلط في تقدير الأمور؛ فأغضب الطامعين ولم يرض جماعة المتشددين المتكلفين

وهنا يحسن بنا أن ننقل نص ما حكاه التاج السبكي عن أبيه في أثناء ترجمته للحافظ أبي الحجاج المزي، ففيه صورة دقيقة حية لما حن بصدده، قال:

وحكى لي، فيما يحكيه من تسكين فتن أهل الشام، أنه عقب دخول دمشق . . . .) بليلة واحدة حضر إليه الشيخ صدر الدين سليمان بن عبد الحكم المالكي - وكان الشيخ الإمام يحبه - قال دخل إلي وقت العشاء الآخرة، وقال أمورا يريد بها تعريفي بأهل دمشق، قال: فذكر لي البرزالي وملازمته لي، ثم انتهى إلى المزي فقال: وينبغي لك عزله عن مدرسة دار الحديث الأشرفية، قال الشيخ الإمام: فاقشعر جلدي، وغاب فكري، وقلت في نفسي: هذا إمام المحدثين! والله لو عاش الدارقطني لاستحيا أن يدرس مكانه! قال: وسكت، ثم منعت الناس من الدخول على ليلا، فقلت هذه بلدة كثيرة الفتن؛ فقلت أنا للشيخ الإمام: إن صدر الدين المالكي لا ينكر رتبة المزي في الحديث، ولكن كأنه لاحظ ما هو شرط واقفها من أن شيخها لابد أن يكون أشعري العقيدة، والمزي وإن كان حين ولي كتب بخطه أنه أشعري، إلا أن الناس لا يصدقونه في ذلك فقال: أعرف أن هذا هو الذي لاحظه صدر الدين، ولكن من ذا الذي يتجاسر أن يقول: المزي لا يصلح لدار الحديث؟ والله ركني! ما يحتمل هذا الكلام!

فأنت ترى أن أول ما ووجه به السبكي في الشام هو الإنكار على البرزالي والمزي وإضرابهما، ممن يتهمون بالميل مع ابن تيمية وأن أول ما تقدم به إليه فقهاؤها هو (إعلان الحرب) على هؤلاء، وموقف السبكي من هذا موقف نبيل مجيد، فقد رأى الأمر فتنة لا ينبغي أن يفتتن فيها مع المفتونين، فركن إلى دينه وضميره، وترك بنيات السبل، ولم يعبأ بهذه الصغائر وما تنطوي عليه من إنذار وتهديد، ولبث مصاحبا للبرزالي ملازما له، إلى أن خرج إلى الحج وقضى نحبه، ثم ما فتئ يذكره ويثني عليه أطيب الثناء، وأقر المزي في مكانه بدار الحديث إلى أن مات سنة 742هـ، وكان يكبره غاية الإكبار، ويحث ابنه على ملازمته والانتفاع به، لا يصرفه عن ذلك تقولات المتقولين ولا ازورار المزورين

ولما مات المزي كان ثمت مظهر آخر من مظاهر هذه الفتنة في تعيين خلف له، فقد كان الذهبي هو وحده البقية الباقية من رجال الحديث الجديرين بتولي مشيخة (دار الحديث) ولكنه كان متهماً بمشايعة الحنابلة شيعة ابن تيمية، فمال عنه القوم لذلك، ورشحوا شمس

الدين بن النقيب، ودعوا له ولجوا في الدعوة. أما السبكي - وإليه حق التعيين - فلم يغلبه الهوى على الحق، ولم تأخذه في سبيل العلم عصبية، ولم يبال بصياح الصائحين، فعين الذهبي في ذلك المنصب. وهنا اشتدت ثورة القوم وعلا صخبهم، وهو مصر على رأيه حتى لم يبق بد من حضور نائب الشام وكان في ذلك الحين (الطنيغا)، فلم

يستطع التوفيق. وأخيراً رأى شيخ الحنفية أن تحل الأزمة بأن يتولى المشيخة السبكي نفسه، ووافق الأمير على هذا الرأي وهو يقول: (أعلم الناس بهذا العلم الذهبي وقاضي القضاة، وقاضي القضاة أشعري قطعا، وقطع الشك باليقين أولى.) وانتهى الأمر على ذلك بعد أن كاد يفضي إلى فتنة لا يعرف مداها

فموقف السبكي هذا من شيعة ابن تيمية وإغضائه عن العصبية المذهبية هذا الإغضاء وعدم مسايرته الأشاعرة في كل ما يشتهون أفسح المجال أمام المنخرصين، ومكن الحقد من أن يجد سبيله معبدا بين جمهور الناس وفي مجالس الخاصة، ولاسيما في مجلس الأمير نائب دمشق، ففسدت الصلات بين الشيخ وبين أغلب الذين تولوا نيابة الشام، وكثيراً ما قامت الحرب بينه وبينهم، وما كان يطفئها إلا ما كان ولاة ذلك العهد معرضين له من العزل الوشيك أو القتل المفاجئ

على أن السبب الأول في توتر العلائق بينه وبين النواب يرجع - في حقيقة الأمر - إلى صلابته في الحق، وصراحته في تقريره، وتقديره لقدر منصبه، واعتباره إياه حرماً لا ينبغي لأحد أن يتطاول إليه أو ينال منه؛ فهو الحفيظ على الحق الذي جاء الشرع ببيانه؛ فكل تفريط فيه، أو تعريض له، أو ملاينة في تنفيذه فإنما مردها إلى هذا الشرع الذي يقدسه، وحاشاه! وكان الولاة من ناحية أخرى، قوماً عجما، أدعياء في الدين، لا يتعدى إيمانهم مظهرهم، ولا يعرفون الحق إلا أمراً ينفذ، وشهوة تقضى، وعتواً واستكباراً في الأرض، إلا قليلاً منهم. ثم كان يزيد اضطراماً ما كان يلقيه فيها من السعايات والنمائم من كانوا يداخلونهم من أهل الشام، ومنهم بعض العلماء مثل شهاب الدين العمري الذي كان يقع فيه في مجلس الأمير ايدغمش ومما يدل على دسائس القوم عند الولاة أن أحد هؤلاء الأمراء، واسمه فيما يورده صاحب الطبقات (طغره تمر) كان فيما يقول من أصحب الناس له في مصر، فلما جاء إلى الشام غيّره عليه الشاميون، وأعانهم عليه امتناعه من امتثال أوامره

ولقد هم السبكي مرة أن يستقيل من منصبه، وكان ذلك في ولاية ايدغمش سنة 742، وكان قد بلغ في معاندته وإيذائه مبلغا كبيرا. ولكنه يظهر أنه رأى في هذه الاستقالة تحقيقا لشهوته، وتخليا عن واجبه، فعدل عنها واستمر في مجاهدته. وأراد ايدغمش أن يتخلص منه، وأن يلتجئ إلى دعوى الدين في محاربته، فجعل يجمع الفقهاء للفتوى عليه - وما كانت تعوزهم مقدمات الإفتاء - وكاد الأمر يتم للنائب لولا أن جاء (البريدي) إلى الشيخ يطلبه إلى باب السلطان في أمر من الأمور، فذهب إلى مصر، وهناك أوجد أزمة غير هينة الحل؛ فقد أصرّ على ألا يعود إلى الشام وفيها ايدغمش، وليس من اليسير عزل نائب من أجل قاض مهما علت منزلته. ولكن القدر كان أسرع إلى حل هذا الأزمة وأقضى فيها من كل تدبير وقضاء، فقد جاء الخبر بموت ايدغمش موت الفجاءة، وعاد الشيخ إلى دمشق يعيد سيرة الحق المجاهد الظافر

وممن آذاه وأضجره نائب اسمه (أرغون شاه)، تولى نيابة الشام سنة 748، ويروى أن الشيخ كان يمسك بطرزه ويقول له: (يا أمير! أنا أموت وأنت تموت!) وتأمل أنت في هذا قوة الإيمان والجرأة في الحق. وقد ظل ذلك الرجل في نيابة الشام سنتين ثم قتل

كان آخر هؤلاء النواب أرغون الكاملي، وكان رجلا فظا غليظ القلب. وقد حكى تاج الدين أن أباه (حكم مرة في واقعة جرت وصمم فيها، وعانده أرغون الكاملي نائب الشام وكاد الأمر يطلخّم شاما ومصر، فقد ذكر القاضي صلاح الدين الصفدي أنه عبر إليه وقال: يا مولانا! لقد أعذرت، ووفيت ما عليك؛ وهؤلاء ما يعملون الحق؛ فلم تلق بنفسك إلى التهلكة وتعاديهم؟ فتأمل ملياً ثم قال:

فليت الذي بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خراب

ويا عجبا لتلك الشيخوخة التي لا تزيدها الأيام إلا صلابة وقوة، وذلك الإيمان الذي لا تزيده مظاهر القوة إلا غلبة واستعلاء

وهكذا كانت حياة تقي الدين السبكي في الشام: ملجأ للحق يلوذ به ويعتصم، ومثالا للخلق القوي الذي لا يتثلم، وآية من آيات الله على قوة الروح الإنسانية متى خلصت من الرعونات والترهات فلا يغلبها غالب

ولقد كان الحنين إلى الوطن يهز الشيخ هزا، فذهب إلى مصر، وخلع عليه سلطانها، ثم عاد منها إلى دمشق سنة 754 (1353م)
وفي ذي القعدة سنة 755هـ (1354) نال منه الضعف وأدركه المرض؛ ولما اشتد عليه استخلف على قضاء الشام ابنه تاج الدين، فتقلده. وكان في أثناء مرضه شديد اللهف على العودة إلى وطنه عظيم الحرص على أن يدركه فيها أجله؛ فسافر إلى مصر ولبث فيها أياماً يكابد العلة، حتى أدركته الوفاة ليلة الاثنين 3 جمادى الآخرة سنة 756 (10 سبتمبر سنة 1354م) وخلف ميراثا جليلا ضخما مما صنفه في كثير من الفنون، وميراثا آخر أجل وأضخم في ابنيه العلامتين: بهاء الدين وتاج الدين. ولعل الله يوفقنا لدراسة حياتيهما، ورسم صورة لهما

كلية الآداب

محمد طه الحاجري

قرب الموتى

للأستاذ عبد الرحمن شكري

يا روح إلف أليف الموت والحُفَرِ ... قومي اسألي عن أليف الهم والسهرِ
أو فابعثي هاتفاً بالليل يؤنسني ... لو كان لِلْمَيْتِ من شوق ومن ذِكَرِ
وحَلِّقي فوق قوم كنتِ زينتهم ... كالطير تهبط فوق الوكر في الشجر
فإن نورك نور النجم يرشدنا ... ورحلة العيش تحكي رحلة السفر
أو كالملاك تهدي وهي خافية ... وتُشْعِرُ النفس طُهْراً ليس في السِّيَرِ
عجز عن الشر لم أبصره في نفر ... يا شر ما خَلَّفَ الأحباب من نفر
غرارة ربما لو عشتِ ما بقيت ... إذاً عداك الردى عن مهبط البشر
هل تلك طبع الصبا تودي الحياة به ... لا بل غرار فؤادٍ غير ذي نُكُر
فصانك الله في أمن وفي كَنَفٍ ... وقُدْسِ طُهْر كصون المرء للذخُر
كأنما أنتِ ذُخْرٌ لا يجود به ... على الدُّنَى وهي من ضَيْر ومن أشر
ما أقرب الميت من حي وإن بعدت ... مكانة بين هذا الوِرْدِ والصَّدَرِ
إن الأولَى خلفونا بعدهم ومضوا ... ما خلَّفونَا وإن غابوا عن النظر
هم في الأمانيِّ والأرواح والذِكَرِ ... منا وفي القلب والأشجان والفِكَر
فكيف نجزع من فَقْدٍ وما انتقلوا ... إلا إلى النفس حرزا رِيْم مِن غِيَر
يا قرب دارهمُ من واصل لهمُ ... بالنفس إن لم يكن بالعين والأثر
ووحشة النفس من حيٍّ يغايرها ... أشد من وحشة في السمع والبصر
من حاضرين وإن ماتوا وإن بعدوا ... وإن غدوا كحديث الركب والسمر
ورب ذكرى تعيد المَيْتَ في شبح ... يكاد يُلمَسُ لولا رادع الحذر
ماض من الدهر والأقوام يخبرنا ... أن لا مسافة بين المهد والحُفَر

عبد الرحمن شكري

زهرتي المختارة

بقلم الياس قنصل

يا زهرتي العاطرة الناضَرهْ ... هل شوّهتْ كفُّ البلى حسنَكِ؟
جنتكِ في الليل يدٌ جائره ... لو أنها تمثلتْ حزنَكِ
لفرقتي، ما سبَّبتْ بينَكِ
يا زهرتي جملّكِ المبدعُ ... لتبدعي البهجةَ في روضتي
ورصعَّت ذاك إليها أدمعُ ... من الندى الباكي بلا مقلةِ
لتسكبي العزاء في مهجتي
يا زهرتي عنكِ سينأى الفتونْ ... وقد نأيت عن حمى الشاعر
وبعد أن كنتِ مقرّ العيونْ ... ستستحين من فتى ناظر
يعرضُ عن جمالك الفاترِ
أما أنا يا زهرتي، فالأسى ... أنْشَبَ في جوانحي مخلبَهْ
أبعدكِ الدهرُ وقلبي احتسى ... من المرار أكؤساً مصئبَهْ
أربتْ على أناتّه المرعبَهْ
يا زهرتي كيف أعزي الزهور ... إذا رأين عرشك الخاويا
تطوف حوله بقايا العبيرْ ... هامسة: ولىّ القضا نائيا

. . .بها، وغادر السنا باكيا
والطيرُ إن تسألْ، فماذا يكونْ ... لها جوابي عند تغريدها
كم رفرفت فوقك بين الغصونْ ... وأسمعتْكِ من أناشيدها
نجوى، جلالها بترديدِها
يا زهرتي ليهنأ السارقُ ... بما حبتْه روضتي من أريجْ
وليغتنم نضرتَكِ الرامقُ ... وليسكر النفسَ بحسن بهيج
ففي ثناياكِ بهاه يموجْ
يا زهرتي كذا أرادَ القضاءْ ... بحكمهِ، فحزنُنا لا يفيدْ
ويأسنا يبعدُ عنا العزاءْ ... ويجعل العيشَ بهذا الوجودْ
. . .حشرجةً، فيها العناءُ الشديدْ
(عاصمة الأرجنتين)
الياس قنصل
الليلة الثانية عشرة
- 2 -
المشهد الثاني: على ساحل البحر
(تظهر فيولا والقبطان والبحارة)
للشاعر الحضرمي علي أحمد باكثير
فيولا: أيّ بلاد هذه؟ رفقتي!
القبطان: إيليريا!
أخي بِإلّيسيومُ!
بجنّة يخلد سكانها ... ويكمل الأنس بها والنعيم
مالي وإيليريا!. . مَهٍ!. . علّه ... مثلي نجا؛ هل مستحيلاً أروم؟
معُجزةٌ للحظِّ أن تسلمي!
فيولا: ... بمثلها الحظ لصِنوي كريم!
القبطان:
صدقتِ يا سيدتي، إنني ... أعضُد رَجْواكِ، وربي عليم
لما طغى الماء على فلكنا ... وزاغ منكم عن حِجاه الحلم
وَأَدْتُم الزورقَ حتى لقد ... كاد من الكظّة ألا يعوم
رأيته يسبح في لجةٍ ... تهوي به حيناً وحينا تقوم
رجاؤه شدَّ بأعضاده ... وأنَّه ذاك الشجاع العزوم
فشد كفَّيه إلى قائم ... في البحر ضمَّ الطفلِ صدر الرؤوم
كأنه (أريان) مستمسكا ... بظهر ذاك الحيوانِ العظيم
والهائجُ المحنَق من حوله ... قد راضه فهو وليّ حميم!
راقبته ما أسطعتُ حتى اختفى ... عن ناظري تحت ظلال الغيوم!
فيولا:
شكراً لما طَمْأَنْتَ، علَّ السَّما ... تجمع قلبين بقلب رحيم!
سلامتي أوحت - وأَيَّدتَ ما ... أوحته لي - أن ابن أمّي سليم
أتعرف هذي البلاد؟
القبطان: أجل ... بلاديَ أعرفها جيّدا
ثلاثٌ من السَّاع تكفي لتُوْ ... صِلَنا منشأي ثَمَّ والمولدا
فيولا: ومن يَتَّلى حكمهَا؟
القبطان: سيّد ... زكا خُلقاً، وسما محتدا
فيولا: وماذا اسمه؟
القبطان: أرسِنُو
فيولا: أُرِسِنُو؟ ... أبي كان سمَّاه لي مُحْمِدَا
وأعزبَ كان!
القبطان: وأعزبَ لَمْ ... يَزَلْ؛ فقريباً توَّشى الصَّدى
بإِغْرامِهِ بأوليفيا الجمي ... لةِ
فيولا: ... ما هي؟

القبطان ... عذراء مثل النّدى!
أبوها شريف قضى منذ عا ... مٍ وأوصى بها نجلَه الأوحدا
أخاها الحبيبَ إليها الذي ... به بعد ذلك ثنيّ الردى
فآلت أسًى لا ترى أو تعا ... شِر مِن بعده رجلا أبدا (؟)
فيولا:
ويحَهَا مِن مسكينة! آه لو أخْ ... دمُها! ربما أُسرِّي أساها
ربما أستطيع أن أنُصرَ الحبّ ... وألقي بذوره في رُباها
وأرِيها صوابَها في هوى الدو ... ق، وأنشي دنياه في دنياها
ريثما تستقر حالي، ويُدرَى ... مَنْ أنا
القبطان: ... خطةً مُحالا أراها
إِنها حرَّمت على رُسُل الخطّا ... ب طرًّا أن يَقربوا من حِماها
لن ترى وجه طارق منهم قط ... ولا الدوق نفسه إِنْ أتاها
فيولا:
لك يا سيدي شمائل غُرٌّ ... لا تراها عينٌ فلا تَهواها
غيّبت فيك باطناً من معاني ... ها، وحلّتك ظاهراً من حِلاها
لا تَلُمْ إن قلتُ: الطبيعة حاَبتْ ... كَ، وقل لي هل أنت ممن رشَاها؟
!ليس هذا من دأبها؛ فهي تكسو ... حيَّة الروض لينها وبَهاها
وإليك اطمأن قلبي، وما أح ... سب نفسي تضِلُ فيك هداها
كنِ عمادي في خطة ربمَّا تص ... عب، لكن لا شك في جدواها
وسأجزيك ما تطيب به نف ... سُك مما ينالني مِن جَنَاها
زُرْ بي الدوق في كساءِ وصفٍ ... عارضاً خدمتي لكي يرضاها
فكأني وقد تسربت كالما ... ء جرى بين نفسه ولِحَاها
واصطفاني لنفسه، وشكاني ... مطمئنًّا من همّهِ ما عَناَها
وسرت في أعماقها رُوْحُ ألحا ... ني فهزَّت أوتارَ موسيقاها
واطَّبتْه فصاحتي كَرسول ... نحو اوليفيا يُذيب صَفَاها
كنْ لِسرّي قبرا؛ وأترك حالي ... لليالي تختارُ لي عُقباها
القبطان:
نَفّذيها؛ وفي قرارة نفسي ال ... سِر لن ينتهي إلى أدناها
!إن أحِرّك به لساني فلا التذّ ... ت عيوني بنُورها وكَرَاها
!فيولا: لك شكري، هيّا بنا
!القبطان: ربّ سَدِّدْ ... مِن خُطاهُ! ولا أقول: خُطاها
علي أحمد باكثير
دراسات أدبية
في الأدب الإيطالي الحديث
بقلم محمد أمين حسونه
- 3 -
تألق نجم بيراندللو بعد النجاح العظيم الذي أحرزته روايته (المرحوم ماتياس باسكال)، وكسفت شمسه أسماء الروائيين المعاصرين، وبدأ النقدة يتحدثون عن فنه ويولونه اهتمامهم، ثم اختير ليشغل كرسي أستاذ الأدب الإيطالي بالجامعة وانتعشت حالته المالية بما أمكن أن يمحو من سجل حياته بعض المتاعب المادية، وأن يسدل عليها ستار النسيان

ولكي نعطي صورة واضحة من حياة هذا الكاتب وارتباطها بفنه، نقول إن التغلب على المتاعب المادية لم يكن كل شيء، إذ هبت في بيته عاصفة عكرت الجو مرة أخرى، فأعصاب زوجته تحطمت، ونوباتها العصبية تزداد بسبب غيرتها العمياء من تلميذات زوجها في الجامعة، وقد حاول بيراندللو كثيرا أن يزيل شكوكها وأوهمها، فسمح لها بألا تعطيه من راتبه إلا بما يسمح له بابتياع سجائر أو أجر الترام، غير أن هذه المحاولات فشلت، وأخذ هذا الحيوان السام الذي يدعونه الغيرة يمتص من شبابها ودمها بعد أن قدم إليها أسلحة جديدة من الشكوك والأوهام، ولم يكن لرأي زوجها أية قيمة عندها ولا أي تأثير في نفسها. وعلى حين فجأة ذبل جمالها وانطفأ بريق عينيها، وأصبحت

تعتقد أنها مراقبة ومكروهة حتى من أولادها، وأنهم جميعاً قد اتفقوا على أن يدسوا لها السم في الدسم. ولما اشتد بها الداء فكر أخواتها في إدخالها إحدى مصحات الأمراض العقلية

وكانت الحرب العظمى قد شبت واختير ابنه البكر ليخوض غمارها، وفي غضون ذلك وقع أسيرا، أما ابنه الأصغر فكانت تجرى له عملية جراحية بإحدى مستشفيات روما حتى إذا اجتاز دور النقاهة أرسل فورا إلى خطوط النار

وكانت ابنة بيراندللو تتأذى من سوء معاملة الأم لها؛ ولما فقدت الأمل في إزالة الشكوك نحوها حاولت الانتحار، غير أنها نجت، ففكرت في الهرب ودخلت أحد الأديرة لتقضي بقية حياتها بين جدرانه

وكان ستيفانو - والد بيراندللو - قد وصل من صقلية، بعد أن صمد دهرا في وجه المصائب، فمن موت زوجه، إلى إفلاس تجارته وضياع ثروته، إلى غير ذلك من الآلام والمتاعب التي انتهت بفقد بصره

ولما كان بيراندللو مشغولا في خلال هذه الفترة بمصير ولديه اللذين ذهبا إلى الحرب، ومضطراً إلى أن يقضي يومه بين زوجة مأفونة، ووالد عاجز ضرير، وابنة وصمته بميسم العار، كان لابد من أن تخرج هذه الأشباح المعذبة التي تسكن ذهنه، وأن يقدمها للناس في ثوب درامي عنيف يجمع بين روح الواقع وبين الخيال

وهكذا غصت المقاعد في مسرح سكالا بميلانو ليشهد الجمهور مسرحية بيراندللو الجديدة (ستة أشخاص يبحثون عن مؤلف ' التي ابتدع فيها فنا جديدا وعالما يموج بالصور والأشباح والشخصيات المجزأة

والواقع أن فترة المتاعب والآلام التي اجتازها هذا المؤلف الثائر في كافة أطوار حياته هي التي دفعته إلى أن يقول بلسان إحدى بطلاته: (ليست الأعمال إلا حقائب خاوية تملؤها أذهاننا)

وهي التي أدت به إلى أن يكره العقل، لا لأن العقل سجن، بل لأنه صدفة فارغة لا تملؤها سوى الغريزة العمياء. فالحوادث مثلها مثل الأكياس لا يمكنها الوقوف وهي فارغة. كذلك إذا أريد أن يظل الحادث حياً في الذاكرة، منتصباً بين ظلال الوعي وجب أن يكون له معنى واضح وأن تستقصي الأسباب والبواعث التي أدت إليه

حتى نظريات بيراندللو ليست سوى إنذار بهدم المنطق وإفلاس العقل وتفوق الخيال على الحقيقة. وعنده أن للأرواح لغة خاصة تتفاهم بها ووسائل تدفعها من وقت لآخر للقيام بأعمال باهرة على حين أن الشخصيات المادية لا تتجاوز في علاقاتها غير الحديث العادي

ومما يحملنا على الاعتقاد بأن نظريات بيراندللو البيسكولوجية لا تصل به إلى تفسير الناس، أنه يلجأ شخصياً إلى هؤلاء الناس لتفسير ألغازه، ولولا روح المرح والفكاهة التي تخلع على مؤلفاته ظلاً هائماً ومسحة خاصة لتباعد بينها وبين مركز الألم لكان فنه الروائي هو الجحيم والإنسانية المعذبة

لقد درس كل من إدجار ألن بو وستيفنسن نظرية ازدواج الشخصية وفوضاها في الإنسان.

أما بيراندللو فهو يقسم الشخصية في فنه الروائي إلى عشرة أو مائة أو ألف أو أكثر. فالفرد عنده مكون من شخصيات متناقضة كالحيوان الخرافي الذي تتحدث عنه أساطير الإغريق. وهو لا يعرف الأخلاق والعادات ولا يقدر الإرادة أو الشهوة المتغلبة لأن جميع مشاعره قابلة للتحول والتغير والتأثر

على أن أهم ما يرتكز عليه فنه ظواهر التحليلات النفسية وتعدد المنازعات. فكل شيء نظره مرجعه إلى التفسير، بل قد يجوز أن يتخذ شخص ما صورة معينة في نظر أحد محللي نفس الشخصية. وقد قال بيراندللو بلسان إحدى بطلاته في روايته (شهوة الشرف): (لا شك أن مدام أنيتا هي امرأة أخرى، وليس هذا كل ما أقوله، بل هي أخرى وأخرى وأخرى أيضاً، بعدد الأشخاص الذين تعرفهم والذين يعرفونها)

وفي عام 1922 ترك بيراندللو منصبه في الجامعة ليتفرغ للأدب والمسرح فوضع روايات: حصان في القمر، ومهزلة الموت والفخ، وأنت تضحك، وزوجها، وهنري الرابع. وسافر برفقة فرقة تمثيلية ألفها إلى عواصم أوربا ومدنها، وبمرور الزمن تراكمت عليه الأعمال بسبب إخراج رواياته على مسارح باريس وبرلين ولندن ونيويورك وبونس

إيرس وموسكو، وكان لابد من أن يسافر إلى جميع هذه العواصم ليشرف بنفسه على إخراج رواياته
يقول ادريانو تلجر في كتاب نشره عن فن بيراندللو المسرحي أنه لم يتأثر في فنه بالمؤثرات اللاتينية بل يدل أدبه على أنه تأثر بأدب الشمال). وليس ذلك بغريب من كتاب الجنوب واللاتين، والكثيرون منهم أمثال داننزيو وجوزيف جيا كونرا قد تأثروا إلى مدى بعيد بأدب ابسن وطريقته في تحليل المشكلات الاجتماعية. والواقع أن ابسن سبق أن أقام فترة طويلة في إيطاليا وكان له الفضل الأكبر في تكوين مدرسة روائية مسرحية تمت إلى فنه بأقوى الصلات
أضف إلى ذلك أن بيراندللو برع في رسم مآسي الحياة وفواجع المجتمع براعة قلما أتيحت لكاتب يعاصره. وهو يتلاعب بألفاظه تلاعبا يخلع عليها وعلى أسلوبه مسحة تتفق ونظرياته الفلسفية في الإنسان والروح. وليست دراماته سوى سرد ماضيه وتصوير نفسيته، فهو من هذه الناحية لا ينحت الخيال ولا يتكلف التصوير، ولكنه ممن يروحون عن
أنفسهم بهذه الزفرات الموجعة
على أن الشيء الوحيد الذي يوجهه نقدة المسرح في أوربا إلى فن بيراندللو يتلخص في نقطة واحدة، هي أنه يجزئ شخصياته بما يؤدي إلى هدم أساس الحياة والجنس البشري، فبعض الشخصيات التي يضعها وسط الخيال تؤدي إلى ضياع الفكرة التي ينشدها الفن المسرحي لاسيما وهو بعد الخيال حقيقة لا خطأ. ولو اعتبرنا الخيال واقعياً لوجب علينا بطريق الاستنتاج أن نعتبر الخيال والواقع متساويين من حيث الحقيقة، ومع كل فبيراندللو هو أكثر الكتاب الروائيين والمسرحيين إنتاجا على الرغم من عدم تحوله عن نظرياته التي يخضع لها في كل ما يكتب
(يتبع)
محمد أمين حسونه
القصص
درامة من اسخيلوس
المتضرعات - 2
للأستاذ دريني خشبة
- 7 -
وصمت الأب دانوس، وغمرت الفتيات موجة أثيرية من الفرح، وتقدمن نحو الآلهة يصلين ويهزجن، وينظمن الشكران عقودا من جمان دموعهن فيجعلنه قلائد على جيد آرجوس، ويدعون للملك بالمجد، ولمدينته الخالدة بالنصر والعز والتأييد
وما يكدن يفرغن من صلاتهن وإنشادهن، حتى يثب أبوهن الشيخ المتهالك وثبة قوية. . . ويقف على شرف من حرم الآلهة المقدس، ثم يرسل في اليم المضطرب نظرات حائرة من عينيه الغائرتين. . . كمن ينظر في كتاب الغيب!!
- يا للهول! أصمتن يا فتيات. . . أصمتن! إن الزمن يسوق إليكن أحداثه فوق أعراف الثبج. . . انظرن!؟ إنها تقترب منا رويدا رويدا! واو حربا يا بناتي البائسات؟ سفينة مصرية لا ريب في ذلك! آه! إنها من سفائن اللعين إيجبتوس! لا شك! لا شك! هاهي ذي قلاعها وشراعها! كابية كوجهه، كاسفة كقلبه. . . وي! لقد طوى الملاحون الشراع، وأعملوا سواعدهم في المجاديف! إنها ما تفتأ تقترب! ولكن! لا عليكن يا فتيات! لا عليكن أبدا! إن لكن من هؤلاء الآلهة ذادةً، وإن لكن منهم حُماة أُباة! ويل لمن يستهزئ بأرباب الأولمب وأي ويل؟ إن له لساعة تشيب من هولها النواصي! لقد قدم الأوغاد يطلبونكن لمتعة الوحوش الذين لا يخشون الآلهة ولا يرعون حدود السماء. . . لا. . لن يكون هذا أبداً. . .)
فترتعد فرائص الفتيات، وتقول كبراهن:
- (أبتاه! إنا لنذوب من فرق يا أبتاه! يا للفزع الأكبر! ماذا أفاد سفرنا الطويل، وغربتنا النازحة؟ لطالما انتعلنا الدماء، وضربنا غوارب الماء لنكون بنجوة، فأين النجاء! أبتاه! إنا نذوب من فرق. . .)
- (لتطمئن قلوبكن يا بناتي، فلقد صمم الأرجيف البواسل أن يحاربوا إلى آخر قطرة من دمائهم من أجل قضيتكن. . .) اهدأن! اهدأن فهذه الإلهة تحميكن!

- (وهل يصبر الأرجيف المترفون على شياطين إيجبتوس يا أبتاه؟ انظر! لقد جمعوا اللهاذم من محاربي مصر. . . . فمن لنا! من لنا!؟)
- (إنكن لن تلبثن أن ترين الأبطال المقرنين في الحديد، المقنعين في الزرد، فلا تهلعن!)
- (ولكن. . . لتقف معنا يا أبتاه! لا تتركنا! فنحن أضعف من أن نشهد المعركة! إن هؤلاء القادمين في السفينة الغبراء وحوش يحملون قلوباً خرساء. . . ولن يثنيهم أن يشهدوا هذه الآلهة، إذ هم ضواري ليبيا، لا يعرفون قرباناً ولا مذبحاً ولا شريعة، ولا يرهبون آلهة ولا يوقرون أوثاناً!)

(يهم دانوس أن يغادر بناته، فتقول كبراهن:)

- (أبتاه! إلى أين؟ لن تغادرنا. . . لن تغادرنا يا أبتاه)
- (تلبثن يا فتيات ولا ترهبن شيئاً! إنهم لابد لهم من وقت طويل حتى ترسو سفينتهم، وينزلوا إلى البر ويربطوا أمراسها في صخرة أو جذع. . . وقد لا يجدون مرفأ هنا فيقلعون إلى مكان بعيد. . . اهدأن. . . لا تفزعن هكذا! ما هذا الفرق! تلبثن هنا حتى أعود بجيش الأرجيف أو بمدد من ببلاسجوس! لقد وعد! لقد وعد أن يحمينا، وأيده الشعب كله في ذلك. . . . . تلبثن. . . . . لا تفزعن. . . . . ولا تذهب قلوبكن شعاعا!)

(يخرج دانوس)

- 8 -

وتهلع الفتيات ويتفزعن، ويتضرعن إلى الآلهة أن تنقذهن من ذلك البلاء المنتظر، ويرسلن أنشودة طويلة حزينة. . .

والسفينة تقترب!

وهي كلما اقتربت وجفت نفوسهن، وخفقت قلوبهن، وتبلبلت أفكارهن، وتعلقن بالدمى المرمرية التي. . . تثلجت حتى ما تحس. . . وتحجرت حتى ما تعي. . .

وغابت السفينة عن الأنظار فجأة. . ولكنها غابت لترسو. . .

وطفق الفتيات يهزجن. . . ويصلين. . . ويبكين. . .

- 9 -

(يدخل القائد المصري)

- (سو. . . ش. . . أصغين يا فتيات! حذار ألا تطعن! هلم إلى سيف البحر، فاركبن في السفينة معنا! أسرعن! لا تقاومن، وإلا حملناكن بالقوة! أسرعن، وي! أنتن لا تتحركن! أسرعن يا فتيات! إن لم تسرعن فستحل بكن نقمة! سنشدكن من شعوركن ونجركن على الؤى والأحجار حتى تدمى جسومكن؛ إلى البحر. . . إلى البحر!)

(ينقض الجنود فيدافعون الفتيات فتقول كبراهن:)

- (ويل لكم أيها الضواري وويل لأميركم! ليت هذا الخضم ابتلعكم قبل أن تصلوا إلى هنا!)
- (أنصح لكم يا فتيات ألا تقاومن! إنكن ضعيفات، وللقوة أن تصنع ما تشاء بكن! دعن هذه المجالس حول هذه الآلهة التي لابد أنها تسخر منكن! ستحملكن السفينة إلى أوطانكن فالحذار من المقاومة!)
- (كلا! لن نعود إلى جنة الأرض وجحيم القلوب! الفردوس الذي يفيض كل سنة دماً يصهر العاطفة ويحرق الضلوع. . . . . .)
- (وبعد، إنني مرغم إذن على استعمال القوة المطلقة التي يخوليها الأمر الذي بيدي! سأنتزعكن من مقاعدكن في هذا الحرم! سنجركن من شعوركن وخمركن، ونبحر بكن برغمكن!)
- (أنت تهرف كأن عيون السماء مغمضة عنك! كأنك إذا كنت وسط اللجة لم تخش شيئاً! أيها الكافر بالآلهة!)
- (ولو لن ما شئتن! ادعين آلهتكن، وسنرى هل تهرع لمعونتكن!! أبداً لن تهربن من يدي إيجبتوس أبدا! إنه كالهواء مدرككن أنى وُجهتن! فولولن واصخبن! وأعولن وابكين تعاستكن!)
- (ثم ماذا؟ زدنا من وقاحتك يا ابن النيل! بذاء! أيها المسخ! يا ربيب التماسيح! ليتها تطعمت بك، أو خللت ثناياها بلحمك قبل أن تجئ إلى هنا!)
- (سو. . . ش. . . كفى! حسبكن صراخاً! إن لم ترضخن. . . فشعوركن تحكم بيننا

(!وبينكن! سنجركن منها إلى السفينة يا فتيات
(!يهم الجند أن يجروهن)
- (أبانا! أين أنت يا أبانا! الغوث الغوث! هذه العناكب المتلمظة! يا أمنا الأرض! يا أبانا زيوس! عونك يا آلهة! يا سيد الأولمب! نحن حفيدات يو!! أدركنا! ادفع عنا هذه الضواري!)
- (عبثاً تستصرخن آلهتكن يا فتيات؟ هي ليست لنا بآلهة! فنحن لا نرهبها ولا نخشاها! إنها لم تنشئنا، ولم تختلط بقلوبنا. . . نحن لا نباليها!)
(يجرها من شعورها)
- ويلك أيها اللئيم! يا أفعوان النيل ذا الأنياب! أغرب فلست أفعى مثلك أيها الأرقم! العون العون يا سيد الأولمب! زيوس يا إلهي! أدركني أستحلفك بأمك ربة هذه الأرض!)
- (أسرعن إلى السفينة إذن! وإلا! فسندك عظامكن فوق هذه الآطام! أطعن يا فتيات فهو خير لكن!)
- (يا سادة آرجوس! أدركننا يا أرجيف: أيها الأوفياء!)
- (بل سادة مصر! أبناء إيجبتوس الكرماء ستلقينهم وشيكا يا عذارى!)
(يا ملك آرجوس الكريم! الغوث: لقد وعدتنا! بيلاسجوس!)
- (طالما تأبيتن، فشعوركن تطيعنا، وهي أطوع لنا منكن!)
(يجروهن على الحجارة بشدة فيدخل الملك)
- 10 -
- (وي! من أولاء! من الجائسون خلال مملكة بيلاسجوس، العائثون في جنبات آرجوس، غير المبالين بحرم الأرباب! من أنتم يا هؤلاء؟ هل هانت عليكم آرجوس فأنتم تأفكون في ساحاتها غير هيابين! مالكم ولأولئك النسوة! مالكم تحركون ألسنتكم بالفحش، وتسلقونهن بالهُجْر!؟ إن هنالك لعدالة تحميهن أيها الحمقى!)
- (أي هجر وأي فحش، ماذا صنعنا بهن!)
(يا للآلهة؟ أنت أجنبي وقد نزلت بلاداً غير بلادك، فكيف ضللت سبيل الحسنى؟!)
- (أجل: ولكنني أجنبي قد عثر بضالته المنشودة، ورجيته المفقودة)
- (وأية قوة هنا تملك، فتسندك!)
- (أنا أحتكم إلى هرمز، حامي الغرباء!)
- (هرمز؟! أمرك عجب وحق هرمز؟ لقد دنست حرم الآلهة جميعا!)
- (بل أنا أدين للنيل. . . حابي!. . . وأعبد آلهة النيل!)
- (إذن فلا اعتبار لآلهة آرجوس عندك؟)
- (إذا كان منها ما يحول بيني وبين ضالتي. . . وإلا. . . فسأمضي بصيدي)
- (ارفع يدك عن الفتيات. . . وإلا. . . فسرعان ما تندم ولات حين مندم)
- (كأني بك تشيع الكرم في عباراتك!)
- (لا كرامة ولا بشاشة لمن دنس الحرم المقدس!)
- (قل ما شئت، فالجلة الأمراء من أبناء إيجبتوس. . . آ. . . أجل. . . سأذكر لهم كل شيء)
- (لا يعنيني أن تنقل إليهم أي حديث عني!)
- (عجبا! وكيف؟ إذن نبئني ماذا أقول له كرسول منه إليك! يبدو لي أن مارس وحده سيحكم بيننا وبينك، وعندها، يعرفنا أينا من يندم ولات حين مندم! هؤلاء بنات عمهن، وقد جئت من أجلهن، فكيف أعود بدونهن! لم نسمح للغضب أن يروي دماءنا! يا للأرواح البريئة! ثم. من أنت؟)
- (غداً تعرف من أنا، أنت والعصبة من رفاقك! ولكن. . . لن نسمح لك أن يصطحبك أولئك الفتيات إلا إذا رضين هن ذلك. . . فلن يذهبن معك برغمهن. . . إن مملكتنا كلها تؤيدهن وتؤازر حقهن، ولن تسلمهن لقوة مهما عتت أو لجبروت مهما طغى! إن لنا لقانوناً أقدس، لم ينقش في صخر، ولم يسطر في بردي، فاسمعه من فمي، واغرب من أمامي!)
- (ويْ! لقد ضمنت كلماتك إعلان الحرب علينا! فمن لك برجال يضمنون لك النصر؟!)

غدا يملأ الرجال السهل والجبل وشطئان هذا الخضم رجال. . . مذاويد. . . لم) -
(!يدنسوا أفواههم بجعة الشعير ولا بنبيذ النمر. . أغرب يا أحمق
(ينسحب المصريون)
- 11 -
وأما أنتن يا عذارى فلا ترهبن شيئاً في الوجود ما دمتن معنا وبين ظهرانينا! إن) آرجوليس كلها ستحميكن وستكافح عنكن، فهلم إلى قلعتها العتيدة، إن لكل منكن فيها حصنا أمنع من النجم، وأمن من السماء! فقرن في غرفاتكن ثمة، فهي أخلق بكن، وأطيب إلى نفوسكن، وأروح عليكن. . . على الرحب والسعة يا عذارى! إني وشعبي (. . .نفتديكن، فقرن عينا وطبن نفسا
بوركت يا خدن الأرباب، جزاك سيد الأولمب عنا خيرا، وكتب لك ولمملكتك السلامة،) - وجعلك وجعلها بنجوة من غدرات الأيام، وبدوات الزمان!. . . أيها الملك! لقد غمرنا إحسانك فنحن ندين لك بهذه الأرواح المفزعة، والنفوس المروعة، التي أذهبت عنها الشجو وجلوت ما بها من حزن! أبانا أيها الملك! إنه رجل شيخ حطمته الآلام، وناءت على صدره الخطوب. . . ائذن له يصحبنا إلى منازلنا، ويهيئ لنا جوارنا، ويتخير لنا أولياءنا ذلك أدنى ألا يأسى أو يحزن! (ويوجهن القول إلى وصيفات الملك) أما أنتن أيها الوصيفات فرشّدننا إلى حيث يدلكن أبونا. . . وابشرن! فسيهب كلا منكن أمَةَ جزاء ما (خدمتننا وسهرتن علينا
- 12 -
(يدخل دانوس)
احمدن للملك، وصلين للآلهة يا بناتي! القرابين وإضحيات الخمر، إنا ندين للأراجيف) - البواسل بأرواحنا ما في ذلك من شك، فقرين لآلهتهن القرابين، وقدّمن الأضحيات! الثناء لهذا الملك الكريم يا فتيات، فلقد أنقذنا من الذبح ونجانا من الفضيحة. . . حمداً !!له، حمداً له وشكراً
أما أنتن، فخذن أهبتكن. . . إلى قلعة المدينة وذؤابة شرف آرجوس! ولي عنكن وصاة أرجو ألا تخيب، تلك أن تضربْن بخمركن على جيوبكن، ولا تبدين من معالم فتونكن، ما تشغلن به قلوب الرجال، وتبلبلن ببعضه أفئدة الناس، ولا تنسين أننا في كنفهم وارفون في
ظلالهم. . . فالشرف الشرف يا بناتي! والعصمة العصمة!! حتى نجتاز شوارع آرجوس، فاغضضن من أبصاركن إذا ساورتكن الجماهير، وأحدقت بكن الجماعات؛ ولا تبادلن (. . .أحد نظرة. . . لا تدري إلا الآلهة ما بعدها
ويلتف العذارى بأبيهن يعطينه موثقهن، ثم يأخذن في إنشادهن الحلو، وتغنيهن الجميل، وقد انقسمن إلى جماعتين، هذه تغني. . . وهذه ترّجع. . وتمتلئ الأرجاء شدواو. . . شجوا. . . وموسيقى
دريني خشبة
البقية - وهي خلاصة الدرامتين المفقودتين - في العدد)
(القادم
البريد الأدبي
تاريخ جديد لليهود
تثير المسألة اليهودية اليوم كثيراً من الاهتمام، ولهذا يصدر اليوم كثير من الكتب التي تتعلق بالمسألة اليهودية أو تاريخ اليهود سواء بأقلام كتاب اليهودية أو غيرهم من الباحثين من مختلف الأمم. وقد صدر أخيراً تاريخ جديد لليهودية بقلم مؤرخ يهودي كبير هو الدكتور سيسيل روث وعنوانه (تاريخ اليهود)، ويقع الكتاب في مجلد واحد، ومع ذلك يقدم إلينا صورة شاملة واضحة من تاريخ اليهودية منذ أقدم العصور إلى يومنا، وقد صدر من قبل كثير من التواريخ الجامعة عن اليهودية، مثل كتاب إيفالد وكتاب بيتر بير المؤرخين الألمانيين، وكتاب ميلمان المؤرخ الإنكليزي، ولكن هذه المصنفات القوية الجامعة ينقصها اليوم طابع الجدة الذي يطبع الكتب المعاصرة، ذلك أن المسألة اليهودية قد جازت منذ منتصف القرن الماضي إلى يومنا أطوارا كثيرة هامة؛ وكتاب الدكتور روث يمتاز بهذا الطابع المحدث، والدكتور روث أستاذ موضوعه، فهو من أكابر مؤرخي اليهودية وكتابها، وقد كتب عدة مباحث عن تاريخ اليهودية في العصور

الوسطى في السلسلة التي أصدرتها جامعة كامبردج عن تاريخ العصور الوسطى، وفي دائرة المعارف اليهودية؛ وكتب أيضاً تاريخ اليهود المتنصرين في أسبانيا وتاريخ اليهود في البندقية وعدة كتب ومباحث أخرى

ويقدم إلينا الدكتور روث صورة واضحة جامعة من تاريخ الشعب اليهودي؛ ويوضح لنا كيف أن اليهودي خلق منذ أقدم العصور (جوالا) يضرب في الآفاق، وأنه يصح أن يسمى بحق (اليهودي التائه)؛ ويرى الدكتور روث أن اضطهاد اليهودية منذ تفرقها يتخذ في جميع العصور وفي جميع الأمم أشكالاً وضروباً متماثلة؛ ففي ظل الدول البربرية والنصرانية والإسلامية، وفي الشرق والغرب، نرى نفس الإجراءات والأساليب تتخذ لمطاردة اليهودية: القتل والتشريد والمصادرة، وإلى يومنا نرى نفس الصورة المروعة، وقد تزدهر اليهودية أحياناً في فترات قليلة نادرة ويتبوأ رجالها منصب ممتازة في السياسة والمالية وفي العلوم والآداب، ولكن يد المطاردة لا تلبث أن تسحقها، ويحاول الدكتور روث أن يوضح لنا كيف أن اليهودية حصرت معظم اهتمامها في الشؤون المالية، وكيف أن اليهودي انتهى بفعل الزمن إلى التخصص في الاتجار بالمال والربا، ذلك أن اليهودي كان محروماً طوال العصور الوسطى من مزاولة أية مهنة أو حرفة أخرى، ولم يترك له سوى احتراف المتاجرة بالمال والربا الممقوت؛ ومن ثم كانت نشأة اليهودية المالية وتقدمها بمضي الزمن في هذا الميدان؛ وقد كانت اليهودية منذ العصور الوسطى ملاذ المعاملات المالية والصيرفية

ومما يلفت النظر في كتاب الدكتور روث رأيه في صلب المسيح، وكيف أن المسئول عن توقيع هذه العقوبة عليه هم الرومانيون لا اليهود؛ وكيف أن اليهود كانوا يودون إطلاقه؛ وهذا الرأي يخالف ما اصطلح عليه معظم مؤرخي النصرانية من أن اليهود هم الذين شددوا في صلبه في حين أن الرومانيين كانوا يؤثرون إطلاقه

ويتتبع الدكتور روث تاريخ اليهودية ومسائلها حتى يومنا. وكتابه قيم جداً من الوجهة العلمية؛ وأسلوبه قوي واضح؛ ولا ريب أنه سيثير اهتمام كل مشتغل بالمسألة اليهودية أو تاريخ الشعب اليهودي

كتاب عن بونابرت في مصر

يعتبر مسيو فرانسوا شارل رو السفير الفرنسي السابق من خاصة الباحثين في تاريخ نابليون وفي تحليل شخصيته ومواهبه؛ وقد خص الحملة الفرنسية المصرية بكثير من مباحثه وتحقيقاته، وآخر ما كتب في هذا الموضوع كتاباً عنوانه (بونابرت حاكم مصر) ' وفيه يحلل شخصية بونابرت ونفسيته حين إعداد الحملة الفرنسية؛ ويرى مسيو شارل رو أن نابليون لم يكن يومئذ الجندي العظيم فقط، ولكنه كان أيضاً أديباً وصحفيا، يقدر ما للدعوة والرأي العام من قوة، ولذلك لم يكتف بأن يزود جيشه بالمدافع والذخائر، بل رأى فوق ذلك أن يزوده بطائفة كبيرة من العلماء والفنيين وأن يحمل معه مطبعة كاملة. وفي ذلك ما يدل على أن نابليون كان يتمتع بعقلية عصرية لا تقل في حداثتها وابتكارها عن عقلية عصرنا

ويقول مسيو شارل رو أن نابليون كان يقصد الهند عن طريق مصر. وأنه كان يقدر للذهاب والإياب إلى فرنسا ستة أعوام. وكان يقول أن عمري تسعة وعشرون عاما فقط، وهذا ليس بعمر؛ وسيكون عمري عند العودة خمسة وثلاثين) ولم يكن نابليون تحدوه حين

قدم إلى مصر أية عواطف دينية. أجل جاء الفرنسيون إلى مصر أيام الحروب الصليبية ليقاتلوا الهلال ويسحقوا الإسلام، ولكن نابليون جاء إلى مصر ليحقق مشروعاً سياسيا واستعماريا ضخما، ولم يفته عند مقدمه أن يصدر (عن طريق مطبعته) منشوراً إلى المصريين يقول فيه أنه وجنده مثلهم يعبدون الله، وأنه عاقب البابا ونهب مالطه وفرسانها المتعصبين، وأنه لم يأت ليسحق الإسلام وإنما أتى بالعكس ليعيد إليه مجده! وكان نابليون طول إقامته بمصر يتظاهر دائماً باحترام الشعائر والعادات الدينية وتكريم العلماء ومصادقتهم

بيد أن هذا الحلم الجميل قد انهار بسرعة، ولم يلبث بونابرت أن غادر مصر شبه هارب؛ وقد عاد إلى فرنسا بعد أن حنكته تجارب عديدة؛ ولم يكن عدوه شعبا أو مجتمعا وإنما كان عدوه التعصب؛ وقد ألفى مصر، أم العلوم والفنون منذ العصور

الغابرة في سبات عميق، وألقاها فريسة للترك، ولم يبق في واديها النضر غير أرض مجدبة ينتهبها من استطاع. بيد أنه إذا كانت الحملة العسكرية قد أخفقت في تحقيق أغراضها، فإن الحملة العلمية قد حققت أعظم الثمار؛ وقد درس العلماء الفرنسيون كل ما في مصر من طبيعة ومن حيوان ونبات، ودرسوا أحوالها الاجتماعية وأمراضها المتوطنة، وأنشأوا المجمع العلمي بالقاهرة؛ وكان نابليون يرهق علماءه بمختلف الأسئلة: هل يمكن زرع القطن في مصر؟ وهل يمكن غرس الكروم؟ وهل تقام طواحين الهواء؟ وهل يمكن تحسين خبز الفلاح؟

كل ذلك يعرضه مسيو شارل رو في كتابه الجديد بأسلوب ساحر يجمع بين دقة البحث واتزان الحكم، ومتاع العرض. ومن المحقق أن كتابه يعتبر ثروة جديدة في مكتبة الحملة الفرنسية

رسائل الشاعر الروسي بوشكين

تستعد دوائر الشعر والأدب للاحتفال في العام القادم بالعيد المئوي لوفاة الشاعر الروسي الكبير (بوشكين) وقد كان بوشكين من أعظم شعراء القرن التاسع عشر، وكانت الروح الأوربية اللاتينية تغلب لديه على الروح الآسيوية الروسية؛ بيد أنه لم يترجم كثيراً إلى اللغات الغربية وبخاصة إلى الفرنسية كمواطنه ومعاصريه الأكابر مثل جوجول وتورجنيف ودستويفسكي. ويرجع ذلك إلى قوة شعره التي يصعب إخراجها بلغة أخرى. وأعظم مؤلفات بوشكين هي بلا ريب قصته الشعرية (أوجين أونجين)، وهي دراسة بديعة للعادات والأخلاق الروسية في القرن التاسع عشر

وكان بوشكين رجلا غريب الأطوار والنزعات، يضطرم بعواطف غريبة. ومما يذكر أنه حينما اعتزم الزواج في سنة 1826، خطب فتيات عدة قبل أن يلتقي بالحسناء ناتالي جونتشاروف؛ وكانت تلك الفترة أكثر فترات حياته اضطرابا

ويعتزم الكاتب الروسي سرج ليفار بهذه المناسبة أن ينشر رسائل الشاعر بوشكين إلى حبيبته ناتالي بنصها الأصلي، وأن يعلق عليها وأن يوضح ما غمض منها؛ وهذه الخطابات تصور لنا حياة الشاعر في هذه الفترة أحسن تصوير، وهي فتر حافلة بمختلف الحوادث والمفاجآت وضروب السعادة الغرامية. بيد أن هذا الزواج السعيد لم يلبث أن انتهى بفاجعة مؤلمة. ذلك أن بوشكين قتل مدافعاً عن شرف زوجه ناتاليا في مبارزة أصيب فيها بجراح مميتة. وسيضم هذا المجلد الذي يحتوي على رسائل بوشكين ترجمة وافية لحياة ناتاليا بقلم المسيو هوفمان، وهي ترجمة مؤثرة شائقة

وفاة كاتب ألماني كبير

من أنباء برلين أن الشاعر والكاتب الألماني الكبير إدوارد شتوكين قد توفي في الحادية والسبعين من عمره، وقد كان شتوكن شاعراً من الجيل القديم أعني من شعراء الإمبراطورية، وله شعر كثير يمتاز بقوته ورصانته، وكان أيضاً باحثاً كبيراً يؤثر القصة العلمية والتاريخية باهتمامه، واشتهر شتوكن بنوع خاص بالإبداع في القصة التاريخية، وأشهر قصصه من ذلك الطراز (الفاتحون) وهي قصة تاريخية رائعة في مجلدين كبيرين، وتدور حوادثها حول فتح المكسيك على يد الأسبان في أوائل القرن السادس عشر؛ وبطل القصة البارز هو فاتح المكسيك هرناندو كورتيز، وبطلتها هي دونا مارينا الفتاة الهندية الشهيرة التي غدت خليلة الفاتح ومهدت للأسبان كثيراً من مصاعب الفتح، ويصف شتوكن حوادث هذا الفتح الشهير وصفاً قوياً شائقاً، ويستعرض أحوال الهنود الحمر ومدينتهم وعاداتهم في فصول ممتعة تقوم على الحقائق التاريخية والعلمية الثابتة؛ ويبدع بنوع خاص في وصف الوقائع الدموية التي جرت بين الهنود والأسبان، ومناظر الضحايا البشرية التي كان ينظمها الهنود للتقرب من الإلهة؛ ويمزج شتوكن هذه الحوادث والمناظر

التاريخية المروعة بلمحات من الخيال الساحر والعرض الشائق

وقد أحرز شتوكن برواية (الفاتحون) شهرة عظيمة، ومازالت تعتبر من أعظم ما أخرجت القصة الألمانية المعاصرة، ولشتوكن عدة قصص وكتب نقدية أخرى وكان شتوكن مدى أعوام طويلة عضواً في الأكاديمية الألمانية للأدب القصصي

كتاب جديد لميترلنك

صدر أخيراً كتاب جديد للكاتب البلجيكي الكبير ميترلنك عنوانه (المرملة) ومن الصعب

أن نحدد موضوع الكتاب؛ بيد أنه كمعظم كتب ميترلنك مزيج من الاستعراض والنقد والفلسفة، ويكتب ميترلنك عادة بروح ثورية، ولكنه يبدو في كتابه الأخير أكثر هدوءا؛ وهو يحمل في الفصل الذي يخصصه لأحزان الأسرة الملوكية البلجيكية على القدر الجائر، ولكنه يثور في وقار؛ ويحدثنا ميترلنك عن ضعف الآثار المترتبة على التعليم الديني، ويرى في فلسفة باسكال ضعفاً ولاسيما في نظريته الخاصة (بالأسطورة التي لا تقارن) إشارة إلى النصرانية، ثم يحدثنا بعد ذلك عن الموت، ويرى أنه ليس عدواً للإنسانية بالقدر الذي تصوره روعته وآثاره المحزنة. وذلك أن الموت هو قانون الإنسانية كلها، وهذا التضامن في تلقي محنة الموت من البشر جميعاً يسبغ على الموت صورة محبوبة. وربما استطاع الإنسان أن يوفر على نفسه كثيراً من ضروب الألم والحزن إذا هو نبذ الحلم المستحيل (بأنه ذاهب لن يكون له ذهاب). ومازال الإنسان من حيث التضامن أقل شأناً من بعض الحشرات كالنمل مثلا، فلو أن الإنسان أدرك عاطفة التضامن على حقيقتها، لغدا كل إنسان (إنسانية بأسرها)

حول ترجمة السخاوي أيضاً

نشرت الرسالة في العدد 143، وفي هذا المكان رد الأستاذ عنان على ما لاحظه أديب من قراء الرسالة على ما ورد في ترجمته للحافظ السخاوي بخصوص كتابي (تحفة الأحباب) و (الإعلان بالتوبيخ)، وقد تلقينا في هذا الموضوع الكلمتين الآتيتين:

- 1 -

اطلعت في العدد 142 من (الرسالة) الغراء على ما كتبه الأديب الفاضل السيد محمود

عساف أبو الشباب مصححاً نسبة كتاب (تحفة الأحباب في الخطط والمزارات) إلى محمد بن أحمد الحنفي السخاوي الذي فرغ من تأليفه عام 956، لا إلى محمد ابن عبد الرحمن السخاوي الشافعي المتوفى سنة 902 مستدلا بما ذكره صاحب الطبقات المالكية، وبعدم عد السخاوي (محمد ابن عبد الرحمن المتوفى سنة 902) ذلك الكتاب في جريدة مؤلفاته التي سردها بالتفصيل مرتبة مبوبة في ترجمته لنفسه من (الضوء اللامع - الجزء الثامن)، ويمكن أن يستدل لذلك بعدم إحالة السخاوي في تراجم (الضوء اللامع) على كتاب له في المزارات مع كثرة إحالته على مؤلفاته في أكثر التراجم

ولكن الأديب أبا الشباب تسرع في نقل عبارة الأستاذ المؤرخ السيد محمد عبد الله عنان، فقال في ختام كلمته: (فإحقاقا للحقيقة، وصوناً لمعالم التاريخ نأمل أن يجزم رجال التاريخ أن الأثرين اللذين عناهما الأستاذ عنان ليسا للإمام السخاوي صاحب الضوء اللامع). . .

لأن عبارة الأستاذ عنان في العدد 104 هي: (ونجد أخيراً في تراث السخاوي أثرين من نوع خاص ولهما أهمية خاصة، أولهما كتاب تحفة الأحباب. . . وأما الثاني فهو كتاب الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ. . .)

وليس من شك في أن (الأثر الثاني) هو من مؤلفات السخاوي إذ ذكره في صدر مؤلفاته التاريخية، والمؤرخون مجمعون على ذلك، بل الكتاب نفسه ينادي بذلك في كل باب من أبوابه، فالأستاذ عنان أضاف إلى مؤلفات السخاوي صاحب الضوء كتاباً لم يكن من تصنيفه (وله سلف في هذه النسبة الخاطئة)، والأديب أبو الشباب نفى من جريدة مؤلفات السخاوي كتاباً أجمعوا على أنه من تأليفه (وليس له سلف في ذلك) جزى الله الجميع خيراً.

من قراء الرسالة

- 2 -

قرأت في عدد الرسالة الأسبق كلمة الأستاذ محمود عساف أبو الشباب - عن السخاوي مؤلف الضوء اللامع والسخاوي الآخر مؤلف تحفة الأحباب في المزارات، ولهذه المناسبة أذكر أن كتاب تحفة الأحباب الذي طبع على هامش كتاب نفح الطيب - طبعة سقيمة - ليس للسخاوي الحافظ حقيقة، بل هو لسخاوي آخر كان معاصراً له وتأخر موته عنه، وثمة

دلائل كثيرة تؤيد هذه النظرية، وقد لا يتسع المقام لسردها في هذه العجالة، بيد أني أقول - أن الأستاذ حسن قاسم (مؤلف كتاب المزارات المصرية والآثار الإسلامية في

مصر والقاهرة المعزية، الذي يطبع الآن في القاهرة - والذي لي حظ الشرف بالاشتراك فيه - قد أعلن أنه وفي هذا الموضوع حقه وأعطاه من العناية ما يستحق، وقد تلمست من ترددي على دار الكتب المصرية - أن كثيراً من موظفيها يعلم ذلك، وقد يكون قسم التغيير العربي أو قسم الفهارس قام بتصحيح ذلك لخدمة التاريخ، وأذكر مما قاله الأستاذ قاسم عن السخاوي مؤلف التحفة، أنه على نور الدين حنفي المذهب، ألف هذا الكتاب من الكواكب السيارة لابن الزيات - الذي طبع في دار الكتب - ومن مصباح الدياجي لمجد الدين بن الناسخ المعروف بابن عين الفضلاء المحفوظ منه نسخة بدار الكتب وأصلها لعلي مبارك باشا، وقد رأيناه كثيراً ما ينقل عنها في خططه - ومنها نسخة - في لجنة حفظ الآثار العربية

ويذكر أيضاً أن الأجهوري اقتبس كتابه هذا في مؤلف له (سماه مزارات الأشراف المدفونين بمصر) وترجم له في خاتمته، وهذا المصدر محفوظ منه نسخته الخطية بمكتبة الأستاذ قاسم. .

الآنسة فردوس عبد العزيز مظهر

بعثة الجامعة المصرية إلى اليمن

غادر القاهرة إلى اليمن بعثة الجامعة المصرية، وهي مؤلفة من الدكتور سليمان حزين وسيقوم بدراسة حفائر ما قبل التاريخ، والأستاذ خليل يحيي نامي ويبحث في النقوش والمخطوطات واللهجات الخاصة باليمن، وهما من أعضاء هيئة التدريس لكلية الآداب، والأستاذ مصري شكري وسيقوم بأبحاث في الجيولوجيا، والأستاذ محمد توفيق العربي ويبحث في الحشرات بتلك البلاد، وهما من أعضاء هيئة التدريس بكلية العلوم وتستغرق مدة إقامة البعثة باليمن ستة أشهر. وقد قررت الجامعة منح حضراتهم مكافأة قدرها 1800ج تلقاء أبحاثهم ودراساتهم وقد تزاد تلك المكافأة 200 جنيه

العدد 146 - بتاريخ: 20 - 04 - 1936

من عبر السيرة

محمد الوالد

إن في الحزن القوي عزاء الجزع الضعيف

تخطفت المنايا السود فلذات الرسول بنات بعد بنين، فلم يبق إلا فاطمة قرة لعينه وعزاء لنفسه. وكانت جراحات القلب العظيم لا تجد لمسها الممض فراغاً بين آلام الرسالة فتندمل في سكون وصمت. فلما عنتْ سُورة الشرك في مكة، وعلت كلمة الله في الجزيرة، وتحققت وحدة العرب في الوجود، وأخذت نفحات السلام الإلهي تنضح الجو المشتعل بالنار، وتطهر الثرى المخضوب بالدم، تنبهت في الإنسان الأعلى مشاعر الطبيعة، وتجددت في العربي الرسول عواطف الأبوة، وحزّ في نفس محمد أن يرى أمهات المؤمنين يعقمن عشرة أعوام متتابعة، فبيوتهن التسعة حول المسجد المهلل الذاكر غرقى في السكون الرهيب والصمت الموحش، لا يؤنس حجراتها غناء المهد، ولا يبهج أفنيتها مرح الطفولة

لا ريب أن أسرة محمد الرسول شملت جزيرة العرب كلها، وستشمل عالم الإسلام أجمع؛ ولكن أسرة محمد الرجل لا تزال ألماً من آلام العبقرية، ومحنة من محن البطولة. تدرع باسم الله وبرز وحده لشياطين الأرض، فجاهد الوثنية حتى أقر الحق، وعالج الإنسانية حتى أعلن الخير، وشذب الطبيعة حتى أنمى الجمال، وبلغ الرسالة حتى لم يبق لرضى الله غاية لم تدرك، ولا لصلاح الناس سبيل لم تشترع. ولكنه هدف للستين في جهاد الشرك والجهل والهوى، ولا يزال يجد في جوانب نفسه الكبيرة عاطفة لم تُرضَ، وحاجة لم تُقض، ورسالة لم تتم! تلك هي عاطفة القلب للولد، وحاجة النفس إلى التجدد، ورسالة الحياة إلى الحياة

بين ظلال النخل والكرْم، وفي بيت المصري على العالية من ضواحي المدينة، أتم الله نعمته على رسوله فوهب له على الكبر إبراهيم! يومئذ تنفس الصبح بأنفاس الفردوس، وضاحكت الشمس خمائل يثرب من خلال الأجنحة النيرة، ومست يد الربيع المخصبة دوحة النبوة، وغرقت نفوس المؤمنين في مثل صفاء الخلد، وأقبل المهاجرون والأنصار على المسجد المستبشر يهنئون النبي بالخليفة الوليد والأمل الجديد والعوض المبارك؛ ونهض الرسول الوالد إلى بيت مارية القبطية ليرى نعمة ربه، وبضعة كبده، فوجد في

طلعة إبراهيم الأنس الذي يعوزه، والرضى الذي يرجوه، والخلف الذي يتمثله؛ ففاضت غبطته لله حمداً، وعلى المؤمنين بركة، وفي الفقراء صدقة. رفع أمه إلى مقام أزواجه، ونفح مرضعته بسبع من المعزى سمان يحلبن عليها وعليه، ثم عقَّ له بكبشين أملحين، وتصدق بزنة شعره فضة؛ وتعودّ كل صباح أن يزور أم ولده فيحمله منها ليضمه ويشمه، ويتذوق طعم السعادة الأرضية في ريحه، ويطالع نفسه العائدة في نفسه، ثم يدخل به على الأمهات اللائى ولدن جميع المسلمين ولم يلدن، فيباهي بحسنه، ويغتبط بنموه، ويحتمل راضياً في سبيل ذلك كله غيرة حُميرائه وكيد نسائه ولكن أنبياء الله موضع بلائه وسر حكمته! دعوتهم الحق والحق ثقيل، وعدتهم الصبر والصبر كليل، وبرهانهم الألم والألم قاتل! غرباء في الأرض لأنهم من السماء، وأغراض لسهام القدر لأنهم ضحايا، وأمثلة لبؤس العيش لأنهم عِبر! هذا إبراهيم حبة قلب أبيه وسواد عين أمه مسبوتاً على فراش المرض تحت النخيل! تذوي نضارته على وهج الحمى، وتذوب حشاشته على عَرْك الموت، وأمه وخالته قائمتان على سريره تشهدان منظراً يهون في جانبه على الوالدين الجنون والكفر والعدم! وهذا أبو إبراهيم يضعضعه النبأ المروع فيتحامل على عبد الرحمن بن عوف، ويمشي ثقيل الخطى لهيف الفؤاد، إلى الصغير المحتضر! لو كان لمتاع العيش غناء لتقلب فيه المؤمن، ولو كان لقانون الموت استثناء لأفلت منه المصلح، ولو كان في قلب الثاكل المحزون شبهة لجلتها محنة الله لرسوله!

أخذ النبي إبراهيم من حجر أمه فوضعه في حجره، ثم نظر من خلال الدمع إلى قسماته المشرقة تغشاها ظلال الموت، وقال بصوت متهدج وفؤاد متأجج واستسلام مطمئن: (إنا يا إبراهيم لا نغني عنك من الله شيئاً)

يا لله لقلوب الوالدين! إن النبي الذي ولد في مهد اليُتم، ودرج في حجر العُدم، وتقسمت عمره عوادي الخطوب، فكابد أذى قريش وحقد المنافقين وكيد اليهود، وعالج مكاره الدعوة من القلة والذلة والهزيمة والفتنة، وقد احتمل كل ذلك بصبر المجاهد ويقين المؤمن وعزم الرسول، ويصيبه الله في إبراهيم وهو رضيع فيرفض عنه الصبر، ويتملكه الجزع، ويقف من الثكل الأليم موقف كل والد يرى جزءه الجديد يبلى، ورجاءه الناشئ يخيب، ثم يقول:

(إن العين لتدمع، وإن القلب ليجزع، وإنا بعدك يا إبراهيم لمحزونون: أما والله لولا أنه أمر حق، ووعد صدق، وأن آخرنا سيلحق بأولنا، لحزنّا عليك بأشد من هذا! وينال من الصحابة حزن الرسول فيتقدمون إليه يذكرونه ما نهى عنه فيقول: (ما عن الحزن نهيت! وإنما نهيت عن العويل. وإن ترون بي أثرُ ما بالقلب من محبة ورحمة، ومن لم يُبد الرحمة لا يبدي غيره عليه الرحمة)

على أن حزن الرسل لا يكون إلا بمقدار ما فيهم من ضعف الإنسان. لذلك لم يلبث الرسول أن عاد إلى نفسه فصلى على ولده، وسوى عليه القبر بيده، ثم رش فوقه الماء وأعلم عليه علامة وقال: (إنها لا تضر ولا تنفع، ولكنها تقر عين الحي، وإن العبد إذا عمل عملاً أحب الله أن يتقنه)

تعزيت يا رسول الله لأن الألم سبيل من سبل دعوتك، والعزاء أصل من أصول دينك، والأرض وما عليها أهون من دمعك. والسماء وما فيها ثواب لصبرك، ولكن ماذا يصنع البائس المحزون إذا فقد الرجاء، وليس له في يومه صبر ولا في غده عزاء؟

أحمد حسن الزيات

على هامش السيرة

حديث عداس

للدكتور طه حسين بك

قال عتبة بن ربيعة لأخيه شيبة: أنظر إلى هذا الرجل المقبل على حائطنا ومن ورائه السفهاء والعبيد قد أغرو به وسلطوا عليه، فهم يؤذونه بألسنتهم، وهم يؤذونه بما يحصبونه به من الحصى والأحجار! ألا تثبته؟ قال شيبة وقد نظر فأطال: بلى! والله إني لأعرفه كما تعرفه، وإن قلبي ليرق له كما يرق له قلبك، وإن نفسي لتثور غضباً له كما تثور نفسك، ولقد هممت ومازلت أنازع نفسي أن أفزع إلى نصره وجواره وحمايته من حلماء ثقيف وسفائها. ولولا ما بينه وبين قومنا، ولولا أني أعلم أننا إن فعلنا كان لنا مع قومنا أمر عظيم وخطب جليل. قال عتبة: وا رحمتاه لابن عمنا من قومه! ثم وا

رحمتاه لقومنا من أنفسهم! ما كنت أحسب أن يبلغ الأمر بقريش أن يذلل عزيزها ونحن شاهدان، وأن يجترئ حي من أحياء العرب وإن كانوا ثقيفاً، على أن يسوءوا رجلاً من قريش وإن كان مستضعفاً مهيناً. فكيف بابن عبد المطلب وابن أخي حمزة والعباس؟ وكان هذان الرجلان من أشراف قريش قد ذهبا إلى بستان لهما في الطائف يصلحان من أمره وأمرهما، ويهيئان لتجارتهما: يجمعان ما تنفذه ثقيف مع تجار قريش إلى اليمن في رحلتها إلى اليمن، وإلى الشام في رحلتها إلى الشام. وكانا قد أقاما في الطائف أياماً، وأقبل في أثناء ذلك النبي صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على ثقيف يلتمس عندهم النصر والعون والجوار بعد أن تنكرت له مكة بطاحها وظواهرها، وبعد أن تنكر له الناس حتى أقربهم إليه وأدناهم منه، وبعد أن فقد عمه الذي كان يمنعه ويقوم دونه، وبعد أن فقد زوجه التي كانت ترعاه وتكلؤه وتحوطه بالرحمة والحب والحنان، وكان قد لزم داره بعد هاتين الكارثتين لا يكاد يبرحها خائفاً محزوناً حتى أقبل عليه عمه أبو لهب فأمنه وأعلن إليه أنه يقوم من حمايته بما كان يقوم به أبو طالب. فسرى عن النبي الكريم شيئاً واستأنف الخروج من داره والذهاب إلى المسجد، والاضطراب في مكة، ولكن قوماً من قريش ألحوا على أبي لهب حتى غيروه على ابن أخيه فاسترد جوره وحمايته، وعاد من حرب النبي وعداوته إلى مثل ما كان عليه قبل أن يموت أبو طالب. فلما ضاقت مكة بخير أبنائها خرج إلى الطائف يلتمس جوار ثقيف، فأقام

فيهم ما شاء الله أن يقيم، يسعى عند هذا ويتلطف لذاك، وكلهم يرده وكلهم يمتنع عليه. وكان مقامه فيهم قد أخافهم وثقل عليهم وأثار في نفوسهم إشفاقاً أن يصيب مدينتهم ما أصاب مكة من اضطراب الأمر، وانتفاض الضعفاء على الأقوياء واستجابة قوم لهذا الرجل الذي أنكره قومه ولم تره مدينته إلا ما يكره. فتقدموا إليه في الرحيل عنهم، ولم يكد يفعل حتى أغروا به سفلة الناس وسفهاءهم يؤذونه بالقول والفعل حتى ألجئوه ضعيفاً مكدوداً وكئيباً محزوناً إلى حائط هذين القرشيين، وأقبل النبي وقوراً هادئ الخطى مطمئن النفس، تظهر على وجه الكريم آيات الضعف.، وآيات القوة، وآيات الحزن، وآيات الرجاء. ضعف مصدره الجهد والعناء، وقوة مصدرها الحزم والعزم، وحزن مصدره الرحمة لهؤلاء الذين يدعوهم إلى الخير فيبغونه بالسوء، ويرشدهم إلى النجح فيريدونه بالمكروه؛ ورجاء مصدره الثقة لأن الله لم يختره لرسالته ليخذله قبل أن يتم أمره، ويعلي كلمته، ويظهر دينه على الدين كله، وبأن الله لا يصيبه بما يصيبه به من المكروه إلا امتحاناً لقلبه وابتلاء لنفسه وتمحيصاً لطبعه أقبل هادئاً والناس من ورائه مضطربون. مستأنياً والناس من ورائه مسرعون، حتى انتهى إلى ظل من ظلال البستان فجلس متعباً مكدوداً، والقرشيان ينظران إليه ويرقان له ويعطفان عليه، وينازعان نفسيهما إلى نصره ومعونته، وقد كادا يفعلان لولا أن ذكرا قريشاً، ولولا أن ذكر عتبة بن ربيعة صهره أبا سفيان وقدر ما يلقاه وما يلقاه أخوه من قريش إن منح محمداً معونة أو نصراً؛ ولكنهما رأيا ابن عمهما يأوي إلى ظلالهما مكروباً محزوناً، فلم يملكا أن يمتنعا عن أن ينالاه بأيسر الخير وأهون البر، فيدعوان عداساً عبداً من عبيدهما ويأمرانه أن يحمل إلى هذا الرجل الضعيف المكدود شيئاً من عنب البستان ليصيب منه، ويمضي العبد منفذاً أمرهما، ولكنهما لا يستطيعان أن ينصرفا عن مكانهما ولا أن يحولا بصرهما عن ابن عمهما، وقد أهينت فيه قريش كلها، لولا أن قريشاً قد احتفظت بأحلامهما فهما ينظران ويرثيان، ويعمل الأسى في قلبيهما والعبد يسعى بالطبق إلى هذا الرجل المحزون، حتى إذا انتهى إليه وضع الطبق بين يديه، وأقبل الرجل على العنب يريد أن يصيب منه، والعبد قائم منه غير بعيد، ولكن القرشيين ينظران فيريان عجباً: يريان كأن حديثاً قصيراً قد دار بين الرجل وبين هذا العبد؛ ثم يريان العبد وقد أكب على

هذا الرجل الحزين يقبل رأسه ويديه ورجليه باكياً مستعبراً، مندفعاً في حديث لا يكاد ينقضي، مظهراً من التكرمة والإجلال لهذا الرجل ما لم يتعود أن يظهر لأحد من سيديه. فيقول أحد القرشيين: ويحك لقد أفسد علينا ابن عمنا هذا العبد! وما أرى إلا أن ثقيفاً معذرين إن خافوا منه على عبيدهم وضعفائهم وأقويائهم أيضاً ما خفنا نحن منه على العبيد والضعفاء والأقوياء؛ وهذا الرجل قد نهض وقوراً هادئاً، ومضى أمامه وقوراً هادئاً، ومضى العبد معه شيئاً من الطريق. ثم وقف يشيعه بطرفه حتى غاب عن

طرفه وعن طرف القرشيين
هنالك عاد العبد إلى سيديه، وفي وجهه آيات الكآبة والحزن، وفي وجهه مع ذلك آيات الطمأنينة والرضى، ودموع تجري من عينيه لم يدريا أكانت دموع حزن وابتئاس، أم كانت دموع غبطة وابتهاج
يقول عتبة بن ربيعة للعبد رفيقاً به عطوفاً عليه: ويحك يا عداس! إن لك من هذا الرجل لشأناً، فاقصص علينا بدء حديثك فقد رأيناك حفياً به متلطفاً له، مكباً عليه تقبله باكياً مواسياً، ثم مرافقاً له تشيعه بشخصك ثم بطرفك. قال العبد: نعم يا مولاي إن لي مع هذا الرجل لشأناً وحديثاً عجيباً، وأحب إلي أن أقص عليكما حديثي! ولكن أي حديثي تريدان؟ أتريدان حديثي منذ اليوم، أم تريدان حديثي القديم الذي مضت عليه أعوام طوال، والذي دفعني إلى بلادكم هذه، والذي اضطرني إلى ما أنا فيه من رق، أعمل لكما بيدي في هذا البستان، وما عملت لأحد قبلكما بيدي، وما عملت لنفسي بيدي، وإن كان الناس ليعملون لي كما أعمل لكما الآن؟ قال عتبة وقد ثارت في نفسه طبيعة العربي الذي أترف وفيه فضل من بداوة، فهو مشغوف بالقصص، كلف بغريب الحديث. قال عتبة: وإن لك لحديثاً قديماً بينه وبين حديثك هذا الجديد سبباً. قال عداس: نعم. قال عتبة: فاقصص علينا حديثك. وأخذ القرشيان مجلسهما استعداداً لسماع الحديث. وهم العبد أن يبدأ حديثه قائماً، ولكنهما أذنا له في الجلوس فجلس وأطرق وأغرق في صمت غير طويل، ولكنه كان عميقاً. ثم قال: لقد انتهيت إلى هذا الرجل منذ حين فسمعته يقول كلاماً ما أعرف أن الناس يقولونه أو يقولون مثله في هذه الأرض. فلما سألته عن ذلك حدثني بحديث ما يعرفه إلا نبي. وكأن حديثه هذا مني على ميعاد، أو كنت أنا من حديثه هذا على ميعاد. لقد سألني سؤالاً لم يسألنه أحد منذ وطئت هذه البلاد. سألني عن موطني الذي نزحت منه، فأنبأته بما لا تعلمان وبم يحسن أن تعلماه الآن، وهو أني رجل من أهل نينوى، نشأت في بيت من بيوت الأحرار الذين إن لم يتح لهم الملك والإمارة، فقد أتيحت لهم الثروة والغنى؛ وكنت موفور الحظ من النعمة وحسن الحال، فارغاً لما يفرغ له أمثالي في تلك البلاد من تقسيم الوقت بين لذة الجسم ولذة العقل؛ ألهو ما وسعني اللهو، ثم أقرأ وأختلف إلى مجالس العلماء والفلاسفة من القسس والرهبان فأسمع منهم وأتحدث إليهم، وآخذ معهم في ألوان من الجدل حول ما يختلف الناس فيه عندنا من أصول الدين والعلم، وأنتما لا تعلمان من أمرنا في تلك البلاد إلا قليلاً، إنما تعنيان ويعنى قومكما بما تحملون إلينا من تجارة، وما تصدرون به عنا من مال، وما تصيبون في بلادنا من هذه اللذات اليسيرة. فأما ما دون ذلك فليس لكم به علم، وليس لكم عنه سؤال؛ ولو قد دخلتم في حياتنا وعرفتم دقائق أمرنا، لرأيتم أن في نفوسنا اضطراباً شديداً، وغلياناً متصلاً، وضيقاً بالسلطان، وتمرداً على النظام، وإنكاراً لما ورثنا من عادة، وشكا فيما تلقينا من دين. ساءت فينا سيرة السلطان فنقمنا من نظام الحكم، وساءت فينا سيرة القسس فشككنا في الدين؛ فأما العاجزون فقد أعطوا طاعة ظاهرة وأضمروا عصياناً خفياً، وعكفوا على اللذات يستعينون بها على احتمال الحياة؛ وأما الأقوياء وأولو العزم فقد فكروا وقدروا وجدوا في التفكير والتقدير يلتمسون فرجاً من حرج ومخرجاً من ضيق، وكنت فيما رأيت من هؤلاء. فلما ضقت بالحياة في مدينتي ولم أجد عند علمائها وقسسها شيئاً خرجت مسافراً إلى الشام ألتمس في السياحة تسلية وعلماً، وأبتغي فيها ظفراً بالخير، ولست أقص عليكما رحلتي إلى الشام ومنازلي في طريقي إليها، واضطرابي في مدنها وقراها، ويأسي من قسسها وعلمائها، وضيقي بسادتها وحكامها، ولكني انتهيت بعد كثير من الاضطراب إلى دير من الأديرة يقوم في آخر العمران وأول الصحراء مما يلي بلادكم هذه، وأقمت في هذا الدير دهراً راضياً عن حياته الهادئة المطمئنة راضياً عن حياة أهله الآمنين الوادعين الأخيار، ناعم النفس بعشرتهم مستمتعاً بأحاديثهم، ولكنني سمعت من أحاديثهم عجباً: رأيت لهم فيما بينهم أمراً يتحدثون عنه بالرمز، ويومئون إليه بالإشارة، ورأيت حديثهم هذا الرمزي يكثر ويشتد إمعانهم فيه كلما مرت بديرهم من قوافلكم هذه التي تردد على بلاد الروم. رأيتهم يعرفون أنباء هذه القوافل
قبل أن تصل إليهم فيتهيئون لها ويستقبلونها ويكثرون من سؤالها، ويظهرون الحفاوة بها. ثم يخلو بعضهم إلى بعض، فيتبادلون بينهم أحاديث الرمز والإشارة والإيماء، ويقول

بعضهم لبعض: لم يأت النبأ بعد؛ أو يقول بعضهم لبعض: لقد انقطع النبأ بعد أن جاءت بشائره. فلما كثر علي منهم ذلك أزمعت أن أعلم علمه، فتلطفت لهم وتوسلت إليهم حتى عرفت أنهم ينتظرون إصلاحاً دينياً ذا بال، وأنهم قرءوا في كتبهم أن هذا الإصلاح يأتيهم من قبل هذه البلاد، وأنهم حسبوا وقدروا ورأوا أن زمان هذا الإصلاح قد أظل الناس، وأن أنباء قد انتهت إليهم وأحاديث قد نقلت لهم، وكلها يدل على أن أوان هذا الإصلاح قد آن. ثم قصوا علي من هذه الأنباء والبشائر أطرافاً، فلم أملك أن كلفت بالرحلة إلى بلادكم، وقلت ما يمنعني أن أبعدني السفر؟ وما يمنعني أن أتصل بقافلة من قوافلكم هذه فأبلغ معها هذه الأرض، فأعلم من علمها، وأصيب من تجارتها؟ ولعلي أظفر بما يتحرق إليه هؤلاء الرهبان شوقاً؛ وأنتما تعلمان كيف كان الاتفاق بيني وبين تلك القافلة التي أمنتني على نفسي ومالي، وضمنت لي أن أبلغ بلادكم هذه موفوراً فأصيب من تجارتها وأعود معها من قابل إلى الشام، حتى إذا بعدنا عن بلاد الروم وانقطعت أسبابي من أسباب قيصر عدا أهل هذه القافلة على مالي فاحتجزوه ثم عدوا علي فاتخذوني بضاعة وباعوني من صاحبكما ذاك الذي اشتريتماني منه قريباً من يثرب

فهذا بدء حديثي أيها السيدان، وقد عملت في بستانكما أعواماً، وكان الناس يتحدثون من حولي بهذه الأحداث التي تحدث في مكة ويتناقلون من حولي أنباء هذا الرجل الذي ينكر الأوثان ويدعو إلى التوحيد، ويريد أن ينصف المظلوم من الظالم، والعبد من السيد، ويسوي بين الضعيف والقوي؛ وكان الناس يتحدثون من حولي بما يلقى هذا الرجل في بلده من شر، ومما يمتحن به أصحابه من ألوان الفتنة، وكنت كلما سمعت هذه الأحاديث هششت لها، وطابت بها نفسي. وأحسست أن النبأ الأعظم قريب؛ وكنت أقدر أن صاحب هذا النبأ يجب أن يكون كإخوانه الذين سبقوه علماً بدين الله، داعياً إليه، مخبراً من أنباء الأولين بما لا يخبر به الناس، وكم وددت لو أتيح لي أن أنحدر إلى مكتكما هذه فأسأل صاحبكما وأسمع منه، ولكن الرق في بلادكما شديد. فنحن أرأف منكم بالرقيق، وأعطف منكم عليه، وقد لبثت في بستانكما هذا أسمع الأنباء وألتمسها وأتحرق شوقاً إلى مصدرها حتى أقبل

صاحبكما هذا منذ حين؛ ولقد رثيت له حين رأيته وأوشاب الناس من حوله يؤذونه بألسنتهم وأيديهم. ولقد هممت أن أفزع لنصره والذود عنه. وما كنت أعلم من أمره شيئاً، ولكنها الرحمة عطفتني عليه؛ ولقد هممت أن أستأذنكما في إيوائه وإيثاره بشيء من القرى، ولكني رأيتكما تنظران وتتحدثان ولا تنشطان؛ ثم أمرتماني بالسعي إليه، فلما بلغته سمعت منه كلاماً ما سمعت مثله في هذه الأرض. فلما سألته عن ذلك سألني عن موطني. فلما أنبأته به قال هذا موطن يونس نبي الله. فما شككت في أنه صاحبي الذي أقبلت ألتمس أنباءه. قال عتبة ويحك يا عداس إن حديثك هذا العجب، ولكنا نخشى أن يفسد عليك صاحبنا دينك، وإن دينك لخير مما يدعوا إليه. قال عداس: مهلاً يا سيدي! إن الذي يقول ما سمعت لا يدعوا إلى شر ولا يغري بفساد، ولا يأمر إلا بمعروف. ولا يقول إلا حقاً. قال شيبة: ويحك يا عداس لقد سحرك صاحبنا فيمن سحر، فماذا سمعت منه؟ قال عداس: بل لقد هداني فيمن هدى، ولقد سمعته يناجي ربه بحديث ما سمعت أعذب منه. لقد حفظت حديثه، وإنك لتعلم ما أنا بالعربي، وما حفظ أحاديثكم علي بيسير. قال عتبة: فهات أعد علينا ما سمعت. قال سمعته يقول: (اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين. أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك).

ولم يفرغ العبد من هذا الحديث حتى أغرق في بكاء هادئ، وأغرق سيداه في وجوم عميق. ثم ثاب القوم جميعاً إلى أنفسهم ونظر القرشيان أحدهما إلى بعض نظرة المستخذي الأسف. ثم قال عتبة لعداس: أنت وما تشاء يا عداس من حب صاحبك وطاعته، ولكن لا تنس أن لنا عليك حقاً وطاعة، وأنا حريصان على ألا تظهر من أمرك شيئاً فتضطرنا فيك إلى ما نكره، وتضطر قومنا فينا إلى ما تكره

ومضت أعوام وحدثت أحداث، ونظر العبد الشيخ ذات يوم فإذا محمد صلى الله عليه

وسلم قد ضرب عسكره حول الطائف يحاصر فيها ثقيفاً؛ وكان عداس قد انتقل من ملك ابني ربيعة بعد موتهما إلى الثقفيين، وإذا نفسه تنازعه إلى صاحبه، وإذا هو يحرض الرقيق
ويبث فيهم الدعوة إلى الخروج على سادتهم واللحاق بجيش المحاصرين، وإذا نفر من الرقيق يجتمعون إليه، وإذا هم يقتحمون الأسوار ويهبطون إلى العسكر مسرعين وترميهم مقاتلة ثقيف بالنبل فتصرع منهم جماعة فيهم عداس قد مات قبل أن يبلغ صاحبه العظيم، ويخلص سائرهم إلى النبي فيهديهم إلى الإسلام ويردهم إلى الحرية، وينصرف عن حصار الطائف حتى إذا أسلمت ثقيف تكلمت في رقيقها أولئك وأرادت ردهم إلى الطاعة، فيقول النبي الكريم: كلا! هؤلاء عتقاء الله

طه حسين

منطقة الإيمان

للأستاذ توفيق الحكيم

حينما كنت وكيلاً للنائب العام كنت أرى عجباً في قاعات المحاكم وجلسات التحقيق؛ وكنت أفكر كثيراً في أمر ذلك الشرير الذي طالعت صحيفة حياته فإذا آثام ودماء تسيل منها، ومع ذلك يقف أمامي متطلعاً إلى السماء، ويأبى أن يقسم بالمصحف كذبا. هذا الآدمي قد انطلقت غرائزه الدنيا لا يقوم لها شيء، لكن بقيت برغم هذا في نفسه منطقة عذراء لم يتطرق إليها فساد: منطقة العقيدة! أهناك إذن حد فاصل بين العقيدة والغريزة؟ كذلك كان يدهشني أمر صديق من خيرة القضاة، كثير الورع، حريص على العبادة والصلاة؛ ومع ذلك بقي عقله حراً من كل قيد. ما يدور بيننا حديث في الخالق والخليقة حتى يذهب هو في التدليل والمنطق كل مذهب إلى أن يقع في الإلحاد وإنكار الجنة والنار. وينادي المؤذن بالصلاة فإذا القاضي يسرع مخلصاً إلى ذلك الدين الذي قال فيه منذ لحظة قولاً عظيما. أهناك إذن حد فاصل بين العقيدة والعقل؟

إذا قلنا مع القائلين إن العقل والقلب والغريزة ملكات ثلاث منفصلة إحداها عن الأخرى، فإن هذا القول يؤدي حتما إلى نتائج غريبة قد تعدل من نظرتنا إلى الأشياء. ولعل أول ما يفهم من هذا الاستقلال بين ملكات تباين ألوان الحقيقة لدى كل منها؛ فما يصدق عند القلب، قد لا يصدق عند العقل. بل إن كل ملكة من تلك الملكات تسيطر على عالم مختلف جد الاختلاف عن عالم الأخرى. يقابل ذلك في المحسوسات تلك الحدود والحواجز بين الحواس، فعالم البصر منفصل عن عالم السمع، والحقيقة البصرية غير الحقيقة السمعية، وما يعتبر موجوداً في منطقة العين لا يعتبر موجوداً في منطقة الأذن، فهذا الحجر الساكن حقيقةٌ تراها العين المبصرة، ولكن الأذن لا تدرك ولن تدرك هذه الحقيقة، ولن تعرف مطلقاً ما هو الحجر وما شكله، لأن عالمها وهو عالم الأصوات لا يخطر له على بال أن في الوجود عالما يسمى عالم المرئيات. فالعقل لا يدرك إلا ما يلائم وظيفته وما يخضع لمقاييسه. والحقيقة العقلية ليست الحقيقة المطلقة، وليست الحقيقة كلها. ولكنها الحقيقة التي يستطيع العقل أن يراها من زاويته. فإذا كانت العقيدة مرجعها القلب، فإن العقل لن يرى منها إلا الشطر الذي يستطيع أن يراه، ويظل محجوبا عنه الشطر الواقع في دائرة القلب.

فوجود الخالق الجبار المنتقم الرحمن اللطيف لاشك فيه عنه القلب؛ أما العقل فإن استطاع بالمنطق أن يتصور وجود الخالق، فأنه قد يرتاب في صحة تلك الصفات المنسوبة إليه؛ وقد يراها في منطقة صفات آدمية أسبغها البشر على خالقهم إجلالاً له، لأنهم وهم بشر لا يملكون غير تلك الصفات التي هي في عرفهم مرادف الإكبار والتقدير. أما حقيقة الخالق فأمر بعيد عن مقدرة العقل، وهل يستطيع الجزء أن يرى الكل؟ هل تستطيع الكبد في جسم الإنسان مثلاً أن تحيط إدراكاً بحقيقة شكل الإنسان الخارجي وهي جزء منه داخل فيه؟ إن كل ما تدركه الكبد هو وجود تلك المواد التي تمر بها كل يوم فتحولها إلى إفرازات دون أن تدري من أين جاءت، ولا إلى أين تذهب. العقل أيضاً يرى الأحياء كل يوم تدور دورتها دون أن يدري من أين جاءت ولا إلى أين تذهب. فالحقيقة العقلية أو العلمية لا يتجاوز علمها الكائنات التي تمر بالحواس؛ ومن يحمل العقل أكثر من قدرته فهو إنما يريد منه المستحيل، كمن يطلب إلى الكبد مضغ الطعام. فالحقيقة العقلية أو العلمية شيء، والحقيقة الاحساسية أو الدينية شيء آخر؛ وإن رجال الدين يقعون دائماً في الخطأ، إذ يبسمون بسمة الظفر كلما قال رجال

العلم قولاً يتفق مع الدين، ويقطبون تقطيب الغضب كلما نقض رجال العلم أسس الدين. وما أحراهم في كلتا الحالين أن يبسموا غير مكترثين بسمة الصفاء واليقين، وأن يعتقدوا تمام الاعتقاد أن العلم في كلا الحالين كاذب عندهم وإن صدق، وأن لا شأن للعلم بهم، وأن الحقيقة الدينية بعيدة عن وسائل العلم ودائرة بحثه، وأن العقل يستطيع أن يهدم الدين كما يشاء دون أن يسمع القلب طرقة واحدة من طرقات معوله، وأن أولئك الملحدين الذين سخروا عقولهم الكبيرة لتفنيد الدين وهدم أصوله والشك والتشكيك في جوهره ووجوده، لم يستطيعوا لحظة واحدة أن يسكتوا صرخات القلب الحارة الصاعدة إلى ذلك الموجود الأسمى الذي بيده نفوسهم. إن عقولهم كانت ترغى وتزبد بالكلام المعقول والمنقول، وقلوبهم في معزل عن كل هذا الصخب، لا تشعر ولا تدري شيئاً عن المعركة الحامية القائمة في تلك الرؤوس. فالتوفيق بين العلم والدين ضرب من العبث. على أن اجتهاد المجتهدين في هذا السبيل لم يتعدى ذلك الجانب من الدين الخاضع بطبيعته لحكم العقل، وهو الجانب الاجتماعي المبني على الأخلاق وما يتفرع عنه من فكرة الفضيلة والرذيلة. . .

وهنا يتساءل الناس دائماً: ما الدين؟ أهو شيء مفيد للبشر في أمر حياتهم ومعاشهم؟ أم إنه طريق لحل اللغز الأكبر وسبيل للنفوذ إلى المجهول؟ـ في الواقع أن كل دين من الأديان المعروفة يتكون من هذين الوجهين. فالدين كقانون اجتماعي ينظم الغرائز ويحفظ التوازن بين الخير والشر، هو أمر متعلق بذات الإنسان، متصل إذن بعقله وعلمه. على أن عنصر (الأخلاق) في الأديان ليس كل جوهرها. فإن بعض البلاد قد استطاعت أن تجد في (الأخلاق) غنى لها عن (الأديان)؛ إنما قوة الدين وحقيقته في العقيدة والإيمان (بالذات الأزلية). هنا لا سبيل إلى الدنو من تلك (الذات) إلا عن طريق يقصر عنه العلم الإنساني، بل يقصر عنه كل علم، لأن العلم معناه الإحاطة، والذات الأبدية لا يمكن أن يحيط بها محيط، لأنها غير متناهية الوجود. فالاتصال بها عن طريق العلم المحدود مستحيل. هاهنا يبدو عمل الدين ضرورة للبشر. إني ما كتبت هذه الكلمة اليوم إلا لألفت نظر رجال الدين إلى وجوب التسامح والهدوء كلما قام باحث يتكلم في الدين عن طريق العقل، فإن الشرق اليوم مقبل على حياة علمية واسعة مهادها المعاهد والجامعات؛ ولابد لنماء ملكة العقل من التفكير الحر الطليق، كما لا بد لحياة ملكة القلب من الشعور الحار العميق. فليترك رجال الدين المفكرون يفكرون كما يشاءون، ويثرثرون كما يريدون، ويعرضون بضاعتهم الكلامية التي هي كلها بهرجهم الآدمي الأجوف، فإن كل هذا الضجيج العقلي لن يصل خبره إلى القلب الذي لا يفتر لحظة عن التسبيح رغماً عنهم بالعقيدة التي ركبت عليها حياته النابضة. . .

توفيق الحكيم

الإسلام كعامل في المدنية

للأستاذ أحمد أمين

لعل أهم تراث الإسلام وأثره في المدنية أمران: (الأول) العقيدة الإسلامية، لأني أرى أن كل ما نشأ عن الإسلام من فتح وعلم وإدارة وفن وغيرها أثر من آثارها، فالعربي قبيل الإسلام كان هو العربي بعيده، في جسمه وجوهر عقله ومعدنه، ولم يجعله يتجه إلى الفتح ويرى نفسه جديراً بأن يقف في المستوى الذي تقف فيه أرقى الأمم في عصره - وهما الفرس والروم - بل يرى نفسه أرقى منهما، وأجدر بأن يحكمهما ويوجههما وجهة خيراً من وجهتهما ويدخل التعديل على مدينتهما - إلا عقيدته؛ فهي - وحدها - الشيء الجديد في حياة العربي المسلم. لم يأت الإسلام في أول دعوته بنظريات هندسية، ولم يخترع آلات حربية، ولا فنوناً جديدة، ولا نوعاً من الإدارة جديداً، لأن هذه كلها أمور ثانوية بجانب العقيدة؛ فالعقيدة إذا صلحت أصلحت كل فاسد، ونشأ عنها كل أسباب التقدم ولو كان صاحبها فقيراً جاهلاً، حتى ولو كان في بلد جدب وأرض قفر، ولو لم ينشأ في مدنية ولو لم يرث حضارة. والعقيدة إذا فسدت أضاعت الثورة الموروثة ولم ينفع معها علم ولم يفد غنى، كلا ولا تنفع أرض خصبة ولا مدنية فخمة، ففيلة الفرس لم تثبت أمام بعير البدوي، ولا الدروع المضاعفة الرومانية استطاعت أن تصمد أمام نبال العربي وقوسه الساذجة، لأن بعير البدوي كان يحمل على ظهره قلباً مؤمناً، وفيل الفارسي كان يحمل فؤاداً هواء؛ والقوس العربية كانت تصدر عن عقيدة صحيحة قوية ملتهبة، ودروع الروماني كانت تتضمن قلباً لا عقيدة فيه، كل همه شهوة

ينالها ومتاع زائل بأمل أن يلتذ به، فإن فقد العربي حياته في القتال فلا بأس فإنما يعجل ذلك من قربه من الله، وإذا فقد الفارسي أو الروماني نفسه فيالها من خسارة، فقد حرم الخمر والنساء وحرم متع الحياة؛ فإذا قاتل العربي قدم حياته فحفظت حياته، وإذا قاتل الآخر قدم عدده وادخر حياته فخسر عدده وحياته. لم يتغير شيء في حياة العربي عند ظهور الإسلام إلا عقيدته، وكل شيء تغير غيرها فبسببها. وقد كنت أود أن أقتصر على الكلام فيها لولا أن هناك ناحية أخرى تهمنا كأثر قوي في بناء المدنية وهي (أثر الثقافة الإسلامية في المدنية)، فهي من جهة أكبر أثر للعقيدة، ومن جهة أخرى أقوى مركز ترتكز عليه المدنية. لهذا سنحصر قولنا في هاتين الناحيتين وفيهما الغناء

- العقيدة الإسلامية

كان العرب في جاهليتهم يعبدون الأصنام، قد اتخذت كل قبيلة إلهاً من صنم أو وثن، وقدمت إليه القرابين وجعلته الآمر الناهي، وهو طور تكاد تكون الأمم كلها قد مرت عليه وأن اختلفت أسماء أصنامها باختلاف بيئاتها؛ ذلك لأن في طبيعة الناس الإيمان بقوة فوق قوتهم تدفع عنهم الشر وتجلب لهم الخير، وتحي وتميت، وتخلق وتفني؛ وإذا كان العقل قاصراً ركز هذه القوة في شيء من المادة خلع عليه هذه الصفات، فأحياناً يكون صنما، وأحياناً يكون الشمس والنجوم، وأحياناً يكون شجراً، وأحياناً يكون حيواناً، وأحياناً يكون نهراً أو بحراً، فكل هذه الكوائن عبدت عند الأمم المختلفة، لأنها أحست أن في أعماق نفسها عقيدة بقوة فوق قواها. تساوت الأمم في هذا، ولكنها اختلفت في الشكل الذي تجسد فيه هذه القوة فتعبده، بحسب قوتها العقلية والخيالية ومواضعها الجغرافية وبيئتها الاجتماعية

وكانت هذه هي الحالة الساذجة للعبادة عند الأمم يعترفون بإله أو إلهة، ويشكلونها في شيء محسوس يقدمون لها صنوف التعظيم والتمجيد - فكرة حق ولكنها اتخذت مظاهر خرافية كالطفلة في غريزتها الأمومة، وفي طبيعتها الإشراف على تنظيم الحياة البيتية، فهي تتخذ لها لعباً من عرائس تجعلها أبناءها وبناتها وتمنحها عطفها، وتنفذ عليها أوامرها إجابة لداعي الغريزة الكامنة وإرهاصاً لما يكون منها بعد نموها وأحياناً يحاول أن يتخلص من المادة فيعبد أرواحاً جناً أو ملائكة أو نحو ذلك، ولكن سرعان ما ينتكس ثانية فيسبغ عليها أوصاف المادة فيجعلها ذكوراً وإناثاً، ويجعل لها أجنحة تطير بها، ويجعل لها قروناً وذيولاً لأنه لم يرق حتى يستطيع أن يتحرر من عبادة المادة بتاتاً

كذلك كان العرب بل كان أكثرهم في حالة منحطة من عبادة المادة، يعبدون الحجر لا النجوم ولا الأرواح، ويأتمرون بأمرها في زعمهم في إقامة ورحيل، وإقدام وإحجام، وزواج وطلاق

وعبادة الأصنام كائنة ما كانت - تشل حركة العقل، وتضعف قوة النفس، وتحط الحياة الاجتماعية، وتجعلها حياة خرافية وضيعة. مثل هذه العقيدة تعوق العلم، لأن العلم لا يلائمها، وتعوق التفكير الصحيح لأنه ليس من طبيعتها، وتعوق التقدم الاجتماعي لأنه أساس إطلاق الفكر من قيوده، والفكر مشلول بعبادة الأصنام

ومن أجل هذا كان أهم ما أتت به سلسلة الأنبياء محاربة هذه العقيدة، وتخليص الفكر من قيوده التي قيدته بها العقيدة في الحجر والشجر، والنجوم والبحار والأنهار؛ وكان نجاحهم في أول الأمر قليلا قليلا، لأنه لم يكن يقوى على احتمال تجريد الإله عن المادة إلا القليل من الناس، وحتى في العصور الحديثة لا تزال النزعة إلى مادية الإله تتسرب في أشكال مختلفة، مع رقي العقل البشري ونموه ونضوجه

وقد بدأت هذه الدعوة إلى التجديد في الأمم السامية من عهد إبراهيم، واستمرت بين الظهور والخفاء، وكلما تقدم الناس كانوا أكثر لها استعداداً وأقرب قبولا، حتى أتى محمد (ص) فدعا دعوته الجريئة الصريحة إلى كسر الأصنام وتحطيم الأوثان وتخليص العقيدة من كل شرك، وتجريد الله من كل مادية؛ وكان شعار عقيدته (لا إله إلا الله)، ومدار عقيدته (ليس كمثله شيء)؛ فالأصنام ليست تصلح لشيء إلا للمعاول، والنجوم هو الذي خلقها ونظم حركاتها، والبحار والأنهار هو الذي خلقها وأجرى ماءها، والملائكة هو الذي خلقهم (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون)، لا شيء يشاركه في ألوهيته من مادة أو روح - هو حقيقة واضحة معقولة في شكل - غيبت عن العقول

حقيقته، وظهرت لهم صفاته، فهو الخالق لكل هذه الظواهر، وهو الذي يسيرها، وهو غرضها الأسمى؛ هو وحدة لا تعدد بأي حال - تنزه عن المادة وتنزه عن الشريك سلك القرآن في الدعوة إلى الإيمان مسلكا خاصا، فبعد أن أبان للإنسان أن الله خالق كل شيء، وأنه رب العالمين، طلب إليه أن ينظر إلى كل شيء في العالم من صغير وكبير، فسيرى فيه مظهراً من مظاهر الألوهية، ودليلا على عظمة الله وقدرته لم ينهج القرآن منهج الفلاسفة في دوران العقل حول نفسه ليستخرج منها نظريات مجردة، ومقدمات ونتائج منطقية، إنما طلب أن تمتزج النفس بالعالم، وأن ينفذ العقل إلى رب العالم عن طريق العالم، لأن هذه الطريقة أكثر إحياء للشعور، ومبعثاً لحياة القلوب؛ والإيمان ليس يعتمد على العقل وحده، بل هو يعتمد على القلب أكثر من اعتماده على العقل. من أجل هذا طلب القرآن النظر إلى كل شيء في العالم من الذباب والنحل والعنكبوت، إلى الفيل

والجمل، إلى البحر والنهر، إلى السماء والأرض، إلى السحاب المسخر بين السماء والأرض، إلى الشمس والقمر، إلى الليل والنهار. والقرآن مملوء بالآيات التي تصل الإنسان بالعالم، وتصل العالم بالقلب، وتبعث حرارة الإيمان بالله، وتملأ القلب حياة وحماسة. وهذا هو الذي ملأ صدر الصدر الأول من المسلمين بالعقيدة، وجعلهم يبيعون أنفسهم في سبيل الله عن سخاء. وهذا بعينه هو الذي شجع المسلمين على البحث العلمي، فقد اتجهوا إلى العالم يستدلون به على خالقه فدفعهم ذلك إلى العالم يتعرفون طبيعته وقوانينه، وهذا هو العلم. لم يطلب إليهم الإسلام أن يعيشوا في صوامع يديرون طاحونة العقل على هواء، بل طلب إليهم أن يتصلوا بالعالم يدرسونه وينظرون فيه خلقه وخالقهم، فكان ذلك داعية للعلم والمدنية معاً. لم يتطلب الإسلام من صاحبه أن يعيش عيشة روحية مطلقة مجردة عن المادة، بل طلب إليه أن يمزج الحياة الروحية بالحياة المادية، وأن يعمل لدنياه كما يعمل لآخرته، وأن يتزوج ويصلي، وأن ينعم بالحياة فلا يحرم على نفسه زينة الدنيا وطيبات الرزق كما ينعم بالنظر وبالتفكير في ملكوت الله، وبعبارة أخرى لم يتطلب الإسلام من الإنسان أن يكون ملكا، وإنما طلب إليه أن يكون إنساناً كاملا، يعيش وفق ما خلق، فقد خلق جسما وروحا، فلجسمه عليه حق، ولروحه عليه حق؛ فلا عجب بعدُ أن رأينا المسلم يساهم في بناء المدنية لأنها واجبه، وفي بناء الروحية لأنها مطلبه

لم ينج الإسلام منحى العلم، يقرر القوانين جافة جامدة كما تفعل العلوم الرياضية والطبيعية، وكما تفعل الميتافيزقيا اليونانية فهذا هو العلم؛ ولكنه سلك مسلكا سماه (الحكمة) وقال: (ومن يؤتَ الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب)؛ وما الفقر بين العلم والحكمة؟ العلم هو هذا النوع من المعرفة التي تأتي من طريق الحواس وما تألف منها؛ فإذا نظمت هذه المعارف ووضعت كل طائفة منها في مجموعة سميت علماً. أما الحكمة فمزج الروح والنفس بالعالم، والعلم يغذي العقل وحده؛ أما الحكمة فتغذي العقل والمشاعر، وهذه المشاعر هي التي عبر عنها الدين بالقلب والفؤاد. إذا كان العلم ينظر إلى الإنسان فيقسمه إلى أجناس، وإلى أمم، وإلى ذكور وإناث، فالحكمة تنظر إلى الإنسانية في الإنسان وإلى الإنسانية التي من ورائها الله يسيرها وينظمها ويمنحها الوجود ويمدها بروح منه. وإذا كان العلم يقسم النبات إلى فصائل، ويميز اختصاص كل فصيلة، فالحكمة ترى في اختلاف أنواع النبات دليلا على القدرة الإلهية. وهكذا بينا في العلم تمد الطبيعة رباطا بينها وبين العقل، تمد الحكمة رباطين أولهما وأولاهما بينها وبين القلب، وثانيهما بينها وبين العقل

ومن أجل هذا عني القرآن بمظاهر الاختلاف بين القوانين الطبيعية أكثر مما عني بتقرير القوانين الطبيعية الجزئية، فهو يلفت النظر إلى الإنسان، كان نطفة ثم علقة ثم مضغة، ثم كان من المضغة عظام، ثم كسا العظام لحما، ثم كان ذلك إنسان ولفت النظر إلى اختلاف الليل والنهار، وتعاقب الشمس والقمر، واسترعى النظر إلى السحاب يسير بإذن الله، ثم يمطر ماء فتكون منه زروع وجنات يأكل منها الإنسان والأنعام، وإلى الإنسان واختلاف ألوانه واختلاف ألسنته، وإلى حركة الماء في البحار والأنهار وتلاقيهما. وهكذا عُني القرآن بهذه المناظر المتغيرة، وبهذه الحركة الدائمة لأنها أمس بالشعور وأقرب إلى الحكمة وأدل على المحرك والخالق والمدبر، فكانت بذلك مبعث إيمان صادق حار لا يفتر

وقد غفل علماء الكلام من المسلمين عن الفرق بين العلم والحكمة، وبين الفلسفة والدين. وبين منهج القرآن ومنهج اليونان، فحولوا - وعلى رأسهم المعتزلة - الدين من القلب إلى العقل البحت، وألفوا العقائد في شكل قضايا منطقية، فتحجر الدين، وانقلب جسما جامدا لا روح فيه، فخمدت حرارته، وضعفت شعلته، وقل نوره وضياؤه بهذه العقيدة التي ألممنا بها نقل الإسلام العرب من أفق خرافي ضيق كسم الخياط ينحصر في تقديس الحجر والرجوع إليه في أهم الأحداث، إلى أفق فسيح لا حد لسعته، يطالع فيه جميع المخلوقات في الأرض والسماء، ويسبح بعقله وشعوره فيها، ويمتزج بها، بل هو لا يقف عند ذلك، ويتعداه إلى إله مجرد عن المادة، ومنزه عن شبه المادة، يحكم العالم ويسيطر عليه، وينظمه ويسيره، وهو وحده لا شريك له رب العالمين

وضع الإسلام في يد العرب الذين كانوا يدينون بالأصنام معاول يكسرون بها الأصنام، وهم إذ كانوا يكسرونها حسياً كانوا يعلنون بعلمهم أنهم تحرروا من رق الخرافة، وسموا عن تقديس حجر، وارتفعوا بتفكيرهم وشعورهم إلى ما فوق المادة، واتصلوا بإله الكون يستمدون منه القوة، ونظروا من طيارة إلى من حولهم من الناس يرثون لحالهم، إذ رأوهم بائسين، كما كانوا هم بالأمس، من فرس مجوس يعبدون ناراً، وما النار إلا مخلوق ضعيف

تشبه في ضعتها الأحجار التي كانوا يعبدونها أيام جاهليتهم، ومن رومان تركوا وراءهم دينهم الصحيح وأخذوا يعبدون شهواتهم فعبدوا الخمر وعبدوا النساء وعبدوا المال وعبدوا الجاه، وما كل ذلك إلا أصنام كأصنامهم التي حطموها بالأمس، وما هي إلا ضرب آخر من ضروب النار التي يعبدها المجوس تشب بين جوانحهم. هؤلاء الفرس وهؤلاء الرومان الذين كانوا بالأمس القريب، المثل الأعلى للعرب، والذين كانوا يرون في أعماق نفوسهم أنهم أنفسهم عبيد، وأن الفرس والروم سادتهم، وأنهم سوقة والفرس والروم ملوكهم، وأنهم أذلة والفرس والروم أعزة، وأنهم فقراء وأمل الآمل منهم أن ينال من متاجرته مع الفرس والروم شيئاً من فتاتهم ومما تناثر من أيديهم؛ هؤلاء الفرس والروم أصبحوا في نظر العربي المسلم أسرى عقائد فاسدة، وأسرى شهوات وضيعة، وأن مالهم وجاههم وعدتهم وزينتهم لا تساوي شيئاً بجانب صحة عقيدتهم هم، لقد كانوا ينظرون إليهم من غواصة فيحسدونهم على استنشاق الهواء على ظهر الأرض، فأصبحوا ينظرون إليهم من طيارة عالية جداً فيرونهم حشرات حقيرة تتقاتل على متع دنيئة، ويرونهم المثل الأدنى للإنسانية. وقد كانوا المثل الأعلى، وأنهم أحق بالعطف عليهم والأخذ بيدهم، وقد كانوا من قبل يستجدونهم ويستذلون لهم ويخطبون ودهم. لم يقلب هذا الوضع عند العرب إلا العقيدة، وكفى بها ثورة: ثورة في العقل وفي القلب وفي الخلق جعلتهم كأنهم خلق آخر

هذه العقيدة بما أضاءت وبما بعثت من حكمة جعلتهم فوق العلم. أن شئت فانظر إلى عمر بن الخطاب، وأبي عبيدة، وسعد ابن أبي وقاص وأمثالهم - ماذا كانت ثقافتهم العلمية بالمعنى الذي نفهمه الآن؟ كانت لا شيء، أو كانت ضعيفة كل الضعف، فليسوا على علم واسع بقوانين الحساب والهندسة، ولا بالجغرافية، ولا بشيء من فروع العلم، ولكن أضاءت الحكمة أذهانهم وقلوبهم ففاقت العلم؛ وإلا فكيف استطاع عمر بن الخطاب - مثلاً - أن يدير هو وأعوانه مملكة الفرس والروم، وقد بلغتا في الحضارة شأواً بعيداً، يعرف أهلهما الجغرافية معرفة واسعة، ويؤسسون المملكة على نظم إدارية وحربية دقيقة، وعندهم علم وأدب وفن. لو عهد بإقليم من أقاليم الفرس والروم إلى عمر في الجاهلية لحار في إدارته وارتبك، ولساسه كما يرعى الشاه والإبل، ولكنه الإسلام وما بعث من حكمة غير نظره إلى الأشياء وجعله ينفذ ببصيرته إلى نظم الفرس والروم فيدرك منها الصالح وغير الصالح،

ويعدل في إدارتها وشؤونها الاجتماعية تعديلاً لا يستطيعه العالم الماهر الذي تنتجه، حتى حضارة اليوم. فهو يغير من نظام الضرائب، وتوزيع الأراضي، وتدوين الدواوين، ويستطيع وهو في مكة أن يرسم خطة السير لحكومة تسوس العراق ومدن الفرس، كما تسوس الشام ومدن الروم! إنها إحدى العجائب الكبرى أن يصل بدوي إلى ذلك، وعهدنا بالبدوي الهمجي يخرب ولا يعمر، وإذا غزا وانتصر فكل مطمعه في الغنيمة. فما بال عمر وأمثال عمر يدخل التحسينات على الحضارة، ويقترح فيما يزيد العمران،

ويبث في الحضارة القديمة روح العدل والإحسان؟ لا شيء غير العقيدة الإسلامية محصت نفسه، وطهرت قلبه، وجعلت نظره ينفذ إلى بواطن الأمور، يعدل على الذين لا يرون إلا الظواهر، ولا يهمهم إلا بهرجة الدنيا، والزخرف الظاهري

فإن نحن عددنا العقيدة الإسلامية - بالشرح القليل الذي شرحنا - أثمن ما قدمه الإسلام إلى المدينة لم نكن مبالغين

هذه العقيدة لا تقر بعظمة إلا عظمة الله، ولا تقر بتقديس ملك ولا بامتياز لرجال دين، ولا تعترف بوساطة أحد بين الإنسان وربه، ولا بأي نوع من أنواع الأرستقراطية: لا أرستقراطية المال ولا أرستقراطية العلم ولا أرستقراطية رجال الدين. كل الناس سواء. الناس من تراب وإلى التراب يعودون. ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى. وخير الناس أنفعهم للناس

(البقية في العدد القادم)

أحمد أمين

منذ ألف عام

للأستاذ علي عبد الرازق

يوجد بين حياة الشرق في العصر الحاضر، وبين حياته منذ ألف عام مضت، نوع من التشابه يستوقف النظر. وقد يكون في دراسة هذا التشابه واستقصاء البحث فيه لذة ومتاع للنفس؛ وقد يكون فيه مع ذلك فائدة للعلم

وما ندعي أننا نستطيع الآن أن نستوفي جوانب هذا البحث أو نلم به إلمامة واسعة، وإنما نريد أن نفتح هذا الباب للباحثين لعلهم يجدون فيه خيرا كثيرا من أنواع المتاع وفنون العلم

وفي الحق أنه يوجد دائماً نوع من التشابه بين صور هذه الحياة الدنيا ماضيها وحاضرها وقديمها وحديثها؛ ومادام الناس هم الناس في جميع العصور، ومادامت كواكب السماء تروح وتغدو في دورة منتظمة لا تبديل فيها منذ وجدت كواكب السماء، ومادامت الأرض هي بعينها الأرض في الماضي والحاضر، فمن الطبيعي أن تتشابه إلى حدِ ما صور الحياة وأن يحاكي بعض الحوادث بعضا

والذي يقارن بين أي جزء من أجزاء التاريخ وبين أي جزء آخر منه لا يعجز عن أن يتبين بينهما مظاهر من التشابه والتماثل؛ ولكن التشابه الذي يجده الناظر بين حياتنا الحاضرة وبين الحياة من ألف عام ليس هو من هذا النوع الذي يلحظ بين جميع أجزاء الحياة وجميع مظاهرها. وليس هو من القلة بحيث لا يستلفت النظر ولا يثير رغبة البحث. فالتشابه هنا ظاهر وقوي يكاد يجعلهما صورة واحدة لعصر واحد

على أنه مع ظهوره وقوته لا يبلغ أن يكون دليلا على تماثل العصرين من جميع الوجوه، ولا على اتفاق العصرين في جميع الصفات والخصائص؛ وهو لذلك لا يبلغ أن يكون دليلاً قاطعاً على صحة ما يذهب إليه بعض الباحثين من أن التاريخ يعود بنفسه

منذ عام توفي المرحوم أحمد شوقي أمير الشعراء؛ ومنذ ألف عام توفي أبو الطيب المتنبي؛ وبين الرجلين من التماثل ما يشبه أن يكون مثلاً صادقاً لرجعة التاريخ، فقد يمكن القول بأن متنبي القرن الرابع كان شوقي القرن الرابع عشر، وبأن شوقي القرن الرابع عشر كان هو متنبي القرن الرابع

دع عنك ديباجة الشعر وما بين الشاعرين في ذلك من توافق جد قريب؛ وانظر إلى ما أحاط بالرجلين من ظروف وملابسات؛ فقد كان عصر المتنبي عصراً داوياً بالشعر زاهياً بالكثير من الشعراء، ولكن شعر المتنبي قد غطى على أكثر تلك الأصوات الداوية؛ وقد غمر اسم المتنبي أكثر تلك الأسماء فكان كما قال عن نفسه:

أنا الصائح المحكي والآخر الصدى

وكذلك كان شوقي في عصر يهوى بالشعر ويزخر بالشعراء ففلج عليهم شوقي باسمه وبشعره، وجاءه الشعراء من كل صوب يبايعونه بأمارة الشعر

وقد كان المتنبي شاعراً مداحاً وكذلك كان شوقي؛ والمتنبي كان ينتقل بمدائحه من جناب إلى جناب، ومن بلد إلى بلد، وكذلك فعل شوقي

ولقد أخلص المتنبي في مديح سيف الدولة فأفاض عليه من مدائحه الخالدة خلوداً لا يبلى؛ وما كان سيف الدولة لولا المتنبي إلا ملكا كسائر الملوك

وكذلك أخلص شوقي في مديح سمو الخديو عباس الثاني، فأفاض عليه من مدائحه

الخالدة خلوداً لا يبلى، وسجل اسمه مشرقاً وضاء في سماء المجد حيث لا يلمع كثير من الأسماء الطنانة

أننا لنأسف إذ لا نجد بين أيدينا صورة مفصلة لجوانب الحياة الاجتماعية في مصر منذ ألف عام لنستطيع أن نقارن بينها وبين جوانب حياتنا الاجتماعية الحاضرة لنستخلص ما يكون بين الحياتين من تماثل قريب أو بعيد

على أن ذلك لا يمنعنا من أن ندرك ما بين الحياتين إجمالاً من تشابه قوي إلى حد بعيد يثير العجب؛ فلقد ترك المتنبي وصفا واضحا وأن كان مجملاً للحياة في مصر أيام عرفها المتنبي واتصل فيها بمعية كافور الأخشيدي. ولعمري لا يزال أكثر ما قاله المتنبي في ذلك أو كله ينطبق على حياتنا الحاضرة ويصفها وصفا صادقاً:

نامت نواظير مصر عن ثعالبها ... فقد يشمن وما تفنى العناقيد

وكم ذا بمصر من المضحكات ... ولكنه ضحك كالبكا

أنا لفي زمن ترك القبيح به ... من أكثر الناس إحسان وإجمال

ماذا لقيت من الدنيا وأعجبه ... أني بما أنا شاك منه محسود

ولما صار ود الناس خبا ... جزيت على ابتسام بابتسام

وصرت أشك فيمن أصطفيه ... لعلمي أنه بعض الأنام

الخ الخ

منذ ألف عام كانت الخلافة الإسلامية في بني العباس تشارف النهاية وتلفظ الأنفاس الأخيرة من حياتها

وكان العالم الإسلامي في جملته يضطرم ثورة، ويتأجج بالمنازعات السياسية ناراً على أن ذلك الاضطراب السياسي لم يمنع من سير الحياة الاجتماعية والعلمية في بلاد العالم الإسلامي سيراً مطرداً إلى الأمام

وعصرنا الحاضر يشهد تلك المشاهد نفسها أو قريبا منها، كما شهدها أجدادنا منذ ألف عام

ألا ليت شعري هل صحيح أن للتاريخ رجعة؟ وإذا كان ذلك حقاً فهل يرجع التاريخ كل ألف عام؟

علي عبد الرازق

مصرع الحسين

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

كان لنا، قبل الحرب، صديق معمر، من بني الفرس - أو من أجدادهم الأولين على الأصح - فقد كان عمره فوق المائة، وكنا نحاسبه فيكون تارة مائة وعشرين، وأخرى مائة وبضع سنوات، فأضحك وأقول: (يجب أن نقيد هذه الأرقام الرواغة). وأتناول القلم، وأقيم سنه على الورقة، وأنظر إليه. وأقول: (تفضل! قبل أن يغرق الطوفان الأرض كنت سعادتك سفيرا لدولتك عند بروسيا، ولما صعق موسى عند دك الجبل، كنت. . . .) فيتكلف الغضب، وينهرنا عن هذا العبث ويقول: (اختش يا ولد!)

وكان على عظم ارتفاع سنه قوي البنية، متين الأسر، وكنا نسأله عن سر ذلك، فيقول إنه لم يتزوج قط، فأضحك وأقول: (هات سبباً آخر، فإن هذا معلوم، مفهوم بالبداهة!) فيرفع عصاه الغليظة، ويلوح بها كأنما يهم بضربي، فينقلب ضحكنا قهقهة عالية مجلجلة، ويسره سرورنا فيفيء إلى الرضى

ويقول لنا أحياناً: (تعالوا نتمشى)، فنسأله: (أين؟ وإلى أين؟)، فيقول: (في طريق الجيزة)، وكان بيته في (باب الخلق)، فنخرج معه، إلى الزمالك ويقف بنا على جسره هنيهة، يحدثنا ويروي لنا أخبار القرون الأولى، أو يرتجل شعراً فكاهياً نجيزه، أو نشطر قصيدة لواحد من شعارير ذلك الزمان تشيطراً يخرج بها إلى الهزل الصريح والمجانة الشديدة، وأذكر من مطالع قصائده المرتجلة:

(قفي حدثيني عند كوبري الزمالك ... وروي غليل القلب يا أم مالك)

ثم نستأنف السير بعد أن نميل إلى طريق الجيزة، حتى نفتر ونكل، وتخذلنا أرجلنا، وهو لا يزال كما بدأ، فيسخر منا، ويوسعنا تقريعاً وتعييراً، فلا نبالي، ونقعد على الأرض من شدة التعب. ويتفق أن تمر بنا سيارة، تخطف، فيشير إليها ويقول مازحا: (خذونا، أخذكم الله!)

ولم يكن هزالا، وإنما كان يوسع لنا صدره، ويتقبلنا على علاتنا، ويأنس بنا كأنسنا به،

وكانت الدنيا كلها أصدقاء له، ولكنا نحن كنا نلازمه بعد أن نفرغ من أعمالنا، وكان بيته ناديناً وفيه تعقد حلقتنا الأدبية الخاصة، وما أكثر ما كنا نقول له: (نريد أن نأكل أرزاً فارسياً) فيمضي بنا إلى المطبخ لنساعده، فهذا يقشر بصلا، وذاك يغسل آنية، وثالث يضرم
النار وهكذا، حتى يطبخ الأرز ويغرف في الصحون، ثم نحف به - أعني الأرز - ونقبل عليه فنلتهمه
وكان لنا خيراً من الأب، وأخلص من الصديق وأوفى، وكان ربما رأى أحدنا ساهما أو واجماً، فيسأله عن سبب ما يبدو عليه، فيفتح له صدره، ويبثه ما فيه، ويقول له بشجوه، حباً كان ذلك أو هما، أو غير ذلك؛ فيشير عليه بالرأي الناضج، ويخلص له النصح، ويقوي ضعفه ويشجعه، ولا يزال به حتى تعود إليه البشاشة
وقال لنا يوماً: (خذوا) وناولنا بطاقات فيها دعوة إلى ما كان يسمى (زفة الحسين)، وما هي بزفة، وإنما هي مأتم، ولكنها هكذا كانت تدعى على ألسنة العامة، فذهبنا في الموعد المضروب إلى بيت رحيب في زقاق ضيقن فوجدنا هناك كثيرين من رجال مصر المعروفين، أجلسنا معهم، ثم دعينا إلى مائدة مثقلة بألوان الآكال الشهية، وكان الأستاذ البرقوقي إلى جانبي، فظمئ على الطعام، وأسر إلي بذلك - لا أدري لماذا - فأومأت إلى الخادم، فناوله كوباً رفعه إلى فمه، وما كاد يفعل حتى رده عنه، وقال: (بفففف!)، ذلك أنه كان سكراً مذاباً لا ماء، فعجبنا واتقينا أن نشرب
وانحدرنا إلى صحن الدار، وكان فيها منبر، ارتقى إليه شيخ فارسي، وانطلق يقول كلاماً لم نفهمه، ولكن صوته كان يتهدج وكانت الدموع تتسايل على خديه، وتبل لحيته الكثة، وقيل لنا إنه يرثي الحسين ويندب مصرعه، وكان الذين يفهمون كلامه من بني جنسه يبكون، بل ويعولون، ومنهم من كانت تهيج حرقاته فيلطم، أو يضرب صدره أو ظهره العاري بسلسلة غليظة من الحديد، أو يضرب جبينه ببطن سيف مسلول، أو بكله - أي قفاه الذي ليس بحاد - ولكن أحدهم اضطرب وهو يفعل ذلك فأصاب حد السيف جبينه فانفجر الدم كأنه من نافورة، وقد خفوا إليه، وضمدوا جرحه، وعصبوا له رأسه؛ وهال أحدنا منظر الدم، وظن أن الرجل لا محالة هالك، فأغمي عليه، وسقط على الأرض كما تسقط الخشبة، فأنشقوه شيئاً في زجاجة أنعشه ورد إليه روحه ولا أحتاج أن أقول شيئاً في وصف الموكب الذي يخرجون به ويطوفون بالشوارع وهم يدقون صدورهم العارية أو يضربونها بالسلاسل، أو يخبطون وجوههم أو عواتقهم ببطون السيوف، فإن ذلك كله معروف مألوف، وإن كان قد انقطع، والأكثر من الناس قد رآه في
زمانه، ولكني أقول إني بعد بضعة أيام من شهود هذه (الزفة) وقعت على مقال في مجلة إنجليزية لكاتب إنجليزي أو ألماني - لا أذكر، فإن العهد بها بعيد، وقد فقدتها على الرغم من حرصي علبيها وتحفظي بها - وفي هذا المقال يذهب الكاتب - والأرجح أنه ألماني - إلى أن الحسين بن علي رضي الله عنهما، تعمد أن يضحي بنفسه؛ وأذكر أنه قال إن الحسين لم يكن أبله، فقد حاول أمراً عرف مبلغ استحالته، ومع ذلك أصر على الزحف، وليس معه إلا النساء والأطفال وحفنة صغيرة من الرجال، مضى بهم وبنفسه معهم إلى بوار محقق
وقد دارت في نفسي هذه المقالة، فذهبت بها إلى صديقنا الفارسي، فقد كان عالما واسع الاطلاع، غزيرة المعرفة، وترجمتها له، وسألته عن رأيه فيها، فلم يتردد في الموافقة عليها. وقد فكرت بعد ذلك في أمر الحسين وفي مغامرته العجيبة، فلم يزدني ذلك إلا اقتناعاً برأي هذا المستشرق الألماني، وبغير ذلك لا أدري كيف يستطيع المرء أن يفسر إقدامه على طلب الخلافة وسعيه لانتزاعها من بني أمية، فقد عرض نفسه على كثير من القبائل فما وجد منها إلا إعراضاً وانصرافاً، أو على الأقل فتور شديدا عن نصرته، ومن حقه أن يثبط، وليس من شأنه أن يشجع؛ ولم يكن حوله من الرجال من يطمع أن يديل بهم من بني أمية، وحمل معه النساء حتى لكن أكثر من الرجال، ولم تصده عن السير خيبة مساعيه عند القبائل، ووضوح خذلانها له؛ والتقى برجال بني أمية فعرضوا عليه ما لا يمكن أن يحلم بالفوز به بمجهوده، فأباه وأصر على المغامرة، فوقعت الواقعة، وكانت هذه المجزرة الخالدة التي لا يزال أثرها باقياً إلى اليوم

ولم يكن الحسين مجنوناً، ولا طياشاً، ولا عرف عنه ما يحمل على سوء الظن بعقله ونظره، فكيف هم بأمر كان من استحالته على يقين جازم؟؟ وهبه كان مخدوعا في أول الأمر فقد رأىّ من الإعراض عنه والخذلان له، والزهد في الانتفاض على بني أمية، والخوف من بطشهم وانتقامهم، ما يدفع إلى اليأس ويغري بالقعود؛ ولا يمكن أن يقال إنه كان يرجو فلاحا، فما كان معه في زحفه إلا النساء وإلا عشرات لا تغني، ولا يعقل أن تصبر على قتال دولة ذات بأس وصولة، وما رأى أحدا استجاب لدعوته، أو أبدى استعدادا للحاق به، حتى يقال إنه كان ينتظر نجدة ومددا، وهؤلاء النسوة من آل بيته لم أصر على

حملهن معه وزحفه بهن، وقد كان خليقاً بعد أن رأى كيف خذلته القبائل أن يشفق عليهن ويردهن ليقيهن أن يصرن إلى ما هو صائر إليه لا محالة، ألا يعذر من يذهب إلى أن استصحابه لهن إلى المذبحة، إنما كان مقصودا به أن يحف المصرع الذي مضى إليه عامدا بكل عوامل الاستفزاز وعناصر الإيلام المثير؟؟ لقد ألقى بهن معه على القتل أو الإذلال والتحقير والهوان، وهن آل بيت الرسول صاحب هذا الدين، فلولا أنه تعمد أن يضحي بهن معه ليقيم القيامة على بني أمية، لكان أيسر التفكير كافياً لحمله على إقصائهن عما سعى إليه ووطن نفسه عليه، ولكنه نظر فرأى أن استرداد الدولة من بني أمية مطلب لا سبيل إليه ولا مطمع فيه، فيئس من إمكان ذلك بالوسائل المألوفة، فقال أنسف الدولة الأموية من قواعدها، وأكون أنا اللغم الذي ينفجر تحتها، فيزلزلها ويدك بنيانها، ويطير أنقاضها، ويجعل عاليها سافلها؛ ولابد لذلك من أن تكون التضحية تامة، وعلى أبشع صورة من الصور، وأرغم بني أمية على أن يقتلوني أقبح القتل، وأن يمثلوا وينكلوا بي وبأهلي أشنع التمثيل والتنكيل؛ فيستفظع المسلمون منهم ذلك - على قرب العهد بالرسول - وتضطرم نفوسهم بالموجدة والنقمة عليهم، وينقلب العالم الإسلامي بركاناً يظل يفور ويغلي في جوفه الحقد والبغض، ثم ينفجر، فلا يبق ولا يذر؛ وإني لميت ميت، طال الأجل أم قصر، ولخير من أن أموت حتف أنفي، أن أجعل ميتتي تكلف بني أمية ملكهم كله ودولتهم أجمعها؛ ولقد خرج الأمر من أيدينا وصرنا رعية لبني أمية، فإذا رضينا وقنعنا من الحياة بالطعام والشراب، وقعدنا ننتظر الأجل في أوانه، ثبتت الدولة ورسخت قواعدها. وإني لأعلم أنه ليس لي حول ولا قوة، ولكن في وسعي أن أملأ نفوس المسلمين قيحاً وصديدا من كره بني أمية، إذا بذلت دمي، وما دمي؟ وهو سيجمد في عروقي يوما ما، فأولى أن يخضب الأرض فلا تلبث أن تنقلب جحيما عليهم؛ وما خير أن أكون سبط الرسول إذا أنا لم أرج الدنيا بذلك؟ وإن الأمر لراجع إلينا لا محالة إذا أنا جعلت من نفسي ومن أهلي ضحايا لبني أمية، ويجب أن يكون قتلنا استشهادا مروعا لتكون الدية هذه الدولة كلها

لهذا أصر على المغامرة، وهو على يقين من نهايتها، وأعرض عن ذكر العواقب التي كان يعرفها معرفتها، ولم يكترث بخذلان من دعاهم إلى نصرته، بل اغتبط بذلك، وحمل أهل بيته معه. ليحيق بهن كل مكروه من الأذى والهوان، وليكون ما يصيبهن أبلغ في إشعار

العرب هول الفجيعة، وأبى أن يجعل أذنه إلى الذين أشفقوا عليه أو سعوا عنده ليترضوه ويحملوه على العدول، أو وعدوه ما شاء غير الخلافة؛ ولم يكن يخفى عليه أنه يعاند ويكابر ويتحدى الأقدار، ولكنه كان يدرك أن هول المصرع الذي يسير إليه مصمما عليه سيطوي كل ذكر لما عداه، فلا يبقي إلا أن بني أمية قتلوا سبط الرسول وآله، ومثلوا بهم أقبح التمثيل. وكان يعرف أن بني أمية لابد أن يعدلوا عن محاسنته إلى المخاشنة لشدة ما يرون من عناده وصلابته، إذ كان لا يسعهم أن يتركوه يحرض الناس على الخروج عليهم، بلا كابح، وقد عرضوا عليه كل ما دون الخلافة فازدراه، فلم يبق مفر من رده بالقوة، كما شاء هو؛ وكان هو يعول في سياسته هذه على إحراجهم وإكراههم على البطش به، ويعتمد على ما تدفعهم إليه لجاجته في استفزازه لهم، فتطيش حلومهم، فتكون الطامة عليهم بعد أن تدور الدائرة عليه. وقد جرى كل شيء على ما قدر ورسم، وحدث ما كان ينشد، فأسرف الأمويون في القتل والتمثيل والتنكيل، كما كان يتوقع، وصدقت فراسته القوية في رجال الدولة على عهده، ولم يخب له ظن أو رأي فيهم، فريعت الدنيا، وهالها الأمر على ما كان قدر، وصارت كل قطرة من دمه، وحرف من اسمه، وهاتف من ذكراه، لغما في أساس الدولة الأموية

وقد ذهبت الدولة الأموية في سبيل من غبر، وجاءت بعدها دول أخرى لحقت بها، ومضى أربع وخمسون وثلثمائة وألف سنة، ولا تزال لذكرى مصرع الحسين هزتها الأولى في كثير من البلاد الإسلامية؛ ومأتمه يقام كل عام في كربلاء كأنما هو لم يقتل إلا الساعة؛ ويموت الشيعي في بغداد أو سواها فيحمل منها إلى النجف ليدفن هناك.

وأحب آل البيت إلى النفوس وأعزهم عليها هو الحسين، ولا تزال العيون تغرورق بالدمع، والقلوب تخفق، والصدور تعلو وتهبط لحكاية هذا المصرع. فمن كان يصدق أن الحسين فعلها عن طيش أو سوء تقدير، أو تورط، فإني لا أصدق إلا أنه أقدم عليها متعمدا لها. ولو أن ميتاً استطاع أن يضحك ساخراً لضحك الحسين ورأسه بين أيدي قتلته البلهاء

ولست أعرف ميتة أخرى أبلغ أثراً في حياة الناس، ومستقبل الدول والأمم، ولا أطول منها - مع عمق الأثر - عمر ذكرى

إبراهيم عبد القادر المازني

صور من التاريخ الإسلامي

أم المؤمنين خديجة بنت خويلد

للأستاذ عبد الحميد العبادي

كم يود صاحب هذا المقال لو كان شاعرا وثاب الخيال، مطلق العاطفة، جزل الألفاظ، سري المعاني! إذاً لاستطاع أن يصوغ للقراء من سيرة أم المؤمنين خديجة بنت خويلد قصيدة عصماء يضمنها مناقب تلك السيدة الجليلة، وما مناقبها إلا مناقب المرأة الكاملة من جمال، وطهر، وعفاف، وزوجية بارة، وأمومة صحيحة، ومواساة في أشرف معانيها

ولكن صاحب هذا المقال، وا أسفاه! ليس شيئاً من ذلك الشاعر الذي يتمنى أن يكونه. إن هو إلا مؤرخ يعرض لوقائع الحياة العامة من ناحيتها الوضيعة جهد طاقته، ويشد خياله الراكد إلى تلك الواقع، فلا يأذن له ولا بمحاولة التطاير والتحليق، ويكتم عاطفته حتى لا يطغي عليه سلطانها فيتنكب سبيل المؤرخ الذي همه البحث والتحقيق، ثم العرض البسيط للأشياء؛ فليقنع القارئ الكريم بالصورة المجملة التي أرسمها في هذا المقال، حتى يتأذن الله بظهور شاعر عظيم ينظم الإلياذة العربية، فيطالع فيها إذ ذاك فصلا عن تلك السيدة يكون من أبلغ ما خطه يراع شاعر وأروعه

كانت جزيرة العرب في القرن السادس الميلادي قد أخذت تتهيأ للأحداث الجسام التي تمخض عنها القرن السابع، وقد بدا ذلك التهيؤ في جميع مناحي الحياة العربية العامة، سياسية كانت أم اقتصادية أم اجتماعية. ونحن إنما تهمنا في هذا المقام الناحية الاجتماعية، ويهمنا منها بصفة خاصة نظام الأسرة. كان نظام الأسرة قد أخذ يتحول في حواضر الحجاز عامة ومكة خاصة إلى النحو الذي أقره في جملته الإسلام فيما بعد، فأخذت تتلاشى ضروب الازدواج القديمة التي اعتبرها الإسلام سفاحا، ويحل محلها نظام الزواج القائم على التراضي والتعاقد. وصاحب هذا التطور الخطير في بناء الأسرة تطور خطير مثله في مكانة المرأة الاجتماعية؛ فبعد أن كانت المرأة العربية ليس لها حق التمسك ولا حق الإرث، بل بعد أن كانت هي نفسها تملك وتورث في بعض الحالات، أصبحت تستمتع بحق الملكية وحق الميراث وحق التصرف في مالها، وحق مفارقة الزوج عند اللزوم، هذه الحرية المستحدثة جعلت المرأة العربية عاملا فعالا في الحياة المكية العامة قبيل الإسلام

وفي عصر النبوة

ولدت خديجة بمكة حوالي منتصف القرن السادس المذكور، وهي خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وكان خويلد ممن قاد قريشا في حرب الفجار، ثم هي ابنة فاطمة بنت زائدة بن الأصم من بني عامر بن لؤي، ولا نعرف عن فاطمة شيئا، غير أن الذهبي يقول في جدها عمرو بن خنثر المزني أنه كان من أبطال الجاهلية. فنسب خديجة خديجة لأبيها وأمها يدل على أنها تنتمي إلى بيت من أعز بيوت قريش هو بيت عبد العزى ابن قصي، وإلى قبيلة من أعز قبائل مضر هي عامر بن لؤي؛ واكتنف عمود هذا النسب الجليل فروع وحواش زاهية زاهرة، نعد منها عم خديجة عمرو بن أسد وكان سيدا من سادات قريش، وأبناء عمومتها حكيم بن حزام، وورقة بن نوفل وأخته قتيلة بنت نوفل، فأما حكيم فكان صاحب مروءة وعاطفة طيبة تتجلى

في صنيعه لبني هاشم والمطلب عندما حصرتهم قريش في الشعب، وأما ورقة بن نوفل فكان معدودا في تلك العصبة المستنيرة التي يعرف آحادها باسم (المتحنفين) قد ترك الوثنية، وتنصر وقرأ التوراة والإنجيل، وكتب العبرانية، وشاركته أخته قتيلة في ميوله الأدبية والدينية، فكانت (ممن ينظر في الكتب) على حد تعبير القدماء؛ ومن هذه الفروع أخو خديجة العوام بن خويلد، وكان من رجالات قريش، وهو والد الزبير بن العوام حواري رسول الله

فخديجة من أوسط قريش نسباً، كما يقول مؤرخو العرب، وإذا جاز للمؤرخ أن يلحظ عمل الوراثة في هذا المقام، فإنا نقول أنها ورثت عن أبويها مزايا السؤدد العربي، من نبل وكرم خلق ووفاء وشجاعة؛ كما لقفت من عمومتها تلك الاستنارة العقلية، وذلك السمو الروحاني الذي أعدها لتقدير الدعوة الإسلامية وقبولها عن طيب نفس وطواعية خاطر

تزوجت خديجة مرتين في مقتبل حياتها وقبل تزوجها من محمد بن عبد الله. تزوجت للمرة الأولى من عتيق بن عائذ بن عبد الله بن مخزوم، ثم مات عنها عتيق فتزوجت بعده أبا هالة هند بن زرارة التميمي. ثم توفى أبو هالة فغدت أيما. وقد ورثت على ما يظهر عن أبويها وزوجيها ميراثاً قيما رأت أن تقوم على استغلاله في التجارة التي كانت مرتزق قريش في ذلك الزمان. فكانت كما يحدثنا الرواة تستأجر الرجال في الاتجار بمالها لقاء نصيب تسهمه لهم من الربح

لكن خديجة الحسيبة النسيبة، الثرية الوسيمة، لم تزل بعد نصفاً في النساء، عوانا بين الشباب والكهولة، قد شارفت الأربعين ولما تعدها، وهي سن لها عند بعض النساء جمال وروعة، وملاحة وأخذة، وكان غير واحد من كبار قريش حريصاً على خطبتها، ولكن خديجة كانت تتأبى على الخطاب، لا رغبة منها في العزوبة، فهي أعمر قلباً وأنظر شباباً من أن ترغب فيها، ولكن لأن الأيدي التي كانت تمتد لخطبتها ليست من الطراز الذي يعجبها. لقد نضج عقلها، وكبر قلبها، وأصبح كل منهما ينشد الكفء والمثيل، ومن لها بالعقل الراجح، والقلب الكبير في مجتمع خشن، كثيف، غليظ؟ أصبحت لا يروقها ذلك السؤدد العربي الجاهلي بما ينطوي عليه في واقع الأمر من بداوة وأعرابية، لا يمكن أن تفيء منهما إلى ظل ظليل

وبينا خديجة تروض النفس على احتمال الحياة الجديدة إذا بقلبها قد أخذت تنطبع عليه شيئاً فشيئاً صورة نجم شارق في أفق المجتمع المكي، ويوشك أن يتكشف عن كوكب وقاد يملأ الكون نوراً هادياً. وحرارة تبعث فيه الحياة قوية بعد أن لم يبق منها إلا الذماء ولقد كانت تلك الصورة منتزعة من الحقيقة لا من الوهم ولا الخيال. أنها كانت صورة فتى لا يزال مغمورا، ولكن كل مخايله كانت تؤذن في نظر خديجة بأنه سوف يأخذ بزمام العالم ويوجهه وجهة جديدة. ذلك الفتى محمد بن عبد الله

كان محمد إذ ذاك شاباً قد ناهز الخامسة والعشرين من عمره، سوي الخلقة، مشرق الطلعة، نبيل المظهر، كريم المخبر، وكان يحيا حياة لعله لم يكن يحياها بمكة أحد غيره. كان زاهداً في الناس، عزوفاً عنهم، إلا ما اقتضته ضرورة المعايشة والمساكنة، نزوعاً إلى التفكير، محباً للعزلة، قادعاً للشهوة رداعاً للنفس، فأوشك بذلك أن يستغني بنفسه عن غيره. وغدا أنسه في وحشته وانبساطه في انقباضه، وغناه في إقلاله. قد حد ما بينه وبين الناس بحد واضح المعالم. ثم لم يأذن لعلاقته بهم أن تتجاوز هذا الحد فتنغص عليه نعمة بالهن وتفسد عليه هدوء سر به

لقد كان قلب خديجة يخفق خفقاناً شديداً ما كانت تلمح هذا الفتى العجيب، يروح لطيته ويغدو في طرق مكة وأسواقها وأنديتها، وأدركت من فورها أنه حاجة قلبها ومهوى فؤادها. ولكن كيف تفضي إليه بدخيلة نفسها، وتبثه لاعج حبها؟ إن الحسب، والنسب، والخفر

والحياء، كل ذلك كان يمنعها أن تكون هي التي تخطو في الأمر الخطوة الأولى وتقول فيه الكلمة الأولى. لقد كان الموقف دقيقا كل الدقة، حرجا كل الحرج. فلتسر في الأمر بحذر واحتياط محافظة على نسبها وحسبها، وتوفيرا لخفرها وقنية لحيائها إنها كانت تستأجر الرجال في الاتجار لها بمالها وتساهمهم بنصيب مسمى من الربح، فلم لا تستأجر محمداً وتضاعف له الجعل الذي كانت تجعله لغيره؟ وأنشأت من فورها تجيب عن هذا السؤال؛ فوسطت إلى محمد من عرض عليه رغباتها. فقبل محمد ما

عرض عليه، وسافر إلى الشام في صيف عام 594 متجراً في مال السيدة، وسافر معه ميسرة غلام خديجة ليرقبه عن كثب وينهي إلى السيدة عند عودته جملة حاله في السفر، فتلم بجملة حاله في السفر والحضر. وباع محمد، واشترى، ولقي الرهبان ببادية الشام، وتحدث إليهم، وتحدثوا إليه، ثم عاد وقد ربحت التجارة ربحاً وفيراً، وقص ميسرة على السيدة ما رأى من محمد في السفر من رقة الشمائل، وسهولة الخلق، وصدق المعاملة؛ فعلمت السيدة عند ذلك أن قلبها لم يكذبها؛ فقطعت تردد؛ وأجمعت أن تخطو هي الخطوة الأولى وتقول هي الكلمة الأولى. وكانت لها صديقة تثق بها اسمها نفيسة بنت منبه، فدستها إلى محمد لتلوح له بالأمر وتعلم رأيه فيه:

نفيسة - يا محمد! ما يمنعك أن تزوج؟

محمد - ما بيدي ما أتزوج به!

نفيسة - فإن كفيت ودعيت إلى الجمال، والمال، والشرف، والكفاءة، ألا تجيب؟

محمد - فمن هي؟

نفيسة - خديجة!

محمد - وكيف لي بذلك؟

نفيسة - علي!

محمد - فأنا أفعل!

لاشك أن محمداً لم يقل مقالته الأخيرة إلا بعد أن أصبح يشعر نحو السيدة خديجة بمثل شعورها نحوه، وبعد أن أصبح يبادلها عطفا بعطف، وتقديراً بتقدير. نعم أنها أسن منه، ولكن ذلك ليس شيئاً بالقياس إلى محاسنها وفضائلها الكثيرة التي جعلته يرى فيها رغيبة نفسه وطلبة قلبه، وعرض محمد الأمر على عمومته كما عرضته خديجة عمها، فكل وافق، وبنى محمد بها بعد أن أصدقها عشرين بكرة كما يروون

كان هذا الزواج لمحمد وخديجة فاتحة حياة زوجية هادئة وادعة هنيئة، كأهدأ ما تكون حياة زوجية وأروعها وأهنئها ولم لا تكون كذلك؟ وكانت تقوم على الكثير المتبادل من الحب والإخلاص والتقدير. كانت خديجة تقدر في محمد كرم الخلق ورقة القلب، وروحانية النفس، وكان هو يقدر فيها رجاحة العقل وكثرة العطف عليه، والإعجاب به، والتوفير لأسباب راحته في منزله، ومطابقته فيما يحب وما لا يحب، ولا تنس أن محمداً لم يكن كسائر الرجال يعيش كيفما اتفق، فهو رجل كثير العناية بأمر نفسه، ليس كل الطعام يطعم، ولا كل الشراب يشرب، ولا كل الملبس يلبس، ولا بكل الزينة يزدان، ثم هو ميال بطبعه إلى العزلة، مؤثر للصمت، مطيل للفكر، فعلى جليسه وعشيره أن يعرف فيه كل ذلك ويرعاه له، وقد عرفت خديجة ذلك ورعته له أتم رعاية؛ فلاشك أنها كانت تعد له ما يستطيبه من الدباء والعسل، والتمر المنقوع في اللبن أو المخلوط بالقثاء أحياناً، ولاشك أنها كانت تقل في طعامه من البصل والثوم اللذين كانت تعاف كثرتهما نفسه، كما كانت تعنى بنظافة ثيابه وأدوات طيبه وأدهانه، فقد كان محمد يحب أن يبرز للناس عطر الجسم، نظيف الملبس، ولاشك أنها كانت توفر له الهدوء في المنزل، وإذا جنح إلى الخلوة أو التحنث في الغار لم تقطع عليه سكونه؛ بل أعانته على ذلك بإعداد الزاد الذي يحتاج إليه، فإذا طالت غيبته افتقدته في غير إزعاج له، ولا تكدير لصفو نفسه

وكما كانت خديجة مثال الزوجة الحفية بزوجها، فإنها كانت مثال الأم المعنية بأولادها. لقد رزق محمد منها كل أولاده غير إبراهيم. رزق منها القاسم وبه كان يكنى، ثم ولدت له زينب ورقية، وفاطمة وأم كلثوم، وكل هؤلاء ولدوا قبل النبوة، ثم ولد له في الإسلام عبد الله الذي عرف بالطيب والطاهر، وقد مات الغلامان صغيرين، أما البنات فكلهن أدركن الأسلم وتزوجن وهاجرن، وقد انضم إلى هؤلاء علي بن أبي طالب، ضمه النبي إلى أولاده تخفيفاً عن عمه أبي طالب الذي كان فقيراً كثير العيال، وليس بأيدينا مع الأسف نصوص نعرف منها كيف كانت خديجة تعول أولادها وتنشئهم؛ غير أن ما ورد من الأخبار على قلته لا يخلو من الفائدة فيما نحن بصدده. روى ابن سعد عن الواقدي قال: (وكانت سلمى

مولاة صفية بنت عبد المطلب تقبل خديجة في ولادها، وكانت تعق عن كل غلام بشاتين، وعن الجارية بشاة، وكان بين كل ولدين لها سنة، وكانت تسترضع لهم، وتعد

ذلك قبل ولادها)، وكما كانت خديجة تعنى بولادة أولادها، ورضاعتهم، وتنشئتهم، فقد كانت تتخير الأزواج لبناتها، فهي التي أشارت على النبي بأن يزوج أبو العاص بن الربيع من بنتها زينب؛ فلما زفت إليه أهدتها خديجة قلادة كان لها شأن بعد سيرد ذكره. ثم إن كل من أصهر إلى محمد سعد بزواجه، فأبو العاص بن الربيع أبى أن يفارق زينب عندما أرادت قريش حمله على طلاقها نكاية في محمد مع أن سعداً لم يكن قد أسلم بعد، وقد تزوج عثمان بن عفان رقية، فلما توفيت ورآه النبي حزيناً مهموماً لهفان زوجه أختها أم كلثوم، وكانت فاطمة عند زوجها علي بن أبي طالب بالمحل الرفيع، والمكان الممتاز

لكن فضل خديجة الأكبر، وفخرها الخالد خلود الزمن؛ إنما هو في موقفها من زوجها عندما نبئ، ومن الدعوة الإسلامية التي أخذ يدعو إليها، بعد خمس عشرة سنة من زواجه منها

لقد أصبح محمد بعد تزوجه من خديجة هادئ السرب، ناعم البال، وأصبح له منزل وأهل يسكن إليهما فانصرف إلى ما كانت تصبو إليه نفسه من الخلوة وإطالة الفكر، فكانت خديجة تعينه على ذلك دون أن ترى في مسلكه بأساً. فلما فجئ الوحي محمداً، وأصابه أول الأمر من الذهول والحيرة، ورجع إلى منزله رعباً حائراً وقال لها: (لقد خشيت أن يكون بي جنن!) لم يكن منها إلا أن تثبت فؤاده، وسكنت خاطره بمقالتها المشهورة (والله لا يخزيك الله أبداً، أنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. الخ) ثم إنها انطلقت من فورها إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، وقصت عليه خبر زوجها، فبشرها ورقة بأن الذي رآه محمد إنما هو الناموس الأكبر الذي نزل على عيسى وموسى، وقد أثلجت تلك المقالة فؤادها وغدت من ذلك الوقت مؤمنة بدعوة زوجها، فكان بذلك أول من صدقه وآمن به، روى الطبري بإسناده إلى عفيف الكندي أنه قال: (كنت امرأ تاجراً، فقدمت أيام الحج، فأتيت العباس، فبينا نحن عنده إذ خرج رجل يصلي؛ فقام تجاه الكعبة، ثم خرجت امرأة فقامت معه تصلي، وخرج غلام فقام يصلي معه. فقلت: يا عباس ما هذا الدين؟ قال: هذا محمد بن عبد الله يزعم أن الله أرسله به، وأن كنوز كسرى وقيصر ستفتح عليه، وهذه امرأته خديجة بنت خويلد آمنت به، وهذا الغلام ابن عمه علي بن أبي طالب آمن به. قال عفيف: فليتني كنت آمنت يومئذ، فكنت أكون ثالثاً.)

ولم يزداد إيمان خديجة مع الزمن إلا رسوخاً، ولا يقينها إلا قوة، ولا تعلقها بزوجها إلا شدة، فكانت في السنوات العشر الأولى للبعثة، وهي السنوات التي توالت فيها الأرزاء والمحن على محمد وأصحابه، واضطهدت فيها الدعوة أيما اضطهاد، كانت خديجة في تلك السنوات إلى جانب زوجها تريش بتأييدها جناحه، وتأسو بعطفها جراحه، روى ابن الأثير بإسناده فقال: (وكانت خديجة أول من آمن بالله ورسوله، وصدق بما جاء به، فخفف الله بذلك عن رسوله، لا يسمع شيئاً يكرهه من رد عليه وتكذيب له فيحزنه إلا فرج الله عنه بها، إذا رجع إليها تثبته، وتخفف عنه وتصدقه، وتهون عليه أمر الناس) ولم تتردد خديجة عندما جد الجد، أن تشرك زوجها في محنته، وتقاسمه مر العيش كما قاسمته حلوه، وتعمل لنصرة دعوته، صابرة محتسبة. فعندما اشتدت قريش على بني هاشم والمطلب وحصرتهم في الشعب ومنعتهم حتى الماء والزاد، كانت خديجة في الشعب تقاسي ما يقاسيه زوجها وأقرباؤه على كبر سنها واضمحلال بنيتها. فلما فاءت قريش إلى صوابها وخلت سبيل أولئك المجاهدين المجهودين، كان طول الحصار قد أضر بخديجة واخترم المرض جثمانها فلم تعش إلا قليلاً، وقضت لعشر خلون من رمضان من العام العاشر للبعثة، بالغة من العمر خمسة وستين عاماً، وقد دفنها الرسول بالحجون، وسوى عليها التراب بعد أن نزل قبرها وألقى عليها النظرة الأخيرة وقضى الله أن يفقد الرسول بعد خديجة وفي نفس العام عمه أبا طالب، وهو الذي كان ينافح دونه ويتولى حمايته من عدوان أعدائه. فاجتمع على محمد في وقت واحد خطبان فادحان، ورزآن بالغان، ولكن لاشك في أن داخل رزئيه كان الأفدح، وباطن جرحيه كان الأدمى؛ لقد تهدم صرح سعادته المنزلية، وغدت الحياة مشغلة له في الداخل والخارج، على كثرة ما أعطاه الله في الداخل والخارج

كان محمد أكبر من أن ينسى لمحسن إحسانه، وأكرم من ألا يفي لحبيب صدقه الحب،

وأصفاه الود ولو باعدت بينه وبينه أطباق الثرى، وكذلك كان شأنه مع خديجة بنت خويلد، لقد وفى لها في حالي الحياة والموت، أحبها ولم يتزوج عليها في حياتها، فلما لحقت بربها لم تبرح صورتها خاطره، ولا فارق تذكرها لسانه، وهم يروون في ثنائه عليها ودوام تذكره
لها أخباراً كثيرة. يرون أنه فضلها هي ومريم بنت عمران على نساء العالمين، وأنه بشرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب، وأنه عندما أرسلت إليه أبنته زينب بقلادة قلدته إياها خديجة، لتفتدي بها زوجها أبو العاص بن الربيع وكان قد أسر ببدر، رق النبي لذلك رقة شديدة، وطلب إلى أصحابه أن يطلقوا لزينب أسيرها ومالها ففعلوا، وأنه كان إذا ذبح شاة تتبع صديقات خديجة يهدي إليهن منها، وأنه كان لا يكاد يخرج من منزله حتى يذكر خديجة ويثني عليها، والحق أن دوام تذكره لها هاج غيرة عائشة وهي بعد آثر نساءه لديه، وأجملهن، وأصغرهن سناً. روى ابن الأثير بإسناده إلى عائشة أنها قالت: (كان رسول الله (ص) لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها. فذكرها يوماً من الأيام، فأدركتني الغيرة، فقلت: هل كانت إلا عجوزاً فقد أبدلك الله خيراً منها. فغضب حتى أهتز مقدم شعره من الغضب، ثم قال: لا والله ما أبدلني الله خيراً منها، آمنت إذ كفر الناس، وصدقتني وكذبني الناس، وواستني في مالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها أولاداً إذ حرمني أولاد النساء، قالت عائشة: فقلت في نفسي لا أذكرها بسيئة أبداً)
تلك بالاختصار سيرة أول امرأة مسلمة، وخير امرأة مسلمة يعرف فيها القارئ المثل الأعلى للمرأة زوجة، وأما، وعونا على جلائل الأمور في غير خروج على طبيعة الجنس ومواضعات الناس منذ صار الإنسان إنسانا.

عبد الحميد العبادي

عقبة على شاطئ المحيط

للدكتور عبد الوهاب عزام

- 1 -

من القوم أوغلوا في البيداء، يجوبون سيناء، قد أغذوا السير، وأقلوا المير؟
من القوم تسبح بهم الجمال، في لجج الرمال وتغوص منهم الأشباح والظلال، في غمرات الآل. تسيل بهم الهضاب إلى الوهاد وتفيض بهم الوهاد إلى الهضاب، لا يألون تأويباً وإدلاجا، ولا يشكون نصباً ولا كلالا؟
من القوم ترمي عزائمهم الغايات، وتطوي هممهم السبل، سيان عندهم البعيد والقريب، والعسير واليسير؟
من القوم تضيء بالإيمان قلوبهم، وتقر على اليقين نفوسهم، حداهم القرآن، وغناؤهم الأذان، رحالهم معابد، ومنازلهم مساجد، قد شروا الله أنفسهم، وأرخصوا في مرضاته أرواحهم، ورضوا بما قسم لهم. وقد سايروا الشمس مغربين، لا تصدهم الأهوال، ولا تستردهم الأوطان، كأنهم نجوم في حبك الأرض تسير بقدر إلى قدر؟
العرب المسلمون يقودهم عمرو، يتوجهون تلقاء مصر. رموا الباطل في جانب وسددوا إلى جانب، وصرعوه في ميدان وهرعوا إلى ميدان؛ وهدموا سلطان الروم والشام وصمدوا لسلطان الروم في مصر وأفريقية
بالأمس زحموا الصرح فانهار، ونفخوا زخرف قيصر فطار، وأشاروا إلى الصنم فسجد، وخلى جبروته إلى الأبد. وضعوا سلطان هرقل ورفعوا سلطان الله، وأقاموا الحرية في مصارع العبودية، وشادوا العدل على مقاتل الجور
واليوم يتبعون الباطل المهزوم، ويشرون الزور المذود. إنهم يؤمون مصر. ومصر أكرم على الله من أن تكون مباءة الباطل ومثوى الجبروت. إنهم يسرعون إلى مصر. فعفاء على الروم وسلطانهم، وويل للباطل يدمغه الحق، والظلم يصمد له العدل، والاستعباد تثور به الحرية، ويل للروم يسير إليهم العرب

- 2 -

أترى المائج، واللج الهائج؟ أترى السفن على الثبج راجفة، والجموع فوقها واجفة؟ أترى الموج يتلاطم، والسفين يتصادم، والجيوش ملتحمة، والخناجر والسيف مختصمة؟
أترى جنداً يلوذون من حر الضراب إلى برد الماء، ومن ذل الإسار إلى عار الفرار، وجنداً ثبته اليقين فثبت، وآثر الموت على العار فظفر؟

واعجبا! قد أصبح فرسان الصحراء أبطال الدأماء، وصار حداة الإبل أمراء السفن، جاوزوا الكثبان البيض إلى اللجج الخضر، فاتخذوا السفين جياداً والبحر مراداً. وهل الإبل إلا سفن الصحراء، وهل السفن إلا أفراس الماء؟ فما استبدل هؤلاء إلا سفينة بسفينة وفرساً بفرس

وإنها، على ذلك، لإحدى العبر: أبناء البادية ينازلون الروم في الأساطيل. معاوية وابن أبي سرح يقاتلان قسطنطين ابن هرقل، وقد جاءهم في ستمائة سفينة تحمل جند الروم وتاريخ الروم، وثارات الروم. وأعجب العجب أن يغلب الأسطول الرضيع الأسطول المكتهل، أن يغلب ابن أبي سفيان ابن هرقل، أن يغلب العرب الروم في بحر الروم

- 3 -

ما جزيرة العرب، وفارس، والشام ومصر، وما الهند والصين، والمشرق والمغرب في همة هذه الشمس الوهاجة، وعزيمة تلك الكواكب السيارة. قد استقر سلطان القوم في مصر فلم يقنعوا، وهاهم قد غزوا برقة ورجعوا. أتحسب الأمد تطاول عليهم، والشقة بعدت بهم فملوا أو خاروا؟ تلبث قليلاً ثم انظر جيش العبادلة يزحف إلى إفريقية فيظفر ثم يصالح. وما وراء الحرب والسلم إلا المسير لإعلاء كلمة الله، وبلوغ الغاية مما أرادوا في سبيل الله

ويقف القوم سنين. وما هو إلا الجمام للسير، والتحفز للوثوب، والإعداد للجهاد، والتريث للتثبت. وعما قليل يطوون المغرب لا تعوقهم الفيافي المترامية، ولا تصدهم الجيوش الجرارة. تنظر الغد. فما بلغ القوم الأمل الموعود، ولا قاربوا الغاية المقدورة

- 4 -

عشرة آلاف تطوي الأوطان والقطان في سبيلها، وتطأ الأهوال والأبطال إلى غايتها! عشرة آلاف وفي الناس واحد كألف

تجمعت في فؤاد همم ... ملء فؤاد الزمان إحداها

عشرة آلاف قائدهم عقبة بن نافع قد عزموا ألا ينثنوا، وصمموا ألا يهزموا، وآلوا ألا يرجعوا ما اتسع الفتح لعزائمهم، وامتدت الأرض لأقدامهم

هاهو ذا عقبة يبني مدينة القيروان، فعل الغازي المعمر والفاتح المقيم. وسيجعلها مبدأ السير وأول الفتح، كأنهم ما قطعوا المهامة إليها، ولا ساروا عن ديارهم قبلها

في كل فج عزمهم سيار
إلى الوغى تهافتوا وطاروا
جماعة ليس لهم ديار
إلا ظهور الخيل والغبار

أرض الله، وعباد الله: أينما توجهوا فهي أرضهم، وحيثما حلوا فهي ديارهم. لا بعد عندهم ولا قرب، ولا شرق ولا غرب. (ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثمَّ وجه الله)

ولكن عشرات آلاف من الروم والأفريق قد ساروا إليهم. لقد أعد الروم لهم، وأزمعوا أن يحطموهم. فوا رحمتاه للأنجاد القليلين، والغرباء النازحين!

كلا لا خوف ولا حزن، ولا قلة ولا كثرة. انظرهم يديرونها على عدوهم حرباً طاحنة، ويلجئون الروم وأعوانهم من لظى النار إلى سلاسل الإسار - ألوف من الروم مصفدون

أترى الكثرة أغنت، أم ترى القلة قلت؟ ذلك آخر عهد الروم بإفريقية

- 5 -

أين الجنود البواسل، والعبَّاد الغزاة، والبداة الذين خرجوا ينشدون الحق ويردون الجبارين إلى العدل؟ أنهم ليسوا في برقة ولا إفريقية. . . . هاهم في أقصى المغرب! هم اليوم في طنجة! بل هم في إيسوس. لقد انتهوا إلى الساحل، لقد انتهت الأرض وا أسفاه للجواد المتمطر لا يجد مجالاً، والعزم المحضِر لا يجد مضطرباً. قد بلغوا البحر فكيف المسير؟ وفتحوا ما بين المدينة المنورة، وبحر الظلمات فأنى الفتح؟

انظر عقبة تضيق بعزمه الأرض، وتصغر في عينه الأقطار، فيدفع جواده في البحر ويصيح:

(والله لو علمت وراءه أرضاً لسرت غازياً في سبيل الله)
(بغداد)
عبد الوهاب عزام
صداقة تدين التاريخ
(ألا إن لنا قلوبا)
للأستاذ أمين الخولي
- 1 -
في واد مشرق السماء، جهم الأديم، تضطجع بين الجبال، على سيف الصحراء، تلك العذراء الممنعة (مكة)؛ تكاد تنال بإحدى يديها مياه (القلزم)؛ حين تنسم عن بعد نسيم الشرق بعراقه وفرسه، تلتفت يمنة إلى بلاد العرب السعيدة، بدفء شتائها وأسباب حياتها؛ وترنو يسرة إلى مشارف الشام بوارف ظلالها، وفتون حضارتها
في واد غير ذي زرع حول البيت المحرم، منذ بضعة عشر قرناً كانت تخفق القلوب وجلة، وتختلج النفوس متطلعة، ويشيع في أولي الألباب تشوق وتلهف، استحال اضطراباً اجتماعياً، وثوراناً روحياً، على قديم لا يرضي العقل، ولا يسعد القلب، حتى هب نشاط أناسي منهم إلى انتجاع ذلك الجديد بالرحلة إليه، والنقلة في سبيله، مثلما تلتمس أسباب الرفاهة الحيوية، من أعراض التجارة وحطام الدنيا
- 2 -
في ذلك العهد الحائر، كان سيدان من سادات قريش، قد اكتملت لهما بسطة من الجسم والحلم، وظفرا بوفر من الحسب والكرم، حين سعدا بأخلاق تشابهت في السمو، حتى تلاقت فيهما نعوت الواصفين: لا يعيشان لأنفسهما، ولا يفكرن في ذواتهما. إنما هم أحدهم ظلم يرفع، وحاجة تدفع، ومعونة على الدهر، أو اضطلاع بإصلاح إذا كشر الشر
كانا في سن متقاربة، لا تقول هما لدان، ولكنهما متقاربان، سبق أكبرهما صاحبه إلى هذه الدنيا بعامين وشيء من الأيام
كانا يضربان في حياة تشابهت وديانها، وإن تخالفت ألوانها، الكبير تاجر يصرف الدراهم والدنانير، حين كان الأكبر يرعى الشاء ويدبر البعير، على هينة في ذلك وقلة عناية توثقت بينهما صداقة عريقة، حين كان الأكبر يشارف الأربعين، قد بقى له من عدها عام، والكبير يبعد عنها بخطوات ثلاث وعدة أيام؛ فلهما الشباب المكتمل، والعقل المتزن. وما
كانت بينهما هذه الصداقة إلا عن تآلف نفس، وتمازج روح؛ وإلا ففيم يتقاربان، والكبير يعرف من سبل الكسب وطرق الثراء، ما وراء أفق البادية الجديب، ويختلف إلى اليمن والشام يثرى ويربح، على حين ينصرف الأكبر عن المال والنشب؛ قليل الكد في سبيلهما، زاهدا في أسبابهما؛ يعتزل الناس فريدا ويتحنث وحيداً، يسائل الشمس والقمر، ويستنطق الريح والصخر، أي شيء هذا؟ وفيم العناء؟ وإلام المسير؟ وأين الثواء؟ هذه حالهما حين ربطت بينهما تلك الصداقة؛ فما إن نشك في أن هذا الصديق كان يشاطر صديقه هذا التساؤل، ويبادله ذلك التفهم؛ وإن وقف في ذلك دونه، لا يتكشف له من الآفاق ما يستشرف له الأكبر، ويطالعه في قوة روح ألف لهذا وأقدر
- 3 -
تعارفا وتآلفا؛ وما هو إلا عام حتى ظهر النور الأنضر، وجاء الفتح الأكبر. واسر الصديق إلى صديقه أنه قد همس في أذنه، وألقي في روعه، وتفتحت له جنبات السماء، وأنه لمحدثه عنها حديث الرائي المشاهد. فإذا الكبير على آلفه؛ يرى بعين الأكبر، يستشف ما في روحه، ويجد في قلبه صورة ما تنطوي عليه جوانحه، فيؤمن معه أو يؤمن به؛ وإذا حياتهما قد صارت إيماناً، جار الأنفاس، ملتهب الإحساس، متصل الأسباب بالحق الأعظم، فزاد ما بينهما قرباً أو اتحاداً. وصارت صداقتهما على ما اشتهى الواثقون بطهر الإنسانية ومعنوية الحياة؛ إذا ما قال الأكبر أنت أحب الرجال إلي، قال الكبير أنت إلي أحب الناس
- 4 -
اضطلع الأكبر بعبئه أمام الدهر؛ وخرج يدفع الإنسانية دفعاً، ويدير الحياة في غير مدارها، ويخط مستقبل التاريخ، وما أشق وأهول!

إذا ما أقبل النهار، وارتفعت الشمس، خرج يرى لنفسه، ويتلطف لأمره، بين بدو همل هائمين، وعتاة مأفونين، يناديهم أنه قد حل اللغز الأعقد، وظفر بالمجد الأوحد، اتصل من الله بسبب، ووقف من السماء بمنال، ويهجو إلهتهم، ويسفه أحلامهم. . فأي سخرية يلقى، وأي عناء يواجه، وبأي نقيصة يعترف. . . هو كاهن، وساحر، وشاعر، ومجنون، وممسوس، وكذاب وو. . .

فإذا ما كاد يبخع نفسه أن لم يؤمنوا؛ وإذا ما ذهبت نفسه حسرات عليهم، تلفت فإذا صورة نفسه قائم إلى جانبه، يواسيه ويرفه عنه، يمسح عن قلبه أوضار الألم، وقذائف التهم، حين يطب لجروح قد أسالتها أحجار المغترين وقذائف السفهاء المحمولين عليه، وما يزال كذلك حتى يسلمه في الليل إلى تلك الزوجة الأمينة الرزينة، التي فهمت عنه حين جهله الناس. واطمأنت إليه حين أنكره الناس. . فهو منهما في ألفة وطمأنينة. والنفس بالصديق، آنس منها بالعشيق. .

وكانت احن ومحن طالت بضعة عشر عاماً، فقد فيها الأكبر تلك الزوج، فكان نهاره وليله لصديقه الصدوق، وعنده انتهت مؤانسته، حين كان الهم يزداد والعناء يشتد وخشي القوم خطر تلك الدعوة الدائبة، وهاتيك المهاجمة المصابرة، فزادوها قسوة وتنكيلا، وأشبعوا من نصرها ألماً وتعذيبا، فإذا الصديق يفي لأنصار صديقه وفاءه له: يجد في إنقاذهم، ويسعى في تحريرهم، باذلاً في ذلك ما ادخر وأثل؛ فإذا عتقاءه منهم سبعة نفر. . . ولقد أدركت ولا مراء، أنه لن يكون إلا الأعز. . . أبا بكر

- 5 -

هذان هما، قد نبا بهما المقر، وأجمع الناس كيدهم، فهو الموت والدم بدد، والثأر ضائع؛ ولكن الصديق أبداً مخلص، هو ظله حيث سار وردؤه فيما يرى لنفسه؛ وعفاء على الأهل والمال والولد والوطن، يخليها جميعاً ويخرج من الدنيا بصديقه. . . إلى التيه إلى الشرود، إلى المغامرات، إلى الكهوف والغيران، إلى الجوع والعذاب، إلى الدرك واللحاق، إلى الموت، إلى كل كريهة، ما هي إلا المحببة حين يريدها الصديق. وما أجله وأنبله حين أنزله الغار فلم يخفف، وحسبك أنه إنما يقول له: (لا تحزن أن الله معنا)؛ وما ظنك باثنين الله ثالثهما. . أجل لقد كانا كذلك انفراداً في الغار، كما كاناه انفراداً في صداقة وولاء ووفاء

- 6 -

رافقه إلى مأمنه؛ ولازمه في مهاجره، وتنفست الدنيا، وانبلج صبح الفوز، فظل له كما كان يوم عرفه قبل مبعثه، يبذل له قواه وروحه، كما يبذل له إخلاصه وبره؛ يحمل إليه فلذة كبده، يضعها في حجره، فتكون رسالة من قلب إلى قلب. وتمسي في النساء قرة عينه كما

كان في الرجال أبوها له؛ يبذل له ماله، وما المال في ذلك كله؟ وأي شيء أربعون ألف درهم خرج من دنياه لا يعرف منها مكان درهم؟ يلازمه في حربه وسلمه، وصحته ومرضه، حتى تأذن الله له بالنصر، وأتم الرسول عليه السلام ما ندب له من حادث في مسير الدنيا، ومستقبل الكون، فإذا ذلك كله في التاريخ يعرف يد تلك الصداقة

- 7 -

وخرج الرسول عليه السلام من دنياه، فتصدع الأساس، وانشعب الأمر؛ ارتدت الجزيرة، واضطرب الباقون في قمع الخارجين. . . لكن الصديق النبيل الجليل قائم، يصل من وراء القبر روح صديقه، ويحسه قائماً إلى جانبه، فإذا هو جيش وحده، وإذا هو أمة وحده، وإذا هو الإسلام كله حين يقول لهم جميعاً: أيها الناس! لو أفردت من جمعكم لجاهدتهم في الله حق جهاده، حتى أبلغ من نفسي عذرا أو مقتلاً. . . فسارع الكل وظفر الإسلام

قرت الدولة، وانبسط السلطان، وأينعت الحضارة، وسعدت الإنسانية، وشهد التاريخ، فإذا ذلك كله يعرف ولا غرو دين تلك الصداقة

- 8 -

بني الشرق! إن السيوف قد استحالت في أيدينا خشبا، والمدافع قد أمست مواقيت للطعام وتلاهي للأعياد، والجو من فوقنا، والأرض من تحتنا، والبحر من حولنا، ليس من ذلك شيء لنا، لكنا ولا غرو نحتاز نفوسا، ونملك قلوباً موصولة السبب بتلك القلوب، فلو عرفت الإيمان لعشقت المجد، ولو أحست الوفاء لنالت أسباب السماء، ولو

. . .وجدت مس تلك الصداقة لنصرت دينا، وبنت دولة، ودانت التاريخ
فهل تذكرون؟
أمين الخولي
درس من النبوة
للأستاذ مصطفى صادق الرافعي
قالوا: إنه لما نصر الله تعالى رسوله وردَّ عنه الأحزاب وفتح عليه قريظة والنضير ظن أزواجه صلى الله عليه وسلم أنه اختص بنفائس اليهود وذخائرهم وكن تسع نسوة: عائشة، وحفصة، وأم حبيبة، وسَوْدة، وأم سلمة، وصفية، وميمونة، وزينب وجُوَيْرية، فقعدن حوله وقلن: يا رسول الله، بنات كسرى وقيصر في الحلي والحلل والإماء والخول، ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق. وألمن قلبه بمطالبتهن له بتوسعة الحال وأن يعاملهن بما تعامل به الملوك وأبناء الدنيا أزواجهم؛ فأمره الله تعالى أن يتلو عليهن ما نزل في أمرهن من تخيرهن في فراقه، وذلك قوله تعالى: (يا أيها النبيُّ قل لأزواجك إن كنتن تُردن الحياةَ الدنيا وزينتَها فتعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وأُسرِّحْكن سَراحاً جميلا. وإن كنتن تردن اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرةَ فإن الله أعدَّ للمحسِنات منكن أجراً عظيما)
قالوا: وبدأ صلى الله عليه وسلم بعائشة (وهي أحبهن إليه) فقال لها: إني ذاكر لك أمراً ما أحب أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك. قالت: ما هو؟ فتلا عليها الآية. قالت: أفيك أستأمر أبويَّ؟ بل أختار الله تعالى ورسوله
ثم تتابعن كلهن على ذلك، فسماهن الله (أمَّهات المؤمنين) تعظيما لحقهن وتأكيداً لحرمتهن وتفضيلاً لهن على سائر النساء
هذه هي القصة كما تقرأ في التاريخ وكما ظهرت في الزمان والمكان، فلنقرأها نحن كما هي في معاني الحكمة، وكما ظهرت في الإنسانية العالية، فسنجد لها غورا بعيداً ونعرف فيها دلالة سامية، ونتبين تحقيقاً فلسفياً دقيقاً للأوهام والحقائق. وهي قبل كل هذا ومع كل هذا تنطوي على حكمة رائعة لم ينتبه لها أحد، ومن أجلها ذكرت في القرآن الكريم، لتكون نصا تاريخياً قاطعاً يدافع به التاريخ عن هذا النبي العظيم في أمر من أمر العقل والغريزة؛ فإن جهلة المبشرين في زمننا هذا وكثيراً من أهل الزيغ والإلحاد وطائفةً من قصار النظر في التحقيق يزعمون أن محمداً صلى الله عليه وسلم إنما استكثر من النساء لأهواء نفسية محضة وشهوات كالشهوات؛ ويتطرقون من هذا الزعم إلى الشبهة، ومن الشبهة إلى سواء الظن، ومن سوء الظن إلى قبح الرأي، وكلهم غبي جاهل؛ فلو كان الأمر على ذلك أو على
قريب منه أو نحو من قريبه، لما كانت هذه القصة التي أساسها نفي الزينة وتجريد نسائه جميعاً منها، وتصحيحُ النية بينه وبينهن على حياة لا تحيا فيها معاني المرأة، وتحت جو لا يكون أبداً جو الزهر. . . وأمره من قبل ربه أن يخيرهن جميعاً بين سراحهن فيكنَّ كالنساء ويجدن ما شئن من دنيا المرأة، وبين إمساكهن فلا يكنَّ معه إلا في طبيعة أخرى تبدأ من حيث تنتهي الدنيا وزينتها
فالقصة نفسها ردٌّ على زعم الشهوات، إذ ليست هذه لغة الشهوة ولا سياسة معانيها ولا أسلوب غضبها أو رضاها. وما ههنا تمليق ولا إطراء ولا نعومة ولا حرص على لذة ولا تعبير بلغة الحاسة؛ والقصة بعد مكشوفة صريحة ليس فيها معنى ولا شبه معنى من حرارة القلب، ولا أثر ولا بقية أثر من ميل النفس، ولا حرف أو صوت حرف من لغة الدم. وهي على منطق آخر غير المنطق الذي تُستمال به المرأة؛ فلم تقتصر على نفي الدنيا وزينة الدنيا عنهن، بل نفت الأمل في ذلك أيضاً إلى آخر الدهر وأماتت معناه في نفوسهن بقصر الإرادة منهن على هذه الثلاثة: الله في أمره ونهيه، والرسول في شدائده ومكابدته، والدار الآخرة في تكاليفها ومكارهها. فليس هنا ظرف ولا رقة ولا عاطفة ولا سياسة لطبيعة المرأة، ولا اعتبار لمزاجها ولا زُلفى لأنوثتها؛ ثم تخيير صريح بين ضدين لا تتلوَّن بينهما حالة تكون منهما معاً، ثم هو عام لجميع زوجاته لا يستثني منهن واحدة ولا أكثر
والحريص على المرأة والاستمتاع بها لا يأتي بشيء من هذا، بل يخاطب في المرأة خيالها أول ما يخاطب، ويشبعه مبالغةً وتأكيداً ويوسعه رجاءً وأملا، ويقرب له الزمن البعيد حتى لو كان في أول الليل، وكان الخلاف على الوقت لحقق له أن الظهر بعد

ساعة.

وبرهان آخر وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتزوج نساءه لمتاع مما يمتع الخيالُ به، فلو كان وضع الأمر على ذلك لما استقام ذلك إلا بالزينة وبالفن الناعم في الثوب والحلية والتشكل كما نرى في الطبيعة الفنية، فإن الممثلة لا تمثل الرواية إلا في المسرح المهيأ بمناظره وجوه. . . وقد كان نساؤه صلى الله عليه وسلم أعرف به؛ وهاهو ذا ينفي الزينة عنهن ويخيرهن الطلاق إذا أصررن عليها. فهل ترى في هذا صورة فكر من أفكار الشهوة؟ وهل ترى إلا الكمال المحض؟ وهل كانت متابعة الزوجات التسع إلا تسعة برهانات على هذا الكمال؟

وكأن النبي صلى الله عليه وسلم يلقي بهذه القصة درساً مستفيضاً في فلسفة الخيال وسوء أثره على المرأة في أنوثتها، وعلى الرجل في رجولته، وأن ذلك تعقيد في الشهوات يقابله تعقيد في الطبع، وكذب في الحقيقة ينشأ عنه كذب الخلق، وأنه صرف للمرأة إلى حياة الأحلام والأماني والطيش والبطر والفراغ، وتعويدها عادات تفسد عاطفتها وتضيف إليها التصنع فتضعف قوتها النفسية القائمة على إبداع الجمال من حقيقتها لا من مظهرها، وتحقيق الفائدة من عملها لا من شكلها

وكل محاسن المرأة هي خيال متخيل ولا حقيقة لشيء منها في الطبيعة، وإنما حقيقتها في العين الناظرة إليها فلا تكون امرأة فاتنةً إلا للمفتون بها ليس غير. ولو ردَّت الطبيعة على من يشبب بامرأة جميلة فيقول لها: هذه محاسنك وهذه فتنتك وهذا سحرك وهذا وهذا؛ لقالت له الطبيعة: بل هذه كلها شهواتك أنت. . . .

وبهذا يختلف الجمال عند فقد النظر فلا يفتنه جمال الصورة ولا سحر الشكل ولا فراهة المنظر، وإنما يفتنه صوت المرأة ومجستها ورائحتها. فلا حقيقة في المرأة إلا المرأة نفسها؛ ولو أخذت كل امرأة على حقيقتها هذه لما فسد رجل ولا شقيت امرأة، ولانتظمت حياة كل زوجين بأسبابها التي فيها. وذلك هو المثل المضروب في القصة يريد النبي صلى الله عليه وسلم ليعلم أمته أن حيف الغريزة على العقل إفساد لهذا العقل، وأنه متى أخذت المرأة لحظ الغريزة واختيارها كانت حياتها استجابة لجنون الرجل، وملأتها معاني التزيد والتصنع، فيوشك أن ينقلها هذا عن طبيعتها السامية التي أكثرها في الحرمان والإيثار والصبر والاحتمال، ويردها إلى أضداد هذه الصفات فيقوم أمرها بعد على الأثرة والمصلحة والتفادي والضجر والتبرم والإلحاح والإزعاج، ويضعف معنى السلب الراسخ في نفسها من أصل الفطرة فيتبدل حياؤها وفي الحياء ردها عن أشياء، ويقل إخلاصها وفي الإخلاص رد لها عن أشياء أخرى، ويكثر طعمها وفي قناعتها محاجزة بينها وبين الشر

وبهذا ونحوه يفسد ما بين الرجل والمرأة المتصنعة؛ فإذا كثر المتصنعات لا يكون من النساء مشاكل فقط، بل تكون من حلول المشاكل معهن مشاكل أخرى. . . .

ولبُابُ هذه القصة أن النبي صلى الله عليه وسلم يجعل نفسه في الزواج المثل الشعبي الأكمل كما هو دأبه في كل صفاته الشريفة، فهو يريد أن تكون زوجاته جميعاً كنساء فقراء المسلمين ليكون منهن المثل الأعلى للمرأة المؤمنة العاملة الشريفة التي تبرع البراعة كلها في الصبر والمجاهدة والإخلاص والعفة والصراحة والقناعة، فلا تكون المرأة زينةً تطلب زينة لتتم بها في الخيال، ولكن إنسانية تطلب كمالها الإنساني لتتم به في الواقع

وهذه الزينة التي تتصنع بها المرأة تكاد تكون صورة المكر والخداع والتعقد، وكلما أسرفت في هذه أسرفت في تلك، بل الزينة لوجه المرأة وجسمها سلاح من أسلحة المعاني كالأظافر والمخلب والأنياب، غير أن هذه لوحشية الطبيعة الحية المفترسة، وتلك لوحشية الغريزة الحية التي تريد أن تفترس. ولا تنكر المرأة نفسها أن الزينة على جسمها ثرثرة طويلة تقول وتقول وتقول.

وإنما يكون أساس الكمال الإنساني في الإنسان العامل المجاهد لا يحصر نفسه في شيء يسمى متاعاً أو زينة، ولا يقدر نفسه بما يجمع لها أو بما يجمع حولها، ولا يعتد ما يكون من ذلك إلا كالتعبير من عمل الشهوات عن الشهوات. ونبينا صلى الله عليه وسلم هو الغاية في هذا، دخل عليه مرة عمر بن الخطاب فإذا هو على حصير وعليه إزاره وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثر في جنبه. قال عمر: وإذا أنا بقبضة من

شعير نحو الصاع، وإذا إهابٌ معلق، فابتدرت عيناي، فقال ما يبكيك يا ابن الخطاب؟ قال عمر: يا نبي الله ومالي لا أبكي وهذا الحصير قد أثر في جنبك، وهذه خزائنك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذاك كسرى وقيصر في الثمار والأنهار وأنت نبي الله وصفوته وهذه خزائنك؟

وجاء مرة من سفر فدخل على ابنته فاطمة رضى الله عنها فرأى على بابها سترا وفي يديها قُلْبين من فضة فرجع، فدخل عليها أبو رافع وهي تبكي فأخبرته برجوع أبيها، فسأله في ذلك فقال صلى الله عليه وسلم: من أجل الستر والسِّوارين

فلما أخبرها أبو رافع هتكت الستر ونزعت السوارين فأرسلت بهما بلالاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقالت قد تصدقتُ به فضعه حيث ترى. فقال لبلال: اذهب فبعه وادفعه إلى أهل الصُّفة. فباع القُلبين بدرهمين ونصف (نحو ثلاثة عشر قرشاً) وتصدق به عليهم

يا بنت النبي العظيم! وأنت أيضاً لا يرضى لك أبوك حلية بدرهمين ونصف وإنَّ في المسلمين فقراء

أي رجل شعبي على الأرض كمحمد صلى الله عليه وسلم فيه الأمة كلها غريزةُ الأب، وفيه على كل أحواله اليقينُ الذي لا يتحول، وفيه الطبيعةُ التامة التي يكون بها الحقيقيُّ هو الحقيقي

يا بنت النبي العظيم! إن زينةً بدرهمين ونصف لا تكون زينة في رأي الحق إذا أمكن أن تكون صدقةً بدرهمين ونصف. إن فيها حينئذ معنى غير معناها؛ فيها حقُّ النفس غالباً على حق الجماعة؛ وفيها الإيمان بالمنفعة حاكماً على الإيمان بالخير؛ وفيها ما ليس بضروري قد جار على ما هو الضروري؛ وفيها خطأ من الكمال إن صح في حساب الحلال والحرام لم يصح في حساب الثواب والرحمة

تعالوا أيها الاشتراكيون فاعرفوا نبيكم الأعظم. إن مذهبكم ما لم تُحيه فضائل الإسلام وشرائعه، إن مذهبكم لكالشجرة الذابلة تعلقون عليها الأثمار تشدونها بالخيط. . . كل يوم تحلون وكل يوم تربطون ولا ثمرة في الطبيعة

ليست قصة التخيير هذه مسئلةً من مسائل الغنى والفقر في معاني المادة، ولكنها مسئلة من مسائل الكمال والنقص في معاني الروح؛ فهي صريحة في أن النبي صلى الله عليه وسلم أستاذ الإنسانية كلها، واجبه أن يكون فضيلة حية في كل حياة، وأن يكون عزاء في كل فقر، وأن يكون تهذيباً في كل غنى، ومن ثم فهو في شخصه وسيرته القانون الأدبي للجميع

وكأنه صلى الله عليه وسلم يريد ليعلّم الأمة بهذه القصة أن الجماعات لا تصلح بالقوانين والشرائع والأمر والنهي، ولكن بعمل عظمائها في الأمر والنهي، وأن الحاكم على الناس لا ينبغي أن يحكم إلا إذا كان في نفسه وطبيعته يحس فتنة الدنيا إحساس المتسلط لا الخاضع، ليكون أول استقلاله استقلال داخله

فليس ذلك فقراً ولا زهداً كما ترى في ظاهر القصة، ولكنها جرأةُ النفس العظمى في تقرير حقائقها العملية

وتنتهي القصة في عبارة القرآن الكريم بتسمية زوجاته صلى الله عليه وسلم (أمهات المؤمنين) بعد أن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة. وعلماء التفسير يقولون إن الله تعالى كافأهن بهذه التسمية؛ وليس ذلك بشيء ولا فيه كبير معنى، وإنما تُشعر هذه التسمية بمعنى دقيق هو آية من آيات الإعجاز، فإِن الزوجة الكاملة لا تكمل في الحياة ولا تكمل الحياة بها

إلا إذا كان وصفها مع رجلها كوصف الأم ترى ابنها بالقلب ومعانيه لا بالغريزة وحظوظها. فكل حياة حينئذ ممكنةُ السعادة لهذه الزوجة، وكل شقاء محتملٌ بصبر، وكل جهاد فيه لذته الطبيعية، إذ يقوم البيت على الحب الذي هو الحب الخالص لا المنفعة، وتكون زينة الحياة وجود الحي نفسه لا وجود المادة، وتبنى النفس على الوفاء الطبيعي كوفاء الأم، وذلك خُلق لا يعسر عليه في سبيل حقيقته أن يتغلب على الدنيا وزينتها

وآخر ما نستخرج من القصة في درس النبوة هذه الحكمة:

بِحَسبِ المؤمن إذا دخل داره أن يجد حقيقة نفسه الطيبة وإن لم يجد حقيقةَ كسرى ولا قيصر.

(طنطا)
مصطفى صادق الرافعي
عظمة الهجرة
للأستاذ عبد الرحمن شكري
يتخذ الناس من عبر الحوادث مثلاً للكمال في الخلق وشعاراً يذكر بما ينبغي أن يسلكوه وما يجب التنزه عنه من عمل أو قول، ويكون لهم كاللواء يجمعون أمرهم حوله، وكالحكمة يسترشدون بهداها ورشدها، وكالحداء للركب يعينهم في قافلة الحياة، وكالرمز يرجعون إلى مدلوله في كل أمر حازب، وكالعماد يعتمدون على قوته وعونه، وكالإمام يأتمون به
وقد لا يستطيع المرء في كل حال من أحوال الحياة ألا يزايل شعاره، فقد تخونه نفسه أو تخونه الحوادث فيسلك مسلكاً لا يشاكل شعاره، ولكن المرء بخير إذا لم يمزق شعاره يأساً من أجل عجز عارض لا يلبث أن يزول؛ والمرء بخير أيضاً مهما تعددت سقطاته عن شعاره ومثله مادام له مثل يأتم به في فعله وقوله؛ وإذا كان اتباعه له في القول أكثر من أتباعه له في الفعل، فهذا أيضاً خير من ألا يكون له مثل يقدسه، وله نفسه أثر قل أو كثر
وفي الهجرة النبوية لنا مثل وشعار ورمز إذا اعتبرنا بأسبابها وحوادثها؛ وهو رمز ذو معنيين: معنى فيما ينبغي أن نتجنبه من مشابهة المشركين في اضطهاد الحق والعقيدة النفسية والفكرة التي تنبعث منها، ومعنى فيما ينبغي أن نتخلق به من الإتمام بالنبي صلى الله عليه وسلم في إبائه مزايلة الحق وصونه، وفي نصرته بالرغم من اضطهاد وضيق، وفي الاعتماد على الله في الشدة
ولكل من المعنيين في الحياة شواهد وأمثلة وأمور تستدعي ذكرى الهجرة النبوية وذكرى حوادثها الجليلة
ولو استطعنا أن نذكرها في كل أمر من أمور الحياة كان ذكرها خيراً من ذكرها في تاريخ واحد معين، على ما في ذكرها في هذا التاريخ الواحد المعين من خير وفضل وحمد
أي الناس لا يضطهد الحق في أمور كثيرة من الأمور اليومية إذا كان في اضطهاده إياه كسباً ورزقاً، أو ثناء وحمداً، أو راحة ودعة، أو إرضاء عزيز، أو زلفى لدى كبير مسيطر محكم عليه؛ وحتى عند تخيل نيل الكسب غير المحقق نيله، وعند الأمل في الزلفى التي قد تخيب، يضطهد الناس الحق في أمور الحياة وروحهم روح المشركين ولفظهم لفظ المؤمنين. ثم هم قد يعدمون حتى لفظ المؤمنين فلا يكاد يكون لهم من الإيمان إلا اسمه.
هؤلاء لم يتعظوا بعظة الهجرة، ولم يتنزهوا عن الروح التي اضطهد المشركون بها النبي صلى الله عليه وسلم. وأمثال هؤلاء لا ينتفعون بإحياء ذكرى الهجرة النبوية مهما اشتغلت أبدانهم بإحياء من غير أن تشتغل قلوبهم بعظتها، ومن غير أن تتنزه نفوسهم عن مشابهة المشركين في اضطهاد الحق
يقول المسيحيون: إن كل من يضطهد الحق في أمر من أمور الحياة يضطهد عيسى عليه السلام، ويعين أعداءه عليه، ويعادي روح الحق الذي جاء به؛ ونحن نقول مثل هذا القول عند ذكرى الهجرة النبوية وهي ذكرى اضطهاد المشركين للحق الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، فكل من يضطهد الحق في أمر من أمور الحياة يضطهد روح الحق الذي جاء به النبي الكريم سواء أكان اضطهاد الحق في أمر من أمور الحياة طمعاً في مغنم أو في دعة أو صداقة أو زلفى
وخير شعائر الدين ومواسمه وأعياده وذكره وتواريخه الجليلة مثل تاريخ الهجرة هو أن تحول بين المرء وبين عادته في قلب الفروض الخلقية إلى مسميات يحسب ترددها على لسانه عقيدة وإيماناً، وما هو بإيمان إذا كان لا يحتذيها، وإذا كان يشارك المشركين ويشابههم في اضطهاد الحق طمعاً في مغنم أو دعة أو صداقة أو زلفى، فيعادي الصدق في القول والعمل والعدل فيهما أيضاً، ويعادي الوفاء ومكارم الأخلاق، وهو إذا عاداها كان معادياً للحق الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا هو المعنى الأول الذي نعتبر به في إحياء ذكرى الهجرة النبوية؛ والمعنى الثاني متصل به وهو قوة وعماد نصر، وهو الاعتماد على الله كما في الآية الكريمة التي وردت في

حديث الهجرة: (إن الله معنا)

كنت في بعض الأحايين أزور صديقاً لي من عادته إذا اتخذ شعاراً أن يكتبه في لوح كبير ويضعه أمامه ويذكر نفسه به، وكنت أرى على جدران منزله هذه الآية الكريمة مكتوبة بخط جميل في لوح كبير، وكان كلما دهمه أمر وكرثه خطب وأحس أنه لا يكاد يقوى على احتماله ينظر إلى هذه الآية الكريمة فيقوى بها على المصائب، وكانت له عوناً كبيراً في الحياة؛ وهذا من فضل إحياء ذكرى الهجرة النبوية، ومن فضل الائتمام بالنبي صلى الله عليه وسلم، وطوبى لمن يستطيع مهما نالت منه المصائب أن يقول: (إن الله معنا)، وطوبى لمن روض نفسه على الحق والعدل والصدق في القول والعمل، وتنزه عن روح الإشراك

ومعناه كما يتنزه عن لفظه واسمه، وجعل عظات الهجرة شعاراً له في كل أمر من أمور الحياة؛ بل طوبى للإنسانية لو أن كل إنسان أخذ بروح من تلك العظات ولم يجعل الغيرة على الحق والعدل حبائل كسب لا حقيقة لها في نفسه، ولم يجعل الفروض الخلقية مسميات يتباهى بترديدها. لقد حدثت نفسي فقلت ماذا كان يكون لو أن النبي صلى الله عليه وسلم قد رجع إلى هذه الحياة الدنيا كي يرى روح الحق الذي جاء به، ولكي يقيم الحجة على الناس. هب أنه لم يذكر لهم اسمه وشاء أن يعرف كيف يلقون الحق في شخصه من غير أن يعرفهم بنفسه. إنهم كانوا يرون رجلاً دأبه الحق والصدق والقصد والعدل في القول والعمل، وأنهم كانوا يرون رجلاً يطلب منهم كل هذه الصفات في أمور حياتهم وهو مطلب يثقل على نفوس الناس، وهم دنيويون يريدون من الصفات ما شابهها في المظهر وخالفها في الحقيقة، ويريدون المكسب والجاه من أي وجه وبأية وسيلة، فماذا كانوا يصنعون لو أنهم لم يعرفوا أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي يريد منهم روح الحق. أكبر الظن أن مأساة اضطهاد الأولين له كانت تتجدد، وأكبر الظن أننا كنا نرى هجرة ثانية مثل الهجرة الأولى، ولكنها ليست هجرة على التخصيص من مكة إلى يثرب

عبد الرحمن شكري

مصر تحمي الإسلام والمدنية في عين جالوت

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

استهل القرن السابع الهجري (وذلك في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي) وقد ترامى إلى القاهرة نبأ النضال الدموي الذي ثار في الشرق فيما بين نهري سيحون وجيحون بين جنود التتار وبين جنود الملك محمد خوارزم شاه؛ وكان المسلمون إلى ذلك العهد لا يعرفون للتتار دولة ذات خطر، فإنهم إنما كانوا يعرفون قوماً من البدو يعيشون في فيافي الشرق التي تمتد إلى اكناف الصين طالما حاربتهم جيوش المسلمين فلم يجدوا في بلادهم مطمعاً، إذ كان هؤلاء الحفاة كلما أوقع بهم جند الإسلام وقعة لاذوا بكبد الصحراء يضربون فيها ويبعدون فلا يجد قواد المسلمين لهم مدنا ولا ريفاً، ولا يستطيعون أن يقبضوا منهم على ناصية. فإذا القرن السابع الهجري يحمل معه اجتماعا عجيباً لهؤلاء التتار لم يسبق له مثيل إلا في أحوال نادرة، إذ قد نبغ من بينهم الزعيم الداهية (ثيموجين) الذي يعرفه التاريخ باسم (جنكيز خان)، فوحد لهم دولة وأقام لهم ملكا بعد أحداث يطول بنا وصفها لو تعرضنا لذكرها. وما كان لهذا الحدث أن يكون له ذلك الأثر البالغ في تاريخ الإسلام والمدنية لولا ما لابسه من ظروف العصر وما كانت عليه حال الدولة الإسلامية المتاخمة للتتار. فلو كانت الدولة الإسلامية في عصمة هارون أو المأمون، أو لو كانت في قيادة المعتصم أو المتوكل، لما زاد الأمر على قيام دولة تترية تلمع حيناً كما يلمع الشهاب ثم يندثر، فكانت تجتمع لهم كلمة وينبسط لهم سلطان على من في فيافي التركستان وما يليها من الكرج والديلم، ثم تمضي تلك الدولة الناشئة بعد حين كأن لم تكن، ويسدل عليها التاريخ ستاراً كثيفاً، وتحجب ذكراها وراء الكثبان المترامية البعيدة

غير أن مجرى التاريخ في هذه المرة قد اتجه اتجاهاً لا يزال ماثلا في أذهان الإنسانية؛ ومازالت أصداء اجتماع التتار على زعامة جنكيز خان تتردد إلى اليوم في الأقطار جميعها شرقيها وغربيها؛ ومازالت آثار ذلك العهد تنعب فوق أطلال بخارى وسمرقند ومرو، بل مازالت جاثمة فوق بغداد العظيمة يشهد العالم منها إلى اليوم كيف يقوض التخريب أسس المدينة التليدة، وكيف تذهب كنوز القرون ومخلفات الأجيال على يد

الهمجية بين عشية وضحاها. وما اتخذ التاريخ ذلك المجرى إلا لسبب واحد، قد يبدو صغيرا ضئيلا لا خطر
له. غير أن أجل حوادث التاريخ طالما نبعت من أمثال هذا السبب الصغير
كان الجزء الشرقي من العالم الإسلامي يئن من حكم طائفة من الأمراء قد وثبوا إلى الحكم وهم أشبه شيء بقطاع الطرق يثبون على غنيمة آمنة في قافلة عزلاء غريرة. وإنك إذا تدبرت الأمر كله في تاريخ الإسلام لم تجد نكبة أصابت المسلمين إلا كانت آتية من مثل هؤلاء الأمراء المفسدين. تراهم وقد حكموا البلاد لكي يبتزوا ثرواتها لا لكي يقوموا بواجب الحكم فيها، وتراهم يبطشون بالناس بطش الأسد بالصيد لا يعاقبون أحداً لأنه أساء، بل لأنه تنفس بكلمة حق، أو فرج عن نفسه بأنة مصدور. وتراهم قد أحاطوا أنفسهم بشراذم من جنود مرتزقة، لا هم لها إلا أن تشترك في الغنيمة، فهي تساعد الطغيان على أن يطغى، وتشترك معه بأن تستعلي في الأرض وتطغى، وهؤلاء الملوك وأولئك الجنود لا حد لاستعلائهم مادامت مسألة الحكم مقصورة على ضبط الرعية العزلاء؛ فإذا ما جد الجد، واحتاج الأمر إلى الحماة كانوا أحرص الناس على الحياة، وأخوفهم من التعرض لبلاء الجهاد ومحنة الجلاد
ولقد كان محمد شاه خوارزم أحد هؤلاء الطغاة المستكبرين الضعفاء. كان أشد الناس بطشاً وأحدهم شوكة في سيرته مع الأفراد والضعفاء، وكان من أحرص الأمراء على الثروة والسلطان مادام لا يعالج إلا شعبه المسكين، فقد سلط عليه طوائف أعوانه فكسروا أنوفه، وخضدوا شوكته، وأذلوا نفوسه؛ وقد أراد القضاء أن يتعدى أذاه إلى طائفة من تجار التتار كانوا قد جاءوا إلى بلاده مسالمين في تجارة فأوقع بهم ونهب متاعهم، فاستجار هؤلاء بصاحبهم، وكان عند ذلك (جنكيز)، فرأى من واجبه أن ينصرهم، فبدأ من ذلك الاصطدام الذي أعقب الدمار والبلاء ببلاد المسلمين
لم يشهد التاريخ مثل ذلك الصراع الذي بدأ عند ذلك بين التتار والمسلمين. فتيار أتىّ من جموع الهمج يصدم هيكل الدولة القديمة المبجلة، فإذا بذلك الهيكل يصدع عند اللمس وينهار بعد قليل. حتى أن التتار أنفسهم ترددوا حيناً ووقفوا مبهوتين لا يكادون يصدقون أنهم قد هدموا ذلك الهيكل الهائل، ولكن الهيكل لم يكن سوى جدار أجوف قد نخره الظلم واستل منه الحياة
لم يثبت الأمراء الطغاة إلا مقدار لطمة قصيرة المدة ثم عرفوا أنهم لا يستطيعون أن يرعبوا عدوهم كما كانوا يرعبون رعيتهم، ولن يقدروا على تحطيمه كما كانوا يحطمون أهل بلادهم، ومنذ تحققوا ذلك طارت نفوسهم خوفاً، وغلب الحرص كل غرائزهم فقلبوا الفكر في مصيرهم، وعرضوا ما كان منهم وما يكون. أتذهب عنهم أموالهم، ويضيع سلطانهم، ويضطرون إلى مقاساة الأهوال في الدفاع والنضال؟ أيقاسمون اليوم رعيتهم ضيق الحياة وضنك العيش في القتال؟ أينزلون عن السعة والعزة والمنعة في سبيل دفاع المستميت؟ أيمدون أيديهم إلى الرعية أن هلمي إلى صف واحد نبذل فيه الحياة معا فنحيا حياة كراما أو نموت وقد أعذرنا؟ ثم جالت بخيالهم ذكريات ما سبق لهم أن أجرموا، وما كان لهم في الحكم من السيئات، وعادوا إلى أنفسهم يسائلونها: أيستطيعون اليوم أن يقفوا مع الرعية كتفا إلى كتف؟ وهل يجدون من أنفسهم الجرأة على أن يخاطبوها خطاب الأنداد الأكفاء؟ أيستطيعون أن يستنهضوها لبذل المال والنفس في سبيل الخلاص من العدو المخيف؟ وهل يستطيعون أن يخيفوا الناس من عدوهم المقبل وقد كانوا بالأمس لا يجندون الجنود إلا لكي يحكموهم بالقسر والعسف؟ جالت هذه الأفكار في رؤوسهم وهم مترددون بين الثبات والانهزام، وبين النضال والهرب فخذلتهم قلوبهم إذ رأوا أن الرعية التي آذوها بالأمس لن تجيب نداءهم لو نادوا. ولن تخلص لهم اليوم بعدما نالها من شرهم وطغيانهم؛ ولئن أجابت الرعية وتناست كل ما كان، أبقيت فيها بقية للنضال؟ إن ظلم القرون إذا أفلح في إزالة القلوب الحرة الأدبية التي تنفر من الظلم، وتأبى الاستعباد، فقد أفلح كذلك في إماتة الرجولة والنخوة، وأحال الناس إلى لأشباح مرتعدة خوارة لا تستطيع شيئا في الدفاع ولا تغني غناء في النضال. فلن يستطيع شعب أذهب الطغيان إباءه وعصف بنخوته أن يصمد في نضال البقاء في الحياة
ولم يستطع محمد شاه خوارزم عند ذلك إلا أن يعمد للهروب بما استطاع استخلاصه من أمواله وذخائره التي استلبها من دماء رعاياه وابتزها من عرق كدهم، ودموع

أعينهم، ورجفة العراة منهم والجائعين، وبقى الناس بعد أن هرب ذلك الطاغي وهم كالغنم المبعثرة إذا دهمتها الذئاب، وقد هرب عنها الرعاة الجبناء. فلنسدل الستار عن نضال غير متعادل بين الشاة والذئب، ولنغمض العين عن منظر شعب من شيوخ أهل علم، وشبان أهل تجارة، وكهول أهل صناعة، ومن عمال فقراء لا يملكون ما يسدون به الرمق وزراع لا
دراية لهم بشيء بعد المحراث والفأس، وهم يخرجون ألوفا إلى خارج المدن والقرى، لا يدرون كيف يفعلون، ولا أنى يتجهون، فلا تكون إلا ساعات حتى يحصدهم العدو حصداً، أو يحصد بعضهم بعضا في فزع حرب لا عهد لهم بها. لا بل إنهم كانوا يستسلمون كما يستسلم الدجاج ليذبح واحدة بعد واحدة، وهي تستسلم للهلاك خوفا من رهبة الدفاع عن أنفسها
لقد سلبهم الطغاة ما كان فيهم من رجولة بالعسف المتواصل جيلاً بعد جيل، وبالخنوع والإذلال يتوارثونه ابنا عن أب عن جد. ألا فليحمل الطغاة وزر هذه المخازي، ولتلطخ ذكراهم بإثم هذه المجازر لا براءة لأحد منهم منذ بدأ الحجاج جريمته في تذليل الأمة الإسلامية لحكم الطغيان. وترامت أنباء هذه المجازر إلى مصر فلم تجد من نفسها فراغاً إلى أن تملأ آذانها بها إذ كانت تناضل نضال الأبطال في دفاع الصليبيين عن أرضها. إذ بينا كانت مذابح التتار تفتك بالمسلمين فيما بين نهري سيحون وجيجون، كان الصليبيون يفدون ألوفاً مؤلفة إلى شواطئ مصر يريدون أن يرموا بفتحها قلب دولة الإسلام. وكان بمصر بقية الدولة الأيوبية، فكان ملوكها يردون من ذلك الفتح موجة بعد موجة، فالملك الكامل يدفع حملة دمياط الأولى، والملك الصالح يقف لجيش فرنسا وحلفائها ويموت وهو في ميدان الحرب فيخلفه ابنه الملك طوران شاه فيقضي على جيش لويس التاسع، ويتم الفتح بأسر الملك الصليبي المتحمس. وهكذا علمت مصر دول أوربا أنها لن تكون هينة في النضال إذا شاءوا نضالاً
ولما تنفست مصر من حملات الصليبيين راعها ما سمعت من دوي التخريب في مدن الشرق، وكان قد علا وصار مرعباً فظيعا. وكان أعلى ذك الدوي ما جاء من بغداد إذ فتح هولاكو عاصمة الخلافة وألحقها بالخراب الذي خلفه جده بين سيحون وجيجون، وسمع من بمصر أن خزائن العلم وآثار المدنية في دار السلام قد صارت كلها أثراً بعد عين، وأن دولة الإسلام العظيمة قد تحطمت وانهارت كأنها لم تكن من قبل ملاذ الحضارة والفن والعز منذ قرون. فاختلط في نفسها الحزن على مجد الإسلام الضائع والخوف من أن ينالها من ذلك التيار المدمر ما نال سائر معاقل الإسلام
واندفع التيار المدمر بعد اجتياح بغداد فسار في سبيله إلى الغرب حتى بلغ الشام، وكانت
قلاعها عند ذلك عواصم الحدود للدولة المصرية الكبرى التي ورثت دولة بني أيوب وهي دولة الأتراك المماليك
وكان صدى أنباء تلك الغارة في مصر غير صداها في سائر الأقطار، فإن صوت التتار الذي أفزع العالم الإسلامي فأخرجه عن رشده وأفقده إرادته وجعل أهله يستسلمون للموت لا يكادون يحركون يداً، لم يزد على أنه أثار حفيظة أهل مصر، وحملهم على الاستعداد للنضال. وذلك أن مصر لم تكن كسائر البلاد الإسلامية فإنها لم تفقد كرامتها ولا رجولتها. ولم تنس معنى العزة والإباء. حقا لقد كان يحكمها أمراء من الترك، وكان قبل ذلك يحكمها بنو أيوب والفاطميون وغيرهم، ولكن هؤلاء لم يكونوا في يوم من الأيام إلا حكاما يقومون بخدمة الجماعة. ولم تزل مصر على توالي المحن عليها سيدة أمرها والمسيطرة على قانونها وحقوقها. ولو كان الأمر عند ذلك أمر جيش وسلطان لانتهى النضال على ما انتهى إليه نضال ملوك الشرق وجيوشهم؛ فنضال مصر مع التتار كان نضال أمة بأسرها محسة بوجودها، شاعرة بما يجب عليها أن تبذله وأن تدبره؛ وإن شئت مصداق ذلك فهاهو ذا وصف مجلس حربي اجتمع عند ذلك لينظر في أمر التتار والاستعداد لملاقاتهم
كان في ذلك المجلس ممثلوا الشعب المصري وأهل الرأي فيه من مشايخ العلماء وأئمة القانون. كما كان فيه كبار الأمراء والحكام والأعيان. وكان سلطان الوقت شابا غرا جاهلا وهو علي بن معز الدين أيبك. فتذاكر المجلس غارة العدو وما تحتاج إليه البلاد من وسائل الدفاع من مال وجند، وما لابد من بذله من مجهود جامع شامل،

فكان أول ما نظروا فيه أن تساءلوا: هل السلطان للبلاد أم هي البلاد التي للسلطان؟ وهل يليق بنا في مثل هذا الوقت أن نقيم شابا غراً جاهلاً يتصرف في شؤون الدولة لا لشيء إلا لأنه ابن السلطان الذي حكم من قبل؟ ولم تطل بهم المناقشة في ذلك فاختاروا رجلاً من أكبر قواد العصر فأقاموه سلطانا بدل ذلك الصبي الصغير ودلوا بذلك على أن نظر مصر إنما هو لمصالح الدولة، وإنها إنما تختار حكامها ليقوموا بواجبهم لها لا ليكونوا سادة متحكمين فيها. ثم نظروا بعد ذلك فيما يجب جمعه من المال للاستعداد للحرب، فلنسمع الآن قول أحد مشايخ مصر وهو الشيخ عز الدين ابن عبد السلام لنعلم منه كيف كان يخاطب نواب المصريين قادة الحرب في بلادهم، وهل كانوا يرونهم سادة أم خداما: قام ذلك الشيخ الجليل عند ذلك فقال شيئا مثل هذا: (لقد جئتم أيها القواد والأمراء من بلادكم جنوداً صغاراً لا تملكون شيئاً، بل كنتم مملوكين أرقاء. ولقد صارت لكم أموال وعقارات، وأصبحت في أيديكم النعم الجزيلة والخيول المطهمة، والجواهر والحلي التي لا يستطاع تقدير قيمتها. فهلموا فابذلوا كل ما عندكم من تلك الأموال حتى إذا ما صرتم كالناس لا تملكون إلا ما يملكه أوساطهم، كان الواجب على الأمة أن تبذل كل ما تملك في سبيل الجهاد من ورائكم. وليست العامة بمعزل عن الحرب ولا هي مترددة في خوض غماره. فهلموا! اسألوا سهول فارسكور عن الألوف من أهل الريف الذين حاربوا الفرنج، وأبلوا في حربهم أحسن البلاء. وهلموا فنادوا أن النفير عام تجدوا الناس جميعا عند ندائكم مسارعين إلى الجهاد والنضال)

ولقد انفض ذلك المجلس على اتفاق وثيق، فخلع السلطان علي ونودي بالسلطان الجديد: الملك المظفر قطز، ونودي على الناس جميعا أن النفير عام إلى الغزو في سبيل الله

وهكذا كانت الحركة حركة مصر، والجهاد جهادها لا جهاد أمرائها

وخرج السلطان بموكبه في أواخر شعبان سنة ثمان وخمسين وستمائة، وبلغ الشام في رمضان ونزل على جانب الأردن في أواخر شهر الصيام

وكان إلى جانب وهدة الأردن واد من الوديان الكثيرة التي تهبط من جبال فلسطين أو تلالها، تخرج فيه عين من مرتفع لا يزيد علوه على مائتي متر وتسمى عين جالوت، وذلك الوادي على مقربة من بيسان التي اشتهرت بابنها النجيب القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني. وقد اجتمع جند مصر عند ذلك الوادي، آتيا من علايات فلسطين. وكان جند التتار قد توافوا في وهدته آتين من دمشق بعد أن جروا عليها ذيل تخريبهم وتدميرهم

وجال التتار في السهل وهم يتضاحكون ويمرحون، ينظرون إلى جنود مصر بلباسهم الزاهي، وسلاحهم الثمين، وحليتهم الرائعة، ولعلهم كانوا إذ ذاك يقول بعضهم لبعض: هاهي ذي غنيمة لم يسبق لنا عهد بمثلها، ولا عجب فهي كنوز مصر

واجتمع جند مصر من أتراك وعرب، وبرزوا على عادتهم صفوفا من الفرسان لا تكاد ترى فيها ميلا ولا عوجا، كل فارس منهم على فرسه كالجبل الراسي إذا تحرك، فكأنما إرادة واحدة تتحرك، فالفرسان إذا تحركت فهي خيل مقبلة، والخيل إذا أقبلت فهي فرسان مهاجمة، وانتظم السلك فإذا الجيش سلسلة تطوق جوانب الوادي، أعلاها نحاس براق

وحديد صقيل، وأسفلها حوافر الخيل المتوثبة تضرب الأرض وهي قلقة إلى النضال؛ ثم دقت الكؤوس، وأمر القائد بالهجوم، فإذا بهذه السلسلة المستوية تنحدر إلى الوادي صاخبة داوية راعدة، ولكنها مع ذلك متماسكة مستوية حتى بلغت الجانب الآخر من الوادي، وكانت جموع التتار عنده تنتظر الهجوم لتجد عنده النصر الذي اعتادته في مصافها؛ واهتزت صفوف السلسلة المستوية عند الاصطدام كما تهتز الأسطوانة الطاحنة إذا صدمها حجر صلد؛ غير أنها لم تقف وأبطأ سيرها وخفت جريتها؛ ولكنها لم تنشعب ولم ترتد

وعلت قعقعة الحديد، واختلطت ضجة الأصوات، وارتمى البعض عن البعض، وتدحرجت الأجزاء عن الأجزاء

وكانت ساعة تشيب لهولها الولدان؛ ثم ازدادت سرعة السلسلة كأنها قد اجتاحت العقبة التي عاقت سبيلها؛ واندفع جيش مصر مرة أخرى وراء فلول منهزمة من التتار

تجري فزعة في غير نظام نحو بيسان في أسفل الوادي
فلقد حطمت الجيوش المصرية جموع التتار المخيفة لأول مرة في تاريخها منذ خرجت على العالم تذيقه العذاب والويل؛ وكانت وقفة مصر في عين جالوت حماية للإسلام والمدنية والإنسانية

محمد فريد أبو حديد

تحية العام الجديد:

آمال وآلام

للأستاذ محمود غنيم

شُقَّ الفضاَء بنورك المُتَجدِّدِ ... يا ليت شِعري ما تُخَبِّئُ في غدِ
ولقد مضى عامٌ عرفتُ صروفَه ... وعَييتُ بالغيب الذي لم يُوجَد
وَصَدُوا النجومَ ورحتُ أرصُد شيخها ... شيْخَ النجوم الزهرِ علَّكم مُرْشِدي
يا ابن الظلام أما تعبتَ من السُّرى ... أبداً تروحُ على الأنام وتغتدي
شيبتَ ناصيةَ القرون ولم تزل ... طفلاً تُطالعُنا بوجهٍ أمردِ
تمضي الحياةُ فلا تعودُ إذا مضت ... وأراك تختتم الحياة وتبتدي
حتَّامَ تضربُ في الدياجي هائماً ... تهدي الأنامَ ولا إخالُكَ تهتدي
رَقَدَ الأنامُ خليُّهم وشجيُّهم ... وظلِلْت وحدك ساهراً لم ترقد
ولقد حسبتُكَ بالسلام مبشِّراً ... فبرزتَ مثل الخنجر المتجرِّد
الشرق مُضطَرِمُ الجوانح ثائرٌ ... والغربُ يهدِر كالخضمِّ المزبد
إني أرى ناراً أُعِدَّ هشيمُها ... وثقابُها لكنها لم تُوقد
عامٌ وآخرُ مقبلٌ ومودعٌ ... شيَّعتُ نعشاً واحتلفتُ بمولِد
ولىَّ القديمُ فما ظفرتُ بطائلٍ ... وأتى الجديدُ فهل تُرى هو مُسعدي
ولقد تشابهت السنونَ كأنني ... ما عشتُ عمري غيرَ عامٍ مفرد
قالوا عجبنا ما لشعرك نائحاً ... في العيد ما هذا بشَدْوٍ معيَّد
ما حيلةُ العصفور قصُّوا ريشه ... ورَمَوْهُ في قفصٍ وقالوا غرِّد
يا ليت شعري يا هلالُ أعائدٌ ... للمسلمين بنصرِ دين محمد
أتعيدُ للجُمُعات سابق عهدها ... أتعيد للإسلام مجد المسجد
أدركتَ عهدَ الراشدين (بيثرب) ... وحسدتها بين النجوم الحسَّد
وشهدتَ دولة (عبد شمس) حينما ... بلغ (الوليدُ) بها عنان الفرقد
ولقد طلعتَ على بني العبَّاس إذْ ... جلس (الرشيدُ) مع السُّها في مقعد
لهفي عليها دولةً قد أوشكت ... تمتدُّ حتى سِاحل المتجمِّد
للشرق ماضٍ كلّما عرضت له ... ذكراهُ يزفر زفرَة المتنهِّد
الشرق يأمُل أن تحَلَّ وثاقه ... جرت الشعوب وسار سير المقعد
لهفي عليه منسَّبًا لم يُجْدِهِ ... طيبُ النجار ولا كريمُ المحتد
بتنا نعيش على حساب جدودنا ... هيهات ليس الحرُّ كالمستعْبَد
أين الجبالُ من التلال أو الربى ... أين القويُّ من الضعيفِ القُعْدَد
لا القوم منِّي لا ولا أنا منهمُوُ ... إن لم أُفْقِهُمْ في العلا والسؤدد
كان الجدودُ لهم شَرًى يأوُونَهُ ... ولنا وكورٌ من يَردْها يَصْطَد
كانوا مغاوِرَ يعتدون على الورى ... فإذا بنوهم عرضةٌ للمعتدي
صالوا برمحٍ ذابلٍ ومهنَّدٍ ... عَضْبٍ ونعجز أن نصولَ بمِبرْد
أين الذي نظم الجيوش؟ من الذي ... نظمَ الكلامَ قلائدً من عسجد
قد كان همهم الفتوحُ وهمنا ... أن نغتذِى أو نرتوِى أو نرتدي
إرثٌ على يدنا تبدَّد شملُه ... يا ليت هذا الإرثَ لم يتبدَّد
يا من رأى أرضاً أُبيحَ حرامُها ... بالأمس كانت في قداسَةِ مَعْبَدَ
أُممٌ تباعُ وتُشترى في السوق مِنْ ... يَدِ سيَدٍ تمضي إلى يد سيد
الحرب حولَ الشرق شَبَّ أوارُها ... والشرق يرقبُ من يَقُدْهُ ينقد
ما لي أرى الشرقَ المهيضَ جناحُه ... رغم اتحاد الهم غيرَ موحَّد
وإذا تفرقت الشعوب مواقعاً ... وتقاربت غاياتها لم تبعد
ولقد تهان أمامنا جاراتُنا ... وشكاتهنَّ تُذيب قلبَ الجَلْمَد
فنرى ونسمعُ صامتين كأننا ... لم نستمعْ وكأننا لم نشهد

فإذا تحمسنا مَددْنا نحوَهُمْ ... كفَّ الدعاء وغيرها لم نَمْدُد
عذرا بني أعمامنا! أغلالنا ... قعدتْ بنا عن نجدة المستنجد
أعْزِزْ علينا أن نرى حيراتَنا ... يتَخَطَّفون ونحن مكتوفو اليد
من لي بجيل مستجَدٍّ لم يرثْ ... إلا عن الجدِّ القديم الأبعد
يرثُ (ابنَ هندٍ) في أصالة رأيه ... أو (خالداً) في عزمه المتوقِّد
لم يعتد الضيمَ الذي نعتادُهُ ... أَهْوِنْ بكلِّ أذًى على المتعوِّد
إن قام يثبتُ حقَّه فدليلُه ... قصفُ المدافع أو صليلُ مهنَّد
لا خير في حقٍّ يقالُ ومنطقٍ ... عذبٍ بحدِّ السيف غيرِ مؤيَّد
جيلٌ إذا سِيمَ الهوانَ أبى وإن ... يطلبْ إليه البذلُ لم يتردَّد
يهوى الحياة طليقةً ويعافُها ... ذلاًّ ويُدعى للفداءِ فيفتدي

كوم حماده

محمود غنيم

هجرة الرسل

للأستاذ عبد الوهاب النجار

لقد قتل الناس مسألة الهجرة النبوية بحثاً وغاصوا في أعماقها، ولم يتركوا زاوية من زواياها إلا أخرجوا خباياها؛ فأنا لا أريد أن أكتب على غرار ما كتب من قبل فأعيد ما بدائه غيري وأنا مولع بمعادة المعادات

والذي أريد أن أكتب هو هجرة الأنبياء الذين غبروا قبل رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم وأنه ليس بدعاً من الرسل عليهم الصلاة والسلام

أول الرسل الكرام هجرة هو نوح عليه السلام فكانت هجرته حياة له وهلاكا لأعدائه دعا نوح قومه إلى عبادة الله تعالى وترك عبادة غيره من الأصنام والأوثان وصار يغاديهم بالنصح ويراوحهم بالعظات ألف سنة إلا خمسين، وهم لا يزدادون منه إلا بعداً ونفوراً إلى أن ضاق صدره بما يلاقي منهم، ولم يجد باباً لهدايتهم إلا طرقه، ولا منفذاً لنصحهم إلا قصده، ولم يجد قومه باباً للنكاية به إلا ولجوه، ولا منفذاً لأغاظته إلا سلكوه. فتراهم يقولون له: (ما نرك إلا بشراً مثلنا؛ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي؛ وما نرى لكم علينا من فضل؛ بل نظنكم كاذبين) فهم يرون أن الرسالة لا تكون للبشر بل للملائكة، والهداية لا يمكن أن ينالها الفقراء وذوو الأعواز، ولكنها وقف على ذوي الوجاهة والقوة، وأن الذي يريد الله أن يصطفيه إنما يكون من أهل الثراء والغنى، ولقد رد عليهم نوح بقوله: إنه لا يسألهم على الهداية التي يزفها إليهم أجراً. فهو لا يجر بذلك لنفسه نفعاً ولا يحوز مالاً، وإنما يريد أجره من الله، ولم يقل لهم إن عنده خزائن الله وليس عنده شيء من علم الغيب، ولم يقل لهم إنه ملك، ولا يقول للذين تزدري أعينهم من أتباعه لن يؤتيهم الله خيراً وهو الهدى والاستقامة على الجادة، وأن علم ما في أنفسهم عند الله لا عنده إلى أن ضاق بالقوم وضاقوا به. فقالوا له ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين، ودعا نوح عليهم فقال: (رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً. إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً) فأنبأه الله أن العذاب سيحل بهم، وأمره ألا يخاطبه فيهم وأنهم مغرقون. وأوحى إليه أن يصنع الفلك لينجو بها من العذاب النازل بهم وليهاجروا بها عنهم

صنع نوح الفلك وكان قومه يسخرون منه وهو يسخر منهم لغفلتهم عن أنفسهم وتفريطهم

في حياتهم وعيرهم بعدم اتباعه إلى أن جاء أمر الله وفار التنور، وتفجرت ينابيع الأرض، وحلت عزاليها السماء، وجاء الطوفان وأبادهم بعد أن نزل نوح والذين آمنوا معه في السفينة، وسلك فيها زوجين اثنين من كل ذي حياة، وانتهت هجرته من الأرض بعد سنة وعشرة أيام بعد أن استقرت السفينة على الجودي. فكانت هجرته ميمونة عليه وعلى من معه في السفينة وهلاكا لأعدائه

لوط عليه السلام

آمن بعمه إبراهيم واستجاب إلى عبادة الله تعالى وهاجر مع عمه إبراهيم كما قال تعالى: (فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي) وقد جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال عن عثمان حين هاجر إلى الحبشة ومعه زوجه رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أول مهاجر إلى الله بأهله بعد لوط عثمان بن عفان

يعقوب عليه السلام
كان بيته وبين أخيه عيسو شيء من الخلاف، فهاجر إلى بلاد ما بين النهرين عند خاله لابان، ومكث عند خاله يرعى عليه غنمه، وتزوج من ابنتيه ليئة وراحيل، ومن جاريتيهما زلفى وبلها، ورزق منهن أولاده جميعا، وكانت هجرته خيراً وبركة عليه، فقد صار رب أسرة عظيمة كثيرة العدد، وأموال وماشية كثيرة وعاد إلى فلسطين بعد ذلك، وولد له في هجرته جميع أولاده إلا بنامين

يوسف عليه السلام

هاجر مرغما حين ألقاه أخوته في غيابة الجب، ثم التقطه بعض السيارة وأسروه بضاعة وباعوه في مصر بثمن بخس، واشتراه عزيز مصر أو رئيس الشرطة بعاصمة الديار المصرية، وهي مدينة صان في الشرقية، ثم امتحن بامرأة العزيز التي راودته عن نفسه فاستعصم، ثم بهتته في وجهه واتهمته بأنه راودها عن نفسه (وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قُبل فصدقت وهو من الكاذبين، وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين. فلما رأى قميصه قدّ من دبر قال) العزيز لها: (أنه من كيدكن؛ إن كيدكن عظيم)، والتفت إلى يوسف وقال له: (يوسف اعرض عن هذا)، والتفت إلى زوجه وقال:

استغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين - إلى أن بدا لهم من بعدما رأوا الآيات) وفي السجن ظهرت آيات فضله، وفسر لساقي الملك وخبازه ،(ليسجننه حتى حين مناميهما، وأوصى الذي ظن أنه ناج منهما أن يذكره عند ربه الملك فأنساه الشيطان ذكر ربه، فلبث في السجن بضع سنين إلى أن رأى الملك سبع بقرات سمان حسان يأكلهن سبع بقرات عجاف مهزولة، وسبع سنبلات خضر غلبتهن سبع سنابل يابسات، وحار العلماء والسحرة والعرافون في تفسير ذلك المنام فذكر الذي نجا من الفتيين شأن يوسف وتفسيره للمنام؛ فاستأذن الملك وأتى إلى يوسف واستفتاه فيما رآه الملك. ففسر له الرؤيا على وجهها، وجاء الساقي وقص القصص على الملك، وكان ما كان، إلى أن اصطفاه الملك لنفسه، وجعله على خزائن الأرض، ودبر أمر مصر إلى أن جاء سبع سنوات مخصبة خزن فيها ما زاد على الحاجة؛ ثم جاء السنين المجدبة ففتح مخازن الادخار، وأطعم الناس، وجاء أخوته فداعبهم ودبر عليهم تدبيراً حتى جاءوه بأخيه بنيامين، ثم عرفهم بنفسه وقال: (ائتوني بأهلكم أجمعين) فكانت هجرته القسرية وتغربه خيراً عليه وعلى أهله وعلى الناس أجمعين؛ ولولا تدبير الله وتدبيره لأمر الأغذية لهلك الناس

موسى عليه السلام - وهجرته

لا نريد أن نتكلم عن أولية موسى عليه السلام. وإنما نقول إنه نشأ في بيت فرعون عزيز الجانب؛ ولما بلغ مبلغ الرجال لم يخف عليه أنه دخيل في ذلك البيت وأنه من العنصر العبراني؛ وعرف العبرانيون ذلك فاستعزوا به وانتفعوا بجاهه

وسار في المدينة يوماً على حين غفلة من أهلها فوجد رجلين يقتتلان أحدهما عبراني من شيعة موسى والثاني قبطي من عدوه، فاستغاثة العبراني على القبطي، فأغاثه موسى وعمد إلى القبطي فوكزه فقضى عليه، وهو لم يرد قتله، وإنما أراد كف عاديته عن العبراني، ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها

لم يشاهد أحد هذه الحادثة سوى العبراني. وعاد موسى بالأئمة على نفسه وقطع على نفسه عهداً ألا يكون ظهيراً للمجرمين

ظهر أمر القبطي ولم يعلم قاتله. فلما كان اليوم الثاني خرج موسى في مثل ذلك الوقت فوجد ذلك العبراني بنفسه في معركة مع قبطي آخر يريد أن يسخره وهو يأبى، فاستغاثه

كما استغاثه بالأمس فقال له موسى أنك لغوي مبين. وأراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما ويكف عاديته عنه. فظن العبراني أنه إياه أراد. فقال له: يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين، وصالح القبطي واتخذ موسى خصما

حينئذ ظهر قاتل القبطي وهو موسى وانتهى الخبر إلى فرعون فاجتمع ملأ فرعون وقومه على قتل موسى. فجاء إليه رجل من آل فرعون من أقصى المدينة يسعى وقال له إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك، ونصح له بالخروج لينجو بنفسه فخرج من

المدينة خائفاً يترقب قائلاً رب نجني من القوم الظالمين
ولى وجهه شطر مَدْين على خليج العقبة. ولعلها كانت أقرب بلاد يجد فيها مأمنه لخروجها عن قبضة الحكومة المصرية - ولما كان خروجه على عجل لم يترو في الأمر ولم يأخذ معه زاداً ولا ما يساعده على قطع المسافة من مطية ولا رفقة له في هذا السفر الشاق ولا دليل لأنه إنما يريد أن ينجو بخيط رقبته. فلما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل. فحقق الله تعالى أمنيته وبلغ ماء مدين بعد الجهد الشديد والجوع المضي فوجد على الماء أمة من الناس يسقون ووجد امرأتين تذودان غنمهما عن الحوض، فلم يعجبه أن يتقدم أولو القوة ويتأخر المرأتان فسألهما عن شأنهما. فقالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء لأننا ليس بنا قوة على التقدم والمزاحمة، وأبونا شيخ كبير لا يقدر على رعي ماشيته ولا سقياها. فنحى الرعاء بما بقى له من فضل قوة وسقى لهما ثم تولى إلى الظل يشكو إلى الله حاجته إلى القوت وما به من مخمصة قائلاً: (رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير)
أراد الله أن يكافئ موسى جزاء توكله عليه وفعله الخير ابتغاء وجه ربه فلم يلبث أن جاءته إحدى المرأتين تمشي على استحياء حتى وقفت عليه وقالت له في خفر: (إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا)
لبى موسى الدعوة؛ وجاء إلى أبيها الشيخ وقص عليه قصصه. فقال له الشيخ لا تخف نجوت من القوم الظالمين
أرادت إحدى بنات الشيخ أن يقوم موسى عنهما برعي الماشية لأنه أقدر على ذلك لما رأته
من قوته في النزع بالدلو وأمانته إذ أخرها وقال لها اسعي ورائي وانعتي لي الطريق؛ فقالت لأبيها (يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين)
نشط الشيخ لما أشارت به ابنته، وطلب إلى موسى أن يستأجره ثماني حجج على أن يزوجه من إحدى ابنتيه؛ فإذا رضى أن يتم الثماني عشرا كان ذلك على أن يكون بالخيار في قضاء أحد الأجلين
تقول التوراة إنه بقى عنده إلى أن كانت سنه ثمانين سنة؛ والقرآن الكريم ليس فيه تحديد قاطع في المدة التي أقامها
والمهم في الأمر أنه لما قضى الأجل وصار حرا صادفه أن أبعد في الرعي وضل الطريق في ليلة مظلمة باردة؛ وحاول أن يقدح نارا فصلد زنده ولم يور نارا؛ وبعد لأي (آنس من جانب الطور نارا فقال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بخبر أو أجد على النار هدى). فلما جاء إلى النار نودي (يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك انك بالوادي المقدس طوى؛ وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى أنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري) وبعد حوار أرسله الله نذيرا إلى فرعون وملئه لإخراج بني إسرائيل؛ فكان ما كان مما قصه القرآن من شأنه مع فرعون وشأنه مع بني إسرائيل؛ فكانت هجرته خيرا وبركة عليه وعلى بني إسرائيل؛ كما أجاب فرعون بقوله (ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين)
هجرة داود عليه السلام
هو داود بني يسي من سبط يهوذا. كان له اخوة يحاربون الفلسطينيين مع طالوت الذي هو شاول أول ملك من ملوك بني إسرائيل. وكان في الفلسطينيين جندي جبار اسمه جالوت قد هابته الأبطال وتحامت الشجعان لقاءه خوف الهلاك
وكان لداود اخوة في الحرب؛ فأرسله أبوه بطعام لاخوته ولينظر حالهم ويعود إلى أبيه بما يطمئنه عليهم. فبينا هو سائر إلى اخوته نظر في البرية إلى أحجار ملس راقته فوضعها في كنفه (الكنف كيس الراعي) ولما ذهب إلى اخوته والحرب على قدم وساق نظر إلى الفلسطيني وهو يعير بني إسرائيل إحجامهم عنه، فاستشاط الفتى داود غضبا وسأل ما الذي يناله من قتل هذا الأغلف الفلسطيني. فأجيب بأن الملك يغنيه ويغدق عليه ويزوجه ابنته
ويجعل بيته أكبر بيت في إسرائيل. فذهب إلى الملك واستأذنه في لقاء جالوت فضن به الملك أن يقتل في غير فائدة وهو صغير السن لا يقوى عليه. فقال له داود: إن عبدك (يعني نفسه) قتل أسدا تعرض لغنم أبي وقتل دبا أيضا. فأذن له وأعطاه لأمة حربه فلم يحسن داود المشي فيها فخلعها وذهب إلى جالوت بمقلاعه وأحجاره. وقد

هزأ منه جالوت ونصحه أن يعود من حيث أتى فلم يفعل، ووقف قبالته ووضع حجرا من تلك الأحجار في المقلاع رماه به فارتز الحجر في جبهة جالوت وخر لليدين وللفم، فأخذ داود سيف جالوت وفصل رأسه به وجاء به إلى الملك وانهزم الفلسطينيون شر هزيمة

ولكن طالوت ضن على داود بابنته التي وعد أن يزوجها من قاتل جالوت وزوجه من ابنة له أخرى وقدمه على رؤساء جنده

تغير بعد ذلك طالوت لداود وعمل على إهلاكه بيد الأعداء خوفا من أن يوليه بنو إسرائيل الملك، فكان يكلفه بالقدوم إلى الحرب وكان داود يظفر دائما. فعمد إلى إهلاكه بنفسه، ونجا داود منه مرات وهو يتبعه في كل مكان، وتمكن داود من قتل الملك مرات ولكنه لم يفعل ويخبره بتمكنه من قتله وأنه أبقى عليه، فيندم الملك ثم يعاوده خوفه على الملك فيطارده إلى أن خرج داود من ملك إسرائيل وأقام مع الفلسطينيين برضاء ملكهم إلى أن قتل طالوت وابنه. فجاء إلى قرية أربع وهي مدينة الخليل وبويع فيها بالملك. وكان لطالوت ولد بويع بالملك أيضاً إلى أن قتل ابن طالوت الملك وانفرد داود بالملك واشترى قلعة صهيون التي عند باب الخليل وسماها مدينة داود، ثم اشترى جبل الموريا الذي عليه الحرم القدسي ومدينة أورشليم القديمة المعلومة اليوم بأسوارها وحدودها

وفي أواخر أيام داود نزا على الملك ولده ابشالوم وبايعه العدد العظيم من بني إسرائيل. ورحل داود إلى شرق الأردن وجلس ابشالوم على كرسي الملك وحارب أباه فقتل أبشالوم وعاد داود إلى مقر ملكه. فهاتان هجرتان لداود وكانت العاقبة له على خصومه فيهما

هجرة المسيح عليه السلام

أما المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام فله هجرة ليست كهجرة سائر الأنبياء الذين هاجروا من بلادهم

ذلك أنه لما ولد كان هناك مملك من قبل الرومان أخبر أن ملك اليهود ولد في بيت لحم،

فجد في قتل الأولاد الذين ولدوا في بيت لحم في تلك الأيام. فأمرت مريم بأن تهاجر بابنها ومعها خطيبها يوسف النجار فذهبت إلى مصر وأقامت فيها مدة قيل إنها كانت سبع سنين أو أقل، إلى أن أمرت بالرجوع إلى فلسطين، لأن الذي كان يطلب نفس ولدها قد هلك، فعادت

وهذه الهجرة نص عليها في إنجيل متي وإنجيل برنابا ولا وجود لها في سائر الأناجيل الثلاثة الأخرى المعروفة؛ فهجرة المسيح كانت تابعة لهجرة أمه خوفاً عليه ولم تكن بإرادته

محمد عليه السلام

من ذلك كله نرى أن محمداً لم يكن بدعا من الرسل الذين هاجروا من قبل، فقد جاهد جهاد الأبطال في إذاعة دعوته بين الناس، وقد أوذي في الله تعالى هو وأتباعه. حتى إذا لم يبق في قوس تصبرهم منزع سهل الله تعالى إسلام أهل المدينة فأقبلوا على الدين بمحض اختيارهم، حتى إذا كثروا جاءوا إليه وبايعوه على النصرة، فأذن لأصحابه في الهجرة وبقى هو وأبو بكر وعلي والمستضعفون. فلما مكر به كفار مكة ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه وصحت منهم العزيمة على ما بيتوا، أمره الله تعالى بالهجرة (وكان أبو بكر يعد لها العدة) فامتثل الرسول أمر ربه وأذن أبا بكر بذلك ففرح وحاول أن يدعوا صهيب بن سنان للسير معهما فلم يقدر له ذلك، وخرجا إلى غار ثور فأقاما به ثلاثا. وقد جهد كفار قريش في العثور عليهما فصرفهم الله عن ذلك، وقد كانا منهم قاب قوسين أو أدنى؛ ثم ذهبا إلى المدينة بعد أن هدأ الطلب يدل بهما عبد الله بن اريقط وهو على شركه إلى أن وردا قباء ثم المدينة هاربين بدينهما. فبدل الله خوف رسول الله والمؤمنين أمنا، ومكن لهم في الأرض، وأرى كفار قريش منهم ما كانوا يحذرون، وأتم الله نعمته على أهل الإسلام، مكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم إلى أن مضى رسول الله لسبيله، وقام خلفائه من بعده يحملون عبء تبليغ الرسالة والتمكين للدين؛ وانتشر الإسلام شرقا وغربا؛ وكانت الهجرة على رسول الله وأمته خيرا وبركة كما كانت هجرة الأنبياء خيرا وبركة عليهم من قبل؛ ولله عاقبة الأمور؛ لا مبدل

لكلماته، ولا معقب لحكمه؛ وهو العزيز الحكيم
عبد الوهاب النجار
الأزهر والحياة الفكرية في العصر الفاطمي
للأستاذ محمد عبد الله عنان
عرضت لنا من قبل فرصة للتعريف بنشأة الأزهر الجامعية، وكيف أنه أنشئ في البداية ليكون مسجداً رسمياً للدولة الفاطمية، ثم نشأت صفته الجامعية في ظروف عرضية، ولم تلبث أن استقرت بعد ذلك وتأثلت؛ وذكرنا ما كان للوزير ابن كلس من كبير أثر في إسباغ هذه الصفة العلمية الجليلة على الأزهر، وكيف أنه يعتبر منشئ الجامعة الأزهرية في معنى من المعاني
والآن نذكر طرفا من الآثار الفكرية التي ترتبت على قيام هذه الجامعة الإسلامية الكبرى في عصرها الأول، أعني في العصر الفاطمي، ونذكر أيضاً بعض أعلام التفكير في هذا العصر ممن تولوا التدريس في هذا المعهد الجليل أو تخرجوا فيه أو اتصلوا به وبحلقاته اتصالاً كان له أثر في تكوينهم الفكري والعلمي
لم تبلغ العلوم والآداب في ظل الدولة الفاطمية من التقدم والازدهار ما كان خليقا أن تبلغه في ظل هذه الدولة القوية الباذخة؛ ذلك أن الدولة الفاطمية كانت لظروفها الدينية والسياسية ترمي إلى الإنشاء في كل شيء، ولم ترد أن تقوم على تراث الماضي أو أن تستأنف السير به؛ ولم يمد لها في عهد الإنشاء الفتي، فلم يأت منتصف القرن الخامس حتى سرت إليها عوامل الانحلال والوهن
وقد كان هذا شأن الحركة الفكرية، فإنها لم تلبث طويلاً في قوتها وازدهارها. وكان الأزهر، وهو يومئذ إلى جانب دار الحكمة والمسجد الجامع، من صروح الحركة الفكرية، يتبع مصاير هذه الحركة من قوة وضعف، فلم يبلغ في هذا العصر، - عصر الإنشاء والنمو - ما بلغه في العصور التالية من التقدم والأخذ بزمام الحركة الفكرية؛ ومن ثم فإنا لا نستطيع أن نحصي في هذه المرحلة من تاريخ الجامع الأزهر كثيراً من الأعلام الذين تخرجوا في حلقاته أو درسوا فيها. والواقع أنه من الصعب أن نعين بالتحقيق من تخرج في الأزهر من أعلام التفكير والأدب في هذا العصر، وإن كنا نستطيع أن نعين بعض الأساتذة الذين تولوا التدريس في حلقاته؛ ذلك أن الأزهر لم يكن ينفرد يومئذ بتنظيم الدراسة العالية، بل كان إلى جانبه دار الحكمة تنافسه وتتفوق عليه أحياناً، والمسجد الجامع
يحتفظ دائماً بحلقاته القديمة؛ ومن المرجح أن معظم العلماء والأدباء الذين ظهروا في هذا العصر كانوا ينتفعون بالدرس في المعاهد الثلاثة، ومن المرجح أيضاً أن الأزهر كان له في تخريج أولئك العلماء والأدباء أوفر نصيب، لأن دار الحكمة لم تتمتع دائماً بكثير من الثبات والاستقرار، وقد أغلقت فيما بعد؛ ولم يكن المسجد الجامع معهداً منتظماً للدرس، وكان الأزهر أكثر المعاهد الثلاثة انتظاماً واستقرارا
كان في مقدمة الأساتذة الذين تولوا التدريس والإقراء بالأزهر منذ إنشائه بنو النعمان قضاة مصر؛ فكان القاضي أبو الحسن علي بن النعمان أول من درس بالأزهر، فعقد أول حلقاته في صفر سنة 365هـ وقرأ فيها مختصر أبيه في فقه آل البيت، وكان فوق تضلعه في فقه آل البيت أديباً شاعراً، وتوفي سنة 374هـ؛ ودرس بالأزهر أيضاً أخوه القاضي محمد بن النعمان المتوفى سنة 389هـ، ثم ولده الحسين بن النعمان قاضي الحاكم بأمر الله؛ ومن المرجح أن فقيه مصر ومؤرخها الكبير الحسن بن زولاق (المتوفى سنة 387هـ) كان بين الذين تولوا الدرس بالأزهر يومئذ، فقد كان صديق المعز لدين الله ومؤرخ سيرته، ثم صديق والده العزيز، ومن المعقول أن يقع الاختيار عليه للتدريس بالمعهد الفاطمي الجديد
ويجب ألا ننسى أن الوزير ابن كلس نفسه كان في مقدمة العلماء الذين تولوا التدريس في الأزهر. وقد رأينا في بحثنا السابق كيف كان هذا الوزير العلامة أيام العزيز بالله يعقد حلقاته الدراسية أحياناً بالأزهر وأحياناً بداره، ويقرأ فيها محاضراته في الفقه الشيعي ولاسيما رسالته الشهيرة المعروف (بالرسالة الوزيرية) وقد كانت من أقدم كتب الدراسة التي درست بالأزهر
ونستطيع أن نذكر من أعلام التفكير والأدب في هذا العصر عدة، وهم بلا ريب ممن كان للأزهر في تكوينهم العلمي أثر كبير؛ فمنهم المسبحي الكاتب والمؤرخ الأشهر،

وهو الأمير المختار عز الملك محمد بن عبد الله بن أحمد الحراني، ولد بمصر سنة 366هـ وتوفي سنة 420؛ وكان من أقطاب الأمراء ورجال الدولة الفاطمية؛ وتولى الوزارة للحاكم بأمر الله ونال حظوة لديه؛ وأخذ بقسط وافر في مختلف علوم عصره، وشغف بتدوين التاريخ، وألف فيه عدة كتب منها تاريخه الكبير المسمى (أخبار مصر) وهو تاريخ مصر ومن حلها من الولاة والأمراء والأئمة والخلفاء وما بها من العجائب والأبنية، وذكر نيلها وخواصها
ومجتمعاتها حتى فاتحة القرن الخامس الهجري. ولم يصلنا هذا الأثر الضخم الذي يلقي بلا ريب أعظم الضياء على تاريخ الدولة الفاطمية في عصرها الأول، ولكن الشذور التي وصلتنا منه على يد المقريزي وغيره من المؤرخين المتأخرين، تنوه بقيمة هذا الأثر ونفاسته؛ وكتب المسبحي كتباً أخرى في التاريخ والأدب والفلك ولكنا لم نتلق شيئاً منها

ومنهم، القضاعي الفقيه والمحدث والمؤرخ؛ وهو أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي؛ ولد بمصر في أواخر القرن الرابع، وتوفي بها سنة 454هـ: كان من أقطاب الحديث والفقه الشافعي؛ وتولى القضاء وغيره من مهام الدولة في عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي، وأوفده المستنصر سفيراً إلى تيودورا إمبراطورة قسطنطينية سنة 447هـ (1055م) ليحاول عقد الصلح بينها وبين مصر، وكتب عدة مصنفات في الحديث والفقه والتاريخ منها (الشهاب) و (مسند الصحاب) وهما في الحديث وكتاب (مناقب الإمام الشافعي)، و (أنباء الأنبياء وتواريخ الخلفاء)، و (عيون المعارف) وهما مختصران في التاريخ، وكتاب (المختار في ذكر الخطط والآثار) وهو تاريخ مصر والقاهرة حتى عصره

ومنهم الحوفي النحوي اللغوي، وهو أبو الحسن علي بن إبراهيم ابن سعيد كان من أئمة اللغة في عصره، واشتغل أعواماً طويلة بالتدريس في مصر والقاهرة، وألف كتباً كثيرة في النحو والأدب منها كتاب (إعراب القرآن) وكانت وفاته سنة 430هـ

ومنهم أبو العباس أحمد بن علي بن هاشم المصري، وقد كان من كبار المحدثين والمقرئين، واشتهر حيناً بتدريس علم القراءات وتوفي سنة 445هـ

ومنهم ابن بايشاذ النحوي الشهير، وهو أبو الحسن طاهر ابن أحمد المصري المعروف بابن بايشاذ، كان إمام عصره في اللغة والنحو، وألف فيهما عدة تصانيف ضخمة، واشتغل حيناً بديوان الإنشاء في عهد المستنصر بالله، وتوفي سنة 469هـ

ومنهم أبو عبد الله محمد بن بركات النحوي، تلميذ القضاعي، كان أيضاً من أئمة اللغة والنحو، وتوفي سنة 520هـ

ومنهم الفقيه العلامة الحسن بن الخطير الفارسي، كان من أقطاب الفقه الحنفي والتفسير، وكان أيضاً عارفاً بالرياضة والطب وعلوم اللغة والتاريخ، وله عدة مصنفات في التفسير والفقه، واشتغل زمناً طويلاً بالتدريس بالأزهر، وتوفي سنة 598هـ

هذا وأما أعلام الوافدين على القاهرة وأزهرها في ذلك العصر فنستطيع أن نذكر منهم عدة أيضاً. منهم العلامة الأندلسي أمية ابن عبد العزيز بن أبي الصلت، وفد على مصر في أوائل القرن السادس أيام الأفضل شاهنشاه، وأقام حيناً بالقاهرة يتصل بمعاهدها وعلمائها وأدبائها؛ وكان ماهراً في الرياضة والفلك والموسيقى والعلوم الطبيعية، وكان أيضاً أديباً شاعراً بديع النثر والنظم؛ ألف كثيراً من الكتب في مختلف العلوم، ووضع رسالة عن علماء مصر وأدبائها في هذا العصر، وتوفي سنة 528هـ

ومنهم العلامة المقرئ الشهير أبو القاسم الرعيني الشاطي الضرير، ولد بشاطبة من أعمال الأندلس في سنة 538هـ، وبرز في علوم القرآن، واشتهر بالأخص بالتضلع في علم القراءات، وقدم إلى مصر عقب سقوط الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية (سنة 572هـ) يسبقه صيته، وتصدر للأقراء والدرس بالقاهرة يدرس القرآن وعلوم اللغة، فهرع إليه الطلاب من كل صوب، وكان إمام القراءات في عصره. ووضع في علم القراءات قصيدته الشهيرة المسماة (حرز الأماني ووجه التهاني)، وأنشأ بمصر مدرسة حقة للقراءات؛ وتوفي سنة 590هـ

ومن الشعراء الذين وفدوا على مصر أيام الدولة الفاطمية، واتصلوا بمعاهدها وأدبائها، أبو حامد بن محمد الانطاكي، المعروف بأبي الرقعمق الشاعر المتفنن الماجن، وفد على مصر في أوائل الدولة ومدح المعز لدين الله وولده العزيز والوزير ابن كلس

وتوفي سنة 399هـ؛ وأبو الحسن علي بن عبد الواحد البغدادي المعروف بصريع الدلا، قدم إلى مصر أيام الحاكم بأمر الله ومدحه، وتوفي سنة 412هـ وهو صاحب المقصورة الهزلية الشهيرة التي يعارض فيها مقصورة ابن دريد؛ ومنهم الشاعر الأشهر عمارة اليمني، وهو أبو محمد عمارة بن أبي الحسن، قدم إلى مصر سنة 550هـ في خلافة الفائز بن الظافر، وكان فقهياً أديباً شاعراً فائق النثر والنظم، شهد سقوط الدولة الفاطمية ورثاها، واتهم بالتآمر مع آخرين على السلطان صلاح الدين، وأعدم سنة 569هـ، ومن آثاره كتاب أخبار اليمن، وكتاب النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية

ومن الرحل الذين وفدوا على مصر في ذلك العصر، الرحالة الفارسي ناصري خسرو، قدم إليها سنة 439هـ في خلافة المستنصر بالله، وشهد أزهرها، وأشار إليه خلال وصفه

لمدينة القاهرة

كان للأزهر بلا ريب أثره في توجيه الحركة الفكرية المصرية في هذا العصر، فقد كان مذ بدأت مهمته الجامعية موضع الرعاية الرسمية. كان يشترك في عقد حلقاته الدراسية أقطاب العلماء من رجال الدولة، كبني النعمان قضاة مصر، والوزير ابن كلس، وداعي الدعاة؛ وكانت هذه العناية تسبغ على حلقاته ودروسه أهمية خاصة؛ بيد أن هذا الأثر كان محدوداً، خصوصا منذ قيام دار الحكمة، جامعة الدولة الرسمية، وتبوئها مقام الزعامة في توجيه الحركة الفكرية؛ وقد كان أثر الأزهر أقوى وأشد ظهوراً في نشر العلوم الدينية، وتخريج علماء الدين، لأنه كما قلنا كان موئل الثقافة الدينية، بينما كانت دار الحكمة موئل الثقافة المدنية؛ وعلى أي حال فإن مؤرخ الآداب العربية لا يسعه إلا أن ينوه بما كان للأزهر من أثر في سير الحركة العلمية والأدبية أيام الدولة الفاطمية، وان كان هذا الأثر لم يبلغ يومئذ ما بلغه فيما بعد من الأهمية والخطورة

ونلاحظ من جهة أخرى أن أثر الأزهر في توجيه الحياة العامة في تلك المرحلة الأولى من حياته لم يكن عظيما. ذلك أن الدولة الفاطمية كانت تحرص على سلطانها السياسي أشد الحرص وتمعن في التمسك بعصبيتها، ولا تفسح كبير مجال لنفوذ العلماء ورجال الدين، ولم تكن عنايتها بنشر دعوتها الدينية إلا توطيداً لدعوتها السياسية، ولم يكن للدعاة من العلماء ورجال الدين من النفوذ المستقل إلا ما يتجه نحو هذه الغاية ويخضع لسياسة الدولة العامة. كذلك لم يكن للفقهاء والمتشرعين المستقلين كبير أثر في سير التشريع في ذلك العصر، لأن الدولة الفاطمية كانت تهتدي في صوغ شرائعها بمبادئها المذهبية الخاصة، ومن ثم فإنا لا نستطيع أن نلمس أثراً يذكر لرجال العلم والدين في توجيه الشؤون العامة في العصر الفاطمي

محمد عبد الله عنان

الفتوح الإسلامية وأثرها في تقدم المدنية

للدكتور حسن إبراهيم حسن

إذا حاولنا أن نذكر في هذه الكلمة ما كان للحكومات الإسلامية من أثر في تقدم المدنية، ولم يكن ذلك إلا تكراراً لأمر قد فرغ منه منصفو المؤرخين شرقيين وغربيين اتسعت رقعة الإسلام حتى زادت في السعة على الإمبراطورية الرومانية. وكان الرسول عليه الصلاة والسلام أول من وضع أساس السياسة الخارجية للعرب، فأرسل الكتب والبعوث إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى توحيد الله والإيمان برسالته، وغزا بلاد الروم وحارب الغساسنة على حدود الشام لما سخروا من دعوته واعتدوا على رسله وقتلوا أصحابه. وقد جهز قبل وفاته حملة لغزو أطراف الشام. غير أن وفاته قد حالت دون إنفاذها. ولما ولي أبو بكر الخلافة شرع في إتمام هذا الفتح؛ وجاء بعده عمر فعمل على توسيع رقعة الدولة الإسلامية. وإذا ما تتبعنا ما قام به الرسول من الغزوات والسرايا، وما قام به الخلفاء من بعده من الفتوح، وجدنا أنه كان لهذه الغزوات والفتوح أثر كبير في نهضة بلاد العرب من النواحي الاجتماعية والسياسية والأدبية وغيرها، كما كان لها الفضل الأكبر في نشر الإسلام في أرجاء الجزيرة العربية، ووضع الأسس والمبادئ العامة في تنظيم المعاملات بين أفراد الجماعة الإسلامية. ذلك أن الإسلام قد حرص على أواصر القرابة من أن تعبث بها الغيرة، كما سوى بين

المرأة والرجل في جميع الحقوق تقريباً، وأحل الوحدة الدينية محل الوحدة القومية، وحث على التمسك بالفضائل، وعني بأسرى الحروب أيما عناية، وحاطهم بسياج من عدله ورحمته. ولم يذكر لنا التاريخ أن إماما من أئمة المسلمين أمر بقتل الأسرى، اللهم إلا من كان يخشى خطره على المسلمين. ولا غرو فإن الإسلام قد سوى بين الناس على اختلاف أجناسهم؛ فسوى بين الأبيض والأسود، والبدوي والمتحضر، والحاكم والمحكوم، وبين الرجال والنساء. انظر إلى المسلمين وهم في مسجد يؤدون فريضة الصلاة، أو في مكة يحجون البيت الحرام، أو في المحاكم الشرعية في صدر الإسلام، أفتجد فيهم من فاضل ومفضول؟ وقد ساعد الرسول على توحيد كلمة العرب تلك الديمقراطية التي جاء بها الإسلام، والتي تلاشت أمامها هذه الفوارق الجنسية التي طالما مزقت شمل العرب، وليس أدل على تلك الديمقراطية من قوله تعالى: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا. أن أكرمكم عند الله أتقاكم)، وقوله عليه الصلاة والسلام: (ليس للعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى)

ولقد وضع الإسلام من الأصول والنواميس ما هو كفيل بالقضاء على الاسترقاق، لولا أن الأمم العربية وغيرها كانت إذ ذاك - على ما نعلم - من شدة التمسك بهذا النظام. وبدهي أنه لا يستطيع الرسول عليه الصلاة والسلام أن يزيل أمرا ألفته النفوس واستولى عليها ذلك الاستيلاء، على أن هذا الاستيلاء لم يغفل تعبيد الطريق لإلغاء الاسترقاق، فما فتئ الرسول يرغب الناس في العتق. وقد أبقى عليه الصلاة والسلام الرق لسببين:

أولهما: حفظ التوازن بين الدولة الإسلامية وغيرها من الدول كالفرس والروم، حتى يستفيد العرب من أسرى الأمم، كما استفادت هذه الأمم من أسرى العرب

وثانيهما: لحماية الضعفاء من نساء أكلت الحرب رجالهم، ولو تركن وشأنهن لكن عالة على المجتمع ومصدرا للشرور

على أن الإسلام، وإن لم يجد بداً من إباحة الرق، فأنه لم يترك الأرقاء هملا، فقد نظم شؤونهم، وأخذ بأيديهم في طريق الحرية. وقد وصف أحد الفرنجة معاملة الإسلام للرقيق بقوله: (لقد وضع للرقيق في الإسلام قواعد كثيرة تدل على ما كان ينطوي عليه محمد وأتباعه نحوهم من الشعور الإنساني النبيل، ففيها تجد من محامد الإسلام ما يناقض كل المناقضة الأساليب التي كانت تتخذها إلى عهد قريب شعوب تدعي أنها تمشي في طليعة الحضارة. نعم! أن الإسلام لم يلغ الرق الذي كان شائعاً في العالم، ولكنه عمل كثيرا على تحسين حال الرقيق، وأبقى الأسر، ولكنه أمر بالرفق بالأسير. ومما يدل على صحة هذا القول أنه لما جيء بالأسرى بعد غزوة بدر الكبرى فرقهم الرسول على أصحابه وقال لهم استوصوا بهم خيرا)

وعندما بسط الإسلام ظلاله خارج الجزيرة وجدنا أهل هذه البلاد المفتوحة يرحبون به بل ويحثون على اعتناقه لما فيه من الحرية والمساواة؛ فكان العرب أثناء حكمهم بلاد فارس والشام ومصر وغيرها من البلاد يقومون بحماية أهلها مقابل مبلغ معين، يدفع عن كل فرد قادر على القتال يسمى الجزية، وهي ضريبة شخصية يدفعها أهل الذمة مقابل إعفائهم من خدمة الجيش؛ وكانوا يعفون من تلك الجزية إذا اعتنقوا الإسلام؛ وكانت الأرض ملكا

للفاتحين، غير أن العرب كانوا يتركونها للأهالي يزروعنها على أن يؤدوا جزءا من غلتها ضريبة عقارية تسمى خراجا

ولما استولى العرب على بلاد فارس والشام ومصر اتخذوا لأنفسهم طرازا للعمارة خاصاً بهم، يتناسب وطبيعتهم وحالة معيشتهم؛ وقد فاق هذا الطراز طراز الفن البيزنطي والفارسي من حيث الرقي وجمال التنسيق والإتقان. والعرب - كما لا يخفي - مولعون بالتقليد، كما أنهم معروفون بالابتكار المبني على هذا التقليد؛ وهم في ذلك أشبه بالأمة الإنجليزية. كذلك عني العرب بتخطيط المدن وشق المجاري لتوصيل الماء الصالح للشرب إليها. فشرعوا على أثر انتصارهم في موقعة القادسية (15هـ) في تخطيط مدينتي البصرة والكوفة، كما أسسوا على أثر فتحهم مصر مدينة الفسطاط وكان لاختلاط العرب بالأمم التي تغلبوا عليها أثر كبير في تقدم المدنية. فقد بلغت النهضة العلمية أوجها في صدر الدولة العباسية بفضل تشجيع المنصور والرشيد

والمأمون. فكانوا يبعثون البعوث للتنقيب عن الكتب القديمة في الكنائس والأديرة، وأرسل المأمون بعثات علمية إلى الهند والقسطنطينية لنقل الكتب النفيسة، ونشطت حركة الترجمة في ذلك العصر نشاطاً عظيما. فنقلت الكتب الفارسية والهندية والإغريقية إلى العربية، من بينها فلسفة أرسطو وهندسة أقليدس وجغرافية بطليموس، وغير ذلك من الكتب في الطب والفلك، وكان من أشهر المترجمين حنين بن اسحق، ويعقوب بن اسحق الكندي. وقد نهج الفاطميون والأيوبيون في مصر، وأمراء بلاد الأندلس في الغرب نهج العباسيين. كذلك اهتم العرب اهتماماً كبيراً بدور الكتب العامة حتى بلغ عدد المجلدات في مكتبة القاهرة في عهد الفاطميين خمسمائة ألف مجلد، وفي مكتبة قرطبة أكثر من أربعمائة ألف مجلد

ولم تقتصر علوم العرب على ما نقلوه من غيرهم. فقد فاقوا أساتذتهم من الفرس والإغريق، ولا غرو فقد شجع اتساع رقعة الدولة الإسلامية وانتشار التجارة فيها على رقي علم الجغرافية. ولا عجب فالعرب بدو رحل بطبيعتهم. ومن أشهر الرحالة من العرب المسعودي وابن جبير وابن بطوطة الذين طافوا الأقطار ووصفوا الجهات المختلفة وصفاً دقيقاً مبنياً على المشاهدات ومهدوا بذلك سبيل الكشف الجغرافي. كذلك اهتم العرب بعلم التاريخ فوضعوا فيه المؤلفات القيمة، كما نبغوا في الشعر والأدب. ولا غرو فقد أثرت فيهم

بلاغة القرآن، وساعدت مظاهر الحضارة المادية وجمال المناظر الطبيعية، وبخاصة في بلاد الأندلس على رقي الخيال ورقة الشعر، كما برع العرب في فن الغناء والعزف على الآلات الموسيقية، وممن نبغ منهم في الموسيقى والغناء اسحق الموصلي ببغداد، وتلميذه زرياب بقرطبة، حيث أسس مدرسة للموسيقى تخرج فيها كثير من مشاهير الموسيقيين

كانت الدول الإسلامية في المشرق ومصر وبلاد الأندلس مركز الفنون والصناعات، ومنار العلوم والآداب، في الوقت الذي كانت فيه أوروبا غارقة في بحار الجهل. وقد اتصل الأوربيون بالعرب واقتبسوا من علومهم واستفادوا من حضارتهم عن طريق مصر والشام أثناء الحروب الصليبية التي قامت في القرن الحادي عشر الميلادي فقد نزح إلى بلاد الأندلس طلاب العلم من أنحاء أوربا، فالتحقوا بمدارسها وجامعاتها، وانتفعوا بدور الكتب الكثيرة بها. فلما عادوا إلى بلادهم نشروا فيها علوم العرب. وبلغ من اهتمام الغربيين بالعلوم العربية أن أنشئوا في باريس في القرن الثاني عشر الميلادي مدرسة لتعليم اللغات الشرقية، وقد ظهر من الأوربيين علماء تشبعوا بعلوم العرب وطرق أبحاثهم. نخص بالذكر منهم العالم الإنجليزي رودجر بيكون الذي دعا الناس إلى دراسة العلوم الرياضة والطبيعية والاعتماد على التجارب للوصول إلى الحقائق العلمية، فبدأ الأوربيون يبحثون العلوم بحثاً علمياً كان له أثر عظيم في قيام النهضة العلمية. في أوربا ورقي الحضارة العربية. وقد نقل الأوربيون العلوم الطبية عن ابن زهر وابن البيطار، وعرفوا بصفة خاصة طرق معالجة الجدري والحصبة. وطالما كان يستدعي ملوك أوربا وأمراؤها الأطباء من العرب لمعالجتهم. وأسس الفرنسيون مدرسة للطب في مدينة مونبلييه قام بالتدريس فيها أساتذة من بلاد الأندلس؛ وكذلك استفاد الأوربيون من نبوغ العرب في الكيمياء. ولا تزال بعض المركبات الكيميائية، كالكحول والكافور والقلويات والأشربة تدل على أصلها العربي وقد أخذ الأوربيون عن المسلمين كثيراً من أنواع النبات، كالأرز، وقصب السكر، والخرشوف، والمشمش، والبرتقال والزعفران، وأنواع الورد والياسمين؛ كما أخذوا عنهم الطواحين الهوائية لطحن الغلال، ورفع الماء، وأقاموا أول طاحونة منها في مقاطعة نرمندية سنة 1105م، كما أقاموا غيرها في هولنده. ولا تزال سهول بلنسية في أسبانيا

تروى إلى الآن بطرق الري الفنية التي ابتكرها العرب. وقد نقل الأوربيون عن العرب كثيراً من الصناعات كصناعة السكر والحرير والورق كما عرفوا عنهم البوصلة التي كان لاستعمالها فضل كبير في توسيع نطاق الملاحة وتشجيع الكشف الجغرافي. وقد نبغ العرب في الفنون الحربية وصناعة السفن حتى أصبحوا أساتذة أوربا في ذلك المضمار. فكانت أساطيل الدول الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط نماذج تحتذيها البلاد المسيحية في صنع أساطيلها. ولا يزال كثير من الاصطلاحات العربية

البحرية شائعاً على ألسنة البحارة في جنوه حتى اليوم. من ذلك كلمة المحرفة عن لفظ حبل، وكلمة الإيطالية المحرفة عن لفظ دار الصناعة
ولم تقتصر استفادة الأوربيين من العرب على العلوم والصناعات، فقد تأثر طلاب العلم من الأوربيين بالأدب في أسبانيا، وبخاصة الشعر والموسيقى، فنقلوا إلى بلادهم أشعار العرب وأناشيدهم وأغانيهم مما كان له أثر كبير في الآداب الأوربية. ولا عجب فقد كان للعرب حلقة اتصال بين المدنية القديمة والمدنية الأوربية الحديثة

حسن إبراهيم حسن
أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية الآداب بالجامعة المصرية وكلية اللغة العربية بالجامعة الأزهرية

من مناظر الهجرة

أم سلَمة

بقلم ناجي الطنطاوي

- 1 -

(في البادية، قبل الفجر، أم سلمة ممتطية بعيراً وابنها في حضنها وأبو سلمة آخذ بخطام البعير يسوقه، في طريقهم إلى المدينة مهاجرين)

أم سلمة

حث المطي فأنني ... أخاف من القوم المكيدة والغدرا (أبا سلم)
إذا أدركونا اليوم كان نصيبنا الرّ ... دى وغدت هذي الرمال لنا قبرا
وإنيَ لا أخشى على نفسيَ الردى ... ولا أرهب الموت الزؤام ولا الأسرا
ولكن طفلي سوف يصبح إن أمت ... يتيماً، ويمسي طعم عيشته مرا
إذا صاح (أمي) لم يجد من يجيبه ... فتذري أحر الدمع مقلته الشكرى
لنسرعْ فإني قد شعرت بوحشة ... وذعر

أبو سلمة - ... دعي يا أم سلمة ذا الذعرا

ألم تعلمي أن المقدر كائن ... إذا عاندته النفس أعقبها خسرا
سننجو معاً إن يكتب الله نجوة ... ويلحقنا ضر إذا كتب الضرا
ألا في سبيل الله كل مصيبة ... إذا نزلت فينا ادَّرعنا لها الصبرا
ثقي أن ما نلقى من البؤس والضنى ... سيجعل رب العرش فيه لنا أجرا
دعانا إلى الدين القويم محمد ... فقلنا له لبيك رمت بنا خيرا
أطعنا وآمنا بك العمر كله ... فمرنا فإنا قد بذلنا لك العمرا
وقفنا على نصر النبي نفوسنا ... وأرواحنا لا نبتغي الحمد والشكرا
سلام على عهد بمكة سالف ... لهونا به لم نعرف الحزن والضيرا
نهاجر من أرض غذانا نميرها ... لو أنا استطعنا ما نوينا لها هجرا
فهل يكتب الله المؤمّل عودة ... لنا أم ستبقى في خيالتنا ذكرى

أم سلمة: أرى الطفل قد أغفى

أبو سلمة: لينعم بنومه=ولا توقيظه ريثما نقطع القفرا

أما ذاق طعم النوم بالأمس؟

لا

أذن دعيه ينم ما شاء ولنرقب الفجرا

(يتطلعان إلى السماء لرؤية الفجر، وبعد لحظة يسمعان جلبة وصوت حوافر خيل، وتعلو أصوات من حولهما قائلة:)

قفا

استسلما

إياكما أن تقدما سيقتل حالاً من عصى الأمر أوفرا

- أبو سلمة

وقفنا فمن أنتم؟

مطاعين من بني ال ... مغيرة قد سقنا لكم عسكراً مَجْرَا
دع حفظ نفسك أننا ... غلبنا عليها ما استطعنا لها قهرا (أبا سلم)
وضم إلينا أم سلمة مرغماً ... وإلا فإنا سوف نستصرخ السمرا

(يقف أبو سلمة حائراً، واثقاً أنه إذا أراد المقاومة، قتل هو وزوجته وابنه جميعاً بينما

(يتقدم القوم فينتزعون خطام البعير من يده ويأخذون أم سلمة
- أم سلمة
إلى أين؟ يا رباه! ماذا يراد بي؟ ... أيتركنا زوجي بأيدي العدا أسرى؟
أأفصل عنه وهو دوني ماثل ... يراني ولا يبدي حراكاً ولا أمرا؟
(يسحبونها ويسيرون بها)
دعوني يا رهط اللصوص فليس لي ... من العزم ما أرجو به لكم دحرا
شجاعتكم حين إذا هي أعلنت ... على امرأة مثلي مولهة حرى
أبادتكم بالشر أول مرة؟ ... أأضمرت طول العمر يوما لكم شرا؟
سألتكم بالله إلا عطفتم ... عليّ لعل الله يجزيكم خيرا
(يسخرون منها ويضحكون)
أقالت لعل اللات؟
إني سمعتها تقول لعل الله
أبلغ بذا كفرا!
لقد صبأت
لابد من قتلها إذن
أوافق
لا، فالسجن قبل بها أحرى
ستسجن حينا ثم تردى قتيلة
!. . .أم سلمة - ... حنانيكم يا قوم
لا تطلبي غفرا
(يمرون في طريقهم على بني عبد الأسد رهط أبي سلمة، فلا يكاد هؤلاء يعرفون
الخبر حتى يهجموا عليهم قائلين:)
على رسلكم يا عصبة الشر
ما لكم؟
ألم تأخذوا بالأمس صاحبنا قسرا؟
كذبتم لقد أمسى طليقاً
ولم ينل بسوء
إذن خلوا لنا طفله حرا
وما شأنكم بالطفل؟
ما شأننا به؟ وهل ينتمي إلا إلى أمه الكبرى؟
(يهجمون عليهم، ويتجذابون سلمة حتى يأخذوه بعد أن تخلع يده ويذهبون به)
- أم سلمه (تصيح)
أغثني يا ربي وهب لي مخرجا ... من البؤس وارفع عني السوء والضرا
(يغمى عليها)
- 2 -
(بعد عام كامل، أم سلمة جالسة وحدها بالأبطح في حي بني المغيرة تبكي وتقول)
- أم سلمة
- سقى الله عهداً غاله الدهر لم يكن ... سوى حلم عذب شهي بنا مرا
شربنا به كاس المسرة والصفا ... ورفرف طير الحب من فوقنا دهرا
ولم نك ندري فيه ما لوعة النوى ... وما حرقة الحزن التي تقصم الظهرا
أحن إلى أهلي حنين موله ... وقد ينقضي يوم فأحسبه عشرا
ألا هل أرى زوجي وطفلي قبلما ... أموت وألقى في الثرى جسداً قرا
لقد نفد الدمع الذي كان سلوتي ... فمن لي بدمع يذهب الشجن المرا
أقول لقلبي والأسى يتبع الأسى ... هداديك قد أفنيت شطراً فدع شطرا
اذكرني فإني مقيمة ... على العهد لا أنساك صبحا ولا عصرا (أبا سلم)
أعندك أني منذ عام سجينة ... أقاسي من الآلام ما يصدع الصخرا
وأني لا أدري إلام يطول بي ... عذابي، أيوما بعد عامي أم شهرا
إلى الله أشكو ما ألاقي من الأسى ... ومنه أرجى العون والغوث والنصرا
(يدخل عليها رجل من بني عمها، وهو أحد بني المغيرة، كان قد عرف حالها، وكلم

(قومه في أمرها، فرضوا بإطلاق سراحها، ويكون قد سمع شكواها
- أقلي من الشكوى، ولا تكثري البكا
- ومن أنت؟
- واستبقي الجلادة والأزرا
- ومن أنت؟
- لا تخشي فديتك زائرا ... أتاك على وهن به يحمل البشرى
- وأية بشرى؟
- أبشرى بالخلاص من إسارك
- دع عنك التهزؤ والسخرا
- لقد قلت حقاً، ما التهزؤ شيمتي ... ولا أعرف المين المعيب ولا الهذرا
- أأصبحت أستطيع الخروج إلى. . .
(يدخل نفر من القوم، ويصيحون بها قائلين)
- أخرجي، فأنا عفونا عنك
- شكراً لكم شكرا!
(تخرج من الأسر وهي تقول في نفسها)
- أيا رب حمدا لا انتهاء لحده ... ويا رب شكرا لا أطيق له حصرا
(تذهب في طريقها سائرة وحدها إلى المدينة)
- 3 -
(تمر في طريقها على بني عبد الأسد، فيراها القوم فيسألونها عن خبرها فتخبرهم بما وقع لها من الخلاص من الأسر، وأنها ذاهبة إلى زوجها فيواسونها ويرددون عليها سلمة، فتأخذه وتذهب في طريقها مسرورة تضمه وتقبله وتقول له:)
- حبيبي أحقا عدت لي اليوم بعدما ... فقدتك عاما ما عرفت به البشرا
أسائل عنك الريح عند هبوبها ... وأستنطق الأفلاك والسحب والبدرا
وكم كنت أخشى أن تمد يد الردى ... إليك شباكا تقنص الليث والنسرا
فسل مقلتي هل داعب النوم جفنها ... وسل قلبي الولهان هل نسى الذكرا
أحقا تراك العين يا من سلبتها ... لذيذ الكرى، أم ذاك وهم بها قرا
لحا الله من أقصاك عني، أنه ... - ولم يدر - أقصى عني الأمل النضرا
لقد خلعوا يمناك شلت يمينهم ... فيا ليتها اليمنى بجسمي واليسرى
ويا ليت ما قاسيت من ألم سرى ... إلي وحملت الأسى عنك والبهرا
قضى الله أن نشقى فكان الذي قضى ... فهل كتب الله السعادة واليسرا؟
(تتابع سيرها دون أن ترى أحداً في طرقها، ثم تصل إلى التنعيم، فتلمح عن بعد رجلا قادماً نحوها، لا تكاد تقرب منه حتى تنظر إليه فتعرفه وإذا هو عثمان بن طلحة أخو بني عبد الدار)
عثمان - إلى أين؟
- قصدي أرض يثرب
- منذ كم تسيرين؟
- لي يومان أضرب في الصحرا
- تسيرين في الصحرا وحدك؟
- ما معي ... سوى الله وابني ذا، وأنعم به ذخرا
- فما لك يا أختاه والله مترك ... ولابد لي من أن أبلغك الوكرا
(يعود معها إلى المدينة، فتذكر له ما جرى لها، ويتابعان السير حتى يصلا إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء (قرب المدينة) فيدخلانها، ويعلمان من أهلها أن أبا سلمة فيها، فيذهبان إليه)
- 4 -
(أمام داره، تطرق أم سلمة الباب)
أم سلمة - أأدخل؟
- من ذا يطرق الباب؟
عثمان - زائرا
- على الرحب يا من جاءنا يبتغي زَورا

- تفضل إذا شئت
(يدخل عثمان ووراءه أم سلمة متلثمة، وولدها معه لا يظهر إلا وجهه)
عثمان - السلام عليكمُ ... عليكم سلام الله منهملاً ثراً
فقدناك دهراً يا ابن طلح فما الذي ... عناك؟
- نضالي العيش والجوع والفقرا
- عذرت، وقاك الله كل مصيبة ... وأذهب عنك السوء والضيق والعسرا
(يلتفت إلى أم سلمة ويقول له:)
- ومن هذه؟
- أختي
(ينظر إلى الطفل طويلا، ولا يدري أهو ابنه أم لا)
- ألست ترى ابنها؟
- بلى
- إن لي ابنا مثله كما بي مغرى
- ومازال؟
- لا أدري فإني فقدته ... وأما له من خيرة الناس
- هل فرا؟
- يفران؟ كلا، بل أحاط بنا بنو المغيرة واستاقو هما معهم قهراً
- متى كان هذا؟
- منذ عام تفتت ... به كبدي، والدمع سال به نهرا
أبيت فلا يعتاد مقلتي الكرى ... وأصبح لا أسطيع نطقا ولا سيرا
أم سلمة - (بصوت متكلف)
- ولم لم تدافع عنهما حين أقبلوا
أيسطيع غرقى البحر أن يدفعوا البحرا
أم سلمة - أتعرفني يا عم؟
- انك أخته (بدهشة)
- أتعرفني؟ (ترفع اللثام)
- ماذا؟ أأنت التي أقرى؟
(يقوم إليها ويعانقها طويلا ويضم ابنه ويقبله)
أبو سلمة - لك الحمد يا من ليس يحمد غيره ... جمعت شتيت الشمل في الأنفس الحيرى
بلوت فكان الصبر أكبر همنا ... فشكرا على عفو غمرنا به غمرا
(دمشق)
ناجي الطنطاوي
الإسلام والمدنية والعلم
للأستاذ محمد أحمد الغمراوي
- 1 -
هذا العدد الممتاز ينظر في أثر الإسلام في المدنية، وقد يسبق إلى النفس من هذا أن المدنية غاية عليا ونظام كامل نشأ من عدة عوامل أحدها الدين، وأننا إذا أردنا أن نحتفل في (الرسالة) بالحادث الأكبر، حادث الهجرة، الذي ثبت الله به الدين الكامل، أحببنا أن نثني على الإسلام بالإشادة بنصيبه في تشيد صرح المدنية التي هي أعم واشمل، وقد يقال أكمل، من الإسلام؛ ولو كان هذا هو المراد، أو كان هذا ينتج من الاحتفال بالهجرة على هذا النحو، لكان احتفالنا احتفالاً معكوسا، ولكانت إشادتنا بما نريد أن نشيد به ذما له وانتقاصا. لكن ليس الغرض من الاحتفال بالهجرة على هذا النحو هو الإشادة بالمدنية ثم بالإسلام بالتبع، إنما الغرض هو شبه دراسة اجتماعية مرماها إن أمكن تحديد الصلة بين هذه المدنية القائمة وبين الإسلام، أو بالأحرى تحديد ما هنالك من توافق وتفاوت بين المدنية الواقعة كما نراها اليوم والمدنية الغائية كما جاء بها الإسلام
وفي الحق إن هذه المدنية بعيدة جداً عن أن تكون مثلا أعلى للمدنيات قد جاد بتحقيقه الزمان، فإن المدنية الكاملة يجب أن يكون بينها وبين الفطرة من الاتفاق ما يجعلها

في الواقع جزءا من الفطرة التي فطر الله عليها الكون، وآية ذلك أن يكون فيها ما في سائر النظم الكونية من الاتساق والانسجام والتوافق والتماسك والاتزان والهدوء، وهذا لا يتحقق لأية مدنية من المدنيات إلا إذا قامت على الحق في جميع نواحيها، وكانت نظمها النافذة منطبقة على قوانين الفطرة التي فطر الله عليها الناس أفرادا وجماعات

وشيوع الخلل والاضطراب في النواحي الاجتماعية من هذه المدنية هو دليل شيوع الباطل في هذه النواحي، ودليل بعد هذه النواحي عن الفطرة. لكن إذا كان الباطل قد شاع في أكثر نواحي هذه المدنية فإن هناك ناحية واحدة قد عزت على الباطل أن يكون له فيها مقام، ودانت للحق فهو فيها الحاكم المطاع. تلك هي الناحية العلمية التي أثمرت للمدنية هذه القوة المادية التي فتن بها الناس فظنوا هذه المدنية أفضل المدنيات حين قدرت على ما لم تقدر عليه المدنيات قبلها من طيران في الهواء وغوص في الماء، وتسخير للبحار والكهرباء؛

وغفلوا عن أن تفاضل المدنيات ليس أساسه القوة، ولكن إحسان استعمال القوة في سبيل الحق: سبيل الله، وإلا انقلبت تلك القوة على المدنية المغترة فزلزلتها وصيرتها إلى ما يصير إليه الباطل من الزوال

هذه الناحية العلمية هي فخر هذه المدنية الحديثة، بها ستذكر في المدنيات إذا ذكرت المدنيات بأنبل ما فيها وأفضله وأصدقه، بعد أن تصبح كما أصبحت المدنيات قبلها أحاديث. ثم هي الناحية الواحدة التي اتحدت فيها هذه المدنية بالفطرة، وإذ كان الإسلام دين الفطرة فهي الناحية الواحدة التي تم فيها الاتصال بين المدنية الحديثة وبين الإسلام

هذه دعوى قد تحتاج عند بعض الناس إلى تفصيل وتحديد أو - أن شئت - إلى دليل أو برهان مادام الناس ليس كلهم قد درسوا العلم، ومادام من درسوا العلم ليسوا كلهم يعرفون شدة الصلة بينه وبين الإسلام

أما إن الإسلام يؤيد العلم عامة ويحض عليه ويكبر منه فأمر يعرفه كل من له إلمام ولو ببعض الآيات والأحاديث الواردة في العلم. فالذي يقرأ من الحديث الصحيح مثل قوله صلى الله عليه وسلم: (طلب العلم فريضة على كل مسلم) وقوله: (اطلبوا العلم ولو بالصين) وقوله: (إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع)، والذي يعرف ما فعله الرسول صلوات الله عليه بعد بدر من جعله فداء بعض فقراء الأسرى تعليم عشرة من أولاد المسلمين الكتابة، يعرف من غير شك إن الإسلام هو دين العلم والتعلم. فإذا تلا من كتاب الله مع ذلك مثل قوله تعالى: (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) (شهد الله إنه لا إله إلا هو، والملائكة وأولو العلم، قائماً بالقسط، لا إله إلا هو العزيز الحكيم)، والآيات الكثيرة التي جعل الله سبحانه العلم فيها حكما بين النبي ومجادليه مثل قوله تعالى على لسان نبيه: (آتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنم صادقين) - إذا تدبر الإنسان هذه الآيات الكريمة وأمثالها بعد تلك الأحاديث أدرك أن العلم على إطلاقه لم يُكبر في دين من الأديان كما اكبر في الإسلام، وأن ديناً لم يلزم أهله بالعلم والتعلم كما ألزم الإسلام المسلمين

هذا التأييد التام للعلم على إطلاقه يشمل طبعاً التأييد التام للعلم بمعناه الخاص: معناه الطبيعي المستعمل فيه اللفظ اليوم؛ لكن ليس هناك من حاجة إلى مثل هذه الحجة على

قوتها في إثبات أن العلم بمعناه الحديث مطلوب مأمور به في الإسلام، فإن الآيات القرآنية الكثيرة الواردة في الحض على تطلب آيات الله في الكون وتعرف أسرار الخلق هي في الواقع توجيه للعقل إلى مجالات العلم الذي يسميه الناس بالعلم الطبيعي، بل هي أوامر من الله بطلبه، لأن آيات الله في الكون التي ندبت تلك الآيات القرآنية الكريمة إلى طلبها ليست بأكثر ولا أقل من أسرار الفطرة التي هي مطمح العلم ومرماه فأنت إذا قرأت مثل قوله تعالى: (وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجيين أثنين، يُغشي الليلَ النهارَ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون. وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرعٌ ونخيل صنوانٌ وغير صنوان، يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) (وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر، والنجومُ

مسخرات بأمره، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلقَ) (قل انظروا ماذا في السموات والأرض) - إذا قرأت هذا وأمثاله في القرآن لم تشك في أن العلم الحديث قرآني في موضوعه، إذ هذه العلوم الطبيعية إنما تبحث عن أسرار هذه الظواهر الكونية التي نبه إليها وأمر بالبحث فيها القرآن فإذا أنت استقريت الآيات القرآنية الكونية لترى هل ورد في بعضها مادة (علم) اللغوية، وجدت أن هناك أكثر من آية وردت فيها هذه المادة إن لم يكن في صيغة المصدر ففي صيغة مشتقاته، مثل قوله تعالى من سورة الأنعام (وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر، إن في ذلك لآيات لقوم يعلمون) وقوله سبحانه من سورة الروم: (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن في ذلك لآيات للعالمين) وإذن فهذا العلم الطبيعي ليس فقط قرآنياً بموضوعه بل هو قرآني باسمه، وإذا كان الناس قد اصطلحوا اليوم على تلقيبه بالحديث فقد آن لهم أن يتذكروا أن فاطر الفطرة سبحانه قد أمر به الإنسان لما أنزل القرآن هدى للناس كافة منذ نيف وأربعة عشر قرنا من الزمان.

وفي الحق أن الإنسان ليأخذه العجب من كثرة ما لقيت هذه الناحية من التوكيد في القرآن، ثم من ترخي المسلمين برغم ذلك في طلب هذا للعلم، ولو للانتفاع به في تفسير ذلك الجزء من القرآن. إن الآيات الواردة لتلفت الإنسان إلى أسرار الفطرة وتحثه على تفقهها، لا تكاد

تقل إن قلت عن خُمس آيات القرآن، ولم تلق ناحية من نواحي المدنية مثل هذا التوكيد في الإسلام إلا ناحية الأخذ بالعدل والإحسان في المعاملة؛ فكأن المدنية في الإسلام شطران: شطر يقوم على العلم وشطر يقوم على العدل، ومن وراء ذلك كله مخافة الله ومحبته، لا غنى لأهل المدنية عن هذين إن أرادوا لها البقاء. وعلى كل حال فإن حث الإنسان في نحو خمس القرآن على دراسة الفطرة أريد به على الأخص حثه على عبادة الله عن طريق تلك الدراسة وعن طريق شكره سبحانه على ما ستثمر تلك الدراسة من ثمرات. وهذا لا يقلل شيئاً من شأن العلم في الإسلام بل يزيده، ثم هو أبلغ في الدلالة على أن العلم في الإسلام جزء من الدين.

على أن أمر التوافق بين العلم والإسلام قد جاوز الإجمال إلى التفاصيل: جاوز قرآنية الموضوع والاسم إلى قرآنية الروح والطريقة. فروح العلم وطريقته منطبقة تماما على ما جاء به القرآن

فأما روح العلم التي هي في صميمها التجرد للحق والصدق فيه والاستمساك به والتعاون عليه، فهي من روح الإسلام من غير شك، إذ الإسلام كله ليس إلا أمرا بالحق وتجرد له وجهادا فيه، وما لقيه الحق من الإكبار في العلم لا يزيد شيئا عما لقيه الحق من الإكبار في القرآن

وإذا كان هناك فرق بين الاثنين فهو لا يتعلق بذاتهما ولكن بامتداد سلطانهما؛ فروح العلم مقصورة طبعا على الميادين التجريبية التي قصر العلم عليها نفسه؛ لكن روح الإسلام تشمل بسلطانها كل ميادين حياة الإنسان العلمي منها والاجتماعي، ما يمكن إخضاعه للتجارب العلمية منها وما لا يمكن

وأما طريقة العلم في طلب الحق فإليها يرجع فضل العلم في هذا العصر على مثله في سابق العصور. لقد كان من بين علماء تلك العصور من يحبون الحق، ويعملون له، ويحرصون عليه، كما يحبه ويعمل له ويحرص عليه علماء اليوم، لكنهم لم يوفقوا إلى نظام علمي شامل يضمن الوصول إلى الحق ويضمن على الأخص عدم قبول الباطل على أنه حق. فهذا النظام الذي يحسن التمييز بين الحق والباطل، ويضمن من نفسه أن ينفي الباطل ويثبت الحق، هو الفارق المميز بين العلم الحاضر والعلم الماضي، وهو المفخرة الحقيقية

للعلم الحديث

هذا النظام لم يضعه شخص ولم تضعه هيئة، ولكن نشأ بالتدريج بنشأة العلم الحديث حين أخذ العلماء يجعلون وجهتهم ابتغاء الحقيقة لا ابتغاء المنفعة، وحين أرادوا في تلمسهم سنن الفطرة أن يتجنبوا مناشئ الخطأ في العلم القديم، ويصححوا الوجهة في العصر الذي ظهر تطور العلم فيه

وللمقارنة بين الأصول التي قام عليها هذا النظام والأصول التي تناظرها فيما جاء به

الدين يحسن تقسيم أصول النظام العلمي إلى قسمين: قسم يتعلق بنفس الفطرة التي ستكون موضوع العلم، وقسم يتعلق بطريقة النظر والبحث عن أسرار تلك الفطرة

فأما ما تعلق بنفس الفطرة وجد العلماء أنفسهم مضطرين إلى القول بأصول ثلاثة: أصل استقلال الفطرة، وأصل اطراد الفطرة، وأصل انسجام الفطرة أو استحالة الخلاف بين جزئياتها. فأصل استقلال الفطرة يعلن استقلال الفطرة عن الإنسان، فلا يستطيع ساحر ولا كاهن أن يغير من مجراها أو يعدل من قوانينها، ولا تتغير هي تأثراً بما يجري لأي إنسان؛ وأصل اطراد الفطرة يعلن استقلال الفطرة عن الزمان، فما يثبت من سننها في وقت فلابد أن يكون موجوداً من قبل، وسيظل موجوداً في المستقبل، لا يلحقه تبديل ولا تغيير؛ وأصل انسجام الفطرة يعلن استحالة التناقض بين الحقائق، فلا يمكن أن ينقض حق حقاً أينما كان وكيفما ظهر، في الأرض أو في السماء، وما يناقض حقاً إذن فهو باطل يجب أن ينبذ ولا ينظر إليه

فأما الأصل الأول فكان ضرورياً لصيانة العلم وتحرير العقل من دجل الدجالين، وإعداده لطلب الحق وتلقيه، وهو أصل ليس هناك اليوم من يجادل فيه. وأما الأصلان الآخران فهما كما ترى ضروريان لوجود العلم واطراد نموه، لا يمكن بدونهما نظر ولا بحث ولا استقراء ولا استدلال. لكن من العجيب أن العلم عاجز عن إثباتهما. إذ أقصى ما يستطيع أن يقوله هو أنه اعتمد عليهما قروناً معدودة فبررت النتائج الباهرة التي وصل إليها ذلك الاعتماد، فهو لذلك سيستمر معتمداً عليهما إذ ليس هنالك ما يدعوا إلى الشك فيهما فيما يتعلق بالمستقبل أو الماضي. لكن الفلسفة لا تقنع من العلم بهذا الجواب، وتواجه بما فيه من ضعف، وتزعم له أن نجاح الاعتماد على ذينك الأصلين قروناً لا يثبت صحتهما إلا في

تلك القرون. وأما فيما قبل ذلك وما بعد ذلك فلا يستطيع العلم أن يجزم بصحتهما، وإذن فلا يحق له أن يطمئن كل الاطمئنان إليهما. لكن العلم يمضي على اطمئنانه لا يبالي بما توجهه الفلسفة إلى أصليه هذين من نقد وتشكيك، لأنه من ناحية لا يرى فائدة عملية في الإصغاء إلى هذا النقد، ولأنه من ناحية أخرى يرى وجوده ذاته منوطاً بصحة هذين الأصلين، لو شك فيهما لحكم على نفسه بالفناء

ومن البديهي أن الحكم بين العلم والفلسفة في هذه القضية لا يستطيعه إلا الذي بيده أمر الماضي والمستقبل، فاطر الفطرة وخالق الخلق سبحانه، وقد حكم سبحانه للعلم منذ أنزل القرآن

هذان الأصلان وما يتعلق بهما يقررهما القرآن في غير تردد ولا إبهام؛ ومبدأ هذين الأصلين أصل آخر لم يقرره العلم إلا ضمناً، ولو قرره لما سلمته له الفلسفة، لأنه أصعب إثباتاً حتى من ذينك الأصلين: ذلك هو أن هذا الكون قائم كله على الحق. فانه لابد من تقرير ذلك ولو لحظة حتى يمكن بعد هذا أن يقال إن كان الكون سيستمر على ذلك أو لا يستمر؛ وأنى للعلم أو الفلسفة تقرير ذلك بغير الافتراض والظن الذي لا يستند إلى برهان. لكن الله فاطر الكون قرر للإنسان الحق فيما لا يستطيع أن يثبته الإنسان، قرر في غير ما آية أن الكون قائم على الحق (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين. وما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون). (خلق السموات والأرض بالحق، يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل، وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى، ألا هو العزيز الغفار). وقرر سبحانه أنه لا تبديل لسننه في الخلق ولا تحويل (فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله)، (فهل ينظرون إلا سنة الأولين، فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا)، (سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا). وهذا المبدأ، مبدأ ثبوت الفطرة من غير تبديل، الذي أعلنه الله سبحانه للناس في القرآن، مبدأ عام يشمل جميع ميادين الفطرة، ما تطاول العلم إلى بحثه في ميدان المادة، وما لم يتطاول إلى بحثه في ميدان الاجتماع، كما هو مقتضى سياق تلك الآيات في القرآن

أما أصل انسجام الفطرة فقد قرره الله سبحانه حين قال جل وعلا: (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت، فارجع البصر هل ترى من فطور. ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك

البصر خاسئاً وهو حسير). وارتفاع التفاوت يستلزم حتما ارتفاع التناقض الذي هو أكبر التفاوت؛ وقد تقرر نفس الأصل في صورته الأخرى: صورة انتفاء الباطل بالحق في قوله تعالى: (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، ولكم الويل مما تصفون). فالإسلام يؤيد العلم تأييداً تاماً حين تخون العلم قدرته، وتضعف حجته. ويستطيع العلم في يقين المسلم أن يمضي في سبيله مطمئناً على وجوده، غير مبال باعتراض الفلسفة، اعتمادا على ما أعلنه رب الفطرة للناس في القرآن

أما أصل استقلال الفطرة عن الإنسان فقد أعلنه الرسول صلى الله عليه وسلم للناس يوم مات ابنه إبراهيم وكسفت الشمس فتحدث الناس أنها كسفت لموت إبراهيم، فخطبهم صلى الله عليه وسلم فيما روى البخاري خطبة قال فيها: (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فادعوا الله وكبروا وصلوا وتصدقوا)؛ ثم زاد القرآن الكريم ذلك الأصل تقريرا وتوضيحاً في قوله تعالى: (أم يقولون به جِنة، بل جاءهم بالحق، وأكثرهم للحق كارهون، ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن، بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون). فأنت فيما يتعلق بأصول الفطرة ترى تمام الاتحاد بين ما قام عليه العلم وما قرره الإسلام

(يتبع)

محمد أحمد الغمراوي

العقيدة

للدكتور إبراهيم بيومي مدكور

غذاء القلب وطمأنينة الروح، ملجأ الضعيف وسلاح القوي. هي حقيقة امتزجت بحلاوة الخيال، أو خيال لبس أحياناً ثوب الحقيقة. وما هذا الخيال وتلك الحقيقة إلا صرح كثيراً ما شدناه بأنفسنا لأنفسنا كي نكمل ما في عالم الواقع من نقص، ونحقق بعض ما نصبو إليه من ميول وآمال. فإن ما فينا من قلب خافق وعواطف متأججة، ينزع إلى أماني ورغبات لا حصر لها. ولذتنا في تصور هذه الأماني وسعادتنا في السير وراءها. فإن لم نجد السبيل إلى تحقيقها حيث نرى ونسمع رسمنا لها مملكة سامية فوق مملكة الحس والمشاهدات، وآمنا بها إيماناً لا يقل عن إيماننا بالمرئيات والملموسات. على أن ما فينا من عقل يحلل ويبرهن ويعلل يدفعنا إلى الاعتقاد والاستمساك بآراء نتعصب لها وندين بها. فالعقيدة حاجة إنسانية وأثر من آثار قوى النفس على اختلافها. وهي فوق هذا ضرورة اجتماعية وركن هام من أركان التعاون والارتباط. ولا يمكن أن تتصور جمعية بشرية لا يخضع أفرادها لمبدأ واحد وعقيدة مشتركة. واتحاد الدين والعقيدة من أول الخصائص التي يتميز بها الشعب والأمة. وليست العقيدة المتحدة مجرد رمز وشارة للأمة فحسب، بل هي مصدر تأثير كبير وقوة لا نهائية. هي مبعث حرارة تدفئ القلوب فتدفعها إلى الأمام وتملؤها بالأمل والرجاء. ومستودع كهربائية عظمى يرسل في الأفراد ما يرسل من موجات سالبة وموجبة فيتجاذبون ويأتلفون، ويلتقون عند غاية واحدة وغرض أسمى. وإنا لنسير في الحياة غالباً بدافع من عقائد مختلفة بين دينية ووطنية وعلمية وفلسفية. والعقيدة كالأمل الحلو إن لم تبلغك الغاية فقد آنستك ونعمت بها زمناً. على أنها في ساعة الفشل خير عزاء، وعند اشتداد الخطب أقوى ركن تطمئن إليه إن وهنت الأركان كلها. وإذن فالعقيدة للفرد عون ونصير، وللجمعية باعث ومثير وهاد ومرشد

ومن حسن حظ الإنسانية أن المرء ميال إلى الاعتقاد بفطرته، ومدفوع إليه بغريزته؛ فالتسليم أصلي والشك عرضي، ولا أدل على هذا من أن حياة الإنسان الأول كانت سلسلة من العقائد يرتبط بعضها ببعض، وقد توارثها الخلف عن السلف وأذعنوا لها دون بحث وتعليل. والطفل وهو صورة مصغرة للإنسانية في أول نشأتها يسلم بكل شيء يلقى إليه،

ويعتقد في السحرة والمشعوذين والجن والشياطين. ولا تبدأ حيرة الشك لديه إلا حين يصطدم عالم الفكر بعالم الواقع، ويتعارض أمامه أمران كان يؤمن من قبل بثبوتهما. فترتاب نفسه وتشعر بشيء من الخيبة لم تكن تتوقعه. ويظهر أن الشك كان في أول أمره ظاهرة عاطفية قبل أن يكون مناقشة عقلية وحساباً منطقياً. وليس الشك شراً كله، بل قدر منه مدعاة البحث ومفتاح الحقيقة، وقديما قالوا: الشك مبدأ الحكمة

ومدرسة الحقيقة. وقد استطاع سقراط بين الإغريق بشيء من الشك التهكمي أن يستخرج المعارف من نفوس محدثيه ومناقشيه. ثم جاء ديكارت في التاريخ الحديث فاتخذ من الشك طريقة فلسفية ومبدأ علمياً. للشك حكمته ومنفعته، فهو ينبه الفلسفة إلى أخطائها ويقف العقل عند حده ويرشده إلى نقصه. غير أن قيمة الشك في طريقة استعماله ووضعه في موضعه. فالشك في كل شيء قضاء على المعرفة من أساسها وهدم للحقائق على اختلافها. وقبول المعلومات من غير بحث وتمحيص انقياد أعمى واستسلام مرذول وضعف في التفكير. وغني عن البيان أن الشك ضرب من الحرية واستقلال الرأي. ولا يستطيع أحد أن ينكر أن الشكاك القدامى والمحدثين لفتوا نظر الإنسانية إلى أخطائها الشائعة وكشفوا الغطاء عن كثير من أباطيلها المسلمة. وكل ما يؤخذ عليهم أنهم أرسلوا للشك العنان، وجالوا به في كل ميدان، فقضوا على ما كان فيهم من عبقرية، وأصبح شكهم داء بدل أن يكون دواء، وهدموا بالشمال ما بنوه باليمين. وليس في الشك المقبول امتهان للحقيقة أو اعتداء عليها، بل هو اعتداد بها وتقدير لها وجد في طلبها. حقاً إن الشك حيرة وحمى قد تخشى على النفس مغبتها؛ بيد أنه قل أن يقدر اليقين قدره من لم يغرق في بحار الشك قليلاً. والضال إذا وجد الطريق كان له بهذا فرحة تملأ العين والقلب

اليقين كلمة عذبة الجرس حلوة الرنين سامية المعنى رفيعة المداول؛ تطرب الأذان لسماعها، وتتوق النفس دائماً إلى أن تحظى بحقيقتها. ينشده العالم في بحثه، ويرمي إليه الفيلسوف في درسه، كلاهما يبغي أن يصل إلى الحقيقة الثابتة التي يذعن لها الجميع في مختلف الظروف والأمكنة. وإذا كان الشك اضطراباً وحيرة فاليقين هدوء وطمأنينة. هدوء لأنه راحة بعد عناء. ووصول بعد مجهود، وطمأنينة لأنه حصن حصين، وركن أمين؛ وكيف لا وهو قوة تستمد سلطانها من نور الحقيقة، وحال يشعر المرء فيها بأنه لا يسمع إلا

صوت الحق ولا يصغي إلا لندائه. ولو تأملنا لوجدنا أنا في مرحلة اليقين أقوياء ضعفاء؛ أقوياء لأنا نحس بأنا نفذنا إلى قلب الأشياء ووصلنا إلى قمة العالم وتجردنا من قيود المادة والزمن واتصلنا بكل ما هو باق أزلي، وضعفاء لأن جلال الحقيقة التي نعتنقها أسكت كل صوت فينا، فألغى هواجسنا وخواطرنا، وقضى على ميولنا وأهوائنا، وأضعف شخصيتنا أو محاها بحيث نصبح ولغة العالم والإنسانية جمعاء ديدننا وشعارنا

هذا هو اليقين في ظواهره وأثره وشدته وبأسه. فهو إذن العقيدة في أكمل صورها والإيمان في أسمى أشكاله. وكثيراً ما حاول بعض الباحثين فصل اليقين من العقيدة، والمباعدة بين العلم والدين، ووضع حاجز بين العقل والعاطفة؛ إلا أن اليقين لا يتحقق إلا بعد عقيدة سابقة، والعقيدة إن سمت وكملت أضحت يقيناً. والعلم برهن غير مرة على أن له نطاقاً لا يتعداه وحدوداً لا يستطيع أن يتجاوزها؛ فليدع الدين يتكلم فيما أعد له ويتصرف في دائرته. والإنسان عقل وقلب وتفكير وعاطفة؛ ومن العبث أن يهمل أحد هذين الجانبين أو يلغي، فإن ذلك خروج على الطبيعة وعكس لنظام الأشياء. وليس من عار أن يكون في الأديان قدر كبير يرضى العواطف الإنسانية، بل العار كله أن تخلو من ذلك.

إبراهيم بيومي مدكور

سمو الإنسانية في قلب الرسول الأعظم

(قرآن كريم) (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)

للأستاذ خليل هنداوي

(لا يحسبن قارئ المقال أننا أردنا أن نعطل حدود الشرائع بدرسنا للعاطفة الإنسانية السامية في قلب الرسول، وإنما هو بحث جرى على القلم جواباً لمن يزعم أن تعاليم الإسلام تعاليم صارمة قاهرة لا تفيض - كالشريعة المسيحية - رحمة ومحبة وحناناً)

(خ، هـ)

لا تزال علة الآثمين الخارجين على حدود الشرائع علة مستحكمة، لا يبت فريق حتى يهب إلى نقضها فريق. وكلا الفريقين له الحجة الساطعة. فمن الشرائع ما يرى في الأثيم العدو للإنسانية، والمريض الذي يخشى انتقال جراثيمه إلى غيره، لأن الأمراض

النفسية حكم أكثرها كحكم الأمراض السارية تعصف بالأجساد عصفاً. وهذا المريض - في حكمها - لا يرجى شفاؤه، وإن فكرة الإجهاز عليه هي خير فكرة تتقي بها منه!
وقد تفننت الشرائع الحديثة في تعيين هؤلاء الآثمين والمجرمين وفي عزلهم عن طبقات الناس. ومن الشرائع ما تنظر إلى هؤلاء بعطف ورحمة. لا تنظر إلى الإثم - كالكل في الإثم - وإنما تنظر إلى الظروف التي صاحبته، والعوامل التي ساعدت على خلقه. وهي بعد هذا كله لا ترى في الآثم إلا إنساناً، جبل على طينة الإنسان، يخطئ ويصيب، ويفعل الشر ويصنع الخير. هذه الشرائع التي غلبت العاطفة الإنسانية على كل عاطفة، واستمسكت بالمبدأ الإنساني الذي يعلو على مصطلحات الخير والشر.
وهذه فكرة تطير بجناحين من السمو والعلو. ولكن علماء القانون لا يعتقدون بهذه الفكرة المجنحة لأنها بغير حدود، وتنتشر على أبعاد دونها أبعاد الفضاء. وهم يريدون أن يحددوا لكل موقف شأنه، فإذا سرق السارق فما عسى يكون جزاؤه؟ وإذا زنى الزاني فما عسى يعامل به؟ مثل هذه
الفكرة الإنسانية قد تجلت في موقف السيد المسيح حين قدموا له زانية ليرى فيها حكم الشريعة - وما كان حكم الشريعة إلا الرجم - وما كان للمسيح أن يعطل هذا الحكم، وهو لم يجيء لنقض نواميس الأنبياء؛ ولكنه تسامى في هذه المرة ما شاء له التسامي:
- ليرميها كل من لم ترتكب نفسه خطيئة بحجر!
فوقف الجمع ولم يرموا، وغادروا المرأة وشأنها. ولكن هذه الفكرة تظل جميلة ما ظلت منطلقة حرة من غير قيود، فإذا شئنا حصرها وإخضاعها للعمل ضاع رونقها وفشت الشرور بحجة أن كل نفس فيها من طينة الشر شيء. ولذلك لم يقدر المسيح نفسه على القول بالعفو عن كل زانية وزان وسارقة وسارق، ولم يقدر غيره على القول بذلك. ولكن المسيح أراد بضرب هذا المثل أن يحفظ للآثمين هذه الإنسانية التي تربطهم بغير الآثمين. ويقرر بعد ذلك أن هؤلاء الذين يحكمون على الآثمين هم ملوثون مثلهم، حتى تكون العاطفة الإنسانية عندهم هي العاطفة الغالبة على كل عاطفة
نظرت الشريعة الإسلامية إلى هؤلاء الآثمين كما نظر غيرها، وفرضت القصاص وفي القصاص حياة، وقام الشارع بأحكام ما تنزل، ورأى أن دفع القتل بالقتل أنفى للقتل. وهذه الشريعة هي شريعة من جاء قبله، وهي الشريعة التي يحض عليها العقل ويبعث إليها الإنصاف
ولكن الرسول - برغم لوثة هؤلاء الآثمين - قد ارتفع معهم في كثير من المواقف بعاطفة الإنسانية فوق حدود الشريعة، ونظر هؤلاء المرضى نظرة ملؤها الرأفة والإشفاق، وعطف على كل نفس ضالة - لأن الهدى والضلال على بعدهما متقاربان متلاصقان - وأن إهمال درس هذه العاطفة الإنسانية عند الرسول مما يترك ناحية العواطف الأخرى قاسية صارمة. وأن على أرباب الفقه أن يرتبوا العقود والحدود كما رتبوها أبواباً أبواباً، وأن على آخرين أن يحللوا هذه العاطفة التي تجعل من الرسول قلباً نقياً وعاطفة إنسانية متسامحة
ما عسى تبلغ إليه هذه العاطفة الإنسانية في صدر الرسول؟
أذكر عبارة تلوتها فيما كتب (رينان) عن المسيح (إن المسيح هو أول من سلك في تفهم الله مسلكا جديدا، إذ جعل علاقة الله مع الناس كعلاقة الأب مع أبنائه، علاقة كلها رأفة ومحبة
وحنان) وبهذه الرحمة الشاملة تفهم الرسول معنى الألوهية فقال: (جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً وأنزل في الأرض جزءاً واحداً. فمن ذلك الجزء تتزاحم الخلق حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه!)
وإني لأجد الرسول في الصلاة، ومن ورائه أعرابي يدعو في صلاته: (اللهم ارحمني وارحم محمداً ولا ترحم معنا أحداً). فقال له الرسول: (لقد حجرت واسعاً) وكأنه أراد أن يقول له: (قل اللهم ارحمني وارحم جميع الكائنات، لأن رحمة الله أوسع من جميع آثامهم وذنوبهم)
وإني لأراه وهو يفكر في هذه الرحمة التي يرجو أن تشمله، وهي الرحمة التي ملكت عليه مشاعره. أراه (وقد وجد امرأة من السبي تحلب ثديها تسقي، إذا وجدت صبياً في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فالتفت إلى أصحابه وقال:

- أترون هذه طارحة ولدها في النار؟
فقالوا: لا. وهي تقدر على ألا تطرحه؟
فقال: - وقد طغت على قلبه هذه الرحمة الشاملة:
- (الله أرحم بعباده من هذه بولدها)
ولقد تتمثل هذه الرحمة في كل جزء فيه، حتى ليحسب أن الكائنات كلها قد اندمجت وأحاطت بها رحمة الله. . . (فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة) وهو لا يفسر الرحمة تفسيراً ضيقاً يمنحها أناساً ويحرمها على أناس لأن الرحمة الشاملة إذا دخلت في قلب غيرت فيه كل الأساليب الموروثة في تفهم الوجود، وجعلته ينظر إلى الوجود كشيء كلي ممتزج فقير إلى هذا البلسم! وجردته من كل الأهواء ليتحد مع الكائنات اتحاداً ثانياً بكل شيء فيه، لا يهدأ قلبه مادام يتعذب هنالك إنسان! وهو لا يفسر الرحمة تفسيراً رمزياً، وإنما يرمي بمختلف الأمثلة إلى تمثيل هذه الرحمة تمثيلاً واضحاً تكاد تتبينه العين وتتقراه اليد باللمس! وقد أثر هذا الفهم في نفسه تأثيراً واضحاً؛ فهو تنهمل عيناه إشفاقاً على قومه، وهو يتحمل بلاءهم بقلب صابر ولسان شاكر ويقول: (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون) وهو يستمهل الله فيهم عندما نودي: (إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا به عليك). فقال: (بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله
(ولا يشرك به شيئاً
وقد ملك عليه شعور الرحمة حتى كاد يغلب على كل عاطفة فيه. (يرى الرجل الإسرائيلي الذي قتل تسعة وتسعين رجلاً ثم خرج يسأل، فأتى راهباً فسأله فقال له: (هل من توبة؟) فقال: (لا) فقتله، فجعل يسأل، فقال له رجل ائت قرية كذا وكذا، فأدركه الموت، فناء بصدره نحوها، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأوحى الله إلى هذه أن تقربي، وأوحى إلى هذه أن تباعدي. وقال: قيسوا ما بينهما، فوجده إلى هذه أقرب بشبر فغفر له.) وهل غفرت لهذا الفاتك إثمه إلا عاطفة الرسول الإنسانية التي قدرت فيه قلبه النادم ونيته الساعية وراء التوبة؟ وقلب الرسول مفعم رحمة وشفقة على هؤلاء - مع قوله في معاقبتهم - ولا يستطيع الفكر أن يوفق بين الإثم الكبير البالغ تمحوه حسنة صغيرة! فمن ذلك (امرأة مومس مرت بكلب على رأس ركى يلهث قد كاد يقتله العطش فنزعت خفها فأوثقته بخمارها، فنزعت له من الماء فغفر لها بذلك!) ذلك أن قلب الرسول يحاول أن ينقذ هذه الكائنة الشقية، ويلقي في النفس معنى الإحسان إلى الحيوان (وإن لفي كل كبد رطبة أجرا) وقد تسمو نفس الرسول في النظر إلى هؤلاء الآثمين، فهو لا يفر منهم ولا يزور عنهم لأنه يطمع في صلاحهم
قال رجل: لأتصدقن بصدقة؛ فخرج بصدقته فوضعها في يد سارق فأصبحوا يتحدثون:) (تصدق على سارق)! فقال: (اللهم لك الحمد!) لأتصدقن بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية، فأصبحوا يتحدثون: (تصدق الليلة على زانية!). فقال: (اللهم لك الحمد!) على زانية! لأتصدقن بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها بيد غني، فأصبحوا يتحدثون: (تصدق على غني!) فقال (اللهم لك الحمد) على سارق وعلى زانية وعلى غني! ولقد يظن المرء لأول وهلة أن هذه الصدقات باطلة لأنها لم تقع في مواضعها، ولكن الرسول حلها من الناحية الإنسانية، فأتى فقيل له: (أما صدقتك على سارق فلعله أن يستعف عن سرقته، وأما الزانية فلعلها أن تستعف عن زناها، وأما الغني فلعله يعتبر فينفق مما أعطاه الله) فلم يمنع الرسول الرفق بهؤلاء الآثمين ولم يجعل التصدق عليهم حراما. وإذا كان السيد المسيح أطلق الزانية لأنه لم يجد من يأخذ على نفسه معاقبتها فالرسول أطلقها وأطلق السارق
وأطلق الصدقة عليهما ليستعفا. . . وبهذا أشفق على المريض وحارب جراثيم مرضه! وهو خلال ذلك ينتظر أن يغمرهم نور التوبة ويصرفهم عما فيه وازعُ الضمير وقد يعجب المرء من هذه العاطفة التي لو أخذنا بها لعطلت الحدود. إذ كيف نتصدق على سارق أوجب الشرع قطع يده، أو على زانية أوجب رجمها؟ ذلك أن الرسول يدرك أن الغاية من الشريعة الهدى والرحمة، وأن القصاص سبيل يسلكه الشارع إذا عز الوصول إلى الهدى إلا به
فهو بهذا دل على إنسانية سامية تفهم الوجود رحمة ومحبة، وإن روحه لتتصل بالمذنب

اتصالها بالبريء، وأنه يحب الناس مهما فعلوا، وأنه يجد في نفسه ميلا إلى الرفق بالآثمين، وهذا الميل جعله يسلك السبل المتعددة ليدفع عنهم آثامهم ويطهرهم من أرجاسهم. ونرى بعد هذا كله - هذه الكتلة من الرحمة والمحبة تقف أمام الرحمة الشاملة تدعو ربها:

(اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب
اللهم نقني من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس
اللهم اغسل خطاياي بالماء والثلج والبرد)

أليست هذه الإنسانية بأسرها تتمثل في شخص الرسول تطلب إلى الله أن يشملها برحمته، ويغسل خطاياها برأفته حيث تغسل الأوزار وتضيع حدود العقاب في عالم تعمره الرحمة وتسكنه المحبة، لا نهايات له ولا حدود؟

(دير الزور)

خليل هنداوي

ذكريات يجتليها محرم

لشاعر السودان الأستاذ عبد الله عبد الرحمن

هو الشوق في أحشائنا يتضرم ... إلى ذكريات يجتليها محرم
إلى ذكريات هن بعث ويقظة ... وهن لآلام الجراحات مرهم
بني الشرق، والإسلام في كل موطن، ... يحييكمو مني على النأي مسلم
تعالوا نجدد من عهود تصرمت ... وما الشأن في عهد الكرام التصرم
تعالوا نجمع من نفوس تفرقت ... شعاعاً ولا نمضي كما نتوهم
ونطَّرح الواشين تنفث بينا ... سموماً - وفي الواشين أربد أرقم
ونفزعْ إلى التنزيل نبني نفوسنا ... فليس لما يبني الكتاب مهدم
وفي الهجرة الزهراء قربى قريبة ... نمت بأسباب الحنيف إليكُم
فإن نحيها نحيِ الزمان تقدمت ... أوائلنا أهليه وهو لهم فم
وإن نحيها نحي النفوس كبيرة ... وإن جعلت في أرضها اليوم نهضم
وإن نحيها نحي المروءة والندى ... وبأساً من الفولاذ أمضى وأصرم
ألا ليت شعري ما دهى العرب إنني ... أرى الجو في آفاقها يتسمم
أكل بناء غيرهم متساند ... وكل قبيل غيرهم متقدم
أجل كل قوم فرطوا في لغاتهم ... غدوا وصروف الدهر فيهم تحكم
أرى الغرب يعنى باللغات رجاله ... ونمشي أعلامها نتعلم
هم يكبرون من رجال توفروا ... عليها إلى أن أكبر الناس منهمُ
وفي كل يوم يخرجون مؤلفاً ... نفيساً وبحثاً ينشر الفضل عنهمُ
ولا يهجرون للجديد قديمهم ... وذلك خلق عن رقي يترجم
وما ذاك إلا أن حباً يهزهم ... إلى وطن هاموا به وترنموا
أرى أمم الشرق استفاقت من الهوى ... وعاودها سلطانها المتقدم
فجدت وهمت للحياة طموحة ... وحطمت الأغلال فيما تحطم
رعى الله في أرض العراقين نهضة ... أبت لهمُ أن يستذلوا ويهضموا
بنوا دولة أما حماها فمانع ... لحوزتها والمستقلّ بها همُ
على العلم والخلق المتين توطدت ... دعائمها والعلم بالخلق يدعم
وقامت فلسطين ترد حقوقها ... وما في طلاب الحر للحق مأتم
وحرك من سورية العسف فانبرت ... تغالبه والشر بالشر يصدم
فإن لم تنل ما قد أرادت نواله ... فمن كَثَبٍ منها النجاح المحتم
وهاجت بنا الذكرى لخضراء تونس ... فأبصرت ثكلى نال منها التأيم
وفي مصر أخذ بالذي هو واقع ... وروح وفاق للحقيقة تألم
وغيرة لاوانٍ ولا متخشع ... ونشء إلى سود النوائب يبسم
هوت أنجم بالأمس كن ثواقبا ... إلى ضوئها يعشو الجهول فيعلم
حسين بن والي قد أقض مماته ... مضاجع في السودان فهي تألّمُ
هو المرء أدى للعروبة واجباً ... وعاش لوجه الله يشقى وينعم
وأودى المطيعي حجة الله في الورى ... فغاب به كنز من العلم قيم
قضى يملأ الدنيا علوماً وحكمة ... فويلي على ركن الهدى يتهدم

وأودى رشيد ذو المنار مدفعاً ... جريئاً على رد الضلالة يقدم
ومات الأديب الكاظمي وإنه ... لرزء من الإبداع في الشعر يثلم
وبغداد من بعد الزهاوي أصبحت ... خلاء وكانت من قوافيه تزحم
مضوا وقرنّا بالترحم ذكرهم ... وليس بمجدينا عليهم ترحم
بني وطني إن قمت للضاد داعياً ... فإنيَ ادعوا للتي هي أقوم
لقد وثق الله الروابط بينكم ... فلا تنقضوا بالله ما الله مبرم
أرى الضاد في السودان أضحت غريبة ... وأبناؤها أضحت لها تتهجم
تولت وما دمعٌ عليها بفائض ... وما أحد منهم لها يتألم
وساءت مقاماً فهي ثكلى حزينة ... وعيّت جواباً فهي لا تتكلم
وذلك يفضي لانقراض وذلة ... ويفضي إلى أن في سوى العرب ندغم
عزيز علينا أن تلين قناتها ... وأبناؤها في ضحوة العمر تهرم
عزيز علينا أن نراها هزيلة ... وجاراتها فينا تزيد وتعظم
كفانا هوانا أن ريباً يحوطنا ... وإنا إذا رمنا الحديث نجمجم
وإنا برغم العلم في كل بلدة ... يحيط بنا هذا الظلام المخيم
تبدلت الأحوال حتى لقائل ... يقول على قدر التدلي التقدم
ونبئت في السودان قوماً تآمروا ... على اللغة الفصحى فساءوا وأجرموا
وبالأدب القومي قالوا سفاهة ... وما لمحوا حقاً ولكن توهموا
إلا نحن عرب قبل أن لعبت بنا ... صروف الليالي والجهول الغشمشم
أما والليالي العشر والفجر طالعاً ... وما الفجر في الإسلام إلا محرم
إذا لم تحسوا داءها وهو فاتك ... تهونوا وفي غير العروبة تدغموا
فعضوا عليها بالنواجد إنها ... صلاحكم إن تخلعوه هزمتمُ
سلام عليكم إن عدمتم بيانها ... سلام على الفصحى سلام عليكم
عليك يا رسول الله نلقي رجاءنا ... فقد جعلت منا الحوادث تهدم
ونستنزل الإرشاد من روحك التي ... على كل من يلقى السلام تحوّم
أصلي عليه ثم أذكركم بما ... يقربكم منه فصلوا وسلموا
(لحب ابن عبد الله أولى فإنه ... به يبدأ الذكر الجميل ويختم)
(الخرطوم)

عبد الله عبد الرحمن

نظر محمد إلى الأديان

للأستاذ مصطفى عبد الرازق

أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية الآداب

كان ما تسرب إلى بلاد العرب من اليهودية والنصرانية قبل الإسلام قد نضحت عليه الوثنية الضاربة هناك يومئذ أطنابها، ولم يكن المجوس والصابئة أهل توحيد خالص وإن ألحقوا بأهل الكتاب

قال الشافعي: بعثه والناس صنفان:

أحدهما أهل كتاب بدلوا من أحكامه وكفروا بالله فافتعلوا كذباً صاغوه بألسنتهم فخلطوه بحق الله الذي أنزل إليهم، فذكر تبارك وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم من كفرهم فقال:

(وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب، ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون)

ثم قال عز ذكره:

(فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً، فويل لهم مما كتبت أيدهم وويل لهم مما يكسبون)

وقال تبارك وتعالى:

(وقالتْ اليهودُ عزيرٌ ابنُ اللهِ، وقالتْ النصارَى المسيحُ ابنُ اللهِ، ذلكَ قولهمْ بأفواههمْ يضاهئونَ قولَ الذينَ كفرُوا منْ قبلُ قاتلهمْ اللهُ أنَّى يؤفكونَ؛ اتخذُوا أحبارهمْ ورهبانهمْ أرباباً منْ دونِ اللهِ والمسيحَ ابنَ مريمَ وما أُمرُوا إلاّ ليعبدوُا إلهاً واحداً لا إلهَ إلاّ هوَ سبحانهُ عمَّا يشركونَ).

وقال تبارك وتعالى:

(ألمْ ترَ إلى الذين أوتُوا نصيباً منَ الكتابِ يؤمنونَ بالجبتِ والطاغوتِ ويقولونَ للذينَ

كفرُوا: هؤلاءِ أَهدَى من الذينَ آمنُوا سبيلاً، أولئكَ الذينَ لعنهمْ اللهُ ومنْ يلعنِ اللهُ فلن تجدَ له نصيراً)
وصنف كفروا بالله فابتدعوا ما لم يأذن به الله ونصبوا بأيديهم حجارة وخشباً وصوراً استحسنوها، ونبزوا أسماء افتعلوها ودعوها آلهة عبدوها، فإذا استحسنوا غير ما عبدوا منها ألقوه، ونصبوا بأيديهم غيره فعبدوه، فأولئك (العرب)
وسلكت طائفة من العجم سبيلهم في هذا وفي عبادة ما استحسنوا من حوت ودابة ونجم ونار وغيره، فذكر الله لنبيه صلى الله عليه وسلم جواباً من جواب بعض من عبد غيره من هذا الصنف فحكى جل ثناؤه عنهم قولهم: (إنَّا وجدنَا آباءنا على أمةٍ وإنَّا على آثارهمْ مقتدونَ) وحكى تبارك وتعالى عنهم أنهم قالوا: (لا تذرُنَّ آلهتكمْ ولاً تذرنَّ ودًّا ولا سواعا، ولا يغوثَ ويعوقَ ونسراً وقد أضلُّوا كثيرًا) (كتاب الرسالة ص 2 - 3)
وبين من كلام الشافعي أن الأديان تظل بلاد العرب وما والاها عند ظهور الإسلام كانت ما بين دين وثني يقوم على الشرك من أساسه، وما بين أديان تقوم على الوحي الذي لا يأتي بغير التوحيد، لكنها انحرفت عن سبيل الوحي فأصابها شوب من الشرك
وكان محمد صلوات الله وسلامه عليه يدعو الناس كافة إلى الإيمان بالله وحده لا شريك له، لا يميز في هذه الدعوة بين مشركين وأهل كتاب
وإذا كان القرآن ينادي:
قل يا أهلَ الكتابِ تعالَوْا إِلَى كلمةٍ سواءِ بيننَا وبينكُمْ ألاَّ نعبدَ إلاَّ اللهَ ولا نشركَ به شيئاً ولا يتخذَ بعضُنَا بعضاً أرباباً مِنْ دونِ الله، فإن تولّوْا فقولُوا اشهدُوا بأنَّا مسلمونَ)
فإن القرآن يقول أيضاً:
إنَّ الذينَ آمنوا والذين هادُوا والنصارَى والصابئينَ مَنْ آمنَ بالله واليوم الآخرِ وعملَ صالحاً فلهمْ أجرُهمْ عندَ ربِّهم ولا خوْفٌ عليهم ولا هُمْ يحزنونَ)
لا تختلف دعوة محمد حين توجه إلى أهل الشرك الصراح من وثنيِّي العرب، أو إلى أهل الكتاب بلا نزاع من اليهود والنصارى، أو إلى من يشتبه أمرهم ويختلط الرأي فيهم من الصابئة والمجوس
دعوة محمد إلى كل أولئك هي الدعوة إلى الدين الحق الواحد الذي لا يتغير بتغير الأنبياء والذي هو هدى أبداً
ولما كان دين الحق واحداً أوحاه الله إلى جميع أنبيائه وبينه في كل كتبه المنزلة فقد كان من الطبيعي أن يعتبر محمد أتباع الوحي ممن لهم كتاب أو شبهة كتاب أدنى إلى دعوته وإن حرفوا في دينهم، وأرجى أن يثوبوا إلى ما في أصول مللهم من إخلاص العقيدة لله وحده
من أجل هذا اختلف حكم الإسلام في بعض المعاملات بين المشركين وأهل الكتاب، فالمشركون لا تؤكل ذبائحهم ولا يتزوج المسلم منهم، وإذا غلبهم المسلمون في الجهاد لم يأخذوا منهم جزية ولم يكن لهم سبيل إلا أن يخرجوا من شركهم إلى حظيرة التوحيد
أما أهل الكتاب فتؤكل ذبائحهم ويزوج المسلمون منهم، وإذا هزموا في الحرب واستولى المسلمون على ديارهم فللمسلمين أن يأخذوا منهم الجزية ليحموهم مما يحمون منه أنفسهم وأموالهم ثم يتركوهم في دينهم أحرارا
ولا خلاف بين المسلمين في أن اليهود والنصارى أهل كتب، وأن وثنيِّي العرب في الجاهلية مشركون
واختلفت الروايات والأقاويل في حكم الصابئة والمجوس هل يلحقون بأهل الكتاب أم يلحقون بالمشركين
ولا شك أن ما عرف من أديان البشر بعد ذلك مما لم يكن معروفاً للعرب، فيه للرأي والاجتهاد مجال من جهة إلحاقه بالشرك أو بأديان أهل الكتاب
وجملة القول أن محمداً يرى التوحيد دين الله الحق، وفطرة الله التي فطر الناس عليها، فالمشركون عبدة الأوثان منحرفون عن فطرة الله، ضالون عن صراطه المستقيم، ومن عداهم قريبون من الإسلام الذي جمع الرسول صلوات الله عليه وسلامه عليه جوهره في قوله لمن سأله عنه: (قل آمنت بالله ثم استقم)
مصطفى عبد الرازق

. .!زوجةٌ وفَت
للأستاذ محمد سعيد العريان
هم الفتى (أبو العاص ابن الربيع. . .! ابن عبد شمس) ينصرف من مجلس خالته (خديجة بنت خويلد) رائحاً إلى داره، وإن في نفسه لحديثاً ما إن يحاول بيانه ولا طاقة له بأن يكتمه. . ونظرت خديجةُ في وجه الفتى الذي اتخذته ولداً، وقد ثكلت الولد، فأنكرته وما تَكِرتْ حديث عينيه؛ ثم عادت تنظر إلى ابنتها (زينب) فتطيل النظر، فما لبثت أن ألهمت الرأي مما نظرت في وجه الفتى والفتاة. . . .
وسعت خديجة إلى زوجها تستعينه وتشير عليه: (يا محمد! أرأيت إلى ابن أختي (هالة) - أبي العاص بن الربيع - إنه لذو جاه ومال وأمانة، وهو منا ومنك حيث علمت، نعم الفتى القرشيّ. . . أفترى أن نتخذه ختَناً وولداً فتزوجه زينب. . .؟)
وافتر ثغر النبيّ الكريم عن ابتسامة الرضى، فما كان ليخالف خديجة في رأي تراه، ولها في نفسه ما لها من الحب والإعزاز، وهي في نفسها مَن هي في أصالة الرأي وحسن التقدير. . .
وزفت زينب بنت محمد إلى أبي العاص بن الربيع. . .
ومضت خديجة إلى الزوجين المتحابين تبارك لهما وتدعو، أطيب ما تكون نفساً وأهنأ فكراً. . . ومدت يمناها إلى طوقها لتخلع قلادتها لتجعلها في عنق زينب، هديةَ عروس. .
ونعم الزوجان بالسعادة حيناً في دنيا من الحب والفاء والإيثار. . .!
وأشرقت الأرض بنور ربها، وانبثق الفجر من غار حراء، يسعى محمدٌ في نوره داعياً إلى دين الله وإلى نبذ الشرك وعبادة الأوثان؛ فصدّق من صدّق واتبعه على هدى وبصيرة، ولجّ من لج في الطغيان والعناد، وآمنت زينب فيمن آمن، ولكن أبا العاص لم يَهُن عليه أن يخلع دينه. . . وضرب الزمن ضربته بين القلبين المتحابين فباعد بينهما إلى حين
أسفت زينب، ونال منها إصرار أبي العاص على الكفر أي منال، وأسف أبو العاص، ونال منه إسلامُ زوجته مثلَ ما نال منها كفره؛ وشعر كلا الزوجين أن قوة أكبر من الحب تحاول أن تفصم عروته وتحلّ وثاقه: أما أحدهما فأعلن التمرد والعصيان، وقال لصاحبته: (لن ينال مما بيننا يا زينب أن تكوني على دينك وأثبت على ديني، فلن أسلمك للفراق. . . .!)
وأما هي فقالت: (قليلا يا صاحبي، لست حلاً لك وأنت على ذاك الدين، فأسلمني لربي أو أسلم معي. . لن تكون زينب لك بعد اليوم إلا أن تؤمن بما آمنت!)
واصطرعت في نفس الزوج المحب قوتان تتجاذبانه: حفاظه على ذلك الدين الذي أورثه آباؤه، وذلك الحب الطاغي المستبد الذي يحاول أن ينتزع امرأة مسلمة من دينها الذي آمنت به. . وأطرق الزوجان ساعة، ثم التقى النظران. . . وفرق الدين بينهما جسدين، وظل قلباهما مؤمنين بالحب؛ وعاشا يظلهما سقف واحد ولا يلتقيان إلا نظرات. . . وتصرمت سنون. . .
ودعت قريش إلى النفير العام: (يا أهل مكة، إلى بدر، إلى بدر؛ إن محمدا وأصحابه قد وقفوا لتجارتكم على الطريق بين الشام ومكة، فرُدوا عليهم كيدهم. . .!)
وخرج أبو العاص فيمن خرج من المشركين إلى لقاء محمد وأصحابه في بدر، ليُجازوهم بما اعتدوا؛ وظلت زينب في دارها تنتظر. . إن هنالك قوتين تصطرعان، وموجتين تتدافعان، ما تدري لأيهما تتمنى الغلبة، بلى؛ إنها لتدري، فهنالك أبوها محمد، لو لم تحببه وتتمنّ له النصر لأنه أبوها، لأحبته وتمنت له النصر لأنه رسول الله، لأنه قائد جيش الإسلام، لأن إلى جانبه في الصف أخوتها في الله. . . ولكن. . . ولكن زوجها. . . وجلست تدعو الله: اللهم اجعل الدائرة على المشركين، ولكن نج أبا العاص. . .!
وعاد الركب المنهزمون ينبئونها: (يا زينب، لقد دارت علينا الدائرة، ونال منا المسلمون كلّ منال، يا زينب، ولكن أبا العاص في الأسرى، لا ندري ماذا سيفعل بهم أصحاب محمد. . .!)
فما توانت الزوجة الوفية هنيهة؛ لقد كان لديها من مال زوجها ما تفتديه به، لديها المال والنعم، ولكنها نظرت أمراً. . . ورفعت يدها إلى صدرها فخلعت قلادتها، ثم شيعت بها

الرسول يفتدي بعقد خديجة ابن أخت خديجة وختَنَ محمد. . وجعلت هدية عرسها من أمها مهر الحرية للزوج الذي فقدته مرتين. . .

وذهب رسول زينب يسعى عن أمرها حتى وقف على محمد: (يا محمد، هذا مال من مال أبي العاص، وهذه قلادة خديجة بنت خويلد، بعثتني بهما زينب في فداء أبي العاص. . .!)

ونظر رسول الله إلى القلادة نظرةً جمعت له الزمان كله في لحظة فكر، واحتشدت صور الماضي أمام عينيه من خلل حبات العقد الغالي، ورفّت في ذهنه صورٌ حبيبة إليه، فكأنما نشرت خديجة من موت، وكأنما انطوت البيداءُ بزينب، فاجتمعتا إليه تسألان العفو عن هذا الأسير. . . ونظر محمد في أصحابه فقال: (إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها مالها فافعلوا. .!)

وعاد أبو العاص إلى مكة، وفي نفسه صورة أكثر إشراقاً لهذه الزوجة البرة الكريمة، ولكنه عاد لا ليشكر لها ما منّت عليه، بل ليقول: (عودي إلى أبيك يا زينب!) وفاء بما أخذ عليه رسول الله من عهد بأن يطلقها تسير إليه. . . وخنقته العبرة فما استطاع أن يتمالك ولا أن يشيعها إلى طرف البادية؛ ومن أين له أن يجد في نفسه القدرة على توديع من يحب، وإنه ليعلم أنه الوداع الأخير مادام سلطان هذا الدين قائماً بين القلبين. . .!

ومضى يقول لأخيه كنانة ابن الربيع: (يا أخي، إنك لتعلم موضعها من نفسي، فما أحب أن لي بها امرأة من قريش؛ وإنك لتعلم أن لا طاقة لي بأن أفارقها، فاصحبها عني إلى طرف البادية، حيث ينتظرها رسولا محمد (ببطن يأجج)، وارفق بها في السفر، وارعها رعاية الحرمات ولو نثرت دونها كنانتك، لا يدنو منها رجل حتى تبلغ. . .!)

وافترق الزوجان فلا سبيل إلى لقاء؛ وأقام أبو العاص بمكة لا يعيش في أيامه، وأقامت زينب عند رسول الله بالمدينة معتلّة البدن واهنة القلب، لولا الإيمان والتقى يشدان من عزمها ويربطان على قلبها لأعجلها الموت ولم تظفر بلقاء. . .

ومضت سنوات وسنوات؛ وخرج أبو العاص في تجارة إلى الشام، يحمل من أموال قريش وبضاعتها فوق ما يحمل من ماله وبضاعته، وبلغ حيث أراد، فباع واشترى وتعوض، ثم قفل راجعاً بمال كثير وربح جم؛ وفيما هو على الطريق إذ لقيته سرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فأصابوا ما معه وأعجزهم هارباً؛ وآب المسلمون إلى المدينة فرحين بما أفاء الله عليهم، ووقف أبو العاص على رأس شاهقة يتلفّت صِفر اليدين، فما وجد إلا الصحراء تبرق بالحصى، ومد النظر إلى البعيد، فما عرف له طريقاً يسلك، وخُيّل إليه أن وراء كل ثنية فارساً معلماً يتربص به لقد فقد ماله ومال الناس، ولا سبيل إلى أن يرد الأمانات إلى أصحابها، وإنه لموشك أن يفقد حياته بعدما فقد ماله وأمانته؛ واجتمع عليه الهم فما درى أين النجاة لنفسه ولعرضه مما عرض له، إن النحس ليلاحقه في كل مسير. . .

وعادت إليه الذكرى، ورجع الزمانُ القهقري أمام عينيه، كما يجتمع التاريخ بزمانه ودنياه في لحظة ومكان لعيني محتضر؛ وتذكر من قريب تلك الحبيبة التي أحيته مرتين: حين وهبت له الشعور بالحياة في الحب، ثم حين وهبت له الحياة نفسها وافتدته عند أبيها بقلادة خديجة. . . وخُيل إليه أنه يراها، وأنه يحدثها فتستمع إليه، فهمس: (أتهبين لي الحياة ثالثة يا زينب. . .!)

وأقبل أبو العاص إلى المدينة تحت الليل حتى دخل على زينب بنت رسول الله؛ فاستجارها وطلب إليها أن تعينه على رد ماله، فأجارته. . .

وأصبح الناس يسعون إلى المسجد، وكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكبر معه؛ وإذا صوت يهتف من وراء جدار: (أيها الناس، إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع. . . فهو في حمايتي وأمني!) وكانت زينب هي التي تهتف. . .

وفرغ النبي من صلاته فأقبل على الناس فقال: (أيها الناس، هل سمعتم ما سمعت؟. . أما والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم. أنه يجير على المسلمين أدناهم. . .!) ثم دخل على ابنته فحدثها وحدثته. وأكبر محمد أن يرى في ابنته هذا الوفاء لزوجها الذي فارقته لأمر الله، وامتنعت عليه لأمر الله، وقطعت ما بينه وبينها من شهوات النفس لأمر الله؛ ثم ما برحت مع كل أولئك تمنحه

البر والوفاء والمعونة؛ برّ المسلمة، ووفاء الصديقة، ومعونة الإنسان. . . ونال من نفس النبي ما سمع وما علم، فأضمر في نفسه رجاء إلى الله. . .
ثم بعث إلى السرية الذين أصابوا مال أبي العاص، فقال: (إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم، وقد أصبتم له مالاً؛ فإن تحسنوا وترددوا عليه الذي له فإنا نحب ذلك؛ وأن أبيتم، فهو فيء الله الذي أفاء عليكم، فأنتم أحق به. . .) قالوا: (بل نرده عليه. . .).
وقال نفر منهم: (يا أبا العاص، هل لك أن تسلم وتأخذ هذه الأموال؟ فأنها أموال المشركين. . .) فقال الرجل: (بئس ما أبدأ به إسلامي أن أخون أمانتي. . .!)
واستعلنت كبرياؤه وأمانته وهو بين ذلة المستجير وأسر الفقر، وأطلت نفسه المؤمنة بفطرتها من وراء ظلمات الشرك الذي يجهر به، مستكبراً أن يبيع دينه بالمال. . .!
وردوا إليه ماله، كرامة لرسول الله وإكباراً لزينب، وعاد الرجل إلى مكة بماله ومال الناس، ونفسه تفيض بمعان شتى، وبين عينيه صورة لا تفارقه، وفي قلبه وجيب لا يهدأ، وعلى طرف لسانه كلام. . . فلما بلغ أدى إلى كل ذي مال ماله، ثم قال: (يا معشر قريش، هل بقي لأحدكم منكم عندي مال؟) قالوا: (لا، فجزاك الله خيراً، فقد وجدناك وفياً كريماً.) قال: (فأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله. والله ما منعني من الإسلام عنده إلا تخوف أن يظنوا أني إنما أردت أن آكل أموالكم، فلما أداها الله إليكم وفرغت منها أسلمت. . .)
وخرج أبو العاص بن الربيع إلى المدينة يهديه نوران في قلبه وأمام عينيه، وسار في مثل موكب العروس تتدافعه المنى على رمال الصحراء، إلى حيث يجد نور اليقين وأنس الحبيب، في حديث محمد وفي وجه زينب، وتلاقى الزوجان المتحابان مرة ثانية، بعد فراق طويل مر من دونه سنوات وسنوات، ولكن الزوجة الوفية كانت قد أدت واجبها وفرغت من دنياه حين هدتِ الرجل الذي أحبته ووفت له بمقدار ما أحبها ووفى؛ فما مضى زمان بعد هذا اللقاء استكمل فيه الرجل أسباب دينه، حتى كانت هي قد استوفت أنفاسها على الأرض؛ وماتت زينب ولكنها خلفت ذكرى أطيب الذكرى، وضربت المثل أبلغ المثل، في وفاء الزوجة، وإخلاص المحبة، وصدق الإيمان

محمد سعيد العريان

على أبواب المدينة

ثنّية الوداع

للأستاذ على الطنطاوي

مضت ساعة كاملة، ونحن نعالج السيارة لنخرجها من الرمل، نرفعها طوراً بالآلة الرافعة وطوراً بأيدينا، ونزيح الرمال من طريقها، ثم نمدّ لها ألواح الخشب لتمشي عليها، ونجرها بالحبال، وندفعها بالأيدي حتى إذا سال منا العرق، ونال منا التعب مشت على الألواح، حتى إذا وصلت إلى نهايتها، عادت فغاصت في الرمال إلى الأبواب. . . . .
فأيسنا وبلغ منا الجهد، وهدّنا الجوع والتعب والحرّ والعطش، فألقينا بأنفاسنا على الرمل صامتين مطرقين، حيارى قانطين
وتلفتّ فلم أر إلا الرمال المحرقة، تمتد إلى حيث لا يدرك البصر، متشابهة المناظر، متماثلة المشاهد. . .
في مَهمهٍ تشابهت أرجاؤه، كأن لون أرضه سماؤه، فرحت أفكر في هذه السبعة عشر يوماً، وما قاسينا فيها من الجزع والتعب والجوع والعطش، وأتصور الغد الرهيب الذي ينفد فيه ماؤنا وزادنا، ويلفحنا فيه سموم الحجاز وشمسه المحرقة، فأرتجف من الرعب
وجعلت أحدّ النظر في هذا الأفق الرحيب، لعلي أرى قرية أو خياماً، فلا أرى إلا لمع السراب، ولا أبصر إلا هذه الجبال التي طلعت علينا أمس فاستبشرنا بها وابتهجنا وظنناها قريبة منا، فسرنا مائة وعشرين كيلاً وهي قيد أبصارنا، تلوح لنا من بعيد كأنها بحر معّلق حيال الأفق ضائع بين السماء والأرض. . . لم تضِح ولم تقترب
فشققت هذا السكون وصحت بالدليل (محمد العَطَوى)
- يا محمد! إيش تكون هذه الجبال؟
- فقال: هذه يا خوي جبال المدينة، وحّنّا (ونحن) إن شاء الله الظهر فيها
- قلت: ما تقول؟

ووثبت وثبة تطاير منها اليأس والخمول عن عاتقي، وأحسست كأن قد صبّ في أعصابي عزم أمة، وقوة جيش، وظننت أني لو أردت السحاب لنلته، ولو غالبت الأسد لغلبتها، ولو قبضت على الصخر لفتته، وجعلت أقفز وأصرخ، لا أعي ما أنا فاعل. فقد استخفني
الفرح، وسرني من هذه الكلمة أكثر ما يسرني أن يقال لي: أنت أمير المؤمنين وصحت بأصحابي فقاموا كالأسود
عالجنا السيارات حتى أخرجناها من الرمل، وملنا بها عن هذه الكثبان حتى ألقيناها عن أيماننا، وانتهينا إلى أرض شديدة درجت عليها السيارات، فاستندت إلى النافذة، وأطلقت نفسي تطير في سماء الأماني، فلم ادع صورة للمدينة إلا تصورتها، وأقمتها أمام عيني، وأفضت عليها ما أستطيع من الجمال والجلال، فلا أطمئن إليها، ولا أجدها إلا دون ما في نفسي. . . ولم يكن يربطني بالأرض إلا صوت الدليل، وهو يهتف بالسائق:
- سر يميناً، مل شمالاً، لج بين هذين التلين، دع هذه القارة على اليمين، احترس من هذا الشعب، تنكب هذه الرملة. . ثم يعود السكون
سرنا أربعين كيلاً أخرى، ولا تزال هذه الجبال تلوح في الأفق كأنها خيال حلم بعيد، يشع منها نور غريب، يومض من وراء القفر، كما يومض الأمل المشرق في ظلمة اليأس، وكنا قد شارفنا سكة الحديد فتخطيناها مستعبرين، ودخلنا في أودية مالها آخر غابت عنا فيها الجبال التي كنا نراها، فنستأنس بمرآها وقاسينا فيها من الشدائد من التواء الأرض وكثرة الأحجار وتشابه المسالك، ولم يكن فينا من ينبس، إلا أن يعرض لنا جبل أو شعب فأسأل الدليل عن اسمه لأكتبه في دفتري الذي سرق مني في آخر الرحلة. . ثم أرجع إلى صمتي الطويل .
فلما زال النهار، صاح بي الدليل:
- هيه. أنت يال كاتب. أكتب: هذا أحد!
- فصحت: إذن قد وصلنا
- فقال: ما قلت لك الظهر، هذا أحد، بقي نصف ساعة.
لم يكن يدري الدليل الإعرابي أي ذكريات انبعثت في نفسي حين قال: هذا أحد! وأي عالم تجلى لعيني، فرأيت المعركة قائمة والمسلمين ظافرين، قد منحهم الله أكتاف العدو، ورأيت الرماة إذ يزلون عن أماكنهم، يبتدرون الغنائم، وخالداً حين يرتد بخيله على هؤلاء الذين عصوا أمر الرسول وغرتهم الدنيا، ورأيت النبي صلى الله عليه سلم ثابتاً مثل أحد، وحوله صحابته الغر الميامين، يذبون عن الدين، ويحمون حمى النبوة، ثم أبصرت هنداً قائمة على
جثة البطل السميذع، سيد الشهداء، وكان قد أكل من بدر كبدها، فأرادت أن تأكل كبده، فشقت عنها فاستخرجتها فلاكتها، فلما وجدت بفيها صلادة الصوان لفظتها وأبصرت النبي صلى الله عليه وسلم واقفاً عليه يبكي، فلما رأى ما مثل به شهق، ولم يكن منظر أوجع لقلبه منه، ثم قال:
رحمك الله يا عم، فلقد كنت وصولاً للرحم، فعولاً للخيرات، فوالله لئن أظفرني الله بالقوم لأمثلن بسبعين منهم، فما برح حتى هبط عليه الوحي، فقام يتلو قول الله جل وعزّ:
فانصرف وقد عفا (وإن عاقَبتم فَعَاقِبُوا بمثل ما عُوقبتم بهِ)
ورنّ في أذني صوت أبي سفيان: أعل هبل، فتلفت، فما رأيت هبل، ولا شيعة هبل، وإذا هو قد درج مع من درج، لم يبق إلا الله الأعلى الأجل، ثم سمعت صوت أبي سفيان يرنّ في أذني مرة ثانية، يخرج من هناك من أرض الشام، التي فتحها لهم سيد العالم، قوياً شديداً، ينادي في المعركة الحمراء، بصوت سمعه كل من في اليرموك:
يا نصر الله اقترب، الثبات الثبات، يا معشر المسلمين. فثبتوا وجاءهم النصر وملكوا سورية من أقصاها إلى أقصاها فهي لهم ولأبنائهم إلى يوم القيامة، ورأيت مئات من مثل هذه الصور، فأحسست كأنما انتقلت إلى العهد الأول، أشهد هبوط الوحي، وأرى جلال النبوة وعز الإسلام. . .
ونظرت، فإذا أحد لا يزال بعيداً، يعترض هذا الوادي الذي نسير فيه مشرقاً بهياً، تومض عروقه المختلفة الألوان من الأخضر البهيّ، إلى الأحمر المشرق، إلى الأزرق اللامع،

فتمتزج هذه الألوان وتختلط، فيكون لها في العين أبهى منظر، وفي القلب أسمى شعور، فازداد بي الشوق، فأقبلت أحتث السائق وأستعجله، أود لو تطوى له الأرض طياً ويطير بنا إلى المدينة طيراناً، فلا أرى السيارة تريم مكانها، أوجد أحداً لا يزال بعيداً، فأعود فأستحث السائق. . . وما لي لا أسرع إلى أحد وأحبه، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أحد جبل يحبنا ونحبه. وما لي لا أزداد شوقاً إلى المدينة، وليس بيني وبينها إلاّ ربع ساعة؟

وأعظم ما يكون الشوق يوماً ... إذا دنت الخيام من الخيام

ولما خرجنا من الوادي، وانتهينا إلى الفضاء الرحب، رأينا وجه أحد وعلى سفحه النخيل والبساتين، ورأينا سلعاً وهو جبل أسود عال، يقوم حيال أحد فيحجب المدينة وراءه، فلا يبدو منها إلاّ جانب الحرة، وطرف النخيل، فذكرت قول محمد بن عبد الملك وقد ورد بغداد فحنّ إلى المدينة:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... بسلع ولم تغلق عليّ دروب

وهل أحد بادٍ لنا وكأنه ... حصان أمام المقربات جنيب

يخب السراب الضحل بيني وبينه ... فيبدو لعيني تارة ويغيب

فإن شفائي نظرة أن نظرتها ... إلى أُحُدٍ والحرتان قريب

وإني لأرعى النجم حتى كأنني ... على كل نجم في السماء رقيب

وأشتاق للبرق اليماني إن بدا ... وأزداد شوقاً أن تهب جنوب

وكان علينا أرطال من الغبار والأوساخ، فاستحينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ندخل مدينته ونسلم عليه، ونحن على مثل هذه الحال؛ وكانت البساتين والحيطان قريبة منا، فسرنا إليها، نخب في الرمال، فلما دنونا من أحدها، سمعت غناء موقعاً على ناي، كأشجى ما سمعت من الغناء فتعجبت، ثم ذكرت أن أهل المدينة مذ كانوا أطرب الناس وأبصرهم بالغناء، وهممت بالدخول، ثم أحجمت وقلت: لعل المغني امرأة، فلقد كان الذي سمعت صوتاً طرياً رقيقاً لا يكون إلاّ لامرأة أو غلام، ثم حانت مني التفاتة، من فرجة الباب، فإذا المغني عبد أسود كالليل، وإذا الذي حسبته ناياً ناعورة يديرها جمل، لها مثل صوت النواعير في حماه لكن صوتها أرق وأحلى، وإذا هذا السور الذي تلطمه الصحراء برمالها كما تضرب الأواذيّ صخرة الشاطئ، قد عرش على جانبه الآخر الياسمين، وأزهر عليه الفلّ، وظللته الأشجار وحنا عليه النخل، ورأينا الماء يهبط على الساقية، كأنه ذوب اللجين، ثم يجري فيها صافياً عذباً متكسراً، فجننا برؤية الماء الجاري، ولم نكن قد رأيناه منذ سبعة عشر يوماً، إلا مرة واحدة في العلا، واقتحمنا الباب، وأقبلنا على الماء نغمس فيه أيدينا، وأرجلنا، ونضرب به وجوهنا، ثم لا نشبع منه ولا ننصرف عنه، حتى أرحنا رائحة الحياة، فاستلقينا على الأرض ننظر إلى الصحراء الهائلة، التي أفلتنا منها وضرب بيننا وبينها بسور له باب، باطنه فيه الرحمة، وظاهره من قبله العذاب

اغتسلنا ولبسنا ثياباً بيضاء نظيفة، وتطيبنا، ثم ركبنا في السيارات إلى المدينة، فلم نقطع سلعاً حتى بدت لنا المدينة كصفحة الكف، يحف بها النخيل، وتكتنفها الحرار، وتقوم في وسطها القبة الخضراء، تشق بنورها عنان السماء، وتكتشف لنا دنيا كلها خير وحقيقة وجمال، وعالم كله مجد وفضيلة وجلال

من هنا خرج جند الله الثلثمائة إلى بدر، فدكوا صرح الاستبداد والجهالة، ورفعوا منار الحرية والعلم، أقاموه على جماجم الشهداء، وسقوه هاتيك الدماء، فأضاء نوره الجزيرة كلها، ثم قطع الرمل، فأضاء الشام والعراق، ثم قطع البحر فأضاء الهند وإسبانية، فاهتدى به الناس إلى طريق الكمال الإنسانيّ

من هنا خرج الأبطال الذين هدموا وبنوا وعلموا: هدموا الدول المتفسخة الجاهلة التي وقفت في طريق الحضارة، فلا هي تتقدم بها ولا هي تدعها تمشي في طريقها، وبنوا الدولة التي ألفت بين فلسفة يونان وحضارة فارس وحكمة الهند، وجعلتها جميعاً سِفرا واحداً فاتحته القرآن، وروحه الإسلام، ثم جلسوا على منابر التدريس في جامعات بغداد ومصر وقرطبة ليعلموا العالم، فكان من تلاميذهم ملوك أوروبا وباباواتها. . .

من هنا خرج أبو بكر وعمر، وعبد الملك والمنصور والرشيد وعبد الرحمن الناصر وصلاح الدين وسليمان القانوني

من هنا خرج أبو حنيفة ومالك وسفيان والنووي والغزالي والفارابي وابن سينا وابن رشد
من هنا خرج خالد وسعد وقتيبة وطارق وسيف الدولة والغافقي
من هنا خرج حسان والفرزدق وجرير وأبو تمام والمتنبي والمعري
من هنا خرج الجاحظ وأبو حيان حزم
من هنا خرج ألف ألف عظيم وعظيم
تقدست أيتها المدينة. . أم المدن، وظئر العظماء؟
وكنا قد بلغنا هذا المضيق الصخري، بين هضبتي سلع، فنظرت في خريطة للمدينة كانت معي، وقلت للدليل: أما هذا ذباب؛ قال: بلى والله فما يدريك أنت؟ قلت: أما هذا مسجد الراية؟ قال: بلى. قلت: هذه هي ثنية الوداع، وخفق قلبي خفقاناً شديدا، وخالطني شعور بالهيبة من دخول المدينة، والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما في نفسي من الفرح والسرور، وجعلت أتأمل المدينة. وقد دنونا منها، حتى لقد كدنا نصير بين البيوت، وأحدّق في القبة الخضراء التي يثوي تحتها أفضل من مشي على الأرض وقد شخص بصري وكدت لا أرى ما كان حولي لفرط ما أحس من جيشان العواطف في نفسي. . . حتى غامت المشاهد في عينيّ، وتداخلت كأنها صورة يضطرب بها الماء، وأحسست كأني قد خرجت من نفسي، وانفصلت من حاضري وذهبت أعيش في عالم طلق لا أثر فيه لقيود الزمان والمكان، فسمعت أصواتاً آتية من بعيد. . . من بعيد، وسمعتها تزداد وتقوى، حتى تبينت فيها قرع الطبل، ووعيت أصوات الولائد، يضربن بالدفوف وينشدن:
طلع البدر علينا ... من (ثنيات الوداع)
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع
ورأيت المدينة قد سالت بأهلها، فملأ الناس الحرّة وسدّوا الطرق، وغطى النساء الأسطحة، ولم يبق في المدينة أحد إلا خرج لاستقبال سيد العالم، وهو قادم ليس معه صلى الله عليه وسلم إلا الصديق الأعظم، لا يلمع على جبينه التاج المرصع، ولا يحمل في يده صولجان الملك، ولا تسير وراءه العساكر والجنود، ولكن يضيء على جبينه نور النبوة، ويحمل في يده هدى القرآن، وتسير وراءه الأجيال، ويتبعه المستقبل، وتحف به الملائكة، ويؤيده الله!
ثم سار وسارت وراءه هذه الجموع إلى القرية التي لبثت قروناً ضائعة بين رمال الصحراء، لا يدري بها التاريخ، ولم تسمع بها القسطنطينية، ولم تعلم بوجودها روما، فجاء هذا الرجل ليهزها وينفخ فيها روح الحياة ويجعلها أم الدنيا وعاصمة الأرض إلى المعشر اليمانين الذين جعلوا بأسهم بينهم، فلم تمتد عيونهم إلى أبعد من هذه الحرار، ولم يطعموا من المجد بأكثر من أن يسحق بعضهم بعضاً، لينشئهم بالقرآن خلقاً آخر، ويسلمهم مفاتيح الأرض، ويضع في أيديهم القلم الذين يكتبون به أعظم تاريخ للبطولة والعلم والعدالة، فأطاعوا ولبوا، ثم مشوا إلى القادسية واليرموك، ثم أصبحوا سادة العالم، ورأيت الأنصار يستبقون إلى إنزاله صلى الله عليه وسلم والتشرف به ويصيحون به:
هلم يا رسول الله إلى القوة والمنعة، فيقول: خلوا سبيلها فإنها مأمورة، ويدعها تمشي وقد أرخى لها زمامها ما يحركها وهي تنظر يميناً وشمالاً، حتى أتت دار بني مالك النجار فبركت عند باب المسجد، ثم ثارت وبركت في مبركها الأول
فنزل عنها صلى الله عليه وسلم وقال: ههنا المنزل إن شاء الله، وكان المسجد مربداً لغلامين يتيمين في المدينة، فاشتراه صلى الله عليه وسلم وانطلق يحمل الأحجار بيده الكريمة ليضع أسس أكبر جامعة بثت الهدى في الأرض!
ونظرت فإذا السيارات أمام باب السلام، فاشرأبت الأعناق وبرقت الأبصار، ودمعت العيون، وخفقت القلوب، وتعالى الهتاف، وكانت حال لا سبيل إلى وصفها قط. . . . . فنزلنا ودخلنا المسجد نسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم
علي الطنطاوي
علم الحيل عند العرب
للأستاذ قدري حافظ طوقان

لقد أصبح علم الطبيعة من العلوم التي لها اتصال وثيق بالحياة، وشأن عظيم في تقدم المدنية الحديثة القائمة على الاختراع والاكتشاف، ولا نكون مبالغين إذا قلنا إن علم الطبيعة هو الأسّ الذي شيد عليه صرح الحضارة الحالية. وهو لم يتقدم تقدماً محسوساً إلا حينما أشرف القرن التاسع عشر للميلاد على ختامه. وفي هذا القرن - القرن العشرين - دبت إليه عوامل التحول واعتنى به علماء عصرنا عناية فائقة، فأنشئوا المختبرات وأنفقوا عليها المبالغ الطائلة، وبلغوا في إتقانها درجة كبيرة استطاعوا بواسطتها أن يحلوا بعض المشاكل العلمية، وأن يجيبوا على مسائل كثيرة غامضة؛ وظهرت من ذلك عجائب الكون بصورة أوضح وأتم، واستخدم الإنسان ما اكتشفه من نواميس الطبيعة والحياة فيما يعود عليه بالتقدم والرقي، فلولا بعض هذه النواميس ولولا فهمه إياها فهماً مكنه من الاستفادة منها لما كانت السابحات في السماء والعائمات على الماء، ولما كان في الإمكان الغوص إلى أعماق البحار وجعل المولدات والمحركات الكهربائية في متناول الإنسان، ولما استطاع أن يطوق القارات بالأسلاك الكهربائية، وأن يملأ الجو بعجيج الأمواج اللاسلكية، وقد حملت على أجنحتها الأنباء والأخبار والحوادث. . . ولما نمت الصناعة هذا النمو الغريب. وازدهرت هذه الازدهار العجيب. وعلى كل حال يمكن القول إنه بفضل البحث العلمي وبفضل ما اكتشفه الإنسان من القوانين الطبيعية وعلاقاتها مع بعضها سيطر الإنسان على عناصر الطبيعة هذه السيطرة القوية، سيطرة جعلته يعمل من المستنبطات قوى يستخدمها في قضاء مآربه المتنوعة المتعددة، ويخضعها لتقوم بأعمال المدينة الحديثة المختلفة المعقدة، سيطرة أحدثت انقلاباً بعيد الأثر خطير الشأن في الحياة والحضارة. . . إن علم الطبيعة وهذا شأنه وتأثيره وهذه خطورته لجدير بنا أن نهتم وأن نتعرف عليه ونقف على تطوره وتاريخه وأثر الأمم في تقدمه، ويهمنا بصورة خاصة أن نعرف مآثر أسلافنا وما أحدثوا فيه النظريات والآراء. وسنتناول في هذا المقال المجهود العربي في علم الحيل - أي علم الميكانيكا - محاولين تبيان فضلهم عليه وما قدموه من جليل الخدمات في هذا الميدان

إن علم الطبيعة من العلوم التي اعتني بها الأقدمون فقد كان معروفاً عند علماء . . . اليونان، وإليهم يرجع الفضل في اكتشاف كثير من مبادئه الأولية ولهم مؤلفات عديدة ترجم العرب أكثرها. ولم يكتف العرب بنقلها بل توسعوا فيها وأضافوا إليها إضافات هامة تعتبر أساساً لبعض المباحث الطبيعية. وهم الذين وضعوا أساس البحث العلمي الحديث وقد قويت عندهم الملاحظة وحب الاستطلاع، ورغبوا في التجربة والاختبار فأنشئوا (المعمل) ليحققوا نظرياتهم وليتأكدوا من صحتها. ومن الفروع التي أصابها شيء من اعتناء العرب واهتمامهم بحوث الميكانيكا أو علم الحيل، ومع أنهم لم يبدعوا فيه إبداعهم في البصريات إلا أنهم استنبطوا فيه بعضاً من المبادئ والقوانين الأساسية التي كانت من العوامل التي ساعدت على تقدمه ووصوله إلى درجته الحالية. لقد ترجم العرب كتب اليونان في الميكانيكا ككتاب الفيريكس لأرسطوطاليس، وكتاب الحيل الروحانية، وكتاب رفع الأثقال لايرن، وكتاب الآلات المصوتة على بعد ستين ميلاً لمورطس، وكتب هيرون الصغير في الآلات الحربية، وقطيزنيوس وهيرون الإسكندري في الآلات المفرغة للهواء والرافعة للمياه وغيرها. اطلع العرب على هذه المؤلفات ودرسوها ووقفوا على محتوياتها ثم أخذوها وأدخلوا تغييرات بسيطة على بعضها وتوسعوا في البعض الآخر، واستطاعوا بعد ذلك أن يزيدوا عليها زيادات تعتبر أساساً لبحوث علم الطبيعية المتنوعة. وليس في الإمكان أن نجول كثيراً في هذه العجالة حول مآثر العرب في الميكانيكا، ولكن سنأتي على ذكر شيء من مجهوداتهم فيه وما قدموه من الخدمات لهذا الفرع من المعرفة، وما كان لهذه المجهودات ولتلك الخدمات من أثر بيّن في تقدمه ورقيه.

لقد كتب العرب في الحيل، وأشهر من كتب في هذا البحث محمد وأحمد وحسن أبناء موسى بن شاكر (ولهم في الحيل كتاب عجيب نادر يشتمل على كل غريبة، ولقد وقفت عليه فوجدته من أحسن الكتب وأمتعها وهو مجلد واحد. .)

وهي - أي الحيل - شريفة الأغراض، عظيمة الفائدة، مشهورة عند الناس ويحتوي هذا الكتاب على مائة تركيب ميكانيكي عشرون منها ذات قيمة عملية. وكان علماء العرب يقسمون علم الحيل إلى قسمين: الأول منهما يبحث في بحر الأثقال بالقوة اليسيرة

وآلاته. والثاني في آلات الحركات وصنعة الأواني العجيبة. وألّف العرب في علم مراكز الأثقال، وهو (علم بتعرف منه ثقل الجسم المحمول، والمراد بمركز الثقل حد في الجسم يتعادل
بالنسبة إلى الحامل)، ومن الذين ألفوا فيه أبو سهل الكوهي، وابن هيثم، وبنو موسى وكذلك للعرب فضل في علم السوائل، فلأبي الريحاني البيروني في كتابة الآثار الباقية شروح وتطبيقات لبعض الظواهر التي تتعلق بضغط السوائل وتوازنها، ووضعوا في هذا كله مؤلفات قيمة. وقد استنبطوا طرقاً واخترعوا آلات تمكنوا بواسطتها من حساب الوزن النوعي وكان لهم فيه ميل خاص، وقد يكون ذلك آتياً من رغبتهم الشديدة في معرفة الوزن النوعي للأحجار الكريمة وبعض المعادن، وهم أول من عمل فيه الجداول الدقيقة فقد حسبوا كثافة الرصاص مثلا فوجدوها 11 , 33 بينما هي 11 , 35 والفرق بين المقدرين ضئيل
وفي كتاب عيون المسائل من أعيان المسائل لعبد القادر الطبري جداول فيها الأثقال النوعية للذهب والزئبق والرصاص والفضة والنحاس، والصفر، والحديد، ولبن البقر، والجبن والزيت، والياقوت، والياقوت الأحمر، والزمرد واللازورد والعقيق، والماء والبلخش والزجاج؛ واستطاعوا أن يحسبوا أثقال هذه المواد النوعية بدقة أثارت إعجاب العلماء. وعمل البيروني تجربة لحساب الوزن النوعي، واستعمل لذلك وعاء مصبه متجه إلى أسفل، ومن وزن الجسم بالهواء وبالماء تمكن من معرفة المقدار المزاح، ومن هذا الأخير ووزن الجسم بالهواء حسب الوزن النوعي. وقد وجد الوزن النوعي لثمانية عشر عنصراً ومركباً من الأحجار الكريمة والمعادن، ويعترف سارطون بدقة تجارب البيروني في ذلك
واخترع الخازن آلة لمعرفة الوزن النوعي لأي سائل، واستعمل بعض علماء العرب قانون أرخميدس في معرفة مقدار الذهب والفضة في سبيكة ممزوجة منهما من غير حلها. وعلى كل حال فالذين كتبوا في الوزن النوعي كثيرون، منهم سند بن علي والرازي وابن سينا والخيام والخازن وغيرهم، وكانت كتاباتهم مبنية على التجربة والاختبار، واستعمل البعض موازين خاصة يستعينون بها في إيجاد الكثافة، فقد استعمل الرازي ميزاناً سماه الميزان الطبيعي وله في ذلك كتاب محنة الذهب والفضة والميزان الطبيعي. وللخازن كتاب ميزان الحكمة كتبه سنة 1137م وفيه وصف دقيق مفصل للموازين التي كان يستعملها العرب في تجاربهم، وفيه أيضا وصف لميزان غريب التركيب لوزن الأجسام بالهواء والماء، ونجد
فيه جداول الأوزان النوعية لكثير من المعادن والسوائل والأجسام الصلبة التي تذوب في الماء وهذه الجداول دقيقة جداً ومستخرجة بطرق متنوعة. ويقول سارطون إن ابن سينا والخيام أوجدا طرقا عديدة لإيجاد الوزن النوعي. وكتاب ميزان الحكمة المذكور من الكتب الرئيسية المعتبرة جدا في علم الطبيعة إذ هو أكثر الكتب استيفاء لبحوث الميكانيكا، وقد يكون الكتاب الوحيد الذي ظهر من نوعه في القرون الوسطى. واعترف بلتن في خطاب ألقاه في أكاديمية العلوم الأمريكية بأهمية هذا الكتاب. ومن هذا الكتاب يستدل على أنه كان لدى الخازن آلات مخصوصة لحساب الأوزان النوعية ولقياس حرارة السوائل. ووفي الكتاب نفسه بحث في الجاذبية وبأن هناك علاقة بين سرعة الجسم الساقط والبعد الذي يقطعه والزمن الذي يستغرقه، وبأن قوى التثاقل تتجه دائماً إلى مركز الأرض
ولم ينفرد الخازن ببحوثه في الجاذبية، فقد بحث غيره من قبله ومن بعده من علماء العرب فيها وفي الأجسام الساقطة، ووضعوا قوانين لذلك، وقد كنا وفّينا هذا الموضوع بعض حقه في مقال لنا في (الرسالة عدد 72 عنوانه (الممهدون للاكتشاف والاختراع)، ولا نرى الآن ضرورة لإعادة ما كتبناه في هذا الموضوع. ويحتوي الكتاب المذكور على بحث في الضغط الجوي وبذلك يكون العرب قد سبقوا اتورشيللي في هذا البحث. ويحتوي أيضاً على المبدأ القائل إن الهواء كالماء يحدث ضغطاً من أسفل إلى أعلى على أي جسم مغمور فيه، ومن هذا استنتج أن وزن الجسم في الهواء ينقص عن وزنه الحقيقي وكل هذه المبادئ والحقائق هي كما لا يخفى الأسس التي عليها بني (فيما بعد) بعض الاختراعات كالبارومتر ومفرغات الهواء
وللعرب بحوث في الروافع وقد أجادوا في ذلك كثيراً، وكان لديهم عدد غير قليل من

آلات الرفع وكلها مبنية على قواعد ميكانيكية تمكنهم من جر الأثقال بقوى يسيرة، فمن هذه الآلات التي استعملوها المحيطة والمخل والبيرم وآلة الكثيرة الرفع والأسفين واللولب والأسقاطولي وغيرها، وقد يطول المطال إذا أردنا أن نبين ماهية كل منها، ويمكن لمن يريد الوقوف على ذلك أن يرجع إلى كتاب مفاتيح العلوم للخوارزمي ففيه بعض التفصيل. ومن الطريف أن العرب عند بحثهم في خواص النسبة أشاروا إلى أن عمل القبان هو من عجائب النسبة، فقد جاء أن: - (من عجائب خاصية النسبة ما يظهر في الأبعاد والأثقال

من المنافع. من ذلك ما يظهر في القرسطون أعني القبان، وذلك أن أحد رأسي عمود القرسطون طويل بعيد من المعلاق والآخر قصير قريب منه، فإذا علق على رأسه الطويل ثقل قليل، وعلى رأسه القصير ثقل كثير، تساويا وتوازنا متى كانت نسبة الثقل القليل إلى الكثير كنسبة بعد رأس القصير إلى بعد راس الطويل من المعلاق. . .) والمقصود من المعلاق هنا نقطة الارتكاز

واستعمل العرب موازين دقيقة للغاية وثبت أن فرق الخطأ في الوزن كان أقل من أربعة أجزاء من ألف جزء من الجرم. وكان لديهم موازين أدق من ذلك، فقد وزن الأستاذ فلندرس بتري ثلاثة نقود عربية قديمة، فوجد أن الفرق بين أوزانها جزء من ثلاثة آلاف جزء من الجرام، ويقول الأستاذ المذكور تعليقا على هذه الدقة: (إنه لا يمكن الوصول إلى هذه الدقة في الوزن إلا باستعمال أدق الموازين الكيميائية الموضوعة في صناديق من الزجاج (حتى لا تؤثر فيها تموجات الهواء) وبتكرار الوزن مراراً حتى لا يبقى فرق ظاهر في رجحان أحد الموازين على الآخر، ولذلك فالوصول إلى هذه الدقة لمما يفوق التصور، ولا يعلم أن أحداً وصل إلى دقة في الوزن مثل هذه الدقة. . .)

ومن هنا يظهر أن العرب درسوا مسألة الميزان دراسة دقيقة؛ وقد ألفوا في ذلك مؤلفات قيمة جداً، فثابت بن قرة ألف كتابين في ذلك: أحدهما في صفة استواء الوزن واختلافه وشرائط ذلك؛ والثاني في القرسطون، ولا تزال في هذا الكتاب الأخير نسخة في برلين وأخرى في وكالة الهند بلندن. ومن الذين كتبوا في الموازين والأوزان نظرياً وعملياً الكوهي والفارابي وابن سينا وقسطا بن لوقا البعلبكي وابن الهيثم والخازن والجلدكي وغيرهم. . . وعلى ذكر الجلدكي نقول إن هذا النابغ حلق في الكيمياء ووصل فيها درجة لم يصلها أحد من معاصريه، وهو الذي يقول إن العناصر يفعل بعضها ببعض على نسب محدودة؛ فكأنه اتصل إلى المبدأ الجوهري قبل دلتون. واستعمل العرب لموازينهم أوزاناً متنوعة، وأحسن كتاب في هذا البحث الكتاب الذي وضعه عبد الرحمن بن نصر المصري للمراقب (المحتسب) العام لأحوال الأسواق التجارية في أيام صلاح الدين الأيوبي. وتوجد كتب أخرى تبحث في هذا الموضوع ككتاب ابن جامع وغيره وفوق ذلك فقد كتب العرب في الأنابيب الشعرية ومبادئها وتعليل ارتفاع الموائع وانخفاضها

فيها، وهذا طبعاً قادهم إلى البحث في التوتر السطحي وأسبابه وبحث في هذا كله الخازن. . . وقد يجهل كثيرون أن ابن يونس هو الذي اخترع بندول الساعة (الرقاص) واعترف بذلك سيديو وشيدويك وبيكر وتايلر وغيرهم. وكان عندهم (أي العرب) أيضاً فكرة عن قانون الرقاص. يقول سمث: (ومع أن قانون الرقاص هو من وضع غاليلو إلا أن كمال الدين لاحظه وسبقه في معرفة شيء عنه. وكان الفلكيون يستعملون البندول لحساب الفترات الزمنية أثناء الرصد. . .) وسبق لنا أن كتبنا شيئاً من هذا في

هذا مجمل ما عمله العرب في علم الحيل أو الميكانيكا وهو يدل كما قلنا - في . . . أول المقال - على أنهم أخذوا ما عرفه اليونان وغيرهم في هذا الفرع الجليل وتوسعوا فيه ثم زادوا عليه زيادات هامة يعد بعضها أساساً لبعض البحوث والمواضيع والنظريات في علم الطبيعة

(نابلس - فلسطين)
قدري حافظ طوقان

ذكرى الهجرة

بقلم عبد الحكيم عابدين

على هامة الدنيا وقد فُوقِتها قدرا ... وفي ذمة التاريخ، أيتها الذكرى

أطلّي على رأس الليالي منارةً ... وفي غسَق الأجداث شعّي لنا فجرا
وقومي على الإسلام تاجاً يزينه ... وسيفاً يردّى من يُريد به الضرا
وأحيي عزاء القلب عما أصابه ... لما دَهَم الإسلام من محن كبرى
أعيدي، ولو طيفاً، من الغابر الذي ... تموت عليه النفس والهةً حسرى
وقصّي على سمعي ولو في رَؤى الدجى ... أحاديثَ يُعيي الدهر ترديدُها بهرا
يُجشِّم داءً أخديعه مُعادُها ... كأن بأذنيه إذا تُليت وقرا
أحاديث عن طه وحسبيَ ذكره ... بلا لقب إذ ضقت عن قدره ذكرا
وصحبٍ أباةٍ ما رأى المجد مثلهم ... ولم يرضَ إلا بين أنفسهم وكرا
غطارِفَ بُلج لا يجوز عديدُهم ... لدي أرهبو الدنيا، أصابعك اليسرى
ومن قُلِّد الإيمان درعاً ومغفرا ... فلا غرو أن أعْيا - وحيداً - به الدهرا
رُويدك يا ذكرى. لكم تُضرمين بي ... مشاعرَ كاد الدهر يُغرى بها القهرا
وآمالَ نفس أوشكت حادثاته ... إلى اليأس أن تُدْنِي نواهضها قسرا
طلعتِ على الدنيا فأذكرت آلها ... مواقف للإسلام ما برحت غُرّا
وما الهجرة البلجاء إلا صحيفةٌ ... تُتّوج من دين الهدى ذلك السِّفرا
سُرًى في سبيل الله والخطب كالح ... وللبيض لَمْعٌ في حواشي الدجى افترّا
بأيدٍ تلظّى للدماء تعطشا ... وترقب أن تُسقى دم المصطفى هدرا
فما هاله أن الأسنة شُرّعٌ ... تباري لكي يرجعن من دمه حُمْرا
سَرى بين صحب تسقط الشّيم سجّدا ... لإيمانهم. لو أن منه لنا نزرا!
عقائدُ تدعوا المستحيل توهماً ... ولا ترتضي إلا لخالقها أمرا
جوارف للأطواد إن رُمْن صدها ... قوانع بالأشواك أن تكسوَ السيرا
تساوِمُ بالأرواح كل مهند ... على عِزَّة الإسلام تعلو بها الشعرى
ليثرب شدوِ الرحلَ يسعى يقينهم ... سناً بين أيديهم إذا افتقدوا البدرا
لهم منه عزم الأسد في لمعة القنا ... وحسب الفتى الساري بمثلهما ذخرا
يُذلل وعثاء الطريق كأنما ... يرون صياخيد الفلا بُسُطا خُضرا
إلى حيث شاء الله للحق رفعة ... وأثر للإسلام في صبُحه. نشرا
فلا يحسبن مرضى القلوب رحيلهم ... توفّيَ شرك كان يمطرهم شرا
ولا وهناً عن دعوة الله. إنما ... مضاءٌ بأمر الله أن هاجروا سرا
مضوا ليعودوا فاتحين أعزة ... كراماً كإقعاء الهزبر إذا استشرى
وكان. فلم يبعد بمكة عهدهم ... من العمرَ حتى عاودوا فتحها قهرا
وحطمت الأصنامُ دون هوادة ... وصال الأذان العذب في الكعبة الزهرا
ونودي فيه (الله أكبر) بعدما ... شكت جهل قوم كبّروا بينها الصخرا
وما فتئ الإسلام تعلو بنوده ... ويأتيه طوعَ السيف من لم يجئ حرا
ودانت له أرض الجزيرة. لم يدع ... بها معهداً إلا استقلّ به نضرا
ولم تلبث الأعوامُ أن بهرت به ... عُلا قيصر واستنصرته على كسرى
فدالا ودالت عنهما دولتاهما ... وعمّ الهدى فاستخلص البر والبحرا
فمالي أراه اليوم - وا حسرتا - هَوَى ... وأشمتَ فيه ذلَّ أبنائه الكفرا
وأُطمِع فيه كل أحمقَ لم يكن ... ليجلد يوماً أن يُطيق له ذكرا
وما بالُه - واخطبَ - ذلت شعوبه ... وحكّم فيها ضعفها الأهوجَ الغرا
متى أشهد الإسلام يَرجع مجدَه ... وتُرفع راياتٌ له طُويت قسرا
ألا ألمعيُ من سلالة (أحمدٍ) ... يقلّده الفاروق من رؤُحه السُّمرا
فيبعث للإسلام ماضيَ صولة ... شَأَتْ في شباب الدهر أنجمه الزُهرا
ويا معشر الإسلام، والحق قوة، ... ألا قومة للحق يحيا بها حُرّا
فما الحق إن لم تمنع البيض حوضه ... بأخلق أن يُعطى الحياةَ ولا أحرى
وأكفلُ منه للسيادة باطلٌ ... تقوم عليه السمهرية لا يُفرى
بني وطني، والشرق أجمعُ موطني ... ومِثليَ - ممّن لا يدين بذا - يبرا
تعالوا افهموا الإسلام فالناس اخوة ... متى آمنوا، لا الشام ندري ولا مصرا
وما أمم الإسلام إلا كتيبةٌ ... وقائدها القرآنُ عزَّت به دَهرا
ولن تستعيد الأمر إلا بوحدة ... تقرب نائيهم وتنسيهم إلاصرا
لعمريَ ما أزرى بنا غير جهلنا ... حقيقة هذا الدين أو روحه الكبرى

وإكبارنا منه القشور وهجرنا ... لبابا وروحا ما أساغا لنا هجرا
لعمريَ ما الإسلام إرسال لحيةٍ ... ولا صلواتٍ تُنتضَى للريا سِترا
ولكنما الإسلام مجدٌ وعزةٌ ... تباعُ الدماءَ الفيحَ والأنفسَ الغُرّا
فدونكمُ القرآنَ دستورَ مجدكم ... تصولوا على الدنيا بعزته كِبرا
تربوا به واسقوا العقائد روحه ... وربوا عليه النشء وابغوا به النصرا
صِلوا بين أرواح الشباب وبينه ... ولا يكُ حظ القارئ الطيَّ والنشرا
إذن يعلموا أن الجهاد فريضةٌ ... وأن سنام الأمر أن تفدِيَ الأمرا
وأن أخا الإسلام ليس بمسلم ... إذا ملّكَ الأعداءَ من أرضه شبرا
(الجامعة المصرية)

عبد الحكيم عابدين الفيومي

سفائن الصحراء

للدكتور أحمد زكي

هَلاَ، هلا، هيّا ... إطوي الفَلاَ طيّا
هلا، هلا، سيري ... وامضي بتيسيري
وقرّبي الحيّا ... للنازح الصبّ
طيري بنا طيري ... للماء والعشب
(شوقي)

الجمل سفينة الصحراء، إذا أنت ذكرت الصحراء ذكرته، وإذا ذكرته ذكرت الصحراء، وما وجوده في غير الصحراء إلا عبث ودعابة، يزيد حسك بهما كلما تأملت خَلقه، ودرست خُلقه، وقرنت ما تجد من ذلك بطبيعة السواد من الأرض الذي يخرج إليه الجمل أحياناً، أو بطبيعة المدن التي يضلّ إليها بحكم المصادفة الخاطئة والتوجيه الجائر؛ فكما قد ينبو في نظر الرجل العادي مرأى العمامة في متحف اللوفر، ومظهر القبعة في الأزهر، كذلك قد تضيق نفس عالم الأحياء بمنظر الخفّ على زلق المدينة، ورؤية السنام يسير بين الوفير الكثير من طعامها

في الصحراء معنى الجوع، ومعنى الحر، ومعنى المشقة والصبر، وفيها معنى الجدب والقحط والجفاف. وفي الجمل تركزت كل هذه المعاني

أول ما يصفه الحيوانيّ، يصفه بأن يضعه لك في قائمة الحيوانات، فتجده في خانة المجترات، وأميز ما تمتاز به هذه الحيوانات أن أمعدتها تنقسم إلى أربعة أقسام، أو أن شئت تتركب من أربعة أكياس

الكيس الأول وهو أكبرها ويسمى الكرش. وإليه ينزل الطعام من المريء (أ) بعد أن يكون قطّعه الحيوان بأسنانه تقطيعاً هيّناً هو دون المضغ بكثير؛ والكيس الثاني ويسمى بالقلنسوة (جـ) وبغشائه المخاطي تَنَنٌّ من خلايا ذات أضلاع عدة، وإلى هذه القلنسوة يخرج الطعام من الكرش تدرّجاً، وفيها يتكوّر إلى كرات ليست بصغيرة الحجم تندفع إلى أعلى في مريء الحيوان إلى فمه فيأخذ في مضغها حتى تصير عجينة لينة؛ وحركة اندفاع الطعام هكذا حركة طبيعية لا كحركة القيء. فإذا تم المضغ بلعه الحيوان فذهب الطعام هذه المرة

إلى الكيس الثالث ويسمى بذي اللفائف (د) ذلك لأن حائطه به ثنيات مستطيلة تشبه أوراق الكتاب وهو مفتوح، ومن ذي اللفائف يخرج الطعام إلى الكيس الرابع واسمه الانفحة (هـ) وفيها يحدث الهضم الحق على وجهه المألوف في الحيوانات الأخرى؛ ففي الانفحة تنفرز العصارات الهضمية، وهي التي تستخدم في تجبين اللبن على ما هو معروف

فإنك تجد في تركيب معدة المجترّات، ومنها الجمل، إن صانعها خلقها وفقاً لحاجاتها وملاءمة لطور معيشتها، فالكرش الكبير الذي يملأ جانباً عظيماً من البطن يقذف إليه الحيوان بالطعام الأخضر الذي يقتطفه من الشجر قذفاً، أما على عجل لأنه يخشى أن ينزل عليه عدو من أعدائه المفترسة، أو اختزاناً له كي يعود إليه عند حاجته للطعام. فإذا هو ذهب إلى أمنه، أو جاءته شهية الطعام عمد إلى هذا المخزون فأكله من جديد. والأكل أوله المضغ

أما الماء فإنك واجد في معدة الجمل خلايا عديدة كالجيوب، واقعة في جدرانه، بها الماء، وعليها أغطية من العضل تنسد وتنفتح عند الحاجة

وتنتهي قوائم الجمل: رجلاه ويداه، بإصبعين ككل المجترات، كالعنز والأبقار والوعل والغزلان. إلا أن هذه الأصابع تنتهي في هذه بأظلاف تساعدها الآن أو ساعدت آباءها بالأمس على تسلق الصخور والجبال. أما في الجمل فينتهي الإصبعان بوسادة بها رخاوة وبها طرواة هي خير الأحذية للسير السريع الهين فوق الرمال لاسيما الوعثاء منها. والفيل إذا مشى في الرمل فقد حيلته فيه، والحصان لا يلبث أن تُنهك قواه. كذلك الحال ربيب المدينة إذا هو خرج بحذاء ذي كعب عال (أو الأولى ربيبتها). والسيارات تغوص في الرمال، ثم تدور عجلاتها وتدور فلا تزيد فيها إلا غوصاً. إلا إذا هي شابهت الجمال فاحتذت أخفافاً، وتلك بالونات جديدة صنعت حديثاً قطرها تسع بوصات وضغط هوائها تسعة أهواء فهي عريضة رخوة. وقطر البالونات العادية نصف هذا القطر، وضغطها ضعف هذا الضغط أو ثلاثة أمثاله

والجمل يحمل غذاءه فوق ظهره، حملته الطبيعة إياه، واختزنته تحت جلده حيث لا يصل إليه سواه: هذا سنامه، وهو كتلة كبيرة من الدهن تجيء بمجيء المطر والعشب وتذهب بذهابهما، وهي تزيد ويمتلئ بها ظهره وتتخذ شكلاً أقرب ما يكون إلى الهرم الرباعي،

والجمل معشب مرتوٍ هانئ، فإذا خرج إلى الصحراء على سفر طويل ومجهد، فأعوزته الخضرة والماء، رجع إلى ما على ظهره، يحرق منه لغذائه؛ ويصمد به لغيلة الجوع حتى يذهب كله ويخلو منه جلده. ولكنه لا يلبث أن يعود من سفره حتى يأخذ في الادخار من يوم النعيم والوفرة ليومه العبوس الآخر، فيثقل بالدهن ظهره، ويشتد عليه جلده. والأعرابي قبل الترحل الطويل يمتحن سنام راحلته كما ينظر ذو السيارة في خزان بنزينه؛ والحيوانات الثديية الأخرى تدخر الدهن، ولكنه يتوزع على كل جسمها. كذلك تدخره الحيوانات التي تنام طوال شتائها، وتصحو في الربيع لتأخذ مع الأحياء نصيبها من العيش وطيب الحياة، وتدخر من الدهن لحين تنام مرة أخرى

والجمل له جسم ضخم ليس فيه جمال كثير، تحمله قوائم طويلة تتراءى كأنها تعجز عن حمله، ولكنها غاية في الصلابة. وعظام هذه القوائم فوق متانتها بيضاء ناصعة حتى ليستعيض بها الهنود في شمال الهند عن سن الفيل في تلقيم بعض مصنوعاتهم. وطال الجمل لينال الشجر فبعد عن الأرض، فكان لابد له من طي قوائمه لينالها. وهو حين يبرك على الأرض يبرك على كتل خمس متصلبة في جسمه يقال لها الثِّفِنات، واحدة في صدره واسمها السّعدانة، واثنتان في ركبتيه، واثنتان في أصول فخذيه. والثفنات تولد مع الجسم ليستتم به خلقه كالأذن والعين

وللجمل رقبة حنواء طويلة تحمل في أعلاها رأساً صغيراً، لا يحمل القرون التي هي من خصائص المجترات، وله عينان نجلاوان ناعستان وله أنفان يغلقهما إذا شاء ويفتحهما إذا شاء، وفضل هذا ظاهر في الريح السافية؛ وفتحتا أنفه بعيدتان بعداً كبيراً عما بداخلهما من غشاء وغدد مخاطية، فهي لا تتحلّب مخاطا كالبقر وسائر المجترات. كذلك تطول شفته العليا وتتدلى على شفته السفلى فتحجبها أو تكاد. وشفته العليا مشقوقة شقين كالأرنب يحركهما أو يحرك أحدهما على هواه وهو يأكل حتى كأنهما يدان

وغذاء الجمل في مواطنه الأولى أفرع الشجر وأوراقها، وهو يأكل الشوك ولا يبالي، ويأكله دون أن تدمى شفتاه. وهو يأكل الحب والتمر، ولكنه لا يستغني عن الأخضر من الطعام. وله صبر على الجوع والظمأ، فهو يقضي أياماً قد تطول إلى العشرة دون طعام ولا شراب. وقد يقضيها حاملاً المعهود من أثقاله. وقد يحدث كثيراً أن يفرغ الماء من القافلة

فتعقر الجمال طلباً للماء الذي في أكراشها. وللإبل إحساس غريب بالماء تشمه من بعيد؛ كثيراً ما نجت القوافل بسببه، وقد يحدث أن يأبى على الناقة صاحبها فلا يفهم معنى تشبثها باتجاه خاص في الصحراء فتقطع الرسن وتركب رأسها، فإذا بلغت الماء كرعت منه لأمسها ويومها وغدها

والأعراب تشرب من الإبل لبنها، وهو بالغ في دسمه، وتأكل لحمها، وتلبس من وبرها. ولكن الخدمة الكبرى التي أداها الجمل للإنسانية من قديم هي وصلة الأقطار فصلت بينها قفار كالمحيطات ما كان لغير الجمل أن يجتازها. فأثره في تجارة الأمم العتيقة كبير. وقد كان وحده وصلة ما بين الشرق والغرب

والجمل إن كان في جسمه القدرة على الحمل، ففي خلقه الأناة والصبر. يكتسبهما ولادة وبالمران. وهو برغم نفعه من أغبى الحيوانات. أو لعله لغبائه كان نافعاً ذلولاً صبوراً. وإنك لتجد هذا في الناس. وهو لا يألف صاحبه ألفة الحصان والكلب. وهو كالبدو يكره البحر. وأكثر الثدييات إذا ألقاه الرجل في الماء وجد لديها من طبيعتها فهماً للعوم أو بعض فهم. أما الجمل فإذا غُصب على المسير في ماء غير ضحل كالنهر ففقدت رجلاه الأرض لم يحاول أن يعوم، وإنما يدور جسمه ويسلم نفسه للغرق والجمل على صبره ذو غضبة منكرة، وهو حقود ذكور. حكوا أن جملاً كان يساق في إدارة عصارة للزيت فضربه سائقه ضرباً موجعاً. ومضت أشهر بعد ذلك، فظهر كأن الإساءة انتُسيت. وفي ليلة قمراء جاء الجمل يتلصص حيث يرقد السائق فوجد ما يشبهه وهو نائم فانقض عليه بكلكله وأخذ في الثياب تمزيقاً يحسب الرجل فيها، فلما فرغ تحدث إليه الرجل من بعيد، فاغتاظ الجمل اغتياظاً شديداً، وغضب لخيبته غضبة نكراء ضرب فيها الحائط برأسه ضربة أردته قتيلاً

أحمد زكي

الساعات العربية

بقلم السيد أحمد دهمان

لما شعر الأقدمون بحاجتهم الماسة إلى معرفة الأوقات، اهتدوا بعد التأمل والتفكير إلى اختراع الساعة الرملي، وهي ساعة بسيطة التركيب، تتركب من قارورتين قد ألصقت فوهة إحداهما بفوهة الأخرى بواسطة الشمع، وملئت العليا رملاً، فينزل الرمل بالتدريج إلى السفلى من ممر بينهما صنع بنسبة مقدرة، وتقلب الساعة عندما تفرغ العليا من الرمل، وهكذا دواليك

فإذا أرادوا معرفة الوقت نظروا إلى مقدار الرمل الباقي في العليا، أو إلى مقدار ما نزل منه إلى السفلى

ولبثت هذه الساعة شائعة الاستعمال عند بعض قرويي دمشق حتى قبيل الحرب العامة. وقد أدركنا أحد الشيوخ المسنين يصنعها ويبيعها في حانوت له خارج باب دمشق الغربي (في سوق المسكية)

أما الساعة المائية التي شاعت عن الكلدان والهنود فهي كالساعة الرملية، بإبدال الرمل بالماء، وكانت أقل دقة منها، لأن اختلاف الجو برداً وقيظاً كان ينقص مقدار الماء

وكان ألفرد الكبير عاهل الإنكليز يأمر باتخاذ شمع طول الواحدة منها اثنتا عشرة إصبعاً، مقسمة بعلامات خاصة إلى أربعة وعشرين قسما، عدد ساعات الليل والنهار، وكانت توقد ليلاً ونهاراً، ويجعل أمامها جسم شفاف وقاية لها من الريح

أما العرب فقد تفننوا في صنع الساعات مستندين إلى فن الهندسة، واخترعوا لها آلات عجيبة أصبحت فيما بعد أساساً للساعات التي نراها اليوم

وقد بدأ شيوع استعمال الساعات في البلاد العربية منذ القرن السادس للهجرة وبقي حتى الثامن، فكان في مراكش وتلمسان والأندلس ومصر وبغداد ودمشق عدة ساعات تنصب في الأماكن العامة لمعرفة الأوقات، وسنأتي على ذكرها مفصلاً

مهندسو الساعات

اشتهر في تلك العصور كثير من المهندسين العرب الذين تخصصوا في صنع الساعات، وكانوا يديرون آلاتها بواسطة الماء إلى أن جاء ابن الشاطر المهندس الدمشقي فسعى في ترقيتها وتوصل لجعلها صغيرة الحجم بالنسبة لغيرها من الساعات، وأصبحت تعلق على الجدران ولا تحتاج آلاتها إلى الماء، فكانت أقرب ما تكون إلى الساعات المستعملة اليوم. واليك تراجم أشهر من اشتغل بصنع الساعات:

محمد رستم الساعاتي - أصله من خرسان قدم دمشق وأقام بها، وكان أوحد أهل زمانه في علم الفلك وصنع الساعات. قال ابن أبي أصيبعة: وهو الذي صنع الساعات التي عند باب الجامع بدمشق، صنعها في زمن الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، وكان له الإنعام الكثير والجامكية والجراية لملازمته صنع الساعات إلى أن توفي - ولم يذكر سنة وفاته

أبو عبد الله بن القيراني - هو محمد بن نصر بن صُعيَر، ولد بعكا سنة 487 أديب

شاعر، كان بينه وبين ابن منير الشاعر الطرابلسي المشهور مكاتبات وأجوبة ومهاجاة، ومع ذلك فقد كان بارعاً في العلوم الرياضية من حساب وفلك وهندسة، تولى إدارة الساعات بدمشق، ثم رحل إلى حلب، ثم رجع إلى دمشق وتوفي بها في 11 شعبان سنة 548

محمد بن عبد الكريم الحارثي - لقبه مؤيد الدين، وكنيته أبو الفضل، كان معروفاً بالمهندس، ولد ونشأ بدمشق، وكانت حياته نادرة من نوادر الدهر تجلى فيها النبوغ الشرقي، فقد كان في أول أمره نحاتاً ينحت الحجارة، ثم صار نجاراً فبرّز على النجارين في حسن الصنعة؛ وأبواب البيمارستان النوري بدمشق من صنعه؛ ثم تعلم الهندسة لتزداد براعته في النجارة، وقد وصف المدرسة التي تعلم فيها الهندسة بقوله: (كنت أشتغل في مسجد خاتون الذي تحت المنيبع غربي دمشق، وكنت لا أصل إلى المسجد إلا وقد حفظت شيئاً من كتاب أقليدس وحللت بعضاً من مسائله إلى أن أتممته حفظاً وفهماً)، ثم قرأ المجسطي وحلّ مسائله أيضاً، وانصرف إلى الهندسة انصرافاً تاماً، حتى اشتهر بعد ذلك بالمهندس

وقدم دمشق الشرف الطوسي وكان إماماً في العلوم الرياضية فقرأ عليه ما نقصه من الحساب والهندسة والفلك

وقرأ بعد ذلك علم الطبي على أبي المجد محمد بن أبي الحكم، إلى أن برع فيه، وتعين طبيباً في البيمارستان النوري، مهندساً لساعات المسجد الأموي وكان يتقاضى مخصصات منهما

وفي زمنه تخربت ساعات المسجد الأموي فأصلحها أحسن تصليح: من مؤلفاته. رسالة في معرفة رسم التقويم، مقالة في رؤية الهلال، اختصار كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، عشرة أجزاء وقفها في المسجد الأموي بدمشق وجعلها في مشهد عروة، كتاب الحروب السياسية، كتاب في الأدوية المفردة مرتبة على حروف الهجاء، توفي بدمشق سنة 599

ابن الشاطر - هو أبو الحسن علاء الدين، علي بن إبراهيم ابن حسان الأنصاري الدمشقي، نشأ يتيما فتعلم صنعة تطعيم العاج من زوج خالته، ثم تعلم العلوم الرياضية والفلكية، فلقب بالمطعم وبالفلكي

رحل إلى مصر والإسكندرية ليأخذ العلوم الرياضية عن أربابها وكان صاحب ثروة. ويقول ابن العماد أن داره من أحسن الدور وضعاً وعزابة. ويقول الصلاح الصفدي: (دخلت منزله في شهر رمضان سنة 743 لرؤية الإسطرلاب الذي أبدع وضعه فوجدته قد وضعه في قائم حائط في منزله داخل باب الفراديس بدرب الطيار، ورأيت هذا الإسطرلاب فأنشأ لي طرباً، وجدد لي في المعارف رأياً، وقلت أن من تقدمه من الأفاضل عند جبل علمه الراسخ هباء. . . (إلى أن قال: (وصورة هذا الإسطرلاب المذكور قنطرة نصف أو ثلث ذراع تقريباً يدور أبداً على الدوام في اليوم والليلية من غير ماء وعلى حركات الفلك، لكنه قد رتبها على أوضاع مخصوصة تعلم منها الساعات المستوية والساعات الرملية الزمانية.)

ومما ذكره الصفدي وسماه إسطرلاباً يعلم أن ابن الشاطر أول مخترع لساعات الجدران وأن ما سماه إسطرلاباً ليس بالإسطرلاب المشهور، لأن اختراع الإسطرلاب المعروف قديم جداً، وإنما هو اختراع جديد من وضع ابن الشاطر

ومن أعمال ابن الشاطر البسيط الذي وضعه في منارة العروس إحدى منارات المسجد الأموي؛ وقد زينت دمشق يوم وضعه وبقي فيها إلى سنة 1293 فاختل وضعه من مرور السنين عليه ومال أحد جوانبه، ولما أريد إصلاحه انكسر فصنع بدلا منه العلامة المرحوم الشيخ محمد الطنطاوي، جدّ بني الطنطاوي بدمشق، وجعل حسابه على الأفق الحقيقي، وزاد فيه قوس الباقي للفجر، فجاء في غاية الضبط والإتقان، جزاه الله خير الجزاء. وقد قال الشيخ عبد المجيد الخاني من قصيدة مؤرخاً له:

ما قال أهل الشام في تاريخه ... تم البسيط بنفحة القدوس

ولابن الشاطر المذكور اختراعات عديدة من آلات فلكية وهندسية، وله آراء ونظريات في الحساب والجبر والهندسة والفلك، أضحت مصباحاً مشرقاً لمن جاء بعده. وتولى في المسجد الأموي وظيفة التوقيت ورياسة المؤذنين، وله مؤلفات عديدة ذكر أكثرها في كشف الظنون. توفي سنة 777

علي بن ثعلب الساعاتي: - هو نور الدين علي بن ثعلب الساعاتي، تولى تدبير ساعات المدرسة المستنصرية في بغداد؛ وكان مولده سنة 601 وتوفي سنة 863
وإليك بعد هذه التراجم بعض ما وفقت عليه من وصف تلك الساعات
1 - ساعة هارون الرشيد
ذكر فولتير وغيره من المؤرخين الفرنسيين أن أول ساعة عرفت في أوروبا هي الساعة التي أهداها أمير المؤمنين هارون الرشيد إلى شارلمان ملك فرنسا سنة 807 وكانت بدعاً في ذلك العصر، حتى أنها أورثت رجال الديوان حيرة وذهولا؛ كان لها اثنا عشرة باباً صغيراً بعدد الساعات، فكلما مضت ساعة فتح باب وخرجت منه كرات من نحاس صغيرة تقع على جرس فيطن بعدد الساعات، وتبقى الأبواب مفتوحة، وحينئذ تخرج صور أثنى عشر فارساً على خيل تدور على صفحة الساعة. ولم تقف لهذه الساعة على ذكر فيما اطلعنا عليه من الكتب العربية
2 - ساعة مسجد مراكش
ذكرها القلقشندي في صبح الأعشى فقال: وبمراكش جامع جليل يعرف بالكتبين، طوله مائة وعشر أذرع، وعلى بابه ساعات مرتفعة في الهواء خمسين ذراعا، كان يرمى فيها عند انقضاء كل ساعة صنجة زنتها مائة درهم تتحرك لنزولها أجراس تسمع على بعد
3 - ساعة الملك الكامل
ذكرها القليوبي في نوادره فقال: إن السلطان الكامل كان عنده شمعدان فيه أبواب، فكلما مضت ساعة يخرج من باب منها شخص يقف في خدمته إلى مضي ساعة، وهكذا إلى تمام الأبواب اثنتي عشرة ساعة، فإذا تم الليل خرج شخص فوق الشمعدان ويقول: أصبح السلطان؛ فيعلم أن الفجر قد طلع فيتأهب للصلاة. وهذه الساعة مصرية لأن إقامة الملك
الكامل كانت في مصر
4 - ساعة المدرسة المستنصرية ببغداد
جاء في مجلة - الزهراء - السنة الثالثة - ص 254 ما نصه (من مخطوطات الخزانة التيمورية بالقاهرة جزء قديم (في كتب التاريخ رقم 1383) من كتاب مجهول الاسم والمؤلف. رتبه مؤلفه على السنين. وما في هذا الجزء من سنة 626 إلى 700 وقد جاء في حوادث سنة 633 منه وصف للساعة التي وضعها أمير المؤمنين المستنصر في مدرسة الطب والمستشفى التابعين لمدرسته العظمى المعروفة باسم (المستنصرية) وقد أدخل العلامة أحمد تيمور باشا وصف هذه الساعة في كتابه (التصوير عند العرب) الذي لم يطبع بعد. فآثرنا التعجيل بنقل ذلك إلى قراء الزهراء):
وفيها - أي في سنة 633هـ - تكامل بناء الإيوان الذي أنشئ مقابل (المدرسة) المستنصرية) وعُمل تحته صّفة يجلس فيها الطبيب، وعنده جماعته الذين يشتغلون عليه بعلم الطب ويقصده المرضى فيداويهم
وبني في حائط هذه الصفة دائرة وصورت فيها صورة الفَلك، وجعلت فيها طاقات لطاف لها أبواب لطيفة: وفي الدائرة بازان من ذهب، في طاسين من ذهب. ووراءهما بندقتان من شبَهٍ لا يدركهما الناظر
فعند مضي كل ساعة ينفتح فما البازين، وتقع منهما البندقيتان وكلما سقطت بندقة انفتح باب من أبواب تلك الطاقات، والباب مذهب فيصير حينئذ مفضضاً. وإذا وقعت البندقتان في الطاسين تذهبان إلى موضعهما. ثم تطلع أقمار من ذهب في سماء لازوردية في ذلك الفلك مع طلوع الشمس الحقيقة، وتدور مع دورانها وتغيب مع غيبوبتها، فإذا جاء الليل فهناك أقمار طالعة من ضوء خلفها، كلما تكاملت ساعة تكامل ذلك الضوء في دائرة القمر، ثم تبتدئ في الدائرة الأخرى إلى انقضاء الليل الشمس، (فتعلم بذلك أوقات الصلوات
ثم أورد صاحب هذا التاريخ المخطوط أبياتاً لشاعر من شعراء ذلك العصر الذهبي يذكر بها هذه الساعة:
(يا أيها المنصور يا ملكاً ... برأيه صعب الليالي يهون
شيدت لله ورضوانه ... أشرف بيان يروق العيون

إيوان حسن وضعه مدهش ... يحار في منظره الناظرون
صور فيه فلك دائر ... والشمس تجري ما لها من سكون
دائرة من لازورد حكت ... نقطة تبر فيه سرّ مصون
(فتلك في الشكل وهذي معاً ... كمثل هاء ركبت وسط نون
وجاء في حوادث سنة 603 من هذا المخطوط أن نور الدين علي بن ثعلب الساعاتي توفي في تلك السنة، وكان يتولى تدبير الساعات التي تجاه المستنصرية، وأن مولده كان سنة 601 هـ

5 - ساعة المدرسة القمرية بدمشق

نسبة لمنشئها الأمير سيف الدين علي بن يوسف القمري، أنشأها في نصف القرن السابع الهجري، ثم نسبت المحلة التي فيها المدرسة للمدرسة، فقيل حي القمرية، والقمري نسبة لقيمر قلعة بين الموصل وخلاط. وكان سيف الدين القيمري أميرا كبيرا وشجاعاً باسلا، وهو الذي أسر (لويس التاسع) إمبراطور فرنسا سنة 648 بين المنصورة ودمياط. وله في دمشق أعمال خيرية، فقد بنى فيها مارستاناً ومسجدا ومدرسة تسمى القيمرية الكبرى، وتعرف الآن بمدرسة القطاط، وكان على باب هذه المدرسة ساعة مهمة بلغت مصاريفها كما يقول العلموي أكثر من أربعين ألف درهم. وهذه الساعة وإن لم نطلع على وصف لها، فإنا نستفيد من نص العلموي مقدار المصروف عليها

6 - ساعة باب جامع دمشق الشرقي

يعرف هذا الباب بباب جيرون، وقد شاهدها ابن جبير الرحالة المشهور فوصفها بقوله: (وعن يمين الخارج من باب جيرون في جدار البلاط الذي أمامه غرفة ولها هيئة طاق كبير مستدير فيه طيقان صُفر قد فتحت أبواباً صغاراً على عدد ساعات النهار، ودبرت تدبيراً هندسياً، فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان من صِفر من فمي بازين مصورين من صفر (نحاس) قائمين على طاستين من صفر تحت كل واحد منهما. أحدهما تحت أول باب من تلك الأبوار، والثاني تحت آخرها، والطاستان مثقوبتان فعند وقوع البندقتين فيهما تعودان داخل الجدار إلى الغرفة وتبصر البازين يمدان أعناقهما بالبندقتين
إلى الطاستين ويقذفانها بسرعة بتدبير عجيب تتخيله الأوهام سحراً، وعند وقوع البندقتين في الطاستين يسمع لهما دويّ وينغلق باب تلك الساعة لحين بلوح من الصفر، ولا يزال كذلك عند انقضاء ساعة من النهار حتى تنغلق الأبواب كلها وتنقضي الساعات ثم تعود إلى حالها الأول
ولها بالليل تدبير آخر، وذلك أن في القوس المنعطف على تلك الطبقات المذكورة اثنتي عشرة دائرة من النحاس مخرمة وتعترض في كل دائرة زجاجة من داخل الجدار في الغرفة مدبر ذلك كله خلف الطبقات المذكورة، وخلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة، فإذا انقضت عم الزجاجة ضوء المصباح وفاض على الدائرة أمامها شعاعها فلاحت للأبصار دائرة محمرة، ثم انتقل ذلك إلى الأخرى حتى تنقضي ساعات الليل وتحمر الدوائر كلها، وقد وكل بها في الغرفة متفقد لحالها درب بشأنها وانتقالها بعيد فتح الأبواب وصرف الصنج إلى موضعها)
وهناك ساعة ثانية على باب جامع دمشق القبلي ويعرف هذا الباب بباب الزيارة، ويقول النعيمي إن مكانها في العنبرانية - المشهورة في عصرنا بالعمرانية، ويقول ابن كنان إنها من عمل أبي الفضل الحارثي الدمشقي المهندس، وقد تقدمت ترجمته - وصفة هذه الساعة هي: بيكار (لعله بنكام) عليها عصافير من نحاس، وحية من نحاس، وغراب من نحاس.
فإذا تمت الساعة خرجت الحية، وصفرت العصافير، وصاح الغراب، وسقطت حصاة في الطست

7 - ساعة ابن الشاطر

تقدم ذكرها في ترجمته، ويمكن القول بأن ساعة ابن الشاطر آخر طراز وصلت إليه الساعة العربية، وقد أخذ الغربيون هذا الطراز عنها في ساعات الجدران، وقد اطلعت على ساعة قديمة أوروبية ترجع في تاريخ صنعها إلى ما قبل ثمانين سنة، إذا مضت ساعة من الوقت يخرج عصفور من باب في أعلاها ويصيح

دمشق
أحمد دهمان
البريد الأدبي
عبرات جوار لا حرار
سألني السيد (محمد حصار) من فضلاء المغرب الأقصى في العدد (144) من (الرسالة) عن رأيي في قول الخنساء:
(من كان يوماً باكياً سيدا ... فليبكه بالعَبرات الحِرار)
فقد وصفت الخنساء دموعها بالحرار مع أنه سبق مني القول في مقالتي (تعريب الأسالب) المنشورة في الجزء الأول من مجلة مجمعنا المصري أن العرب يصفون الدمع والعين بالسخونة، ولا يصفونهما بالحرارة كما يفعل الإفرنج
وأنا إنما أردت أن العرب ليس ذلك الوصف من شأنهم، أي غير شائع في أساليب بلاغتهم: أن يصفوا الدمع بالحرارة لا أنه لا يقع ذلك منهم أحياناً، والشاهد الصحيح على وقوعه في كلامهم قول الشاعر
بدمع ذي حرارات ... على الخدين ذي هيدب
راجع ذلك في اللسان والتاج مادة (حرّ) وهيدب السحاب ما تراه كأنه خيوط عند انصباب مطره
أما ما ذكره المعترض الفاضل من شعر الخنساء فلا يصلح شاهد لسببين:
(الأول) أن (حرارا) لا تكون جمعاً لحارة حتى يصح أن تقول في (عبرة حارة) عبرات حرار، ولم ينقل هذا الجمع أحد من أرباب المعاجم، ولم يذكروه في جملة ما شذ من الجموع، وإنما صرحوا أن (حرار) تكون
جمعاً للحّرّة: وهي الأرض ذات الحجارة السود
وجمعاً للحَرّان: وهو الشديد العطش
وجمعاً للحر: وهو ضد العبد (وهذا الجمع حكاه ابن جني) يعني يكون شاذاً
(ثانياً) لا يجوز أن يقال: أن أرباب المعاجم قد يهملون ذكر كلمات لغوية فصيحة وردت في أشعار العرب: من ذلك فعل (تبدى) في قول عمرو بن معدي كرب
(وبدت لميس كأنها ... بدر السماء إذا تبدى)
فليكن جمع (حارة) على (حرار) من هذا القبيل ويكون الشاهد عليه قول الخنساء المذكور
وكفى به حجة
لا يقال ذلك لأنه يجب قبل كل شيء الاستيثاق والتثبت من صحة ألفاظ الشاهد، وأول طرق هذا الاستيثاق عدم احتمال تحريف كلماته
فكلمة (الحرار) تحتمل احتمالاً قريباً جداً أن تكون محرفة عن (الجوار) بفتح الجيم وبعدها واو أي (العبرات الجواري) جمع (جارية) اسم فاعل مؤنث من فعل (جَرى) الدمع إذا سال على الخدين
ووصف الدموع بالجواري صحيح من حيث قواعد العربية، فصيح من حيث شيوع استعماله في كلام البلغاء
أما كلمة (الحرار) فليست بهذه المثابة: لا من حيث القواعد ولا من حيث شيوع الاستعمال
ونسخة ديوان الخنساء التي بين أيدينا إنما هي من طبعة الأب لويس شيخو اليسوعي وهو - رحمه الله - لم يشتهر بالدقة في ضبط نصوص ما ينشره من الآثار الأدبية، ولا في تحقيق كلماتها اللغوية
فلعل الفاضل (محمد حصار) وقعت إليه مثل هذه المطبوعة أو مخطوطة قديمة أخرى يسرع إلى مثلها هذا التحريف
وفي مكتبتي نسخة شرح مخطوط على ديوان الخنساء كتبت سنة 1145هـ لمؤلف مجهول؛ وما لي لا أقول إن هذا الشرح لثعلب كما يمكن استنتاجه من خاتمة المخطوطة؟ وقد سقط منها بعض أوراق فلم أجد قصيدة (العبرات الحرار) فيها. فلعل القصيدة برمتها غير موجودة في رواية تلك النسخة أو هي في ضمن الأوراق الساقطة
وتوجد نسخة من هذا الشرح نفسه في دار الكتب المصرية كتبت سنة (620هـ) كما يفهم من الفهرس العام (جزء 3 نمرة 203)

فلعل أحداً من قراء (الرسالة) ممن تهمهم أمثال هذه البحوث وهم كثيرون - يزور دار الكتب المصرية ويراجع لنا بيت الخنساء ويتثبت من قافيته: أهي (الحرار) أو (الجوار) أو يراجع ما هو أوثق من ذلك كله وهو نسخة ديوان الخنساء بخط اللغوي الكبير المحقق العلامة الشنقيطي التركزي رحمه الله، وإن له على نسخته تقييدات كالشرح لها. وهذه النسخة أيضاً من نفائس ما حوته دار الكتب المصرية. راجع فهرسها العام (جزء 3 ص
128)

(دمشق)

عبد القادر المغربي

المكتبة العربية في الاسكوريال

تشتمل المجموعة العربية بمكتبة الاسكوريال بمدريد على مجموعة نفيسة جدا من الكتب العربية والإسلامية في مختلف العلوم والفنون، يبلغ عددها 1952 مجلداً، ومعظمها كتب أندلسية هي التراث الأخير لآداب أسبانيا المسلمة؛ ولم ينشر إلى اليوم من هذه المجموعة سوى بضع عشرات من الكتب قام على إخراجها جماعة من المستشرقين، ومنها المكتبة الأندلسية التي تضم عدة مجلدات، وأخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر، والحلة السيراء لابن الآبار، وبضعة كتب أخرى؛ وكان آخر ما نشر من هذه المجموعة النفيسة مجلد من تاريخ الأندلس لابن حيان، أخرجه الدون انتونيو مدير مكتبة الاسكوريال وهو يتناول قسماً من عصر بني أمية بالأندلس

وقد لفتنا الأنظار غير مرة إلى هذه المجموعة النفيسة، وتمنينا على دار الكتب المصرية أن تبذل وسعها لتصوير أو نسخ أكبر عدد من هذه المجموعة، ولكنها لم توفق حتى اليوم إلى تحقيق هذه الغاية بصورة مرضية؛ وكل ما استطاعت أن تحصل عليه حتى اليوم هو صور لخمسة كتب فقط من مجموعة الاسكوريال، هي كتاب البديع لابن المعتز، ومختصر طبقات الشعراء له أيضاً، وطيف الخيال للشريف الرضي، وكتاب الفلاحة لابن العوام، ومجموعة فلسفية في شرح بعض كتب الفارابي؛ وتسعى دار الكتب منذ حين في الحصول على صور أو نسخ لعدة كتب أخرى من هذه المجموعة، ولكن الظاهر أنها تجد في ذلك السبيل عقبات مالية لا تستطيع تذليلها

وفي ذلك ما يبعث إلى أشد الأسف، ذلك أن مجموعة الاسكوريال هي بلا ريب من أنفس المجموعات العربية المعروفة، هذا فضلاً عن أن لها فوق نفاستها العلمية صفة خاصة، فهي في الواقع بقية التراث الإسلامي في الأندلس، وتكاد تحظى في نظر العالم الإسلامي بنوع من القدسية المؤثرة

ويوجد بين محتويات هذه المجموعة عدة كتب فريد في بابها، في السياسة والفلسفة والأخلاق والطب، مثل كتاب أدب الفلاسفة (رقم 760 من المجموعة) وكتاب عن سياسة الأمراء وولاة الجنود (رقم 719) وكتاب في السفارات النبوية عنوانه المصباح المضيء (رقم 1742)؛ هذا إلى عدة كتب من تأليف أكابر العلماء المصريين مثل كتاب الشهاب القضاعي (رقم 752) وكتاب القول التام في فضل الرمي بالسهام، للسخاوي (رقم 765) وكتاب في تاريخ المعز لدين الله (رقم 1761)، وكتب نفيسة أخرى يضيق المقام عن ذكرها

وقد حصلت الجامعة المصرية على صور عدة كتب أخرى من هذه المجموعة النفيسة، ولكن ما حصلت مصر عليه حتى الآن لا يعتبر شيئاً مذكوراً

ولهذا نعود فنتمنى على دار الكتب المصرية وعلى مكتبة الجامعة، وعلى ولاة الأمر جميعا أن يشملوا هذه المجموعة الفريدة بكثير من عنايتهم وألا يدخروا في سبيل الحصول على نفائسها جهداً أو مالا

الكتب

نفسية الرسول العربي محمد بن عبد الله

السوبرمان الأول العالمي

تأليف السيد لبيب الرياشي

بقلم الأستاذ عبد الفتاح السرنجاوي

هذا هو العنوان الذي جعله الأستاذ (لبيب الرياشي) لسلسلة من الرسائل في فلسفة الإسلام، أخرج منها الرسالة الأولى التي نقدمها الآن لقراء (الرسالة)، والأستاذ

الرياشي كاتب مسيحي له مكانته بين أدباء سورية الشقيقة، ثم هو فوق ذلك فخور بعربيته متحرر من قيود التعصب؛ ولعل هذه الميزات هي التي تجعل من الرياشي وصحبه مدرسة جديدة هي (مدرسة المتجردين المتطهرين) التي تعلي للحق منبرا تدأب على حمايته ورعايته. وإنك لتلمس سمو هذه المدرسة ونبلها في مقالة الرياشي في كشافة الكتاب الأول، إذ يقول:

(لنتجرد. . . . ولنتطهر. . . . لنتجرد ولنتطهر أيها الإنسي من جذام التعصب وأثرة الجنسية)

والرجل بهذا ينسى كل شيء سوى أنه من طلاب اليقين، وليس من شك في أن هذه الدراسة البريئة للسيرة النبوية الشريفة هي التي حفزت الرياشي على تحليل نفسية الرسول الكريم، وجعلته يعترف فوق ذلك بفضائل هذه الدراسة إذ يقول:

(ما ندمت على شيء في حياتي ندماً عصبياً ساحقاً مثل ندمي على جهلي نفسية الرسول العربي والإمام الأعظم العالمي محمد ابن عبد الله). ذلك ما يقوله رجل يمثل الأقلية الدينية المندمجة في ذلك الشرق العربي، الذي ترفرف فوق ربوعه راية التسامح في الدين وتسوده روح الإخاء في القومية العربية العزيزة، والرياشي يصف محمداً بأنه (السوبرمان الأول العالمي) مستعيرا كلمة (السوبرمان) من الفيلسوف (نيتشه) وهذا الأخير أطلقها على الإنسان الأكمل الذي يجمع إلى مشاركة البشر في خصائص الجسم سمو العقل والروح إلى حد يجعله حلقة الاتصال بين الله والناس، ويعمد الكاتب الفاضل إلى الموازنة بين عظمة محمد وغيره من قادة الإنسانية، فهو يقرر في مستهل بحثه أن العظماء سرعان ما يفقدون هيبتهم إذا هم خالطوا الناس طويلاً، أما محمد فلم تكن مخالطته للناس وتبسطه في معاملتهم إلا عاملاً على رفع مكانته وإعلاء شأنه بينهم. وينتقل المؤلف إلى ما كان من توسط أبي طالب بين قريش ومحمد في أن يسودوه عليهم ويزوجوه أحسن بناتهم على أن يترك تسفيه دياناتهم والدعوة إلى الله، ويحلل جرأة محمد في رده التاريخي الخالد، ويقارن بينها وبين جرأة ميرابو خطيب الثورة الفرنسية ولوثر زعيم الإصلاح الديني وأبي بكر وعمر، والرياشي في ذلك التحليل موفق أحسن التوفيق، فهو يوضح أن جرأة بعض الزعماء والمصلحين تستند إلى قوة الجماهير وصولة الجماعات، بينما ترتكز جرأة البعض الآخر على جلال الإمارة وهيبة السلطان، أما محمد ابن عبد الله فلم يتح له من ذلك شيء، فجرأته لا تقاس بها جرأة، وإقدامه لا يعدله في التاريخ إقدام

وبرغم ذلك التوفيق الجلي لاحظت أن الأستاذ وهو يعالج بعض النواحي يجتهد في ضرب من التحليل أرى أنه ليس من التاريخ ولا من فلسفة التاريخ في شيء، فهو يتساءل عن السر في خرس الجماهير مرات وسنوات إزاء الرسالة المحمدية، وعن السر في عدم إراقتهم دماء في هذا السبيل، ويقرر أن ذلك وقع برغم صياح أبي لهب وضجيجه، وأن ذلك كان لمعجزة، وأن هذه المعجزة هي أن شخصية النبي أحلت في نفوس القوم إيماناً جعلهم (يحترمون ويهابون ويؤمنون). ليس ذلك يا سيدي هو الواقع، وإنما الواقع الذي لا يقبل الجدل هو أن العرب حين جهر النبي بدعوته آذوه واستغربوا في إيذائه حتى أخرجوه من عشه مهاجراً إلى المدينة، وأنهم كانوا في ذلك معاندين مكابرين لا يحترمون ولا يهابون ولا يؤمنون، وأن شخصية النبي لم تغن من ذلك الإيذاء شيئاً. وليسمح لي الأستاذ الجليل أن أؤكده له أننا لو ذهبنا مذهبه من أن الرسول جهر بدعوته فاستجابت له الجماهير لأن تأثيره على محدثيه ومعاشريه تأثير المنوم المغنطيسي في المنوَّم كما يقول: لو صح يا سيدي أن ننسب ذلك لمحمد لهيأنا للمعترضين فرصة للطعن في دعوته فيقولون إن هذه القوة لا شك تبهر العرب بالباطل كما تبهرهم بالحق، والواقع يا سيدي أن العرب سخرت من محمد ومن دعوة محمد وليس يخفى خبر المستهزئين بالرسالة من قريش أمثال أبي جهل عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي القرشي وأبي لهب بن عبد المطلب وعقبة بن أبي معيط والوليد بن المغيرة عم أبي جهل والعاصي بن وائل القرشي والد عمرو بن العاص والنضر بن الحارث العبدري وغيرهم ممن روى البخاري أخبارهم وحفلت بها بكون التواريخ

وفي موضع آخر من الرسالة يتناول المؤلف الكلام عن عدل الرسول الكريم فيسوق

بعض الحوادث التاريخية التي تشهد بحبه للحق وانتصافه للناس حتى من نفسه. ثم يجاوز هذا إلى تحليل صفة العفو والغفران في نفس محمد، وهنا يمحو تلك المعجزة التي كان قد أثبتها للنبي، ويقر بما ناله من الأذى على يد قريش إذ يقول:

(أباحوا دمه ودمهم، وعلقوا في ذلك الحصار وتلك الإباحة صحيفة في جوف الكعبة طمأنة للمقتدرين على الأذية، وزادوا بأن أجازوا المعتدي بثروة) (ص 91)

ويجد الأستاذ في تحليل ما كان من شأن الرسول الكريم مع قريش بعد فتح مكة من تسامح وغفران عظيمين، ويوازن بقوة بين هذا التسامح وذلك الغفران وبين ما أتاه برتوس قائد الغال بعد دخول روما وما صنعه بونابرت بعد دخول بولونيا، فيبدع في تحليل نفسية الرسول ويثبت سموه على غيره من قادة البشر وعظماء الإنسانية، ولعل أجمل ما ساقه في ذلك الموضع تصويره الرسول غالباً ظافراً يقف من المغلوبين فيضرب للتاريخ أعظم أمثلة التسامح والديموقراطية إذ يردد قول الله سبحانه وتعالى:

(يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير)

ثم يجاوز ذلك إلى مخاطبة الخائفين من المغلوبين بقوله:

(اذهبوا فأنتم الطلقاء)

هذه لمحة سريعة لذلك الكتيب الذي يقول مؤلفه الفاضل إنه الأول من الثلاثين التي يعتزم إخراجها في فلسفة الإسلام، ونحن نهنئ الكاتب بجهده الجميل الذي يعد نوعاً جديداً في أدب السيرة المحمدية الشريفة، ونرجو للمؤلف التوفيق في إخراج بقية الأجزاء

السرنجاوي

نظام الطلاق في الإسلام

تأليف الأستاذ الشيخ محمد شاكر

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

رأت وزارة الحقانية في هذه الأيام أن تسير في إصلاح أحكام الأصول الشخصية، فنشرت على رجال القضاء الشرعي وغيرهم كتابا في 13 نوفمبر سنة 1935م تدعو من شاء منهم أن يقترح ما يراه من أحكام المذاهب الأخرى سبباً للتخفيف عن الناس، ورفع الحرج عنهم

فكان الأستاذ الجليل، والعالم المجتهد، الشيخ أحمد محمد شاكر القاضي الشرعي، وأبو الأشبال أيضاً، حفظه الله لهم وحفظهم له، أول من بادر إلى إجابة هذه الدعوة، ولا غرو فالولد سر أبيه، ونشاطه من نشاطه، وإذا كان في الأزهر والمعاهد الدينية الآن شيء من النشاط، فهي مدينة فيه الوالد الأستاذ أبي الأشبال الأستاذ الكبير الشيخ محمد شاكر شيخ معهد الإسكندرية ووكيل الجامع الأزهر، والعضو الآن في هيئة كبار العلماء، فهو منشئ النظام الحاضر بالمعاهد، وهو باعث هذا النشاط الموجود الآن فيها وإذا قلت عن الأستاذ أبي الأشبال (العالم المجتهد) فذلك هو ما يستحقه بطريقته في تأليف هذا الكتاب، إذ سار فيه على طريق السلف الصالح من الرجوع في استنباط الأحكام إلى كتاب الله تعالى وسنة رسول صلى الله عليه وسلم، ولا يعول في ذلك على أقوال أئمة المذاهب كما يعول عليها غيره، ولا يتعداها إلى النظر الصائب الخالي عن التعصب في كتاب أو سنة

وهو مرة يأخذ بأحد أقوال الأئمة الأربعة إذا وجده متفقاً مع كتاب الله وسنة رسوله، ومرة يأخذ بقول الشيعة أو غيرهم إذا كان متفقاً عنده مع ذلك، كما ذهب إلى الأخذ بقول الشيعة في وجوب الإشهاد على الطلاق لقوله تعالى: (فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة لله) فالظاهر من سياق الآية أن قوله (وأشهدوا) راجع إلى الطلاق وإلى الرجعة معاً، وهو قول ابن عباس، فقد روى عنه الطبري في التفسير: إن أراد مراجعتها قبل أن تنقضي عدتها أشهد رجلين كما قال الله (وأشهدوا ذوي عدل منكم) عند الطلاق وعند المراجعة، وهو قول عطاء أيضاً: فقد روى عبد الرزاق وعبد بن حُمَيد قال: النكاح بالشهود والطلاق بالشهود، والمراجعة بالشهود، نقله السيوطي في الدر المنثور

وقد اختار الأستاذ أبو الأشبال بطلان الرجعة إذا قصد بها الرجل المضارة، لقوله تعالى: (وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحا) وقوله (لا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا) وإذا كان للمرأة أن تطلب الطلاق للمضارة، فأولى أن يكون لها الحق في طلب الحكم بإبطال الرجعة للمضارة أيضاً

ولكنه كما ترى ترك ذلك لنظر المحاكم، ولا يخفى أن هذا يجر إلى منازعات لا طائل تحتها، والأولى من هذا أن تكون الرجعة برضا المرأة، لأنها إذا لم تكن برضاها فالمضارة حاصلة قطعاً، وإذا كانت تستأمر في النكاح، فلتستأمر في الرجعة أيضاً

ومما ذهب إليه الأستاذ أبو الأشبال أن الطلاق الثلاث الذي اختلف في أنه يقع ثلاثاً أو طلقة واحدة إنما هو أن يطلق الرجل امرأته مرة، ثم يطلقها مرة ثانية في عدتها، ثم يطلقها مرة ثالثة فيها، سواء أكان ذلك في مجلس واحد أم في مجالس متعددة، أما الطلاق بلفظ الثلاث فليس هو محل ذلك الخلاف، وإنما يقع واحدة قطعاً، لأن قول القائل (أنت طالق) يوجد به حين القول حقيقة معنوية واقعية هي الطلاق، ووصفه بعد ذلك هذا الفعل بالعدد (مرتين أو ثلاثاً) وصف باطل غير صحيح، لأن الذي تحقق بقوله (أنت طالق) مرة واحدة لا مرتين ولاثلاث، ولا يتحقق ذلك إلا بنطق ثان أو ثالث كسابقهما

وهذا مذهب له خطورته لولا أن العمل الآن على أن الطلاق الثلاث بلفظ واحد يقع طلقة واحدة، فلندع ذلك الماضي إلى رحمة الله، ولنفكر في حاضرنا وحده

هذا وكتاب الأستاذ أبي الأشبال جدير بإقبال المسلمين عامة، وطلاب العلوم الدينية خاصة، لينتفعوا بما فيه من فقه صحيح، واجتهاد نافع، واطلاع واسع

عبد المتعال الصعيدي

العدد 147 - بتاريخ: 27 - 04 - 1936

ترجمة معاني القرآن

رأى صاحب السعادة الأستاذ محمد علي علوبه باشا وزير المعارف في رحلته إلى الشرق الأقصى قوماً من اليابان ينظرون في الأديان ليختاروا من بينها طريقهم إلى الله، وهم لذلك يتلمسون الوسائل لفهم القرآن فلا يجدون إلا ما كتب المستشرقون والمبشرون وأولو العِلاَّت من الجهل والغرض. وكل ما في أيديهم من ذلك ترجمتان: ترجمة أوربية لم تصدر عن معرفة، وترجمة (أحمدية) لم تصدر عن عقيدة؛ فالأولى تشويه من زور العلم، والأخرى تمويه من خداع السياسة. والدعوة الدينية اليوم فضلاً عن آثارها الروحية وسيلة من وسائل الاستعمار في الأمم الضعيفة، ونوع من أنواع التحالف في الأمم القوية

رأى الأستاذ ذلك وسمع أمثال ذلك فكان من أمانيه أن تصدر عن مصر كنانة الله وموطن الأزهر ومعقل العربية، ترجمة رسمية لمعاني القرآن تكون في الترجمات كما كان مصحف عثمان في المصاحف. فلما تولى وزارة المعارف كان من أول ما أمضى النية عليه أن طلب إلى مجلس الوزراء (ترجمة معاني القرآن ترجمة رسمية بحسب ترتيب سوره وآياته، وبأسلوب موجز واضح يمكّن المترجم من نقله إلى اللغة الأجنبية بالتدقيق الواجب توخيه في ترجمة رسمية؛ على أن يبدأ بترجمة القرآن إلى اللغة الإنجليزية بمعرفة لجنة أحد عنصريها جماعة من المستشرقين أو غيرهم من الأجانب، يراجع عليها كاتبان أحدهما مصري والآخر إنجليزي، يراجعان الترجمة مراجعة نهائية). وجعل الغرض لهذه الترجمة: (نشر هداية الإسلام بين الأمم التي لا تتكلم العربية، والقضاء على الأثر السيئ الذي أحدثته الترجمة الخاطئة). فعرض هذا الأمر صاحب الدولة رئيس الحكومة على صاحب الفضيلة رئيس الأزهر، فاستفتى فيه جماعة كبار العلماء فأفتوا بجوازه، وعلى ذلك أقره مجلس الوزراء وانقطع القول فيه

ما كان لنا إذن بعد أن أفتى كبار العلماء وأقر مجلس الوزراء أن نتكلم فيما فرغ الناس منه وتبين الحق فيه، ولكن (الرسالة) من واجبها أن تلاحظ ومن حقها أن تسجل. والجدل الذي قام على هذا المشروع المفهوم بالضرورة، بين من أيَّد وبين من فند، إنما دل على مغمزين في بعض رجال الدين لا يتجدد بهما حبل الإسلام ولا تبلغ عليهما رسالة الأزهر. دل على أن في العلماء من لا يزالون يعتقدون أن من سنة الدين إلغاء العقل بإلغاء الرأي. فهم فيما يوردون وفيما يصدرون عبيد للنقل، لا يفتون إلا بقول قيل، ولا يحكمون إلا بنص كتب،

وقد لا يكون من الفروق بينهم وبين صاحب هذا القول أو كاتب هذا النص إلا أنه سبقهم إلى الوجود بقرن أو أكثر!

صفحوا أوراق الأسفار الضخمة لعلهم يقعون على نص فقهي يحظر أو يبيح المعاني القرآنية إلى اللغة الإنكليزية، فلما أعياهم المحال بالطبع تقارعوا بالنصوص الحمالة، وتراشقوا بالنقول المبهمة، وفاتهم حين فاتوا الاجتهاد أن دعوة الإسلام عامة، ومن مقتضيات هذا العموم أن يترجم كتابها إلى كل لغة، وأن الداعي الأعظم (ص) الذي كان يجيب كل وفد بلحنه، ويخاطب كل إنسان على قدر عقله، ويهوّن على الفارسي فيكلمه ببعض لسانه، ويسهّل على قارئ القرآن بلهجته، ويوافق سلمان على ترجمته الفاتحة لقومه، لو نسأ الله في أجله حتى تُفتح الفرس وتُغلب الروم لأمر في أغلب الظن أن ينقل كلام الله إلى كلام الناس ليتصلوا به من غير حجاب، ويتفقهوا فيه من غير وساطة

إن في جعل بعضهم تعلم العربية شرطاً في فهم القرآن واعتناق الإسلام صداً عن سبيل الله وإبطالاً لدعوته. وإن إغفال الترجمة الإسلامية لآيات الله لم يحمل الفرس والترك والهنود على أن يتعربوا، وإنما ظلوا إلى اليوم يكابدون اختلاف الدعاة وتضليل الجهلة، وما تعرب منهم من تعرب إلا ابتغاء الرزق أو الجاه أو العلم في دولة العرب. وعدم الترجمة في مصر لم يحل دون وجودها في غير مصر؛ فإن الناس في الشرق والغرب يقرءون القرآن في أكثر اللغات بأسلوب مفكك وبيان قاصر، وواجب العلماء أن يغيروا هذا المنكر بالمحو وهو محال، أو بالتصحيح وهو ممكن. وليس في ترجمة معاني التنزيل استحالة ما أمكنت القدرة. والقول بأن المسلمين ما برحوا عاجزين عن فهم القرآن قول بأن الإسلام يقوم على أساس غير واضح. ولعل ترجمة المفهوم من لفظ القرآن أسلم من ترجمة المراد من معناه؛ فإن الأولى تفسير لغوي للنص، والثانية تقييد رسمي للرأي. وفي ذلك وشبهه مجال لعقل الفقيه إذا خلص من قيود التقليد لحظة

كذلك دل هذا الجدل على أن في العلماء من يلبسون الدين بالهوى ابتغاء لعرض الدنيا أو استشفاء من مرض القلب، فقد تحدث الناس عن رجلين معروفين بمرونة الرأي قاما يحاربان المشروع بنية مدخولة، حتى بلغ الأمر بأحدهما أن أهاب بدافعي الضرائب أن يحولوا بين الحكومة وبين الإنفاق على هذا العمل الباطل!!

يا ورثة الأنبياء فيم ورثتموهم ولم يتركوا ضياعا ولا قصورا ولا مراكب؟؟ إنكم ورثتموهم في الدعوة إلى الله فلا تبطلوها، وفي تنفيذ الشريعة فلا تعطلوها، وفي نشر الفضيلة فلا تطووها طي المتاع الكاسد

لقد شعر المصلحون بأن الدين جوهر كل إصلاح، فساعدوهم على كشف الطريق بنور الحق، وبلوغ الغاية بهدى الله، وإلا فليس على الدين مسيطر، ولا على الناس لله وكيل!

الربيع

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

خرجتُ أشهدُ الطبيعةَ كيف تُبح كالمعشوق الجميل، لا يقدّم لعاشقه إلا أسبابَ حبه!

وكيف تكون كالحبيب، يزيد في الجسم حاسةَ لمس المعاني الجميلة!

وكنت كالقلب المهجور الحزين، وجد السماء والأرض، ولم يجد فيهما سماءه وأرضه

ألا كم من آلاف السنين وآلافها قد مضت منذ أخرج آدم من الجنة!

ومع ذلك فالتاريخ يعيد نفسه في القلب؛ لا يحزن هذا القلب إلا شعر كأنه طرد من الجنة لساعته

يقف الشاعر بازاء جمال الطبيعة فلا يملك إلا أن يتدفّق ويهتزّ ويطرب

لأن السرّ الذي انبثق هنا في الأرض، يريد أن ينبثق هناك في النفس

والشاعرُ نبي هذه الديانة الرقيقة التي من شريعتها إصلاحُ الناس بالجمال والخير

وكلُ حُسن يلتمس النظرةَ الحيةَ التي تراه جميلاً لتعطيه معناه

وبهذا تقف الطبيعة محتفلة أمام الشاعر، كوقوف المرأة الحسناء أمام المصور

لاحت لي الأزهارُ كأنها ألفاظُ حب رقيقة مُغَشَّاة باستعارات ومجازات

والنسيمُ حولها كثوب الحسناء على الحسناء، فيه تعبيرٌ من لابِسَتِه

وكل زهرة كابتسامة تحتها أسرارٌ وأسرارٌ من معاني القلب المعقّدة

أهي لغةُ الضوء الملوّن من الشمس ذاتِ الألوان السبعة؟
أم لغةُ الضوء الملوّن من الخد، والشفة، والصدر، والنحر والديباج والحلي؟
وماذا يفهم العشاقُ من رموز الطبيعة في هذه الأزاهر الجميلة؟
أتشيرِ لهم بالزهر إلى أن عمر اللذة قصير، كأنها تقول: على مقدار هذا؟
أتعلمهم أن الفرق بين جميل وجميل كالفرق بين اللون واللون وبين الرائحة والرائحة؟
أتناجيهم بأن أيام الحب صُوَرُ أيام لا حقائق أيام؟
أم تقول الطبيعة: إن كل هذا لأنك أيتها الحشرات لا تنخدعين إلا بكل هذا. . . .؟
في الربيع تظهر ألوانُ الأرض على الأرض، وتظهر ألوان النفس على النفس
ويصنع الماءُ صُنَعه في الطبيعة فتُخرج تهاويلَ النبات، ويصنع الدم صنعه فيخرج تهاويلَ الأحلام
ويكون الهواءُ كأنه من شفاهٍ متحابّة يتنفس بعضُها على بعض
ويعود كل شيء يلتمع لأن الحياة كلَّها ينبض فيها عرقُ النور
ويرجع كل حي يغني لأن الحب يريد أن يرفع صوته
وفي الربيع لا يضيءُ النورُ في الأعين وحدها، ولكن في القلوب أيضاً
ولا ينفذُ الهواءُ إلى الصدور فقط ولكن إلى عواطفها كذلك
ويكون للشمس حرارتان إحداهما في الدم
ويطغَي فيضان الجمال كأنما يراد من الربيع تجربةُ منظر من مناظر الجنة في الأرض
والحيوان الأعجم نفسُه تكون له لَفَتاتٌ عقلية فيها إدراكُ فلسفة السرور والمرح
وكانت الشمسُ في الشتاء كأنها صورةٌ معلقة في السحاب
وكان النهارُ كأنه يضيء بالقمر لا بالشمس
وكان الهواءُ مع المطر كأنه مطرٌ غير سائل
وكانت الحياة تضع في أشياءَ كثيرة معنى عبوس الجوّ
فلما جاء الربيع كان فرحُ جميع الأحياء بالشمس كفرح الأطفال رجعت أمهم من السفر
وينظرِ الشباب فتظهر له الأرض شابة
ويشعر أنه في معاني الذات أكثر مما هو في معاني العالم
وتمتلئ له الدنيا بالأزهار، ومعاني الأزهار، ووحي الأزهار
وتخرج له أشعةُ الشمس ربيعاً وأشعةُ قلبه ربيعاً آخر
ولا تنسى الحياةُ عجائزها، فربيعُهم ضوءُ الشمس. . .
ما أعجب سر الحياة! كل شجرة في الربيع جمال هندسي مستقل
ومهما قطعت منها وغيرت من شكلها أبرزتها الحياةُ في جمال هندسي جديد كأنك أصلحتها
ولو لم يبق منها إلا جذر حيّ أسرعت الحياة فجعلت له شكلا من غصونٍ وأوراق
الحياة الحياة. إذا أنت لم تفسدها جاءتك دائماً هداياها
وإذا آمنت لم تعد بمقدار نفسك ولكن بمقدار القوة التي أنت بها مؤمن
(فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحي الأرض بعد موتها)
وانظرِ كيف يخلق في الطبيعة هذه المعاني التي تبهج كل حي، بالطريقة التي يفهمها كل حي
وانظر كيف يجعل في الأرض معنى السرور، وفي الجو معنى السعادة
وانظرِ إلى الحشرة الصغيرة كيف تؤمن بالحياة التي تملها وتطمئن؟
أنظرِ أنظر! أليس كل ذلك رداً على اليأس بكلمة: لا
طنطا
مصطفى صادق الرافعي
الإسلام كعامل في المدنية
(بقية ما نشر في العدد الماضي)
للأستاذ أحمد أمين
والمسألة الثانية هي (الثقافة الإسلامية) وأثرها في المدنية
وأريد أن أكرر هنا ما أشرت إليه من أن الثقافة الإسلامية كانت أثراً من آثار العقيدة الإسلامية التي ألممت بها. فالقرآن رفع مستوى العقل إلى درجة يستطيع فيها التفكير الصحيح بما حارب من خرافات وأوهام، وعبادة أصنام، وبما حث على النظر في الكون

ومراقبة تغيراته، واختلاف مظاهره، ودوام حركاته، وبتوجيه العقل إلى أن وراء كل المظاهر المختلفة وحدة، فالناس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم يرجعون إلى أصل واحد هو آدم وحواء، والبحار والأنهار المختلفة كلها ترجع إلى ما أنزل من السماء من ماء، والعالم كله يرجع إلى وحدة الخالق (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت). فهذه الوحدة في العالم تحمل على التفكير الصحيح والثقافة العميقة والنظر الفلسفي الروحي. فالقرآن من ناحية فك قيود العقل، وهذا هو العامل السلبي؛ ومن ناحية أخرى أخذ بيده ليشرف على العالم من مرقب عال، وهذا هو العامل الإيجابي

من أجل هذا كانت الثقافة الإسلامية نتيجة العقيدة الإسلامية لا نتيجة شيء آخر، فإن هي اتجهت إلى الاستعانة بالفلسفة اليونانية والثقافة الفارسية والهندية، فلأن الدين حملها على ذلك وطلب منها أن تتطلب العلم حيث كان ومن أي كائن كان

وقد بذر الإسلام في نفوس أصحابه بذوراً تأصلت فيهم فكانوا إذا اقتبسوا من الفلسفة اليونانية أو أية ثقافة أخرى لم يكونوا مقلدين تقليداً صرفاً، إنما كانوا دائماً يُعملون العقل فيما نقلوا، ويعملون العقيدة الدينية فيما قرءوا. فإذا نظرنا إلى ما كتب الفارابي وابن سينا وابن رشد رأيناهم لم يقفوا موقف التلميذ فحسب، بل نقدوا وزادوا ووفقوا بين الفلسفة والدين وأمدوا كل شيء وأخذوه بروح من عندهم، فكان لثقافتهم طابع خاص وشارة تعرف بها - حتى هذا المنطق اليوناني الذي دانت له كل الأمم زاد الغزالي في بعض كتبه فصولاً عن القرآن؛ وابن تيمية وابن حزم وغيرهما نقدوا منطق اليونان وعدوه منطق شكل لا منطق مادة. وكان شأنهم في كل فرع هذا الشأن تقريباً. فدعوى أن المسلمين في ثقافتهم

كانوا حفظة للثقافة اليونانية أكثر منهم مبتكرين لثقافة خاصة دعوى أملاها عدم الدراسة للثقافة الإسلامية دراسة وافية

والحق أن فضلهم على المدنية الحديثة كان من الناحيتين جميعاً: من ناحية حفظهم لثقافة غيرهم من الأمم ولولاهم لضاع كثير منها، ومن ناحية ما أنشئوا وابتكروا وبثوا من روح في الثقافات القديمة. وقد بدأ علماء أوروبا يبحثون نواحي تأثير الثقافة الإسلامية في الثقافة الأوروبية؛ وكان من آخر ما أظهروا في هذا الباب كتاب ما خلفه الإسلام تناولوا فيه أثر الثقافة الإسلامية في الجغرافيا والتجارة، وفي القانون والاجتماع والفن والعمارة وفي الأدب، وفي التصوف وفي الفلسفة واللاهوت، وفي العلم والطب، وفي الهيئة والرياضيات. وهذا البحث وإن كان آخر ما ألفوا فهو أول ما كتشفوا من طريق يشرف على آثار قيمة ضخمة لا تزال تنتظر مكتشفين أبعد مدى، وأقوى على تحمل مشاق الطريق

ولعلنا لكي نقرب من موضوعنا نسأل هذا السؤال: هل كان العالم يستطيع أن يقف على درجة السلم التي يقف عليها الآن لو لم تكن مدنية الإسلام؟ هل لو لم يكن في الوجود مدنية بغداد ومدنية قرطبة والحروب الصليبية كانت المدنية الحديثة تبلغ ما بلغت الآن؟ هل كانت النهضة الأوربية الحديثة تحدث في الزمن الذي حدثت فيه لو لم ترتكز على المدنية الإسلامية؟

هذا سؤال واحد في أوضاع مختلفة والإجابة عنه يسيرة، وهي إجابة بالنفي القاطع. ولا يعلم إلا الله كم كانت تتأخر المدنية الحديثة لو لم ترتكز على المدنية الإسلامية وتطير من على عاتقها، فالمتتبع لتاريخ المدنيات يرى أنه حلقات يسلم بعضها إلى بعض، ويستفيد لاحقها بما وصل إليه سابقها. وقد كانت المدنية الإسلامية هي التي في الذروة قبيل المدنية الحديثة، ولم يكن يضارع بغداد وقرطبة مدينة أخرى في العالم في مدنيتهما وثقافتهما وصناعتهما، ونضمهما الإدارية والحربية. ولتوضيح ذلك ننظر في أسس المدنية الحديثة ونبين علاقة هذه الأسس بالمدنية الإسلامية

لقد بنيت النهضة الحديثة في الثقافة على أساسين وهما الشك والتجربة - كانت الثقافة في القرون الوسطى تعتمد كل الاعتماد على آراء اليونان وتقدس ما قال أفلاطون وأرسطو كل التقديس. فإذا قال أرسطو قولاً فلا يمكن إلاّ أن يكون صحيحاً، وإذا كان الحس يدل على

غير ما يقول وجب أن نعتبر الحس خدّاعاً، والحقيقة ما قال أرسطو. لقد قال أرسطو إن الجسم إذا كان أثقل كان إلى الأرض أسرع، ولكن صعد بعضهم من مكان عال ورمى في وقت واحد حديدتين وزن إحداهما ضعف الأخرى فوصلا إلى الأرض معاً، ومع

هذا قالوا إن الحق ما قال أرسطو، ويجب أن يؤول الواقع وهكذا. وكانوا يعتمدون كل الاعتماد على القياس المنطقي وحده يؤيدون به المذاهب والآراء، والقياس المنطقي وحده وسيلة عقيمة لأنه يجعلك تسلم بالمقدمات تسليما أعمى وتعنى فيه بالشكل. فجاءت النهضة الحديثة تشك في هذه المقدمات العامة وتمنحها وتجري التجارب عليها ولا تؤمن بشيء حتى تدل التجارب على صحته، وكان هذا دعامة النهضة الحديثة. والحق أن هذه طريقة لم تكن بعيدة عن المسلمين ولا خفيت عليهم؛ فالتاريخ يحدثنا أن النّظّام ألف في نقد آراء أرسطو، وأن تلميذه الجاحظ في كتابه الحيوان يطلع اطلاعاً واسعاً على أقوال أرسطو ثم لا يمنحها هذا التقديس؛ بل ينقدها نقداً جريئاً ويقول قد جرّبنا قول أرسطو فلم نجده صحيحاً. ويقول: (إن قوله هذا غريب)، و (هو قول لا يجيزه العقل) إلى كثير من أمثال ذلك، وربما فضّل على قوله قولاً آخر قاله عربي جاهلي في بيت من الشعر، لأنه أقرب إلى العقل. فهو بهذا قد جعل عقله حكماً على أرسطو، على حين أن فلاسفة القرون الوسطى في أوروبا جعلوا أرسطو حكما على العقل، والبيروني يحكم عقله في الرياضيات، ويقارن بين نظريات اليونان ونظريات الهند، ويفضل هذه حيناً وهذه حيناً فكتابه الآثار الباقية، وحيناً لا يقبل هذه ولا تلك ويعتمد على عقله الصرف، ويقف الغزالي في كتابه (المنقذ من الضلال) الموقف الذي وقفه بعدُ ديكارت فيقول: (إنه رأى صبيان النصارى ينشئون على النصرانية، وصبيان اليهود على اليهودية، وصبيان المسلمين على الإسلام، وأنه لم يقنع بهذا الدين التقليدي التلقيني، وطلب أن يعلم حقائق الأمور وأن يبني دينه على يقين، وقال إنه بدأ بالشك في كل ذلك حتى يقوم البرهان على صحته، ولم يسمح لنفسه باعتقاد حتى يتأكد من صحته) وقال: (كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين، فهو علم لا ثقة به ولا أمان معه، وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقيني)، وابن خلدون نظر إلى المجتمع الإنساني هذا النظر الحر الطليق فاستفاد مما قال أرسطو وغيره ولكنه لم يتقيد به، ونظر في مجتمعات لم يصل إليها علم أرسطو وهي القبائل العربية والدول

الإسلامية، واستنتج من ذلك كله نظرياته التي كانت ولا تزال محل تقدير علماء الاجتماع والتاريخ من الأوروبيين وإعجابهم

وعلى الجملة فهذه الأسس التي بنيت عليها النهضة الحديثة في أوروبا من تحرير العقل من قيود الأوهام، ومن عبادة العظماء أمثال أرسطو، ومن وضع القوانين بعد الملاحظة والتجربة، وبعد الشك فيما اتخذه الأقدمون قضايا مسلمة، كله كان منبثاً في الثقافة الإسلامية في عصورها الزاهية. وكل ما في الأمر أن الذين بنوا على هذه الأسس القيمة هم الأوروبيون لا المسلمون، وأن من سوء حظ المسلمين أن وضعت في سبيلهم عقبات ليس منشؤها دينهم حالت بينهم وبين أن يتموا ما بدءوا، وأن يشيدوا فوق ما أسسوا. ولكن من الحق أنا إذا أردنا أن نقوّم بناء لا نكون سطحيين فنقوم ظاهره، ولا نقوم باطنه؛ ونقوم أعلاه، ولا نقوم أساسه

ووجه آخر بجانب هذا، هو أن ثقافة المسلمين لم تكن جميعا متجهة اتجاه الفلسفة اليونانية والعلوم اليونانية؛ فقد كانت لهم مناح في الثقافة خاصة بهم لم يعتمدوا فيها على غيرهم إلا اعتماداً ضعيفاً غير مباشر؛ فما أنشئوا من علوم لغتهم كالنحو والصرف والبلاغة وأدبهم الذي رقوا به أدب جاهليتهم وساروا به على منهج خاص بهم، لا على المنهج اليوناني، ولا على المنهج الفارسي؛ والعلوم الغزيرة التي أنشئوها حول دينهم من تفسير للقرآن والحديث، ومن فقه قابلوا به قضاياهم ونظامهم وحياتهم الاجتماعية الخاصة، وما أسسوا له من (أصول الفقه) الذي لم يجروا فيه على منوال سبق - كل هذه وأمثالها كانت مظهراً من مظاهر الاختراع العقلي للمسلمين، وكل هذه كانت عوامل في بناء المدنية الإسلامية التي بنيت عليها المدنية الحديثة

وقد حفظ لنا التاريخ بعض الصلات التي ربطت بين المدنية الإسلامية والمدنية الأوروبية، وأبان لنا كيف استمدت الثانية من الأولى، وكشف لنا عن بعض الجداول التي كانت تتسرّب من المدن الإسلامية تصب في المدن الأوربية، وإن كان بعضها لم يزل مطموراً إلى اليوم ولم يستكشف بعد

فقد اتصل الأوربيون بالمسلمين في الأندلس اتصالاً وثيقاً، واتخذ علماؤهم فلاسفة

المسلمين أساتذة يتعلمون منهم ويدرسون عليهم، ونشطت حركة واسعة النطاق لنقل أهم المؤلفات
العربية إلى اللغة اللاتينية، وهي لغة الأدباء والعلماء في القرون الوسطى، حتى أن كثيراً مما بقى من مؤلفات ابن رشد حفظت إلى الآن باللغة اللاتينية ولا نجد أصلها بالعربية، وكان من أشهر من قام بهذه الحركة (ريموند) الذي كان مطراناً لطليطلة من سنة 1130 - سنة 1150، فقد أسس جمعية لنقل أهم الكتب الفلسفية والعلمية العربية إلى اللغة اللاتينية، فنقلوا من العربية أهم كتب أرسطو وما علقه عليها العرب من شروح، كما نقلوا أهم كتب الفارابي وابن سينا، وكان من أثر هذه الجمعية أن رأينا منطق أرسطو المترجم من العربية إلى اللاتينية يقرأ في باريس بعد ثلاثين سنة من عمل هذه الجمعية. وقد مرت حركة استفادة الأوربيين من الثقافة اليونانية في ثلاثة أدوار، الدور الأول: نقل الفلسفة اليونانية والكتب العلمية من العربية إلى اللاتينية، والدور الثاني: النقل من اليونانية مباشرة بعد سقوط القسطنطينية. والثالث: نقل الشروح العربية إلى اللاتينية
وجاء فردريك الثاني سنة 1215، واتصل بالمسلمين اتصالاً وثيقاً في صقلية وفي الشام في حروبه الصليبية، واقتبس كثيراً من آرائهم وعاداتهم وعقائدهم، وقد وصفه المؤرخون بأنه كان يعجب بفلاسفة المسلمين، وكان يعرف اللغة العربية ويستطيع أن يقرأ بها الكتب الفلسفية في مصادرها الأصلية. وأنشأ سنة 1224 مجمعاً في نابلي لنقل العلوم العربية والفلسفة العربية إلى اللاتينية والعبرية لنشرها في أوربا. وبفضل فردريك ذهب (ميكائيل سكوت) إلى طليطلة وترجم شروح ابن رشد على أرسطو، وقبل ذلك كانت قد نقلت إلى اللاتينية جمهرة من كتب ابن سينا واستعملت في باريس حول سنة 1200م
وفي القرن الثالث عشر كانت كل كتب ابن رشد تقريباً قد ترجمت إلى اللاتينية ماعدا كتباً قليلة، منها كتاب تهافت التهافت الذي رد به على تهافت الفلاسفة للغزالي، فقد ترجمت في القرن الرابع عشر
وكان أهم مركز لتعاليم ابن رشد في جامعة بولونيا وجامعة بادوا في إيطاليا ومنهما انتشرت هذه الثقافة في إيطاليا الشمالية الشرقية إلى القرن السابع عشر، واستمرت كتب ابن سينا في الطب سائدة إلى ما بعد هذا العصر
ورجال النهضة الحديثة الذين قاموا بحركة الثورة الفكرية كانوا يدرسون على هذه الكتب، أو يتتلمذون لمن درسوا عليها، فروجر بيكون الذي سبق أهل زمنه في معارفه وطريقة
بحثه أخذ ثقافته العلمية من الأندلس، ودرس فلسفة ابن رشد، والقسم الخامس من كتابه في البصريات مستمد ومساير لكاتب ابن الهيثم في هذا الموضوع نفسه
وطالما ارتفعت شكوى رجال الدين في الأندلس من أن المسيحيين يدرسون علم العرب المسلمين، وعابوا مطران أشبيلية لأنه يدرس في جد فلسفة الكافرين، يعنون المسلمين
وعلى كل حال فجملة الأمر في مدنية المسلمين كما لخصها الأستاذ لكي خير تلخيص إذ قال:
لم تبدأ النهضة الفكرية في أوربا إلا بعد أن انتقل التعليم من الأديرة إلى الجامعات،) وإلا بعد أن حطمت العلوم الإسلامية، والأفكار اليونانية، والاستقلال الصناعي، سلطان الكنيسة(
هذا هو موقف المسلمين أمس من المدنية، ولابد أن نلقي نظرة على موقفهم اليوم من المدنية الحديثة. ومما يؤسف له حقاً أن نقول إن المسلمين لا يشتركون اليوم في بناء صرح المدنية اشتراكا كبيرا، لأن حديثهم هو تقليد للمدنية الحديثة، وقديمهم هو مدنية القرون الوسطى، فهم في الصناعات والمخترعات ونظم الحكومات والإدارات، وفي كتبهم التي تؤلف في العلوم الحديثة من جغرافيا وتاريخ وطبيعة وكيمياء وما إليهما، ونظام مدارسهم الحديثة ومحاكمهم وقوانينهم؛ كل هذا يقلدون فيه المدنية الغربية. وكلما زاد التقليد فيها عدت أقرب إلى الكمال؛ وقديمهم من مثل دراسات علومهم كالنحو والصرف والفلسفة الإسلامية، ومن مثل قضائهم في المحاكم الشرعية، ومن مثل مدارسهم الدينية، ونحو ذلك، كلها على نمط مدينة القرون

الوسطى. فهم - في ظاهر الأمر - لا يضعون أحجاراً كبيرة في بناء المدنية الحديثة، ولا يلونونها بلون خاص. ولكن هل الذنب في ذلك ذنب الإسلام والمسلمين؟ إذا عرضت نفسك لتبني فمنعك صاحب البناء بالقوة فالذنب ذنب من مَنع لا من مُنع، وهكذا الشأن في موقف المسلمين. لقد سبقهم الغربيون باستخدام العلم في قوة تسلحهم إلى أقصى حد يمكن فيه استخدام العلم، فوجهوا هذه القوى الهائلة إلى الشرق، ولم يكن قد صحا بعد من سباته الذي سببه ما فسد من عقيدته، وما فسد من سياسته، وما فسد من شؤونه الاجتماعية، فسلط عليه الغرب كل قوته، فانتبه مذعورا؛ ونظر إليه الغرب نظرة استغلال، فساعده على كل ما يفيد الاستغلال، ومنعه عن عمل كل شيء يفيد الاستقلال، فهو إذا أراد أن يتثقف كما يشاء، أو يرقي شؤونه الاجتماعية كما يشاء، أو أن يحكم نفسه كما يشاء، أو أن يرقي أخلاقه كما يشاء، منعه الغرب من ذلك حرصاً على فائدته في هذا الاستغلال، والشرق لا يستطيع أن يقاوم إلا بالقوة، والقوة محرمة عليه. فهل بعد ذلك هو الذي يتحمل تبعة عدم اشتراكه في البناء

إني لأرجو أن الزمن ورقي الأفكار السياسية التي تخطو في هذه الأيام خطوات سريعة تجعل الغربي ينظر إلى الشرقي نظرة تعاون، فيدرك أن طريقة الاستغلال ليست أصلح الطرق حتى من الناحية الاقتصادية، وأن رقي الشرقي والسماح له بالبناء يزيد في صرح المدنية ويرفع بناءها، ويسرع في علو شأنها. وكما تبين للناس أن نظام الإقطاع وتسخر الملك للعبيد لم يكن في مصلحة الملاّك ولا العبيد، فحطموا هذا النظام من أساسه، وأسسوه من جديد على تحرير العبيد وتعاون الملوك والمستأجرين، وأرباب الأموال والعمال، فكذلك سيكون الشأن مع الحاكمين والمحكومين يتعاونون ولا يتقاتلون، ويتفاهمون ولا يتنازعون، ويتحاكمون إلى الرأي والعقل لا إلى القوة والسلاح. وأرجو ألا يكون ذلك بعيداً

على أن من العدل أن نقول إن التبعة في ذلك كله لا تقع على الغربيين وحدهم، فإن هناك عوامل في المسلمين أنفسهم جعلتهم في هذا الموقف الحرج. فهناك علماء جامدون ضيقوا العقل، وقفوا موقفاً مزرياً في تاريخ المسلمين، وعاقوا رقيهم وتقدمهم، فكان كلما حاول الإصلاح محاول ثاروا عليه باسم الدين، إن أراد إصلاح المحاكم ثاروا عليه ورموه بالمروق، وإن أراد تنظيم الإدارة الحكومية قالوا لا عهدنا لنا بهذا، ويجب أن نتتبع آباءنا وإنا على آثارهم مقتدون. وإن أراد تعليم المرأة قالوا ما بهذا أتى الدين! وهكذا كانوا حجر عثرة في سبيل كل مصلح حتى عظم الخطب، واشتد الكرب، وأولو الأمر في المسلمين إذ ذاك لم يكن يهمهم إلا شهواتهم وفخفختهم الكاذبة، ومظاهرهم الخادعة. أما الاتجاه الصحيح إلى ترقية رعيتهم وتثقيفهم، وتنوير أذهانهم، ونشر العدل بينهم فكانوا قلما يأبهون له. فهؤلاء وأولئك كانوا السبب في أن يقف المسلمون هذا الموقف الذين شكونا منه من قبل

ومع هذا فتنبه المسلمين اليوم، وسير حركات الإصلاح بينهم سيراً حثيثاً، يدعونا أن نؤمل قرب اليوم الذي يتبوأون فيه مكانتهم اللائقة بهم. فإذا قارنت هذه النهضة الداخلية في رقي الفكر السياسي عند الغربيين، وتعديل نظرتهم نحو المسلمين كان من وراء ذلك كله نهضة جدية يبني فيها المسلمون في المدنية بناء صالحاً مصبوغاً بعقيدتهم وأفكارهم، فنرى إذ ذاك

فلسفة خاصة وثقافة خاصة، وروحانية خاصة، قد تلون المدنية الحديثة عامة بلون خاص غير لونها الحالي

أحمد أمين

النهضات القومية العامة في أوروبا وفي الشرق

للأستاذ عبد الرزاق أحمد السنهوري

عميد كلية الحقوق ببغداد

المحاضرة الثانية

الفاشية:

رأينا في المحاضرة السابقة كيف قامت الفاشية والنازية سداً منيعاً أمام تيار البلشفية الجارف. ونقول في هذه المحاضرة كلمة عن هاتين الحركتين؛ وقد كتب الشيء الكثير عنهما، ونحن لا نحاول الإحاطة بكل ما كتب، بل نتوخى الإيجاز الذي يقتضيه هذا المقام

يمكن أن نصف الفاشية بأنها رد فعل عنيف للحركة الاشتراكية التي قامت في إيطاليا عقب الحرب الكبرى، وهددت مرافق الحياة في هذه البلاد بالشلل والنضوب، حتى أصبحت إيطاليا في حالة لا تحسد عليها، وحتى كادت وحدتها الوطنية تتفكك. فقام مؤسس الفاشية، وكان اشتراكياً في مبدإ أمره، فوفق بين مبدئه الاشتراكي ونزعته الوطنية، وأسس الحكم الفاشي قائماً على فكرة الوطنية، معارضاً لفكرة الطبقات. وهكذا انتكصت الاشتراكية في إيطاليا، ورجع مبدأ الوطنية للانتصار

فالفاشية، كنظام من نظم الحكم، ليست إلا مقاومة عنيفة للبلشفية. وهي ليست مقصورة على إيطاليا، بل امتدت منها إلى غيرها من البلاد؛ فهي تسمى في إيطاليا بالفاشية أو الموسولينية، وتسمى في ألمانيا بالنازية أو الهتلرية، وتسمى في تركيا بالكمالية وهكذا. وهي، أين تسود، تقف سداً منيعاً دون تفشي البلشفية.

ولما كانت الفاشية قد نشأت في أول أمرها وترعرعت في إيطاليا، فنحن نبدأ بالفاشية الإيطالية، لننظر كيف نشأت، ثم نستعرض المبادئ التي قامت عليها، والوسائل التي تذرعت بها في العمل، والطرق التي اتبعتها في التنظيم

نشأتها:

أما كيف نشأت الفاشية في إيطاليا، فلأجل أن نعرف ذلك يجب أن نرجع قليلاً إلى الوراء، لنستعرض إيطاليا في مبدإ الحرب الكبرى، وهي مترددة هل تدخل الحرب إلى جانب

ألمانيا أو إلى جانب الحلفاء. ثم تدخل إلى جانب الحلفاء، فتكاد تكتسحها الدول الوسطى، وتعاني من أهوال الحرب ورزاياها ما يكاد ينوء بها. ثم يبسم الحظ للحلفاء، فينتصرون وتنتصر معهم إيطاليا. ولكنها تخرج من الحرب في حالة من الفوضى الاقتصادية والاضطراب المادي، هي شر من الحرب. فالبلشفية قد تفشت فيها، والعمال أخذوا يثيرون القلاقل والفتن، والشعب ساخط غاضب على حكومته، يتهمها بالضعف والعجز، فهي لم تنل في مؤتمر فرسايل من الأسلاب والغنائم ما يتفق مع الجهود والتضحيات التي اعتقدت إيطاليا أنها بذلتها أثناء الحرب، ولا ما يتفق بنوع خاص مع طموح إيطاليا الفتاة ومطامعها الاستعمارية. فإذا أضفنا إلى هذا كله أن النظم الدستورية والنيابية لم تكن قد تأصلت في الحكومة الإيطالية، وأن روح الديمقراطية لم تكن قد استقرت في الشعب الإيطالي في المدة القصيرة التي مرت عليه منذ استقلاله، وأن هذه البلاد لم تنس بعد عهد الجمعيات السرية ولا المؤامرات التي تدبر في الخفاء، وإذا عدنا للإشارة مرة أخرى إلى ما انتشر من الفوضى والاضطراب في البلاد بسبب تفشي البلشفية، نستطيع بعد كل ذلك أن نتصور لو أن رجلاً جريئاً مغامراً، ذا إرادة صلبة، وعزيمة قوية، وطموح بعيد، يقود طائفة من الفتيان تدفعهم حماسة الشباب، وحمية الوطنية، وأحلام المجد والعظمة، والإيمان العميق بمستقبل الوطن؛ نستطيع أن نتصور، لو أن رجلاً بهذا الوصف، ومن ورائه الشباب المتوقد عزيمة وقوة، برز إلى الميدان، وتقدم إلى شعب من الشعوب، لينقذه من حالة الفوضى والاضطراب، ويعيد إليه مجده القديم، ويسوقه إلى ساحات العظمة والمجد، فينال حظه من كل ذلك، بعد أن أنكره عليه حلفاؤه بالأمس، فإن هذا الرجل لابد أن يقابل بالترحيب، ثم بالإعجاب، ثم بالتحمس. وأنه لابد واجد من هذا الشعب جنوداً يبذلون نفوسهم في سبيل تحقيق هذه الغايات الوطنية الشريفة. وقد كان الشعب، وكان الرجل. أما الشعب فهذه الأمة الإيطالية الشابة الفتية، الحساسة المسرفة في الحساسية؛ وأما الرجل فهو موسوليني، بطل الفاشية وزعيمها الأكبر

وقد بدأت الفاشية، بعد زحف موسوليني على روما وقبضه على ناصية الحكم بالقوة، حكماً تجريبياً، ليست له خطة مرسومة ولا مذهب مقرر. وكان موسوليني في مبدإ أمره اشتراكياً متحمساً، ثم انقلب جندياً باسلاً، ورجع وطنياً غيوراً. وصار من اعتنق الاشتراكية وآمن

بمبادئها، نقمة الاشتراكية وخصمها الألد. وتقدم موسوليني إلى الحكم وليست له خطة مرسومة كما قدمنا، إلا إذا كانت الرغبة الملحة في الإصلاح وإعادة مجد الوطن يصح أن تسمى خطة. فالفاشية بدأت تجريبية شعارها العمل، والعمل الإيجابي العنيف في سبيل الإصلاح الوطني. لذلك اشتهرت الفاشية بصبغتها العملية، وبإقدام رجالها، واقتحامهم أشد الأخطار هولاً، دون تردد ولا هوادة. فالقضية عندهم هي بعث الأمة

الإيطالية من جديد. أما المبادئ والنظريات فقد كان موسوليني يسخر منها، ويرى أنها سلاح خطر، قد يرتد إلى صاحبه فيرديه. فالبلشفية قد بدأت إذن عملاً لا مبدأ، وحركة لا فكرة. ولم يكن لديه منهج مرسوم يريد تحقيقه. ويوم ارتقى موسوليني منصة الحكم لم يكن لديه إلا إرادة وعزيمة، فأكب على العمل بهذه الإرادة وهذه العزيمة، واضعاً نصب عينيه مجد الأمة الإيطالية وعظمتها

ثم أخذت الفاشية تمر بمراحل متعاقبة من التجارب العملية زهاء عشر سنوات. تهذبها الأحداث، وتنضجها الأيام. وتطورها مقتضيات الضرورة، حتى استنار طريقها ووضحت معالمه. وارتسمت الفاشية مبادئ ينتظمها مذهب معروف مقرر. وصارت نظاماً عالمياً له نظرياته وقواعده. وسرت مبادئها من بلد إلى بلد. ودخلت في دور علمي فلسفي، تقرر نظرية للدولة، ونظرية لعلاقة الفرد بالمجموع، ونظرية لأثر العوامل الاقتصادية في الحالة السياسية، ونظرية لعلاقة المسائل الروحية بالمسائل المادية، ونظرية للتربية والتعليم. ولكن الفاشية بقيت محتفظة بصبغتها العملية الأولى، فهي تبدأ بالوقائع تبحثها وتحللها، ثم تصوغها بعد ذلك نظريات سياسية واقتصادية، بخلاف البلشفية فأنها تبدأ ببسط النظريات، ثم تطبقها بعد ذلك على الوقائع

ولننظر إلى الفاشية كمبدأ علمي فلسفي، وكنظام عملي من نظم الحكم القائمة.

فالفاشية بهذا الوصف لها مبادئ تقوم عليها، ووسائل للعمل، وطرق للتنظيم

مبادئها:

أما المبادئ التي تقوم عليها فتتلخص في عبارة واحدة هي (مجد الوطن وعظمته)ـ فالفاشية حركة تقوم على القومية، وتعادي كل نزعة من شأنها أن تكسر حدة الوطنية. أما الجامعات الدولية كالبلشفية فتحاول أن تحقق اتحاد العمال في جميع أنحاء العالم، وكعصبة الأمم

تحاول أن تدمج القوميات في جامعة واحدة، فالفاشية تعادي بعضها، وتنظر إلى البعض الآخر نظرة المرتاب، فالوطن، والوطن وحده، هو الذي تخصص له الفاشية جهودها فهي حركة وطنية تقوم في وجه البلشفية؛ أي أن الرابطة التي تقوم على فكرة الوطن لا تزال تجاهد في أوروبا جهاد المستميت، وهي في كفاح عنيف مع الرابطة التي تقوم على فكرة الطبقات

وسائلها في العمل:

وللفاشية وسائل للعمل. وتتلخص هذه الوسائل في قيام أقلية صالحة بأعباء الحكم. فهناك هيئتان: الهيئة الحاكمة، والهيئة المحكومة. ويجب أن تتضامن هاتان الهيئتان تضامن أعضاء الجسم الواحد. أما المساواة الديمقراطية فلا تعترف بها الفاشية. إذ الناس في الواقع من الأمر غير متساوين، وهم يتفاوتون في القوة والكفاية والصلاحية، ولا عبرة بالمساواة النظرية مادامت المساواة الفعلية غير متحققة. وقد رفع الله الناس درجات بعضهم فوق بعض، فيجب الاعتراف بهذه الحقيقة والإذعان لها.

وتستخلص الفاشية من ذلك أن في الأمة أقلية صالحة للحكم؛ ومعيار الصلاحية الكفاية وتغليب المصلحة العامة والقدرة على تحقيقها. وهذه الأقلية هي التي يجب أن تحكم. وهي لا تستمد سلطانها من انتخاب الهيئة المحكومة لها، ولا من ثقة هذه الهيئة بها، بل تستمده من كفايتها وقدرتها على القيام بأعباء الحكم. وترتب الفاشية نتيجة خطيرة على ما تقدم، فهي تبيح الثورة على الحكومة العاجزة، إذ المبرر لبقاء الحكومة في الحكم إنما هو كفايتها، فإذا انعدمت هذه الكفاية، انعدم حقها في البقاء؛ فإذا بقيت بالرغم من ذلك، وجب الانتفاض عليها، ونزعها من كراسيها. وقد طبقت الفاشية هذا المبدأ عملياً، قبل أن يتقرر مبدأ نظرياً، عندما زحفت على روما، وقبضت على ناصية الحكم بالقوة

على أن هذه الأقلية الحاكمة التي تتميز بالكفاية، تتدرج هي الأخرى في السلطان حسب درجة كفايتها. فالكفاية هي الكرسي الذي يتركز عليه الحكم. وتعلو طبقة فوق طبقة. وتخضع الطبقة الدنيا للطبقة العليا، حتى ينتهي الأمر كله إلى زعيم واحد، تلقى في يده أزمة الحكم، وترجع إليه كل الأمور، فيفرض إرادته على أفراد الهيئة الحاكمة، كما تفرض الهيئة الحاكمة إرادتها على أفراد الهيئة المحكومة. وبذلك يقوم ركن الدولة على أسس

متينة، وترجع الأمور كلها إلى رأي واحد ثابت لا يضطرب، ويتوطد سلطان يخضع له الجميع ويذعنون لإرادته. فالفاشية، كما قال الكتاب، تبدأ بتغليب الجماعة على الفرد، ولكن الجماعة تندمج في الأمة، والأمة تندمج في الدولة، والدولة تندمج في الحكومة، والحكومة تندمج في الزعيم

ومن هنا ندرك أن الفاشية هي من اشد ضروب الدكتاتوريات تركيزاً للسلطة، وأبعدها عن النظام الديمقراطي، فالديمقراطية تقوم على سلطان الأمة، وعلى الحرية والمساواة ما بين الأفراد. أما الفاشية فتنكر سلطان الأمة، وتقيد من الحرية، ولا تعترف بالمساواة ما بين الأفراد. ولا يعبأ موسوليني، وهو قابض على ناصية الحكم، أوثق به الشعب الإيطالي أم لم يثق، فهو لا يستند إلى هذه الثقة، ولا يستمد سلطانه من سلطان الأمة، وإنما يستمده من كفايته للحكم وقدرته على تحقيق المصلحة العامة. وسواء عليه لو أن الاثني عشر مليوناً من الناخبين أعطوه أصواتهم أم لم يعطوه شيئاً. وقد صرح السكرتير العام للحزب الفاشي بهذه الحقيقة في عبارة جارحة، إذ يقول: (لو أن الاثني عشر مليوناً الذين قالوا نعم تحولوا إلى أربعة وعشرين مليوناً قالوا لا، لما غير هذا من الأمر شيئاً، ولبقي موسوليني في قصر فينيسا، ولبقيت ثورة القمصان سائرة في طريقها. . . ولو قدر أن يصوت أربعة وعشرون مليوناً ضد الفاشية، لكان هذا معناه أن جمهور الناخبين قد أصيبوا بالجنون، وأن البلاد الإيطالية قد أصبحت مستشفى لهؤلاء المجانين، ولكان هذا سبباً أدعى لأن يبقى العقلاء في أماكنهم)

وتختلف الديمقراطية عن الفاشية أيضاً في أنها تركز السلطان في الأمة، وتقيم الدولة على سلطان الأمة؛ فالأمة هي التي تنشئ الدولة. أما الفاشية فتذهب إلى العكس من ذلك. وعندها أن الدولة هي التي تنشئ الأمة، وأن الأمة ليس لها أي سلطان، بل ليس لها وجود قانوني، والسلطان كله للدولة. وقد كتب موسوليني في هذا المعنى في دائرة المعارف الكبرى الإيطالية التي أمر بوضعها، يقول: (ليست الأمة هي التي تخلق الدولة، بل الدولة هي التي تخلق الأمة، وتعطي للشعب الذي يشعر بوحدته الأدبية، إرادة فوجوداً قانونياً). وتقضي المادة الأولى من دستور العمل الفاشي بأن الأمة، وهي وحدة أدبية وسياسية واقتصادية، تتحقق في الدولة

فالفاشية تقوم إذن على تقديس السلطة، وعبادة الدولة، أي الهيئة الحاكمة وشعارها في الحكم: العمل الإيجابي. فهي لا تقنع للدولة بموقف سلبي، يقر الأمور دون أن يسيرها، بل يجب على الهيئة الحاكمة أن تدفع الأمور دفعاً إيجابياً عنيفاً، في غير رفق ولا هوادة. وهنا تظهر نزعة الشباب والفتوة التي تميز الحركة الفاشية، فقد كان أكثر القائمين بها شباناً عندهم طموح وهمة، وفيهم اندفاع وتوثب

والفناء في الدولة والوطن هو الظاهرة البارزة في الفاشية. ولهذا الفناء مظهران: مظهر سياسي يتمثل وطنية، ومظهر اقتصادي يتمثل تعاوناً. أما الوطنية فترتكز في تربية الفرد تربية فاشية، أي تربية وطنية؛ وتغرس في الطفل حب الوطن، حتى ينشأ على ذلك، موفقاً ما بين الحرية والنظام، فهو حر ليستكمل شخصيته، وهو خاضع لنظام يكفل التضامن. أما التعاون فيقوم على تنظيم اقتصادي دقيق، أساسه النقابات، فالنقابات في إيطاليا الفاشية منتشرة انتشاراً واسع النطاق، وسنعود إلى ذلك بعد قليل

(البقية في العدد القادم)

عبد الرزاق أحمد السنهوري

صور من القرن الثامن عشر

جاكومو كازانوفا - 3

جوَّاب مجتمع ومغامر مرح

للأستاذ محمد عبد الله عنان

هبط كازانوفا لندن يبحث وراء طالعه، ويلتمس الوسائل لخوض مغامرات ومشاريع جديدة، ولكنه ما لبث أن شعر بأن المجتمع الإنكليزي الرصين لا يغزى بسهولة، وأن الأفق لا يتسع لمزاعمه المريبة، وأن محاولاته الغرامية تلقى مهادا صلبة؛ وشعر بالأخص بأن تلك الخلال والمؤثرات السحرية التي اجتذبت إليه من قبل عشرات الحسان لم يبق لها قوة إلى التأثير والأغراء. وهو يشير في مذكراته إلى ذلك الفشل

في حزن ومرارة: (لقد سجلت هذا التاريخ - سبتمبر سنة 1763 - باعتباره لعنة من لعنات حياتي، ولقد شعرت من بعده بأن تيار الكهولة يحملني مع أنني كنت في الثامنة والثلاثين). وهكذا اضطر كازانوفا بعد بضعة أشهر ارتكب خلالها كالعادة عدة محاولات وأعمال مريبة، أن يغادر لندن مثقلا بأعباء الخيبة والفشل

وأم كازانوفا برلين، واستطاع أن يقابل ملك بروسيا - فردريك الأكبر - ولكنه استقبله ببرود وتحفظ، ولم يظفر منه بطائل

عندئذ قصد إلى روسيا حيث تروج سوق المغامرة، وهنالك تعرف بالأمير كارل فون كورلاند، وهو أمير مرح فاسد السيرة ينغمس في مجالي اللهو والخلاعة، ويلتمس اكتساب المال بأي الوسائل، فتفاهما وتوثقت بينهما عرى الصداقة، واستطاع كازانوفا أن يجوز بواسطته إلى المجتمعات الرفيعة في ريغا وبطرسبرج وموسكو، وأن يستعيد فيها شطراً من حياة السرور والبهجة. ثم ذهب إلى بولونيا، وهنالك في وارسو خاض نفس الغمار المرحة المريبة معاً، ولفت إليه أنظار البلاط والسلطات بمشاريعه في عالم النساء والمقامرة، ومزاعمه في التأثير والشعوذة، واضطر غير بعيد إلى مغادرة وارسو؛ فتركها إلى فينا، ولكنه لم يستطع مكثاً بها، لأن عين الشرطة كانت ترقبه؛ فذهب إلى باريس كرة أخرى، ولكن العاصمة الفرنسية كانت تعرفه حق المعرفة، وترغب عن قبوله وإيوائه؛ فغادرها إلى

إسبانيا، فلقي فيها نفس الرفض والمطاردة؛ وكان صيته المشين قد غمر يومئذ جميع العواصم الأوربية، فلم يبق أمامه سوى الرجوع إلى إيطاليا

فعاد إليها يتجول فيها من مدينة إلى مدينة، والنحس يسايره أينما حل، والفاقة تفت في عزمه وفي آماله وأمانيه، وشبح الجوع يزعجه، ونذير الكهولة يروعه؛ لقد كان يومئذ فوق الأربعين، وقد خمدت جذوة اضطرامه، ولم يبق من ذلك الفتى المرح، والمغامر الجريء، سوى طلل متهدم؛ يقول لنا كازانوفا في مذكراته مشيرا إلى ذلك العهد: (لقد فكرت يومئذ، وربما لأول مرة في حياتي، في أيامي الخالية، ورثيت مسلكي، ولعنت الخمسين التي شارفت بلوغها، والتي قضت على جميع أحلامي، وحز في نفسي ألا أرى أمامي سوى بؤس الشيخوخة، والعطلة والفاقة، وألا تغذيني سوى شهرة مريبة، وحسرات عقيمة). أجل كان كازانوفا يومئذ كهلا، تغلق في وجهه جميع الأبواب وترغب عنه النساء! وكان أشد ما يحز في نفسه المكلومة أن يرى تلك المخلوقات الساحرة التي اعتاد أن يجذبها بروائه وسحره وذلاقته، تفر من كهولته إلى أحضان الشباب النضر!

ولما بلغ به اليأس مبلغه فكر في العودة إلى البندقية وطنه ومسقط رأسه؛ فسعى في استصدار العفو اللازم، ولم يدخر وسعاً في التقرب إلى السلطات والتضرع إليها، وعاونه على ذلك رسالة كتبها ردا على تاريخ للبندقية ظهر من قبل بالفرنسة بقلم (املو دي لاهوسي) وفيه مطاعن شديدة ضد الجمهورية ونظمها، وهي مطاعن يفندها كازانوفا في رسالته بحماسة؛ وكان لرسالته وقع حسن لدى السلطات، فاستعملت أخير لتضرعه ومنحته جوازا أمنياً بالعودة إلى وطنه في أوائل سبتمبر سنة 774 ولكنه عاد شيخاً يجرجر أذيال البؤس والخيبة، ويلفظه المجتمع الرفيع؛ وكان صديقه وحاميه القديم السيد براجادين قد توفي، ولم يبق له عون ولا عضد، فلبث مدى حين يعاني مضض الفاقة؛ وبعد جهد جهيد عطفت عليه محكمة التحقيق وعينته مخبرا سرياً بمكافآت تتناسب مع عمله وتقاريره، ثم منحته مرتباً شهرياً قدره خمس عشرة دوقة، فاطمأن نوعا إلى هذا المركز المتواضع، واستطاع أن يغشي بعض الحفلات والمسارح، وكان لا يزال يثير حوله بعض العطف بذكائه وظرفه، وتعرف عندئذ بامرأة تدعى فرنشيسكا بوشيني، وعاش معها في نوع من الهدوء والاستقرار

بيد أنه كان يلعن تلك الحرفة الوضيعة التي ألجئ إلى احترافها؛ أجل لقد كان كازانوفا جاسوسا زرياً لمحكمة التحقيق التي يمقتها من صميم قلبه، وكان بحكم عمله مكلفا بالتحري عن المسائل السياسية والجرائم الأخلاقية والدينية، التي طالما أمعن في ارتكابها؛ وكانت تغمر البندقية يومئذ موجة من الإلحاد والانحلال الخلقي، فكان من سخرية القدر أن يسهر كازانوفا على مراقبة الفساق والملحدين؛ وكان يمضي تقاريره بإمضاء مستعار وهو مع ذلك يضطرم سخطاً لذلك الدرك الأسفل الذي هبط إليه. وفي أواخر سنة 1781 رأت محكمة التحقيق أن تستغني عن خدماته وقطعت مرتبه، فتولاه

يأس قاتل، ورأى شبح الجوع ماثل أمامه، ورفع يومئذ إلى محكمة التحقيق ذلك الالتماس المؤثر الذي يدل على ذلاقته وحسن بيانه:

(إلى حضرات العظماء الإجلاء سادتي القضاة المحققين:

أتقدم إليكم، أنا جاكومو كازانوفا، وقد غمرتني الحيرة، وسحقني البؤس والندم، معترفاً بأنني لست أهلا على الإطلاق لأن أرفع إليكم التماسي المتواضع، أتقدم جاثياً بطلب الرأفة من الدولة، وأسألها أن تمنحني بطريق العطف والجود ما لا تستطيع بعد التأمل أن تأباه علي بطريق الإنصاف

وأني لأضرع إلى الجود العالي أن يقوم بعوني حتى أستطيع الحياة، وأستطيع في المستقبل أن أقوم بالخدمات التي درجت عليها

(وأن حكمتكم لتأنس في هذا التضرع الجليل صادق اهبتي ونياتي

ولكن محكمة التحقيق لم تصغ إلى تضرعه؛ فزاد يأساً وبؤساً، وعول على الرحيل معتصما بما بقي له من جلد وعزم، فسافر إلى فينا ووصلها في يناير سنة 1783 في حال مؤلمة من الإعياء والفاقة؛ ولبث يتجول حيناً في فينا وباريس وهولندة في ظروف نكدة مثيرة؛ ومع ذلك فإنا نراه أحياناً يحلم بمشاريع مدهشة فيفكر وهو في باريس في شق قنال أو إصدار جريدة؛ بيد أنها كانت أحلام يائس مخرف؛ وأخيراً استقر به المطاف في فينا. وهنالك تعرف بسفير السنيور فوسكاريني فعطف عليه وعينه سكرتيراً له؛ واستعاد الطريد البائس شيئاً من بهجة الحياة، واتصل مدى حين بالمجتمع الرفيع، وظهر في المآدب والمراقص؛ ولكن فوسكارني لم يلبث أن توفي، فتولاه اليأس القاتل مرة أخرى

وأقام مدى حين في تبلتز في شرحال حتى ساقته المقادير إلى التعرف بالكونت فون فالدشتاين، فتأثر لفقره ويأسه، وأعجب بذكائه وخلاله فعينه أميناً لمكتبة قصره في (دوكس) من أعمال بوهميا بمرتب حسن؛ وكانت الكونت فتى طروباً طيب القلب يعشق حياة اللهو والخلاعة ويجوب أنحاء أوربا في طلب المسرة والمتاع؛ وكانت خلاله مزيجاً من الشجاعة والضعف، والكبرياء والخجل، والبذخ والجود، فأغدق عطفه على المحب الشيخ الذي خاض غمار حياة باهرة مؤثرة وألفى نفسه بعد طول التجوال فريسة البؤس واليأس

وكان قصر دوكس مقاماً بديعاً فخماً ينبئ بما لآله من النبل التالد والغنى الباذخ، وكانت مكتبته الشاسعة المنيرة تضم أربعين ألف مجلد فخم في مختلف العلوم والفنون؛ فكان ذلك المقام النائي الذي يجد فيه المفكرة الفيلسوف ضالته، هو المستقر والمثوى الأخير لذلك الذي ضاق به وطنه، وضاقت به عواصم أوروبا

ولكم كازانوفا لم يلق الهدوء الذي ينشد؛ ذلك أنه أثار سخط الحشم والخدم بكبريائه وصلفه وجفائه، فكانوا يعكرون صفاءه بخبثهم ودسهم، وكانت نفسه تفيض مرارة من ذلك الصراع الوضيع الذي يحمله مع الخدم على قدم واحدة. وكان كلما شكا أمره إلى الكونت أجابه بابتسامة رقيقة، فإذا شكا إلى الكونتة والدته هدأت روعه بأطيب الوعود وكان يخفف من وقع ذلك الجدل النكد على نفسه ما كان يغمره به الكونت من العطف؛ ذلك أنه كان حين مقامه بالقصر يدعوه دائماً إلى مائدته، وإلى مختلف الحفلات والمآدب. وعندئذ يستطيع كازانوفا أن يمتع نفسه بقسط من الترف الناعم، ويبدي ما كمن من خلاله ومواهبه الساحرة، ويشعر بشيء من السعادة والغبطة وكان الدرس أشد ما يؤنسه ويملأ فراغه. ذلك أن كازانوفا كان مفكراً واسع الاطلاع، وكان يعشق القراءة والدرس، ولكن تجواله المتواصل كان يحول دون أمنيته؛ فلما استقر في المثوى الهادئ الحافل بصنوف الآثار الممتعة، ألفى فرصته، وانكب على القراءة يترع من مناهلها؛ ويدون ما عن له من زبدها. ومنذ سنة 1786 يتحفنا كازانوفا بطائفة من الكتب والرسائل الممتعة منها. (مناجاة مفكر) , (سنة 1786)، و (قصة ادوار واليزابيث) ' (سنة 1788)، وهي مزيج غريب من الفلسفة والمغامرة والدين والتهكم. وفي سنة 1788، أخرج كازانوفا كتاباً ممتعاً عن سجنه وفراره الشهير عنوانه (قصة فراري من سجون

جمهورية البندقية المسماة بالرصاص) ' وفي سنة 1790 نشر رسالتين في مسائل رياضية؛ وفي سنة 1897 نشر رسالة فلسفية أخلاقية. عنوانها (خطاب إلى ليونار سنتلاج) هذا إلى رسائل أخرى مازالت مخطوطة محفوظة إلى يومنا في مكتبة

(دوكس) الشهيرة
بيد أن أعظم أثر شغل فراغ كازانوفا، وخلد اسمه فيما بعد، هو مذكراته الشهيرة التي بدأ كتابتها منذ سنة 1791، والتي نرجئ الكلام عليها إلى الفصل القادم
وكان مما يعتز به أيضاص ويؤنس أعوامه الأخيرة اشتغاله بمكاتبة بعض العظماء الذين عرفهم مثل الكونت دي لانبرج، والأمير دي ليني، والأميرة كلاري، والأمير بيلوزولسكي سفير روسيا في درسدن، والكونت كينج، والأميرة لوبكوفتز، والأب ديلالينا، وغيرهم؛ وكذلك بعض صديقاته الذين عرفهم في أواخر حياته مثل فرنشيسكا بوشيني آخر صاحباته في البندقية، وسليا روجندورف، واليزافون در ريكي وغيرهن؛ وكان يزمور مكتبة (دوكس) كثير من العظماء والكبراء من كل فج، فيسر بلقائهم ومحادثتهم؛ وكان كازانوفا يثير بذكائه ووفرة عرفانه حوله كثيراً من الإعجاب والعطف؛ وقد أعجب به كثير من كبراء عصره، وقدروا مواهبه وتنوع معارفه وطرافة تفكيره، وبثوه إعجابهم وتقديرهم شفاها وكتابة؛ وكان ذلك يغمره سعادة وغبطة ورضى
بل لقد كان كازانوفا في تلك الأعوام الأخيرة الهادئة من حياته الحافلة، يتصور حول نفسه أفقاً من العظمة والشهرة؛ وكان أيام تجواله قد زار الفيلسوف الأكبر فولتير في قصره ومستقره المنعزل في فرني، وأعجب بحياته الهادئة وشيخوخته الجليلة، فكان يتصور نفسه في أيامه الأخيرة، في نفس الأفق والظروف التي شهج فيها فولتير، فتغريه تلك المقارنة الخلابة، وتثير في نفسه الهائمة طائفة من الأحلام اللذيذة الرائعة
وفي أوائل سنة 1798 مرض كازانوفا وتفاقم مرضه بسرعة وشعر باقتراب أجله؛ فتوالت عليه زيارات الأصدقاء والمحبين يغمرونه بعطفهم وعنايتهم ويرسلون إليه الأطباء والهدايا؛ وفي الرابع من يونية قضى نحبه واختتم حياته العجيبة في جو من العطف الذي طالما حرم منه أيام حياته؛ ودفن على الأغلب في مقبرة قصر (دوكس)؛ بيد أن قبره لبث مجهولاً لم يكشف عنه البحث
(الخاتمة تأتي)
النقل ممنوع
محمد عبد الله عنان
ليلة وداع
للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني
قال لي صاحب: (أين نقضي سهرتنا الليلة؟)
قلت: (سهرتنا؟؟ فهل كتب علينا أن نسهر الليلة؟)
فقال برقة إبليسية الإغراء: (أنه آخر أيام المعرض، أفلا يحسن أن نودع مدينة الملاهي؟)
فقلت: (من ذا تودع فيها يا شيخ، وقد ودعت شبابك؟)
فلم ينهزم وقال: (نودع من خلقهن الله في أحسن تقويم)
فقلت: ولكن فيهنّ من خُلقن على صور الأبقار والجواميس، فهل ننحتفل بوداع هؤلاء أيضاً؟)
فلم يصده حتى هذا، فلم يبق إلا أن نتوكل على الله ونستودعه نفوسنا ونذهب إلى مدينة الملاهي كما أراد، وحسناً فعلنا، فما كان يمكن أن نرى حشدا أعظم من هذا في مكان أضيق من تلك التي سموها مدينة الملاهي؛ وكانت النساء أكثر من الرجال، وهن وحدهن معرض كامل، فما يخطر للمرأة صورة من صور الخلق في المرأة إلا وهي موجودة، وكانت الكثرة من العذارى الخود، والخرّد الحسان، اللواتي يترقرق الماء في وجوههن من نضرة النعيم، ويتثنين من اللين في غير استرخاء، أما القلة فكانت من الخدِلّجات الممتلئات الأذرع والسيقان، العظيمات الأوراك والبطون، المترجرجات اللحم، المستديرات كأنهن البراميل، فلو أرقدتهن على جنوبهن ودفعتهن لتدحرجن بلا توقف
وكنت كلما رأيت واحدة من هؤلاء وقفت كالجندي، ورفعت يدي إلى جبيني بالتحية العسكرية! فيسألني صاحبي عما أفعل؟ فأقول: (هذه تحية العظمة يا سيدي!! إلى متى نظل نبخس الناس أشياءهم ونغمطهم في مصر؟؟ لقد آن جدا أن نقر لكل إنسان بحق ومزيته)
والتقينا بأصحاب لنا، فصرنا جماعة ومضينا نتنقل من مكان إلى مكان، وإذا بي أرى

قريباً لي ومعه صديقة له، ما رآني قط مقبلا عليه وهي معه إلا نهض بها زاعماً أن عليه أن يفعل كيت وكيت، أو أن يقابل فلاناً أو علاناً من خلق الله الذين يتحرى أن ينتقي لهم أسماء لا أعرفها لأنها مخترعة لا وجود لها، فأكاد أتميز من الغيظ، ولكن ماذا أصنع؟ غير أني في هذه المرة أدركته قبل أن يقوم - أعني قبل أن يراني، وكان جاساً معها - كما لا أحتاج

أن أقول، فحملت كرسياً إلى حيث هما، ووضعته وقعدت عليه أمامهما، ثم حييتهما أحسن تحية وأرقها - تحية تلين الصخر، لا بل تذيبه - ولكن قريبي، وقاك الله، أصلب من الصخر والحديد، فما كاد يراني أصافحها حتى قال لها وهو يجذبها من ذراعها: (تفضلي فقد تأخرنا جدا)

فابتسمت - وهل كان يسعها إلا ذلك وهي ترى هذا منه في كل لقاء؟ - فتشجعت وقلت: (يا أخي حرام عليك!! ما هذا العنف - هذا ذراع غض بض يا سيدي، وليس بعصا شرطي. . .)

فابتسمت مرة أخرى، فقلت في سري هذه علامة الرضى، وإنها والله لراغبة في البقاء، وتذكرت قول زميلنا القديم: (وفاز بالطيبات الفاتك اللهج) فقلت لهما: (العجلة من الشيطان يا مولانا. . ومازلنا في أول الليل، وما يدريك ويدرني أنها ليست مشتاقة أن تركب معي واحداً من هذه القطر التي تشبه الترام وتجري بالكهرباء وتتدافع وتتصادم فتتعالى الصيحات والصرخات وتجلجل الضحكات، وتنشرح الصدور. . . قومي يا ستي معي أركبك واحداً منها)

فصاح بي وهو يدفع ذراعه أمامها ليمنعها أن تقوم: (معك؟ تقول معك؟. معك أنت؟. يا خبر اسود!. أنت مجنون؟)

فلم تفزعني هذه الثورة، لأني أعرف سببها وباعثها، وقلت له وأنا أبتسم: (صحتك. . صحتك. . لا تهج هكذا فإني أخاف على قلبك. . ألم ينصحك الطبيب بالابتعاد عن كل ما يهيج أعصابك؟. أقعد. . أقعد ساكناً واشرب ماء بارداً حتى نعود إليك. . لن يطول غيابنا عنك. . قومي يا سيدتي. . لا تقلقي عليه. . إنه بخير ما اجتنب ما يورثه اضطراب الأعصاب)

فنهض هو بدلاً منها وقال بلهجة المغيظ المحنق: (أعصاب؟. قلب؟. طبيب؟. عن أي شيء تتكلم؟. كيف تسمح لنفسك أن تقول إني مريض بقلبي؟.)

فضحكت وقلت: (لا مؤاخذة!. لقد نسيت أن عقلك لا قلبك هو المريض. . على كل حال. . عقلك. . قلبك. . سيان. . والخطأ مردود. . والآن وقد انتهى الخلاف وحسمنا النزاع فيحسن أن ندعك وحدك قليلاً حتى تثوب إليك نفسك الوديعة الرقيقة الكريمة الجمة المروءة

(الـ. . . الـ. . ماذا أيضاً يا بارد أناني!؟

فأرسلتها الفتاة ضحكة مجلجلة تجاوبت نفسي بأصدائها، فصار رنينها في قلبي لا في الفضاء. ولكنه قطع عليها الضحك بيمين أقسمها ألا تقوم معي، فوجمت وشعرت بقلبي يبكي لها، فقد كان من الواضح أنها تشتهي أن تركب هذا الترام، وقريبي يأباه عليها لأنه يؤثر الاحتشام والتلفع بالوقار، ثم قلت لها: (لا بأس. . لا بأس. . ما لا يدرك كله لا يترك كله. . انظري إلي وأنا أركب وسأترك مكانك إلى جانبي فيها خالياً، ففي وسعك أن تتصوري نفسك جالسة فيه كما سأفعل تماماً. . وإلى اللقاء القريب، وعسى أن تتمتعي بهذه اللعبة التي ألعبها إكراماً لسواد عينيك. . أن تراها زرقاوين؟؟ أرنيهما بالله قبل الركوب حتى لا يغلط خيالي. .)

فقال قريبي على سبيل التوديع: (اذهب، اذهب ولا تعد!)

فقلت: (يا شيخ حرام عليك! أنا شاب. .)

وركبت وحدي احتفاظاً لها بمكانها، وكان يكفي أن أصون لها مكانها في قلبي، ولكن الوفاء - صانك الله - داء مكتسب. وكان الميدان هادئاً، والراكبون يتحاورون، ويهرب بعضهم من بعض، ويتقون التصادم، وإن كان لا خوف منه، فجريت أنا على نقيض ذلك، وجعلت وكدي أن أصدم الذي يروقني، وكنت كلما أقبلت بسيارتي على أخرى لأصدمها أصيح براكبيها - وأنا أدفع بقبضة يدي في الهواء - بمُممم! فعلا الصخب - كما ينبغي أن يحدث - وكثر الضحك واللغط والصياح والصراخ، وانتهى الدور فنسيت صاحبتي التي تركتها مع قريبي، وشغلني ما أنا فيه عنها، وألهاني عن ذكراها كما هي عادتي، فإن

اللحظة الحاضرة تذهلني عن كل ما مضى وكل ما عسى أن يجيء، ولعبت دوراً آخر، ثم غيره، وغيره، حتى أضناني الجهد المتواصل، وابتلت ثيابي من كثرة العرق المتصبب، فتذكرت قريبي وصديقته، وقلت أجلس معهما برهة أستريح فيها وعسى أن يهديه الله ويرقق قلبه القاسي، وعدت إلى حيث تركتهما فإذا بهما قد ذهبا. .
أي والله يا ناس!! خطفها قريبي - قريبي لا أحد الغرباء - وطار بها وخلفني أتلهف عليها واسخط عليه، وأذم الغدر والخيانة والأنانية والأثرة وألعن أمثاله من الأقرباء الذين يعمر قلوبهم الحسد والحقد لا الحب والإخلاص والتعاون على البر والتقوى ولمحت صديقنا الدكتور م. فقلت أسلم عليه، وكان حوله سرب من الناعمات اللينات، المسترسلات الأعطاف، المستغنيات بالجمال عن الزينة، المُبَتِّلاتِ الحسن على الأعضاء فلا ترى لشيء في أجسامهن الحلوة أوفر من حظه أو أقل. فدنوت من إحداهن - وكانت طويلة العنق مسمورة لا رخوة ولا مترهلة - وقلت لها: (ماذا يقول لكن دكتورنا الساحر؟. هل لك في رهاني؟.)
قالت: (على أي شيء؟)
قلت: (على أن عينه زائغة وأنه يريد أن يتزوجكن جملة وإن كنتن سبعاً؟)
فضحكت وقالت: (صدقت)
قلت: (هاتي إذاً، وليعوضك الله خيراً. . واحذري أن تراهنيني مرة أخرى)
قالت: (ولكني لم أفعل)
قلت: (بلى. . هاتي!. ما هذه المماطلة؟. إنه خلق لا يليق بمثل هذا الجمال المشرق)
قالت: (أما إن هذا لغريب. . والله ما راهنتك)
قلت: (لا فائدة. . تفضلي معي إلى هذا الترام واركبيه بجانبي، فإن ركوبه موصوف لإبراء الذمة)
فضحكت وسألتني: (ولكن من أنت. .)
قلت: (أنا صاحب الدكتور الذي يريد أن يتزوجك على كل هذه الضرائر. . تعالي واكسبي صداقتي لتفوزي به وحدك)
ولمحني الدكتور وأنا أمضي بها فصاح: (اللص. . اللص. . أدركوه. خطف البنت. . الحقونا يا ناس)
وخفت أن يصدق بعض البلهاء فأقع في مأزق، فجعلت أصيح مثله: (اللص. . . . أدركوه. . . . خطف البنية. . . . اجروا وراءه)
وانحدرنا إلى الملعب ونحن نكاد نسقط على الأرض من كثرة الضحك. وقبل أن يبدأ اللعب وتدور السيارات تآمرت مع زميلتي على الدكتور واتفقنا أن نركبه سيارة وأن نوسعه بعد ذلك صدماً وخبطاً، فإنا نعرفه يخاف الرجات ويشفق من عواقبها - لا ندري لماذا - وقد كان. حاولنا إقناعه بالحسنى أولاً فلم يقتنع، فلم يبق إلا أن نحمله قسراً على الركوب،
فجرته أربع فتيات فظل يقاومهن حتى قلت له: (أظنك استحليت هذا الجرّ. . . تفضل يا. . .)
فكف عن المقاومة استحياء، وقال لي وهو يركب السيارة: (الله يلعنك يا شيخ. . . أخجلتني والله!)
قلت: (لا عليك يا مولانا. . . تفضل وأرنا همتك)
وصدمته صدمتين، ثم تركته لمن هو أولى بذلك، فلما خرج نظر إلي وقال: (وصلتنا منك زقات يا سيدي. . نشكرك)
فقالت له إحدى الفتيات: (لو كنت ركبت معي يا دكتور؟؟. . .)
فقاطعها وقال: (إذن لكانت الزقات قد كثرت يا ستي. . كلا! الخيرة في الواقع)
وهكذا ودعنا مدينة الملاهي. . . . . فليتها تعود لنودعها مرة أخرى. . . .
إبراهيم عبد القادر المازني
قصة المكروب
كيف كشفه رجاله
ترجمة الدكتور أحمد زكي
وكيل كلية العلوم
الدفتريا

بين واجد سمها الفرنسي، وكاشف ترياقها الألماني
وصل الفائت
اكتشف لفلار مكروب الدفتريا، ووجده في حلوق الأطفال، ولم يجده في أي جزء آخر
من أجسامهم. فتعجب كيف أن المكروب لا يفارق هذه الحلوق؛ ومع هذا يسري
بالموت في الأجسام. فتراءى له أن المكروب لابد يفرز سماً هو الذي يدور في الجسم
فيميت. فجاء أميل رو بعد ذلك فحقق رؤيا لفلار فكشف عن هذا السم، واستخلص
وعرف خواصه، وأن الأوقية منه تقتل 75000 كلب
- 3 -
ولكن كان في مكان آخر بعيد عن باريس أميل آخر قائم في مثل هذا العمل ناصب
فيه. هذا أميل أغسطس بارنج كان يشتغل في معمل كوخ ببرلين، في ذلك البناء
المهدم الذي يسمى المثلث في شارع شومان. ففي هذا البناء أخذت الحوادث تتمخض
عن أمور جليلة، وكان به كوخ، ولم يكن الآن دكتور القرية الصغير الخامل، بل كان
السيد الأستاذ، ومستشاراً من مستشاري الدولة صاحب جاه ورب ذكر، ولكن برغم
هذا لم تضق قبعته برأسه وكان ينظر على عادته من خلال نظارته المعهودة ولا يتكلم
إلا قليلاً، وكان نصيبه من احترام الناس كبيراً هائلاً، وكان عندئذ مشغولاً بأمر علاج
للسلّ خال أنه اكتشفه. فكان يحاول أن يقنع نفسه على الرغم منها بأنه علاج صادق،
وكان هذا بسبب إلحاح السلطات عليه فيه، (والعلماء يلعنون السلطات بحق أحياناً
على الرغم مما يكون من جودهم وسابغ
كرمهم)، أو على الأقل بهذا يتحدث اليوم شيوخ صيادي المكروب الذين حضروا ذلك
العصر ولا يزالون يذكرون أحداثه المجيدة
لقد أسبغنا عليك الشارات، وأعطيناك المكرسكوبات والخنازير الغينية وما إليها، فلا)
أقل من أن ترد الجميل فتكشف لنا عن علاج كبير يدوي خبره في الآفاق، فيبني
هذا ما كان يسمعه بستور .(للوطن الألماني مجداً كالذي بناه بستور لوطنه الفرنسي
كل يوم. هذا صوت الغواية الذي يطرق أذنه كل حين، وإلى هذا الصوت استجاب كوخ
أخيراً، ومن ذا الذي يلومه؟ وأي إنسان يقوى على الثبات على طريق العلم السوي،
وإلزام نفسه أسلوب البحث الحق، والحكومات إلى يمينه تصيح به أن يجد لها مكانة
في السماء، والأمهات إلى يساره تصرخ له عسى أن تجد لأولادهن الهالكين بين
الأحياء. نعم إلى هذا الصوت استجاب كوخ، فكشف عن حتفه بظلفه، وأعلن للدنيا
اكتشافه التوبركولين علاجاً للسل ورحمة للمسلولين، فكان من إخفاقه الذي كان،
ولكن ما لبث كوخ أن قام يكفر عن هذا بإعانة الشبان من أعوانه في الكشوفات
البارعة التي كانوا فيها، ومن هؤلاء الشبان أميل بارنج، وكان باحثاً شاعراً أعانه كوخ
بقريحته النقادة الباردة، صوب ضوء مصباحها الهائل على أعماله، فاستعرف بارنج في
نورها الساطع على ما يأخذ به، واستعرف فيه على ما يَدَع
أي بيت لصيادة المكروب كان بيت (المثلّث) هذا. كان قذراً معتما كالقبر، ولكن اجتمع
فيه رجال كوخ الشباب فبثوا فيه الحياة بتجاربهم المتواصلة، وهزوا جدرانه هزاً
بصراخهم وحجاجهم فيه، وكان من بينهم بول إرليش يُعقب السيجارةَ أختها، ويلوث
يديه وثيابه حتى وجهه بكل صبغة من كل لون من ألوان الطيف، وكان قائماً بتجارب
طموح، يحاول بها أن يعرف كيف ترث أطفال الفئران عن أمهاتها الحصانة من بعض
سموم النبات. . وكان من بينهم كيتاساتو وكان يابانياً ذا وجه أقور كالدائرة، وكان قائماً
يحقن بَشِلاّت كُزاز الفك في ذيول الفئران، ثم هو يصبر حتى تصبّ البشلات سمها في
الفأر، ثم يقط ذيولها الوبيئة ليرى هل يقتلهما السم وحده وهي بتراء. . . وكان من
بين من كانوا في هذا البيت رجال آخرون، بعضهم ذهب الزمن باسمهم، وبعضهم
اشتهروا وخلد ذكرهم، واختصاراً قامت هذه العصابة الألمانية تبغي هزيمة الفرنسيين
تحت وابل من التجارب
هائل، وتريد أن تسبقهم إلى تخليص بني الإنسان من أرزاء دنياهم
والآن نريد أن نخص بالذكر من بين هؤلاء أميل بارنج. كان شاباً عدا الثلاثين من عمره،
وكان طبيباً في الجيش، وكانت له لحية آنق من لحية كوخ، ولكنها كانت أقل دلالة على
فتق الحيلة وابتكارها؛ مع هذا وبرغم أسلوب لحيته المُرسل، كانت له رأس الشاعر؛
وبرغم حبه للفصاحة وإغرامه بفنون البلاغة، لَزِم خوان معمله بقدر ما لزمه أي باحث

آخر. وبينا هو يكشف في دم الفئران عن مادة تقتل بشلة الجمرة، كان يصف كشف أستاذه كوخ لبشلة السل بأنه في المجد مثل قمة جبله الحبيب بين جبال الألب، وهي في بياض الثلج ولون الورد، ولزمته فكرتان ما فتئتا تطوفان برأسه. فكرتان علميتان ومع ذلك تمتان إلى الشعر بنسب قريب. إحداهما أن الدم أبدع سائل يدور في جسم حيّ، والثانية أنه لابد من وجود مواد كيميائية تقتل فتمسح المكروبات من أجسام الإنسان والحيوان مسحاً دون أن تضر بها وهذه الفكرة الأخيرة سبقه آخرون إليها قال (سأجد مادة كيميائية تُبرئ من الدفتريا!)، وحقن طوائف عديدة من الخنازير الغينية بزريعات قتالة من مكروب الدفتريا. فلما مرضت، وازدادت مرضاً، حقن فيها كثيراً من المركبات الكيميائية. فجرب فيها أملاح الذهب، وهي أملاح غالية، وجرب النفتيل أمين وحقنها بما يزيد على عشرين مادة بعضها عادي مألوف، وبعضها غريب نادر. عرف أن هذه المواد تقتل المكروب في أنبوبة الاختبار دون أن تضر بزجاجها، فآمن في سذاجة أنها لابد تقتل هذا المكروب تحت جلد الخنزير الغيني دون أن تضر به. ولكن خاب إيمانه وا أسفاه. وامتلأ معمله بالخنازير الميتة والتي هي في سبيل الموت فكان كبيت الجزارة، وكان في ذلك مما يكفي ليقنعه بأن الفرق بين عقاقيره والمكروب في الأذى غير كبير. وأن كليهما يفتك بالخنازير، وزادت أكوام الجثث حوله، ومع هذا لم ينقص إيمانه بأن هذا العُقّار العجيب الذي سيشفي من الدفتريا لا يزال مختبئاً بين صفوف المواد الكيمائية، وهي ألوف في الوجود، وأخيراً وقع من بحثه الذي أفرغ فيه كل عزمه وخبط فيه على غير هدى، وقع على مادة ثالث كلورور اليود ضرب بمحقنه جرعات عدة من بشلة الدفتريا تحت جلود بضعة من الخنازير، وكانت جرعات تكفي لقتلها. ومضت ساعات قليلة فأخذ المكروب يفعل فعله، فتورم الجلد حيث

ضرب المحقن، وأخذت الحيوانات تميل برءوسها: فما مضت ست ساعات حقن بارنج فيها كلورور اليود. وانتظر ما يحدث لها فقل رجاؤه فيها وظن أن الإخفاق جاءه مرة أخرى. ومضى النهار ولم تتحسن الحال. وجاء الغد فبدأت الخنازير تخور. فأخذها وأرقدها على ظهرها ثم أخذ يخزها بإصبعه ليرى هل تعود فتقف على أرجلها. قال لأعوانه وهم في دهشة مما يسمعون: (إذا أنتم وخزتم الخنزير وهو على ظهره فاستطاع القيام، علمتم أن الرجاء لم ينقطع فيه بعد) هذا هو محك الأمل عنده! هذا هو مقياس الرجاء! مقياس تعوزه الدقة إعوازاً شديداً، وينقصه التهذيب نقصاً كبيراً. تخيل ما يكون الحال أن طبيباً اتخذه وسيلة يعلم بها أيطيب مريضه أم يموت. وقلّت حياة الخنازير المحقونة بالكلور فقلّت حركتها عند الوخز حتى انقطع منها الرجاء وذات صباح جاء بارنج معمله فوجد الخنازير واقفة على أرجلها! كانت لا تكاد تستقر عليها، وكانت نحيفة غاية في النحف، ولكنها كانت آخذة في الشفاء! نعم آخذة فعلاً في الشفاء من الدفتريا بعد أن هلك قبلها من رفقائها ما هلك

وهمس بارنج لنفسه! (لقد شفيت من الدفتريا!)

وتملكته رغبة حادة أن يشفى بهذه المادة اليودية خنازير أخرى. فكانت هذه الحيوانات المسكينة تموت أحيانا من المكروب، وأحيانا كان يقتلها هذا الدواء. وفي القليل النادر كان يشفى خنزير أو اثنان فيقومان من المرض على حال كالموت. لم يكن في هذا العلاج الفظيع يقين، ولم يكن فيه منطق ولا توافق وانسجام. والخنازير التي اشتفت به لاشك ودت أنها ما اشتفت، ذلك لأن الكلورور بينما كان يبرئها مما بها، كان كذلك يحرق جلودها فتتخرق خروقا تظل متقرحة لا تلتئم، فلا تلبث أن تصطدم بشيء حتى تصيت هذه الحيوانات المسكينة من ألمها الشديد. تلك حال مفجعة لا ترضاها القلوب ومع هذا فالحقيقة الواقعة أن بارنج كان بين يديه قليل من تلك الخنازير لولا هذا اليود لقتلتها الدفتريا، لولاه ما سعت بين يديه كما تسمى. إني أفكر كثيراً في أمره هذه القوة الخفية الدفاعة التي لا تفتأ تغري بارنج وأمثال بارنج بعلاج الأمراض. فبارنج وأمثاله لم يجروا فيما صنعوا وراء الحقيقة، ولم يدأبوا ما دأبوا لجنوا المعرفة، بل هم إنما مارسوا التجربة طلباً للعلاج، وتسلط عليهم طلب العلاج فطلبوه جنونا، فأجازوا قتل الحيوان حتى

الإنسان بداء ليخلصوه من داء آخر. . . . لم يقفوا عند حد، ولم تثنهم عما طلبوا مخافات. . . . من ذلك أن بارنج قام يجرب هذا الكلورور النفاط الكاوي في الأطفال

المرضى بالدفتريا وليس لديه من دليل على صلاحه غير تلك الخنازير القليلة النحيلة الهشيمة
وعاد من تجربته يقول: (لقد جربت كلورور اليود في أطفال مرضى بالدفتريا، واتبعت في ذلك الحذر والحيطة ما استطعت، فخرجت على نتائج لا تشجع أبدا. . .)
ولكن تلك الفئران الضعيفة التي نجت من الدفتريا بفعل هذه المادة كانت لا تزال بين يديه، كانت لا تزال تقع عليها عيناه فتعلق بارنج من أجلها بوهمه القديم، أنه لابد خارج من هذه المجازر ببعض غايته. وتعطفت عليه المقادير، فأخذ يتفكر، وإذا به يخرج من الفكر فيتساءل: أتكون هذه الفئران قد تحصنت الآن من الدفتريا بعد الذي جرى لها.
وما لبث أن جاء بها وحقن فيها جرعات هائلة من بشلة الدفتريا - فاحتملتها! نعم احتملتها فلم تستقم شعرة واحدة على جلودها برغم هذه الملايين من المكروبات وهي كفيلة بقتل عشرة منها. إنها حصينة كما خال!
وكانت عندئذ ثقته في المواد الكيميائية ضاعت، فلم يعد يطلب من بينها علاجاً للدفتريا. وكيف لا تضيع بعد هذا العدد الهائل من جثث الحيوانات الذي أرسله إلى أسفل البناء ليقوم الخدم بإحراقه. أضاع أمله في الكيميائيات، ولكنه تمسك برأيه القديم عن الدم، فكان لا يزال يرى أنه أبدع سائل يدور في جسم حي. أعجب به حتى عبده. واتقد خياله فارتأى له فضائل لا ترى وخصائص غريبة لم تسمع. فقام إلى فئرانه العاجزة الضعيفة التي برئت من الداء فمص شيئاً من دمها، مصه بمحقنه من شريان في رقبتها، ثم أودع هذا الدم أنابيب من الزجاج، ثم ترك هذه الأنابيب حتى انفصل من الدم مصله الرائق الأصفر، فصعد مخلفاً في أسفل الأنبوبة قطعه الحمراء؛ ثم مصّ هذا المصل في أنبوبة صغيرة، ثم خلطه ببشلات الدفتريا الفاتكة
وتفكّر بارنج: (لاشك أن دم الفئران به شيء يحصنها من الدفتريا. لاشك أن به شيئاً يقتل بشلات الدفتريا. . .)
ثم نظر إليها في هذا المصل من خلل مجهره وهو يؤمل أن يراها تنضر ثم تموت، فلما حدق فيها وجدها ترقص وتزيد، إذن هي لا تموت بل تزيد وتربو، أو على حد قوله الأسيف في بعض ما كتب (تتكاثر في وفرة عظيمة). ولكن مع هذا فالدم سائل عجيب بديع. ولابد إليه ترجع حصانة هذه الخنازير. وهتف في نفسه هاتف يقول: (وعلى كل حال ألم يثبت هذا الفرنسي رو أن البشلات لا تقتل بل الذي يقتل هو السم الذي تصنعه؟ ألم تلبث أن سم الدفتريا لا بشلاتها هو الذي يقتل الأطفال والحيوانات؟. . .
إذن فلعل هذه الخنازير الغينية التي شفاها الكلورور قد تحصّنت من سم الدفتريا!)
وأخذ في التجربة. وبعد زمجرة وأفأفة، وبعد تبلل وتقذر قمينين بكل شاعر عالم، جهّز بارنج حساء احتوى سم الدفتريا وخلا من مكروبها. وأخذ من هذا الحساء فحقن جرعات هائلة تحت جلود خنازيره الحصينة وكان قد تناقص عددها. فإذا بها حصينة تجاه السم. وأخذت قروحها الماضية تلتئم، وأخذت تكبر سِمَنا. هذا أمر لاشك جديد في علم المكروب. أمر ربما كان ارتآه رو ولكنه لم يتحقق على يديه. حمى بستور الشياه من داء الجمرة، وحمى الأطفال وحصّنها من عضة الكلاب المسعورة، ولكن هذا الذي أتاه بارنج غير هذا وذاك. هذا أمر طريف يقف العقول حيرى. بارنج يصيب الخنازير بالدفتريا، ثم هو يشفيها منها بعلاج فظيع كاد يوردها الموت، ثم هو بذلك يحصّنها من سم الدفتريا الفتاك، من ذلك السم الذي تقتل الأوقية منه 75000 كلب
صاح بارنج: (في هذا الدم لاشك يوجد الترياق الذي يحمي هذه الخلائق، وفيه لابد أنا) واجده!)
وكان لابد له من الحصول على شيء من هذا الدم، ولكن لم يبق لديه من هذه الخنازير الحصينة شيء، أو لم يكد يبقي منها شيء، فعمد إلى خنزير قديم منها كان استنزف دمه مراراً، فشق رقبته يبحث عن الشريان الذي يمص منه الدم فوجده انعدم؛ أو كاد من كثرة ما عاوده. فأخذ ينكش حتى حصل على بقية قليلة من الدم جاء بها من شريان في رجل هذا الحيوان. له الله من حيوان جدير بنا أن نذكره بالحسنى.
لقد قاسى بارنج في أيام هذه التجارب ألماً نفسياً كبيراً، كما قاست حيواناته ألماً جثمانياً كبيراً. فلو أن رحمتنا تُقّسم بينهما، بين بارنج وحيواناته. ما درينا أيهما أحق بأكثرها. كان يستيقظ كل يوم فيذهب تواً إلى معمله وهو متوتر الأعصاب ليطمئن على

حياة هذه الخنازير الحصينة، هذه الخنازير القليلة المتناقصة التي لا تُشترى بمال. . . .
وعلى كل حال حصل أخيراً على قطرات
قليلة من مصل حصين. فمزجها في أنبوبة من الزجاج بمقدار كبير من حساء كان ربّى
فيه مكروب الدفتريا لكي يبث فيه من سمه. ورشح الحساء قبل مزجه بالمصل
ليخلص من المكروب
وحقن من هذا الحساء الخليط في خنازير غينية جديدة غير محصّنة - فإذا بها لا تموت
صاح بارنج: (صدق جوتيه الشاعر العظيم حين قال: (إن الدم عصير غريب))
وأخذ يستعد بعد ذلك لتجربته الحاسمة الشهيرة، وعين كوخ الإمام الأكبر لا تبرح تنظر
إليه، وتجمعت حوله تلك العصابة الصغيرة المجنونة من رفقائه في ذلك العمل،
وازدحموا وقد انحبست أنفاسهم في انتظار ما قد تتمخض عنه هذه التجربة الكبرى،
فخلط سم الدفتريا بمصل أتى به من دم خنزير سليم لم تصبه الدفتريا يوما، ولم
يتحصن منها أبداً. ثم حقن هذا السم الخليط في خنازير جديدة، ففعل فعله المنتظر
فيها. ولم يعقه عن ذلك المصل الذي خالطه، فساء حالها بعد ثلاثة أيام وسرى فيها برد
الموت. ووضعها على أظهرها ووكزها ولكنها لم تبد حراكا، ولم تمض ساعات حتى
لفظ آخر أنفاسها وذهبت إلى حيث يذهب الأموات
فصاح بارنج: (إن مصل الخنازير الحصينة - مصل الخنازير التي أصابتها الدفتريا ثم
اشتفت منها - هذا المصل وحده هو الذي يقدر على محو سمها. وكأني بك تسمعه
يتمتم لنفسه وهو المداوي الكبير: (والآن فلعلي قادر على تحصين حيوانات أكبر،
فاستخرج مقادير أكبر من هذا المصل الذاهب بسم الدفتريا، وعندئذ آخذ في تجربته
في الأطفال المصابين. . . . . إن الذي يشفي الخنازير الغينية لابد أن يشفي الأطفال)
في العدد القادم: بارنج يجرب مصل الدفتريا في الأطفال
أحمد زكي
حِيَلُ الضمير
للأستاذ عبد الرحمن شكري
الضمير عند بعض الناس ترس الخائف الذي يحتمي به بمجنه، وهو عند غيرهم سلاح
الصائل، وعند آخرين آلة نصب واحتيال، وعند غيرهم بمنزلة الثياب الجدد التي
يلبسونها أيام الأعياد والمواسم والصلوات ويخزنونها في الأيام الأخرى وهو تارة
كالمصباح المنير
وترى كثيراً من الناس يكثرون من ذكر ضمائرهم أو يفعلون ما هو أدهى من ذلك
فيكثرون من ذكر العدل والحق، وهي لقيمات يطربها كل منهم ويود أن يضعها في فم
غيره، وهي أحمال وأثقال يمدحون الاضطلاع بها وكل يود أن يضعها على كتف غيره أو
على عنقه، وما ذلك إلا لأن الناس ينشدون السعادة، والسعادة لا تكون إلا إذا اصطلح
شر الحياة وضمير الإنسان، وإذا اصطلح المثل الأعلى ومثل الحياة الدنيا، وقد يكون
فكر المرء وقوله خيراً من خلقه وفعله، لأن أعمال المرء رهينة بإحساسه لا بفكره
وقوله، وقد يكون فكره نبيلاً وقوله جليلاً ولكن إحساسه يدفعه إلى سبيل غير سبيل
هذا النبل والجلال في القول والفكر
ولما كانت الرذيلة أحوج الأشياء إلى مظاهر الفضيلة عم الكذب والرياء بين الناس
انتفاعاً بمظاهر الفضيلة وحقيقة الرذيلة من كسب أو متعة. وهذه المظاهر تجوز على
الناس ويحسبونها فضيلة أو هم يدعون الانخداع لها رغبة في التقرب إلى صاحبها
والانتفاع برضائه عن انخداعهم بظواهر نفسه، وهذا منشأ انقلاب أوضاع الحياة، وهم
يطلبون منه أن يدعي الانخداع بظواهر نفوسهم كما ادعوا الانخداع بظواهر نفسه،
والمسألة كلها مسألة كسب يتبادل فيتعاونون على الحياة بتزكية كل منهم الآخر
وللضمير وسائل أخرى لتزكية النفس كأن يخلع صاحبه عيوب نفسه على غيره، ويلج
في معاداته كي يبرئ نفسه فتكون لجاجته في خلع عيوبه على غيره دليلاً على عيوبه
كما تكون لجاجة الأجرب في الحك دليلاً على موضع الجرب منه في نظر الطبيب
وكثيراً ما يتحمل الضمير الأعذار من أجل رغبة صاحبه في الأذى ولذته في الإساءة إلى
الناس، وعوامل الشر في نفس المسيء قد لا تكون في حاجة لمسوغ يثيرها ولكنها
تكون في حاجة إلى فرصة تستخدمها حتى ولو لم يكن لها مسوغ، فإن مسوغ الإساءة
في كثير

من الأحايين في نفس المسيء لا في عمل من أسيء إليه لأن كثيراً من النفوس بها شهوة إلى الأذى إذا أرضتها أحست راحة وسعادة في إرضائها، غير أن بعض شهوات الأذى لا يرضيها إلا ما أرضى نفوس قدماء الرومان عند رؤية الوحوش تفتك بالأجسام، وبعض شهوات الأذى تكتفي بالغيبة والنميمة والكذب، وعواقب هذه قد لا تقل عن عواقب تلك جرماً وجناية وإن كان صاحبها لا ينعت بالمجرم الجاني وإن كان ضميرها أهنأ الضمائر بالاً وأرواحها خاطراً

والضمير كثيراً ما يكون في الحياة كالسفينة الصغيرة في البحر المحيط الذي هاجته الأعاصير فقد لا تغرق السفينة كما لا يغرق الضمير ولكنها تضطر أن تسير في مهب الإعصار كما يسير الضمير في مهب أعاصير الميول النفسية وما تقتضيه من كذب ونفاق

والكسب والجاه والصداقة والغرور هي العقاقير التي تخدر الضمائر بها، وهي البلسم الذي تداوي به آثار وخزاتها، وهي المادة اللزجة التي تطلى بها الضمائر كي يصطاد بها أصحابها طيور السعادة واللذات والمكاسب كما تطلى الغصون بتلك المادة اللزجة التي تلتصق بها العصافير على غصون الأشجار ثم يأتي الصائد فيجمعها أو هي المادة اللزجة الأخرى التي يطرد بها الذباب اللاذع المسمى بخواطر التأنيب والوخزات ومن أجل ذلك كثيراً ما ترى ضمير المرء عوناً للجاني الذي يرجى نفعه أو جاهه أو وده أو يرجى منه إرضاء غرور صاحب الضمير المناصر له. والناس في سرائرهم يعرفون أن ضمائرهم ليست دائماً مصباح الهداية الذي يدعونه، والإنسان يتجنب فحص نفسه والبحث عنها، وإذا كلف أو دفع إلى ذلك حاول التخلص من فحص نفسه فيقلب فحصها إلى حديث فيحدث نفسه أو تحدثه ويمنيها أو تمنيه، ثم يعود فيقول إنه فحص نفسه وهو قلما يفعل ذلك إلا إذا دهمته مصيبة تجعله يشك في نفسه فيفحصها فإذا لم تدهمه مصيبة تجنب فحص نفسه إلا إذا كان مريضاً بداء الخوض في النفس وفحصها وقد يكون مرضاً إذا استفحل وعم وتطلب منه كل وقته، ولكن مرض البحث في النفس هذا مرض نادر في الناس وأكثرهم لا يبلغ به البحث في نفسه منزلة صغيرة أو كبيرة ولو أن هذا البحث في النفس أصبح عادة لقل شرهم من غير أن يمنعهم بحثهم من الإقدام في الحياة إلا إذا استفحل وهو قلما يستفحل فيدعوهم استفحاله إلى الشك والتردد والإحجام واتهام النفس في كل أمر

ولولا أن الناس يعلمون عن عيوب ضمائرهم وضمائر الناس الشيء الذي يحاولون إخفاءه ما كثر سوء ظنهم بالنفس الإنسانية، ومن العجيب أنهم يحاولون جعل حسن الظن بالنفس الإنسانية مبدأ عاماً وهم في سريرتهم يسيئون الظن بكل نفس من نفوس الناس، وهذا الاختلاف بين المبادئ النظرية والمعتقدات العملية أمر تشوق دراسته، والقصد من تلك المبادئ النظرية حمل الناس عليها للانتفاع بها لأن كل إنسان يود أن يحسن غيره به الظن وأن يسيء هو الظن بغيره، ومن عجائب الضمائر أنها قد تغري أصحابها بأن يعتقدوا إذا حلت بأعدائهم مصيبة أن المصيبة حلت بهم لأنهم أعداؤهم

والخبرة بالضمائر ينبغي أن تحذر المرء إذا رأى متخاصمين فلا يقول إن أحدهما فاضل ذو حق والآخر ناقص ذو باطل، فقد يكون كل منهما على حق أو على شيء من الحق أو على باطل، وقد يكون الأكثر حقاً هو الأكثر حظاً من الفضيلة، أو بالعكس قد يكون الأكثر حقاً هو أقلهما حظاً من الفضيلة، وقد يكون المناصر للحق والفضيلة بشعوره وعواطفه وبيانه هو أقلهما حظاً من الفضيلة، ولكن النفوس قلما تتقصى كل هذه الأمور ولا أهون عندها من أن تحكم بغير علم وأن تورط ضمائرها فيما حكمت فيه بغير علم، ومع هذا التورط فإن الناس قد يعرفون أن جليسهم غدار مغتاب بذيء اللسان فلا يمنعهم يقينهم وعرفانهم من مؤاخاته، وتتغابى ضمائرهم وتتعامى عن عيوبه وعن شره وقبح نفسه مادام مرجو النفع، فضمائرهم تتورط في الحكم بغير علم وتمتنع عن الحكم على علم

وفي الخليقة صنف آخر من الضمائر تكون أسقاماً عند أصحابها وتعظم عيوبهم في أعينهم، وهذا مرض نادر مثل مرض إيغال المرء في فحص نفسه

وضمير صاحب الشعور النبيل له أن يطالب بألا يعاقب على نبل شعوره ولكن ليس له أن يطلب جزاء أو شكوراً، إذا كان جزاؤه في نبل شعوره وإذا كانت مسرته فيه

وشقاؤه في غيره
عبد الرحمن شكري
النيل
أبرز (شخصية) في العالم
عن مجلة (اتال) الفرنسية
إن المشكلة الحبشية مهما يكن حلها هي في الحقيقة وليدة معضلة النيل وذيولها الخفية
سُئل مرة الكولونيل لورنس: (أية شخصية في العالم أكبر نفوذاً وأعظم شأناً؟) فأجاب هذا الرجل الغريب الذي يعد أكبر مخاطر في عصرنا بكلمة واحدة هي: النيل
إن في جواب لورنس ما يدعو لأول وهلة إلى الاستغراب لأنه أنزل النهر منزلة العاقلين وجعل منه (شخصية) بارزة، ولكنه لم يخرج بتحديده وتعريفه عن اعتقاد قدماء المصريين في النيل، فضلاً عن أن للكونيل لورنس ولكل إنكليزي سبباً يحمله على مجاراة الأقدمين في اعتقاده. وهذه الرواية التي تمثلها إيطاليا وإنكلترا ويخشى أن تنتهي بمأساة عالية، أليس بطلها هذا النيل، بل هذه الشخصية المقدسة التي عبدها الإنسان قديماً ولا يزال يعبدها إلى اليوم؟
ما فتئت بريطانيا العظمى منذ أنشأت إمبراطوريتها الاستعمارية تطمع في السيادة على البحار، وفي التسلط على أهمّ المعابر البحرية حتى تم لها ذلك؛ ففي قبضتها الآن كل المغاليق التي تؤمن مواصلاتها بتلك الإمبراطورية المترامية الأطراف، وأخصها الهند كبرى مستعمراتها وأغناها وأصعبها مراسا
أدركت إنكلترا منذ حملة بونابرت على مصر أن تأمين طريق الهند يقضي ببسط نفوذها على بلاد الفراعنة دون أن يشاركها فيه أحد. ثم جاء فتح قنال السويس باعثاً آخر على تشبثها بهذا النفوذ. ومن تدبر سياسة إنكلترا في خلال قرن كامل رآها تدور كلها على محور واحد، هو سلامة طريق الهند. فكل شبح تتخيل فيه ما يمس هذه السلامة عاجلاً أو آجلاً حاذرته وسعت إلى طمسه. هكذا فعلت وكذا تفعل الآن في موقفها السلبي تجاه الغزوة الإيطالية
إن الإنكليز الذين يقبضون في السويس وعدن على مغلاقي البحر الأحمر لم يزعجهم وجود إيطاليا في إريتيريا، ولكنهم وجفوا إذ رأوا موسوليني طامعاً في البلاد التي ينبثق منها النيل الأزرق، ولذلك نراهم يلجئون إلى كل الوسائل لإحباط مساعي الرجل الذي يحلم بإعادة
الإمبراطورية الرومانية
النيل واهب الخيرات
النيل إذن شخصية كبيرة كما عرفه الكولونيل لورنس، وقد يكون أكبر شخصية في تاريخ الشعوب التي عمرت شواطئ البحر المتوسط. قال هيرودوت قديماً: (مصر هبة من هبات النيل) وهذه حقيقة لأن مصر قيمتها بنيلها، ولولاه لكانت مفازة قاحلة لا شأن لها، فهي شقة من الأرض تمتد من النوبة إلى الدلتا ويجري فيها خط طويل دائم الاخضرار، ولولا هذا المجرى الحيوي الذي ينساب في أحشائها ويروي غليلها لما كان للإنسان والنبات والحيوان حياة فيها، لأنها لا تعرف المطر إلا نادراً
في شهر يونيه ترتفع مياه النيل فتفيض على الأراضي ناشرة عليها طبقة من الغرين الذي يعد من أحسن أنواع السماد. ويبلغ معظم فيضانه في أول أسبوع من شهر أغسطس، فترتفع مياهه إلى ستة أمتار، ثم تتناقص تدريجاً فيأتي الفلاح ويشق وجه الأرض بسكته التاريخية التي تشابه سكة سلفه منذ ألوف السنين ويستغل خيراتها في شهري أبريل ويونيه
جعل النيل من مصر بلداً خصباً غنياً، فلا غرو أن سبق المصريون الأقدمون شعوب الأرض في ميادين الحضارة والثقافة. كانت مصر موطئاً لثماني عشرة سلالة من الفراعنة قبل ظهور موسى، وكانت مسرحاً للحوادث التاريخية الكبيرة قبل أن تظهر للوجود أشور والفرس واليونان. ثم كانت مقصداً لطلاب العلم والفلسفة والثقافة من جميع الأنحاء، فهي إذن كانت مهذبة الإنسانية وحاملة نبراس المدنية في العصور القديمة
ولكن إلى أي شيء يعزى تفوقها في تلك العصور التي كانت شعوبها في حالة

البربرية؟ كلمة واحدة تجيب على هذا السؤال، وهي: النيل
لقد تعلم المصري القديم كل شيء من نيله، ولأجل نيله استنبط علم الفلك لكي يحدد أوقات الفيضان، واخترع التقويم والحساب، وعلم الهندسة والمساحة، وإنشاء السدود وشق الترع، لكي يستثمر النيل وينتفع بخيراته. وإننا لنجد ذكر النيل ورسومه في أساطير مصر وفي كتب ديانتها، وفي كل شأن من شؤونها، فهو من مصر كالروح من الجسد

منبع النيل:

أين منبع هذا النهر العجيب واهب الخيرات؟

كان في اعتقاد الأقدمين أن مخرج النيل من جبال القمر، وهذا الاعتقاد الذي يظهر لأول وهلة أنه وليد الخرافات مبني على حقيقة عرفت يوم اكتشف منبعه الأصلي، وهي أن أصول النيل تخرج من أعالي (أوجاموازي)، وهذه اللفظة معناها (بلاد القمر).

وقد ظلت هذه الأصول مجهولة حتى أواسط القرن الماضي؛ وحاول كثيرون من الرحالة أن يهتدوا إلى منبع النيل فلم يظفروا بطائل؛ فمحمد علي أوفد ثلاث بعثات بين سنتي 1840 و1842، فكان نصيبها الإخفاق؛ والفرنسي دارنو لم يصل إلى أبعد من الدرجة 42 من العرض الشمالي؛ والإيطاليان مياني ودبونو، والإنكليزي بتريك، والفرنسي لاجان، لم يجاوزا الدرجة الثلاثين. وظل منبع النيل سراً مجهولاً إلى أن اكتشف الرحالة الإنكليزي سبيك بحيرة تانجانيقا بين سنتي 1857 و1859 فإذا هي مصدر النيل. وفي سنة 1860 عاد يرافقه جرانت فحدد بتدقيق مخرجه. فمنبع النيل الأبيض إذن هو بحيرة تانجانيقا العظيمة التي تزيد مساحتها على 70 ألف كيلو متر مربع، وموقعها يعلو عن سطح البحر نحو 1300 متر

يتألف النيل الأبيض من شلالات ريبون، ويسير قاطعاً المستنقعات والقفار والبحيرات، وضاما إليه بعض الأنهر الصغيرة حتى يصل أرض الفراعنة، فينساب بين سهولها وحيدا لا يعترضه شيء إلى أن يصب في البحر المتوسط. وطوله من منبعه إلى مصبه 6280 كيلومترا، وهو أعرض من نهر الأمازون في البرازيل، وأطول من المسيسيبي في الولايات المتحدة

أما النيل الأزرق فمصدره بحيرة تانا في الحبشة، ويتصل بأخيه النيل الأبيض عند الخرطوم عاصمة السودان. وهو غزير المياه ولاسيما في فصل الأمطار في الحبشة. ومدته من يونيه إلى أواخر أغسطس. ولولا النيل الأزرق لما أروى النيل الأبيض وحده أراضي السودان ومصر، فهو إذن عامل كبير في حياة تلك البلاد الواسعة؛ ولا يمكننا أن نتصور مبلغ نكبة مصر بفقدانها هذا المجرى الحيوي

الحبشة والنيل الأزرق

إن بلداً كمصر يتوقف عمرانها بل حياتها على نهر، لا بدع أن يهتم أولو أمره قديماً وحديثاً بالموضع الذي يخرج منه هذا النهر ويراقبوه بعين يقظى. وكما يشغل اليوم بال الإنكليز خطر تحويل مجرى النيل الأزرق إذا ما استولت على الحبشة دولة قوية، كذلك كان يشغل أفكار الفراعنة منذ ألوف السنين مثل هذا الخطر، فكانوا يحاولون دائماً التسلط على الحبشة التي كانوا يدعونها بلاد كوش لكي يأمنوه. ولم يكن الأحباش أنفسهم غافلين عن هذه الفكرة ولكنهم لم يستطيعوا إخراجها إلى حيز العمل الكبير لافتقارهم إلى الأدوات اللازمة، وحتى اليوم لا يزال ضعف الإمبراطورية الحبشية وتأخرها في مجالي الحضارة ضمانة لسلامة مجرى النيل الأزرق. أما إذا استولت على الحبشة دولة أوربية صناعية مثل إيطالية، فما يمنعها غداً إذا أرادت أن تستثمر - كما تشاء - الثروات الطبيعية في بلاد مساحتها نحو ضعفي مساحة فرنسا أن تحول النيل إلى غير مجراه الحالي؟

إن هذه الفكرة وحدها كافية لأن ترعب إنكلترا التي ترى في تحقيقها خراب السودان ومصر، ولا عجب إذا رأيناها في موقف الجد والحزم إزاء المشكلة الحبشية التي هي في الحقيقة معضلة النيل وذيولها الخفية.

(ترجمة العصبة)

بعض ما يذكر

!بعد الزهاوي

بقلم عبد الوهاب الأمين

أصبح (الزهاوي) الآن في رحمة التاريخ الذي لا يرحم! ودخلت (كان) الخالدة عليه، فليس يشار إليه إلا بها. وذهب في عالم الشعر والخيال، بعد أن كان بشعره مرآة للحوادث المهمة في حياته وحياة عصره

ولقد كان في حياته - وما أشد وقع (كان) هذه! - يتمتع بعطف شديد من طبقة الأدباء، بقدر ما كان مغضوباً عليه من الطبقات المتعصبة، ولقد يكون من المناسب أن أذكر الآن أنني كنت ممن نقدوا شعر (الزهاوي) بشدة، وقد ساقني إلى ذلك وقتئذ اختلاف عصري عن عصره بطبيعة الحال وبعد شقة التفاهم بين عاطفة شيخ من أدباء القرن التاسع عشر وميول شاب في القرن العشرين لم يطمئنه ويرضه أدب لا يعبر عن ميوله؛ وكنت في ذلك الحين أترقب التشجيعين المعنوي والأدبي بنقدي ذاك، فما راعني إلا ذلك اللوم والعتاب الذي فجأني من جماعة كثيرين كانوا مجمعين على أحقية النقد، غير أن ذلك لم يمنعهم من أن يقابلوه بشيء غير قليل من التذمر! حتى لقد بلغني أن أحد من كان بيدهم الأمر حينئذ أشار إلى رئيس تحرير الجريدة التي كنت أشتغل بها أن يطلب مني الكف عن نقد (الزهاوي)!

وكنت في ذلك الوقت اشتغل بالصحافة، فلم يسعني إلا النزول على ذلك الطلب، وكففت عن الكتابة في تلك الجريدة، غير أني تابعت نقده في غيرها!

لقد أوخذ (الزهاوي) على بعض عقائد له جاهر بها في حياته، وعرف له فيها كثير من الإغراق والتطرف، كما أنه كان يجد على تطرفه هذا كثيراً من المشجعين. وفي رأيي أن المؤرخ الذي سيكتب تاريخ حياة (الزهاوي) جدير به أن ينظر في هذا الأمر بدقة عند كتابته حياة الفقيد، فعلى فهم هذه الناحية من حياة (الزهاوي) يتوقف تقدير أدبه ومدى تأثيره، وما له وما عليه، فلقد كان فقيدنا متطرفاً بالرغم منه. إذ أن ما اعتوره من الأمراض العصبية والأمراض الجسدية المزمنة، جعله كذلك؛ ومن هنا يدرك القارئ أن رأيه في (اللذة والألم) الذي ناقشه فيه الأستاذ العقاد قبل سنين، لم يكن مجرد إغراق منه كان يقصده للظهور بمظهر المخالف، بل كان في الحقيقة يمثل حالته النفسية والعصبية، فقد كان يرى أن الألم في الحياة أمر قائم بذاته، وأن اللذة هي انعدام الألم، وذلك طبيعي بالنسبة له؛ فما كان يشعر باللذة في حياته إلا في الوقت الذي ينصرف فيه الألم الجسدي عنه!

وقد تنبه الأستاذ العقاد إلى هذه الناحية عند التعقيب على تلك المناقشة فأشار إلى أنه لا ينكر أن (الزهاوي) يكابد من حياته ما له دخل كبير في تمكين هذه العقيدة من نفسه فالتطرف إذن هو الظاهرة التي تتركب عليها نفسية الزهاوي في حياته الشخصية وحياته الأدبية؛ وإذا أدرك الناقد أو المؤرخ علة ذلك في تكوينه وفي أعصابه، فسيدرك بطبيعة الحال أن الإغراق والتطرف في شعره قد يؤديان في بعض الأحيان إلى ظهوره بمظهر المنقلب على نفسه، وعلى ذلك فليس في شعر (الزهاوي) تناقض أو رجوع، بل هي حالات نفسية جارفة تقلبت عليه في وقتها فأنطقته بما خيل إليه أنه لا يتعارض وآراءه السابقة، أو للتخلص من الضيق الذي سببته له بعض آرائه الجريئة، كان يريد به تخفيف وطأة الطبقات المتعصبة عليه؛ وفي هذه الناحية كان يبدو على شعره الشيء الكثير من التعمل الظاهر فيه حمله على نفسه، وهنا لا يصح اعتبار مثل هذه الحالات ميزاناً للحكم على آثاره الأدبية والشعرية

يخطئ أشد الخطأ من يفاضل بين الزهاوي ومعاصريه من شعراء العراق، فإنه فضلاً عن سخافة فكرة المفاضلة لن تتوفر فيها الشروط الأساسية المطلوبة، فإنهم ليسوا (معاصريه) حقاً ولا يمتون إليه بصلة العصر. بل كان عمره المديد المليء بخدمة الشعر والمساهمة فيه مثار الأشكال في فهم شعره وحياته. فهو من بقايا القرن التاسع عشر، وليس من رجال القرن العشرين، وما كان بوسعه أن يخرج على نفسه في هذا الأمر طيلة حياته

وإذا كانت خطوات البشرية في عصورها السابقة للقرن التاسع عشر قريبة المدى من بعضها، وإذا كان التشابه والتقارب بين تلك العصور موجودين فهما في هذا العصر قد بلغا آخر درجات التباعد. وقد مرت مئات السنين على البشرية في (عصور الظلام) فما كان لتلك السنين المديدة أن تؤثر تأثير بضع سنوات في نهاية القرن التاسع ومطلع القرن العشرين، فيكاد هذان العصران يمثلان (سن الرشد) للبشرية والدهر، ففيهما

استيقظ الإنسان وأحس وأدرك، وظل كذلك يخطو بسرعة فائقة حتى لقد كاد أن يكون من المشكل التفاهم
بين الولد وأبيه. كأن بضعة السنين التي بينهما قد أقامت بين تفاهمهما حواجز العصور!
من هنا يدرك القارئ السبب في وجود هذا البعد الكبير بين نفسية (الزهاوي) وبين نفسية شباب اليوم وسبب نقمتهم على أدبه، ومع ذلك فقد أرضى (الزهاوي) كثيراً من نزعات الشباب وأفكاره، ودافع عن تلك الرغبات دفاعاً شغل حياته الطويلة ووسمها بسمات لا يستطيع مؤرخه إهمالها، فقد كان من مناصري المرأة والسفور والتجدد، وظل كذلك إلى آخر حياته، برغم ما جرته عليه هذه الأفكار من المتاعب له، ومن هنا أيضاً تتضح لنا أهمية الرجل في العصرين اللذين كان له نصيب الحياة فيهما، ومدى تأثيره في كليهما
وبعد فهل يحق لنا أن نتفاءل بهذه الحركة التي قام بها بعض المعجبين بأدب الزهاوي؟ وهل لنا أن ننتظر منهم غير ما تعودنا انتظاره في مثل هذه الحال من دراسة منتظمة لعصره وحياته وآثاره، أم لا تزيد هذه الهيجة على نصب تمثال له فقط؟
على كل حال، إننا ننتظر ونأمل أن تتشكل لجنة من المعجبين بشعره من الأدباء لتدوين تاريخ حياته، لأنه والحق يقال، قد كون في حياته فصلا كاملاً لحياة العراق في ملتقى عصرين مهمين من حياة البشرية
(بغداد)
عبد الوهاب الأمين
الحياة الأدبية في فلسطين
للسيد محمد تقي الدين النبهاني
مدارس الأدب في فلسطين مدرستان. مدرسة الشيوخ ومدرسة الشباب. ولا تستطيع وإن أجهدت نفسك أن تعثر بثالثة اللهم إلا أثفية سفعاء. وهذا التقسيم قد يكون طبيعياً بل قد يكون عاما لا يمتاز به قطر ولا تستأثر به بلد؛ غير أنه في فلسطين غيره في سواها؛ فأدب الشيوخ في أكثر الأقطار مطبوع بطابع المحافظة على القديم حتى لدى المجددين منهم، وأدب الشباب كلف بالجديد حتى لدى المعتدلين من هؤلاء. وإليك مصر زعيمة الأدب العربي تكاد تخضع لهذا المبدأ بالقوة إن لم يكن بالفعل؛ فالزيات وطه حسين وهما من دعاة التجديد لا تقرأ لهما لغة ولا تمر بفكرة حتى تقرأ ما بين السطور المحافظة على التراث القديم. أما فلسطين فأدباؤها الشيوخ مشتجرون وأدباؤها الشباب منشقون، ولا تستطيع أن تلمس فرجة تتاح لك منها فرصة التوفيق، وإنه ليهون عليك أن تجد بعض الجامع بين الشيوخ والشباب ويعتاص عليك التوفيق بين رأي الشيوخ أو رأي الشباب. ولعل ذلك ناجم عن جرثومة هذا الأدب وأن نهضته أسست على التقليد من غير أن تكون ملكة الاستقلال والنقد بارزة تميز صائب الرأي وتنفث خطله
ترى طائفة من الشيوخ أن الأدب في رفض هذا النحو المألوف لدى العرب في دراسة الأدب من إلمام بالقواعد ودراسة لجيد النثر ورصين الشعر، وتذهب إلى أن كتب النحو وأسفار البلاغة من أمثال كتب الجرجاني والقزويني حتى اليازجي وأسفار ابن هشام وابن مالك حتى الشرتوني والجارم يجب أن تحرق وينبغي أن تمحى، وأن هذا الشعر وتلك الخطب التي قرضها أمثال حبيب ودبجها زملاء زياد لا يجوز أن نجعلها ثقاف أدب لعقول الأدباء، وأن لغة الصحف والكلام العادي الذي يكتب بعيداً عن الفن نائياً عن مقياس الأدب القديم هو التأدب الحق فكفى المرء أدباً أن يقرأ حتى لو أخطأ رفع المبتدأ ونصب الحال مادام هو أو السامع قد فقه مغزى ما يريد. ويرضى من الكاتب أن يخط حروف الهجاء بكلمات تبين عن المعنى ولو مجملاً حتى يضحى بعد مدة كل عربي قادراً أن يفهم الأدب إذا ما قدر أن يتلو الكلمة بعد معرفته ربط الحروف. وهذا رأي ينادي على نفسه بالخطل ويجعل القارئ في شك من عقل صاحبه أو حسن نيته.
ومن المؤسف أن نقول إن من القائلين به مفتشين في المعارف وطائفة في أيديها أمر اللغة العربية في المدارس، ولا نود ذكر الأسماء لأنا نخشى أن يظن ذلك منا هجاء
وتزعم طائفة أخرى أن الأدب في التضلع من غرائب الكلم من مثل مبرنشق ومصمئل، وأن من لم يحط علماً بذلك ويستوي على شعر تأبط شراً وذي الرمة

ويستظهر خطب المأمون الحارثي ومقامات الحريري لا يسمى أديبا
هذان رأيان من آراء الشيوخ وهما متناقضان، في أحدهما الهدم، وفي الآخر الجمود، لا تقوم بها نهضة، ولا يؤمل منهما إصلاح، لولا أن هناك طائفة ترى وجوب السير في نهج القديم والاستضاءة بضوء الحديث كرأي الأدباء الذين أخذوا على عاتقهم حمل مشعل الأدب. وهذه الطائفة لها أثرها ولها أنصارها، منها ذوو الطرابيش وأصحاب العمائم. غير أنه على غبطتنا بالطائفة الأخيرة ومقتنا للطائفة الأولى نقول: إن هذه الطائفة المعتدلة تقصر عملها وتحصر نهضتها في غرف الدرس وحلقات السمر، لم تخرج بعد ثمرة ولم تقم بمجهود، وأن الإكثار إنما هو لأولئك الهدامين، يكتبون ويتحدثون بما يرون بما لا يكاد يصح أن يسمى لغة عربية، ولا يكادون يقيمون لسانهم لحناً إذا ما تحدثوا دقيقة أو دقيقتين، ولكنهم على ذلك مكثرون وعاملون ما سمحت لهم المقادير وطائفة الغريب منتجة غير أنه قليل، وعلى قلته لا يجد رواجا ولا ينفق إلا في سوق الراسخين

أما الشباب ففرقتان: فرقة كان موطن ثقافتها مصر، وفرقة رضعت لبان الأدب في فلسطين ولبنان، وبذلك تباينت عقليتهما وانشقت آراؤهما

فالذين تثقفوا في مصر يرون أن خير طريق لإنهاض الأدب هي الطريق التي تسير فيها جمهرة أدباء مصر، وهي أن تربية ملكة الأدب في دراسة نصوصه ونقد هذه النصوص وبحثها على المقياس الذي وضعه أولئك العلماء الذين أشفقوا على اللغة أن تضيع وخشوا فسادها على ضوء ما يجد من الآراء الصائبة وما يشرق من طرق البحث الأدبي القويمة. ولذلك تجد هؤلاء يتقلبون بين صفحات الأسفار ويأرقون لتحبير الرسائل والكلمات وينتقلون بين المدن والدساكر، يستملحون البيت من العشر، ويهشون للفقرة من النثر، ويهتزون طرباً لرؤية كتاب حديث يلتهمونه التهاماً، ثم يوسعونه نقداً، ويفتقون ما يصح من

رأي حصيف. وهؤلاء هم الذين يجاهدون في النهضة ويضعون أنفسهم حراس الأدب. يحيطون علماً بسيره في سائر الأقطار ويستلئمون لرد غارة دعي، وصد هجمة متطفل على الأدب يكيد له. ومهما لاقوا من عنت ووجدوا من قسوة، لا يأبهوا لما يكون حتى من أشد الشظف، ويؤيدهم في ذلك جمهرة من إخوانهم الذين تثقفوا في لبنان، وإن كان يكون بينهم نزر الخلاف

أما الفرقة الأخرى فهي تقصر الأدب على رقيق الغزل وبارع الخيال في الكلم، وما يبدع من مقالات الصحف السيارة. حتى ليعدون رئيس تحرير جريدة أديباً إذا ما أنشأ كلمة في علاج شؤون البلاد؛ وهؤلاء يريحون أنفسهم من عناء الدرس، اللهم إلا في كتاب حديث أو جريدة يومية، أو مجلة فكاهية، وجل مجهودهم قصيدة غزلية أو مقالة اجتماعية ينشرونها في نهر جريدة ما. وهؤلاء لا نشك في عقلهم ولا نرتاب في نيتهم، وإنما نفند رأيهم وندعي أن الميل إلى الراحة ومتابعة الأهواء والجري وراء غرائزهم هو الذي حدا بهم أن يسيروا في هذا النحو، وأن يعتنقوا هذا المبدأ، ولعلهم بعد يؤوبون إلى الحق أثناء سيرهم في قافلة النهضة السائرة، وأنه وأن كثر أنصارهم باتخاذهم أصحاب الصحف أصدقاء، وباهتبالهم فرصة هذه الصداقة لجعلها بوقاً لهم يرضون به غريزتهم وينشرون رأيهم؛ فهم أمام قوة الأدب الصحيح يضعفون ويضحل معين أدبهم فأنه سينضب، وحينذاك يعلمون حق العلم أنهم كانوا في وادي الضلال يعمهون، ومن ملح أجاج كانوا يشربون ويسقون

ولا يعجبن القارئ من عرض هذه الصورة ولا يدهش لهذا الاضطراب في الحياة الأدبية فإن المقادير تضافرت على خلق الاضطراب، وإن اختلاف السياسة خلق هذا التباين. ففلسطين كان أدبها معدوماً وكان أدباؤها غير مخلوقين قبل سنين، فالأتراك كانوا يتآمرون على الأدب العربي حتى في مصر، فما بالكم في فلسطين؟ والأزهر كان حرباً على الأدب ذاك الوقت وخاصة مع الأغراب، وجامعات مصر كانت تقفل أمام الفلسطينيين، والحرب العامة كان لها أكبر الأثر ففتحت البلاد عينها على بقية من القدماء وجمهرة من الدخلاء، ثم أضحت فلسطين منتدباً عليها أو مستعمرة، وقام على شؤون التأديب غرباء عن الأدب، فكان ذلك الركود ووجد ذاك السكون في أوائل العقد الرابع من القرن الرابع عشر الهجري إلى أن فتحت جامعات مصر على مصراعيها لأبناء فلسطين واتجه الأزهر يعنى بالأدب

ليتاح له تأدية رسالته، وحضنت لبنان أبناء هذا البلد فرجعت جمهرة من الشباب اصطدمت بالقدماء واصطدم بعضهم ببعض فكان هذا الاضطراب وكانت هذه الحياة الأدبية المضطربة التي أظهرنا لك صورة مصغرة دانية من الحقيقة وإن كانت المقادير لم تسمح بأن تكون هذه الصورة أقرب إلى الحقيقة وواضح مما قدمنا بيد أن هذا الاضطراب والاحتكاك يلمع ببرق أمل في النهضة الأدبية ويبشر بانتظام . . . حياة أدبية يجهد الشباب لإيجادها ويستميلون معتدلي الشيوخ وأنضجهم آراء، وما هي إلا لمحة حتى تتغير الحياة غير الحياة وتزهر رياض الأدب في هذه البلاد العربية وتؤتي أكلها ثمراً شهياً

(حيفا)

محمد تقي الدين النبهاني

شكوى إلى الله

وداع. . .

هذه خطبة معلم فرقوا بينه وبين أولاده فودعهم بها ووصاهم وبكاهم، وإني لآسف أن يكون في صاحبنا المعلم الأديب هذا الضعف وهو يدعو إلى أدب القوة، ولكن ماذا يصنع؟ أليس له قلب؟ أليس بإنسان؟ . . .

أولادي!

انتظروا! لا تخرجوا كتبكم، ولا تفتحوا دفاتركم، فما جئت لألقي عليكم درساً، وإنما جئت لأودعكم. إن الوداع صعب يا أولادي لأنه أول الفراق، وما آلام الدنيا كلها إلا ألوان من الفراق: فالموت فراق الحياة، والثكل فراق الولد، والغربة فراق الوطن، والفقر فراق المال، والمرض فراق الصحة. . .

إن الوداع صعب ولو إلى الغد، فكيف إن كان المودَّع صديقاً عزيزاً، فكيف إن كان ولداً، فكيف إن كانوا أولاداً؟

أنتم أولادي، أولادي حقيقة لا أقولها مجاملة ولا رياء، ولا أسوقها كأنها كلمة تقال، ولكن تنطق بها كل جارحة في، واحسها من أعماق قلبي!

ولم لا؟ ألستم تحبونني وأحبكم؟ ألم أفكر فيكم دائماً وأخاف عليكم؟ ألم تروني آلم إذا تألم أحدكم، وأثور إذا تعدى أحد عليكم؟ ألم أفتح لكم قلبي حتى اطمأننتم إلي وأنستم بي، وخرقتم حجاب الخوف الذي كان بيني وبينكم، كما يكون بين كل معلم وتلاميذه، وغدوتم تدعونني لأشارككم في ألعابكم، وتقصون علي أخباركم وتبثوني أحزانكم، وتنبئوني بأسراركم، وتشكون إلي ما يصيبكم من آبائكم وأهليكم؟ فأي صلة بين الآباء والأبناء أوثق من هذه الصلة، وأي سبب أقوى من هذا السبب؟

أنتم أولادي. فهل رأيتم أباً يودع أولاده الوداع الأخير ثم يملك نفسه أن تسيل من عينيه؟ لقد شغلتم نفسي زماناً، وأخذتم علي مسالكي في الحياة، فلا أرى غيركم ولا أفكر إلا فيكم، وأقنع بصداقتكم هذه الخالصة المتعبة المرهقة، عن الصداقة الكاذبة، والود المدخول

فكيف أقدر أن أملك نفسي وأنا أقوم بينكم لألقي عليكم كلماتي الأخيرة، ثم أمضي لطيتي لا أدري أأراكم بعد اليوم أم لا أراكم بعد أبداً؟ . . .

أما أنتم فاملكوا أنفسكم - لا تحزنوا ولا تأسفوا ولا تبكوا لأني علمتكم كيف تكونون في طفولتكم أكثر منا في شبابنا رجولة وصبرا - ونشأتكم على القوة التي فقدناها، والبعد عن العاطفة التي ربينا عليها، وإنكار الألم الذي لا نزال نهرب منه، والمغامرة التي نكرهها ونجهلها لأرى صبركم في مثل هذا اليوم

أنكم الآن تجتمعون حولي، ولكنكم ستتفرقون في المستقبل، وستنثرون على درجات السلم الاجتماعي نثراً، وسيكون منكم الغني والفقير، والكبير والصغير، والتاجر والصانع، والموظف الكبير، والمدير والوزير. ولكن قلبي سيتبعكم، وحياتي ستمتد فيكم، ومبادئي ستبقى في قلوبكم، لا تستطيعون أن تتناسوها، وكلماتي سترن في آذانكم لا تقدرون أن تتغافلوا عنها، وستسمعونها تدعوكم باسم الواجب في ساعات الهوى، وباسم الحق في جولة الباطل، وباسم الفضيلة في غمار اللذة. فطوبى لمن لبى وسمع واستجاب، وويل لمن نسى وأنكر وأعرض واستكبر!

إنني لقنتكم مبادئ الحق والفضيلة ولكنكم ستجدون في تطبيقها عناء كبيراً، ستجدون أول خصومها معلميكم في المدرسة وأهلكم في البيت ورفاقكم في الطريق، فالسعيد

السعيد من ثبت على الحق، وأوذي في سبيله؛ والبطل من درأ بصدره السهام عن أمته، وأطفأ بدمه النار التي تحرق وطنه. أن في أمتكم طاعوناً أخلاقياً مروعا أصيبت به منذ خمسمائة سنة فذلت واستكانت، وفقدت عزتها وصبرها وقوتها، وقد جاء الوقت الذي تبرأ فيه الأمة. أنها لن تبرأ إلا على أيديكم . . .

لقد دللتكم على الطريق، ووضعت في أيديكم مفتاح النجاح، فعلمتكم فضائلي كلها مع ما عرفت من فضائل، وجنبتكم نقائصي كلها مع ما عرفت من نقائص، فاحترمتكم لتحترموني، وأخطأت أمامكم لتردوني، ورجعت عن خطئي لتتعلموا مني، وأنصفتكم من نفسي لتنصفوا الناس من نفوسكم، وعلمتكم معارضتي إذا جرت لتتعلموا المعارضة لكل جائر، ولم آت في ذلك بدعا. فهذه مبادئ الإسلام الذي علمتكم اتباع سبيله، والوقوف عند أمره ونهيه والفخر به، والجهر باتباع شعائره، وربيتكم على الطاعة في غير ذل، والعزة في غير كبر، والتعاون على الخير، والثبات على الحق، والقوة في غير ظلم، والنظام الكامل من غير أن يفقدكم النظام شخصياتكم واستقلالكم

كنت أذكر ما كنت أستاء منه في المدرسة مما كان يصنع معنا معلمنا، فلا أصنع معكم منه شيئا: كنا نفر من المدرسة لأننا لا نجد فيها إلا جباراً عاتيا، عبوس الوجه، قوي الصوت، بذيء الكلمات، فجعلتكم تحبون المدرسة لأنكم تلقون فيها أباً باسماً شفيقاً يحبكم ويشفق عليكم، ويحرص على رضاكم كما يحرص على نفعكم

وكنا نكره الدرس لأننا نجده شيئاً غريبا، وطلاسم لا نفهمها ولا ندرك صلتها بالحياة، ونعاقب على إهماله، ونجازي على الخطأ فيه، فجعلتكم تحبون الدرس لأنكم ترونه سهلاً سائغا، تدركون صلته بحياتكم، وفائدته لكم، وتحفظونه لأنه لازم ومفيد لا خوفاً من العقاب ولا هرباً من الجزاء

وكنا ننتظر المساء لننجو من المدرسة، لأننا نسجن فيها سجنا، لا نستطيع أن نميل أو نتلفت أو نتكلم، ولا نسمع من الأستاذ إلا عبارة الدرس المبهمة وألفاظ الشتائم المؤلمة. فجعلتكم تكرهون المساء لأنه يفصلكم عن المدرسة التي تقولون فيها ما شئتم من طيب القول، وتفعلون ما أردتم من صالح العمل، وتقرءون مازلتم نشيطين للقراءة، فإذا مللتم من الدرس سمعتم قصة لطيفة، ونكتة حلوة، هي أيضاً درس من الدروس، ووجدتموني أحادثكم كما أحادث الرجال لا الأطفال. كنا نشعر بأننا أذلاء في المدرسة لأننا لا نقدر أن ندافع عن حقنا، أو نطالب بما لنا، وإذا قلنا كلمة فالعصا نازلة على رءوسنا، أو رددنا على المعلم لفظة، فالبلاء مستقر على عواتقنا، فجعلتكم أعزة أحرارا، تدافعون عن حقكم، وتطالبون بما لكم، ولكن بأدب واحترام، واتباع لقوانين المجتمع وأنظمة المدرسة. . .

أتذكرون يوم جئتكم كيف كان أكثركم يأتي إلى المدرسة بادية أفخاذه، مرجلاً شعره، في جيبه مشطه ومرآته، وكمّتُه (بيريه) على رأسه. تفخرون برقتكم، وتعتزون بجمالكم، وتتخلعون في مشيتكم، ولا تجدون من معلميكم إلا إقرار ما تفعلون، واستحسان ما تأتون، لا تربطكم بالإسلام إلا رابطة الاسم، ولا بالعروبة إلا صلة الجنسية، ولا تعرفون من تاريخكم ما تعرفون من تاريخ الحّثيين والآراميين الذي قرأتموه مفصلاً قبل أن تدرسوا سيرة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، وقبل أن تعلموا من هو أبو بكر، وقبل أن تسمعوا باسم معاوية. فعلمتكم أن فخر الرجل بقوته وعلمه، واعتزازه بدينه ولغته. فاشتدت أعصابكم، وقويت نفوسكم، وتنبهت عزائمكم وصرتم تمشون كالأسود، وتلعبون كالعفاريت.

وتطالعون كالعلماء وتفكرون كالفلاسفة، وتراقبون الله كالصديقين، وصرتم وأنتم في هذه السن تهيئون محاضرة في عشرين صفحة عن عمرو بن العاص، أو عبد الملك، أو عبد الرحمن الناصر، وسمعتم أن في الدنيا علوماً إسلامية، واستقر في نفوسكم أن هذه العلوم وهذه الحضارة وهذا المجد، لابد لها من بعث كالبعث الأوربي (الرينسانس) ولكنكم لا تستطيعون يا أولادي أن تفهموا التضحية التي قدمتها من أجلكم. لأنكم لم تعرفوا قبلي هذا الطراز من المعلمين، فحسبي أن أخبركم أنني اشتغل بالأدب. أعني أن لي نفساً تشعر وتحس، وتألم وتسرّ، وتغضب وترضى، وتثور وتهدأ، وتأمل وتقنط، وأن لي غاية في الحياة أكبر من هذه الوظيفة. وأنني أهم بأشياء غير صفارة المناوب، وعصا التأديب، وحفظ النكات الباردة لتقطيع الوقت بها، ولف رجل على رجل في

. . .عظمة جوفاء لانتظار الدرس
ذلك أنني أغدو إلى المدرسة كل يوم وفي نفسي عشرات من الصور والأفكار، أبني منها هياكل فخمة لآثاري الأدبية القيمة التي لم أكتب منها شيئاً بعد فإذا بلغت المدرسة ونشقت هذا الهواء المليء بجراثيم البلادة والخمول، طار من رأسي كل شيء، وأحسست أني غدوت حقيقة معلماً أولياً
أجل. لقد ضحيت من أجلكم بفكري ونفسي. . فخسرتهما من أجلكم، وهأنذا أخسركم أنتم أيضاً
إنكم لا تعلمون أي فراغ سيدع في نفسي فراقكم، وتحسبون معلمكم واحداً من هؤلاء البشر الآليين الذين يذهبون ويجيئون ويعملون ويتركون، ولكن بلا قلوب، فسأقص عليكم قصة وقعت لي منذ أسبوع:
كان اليوم عطلة وكنت أرقبه من زمن بعيد لأستريح فيه من هذا العناء الذي هدني هداً وطمس بصيرتي، وبلغ بي إلى الحضيض الفكري، فلما أصبحت عمدت إلى المطالعة فلم أفهم شيئاً، ووجدت شيئاً يدفعني إلى الخروج، فارتديت ثيابي وأنا لا أدري أين أقصد، فإذا أنا أمشي في الطرقات التي أمشي فيها كل يوم. وإذا رجلاي تقودانني إلى المرجة حيث ركبت السيارة إلى حيّ السفح (المهاجرين) إلى باب المدرسة. هنالك انتبهت، وعدت إلى نفسي، فإذا أنا لم أقدر أن أعيش يوماً واحداً بعيداً عنكم، وإذا صوركم وبسماتكم الحلوة،
وشيطنتكم البريئة، وصداقتكم الخالصة، وأصابعكم الممدودة للسؤال قيد بصري حيثما ذهبت!
ولكن لا عليكم مني يا أبنائي، لا تفكروا فيّ ولا تحملوا همّي، بل فكروا دائماً في مبادئ علمتكم إياها، واذكروا في المستقبل أني كنت أستاذكم، وأنكم أحببتموني وأحببتكم، ولا تحقدوا عليّ أني كنت أحياناً أقسو عليكم أو أعاقبكم، فإنما كان ذلك لفائدتكم
. . . . . .وبعد. فقوموا يا أولادي، ودّعوا أباكم الذي لن تلقوه بعد اليوم
وخرج صاحبي من المدرسة، مهدود الجسم، خائر القوى، فألقى عليها النظرة الأخيرة. فرآها من خلال دموعه، مشرقة بهية، كأنها ماسة تلمع في شعاع الشمس، ثم ولّى. . . يفكر تفكيراً مضطرباً
هذه هي حياة المعلم؛ يغرس غصون الحب في قلبه فتمزقه بجذورها، فإذا أزهرت جاءوا فنزعوها من قلبه، فمزقوه مرة ثانية بنزعها: يأخذ المعلم أولاداً لا يعرفهم ولا يعرفونه، فلا يزال يجهد فيهم، ليفهم طبائعهم، ويألفهم ويحبهم، ويقوّم اعوجاجهم ويصلح فاسدهم، حتى إذا أثمر الحب الفائدة وأتى العطف بالمنفعة وأتى العطف بالمنفعة، جاء ولاة الأمور فقطعوا بجرّة قلم واحدة هذه الأسباب كلها. وفرقوا بنقطة من حبر بين الأب وأولاده، لا لشيء. بل لوشاية سافلة أو مؤامرة دنيئة، أو لإخلاء مكانه ليبوّأه بعض الملتمسين من ذوي الوساطات
وانطلق صاحبنا يهمس في أذن نفسه:
إني أشعر بالانحطاط والضعف، وأحسّ كأنني شمعة قد أنطفأت، لم يكف أنهم أضاعوني والقوني في هذا الطرْق حتى جعلوني أسبح فيه، ثم أغوص إلى أعماقه، بينما يمرح الأدعياء واللصوص بالعيون الصافية ويقطفون وردها وزهرها!
لم يبق لي أمل. . . لقد سقطت في المعركة قبل أن أنال ظفراً، لقد بعت نفسي ومستقبلي وآمالي بتسعة جنيهات في الشهر ثمناً لخبز عيالي. . . أفكان حراماً أن أجدها من غير هذا الطريق، ألم يكن بد من أن أموت لأعيش؟ . .
أستغفرك اللهم. فلا اعتراض ولا انتقاد، ولكنما هي شكوى. أفيخسر المرء ماله فيشكو، ويفقد حبيبه فيبكي، ويرى آماله تنهار أمام عينيه ونفسه تذوب وحياته تنضب ومواهبه تذوي ولا يقول شيئاً؟
إنني أشكو، ولكن إلى الله؛ فليس في الناس من يشكى إليه!
(دمشق)
(ع)
الألم. . .
لشاعر الشباب السوري أنور العطار
لست أسطيع أن أغير طبعي=يخلق الطبع مكرهاً يوم تخلق

أَنَا في عُزْلَتِي يُطِيفُ بَيَ الرُّعْ ... بُ فَأَبْكِي مَنْ طُولِ شَجْوِي وَأَفْرَق
تَعْتَرِيني الهُمومُ فالطَّرْفُ حَيْرَا ... نُ مُنَدَّى مِنَ الدُّمُوعِ مؤَرَّق
وَجَنَاني وَلْهانُ يُرْمِضُهُ الح ... بُّ وَيَذْكُو بِهِ الجَوَى إِنْ تَشَوَّق
تَتَرَاءى لِيَ الحيَاةُ فَتَاماً ... ما بِهاَ مَسْرَبٌ يَبينُ فَيُطْرَق
وَيَلُوحُ الوُجُودُ قَفْرًا يَبَابًا ... عَجَّ في سَاحِهِ الْعَفَاءُ وَأَطْبَقْ
صُوَرٌ مِنْ كآبتي لَيْسَ تُمْحَى ... أَنا مِنْهَا مُشَتَّتُ النَّفْسِ مُصعَقْ
مِنْ شُجُوني أَنِّي أَرَى الْوَهْمَ يَحْيَا ... وَلَقَدْ صاغَهُ خَيَالِي وَنَمَّقْ
لِي عَذَابُ اثْنَتَيْنِ نَفْسِي التي تَشْ ... قَى وَنَفْسِي التي أُحِبُّ وَأَعْشَقْ
عِشْتُ مِنْ طُولِ حَسْرَتِي أَتَشَكَّى ... مِثْلَمَا يَشْتَكِي الحِمَامُ المُطَوَّق
ضَاعَ عُمْرِي كما تَضِيعُ اليَنَابِي ... عُ وَتَخْفَى أَمْواهُهَا وَتُغَلَّقْ
وَانْطَوَى مِثْلَمَا تَمُرُّ الصَّبابَا ... تُ وَيَفْنَى خَيَالُها وَيُمَزَّق
أَيُّها اللّائمِي أَتَلْحُو المَقَادِي ... رَ وَتَهْجُو الدَّهْرَ الذي لَيْسَ يَرفَقْ
هُو جُرْحِي عَرَفْتُ كَيْفَ أُدَاري ... هِ وَأَحْنُو عَلَيْهِ عُمْرِي وَأَشْفَقْ
لَسْتُ أَسْطِيعُ أَنْ أُغَيِّرَ طَبْعِي ... يُخْلَقُ الطَّبْعُ مَكْرَهًا يَوْمَ تُخْلَقْ
أَنا قِيثَارةٌ تَنُوحُ عَلَى الدَّهْ ... رِ وَدَمْعٌ عَلَى المَدَى يَتَرَقْرَق
أَنا لَحْنٌ مُضَرَّجٌ بالمآسِي ... كادَتِ النَّفْسُ مِنْ تَشَكِّيهِ تزهقْ
هُوَ في الصدْرِ لاَعِجٌ يَتَنَزَّى ... وَهْوَ في الفِكرِ جَدْوَلٌ يَتَدَفَّقْ
يَا رَجَائِي يَا بَسْمَةَ الزَّهْرِ النَّض ... رِ وَيَارَوْعَةَ النّشيدِ المُرَقَّقْ
أَنْتَ دُنْيَايَ أَسْتَرِيحُ إِلَيْهَا ... كُلَّمَا طافَ بِي الشَّقَاءُ وَأَحْدَق
طَيْفُكَ الحُلْوُ زَارَنِي في ذُهُولِي ... فارْتَوَتْ مُهْجَتي وَعُمْرِيَ أَوْرَق
وَتَطَلَّعْتُ لِلْخُلُودِ أُنَاجِي ... مَلَكاً في مَعَارِجِ الْغَيْب حَلَّقْ
الأَسَى دَمْعَةُ الحَنَانِ عَلَى الأَرْ ... ضِ وَكَنْزٌ مِنَ المَرَاحِمِ مُطْلَقْ
تَتَسَامَى الأَرْوَاحُ فيهِ إِلى اللَّ ... هِ وَتَنْدَى مِنَ الطُّيُوبِ وَتَعْبَقْ
الْبَلاَغَات سَطْعَةٌ مِنْ سَنَاهُ ... وَالْفَصَاحَاتُ نَفْحَةٌ مِنْهُ تُنْشَقْ
وَالْغَمَامَاتُ رَجْفَةٌ مِنْ رُؤَاهُ ... وَالخِضَمَّاتُ قَطْرَةٌ مِنْهُ تُهْرَق
نَهَرٌ لِلْبُكاءِ سَالَ عَلَى السُّحْ ... بِ وَوَشَّى الأُفْقَ البَعيدَ وَزَوَّق
تَسْتَحِمُّ النُّفُوسُ فيهِ مِنَ الإِثْ ... مِ وَتَنْقَى مِنَ العيوب وَتَألَقْ
يَدْرُجُ الحُبُّ في حِمَاهُ عَنِيفًا ... نَاصِعًا كالصِّيَاءِ إِنْ هُوَ أَشْرَق
كُلُّ عَهْدٍ لم يَنْتَظِمْهُ مُضَاعٌ ... كُلُّ وُدٍّ لم يَعْتَمِدْهُ مُفَرَّق
أنور العطار

عبرة الموت

جميل صدقي الزهاوي

بقلم عبد السلام رستم

يأيها المسلوب من أنسه ... مصفد الجسم إلى رمسه
وتارك الدنيا على حالها ... لم تصدق العائف في حدسه
في الموت لو فكر مستعبر ... فيما يصيب الحي من مسه
تشابه الناعم في لهوه ... بالعابد الطوّاف في حبسه
وبات من يجمع أمواله ... كالمعدم المحروم في بؤسه
تلاحق الآتي بمن قبله ... وتابع اليوم خطى أمسه
فما ينال المرء من حظه ... إلا بريق النور من شمسه
يشب مشغوفاً باغراسه ... وليس يدري منتهى غرسه
ويخطب الدنيا، وقد شاقه ... ما يفتن الناظر من عرسه
ويرشف الكأس على نهله ... والموت - لو يعلم - في كأسه
يا شاعرا ظل مدى عمره ... في حيرة المشدوه أو يأسه
يسائل المجهول عن أمره ... وينظم الشعر صدى نفسه
ماذا أفاد الحس في عالم ... لا يدرك المعنىّ من حسه
الكون ما انفك بأوزاره ... يغترف الأحياء من رجسه
قد غلب الطبع على خلقهم ... ومرجع الشيء إلى جنسه
وكلهم في عيشه ناسج ... ثوباً يقيم الدهر في لبسه

والموت من خلفهم دائب ... يسدد النبل إلى نكسه
كم عجز الباحث عن كنهه ... وإن أطال الفكر في درسه
فدونك الحق الذي تبتغي ... وخل عنك الروح في قدسه
(القاهرة)
عبد السلام رستم
سهرة أبريل
الشاعر والربيع
بقلم محمد رشاد راضي
الشاعر:
طير الربيع أعدت ذكرى بلبلي ... أأراه في فرح الربيع المقبل
قذف الحسام فكان مقبضه علي ... شفتي وآخر حدّه في مقتلي
ومضى كما يمضي السحاب كأنه ... ظِلُّ الغريب وهدأة المتأمل
أجتاز أنواء العواصف تائها ... ويروح يرفل في الغلائل والحلي
الأرجوان العذب في وجناته ... ظللته بخياليَ المتهلل
رقرقت في عينيه بارق أنجم ... يهدي فكان لحيرتي كمظلل
حلو كما احلولت طفولة ناهد ... طلق طلاقة بسمة لمقبل
شرب السماء جميعها بعيونه ... ورمى بقيَّتها لماء الجدول
يمشي فيخضرُّ الثرى من خطوه ... وتذوب أحجار الجديب الممحل
الربيع:
نهب الكون ابتسامي ... إنه في كل ثغر
ونجومي البيض رفّت ... في الثنايا مثل درِّ
وكراكيّ وطيري ... رفرفت في كل صدر
الصبا الصارخ يسري ... في الدم القاني ويجري
إن وردي يا أميري ... صِبغةٌ من شفتيها
وغديري عبرات ... هربت من مقلتيها
وحياة الحب والفتن ... ة رسم من يديها
أوحت الدنيا إلى الل ... هـ فأهداها إليها .. .!
هي حلم لا يراه ال ... مرء حتى في الكرى
هي كأس دون خمر ... هي خمر قد جرى
هي أحيتني فجئت ال ... يوم كيْ أحيي الورى
إن نور الشمس من أع ... ينها السود سرى
جمع الخالق حسن الأ ... رض فيها يا هزارْ
فلك الدنيا تراه ... كلما دارت يُدار
هي في النور ظلام ... وهي في الليل نهار
هي ماء أيها الشا ... عر كم يحرق نار!
أرسلتني اليوم يا صدَّ ... اح كيْ آتي إليكا
أرسلتني بدَلا من ... ها لأروي شفتيكا
كلما ترنو إلى مر ... آتها أبدو لديكا. . .!!
إنّني لوحتها تع ... رضها اليوم عليكا
إرسم اللوحة واحفر ... ها على لوح الخلودْ
هأنا صورتها العذ ... راء أنوار الوجود
خذ من الصورة أعلى ال ... فن والحسن الفريد
وأتم الرسم منها ... فهي يوماً ستعود. . .!
الشاعر:
كلما سرت يا ربيع النور ... أتهادى من جدول لغدير
كخيال يطوف بين القبور ... خلت أن الشذى ومرج الزهور
هو للكون ليس لي أنا وحدي
هو ظلٌّ منها يزيد شجوني ... إن كأس السراب لا ترويني
ولهذا يلجُّ عصف جنوني ... أنا أبغي الدنيا وإن تك دوني

!. . . . .لا بساطا يناله كل فرد
أنا أبغي عيناً ترى بعيوني ... أنا أبغي قلباً يدين بديني
أنا أبغي بلهفة وجنون ... أن تكون الحياة ملك يميني
!ما انتفاعي بالطيف والطيف عندي. .؟
القصص
درامتان من اسخيلوس
ليلة في الفردوس
(!وإلى الأبد في جهنم)
آخرة المتضرعات
للأستاذ دريني خشبة
خلاصة الدرامة الأولى
كان لأيجبتوس، أمير مصر السفلى، خمسون ابناً، وكان لأخيه دانوس خمسون ابنة، وكان الزواج من بنات العم في ذلك الزمن محرما بل كان يعد نوعاً من الزنى؛ وبالرغم من هذا أراد إيجبتوس أن يزوج أبناءه من بنات أخيه، وكان هذا الأخ، دانوس قد رأى في منامه أن أحد أزواج بناته يذبحه، فلما ذهب إلى الكهنة يستفتيهم في هذا أكدوا له صحة الرؤيا، ولذلك رفض تزويج بناته، وهرب بهن على فلك إلى آرجوس، وهناك، في حرم الآلهة، لقي بيلاسجوس ملك آرجوس، وتقدمت كبرى بناته إلى الملك فحدثته عن منشئها وما تمت به من وشائج القربى إلى آرجوس عن طريق يو حبيبة سيد الأولمب وصفيته، وتضرعت إلى الملك أن يحميها وأخواتها وأباها من ملك مصر، وألا يردهم عليه أبدا؛ ولم يستطع الملك أن يعدها حتى يستشير شعبه، فهددت بأن تشنق نفسها، هي وأخواتها في جذوع الآلهة إن لم يفعل - وذهب الملك يحتال ليكسب أصوات شعبه وتأييده لقضيتهن - ولكن ظهرت سفينة في البحر في هذه الآونة، فإذا هي مركب مصري، وإذا فيه جند وقائد أتوا يستردون البنات وأباهم قسراً. . . وانقض الجنود على البنات، وطفقوا يجرونهن من شعورهن لينزلونهن إلى السفينة، وكادوا يفعلون، لولا عودة ملك آرجوس في آخر لحظة، فحماهن من القائد المصري، واحتدم الجدال بين الملك والقائد، حتى عد القائد أن ملك آرجوس، بمخاشنته التي أبداها قد أعلن الحرب على مصر. . فعاد أدراجه إلى السفينة ليبلغ مولاه. . . . . أما البنات فنزلن في حصن آرجوس مكرمات آمنات
- 1 -
في فجر يوم من أيام الصيف، انشق الأبيض المتوسط عند ساحل آرجوس، عن أسطول لجب ما عتم أن انتشرت سفائنه فوق الماء كأنها الدّبى، وخَشْخَشت خلال أواذيّه كأنها الأساود، ثم نفثت سمومها فوق الشاطئ جنوداً من شياطين فرعون، مستلئمين في الدروع، مقنعين في الحديد، يلاعبون السمهريات، ويرهفون الرقاق البيض!
وكانت آرجوس الخالدة نائمة حالمة، غارة في غفوة الفجر؛ وكان الأرجيف الأشياء غارّين كذلك، تداعب أجفانهم الوسنى أطياف الآلهة، وتمرح في قلوبهم ومضات من السعادة يكاد الأولمب يمضي بها. . . حين ينبلج الصباح اللماح عن فوهة بركان. . . ما تلبث حتى تكون وهدة من وهاد جهنم!. . .
- 2 -
وأطل الحراس في شعاف الجبل، فبهتوا!! وزاغت أبصارهم!. . . وأوقدوا النيران!. . . واستيقظت آرجوس عجلى، تنظر إلى الموت المفاجئ يتربص بها، ويكاد ينقض عليها!. . . . . .
(المصريون! المصريون! المصريون!. . . .)
وذهبت الصيحة في أرجاء المدينة تهز قلوب الأبطال، وتداعب ألباب الصناديد، وتزلزل فرائص دانوس وبيلاسجوس! وهُرعت الجماهير إلى هيكل الآلهة تصلي وتبتهل؛ وجمع الملك مجلس شوراه ليروا في ذلك الحدَث المدلهم رأيهم، فأجمعوا على وجوب الدفاع عن المدينة، وعدم تسليم ضيفهم الشيخ وعذاراه اللاجئات مهما كلفهم الذود عنهم من جهد، ومهما طال حصار المصريين:
- (أفهذا رأيكم إذن؟)

- (أجل أيها الملك! ولا رأي لنا غيره! إن شرف آرجوس وكرامة الأرجيف معلقان بما نصنعه من أجل هؤلاء العذارى! لِتَفْنَ جميعاً دونهن، ولا يقولن أحد في هيلاس إننا منعناهن أولاً، ثم أسلمناهن أخيراً!)
- (إذن لتكن حرب! ولندفع عن شرف آرجوليس!)
- 3 -
وكانت الحرب الزبون التي شابت من هولها نواصي الأرجيف، والتي أوقفتهم هيجاؤها حيارى في أبراجهم كاظمين!
ثم. . . . . سقطت آرجوس!
وجاست خلالها شياطين فرعون! وانطلق أبناء إيجبتوس في عرصاتها تحف بهم أعلام النصر، وترف فوق هاماتهم أكاليل المجد، حتى كانوا في هيكل المدينة الخالدة، حيث تماثيل السادة النجب من آلهة الأولمب. . . ف. . . صلوا لآلهة النيل، وشكروا لرع. . . وأثنوْا على أمون، وعقروا القرابين لآزوريس!!
ويمموا شطر الحصن المنيف فوق رُبى آرجوس فاقتحموه على دانوس وبنات دانوس؛ وكان أبوهن قد نصح لهن بالانصياع لما أراد القضاء: (. . . فلا راد لما قُدّر، ولا دافع لما وقع في صحيفة المرء. . . ولنبحر يا بناتي البائسات إلى مصر، وليكن لنا ثمة شأن غير هذا الشأن، ولتتم المأساة، ولتندلع النيران، وليكن أبناء أخي أول ما تأكل من حطب، وخير ما يلقى فيها من حصب، وتغتذى به من أشلاء!!)
وظهر القادة الخمسون، أبناء إيجبتوس، ومن حولهم الجند شاكي السلام، فأسقط في يد دانوس وأرتج عليه. واسودت الدنيا المشرقة في عيون بناته، وظلن متناثرات هنا وهناك في ردهة الحصن، ضافيةً عليهن جلاليبهن السود، وأرديتهن الحزينة السادرة تزيدهن جمالاً على جمالهن، وتجعل منهن ربرباً من المفاتن بدا في هذا المرمر المترقرق في أكفهن ووجوههن، وأجيادهن وثديهن، وفي هذه السيقان الناعمة التي كان بحسبها أن ترد عادية الجيش المغير. . . وإن كانت الجن من ورائه ظهيراً!!
- 4 -
ذهل أبناء إيجبتوس! وانقدح شرر الهوى في قلوبهم، وتدفق الدم العاشق في عروقهم حاراً. . . ثم انهمرت أرواحهم الوامقة من عيونهم دموعاً سخينة. . . فسجد كل منهم عند قدمي واحدة من بنات عمه. . . ولبثوا لحظة لا ينبسون!. . .
وحملق دانوس في بناته وفي أبناء أخيه قليلاً ثم قال: (قِفْن لأبناء عمكن يا فتيات! قفن للأبطال المذاويد أبناء إيجبتوس! رباه! لم نجم هذا الشر بيننا؟! لقد كنت أحب أخي، وكان أخي يحبني، فأي شيطان أغرى هذه العداوة بيننا؟! قضاء!. . . أجل. . . قضاء. . . قضاء. . .)
وما كاد أبناء أخيه يسمعون هذه الكلمة المصنوعة من فم عمهم، حتى تقاطروا إليه يقبلونه ويتمسحون به ويترضّونه. . . وظل هو يتلطف بهم، ويهش لهم، ويربت فوق أكتافهم، وكأن شيئاً من الأحقاد التي أكلت الأفئدة، وأراقت الدماء لم يكن!. . .
- 5 -
وفُزّع عن قلوب العذارى، ونهضن فتلقين أبناء عمهن بالبشاشة والبشر، ثم تلطفت كبراهن فشفعت لبيلاسجوس الملك الكريم المأسور فأطلق سراحه ورد عليه عرشه وألبس تاجه، وعقد مع الأرجيف صلح نبيل دل على جود المصريين وسماحهم وأقلع الأسطول، وهمت الفلك واحتواها الماء، وانتثر في أذيالها وشى رجراج من الثبج، وغابت آرجوس عن الأنظار قليلاً قليلا، حتى إذا طوى الأفق آخر شاهق من أبراجها، أوى الأبناء الخمسون إلى البنات الخمسين يباسطونهن ويسامرونهن ويسَرون عنهن آثار ما نزغ الشيطان بينهم وبينهن
وأقبل الليل وانجاب، وبزغت ذكاء وتوارت بالحجاب. . . وكرت أيام. . . ثم بدا الشاطئ المصري، وهبت نسمات الوطن وتبسمت الشمس فوق الأرض البنفسجية تحيي أبناءها الغزاة المنتصرين، وأطل من قرصها الكبير، رَعْ الكبير، يبارك أبطاله ويغدق عليهم نفحاته. وخرج الشعب العظيم يهتف للجيش الظافر، ويردد هذا النداء المحبب القديم: (المجد لمصر!)
- 6 -

وأقبل إيجبتوس على دانوس يلاومه، ثم غفر له: (هذه النزعة التي أشمتت بنا الأعداء، وأغضبت علينا أرباب السماء، وسممت ما بيننا من محبة وصفاء. . .) واتفقنا على العرس. . . وذهب كل يعد له عدته!

وخلا دانوس إلى شيطانه فقال إني معك!!

ثم جمع إليه بناته فخطبهن خطبة طويلة نضحها بالدمع، وصهرها بنا الفؤاد، وأودعها أحزانه وأشجانه. وذكرهن بشرائع السماء، ونواهي الآلهة، والزنى البغيض الذي يستتر في هذا الزواج القهري، لا عن نحلة، ولا عن رضى ولا سلطان مبين!. . .

وذكر لهن أمهن المتوفاة وما كان بينها وبين زوجة عمهن من إحن وبغضاء، فحرك فيهن هذا الماضي الأسود بجميع سخائمه، وأثار في قلوبهن الرطبة أشجانهن القدامى. حتى إذا آنس فيهن الطاعة له والائتمار بأمره. أخرج لكل منهن سكيناً مسنونة مرهفة الحدين، تقطر المنايا من أشفارها فيردها غمدها الذهبي المرصع بأغلى الجواهر واليواقيت

فإذا حان الحين يا فتيات، ونامت أعين الرقباء فاذكرن شقاءكن الذي لا شقاء مثله،) - واذكرن كيف قضت أمكن بغصة العداوة بينها وبين زوجة عمكن، ثم اذكرن أباكم هذا الشيخ الفاني المتهالك كيف ذل، وكيف وضع أنفه الأشم في الرغام. . . واذكرن أخيراً أنكن تحمين شرائع السماء من هذا الاعتداء. . . فالآلهة معكن، وستضرب بأيمانكن، وستغمد هذه الخناجر في أحشاء أعدائها بوساطتكن. . . بورك فيكن وكانت السماء في عونكن!)

- 7 -

وأخذت ممفيس زخرفها وازّينت، وتبرجت عمائرها الفرعونية في حلل من النور والنوار وأفواف الزهر، وضفائر الورد والرياحين؛ وانطلق كهنتها يرسلون في جميع الأرجاء ألسُن الند، وفَغمة العنبر، وشذى الكافور والصندل، من مجامرهم الفضية المقدسة، واجتمعت أسراب الحسان في ساحاتها وباحاتها بسيقانهن المصرية الفرعونية يتلاعبن ويتطربن، ويتغنين ويتناشدن، ويهززن بعرائس الماء التي خالتها قريحة هيلاس؛ وسار ربربهن يخطر في كل حنية، ويميس في كل ميدان، وينساب في كل فردوس، حتى كُن عند قصر الملك، منزل العز ومناط المجد، وفخر مصر وقلبها الخفاق، فرقصن رقصات ما كان أشبهها بنبضاته، وتغنين الأغاني كأنها تخرج من فمه، وتنبعث من جوانحه وتجلجل موسيقاها عن حناياه. . . ثم شارك الشعب في الأفراح الملكية، فعج النيل المقدس المعبود بالطوّافات والحراقات، وهرعت عند حفافيه أمة بأسرها تفرح كما يفرح الملك، وتسعد كما يسعد التاج، وتنتشي بنشوة العرسين وأقبل الليل، وأسقر خونسو

ورقصت ممفيس في لجة من خمر، ورفرف حوريس فوق المسلات الشاخصة في الميادين، ولم يعلم أحد أنه كان يرى غير ما ينظر الناس، وأن عينه كانت تذرع الوادي الوادع السعيد وتكاد تضج مما أجن هذا الليل الرهيب. . . لا. . . بل كان الناس ينهلون أفاويق الحبور في صحراء ممفيس. . . في ليبيا العجيبة. . . ليبيا التي تصفر فيها الرياح، وتتكلم فوق كثبانها ألسن الألغاز والأسرار!!. . .

- 8 -

وغرق القصر الملكي في أثير الموسيقى، وفي فيض من النور الذي يشبه الفجر الكاذب؛ ثم أخذت الركبان تنصرف والولدان تتفرق إلى مخادع اللهو، وأخذ الكرى يعقد أجفان ممفيس الصاخبة، التي كانت منذ هنيهة تعج بألالوف، وتضج بالجماهير وعادت آية الليل. . . رهيبة كشأنها منذ الأزل. . .

وافتر خونسو مرة أخرى عن ابتسامة هي إلى العبوسة أدنى، وإلى السخرية أقرب!! يا لرهبة الأقضية! ويا لصرامة المقادير!

لقد أوى أبناء إيجبتوس كل إلى مخدعه، بعد إسراف طويل، ولذات لم يكن يخطر على بال أحد أنها تنتهي، وبعد قصف أيما قصف، وخلاعات ليست كمثلها خلاعات. . . فما كادت رؤوسهم تمس ديباج الطنافس حتى غطوا في سباب عميق، وحتى انطلقت أبالسة الشر من أغماد خناجر دانوس، التي بدت أظمأ ما تكون إلى الدماء الحارة الشابة، تجري في عروق أبناء إيجبتوس

- 9 -

ولقد كان أبوهن قد اتفق معهن على هذه الغدرة الصفراء، وجعل لكل منهن علامة حين تأفد ساعة النفاذ، أن تطفئ السُّرُجَ
إلا واحداً تدعه مطلاً من إحدى الكوى التي تواجه قاعته، إذ كان في هذه الليلة الليلاء ضيفاً على أخيه، وشريكه في مخدعه، ومنتوياً هو الآخر إنفاذ الغدرة الوحشية في شقيقه، ليخلو له وجه مصر. . .!
واضحكي أيتها الأقدار!!. . .
- 10 -
وأخذت السُّرُج تومض ثم تنطفئ، وأخذ دانوس يلحظ الكوى ويعد: (واحد. . . اثنان. . . ثلاثة. . . أربعة. . . خمسة. . .) حتى عد تسعة وأربعين. . . ووقف العد. . . وأبطأ الحساب، وتلكأ الجلاد. . .!
- ماذا؟ لقد ذبح الجميع أزواجهن إلا واحدة!. . . ما الذي منعها؟ لعله لم ينم) ولتنطفئ حياته في إثركن. . .!الخبيث. . .! ويلاه! انطفئي أيتها السرج. . .)
وذكر هو أنه لم ينفذ غدرته، فهب إلى سرير أخيه، وأغمد خنجره في صدره!. . . وغادر إيجبتوس يتشحط في دمه. . . وراح يحلم بالتاج والعرش والصولجان. . .!
حلم قصير جميل. . . ولكنه نظر إلى الكوة الخمسين فوجد أضواءها تتألق. . . ورأى إلى نورها يكاد يضيء ممفيس كلها. . . فكاد حنقه يقضي عليه. . .
- (هلمي يا غبية! البدار إلى دمه البدار!)
ولكن السرج تتألق وتتألق. . . ولا تنطفئ منها شعلة واحدة!
- 11 -
وقفت الفتاة الجميلة تلقاء الفتى الجميل تقبله، بعد أن كادت تقتله. . .!
أجل. . .! وقفت هيبر منسترا تلقاء ابن عمها لسيوس تعبده، وقد شغفها الشاب الجميل النائم حباً. . .
- يا لأهدابه المراشة، ويا لجبينه المشرق، ويا لمنكبيه الجبارين، ويا لوجهه البريء!) أأطيع أبي. . . هذا الشيخ القاسي المتحجر. . . الذي لا قلب له. . . الذي فرغت مآربه من الشباب ومن الحياة جميعاً. . . وأسطو بخنجري على هذا الشباب الذي أخلد إلي. . . ونام ملء عينيه بين يدي. . . وحملني أمانته كلها. . . لا وأرباب الأولمب! لا يكون هذا أبداً!. . . إن قبلة واحدة على جبينه المتبلج خير من جنة أبي، ومن الدنيا والآخرة جميعاً. . . نم يالنسيوس! نم يا حبيبي! إني سأقف عند سريرك طول الليل أحرسك، وسأغمد خنجري في صدر من تحدثه نفسه باغتيالك ولو كان أبي!. . .
- 12 -
ولبث دانوس يحرق الأرم ويلحظ السرج. . . ولكنها باقية كما هي. . . لا تنطفئ. . . وانبلج الفجر. . . ثم تنفس الصبح. . . وأشرقت ذكاء. . . وهب لنسيوس من نومه فما راعه إلا فتاته الجميلة واقفة إلى جانبه ضعيفة واهية. . . تبكي. . . وبيدها السكين المشحوذ يتلمط. . . ويتلمظ. . .!
- (ماذا؟ هيبر منسترا؟! ما بك واقفة هكذا يا حبيبتي؟!)
- (لا شيء. . . أنا أحرسك. . . فقط أحرسك. . .!)
- (تحرسينني؟. . . يا للهول! ومم يا ابنة العم؟. . .)
- (من. . . لنسيوس!! من أبي يا أعز الناس عليّ. . .!)
- (ماذا؟ تحرسينني من أبيك؟ من عمي؟. . .)
- أجل. . . أحرسك من الغادر الذي قتل اخوتك!. . . انهض يا لنْسيوس! خذ عليه طريقه. . . أحسبه قد قتل أباك أيضاً. . . البدار البدار!. . . . . ويلاه. . . وي وسقطت الفتاة لا تعي. . .
- 13 -
وانطلق لنسيوس كالمجنون في غرفات القصر المشيد. . . ونفذ إلى مخادع أخوته. . . فلم ترد عليه جثثهم. . . صرعى فوق ديباج العرس. . . مضرجة بدم الشباب الحار. . . البارد كزمهرير الموت. . .!
وصعد الدم إلى رأسه، فهرول إلى غرفة أبيه؛ فما راعه إلا أن رآه قد لقي حتفه كما لقي أخوته حتوفهم. . . وما راعه إلا أن رأى دانوس الجبار يحملق في الكوة. . . التي ما فتئت أضواؤها تنبعث منها، برغم الفيض الذي ترسله الشمس، مركب رع. . . في

. . .العالمين
وانقض عليه وذبحه
. . .وجلس فوق أريكة يبكي
!!وهكذا قتل دانوس أحد أزواج بناته، وصدقت الرؤيا. . . لأن الآلهة لا تكذب
- 14 -
واضطرب الأولمب من هول الفاجعة، واجتمع الأرباب في ذروة جبل إيدا، وقر رأيهم على أن يذهب هرمز فيأتي ببنات دانوس، إلا زوج لنسيوس، ثم يذهب بهن إلى السفل. . . إلى هيدز. . . إلى أعماق الجحيم. . . حيث يكلَّفن بملء جرارٍ مُثقبة من نهر شيرون، لا تمسك المهل. . . إلا كما تمسك الماء الغرابيل. . . فإذا جد بهن السير، ونال منهن النصب، وجلسن على عدوة النهر يستجمعن. . . أمطرتهن السماء ناراً. . . فهرولن إلى النهر ليأخذن في ملء الجرار. . . ولن تمتلئ الجرار ولو صب فيها أشيرون كله. . .
دريني خشبة
البريد الأدبي
العبرات الحرار
رجا الأستاذ الشيخ عبد القادر المغربي عضو المجمع اللغوي الملكي بالقاهرة من قراء الرسالة الغراء في (العدد 146) الرجوع إلى نسخة شرح ديوان الخنساء المكتوبة سنة 620هـ المحفوظة في دار الكتب المصرية، لعلها تكون أوفى من نسخة مكتبته الخاصة المكتوبة سنة 1145هـ لأن نسخته لم تذكر قصيدة (العبرات الحرار) وربما تكون ساقطة من نسخته من الشرح المذكور. ثم رجا الرجوع إلى نسخة الديوان المكتوبة بقلم العلامة اللغوي الكبير الشنقيطي التركزي وذلك للاستثاق من صحة رواية البيت:
من كان يوماً باكياً سيداً ... فليبكه بالعبرات الحرار
لأنه يحتمل احتمالاً قوياً أن يد التحريف عملت في البيت عملها فغيرت (الجوار) إلى (الحرار). وإجابة لرجاء شيخنا المغربي رجعت إلى نسخة الشرح التي في دار الكتب المصرية ((570) آداب اللغة العربية) فوجدتها لا تشتمل على قصيدة (يا عين جودي بالدموع الغزار) التي منها بيت (العبرات الحرار) والظاهر أن نسخة دار الكتب من هذا الشرح هي أصل نسخة الأستاذ المغربي وأن قصيدة (العبرات الحرار) ليست في رواية الشرح
ورجعت إلى نسخة الشنقيطي من الديوان ((40ش) آداب اللغة العربية) وهي - بحق - نسخة نفيسة مكتوبة بقلم العلامة التركزي بالخط المغربي الدقيق مع ضبط أكثر قوافيها والكلمات الغريبة منها بالقلم مع تقييدات على الحاشية لأكثر الأبيات فوجدت البيت هكذا:
من كان يوماً باكياً سيداً ... فليبكه بالعَبَرَات الحِرار
بضبط الحاء من الحرار مكسورة مما يقطع بأن الرواية (الحرار) لا (الجوار) ونسخة الديوان هذه كتبها الشنقيطي في مكة سنة 1288 وفي دار الكتب المصرية نسخة ثانية من ديوان الخنساء ((536) آداب اللغة العربية) كتبت سنة 1289هـ بمكة أيضاً بقلم أحمد بن محمد الخضراوي بخط عادي واضح ورد فيها عجز البيت (العبرات الحِرار) بكسر الحاء أيضاً. ويغلب على الظن أن نسخة الخضراوي منقولة عن نسخة الشنقيطي السابقة وإن لم يصرح ناسخها بذلك فإنه اقتصر على القول بأنه كتب نسخته من الديوان عن نسخة بالخط المغربي الرديء الذي يصعب على المشارقة قراءته
والذي يؤيد هذا الظن أن الشنقيطي كتب نسخته بمكة سنة 1288هـ والخضراوي كتب بعده بسنة بمكة أيضاً وأن نسخة الخضراوي تشتمل على جميع التقييدات التي على نسخة الشنقيطي بنصها كما يلاحظ الاتفاق التام بين النسختين في ضبط بعض الكلمات فما كان مضبوطاً من هذه فلابد وأن يكون مضبوطاً في تلك بنفس الشكل وأظن أن ما تقدم كاف في الاستيثاق من صحة رواية (العبرات الحرار) وأستاذنا المغربي عليم بأن عدم ذكر الحرار جمعاً لحارة في المعاجم التي بين أيدينا لا يدل على عدم وروده
برهان الدين محمد الداغستاني

المعجم الوسيط
تأليف الهيئة الرسمية لوضعه
وقع حضرة صاحب السعادة محمد علي علوبه باشا وزير المعارف العمومية قراراً وزارياً بتأليف الهيئة التي يعهد إليها بوضع معجم في اللغة العربية، وهي تتألف من لجنتين تمثل إحداهما وزارة المعارف والثانية المجمع الملكي للغة العربية
وهذا نص القرار:
بعد الاطلاع على القرار الذي أصدره المجمع الملكي للغة العربية بتاريخ 27 فبراير سنة 1936 وبناء على الاتفاق الذي تم مع معالي رئيس المجمع على اختيار لجنتين تمثل إحداهما وزارة المعارف وتتكون الأخرى ممن ندبهم المجمع لتعمل اللجنتان معاً على وضع (المعجم الوسيط) في اللغة العربية
قرر: -
المادة الأولى: تؤلف الهيئة التي يعهد إليها بوضع معجم في اللغة العربية يسمى (المعجم الوسيط) على الوجه الآتي:
أولاً - أعضاء اختارتهم وزارة المعارف العمومية:
الدكتور طه حسين بك - الأستاذ بكلية الآداب
الأستاذ خليل مطران
الدكتور أحمد عيسى بك
الدكتور محمد والي - الأستاذ بكلية العلوم
ثانياً - أعضاء ندبهم المجمع الملكي للغة العربية
أحمد العوامري بك
الأستاذ أحمد علي الإسكندري
علي الجارم بك
المادة الثانية - يراعى في وضع هذا المعجم ما يأتي: -
1 - أن يكون ترتيبه على خير نمط بحيث لا يقل نظامه عن أحدث المعجمات الأجنبية وبحيث تسهل فيه المراجعة على الطلاب الذين لم يعتادوا المراجعة في المعجمات القديمة. ويتبع في ترتيب مواده طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة
2 - وأن يتبع في شرح ألفاظه أسلوب واضح جلي يلائم العقلية الحديثة ويؤدي إلى تصوير المعنى على أدق وضع وأسهله
3 - وأن تحقق فيه أسماء النباتات والحيوانات وغيرها بقدر الإمكان مع الاستعانة بالخبراء في هذه العلوم عندما تدعو الحاجة
4 - وأن تصور فيه الأشياء أو أجزاؤها مما يحتاج شرحه إلى تصوير ولا يكفي الوصف البياني في إيضاح حقيقته
5 - وأن يؤتى فيه بأمثلة غريبة من أفصح الكلام وأبلغه من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة والتراكيب العربية البليغة والشعر العربي. وذلك عند كل مناسبة لتوضيح استعمال اللفظ مع الإشارة بقدر الإمكان إلى عصور ما استشهد به
6 - وأن يفصل فيه بقدر الإمكان بين المعاني الحقيقية والمجازية في المادة مع تقديم الحقيقة على المجاز
7 - وأن يشار فيه أحياناً إلى التقلبات التاريخية التي انتابت بعض الكلمات فغيرت من معانيها بتغيير العصور
8 - وأن يختار من الكلمات التي أقرها المجمع في الشؤون العامة والعلمية ما يتفق أعضاء الهيئة على ملاءمته لما يتسع له هذا المعجم
9 - وأن تكون مواد المعجم من الألفاظ العربية الصحيحة أو مما عربته العرب
10 - وأن يشتمل على ملحق بالمشهور من أعلام الأشخاص والأماكن مع مراعاة ما أقره المجمع في هذا الشأن
11 - وأن يشتمل على اصطلاحات العلوم والفنون والآداب عند العرب
12 - وأن يترك فيه الغريب المهجور إذا أغنى عنه مرادفه الصحيح
13 - وأن يضبط ضبطاً دقيقاً لا محل فيه للبس
المادة الثالثة - تبدأ هذه الهيئة عملها اعتباراً من أول مايو سنة 1936 على أن تتمه في ثلاث سنوات على الأكثر ويمنح أعضاؤها مكافأة نظير قيامهم بهذه المهمة

ترجمة معاني القرآن
قرر مجلس الوزراء بالموافقة على ترجمة معاني القرآن الكريم: ونص قراره:
بعد الاطلاع على كتاب فضيلة شيخ الأزهر وكتاب سعادة وزير المعارف العمومية بشأن ترجمة معاني القرآن الكريم
ومع تقدير مجلس الوزراء لمشقة هذا العمل وصعوبته ومنعاً لإضرار التراجم المنتشرة الآن رأى بجلسته المنعقدة في 16 إبريل سنة 1936 الموافقة على ترجمة معاني القرآن الكريم ترجمة رسمية تقوم بها مشيخة الجامع الأزهر بمساعدة وزارة المعارف العمومية وذلك وفقاً لفتوى جماعة كبار العلماء وأساتذة كلية الشريعة
الشعر القبطي القديم
ألقى الدكتور هرمن بونكر مدير معهد الآثار بالجامعة المصرية ومدير المعهد الألماني للآثار المصرية محاضرة في (الشعر القبطي القديم) هذه خلاصتها:
يرجع الشعر القبطي إلى القرن التاسع بعد الميلاد، وهو شعر شعبي وطني لا أثر له في الكتب الثمينة والدواوين الأدبية، بل يوجد في كراسات متفرقة من الورق، وهو يمثل روح الشعب وعقليته، وتظهر فيه جلياً الروابط التي تربطه بشعر العصور الفرعونية كما تظهر علاقته بألحان الشعب في العصر الحاضر
ويؤلف الشعر القبطي من قصص للعامة مثل أغاني الفلاحين وهم يؤدون أعمالهم، وأناشيد
تتلى في أيام الأعياد. وهو على مثال الشعر الفرعوني لم يتقيد بقاعدة القوافي؛ وأبياته لم تراع فيها قواعد الوزن المتبعة في الشعر العربي أو اللاتيني فهو غناء نسقي روعي في كل بيت منه انسجام خاص في الكلمات والتوقيع يوصل إلى نغمة موسيقية، وهذه الطريقة نفسها المتبعة في شعر مصر القديمة
وكانت الأشعار القبطية تلقى بطريقة موسيقية على ألحان متعددة لكل لحن اسم، وكان هذا الاسم مكوناً من الكلمات الافتتاحية لأغنية مشهورة (مثلا: الباب، الحديقة، سمعت السر المقدس. . . انظر إلى فوق. . .) كما تلقى اليوم أغاني العامة على وزن موال كذا وكذا
وكانت الأغاني في أغلب الأحوال مؤلفة من دورين في كل دور أربعة أبيات، وكانت بين الدورين رابطة معنوية، فكان الدور الثاني مثلاً يحوي ردا على سؤال ورد في الدور الأول، وتوجد أيضاً قصائد تمثيلية تشتمل على مقدمة ثم نشيد للمغني، وبعد ذلك دور غنائي غير موزون، يليه رد الجمهور، وكانت تكرر هذه السلسلة مرة أو أكثر على حسب موضوع القصيدة
وفي أحوال أخرى توجد قصائد تشبه كل الشبه الروايات التمثيلية الغنائية فيلقي كل ممثل في دوره دورا غنائياً كما يرى في رواية (اركليتيس ووالدته)
معاهدة ثقافية
عقدت أخيراً بين فرنسا والنمسا معاهدة ثقافية لتقوية الروابط والصلات الثقافية والفنية والاجتماعية بين الأمتين، خلاصتها أن تتبادل الحكومتان الآثار العلمية والفنية، وأن تتبادلا إقامة المعارض الفنية وتنظيم الحفلات الموسيقية والتمثيلية كل في بلد الآخر؛ وقد نص أيضاً على أن المعهد الفرنسي الفني الذي أنشئ منذ حين في مدينة فينا يجب توسعته وتنظيمه، بينما تنشئ النمسا معهداً نمسوياً مماثلاً في باريس؛ كذلك نص على أن تتبادل الحكومتان انتداب العلماء والأساتذة كل في النواحي التي تحتاج فيها إلى معاونة علمية من الطرف الآخر، وأن تنظم كلتاهما كل في بلد الآخر رحلات علمية ورياضية لطلبة المدارس الثانوية، هذا إلى تفاصيل أخرى ترمي كلها إلى تقوية الصلات العلمية والاجتماعية بين البلدين
هذا ومن المعروف أن النمسا قد عقدت مثل هذه المعاهدة الثقافية من قبل مع المجر وإيطالية؛ وهي تبغي من وراء ذلك إلى كسب المعاونة الخارجية للاحتفاظ بمستوى ثقافتها؛ وهي تبذل في ذلك السبيل جهوداً عظيمة داخلية وخارجية
وفاة علامة كبير
من أنباء السويد أن الطبيب والعلامة المجري الشهير الدكتور روبرت بارني قد توفي في أوبسالا في الستين من عمره؛ وكان مولده في المجر سنة 1875؛ ودرس الطب في فينا، ثم زاول مهنته فيها أعواماً طويلة، واشتهر بالأخص بالتخصص في أمراض

الأذن وجراحتها، وفي أثناء الحرب الكبرى انتظم في سلك الجيش، وحارب في الميدان الشرقي، ووقع في أسر الروس، وأمضى في الأسر حيناً في روسيا. ولكن حكومة السويد تدخلت في أمره تقديراً منها لكفاياته العلمية، وسعت لدى روسيا حتى أطلق سراحه، وانتدبته الحكومة السويدية للتدريس في جامعة أوبسالا، وفي أثناء الحرب أيضاً منح الدكتور بارني جائزة نوبل للطب، وأضحى علم الأعلام في طب الأذن؛ وله في هذا الميدان بحوث علمية شهيرة؛ وقد أنفق حياته منذ إطلاقه من الأسر كلها في السويد حتى توفي فيها

الكتب

نابليون: المائة يوم

للسنيور موسوليني والسنيور فورزانو

نقلها إلى العربية الأديب يوسف تادرس

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

مازال عظماء الرجال موضع تفكير الإنسانية وبحثها، ومهما كتب الكتاب في عظيم لم يستوعبوا أسراره بل تبقى في نواحٍ منه مواضع فسيحة للأجيال المقبلة وبحثها، ولقد كان نابليون أعظم من ظهر في الإنسانية في تلك القرون الأخيرة من رجال الحرب والسياسة، ولئن نفِس عليه الأدباء عظمته وأبو عليه الزعامة فيهم، فلن يستطيعوا أن ينكروا أنه قد كان أديباً، وأنه كان شاعراً، لا بأنه كتب الكتب وألف القصائد، بل لأنه كان له فن الكاتب وخيال الشاعر. ولقد حاول أن يجول في ميادين الأدب الخالص كما حاول من قبله قيصر، فلم تترك له مشاغل المعمة ومشاكل السياسة فراغاً لذلك وقلما نجد لغة من اللغات الحية ليس فيها ذكر لذلك الرجل العظيم، ولم تكن القصة مقصرة في ذلك عن التاريخ، فإن كتاب القصص وجدوا في حياته مواطن كثيرة يخرجون منها إلى خيال رائع أو تحليل بديع. فقد كان نابليون على شهرته وتطلع العيون إليه محاطاً بجو من الغموض يجعل في حياته مسارح لقناص الرواية وصيادي الحكاية

وقد اختلفت نظرات الناس في نابليون اختلافاً لا ينم عن شيء نميمته عن عظمته واتساع شخصيته. ولكن لم يكن في مقدور البشرية أن يدرك شخص كنه شخص آخر. فما زال تقدير الناس لنابليون تقديراً يقرب بهم إلى الحقيقة ولا يلمسها. فكل من كتب فيه قارب ولم يصب، ودنا ولم يصل. غير أن بعض الواصفين أقدر من بعض على قصد المرمى وبلوغ المدى، وذلك أن يكون الواصف فيه شيء من طباع الرجل وخلقه وآرائه. فإذا تحقق ذلك كان الواصف أدنى ما يكون من الحقيقة

وقد كتب هذه القصة التي بين يدينا الآن رجل عظيم تدنيه من نابليون علاقات كثيرة ومشابهات متعددة وذلك هو موسوليني، فكلاهما إيطالي، وكلاهما رجل حرب، وكلاهما رجل سياسة، وكلاهما فيه هذه المغناطيسية العجيبة التي تخلق الأصدقاء المخلصين والأعداء المتحمسين، وكلاهما انحنت له هامات كبيرة وعقول حصيفة، فإذا كتب موسوليني قصة عن نابليون، كان أليق الناس أن يصف نبضات قلبه وخلجات صدره. وهاهي هذه القصة تدل على ذلك أكبر الدلالة

يظهر نابليون في هذه القصة عقب أسره الأول وإرساله إلى جزيرة (البا) ويظهر فيها في فترة المائة يوم إلى أسره الأخير وإرساله إلى (سنت هيلانة) ولعمري لهي أيام القصة من حياة نابليون. هي الأيام التي تتجلى فيها مأساة بشرية رائعة:

دسائس ثائرة حوله، ومجهودات جبارة تحاول صد تيار أتيّ فتصرع دونه، وأصدقاء يفر بعضهم ويثبت أقلهم، ثم أنانية لا تنظر إلا إلى النفس ونفعها أو خلاصها، والرجل العظيم في وسط ذلك كله تنعكس فيه كل تلك العيوب وتشع منه كل تلك البواعث صور موسوليني نظام الحكم وأسسه، ونطق عن لسان نابليون في تصوير عيوب الديمقراطية واحتقارها فقال:

نابليون - (. . . . . عندما أبرح باريس إلى الميدان، لا أريد أن يهاجمني البروسيون والإنجليز في وجهي بينما يطعنني مجلس النواب الفرنسي من خلف)

فوشيه - (مولاي إن المجلس هو الأمة)

نابليون - ((ترتفع نبرات صوته) لا. . . ليس هو الأمة (يبحث في مكتبه كالمحموم) إن صانع البنادق في مارسيليا الذي وهب لنا مائة بندقية، وصانع السروج الفقير في بولون

سيرمار الذي قدم ثمانين سرجاً للفرسان، وعمال فيسول وفلاحي أرجون الذين حفروا الخنادق وأبو أن يتناولوا أجرا، وجنود الفرقة التاسعة والسبعين الذين رفضوا الرشوة لأنهم عقدوا العزم على لأن يتبعوني. . . وكل امرأة كنت أنتظر منها رسالة استجداء فإذا بي أتسلم من ذلك رسالة تقدم فيها ما ادخرته من مال. (يريهم لفة مربوطة بشريط وسام جوقة الشرف) هذه هي الأمة يا مسيو فوشيه، وليس الخمسمائة من المحامين الذين يستطيع أربعة من رجال حرسي أن يفرقوهم بمؤخرة بنادقهم)

وصور موسوليني شخص نابليون فلم يترك دقيقة لم يصورها: رجل ينام في أي وقت شاء، ويدرك في دقيقة ما يفوت الافهام في ساعات. فإذا عزم فإنما عزيمة البرق، وذلك حتى بعد أن فل حده وترهل جسده وضعفت عزيمته بعض الضعف. ثم صوره والداً تغلبه العاطفة وزوجاً يذكر حبه الأول ويحنق على زوجة خائنة حنقاً مكتوماً وإنساناً يحتمل العذاب والأحقاد احتمال الجبار

ثم صور موسوليني الموقعة الأخيرة، فكان في وصفه القائد الواقف على نشز من الأرض يرقب جنوده من منظاره، ويحرك الفيالق عن علم ودراية، حتى لكأننا ننظر من ثنايا وصفه ميدان (كاتربرا) و (واترلو). ونسمع أصوات القواد والساسة في مفاوضاتهم بعد النصر الأخير

فالقصة مثل رائع من أمثلة التأليف القصصي التاريخي، يكاد الإنسان لا يبصر فيها موضع القصص لصدقها التاريخي، ويكاد لا يلمح التاريخ لصدق تصويرها القصصي

وقد أحسن حضرة الأديب يوسف أفندي تادرس الناقد المسرحي لجريدة السياسة الغراء، في إخراج هذه القصة إلى اللغة العربية التي ما كان لها أن تفقد قصة موضوعها نابليون ومؤلفها موسوليني. وقد نقلها عن الترجمة الإنجليزية للشاعر الإنجليزي المعروف (جون درنكووتر)

وقد قرأت التعريب كما قرأت الترجمة الإنجليزية التي عربها المعرب، فإذا بي حيال قصة عربية سلسة حلوة الأسلوب سهلة اللفظ، قد أبرز المعرب روحها إبرازاً لم يدع فيها موضعا لغموض مع الصحة والدقة

فعلينا أن نشكر لحضرة المعرب الأديب مجهوده العظيم الذي أضاف به كنزاً كهذا إلى اللغة العربية المجيدة

محمد فريد أبو حديد

مكتبة القراءة والثقافة الأدبية

بقلم الدكتور أحمد فريد رفاعي

مدير إدارة المطبوعات

لا حاجة بنا أن نقدم إلى القراء الدكتور أحمد فريد رفاعي فهو ذو الشهرة الطائرة والصوت البعيد في عالم الأدب، وفي طليعة الجمهرة المستنيرة المثقفة في مصر، يجمع إلى نشاطه الوثاب عزيمة لا تفتر وهمة لا تكل، وهو جد معني بأن يظهر أبناء العربية على طريف البحوث وشائق التآليف في مختلف مناحي الثقافة العربية، فقد أصدر منذ سنوات قليلة مؤلفه الكبير (عصر المأمون) ونال ما يستحقه من الرضا والإقبال، كما أصدر سلسلة (الشخصيات البارزة)؛ وهاهو ذا الآن لا يشغله منصبه الرسمي الكبير عن أن يتحف أبناء العربية بسلسلة جديدة في أربعة أجزاء تشمل دراسة موضوعات مختلفة في الثقافة العربية أصدرتها مطبعة المعارف في حجم لطيف وهي (المقدمة، والتعقيب، والتذييل، والتعليق) وهي تشمل بحوثاً مستفيضة في نواح مختلفة تلذ حقاً وتنفع حقاً، فمن حديث عن حاجة العربية إلى التجديد، إلى كلام عن فن القراءة، إلى درس البرامج الدراسية العربية والإفرنجية، إلى مطلب عن القراءة، إلى حديث عن موقف المؤلف بين العربية والإنكليزية، إلى فذلكات عن ابن الجوزي والبغدادي وياقوت الحموي والفارابي وابن سينا وقيس بن رقاعة والزجاج وابن مسكويه وعمر بن الخطاب وأبي موسى الأشعري وأبي عبيدة الجراح ومعاذ بن جبل وأبي حيان والأشتر النخعي والبصري والمهدي وطاهر بن الحسين وابن طيفور والصابي وابن زيدون والإسكافي وابن سعيد المغربي وابن صخر الهذلي، إلى غير ذلك من الأحاديث الشيقة والدراسات الممتعة

وقد صدره المؤلف الفاضل بمقدمة بليغة، شرح فيها غرضه من تأليفه وهو حرصه على توجيه الشباب توجيهاً نافعاً إلى الطريق الأقوم. فعسى أن يكون إقبال القراء عليه مكافئاً لجهده ومحققاً لقصده

(س)

العدد 148 - بتاريخ: 04 - 05 - 1936

الملك العالم فؤاد الأول

سبحانك اللهم مالك الملك! تدبر أمرك في سمو على مدارك العقل، وتنفذ حكمك في استقلال عن هوى الناس! فلا حرص الوالد على وحيده يلطف قضاءك فيه، ولا حاجة الشعب إلى مليكه ترد بأسك عنه. حكمة ضلت فيها الفطنة ضلال الأفن، وقوة ضاعت فيها القدرة ضياع العجز، وسلطان خضع له الملك خضوع السُّوقة!

كان الملك فؤاد رحمه الله مظهراً من مظاهر القدر في الأرض. يجلس على عرش من أعرق العروش نسباً في الملك؛ ثم يأمر فيطيع شعب، ويقول فيسمع عصر، ويعمل فيسجل تاريخ، ويضع حكمه في الأمور موضع الإدارة السماوية فيكون شريعة لا تخالف، وعقيدة لا تنكر. وتلك طريقة الملك بمعناه الشرقي الموروث، تصلح مادام لها من هدى الله دليل ومن رَوْح العدالة سند؛ وشبل إسماعيل كان ملكاً بنشأته ومصلحاً بطبعه: رُبي تربية ملكية، ونُشِّئ تنشئة عسكرية، وثُقِّف ثقافة حديثة؛ ثم تقلب بين ملكية رومة، وخلافة الآستانة، وخديوية القاهرة، فارتسم على صفحة ذهنه صور من كل. ولكن عبقريته الفنية وعقليته العلمية ورجولته العملية، جعلت منه ملكاً فيه خصائص المُلك، وليس فيه نقائض الملوك. وإذا قلت إن الشرق لم ير قبل فؤاد ملكاً واسع الإحاطة شامل الثقافة قوي الإدراك لا تبعد عن الصدق

كانت مواهب الأمير فؤاد تأبى عليه إلا أن يكون كخالد ابن يزيد رجل علم إن لم يكن رجل مُلك. لذلك لم يصبر طويلاً على أن يكون حاشية للسلطان في سراي عبد الحميد أو قصر عباس، فعاد فاتبع إحدى سبيلي المجد؛ وأقبل يذكي النهضة المصرية بالعلم النافع والعمل المنتج والقوة المحركة؛ فكان رئيساً لتسع عشرة جمعية أو مؤسسة ما بين علمية واقتصادية وخيرية، كلها من اقتراح رأيه أو من ثمرة سعيه. فلما بوَّأه الله عرش مصر في ساعة مضطربة وحالة مبهمة، كان يرى لطول ما خبر الشعب، وكثرة ما عالج الأمور، ووفرة ما عرف من الوسائل، وكفاية ما تزود للإصلاح، وقوة ما ضمن لتوزيع العدل، أنه أول الناس وأولى الناس بقيادة أمته في أشد مراحلها تعرضاً للضلال والخطر؛ وهذه القيادة نوع من أنواع الحكم المطلق، يعتمد على وحي العقيدة وإخلاص الرأي كالخلافة، أكثر مما يعتمد على استبداد الزعامة وقوة الجمهور كالدكتاتورية؛ ومن ذلك كان منشأ النزاع الثلاثي الذي قام بين العرش والاحتلال والدستور حيناً على حين؛ ومن طبيعة هذا النزاع أن يتجاذب أطراف الأمة الثلاثة فتنبسط لتنقبض، وتتسع لتضيق، ولكن القوة التي كان الملك يستمدها من صبره وحكمته وجرأته وخبرته وذكائه كانت في الكثير الغالب تشد الطرف الراجح إلى يده، فيسير في الإصلاح بالقدر الذي يبقي على هذا التجاذب من الإمكان والقدرة. ومع ذلك كان التقدم في عهده على محافظته وأناته محسوس الأثر؛ فلقد تعهد منابت الثقافة فغذاها بعونه، وتفقد منابع الثروة فرفدها بعنايته، وبسط رعايته على كل أمر من أمور الدولة وكل شأن من شئون الأمة حتى لا تجد عملاً من الأعمال العامة إلا كان فيه بسطة من لسانه أو يده

ولعل أشرق وجوه الإصلاح في عهد المليك الراحل ما اتصل منها بالجمعيات الاقتصادية والمؤسسات العلمية والمؤتمرات الدولية والمتاحف الأثرية والمرافق العامة؛ أما الأعمال الفردية والجهود الأدبية فكان نصيبها من حكمه السعيد كنصيبها من حكم جده الأعلى محمد علي. على أن عناية المليك العظيم بها قد بدت بواكيرها المرجوة في مثل بنك التسليف ومجمع اللغة؛ فلو مد الله في عمره الحافل المبارك حتى تنضج لكان عصره أشبه بعصر لويس الرابع عشر

كان الملك فؤاد بالرغم من عوامل نشأته، وعلى النقيض من ميول أبيه، شديد التعلق بدينه، قوي الحرص على شرقيته؛ يكره أن يجعل من مصر قطعة من أوربا، ويجب أن تظل دولة إسلامية شرقية لها تقاليدها الخاصة، وأسانيدها المتصلة، وسماتها المميزة، فساعد الحجاب، وأيد الطربوش، وعضد الدين في كل خلاف بينه وبين التطرف؛ وكان

من ذلك شيء من التصادم المكبوت بين الرغائب الوثابة الشابة، وبين هذه الأناة الملكية الحكيمة
إن من العسير على المنطق النزيه أن يحكم اليوم على أعمال مليكنا العالم العامل الكفء، فإنها إنما بدت للناس على ألسنة رجال البلاط، وعلى أيدي رجال الحكومة؛ والبلاط قد يتأثر بشهوات الناس، والحكومة قد تتأثر بنزوات الساسة. ومهما يقل التاريخ في العصر الفؤادي فسيسجل بالخط البارز أنه عصر الرخاء للنيل، وعهد الاستقلال للأمة، وفجر النهضة في مصر
عز الله مصر عن ملكها العظيم الفقيد، وبارك الله لمصر في ملكها العزيز الجديد
أحمد حسن الزيات

مقياس الشباب

للأستاذ أحمد أمين

أما الأطباء وعلماء الإحصاء فيقدرون الشباب بالسن، فمن بلغت سنه العشرين أو قبل ذلك قليلا أو بعد ذلك بسنتين فشاب وإلا فلا؛ فتحديد السن هو مقياس الشباب، كما هو مقياس الطفولة والهرم، فإن شئت أن تعرف المخلوق أطفل هو أم شاب أم شيخ فأغمض عينك وعدّ السنين، ولا تنظر إلى قوة أو ضعف، ولا إلى صحة أو مرض وسار على هذا النمط علماء اللغة، فقالوا: مادام الإنسان في الرحم فهو جنين، فإذا ولد فهو وليد، ثم مادام يرضع فهو رضيع، ثم إذا قطع عن اللبن فهو فطيم، فإذا كاد يجاوز العشر سنين أو جاوزها فهو ناشئ، فإذا كاد يبلغ الحلم أو بلغه فهو يافع ومراهق، ثم مادام بين الثلاثين والأربعين فهو شاب، ثم هو كهل إلى الستين
ولكن هناك شاعرا أراد أن يخرج على هذه التقاليد، وأراد أن يقيس الشباب والفتوة بالمعنى لا بالمبنى، وبالقوة لا بالسن، فقال:
يا عزُّ هل لكِ في شيخ فتىً أبدا ... وقد يكون شبابٌ غيرُ فِتْيَانِ؟
فهو لا يريد أن يعترف بأقوال الإحصائيين، ولا أقوال اللغويين، فقد يسمى الشيخ شاباً متى حاز صفات الشباب، وقد يسمى الشاب شيخاً إذا حاز صفات الشيوخ، فالعبرة عنده في التسمية الصفة لا السن، وهي من غير شك نظرة جريئة ومذهب جديد ينظر فيه إلى الكيف لا إلى الكم، وإلى النتائج لا إلى المقدمات، وإلى الغاية لا إلى الوسيلة؛ فإذا عرضْتَ عليه رجلا قد ناهز الستين أو جاوزها، قد لبس في حياته العمائم الثلاث: السوداء ثم الشمطاء ثم البيضاء؛ وعرضت بجانبه من يسمونه شاباً، لم يلبس في حياته إلا العمامة الأولى. ثم سألت صاحب هذا المذهب: ما قولك دام فضلك في هذين؟ هذا أربى على الستين، وهذا في سن العشرين. فأيهما الشاب، وأيهما الشيخ؛ لم يستسخف سؤالك، ولم يعده بديهية من البديهيات، بل عده مجالاً للنظر الطويل والتفكير العميق، وقال: ليس الأمر بالسن أيها السائل، فمن رأيته منهما متهدماً قد نضب ماؤه، وذهب رواؤه، وذوى عوده، وخوى عموده، ورق جلده، وانخرع متنه، وحطمته اللذات، وأنهكت قوته الشهوات، حتى صار لا يحمل بعضه بعضاً، فهو الشيخ وإن كان ابن العشرين؛ ومن امتلأ قوة، وبلغ كمال البنية، واستوت قامته، واعتدل غصنه، وحفظت جدته، وأحكمت مِرته، وتجلت رجولته، واكتمل نشاطه، فهو الشاب ولو جاوز الستين. إنما يلجأ إلى السن في تحديد الشباب والشيخوخة من قصر نظره، وضعفت قوة حكمه، وأراد أن يعالج الأمر من أسهل طرقه، وأقرب مسالكه، وذلك شأن الغر الأبله، لا الفيلسوف الحكيم، ولم كنا إذا قسنا العلم وقسنا الكفاية، وقسنا الخلق والصلاحية للأعمال لم نرجع في شيء من ذلك إلى السن، وإذا قسنا الشباب والشيخوخة رجعنا إلى السن؟ ليست السن مقياس الشباب، وإنما أحسن أحوالها أن تكون علامة الشباب، وقد تتخلف العلامة كحكمنا على الرجل بالعلم لأن لديه شهادة الليسانس في الآداب أو الليسانس في الحقوق، وقد يكون معه الليسانس أو الدكتوراه وليس بعالم، كما يكون في سن العشرين وليس بشاب. إن الشباب أو الشيخوخة معنى لا مادة، وقد علمتنا قوانين الحياة أن المادة تقاس بمادة، والمعنى يقاس بمعنى. فنحن نقيس الحجرة المادية بالمتر المادي، ونكيل القمح المادي بكلية مادية، ونزن التفاح المادي برطل مادي، ولكن من السخف بمكان أن تقيس الفضيلة أو الجمال أو القبح بمتر أو رطل أو قدح، فلم نقيس الشباب وهو معني بالسن وهي مادة؟

بل لو تعمقنا أكثر من ذلك لوجدنا أن حسن الرواء وجمال المنظر ومرح النشاط ليست هي المقياس الصحيح للشباب، إنما الشباب مزاج، هو محصل لمجموع قوى نفسية، هو حاصل جمع لصفات خلقية، إن شئت فقل هو الإرادة قوية تعزم العزم لا رجوع فيه، وتزمع الأمر لا محيد عنه، وترمي إلى الغرض لا سبيل إلا إليه، تعترض الصعاب فلا تأبه لها، وتخر السماء على الأرض فلا تتحول عنه؛ قد تعترف بأن هناك عقبة، ولكن لا تعترف بعقبة كؤود؛ وقد تقر بصعوبة الأمر، ولكن لا تقر باستحالته - والشباب هو العاطفة القوية المتحمسة الصحيحة، ومظاهر صحتها أنها ثابتة فليست (قشاً) تشتعل سريعاً وتخمد سريعاً، ليست مضطربة تذهب مرة يمينا ومرة يسارا من غير غرض يحدد اتجاها، وليست مائعة تحب فتذوب في الحب، وتغضب فتجن في الغضب، إنما ألجمها بعض الإلجام العقل والمصلحة والغرض - والشباب هو الخيال الخصب الواسع الأفق والمترامي الأطراف الذي يرسم الأمل ويبعث على الطموح، ويحمل المرء على أن يتطلب لنفسه ولأمته حياة خيرا من حياتها الواقعية - هذا المزاج الذي يتجمع من إرادة قوية وعاطفة حية وخيال

خصب هو الشباب، وبمقدار قوتها وتلاؤمها تكون قوة الشباب، وبمقدار نقصها تكون الشيخوخة، فالشباب موجب والشيخوخة سالبة، والشباب إقدام والشيخوخة إحجام، والشباب نصرة والشيخوخة هزيمة

وإذا كان الناس قد اعتادوا أن يصطلحوا على علامات للشيب والشباب حسب تفسيرهم الباطل فإن لنا علامات أخرى على تفسيرنا الصحيح

لقد جعلوا الرأس موضع أهم الإمارات، فسواد الشباب وبياض المشيب أكثر ما دار عليه القول في الشيخوخة والشباب، وهو مركز القول في ذلك عند الأدباء والشعراء، حتى ألفوا في ذلك الكتب الخاصة من أشهرها كتاب (الشهاب في الشيب والشباب) جمع فيه الشريف المرتضى تسعة وثلاثين بيتاً في الشيب لأبي تمام، ومائة وأربعين للبحتري، وثلثمائة وأربعة عشر للشريف الرضي، وأربعمائة وثلاثة وستين للمرتضى، وستة وأربعين لابن الرومي. وقد التفت مؤلف هذا الكتاب في مقدمته إلى فكرة جليلة، ولكنه لم يحسن تعليلها، قال: (إن الإغراق في وصف الشيب والإكثار في معانيه، واستيفاء القول فيه، لا يكاد يوجد في الشعر القديم، وربما ورد لهم فيه الفقرة بعد الفقرة، فكانت مما لا نظير له، وإنما أطنب في أوصافه واستخرج دفائنه والولوج إلى شعابه الشعراء المحدثون)

وعلة ذلك في نظري أن الحياة في الجاهلية وصدر الإسلام لم تكن غالية، كانت تتطلب المجد وتسترخص الموت، غير أن المجد في الجاهلية كان مجد الذكر وحسن الأحدوثة والخوف من العار وإتباع التقاليد، وكان في الإسلام ذلك، وعند بعضهم الاستشهاد في سبيل الدعوة وبيع النفوس لله برضاه وجنته، فليست الحياة تستحق البكاء الطويل عليها. أما في العصر العباسي فكانت أشبه بحياة الرومانيين؛ من أهم أغراضها اللهو واللعب، ومن أهم أغراضها القرب إلى النساء والتحبب إليهن، وذلك يستدعي حب الحياة؛ فنذير الموت وهو الشيب بغيض إلى النفس، والنساء يكرهن الشيب فيجب أن يكره، ويعيرن به فيجب أن يبكى، ويمدحن الشباب ويحببنه فيجب أن يرثى. لهذا كثر القول في الشيب في العصر العباسي وما بعده، وقل فيما قبله

أما علامات الشباب والشيخوخة في نظريتنا: فليس موضعها الرأس، إنما موضعها القلب، فاليائس شيخ لأن اليأس ضعف في الإرادة وضيق في الخيال، وبرودة في العاطفة، والشيب

شيب القلب لا شيب الرأس، فمن لم ينفعل لمواضع الانفعال، ولم يعجب لمواضع الإعجاب، ولم يستكره في مواضع الاستكراه، ولم ينازل في مواضع الكفاح، ولم يطرب للموسيقى الجميلة والمنظر الجميل، ولم يهتج للأحداث، ولم يأمل ولم يطمح، فهو شيخ أي شيخ، شاب قلبه، وإن كان أسود الرأس حالكه

إن أردت أن تعرف أشيخ أنت أم شاب فسائل قلبك لا رأسك، هل ينبض بالحب: حب الجمال، وحب الطبيعة، وحب الفضيلة، وحب الإنسانية، وهل ينفعل لذلك انفعالاً قوياً فيهيم ويغار ويدافع ويضحي؟ هل يتصل قلبه بالعالم فيتلقى أمواجه الأثيرية من الناس، ومن الأرض، ومن البحر، ومن الجبل، ومن السماء. ثم يلقي بأشعته - كما تلقى - على كل من حوله، فينفعل ويفعل، ويتأثر ويؤثر؛ فهو كالقمر يتلقى من الشمس ضياء وهاجا

ويعكسه على الأرض نوراً وضّاء؟ هل يبادل من حوله حباً بحب، وعاطفة بعاطفة، وخيراً بخير، وأحياناً شراً بشر؟ وهل يترك العالم خيراً مما تسلمه؟ أو أن قلبه بارد كالثلج، جامد كالصخر، لا طعم له كالماء، ميت كالجماد، مغلف كالخرشوف؟

إن كان الثاني فشيخ، وإن كان الأول فشاب

قالت كبِرْتَ وشِبْتَ قُلْتُ لها ... هَذَا غُبَارُ وقَائِعِ الدَّهر

أحمد أمين

النهضات القومية العامة في أوروبا وفي الشرق

للأستاذ عبد الرزاق أحمد السنهوري

عميد كلية الحقوق ببغداد

بقية المحاضرة الثانية

طرقها في التنظيم:

وللفاشية طرق للتنظيم. والحكومة الفاشية تتألف من الملك والمجلس الأعلى والوزراء ومجلس الشيوخ ومجلس النواب والمجلس الوطني للنقابات. ومن وراء هذا الحزب الفاشي على درجة عليا من التنظيم، وهو القيم على الحكومة الفاشية كما أن الحزب الشيوعي هو القيم على الحكومة البلشفية. ومن وراء هذا وذاك الزعيم. وهو رئيس الحزب الفاشي، ورئيس المجلس الأعلى، ورئيس الوزراء، ورئيس المجلس الوطني للنقابات. وفي يده تتركز كل السلطات

والجديد في هذا التنظيم أمران:

الأمر الأول هو أن أعضاء مجلس الشيوخ والنواب لا يأتون بطريق الانتخاب كما في الدول الديمقراطية، بل يأتون بطريق التعيين. فأعضاء مجلس الشيوخ يعنيهم الملك بناء على ترشيح الحكومة. وأعضاء مجلس النواب يعينهم المجلس الأعلى، ويصدق على التعيين الناخبون بطريق القائمة. والناخب يصوت لا كفرد سياسي، بل كشخص اقتصادي، فيفرق بين أصحاب الأعمال والعمال والقائمين بالأعمال الفكرية

والأمر الثاني هو أن هذه الهيئات المختلفة التي تتألف منها الحكومة الفاشية فيها هيئتان جديدتان لا نظير لهما في الدول الديمقراطية: المجلس الأعلى والمجلس الوطني للنقابات. أما المجلس الأعلى فهو اللجنة التنفيذية للحزب الفاشي نجح موسوليني في إدماجها في الحكومة الإيطالية. ويتألف هذا المجلس من نحو عشرين عضواً يرأسهم الزعيم. وفيهم أعضاء معينون لمدة غير محدودة، وأعضاء لمدة محدودة، وأعضاء بحكم وظائفهم. ويختص هذا المجلس بالنظر في المسائل التشريعية الكبرى، كسن القوانين الدستورية. وهو الذي تتركز فيه السلطة التنفيذية بعد الزعيم

ويعين أعضاء الهيئات التي تتألف منها الحكومة الفاشية والحزب الفاشي. أما المجلس الوطني للنقابات فيتألف من ممثلين لأصحاب رؤوس الأموال وممثلين للعمال ويرأسه الزعيم. وهو ينقسم إلى فروع تتمشى مع النواحي المختلفة للنشاط الاقتصادي. فتمثل فيه الصناعة الكبرى. والصناعة الصغرى، والزراعة، والتجارة، والنقل، والمصارف وغيرها. ذلك أن أصحاب رؤوس الأموال والعمال في كل ناحية من هذه النواحي منتظمون في نقابات متدرجة من محلية إلى إقليمية إلى مركزية إلى هذا المجلس الوطني للنقابات ويتناول اختصاصه بنوع خاص توجيه النشاط الاقتصادي في البلاد

ومن هذا نرى أن الفاشية، بحكم المبادئ التي تقوم عليها، والوسائل التي تتذرع بها في العمل، والطرق التي تتبعها في التنظيم، خصم للاشتراكية من جهة، وللفردية من جهة أخرى؛ فموقفها بالنسبة للفرد موقف وسط، لا تدمجه في الدولة كما تفعل الاشتراكية، ولا تطلق له الحرية كما تفعل الفردية

النازية:

وإذ فرغنا من التحدث عن الفاشية في إيطاليا نقول كلمة موجزة عن النازية في ألمانيا. وحتى نختصر الطريق نكتفي في الكلام على النازية بأن نقارن بينها وبين الفاشية، فالحركتان تتفقان في المبادئ ووسائل العمل. ذلك لأن النازية تقدس القومية، ولكن القومية عندها لا تقوم على رابطة الوطن كما في الفاشية، بل تقوم على رابطة الجنس. فالجنس الجرماني كله، لا الأمة الألمانية وحدها، هو الذي يجب أن يتحد. والنازية كالفاشية توفق ما بين المبادئ الاشتراكية والنزعة الوطنية، فهي وطنية

اشتراكية ذات صبغة عملية. والنازية كالفاشية لا تؤمن بالجامعات الدولية، فهي ترى عصبة الأمم جامعة خيالية، وتقيم حربا عواناً على البلشفية. وقد انتظم هتلر الشيئين في خطبته التي ألقاها منذ شهر عقب الحوادث السياسية الأخيرة، فهو يقول: (إن الأمم كانت فريسة للخيالات والأوهام عندما آمنت بعصبة الأمم، وإن السلام الذي كان يجب أن يكون حجراً يقفل به ضريح الحرب إلى الأبد أصبح مباءة تنمو فيها بذور ارتباكات جديدة، وإن الثورة الشيوعية لم تقتصر على وضع طابعها على إمبراطورية من أعظم الإمبراطوريات في العالم، بل اتجهت أيضاً إلى الشعوب المجاورة. فهناك جيوش مؤلفة من ملايين الرجال تذهب إلى الحرب لإشعال ثورات عالمية من أجل الشيوعية، وتجند هذه الملايين بدعوى السعي إلى إبطال الحروب. .)

والنازية كالفاشية تجعل الحكم للأقلية الصالحة، ويقول هتلر في هذا المعنى: (نريد رجالاً قليلين من الطبقة الحاكمة الجديدة، هم الذين يؤمنون بأن لهم الحق في أن يحكموا لتفوقهم، ويبسطون سلطانهم دون تردد على السواد من الجماهير). على أن هذه الأقلية الحاكمة تدين كلها بالخضوع والولاء للزعيم الأكبر

والنازية كالفاشية في نزعتها الاستعمارية العسكرية. فهي تذهب إلى أن العلم الحديث يولد إيماناً لا يتزعزع في القيمة الخلقية العليا للحرب. ويقول الدكتور جوبلز: (إذا حاولت أن تقمع الحرب، فأنك تكون كمن يحاول أن يقمع حركات الطبيعة)

والنازية كالفاشية في الظروف التي نشأت فيها. فقد قامت النازية عقب خروج ألمانيا من الحرب مهزومة. وكان للاضطرابات التي أحدثها الاشتراكيون الألمان، والإضرابات التي نظموها، أثر حاسم في هذه الهزيمة. وقد سام الحلفاء المنتصرون ألمانيا المهزومة في شروط الصلح خسفا جرح كبرياءها، وفي وسط هذه الغيوم المتلبدة سطع نجم مؤسس النازية، بعد أن أقام حركته لمقاومة البلشفية، ولإنقاذ الوطن الجرماني، وبعثه من جديد

والنازية كالفاشية أخيرا في شخص الزعيم. ففي إيطاليا موسوليني القائد المحرك وفي ألمانيا هتلر القائد المرشد هذا وراءه النازي فرقاً منظمة وهم ذوو القمصان السمراء، وذاك وراءه الفاشستي أي فرق الكفاح، ذوو القمصان السوداء. وقد لجأ الرجلان إلى أساليب واحدة في تنظيم معسكريهما: خضوع مطلق لسلطان الزعيم، ونظام عسكري دقيق، وروح وطنية حربية، وشبان يحتشدون بالألوف، ويدخلون أفواجاً في هذا الدين الجديد. وكل من الفاشية والنازية دين ينطوي على إيمان عميق. ولهذا الدين فرائضه ومناسكه، تتمثل أوضاعاً ورسوما، فمن حركات عسكرية، إلى أعلام خفاقة، إلى إشارات رمزية، إلى شارات موضوعة، إلى أناشيد محفوظة، إلى لباس خاص

والرجلان قد رزقا موهبة الخطابة وقوة البيان، والقدرة على اجتذاب شعور الجماهير. وهما إنما يبشران بدين وأيمان، وقوة الإيمان يغذيها سحر البيان. والرجلان من رجال العمل لا من رجال الفكر، فهما لا يترددان، ولا يتمهلان، بل يسيران قدماً إلى الأمام

والرجلان يتشابهان نشأة وتربية وقوة وسطوع نجم. نشأ في المتربة والمسغبة، موسوليني أبوه حداد، وهتلر أبوه مستخدم صغير في الجمارك النمساوية. وعاش الاثنان عيشة الكفاف ثم هجرا بلديهما، فذهب موسوليني إلى جنيف، حيث اشتغل عاملاً فبناء؛ وذهب هتلر إلى فينا، حيث اشتغل عاملاً فرساما. وقد تربى كل منهما في مدرسة واحدة، هي مدرسة البؤس والشقاء، تلك المدرسة التي كثيراً ما تبنت عظماء الرجال. فتعلما فيها صلابة العود، وقوة العزيمة، ومجالدة الفاقة، ومنازلة الأخطار، وتخرج كل منهما قوي الشكيمة شديد المراس. وأتما تربيتهما معاً في مدرسة أخرى، هي مدرسة الحرب الكبرى، إذ تقدم كل منهما إلى هذه الحرب، فخاض غمارها، واصطلى بنارها، وعانى أهوالها، وجرح في معاركها، وأبلى فيها بلاء حسنا، وخرج منها وقد استكمل النضوج، واستوفى الرجولة، وسار إلى ما هيأته له الأقدار

وأسس موسوليني أول فرقة للكفاح في ميلان سنة 1919 من مائة وأربعين رجلاً، وتزايدت فرق الكفاح، ونظمت تنظيماً عسكرياً دقيقاً، فأمكنه أن يحشد بعد ثلاث سنوات مائتي ألف من الرجال، استولوا على إيطاليا الوسطى وسبعين ألفاً زحفوا على روما، وقبضوا على ناصية الحكم بالقوة. وهو الآن في قصر فينسيا يصرف أقدار

أمة كبيرة ويحكمها حكماً دكتاتورياً. وذهب هتلر بعد الحرب إلى مونيخ، وهناك انضم إلى حزب صغير غير معروف، فأخذ يقويه، وينفخ فيه من روحه حتى حشد فيه الآلاف من الرجال. وسجن عقب إخفاقه في ثورة أراد بها قلب الحكم في بافاريا، وكتب في السجن كتابه الذي أسماه: (جهادي ولما أطلق سراحه، جمع شتات حزبه وكان قد تفرق. وعاد إلى الجهاد؛ ثم أخذ يستولي على مشاعر الأمة الألمانية شيئاً فشيئاً، حتى ضمها تحت لوائه، وأصبح الآن هو المسيطر على سبعين مليوناً من البشر من أعظم الشعوب وأرقاها، يخضعون لإشارته، ويدينون له بالولاء

بقي أن نقول إن الفاشية والنازية تنازلان البلشفية بنفس سلاحها. فهما كالبلشفية تحكمان حكما دكتاتورياً، وهما كالبلشفية أيضاً تخضعان النظام السياسي للنظام الاقتصادي. والمعركة قائمة بينهما وبين البلشفية، فأي المعسكرين يكتب له الانتصار؟ هذا هو السر المخبوء في عالم القدر. على أن الحوادث السياسية الأخيرة وبنوع خاص تلك المحالفة التي

عقدتها فرنسا مع روسيا البلشفية والتي أثارت سخط خصوم البلشفية حتى بين الفرنسيين أنفسهم، قد تعجل بالمعركة الفاصلة، وقد تغرق أوروبا من جديد في بحار من الدماء

على أنه سواء تغلبت البلشفية في المعركة القادمة، أو انتصرت الفاشية والنازية، فالواقع من الأمر أن كلا الخصمين مشبع بروح الدكتاتورية البالغة في التطرف، وأن الصريع بينهما هي الديمقراطية على كل حال. وقد صار واجبا على الديمقراطيين أن يراجعوا أصول الديمقراطية من جديد، حتى تتمشى مع ما يقتضيه هذا التطور السريع والآن وقد انتهينا من استعراض الحركتين الفاشية والنازية وانتهينا بذلك من استعراض النهضات القومية في أوروبا منذ العصور الوسطى إلى الآن، نختتم هذه المحاضرة بإيراد بعض النتائج العامة التي نستخلصها من تطور هذه النهضات، ونكتفي منها بثلاث:

النتيجة الأولى: هي أن رابطة الدين التي كانت تسود في العصور الوسطى قد زال سلطانها في العصور الحديثة. وقد انفصلت الكنيسة عن الدولة. ولا نعني بذلك أن سلطان الدين قد زال من القلوب، فإن الإنسانية لا غناء لها عن الدين مهما بلغ حظها من التقدم. ولكن عرش الدين مكانه القلوب والضمائر. أما الروابط الاجتماعية فتتصل بالدين من جانبه الاجتماعي، لا من جانبه الاعتقادي

والنتيجة الثانية هي أن الفرد في أوروبا لم يتحرر إلا بعد أن تحرر المجموع. والديمقراطية التي حررت الفرد لم تقم إلا بعد أن تدعمت الوطنية التي حررت الأمم. وليس في هذه النتيجة العملية خروج على المنطق، ولا انحراف عن طبيعة الأشياء، فالفرد جزء من المجموع، فكيف يكون الجزء حراً إذا كان المجموع مقيداً في ربقة الأسر؟

والنتيجة الثالثة والأخيرة هي أن القوميات في أوروبا عندما تكونت أسرفت في التعصب، وتطرفت في الاستئثار. وتقهقر الجانب الإيجابي من الوطنية، وهو حب الإنسان لوطنه أمام الجانب السلبي وهو بغضه للأوطان الأخرى، وحل التعصب للدين، فكان من ذلك أن هزت الحروب أركان أوروبا، واندلعت نيران التعصب للوطن بعد أن نشأت الوطنية وترعرعت ضيقة هوجاء، وأصبحت لا تتسع للاندماج في روابط الجنس والدم. وتعاني أوروبا الآن من تقطع وشائج القرابة ما بين الأمم الأوروبية ما تقف أمامه عصبة الأمم عاجزة دون حول. فما كان أولى برابطة الوطن أن تتوثق في ظل رابطة الجنس! وما كان

أولى برابطة الجنس أن تتوثق في ظل رابطة أوسع! وهكذا تدعم كل رابطة أختها، فتحقن الدماء ويسود السلام.

عبد الرزاق أحمد السنهوري

صور من القرن الثامن عشر

جاكومو كازانوفا - 4

جوَّاب مجتمع ومغامر مرح

خاتمة البحث

للأستاذ محمد عبد الله عنان

والآن وقد استعرضنا سيرة ذلك الجّواب المرح والمغامر الجريء، نحاول أن نستعرض

جوانب شخصيته ومناحي نفسه، وأن نقرأ في حوادث حياته لمحة من خلال العصر الذي عاش فيه:

كان القرن الثامن عشر عصر تطور فكري واجتماعي عميق، وكان أيضاً عصر انحلال فكري واجتماعي، وكان المجتمع الأوروبي القديم ينحدر يومئذ إلى نوع من الخمول والدعة، ويجنح إلى تذوق متاع الحياة المادي بكل ما وسع من رغبة وهوى؛ وكان كازانوفا يمثل روح عصره وخواص عصره، بل كان يمثل رذائل عصره أتم تمثيل وأصدقه؛ وكان يمثل بالأخص الجانب المادي من هذه الخواص والرذائل، فكانت خلاله مزيجاً من الاستهتار والمرح، والجرأة والطموح، والعزم والخمول؛ وكانت غاية الحياة عنده هي الحياة ذاتها بما فيها من متاع ولذائذ وترف. كان كازانوفا يحب الحياة حباً جما، وهو يصفها في مذكراته (بأنها هي الشيء الوحيد الذي يملكه الإنسان حقا)، ويشبهها (بغانية حسناء يعشقها الإنسان، ويهبها ما شاءت مادامت باقية عليه)؛ وهذه الفلسفة المادية المحضة هي التي تغمر حياة كازانوفا وتوجهها

وهذه النظرة المادية إلى الحياة، وهذه الفلسفة المستهترة المرحة، وهذه الخواص السقيمة المنحلة، تقدمها إلينا مذكرات كازانوفا بصورة بارزة؛ والواقع أن هذه المذكرات الشهيرة التي تشغل عدة مجلدات كبيرة، إنما هي صورة قوية جامعة لمجتمع القرن الثامن عشر وخواصه وفضائله ورذائله؛ وهي ليست قصة كازانوفا فقط، ولكنها قصة جوانب عديدة من الحياة الاجتماعية في هذا العصر؛ ففيها نرى حياة المغامر الجريء، والمشعوذ الأفاق، والعاشق المضطرم، والسيد المنعم، والشريد البائس؛ وقد كان كازانوفا كل أولئك، وكان له

كل خلالهم، ورذائلهم، وهؤلاء جميعاً يملئون فراغ حياته

وهذه المذكرات الشهيرة هي أسطع ما في حياة كازانوفا، وهي التي خلدت ذكره. ذلك أن كازانوفا لم يكن في ذاته شخصية هامة ولم يكن من رجال التاريخ، ولكن حياته العجيبة تقدم إلينا مزيجاً مدهشاً من الفلسفة المادية والاجتماعية يستحق الدرس لذاته؛ وقد عني في أواخر أيام حياته أن يدون سيرته بكل ما فيها من حوادث مدهشة، وفلسفة مرحة، وفضائح مزرية، وكل ما فيها من شذوذ وخبائث. وقد رأيناه في أواخر حياته يستقر في قصر دوكس، في ذلك المقام النائي المنعزل، ويقطع أوقاته بالقراءة والكتابة؛ وكان كازانوفا أديباً مفكراً، حسن البيان والأسلوب؛ وكان تدوين سيرة حياته أعظم عزاء له في شيخوخته؛ فقد كانت هذه الصحف الممتعة تحمله من ذلك القصر النائي، ومن غمار الشيخوخة والعزلة والبؤس، إلى الماضي الباهر؛ إلى الأيام الخالية بكل ما فيها من متاع وترف، إلى أمسية الحبور والمرح، إلى المدن والمجتمعات التي جابها، وإلى مختلف النساء اللائى ظفر بهن. وكان أثناء حياته الحافلة قد جمع كثيراً من المذكرات والمواد لكتابه، ومنها رسائل من أصدقائه وصاحباته، ومذكرات كان يدونها على الأثر، هذا إلى ما تعيه ذاكرته القوية من الحوادث والتفاصيل

وقد بدأ كازانوفا كتابة مذكراته في سنة 1791، واستمر في كتابتها عدة أعوام، ولبث يستعيدها ويهذبها حتى سنة 1798، قبيل وفاته بأشهر قليلة؛ وكان يكتبها بشغف وتأثر، إذ كان يرى تلك الحياة الساطعة الذاهبة تمر أمام عينيه وتبعث إليه ذكريات المجد والصبا؛ وكان يعتزم إصدار الجزء الأول منها منذ سنة 1797، ولكن الموت عاجله، ولم يتح له تنفيذ أمنيته

ولم تظهر مذكرات كازانوفا إلا بعد وفاته بحين؛ وكان ظهورها حادثا أدبياً كبيراً. ذلك أنها لم تكن فياضة بالسير العجيبة فقط، ولكنها كانت أيضاً قطعة فنية بديعة تنعكس عليها جميع أحوال العصر الذي عاش فيه صاحبها، أعني القرن الثامن عشر، وجميع صوره وأحوال مجتمعه. وتشغل هذه المذكرات الممتعة عدة مجلدات كبيرة، وهي عمدتنا الأولى في سيرة كازانوفا وفي تفهم نفسيته وخلاله، وفيها يقص حياته منذ مولده بإفاضة، ويستعرض جميع وقائعه ومغامراته الغرامية مع نساء العصر من كل الطبقات، ويصف رحلاته العديدة إلى

مختلف البلاد، ويصف لنا مجتمعات العصر وأحواله وأخلاقه وعاداته؛ كل ذلك بقوة وإفاضة وبيان شائق؛ وقد كان كازانوفا في الواقع رحالة عظيما، وكان يتمتع بمواهب بديعة في الملاحظة والدرس والوصف وفي تفهم عقلية الأفراد والطبقات؛ هذا إلى خيال خصب يسبغ على قصته كلها طابعاً من السحر؛ وقد يطبع بعض أقواله ومزاعمه

أحيانا طابع من المبالغة، ولكن ذلك لا ينتقص من متاع قصته وسحرها
ولقد لفتت مذكرات كازانوفا منذ ظهورها في أوائل القرن التاسع عشر أنظار النقد الأدبي، فنوه بعض النقدة بقيمتها الأدبية، وحمل عليها البعض الآخر؛ وأبدى سانت بيف أستاذ النقد نفسه عطفه عليها وعلى مؤلفها ذلك المحب الأمثل الذي لم يسمح قط للمرأة بأن تسوده؛ ولكن جول جانان وهو ناقد آخر يحمل عليها ولا يرى في مؤلفها سوى دعي أفاق تحدوه شهوات مضطرمة؛ وكذلك يرى فرانسوا ماسون في كتابه عن (الأب برني) أنه هذه المذكرات ليست سوى مزيج من الأكاذيب المزرية؛ بيد أن النقد المعاصر يرى في مذكرات كازانوفا أثراً جديراً بالتقدير، ويرى في صاحبها شخصية جديرة بالعطف رغم عيوبها ومثالبها؛ ومن ذلك ما يعلق به مسيو أوكتاف أوزان على المذكرات في فصل نقدي كتبه في هذا الموضوع: (لماذا ننحى باللوم على ذلك المحب المعاصر للويس الخامس عشر، لأنه أرانا وعرض علينا خلال عصره المنحل، وهي خلال كانت تعتنقها أعظم الشخصيات التي كتب عنها؟ وهل يحق لنا أن نمعن في الانتقاص من ذلك السرور الذي يتحفنا به عند قراءة (المذكرات)، وأن نحمل على تلك الأخلاق الفردية المثيرة؟. . . إن كازانوفا لم يكن أفضل ولم يكن أسوأ من أعظم الشخصيات التي ظهرت على مسرح العالم في القرن الثامن عشر)
وتقدم إلينا هذه المذكرات الحافلة الممتعة كازانوفا في جميع صوره ومناحيه؛ في صورة المحب المضطرم الذي يطارد المرأة بكل ما وسع من شغف وجوى، ويأسرها بظرفه وسحره، ويظفر بها في كل المواطن؛ وصورةالمغامر الجريء الذي يتسلح بذكائه وخبثه ومزاعمه ليغزو المجتمع ويعيش على هامشه بأي الوسائل؛ وصورة السائح المتجول الذي يجوب أوربا من أقصاها إلى أقصاها باحثاً عن المال والمتاع أنى استطاع؛ وصورة السيد الذي ينعم بالمال والثراء، أو صورة الشريد الذي لا يملك قوت يومه؛ وأخيرا صورة المفكر الأديب الذي يلتمس النسيان في القراءة وتسطير الماضي وتبذ صورة المحب المضطرم في شخصية كازانوفا كل صوره الأخرى، وهي بلا ريب أبرز صور حياته كما هي أبرز الصور في مذكراته. أجل كان كازانوفا محباً شغوفا ملتهب الجوانح، وكانت المرأة عنده غاية الغايات، وقد حبته الطبيعة كما أسلفنا بكل ما ينبغي أن يتسلح به المحب الظافر من خلال وصفات خلابة، ويندر أن نجد بين غزاة المرأة من غص بالظفر في هذا الميدان كما غص به كازانوفا، ومازال اسم كازانوفا إلى يومنا لقب المحب الظافر؛ ولقد كان كازانوفا مادياً في حبه كما كان في سائر وجهات حياته، ولم تكن العاطفة عنده شيئاً مذكورا، وكان قلباً في الحب لا يكاد يظفر بغزو حتى يسعى إلى غزو آخر، وكان يرتفع في طموحه إلى أرفع البيئات والشخصيات، وينحط إلى أسفل البيئات والمواطن، فنراه يظفر بطائفة من أكابر السيدات في جميع المجتمعات التي تقلب فيها من نبيلات ونسوة متزوجات وممثلات ومغنيات وغيرهن، ونراه يهبط أحياناً إلى مجتمع الشعب المتواضع فيغزو عاملة أو خادمة؛ وإليك مثلاً مما يقصه علينا في مذكراته مما يوضح فلسفته في الحب، ففي ذات يوم كان ينتظر جياداً لمركبته في طريق رومه، فمرت به عربة تحمل مغنية حسناء ذائعة الصيت يومئذ، وكان كازانوفا يعشق المغنيات والممثلات بنوع خاص، ولكنه يقول لنا: (ومع أنها كانت فتية وكانت حسناء، فإنها لم تثر في نفسي رغبة ما، ذلك أنها كانت حسناء جداً، بادنة جداً. ولكن خادمتها كانت بالعكس فتاة سمراء ساحرة ذات قد ممشوق وعينين وضاءتين، فوقعت في حبها على الأثر)
ويذكر لنا كازانوفا في مذكراته عشرات وعشرات من النساء اللائى ظفر بهن خلال حياته الغرامية الحافلة. وهو تعداد لا يتسع له المقام هنا، وقد ذكرنا فيما تقدم طائفة من الأسماء التي غزاها إبان ازدهار مغامرته؛ والظاهر أن كازانوفا لم يتأثر في حياته بحب امرأة وسحرها قدر ما تأثر بحب راهبة حسناء من (ميران) يرمز لها في مذكراته بحرفي (م. م)؛ وهو يصف لنا روعة قوامها وروعة جمالها بحماسة مؤثرة؛ وقد كانت م. م في الواقع امرأة ساحرة الخلال تضطرم شغفاً وجوى، وكانت تختفي تحت ثيابها الكهنوتية نفساً ناعمة تواقة ملتهبة، وكانت تقتحم أروع الأخطار لتحيا تلك الحياة المزدوجة؛ حياة التقشف في الدير، وحياة اللهو والقصف خارج الدير؛ وبينما ترى بالنهار في ثياب راهبة محتشمة، إذا بها تسطع بالليل كالحلية في مرقص أو منتدى وتبذ بفائق حسنها وأناقتها كل حسناء أخرى؛

وقد كانت تطلق العنان لشهواتها المضطرمة ما شاءت، ولكنها كانت قوية النفس تضبط هواها متى وجب؛ ويصورها كازانوفا بأنها المحبوبة المثلى في حسنها وفي خلالها وسحرها؛ وقد ترك هواها في نفسه بلا ريب أعمق الآثار وأبقاها

ثم يأتي بعد صورة المحب، صورة السائح؛ وقد كان كازانوفا سائحاً عظيماً يجوب أرجاء القارة بلا انقطاع؛ وكان يعشق التجوال في عصر كان السفر فيه مشقة حقيقة؛ وقد رأيناه يجوب أرجاء القارة مراراً؛ وكان كازانوفا يجد في السفر لذة عظيمة، ويتخذ أثناء تجواله مظاهر السيد العظيم فيستأجر أفخر المركبات والجياد، وينزل في أفخم الفنادق، وينثر المال والعطاء من حوله، ولكنه كان في رحلاته مغامراً، لا تغريه سوى رغباته وأمانيه، ولا تغريه مشاهد الطبيعة الرائعة؛ ولهذا نراه في مذكراته يعنى بسرد مغامراته أثناء الطريق، وسرد ملاحظاته عن الأشخاص والحياة والنساء بنوع خاص؛ وقلما نراه يعنى بوصف البلاد أو مشاهد الطبيعة؛ بيد أنه يبدي فيما يصف من أحوال المجتمعات والأشخاص دقة تدلي بقوة ملاحظته وحسن أدائه

ويقدم كازانوفا إلينا خلال حياته صورتين قويتين متباينتين؛ فنراه إما سيداً كبيراً ينعم بالجاه والثراء، وإما شريداً بائساً يتخبط بين براثن الفاقة؛ وفي الحالة الأولى نراه يقتحم المجتمع الرفيع، وينعم بكل ما في الحياة من متاع وبذخ، ويصل إلى مجالسة الملوك والأمراء والعظماء من كل ضرب؛ ألم يجالس لويس الخامس عشر وفردريك الأكبر، والإمبراطورة كاترين، والبابا، وفولتير، وغيرهم من أكابر العصر؟ ثم نراه في كهولته شريداً بائساً يتقبل في سبيل القوت مضض المهانة والمذلة؛ بيد أنه في الحالين يحتفظ بقوة نفسه، وأثرته، وأمانيه؛ ذلك أن كازانوفا كان فيلسوفاً يقصد إلى الحياة بأي الوسائل، ولا يروعه أن يحقق متاعها بأي السبل، ولم يكن المال في نظره إلا وسيلة من وسائلها

وقد كان كازانوفا منذ نشأته رجلاً مثقفاً واسع المعرفة بالنسبة لمجتمع عصره؛ وكان في أواخر حياته يعتز بمواهبه العلمية والأدبية ويأنس سعادة عظيمة في إطلاق العنان لقلمه؛ ولم تكن المذكرات كل ما يكتب، فقد كان يتصل بالمكاتبة بجماعة من أعلام عصره، وكانت له آراؤه الخاصة في أحوال العصر وأحداثه؛ وكان يسخط على الثورة الفرنسية ويعتبرها حركة جنونية وقد كتب برأيه إلى روبسبيير في رسالة مستفيضة

والخلاصة أن كازانوفا، كان رغم رذائله، شخصية عجيبة؛ وكانت حياته صورة صادقة للعصر الذي عاش فيه، وهي من هذه الناحية تستحق التحليل والدرس؛ ولقد كان لهذا المغامر المرح أصدق سلف وشبيه في مواطنه بنفونوتو تشلليني؛ فقد خاض كلاهما حياة مماثلة، واشتركا في كثير من الخلال والخواص النفسية، وسطر كل منهما حياته بقلمه؛ ولكن تشلليني كان علماً من أعلام الأحياء وبطلاً من أبطال الفن؛ أما كازانوفا فلم يعش إلا لنفسه، ولم يتبوأ في مجتمع عصره سوى مكان ثانوي وكانت حياته مزيجاً من الأهواء الجامحة، والأثرة العميقة، والشهوات المادية، والمرح العقيم.

(تم البحث - النقل ممنوع)

محمد عبد الله عنان

قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكي

الدفتريا

بين واجد سمها الفرنسي، وكاشف ترياقها الألماني

وصل الفائت: وجد لفلار مكروب الدفتريا، ووجد رو أن هذا المكروب يحتل زور الطفل، ولا يخرج عنه، وإنما يفرز سما يدور في الجسم فيقتل، وحقن بارنج مادة كيميائية هي كلورور اليود في خنازير غينية. ثم حقن مكروب الداء فيها فصمدت له. فأخذ من مصل دم هذه الخنازير المحصنة وحقن به خنازير أخرى حقنها بعد ذلك بالمكروب فصمدت له. فعرف أن هذا المصل الحصين يحتوي ترياقاً. فاتجه إلى الشياه يفعل بها ما فعل في الأرانب ليحضر مقادير كبيرة من المصل الواقي بترياقه

بهذا بلغ بارنج من بحثه حداً لا ينفع فيه التثبيط. فقد كان كأمير الجند غزا الأعداء فسفك وهزم، فملأته فتوحاته الأولى ثقة بنفسه. فلم يعد يثنيه عن بغيته شيء. فأخذ يضرب بمحاقنه في الأرانب والشياه والكلاب، وهي مليئة بمكروب الدفتريا تارة، وبسمها تارة، وبكلورور اليود تارة أخرى، وحاول أن يتخذ من أجسام هذه الحيوانات وهي حيّة مصانع تصنع له هذا المصل الواقي، هذا المصل الذي يقتل سم الدفتريا، وأسماه الأنْتيتُكْسين - ولْنسمّه نحن الترياق، ونجح في الذي حاوله، ولكن بعد أن قتّل من هذه الحيوانات ما شاء،

وقطّع من أوصالها ما أراد، وبعد أخطاء أتاها كثيرة هي دائماً مقدّمات النجاح، ولم يمض طويل من الزمن حتى نجح في تحصين الشياه تحصيناً قوياً، واستدرّ منها دماً كثيراً واستخلص منه مصله، ثم قال: (لا شك أن الترياق الذي بهذا المصل يقي من الدفتريا)، ولم يكن يعلم عن حقيقة هذا الترياق، ولا عن كيميائيه شيئاً

وحقن مقادير صغيرة من هذا المصل في عدد من الخنازير الغينية، وفي اليوم الثاني حقن فيها بشلة الدفتريا، وهي حية قاتلة، فما كان أجمل مرأى هذه الخنازير بعد ذلك وهي تنط وتلعب ولا أثر للداء فيها، كذلك كان مرأى صويحباتها الأخريات التي حُقنت بالبشلة دون المصل، وهي تموت بعد الحقنة بيومين أو ثلاثة، فموت هذه الأخيرة هو الذي أقنع بأن المصل فيه الوقاية وفيه الحصانة، وأجرى بارنج مئات من هذه التجارب الجميلة، وكان الآن يحذق التجريب فلم يكن في يده تذبذب واضطراب كالذي كان بها قديماً. وتساءل أعوانه في قنوط متى يفرغ سيدهم من هذه المجزرة المتكررة، متى يفرغ من تحصين طائفة من الخنازير ثم إعطائها الداء، ثم من قتل طائفة أخرى ليثبت بها حقاً أنه خلّص بمصله الطائفة الأولى، ولكن بارنج لم تعوزه العلة يفسر لنا بها كثرة ما قتل من هذه الخنازير. قال في أحد تقاريره الأولى: (لقد جربنا من هذه التجارب عدداً كبيراً لنثبت لكوخ، وهو المحقق المدقق القليل التصديق، إلى أي حدّ بلغ بنا الإيمان بحصانة هذه الحيوانات)

نجح بارنج فيما أراد إلا أمراً واحداً أفسد عليه طعم الثمرة التي اجتناها. ذلك أن حصانة الخنازير لم تدم طويلاً، فالخنازير لم تكن تصمد للحقنة الكبيرة من سم الدفتريا من بعد تحصينها إلا أياماً معدودات، فإذا مضى على التحصين أسبوع أو أسبوعان لم تعد تصمد لها، ولكما استطال الزمن أخذت حصانتها تقل تدريجا، وأخذ مقدار السم الذي يكفي لقتلها يصغر تدريجا. وعمد بارنج إلى لحيته يشد شعراتها وهو يتمتم لنفسه: (ليس هذا من العمليّ الممكن في شيء، فليس بالمستطاع الطواف بكل أطفال ألمانيا لحقنهم بمصل الشياه كل أسبوعين أو ثلاثة). ومما يؤسف له أنه نفض يده بعد ذلك من البحث الجميل الذي هو فيه، وترك المطلب الأسمى الذي كان يطلب به طريقة لمنع داء الدفتريا أن يحدث واستئصاله فلا يكون، واستعاض عنه يطلب دواء له إذا هو كان، فنزل بنفسه منزلة دنيا

رجاء أن يأتي بأمر جليل تفتح له السلطات من الدهش أعينها واسعة

قال: (إن هذا الكلورور اليوديّ له أثر سيئ في الخنازير الغينية لا ينقص كثيراً عن أثر المكروب ذاته. ولكن هذا المصل الواقي ليس له أثر سيئ فيه، فهو لا يلهب جلدها ولا يحدث خُرّاجات فيه. . . وأنا على يقين أنه لا يؤذيها. . . وأعلم غير هذا أنه يحصنها فيقتل فيها سم الدفتريا إذا هو جاءها بعد التحصين. . . فليت شعري أيقتلها كذلك إذا هو جاءها قبله؟. . . واختصاراً أيكون في هذا المصل شفاء من الداء بعد كينونته؟)

وجاء بارنج بطائفة كبيرة من الخنازير الغينية وحقن بشلات الدفتريا فيها. فلما كان الغد وجد المرض قد دبّ فيها، واصبح الصباح التالي فإذا بها ملقاة على أظهرها في همود منذر وهي تتنفس جاهدة. عندئذ قام بارنج فحقن في بطونها مقادير وافية من مصل الشياه الحصينة. فوقعت المعجزة الكبرى، فأخذت الخنازير، إلا قليل الأقل منها، تسترجع أنفاسها بعد برهة قصيرة. ولما جاء الغد أرقدها بارنج على ظهرها، فإذا بها تنط فتقوم على أرجلها، وعلى أرجلها ثبتت. وفي اليوم الرابع تمت سلامتها فكأن الداء لم يصبها أبدا. أما الأخريات التي حقنت بالمكروب دون المصل فحملها الخادم هامدة باردة إلى حيث تحمل الميتات.

إذن لقد شَفىَ المصل من الدفتريا!

وزاط المعمل العتيق من أجل هذا الفتح الجديد التي أتاه بارنج العالم الشاعر، الخاطئ

الصائب، العاثر الناهض. وملأ الأمل القلوب بأنه لابد سيشفي الأطفال من بعد هذا. وأخذ يعدّ أول مصل يحقنه في طفل على وشك الموت بالداء. وبينا هو يتجهز لهذه التجربة الخطيرة جلس يكتب تقريره الشهير ويصف فيه كيف تأتى له أن يخلص حيواناته من الموت بحقنها بمادة جديدة عجيبة غريبة اصطنعها لها في أجسام أخوات لها جازفت بحياتها في سبيل ذلك من أجلها. كتب بارنج: (ليس لدينا طريقة مؤكدة لتحصين الحيوانات). وكتب (وهذه التجارب التي قيدتها لا تتضمن مجهوداتي الناجحة وحدها). وصدق في هذا، فهو قد أثبت فيها مجهوداته الفاشلة وأظانينه الخاطئة إلى جانب ما حباه به الحظ من توفيقات صائبة نال بها هذا النصر الدمويّ العظيم لشد ما أعجب كيف استطاع هذا الشاعر أن يسبق إلى كشف ترياق الدفتريا، وأن يفوز بهذا المجد الخالد! ولكني أفكر فأجده إنما تحسس فاهتدى كما تحسس من قبله واهتدى رجال قدماء، لا نعرف لهم اليوم أسماء، اخترعوا الأشرعة التي تحمل السفائن عبر البحر في سرعة البرق الخاطف. هؤلاء الرجال الأبطال المجهولون، كم منهم من انقلب به السفين، وكم من جثثهم ما أشبع البحار! أليست هذه دائما هي سبيل الكشوفات جميعها؟

وفي أواخر عام 1891 كان في شارع إبريك ببرلين دار للتمريض تُدعى دار برجمان وكان بها أطفال فعلت الدفتريا بهم فعلها فهم ينتظرون الموت القريب. وكانت الليلة ليلة عيد الميلاد. ففي هذه الليلة دخلت إبرة صغيرة لمحقن مليء بنصل لأول مرة في جلد طفل لم يعد له في الشفاء رجاء. فصرخ الطفل ورفس برجله قليلا

ما أبهر النتائج التي جاءت من هذه الحقنة الأولى ومن أخوات تَبِعْتها! نعم بعض الأطفال مات. ونعم كذلك مات طفل كان ابن طبيب شهير في برلين ميتة غريبة غير منتظرة عقب الحقنة مباشرة فحصل من جراء ذلك أخذ ورد وجلبة كبيرة. ولكن لم تمض الأيام حتى قامت مصانع كيميائية كبيرة بألمانيا تصنع هذا المصل في قطعان كثيرة من الشياه. ولم تمض ثلاث سنوات حتى بلغ الأطفال الذين حقنوا بهذا الترياق عشرين ألفا. وسار الخبر سريعاً كالشاعة في الناس. وكان بِجْز مدير الصحة الأمريكية الشهير في أوروبا، فلما اطلع على أمر الترياق، هزّه ما وجد منه فبعث البرقية الآتية وهو متأثر ثائر إلى الدكتور بَرْك بنيويورك:

(ترياق الدفتريا ناجح. ابدأ بصنعه)

وكان كوخ أساء إلى ناس كثيرين بسبب علاجه الفاشل القاتل للسل، وبسبب الأرواح الكثيرة التي ضاعت من جرائه. وكانت أقوام كثيرة لا تزال في حزن قريب بسبب من فقدوا. ولكن كشف بارنج أنساهم ما هم فيه، فغفروا لكوخ الشيخ زلته لأنه أنجب هذا الصبيّ البارع

(يتبع)

أحمد زكي

الإسلام والمدنية والعلم

طريقة النظر في العلم وفي الإسلام

بقية ما نشر في العدد الممتاز

للأستاذ محمد أحمد الغمراوي

بقي أن نقارن بين طريقة العلم في دراسة الفطرة والطريقة التي شرعها الإسلام للإنسان في النظر لنرى إن كان بينهما من التطابق مثل الذي تبين في المقال السابق أنه موجود بين العلم والإسلام

والأصل الأول عند العلم في النظر هو العقل، وكذلك هو في الإسلام. إن القرآن الكريم كله ينطق بأن الإسلام قام على العقل، وحاكم إلى العقل، وأمر باتباع العقل، بمختلف أساليب البيان؛ فتارة يتلطف ويرغب في استعمال العقل والفكر: (كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون)، (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون). وتارة يظهر التعجب الشديد والتأفف من تعطيل العقل: (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً)، (قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به، فقد لبثت فيكم عُمُرا من قبله، أفلا تعقلون). وتارة يمدح أهل العقل ويخصهم بالخطاب: (وما يذّكر إلا أولو الألباب)، (كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون)، (كذلك

نفصل الآيات لقوم يتفكرون)؛ ثم تارة يسلك سبيل الذم البالغ لمن يهملون عقولهم ويعطلونها: (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون)، (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً) وفي هذا ما فيه من توكيد ناحية العقل وتنبيه الإنسان إلى أن من أخص خصائصه التفكير والتدبر والفهم والتعقل، فلا ينبغي له التنزل عن أخص خصائصه بتعطيل عقله وإلا فقد تنزل عن إنسانيته وصار في الأنعام أو شرا من الأنعام

ولقد بلغ من إكبار الإسلام العقل وتوكيده واتخاذه أصلاً ومرجعاً أن أباح للمسلم إذا تعارض العقل والنص أن يؤول النص إلى ما يقضي به العقل. والعقل هنا طبعاً ليس هو عقل الفرد، ولكن عقل المجموع؛ ليس هو العقل الخاص الذي يجوز عليه الخطأ، وكثيراً ما يخطئ، ولكن هو العقل العام الذي يستحيل عليه الخطأ، والذي لا يقتنع بشيء إنه الحق إلا

إذا قام عليه الدليل القاطع. فتشريع الدين تأويل النص إلى ما يوجبه العقل أو بالأحرى إلى ما يطابق ما ثبت عند العقل بالدليل القاطع، هو التنفيذ العملي في الإسلام لمبدأ استحالة التناقض بين الحقائق ولمبدأ وجوب الأخذ بالحق كيفما ظهر وأينما كان. فالحق في العلم وفي الإسلام أحق أن يتبع لذاته لا لغيره، وفي سبيل الحق يجب أن يجاهد الناس، وعلى الوصول إليه يجب أن يتعاونوا، وبه إذا وصلوا إليه يجب أن يستمسكوا. هذا هو أخص خصائص الروح العلمية في ميدانها، وهو في الوقت نفسه أخص خصائص المؤمن حتى في المعاملة. فإن الصفات التي ضمن الرسول صلى الله عليه وسلم للمسلم بها الجنة إذا هو ضمنها من نفسه في الحديث الكريم: (اكفلوا لي بست أكفل لكم بالجنة: إذا حدث أحدكم فلا يكذب، وإذا ائتمن فلا يخن، وإذا وعد فلا يخلف: غضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم، واحفظوا فروجكم) هذه الصفات ليست في صميمها إلا أخذاً بالحق في أعم صوره، واحتراماً له ووقوفاً عنده

لكن فخر العلم الحديث ليس هو جعله العقل أصل الأصول في النظر، ولكن هو ضبطه طريق النظر العقلي، حتى صار العقل به في مأمن من الضلال. إن قدماء العلماء والفلاسفة كانوا أيضاً يكبرون العقل ويتحاكمون إليه، وهذا المنطق القياسي الذي يعين الطريق الذي يجب أن يسلكه العقل في الاستنتاج ليكون بمأمن من الخطأ، هو من وضع أولئك القدماء. فليس للعلم الحديث على العلم القديم في هذا فضل، بل الفضل في توضيح طريق الإصابة في الاستنتاج، هو للعلم القديم أو الفلسفة القديمة كما تشاء أن تقول. لكن الذي غفل عنه القدماء، وانتبه إليه المحدثون، هو وجوب الاستيثاق من صحة المقدمات قبل القول بصحة النتائج، ولو صحت طريقة الاستنتاج. كان القدماء يعنون كل العناية بالاحتياط من الخطأ في الاستنتاج، ولو أنهم عنوا بصحة المقدمات عشر معشار تلك العناية لتغير تاريخ العلم، ولتغير تاريخ العالم بالتبع، ولما تأخر الرقي العلمي كل تلك القرون، لكن أكثر القدماء كانوا فيما يظهر يتغالون في الاعتماد على العقل وحده حتى جعلوه كل شيء، وجعلوه مستغنياً عن كل شيء. فالعالم أو الفيلسوف كان يرى كافياً في طلب الحقيقة أن يجلس ويفكر، ثم يفكر، كأن الحقائق كلها موجودة كامنة في النفس أو الروح، وكأن ليس على الإنسان إلا أن يستثيرها بالتفكير. من أجل ذلك لم تعش الفلسفة القديمة أو العلم القديم إلا بصحة التفكير

على الأخص، وهي العناية التي أدت به إلى اكتشاف قوانين التفكير ووضع علم المنطق القياسي. أما المقدمات فكان العالم أو الفيلسوف يكتفي من الاستيثاق منها بالاقتناع النفسي والرجوع بها إلى ما يبدو له أنه بديهي لا يحتاج إلى برهان. ومن هنا دخل في العلم أو الفلسفة القديمة الشيء الكثير من الباطل، أو على الأقل مما هو غير ثابت؛ دخل فيها على أنه حق لا شك فيه، فكان عبئاً ثقيلاً على العقل عاقه عن التقدم الحقيقي طوال تلك القرون

ولقد جعلت تلك الطريقة أمر تمييز الحق من الباطل في العلم القديم من الوجهة العملية بيد المصادفة لا بيد العقل، فكان الإنسان إذا صادف الصحة في مقدماته الأولى أو بديهياته التي يُرجع إليها مقدماته نجا من الخطأ بعد ذلك لاجتماع ركني الإصابة لديه: صحة المقدمات وصحة التفكير. ومن هنا كانت علومه الرياضية أصح تراث منه وصل إلينا. أما إذا أخطأه التوفيق في المقدمات فلا تسل عن العجائب والغرائب التي كان

يؤدي به إليها قياسه الصحيح من مقدماته العليلة. أنظر إليه وهو يحكم على شكل العالم أنه كرى لأن شكل الكرة أكمل الأشكال، أو يحكم على العالم أنه حي عاقل لأن ما هو حي وعاقل خير مما ليس بحي ولا عاقل. وتأمل ما جر إليه القول بحياة العالم وعقله من القول بأفلاك ذات نفوس وعقول كل فلك منها نشأت نفسه وعقله عن نفس الفلك الذي فوقه وعقله، وأشباه هذا مما يعجب له العلم اليوم كيف أمكن أن يتورط فيه العلم بالأمس، إذا العلم والفلسفة كانا شيئاً واحداً في العصر القديم هذا النوع من التفكير الوهمي قد سد العلم الحديث بابه، وقطع أسبابه بايجابه أولا عدم قبول شيء على أنه حق حتى يقوم عليه البرهان القاطع، وبرجوعه ثانيا إلى التجربة والمشاهدة في تمحيص المقدمات. هذان هما المبدآن اللذان قامت عليهما الطريقة العلمية الحديثة، واللذان يرجع إلى التزامهما والتشدد في تطبيقهما كل ما وصل إليه الإنسان من تقدم في ميادين العلم الحديث

فأما المبدأ الأول مبدأ اشتراط قيام الدليل القاطع على صحة القضية قبل إدخالها في دائرة الحق فهو مبدأ سلبي، ولكنه في غاية الخطورة لأنه حال دون الخلط بين الحق والباطل، وميز دائرة الشك من دائرة اليقين، وجعل العلم على بينة من أمره فصار يعرف تماما أين هو من الحق ومن الباطل: صار يعرف أي القضايا هو فوق الشك وأيها في حاجة إلى

التمحيص

لكن هذه المعرفة لم تكن لتغني عنه كثيرا لو لم يجد العلم وسيلة صادقة لتمحيص ما هو منه في شك، فيزيد باطراد في دائرة الحق المعلوم، وينقص باطراد من دائرة المجهول. لكنه وجد هذه الوسيلة في مبدئه الثاني مبدأ التجربة والمشاهدة. وهو كما ترى مبدأ إيجابي يقوم بجوار مبدئه السلبي الأول: يحرس الأول منطقة الحق أن يدخلها باطل، ويوسع الثاني حدود المنطقة باستمرار. ولقد اقتضى هذا أن يقصر العلم نفسه من ميادين البحث على ما يمكن الاحتكام فيه إلى التجربة والمشاهدة، أو كما عبر بعض العلماء فأحسن التعبير على الميادين التي يستطيع أن يسأل فيها الإنسان الفطرة فتجيب. والفطرة على حد تعبير عالم آخر دائماً تجيب إذا أحسن الإنسان سؤالها. وأكبر الفرق من الناحية العملية بين العلم القديم والعلم الحديث أن هذا عرف كيف يحسن استجواب الفطرة، وأن ذاك في الأوقات القليلة التي خطر له أن يسترشد بالفطرة لم يعرف كيف يحسن سؤالها بإجراء التجارب المنظمة، وإن عرف أحياناً كيف يسمع لها بمشاهدة بعض ما يجري حوله. وبالجملة فإن أكبر ما يميز العلم في عصره الحديث عن مثله في العصر القديم هو إجماع أهله على اتباع ذينك الأصلين: أصل التفرقة التامة بين اليقيني وغير اليقيني، وأصل تمحيص غير اليقيني بعرضه على التجربة والاختبار

هذان الأصلان اللذان هما قوام الطريقة العلمية، واللذان إليهما يرجع كل ما أدرك العلم في ميدانه من تقدم، ما شأنهما في الإسلام كما يتجلى في القرآن؟

إن الذي أنزل القرآن روحاً من أمره وهدى يهدي به الإنسانية سبل الحياة شاءت رحمته بعد أن جعل العقل أصل الأصول في النظر ألا يكل الإنسان إلى عقله من غير أن يبين له معالم الطريق ويحذره مهاوي الخطأ والضلال. فهو أولاً يوجب على الإنسان في القرآن ألا يُدخل في الحق إلا ما قام عليه البرهان والدليل أنه من الحق (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين). (قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا، إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون) وفي هذه الآية الكريمة نرى كيف ينبه الله الإنسان إلى أن الظن والتخمين ليسا من العلم والبرهان في شيء، وهو معنى لقي توكيداً عظيما في القرآن بوروده صريحاً في أكثر من آية. (إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى. وما لهم به من علم، إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً). (وما يتبع أكثرهم إلا ظناً إن الظن لا يغني من الحق شيئاً. إن الله عليم بما يفعلون)، وهذا بالضبط هو ما اهتدى إليه العلم الحديث وشدد من أجله في وجوب التفرقة بين الثابت الذي لا شك فيه، وغير الثابت الذي هو في حاجة إلى التمحيص، ومن هنا ترى أن التطابق تام في هذه الناحية أيضاً بين العلم وبين الإسلام

على أن هذا ليس هو كل ما وضح به القرآن سبيل الحق أمام الإنسان، فأنه كما حذره

من الخلط بين الحق والباطل، ومن إنزال الظن والتخمين منزلة البرهان واليقين، دله على الطريق العملي الذي يتبين به وجه الحق فيما هو منه في شك: طريق استعمال العقل لا السمع والبصر. ومن العجيب أنك لا تكاد تجد في القرآن ذكراً للسمع والبصر إلا والعقل مقرون بهما مذكور معهما كأنما يريد الله أن ينبه الإنسان إلى ما بينهما وبين العقل من ترابط، فالعقل لا يتم إلا بأثرهما وهما لا ينفعان نفعهما إلا إذا كان العقل من ورائهما يوجههما وينظم عملهما، أو كأنما يريد الله سبحانه أن ينبه الإنسان إلى أن ما يكسب من علم أو معرفة راجع في صميمه إلى هذه الثلاثة، وأن عليه إذن أن يحسن استعمالها ويحذر إهمالها. على أن الإنسان لم يترك في هذا إلى مجرد الاستنتاج. فقد أنبأه الله صراحة في القرآن في معرض المن عليه أن علم الإنسان مصدره السمع والبصر والعقل كما ترى في آية النحل: (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون)، وأوجب عليه آيات كثيرة أن يحسن استعمال سمعه وبصره وعقله، نذكر منها آية واحدة هي فصل الخطاب في هذا الباب ألا وهي قوله تعالى من سورة الأعراف: (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل، أولئك هم الغافلون) فأنه ليس هناك أكثر حضاً على إحسان استعمال العقل وأدواته من هذه الآية الكريمة التي لم تكتف بتسوية الإنسان بالبهيمة أو جعله شراً منها إذا هو أهمل عقله وسمعه وبصره، بل أنذرته أبلغ إنذار أنه إن فعل ذلك فقد هلك إلى الأبد وحشر نفسه في زمرة أهل النار

فهذا أصل التجربة والمشاهدة قد لقي في صميمه من التوكيد في الإسلام ما يصغر بجانبه ما

لقي من التوكيد في العلم وإن كان هو قوام العلم الحديث. والسر في هذا أن العلم لا يزال في الدور الذي يدرس فيه الفطرة ابتغاء الوقوف على أسرارها فحسب، أما الدين فيأمر باستكناه أسرار الفطرة ليزداد الإنسان بها هدى إلى رب الفطرة الذي فطرها وفطره، والإنسان إن لم يهتد إلى ربه فأنه لا محالة من الهالكين. ومهما يكن من اختلاف الغاية بين الدين والعلم فإن كل غاية العلم هي بعض غاية الدين، والطريق الذي يسلكه العلم إلى غايته هو جزء من الطريق الذي يأمر بسلوكه الإسلام

على أننا نحب أن نزيد هذا التطابق بين الطريقين توكيداً بالتنبيه إلى آية واحدة في القرآن جمعت للإنسان أصول النظر العلمي وأثبتتها من الدين مجتمعة بعد أن أثبتتها من الدين متفرقة، تلك هي قوله تعالى من سورة الإسراء: (ولا تَقْف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) فأنها من ناحية تأمر الإنسان بالوقوف عند حد ما يعلم (ولا تقف ما ليس لك به علم) ومن ناحية أخرى تدله على طريق استبانة الحق فيما لا يعلم، والاستمساك بما يتبين له من الحق عن ذلك الطريق، طريق إحسان استعمال السمع والبصر والعقل (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) وفي قوله سبحانه (كل أولئك كان عنه مسئولاً) في موقعها من الآية تقرير مسئولية الإنسان عند ربه عن حواسه وعقله كيف لم يستعملهن عند الشك حتى يتبين وجه اليقين، وكيف حين استعملهن لم يحسن استعمالهن، أم كيف وقد أحسن استعمالهن لم يستمسك بما وصل إليه من الحق عن طريقهن حتى صار هو ومن أهملهن سواء. ولو حاول العلم أن يزيد في توكيد أصوله على هذا ما استطاع، ثم هو ليس ببالغ شأو الدين في هذا التوكيد لأنه لا يملك المهمل أصوله حساباً ولا عقاباً

وبعد، فلعلنا نكون قد وفينا هذا الموضوع الخطير بعض حقه من البحث، وبلغنا الغرض الذي بدأنا هذا البحث من أجله، وأثبتنا أن العلم الحديث بينه وبين الإسلام كل ما بين الجزء والكل من تطابق مادام قد ثبت أنه قرآني الموضوع والاسم والروح والطريقة؛ فهو بجملته وتفصيله قطعة من الإسلام، حتى فروضه العلمية ونظرياته التي يلتمس بها سنن الفطرة لها في الإسلام متسع، لأنها ليست إلا ضربا من الاجتهاد الذي يثبت الله عليه المجتهد، أخطأ أم أصاب. وهذا التطابق العجيب بين العلم والإسلام هو الذي كان متوقعا

مادام الإسلام هو دين الفطرة، ومادام العلم قد أصاب الفطرة وإن في بعض نواحيها. وليس يمنع العلم أن يصيب الفطرة في بعضها الآخر المتعلق بحياة الإنسان

الاجتماعية. إلا أن هذه الحياة خارج نطاقه، وستظل كذلك لامتناع إخضاع الفرد بله الجماعة للتجربة العلمية والاختبار. فليس هناك للإنسانية إذن أي أمل في أن تصيب سنن الفطرة في الاجتماع عن طريق العلم، فهي لن تزال في مدنيتها بعيدة عن سنن الفطرة وعن سبل السلام حتى تقيم وجهها للدين حنيفاً (فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله)

محمد أحمد الغمراوي

أعلام الإسلام

محمد بن شهاب الزهري

بقلم السيد ناجي الطنطاوي

محمد بن شهاب الزهري، علم من أعلام التابعين، وإمام جليل من أئمة المسلمين، روى الحديث عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن أبناء أصحابه. وكان نادرة في الذكاء وقوة الحافظة والصبر على طلب العلم. ثقة، أميناً في الإسناد شهد له الخلفاء والعلماء بالتفوق والفضل حتى قال ابن تيمية: حفظ الزهري الإسلام نحواً من سبعين سنة، وكان مع ذلك سخياً كريماً يبذل ماله في سبيل العلم

اسمه ونسبه ومولده

هو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب بن عبد الله ابن الحارث بن زهُرة بن كلاب بن مرة، أبو بكر القرشي الزهري. سمي بالزهري نسبة إلى زهرة بن كلاب، كان أبو جده عبد الله بن شهاب شهد مع المشركين بدرا، وكان أحد النفر الذين تعاقدوا يوم أحُد لئن رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقتلنه أو ليقتلنّ دونه. وقد سئل الزهري مرة: هل شهد جدك بدرا؟ قال نعم، ولكن من ذلك الجانب! أي من جانب قريش

وانتسب الزهري مرة أمام هشام بن عبد الملك، فقال له هشام: أن كان أبوك لنفّار في الفتن. فقال: يا أمير المؤمنين عفا الله عما سلف

وقال: نشأت وأنا غلام، ولا مال لي، منقطع الديوان، فكنت أتعلم نسب قومي من عبد الله بن ثعلبة، وكان عالماً بنسبهم وهو ابن أختهم وحليفهم

وقال ابن حيويل: لم يكن له كتاب إلا كتاب فيه نسب قومه، أما سنه وولادته فلم تعلم على وجه الصحة لاختلاف المؤرخين فيها فهي إما سنة 50 أو سنة 51 أو سنة 52، وقيل بل سنة 58

صفته:

قال سفيان: رأيت الزهري أحمر الرأس واللحية، وفي حمرتها انكفاء قليل، كأنه يجعل فيها كَتَّما، وكان أعَيمِشاً وعليه جُمَيحة وكان رجلا قصيرا، قليل اللحية، له شعرات طوال،

خفيف العارضين

طلبه العلم

دخل مرة على عبد الملك بن مروان، فذاكره عبد الملك، فرأى فيه نباهة فوصله، وأمر له بشراء دار قطيعة بالمدينة، وبرزق يجري عليه، وأعطاه خادماً وقال له: اذهب فاطلب العلم، فإني أرى لك عينا حافظة، وقلبا ذكياً، وائت الأنصار في منازلهم. قال: فأتيت المدينة، فإذا عند الأنصار علم جمّ، فأخذته عنهم

وقال إبراهيم بن سعد: ما سبقنا الزهري بشيء من العلم إلا أنه كان يشد ثوبه عند صدره ويسأل عما يريد، وكنا تمنعنا الحداثة

وقال أبو الزناد: كنا نكتب الحلال والحرام، وكان ابن شهاب يكتب كل ما سمع، فلما احتيج إليه علمت أنه أعلم الناس بعد أن كنا نطوف نحن وإياه معنا الألواح والصحف ونحن نضحك به، وكان يكتب الحديث فيحفظه ثم يمحوه

وقال صالح بن كيسان: كنت أطلب العلم أنا والزهري فقال: تعال نكتب السنن فكتبناها ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال: تعال نكتب ما جاء عن الصحابة فكتب ولم أكتب فأنجح وضيعت

قوة حافظته:

كان يقول: ما استودعت قلبي شيئاً قط فنسيته، وكان يكره أكل التفاح وسؤر الفأر ويقول إنه ينسي، وكان يشرب العسل ويقول إنه يذكر. وقال: كتب عبد الملك إلى

أهل المدينة كتاباً في طومارين يعاتبهم به، فقرئ على الناس عند المنبر، ولم يكن سعيد بن المسيب حاضرا، فلما انفض الجمع قال سعيد لجلسائه: ما كان في ذلك الكتاب؟ ليت أنا وجدنا من يعرف لنا ما فيه، فلم يتكلم أحد. فقلت له: أتحب أن تسمع كل ما فيه؟ قال نعم قال: فقرأته له من أوله إلى آخره لم أنس منه كلمة وقال: ما استفهمت عالماً قط، ولا رددت شيئاً على عالم قط يعني أنه كان يحفظ ويفهم من أول مرة

وقال الإمام مالك: حدثني الزهري بحديث طويل فلم أحفظه فسألته عنه مرة ثانية فقال لي:

أليس قد حدثناكم به؟ فقلت: بلى، فأردت أن أستخرجه، فقلت له: أما كنت تكتب ما تسمع؟ فقال: لا فقلت: أما كنت تستعيد؟ فقال: لا

وقال مالك حدثنا الزهري بمائة حديث، ثم التفت إلي وقال: كم حفظت يا مالك؟ فقلت: أربعين حديثا، فوضع يده على جبهته ثم قال: إنا لله، كيف نقص الحفظ؟

وقال سعيد بن عبد العزيز: سأل هشام بن عبد الملك الزهري أن يملي على بعض ولده، فدعا بكاتب فأملى عليه أربعمائة حديث

ثم إن هشاماً قال له: إن ذلك الكتاب قد ضاع، فدعا الكاتب فأملاها عليه، ثم قابله هشام بالكتاب الأول فما غادر حرفاً

منزلته عند الخلفاء

كان عمر بن عبد العزيز يقول: عليكم بابن شهاب، فأنكم لا تلقون أحداً أعلم بالسنة الماضية منه. قال معمر وإن الحسن وضرباءه لأحياء يومئذ. وقال عمر بن عبد العزيز أيضاً: ما ساق الحديث مثل الزهري، وما أتاك به الزهري بسنده فاشدد يدك عليه

وقد تقدم قول عبد الملك بن مروان له: إني أرى لك عيناً حافظة وقلباً ذكياً

وقال: لما توفي عبد الملك لزمت الوليد، ثم لزمت هشاماً بعده وحججت معه سنة 106 فكنت مع ولده أعلمهم وأفقههم وأحدثهم ولم أفارقهم حتى مات هشام بالمدينة

منزلته عند العلماء

قالوا: كان الزهري ثقة كبير الحديث والعلم والرواية فقيهاً جامعاً وقال الليث عن جعفر بن ربيعة: قلت لعراك بن مالك من أفقه أهل المدينة، فذكر سعيد بن المسيب، وعروة وعبد الله بن عبد الله، قال عراك: وأعلمهم عندي جميعاً ابن شهاب لأنه جمع علمهم إلى علمه

وقال مكحول: ما بقي على ظهرها أعلم بسنة باقية من الزهري وقال أيوب: ما رأيت أحداً أعلم من الزهري. فقال له صخر بن جويريه: ولا الحسن؟ قال: ما رأيت أعلم من الزهري وقال عمرو بن دينار: مثل هذا القرشي ما رأيت قط، وقال سعيد ابن عبد الرحمن بن جنبل: لولا ابن شهاب لضاعت أشياء من السنن، وقال سفيان بن عيينة: جالست الحسن وغيره، فما رأيت مثل الزهري وقال الإمام مالك: بقي ابن شهاب، وماله في الناس نظير،

وكان إذا دخل المدينة، لم يحدث بها أحد حتى يخرج منها. وقد اتفق الأئمة على أن الزهري مات يوم مات وهو أعلم الناس بالسنة، واتفقوا على أنه كان أفقه من الحكم وحماد وقتاده وقال السمعاني: كان من أحفظ أهل زمانه، وأحسنهم سياقاً لمتون الأخبار، وكان فقيهاً فاضلاً

قال ابن عينية: ما رأيت أنص للحديث من الزهري

سعة علمه

قال علي بن المديني: له نحو ألفى حديث. وقال أبو داود: جميع حديث الزهري ألفا حديث ومائتا حديث نصفها مسند

وقال مالك: لقد أدركنا في مسجد المدينة سبعين ممن يروي الحديث وإن أحدهم لو ائتمن على بيت مال لكان به أميناً، فما أخذت منهم شيئاً، لم يكونوا من أهل هذا الشأن، وقدم علينا الزهري وهو شاب فازدحمنا على بابه

وقدم أحمد بن صالح العراق من مصر ليرى أحمد ابن حنبل، فاستأذن إليه فأذن له، وقام إليه ورحب به وقرّ به وقال له: بلغني أنك جمعت حديث الزهري، فتعال حتى نذكر ما روى الزهري عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجعلا يتذاكرن ولا يغرب أحدهما على الآخر حتى فرغا، قال الراوي: وما رأيت أحسن من مذاكرتهما. ثم

قال أحمد بن حنبل لأحمد ابن صالح: تعال حتى نذكر ما روى الزهري عن أولاد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجعلا يتذاكرن ولا يغرب أحدهما على الآخر، إلى أن قال أحمد بن حنبل: عن الزهري عن محمد بن جبير ابن مطعم، عن أبيه، عن عبد الرحمن بن عوف، قال النبي صلى الله عليه وسلم: ما يسرني أن لي حمر النعم، وأن لي حلف المطيبين. فقال أحمد بن صالح سألتك بالله إلاّ أمليته عليّ. وقال: لو لم أستفد بالعراق إلا هذا الحديث كان كثيراً

وقال الليث بن سعد: ما رأيت عالماً قط أجمع للعلم من ابن شهاب. لو سمعته يحدث في الترغيب، لقلت ما يحسن إلا هذا؛ وإن حدث عن الأنبياء وأهل الكتب، لقلت ذلك؛ وإن حدث عن الأعراب والأنساب لقلت إلا هذا. قال ابن إسحاق: سألت الزهري عن شيء، فقال ما بقي أحد فيما بين المشرق والمغرب أعلم بهذا مني

وكان يقول: مكثت خمسا وأربعين سنة أنقل أحاديث أهل الشام إلى الحجاز، وأحاديث أهل الحجاز إلى الشام، فما أجد أحدا يطرفني بحديث لم أسمعه

سخاؤه

قال الليث: وكان من أسخى الناس، كان يعطي كل من جاءه وسأله، حتى كان يقترض من عبيده ولا يرى بذلك بأساً، فقبض الله له على قدر صبره واحتماله: إما رجلاً يهدي له ما يسع السائلين، وإما رجلاً يبيعه بنظرة، وكان يطعم الناس الثريد في الخصب وغيره ويسقيهم العسل، وكان يسمر مع أصحابه على العسل

ونزل بماء من المياه مرة، فقال له أهل الماء: إن لنا ثماني عشرة امرأة مسنة ليس لهن خادم، فاستسلف ثمانية عشر ألفاً فأخدم كل واحدة منهن خادماً بألف، وقضى عنه هشام سبعة آلاف دينار وقال له لا تعد لمثلها تدان، فقال الزهري يا أمير المؤمنين حدثني سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين

وأخدم الزهري في ليلة واحدة خمس عشرة امرأة من بني زهرة خمس عشرة وليدة، اشترى كل وليدة بثلاثين ديناراً

وقيل له إن الناس لا يعيبون عليك إلا كثرة الدين، فقال: وكم ديني؟ إنما ديني عشرون ألف دينار، وليس يرثني إلا ابن أخي هذا، وما أبالي ألا يرث عني شيئاً

وكان يقول: وجدنا السخاء لا تنفعه التجارب

وقال الإمام مالك: كان الزهري من أسخى الناس، فلما أصاب تلك الأموال قال له مولى له وهو يعظه: قد رأيت ما مر عليك من الضيق والشدة، فانظر كيف تكون وأمسك عليك مالك. فقال له: ويحك، إني لم أر الكريم تحنكه التجارب فقال الحسين بن عبد الله الكاتب في هذا المعنى:

له سحائب جود في أنامله ... أمطارها الفضة البيضاء والذهب

يقول في العسر إن أيسرت ثانية ... أقصرت عن بعض ما أعطي وما أهب

حتى إذا عاد أيام اليسار له ... رأيت أمواله في الناس تنتهب

ومرّ به رجال من التجار وهو في قريته، والرجل يريد الحج، فابتاع منه بزاً بأربعمائة دينار إلى أن يرجع من حجه، فلم يبرح عنه الرجل حتى فرقه. . . فعرف الزهري في وجه الرجل ما كره. فلما رجع من حجه قضاه ذلك وأمر له بثلاثين ديناراً ينفقها في سفره. فقال له الزهري كأني رأيتك يومئذ ساء ظنك فقال: أجل. فقال: والله لم أفعل ذلك إلا للتجارة: أعطي القليل فأعطي الكثير!

وكان يخرج إلى الأعراب يفقههم ويعطيهم فجاءه رجل وقد نفد ما في يده، فمد الزهري يده إلى عمامة عقيل فنزعها وأعطاها الرجل، وقال لعقيل: أعطيك خيراً منها.

وقال له زياد بن أسعد: إن حديثك ليعجبني، ولكن ليست معي نفقة فأتبعك. فقال له: اتبعني أحدثك وأنفق عليك!

وفاته

كان له ضيعة في شَغَب: وهي أول عمل في فلسطين، وآخر عمل الحجاز، توفي فيها في رمضان سنة 124 على أصح الروايات ودفن في نشز من الأرض، وقبره قائم على الطريق ليدعو له كل من مرّ عليه. قال الأوزاعي: رأيت قبره هناك مسنماً مجصصاً مبيضاً فقلت: يا قبر كم فيك من حلم وعلم.

رسالة الأزهر في القرن العشرين
للأستاذ المسيحي لبيب الرياشي
مؤلف كتاب (نفسية الرسول العربي)
رسالة الأزهر في هذا القرن، القرن العشرين المسيحي!ـ . أم القرن الرابع عشر المحمدي؟ - هي تصير رسالة الرسول العربي العالمي المقدسة في القرن الأول المحمدي منذ ألف عام وثلثمائة عام وستين عاما وثمانية أعوام (1368)
أجل هي تصير رسالته مذ تحنث وتعبد فتجرد إلى أن غطه الوحي فعلم، إلى أن حمى التنزيل وتتابع - فجاهد وعلم وأنذر وبشر - فبلغ
بشر بالحكمة والموعظة الحسنة الناس جميعاً (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً)
أنذر وبشر وعلم - بفؤاد وادع وقلب سليم وسريرة طاهرة - فبلغ: (ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك) إلى أن أكمل جهوده وأتم رسالته واستودعها الفرقان الحكيم. وجعل قيمين على تنفيذها سرائر صحابته وتضحية المؤمنين بنبوءته ليعملوا بما أوحى إليه وأنزل عليه ويجاهدوا وينيروا
يجاهدوا وينيروا - البشر جميعاً بدين الفطرة، والإخاء، والشورى، والمساواة، والعدل، والعلم، والحكمة، والحجة، والضمير، والحرية، والجرأة، والصراحة، والاستقلال، وقرة أعين في الدنيا (ورضوان من الله أكبر) في الآخرة
إذن على أسس هذا الواجب العادل، وهذا التمثل الحق، يُرفع هيكل مجيد لرسالة الأزهر في القرن الرابع عشر المحمدي أو القرن العشرين كما أسمته وزارة المعارف المصرية الجليلة
إذن يرفع هيكل رسالة الأزهر في القرن كما رفع هيكل الإنسانية الإلهي في القرن الأول المحمدي - فيقابل الدور الأول دور التحنث والتعبد والتجرد والعلم، بتحنث وتعبد ودراسة من ينتخبهم الأزهر أم يتجندون للعلم في الأزهر على أن ينتخب الأزهر طلابا من أولي الشعور الخصب وأولي العزم والذكاء العميق، والتحسس الضميري، عشاق التضحية وعشاق الحق ويثقفهم ثقافة كاملة شاملة
ينتخب الأزهر طلابه من الشبان ممن اكتملت صفاتهم تلك ليتعلموا مع علم الدين وشرعة
الرسول وسنته وسيرته واللغة العربية اللغات الحية العالمية، ويدرسوا الأديان العالمية وتاريخها وفلسفتها وأساطيرها
كل فريق يتخصص للغة حية، ويتخصص لفرع من فروع العلوم ليعلموا عن كل علم جوهره الحق فيكون علمهم علما حقا (وإن الظن لا يغني من الحق شيئا)
قلت ينتخب الأزهر طلابه من الذكور والإناث فلا يحتكر العلم والتبشير الذكور عملاً بالآية الكريمة (والمؤمنون المؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة. . .) ولأن واجبهم في التبشير العالمي واجب الذكور والإناث على سواء
وقلت ينتخب الأزهر طلابه من ذوي الشعور الخصب والذكاء العميق والتحسس الضميري وعشاق التضحية والحق لكي لا يقولوا الله ما لم يقل في كتابتهم سيرة الرسول، ويعملوا الرسول ما لم يعمل في تبيان حياته، ويضعوا في فمه ألفاظا تطهر منها فمه
فيقولون مثلاً (غزوة) لكل واقعة انتصافية، أو تهذيبية، أو تبشيرية
إن الغزوة كتبت بعقلية من كتب بعد مائتي سنة من وفاة الرسول مع ما في من ظاهرة السلب وحب القتال غير المعقول وغير الحق
إن المفهوم والمعقول من الآيات المنزلة عند ما أذن الرسول بالقتال كانت للانتصاف والتهذيب والتبشير لا الغزو (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله)
فهل يحب (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) الغزاة الناهبين؟
ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها (اسم الله كثيراً)

(الذين إن مكناهم في الأرض، أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور)
(وقاتلوا حتى لا تكون فتنة)
تلك هي الآيات الحكيمة المنصفة التي نزلت على الرسول، فمن أين جاء كتاب السيرة ومن
تابعهم بالغزو. . . وبالغزوات
ولكي لا يقول الرسول هكذا: تذهب الكثرة من المؤرخين إلى أنهم - أي الصحابة - فكروا وفكر محمد (ص) على رأيهم في الانتقام من قريش لأنفسهم ومبادأتهم بالعداوة والحرب
ولكي لا يقولوه الطعن والشتم والسباب، بقولهم: طعن آلهة قريش، شتمها، سبها، ولكي، ولكي
إن الرسول لم يكن منتقما، وقد حذر الانتقام، ولم يكن سباباً، والحديث الصحيح والقرآن الحكيم ينفيان عنه حب الانتقام والشتم والسباب؛ فمن أي مصدر قرآني، أو حديث صحيح وضعوا في صدر الرسول الانتقام وفي فمه السباب؟؟. . .
إن الرسول فكر في الانتصاف من أعداء الله وأعدائه. فكر في حرية التبشير، فكر في تعليمهم الحق، وعلم بما فكر. فلما لم يذعنوا بالحسنى بعد ثلاثة عشر عاما أذن له في القتال الانتصافي، ولم يسب آلهة قريش، بل عابها. لم يسبها لأن حديثه مشهور: لا تكن سبابا
(ليس المسلم بالسباب ولا بالطعان ولا باللعان ولا بالفاحش ولا بالبذيء)
(إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً)
للأسباب المتقدمة التي صهرناها صهراً ننادي الأزهر بيت العلم المحمدي الأول، ونقول: إن واجب رسالته الواجب. الواجب كتابة سيرة للرسول تتفق والقرآن الحكيم؛ وعقلية الرسول البريئة وأعماله الحقة. وقلنا على طلاب الأزهر أن يثقفوا ثقافة جامعة شاملة، لكي لا يرموا قلب الحق بما رماه به كاتب مشهور تعلم في الأزهر، واتصل بالشيخ محمد عبده اتصالاً وثيقاً، وكان من المؤمنين برسالة الرسول ونبوة الرسول!
لكي لا يرموا قلب الحق وإن تعريباً وإن نقلا بقولهم في تأبين من اشتهر بالبخل وحب المال اشتهاره بالذكاء والدهاء
لكي لا يرموا قلب الحق بقولهم
(في مثل هذا اليوم منذ مائة سنة مات الرجل العظيم. مات الرجل الخالد. مات فولتر. ما مات فولتر حتى احدودب ظهره تحت أثقال السنين الطوال وأثقال جلائل الأعمال وأثقال الأمانة العظيمة التي عرضت على السموات والأرض فأبين أن يحملنها فحملها وحده، ألا وهي تهذيب السريرة الإنسانية فهذبها فاستنارت فاستقام أمرها. .)
وفولتر هذا الذي هذب السريرة الإنسانية فاستقام أمرها، فولتر هذا الذي عظمه مسلم مؤمن وسكب عظمته في صدر كل عربي مسلم. فولتر هذا هو كاتب القصة التمثيلية بعنوان (محمد) ولقد أهداها إلى البابا بنوا الرابع عشر بهذه العبارات
(فلتستغفر قداستك لعبد خاضع من أشد الناس إعجاباً بالفضيلة إذا تجرأ فقدم إلى رئيس الديانة الحقيقية ما كتبه ضد مؤسس ديانة كاذبة بربرية. وإلى مَنْ غير وكيل رب السلام، والحقيقة أستطيع أن توجه بنقدي فسق نبي كاذب وأغلاطه؟ فلتأذن لي قداستك في أن أضع قدميك الكتاب ومؤلفه وأن أجرؤ على سؤالك الحماية والبركة
وإني مع الإجلال العميق أجثو وأقبل قدميك القديستين
في 17 أغسطس سنة 1745
(فولتر)
ترى لو كان المعرب الذي استعار بلاغة القرآن تثقف الثقافة الحقة الجامعة الشاملة وفهم نفسية من كتب عنه وأعماله وأقواله
ترى لو كان مثقفاً ثقافة صحيحة أكان يقول عن فولتر قوله سواء أكان يقول إن فولتر هذب السريرة البشرية فاستنارات فاستقام أمرها، وإن أمانة هذا التهذيب عرضت على السموات والأرض فأبين أن يحملنها وحده؟ ويكون تهذيبه للبشر بهذا الشكل
الفاسق غفر الله لمن عرب ولمن ثقف هذه الثقافة
إذن لتكن رسالة الأزهر تعليم اللغات الحية ولتكن رسالته الثقافة الجامعة الشاملة

ليطلع طلابه على أهم المسائل فيظهروا الحق حقاً والباطل باطلاً
لتكن رسالة الثقافة الشاملة، فلا يصاب طلاب الحق بأمثال من ذكرت، وبأمثال عالم كتب حياة محمد (ص) وعندما شاء أن يصور كيف خشيت قريش البعث ورعبت من جهنم قال: (أما الجنة التي أعدت للمتقين، وجهنم التي أعدت للظالمين. أما ذلك كله فلم يكن يدور بخاطرها، وذلك كله قد سمعوا به في دين اليهود، وفي دين النصارى).
وقال في صفحة ثانية: (والموسوية والعيسوية تصفان حياة الخلد ورضا الله)
!لا أعلم أين قرأ المؤلف وصف الخلد، ووصف الجنة وجهنم في الدين الموسوي لا جنة ولا جهنم أيها المؤلف الفاضل في الدين الموسوي ولم يرد وصفهما لموسى. إن التوراة اكتفت بقولها: (إن الله له منتقم يفتقد ذنوب الآباء في البنين إلى الجيل الرابع، ومن ثمة يفتقد خطايا الخاطئ وذنوبه بجسمه ونسله وأنعامه ومواشيه فحسب)
مثل هذا القصور في الثقافة لا يليق بمن يكتب حياة أعظم من سار على قدمين من بني البشر - حياة الرسول - لذا ترى أن أول واجبات رسالة الأزهر توسيع دائرة المعارف وتثقيف الطلاب ثقافة جامعة شاملة قبل أن يكتبوا عن الرسول وقبل أن يحللوا الحكمة السامية التي تجسدت في شخص محمد، والأدب الرفيع الذي جلل أقواله وأعماله
جهلت قومه عليه فاغضى ... وأخو الحلم دأبه الأغضاء
وقلنا بالتخصص ليخرج من طلابه نوابغ في أي فرع من فروع العلوم، فإذا تخصصوا ونبغوا حق لهم أن يفسروا القرآن الحكيم لأنهم يومئذ، ويومئذ فقط، يفهمون الآيات الطبية والتشريعية العالمية الدولية والنفسية البشرية، وعلوم الفلك والطبيعيات وو. . . إن في القرآن مجموعة العلوم البشرية فأنى لغير مجمع كبير علمي أخصائي في أي العلوم يفهمه ويفسره؟ فإذا تخصصت كل فئة لفرع أجادت فهم القرآن وأجادت تفسيره
ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا) النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم (أنشأناه خلقاً آخر
هذه الأطوار الستة وردت في القرآن الحكيم منذ أربعة عشر قرناً أثبتتها الاكتشافات الحديثة أمس (واتخذها الفلاسفة الطبيعيون حجة على أطوار خلق الجنين توافق الأطوار التي نشأت فيها أصول الحيوانات في الأزمنة العريقة في القدم قبل خلق الإنسان بادهار طويلة، وذلك لأن الإنسان يكون في الطور الأول من إنشائه نطفة أشبه بالحيوانات السافلة المساماة بذوات الجوف، ثم يستحيل إلى علقة فيصير أشبه بالسمك، ثم ينسلخ مضغة فيكون شبيهاً بالحيوانات المائية البرية ذوات العمرين، وبعد ذلك يتحول إلى مشابهة أدنى مراتب الحيوانات اللبون وهو حينئذ في بدء الطور الذي ينمو فيه خلقاً سوياً متميزا بخصائصه النوعية)
أنى لغير الطبيب الحكيم أن يفهم عظمة القرآن وعلوم القرآن إذا مرت أمامه الآية الطبية تلك وأمثالها وأنى له أن يفسرها؟
وأنى لغير المشترع أن يعلن بسرعة أن أعظم لجنة ألفتها جمعية الأمم في القرن العشرين
مؤلفة من أكبر مشترعي العالم منذ أشهر معدودة لتحكم بين دولتين هما من أعضاء جامعة الأمم
لقد قالت اللجنة التشريعية: مادام أن مجلس الثلاثة عشر قال إن إيطاليا هي المعتدية على الحبشة، ولما كان كلاهما عضو في جامعة الأمم فعلى جامعة الأمم أن تناصر المعتدى عليها
ذلك حكمها. فلنسمع حكم القرآن في مثل هذا الموقف ولنعتبر ولنحترم
لنسمع للحكم السامي الرفيع الذي جاء به الفرقان منذ أربعة عشر قرناً، الحكم الجامع الشامل، الحكم الذي عجز عن الإتيان بمثله أعظم علماء الشرع في القرن العشرين:
وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهم. فإن بغت إحداهما على الأخرى) فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله. فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل (وأقسطوا، إن الله يحب المقسطين
فإذا اكتملت الثقافة واكتمل التخصص وتعلم اللغات فقد ابتدأ دور الجهاد فأصبحت

رسالة الأزهر الثانية والثالثة. أما الدور الرابع فالترجمة وإرسال الوفود تحت كل كوكب للتعليم والإنذار والتبشير بالحكمة والموعظة الحسنة بفؤاد وادع وقلب سليم وأن يكون من جهاد الأزهر طبع المؤلفات النفيسة عن الرسول وعن القرآن وعمن نصروا الرسول متشرفين بحكمة إمامته العظمى، وليكن من جهاده نشرها حسب الأزهر أن يقوم بما تقدم لينقل للإنسانية رسالة سامية تطمئن الأصغرين وتسعد في الدارين

الخلاصة عن رسالة الأزهر

1 - أن ينتخب طلابه من ذوي الشعور الخصب وعشاق الحق ليتعلموا مع العلوم الشرعية الأزهرية كلها تاريخ الأديان وفلسفة تلك الأديان وأساطيرها

2 - ليتعلموا اللغات الحية

3 - وأن يكونوا فئات في التخصص كل فريق يتخصص لعلم حتى يجيدوا فهم القرآن الحكيم الجامع لكل العلوم ويجيدوا تفسيره

4 - أن يترجم الأزهر خيرة المؤلفات العربية ذات العلاقة بالدين الإسلامي والرسول العربي إلى اللغات الحية

5 - أن يبعث إرساليات تبشيرية تحت كل كوكب تبشر بالحكمة والموعظة الحسنة للناس جميعا

6 - أن يكتب سيرة الرسول العظيم كتابة تتفق مع ما ورد في الفرقان الحكيم والأحاديث الصحيحة، ورأي المؤرخين السياسيين المنصفين

7 - أن يترجم تلك السيرة، أم الحياة، إلى اللغات الحية جميعها وأن يطبع ما صُنف من المؤلفات النفسية عن الرسول وعن الدين

(دمشق)

لبيب الرياشي

الحياة الأدبية بالمغرب

بقلم محمد عبد المجيد بن جلون

لقد حان أن نتكلم نحن أيضاً عن الحياة الأدبية في بلادنا، فـ (الرسالة) سائرة تتحدث عن الأدب في الأقطار العربية، التي - وإن بددتها الأطماع السياسية - ستظل تجمعها لغة الضاد إلى ما شاء الله. ونعني بالمغرب المغرب الأقصى، وبالأدب الأدب الحديث؛ أما الأدب القديم فنود أن نرجع إليه في مناسبة أخرى لما شاع في المشرق من أن المغرب قطر لم يساهم في الأدب العربي، وتلك حقيقة اكتشفها مؤلفا كتاب: (المطرب في تاريخ الأندلس والمغرب) محمد عجاج، وعلي سعد؛ ومصدر ذلك هو الجهل بالمغرب وتاريخه. والمؤلفان معذوران - إلى حد ما - لأن تاريخ المغرب - الأدبي منه بنوع خاص - لا يزال في ظلمات المكاتب، إلا قليلاً؛ على أن هذا القليل نفسه لا يسمح لنا أن نحكم بأن المغرب ليس له أدب قديم؛ وما نريد أن نزيدهما على ما كتب في هذا الموضوع أستاذنا محمد علال الفاسي (المغرب الجديد - عدد 3 - السنة الأولى)

وبعد، فما هي حالة الأدب العربي بالمغرب اليوم؟ لقد أجهدت نفسي في أن أصل إلى جواب أطمئن إليه عن هذا السؤال، فما وجدت الحقيقة إلا في أنها حالة ضعيفة؛ فما هي الكتب الأدبية - بالمعنى الصحيح - التي يصدرها المغرب؟. . . . . أعفني بربك أيها القارئ، فالحقيقة مرة، وقلبي يضطرب عند ذكرها اضطراباً

وإذ عدمنا الكتب فلنتساءل عن الصحف. إن كل ما يصدره المغرب مجلتان أدبيتان: الأولى (مجلة المغرب) للأستاذ محمد الصالح ميسة برباط الفتح، والثانية (المغرب الجديد) للأستاذ محمد المكي الناصري بتطوان، اجتازت الأولى مرحلة أربع سنوات، والثانية أتمت سنتها الأولى منذ قريب. فما قيمة ما تنشر هاتان المجلتان؟ ذلك ما نريد أن نتحدث عنه الآن باختصار

فأولاً يجب أن تعلم أن المجلات المصرية - يا للمجلات المصرية! - طغت عليهما إلى درجة أن إحداهما لا تباع في فاس، لأنها فقدت المشتري بالمرة وهما معاً تصدران شهرياً، فلننظر الآن ما في هاته المجموعات

أما ما يسمى بالبحث الأدبي ففيها الكثير، خصوصاً حول الأدب العربي في المغرب قديماً،

فهذا البحث الذي يتابع نشره الأستاذ محمد علال الفاسي على الطريقة الحديثة، عن أبي علي اليوسي، وبحثه القيم يبهر القارئ؛ وهو يكتب الآن بحثاً عن أثر شعر المتنبي في المغرب بمناسبة ذكراه الألفية، وموضوع كهذا، في وقت بالمغرب كهذا، يصدر بهذا العنوان الخطير، يكاد لا يصدقه العقل، وأحكم على البحث بالبراعة والإلمام بالموضوع لأنني اطلعت على جزء منه

وأما إذا بحثت عما يسمى بالإنتاج الأدبي، فذلك ما لا تعثر عليه، فليس يدور بخلد المغربي أن يعالج القصة، بل القصة عنده لهو وعبث يجب أن يضن عليه بوقته الثمين. . وهناك شعر قليل ولكنه نظم ليس إلا، ذلك أن المغاربة يجهلون الشعر تماماً، اللهم إلا قواعد جافة لا تسمن ولا تغني من جوع. والذين يزعمون أنهم شعراء يزعمون كذلك أنهم أعلى من أن يحدثهم طه حسين مثلاً عن فن الشعر. يقلدون القدماء ويقفون ويستوقفون، مما كان سائغاً في العصور الغابرة أيام الناقة والجمل، أما اليوم فكل هذا محاكاة لا تمت إلى الحقيقة بصلة، وليست من الشعر في شيء. كذلك يفقدون المثل الأعلى، وإنما هو هذيان يجري إلى غير غاية، ومعان مفككة، وهم ضعفاء الخيال، والحقيقة أن حالة المغرب الاجتماعية لها الأثر الفعال في هاته الناحية، وهنا أستثني شاعر شبابنا الأستاذ محمد علال العباسي فاسمع هاته النغمات الحلوة يرسلها قلب عليم قد امتلأ حباً لهذا الوطن العزيز:

وإذا متُّ عليه فأنا ... مطمئن لرضاه المثمن
فاغسلوا بالماء منه بدني ... واجعلوا نسج بنيه كفني
وادفنوني في ثراه وضعوا ... فوق قبري منه زهر السوسن
واكتبوا فوق ضريحي بدمي ... هاهنا قبر شهيد الوطن

وإذا تصورت الشاعر منفياً عن مهد صباه، بعيداً عن الأهل والوطن، في باريس، طلبت منه أن تعيد النظر في هاته الأبيات؛ وهو لا زال لم ينشر ديوانه (روض الملك) بعد؛ وله قصائد رائعة - عند ما كان في باريس تجدها في مجلة السلام، يوم كانت مجلة السلام وأكثر ما ينشر ويذاع من قصائد للمغاربة رديء سقيم، أشفق على قارئه وسامعه أكثر مما أشفق على قائله. . .

والآفة التي تستولي على المغاربة هي الكسل، وماذا يتطلب قول الشعر. . . هل يحتاج إلى إطلاع في التاريخ أو تحصيل شيء من الفنون. . . هكذا يظنون، فينشأ الكسل والنهضة المغربية تقوم على أكتاف الشباب الناشئ، فهناك شباب يكتبون لأنفسهم، ويقولون الشعر لها أيضاً، وربما أطلعوا بعض أصدقائهم على ذلك، وبعد هذا فإلى ظلمات الدرج، حيث يعلم الله وحده ماذا يكون بها، وكاتب السطور يعرف جماعة من هؤلاء في فاس اطلع لهم على قصص لا بأس به، وشعر له حظه من الجودة يبشران بمستقبل حافل. إذن فالأمل في الشباب الناشئ الذي يقرأ بنهم ما يكتبه أفذاذ الشرق، فاعتدلت بذلك أفكاره نوعاً من الاعتدال، ويوشك إن هو استمر على اجتهاده أن يكون منه أدباء، يبذرون في الأرض المغربية الخصبة بذور الأدب الصحيح، بل إني أؤكد أن هؤلاء الناشئين لابد أن يكون لهم شأن، فما كانت هاته الجهود لتضيع هباء بهذه اللمحة الموجزة تستطيع أن تتبين ما في المغرب من أدب، وأن نستنتج أنه في الحالة الحاضرة ضعيف الأدب، وأنه وإن لم يكن ميتاً فهو قريب من ذلك، وأن حالة الناشئة تبشر بمستقبل زاهر قريب، لما لهذا الشباب الطموح من عزيمة

والعقلية المغربية أقرب إلى العلم منها إلى أي شيء آخر، ولو كنا نتحدث عن الحالة العلمية لطال بنا الحديث، خصوصاً ما يلقى في جامعة القرويين من دروس جامعة مع اعترافنا بما فيها من نقص وما تحتاج إليه من تهذيب

ولعله استرعى نظرك أننا ما ذكرنا غير الأستاذ محمد علال العباسي فليس معنى ذلك أنه ليس في المغرب غيره، ولكن معناه، أنه - في نظري - أعدل إخوانه الأدباء رأياً، وأقربهم إلى الصواب، فهو أديب حقاً، وله نفسية الأديب، ويحيا حياته. وكل من يعرف وداعته وأخلاقه يطمئن إلى ما نقول، بيد أنه لا يصرف كل أوقاته - ولا جلها - في الأدب، بل اشتغاله به محدود ضيق الدائرة، ولو كان يفعل لكان أديباً جباراً فما خُلق إلا ليكون أديباً

بقي أن نقول إن القرويين والمدارس القومية والحكومية كلها تحمد وتعاب، غير أن

أفضل معهد للدرس هو القرويين. ولو كان أبناء (الكولج ومولاي إدريس) يشتغلون بالعربية. لكانوا أنجب من أبناء القرويين، ولكن كل همهم في الأدب الفرنسي والتفرنج، وهم زيادة على ذلك يعيشون في ظلام لا يستطيعون السير فيه وحدهم وهنا ننوه بما (للرسالة) الغراء على أبناء المغرب من فضل. فإليها يرجع طموح الناشئة،
على هداها يسيرون، وبنورها يهتدون؛ فشكراً لك (يا رسالة) الحياة، ولك أنت يا مصر الشقيقة، فلن تجدي في المغرب نكراناً للجميل
فاس
محمد عبد المجيد بن جلون
نهاية المجد الإنساني
لدانيل ديفوا
(1661 - 1731)
رسالة كتبها لإحدى الصحف بمناسبة موت الدوق مارلبرو
سيدي:
لقد أكببت أخيراً على درس التاريخ، وطالعت حياة عظماء القرون الماضية كالاسكندر الأكبر ويوليوس قيصر وأوغسطس العظيم، وكثيرين غير هؤلاء وهؤلاء ممن تواردوا بعدهم حتى لويس الرابع عشر الكبير، بل وحتى أعظمهم وأكبرهم (جون دوق مارلبرو)!! ولقد مررت في طريقي بتيمورلنك حصاد الرؤوس، وبتمور نبيجوس المصري، وبسليمان الكبير، ثم بغير هؤلاء من سلاطين آل عثمان، فإذا قد كتب عنهم جميعاً الواحد تلو الآخر بعد الآثار العظيمة التي خلفوها: (ثم مات)!!!؛ جميعاً أموات!؛ أموات!؛ أموات!؛؛ و (الموت) هو نهاية كل منهم!! فالبعض يرقد في مهد الشرف! والبعض على سرير الخضوع الذليل! هذا قد مات شجاعاً في ساحة الشرف! وذاك قد تردى في هوة المجد أثناء عاصفة الهجوم! البعض هنا والبعض هناك! تختلط عظام الشجاع الصنديد منهم بعظام الجبان الرعديد! وبقايا البطل الجريء ببقايا النكرة الدنيء! يرقدون هناك في أكفان النسيان تحت أنقاض الثرى؛ لا يتميز واحد من الآخر (!ولا يباينون التراب في شيء
ترقد هذه الساعة الدقاقة المفاخرة مختلطة بالأقذار؛ وهي التي كانت (عظيمة)) كم آلاف من الأبطال يرقدون في هذا العالم أكواماً (!فظنت نفسها عارفة مقتدرة متناثرة؟ كم يجرف الريفيون عظامهم بمحاريثهم وكم يسحقها العمال بفؤوسهم؟ بل لكم تحول الأرض أنبل وأسمى أعضائهم إلى ما يستعمل في أحط المنافع! لكم مزجنا رماد الأبطال بطلاء منازلنا؟؛ ولكم خلطنا رماد قائد روماني بملاط حظيرة للخنازير! أين رفات (قيصر)؟ أين بقايا (بومبي) وانقاض (سيبيو) و (هنيبال)؟؟ كلهم قد تلاشوا!! اندثر رمادهم ولم يعد مكانهم يعرفهم! لست تراهم إلا في الكتب الباقية لشعرائهم ومؤرخيهم؛ والرسائل الكثيرة لمداهنيهم ومتملقيهم الذين صوروا لنا الأشخاص لا كما كانوا حقاً! بل كما كان يحلو لهم أن
يصوروهم!!!. . .
وما يقع لأعظم الناس يقع لأطولهم عمراً! فقوم نوح انتهوا جميعاً بشيء واحد؛ عاش منهم (متوشالح) تسعمائة سنة وتسعا وستين! وأعقب أبناء كثيرين وبنات كثيرات! ثم ماذا كان؟ كان أن مات. .! (الحياة حلم، والموت نهر طام يجرفنا)
نحتفل الآن بجناز مارلبرو (العظيم)!! فكل انتصاراته، وكل مفاخره، وكل خططه الحربية التي دبرها، وكل فتوحاته المتسلسلة المطردة، كل ذلك الذي يخصونه به كما لو كان وحده قد حارب وانتصر، وفاز وكسب، دون أن يمده الكثيرون بأرواحهم ودمائهم! كله قد انتهى حيث ينتهي آخرون! بل حيث ينتهي الناس جميعاً! أنه مات!! فلا ثروته الضخمة، ولا أسلابه من أعدائه، ولا سخاء حبيبته البارة وكرمها، ولا الكنوز المتراكمة في الحرب وفي السلم، ولا كل هاته الكتلة العظيمة من الذهب التي لا أعنى بتعيين ضخامتها كما قد يعنى البعض!! شيء من ذلك لم يستطع أن يهبه الحياة؛ ولا أن يطيل له أمدها لحظة؛ لقد انتهى وكفى. . .!
لا، بل يقول البعض إن الكنز العظيم الذي امتلكه في هذا العالم ذو خاصية غريبة عالقة به كانت تكون جد منغصة لصاحبه لو اعتنى بالتفكير فيها قليلاً! وهي أنه لا يستطيع أن

يأخذ شيئاً منه إلى قبره. . .!!!
لم يبق لنا شيء من ذلك (العظيم) نتحدث عنه غير تاريخه وتمثاله؛ لقد عُدَّ الآن في الماضيات، وأصبحت صور جنازته ومعاركه جديرة بأن تتزين بها منازلنا كسائر القطع الفنية التي تعادلها زهواً وبهاء، وتساويها في النظر إليها بسرور وارتياح!!!
هكذا نهاية المجد الإنساني! وقليلاً ما تستطيع الدنيا القيام به لأعظم من يلجونها! بل ولأعظم قدر يصل إليه هؤلاء الرجال. .!!
فما وظيفة الحياة إذاً؟ وما أثر العظماء الذين يمرون على مسرح للدنيا في حلل النصر كهؤلاء الذين ندعوهم (أبطالاً)؟؟ أهو أن يكبروا وينفخوا في بوق الشهرة ويشغلوا صفحات كثيرة من التاريخ؟؟ وا أسفاه!! ليس هذا بأكثر من وضع قصة يقرأها الخلف فيما بعد ويصورها خرافة ورواية!! أم هو أن يقدموا للشعراء موضوعا يعيشون به في أشعارهم الخالدة كما يدعون؟؟ وذاك أيضاً سيؤول بهم إلى قصة شعرية يتلوها العجائز لإسكات
الأطفال، أو لجمع مساعدة للفقراء والمساكين على قارعة الطريق. .!
أم أن أثرهم هو أن يضيفوا الفضيلة والتقوى لمجدهم؛ وهما العنصران اللذان يأخذان بهم إلى النعيم ويجعلانهم حقاً خالدين؟؟ وما المجد من غير فضيلة؟؟
ليس العظيم من غير تقوى بأكثر من دابة ضخمة من غير نفس!
ثم ما الشرف بغير قدر واستحقاق؟؟
وماذا يمكن أن يدعى قدراً حقيقياً غير ما يجعل الشخص تقياً كما هو عظيم؟؟
إنا إذا كنا نؤمن بحالة مستقبلة للحياة، بمكان يكافأ فيه الفضلاء، ويعاقب بين جدرانه السفلة، فكم من الرؤوس المتوجة سيلبس تاج السعادة والخلد؟؟
لا يحسدن أحد (العظماء وذوى المجد) كما نسميهم!!
فإنا إذا استطعنا الآن أن نراهم وجدنا أكثرهم يستحق الرثاء لا التهنئة!!؟
هذه الخطرات القليلة أبعثها إليك يا سيدي لتهيئ عقول قرائك قبل أن يذهبوا لمشاهدة الجناز الفخم للطيب الذكر (دوق مارلبرو). . . . .

ترجمة محمد حسن ظاظا

الأدب بين الخاصة والعامة

لامرتين ورينه جارد

للسيد اسكندر كرباج

في عام 1846 قصد الشاعر الفرنسي لامرتين إلى مرسيليا لقضاء بضعة أسابيع في أحد أحيائها الهادئة، بعيداً عن متاعب السياسة وضوضائها، وكان لامرتين وقتئذ في أوج مجده الأدبي وعظمته السياسية؛ فاحتفت به أندية العلم والاجتماع في تلك المدينة البحرية، وأكرمه الأدباء والشعراء، ونظموا فيه القصائد البليغة
وفي ذات يوم ذهب لامرتين وزوجه للنزهة على ساحل البحر، فلما عاد مساء قيل له إن في الرواق المطل على الحديقة امرأة وضيعة الهيئة بسيطة الهندام تنتظر رجوعه منذ الصباح. فتوجه لامرتين إلى الرواق المذكور ليرى تلك المرأة الغريبة ويقف على حقيقة أمرها؛ وبعد أن يشاهدها ويحدثها ويصف ملامحها ونظراتها وإشاراتها بتلك الرقة الساحرة وذاك البيان الخلاب الذي اشتهر به مؤلف رواية غرازيلا ورفائيل يسألها عن الغرض من قدومها لزيارته، فتجيبه أنها خياطة في اكس، وقد قرأت رواياته ومنظوماته، وأعجبت بجمال تعابيره ورقة شعوره وسمو خياله، فلما اطلعت في الصحف على خبر قدومه إلى مرسيليا واحتفاء دوائرها الأدبية به تولدت في نفسها رغبة التعرف به والتحدث إليه، وإنها على الرغم من فقرها وخمولها تجرأت على ترك عملها والقدوم سرا إلى مرسيليا تحقيقا لرغبتها
فيتودد إليها لامرتين ويلاطفها ويقول لها أنه يشك في أنها تركت عملها وتحملت مشاق السفر يومين كاملين، وقضت معظم النهار في انتظار رجوعه من نزهته لكي تراه وتحدثه وتتعرف إليه فقط؛ بل يجب أن يكون هنالك سبب آخر لقدومها لا تريد ذكره، أو أنها لا تجرؤ على التصريح به، ولذلك فهو يسألها أن تخاطبه بحرية وتبوح له بما في قلبها من غير تكلف
فتفقد هي إذ ذاك شيئاً من خجلها واضطرابها، وتخبره أن في إكس أسرة كريمة تعرف شدة ميلها إلى المطالعة وعجزها عن شراء الكتب فتعيرها ما تقتنيه منها، فاستطاعت

بذلك أن تطالع عددا كبيراً من الروايات النفسية والمنظومات الرقيعة ولاسيما رواياته ومنظوماته
التي تطرب المسامع، وتحرك القلوب، وتستذرف الدموع
فيقاطعها لامرتين مبتسما: عرفت الآن! إنك شاعرة كالنسمات التي تهب بين أشجار الزيتون، أو كالندى الذي يبلل أثمار التين!
فتجيبه: لست شيئاً من ذلك يا سيدي؛ إني خياطة وضيعة لا أبرح غرفة عملي إلا نادرا، وسلوتي الوحيدة الدرس والمطالعة، وليس يؤنسني في وحشتي وانفرادي إلا عصفور غرِّيد، ولكن هذا كله لا يهمك أمره، لقد سألتني عن سبب قدومي إلى مرسيليا وكيف عرفت بقدومك إليها، فأجيبك أني قرأت منذ أيام في صحف هذه المدينة أبياتاً من الشعر الرقيق ليوسف أوتران في مدح لامرتين والترحيب به، فشوقتني هذه الأبيات إلى رؤية الشخص الذي أوحى إلى شاعر مقاطعتنا نظم تلك الأبيات الجميلة، وبتُّ لا أستطيع صبراً على ذلك. وبعد وثوقي من وجودك هنا قدمت لزيارتك دون أن أهتم بملبسي أو بغيره مما يجعلني أهلا للمثول في حضرة رجل مثلك؛ وهأنا أمامك الآن لا أدري ماذا أقول ولا ماذا أفعل، وربما حملتك حالتي هذه على الاعتقاد بأني امرأة جسور مغامرة أتت تخدعك وتدعي ما ليس فيها، مع أن الحقيقة هي ما أوردته لك بالتمام، وبعد أن شاهدتك وعرفتك وحدثتك وحظوت منك بهذا الاستقبال اللطيف سأعود إلى قريتي حاملة أجمل ذكرى لهذه الزيارة
فيقول لها لامرتين: خففي عنك أيتها الآنسة! لم يمر في خاطري قط أنكِ لست كما تذكرين، فملامحك أنصع دليل على صدقكِ وسلامة طويتك، وإذا كانت الألسنة تخدع أحياناً فالعيون لا تضلل أبداً؛ ففي عينيك بريق يشفُّ عن براءة ونقاوة لا يمكن أن تكونا برقعاً لامرأة كاذبة نمامة. إن الطبيعة لم تخلق الملامح كذوبة، فأنا أثق بكِ كما لو كنت أعرفك منذ الصغر، ولذلك لا أسمح لكِ بالانصراف ما لم تحدثيني طويلاً وتشاركينا في العشاء؛ لقد ذهبت زوجتي لتغيير ثوبها ولا تلبث أن تأتي لاستقبالك والقيام بواجب الضيافة نحوك. وقبل أن يحين وقت العشاء أخبريني كيف تولد فيكِ هذا الميل إلى المطالعة، وهذا الهيام الشديد بالشعر والشعراء، والتعرف إلى الأدباء الذين طالعتِ رواياتهم
فتروي له قصتها قائلة: اسمي رينه جارد، وقد وُلدت في قرية قريبة من إكس، ودخلت صغيرة في خدمة السيدة. . . ورافقت نشوء الأولاد، ونعمت بعطف الأبوين وصداقة الصبايا، وكنت أصغي إلى ما يتعلمنه على الأساتذة وأطالع كتبهن في أوقات الفراغ، فتوصلت بهذه الواسطة إلى تحصيل بعض العلوم ومعرفة القراءة والكتابة والخياطة والغسل والكيّ وغيرها مما تحتاج إليه الفتاة ويكلفها تعلمه نفقات كبيرة. وكنت أتولى خياطة ثيابهن، وأعدهن لحضور الحفلات في إكس، وأنتظر رجوعهن من المراقص حتى الساعة الثانية والثالثة بعد نصف الليل، ومكافأة لي على ذلك كن يدفعن إلي كتاباً أو رواية لكي أطالعها في غيابهن؛ فكنت أجلس بها إلى جانب الموقد وآخذ في مطالعتها مرتين وثلاثاً ولا أتركها من يدي إلا بعد أن أكون قد استوعبت معانيها جيداً؛ وهكذا طالعت قصة المسكينة لورانس في روايتك الشعرية جوسلين، وقد قلت لنفسي وقتئذٍ: هل يسعدني الحظ برؤية كاتبها ومحادثته؟ لا ريب أنك تعرف أنشودة البحري التي مطلعها: من هو ناظم النشيد؟
فيجيبها لامرتين: نعم أعرف تلك الأنشودة التي يضع ناظمها اسمه تحت آخر بيت منها كما كان فينديا‌س يضع اسمه على قاعدة تماثيله، وفانديك في ذيل رسومه لكي يخلد بخلودها. ولكن أخبريني كيف انفصلت عن تلك الأسرة الكريمة، وأي عمل تمارسين الآن؟
فتقول له رينه: بعد أن تزوج البنات وتوفيت الأم لم يعد من حاجة إلى بقائي في البيت، فغادرته على ألا أدخل في خدمة غيره؛ وقد ساعدني الأب بمبلغ من المال على تدبير أموري، وقال لي البنات: اطمئني فلن نحوجك إلى الاستجداء
وكنت محبوبة معتبرة في بيئتي، فاستأجرت حانوتاً تعلوه غرفة صغيرة للنوم، وانصرفت إلى احتراف الخياطة، ولكثرة الإقبال عليّ كدت لا أستطيع تلبية الجميع؛ وأنا أعيش اليوم من إبرتي، وما يفيض عن نفقاتي أختزنه ليوم الضيق أو لأيام شيخوختي. وكانت لي عصفورة تسليني في وحدتي ففقدتها وحزنت عليها كثيرا، وأنا أخصص أيام

الآحاد والأعياد للمطالعة. وفي المدينة أشخاص من الطبقة العالية مثلك، وعلماء وأدباء حتى وبعض أعضاء المجمع العلمي يعرفون ميلي إلى المطالعة والنظم في بعض الحفلات، فلا يخجلون من دخول مصنعي ومحادثتي وإعارتي بعض الكتب

فيقول لها لامرتين مبتسما: أتنظمين الشعر أيضاً يا رينه؟ كدت استشف ذلك من عينيك الحالمتين، إذ لا سماء بدون غيوم، والأحلام والنظم هي غيوم تينك العينين الجميلتين؛ ولكن هلمي بنا، لقد هجرت أنا النظم، ولكني لم أزل أحن إلى سماع رناته والاستمتاع

بروائع صوره ومعانيه. فما أجمل زمن النظم! وما أشد شوقنا إليه! هل تتذكرين يا رينه شيئاً من نظمك فتسمعيني إياه؟ انظري ما أبدع هذا المكان وألطفه لإنشاد الشعر! فالشمس على وشك المغيب، والبحر يحمل إلى مسمعنا هدير أمواجه وخشخشة أصدافه التي هي أشبه بغناء صغيرة تضرب على الصنج، والنسيم يداعب أشجار الليمون وينثر أزهارها العذرية على شعرك الأسود، وأنا، هذا الغريب الذي كان شاعرا فيما غبر من الأيام ويجلس وحيداً أمامك ليسمعكِ وقد أعجب بنبرات صوتك، ألا يساوي كل هذا في نظرك جمهوراً من السامعين حتى ولو كانوا من أعضاء المجمع العلمي؟

فتجيبه رينه: لا جرأة لي على ذلك يا سيدي، ولكني أحتفظ بمقاطيع من الشعر كنت قد نظمتها في إحدى ساعات كآبتي، فأفضل أن تقرأها أنت من أن ألقيها أنا على مسامعك. ثم تخرج من جيبها بضع أوراق وتدفعها إليه

فيأخذها لامرتين ويقرأها لنفسه، وكانت هي في أثناء ذلك تمسح وجهها بمحزمها وتحول نظرها عن وجه لامرتين مخافة أن تقرأ فيه ما يدل على استهجانه

ثم يصف لامرتين تأثير تلك القراءة في نفسه فيقول له:

لقد أعجبت وتأثرت جداً بما قرأت، أنه التعبير الساذج اللطيف المؤثر بكل قوته ومعانيه، بل خلجات قلب هادئة تصل إلى المسامع بصورة شجية متناسقة، بل صورة ملامحها المتواضعة اللطيفة بكل خطوطها وعلاماتها؛ وبكلمة واحدة، أنه شعر حقيقي لامرأة تحاول التعبير عن عواطفها بالضرب على أوتار آلة تجهلها

لم تكن الأبيات التي طالعتها شديدة أو رنانة كشعر رابول، ولا حماسية وهاجة، أو ندية فضفاضة كالياسمين، بل كانت هي نفسها: نغمة مملة كئيبة تنشدها عاملة فقيرة لنفسها وهي تحرك أناملها أمام نافذة غرفتها لكي تخفف تعبها من عمل الإبرة

كان في الأبيات نغمات حادة تجرح القلب، وأخرى لا تحتوي إلا نبرات غامضة لا تلفظ كأن التنفس وقف في منتصف الاستنشاق، غير أن هذا كان قوياً وتاماً وتغلغلاً حتى القلب وحتى السماء؛ وكان التأثر فيها يفوق الإعجاب. وعلى الجملة أنها الشعر في حالة التكوين، الشعر الذهبي كما هو في كل مكان حيث يبتدئ في الشعب ولو خلا من صوت الفن، أن نغمة واحدة مملة كئيبة، وقصة تتألف من حادث أو حادثين، وسبع أو ثماني صور كافية

للتعبير عن اللانهاية!

ثم يرجع لها الأوراق قائلاً: إن في منظوماتها أشياء خلابة وأن الله منحها موهبتين ساميتين: الشعور بدقة، والتعبير بظرف؛ وهما موهبتا المواهب، أو موهبة الدموع في الصوت، ولكنه أبعد من أن يشير عليها بنشر تلك المنظومات التي هي مثل المياه لا تستعذب إلا إذا نهلت من ينبوعها

فتجيبه رينه: ماذا تقول يا سيدي؟ إني لم أفكر قط في أمر كهذا، إن إقدامي على نشر الكتب يحمل حتى ملاكي الحارس على السخرية بي. لقد نظمت ما قرأته الآن يوم الأحد الأخير على سبيل التسلية فقط، ولا أحد يعلم به في إكس. ومتى كان الإنسان يعيش وحيداً مثلي يضطر إلى التكلم عالياً كي يستوثق من وجوده، فالمنظومات التي قرأتها هي مناجاتي لنفسي

(العصبة)

اسكندر كرباج

من العصبة الأندلسية

نحن والزمن

للأستاذ عبد الرحمن شكري

مقدمة:

الزمن كما يفهم الإنسان فكرة من أفكاره، ونسبة ومقياس من صنعه، فهو يقيسه بإحساسه بأمور نفسه بالمرئيات والمحسوسات وما يعتريها من تحول؛ وفكرة الزمن هذه أمر نسبي شأنها شأن الإحساس بالحرارة والبرودة، أو بالأبعاد والحجوم والألوان والأشكال، ومن المستطاع أن يتصور العقل مخلوقاً آخر غير الإنسان يختلف في حواسه، فتختلف كل هذه الأمور في نظره عنها في نظر الإنسان، وهي أيضاً قد تختلف في نظر الإنسان في حالاته المختلفة من شقاء أو سعادة أو مرض أو صحة. والعجيب أن الإنسان في خياله ينسب إلى الدهر مثل هرمه لقدمه، فيصوره كأنه شيخ مفن في يده منجل يحصد به الناس والخليقة جيلا بعد جيل، والدهر خليق أن يمثل بفتى في ريعان الشباب. فالإنسان يهرم والدول تشيخ وتفنى، والأجيال تنقرض، والدهر هو الدهر، ومن أجل ذلك تصور بعض المفكرين الدهر كأنه زمن حاضر لا ماضي فيه ولا مستقبل، وأما الماضي والمستقبل ففي الناس، والحقيقة أن هذه الفكرة في كنه الزمن لا تختلف عن الأولى مادام الزمن نسبة يقيسها الإنسان بإحساسه، وإذا كان الزمن كذلك فمعاداة الناس للزمن معاداة لأنفسهم، ونسبتهم الحيف والظلم إليه هي نسبة الظلم إلى أنفسهم

(الناظم)

القصيدة: -

يُنْشِدُ البَحْرُ خَرِيرَ الحِقَب ... أم خفوقُ القلب نبضُ الزمنِ
أم ترى الأفلاك في دوراتها ... رَتَّلَتْ منه خَفِيَّ اللُّحَنِ
فَرَشِ الناسُ له منهم وُجُوهاً ... خَدَّدَ الدهر بها ما خَدَّدَا
أَثَرٌ في سيره مِنْ قَدَم ... جَعَّدَتْ ما كان بَضًّا أمردا
زعم الناس إذا أمضاهمُ ال ... دهر أَنْ امضوا من الدهر سنينْ
يستطيع البذل من يقوى على ... خَزْنِهِ هيهات ذا من هالِكين
كم ملوك ودهم لو تُشْتَرَي ... منه عند الموت بالذخر التليدْ
سَنَةٌ أو ساعة أو طرفة ... فإذا الدهر قضاء لا يحيدْ
إيه يا دهر لقد شاطرك ال ... حُكْمَ في الناس قضاء لا يحول
أَرْدَهِ يا دهر واعقد غيره ... إنما القِرْنُ على القِرْنِ يصول
كم شقيٍّ أبطأ الموت له ... ودهُ أن لو يكون الأسرعا
سَلَّمَ الدهر عليه مثقلاً ... ثم ما أبطأ حتى هرعا
وسعيد يجتني من عيشه ... زَهَرًا يرجو لو الدهر تَأَنَّى
فسواءٌ مُتْعَسٌ أو مُسْعَدٌ ... أين مَنْ يحمد خَطْوَ الدهر أَيْنا
نحن نبغي من زمان فسحة ... هل ربحنا من زمان قد قضى
لو يعود الدهر مردود الخُطَى ... لفعلنا فعلنا فيما مَضَى
وصفوا الدهر بشيخ حاصد ... أشيب في يده كالمنجل
وهموا في شيب دهر يافع ... ذي فَتَاءٍ خالدٍ لم يَنْصُل
يسرق الدهر بهاءً رائعاً ... ويعير النُّؤْيَ حُسْناً أروعا
فهو كالرسام يمحو صورة ... ثم يستنبط رسماً أبدعا
وتَرَى الدَّهْرَ مُغِراً آسيا ... يده تأسو وأخرى تجرح
والذي في القوم بالرزء يصول ... يمنح السلوان فيما يمنح
ولعل المُضْمَرَ المخبوء من ... مصرع الدهر يُرَى بالأعين
مصرع الدهر ممات للدُّنى ... كيف يبغيه الورى بالإحَنِ
موته موت لمن قد قاسه ... باتصال الفكر أو خفق القلوب
عجباً نحن خلقناه فما ... نسبة الظلم إليه والعيوب

عبد الرحمن شكري

(الرسالة) ربما كان للعروضيين في بعض أبيات القصيدة رأي لا يتفق مع حرية الناظم

مَواجِعُ شَاعر

(مهداة إلى رفيقي الأستاذ أنور العطار للأستاذ زكي المحاسني)

إن أشعارك المآتم فيها=كل بيت بصيب الدمع يشرق
إن حياة صفت فأنتَ مُوَفَّقْ ... تترك الحزن والبكاء وَتَعْشَق
والشكاة التي تدوم ملالٌ ... رُبَّ قَلْبٍ لا يَشْتَكي يَتَمَزَّقْ
هل حلفتَ اليمين أنك في النَّوْ ... حِ ستغدو مثل الحمام المُطَوَّقَ
إِنَّ أشعارك المآتمُ فيها ... كل بيتٍ بِصَيِّبِ الدَّمْعِ يَشْرَق
أنا أدري بسرِّ نفسك في الهَ ... مِّ وعندي لك الدوَاءُ المُفَوَّقْ
أَقْتُلِ الهَمَّ بالسلوِّ لتحيا ... خالص النفس كالذي اليوم يُخلَق
واهدم البيت واتَّرِكْهُ يباباً ... في يَدِ الرِّيحِ عنده البوم يَنْعق
وَابْنِ في نَفْسِكَ الجديدة بَيْتاً ... بالأمانيِّ والسرور تَزَوَّقْ
كيف تَحْنُو على الذي ليس يَحْنو ... وَيَنَامُ الدُّجى وأنت مُؤَرَّقْ
الهَوَى بالبَدِيلِ. وهو شقاءٌ ... إِنْ عَلِقْناَ الذي بنا ما تَعَلَّقْ
يا حبيبي يا من فديتك أَبْصِرْ ... ني مَلِيًّا وفي فؤادي تَعَمَّقْ
رُبما قد شَمَمْتُ زهرك في عُنْ ... فٍ ويا ليتني بهِ أتَرَفَّقْ
أنتَ نَغَّصْتَ بالفتون حياتي ... فإذا لاَحَ لِي جَمالُكَ أشْهَقْ
كم تَأَمَّلْتُ في بَهائِكَ ... حتى ضِعْتَ عني وكادتِ العينُ تَزْهَق
يا رفيقي الذي ألومك إنيِّ ... في شجوني بلوم نفسيَ أَخْلَق
فيمَ لا أستطيعُ أكْتبُ شعراً ... عن دماءٍ في مطلب الحقِّ تُهْرَق
أنا طَيْرٌ خلقتُ في القَفَصِ الحُلْ ... وِ وموتي يجيئني حين أُطْلَق
لِي عذابٌ متى تفكرت فيه ... صار دمعي في مقلتي يَتَرَقْرَقْ
إنْ أتاحَ الزمانُ تَغْييرَ حالي ... سِرْتُ مِنْ هِمّةِ الزمان بفَيْلَقْ
وتعاليتُ في عظيم المعالي ... مثل نسرٍ في قُبَّةِ الجوِّ حَلق
دُونَكَ الوَجْدِ فابكِ ما اسطعتَ شعراً ... فَصِفاتُ الأزهارِ أن تَتَفَتقْ
يُشْبهُ الشَّاعِرُ البَخُورَ فلا يّنْ ... شُرُ طِيباً حتى على النارِ يُحْرَقْ
إلى النسيم. . .
بقلم العوضي الوكيل
هُبّ وافتح مغالق النفس فتحا ... واسر في مهجتي مساء وصبحا. .
وتهامس إليّ؛ ياما أحيلى ... لغةً منك في المسامع فصحى!
وتحمل من البحار قطاراً ... وتحملْ من الأزاهرِ نَفْحا
واشمل الكون يا نسيمُ وجئْ قل ... بي، فحدُّ المَطافِ قلبٌ بَصيرُ
مُقلتايَ اللتان لا تريان ال ... كَوْنَ إلاّ كما يَرَاهُ كثيرُ
لا تمُدّان خاطري بمعانٍ ... لذَّ فيها الأسى، ورَقَ السرورُ
ليس بالكونِ ما تراه عيوني ... إنما الكونُ ما يراه الشُعورُ!
مُرّ بي عابساً، ومُرّ ضَحُوكاً ... وأتِني بائساً، وجئني سعيدَا
رُب شاكٍ نقلت شكواه عندي ... فتهادَتْ بين الضلوع نشيدا. .
وأخي صبوةٍ يبثّ حنيناً ... بثّ أشدو بما يحنّ قصِيدا!
إن قلبي كمرصد ترسمَ الأن ... سامُ فيه على الشغافِ الوُجودا
أيهذا النسيم، وانقل سلاماً ... من حبيبٍ إلى حبيبٍ ناءِ. .
إن أَسَرّا إليك يوماً بأمْرٍ ... فإلى الكتم. . لا إلى الإفْشاءِ. .
ونِعِمّا النسيم في الصيف يهفو ... لفؤادي الحزين كلَّ مَساءِ. .
العوضي الوكيل
غيرة
بقلم السيد الياس قنصل
أيّ معنى فيك من سرّ الهوى ... بث في نفسيَ أطياف الألم
فغدا حبيبي منها ظمئاً ... لافحا ليسَ يروّيه قَسَمْ؟
إنني أعرفُ ما تورثه ... فيكِ نجوايَ من الدل الثمينْ
فإذا كان حديث الحبِّ من ... فم غيري، فبماذا تشعرينْ؟
كلما افترَّ محيّاك انجلى ... كلُّ ما في الحسن من شكل وفنِّ
أفتبقى هذه الفتنة في ... هذه البسمةِ إن أبعدتِ عني؟
ويظلّ السحرُ في عينيك إن ... كان غيري في مرامي نظراتك

وإذا حدّثتِ، مثلي يجتني ... متعاً رائعة من كلماتك؟
إنّ للغيرةِ في صدري يداً ... جعلته مذبحاً للشُعلِ
. .خبريني كيف أدري أن بدا ... لكِ فكر أو خيال ليس لي
(عاصمة الأرجنتين)
الياس قنصل
القصص
قصة عراقية واقعية
. .الشفاء
بقلم سعيد عبد الإله الشهابي
جلست على أريكة في سهوم أخاذ تطالع عيناها كتاباً بقي مفتوحاً على مائدة صغيرة أمامها زهاء الساعة دون أن تتلو حرفاً أو تقلب صفحة. كانت عيناها السوداوان الساجيتان العميقتا المعنى تنظران وتطيلان النظر في لاشيء كمن يريد أن يستشف ما وراء حجب المادة. وتناولت سيكارة صغيرة مذهبة من علبة جميلة من العاج حمراء، وتنهدت عميقاً كمن انزاح عن صدره ثقل، وراحت تنفث الدخان ذاهلة، وربما ظنت أن الغرفة لا تضم سواها
تلك كانت حالها منذ حلت هذا البيت. . بيت كبرى إختيها، وكانت هذه متزوجة برجل من ذوي القربى الأبعدين، وهو من موظفي الدرجات المتوسطة في الحكومة تقدمت منها خادم تحمل في صينية قدحاً من البلور الصافي صغيراً فيه شاي كانت تفضل الشرب منه، ووضعته أمامها على المائدة الصغيرة وانسحبت بهدوء بقيت زهاء ربع ساعة ساهمة كالحالمة ثابت بعده إلى نفسها والتفت إلى جليساتها، وهن من صديقات أختها الحميمات وبعض قريباتها، وكن يتحدثن بصوت خفيض حرصاً على تركها في تفكيرها إذ كانت إلى نفوسهن أقرب وإلى قلوبهن أحب. . فلقد وجدن فيها شابة مكلومة الفؤاد خائبة الأمل. . والمرأة بطبيعتها تعطف على المرأة أحبت فتى من ذوي قرباها لم تعرف سواه. يوم لم تكن سنها تتجاوز السادسة عشرة. بادلها الحب فأخلصت له وأحبته بأقصى ما تستطيع المرأة أن تحب. . حتى إذا أوشكا على الزواج عافها وولاها ظهره. . واختص نفسه بواحدة سواها. . كانت صديقة لها. ربما كان له بعض الحق فيما فعل لو لم يبادلها الحب في أول الأمر، لكنه انغمر وإياها في لج بحره الطامي جنباً إلى جنب، حتى إذا بعدا عن شاطئه فأضناهما التعب وأضحت مكدودة تخشى الغرق في قاعه عاد وتركها لينجو بنفسه. . وقد مرت على ذلك سنتان؛ فيا للقسوة ويا
للظلم!
لم تعد تستطيع العيش حيث نكبت في قلبها، فما لبثت أن حزمت متاعها وزمت حقائبها واستقلت القطار السريع من البصرة مسقط رأسها. . إلى بغداد حيث أختها. فلقيت حنواً وعطفاً لا مزيد عليهما
شربت قدح الشاي بأسلوب خاص ورشاقة فذة. . ثم شرعت في محادثة جليساتها بصوت موسيقي رخيم تخللته ضحكات صافية الرنين لكنها قصيرة يختفي تحتها ألم مكبوت وهم دفين
وجذبت نفساً طويلاً من سيكارتها، وألقت على متكأ الأريكة برأسها الجميل فبدت تقاطيع وجهها الرائع الفتان وجيدها الأتلع، وتناثرت خصل شعرها الكستنائي السبط فبان جبينها الأسمر العاجي الوسيع. . ونفثت الدخان ناظرة إلى السقف، كان صدرها يعلو ويهبط باتزان، وكانت عيناها الجميلتان تشعان شعاعاً ينم عن ذكاء متقد وحس دقيق وعاطفة فياضة متوثبة وروح حزين وثقة بالنفس نادرة عند النساء. لم يكن شأن من شؤون الحياة، غير ذكرى حبها، ليشغل بالها. فليس سبب قلة كلامها وطول تفكيرها وإيجازها أن تحدثت إلا تلك الذكرى، فموارد عيشها كانت وفيرة برغم كثرة مصاريفها، فهي في حرز ومأمن من هذه الوجهة. فلقد كان ما تدره عليها أملاكها الموروثة عن الجدود ما يفيض عليها النعمة
ودار بخاطرها طائف من الشك: لماذا هجرها حبيبها؟ أهي غير جميلة؟ وبدا لها أن تخرج من الغرفة، فاستأذنت عجلى ودخلت غرفتها وأغلقت الباب بالمفتاح وأقبلت على المرآة الكبيرة في خزانة الملابس وراحت تحدق فيها. فاطمأنت وزال شكها

وأخذها شبه غرور. لكنها سرعان ما أحست بألم يرمض فؤادها وبنار تحرق وجهها ورأسها، وتخاذلت تخاذل المرأة المطعونة في كرامتها، وألقت نفسها على السرير قبالة المرآة، وراحت تناجي نفسها: إيه أيتها الطبيعة! هل أوجدت هذا الجمال الفتان ليقاسي هذا العذاب؟ فهل مثل هذا الشباب الغض يستحق هذا العقاب؟ وهل مثل هذه الروح الفتية تستحق خيبة الأمل، وتابعت محادثة نفسها، وهي تنظر إلى صورة لأفروديت كان الحبيب الغادر أهداها لها، وأنت يا آلهة الحب. ربطت بروابطك قلبي بقلبه فأخلصت وخان. . ولبيت نداءك وصم هو أذنيه.

فما بالك أيتها القاسية تعاقبين المخلص وتتركين الخائن. أفما كنت ترحمين المخلصة بأن تحليها من العقود التي ربطتها بها. أنظري إلى هذا القد الأهيف المياس ما أشد نحوله. أنظري إلى هذه الصفرة التي ليست من ظاهرات الشباب الحي. . أفيكفي أن يكون الوجه ساحراً والعينان فتاكتين لتكون دليل الحيوية والنشاط. إن هذا السحر العظيم في تقاطيع هذا الوجه، وهذا المعنى البليغ العميق في هاتين العينين، ليسا إلا ظواهر الحب الدفين، فجرديها منه تجدي شبحاً من الأشباح

دق باب غرفتها فأذنت ودخلت (فيروز) وهي مربيتها وخادمتها الخاصة. . . تدعوها فعادت معها إلى حيث كانت أختها والرفيقات. . لقد خشين عليها الوحدة فدعونها. . لكن نفسها كانت تزخر بشتى العوامل. . الحب، البغض، الغيرة. . ولكن كرامتها أخذت تتيقظ فتعمل على إخماد هذه العوامل. . ودعت (فيروز) وطلبت منها أن تغني الأغنية التي تحبها. فاتخذت هذه وضع من يريد الغناء وشرعت في الأغنية الشعبية العراقية المعروفة:

جَلْبكْ صَخَرْ جلمود ... ما حَنْ عَلَيَّهْ

وأنت بِطْرب وبكيف ... والْبِيَّهْ بِيَّهْ

وما أتت فيروز على الأغنية حتى شرعت تبكي. . وشاركتها الجليسات. وفيما هن في ذلك دق الباب الخارجي. . فهرعت إليه فيروز وعادت تحمل رسالة حمراء اللون عرفت من لونها أنها رسالة برقية وكانت باسمها. كانت البصرة مصدرها. . من البصرة. . . يا لله. . فضتها بيد مرتجفة وقرأت:

ماتت زوجتي بالتيفوئيد منذ أسبوع. أسفت كثيراً على ما فعلت. . إني قادم إليكم بعد (يومين. .).

تغيرت سحنتها تماماً بعد تلاوة (البرقية) وتألقت عيناها بعزم ثابت ونظرت باحتقار إلى البرقية التي كانت لا تزال مفتوحة ومزقتها قطعاً صغيرة وألقتها في الموقد الذي كان بالقرب منها. وقالت تتمتم:

ماتت زوجته!. إنه قادم بعد يومين!. ما أسخفه وما أقل عقله! ماذا حسبني؟ هل يظن أني سأبقى محبة له بعد الآن؟. . إن هذه البرقية خاتمة آلامي. . فلأسعد ولتعد إلي الحياة. . ألا تباً له من رجل جبان. . يريد أن يسلو بي زوجته. فيا للذلة! ويا لسخرية القدر! ليذهب

وليلحق بها. . فما عدت أراه إلا خنزيراً في عيني

واشتدت ثورة نفسها وعظم سخطها فجاءت برزمة من الخطابات وبعض الصور مربوطة بأنشوطة حريرية حمراء وألقتها كما هي في نار الموقد. وناولت البرقية لأختها ورفيقاتها مجيبة بها على نظراتهن المتسائلة

(بغداد - ضاحية الأعظمية)

سعيد عبد الإله الشهابي

اعتذار!

للأديب حسين شوقي

عزيزتي:

أبادر بتقديم اعتذاري الحار من مشهد الغيرة السخيف الذي مثّلته أمامك أمس!. . ومازلت أشعر بخجل شديد كلما فكرت فيه. . في الواقع لم يكن الذنب ذنبي، بل هو ذنب قلبي الضعيف؛ ولقد عاقبته على فعلته إذ عنفته تعنيفاً شديداً، ولكن هذا القلب قد يستحق أيضاً عطفك وحنانك، إذ هو آلة ليس غير في يد تلك القوة الجبارة القاهرة، قوة الحب! مسكين قلبي! إنه مطارد دائماً بنار حامية تدفعه إلى خلق مثل هذه الريب والظنون، ولكنها في الوقت نفسه نار طاهرة مثل نار المجوس، لأنها نار الحب

المقدس! كم كنت غبياً في غيرتي تلك! فما الضرر في أنك تحدثت إلى س.! ألا تتحدثين إلى مئات من أمثاله كل يوم أثناء عملك؟ كذلك كان يجب عليّ أن أراجع نفسي فأقول إنه لا يهمك لأنك تبغضين مثل هذا النوع من الرجال المغرورين بجمالهم. فكم كانت ثقيلة متكلفة تلك الابتسامة التي علت شفتيه أثناء تحدثه إليك!

عزيزتي إذا كان قد أزعجك قليلاً ما بدر مني بالأمس، فإن ما حدث لي أنا فيه العقاب الكافي على فعلتي، إذ رأيت الهول ليلة أمس في حلم فظيع. .

شاهدتك في غابة عظيمة، لعلها من غابات الهند، لضخامة أشجارها وكثافة أدغالها. كنت تتنزهين فيها مع شاب لم أتبيّن شخصيته، لأنه لم يلتفت وراءه قط أثناء السير؛ أما أنت! فقد عرفتك من فوري يا عزيزتي، من شعرك الذهبي الرائع، من مشيتك الأنيقة التي تفردت بها دون نساء العالم أجمع!. . ولكن الغابة كانت أثناء هذا تحترق، والدخان الكثيف يتصاعد من كل مكان. . بادرتُ إلى مناداتك لتخرجي من الغابة، ولكنك التفت إلي دون أن تجيبني، كأنك لا تأبهين بالخطر المحدق، بل تؤثرين التنزّه مع ذلك الشاب وتفضلينه على كل شيء!. .

أردتُ أن أعدو نحوك لإنقاذك بالقوة، ولكن ساقيّ الملعونتين أبتا عليّ ذلك كأنهما تحجّرتا. . .

أما النار فقد أخذت تزداد عنفاً حتى اضطرت الوحوش إلى الهرب من الغابة، والمدهش في هذا الحريق أن ألسنة النار المنبعثة من الأدغال اتخذت أشكالاً مروعة، بعضها كان على صورة الثعبان والبعض اتخذ شكل التنين. . على رغم هذا كله، كنت تتابعين نزهتك في اطمئنان مع ذلك الشاب الذي تأبط ذراعك اليسرى في حرارة واشتياق. . . أخذت أناديك مراراً ولكن بلا جدوى! إذ كنتِ تلتفتين إليّ ثم تستأنفين حديثك الشائق مع صديقك! ولكن هذا الحال المؤلمة لم تدم طويلاً ولله الحمد! إذ سقطت إحدى لوحات سريري الخشبية من تحتي فأيقظتني من النوم، وخلصتني من هذا الكابوس!

هنا. . أشعلت سيجارة وخرجت إلى النافذة لأستنشق الهواء لأني كنت متعباً من هذا الحلم كأن ما حدث لي وقع فعلاً. . . وكنت في الوقت نفسه شديد الرغبة في استئناف النوم للعودة إلى هذا الحلم برغم بشاعته لمعرفة شخصية ذلك الشاب السخيف المستهتر الذي كان يدعوك إلى النزهة في وسط النار!

عزيزتي! هذا هو حلمي المروع، ألا ترين أنني عوقبت به عقاباً كافياً؟ ألا تصفحين الآن؟

الرد

عزيزي:

وصلتني رسالتك، ولقد توّلتني الدهشة لكل هذه الضجة التي أثرتها لتتبين شخصية رفيقي في نزهة الغابة. لقد كان في إمكانك الاتصال بي وقتها بالتليفون لأخبرك باسمه، فأوفر عليك مجهودك. . أتريد أن تعرف من هو؟ أعلم أن هذا الشاب هو (س) بعينه الذي تمت خطوبتي إليه ليلة أمس على أثر المشادة التي وقعت بيننا، لأني آسفة أيها العزيز على أني لا أستطيع التزوج من مجنون مثلك!

(كرمة ابن هانئ)

حسين شوقي

البريد الأدبي

المعجم الوسيط

أصدر صاحب السعادة وزير المعارف العمومية قراراً بتعيين الأستاذ أحمد أمين عضواً في لجنة تأليف المعجم الوسيط وقد قرأت في العدد الماضي ممن تتألف؛ ولكن الأستاذ رفع إلى معالي الوزير استقالة منها، والسبب المباشر لهذه الاستقالة أنه جعل ساعات فراغه من عمله الرسمي على ما بقي من سلسلة كتابيه (فجر الإسلام) و (ضحى الإسلام) وهو يخشى إذا أرهق نفسه بالعمل أن يعيا عن إخراجه، ولكن معالي الوزير مازال بالأستاذ يحاوره ويداوره حتى أقنعه بسحب الاستقالة

بشرى لعشاق الأدب - ديوان بشار موجود

أحس بشار بحسن اختراعه، وجميل ابتداعه وغزارة بحره، ففتن ببنات فكره، وأعجب بثمرات لبه وذهب يخايل ويفاخر حتى قال: إن لي اثني عشر ألف قصيدة لعنها الله ولعن قائلها إن لم يكن في كل واحدة منها بيت فرد

ولو فرضنا أن الاثني عشر ألف قصيدة هي كل ما لبشار من شعر، وفرضنا أن كل قصيدة عدتها سبعة أبيات فقط - وهو حد القصيدة الأدنى عند العروضيين - وحسبنا ذلك لكان مجموع شعره أربعة وثمانين ألف بيت! وهذا مقدار لم يك لشاعر في القديم ولا في الحديث. ولكن أين هذه الثروة الضخمة؟ لقد ذهب بها الزمان فيما ذهب به من روائع الآثار وجميل الأشعار، ولم يبق منها إلا نتف مبعثرة في الكتب جهد الأدباء في جمعها وزفها إلى جمهور القراء المتعطشين لشعر بشار. وأول مجموعة ظهرت هي مجموعة الأستاذ (أحمد حسنين القرني) التي سماها (بشار ابن برد - شعره وأخباره، طبعت عام 1925م، وقفاه الأستاذ (حسين منصور) بكتابه: (بشار بين الجد والمجون) الذي طبعه عام 1930، وفي العام الماضي 1935 طبعت لجنة التأليف والترجمة والنشر مجموعة هامة من شعره باسم (المختار من شعر بشار اختارها من مختار الخالديين شارحها الأستاذ (إسماعيل القيرواني) أحد علماء القرن الخامس، وكان القائم بنشر هذا الكتاب الأستاذ (بدر الدين العلوي) المدرس في كلية عليكرة بالهند، وقد أثار طبع هذا الكتاب الصغير كوامن الأشواق إلى شعر بشار، وتساءل الناس بحسرة ولهفة عن ديوانه وكثرت حوله الأقاويل

وأجمع الناس أو كادوا على أنه انسلك في سلك الفناء

وقد أخبرني فضيلة الأستاذ الشيخ محمد الخضر حسين عضو مجمع اللغة الملكي أن جزءاً كبيراً من ديوان بشار موجود في تونس عند صديقه الأستاذ محمد الطاهر بن عاشور شيخ الإسلام المالكي، وأطلعني على الخطاب الذي ورد إليه حديثاً من صديقه يخبره فيه بوجود الديوان عنده، وأنه ورثه عن جده المرحوم الشيخ محمد عبد العزيز أبو عتّور. وهو يشتمل على سبعة آلاف وثلثمائة بيت مرتبة على حروف المعجم مكتوبة بخط مصري جميل. وذكر الأستاذ ابن عاشور أنه عني بشرح غريب ألفاظه، وتبيان دقائق معانيه، وذيله بمجموعة من شعر بشار لم ترد فيه وعددها ثمانمائة بيت معزوة إلى مواضعها من كتب العلم والأدب وأنبأ أنه عازم على طبعه في مصر طبعة أنيقة تليق بما لبشار من المكانة السامية في الأدب العربي. وقد استخبر الأستاذ من صديقه عن شؤون تتعلق بالطبع فأخبره مستنجزا . . .

ويا حبذا لو عنيت لجنة التأليف وعلى رأسها الأستاذ أحمد أمين بأمر هذا الديوان، وتولت هي طبعه بمعونة الأستاذ أو وحدها. إنها لو فعلت لأسدت إلى الأدب العربي خدمة جليلة تكون قلادة فخار لها

ولا ريب في أن نشر هذا الجزء الكبير سيلقي كثيراً من الضوء على تاريخ بشار وشعره وشاعريته. ولا ريب في أنه سيغير من أحكام التاريخ عنه، ويقلب تلك الآراء الظنية الشائعة رأساً على عقب. وسيكون ظهوره - وأرجو أن يكون قريباً - فتحاً جديداً في تاريخ الأدب العربي

السيد أحمد صقر

في اللغة الروسية (عودة الروح)

من الأنباء التي تقع من مصر الأدبية موقع الرضا والغبطة أن الكاتب الروسي النابه (ميشيل سالير) نقل إلى الروسية قصة (عودة الروح) للقصصي المصري النابغ توفيق الحكيم، ثم نشرها في لينينجراد عاصمة روسيا، وجعل ثمن النسخة منها خمسة روبلات وخمسين كوبك، وذلك يساوي ستين قرشاً مصرياً

ولاشك أن اختيار الكاتب لهذه القصة من غير تعرف لمؤلفها ولا استئذان منه، إنما يدل على تقديره المفن فيها لذاته، وقياسه إياها بمقياس عالمي يرفعها إلى مستوى الأعمال الأدبية العظيمة. وستكون عودة الروح وأمثالها الوحدات الأولى التي يساهم بها الأدب العربي في الجهاد العالمي المشترك لنشر الوئام والسلام والخير من طريق الثقافة القصصية

تطور نظم التربية الألمانية

تتطور نظم الحياة والحضارة كما تتطور أساليب التفكير والتعليم والتربية في ألمانيا في ظل النظام الهتلري بسرعة مدهشة؛ والمحور الأساسي الذي يقوم عليه هذا التطور في جميع مناحي الحياة الألمانية هو صبغ هذه الحياة بالصبغة الجرمانية المحضة وتحريرها من جميع المؤثرات الأجنبية؛ ويجري في ميدان التعليم والتربية تطور حاسم أيضاً يقوم على تكوين الجسم الألماني تكويناً صحيحاً وتنمية القوى

الجسمية إلى جانب القوى العقلية. والإنجيل الذي تطبق تعاليمه اليوم على الشعب الألماني هو كتاب هتلر المعروف (كفاحي)؛ ففي هذا الكتاب يتحدث هتلر عن التربية ويحمل بشدة على تفضيل تنمية الذكاء في الفرد، ويقول إن النظام القديم يرمي إلى خلق عقول وأفراد فقط؛ ولكنا نريد أن نخلق قبل كل شيء أجساماً قوية وإرادات ثابتة. ويكفي أن نخصص في الأسبوع ساعتين فقط للرياضة البدنية. ومذ تولى هتلر الحكم وهو يعمل لإنشاء هذا النظام الرياضي؛ ففي سنة 1933 صدر قانون (تحسين النشء)، ومبناه اتخاذ جميع الإجراءات التي يحسن اتخاذها لتقويم صحة الشباب وعقله وتفكيره؛ ثم صدر بعد ذلك قانون (السنة الخلوية) وهو يحتم على التلاميذ تمضية عام في الريف والحقول عقب إنهاء الدراسة الابتدائية؛ وهنالك أيضاً نظام (الخدمة العامة) الذي يحتم على كل رجل أعزب وامرأة عزباء الإقامة ستة أشهر مع أبناء أو بنات الشعب في معسكر ريفي في العراء؛ ثم تنتقل مدارس المعلمين في القرى أو المدن الصغيرة؛ وكذلك انتقال أساتذة المدارس الابتدائية بين حين وآخر إلى الريف للاشتغال ببعض الأعمال القروية. والقصد من ذلك كله هو أن يمد الشباب والنشء بروح العزم، وضبط النفس، واحتمال المشاق. وللفتاة الألمانية أيضاً نصيبها الوافر من التعليم الرياضي الذي يهيئ لها الجسم الصحيح ويعدها أماً صالحة للشعب الألماني وكذلك يتجه النظام الجديد إلى تجنب الثقافة الجنسية التي يعدها عاملاً في إفساد الفتى
والفتاة؛ فليس بين برامج التعليم الحاضر شيء من مسائل الثقافة الجنسية التي كانت تلقى بكثرة في ظل النظام القديم؛ وعلى الآباء والأمهات أن يلقنوا أبناءهم وبناتهم ما يحسن تلقينه من المسائل الجنسية المحتشمة، كذلك يرغب النظام الجديد عن نظام اختلاط الفتى والفتاة في ميدان التعليم ويعتبره تقليداً ضارا بمستقبل النشء ولم تبق الجامعة في نظر النظام الجديد مكانا تحشد فيه المعلومات في الرءوس، ولا موطناً يعد الشباب للكسب الفردي؛ فالفرد إنما يجب أن يعمل للمجموع، وأن يستخدم في ذلك السبيل أي موهبة أو كفاية؛ ولا يريد النظام الجديد بعد شباباً ذابلاً تملأ رأسه المعلومات المختلفة، فذلك الضرب من الشباب يجب أن يختفي
وقد أدخلت تعديلات كثيرة على نظم القبول في المدارس والجامعات، وأضحى العامل العقلي والتعليمي أقل شأناً مما كان من قبل، وأضحى العامل الجسمي والخلقي في مقدمة العوامل التي تؤهل الطالب للقبول
وقد اتخذ تعليم التاريخ وسيلة لتكوين العقلية الألمانية الجديدة؛ فلم يعد يلقن الشباب تلك التفاصيل التاريخية المسهبة، وإنما يلقن التاريخ موجزاً من الناحية العامة، وتخص الناحية الجرمانية بكل عناية؛ وتتخذ نظرية السلالة الألمانية أهمية خاصة: سلالة الجنس الشمالي وتطورها ونقاؤها والأخطار التي تتعرض لها. هذا أهم ما يلقن الشباب الألماني، وهذا ما يشير إليه هتلر في كتابه بقوله إن غاية التربية الأخيرة هو أنه يجب أن يغرس في عقل النشء أن الجنس الجرماني هو أرفع أجناس الخليقة
وهكذا تفيض جميع نظريات التربية الألمانية القديمة التي عمل العلماء الألمان لاستخدامها على ضوء التجارب والأصول العلمية المقررة، وتحل مكانها نظريات جديدة جل غايتها أن تقوي الفكرة العسكرية في الشباب الألماني تحت ستار التربية الرياضية وأن تخلق من الشعب الألماني قبل كل شيء شعباً عسكرياً يعتز بقواه وكفاياته المادية

ميشيل آنجلو

ميشيل آنجلو بطل من أعظم أبطال الفن، وعلم من أعظم أعلام عصر الأحياء؛ وقد كتب عنه مدى العصور عشرات من أكابر الكتاب في كل أمة وكل عصر؛ ولكن العبقرية الساطعة تبقى أبداً مثاراً للبحث والتقدير. وقد صدر أخيراً كتاب جديد بالإنكليزية عن ميشيل آنجلو عنوانه (ميشيل آنجلو الراحل) بقلم الدكتور دونالد فنليسون وهو علامة أمريكي يحاول أن يبحث هذا العبقري من نواح جديدة وعلى ضوء جديد؛ وهو يمهد لبحثه بتصوير إيطاليا في عصر الأحياء، ذلك العصر الذي كانت تموج فيه العبقريات من كل ضرب، ولاسيما في التفكير والفنون. ذلك أن ميشيل آنجلو قد عاش في نفس العصر الذي عاش فيه أعلام مثل ليوناردو دافنشي، وبوتشللي، وسافونارولا،

وميكافيللي، ورافائيل سانزيو، ولي تسيان، وبنفونو توتشلليني، وجورجو فساري وغيرهم، وكان عصراً ذهبياً من أروع ما عرف التاريخ

ولقد كانت إيطاليا تضطرم يومئذ بثلاث قوى سياسية متجاذبة. قوة آل مديتشي في فلورنس، وهم يحاولون حكم المدينة الجمهورية بنظام طغيان مستنير، وقوة البابوات، وهم يحاولون تقوية نفوذهم المدني والديني، ودفع أطماع ملوك فرنسا؛ وقوة الدولة الرومانية المقدسة، وكانت قوة البابوات أبرز هذه القوى؛ وكان البابوات يومئذ مزيجاً مدهشاً، فمن اسكندر السادس الحبر الفاجر، ولكن الطاغية القوي، إلى جوليوس الثاني البطل المحارب، إلى بولس الثالث نصير الفنون والآداب. وفي هذا الأفق المضطرم بمختلف القوى والاتجاهات ولد ميشيل آنجلو في كابريزا سنة 1475 وتوفي في رومه في التاسعة والثمانين من عمره، ولكنه عاش طوال حياته نقياً منزهاً عن مثالب عصره، بعيداً عن ضروب الملق والزلفى التي ألفها البابوات وأمراء العصر، بعيداً عن صنوف الفساد والخلاعة التي كانت خاصة المجتمع في هذا العصر؛ ولم يكن للمرأة أثر في حياته إلا حينما بلغ الكهولة، وعندئذ عرف الحب الرفيع وتعلق بأجمل وأنجب سيدة في هذا العصر، وهي فتوريا كولونا مركيزة بسكارا، ونظم لها مقطوعات من الشعر البديع، وكتب لها رسائل ممتعة؛ وفيما عدا هذه العاطفة الرقيقة كان ميشيل آنجلو مثل الرجل الأعلى، بارا بأهله، مترفعاً عن الدنايا، معتدلاً في أهوائه ورغباته

وكانت عبقرية ميشيل آنجلو تتفتح في نواح عدة، فقد كان مثالاً من أروع ما عرف التاريخ، وكان مصوراً، وكان مهندساً، وكان شاعراً؛ وفي هذه الميادين كلها يترك لنا ميشيل آنجلو آثاراً خالدة؛ وقد قام بعد أن أربى على الثمانين بأعظم أعماله الهندسية، فوضع تصميم قبة كنيسة القديس بطرس أعظم آثار النصرانية وأشرف على صنعها بنفسه، وأنفق أعواماً في نقش جدران المصلى السكستوني، وهو أروع ما في الفاتيكان من آيات الفن، وتوفي بعد أن ترك للفن ما لم يتركه بشر، سواء في الروعة والمقدار

ولميشيل آنجلو ناحية لم يلق عليها كبير ضوء هي ناحيته الشعرية، ذلك أنه كان شاعراً رقيقاً، ينظم مقطوعات بديعة تحمل كلها طابع العظمة؛ ولكن ينقصها التنوع وبروز الغاية

وقد أنفق الدكتور فنليسون أعواما طويلة في البحث والدرس واستطاع أن يجد لمؤلفه مادة بديعة، وأن يضع أمام القارئ صورة واضحة من شخصية ميشيل آنجلو في جميع نواحيها؛ وقد زين الكتاب بطائفة من الصور البديعة

وفاة مؤلف موسيقي شهير

توفي أخيراً في باريس المؤلف الموسيقي الروسي الذائع الصيت اسكندر جلازونوف؛ وكان مولده في بطرسبرج سنة 1865؛ وفي سن الثامنة عشرة وضع أول قطعة موسيقية من تأليفه فأحرزت نجاحاً عظيماً وذاعت على أثرها شهرته. ثم رحل إلى ألمانيا حيث التقى هناك بالموسيقى النمسوي الأشهر لزت وتلقى عليه وتخصص بإرشاده في التأليف الموسيقي. وفي سنة 1889 ظهرت مقطوعته الشهيرة (ستنكا رازين)، ووضع من بعدها تباعاً طائفة كبيرة من المقطوعات والأناشيد والأغاني والقطع الراقصة، وأحرز بتآليفه العديدة مكانة عظيمة في دوائر الموسيقى الرفيعة. ومن بين قطعه الراقصة الشهيرة (ريموند) (الفصول) (حيلة غرامية). ولما نشبت الثورة البلشفية آثر الهجرة إلى فرنسا، وعاش في باريس أعواماً طويلة، وتوفي هنالك في دار الغربة بين جماعة المهاجرين البيض في سن الحادية والسبعين

العالم المسرحي والسينمائي

على مسرح الأوبرا

السيد

تأليف كورني وتعريب مطران

ملاحظات لفنانين ارلنديين على الإخراج والتمثيل

لناقد (الرسالة) الفني

هي مأساة رائعة خلدت على الدهر، ألفها زعيم المسرح الفرنسي وخالقة المأساة الحديثة الشاعر كورنيي، وقد كان لظهورها ضجة كبيرة، ذلك أنها وإن خالفت قاعدة

الوحدات الثلاث فقد نجحت نجاحا باهراً وظفرت من النظارة بإعجاب عجيب
وقد كان لنجاح هذه المأساة أثر سيئ في نفس الوزير الفرنسي الخطير الكاردينال ريشليو. وكان هذا الوزير من هواة التأليف المسرحي، وقد مثلت له قصتان فلم تنجح منهما واحدة، في حين أن (السيد) كانت تلقى النجاح بعد النجاح والفوز تلو الفوز. ولقد كظم الوزير غيظه - رغم أن القصة كانت تشيد بالمبارزة التي حرمها هو - ولكنه حرك رجاله في الخفاء ينقدون القصة نقداً عنيفاً، وكان يريد بذلك أن يحط من قدر كورنيي، فقامت من أجل ذلك خصومة أدبية شديدة انتهى أمرها إلى تحكيم المجمع الفرنسي في القصة. ولم يصدر الحكم في جانب المؤلف لأن الوزير تدخل بنفوذه، ولكن القصة رغم ذلك خلدت، وهاهي ذي تنقل إلى العربية للمرة الثانية بقلم شاعر القطرين الأستاذ خليل مطران في ترجمة عربية بديعة ارتفع أسلوبها إلى الأصل الشعري الذي كتبت به، وهاهي ذي الفرقة القومية تختارها بين ما اختارت من روائع الأدب الغربي لتقدمها إلى الشعب المصري

ملخص القصة

ليست القصة جديدة على قراء الأدب العربي، فقد سبق أن ترجمها المرحوم الشيخ نجيب الحداد ومثلت باسم (السيد، غرام وانتقام)، وسبق للأستاذ الزيات أن لخصها في (الرسالة) ونشر هذا الملخص في كتابه (في أصول الأدب)، فمن أراد الاطلاع عليه فليرجع إليه

الإخراج

كنا نظن أن الفرق التمثيلية الأوربية التي تزور مصر وتمثل على المسرح الأوبرا تترك بعض الأثر في نفوس الفنانين المصريين، ولكن يبدو أن الأمر على العكس، فهذه الفرق تأتي وتعود دون أن نحاول أن نأخذ عنها شيئا

زارت مصر في الشهر الماضي فرقة (دبلن جيت) الأيرلندية وأخرجت عدة قصص لشكسبير وغيره. فكان الإخراج أهم ظاهرة لهذه الفرقة، وقد أبدى جميع المخرجين المصريين إعجابهم بعظمة هذا الإخراج، فالمستر هيلتن ادواردز مخرجها يعمد إلى الطريقة الإيحائية ويستخدم منظراً واحدا لجميع فصول القصة، ويستعين بالإضاءة وستار صغير في تبديل المناظر مع تباينها

وأخرج الأستاذ زكي طليمات قصة السيد وكنا نظنه سيقتبس طريقة تلك الفرقة، ولكنه لم يحاول بذل أي جهد، وعمد إلى الطريقة التي ألفناها منذ سنوات طويلة، واستخدم المناظر المتعددة والستائر الكثيرة. والحق أن هذا الإخراج إذا قيس إلى إخراج الفرقة الأيرلندية بدا هزيلاً ضئيلاً

يرى النقاد أن الوحدة إذا توفرت في العمل الفني ذلك من دواعي الكمال والنجاح، ولكن رجاله لا يرون هذا الرأي، وإلا لما كانت طريقة الإلقاء متباينة. فحسين رياض وزينب صدقي وعزيزة أمير وزكي رستم يلقون إلقاء شعرياً ومنسي فهمي وفردوس حسن وغيرهما يلقون إلقاء عادياً، وهذا التباين مما ينفر النظارة، والمخرج في رأيي مسؤول عن هذا الخلط

والإضاءة عادية، ولكننا في منظر قاعة العرش كنا نرى الضوء يسقط على جدار للقصر من يمين النظارة إلى اليسار في حين نرى الضوء يسقط على وجوه الممثلين من يسار النظارة إلى اليمين، وهذا مما لا يرضي الفن ولا الأستاذ المخرج

وفي المنظر الثاني من الفصل الثالث نرى والد ردريج حائراً يبحث عن ولده ويقول: (في هذا الظلام الدامس) بينما ضوء القمر يغمر وجه الممثل وينير الأرض حواليه. ولا يفوتني أن أبدي إعجابي بالإضاءة في الموقف بين شيمين وردريج في النصف الأول من الفصل الثاني، فقد كان الضوء ملائماً للحوار، وكان له أثر ووقع كبيرين في نفوس النظارة

والملابس فاخرة تنطبق على روح العصر، ولكن الذي حيرني أن شيمين عندما يلغها خبر موت والدها سارت إلى قصر الملك في ثياب الحداد بينما وصيفاتها تتبعها في ملابس زاهية؟! كما أن ملابس الملكين الأسيرين لا تصلح لرجال أسروا في موقعة

التمثيل

قبل أن أتحدث عن التمثيل أبدي أسفي الشديد لإهمال الممثلين استظهار أدوارهم مما جعل صوت الملقن يرتفع فيفسد على النظارة خيالهم

مثلت السيدة زينب صدقي دور شيمين، وقد نجحت كثيراً في أداء هذه الشخصية، وأذكر لها مع الإعجاب موقفها مع ردريج في الفصل الثالث ثم مع وصيفاتها وهي تبدي الجزع خيفة أن يقتل حبيبها، ولكني آخذ عليها الإلقاء الخافت في بعض المواقف مما جعل الألفاظ غامضة على السامع

ومثل حسين رياض دور ردريج، فكان إلقاؤه شعرياً ونجح في دوره إلى حد غير قليل، وموقفه مع شيمين بديع. أما موقفه مع الملك وهو يصف المعركة فيحتاج إلى عناية أكثر؛ وأرجو أن يعنى (بالمكياج)، وان يختار لوجهه لوناً خمرياً يكون قريباً إلى البشرة الأندلسية

ومثل زكي رستم دور والد شيمين فأخرجه على خير ما يكون، كان الرجل المتكبر في إشاراته وإلقائه مما طابق الشخصية

ومثل منسي فهمي دور الملك فكان ناجحاً؛ ولكنه لم يحاول أن يسمو بهذا الدور كعهدي به في أدواره السابقة

أما السيدة عزيزة أمير فلم تنجح كثيراً في أداء شخصية ابنة الملك؛ وكان إلقاؤها على نسق واحد دون تلوين أو تعبير عما في نفسها من احساسات؛ ويبدو لي أن اللغة الرصينة مما يصعب عليها أداؤها

ومثلت نجمة إبراهيم دور وصيفة شيمين فوفقت، وفي رأيي أنها أصلح لدور ابنة الملك من غيرها من فتيات الفرقة

ومثل سراج منير دون سانش، فكان حديثه مع الملك هو نفسه حديثه مع شيمين التي يهواها

ملاحظات لفنانين ايرلنديين

شهد هذه الرواية في الليلة الأولى لتمثيلها بعض أعضاء فرقة (دبلن جيت) الأيرلندية؛ وقد أبدى مخرج الفرقة المستر هيلتن ادواردز وممثلها الأول المستر ميكائيل ماك ليمور إعجابهم بتمثيل السيدة زينب صدقي وحسين رياض وزكي رستم، كما أبديا بعض الملاحظات على الإخراج. وسننشر حديثهما كاملاً في العدد القادم

يوسف

في السينما

العصر الحديث

فيلم شارلي شابلن الجديد

أما إن شارلي شابلن عبقري وفيلسوف فهذا ما لاشك فيه، وأما إن فلمه الجديد (العصر الحديث) عظيم فمسألة فيها نظر

فنحن إذا نظرنا إليه على أنه عمل رجل عبقري لا تنطبق عليه القواعد المألوفة والمقاييس المعروفة وجدنا عملاً عظيما حقا يحس الإنسان أثناء عرضه بسرور ولذة، ويستمتع بأفكار شارلي وطريقته الفكهة في عرض هذه الأفكار، ولكننا إذا حاولنا تطبيق المقاييس الفنية الدقيقة نجده لا يسمو على غيره من الأفلام التي تعرض بين حين وآخر، بل ربما تنقصه بعض العوامل الفنية التي تتوفر في تلك الأفلام

والفكرة الرئيسية التي يقوم عليها الفلم جليلة، فهو ينقد العصر الحديث، ويسخر من سيطرة الآلات على الإنسان ويبين أنها لا تسعد الإنسانية، بل تستعبد البشرية؛ وقد أفلح شارلي في مزج الفلسفة بالقصة. ولكن الفلم طويل في غير حاجة إلى الطول، وإن الناقد ليحس أن هناك فصولاً جيء بها لتسد فراغ الوقت حتى لا ينتهي العرض في زمن قصير

بدأ شارلي فلمه بمنظر قطيع من الغنم يسير إلى الحقول، وأعقبه بمنظر العمال يتدافعون إلى المصنع، وكأنه يرمي بهذا إلى أن العمال قطيع من الغنم يقودهم الرأسماليون

ويظهر لنا شارلي تلك الشخصية الإنسانية، أو قل الرمزية التي تعيش بأسلوبها الخاص في مشيتها وملابسها وقبعتها وعصاها، هذه الأشياء التي أصبحت جزءاً متماً للشخصية -

تعمل في مصنع كبير - تؤدي عملا، وكأنها جزء من تلك الآلة، يرهقها العمل المضني المتشابه الذي يبعث السأم، ويؤدي بها إلى نوع من الهستيريا. وترسل إلى مستشفى الأمراض العقلية حيث يعاودها الهدوء والسكنية. وعندما يسمح الطبيب لها بمغادرة

المستشفى نراه ينصح بالابتعاد عن كل ما يثير الأعصاب؛ ولكن لا تكاد تتصل بالحياة حتى ترى تيارها الزاخر الصاخب، وحركات المرور، وكل ما هو وليد المدنية والعصر الآلي

ثم يصور شارلي بؤس العامل العاطل، وكيف تقسو الحياة على أطفاله، فيغدون لصوصا وما هم بلصوص، وإنما هم طلاب قوت. ونرى المظاهرات ومقاومة رجال الشرطة للعمال واقتيادهم إلى السجن، وحيث يقدم إليهم الطعام والشراب. وهنا تبدو سخرية شارلي من النظم الاجتماعية، فإن العامل يأسف على مغادرة السجن ويود لو بقي فيه، فالطعام والشراب خير لديه من الحرية التي يتغنى بها الناس!!

وتتصل أسباب الصداقة بين شارلي وابنة أحد العمال الذين قتلوا في مصادمة مع رجال الشرطة، ونرى شارلي جالساً يحدثها ويعرض على الشاشة حلم اليقظة. فنراهما يعيشان معاً في كوخ جميل، وشارلي على مقعد يمد يده دون جهد فيتناول حبات العنب من عناقيدها المدلاة، ويمد يداً ثانية فيتناول فاكهة أخرى، ثم يسير إلى بقرة ويضع تحت ثديها آنية فتدر اللبن وحدها دون أن يبذل هو أي جهد في حلبها، وإنما يرمي شارلي بهذه الصور جميعاً إلى أن العامل لا يحلم إلا بالراحة؛ فهو في حلمه لا يريد حتى أن يبذل أي جهد، وينقضي الحلم ونراهما في اليقظة بعد أسابيع قليلة في كوخ متداع حقير، لا يصلح مأوى لأحقر الحيوانات، ومع ذلك فهما سعيدان معا. فالعاطفة التي بينهما كافية لأن تبعث السعادة في نفسيهما وتعوضهما عن كل شيء آخر

هذه الآراء التي صورها شارلي والتي جئنا على ذكرها خير ما في الفيلم، ولو أنه اقتصر عليها وأحكم الرابط بين أجزائها لجاء الفلم قوياً. فالبقية ليست إلا حشواً وتكراراً فهو في عمله كحارس ليلي يلبس النعل ذا العجلات ويتزلج معصوب العينين يلهو ويمرح، لم يفلح في بعث السرور إلى النفس، وهؤلاء العمال الذين تسللوا في الظلام إلى حيث يجدون الطعام ترديد لفكرة سبق أن صورها، وكذلك هو مع رئيسه في المصنع الجيد

يصلح الآلة، ثم هو في مصنع السفن إنما يعرض حالة لا ترتبط بسياق القصة الرئيسية كبير ارتباط

والفلسفة كانت أكثر مما يحتمل الفلم، ففي النهاية نجد شارلي يعمل خادماً في مطعم كبير ونراه يحمل الطعام مخترقاً الراقصين، وعندما يصل إلى المكان المقصود يجرفه تيار الراقصين ويسير به إلى حيث بدأ، وأخيراً وبعد الجهد يصل ولكن يجد الطعام قد سقط منه!! وكذلك بعد أن ألقى قطعته الغنائية وتقبل تهانئ مدير المطعم ووعدا بالعمل المستمر وأحس بأن السعادة مقبلة، نرى القدر يعاكسه إذ يرسل إليه رجال الشرطة يطلبون فتاته فيهرب معها تاركا السعادة بعد أن كانت بين يديه. فهذا الإمعان في الفلسفة فيه بعض الإرهاق لرواد السينما، وهؤلاء قد يضحكون من الحركات ولكنهم لا يفهمون ما يرمي إليه المؤلف والمخرج. وفي رأيي أن واجب رجل السينما تبسيط الآراء ما استطاع

والناحية الفكهة في الفلم لا بأس بها، ولكنها ليست قوية إلى الدرجة التي كنا نتوقعها ونرجوها؛ وخير ما أذكر له جلسته أمام الآلة التي تناول الطعام، لاسيما وهو يحاول أكل الذرة ثم وهو يقفز إلى الماء ليغوص، فإذا بالمكان الذي يسقط فيه ضحل فيتألم ويعود أدراجه دون أن يتم الاستحمام

يبدو لي أن جهود شارلي الموزعة هي السبب الأول في ضعف الفلم. وقد تحدثنا عن ضعف الرابطة بين كل جزء وآخر، وعن الحشو والتكرار، وهذا ما جعلني أنظر إلى هذا الفلم كأنه نوع من الاستعراض، فليس هو بفكرة واحدة متسقة تعالج علاجا فنيا والتصوير بدائي وليس هذا الذي شاهدناه بالمستوى الذي يليق بفلم كبير كهذا، فلم تكن هناك مهارة في اختيار زوايا التصوير، كما أن شارلي قد عمد في جميع الصور المتتابعة إلى التقاط الصور المتوسطة وكأنه ليس في التصوير السينمائي غيرها

وحاول أن يرسم صورا متباينة لحالة العمال والرأسماليين فجعل فتاته الجائعة المحرومة تقف ذاهلة ثم تنقض على الفطائر ثم تنتقل إلى قسم الأزياء وتختار معطفاً ثمينا من الفرو الأبيض فترتديه وترقد على فراش وثير، ولكن الصورة ضعيفة وأثرها

في النفس غير عميق
والتمثيل عادي، ولقد مثلت بوليت جودار دور الفتاة فلم تبد تلك المهارة والمقدرة التي تحدثت صحف السينما عنها وهي لا تزال ممثلة مبتدئة
والصورة الأخيرة التي يظهر فيها شارلي وفتاته يسيران في طريق مجهول يتهيئان لكفاح جديد من أحسن الصور وأوقعها أثراً، ولقد فكرت كثيراً ثم قلت لنفسي، ألم يكن من الخير أن يسمى هذا الفلم. . . (الأمل)؟!
والفيلم في مجموعه مقبول وفيه جمال، ولكنه يقل كثيراً عن فيلم شارلي السابق (أنوار المدينة) وإن اختلف موضوع كل منهما، إلا أن (أنوار المدينة) كعمل فني ترجح كفته على كفة الفلم الجيد.
يوسف تادرس
العدد 149 - بتاريخ: 11 - 05 - 1936
صاحب الجلالة فاروق الأول
لم تر مصر في أرجح الظن قبل احتفالها بمقدم فاروق، قلبها يخفق بالحب عن إخلاص، ونفسها تفيض بالإجلال عن حقيقة، ولسانها يجأر بالدعاء عن عقيدة، وسوادها يتسابق إلى الاحتفال عن طواعية؛ فقد كان ملكها الشاب منذ عودته من دار علمه إلى دار حُكمه مهوى أفئدتها ونجوى ضمائرها ومجمع أمانيها وموضع إعجابها، لا تصدر في ذلك عن رياء، ولا تنقل عن تقيد، ولا تعمل عن تكلف؛ إنما الطرقات والشرفات والنوافذ كانت مسايل روحية تزخر بعواطفها الكريمة لملك نَشَّأته على طبعها وحسها، وأعدته لعرشها بنفسها، وعقدت على تاجه المصري الخالص أملها في السلطان الحر والحياة العزيزة
أرأيت إلى الشعب الشكور كيف وقف صفين من رأس التين إلى قصر عابدين، ومن سراي القبة إلى مسجد الحسين، يلقي على ملكه المحبوب الولاء مبثوثاً في النظر، والرجاء مكنوناً في الهتاف، والإعجاب معلناً في التصفيق، فيلتقي شعوره بشعوره، ويمتزج هواه بهواه، فيصبح الشعب جسما رأسه فاروق، ويصبح فاروق رمزاً مدلوله الشعب؟
أرأيت إلى الشعب الفخور كيف احتشد مساء الجمعة حول آلات الراديو في الدور والأندية والمقاهي يستمع إلى مليكه الجديد وهو يقرأ فاتحة مُلكه السعيد بلغة عربية مبينة، ولهجة مصرية فصيحة، فانفعل بحزن الملك البار، وبكى من هذا الانفعال، وتأثر بشعبية الملك الحر، وابتهج من هذا التأثر، وأحس وهو يحييه أن روحاً قدسية تبعث في هيكله الواهن القوة والفتوة والأمل
والحق أن تحية فاروق للوطن على هذا النحو الجميل، وصلاته لله في هذا المظهر المتواضع، ورسالته إلى الشعب على هذه الصورة الصريحة، ونزوله عن ثلث مخصصاته للأمة الشاكرة، كانت أبرع استهلال لعهده المومق الخصيب
إذا كان من الحق أن بعض الأسماء ينزل من السماء، فإن اسم فاروق وضعه القدر وضعاً
لهذه الساعة المشهودة من تاريخ مصر. ولعلها أشبه بالساعة التي لقّب فيها الرسول (ص) عمر بالفاروق: فقد كان الإسلام قبل عمر ذليلاً فعزّ، وقليلاً فكثر، ومستخفياً فاستعلن. وهذه مصر تُرَنِّقُ على ثراها الأحداث من كل جانب: فالاحتلال الغاصب ينقص ببغيه سيادتها في التملك، وعدتها للدفاع، وحريتها في التصرف؛ والاستعمار الجشع يرصد الأَهَب على حدودها بالعين الخؤون والمنطق المسلح؛ والناس من إلحاح الذل وإفراط الظلم وامتياز الدخيل وقصور القانون في حال من الخمود لا ينفع فيها تذكير ولا تبلغ عليها دعوة؛ وسياسة البلاد تسير في تيه من الأرض فتضطرب لتنقلب وتعود لتبدأ. فلما أراد الله لطريقها أن تتضح، ولقافلتها أن تسير، ألقى بأزمتها في أيدي الشباب؛ والشباب يسيرون بهداية الله، ويجاهدون بقوة الإيمان، ويبلغون بكرم التضحية؛ فأعادوا للأمة حياتها الدستورية خالصة من الخداع والكذب؛ ثم جعل الله على الأمة ملكاً من الشباب تتساير أهواؤهم إلى هواه، وتتلاقى آراؤهم عند رأيه، فيقول لهم في منطق فصيح صريح: (إنني أستقبل حياتي الجديدة بعزم وثاب وإرادة قوية، وأعاهدكم عهداً وثيقاً على أنني سأقف حياتي على العمل لنفعكم، وموالاة السعي في

سبيل إسعادكم. لقد رأيت عن كثب حبكم لي، وتعلقكم بي؛ لذلك أرى لزاماً عليّ أن أعلن ما اعتزمته من التضامن معكم في سبيل مصر العزيزة، فإني أومن بأن مجد الملك من مجد شعبه)

ذلك هو ملكنا العظيم بعقيدته السليمة ونفسيته الكريمة وخطته الواضحة، وهذا هو دستورنا القديم أعادته إرادة رشيدة، وأعدته وزارة نزيهة، وجمعته انتخابات حرة؛ وأولئك هم شبابنا الخلص تمردوا على حياة الجمود وعقدوا نيتهم على أن يعيشوا كراماً أو يموتوا أعزّة. فمن أين إذن تُؤتَى النهضة المصرية؟ لا تؤتَى النهضة المصرية إلا من جهتين كانتا في كل زمان ومكان مصدر الشرور للأمة: جهة الفساد في الحاشية، وجهة الخلاف في الزعامة. فأما الفساد في الحاشية - ومعاذ الله أن يكون - فوباله أن يزيف في البلاط حقيقة الأمة بميوله، أو يشوّه في الأمة صورة الحكومة بفضوله. وفي ذلك ما فيه من انفراج الحال بين الشعب وملاذه الأعلى. وأما الخلاف في الزعامة فبلاؤه تمزيق الوحدة وتفريق الكلمة وتوزيع الجهد وتغليب الشهوة وتمليك الخصم. وما فتَّ في أعضائنا وهدّ من قوانا إلا هذا الخلاف الباغي لا يراد به إلا اقتناص المال أو الجاه أو الحكم. على أن في الحب الأصيل

المتبادل بين الملك الديمقراطي البر وبين شعبه الوفي المخلص، ضمانا يرفع الحجب المسدولة، ويمنع الوساطة المدخولة، ويديم جُمعةً ما بين النفوس الزعيمة.

ثبت الله عرشه بالسلام ونضر عهده بالوئام وجمل حكمه بالاستقلال والمشورة

أحمد حسَن الزيات

الملك فؤاد

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

مات الملكُ العظيم، فرأى الناسُ من ذهولهم كأنما زيدت في الموت زيادة

وكأن يوماً ليس من الدنيا وقع في الدنيا فترك الحياة في غير معناها

وكأن العيونَ انفتحت فجأةً على شكل محزن من هذا الوجود.

وكأن حادثاً عظيما انتهى من التاريخ المصريّ إلى نقطة انقلاب؛

ورأى الناسُ كأن غيمةً فوق مصر تجتمع من حزن ستة عشر مليون قلب!

مات فؤاد العظيم، فعرفت مصرُ أن معجزةً فارقتها

وأنه لم ينقض رجل؛ ولكن ذهب قَدَرٌ كان في خدمة حوادثها المضطربة

ولم ينته عمر؛ ولكن انتهت سعادةٌ كانت من حظ أيامها؛

ولم ينطو تاريخ؛ ولكن انطوت قوة كانت تعمل في حل مشاكلها

فارقت معجزة، وذهب قدَر، وانتهت سعادة، وانطوت قوة. ما أفدح خطبك يا مصر!

وكيف لا يكون معجزةً من خُلقت مواهبُه على قدر أمة تنال به التاجَ بعد أن فقدته ألفي سنة؟

وكيف لا يكون قَدَرا من بُعثت عزيمتُه لحل الزمن السياسي المعقَّدِ منذ دهور ودهور؟

وكيف لا يكون سعادةً هذا الذي مرَّت آثاره على فقر التاريخ مرورَ الغنى؟

وكيف لا يكون قوةً وإرادتُه الجبارةُ كانت مظهر السر الذي يعمل وينتصر؟

أيتها الحقيقة العظيمة! هل كانت النبوَّة في شكل سياسي؟

مرض الملك رحمه الله، فكانت أخبارُ مرضه روايةَ أحزان الشعب

وعرف كل مصري أن هذا الملك هو الوطن في صورة رجل،

واتجهت العاطفة الوطنية في البلاد كلها إلى رمزها الحي،

واثبت الشعبُ في سمو أخلاقه أن ملكه العظيم هو الذي ارتقى به إلى هذا السمو

وأصلحت غلطةٌ كانت السياسة الأجنبية تسميها التفرق. .

ومات الملك رحمه الله، فأتم موتُه عمَل حياته العظيمة

جمع الأمة كلها على أسمى أخلاقها من الحب والوفاء والاتحاد؛

وأظهرها حوله كأنها في صلاة تتدفق منها الروحانية العظمى؛

وراع بها العالم السياسي كأنه يقول للدنيا: هذه مصر كما أنشأتُها

وترك لأمته الدرسَ الأخير في هذه الصورة كأنه يقول: هكذا عيشوا

وبكاه الشعبُ من كل عين، حتى لو كان يبكي من نهر ليبس؛

وأصبحت القلوبُ من الحزن كأن كل قلب اجتمعت فيه أمواتُه ذلك اليوم

وبرزت فجأة من النسيان همومٌ وهمومٌ وهموم

ودنت الآخرة حتى لا يذكر الناسُ غيرها، كأن الخلد يتسلم الراحلَ من أيدي الشعب
وحكم الملكُ يومَ موته حكما آخر كما تحكم على الناس جميعاً طبيعةُ الخير
هذا هو صوتُ الشعب يوم وفاة الملك .(في ذمة الله يا فؤاد)
صوتُ الفطرة على سجيَّتها مع نفسها؛ لا من سياسةٍ ولا رياء ولا مجاملة
صوت الإيمان على طبيعته مع القلب، لا من غرضٍ ولا تصنّع ولا خديعة
صوت الوطنية على عقيدتها مع الحب، لا من خوفٍ ولا كذب ولا اضطرار
وما عسى أن يقول من فقد أباه العزيز، إلا أن يقول: في ذمة الله يا أبي؟
في ذمة الله ذلك الملكُ الذي كان كالأنبياء محصوراً في واجبه ورسالته
ولم يكن بين فكره وعمله أحلامٌ تفسد الفكر أو تضعف العمل
وكان يقول: (ليس شيئاً يذكر أن يكون المرء أميراً؛ ولكن الشيء الجدير بالذكر أن يكون نافعاً)
ومن أجل ذلك استمر يعمل كأنه مؤتمر ملوك لا ملك واحد؛
وتألفت مدةَ حكمه اثنتان وعشرون وزارة، فكانت له على مصر بركةُ اثنين وعشرون ملكا
وكان بنشأته واختباره وعلمه ودينه تصحيحاً لأغلاط من سبقوه في الملك
وبذكائه وبصيرته كان يسوس رعيتين في مصر: إحداهما الحقائق
وكان موفقاً بقدر ما هو قوي، فخدم الشعبَ عقله وحظَّه
تراه دائماً بحكمته وحزمه في عمله للحاضر، ودائماً بصبره وإيمانه في عمله للمستقبل
هو ملك الصبر والإيمان؛ وبهاتين القوتين كم من مرةٍ جعل ما لا يمكن يمكن
وكان من أكبر همه أن يألف العالم اسمَ مصر وأن تعرف ممالكُ الدنيا جَدَّتها
فحرَّك اسم مصر في كل أمة لأنه وحده الاسم الذي يخاطب كل تمدن بلغة خياله
إن المجد المصري إذا انبعث كان قوة من قوى الجلال في الدنيا!
إن السحر المصري إذا عرف كان قوة من قوى الحب في العالم!
إن فن الإعجاب بمصر ليخرجُ من درس آثارها كما يخرج علم الفلك من درس النجوم
في ذمة الله يا فؤاد، وعزاءً يا مصر!
لقد أعطاك من الفاروق المحبوب أكبر حسناته:
أعطاك فيه أسرار عظمته تتجلى بادئة بنشاطها
غابت الشمس ليبدأ الفجر الجديد
مات الملك؛ يحيا الملك
(طنطا)
مصطفى صادق الرافعي
في ليلة مقرورة
للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني
(انفخي النار أو أذكيها فإني بردان، ولست أجد حرّها)
وكان الوقت شتاء، والبرد قارساً، والرياح متداركة الهبوب تقشر الحصى عن وجه الأرض، وتهيج بالغبار نحو السماء كالعمود. ولكن الغرفة كانت دافئة، والنار في مواقدها تتسعر، فعجبت الزوجة، ونظرت من زوجها إلى الموقد، وقالت: (بردان؟ بردان والغرفة كجهنم؟ لقد ألقيت عليها منذ دقائق خشباً كثيراً لا يزال يفرقع من شدة التلهّب، فكيف لا تحسها ولا تسمعها؟ مالك؟ أبك شيء؟)
فهز الرجل رأسه هزة خفيفة، وقال وهو يمد يديه: (لا. .،!! خذي أشعلي لي هذه)
وناولها سيجارة كان يقلبها بين أصابعه، فوضعت طرفها على النار ونفخت فيه حتى صار كالجمرة المتلظية، ووضعتها بين أصابعه وهي تقول: (سأعود إليك قبل أن تفرغ منها)
وخرجت وردت الباب وراءها، فتنهّد الرجل وأطرق. وفرغت السيجارة، وشعر بحرّها على أصابعه، فأراد أن يطفئها أو يرمي بها، فمد يده الفارغة يتحسس حتى لمست أصابعه حرف منضدة صغيرة، فأجرى راحته عليها، حتى التقت أنامله المرتعشة بشيء فرفعها إليه يريد أن يتبينه، فانقلب وتحطم، فرد يده بسرعة، وقد تجهم وجهه؛ ثم تنهد، ورفع قدمه وانحنى على الأرض، ووضع السيجارة تحت حذائه
وكان الذي يراه وهو جالس على الكرسي، ورأسه مثنيٌّ على صدره، خليقاً أن يتوهمه

نائماً من فرط السكون. ولكنه لم يكن نائماً ولا ذاهلا؛ وإنما كان مُرهفاً أذنه لحركة الأقدام في غرفة ابنته، ولما عسى أن يتأدى إليه من الأصوات غير ذلك على الرغم من الباب الموصد عليه. وكانت زوجته لا تزال تعود إليه كل بضع دقائق لتطمئن عليه على زعمها، فقد أقلقها عليه قوله إنه بردان في هذه الغرفة التي يُشتكى حرُّها؛ ولا يُعقل أن يشتكي بردها فكان يتبسم ويقول لها: (لا تخافي علي فإني بخير، ولكن طمئنيني على فردوس، كيف هي الآن؟ ألا أصعد معك إليها؟)

وكان يعلم أنها أبت ذلك عليه من قبل مرات، فهو على يأس كبير، ولم تكن لجاجته في الطلب كلما دخلت عليه إلا ليرى كيف يكون جوابها في كل مرة؛ وكان يؤكد أنه سيدخل على أطراف أصابعه، ثم لا يتكلم ولا يتحرك ولا يمد يده ليلمس الفتاة، فضاق صدرها بهذا الإلحاح، وقالت له: (إذن لماذا تريد أن تصعد إليها؟؟ أكل مرادك أن تزعجها والسلام؟)

وأسفت لأنها احتدت فانقلبت تعتذر إليه بما تكابده من العناء، وتوزع القلب والجهد بينه وبين ابنتهما، فقبل اعتذارها، أو لعل الأصح أنه لم يجعل باله إلى ما بدر منها. وما ظنت أنه ساءه من حدة اللهجة وقال:

(أليست الممرضة مع فردوس؟ إذن دعي لي الخادمة فهي حسبي إلى أوان النوم لا تشغلي نفسك بي، وإذا احتجت إلى شيء فإن في وسع الخادمة أن تقضيه لي.)

فأبت عليه حتى الخادمة، وقالت: إن فردوس لا تستغني عنها، وأن في وسعه أن يصفق إذا أراد شيئاً فتجيء هي - زوجته - إليه. فترك الإلحاح، وعاد إلى جلسته وإطراقه وسهومه وكفّ حتى عن أن يرفع رأسه - على عادته - حين تدخل زوجته عليه، كأنما لم تعد به حاجة إلى سؤال، أو كأنما لم يعد يعنيه من الأمر كله شيء، وكانت زوجته تقف حياله هنيهة، ثم لا تأنس منه استعداد لكلام، أو تتوهمه أغفى فتسلل راجعة من حيث جاءت. وكأنما اطمأنت أو خشيت أن تزعجه أو توقظه، فصارت تترك الباب موارباً، ولا تكلف نفسها عناء إيصاده - كما كانت تفعل - من قبل اتقاء لما يحدثه ذلك من الصوت

ومضت ساعة وبعض ساعة، والدنيا أتم ما يكون سكوناً، لولا الرياح العواصف؛ وإذا بالباب يدق دقاً مزعجا، وإذا بالخادمة تنحدر على السلم، كأنما هي في سباق، أو كأنما وراءها الذي تهرب منه وتمضي إلى الباب فتفتحه ثم تغلقه، وإذا بالبيت يملأه بكاء وليد يصيح: (واء واء واء) ولا تمضي دقائق حتى يكون كل من في البيت قد أحاط به ما خلا فردوس المريضة التي لا تستطيع أن تبرح سريرها أو تنهض عنه، ويدخل هذا الجمع الحافل - سيدة البيت والممرضة والخادمة ورجل غريب يحمل بين يديه طفلاً ملفوفاً - في أشياء كثيرة وعلى وجهه شف أرجواني رقيق جدا

وتتقدم الزوجة من بعلها وتقول: (ماذا تظن؟ لقد وجد هذا الرجل طفلاً ملقى على مقربة من عتبة البيت! مسكين إنه وليد! ابن ساعة أو ساعتين على الأكثر! ماذا ينبغي يا ترى أن نصنع به؟ لا نستطيع أن نرده إلى حيث كان. . . ولا أحسبنا نستطيع أن نستبقيه. . . كلا! هذا أيضاً عسير علينا. ما رأيك؟ أشر كيف نصنع؟)

فيرفع وجهه إلى الناحية التي يجيء منها صوتها ويقول: (المهم الآن إرضاع الطفل - والوقت بعد ذلك فيه متسع للتفكير في مصيره، فانظري من ترضعه، ابعثي في طلب واحدة. . . اصنعي شيئاً. . . لا تقفي هكذا)

ولم يكن ثم ما يدعوه أن ينهرها على هذا الوجه، فما كانت قصّرت أو تلكأت، ولا كان مضى على دخولها عليه بالطفل إلا مسافة ما ألقت عليه خبر العثور عليه، ولكنه كان ضيق الصدر بما أجن لا بما حدث من التباطؤ، وكان يثقل عليه وجود الرجل ولا يرتاح إلى الحديث على مسمع منه في أمر هذا الوليد. ورأت زوجته منه هذا النفور، وأحست له سبباً باطناً غير ظاهره. فقالت صحيح. أين نجد مرضعة يا فاطمة؟ (الخادمة) أتعرفين واحدة قريبة من هنا أو جارة نستعين بها الليلة حتى نهتدي إلى مرضعة صالحة؟ (ونظرت إلى زوجها الذي لا يراها وقالت بسرعة كالمستدركة) أو نرى لنا في الطفل رأيا آخر

فقال الرجل بلهجة السأمان (أرضعيه أولا. . اذهبي، فما ندري كم ساعة له وهو ملقى، وإن كان الذي يبدو لي من سكوته أنه لا يشكو شيئاً وأنه على الأرجح - كما قلتِ أنتِ -

حديث عهد بالولادة. . على كل حال يحسن أن تعني به الليلة كعناية الأم)
فانصرفوا عنه، ومضت الليلة بسلام، وجاءوا في الصباح بمرضعة للطفل، فقد أصر الرجل على اتخاذه وتبنّيه، وكانت زوجته حين رأت منه هذا الإصرار قد راحت تنكر عليه هذا العزم، وتخوّفه ما لا بد أن يعاني من جرّاء وجوده في البيت، وتنذره الضجات والضوضاء وغير ذلك، فإن الأطفال في سن الرضاع لا يوقّرون كبيراً، ولا يعنون براحة أحد، ولا يبالون ما يكون منهم، ولكن هذا لم يثنه عما صحّ عليه عزمه
ومضى عام ثم آخر، وحبا الطفل ومشى، ولم يفتر حنوّ الرجل عليه، بل صار هو سلوته، فكان يخرج به كل يوم ساعة في الصباح وأخرى في المساء. ولم يكن يبعد عن البيت لأنه مكفوف، فكان يتمشى في الحديقة الواسعة والطفل أمامه في مركبته الصغيرة، فإذا غادر البيت اكتفى بالطواف حول السور، وكان كلما التقى بفردوس والطفل معه، يتركه لها وينصرف عنها، ولا يبقى معهما في مكان، وكان ذلك يسر فردوس في أول الأمر لأنه يسمح لها بأن ترسل نفسها على سجيتها مع الغلام، ولكنه لما تكرر من أبيها، أزعجتها منه دلالة العمد فيه، ولكن ماذا تقول أو تفعل
وكانت زوجته كثيرا ما تشير في حديثها معه إلى فردوس وأنه لا يبدو لها خاطب بين الأقرباء والأصدقاء العديدين، فلا يقول الرجل شيئا، ولكنها أضجرته مرة فقال لها (دعيها، ولا تقلقي عليها، فإني أحسب الطفل سلوة كافية لها) فسألته زوجته بلهفة (ماذا تعني؟ كيف يمكن؟)
فابتسم الرجل وقال (أعني أن في وسعها أن تفيض عليه من أمومتها الكامنة؛ وكفى بهذا الطفل عزاء وسلوة مادام لا بعل لها)
وطال الأمر، وشق على الزوجة أن الحبائل الكثيرة التي ألقتها لم تقنص أحداً، ونفد صبرها وعجزت عن الكتمان فقالت بشجوها لزوجها، وكان هو أيضا قد مل هذه الأحاديث التي لا تنتهي فسألها (هل يسمعنا أحد. . انهضي وانظري)
ففعلت وعادت فطمأنته فقال (إذن اسمعي - لقد كنت أوثر أن أظل ساكتاً لا أتكلم، ولكنك أكرهتني على الكلام. وإني لضرير ولكن رأسي لم يعطّله شيء، فهل تذكرين كيف سافرت ابنتنا وقضت شهورا عند خالها في ضيعته؟ إني مازلت أذكر ذلك لأني أعلم أنها لم تكن عنده ولا عند أحد غيره من أقرباء أبيها أو أمها، وإن كنت أجهل أين أقامت كل هذا الزمن. . انتظري. فلست ألومك، بل أنا على العكس أثني على حكمتك، وحسناً صنعتِ، وقد عادت بعد ذلك فجأة وأوت إلى فراشها ساعة وصولها، وظلت مريضة حتى كانت الليلة التي دق علينا فيها الباب، وجاءنا الرجل بهذا الطفل. ومن حسن الحظ أن الرجل لا يعرف شيئا - ولست أدري كيف دبرت الأمر، ولكنك على كل حال أحسنت التدبير، ولولا هذه القابلة التي زعمتها ممرضة لاطمأن قلبي، وأمنت الافتضاح، ولكنها على ما يظهر استطاعت أن تكتم السر فالحمد لله. والآن وقد أحوجتني إلى الكلام أفلا يحسن بعد ذلك أن تعفيني من حديث الزواج التي لا تملينه؟)
فلم تقل شيئا حتى سمعته يحدث نفسه ويقول (مسكينة. مسكينة)
فنهضت وسألته (أتعطف عليها)
فأشار بيده إشارة من يريد أن تذهب عنه وهو يقول (بلهاء) ولم يدر بينهما بعد ذلك كلام في الموضوع

إبراهيم عبد القادر المازني

المسألة الحبشية

بين إيطاليا وإنكلترا

بقلم باحث دبلوماسي كبير

يجزع الكثيرون من خصوم الاستعمار وأبناء الأمم المغلوبة لما أصابت إيطاليا بوسائل العنف الشائن من ظفر وتقدم في غزو الحبشة، وما أصاب الحبشة من خذلان وتضعضع في مقاومتها للمعتدين على حرياتها؛ ويجزع الكثيرون من أنصار السلام لما ينذر به ظفر إيطاليا على هذا النحو، وما تنذر به المشكلة الحبشية كلها من خطر داهم على السلام
وقد يلوح لأول وهلة أن الفريقين على حق في هذا الجزع؛ ذلك أن ما أبدته إيطاليا الفاشستية من إقدام وجرأة في انتهاك العهود والمواثيق، وما ارتكبته في سبيل مشروعها الاستعماري من ضروب السفك والعنف، وما لجأت إليه لسحق الأحباش من

وسائل مجرمة مثيرة كاستعمال الغازات وغيرها، ينذر بالويل كل أمة ضعيفة لا تقوى على مقاومة الاعتداء بمثله، ويبعث اليأس في نفوس الأمم المغلوبة، لأنها ترى الاستعمار يثبت أقدامه، ويزيد جرأة وعدواناً وعنفاً؛ ولأن ما تثيره المشكلة الحبشية من خلاف بين بريطانيا العظمى وإيطاليا، وما يثيره فوز إيطاليا في شرق أفريقية من مخاوف على مصالح الإمبراطورية البريطانية ومستقبلها، ينذر بانفجار قد لا تقف عواقبه عند الخصومة الإنكليزية الإيطالية، بل قد يؤدي إلى حرب أوربية عامة ينكب العالم كله بويلاتها وعواقبها

بيد أنه يجب ألا نبالغ في تقدير الموقف بهذا المعيار القاتم، فهنالك ظروف واعتبارات كثيرة يجب تقديرها إلى جانب هذه الظواهر المزعجة. ولنبدأ ببحث الموقف في الحبشة؛ فقد تقدم الإيطاليون داخل الحبشة في الأسابيع الأخيرة، واستولوا على ولاية تجري كلها، وهي التي تقع فيها بحيرة تانا والنيل الأزرق، وتقدموا أيضاً في الجنوب، وأصابوا الجيوش الحبشية بعدة هزائم شديدة، وهم يزحفون بسرعة نحو العاصمة الحبشية، وقد تسقط في أيديهم قبل أن يظهر هذا العدد من (الرسالة)؛ وفي الأخبار الأخيرة أن النجاشي قد غادرا الحبشة مع أسرته إلى فلسطين على بارجة إنكليزية بعد أن فقد كل أمل في الدفاع والمقاومة، ولكن هل يعني ذلك كله أن قوى الحبشة الدفاعية قد أبيدت نهائياً كما يزعم الإيطاليون، وأن إيطاليا قد حققت ظفرها كاملاً شاملاً. وأنه لم يبق عليها إلا أن تملي

شروطها على الحبشة وعلى عصبة الأمم؟ إن نظرة إلى خريطة الحبشة تنقض هذا الزعم، فإن التقدم الإيطالي لم يجاوز حتى الآن المناطق الأمهرية، ولم يتوغل الإيطاليون في الحبشة الأصلية بعد، ولازالت أمامهم دون الاستيلاء عليها مناطق وعرة؛ والجيوش الحبشية لم تسحق كلها ولم تبد، ولكنها اضطرت أن تتراجع أمام الغازات الخانقة وغيرها من الوسائل الفتاكة التي لم يحجم الإيطاليون عن الالتجاء إليها خلافاً لكل قانون وميثاق حينما رأوا عجزهم عن التقدم بوسائل الحرب المشروعة، وهي مازالت تصمد للإيطاليين في الجنوب وحيثما استطاعت إلى ذلك سبيلاً؛ وإذا قارنا ما استولت عليه إيطاليا حتى الآن من أراضي الحبشة بما كان مقترحا أن يعطي لها في مشروع (لافال - هور) ألفينا أنها رغم انتصاراتها المتوالية لم تحقق بعد كل ما كان يراد أن يعطى لها بمقتضى هذا المشروع غنيمة باردة؛ والفرق بين الحالتين أنها تدفع اليوم لتقدمها ثمناً فادحا من المال والرجال

هذا ومن الخطأ أن نعتقد أن مجرد استيلاء الإيطاليين على الأراضي الحبشية يكفل تحقيق الأماني الإيطالية، ويعتبر حلاً نهائياً للمسألة الحبشية؛ ذلك أنه يجب على إيطاليا إذا أرادت أن تستغل ثمار ظفرها، أن تحتفظ بما استولت عليه من الأراضي، وأن تسحق كل مقاومة من جانب الأحباش؛ ولكن المعروف أن دون هذه الغاية صعاباً جمة، وأن إيطاليا ستلقى مدى حين مقاومة من الأحباش، وستضطر إلى أن تتكبد في هذا السبيل جهوداً ونفقات قد تعجز عن الاستمرار فيها إذا طالت مقاومة الأحباش؛ بل يرى بعض الثقات اليوم أن إيطاليا قد استنفذت بالفعل في هذه الحروب الاستعمارية العنيفة كل مواردها القائمة، وأنه إذا بدأ فصل الأمطار في الحبشة قبل أن تسحق مقاومة الأحباش بصورة حاسمة، فإن مركزها وخططها في الحبشة تعرض لأشد الأخطار

ويجب أن نذكر إلى جانب ذلك عاملاً حاسماً آخر، وهو موقف إنكلترا من المسألة الحبشية ومن إيطاليا، وهو موقف ستكشف الأيام القريبة عن حقيقته وعصبة الأمم ماذا كان موقفها إزاء هذا الاعتداء الشائن؟ لقد بدأت العصبة بداية حسنة، فأسندت تبعة الاعتداء إلى إيطاليا، وقررت تطبيق العقوبات الاقتصادية ضدها؛ وكان للسياسة البريطانية أكبر نصيب في تنظيم هذه الحركة الدولية الخطيرة؛ ولكن فرنسا التي

تربطها بإيطاليا معاهدة صداقة خاصة واتفاقات سرية ذاع أمرها فيما بعد، قاومت سياسة العقوبات رغم موافقتها نظريا على تقريرها، ووقفت إلى جانب إيطاليا موقفاً كان له أكبر الأثر في شل سياسة العقوبات، وعجز عصبة الأمم عن تقرير عقوبات أخرى كانت تزمع فرضها كتحريم إصدار الزيت والحديد إلى إيطاليا؛ هذا ولم يبق سرا أن فرنسا تشد أزر إيطاليا في هذه الحرب الاستعمارية بصفة إيجابية، وأنها تعاونها

بالقروض السرية؛ وهي من جهة أخرى تعرقل تصدير السلاح إلى الحبشة من طريق جيبوتي، خلافا للاتفاقات المعقودة فتزيد بذلك في إضعاف المقاومة الحبشية وتمهيد السبيل لتفوق الجيوش المعتدية

ولقد كان موقف العصبة إزاء هاتين السياستين المتناقضتين يدعوا إلى الرثاء، فلا هي استطاعت رغم تأييد السياسة البريطانية أن تسير في تطبيق العقوبات الاقتصادية على إيطاليا بالحزم الواجب تأييداً لمبدأ السلامة الإجماعية الذي تعمل باسمه، ولا هي استطاعت بأية وسيلة أن تحمل إيطاليا على وقف اعتدائها الصارخ، أو قبول الصلح في الحدود التي رسمتها منذ بداية الاعتداء؛ بل ولا استطاعت أن تحمل إيطاليا على احترام أبسط قواعد الحرب الشرعية، والعدول عن الالتجاء إلى الوسائل الهمجية الفتاكة من غازات قاتلة ومحرقة وغيرها ضد شعب يكاد يكون أعزل إزاء وسائل التسليح الحديثة؛ ومازالت عصبة الأمم منذ أشهر تجتمع وتسوف على غير طائل، وإيطاليا تمضي في اعتداء هو أشبه بالقرصنة المجرمة منه بالحرب المشروعة، فتمزق الأحباش محاربين ومسالمين بغازاتها وطياراتها، وعصبة الأمم لا تكاد تجد ما تقوله إزاء هذه النذالة التي تثير استنكار العالم المتمدن بأسره، إذا استثنينا بعض الجهات الاستعمارية الجشعة التي ترى فوز إيطاليا عاملاً في تثبيت أقدام الاستعمار في أفريقية

على أن ظفر إيطاليا الحربي في الحبشة لا يكفي لتسوية المسألة الحبشية مهما كان مدى هذا الظفر؛ ففي وسع إيطاليا أن تستولي عسكريا على الحبشة كلها، ولكن الاحتلال العسكري لا يمكن أن يعتبر مستقرا أو نهائيا، ولا يمكن بأي حال أن يعتبر خاتمة المشكل، ولابد أن تحسب إيطاليا أعظم حساب لموقف السياسة البريطانية؛ ذلك أن بريطانيا العظمى ترى في استيلاء إيطاليا على الحبشة وتوسع الاستعمار الإيطالي في شمال أفريقية خطرا عظيما على سيادتها ونفوذها في وادي النيل وشرق أفريقية، وترى في نهوض إيطاليا

الاستعمارية وفي اضطرام الروح الفاشستية بالأطماع والمشاريع الاستعمارية خطرا أعظم على سيادتها في البحر الأبيض والبحر الأحمر وعلى مواصلاتها الاستعمارية التي تسهر على حمايتها بيقظة متناهية، فالمسألة الحبشية في ذاتها تحتل في نظر بريطانيا مكانا ثانوياً، ولكن المسألة الجوهرية هي ما يترتب على فوز إيطاليا واعتزاز الروح العسكرية الفاشستية بهذا الفوز، وهر روح اعتدائية أخذ يبدو خطرها في البحر الأبيض ظاهرا ملموسا؛ والسياسة البريطانية تعمل منذ بدء المشكلة الحبشية وراء عصبة الأمم ووراء مبدأ السلامة الإجماعية؛ وقد كانت تتوقع عند فوزها بتقرير سياسة العقوبات الاقتصادية أن هذه العقوبات ستحدث أثرها في أهبة إيطاليا وفي مواردها بسرعة، فتقبل الصلح على الأسس التي وضعتها عصبة الأمم؛ ولكن السياسة الفرنسية المماذقة التي تعمل من وراء الستار لشد أزر إيطاليا حالت كما رأينا دون تحقيق هذه الغاية، واستطاعت إيطاليا أن تحرز بوسائلها العسكرية المجرمة في الحبشة انتصارات خطيرة؛ فالسياسة البريطانية تجد الآن نفسها بعد فشل سياسة العقوبات، وانهيار المقاومة الحبشية، في موقف حرج؛ وإذا كانت خطتها التالية لم تتضح بعد، فأنه مما لا ريب فيه أن وجهة نظرها إلى الموقف لم تتغير بل ربما كان اهتمامها اليوم بقمع الخطر الإيطالي على مصالحها ومواصلاتها أشد منه في أي وقت آخر

ومن المحقق أن السياسة البريطانية تؤثر العمل بوسائل لا تدفعها إلى الحرب؛ والظاهر من تصريحات مستر إيدن وزير الخارجية البريطانية في جنيف، وتصريحات مستر بلدوين رئيس الوزارة، وأقوال الصحف البريطانية ذات الرأي، أن إنكلترا مازالت ترى المضي في سياسة العقوبات الدولية، مستظلة بعصبة الأمم ومبدأ السلامة المشتركة، وأنها ستقوم بمحاولة أخرى في هذا السبيل قبل أن تفكر في الالتجاء إلى وسيلة أخرى؛ والظاهر أيضاً أن أنصار هذه السياسة يرون أن الانتصارات الإيطالية الأخيرة في الحبشة لا تقوم على أسس مستقرة؛ وأن إيطاليا لا تستطيع المضي طويلاً في الاضطلاع بهذه الأعباء والتضحيات الفادحة التي تضطلع بها، وأن أحوالها الاقتصادية الداخلية بلغت مأزقاً خطراً، فإذا استطاع الأحباش أن يصمدوا في الجنوب وأن يحتفظوا بنوع من المقاومة بضعة أسابيع أخرى حتى يبدأ فصل الأمطار، وإذا ظفرت إنكلترا أثناء ذلك بحمل عصبة الأمم

على تقرير عقوبات جديدة أخصها حظر الزيت، فإن الخبراء يرون أن خطط إيطاليا العسكرية تعرض في هذه الفترة إلى أشد الأخطار، فقد يستطيع الأحباش في فترة الأمطار أن ينظموا قواهم مرة أخرى، وتكون موارد إيطاليا قد نفدت أو أوشكت على النفاد فتضطر إلى وقف الحرب وقبول الصلح؛ وتؤمل السياسة البريطانية أن تسنح الفرصة لتقرير العقوبات الجديدة عقب الانتخابات الفرنسية الجديدة، فقد ظهر منها أن فرنسا تميل هذه المرة إلى أحزاب اليسار، وأحزاب اليسار تؤثر تأييد عصبة الأمم ومبدأ السلامة المشتركة، وترى أن هذه السياسة أقرب إلى تحقيق السلام من سياسة التلون والمماذقة التي جرت عليها فرنسا إزاء المشكلة الحبشية، وهي سياسة دفعت ثمنها غالياً في مسألة الرين ونقض ألمانيا لمعاهدة لوكارنو، حيث خذلتها إنكلترا في هذا المأزق، وألقت عليها درسا عميق الأثر

ويرى بعض أقطاب السياسة البريطانية فوق ذلك أنه يجب على إنكلترا إذا اقتضى الأمر أن تلجأ إلى إجراءات الحصار العسكرية، فتغلق قناة السويس بموافقة عصبة الأمم، وتقطع بذلك مواصلات إيطاليا مع شرق إفريقية، وهذا إجراء قد يؤدي إلى نشوب الحرب بين إيطاليا وإنكلترا، لأن موسوليني ما فتئ يهدد بأنه يعتبر إغلاق قناة السويس إجراء عدائياً عسكريا يجيب عنه بالمثل، ولكن أصحاب هذا الرأي يرون أنه خير أن تضطلع إنكلترا بعبء حرب محلية في البحر الأبيض من أن تترك الفاشستية تمضي في تهديدها للسلام حتى تنشب حرب أوربية أو عالمية؛ ويقولون إنه ليس لإيطاليا أن تحتج بخرق المعاهدات الدولية في مسألة إغلاق القناة بعد أن خرقت هي كل العهود والمواثيق الدولية، وهذه النظرية تلقى اليوم كثيرا من التأييد في إنكلترا، بيد أنه يلوح لنا أن السياسة الإنكليزية الرسمية مازالت بعيدة عن الأخذ بها

إن السياسة الإنكليزية تعتمد كثيراً على الزمن وعلى تطور الحوادث والظروف؛ وإذا كانت الظروف لم تحقق إلى اليوم تقديراتها وأمانيها، فليس من ريب في أن استطالة الحرب الحبشية تستنفد قوى إيطاليا ومواردها، وتضعف مركزها في أوربا؛ وقد حققت الحرب الاستعمارية الطاحنة التي تدور في الحبشة منذ سبعة أشهر كثيرا من دواعي هذا الإنهاك؛ ولا عبرة بمظاهر النصر الخلابة التي تهول إيطاليا بها، فأنها تدفع في سبيلها أفدح الأثمان؛ ومازال الزمن عاملاً حاسما في إخماد الجذوة الاستعمارية الفاشستية وردها إلى الصواب

(* * *)

قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكي

الدفتريا

بين واجد سمها الفرنسي، وكاشف ترياقها الألماني

وصل الفائت:

بعد أن أثبت بارنج أن المصل المأخوذ من دم الشياه الناقهة من الدفتريا يقي الحيوانات من هذا الداء إذا هو حقن فيها، حقنه في الحيوانات المريضة فعلا لعله يشفيها فشفاها. ففعل مثل ذلك في الأطفال المرضى فكان النجاح باهراً. وبدأت المصانع تصنع هذا المصل والأطباء يستخدمونه وذاع أمره واهتز الناس له

ومع هذا النجاح فقد صدرت من الناس شَكيّات، وقد صدرت منهم انتقادات. وهذا أمر طبيعي، فالعلاج الجديد لم تكن مؤكدة نتائجه كل التأكيد. فهو لم يَشْفِ من الأطفال المائة مائةً عدًّا. وكيف يُرجَى منه ذلك وهو لم يكن شفى من مائة الخنازير الغينية مائة كاملة. وكان كذلك لبعض علماء الأطباء رأي نقّاد فيه، فقد ذكروا أن الذي يحدث من الداء تحت جلد الخنزير ليس بحكم الضرورة واللزوم هو عينه الذي يحدث منه في حلوق الأطفال. وشاع أمر الحقنة، وجرى المصل في دماء الألوف من الأطفال، ولكن برغم ذلك مات بعض الأطفال من الداء شر ميتة. (ولو أن عددهم ربما كان دون الذي كان يموت قبلا). وأخذ الأطباء يتساءلون عن السبب. وفقدت آباء وأمهات آمالاً كبيرة تفتّتت بفقدها أكبادهم

وهنا عاد أميل رو إلى العمل، عاد إلى ساحة القتال يحتل مكانه في صدرها. فاكتشف اكتشافاً مجيداً: طريقة سهلة هينة يحصّن بها الخيل من سمّ الدفتريا؛ طريقةً لا يموت فيها حصان ولا يطفح على جلده منها خُرّاجات أليمة ذميمة؛ وخير من هذا أنها طريقة تأتي بالكثير الوفير من ذلك المصل الحصين وبه ذلك الترياق الغالي الثمين. وكان مصلاً قويّ
المفعول يذهب القليل منه بالسم الكثير الذي يقتل عدّة من كلاب كبيرة
وآمن رو بأن هذا الترياق سيشفي الأطفال لا محالة. وآمن به قبل أن يجهزه إيماناً كإيمان بارنج أو أشد منه تأكداً. تركز فكره على علاج الداء، واجتمع مقصده على شفائه، فلم يفكر قط في منعه. ونسي ما كان وصف من غرغرات. وظل يتردد على عجل بين معمله ومربط خيله، تارة ضارباً محاقنه في أعناقها وهي صابرة، وتارة حاملاً قوارير عظيمة البطون ملأى من دمائها وفي هذه الفترة كان نوع من الدفتريا شديد الخبث (هكذا ظن رو) يكتسح بيوت باريس. وفي (مستشفى الأطفال) كان يُحمل خمسون في المائة من مرضاه إلى بهو الأموات زُرْق الوجوه (أو هكذا أثبت الإحصاء).
وفي مستشفى تروسو كان يموت ستون في المائة (ولو أن السجلات لم تذكر في جلاء أن الأطباء استيقنوا أن الذين ماتوا إنما ماتوا من الدفتريا لا من غيرها). وفي الأول من فبراير عام 1894 جاء رو إلى (مستشفى الأطفال) بوجهه المستوف وأنفه الأقنى وصدره الضيّق وقلنسوته السوداء، فدخل إلى رواق الأطفال المرضى بالدفتريا وهو يحمل قوارير ملأى بهذا السائل الأصفر المعجز من المصل
وفي هذه الساعة، في المعهد الشهير بشارع ديتو، في حجرة المكتب هنالك كان يجلس رجل شيخ مشلول ينتظر خبراً ساراً يأتيه من رو. . . . وكان هذا الشيخ تبرق في عينيه بوارق الأمل فينسى أحبابه وأعزاؤه أن الموت انتقاه وأعلمه ثم تركه وعن قريب يعود في طلب المتروك تاركه. . . . . هذا بستور جلس في غرفة مكتبه من ذلك البيت العتيق لا يود أن يبرحها ويُسْلِم للفناء زمامه حتى يأتيه الخبر اليقين بأن تلميذاً من تلاميذه تمكن من محو داء آخر من الأدواء الخبيثة بهذه الحياة الدنيا
وغير بستور كان حول رو أمهات باريس وآباؤها يرجونه الإسراع في تجهيز علاجه رحمة بأولادهم من مرضى ومريضات - فقد كانوا سمعوا بذلك العلاج العجيب الذي ابتدعه الدكتور بارنج. وقالت طائفة منهم أنه يكاد يحي الموتى ويستخلص الأطفال من براثن هذا الداء بعد أن تنقطع فيهم الآمال. وكان رو يتلفت حوله فيستطيع أن يرى الناس رافعة أيديها إليه تطلب الرحمة والغياث
جهز رو محاقنه وقواريره بذلك الهدوء وذلك البرود اللذان أثارا إعجاب الفلاحين في تلك
الأيام الخوالي حين قام رو في حقولهم يضرب لقاح الجمرة في بهائمهم في قرية بويي لوفرت. وقام عوناه مرتان وكايو فأشعلا مصباح الكحول وأسرعا إليه في لهف وتأهب لإجابة الأمر تنفتح عنه شفتاه، ونظر كوخ إلى الأطباء وهم في حَيْصَ بيص لا يدرون ماذا يصنعون. ونظر إلى الوجوه الصغيرة وهي في زرقة الرصاص، وإلى الأيدي الرقيقة وهي تُهبّش في ألحفة الصوف، وإلى الأجسام وهي تتلوّى في الفراش تطلب أنفاساً قليلة من ذلك الهواء الغالي فلا تكاد تجدها. ثم نظر إلى محاقنه ممعناً وسأل نفسه: أحقاً في هذا المصل خلاص هذه الأرواح؟ فما أسرع ما انشطرت نفسه شطرين عند هذا السؤال، فكان منها نفسان: النفس الأولى نفس الإنسان الحنّان، والنفس الأخرى نفس العالم البحاث
قالت الأولى تجيبه بقوة: (نعم، نعم فيه خلاصها)
وقالت الثانية في همس وخفوت: (لا أدري، والحكم للتجربة، فهيّا بنا إليها)
قالت النفس الحنون، وقال معها الآباء القانطون وكلهم يتوسلون ويرجون: (لا تفعل! لا تفعل! فإن التجربة تقضي بإعطاء المصل لبعض الأطفال وحبسه عن بعضهم، وهذا في شِرعة القلب حرام)
قالت النفس الباحثة: (نعم إنه عمل غير هين وقساوة تتلذع منها القلوب، ولكن ما الذي أنا صانعته؟! إن هذا المصل شفى الأرانب فما الذي يدريني أنه يشفي الأطفال والإنسان؟ لا بد إذن من العلم، لا بد من كشف الحقيقة، والحقيقة لا تكشف إلا إذا نحن حقنا به نصف الأطفال المرضى وأعفينا النصف الآخر، ثم قارنا عدد من يموت في

النصف الأول بعدد من يموت في النصف الثاني؛ بهذا، وبهذا وحده، نستطيع أن نعلم الأثر الحق الذي للمصل في شفاء هذا الداء)

قالت النفس الحنون: (ولكن هبْ أنك وجدت المصل يشفي، فانظر ما تكون مسؤوليتك عن مئات الأطفال الذين يموتون لأنك حبست عنهم هذا المصل، هذا الترياق)

إنه تخيير مؤلم لاشك بين خُطّتين صعبتين. على أن رو ذا العقل الصرف فاتته حجة ما كان أولاه بإيرادها في هذه المناظرة بينه وبين رو ذو العاطفة الصرف؛ لقد كان في استطاعته أن يقول: (إننا إذا لم نتبع طريقة العلم، طريقة التجربة، إذاً لأنخدع الناس فظنوا أنهم وقعوا من هذا المصل على علاج كامل للدفتريا، وإذن لكفّ البُحّاث عن طلب علاج

جديد لها، ثم تتوالى السنون بموت ألوف من الأطفال بسبب هذا العلاج المزعوم، ألوف كان في الإمكان إعفاؤها من الموت لو أننا اتبعنا طريقة البحث الصحيح على ما بها من قساوة. . .)

إن في هذا الحجة جواب العلم الدامغ لكل ذي رأي يقوده قلب. ولكن رو لم يصخ إليها، ومن ذا الذي يلوم هذا القلب أن يتنكّب الطريق القاسية التي تؤدي وحدها إلى علم الحقيقة. وتجهزت المحاقن، وجرى مصلها اندفاعا تحت جلود الأطفال فانتفخت به، بدأ رو في أداء رسالة الرحمة، ولعلها رسالة الخلاص كذلك، فحقن في المستشفى في الخمسة الأشهر التالية من الأطفال المهدّدين بالموت زيادة على 300 طفل. ثم ظهرت النتائج! ألا حمداً لله فقد كانت نصراً لرو ذي القلب الإنساني الرحيم، فما انتهت تجاربه في هذا الصيف حتى قام في مؤتمر جمع نوابه الأطباء وخيرة العلماء من أصقاع الدنيا فقال لهم: (إن حالة الأطفال إذا حُقِنوا بالمصل تتحسن سريعاً. . . فلا يكاد يقع الناظر في عنابر المستشفى على وجه فاقد اللون أزرق كالرصاص. . . بل على النقيض يجد الأطفال في نشاط وابتهاج)

واستمر يصف في بودابست للمؤتمرين كيف يذهب المصل بهذا الغشاء المخاطي الرمادي الذي يتكون في حلوق الأطفال وعليه تتكاثر بشلة الداء ومن فوق بساطه ترمي بسمها القاتل، ووصف لهم كيف يذهب هذا المصل بحُمّاهم كذلك: كان كنسمة باردة هبت من بحيرة شمالية على مدينة جنوبية فمرت على أفاريزها وهي تتقد ناراً. فهتف له هذا المؤتمر الوقور، وقام له أطباؤه الأشهرون على أرجلهم إكباراً له وإعجاباً بالذي أتاه

ومع هذا - ومع كل هذا - وبرغم هذا المصل العجيب، فقد مات من مرضى رو ستة وعشرون في كل مائة!!

ولكن اعلمْ أن ذلك العصر كان عصراً تغلب فيه العاطفة، واذكرْ أن هذا المؤتمر لم يجتمع، ورو لم يذهب إليه، لخدمة الحقيقة وإنما ليحتفلوا بخلاص الأرواح وليناقشوه ويختطوا له الخطط، وكان الناس عندئذ قليلي الاهتمام بالأرقام، وكانوا أقل اهتماماً بالنُّقّاد الثقلاء الذين يُلحون في طلب مقارنتها، وكانوا في تأثر شديد عندما استمعوا لرو وهو يصف لهم ما كان من تبريد المصل لجباه الأطفال بعد اشتعالها. على أن رو كان في مقدوره الرد على نقّاده بين تصفيق العظماء النابهين من سُماعه بأن يقول لهم: (وما ستة وعشرون يموتون في المائة! يجب أن تذكروا أنه قبل هذا العلاج كان يموت خمسون في المائة)

ومع هذا أيضاً فأنا أقول - أنا الذي أودّ أن أومن بهذا الترياق وبحسن أثره في علاج الدفتريا - أقول بعد أن مضى على ذلك الزمان بضعة عقود: إن الدفتريا داء غريب، يزيد خبثه أحياناً، ويقل أحياناً. ففي بعض الأحقاب يبلغ الموت في مرضاه ستين في المائة، ثم هو يحل به أمر خفيّ غريب يُضعف من مكروبه فإذا بالستين تنزل إلى عشرة، وهكذا كان الحال في عصر البطولة الفائتة، عصر رو وبارنج. ففي هذا العصر في بعض مستشفيات إنجلترا نزل معدَّل الموت من أربعين إلى اثنين وعشرين في المائة - وهذا بالتحقيق قبل أن يُستخدم المصل!

ولكن الأطباء الكبراء لم يأذنوا للأرقام أن تدخل في تفكيرهم، وحملوا خبر الترياق إلى أركان الأرض الأربعة، فلم تمض إلا سنوات قليلة حتى استقر المصل في الأدوية علاجاً للدفتريا. واليوم لن تجد طبيباً في الألف لا يحلف لك بأنه علاج بديع. والدفتريا اليوم

ليست على خبثها الذي كان لها في العقد التاسع من القرن الماضي، والأطباء لا يفتأون يعطون المصل لكل طفل تناله تلك البشلات الفاترة الجارية الآن حاسبين أنه به الشفاء. . . والطبيب الذي يمتنع عن إعطاء المصل يُعَدّ بحق مذنباً اعتماداً على القدر الذي نعلم من أمر هذا العلاج اليوم. وأنا نفسي لو أن طفلاً لي أصابه هذا الداء لكنت أول مسرع إلى الطبيب ليحقنه بهذه الحقنة نفسها. ولم لا؟ فلعل الصبي يشفى حقاً. أنا لا أدري أنه لا يشفى، ولا يدري غيري أنه لا يشفى، وقد فات الأوان لإثبات أنه يشفي أو لا يشفي، فالدنيا الآن تؤمن به، فلا يوجد في الرجال رجل تبلغ به قسوة القلب، أو جرأة النفس أن يقوم بالتجربة التي يتطلبها العلم لإثبات اليقين واليوم يؤمن البحاث بالذي آمن به رو من أمر هذا المصل، فهم في شغل شاغل بمباحث أخرى. وكل الذي أرجوه أن يكون رو صادقاً في الذي آمن به، حتى إذا هبّت على العالم هبّة من وافدة خبيثة من الدفتريا، وافدة في خبث تلك التي كانت في العقد التاسع من القرن الماضي، يكون للناس من هذا المصل وقاء صادق يدفعون به شرها غير مخدوعين فيه

على أنه حتى إذا لم يكن في هذا المصل شفاء الدفتريا - ولو أن الأرجح فيه الشفاء - فالتجارب التي قام بها رو وبارنج لم تضع سدى على ما نعلم اليوم. بالطبع قصة ذلك لا تزال حديثة، لا تزال تلوكها الجرائد كثيراً، فلم تتهيأ بعد لتبوئ مكانها في التاريخ، ولكن مع هذا ففي نيويورك، وفي كل أمريكا، وفي ألمانيا مئات الألوف من الأطفال وتلاميذ المدارس تتخذ أجسامهم مصانع يُصنع فيها هذا الترياق في حذق كبير وأمْن بالغ كي لا تأتيهم الدفتريا أبداً. وذلك بحقن هؤلاء الصغار تحت جلودهم بمقادير قليلة من سمها يكفي المقدار منها لقتل عدة كلاب كبيرة - ولكن بعد تدويره وتحويره وتغييره تغيير عجيبا حتى لا يتأذى منه الطفل يُحقن به بعد أسبوع من ولادته

والأمل اليوم كبير في مغالبة الدفتريا حتى لا يكون منها ذلك الداء الفتّاك الذي دوخّ الأجيال، وذلك بأن تقتنع الأمهات والآباء فيرضون بأن تُرشاق بناتهم وأبناؤهم ثلاث رشقات من إبرة محقن. إذن لحمدنا العاقبة وشكرنا للفلار ورو وبارنج أبحاثهم الأولى وإن فاتها التهذيب والتمام

(تمت الدفتريا)

أحمد زكي

التربية الوطنية الاستقلالية وأثرها في بناء الأمة

للأستاذ محمد عبد الباري

عماد الأمة

عماد الأمة أفرادها. ومتى كانت مواد البناء متينة التكوين سليمة الوضع كان البناء قوياً على احتمال تصاريف الأيام، والتغلب على صدمات الحادثات. وما مادة البناء في الجماعة سوى الفرد. فكيف يكون قوياً لتقوى به الأمة؟

شاهدات الحاضر

يلوح لي أن استعراض الوقائع لاستخراج الحقائق أقرب سبيلاً إلى صحة الحكم، وآمن عاقبة من التحليل النظري المجرد. وأخذا بهذا فأني أضرب بالإنجليز مثلاً للأمة القوية. وأحاول باستعراض بعض الظواهر للوصول إلى سر هذه القوة. وإني إذ أفعل هذا لست مأخوذاً بقوة المسيطر، ولكني إنما أتعرف سر قوة الغير لنحتذي مثاله، ومن قبل احتكت اليابان من نحو خمسة وثمانين عاماً بالغرب، وآنست منه قوة لا قبل لها بها فداورته، ثم حرصت على تعرف سر قوته واتخذت سبيله. فلما أحست من نفسها القوة تحررت مما فرض عليها الغرب من قيود، ثم صارت موضع خشيته ورهبته. والقوي يتقي دائماً التصادم بالقوي.

من أشهر حوادث التاريخ الدستوري ما يسميه الإنجليز بالعهد الأعظم؛ وهو مجموعة قواعد غير منمقة؛ هي في الواقع شروط يتقيد بها الحاكم، وهي تنبئ عن روح استقلالية أصيلة، ودرجة حرص القوم على المحافظة على ذلك العهد تؤكد أنه وضع عن عقيدة، وأنه يعبر عن شعور الأمة بحقها وكرامتها وقوتها. فلما هوجم دافعت عنه الأمة عن عقيدة راسخة فانتصرت. حدث أن أحد ملوك إنجلترا، وكان متشبعاً بتعاليم الفيلسوف الإنجليزي (هوبز) نقض ذلك العهد بإصدار أوامر تخالفه. غير أن أحد الكافة أبى أن يعترف بحق الملك في المخالفة، فامتنع عن تنفيذ الأمر. فلما أوذي المعترض

ثارت الأمة، وتخلصت من ناقضي عهدها استمساكا بدستورها ومحافظة على كرامتها والمعترض لم يصدر إلا عن عقيدة. وكان مستقل الرأي أبيّ النفس شجاعا بدليل أنه لم
يرهب جسامة ما أقدم علي، ولم يك بالشاذ في بلده بدليل أن سواد الشعب جاراه وانتصر للحق إلى النهاية. وهذا العمل الخطير لا يمكن أن تأتيه جماعة إلا إذا كانت الروح الاستقلالية قوية فيها، وكان الشعور بكرامة الإنسان غالباً في أفرادها والاعتداد بالنفس صفة غالبة في بنيها. كان الفيلسوف (هوبز) ينادي بحق الملك المقدس في الحكم طبقاً لمشيئته لا استنادا إلى إرادة الأمة. وكان مربياً للملك المشار إليه، ولكن النفسية الإنجليزية لم تهضم هذه التعاليم؛ وكان يعجبها ما قرره الفيلسوف (لوك)؛ وهو أن الأمة مصدر السلطات، وأن الملك يستمد سلطته منها، وليس صاحب حق مقدس يحكمها طبقاً لهذا الحق المقدس فلا يتقيد بإرادتها. فلما تعارضت الفكرتان عملا كانت الغلبة لما يدين به سواد الإنجليز، لأن تربيتهم الاستقلالية أبت عليهم الخضوع لما لا يتفق مع الكرامة الإنسانية، فثاروا دفاعاً عنها وانتصروا لأنهم عملوا عن إيمان راسخ التربية الاستقلالية مصدر الشجاعة الأدبية والإقدام والشجاعة توحي للمرء بأن يقول (لا) كلما وجب أن يقولها، و (نعم) كلما وجب أن يقولها، سواء أكان مخاطباً نفسه أم غيره. والإقدام يدفع المرء إلى العمل بما يعتقد مهما كانت النتيجة وقد دلت التجارب على أن العامل عن عقيدة قلما يخفق لأن الإيمان الراسخ في ذاته قوة يعز التغلب عليها
لو لم تكن روح الاستقلال متغلغلة في نفوس الإنجليز لرسخت فيها تعاليم (هوبز) دون تعاليم (لوك)، ولمر نقض العهد وهو الدستور كأنه حادث عادي، ولاعتاد الحكام التصرف طبقاً لمشيئتهم، ولكانت الجماعة عرضة من حين لآخر، للاحتكاك بين أنصار الطغيان وأعوان الحرية، ولبطؤ سيرها إلى الأمام
لكن النفوس كانت مشبعة بالحرية والاستقلال فدافعت عما وضعته من شروط لتولي حكمها. وأظهرت وجودها المستقل بعملها التاريخي. وعرف الحكام منها ذلك فلم يحاولوا نقض العهد وعاشت وعاشوا في هدوء. فاستطاعت الأمة التمتع ببركة الهدوء في ظل الحرية، وانصرفت بكل قواها إلى ترقية شؤونها ورفع مستوى الفرد فبلغت قمة المجد، وكانت عزيزة الجانب بوجه عام حتى اليوم. تلك حادثة من أبلغ حوادث التاريخ الإنجليزي في الدلالة على أن قوة الأمة في تغلغل روح الاستقلال بين الأفراد وفيما ينشأ عن التربية الاستقلالية من شجاعة وإقدام
وأنا أورد مثلا آخر أدلل به على ما تربح الأمة من تشبع الفرد بروح الاستقلال. ففي الحادث المتقدم كان العمل شعبياً، وفي الحادث التالي كان العمل فردياً
في سنة 1839 نجحت إنجلترا في تأليب قوى أوروبا على مصر لتأمن الخطر الذي توهمته من قيام جماعة قوية على ساحلي البحرين الأحمر والأبيض المتوسط. انتهزت الفرصة السانحة بتهديد الجيوش المصرية الآستانة نفسها فأقنعت طائفة من أقوى دول أوربا بالاشتراك معها في حمل (محمد علي) على قبول شروط فرضتها عليه، وهو الغالب تحد من قوته، ونجحت بهذا وببث الثورة في سوريا ضد المصريين في الاستيلاء على عكا وفي ضرب الجيوش المصرية بسوريا ضربة حاسمة
فلما تم ذلك بعث القائد العام وهو إنجليزي ضابطاً بحرياً إنجليزياً لاستطلاع قوة المصريين بالإسكندرية، وأبحر الضابط فاقتنع عندما وصل المياه المصرية أن من السهل ضرب الإسكندرية، ولكنه في نفس الوقت علم من ثقة أن البر يموج بقوة مسلحة تسلحاً عظيما، وفكر أن الاشتباك مع محمد علي بمصر قد يجر إلى مثل موقعة رشيد سنة 1807 ورأى أنه من الممكن التفاهم مع محمد علي على الشروط التي فرضها المتألبون ورفضها محمد علي، إذا ضمن له الضابط جعل حكومة مصر وراثية، لما أستوثق من ذلك دخل رأساً في مفاوضات مع محمد علي واتفق الطرفان.
ولما أنبأ القائد العام بذلك احتج عليه وأرسل إلى حكومته يحتج، ولكن الضابط استمسك بوجهة نظره لأنه أيقن بأنه خدم بلاده ودافع عن هذا الرأي لدى الحكومة الإنجليزية رأساً وانتصر له وزير الخارجية الإنجليزية وأبرم الاتفاق الذي وضع أساسه هو فكان معاهدة لندن سنة 1840
والحادث يدل على أن الضابط البحري لم يفهم أنه مجرد أداة بل فهم أنه عنصر فعال

في بناء مجد أمته. فلما رأى الفرصة سانحة انتهزها بالرغم من مخالفة هذا التصرف للواجبات العسكرية؛ فلما لم يرض رئيسه عن هذا لم يرهبه سخط الرئيس ولم ينس غرضه ولم يتقهقر وتغلب رأيه أخيراً

نظر الضابط الصغير كما نظرت حكومته إلى جوهر الموضوع لا إلى شكله، والحادث بالنسبة للحكومة الإنجليزية وبالنسبة للضابط البحري دليل على تأصل الروح الاستقلالية وعلى عظم أثر هذا التأصل في صحة الحكم على الأشياء

تلك الروح الإنجليزية التي استعرضنا بعض مظاهر عظمتها هي التي أبت عليهم الخضوع لتهديد إسبانيا، فلم يخرجهم هول قوة الأرماد (اسم الأسطول الإسباني) عن رباطة جأشهم وكانت الغلبة لهم، وهي نفسها التي أبت عليهم الخضوع لنابليون، وهي التي تلهمهم قبول حكومة المحافظين تارة وقبول حكومة العمال تارة أخرى مع ما بين مبادئ الحزبين من تفاوت، وهي التي جعلت القاضي الإنجليزي مضرب المثل للقاضي الصالح؛ وهي بالاختصار التي وضعت الإنجليز الآن هذا الوضع الممتاز في التاريخ العصري

عبر التاريخ

ضربت المثل بالإنجليز عامدا لأنا نخاطب القوم اليوم في تحديد علاقتنا بهم. وأضرب المثل بالعرب لأني أكتب هذه الكلمة يوم الاحتفال بمستهل العام الهجري

نشأ العرب على الحرية والاستقلال لا يشوبهما إلا خضوعهم لأوهام باطلة وعادات مرذولة؛ فلما تطهرت نفوسهم باعتناق الدين الحنيف تحرروا من قيود العادات والأوهام التي لا تتفق والكرامة الإنسانية

إن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من أروع أمثلة التاريخ في استقلال الرأي والصلابة في الحق؛ ولكنه نبي يعمل في حدود رسالته بما يوحي به الله، بيد أنه بث في أصحابه تعاليمه المطهرة للنفس، والملهمة لروح الاستقلال، فكان هذا مع نشأة العرب الحرة السبب في سرعة تقدمهم بعد اعتناق السلام

في أولى غزوات النبي ارتأى وهو في مركز القائد الحربي أن ينزل بقوته في نقطة معينة، ولكن أحد أتباعه اعترض على هذا في أدب وكياسة، فلما تبين للرسول صواب رأي نصيره أخذ به

إن الروح التي أملت على التابع المتفاني في حب نبيه اعتراض رأي هذا النبي، والتي دعت النبي إلى قبول رأي أحد أتباعه، هي روح استقلالية، فلا خشية في الحق من جانب الصحابي ولا تعصب للذات من جانب النبي

لما قبض النبي لم يتحيز أتباعه لأهل بيته ويختاروا أحدهم خليفة، بل اختاروا أبا بكر لأنهم رأوا صلاح الجماعة في ذلك الاختيار، والروح التي أملت هذا إنما هي روح الاستقلال والحرية

خطب أعظم خلفاء محمد في الناس فدعاهم جهرة إلى تقويم اعوجاجه إذا رأوه أعوج، فرد أحد الحاضرين بقوله: (والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بحد السيوف)

رأى عمرو بن العاص أن تفتح مصر، ولم يكن الخليفة عمر ابن الخطاب يرى رأيه. ولكن القائد أقنع الخليفة بصواب الفتح فزوده بالرجال ليمضي في تنفيذ مشروعه، ولكنه تخوف ثانية، وبعث له يسترجعه، وقدر عمرو ما في الرسالة، فلم يفضها، ومضى في سبيله حتى نزل أرض مصر. وأصبح مضيه أمراً لا بد منه

والحادث يدل على عدم الاستبداد من جهة الخليفة، وعلى الاستقلال والاعتماد على النفس والثقة من جانب القائد

ويطول بنا القول إذا ما حاولنا تقصي الحوادث التي من هذا النوع. فلنكتف بهذه الأمثلة للدلالة على أن نشأة العرب المستقلة، وتعاليم الدين الحاضة على الحرية والمساواة والاعتماد على النفس، جمعت في العرب الاستعداد الفطري بحكم النشأة الأولى والتعليم الرشيد، والإيمان القوي بالعقيدة الإسلامية، وحسن تفهمها؛ فسادوا العالم في سرعة أدهشت المؤرخين، ونشأت أمة عربية، قوية الأركان، شامخة البناء

وفي كل عصر، وفي كل بيئة تنجح الجماعة إذا سادت الحرية في تصرفاتنا مع الغير وفي تناول ذواتنا، أعني حرية الجهر بالرأي والانطلاق من قيود التعصب للذات. بهاتين الصفتين نجح العرب وتقدموا وسادوا، وبهما تقدم الإنكليز وقويت شوكتهم وسادوا، وبالاستمساك بهما نقوى ونسود؛ فالتاريخ القديم والحديث مزدحمان بالأدلة على أن

التربية الاستقلالية هي أقوى دعائم الأمم، وإذا كان هذا أمرها فما سبيلها؟
(يتبع)
محمد عبد الباري
الملك أحمد فؤاد الأول
كمسلمٍ وعالمٍ
للأستاذ عبد الله مخلص
عضو المجمع العلمي العربي
لما نعى الناعي المغفور له الملك أحمد فؤاد الأول عاهل مصر العظيم ملك الحزن على مشاعري وأخذ اليأس من نفسي كل مأخذ، لا لأني من الذين تربطهم به أو بملكته رابطة شخصية فيريد أن يفي بعض حقهما عليه، ولا لأني أبتغي من وراء اصطناع الأسى أجراً أو شكوراً، بل لأني من أولئك المسلمين الذين يقدرون مصر الإسلامية حق قدرها ويعتبرونها اليوم أم البلاد وقبة الإسلام ومنبثق النور وبلد العلم في العالم العربي، وأن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها مدينون لها ولمسجدها الأزهر منذ ألف عام فهم يستنيرون بنورهما ويستهدون بهديهما، ولذلك يرون لزاماً عليهم أن يعنوا بشؤون مصر ومصيرها وأن يشاركوها في سرائها وضرائها، ولأني بدافع من هذه الدوافع الكثيرة من الذين سمعوا وعرفوا من خلال الملك الراحل وخصاله الغر الميامين ما يستحق الإجلال والإكبار من الناحيتين الإسلامية والعلمية فلم أتمالك عن كَتْب هذه السطور التي هي نفثة مصدور فأقول:
الملك أحمد فؤاد كمسلم
منذ نصف قرون ونيف والإسلام تتجاذبه عوامل الأخذ والرد بسبب هذه الثقافة الجديدة التي يظن حملتها أن لا بأس من إدخال التطور في جميع مناحي الحياة حتى فيما يتعلق بالعقائد والأديان والعرف والعادة حتى رأينا من بعض الأمم الإسلامية بعض الشذوذ تحت ستار التمدين فصار الإلحاد مدنية ونبذ العقيدة رقياً، وأخذنا نسمع بما لم نألفه من نظريات علمية هدامة تنكر الله والرسل وسارت بعض الأمم شوطاً في هذا المضمار الشائك الذي سينتهي بها حتما إلى الهاوية وبئس المصير
في مثل هذا الحوائق اعتلى عرش مصر الملك المرحوم فلم تبطره بهرجة الملك، ولم تؤثر على عقيدته تلك النزعات والنزغات بل ظلّ على إسلامه الصحيح وعقله الرجيح وإذا اعتبرنا أنه رحمه الله تعالى قضى أيام شبابه في بيئةٍ أجنبية أيام دراسته في معاهد الغرب الكبرى التي لا تمت إلى الإسلام بصلة فإن بقاءه مستمسكاً بعروة دينه محتفظاً بيقينه كان من نعم الله عليه وحجته على قوة إرادته
وإن ننس فلن ننسى له المحافظة على زيه الشرقي في عواصم الغرب بينا نرى بعض ملوك المسلمين وأقيالهم يقلدون الغربيين تقليداً أعمى حتى بلغ من بعض ملكاتهم النسج على منوال الملكات الغربيات والظهور بمظهر المدنيات الراقيات، وليس في ذلك من رقيٍّ ولا مدنية، بل فيه خروج على التقاليد واللياقة وطعن في صميم الكرامة وتبذّل غير محمود
فالملك فؤاد اقتعد الذروة في هذا الخلق الإسلامي الكريم وضرب مثلاً أعلى للمسلمين ملوكهم وسوقتهم
الملك أحمد فؤاد كعالم
لو أننا تركنا جميع مآثر الملك المرحوم العلمية جانباً واقتصرنا فقط على أثره الخالد وهو لا يزال في الإمارة نعني به الجامعة المصرية التي كان أول العاملين لها والحادبين عليها لكفاه شرفاً ونبلاً
فهذه الجامعة التي ترأسها وتعهدها وصرف من قوى نفسه ونفيسه على نموها وازدهارها هي مفخرة المفاخر بما قدمته لمصر من الخدم العلمية الجلىّ. وهانحن أولاء نرى ثمارها دانية القطوف على أيدي أساتذة جهابذة يخرجون لنا في كل عام مئات من الناشئين يملئون أرض الكنانة وبلاد العرب علماً وحكمة
والحق أن الجيل المصري الذي عاصر أيام حياة الملك المرحوم كان سعيد الحظ بما وجد أمامه من المسهلات والمشوقات والمرغبات العلمية الكثيرة
وأنا كرجلٍ يُعنى بالتاريخ الإسلامي أذكر للمليك الراحل عمله المشكور في تدوين تاريخ رسمي للدولة المصرية، فقد أمر رحمه الله تعالى بتأليف لجنة لهذا الغرض ووضع

تاريخ يستخرج من الدفاتر والوثائق الرسمية، وكان صديقي المرحوم أحمد تيمور باشا من أعضاء هذه اللجنة، وهو الذي أعلمني بذلك في حينه
وكان من دواعي الغبطة للمؤرخين الإسلاميين ظهور مجموعة عزيزة المنال، تتضمن الأوامر الصادرة من حكام مصر إلى عامل الواحات من زمن الفاطميين إلى زمن الخديو
إسماعيل رحمه الله تعالى، وهي الأوامر نفسها لا صورها
يقول المرحوم أحمد تيمور باشا في كتابه لي: (ولا أظنّ نظيراً لهذه المجموعة في الدنيا، وقد بحثت عن سبب حفظ هذه الأوامر جميعها كل هذه المدة في تلك الجهة النائية، فأخبرت أن العادة فيها من القديم أن يُحفظ كل ما يصدر من الحكام إلى عاملها في مكان خاص بالمحكمة الشرعية، وبها تيسر حفظها. وقد رأيت بها من توقيعات الملوك كالغوري وغيره الشيء الكثير، وكذلك توقيعات حكام الفرنسيس مدة احتلالهم لمصر وهي بالإفرنجية، ولكن الأوامر بالعربية. ولا أخفي عليكم أني متلهف إلى الآن إلى صورة شمسية من هذه المجموعة، ولكن (فيا دارها بالخيف). أهـ
إن من حسن توفيق الله ظهور هذه الوثائق الإسلامية على يدي المرحوم الملك، فلولا تفكيره في تدوين تاريخ رسمي للدولة المصرية لما استطعنا الوصول إليها، ولا الوقوف على تفكير أول قاض شرعي وضع الأساس في جمع هذه الوثائق والمستندات القيمة في تلك البلاد النائية البعيدة عن العمران المزوّرة عن مدنية هذه الأيام
وأظن أن المساعي المتواصلة التي بذلت في شأن هذا التاريخ قد أنتجت نشر أجزائه الأولى باللغة الفرنسية وستتبعها النسخ التركية والإنكليزية والعربية طبعاً
إن مثل هذا الملك القوي العقيدة، الراسخ الإيمان، العالم العامل البعيد مدى التفكير، مما يُبكى عليه، ويُحزن لفقده. ولكن في خليفته وخلفه جلالة فاروق الأول خير عوض، وأحسن عزاء لنا، ورحم الله الشاعر العربي الذي قال في حالة تشبه حالتنا هذه:
هَناءٌ محا ذاك العزاء المقدما ... فما لبث المحزون حتى تبسما
ثغور ابتسامٍ في ثغور مدامعٍ ... شبيهان لا ينفكّ ذا الشبه منهما
عبد الله مخلص
عضو المجمع العلمي العربي
ملخص محاضرة
أسبانيا العربية
ألقى الدكتور استانسلاو كيروخا اي دي اباركا أستاذ الآداب الإسبانية في جامعة صوفيا محاضرة قيمة باللغة الأسبانية في مدرج الجامعة السورية بدمشق عنوانها (أسبانيا العربية) وقد لخصها الأستاذ لبيب الرياشي فيما يلي:
قسم المحاضر الكريم المنصف بحثه هكذا:
1 - نظرة عامة في الفتوح العربية العالمية
2 - افتتاح أسبانيا وتكوين مملكة عربية أسبانية
3 - العلوم العربية والعمران ونوابغ العرب في العلوم
4 - سقوط الدولة العربية وأسبابه
5 - الآثار الثمينة التي تركها العرب في أسبانيا
المدنية العربية
إن أسبانيا بعد مرور خمسة قرون لا تزال عربية بدم سكانها وآدابهم وموسيقاهم ورقصهم وميولهم وحضارتهم
والمدنية العربية في أسبانيا لا تزال إلى اليوم أسمى مدنية بريئة عرفها العالم والكوكب الذي استنارت منه هذه المدنية أشعتها السامية هو (القرآن) وسيرة الرسول العربي
الفتوحات في الإسلام
الخليفة في الإسلام هو بمثابة قائد الجيوش العام، والملك، والبابا؛ ورسالة الإسلام للعالم هي التبشير بآله واحد؛ ولما كان المسلمون يعتقدون أن من مات مجاهدا في سبيل الله وهدى العالم يكون جزاؤه الخلد، كانت الجنود الإسلامية تضحي دون ما خوف ولا رهبة، فتقاتل قتال البطل الباسل، وبهذا افتتحوا سورية سنة 638، ومصر

سنة 640، وتغلبوا على إمبراطور القسطنطينية وافتتحوا الدولة الفارسية سنة 642
كما افتتحوا قسما كبيراً من الهند سنة 707، واكتسحوا الغرب وتونس والأرخبيل
ومراكش، ومن ثمة دخلوا أسبانيا منتصرين سنة 711
ولم يذكر التاريخ أن إمبراطورية بلغت من السعة في الملك والكبر والمجد ما بلغته
هذه الدولة الفتية
فتوح أسبانيا
لنبحث عن أسبانيا الآن: بعد أن افتتح العرب أسبانيا سنة 711 على يد موسى بن نصير
وطارق بن زياد (92هـ) بقيت مقاطعة أو إمارة تأتمر بأمر الخليفة، ولكن في عام 756
استقلت المملكة العربية الأسبانية عن الخليفة الكبير
واتخذت هذه المملكة المستقلة (قرطبة) عاصمة لها فأصبحت أغنى عاصمة في العالم
وأوفر مكانة بعناية مؤسس هذه المملكة (عبد الرحمن الأول)، وبرغم الثورات الكثيرة
والاضطرابات العديدة ظلت هذه المملكة وطيدة الأركان من القرن الثامن إلى القرن
الحادي عشر
وفي أسبانيا هذه كان يعيش قسم كبير من المسيحيين ترك لهم الإسلام حرية
معتقداتهم وعاداتهم وحافظ على كنائسهم
ملوك أسبانيا
ويعد أفضل من حكم أسبانيا العربية الملوك الثلاثة:
عبد الرحمن الأول، وقد أسس قرطبة الجميلة المجيدة)
عبد الرحمن الثاني، وقد مهد الطرقات وشاد الأبنية العمومية الفخمة وأسال الأمواه
في المجاري الهندسية حيث لم يكن في أوربا شيء من هذا
عبد الرحمن الثالث 912 - 916 عرف أنه كان أفضل ملك مثقف يحب العلم ويعمل
على نشره، وأقوى من جميع الملوك الذين عاصروه، فقد نال انتصارات باهرة على
الملوك المسيحيين الذين تحرشوا به حتى كان عدد كبير من الملوك الذين عاصروه
يلتجئون إليه ويحتمون به
والحكم الثاني امتاز بحب العلم ونشر الثقافة، ولقد أنشأ في قرطبة مكتبة تحتوي أكثر
من أربعمائة ألف مصنف
وفي عهد الخليفة هشام الثاني الضعيف الإرادة تمكن المنصور وزيره الأول من محاربة
الإمارات المسيحية الثائرة
وسنة 1002 اجتمع ملوك كابتجاليون وفقارا وباجتماعهم وتضامنهم تغلبوا على هذا
القائد الجبار في واقعة (كلا ثانياسير) عاصمة شوريا وهكذا لم يبق للعرب سنة 1031
سوى إمارات صغيرة أشهرها سافيجا وتولوزا
العلم والعمران
لم يشتهر العرب بالبطولة الحربية فحسب، ولكنهم اشتهروا بالعلم والشعر والاقتصاد،
وعرفوا بتنشيط العلوم ونشر الثقافة
اقتبس العرب جذوة من علوم اليونان والفرس - فأشعلوا من تلك الجذوة منارة
مضيئة
أسسوا مدارس علمية في بغداد ودمشق، أما في أسبانيا فقد أنشأوا كلية (سالرنو)
في قرطبة، وهي الكلية التي كانت لغتها عربية، وعلومها عربية، وأخلاقها عربية، وكل
ما فيها عربي، وهي أقدم مدرسة طبية في أوربة كلها
وهكذا ابتدأ العرب يشتغلون في الكيمياء فاستكشفوا الكحول، وأسسوا قصورا
ومساجد وجنائن، وجعلوا الأرياف بساتين زاهرة زاهية، وجروا إليها المياه في أقنية
هندسية؛ لذا نقول بحق إن العرب كانوا أكثر مدنية في القرون الوسطى من أوربا كلها
وإني لأقول بحق إن المدنية العربية الأسبانية، نعم المدنية العربية، كانت جوهرة ثمينة
في ثقافتها وعلومها الاجتماعية وعمران مدنها وازدهارها في جميع نواحي الحياة، حتى
إن مدنية باريس ولندن في هذا العصر لم تمتازا عن حضارة العرب في تلك العصور
إن قرطبة كانت تحتوي على مائتي ألف منزل ذي بناء شاهق وفن متقن، وعلى 600
مسجد ومستشفى وقصور فخمة، وعلى 900 حمام وجنائن هندسية زاهرة، وأكثر من
نصف مليون من السكان، ولقد أسس ملوكها مدارس في كل مزرعة وقرية ومدينة،
وعلموا الذكور والإناث القراءة والكتابة حتى لم يبق في أسبانيا العربية أمي واحد

ولقد كان في قرطبة جامعة رئيسية؛ وإلى هذه الجامعة كان يقصد عشاق العلم وطلابه، ومن مفاخر هذه الرسالة العربية أن النساء كن يثقفن ثقافة كاملة شاملة . . .نعم النساء المخدرات كن يجدن القراءة ويعرفن التاريخ والفلك و
وهكذا كان العرب الأسبانيون يشتغلون في كل العلوم، وعن العرب الأسبانيين صدرت شعلة الكيمياء والرياضيات
وأكثر الفنون التي أجادها العرب الأسبانيون: الهندسة والموسيقى والشعر. ومن الأبنية الكبرى التاريخية مسجد قرطبة وقصر غرناطة، وتميز كل منهما بأقواسه وأعمدته وزخرفه
من النسل العربي هذا نحن أبنا أسبانيا، نحن الذين لا نزال نستعمل حتى اليوم الطبل والغناء والموسيقى العربية والرقص العربي
الزراعة والصناعة:
وعناية العرب في الزراعة كانت بالغة الحد الأقصى والعناية التامة، فهم الذين زرعوا النخل، والرز، وقصب السكر، والقطن، الخ. . .
أما الصناعة فقد تفوقوا فيها، وأسسوا معامل للجلد في قرطبة، والورق في البندقية، وهذه المعامل كانت أول معامل من نوعها في العالم
وفي عهد المنصور شعت المدنية العربية فأنارت أشعتها العالم. أما الأسس التي ارتكزت عليها هذه المدنية، أما القطب الذي كونها وأدارها وعززها فهو (القرآن) وسيرة الرسول العربي ليصلوا إلى أمنيتهم السامية في تكوين حضارة صحيحة
وهنا عدد المحاضر أسماء عشرات من نوابغ العرب في أسبانيا ونابغات العرب في العلوم والفنون
ثم تطرق بعد ذكرهم إلى تغلب النصرانية عليهم بسبب تفرقهم وتخاذلهم وتضامن الأمراء المسيحيين واتحادهم سنة 1492
ولقد عرض مشاهد القصور والمساجد والجنائن بالفانوس السحري، فإذا هي من الروائع التي تخلب الألباب، وقال:
نور الدين الإسلامي
المادة الأصلية في المدنية الإسلامية العربية الأسبانية هي نور الدين الإسلامي، الدين الذي يجاري المدنية والحضارة في أرقى وأسمى معانيها
وأستطيع أن أصارحكم مؤكداً أن المدنية العربية هي في الجوهر مدنية شعب يستوحي من
الله
(قل هو الله أحد، الله الصمد)
على أسس هذه العقيدة رفعت أمجاد الجامعة العربية الإسلامية؛ إنها عقيدة دينية، نعم، ولكنها في نفس الوقت أسمى قوة اجتماعية
وختم المحاضرة قائلاً:
انتهى الحكم العربي في أسبانيا منذ خمسة قرون، أجل: ولكن أسبانيا لا تزال عربية، حتى في القرن العشرين لا تزال شرقية، لا في جوامعها وأبنيتها وجنائنها فحسب، بل وفي أخلاقها وعاداتها وموسيقاها، ورقصها وشعرها، وفي تهذيبها ومزروعاتها
ولهذا السبب تعلمون الآن أني عندما شاهدت دمشق شعرت أنني أشاهد أسبانيا، وإذا ذهبتم لمشاهدة أسبانيا شعرتم أنكم في دمشق
من هذا تعلمون أيها العرب أننا اخوة: العرب والأسبان اخوة، نعم اخوة لأن سلالتهم سلالة واحدة، ودمهم دم واحد، وهم من نفس واحدة تكونوا، وثقافتهم ثقافة واحدة وتاريخهم تاريخ واحد، وحضارتهم حضارة واحدة
الأدب بين الخاصة والعامة
لامرتين ورينه جارد
للسيد إسكندر كرباج
تابع لما نشر في العدد الماضي
فيسأل لامرتين ضيفته: هل أصابكِ في حياتكِ ما أحزنكِ وصدع قلبك؟ فتجيبه: مراراً قليلة يا سيدي لأني خالية البال من حمد الله. غير أن لكل أتراحه على هذه الأرض، ولاسيما إذا كان فتاة مثلي لا أسرة لها ولا أقارب ولا زوج ولا بنين، تنام وحيدة

وتستيقظ وحيدة لا تسمع في داخل غرفتها إلا سقسقة عصفورتها في القفص. ولكن شاء القدر أن يحرمني هذه الرفيقة اللطيفة بعد أن ألفتها فلقيتها صباح يوم ميتة وقد ضمت قائمتيها وفتحت منقارها وأطبقت أجفانها، وبموتها حلَّت الكآبة في الغرفة فلا سقسقة ولا فرح ولا صداقة، فما أحزن هذه الحالة يا سيدي. ثم تجفف دمعتين كانتا تترقرقان في محاجرها وتزيد على قولها:

إذا لم يكن للإنسان من يحبه ويعطف عليه من أبناء جنسه فأنه يميل إلى الحيوانات وعشرتها. كانت عصفورتي تحبني، وكثيرا ما داعبتها وتحدثت إليها كأنها تنطق وتعقل. يقولون ليس للحيوانات أرواح، ولكن لو لم يكن لعصفورتي روح فبماذا كانت تحبني؟ أبريشها وقوائمها؟ وسمعت أيضاً أن في الفردوس أشجاراً تتفيؤها الأطيار. فأنا لا أرى أقل بدعة في هذا القول، أيمكن أن يكون الله مع صلاحه وعدله مخاتلاً؟

فيسألها لامرتين: هل كتبتِ شيئاً في موضوع حزنك؟

فتجيبه: نعم كتبت لما نظرت القفص فارغاً والنبتة جافة على شباك النافذة؛ طفر الدمع من عيني، فجلست إلى المنضدة ونظمت قصيدة ناجيت بها تلك العصفورة الرقيقة كأنها لا تزال حية تسمعني، ولكنني لم أستطع تكملتها لفرط حزني

فيقول لها لامرتين: أسمعيني هذه القصيدة أو ما تتذكرينه من أبياتها، ولا بأس إذا جاءت متقطعة فبغيتي أن أقف على مبلغ ما فيها من الشعور لا على تناسق قوافيها

فتعمل فكرتها قليلاً، ثم تنشد بصوت رقيق ولهجة مؤثرة أبياتاً من الشعر في وصف عصفورتها وما كان بينهما من الصداقة والألفة

فيشكرها لامرتين على ثقتها به وإظهارها له مكنونات قلبها. ثم تأتي زوجته، وبعد أن تستقبل رينه بشيء من تلك الدالة، وذاك العطف الذي يفقد الغريب بعض حيائه وارتباكه تدعوها إلى العشاء تحت شجرة تداعب أغصانها نسمات البحر محدثة فيها حفيفاً لطيفاً، كان يذكر رينه بحفيف جناحي عصفورتها

ثم يقصدون إلى شاطئ البحر القريب، ويجلسون على مقاعد زورق، ويعودون إلى التحدث، فتقول زوجة لامرتين لرينه: يظهر لي أنك ولوع بالمطالعة، وهي التي جعلتك تتكلمين اللغة الوطنية بهذه البراعة، والتعبير عن عواطفك بمثل هذا الشعر الشجي

فتجيب رينه: نعم يا سيدتي، إن المطالعة من أكبر أسباب غبطتي؛ فبعد اشتغالي النهار كله، وقيامي بواجب الصلاة لله، لا أجد لذة إلا فيها، فمن ينهض باكراً ويخيط حتى المساء يضطر إلى راحة أنامله وتسلية نفسه. إن علاقاتنا مع الجيران لا تتعدى تبادل التحية، لأن النساء ينصرفن إلى إعداد الطعام، أو إرضاع الأطفال؛ والرجال بعضهم يرقد سريعاً لينهض باكراً إلى مواصلة عمله، وبعضهم يصرف وقته وماله وصداقته في الملاهي والمقاهي؛ فماذا تفعل الفتاة المحتشمة مثلي لتمضية الليالي، ولاسيما ليالي الشتاء الطويلة؟ فأما أن تطالع، أو أن تقف جامدة كالصنم تنظر إلى جدران الغرفة، أو إلى ارتفاع دخان الموقد

فتقول لها زوجة لامرتين: ولكن ما هي الكتب التي يمكن مطالعتها؟

فتجيبها رينه: هنا البلية يا سيدتي، نريد المطالعة ولكن لا ندري ماذا نطالع. لقد وضعت الكتب للذين من غير طبقتنا فإذا استثنينا الإنجيلين وكاتب تقليد المسيح لا نجد بين المؤلفين والمنشئين من فكر فينا وجعل قسما من أدبه لنفعنا. من الطبيعي أن يفتكر الإنسان في الذين من طبقته، فواضعو الروايات والمآسي والمهازل، وناظمو القصائد والملحمات، هم من طبقة أعلى من طبقتنا، أو بالحري خرجوا من بيئتنا الخاملة العاملة ودخلوا في بيئات الملوك والأمراء والأشراف والأغنياء والسعداء وغيرهم من الذين يصرفون أوقاتهم عبثاً وأموالهم على الأباطيل

فياقطعها لامرتين: لا لوم عليهم إذا هم نسوا الطبقة التي خرجوا منها، أو تركوها جانباً. وانصرفوا إلى إرضاء أهل البيئة التي دخلوها، فمثلوا أفكارهم، وتكلموا لغتهم، وصوروا عاداتهم وأذواقهم، فهذا الذكاء وهذه المعرفة وهذا الذوق المكتمل الدقيق الأنيق في الطبقات العالية، وهذه اللغة والعادات لا يمكن أن تكون كلغة وعادات الطبقات الفقيرة قبل أن تسمو بالتربية إلى إدراك كنه هذه الأشياء الجميلة. كان للقدماء كتَّاب وفلاسفة وشعراء عبيد كابيكاتاتو واسابو وتارنسيو، ولكنهم لم يخصصوا أدبهم بالعبيد؛ وكان لهم سقراط، ولكن أفلاطون اضطر إلى شرحه لهم كما اضطر تلاميذ هذا، وهم أكثر منه معرفة إلى تفسيره. وكان لهم شيشرون ولكنه خصص معظم أدبه بأفراد

أسرة السيبيون؛ ثم فرجيلوس الذي كان ينشد قصائده الرعائية في حضرة أميرات بلاط أوغسطس قيصر، ولكن الرعاة الحقيقين لم يتفهموه؛ ثم هوراسيو وقد كان ينشد الخمرة والحب المباح بقصائد من الشعر الحافل بالمعاني الملتبسة والصور المأخوذة عن اليونان والتاريخ، غير أن شعوب عصره لم تكن تنشدها وتدركها

فتقول له رينه: هذا حق يا سيدي إذا استثنينا روبنصن وحياة القدسيين فما هي الكتب التي وضعت لنا؟؟ نعم إن لدينا كتابين آخرين هم (تلماك) و (بول وفرجيني)، ولكن الأول كتب لتهذيب حفيد الملك، وهو مما لا يهمنا أمره لأننا لسنا من أحفاد الملوك، والثاني يحرك قلوب الجميع، لأنه يصف لنا جمال الحب وروعته في قلبي حبيبين رقيقين لا يستطيعان الحياة منفردين، وكيف أن مطامع أهليهما حالت دون اتحادهما واكتمال سعادتهما. إن فرجيني ابنة جنرال، وكان لها عمة نبيلة أرادت أن تجعلها سيدة راقية ممتازة فأدخلتها الدير. إنها حوادث عجيبة ومشاهدات رائعة، ولكنها حوادث لم تجر في منازلنا وبين إفرادنا، ومشاهد لم تقع عليها أبصارنا. فمن يكتب لنا الروايات والقصائد؟ لا أحد! أنا لا أدخل في عداد الكتاب والشعراء والمؤلفين، أولئك الذين يجمعون تقاويم تحمل بين ثناياها سخافات الأعوام الغابرة ونكاتها، ويضعون روايات لا تستطيع العذراء مطالعتها إلا خلسة عن أمها، وينظمون أناشيد تترفع الشفاه النقية عن التلفظ بها، ولا أستثني من هؤلاء إلا بيرانجر الذي أظهر آخرا جمال روحه في رباعياته البديعة. فمتى يكون للفقراء مكتبة؟ من يشفق علينا ويؤلف لنا كتاباً؟

أبدت رينه نظريتها تلك برزانة تفوق معارفها، وبلهجة تشفّ عن اعتقادها بفقر طبقتها الأدبي مما حمل لامرتين على الافتكار قليلا في حقيقة ملحوظاتها وأهميتها. وبعد قليل قال

له لامرتين: لقد افتكرت في كل ذلك يا رينه، أما الآن فقد تغيرت أفكاري بعد أن سمعت أقوالك. حقاً إن الشعب الذي يريد التعلّم بالدرس والتسلية بالمطالعة والانتفاع بالخيال والتأثر بالشعور والارتفاع بالفكر، إما أن يموت جوعا وإما أن يثمل بالفساد إذا لم ينتبه لنفسه. لذلك وجب أن تهتم الهيئة، أو أن يخلق الله للشعب هوميروس عاملاً وميلتون مزارعا وطاسين جندياً ودانتي صناعياً وفنلون كوخياً وكورنيل وراسين وبوفون من رجال المعامل لكي يضعوا له ما لا تريد الهيئة الأثرة الكسول وضعه: أي أدبا يمثل عاداته ويعبر عن شعوره. أني أعرض بالفكر ما في المكاتب من المؤلفات النفيسة لأشهر الكتاب وأختار مجموعة صغيرة منها يمكن لأسرة نزيهة من المزارعين والعمال والخدم رجالاً ونساء كهولاً وشباناً أن تغذي بها حياتها الروحية، وأن تتركها على الخوان بغير خوف، وأن تطالع ليلاً وفي أيام الآحاد دون أن يعوزها مترجم أو مفسر، فماذا وجدت؟ وجدت التوراة كتاباً بديعاً حافلاً بالحكايات الشعبية كطفولة النوع البشري ولكنها ملتحفة بالأسرار والعادات الشائنة والغيرة والشرور وغيرها مما يفسد الروح والقلب والعادات فيما لو وضعت في يدي ولد أو تحت نظر الشعب الجاهل دون أن يوجد من يفسر معانيها ويهذب ألفاظها. ثم وجدتُ هوميروس وأفلاطون وسوفلكس وأسكليوس، ولكنهم عاشوا في عصر غير عصرنا، وكتبوا بلغة غير لغتنا، ووصفوا عادات غير عاداتنا؛ ثم وجدتُ فرجيلوس وهوراسيو وشيشرون وجوفنال وتاسيت، ولكنهم كتبوا باللاتينية والشعب لا يعرفها؛ ثم وجدتُ ميلتون وشكسبير وبوبي ودرايدن وبيرون وكرابله، غير أنهم من الإنكليز؛ ثم تاسو ودانتي وبتراركا، وهم ثالوث الشعر الإيطالي؛ ثم شيلر وجيته وفيلند وجزنر، ففي كتبهم صفحات بديعة للشعب لأن الشعر الألماني ينزل إلى درجة الشعب والشعب يرتفع إليه ولكنها بالألمانية؛ ثم سرفنتس وكالديرون ولوبس فيفا، غير أن كتاباتهم هي من النوع الحماسي الذي لا يمكن تجديده الآن؛ ثم الشعر الشرقي السامي بحكمه ومعانيه من هندي وفارسي وعربي، إنها كنوز مستورة من الخيال البشري، ولكن هذه الكنوز الثمينة هي باللغات السنسكريتية والفارسية والعربية، ولا يوجد من يكتشفها وينقلها إلينا

ثم وجدت شعراءنا الفرنسيين القدماء وجل منتوجهم من النوع الروائي الحماسي، وفي المغامرات الغرامية الوقحة والقوافي الأنيقة، وكلها في وصف حوادث البلاط والطبقات

العالية. هذا بسكال، فكتاباته إما مناظرات اكليريكية حول جوهر العقيدة لا يفهمها البسطاء، وإما أفكار عميقة لا يسبر غورها إلا القليلون. وهذا بوسويه؛ فقد اشتهر

ببلاغة تعابيره وقوة عارضته في الخطابة، وكان يسرّه أن يرعد ويبرق فوق الرؤوس المتوَّجة وفي قاعات البلاط، ولكن بروقه لم تكن تصعق إلا الشعب الذي كان يستسلم روحا وجسدا إلى سيروس العصر، فهو مجموعة روامين في اللغة والخطابة لا أكثر.
وهذا أيضاً فنيلون، ففي كتابه (تلماك) وفي المراسلات كثير من الأفكار السامية والمبادئ القويمة كالنفس المتدينة والفلسفة الإنسانية والظرف والعطف وروح الفضيلة، ولكنها صفحات بسيطة لا كتاب للشعب. ثم كورني فهو سياسي مختصر، وقد وقف في مستوى لا يبلغه القلب البشري، وأدبه كناية عن عدة مشاهد وأمثال واندفاعات شعرية لا ترضي الشعب الذي يريد الحياة بالإسهاب في شرح العواطف لا باختصارها، والنفس في نظره هي العبقرية، ونفس كورني كانت في الكلام كنفس تاسيت. ثم راسين، فهذا ولد ليكون شاعر الشعب؛ غير أن شعب عصره لم يكن خليقاً به لسوء الحظ، لأن البلاط الذي اجتذبه إليه احتفظ به ضد الشعب، ولا يوافق هذا من أدبه إلا مأساته: (أستير) و (ثعاليا) بالنظر إلى صبغتهما الدينية، وماعداهما يخص الأبهاء. ثم فولتير وهو روح جبارة استوعبت كل المعارف والعلوم، ولكن لم يخرج عن كونه مزيجاً من روح وعقل ونور ونقد ونعومة وخشونة وهزء وجذل وأحياناً وقاحة. إنه لم يكن قط نفساً وحناناً وحباً وعطفاً وشفقة على البائسين؛ كان فيلسوف السعداء ونبيل الأذكياء وشاعراً ضئيل النور لا يتبينه جداً بسطاء القلوب، يضيء في المكاتب ليخبو في الحقل أو في مسكن الفقير
وإذا نظرنا إلى مؤرخينا لا نجد بينهم من كتب للشعب، فمونتيسكيو كثير العلو، ورولين صالح ولكنه شديد الأمانة في ترجمة الماضي فلا يستطيع مطالعته من كانت ساعاته محدودة
وكذلك روائيونا فإنهم اتخذوا أشخاص رواياتهم من الطبقات العالية وعبروا عن العواطف بلغة الأبهاء المنمقة لا بلغة الطبيعة الساذجة. فلا يصلح منها شيء للشعب ثم فلاسفتنا كديكارت وملبرنش وكونديلك وكل الحديثين، فمهما أعيد طبع مؤلفاتهم فلا أعتقد أن الشعب يقبل على مطالعتها، لأن فلسفة الشعب هي في الشعور لا في الإدراك، فمنطقه
غريزته، وبرهانه تأثره، واستنتاجه دموعه. ومن مؤلفات جان جاك روسو لا يصلح للشعب إلا الصفحات المائة الأولى من كتابه (خوري سابويا) وبعض فصول من (الاعتراف)؛ وكذلك شاتوبريان لا يقرأ من مؤلفاته إلا (رينيه) و (اتالا) حيث امتزجت الفلسفة بالدموع، والحنان بالحب
أما مسارحنا فلا يمثّل عليها إلا ما كتب للملوك أو الطبقات المتأدبة بدليل انصراف الشعب عنها إلى تمثيل الروايات الغنائية التي اخترعها لنفسه. وكذلك علماؤنا فقد كتبوا في الجبر بلغة واصطلاحات تجعل العلوم الطبيعية في حالة الغموض لمن يتمرَّن عليها، فالذي يجب أن يعبر عن العلوم بلغة الشعب البسيطة لم يخلق بعد. إنه خلق ولكن في إنكلترا؛ هو ابن هرسكل
فمن كل ما كتب بالفرنسية لا توجد إلا خمسة أو ستة كتب تصلح للطبقات الجاهلة في المدن والقرى
يعلّمون الشعب القراءة، ولكنهم لا يضعون له الكتب اللائقة به، فهم إما أنهم يقدمّون له مؤلفات كتبت لغيره أو أوراقاً محشوة بالنقائص والوقاحة كمن يقدّم سلاحا لطفل ليجرح به نفسه
(العصبة)
يتبع
إسكندر كرباج
من العصبة الأندلسية
لعبرة في وفاة الملك
ديمقراطية الموت
للأستاذ محمود غنيم
الموت آية، ولكن موت الملوك آية كبرى؛ والموت عظة، ولكن موت الملوك عظة بالغة
بالأمس تهجم الموت على ذلك الحرم المقدس، واقتحم أسوار هذا الحصن المنيع الذي

تغضى العيون حياء من مهابته، ولا تلجه الشمس إلا بعد استئذان؛ اقتحم الموت بلاط ابن إسماعيل، وحفيد إبراهيم، والجالس على عرش فرعون، فلم يحدِّد للزيارة ميعاداً، أو لم يحدَّد له ميعاد، ولم يلزم الباب حتى يُسمح له بالدخول كما تقضي المراسيم عند زيارة الملوك، ثم مد يده في أناة ورفق، بل في عنف وقسوة، فسل روح الملك من جسمه، كما تُسل كل روح من كل جسم، ثم انصرف هادئاً مطمئناً، كأن لم يفعل شيئاً، فإذا الحرس واجم، والسلاح كليل، والطب يطرق حياء، وجبين العلم يتصبب عرقاً، وإذا الشرارة تنطلق في القصر، فيندلع لهيبها في مصر، ويسمع دويها في الخافقين!

يا لله! أيمرض فؤاد كما يمرض أي فرد ممن يظلمهم عرش فؤاد؟ كنا نظن عرشه حمى تتحاماه الأسد، وتتقيه عوادي الدهر، فما بال جراثيم المرض تنفذ إلى ذلك الحمى، وما بال ميكروباته تتسرب إليه، وما بال أهون خلق الله شأناً يفتك بأعظم خلقه شأناً؟ حقاً إنه الموت! ديموقراطي، لا يميز بين الملوك والسوقة، ولا يدين بالفروق بين الطبقات

يمرض الفقير، فيرمى أهله بالتقصير؛ يقولون: تهاونوا فاستفحل الداء، أو أساءوا اختيار الأطباء، فما بال الملوك يتقلبون على فراش المرض، ويقاسون ألم النزع، ويتجرعون كأس الحمام؟

أيها البرق، توعك مزاج الملك فطير الأنباء. أيتها الطيارات، احملي من مختلف الأصقاع نطس الأطباء. أيها العلم هات أحدث ما تمخضت عنه معامل الكيمياء. وأنت أيها الموت ما لك جامداً في مكانك لا تريم، هازا كتفيك استخفافاً، مفتر الثغر عن ابتسامة مروعة، تسرح طرفك بين هؤلاء وهؤلاء، في سخرية واستهزاء؟

أهكذا يُفعل بالملوك؟ لك العزاء والسلوة أيها الفقير! ليس المرض وقفاً عليك، وليس الموت وقفاً عليك. إنك لا تتعذب وحدك أيها المسكين، ولكن الملوك أيضاً يتعذبون! الملوك الذين

تنظر إليهم نظرة التقديس، وتخلع عليهم ثوب الألوهية، وتغبطهم في يقظتك، وتحلم بنعيمهم في منامك، والذين تعتبرهم مثلك الأعلى، وتعتقد أن الخطوب لا ترقى إليهم، وأن لهم عيشاً أنعم من الحرير وألين من الماء: هؤلاء يمرضون أيضاً ويموتون، ولعلهم في عيشهم محسودون بما هم منه يبكون!

هذا هو ابن إسماعيل، وحفيد إبراهيم، تُستأصل نواجذه بلا مخدر، فيحتمل راضياً أو كارهاً تعلقا بالحياة؛ وتُشق لثته ثم تخاط بلا مخدر، فيحتمل راضاً أو كارها تعلقا بالحياة؛ وتُحرّم عليه الأسرة، فينطرح على كرسيه ثم ينام أو لا ينام، فيحتمل راضياً أو كارها تعلقا بالحياة؛ وأخيرا هاهي ذي الحياة، تتدلل تدلل الهيفاء، وتجفو فتسرف في الجفاء. وهاهو ذا شبح الموت يقتحم البلاط، رغم كل احتياط!

ماذا تقول النشرات الطبية؟ - القيح! التعفن! التسمم! أسماء تتداولها ألسنة العامة، وكأننا كنا نخالها وقفاً على أبدانهم، وما كنا نظن أنها تعرف الطريق إلى ذوات الملوك، ذوات الملوك المصونين عن العبث، الموضوعين فوق القوانين، الذين لا تنالهم الألسن إلا بالهتاف، ولا الأفواه إلا باللثم، ولا تطأ الشفاهَ أسماؤهم إلا همسا، ولا تنالهم الأيدي إلا بالسلام إيماءً من بعيد؛ في هذه الذوات المقدسة تسري سموم الموت، وينشب أظفاره الموت، والموت ديمقراطي لا يميز بين الملوك والسوقة، ولا يدين بالفروق بين الطبقات

هكذا يقول الملك؛ والملك إذا قال فكلمته مرسوم نافذ، وإذا أشار (لا أريد أن أموت) فإشارته قانون محترم، وإذا أومأ فإيماءته أمر واجب الطاعة، ولكن الموت - قاتل الله الموت - لا يحسن الخضوع للمراسيم، ولا يعرف كيف ينفذ القانون، ولا ينحني أمام أوامر الملوك

مات الملك في الشرق وكان ابنه في الغرب، وقد فصل القضاء بين الاثنين ببحر وبرين، أليس من حق الراحل أن تكتحل برؤية ابنه عيناه قبل أن يفارق الحياة؟ أمنية يظفر بها المغمور الصعلوك، بله الأمراء والملوك؛ أمنية يظفر بها المحكوم عليه وهو من حبل المشنقة قاب قوسين، ولكن الملوك يتمنونها فلا يجدون إليها سبيلاً. إيه أيها الموت! هلا تريثت قليلا حتى يؤوب الغائب؟ إيه يا جنود سليمان! هلا حملت النازح البعيد على أجنحتك التي حملت عرش بلقيس؟ لا هذا ولا ذاك، إذن فليعتز الراحل

العظيم، بكتاب ابنه الكريم، ولكن كتاب الولد البار لا يكاد يصل إلى الوالد الواقف على حافة الأبدية حتى يضن

الموت أخيرا كما ضن أولا، وحتى ترتعش اليد رعشة الموت، فيتدحرج الخطاب، وينسدل بين البصر وبينه حجاب، ويلفظ القارئ نفسه الأخير، ويكون آخر ما قبضت عليه يمينه كتاب ابنه المحبوب، وآخر ما فاه به اسم ابنه المحبوب، وآخر ما انطبع في مخيلته صورة ابنه المحبوب

هاهو ذا الملك مسجى على سرير من ذهب لا يرد إليه الحياة، مغطى بأكفان من الحرير لا تخفف من خشونة الموت شيئاً؛ أمامه مباخر من عنبر لا تنفس من سكرة الردى! النعش هو النعش، حملته الأعناق، أم جرته الخيول العتاق؛ والقبر هو القبر من طين وماء، أو من مرمر ورخام، في صحراء جرداء، أو في جوف هرم من الأهرام. أطلقوا المدافع، ونظموا المواكب، وأعلنوا الحداد، ونكسوا الأعلام، فلن تغيروا من حقيقة الموت شيئا. الموت هو هو، ديموقراطي لا يميز بين الملوك والسوقة، ولا يدين بالفروق بين الطبقات

مات الملك فورث ولي عهده تاجا وصولجانا، ونهراً عذبا، ومملكة فيحاء، وأمة مطيعة مخلصة، ولكنه بجانب ذلك فقد عطف الأب البار، وحنان الوالد الرحيم؛ فليت شعري أخاسرة تلك الصفقة أم رابحة؟ وأية الكفتين هي الراجحة؟، لست أدري، ولكن الذي لاشك فيه أن كل شيء يمضي ويعود، حتى العروش والتيجان، ولكن الميت لا يعود، وأن الملك الجديد لو بذل عرشه في سبيل نظرة من أبيه أو كلمة يسمعها من فيه ما سمح الموت، لأن الموت ديموقراطي لا يميز بين الملوك والسوقة ولا يدين بالفروق بين الطبقات

هكذا تتساوى الرؤوس عند الموت بالرؤوس، أو تتساوى الرؤوس بالأذناب، كما تساوت الرؤوس بالرؤوس، أو الرؤوس بالأذناب عند انحدارها من الأصلاب، الكل من التراب، والكل إلى التراب. وما لي لا أذهب إلى أبعد من ذلك، فأزعم لك أن الناس كما يستوون في طرفي الحياة، يستوون في الحياة؛ وأزعم أن في الحياة نصيباً مشتركا من السعادة، وآخر من الشقاء، كل الناس فيهما سواء. وما دام كل إنسان لا يقنع بما هو فيه، بل يمتد نظره إلى أبعد منه، ويتمنى على دهره الأماني، فيبسط له الدهر إحدى يديه، ويقبض الأخرى، فلا يقنع الإنسان عند البسط، ولا ييأس عند القبض، فهو أبدا آمل، كادح، مخفق، ناجح؛ أقول مادام أنه لا سبيل إلى الكمال المطلق، إما لأنه غير موجود، أو لاستحالة الوصول إليه، فالناس في الحقيقة سواء، وما اختلافهم في الجاه والمال والمراكز الاجتماعية إلا أمور اعتبارية

لا أستطيع أن أعرف السعادة ما هي، غير أن الذي لا أشك فيه أنها ليست المال وحده، وليست الجاه وحده، وليست الجمال وحده، قد تكون مزيجاً من ذلك كله، وقد تكون غير ذلك كله، وقد يكون الألم جزءاً من ماهية السعادة، أو شرطا من شروطها، وإذا كان الأمر كذلك، فكيف تستطيع أن تضع الفوارق بين السعادة والشقاء، أو تومئ بإصبعك إلى شخص معين فتقول: هذا شقي، وإلى سواه، فتقول: هذا سعيد

أيها الراحل العظيم، لقد تبوأت سرير الملك

في ساعة يذر الأسرة نحسبها ... مثل النجوم طوالعاً وأفولا

ولقد خلفت سرير الملك، وما تزال الجدود عاثرة، والأسرة متناثرة؛ ولكنك عشت ملكا، ومت ملكا. والآن قر في مضجعك، فلا قرار مع الحياة؛ والتمس في باطن الأرض الراحة التي خانتك على ظهرها. إن للملك لهما، وإن للشعوب من الأحمال الثقال، ما تنوء بحمله ظهور الرجال؛ وإن لك في جوار ربك لعوضاً أي عوض. أحسن الله عزاءنا فيك، وبارك لنا في خلفك المحبوب

كوم حمادة

محمود غنيم

الحياة الأدبية في الحجاز

للأستاذ عبد القدوس الأنصاري

نشر الأساتذة: علي الطنطاوي وعبد الوهاب الأمين وسامي الشقيفي وغيرهم في مجلة (الرسالة) الغراء بحوثاً ممتعة عن الحياة الأدبية في أوطانهم، فأجادوا وأفادوا،

وجلو لنا بأقلامهم المرهفة حقيقة هذه الحياة
ولما كانت هذه البحوث عبارة عن جزئيات يتألف من مجموعها موضوع كليَّ عام، هو الهدف الأسمى ألا وهو (تصوير الحياة الأدبية في البلاد العربية) رأيت - والحالة ما ذكر - أن أدلي بدلوي وأقول كلمتي عن الحياة الأدبية في الحجاز، استكمالاً لحلقات البحث، ووفاء بحق هذا القطر الذي هو مهد الأدب العربي الأول
كانت الحياة الأدبية عندنا فيما قبل الحرب العامة الماضية تجري على سنن أدباء القرن الوسطى جريا تقليدياً محضا، ميكانيكياً خالصا؛ قصائد غزل ورثاء، ومدح وهجاء، وتطريز وتشجير، ورسائل معذرة وإطراء، وعتاب وتواصل وتقاطع. . . وكانت كل هذه الرسائل وهاتيك القصائد منهوكة القوى المعنوية بما تحمله دواماً من أغلال السجع المرهقة، وأثقال المحسنات البديعية الجافة. . . للألفاظ في الأدب عامةً المقام الأول: أما المعاني فهي في الدرجة الثالثة أو الرابعة في الأهمية. بقدر اقتدار الأديب ناثراً أو شاعراً على تنميق الألفاظ يقاس أدبه، وبموجبه يصدر له أو عليه الحكم
هكذا كان الجو الأدبي هنا محاطاً بسياج من الجمود. . . فلما وضعت الحرب العامة أوزارها استيقظ في نفر من ناشئة الحجاز المتعلمين روح النهوض، وشعروا أن أدبهم قد أخنى عليه التقليد وأفسده داء الجمود، فتركه هيكلاً عظيماً نخراً باليا، نابياً عن الحياة، بعيداً عن مطالبها، فاقداً روح الحياة، فاشمأزوا من هذه الحالة المزرية. وهنا ابتدأ دور العمل في الإنقاذ، ومن هنا ابتدأ عصر التجديد
إلى أين تتجه؟ كيف نجدد هذا الأدب الرث البالي؟ أين الطريق؟ وأين الدليل؟
هنا شاهدنا سببين ممدودين إلينا من أقطار العروبة الناهضة، وكل منهما له مغرياته، هذا الأدب المصري يجذبنا بنصاعة أسلوبه وقوة تركيبه، وهذا الأدب المهجري يسحرنا بمرونة أسلوبه وسهولة تعبيره. كان طبعيا - والحالة كذلك أن يحصل انقسام في اتجاه حياتنا
الأدبية. ففي المدينة كان منا إجماع على اعتناق الأدب المصري أسلوبا وتفكيرا، وفي مكة وجدة تمسكت طائفة بذيول الأدب الهجري، وأخرى اعتنقت الأدب المصري. وكل سار في اتجاهه يكتب ويفكر، ويفكر ويكتب. حتى كان تفاعل فكريّ في الآونة الأخيرة أنتج (توحيد) مناهج الأدب الحجازي في انتهاج سبيل الأدب المصري وحده. ومن هنا وبسبب تضافر الجهود وقوة الاتحاد رأينا الأدب الحجازي يخطو إلى الأمام خطوات سريعة تشف عن استعداد عظيم
على أن حياتنا الأدبية بسبب حداثة عهدها ولكونها نتيجة ثقافة محدودة فأنها ما تزال بحاجة إلى الإصلاح والتغذية، وإلى التنظيم والنضوج. فالاضطراب الفكري والارتجاج الكتابي، ظاهرتان ما تزالان تلازمانها فيما تنتجه من ثمار. ومع هذا فأننا لعلى اعتقاد أكيد باضمحلال هاتين الظاهرتين متى تضافرت الجهود في سبيل الإصلاح
وحياتنا الأدبية إنما تستمد كيانها وعناصرها من الأدب العربي الإسلامي القديم، كمؤلفات الجاحظ وقصائد المتنبي، ومن نتائج قرائح أدباء مصر المعاصرين؛ وقلما تأخذ أية فائدة أو تستمد أية فكرة عن الأدب الغربي رأساً لعدم إلمام الأكثرية الساحقة من القائمين بها باللغات الأجنبية إلماماً يؤهلهم للإفادة والاستفادة
ولقد خطت حياتنا الأدبية خطوات مباركة في سبيل النشر والتأليف، فمع وجود كثير من العقبات والحوائل قد ظهر في عالم المطبوعات كتب أدب حجازية منها: كتاب أدب الحجاز، وكتاب آثار المدينة المنورة، ورواية التوأمان، وإصلاحات في لغة الكتابة والأدب، والتحفة الشماء في تاريخ العين الزرقاء، وحياة سيد العرب، والانتقام الطبعي وفي الحجاز اليوم صحيفة أدبية هي الأولى من نوعها، وهي (صوت الحجاز) التي تصدر بمكة، وهذه الصحيفة هي المنبر الوحيد الذي يتبارى من فوقه حملة الأقلام في الحجاز، وفي نية بعض إخواننا من أدباء المدينة وشبابها إنشاء صحيفة في المدينة كصوت الحجاز، ونرجو لهم التوفيق، لأن الصحافة كما أنها عنوان رقي البلاد فأنها الباعث الوحيد لإنهاضها وإنعاشها في هذا العصر
وخلاصة القول أن في الحجاز اليوم حياة أدبية، وإحساساً أدبياً، زاخرين بالآمال في مستقبل أدبي مجيد رائع لهذه البلاد. والآمال هي مصابيح الحياة؛ ومادامت حياتنا الأدبية

تحمل بين يديها هذه المصابيح، فإنها ولا ريب بالغة قمة النجاح
(المدينة المنورة - الحجاز)
عبد القدوس الأنصاري
أندلسيات:
أبو الفضل بن شرف
الشاعر الفيلسوف
للأستاذ عبد الرحمن البرقوقي
الناظم الثائر، الكثير المعالي والمآثر، الذي لا يدرك باعه، ولا يترك اقتفاؤه واتباعه؛ إن)
نثر رأيت بحراً يزخر، وإن نظم قلد الأجياد دُرّاً تباهي به وتفخر، وإن تكلم في علوم
الأوائل بهرج الأذهان والألباب، وولج منها في كل باب؛ وقد كان أول ما نجم بالأندلس
وظهر، وعُرف بِحوْك القريض واشتهر، تُسدّد إليه السهام، وتنتقده الخواطر والأوهام،
فلا يصاب له غرض، ولا يوجد في جوهر إحسانه عرض، وهو اليوم بدر هذه الآفاق،
وموقف الاختلاف والاتفاق، مع جري في ميدان الطب إلى منتهاه، وتصرف بين سماكه
وسهاه، وتصانيف في الحكم ألف منها ما ألف، وتقدم فيها وما تخلف، فمنها كتابه
المسمى يسر البر، ومنها الكتاب الملقب بنجح النصح وسواها، من تصانيف اشتمل
هذا هو كل ما قاله الفتح بن خاقان في ترجمته لهذا الأديب . . .(عليها الأوان وحواها
الشاعر، الفيلسوف، النطاسني أبي الفضل بن شرف. وقد جرى الفتح في هذه
الترجمة على شنشنته في سائر تراجمه، فلم يذكر اسم المترجم له، ولا اسم أبيه ولا
منشئه، فضلاً عن أنه أغفل تاريخ مولده ووفاته. . وكذلك لم نر لغير الفتح ترجمة لهذا
الأديب الكبير يصح أن تسمى ترجمة يعول عليها. . . ولكنا مع هذا أترانا لا نعرض
لترجمة أمثال هذا الأديب البارع المتفنن الذي نبغ منه شعرٌ شاعر وحكمة بالغة وكان
إلى ذلك نطاسياً عظيما، كما يؤخذ من كلام الفتح، ومن ثم يعد بحق من مفاخر
الأندلس؟ وما قيمة عملنا إذا نحن ضربنا الذكر صفحاً عن مغموري أفاضل الأندلس
أولئك الذين لم يوف المؤرخون تراجمهم حقها. .؟ وإياك والظن أنا نعني بقولنا
مغمورين أنهم لم يكونوا مشهورين في عصورهم، وإنما نعني أنهم مغمورون في نظر
أدباء هذه الأجيال. وقليل لعمري من سمع منّا بهذا أبي الفضل بن شرف سماعه مثلاً
بابن هانئ وابن خفاجة وابن زيدون وابن عمار وابن وهبون وابن عبدون وأمثالهم ممن
اضطرب ذكرهم وكانوا من المشهورين
فهل تدري من هو أبو الفضل بن شرف هذا؟ أظنك لا تجهل أديب القيروان (وأما بعد)
وكاتبها وشاعرها أبا عبد الله محمد ابن أحمد بن شرف الجذامي القيرواني قرين ابن
رشيق ومنافسه في خدمة المعز بن باديس ومنادمته والمتوفى سنة 460هـ؛ إذن
فلتعلمن أن المترجم له هو ابن هذا الأديب القيرواني العظيم واسمه جعفر بن أبي عبد
الله محمد بن أحمد بن شرف المذكور. . دخل الأندلس مع أبيه، وهو ابن سبع سنين،
وقيل إنه ولد في الأندلس بعد أن نهد إليها أبوه وأقام بقرية من قراها تسمى برْجَه
ومن ثم يقال للمترجم أبو الفضل بن شرف البرْجي. وللمترجم ابن فيلسوف شاعر
مثله هو أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل المذكور - وهو القائل:
وكريم أجازني من زمان ... لم يكن من خطوبه لي بُد
منشد كلما أقول تناهى ... ما لمن يبتغي المكارم حد
هكذا يحدثنا المقري عند إيراده قافيَّة المترجم التي يمدح بها المعتصم بن صمادح أحد
ملوك الطوائف والتي ستمر بك قريباً. ومن هذا ومن قول الفتح في كلمته التي صدرنا
بها هذه الترجمة (وهو اليوم بدر هذه الآفاق) يستنتج أنا المترجم أبا الفضل بن شرف
هذا أدرك ملوك الطوائف ودولة المرابطين، أي أنه عاش في أواخر القرن الخامس
وأوائل القرن السادس
وقد حدثنا الفتح في كلمته بأنه شاعر وأنه فيلسوف وأنه طبيب. أما أنه طبيب فلم
نقف له على أثر في الطب ويبدو أنه كان يحترف الطب ويتكسب به وإن لم يؤلف
فيه، وربما ألف وضاعت تواليفه فيما ضاع من شتى التواليف. وكذلك الحكم في أنه
فيلسوف إذ لم يذكر لنا المؤرخون شيئاً من آثاره في الفلسفة، ولعلهم يعنون بفلسفته
ما أثر عنه من الحكم مثل هذه الكلم الجوامع، والحكم الروائع التي أثرت عنه وهي:
(العالم مع العلم كالناظر للبحر، يستعظم منه ما يرى وما غاب عنه أكثر. الفاضل في

الزمن السوء كالمصباح في البراح، قد كان يضيء لو تركته الرياح. لتكن بالحال المتزايدة أغبط منك بالحال المتناهية، فالقمر آخر ابداره، أول إدباره. لتكن بقليلك أغبط منك بكثير غيرك، فإن الحي برجليه وهي ثنتان، أقوى من الميت على أقدام الحملة وهي ثمان. المتلبس بمال السلطان كالسفينة في البحر إن أدخلت بعضه في جوفها أدخل جميعها في جوفه. التعليم فلاحة الأذهان، وليست كل أرض منبتة. الحازم من شك فروّى، وأيقن فبادر. قول الحق من كرم العنصر كالمرآة كلما كرم حديدها أرت حقائق الصفات. ليس المحروم من سأل فلم يعط، وإنما المحروم من أعطى فلم يأخذ. يا ابن آدم! تذم أهل زمانك وأنت منهم، كأنك وحدك البريء، وجميعهم الجريء، كلا بل جنيت وجني عليك، فذكرت ما لديهم ونسيت ما لديك. اعلم أن الفاضل الذكي لا يرتفع أمره أو يظهر قدره، كالسراج لا تظهر أنواره أو يرفع مناره، والناقص الدنيء لا يبلغ لنفعه إلا بوضعه، كهوجل السفينة لا ينتفع بضبطه، إلا بعد الغاية في حطه). . . . إلى أمثال هذه الكلمات البديعة الحكيمة الشاعرة الناصعة البيان، المنيرة البرهان، التي لا تصدر إلا عن حكيم جهبذ من الراسخين، وأديب بارع من ذوي القرائح المطبوعين. ويشبه هذه الكلمات من شعر المترجم له قوله:

إذا ما عدوك يوماً سما ... إلى رتبة لم تطق نقضها
فقبل - ولا تأنفن - كفه ... إذا أنت لم تستطع عضها

وإذ قد وصلنا إلى شعر هذا الشاعر الفيلسوف كما يطلق عليه الأندلسيون فلنذكر أن شعره الذي وقع إلينا ينم على أنه شاعر متفنن رفيع الطبقة رصين الشعر، دقيق الفكر، لطيف التمثيل. ومن قصائده الفائقة قصيدته القافية التي أنشدها المعتصم بن صمادح أحد ملوك الطوائف، وكان قد قصر أمداحه عليه، وكان يفد عليه في الأعياد وأوقات الفرج والفتوحات. ولما وفد عليه وأنشده هذه القصيدة كان في زي تظهر عليه البداوة بالنسبة إلى أهل حضرة المملكة وإليك هذه القصيدة:

مَطَلَ الليل بوعد الفلق ... وتَشكيّ النجم طول الأرق
ضربت ريح الصبا مسك الدجى ... فاستفاد الروض طيب العبق
وألاح الفجر خدا خجلا ... جال من رشح الندَى في عَرَق
جاوزَ الليل إلى أنجمه ... فتساقطن سقوط الورق
واستفاض الصبح فيه فيضة ... أيقن النجم لها بالغرق
فانجلى ذاك السنا عن حلك ... وانمحى ذلك الدجى عن شفق
بأبي بعد الكرى طيف سرى ... طارقا عن سكن لم يطرق
زارني والليل ناع سُدْفَه ... وهو مطلوب بباقي الرمق
ودموع الطَّلِّ تَمريها الصبا ... وجفون الروض غرقى الحدق
فتأنى في إزار ثابت ... وتثنى في وشاح قلق
وتجلى وجهه عن شعره ... فتجلى فلق عن غسق
نهب الصبح دجى ليلته ... فحبَا الخد ببعض الشفق
سلبت عيناه حَدَّي سيفه ... وتجَلى خده بالرونق
وامتطى من طرْفه ذا خبب ... يلثم الغبراء إن لم يعتق
أشوس الطرف عرته نخوة ... يتهادى كالغزال الخرق
لو تمطى بين أسراب المها ... نازعته في الحشا والعُنق
حسرتْ دُهمته عن غُرة ... كشفت ظلماؤها عن يقق
لبست أعطافه ثوب الدجى ... وتحلى خده باليقق
وانبرى تحسبه أجفل عن ... لسعة أو جِنة أو أوْلَقِ
مدركا بالمهل ما لا ينتهي ... لاحقا بالرفق ما لم يلحق
ذو رضى مستتر في غضب ... ذو وقار منطوٍ في خرق
وعلى خَدّ كعضب إبيض ... أذن مثل سنان أزرق
كلما نصبها مستمعاً ... بدت الشهب إلى مسترق
حاذرت منه شبا خَطيّة ... لا يجيد الخط ما لم يمشق
كلما شامت عذارى خده ... خفقت خفق فؤاد فرق
في ذرى ظمآن فيه هيف ... لم يدعه للقضيب المورق

يتلقاني بكعب مصقع ... يقتفي شأو عذار مفلق
إن يدر دورة طرف يلتمح ... أو يجل جول لسان ينطق
عصفت ريح على أنبوبه ... وجرت أكعبه في زئبق
كلما قلبه باعد عن ... متن ملساء كمثل البرق
جمع الصرد قوى أزرارها ... فتآخذن بعهد موثق
أوجبت في الحرب في وخز القنا ... فتوارت حلقا في حلق
كلما دارت بها أبصارها ... صورت منها مثال الحدق
زلّ عنه متن مصقول القوى ... يرتمي في مائها بالحرق
لو نضا وهو عليه ثوبه ... لتعرى عن شواظ محرق
أكهب من هبوات أخضر ... من فرند أحمر من علق
وارتوت صفحاه حتى خلته ... بحيا من لكفيك سقى
يا بني معن لقد ظلت بكم ... شجر لولاكم لم تورق
لو سقى حسان إحسانكمُ ... ما بكى ندمانه في جلق
أو دنا الطائيُّ من حيكم ... ما حدا البرق لربع الأبرق
أبدعوا في الفضل حتى كلفوا ... كاهل الأيام ما لم يطق
(يتبع)
عبد الرحمن البرقوقي
منشئ البيان ورئيس قلم المراجعة بمجلس النواب
الطفل
للأستاذ عبد الرحمن شكري
مِنْ عالمِ الروح وهو الخلد والقِدَمُ ... وكان بالأمس يطوي جسمه العَدَمُ
سِرُّ الحياةِ وسر الموت ما برحت ... تطويه عن فِكَرٍ هَمَّتْ به الظُّلَمُ
يُطِلُّ من عينه معنى يزاوله ... معنى التَّفَهُّمِ لم ترْصَدْ له كَلِمُ
وحيرة هي بعض اللب يبرزها ... صفو من العين لا خِب فَتَنْكَتِمُ
صفو الغرارة أبهى ما رأى بَشَرٌ ... ما رَنَّقَ العينَ لا شر ولا ندم
ولم تَشِبهُ تجاريب الحياة بما ... يدجوله اللحظ والأفكار والشِّيَمُ
ضعف الوليد وهل في القلب مُبّتَعِثٌ ... نَبْعَ الحنان كضعف ليس يُتَّهَمُ
لأيِّ أمر بدا يَفْتَرُّ مبسمه ... وما حباهُ بِزَعْمِ الأشيبِ الفَهَم
وكلما بدرت للشر بادرة ... قلبٌ المُسِنِّ لها حيرانُ يضطرم
يود كل رجيح العقل مكتهل ... أن لو يعود وليداً أمره أَمَمُ
وليس يبصر أن الشر مُقْتَبَلٌ ... يعود منه إليه الهم والهرمُ
لكنها مهلة للقلب يَنْشُدُها ... حيث الصفاء وعيش ماؤه شَبِمُ
فلا عداءٌ ولا مكر ولا حِيَلٌ ... ولا حقودٌ ولا غدر ولا جُرُمُ
حيث الحياة كبيت الله طاهرة ... لدى الطفولة وهي المَعْبَدُ الحَرَمُ
أو جنة الخلد لا إِثْمٌ لساكنها ... وما تَجاَوَرَ ذو عجز ومُجْتَرَمُ
إِنَّ الأزاهر والأطفال ما اجتمعا ... صنوان والحسن فيها طُهْرُهُ عَمَمُ
مرأى يُطَهِّرُ ما بالنفس مِنْ دَنَسٍ ... حتى يعود بها والخير مُغْتَنَمُ
كم ناقم سَلَّ منه الطفل عادية ... من الضغائن إذ يرنو وَيَبْتَسِمْ
قد يُحْزِنُ الزهر إذ يذوي أَمِنْ شَبَهٍ ... بمصرع الطفل رائيه له يَجِمْ
ما أعظم الفقد لو أن الورى خُلِقُوا ... خلق الرجال وكالأطفال ما وْسِمُوا
لما تَمَلَّى أناسٌ طُهْرَ ما فقدوا ... ولا أحبوا ولا حنوا ولا رحموا
عبد الرحمن شكري
دمعة على الصورة ..!
للأستاذ أبي السمح الفقيه
أغلاماً أرى هنا أم ملاكا ... وجد العيش في سوى الخلد عجزا؟
فمضى للنعيم غضاً غريرا ... مستبدلاً بروحه مستعزا!
نظرات بريئة وصفات ... فاق أترابه بهن وبزَّا
وفؤاد يسيل في كلمات ... لك فيه هزت فؤاديَ هزا!
لا أعزيك لا أقول تصبر ... مثل هذا بفقده لا يُعزَّى!

لا أعزيك فيه إلا بدمعي ... وبحزن يئز في الصدر أزا!
لهف قلبي عليه وهو ينادي ... مستغيثاً أباه والغوث عزا!
قد رضينا له ربي الخلد مغنى ... ولو أن الفراق في الوصل حزا!
كنت بالرزءِ مستهيناً فلما ... شاهدته العيون ظلت تنزى!
عجبي يضحك الخلي ويلهو ... والمنايا تجز في الناس جزا!
يبتلي المؤمنون مثلك فيما ... وهبوه فيسلبون الأعزا!

مكة المكرمة

عبد اللطيف أبو السمح الفقيه

أستاذ اللغة العربية بدار الحديث

إلى الأستاذ أنور العطار

بقلم علي محمد الشلق

أيها الشاعر الذي سال حزناً ... وجرى ذائباً ولم يتدفقْ
أنت همسٌ ورقَّةٌ وهباء ... ليت هذا القريض عطر فيعبق
يا شباب الشآم أنت فخار الده ... ر لا بل أعزُّ منه وأعرق
يا شباب الشآم يا وثبة الشر م ... ق ويا بسمة الرجاء المحقق
ما ترجي بالله من أدب با م ... كٍ حزين واهي الأماني مُمزق؟
ليت شعري ماذا دهاك لتبكي؟ ... في شباب ضافي الذيول مُنمَّق
ليت شعري ماذا دهاك لتذوي؟ ... في رياض الحياة، والعيش أورق
شاعر الدمع خل عنك قريضاً ... جاء نوعاً من الكلام المرقَّقْ
قد كفى الشرق ما بكى من دموع ... كاد لولا الرجاء بالدمع يغرق
قد كفى الشرق وقع تلك المآسي ... غمرت عيشه بنوم مؤرَّق
ألاسى خطَّةُ الضعيف على الأرْ م ... ض وسجن على الذليل مُغلَّقْ
ليس دمعاً من الحنان على الأرْ م ... ض وكنزاً من المراحم مطلق)
أين عهد (الأعشى) بغرٍّ طوال؟ ... ترفع المجد فوق هام (المحلق)
أين عنا شعر ابن شداد؟ مالا م ... ن، وما كان بالضعيف المزوّق
نحن نبكي على الهباء وهذا الغَرْ م ... بُ، نشوانُ بالنجوم تعلَّقْ
وهو لحن يولي الخلود فيُعشق ... (نحن لحن مضرَّجٌ بالمآسي)
نحن نحبو مع الخشاش ثقالاً ... وهو فوق السماء بالعلم حلَّقْ
يا رجال القريض أين القوافي؟ ... تتلّظى من الشعور فتحرق
يا شباب الحياة، هاتوا قريضاً ... كجبين الصباح إن ذرَّ أشرق
وابعثوها شعواء تزجي الأماني ... ساميات على الكواكب تخفُق
أيقظوا الشرق من سبات عميق ... أدلج الركبُ وهو بالذل مُوْثق
ما عهدناك أيها الشرق خوَّا م ... راً، وما كنت في الميادين تُسبق
هُب فالصبح لاح والطير شادٍ ... صفَّق الروضُ، والضياء تألَّقْ

كلية اللغة العربية

علي محمد الشلق

القبلة الأخيرة

للسيد الياس قنصل

وإذ أدركتْ أن الهنا مرَّ حينُه ... وأن القضا أفتى ببعد فتاها
أكبَّتْ عليه وهو حيرانُ واجم ... وأدَّتْ معاني حبِّها شناها
وعادتْ لتشكو دهرها بدموعها ... وتجلوَ بالآهاتِ بعض شقاها .
أُهنِّيك من قلبي وأحسدُ برهةً ... وددتُ لها أختاً وروحي فداها
فقد أبعدتْ عني البحارُ حبيبتي ... ولم أستطعْ يوم النوى أن أراها

الآلام

لا تعنُ للشكوى ولا تحزنْ إذ ... جارتْ عليك بصرفها الأيامُ //
فالمرءُ يلبث طينة مجبولةً ... حتى تشرف نفسَه الآلامُ

عاصمة الأرجنتين

الياس قنصل

القصص
جاسوسة!
لمدير الأكاديمية الفرنسية هنري بردو
ترجمة الأستاذ عبد الحليم الجندي المحامي

لم يبق لمدام (سرمِزِل) أمل في أن تُحَب، فأصبحت لا تطيق أن ترى قلبين يتناجيان فلقد ودعت المسكينة جمالها إثر حادث سيارة، وعمل الجراح في وجنتيها خير ما هيأت له عبقرية الطب، ورسم أنفها الدقيق رسمه الأنيق السابق، لكن الفن والطب معاً قصرا عن أن يمسحا من صفحة وجهها تلك الشيات الهينة التي ما برحت تشير إلى الحادث. . فعينها التي لم يجسر الطبيب على أن يدنو منها قد اتسعت بعض الاتساع فصارت نظراتها مما يتجمد له الدم في العروق. . وعشيقها الذي حنا عليها في محنتها وسربلها بصنيعه لم يستطع تلقاء هذا (البعث الناقص) إلا أن يطلب نقله إلى وظيفة نائية!. . ولا يصبر على القبح الجسماني إلا رجل سمت به فضيلته إلى أرفع ذروة، أو . . .رجل يغمر الإيمان فؤاده. . والصديق العزيز لم يكن إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء كانت ما تزال تدعى إلى الأوساط التي كانت تغشاها من قبل، لما عرف عنها من الملاحظة اللاذعة والروح المبتكر. . وفي إبان هذه الدعوات شهدت - وهي تكاد تُجن - ميلاً يبديه المسيو (ريانس) إلى (المدام دي نيج) وكان الداعون والداعيات يفطنون إلى هذا الهوى الناشئ فيجعلون كرسيّ كل منهما إلى كرسي الآخر. . وهكذا في كنف تلك التقاليد التي تواضعت عليها الأرستقراطية المعاصرة (!) تآمرت كل الظروف على أن يترعرع هواهما الوليد في هوائها الطلق الصافي

كانت مدام دي نيج مشغولة بزخرفها مشغوفة بنجاحها في ذلك الوسط الرفيع الذي كانت تتأرجح كالقمري الغريد فوق أفنانه، وكان زوجها منكباً على وجهه في عالم السياسة لا يجد الساعات التي يمنحها فيها الحنان أو يهبها فيها الحب. أما المسيو (ريانس) فقد وفد حديثاً من الريف. . ومعه ثروة الأقاليم وملاحة التبسط وقسمات بديعة كلها أغراء، لكنه كان يضيف إلى تلك المؤهلات جهلاً تاماً بفن (الرجال مع النساء)

وذات يوم وقع خطأ في (بطاقة الاسم) فجاء كرسي مدام سرمِزِلْ بدلاً من كرسي مدام دي نيج بجوار المسيو ريانس. فقنعت الصديقة بمجلسها النائي وأخذت تبعث إلى صديقها من أقصى المائدة شعاعاً كله الكهرباء. . فتطلعت (سرمِزِل) فوقع بصرها على ذلك التيار الذي يروح ويجيء بين القلبين فهمست في أذن جارها تقول:

- حقاً إنها جميلة. . وسكت ريانس، فعادت تقول:

- ولكن يا للخسارة! قال أي خسارة؟ قالت ألا تعرف؟ قال أي شيء أعرف؟ قالت إنها (في خدمة البوليس)!! قال: (إنك تمزحين يا مدام) قالت كيف أمزح؟ أو لم تقرأ كتاب (فوشيه) الذي قبلته الأكاديمية أخيراً؟ وحسبها قد أخذت بطرف من الحديث جديد، فقال كلا لم أقرأه، فاستطردت الجارة تقول: (هو مؤلف من جزءين، وإن المرء ليتعلم منه أشياء كثيرة وفيه تفاصيل عن نظام الجاسوسية في عهد الإمبراطور. . . كان في خدمتها سيدات من الطبقة الراقية. . جوزفين نفسها كانت جاسوسة في عهد الديركتوار (حكومة الإدارة)!!! وفي العصر الحاضر سيدات كثيرات من ذلك الطراز تجري عليهن الوزارة أجوراً ليطلعنها على فضائح المعارضة كيما تخضع المعارضة للوزراء. . .)

- ولكن كيف عرفت هذا يا مدام؟

- لا. لا. . . لن أبوح لك بمصادري. . وحسبك أنني أخبرتك

- إذن فهل تسمحين لي بألا أصدق؟

- ولِمَ لا أسمح لك؛ ليس المرء مكلفاً بأن يصدق كل ما يُلقى إليه، لكن عليه - على الأقل - أن يفتح عينيه

وتنقلا في شجون شتى وشؤون متشابهة، حتى إذا فرغ الطاعمون ونهضوا انتبذ من القاعة مكاناً قصياً وبقي فيه. . . . فلم يكن بد من أن تسعى إليه مدام دنيج تسأله ماذا دهاه؟ فأجابها: لا شيء، وأراد أن يُبدي لها بعضاً مما كان يُبدي من تحاياه أو من فيوض هواه. . . فكانت دعابته شوهاء، وحديثه بلا روح

وتعاقبت الأيام وهبط البارومتر، وهدأ التيار، وعملت مدام دي نيج جاهدة لتظهر عدم الاكتراث بما يظهره هو من عدم الاكتراث، ثم جمعت كل ما منحتها السماء من فتون الأنوثة وخلاعة الأغراء ووجهتهما عليه جميعاً كالتيار الدافق، فلم يُلق إليها بالاً. . . ولما غلبها بأسه غلبها يأسها، فشاهت في وجهها الحياة

لكن الإعجاب الذي مال بكل منهما إلى الآخر، والذي تنضح به غريزة كامنة في أعماقنا جميعاً - غريزة تلك الميول المستعدة لأن تصبح حباً جارفاً عندما تقاوم - هذا الإعجاب جعلهما أوثق اتصالاً كلما حاولا الانفصال. فأخذ الرجل يسائل نفسه: ما علة هذا الجفاء، وكيف يؤمن بالسيدة سرمزل مع أن الملأ طراً قد وصموها بأن الحقد يفري كبدها من سعادة السعداء؛ وتملكه الريب فيما ألقت إليه. . . لكن الكلام كان كالسهم قد نفذ فاستقر في أعماقه. . . وإذن فليس يمكن أن يعلق فؤاده بغرام جاسوسة. . . وشرع يزين لنفسه أشياء ويقبح أشياء. . . وأخذ يقول لنفسه ما يقوله كل ريفي هبط حديثاً إلى العاصمة: (لا، لا يمكن أن تستغفلني باريس!). بلى: فمنأين لها هذه الفراء الفارهة، وهذه اليواقيت، وكل تلك الأعلاق! وراح يحقق أثمان ما يقتنيه الحسان من نفائس ومجوهرات؛ فلما أدركه التعب أخذ يقول لنفسه: (أو لست أنا الذي أصبحت جاسوساً؟!)

وغدا المسكين نهباً مقسما بين الشك والقلق المساور، وغاض من كيانه معين الشباب ومرح الفتوة اللذان إذا أحدقا بغانية سدا في وجهها الأفق ولم يتركا لها منهما منفذا إلا كما تترك خروق (الشبكة) الضيقة للفراش الرشيق

أما هي فقد ذهبت جهودها كلها بددا، فعكفت على قلبها تتسمع خفقاته وتستعذب فيه لذع الحريق

وذات يوم سمعته يخبر الأصدقاء بأنه مسافر، فلم تتمالك نفسها وسألته: إلى أين؟ فأجابها بتحفظ: (عندي)

- أين عندك؟

- في جكس

- قريباً من جنيف؟ فأجابها في سخرية لاذعة:

- هنيئاً للجغرافيا بكعبك العالي يا مدام!. وأنت إلى أين؟ قالت إنني لم أعتزم أمراً. وهذا يتوقف عندي على أشياء كثيرة

فكرّ على عقبيه ورجع يقول لنفسه: أشياء كثيرة! طبعا. طبعا! ومن يدري فهي من يدري أيضاً. . . لا. لا. يجب أن أغادر الديار وأفلت من (مأموريات كثيرة) قبضتها. . . وظل يأتمر بها مع نفسه وانتهى بأن قال (ستحسبني رحلت فلأراقبْها إذن. . . لأراقبْها أنا)

. . .وتتلمذ حينا من الدهر على (شرلوك هولمز وأتاحت له الظروف فرصاً باهرة ما هذا: إنها في السيارة والسيارة تنهب الأرض نهباً إلى (المحافظة)!. . . الله! الله!. . . إن السيارة تطير بها إلى الوزارة!. . وزارة الداخلية!! الله أكبر! ما كان أصدقك يا مدام سرمِزِلْ!!. . ما هذا أيضاً: إن السيدة لم تنتظر في غرفة الانتظار. بل انفتح لها رِتاج الوزير فور الساعة!!. . . لا. لا، إنها ذات عهد بتلك المعاهد بلا مراء. . يا لله!. . ماذا كان مصيره لو هوى في ذلك الشرك. . ولو لم توح السماء إلى الناس فيخطئوا مرةً واحدةً ويضعوا بجانبه (المنقذة سرمِزِلْ)

وهكذا بعد أن اطلع عليها ولى فراراً وملئ منها رعباً

وكان قصره في الريف يشرف على عتبات جنيف! وكان اتصال البلد الذي هو فيه بالبلد الذي فيه عصبة الأمم يُسبغ عليه من جو الدبلوماسية ومن مراسيمها، وكانت أول دعوة وجهت إليه دعوة المركيز (دي بريل) وهناك. . . هناك. . ماذا. .! هنا ألفى نفسه وجهاً لوجه أمام من؟ أمام المدام دي نيج نفسها. . بلى، إنها هنالك تقتفي آثاره فيمن تقتفي آثارهم، ما في ريب، ولم يكن بد من أن يتحدثا فتحادثا

- أنت هنا يا مدام؟ أية مصادفة! أية مصادفة!. فحدقت في عينيه، وكان جَلدها قد وهى، بل كان قد انتهى، وقالت:

- لا ليست مصادفة. ألم تقل لي إنك قادم إلى جكس؟ قال:

- كم أنت ظريفة يا مدام! وأظنك لهذا جئت إلى جنيف؟ وشرع يتهكم فجذبته بقوة وقالت:

- لا تسخر مني وقل لي هنا. . هنا على الأقل. . لماذا كنت تتخلص مني؟ وحارت الدموع في مآقيها كالسحاب عندما يتجمع في زوايا السماء الصافية. فجرؤ صاحبنا وتشجع وقال:

بل أجيبي أنت

س: ماذا كنت تصنعين في المحافظة في 10 يوليو؟

ج: في 10 يوليو؟. . دعني قليلاً أفكر. . في 10 يوليو ذهبت إلى المحافظة أبحث عن جواز سفر إلى جنيف. . لأحضر إلى هنا. . قريباً منك

س: وفي نفس اليوم بوزارة الداخلية؟

ج: كنت أعرف الوزير فقصدت إليه أطلب تصريحاً بزيارة عصبة الأمم. وقالت (لكأنك قد تجسست علي). . . (إنك إذن من رجال البوليس)

قال: كلا يا سيدتي، لست أنا. . . ومسح جبينه وهو يتفصد عرقا، وأضاف: ولا أنت أيضا

- إذن هل قال لك أحد شيئاً؟ أو صدقت الذي قيل؟

ولم يكن يقيله من عثرته إلا أن يقول - كالشهود - الحق، وكل الحق، قال: (مدام سرمِزِلْ) فتنهدت الحسناء وقالت: (أفتصدق تلك الفرية فتلوث هذه التي كنتَ. . . التي كنتَ.)

- التي كنت أحبها، ومازلت أحبها كثيرا، كثيراً جدا، جدا، أما هي فلن يتفتح لي قلبها أبدا. . .

أفرَخ روع المدام دي نيج، وشاعت في وجهها نضرة النعيم، وتمشيا معاً في ممر يعطره أرج الربيع، لكأنهما الفكرة البديعة تروح وتغدو في خيال الشاعر. قالت: أرأيت إلى هذا الكمِّ الذي لم يتفتح بعد عن الزهرة! انظر ماذا فعلت بي. . . لقد لوثتني؛ فهل أهبك بعد هذا قلبي؟ خذ هذا الكم ذكرى من ذكرياتي. . . لقد وقع ولكن أثره ما يزال

فأخذ الكم بقوة كأنه ينزعه وقال: وإذا أنا طهرته بفمي من هذا الأثر أفتغفرين لي؟)

ثم قضم بأسنانه لفائفه فبدا الطلع من ثناياها وضيئاً مشرقا. قال: (أما الزهرة يا سيدتي فلم تمس بسوء. فهلا تغفرين؟) وازدحم الدمع في موقيه كطفل غرير، وتطلع إليها كأنه يلتمس منها أن تهبه الحياة، فأطرقت في دلّ وخَفَرَ وقالت: (أما الزهرة فأنها لك) ثم عادت لتقول: (لكن عليك أن تغسل شفتيك قبل أن تقبلني)

هنري بردو

درامة من أسخيلوس

الفرس

للأستاذ دريني خشبة

اشترك أسخيلوس في الحروب الدامية التي نشبت بين فارس وهيلاس، وكان ميدانها وطنه والبحار المحيطة به، وقد اشترك كذلك في موقعة سلاميس البحرية التي تحطم فيها أسطول إجزرسيس ثم ظل متصلا بالجيش اليوناني إلى ما بعد انتصاره في بلاتيه وميكالي؛ ولذلك تعتبر هذه الدرامة مصدراً هاماً من مصادر هذه الحروب، ويعدها مؤرخو الأدب اليوناني أصدق مما ورد في تاريخ هيرودوتس بصدد الحرب الفارسية. ذلك لأن أسخيلوس كان شاهد عيان لوقائع هذه الحرب بينما كان المؤرخ اليوناني ما يزال طفلا لا يزيد عمره على خمس سنوات. وقد مثلت الدرامة بعد موقعة بلاتيه بسبع سنوات

- 1 -

ينقلنا أسخيلوس إلى فارس سيدة الأرض، ويطوف بنا دارات عاصمتها (سوس) حتى نقف عند القصر الملكي المنيف، مقر الأكاسرة، وقلب الإمبراطورية النابض. فنحن إذن بعيدون عن ميادين القتال في البر والبحر، لا نشهد الطعن والضرب، ولا نرى إلى فتك الحراقات اليونانية بأساطيل الأعداء، ولا تهولنا هرولة الكتائب الفارسية فوق تلك القنطرة الضخمة من السفن المتراصة بين عُدْوَتي الهلسبنت تنساب فوق بطائح هيلاس كأنها سيل العرم. . . ثم لا يبهرنا عاهل العجم البائس وقد وقف فوق أكمة تشرف على أبيدوس وما يجاورها من شطئان الهلسبنت، يطل على جيوشه الجرارة تعبر البحر الزاخر. . . ويبكي. . . فإذا سأله وزيره: (فيم بكاؤك أيها الملك؟) شهق شهقةً عميقة وقال: (أنظر أيها الوزير: هذه طروادة! وهؤلاء جندي! ويبكيني ألا يكون أحد من هذه الألوف عائشاً بعد حقبة واحدة من الزمان! أليست هذه طروادة؟؟)

لن نرى إلى شيء من ذلك، ولكن نرى عصبة عتيدة من مشايخ فارس وساداتها النُّجُب يتناجون في حديقةْ القصر، متلهفين إلى خبر يذهب بهذا القلق العظيم الذي يساورهم من
جراء انقطاع أخبار الجيش. . . وهم يذكرون دارا الأول، والد الإمبراطور، بخير ما يذكر به ملك شاد دعائم ملكه على العدل، وقاد جيوش بلاده إلى النصر، ورتع في ظله رعاياه في بحبوحة من العز وبلهنية من النعيم. . . وهم كذلك يصفون لنا أبهة جيش أجزرسيس وعظمة جحافله، وهذه الآلاف المؤلفة من الفرسان والمشاة والكماة والرماة، من مشارق الإمبراطورية الكسروية ومغاربها. . . من حفافي السند إلى ضفاف النيل، ومن أعالي دجلة والفرات إلى أسافل النوبة وإثيوبيا. . .
وهم لا يخفون ما يساورهم من قلق، ويخامر قلوبهم من شك في مصير هذا الجيش العرمرم الذي قذفت به آسيا ليهلك في ربوع أوروبا، ويجوع ويعرى في مشارق جبالها، وتلتقمه الأسماك في بطون البحر المضطرب. . . لاسيما ومنهم من نصح للإمبراطور ألا يجازف بهذا العدد العديد ضد هيلاس، فكان جوابه أن أقام إلى جانبه رجلا من أمنائه يقول له في كل لحظة: (مولاي! لا تنس الأثينيين. . . مولاي: لا تنس الأثينيين)
- 2 -
وبينا هم في تناجيهم إذ تقبل آتوسا - الإمبراطورة الأرمل - زوجة دارا، وأم إجزرسيس، والتي قست عليها المقادير فناءت على قلبها بأحزان إمبراطورية بأسرها!!
تقبل آتوسا فيصمت القوم، ويهرعون إليها يسائلونها عما آل إليه أمر الجيش، وهل أفاءت عليه الآلهة بالنصر المرجو والغلب المنشود؟
فتقول آتوسا: (مواطنيّ الأعزاء، وأبنائي الأوفياء! تسائلونني عما أقبلت فيه، وهرعت إليكم من أجله. . . فوالله لقد ضقت بغرفات هذا القصر على سعتها، وخلتها جحيما على أنها جنة نعيم، أليس فيها كنت أحلم بالخلد في حضن دارا، وأجيل الطرف من شرفاتها معه على أمة سعيدة هادئة ناعمة، عيشها مخفرج، وجانبها عزيز، وسلطانها قوي، وظلها ممدود، وسؤددها يطوي السهل والجبل، وثروتها زاخرة وافرة؟! فماذا أرى اليوم؟ أليس ابني قد جمع خير كل ذلك، ومضى لطيته التي لا يعلم ما وراءها أحد؟ هاهي ذي الرياح تصفر في هذا القصر الذي نأى عنه سيده، فكأنه خراب على رغم خزه وديباجه، وشتى تماثيله وتصاويره. . . ويحي! لقد جئت إليكم يا سادات فارس ألقي إليكم بعبء الوساوس التي تجثم على صدري، وتثقل كاهلي، فهل أجد لديكم الكن الأمين، والمشير الوفي،
والناصح الذي إذا نصح أخلص النصح؟)
- (أيتها الملكة؟. . . نحن عبيدك وبعض رعاياك. . ولك في أعناقنا الولاء والوفاء. . . تكلمي بما تشائين وثقي من إخلاصنا ومحض نصحنا)
- (إذن فما هذه الأحلام المروعة والرؤى المفزعة التي تجتاحني كل ليلة حين آوي إلى الفراش، منذ أن انطلق ابني بهذا الجيش اللجب ليغزو بلاد اليونان؟ على رؤيا أمس لم تكن مثلها رؤيا قط. ذلك أنها كانت واضحة بينة حتى ما تكاد تحتاج إلى تفسير أو تفتقر إلى تأويل. . . رأيت فتاتين هيفاوين ممشوقتي القد، إحداهما دورية ناهدة تميس في حلي وفي حلل؛ والأخرى فارسية سمهرية، تختال في برد ووشى وأفواف. . . رأيتهما تقبلان إحداهما على الأخرى، ثم تأخذان بتلابيب بعضهما البعض، ويكون شجار بينهما، لأن إحداهما بغت على أختها، وحاولت الاستئثار بدارها من دونها. ورأيت ابني إجزرسيس مشرفاً عليهما من مرتقى صعب، فلما استحر القتال بينهما نزل إلى حيث حاول أن يجعل نيره في عنقيهما معاً. . . وذلت إحداهما واستكانت، ولكن الأخرى، ولكن الدورية أبت وأنفت، ودفعت النير بكل ما أوتيت من قوة، فغاصت الفارسية في لجة من دم، وتحطمت عربة ولدي الإمبراطور فوقف حيث كان قبل أن يتدخل بينهما، وأخذ يبكي وينشج، ويشق الأردان ويمزق الجيوب. . . وهنا وقف إلى جانبه أبوه. . . الإمبراطور المبكي، دارا، وطفق يرثي له ويهون عليه
هذه رؤياي يا سادات فارس النجب. . . ولكن ما تزال بقية. . . فإني حينما هببت من نومي، عسيت أن تكون رؤياي أضغاث أحلام، فقلت أتوجه إلى مذبح الآلهة مانعة الضر، أقرب لها وأضحي، عسى أن تنفعنا، وما كدت أغمس يدي في النبع المقدس، وأنثر بخور الند في المجمرة، حتى لمحت نسراً مهيض الجناح لائذا بقدس أبوللو. . .

ثم ينقض عليه باز باشق، فما يزال به يوسعه ضرباً وتجريحاً حتى ينتفض النسر ويلوذ بالفرار. . . ويلاه! إن الرؤيين. . . في المنام وفي اليقظة، تفسر إحداهما الأخرى، فيا ترى؟ هل هما نبوءتان على إجزرسيس؟ وهل أعيش حتى أرى ولدي إن كان ما يزال حياً يرزق؟!)

- 3 -

وشده سادات فارس، ونظر بعضهم إلى بعض، ثم أشاروا على الملكة المحزونة أن تذهب إلى قدس الآلهة، فتقرب لها وتضحي ثم تسأل عن رؤياها، وتتضرع أن تتلطف الأرباب بابنها وجنوده ومملكته، إن كانت الرؤيا حقاً. . . وإلا. . . فلترق الخمر باسم دارا العظيم الذي زارها في رؤيا أمس حين وقف إلى إجزرسيس يرثي له ويهون عليه، فإذا بدا طيفه لها فلتسأله أن يبارك ابنه، ويغدق البركات على فارس كذلك

ويتحول مجرى الحديث فجأة، فتسأل الملكة عن هذه الحرب ما سببها؟ ويجيب السادات أن الإمبراطور أراد أن تخضع له أثينا

- (فإذا خضعت له أثينا؟)

- (خضعت له هيلاس كلها!!)

- (وهل هيلاس من القوة بحيث تحشد لمحاربتها كل تلك الجحافل؟)

- (وكيف لا وهي أقوى دولة في العالم بعد فارس؟ وهل نسينا أنها دمرت جيش دارا؟)

- (أو غنية هي؟)

- (غنية جدا، وفي بطنها ثروة من الفضة لا تقدر بثمن)

(لها بقية)

دريني خشبة

البريد الأدبي

سجموند فرويد في تمام الثمانين

يحتفل العالم هذا الأسبوع بالعالم السيكلوجي الكبير سجموند فرويد لبلوغه الثمانين. . . وقد يبتسم القارئ حين يذكر بيت شاعرنا العربي الخالد (إن الثمانين وبُلّغتها. . . . . .) لاسيما إذا علم أن فرويد المحتفل به، والذي يعتبر واحداً من أعظم علماء العصور الحديثة إن لم يكن أعظمهم جميعاً، هو رجل ضعيف البنية هزيل الجسم، قد تحالفت عليه الأمراض. ولكنه بالرغم من ذلك يملك عقلاً جباراً لا يكل من التفكير، ولا يفتر نشاطه أمام ما ينتاب بدنه من الأوصاب

ولد فرويد في مايو سنة 1856 من أبوين يهوديين في مدينة فريبرج من أعمال مورافيا، والإمبراطورية النمسوية إذ ذاك في عنفوان مجدها. وبعد أربعة أعوام ذهب به أبوه إلى فينا حيث تعلم في مدارسها وقضى صدر شبابه في ربوعها؛ ولما بلغ من العمر التاسعة والعشرين غادرها إلى باريس (1885) بقصد التزود من الثقافة العالية التي كانت باريس مثابتها في هذه الآونة - ولكنه - لأمر ما - لم يلبث في باريس غير سنة واحدة عاد أدراجه بعدها إلى فينا

وكانت نفسه تجيش بآمال كبار، وكان ينظر إلى أساليب التفكير السائدة في أوروبا في ذلك الوقت كأنها أصبحت أساليب عتيقة لا تليق برقي الإنسانية التي تتيه بعصرها الحديث على جميع العصور القديمة والوسطى. وكانت عوامل الثورة في نفس فرويد الشاب تنفجر في الفينة بعد الفينة، ولكنها كانت تكبت بقوة وقسوة تلقاء التيار الرجعي الجارف الذي كان يكتسح النمسا في ذلك الوقت. فلقد حدث أنه ألقى أولى محاضراته بعد أن عاد من باريس عن الهستريا ومسبباتها النفسية الباطنية، وكان ذلك في جمعية الأطباء بفينا، فما كاد ينتهي من محاضرته حتى ثارت في الصالة عاصفة هوجاء من الضحك منه والسخرية به وبآرائه، وحتى انصرف العلماء الأفاضل يتهكمون به ويلمزون آراءه لمزاً شديداً قاسياً! ولقد كان لهذه الصدمة صداها الشديد في نفسه، فآثر أن يعتزل هذا الجمهور الفظ من العلماء الجهلة - إن صح هذا التعبير - وأن يعمل للعلم وحده بعيداً عن ضجيج هؤلاء الأصنام، وبمعزل من صخبهم. بيد أنه لم يسلم، برغم هذه العزلة من خصومه ولدد يثيرهما عليه كثير من الدوائر العلمية وغير العلمية لا بحجة آرائه المتطرفة فيما هو بسبيله من مباحث ونظريات فقط، ولكن بسبب يهوديته أيضاً

ولم يثر أحد من العلماء حوله من الخصومة مثل ما أثار فرويد، ولكنه ألح بآرائه على خصومه إلحاحاً عجيباً حتى سحرهم بها وحتى جعلهم من أشد المعجبين بها والمتحمسين لها. وبحسبك أن تعلم أنه ما من قصة حديثة أو درامة يقدمها كاتب إلى مسرح من المسارح إلا ولفرويد أثر كبير في صاحبها. فليس في العالم الآن كاتب لم يدرس نظريات فرويد في العقل الباطن، وليس في العالم الآن باحث سيكلوجي أو مرب لم يهتد في أبحاثه أو فنه بمجهودات فرويد وتحليلاته العجيبة لهذه النفس الإنسانية التي لم نكن قبله نعرف منها إلا جانباً قليلاً:

ولقد كتب فرويد - هذا الأسبوع - بمناسبة بلوغه الثمانين - كلمة جاء فيها:

العقل الإنساني في نظري عبارة عن جبل من الجليد طاف في الماء، لا يبرز منه (. . .فوق السطح غير سبعه فقط، أما الأسباع الستة الأخرى فهي دائماً تحت السطح وكأنه يريد أن يقول إننا لا نعرف من العقل إلا سبعه فقط، أما ستة أسباعه الأخرى - وهو ما يسميه العقل الباطن - فمضمرة، لا نعرف منها إلا القليل. وفرويد على حق في هذا التشبيه الغريب للعقل لأنه هو قد أثبت أن العقل الباطن إن هو إلا خزانة عجيبة اختبأت فيها غرائز الإنسانية الأولى وميولها الفطرية التي هي تراث الأحقاب والآباد والتي تطفو على السطح فتكون ذات أثر بليغ في عقلنا الواعي

وبالرغم مما لهذا الباحث العبقري من آراء ونظريات في الإيحاء والأحلام والاستهواء والمركبات والعُقد النفسانية فأنه ينفي عن نفسه في كلمته التي أشرنا إليها أنه صاحب نظرية أو مذهب أو أنه استحدث علماً جديداً. . . فهو يقول: (يخطئ من يزعم أنني صوفي أعطف على الإنسانية أو أحب الخير للبشر، أو أنني عالم صاحب نظريات استحدثتها بعد أن كانت خافية على الناس. . لا. . لست شيئاً من ذلك. . بل أنا أدع الناس يحلمون أحلامهم وقد أتركهم يستغرقون أنفسهم في مستقبلهم. . . ثم أقف منهم عن كثب ألاحظ وأشاهد وأتفرج. . . ثم أقيد ملاحظاتي، وأقارن وأعلل وأؤلف!)

وعلى ما بلغه فرويد من الثقافة العالية فأنه ما يزال يهزأ من مدارك الإنسان ويدعوها قشورا لا غناء فيها. . . أو فيها غناء قليل: (ما ثقافتنا هذه؟ ماذا عرفنا من النفس الإنسانية؟ ماذا كشفنا من سر هذه الحياة؟)

والعجيب أن فرويد ما يزال مؤمناً بالإنسانية إلى حد كبير، وهو يتشوف لها عن مستقبل باهر برغم تلك المجازر التي تلطخ وجه الأرض بالدماء من أجل أطماع وضيعة. وهو يقول إن الحرب ستعجل بهذا المستقبل الجميل، لأنها وحدها ستثير الكراهية في نفوس الناس منها فيمقتونها إلى الأبد، ويعدونها كلما فكروا فيها نكسة منهم إلى الوحشية

ولقد عاش فرويد مخلصاً لأبحاثه إخلاصاً مدهشاً، فكان يكب عليها إكباباً يذيب الصبر الجميل، وكان يمقت كل من يصرفه عنها إلى غيرها، وكان كثيراً ما يتمثل بما كان يقوله أناطول فرانس إذا حدثه أحد بهراء لا شأن لأبحاثه به:

(? '

ولعل أحسن مكافأة لهذا الرجال العالم أن تجتمع لجنة لتكريمه مؤلفة من بعض خصومه بالأمس، وأشد المعجبين والمتأثرين به اليوم، نذكر منهم الكاتب العالمي الأشهر هـ. ج. ولز، ورومان رولان، وستيفن زديج، وجول رومان، وتوماس مان. . وغيرهم وغيرهم. . . ولا ندري هل تشترك كل من روسيا وأمريكا في تكريمه؟ فهو معجب بروسيا وقد تأثر إلى حد كبير بتحليلات دستويفسكي وإضرابه. أما أمريكا فما نحسبها تشترك في هذا التكريم، فهو قد هجا مدنيتها كثيراً، ولم يفته أن يلذعها في كلمته الأخيرة من طرف خفي

ويقال إن لجنة تكريمه ستقترح على لجنة جائزة نوبل أن تمنحه جائزتها عن هذا العام لمناسبة بلوغه الثمانين. ونحن نشك في أن تستجيب لجنة نوبل لهذا الرجاء، فقد عرف أعضاؤها بكراهية فرويد، وهذا هو محل الدهشة

دريني

المعجم اللغوي الوسيط

اجتمعت بمكتب صاحب السعادة وزير المعارف لجنة المعجم اللغوي الوسيط للمرة الأولى وقد رحب بالأعضاء سعادة الوزير وألقى فيهم الكلمة الآتية: -

أحييكم أطيب تحية، وأشكر لكم تلبية دعوتي للاشتراك في عمل المعجم اللغوي الوسيط،
وقد أردت أن أنتهز فرصة الاجتماع الأول لأبين لحضراتكم مبلغ عناية الوزارة وحرصها على هذا العمل الجليل، ولأتشرف بالتعرف إلى من لم يسبق لي رؤيته من حضراتكم وإنه لحظ سعيد لي فوق كونه حظا عاما أن يشرع في هذا العمل وأنا وزير المعارف، فقد عنيت بهذا الموضوع من سنوات، وكنت أنادي بضرورة وضع هذا المعجم، فهو واجب وطني يفرضه الإخلاص للغة والعلم والدين
ومما يزيدني سرورا أن يكون في تنفيذها هذا المشروع استجابة لقرار المؤتمر الإسلامي الذي انعقد في سنة 1930، وتحقيقاً لرغبة العالم العربي أجمع. وإنه ليحق لمصر أن تفخر بتلبيتها نداء العالم العربي فوق ما فيه من فائدة خاصة لها
وإني لأعد هذا العمل من أجل الأعمال وأخلدها، بل اعتقد أنه لا فرق بين خلود هذا العمل الجليل وخلود الأهرام إن لم ير بعض حضراتكم أنه أعظم، ففي تحقيقه احتفاظ بهذه اللغة الشريفة، لغة القرآن وتهذيبها من الدخيل، وتحقيق لوحدة الأمم العربية بهذه الوسيلة وهي المعجم
وقد ساعدت العناية الإلهية مركز مصر الجغرافي أن تكون مصر زعيمة الثقافة الإسلامية في العالم العربي، وقد رضيت لها الأمم العربية هذه الزعامة وأقرتها
وإن المشروع الذي أريد أن نبدأ به هو هذا المعجم الوسيط مترسمين في وضعه المنهاج الذي ذكر في قرار تأليف اللجنة حتى يسد حاجة طلاب اللغة ورجال الثقافة من أمثال خريجي دار العلوم ومن في طبقتهم، فإذا ما وفقكم الله وأتممتم المعجم الوسيط شرعتم في وضع معجم مدرسي للجيب يسد حاجة الطلاب المبتدئين، وبعده تفرغون لمعجم بسيط بجميع شوارد اللغة ويسد حاجة الأدباء والعلماء. ثم تأتي بعد هذا مرحلة أخرى هي وضع موسوعة عربية تكون مرجعاً عاماً يتناول الفنون والعلوم والآداب وغيرها، فإذا وفقنا إلى إنجاز هذا كله حق لنما أن نفخر بأن مصر أصبحت بحق عضواً نافعاً في الهيئة الاجتماعية، وأنها قد أدت رسالتها كاملة عن اللغة العربية
هذا هو برنامج وزارة المعارف الذي أرجو أن يكون برنامجاً قومياً يأخذ كل وزير فيه بنصيب، وهذا هو اعتقادي وأملي الذي أرجو أن يتحقق على أيديكم وبفضل معونتكم الصادقة حتى يكون لكم شرف وضعه وإتمامه، ولي بعدكم الثواب من الله على مثل هذا
العمل الجليل
وإن الوزارة حريصة على أن تيسر لكم مهمتكم وهذا هو صديقي وكل وزارة المعارف خير ضمان لتنفيذ ما تطلبون فإن لي فيه الأمل الكبير والثقة العظيمة
كتاب عن مكيافيللي
صدر أخيراً كتاب جديد عن مكيافيللي وعصره بقلم الدكتور اركسين موير وقد صدرت كتب كثيرة عن مكيافيللي وعصره، أهمها وأشهرها المؤلف الجامع الذي وضعه المؤرخ الإيطالي فيلاري عن (حياة مكيافيللي وعصره) ولكن شخصية مكيافيللي وآراءه السياسية والاجتماعية مازالت تشغل البحث في عصرنا؛ بل إن فكرته في الدولة وفي الحكم تتبوأ مكانة هامة. ذلك أن فكرة الدولة تغدو في أوربا مسألة اليوم، ولاسيما الدولة التي تتجسم في شخص طاغية كما هو الشأن في ألمانيا وإيطاليا. ومن المعروف أن الفكرة الفردية قد قضى عليها اليوم في ظل النظم الطاغية الجديدة كالهتلرية والفاشستية، وأن فكرة الدولة تسود كل شيء في هذه النظم، وأن الدولة وكل مرافقها وقواها هي أداة في الأيدي الطاغية التي تشرف على النظام وتحركه؛ ونحن نلمس في فلسفة مكيافيللي أصول هذه النظريات الطاغية، فالكتابة عنها اليوم مسألة لها خطرها. ومما يذكر في ذلك أن موسوليني طاغية إيطاليا درس في شبابه كتاب مكيافيللي (الأمير) دراسة عميقة، وأنه مازال يردد اليوم (أن مكيافيللي يعيش اليوم أكثر مما كان يعيش منذ أربعة قرون) ومن أقوال مكيافيللي المأثورة في كتابه السالف قوله: (إذا كان الحكام جميعاً من الطراز الصالح فعليك أن تفي بعهودك؛ أما وهم خونة لا يفون بعهدهم فعليك من جانبك ألا تفي لهم بعهد)، وهذه النظرية تشتد وطأتها اليوم في أوربا
والواقع أن مكيافيللي أراد في كتابه أن يحلل نفسية أبناء وطنه في عصره وأن يحاول

بملاحظته الدقيقة أن يجد ذلك الطراز من الطغاة الذي يستطيع أن يجمع الكلمة، وأن يسبغ على الوطن نعمة الحكم المستنير؛ ولكن الآراء والمبادئ الجافة الخطرة التي تتخلل مباحث مكيافيللي قد طبعت عقيدته في الحكم بطابع أسود، وجعلتها مضرب الأمثال للسياسة الفادحة الخطرة؛ على أن بعض الباحثين يرون أن هذه النزعة ترجع إلى حكم مكيافيللي على مجتمعات عصره، والى اعتقاده بأن الإنسانية تقوم على مبادئ وضيعة، وهو اعتقاد لم
يشاركه فيه كثير من أعلام عصره ولاسيما المؤرخ الكبير جيشارديني
ويستعرض الأستاذ موير في كتابه آراء السياسي الفيلسوف في الدولة والحكم ويقارنها بآراء جيشارديني؛ ثم يورد كثيرا من آراء مكيافيللي في خطبه ورسائله التي تلت كتابه (الأمير)، ويستخلص من المقارنة أن مكيافيللي قد عدل في أواخر حياته كثيرا من آرائه، وأنه كتب الأمير في وقت نقمة ويأس، وأن هذه الروح أملت عليه كثيرا من ألاراء المتطرفة التي عدلها فيما بعد
العالم المسرحي والسينمائي
آراء فنانين ارلنديين في الممثل والمخرج المصري
لناقد (الرسالة) الفني
أوه يا صديقي! إنني سعيد حقاً إذ أقضي ليلة في مصر أشهد فيها الممثلين المصريين) يقومون بتمثيل رواية معروفة كان من حظي أن أقرأها وأن أشهد تمثيلها قبل ذلك في باريس في الهواء الطلق.)
هذا ما نطق به المستر هيلتن ادواردز مخرج فرقة (دبلن جيت) الارلندية التي عملت على مسرح الأوبرا الملكية خلال شهر مارس الماضي بعد أن صافحني في فترة الاستراحة الأخيرة من رواية السيد التي أخرجتها الفرقة القومية المصرية في الأسبوع الماضي. ولقد بادرته بالسؤال: (وما رأيك في تمثيل المصريين؟)
فأجاب بحرارة (اسمح لي يا صديقي أن أقول لك إن المصريين يتمتعون بميزة طيبة، هي جمال الصوت، وإنه ليخيل إلي أن اللغة العربية من أصلح اللغات للمسرح. إني أطرب لها؛ ولكم وددت لو أعرف العربية حتى يكون استمتاعي بالتمثيل أكثر منه الساعة)
إن بين الأفراد الذين يعملون أمامي مجموعة قوية، مما يدل على أن في المصريين) استعداداً قوياً للتمثيل، فلقد علمت أن ليس في مصر معهداً للتمثيل، بل إن نبوغ هؤلاء الأفراد نتيجة جهد شخصي، واستعداد فطري، وهذا فخر كبير لهم. ولقد قرأت هذه الرواية وشهدتها قبل ذلك تمثل، ولكن لم أدرسها ومع ذلك أستطيع أن أقول إني (مرتاح جداً إلى قدرة الممثلين المصريين
قلت: هل لك أن تدلي برأيك في أداء الممثلين الذين يعملون أمامك الآن، وعن ملاحظاتك؟ إنهم يرحبون بكل ملاحظة تبديها وكذلك قرائي يودون أن يعرفوا رأيك
فابتسم المستر ادواردز وقال: (قلت لك إنني لا أعرف العربية فحكمي لن يكون صادقا. على أنني أستطيع أن أقول إنني كثير الإعجاب بالسيدة التي تقوم بدور شيمين حبيبة السيد (زينب صدقي) إنها ممثلة قديرة ويبدو لي أنها تفهم دورها تمام الفهم، وهي تجيد مواقف الكبرياء، وأرجو أن تبلغها إعجابي)
وإنني كذلك معجب بالملك (منسي فهمي) وأعتقد أنه ممثل قدير، وكذلك أنا معجب) بالسيد
ومع جهلي باللغة العربية أحس أنه يجيد الإلقاء، وأنا مرتاح إلى تمثيله. ،(حسين رياض) والدون جوميز (زكي رستم) أدى دوره يحتاج إلى الصلف والكبرياء أحسن أداء، وهو (يليق لهذه الشخصية
قلت وما رأيك في السيدة التي تمثل دور ابنة الملك (عزيزة أمير)؟ فأجاب (إنها لا تليق لهذا الدور، وإنها تبدو في مستوى أقل كثيرا من مستوى الممثلة التي قامت به في باريس حتى ليخيل إليّ أنها لم تفهم دورها)
ثم سألته عن رأيه في الإخراج فأجاب (هل من الضروري أن أجيب عن هذا السؤال؟) فقلت أجل، إنه يهمنا كثيراً أن نعرف رأيك. . إن إخراجك قد حاز إعجاب جميع رجال الفن والأدباء من المصريين، وإن من دواعي السرور أن تفصح لنا عن رأيك
أطرق المستر ادواردز قليلا ثم رفع وجهه وقال: (لقد حدثتك من قبل عن رأيي في

طريقة الإخراج التي أفضلها. لقد جعلت السينما أي جهد في إخراج الروايات بطريقة نقل الطبيعة ومحاكاتها عبثاً، لأن مجال المسرح محدود؛ والأمر على العكس من ذلك في السينما، ولهذا وجب علينا ألا نعنى بالأشياء الحقيرة والتفاصيل فهي مجال السينما، ولهذا فأنا غير مرتاح إلى اتباع طريقة الريالزم؛ وأفضل الطريقة الإيحائية لأنها تجعل رواد المسرح يشتركون مع الممثل والمخرج في نجاح الرواية والاهتمام بحوادثها، بدل أن تعرض عليهم عرضاً سهلا يبعث النوم إلى جفونهم، ولذلك لم يعجبني إخراج هذه الرواية)

إن المسرح الحديث يعتمد أكثر ما يعتمد على الإضاءة؛ ولقد رأيت كيف عاونتني في) إخراج هملت، وروميو وجولييت وغيرهما، ولكني أرى مخرجكم (زكي طليمات) لم يقصد من الإضاءة إلا أن يكشف المناظر والممثلين للنظارة، ولم يستخدم الإضاءة في غرض أو فكرة خاصة، واستخدامه للضوء يظهر في موقف واحد فقط بين السيد وحبيبته)

وقد يكون استعمال المناظر المتعددة والستائر الكثيرة مما يلجأ إليه المخرجون) الفرنسيون، ولكني أرى أن ما يصلح لفرنسا يجب ألا يفرض على مصر أو غيرها، بل يجب على المخرج أن تكون له شخصية تبرز في إخراجه وتعبر عن نفسيته، وتكون رجع الصدى للبيئة والقومية التي هو منها؛ ويبدو لي جلياً أن مخرج هذه الرواية لم يهتم بدراستها دراسة إخراج)

وكان أول ما صرح به المستر ميكائيل ماك ليمور الممثل الأول لفرقة (دبلن جيت) وواضع تصميم مناظر الروايات، إعجابه بممثل شخصية الملك (منسي فهمي) فهو في رأيه ممثل قدير، وقد أبدى إعجابه أيضاً بالسيدة زينب صدقي في دور شيمين، وهو يتفق مع زميله في أن للمصريين صوتا جميلاً وأن طريقتهم في الإلقاء الشعري بديعة وقد سألته عن رأيه في الإخراج فأجاب (إن هذا اختصاص زميلي المستر ادواردز فهو يستطيع أن يحدثك عنه حديثاً طيباً، ولكن أقول لك أنه يجب على الفرقة أن تعنى باختيار المناظر وعملها فتضع تصميما لكل منظر تختاره بحيث تسود المناظر روح واحدة وطريقة واحدة. وانتهاج مثل هذا السبيل يعاون المخرج والممثلين على الوصول إلى غور نفوس النظارة.)

إن فرقتنا قبل أن تخرج أي رواية تعهد بها إليّ وإلى المستر ادواردز فنقوم بدراستها) ونضع الفكرة الأساسية التي سيقوم عليها الإخراج وبعدئذ أفكر في وضع تصميم مناظرها (ولو لجأت الفرقة المصرية إلى هذه الطريقة لما رأينا أسلوب تصوير منظر يختلف عن أسلوب المنظر الآخر

فن السينما

بقلم يوسف تادرس وظريف زكي

مقدمة

لا حاجة بنا إلى التنويه بانتشار فن السينما حتى طغى على المسرح، ولا بانشغال الناس به، من نظارة يقبلون على ارتياد دوره، إلى ممثلين يعرضون أنفسهم للظهور على شاشته البيضاء، إلى أدباء ينشئون له القصص والروايات

ذلك على حين أن فن السينما لا يزال في مهده لم يشتد عوده، وأن قواعده لم تخرج إلا بقدر من طور مجرد الإحساس بماهيتها إلى طور الاستقرار والتحديد

على أن ذلك القليل من قواعده الذي استقر وتحدد، لا يزال جمهور النظارة يجهله كل الجهل، ولا يزال الأدباء بعيدين عن درسه وهضمه. ولو عرفه الجمهور ولو بعض المعرفة لزاد استمتاعه بمشاهدة آثاره، ولو درسه الأدباء وهضموه لأفادوا منه الغنى ونباهة الذكر

ونحن إذ نكتب هذا الكلام نمثل أمام أعيننا المشاق التي لا بد أن تكابدها الآن شركة مصر للسينما في مراجعة الروايات التي قدمت إليها في المباراة التي عقدتها، ونتصور الجهاد الجهيد الذي يبذله رجالها في درس تلك الروايات وتنسيقها وإعدادها

لذلك وطدنا النفس وعولنا على بيان قواعد فن السينما والتعليق عليها بالشرح والتمثيل على صفحات (الرسالة) الغراء. متوخين الموضوع قبل كل شيء، نابذين المعقد الجاف من اصطلاحاتها، ساعين وراء فائدة أوفر عدد من الجمهور

وقد وقع اختيارنا على كتاب (ف. أ. بودوفكين) عن حرفية الفلم واتخذناه نبراساً نهتدي

به في بحثنا، وكنزاً نغترف منه ونجود به على غيرنا
بودوفكين
وإذا اخترنا كتاب بودوفكين، فلأنه - على وضوح معناه وسهولة عباراته - قد فتح به فتحاً هز أرجاء القارتين الأوربية والأمريكية، ولا غرو فقد تضافرت جميع العوامل لتنصيب بودوفكين متشرعاً للفن السينمائي
فأنه ولد ويعيش في روسيا، وكانت روسيا ولاسيما في السنين الأولى التي تلت الثورة السوفيتية، محرومة من الاتصال بالعالم المتمدن؛ وكانت فقيرة في المواد الأولية التي تغذى بها الصحف والمجلات السينمائية، فانكب رجال الفن هناك على البحث النظري وعلى التجارب، فأتوا في هذين الميدانين بالعجب العجاب
وبودفكين يجري في عروقه الدم الروسي، ممتزجاً بالدم التتري، فكأننا به قد جمع إلى المزاج السلافي الذي يفنى في الفن الخالص، ذلك الجموح وتلك الجرأة اللذين قد وسم بهما الجنس التتري
وهو متزوج من ممثلة سينمائية، سعيد في حياته، مستريح البال مطمئن الخاطر، يستنشق في منزله نسيم الفن الذي جعل حياته له. ناهيك من عقل جبار، وإحساس مرهف، وقدرة على تبسيط العلوم الجافة مما لا يجتمع إلا للأفذاذ أمثال بودوفكين وقليل ما هم
(يتبع)
الكتب
الخطرات
كتاب في الأدب والأخلاق والاجتماع
تأليف السيدة وداد سكاكيني
السيدة وداد سكاكيني مربية سورية لها في ميدان الأدب والإصلاح الاجتماعي جولات موفقة، وهذه الخطرات التي خطرت لها في مرافق المجتمع العربي عامة والسوري خاصة لا ريب تشهد أنها شاعرة متألمة لا تملك غير قلمها وسيلة لإظهار ما تشعر به، وهذا القلم يبدو من خلال هذه الخطرات بليغاً صريحاً حكيما عزيزاً، ومن بين الموضوعات الكثيرة التي حفلت بها هذه الخطرات (الفن القصصي) وفيه تبين الكاتبة مقدار اهتمام الغربيين بذلك النوع من الأدب، وتعيب على القصة المعربة أنها لا تتمشى مع تقاليدنا، ولا تصف طرق معايشنا، ولا تتناسب مع أخلاقنا؛ وتهيب بأدباء العربية أن يكتبوا عن بيئاتهم قصصاً يحللون فيها ما يعتور ظواهر الاجتماع من التطور والانقلاب
وتفرغ الكاتبة عواطفها في مقال جميل عن ذكرى النبي الكريم، تنوه فيه بجهوده كنبي وشارع ومثل أعلى لمكارم الخلق؛ وهي ترى أن ما اعتاده المسلمون من الاحتفال بذكرى مولده بقراءة القصة المعهودة لا يفي بالغاية من الاحتفال والتكريم، بل يجب أن يعنى بتلاوة سيرة من طراز يناسب العصر الحديث، توصف فيها الأخلاق المحمدية والتعاليم الإسلامية وما أحدثته من الانقلاب الخطير في تاريخ الإنسانية
أما إصلاح المرأة فترجعه الكاتبة إلى أحوال المدرسة، فهي تصرح بأن الفوضى في مناهج الدراسة تجعل المدرسة عاجزة عن بث روح النشاط والهمة والتهذيب والثقافة في نفوس النشء، بل تجعل التلميذات (يدخلنها صباحاً بقلوب واجفة وأقدام تصطك خوفاً ورعباً، ويخرجن منها مساءً كالعصافير وجدت بعد طول الأسر حريتها المسلوبة)
هذا ما تقوله في وصف المدرسة، ولعلها بهذه الصراحة قد وفقت إلى لفت أنظار القائمين بشؤون التعليم إلى أن الاتجاهات الحديثة في التربية تعنى قبل كل شيء بأن تكون المدرسة مكاناً يحبه التلاميذ ويجدون فيه مجالاً فسيحاً لإرضاء غرائزهم وإظهار مواهبهم وتنظيم رغباتهم في جو
يسوده المرح والاطمئنان
وهكذا وبمثل هذه الروح الطيبة تعالج الكاتبة كثيراً من الموضوعات التي أهمها الأدب العربي، والتجديد في الشرق، والجرأة الأدبية، وشاعرية الخنساء. ونحن نهنئ الكاتبة الفاضلة بذلك الجهد الموفق. ونرجو أن يستجيب المصلحون إلى ذلك النداء الصادق
البريء
عبد الفتاح السرنجاوي

القياس في اللغة العربية
للأستاذ محمد الخضر حسين
عضو مجمع اللغة العربية الملكي
للأديب سيد أحمد صقر

القياس فن واسع الأطراف، متشعب المسالك، يمت إلى كل باب من أبواب اللغة بصلة، ويكاد يجري ذكره عند كل مسألة، ولولاه لضاقت الفصحى على أبنائها، وقعدت بهم عن مسايرة ركب الحياة. لم يؤلف فيه - على ما أعلم - غير هذا الكتاب. وسبب تأليفه أن مؤلفه البحاثة الأستاذ محمد الخضر حسين كان يمر أثناء دراسة لعلوم العربية على أحكام تختلف فيها آراء العلماء فيقصرها بعضهم على السماع، ويراها آخرون من مواطن القياس، وقد يحكي بعضهم المذهبين دون أن يذكر الأصول التي قام عليها ذلك الاختلاف. فرأي فضيلته أن التمسك بمثل هذه الأقوال من المتابعة التي لا ترتاح إليها نفس العالم الحر - ولاسيما أن الكتب التي اعتمد عليها أصحاب هذه الأقوال قد أصبحت في متناول أيدينا - فأخذ يوجه نظره الثاقب إلى الأصول العالية التي يراعونها في أحكام القياس والسماع حتى ظفر بقواعده صريحة أضاف إليها غيرها مما استنبطه أو ابتدعه فكان من ذلك (كتاب القياس). شرح الأستاذ في هذا الكتاب حقيقة القياس، وفصل شروطه، وجمع أصوله وضم أشتاتها، وأبرزها في ثوب قشيب، سهلة القطاف للراغبين، وقدم له بمقدمة رائعة في فضل اللغة العربية ونشأتها ومسايرتها للعلوم المدنية، وحاجاتها إلى المجتمع، وتأثيرها في الفكر، وتأثير الفكر فيها، إلى غير ذلك من الأبحاث الموجزة الشائقة، ثم تكلم عن القياس ووجه الحاجة إليه، وذكر أقسامه وخص منها بالبحث القياس الأصلي وقياس التمثيل، وتكلم عن الأمور المشتركة بينهما كالقياس في الاتصال، والترتيب والحذف والفصل إلى آخر تلك المباحث التي طبق فيها المؤلف مفاصل السداد، وأصاب شواكل المراد، ودل بها على تبحره في علوم اللغة، وتمكنه من ناصيتها. بيد أني كنت أحب أن يطلق الأستاذ ليراعته العنان، ويبسط القول بعض البسط، ويكثر من المثل والشواهد لتكون الفائدة بكتابه أعم وأعظم. وإن كان للأستاذ العذر فيما ذهب إليه من الإيجاز

السيد أحمد صقر

سلسلة القصص التهذيبية

عني الأستاذ أحمد فؤاد الصحن بوضع هذه القصص التهذيبية وأخرج منها حلقتين: الأولى (قصة البخيل)، والثانية (قصة الصياد الصغير والسلحفاة)، وفي ختام الحلقة الثانية قصة قصيرة وحكاية مصورة وبعض مشاهدات في مبادئ الطبيعية ومسائل حسابية ومسابقة لطيفة للأطفال، وهذه كلها قصد بها الأستاذ تسلية الأطفال وتزويدهم بطائفة من المعلومات العامة في قالب سهل؛ والكتابة للأطفال لا ريب تحتاج إلى جهد عظيم وعناية فائقة، ثم هي تقيد الكاتب بكثير من القيود، ولعل هذا هو السر في أن الأطفال في مصر ظلوا طويلا محرومين من الكتب التي تناسب مداركهم. وليس من شك في أن الأستاذ بكتابة هذه الحكايات قد أضاف إلى مكتبة الأطفال آثاراً لها قيمتها في تهذيبهم وتثقيفهم وتوسيع مداركهم وتقوية الخيال فيهم. ورجاؤنا أن يعنى الأستاذ في الحلقات القادمة بالإكثار من الصور وجعلها أكثر وضوحاً وأقرب إلى النوع الذي يحاول الأطفال أن يرسموه بأيديهم، فإن ذلك له أثره في تقريب الحكايات وجعلها

جميلة سائغة

تاريخ الكشف في مصر والعالم

وضع هذه الرسالة الصغيرة الأديب مصطفى أفندي محمد حسين الرفيق الأكبر لرهط جوالة مدرسة بور سعيد الثانوية، وقد بدأها بترجمة موجزة لحياة (بادن باول) الكشاف الأعظم، ثم تناول الكلام عن تاريخ الكشف مستعرضاً الأنظمة الشبيهة به في التاريخ القديم، فهو يصف في إيجاز شديد النظام الإسبرطي، ثم ينتقل إلى القرون الوسطى، فيصف الفروسية عند العرب والأوربيين؛ ثم يجاوز هذا إلى حركة الكشف الجغرافي في بداية التاريخ الحديث، ويوازن بين أنظمة الكشف القديمة والحديثة، وأخيرا يعرض للكشافة في مصر، وينقد الفرق الأهلية والكشافات المدرسية؛ ويختتم رسالته بفصل عن المعسكرات الكشفية العالمية؛ وبرغم ما في هذه الرسالة من الأخطاء اللغوية

الكثيرة فأنها جهد يشكر عليه صاحبه
(ع)
العدد 150 - بتاريخ: 18 - 05 - 1936
النقد المزيف
كاد الأدباء الناشئون في مصر وفي غير مصر ينصرفون عن الإنشاء إلى النقد. وأريد بالنقد هنا معناه العامي أو مدلوله الأعم؛ فأن النقد المنطقي بمعناه الأخص إنما هو ملكة فنية أصيلة، وتربية أدبية طويلة، وثقافية علمية شاملة. والناقد بهذا الاعتبار يشارك المشترع في صدق التميز، والفيلسوف في دقة الملاحظة، والقاضي في قوة الحكم. ومن ثم كان نوابغ النقد في العالم أندر من نوابغ الشعر والكتابة. وهذا الذي تقرأه في الصحف العربية من حين إلى حين لا يدخل في هذا الباب إلا كما يدخل المجون في نطاق الجد أو العبث في سياق المنطق؛ كالرجل يقعد به العجز عن اللحاق بالقادرين، فيقف نفسه موقف القائد الحصيف، يلمز هذا، ويتنادر على ذاك، ويزعم أنه وحده المسيطر على ثمرات الذهن، فيحكم بذوقه الخاص على هذه بالقبح، وعلى تلك بالفجاجة؛ وأمره كله لا يخرج عن مألوف الطباع الساخرة الفكهة: تصور الحق بلون الباطل لتُضحك، وتبرز الجميل في مظهر القبيح لتُسئ. وعيب الناس طبيعة في بعض الناس، لا يكلفهم إلا تحريك اللسان إذا لقوا سامعاً، أو تجرير القلم إذا وجدوا صحيفة

هذا طالب في ثانويات القاهرة يملي خطة في الكتابة على الجامعة؛ وذاك معلم في ابتدائيات بيروت يلقي درساً في الصحافة على القاهرة؛ وذلك صحفي في مطارح الهجرة يقضي بالموت على الأدب العربي كله!

علام اعتمدت يا بني في إنشاء خطتك؟ وإلْام يا أخيَّ في إعداد درسك؟ ومم اتخذت يا زميلي أسباب حكمك؟ وهل تظفر من هؤلاء بجواب ما دمت في الزمن الذي ترى فيه الناظم ينظم ولا يعلم العروض، والكاتب يكتب ولا يدرس النحو، والمجادل يجادل ولا يفقه الأصول؟ إنها فوضى تتولد في عصور الانتقال وتفشو في ابتداء اليقظة، حين لا يسكن أمر إلى قرار، ولا يطمئن نظام على وجه، ولا يخلص رأى من حيرة، ولا يصدر حكم عن اختصاص!

إن هذا الضرب من النقد إما أن ينبعث من مكامن الحقد فيرمى إلى التجريح، وإما أن ينطلق من مواضع الغرور فيسعى إلى الهدم. كان منذ قريب يعمد إلى الكتاب القيم في الفلسفة أو التاريخ أو القانون قد ألفه مؤلفه من دمه وعصبه وعقله وعمره وماله، فيقف منه موقف الحاسد الأحمق ينقد في بعض صفحاته فعلا تعدى بغير حرفه، أو اسماً جمع على غير قياسه، وقد يكون لكل منهما وجه، ثم يحكم على الكتاب كله بأنه سخيف لا يقرأ، وضعيف لا يعيش!. ثم أصبح اليوم يعرض للموضوع فيقول: هذا قديم لأنه يدور على بحث في تاريخ الشرق، أو على معنى من معاني الدين، أو على أثر من آثار البلاغة؛ وهذا جديد لأنه يقوم على حادثة من حوادث الغرب، أو على رجل من رجال الأكاديمية أو على غانية من غواني المسرح؛ هذا مقلد لأن أسلوبه شريف ممتنع، وهذا مجدد لأن أسلوبه مبتذل ممكن! ثم تعصف بأقلامهم اللينة نخوة الحفاظ وحماسة الفتوة فيصيحون:

أميتوا أدب العاصفة وأحيوا أدب القوة!

أبيدوا أدب الخاصة وأوجدوا أدب الشعب!

انبذوا أدب المقالة ألزموا أدب القصة!

صيحة قرارها حق ومقالها باطل! فأن إجماع الناس واقع على أن خلو الأدب الحديث من أدب الشعب وأدب القصة خلل لابد أن يسد، ونقص لابد أن يكمل؛ ولكن من الذي يقول ويعني ما يقول: إن وجود هذه الأنواع يقتضي عدم الأخرى؟ إن لكل فن من الأدب طبقة من الناس تتذوقه، فإذا منعتها إياه طلبته. والناقص لا يكمل برفع نقص ووضع نقص؛ والبناء لا يتم بهدم ركن وإقامة ركن

أرأيتك إذا كان الأدب كله قوياً يخشن الصدور، وحماسياً يؤرّث الحفائظ المريرة، ويترجم أشجان القلوب الكسيرة، ويرقق حواشي الأنفس الجافية؟

أرأيتك إذا كان الأدب كله شعبياً يعبر بألسنة السوقة، وينقل عن عواطف العامة، أفما

كنت تقول: أين الأدب الذي يرضي أذواق الخاصة فيجمع بين سمو الفكرة ونبل العاطفة وقوة الأسلوب في صورة من الفن الرفيع تسمو بالنفوس إلى المثل الأعلى، وتغمر الشعور بالجمال الخالد؟

الأدب صورة النفس فلا بد أن ترتسم فيه مشاعر الفرد؛ والأدب مرآة الحياة فلا بد أن تنعكس فيه ألوان المجتمع. وما دام في الناس الحساس والبليد، والخوار والجليد؛ وفي الدنيا التفاوت الذي يوجد التمايز، والألم الذي يفجر الدموع، واللذة التي تبعث المسرة، والمدنية التي تخلق التنوع، فلا بد أن يكون الأدب الصحيح صدى لكل ذلك

ليست وظيفة النقد أن يهدم أو يميت أو يشترع. تلك وظيفة الطبيعة التي تطور كل شيء، وتغير كل نظام، وتسد كل عوز، وفق قانون ثابت. إنما وظيفة الناقد أن ينظم الموجود وينبه الأذهان إلى الفاقد. أمَّا أن يحاول تغيير الطباع بقانون، وقلب الأوضاع بمقالة، ومحو الثابت بنكتة، فذلك عبث لا يخلق بكرامة إنسان، وتهريج لا يذكر بضمير فنّان!

أما بعد فلعل في هذا الأجمال يا صديقي (نجيب) بعض الجواب عن مقالك (فوضى النقد)، ولعلك تكتفي مني بذكره عن نشره؛ فانك سميت أشخاصاً وعينت كتباً وحددت حوادث، وفي بعض ما قلتَ مشابهُ مما يقول هؤلاء! ومن خلُقَ الرسالة كما تعلم أن تكتفي بالتلميح وتتأبّه عن التجريح وتعوذ بفطنة قرائها من شر ذلك.

أحمد حَسن الزيات

إنسان ناجح

للأستاذ أحمد أمين

صخري الوجه، صلب الجبين، لم يعرف يوماً حمرة الخجل، ولا برقع الحياء، لا يتوقى شيئاً، ولا يبالي ما يقول

إن كان لكل الناس وجه ولون ولسان، فلهذا المخلوق أوجه وألسنة وألوان

هو صديقك وعدوك حسب الظروف الخارجية، لا حسب ما يصدر منك، وهو مادحك وذامك حسب ما يدور في المجلس، لا حسب رأيه، وهو عابس لك يوماً باسم يوماً حسب ما يقدر هو أنه في مصلحته، لا حسب ما تستحق أنت منه

له حاسة زائدة عن حواس الناس الخمس هي سر نجاحه، ولهذه الحاسة خصائص: فهو يدرك بها أي نوع من الوزارات ستتولى الحكم ليحول نفسه على وفقها، وليتهجم لأعدائها، ويتقرب من أحبابها؛ ويشم بها مواطن المال في كل ظرف، ويرى بها من يجلب له النفع، ويؤقلم وفق ذلك نفسه، فيتشكل بأشكال في منتهى الظرف والطلاوة، فإذا عدوه اللدود بالأمس صديقه الحميم اليوم

ويعرف بها - في مهارة عجيبة - موضع الضعف من كل إنسان يهمه، فأن كان يعبد النساء حدثه أعذب الحديث في النساء والجمال وحسن الشكل، وبدع المحاسن، وجمال الملامح، وأستعرض نساء الفرنج، وأية حوراء العينين، كحلاء الجفون، ساجية الطرف، فاترة اللحظ، وأية أسيلة الخد، ممشوقة القد، وأية بيضاء اللون، شقراء الشعر، زرقاء العين. وأية سوداء العين، سمراء اللون سوداء الشعر. وأية ممتلئة البدن؛ ضخمة الخلق، شبعى الوشاح، وأية دقيقة الشبح نحيلة الظل مرهفة الجسم، وتفنن في ذلك ما شاء أن يتفنن حتى يملك لبه، ويستعبد عقله، فإذا هو طوع بنانه ومستودع أسراره

وإن كان سكيراً حدثه الحديث الممتع في الشرب والشراب، والكؤوس والأكواب وآداب النديم، وروى له أحسن الشعر في الخمر وحدثه عما يمزج ومالا يمزج، وخير الخمور ومواردها وتواريخها وما يلذ صبوحا وما يلذ غبوقا - وتعرف ما يستحسنه صاحبه فأفرط في مدحه وادعى الإعجاب به، وأنه لا يفضل عليه غيره، وأن ذوقه من ذوقه وشرابه من شرابه ومزاجه من مزاجه، وأسكره من حديثه كما أسكره من كأسه، فإذا هما صديقان وثقت بينهما الكأس والطاس

وأن كان شرها في المال حدثه عن الضياع ومحاسن الأراضي وكيفية استغلالها، والعمارات وجبايتها، ووازن بين أنواع العقار وكم في المائة يمكن أن تغل، وأعانه في مشاكله وبذل له كل أنواع معونته، فوجد فيه صديقه النافع وخليله المواتي

وهدته حاسته هذه أن يعمد إلى عدد من الرؤوس الكبار ذوي النفوذ فينصب لهم

حبالته، ويوقعهم في شبكته، بما يبذر من حب ذي أشكال وألوان، فإذا تم له ذلك خضع له الصغار من تلقاء أنفسهم وطوع أرادتهم، وضرب لهم مثلاً بقضاء حوائج لبعضهم ما كانت تقضى من غيره، فهو مقصد جميعهم ومحط آمالهم وموضع الرجاء منهم، يعملون كلهم في خدمته على أمل أن ينالوا شيئاً من جاهه، فإذا هو سيد على الصغار والكبار، وإذا هو عظيم حيث كان، يقابل بالإجلال والإعظام، ويملق من أتباعه وإخوانه، ويحسب حسابه في دائرته وأوسع من دائرته

إلى جانب هذه الحقائق القليلة قدر كبير من التهويش، فهو يزعم أنه في كل ليلة جليس الكبراء والوزراء، كم يتغزلون فيه ويطلبون القرب منه وهو يتأبى عليهم، ويبتعد عنهم، وهو لو شاء لكفت إشارة منه لأن يرفع من شاء في أعلى عليين، ويخفض من شاء إلى أسفل سافلين - الوزارات في يده، ومصالح الحكومة في إصبعه - والإنجليز يخشون بأسه، والفرنسيون يقضون مصالحهم على يده - وبريده كل يوم من خارج القطر ينوء السعاة بحمله، ثم لا أدري كيف اتصل بالجرائد فهي تشيد دائماً بذكره، فإذا تحرك حركة أعلنتها على الناس كما تذاع حركات الملوك، فهو مسافر إلى الإسكندرية، وقادم من الإسكندرية، ومبحر إلى أوربا، ومنتقل في عواصم البلدان، وعائد إلى مصر بعد أن رفع شأنها، أعلى مكانها، حتى لم يبق إلا أن تخبرنا ماذا أفطر، وكيف أفطر، وفي أي ساعة تناول غداءه، وماذا كانت أصنافه، وهل غفا قليلا إلى زوجه وأولاده وهو يستغل هذا كله في قضاء مصالحه، فطلباته ناجزه نافذة، والمستحيل لغيره جائز له، والأموال تكال له كيلا، والهدايا تنهال عليه انهيالا، وه مع كل ذلك لا يشبع، كلما نال مطلبا تفتحت له مطالب، فهو في طلب دائم، ومن بيدهم الأمور في إجابة دائمة، حتى ليوشك - إذ لم يتعود الرفض - أن يطلب النجوم تزين غرفته، والسحاب يمطر في الصيف حديقته،

والحر والبرد يتأدبان في حضرته، والشمس تكسف لطلعته

ومن غريب أمر الناس فيه أنهم يكرهونه من أعماق نفوسهم، ويمقتونه من صميم قلوبهم، ويرون فيه السخافة مركزة، واللؤم مجمعاً فإذا لقوه فترحيب وتهليل، وإعضام وملق، يبسطون ألسنتهم فيه بالسوء غائباً، ويبطنون في مدحه حاضرا، فهو معذور إذ يشعر أن الناس مجمعه على حبه، حتى ليخشى عليهم أن يموتوا به غراما أو يُجَنُّوا به هياما، شهدته مرة وقد أتى عملا شنيعا حتى كان مضغة الأفواه ومعرة القوم، وظننت الناس إن رأوه ازدروه - على الأقل - بعيونهم، وكلموه ببعض شفاههم، واستهانوا بمقدمه، وأقل ما يفعلونه ألا يحلفوا به، وليأبهوا بمقدمه، فما كان أشد عجبي أن رأيتهم - إذ حضر - قد انتفضوا من أماكنهم، وأفسحوا له مجالسهم، وأجلّوا شأنه، واعظموا ورفعوا منزلته فوق من يقدرون فضله ويجلون خلقه

فهو - حتى في هذا - ينتفع بإعظامهم وإجلالهم، ولا يضره كرههم الذي لا يعدو قلوبهم - فكرهم لأنفسهم، وإعظامهم له، وماذا يضيره كرهٌ محتقن وخير منه حب مصطنع، وماذا يضيره سب صادق في إسرار، وخير منه مدح كاذب في إعلان؟ لاشك أنه في كل ذلك ناجح حتى في الكرة والذم

قال صاحبي: وهل تعد ذلك نجاحا؟ لو كان النجاح بقضاء المصالح والأغراض والحصول على المال فحسب، لعددنا السارق يجيد السرقة ويفلت من العقوبة ناجحاً، ولكان أنجح الناس من حصل على المال من أقرب الوجوه ولو كان من أخسها - إن هذا الذي ذكرت قد كسب المال وخسر الشرف، حييت مطامعه ومات ضميره، وخدم من يظنهم كبراء أو عظماء بضعة نفسه ومت حسه، بأي مقياس أخلاقي قسته لم تجده شيئاً، إن قسته بمقياس الفضيلة الباتة الحاسمة لم تجده سعيداً، إنه يتمتع ويأكل كما تأكل الأنعام، فان كان الحمار أو الخنزير سعيداً سعيد، وأين منه لذة ذي الضمير الحي ينعم بمواقف الشرف والنبل، ويلذهما لذة لا تعدلها ما ذكرت من مال وجاه؛ إن الرجل الفاضل سعيد حتى في آلامه لأنها آلام لذيذة خصبة، هي كالنار تنضج النفس ولا تحرقها، أما لذة صاحبك فسم في دسم، ونار تحرق ولا تنضج - وبعد قليل من حياته يفقد حتى لذة المال والجاه، وتصبح لذتهما كلذة من يتناول الحلوى صباح مساء تتهوّعُ نفسه وتتقبض شهيته - فان اللذة الباقية الدائمة هي

لذة الروح لا الجسم، ومن عجيب أمر الروح أن لذتها لذة صافية، وألمها ألم مشوب بلذة، ثم لذة هذا المخلوق لذة مشروطة بشروط، فهو يعتقد أن لذته مرتبطة ببقاء

صاحبه في الوزارة، وصديقه في الوكالة، وحميمه في منصبه، لأن قيمته ذاتية، ونجاح مثل هذا في أمة عنوان فشلها وسوء تقديرها، وضعف الرأي العام فيها - وهو مثل سيئ يشجع البذور السيئة على النماء والبذور الصالحة على الخفاء - قد يكون هذا المثل في كل أمة، ولكنه في الأمة الصالحة نادر، ويحتاج في نجاحه إلى كثير من الطلاء حتى يخدع الناس ويوهمهم بصلاحه. أما أن يجرؤ ويظهر بمظهره الحقيقي ثم ينجح فذلك فساد الأمة وسبه الدهر

قلت: ربما كان ما تقول صحيحاً فدعني أفكر

أحمد أمين

العجوزان

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال محدِّثي: التقى هذان الشيخان بعد فراق أربعين سنة، وكانت مثابتهما ذلك المكانَ القائم على شاطئ البحر في إسكندرية في جهة كذا، وهما صديقان كانا في صدر أيامهما - حين كانت لها أيام. . . - رَجُلي حكومة يعملان في ديوان واحد، وكانا في عيشهما أَخَوَيْ جد وهزل وفضائل ورذائل، يجتمعان دائماً اجتماع السؤال والجواب، فلا تنقطع وسيلة أحدهما من الأخر؛ وكأن بينهما في الحياة قرابة الابتسامة من الابتسامة، والدمعة من الدمعة

ولبثا كذلك ما شاء الله ثم تبددا، وأخذتهما الآفاقُ كدأب (الموظفين) ينتظمون وينتثرون، ولا يزال أحدهم ترفعه أرض وتخفضه أخرى، وكأن (الموظف) من تفسير قوله تعالى: (وما تدري نفسٌ بأي أرض تموت)

وافترق الصديقان على مضض، وكثيراً ما يكون أمر الحكومة بنقل بعض (موظفيها) - هو أمرها بتمزيق بعضهم من بعض؛ ثم تصرَّفت بهما الدنيا فذهبا على طرفي طريق لا يلتقيان، وأصبح كلاهما من الآخر كيومه الذي مضى، يُحفظ ولا يُرى

قال المحدِّث: وكنت مع الأستاذ (م)، وهو رجل في السبعين من عمره، غير أنه يقول عن نفسه إنه شابٌ لم يبلغ من العمر إلا سبعين سنة. . . ويزعم أن في جسمه الناموسَ الأخضر الذي يحيي الشجرة حياة واحدةً إلى الآخر

رجل فارهٌ، متأنق، فاخر البزَّة، جميلُ السَّمْت، فارغُ الشَّطاط كالمصبوب في قالب لا عوج فيه ولا انحناء، مجتمع كله لم يذهب منه شيء، قد حفظته أساليبُ القوة التي يعانيها في رياضته اليومية. وهو منذ كان في آنِفَتِه وشبابه لا يمشي إلا مستأخر الصدر، مشدود الظهر، مرتفع العنق، مسندا قفاه إلى طوقه؛ وبذلك شب وشاب على استواء واحد، وكلما سئل عن سر قامته وعوده لم يزد على قوله: إن هذا من عمل إسناد القفا. .

وهو دائماً عَطِرٌ عبق، ثم لا يمسُّ إلا عطرا واحد لا يغيره، يرى أن هذا الطيب يحفظ خيال الصبي، وأنه يبقي للأيام رائحتها

وله فلسفة من حسّه لا من عقله. ولفلسفته قواعد وأصول ثابتة لا تتغير؛ ومن قواعدها الزهر، ومن بعضها الموسيقى، ومن بعضها الصلاة أيضاً. وكل تلك هي عنده قواعد لحفظ

الشباب. ومن فلسفته أن مبادئ الشباب وعاداته إذا هي لم تتغير اتصل الشبابُ فيها واطَّرد في الروح. فتكون من ذلك قوة تحرس قوة اللحم والدم، وتمسك على الجسم حالته النفسية الأولى

وهو يزيد في حكمة الصلاة فكرةً رياضيةً عملية لم ينتبه أليها أحد، هي رياضة البطن والأمعاء بالركوع والسجود والقيام؛ ويقول إن ثروة الصلاة تُكْنَز في صندوقين: أحدهما الروح لما بعد الموت، والأخر البطن لما قبل الموت. ويرى أن الإسلام لم يفرض صلاة الصبح قبل الشمس إلا ليجعل الفجر ينصبُّ في الروح كل يوم

قال المحدّث: وبينما نحن جالسان مرّ بنا شيخٌ أعجفُ مهزولٌ موهونٌ في جسمه، يَدْلَفُ متقاصِرَ الخطوْ كأن حِمل السنين على ظهره، مُرْعشٌ من الكِبَر، مستقدِمُ الصدر منحنٍ يتوكأ على عصا، ويدل انحناؤه على أن عمره قد اعوجَّ أيضاً. وهو يبدو في ضُعفه وهُزاله كأن ثيابه ملئت عظاماً لا أنسانا، وكأنها ما خيطت إلا لتمسك عظما على عظم. .

قال: فحملق إليه (م) ثم صاح: رينا، رينا. فالتفت العجوز، وما كاد يأخذنا بصره حتى

أنفتل إلينا وأقبل ضاحكا يقول: أوه رِيت، رِيت
ونهض (م) فاحتضنه وتلازما طويلا، وجعل رأسهما يدوران ويتطوَّحان، وكلاهما يقبل صاحبه قبلاً ظامئة لا عهد بمثلها في صديقين، حتى لخيّل إلي أنهما لا يتعانقان ولا يتلاثمان ولكن بينهما فكرة يعتنقانها ويقبلانها معاً. .
وقلت: ما هذا أيها العجوز؟
فضحك (م) وقال: هذا صديقي القديم (ن) تركته منذ أربعين سنة معجزةً من معجزات الشباب، فها هو ذا معجزة أخرى من معجزات الهرم، ولم يبق منه كاملاً إلا اسمُه. .
ثم التفت إليه وقال: كيف أنت يا رِينا؟
قال العجوز (ن): لقد أصبحت كما ترى؛ زاد العمر في رجليَّ رجلاً من هذه العصا، ورجع مصدرُ الحياة فيَّ مصدراً للآلام والأوجاع، ودخلت في طبيعَتي عادة رابعة من تعاطي الدواء
فضحك (م) وقال: قبح الله هذه الدخيلة، فما هي العادات الثلاث الأصلية؟
قال العجوز: هي الأكل والشرب والنوم. . ثم أنت يا رِيت كيفَ تقرأ الصحف الآن؟
قال (م): أقرأها كما يقرؤها الناس، فما سؤالك عن هذا؟
وهل تقرأ الصحف يوما غير ما تقرأ في يوم؟
قال: آه! إن أول شيء أقرأ في الصحف أخبارُ الوَفيَات لأرى بقايا الدنيا، ثم (إعلانات الأدوية). . ولكن كيف أنت يا ريت؟ إني لأراك ما تزال من وراء أربعين سنةً في ذلك العيش الرَّخِيُ، وأراك تحمل شيخوختك بقوة كأن الدهر لم يَحزُمْك من هنا ولا من هنا، وكأنه يلمسك بإصبعه لا بمساميره، فهل أصبت معجزة من معجزات العلم الحديث؟
قال: نعم
قال: ناشدتك الله، أفي معجزات العلم الحديث معجزةٌ لعظمي؟
قال (م): ويحك يا رينا. إنك على العهد لم تبرح كما كنتَ مزبلة أفكار. . ماذا يصنع فيك العلم الحديث وأنت كما أرى بمنزلة بين العظم والخشب. .؟
قال المحدث: وضحكنا جميعاً ثم قلت للأستاذ (م): ولكن ما (رينا وريت) وما هذه اللغة؟ وفي أي معجم تفسيرُها؟
قال: فتغَامزَ الشيخان، ثم قال (م): يا بني هذه لغة ماتت معانيها وبقيت ألفاظها، فهي كتلك الألفاظ الأثرية الباقية من الجاهلية الأولى
قلت: ولكن الجاهلية الأولى لم تنقض إلا فيكما. . ولا يزال كل شاب في هذه الجاهلية الأولى، وما أحسب (رينا، وريت) في لغتكما القديمة إلا بمعنى (سوسو، وزوزو) في اللغة الحديثة؟
فقال (م): اسمع يا بني. إن رجل سنة 1935 متى سأل فيَّ رجل سنة 1895: ما معنى رينا وريت؟ فرد عليه: إن (رينا) معناها (كاترينا)؛ وكان (ن) بها صباً مغرماً، وكان مُقْتَتَلاً قتله حبها. أما (ريت) فهو لا يعرف معناها
فامتعض العجوز (ن) وقال: سبحان الله، اسمع يا بني! إن رجل سنة 1895 في يقول لك: إن (ريت) معناها (مرغريت) وكانت الجوى الباطنَ، وكانت اللوعة والحريق الذي لا ينطفئ في قلب الأستاذ (م)
قلت: فأنتما أيها العجوزان من عشاق سنة 1895 فكيف تريان الحب الآن؟
قال العجوز (ن): يا بني إن أواخر العمر كالنفي. . ونحن نتكلم بالألفاظ التي تتكلم بها أنت
وأنتما وأنتم. . غير أن المعاني تختلف اختلافاً بعيداً
قلت: واضربْ لهم مثلاً
قال: واضرب لهم مثلاً كلمة (الأكل) فلها عندنا ثلاثة معان: الأكل، وسوءُ الهضم، ووجع المعدة. . وكلمة (المشي) فلها أيضاً ثلاثة معان: المشيُ، والتعب، وغمزاتُ العظم. . وكلمة (النسيم)، النسيم العليل يا بني؛ يزيد لنا في معناها تحرك (الروماتزم). .
فضحك (م) وقال: يا (شيخ). .
قال العجوز: وتلك الزيادة يا بني لا تجيء إلا من نقص، فهنا بقيةٌ من يدين، وبقية من رجلين، وبقية من بطن، وبقية من ومن ومن، ومجموع كل ذلك بقية من إنسان. .
قال الأستاذ (م): والبقية في حياتك
قال (ن): وبالجملة يا بني فان حركة الحياة في الرجل الهرم تكون حول ذاتها لا حول

الأشياء؛ وما أعجب أن تكون أقصر حركتي الأرض حول نفسها كذلك، وإذا قال الشاب في مغامرته: ليمض الزمن ولتتصَّرم الأيام، فان الأيام هي التي تتصرم والزمن هو الذي يمر. أما الشيوخ فلن يتمنَّوه أبداً. فمن قال منهم: ليمض الزمن فكأنما قال فلأمض أنا. .

فصاح (م): يا شيخ يا شيخ. .

ثم قال العجوز: واعلم يا بني أن العلم نفسه يهرم مع الرجل الهرم فيصبح مثله ضعيفاً لا غنَاء عنده ولا حيلة له، وكل مصانع لنكشير ومصانع بنك مصر واليابان والأمريكتين، وما بقى من مصانع الدنيا، لا فائدة من جميعها فهي عاجزة أن تكسوَ عظامي. .

قال المحدث: فقهقه الأستاذ (م) وقال: كدتُ والله أتخشَّب من هذا الكلام، وكادت معاني العظم تخرج من عظامي. لقد كان المتوحشون حكماء في أمر شيوخهم، فإذا علَت السنُّ بجماعة منهم لم يتركوهم أحياءً إلا بامتحان، فهم يجمعونهم ويلجئونهم إلى شجرة غضة لينة المهَزَّة فيكرهونهم أن يصعدوا فيها ثم يتدلَّوا منها وقد عَلِقَت أيديهم بأغصانها؛ فإذا صاروا على هذه الهيئة اجتمع الأشداء من فتيان القبيلة فيأخذون بجذع الشجرة يرجعونها وينغضونها ساعة من نهار؛ فمن ضعفت يداه من أولئك الشيوخ أو كلتَّ حوامل ذراعيه فأفلت الغصن الذي يتعلق به فوقع، أخذوه فأكلوه. ومن استمسك أنزلوه فأمهلوه إلى حين فاقشعر العجوز (ن) وقال: أعوذ بالله هذه شجرة تخرج في أصل الجحيم، ولعنها الله من

حكمة، فإنما يطبخونهم في الشجرة قبل الأكل، أو هم يجعلونهم كذلك ليتوهموهم طيورا فيكون لحمهم أطيب وألذ، ويتساقطون عليهم من الشجرة حمائم وعصافير

قال (م): إن كان في الوحشية منطق فليس في هذا المنطق (باب لِمَ)، ولا (باب كيف)، ولو كان بهم أن يأكلوهم لأكلوهم، غير أنها تربية الطبيعة لأهل الطبيعة؛ فان رؤية الرجل هذه الشجرةَ وهزَّها وعاقبهّا يبعد عنه الضعف والتخلخل، ويدفعه إلى معاناة القوة، ويزيد نفسه انتشاراً على الحياة وطمعاً فيها وتنشطاً لأسبابها، فيكون ساعدهُ آخر شيء يهرم، ولا يزال في الحِدّة والنشاط والوَثَبان، فلا يعجز قبل يومه الطبيعي، ويكون المتوحشون بهذا قد احتالوا على الطبيعة البشرية فاضطروها إلى مجهودها، وأكرهوها على أن تبذل من القوة آخر ما يسمع الجسم

قال (ن): فَنَعم إذنْ، ولعن الله معاني الضعف. كدت والله أظن أني لم أكن يوماً شاباً، وما أراك إلا متوحشاً يخاف أن تؤكل فتظل شيخاً رجلا لا شيخا طفلا، وترى العمر كما يرى البخيل ذهبه مهما يبلغ فكثرتهُ غير كثيرة

قال المحدث: وأضجرني حواهما إذ لم يعد فيه إلا أن جسم هذا يرد على جسم هذا، وإنما الشيخ من أمثال هؤلاء زمان يتكلم ويقص ويعظ وينتقد، ولن يكون الشيخ معك في حقيقته إن لم ترحل أنت فيه إلى دنيا قديمة. فقلت لهما: أيها العجوزان! أريد أن أسافر إلى سنة 1895. . .

(لها بقية)

(طنطا)

مصطفى صادق الرافعي

من روائع عصر الأحياء

قصص الأيام العشرة

بقلم جوفاني بوكاشيو

للأستاذ محمد عبد الله عنان

من أثار عصر الأحياء الخالدة قصص بوكاشيو الشهيرة المسماة (ديكا أمروني). وقد مضى على ظهور هذا الأثر الرائع زهاء ستة قرون؛ بيد أنه ما زال حتى عصرنا يحتفظ بروعته وسمو خياله وفنه، وما زال يتبوأ مكانه بين الآثار العالمية الخالدة

وقد أوحت إلى بوكاشيو كتابة أثره حوادث مروعة شهدها وهزت نفسه إلى الأعماق، فأذكت خياله، وانتزعت من قلمه تلك القصص الساحرة التي تصور لنا كثيراً من العصر وخلاله أصدق تمثيل وأمتعه

كتبها بوكاشيو وأشباح الفناء تحتشد من حوله، والموت الذريع يقطف أزاهير المجتمع من كل الطبقات والأعمار؛ والتمس بكتابتها عزاء لنفسه وعزاء لمجتمعه عما نزل به من أهوال الفناء، ولتكون باعثاً إلى النسيان والمرح. وكان بوكاشيو يومئذ في نحو

الخامسة والثلاثين من عمره، في ذروة الفتوة والنضج، فجاءت هذه القصص أروع آثاره، وعنوان مجده، واتخذت مكانها بين أعظم آثار عصر الأحياء

ولد جوفاني بوكاشيو في سنة 1313 م في باريس من أب إيطالي وأم فرنسية، ونشأ في فلورنس موطن أسرته، وتلقى فيها تربيته، وشغف منذ حداثته بالشعر والأدب، وتأثر أيما تأثير بشعر فرجيل؛ وكان أول آثاره قصة غرامية عنوانها (فيا ميتا) وهي فتاة حسناء يظن أنها تمثل فتاة حقيقية هام بها بوكاشيو، وأظهرها في شخص فيا ميتا، والمظنون أيضاً أنه يصف حبيبته هذه في شخص بطلة قصته الأخرى (فلسكوبو).

وتجول بوكاشيو في المدن الإيطالية، وعاش حيناً في نابل، في عهد ملكها روبورتو وملكتها الفتية الحسناء جوفانا (جنه)، واتصل ببلاطها الساطع النحل معا، وكتب فيها بعض قصائده وقصصه، ومنذ سنة 1342 نراه يستقر مع أسرته في فلورنس، ويحاول أن يفوز بمنصب في الحكومة أو مركز أدبي يعيش منه؛ وقد لفتت كفاياته الحكومة غير بعيد، فأوفدته سفيراً إلى حكومة

في سنة 1346، ولكنه اضطر بعد ذلك بنحو عام إلى العودة إلى فلورنس (رومانيا) على أثر موت أبيه ليعنى بشؤون أسرته، واشترى بمعظم ميراثه كتباً لاتينية ويونانية، وانقطع للكتابة والتأليف

ولم يمض قليل على ذلك حتى نكبت إيطاليا وفلورنس ونكب العالم بأسره بتلك الكارثة العظمى التي تعرف في الرواية الغربية بالوباء الأكبر، وفي الرواية الإسلامية باسم مماثل هو (الفناء الكبير)، ذلك أن الفناء الكبير قد اجتاح أمم المشرق والمغرب معاً، وحمل منها إلى القبر عشرات الملايين، وعصف بجميع المجتمعات الزاهرة أيما عصف؛ وبسط على العالم المتمدن كله ريحاً من الرهبة والروع؛ وقد شهد بوكاشيو أحداث الوباء في فلورنس منذ بدئها، وترك لنا عنها وصفاً مروعاً مؤثراً؛ واليك ما يقوله في أصل الوباء وأعراضه:

(أنه في سنة 1348 ميلادية حل الوباء الفاتك بمدينة فلورنس الزاهرة، أجمل المدن الإيطالية، بعد أن لبث قبل ذلك بأعوام يعصف بالمشرق، إما لتفاعل الكواكب والأجرام، وإما لغضب الله الحق لما يرتكبه عباده من الخطايا، ولأنه أرسل إليهم صواعق عقابه، فعصف بكتل من البشر لا حصر لها؛ وانتقل الوباء مسرعاً من مكان إلى مكان حتى حل بالغرب يحمل الفزع والروع. . . وكانت أعراضه سواء بالنسبة للرجال أو النساء، فيظهر أولاً في شكل أورام تصيب الإبط أو أسفل البطن ثم تنتشر في جميع أجزاء الجسم، ثم تتحول إلى بقع سوداء أو ممتقعة تملأ الذراعين والفخذين، ثم سائر أعضاء الجسم؛ وكان المصاب يموت عادة في اليوم الثالث دون حمى ودون مضاعفات أخرى)

واجتاح هذا (الفناء الكبير) أمم الشرق والغرب معاً، فعاث في الأمم الإسلامية أيما عيث؛ وعصف بمجتمعاتها الغنية الآهلة، وسرى إلى جميع الأمم الأوربية، وبسط عليها رهبة الدمار والموت، وحمل من سكانها نحو الثلث في أشهر قلائل؛ وكان فتكه أشد ظهوراً، وأعمق أثراً في مجتمعات إيطاليا، وبخاصة في فلورنس التي كانت تتمتع يومئذ بحضارة زاهرة؛ وهنالك أفنى جيوشاً برمتها، وأهلك عدداً كبيراً من الأمراء والعظماء والقادة، ويقول لنا بوكاشيو إنه استطال هنالك من مارس إلى يونيه سنة 1348، وحمل من فلورنس وحدها مائة ألف إنسان)

ويصف لنا بوكاشيو أهوال الوباء ومناظره المروعة وصفاً ضافياً مؤثراً، فيقول: (كان الناس يجتنبون بعضهم بعضاً، وقلما يتزاور الأقارب أو لا يتزاورون أبداً؛ وألقت الكارثة الرعب في قلوب الناس جميعاً، رجالاً ونساء، حتى أن الأخ كان ينبذ أخاه نبذ النواة، والأخت أخاها، والمرأة زوجها؛ بل أروع وأبعد عن التصديق أن الآباء والأمهات أضربوا عن رؤية الأبناء أو تعهدهم، كأنما ليسوا من ذويهم)

(بل لقد هجر الناس الجيران والأقارب والخدم حتى اضطروا إلى ارتكاب عادات لم يسمع بها، من ذلك أن المرأة مهما كانت من الجمال أو النبل، إذا أصابها مرض واضطرت إلى استخدام رجل، شيخا كان أو شابا، فإنها تكشف له دون خجل كل أجزاء جسمها إذا اضطرتها ظروف المرض، وربما كان ذلك هو السبب في انحلال الحشمة والحياء عند أولئك اللائى نجون)

ثم يقول: (وكان يعنى بدفن الناس بادئ ذي بدء، فيلقى بهم دون احتفال في أول

مقبرة؛ فلما اشتد الوباء، كان الموتى يحملون جماعات، ويلقون في الطرق؛ وقد تموت أسر برمتها فلا يبقى منها إنسان؛ وأزواج وآباء معا، ويلقى الجميع بلا تمييز في حفر كبيرة)

تلك هي الأحداث والمناظر المروعة التي أذكت خيال بوكاشيو، وأوحت إليه كتابة أعظم آثاره، وهيأت له في نفس الوقت ذلك الأفق المعنوي الحر الذي جرى في ظله قلمه، ويلخص لنا بوكاشيو غايته من تأليف ذلك الأثر في قوله: (ولقد رأيت ترويحاً للسيدات العاشقات وتعزيتهن - وتكفي في ذلك لغيرهن الإبرة والمغزل - أن أقص مائة خرافه أو ما شئت أن تسميها)

ثم يقول: (ومن ذا الذي ينكر أن الأفضل أن نقدم ذلك العزاء للسيدات العاشقات لا للرجال العاشقين؟ ذلك أن السيدات العاشقات يفضن خجلاً وخوفا؛ ويرغمن على إخفاء جوى الحب في صدورهن، وتحملهن رغبات الآباء والأمهات، والأخوة والأزواج، وأهواؤهم وأوامرهم، على أن يقضين معظم أوقاتهن معتقلات في غرفهن الضيقة، فيجلسن عاطلات ويستعرضن في أذهانهن أفكارا مختلفة لا يمكن أن تكون مرحة أو سارة)

وكتب بوكاشيو قصصه الساحرة في ذلك الأفق الذي تعمره أشباح الفناء، والناس ينظرون إلى الحياة كأنها لعب طائر، ويودعون بعضهم بعضاً، واختار لكتابه هيكلا طريفاً خلاصته، أنه في ذات يوم ثلاثاء، وعصف الوباء في أشده، اجتمع في كنيسة القديسة (ماريا نوفيلا)

في فلورنس، سبع فتيات هن بامبنيا، وفياميتا، وفيلومينا، وأميليا، ولوريتا، ونفيلي، وأليزا؛ وكانت أكبرهن بامبنيا في الثامنة والعشرين، وأصغرهن أليزا في الثامنة عشرة، واقترحت بامبينا أن يغادرن المدينة فراراً من الوباء والموت أسوة بأصدقائهن؛ فاعترضت فيلومينا، وقالت إن النساء ينقصهن التفكير السليم، ويغلب عليهن التقلب والشك والخور، ولذا وجب عليهن أن يخترن مرشدا؛ فأيدت قولها أليزا وقالت إن الرجال هم أصحاب الرشاد والنصح، واقترحت أن يستدعين بعض رجال يقومون بالإرشاد

وفي تلك اللحظة يدخل الكنيسة ثلاثة فتيان، أصغرهم يناهز الخامسة والعشرين، وهم بانفيلو، وفيلوستراتو، وديونيو، وكان من غرائب الاتفاق أن كلا منهم كان يعشق إحدى الفتيات السبع، وأنهم جميعاً أقارب للأربع الباقيات، فأشارت إليهن بامبينا، وقالت إن العناية تحقق أمنيتهن بحضور أولئك الفتية الكرماء الأمناء، فاعترضت نيفيلي، وكانت حبيبة أحدهم، خشية الافتضاح، وناقشتها فيلومينا مؤيدة بامبنيا؛ فغلب رأيها واستدعي الفتيان الثلاثة، واتفق الجميع على ارتياد قصر خاص، ومعهم الخدم وكل ما يحتاجون إليه، وهنالك يقيمون حتى ينصرف الوباء؛ وفي صباح اليوم التالي ذهب الجميع إلى هذا المحل المختار، وهنالك اتخذوا مجلسهم تحت الأشجار الظليلة على أرائك وثيرة، وأمامهم الأطعمة والأشربة الشهية، وجعلوا يترددون بين الطعام والسباحة في بركة صغيرة بالقصر؛ وهنالك أيضاً بدءوا سرد القصص

وكانت صاحبة الفكرة بامبنيا، فقد اقترحت أن ينتخب أحدهم حاكما للمجلس كل يوم، وأن يضطلع في هذا اليوم بتدبير شؤون الجماعة وتسليتهم؛ وتولت هي منصب الملكة في اليوم الأول، واقترحت لتسلية الجماعة أن يقص كل منهم قصة، وأن يختتم واحد منهم بإنشاد أنشودة؛ فوافق الجميع متحمسين؛ واستثنى الجماعة من أيام الأسبوع اثنين، يوم الجمعة، ويوم السبت، وخصصا للراحة والتجمل والصلاة؛ وعلى ذلك أصبحت أيام القصص عشرة خلال أسبوعين، وفي كل يوم تقص عشر قصص، فالمجموع مائة قصة؛ هي محتويات مجموعة بوكاشيو الشهيرة، وهى التي يسميها (ديكا مروني) وهي كلمة مؤلفة من مقطوعين يونانيين ومعناها (الأيام العشرة) ،هذا هو التمهيد الذي يقدم به بوكاشيو لمجموعته، وهو تمهيد يمتاز ببساطته وطرافته ويدلي بكثير من روح العصر؛ لقد كان المجتمع الذي كتب فيه بوكاشيو قصصه يعيش من يومه إلى غده؛ وكان بوكاشيو نفسه يجوز هذه الحياة؛ وكان يملأ هذا الفراغ المتصدع بالتجوال في عوالم الخيال الممتع، وكان يرى أن يقدم ثمرة هذا التجوال إلى إخوانه في المجتمع، أولئك الذين يرون أشباح الفناء ماثلة في كل آونة وفي كل مكان

(للبحث بقية)
محمد عبد الله عنان
أدبنا الجديد
وحظ من الاتصال بثقافتنا التقليدية
للأستاذ إسماعيل مظهر
ركدت الحركة الأدبية في مصر ركوداً أشبه بأن يكون سباتاً عميقاً. ولقد حدث هذا الركود إثر نشاط عظيم في الإنتاج والنقد والترجمة، وإثر شعور قوي بأن الشباب أحق بأن يتزعموا حركة الأدب، وأن ينتزعوا الزعامة الأدبية من أدباء الشيوخ. ولقد اصطبغت حركة الشباب بألوان مختلفة، مهما يكن فيها من مظاهر التطرف حيناً، ومن مظاهر التفريط حيناً آخر، فإنها دلت في بعض أطوارها على حيوية قوية، وطموح، وتطلع إلى إحياء ما قيل إنه أدب جديد. وما من شك في أن حدوث هذا الركود عقيب ما أبدى الشباب من نشاط، ظاهرة جديرة بالبحث، خليقة بأن تدرس من نواح مختلفة، وأن تحلل في ضوء الحقائق التي أحاطت بها، والحقائق التي أحاطت بأدبنا الحديث على وجه عام. ذلك بأن شباباً يعجز عن تكوين فكرة جديدة في الأدب، أو تقعد همته عن خلق تصور جديد في الفن، إنما هو شباب ينذرنا من الآن بأن أدبنا سوف يبقي جيلاً آخر في داخل الحدود التي رسمها للأدب أولئك الذين سماهم الشباب أدباء الشيوخ وإني لآمل ألا يتبادر إلى الشيوخ من أدبائنا أني أعني بذلك أن أدبهم لم يؤد لأهل هذا الجيل شيئاً جديداً، أو أن وقوف الأدب عند الحد الذي بلغوا إليه دليل على جمود الأدب، وإنما أعني بذلك أن وقوف حركة الأدب، وركود التصور الفني عند حد بلغه شيوخنا من غير أن يعقب عليهم الشباب بأدب جديد له صبغه خاصة وفن له تصورات ذات طابع مستقل عن طابع الفن الذي عرفناه، دليل قاطع على أحد أمرين: إما أن الشباب عاجز عن الابتكار، وإما أن الأدب الذي روج له الشيوخ أدب غير منتج؛ وكلا الأمرين يحفزنا إلى أن نبحث الأمر من وجهيه: علاقة أدب الجيل الجديد بأدب الجيل السابق، وعلاقة الأدبين بالنظرية التي نروج لها: نظرية أن الأدب الثابت والفن الأصيل إنما يجب أن يتجه دائماً إلى إحكام الرابطة بين الصور التي يتشكل فيها، والصور التي قامت عليها ثقافتنا التقليدية
ولقد عبرت عما أعني بالثقافة التقليدية في المقالات التي نشرتها لي (الرسالة) بعنوان (التعليم والحالة الاجتماعية في مصر)، وصورت على قدر ما أتيح لي مجمل ما أدركت من
هذه النظرية. ولقد عرفت الثقافة التقليدية بأنها مجموعة الحالات والملابسات التي ينشأ شعب من الشعوب مكتنفاً بها من حيث طبيعة الأرض والإقليم، وما يتطلب ذلك من العكوف على فن خاص من فنون الحياة؛ وبمعنى أوسع تدل الثقافة التقليدية على العناصر التي ورثها شعب من الشعوب على مدى الزمان من طريق التأثر الطبيعي بالبيئة والمحيط، كما تدل على مجمل ما ثبت في عقليته باللقاح السلالي من عادات وأساطير وعلوم وآداب نشأت بنشأته في مرباه الأصيل. وعلى الجملة نقول إن الثقافة التقليدية لشعب من الشعوب إنما هي في الواقع جماع ما يرث من صفات حيوية، ومعتقدات، وفنون عن أسلافه الأولين
ولا شك عندي في أن ما يبدو على أدبنا الحديث، أعن الشيوخ صدر أم عن الشباب، إنما يرجع إلى ضعف علاقتنا بثقافتنا التقليدية. فإن أكثر الذين اتصلوا بهذه الثقافة لم يتصلوا بها اتصال تفهم لروحها ومعناها وأغراضها ومثلها العليا، وإنما اتصلوا بها اتصال استيعاب لظاهرها دون حقيقتها. وهذا أمر لا سبيل إلى نكرانه. كذلك نلحظ أن هؤلاء، على أنهم لم يتصلوا بثقافتنا التقليدية إلا اتصالاً ظاهرياً، فإنهم عجزوا عن أن يدركوا روح العصر الذي يعيشون فيه ليكون ذلك عوناً لهم على تلوين ما استوعبوا من آثار ثقافتهم القديمة بلون يرضاه أهل هذا الزمن وتقره البيئة التي خلقت من حولها خضوعاً لتطورات العصر نفسه، وهذا أيضاً أمر لا سبيل إلى الشك فيه، أضف إلى ذلك أن الذين لم يتصلوا بثقافتهم التقليدية، وعكفوا على الأخذ عن الثقافة الأوربية وحدها، قد عجزوا عن أن يخلقوا مما أخذوا عن أوربا أدباً جديداً له طابع معين، بحيث يختلف عن الأدب الأوربي على مقتضى ما في الثقافة من روح ومعنوية، ويختلف أيضاً عن الثقافة القديمة على مقتضى ما تتطلب روح العصر الحديث من فنون وتصورات

وأخيلة. ذلك بأن دعوتنا إلى الثقافة التقليدية لا ينبغي أن يدرك منها أننا نريد الرجوع إلى القديم بذاته، وأن نحييه ثانية بصفاته التي عرفناها والتي واءَمت العصر الذي خلقت فيه، وإنما نعني بها أن الثقافة التقليدية يجب أن تكون الأصل الذي يلقح بثمار الآداب الحديثة، حتى نقوى على هضم ما يصل ألينا عن أوربا هضماً يمكننا من تكييف الآداب الدخيلة تكييفاً يلائم وراثاتنا العديدة. وبعبارة أخرى نقول إن ثقافتنا القديمة هي المزدرع الذي نلقي فيه ببذور الأدب الحديث، فما عاش منه فيه فذلك ما نكون قد هضمنا ومثّلْنَا، ومنه نخرج الأدب الجديد الملائم لطبائعنا وميولها وتصوراتنا وأخيلتنا، وما مات في ذلك المزدرع من الآداب الحديثة فذلك ما يبعد عن طبعنا ولا حاجة لنا به. وعلى الجملة نقول إن ثقافتنا التقليدية هي بمثابة حقل التجارب الذي يمتحن فيه المجربون قوة البذور الدخيلة على الإنبات والحياة. وما السبب الصحيح في كثرة ما نقع عليه في أدبنا المنقول من الآثار الميتة إلاّ أننا لم نمتحن فيما نقلنا قوة الاستمرار والبقاء في بيئة جديدة. تلك البيئة التي يجب أن تكون من عناصر تستمد من ثقافتنا التقليدية أول شيء

قد ينكر علينا بعض الذين يودون إرضاء ناحية العزة في أنفسهم شيئاً مما نقرر في هذا البحث؛ غير أني أريد لهؤلاء أن يكونوا أكثر تشاؤماً مما هم، ذلك بأن بيئاتنا الأدبية قد تولاها منذ أول نشأتها روح رمت بها في أحضان التشاؤم المرير، ولم يسعدها الزمن بيوم واحد تفاءلت فيه بحسن المستقبل. ذلك بأن معسكري الأدب والتفكير لم يتصل أحدهما بالآخر مطلق اتصال خلال كل ذلك الزمن الذي نفخر فيه بأننا كوّنّا نهضة جديدة. فالناحية التي اتصلت بالثقافة القديمة متهمة في عين الناحية الأخرى بالجمود عن إدراك ما في الآداب الحديثة من تصورات، والناحية التي لم تتصل بالثقافة التقليدية متهمة في عين الناحية الأخرى بالزيغ عن التراث القديم. ومن ثَمَّ كان التشاؤم. وما لهذا التشاؤم من سبب إلاّ أننا لم ندرك السر عدم اتصال الناحيتين وإنما ندعو هؤلاء لأن يكونوا أكثر تشاؤماً لأنهم بذلك يكونون أدنى إلى تفهم الحقيقة كما هي واقعة. ولأضرب لهم مثلا بشرقيين اتصلا بالثقافة الأوربية، وأوربيين اتصلوا بالثقافة الشرقية. وبالأحرى بالمستأربين منا، والمستشرقين منهم. لنسأل أي الفريقين استطاع أن يهضم من آداب الآخر أكبر قسط يمكن هضمه

ولنبدأ أولاً بالمستأربين منا ولنتخذ ناحية معينة من نواحي الأدب موضوعاً لبحثنا، كالقصة أو التاريخ مثلاً. أما القصة فقد يقال بأن آدابنا القديمة لم تعن بها العناية الكافية، وأننا لذلك إنما ننقل عن أوربا أدباً جديداً لا أصل له في ثقافتنا؛ وإذن ينبغي لنا أن نتخذ التاريخ محكما للحكم، وقد ظهر من أولئك من كتب فيه أمتع المؤلفات، سواء أفي التاريخ العام، أم في تاريخ الأدب. وأنت تعلم فوق ذلك أن فن كتابة التاريخ ونقد الشواهد التاريخية ومقياس الحكم فيها وروح التفقه التاريخي، إنما هي خلق جديد من مخلوقات القرن التاسع عشر في

أوربا؛ وتعلم فوق ذلك أننا اتصلنا بهذا الوجه من الأدب في مدارسنا وجامعاتنا. وتعلم فوق هذا وذاك أن الأوربيين قد كتبوا تاريخنا على أوجه انتحيت فيها نظريات اجتماعية أو اقتصادية أو جنسية، وخاصة تاريخ العرب والإسلام. وأنت بعد هذا كله تعلم علم اليقين أن كثيراً ممن أرخ للعرب أو الإسلام قد أخطئوا التقدير أو شطوا في الأحكام، أو أن النظرية التي بنوا عليها تواريخهم لم تواتهم بالحقائق التي تلبس ما كتبوا ثوب الإقناع. فهل استطعنا الانتفاع بهذا الوجه الجديد من أوجه الأدب؟ هل ألفنا في تاريخنا كتباً قامت على نظريات جديدة تتصل بالثقافة الحديثة أو بفروع منها بحيث تبين لنا عن الاتجاهات الفكرية والتصورية التي اختفت وراء الحوادث الظاهرة، وصححنا بذلك الأخطاء التي وصلها بعض الكتاب بماضينا؟ كلا وكفا

ولنعد بعد ذلك إلى المستشرقين منهم، ونمتحن في ضوء العقل والاتزان الآثار التي صدرت عنهم متصلة بثقافتنا القديمة، ونعني بالمستشرقين كل من اتصل بالشرق سواء كان ذلك من طريق اللغة أم من طريق الدرس باللغات التي نقلت إليها آثارنا القديمة. أما إذا اتجهنا ذلك الاتجاه فإن أول ما نلحظ في الآثار التي صدرت عنهم عكوفهم فيها على أسلوب البحث العلمي وهو أسلوب يتلقونه في معاهدهم وتلازمهم آثاره بعد ذلك. فهم يكتبون التاريخ بأسلوب البحث العلمي، ويكتبون الأدب بأسلوب البحث العلمي، ويتكلمون بأسلوب البحث العلمي وهو أسلوب أخص ما امتازت به

ثقافتهم التقليدية. ثم تلحظ بعد ذلك أثر البحث الأكاديمي من حيث الانكباب على الفهم العميق لأشياء قد تلوح أول شيء تافهة غير جديرة بالبحث ولا هي خليقة بالدرس، ومقارنتها بمجموع الحقائق التي تتعلق بها. وهو أسلوب من البحث عاش بين جدران الأزهر أزماناً، وكاد الأزهر يفقده الآن مع الأسف، مع ما فقدنا من تقاليدنا القديمة. وتشهد بعد ذلك في آثارهم ما تضفي الأناة والصبر والاستقلال في الرأي على الآثار العلمية من مظاهر الروعة والجلال. هذا إلى المظهر العام الذي يلابس ما يؤمنون من جماع هذه الأشياء. وبذلك استطاع هؤلاء المستشرقين أن يهضموا ما أخذوا عن الشرق ليخرج من بين أيديهم لابساً صورة أوربية رسيسة. ولقد يخطئون، ولقد يشط أكثرهم أكبر الشطط، ولكنه خطأ واشتطاط تلابسه روح البحث والدرس، ويحوطه الأسلوب الأكاديمي بروعة البحوث العلمية

وبعد. فما هو السبب في الفرقة بين مستأرب عاجز عن كتابة تاريخه بروح جديدة، ومستشرق يكتب تاريخ غيره بروح مستمدة من طبعه؟ السبب أن الأول بعيد عن ثقافته التقليدية التي يتخذ منها مادة للدرس والبحث والاستنتاج والصياغة، وأن الثاني يكتب تاريخ غيره مستهدياً بفطرة مستمدة من ثقافته التقليدية. وإني لواثق أن هذه المقارنة سوف تجعل الذين يجنحون إلى إرضاء ناحية العزة والأنفة في أنفسهم يخففون شيئاً من غلوائهم، وتنزع بالذين لا يتشاءمون من أدبنا الحديث بقدر يجعلهم يرون الحقائق كما هي واقعة، إلى درجة من التشاؤم تنير أمامهم السبيل

لقد بدأت نهضتنا الأدبية الحديثة باندفاع نحو الآداب العالمية، واستمداد من وحي أوربا الجديدة؛ ولو أننا تذرعنا مع الاتجاه الجديد بركيزة تقوم على ثقافتنا التقليدية ووراثاتنا المختلفة، إذن لكان لنا أن نقول إننا أخذنا نشيد بناء ثابتاً على أساس مستمد من فطرتنا. أما وإننا لم نعن العناية الواجبة بماضينا، فأهملنا أمر اللغة حتى خرج المتعلمون من أبنائنا وأكثرهم يجهل القواعد الأولية من لغة العرب؛ ونبذنا آداب العربية، حتى نشأ الجيل الحاضر بعيداً عن استذواق الأدب العربي والوقوف على أسراره، فان دفعتنا الأولى نحو التزود من الآداب العالمية الجديدة هي التي أحدثت ذلك الركس الشديد الذي يتجلى الآن في عجز أدباء الشباب عن خلق صورة من الأدب فيها من قوة الحياة ما يجعلها خليقة بان تصبح عنواناً على روح العصر الذي نعيش فيه

على أننا لا يجب أن ننسى في هذا البحث أن نشير إلى علاقة الآداب من الناحية العلمية بطبيعة الأرض والإقليم والمناخ من حيث أنها بيئة طبيعية، كما أننا لم ننس أن نشير إلى اللغة والآداب القديمة والتاريخ والأساطير والحالات الاجتماعية من حيث أنها بيئة عقلية. أما العلاقة بين البيئتين فبينة لا سبيل إلى إنكارها، أو نكون قد أنكرنا أخص العلاقات التي تفرضها الطبيعة فرضاً على الأحياء وتصبغ بها طبائعهم وأخلاقهم وميولهم وأخيلتهم، وعلى الجملة جماع ما فيهم من الصفات العقلية والنفسية. وإلى جانب هذا ينبغي لنا أن نضع في ميزان الحكم والتقدير عند النظر في مثل هذه العلاقات أن الآداب التي أنشأتها شعوب قديمة إنما هي بنت البيئة وربيبة الوسط، بل إنها خلاصة الطبع وعصارة النفس؛ وإنما تتشكل هذه الآداب بمقتضيات العصور علية، وتتكيف بحكم ما يستجمع العقل من مختلف التصورات. أما الروح التي تظهر متجلية في هذه الآداب، فذلك ما لا سلطان لمقتضيات العصور عليه، ولا أثر لما يستجمع العقل فيها إلاّ بمقدار ما تظهر ملابسه لآراء جديدة أو تصورات حديثة أو ميول معينة، تسري فيها تلك الروح سريان القوة في الأجسام المادية، تظهر وهي خفية، وتتجلى وهي كامنة، كأنما هي السيال الذي يخرج من جسم مشع في أقصى أغوار الكون ليصل إلى عالم آخر في صورة أشعة، هي بذاتها الأشعة التي كان يبعثها ذلك الجسم منذ أبعد الأزمان، وإنما ينتفع بها أقوام على الأقوام الأول، وتستهديها شعوب غير الشعوب الغابرة؛ هي في جوهرها وروحها نفس الأشعة القديمة، ولكن تكييفها مرهون بالقدرة على استخدامها أو الحاجة إليها، وإذن ينبغي لنا ألا نقطع الصلة بيننا وبين ذلك السيل الخالد الذي تصلنا أشعته من ماضينا؛ من لغتنا وآدابنا وتاريخنا وأساطيرنا ونظمنا الاجتماعية، تلك التي جادت علينا بها طبيعة الأرض التي حملتنا والسماء التي أظلتنا منذ أبعد عصور التاريخ الإنساني

إسماعيل مظهر

-

الشيخ محمد النجار
صاحب الأرغول
للأستاذ عبد الوهاب النجار
لمناسبة ما ذكره الأستاذ حسين شفيق المصري عن صاحب الأرغول في محاضرته القيمة في تطور الصحافة الأسبوعية
الشيخ محمد النجار شخصية غير مجهولة في عالم الأدب في غروب القرن الماضي وفجر القرن الحاضر
كان المرحوم طالباً بالأزهر الشريف نابهاً بين إخوانه، يجمع الطلبة الذين هم أقل منه ويدرس لهم من العلوم الأزهرية ما هم في حاجة إليه
فلما جاء الشيخ محمد العباسي المهدي شيخاً للأزهر لم يجد به نظاماً يتبع في إعطاء إجازة التدريس ولا دفتراً يضم أسماء العلماء بالأزهر، بل كان من آنس في نفسه قوة وأهلية للتدريس أعد نفسه لتدريس أحد الكتب ودعا الطلبة والعلماء لحضور ابتداء درسه، فإذا أداه حق الأداء وأجاب على كل الأسئلة التي وجهت إليه والاعتراضات التي اصطدم بها من الطلبة والعلماء عد عالماً، وذلك بتهنئة العلماء إياه وثنائهم عليه، وعليه بعد ذلك أن يدعو جلة العلماء والفضلاء إلى مأدبة يعملها لهم شكراً على نجاحه وفلاحه
أما إذا لم يسدد إلى سداد، ولم يوفق في درسه إلى صواب، فإن العلماء ينصرفون عنه دون تهنئته، وحينئذ يتبين الجمهور أنه أخفق ولم يوفق
عزم الشيخ العباسي المهدي على أن يسجل أسماء العلماء الذين يدرسون في الأزهر لذلك العهد وألا يدخل في زمرتهم أحد بعد ذلك إلا إذا اجتاز امتحاناً يعقد لذلك، وعين العلوم على الطالب أن يمر فيها بنجاح في ذلك الامتحان
كان في ذلك العهد يوجد عالم بالأزهر قد بلغ من الكبر عتياً أسمه الشيخ محمد النجار (غير صاحب الأرغول) وقد ذهب ذلك الشيخ إلى بلده ومات بها ولا يعلم بذلك أحد
فلما شرع الشيخ المهدي في تسجيل أسماء العلماء المدرسين بالأزهر أملى بعض العلماء أسم الشيخ محمد النجار، وكان الكبير الذي يحمل ذلك الاسم قد مات قبل ذلك لوقت بقليل
ولا يوجد ممن يدرس للطلبة بهذا الاسم سوى الشيخ محمد النجار (صاحب الأرغول فيما بعد)، فتلقف هذه الوظيفة النجار الفتى إذ لا يوجد بازاء الوظيفة ما يميز نجاراً من نجار
بهذا أخبرني العلامة الأديب المرحوم الشيخ محمد أبو راشد إمام المعية في عهد الخديو السابق عباس حلمي باشا الثاني
عين بعد ذلك الشيخ محمد النجار مدرساً بالمدارس الأميرية مع بقائه مدرساً بالأزهر إلى أن كان مدرساً بمدرسة الفنون والصنائع الأميرية ببولاق
وقد كانت نظارة المعارف في ذلك العهد ليس بها درجات للمدرسين ولا نظام للعلاوات وإنما كان ينال من العلاوات من يصادفه الجد ويسعده الحظ. وقد عبر الشيخ النجار على ذلك مدة من الزمن، وكلما آنس أن العلاوة ستسعده بعدت وأخطأته أو تخطته. فلما كان عهد تولية علي مبارك باشا نظارة المعارف عمل له زجلاً يشكو به حاله وقدمه إليه. وهأنذا أنص ما وعته ذاكرتي منه

الدهر دا ديْماً غدار ... لكنوعَ العاقل أكتر
والسعد يأتي بالأقدار ... والرزق مقسومْ ومقدر
الدهر ديْماً مع الأحرار ... يقول حاوريني يا طيطه
تلقى الردِى بختهِ طيب ... والحر لُو بخت قليطه
ودا غنى بيتو فشبراً ... ودا انزرع في التبليطه
ودا حمار وراكبلو حمار ... مبسوط بأنه سي بعجز
الناس خدامتها سهلة ... وان خدامتي في اتعاب
في كل يوم الصبيحه ... أمشي إلى بولاق قِراب
واللي أبات فيه أصبح فيه ... رايح وجي من الكُتاب
خوجه وعايز حق حمار ... ولي ماهيَّه لا تذكر
امتى أفوت مشوار بولاق ... واعرف أنا الآخر بختي
وأفوت بتوع حياك الله ... وبتوع حبرتك يا ستي

كتب علينا (قل سيروا) ... فيها مصيَّف ومْشَتي
الشمس فيها زي النار ... وفي الهوا دايماً تعفر
يا أهل المعارف والأنصاف ... أنا جرالي معاكم إيه
تأخروني بالمرة ... وتقدموا الغير عني ليه
البيه يقول روح للباشا ... والباشا يأمر روح للبيه
وأنا كدا واقف محتار ... زعلان ومغموم ومكدر
قالوا الديوان عامل ترتيب ... وبالزيادة لك جادوا
يا حلم وان صحت الأحلام ... وطلعت أنا في اللي زادوا
ورحت أرجو سيدي فلان ... والعبد يترجا اسيادوا
وضع أمام اسمي أصفار ... حتى بقي حالي يصفر
لا أنا مساعد في الساحل ... ولا قريب الشيخ قفه
ولا صعيدي بياع دوم ... خالي حمد سرق الزلفه
ولا مراكبي لي مركب ... عويلها مربوط بالدفه
إلا شريف جدي المختار ... عالم مدرس بالأزهر

فلما قدم هذا الرجل الزجل إلى المرحوم علي مبارك باشا أعجب به وأمر بنقله إلى مدرسة القريبة وزيادة جنيه ونصف على مرتبه، وما كان يحلم أن يصل إلى ذلك في ثلاث علاوات

وكان رحمه الله راسخ القدم في فنون الأدب، فكان ينظم المواويل الحمر ويساجل أبطالها

كان يوجد رجل بمديرية المنيا اسمه الشيخ عبد الله لهلبها ينظم المواويل، وقد ذهب المرحوم الشيخ محمد النجار إلى المنيا وبحث عن الشيخ فلم يجده

فترك له موالاً عند عبد القادر أفندي إدريس وهو:

والله ما حرق الأحشا ولَهْلِبْها ... ولا أذاب مهجتي إلا ولَهْلبها
ونزلت في أرض لا ناسي ولهلبها ... وجيت أدور على مواوي يواويلي
قالوا ما فيش إلا أبو كراع في بلدة ولهلبها

أما ما رد به عبد الله لهلبها على هذا الموال فعند عبد القادر أفندي إدريس

وكان النجار رحمه الله يبتدئ الموال ويتحدى الأدباء يريد منهم تكملته فلا يجد. وربما زاد قسما آخر بعد ذلك في الموال. فيعي الأدباء عن ذلك

من هذا قوله:

مغزل حماتك سقط ضاعت تقاقيله

فلما لم يظفر بتكملته زاد عليه:

ما تنظر الديك والفرخه تقاقي له

ومن ذلك أيضاً قوله:

مغزل حماتك سقط ضاعت سنانيره - ثم زاد -: فضل المعدل يعدل في سنانيره

وكان رحمه الله سريعاً إلى النكتة، حاضر البديهة. فمن ذلك أنه مر بصديق له، فقال له الصديق: يا شيخ محمد، ازاي الأرغول؟ - فأجابه بقوله: (بِنَفَسك ماشي)

ويا حبذا لو أتحف أصدقاؤه وخلانه قراء (الرسالة) بشيء عنه

عبد الوهاب النجار

للتاريخ السياسي:

اليوم السابع من مارس

ضربة مسرحية في برلين

للدكتور يوسف هيكل

تمهيد

مما يجدر ذكره أن حكومة برلين تتخذ عادة يوم السبت قرارات هامة، وتقف العالم أمام حوادث دولية عظيمة. وكانت حكومة القيصر تعمل على هذه السياسة، وقد سارت عليها جمهورية (ويمر) وتبعتها حكومة الهر هتلر!. وكانت آخر هذه الأعمال الدولية الخطيرة النتائج، رفض حكومة برلين معاهدة لوكارنو واحتلال أراضي الرين يوم السبت الموافق 7 مارس من هذا العام. والمرء يتساءل عن السبب الذي من أجله تختار حكومة برلين يوم السبت لأعمالها الجليلة الخطرة في وقت واحد عليها

وعلى السلام
إننا نعتقد أن هنالك سبباً واحدا، وهو أن عطلة (نهاية الأسبوع) - متبعة في بلاد الإنكليز وفي جميع دوائرها الرسمية. وفي نهاية كل أسبوع يترك معظم كبار ساسة لندن وأولي الأمر فيها العاصمة لقضاء (نهاية الأسبوع) في الضواحي وعلى شواطئ البحار. وفي هذه الحالة يكون من الصعب جداً اجتماع الذين في يدهم زمام أمور الحكومة حين حدوث طارئ جلل يوم السبت أو الأحد. وفي هذه الحالة يتعسر جداً، إن لم يكن محالاً، على حكومة باريس الاتصال بحكومة لندن، لتبحث معها في التدابير التي يجب اتخاذها أمام الخطب السياسي الجديد الذي أحدثته حكومة برلين، ولإعاقة اجتماعهما وتبادلهما الآراء تختار الحكومة الألمانية يوم السبت لإيقاف العالم على قرارها الدولي الصبغة!
وقبل أن نحاول تحليل ضربة برلين المسرحية والأزمة التي نجمت عنها يجدر بنا التحدث أولاً عن معاهدة لوكارنو وإبانة الغرض الذي من أجله عقدت، والنقط الهامة التي تحتوي عليها، تسهيلاً للوقوف على تطور الحوادث الدولية، وتمييز الصواب من الخطأ. ويتلو ذلك عرض حوادث 7 مارس وما تبعها في ألمانيا، وتفنيد ادعاءات حكومة الهر هتلر ضد المعاهدة الفرنسية الروسية؛ وشرح موقف دول لوكارنو إزاء هذه الحوادث وقرار مجلس
عصبة الأمم. وهذه النقط تكون القسم الأول من هذه المقالات
ثم نأتي على عرض الجلسات الهامة لمؤتمر دول لوكارنو وتحليل (اقتراحات لندن) و (منهاج السلام الألماني، أو اقتراحات الهر هتلر) و (المنهاج الفرنسي أو اقتراحات فرنسا السلمية).
وهذه الأمور تكون القسم الثاني من هذه الدراسة السريعة
وأخيراً نحاول إبانة حقيقة سياسة الهر هتلر الخارجية، والهدف الذي يرمى إليه من لوكارنو إلى 7 مارس
معاهدة لوكارنو
أظهرت ألمانيا في السنين التي تلت الحرب رغبة في التفاهم مع جاراتها، وتوطيد السلام في أوربا الغربية، فاقترحت عام 1922 إيجاد اتفاق بين الدول التي تحد أراضي الرين، تمنع بموجبه الحرب وتحسن العلاقات الدولية بين ألمانيا وجاراتها الغربية - فلم يلق هذا الاقتراح أذناً صاغية. . . . . وقد جدد (المستشار مثل هذا الاقتراح عام 1923 فاعتبره مسيو بوانكاريه دسيسة ألمانية جديدة. . .
وفكر اللورد دابرونون ' سفير بريطانيا في برلين عام 1924 في أن الوقت مناسب لعقد هذا الاتفاق، ففاتح الهر ستريزمان بذلك؛ وبعد درسهما الموضوع أرسل ستريزمان في 9 فبراير سنة 1925 بواسطة سفيره في باريس الهر إلى الحكومة الفرنسية مقترحاً على الحكومات التي تحد الرين عقد اتفاق بموجبه تمنع الحرب خلال أجل مسمى، وتحل الاختلافات المدنية والسياسية بموجب التحكيم، وتتعهد فيه ألمانيا بعدم تسليح أراضي الرين. حض سفير بريطانيا على عقد مثل هذا الاتفاق، على رغم أن بريطانيا لا تحب أن تتحمل مسؤوليات دولية، لأن توطيد السلام في أوربا الغربية يفيد السياسة البريطانية، ولأن بريطانيا تريد إرغام فرنسا بوسيلة ما على تخلية أراضي (الرور). . . . . وتحول دون اجتياز الجنود الفرنسية الحدود الألمانية. . . .
كان مسيو هريو رئيس الوزارة الفرنسية حينئذ، وبرغم أنه كان على رأي القائلين بسياسة التفاهم مع ألمانيا فقد خشي أن يكون في مذكرة ستريزمان مكيدة، ثم دعاه انهماكه في
المشاكل الداخلية والمالية إلى إهمال المذكرة وعدم إعطائها الأهمية التي تستحقها. وفي ذات يوم اطلع عليها مسيو بريان، وبعد أن قرأها السياسي الكبير، أبدى رأيه فيها قائلاً: إنها عظيمة الأهمية
فقال رئيس الوزراء: إنها (لمصيدة)
فرد مسيو بريان: إن الثعلب الماهر يأخذ اللحمة ويترك المصيدة
ولما عاد مسيو بريان في أبريل من العام نفسه إلى الـ (كي دورسي) أعطى المذكرة أهميتها وأخذ يتحادث مع بريطانيا بشأنها. ولما تمت هذه المحادثات التمهيدية، قدم السفير الفرنسي في برلين في 16 يونيه إلى الهر ستريزمان جواب فرنسا وحلفائها،

. . .وكان جواباً إيجابياً. ثم شرع الفنيون في درس الموضوع ووضع المبادئ العامة
وفي لوكارنو - وهي مدينة سويسرية صغيرة واقعة على بحيرة ليمان - تقابل بريان
وستريزمان واستين شمبرلين؛ وأخذوا يدرسون دقائق المعاهدة، ووصلوا إلى الاتفاق
الأخير في 16 أكتوبر سنة 1925، ووافقت فرنسا وألمانيا وبلجيكا وبريطانيا وإيطاليا
عليها
وتفيد لوكارنو الدول الثلاث الأولى مباشرة، أما بريطانيا وإيطاليا فضامنتان فيها
وتتألف معاهدة لوكارنو من خمس مواد:
ففي المادة الأولى تعترف الدول الموقعة على المعاهدة بالحدود التي وضعتها معاهدة
فرساي، بين ألمانيا وبلجيكا من جهة، وبين ألمانيا وفرنسا من جهة ثانية. وتعترف هذه
الدول أيضاً بمحتويات المادتين 42 و43 من معاهدة فرساي، أي الإقليم غير المسلح:
أراضي الرين
وفي المادة الثانية تتعهد ألمانيا وفرنسا وبريطانيا وبلجيكا بعدم الالتجاء إلى الحرب
لحل أي خلاف. على أن هذا التعهد لا يعمل به في الأحوال الآتية:
(1) في حالة (الدفاع عن النفس) - أي عند مخالفة المادة 42 أو 43 من معاهدة
فرساي (مخالفة ظاهرة) - غير محرض عليها؛ ولسبب تجمع قوى حربية في الإقليم
غير المسلح، والعمل الفوري ضروري في هذه الحالات
(2) عند القيام بعمل ناجم من المادة 16 من صك العصبة
(3) عند القيام بعمل حسب قرار العصبة أو حسب المادة 15 بند 7 من صكها
ومع اعتبارات محتويات المادة الثانية فإن ألمانيا وفرنسا من جهة، وألمانيا وبلجيكا من
جهة ثانية، تتعهد في المادة الثالثة بتصفية أي خلاف يحدث بينهما عن طريق سلمي:
ففي الخلاف المدني تُرفع القضية إلى قاض يعمل الغرماء حسب قراره. وفي أي
خلاف آخر يرفع الخلاف إلى (لجنة توفيق)، وإن لم يقبل الغرماء قرار اللجنة يرفع إلى
مجلس عصبة الأمم
والمادة الرابعة تنص على أنه:
(1) إن اعتقد أحد المتعاهدين بأن تعديا قد وقع على المادة الثانية أو على المادة 42
أو 43 من معاهدة فرساي رفع دعواه إلى العصبة
(2) حينما يقرر مجلس العصبة تلك المخالفة يخطر المتعاهدين بقراره، وعلى كل منها
أن تمد يد المساعدة حالاً إلى الدولة الموجه أليها العمل المحرَّم
(3) وعند تعدي إحدى الدول المتعاهدة (تعدياً ظاهراً) - على المادة 2 من المعاهدة أو
(المخالفة الظاهرة) على المادة 42 أو 43 من معاهدة فرساي، فإن كل دولة من
الدول المتعاهدة الأخرى تتعهد من الآن إلى مد يد المساعدة حالا إلى الفريق الذي
كانت موجهة ضده المخالفة أو التعدي، ابتداء من تَيَقُّن تلك الدولة أن التعدي كان عملاً
عدائيا غير محرض عليه، أو لسبب اجتياز الحدود، أو الابتداء بالعداء، أو جمع قوى
حربية في الإقليم غير المسلح فإن العمل الفوري ضروري. وعلى كل فإن مجلس
العصبة الذي استلم الدعوى حسب البند الأول من هذه المادة يعلم نتيجة قراره.
والمتعاقدون في هذه الحالة يتعهدون على العمل بموجب قرار المجلس الذي أخذ
بالإجماع بغض النظر عن أصوات ممثلي المتخاصمين
أما المادة الخامسة فتقول: (إذا رفضت إحدى الدول المذكورة في المادة 3 إتباع
الحلول السلمية أو تنفيذ قرار التحكيم أو القرار القضائي واعتدت على المادة 2 من
هذه المعاهدة أو خالفت المادة 42 أو 43 من معاهدة فرساي، فتنفذ، إذ ذاك محتويات
المادة 4 من هذه المعاهدة
وفي الحالة التي ترفض فيها الدول المذكورة في المادة (الثالثة) إتباع الحلول السلمية
أو تنفيذ قرار التحكيم أو القرار القضائي، دون أن تكون قد اعتدت على المادة الثانية
أو
خالفت المادة 42 أو 43 من معاهدة فرساي، فإن الفريق الثاني يرفع الدعوى إلى
مجلس العصبة الذي يقترح الإجراءات الواجب اتخاذها: وأن المتعاقدين يعملون حسب
هذه الاقتراحات
قبلت ألمانيا في هذه المعاهدة عدم المساواة في الحقوق، ووافقت على الحدود التي
بينها وبين بلجيكا وفرنسا، وتخلت بذلك عن طيب خاطر عن الالزاس واللورين،

ووافقت أيضاً على بقاء الإقليم غير المسلح. وهذه الشروط ليست جديدة، بل هي مدونة في معاهدة فرساي. وظن حينئذ أنه من الأنسب قبول ألمانيا اختيارياً بها، لأن المعاهدات الموقع عليها طيب خاطر لها حرمة أقدس من المعاهدات المرغم عليها، وهذه المعاهدات تمزقها الأمة التي أرغمت عليها عند ما تجد في نفسها القوة والجرأة الكافيتين للقيام بذلك. والمعاهدات، في الواقع على نوعين: قانونية كفرساي، وأخلاقية - كلوكارنو، وكان لهذه النوع الأخير من المعاهدات قيمة كبرى من الوجهة العلمية قبل 7 مارس 1936

وقد دفعت فرنسا ثمن هذه المعاهدة بإخلائها إقليم كولون وأراضي الرين، أي أن فرنسا قد تركت سياستها المبنية على الضغط على ألمانيا للوصول إلى حقوقها، وأقامت مكانها ثقتها في ألمانيا السلمية. وقيل حينئذ إن كانت هذه الثقة قد وضعت في غير مكانها فإن فرنسا تصبح تحت رحمة جارتها الجبارة، وهذا ما وقع في السنين الأخيرة

وانتقد كثير من الفرنسيين معاهدة لوكارنو قائلين: ألا يعني ذلك أن فرنسا قد تركت كل المحاولة في جعل ألمانيا عزلاء، وتركت مراقبة الرين وحقها في التعويض؟ أليست هذه المعاهدة إنشاء للتفاهم بين ألمانيا وبريطانيا، لا بين ألمانيا وفرنسا؟ وقيل أيضاً: هل من الأكيد أن بريطانيا ستقف مع فرنسا حين هجوم ألمانيا عليها؟! أو ليس من الممكن أن تحابي بريطانيا ألمانيا وتؤيد عملها؟! ثم لبريطانيا وحدها الحق في التقرير فيما إذا كان اعتداء ألمانيا دون تحريض أم لا، وعلى ذلك فيمكنها تأويل كل قانون وتفسير كل عمل حسبما تقتضيه سياستها؛ فمساعدة بريطانيا ليست أمراً واقعاً. . .

ولقد حاربت بريطانيا النفوذ الألماني في أوربا، وهي الآن جادة في محاربة النفوذ الفرنسي فيها. ألا تعيد في عملها هذا السيطرة الجرمانية على أوربا؟

وتكون هذه الانتقادات في محلها إن كانت نية ألمانيا سيئة، وقيمة الميثاق تتوقف على مقدار

انتشار روح التسامح والوئام بين الجارتين وتوثيق العلاقات الودية بينهما؛ وإن فقدت هذه الروح في إحدى البلادين فلوكارنو تصبح ورقة بالية ولتقدير قيمة هذه المعاهدة يجب معرفة عقبة كل من البلادين

مما لاشك فيه أن الفرنسيين محبون للسلم، فهم يكرهون الحرب دون أن يخافوها، ولا يفكرون في الاستيلاء على بلاد أوربية، غير أنهم يسيئون الظن في الغير، وهم حريصون جداً على حريتهم وسلامة بلادهم. وإن حاول الغير التعدي عليهم أصبحوا كالرجل الواحد، يدافعون حتى النفس الأخير في سبيل حريتهم ووطنهم. وهم يودون التفاهم مع ألمانيا وإيجاد سلام أبدي بين البلادين، غير أنهم يعتقدون اعتقاداً راسخاً بأن ألمانيا تريد غدرهم والإيقاع بهم، وهي تستعد لحرب ثانية وتعمل لها، ونتيجة لهذه الفكرة المختمرة في رءوسهم يعملون على تقوية مركزهم الحربي، ويسعون في إيجاد حلفاء لهم ضد ألمانيا ونتيجة ذلك حصر ألمانيا والظهور بمظهر العدو لها. . .

والشعب الألماني شعب (ديناميكي) يحب الحرب ويصبو إلى الفتح، ولا يقبل إلا أن يكون له المركز الأول في أوربا. . . وهو ينظر إلى فرنسا كالحاجز الذي يحول بينه وبين غرضه، فيبغضها ويعمل على كسر هذا الحاجز؛ ثم إن الشعب الألماني فخور، يأبى العار ويعمل على غسله حتى بالدماء؛ وهو لن يرضى عن فرساي بل يبذل جهده في تمزيقها

فلوكارنو لم تحل هذه المعضلات، ولم تزل أسباب العداء الذي بين الجارتين؛ فهي لم تؤمن فرنسا على سلامتها، ولم تعط ألمانيا بعض ما تصبو إليه، فهي عاجزة عن إيجاد السلام وتوثيق روح الصداقة والوئام بين أكبر عدوين

أما قيمتها الأخلاقية فقد زالت بضربة 7 مارس، ووضع الهر هتلر المعاهدات الأخلاقية في دائرة المعاهدات القانونية التي ترغم الدول على التوقيع عليها؛ وقال بعدم قانونيتها ما دامت تخالف مصالح إحدى الدول التي وقعت عليها

وسنرى في المقالات التالية أن لا قيمة لكفالة بريطانيا وإيطاليا، وأن هاتين الدولتين لم تقوما بما تفرضه عليهما نصوص معاهدة لوكارنو

وعندما دعت ضربة 7 مارس إلى تطبيق المعاهدة، اختلف في تفسيرها ولا سيما البند الثالث من المادة الرابعة

فأخذ فريق من ساسة الإنكليز ورجال الحقوق فيها يقول بأن عبارة (تلك الدولة) تعود إلى (الفريق الذي كانت موجهة إليه المخالفة والتعدي)، لا إلى عبارة (كل دولة من الدول المتعاهدة الأخرى)، وإن الحكومة البريطانية غير مقيدة بمساعدة فرنسا لمجرد احتلال أراضي الرين؛ ومساعدتها واجبة فقط عندما يكون هذا الاحتلال على شكل يوجب القيام فوراً بإجراءات صارمة، وهو يريد بهذا التفسير أن بريطانيا لم تخالف المعاهدة، لأن فرنسا لم تعتبر عمل ألمانيا (تعدياً ظاهراً)، ولم تقم بإجراءات عاجلة. . ولأن بريطانيا تعتقد أن عمل ألمانيا لا يوجب القيام بإجراءات حربية

ويرد فريق آخر على هذا التفسير، وعلى رأسهم السير استين شمبرلين، وهو أحد الذين وضعوا المعاهدة بأن عبارة (تلك الدولة) ترجع إلى عبارة (كل دولة من الدول المتعاهدة الأخرى) لا إلى عبارة (الفريق الذي كانت موجهة ضده المخالفة أو التعدي).

وأن لوكارنو تعتبر اجتياز الحدود وإشهار الحرب وجمع قوى حربية في الإقليم غير المسلح عملاً هجومياً يقضي على جميع الموقعين على المعاهدة القيام بإجراءات صارمة حتى الحرب لإعادة الستاتيكو إلى ما كان عليه قبل وقوع التعدي، وأن السبب الذي لم يدع إلى اتخاذ الإجراءات العسكرية في حالة 7 مارس يعود إلى الموقف السلمي الذي وقفته فرنسا وبلجيكا

إن تفسير الفريق الأول خطأ، وهو قائم على دعائم هوائية، ولا يراد منه إلا التهرب من واجبات المعاهدة. أما تفسير السير استن شمبرلين فصحيح متين:

فلو أن عبارة (تلك الدولة) تعود حقاً إلى عبارة (الفريق الذي كانت موجهة إليه المخالفة أو التعدي) لما قبل السير استن شمبرلين بذلك؛ ولما وافقت حكومة لندن وبرلمانها على هذه المعاهدة. إذ الحكومة البريطانية أشد الحكومات حرصاً على عدم ارتباطها بمعاهدات ترغمها على دخول الحرب بمجرد إرادة غيرها. ولو أن هذا التفسير صحيح لما رأينا فرنسا تقف واجمة أمام ضربة 7 مارس، بل لرأيناها تجتاز الحدود وتحتل أراضي الرين، إذ كان في إمكانها أن تقول لبريطانيا: إنني أعتقد بأن عمل ألمانيا عمل عدائي غير محرض عليه، ولذا يجب عليك أن تتخذي إجراءات عسكرية صارمة ضدها. وواقع الأمر أن فرنسا لم ترغم ألمانيا على سحب قواها الحربية من أراضي الرين إلا لأنها لم تكن

واثقة من موقف بريطانيا إزاء ضربة 7 مارس من جهة، ولأنها لم ترد تعقيد المعضلة من جهة ثانية

(لندن)

يوسف هيكل

من الموضوعات التي نالت الجائزة في المباراة الأدبية

التربية الوطنية الاستقلالية وأثرها في بناء الأمة

للأستاذ محمد عبد الباري

- 2 -

النشأة الأولى

لست أدخل في مناقشة مسائل التربية وعلم النفس وأنا أحاول كتابة كلمة مفروض أنها كما هي للخاصة، ولهذا فإني أستعرض الأدوار التي تمر بنا جميعاً مجرد استعراض قصد توجيه النظر العادي

جملة قصيرة شائعة بين الخاصة والكافة هي جماع (من شب على شيء شاب عليه) ما أريد تقريره

يولد الطفل طليقاً من كل قيد. ومن المستطاع تربيته على الفضائل الاجتماعية منذ نشأته الأولى إذا ما تركناه على سجيته متناولين حركاته بالتقويم الرشيد دون إفساد طبيعته

هذا يقتضي بلا ريب أن يكون لدى الأم فكرة عامة؛ وهذا الإدراك الضروري للأم ليس من الأمور الهينة في مثل بيئتنا، لكن هذا لا بد منه؛ وما دام لا بد منه فلا سبيل إلى إهماله. أما كيف تصل إليه فلا تسع له مجال القول هنا، ويكفي القول بأن الأمر من الأهمية بحيث يرخص في سبيل تحقيقه كل غال، ويسهل في سبيل الوصول إليه كل صعب. وهل هنالك غرض أسمى من بناء الأمة بناء متيناً؟

أول ما تجب العناية به في أمر الطفل تربية جسمه طبقاً لقواعد الصحة، والعناية بغذائه وبنظافته؛ يتلو هذا في الأهمية ويقترن به في التبكير عدم تقديم كل ما يريد بغير تكليفه السعي إليه. يجب أن يربى على السعي لتتكون لديه فكرة الاعتماد على النفس. فإذا أشار إلى شيء ليحصل عليه، يجب أن يقرب إليه بحيث لا يتسنى له الحصول عليه إلا بمحاولة جسدية. وإذا ما كان في مقدوره أن يحبو فيجب أن يوضع الشيء بحيث يحبو إليه ليصل

إليه؛ فإذا تظاهر بالإعياء فلتغض الطرف عنه ليسعى ثم يسعى. ومن يتأمل ير على الطفل إمارات الارتياح إذا ما وصل إلى غرضه بعد كد وسعي

وإذا ما سقط وهو يمشي فلا نظهر انزعاجنا ونسرع إليه نلتقطه مظهرين الحنو عليه، بل نتركه ينهض بنفسه. فبهذا وبأمثاله تربي فيه صفة الاعتماد على النفس والثقة بها، وهما من أقوى عوامل النجاح في الفرد، وأمتن أسس البناء في الأمة

يلي هذا وذاك في الترتيب، ويتقدمه في الأهمية، أمر أعصاب الناشئ. ينبغي عدم الالتجاء بحال إلى تخويف الطفل لحمله على الإذعان برسم صور خيالية مرعبة في مخيلته. هذه الصور الخيالية المرعبة هي شر ما يحطم النفس البشرية؛ هي الجرثومة الخبيثة لمرض الجبن، أعصى الأمراض الاجتماعية على العلاج وأشدها فتكا بالجماعات

لست أقول بترك الطفل يعمل بلا تقويم، ولكني أقول بأنه يجب تقويمه في عناية وبغير إفساد خياله (بالمرهبات). فإذا تقدم في السن فلا بأس بإشعاره بسوء عاقبة الخطأ بحرمانه أو بضربه بالقدر الكافي مع الهدوء التام والقصد. ومن الواجب أن نظهر استحساننا واستهجاننا في مناسبات ذلك

بهذا يمكن أن نربي في الطفل قوة الاعتماد على النفس وحكم الأعصاب والشجاعة والمثابرة. وإذا ما ترك المنزل إلى المدرسة أو المصنع على هذا فإنه يكون مزوداً بالقدر الكافي للحياة الكريمة

وفي المكتب أو المدرسة وفي المصنع وفي الشركات ومصالح الحكومة ودار العمدة يمكن تناول هذه الصفات بالتقوية. ولكن أقوى الدعائم ما يكتسبه الطفل في المنزل سواء بالتقويم والتعويد، أو بالمثل والقدوة

فالأولاد يكسبون كثيراً إذا ما شاع في البيت شعور المحافظة على الكرامة والقيام بالواجب والتمسك بالحق. إذا احترم كل من الزوجين الآخر، ولم يتحكم الكبير في الصغير، ولم يستغل ضعف الخدم لإرهاقهم وظلمهم؛ وبالجملة إذا حرص رب الدار على ألا يكون في بيته إرهاب أو إذلال أو استكانة، ينشأ مع الأولاد شعور بالعدل والعزة، ونفور من الظلم والعدوان

والنشأة المنزلية الملهمة للحرية والاستقلال تهون ذيوعهما في الجماعة. فالغالب فيمن لم

يألف الإهانة في صغره عدم قبولها إذا ما كبر. وإذا آنس المعتدي من فريسته المقاومة فكر كثيراً قبل الاعتداء. فإذا ما قوبل الاعتداء بمثله كف المعتدون مع الزمن، فتشيع في الجماعة روح الاعتدال نتيجة هذا التفاعل، ويشع في جوانبها نور الحرية ويصلب عودها وتقوى ويصعب النيل من حريتها واستقلالها

إيجاد هذه الروح في الجيل الحاضر وتربيتها في الجيل الناشئ ليس من الهين في بلادنا مثلاً. لكن الأمر كما قلت عظيم. فليكن من أغراض دعاة الإصلاح تحقيق هذه الغاية بكل الوسائل. فبناء الأمة قوية مستحيل إذا لم تغلب روح الاستقلال والحرية والاعتماد على النفس والأباء. وكل بذل في هذا السبيل له ما يبرره

خلاصة ما تقدم أن البذرة الأولى للتربية الاستقلالية في البيت، فإذا ما نمت به تعهدت خارج البيت بالمدرسة والمصنع ودواوين الحكومة ومكاتب الشركات والمنشآت الاجتماعية بوجه عام، وكانت بذرتها القوية في البيت مما يهون نموها وذيوعها وانتشارها في الجماعة

حرية الجهر بالرأي

إذا نشأت غالبية أفراد الجماعة على الاعتماد على النفس والأباء، فإن الغالبية تجهر بالرأي في غير خشية ولا خجل. والرأي يسمع في غير اشمئزاز ويناقش في غير تعصب أو تحامل غير طبيعي. وبذا تسير الجماعة في غير كثير من الاحتكاك

أما إذا لم تكن الشجاعة والاعتماد على النفس والإقدام هي الصفات الغالبة، فإن حرية

الجهر بالرأي تعز من جهة، وقبول النقد النزيه يندر من جهة أخرى، فيكثر العسف وتنتشر الأخطاء وتنحط الجماعة
التربية الاستقلالية ترفض بطبيعتها المداراة. وفي الأوساط الحرة لا تحرج ولا إحراج، بل يأتي النقد النزيه بالطبع ويقابل كذلك. والحقيقة تظهر بتلاقي الآراء. أما في الأوساط غير الحرة لانعدام التربية الاستقلالية أو ندرتها، فالإقدام يندر ويندر معه النقد ومقاومة الظلم، فيكثر الغرور وتكثر الأخطاء وينحط المستوى الفكري والخلقي تبعاً لذلك، وتضعف أداة السير إلى الأمام وتهن قوة المقاومة فتفقد الجماعة وجودها المستقل وتمسى خاضعة لمشيئة الغير

علاقة الحكام بالمحكومين

أدوات الحكم مهما اختلفت ألوانه هي - أ - التشريع - ب - القضاء - ج - الإدارة
أ - والمثل الأعلى للتشريع، في رأيي، هو أن يكون أقرب ما يمكن إلى التعبير عن الإرادة المشتركة. وأعني بالإرادة المشتركة في جماعة ما ملتقى الإرادات الجزئية أو الإرادات الفردية نتيجة تبادل الآراء وتعديل بعضها بعضاً. وكلما كانت حرية الرأي مكفولة كبر مجال تمحيص الآراء وقربت إرادة الدولة، مجمع الإرادات، من إرادة الجماعة وصدق تعبيرها عنها. وإذا كان القانون، وهو إرادة الدولة أساسه هذا، فإنه يسهل تطبيقه كما يسهل تعديله بما يساير تطور الجماعة، لأنه يعبر تعبيراً صادقاً - بقدر ما تقبله طبيعة الإنسان - عن إرادة المجموع
هذا النحو في التفكير يقودنا إلى تقرير أن الحكم النيابي أقرب أشكال الحكومات المعروفة إلى التعبير عن إرادة الجماعة أصدق تعبير ممكن. وهنا لابد لي من الإشارة إلى اعتراضين:
قد يتساءل البعض: كيف السبيل إلى سيادة الحكم النيابي في الجماعات المتأخرة ما دام القانون هو إرادة الدولة، وما دام مثله الأعلى هو أن يكون نتيجة ملتقى الإرادات الجزئية، وكانت الأغلبية جاهلة؟
وجوابي على هذا أن هنالك رغبة مشتركة بين مختلف الطبقات، أو إرادة مشتركة مهما بعدت النسبة بين درجات التفكير. وأعني بهذه الإرادة المشتركة إرادة توفير أسباب العيش والأمن على النفس والمال. فإذا عملت على ترقية مدارك الفلاح، ويسرت له سبيل الري والصرف، وأمنته على نفسه وعلى ماله، فإنك إنما تحقق رغبته أو تنقذ إرادته. والشرائع التي تؤدى إلى هذا تعبر عن إرادته. وبالعكس إذا صدر قانون بإقامة دور فخمة للتمثيل وقاعات للتصوير في قلب الريف مع شدة حاجته للمستشفيات العامة والمدارس العامة، فإنك لا تعبر عن رأي سكان القرى بل تخالف إرادتهم. ويقال مثل هذا عند جميع طبقات الأمة. فإذا أبدى نائب رأياً عن جماعة فإنه، طبقاً لما تقدم، لا تناقض بين فكرة الإرادات الجزئية وبين الحكم النيابي في الجماعات المتأخرة، ولو لم تظهر الإرادة الجزئية مستقلة منفصلة. وبتقابل إرادات الطبقات المختلفة يعدل بعضها بعضاً حتى تلتقي في نقطة تحقق الإرادة المشتركة بالقدر العملي اللازم لسير الجماعة إلى الأمام
أما الاعتراض الثاني فنشأ عن وقائع ما بعد الحرب، تسمعه من أفواه أساتذة الجامعة كما تسمعه ممن يهتم للكلام في الشؤون العامة من بين معلمي المدارس الأولية، ويتردد صداه بين أوربا وأمريكا وآسيا، ذلك هو الاعتراض على صلاحية الحكم النيابي بنجاح نظام الحاكم المستبد العادل. يقولون إن المستبد النزيه انتشل إيطاليا من مخالب الفوضى ووضعها في مصاف الدول المرهوبة الجانب في زمن قصير. وفي مثل هذا الزمن انتزع المستبد النزيه تركيا من أحضان الموت وأوقفها على قدميها يخطب الأقوياء ودها اليوم بعد أن كانوا يتنافسون في اقتسامها بالأمس، ويقولون عن جماعات أخرى مثل هذا. ويخرجون من المقارنة بأن الحكم النيابي لم يعد المثل الأعلى لنظم الحكم في وقتنا هذا
غير أن المستبد العادل من خوارق الطبيعة. ولا يصح وضع قاعدة عامة على أساس الشذوذ. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فالمستبد لا يقبل معارضة. ولا بد أن تفقد الجماعة روح النقد في مثل هذا الجو. فإذا ما انقضى عهد سحر الزعيم لسبب ما، سارت الأمة نحو الضعف بأسرع مما سار بها سحر الزعيم المستبد إلى القوة هذا إلى أن إحاطة الزعيم بكل شيء أمر مستحيل. ولا بد له من مجلس يرجع إليه،

وإن لم يتقيد بما يبدي فيه من آراء. فإذا لم يكن هنالك، في ذلك الحيز الضيق، حرية رأي فإن الزعيم لا يسمع في الواقع إلا صدى صوته. ولما كانت الإحاطة بكل الأمور متعذرة كان خطأ التصرف هنا أمر لابد منه في حالات كثيرة. وإذا قدر للحكم النيابي، بشكله الحالي، أن يتلاشى، فلا ينفع الجماعة نظام المستبد العادل. بل ينفعها نظام النقابات وفي هذا النظام لا بد من استقلال الرأي والحرية لتمحيص الأمور قبل إبرامها لنعد الآن إلى تناول موضوع التشريع لنقول إن حرية الجهر بالرأي ألزم ما تحتاج إليه أداة التشريع. هذه الحرية لازمة داخل الأحزاب لزومها خارجها. فنقد رأي الزملاء والزعماء في حرية لا غنى عنه لتقرير أقرب الآراء للسداد وأقلها تعرضاً للسقوط إذا ما هاجمها خصوم الحزب، والإمساك عن النقد مصانعة أو جبناً قد يؤدي إلى قرار خاطئ تسهل معه المهاجمة من الخارج. وهذه الحرية لازمة كذلك في مجالس التشريع وعلى صفحات الجرائد وفوق المنابر خارج هذه المجالس. وإبداء الرأي في غير مواربة من أقوم سبل تغيير هذه الهيئات برغبات الجماعة وبمواطن الصواب. ولن يكون هذا ما لم تكن غالبية
الجماعة قد نشأت نشأة استقلالية. فلا يجهر برأيه إلا من قويت عنده روح الاستقلال وكانت لديه الشجاعة وفي خلقه الأقدام
ب - والمثل الأعلى للقاضي هو من يتعرف وجه الصواب ويحسن تطبيق روح القانون على حالة الجماعة التي يطبق فيها، ويدرك حق الإدراك رسالة القاضي وأثره في المجتمع فلا يخضع لغير القانون والحق والعدل. هو الذي يتحرر من نزعات نفسه ومن المؤثرات الخارجية في تصرفه كقاض. هو الذي لا يخشى في الحق لومة لائم والتربية الاستقلالية هي أقوى حصون القاضي ضد نزعات النفس. والكرامة الذاتية والثقة بالنفس هما أقوى دافع يدفعه إلى الدرس المستمر والتفكير غير المنقطع فيما يحيط به ليستطيع إبلاغ رسالته على خير وجه. وهما اللتان تلهمانه رفض الإيحاء الخارجي مهما كان مصدره
وإذا آنس القاضي المدرك لسمو رسالته ضعفاً في روح الجماعة أو شيوع عوج في خلقها - وهو بحكم مركزه ميزان حساس - عالج النقص في أسباب أحكامه تارة، وبإسداء النصح إلى الماثلين أمامه تارة أخرى. وما أشد وقع النصيحة المقترنة بالعبرة! وإذا آنس، بحكم الممارسة، نقصاً في التشريع أو عيباً أو غموضاً جعل من أغراضه، في قراراته، إكمال القانون إذا ما اتسعت لذلك النصوص دون إرهاق المعنى. فإذا لم يكن هذا مستطاعاً فإنه يخاطب الجهات التشريعية لاستكمال القانون ويعمل لتحقيق هذا الغرض بكل ما يستطيع
(يتبع)
محمد عبد الباري
ملاحظات متواضعة على مشروع
ترجمة معاني القرآن الكريم
بقلم المستشرق المجري الدكتور عبد الكريم جرمانوس
طالعت والغبطة تفعم قلبي المرسوم الصادر بترجمة معاني القرآن الكريم استناداً إلى الفتوى الشرعية المقدمة من هيئة كبار العلماء، إذ يبدأ العمل بمقتضاها قريباً في هذا المشروع الخطير الذي يعد أول حادث له قيمته في تاريخ الإسلام
لقد ترجم مسيحيو القرون الوسطى كتاب الله الكريم إلى عدة لغات أوربية. وكانت أول ترجمة، على ما أعرف، هي تلك التي قام بها كلوني إلى اللغة اللاتينية في القرن الثاني عشر. ثم أقبلت طائفة من القسس الرهبان على نقله إلى بقية اللغات الحية، حتى أن بعض الأمم الصغيرة ساهمت في هذا العمل، ولا تزال تفتخر بوجود نسخ من هذه التراجم البدائية في متاحفها. وتوجد في اللغات الألمانية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية عشرات التراجم، القديمة والحديثة، بحيث يمكن للمرء أن يختار منها ما يوافقه. على أن معظم هذه التراجم تكاد تكون حرفية لآيات الذكر الحكيم، برغم حرص القائمين بترجمتها على وضعها في قالب صحيح يتفق والمعنى الذي أنزلت به، لأنه من العلوم أن فصاحة القرآن وبلاغته أمران لا سبيل إلى إنكارهما. وهذا لعمري مما حارت فيه عقول العلماء والفلاسفة واللغويين. ولو سلمنا جدلاً بأن معظم هذه التراجم خال من الأخطاء - وهذا ما لا يمكن الجزم بصحته - فالتفسير لا يكون مؤدياً

تماماً لنصوص الذكر الحكيم. ومن المتيسر أن يصل المترجم إلى الأصل الذي يخلع على كتاب الله جلالة وروعة. فمعجزة القرآن في أسلوبه وبلاغته، مما لا يجعل الأجانب يفقهون معناه أو يشعرون بلذة عند تلاوته، نظراً لأن بعض المترجمين أطلقوا لأنفسهم العنان في ترجمته

ويلوح لي أن هذه التراجم أشبه ما تكون بالصور القاتمة التي تمثل الطبيعة الحية، فالنشوة الروحية العميقة التي يحس بها المسلم لدى تلاوة القرآن، يكاد أمرها يكون معدوماً لدى طائفة من الإفرنج وهم يطالعونه في لغاتهم. فمن هذه الناحية نرى أن القرآن الكريم غير قابل للترجمة، ولا يمكن أن يصل كاتب مهما بلغت عبقريته إلى مثل هذا السمو. والتاريخ على ما فيه من الحوادث الجسام والعظات البالغات، كذلك الفن في أنبل وأسمى معانيه، لا

يمكن مقارنة أحدهما بآية واحدة من آيات المنزل الحكيم

وكيف لا يكون الأمر كذلك وهو كلام الله القديم الأزلي؛ وهو معجزة ليس من السهل تفسيرها في ضوء الحوادث، أو شرحها بمنطق التدليل، والمفروض أن الإنسان يؤمن به حسب نزوله

إن فلسفة التاريخ بمناهجها الصحيحة، حاولت عبثاً أن تحلل تفاصيله وتواريخه وترده إلى أصوله، ولكنها برغم الجهود الجاهدة التي بذلتها أجبرت على الخضوع لأحكامه، ورضيت من الغنيمة بالإياب، وأيقنت أنه أمر ليس في طاقة البشر أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا. ففي وسط ظلام الإنسانية الحالك، انبثق ذلك القبس الإلهي، وأضاء الكون ليمهد للإنسانية طريق الهداية والرشد. مما أدى إلى وضع الأصول الاجتماعية والقوانين والشرائع وتحديد علاقة الناس بعضهم ببعض. بل أصبح القرآن قاعدة موطدة لثقافات علمية واسعة النطاق، وحلقة كونية لم يظهر لها نظير في كل أحقاب التاريخ

ولقد كان طبيعياً أن يكون القرآن باعثاً على خلق الوحدة العربية والاخوة الإسلامية، سواء في اللغة أو في الفكر والعاطفة، وبتأثيره امتدت حضارة الإسلام من قلب الجزيرة العربية إلى أطراف العالم؛ وكان امتداد هذه الحضارة مما لم تشهده مدينة من المدنيات الإنسانية العظيمة الأخرى. فإقامة الصلاة يرن صداها اليوم من مراكش إلى اليابان حول قارات ثلاث. كذلك كان القرآن سبباً في أحكام رابطة الوحدة بين ثلاثمائة مليون مسلم، سلاحهم التقوى ومخافة الله، ودينهم مستمد من القانون السماوي المقدس الذي رفعهم إلى السمو الروحي. ولقد طغى القرآن على الفوارق المادية التي بين المسلمين، حتى أصبحوا بفضله إخواناً، وأزال البغضاء والنقائص من نفوسهم، ونفى عن قلوبهم الأدران والعوامل الشعوبية واللغوية والجغرافية حتى صاروا كالبنيان المرصوص يشد بعضهم بعضاً

إن تفشي النزعة المادية كان من أقوى البواعث لزعزعة العقائد الدينية في عالم الغرب. وهذه الظاهرة بدت ماثلة قوية في القارة الأوربية عند ما حاولت أن تشيد لها صرحا فوق أنقاض الدولة الرومانية، هنالك بدأت حركة الإصلاح التي قام بها مارتن لوثر، وكان من أقوى عواملها ترجمة الإنجيل، فكانت ترجمة هذا الكتاب المقدس سبباً في تقدم الحضارة الجرمانية، وسبيلاً إلى إدماج لهجات ولغات متباينة بعضها في بعض، حتى غدت منها لغة

واحدة هي الآن لسان للأدب الألماني الكبير

من ذلك ترى أن ترجمة الإنجيل من اللاتينية أحدثت في الحضارة الأوربية بعض الأثر الذي أحدثه القرآن الكريم في تكوين حضارة إسلامية راقية مؤسسة على قواعد ونظم ثابتة. أضف إلى ذلك أن اختراع الطباعة جاء في نفس الوقت الذي سارعت فيه الأمم والشعوب الجرمانية لتلم شعثها. فأخضعت الطباعة للغة والفكر والدين، وازدهر الأدب الجرماني وانتشرت ضروب الثقافات، وبفضل ترجمة الإنجيل اندثرت اللغات واللهجات، ومحيت الفوارق السياسية التي كانت إحدى نتائج الجهل المؤدي إلى العبودية

في ذلك الوقت كانت طائفة صغيرة من العلماء في الشرق الإسلامي، قد احتكرت علوم القرآن وتفسيره، وأصبحت اللغة الفصحى على وشك التدهور والانهيار، وتفشت الأمية والجهل إلى حد مخيف، وأصبح المسلمون الذين كانوا قادة الأمة في العلوم

والآداب في حالة تأخر وانحطاط بالنسبة لأسلافهم. أما الكتاب الكريم، ينبوع الحضارة الإسلامية الزاهرة، فكان غير مفهوم لأكثر من الناس
في هذه العصور المظلمة كانت طائفة العلماء في عزلة تامة عن الشعب، يحتكرون القرآن في صدورهم، فانتشرت الجهالة وعمت الفوضى، على أنه توفيق من الله، كان لا يزال ألوف من المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها يحفظون القرآن وإن لم يفقهوا معانيه. فالإسلام في حد ذاته هو التشبع بالمبادئ الروحية السامية المركزة على طهارة النفس ونقاوتها مما يشوبها. فهل يمكننا في هذه الحالة أن نعترف بأن الإلهام السماوي، مهما بلغ من التقديس، يؤثر في نفوس من لا يفهمون معناه؟ إن الإسلام ليس سحراً ولا طلسماً، ولكنه دين الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ وإذا اعتقدنا بأنه صالح لكل زمان ومكان، فيجب علينا إذن أن نعمل جهدنا لشرحه وترجمة معناه وجعله في أيدي ألوف الناس الذين يتحرقون شوقاً للدخول فيه أفواجاً وأفواجاً
نحن لا نحارب في هذا العصر مثلا بنفس الأسلحة التي كان آباؤنا يلجئون إليها للدفاع عن أنفسهم - من أقواس ونبال ورماح - بل نقاتل بالدبابات والطيارات وسائر الآلات الحديثة، كذلك يجب علينا في هذا العصر ألا ندخر وسعاً في الالتجاء إلى كافة الوسائل الأدبية والروحية لإظهار فضائل الدين الحنيف والتبشير به في أرجاء الأرض
لقد كان القرآن محصوراً في بدايته في بضع نسخ خطية، فلما انتشرت المطابع الحجرية استخدمت لنشره وجعله في متناول أيدي ألوف المسلمين. كذلك كان الأمر في المطابع الرحوية والحديثة؛ وهو الآن يذاع في الراديو ويفسر على موجات الأثير.
أما الذين يحفظون كتاب الله ولا يفقهون معناه، فهؤلاء شأنهم شأن غريق يلتمس النجاة، محاولاً التعلق بحزمة من القش. وليس في وسعهم أن يفقهوا الشطر الروحاني منه الذي يؤهلنا للرشد والتقدم والتسلح بأسلحة من العلم واستقامة الفهم
إن العالم الإسلامي الذي يقف اليوم في مفترق الطرق، فيه أكثر من ثمانين في المائة يحفظون القرآن عن ظهر قلب ولا يفقهون معناه، فإلى هؤلاء الملايين نوجه الأسئلة الآتية:
1 - هل تميلون إلى حفظ القرآن في صورته الحاضرة دون أن تفقهوا معناه فتظل نفوسكم ظامئة إلى هذا الشراب الروحي؟
2 - هل تريدون أن يكون وقفاً على طائفة من العلماء يحتكرون معانيه في صدورهم مع أن الله عز وجل أرسله إلى كافة البشر؟
3 - ماذا يكون لو أن الكتاب الكريم نقل إلى لغاتكم حتى ترتوي منه النفوس الظامئة التي تتلهف عليه كينبوع تفجر من الألوهية العظيمة؟
(البقية في العدد القادم)
(بودابست)
عبد الكريم جرمانوس
من الموضوعات التي نالت الجائزة في المباراة الأدبية
استثمار نهضة المرأة لخير البلاد
للسيدة إحسان أحمد القوصي
لما قام المرحوم قاسم أمين منذ ربع قرن ونيف يطالب بتعليم المرأة وتحريرها من أسر عادات بالية، وقيود تقاليد عتيقة شلت نصف الأمة، وحالت دون انتفاع البلاد بجهودها. . . لم يكن يحلم أشد أنصار المرأة تفاؤلاً أن المصرية ستخطو هذه الخطوات المباركة في تلك الفترة القصيرة، وتسير سيرها الحثيث، لتحتل المكانة التي سمت إليها من آلاف السنين في حضارة مصر القديمة، وأيام ازدهار مجد العرب. وإذا كنا اليوم نغتبط بما نلمسه من دلائل نهضتنا الرائعة، وما تقوم به المشتغلات بالحركة النسوية من نواحي الإصلاح وجلائل الأعمال، فوق ما رفعن به شأن بلادهن في شتى بلاد العالم، ومختلف المؤتمرات النسوية الدولية. . . فذلك لما تبعثه فينا هذه النهضة من قوة الأمل وكبير الرجاء؛ في مستقبل زاهر تستكمل فيه المصرية نهضتها، ويظهر أثر ذلك في الكمال نهضة البلاد
وإذا رأيت من الهلال نموه أيقنت أن سيصير بدراً كاملا وإذا كان بيننا اليوم المحامية

والطبيبة والصحفية والكاتبة والمعلمة والممرضة، والكثيرات من حاملات الشهادات وكاتبات المقالات، فليس معنى ذلك أننا بلغنا غايتنا، واستوفينا نهضتنا، فما زالت الأغلبية الساحقة من نسائنا يخيم عليهن ظلام الجهل، وما زالت الألوف المؤلفة من أطفالنا تقع فريسة للأمراض، وتقضي ضحية الجهالة؛ وما زالت بلادنا تفوق بلاد العالم في نسبة العمي، وما زالت سوق الخرافات رائجة، وما زال الكثير من عاداتنا في حاجة إلى التهذيب والإصلاح. ويطول بي الشرح لو أردت أن أستوعب أمراض المجتمع التي تستطيع المرأة أن تساهم في علاجها بنصيب كبير إذا مهد لها الطريق فتكون المتعلمة قد أدت حينئذ رسالتها، وقامت بواجبها من خدمة لبلادها. نعم إن طريق الإصلاح شاقة وعرة، والعقبات جمة، والمصاعب كثيرة؛ لكن كل صعب يهون أمام صدق العزائم، وشحذ الهمم، وتضافر الجهود، وتوحيد قوى المتعلمات ليهذبن ويدبرن ويصلحن شأن أمتهن، وينهضن على الأخص بأخواتهن من مختلف الطبقات صحياً وخلقياً وأدبياً، فيكن قد عالجن الداء من أساسه، فالمرأة ليست نصف الأمة فحسب، بل هي مربية النصف الآخر منها كذلك. ومما يزيدنا تفاؤلاً أن البلاد اليوم روحا تفعل في نفوس الأفراد والجمعيات فعل الخير، متجهة بها من الوحدات الجزئية إلى وحدات كلية مما يساعد على استثمار نهضة المرأة

واستثمار نهضة المرأة يقوم على تعاون ثلاث قوى: جمهور المتعلمات، والحكومة، والشعب

أما واجب المتعلمات فالمبادرة بالاستعداد لعقد مؤتمر نسائي تمهيدي تشمله الحكومة برعايتها، تشترك فيه كافة الجمعيات النسائية على اختلاف مذاهبها وغاياتها، ويدعى إليه أكبر عدد ممكن من فضليات السيدات والآنسات المتعلمات، ليكون واسطة للتعارف وتوحيد الجهود، ووضع الأسس لخطة عملية منتجة بعد المناقشة والبحث في خير الوسائل لمعالجة نواحي الضعف التي توكل كل منها إلى لجنة تقتلها بحثاً ودرساً، ثم تقرر الوسائل الكفيلة بعلاجها. فتؤلف لجنة مثلاً لبحث خير الذرائع لرفع مستوى أخلاق النشء، ولجنة ثانية لتحسين الصحة العامة، وثالثة لمحاربة الخرافات والعادات الذميمة، ورابعة لتنظيم الإحسان وتخفيف ويلات البؤس، وخامسة لتوفير السعادة العائلية وإصلاح حال الأسرة، وسادسة للعناية بالولد صحياً وخلقياً، طفلاً ويافعاً، وسابعة للشؤون القومية والاقتصادية، وثامنة لنشر الثقافة والفنون بين المتعلمات، إلى آخر ما يراه المؤتمر من الموضوعات جديراً بتأليف لجنة لبحثه، وبعد أن تنتهي اللجان من أبحاثها الدقيقة وتكون قد دعمتها بالأدلة والإحصاءات كلما أمكن، واستعانت على استفاء ما ينقصها من المعلومات باستقائها من مصادرها في مختلف مصالح الحكومة والمؤسسات الوطنية والأجنبية التي تشتغل بالشؤون الاجتماعية في مصر أو الخارج، تكون قراراتها بمثابة الخطة الحكيمة لقيادة جيوش المتطوعات إلى حرب صامتة في مظهرها، مصلحة طموح في جوهرها، عدتها التعاون والهمة، وسلاحها الإيثار والتضحية، ثم يبدأ زحف كتائب المتطوعات على الأحياء الفقيرة في العواصم، ثم يتقدمن بزحفهن إلى البنادر، ثم إلى الريف، لنشر الدعاية الصحية والتهذيبية، وإرشاد الفقيرات وتعليمهن النظافة والعناية بالأولاد الخ

ولما كانت الإطالة في شرح أعمال تلك اللجان واستيعاب النقط التي تدخل في لجنة كل منها تتطلب إفاضة لا يتسع لها مقال كهذا، كما أنه يكون استباقاً للحوادث وإحلالاً لرأيي الفردي محل رأي سيكون ثمرة شورى الجماعات التي تنصرف إلى بحث كل نقطة، وتتفرغ لدراستها على ضوء ما يتوفر لها من الأدلة والبيانات، لهذا أكتفي بإيراد النقط التي تدخل في بحث لجنة أو اثنتين على سبيل المثال تنويراً للأذهان وتوخياً للاختصار:

فاللجنة التي يوكل إليها رفع مستوى الأخلاق مثلاً يصح أن تتناول الأمور الآتية:

1 - أفعل الوسائل في بث روح الفضيلة في النشء وتعويدهم العادات الحسنة

2 - محاربة الرذائل والعادات الذميمة كالبغاء والمخدرات وكجرائم اللسان والخلاعة والاستهتار

3 - توجيه الشباب للقيام بالخدمة الاجتماعية

4 - الأماكن التي يصح أن يرتادها الشباب، والكتب التي يجب أن يقرأها

5 - مقاومة مساوئ المدنية، والمحافظة على الحسن من تقاليدنا وعاداتنا
6 - توفير أسباب اللهو البريء ليقضي الشباب وقت الفراغ في المسلي المفيد
7 - مساعدة المتعطلات على الارتزاق حفظا لهن من السقوط
واللجنة التي تتخصص في تخفيف وطأة البؤس يصح أن يتناول بحثها النقط الآتية:
1 - تنظيم الإحسان
2 - توفير وسائل العلاج للمرضى من الفقراء
3 - تعليم الفقيرات صناعات تزيد في رزقهن
4 - تحديد نسل الفقراء
5 - الإكثار من ملاجئ للأطفال المتشردين
6 - العناية بذوي العاهات
7 - التأمين للعمال
8 - النسج على منوال ألمانيا في الاكتفاء بغذاء رخيص يوماً في الشهر وتأدية الفرق للفقراء
9 - إيجاد أماكن صحية للناقهين والضعفاء بأجور زهيدة
هذه أمثلة من المواضيع التي يمكن أن تتناولها اللجان العاملة بأبحاثها، يرينا تشعبُها وترابطها مدى أهميتها، وأثرَ تحقيقها في مداواة أمراض المجتمع
أما الحكومة فيقع عليها النصب الأكبر من هذا الواجب، واجب الأخذ بيد العاملات على تنفيذ البرامج الإصلاحية التي يرسمنها بعد الدرس والتمحيص، لأنها المسئولة عن صالح المجتمع بصفتها الحاكمة، ولأنها تملك سلطة التشريع وفي قدرتها تدبير الأموال، ولها من وسائل التنفيذ ما لا يتوفر لغيرها من الهيئات، ولهذا يكون اشتراكها وإشرافها ضروريين لضمان نجاح العمل وتحقيق الإصلاح، لا سيما وهو في مرحلة التأسيس والإنشاء. فلابد من تعيين بعض الموظفات إلى جانب المتطوعات لينتظم العمل ويطرد سيره في سبيل النجاح، كما لابد من مساعدة الحكومة للعاملات لخير المجتمع مادياً وأدبياً، فتمدهن بعونها ونفوذها بسن القوانين الكفيلة بالإصلاح، وتسهل لهن سبل العمل، كأن تخول لعدد من المتطوعات السفر بالسكة الحديدية مجاناً، وتسمح بمبيتهن في مدارسها في مختلف البلاد، وتسهل لهن زيارة المؤسسات الاجتماعية من ملاجئ وإصلاحيات ومستشفيات الخ، إلى غير ذلك من وسائل المساعدة. وهذه أمثلة بسيطة ذكرتها على سبيل المثال لا على سبيل الحصر والتحديد
ومن أهم ما يجب على الحكومة لاستثمار نهضة المرأة، المبادرة إلى تعديل مناهج تعليم البنات، وإرسال بعثات للتخصص في الخدمة العامة في كلية سيمونز ببسطن وهي أهم معهد بالولايات المتحدة لدراسة الخدمة العامة الطبية والسيكولوجية الخ، أوفي مدرسة الخدمة العامة بشيكاغو أو كلية أو غيرها، حتى إذا عادت البعثات ساعدت المدارس على تربية روح الخدمة العامة في الناشئة، وجندت منها فرقاً للعمل تحت إشرافها، وأفادت المشتغلات بالشؤون الاجتماعية وتوجيههن إلى أنجح الوسائل وخير الطرق لتحقيق الغايات التي يسعين إليها. وغريب أن الحكومة لم تفكر حتى الآن في هذا النوع من البعثات، مع وفرة عدد البعثات التي أوفدتها وتنوعها، ومع شدة حاجة بلادنا إليها
أما تعليم البنات فواجب الحكومة فواجب الحكومة أن تستغل رغبة الآباء في تعليم وإقبال البنات على التعليم بمختلف مراحله، لتجعل من تلك الآلاف المؤلفة زوجات فاضلات يحسن تدبير البيوت ويملأنها بهجة وسروراً، وأمهات صالحات ينشئن رجالاً صحيحي الأجسام، قويمي الأخلاق، كريمي النفوس، وذلك بتعديل البرامج. لأن البرامج الحالية
قاصرة جداً عن تحقيق هذه الغاية. ومن المسلم به أن غاية التربية الصحيحة أن تعد المرء للحياة، وتسلحه بما يكفل له النجاح في كفاحها، وتؤهله للدور الذي ينتظره وتنتظره الإنسانية منه. والمدارس التي تعلم الطبيب كيف يحارب العلل وينقذ المرضى، وتعلم التاجر كيف يُروج بضاعته ويزيد ربحه، والزارع كيف تجود حاصلاته وتسلم من الآفات، والصانع كيف يتقن صناعته ويرقى بفنه، فتعد كلا منهم لمركزه الخاص. . . جديرٌ بها أن تعد الفتاة (ووظيفتها تختلف عن وظيفة الرجل) للقيام بدورها الخطير. فما لاشك فيه أن الفتاة أحوج إلى درس نفسية الأطفال في مراحل نموهم

وعرفة طرق العناية بهم جسمياً وخلقياً منها إلى دروس الميكانيكا، وهي أحوج إلى علم الاقتصاد منها إلى حساب المثلثات، وهي أحوج إلى تدبير المنزل والحياكة والتفصيل منها إلى الهندسة الفراغية، وهي أحوج إلى علم الصحة والموسيقى منها إلى الكثير مما تدرسه الآن. لست ضد ثقافة المرأة، ولا أريد الحد من حرية الرغبات في الدراسة العالية، ولكني أريد أن يميز العلم بين حاجة الجنسين، وأن يفرق بين من تتعلم لتحترف الطب أو المحاماة مثلا وبين الأغلبية من سواد الشعب اللواتي ينتظرهن البيت المصري جنوداً يعملن على حمايته ورفع مستواه، وأن يعني بالمواد النسوية عناية كافية تستفيد منها المرأة في حياتها العملية، وإلا ضاع معظم جهدها وما ينفق على تعليمها فيما لا طائل تحته، وصدق علينا قول الشاعر:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا ... مضر كوضع السيف في موضع الندى

ونظرة نافذة ترينا أننا في حاجة ماسة تبلغ حد الظمأ إلى تحسين نوع تعليم البنات منا إلى إكثار المدارس لهن. فما أكثر حاملات الشهادات، ولكن ما أكثر الصدف وما أقل الدر فيه، وما أكثر الزهر وما أقل العِطر منه، وأن يوماً تعدل فيه مناهج تعليم البنات تعديلاً يهيئ لهن الدراسة التي تتفق مع وظيفتهن، وتوضع القيود والضمانات لقصر عدد من يدرسن مناهج البنين على الراغبات فعلاً في الدراسة العالية حتى لا تتحول الأغلبية إليها. . . لهو اليوم الذي نكون فيه قد وجهنا التعليم النسوي وجهته المنتجة، وخدمنا البلاد أجل خدمة

هذا واجب الحكومة مجملاً: أما واجب الجمهور فأن يساعد العاملات مادياً وأدبياً، ويشد أزرهن بلطفه وتشجيعه، فيناصرهن الغني بماله والكاتب بقلمه، والخطيب بلسانه، والمصور بريشته، والفقير بتطوعه للعمل، والمعلمون والآباء بما يبثونه من المبادئ الطيبة

في نفوس الصغار؛ لأن المرأة في حاجة، حاجة ماسة، إلى تعضيد الرجل لها في نهضتها، والرجل والمرأة يجب أن يكونا فرسيْ رهان في ميدان الإصلاح يندفعان جنباً إلى جنب في سيرهما لترقية المجموع وخدمة الإنسانية دون أن يعترض أحدهما سبيل الآخر في عدوه، وأن يبادر كل منهما لعون الآخر في جهوده النافعة ما وجد إلى ذلك سبيلاً، ويا سعد يوم يتم لنا فيه التآزر الكامل على العمل الصالح. إننا لا شك بالغون فيه غايتنا بأذن الله

إحسان أحمد القوصي

الأدب بين الخاصة والعامة

لامرتين ورينيه جارد

للسيد إسكندر كرباج

تابع لما نشر في العدد الماضي

يأسف لامرتين إذ يرى اليأس مخيماً على وجه رينيه، والأسى يغمر نفسها التوَّاقة إلى إرواء هذا الظمأ الطبيعي في الناس من ينابيع الحبّ والمعرفة. ثم يقول لها: هل وجدت يا رينيه بين كل ما ذكرت لك من الكتب ما يوافق الطبقات العاملة مثلك؟ فتجيبه: صفحات قليلة يا سيدي، لأن كل ما في لغتنا كُتب لكم، لذلك يجب أن يخلق الله من يكتب لنا

فيقول: لقد حان الوقت الذي يجب أن يُكتب فيه لكم يا رينيه، لأن ارتقاء عقليَّة الشعب وشدَّة ميله إلى المطالعة سيحملان الكثيرين من الأدباء عَلَى تخصيص الوقت الذي يصرفونه في أماكن اللهو لوضع الكتب الشعبية. وفضلاً عن ذلك فالارتياح العام إلى اشتداد حركة الصناعة والعمل في البلاد سيدفع الحكومة إلى التوسُّع في نشر الإصلاح ودعوة كل من أفراد الأمة إلى القيام بقسطه من خدمتها. وهذا يضاعف عمل الفكر في كل الطبقات الاجتماعية؛ وبما أن الكتب هي أدوات هذا العمل فسيوضع منها للعمَّال ما يوافق أيديهم

وقد ازداد عدد الكتَّاب على ما كان عليه في الماضي زيادة كبرى، لأن قسماً كبيراً من النفوس الهاجعة استيقظ بعد الثورة واندفع إلى ساحة العمل والإنتاج، ولأن خريجي المدارس العالية تحوَّلوا عن خدمة الإمبراطورية والدين إلى التوظُّف في دوائر الحكومة والاشتغال بالأدب، فكثر عدد الكتَّاب وأصبح ما ينشر في السياسة والشعر والأدب والاجتماع يومياً كافياً لوضع المجلدات الضخمة، وتزاحمُ هذا العدد الكبير من

الأدباء على أبواب الشهرة يحول دون معرفة العباقرة الحقيقيين
لم يعمل رأس الإنسان وقلبه فيما غبر من عصور الإنسانية ما يعملانه في هذا العصر، فهما كناية عن معلمين للأدب دائمي الحركة، وهذا العمل المتواصل يبحث عن وجهة ينصرف إليها فلا يجد، لذلك نراه قلقاً مضطرباً. غير أن الطبيعة التي أوجدت التبادل بين
الأعمال والحاجات ستوجد لهذا العمل حاجته، وهذه الحاجة هي وضع الكتب للجمهور
ثقي يا رينيه أن عهد الأدب الشعبي قد دنا، وأعني بالأدب الشعبي الأدب السليم المكتمل، لأني أفهم من كلمة شعب ما يفهمه الله والفلسفة، أي القسم الأكبر والأهم من البشرية لا يفهمه المتطرفون؛ وإذا لم يطرأ على الأنظمة الحديثة في هذه السنوات العشر ما يعرقل سيرها، أو يحولها إلى طغيان مؤقت، فسيكون للشعب مكتبته وعلومه وفلسفته وروايته وشعره وأدبه وتاريخه وفنه
فتسأله رينيه دَهِشة: ومن يضع لنا كل ذلك؟
فيجيبها: الكبار بين العلماء والشعراء، فكما أن تربية الأمراء والتحدث إلى الملوك والتقرب من رجال البلاط كانت إلى الأمس القريب تعدُّ شرفاً كبيراً فإن تثقيف الصغار والتحدُّث إلى الوضعاء وخدمة الطبقات العاملة ستعد في الغد القريب لا شرفاً كبيراً فحسب، بل فضيلة عظمى، وهكذا يتحول مجد الكتَّاب من القصور إلى الأكواخ ومن العواصم إلى القرى. وبما أن العبقرية تتجه بطبيعتها نحو المجد، فالمجد سيكون ترديد اسم الكاتب في أفواه الملايين من النساء والرجال صغاراً وكباراً. لماذا يؤلف الأديب ويكتب وينظم؟ ليُقرأ ويُدرك ويُشارك في شعوره وتأثره، ويُحب ويُكرم ويُطرى، أفليس الأفضل للشاعر أن تنقش منظوماته على صفحات قلوب أربعين مليوناً من أن تُصف على رفوف ستة آلاف مكتبة؟ أو لا يفضل الكاتب أن ينتسب إلى هذه الأسرة الكبرى المؤلفة من أربعين مليوناً، يعيش في أفكارها وتذكاراتها ويقاسمها عواطفها وميولها، من أن يكون عضواً في مجمع علمي لا يجاوز عدد أعضائه الأربعين؟ فما هو رأيك يا رينيه؟ ماذا تؤثرين: أن تتردد منظوماتك في أفواه الملايين من الصغار، ينشدونها في نهاية كل صلاة أو في أحضان أمهاتهم، أو أن تطبع وتجلَّد بدقّة وجمال، وتوضع في مكتبة بعض هواة الشعر؟
فتجيبه: آه يا سيدي! أوثر أن تردد في أفواه الصغار والوضعاء لأنها تكون طبعة شعبية تختلج بالحياة، فالمجد الذي لا يدعمه الود هو حبة لا تنبت، ونور لا يدفئ
وأراد لامرتين أن يذهب إلى أبعد من ذلك في معرفة حقيقة ذوق الشعب وميله الأدبي بواسطة هذه الفتاة التي نشأت بين
الخدم وتعيش مع العمال فاستأنف قائلاً: أنت يا رينيه تعرفين أصناف الكتب التي توافق
أهل طبقتك وتنطبق على عاداتهم وميولهم، فما هو الكتاب الذي يجب أن يؤلف أولاً للذين لم يقرءوا أو أنهم قرءوا قليلاً؟
فتجيبه: لا رأي لي في ذلك إذ لا يتذوق الأدب إلا من كان ثقيفاً
- ولكن لا بأس أن تجاوبي عن نفسك، أي نوع من الأدب كان بإمكانه أن يستهويك ويؤثر في نفسك قبل أن تتيسر لك المطالعة؟ أهو الفلسفة الدينية والوجدانية التي تصلح لأن تكون دستوراً لأفكار البشر وإنجيلا يعبر بأمثال قصيرة سامية وجلية كأشعة الشمس، عن مبادئ العلوم الإنسانية الكبرى وفضائلها المكملة بالذكاء والمعرفة على ممر العصور؟
- هذا لا بأس به، غير أن برودة الأمثال لا توافق حرارة قلوبنا، فهي كناية عن أفكار تشع فيما نقرأه، ولكنها فوق مستوانا العقلي
هل يرضيك تاريخ عام جليّ العبارة، رائق الأسلوب، ذو فروع عديدة كأغصان هذه الشجرة التي تسمعنا، تخرج فيها الأصول من الأرض، والجذع من الأصول، والأوراق من الأغصان بحيث تستطيعين أن ترافقي بنظرك نشوء كل هذه الأسرة البشرية الكبرى من أقدم الأزمنة إلى اليوم بما رافقها من ارتقاء وانحطاط، ومن سلالات ظهرت ثم انقرضت مع أفكارها وأديانها وأنظمتها وفنونها وأعمالها؟
- هذا لا يرضي إلا الشبان المتعلمين والشيوخ الميالين إلى أشياء الماضي، أما سواهم من النساء العذارى والأولاد فلا يميلون إلى مثل هذا الموضوع لارتفاعه عنهم، فهو يمر

أمامنا كالسيل العظيم يبهر عيوننا ويغرق أرواحنا، لذلك نفضّل عليه وشلة من ينبوع قريب. إن العظيم عظيم، ولكنه غامض كالسماء لا يرى سوى النجوم
- ما قولك في كتاب يفسر كل العلوم والفنون بطريقة سهلة تقفك على كل ما اكتشفه الإنسان واخترعه وتصوره وحسَّنه في كل أنواع الحرف والصناعات وغير ذلك مما يريك الحقيقة ويهدم كل ما قام حول العجائب الطبيعية والاصطناعية المنسوبة إلى الراقيات من الأفكار الكاذبة؟
- لا نزال في مكاننا يا سيدي، فهذا الموضوع لا يهم إلا المثقفين وما أقلهم بيننا وأقصر وقتهم لمطالعته، وعدا ذلك فماذا يبقى في النفس بعد مطالعته كل ذلك؟ غيمه من الألفاظ والخطوط والأشياء والحوادث والأدوات وغيرها مم يبلبل أرواحنا! يكفينا ما نعرفه من
أسرار حرفنا فلا حاجة بنا إلى معرفة أسرار حرف الغير!
- وما رأيك في القصائد والملاحم، كقصائد وملاحم هوميروس وفرجيليوس وطاسو تصف مواكب الأبطال وفتوحات الشعوب وما قامت بها من الحضارات ودكته من الحصون وأحرقته من المدن وأفنته من الجيوش؟
- لقد مضت نشوة تلك الأيام يا سيدي. أيام اليونان والرومان حيث لم يكن للأمم غير فكرة الاقتتال والتطاحن والاعتقاد بكل أشكال الخرافات وبآلهة ومخلوقات تنزل من السماء وتحارب مع هؤلاء ضد أولئك، فالشعب اليوم لا يثق كثيراً بخيال الشعراء، ويريد منهم أن ينشدوا له الحقيقة والفضيلة والصلاح وإلا تخلّف عن سماعهم ومطالعة منظوماتهم
- وفي رواية لطيفة رقيقة تتضمّن وصف حوادث رجال ونساء يتحابون ويتخاطبون ويتراسلون ويتواشون ويتخاصمون ثم يعودون فيتصالحون ويتشاكون، وبعد كثير من المغامرات يتزاوجون ليعيشوا أغنياء سعداء في أحد فنادق لندن أو باريس؟
- نكون كمن يقرأ بالصينية أو اليابانية لجهلنا معاني هذه الحوادث وأسرارها، أننا لا نقرأ إلا روايات الخادمات والخائطات إذا روعيت في كتابتها شروط الحشمة والأدب كي لا تضطر ربات الأولاد إلى نزعها من جيوب البنين والبنات وطرحها في النار
- ما قولك في هذه القصص البسيطة التي تصف بيوت الشعب وعاداته وإصلاحاته وميوله وأخلاقه وصدقه وبؤسه وسعادته وحوادث أفراده بلغه سهلة كلغته وتعابير ساذجة كتعابيره
- في اعتقادي يا سيدي أن هذه هي الكتب التي تستهوي العمال ولا سيما زوجاتهم وبناتهم، لأن المرأة تمثل كل شعور الأسرة فمتى قرأت ربة البيت أو ابنته كتاباً ما، فكأن الأب والأخوة قرأوه أيضاً، فنحن أرواح المسكن، فما نحبه تحبه حتى الجدران، إن النفس تهذّب في البيت أما العقل فيثقف في المدرسة
- يجب أن تكون حوادث هذه القصص حقيقية، أليس كذلك؟
- نعم لأننا نحيا الحياة الحقيقية، والحقيقة هي شعرنا
- وأن تكتب بلغة نثرية؟
- نعم لأنها أسهل علينا ونحن لا نحب إلا الذين يتكلمون مثلنا، يجب أن ينظم الشعر للطبقات العالية فقط لأنها أقدر على تفهم معانيه وحل رموزه، أو في الذكريات والحنين كما
أفعل أنا، لأن الشعر لا يتكلم عن حوادثنا ولا يقصها، بل هو ينشد لأنه صوت لا يخرج من النفس إلا في أشد حالات التأثر
(العصبة)
إسكندر كرباج
الأناشيد القومية المصرية التي نالت الجوائز في المباراة الأدبية
(ننشرها على ترتيب لجنة التحكيم)
نشيد الأستاذ محمود محمد صادق
بلادي بلادي فداك دمي ... وهبت حياتي فدى فاسلمي
غرامك أول ما في الفؤاد ... ونجواك آخر ما في فمي
سأهتف باسمك ما قد حييت

تعيش بلادي ويحيا الوطن
غرامك يا مصر لو تعلمين ... قصارى شعوريَ دنيا ودين
فمنك حياتي وفيك مماتي ... وحبك آخرتي واليقين
سأهتف باسمك ما قد حييت
تعيش بلادي ويحيا الوطن
حياتك يا مصر فوق الحياةِ ... وصوتك يا مصر وحي الإله
تعاليت يا مصر من موطن ... على الدهر يبقى وتفنى عداه
سأهتف باسمك ما قد حييت
تعيش بلادي ويحيا الوطن
لك المجد معجزة الأولين ... وما زال تاجك فوق الجبين
فتيهي بمجدك فوق الوجود ... ومدى اللواء على العالمين
سأهتف باسمك ما قد حييت
تعيش بلادي ويحيا الوطن
مآثر مجدك تحت الثرى ... تشيد بذكرك بين الورى
وهذي فتوحك في المشرقين ... تعالت بمجدك فوق الذرى
سأهتف باسمك ما قد حييت
تعيش بلادي ويحيا الوطن
أيا مصر هذا لواء الهرم ... على النيل يخفق منذ القدم
تمر عليه جيوش الزمان ... تحيي اللواء تحيي العلم
سأهتف باسمك ما قد حييت
تعيش بلادي ويحيا الوطن
لك الشرق ألقي زمام القياد ... فنعم الزعامة بين البلاد
فيوماً حملت لواء الفنون ... ويوماً حملت لواء الجهاد
سأهتف باسمك ما قد حييت
تعيش بلادي ويحيا الوطن
يظللك عرش المليك الكريم ... وترعاك عين العلي العظيم
ألست الكنانة في أرضه ... وموعود جنته والنعيم
سأهتف باسمك ما قد حييت
تعيش بلادي ويحيا الوطن
بلادي بلادي إذا اليوم جاء ... ودوَّى النداء وحق السماء
فحيي فتاك شهيد هواك ... وقولي سلاماً على الأوفياء
سأهتف باسمك ما قد حييت
تعيش بلادي ويحيا الوطن
نشيد الأستاذ مصطفى صادق الرافعي
حُمَاةَ الْحِمى، يا حُمَاةَ الْحِمى ... هَلُمُّوا، هَلُمُّوا لِمَجْدِ الزمَنْ
فقد صرخَتْ في العُروقِ الدِّمَا: ... نموتُ، نموتُ، ويَحْيَا الوطن
هَلُمُّوا، هَلُمُّوا
لِتَدْوِ السماواتُ في رَعْدِهَا ... لِتَرْمِ الصواعِقُ نِيرَانَها
إلى عِزِّ مِصْرٍ، إلى مَجْدِهَا ... رِجالَ البلادِ وَفِتْيَانَها
فلا عاش مَنْ لَيْسَ مِنْ جُنْدِها ... ولا عاش في مِصْرَ مَنْ خانَها
نموتُ ونَحْيا عَلَى عَهْدِها ... حياةَ الكرامِ وموتَ الكرام
. . . . . حُمَاةَ الْحمى، يا حُمَاةَ الْحِمى ...
بلادي احكمي واملِكي واسعَدي ... ولا عاش من لم يَعِشْ سَيِّدَا
بِحُرِّ دَمِي، وَبِمَا في يَدِي ... أنا لبلاَدِي وَعَرْشي فِدَا
لكَ الَمجْدُ يا مِصْرُ، فاستمجدِي ... بعِزَّةِ شَعْبِكِ طُولَ المَدَى
وَنَحْنُ أُسُودُ الْوَغَى، فاشهَدِي ... وُثُوبَ أُسُودِكِ يَوْمَ الصِّدَام
. . . . . حُمَاةَ الْحِمى، يا حُمَاةَ الْحِمى ...
وَرِثْنَا سَوَاعِدَ بَانِي الهَرَمْ ... صُخُوراً، صُخُوراً كهذا البِنَا
سَوَاعِدُ يَعْتَزُّ فيها العَلَمْ ... نُبَاهِى بِهِ، وَيُبَاهِي بِنَا

وفيها كِفاَءُ العُلَى والهِمَمُ ... وفيها ضمانٌ لِنَيْلِ الُمنَى
وفيها لأعداءِ مِصْرَ النِّقَمْ ... وفيها لمنْ سالَمُونَا السلام
حُماةَ الحِمى، يا حُماةَ الحِمى ... هَلُموا، هَلُموا، لمجدِ الزَمنْ
فقد صرختْ في العُروقِ الدّما: ... نموتُ، نموتُ، ويحيَا الوطنْ
هلموُّا، هَلموُّا
نشيد الأستاذ محمد الهراوي
دعتْ مِصرُ، فلَبيَّنا كِراما ... وَمصرُ لنا، فَلاَ نَدَعُ الزِّمامَا
قياماً تحتَ رَايتها، قيامَا ... أمامكمُ العُلا، فامضوا أماما
هناكَ المجدُ يدعوكُم فهبوا ... وليس يروعكم في المجدِ خطبُ
لعمرُ المجدِ ما في المجدِ صعبُ ... تَردَّى الذُّلَّ منْ يخشى الحِماما
فنحن أولو المآثر في العصور ... وبينَ يديَ أبي الهولِ الهصور
وفي الأهرام، أو فوقَ الصخورِ ... ترى آثارَ أيدينا جِساما
لنا مَجدٌ على الدُّنيا تَعالى ... (بناهُ اللهُ يومَ بنى الجِبالاَ)
رسمناهُ برايتنا هلالا ... وننشُرها على الدنيا سلاما
لنا التاريخُ، فَياضَ المعاني ... لنا الأسرارُ، مَعجِزةَ البيانِ
لنا عِلمُ الأوائلِ في الزمانِ ... لنا الأخلاقُ، نرعاها ذماما
لنا ذِكرٌ مع الماضي، مَجيدُ ... لنا أملُ، يَجيدُ بنا، بعيدُ
كذلك مِثلما سدنا نسود ... ونرفعُ فوق هام النجمِ هاما
فيا وَادي الكِنانةِ لَنْ تَزولا ... وفيكَ النيلُ يَجري سلسبيلا
يطوفُ بمائهِ عَرضاً وطولاً ... ويبسطُ فَيضَه عاماً فعاماً
بِساطكَ سُندسٌ، وثِراكَ تِبرُ ... وجوُّكَ مُشرقٌ، وشذاكَ عطرُ
ونهركَ كوثرٌ، وبنوكَ غُرُّ ... أبوا في اللهِ والوطنِ انقساما
فإن لم نَستعزَّ بمصرَ حَولاً ... ونَبسطْ ظلها صَولاً وطولا
وإن لم نَحمها فالموتُ أولى ... نعم: فالموتُ، أو نحيا كِراما
نُعزُّ ضُيوفنا، ونقرُّ عيناً ... فلا نعدوُ، ولا يُعدى علينا
فإما مَسنا ضَيمٌ، أبينا ... ونذكيها على العادي ضراما
فيا ابن النيل، هُزّ لواَء مِصرا ... وهيئ في النجوم لَهُ مَقرا
وأطلعْ بالهلال عليه فجرا ... وعش في ظلهِ العالي إماما
أغنية. .
إلى الحلم. .
بقلم العوضي الوكيل
إذا خَدرتْ عيني من طول ما أرنو ... وأتعب هذا الجفنَ إمعانُ إيماءِ. .
إذا ما استباني في مطالعكَ الفنُ ... وبتُ لديه ساهراً دونَ إغفاءِ. .
إذا ظمئت روحي فأغرقها دنُّ ... من الحسنِ ممزوجٌ سناهُ بأعضائي
إذا ما عراني من مطالَعَتي وهنُ ... وباتَ كِياني، من عياءٍ، كأشلاءِ
فدعنيَ أحلم لحظة بك في نفسي!
إذا ماجت الدنيا، وجن جنونها ... وثارت براكين، وهاجت كواكب
وغال جميعَ الناس فيها مَنُونها ... ولاحت بقاعُ الأرضِ وهي خرائبُ
وصوَّحت الدنيا، وبادتْ فنونها ... فلا شيء إلا وهو في الرمسِ غائبُ
فدعني أحلمْ لحظةً بِكَ في رَمسي!
دار العلوم العالية:
العوضي الوكيل
القصص
هواجس
بقلم حبيب الزحلاوي
قلت لصديقي: لك الله من رجل غريب الأطوار! لقد أضفتنا الليلة ودعوتنا إلى تناول العشاء معك، فأين المطعم وأصناف الطعام المطبوخ من هذه الحانة والزجاجات والأقداح (والمزات) آليت على نفسك مخالفة المألوف واتباع هوى النفس وبداواتها في كل شيء؟؟

خل عنك يا صاح الملاحظات والمعارضات لأننا في ليلة خمر وانتهاب لذة، هيا أيها :-
الرفاق إلى الأقداح الدهاق نقرعها، والى الزجاجات نفرغها في أجوافنا، فتمشي فينا
الحمّيا، فتدور رؤوسنا فتسابق الدورات الزمنية، وبذلك نطوي الصفحة القاتمة من
تاريخ الحزن الماضي وعقابيله المؤلمة، ونستقبل حياة جديدة بنفس مشعشعة وفرحة
وضاءة
- !!أي حزن تعني؟ لأن أحزان هذا العصر تشملنا من كل صوب وتغمزنا كل مغمز
على رسلكم أيها السادة، جئنا لنشرب ونطرب لا لنتزمت ونتفلسف، لندع عنا تقعرات
صاحبنا هذا الذي يود مسابقة الدورة الزمنية ليطوي الحزن وعقابيله!! أما أنا فوالله
العظيم لا أعرف كلمة عقابيل هذه ولا سمعت بها، إنما أعرف ماركات زجاجات
الوسكي كلها، وأتذوق شرابها وأميزه، وأحسن الفتك بأفراخ الحمام والدجاج، ولا أتورع
عن البطش بهذا الديك الرومي نكاية بفنزيلوس
وقال آخر: اشربوا واطربوا أيها الرفاق، فوالله ما عرفت سر عجيبة السيد المسيح
الأولى وقد حول الماء إلى خمر، إلا وقتما صرت أنكر قول الحكيم سليمان: (قليل من
الخمر يفرح قلب الإنسان)
- ليس الحق في جانب سليمان الحكيم، لأن القليل من الخمر يفرح القلب الضعيف.
!!!أما الكثير منه والعبّ الوفير من ذوبه الذهبي فيحيي العقل والقلب والروح
- راعوا أيها الإخوان حرمة وسدانة الحانة التي أنتم فيها وصونوا ألسنتكم عن
الاستشهاد بالآيات وذكر العجائب في مكان آيته الكبرى خمرته البكر وعجيبته الغادرة،
دعوة صاحبنا إليه، وأنا الذي تعرفني حانات المدينة كلها، ولا تجهلني إلا هذه البؤرة
التي لا يسكنها سوى شيطان مثله ليتوارى عن أعين الناس
- صه أيها الخبيث ولا تحاول نبش أسرار الناس، فقد يقودك الحظ إلى هذه الحانة
فترى الهناء يبسط أجنحته عليك وحدك، عليك وحدك، أفهمت أيها الخبير الفني بحقوق
الاتصال؟؟
كلا لم أفهم بعد!! إنما يبدوا لي أن مفتاح سر تعاطيك المسكر والتدخين في شهر
معلوم ثم انقطاعك عنهما، إنما هو مدفون في هذه الحانة التي لا يعرفها سوى
الراسخين في علم التستر والتخفي
ضحك الرفاق لهذه المداعبة الظريفة وسأل أحدهم الداعي قائلاً، ما معنى أنك لا
تشرب الوسكي إلا من ماركة (كناديان) ولا تدخن السجاير إلا من ماركة (لكي
ستريك)؟ وسأل الثاني: لماذا تندّ الليلة عن الشرعة الشاذة التي اشترعتها لنفسك في
الخمر والتدخين وموعد تعاطيك إياهما لم يئن بعد؟ وقال الثالث: أحسب أن دعوة
الليلة إنما هي لتوديع الشباب والكهولة وقد ذبل ويبس منها الورد والثمر والغصون
فصاح صائح: اسكتوا اسمعوا، لنشرب هذه الكأس على ذكر داعينا وقد ودع الخمسين
من عمره السعيد منذ عشر سنوات خلت. . . فقاطعه آخر وقد انتصب على الكرسي
قائلاً: بل نشرب نخبه وقد عاد إلى العاشرة من عمره لأن التقدم بعد الخمسين إنما
هو نكوص وتراجع!!! وهكذا كان الرفاق بين ضاحك وناقد وظريف لطف دبيب الخمر
ذوقه، وبين صامت يشتف ما في الكأس روية، ومالتها مترعة، هذا يشرب بلا انقطاع،
وذاك يهمش اللقمة ويمضغها ويضحك، وذلك يفتك باللحم يلته بالتوابل ويزدرده، وواحد
غمه الطعام والشراب فثقلت معدته وجاشت نفسه فانتحى الزاوية ولبد والظريف في
هذا الحفل أنهم كانوا يتكلمون جملة، ويضحكون ويقهقهون بجرس واحد، ولا يستمعون
إلا إذا صاح بهم صائح جاف، وهكذا أنصتوا للقائل بصوت أجش
لكم الله من ضيوف كثيري الجلبة واللغط، اشربوا واطربوا فخير الشراب ما كان
كغناء المغني يعبر عن حزن دفين وإن كان يبدو أنه يعرب عن الطرب والسرور
وقعت العبارة في نفوس الشاربين موقع الجمرة في الماء، تنطفئ ولكنها تترك أثرها،
وتصعد بخارها، وتئن أنه الموجع
كاد السكوت يسود المجلس، ويعتري المتنادمين فتور السكير وكظة الآكل لو لم يقل
أحدهم:
حقاً إن الغناء تجاوب وجداني لحزن دفين وذكريات مؤلمة كانت في الأصل نتيجة
لوقائع خاصة أو طوارئ مفاجئة طرأت على الإنسان فغيرت سير حياته فجعلته رهين
!!قيود وأسير أوهام لم يقو على التخلص منها والإفلات من إسارها وعبوديتها

هل وراء هذه المقدمة حديث غرام؟
بلى يا صديقي، حادث غرام قديم، عبثاً حاولت الإنعتاق منه وكنت إذاءه كفراشة تفتش عن طريقها في نور المصباح وهي تجهل أنها صائرة إلى الاحتراق
ليكن حديث الليلة إذن عن الوقائع الغرامية وطوارئها ذات الأثر في النفس، وأحسب أن طبيعة اجتماعنا ومفاجأة صديقنا إيانا بالشراب، ودعوتنا إلى الاشتراك معه، على حد قوله، في طي تاريخ الحزن ونشر أعلام حياة جديدة على أضواء الخمرة المتلألئة مهيأة لحكاية غريبة نادرة يقصها علينا، وقد تكون حكاية تعاطيه الخمر والدخان في شهرين فقط من شهور السنة، أليس حدسي صادقاً يا صاحبي؟
سكت صاحبنا ولم يشر بحركة تدل على النفي أو الإثبات
قال أحدنا: من منا لم تصدمه حادثة غرام حولت سير حياته وبدلت نظامها المألوف؟ إنما لبعض صدمات الحب قوى عجيبة ودوافع غريبة تنتقل بالمرء من حال إلى عكسه، ويتوقف ذلك على نحيزة الإنسان لا على طبيعة الصدمة
موضوع لذيذ، إي والله إنه لموضوع مستحب، يجانس طبيعة نفوسنا الدافئة بنار الخمر، إني لأقترح عليكم أيها الرفاق، وكلكم لوى عنقه عن الشباب، وطوى كشحه عن. . الكهولة عفوا عفوا، أريد أن أقول كلكم فتى القلب، شاب الروح و. . صه يا ثرثار، ودع عنك اللغو فليس وقته الآن
سكت، وأنصت الجميع للراوي الأول حكاية مغامراته في شبابه وهي تحمل نطفة الموت مع جرثومة الحياة كذكور النحل، وأنصتوا للمتكلم الثاني، وقد أظهر وقائع بطولته في الإغراء وانتصاراته على المرأة بالخداع، وتكلم الثالث عن غرامياته وقد أوحت إليه نظم الشعر وتأليف الحكايات
وقص الرابع والخامس قصصاً فردية كسابقتها لا صلة لها بصميم الحياة ومشاكلها، فلما انتهى الأمر إلى صاحب الدعوة قال: أقص عليكم قصة طريفة نادرة، فيها درس وقد لا تخلو من لذة
(يسرني أيها الأصدقاء، وقد دعوتكم إلى الاشتراك معي بفرح وحزن لا شأن لكم بهما، أن أطلعكم على سرهما وقد لزمني خمس عشرة سنة، ولأن في الأفراح كما في الأحزان إنبثاقات من نور تهدي الإنسان إلى سمت الوجود، وتجعل الحياة نفسها عذبة مشتهاة، فأصغوا إلى قصتي واعلموا أن الحياة هي الحياة في الفتى والشاب والكهل والشيخ، إنما الفارق هو في قوة الشعور وخصائص الوعي، قد يحب الكهل بقوة وحرارة تماثلان حب الشاب، وقد يعشق الشيخ ببراءة وسذاجة عشقاً يضارع عشق الفتى، إنما الرجل من يحتفظ بتوازنه، فلا يشتط في أطوار الحب وهي مرافقته ولا بد حتى اللحد، ومن يستضيء بنور نفسه لا يضل السبيل، وبذلك تسعده شاعريته ويفرحه روحه وينعم بلذة وجوده الإنساني)
المقدمة بارعة، والاستهلال حسن؛ فهات القصة فكلنا لك سامعون
(رن جرس التلفون، تناولت السماعة وأثبتها على أذني، وإذا بي أسمع صوت امرأة تناديني باسمي وتقول إنها قادمة من أمريكا لزيارة الشرق واستعادة ذكريات طفولتها فيه، وإن اسمي في مقدمة أسماء من وطدت الأمر على مقابلتهم، وإنها ستكون سعيدة إذ تراني يوم الاثنين بعد غد في القاهرة، فقلت لها: انه يسعدني لقياها الليلة في الإسكندرية لأني أسافر في قطار مساء اليوم، فأقضي نهار الأحد فيها كعادتي في فصل الصيف، وسألتها عن أسمها فأجابت: ستعرف اسمي قريباً، وقالت: إن لقياك بي في الإسكندرية تعطل على خطة الريادة؛ وتفسد طريقة الاستكشاف التي رسمتها لنفسي. فقطعت عليها الكلام وقلت مازحا: إني لست واحة في صحراء مجهولة، وإنك لست (روزتا فوربس) تقتحم الصحاري لتصف الحياة فيها تحت إطناب الخيام ومضارب الأعراب الأشداء، فأجابت قائلة: أرجوك الاحتفاظ بهذه الاعتراضات إلى حين اللقاء في القاهرة، وألا تزاحم المرأة في فضولها وبداواتها، وودعت فانحبس الكلام أرجعت السماعة إلى مكانها، وأخذت أستعيد في ذاكرتي وخيالاتي نبرات الأصوات، وصور النساء اللواتي عرفتهن، فلم أهتد إلى واحدة يوائم صوتها صوت المرأة المجهولة التي حدثتني
امرأة من أمريكا تعود إلى الشرق لاشك أنها سورية، ولقد هاجرت من سورية منذ نيف

وعشرين سنة ولما أبلغ العشرين بعد، ولم يكن لي فيها علاقة غرام بسوى فتاة حالت الحوائل دون استمرارها وديمومتها، وأنها تزوجت برجل تقيم معه في سلام ووئام في لبنان، فمن هي هذه السيدة المتأمركة يا ترى؟

أف للمرأة المشغلة المعطلة، لم لا أركب قطار الظهر إلى الإسكندرية فأشبع ناظري برؤية البرية الخضراء المنبسطة، وأبهج نفسي بمشهد الشمس حين المغيب، تخضب الزاخر من موج البحر بدمها المسفوك وذهبها المذاب ونارها المتقدة؟! لم الذهاب إلى رئيس عملي أقف بين يديه وقفة المستجدي، وقد يستجيب رجائي بعد أن يغمرني بفيض من المنة أو يرفض ويتأبه ويتعالى، الأجل كلمات سمعتها بالتلفون من امرأة مجهولة قد تكون من المغامرات وقد تكون شيئاً آخر لا أملك وصفه أو الحكم عليه؟! أمن أجل هذه المرأة أنقض قانون العمل وأعرض نفسي لما لا قبل لها على احتماله من الرؤساء، أبلبل ذهني وأضنى أعصابي بتفكير سخيف، وشهوة باطلة، وأوهام أنسج خيوطها من اللاشيء تحقيقاً لبداوات امرأة لا أعرف وأجهل مقرها، وقد رفضت أن تتلقاني في الإسكندرية (كي لا أعطل عليها خطة الريادة وأفسد طريقة الاستكشاف التي رسمتها لنبش قبر (توت عنخ آمون) حي هوانا؟؟!!

لا لا. . . سأواصل عملي حتى موعد الانصراف ثم أسافر إلى الإسكندرية أقضي راحتي الأسبوعية فيها كالعادة

امرأة ممشوقة العود، عريضة الجبين، عسلية العينين، هدباء وادعة النظرات، آثار صباها بادية واضحة، وقفت هذه المرأة تجاهي في محل عملي المكتظ دائماً بعشرات بل بمئات السيدات من كل جنس ولون ومدّت لي كفاً ناعمة اللميس، طويلة الأصابع وقالت بصوت كسير لين أغن بعد أن تعلمت ابتسامة رقيقة بدت في ركني فمها دلالة تحرك النفس (جود مورنن)، وضغطت على كفي بكل ما في وسع المرأة التعبير عن المودة بالمصافحة

مرحبا بك يا سيدتي الأمريكانية وأهلا بهذه الطلعة البهية، قد رأيت صبحها منذ زمن بعيد. . . ولكن أين كان ذلك؟ في مصر، في الشام، في الطريق، في الكنيسة، أوه أكاد أقول لا أدري، هل لك أن تحرضي ذاكرتي على التذكر؟؟!

أحسب أن من كان مثلك في محل عملك هذا المتألق بأنماط من أنواع الخليط قد تضيق ذاكرته، فهل الأسماء والكنى مكتفية بالملامح والصور، وإني لعاذرتك على نسيانك إياي وقد افترقنا بالفعل منذ زمن بعيد

- كان افتراقنا قبل ثلاثين سنة أو أزيد. أليس كذلك يا سيدتي؟

- لا تعرف السيدات أعداد السنين التي تحصى أعمارهن بالضبط

- عفواً يا سيدتي ما إلى هذا رميت، إنما لأتذكر، ولكن أين كان افتراقنا؟

قالت: أتذكر فلاناً. . . (وقد ذكرت اسمه) وقد كنت معه في مدرسة النهضة الأولية في دمشق؟

قلت: نعم أذكر ذلك

قالت: هل نسيت أخته سلمى وقد كانت تمزق لك أوراق (المزامير) فتضطرك إلى إستحفاظ (المزمور) غيباً عن كتاب أخيها وكنت تتظاهر أمام معلم الكتاب أنك تقرأ في الكتاب لا عن ظهر قلبك؟

قلت: إني لذاكر ذلك، وأحسب أنك ابنة خالتها وقد كنتما سوية في المدرسة المسكوبية

قالت: كنت أخا لك قوي الذاكرة قديراً على استعادة ما طبعته الطفولة في لوحة حوادثها النقية، ولفظت عبارتها هذه برزانة وتأمل

شاعت أحاسيس مضطربة مؤلمة في جوانب نفسي فشعرت بضنى الخيبة والفشل، وفجأة تيقظت فيّ عوامل الانتباه بعد إذ توجه شعوري وتمركز فأصبح الخاطر الغامض واضحاً جلياً لديّ، فقلت بعد أن مررت بأطراف أصابعي على جبهتي الندية في صياح: الآن تذكرت، الآن تذكرت، أنت الفتاة اللعوب أنيسة. . وكنا جيرانكم في بيت واحد وقد قبضت عليك مرة متلبسة بسرقة رمانتي وقد استبدلتها بتفاحة من عندك، وفي مرة أخرى رأيتك تدسين في محفظة كتبي قلماً رصاصياً وصورة بديعة للعذراء مريم

تضاغطت شفتاها فكتمتا ابتسامة حلوة وقالت: نعم أنا هي أنيسة وقد كنت لا تنفك

تتحداها بتلاوة الكلمات الفرنسوية وتركيب جمل منها
أوه يا أنيسة كم أنت طيبة القلب فقد وضعت اسمي في مقدمة الأسماء التي أزمعت على مقابلة أصحابها بعد الغياب الطويل، أما أنا فقد نسيتك لتقادم العهد وجور السنين، وقد طوحت بنا في قطرين متباعدين. . . . . وكدت أخب في الحديث معها وفي استعادة
ذكريات الطفولة، لولا نظرة مستسرة غامضة لمحتها في عيني صاحب العمل وقد مر بنا في هذه الفترة فطويت الكلام واختزلت الحديث ورجوتها أن تدلني على الفندق لأقابلها في المساء لنتعشى معاً
أدركت موقفي فمدت يدها للوداع قائلة: أنتظرك على شرفة (الكونتنتال) وقد قرأت على قسمات وجهها إمارات عاطفة رقيقة حلوة فيها هدوء النفس المطمئنة وخلوص السريرة)
(البقية في العدد القادم)
حبيب الزحلاوي
درامة من اسخيلوس
الفرس - 2
للأستاذ دريني خشبة
- 4 -
وتبدي الملكة مخاوفها على أبنها حينما تذكرت اندحار جنود زوجها في حربه مع هيلاس، ثم يصمت الجميع حينما يلمحون في ظلام البعد فارساً أعجمياً يطوي الأفق، مقبلاً من الغرب، وهو مقبل لا شك من ميدان القتال. . .
(يدخل الرسول)
- (. . .السلام على كرام سوس و. . . و. . . بلاط الأ)
- (ماذا بك أيها الرسول؟! تكلم. . . ما وراءك؟)
- (. . .!يا لشؤمي!. . . أشأم من الشؤم نقل أخبار الشؤم يا سادة . . .)
- (. . .أي شؤم أيها الرسول؟. . . تكلم. . . تكلم)
- (. . .الجيش!)
- (!الجيش؟ ما للجيش)
- (!تبدد!ـ . . استؤصلت شأفته. . . وشالت نعامته)
- (يا للكارثة!. . . أسعدي يا دموع الفرس! يا للجد العاثر، والمجد الغابر، والسلطان المهيض!)
- (!طاشت الآمال، وخابت الأماني. . . والتهمت النيران عزة فارس)
- (يا ويح لنا!! يا رحمة لك يا دارا؟ أهكذا خلفتنا لنشيخ مع الزمان، وليرزح مشيبنا تحت هذا الضغث من الأشجان؟. . . يا للهم المفاجئ، والضربة اللازمة!)
- (!لقد رأيت كل شيء! وخضت المعمعة مع الخائضين. . يا للشجو. . . يا للشجو)
- (الجيش؟ تحطمت قوة فارس! ويلاه! ألهذا الدمار حشدت زهرة بنينا؟. . . الحول والطول، والقوة والجبروت، والعدد والعُدد. . . طاشت جميعاً؟. . .)
- (لقد طفت جثثهم في اللجة الدامية عند سلاميس! ولم تنفعنا الجحافل ذات العدد والعُدد!)
(!ما أبغض هذا الاسم! سلاميس. . . سلاميس! وأثينا! يا للذكريات السود
وعيل صبر أتوسا، فسألت الرسول أن يقص الخبر كاملاً كما وقع، فانطلق يروي المأساة، ويصور الهزيمة، برغم تفوق الفرس على اليونانيين في العدد، وبرغم أن لهم أسطولاً ينيف على ألف سفينة كاملة العدة، في حين لم يكن لهيلاس كلها غير ثلثمائةـ . . (. . . ثم انقضت سفنهم على أسطولنا الضخم فأوقعت به وأعملت النيران فيه، وكنا ننظر في الأرض فنجد جندا، وفي البحر فنجد جندا، وفي السماء فنجد جندا. . وأنا لا أقول إلا أن آلهة أثينا كانت تدافع عن أوطانها مع الأثينيينـ . . وهكذا تمت هزيمتنا. . . وقتل كل قادتنا، ولاذت الفلول القليلة التي أفلتها القتل بالفرار. . .). . .
وكان الرسول بارعاً أيما براعة حينما ذكر هتاف اليونانيين بجنودهم فوق الشاطئ:
(أيها اليونانيون هلموا. . .! أنقذوا هيلاس، وخلصوا أطفالكم ونساءكم، واحفظوا قبور آبائكم، واحموا هياكل أربابكم، وأقداس آلهتكم. . . من العبودية!!ـ قاتلوا! وفي سبيل

الوطن من استشهد منكم!!)
- 5 -
وكان الرسول لم ينته من سرد قصته بعد، حين صرخت أتوسا المرزّأة، وحين تناوح المشايخ النجب من هول ما سمعوا
قال الرسول: (وليس هذا فقط يا سادة، بل هناك مصيبة المصائب لما يجيء ذكرها بعد. . .)
- (وأية مصيبة أهول مما سمعنا أيها الرسول!. . . قل، تكلم!)
- (ذؤابة الجيش. . . النبلاء. . . مجلس شورى الإمبراطور. . . لقد كانوا يشرفون على المعركة من ربوة في جزيرة عند سلاميس. . . وما كادت النهاية المحزنة تتم حتى أحدق بهم اليونانيون من كل فج، فمزقوهم إرباً، وساروا برؤوسهم فوق أسنة الرماح يتغنون وينشدون ويهتفون. . .
- (والإمبراطور!)
- (لاذ بالفرار يا سادة، في بعض الكواكب التي نجت قبيل النهاية!)
- (وفلول الجيش!)
- (من لم يذق كأس الردى في المعركة، تشرد في آفاق هيلاس، ومات من جوع ومن ظمأ.
لقد كانت الفصائل تهيم على وجهها في برية موحشة، فإذا بلغت إحدى مدائن اليونان أبى أهلها أن يطعموها. . . فتموت جوعاً!)
- (. . .ثم؟)
- (ثم عبرت البقية الباقية المنهوكة مياه الهلسبنت، على أن الأكثرين ماتوا ثمة غرقاً. لأن آلهة الأولمب أرسلت العاصفة على قنطرة السفن الضخمة فغاصت بمن عليها في الأعماق. . .)
وتكون الإمبراطورية المحزونة قد بلغ بها الجهد ونال منها الأسى، فتذهب لتقرب للآلهة وتصلي لأربابها عسى أن تخفف من أثر الفاجعة، وتوصي، إذا وصل ابنها الإمبراطور قبل أن تعود أدراجها، أن يتلقوه بالبشاشة، وأن يهونوا عليه قدر ما يستطيعون
- 6 -
ويفتأ المنشدون - السادة الأشياخ النجب - يبكون حظ فارس العاثر، وينعون على أجزرسيس سوقه زهرة شبابهم إلى المهالك، ويذكرون بالخير والأسف إمبراطورهم الراحل - دارا، الذي صان البلاد ووقاها هذه العاقبة السوداء، التي ردّاها في أغوارها ولده من بعده. . . الإمبراطور الطائش الذي ذهب على وجهه بعد الهزيمة ميمما شطر الهلسبنت ليهرأه البرد، ويعصره شتاء أبيدوس القارس. . . ثم يستهولون العاقبة التي تتبع الهزيمة المروعة من غير ريب. . . وإنها لا بد آتية. . . فسينتفض الناس على عرش فارس وستثور الولايات. . . وتستقل مصر. . . وتخلع ليديانير الأعاجم. . . وتنتثر حبات العقد. . . وقد تتحطم الواسطة نفسها
وفيما هم يتناجون ويتباكون، إذ تقبل آتوسا البائسة! وهي تقبل هذه المرة لتذرف دموعها كرة أخرى. . . وهي تقبل مترجلة. . . لا تحملها عربتها الملكية المسرجة. . . ولا تجرها الخيول الفارسية المطهمة. . . (لأنه لا أبهة لهذا البلاط بعد اليوم، ولا صولة ولا صولجان. . . إن المخاوف تحدق بي. . . والوسواس تصرخ في وجهي، وتملأ صيحاتها المنكرة أذني. . . وقد حملت أضحية لروح زوجي، وقرباناً من اللبن الأبيض، وشهداً اشتاره نحل آذار. . . وخمراً. . . عتقتها أحداث المجد التالد. . . وزيتاً من تلك الزيتونة الشرقية الوارفة. . . التي يا طالما تفيأ ظلالها دارا. . . وورودا ورياحين، ومن كل ما
تنبت الأرض. . .)
- 7 -
. . .ويصلي الجميع على روح دارا
وينشدون نشيداً طويلاً كله ثناء وكله حمد. . . ويبتهلون إلى روح عاهلهم الراحل أن تطلع عليهم من عليائها لتخفف من أحزانهم، وترفه عنهم من أشجانهم
- (هلم! هلم يا مولانا العظيم إلينا! إن ظلمات الأسى تغشى قلوبنا فاقشعها بسنى فضلك وضياء حكمتك! هلم فقد أودى شبابنا في العاصفة الهوجاء! هلم! إننا نركع أمام

(!قبرك، فابدُ لنا، وأدرك إمبراطوريتك
(يبدو شبح دارا)
(لها بقية)
دريني خشبة
البريد الأدبيّ
كتاب البديع لابن المعتز
كانت دار الكتب المصرية قد حصلت في العهد الأخير على نسخة فوتوغرافية من كتاب (البديع) لعبد الله بن المعتز الخليفة والشاعر العباسي الأشهر، وذلك نقلاً عن النسخة الوحيدة الموجودة من هذا الكتاب والمحفوظة بمكتبة الأسكوريال بمدريد تحت رقم (328 أدب) (فهرس الغزيري - وفهرس ديرنبور) وحصلت أيضاً على نسخة فتوغرافية لأثر آخر من آثار ابن المعتز وهو كتاب مختصر طبقات الشعراء المحفوظ أيضاً بمكتبة الأسكوريال رقم (279. أدب) (من الفهرسين المذكورين)
وقد ظهر الأثر الأول أي كتاب البديع أخيراً مطبوعاً عن نسخته الوحيدة المذكورة، وقام باخراجه المستشرق الروسي الكبير الأستاذ أجناس كراتشكوفسكي عضو أكاديمية العلوم في لننجراد، ومهد له بمقدمة بالانكليزية، وصححه وعلق عليه، وذيله في طبعة بديعة، وقامت بإصداره (لجنة تذكار جب)، الإنكليزية الشهيرة، وهو المجلد الثالث والعشرون من مجموعة جب. وقد قامت لجنة جب حتى اليوم على إخراج طائفة نفيسة من الآثار العربية المخطوطة، نذكر منها بالأخص كتاب أخبار مصر وفتوحها لعبد الرحمن بن الحكم المصري، (ومهد له وعلق عليه المستشرق تشارلس توري)، وكتابين لأبي عمر الكندي، هما: أخبار أمراء مصر، وأخبار قضاة مصر (ومهد لهما وعلق عليهما المستشرق جست) مع مختارات من كتاب رفع الأصر عن قضاة مصر لابن حجر العسقلاني
وكتاب البديع لابن المعتز يعد من أمهات الكتب في موضوعه، وهو أيضاً من أشهر وأنفس آثار ابن المعتز
وعسى أن نسمع قريباً بأن هنالك من يعني بإخراج كتاب (مختصر طبقات الشعراء) فتصبح بين أيدينا مجموعة قيمة متنوعة من آثار ابن المعتز
ذكرى أدبية شائقة
لإنكليز ولع شديد بإحياء بعض الذكريات القومية الغربية، وقد احتفل أخيراً في لندن بإحياء إحدى هذه الذكريات الشائقة، وهي ليست ذكرى عظيم أو حادثة شهيرة، وإنما هي الذكرى المئوية لصدور كتاب ما زال يتمتع بين آثار الأدب الإنكليزي بشهرة واسعة، ذلك هو
كتاب (أوراق نادي بكويك) بقلم الكاتب الشهير تشارلس دكنز
ففي مارس سنة 1836 صدر القسم الأول من هذا الأثر الأدبي الخالد؛ وكان تشارلس دكنز في ذلك الحين ما يزال فتى مغموراً في نحو الخامسة والعشرين من عمره، وكان قد بدأ حياته الصحفية وأحرز شيئاً من النجاح برسائل كان ينشرها في (المجلة الشهرية) بعنوان (صور) بقلم بوز يصف فيها خلال العصر وعاداته بأسلوب طريف، وكان من الظواهر الأدبية في ذلك العصر أن تصدر دور النشر قصصاً رياضية مصورة بأسلوب فكاهي، وكان هذا النوع من القصص ذائعاً جداً. فتقدمت دار النشر المعروفة باسم (تشابمان وهول) إلى الكاتب الفتى تشارلس دكنز بأن يضع لها قصة من هذا النوع تتعلق ببعض المغامرات الرياضية، ولكن دكنز اعتذر بعدم خبرته في الشؤون الرياضية وبأنه لا يستطيع أن يضع أية قصة من هذا النوع فعدل عن هذه الفكرة وتركت الصفة الرياضية، واتفق على وضع مذكرات قصصية شائقة تمثل الحياة اللندنية الصميمة، وأن يشترك في تصوير مناظرها الرسام الشهير (فيز)، وهكذا صدرت النشرة الأولى من أوراق نادي بكويك ومعها مقدمة بقلم سام ويللر؛ وتصور هذه القصة الشائقة شخصية مدهشه غريبة الأطوار هي شخصية (بكويك)، وتصور حياة المجتمع الإنكليزي المتوسط في هذا العصر وبخاصة حياة المجتمع اللندني تصويراً بديعاً شائقاً، ويقدم إلينا دكنز مستر بكويك في ألوان طريفة مضحكة جداً؛ وقد اشتهر أمر هذه السلسلة منذ ظهورها، وكان القراء ينتظرونها بفارغ الصبر؛ وكانت في الواقع فاتحة مجد دكنز، وفي سنة 1937 طبعت هذه السلسلة لأول مرة في مجلد واحد،

وذاعت ذيوعاً عظيماً
وقد احتفلت أخيراً في لندن جماعة تشارلس دكنز بإحياء هذه الذكرى الشائقة ونظمت موكباً تاريخياً استعادت فيه شخصية مستر بكويك وصحبه، وارتدوا ثياب ذلك العصر، وركبوا مركبات مما كان يستعمل في ذلك العصر، وشقوا شوارع لندن؛ فكان احتفالاً ظريفاً شائقاً

عميد كلية العلوم

اجتمع مجلس كلية العلوم بالجامعة المصرية في الأسبوع الماضي لانتخاب عميد الكلية، فحصل صديقنا الدكتور احمد زكي أستاذ الكيمياء ووكيل الكلية على تسعة أصوات، وهي أصوات جميع الأساتذة - مصريين وأجانب - وحصل الأستاذ حسن أفلاطون بك على

ستة أصوات، والدكتور علي مصطفى مشرفة على خمسة أصوات

وستعرض هذه النتيجة على حضرة صاحب المعالي وزير المعارف لاختيار أحد هؤلاء الثلاثة لعمادة الكلية

ومما يجمل ذكره أن الدكتور أحمد زكي كان أول مصري يجمع أساتذة الكلية المصريون والأجانب على انتخابه عميدا للكلية منذ أنشئها، وكان قد انتخب للعمادة منذ ثلاث سنوات إلا أن وزارة المعرف في ذلك العهد البغيض حالت دون إقرار الانتخاب

تعليقات أدبية: درامات شو في مصر

تمثل الفرقة الأيرلندية التي تزور مصر هذه الأيام نخبة من الدرامات العالمية ومنها بعض درامات شو، ونحن نتساءل: هل تنجح درامات شو إذا نقلت إلى العربية وأديت على المسرح المصري؟ وللإجابة على ذلك نضع بين يدي القارئ هذه الملاحظات التي أخذناها على الكاتب الأيرلندي الكبير:

1 - يتبع برنرد شو في حواره أسلوباً فلسفياً قد يستطيل حتى يغمض، والحوار الفلسفي الممل يقضي على الحياة فوق المسرح ويجعلها مملولة إلى حد ما، إن لم يكن كل الملال. ولهذا قد يكون من الخير أن تقرأ شو لا أن تره على المسرح. ويكفي أن تلقي نظرة على دراماته والأسلحة والإنسان، وقيصر وكليوبطرة، ثم على ملهاته ليتأكد لك ما نقول

2 - يتقمص شو الفيلسوف جميع شخصيات دراماته فينطقهم بكلام فلسفي، ويرهقهم بألوان من التفكير لا نحسب أن مثلها يصح أن يدور في خلد أحد منهم. وهذا تعسف لا يطيقه المسرح ولا سيما في مصر. ودرامته دليل واضح على ذلك. ففي هذه الدرامية القديمة التي كتبها منذ 25 سنة تسمع الفكرة السامية المعقدة من لسان (عربجي) كما تسمعها من لسان (المتشرد) كما تسمعها من لسان رجل الدين - وفي فم كل من هؤلاء تسمع صوت جورج برنرد شو وتلقي فكرته

3 - كثيراً ما يعرض شو بالدين ويستهزئ برجاله وإن كان من رأيه أن التدين ضرورة من ضرورات الحياة لا غنى للبشر عنها، وفي روايته (بلانكو بوسنت) التي هاج بها الرأي العام عليه منذ نحو ربع قرن والتي أستدعى من أجلها لمناقشة أمام مجلس العموم البريطاني بعد إحراقه الأعداد المطبوعة شاهد على ذلك. وهو يبدو متعسفاً في كثير من

مآخذه على الأديان والمتدينين

4 - يتبع برنردشو في أكثر دراماته طريقة الكاتب النرويجي الكبير هنريك إبسن وهي (الهدم ولا بناء - وتشخيص الداء. . . ولا دواء) وهي طريقة وعرة تثير التشكك في أذهان النظارة وتتركهم حيارى على غير هدى. على أن إبسن يفضل شو في بيانه السلس وطريقته السهلة وعدم حشو دراماته بنتف لا لزوم لها

جيمس جويس والأدب الجنسي

كان الكاتب الإنجليزي الشهير د. هـ. لورانس زعيم الأدب الجنسي إلى ما قبل بضع سنين في إنجلترا، فلما مات تربع جيمس جويس على عرشه، وإن كان الكاتب الروائي ألدوس هوكسلي يرنو إلى هذا العرش وهو في نظرنا أشرف من أن يتربع عليه ولقد أمعن كل من لورانس وجيمس جويس في نشدان اللذة وتحبيبها إلى الشباب والتمتع بكل ما في الحياة من نعيم جسمي والاستهانة بأوضاع الدين وتقاليده، فلورانس في روايته الوضيعة (عشيق لادي شاترلي) يبيح للزوج الأشل أن يسمح

لزوجته أن تأتي لهما بولد من رجل آخر. . . وهكذا تنتصر الدعارة على الزوجية، وينقض المنزل السعيد الهانئ على من فيه
وقد كتب جويس قصته الأخيرة (أولسس) وجرى فيها على شرعة لورانس ومنهاجه، فهو يتناول العورات المستورة وما خلقها الله له بأفحش أسلوب، وأخس تصوير، وكل من لورانس وجويس يثيران في نفس القارئ أحط ضروب الشهوات، ولذا كان مذهبهما في الأدب لوناً من الدعارة المكشوفة وقفت له الحكومة البريطانية بالمرصاد، فلم تسمح بطبع كتبهما في المطابع الإنجليزية، ولم تبح تداول هذه الكتب في إنجلترا، وخيرا فعلت
!أما نحن. . . فنقرأ لورانس وجويس في مصر. . . ولا رقيب على شبابنا من الحكومة
د. خ
نتيجة المباراة الأدبية الرسمية
انتهت ثماني لجان الحكم في المباراة الأدبية الرسمية من الفصل في ثمانية موضوعات ومنحت المكافآت للفائزين فيها، وبقيت ثلاث لجان لم تفصل اللجان المختصة فيها وهي:
1 - أثر الحافز الشخصي
2 - عدة النجاح لرجل القرن العشرين
3 - علاج مشكلة البطالة
وننشر فيما يلي أسماء الناجحين في الموضوعات الثمانية التي فصلت اللجان فيها وقيمة الجوائز التي منحت لكل منهم:
الموضوع الأول - رسالة الأزهر في القرن العشرين
الفائزون: الأساتذة: أحمد خاكي المدرس بمدرسة الأمير فاروق ومنح ثمانين جنيهاً، وأحمد توفيق عياد ومنح شرين جنيهاً، والأساتذة مصطفى صادق الرافعي، وعبد الله عفيفي، ومحمد الههياوي ومحمد عرفة، وقد منح كل منهم مكافأة قدرها خمسة عشر جنيهاً. وبلغ مجموع الجوائز في هذا الموضوع مائتي جنيه
الموضوع الثاني - اللغة والدين والعادات
الفائزون في هذا الموضوع ثلاثة منح كل منهم 25 جنيهاً وهم الأساتذة: أحمد وفيق، وزكي مبارك، ويوسف محمد
الموضوع الخامس - التربية الوطنية الاستقلالية
الفائزون في هذه المباراة أربعة وقد منح كل منهم 25 جنيهاً وهم الأساتذة: محمود مسعود، ومحمد جلال، ومحمد عبد الباري، والآنسة إيريس حبيب المصري
الموضوع السابع - تدعيم الحياة الدستورية: قالت لجنة التحكيم في هذا الموضوع ورئيسها سعاد بهي الدين بركات بك إنه لم يتقدم إليها أية رسالة تستحق أية جائزة
الموضوع الثامن - ترقية الفلاح اجتماعياً: والفائزون فيه أربعة وهم الآنسة ابنة الشاطئ ومنحت الجائزة الثانية وقدرها 50 جنيهاً، ومنح الثلاثة الآخرون كل منهم 25 جنيها وهم الأساتذة عزيز خانكي بك المحامي، وعبد الوارث كبير الصحفي، ويوسف فهمي حلمي
الموضوع التاسع - استثمار نهضة المرأة المصرية للخير العام الفائزات فيه أربعة:
1 - الآنسة سيزا نبراوي وقد فازت بالجائزة الأولى وقدرها 100 جنيه
2 - الآنسة نور الهدى الحكيم وقد فازت بالجائزة الثانية وقدرها 50 جنيها
3 - السيدة إحسان القوصي وقد فازت بالجائزة الثالثة وقدرها 25 جنيها
4 - الآنسة إيفا حبيب المصري وقد فازت بالجائزة الرابعة وقدرها 25 جنيها
الموضوع العاشر - النشيد القومي: فاز بالجائزة الأولى وقدرها مائة جنيه الأستاذ محمود صادق، ومنح الجائزة الثانية وقدرها 50 جنيها حضرة الأستاذ مصطفى صادق الرافعي، ومنح الجائزتين الثالثة والرابعة وقيمة كل منهما 25 جنيها الأستاذ محمد الهراوي والأستاذ محمد فضل إسماعيل
وقد لاحظت اللجنة في تقريرها أن أجود الأناشيد التي عرضت عليها لم تخل عن أبيات أو فقرات ضعيفة إلى جانب أبيات أو فقرات جيدة، ولهذا أخذت كل نشيد بمجموعة لا ببعض أجزائه. ثم قالت اللجنة (إنها لم تر حرمان المتبارين من الجوائز بالترتيب الذي وضعته، لأن المباراة تستلزم بطبيعتها إعطاء الجوائز المقررة للمتفوقين من المتبارين

سواء أدركوا الغرض كله أو لم يدركوا إلا بعضاً منه) وقد خالفت بذلك أكثر اللجان
الموضوع الحادي عشر - سلامة الدولة في حفظ النظام:
فاز في هذه المباراة اثنان، ومنح كل منهما 25 جنيها وهما الصاغ علي حلمي أحد
مأموري المراكز، والأستاذ محمود كامل المحامي
العالم المسرحي والسينمائي
فن السينما - 2
بقلم يوسف تادرس وظريف زكي
فن السينما وفن المسرح
هذا الفن الحديث ما شكله؟ ما هي الفوارق بينه وبين غيره من الفنون؟ وما هي أوجه الشبه؟
إنه يشبه المسرح أكثر مما يشبه أي فن آخر، فهذا وذاك يؤديان رسالتهما عن طريق إبراز المناظر وتمثيل الممثلين
وقد ذهب بعضهم إلى تعداد الفوارق الآتية بينهما وهي:
أولاً - إن التمثيل السينمائي أقرب إلى الطبيعة، وأبعد عن التكلف
ثانياً - إنه ليس فيه فترات (استراحة) بالمعنى الصحيح تفصل بين منظر ومنظر، وتتيح للمخرج إعداد المنظر اللاحق
ثالثاً - إنه أقل حاجة إلى الحيل التي يتوسل بها لإيهام الناظر، وأقل لجوءاً إلى المبالغة في الحركات وفي تغيير ملامح الوجه للتعبير عن مختلف الأحاسيس
رابعاً - انه في مكنته أن يريك وأنت جالس في كرسيك المنظر الواحد من نواح مختلفة ومن أبعاد متباينة
خامساً - انه لا يقيده حد من الزمن والمكان
سادساً - المسرح يعتمد على التحليل النفسي والحوار
على أن جميع هذه الفوارق على صحتها لا تعدل في نظرنا الفارق الأساسي بين الفنين وما اختص كل منهما به، فان بين ممثل المسرح والنظارة تجاوباً في الإحساس وتبادلاً في التأثير، لا تجد لهما شبيها على الشاشة البيضاء
وإذا كان ممثل المسرح كثيراً ما يرضى لنفسه بأن يسرد عليك في حديث مع زميله بعض الحوادث التي تقوم عليها القصة، فان المدير الفني في السينما يريك تلك الحوادث متحركة أمام عينيك؛ وهذا الفارق لا زال صحيحاً حتى الآن وقد نطق الفلم الكتابة للسينما
لاحظ (بودزفكين) أن كتاب السينما قد اعتادوا أن يحصروا عنايتهم في سرد الحوادث وأن يلبسوها ثوباً قشيباً من الأسلوب الجميل مستعينين بالوسائل المعهودة في كتابة الأدب، غافلين عن إمكان تطبيقها على السينما
هذا على حين أن لكل فن وسائله وأصوله، وأن معالجة الموضوع بحيث يكون صالحاً للإخراج السينمائي أمر من الأهمية بمكان عظيم
زعم بعض الناس أن الكاتب للسينما ما عليه إلا أن يخلط مجملاً عن الحادث، أما التحوير والتبديل فيما خطه قلمه، أما جعله صالحاً للسينما، فمن شأن المدير الفني وحده ومن واجباته هو دون سواه
ما أبعد هذا الزعم عن الصواب
ومتى جاز أن يقطع العمل الفني تقطيعاً!! وأن يفصل بين مرحلة ومرحلة! وأن يجعل كل وحدة مستقلة عن الأخرى، لا تمت إليها بسبب!!
ألست وأنت تقدم على تناول موضوع بالكتابة تفكر في نفس الوقت - ولو تفكيراً سريعاً غير واضح - في كيفية معالجتك له وعن سيرك فيه؟ بل إن مجرد عقد نيتك على العمل يفرض فيه اتجاه ذهنك نحو بعض خصائصه وتفاصيله
لا نقول إنه يتعين على من يكتب للسينما أن يرشد المدير الفني عن كيفية التصوير والطبع، وأن يأمره بما يصور وما يطبع، إنما لا بد له من معرفة أولية يستطيع معها أن يأتي بموضوع يصلح للإخراج، وأن يتجنب عوائق قد لا يتيسر تذليلها
ولعله يعثر على مثل تلك المعرفة الأولية فيما ننشر على صفحات (الرسالة) الغراء
(يتبع)
يوسف تادرس - ظريف زكي

الفرقة القومية المصرية والمسرح المحلي
لناقد (الرسالة) الفني
باعد المسرح ما بينه وبين الأدب والأدباء، لأن أصحاب الفرق التمثيلية - فيما مضى - جعلوا مثلهم العليا والروايات الثائرة العنيفة التي لا تمت إلى الفن الرفيع بسبب، وكانوا بصفتهم ممثلين ومخرجين يوجهون الفن حسب أهوائهم، حتى إنه كان لبعضهم مؤلفون من نوع خاص، وهذه السياسة التي ساروا عليها جعلت النظارة من المثقفين الذين يطلبون الفن ينفضون عن دور التمثيل، مفصلين السينما، وكانت هذه الجناية من أكبر الأسباب التي قعدت بالمسرح وأتت عليه
ومدت الحكومة يدها إلى المسرح لتقيله من عثرته، وتكونت الفرقة القومية المصرية، وعملت موسماً متقطعاً على مسرح الأوبرا عرضت خلاله عدة روايات من روائع الأدب الغربي
على أن ما عرضته وإن كان جديراً بالتقدير، لن يؤدي إلى الغاية المقصودة، فان المسرح إذا عنى بالترجمة والنقل فقط، لن يكون إلا صدى للمسارح الغربية، والحياة المصرية على تقمها لن تشبه ولن تبلغ الحياة الغربية ومجتمعاتها وعاداتها
حقاً إن الروايات المسرحية فيكل الأمم غربية أو شرقية ترمي إلى بذر الخير في النفوس واقتلاع الشر من الرؤوس وتغذية القلوب بالعواطف النبيلة بتصوير المثل العليا وتمجيدها وتقويم المعوج من الأخلاق والعادات، كما تعني بدقائق الحياة الداخلية ومشاكلها الاجتماعية والتجديد للمستقبل وتوجيه التطور إلى الناحية التي تجدي على الشعب والإنسانية، إلا أن التباين في العادات يضعف أثر التمثيل في نفوس النظارة، ولهذا فان ما تبذله الحكومة من جهد ومال لن يكون له الأثر المنشود ما دامت الفرقة تعرض الروايات الغربية
نحن لا ننكر أن اللغة والأدب قد اكتسبا الكثير من نقل هذه الروايات إلى العربية، ولكن المسرح المحلي والاهتمام بتكوينه ليعالج مشاكلنا الاجتماعية، أهم لدينا من كل ما عداه، فالمسرح وهو فن من فنون الاجتماع، يجب أن يؤدي رسالته مستعيناً بالأدب، لا أن يكون أداة اللغة فحسب
والمسرح وهو وسيلة من وسائل الإصلاح يجب ألا ترتفع لغته كثيراً حتى يمكن الشعب أن
يتفهمها، فالمسرح ليس للمثقفين وإنما هو للشعب أولاً، ولذلك فان أكثر الروايات التي أخرجتها الفرقة القومية كانت عويصة على الجمهور مما أدى إلى عدم الإقبال المنتظر على حفلات الفرقة
ورب قائل يقول إن الفرقة لم تجد الروايات المحلية التي تتوفر فيها الشروط الفنية حتى تعرضها، ومعنى هذا أننا سنبقي الأعوام الطويلة ننقل عن الغرب روايات لا تتفق مع عاداتنا وأخلاقنا حتى يبعث الله لنا مؤلفاً عبقرياً موهوباً يقدم للفرقة الروايات المحلية، ويومئذ، ويومئذ فقط، تقام دعائم المسرح المحلي!!!
لا أظن أحدا يرى هذا الرأي أو يقره
إن واجب اللجنة التي تشرف على الفرقة القومية أن تشجع الأدباء والكتاب المسرحيين، فتدرس رواياتهم وتنبههم إلى المآخذ لكي يعملوا على تلافيها، وإلى مواضع الضعف لكي يعملوا على تقويتها، ثم تخرج هذه الروايات بعد ذلك على المسرح. ويجب أن يكون لدى هذه اللجنة من الشجاعة ما يجعلها تغامر بإخراج الروايات العصرية ما دامت لها بعض المزايا الخاصة
وإن التشجيع المادي والأدبي والمران لمن بين الأسباب التي تدفع الكتاب المسرحيين إلى أن يشقوا طريقهم نحو الكمال، وبهذا تكون الفرقة قد أدت رسالتها نحو خلق المسرح المحلي والأدب المصري الحديث
فهل تعني اللجنة والفرقة بهذا الاقتراح؟
سنحاول في كلمة أخرى التحدث عن الروايات التاريخية والروايات العصرية من حيث التأليف، ونرجو أن يتسع صدر (الرسالة) الغراء لهذا البحث الصغير، فقد يكون فيه بعض الفائدة لمن يحاول الكتابة للمسرح
العدد 151 - بتاريخ: 25 - 05 - 1936

أكُلُّ هذا يصنع البرلمان؟

قلت للشيخين صالح وعلي وقد لقيتهما في هوادي الليل يتبختران بميدان إبراهيم في الحرير الشاهي والجوخ المصقول: الآن تتركان القرية والقطن يريد العزْق، والدودة تطلب المراقبة؟ فتسابقا إلى الجواب كأنما حضراه من قبل واتفقا عليه، فكان كلمة من هذا وكلمة من ذاك. قالا:

جئنا نجتلي طلعة المليك، ونهنئ وزارة الشعب، ونشهد برلمان الأمة. ثم قال الشيخ صالح وحده: وجئنا كذلك نبلغ نائبنا المحترم. . . رغائب الناخبين ومطالب الدائرة فملت بهما إلى قهوة من قهوات الميدان تعج بأمثالهما من الشيوخ والنواب والتوابع؛ وبعد شيء من نوافل الحديث كالسؤال عن العشيرة والزرع، عطفت على جوابهما المشترك بالتعقيب قلت: أما اجتلاء طلعة المليك فجلاء الهم ونعيم الروح وسرور النفس المؤمنة؛ وأما تهنئة الوزارة فشعيرة الحب المتبادل، وإعلان الثقة المؤيدة، وإهلال الرجاء المحقق. وأما تبليغ النائب مطالب الدائرة يا صديقي صالح فما لك تعجل به، والبرلمان لما ينعقد، والنائب مفروض عليه أن يصل نفسه بناخبيه صلة الرسول بالمرسل والوكيل بالموكل واللسان بالقلب؟ فأجابني بلهجة حاول باتزان إشارته واطمئنان صوته واعتدال جلسته أن تكون مقنعة، قال: إنا من جنود الوفد الأمين، وكنا من دعاة النائب المحترم، توسطنا بينه وبين الناس، فوعدناهم الوعود، ومنيناهم المنى، وبشرناهم النُّصفة؛ والفلاح درج منذ العهود الأولى على أن يفهم من لفظ (الحكومة) جباية المال وتسخير الرجال وتجنيد الشباب وتغريم المتخاصمين المبطل منهم والمحق. فلم يكد يفهم أن حكومة الوفد هي حكومة الفلاح: ترجع إليه وتعطف عليه وتعمل له، حتى انثالت علينا شكاويه وأمانيه بالبريد واللسان واليد

قال هذا وألقى على منضدة رخامية لا تأخذ منها هبَّة الريح ولا مسَّة الكف، إضبارةً بطينة من العرائض والرسائل، ثم قال لي: انظر! فابتدرتها يدي قبل الاستئذان إطاعة لحكم الصنعة، ثم أخذت أصفحها مع الوسيطين ورقة ورقة

هذه عريضة من أهل قرية طغت على جنباتها الأربع البرك المنتنة، فأصبحت كالجزيرة الملعونة في غسلين جهنم!

صاحب البرك هو مالك الأطيان ومن أعضاء البرلمان؛ ورجال الإدارة يرجونه أو يخشونه، فلا يذكِّرونه القانون إلا بالتي هي أحسن؛ والتي هي أحسن لا تساوي عجلاً في دوار الباشا! وأهل القرية وبعوض الملاريا في رأيه سواء، فلماذا يقتل البعوض ويبقون هم في الأحياء؟

وهذه عريضة من أهل قرية يسكنون المسكن القذر، ويشربون المشرب الكدر، ففشت في دمائهم جراثيم الانكلستوما والبلهارسيا، ففزعوا منها إلى مستشفى الحكومة بالبندر، فكان ما كابدوه من عنت الممرضين والأطباء، أضعاف ما كابدوه من عنت الأدواء، ففر الموسر من العلاج بالمجان إلى العلاج بالأجر، ولاذ المعسر من تعب الإنسان إلى راحة القبر!!

وهذه عريضة من أهل قرية يملك أرضها مُثْرٍ يملك اثني عشر ألف فدان، ولكنه منهوم لا يشبع، وطماع لا يقنع، وقاس لا يلين، فهو يشتط عليهم في أجرة الأرض حتى يأخذ القطن فلا يفي، ويغتصب أكثر القمح والذرة والأرز ولا يكتفي، فيضطر المستأجر المجهود إلى أن يدفع الجوع عن أسرته بالعمل أجيراً عند الناس. وهكذا يظل طول عمره دائب العمل، دائم الفقر، لا يخف عنه دين، ولا يجف له عرق.

وهذه عريضة من أهل قرية ليس فيهم كاتب، وحفاظ القرآن منهم ثلاثة عميان لا يحسبون إلا (النجم) ولا يعرفون إلا تاريخ اليوم بالعربية والقبطية؛ فإذا اضطرتهم الحال إلى تحرير عرض أو كتابة خطاب سافروا إلى الكتاب العموميين في عاصمة المركز. فهم يطلبون إلى (البرلمان) أن ينشئ لهم كتابا يحفظهم القرآن ويعلمهم الخط!

ومن خلال هذه العرائض المنطقية الرزينة كان يقع في يدي أنماط شتى من رسائل الالتماس عليها طابع السذاجة والحاجة؛ فهذا والد تلميذ فقير يطلب حق ابنه في المجانية؛ وهذه أم حنون ترجو إخراج ولدها من الجندية؛ وهذا تلميذ سابق يريد أن يكون موظفاً في وزارة؛ وهذا عسكري قديم يجب أن يكون حاجباً في محكمة؛ وهذا تاجر جوال لا تقع قريته على الطريق العام يحتم أن تمر بها السيارات العامة؛ وهذا فلاح يقترح على (البرلمان) أن يأمر التجار أن يشتروا القطن غالياً، مادامت الحكومة لا

تأمر الملاك أن يؤجروا الأرض رخيصة.
كَلَّ النظر من طول القراءة، وألم الشعور من تناقض الأثر، والإضبارة الشعبية لا تزال وارمة! فطويتها بعناية ورفق، ثم قلت لحاملها الأمين الوفي: شكر الله مسعاك، وأعانك
النائب الكريم على إبراء ذمتك. فقال الشيخ علي وقد خفق على وجهه الأبلج ظل رقيق من الشك: ولكن بالله قل لي: أكل هذا يصنع البرلمان؟ فقلت له: ولم لا؟ إن علماء الدستور قالوا في برلمان إنجلترا: (إنه يقدر على كل شيء، إلا على تحويل الرجل امرأة) وبرلماننا صديقه اليوم وحليفه غداً، فلم لا يجوز على أحد الحليفين ما جاز على الآخر؟ فضحك الصديقان وهما ينصرفان. ولا أدري أكان ضحكهما من سخف القياس، أم من سخف الناس.
أحمد حسن الزيات
العجوزان - 2
للأستاذ مصطفى صادق الرافعي
قال محدثي: ولما قلت لهما أيها العجوزان: أريد أن أسافر إلى سنة 1895؛ نظر إليَّ العجوز الظريف (ن) وقال: يا بنيَّ أحسب رؤيتك إياي قد دنت بك من الآخرة. . . فتريد أن نلوذ بأخبار شبابنا لتنظر إلينا وفينا روح الدنيا
قال الأستاذ (م): وكيف لا تريه الآخرة وأكثرك الآن في (المجهول)؟
قال: ويحك يا (م) لا تزال على وجهك مسحة من الشيطان هنا وهنا؛ كأن الشيطان هو الذي يصلح في داخلك ما اختلَّ من قوانين الطبيعة، فلا تستبين فيك السن وقد نيَّفتَ على السبعين، وما أحسب الشيطان في تنظيفك إلا كالذي يكنس بيته. . . .
قال (م): فأنت أيها العجوز الصالح بيتٌ قد تركه الشيطان وعلق عليه كلمة (للإيجار). . .
فضحك (ن) وقال: تالله إن الهرم له إعادة درس الدنيا، وفهمها مرة أخرى فهماً لا خطأ فيه، إذ ينظر الشيخ بالعين الطاهرة، ويسمع بالأذن الطاهرة، ويلمس باليد الطاهرة. . . وتالله أن الشيطان لا معنى له إلا أنه وقاحة الأعصاب
قال (م): فأنت أيها العجوز الصالح إنما أصبحت بلا شيطان لأن الهرم قد أدب أعصابك. . .
قال العجوز الظريف: وعند من غيرنا نحن الشيوخ تطاع الأوامرُ والنواهي الأدبية حقَّ طاعتها؟ عند من غير الشيوخ تقدس مثل هذه الحكم العالية: لا تعتد على أحد. . . لا تفسد امرأة على زوجها. . .
قال المحدث: وضحكنا جميعاً، وكان العجوز (ن) من الآيات في الظرف والنكتة، فقال: تظنني يا بني في السبعين، فوالله ما أنا بجملتي في السبعين، والله والله
قال (م): لقد أهتر الشيخ يا بني فإن هذا من خرفه فلا تصدقه
قال (ن): والله ما خرفت وما قلت إلا حقاً، فههنا ما عمره خمس سنوات فقط وهو أسناني. . .
قلت: (ورينا وريت) وسنة 1895؟
قال الأستاذ (م): أنت يا بني من المجددين، فما هواك في القديم وما شأنك به؟
وما كاد العجوز (ن) يسمع هذا حتى طرف بعينيه وحدد بصره إلي وقال: أئنك لأنت هو؟ لعمري أن في عينيك لضجيجاً وكذباً وجدالاً واحتيالاً وزعماً ودعوى وكفرا وإلحاداً؛ ولعمري. . .
فقطعت عليه وقلت: (لعمرك أنهم لفي سكرتهم يعمهون)، لقد وقع التجديد في كل شيء إلا في الشيوخ أجساماً والشيوخ عقولاً؛ فهؤلاء وهؤلاء عند النهاية، وغير مستنكر من ضعفهم أن يدينوا بالماضي فإن حياتهم لا تلمس الحاضر إلا بضعف
قال العجوز: رحم الله الشيخ (ع). كان هذا يا بني رجلاً ينسخ للعلماء في زمننا القديم، وكان يأخذ عشرة قروش أجراً على الكراسة الواحدة، وهو رديء الخط، فإذا ورق لأديب ولم يعجبه خطه فكلمه في ذلك تعلق الشيخ به وطالبه بعشرين قرشاً عن الكراسة، منها عشرة للكتابة وعشرة غرامة لإهانة الكتابة. . .
نعم يا بني إن للماضي في قلوبنا مواقع ينزل فيها فيتمكن، ولكن قاعدة (اثنان واثنان أربعة) لا تعد في الماضي ولا في الحاضر ولا في المستقبل، والحقيقة بنفسها لا

باسمها، وليست تحتاج النار إلى ثوب المرأة إلا في رأي المغفل
قال الأستاذ (م) وكيف ذلك؟
قال العجوز: زعموا أن مغفلاً كان يرى امرأته تضرم الحطب فتنفخ فيه حتى يشتعل، فاحتاج يوماً في بعض شأنه إلى نار ولم تكن امرأته في دارها، فجاء بالحطب وأضرم فيه وجعل ينفخ، وكان الحطب رطباً فدخن ولم يشتعل. ففكر المغفل قليلاً ثم ذهب فلبس ثوب امرأته وعاد إلى النار، وكان الحطب قد جف فلم يكد ينفخ حتى اشتعل وتضرم. فأيقن المغفل أن النار تخاف امرأته. . . وأنها لا تتضرم إلا إذا رأت ثوبها
قال الأستاذ (م): إن الكلام في القديم والجديد أصبح عندنا كفنون الحرب تبدع ما تبدع لتغيير ما لا يتغير في ذات نفسه، وعلى ما بلغت وسائل الموت في القديم والجديد فإنها لم تستطع أن تميت أحداً مرتين
لقد قرأت يا بني كثيراً فلم أر إلى الآن من آثار المجددين عندنا شيئاً ذا قيمة. ما كان من هراء وتقليد زائف فهو من عندهم، وما كان جيداً فهو كالنفائس في ملك اللص لها اعتباران
إن كان أحدهما عند مقتنيها. . . فالآخر عند القاضي
كلا أيها اللص لن تسمى مالكاً بهذا الأسلوب؛ إنما هي كلمة تسخر بها من الناس ومن الحق ومن نفسك
يقولون: العلم والفن والغريزة والشهوة والعاطفة والمرأة وحرية الفكر واستقلال الرأي ونبذ التقاليد وكسر القيود إلى آخره وإلى آخرها. . . فهذا كله حسن مقبول سائغ في الورق إن كان في مقالة أو قصة، وهو سائغ كذلك حين ينحصر في حدوده التي تصلح له من ثياب الممثلين أو من بعض النفوس التي يمثل بها القدر فصوله الساخرة أو فصوله المبكية، ولكنهم حين يخرجون هذا كله للحياة على أنه من قوتها الموجبة، ترده الحياة عليهم بالقوة السالبة، إذ لا تزال تخلق خلقها وتعمل أعمالها بهم وبغيرهم، وإذا كان في الإنسانية هذا القانون الذي يجعل الفكر المريض حين يهدم من صاحبه - يهدم في الكون بصاحبه؛ ففيها أيضاً القانون الآخر الذي يجعل الفكر الصحيح السامي حين يبني من أهله - يبني في الكون بأهله
قال العجوز (ن): زعموا أن أحد سلكي الكهرباء كان فيلسوفاً مجدداً فقال للآخر: ما أراك إلا رجعياً، إذ كنت لا تتبعني أبداً ولا تتصل بي ولا تجري في طريقتي؛ ولن تفلح أبداً إلا أن تأخذ مأخذي وتترك مذهبك إلى مذهبي. فقال له صاحبه: أيها الفيلسوف العظيم، لو أني اتبعتك لبطلنا معاً فما أذهب فيك ولا تذهب فيّ؛ وما علمتك تشتمني في رأيك إلا بما تمدحني به في رأيي
قال العجوز: وهذا هو جوابنا إذا كنا رجعيين عندهم من أجل الدين أو الفضيلة أو الحياء أو العفة إلى آخرها وإلى آخره. ونحن لا نرى هؤلاء المجددين عند التحقيق إلا ضرورات من مذاهب الحياة وشهواتها وحماقاتها تلبّست بعض العقول كما يتلبس أمثالها بعض الطباع فتزيغ بها. وللحياة في لغتها العملية مترادفات كالمترادفات اللفظية تكون الكلمتان والكلمات بمعنى واحد، فالمخرب والمخرف والمجدد بمعنى
كل مجدد يريد أن يضع في كل شيء قاعدةً نفسه هو، فلو أطعناهم لم تبق لشيء قاعدة
قال الأستاذ (م) إن هذه الحياة الواحدة على هذه الأرض يجب أن تكون على سنتها وما تصلح به من الضبط والإحكام، والجلب لها والدفع عنها والمحافظة عليها بوسائلها الدقيقة الموزونة المقدرة، والسهلة في عملها الصعبة في تدبيرها. فعلى نحو مما كانت الحياة في بطن الأم يجب أن نعيش في بطن الكون بحدود مرسومة وقواعد مهيأة وحيز معروف؛ وإلا بقيت حركات هذا الإنسان في معناها كحركات الجنين، يرتكض ليخرج عن قانونه. فإن استمر عمله ألقى به مسخاً مشوهاً من جسد كان يعمل في تنظيمه، أو قذف به ميتاً من جسم كان كل ما فيه يعمل لحياته وصيانته
هذا الجسم كله يشرع للجنين مادام فيه، وهذا الاجتماع كله يشرع للفرد مادام فيه؛ فكيف يكون أمرٌ من أمر إذا كان الجنين مجدداً لا يعجبه مثلاً وضع القلب ولا يرضيه عمل الأم، ولا يريد أن يكون مقيداً لأنه حر؟
أنظر إلى هذا الشرطي في هذا الشارع يضرب مقبلاً ليدبر ومدبراً ليقبل، وقد ألبسته

الحكومة ثياباً يتميز بها، وهي تتكلم لغة غير لغة الثياب وكأنها تقول: أيها الناس إن ههنا الإنسان الذي هو قانون دائماً، والذي هو قوة أبداً، والذي هو سجناً حيناً، والذي هو الموت إذا اقتضى الحال

أتحسب يا بني هذا الشرطي قائماً في هذا الشارع كجدران هذه المنازل؟ كلا يا بني. إنه واقف أيضاً في الإرادة الإنسانية وفي الحس البشري وفي العاطفة الحية. فكيف لا يمحوه المجددون مع أنه في ذاته إرغام بمعنى، وإكراه بمعنى غيره، وقيد في حالة، وبلاء في حالة أخرى؟

لكنه إرغام ليقع به التيسير، وإكراه لتتطلق به الرغبة، وقيد لتتمجد به الحرية؛ وكان هو نفسه بلاءً من ناحية ليكون هو نفسه عصمةً من الناحية التي تقابلها

يا بني! كل دين صالح، وكل فضيلة كريمة، وكل خلق طيب، كل شيء من ذلك إنما هو على طريق المصالح الإنسانية كهذا الشرطي بعينه؛ فإما تخريب العالم أيها المجددون . . . وإما تخريب مذهبكم

قال العجوز (ن): أنبحث عما نتسلط به أم نبحث عما يتسلط علينا. وهل نريد أن تكون غرائزنا أقوى منا وأشد، أو نكون نحن أشد منها وأقوى؟ هذه هي المسألة لا مسألة الجديد والقديم

فإن لم يكن هناك المثل الأعلى الذي يعظم بنا ونعظم به، فسد الحس وفسدت الحياة. وكل الأديان الصحيحة والأخلاق الفاضلة إن هي إلا وسائل هذا المثل الأعلى للسمو بالحياة في آمالها وغاياتها عن الحياة نفسها في وقائعها ومعانيها

قال المحدِّث: ورأيتني بين العجوزين كأني بين نابين؛ ولم أكن مجدداً على مذهب إبليس الذي رد على الله والملائكة وظن لحمقه أن قوة المنطق تغير ما لا يتغير.

فسكت حتى إذا فرغا من هذه الفلسفة قلت: والرحلة إلى سنة 1895؟

(لها بقية - طنطا)

مصطفى صادق الرافعي

تجربة

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

ماذا ترى يصنع رجل يعشق للمرة الأولى في حياة صاخبة مضطربة، ولكنها على كثرة ما جرب فيها خلت من الحب ونجت من زلزلته للنفس؟؟

عن هذا كان يسأل (ميم) - وحسبنا من اسمه حرف واحد - وهو جالس إلى مكتبه، والفتاة التي يحبها قبالته على الشرفة. والجديد من الأمر يتطلب جديداً من التصرف والتدبير، ولو كانت له خبرة بالحب، أو سبق له به عهد، لقاس حاضره على ماضيه، وأجراه في مجاريه. وغريب أن يتقضى شبابه وهو فارغ القلب، وأن يدركه الحب ويعمر فؤاده بعد أن شارف الكهولة ووقف على بابها، واخذ الأبيض يختلط بالأسود، وبدأ الزمن يرسم خطوطه!! وإن كان هو لا يحس شيئاً من ذلك ولا يباليه، ولا يعرف إلا أنه مازال في عنفوان الفتوة

وألقى القلم واضطجع وقال يناجي نفسه، وهو يضحك ساخراً: (هل أصنع كما يصنعون في هذه الروايات الكثيرة التي قرأتها؟ وعلى ذكر ذلك - ماذا ترى أبطال هذه الرواية يصنعون في حالات كهذه؟ لقد نسيت والله! فكأني ما قرأتها ولا وقعت عيني عليها. . . وهبني كنت أذكر ذلك فهل يصح في دنيا الحقيقة ما يصف الخيال؟)

واستطرد من هذا إلى القول بأن الروايات ليست - ولا يمكن أن تكون - خيالاً بحتاً، وشيئاً يخلقه الإنسان من لا شيء، ولا يحور فيه إلى أصل من حقائق الحياة، وأنكر قدرة الإنسان على هذا الخلق، وذهب إلى أن كل ما يسعه هو أن يلفق القصة من جملة ما شهد وجرب وسمع، وأن يكوّن الشخصيات من أشتات ما عرف، فليس القصص خيالاً، ولا ما تصفه محالاً، وإذن يكون تقليدها ميسوراً. . . أو دع كونه ميسوراً أو غير ميسور، وقل أنه لا يكون شططاً

ولكن القصص يعنى فيها وأضعها بترتيب الأحوال والمواقف على النحو الذي يؤثره) هو، والذي يراه أوفق لغايته، ومن عسى يرتب لي دنياي كما يرتب مؤلف القصة دنيا أبطاله؟؟

أم أستشير صديقاً مجرباً؟؟؟ ولكن هذا مخجل!! ثم أن العبرة بنوع استجابة الفرد لوقع

الحياة في نفسه؛ والاستجابة تختلف باختلاف الأفراد. والذي يفعله إنسان ما، في موقف ما، ليس من الحتم - ولا من المعقول - أن يفعله كل إنسان في الموقف عينه فالاستشارات عبث ولا خير فيها، ولا جدوى منها إلا الفضيحة. . . الفضيحة؟؟. نعم. أليس فضيحة أن تفتح قلبك لمخلوق غيرك، وأن تبيحه سرك، وتكشف له عن ضعفك، وتدع عينه ترى مقاتلك؟؟ ولكن هل معنى هذا أن الحب ضعف؟؟ نعم. لأن فيه إفناء شخصية في أخرى - إلى حد ما على الأقل - ولم أكن هكذا قبل أن أبتلى بهذا الحب. وأني الآن لأرى حياتي كلها رهناً بمخلوق آخر لا أعرفه ولا يعرفني. . . فكيف لا يكون هذا ضعفاً؟؟

وعلى ذكر ذلك من تكون هذه المحبوبة التي غيرتني وأورثتني هذه الهواجس والوساوس؟؟. وجعلت من نفسها المجهولة قطباً تدور عليه خواطري جميعاً في اليقظة والمنام؟. . .

واستغرب من نفسه أنه لا يعرفها، وأنه مع ذلك لا يعنى بسواها، في حي يعرف من إحصاء البوليس أن فيه مائتي قهوة ومائة وعشرين ألف نفس، أي دائرتين انتخابيتين. (ولو مات أهل الحي لما حزن عليهم، ولا أسى لهم، ولا أحس نقصاً أو خسارة، ولا أسف إلا على خلو الحي وخرابه وقعوده هو فيه وحده على تله! ولكنه لو علم أن هذه الفتاة جرح إصبعها أو أصابها زكام، أو وعك، لبات مسهّد القلب كاسف البال، بل لاسودت الدنيا في وجهه - ومع لك لا يعرفها!! لا اسمها. . ولا دينها. . ولا شيئاً عن قومها. . . وكل ما يعرف هو أنه يراها من نافذة غرفته وهو جالس إلى مكتبه يقرأ أو يكتب. . . وإنه ألف أن يبصرها، وصار على الأيام يطيل النظر إليها وهي واقفة على الشرفة العالية، حتى اعتاد أن يراها على الأيام، وحتى صارت نفسه تستوحش إذا دخلت أو غابت. وجعل يلاحظها بعد ذلك فأدهشه منها أنها لا تكاد تغادر بيتها، فما رآها خارجة إلا مرة واحدة في شهور طويلة - مع أمها فقد كانت تلك أمها بلا شك - وهي مع ذلك من السافرات!! وزاد دهشته أنه كان يراها في الأغلب جالسة في الشرفة وفي يدها كتاب. . . كتاب لا مجلة!!. ترى أي كتاب أو كتب تقرأ؟؟. لاشك أنها روايات. . وهل للفتيات صبر على غير ذلك؟؟. وللسن حكمها. . . وسنها الصغيرة تغريها ولاشك بإيثار القصص والروايات لأن حياتها جديدة فهي تروم أن تعرفها معرفتها؛ وتظن أن الروايات أخصر الطرق وأوجزها إلى هذه المعرفة. . . ثم أن الروايات تصف كل هو ما هو حبيب إلى الشباب وقريب من هواه

وصار يأنس بمنظرها، ويرتاح إذا بدت لناظره، ويشعر بالفراغ حوله - وفي نفسه - إذا خلا مكانها، أو لم تظهر على الشرفة أو من النافذة. وأدهى من ذلك أنه صار يحس من نفسه العجز عن العمل والتفكير إذا لم تأخذها عينه في محلها المألوف من الشرفة واستحيا أن يسأل عنها جارا، أو خادما، أو أحداً من الناس - وماذا عسى أن يقول لهؤلاء؟. . . وبأي شيء يسوغ السؤال؟؟

وفرك عينيه بأصابعه، وهو يدير هذا كله في نفسه، ثم أطبق جفونه وراح يحاول أن يحضرها لذهنه، كما تبدو له من النافذة أو الشرفة المألوفة،. . فلم يجد عناء في ذلك، فقد كانت الصورة مطبوعة على صدره. . . وذكر قول العقاد في قصيدة مرقصة له:

ذهبيّ الشعر ساجي ال ... طرف حلو اللفتات

فأما أنها ذهبية الشعر فنعم! وأما أنها ساجية الطرف فلا. . فإن في نظرتها - حتى على هذا البعد - لقوة، وإن كان لم ير أحلى من نظرتها ولا أسحر للب حين تبتسم، ويشرق وجهها الواضح الصبيح، وأنه ليراها الآن كما كانت يوم ضحكت وتثنت، وكانت معها أختها - لا بد أن تكون هذه أختها الكبرى فإن فيها منها مشابه. والأرجح أنها متزوجة فإنها لا تزور هذا البيت إلا غبّا - وتالله ما كان أحلاها يومئذ!! لقد كانت في ثوب وردي اللون محبوك، مفصل على قدها تفصيلاً يجلو محاسنها كلها ويعرض مفاتنها جميعاً. . . وكان نحرها يضيء - وثدياها الناهدان يبدوان من تحت الثوب بارزي الحلمتين. . . إيه ما أعظم فتنة هذا الجسم الغض الجديد الذي لم تبتذله السن، ولم يرهله الزواج. . . وكان شعرها الوحف الأثيث الناعم اللامع مرخي. . . وكان الضوء المراق عليه يخيل للناظر أن فيه نجوماً زهرا، أبهى وأسنى من نجوم السماء. . . وكان وجهها الدقيق المعارف. . . (يا ويلي من هذا الفم الذي لم يعرف الأصباغ، وهو مع ذلك يبدو لي كأنما غَذَتْهُ الورود) متهللاً. وقد لانت نظرتها القوية، وفقدت حدتها المألوفة، واعتاضت منها الرقة،

وبدا خداها كأنهما غلالتا ورد. . . آه. . ماذا يقول هذا الشاعر مهيار؟؟
!!آه على الرقة في خدودها ... لو أنها تسري إلى فؤادها
صحيح. . . . . وليت من يدري كيف فؤاد هذه الفتاة الرائعة الرقيقة الخدين اللينة النظرة حين يسرها شيء. . . . . أرقيق هو يا ترى كخديها؟؟ أم. . . كلا!! لا يمكن أن يكون إلا
رقيقاً!. ولكن لماذا؟؟. على كل حال لا يزال أوان السؤال بعيداً. . أوه بعيداً جداً. . وما حاجتي إلى الاطمئنان من هذه الناحية، ولا صلة هناك، ولا كلام، ولا حتى إشارة؟؟.
وقام يتمشى في الغرفة الواسعة المكظوظة بالرفوف والمقاعد وغير ذلك، وحدثته نفسه - وهي تعابثه - أن يركب الحياة بما يركبها به الشباب، فضحك وقال. . لم يكن باقياً إلا هذا. . أمسح لها شعري بكفي. . . . أو أعبث لها على مرأى منها بوردة أرجوانية (كتفاح خدها الأرجواني) كما يقول البحتري!!. أو أبعث إليها مع النسيم بقبلة. . . . أو هو هو هو!!.
وقهقه وهو يتخيل نفسه فاعلاً ما يفعل الشبان والأحداث. ثم أشعل سيجارة وارتمى على مقعد وثير وسأل نفسه: (أتراني أحتقر الشبان وأسخر مما يصنعون؟؟. وماذا أرى الحكمة والاتزان والوقار والاحتشام أجداني؟. . أو يمكن أن يجديني؟. . هه؟. ومع ذلك لم لا أفعل كما يفعل الشبان. . أتراني هرمت!. كلا!. فما جاوزت السابعة والثلاثين، وإن كان الكثير من شعري قد حال لونه، وإني لأقوى وأعظم جلدا على الحياة والكفاح من ابن عشرين. . . . ولكنها عادة الاحتشام - قبحها الله!
ولم يرقه أن يقطع نفسه حسرات هكذا، فقال. . لماذا أرخي لنفسي الطِوَلَ. . . وهي؟؟ أكبر الظن أنها لا تراني، ولا تعبأ بي إذا رأتني، ولا يرد ذكري على بالها، وإن كنت أراها أول ما يجري بخاطري في الصباح، وآخر شيء يجريه خاطري بالليل. . أفلا يحسن أن أكبح نفسي عن هوى عقيم؟؟ ولكن لماذا أدع العاطفة تستنفد نفسها. . لا مانع فيما أرى، لو أن من الممكن أن تستنفد نفسها. . . وهبها يمكن أن تفعل، فإني أخشى أن تورثني حسرات كثيرة. . . ولهفات ثقيلة. . والأرجح مع ذلك أن تعمق العاطفة مجراها في النفس وإن كان لا مدد لها من المحبوب. فإن فيها - بمجردها - للذة تترك المرء كالجمل حين يجتر ما في جوفه ويعيد مضغه مرة وأخرى. . وهل قتل المجنون وأمثاله من صرعى الهوى إلا هذه اللذة التي كانوا يجدونها في حبهم والتي كانت تغريهم بأن يجعلوا لها غذاء ومدداً من نفوسهم؟ . . .
وابتسم وهو يقول. . لست أحب أن أكون أحد هؤلاء المجانين الذين أتلفهم الحب وقتلهم العشق. . . فقد كانوا حقيقة مجانين. . . ولكن ليتني أعرف حيلة!! والبلاء أن حياة
المجتمع مازالت كما كانت، وإن كان النساء قد سفرن! ومن النادر جداً على الرغم من هذا السفور أن يتيسر التعارف في مجتمعات مختلطة. إذن لهان الأمر وأمكن السعي وقال وهو يضحك (لم يبق إلا السحر) ثم عبس ونهض وقال لنفسه إن التعبير بالسحر فيه تجوز كثير، ولكن في الوسع تغليب إرادة على إرادة، وأداء رسالة من نفس إلى نفس أخرى. . أعني أن الإيحاء حقيقة ثابتة لاشك فيها - نعم لا يشك فيها إلا جاهل - وفي مقدوري ولا ريب أن أوحي إلى هذه الفتاة العاطفة التي تخامر نفسي، وأن أبلغها رسالة قلبي، وأن أوقد في صدرها ناراً كالتي تتسعر في قلبي. . . أفعل كل ذلك بعيني. . . ألست قد أنمت مرة خادماً كان عندي وأمرته ألا يستيقظ إلا بعد صلاة الجمعة؟؟. ألست قد جربت فعل نظرتي في نساء كثيرات؟. ألم تصح إحداهن وقد أطلت التحديق في عينيها (حوّل عينك عني، فإني لا أطيق نظرتها وأحس أن رأسي يدور) ألم تصرخ إحدى قريباتي دون أن تحول عينها عني، لأني كنت أحدق في عينيها على غير قصد؟؟. فهذه قوة مجربة. . . قوة نفسية لاشك فيها. . وما أظن إلا أني قادر على أن أوحي إليها الحب. . وكل شيء بعد ذلك يهون. . نعم أن بيننا لبعد. . . ولكن ما قيمة هذا؟؟. أنها موجة نفسية أرسلها إليها، لا شرارة قصيرة. . . ولماذا يمكن إرسال موجة من آخر الدنيا، ولا يسهل إرسالها مسافة ثلاثين أو أربعين متراً؟؟
واقتنع بأن ذلك ميسور، فانشرح صدره، وأشرق وجهه، واعتزم أن يجري هذه التجربة وسأبلغ القارئ ما يكون - إذا كان شيء
إبراهيم عبد القادر المازني

من روائع عصر الأحياء
قصص الأيام العشرة - 2
بقلم جوفاني بوكاشيو
للأستاذ محمد عبد الله عنان
بقية ما نشر في العدد الماضي

يستطيع أولئك الذين قرءوا قصص بوكاشيو وألف ليلة وليلة، أن يجدوا بعض نواحي الشبه بين الأثرين، سواء في المادة أو الروح؛ ذلك أن قصص الأيام العشرة تفيض كقصص ألف ليلة وليلة بروح مادية قوامها السرور والمرح، والتوفر على استمراء متاع هذه الحياة بأي الوسائل؛ وتفيض أيضاً كألف ليلة وليلة بالمواقف الغرامية المدهشة المثيرة، أو المبتذلة أحياناً؛ ثم أن كلا الأثرين يرمي إلى غاية واحدة تقريباً، وهي مجالدة النوائب والنسيان والسلوى؛ ففي ألف ليلة وليلة نجد ملكاً نكب بخيانة زوجه، وانقلب إلى بغض النساء، يتسرى في كل ليلة بكراً ثم يقتلها في صباح اليوم الثاني، إلى أن يبعث إليه وزيره بابنته (شهرزاد)، فتحتال لتسلية الملك وتحويله عن فكرة الثأر من النساء، وإنقاذ نفسها وبنات جنسها، بأن تقص عليه في كل ليلة طرفاً من القصص الشائق حتى ألف ليلة وليلة؛ وفي الأيام العشرة نجد عشر سيدات وسادة يجتمعون أثناء الوباء المروع للترويح عن أنفسهم وتناسي ويلات الفناء والموت، بتبادل القصص الممتع

ولا نعني بذلك أن جوفاني بوكاشيو قد تأثر في كتابة قصصه بألف ليلة وليلة؛ ذلك أن هذه القصص الشهيرة لم تكن قد عرفت في الغرب في عصره؛ ولكنا نريد أن نقول فقط أنه يوجد بين الأثرين تماثل في الروح والطابع والغاية يرجع إلى تماثل في روح العصور الوسطى وفي روح مجتمعاتها

على أنه إذا كانت قصص ألف ليلة تمتاز أحياناً بخيالها المبدع، وفنها الممتع، وصورها الوصفية والاجتماعية الشائقة، فإن قصص الأيام العشرة تفوقها من الناحية الفنية في مواطن كثيرة، وتمتاز بالأخص بعبرها ومغازيها الدقيقة، وصورها الفكهة اللاذعة، ومع أنها تمتاز أيضاً بكثير من التنوع والتباين في التصوير والوصف، فإنها تمتاز في نفس الوقت بطابع من التناسق الممتع في الروح والأسلوب والتعبير

وقد رجع بوكاشيو في كتابة قصصه إلى مادة غزيرة من القصص القديم وقصص العصور الوسطى، وإلى بعض الحوادث الواقعية التي شهدها، وإلى بعض حوادث حياته ذاتها؛ ويرى بعض النقدة أن الفتيان الثلاثة الذين اتخذهم بوكاشيو أبطالاً لثلاثة من الأيام العشرة، إنما يمثلون ثلاث مراحل مختلفة من حياة بوكاشيو نفسه، وأن في قصصهم كثيراً مما اشتق من حياة بوكاشيو ذاتها

وبدأ بوكاشيو كتابة قصصه كما قدمنا، أيام عصف الوباء بمدينة فلورنس في ربيع سنة 1348، وأنجز الثلاثة أيام الأولى منها في مايو سنة 1349، وهو يومئذ بنابل، كما يستدل من خطاب الإهداء الذي يوجهه عن هذا القسم إلى صديقه الساندرو دي باردي التاجر الفلورنسي، وكان يقيم يومئذ في جايتا؛ وانتهى من كتابة مؤلفه في سنة 1353، أعني لخمسة أعوام من البدء فيه؛ وظهرت الطبعة الأولى من هذه المجموعة الخالدة في سنة 1492

وقصص الأيام العشرة تجري حوادثها في جميع المدن الإيطالية وفي بلاد بعيد أخرى مثل البرتغال أو إنكلترا والإسكندرية وآسيا الصغرى؛ وقد اختصت فلورنس موطن المؤلف؛ وكذلك نابل حيث عاش بوكاشيو مدى حين، بكثير منها؛ وفي كثير منها نجد صوراً ممتعة لمحاسن الطبيعة في تلك الأرجاء، ووصفاً شائقاً فكهاً لمجتمعات هذه العصور وخلالها ومثالبها

كذلك تقدم إلينا هذه القصص أبطالاً من كل صنف وضرب؛ فهنالك مجتمع العصور الوسطى بكل طوائفه وشخصياته، من سادة وفرسان وأحبار وقسس، وشعراء وفنانين، وصناع وعمال ولصوص، ونساء من كل ضرب؛ وهنالك شخصيات الطبقة العليا من ملوك وأمراء وسادة وملكات وأميرات وسيدات أنيقات من كل الطبقات، وهنالك طائفة كبيرة من ملوك وأمراء معينين معاصرين وغير معاصرين

ونجد مثل هذا التباين في موضوعات القصص؛ ونلاحظ أولاً أن القصص كلها بعيدة عن الإسهاب الممل، وقد صيغت في أحجام متقاربة، من خمس صفحات إلى عشرين؛ بيد

أن هذا الإيجاز في الحجم لم يحل دون حسن السبك، ففي كل قصة فكرة طريفة، وفي كل
نادرة فكهة، وحادثة مطربة. وهنالك تنوع ظريف في الحوادث والفكر؛ بيد أنه يلاحظ
أن القصص الغرامية تشغل أكبر حيز وتفوز بأكبر نصيب، وربما كانت تسعة أعشار
المجموعة كلها. وهنا تبدو براعة بوكاشيو وفنه بصورة بارزة؛ فهذه المجموعة الغرامية
الحافلة بعيدة عن التماثل الممل، وفي كل منها نجد مأساة أو مهزلة غرامية طريفة؛
وربما صيغ بعضها في أثواب مغرقة، وتضمنت فكراً أو مواقف مستحيلة، ولكنها على
العموم تنفث نفس السحر والمتاع
وهذا الأفق الغرامي الساحر هو الذي يسود قصص الأيام العشرة؛ وهنا يبدو بوكاشيو
في ذروة فنه وسحره؛ فالحب هو قوام المجتمع، وهو متاع الحياة، والحب يمد المرأة
والرجل معاً بكثير من البراعة والعزم والخيانة والشجاعة والكرم، والإقدام والغدر؛
وفي أحيان كثيرة يمزج بوكاشيو المأساة بالهزل والفكاهة؛ فهنا زوجة خؤون تدبر أن
يضرب زوجها في نفس حديقته من يد حبيبها، وتحمله على منازلته كعنوان على
الإخلاص والحب؛ وهنا طالب عاشق يسير طول الليل فوق الجليد جيئة وذهابا، بينا
تحدجه الحسناء وحبيبها باسمين من وراء النافذة؛ وهذا قس ساذج تستخدمه زوجة
عاشقة دون أن يدري في توثيق علائقها بحبيبها المنشود وتدبير وسائل التمتع بوصله؛
وهذه زوجة خبيثة تدبر لحبيبها الوصل في منزلها وفي فراشها، بينا زوجها يضرع إلى
ربه مستغفراً عن ذنوبه في مكان آخر من الدار؛ وهذا قس خبيث يفترس فتاة ساذجة
تحت ستار الوعظ والهداية. وهذه راهبة مضطرمة تحتل لاقتناص جنان الدير حتى
توقعه في شرك وصالها، وغير ذلك مما يضيق المقام عن ذكره
ومما يلاحظ بنوع خاص أن بوكاشيو يحمل على الأحبار والقسس بشدة، وينوه في كثير
من المواطن بأخلاقهم الفاسدة وشهواتهم الوضيعة، يسترونها تحت ثيابهم ومظاهر
ورعهم الغادرة؛ وإليك كيف يعرض بوكاشيو نظريته في خبث رجال الدين على لسان
بانفيلو أحد الفتيان الثلاثة إذ يقول:
(سيداتي الحسان، لقد خطر لي أن أقص عليكم حديثاً ضد أولئك الذين يسيئون إلينا
دائماً، دون أن نستطيع نحن الانتقام منهم؛ وأعني بذلك رجال الدين الذين أعلنوا حرباً
صليبية على زوجاتنا، والذين إذا ظفروا بواحدة منهن، تصوروا أنهم قد غنموا غفران
الذنب
والعقوبة؛ وفي ذلك يعجز المدنيون عن مقابلتهم بالمثل، وإن كانوا يصبون جام
انتقامهم على أمهات القسس وأخواتهم، وخليلاتهم، وبناتهم، ويطاردونهن بمثل
الحماسة التي يطارد بها القسس أزواجهم)
فيجيب زميله فيلوستراتو: (إن الحياة الفاسقة الدنسة التي يحياها رجال الدين، وهي
في كثير من نواحيها عنوان دائم للخبث، تقدم بكل سهولة فرصة لذوي العقول ليحملوا
عليها ويجرحونها)
ويقد إلينا بوكاشيو مجموعة متباينة من القسس الذين فاضت نفوسهم بأروع صنوف
الاجتراء والإثم، ويصور لنا خبائثهم ودسائسهم وتحيلهم على استباحة الأعراض بكل
الوسائل، واستتارهم في ذلك باسم الدين؛ كذلك يقدم إلينا طائفة من الراهبات اللائي
يضطرمن وراء جدران الدير توقاً وجوى، ويلتمسن تحقيق شهواتهن بأخس الوسائل؛
وفي هذه القصص الكنسية يبدو بوكاشيو في ذروة فنه وسخريته اللاذعة، ومع أنه يشتد
في حملته على الكنيسة وأحبارها، فإنه يحيط هذه الصورة الخبيثة بكثير من الدعابة
والمرح
وقد أثارت هذه القصص المثيرة سخط الكنيسة الكاثوليكية على الكتاب ومؤلفه،
فوضعته فيما بعد في قائمة الكتب المحظورة؛ ولكنها لما رأت بعد ذلك أن هذا الحظر
لم يحل دون ذيوع الكتاب، سمحت بظهوره في القرن السادس عشر في ثوب مهذب
رفع منه القسس والراهبات واستبدلوا في صلب القصص الأصلية بسيدات وسادة
وقد كتب بوكاشيو قصصه بكثير من الحرية والبساطة؛ وإذ كان معظمها يتحدث عن
الحب والوصل، فإن مؤلفها لم يحاول تحفظاً في وصف المناظر والصور، ولم يحاول
تكلفاً في اللفظ أو التعبير؛ وعلى ذلك فقد يبدو لنا أن قصص الأيام العشرة تخرج في
كثير من المواطن عن حدود الحياء والحشمة. والواقع أن بوكاشيو يحدثنا عن الحب

والوصل، وعن العلائق والشهوات الجنسية في كثير من البساطة والصراحة، ويقدم إلينا هذه الصور الغرامية المضطرمة عارية لا يسترها لفظ أو تحشم؛ ولكن هل يجوز لنا مع ذلك أن نعتبر قصص بوكاشيو أثراً خليعاً ينبو عن معيار الحياء والحشمة والخلق الرفيع؟ لقد وجهت هذه التهمة إلى قصص بوكاشيو منذ ظهورها، ومازالت توجه إليها في عصرنا؛ واضطر بوكاشيو نفسه أن يجيب عنها في خاتمة مجموعته، وأن يبرئ نفسه من قصد العبث
والإسفاف
يقول النقدة، لقد تحدث بوكشيو كثيراً عن الحب، وأسرف في ملق النساء واسترضائهن؛ ويجيب بوكاشيو، ولماذا لا؟ لقد ملق النساء أذهان عظام مثل جيدو كافالكانتي ودانتي الجييري، وألفوا في استرضائهن متعة وشرفاً
ويقولون أن بوكاشيو استباح لنفسه وصف المناظر الجنسية المثيرة، واستعمل ألفاظاً تنبو عن الحياء والحشمة؛ ويقول بوكاشيو إنه ينكر هذه التهمة، (لأنه لا يوجد ثمة شيء قبيح يحظر على إنسان ما، إذا استطاع أن يخرجه في صيغ مقبولة، وهذا ما يلوح أنه قد فعل بصورة مرضية)
ويقولون أن هذه القصص تثير فساداً وتحدث ضرراً؛ ويقول بوكاشيو، إن كل شيء في الوجود يمكن أن يحدث الخير والشر؛ فمن ذا الذي لا يعرف أن النبيذ وهو من أفضل مقومات الصحة، مضر بالمحمومين؟ وهل لنا أن نقول إنه ضار لأنه يؤذي المحمومين؟ ومن ذا الذي لا يعرف أن النار مفيدة بل ضرورية للإنسان؟ وهل لنا أن نقول أنها شر لأنها تحرق الدور والقرى والمدن؟ كذلك تكفل الأسلحة سعادة أولئك الذين يريدون العيش في سلام؛ ولكن الأسلحة كثيراً ما تودي بحياة الناس، لا لخبث في ذاتها، ولكن لخبث أولئك الذين يستعملونها. ثم يقول بوكاشيو: فإذا كان ثمة في الأيام العشرة قصص مثيرة أو خارجة، فإنه لا ضير من وجودها، ولم يكن في وسعي أن أكتب غير ما سمعت؛ ولا عصمة لإنسان؛ وفي الحقل النضر تنمو الأعشاب الضارة؛ ولما كنت أقصد أن أحدث فتيات الشعب، فإنه لم يكن ثمة داع للتكلف والبحث عن الصيغ والعبارات المنمقة
هكذا يعتذر بوكاشيو عما عسى أن يبدو في قصصه من خروج على حدود الحياء والحشمة؛ بيد أنه مهما كانت الملاحظات التي تبدى في هذا الشأن، فإنه لا ريب أن قصص بوكاشيو، تعتبر من أقيم الآثار العالمية وأبدعها وأمتعها
وقد كان لمجموعة الأيام العشرة أعظم الأثر في تطور النثر الإيطالي، وتطور فن القصص الأوربي بوجه عام؛ ومازالت آثار بوكاشيو تعتبر إلى جانب آثار دانتي وبترارك، قوام الأحياء الأوروبي، والصرح الأول في بعثه وازدهاره
(تم البحث - النقل ممنوع)
محمد عبد الله عنان
عَالَمُ الإيحاء
للأستاذ عبد الرحمن شكري
إذا مجد المنطق أمام الإنسان في الحياة نشأ على احترام المنطق إلى حد كبير، حتى ليعد العقل كأنه طاحونة منطق، وحتى يظن أن وسائل التأثير مقصورة على مقتضيات المنطق وأن لا إقناع إلا الإقناع المنطقي، ويخفى عنه أثر الإيحاء الذي يتخذ قوى النفس وميولها ونزعاتها وعواطفها وإحساسها وسائل يستخدمها بطرق تعجز أحياناً تتبع المنطق وتقصيه. وإذا اعتقد الإنسان أن الحياة مؤسسة على أسس من المنطق فحسب، وفاجأته بعكس هذا الاعتقاد إذا اختبرها، صعب وقع تلك الخبرة في نفسه. فإن تجاريب المرء في الحياة تعلمه أن الحياة ليست مؤسسة على الإقناع المنطقي فحسب، وأن المنطق نفسه يستخدم لكل غرض حتى غرض الإيحاء، وأن المنطق خليق أن يشبه بالخادم الذي يعمل في بعض البيوت فيغسل أماكن دورات المياه تارة، وتارة يطهي ويقدم الطعام للأسرة والزوار. والحقيقة هي أن للإيحاء أثراً كبيراً في الحياة حتى أنه ليسيطر على المنطق في بعض الأحايين ويستخدمه لأغراضه، وفي بعض الأحايين يغري المرء بعكس ما يغري به الإقناع المنطقي
وقد يعتمد المرء على مقتضيات المنطق لنيل العدل بين الناس في الحياة أو ما يراه عدلاً؛ فإذا لم ينله انهارت دنياه ودهش إذا لم يكن عالماً أن وراء حياة المنطق حياة

أخرى تدين للإيحاء، وأن عليه أن يحدد موقفه في عالم الإيحاء هذا، وأن يتخذ عدته له وأن يبحث مخبآته وأسراره، فإن قيمة الناس والقضايا في ذلك العالم ليست إلا بقدر ما تستطيع أن تستخدمه من وسائل الإيحاء ومؤثراته. ولا يخلو أحد في الحياة من الخضوع لعوامل الإيحاء والتأثر بها سواء في ذلك التاجر والموظف

يحكى أن أشعب الثقفي قد أولع الغلمان بمعاكسته يوماً فقال لهم ليصرفهم عنه: إن في شارع كيت وكيت أفراح عرس تنثر فيها الدنانير على الجمهور؛ فصدق الغلمان قوله وتركوه وجروا إلى المكان الذي وصفه في قوله، فلما رأى أشعب تصديق الغلمان أغراه ذلك وجرى خلفهم إلى المكان الذي وصفه في قصته التي لفقها كي يصرف الغلمان عنه. والناس في الحياة على شاكلة أشعب فيما يشيعون من الخير والشر عن أنفسهم أو عن

غيرهم، يقولون ما ليس بحق ثم يصدقونه إذا رأوا تصديق الناس له، وهذا بسبب تأثير الإيحاء في أنفسهم. ولا يستطيع المرء أن يفهم الناس إلا إذا فهم هذا الإيحاء، وإلا إذا فهم أن النفس قد تجمع بين النقيضين في وقت واحد، فتجمع مثلاً بين أثر الإيحاء وبين الدليل المنطقي الذي ينقضه

خذ مثلاً آخر: يقول لك علي أن أحمد قد هجاك، وأنت تعرف أن علياً كاذب فيما نقل عن أحمد، ولكن من المستطاع أن تجمع في نفسك بين تكذيب علي وبين الامتعاض من أحمد الذي تعرف براءته. والامتعاض هذا من أثر الإيحاء

والإنسان يستطيع أن ينقل الكلام المحكي من عالم المنقول إلى عالم المدرك بالحس بسبب أثر الإيحاء أيضاً، حتى أنه لو قيل لجماعة أن إنساناً ينظر إليهم شزراً لم تعدم بينهم من يرى ذلك أو يظن أنه يرى ذلك وإن لم يحدث؛ وبعض الناس أكثر تأثراً بالإيحاء من غيرهم. وقد حكي أن بعض فقراء الهنود يرمون بحبل إلى السماء فيظل ممدداً حتى يستطيع غلام أن يصعد إلى طرفه الأعلى؛ وفسر بعض الكتاب هذه القصة بأنها من أثر الإيحاء في نفوس بعض النظارة، وبسبب أن المرء ينقل الكلام المنقول المحكي إلى عالم حسه فتنشأ دعوى المشاهدة. وهذه الصفة في الإنسان كثيراً ما تخدعه ويخدع بها غيره من الناس في أمور كثيرة من أمور الحياة. وقد ينخدع بها ويصدقها وهو يعرف أنها وهم؛ وقد يجمع بين تصديقها وتكذيبها في نفسه في وقت واحد

ويعتقد كثيرون أن الإيحاء يؤثر في الحيوان أثره في الإنسان. ومن المشاهد أن احساسات الإنسان من ذعر أو حب أو فرح أو خوف قد تنتقل إلى الكلاب مثلاً عن طريق الإيحاء. وقد بالغ بعض الناس فادعى أن أثر الإيحاء قد ينتقل إلى الجماد أيضاً. وعلل إسقاط كهنة زنوج أواسط أفريقية الأمطار بهذا الأثر. والعلم لله في هذا الأمر وترى الجهال في الحياة يستخدمون وسائل الإيحاء لمنفعة النفس أو منفعة الصديق ومضرة العدو بطرق منظمة تحسبها نتيجة دراسة الإيحاء والبحث في علم النفس، وما هي بنتيجة دراسة وعلم، ولكنها السليقة التي تبصر الإنسان بوسائل الإيحاء. ولو علم الصائلون بإيحائهم المقتدرون به الجالبون لأنفسهم ولأودائهم به الخير أن بين العامة من لا يقل قدرة عن الخاصة في استخدام الإيحاء ما افتخروا بمهارتهم في استخدام وسائل الإيحاء ولا

عدوها من دلائل العقل والحكمة، ولا حسبوا أنهم فازوا في الحياة بهمها، ولو علم العقلاء الحكماء أن وسائل الإيحاء أقرب إلى النجاح من وسائل العقل، وأن الإيحاء يستمد من السليقة ما غالوا بعقلهم وحكمتهم كل المغالاة، ولا حزنوا إذا أبصروا انخذال وسائل العقل وانهزامها أمام وسائل الإيحاء

والتأثر بالإيحاء من صفات القطعان، سواء القطعان البهيمية والقطعان البشرية؛ فإذا أحدثت بهيمة في قطيع صوتاً أو اتخذت طريقاً تابعتها بهائم القطيع. وهذا هو ما يحدث أيضاً في القطيع الإنساني بسبب أثر الإيحاء والمحاكاة التي هي من أثر الإيحاء. والقطيع البشري أكثر تأثراً به بسبب إحساسه وخياله الناميين. والإيحاء قد يكون في النوم أو في اليقظة، وكثيراً ما كان يعتمد السحرة على الإيحاء وأثره في النفس، وتأثر الجسم بما تعتقده النفس

وقد تتذبذب وتتحول نفوس الناس ساعة بعد ساعة، أو يوماً بعد يوم تذبذباً لا حد له في الأمور اليومية والاحساسات المتغيرة العارضة بسبب اختلاف أنواع الإيحاء

ومراميه، حتى ليشبه تذبذبهم تذبذب السراب أو ذرات الهباء في أشعة الشمس، ولكنهم لا تأخذهم الدهشة من أنفسهم لأنهم لا يفكرون في أنفسهم ولسرعة التذبذب كما لا تحس دورة الأرض، ولأنهم ثابتون على بعض عقائد ومبادئ عامة لا مناص لهم من الثبات عليها، فتلهيهم عن تذبذبهم المستمر بسبب اختلاف نزعات الإيحاء، والتذبذب النفساني ينشأ عنه تذبذب جثماني لاختلاف حركات الوجه والجسم حسب الأهواء والميول والنزعات النفسية. والبيع يشبه الاحتيال من ناحية الاعتماد على الإيحاء إلى حد كبير، وإن اختلفا فيما عدا ذلك، ويسمي الناس وسائل البيع والاحتيال التي تعتمد على الإيحاء الطريقة الأمريكية في البيع، والطريقة الأمريكية في الاحتيال والنصب، وهي طريقة شائعة في النفوس عامة وفي كل أمر من أمور الحياة من تجارة أو مهنة أو صداقة أو محبة أو عداوة، وإنما تختلف باختلاف النفوس ولا تمنع من اقترانها بنصيب من الفضيلة أو الصدق أو النزاهة أيضاً، لأن النفس تجمع بين النقيضين. ويستخدم الإيحاء كثيراً في الإعلانات عن العقاقير والكتب والمؤلفات وغيرها ومما يزيد الإيحاء قوة أن المتأثر به الذي نقل أثر الإيحاء إلى عالم حسه ومشاهداته كما أوضحنا يصبح شاهداً يستشهد به صاحب الإيحاء كأن شهادته ليست نتيجة أثر إيحائه، إذ المتأثر بالإيحاء بعد أن ينقله إلى عالم حسه ويدعي أنه من أثر مشاهدته ومن أثر اقتناع حواسه ينأى بنفسه ويترفع عن أن يكون ذنباً لصاحب الإيحاء تابعاً له، فيدعي الاستقلال في الرأي والمشاهدة، حتى لقد يخدع صاحب الإيحاء، فيتأثر به صاحب الإيحاء، ويتناسى أن رأيه من أثر إيحائه

ولقد أتقنت وسائل الإيحاء للإعلان عن ممثلي وممثلات الصور المتحركة، كما أتقنت وسائل الإيحاء عندما تنشر دولة الدعوة العالمية ضد دولة تعاديها أو تحاربها والإيحاء قد يطرد في شكل سلسلة من الحلقات من إنسان إلى ثان ثم إلى ثالث ورابع الخ، حتى يختفي مصدر الإيحاء وأوله ومنشؤه. وإذا كان إيحاء المرء لغيره سهلاً ميسوراً فإيحاؤه لنفسه أسهل وأيسر، لأنه أملك لها؛ وقد يفطن إلى أن إيحاءه لنفسه مغالطة، ولكنه يقدس تلك المغالطة كما يقدسها لو كانت من أثر المنطق والإقناع المنطقي، بل قد يقدسها أكثر من تقديس ذلك الإقناع، فترى أن وراء هذا العالم المادي الظاهر، ووراء ما يبحثه به الباحث من منطق يوجد عالم آخر حقيق أن يسمى عالم الإيحاء

عبد الرحمن شكري

من الموضوعات التي نالت الجائزة في المباراة الأدبية

التربية الوطنية الاستقلالية وأثرها في بناء الأمة

للأستاذ محمد عبد الباري

ومع أني لست من القائلين بالفصل التام بين السلطات، فإني لا أجد في سلوك القاضي هذا مأخذاً حتى ممن يقولون بالفصل التام. فتصرف القاضي على النحو الذي ذكرت يمكن حمله على حق إبداء الرأي بكافة الوسائل باعتباره عضواً ممتازاً، بنوع ثقافته وبخبرته، من أعضاء الجماعة التي يعمل فيها ولها، وبهذا الوصف لا يكون تصرفه تدخلاً من السلطة القضائية في شؤون السلطة التشريعية

ومن أدق عمل القاضي حكمه فيما يختص بعلاقة الحكام بالمحكومين. ففي هذا المجال بخاصة تظهر قيمة الاستقلال والإقدام والكياسة. وبديهي أن القاضي المقدر لمركزه لا يتردد في القضاء بما تمليه روح القانون والعدالة. لا يعمل بغير الواجب إذا كان حراً مستقلاً. فالكل أمامه سواء. إن القاضي النزيه المقدام يبعث في الجماعة الشعور بأن الكل في حماية القانون، وهذا الشعور، يدعمه الواقع، يعين كثيراً على حرية إبداء الرأي وحرية التصرف ومن ثم يؤدي إلى خير المجموع

جـ - وليست التربية الاستقلالية أقل أثراً في الشؤون الإدارية. ففي البيئات الحرة المستقلة يعمل الصغير والكبير بما تقتضيه المصلحة العامة ويوحي به الضمير الحر. يقترن الإحساس بالكرامة باستشعار المسؤولية فلا يخشى المرؤوس أن يبت في الأمر أو يلقي بالرأي، ولا يشمئز الرئيس من قبول ملاحظات المرؤوس والعمل بها إذا

ما تبين وجه الصواب فيها. المستقل لا يصطنع الرياء والملق؛ ومهما صغر مركزه الاجتماعي فهو في نفسه كبير؛ والواثق من نفسه يبرم الأمور مادامت في متناول يده ولا يؤجل ولا يتهرب. هذا إذا كان مرؤوساً، وإذا كان رئيساً فإنه لا يرى في مرؤوسه الحر شذوذاً أو غروراً فيغضي عنه، بل يرى فيه كفاية وإقداماً فيقبل عليه. يقومه إذا أخطأ ويشجعه إذا أصاب،

ويقدره إذا أجاد. بذا تسير أداة الحكومة بلا إبطاء أو عوج، وتقضى مصالح الناس بلا إرجاء أو إهمال، لأن كلاً يحتمل نصيبه ويقوم بواجبه

على أنه مما يقوم سبل الإدارة ويوجهها جادة الحق سلوك أصحاب الحاجة أنفسهم.

ففي البيئات الحرة يستمسك المرء بحقه، ولا يرى في عمال الإدارة طبقة مميزة عليه، ولا يعتبر الالتجاء إليهم لقضاء مصالحه استجداء أو استعانة لم يؤد ثمنها. بل يرى أن من حقه طلب ما يطلب في حدود القانون، ومن واجب عمال الإدارة خدمة الناس

خاصتهم وعامتهم في هذه الحدود، قياماً بواجبهم وأداء لحقوق الغير عليهم. أما استخذاء الشعب واستكانته إزاء تصرف غير كريم من أحد عمال الإدارة فإنه يغري من وهنت أخلاقهم بظلمة وإهمال شؤونه من جهة ويشجعهم على التواني والعدوان بصفة عامة من جهة أخرى

التربية الاستقلالية كما قلت تنمي في الفرد صفتي الثقة بالنفس والإقدام. ولهما أهميتهما العظمى في الوسط الإداري. فالإدارة لا تستمد قوتها واستقامتها من النظم الموضوعة فقط، بل من شخصية منفذي القوانين والنظم. فهم يطبقونها ويفسرونها للخير والشر، كبيرهم وصغيرهم كل بنسبة نفوذه وقوة شخصيته. والمقدام لا يتهيب طلب الإصلاح وإن صغر مركزه وضاق نطاق مسؤوليته. ولكنه يقدم غير هياب ولا وجل فيكون أكثر إنتاجاً وأعظم للجماعة خدمة

وهنا لا أجد مندوحة، اتباعاً لمنهاجي في البحث، عن ضرب مثل برجل الإدارة ذي الشخصية والإقدام والإحساس بالواجب

صدر قانون محاكم الأخطاط سنة 1912، ولاحظ أحد كتاب المحاكم الجزئية الأهلية بينما كان يفتش أعمال بعض محاكم الأخطاط لسنة 1922، أن بمحكمة خط العطف

قضايا مدنية عظيمة القيمة تحكم فيها المحكمة حكماً نهائياً. وهاله كثرة القضايا، وخشي أن يكون في الأمر غبناً على الفلاح بحرمانه حق الطعن في الحكم، وغبناً على الخزانة العامة بتحصيلها رسماً مخفضاً. ولما ناقش الكاتب المختص أجابه هذا بأنه يتبع نص القانون القاضي بأن محكمة الخط تختص بالحكم نهائياً في المنازعات التي يتفق طرفا الخصومة على أن تنظرها

وفاتح رئيسه القاضي الجزئي فنصحه بأن يلزم حدوده فهذا بحث لا يدخل ضمن عمله الكتابي. لكن الفتى كان حساساً بواجبه فلم يقنع بهذا. وبحث فهداه البحث إلى مخرج وهو أن الاتفاق في مثل هذه الحالة التي كان يعالجها ضد النظام العام، فهو باطل لهذا السبب. ذلك أن المدعي في تلك القضايا كان مقيماً بالقاهرة ومن كبار تجارها. وفعلاً

كتب مذكرة برأيه هذا وأبلغه رأساً لرياسة محكمة الإسكندرية. وهذه بدورها أبلغته لوزارة الحقانية. وما كان أشد سرور صاحبنا لما وصلته بعد قليل من الزمن تعليمات عامة أرسلت بها وزارة الحقانية للمحاكم تقضي بأن مثل الاتفاق المشار إليه باطل.

وهكذا أنتج إحساس كاتب بسيط تعديلاً في سير المحاكم في مسألة فيها شيء من الخطورة، بعد أن سارت عشر سنين على عكس ما ينبغي أن تسير في هذه النقطة ذاك الموظف عينه التحق بمصلحة أخرى وكانت الجهة التي يعمل بها تتلقى تعليماتها

من وزارة الداخلية. وحدث أن أرسلت الوزارة تعليمات فيما يتعلق بمحاكمة أكبر طائفة من موظفي مصلحته. ورأى هو أن التعليمات لا تتفق مع صريح نص اللائحة المعمول بها. وأنها فوق ذلك تحرم طائفة كبيرة من ضمان هام. فاعترض في لطف بأنه مع وجود النص الصريح كيف تطبق تعليمات الوزارة بغير أن تعدل اللائحة طبقاً للقانون. ولكن الوزارة لم تأخذ برأيه. فترقب فرصة ملائمة، لاعتقاده أنه يصعب أن

تعدل الوزارة عن رأي بناء على ملاحظات موظف بسيط خارج الوزارة؛ ثم كتب اقتراحاً بصورة أخرى وأبلغه الوزارة فشجعها على تعديل التعليمات بما يطابق اللائحة دون أن يكون في ذلك حرج. وفعلاً عدلت الوزارة التعليمات

ولكن من الحق أن نذكر أن هذا الموظف لا يجد عمله هيناً دائماً، بل كثيراً ما أوذي

لتمسكه برأيه وعدم تقيده بحرف التعليمات دون روحها. بل أحياناً يتعرض للجزاء بسبب رفضه التقيد بلفظ التعليمات المالية إذا كان تنفيذ روحها يحقق مصلحة مالية للهيئة التي يعمل بها ويتمشى مع المنطق، ولا تتعرض معه المصلحة لنتائج إجراء غير عادل

هاتان واقعتان من الأمور البسيطة. ومن الممكن تصور حالات يؤدي استمساك أحد عمال الإدارة برأيه فيها إلى تلافي قرار ضار أو إلى توفير أموال طائلة، أو اتقاء عمل يحمل الجماعة مسؤوليات جساماً

لكن جل صغار موظفي الإدارة عندنا، بل كبارهم، لا يكتفون بموافقة رئيسهم على ما يقول

أو يطلب، وإن خالف القانون والمصلحة، بل يكادون يسبقون رؤساءهم إلى ما يظنون أنه يرضيهم غير مبالين بالقانون أو الحق أو العدل، وفاتهم أن الرئيس إذا عرف الأمور كما ينبغي، قد لا يتمسك بالرأي. وغاب عنهم أن للجماعة الذين يعملون لحسابها حقوقاً يجب رعايتها، وأن لأنفسهم حقوقاً تقضي بعدم امتهانها بتزويق الباطل وتحويلها إلى أداة تصدع بما تؤمر ولا إرادة لها

هذه الظاهرة المحزنة دليل على ضعف التربية الاستقلالية. فمن واجب جميع المصلحين أن يعملوا على القضاء عليها بعدم تشجيع المرائين والمتملقين، وبتقدير العاملين المخلصين للواجب وللحق والعدل. أما أبناء اليوم رجال المستقبل فيجب عدم ادخار شيء في سبيل إنشائهم على حرية الرأي واستقلال الفكر والإقدام والشجاعة من جهة، وعلى بعض الطغيان والصلف والتعصب للذات من جهة أخر

(البقية في العدد القادم)

محمد عبد الباري

عين جالوت

للأستاذ عبد الله مخلص

أذكرنا الأستاذ الألمعي محمد فريد أبو حديد بوقعة عين جالوت بين المصريين والتتار، ووقفة الأولين فيها موقف الذائدين عن حياض الإسلام الذابين عن كيانه

وما كان الإسلام لينسى لمصر ذلك اليوم الأغر المجلل الذي دفعت فيه ذلك السيل المتدافع من التتار وردتهم على أعقابهم يتعثرون في أذيال الهزيمة والخسران، ورفعت فيه نير التتار عن أعناق المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، في يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر رمضان لسنة 658هـ (1260م)

موقف المسلمين الأول في عين جالوت

وللمسلمين في عين جالوت مثل هذا الموقف المشرف سبق موقفهم الثاني بنحو ثمانين سنة، فقد بلغ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب اجتماع الفرنجة في قرية صفورية ورحيلهم إلى قرية الفولة فسار إليهم يطلب حربهم، وقتل منهم مقتلة عظيمة، بينا كان ينضم بعضهم إلى بعض يحمي راجلهم فارسهم، وساروا حتى جاءوا عين جالوت ونزلوا عليها، ونزل السلطان حولهم، والقتل والجرح يعمل فيهم ليخرجوا إلى المصاف فلم يفعلوا خوفاً من المسلمين؛ وكان ذلك أيضاً في يوم الجمعة السابع عشر من شهر جمادى الآخرة سنة 579هـ 1183م كأن الله اختص تلك الليلة الغراء واليوم الأزهر بالنصر

عين جالوت في التوراة

وعين جالوت هذه هي المذكورة في التوراة في سفر صموئيل الأول في الإصحاح 1: 29 باسم عين يزرعيل التي نزل عليها شاول بجيشه في الحرب التي قامت سوقها بين الفلسطينيين والإسرائيليين وأسفرت عن انتحار شاول المذكور بإلقاء نفسه على سيفه والقضاء بهذه الصورة على حياته. ومات معه في هذه الحرب بنوه الثلاثة وحامل سلاحه وجميع رجاله

وهي أيضاً عين حرود المذكورة في سفر القضاة في الإصحاح 1: 7 - 8 ومنها شرب جيش جدعون بن يواش المعروف أيضاً باسم يربعل عند نزوله لحرب المديانيين.

وللتوفيق بين رواية القرآن المجيد عن هذه الموقعة أنقل للقارئ الكريم قبل ذكرها رواية التوراة في الإصحاح المذكور وهذه هي:

وقال الرب لجدعون كل من يلغ بلسانه من الماء كما يلغ الكلب فأوقفه حده، وكذا)

كل من جثا على ركبتيه للشرب. وكان عدد الذين ولغوا بيدهم إلى فمهم ثلاثمائة رجل.
وأما باقي الشعب جميعاً فجثوا على ركبهم لشرب الماء. فقال الرب لجدعون بالثلاثمائة الرجل الذين ولغوا أخلصكم وأدفع المديانيين ليدك. وأما سائر الشعب فليذهبوا كل واحد إلى مكانه)
إلى آخر ما جاء في الإصحاح المذكور الذي ينتهي بخبر انتصار جيش جدعون وفرار المديانيين ومتابعة الإسرائيليين لهم ومطاردتهم
جالوت في القرآن المجيد
وهذه آيات بينات من الذكر الحكيم عن جالوت من سورة البقرة:
(فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُم بنَهرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنيِّ، وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فإنَّهُ مِنِّي، إلاَّ مَنِ اغْتَرفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ، فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ، فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ، قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُو اللهِ كَم مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ واللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (آية 249) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى القَوْمِ الكافِرِينَ (250)
فَهزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ، وَقتَلَ دَاوُود جَالُوتُ وَآتَاهُ اللهُ المُلْكَ وَالحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ، وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفسَدتِ الأَرْض، وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمينَ (251)
تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ (252)
قرية جالوت
ولنذكر صفة قرية عين جالوت في القديم والحديث: قال ياقوت الحموي في معجم البلدان: (عين جالوت اسم أعجمي لا ينصرف، وهي بليدة لطيفة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين كان الروم قد استولت عليها مدة ثم استنقذها منهم صلاح الدين الملك الناصر يوسف بن أيوب سنة 579)
قلنا وقد غشيت عين الجالوت غير مرة مع نفر من موظفي الحكومة العثمانية في قضاء جينين من أعمال نابلس حين كنت في عدادهم، وكنا نذهب إليها أحياناً للنزهة وقضاء يوم العطلة، وكان الماء يتفجر أمامنا من سفح الجبل فيحيط بالمصطبة التي جلسنا عليها من جميع جوانبها ثم ينساب في منحدر يصل إلى مدينة بيسان ويسقي في طريقه الغلال والبقول
وليست عين الجالوت من العيون الصغيرة، بل هي نهر صغير يقال له نهر الجالوت؛ يحاذي سفح جبل قامت عليه بعض القرى والمزارع مثل زرعين ونورس وغيرهما؛ ويقال لهذا الجبل جبل الدحى وبين هذا الجبل وجبل الطور المقابل له في الناحية الشمالية مرج ابن عامر المعروف بوادي يزرعيل كما يعرف جبل الطور بجبل تابور في التوراة
أما اليوم فإن هذه القرية قد أصبحت ملكاً لليهود يتصرفون فيها كيف يشاءون، فقد انتقلت ملكيتها من أصحابها الأصليين العرب إليهم في السنين الأخيرة بعد أن وعدتهم الحكومة البريطانية بلسان وزيرها بلفور المشهور بإنشاء وطن قومي لهم في فلسطين ومكنت لهم في أرضها، وهم كل يوم يقتنصون (بليدة لطيفة) من بلدان فلسطين فيشردون أهلها تحت كل كوكب، ويبنون وطنهم العتيد على أنقاض الإسلام وتراثه الخالد فيغيرون معالم البلاد ويردونها إلى أصولها
هذه عين جالوت التي حمت فيها مصر الإسلام والمدنية والإنسانية قبل سبعة قرون - كما قال الأستاذ أبو حديد - تعود فتتسمى باسمها العبري القديم عين حرود، ويسكنها شذاذ الآفاق من اليهود
وفيها اليوم بحسب آخر إحصاء لحكومة فلسطين 483 نسمة يشغلون 135 بيتاً
ويا ليت أن المصيبة اقتصرت على ضياع عين الجالوت فقط من العرب، بل إنها تعدتها إلى أكثر القرى الآهلة في ذلك الوادي الممرع، وأصبح الباقي القليل عرضة للضياع والانتقال، إلا إذا أراد الله بالمسلمين والعرب خيراً، ودفع بالحكومات الإسلامية والشعوب العربية إلى الدفاع عن هذه الأرض المقدسة التي أسرى الله بعبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إليها، وجعلها قبل ذلك موطن أخيه

عيسى بن مريم عليه السلام، إذ ولد بها ودعا إلى عبادة الله في أرجائها وأنحائها، ورفع إلى الله منها
قلنا ليس لمعضلة فلسطين ووقعتها من دون الله كاشفة. أما الدول الإسلامية فمن واجبها أن تحمي المقدسات في بلاد فيها أولى القبلتين، وثاني البيتين، وثالث الحرمين.
أما الشعوب العربية فمن مصلحتها أن تستملك وتتاجر وتسكن وتتوالد في بلاد هي همزة الوصل بين الغرب والشرق، وخط الاتصال بين آسيا وأفريقية، وباب جزيرة العرب التي أخذ قطانها يحبون كما يحبو الطفل لرضيع ويحاولون الوقوف على أرجلهم
فهل تتحقق الأحلام، وتنقلب الآلام إلى آمال قبل استفحال الغزوة اليهودية المحكمة بين سمع الدولة البريطانية وبصرها، بل تحت حرابها وبنادقها ورشاشاتها التي جعلتها حزباً لليهود وحرباً على العرب؟ ولله الأمر من قبل ومن بعد
(حيفا)
عبد الله مخلص
من أدبنا المجهول - شاعر يرثي ولده بديوان
اقتراح القريح واجتراح الجريح
لأبي الحسن علي الحصري
بقلم الأديب السيد أحمد صقر
(للأستاذ الزيات عزاء وسلوة)
من أغرب الظواهر في الأدب العربي - إن لم يكن في الغربي - أن يرثي شاعر ولده الصغير بديوان كبير، ثم يظل مجهولاً طيلة ثمانية قرون ونصف قرن، لم يحاول أحد خلالها نشره أو التعريف به
ومازالت خزائن الأدب العربي ملآى بالآثار الرائعة التي خلفها لنا الأجداد تجاذب الأحداث أسباب البقاء، حتى إذا ما صرعها الزمن وقفنا على أطلالها نندبها ونبكيها، ونقول كان لنا وكان. . .
من تلك النفائس المشرفة على الفناء ديوان فذ في بابه، غريب في اسمه وموضوعه، نظمه أبو الحسن الحصري صاحب القصيدة المشهورة: يا ليل الصب متى غده؟ سماه اقتراح القريح واجتراح الجريح وكل قصائده في رثاء ابنه الوحيد عبد الغني؛ رزقه وقد بلغ من الكبر عتياً، ورزئه وقد أتم التاسعة من عمره
وكان موته بالنزيف: فسالت حشاشة نفسه من أنفه، وفي ذلك قوله:
لست أنسى مقامه ومقامي ... وكلانا مثل القتيل خضيبا
أنفه ينثر العقيق وعيني ... تنثر الدمع بالعقيق مشوبا
ليس للحصري غير هذا الديوان على كثرة شعره، ووفرة أدبه، يدلنا على ذلك قوله في مقدمة الكتاب: (والقرآن شعاري، ولذلك لم أجمع أشعاري، سحرت بها العقول فحبذتها، ووراء ظهري نبذتها، تركتها لمن يعيها، فيسرقها أو يدعيها، يرثني بغير نسب، ويملكها بغير نشب، حاشا ما في كتابي هذا)
لم يطبع هذا الكتاب ولم يشتهر أمره بين الأدباء، ولم يجر ذكره على أسلات أقلام المؤرخين، ولعل ذلك راجع إلى ندرة وجوده، وقلة ذيوعه. . .
في دار الكتب المصرية نسخة فريدة من هذا الديوان النفيس مخطوطة بخط معتاد فرغ ناسخها من نسخها في سادس ربيع الأول سنة سبع وستمائة، عدد صفحاتها 262 من القطع الكبير. بها خروم وخروق، وآثار عرق لا تمكن القارئ من متابعة قراءته
قدم الناظم بين يدي ديوانه ثلاث خطب، أولاها مهملة الحروف، قد بدأها بقوله: (الحمد لله ملك الملك ولا أمد، وممسك السماء ولا عمد، سمكها فأطلع مهلها، وعلم آدم الأسماء كلها، ووعد لأعمال الطاعة، وواعد لأهوال الساعة، لا أمر إلا أحكمه، ولا مراد إلا حكمه، لا إله إلا هو إله واحد لا ولد له ولا والد، أحمده لآلاء أولاها، وأدعوه ملك الأملاك ومولاها) الخ وهي تملأ عشر صفحات، وقد عقبها بقوله: (نثرت فأبلغت، ونظمت فتفننت. وهذه الخطبة على بلاغتها، وإبداع صياغتها حليتها من بدر بحري ملقوط، وأخليتها من كل حرف منقوط، وأردت أن أشفعها بأخرى منقوطة الحروف، فوجدتني أخرج فيها عن الرسم المعروف، إذ استفتاح الخطب بحمد الله والثناء عليه، وذلك في المنقوطة لا سبيل إليه؛ غير أني اختصرت فأثبت منها ملحا في لمح، ورب دليل في قليل، ورب عثار في إكثار). ويلي هذا التعقيب الخطبة الثانية وأولها: بثثت

بني الخ وهي تقع في ثلاث صفحات. وبعدها الخطبة الثالثة وهي أهمها من الوجهة التاريخية والأدبية. وهي في 29 صفحة. وقد أحببت أن أنقل لك منها شذرات لتعرف قصة الرجل وعقله وتفكيره وأسلوبه في النثر

قال بعد كلام طويل لا وحدة تجمعه، ولا سبب يربطه: (ولما أنقض ظهري، ما وزرت في سري وجهري، وهدم الموت في ابني، ما كنت من الأمل أبني، سألت الله له الانتجاب، فقال لا بد أن تجاب، وأنجبه طفلاً، وأتاني به كفلاً، فنمى مهذباً في مهده، ومازال ينمى بعهده، حتى أكمل تسعة، ورامت سعيه الكبار فلم تسعه. كان يروق هلالاً، ويشوق زلالاً، فقالوا يافعك نافعك، وقال الله بل هو شافعك. أعطانيه بفضله، وأخذه بعدله، فجرحتني أنياب النوائب، وقرحتني أوصاب المصائب، نثرت شاكياً ما اجترحت إلى فاطري، ونظمت باكياً ما اقترحت على خاطري، وقلت عسى الله أن يرحم الناظم الناثر، فيسلي المحزون ويقيل العاثر، وسميت هذا الكتاب: اقتراح القريح، واجتراح الجريح. وضمنته قصائد على حروف المعجم، وإن كانت من الأحزان كالملجم، ومقطعات تقفو كل قصيدة في قافيتها، على أنها مثيرة الأحزان غير شافيتها، ونظمت من فصول المنثور، مقطعات في الزهد المأثور. على أن خطبي جليل، وخطابي كليل. فتنزهت في حديقتين زهراوين أنيقتين، وبحت بما كان مكتتماً، ونحت مفتتحاً ومختتما، وأنا أستغفر الله من تشحطي في تسخطي، ومن عاري الأشعار الكاسدة الأسعار وصفت فيها المقبوحين بالجمال والمنقوصين بالكمال. . . . وكنت نظمت كل هذه الأشعار إذ قلبي مشتعل، ثم أخرتها خمس سنين إذ لبي مشتغل، وفكرت في صرعة الموت، وفي سرعة الفوت، فبادرت الآن إملاء هذا الكتاب إذ رغبت إلى فيه بعض الكتاب، رجوت به الترحم علي من كل من يقرؤه؛ وعسى الله أن استحققت العذاب يعفو عني ويدرؤه. . . . . .)

ابني متى أبني مجداً هدمه الدهر يوم مصابك؟ ومتى أخصب في ربع أمحله الدمع غب غيابك؟ تركتني في الإظلام نهاراً، وأجريت دمعي أنهاراً، فأي مرثية فيك أسلو بها، وإن أعجب الناس بأسلوبها، وأي عيشة بعدك ألهو بها، وحسرتك لا يطفأ حر ألهوبها؟ أستغفر الله قد سلوت بعض السلو، بأم العلو، أتتني بعدك على الكبر، فحمدت الله وعددتها من الحسنات الكبر ثم قلت بديهاً:

يهب الله لمن شا ... ء إناثاً وذكورا
فإذا أعطاك بنتاً ... فكن الراضي الشكورا
واسأل الله - لك الخي ... ر رواحاً - وبكورا
وأقم في العسر واليس ... ر وذر عنساً وكورا
فعلى الأفراخ حباً ... تألف الطير الوكورا

وما أتت إلا ورزقها معها، ما أقنط نفس المرء وأطعمها، ساعة أفرح بها فأسلو، وساعة بالحزن فيك وفيها أخلو، وطورا أمر أخلاقاً وطوراً أحلو، إذا ذكرت الموت اشتغل بال أمها بل بالي، وإن نظرت محاسنك فيها اهتاج بلبالي، فترحتي أكثر من فرحتي، وسبيل الدنيا هذي السبيل، وحسبنا الله ونعم الوكيل

حببت ابنتي وابني فقد عاشت ابنتي ... لهمي ومات ابني ولم يمت الحب
وما ذكر يشفي كأنثى تهمني ... ولكنني راض بما صنع الرب

وبهذا البيت تنتهي الخطبة الثالثة. ويليها شعر الديوان مرتباً على حروف المعجم في 182 صفحة، ويليه مندمجاً فيه مجموعة صغيرة من الشعر في نفس الموضوع التزم فيها لزوم ما لا يلزم، مرتبة على حروف المعجم كل حرف فيه 15 بيتاً. وتقع في 38 صفحة وبانتهائها ينتهي الديوان

الآن وقد قصصت عليك بإيجاز قصة اقتراح القريح المجهولة، أرى لزاماً علي أن أقص عليك قصة ناظمه الحصري المجهول. وموعدنا العدد القادم إن شاء الله.

السيد أحمد صقر

للتاريخ السياسي:

اليوم السابع من مارس ضربة مسرحية في برلين - 2

للدكتور يوسف هيكل

في 28 فبراير نشرت جريدة (باري ميدي) حديثاً لمراسلها في برلين مع الهر هتلر،

مبيناً فيه أن زعيم ألمانيا يود إزالة كل خلاف بين الجارتين وتوليد علاقات الود والألفة بين أعظم شعبين في أوروبا. وفي اليوم التالي، أي يوم السبت الموافق 29 فبراير، أرسلت حكومة باريس تعاليم إلى سفيرها في برلين، طالبة منه الإسراع في طلب مواجهة (المستشار الألماني) ورجائه في إبانة الطرق التي يعتقد أنها تزيل كل خلاف بين الشعبين الألماني والفرنسي، وإعلامه بأن حكومة باريس حريصة على إيجاد التفاهم بين الحكومتين

قام مسيو (فرنسوا بونسيه) بما عهد إليه. فقابله (المستشار هتلر) بحضور (فون نيرات) وزير الخارجية، وأجابه بأن الحكومة الألمانية باذلة جهدها في درس الموضوع بدقة، وقريباً تسلم إلى الحكومة الفرنسية اقتراحاتها. وقد طلب الهر هتلر بقاء هذه المحادثات سرية، تسهيلاً للوصول إلى الغاية، فقبلت حكومة باريس ما طلب، وظلت منتظرة خبراً من برلين، ولقد جاءها الخبر يوم السبت الموافق 7 مارس، وعندها أذاعت هذه المحادثات

وفي مساء الجمعة الموافق 6مارس أمر الهر هتلر باجتماع (الريشتاك) اجتماعاً فوق العادة؛ وفي الساعة 12 (في ألمانيا) من اليوم التالي وبحضور الوزراء وقف على منبر الخطابة وألقى خطاباً طويلاً ثم تلاه بقراءة المذكرة - التي سلمها فون نيرات إلى كل من سفراء بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وبلجيكا قبل إلقاء الهر هتلر خطابه بساعة، وقبل أن يترك منبر الخطابة أعلن أنه يحل (الريشتاك) ليتمكن الشعب الألماني من إبداء حكمه في أعماله وزملائه خلال السنوات الثلاثة الأخيرة؛ وقد قرأ الجنرال (كيرنك) أمر الحل، وتعيين موعد الانتخابات في 29منه

وكان صوت زعيم ألمانيا قوياً وواضحاً، ولكن وجهه كان شاحباً، ودالاً على خطورة القرار الذي اتخذه، كما أن جوه الوزراء الصامتة والمفكرة، إذ ذاك، تفكيراً عميقاً وقلقاً، تظهر جلياً خطر الساعة وتخوفهم من العاقبة

وفحوى خطابه أن ألمانيا بلاد سلمية، تريد العيش بسلام مع جاراتها، غير أنها لا تقبل أن

لا تكون متساوية وإياهم في الحقوق، وهي تريد نيل هذه المساواة والعمل مع الدول الأخرى على تقوية السلام، وأن حكومة برلين قد بذلت جهدها في التفاهم مع الدول الأوروبية، ولاسيما مع فرنسا؛ غير أن جهودها لم تقابل بحسن نية، بل قوبلت بالعمل ضد ألمانيا وحصرها، وكان آخر هذه الأعمال المعاهدة الفرنسية الروسية التي هي موجهة ضد ألمانيا، وقال:

(أنها لمأساة مروعة أن نرى في نهاية السنة التي بذلنا جهوداً شريفة خلالها لنيل ثقة الشعب الفرنسي، انعقاد تحالف حربي نعلم ابتداءه ولكن لا يمكن التنبؤ عن نهايته

(أن المحالفة الفرنسية الروسية لا تتفق مع معاهدة لوكارنو؛ وأن تلك المعاهدة تمكن إمبراطورية حربية عظيمة من تهديد أوروبا الوسطى عن طريق (التشيكوسلوفاكيا) التي عقدت مع الروسيا معاهدة مماثلة للمعاهدة الروسية الفرنسية

(أن روسيا السوفيتية دولة قائمة على مبادئ فلسفية ثورية، وأن إدخال هذه القوى الحربية الهائلة إلى أواسط أوروبا يهدم التوازن الدولي الأوروبي. . .)

ولم يذكر الهر هتلر مشكلة المستعمرات إلا عرضاً، وأبان بأن حلها سيكون عن طريق المفاوضات الودية، كي لا يثير الرأي العام البريطاني عليه، وقد بذل في سبيل نيل عطفه جهوداً أنتجت الثمر الذي يريده

وبينما كان الهر هتلر يلقي خطابه التاريخي، كانت الجيوش الألمانية تعبر أراضي الرين وتحتل في كولون، دسلدروف - وميتز وغيرها من مدن أراضي الرين

وقد اختلف في عدد هذه الجيوش، فهي ثلاثون ألفاً حسب التقرير الألماني، وتسعون ألفاً حسب التقرير الفرنسي، وما يقرب من ستين ألفاً حسب الرأي الإنكليزي

وجدير بالذكر أنه عندما أعلم الهر هتلر صباح السابع من شهر مارس، مسيو فرنسوا بونسيه بعزمه، أضاف باعتناء بأن احتلال أراضي الرين ما هو إلا رمزي. ولما ثار الرأي العام ولاسيما في فرنسا على التناقض الجلي بين قول زعيم ألمانيا وبين الواقع، أرسلت حكومة برلين، في 14مارس إلى لندن وباريس تصريحاً تقول فيه بأنه لا يوجد في أراضي الرين إلا (36. 500) ستة وثلاثون ألفاً وخمسمائة جندي. . . وإذا علم بأن

عدد سكان هذا الإقليم يبلغ خمس عد سكان ألمانيا أي أربعة عشر مليوناً ونصف مليون، ومساحته ثمن
مساحة ألمانيا، وفيه مدن كبيرة يظهر من عدد الجنود التي فيه بأن احتلاله لم يكن إلا رمزياً
وأعلنت ألمانيا في المذكرة التي قدمتها إلى دول لوكارنو الأربع بأنها غير مرتبطة بمعاهدة لوكارنو. وذكرت في صدرها الأسباب التي دعتها إلى اتخاذ هذا القرار وكلها مبنية على مناقضة المعاهدة الفرنسية الروسية للوكارنو، وتقول الحكومة النازية بأنه:
(1) لا جدال في أن المعاهدة الفرنسية الروسية موجهة خصيصاً ضد ألمانيا
(2) لا خلاف في أن فرنسا أخذت على عاتقها واجبات، في حالة حدوث اختلاف بين ألمانيا والروسيا تفوق الواجبات التي تضعها على عاتقها عصبة الأمم، وأنها - أي الواجبات - ترغم فرنسا على إشهار السلاح ضد ألمانيا، حتى في الحالة التي لا تستطيع فيها نيل موافقة عصبة الأمم أو قرار بذلك
(3) في مثل هذه الحالة تدعي فرنسا الحق في أن تقرر وحدها وحسب إرادتها من هو المعتدي -
(4) لا جدال في أن فرنسا قد أخذت على عاتقها واجبات نحو الروسيا توجب عليها العمل في بعض الظروف، كما لو كان ميثاق عصبة الأمم ومعاهدة لوكارنو، التي تستند على ذلك الميثاق غير موجودين
وتدعي المذكرة أن المعاهدة الفرنسية الروسية أوجدت حالة دولية جديدة، وأزالت النظام السياسي لمعاهدة لوكارنو في حرفه وفي معناه و (بالتالي فقدت لوكارنو السبب الذي من أجله أنشئت، وعملياً زال وجودها. ولذلك ترى ألمانيا أنها غير مرتبطة بهذه المعاهدة الملغاة)
وتنتهي هذه المذكرة بتقديم حكومة برلين إلى دول لوكارنو نظاماً سياسياً جديداً ليحل مكان معاهدة لوكارنو وليزيل الاضطرابات السياسية الدولية، ويولد - في رأي حكومة برلين - الثقة الدولية التي بدونها لا تتقدم المدنية ولا يستمر السلام. وأهم نقطة:
أن الحكومة الألمانية تصرح بأنها مستعدة للتفاوض مع فرنسا وبلجيكا لإنشاء إقليم) مشترك غير مسلح، وأنها توافق من الآن على مقدار امتداده ومساحته، على شرط المساواة القطعية في ذلك. والحكومة الألمانية تقترح إيجاد معاهدة عدم الاعتداء بينها وبين فرنسا وبلجيكا
لمدة 25 سنة، وأن تكون بريطانيا وإيطاليا كفيلتين على ذلك
والحكومة الألمانية مستعدة لإمضاء معاهدة تمنع الهجوم الجوي الفجائي، ومعاهدة عدم الاعتداء مع جاراتها في الشرق كالمعاهدة التي عقدتها مع بولونيا
وبما أن حكومة برلين قد نالت المساواة في الحقوق وأقامت سيادتها القومية في البلاد الألمانية أجمع، فهي مستعدة للاشتراك في عصبة الأمم، وتأمل الوصول في وقت قريب، عن طريق المفاوضات الودية إلى المساواة في المستعمرات وفصل (عصبة الأمم عن معاهدة فرساي
وقد صرح مستر إيدن في مجلس العموم في 9 مارس أن السفير الألماني أعلمه بأن حكومته ما عرضت اشتراكها في عصبة الأمم إلا لتسر الإنكليز وترضي الرأي العام البريطاني!
تبع الضربة المسرحية في برلين اضطراب شديد في الدوائر السياسية. . . وكانت برلين في قلق شديد، تارة ترى أن عملها يذهب الثقة بعلاقاتها الدولية، وأن حوادث 7 مارس ستقرب فرنسا من بريطانيا، وتكون نتيجة ذلك الحصر الكامل لحكومة برلين والضربة القاضية على سياسة هتلر الخارجية؛ وتارة ترى أن الفرج قريب إذ لندن غير موافقة على اقتراحات باريس في تطبيق (العقوبات) عليها وإرغامها على سحب قواها الحربية من أراضي الرين. وقد أخذ رجال الحكومة النازية في إلقاء الخطب وتدبيج المقالات، وبعضها موجه إلى الشعب البريطاني للتقرب إليه ونيل عطفه، والبعض الآخر يهدد فرنسا إن هي لم تقبل منهاج هتلر وتسير عليه
وكان الهر هتلر في جميع خطبه يتودد إلى (الرأي العام) وخصوصاً البريطاني؛ وكان يوجه نداءه إلى (رجل الشارع) ويصرح بأنه يريد التفاهم الخالص مع فرنسا. . . وبأنه لا غاية لألمانيا إلا العيش بسلام مع جاراتها، وأن العمل الذي قامت به ما كان إلا لتحقيق

سياسة دولية عملية مبنية على المساواة في الحقوق وعلى السلام في أوروبا، وإنعاش الاقتصاديات الدولية. .
ولما قامت الصحف الباريسية بإظهار سوء النية المطوي في منهاج الهر هتلر وفي أنه يريد السلام مع دول، والحرب مع دول أخرى. . . ولما سأل السير أوستن شمبرلين في
مجلس العموم عما إذا كانت النمسا في الدول التي يريد الهر هتلر عقد محالفات (عدم الهجوم) معها، اضطر الهر هتلر إلى التصريح لمراسل جريدة لندنية بأنه مستعد لعقد معاهدات (عدم الهجوم) مع النمسا وكذلك مع تشيكوسلوفاكيا. . .
أما الجنرال كيرنك فكان يحمل علم التهديد، وقال في خطابه الذي ألقاه في فرنكفور في 17 مارس: ربما أثر التهديد (بالعقوبات) في ألمانيا عام 1932، ولكنه لا يؤثر على الشعب الذي تدرب طيلة السنوات الثلاث الأخيرة في مدرسة النازي، وإن استعمل الضغط الاقتصادي ضد ألمانيا فإنها تدعو الحزب النازي إلى المعركة القاسية التي تولد حماسة مقدسة وتشد عزم الشعب الألماني وتزيد قواه، وأن تهديد ألمانيا حربياً لا يثبط عزيمتها، بل هي تجيب على ذلك: (إنكم كنتم نياماً. أما ألمانيا فلم تكن نائمة) أنها قد تسلحت وأصبحت جد قوية، وهي لا تهاب شيئاً. . . وإن الذي يود تهديدها والاعتداء عليها سيدفع ألوفاً من الأرواح بدل كل (بوصة) من الأراضي الألمانية. . . ولا يحق لأحد غير الشعب الألماني أن يحكم فيما إذا كان عمل ألمانيا قانونياً أم لا (!!). إن ألمانيا قدمت خدمات جليلة للسلام، غير أن هناك أموراً لا يمكنها عملها: يجب أن تبقى الجيوش الألمانية في أراضي الرين
وكان الدكتور كبلس يساعده على رفع ذلك العلم، فحاول في الخطاب الذي ألقاه في 10 مارس في برلين مجيباً مسيو سارو الذي قال بأنه لا يمكن الاعتماد على المعاهدات التي تعقد مع ألمانيا، إقناع الرأي العام بأن ألمانيا تحترم إمضاءها وتحافظ على حرمة المعاهدات التي توقعها، ودليله على ذلك بأن ألمانيا محترمة معاهدتها مع بولونيا (!). وقال بأنه يجب على فرنسا أن تعتبر بدقة الحالة الراهنة، لا بالتشبث ببنود معاهدة لا يمكن للشعب الألماني احتمالها (!!)
ولقد خرج في كلامه عن اللياقة الدبلوماسية حين قال في خطابه الذي ألقاه في فرنكفور في 23 مارس: (إن ألمانيا ترفض العمل ضمن الدائرة السياسية القديمة. سياسة القطة التي تسير حول الحليب الساخن. إن الجيوش الألمانية قد احتلت أراضي الرين، فيجب أن تبقى هناك برمتها دون أن يسحب منها جندي واحد. . . وسترغم الأمم على المفاوضة مع ألمانيا حسب (اقتراحات الهر هتلر) خلال الأشهر القادمة، أرادت ذلك أو لم ترده. . . . . .
(لندن)
(يتبع)
يوسف هيكل
دكتور في الحقوق
ملاحظات متواضعة على مشروع
ترجمة معاني القرآن الكريم
بقلم المستشرق المجري الدكتور عبد الكريم جرمانوس
تتمة ما نشر في العدد الماضي
وليس من شك في أن الله عز وجل حين أنزل القرآن الكريم شاء أن يعم نشره بين الملأ، لا ليجعله وقفاً على أولئك الذين يحتكرون معانيه في صدورهم، ولا يعملون على ترجمته ونشره بين الذين هم أقل مكانة منهم في المعرفة. ألم يقل النبي الكريم: بلغوا عني ولو آية؟ وكيف يكون التبليغ إلا إذا كان بنقل القرآن إلى لغات الأمم والشعوب؟ وقديماً اعتبرت التفاسير ترجمة لمعاني كتاب الله وتحليله وشرحه حتى يكون في متناول الأذهان الأمم قاطبة
إن الإسلام دين الأذهان المستنيرة، وأن أصحاب العقول البارعة يجدون فيه متعة روحية شهية، وسوف يكون هذا الدين بفضل ترجمة كتاب الله معتقد الطبقات الرفيعة في العالم. وأنا أعرف في بلادي وفي أوروبا عامة رجالاً مستنيرين في أرفع الأسر يحترمون الإسلام لمجرد أنهم قرءوا ترجمة كتاب الله الكريم، وهم يوشكون أن

يتخذوه ديناً ولو في سرائرهم. ومنذ خمس سنوات أسلم في فينا رجل من أعرق الأسر الرفيعة، هو البارون آرن فلس وسمى نفسه عمر. وأسلم مجري آخر كبير هو فيلكس فاي. وهذا دليل على سمو الإسلام الروحي والذهني لأنه دين صحيح يستولي على رجال الفكر ويقنعهم بصحة آرائه. أن الإسلام لا يدعو إلى الأنانية والتعصب، بل إلى الأخوة والحضارة الجديدة ونشر ألوان العلم والعرفان، وترجمة القرآن هي أول خطوة في سبيل قبر التعصب والجهل

من ذلك أرى أنه لزام على العلماء أن يظهروا للناس كتاب الله، ولا يجعلوه وقفاً على من يعرفون العربية وحدها. بل يجب عليهم أن يترجموا معانيه ويقبلوا على تفسيرها ولا يخشوا في الحق لومة لائم

فلا العلوم الحديثة، ولا المعارف، ولا فلسفة الغرب تستطيع أن تطفئ نورانيته وعظمته، فهو كالشمس إذا سطعت حجبت ذبالات الشموع الخافتة. ولتأخذ هذه التراجم صفة الشروح

والتفاسير بدلاً من أن يطلق عليها في اللغات الأخرى اسم (القرآن)

أجل فلنقاوم الجهل والتعصب، ولننشر كتاب الله الكريم لا في الإنجليزية وحدها، بل في لغات الملايو والهندستانية والمغولية، وليكن نشر هذا الكتاب بنفس أسلحة القرن العشرين. فالفاصل الذي يفصلنا اليوم عن المعرفة الحديثة شاسع جداً إلى حد يجعل اعتمادنا على ما في أيدينا من تراث الأجيال، من الأسلحة العتيقة التي لا يمكننا بها مقاومة الموجات التي تجرفنا من عالم الغرب

ومن رأيي أن ترجمة معاني القرآن ستنتج عنها مسائل هامة. فبعض الناس عارضوا هذه الفكرة بحجة أنها ستكون سبباً في فصم عرى الوحدة العربية، وستحدث تقاطعاً بين الأخوان المسلمين في أنحاء العالم، ولكن بالعكس، فالترجمة ستكون سبباً في إشعال الحماس الديني عند ملايين ممن لا يفقهون كتاب الله الكريم، وستساعدهم هذه الترجمة على تفهم اللغة العربية وازدهار عصر التبشير الإسلامي

وإذا ما أتيح لنا أن نستقصي البواعث التي أدت إلى انحطاط بعض الطوائف الإسلامية وجب أن نسلم بأن سببها أن حكامهم كانوا يتكلمون لغة لا يفقهها العامة. وعلى الرغم من تعاليم الإسلام السامية ظلت هذه الطوائف ترسف في العبودية والجهالة والفقر، حتى نتج من ذلك وقوعها في الكثير من الأضاليل والبدع التي لا أصل ولا وجود لها في التعاليم المحمدية النقية. حتى أجبرت هذه الطوائف على الخنوع وألزمت أن تحني رؤوسها احتراماً أمام الجبروت الطاغي. هنالك وجدت سلوتها في الشعوذة الدينية، وأصبحت على عيون أهلها غشاوة تحجب عنها حقيقة الدين الحنيف. وانحط مستوى اللغة العربية إلى حد تفشت فيه الأمية وانتشرت العامية بين الأوساط الراقية. ومما أذكره والأسى يقطر من فؤادي، أنني لما زرت القاهرة لأول مرة كان الناس يدهشون إذ يرون رجلاً أجنبياً يتكلم العربية الفصحى، مع أنه أمر مألوف في الأوساط الألمانية والإنجليزية، ويندر أن تجد واحداً يتلفظ بكلمة واحدة دارجة

فليكن في ترجمة القرآن إذن، رفع لقدر اللغة العربية، وليكن رفعها إلى مستوى الكتاب، فالقرآن هو مصدر الثقافة الإسلامية وسبب انتشارها في الشرق والغرب، وهو السلاح الماضي الذي يحسم الداء

لقد كان إنجيل لوثر سبباً في رفع شأن اللغة الألمانية، وسبيلاً إلى إدماج لهجات القبائل المختلفة بعضها في بعض، فيجب أن تكون ترجمة القرآن الكريم سبباً في رفع العربية، وليرع الأزهر هذه الحركة الجديدة بكل ما فيه من عزيمة وقوة حتى تخرج إلى حيز العمل. فقد كان القرآن كلمة الله في البداية، ومنها انبعث كل ما في الإسلام من محبة وأخوة وسلام

(بودابست)

عبد الكريم جرمانوس

أندلسيات

أبو الفضل بن شرف

الشاعر الفيلسوف

للأستاذ عبد الرحمن البرقوقي

(بقية ما نشر في العدد 149)

فلما سمعها المعتصم لعبت بارتياحه وحسده بعض من حضر، وكان من جملة من حسده ابن أخت غانم. فقال له: من أي البوادي أنت، قال أنا من الشرق في الدرجة العالية، وإن كانت البادية على بادية، ولا أنكر خالي، ولا أعرف بحالي. فمات ابن أخت غانم خجلاً، وشمت به كلا من حضر. وهذا ابن أخت غانم العالم اللغوي أبو عبد الله محمد بن معمر من أعيان مالقة متفنن في علوم شتى إلا أن الغالب عليه علم اللغة. وكان قد رحل من مالقة إلى المرية فحل عند ملكها المعتصم ابن صمادح، وله تآليف منها شرح كتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري في ستين مجلدا. قال ابن اليسع في مغربه أنه حدثه بداره بمالقة وهو ابن مائة سنة وأخذ عنه عام 524. . . وغانم خاله الذي يعرف به هو الإمام العالم الأديب أبو محمد غانم بن الوليد المخزومي نسب إليه لشهرة ذكره وعلو قدره. ومن شعر الإمام أبي محمد غانم هذا قوله - وقد دخل يوماً على باديس بن حيوس صاحب غرناطة، فوسع له على ضيق كان في المجلس فقال بديها:

صيّر فؤادك للمحبوب منزلة ... سم الخياط مجال للمحبيْنِ
ولا تسامح بغيضاً في معاشرة ... فقلما تسع الدنيا بغيضين

وقوله:

الصبر أولى بوقار الفتى ... من قلق يهتك ستر الوقار
من لزم الصبر على حاله ... كان على أيامه بالخيار

وقوله في نكبة المعتمد بن عباد:

ومن الغريب غروب شمس في الثرى ... وضياؤها باق على الآفاق

وقوله:

ثلاثة يجهل مقدارها ... الأمن والصحة والقُوتُ
فلا تثق بالمال من غيرها ... لو أنه دُرٌّ وياقوت

وكل ذلك من الحديث النبوي الشريف: من أصبح آمناً في سربه معافى في بدنه، معه قوت يومه، فكأنما سيقت له الدنيا بحذافيرها. ومن بديع قول أبي الفضل بن شرف المترجم من قصيدة يمدح بها المعتصم بن صمادح:

لم يبق للجور في أيامكم أثر ... غير الذي في عيون الغيد من حور

وأول هذه القصيدة:

قامت تجر ذيول العصب والحبر ... ضعيفة الخصر والميثاق والنظر

ومن هذه القصيدة في وصف السيف:

إن قلت ناراً أتندى النار ملهبة ... أو قلت ماء أيرمي الماء بالشرر

ومنها في وصف الدرع:

من كل ماذية أنثى فيا عجبا ... كيف استهانت بوقع الصارم الذكر

وكان قد وفد على المعتصم مرة يشكو عاملاً ناقشه في قرية يحرث فيها وأنشده الرائية المذكورة. ولما بلغ قوله: لم يبق للجور في أيامكم أثر. قال له المعتصم: كم في القرية التي تحرث فيها؟ فقال: فيها نحو خمسين بيتاً، فقال: أنا أسوغك جميعها لهذا البيت الواحد، وعزل عنها نظر كل وال. . . ومن شعر أبي الفضل بن شرف -:

يا من حكى البيدق في شكله ... أصبح يحكيك وتحكيه
أسفله أوسع أجزائه ... ورأسه أصغر ما فيه

وقال -:

لعمرك ما حصلت على خطير ... من الدنيا ولا أدركت شيّا
وها أنا خارج منها سليبا ... أقلب نادماً كلتا يديا
وأبكي ثم أعلم أم مبكا ... ي لا يجدي فأمسح مقلتيا
ولم أجزع لهول الموت لكن ... بكيت لقلة الباكي عليّا
وإن الدهر لم يعلم مكاني ... ولا عرفت بنوه ما لديا
زمان سوف أنشر فيه نشرا ... إذا أنا بالحمام طويت طيّا
أسر بأنني سأعيش ميتا ... به ويسوءني إن مت حيا

ويروى له -:

ألحاظكم تجرحنا في الحشا ... ولحظنا يجرحكم في الخدود
جرح بجرح فاجعلوا ذا بذا ... فما الذي أوجب جرح الصدود

- :وأرسل إليه الشاعر ابن اللبانة بأبيات يواسيه بها ويحثه على النهوض وهي
يا روضة أضحى النسيم لسانها ... يصف الذي تهديه من أرجائها
ومن اغتدى ثم اهتدى لطريقة ... ما ضل من يسعى على منهاجها
طافت بكعبتك المعالي إذ رأت ... أن النجوم الزهر من حُجاجها
شغلت قضيتك النفوس فأصبحت ... مرضى وفي كفيك سر علاجها
هلا كتبت إلى الوزير برقعة ... تصبو معاطفه إلى ديباجها
تجد السبيل لهم ولا تك للمنى ... وينير سعيهم بنور سراجها
أنت السماء فما بها لك رفعة ... طلعت عليه الشهب من أبراجها
وضحت مفارق كل فضل عنده ... فاجعل قريضك درة في تاجها
فكتب إليه المترجم:
يا منجدي والدهر يبعث حربه ... شعثاء قد لبست رداء عجاجها
لله درك إذ بسطت إلى الرضا ... نفساً تمادى الدهر في إحراجها
وأرقت ماء الود في نار الأسى ... كالراح يُسكر حدُّها بمزاجها
فيَّأتِني تلك الغمام فبرّدت ... من غلة كالنار في إنضاجها
فأويت تحت ظلالها ووجدت بر ... د نسيمها وكرعت في ثجاجها
قل كيف تنعش بعد طول عثارها ... أم كيف تفتح بعد سدر تاجها
لأزيد في أمري وضوحاً بعد ما ... قامت براهين على منهاجها
فأكون إن زدت الصباح أدلة ... خرقاء تمشي في الضحة بسراجها
دعني أبرد بالقناعة غلة ... يأس النفوس أحق في أثلاجها
بكر بخلت على الأنام بوجهها ... ومنعتها من ليس من أزواجها
وصرفتها محجوبة بصوانها ... مثل السلوك تصان في أدراجها
كالنور في أكمامها والبيض في ... أغمادها والغيد في أحداجها
فالنفس إن ثبتت على أخلاقها ... أعيا على النصح طول لجاجها
وإنك لترى للمترجم له مع ذلك رسائل بديعة أنيقة الوشي حسنة التحبير، تنم على دقة حسّه البياني، وذوقه الفني، وتفننه في جميع فنون المراسلات والمراجعات، وأنه مُحسْن في جميع فنون الأدب إحسانه في الطب والحكم، فهو شاعر كاتب حكيم طبيب، ولا جرم أنه انحدر من صلب ذلك الأديب العبقري ابن شرف القيرواني الذي غَمرَ ابنه هذا وأخمله حتى نحله مؤرخو الأدب العربي في عصرنا أكثر شعر ابنه
عبد الرحمن البرقوقي
الحياة الأدبية في شرق الأردن
بقلم السيد جريس القسوس
ما كنت أرغب في التعرض لهذا الموضوع، لو لم تنشر (الرسالة) الغراء بحوثاً ممتعة لمختلف الكتاب عن الحياة الأدبية في بلدانهم. لهذا رأيت من واجبي، وأنا بعيد عن شرق الأردن، أن أقدم للقراء الكرام صورة صادقة بقدر الإمكان عن الحياة الأدبية في شرق الأردن. أقول هذا وأنا أشعر بحروجة الموقف ودقته، إذ لا يخلو مثل هذا البحث من بعض الخطأ مهما توخى الباحث العدل والصدق في بحثه
لم تكن بلاد ما وراء الأردن، منذ خمسة عشر عاما، إلا جزءاً من سورية لا ينفصل، فهي لذلك بلاد فتية في تكوينها السياسي وفي نهضتها الأدبية والاجتماعية. أما والمقصود من هذا المقال النهضة الأدبية، فلنقتصر على هذه، تاركين البحث في السياسة والاجتماع لعلمائهما
دبت في شرق الأردن حياة أدبية جديدة، لم يكن لنا عهد بها قبل بزوغ فجر الإمارة. فكان أول عمل قامت به الحكومة فتح المدارس الأميرية، من قروية وابتدائية وثانوية، وتحسين برامج التعليم، وتوحيدها إلى حد ما، في مختلف المدارس الطائفية وغير الطائفية، حتى أصبحت تنهج جميعاً نهجاً واحداً سوياً نحو إيقاظ الروح العربية الكامنة، والتوفيق بينها وبين التيارات الجارفة التي بدأت تطغي على هذه البلاد من الغرب.
كانت شرق الأردن بحكم الوضع السياسي والجغرافي، قبل الحرب العظمى، بلداً مجهولاً، ولانزوائه وانقطاعه عن البلدان العربية المجاورة لم يتسن لأهله الاحتكاك بأهل الأقطار الأخرى كل الاحتكاك، فتمتزج بذلك الثقافات، ولو كانت شبه متجانسة، فتتفاعل ويتولد عن ذلك روح ويقظة جديدتان. كانت الحياة الأدبية قبل ذلك راكدة،

والنفوس فاترة، والمواهب كامنة؛ فلم تنبعث إلا بتأليف حكومة سمو الأمير المعظم؛ عندئذ دخلت البلاد فئة راقية من أدباء الأقطار المجاورة، وخاصة سورية؛ فكان دخول هذه الفئة البلاد باعثاً كبيراً على إحياء الأدب العربي، وإحداث نهضة فكرية مباركة لا نكون مبالغين إذا سميناها بالرنسانس؛ فكان مثلاً لقصائد الشيخ فؤاد باشا الخطيب شاعر الثورة، والأستاذ محمد الشريقي وغيرهما من الأدباء الذين رافقوا الثورة العربية، وطوّحت بهم الأقدار إلى هذا القطر الجديد، أثر لا يستهان به في إحياء الآمال في نفوس الأحداث، وقد كانت ميتة آنئذ، وفي إيقاظ الروح الأدبية الكامنة، وتوجيهها في السبل القويمة

لقد نشطت الحكومة، بعد استقرار الوضع السياسي في البلاد، إلى إرسال البعثات العلمية سنوياً إلى الجامعة الأمريكية في بيروت وغيرها من المعاهد الراقية في سورية وفلسطين، وتنبه الشعب الأردني إلى فضل العلم والأدب في نهضات الشعوب، فبادروا إلى إرسال أبنائهم على نفقتهم الخاصة إلى بيروت والجامعة السورية في دمشق، وإلى المدارس الثانوية في فلسطين، ولكثرة الطلاب كثر الإقبال على مطالعة الأدب، المصري منه والسوري؛ فكان أثره في إيقاظ الحركة الفكرية، وتجديد الحياة الأدبية غير يسير

كل ذلك كان يحدث، بينا الصحافة المصرية تغذي نفوس الأحداث بأدبها الراقي وعلمها الصحيح. ولا أبالغ إذا قلت إنه كان (للرسالة) أثر ملموس في إحياء النهضة الفكرية، وتشجيع الحياة الأدبية في البلاد. فقد كان إقبال الطلاب خاصة على مطالعتها شديداً. وأنني - أذكر على سبيل - أنه كان يباع منها في حين نحو ثمانين عدداً أو أكثر في بلد صغير كالسلط. (فالرسالة) وغيرها من المجلات والصحف العربية كانت ولا تزال، تسد عوز البلاد وافتقارها إلى صحافة حرة تعمل على تشجيع الإنتاج الأدبي، (وتحيي في النشء أساليب البلاغة العربية)

بيد أنه، وإن لم يقم في شرق الأردن إلى الآن مؤلف بالمعنى الصحيح، أو أديب منتج يستمد مادته وموضوعه من الحياة، إلا أننا نرى طلائع نتائج هذه العوامل المختلفة في تكوين النهضة الأدبية الحديثة في قيام فئة قليلة من حملة الأقلام النثرية كأديب عباسي، والدكتور محمد أبو غنيمة، وبشير الشريقي، وعبد الحليم عباس، والبدوي الملثم وغيرهم؛ والشعرية أمثال مصطفى وهبي التل شاعر النوَر، وصاحب ديوان (عشيات وادي اليابس)، وحسني فريز، والشيخ رشيد زيد، وحنا الشوارب وغيرهم من الأدباء الأحداث

لكن شرق الأردن تمتاز عن الأقطار العربية الأخرى، وخاصة الساحلية، بنوع خاص من الأدب، أعني به الشعر البدوي. وهو، وإن قل، من حيث الكمية والنوع عما قبل، فأنه لا يخلو من عناصر حية تميزه عن غيره من الشعر الراقي المعروف في شرق الأردن وفي كثير من البلدان العربية. والشاعر البدوي شاعران: شاعر رواية، يحفظ، على أميّته كمية

وافرة من القصائد المختلفة، قديمة كانت أم حديثة، ويلقيها في شتى المناسبات كمجالس الشيوخ والأفراح المختلفة من مولد وختان وعرس! وشاعر منشئ مبتكر، وعدد الفئة الأخيرة يسير جداً إذا قيس بالفئة الأولى. وأكثر ما يكون الشعراء المنشئون في مضارب البدو على سيف الصحراء. أما أشهر أبواب الشعر البدوي في المدح والحماسة والغزل والعتاب والرثاء. ويطول بنا المقام إذا أردنا أن نتبسط في وصف هذا الشعر، وفي معالجة شتى أبوابه بإسهاب؛ لكننا نقتصر على ذكر فريق من الشعراء البدو المخضرمين - أي الذين نشأوا في أواخر القرن التاسع عشر ولحقوا العشرين - ونخص منهم بالذكر نمر العدوان؛ وقصيدته في رثاء زوجه فصحاء مشهورة، تتناقلها الألسنة في كل مكان. وهو يستهلها بمخاطبة ابنه عقاب قائلاً: -

البارحة يا عقابْ يومَ القمرْ غاب ... بليلة العيد السعيد الجديد

إلى أن يقول، واصفاً نفسه بعد ما ألم بها من حزن لفقد زوجه:

كل ما غشيت أمراحْ أو جئتْ مرقابْ ... لَجوح جوحَ الذيب وعضّ بيدّي
أنهفْ ونوح وَأقطر الدمعْ سكّابْ ... على صويحبيِ اللي راح ما هو من إيدّي
يا قلبي تقولْ سفوتّ حديد شبّاب ... يا مهجتيِ لو أنّه حجرْ كِن صار شيد
من لامني يا عقابْ يبلى بأرقط ثاب ... من جنّة الوهاب ما يستفيد

ومعنى هذه الأبيات (أنني كلما مررت بربع، أو صعدت جبلاً، عويت كالذئب، وقضمت كفي حزناً، ونحت وسكبت الدمع مدراراً على صاحبي المفقود؛ وإن بقلبي ناراً تضطرم اضطراماً يكاد منها ذلك القلب لو كان حجراً، أن يصير كلسا. ألا فليبتل يا عقاب من لامني في ذلك بحية تميته ميتة لا يدخل بعدها الجنة)

ومن هؤلاء الشعراء أيضاً أبو الكباير من قبيلة الشرارات، وهو مشهور بالشعر الحماسي، ووصف الغزوات والمعارك. وقصيدته في مدح عودة أبي تايه وقد تحاربت قبيلته مع أهل الكرك. وفي هذه القصيدة يقول، بعد أن يستهلها بذكر الله وطلب عفوه وغفرانه، شأن غيره من شعراء البدو:

قُمْ يا علي نُشْرفْ على كلّ طايلْ ... شدّيتْ عوصا تقطعْ الدوّ حايلْ

أي انهض يا علي (وهو بطل الطليعة) وأعدّ فرسك، لنقطع الفلاة، ونشرف على مواقع الأعداء.

إلى أن يقول واصفاً مرابع عودة أبي تايه:

تلقى بيوتاً بنوابي نزيله ... تلفى حميل دللاهم عن نفيله

ألبن بالهيوان تسمع صهيله ... عزام لوجوه الماسيير زافات

تلقي شايباً عندهم مستعدٍّ ... الحرّ إليّ بالملازم يسدّ

عنه بحوض الخيل يوماً يهد ... عن حرب أبو تايه إليّ له الفعل عاداتِ

أي تلقى منازلهم مضروبة في أعلى الروابي دلالة على شجاعتهم، وعدم خشيتهم العدو؛ وفي مطارح النار تلقى حثالة البن دلالة الجود. وفي تلك الخيم تسمع صوت الهاون؛ إذ يدق فيه البن، فيكون بصوته ذاك داعياً للخير والضيافة؛ تجد شيخاً حراً مضيافاً، وفارساً مغواراً تتجنب الفوارس بطشه، وترتعد له الفرائص عند الحرب، هو (عودة أبو تايه)

ومن الشعراء المداحين سالم المرعي وعلي القزيعي وغيرهم، وأنا أعرف من الشعراء الأحياء الذين يجيدون قرض الشعر البدوي في شتى الأحوال ومختلف الظروف: محمد بن هلال، وسعود المجالي في الكرك. وقد يكون غير هؤلاء في مضارب البدو في الشمال وفي الداخل، لكن دراسة هذا النوع من الشعر دراسة عميقة، وتدوين هذه الأشعار قبل أن تعبث بها أيدي البلى يحتاج إلى مشقة كبيرة من تنقل بين مضاربهم وتعرف إلى أماكنهم وأحوالهم، وطرق عيشهم

ولقد فاتني أن أذكر أن الشيخ رشيد زيد الذي مرّ ذكره مع طبقة الشعراء المجيدين في الفصحى، ليحسن نظم الشعر البدوي. وقد أتيح لي أن أسمع له قصائد رائعة، وعالية النفَس في هذا النوع من الشعر، يعارض في بعضها قصائد مشهورة كاليتيمة وغيرها

والخلاصة أن الحياة الأدبية في شرق الأردن ضئيلة ضعيفة إذا ما قورنت بغيرها من الأقطار العربية، على أن سريها في مضامير النشوء والتطور على هذا الشكل المدهش ليدعو إلى التفاؤل الشديد. وأنا لا أشك في أنه سيأتي يوم تصبح فيه شرق الأردن بفضل هذه العوامل المختلفة التي بسطناها، وبفضل غيرها، حية بأدبها، وغنية بأدبائها. ولا بد قبل الختام من الاعتراف بما لقصر رغدان من فضل كبير في تنشيط هذه الحياة الأدبية؛ فقد كان ولا يزال يحدب على الأدب، ويؤازر الأدباء، ويشرق على نفوس الشباب بالنور

والحياة

(بيروت - الجامعة الأمريكية)

جريس القسوس

بعد احتلال أديس أبابا

فضيحة القرن العشرين!

(قطعة مهداة إلى جلالة الإمبراطور العظيم (نزيل فلسطين))

للأستاذ علي الطنطاوي

حق صريح يصان في عصور الظلام، وأمة آمنة تسلم في قرون الجهل، أفيعبث . . . بهذا الحق في القرن العشرين، قرن العلم والنور. . . ويُعتدى فيه على هذه الأمة، فتسرق أرضها وحريتها وسعادتها؟

يا لفضيحة القرن العشرين!. . . يا لضيعة المبادئ الإنسانية! يا لخيبة العلماء والأدباء

والأحرار!. . يا لإفلاس الحضارة الغربية. . يا للعار على الفكر البشري!
أتبنى المدارس، وتفتح المعاهد، وتشنأ المحاكم، لتبث مبادئ الحق والخير والفضيلة، وتعمل على ذلك دهوراً، فيأتي طاغية من طغاة الغرب فيهدمها كلها بطلقة واحدة من مدافعه، وترجع بالعالم إلى الوراء عشرين قرناً، ولا يجد من يأخذ على يده، وينصف الإنسانية منه؟
أيهزأ طاغية روما بكل المبادئ التي يقدسها البشر، ويدوسها بقدميه وأقدام جنوده، ويستعبد أمة بكاملها لم تستعبد منذ فجر التاريخ؛ ثم يمضي هؤلاء (الممثلون) في طريقهم إلى (مسرح جنيف) ليمثلوا عليه بقية المهزلة. . . هذه المهزلة الدامية التي كان أول ضحاياها عظمة الفكر البشري، وجمال الحضارة الحاضرة، ومبادئ جمعية الأمم؟
ارجعوا يا هؤلاء، ارجعوا إلى بلادكم، قد تمزق الستار وبدت من خلاله الوجوه المصطنعة واللحى المستعارة والسيوف الخشبية؛ ورأى الثقلان أن (جبار جنيف) لم يكن إلا صنماً من أعواد، أقامه الأقوياء ليخدعوا به عباد الأصنام من الأمم الضعيفة، عن حريتها وحقها ومالها
ارجعوا فأظهروا أنيابكم التي سترتموها، وأظافركم التي أخفيتموها. . . ما أنتم أيضاً إلا ذئاب
أما أنت أيها الإمبراطور الحبشي العظيم، أيها الجندي المجاهد الشريف، فتعزّ واصبر وارتقب، فليس مع خصمك إلا الحديد والنار، ولكن العالم كله معك، والقلوب كلها تخفق بحبك، وبغض عدوّك. إن الحب والبغض هما أقوى سلاح في الوجود، وأنهما إذا لم يقوما اليوم للمدفع والطيارة، فلن يقوم لهما غداً طيارة ولا مدفع، وأن خصمك يستطيع اليوم أن يخطب فيصيح ويفخر ويهدّد، ويستطيع أن يجرّد الجيوش، ويسير الأساطيل، ويطلق المدافع؛ ولكنه لا يستطيع أن يصنع المسمار الذي يسمر به الفلك، فيقفه عن الدوران، ولو جمع له كل حديد الأرض. إن الفلك يدور أبداً، فيقوى الضعيف، ويضعف القوي، ويشب الطفل، ويهرم الشاب، ويرتفع من كان في الحضيض، ويهبط من كان في الأوج؛ فاصبر وارتقب
إنك لم تجبن ولم تفرّ، وقد أعذرت إلى أمتك ونفسك وإلى التاريخ، فما ألوت في الجهاد جهداً، ولا ادخرت عنه أيداً، وكأني أنظر إليك الآن وقد في كنت دارة عرشك، وقرارة ملكك، وموطن شعبك؛ وكنت آمناً مطمئناً، تتعهد بلدك بالإصلاح، وأمتك بالتهذيب والتعليم، فما راعك إلا صوت الصريخ تدوي به أروقة القصر، فهببت مذعوراً - وما كنت بالذي يذعر أو يضطرب - واستخبرت الخبر، فعلمت أنه الموت قد حمله المتمدنون إلى بلادك ألواناً، فخففت إلى هؤلاء الممتدين تسألهم ماذا يريدون؟
- قالوا: نريد بلادك فاخرج منها، أو فابق فيها عبداً لنا وخادماً!
- قلت: وأي ثأر لكم عندي، وأي عداوة بيني وبينكم؟ أهي أن جاء قوم منكم منذ حين يريدون قتلنا، فرددناهم عنا؟ أليس لنا أن ندافع عن أنفسنا؟
- قالوا: صه! أنت متوحش. . . . أنت متأخر. . . . وقد جئنا لنعلمك ونعلم شعبك، ونحمل إليهم حضارتنا ومدنيتنا، فإذا أنت لم تسمع وتطع كلمناك بلسان البارود والغاز الخانق والنار والحديد. . . . .
فثار في عروقك الدم العزيز الذي لم يذلّ منذ ألفي سنة، فأهبت بجمعية الأمم، وناديت حماة السلام. فلما لم تجد منهم مجيباً، صرخت في شعبك أن خذوا السلاح وتأهبوا للموت، فإن في الديار لصوصاً متمدنين، من أحفاد كافور وغاريبالدي ودانتي ورفائيل. . . يريدون أن يسرقوا حياتكم وحريتكم وبلادكم!
فهبوا للنضال. . . ولكنهم سقطوا شهداء، أمام وحشية المدنية، وجهالة العلم، وذئبية الإنسان!
لا! إنك لم تنهزم ولم تغلب، ولكن غلبت المبادئ يا أيها الإمبراطور العظيم، وانهزمت الفضيلة، وديس الحق، وأفلست مدنية القرن العشرين!
إنك لم تنهزم، وإن الطليان لم يمتلكوا أرض الحبشة، لأن العصر عصر الأمم لا عصر الملوك، وقد استسلمت أنت مرغماً للقضاء، ولكن استسلامك للقضاء، وتركك أرضك للأعداء، لا يسلم أمتك إلى الفناء. إن هذا الشعب الذي عاش حراً عشرين قرناً، لا يستسيغ الاستعباد في عشرين شهراً، ولا في عشرين سنة، وإنه سيجاهد ويناضل

ويقاوم ويقاتل، ما بقي فيه شخص واحد يمشي على أرض الحبشة. ويسمع صراخ الأجداد من أعماق الثرى. . . وأعالي السماء. . . تدعوه إلى إنقاذ رفاتهم من نعل الأجنبي الغاصب أن يطأها ويعبث بها؛ وأن الغالبين قد يملكون اليوم الدساكر والقرى، وينشئون القلاع والحصون، ولكنهم لن يمتلكوا القلوب، ولن ينشئوا فيها الحب، وهاهي ذي طرابلس، بل هذه هي الأندلس:

ألم تسمع أيها الإمبراطور باسم الملك الطريد أبي عبد الله الصغير، ذلك الذي كان ملك الأندلس، وسيد غرناطة، وصاحب الحمراء، سليل الملوك الذين جعلوا الأندلس جنة الدنيا، ومدرسة العالم، ومشرق أنوار الحضارة؟ لقد خدعوه كما خدعوك، فأعطوه العهود والمواثيق، وأقسم عليها ملوكهم وسادتهم، وشهد بها أعاظمهم وأشرافهم، وصدق عليها البابا أمين دينهم وسيدهم على أن يدعوا له قصوره ودوره وأمواله وجواهره، وحكمه وسيادته، وعلى أن يتركوا قومه أحراراً في عبادتهم وبيوتهم ومعاملاتهم وتجارتهم، وأن يكفلوا لهم راحتهم وهناءتهم وأموالهم وأمتعتهم؛ فلما ملكوا أخرجوا الملك من أرضه وبلاده، فرأى لآخر مرة شرف الحمراء، وجنان العريف، وجبل شلير، ثم مضى تتغلغل به السفينة في أمواج البحر، وصورة الأندلس تنأى وتبتعد، حتى توارت وراء الأفق، فخرجت من حيز الواقع لتدخل في حيز الذكرى، ولتكون أمنية في نفس كل مسلم، يوصي بها السلف الخلف، ويأخذ منه العهد على استرجاع (الفردوس الإسلامي المفقود)، وعمدوا إلى مسلمي الأندلس، فأخذوا مساجدهم، وأحرقوا مكاتبهم، وفيها ثمرة العقول البشرية منذ مطلع التاريخ إلى ذلك العهد، ليتلهوا بلهيبها في ليالي انتصارهم، وأنشئوا لهم محاكم التفتيش لتدخلهم في النصرانية قسراً، وتحرقهم أحياء، وتعذبهم عذاباً لا يتخيله إنسان. . .

وهاهم أولاء الأندلسيون بعد أربعمائة وخمسين سنة، وبعد احتمال أهوال لا يحتملها بشر، وبعد أن تنصروا جميعاً، لا يزالون ذاكرين عربيتهم معتزين بها، ولا يزالون يحاولون الرجوع إلى الأم العربية الكبرى؟

أفتلين الحبشة التي لم تزل عزيزة، وتندمج في الطليان في أيام معدودات؟

أجل أيها الإمبراطور! إن الحبشة لم تنهزم، ولكن انهزمت جمعية الأمم، وذبحت مبادئها في الحبشة، كما انهزمت الحضارة ومحيت أعلامها في الأندلس!

إن جمعية الأمم لم تكن أوثق عهداً من البابا، وإن موسوليني لم يكن أرقى من فرديناند، وأن الطليان ليسوا خيراً من الأسبان، وأن القرن الخامس عشر ليس شراً من القرن العشرين. . .

أما أنتم يا كتاب التاريخ فسجلوا:

(لقد كانت حادثة الحبشة فضيحة القرن العشرين!)

(دمشق)

علي الطنطاوي

سأجيء هذي الدار

للأستاذ فخري أبو السعود

البدر فضَّ غياهب الديجور ... وأذابَ لجة بحره المسجور

أَصْفى على وادي المنية روعةً ... من صَوْبِ ضوء سال كالبَلَّور

فازدادت الأجداث فيه مهابة ... لمّا انجلتْ في نوره المنشور

قَرَّتْ، وقَرَّتْ سامقاتٌ حولها ... عُطِّلْنَ من نَسَمٍ وسَجْعِ طيور

فَكأنها في صمتها ومُثولها ... أشباحُ وادٍ نازحٍ مسحور

وأَوَى الظلامُ إلى خرائب منزل ... خلف القبور مهدَّم مهجور

مُقْوٍ من الأحياء والمَوْتَى فلا ... هو في القبور يُرَى ولا في الدور

وأتيتُ متَّئِدَ الخُطَى متأنّياً ... أنْسَلُّ بين حفائرٍ وقبور

أَجتازُ في وادي المنون مُطَهِّراً ... للنفس فيه أيَّما تطهير

متذكِّراً فيه وكم مِنْ عِبرة ... لمنِ ابتغَى فيه ومن تذكير

حيثُ الصعيدُ جماجمٌ ومعاصمٌ ... وجِبَاهُ صُيّابٍ وأعيُنُ حُور

حيث انطوتْ سِيَرٌ خَوَالٍ وانتهتْ ... أشغالُ أجيالٍ وحربُ عصور

وخَبَتْ معاركُ لم يكَفكِفْها سوى ... حملاتِ جيشٍ للحِمام مغير

وخَبَا ضِرَامُ محبَّةٍ وعداوةٍ ... وهمومُ أفئدة وداءُ صدور

أسْتَخْبِرُ الأجداثَ عما استُودعَتْ ... من كلِّ منخوبٍ بها منخور
ماذا صنعن بفاتنٍ ومنعَّم ... وجليل شَيْبٍ جاءَها وصغير؟
كم غَيَّبَتْ من كان مَطمَحَ مُهجةٍ ... ومناطَ آمالٍ وعَقْدَ أمور
طَوَتِ الأليفَ فإذْ بَكاهُ إلْفُهُ ... ثَنَّتْ برَبِّ المدمع المنثور
سأَجيء هذي الدارَّ يوماً لاحقاً ... مَن غادَرُوا بالقلب بَرْحَ سعير
ومُخَلِّفاً بَعدي حزيناً موجَعاً ... يبكي بدمعٍ للفراق غزير
يبكي وما عبراتُه في أوْبَتي ... بالشَّافعاتِ ولا الرَّدَى بعذير
وتَقَرُّ في تلك الغيابة أعْظُمي ... مِن بَعْدِ كَدٍّ دائِبٍ مكرور
يَسْلُو بها قلبي قديمَ مآربٍ ... كانت وينزع عن أسى وحبور
غفلان عن سالٍ لذكرى جامدٍ ... أوْ جائدٍ بفؤَاده المفطور
ويُطل ذاك البدرُ فوق زاهياً ... يجلو سناه غياهبَ الديجور
فخري أبو السعود
نشيد الأستاذ محمد فضل إسماعيل
وهو الرابع الذي نال إحدى الجوائز
مَهِّدُوا لِلْمُلْكِ أَبْرَاجَ السَّماءْ ... وارفعوا في ساحةِ المَجْدِ اللِّوَاءْ
واسْمَعُوا من جانب النيلِ النِّدَاءْ ... مصْرُ للمصريِّ قلبٌ وجَنَانْ
نحن أبناءُ الأُولَى ... طاوَلوا مُلْكَ الشُّهُبْ
قد خطَوْنَا للعُلاَ ... فوق أعناق الْحِقَبْ
مجدُها باقٍ عَلَى مَرِّ الدهورْ ... خَلَّدَتْه في حناياها العصورْ
في جلالٍ ناطقٍ بين الصُّخورْ ... حَيَّرَ الدنيا على مَرِّ الزمانْ
. . . . نحن أبناءُ الأُولَى
لاَ نَهَابُ الموتَ فانظر يا قَدَرُ ... كيف لا نهتَزُّ يوماً للغِيَرْ
نحن شَعْبٌ مِلْءُ وَاديه الخطَرُ ... خاضَ للعَلْيَاءِ لُجَّ المَعْمَعَانْ
. . . . نحن أبناءُ الأُولَى
قد تآلَفْنا على حبِّ البلادْ ... فانْطَلَقْنا في ميادينِ الجهادْ
نُشْهِدُ الأَرْضِينَ وَالسَّبْعَ الشِّدَادْ ... أَنَّ لِلأَهْرَامَ عِزّاً لاَ يُهَانْ
. . . . نحن أبناءُ الأُولَى
دينُنا في مصرَ مَوْفُورُ الجلالْ ... ليس معناهُ صليبٌ أو هلالْ
إنما معناه مُتْ يومَ النِّضالْ ... بِئْسَ مَنْ يَحْيَا كما يَحْيَا الجبانْ
نحن أبناءُ الأُولَى ... طاوَلوا مُلْكَ الشُّهُبْ
قد خطَوْنا للعُلاَ ... فوق أعناق الْحِقَبْ
صوتَ مَنْفِيسٍ يُدَوِّي كالرُّعودْ ... هَيِّئُوا للنِّيلِ مَجْداً في الخلود
فابْتَنَيْنَا مثلَ بُنْيَانِ الجُدُودْ ... كَعْبَةً للنُّبْلِ في أعلَى مكانْ
. . . . نحن أبناءُ الأُولَى
فاجرِ يا نيلُ بِوادِيكَ الأمينْ ... إنَّهُ وحْيٌ منَ السّحْر المبينْ
تاجُهُ في الدَّهْرِ وضَّاحُ الجبينْ ... ينحَني في جانبيه النَّيِّرانْ
. . . . نحن أبناءُ الأُولَى
واسقِنا يا نيلُ من نَبْعِ الحياهْ ... أنْتَ للأوطان جاهٌ أيُّ جاهْ
يَسْتَمِيتُ الشّعْبُ حُبّاً في عُلاَهْ ... من شبابٍ أو كهولٍ أو حِسانْ
. . . . نحن أبناءُ الأُولَى
حولك الغُرُّ المَيَامِينُ السِّماحْ ... يدفعونَ الضيمَ من كلِّ النَّوَاحْ
فاجرِ يا نيلُ وفِضْ بين البِطاحْ ... أنْتَ والكوثَرُ فيها تَوْأَمَانْ
. . . . نحن أبناءُ الأُولَى
قد وقَفْنَا في ثباتٍ كالجبالْ ... في صُفُوفٍ صَدْعُها صَعْبُ المنالْ
صوتُنا يمْلأُ آذانَ اللّيالْ ... مصْرُ للمصْرِيِّ عاشتْ في أمان
نشيد الأستاذ محمد الأسمر
هيا بنا إلى الأمامْ ... هيا بنا هيا بنا
المجد في الدنيا زحامْ ... فزاحموا نحو المنى
واسعَوْا إلى خير الوطن

يحيا الملك. يحيا الوطن ... يحيا الملك. يحيا الوطن
نحن الحياةُ للبلادْ ... ونحن في مصر العلَمْ
إذا دعا داعي الجهاد ... كنا بها أسد الأجمْ
نذود عن أرض الوطنْ
يحيا الملك. يحيا الوطن ... يحيا الملك. يحيا الوطن
يا مصر يا كنز الوجود ... نحن على الكنز أسودْ
ونحن أمثالُ الجدود ... نفني ونعطيك الخلودْ
يا مصر يا خير وطن
يحيا الملك. يحيا الوطن ... يحيا الملك. يحيا الوطن
هيا بنا إلى الأمام ... هيا إلى الذكر الحسن
فنحن من بين الأنام ... تاجٌ على رأس الزمن
ونحن روح للوطن
يحيا الملك. يحيا الوطن ... يحيا الملك. يحيا الوطن
هيا بنا، هيا بنا ... نبني الخلود والبقاء
نبني ونرفع البنا
المجد في الدنيا لنا ... لما بنى الله السماء
بنا لنا مجد الوطن
يحيا الملك. يحيا الوطن ... يحيا الملك. يحيا الوطن
منظر النيل الأزرق في بعض بلاد السودان
للأستاذ عبد الله عبد الرحمن
أي حسن تراه لم يحرز النيـ ... ـل وأي الجمال إلاّ لديه
رفَّ فيه النبات حتى كأني ... من وراءِ النبات أرنوا إليه
وكأنَّ المياه صفحة خدّ ... وكأنَّ الظلال شامٌ عليه
وكأن الدخان من جانب الـ ... شطّ مشيب يلوح في عارضَيه
يتلقّى الأديب منه قوافي الـ ... شعر رقراقة على حافتيه
وعلى متنه كهارب قامت ... تبهر الناظرين واللّيل قاتم
كسيوف مجردات على الما ... ء مواض له من البرّ قائم
نازعتني أقول فيه القوافي ... نفس حر إلى الجمال نزوعَهْ
فتمشيت والهواء عليل ... غير ما ناقل خطاي السريعة
وظلال الجميز والطلح والسد ... ر تَرَامى على المروج الوسيعة
ووجوه النبات تحلو وتبدي ... صوراً للحياة كانت بديعة
ليس أدعى إلى السرور كروض ... خلعت حسنها عليه الطبيعة
فإذا ما دنا المغيب تدانت ... من صنوف الطيور شبه الغمائم
رائحات إلى الوكور ولكن ... هل تقيها الوكور كيد ابن آدم
(الخرطوم)
عبد الله عبد الرحمن
القصص
هواجس
بقلم حبيب الزحلاوي
بقية ما نشر في العدد الماضي
أكثر ليلي الصيف في مصر مقتطعة من فراديس النعيم لعشاق اللهو والاستمتاع يا لله!! كم ليلة قضيناها على شواطئ النيل نستمتع بانسياب أمواهه الهادئة، نشاهد مثاوي الأشباح تحت ظلال النخيل، نراقب أنوار المدينة ونجوم السماء تتناقص وتنطفئ وتتلاشى على بساط الفجر وإشعاع الشمس
يا لله! كم ليلة سمعنا فيها أغاني أم كلثوم وصوتها العذب الحنون! وكم أصغينا إلى نشيج محمد عبد الوهاب وأنغامه المسترخية المستلينة، وكم لمسنا فيها تفاعل الإغماء والتماوت، لقد شهدنا على المسارح تمثيل القردة المقلدين واسترعى انتباهنا ممثل هزلي بارع، إحساسه في وجهه، وعقله في نظرات عينيه، وبراعة فنه في إيمآته وسكونه، هو ذا نجيب الريحاني المطبوع على الفن

كم ليلة فيها جسنا فيها حلقات الأدب، ومجالس العلماء، و (بعكوكة) الظرفاء وصالات المتأدبات، لقد كانت الرغبات هي كل شيء في عرف صديقتي أنيسة تدفعها إلى معرفة كل شيء، وكانت تقول: (متى انقطعت الرغبات انقطع حبل الحياة معها، وتجزم بأن من يتعمل قتل رغبات نفسه كان كمن يحاول الانتحار) كانت تعرف الرغبات الجوالة في صدور الساسة (بأنها تقدير لما تحتاج إليه النفس الإنسانية الكبيرة) وتقول: (لا خير في جهود تبذل إذا كان رجل السياسة يعجز عن إدراك رغبات مواطنيه وحاجاتهم) وقالت عن المصريين: (إنهم كشعب، يعرف جيداً كيف يفرح ويحقد، ولكنه لا يعرف أبداً كيف يغضب وينتقم) لقد قالت لي صديقتي عن مجالس النساء والرجال قولاً ظريفاً فيه مداعبة ومفاكهة، ولذعات وسخرية قالت: (إنه قد يعسر عليها إيجاد رجل واحد خليق بأن يسمى رجلاً بين مائة ممن لقيتهم من الأدباء والعلماء والكتاب والسياسيين، وأن المرأة المصرية ليست إلا أنثى)، وكانت تضحك من الشبان المستكرشين والصبايا المترهلات وتقول: (إن الرياضة تعلم الشباب الاعتداد بالذات)

شيطان صديقتي شيطان ذكر، نبت في الشرق وتمرد في أمريكا فصير صاحبته كعصير العنب المستقطر بالبيانسون فائدته في قتله بالماء، وهكذا متى عادت صديقتي إلى أمريكا سيتذوق الأمريكان خمرة معارفها ويستوعبون عمق وعيها وإدراكها وواسع اطلاعها، وقد مزجت ثقافتها الأمريكية بروح شرقي خاصته الإلهام والفيض

لقد عرفت نفسية صاحبتي تصغي إلى كل نأمة، تستوعب الكلمة والغرض، تلمح البادرة الخاطفة، تدرك مرامي النكتة، تقيد شوارد الفكرة وهمسات الفؤاد وسبحات الأحلام، تسمع ولا تتكلم كغالب السوريين، ولكنها متكلمة يطيب لها الحديث تحلل فيه ما سمعت وتنقد ما رأت، على ضوء كأس من الويسكي (كناديان) وسيجارة أمريكية لا تنطفئ من ماركة (لكي ستريك)

علقت الويسكي وأدمنت التدخين، فكانت تصدني عن الأول لو حاولت شرب كأس قبل الطعام، ولا تسمح به إلا بعيد منتصف الليل، لأنه يعاون الجسد على الاستغراق في النوم، وتستكثرني من التدخين، لأنه يجلي البصيرة على رقصات الدخان وتلاعب تموجاته

شهران من شهور الصيف كانت لياليهما لنا ريادة استكشفنا بها أشياء كثيرة، منها أغاني الرمال وأنغامها في الصحراء متى داعبها النسيم أو عصف الريح، جثوم أبي الهول عند أقدام الأهرام، هدير النيل في الشلال وعظمته في القناطر الخيرية، في غابات النخيل المتكاثفة في كثبان الرمل، وقد رأينا أشياء كثيرة في النهار من معالم مصر كقبور الفراعنة ومخلفاتهم الباقية على الدهر، والجوامع والأديرة والمدافن وسواها مما لم يحفزني حافز من قبل إلى مشاهدته

شهران كانا لي رياضة نفسية عجيبة كنت أتمرن في خلالها على الاستنباط من لوحة ذكريات الطفولة، صوراً بريئة أعرضها على مجهر خيالي وقد استفاق على المعرفة، والبحث عن المعلوم والمجهول. يا لله من اصطدام الطفولة البريئة بالرجولة المحنكة، من قوة العقل تكبح جماح طفرة النفس، من صعوبة سيادة الملكات الإنسانية المكتسبة على نزوات الطبيعة الوحشية، من همهمات ملائكة الضمير على وسوسة الشيطان الرجيم. . . . . !!

وقفت قبالة عربة القطار المقل لصديقتي أنيسة عبر حدود مصر وقفة سهوم وفتور، بل وقفة الكلف الولوع المكتوي الفؤاد، أخاف الفراق وأفرق منه لأني سأصبح مضطرب الخيال، فريسة الوحشة، يتيم الروح. ولما هم القطار متثاقلاً في حركته، كان الألم المكبوت يوشك على الانفجار، ولكنه تحول دموعاً انهمرت سخينة على يد صديقتي وقد قبلتها لأول وهلة

رفعت ذراعي ولوحت بها في الفضاء، غير أن الصور اختلطت علي وغاب القطار من لي بمن يعبر عما كان يتجاوب في صدرها من حنان وحب؟ من لي بمن يعبر عن نظراتها هل كان يغشاها طيف حزين، أو هي فاترة ساهمة؟ من لي بأفاك يضحك مني فأصدق تقوله إنها استسلمت للأسى والمرارة كما استسلمت أنا، وأن أحلام سعادتها قد انتعشت من جديد كما انتعشت أحلام سعادتي بأمل ورجاء؟!

لا. . . . لم يعد بي حاجة إلى متقوّل يضحك مني إرضاء لضعفي الطارئ المستحب، لم

تعد لي بالاستهواء الذاتي فائدة لأني قدرت، بعد انقضاء أيام من الألم المضني، أن البرزخ الفاصل بيننا متعذر العبور، ولكن شيئاً جديداً أعاد إليّ رجائي، أحيا فيّ أملي، لقد أخذت كتب صديقتي تصلني تباعاً كل أسبوع، في كل شهر، فيها التوضيح والتبسيط لكل خلجات عواطف المرأة التي تعرف كيف تعبر عنها تعبيراً صحيحاً في حالة الانغماس فيها أو في حالة القدرة على وصفها بالكتابة، أما الفصول القيمة التي كانت تنشرها في المجلة الأمريكية ففيها من التفصيل الدقيق لذاتية الأديب الفنان الذي يتخذ من المشاهدات الواقعية والذاتية ومن الخلجات العاطفية أداة للخلق والابتداع

صارت خطاباتها على مر السنين مصدر وحي لي فياض بخصائص الحياة وعناصر الرغبة فيها، كنت أستلهم سطورها أدق المعاني وأبرع التصورات، وأشعر بسحرها يغشاني فتشرق نفسي لأنه كان كنغمات بعيدة عميقة لصوت حالم طروب حملها الأثير من جوف وادي الظلام!! إلا أنه حدث ما لم أكن أتوقعه، حدث أن جاءني كتاب منها تقول فيه أن أكف عن مراسلتها كما أنها ستنقطع عنها ريثما تعالج من مرض ألم بها في إحدى المصحات وتدعوني إلى الصلاة لأجلها، أو أبكيها بدمعة واحدة إذا استنزف الداء حيويتها!!

عام طويل أجوف كأنه دهر من العدم حاق بي من كل جانب كنت فيه كالمشلول خولط في

عقله، لا هو من الأحياء فينفع ولا هو بميت فيدفن. أما الآن فحمداً لله، فقد كتبت لي صديقتي تقول إنها استعادت عافيتها وبرئت من علتها فتخلصت أنا من التأرجح بين العدم والوجود، وشفيت من تقلبات النفس وانفعالاتها العكسية. . .

وانتصب واقفاً وقال: لقد دعوتكم الليلة يا رفاق صباي وعشراء كهولتي لأفضي إليكم بما كان بي من هواجس، وأعترف لكم اعتراف المثقل بالفرح، فهيا نشرب كأساً من الشمبانيا تبرد اليد المتقدة الممسكة بقلبي منذ عام، وقد أفلت من مقابضها اليوم لم يتقدم واحد للشراب بل قال قائل: هل لمثلك وقد جاوزت الخمسين من عمرك أن يستغرقك الحب ويرديك في مهاويه؟ وقال آخر: ليس ما كان بك هو الحب، إنما هو أنانية أشعلت نارها امرأة مكبوتة حساسة عاشت على الحنين إلى الماضي في بيئة غريبة عنها. وقال الثالث: إن ما كان بك يا عزيزي هو حرمان أخرس حلت الفرحة المفاجئة عقلة لسانه فصرخ صرخة الوداع!!

وقال الرابع: لقد أنطقتك الخمر بما كان يجب السكوت عليه، وتبخرت اعترافاتك هذه نشوة سوف لا تلقاها بعد الآن. وعاد الأول فقال: لقد كان الخيال البعيد يشعرك بالذكرى المفقودة فكنت تتعمد إثبات وجودها بكأس كنت تشربها في وقت معين، وبسيجارة كانت تصور لك مرائي الماضي الضائع، وتخيلات تلك الليالي الهاربة من أجواء أحلام الشعراء، أما الليلة فقد بددت كل شيء، بددت كنز وجدانك، لأن رجل الحياة هو الذي يحب ويتعذب ويموت فلا يشتكي ولا يبكي، وقال آخر وهو يلوح بيديه ويلوي عنقه وشفته: ما هو الحب؟ أليس هو. . . أليس هو؟؟؟

لا. لا يا أصدقائي، ليس الأمر كما تتوهمون، ليس الحب ما تقول أنت يا صديقي، وأشار إلى المتكلم الأخير، إنما هو شعور بالحياة ووسيلة فعالة تصقل المدارك فتجعلها تتبصر وتتفقه المعاني لجمال الحياة، لا بد للرجل الحي من شعور سام بالحياة، فالحياة نفسها تسعد بالحب السامي. إن ما تمنحه المرأة للرجل عفو النزوة الطارئة أو الرغبة الطائشة أو المتعة الخاطفة إنما هي منحة متبذل يضع احترامه تحت أقدام الرجل. الحرمان لرجل الشهوة شواظ كومة قش مشتعلة، وللمرأة المسؤولة حنان مدفون لذيذ وعطف دائم، مستحب. الحرمان للرجل المثقف إنما هو مراء ومشاهد، وأنغام وألحان، أطياف وظلال لخيالات

المثل العليا التي تتخيلها روحه العظيمة وشاعريته الحساسة التي تلد وتنجب وتخلق وتبتكر

إن حقيقة بواعث ذلك الحب إنما هي بذرة الغريزة ألقتها الطفولة البريئة اعتباطاً عندما استبدلت الرمانة بتفاحة ودست صورة العذراء في محفظة الكتب، وقد أنتجت على كر السنين تقارباً يضارع انحدار الكهل في سلم الحياة ليلاقي الطفولة من طرفه الآخر، وهذا الانحدار يشبه طرفي قوس يتقابلان، ولا يتقاربان ويتماسان إلا إذا

انكسرت القوس!!؟
انطلقت حنجرة أحد السامعين بضحكة كبيرة وقهقهة عالية كأنها صوت حجر الطاحون وقال: فلسفة مخمورة وهواجس سكرى هي ما تقوله أيها الصديق. ولله إني لأعجب من تخبطكم جميعاً في الحب وتكلفكم ابتداع صور له تشوه وجهه الحقيقي، الحب أيها السكارى نداء جنسي. الحب أيها المتفلسفون تجاوب غريزي لنداء الجنس. وإن كل ما تختلقه خيالاتكم وتبتدعه عقولكم إنما هو وصف مبرقع لحقيقة العلاقة الجنسية التي تأنف من البراقع

حبيب الزحلاوي

العالم المسرحي والسينمائي

الممثل والمخرج المصري كما يراه بعض الفنانين الأيرلنديين

(رد على حديث لمجلة الرسالة)

للأستاذ زكي طليمات

تفضل ناقد (الرسالة) الفني فنقل في أحد الأعداد الماضية حديثاً عن المستر هيلتن إدواردز مخرج فرقة (دبلن جيت) الأيرلندية التي عملت بمسرح الأوبرا الملكية في نهاية هذا الموسم، حديثاً تناول فيه الممثل المصري والمخرج المصري بما تراءى له بعد أن شهد رواية (السيد) التي مثلتها أخيراً الفرقة القومية المصرية بدار الأوبرا فعن الثناء والنقد الذي خص به هذا النفر من الممثلين والممثلات أقدم للمستر إدواردز شكري الخالص؛ وكنت بدوري أود لو أتيحت لي فرصة التمثيل أمامه لأسمع رأيه فيما أقدمه، وأتعرف مواطن الأستاذية أو الضعف في فني، إذ لكل مفتن، مهما بلغ شأنه في فنه، نواح لا تخلو من المآخذ

أما عن المخرج المصري، وقد خصني المستر إدواردز بالذات، فأرى لزاماً عليّ أن أتقدم إليه ببضع كلمات إقراراً للحقيقة التي ننشدها جميعاً، وكشفاً لبعض بواطن الأمور التي أصدر فيها المخرج الأيرلندي حكمه على مظاهرها دون اضطلاع بالظروف والملابسات التي أحاطت بإخراج رواية (السيد)

المذهب الواقعي والمذهب الإيحائي

كان أبين ما أخذه عليّ المستر إدواردز أنني أتبع طريقة المذهب الواقعي في إخراج الرواية ورسم مناظرها وأستارها. وهذا المذهب يحتم بقدر المستطاع نقل مظاهرا لحياة كما هي بتفاصيلها العادية وتفاهتها الحقيرة، ونعى على أنني لا آخذ فيما أعمل بالمذهب الإيحائي وهو المذهب الذي ساد فنون الرسم والنحت والتصوير جاعلاً من مظاهرها فناً مركزاً ينبو عن محاكاة الطبيعة كما تراها العين المجردة أو عدسة الكاميرا، على حين أنه يجمع من الأشياء خصائصها الرئيسية التي توحي بالجزيئات والتفاصيل، وتبعث مخيلة الرائي على استكمال ما أنقصته عمداً يد المفتن

ثم ساد هذا المذهب أيضاً فن الإخراج المسرحي فجعل من مظاهره المادية (وهي الأستار والملابس والإضاءة)، ثم من مظاهره النفسية (وهي إلقاء الممثل وإشاراته)، فناً يجنح إلى البساطة الموحية الغنية، ويميل إلى التركيز بل يهوي أحياناً إلى مقاربة الفن الرمزي من حيث المغالاة في التفسير بالرئيسيات عن الجزيئيات والدقائق

وكانت هذه النقلة من جراء تقدم فن الفوتوغرافيا ثم فن السينما الذي جعل كل محاولة من جانب المخرج المسرحي في نقل الطبيعة ومحاكاتها على المسرح ضرباً من السخف ولوناً من الهزل الفني الذي يجب أن يترفع عن إتيانه كل متفنن يتأثر بروح العصر ومزاجه العام

وغالى بعض المخرجين في توليد هذا المذهب، ولاسيما بعد أن نزلت بفن المسرح كارثته الأخيرة، وكسبت السينما النصر في استمالة الجمهور فجعلوا من المناظر المتعددة في رواية واحدة منظراً واحداً يشيد بحال يمكن المخرج من تمثيل كافة مشاهد الرواية في أقسامه المختلفة مع إضاءة القسم الذي يجري فيه تمثيل المشهد وإبقاء الأقسام الباقية في الظلام؛ هذا مع الاستعانة ببعض الأستار الجزئية أو الأثاث والمهمات، حتى لا يتصدع ما يصح أن (تعقله) عين الجمهور وحتى لا تصدم مخيلة النضارة بما يخرج على المنطق الإيحائي الذي هو الباعث الأساسي لشهوة الجمهور المثقف على تذوق هذه اللذة الفنية، لذة الإيحاء واستساغتها

وقد عمد المخرجون، ولاسيما الإنجليز منهم والألمان، إلى هذا الاتجاه الفني، وهو ليس

بالفن الجديد لأنه عرف على حالة أولية في مسارح القرون الوسطى بأوروبا وفي المسرح الإنجليزي في عهد شكسبير والملكة اليصابات؛ عمدوا إلى ذلك بعد أن أفلس المذهب الواقعي الذي عمدته في فرنسا، وفي الروسيا، في محاولة إنقاذ المسرح بعد أن اكتسحته (الكاميرا) مستشعرين قصور ميكانيكية المسرح على تقدمها الأخير عن بلوغ الشأو الذي قطعه فن السينما في إيراد مناظر لا حد لها ولا نهاية بأيسر الوسائل وأقل التكاليف

وأرادوا بهذا أيضاً، وهو الصميم، أن يقدموا للنظارة لذة ذهنية جديدة غير تلك التي يقدمها فن السينما القائم على تعدد المناظر والعرض الواسع ومحاكاة الطبيعة في أدق مظاهرها، لذة أساسها التخيل واستثارة الخاطر وإشعار النظارة لذة التوليد مما هو مركز، وجمال

الكشف عما هو مغلق أو يكاد. وأصابوا التوفيق لدى الجمهور المثقف المشحوذ الخاطر، ولاسيما الجمهور الإنكليزي الذي يحمل في آدابه تقاليد المسرح الشكسبيري وقد أطلق المخرجون الفرنسيون على هذا النوع من المنظر المركز اسم

وليعذرني المستر إدواردز إذا أنا لم أسهب أكثر من ذلك لضيق المقام، ولأن الأكثرية الغالبة من القراء لا يأبهون ولا يتذوقون الكلام في هذه الفنون الغريبة عن آدابهم القديمة والحديثة، ولكنني أذكر له أنني قرأت ما كتبه المخرج الإنجليزي الفقيه (جوردن كريج)، والألماني (رينهارت)، والفرنسيان العبقريان (كوبو) و (جيميه)، والأخير هو أستاذي في مسرح الأوديون، وقد شاهدت مآثر فنهم واتجاهاتهم الحديثة في الروايات التي رأيتها في لندن وبرلين وباريس

بعد هذا أعترف بأنني لم أعمد إلى المذهب الإيحائي المبالغ فيه وهو المذهب الذي تبعته الفرقة الأيرلندية في إخراج روايتي (هاملت) و (روميو وجولييت) على مسرح الأوبرا، لأنني أعلم، وأنا مصري وأعمل للمسرح منذ خمسة عشر عاماً، أن الجمهور المصري، بحكم مزاجه العام، لا يتذوق هذا الاتجاه الفني، بل ولا يستطيع أن يفهمه، بل إنه ليرى فيه ضرباً مما يخالف المعقول، وذلك بحكم أنه جمهور غير مثقف في أغلبيته تثقيفاً فنياً كاملاً، ولأنه جمهور (لاتيني) من حيث ثقافته

وإذا كان المخرجون الإنكليز والألمان أكثروا من استعمال هذا الصنف من المناظر فلأن ثقافتهم من (الشمال)، وثقافة (الشمال) يعلوها الضباب والسحاب، وليس فيها وضوح الثقافة اللاتينية التي قامت في بلاد البحر الأبيض المتوسط، حيث وهج النهار يكشف عن دقائق المرئيات. وإذا كان الجمهور الإنكليزي يرتاح إلى مشاهدة هذا النوع من الإخراج فلأنه جمهور شكسبير وجمهور المسرح الثابت الستار الذي تجري في ساحته الواحدة معارك القتال ومعارك الغرام وغيرها؛ ويكفي أن يرمز لكل منها بلوحة مكتوبة حتى يستقيم المنطق لدى النظارة وحتى ينزو كل خاطر من كمينه

وفوق هذا، وعلى اعتبار أن الجمهور المصري يفهم ويستسيغ هذا النوع من الإخراج، فإنني ما كنت لأخرج رواية (السيد) وفاقا لما يراه المستر إدواردز ويعتبر أنه قطرة العطر المختارة في سائر وسائل الإخراج، لأنها رواية من صميم الأدب الكلاسيكي، ولأنها من

الأدب اللاتيني القائم على الوضوح والبساطة، ولأنها رواية أساسها (الكلم) لا العرض والمستر إدواردز يعرف حق المعرفة أن المخرج الحق، المخرج الذي لا يقدم الشيء الغريب ليعرف بالغرابة، مقيد بروح الرواية وبنوعها الأدبي، ومن هذا المصدر يستوحي الاتجاه الفني ويتخير وسائله في الإخراج، ولاسيما فيما هو خاص بالإطار المادي الذي تبرز فيه الرواية وأعني به فيما أعني مناظر الرواية وأستارها

إذن فليسمح لي المستر إدواردز بأن أقول إنه تسرع في حكمه قبل أن يتعرف ذوق الجمهور المصري، وإنه من أولئك النفر من المخرجين الذين يريدون أن يجعلوا من فن الإخراج فناً قائماً بذاته لا يحفل بروح الرواية ولا يحترم إرادة مؤلفها ولا يأبه بمكانها من الاتجاهات الأدبية؛ وأننا أربأ به عن هذا النفر ذي السمعة المعروفة، وأقول، محسناً الظن بنقديه، أنه أخذ علي في الإخراج وسيلة لا يميل إليها شخصياً

أما أنني خرجت على المذهب الإيحائي البسيط الذي يستطيع أن يتذوقه الجمهور المصري، والذي يماشي روح الرواية، فأمر لا يقره الواقع؛ فالمستر إدواردز قد شاهد بعينيه أنني ركزت على جانبي مقدمة المسرح عمودين من النمط الذي كان شائعاً في

القرن الحادي عشر، وهو عصر الرواية في إسبانيا ' عمودين يجمع بينهما (قبو) لا يرى النظارة منه سوى بدايته فوق كل عمود، على حين أنني لم أكمل الباقي وأسدلت ستارة من العلاء يغطي ما تعمدت إخفاءه، وذلك بقصد الإيحاء عمودين لا يحملان في قطعهما وتصويرهما جزيئات الحقيقة، بل يبدوان وعليهما أهم مميزات النمط، وذلك نزولاً على مبدأ المذهب الإيحائي الذي أنا أول من قدمه في مصر، ولاسيما في روايتي (تاجر البندقية) و (أهل الكهف)

وبذلك أحييت الصبغة الزمنية والمحلية بأسهل الوسائل

كذلك عمدت إلى الأستار المخملية ذات اللون الواحد لتمثيل حجرة ابنة الملك وحجرة (شيمان)؛ ستاران أحدهما رمادي والآخر بني اللون، يهبطان الواحد خلف الآخر وراء العمودين، واستعنت بالأثاث للتنبيه على الإيحاء في إحياء الصبغة المحلية، فكان أثاث حجرة شيمان من الفن الإسباني في القرن الحادي عشر، وكان أثاث حجرة ابنة الملك من الفن العربي باعتبار أنها من الأسلاب التي غنمها الأسبان من العرب بعد أن أكرهوهم على

الجلاء عن قصورهم

ثم كان المنظر الذي يمثل ساحة أو ربوة بجوار المدينة حيث يتبارز الكونت والدوق دياج؛ هذا المنظر قد رسم وفاقاً لصميم المذهب الإيحائي المتطرف، بل لقد أمرت المصور الذي رسمه بألا يتبع قواعد المنظور في رسمه؛ وكل هذا بقصد استثارة مخيلة النظارة ودفعهم إلى توليد لذة ذهنية تطالعهم بعد التفكير والإمعان

ولكن حدث بعد ذلك أن شاهد المستر إدواردز منظر ساحة العرش في قصر الملك وهو منظر يمت بحق إلى (المذهب الواقعي) ويحطم بحق أيضاً الوحدة المسرحية التي يجب أن تسود سائر مناظر الرواية، وكان أن صاح المستر ماك ليمور زميل المخرج الأيرلندي النابه بأن المخرج قد أخطأ!!!

نعم لقد أخطأت. . . ولكن ليس عن جهل بأيسر وبأولى قواعد فن الإخراج. وهنا أستطيع أن أروي ما قد يرسم ابتسامة الإشفاق على شفاه الزميلين العزيزين . . . المسألة وما فيها أن مصور المناظر لرواية (السيد) لم يتمكن من إنجاز هذا المنظر في الوقت المناسب، فاضطررت - أقول اضطررت - على الرغم مني، وعلى الرغم مما يعمر رأسي من فنون الإخراج، أن أستعير منظراً من مناظر دار الأوبرا الملكية حتى لا يتأخر تمثيل الرواية، وكان هذا الظرف المحرج الذي لم ينفع فيه علمي، ويصح أن أقول للزميلين إن مناظر الأوبرا لم تعرف بعد المذهب الإيحائي؛ وقد ضحك مني رئيس الميكانيستية حينما وضعت ستار المؤخرة في رواية (أهل الكهف) من القطيفة، على حين أن بقية أجزاء المنظر كانت من الإطارات المرسومة الملونة

إذن ليعذرني الزميلان، وكان يجدر بهما - وهذا ما آخذه عليهما - أن يتريثا في الحكم على زميل، وألا يصدرا هذا الحكم بعد مشاهدة رواية واحدة خذلت برغمي في الاحتفاظ بوحدتها المسرحية

وليعذرني أيضاً الزميلان إذ أن مصوري المناظر في مصر - ومن بينهم الأجانب - لا يعرفون شيئاً عن المذهب الإيحائي ولم يسمعوا بعد عن سائر الاتجاهات الحديثة من . . . و , ووإنني أجاهد معهم متعباً و

وإن البعض من الممثلين بل والنقاد، عدوا المناظر التي قدمتها في رواية تاجر البندقية وكلها إيحائية محضة، نوعاً من التمرين الأولي في فن التصوير والرسم مما يقدمه طالب بالمدارس الأولية

الإضاءة

يقول المستر إدواردز (أنني لم أقصد من الإضاءة إلا أن أكشف المناظر والممثلين للنظارة، وأنني لم أستخدم الإضاءة لغرض أو فكرة خاصة إلا في موقف واحد فقط بين (السيد) وحبيبته) ومجمل هذه الاتهام يناقض بعضه بعضاً، فهو يعترف أنني استخدمت الإضاءة لفكرة وغرض في أحد المواقف، ولكنني أهملتها في مواقف أخرى، أعني أنه يعترف بأنني أدري أن الإضاءة المسرحية ليس الغرض منها فقط إنارة المناظر والممثلين بل إحياء الصبغة النفسية لأهم عاطفة تجتاح المشهد، هذا مع خضوعها للمعقول وما يحتمه الزمان والمكان. وتكفيني هذه الشهادة، ويرفه عني هذا التناقض، لأن من يعلم أن 1 + 1=2 لا يرجع فيعطي نتيجة غير هذه!!!. يعلم المستر

إدواردز وقد شاهد الرواية - ولا أعرف ما إذا كان قرأها - أن كافة المناظر تجري في رابعة النهار ماعدا مشهدين أولهما في وسط الليل وثانيهما - وهو الذي أشار إليه - في أول هبوطه، وقد اعرف بدقة الإضاءة فيه
ماذا كان يريدني أن أعمل للإضاءة المطلوبة في باقي مناظر الرواية، وكلها تجري في النهار، أكثر من الإنارة التامة للمسرح؛ ثم غمر الأقسام الرئيسية التي يجري فيها أهم مشاهد المنظر بأشعة ناصعة تصبها مركزات للنور (بروجكتور) على جانبي المسرح، وذلك بقصد اجتذاب أنظار الجمهور إلى أهم النقط التي يجري فيها التمثيل!!!
أقول للمستر إدواردز إنني من المعجبين بتصوير المصور رامبراند وأعرف أننا معشر المخرجين الحديثين نستقي من طريقته في توزيع النور في لوحاته الخالدة، نستوحي أساليبنا في إضاءة المسرح، وفي هذا ما يكفي ليعلم أنني أعتقد في الإضاءة المسرحية وأراها مصدراً غنياً في الإلهام يستوحي منه المخرج، وأن الإضاءة المسرحية قد أخذت مكان المناظر في إحياء الصبغة النفسية، بل والمكانية أحياناً
بعد هذا أصرح أن ما قرأته في (الرسالة) عن لسان المستر إدواردز لا يخلو من قسوة ومن تحرج لا أظن أن نفسية مفتن من طرازه تنطوي عليهما!!
ولكن أحقاً قال ذلك المستر إدواردز وزميله؟ أم أن ناقل الحديث هو الذي قسا وتحرج!!!
لا يهمني كثيراً . . وأشكر لصاحبي الحديث ولناقله هذه الفرصة الغالية التي أتاحت لي أن أناقش وأحاور في فن أحبه كثيراً، وأود أن أتلمس مواطن الضعف مني في تأدية رسالته
زكي طليمات
خريج مسرح الأوديون بباريس وعضو جمعية المسارح الدولية
أؤكد للأستاذ زكي أني كنت أميناً في نقل الحديث بما فيه من رقة وقسوة
يوسف تادرس
البريد الأدبي
زجموند فرويد أيضاً
قرأنا في الصحف النمساوية الأخيرة طائفة من البحوث والنبذ الممتعة عن العلامة النمساوي الكبير زجموند فُرويدْ، فهو اليوم في الثمانين من عمره، وقد احتفلت الدوائر الرسمية والعلمية النمسوية بهذه المناسبة العلمية، وأقيمت للعلامة الشيخ عدة حفلات تكريمية، وحفلت الصحف النمسوية، وصحف العالم كلها بمختلف البحوث والمقالات عن حياته وعن مباحثه ونظرياته. وقد غدا فرويد منذ بعيد أستاذاً ومفكراً عالمياً يوجه بجهوده وبحوثه سير العلوم والمباحث النفسية والعصبية في العالم كله، وهو يعتبر اليوم إمام هذا الفن وحجته؛ ومن الصعب أن نتحدث عن حياة فرويد ومباحثه في مثل هذا المقام الضيق؛ وإنما نذكر بهذه المناسبة عنه نبذة خبرية فقط هي التي يتسع لها هذا المقام
فقد ولد فرويد من أبوين يهوديين في مايو سنة 1856، في فريبورج من أعمال مورافيا النمسوية، ودرس في فينا وباريس؛ ودرس القانون أولاً، ولكنه تحول عنه إلى العلوم الطبيعية، ودرس على الأستاذ (بريكة) علامة عصره؛ واشتغل في سنة 1884 طبيباً مساعداً في أحد المستشفيات الكبرى، وفي العام التالي درس مع الأستاذ شاركو العلامة الفرنسي في علم الأعصاب، وتلقى عنه بعض نظرياته في (الهستريا)؛ ثم عاد إلى فينا وبدأ مباحثه النفسية. وفي سنة 1895 أخرج فرويد مع الأستاذ بروير ثمرة مباحثه الأولى في كتاب عنوانه (مباحث عن الهستريا) وفيه شرح آراءه في أصل الهستريا وفي علاجها؛ واستمر فرويد في مباحثه النفسية والعصبية، وطلع على العالم في هذا الباب بآراء ومباحث مدهشة تمتاز بقوتها ومتانتها العلمية؛ وفي سنة 1900 نشر كتابه الشهير (تفسير الأحلام) ثم أعقبه بكتابه (التحليل النفسي والباتولوجي للحياة اليومية) - ثم بكتاب (ثلاثة مباحث عن النظرية الجنسية) وقد فتح فرويد بكتابه عن الأحلام فتحاً جديداً مدهشاً؛ وخلاصة نظريته أن تفسير الأحلام عامل هام في التحليل النفسي، وأن الأجزاء التي يتذكرها الذهن من الأحلام، إنما هي أعراض لنشاط العقل الباطن أثناء النوم، حينما تفقد الإرادة تأثيرها، ويقف سير الضابط الحسي. وقد

أثار فرويد بادئ بدء بنظرياته ولاسيما في باب التحليل النفسي والباتولوجي كثيراً من الخصومات العلمية، بل أثار سخرية بعض الدوائر؛ ولكنه صمد لهذه الخصومات، وصمدت نظرياته وبحوثه للحملات والآراء الخصيمة. ومن أشهر نظريات فرويد أيضاً أن الغريزة الجنسية تبدأ في الإنسان بمولده، وليس فقط عند البلوغ؛ وأن ما يعانيه الطفل من خلل في نموه الجنسي هو سبب الضعف العقلي، وأن النزعات الجنسية يمكن إخضاعها بشيء من التوجيه الحسن، وقد تغدو عندئذ قوى تبعث إلى أشرف النزعات

وفي سنة 1903 أنشأ فرويد (جمعية التحليل النفسي) في فينا، ولم يمض بعيد حتى ذاعت فروعها في جميع أوروبا؛ وعقد أول مؤتمر دولي للمباحث النفسية في سالزبورج في سنة 1908 ومنذ بدء هذا القرن يشتد نفوذ فرويد ونفوذ نظرياته ومباحثه في جميع أنحاء العالم

ويشغل فرويد منذ حقبة طويلة كرسي (العلوم العصبية) في جامعة فينا إلى يومنا ونستطيع أن نلاحظ بهذه المناسبة أن التفكير اليهودي مازال يحدث أثره القوي في سير التفكير العالمي؛ فإذا كان فرويد يقبض على ناصية التفكير النفسي، فإن الفيلسوف الفرنسي برجسون (وهو يهودي أيضاً) يقبض على ناصية التفكير الفلسفي، ويوجه العلامة أينشتاين سير المباحث الرياضية العالمية؛ وإذا تتبعنا تاريخ التفكير الحديث وجدنا لليهودية مثل هذا الأثر البعيد في سيره وفي تطوره

الأستاذ هنري روبير

نعت إلينا الأنباء الأخيرة علماً من أعلام الكتابة والبيان الرائع هو الأستاذ هنري روبير المحامي الفرنسي الأشهر، وعضو الأكاديمية الفرنسية، توفي في الثالثة والسبعين من عمره بعد حياة باهرة في عالمي المحاماة والأدب. وكان مولده سنة 1863 في باريس، حيث تلقى تربيته ودراسته؛ وفي سنة 1885 قيد في جدول المحاماة، وبدأ حياته العملية، ولم يلبث أن لفت إليه الأنظار بحسن استعداده وكفايته؛ وقدر الأستاذ دورييه نقيب المحامين يومئذ مواهبه وألحقه بمكتبه، فلقى هنالك فرصة لدراسة القضايا الكبرى؛ وظهر لأول مرة في قضية (شامبيج) الشهيرة أمام محكمة الجزائر، حيث اشترك مع أستاذه دورييه في الدفاع عن (شامبيج) المتهم بقتل خليلته؛ وكان دفاعه الرائع في تلك القضية مثار الإعجاب من كل صوب، وكان فاتحة مجده؛ وأوحت حوادث هذه القضية الشهيرة إلى الكاتب الشهير بول بورجيه موضوع قصته (التلميذ)، ومن ذلك الحين توالى ظهور هنري روبير في كثير من القضايا الجنائية الرنانة التي شغلت الرأي العام في أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحاضر

وتبوأ هنري روبير مقامه الرفيع كعلم من أعلام البيان والفصاحة القضائية بسرعة؛ وفي سنة 1913 انتخب نقيباً للمحامين في دائرة باريس مكان الأستاذ لابوري، وظل في هذا المنصب حتى سنة 1919؛ ومازال محتفظاً بزعامته ومكانته الرفيعة في عالم المحاماة والدفاع حتى خاتمة حياته

وكان الأستاذ هنري روبير إلى جانب مواهبه القضائية والدفاعية كاتباً عظيماً، يمتاز أسلوبه بقوة وصفاء رائعين. ومن مؤلفاته رسالة قيمة ساحرة عن (المحامي)، وكتاب (قضايا التاريخ العظمى) الذي بدأه في سنة 1923، وظل يعمل فيه حتى العام الماضي، حيث صدر منه الجزء العاشر؛ وفي هذه الأجزاء العشرة يعالج هنري روبير طائفة من قضايا التاريخ الكبرى، ولاسيما ما تعلق منها بالتاريخ الفرنسي؛ ويعرضها بأسلوب بديع ساحر، يجمع بين دقة الشرح القضائي، وروعة البيان الأدبي

وفي سنة 1923 انتخب هنري روبير عضواً بالأكاديمية الفرنسية في الكرسي الذي خلا بوفاة الوزير ريبو

وكان هنري روبير محامياً عظيماً يمتاز بصفات باهرة؛ فقد كان عالماً نفسياً ينفذ أحياناً إلى أعماق السرائر؛ وكان خطيباً رائعاً ينهمر بيانه؛ وكانت مرافعاته في القضايا الكبرى أياماً مشهودة في ساحات القضاء. وقد بلغ الذروة في أواخر حياته من قوة التأثير والسحر، حتى كان المحلفون في بعض الدوائر يخشون تأثيره، ويقاومون هذا التأثير بشيء من عدم الثقة. وكان هنري روبير موجزاً في العادة خلافاً لكثير من زملائه الأعلام، ولكنه كان في إيجازه دائماً قوياً مؤثراً

توفيق الحكيم في الفرنسية

نقل الأستاذان (ا. خضري) و (موريك برين) إلى الفرنسية رواية شهرزاد للأستاذ توفيق الحكيم ثم طبعاها ونشراها في باريس. وقد حافظا على روحها الشعري الشرقي حتى سمياها (قصيدة درامية في سبعة مناظر) وقد صدرها بمقدمة بليغة الكاتب الفرنسي الكبير (جورج لوكنت) أحد أعضاء الأكاديمية الفرنسية حلل فيها الفكرة التي قامت عليها الرواية

ثم قال: (كان لا بد من شاعر يُقدِم على معالجة إحدى درامتي الإنسانية العظيمتين في مثل هذا الإطار الضيق. ولكن كان لا بد من شاعر شرقي رقيق الحس خصب القريحة كالأستاذ توفيق الحكيم يحل العقدة في مثل هذا العمل بلباقة من الفن العربي البارع الذي ينال دائماً ذهننا الديكارتي بالدهشة قبل أن يرميه بالفتنة

وكيف لا نحمد كذلك المسيو (ا. خضري) والمسيو (موريك برين) على أن ترجما إلى (الفرنسية لغة خلقت لتعبر قبل كل شيء عن العطر والشعر والسر؟)

وفاة مارمدوك بكتال

توفي المستر مارمدوك وليم بكتال القصصي المعروف بتضلعه في العلوم الإسلامية، ولد في 7 أبريل سنة 1875 في شلورد بمقاطعة سفولك، وكان أبوه قسيساً بها؛ ثم تلقى دروسه في هارو وفي أوروبا، ثم قضى ثلاث سنين في الشرق الأدنى، درس خلالها العربية، وفقه العلوم الإسلامية؛ وقضى وقتاً طويلاً في لبنان وفي مصر، ثم دخل في الإسلام وتسمى محمدا، واتصل بسمو نظام حيدر آباد، فتولى إدارة (كلية حيدر آباد) ورأس تحرير مجلة (الثقافة الإسلامية) التي تصدر هناك باللغة الإنجليزية وفي سنة 1930 ترجم القرآن الكريم ترجمة توخى فيها الدقة وطبعها بمعونة الأمير بعد أن راجعها الأستاذ محمد أحمد الغمراوي، وجعل عنوانها (ترجمة معاني القرآن المجيد). وقد أرسل نسخاً منها إلى مصر، وكان الشيخ الظواهري يومئذ شيخاً للأزهر، فنبهه بعضهم إلى أن في الترجمة خطأ، فطلب من الداخلية أن تصادرها فصودرت. وله غير ذلك مؤلفات قصصية وغير قصصية، منها (سعيد الصياد) و (عنيد) و (بيت الإسلام) و (حكايات عن الأرض المقدسة) و (أبناء النيل) و (وادي الملوك) و (النساء المحجبات) و (الترك في الحرب) و (فرسان عرابي) وغير ذلك

كننهام جراهام

نعت إلينا الأنباء الأخيرة الكاتب الإنكليزي الكبير روبرت كننهام جراهام؛ توفي في مدينة بيونوس آيرس عاصمة الجمهورية الفضية (أمريكا الجنوبية)، حيث كان يعيش منذ أعوام طويلة؛ وهو اسكتلندي الأصل، ولد سنة 1852، وتخرج في كلية هارو الشهيرة؛ وكان منذ

حداثته يشغف بالسياسة وغمارها، ويجنح للمبادئ الإشتراكية؛ وفي سنة 1886 تحققت آماله السياسية الأولى بدخوله مجلس النواب نائباً عن لانكشير؛ وظهر في البرلمان بذلاقته وحملاته العنيفة، واستمر نائباً حتى سنة 1892. وفي ذلك الحين كان جراهام قد خاض غمار الكتابة أيضاً؛ وكان جوالة كثير الأسفار، واستهوته إسبانيا وأمريكا الجنوبية فدرس شؤونهما، واتصل بالبلاط الإسباني وكتب كثيراً عن إسبانيا وتاريخها وعظمائها، وأنعم عليه ملك إسبانيا بمرتبة في النبل (جراندي)؛ ومنذ سنة 1898 يخرج لنا جراهام بالإنكليزية كتباً عن الشؤون والصور الإسبانية وعن تاريخ أمريكا اللاتينية. ومن أشهر مؤلفاته (ابنة عمي صبح) (سنة 1898) و (المغرب الأقصى) في نفس العام (أركاديا الذاهبة) (سنة 1901) (والنجاح) (سنة 1902) و (ترجمة هرناندو دي سوتو) (سنة 1903) والصدقة (سنة 1912) و (قرطاجنة وشواطئ سينو) (سنة 1920) و (أعمال بطولة) (سنة 1925) و (بيدرو دي فالديفيا فاتح شيلي) (سنة 1929) وخوزي أنتونيو بييز (سنة 1929) وغيرها؛ ومعظمها عن أمريكا اللاتينية وتجول جراهام كثيراً في مدن أمريكا الجنوبية وثغورها، ودرس كثيراً من شؤونها وأحوالها، وأقام كثيراً في بيونوس آيريس؛ وكان أثناء الحرب العالمية يشتغل بتجارة الخيل وتوريدها لجيوش الحلفاء؛ وهو يعتبر في الواقع من كتاب أمريكا اللاتينية أكثر مما يعتبر من كتاب إنكلترا، وشأنه في ذلك شأن المؤرخ الإنكليزي جورج فنلي الذي خصص حياته لليونان وتاريخها وآدابها؛ وتوفي جراهام في نحو الثمانين من عمره

مباراة أدبية دولية

نشر مكتب الصحافة الدولية السويدية بياناً عن مباراة أدبية دولية رصدت لها بعض دور النشر السكندنافية جائزة حسنة، ووضعت لها موضوعاً وشروطاً خلاصتها:
أما الموضوع فهو: (هل يمكن أن يوضع معيار أدبي موضوعي في العصر الحاضر؟ وإذا كان الجواب نعم، فعلى أي أساس يمكن أن يقام؟)
ويجب ألا يزيد ما يكتب في الموضوع على ست عشرة صفحة من القطع المتوسط، ويجب أن يكتب بوضوح وترتيب؛ وقد ألفت لفحص الرسائل لجنة مؤلفة من الدكتور لانكوست أستاذ الفلسفة السويدي (ممثلاً للسويد) والدكتور ونسنس النرويجي (ممثلاً للنرويج)
والدكتور روين أستاذ الفلسفة الفنلندي (ممثلاً لفنلندة)؛ وستقوم هذه اللجنة بمهمتها مستقلة، وتقبل دور النشر المذكورة أحكامها دون مناقشة
وستخصص للفائزين ثلاث جوائز، الأولى قيمتها (2000) كرون سويدي، والثانية قيمتها (1000) كرون، والثالثة (500)؛ ويدفع للفائزين فوق ذلك نسبة من أرباح نشر رسالاتهم؛ وإذا لم يوجد من بين الرسائل المقدمة رسالة تستحق المكافأة، فإنه لا تمنح جوائز ما، ويحتفظ الناشرون أيضاً بحقهم في نشر رسائل لم تنل شيئاً من الجوائز
ويمكن كتابة الرسائل باللغات السويدية والدنماركية والإنكليزية والألمانية؛ ويجب أن تذيل بإمضاء مستعار، ومعها غلاف به هذا الاسم المستعار مقروناً باسم صاحبه؛ ويمكن الدخول في المباراة حتى أول يناير سنة 1937، وتنهي لجنة التحكيم من أعمالها في أول أبريل، وتعلن النتيجة في خريف سنة 1937، وترسل الرسائل إلى إحدى دور النشر المشتركة في وضع المباراة، وهي محلات:
, , - ,
كتاب جديد عن مصر القديمة
ظهر أخيراً بالإنكليزية كتاب عنوانه (بحث في مصر الخفية) بقلم المستر بول برنتون، واسم الكتاب يدل على موضوعه. بيد أن مؤلفه ينحو في كتابته منحى غريباً لم يسبقه إليه أحد، فهو لا يريد أن يتقيد في بحثه بما كتبه علماء الآثار المصرية أو استنتجوه من قراءة النقوش القديمة، بل يؤثر أن يعتمد على مباحثه الشخصية وعلى وحي نفسه في فهم ما تدلى به الهياكل والرموز من المقاصد والمعاني. وقد زار المستر برنتون مصر في العام الماضي وقضى بها بضعة أشهر يتجول بين آثارها وينقب ويبحث ويجمع لنفسه مواد كتابه؛ وهو كاتب شاب واسع المعرفة متزن مستنير في آرائه وشروحه
ويرى مستر برنتون أن الحضارة المصرية القديمة قد نشأت في القارة المفقودة (الأتلانتس)، ويستشهد على رأيه بحلم رآه في ذلك ووحي نفذ إلى نفسه ذات ليلة قضاها إلى جانب أبي الهول، وذات ليلة أخرى قضاها مع الأرواح بجانب الهرم الأكبر، وثالثة قضاها في معبد الكرنك؛ ويحاول فوق ذلك أن يدعم رأيه بمشاهدات أثرية شاهدها في أبيدوس ودندرة والأقصر
ويحمل مستر برنتون على مباحث علماء الآثار، ويقول إنهم لم يصلوا إلى لباب الحقائق، وأن الأرواح الشريرة والمضللة تنطلق كل مرة يجري فيها الحفر في مقبرة أو معبد، وأنه خير أن يوضع حد لإطلاق هذه الأرواح الخطرة التي كثر عديدها
ويرى فيما يتعلق باللغة المصرية القديمة أن علماء الآثار لم يتوصلوا إلا إلى معرفة المعاني التي كانت مستعملة على لسان الرجل العادي. أما المعاني والرموز الخفية التي كانت تجري على ألسنة الكبراء والخاصة فمازالت سراً من الأسرار
ويسير الكاتب في عرض آرائه عن شؤون مصر القديمة وأسرارها على هذا النحو الخيالي. بيد أنه مما لا ريب فيه أنه يذهب بعيداً في تصوراته، وأن كتابه لا يمكن أن يعتبر من النوع العلمي الذي يعتمد على شروحه؛ أما إذا اعتبرناه قطعة من الخيال المجرد، فإنه يستحق القراءة على هذا الأساس، ويغدو قطعة ممتعة من الأدب الروائي
ذكرى أمير عالم
احتفل أخيراً في فينا بذكرى البرنس أوجين دي سافوي، لمناسبة مرور مائتي عام على وفاته، وقد كان هذا الأمير الشهير قائداً عظيماً، وكان فرنسي الأصل والمولد، وكان مولده في باريس سنة 1663 ولكنه هجر فرنسا وطنه، لأن لويس الرابع عشر أبى عليه تحقيق بعض أمانيه، والتحق بخدمة إمبراطور النمسا ليوبولد الأول. وغنم ضد

الترك عدة مواقع رفعت اسمه ومنزلته، وانتهى بسحق الترك في المجر في معركة زنتا الشهيرة، وحارب أيضاً ضد لويس الرابع عشر وهزم جيوشه في عدة مواقع، وذاع اسمه في أوروبا، واعتبر أعظم قائد في عصره

بيد أن الذي يهم هنا هو أن هذا القائد الشهير كان فيلسوفاً وكان عالماً، وكان شغوفاً بالتفكير والآداب؛ وله صلات أدبية وثيقة بأقطاب التفكير في عصره مثل الفيلسوف الألماني ليبنتز، الفيلسوف الفرنسي فولتير، وغيرهما من أقطاب الفلاسفة والمفكرين، وكانت له مكتبة عظيمة تغص بآلاف الكتب النفيسة؛ ومع أنه كان في معظم أوقاته مشغولاً بأعمال الحرب والسياسة، فإنه لم يكن يترك فرصة للقراءة إلا انتهزها؛ وكان واسع الاطلاع والمعرفة إلى حدود مدهشة؛ وكان نصير للآداب والفنون يدعو أقطاب الكتابة والفن إلى البلاط النمسوي ويغدق عليهم عطفه ورعايته؛ ومازالت مكتبته ومجموعاته الفنية تكون قسماً عظيماً من

المكتبة النمسوية الوطنية؛ وقد شمل الاحتفال بذكراه أخيراً في فينا عدة مناظر عسكرية وفنية، فنظم استعراض عسكري فخم، وأقيم احتفال تذكاري في القصر الذي توفي فيه (سنة 1736) في شارع (همل بفورت)، ويوجد في قصر بلفيدير الشهير حيث كان يقيم هذا الأمير العالم أثناء حياته معرض دائم يضم كثيراً من التحف والصور والتماثيل التي استطاع أن يجمعها طوال حياته

العدد 152 - بتاريخ: 01 - 06 - 1936

النقد أيضاً

للأستاذ أحمد أمين

أثار ما كتبه أخي الزيات في موضوع (النقد) معاني أخرى في نفسي تتصل بتاريخ النقد العربي في السنين الأخيرة.

ذلك أني أوازن بين النقد من نحو عشرين عاماً والنقد الآن، فأجده ليس خاضعاً لسنة النشوء والارتقاء، بل لسنة التدهور والانحطاط، حتى وصل إلى حالة من العجز يرثى لها.

فقد كان الكِتّاب إذا ظهر هبت الصحف والمجلات لعرضه ونقده؛ فاللغوي ينقده نقداً لغوياً، والمؤرخ ينقده نقداً تاريخياً، والأديب ينقده نقداً أدبياً؛ وتثور معركة حامية بين أنصار الكتاب وأعداء الكتاب، وتظهر في التأييد والتفنيد مقالات ضافية، وبحوث عميقة شائقة. ولست أنسى ما كان يقوم به الأستاذ إبراهيم اليازجي من نقد (لمجاني الأدب) و (أقرب الموارد) ونحوهما من الكتب، كما لست أنسى ما نُقد به كتاب (التمدن الإسلامي) والأخذ والرد اللذين قاما حوله؛ وكان شوقي أو حافظ يقول القصيدة، فيقوم ناقد معترض يبين معايبها، ومادح مقرظ يبين محاسنها؛ ومن هذا وذاك يستفيد الأديب، ويرقى الأدب، وتتجلى حقائق كانت خافية، وتتهذب أذواق كانت نابية، وكان يؤلّف الكتاب الديني مثل كتاب (الإسلام وأصول الحكم) فتنشب معارك حامية، وينقسم المفكرون إلى معسكرين، وفي كل معركة شحذ للأذهان، ودرس للمتعلمين، وتمحيص للحقائق. قد كان في نقدهم أحياناً هُجر وقذع، وهجو وسباب؛ ولكن كان بجانب ذلك حقائق تذاع، وبحوث تنشر؛ وكان كل من السباب والنقد العفيف علامة حياة أدبية، وثورة فكرية، وعقل باحث، وقلم نشيط

تعال فانظر معي الآن إلى ما وصلنا إليه! لقد كثرت الكتب يخرجها المؤلفون، وأصبح الإنتاج الأدبي أضعاف ما كان، في كل ناحية من نواحي الأدب، من قصص وقصائد وموضوعات اجتماعية، وكتب تاريخية؛ وكثر الكلام في الأدب، وخصصت أكثر الصحف صفحات للمقالات الأدبية، وكان معقولاً أن يساير النقد هذه الحركة فيرقى معها، ويتسع باتساعها، وتتعدد نواحيه بتعددها، ولكن كان من الغريب أن تحدث هذه الظاهرة، وهي رقي الأدب وانحطاط النقد

نعم، أعتقد أن الأدب العربي ارتقى عما كان عليه منذ عشرين سنة في جملته لا في كل

ناحية من نواحيه، فقد يجوز أننا لم نجد من يخلف (شوقي) و (حافظاً) في ناحيتهما الشعرية، ولكن الأدب - بمعناه العام - أصبح خيراً مما كان، فغزرت معانيه بعد أن كان لفظياً، وعمق بعد أن كان سطحياً، وجادت القصة فيه نوعاً ما، واتسع أفقه وموضوعاته قدراً ما، وتأثر الأدبَ الغربي وقلده في مناحي رقيه. أما النقد فانكمش وأنكمش حتى

ضمر وذبل وأشفى على الهلاك
وحسبك دليلاً أن ترى أشهر الكتاب في العالم العربي يخرجون الكتاب تلو الكتاب فلا تكاد تجد ناقداً يعتد به، وتقرأ ما يكتب عن ذلك في أشهر الصحف والمجلات فلا تجد إلا سراباً يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً؛ وأكثرها يكتفي باسم الكتاب وعرض موضوعه والاستعانة على ذلك بفهرسه ومقدمته ثم صيغة محفوظة متداولة من المدح والتقريظ. فان كان نقد فمظهر لا مخبر، هو نتاج فقر عقلي وخمود ذهني، ثم ينتهي الأمر ويغلق الباب. فلا معارك ولا مساجلات ولا بحوث حول الكتاب، ولا أخذ ولا رد، ولا مظهر من مظاهر الحياة الأدبية. لا يشعر الناقد أن عليه واجباً يؤديه للقراء، وأن منصبه يتطلب منه قراءة عميقة، وآراء صريحة، وتقديراً دقيقاً، وأن ذمته لا تبرأ إلا ببحث شامل واف ثم إبداء لرأيه في غير تحيز ولا مواربة، ولكن كل ما يشعر به أن المؤلف أهدى إليه الكتاب فهو يلقي على عاتقه العبء بكتابة كلمة خاملة، ووصف فاتر، ونقد سطحي.
ليس النقد مجرد استحسان الناقد أو استهجانه. فكل ما كان مبنياً على ذوق الناقد وحده، ومجرد ادعائه أن هذا بليغ وهذا ليس ببليغ وهذا راقٍ وهذا غير راقٍ لأنه يتذوقه أو لا يتذوقه، واكتفاؤه أحياناً بأن يصوغ عبارته في الاستحسان أو الاستهجان في قالب جميل، كل ذلك ليس من النقد في شيء. إنما النقد ما عُلّل وبينت فيه أسباب الحسن والقبح، وأسس على قضايا ثابتة. فبهذا يستفيد المنقود، ويرقى الأدب، ويسمو الذوق؛ وبهذا وحده لا يكون النقد فتاتاً لموائد الأدب، ولا متطفلاً على نتاجه، إنما يكون هادياً للأديب ومرشداً للجمهور وموجهاً للأدب نحو الكمال
ولكن ما علة هذه الظاهرة في الأدب العربي، وليس من الطبيعي في الأمم أن الأدب إذا رقي ضعف النقد، فإننا نرى الظاهرة في الأدب الغربي أن يرقى الأدب فيرقى النقد ويؤثر كلاهما في الآخر تأثيراً محموداً - فيجب أن تكون علة ضعف النقد العربي علة محلية لا
علة طبيعية
يظهر لي أن هذا الضعف في النقد يرجع إلى أسباب عدة:
أهمها أن النقد الصريح الصحيح يحتاج إلى شجاعة أدبية قوية من الناقد، ورحابة صدر من المنقود. وقد حدث في تاريخ مصر الحديث أن جماعة تسلحوا بالشجاعة الأدبية فأظهروا آرائهم في صراحة تامة ولم يبالوا الرأي العام سواء في ذلك بحوثهم ونقدهم؛ وكانت هذه البذرة الأولى للشجاعة الأدبية في مصر، فألفوا كتباً عبروا فيها عن آرائهم في جلاء ووضوح، وكتبوا مقالات تعبر عما يختلج في نفوسهم وإن لم تكن على هوى الجمهور، ونقدوا أدب الأدباء وإن بلغوا القمة في نظر الناس، فكان صراع بين القديم والحديث، وبين التفكير الحر والتقاليد، وبين الأدب الناشئ والأدب الموروث. ولكن هذا الصراع انتهى بهزيمة هذه الطليعة من المفكرين، وتعرضوا للخطر في مناصبهم وأرزاقهم، ونالوا من العسف والعنت ما ليس في طاقتهم. وهذا يحدث مثله في كل أمة من الأمم الأوربية، ولكن كان هناك فرق كبير بيننا وبينهم: ذلك أن أصحاب الرأي الجديد في البلاد الراقية إذا أوذوا في العصر الحديث رأينا من مقلديهم وأتباعهم في الرأي من يمدونهم بالمال وبالمعونة، وكم رأينا من المال يجمع ليستعين به من نكب في منصبه بسبب رأيه أو بسبب سياسته، يتبرع به أغنياء اعتقدوا صحة رأيه أو وجاهة سياسته، فعطفوا عليه، وتحول عطفهم إلى اتخاذ وسائل لدرء الخطر عنه فاستمر في خطر شجاعته، وشعر بأن تضحيته يقابلها عطف، وأنه إن ضحى بالكماليات لا يُصاب في الضروريات؛ بل وإن أصيب في الضروريات وبلغ ذلك فقدان القوت فقد ضربت له أمثلة عدة أيام الثورة الفرنسية وقبلها وبعدها، فتأصلت الشجاعة الأدبية، ونمت بذرتها وأصبحت غير قابلة للفناء. أما في مصر فكانت بذرتها هي البذرة الأولى، وشعر القائمون بهذه الحركة الجديدة أنهم أصيبوا في سمعتهم وفي منصبهم وفي مالهم، ثم رأوا أن أتباعهم تخلوا عنهم في أوقات الضيق؛ ومن عطف عليهم منهم فعطف أفلاطوني، عطف يتبخر، عطف لا يمكن أن يتحول إلى مال أو مجهود. وكان الرأي العام قوياً مسلحاً فتغلب وانتقم وأصبحت له السلطة التامة، وانهزم أمامه فريق المفكرين الصرحاء هزيمة منكرة؛ ولم تكن له أمثلة كثيرة في تاريخه القريب فاضطر

إلى التسليم، بل وفي بعض الأحيان رجع عن رأيه إلى آرائهم، وعن منهجه إلى منهجهم،
وتعود المجاراة بدل المقاومة، والمداراة مكان الصراحة، فلم يعد هناك معسكران ولم يعد صراع، إنما هو معَسكر واحد ولا قتال. وتعلم الجيل اللاحق من الجيل السابق فاختط خطته ونهج منهجه وأخذ الدرس عن أخيه الأكبر ففضل السلامة. وبذلك اختنق النقد الأدبي في مهده، وأصبح الأدب مدرسة واحدة يختلف أفرادها اختلافاً طفيفاً، في العرض لا في الجوهر. لا مدارس متعددة تتناحر وتتعاون، وتتعادى وتتصادق، وفي عداوتها وصداقتها الخير؛ ولا أمل في عودة النقد الصريح إلا ببذرة جديدة وروح جديد على شرط أن تكون البذرة صلبة تتحمل حوادث الدهر وعوادي الأيام.
ويتصل بهذا أن الأدباء عندنا صنفان: صنف نضج وتكوّن واستوى على عرش الأدب، وهؤلاء هم القادة، وهم أفراد معدودون تسالموا وتهادنوا وحرمنا ما بينهم من خصومة أدبية وعلمية، وأصبح كل منهم كالعُشَراء لا تميل إلى النطاح ولا ترجو إلا السلامة. وصنف ناشئ هو في طور التكون، وهو يخشى أن يتعرض لمن استوى على العرش فيبطش به بطشة جبارة ترده إلى أسفل، فلما جامل الكبراء بعضهم بعضاً وخاف الناشئون من الكبراء، ضاع النقد بين هؤلاء وهؤلاء.
ولعل من أسباب ضعف النقد أيضاً السياسة قتلها الله، فقد تدخلت أولاً فنصرت الجمهور على القادة، وعاونت الرأي العام على المفكرين؛ وما كان الجمهور والرأي العام ينتصران هذا النصر لو وقفت السياسة على الحياد، ولو فعلت لكان الحرب سجالاً، ولظل المعسكران في قتال؛ وفي هذا تمحيص كبير للآراء، فيصد الرأيُ العام المتطرفين، ويدفع القادة غلاة المحافظين، والأمة من هذا وذاك في استفادة دائمة. أما أن تدخل السياسة فتبيد معسكراً بأكمله، فكان الضرر كل الضرر. ثم إن السياسة - ثانياً - دخلت في الأدب وقومت الأديب بلونه السياسي، ولم يستطع الناس التفرقة بين موازين الأدب وموازين السياسة، فأفسد ذلك الأدب والنقد معاً. قد تقول إن السياسة تلعب هذا اللعب في الأمم الممدنة ولم يكن لها هذا الأثر، ولكنا نقول إن الأمم الناشئة تتضرر من تدخل السياسة أكثر مما تتضرر الأمم العتيدة، وأكبر مظهر في ذلك أنه ليس بين أحزابها تنافر كالذي بين أحزابنا، ولا ينكل حزب بالأحزاب الأخرى كما يحدث بيننا، فالخصومة السياسية عندهم لا تفقد الصداقة في أغلب الأحيان، وكذلك الشأن في الخصومات الأدبية. أما الأمم الناشئة فلا تفهم من الخصومة السياسية والأدبية والعلمية إلا العداء العنيف، وفي العداء العنيف قتل للحرية وهناك أسباب أخرى غير ما ذكرت لعل الكُتّاب يعرضون لها فيكشفون عن أسباب هذا الداء الخطير ويصفون له ما يتطلب من دواء ناجع

أحمد أمين

3 - العجوزان

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال المحدِّث: وتبين في العجوز (ن) أثرُ التعب فتوجع وأخذ يئنُّ كأن بعضه قد مات لوقته. . . أو وقع فيه اختلالٌ جديد أو نالته ضربةُ اليوم؛ والشيخ متى دخل في الهرم دخل في المعركة الفاصلة بينه وبين أيامه

ثم تأفف وتململ وقال: إن أولَ ما يظهر على من شاخ وهرم، هو أن الطبيعة قد غيرت القانون الذي كانت تحكمه به

قال الأستاذ (م): إن صاحبنا كان قاضياً يحكم في المحاكم، وأرى المحاكم قد حكمت عليه بهذه الشيخوخة (مُطَبَّقةً فيها) بعض المواد من قانون العقوبات، فما خرج من المحكمة إلا إلى الحبس الثالث

فضحك (ن) وقال: قد عرفنا (الحبس البسيط) و (الحبس مع الشغل) فما هو هذا الحبس الثالث؟

قال: هو (الحبس مع المرض) . . .

قال (ن): صدقتَ لعمري فأن آخر أجسامنا لا يكون إلا بحساب من صنعة أعمالنا؛ وكأن كرسي الوظيفة الحكومية قد عرف أنه كرسيُّ الحكومة، فهو يضرب الضرائب على عظام الموظفين. . . أتدري معنى قوله تعالى: (ومنكم من يُردُّ إلى أرذل العُمُر) ولِمَ سماه الأرذل؟

قلنا: فلم سماه كذلك؟
قال: لأنه خَلْطُ الإنسان بعضه ببعض، ومسخُه من أوله إلى آخره، فلا هو رجلٌ ولا شاب ولا طفل، فهو أردأ وأرذل ما في البضاعة. . .
فاستضحك الأستاذ (م) وقال: أما أنا فقد كنت شيخاً حين كنت الثلاثين من عمري، وهذا هو الذي جعلني فتىً حين بلغت السبعين
قال (ن): كأن الحياة تصحح نفسها فيك
قال: بل أنا أكرهتها أن تصحح نفسها؛ فقد عرفتُ من قبل أن سَعَةَ الإنفاق في الشباب هي ضائقة الإفلاس في الهرم، وأيقنتُ أن للطبيعة (عدَّادا) لا يخطئ الحساب، فإذا أنا اقتصدت عدَّت لي، وإذا أسرفتُ عدَّت عليَّ؛ ولن تعطيني الدنيا بعد الشباب إلا مما في جسمي، إذ لا
يعطي الكون حياً أراد أن ينتهي منه، فكنت أجعل نفسي كالشيخ الذي تقول له الملذات الكثيرة: لستُ لك، ومن ثم كانت لذاتي كلها في قيود الشريعتين: شريعة الدين وشريعة الحياة
قال: وعرفت أن ما يسميه الناس وَهَنَ الشيخوخة لا يكون من الشيخوخة ولكن من الشباب؛ فما هو إلا عملُ الإنسان في تسميم ثلاثين أو أربعين سنة بالطعام والشراب والإغفال والإرهاق والسرور والحزن واللذة والألم؛ فكنت مع الجسم في شبابه ليكون معي بعد شبابه، ولم أبرح أتعاهدُه كما يتعاهد الرجلُ داره، يزيد محاسنها وينفي عيوبها، ويحفظ قوَّتها ويتقي ضعفها، ويجعلها دائماً باله وهمه، وينظر في يومها القريب لغدها البعيد، فلا ينقطع حسابُ آخرها وإن بعُدَ هذا الآخر، ولا يزال أبداً يحتاط لما يخشى وقوعه وإن لم يقع
قال الجوز (ن): صدقت والله فما أفلح إلا من اغتنم الامكان؛ وما نوع الشيخوخة إلا من نوع الشباب. وهذا الجسم الإنساني كالمدينة الكبيرة فيها (مجلسها البلديُّ) القائم على صيانتها ونظامها وتقويتها، ورئيس هذا المجلس الإرادة، وقانونه كله واجبات ثقيلة، وهو كغيره من القوانين إذا لم ينفذ من الأول لم يُغن في الآخر
فال الأستاذ (م): وكل جهاز في الجسم هو عضو من أعضاء ذلك (المجلس البلدي)؛ فجهاز التنفس وجهاز الهضم والجهاز العضلي والجهاز العصبي والدورة الدموية، هذه كلها يجب أن تترك على حريتها الطبيعية وأن تعان على سنتها، فلا يحال بينها وبين أعمالها برشوة من لذة أو مفسدة من زينة أو مطمعة في رفاهية أو دعوة إلى مدنية أو شيء مما يفسد حكمها أو يعطل عملها أو يضعف طبيعتها
والقاعدة في العمر أنه إذا كان الشبابُ هو الطفولة الثانية في براءته وطهارته، كانت الشيخوخة هي الشباب الثاني في قوتها ونشاطها. وما رأيت كالدين وسيلة تجعل الطفولة ممتدة بحقائقها إلى آخر العمر في هذا الإنسان؛ فسرُّ الطفولة إنما هو في قوتها على حذف الفضول والزوائد من هذه الحياة، فلا يُطغيها الغنى، ولا يكسرها الفقر، ولا تذلها الشهوة، ولا يُفزعها الطمع ولا يهولها الإخفاق ولا يتعاظمها الضر، ولا يخفيها الموت. ثم لا تملُّ وهي الصابرة، ولا تبالغ وهي الراضية، ولا تشك وهي الموقنة، ولا تسرف وهي القانعة،
ولا تتبلد وهي العاملة، ولا تجمد وهي المتجولة. ثم هي لا تكلف الإنسانية إلا العطف والحب والبشاشة وطبائع الخير التي يملكها كل قلب؛ ولا توجب شريعتها في المعاملة إلا قاعدة الرحمة، ولا تقرر فلسفتها للحياة إلا طهارة النظر؛ ثم تتهكم بالدنيا أكثر مما تهتمُّ لها، وتستغني فيها أكثر مما تحتاج، وتستخرج السعادة لنفسها دائماً مما أمكن؛ قلَّ أو كثر
وبكل هذا تعمل الطفولة في حراسة الحياة الغضة واستمرارها ونموها؛ ولولا ذلك لما زها طفل ولا شبَّ غلام ولا رأت العيون بين هموم الدنيا ذلك الرُّواء وذلك المنظر على وجوه الأطفال يثبتان أن البراءة في النفس أقوى من الطبيعة
وكل ذلك هو أيضاً من خصائص الدين وبه يعمل الدينُ في تهذيب الحياة واطّرادها على أصولها القوية السليمة، ومتى قوى هذا الدين في إنسان لم تكن مفاسد الدنيا إلا من وراء حدوده، حتى كأنه في أرض وهي في أرض أخرى؛ وأصبحت البراءة في نفسه أقوى من الطبيعة
ثم قال: والعجيب أن اعتقاد المساواة بين الناس لا يتحقق أبداً بأحسن معانيه وأكملها

إلا في قلبين: قلب الطفل لأنه طفل، وقلب المؤمن لأنه مؤمن
فقال العجوز (ن): إنه لكما قلت، ولعنة الله على هذه الشهوات الآدمية الباطلة. فأن الشهوة الواحدة في ألف نفس لتجعل الحقيقة الواحدة كأنها ألف حقيقة متعادية متنازعة. والطامعان في امرأة واحدة قد تكون شهوة أحدهما هي الشهوة وهي القتل. ولعنة الله على الملحدين وإلحادهم، يزْرون على الأديان بأنها تكاليف وقيود وصناعة للحياة، ثم لا يعلمون أن كل ذلك لصناعة الآلة النفسية التي تستطيع أن تحرك المختلفين حركة واحدة، فما ابتليت الإنسانية بشيء كما ابتليت بهذا الخلاف الذي يفتح من كل نفس على كل نفس أبواب التجني، ويجعل النَّفرةَ وسوء الظن أقرب إلى الطبيعة البشرية من الألفة والثقة
لقد جاء العلم بالمعجزات ولكن فيما بين الإنسان والطبيعة، وبين الإنسان ومنافعه، وبين الإنسان وشهواته؛ فهل غير الدين يجيء بالمعجزات العملية فيما بين النفس والنفس، وبين النفس وهمومها، وبين ما هو حق وما هو واجب؟
قال المحدث: ثم نظر إليَّ العجوز (ن) وقال: صِلْ عمك يا بني بالحديث الذي مضى، فأين بلغنا آنفاً من التجديد والمجددين وماذا قلنا وماذا قلت؟ أما إن الحماقة الجديدة والرذيلة
الجديدة والخطأ الجديد، كل ذلك إن كان جديداً من صاحبه فهو قديم في الدنيا؛ وليس عندنا أبداً من جديد إلا إطلاق الحرية في استعمال كل أديب حقه في الوقاحة والجهل والخطأ والغرور والمكابرة
قال الأستاذ (م): وليس الظاهر بما يظهر لك منه ولكن بالباطن الذي هو فيه؛ فمستشفى المجاذيب قصر من القصور في ظاهره ولكن المجاذيب هم حقيقته لا البناء. وكل مجدد عندنا يزعم لك أنه قصر عظيم وهو في الحقيقة مستشفى مجانين، غير أن المجانين فيه طباع وشهوات ونزَوات. وعلى هذا ما الذي يمنع الفجور المتوقح أن يسمي نفسه الأدب المكشوف؟
قال (ن): وإذا أنت ذهبت تعترض على هذه التسمية زعموا لك أن للفن وقاحة مقدسة. . . . وأن (لا أدبية) رجل الفن هي (اللا أخلاقية العالية) . . .
قال الأستاذ (م): فوقاحة الشهوة إذا استعلنت بين أهل الحياء وأهل الفضيلة ودعت الى مذهبها، كانت تجديداً ما في ذلك ريب. ولكن هذا المذهب هو أقدم ما في الأرض إذ هو بعينه مذهب كل زوجين اجتمعا من البهائم منذ خلق الله البهائم. . .
قال (ن): وقل مثل ذلك في متسخّط على الله وعلى الناس يخرج من كفره بين أهل الأديان أدباً جديداً، وفي مغرور يتغفل الناس، وفي لص آراء، وفي مقلد تقليداً أعور؛ كل واحد من هؤلاء وأشباههم مبتلي بعلة، فمذهبه رسالة علته؛ وأكثرهم لا يكون ثباته على الرأي الفاسد إلا من ثبات العلة فيه
قال المحدِّث: وكنتُ من المجددين فأرمضني ذلك، وقلت للعجوزين: إن هذا نصف الصحيح؛ أما النصف الآخر فهو في كثير من هؤلاء الذين ينتحلون الدفاع عن الدين والفضيلة. نعم إنهم لا يستعملون حقهم في الوقاحة، ولكن القروش تستعمل حقها. . .
فضحك العجوز (ن) وقال: يا بني إن الجديد في كل حمار هو أن يزعم أن نهيقه موسيقى. . . فالحمار والنهيق والموسيقى كل ذلك لا جديد فيه، ولكن التسمية وحدها هي الجديدة. ولو كان البرهان في حلق الحمار لصح هذا الجديد، غير أن التصديق والتكذيب هنا في آذان الموسيقيين لا في حلق حمارنا المحترم. . .
قال (م): وزعموا أن رجلاً نصب فخاً لصيد العصافير، فجاء عصفور فنظر من هذا الفخ الى شيء جديد فقال: يا هذا! مالك مطمورا في التراب؟ قال الفخ: ذلك من التواضع لخلق الله. قال: فممَّ كان انحناؤك؟ قال الفخ: ذلك من طول عبادتي لله. قال: فما هذه الحبة عندك؟ قال الفخ: أعددتها لطيور الله الصائمين يفطرون عليها. قال العصفور: فتُبيحها لي؟ قال: نعم
فتقدم المسكين اليها، فلما التقطها وقع الفخ في عنقه، فقال وهو يختنق: إن كان العُبّاد يخنقون مثل هذا الخنق فقد خلق إبليس جديد
قال (ن): فالحقيقة أن إبليس هو الذي تجدد ليَصْلح لزمن الآلات والمخترعات والعلوم والفنون وعصر السرعة والتحول. وما دام الرقي مطردا وهذا العقل الإنساني لا يقف عند غاية في تسخير الطبيعة، فسينتهي الأمر بتسخير إبليس نفسه مع الطبيعة. .

لاستخراج كل ما فيه من الشر
قال (م): ولكن العجب من إبليس هذا. أتراه انقلب أوربيًّا للأوربيين؟ وإلا فما بالُه يخرج فيهم مجددين من جبابرة العقل والخيال ثم لا يؤتينا نحن إلا مجددين من جبابرة التقليد والحماقة؟
قال المحدث: فقلت لهما: أيها العجوزان القديمان، سأنشر قولكما هذا ليقرأه المجددون
قال الأستاذ (م): وانشر يا بني أن الربيع صاحب الإمام الشافعي مر يوماً في أزقة مصر فنثرت على رأسه إجانة مملوءة رمادا، فنزل عن دابته وأخذ ينفض ثيابه ورأسه . . .فقيل له: ألا تزجرهم؟ قال: من استحق النار وصولح بالرماد فليس له أن يغضب
ثم قال محدثنا: واستولى عليَّ العجوزان ورأيت قولهما يعلو قولي وكنت في السابعة والعشرين وهي سن الحِدَّة العقلية فما حسبتُني معهما إلا ثُلث عجوز. . . . مما أثرا علي، وانقلبت لا أرى في المجددين إلا كل سقيم فاسد، واعتبرتُ كل واحد منهم بعلته، فإذا القول ما قال الشيخان وإذا تحت كل رأى مريض مرضٌ، ووراء كل اتجاه . . .إبرة مغناطيسية طرفها إلى الشيطان
وفرغنا من هذا فقلت للشيخين: لقد حان وقت نزولكما من بين الغيوم أيها الفيلسوفان؛ أما كنتما في سنة 1895 من الجنس البشري. . .؟
(لها بقية - طنطا)
مصطفى صادق الرافعي
بعد انهيار الحبشة
الخطر الفاشستي والصراع بين الفاشستية والإمبراطورية البريطانية
لباحث دبلوماسي كبير
انتهت أعمال القرصنة الإيطالية في الحبشة إلى نتيجة لم يتوقعها كثيرون من رجال الحرب والسياسة؛ فقد انتهت بانهيار قوى الحبشة بسرعة، وسقوط قواعدها في يد العدو المغير بلا مقاومة، ومثول عاهلها الإمبراطور إلى الخارج، تاركاً ملكه ووطنه وأمته إلى مصاير مجهولة. واستطاع موسوليني زعيم الفاشستية المعتدية أن يعلن خلال مناظر مسرحية ضم الحبشة لإيطاليا وتعيين ملك إيطاليا إمبراطوراً للحبشة ومن العبث أن نحاول التحدث هنا عن أسباب انهيار المقاومة الحبشية بتلك السرعة المدهشة بعد أن استطاعت أن تصمد في وجه العدو أشهراً، وأن تقف زحفه سواء في الشمال أو الجنوب حتى شهر مارس الماضي؛ ولكن المحقق أن هذا التطور الفجائي في أقدار الحرب يرجع قبل كل شيء إلى التجاء الإيطاليين، بعد أن عجزوا عن التغلب بوسائل الحرب المشروعة إلى استعمال وسائل الحرب المحرمة كالغازات القاتلة وغيرها؛ وهكذا استطاعوا بتلك الوسائل المجرمة أن يمزقوا صفوف الأحباش، وأن يلقوا الروع في نفوس الشعب الحبشي بأسره، هذا إلى ما يذاع من أنهم استطاعوا أن يبثوا بالرشوة والإغراء كثيراً من أسباب الشقاق بين مختلف الرؤوس والزعماء على أن هذا النصر المثير الملوث بأدران الجريمة، والذي يعتبر بحق قرصنة استعمارية محضة، لم يمنع الفاشستية الإيطالية من أن تزفه إلى العالم نصراً رومانياً للحضارة والمسيحية المتمدنة، على بلاد همجية تتوق إلى الانظواء تحت السيادة الإيطالية الظليلة، والأخذ بأسباب الحضارة الإيطالية الزاهرة! ولم يمنع زعيم الفاشستية من أن ينوه بأسلوبه المسرحي بعظمة هذا النصر الفاشستي، وبأنه عنوان ساطع لقوة إيطاليا الفتية، وأن يتوعد أوربا والعالم كله بأنه على استعداد لأن يسحق أية قوة أو دولة تحاول أن تقف في سبيله أو تحاول أن تحرمه من ثمار ظفره
ولو عيد موسوليني مغزاه، ذلك أن إيطاليا تستقر الآن في الحبشة بقوة الفتح فقط، ولكن هذه الحقيقة الواقعة لا يمكن أن تعتبر حلاً نهائياً للمسألة الحبشية، وإنما تنتقل المسألة الحبشية الآن من ميدان الحرب إلى ميدان الحوادث الدولية والصراع الاستعماري. ولنذكر دائماً أن ما أبدته عصبة الأمم من إقدام في الحكم على إيطاليا بالاعتداء وتوقيع العقوبات الاقتصادية عليها يرجع قبل كل شيء إلى تدخل إنكلترا ونفوذها؛ وإنكلترا لم تتدخل ولم تعمل لتنظيم هذه الحركة الدولية تأييداً لميثاق العصبة ومبدأ السلامة المشتركة فقط، ولكن لأن الانتصار الفاشستي في الحبشة يهدد صرح

الإمبراطورية البريطانية ومصالحها الحيوية بأعظم الأخطار
وقد عقدت الآمال من قبل على تدخل العصبة وجهودها؛ وما زالت العصبة على موقفها من استنكار عمل إيطاليا وتأييد العقوبات الاقتصادية المفروضة عليها؛ وربما اتخذت إجراءات أخرى في هذا السبيل في اجتماعها الذي سيعقد في الخامس عشر من يونيه؛ ولكنا نستطيع منذ الآن أن نضرب صفحاً عن الدور الذي يمكن أن تؤديه العصبة في حل المشكلة الحبشية بعد أن انهار تدخلها، ولم تستطع أن تنفذ كل ما يقضي به ميثاقها للتوسل إلى إرغام المعتدي على وقف الاعتداء
والآن ينكشف النضال واضحاً عن معركة دولية ذات وجهين: أحدهما قد أتخذ حتى اليوم ستاراً للآخر؛ فأما الوجه الأول فهو مبدأ السلامة المشتركة طبقاً لميثاق عصبة الأمم، وهو المبدأ الذي انتهكته إيطاليا بغزو الحبشة، وحاولت العصبة تأييده بفرض العقوبات؛ فالدول الصغرى من أعضاء العصبة تتساءل اليوم، هل في وسعها أن تعتمد في سلامتها الخاصة على تطبيق هذا المبدأ بعد الفشل الذي لحق العصبة في وقف الاعتداء الإيطالي؟ أم هل يجب عليها أن تبحث عن وسائل عملية أخرى كعقد المواثيق المحلية لتأمين سلامتها؟ إن ما ارتكبته إيطاليا في الحبشة يمكن أن ترتكبه غداً في تركيا، أو في اليونان، ويمكن أن ترتكبه ألمانيا في النمسا أو هولنده أو لتوانيا، ويمكن على وجه العموم أن ترتكبه أية دولة قوية ضد أية دولة ضعيفة دون أن تجد وازعاً كافياً لوقف عدوانها؛ فأنصار عصبة الأمم يرون في هذا الطور الحاسم من تأريخ العصبة أن لا أمل في نجاح مبدأ السلامة المشتركة ما لم يعدل دستور العصبة في هذا الشأن تعديلاً وافياً، وتنظم العقوبات الاقتصادية
والعسكرية التي تطبقها العصبة على المعتدي تنظيماً يكفل أثرها في وقف الاعتداء المسلح بسرعة؛ وخصوم العصبة يرون أن التجربة الحبشية كانت حاسمة، فعلى عصبة الأمم أن تعلن إفلاسها، وعلى الدول أن تعتمد على وسائلها الخاصة للدفاع عن نفسها؛ وتقف الدول الصغرى فيما بين ذلك حيرى، ولكنها تعمل من جهة أخرى على تنظيم وسائل الدفاع عن نفسها جهد المستطاع
وأما الوجه الثاني من هذه المعركة الدولية، فهو نشوب النضال بين قوة عسكرية جديدة طامحة، هي الفاشستية الإيطالية، وبين إمبراطورية استعمارية عتيدة، هي الإمبراطورية البريطانية؛ ولم يكن خافياً منذ البداية أن نشاط السياسة البريطانية في توجيه عصبة الأمم إنما هو مرحلة فقط من مراحل النضال الحقيقي؛ والآن وقد انتهت هذه المرحلة بظفر العسكرية الفاشستية، وهزيمة السياسة البريطانية، فأن النضال يوشك أن يدخل طوره الثاني؛ وقد أدركت بريطانيا العظمى منذ البداية ما تهدد به تلك الفاشستية المضطرمة الطامحة، سيادتها في البحر الأبيض، وما يهدد به ظفرها في الحبشة سيادتها في وادي النيل وشرق أفريقية؛ وسيادة الإمبراطورية البريطانية ومواصلاتها، صرح لا يتجزأ، فأي صدع يصيبها يعرض البناء كله للخطر؛ ولم تخف الفاشستية ولا سيما منذ ظفرها في الحبشة، أنها تداعب حلماً إمبراطورياً ضخماً، وما فتئ زعيمها يتحدث عن أحياء الإمبراطورية الرومانية؛ وليس من ريب في أن السياسة البريطانية ترى في هذه العسكرية الطامحة المتجنية، المعتدة بقوتها، المعتزة بظفرها، خطراً عظيماً على كيان صرحها الإمبراطوري، تزمع سحقه بأي الوسائل

وليست إنكلترا وحدها هي التي تستشعر ذلك الخطر العسكري الجديد الذي تهب ريحه على أمم البحر الأبيض بنوع خاص، بل إن أمم أوربا كلها تستشعر به وتخشى تفاقمه؛ وإذا كانت ثمة دول مثل فرنسا وألمانيا والنمسا تنظر إلى نهوض الفاشستية بعين الإغضاء، وربما بعين الرضى، فذلك لظروف خاصة مؤقتة لا تلبث أن تزول فتشعر هذه الأمم بنفس الشعور الذي يثيره ظهور عسكرية جديدة جامحة تحتقر العهود والمواثيق الدولية وتجعل شعارها القوة الغاشمة دون غيرها
وأمامنا التأريخ الأوربي الحديث، يعيد نفسه دائماً؛ وفي رأينا أنه سيعيد نفسه في القريب العاجل مرة أخرى
ذلك أن أوربا، وإنكلترا بنوع خاص، لم تتسامح قط في أمر العسكريات القوة المعتدية؛ ولم تنهض في أوربا أية عسكرية قوية طامحة، خلال القرون الأربعة الأخيرة، إلا اجتمعت أوربا على مقاومتها وسحقها

وقد كانت العسكرية البروسية آخر عسكرية من هذا النوع، لقيت مصرعها في الحرب الكبرى
ومنذ القرن السادس عشر يعيد التأريخ الأوربي الحديث نفسه في هذا الميدان بصورة واضحة؛ ففي القرنين السادس عشر والسابع عشر، كانت العسكرية التركية تجول ظافرة في جنوب شرقي أوربا وأواسطها حتى حدود بولونيا، وقد اجتاحت حوض الدانوب حتى أسوار فينا، وحاصرت العاصمة النمسوية مرتين، فما زالت أوربا حتى حطمت هذه النهضة العسكرية الخطرة في البر والبحر، وردتها إلى ما وراء الدانوب، وحرمتها من كل ثمار ظفرها؛ وفي القرن السابع عشر، قام لويس الرابع عشر يهدد سلام أوربا الغربية بأطماعه ومغامراته العسكرية، فما زالت الدول الخصيمة وفي مقدمتها إنكلترا والنمسا حتى سحقت قواه العسكرية، بعد سلسلة من الحروب الطاحنة؛ وفي أوائل القرن الثامن عشر كان كارل الثاني عشر ملك السويد يجتاح بجيوشه ضفاف البلطيق وغرب روسيا، ويهد التوازن الأوربي في شرق أوربا، فما زالت روسيا حتى سحقت مشاريعه وقواه
وربما كان أعظم مثل في التأريخ الحديث لذلك الصراع الخالد في سبيل التوازن الأوربي، وسحق العسكريات الجامحة، مثل نابليون بونابرت؛ فقد ظل هذا الجندي العظيم الطامح يقود جيوشه الظافرة في جنبات أوربا مدى عشرين عاماً، ويبسط سيادته على معظم الدول الغربية والوسطى، ويعمل بكل ما وسع لتحطيم سيادة إنكلترا في البحر الأبيض؛ ولكن إنكلترا لبثت تطاوله وتصارعه وتؤلب عليه الدول الخصيمة، حتى انتهت بسحقه وتحطيم ذلك الطغيان العسكري الشامل الذي بسطته الإمبراطورية على أوربا زهاء عشرة أعوام
وقد رأينا كيف اجتمعت أوربا الغربية، وفي مقدمتها إنكلترا، أثناء الحرب الكبرى، لتحطيم العسكرية البروسية، التي وثبت تهدد العالم بأطماعها الجائشة في السيادة والإستعمار،
وكيف لقيت مصرعها بعد حرب كانت أروع ما شهد التأريخ
والآن يبدو الخطر الفاشستي في الأفق، وتنذر العسكرية الفاشستية الجامحة بتحطيم التوازن الأوربي في شرق أوربا وفي وسطها، وتتحدى بالأخص سيادة إنكلترا البحرية في البحر الأبيض؛ وقد زادها انتصارها في الحبشة زهواً وتحدياً، فهل تصبر أوربا، وهل تصبر إنكلترا بنوع خاص حتى يتفاقم الخطر الفاشستي كما تفاقم الخطر البروسي قبيل الحرب؟ هذا ما لا نعتقد، وفي يقيننا أن الإمبراطورية البريطانية تتأهب لخوض ذلك الصراع التقليدي الذي حرصت دائماً على خوضه لتحطيم ذلك الطغيان العسكري الجديد الذي يهدد سيادتها ومصالحها الحيوية في البحر الأبيض وفي شرق أفريقية، وإذا كانت السياسة البريطانية ما زالت تبدي بعض الفتور والتردد في العمل الحاسم فذلك لأن مصاير الحرب والتسليحات الحديثة قد اتخذت وجهة جديدة، ولم تعد السيادة البحرية وحدها كافية لأن تملي بريطانيا كلمتها؛ ومن تقاليد بريطانيا المأثورة أنها لا تتعجل الحوادث، ولا تسارع إلى قبول التحدي الطائش؛ وبريطانيا تزن اليوم أقدار الحرب والنضال بميزان جديد لم تستقر عوامله بعد؛ وقد يمضي وقت آخر قبل أن تنزل بريطانيا إلى ميدان العمل الحاسم
قد تستطيع الفاشستية الجامحة في نشوة ظفرها المزعوم، أن تزعج أوربا وإنكلترا، مدى حين بمشاريعها ووعيدها؛ ولكن الفاشستية تخطئ بلا ريب إذا هي اعتقدت أن الظفر ميسور في ميادين أخرى غير الحبشة، وأنها تستطيع في مكان آخر من أوربا، أو أفريقية، أن تستعمل وسائلها العسكرية المجرمة في تحقيق أحلامها الرومانية، دون عقاب أو وازع؛ وهنالك حقيقة لا ريب فيها، وهي أن الفاشستية قد بثت بمسلكها وغرورها ووعيدها مخاوف ما كان أغناها عن بثها، وأنها سترغم بلا ريب، في القريب العاجل، على خوض الصراع الحاسم؛ وليس من ريب في أنها ستسحق في هذا الصراع، كما سحقت كل عسكرية أوربية جامحة من قبلها.

امتزاج الأحاسيس

للأستاذ عبد الرحمن شكري

قال المتنبي:

والذل يظهر في الذليل مودة ... وأود منه لمن يود الأرقم

وأحسب أن المتنبي إنما أراد أن يصف الذليل المداجي الذي يظهر المودة ويخفي الضغينة والعداء، فيتودد ويتذلل حتى ينال من خصمه. وهذه صفة في ذوي الكيد والمكر والدهاء. ولكن هناك صفة أخرى في النفس الإنسانية تشبه هذه الصفة بعض الشبه، وهي صفة المحبة والمودة التي يحسها الخائف إحساساً حقيقياً لا مداجاة فيه إذا عجز عمن يخاف منه وألف الخوف فأزالت ألفة الخوف غلواءه، وأزالت الرغبة في التخلص منه. وأبعدت هي والعجز أمل الانتقام من أجله، فتحول إرادة المحافظة على الحياة ذلك الخوف المألوف محبة أو مودة تحاول بها نيل الزلفى لدى الإنسان المخوف من طريق الإحساس الصادق بالمحبة أو المودة. وتحاول أن تسل بها من قدرة المخوف حمة البغض وسم الضغينة. لأن إرادة المحافظة على الحياة تعلم أن مودة الرياء ومحبة النفاق قد لا تقنع، وقد تنكشف ويشف ثوب الرياء عما تحته فينال الخائف المرائي شراً إذا انكشف مداجاته وعرفت مداهنته، ومن أجل ذلك تبالغ إرادة المحافظة على الحياة في الحيطة والحذر، فتحول الخوف من الإنسان المخوف إلى حب له أو مودة كي تقنعه وتتقي بوادر شره، وهي أيضاً تحاول أن تقنع بتلك المودة نفس من يحسها. وتفهمها أن لا داعي لليأس من الحياة كي لا يرهقها الخوف واليأس؛ وهذا أمر مشاهد إذا قرأ الإنسان سِفْرَ الحياة وتقصي البحث في تكوين النفوس وهذه المحبة قد تزول وقد تبقى بعد زوال أسباب الخوف. وقد تقوى أواصرها بعد الرهبة ولا سيما إذا حلت الرغبة مكان الرهبة، ووجدت النفس منفعة دنيوية أو نفسية لها عند من زالت أسباب الخوف منه؛ وقد تنقلب تلك المحبة إذا زالت أسباب الخوف مقتاً ورغبة في الأنتقام، فيحسبها الباحث أنها لم تكن إلا مداهنة ونفاقاً، وهي قد تكون ذلك، وقد تكون كما شرحنا محض المودة والشعور الصادق بها، لأن احساسات النفس تمتزج وتتحول وتتشكل أشكالاً وتتلون ألواناً في السرائر، فكأن في النفس البشرية سر الكيمياء الذي حاول

الكيميائيون في القرون الوسطى معرفته كي يتمكنوا من تحويل معدن إلى معدن، فهذا التحول الذي وصفناه من كيمياء النفوس في معامل السريرة الخفية وكما أن امتزاج الخوف والمحبة يشاهد في الأضداد البعداء من قوي مسيطر وضعيف ذليل، إذا تهيأت للأول أسباب القوة من جاه أو مال أو صحة، وخذلت تلك الأسباب الذليل الضعيف وقهرته على أن يعتمد على صاحب المال أو الجاه، فذلك الامتزاج يشاهد أيضاً في نفوس الأصدقاء والأوداء والأحباء والأقرباء. فكم من امرأة تحب زوجها حباً صادقاً أساسه الخوف منه؛ وكم من رجل يحب زوجه حباً صادقاً يخالطه الخوف؛ وكم من قريب يود قريباً، وصديق يود صديقاً وداً تمازجه الرهبة أو الخشية وإذا تقصينا البحث وجدنا ما هو أعجب من ذلك فقد يمتزج البغض والحب في النفوس، فقد يبلغ العاشق منزلة من العشق تشرف على البغض والمقت لمن يعشق، وقد تتذبذب نفس العاشق بين الحب والبغض أو قد تجمعهما في وقت واحد، فهي تارة تريد الخير لمن تحب، وتارة تريد الشر، وتارة تجمع بين إرادة الخير وإرادة الشر - ويمتزج الإخاء والجفاء في نفوس الأصحاب، ويمتزج الاحترام والاحتقار في نفوس الجلساء والمتعاشرين، كما يمتزج الحب والبغض في نفوس العشاق، أو كما يمتزج الخوف والود في نفوس الضعفاء، فترى الصاحب أو الجليس يبالغ تارة في إخائه لصاحبه وجليسه ومعاشره ويكثر من إكرامه وإجلاله، وتارة يظهر له الجفاء وقلة الاكتراث أو العبث به أو الحط منه، وتارة يجمع في مجلسه بين النقيضين

وكل إنسان يشتكي هذه الصفة في النفوس، ولكل إنسان نصيب منها قل أو كثر وإنما يفطن إلى ما في نفوس الناس ولا يفطن إلى نصيب نفسه منها. وينقسم الناس في تدبر هذه الصفات ثلاثة أقسام: أناس يأبون الرضاء بها فيعتزلون الناس ما استطاعوا إلى العزلة سبيلاً؛ وأناس ينقدونها ويودون لو تكون النفوس على حال واحدة، ولكنهم يعرفون استحالة هذه الودادة فيقنعون بما هو مستطاع من النفس والحياة، وأناس لا يرون إعنات أنفسهم بالسخط على هذه الصفات النفيسة، ومنهم من يرى في تلون الناس وتقلبها وجمعها بين النقيضين رحمة أو تفكهة أو إراحة وترفيهاً، ويمقتون من لا يعاشرهم على هذه الخلال، وربما كان في قولهم شيء من الحق والصواب، وربما كنا نزهد في الحياة لو كانت نفوس

الناس على حال واحدة لا تتغير، فإن الحال التي لا تتغير مدعاة السأم والملل كسأم الذي يعيش في مكان قفر موحش لا يرى منه إلا مظهراً واحداً لا يتغير في أرضه أو سمائه

ولعل من أشد العقوبات وأقساها أن يحكم على إنسان ألا يأكل طول حياته غير السُّكَّر، فهو قد يشتهيه في أول الأمر، فإذا طال به العهد اعتراه السأم والملل؛ وكذلك ربما كان الجفاء مدعاة إلى التمتع بالإخاء، وقلة الاكتراث مدعاة إلى التنعم بالإكرام، والبغض حافزاً إلى استمراء الحب، كما أن اللذة لا يحسها إلا من يستطيع الإحساس بالألم. وهذه فلسفة لا شك فيها، ولكن الكثير من أمزجة النفوس تأباها، إما لأنها مرهفة الحس فلا تنسيها اللذة الألم والإخاء الجفاء، وإما لأنها إذا أحست ألماً أو عانت جفاء أو قاست عداء لا تطمئن إلى زواله، وقد تستبطئ زواله فيدركها اليأس والحزن والحزن من تقلب النفوس وتلونها واختلافها نفساً عن نفس وحالاً عن حال كثيراً ما يدرك الشاب القليل الخبرة بالحياة والنفس الإنسانية، فهو لغرارته يحسب أن الحياة على مثل واحد يرتضيه، وأن النفس على خلة واحدة يحمدها، فإذا فطن إلى تقلب النفوس وتذبذبها وقلة استقرارها وجمعها بين الأضداد، وإذا راعه كل ذلك بسبب غدر صديق أو جفاء جليس أو عبث عشير أو شر رفيق أو كيد أليف أو بغض حبيب كاد ينفطر قلبه أو كادت تنهار دنياه، ولكن أكثر الشبان يستطيعون إذا طال بهم العمر ومد لهم فيه أو يوفقوا بين الحياة وبين مثلهم الأعلى، أو تطغي الحياة وما تدعو إليه على مثلهم الأعلى فتمحوه ويصير كل منهم في مودته مثل مقياس الحرارة (الترمومتر)، فتارة ترتفع مودته إلى درجة الغليان، وتارة تنخفض إلى ما هو تحت الصفر من درجات البرودة. وقس على المودة غيرها من الاحساسات

وإنما تصلح الحياة وترقى وتملح إذا لم يمح تذبذب النفوس المُثُل العليا منها. وخير خطة للمرء ألا يحزنه تقلب النفوس واختلاط خلال النفس، وألا يدع هذا الاختلاط والتذبذب يطغيان على كل شعور نبيل، فيجمع بين الاطمئنان ونشدان المُثُل العليا إذا استطاع ذلك

عبد الرحمن شكري

في حضرة الأمير فؤاد جلالة الملك الراحل

للأستاذ عبد القادر المغربي

عضو مجمع اللغة العربية الملكي

لم يتح لي شرف المثول بين يدي جلالة الملك فؤاد الأول وأنا عضو في مجمع اللغة العربية الملكي، وإنما أُتيح لي ذلك وهو أمير وأنا محرر في جريدة (المؤيد) سنة 1907م

كتبتُ في هذه السنة عدّة مقالات في الدين والأدب والأخلاق والاجتماع الإسلامي؛ وكان مما كتبته سلسلة مقالات بعنوان (حمامة الأزهر)، فكنتُ أروي عن تلك الحمامة - مستمداً من وداعتها ونزاهتها - وصفاً دقيقاً لأحوال الأزهر وأخلاق علمائه ومشارب طلابه وما يقع فيه يوماً فيوماً من خير يمتدح أو شر يجتنب

واتفق يومئذ حدوث ما حدث بين السّيد علي المرصفي ومشيخة الأزهر. وكان السيد يقرأ من كتب الأدب (كاملَ المبرد). وللحجاج فيه كلمة نابية لا تكاد تذكر حتى يتبرأ منها المسلم. فَنَقَلَ بعض الوُشاة إلى المشيخة خَبَرَ ورود هذه الكلمة في درس الأستاذ (المرصفي). فأكبرتْ أمرها. ودعت الأستاذ إليها وناقشته في اختياره لهذا الكتاب من بين كُتُب الأدب الكثيرة، وفيه تلك الكلمة. ثم أَبَتْ المشيخة عليه إلا أن يقرأ مقامات الحريري، وأبى هو إلا أن يهجر الأزهر ويعكف على القراءة في داره في باب الشعرية، وهكذا وقع

على أثر ذلك زارني في إدارة تحرير (المؤيد) ثلاثة من مجاوري الأزهر الذين لم ينفضوا من حول شيخهم المرصفي. وقد ألفت بينهم حرّية في الفكر، وصراحة في الرأي، ونفوس وثابة إلى التجديد: فكانوا في تأريخنا الحديث أشبه بجمعية إخوان الصفا في تأريخنا القديم

وهم الأساتذة: طه حسين، والزيات (صاحب هذه الرسالة)، والزناتي

فأنستُ بهم وسررت بزيارتهم

وقد وصف لي الأستاذ طه حادثة أستاذهم المرصفي مع مشيخة الأزهر وعجَّبني أشدّ

العجب من موقف المشيخة إزاء هذا الحادث. ثم رغب إليَّ أن أستنطق (حمامة الأزهر) فهي تملئ عليَّ الخبر بأتمّ ممّا أملاه هو وأن أنشر ما تقوله في (المؤيد)
فقلت له - وأنا آسف واجم: إن الشيخ علي يوسف دعاني إليه بالأمس وقال لي: إن سمو الخديو (عباساً) قال له: قل للشيخ المغربي ليدع (حمامة الأزهر) وشأنها، ولا يرو منْ بعد
الآن في (المؤيد) خبراً عنها
ولما أردت أن أناقش صاحب المؤيد في ذلك قطع علي حبل المناقشة بلهجة البات الجازم. وقد بين السبب في هذا البت بأن الخديو قال له: إن شيوخ الأزهر أنفسهم كلموه في هذه القضية فوعدهم خيراً، فلم يبق مناص من امتثال أمره
ثم قلت للإخوان الثلاثة: هذا ما جرى، وكنت أحب أن يصلني خبر حادثتكم هذه قبل ما بلغت من أمر الخديو فيكون للحمامة إذ ذاك شأن في وصف الحادثة والتعليق عليها. وما يدرينا أن يكون الشيوخ الذين كلموا الخديو في الأمر إنما حسبوا حساب (الحمامة) التي اشتهرت بصدق ورايتها، وإخلاصها في نصيحتها، فلجئوا إلى الخديو. وبهذه الصورة قطعوا عليها طريق الكلام في الحادثة
ثم أفضتُ مع (إخوان الصفا) في أحاديث أخر. حتى وصلنا إلى ذكر ما أنشره في (المؤيد) من مقالات (أمالي أدب) فأنشدني الأستاذ طه القصيدة التي اشتهرت باسم (اليتيمة) ومطلعها:
(هل بالطلول لسائلٍ ردٌّ ... أم هل لها بتكلمٍ عهدُ)
وكنت نشرت في (أماليَّ) أبياتاً من تلك القصيدة. فقال الأستاذ (طه) إن معظم القصيدة موجود في مجموعة رسائل مخطوطة في دار الكتب المصرية. وفي ثاني يوم أرسلها إلي بخط بعض إخوانه، وبقيت عندي حتى غلبني عليها أحد الأصدقاء قبل بضع سنين
وفي تلك الأثناء زارني صديقي الأستاذ (محمد الهراوي) وقال لي: يحسن أن تزور معالي (حسين رشدي باشا). وكان مديراً للأوقاف العمومية في ذلك العهد. ولم أكن اجتمعت به من قبل، أما الهراوي فقد كان على اتصال به
فزرناه في دار سكنه في (المنيرة) وهي الدار التي آلت ملكيتها بعد ذلك إلى الشيخ علي يوسف
ولما دنونا من بابها رأينا عربة فخمة يقودها فرسان مطهمان. فقال لي رفيقي: يظهر أن أحد أمراء العائلة الخديوية في زيارة
الباشا وهكذا كان: فإننا لم نكد نطأ البساط حتى خاطبنا الباشا مشيراً إلى صدر المجلس حيث زائره الكريم - قائلاً:
سمو البرنس فؤاد
فدنونا وسلمنا. ولم نكد نأخذ مجالسنا حتى التفت الباشا إلى الأمير وجعل يكلمه بالفرنسية. وكان في خلال الحديث يلتفت إلي، فعلمت أنه يقدمني إلى سموه، وبالطبع يكون قد قال له: إنني عالم سوري وإنني أحرر في (المؤيد) رسائل حمامة الأزهر، وإنني أسلك في نقد العادات والأخلاق وطرائق التعليم الدينية الأزهرية مسلك المرحوم الشيخ محمد عبده. عرفت هذا من قول صاحب السمو للباشا بالفرنسية:
سل الشيخ ما هو رأيه في الكرة الأرضية؟ هل هي حقيقة محمولة على قرن ثور كما يقولون؟
فكان لهذا السؤال وميض من الابتسام على شفاهنا جميعاً وشعرنا بشيء من الأنس والانبساط أفاضته علينا كلمة صاحب السمو بعد انقباض الاحتشام الذي غشينا من مهابته
فقلت للباشا قل لأميرنا المحبوب: إنه لولا الثور (أبيس) وبقية ثيران الدنيا التي كان يمثلها ذلك الثور في هياكل مصر - لما وجد في الدنيا إنتاج زراعي، ولما قام عمران في العالم. فلا جرم أن كانت الدنيا القديمة محمولةً على قرن الثور وحده وأن يكون أهلها عيالاً عليه: فهو الذي (يحمل) عبء الاهتمام بأمرهم، والسعي في تموينهم، وتدبير الأقوات لهم
ففكرة حمل الدنيا على قرن الثور إذن فكرة شعرية خيالية سرت إلينا من المصريين القدماء بشكل جديّ واقعي

فبرقت أسارير صاحب السمو من هذا الجواب. ثم أبدى أسفه الشديد لكثرة ما تسرب إلى الدين الإسلامي من تقاليد الأمم القديمة ومزاعمها، حتى أصبحت تلك المزاعم كأنها جزء من تعاليم الإسلام. ثم ذكر لنا سموه أمراً أستغربه جداً: وهو أن بعض علماء مراكش وفَدَ على القاهرة فسأله بعض من سلَّم عليه من زملائه عما إذا كان سفره من المغرب الأقصى إلى القطر المصري كان بطريق البر أو البحر. وقال سموه: إن العزلة التي تجعل صاحبها يجهل أبسط شأن من شؤون عصره لهي عزلة ضارة تجب مقاومتها والخروج من ظلمتها

وقد كان كلام سموّه يشفُّ عن مبلغ غيرته على الإسلام، وحرصه على تصفية علومه، وعلى الأزهر وحرصه على ترقية شؤونه

رحم الله فقيدنا العظيم رحمة واسعة، وجعل لنا من ابنه جلالة (فاروق الأول) خليفة صالحاً

يكشف الغمّة ويجمع كلمة الأمة.

(دمشق)

المغربي

النقد الأدبي

بقلم السيد عبد القادر صالح

بحث صاحب (الرسالة) الغراء في عددها الأسبق تهافت الأدباء الناشئين على النقد الأدبي ولما يأخذوا له عدته

ولم يَعْدُ الحق فيما سرده من العلل لتلك الظاهرة القوية بين كثير من ناشئتنا، لأن منزلة الناقد الحق منزلة رفيعة تحتاج إلى سعة إطلاع، وسلامة ذوق، وصراحة من غير ما قسوة أو غرض

ذكرني مقال الأستاذ في (النقد المزيف) بقصيدة مشهورة لشاعر إنكليزي نقادة اسمه (بوب) عاش في القرن الثامن عشر. ويتبوأ هذا الشاعر في الأدب الإنكليزي مكانة (أبي الطيب المتنبي) في الأدب العربي من بعض الوجوه. كلاهما كان أمير الشعر في عصره، وكلاهما كان يعتز برفعة نفسه وعدم إمتهانها، وكلاهما كان متين الأسلوب، وأشعار كل منهما أصبحت أمثالاً سائرة

وتلك القصيدة التي أشرت إليها آنفاً، والتي سأحاول أن أنقل لقراء (الرسالة) الذين لم يدرسوا بوب بعض آراء هذا الشاعر الواردة فيها، هي: (مقال في النقد) نشرت والشاعر في الثالثة والعشرين من عمره؛ ويظن أنه نظمها قبل نشرها بسنتين، يستهلها بقوله:

يتعذر على المرء أن يقول: أي الرجلين تنقصه المهارة أكثر: السيئ النقد أم السيئ) الكتابة؟ على أن ما يستنفد صبرك أقل خطراً مما يضلك

أحكامنا كساعاتنا، قل أن يتفق منها اثنان. غير أن كلاًّ منا يعتقد أن رأيه هو الأصوب يندر وجود العبقرية الحق في الشعراء، كما يندر وجود الذوق السليم في الناقد. كل من الناقد والشاعر يجب أن يكون مطبوعاً.

هذا خلق ليكون ناقداً وذاك ليكون شاعراً

قلة معارف البعض تفسد مؤهلاتهم البسيطة. فإذا ما أخفقوا في الكتابة انقلبوا نقدة ليدرءوا عن أنفسهم أثر الخيبة.

العلم الناقص شديد الخطر، فإما أن تتبحر في العلم وإما ألا ترد مناهله. لأن الاغتراف البسيط يسكر، ولا يعيد الرشد إلا الإمعان في الطلب

قبل أن تتعرض للنقد يجب أن تتأكد من نفسك أولاً، وأن تعرف مدى ما لديك من المعرفة والعبقرية والذوق السليم.

الكبرياء من أقوى الأسباب التي تحول بين المرء ورؤية الحقائق. ومن شأن الطبيعة أن تزيد في كبرياء المرء بمقدار ما ينقصه من المقدرة

في البدء يخيل إلى الشاب المتحمس أنه بمعلوماته البسيطة بلغ ذروة الفن، ولكنه كلما أمعن في طلب العلم بدا له نقص أوضح. كالمصعد في جبال الألب يتراءى له في بدء تصعيده أنه يدنو من الذروة العليا، فإذا ما أستمر في تصعيده بدت لعينيه ذرى تعلوها ذرى

الناقد الكامل يقرأ الكتاب بنفس الروح التي كتب بها المؤلف. ينظر للكتاب ككل، فلا

يجعل همه اكتشاف الغلطات التافهة. وهل يُحكم على جمال شخص بجمال العين أو الشفة على انفراد؟
بعض النقدة همهم اللغة. يعجبهم من الكتب ما يعجب النساء من الرجال: حسن الثياب سلاسة الأسلوب ليست وليدة المصادفة، وإنما هي ثمرة الفن. جرس الكلمة يجب أن يكون صدى لمعناها
بعض النقدة ينتقد أسماء المؤلفين لا مؤلفاتهم، فيمتدح أو يذم الشخص لا كتابه.
والبعض الآخر يمتدح القديم لأنه قديم، أو الجديد لأنه جديد. فلا تكن أول من يجرب الجديد ولا آخر من يتخلى عن القديم
وهنالك من يمتدح في أول النهار ما يذمه في آخره؛ وإذا سألته عن السبب أجابك: (أنا الآن أعقل مني في الصباح.) ولا ريب أنه سيكون في الغد أعقل منه الآن
والبعض إنما يقدر من كان من رأيه أو حزبه، فيتخذ من نفسه مقياساً للنقد عاماً
لا يكفي أن يجتمع في الناقد الذوق والمعرفة وإصابة الرأي، بل يجب أن ينضم إلى هذه الصفات الحق والصراحة.
عليك بالصمت التام عندما تكون غير واثق تمام الثقة من صحة رأي. وعليك أن تتواضع إذا كنت متمكناً من رأي، وأن تعترف بأغلاطك
لا يكفي أن يكون نقدك حقاً تقصد به الإرشاد، إذ كثر ما سببت الحقائق الجافة أضراراً أبلغ من الأخطاء، لأن الناس يحبون أن يُعلَّموا وهم لا يشعرون أنهم يعلمون، وأن تُذكر لهم
الأشياء التي يجهلونها كأنها منسية لا مجهولة
لا تقس في نقدك ولا تكثر منه. ولكن يجب ألا يسوقك التسامح لإهمال العدل. ولكن أين الرجل الذي يستطيع أن يقدم النصح خالصاً حباً في الإرشاد لا رغبة في إظهار المعلومات؟)
(نابلس - فلسطين)
عبد القادر صالح
من الموضوعات التي نالت الجائزة في المباراة الأدبية
التربية الوطنية الاستقلالية وأثرها في بناء الأمة
للأستاذ محمد عبد الباري
تتمة
وجملة القول هنا أنه لابد من الشجاعة والإقدام للنجاح في هذه الحياة، لأنهما يأبيان على المتحلي بهما الاعتماد على الغير، ويقودانه إلى الطموح والسعي والابتكار. وصفتا الشجاعة والإقدام لا تتأصلان إلا بالتربية الاستقلالية التي تبدأ من الطفولة الأولى، وتنمو في الوسط الحر المستقل وتثبت بالقدوة والمثل
وفي البيئات الحرة المستقلة يقل اعتماد الفرد على الجماعة فتخفف أعباؤها. وفيها يشعر كل فرد بحقه وبواجبه فيعمل الواجب، ويطالب بالحق، ويكره الضيم ولا ينام للظلم. وبهذا يفكر الظالمون والمتعسفون كثيراً قبل أن يقترفوا الظلم والعسف، فيقل الاحتكاك وتسرع الجماعة في طريق البشرية لتحقيق مثل الإنسان الأعلى، دون فقدان كثير من قواعدها في احتكاك داخلي يوهن عزيمتها، ويفت في عضدها
ولا شك أن أعمال الحكومة تؤدي كثيراً إلى تدعيم روح الحرية والاستقلال بمراعاة ما ذكر في النظم والقوانين، وفي كيفية تطبيق رجال القضاة والإدارة لهذه القوانين والنظم
فكفالة حرية الرأي تساعد كثيراً على نضوج الفكر ومن ثم على نضوج الحرية الاجتماعية وتقضي على الفوضى، ومن الواجب مراعاة هذا لدى التقنين
واختيار القضاة ممن عرفوا بالصلابة في الحق، والتمكن من القانون، واستنارة الفكر، تعاون الجماعة على ضمان سير العدالة؛ وبذا يشعر الناس بأن لا ضير عليهم ما قاموا بواجبهم في حدود القانون، فيعظم نشاطهم ويكثر إنتاجهم
وتحلى رجال الإدارة كبارهم وصغارهم بصفات الاستقلال والحرية والشجاعة والإقدام يعمل كثيراً على سير أداة الحكم بلا عوج ولا غرض، فتشيع في الناس صفات الآباء والشمم،

ويعمل الجميع بلا خشية ولا رهبة ولا احتكاك ولا شقاق، ويقضي على النفرة بين الحكام والمحكومين، ويشعر الجميع بأن بينهم غرضاً مشتركاً يقوم كل بواجبه لتحقيقه، فيسهل الوصول إلى الغاية المشتركة بالتعاون والتضافر.

الوطنية

لا بد في الحياة الاجتماعية أن تقترن التربية الوطنية بالتربية الاستقلالية منذ الحداثة الأولى. نعم حب الوطن طبيعة يستشعرها الإنسان منذ فجر التأريخ بغير تلقين ولا درس، ولكنها مع ذلك من المشاعر التي يجب تعهدها بالترسيخ والتقوية، وحمايتها مما يفسدها من المؤثرات الصناعية

لا عزة في وطن ذليل؛ ولا قيمة للجاه الفردي والغنى الفردي في جماعة تخضع لإرادة خارجية؛ والاستقلال الفردي لا يثمر في أرض تسخر فيها إرادة الأفراد لغير مصلحة بلادهم

ففي مهد الطفولة يمكن تنمية شعور الوطنية بقص قصص الوطنيين الأبرار وتمجيد أعمالهم وإثارة الإعجاب بها. وفي المكتب أو المدرسة يتغنى الأطفال بحب الوطن ومجده والتفاني في خدمته، وإذا لم تكن العقول الصغيرة غير المتفتحة تدرك المعاني حق إدراكها فأن الذاكرة تختزن الألفاظ لتفيض معاني ملهمة عندما يتسع الإدراك وتأتي المناسبات؛ وخيال الطفل القوي يخلق من أبطال قصص والديه تماثيل ذهنية ناطقة تصاحبه ما عاش وتناديه وتناجيه، تزجره إذا ما حاول العقوق، وتدفعه إذا ما أعتزم العمل، وتتوج هامه بأكاليل الفخار إذا ما أجاد شاباً وكهلاً. وما أعجب فعل العقيدة عن إيمان!!

هذه الصور الخيالية تحفظ الشعور قوياً وثاباً. فإذا ما نضج الشخص بالتربية العقلية والجسمية والخلقية امتزج العقل بالعاطفة وكان في الفرد الوطنية الحية الرشيدة، أقوى أسس الحياة الاجتماعية

دراسة التأريخ بصفة خاصة من أقوى العوامل على تنمية الشعور الفطري بحب الوطن وتثبيته. فالصور الخيالية التي لزمت الطفل من البيت إلى المدرسة تزداد ثباتاً بدرس التأريخ كما ينبغي. التأريخ القديم والحديث حافلان بأعمال البطولة والشرف، وفيهما أمثلة لأعمال الدناءة والخيانة. فمن واجب الأبوين والمعلمين عرض صور الشخصيات التاريخية

البارزة عرضاً أخاذاً وتمجيد أعمال البر بالوطن والتفاني في خدمته وتحقير أعمال الخيانة والنذالة والجبن

بذا ينشأ الوطني طوحاً إلى المجد، مشمئزاً من الدناءة، منكراً لذاته في سبيل رفعة وطنه

ولا شك في أن للمثل الصالح هنا كذلك قيمته العظيمة. فسلوك الأبوين والأقارب والمعلمين يفعل في نفس الطفل العجائب، بل إن هذا السلوك يؤثر في الفتيان تأثيراً يخلق النفوس خلقاً آخر. فقيام كل من هؤلاء بواجبه كوطني يبث في الناشئين روحاً وطنية بلا تلقين أو وعظ، ويشبون على أن العمل لمجد الوطن واجب الجميع يؤديه الكل سجية. فإذا ما توانوا فيه أو تخاذلوا دونه كان ذلك شذوذاً معيباً وسلوكاً ممقوتاً للكتب والقصص، تمثيلية وغير تمثيلية، قيمة كبيرة في هذه الناحية من نواحي تربية الفرد. فالتلقين الحكيم الذي يزود به الكاتب قراءه أو مشاهدي روايته لا يقل كثيراً عن المثل والقدوة. يجب أن يكون في الكتب والقصص ما يكفي للإيحاء إلى القراء والنظارة بأن كلاً منهم يستطيع أداء حق وطنه عليه بأعداد نفسه الأعداد الذي تحتمله ظروفه وطبيعته والذي يمكنه من أداء عمله، مهما كان نوعه بإخلاص وإتقان. وبأنه إذا قام كل فرد بأداء عمله كما ينبغي فأن الوطن يتقدم ويعتز. وبأن الإنسان خلق حراً، ولكن لا سبيل إلى الاحتفاظ بهذه الحرية إلا إذا كان الوطن قوياً بحيث يستطيع رد من يحاول التسلط عليه وفرض إرادته على أبنائه

ومن خير وسائل إعداد الشبان قرن الثقافة ببث روح الطموح في الشبان وإثارتها في كل مناسبة، بل بخلق مناسبات لأثارتها. فالطموح المحب لوطنه يخصص حياته لتحقيق أمثلة عليا في الحياة تعود حتماً بالخير على بلده. فما الأمة إلا أبناؤها. فإذا كانوا خاملين وقف تقدم البلاد بل تتدهور. وإذا كانوا ذوي أمثلة عليا تقدمت البلد وعز جانبها ومن سبل ترسيخ الروح الوطنية الاحتفال بالأعياد القومية وانتهاز ما تتيح من فرص

لتمجيد أعمال البر بالوطن والتفاني في خدمته، وفي كل الطبقات يجب أن تنشأ جماعات يجتمع أعضاؤها يتباحثون ويتناجون فيما يعود على جماعتهم بالخير. وينبغي أن تنشد الأناشيد الوطنية في مبدأ الاجتماع وفي نهايته لتحية الوطن وإعلان الإخلاص له والتضحية في سبيله

وهكذا يذكر الوطن في المنزل وفي المكتب والمدرسة، وفي الاحتفال بالأعياد القومية، وفي الاجتماع المتعلق بالشؤون الطائفية، فترسخ في الجماعة عقيدة (الوطن فوق كل شيء) ويرخص كل شيء في سبيل الوطن، يرخص المال والولد، بل ترخص النفس كلما تطلب مجد الوطن بذلاً في الحرب والسلم على السواء

وإذا ما غلبت في جماعة ما روح التربية الاستقلالية ونما في الأفراد وقوى وثبت الشعور الفطري بحب الوطن، وأعد الجميع إعداداً صالحاً ليقوم كل بواجبه على خير وجه، فلا بد أن تنجح هذه الجماعة في شق طريقها إلى الحياة الإنسانية الكريمة، حياة العزة والشرف ممتعة بنعيم الحرية وبركة الاستقلال الصحيح.

(شبين الكوم)

محمد عبد الباري

من أدينا المجهول - شاعر يرثي ولده بديوان

اقتراح القريح واجتراح الجريح

لأبي الحسن علي الحصري

(للأستاذ الزيات عزاء وسلوة)

للأديب السيد أحمد صقر

- 2 -

الحصري المجهول: هناك بن طيات القرون الغابرة، ثبت ضخم حافل بكثير من نوابغ الأدباء، وعباقرة الشعراء ذوي الجد العاثر والطالع النكد، الذين جار عليهم الزمان فطوى ذكرهم وطمر تراثهم. ولو عنى الناس بأمر هؤلاء المحدودين، وبعثوهم من مراقدهم ونشروا آثارهم، لكان للأدب من ذلِك ثروة طائلة

من هؤلاء الشعراء المجهولين أبو الحسن علي بن عبد الغني الفهري الحصري القيرواني الضرير، صاحب كتاب (اقتراح القريح واجتراح الجريح). والحُصْري - بضم الحاء وإسكان الصاد - نسبة إلى عمل الحصر أو بيعها

ويشترك مع أبي الحسن هذا في لقبه شاعر معاصر آخر، كانت بينه وبينه وشيجة نسب، أعنى به أبن خالته الأستاذ (إبراهيم الحصري) صاحب كتاب (زهر الآداب) المتوفى سنة 453 من الهجرة (1601م)

وقد اشتبه أمرهما على كثير من الناس فحسبوا ذاك هذا، ونسبوا آثار هذا لذاك! وأرخوا لأحدهما بتأريخ الآخر، ولكن الأمر لم ينته على الراسخين في العلم، فوضعوا الحق في نصابه

أكتنف الغموض حياة أبي الحسن الحصري من كل ناحية، فلسنا نعرف نشأته ولا ثقافته، وليس فيما بين أيدينا من المصادر ترجمة دقيقة شاملة نعتمد عليها في تأريخنا له، وكل ما وجدناه نتف متشابهة، وشذرات مقتضبة، لا تجدي نفعاً؛ وقد أحببت أن أنقلها للقراء علها تلقي شيئاً - ولو ضئيلاً - من الضياء على حياة ذلك الشاعر العبقري، وترسم صورة - ولو شاحبة - لذلك الأديب المجهول

1 - ذكره أبن بسام في ذخيرته، فقال: (كان بحر براعة، ورأس صناعة، وزعيم جماعة، طرأ على جزيرة الأندلس منتصف المائة الخامسة من الهجرة بعد خراب وطنه من القيروان، والأدب يومئذ بأفقنا نافق السوق، معمور الطريق، فتهادته ملوك طوائفها تهادي الرياض بالنسيم، وتنافسوا فيه تنافس الدار في الأنس بالمقيم، على أنه كان فيما بلغني ضيق العطن، مشهور اللسن، يتلفت إلى الهجاء، تلفت الظمآن إلى الماء، ولكنه طُوِي على غَرِّه، واحتمل بين زمانه وبعْدَ قطره، ولما خلع ملوك الطوائف بأفقنا، أشتملت عليه مدينة طنجة، وقد ضاق ذرعه وتراجع طبعه. . .)

2 - وذكره أبن بشكوال في الصلة فقال: (علي بن عبد الغني الفهري المقرئ الحصري القيرواني يكنى أبا الحسن، ذكره الحميدي وقال: شاعر أديب، رخيم الشعر، دخل الأندلس ولقي ملوكها، وشعره كثير، وأدبه موفور، وكان عالماً بالقراءات وطرقها، وأقرأ الناس القرآن بسبته وغيرها. أخبرنا عنه أبو القاسم بن صواب بقصيدته التي

نظمها في قراءة نافع، وهي مائتا بيت وتسعة أبيات قال لقيه بمرسية سنة 481هـ وتوفي بطنجة سنة 488هـ)
الموافقة لسنة (1095) ميلادية
3 - وذكره أبن خلكان في وفيات الأعيان، فأورد قول أبن بسام ثم قال: (قلت وهذا أبو الحسن أبن خالة أبي إسحاق الحصري صاحب زهر الآداب) ونقل كلام أبن بشكوال والحميدي ثم قال (وله ديوان شعر. فمن قصائده السائرة قصيدته التي أولها:
يا ليل الصب متى غده ... أقيام الساعة موعده؟
رقد السمار وأرقه ... أسف للبين يردده
إلى أن قال: وحكى تاج العلاء أبو زيد المعروف بالنسابة قال: حدثني أبو أصبغ نباتة بن الأصبغ بن زيدين محمد الحارثي عن جده زيد بن محمد قال: بعث المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية إلى أبي العرب الزبيدي خمسمائة دينار وأمره بأن يتجهز بها ويتوجه إليه وكان بجزيرة صقلية، وبعث مثلها إلى أبي الحسن الحصري وهو بالقيروان فكتب إليه أبو العرب:
لا تعجبن لرأسي كيف شاب أسى ... وأعجب لأسود عيني كيف لم يشب
البحر للروم لا يجري السفين به ... إلا على غرر والبر للعرب
وكتب إليه الحصري:
أمرتني بركوب البحر أقطعه ... غيري - لك الخير - فأخصصه بذا الداء
ما أنت نوح فتنجيني سفينته ... ولا المسيح أنا أمشي على الماء
ثم دخل الأندلس بعد ذلك وأمتدح المعتمد وغيره، وتوفي سنة ثمان وثمانين وأربعمائة بطنجة رحمه الله تعالى
4 - وذكره أبن العماد الحنبلي في كتاب شذرات الذهب في أخبار من ذهب عند كلامه على حوادث سنة 488هـ فقال: فيها أبو الحسن الحصري المقري الشاعر نزيل سبتة - علي بن عبد الغني الفهري. كان مقرئاً محققاً، وشاعراً مفلقاً، مدح ملوكاً ووزراء، وكان ضريراً. ثم نقل قول أبن بسام المتقدم وعقبه يقول أبن خلكان، ثم قال وله أيضاً:
أقول له وقد حيا بكأس ... لها من مسك ريقته ختام
أمن خديك تعصر؟ قال كلا ... متى عصرت من الورد المدام
ولما كان بمدينة طنجة أرسل غلامه إلى المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية - وأسمها في بلادهم حمص - فأبطأ عنه وبلغه أنه ما أحتفل به فقال:
نبه الركب الهجوعا ... ولُم الدهر الفجوعا
حمص الجنة قالت ... لغلامي لا رجوعا
رحم الله غلامي ... مات في الجنة جوعا
وقد التزم في هذه الأبيات لزوم مالا يلزم رحمه الله تعالى
5 - وذكر الصلاح الصفدي في كتابه نكت الهميان وكل ما أتي به منقول عن أبن خلكان وأبن بشكوال، وزاد عليهما فذكر البيتين اللذين ذكرهما أبن العماد. أقول له وقد حيا بكأس
6 - وذكره أبن الجزري في كتابة غاية النهاية فقال: (علي أبن عبد الغني أبو الحسن الفهري القيرواني الحصري أستاذ ماهر، أديب حاذق، صاحب القصيدة الرائية في قراءة نافع، وناظم السؤال الدالي ملغزا: سألتكم يا مقرئي الغرب كله
وهي في سواءت أجابه عنه الشاطي ومن بعده
قرأ على (عبد العزيز بن محمد) صاحب أبي سفيان، وعلى (أبي علي بن حمدون الجلولي)
والشيخ (أبي بكر القصري) وروى عنه (أبو القاسم بن الصواف) قصيدته، وأقرأ الناس بسبتة وغيرها. توفي بطنجة سنة ثمان وستين وأربعمائة. ثم في قول (أبن خلكان في وفيات الأعيان)، وقول أبن الجزري إن الحصري الأعمى توفي سنة 468هـ قول لم يشاركه فيه غيره من المؤرخين، ولعله وهم أو تحريف من الناسخين.
7 - وذكره العماد الكاتب في كتاب خريدة القصر. وجريدة أهل العصر، فقال: الحصري الأعمى المريني: هو أبو الحسن علي بن عبد الغني من الأندلس (!) صاحب تصنيفات وإحسان في النظم، قال في غلام أسمه هارون:

يا غزالاً فتن الن ... اس بعينيه فتونا
أنت هاروت ولكن ... صحفوا تاءك نونا
وقال يهجو أبا العرب الصقلي:
معجب كالمتنبي ... وهو لا يحسن شيا
إن هذا يحيوي ... أوتي العلم صبيا
وقال:
كم من أخ قد كان عندي شهدة ... حتى بلوت المر من أخلاقه
كالملح يحسب سكراً في لونه ... ومجسه ويحول عند مذاقه
وقال يرثي المعتضد أبا المعتمد:
مات عباد ولكن ... بقي الفرع الكريم
فكأن الميت حي ... غير أن الضاد ميم
وقال: أقول له وقد حيا الخ البيتين
وقال:
وشاعر من شعراء الزمان ... يفخر عندي بالمعاني الحسان
وإنما أطيب أشعاره ... نصف خراسان والقيروان (؟)
وقال:
إذا كان البياض لباس حزن ... بأندلس فذاك من الصواب
وقال:
مما يبغضني في أرض أندلس ... سماع معتصم فيها ومعتضد
أسماء مملكة في غير موضعها ... كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد
وقوله إذا كان البياض الخ ذكره المقري في نفح الطيب وزاد عليه قوله:
ألم ترني لبست بياض شيبي ... لأني قد حزنت على شبابي
وذكر أيضاً أن من عادة أهل الأندلس لبس البياض في الحزن بخلاف أهل المشرق.
وذكر لبعضهم أبياتاً في ذلك
ألا يا أهل أندلس فطنتم ... بلطفكم إلى أمر عجيب
لبستم في مآتمكم بياضاً ... فجئتم منه في زي غريب
صدقتم فالبياض لباس حزن ... ولا حزن أشد من المشيب
وذكره المراكشي عرضاً عند كلامه على نزول المعتمد مدينة طنجة قال: (فأقام - 8 بها أياماً ولقيه الحصري الشاعر فجرى معه على سوء عادته من قبح الكدية، وإفراط الإلحاف، فرفع إليه أشعاراً قديمة كان مدحه بها، وأضاف إلى ذلك قصيدة أستجدها عند وصوله إليه، ولم يكن عند المعتمد في ذلك اليوم مما زود به - فيما بلغني - أكثر من ستة وثلاثين مثقالاً، فطبع عليها وكتب معها بقطعة شعر يعتذر من قلتها، سقطت من حفظي، ووجه بها إليه فلم يجاوبه عن القطعة على سهولة الشعر على خاطره، وخفته عليه. وكان هذا الرجل - أعني الحصري الأعمى - أسرع الناس في الشعر خاطراً إلا أنه كان قليل الجيد منه، فحركه المعتمد على الله على الجواب بقطعة أولها:
قل لمن قد جمع العل ... م وما أحصي صوابه
كان في الصرة شعر ... فتنظرنا جوابه
قد أثبناك فهلا ... جلب الشعر ثوابه
ولما أتصل بزعانفة الشعراء وملحقي أهل الكدية ما صنع المعتمد - رحمه الله - مع الحصري تعرضوا له بكل طريق، وقصدوه من كل فج عميق، فقال في ذلك رحمه الله:
شعراء طنجة كلهم والمغرب ... ذهبوا من الأغراب أبعد مذهب
سألوا العسير من الأسير وإنه ... بسؤالهم لأحق فأعجب وأعجب
لولا الحياء وعزة لخمية ... طي الحشا ساواهم في المطلب
هذه هي كل النتف والشذرات التي عثرت عليها في كتب التراجم لذلك العهد السحيق. وكل هذه التراجم - إن صحت تسميتها بذلك - لا تكشف لنا عن حياة الشاعر، ولا تبين مقدار قوة شاعريته أو ضعفها، ولا توضح أثره في الأدب، ولا تتناول أدبه بالنقد والتحليل. والذي يستوقفني منها بصفة خاصة قول المراكشي: (كان هذا الرجل أسرع الناس خاطراً في الشعر) وقول أبن بشكوال نقلاً عن الحميدي (إن شعره كثير، وأدبه

موفور)، فأين ذلك الأدب الموفور والشعر الكثير الذي واتاه به طبعه الدافق في يسر وسهولة؟ أين قصائده في الهجاء الذي (كان يتلفت إليه تلفت الظمآن إلى الماء؟) أين قلائده التي قلد بها ملوك الطوائف حتى تهادته تهادي الرياض بالنسيم، وتنافسوا فيه تنافس الديار في الأنس بالمقيم؟ أين خرائده في الوزراء الذين أغدقوا عليه النعم؟ أين أين ذلك الشعر الرخيم؟؟ لقد غمره طوفان الفناء فيما غمر، ولم يبق له جرس ولا أثر، والمسؤول عن ذلك هو الحصري نفسه فهو الذي أهمل ولم يحسب لذلك الطوفان حساباً، ولم يدون من شعره غير كتاب اقتراح القريح واجتراح الجريح. ولدينا مجموعة صغيرة من شعره في الغزل والنسيب أسمها (معشرات الحصري) سنتكلم عنها بعد أن نروي لك كثيراً من شعره في اقتراح القريح. . .

أحمد صقر

الأدب بين الخاصة والعامة

لامرتين ورينيه جارد

للسيد اسكندر كرباج

(تتمة)

ثم يقول لامرتين: نبّه فيَّ هذا الحوار فكرة وضع قصص شعبية إجابة لرغبة تلك الفتاة الكريمة. لقد عشت طويلاً في الأكواخ والحقول والثكنات وعلى ظهر البواخر وفي أعالي الجبال، وعاشرت العمَّال والمزارعين والجنود والنوتية والرعاة والخدم الذين يؤلفون قسماً من عيالنا؛ وتحدثت إلى هذه العقليات الساذجة الصالحة، وخبرت عاداتها وميولها ولغاتها أكثر مما خبرت عادات رجال المجالس وميولهم ولغاتهم؛ وكنت شاهداً بل أميناً لأسرار حياة ثماني شخصيات خاملة ولكنها حافلة بنوب وآلام خفية إذا دوّنت بسذاجة كما رؤيت كانت قصائد حقيقية طافحة بالشعور والإحساس؛ وأعرف الأماكن والحوادث والأشخاص معرفة تامة، فسأحاول كتابة هذه القصص ونشرها أجزاء متتابعة دون أقل اهتمام بفخامة الطبع والورق أو طرافة الأسلوب وأناقة الجمل وشحذ القريحة وكدّ الذهن، لأن الطبيعة هي روح هذا النوع من الأدب، والطبقات الوضيعة أقدر على إدراكها والاستلهام بها من الطبقات العالية؛ فإذا وجدتها في هذه الرسوم العارية من زخارف الفنّ استرقتها واستزادت منها. عندئذٍ تتقدَّ أيدٍ أجد من يديَّ وأبرع لوضعها بصورة أفضل، لأن الأدب الشعبي لا يكتمل إلا بالمؤلفات العاطفية التي هي من مميزات الطبقات الجاهلة، وإنجيل العاطفة كإنجيل الدين يجب أن يُبشَّر به أولاً بين البسطاء بلغة سليمة كقلب الطفل

وأراد لامرتين أن يطلع رينيه على آرائه فيما يتعلّق بكتابة التأريخ الشعبي فقال لها: لا يزال رجال السلطة يمالئون الشعب ويتوددون إليه لاعتقادهم أنه مصدر القوة التي يجب أن يعتمدوها في إسقاط الحكومات وابتلاع الوطنيات، فيستغوونه بشتى الوسائل، ويمثلونه بقولهم إن قوته تولد الحق، وإرادته العدل، ومجده يكتسب عفو التأريخ، وانتصار قضيته يبرر كل الوسائط، حتى الجرائم تخف أمام عظمة النتائج، فيؤمن بهم ويتبعهم ويساعدهم بقواه المادية، وبعد أن يتوصلوا بقوة سواعده وإهدار دمه وارتكاب جرائمه إلى إسقاط الطغاة وإثارة أوربا يصرفونه ويأمرونه بالعمل والصمت!

هذه هي الطريقة التي سلكوها إلى الآن في معاملة الشعب وكانت سبباً لانتشار شوائب البلاط بينه واستلذاذه التملق.

ليس هذا ما نريده للشعب؛ نريد أن يقابلنا واقفاً، ويخاطبنا وجهاً لوجه، فهو كسائر عناصر الأمة لا يقل قيمة عنها ولا يزيد؛ وإذا كان قد تعوَّد الكذب والممالأة، ففيه خلتان كبيرتان لا يجوز نسيانهما، هما الصراحة والجرأة. لذلك هو يعرف أن يحترم مقاوميه ويحتقر متخوفيه. ففي الحيوانات مالا يفترس إلا من يهرب من أمامه، والشعب كالأسد يجب ألا يجابه إلا من الأمام

يقوم التأريخ الشعبي على واحدة من هذه القواعد الأساسية الثلاث: المجد، والوطنية، والمدنية. فالمجد لا يرضى إلا أمة حربية تبهرها القوة فتعمى عن رؤية الحق؛ والوطنية تضرم نار الحمية في الشعب فيطوح بنفسه في مهاوي الأثرة والطموح

أما المدينة المستديمة فهي الأصلح لقيادة الفكر البشري بين شعاب الشك وبلبلة الآراء والأهواء والأثرة الفردية أو الوطنية، ولإفهامه أن المجد والوطنية لا ينفعان الأمة

والنوع البشري إذا فصلا عن الأدب العام، لأن المجد لا يقاوم الصلاح، والوطنية ليست عدوَّة الإنسانية، والفوز لا يمكن أن يكون خصماً للعدالة، وأن التأريخ ليس هذا المزيج من الأفراد والأشياء المشوشة، بل هو خطوة إلى الأمام في طريق الدهور، إذ لكل أمة شأنها وعملها العظيم، ولكل طبقة اجتماعية أهميتها في نظر الله. وفضلاً عن ذلك فقيام التأريخ على هذه القاعدة يعلم الشعب أن يحترم نفسه، ويعرف مقدار قوته ونفعه، وأنه فوق الإمبراطورية والسلطة، وأن هذه تكون كما يريد، فإذا وجد شعباً يشكو من حكومته فهو دليل على أنه لا يستحق غيرها، هكذا كان تاسيت يفتكر في زمانه، ولا تزال فكرته تجري مجرى الأمثال إلى اليوم

واعتزامي كتابة التأريخ على هذه القاعدة نبّه فيّ فكرة قديمة كنت عرضتها على الحكومة فلم تصادف القبول، لأنها ليست آلة للحرب والتدمير بل للسلم والبناء. وهذه الفكرة هي أن حرية الصحافة وديموقراطية الحكومة وحركة الصناعة وانتشار التعليم في كل قرى البلاد وبين كل طبقات الشعب أنار الأذهان ورغب في المطالعة، وبعد أن أوجدوا في الشعب هذا

!الميل إلى القراءة فما هي المؤلفات التي وضعوها له؟ لا شيء

إن لأبناء الطبقات الغنيّة كثيراً من المدارس العالية حيث يسمعون شروح كبار الأساتذة في كل أنواع العلوم والفنون، وإذا لم تكفهم المدارس فعندهم المكاتب الكبيرة والصحف التي تحمل بين دفاتها ما يغذّي العقل والفكر والروح من المواضيع الشائقة. أما أبناء الطبقات الفقيرة العاملة ومنهم الجيوش والبحّارة والرعاة والشيوخ والنساء والأولاد فكل ما عندهم لتثقيف عقولهم وتسلية نفوسهم في أوقات الفراغ هو التعليم المسيحي وبعض الأناشيد المشوهة والقصص السخيفة، فمن هذه الكتب القليلة التافهة تتألف مكتبة الشعب ومتحفه وفنّه!

فأردتُ ملء هذا الفراغ في حياة الشعب الأدبية والعقلية بكتاب لا يقرأ إلا مرة واحدة، ولكن لا أول له ولا آخر، وأعني به صحيفة يومية كبرى يتولى تحريرها نخبة من كبار علماء العصر وكتابه وشعرائه، بلغة سهلة بسيطة، وتعابير قريبة من أفهامه تطلعه على أهم أخبار الكون اليومية وسياسته وفلسفته وعلومه وفنونه. وتحقيق هذه الفكرة لا يكلف أكثر من مليون فرنك سنوياً يكفي لجمعها أن يكتتب مليون شخص بفرنك واحد في السنة؛ وإذا كنت لم أحقق هذه الفكرة فلأني لست وحدي هذا المليون، ولأنه لا توجد في فرنسا حالاً فكرة تساوي فلساً واحداً!

هذه هي فكرتي يارينيه فيما يختص بالتأريخ والأدب والشعر والعلوم والفنون التي يجب أن تكتب للشعب؛ ولا أحب إلى الطبقات الفقيرة ولا أجمل وأبلغ من تحقيق هذه الفكرة. ولو أن لي ذكاء الكتاب المعاصرين وشبابهم واندفاعهم لقمت بأعمال عظيمة في عالم الفكر والثقافة، فأمامنا عالم جديد للاكتشاف لا يتطلب عبور المحيط ككولومبوس، هو إحساس الطبقات العاملة وعقلياتها، فجغرافية العالم الأدبية لا تكتمل إلا متى اكتشفت هذه القارة الشعبية وملئت بمبادئ بحارة الفكر

فتقول له رينيه: لقد فهمت كل أفكارك يا سيدي على رغم سموها وجمالها

فيجيبها: لم أخاطبك إلا كشاعرة، والشعب شاعر أيضاً لأنه طفل الطبيعة الفطيم، والطبيعة كخالقها لا تتكلم إلا بلغة الصور. . .

ثم تودعه رينيه وتودع زوجته شاكرة لهما حسن الضيافة، وتسافر إلى إكس في مركبة المساء، وقبل أن تصعد إلى المركبة يقول لها لامرتين: (إذا وضعت بعض القصص الشعبية فاسمحي لي أن أصدر أوولاها باسمك)

اسكندر كرباج

من العصبة الأندلسية

للتأريخ السياسي

اليوم السابع من مارس ضربة مسرحية في برلين - 3

للدكتور يوسف هيكل

المعاهدة الفرنسية الروسية ولوكارنو

رأينا كيف أن حكومة برلين قد اتخذت المعاهدة الفرنسية الروسية سبباً لرفضها معاهدة لوكارنو واتخاذها قرار 7 مارس. فهل النظرية الألمانية صحيحة من الوجهة الحقوقية؟ أي هل المعاهدة الفرنسية الروسية لا تتمشى مع معاهدة لوكارنو؟. وقبل

الإجابة على هذا السؤال يحسن بنا أن نعرض بإيجاز المحادثات الديبلوماسية التي أدت إلى عقد هذه المعاهدة:

لم يكن هدف فرنسا بادئ ذي بدء، إيجاد هذه المعاهدة، بل كانت الديبلوماسية الفرنسية ترمي إلى إيجاد (ميثاق شرقي) - لوكارنو الشرقية - بين بولونيا والروسيا وألمانيا وتشيكوسلوفاكيا ودول البلطيق وفينلاندا. ولقد تم الاتفاق على هذه الخطة بين فرنسا وإنكلترا أثناء المحادثات السياسية التي دارت بينهما خلال 11و12 من يوليه 1934. وزيادة على ذلك قررت الدولتان أن تتحمل الروسيا واجبات معاهدة لوكارنو إزاء فرنسا وألمانيا، وأن تتعهد فرنسا نحو ألمانيا والروسيا، في حالة اعتداء إحداهما على الأخرى، بمساعدة المعتدى عليه، على أن تكون تلك المساعدة ضمن دائرة واجبات عصبة الأمم. وبعبارة أخرى أن تعقد معاهدة ثلاثية دفاعية بين فرنسا وألمانيا والروسيا، يكون مفعولها سائراً في حالة تعدي إحداهم على دولة ثانية داخلة في الميثاق، على أن تكون الواجبات الناشئة عنها متمشية مع واجبات لوكارنو والعصبة. وقد تعهدت الحكومة البريطانية بأن توصي هذه الدول ولا سيما بولونيا وألمانيا بقبول هذه الاقتراحات. غير أن سعيها قد خاب. وقد أبانت ألمانيا بصراحة بأنها تفضل (المعاهدات الثنائية) - بين أثنين - على المعاهدات المشتركة المبنية على (المساعدة المتبادلة) - وتم الاتفاق في الاجتماع الفرنسي الإنكليزي الذي عقد في لندن في 3 فبراير سنة 1935 على إنشاء معاهدة لوكارنو الجوية، وعلى متابعة المفاوضة مع ألمانيا للاتفاق معها على إنشاء السلام في أوربا

بواسطة عقد معاهدات بين دول شرقي أوربا توجب (المساعدة المتبادلة)

ولما زار السير جون سيمون برلين خلال شهر مارس التالي قدم إليه الهر هتلر معلومات عن المعاهدة الشرقية التي يحبذها مبنية على معاهدات عدم الهجوم الثنائية، ومضافاً إليها التحكم والمصالحة وعدم مساعدة المعتدي. وقد صرح الهر هتلر بأن حكومته لا تنظر بعين الرضى إلى المعاهدات المبنية على (المساعدة المتبادلة) ولا يمكنها بأي وجه من الوجوه الاشتراك في أي معاهدة من هذا النوع. وقد أعادت حكومة برلين هذا التصريح بوضوح أثناء انعقاد مؤتمر ستريزا. وعندما وقفت حكومة باريس على هذا التصريح وتيقنت بأن لا نجاح في إدماج برلين ضمن نظام سلام قائم على المساعدة المتبادلة رأت أن لا سبب هناك يعوقها عن عقد محالفة بينها وبين روسيا، لتساعد كل منهما الأخرى حين تعتدي ألمانيا على إحداهما

وبعد بضعة أيام قابل سفير بريطانيا في باريس مسيو لافال وأعلمه أن حكومة جلالته ترغب (بألا تمضي فرنسا أي معاهدة يمكن أن ترغمها على محاربة ألمانيا في ظروف لا يجيزها البند الثاني من معاهدة لوكارنو) فأجابه مسيو لافال بأن (الحكومة الفرنسية وضعت شرطاً أساسياً بأن المعاهدة الفرنسية الروسية يجب أن تكون متمشية ليس فقط مع مبادئ العصبة بل مع معاهدة لوكارنو أيضاً). وعلى هذا الأساس أمضيت هذه المعاهدة في 2 مارس سنة 1935، وأرسلت إلى البرلمان الفرنسي فوافق عليها

وجاء في خطاب الهر هتلر الذي ألقاه في 21 مايو أن الحكومة الألمانية (ستقوم بجميع الواجبات الناجمة عن معاهدة لوكارنو مادامت الدول الأخرى المشتركة في المعاهدة تريد القيام بها). وتبع هذا الخطاب مذكرة ادعت فيها حكومة برلين أن المعاهدة الفرنسية الروسية لا تتمشى مع معاهدة لوكارنو

وفي شهر يونيه دحضت الحكومة الفرنسية ادعاءات ألمانيا. وفي خلال شهر يوليه صرح السير صمويل هور وممثلا إيطاليا وبلجيكا بأنهم متفقون مع الحكومة الفرنسية على أن المعاهدة الفرنسية الروسية تتماشى مع لوكارنو

ولما رأت حكومة برلين أن دول لوكارنو على اتفاق تام، لم تستطع القيام إذ ذاك بأي عمل لتمزيق المعاهدة، بل أجلته إلى حين آخر، واكتفت بإرسال مذكرة إلى السير صمويل هور

تقول فيها (بأنه ستكون مناسبات كافية لمناقشة هذه المسألة مع المفاوضات الأخرى المعلقة)

ولما وقع الخلاف بين دول لوكارنو من جراء اعتداء إيطاليا على الحبشة، وانشغلت فرنسا بانتخابات مجلس النواب؛ رأى الهر هتلر أن الفرصة سانحة، فأعلن في 7 مارس 1936 خروجه على لوكارنو واعتبارها لاغية، وعلل ذلك بأن المعاهدة الفرنسية

الروسية لا تتمشى مع لوكارنو، ودعم هذا القول بأدلة أربعة ضمنها المذكرة التي أرسلها إلى دول لوكارنو، وتنحصر في أن المعاهدة الجديدة: (1) موجهة رأساً ضد ألمانيا (2) وأن فرنسا بموجب معاهدتها مع الروسيا، تعهدت بالقيام بواجبات لا تتفق مع الواجبات التي يلقيها على عاتقها صك العصبة ومعاهدة لوكارنو

فالإدعاء الأول هو أن (المعاهدة الفرنسية الروسية موجهة رأساً ضد ألمانيا) صحيح، ولكن بالمعنى السلبي، أي الدفاعي

إن المعاهدة التي نحن بصددها تقول بأنها تصبح نافذة في حالة تعدي (دولة أوربية) على إحدى المتعاقدتين، وأن بروتوكولها يوضح بأن تنفيذ هذه المعاهدة يجب أن يكون فقط ضمن حدود (الاتفاق الثلاثي) الذي رفضت ألمانيا الموافقة عليه. وهذه النصوص تنفي مفعول المعاهدة في حالة اعتداء أي دولة غير أوربية أولاً، ثم تحصر مفعولها في حالة اعتداء ألمانيا فقط على إحدى الدولتين المتعاقدتين؛ فهي إذن موجهة ضد ألمانيا،

ولكن يجب ألا يغرب عن الذهن بأنها لا تنفذ إلا حين تعدي ألمانيا على فرنسا أو الروسيا تعدياً غير محرض عليه؛ ونصها صريح في ذلك. والذين قاموا بعقدها يصرحون بذلك تصريحاً كافياً؛ فهي إذن من الوجهة القانونية والسياسية معاهدة دفاعية محضة، وبدهي أن لا خطر على ألمانيا من هذه المعاهدة إلا حين تعديها على إحدى الدولتين تعدياً غير محرض عليه. ولو كانت ألمانيا لا تفكر في أي تعد على أحديهما لما وجدت فيها تهديداً ولا خطراً عليها؛ وزد على ذلك بأن نص المعاهدة والبروتوكول يفسحان المجال لدخول ألمانيا فيها فتصبح معاهدة ثلاثية تضمن فيها فرنسا والروسيا الدفاع عن ألمانيا حين تعدي إحداهما عليها

ورداً على الإدعاء الثاني يمكن القول بأن (المساعدة المتبادلة التي تعهدت بها كل من الدولتين المتعاقدتين لا تصبح نافذة إلا حين وقوع إحداهما (ضحية هجوم غير محرض عليه)، (وبرغم نية البلادين الحسنة في المحافظة على السلام). وهذه المساعدة يوجبها

أيضاً صك العصبة. أما في الحالة التي لم تستطيع فيها العصبة الوصول إلى قرار بالإجماع في إبانة الحق من الباطل في الاختلاف، فمساعدة فرنسا للروسيا والروسيا لفرنسا لا يكون إلا إذا وضح بأن ألمانيا كانت المعتدية تعدياً غير محرض عليه على إحدى الدولتين؛ وبرغم أن مساعدة فرنسا للروسيا في هذه الحالة لم تكن نتيجة قرار العصبة، فإن مبدأ العصبة يوجبها؛ إذ أن البند 7 من المادة 15 ينص على أنه في الحالات التي لا تتمكن فيها العصبة من إصدار توصيات أو الوصول إلى قرار بالإجماع، تصبح كل دولة طليقة اليدين، ويحق لها اتخاذ قرار فردي والعمل منفردة، ويظهر لنا أن كل ما جاء في المعاهدة الفرنسية الروسية التي أثارت ثائرة ألمانيا، ما هو إلا إيضاح وتثبيت لهذا المبدأ

على أنه في حالة القرار والعمل الفردي من جهة، وحين اعتداء ألمانيا على الروسيا من جهة ثانية، لا يحق للروسيا مطالبة فرنسا بمساعدتها (أوتوماتيكياً) بل لفرنسا الحق وحدها في التقرير فيما إذا كانت ألمانيا المعتدية الأولى. وهذا الحق يمكن فرنسا من النظر فيما إذا كانت مساعدتها للروسيا مخالفة للمعاهدات التي عقدتها قبلاً وخصوصاً معاهدة لوكارنو. والبند الثاني من هذه المعاهدة ينص على أن (محتويات هذه المعاهدة لا تنفذ في الحالات التي يكون تنفيذها يوجب وقوع عقاب دولي الصبغة من جراء تضاربها مع واجبات معاهدات، غير سرية، عقدتها إحدى الدولتين مع فريق ثالث). وينتج عن ذلك أنه لا حق لألمانيا (قبل تمزيقها للوكارنو) طلب مساعدة بريطانيا وإيطاليا فيما إذا هاجمتها فرنسا عملاً بمعاهدتها مع الروسيا، لأن هجوم فرنسا عليها داخل ضمن دائرة المادة 16 أو البند 7 من المادة (15) من صك العصبة

ولو قرضنا جدلاً بأن المعاهدة الفرنسية الروسية لا تتمشى مع معاهدة لوكارنو، فلا يمكن أن يعد هذا الأختلاف، بوجه من الوجوه، سبباً لإبطال معاهدة لوكارنو. والمسألة الوحيدة التي يمكن أن تنشأ عن التضارب بين المعاهدتين هي عدم قانونية المعاهدة الجديدة. وفي هذه الحالة لا يحق للحكومة الألمانية إلا الإدعاء بعدم قانونية المعاهدة الفرنسية الروسية، ورفع دعوى بذلك، وليس اعتبارها غير قانونية حسب رأيها ومشيئتها فحسب، لأنه لا يحق لأحد أن يكون قاضياً في دعواه

أما المبدأ الجديد في العلاقات الدولية الذي تبعه ويبشر به الهر هتلر وحكومته، فيقول بأن
لا قيمة لأي معاهدة دولية مادامت تخالف مصالح إحدى الدول التي وقعت عليها، وأن
لتلك الدولة المتضررة من المعاهدة الحق في تمزيقها وعدم اتباع موجباتها. وهذا
المبدأ الجديد خطأ ومخالف لمبادئ الحقوق الدولية التي سارت عليها الدول حتى الآن،
إذ تصبح الدولة المتضررة الحكم الوحيد في دعواها. وأن تنشر هذا المبدأ وعملت به
الدول فمعنى ذلك القضاء على الحقوق والعدالة الدولية، وإقامة (حق القوة) مكانها
فتزول العلاقات الدولية المبنية على قدسية المعاهدات وتحل مكانها الفوضى، وينتصر إله الحرب
يظهر من كل هذا أن فرنسا لم تأخذ على عاتقها في معاهدتها مع الروسيا واجبات
تنافي الواجبات التي يفرضها عليها صك العصبة، وأن هذه المعاهدة تتمشى مع مبادئ
العصبة ومعاهدة لوكارنو. ويتضح جلياً بأن عمل ألمانيا في 7 مارس ينافي الحقوق
الدولية ويعتدي على قدسية المعاهدات منافاة تامة واعتداء صارخاً.
(لندن)
يوسف هيكل
دكتور في الحقوق

صرعى الأغراض

طرفة من الشعر الاجتماعي تعبر عن الآلام المكظومة
للكفايات المظلومة
للشاعر الراوية الأستاذ أحمد الزين

يا لَلْعزائم يثنى من مواضيها ... أنَّ الكفايات يُقضى بالهوى فيها
وللمواهب بالأغراض يقتلها ... من يستمدّ حياةً من أياديها
وللجهود بأعشى الرأي يطفئها ... ماضٍ على ضوئها سارٍ بهاديها
وللنوابغ يقضي في مواهبهم ... بما يشاء هواه غيرُ قاضيها
جادوا بأعمارهم حتى لجاحدهم ... إن المواهب سِلْم في أعاديها
كالشمس تقبس منها عين عابدها ... وترسل النور في أجفان شانيها
والنفس إن ملئت بالود فاض على ... نفوس أعدائها بالود صافيها
كالسحب إذ ملئت بالغيث فاض على ... جدب البلاد خلوف من هواميها
لا يدَّع العدل قوم في عدالتهم ... صرعى الكفايات تشكو ظلم أهليها
ولا المساواةَ والأفهامُ لو وزنت ... مع الغباوة فيهم لا تساويها
ولا الحضارةَ من تجزي نوابغهم ... وحشيةً تسكن البيداء والتيها
إذا البلاد تخلت عن حياطتها ... يد النبوغ تداعت من صياصيها
دع الحديث عن القسطاس في عُصَب ... ما سودت بينها إلا مُرائيها
سوق النفاق بهم شتى بضائعها ... تزجَى لمن يشتري إفكاً وتمويها
أرخصتمو غاليَ الأخلاق في بلد ... لم تغلُ قيمته إلا بغاليها
يا رُبّ نفس أضاء الطهر صفحتها ... أفسدتموها فزلّت في مهاويها
وكم قلوب كساها الحسن نضرته ... دنّستموها فعاد الحسن تشويها
أغلقتمو سبل الأرزاق لم تدعوا ... لفاضِل الخُلق سعياً في نواحيها
مدارس تغرس الأخلاق في نَشَإٍ ... ومغلق الرزق بعد الغرس يذويها
لا تَلْحَ طالب رزق في نقائصه ... إن الضرورات من أقوى دواعيها
ما أطهر الخُلُق المصري لو طَهُرت ... تلك الرياسات من أهواء موحيها
يا آخذين بقتل النفس قاتلها ... قتلى المواهب لم يُسْمع لشاكيها
كم للنبوغ دماء بينكم سفكت ... باسم المآرب لا اسم الله مُجريها
هلا أقتصصتم لها من ظلم سافكها ... وقلَّ فيما جناه قتل جانيها
أولى الورى بقصاص منه ذو غرض ... يخشى المواهبَ تخفيه فيخفيها
مِلءُ المناصب منهومون قد جعلوا ... من دونها سد ذي القرنين يحميها
على مناعة ذاك السد تنفذه ... عصابة تتواصى في حواشيها
من كل أخرق تنسل الحظوظ به ... إلى المراتب يسمو في مراقيها
خابي القُوَى عبقري الجهل يثقله ... عبءُ الرياسة إذ يدعوه داعيها

يا حافرين تراب الأرض عن حجر ... أو جثة في ظلام القبر يطويها
ومنفقين من الأموالِ طائلها ... في البحث عن خِرَق لم يُغْنِ باليها
مستبشرين بما يلقون من تحف ... للقوم أو خزفات من أوانيها
ورافعين من البنيان شاهقه ... فيه الذخائر قد صُفَّت لرائيها
هلا عرفتم لمصرٍ فضل حاضرها ... يا عارفين لمصر فضل ماضيها
إن العصور التي جادت بمن سلفوا ... على الحضارة لم تبخل أياديها
ذُخر المواهب في أحيائكم تحفُ ... بَذّت متاحفكم وصفاً وتشبيها
ما إن يقال لها: لله صانعها ... ولكن يقال: تعالى الله باريها
هبوا النوابغ موتى فاجعلوا لهُم ... حظَّ النواويس أكرمتم مثاويها
جعلتم الحيَّ يرجو حظ ميتكم ... فحظ أحيائكم في مصر يشقيها
أيُحرم النحلُ غضَّ يلفظه ... شهداً، وقد شبعت منه أفاعيها
ويُقتل الروض ذو الأثمار من ظمإٍ ... والماء يروي مَواتاً من فيافيها
من يقتل الجهد يقتل فيه أمته ... وأمة الجهد تحييه فيحييها
إن الشعوب إذا ماتت مواهبها ... نُقاضةٌ أعوزتها كف بانيها
أحمد الزين

حرب العلم

للأستاذ فخري أبو السعود

لَلْجَهْلُ أَرْفَقُ في دُجى أَزمانِهِ ... بالمرء إِنْ يَكُ ذَا مَدَى عرفانه
سقياً لعهد الجهل في أفيائهِ ... نَعِمَ الجدودُ وفي رَضِيِّ جِنانه
إذْ شِكَّةُ البطل المُقاتِل لهذمٌ ... يُصمى به الأقرانَ يوم طِعانه
لم يَبْغِ بالبُرَءاءِ عدواناً ولم ... يخصُصْ بصولته سوى أقرانه
يُولِي المُسَالِمَ بِرَّهُ من بعدما ... أَوْلَى مُناجزَهُ شَباةَ سنانه
فاليومَ سَوَّى العلمُ في فتكاته ... بين الورى طرًّا وفي إثخانه
أمستْ بيوت الخلق من أهدافِهِ ... وغَدَتْ خدورُ الغيد من ميدانه
لا مُرْضعٌ تنجو ولا مَنْ أرضعتْ ... من كيده يُعْفَى ومنْ عدوانه
قد كان يحمي الحوضَ أمس رجالُه ... من خصمه إن جَدَّ يومُ رهانه
فاليوم أَوَّلُ ذائِقٍ لِلَظى الوغى ... أطفالُه وَمَنَعَّماتُ حسانه
والشيخُ منحنياً على عكَّازه ... والحبْرُ مبتهلاً إلى رحمانه
العلمُ ليس بقانعٍ من خصمه ... بالمُقْدِم المغوار من فرسانه
يسعَى إلى الساعين في أرزاقهم ... والآمِنِ المأمونِ في جدرانه
يا وَيْحَ إقليمٍ أتاه العلم في ... أجناده يسعَى وفي أعوانه
ينتابُهُ بسمومه ورجومه ... ويلفُّه في ناره ودخانه
تطغى جحافله على أمواهه ... وفضائِه وسهوله وقنانه
بِسَوَابحٍ تحت العباب وفوقه ... ومحلِّقات في طِبَاق عنانه
وزواحفٍ فوق الأديم شتيمةٍ ... تطوي رَوَابيَهُ إلى وديانه
حيوانهُ وزروعُهِ وديارُه ... وقُرَاهُ والآلافُ من سكانه
بعضُ الهشيم إذا أتاه العلم في ... آلاتهِ ليهدَّ من أركانه
هيهات يَعصم مَّن أذى غازاته ... حِرْزٌ ويحمى مِنْ لَظَى نيرانه
منْ فَرَّ مِنْ غيلانه فإلي حَمَى ... حيَّاته وإلي رَدَى عقبانهَ
هذا جحيم العلم يُصليه الورى ... إن هاجت الأطماعُ مِن شيطانه
لم يعتصمْ شعبُ أبيٌّ باسل ... بهضات منه ولا قيعانه
لما رماه بناره وحديده ... ومشى يقدُّ الصَّلْدَ من صوانه
حَرَمُ السيادةِ رَدَّ قِدماً دونه ... أعداءه وأعْتَزَّ في شجعانه
قد فَصَّهُ العلمُ الخؤون بغدره ... وزها بما قد دَكَّ من بنيانه
قد بات يَخْشى الكونُ يوماً مقبلاً ... فيه يلجُّ العلمُ في ثورانه
يَئِدُ الصروحَ الشُّمَّ في زلزاله ... ويقوّض الأمصار في بركانه
ويَرُدَّ قَفْراً موحشاً ما شادَ من ... زاهي حضارته ومن عمرانه
فخري أبو السعود

يوم الرسالة
للأستاذ رفيق فاخور

شدَّ ما بَرَّحت بي! هل من رجاء ... أيها الشوق على الصبر العفاء
غلب المضني على مجهوده ... وحماه راحة النفس العناء
وتعايا في جراح في الحشا ... قتل البين! أساها فأساء
قل لمن أسرف في تعنيفه ... سبق الداء ولم يُغْنِ الدواء
ويحه يقضي فلولا نفعت ... رحمة منك وأثرت الوفاء
يا أحباي دموعي بعدكم ... أعين تجري وأشجاني ظماء
وحنيني لو علمتم جذوة ... في الحنايا بلظاها يستضاء
جددوا عهد التصافي إنه ... نعمة عشنا بها قبل التَّناء
وخذوا قلبي بما أعطيتمُ ... فدية العاني وجودوا باللقاء
وبروحي من إذا مرت على ... خاطري ذكراه كانت لي شفاء
عَلَمُ من هاشم منتبه ... كرم الآل الهداة السمحاء
ذروة السؤدد جيران السها ... لهمُ صيغت تجاويد الثناء
مجدهم ينسخ لألاء الضحى ... وعلاهم لا يدانيها علاء
سيد الخلق ونبراس الهدى ... وضياء بجلاء الشك جاء
وعظيماً من بني الدنيا ارتقى ... بجلاء الروح أسباب السماء
وعماد الملة الغراء ما ... جاورت قلباً فجافاه الرجاء
ومنار الهائمين التبسوا ... بالدجى في مجهل الأرض الفضاء
يومك المشهور في طلعته ... كجبين الشمس حسنا وبهاء
مفرد يزهو على الأيام ما ... نصلت من صبغة الليل ذُكاء
طبَّق الآفاق ميمون الخطا ... وعلى الدهر تَمَشَّى الخيَلاء
وأعاد الكون بالبشرى فتى ... رائع الغرة لماح الرواء
صبَّح الهادين سعداً شاملاً ... ورمى العادين بالخطب العياء
زلزل الشرك على أنصاره ... فاستوى الحق عليها فأضاء
يومك المشهود يا خير الورى ... غرة التأريخ عيد الحنفاء
لم يظل الناس يوماً قبله ... ملأ الأفواه حمداً وثناء
وجرى كل لسان مقول ... فيه شوطاً وتبارى الخطباء
جاءنا يحمل في أطوائه ... سيرة المختار زين الأنبياء
فمشت في كل روع هزة ... جَلَّ من فجَّر ذياك الضياء
يا أبا الزهراء مَا مثلي وقد ... خانه المنطق يجزي الكبراء
آية الله تعالى قدرها ... تفحم الشعر وتعيي النصحاء
لك في كل جنان هيبة ... ألفت بين قلوب الأتقياء
أنت من أسرار ذي العرش التي ... لا يواريها مدى الدهر الخفاء
ربَّ إني واسلٌ بالمصطفى ... فتقبل من مرجيك الدعاء
هَيِّئ الغوث لقوم أسرفوا ... في الخطايا وأهتدوا بالأشقياء
إن قومي ظلموا أنفسهم ... وتظنوا في الأضاليل النجاء
جعلوا دينك ظهرياً ولم ... يسمعوا من جانب الحق النداء
رغبوا عن سنة الهادي فهم ... إن علا صوت المنادي غرباء
وهُمُ في كل أرض وحمى ... مركب للذل ما فيهم غَناء
خذلوا الأخلاق وانهالوا على ... زخرف الدنيا فعاشوا ضعفاء
أيها القوم اذكروا تأريخكم ... إن فيه عبرة للبصراء
أين ما شاد لنا آباؤنا؟ ... أين ما قد خلفته الخلفاء؟
أين آثار الميامين الأولى ... ينسب العز إليهم والسنا؟
أين للإسلام ملك باذخ ... كالرواسي حصنته الكبرياء؟
درج الدهر على أعيانه ... فانطوى إثرهُم ذاك اللواء
وبقينا خلفاً في أرضهم ... احمدوا السلوان واختاروا الثواء
ضل قوم ضيعوا الميراث أو ... سدلوا جهلاً على الماضي غطاء

(حمص)
رفيق فاخوري
انتظري بُغْضي. . .
للأستاذ محمود محمد شاكر
حَبَبْتُكِ، والأوْهَام فِكْرِي وحُجَّتي ... تُؤَلِّبُ بَعْضي - في هواك - على بعضي
إذا ما نقضْتُ الرأيَ بالرأيِ، رَدَّنِي ... - إلي خطراتِ الوهمِ - مضٌّ على مضِّ
أصارعُ أهوالاً من الغيظِ والرِّضَى ... وما يتولّى الغيظَ فَوق الذي يُرْضي
عجبتُ لمنْ راضَ النِّسَاءَ ورُضْنَه ... ويقضينَ من إيلامِهِ دون ما يقضي
ويَرْمِينه بالسَّهم ليس بضائِرٍ، ... ويَرْمي بما يَحْمي الجفون عن الغُمضِ
فكيف به قد ذَلَّ وَهُو مُكَرَّمُ ... وأغضَى ولو قَدْ ناصبَ الدهر لم يُغْضِ!
كفى بك ذُلاًّ أن تبيتَ على جَوَىً ... وتُصبِحُ في ذكرى، وتَمْشِي على رَمْضِ
كأنك لم تُخْلَقْ لِدُنْيا تَجُوبُها! ... وما أضيَق الدنيا من الحَدَقِ المُرْضِ!
فَهُنَّ اللواتِي زدْنَ في العيش لذَّةً ... فأقْصَيْنَ لذَّاتٍ من الفرَحِ المَحْضِ
شككْتُ، وقد تُنْجِي من الشَّرِّ ريبةٌ ... وتُبدِل مُسْوَدّ احظوظِ بمُبْيَضِّ
لقد كنتُ أمضي طائعاً غير جامحٍ ... وأرضَى بإطراقي على الرَّيْبِ أو غَضي
ويفضَحُني فيك اقتحامي وغَيرتي ... وطرفي وما جَسَّ الأطباء من نبضي
ويأكُلُ قلبي ما أكتِّمُ راضياً. . ... فما بكتِ العينُ الشبابَ الذي يمضي.!
وأنتِ. .! لعمري في سرور وغبطة ... يَسُرُّكِ بسطي في الحوادث أو قبضي
أأنثى ووحشٌ؟ جلَّ خالقُ خلقه! ... وسبحان كاسي الوحش من رونق غَض!
وأعجبُ منه لَذَّتي ومَسَرَّتي ... على حين نَهشي في المخالبِ أو نفضي
فيا سوَء ما أبقيْتِ في الدَّم من لَظىً ... وفي الفكر من كَلْمٍ وفي القلب من عضِّ
أخافكِ في سري وجهري، ومشهدي ... لديك وغَيْبي، خوفَ أرقط مُنْقَضِّ
لقد كنتِ أحلامي - إذا الليل ضمَّني، ... وكنتِ إذا ما الفجر أيقضني - روضي
يناجيك طير في الضلوع بلحنه ... لقد عاش في سحر، وقد عشت في خفض
وكنتِ على ورد الخمائل زينةً ... وكان بشيرَ الفجر في الفنن الغض
فأصبحتِ. . . لا خيراً فيُرْجى، ولا لقىً ... فيُلقى، ولستِ من سمائي ولا أرْضي
تصامَمْت عن قلبي ورُمتِ مساءتي ... وتنتظرين الحُب! انتظري بُغضي
القصص
من الحياة
الضحية. . .
للأستاذ كامل محمود حبيب
انحسر الليل عن جبين الفجر، والفتى لا يزال في مجلسه يشهد ليلة تنطوي، وفجراً يبزغ؛ وكأن الليلة لم تكن في فكره إلاّ ساعة، وكأنه وقد جلس يرقب سير الكواكب في أفلاكها كان ينتظر أن يقرأ فيها تتمة الرسالة التي قرأ أول كلمة منها أول الليل، فوجد فيها ما وجد من لذة ونشوة وسحر. لم ير في صفحة الكواكب السيارة، ولا في العالم الهادئ النائم المطمئن، إلاّ شيئاً كان في خياله هو وفي خواطره. جلس لا ليقرأ حظه في كتاب السماء، ولكن ليؤلف كتاباً من نفسه الطروب المرحة. . . وذهب إلى عمله وهو نشاط يشتعل؛ فهو يجيء ويذهب، ويقرأ ويكتب، ويتكلم فيبين، وكأن شيئاً فيه قد خلقه من جديد ليكون شخصاً غير الذي يعرفه في نفسه، ويكون إنساناً سوى ذلك الذي عرفه صحابته ورفاقه. ودخل إلى صديق يحدثه، يريد أن يفضي إليه ببعض ما يفوز في نفسه، ولكنه عاد فرأى أن ذلك الشيء الذي بعثه من جديد لم يكن إلاّ في نفسه لنفسه، فهو سره هو، وهو له وحده. . . ثم رجع إلى بيته ليطيل النظر إلى نفسه في المرآة يأمل أن تريه مرآته الشابّ الذي في قلبه، فلم ير إلاّ ما تريه المرآة كل يوم، ولكن هندسة عقله الجديدة قد بدت على هندامه وزيّه فكان جديداً حتى في هندامه وزيّه. أكلّ ذلك لأنه رآها أمس وجلس إليها وقال لها وقالت له. . .؟
ومضى الفتى على طريقه، وفتاته أمامه تنير له ما اظلم، وتفتح له ما استغلق، وقلبه ماضٍ على أثرها، وهو من وراء الاثنين: قلبه وفتاته، طيّع منقاد وأبعد في السير، فباعد بين الفتى الجديد والفتى الذي كان، وعاد لا ينظر إلى الوراء إلاّ ليرى ذاك العريش الذي جلسا تحته لأول ما قال لها وقالت له. . . وكأن عمره قد

أختُصِر في هذه الأشهر القليلة، ولكنه كان عمراً طويلاً
وخيّل إلى الفتى حين اجتلى النور من وجه صاحبته، وحين حاطه الشعاع الآسر من روحها ومن عينيها، وحين رأى الأمل يترقرق على شفتيها من ابتسامة رقيقة، خُيّل إليه حينذاك أنه عاش ما عاش من العمر أعمى لا يرى الحياة إلاّ مادة؛ أما الآن فهي عنده روح من الروح، وهي عنده شعاع يسطع في قلبه، فلا يزال يذكي روحه، ويرهف حسّه، ويشعره معنى الحياة الجميلة، ويحبّب إليه أن يعيش عَيْشَه مغموراً في هذا النور الآلهي الذي ولده السالب والموجب من قلبها ومن قلبه
وتلاقيا على ميعاد. ونظر ونظرت، فإذا عصفوران يتساقيان الهوى على فنن؛ فقال في نفسه: (ما أتعس الإنسان! يقيد نفسه بأغلال المادة والتقاليد، ثم يزعم أنه طليق. ليتنا مثل هذين. . .!) وقال لها وقالت له. وكان كلاماً لا تلفظه الشفاه: من ذا يفهم لغة الطير، أو يسمع نجوى العاشقين عيناً إلى عين؟ إن هذين الطائرين يفهمان من فلسفة الحياة أكثر مما استوعبت عقول البشر. إنهما يملكان الحرية، وفي أيدينا وأرجلنا قيود ذهبية. . .! ومالت على زهرة نضرة من أزهار الحديقة تقطفها، ونظر الفتى فما بدت لعينيه زهرة بل رمزاً من شفةٍ، وخدٍ، وعطر، وخطوة دلال. وأسرع إلى صاحبته: رويدك يا فتاتي، إن هذه الأنامل الجميلة ما خُلقت إلا لتتملّى هذا الجمال وترعاه!
ولما هّما ليفترقا لم يقل لها: يا فتاتي التي أحب. بل قال لها: يا من حبتني الخلود وأشعرتني لذة السعادة على الأرض
ما أعجب ما يرى الإنسان في الحياة! وهل يرى كل ما فيها إلا على ما رُكِّبتْ عليه طبيعته المادية الجامدة؟ حتى إذا ما لمست فِتاة قلبه حالت كل مادة على الأرض شيئاً إلهياً نورانياً، يتلألأ كما انفلق الأصباح عن ليل طويل دامس. وماذا في الشباب إن لم يكن هذا الشباب في القلب قبل أن يكون في نضرة الوجه وتكتُّل العضل؟ حتى الشيخ يرده الحب فتياً! تلك حكمة الله في الأرض
سار الفتى على سننه؛ وذهبت نفسه وراء فتاته، وهي من عقلها لا تخمد العاطفة بالرضى الدائم، ولا تبعث في نفسه السأم بالغضب المستمر. وهو من كبريائه لا يندفع اندفاع الطيش، ولا يُقْصر إقصار الملل. نفسان عُقِّدَتا؛ ولكنهما عقدتا ليكون الحب فيهما عقدة ثالثة. فهي تفور، وهو يتنزّى ولكنهما هما. أراد أن يكون صريحاً فتعقدت له، فلما أرادت أن تكون صريحة وجدته قد تعقد
ضَلَّ من يقول إن العقل والكبرياء كلاهما يذهبان برونق الهوى، ويطفئان شعلة الحب. إنهما يجعلان من الهوى هوى مركباً لا ترقى إليه العقول الصغيرة، ومن الحب حباً معقداً لا تبلغه العاطفة السقيمة
ثم انطلقا. . . والفتى سعيد بفتاته، والفتاة سعيدة بفتاها فما يفترقان إلا على ميعاد، وهما بين الميعادين كالظمآن يذكر آخر قطرة تذوقها ويرى فيها الحياة، وينتظر أول قطرة تأتيه ليرى منها النور
على ضفة النهر، وبين الخمائل، وتحت ظلال الشجر، وفي ضياء البدر، في صمت الطبيعة وجمالها، طائران أغمض الدهر عنهما جفنيه ليرشفا من رحيق الحياة كأساً صافية، ما كدّرها تخاصم، ولا لوّثها عبث. عام انطوى، فكان العمر، وكان جمال العمر، والصفحة البيضاء في كتاب حياة الشاب والشابة. فما يكون جزاء هذا الحب إلا رباطاً لا تنفصم عروته؟ وتلألأت الفكرة، وتضاعفت سعادة العاشقين بهذا الأمل الجديد والفتى والفتاة من أسرتين ترسفان من التقاليد في أغلال، وويل للحب إذا اعترضت سبيله التقاليد!
وكانت فكرة، ثم استحالت الفكرة فإذا هي كلام، وحار الكلام فإذا هو خطوات إلى غاية، ولكن. . . ولكن ما أحوج هذا السالك إلى من يرود له الطريق! هؤلاء أهلها، ماذا يعرفون من أمره؟ وكيف يخطبها إليهم وما له عندهم أسم ولا رسم؟ وهؤلاء أهله، ماذا يعرفون من أمر فتاته، وما حاول من قبل مرة أن يفض لهم اغلاق قلبه أو يقرأ عليهم سطراً من شبابه؟ وهذا أبوه، شيخ لا يؤمن بالحب، ولا ينقاد لنزوات العاطفة؛ وهو رباه ونشأه واختار له فيما اختار فتاة من ذوي قرباه، فما ينتظر له زوجاً غيرها ولا لها زوجاً غيره. فمن ذا يشفع له عنده؟ وهذا عمه، وإنه لرجل جد وكفاح لا يرى الحياة إلا من الناحية الصلبة الجافة، فما إليه مشتكى، ولا فيه شفاعة! ولقد تلقى الفتى عن - فيما تلقى - دروساً في الشجاعة والصراحة معاً، فكيف تخذله شجاعته، وكيف يلتوي لسانه

وهو يطلب الحياة لنفسه؟ وفي قلب الفتى نار لو لفحتْ الشجر الأخضر لتركته هشيماً، وفي رأسه شعلة لو نفخت على السائل لتركته يغلي ويفور. وابتدأ الفيلسوف الذي في رأسه يفرض الفروض، ويأتي بالمقدمات، ولكن إلى غير نتيجة

لقد ملك اللذة وأراد أن ينعم بها، ولمس السعادة وأمل أن يحتويها، ولكن فكرتي اللذة والسعادة هما اللتان ذهبتا بشجاعته وصراحته

ماذا في السعادة غير اطمئنان الخاطر، وهدوء الضمير، وإشراق الحياة، وابتهاج النفس، والرضى بكل ما يجيء به القدر؟ ذلك هو الإيمان، والشعور به هو اللذة. فلا تنشدهما من غير هذا السبيل

ونفخ الحب في عزم الفتى، ونفث من سحره في لسانه، فمضى بين الرجاء واليأس ينفض أمام أبيه جملة حاله. وكان أبوه قد قدّر حين رأى في أبنه الذهول والصمت حيناً، والانكباب على المطالعة حيناً آخر، أن به شيئاً. وقالت له ذكريات شبابه: (ويحك أيها الشيخ! إن فتاة قد سلبتك فتاك، لأنه فقد النوع، وإنه لشاب به ثورة الفتاء ما بالرجل يوقد تحته بنار من حجارة، فأمسك عليك ولدك بزوج تربطه بها وتربطها به. . .!)

ووعى الشيخ ما سمع. فلما أذن للفتى أن يكشف لأبيه عن صدره، قال له: (يا بني! إن حكمة الشيوخ غير طيش الشباب. يا بني! إنه أنا الذي رباك وأنا الذي يريد أن يعيش في تأريخك جيلاً آخر. عقلك أولاً ثم عاطفتك، وغداً تهدأ هذه الثورة. . .!) ولكن الثورة لم تهدأ بل زادت ضراماً، وعاد الفتى إلى عمه يستعينه على رأي أبيه، فما الأخ إلا صورة من أخيه، ولما أرسل إلى أهلها قالوا: (حتى يرضى أهله)

وضاقت نفسي الفتى بما رأى وسمع، وما لبثت الفتاة أن سميت على غيره، فأصبح الفتى يتوزعه الحب وقد أخفق فيه وصفرت منه يداه، والكبرياء التي لا تطاوعه على أن ينقاد، فصار همه همين؛ وعض الحزن على قلبه فاستلبه من أيامه، وخلفه يمشي بين الناس جسداً بلا روح. . .!

وأحس الأب بمقدار قسوته على ولده، على حين لم يكن يريد له إلا السعادة، فأنطلق يلتمس له الشفاء من ألمه، ولكن أين له ما يريد وقد سميت الفتاة على غيره فخطبت فـ. . .

وكان الأب في انطلاقه يفتش عن السعادة لأبنه، قد ترك وراءه شبحاً يجلس إلى مدفئة في زاوية من الحجرة وقد نشر أمامه ورقة لا يكاد يتبين من سطورها إلا سطراً أسود يضطرب أمام عينه، وكأنه لم يكن ينظر كلاماً مكتوباً بل شريطاً عريضاً أسود يمثل له حظه في الحب. لقد وعاه من طول ما كرره، ولكنه ما يزال يقرأ، ويعيد ما يقرأ، كأن

ألفاظه تمسح ببياضها هذا السواد الماثل أمامه: (لقد تخليت عني في وقت أنا أحوج فيه إليك، وقد كان بيننا ما كان. تخليت عني ليعبث أهلي - بما لهم علي من حق - في مستقبلي. لقد أرغموني حين ردوك)

ولما أرتد الأب خائباً، وجد الابن قد أكلته الخيبة والتهمه اليأس، فعاد يهمس بينه وبين نفسه (ويلي! لقد جنيت!) ثم ابتدأ يلتمس لولده العزاء مما جنى عليه، فقدر له أن يمضي أياماً على شاطئ البحر، عند الربيع الأزرق. هناك حيث يخلع الإنسان همومه إذ يخلع ملابسه، ويتحلل من أثقال المدينة وتقاليد الناس حين يرى نفسه كآدم وحواء قبل اتخاذ الثياب. وكان الفتى واسع الخيال دقيق الحس، فآلمه أن يرى هذا الناس قد اجتمعوا ليقتسموا الصحة والعافية، واللذة والسعادة، وهو وحده يعيش في جو بعيد عن كل ذلك، هو جو قلبه، وانصرم الصيف، وما أفاد إلا هماً على هم، ووحشة كانت في قلبه فعادت في حسه وفي نفسه

وجلس الابن يقرأ - ذات ليلة - كتاباً في تأريخ قدماء المصريين والأب ينصت، وهو يتبين في صوته رنين الأسى والحزن. فقال: إن لنا في الشتاء لرحلة كما لنا في الصيف رحلة.

زيارة آثار أجدادنا القدماء. وطرب الشباب لهذه الفكرة الطارئة

وطوّفا ما طوفا والفتى في نهاره رفيق أبيه، وفي الليل صديق همومه

وجلس الفتى إلى نضد، وقد مضى الليل إلا أقله يكتب إلى التي أحبها: (ذهب عقلي واستقر هواك. وهأنذا أطوف في بلاد وقرى لم أنزل بها من قبل، ولم يزرها أبي من قبل أيضاً. يظن أبي أنني أفرج عن نفسي، وأراني شريداً لأنني أرغم على ذلك إرغاماً.

يؤمر ليطيع كالإنسان الصناعي لا يدري ماذا يقال، ولا ماذا يُفعل؛ وهم يسخرون من الإنسانية إذ يسمونه الإنسان. أبي يرى في كل ذلك لذة، أما أنا فلا أرى هنا ما يلذني لأني بعيد عنك. والآن وقد بلغنا أسوان بقي علي أن أصف لك الخزان العظيم الذي يترك لأرض مصر جميعها فضلة ما يمسك. إنه في رأسي الآن يجيش ويضطرب، وغداً كيف أراه أمام عيني؟ سأذكرك هناك، يا فتاتي، وأذكرك. . .)

وعند انبثاق الفجر انفلت من الفندق ليضع بعض قلبه في صندوق البريد وعلى خزان أسوان سار مطمئناً، وهو يعجب بما يرى؛ عن يمينه طود من الماء، وعن يساره رشاش الماء المنسكب، أمواجاً تتلاطم، كأنها في مضمار، أيهما يبلغ الغاية أولاً؟ وعلى سور الخزان المبني من حجر الجرانيت، وقف يتكئ على حاجز قصير هناك يطل منه على الماء يتدفق من فتحات الخزان حياة، والخواطر تتدفق في أعماقه شجواً حزيناً يبعث الألم. وأخذت الفتى روعة ما رأى وأحس كأن الماء الذي يعترك في أسفل يجذبه ليحمله إلى من يحب. ورأى الرشاش المتطاير تنعكس عليه أشعة الشمس فترسم عليه قوساً ذات ألوان جميلة، كأن عروساً في ثوب زفاف تتراءى له بين مرآتين، ولكنه لم ير فيها إلا العروس التي فقد، تبتعد بها الأقدار في صحبة رجل غريب. ورأى الماء يتسرب من بين الصخور كما يتسلل القدر في تاريخ إنسان ليضع فيه مأساة أو يصنع حادثة

ومضى الفتى يتخيل فيمعن في الخيال، والماء تحت عينيه يموج ويضطرب ويزأر متدفقاً مكتسحاً في بطش وعنفوان؛ فما يرى الفتى بين الموج والزبد إلاّ صورة واحدة: صورة الفتاة التي بعد بها عنه عنف القدر وسلطان التقاليد

ورجع الأب ليصحب ولده فيعودا، ولكنه انطلق يعدو حين رأى أبنه يوشك أن يتردّى. فما بلغ إلاّ ليشهد آخر مأساة للشاب تتلقفه الأمواج

!. . .يا يد الشيخ أنت التي دفعته إلى هذه الهوة فما كان لك أن تنقذيه

يا تجارب الشيخوخة كم أنت قاسية! لقد أردتِ أن تزرعي السعادة فجنيت الشقاء. لقد كنت كبيرة فلم تفهمي لغة الشباب، وكنت مادية فلم تفهمي حديث الروح، وكنت صلبة فلم تعقلي كلمات القلب. هل أنت يا تجارب الشيخوخة إلاّ خرف الهرَم ونكسة الإنسانية. .؟

ألا ليت الشباب وليت الهَرَم. . . ولكن ماذا يجدي، ماذا يجدي؟ ليت شعري هل قُدِّر للإنسانية ألا تبلغُ سعادتها إلا على جسر من الضحايا؟ فيا ويح الشباب ويا ويح الهرم!

كامل محمود حبيب

درامة من أسخيلوس

الفرس - 3

للأستاذ دريني خشبة

تتمة

- 7 -

(يظهر شبح دارا ويخاطب الجماعة)

-) أوه! أنتم هنا يا رفاق الصبي ولِدَات الشباب! مرحي! لقد ابيضت نواصيكم، وجلل هامتكم وقار المشيب! ماذا؟! ما لكم واجمين هكذا؟ أي شجو يعقد أساريركم يا سادات فارس؟ ماذا أسمع؟ هناك! هناك في جميع آفاق المملكة؟ الجماهير العزيزة تئن وتبكي! ويح لكم يا رعاياي! أية كارثة؟! تكلموا؟ إن قربان الخمر الذي أسقيتم ثرى رمسي قد روّى أعظمي وانتشت بِحُمَيّاه نفسي؟ لشد ما أيقضتني أناشيدكم وأذْكاركم تتغنونها على هذا القبر يا سادات، وتتغناها معكم مليكتي!! تكلموا! تكلموا إذن! فيم جُؤاركم بي، وصلاتكم من أجلي، لأطْويَ الرحب إليكم من عالم الأشباح؟ إن الآلهة ترنو إليّ من بعد، وإنها تكاد تتخطّفني. . . لماذا تصمتون هكذا؟ تكلموا وإلا فالويل لي من أرباب الظلمات!. . .)

-) لشد ما تفرق قلوبنا إذ نرى إلى هذه الهامة! كيف السبيل إلى الكلام؟ أي فزع يذوب كالموت في فرائصنا؟)

-) ليفرخ روعكم! إن صلاتكم الطيبة هي التي سعت بي إليكم! فيم هذا الجزع الذي يسيطر عليكم؟ وهذا الحزن لِمَهْ! تكلموا! البدار، اختصروا ما استطعتم فأني عجلان، والآلهة تحدجني من أعماق الدار الآخرة!)

- (نفْرَق أن تنبس أفواهنا بكلمة عما حاق بأعز الناس! إن حبنا له، وجزعنا عليه يمنعنا من أن نقول كلمة .!. . .)
- (هذا دأبكم دائماً. . . طالما كنتم تخافون من لا شيء إذن، فتكلمي أنت يا من كنت شريكتي في أهنأ حياة؟ وأرجو أن توجزي ما استطعت.! ما هذه الصيحات التي ترتفع من رعاياي في البر والبحر؟ ما لهم يبكون في كل صوب!)
- (مولاي دارا!؟ ملكي! يا من أقمت مجد الوطن، وكنت مُحَسَّداً من أندادك للأبهة التي شادت دعائمها يدك. . . كم أنت اليوم مُحَسَّد كذلك للراحة التي تنعم بها في جوار آلهتك. . .؟ قصتنا موجزة، وتكاد ترويها كلها كلمة واحدة! الإمبراطورية يا مولاي؟ لقد نسج الزمان عليها عناكب الخراب وليس من يقيل عثرتها!!)
- (لِمَهْ؟ هل طاعون سلطه عليها رب الشر؟ أم ثورة جعلت غزلها من بعد قوة أنكاثاً؟)
- (لا هذا ولا ذاك! ولكن. . . جيشنا. . . لقد حطمه القضاء تحت أسوار أثينا!)
- (جيشنا؟ وَمن مِن أبنائي هذا التاعس الذي غامر به ثمة؟)
- (الطائش إجزرسيس! لقد أقفرت آسيا من روض شبابها بسبب تَهَوُّره؟)
- (في البر أم في البحر، حاقت بهم النكبة النكباء!)
- (فيهما معاً يا مولاي!)
- (وكيف تم لهذا العسكر المجْر عبور البَحر إلى هيلاس؟)
- (مهندسوه يا مولاي أقاموا له جسراً عَجَبَاً!)
- (وأي جسر هذا الذي يصبر لأمواج البوسفور وأواذيه؟)
- (كانت أرواح مخربة تنفخ في صدره طيلة ذلك اليوم!)
وأية ضربة لازب طاحت بجيش فارس وبأسطولها؟ أكان العدو أكثر عدداً وأعز قوة! يا لتعسك يا إجزرسيس! ترى! كم شرذمة نجت من بطشة هذا القضاء؟)
- (ثلة في البر وثلة في البحر. . . وكان هو ينطلق لا يلوى على شيء! حتى عبر إلى آسيا!)
- (إيه يا آلهة! هكذا تديرين رحى الخراب على من يديرها على نفسه! إجزرسيس الطائش! لقد كان شيطانه هواه، فلم يرحم شبابه ولم يترفق بشباب فارس! حسب المأفون أنه يسخر بالآلهة، ليستطيع أن يكتب الأقضية، ويحول مجرى المقادير. . . ألا قد حبط مكره. . . وحاق به سوء تدبيره. . . وبدد في حماقة كل ما ذخرت لفارس من قوة وعتاد. . . وجعل خزائن سوس لأعداء الإمبراطورية نهباً مُقَسماً. . . ألا من أضلّك يا أتعس الأبناء!)
- (أضلته نفسه، وغلب عليه استبداده، وسَوَّلت له تلك العُصبة من الحمقى والمأفونين تعْساً لهم مُشِيري سوءٍ، وإخوان ضلالة! وتعساً له من أحيْمق، هدم المجد الذي بناه أجداده فرفعوا عماده، ومهدوا له وأرسوا في ساحات النصر أوتاده. . . الشقي الذي نسى نصيحتي فوق سرير الموت، إذْ حذرته من محاربة الهيلانيين!)
- (والآن يا مولانا! أنصح نهتد بك في ظلمات المستقبل!)
- (هي نصيحتي أبداً. . . لن تتغير. . . لا تلتحموا في حرب مرة أخرى مع الهلانيين! حتى ولو كان جندكم أكثر من جندهم أضعافاً مضاعفة! إنهم يحاربون من أجل وطنهم المفدى! أما أنتم. . . ففي سبيل أطماعكم تهرق دماء شبابكم! هذا إلى هيلاس نفسها. . . إنها تحارب بجنود لا ترونها في جانب أبنائها!)
- (هيلاس تحارب بجنود لا نراها؟ وكيف؟)
- (أجل! إنها تحارب المغيرين بالمجاعات والأيْن والطواعين! انظروا! إن شراذم مبعثرة تهيم في الآفاق. . لا تلوي على شيء. . . تفر من الميدان! ويلاه! إنها فلول أجنادكم، أصبحت لا تقدر على شيء!. . . لقد تركها القائد الشقي تقاسي من الجوع والعرى والزّمهرير. . . أشباح وسمادير، يرنق فوقها الموت عند كل أكمة!!
إجزرسيس! يا أتعس الأبناء! ذق إنك أنت العزيز الكريم! فيتم استباح جنودك معابد الآلهة وأقداس الأرباب! لقد دنسوا هياكل القوم، وسلبوا معابدهم، وكسروا أوثانهم. . . فليذوقوا إذن وبال أمرهم، ولترو من دمائهم رماح الأسبرطيين. . . وليؤدوا الدين من خزائن أرواحهم مُهَجاً غالية!! يا للآلهة!! ما أقساه درساً ألقيته على كبرياء بني الموتى وخيلائهم!! زيوس يا سيد الأولمب! يا كبير الآلهة ذا الطول، يا شديد الانتقام! ما أهول بطشك حين تأزف ساعته. . . وما أبلغ حلمك!)

أيتها الملكة! يا أم إجزرسيس! يا أم ولدي التاعس! هلمي فالبسي أبهى حلك ذات الأوشية، وانطلقي فالقي ولدك المحزون! رفهي عنه وواسيه بكلمة طيبة لن يحتملها (. . .إلا منك، وبلغيه نصائحي
أما أنتم يا رفاق صباي! فالسلام عليكم. . . لتثلج صدوركم ولتطلب نفوسكم. . . لقد فرغتم من زينة هذه الحياة الدنيا التي لا تسير في ركاب الموتى إلى الدار الآخرة) (يغيب الشبح)
- 8 -
ويرسل الأشياخ الفارسيون النُّجب زفرة كأنها لفحة من جهنم، ويعبسون عبوسةً سادرةً حزينة لما يتحيف الوطن من أشجان، ثم تمضي الملكة لتضفي عليها من أبهى وشْى فارس ولؤلؤ بحرها العجيب، ولتذهب فتلقى ولدها المقهور المنهزم، الذي عاد من حلبة هيلاس يجرر أذيال الخيبة، ويتهالك على نفسه في أسمال الخزي والانكسار. . . (ولدي إجزرسيس! الذي لا بد له في هذه المحنة من قلب الأم يضمه ويحنو عليه، ويقشع عن عينيه ديجور الهم، ويعيد إليه مسرة الدنيا وحبور الحياة!)
- 9 -
أما الخورس - وهم أولئك الأشياخ الوقورون - فيهزجون بنشيد طويل يذرفون فيه دموعهم على مجد الأكاسرة الغابر، ويبكون على أيام كانت فارس سيدة الأرض ومؤدبة الأمم، ويذكرون الهزائم التي حاقت بجيوشهم في البر والبحر. . . (وشبح الخراب الذي ينوء بكلكله على المدائن والقرى، واليتم والجزع والبكاء التي تغزو كل بيت، وتمزق صدر كل أم) وإفلات الأيالات الفارسية في غرب آسيا وشمال هيلاس من قبضة الفرس. . . حتى لو شاء الهيلانيون غزو فارس نفسها لما استعصت عليهم
- 10 -
(يدخل إجزرسيس متخاذلاً)
- (واشجوى!)
لقد جل الخطب، وفدحت قاصمة الظهر، وامتداد يد الحدثان إلى زهرتك يا فارس، يا وطني، فقضت عليها في ريعان، وأذبلت غصنها إذ هو ناضر ريان، وجعلتها قصة في كتاب الزمان! ويحي! كيف لي أن ألقي ساداتك أيها الوطن وقد خذلت هيلاس قواي، وخانت تجلدي واصطباري! ألا ليتني لقيً بين أشلاء جنودي، ألا ليت كثيباً مهيلاً طواني في ساحة المجد، فلم أعد إليك يا بلادي! لقد كان ثمة عزاء لي بين القتلى من صناديدي!)
- أهذا أنت يا إجزرسيس! ويلاه! من للأبهة والمجد! من للجيوش الجرارة والجنود المظفّرة! من للكواكب والرايات! أين أين القادة الصيد، والأبطال الصناديد والمغاوير المذاويد؟ لقد انتفضت فارس تبكي أفلاذ أكبادها فأين تركتهم دون وليٍّ ولا نصير؟ أكانت تعدهم لهذا العبث الذي قذفت بهم فيه وهم زهرتها وذخيرتها وعتادها؟ ويلاه! يا للساعة ويا للحساب العسير؟ لقد كان أجدر لو لم تلقك آسيا أيها الملك كسيرة القلب مهيضة الجناح، لا حول لها ولا طول، ولا مجير ولا هاد!)
- زهٍ! زهٍ! يا سادات فارس! يا للحظ العاثر والمجد الغابر! أو هكذا يا رب تخزيني ملء رعيتي وبين جدران بيتي؟)
- بل نحييك بالصراخ والعويل كما كان المارياندون يحيون موتاهم. . .)
- إذن، فهلموا فابكوا! لتنهمر دموعكم حتى ما تجف، ولتشق السموات آهاتكم حتى ما تقف! ألا ما حيلتي؟ لقد اتحدت عليّ الأقدار، واسودت في صحائف غيبي الحظوظ!)
- بل نحن نصرخ في وجهك صرخة فارس التي كلها ألم وشجو. . .)
- وا أسفاه! ماذا عساني كنت صانعاً وقد اتحد مارس وملؤه عليّ!)
- بل قل لنا أيها الملك! أين أين أكايرتا؟ أين أين السوسيون والفرندسيون والبلاجيون وغيرهم وغيرهم من أشراف القبائل والبطون والأفخاذ؟)
- غرق من غرق، وغال الردى في الميدان من غال في يم سلاميس وبرية بلاتيه.)
- بل أجب هذه الدموع وحرق الضلوع! أين أين المظفر فرْنوخوس وأريوماردوس الصالح، وأمير الأمراء سيوالكوس! وأين أين القنابل ذات الأيد من مازستراس وسيرابيس وممفيس! . . .
- ابتلعهم اليم. . . ثم لفظهم الدأماء! ودارت عليهم المنايا أغربة سوداً وغرابيب لا

(!!تبقي ولا تذر!. . . فلا قائد اليوم ولا مقود
يا للنكبة! يا للثمن الفادح! يا لزهرة شبابك يا فارس في هذا الرزء الذي ليس كمثله) -
(رزء، والمصاب الذي دونه كل مصاب!! إذن ماذا بقي للوطن أيها الرجل؟
هذه الأسمال التي ترونها لا تكاد تستر جسد مولاكم) -!!
أهي كل ما بقي من الغرق و. . . الهزيمة؟) -
وهذا البيت الخاوي على عروشه. . . وكانت إليه خزائن الأرض من قبل؟ ماذا بقي) -
لنا؟ لقد تفرق عني جميع أعواني أباديد!
ألا ما كان أشجع اليونانيين في هذه الحرب) -!
ألا ما كان أشجعهم حقاً! أبداً ما رأت عيناي أشجع منهم! لقد ظفروا بنا وأظهرتهم) -
آلهتهم علينا، فلنا الخزي السرمدي، ولهم المجد الأبدي؟
ويلاه! إذاً سحقت كل قوة فارس) -!
عن بكرة أبيها! وليس لنا الآن إلا البكاء والنحيب! فرددوا بكائي وأسْعِدوا يا سادات) -
أي إسعاد أيها الملك وقد قضت علينا ضربة لازب) -!
(يبكون. . . ثم يعولون)
رددوا آلامي، فما أشجاكم أشجاني) -!
ألا من يرثي لنا. . . يا للشجو. . . يا للشجو) -!!
وبللوا تلك اللِّحى. . . اذرفوا عبراتكم يا رفاق) -!
(. . . . . .يأخذ الأشياخ في البكاء، ويشتد عويلهم، ثم يشقون جيوبهم)
غفرانك يا فارس! غفرانك يا دارة المجد، وهالة العظموت! هلموا يا سادة! هلموا) -
(.إلى الهيكل. . . إلى النار المقدسة
دريني خشبة
البَريدُ الأدَبيّ
هنري دي رينيه
من أنباء باريس الأخيرة أن الشاعر والكاتب القصصي الكبير هنري دي رينيه قد توفي في الرابع والعشرين من مايو؛ وبذا يكون قد توفي في أيام قلائل عضوان من أسطع أعضاء الأكاديمية الفرنسية، هما الأستاذ هنري روبير المحامي الأشهر (وقد ترجمناه في العدد الماضي) وهنري رينيه، وخلا بذلك كرسيان في مجتمع الخالدين. وقد ولد هنري فرانسوا دي رينيه في ديسمبر سنة 1864 في هونفلور من أعمال كالفادوس من مقاطعات الحدود؛ وكان أبوه هنري شارل دي رينيه مفتشاً في الجمارك، وتلقى الكاتب دراسته في كلية ستانسلاس، ودرس القانون؛ ولكنه انصرف منذ حداثته إلى الأدب؛ وبدأ بقرض الشعر قبل أن يبلغ العشرين، وفي سنة 1885، أصدر أول مجموعة شعرية، عنوانها (أيام الغد) فأصابت نجاحاً وأتبعها بعد ذلك بعدة مجموعات أخرى نذكر منها: (أوسمة دارجيل) ' و (فستيا الملتهبة) وعالج هنري دي رينيه كتابة القصص في نفس الوقت، وظهر منذ أواخر القرن الماضي بقصصه القوية الخصبة؛ ومن أشهر قصصه (عصا جاسب) (سنة 1895)، و (العشيقة المزدوجة) (سنة 1900) و (فراغ فتى عاقل) ' (سنة 1903)، و (الخوف من الهوى) ' (سنة 1907) ' (سنة 1912) و (وهم تيتوباسي) ' (سنة 1916) و (الخاطئة) (سنة 1920) و (الفرار) ' وغيرها وكان هنري دي رينيه أيضاً صحفياً من الطراز الأول، يعالج المسائل الاجتماعية والأدبية في الصحف الكبرى بقوة وبراعة؛
وقد تبوأ كرسيه بين الخالدين في الأكاديمية الفرنسية منذ أعوام طويلة
حياة لايدي هستر العجيبة
تتفوق حوادث التاريخ أحياناً على القصة في غرابتها وروعة ظروفها؛ ومن ذلك حياة (لايدي هستر ستانهوب) الإنكليزية التي خاضت في أوائل القرن التاسع عشر غمار رحلات وحوادث مدهشة في تركيا ومصر وسوريا. وقد صدر أخيراً بالإنكليزية كتاب عن هذه السيدة المغامرة عنوانه بقلم السيدة جوان هاسلب
وقد نشأت اللايدي هستر في أسرة نبيلة في أواخر القرن الثامن عشر، وهي ابنة أخت لوليم بيث الوزير الإنكليزي الشهير، ولم تكن فتاة حسناء. ولكنها كانت تتمتع بجاذبية نسوية غريبة؛ ولم تصادف في بدء حياتها نجاحاً في المجتمع الإنكليزي ولا قبولاً في بلاط الملك جورج الثالث؛ بيد أنها اتصلت صلات غرامية ببعض رجالات العصر، مثل

اللورد جرانفيل لنيفنسون والسير جون مور القائد الشهير؛ ثم عافت المجتمع الإنكليزي ونقمت عليه لما لقيت فيه من إعراض وخصومة، وغادرت إنكلترا في سنة 1810 لكي لا تعود إليها إلى الأبد. وبعد أن زارت جبل طارق ومالطه ذهبت إلى اليونان وهنالك لقيت الشاعر بيرون؛ ولكنهما لم يتفاهما؛ فسافرت إلى استانبول؛ وهناك اتصلت ببلاط السلطان محمود، وتركت لنا وصفاً شائقاً عن بلاطه وحاشيته وحفلاته. وإليك نبذة ظريفة تصف خروج السلطان إلى السلاملك في يوم الجمعة:

يركض البستانية صائحين (أفسحوا لجلالة السلطان أمير المؤمنين) وهم يلوحون بأسواطهم المعقودة؛ بينما تنتظم في الشارع فرق من جند الانكشارية ترد الجموع؛ ويبدأ الموكب بالسقائين يرشون الشارع، ثم كوكبة من الفرسان ذوي اللحى تحيط بها جماعة زاهية تحمل أدوات القهوة السلطانية وسيف السلطان وشبكة في أوعية ساطعة)

وبعد أن لبثت لايدي هستر حيناً في استامبول سافرت إلى مصر، واتصلت في الحال بمحمد علي، وزارته في قصره الفخم بالأزبكية فأكرمها، وأنس بلقائها؛ ونوهت اللايدي هستر فيما بعد بكرمه وذكرت أنه اعتاد أن يقف للقائها؛ وفي ذات يوم نظم محمد علي عرضاً عسكرياً إكراماً لها، وعرض فيه الكولونل سيف (سليمان باشا) القوى البدوية، وبعد نهاية العرض قدم لها محمد جوادين هدية منه

بيد أن اللايدي هستر رغم ذلك تصف مصر بأنها مريعة، بأزقة ضيقة، وروائح كريهة، وشوارع متربة

وسافرت لايدي هستر بعد ذلك إلى فلسطين ثم إلى الشام، وهنالك تعرفت بالأمير الشهابي وتوثقت بينهما أواصر الصداقة؛ ثم سارت إلى تدمر حيث أعلنت نفسها ملكة على بعض قبائل البدو، وحصنت قصرها في جبل الياس، والتف حولها كثير من الدروز والنيصرية؛ ولما غزا إبراهيم الشام احترم قصرها ولم يهاجمها، وبلغ حب بعض السوريين لها أن كانوا يعتبرونها شبه قديسة، بل إن بعض الدروز اليوم يضعونها بين آلهتهم

وتوفيت تلك المرأة العجيبة في يونيه سنة 1839، ودفنت هناك في روضة بديعة

هذا ملخص الحياة المدهشة التي خاضت غمارها اللايدي هستر ستانهوب، والتي تصفها لنا المس هاسلب في كتابها وصفاً بديعاً شائقاً

وتختتم المؤلفة كتابها بوصف بطلتها بأنها كانت (خاتمة ذوي الشذوذ والأطوار الغريبة في القرن الثامن عشر، وأول الممهدين للحياة الجديدة في القرن التاسع عشر)

العلم والدين

يقول الأستاذ هكسلي في فصل نشره في إحدى المجلات الكبرى إن أصحاب النظريات العقلية في القرن التاسع عشر كانوا على يقين من أن ما يسمونه (النزاع بين العلم والدين) سينتهي حتماً بهزيمة الدين، ولكن تأريخ العصر الحديث أثبت أن هذه النظرية لا أساس لها. ذلك أن العلم لم يهدم الدين، ولكنه نقله فقط من ميدان إلى آخر؛ وقد كان من أخطاء أجدادنا أنهم كانوا يتصورون العلم والدين عدوين يحارب أحدهما الآخر، وأن العلم أمضى أسلحة من الدين، وأنه سيودي غير بعيد بالدين حتى يغدو جثة لا روح فيها؛ وتلك صورة خاطئة. فالعلم والدين ليسا عدوين، ولكنهما قوتان عظيمتان من قوى الطبيعة

إن الإنسان يفكر والله يدبر؛ ولكن المصلحين لم يظفروا بتحقيق المهمة التي رمزوا إلى تحقيقها، وهي القضاء على الأوهام والخرافات التقليدية التي تدخل الدين بغير حق. وقد أحرزوا في هذا السبيل نجاحا محدودا؛ ولكنهم هيئوا بجهودهم ميدانا لأنواع أخرى من العادات والتعصب، ربما كانت أسوأ من الخرافات الأولى؛ فهنالك اليوم من ضروب العبادة القومية والتعصب القومي والجنسي ما لا يقاس في حدته وروعته بتلك العواطف الساذجة التي جهد المصلحون للقضاء عليها

الحفريات الأثرية في فلسطين

تعمل الآن في فلسطين عدة بعثات علمية في الحفريات الأثرية، بعضها يعني بالعصر اليهودي، وبعضها بالعصر الروماني، والبعض الآخر بعصر المسيح. وقد نشرت مجلة المباحث الأثرية الفلسطينية التي تصدرها مطبعة جامعة اكسفورد في عددها الأخير

بيانات جامعة عن النتائج الأثرية التي انتهت إليها جهود هذه البعثات؛ ففي بيت لحم، عثر
المنقبون تحت كنيسة المهد على آثار كنيسة أخرى أقدم منها، ووجدت بعض آثار
للفسيفساء القديمة تحت بلاط الكنيسة الحالية؛ ووجدت أقسام الكنيسة القديمة
واضحة، ولكن لم يبق منها سوى بعض جدران متهدمة؛ بيد أن ما وجد من البناء
والفسيفساء يكفي لتكوين فكرة حسنة عن هندسة هذه الكنيسة القديمة وطرازها
وكشفت الحفريات في تل حسن بالقرب من أريحا عن كنيسة بيزنطية قديمة قد
أزيلت تماماً، ولكن أمكن إعادة معالمها من آثار الفسيفساء التي وجدت؛ وقد كانت
على ما يظهر من طراز البازيليكا القديمة، ذات فناء متوسط ورواقين في الجانبين،
تفصلهما حنايا معقودة؛ وقد كانت الفسيفساء في حالة حسنة، وهي تشبه تلك التي
وجدت تحت بلاط كنيسة المهد؛ ويرى المكتشفون أنها ربما كانت الكنيسة التي
خصصت للعذراء مريم، وقام بإصلاحها الإمبراطور يوستنيان حسبما يذكر المؤرخ بروكوبيوس
ووجد هنا وهنالك كثير من الآنية الخزفية؛ وقد أثارت هذه الآنية بين العلماء المكتشفين
كثيرا من الجدل، واعتقد بعضهم أنه ظفر من بينها بآنية ترجع إلى عصر حرب طراودة
الشهيرة التي نظم عنها هوميروس إلياذته الخالدة
وتجري في نفس الوقت حفريات متعددة في جهة الناصرة، حيث يظن أن المسيح قضى حداثته وشبابه

الإسلام في المجر

يطوف السيد حسين حلمي مفتي بودابست ببلاد الهند لجمع تبرعات تساعد مسلمي
المجر على تشييد مسجد ومدرسة لتعليم أولاد المسلمين. وقد نشرت مجلة (الإسلام)
التي تصدر بالإنجليزية في سنغافورة حديثا مع الأستاذ راسوليفتس محمد بك سكرتير
الجمعية الإسلامية ببودابست عن حالة المسلمين في المجر، فكان مما ذكره أن عدد
المسلمين يبلغ الآن زهاء ثلاثة آلاف نسمة ومن المحزن أن حالتهم الاجتماعية في
تدهور رغم أن البرلمان المجري اعترف في عام 1916 بالإسلام كدين من أديان
الدولة، وأكثر المسلمين في حالة فقر مدقع، وهم في حاجة ماسة إلى عطف العالم
الإسلامي واهتمامه بهم. فأولادهم يضطرون إلى التعلم في مدارس المسيحيين
والتزوج من بناتهم. ولا يوجد في كافة بلاد المجر مسجد لإقامة الصلاة مع العلم أنه
كان في بودابست وحدها 40 مسجدا أيام الدولة العثمانية
وتوجد اليوم في بودابست جمعية إسلامية تأسست في عام 1916 باسم (جمعية جول
بابا) وقد جعلت مهمتها السعي في بناء مسجد ببودابست ومدرسة لتعليم أولاد
المسلمين وتثقيفهم في أصول دينهم، وقد منحتها الحكومة قطعة أرض لتشييد
المسجد، لكنها لا تجد المال الكافي للبناء، ومن المؤسف حقاً أن المسلمين يجتمعون
لصلاة الجمعة في بهو فندق يستأجرونه خصيصاً لهذه الغاية. أما في الأعياد والمواسم
فهم يجتمعون في ضريح ولي مسلم مدفون بأطراف بودابست واسمه (جول بابا)

معهد فني للجنائيات

من أنباء السويد أن معهد الجنائيات الفني الملحق بجامعة ستوكهلم قد افتتح في بنائه
الجديد المجهز بأحدث الوسائل والمخترعات الفنية؛ ويقال إنه الآن أحدث معهد جنائي
من نوعه إذا استثنينا معهد البوليس البريطاني
وقد كان هذا المعهد حتى اليوم منقسما إلى عدة أقسام؛ ومع ذلك فقد كان يجذب إليه
الطلبة والفنيين من كل صوب ليدرسوا في أقسامه المختلفة التي اشتهرت بدقة
أبحاثها الفنية؛ وكان يؤمه بالأخص رجال البوليس من السويد والنرويج والدنماركة
وفلندة وكذلك بعض رجال البوليس الإنكليزي (اسكتلنديارد) لينتفعوا بتجاربه ومعلوماته
ويدرس الآن في هذا المعهد عدد كبير من المحاميين لدى المحاكم الجنائية وضباط
البوليس، وفيه عدا ذلك نحو أربعمائة طالب يدرسون في أقسامه المختلفة طرق
مكافحة الجرائم واستكشافها

كشف طبي خطير في علاج البلهارسيا

الدكتور محمد خليل عبد الخالق بك أستاذ علم الطفيليات بكلية الطب، ومدير معهد
الأبحاث بوزارة الصحة، قد عرف بأبحاثه واكتشافاته الطبية العديدة، وامتد الاعتراف

بكفاءته إلى الدوائر العلمية الأجنبية، فسجلت اسمه في قائمة العلماء الباحثين
وقد حدث منذ شهرين أن وفد على معهد الأبحاث طفل في التاسعة من عمره مريض بالبلهارسيا، وقام المعهد بعلاجه عن طريق الحقن بمركبات الأنتيمون، وهي الطريقة المتبعة في مثل هذه الحالات، ولكن الطفل عقب تناوله الحقنة الثامنة توفي بغتة، واتضح
من تقرير الطبيب الشرعي أن حقن الطفل تم على حسب الأصول الفنية
ولقد شغل هذا الحادث ذهن الدكتور خليل بك، وما زال به اهتمامه وتفكيره حتى اهتدى إلى كشف السر فيه وفي أمثاله من الحوادث، فدعا جمهرة من الأطباء إلى قاعة المحاضرات بكلية الطب لشرح كشفه والمناقشة فيه
وقد انعقد الإجماع على أن هذا الاكتشاف قد وضع أساساً جديداً لعلاج البلهارسيا، وسيكون من أثره:
أولاً - إنقاذ حياة ألفي مصاب بالبلهارسيا يموتون فجأة في كل عام، وقد كانت وفاتهم مبعث حيرة كبيرة بين الأطباء المعالجين والأطباء الشرعيين
ثانياً - ضمان الشفاء لعشرات الآلاف، الذين كانوا فيما مضى لا يتمتعون به كلاماً حاسماً في أوجز وقت وبأقل تكاليف
ويقدر عدد المصابين بالبلهارسيا في ريف مصر وصعيدها بعشرة ملايين يتقدم منهم للعلاج سنوياً زهاء مليون ويموت منهم فجأة ألفان تقريباً، ولم يكن في مقدور العلم أن يتكهن بتلك الوفيات الفجائية التي أشرنا إليها، ولا كان في مقدوره ضمان القضاء على الداء الوبيل قضاء مبرماً. أما اليوم فقد توصل الدكتور خليل بك إلى اكتشاف طريقة بسيطة كيميائية تمكن الممرض أو مساعد الطبيب أن يجربها؛ وهي طريقة يعرف بها على وجه التحقيق المسائل الآتية:
1 - هل يفرز المريض أكثر الدواء الذي يعطى له، ولا يمكث في جسمه إلا قليل منه لا يكفي لقتل الديدان المسببة للبلهارسيا، وعلى ذلك يصعب شفاؤه بالجرعة المعتادة؟
2 - هل المريض لا يفرز الدواء مطلقاً، أو يفرزه بمقادير ضئيلة، وعلى ذلك يتراكم في جسمه ويسممه، فيموت فجأة إذا بذل أقل مجهود عضلي؟
3 - هل المريض يفرز الدواء بمقادير عادية، وعلى ذلك يشفى؟ والأكثرية من المرضى من هذا القبيل
وقد أثبت ذلك الاكتشاف أن تقدير الجرعات في علاج البلهارسيا بمركبات الأنتيمون ومنها الفؤادين كان أساسه خاطئاً إذ أن الجرعة كانت تقدر حسب السن أو وزن الجسم من غير مراعاة لتفاوت الأشخاص في سرعة إفراز الدواء ومقدار هذا الإفراز. وليس مجهولاً أن
القيمة الشفائية الفعلية لمثل هذه العقاقير لا تتوقف على مقدار ما يدخل الجسم منها فقط، بل تتوقف أيضاً على ما يمكث منها فيه؛ ومن الطبيعي أنه إذا تفاوت الأشخاص في إفراز هذه العقاقير اختلف تأثيرها تبعاً لذلك، وهذا ما أثبته الدكتور خليل بك بتجارب كيميائية أجريت أمام الجمعية الطبية المصرية
ويتلخص الكشف الذي اهتدى إليه الدكتور لتعيين نسبة الإفراز في كل جسم في أخذ تفسرة من بول المريض قبل الحقن لتعرف هل يحتوي البول على مادة مماثلة للمادة التي سيحقن بها أولا؛ ثم يحقن المريض وتؤخذ تفسرة أخرى من بوله بعد نصف ساعة تقدر بخمسة سنتيمترات، ويضاف إليها مثلها من محلول كيميائي مركب من كلور الحديد يضاف إليه نشادر قوي مطهر. فإذا كان في البول إفراز من المادة المحقون بها احمر لونه، وإذا لم يكن هناك إفراز ظل اللون على حاله الطبيعية، ثم تؤخذ تفسرة أخرى بعد ثلاث ساعات وتكرر معها التجربة ذاتها

منْ هنا ومنْ هناك

من العلم إلى الأدب

كثير من العلماء هجروا العلم إلى الأدب ولم يستطيعوا الجمع بينهما كما فعل ابن سينا مثلاً حين جمع الأدب إلى الطب والحكمة أو كما فعل الكندي والبيروني والعصور الحديثة ملأى بأمثلة ذلك
فذلك إبسن الكاتب النرويجي العظيم (1828 - 1906) وواضع الدعامة الأولى للأدب المسرحي الحديث قد نشأ ليكون أول أمره كيميائياً، ولكنه وجد هواه في كتابة

الدرامة، فصبأ من الكيمياء إلى الأدب. . . وفرغ له وبرع فيه
وجوته أيضاً كاد يكون عالماً يبحث في الألوان ويضع الأصول للرسم والنحت ويؤلف
في الأزهار وفلاحة البساتين، فلما تفتح قلبه للحب قذفت به حبيباته الثماني عشرة
إلى الأدب فنبغ فيه نبوغاً يكفي لوصفه أن يقول فيه كارليل (إنه أعظم أدباء العالم)
ولم يستثن حتى شاكسبير - وهذه مبالغة لا شك من صاحب كتاب الأبطال
والكاتب الإنجليزي الكبير هـ. ج. ولز هو الآخر، فلقد تعلم الكيمياء في صغره، ثم هجر
المدرسة ليكون تاجراً، ولكنه أحس ميلاً ملحاً إلى التعليم، فصارع ظروف الدهر
وتصاريفه وانتسب إلى جامعة لندن وكد وكدح حتى نال درجة في العلوم وعين بالفعل
أستاذا لعلم الحياة (بيولوجيا) ولبث في منصبه لمدة ثلاث سنوات، ثم شعر بشغف
شديد إلى الصحافة، فاعتزل منصبه واحترفها، ثم أيقن أن الله خلقه ليكون أديباً فهجر
الصحافة واحترف الأدب، فها هو اليوم أكبر كاتب اجتماعي في العالم وكتبه تطبع
بالملايين!!
وكذلك الكاتب الأرلندي المعروف جورج مور، فانه كرس حياته في فجر شبابه ليكون
فناناً، وفتنه الرسم والتصوير، ونال فيهما أعلى الدرجات من جامعات لندن وباريس،
ولكنه بعد ذلك كله شعر بسحر الأدب ينفث في قلبه، وذلك بتأثير إدمانه قراءة الأديب
الفرنسي العظيم أميل زولا فشرع يكتب قصصه الخالدة التي ينهج فيها نهج أستاذه
جوركي وروسيا السوفيتية
اشتهر مكسيم جوركي في جميع أنحاء العالم بأنه أديب الصعاليك، وذلك لأنه يجيد
الكتابة عن هذه الفئة إجادة لا يجاريه فيها أحد من الأدباء. وفي الحق أن جوركي يكتب
عن الخدم
وأوشاب الناس وأبناء الشوارع كأنه واحد منهم، حيَ حياتهم وتخلق بأخلاقهم. وكان
الأدب معواناً له على التغلغل في خبايا نفوسهم، فهو يصف لك خلجات العرابيد وقطاع
الطرق والقتلة ومن إليهم، فتحس من وصفه أنك تجالسهم وتنغمس فيهم! وكل ذلك
بأسلوب أخاذ وعبارة رشيقة، تذكر القارئ بمواطنه البائس دستوئفسكي
وقد كانت الحرب الكبرى وبالاً على جوركي، فلقد ذاق طوالها من ضروب الفاقة
والعوز ما كان تصديقاً من الزمان الصارم على ما جاء في كتبه من وصف البؤس وذكر
البائسين! ولما وضعت الحرب أوزارها، وقام في روسيا هذا النظام البلشفي العنيف
اشتد الفتك بالناس هناك، وذاق الأهلون - ولا سيما الأدباء - ألواناً من الفاقة والعوز
تنفطر من هولها القلوب! وذهب أديب إنجلترا الكبير هـ. ج. ولز ليجول جولة في هذه
البلاد التاعسة، وحل ضيفاً على صديقه جوركي!!
وكانت حكومة الاتحاد السوفيتي قد أعدت له قصراً من أفخم قصورها لينزل فيه. . .
ولكنه آثر القرب من جوركي إعزازاً للصداقة وإيثاراً للأخاء. . . فلما ذهب إلى منزله
راعه هذا البؤس الذي خيم في منزل أكبر أدباء العالم، وهالة العوز الشديد الذي كان
يعانيه صديقه. . . فما كان منه إلا أن تولى هو النفقة على المنزل طيلة وجوده فيه!
وكان جوركي يلبس أسمالاً لفتت أنظار ولز، فباسطه وسأله إن كان لديه ملابس؟
فتبسم جوركي وذكر أنه لا يملك غير البدلة الممزقة التي يرى! وكان معهما الكاتب
الروسي الكبير (أمفيتياتروف) فانتهز هذه الفرصة السانحة وسأل ولز أن ينزل له عن
(طقم) من ملابسه حين يعتزم العودة إلى إنجلترا! وقد فعل ولز، فانه أهدى أكثر
ملابسه الخارجية إلى جوركي، وأكثر ملابسه الداخلية إلى (أمفيتياتروف)! ولم يفت
ولز أن يذكر هذه الوقائع في كتابه عن هذه الرحلة:
ولقد شب جوركي مع البؤس في مهد واحد، فلقد ولد سنة 1868، ثم مات أبوه وهو
يحبو على أربع، وكفلته أمه الفلاحة القروية، وعمل خادماً على ظهر سفينة من تلك
السفن التي تمخر عباب الفلجا، ثم صار خبازاً فحمالاً فبائع تفاح! وبسم له الحظ
فالتحق بوظيفة كتابية في مكتب محام. . . وبرم بالعمل ثمة فهرب إلى جنوب روسيا
يذرع الرحب ويطوي الفيافي. . . ثم ظهرت مواهبه فجأة سنة 1892 حين شرع يكتب
أول قصصه ويبعث بها
إلى المجلات
والعلاقة أكيدة موثقة بين الأدب الروسي والنظام البلشفي، وهو يكاد يكون في صميمه
أدب الفقراء. . . ومن هنا اعتزاز حكومة السوفييت بجوركي وغمرها إياه بالهبات

والأعطيات حتى لقد كادت حياة الترف تتخمه عن أعز ما هيأته له الحياة ألا وهو أدب الصعاليك!

والمدهش أن يرضى جوركي عن الطاغية ستالين، ويؤلف القصص تحبيذا لسياسته التي هي سياسة تخريب العالم. . . وهذا ما أفقده عطف أعضاء لجنة نوبل، فلم يحظ بجائزتها إلى الآن، مع أنه أحق بها ألف مرة من كثيرين من نكرات الأدباء والأديبات الذين نالوها

وسنفرد قصص جوركي بكلمة خاصة

أدب التراجم

من المؤلم جداً أن يكون التاريخ العربي مليئاً بهذا العدد الوافر من الفلاسفة والعلماء والأدباء ولا تروج كتب التراجم عنهم بيننا، أو لا نجد من أدبائنا من يترجم لواحد منهم مع أن أحدهم جدير بأكثر من كتاب يؤلف عنه

اقرأ هذه الأسماء: الكندي. ابن سينا. ابن رشد. البيروني. ابن منظور. القلقشندي. الأصمعي. ابن أبي أصيبعة. الجاحظ. النويري. . . . . الخ. أفنحن قوم يقدرون تراثهم؟

نحن لا ننكر أن غير واحد من أدبائنا طرق هذا الميدان البكر، ولكننا إذا استثنينا أبا العلاء والغزالي وبن خلدون ورسالات مقتضبة عن الكندي والبهاء زهير والليث بن سعد وجدنا أننا فقراء جداً إلى كتب التراجم

اللغة العربية منذ مائة عام

لما أنشأ المغفور له محمد علي الكبير دار صناعة الإسكندرية لصنع السفن الحربية لم يمض غير قليل حتى صار لمصر أسطول عظيم مرهوب الجانب. وكانت كلما أنزلت إحدى القطع من دار الصناعة إلى البحر أقيمت الحفلات وتبودلت الخطب على نحو ما يجري هذه الأيام في الممالك العظيمة مما نشاهد صوراً منه على الشاشة الفضية في دور السينما. والآن اسمع هذه الكلمات في وصف البارجة (الإسكندرية) عند نزولها إلى البحر: (الوقائع المصرية عدد 340 يناير سنة 1832)

ان الغليون ذا الهيئة السنية، المجلي باسم الاسكندرية، تعريف انشاء آلاته البهية،) وعمل أدواته الحربية، ووصف أبعاده الثلاثية، قد تقدم ذكره الشائع، واندرج في سلك السطور والوقائع. والمراد ذكره الآن قطع حبال تعلقاته من القطر البري، ليطير بأجنحة العنقاء في القطر البحري، وقد وافق هذا غرة شعبان المعظم في الساعة الرابعة من النهار، حيث تجلت مشاهد الأنوار. وكان ذلك بحضرة جميع الأمراء والعظماء، وزمرة الصلحاء والعلماء، وقناصل الدول المستأمنين، وقاطبة الأهلين، مع جملة أولادهم الكبار، وعيالهم الصغار، وكانوا لدى ساحة الترسانة الواسعة الأرجاء، منتشرين كنجوم السماء. وأما سعادة أفندينا ولي النعم فانه ركب الفلك بحرا، وهلم جرا، واستصحب بمعيته أحد رجال الدولة العلية. . . . . .)

ومسكينة اللغة العربية في (هلم جرا) التي حشرت هنا حشرا!

والآن، ما رأى الأستاذ الزيات في الطفرة التي طفرتها اللغة العربية في العشرين سنة الأخيرة؟ ألسنا قد شأونا عصر ابن المقفع وأحمد بن يوسف والهمذاني وعبد الحميد الكاتب؟

صمويل بطلر والأسرة الإنجليزية

كانت الأسرة الإنجليزية من قبل العصر الفكتوري إلى أواخر القرن التاسع تشتهر بجمودها وركودها وتقديسها لسلطة الأب تقديساً هو إلى الرجعية أقرب منه إلى الاحترام. فلم تكن لأحد في المنزل إرادة بجانب إرادته، وكانت الأم نفسها خادمة لا أكثر. . . تكدح طول يومها في المطبخ أو المغسل، أو تعد الحطب للمدفأ، وهي في كل ذلك لا تألو جهدا في تلقين الأطفال محبة الوالد، وكبت غرائزهم الثورية كلما بدرت منهم بوادر التململ أو التبرم بهذا التقديس الخانق لسلطة الأب. . . وكان أكبر العبء واقعاً على الفتاة. . فلم يكن يسمح لها بتعرف الحياة ولا تشمم نسيم الحرية المنعشة، وإذا تقدم أحد لخطبتها فما عليها إلا أن تنحني خاضعة لمشيئته

ولقد كان الأدب في العصر الفكتوري، برغم ما فيه من صور حلوة وطرف براقة يساعد على هذا الركود المنزلي، ويضاعف من سلطة الأب؛ ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان، فقد ظهر الكاتب النرويجي إبسن فجأة في الميدان؛ وإبسن هو أكبر نصير

للمرأة في العصر الحديث؛ فقد ألف أكثر من عشرين درامة لنصرتها والإكبار من وظائفها المدنية التي تعدو
الطبخ والغسل والخياطة وتفريخ الأطفال. وقد تأثر الأدباء الإنجليز بإبسن النرويجي وأخذوا ينتهجون منهاجه. وكان الأديبان الكبيران جورج جسنج وصمويل بطلر في مقدمة المتأثرين به. فقد ألف الأول كتابه سنة 1891 وألف الثاني سنة 1903 على ضوء إبسن
وصمويل بطلر هو أستاذ الكاتب الكبير جورج برنردشو. وما يزال شو يفخر بهذه التلمذة إلى اليوم، بل ما يزال يتغنى بمبادئ أستاذه العظيم ويرددها في جميع قصصه. وأهم هذه المبادئ الثورة الصارمة على جمود الأسرة ومنح أعضائها - غير الأب - كل حرية العمل في الحياة؛ فللفتاة أن تتزوج بمن تحب وليس لأبيها أن يحول بينها وبين مثلها العليا، فإذا شاء أن يقسرها على شيء فلها أن تثور عليه وتضرب بإرادته عرض الأفق؛ وللولد كذلك أن يستقل بنفسه عن أبيه، ويعمل وحده، ويقوي شخصيته. وعلى العموم كان يرى وجوب التحلل من مبادئ الطهريين وإطلاق الحرية للفرد. وغلا بطلر في ثورته على الآباء فسب أباه وهجاه فأقذع، وكأنه بذلك أفسح الطريق للشبان فقلبوا الأسرة في إنجلترا رأساً على عقب!
ومع أن نظرية التطور التي بهرت العالم أجمع كانت في عنفوانها في القرن التاسع عشر فقد وقف بطلر في صف المعارضين لها؛ ولكنه لم يقف في صف المتدينين دفاعاً عن الدين، بل وقف يدفع إيمان داروين بهذه المادية البحتة التي يرد إليها كل ما يحدث في هذا العالم من خلق ورقي. وكان يغيظ بطلر ما كان يقول به داروين من تنازع البقاء وبقاء القوى المحتال، فكان بطلر نصيراً للروحيين من العلماء وفي مقدمتهم العالم الفرنسي الكبير هنري برغسون ألد أعداء داروين
صيفية الفلاح
أوشك العام المدرسي أن ينتهي، وسيتبطل التلاميذ أربعة أشهر حتى يعودوا إلى مدارسهم، فلو أنصفوا لصرفوها في تعليم الفلاحين مبادئ القراءة والكتابة. إن في مصر شعباً من الأميين لا يقل عن 85 % من مجموع سكانها، وليس في الدنيا عار أشد من الأمية في هذا العصر الذي نعيش فيه. فلو أن كل تلميذ مصري أخذ على عاتقه أن يعلم فلاحاً مصرياً أو فلاحين في الإجازة الصيفية القادمة لانخفضت نسبة الأمية في وطننا العزيز إلى 80 أو
ونكون قد اقتدينا بالهند التي تحاول أن تصلح من شأن المنبوذين وتنتفع % 75 بالبقرة!! فهل يفعل التلاميذ؟
د. خ
الكتب
شهرزاد في اللغة الفرنسية
للأستاذ عبد الرحمن صدقي
نوهت (الرسالة) في عددها الماضي بصدور ترجمة فرنسية لرواية شهرزاد للأستاذ توفيق الحكيم. وهذه شهادة ناصعة على مبلغ ازدهار حركة التجديد في مصر وعلى المستقبل المنتظر للأدب المصري بين آداب الأمم
ولما كانت الترجمة مصدرة بكلمة ليست على طراز المقدمات المألوفة بل هي من قلم عضو المجمع الفرنسي المسيو جورج ليكونت تناول فيها الرواية بالتعقيب فأحسن جلاء فكرتها. فانه ليسرنا أن ننشر تعريب هذه المقدمة فيما يلي:
(شهرزاد! لا يتطلبن القارئ تحت هذا الاسم الحالم تلك المناظر المألوفة المعهودة في ألف ليلة وليلة، ولا أبهة الشرق كما أصطلح عليه العرف
طريق قفر. منزل منفرد في جنح الظلام. خيال مخدع الملكة مترائياً في حوض من المرمر. رمال الصحراء. وفي وسط هذه الرسوم الرصينة عن تعمد وقصد تتجلى المأساة الخالدة: مأساة النفس الإنسانية في كل زمان ومكان
هنا شهرزاد، مجردة من بريق عقودها ومن أبرادها المذهبة تتبدا لنا في جوهرها وكنه ذاتها. وما شأن اسمها وسماتها؟ فلتكن لها طلعة امرأة أو طلعة الحظ أو العلم أو المجد، فما هي بعد إلا الذروة اللامعة التي يتطلع إليها طماح الإنسان ويستنفد جهده نحوها؛ هي سراب بقيعة يهيج ظمأه ولا ينقع له غلة؛ هي الملتقى المحتوم يتوافى عنده

أبداً تلهف الرجاء وخيبة الأمل على لقاء موجع ووفاء فاجع
بهذا يهتف شهريار. لم يفثأ غليله (لقد استمتعت بكل شيء، وزهدت في كل شيء) ولم تطب نفسه بما سفكه من دم العذارى والعبيد، وما ذاقه من سحر ألف ليلة وليلة من ليالي الحب والفتنة قضاها بين ذراعي شهرزاد. لقد استنزف كل شيء من حيث المتعة. والذي يضني نفسه الآن إنما هو ظمأ جديد: (إني براء من الآدمية. لا أريد أن أشعر. أريد أن أعرف)
ومنذ هذه الساعة تطمّ المأساة ويعبّ عبابها، وتنحصر وتستحكم حلقاتها، إلى أن يصبح شهريار وشهرزاد وجهاً لوجه لا يمثلان غير الصراع المحتدم بين لهفة الإنسان وسر الأشياء المطويّ دونه
يسألها شهريار: (من أنت؟ هل تحسبينني أطيق طويلاً هذا الحجاب المسدل بيني وبينك؟)
فتغمغم شهرزاد كالمخاطبة نفسها بهذه الكلمات الخافية المشرقة: (وهل تحسبك - أيها الطفل - لو زال هذا الحجاب تطيق عشرتي لحظة؟)
وليس أصدق من قولها هذا. فان موضع العظمة في قلق الإنسان أنه قلق عضال لا دواء له؛ فضلاً عن أنه قد يكون ضرورياً للإنسان باعتباره مدعاة لاستمراره في البحث والطلب، وعلة لهذه الغريزة التي تحفز كل جيل - بالرغم من هزائمه - على أن يعهد للجيل اللاحق شعاره وهو الأمل
ولقد كان لا بد من شاعر ليقدم في هذا الحيز المحدود على إجمال لإحدى المأساتين العظيمتين للإنسانية؛ ولكنه كان لا بد من شاعر شرقي رقيق الحاشية دقيق الحس كالأستاذ توفيق الحكيم ليعالج صعوبة العمل بهذا الافتنان في التعابير المتراصفة النظم البارعة الوشى
ولا يسعنا أيضاً إلا الثناء الجميل على الأستاذين خضري وموريك بران؛ وكيف لا، وهما قد ترجما إلى اللغة الفرنسية المطبوعة على الوضوح والتعقل عن لغة أخرى جعلت قبل كل شيء للتعبير عن العطور والأشعار والأسرار

عبد الرحمن صدقي

في مدى استعمال حقوق الزوجية وما تتقيد به في الشريعة الإسلامية والقانون المصري الحديث

تأليف الدكتور السعيد مصطفى السعيد

للأستاذ عبد المعتال الصعيدي

أهدى إلي صديقي الدكتور السعيد مصطفى السعيد وكيل النائب العمومي بنيابة الاستئناف كتابه القيم (في مدى استعمال حقوق الزوجية وما تتقيد به في الشريعة الإسلامية والقانون المصري الحديث) وهو رسالته التي نال بها عن جدارة إجازة الدكتوراه في القانون. وقد اقتضت هذه الرسالة منه أن يراجع في موضوعها كتب الفقه في مذاهب أهل السنة، وأهل الظاهر والشيعة، وكتب الأصول والتفسير وغيرها مما يتصل بموضوع رسالته، إلى مراجع أخرى باللغتين الفرنسية والإنجليزية
وهكذا دفع الدكتور السعيد بفكره المثقف بثقافته العصرية في متوننا الأزهرية وشروحها وحواشيها فخرج منها بتلك الدرة الغالية التي جمعت بين نبل القديم وجمال الحديث، في حسن اجتهاد، ودقة نظر، واستيعاب بحث، وتقليب للمسألة على كل وجوهها حتى يقتلها بحثاً من جميع نواحيها الشرعية والقانونية، وهذا إلى استيفاء ما يحب في حسن التأليف من انسجام العبارة ومتانة الأسلوب، وسلامة اللفظ، وحسن الترتيب والتقسيم
وإنها لقوة ذكاء عجيبة يكفي في تقديرها شهادة أستاذ الجليل الشيخ احمد إبراهيم وكيل كلية الحقوق فيما قدم به لرسالته، إذ يقول في ذلك: (وما أشد ما كان موفقاً لفهم نصوص الفقهاء في كتب جميع المذاهب المختلفة المطولة مع غرابة تعبيراتها عن أمثاله لعدم إلفه إياها)
ولم يتقيد المؤلف في رسالته بمذهب معين من المذاهب المتعددة في الشريعة الإسلامية، بل بحث موضوعه في المذاهب المختلفة بقدر ما وسعه جهده، على اعتبار أن هذه المذاهب وإن اختلف بعضها عن بعض في شيء من التفاصيل فأساسها واحد، وغايتها متفقة. وقد كان جهده في ذلك غاية الجهد، وما أظن أحداً يتصدى لموضوعه

فيأتي بأوفى مما أتى به فيه، وإني لا أكاد أملك نفسي من السرور حين أجده تنتهي به دراسته لموضوعه إلى هذه الغاية التي لو عمل في سبيلها نظراؤه في كلية الحقوق لكان قضاء مستقل وقانون خاص

بنا نباهي به غيرنا من الشعوب. ولندع المؤلف يحدثنا عن هذه الغاية التي وصل إليها في دراسته، قال: (وقد تبين لنا أن تقييد الحقوق الفردية في الشريعة الإسلامية كان أوسع مجالا وأبلغ أثراً مما يحاول الفقه الحديث بنظرية سوء استعمال الحق، وإن هذه النظرية الناشئة لم تبلغ ما بلغته مثيلتها في الفقه الإسلامي منذ مئات السنين؛ وهذا طبيعي، فان النظرية التي تقرب أحكام القانون لقواعد الأخلاق - وكثيراً ما عمل فقهاء القانون الحديث على الفصل بينهما - يتسع لها المجال في تشريع أساسه الدين، وهو يأمر بالعمل والإحسان وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي)

ثم قال: (ويجدر بنا أن نختم بحثنا بالإشارة إلى أننا أغنياء بفقهنا عن أن نستعين بغيره من مستحدثات القوانين. وإن الشريعة الإسلامية التي وسعت العالم الإسلامي في أزهى عصوره وقضت حاجة بلادنا من التشريع مئات السنين، لا تقصر عن أن تكون أصلح مصدر للمشروع يأخذ منه أحكام قانون مدني موحد)

وليعذرني القراء بعد هذا إذا أنا سلكت في كتابتي عن هذه الرسالة سبيل التقريظ، فان مؤلفها على ما بلغ فيها من البسط لم يدع فيها مجالاً للانتقاد ولا محلاً للمؤاخذة، اللهم إلا ما ذكره في صفحة - 146 - من انتقاد تفسير الأستاذ الإمام لقوله تعالى (فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة؛ ذلك أدنى ألا تعولوا) أي أقرب من عدم الجور والظلم، وقد جعل البعد من الجور سبباً في هذا التشريع، فانتقده المؤلف بأن تأويل آية التعدد يؤدي إلى اعتبار التعدد مباحا في الأصل، ويكون البعد من الجور قيداً لهذا الحق الأصيل، والقيد لا يكون سبباً في تشريع الحق الذي يتقيد به، فانه يمكن أن يحمل كلام الأستاذ الإمام على تشريع الاقتصار على واحدة عند خوف الجور، لا على تشريع التعدد الذي اعتبر البعد من الجور قيداً له

هذا وقد استفدت من قراءة هذه الرسالة أمراً أحب أن أنبه إخواننا الأزهريين إليه ليأخذوا له عدته، فقد رأيت بعد قراءة هذه الرسالة أنا سائرون إلى فتح باب الاجتهاد بخطى سريعة، وأن الأستاذ الجليل الشيخ أحمد إبراهيم إذا ظفر بعدد من التلاميذ النبهاء مثل ما ظفر بتلميذة النابه المجتهد صاحب هذه الرسالة، فانه سيسبقنا بتلاميذه إلى فتح هذا الباب المغلق. ولا يدري إلا الله ماذا يكون إذا تم فتح هذا الباب على يد غيرنا، فلنفكر ولنتدبر.

عبد المتعال الصعيدي

العدد 153 - بتاريخ: 08 - 06 - 1936

في النقد

إلى صديقي أحمد أمين

للدكتور طه حسين بك

أخي العزيز:

قرأت فصلك الأخير الذي تناولت فيه النقد فصورت ما رأيت من ضعفه، والتمست له العلل والأسباب. وما أكثر ما يمكن أن يتصل بيني وبينك من الجدل لو أنني وقفت عند هذه القضايا التي أرسلتها إرسالاً، وحكمت بها على النقد قبل عشرين سنة، وعلى الأدب الآن! ولكن الفصل فصل صيف، لا يسمح بالجدل الطويل والحوار المتصل، لأننا مشغولون عن هذا وذاك بما تعلم من أعمالنا اليومية الثقيلة التي يقتضيها آخر النشاط الدراسي وأول هذه الأيام التي يفرغ فيها كل منا لنفسه ودرسه وراحته وراحة من يتصلون به، فلن أجادلك في أكثر هذه القضايا التي لا أكاد أقبل رأيك فيها. ولو أني أرسلت نفسي على سجيتها لما جادلتك في شيء مما ألممت به في هذا الفصل، ولقرأته كما أقرأ كثيراً مما تكتب مستمعاً دائماً، عارفاً أحياناً، ومنكراً أحياناً، ومتحدثاً إليك بما أعرف من آرائك وما أنكر

نعم لو أني أرسلت نفسي على سجيتها لاكتفيت بما كان بينك وبيني من حديث أول أمس، ولكني مدفوع هذه المرة إلى أن أتجاوز السجية، وأخرج عن العادةالمألوفة، وأرد بعض الأمر إلى نصابه، لأنك تجاوزت فيه ما ينبغي من الأنصاف. وأنا أبرأ إليك من الغرور وأربأ بك عن الجور، وما أشك في أن أمثالي من الكتاب الذين عرضت بهم أو

عرضت لهم في فصلك القيم يبرؤون إليك مثلي من الغرور ويربأون بك مثلي عن الجور، ويرون مثلي أنك عرضت لقضية النقد ولقضيتهم هم في النقد عرضاً سريعاً، حظ اللباقة فيه أعظم من حظ التثبت والتدبر والأناة

وأظنك قد عرفت الآن القضية التي أريد أن أجادلك فيها، والمذهب التي أود لو أصرفك عنه. فأنت ترى، أن جماعة النقاد الذين كانت إليهم قيادة الرأي الأدبي، أو قيادة الحياة العقلية منذ حين، قد اصطنعوا الشجاعة أول أمرهم، وآثروا الصراحة أو كانت الصراحة لهم خلقا، فكتبوا كما كانوا يرون، وأخذوا بحظوظهم الطبيعة من الحرية؛ لم يحفلوا بالجمهور، ولم يخافوا الرأي العام، ولم يحسبوا لمقاومة المحافظين حساباً. ونشأ عن شجاعتهم تلك، وعن صراحتهم هذه، أن بعثوا في الحياة العقلية نشاطاً لم تألفه مصر، فكان الصراع العنيف بين القديم والجديد، وكان الخصام الشديد بين الحرية والرجعية، وألفت الكتب ونشرت المقالات وأذيعت الفصول، وأنتفع الأدب بهذا كله واستفاد النقد.

وكل هذا صحيح عندي ولاشك فيه، ولكنك ترى بعد ذلك أن هؤلاء الكتاب قد أوذوا في مناصبهم وفي أنفسهم وفي سمعتهم وفي أرزاقهم، فلم يثبتوا للأذى، ولم يمضوا في المقاومة، ولم يعنهم اتباعهم وأولياؤهم على الثبات، وإنما عطفوا عليهم عطفاً أفلاطونياً لا يشبه ما يجده أمثالهم في أوربا من الأتباع والأولياء، فلانوا ودانوا وجاروا وداروا، وآثروا العافية ومضوا مع الجمهور إلى حيث أراد الجمهور، ونشأ الجيل الجديد فاقتدى بأخوته الكبار وسار سيرتهم، وأصبح النقد مصانعة ومتابعة وأصبح الأدب تملقا وتقليدا.

وهذا أيها الأخ العزيز هو الذي أخالفك فيه أشد الخلاف، وأنكره عليك أعظم الإنكار، يدفعني إلى ذلك أمران: أحدهما أن رأيك بعيد كل البعد عن أن يصور الحق؛ والثاني أن رأيك يمسني، وأؤكد لك أنه يحفظني كل الاحفاظ ويؤذيني كل الإيذاء؛ ولعله يحفظني ويؤذيني أكثر مما احفظني وآذاني كل ما لقيت من ألوان المشقة والإعنات. فهل من الحق أن هؤلاء الكتاب الذين تشير إليهم قد أدركهم الضعف والوهن، فمالأوا الجمهور، وصانعوا السلطان وآثروا العافية في أنفسهم وأموالهم ومناصبهم؟ ومتى كان هذا؟ أحين عصفت العواصف بمصر فأفسدت أمرها السياسي والعقلي وألغت نظامها الحر إلغاء، وفرضت عليها نظاماً أخر مصنوعاً ألغيت فيه كرامة الأفراد والجماعات وتجاوز العبث فيه بالحرية كل حد معقول؟ تعال أيها الأخ العزيز نبحث معاً عن هؤلاء الكتاب أين كانوا في ذلك الوقت؟ وماذا صنعوا؟ وإلى أي حد جاروا وداروا وآثروا العافية؟

لست في حاجة إلى أن أسميهم، فأنت تعرفهم كما يعرفهم الناس جميعاً. لم يكن لأكثرهم منصب في الدولة؛ ولعلي كنت من بينهم الوحيد الذي كان يشغل منصباً من المناصب، فلما عصفت العاصفة أقصيت عن هذا المنصب فأدركت الزملاء ووقفت معهم حيث كانوا يقفون، ومضينا جميعاً إلى حيث كان يجب أن نمضي، واحتملنا جميعاً ما كان ينبغي أن نحتمل من الأثقال. فكنا أيها الأخ العزيز ألسنة الساسة وسيوف القادة، والسفراء بينهم وبين الشعب. وكنا سياطاً في أيدي الشعب يمزق بها جلود الظالمين تمزيقاً. وكنت ترى وكان غيرك يرى آثارنا في الظلم والظالمين، وبلاءنا في مقاومة العدوان والمعتدين، وحفاظنا لهذا الشعب الذي لم يكن له قوة إلا قوتنا يومئذ. وكنتم تعجبون منا بذلك وتحمدونه لنا وتؤيدوننا فيه. وكنتم تقومون على الشاطئ وتروننا ونحن نغالب الأمواج ونقاوم العواصف نظهر عليها حيناً وتظهر علينا أحياناً، فكان بعض الناس يصفق لنا إذا خلا إلى نفسه لا إذا رآه الناس، ويعطف علينا إذا لم يحس السلطان منه هذا العطف. ولست أزعم أني قد استأت بهذا الفضل، فقد كان نصيبي منه أقل من نصيب كثير من الزملاء. لم أدخل السجن وقد دخله منهم من دخله. أترى أن مواقفنا تلك كانت مواقف المنهزمين؟ أترى أنا شغلنا عن النقد الأدبي بأنفسنا وأموالنا وإيثار للعافية ومجاراتنا للسلطان؟ أم ترى أنا شغلنا عن النقد الأدبي بالدفاع عن قوم لم يكونوا يدافعون عن أنفسهم لأنهم لم يحسنوا هذا الدفاع أو لم يقدروا عليه أو لم يريدوا أن يتورطوا فيه؟ أليس أول ما يجب على المؤرخ الأدبي وعلى المؤرخ بوجه عام أن يكون منصفاً؟ أترى من الأنصاف أن تزعم أن الذين حفظوا للشعب المصري مظهر مقاومته للظلم وأدوا إليه رسالة ساسته وقادته، وأدوا إلى ساسته وقادته ما كان يضطرب في نفسه من الآمال والأماني، وما كان يثور في قلبه من العواطف، كانوا منهزمين يدارون ويجارون

ويؤثرون العافية؟
مهلاً أيها الصديق فقد يفهم من الشعوب قصر الذاكرة، ولكنه لا يفهم من خاصة الناس وقادة الرأي وحفظة التأريخ. والغريب أن رأيك هذا في إخوانك الكتاب يظهر أنه قد أعجبك حتى ألهاك عن حقائق ما كان ينبغي أن تلهو عنها. فهؤلاء الكتاب المنهزمون في رأيك لم تشغلهم هذه السياسة العنيفة المنكرة عن الأدب ولا عن النقد؛ وإنك لتعلم أنهم جميعاً كانوا يخاصمون في السياسة وجه النهار ثم يفرغون لأدبهم آخره؛ وكلهم قد أنتج في الأدب أثناء المحنة، وفي الأدب الخالص الذي لا يتصل بالسياسة ولا يمت إليها بسبب؛ ومنهم من اتخذ السجن وسيلة إلى هذا الإنتاج؛ ومنهم من لم تصرفه ظلمة الحياة العامة وشدة الحياة الخاصة عن أن يجول في عالم الفن جولات ثم يعود منه ومعه زهرات في الشعر أو في النثر يهديها إليكم لتلهوا بها وتستمعوا بشذاها، وتستعينوا بذلك على المضي في أعمالكم الهادئة المطمئنة.
مهلاً أيها الصديق فقد يخيل إلي أن هؤلاء الكتاب أنفسهم لم يهملوا النقد نفسه في ذلك الوقت ولم يقصروا في العناية به؛ وإذا لم تكذبني الذاكرة فأنهم قد نقدوك أنت وتناولوا كتبك بما ينبغي لها من العناية والدرس؛ وإذا لم تكذبني الذاكرة فقد كانوا يفرضون على أنفسهم برغم السياسة وأثقالها وأهوالها، وبرغم الحياة الشاقة التي كانوا يحيونها، والتي عرفت منها شيئاً وغابت عنك منها أشياء؛ كانوا يفرضون على أنفسهم أن يقرءوا ما يظهر من الكتب والدواوين وأن يقولوا رأيهم فيه؛ كانوا يفرضون على أنفسهم صفحة أدبية في الأسبوع يفرغون لها اليوم أو أكثر من اليوم، ويعرضون فيها للنقد كما تحبه وترضاه، ولست أدري كيف نسيت أن المقالات التي كانوا يذيعونها في النقد أثناء هذه الأعوام الأخيرة، قد كانت تثير من الخصومات شيئاً كثيراً، منه ما يثور بينهم هم، ومنه ما يثور بينهم وبين الأدباء الناشئين. ولعلك لم تنس بعد أن خصومة ثارت بيني وبين هيكل حول ثورة الأدب، وأخرى بيني وبين العقاد حول اللاتينية والسكسونية، وثالثة بيني وبين العقاد حول ديوان من دواوينه. فأنت ترى أن إخوانك لم يقصروا ولم يفتروا، ولم يسالم بعضهم بعضا. ولم يأمن بعضهم شر بعض. ولعلك لم تنس أني قد اتخذت الراديو في بعض الأحيان وسيلة من وسائل النقد، فكنت اشتد حيناً على الكتاب الذين استمرت مريرتهم وتم لهم النضج، وأرق حيناً آخر للكتاب الذين لم تستقم لهم الأمور بعد؛ وأنا أفهم أن تطالبنا بالمزيد وألا تكتفي منا بما نعطي، فنحن نطالب أنفسنا بالمزيد ولا نكتفي من أنفسنا بما ننتج، ولكن هذا شيء ووصفنا بالمداراة والمجاراة وإيثار العافية شيء آخر.
وبعد فليس السبيل على الذين أدوا واجبهم الأدبي كما استطاعوا ومازالوا يؤدونه كما يستطيعون برغم ما يملأ حياتهم من الهموم وما يعترض طريقهم من الشوك، وإنما السبيل على الذين يتاح لهم الهدوء ويستمتعون بالبال الرخي والحياة المستقيمة المطمئنة ثم لا ينقدون لأنهم لا يقرءون، أو لا ينقدون لأنهم يقرءون ويشفقون إن أعلنوا آرائهم أن يتنكر لهم الناس وأن يسلقهم أصحاب الكتب بألسنة حداد.
إلى هؤلاء أيها الصديق تستطيع أن تسوق الحديث، وعلى هؤلاء أيها الصديق تستطيع أن تصب اللوم صباً.
وأخرى لا أريد أن أختم هذا الفصل قبل أن ألم بها إلماماً. فأنت تذكر قوماً قد استووا على
عروش الأدب وقد أمن بعضهم بعضاً وخافهم الناشئون، فأنت إذن تعيد الخصومة بين من يسمون الشيوخ ومن يسمون الشباب جذعه. وأظنك توافقني على أن التفكير في هذه الخصومة لا يخلو من بعض الحزن. فقوام هذه الخصومة فيما أعلم أن الأدباء الناشئين ضعاف أَثِرُون عجلون، يخيل اليهم أن النقد يمحوهم من سجل الأدباء محواً، مع أن النقد يثبتهم فيه إثباتاً. يريدون أن يبلغوا بالجهد اليسير ما بلغه أسلافهم بالمطاولة والمحاولة واحتمال الأذى وكثرة القراءة والدرس، ويريدون أن يتم لهم ذلك ما بين طرفة عين وانتباهتها كما يقول القائل؛ وفيهم كبرياء لا تخلو من سخف، ومن سخف يذكر بأخلاق الأطفال؛ فهم إن كتبوا رأوا لأنفسهم العصمة، ولم ينتظروا من النقاد إلا ثناء وحمداً. فأن أدركهم بعض النقاد قالوا: حسد وتكبر واضطهاد وأثرة وتثبيط للهمم. وفيهم غرور يخيل إلى كل واحد منهم أنه ممتاز من أترابه جميعاً. ومهما أنس فلم أنسى كاتباً أضاع مودة وصداقة حباً وعطفاً لا لشيء إلا لأني جمعت بينه وبين

كاتب من معاصريه في فصل واحد، وكان ينبغي أن يمتاز في رأيه، وإلا لأني دعوته إلى أن يستزيد من القراءة فعد هذا إسرافاً واعتداء.

أمام هذا الجيل الرخو من الأدباء الناشئين يضيق الناقد المخلص بالنقد ويزهد فيه ويصد عنه صدوداً في بعض الأحيان، ولكنه لا يلبث أن يرى حق الأدب عليه فيستقبل من أمره ما أستدبر، ويثني على قوم وهو يعلم أن ثناءه سيملؤهم غروراً وسيخرجهم على أطوارهم، ويعيب قوماً وهو يعلم أن عيبه إياهم سيدفعهم إلى اليأس إن كانوا أخياراً، وسيدفعهم إلى القحة إن كانوا أشراراً.

ونحن برغم هذا بل من أجل هذا نمضي في طريقنا لا نقف كما يظن بعض الناس، ولا نرجع كما تظن أنت أيها الصديق، لأنك في أكبر الظن قد لا تتابعنا أحياناً، وقد تطلب منا ما نطلب من أنفسنا وتحول ظروف حياتنا بيننا وبينه.

أما بعد، فأني أحب أن أؤكد لك أني أنا خاصة ما زلت عند رأيك القديم في، صريحاً إلى أقصى حدود الصراحة، جريئاً إلى أقصى حدود الجرأة، مستعداً في هذا العالم إلى أن استأنف ما فعلت منذ عشر سنين، وإلى أن أستأنف ما فعلت منذ أربع سنين. وإني لشديد الأسف أن كانت ثقة الأستاذ كراتشكوفسكي بي أقوى وأشد من ثقتك أنت، فأنه لم يتردد في

مقدمة ترجمته للأيام أن يتنبأ بأن ما عرض لي من الخطوب ليس كل شيء، وأنه ينتظر أن يعرض لي مثله، ولكن الأمور مرهونة بأوقاتها فلا تتعجل، فمن يدري؟ وأنا أرجو بعد هذا كله أن تتلقى هذا الفصل بصدر رحب، فأني أهديه إليك تحية صديق يضمر لك اصدق الحب وأوفاه.

طه حسين

ذات الثوب الأرجواني

للأستاذ عبد القادر المازني

- 1 -

ملاحظة - الكلام ليس شخصياً وأن كان بلسان المتكلم، وذات (الثوب المذكورة هنا لاوجود لها في الخيال)

لم يكن الأرجواني ثوبها الوحيد - وكيف يمكن أن يكون؟ - ولا كان كل ما تلبس حين تبرز، ولكنه كان أحلى ما تكتسي وأشبهه بخديها - في رأى العين، وفي إحساس القلب أيضاً - وقد رأيتها في ثياب شتى وأردية متنوعة - في الشفوف والأفواف، وفي السبائب المضلعة، والمطارف المربعة، وفيما عليه من الخطوط كأفاويق السهم، ومن النقوش كهيئة الطير، ومن الصور كرسم العيون، وفي الأبيض والأخضر والأزرق، ولكنه لم يقع من نفس شيء من هذا كله كموقع هذا الثوب الأرجواني الذي لا نقش فيه ولا صور ولا ترابيع ولا تداوير ولا تضاليع ولا خطوط ولا وشي ولا نمنمة. ومن العسير أن يعلل المرء هذا الشعور بوقع ثوب معين؛ وأحسب أني لو قلت ما يجول في خاطري ساعة أراها بادية فيه - أو مجلوة على الأصح - لظنني القارئ عربيداً مستهتكا، وما أنا من هذا في قليل ولا كثير. وليصدق القارئ أو لا يصدق، فما يعنيني ماذا يظن بي.

وقديماً قلت - أيام كنت أقول الشعر:

قد أفعل الشيء لا أبغي به أملا ... ولا أبالي الورى ماذا يقولونا

هي ضميري - فأن أرضيته فعلى ... رأي العباد سلام المستخفينا

ومازلت كما كنت يوم قلت هذا، بل لعلي أسرفت في قلة المبالاة، حتى صرت إلى الاستخفاف المطلق.

ولأرجع إلى ذات الثوب الأرجواني، فأنها أحق بالكلام وأولى به مني، وكم قلت لنفسي وأنا أراعيها: (بأي شيء يا ترى يمكن أن تتوسل إلى مثلها؟. . . لا أنت جميل ولا محتمل. . . ولا لك مال. . . ولا في رأسك هذا عقل. . . أو ليس لو كنت تعقل أما كنت حرياً بالانصراف عن هذا العبث؟. . . ماذا ترجو منها؟. . . إنها دونك سناً، وأنت دونها في كل

شيء. . . فلا خير فيك لها أو لمثلها)

ثم أعود فأقول لنفسي: (عن أي شيء تتكلم يا هذا؟. . . الجمال؟. . . سبحان الله العظيم! إن الجمال هو سلاح المرأة، فحظها منه ينبغي أن يكون موفوراً، وإلا زهد فيها الرجال، إذ كان لا مزية لها في غير ذلك. . . ولكن الرجل شيء آخر، وسلاحه في

الحياة قوته وقدرته على الكفاح. . . لا هذه الأصباغ والألوان التي لا تلبث أن تحول. . فدع الجمال، فأنه شيء يطلب في المرأة ولا يطلب في الرجل. . . وماذا غيره؟. . . إنك غير محتمل؟؟. . لماذا بالله؟؟ لماذا تظلم نفسك وتبخسها هذا البخس؟. . ومع ذلك هذا شيء يترك لتقدير الغير ولا يجوز أن تكون أنت الحكم فيه. . يعني ماذا؟. . . أتراني أهرب بهذه السفسطة من التقدير؟. . . لا. . . ولكن ينقصني أن أعرف الرجل الذي يستحيل أن يهتدي إلى امرأة تحبه، مهما بلغ من رأي الرجال فيه أو من سوء رأيه هو في نفسه. . . أو لم تسمع بالمثل القائل: (كل فوله لها كيال؟)، ألسنا نقول ذلك كلما رأينا رجلاً ثقيلاً تحبه امرأة جميلة كانت تستطيع أن تجد ألف عاشق لها غير هذا الجلف أو السمج، أو ما شئت غير ذلك من الأوصاف التي لا تهون على النفس؟ ومع ذلك هذه مبالغة، فما أنا بحيث أحتاج إلى التعزي بأن كل فولة لها كيال. . . أعوذ بالله. . . بقي المال والعقل. . . والكلام في هذا كلام فارغ. . . فليس من الضروري أن يكون المرء نداً لروتشيلد لكي تحبه المرأة مهما بلغ من جمالها. وليت من يدري بماذا فاز روتشيلد من حب الجميلات في حياته؟ ومتى كان المال يشتري الحب؟ كذلك ليس من الضروري أن يكون المرء سقراطا أو غيره من أصحاب العقول الضخمة ليكون محبوباً. . ومع ذلك سل سقراط عن تعذيب امرأته له، وتنغيصها حياته، وتسويدها عيشه!. . . ماذا ترى تفعة عقله وفلسفته؟. . . لا يا سيدي! الحب شيء لا ضابط له إلا تقدير المرأة للرجل الذي تحس بغريزتها أنه أصلح لها من سواه؛ وقد تكون مخطئة، ولكن هذا هو العامل الموجه لها في اختيارها. . . إذن هناك أمل؟. . . بالطبع!. . . ما هذه الحمارية!. . . إنها ولاشك عادة التفكير الطويل في كل أمر. . . وهي عادة تضعف الثقة بالنفس، وتفقدها الشجاعة اللازمة للأقدام)

ودارت في نفسي كلمة الأقدام بعد أن نطقت بها - في سري، وهل أنا مجنون لأتكلم بصوت عال يسمعه من في البيت فتكون النتيجة أن يخربوا بيتي؟ - فلم يسعني إلا أن أسأل نفسي: (الأقدام على أي شيء؟. . هذه فتاة أراها - وتراني هي أيضاً فما يسعها إلا أن ترى، أعني تراني - ومن طول ما اعتدت أن أراها صرت أحس أنها أصبحت تشغل مكاناً في نفسي. . مغالطة!!. كأن كل الذنب في حبها أني رأيتها مراراً. . ولولا ذلك لما حفلت نفسي بها!؟! أهذا ما أريد أن أقوله أو أدعيه؟؟. لا يا سيدي!. . يحسن مادمت أناجي نفسي أن أكون صريحاً معها وإلا فما الفرق بين نجوى النفس ومحادثة الأغراب؟؟. وأعود إلى الأقدام. . وأسأل عن أي شيء؟. . على أي شيء؟؟ أو ليس الأمر بديهياً؟. تشير أليها. . تظهر لها هذا الحب. . كيف بالله تريد منها أن تعرف أنك تحبها وأنك تروم أن تبادلها هذا الحب؟! (تشم على ظهر يدها) كما يقول المثل العامي؟؟. حسن. . وصحيح هذا بلا شك، ولكن ألا يمكن أن تعرف من نظرة العين وحدها؟؟ بلى!. وإن للمرأة قدرة على الإحساس بشعور الرجال نحوها، ولو كان بينهم وبينها ألف سور وسور. . . ما هذه المبالغة؟. مبالغة؟! ألم أسأل امرأة هذا السؤال فكان جوابها أني أكون سائرة في الطريق فاشعر بنوع النظرة التي يرميني بها من يتفتق أن يكون سائراً خلفي؟. فإذا أسقطنا المبالغة من هذا الكلام كان مؤداه أن المرأة يسعها أن تدرك أتحبها أو لا تحبها من نظرة عينك؟. بل هذا يسع أي إنسان لا المرأة وحدها. . . ولكن إذا اكتفينا بالنظر ودلالته، فماذا يكون بعد ذلك؟! هل تروم منها أن تبدأك هي بالكلام وتقول لك: (يا سيدي أنك أعرف أنك تحبني فأنا أشكرك على تشريفي بهذا الحب الذي لا أستحقه، وأؤكد لك أني لست أهلاً لحب رجل عظيم مثلك؟ سبحان الله العظيم. . ما هذا البرود؟. إن الرجل حين يحب امرأة يكون معنى هذا أنه يريد أن يستولي عليها - هذا إذا كان رجلاً عادياً سليماً لا مريضاً - والرغبة في الاستيلاء تجعل من واجبه هو أن يسعى للتغلب على ما عسى أن يكون هناك من مقاومة، وليس ثم فرق بين غزو قلب وغزو مدينة؛ والحقيقة الجوهرية في كلتا الحالتين واحدة، وإن اختلفت المظاهر؛ وكما أن هناك مدناً لا يكاد الجيش يزحف عليها حتى تسرع إلى التسليم، كذلك تجد قلوباً لا تكاد العين تفوق إليها سهما حتى تذعن وتفتح بابه. غير أن هنالك قلوباً لا يسهل إخضاعها ولا بد من الكر عليها، وليست كل امرأة ككل امرأة، فالذي يجدي مع هذه لا يجدي مه تلك لتفاوت الأمزجة واختلاف الطباع؛ وما أظن صاحبتنا ذات الثوب الأرجواني بالعسيرة، وإن لي لمعواناً عليها من شبابها وغرارتها ومن حياة العزلة

والحرمان التي تحياها. والشباب هو زمن الفورة والإضطرام في العواطف، والحرمان والعزلة يجعلان العواطف الطبيعية أشد استعداداً للاضطرام السريع والتسعر لأقل اتصال. وهل طبيعي ألا تعرف الحياة فتاة في عنفوان صباها إلا من النافذة وإلا من كتاب - أو رواية - تقرأه وهي في الشرفة؟. ماذا تعرف عن هذه الحياة؟. وماذا خبرت من أحوال الناس وأساليبهم؟. كيف تستطيع أن تقاوم ما تهدد به؟ بل كيف تعرف أنها مهددة بشيء حتى تفكر في المقاومة؟؟ هذه هي في الشرفة واقفة تنظر من هذا الارتفاع الذي لا يمكن أن تستبين منه شيئاً. . . لماذا تلبس هذا الثوب الأرجواني الأنيق الذي يبدي للعين خطوط جسمها جميعاً وانحناءاته كلها ويجلو مفاتنها ولا يحجب شيئاً منها؟. . أليست تلبسه لتبدو فيه كأجمل ما تكون وفي أفتن صورة؟. . تعرض محاسنها هذا العرض البديع ولا تجد في مكانها العالي هذا من يقدرها!!. والناس لا يشعرون بالحرمان منها لأن غيرها في الدنيا كثيرات. . . ولكن هي. . . هي. . . أليس المعقول - وهي تنظر إلى الرائحين والرائحات والغادين والغاديات - أن تشعر شعوراً حاداً بما هو مكتوب عليها من الحرمان؟. . ومع هذا الشعور المستمر ماذا تقدر أن تكون النتيجة إذا أتفق أن اتصلت أسبابها أو هي اتصال بأسباب رجل يصفو بوده إليها وتأنس هي منه هذا الميل؟. يخفق قلبها على الرغم منها. . وتلفي نفسها معنية بهذا الرجل الذي يوليها العناية التي حرمتها في حياتها، ويظهر لها الحب الذي لا يستطيع أن يظهره لها أخوها أو أبوها لأنه من نوع آخر، ولا يغني عنه حب الأم والأخت ومن إليهما. . وتشغل خواطرها بالتفكير في هذا الإنسان لا يفتأ ينظر إليها وفي عينيه نور الحب. . . وقد يكون كاذباً أو مخادعاً، ولكنها لا تستطيع أن تعرف هذا لأنها غريرة لم تجرب الناس ولم تعرف الحياة إلا من نافذة بيتها. . . فتراها تبدو في حفل من الزينة - ولم تكن تعني بأمر زينتها كل هذه العناية - وتكون واقفة مع صاحبها لها تحدثها فتتحول عينها إليك وتخالسك النظر. . . ويكون الكلام عادياً جداً لا يستدعي كل هذه الحركة ولا يستوجب هذه الضحكات المتوالية التي يميل لها الجسم كل مميل. . . ولا تزال وهي تتكلم تهز رأسها وتسوي شعرها بيديها وتخرج وتدخل ولا شيء هنالك تدخل له، ولكنه الشعور المتقد القلق، والعواطف المشبوبة لأنها محبوسة تريد أن تنفجر من طوال الكبت. . . وهذا الدبوس التي تشيله وتحطه لم يكن قلقاً في موضعه من شعرها ولكن نفسها هي القلقة، فيدها لا تهدأ ولا تسكن ولا تستطيع أن تكف عن الحركة. . . وهذا الثوب الجديد الذي لم يفصل والذي تنشره في الشرفة لزائرتها كان في وسعها أن تعرضه عليها في الغرفة ولكنها حركة عصبية تشي بالاضطراب النفسي. . . وهذا النبات الذي اتصل بعضه ببعض على جانب الشرفة والذي يحجب من فيها عن عيون الجيران هل تظنه أنه يحتاج إلى تسوية؟. لا. ولكن يدها مع ذلك لا تزال وأنت ناظر إليها تعبث بأوراقه النضيرة وقد تنظر إليك عن عرض وهي تفعل ذلك. . . ولا تحسب أنها تغازلك فما تفعل شيئاً من ذلك ولكنه لا يسعها إلا أن تنظر إليك خلسة من حين إلى حين، لأنه يسرها أن تراك ناظراً إليها وأن تعلم أنك مشغول بها حتى ولو أبدت الضجر من ذلك أحياناً. وإذا لم ينظر الرجل إلى المرأة فماذا يكون مصيرها؟. . .!وماذا عسى أن تصنع بنفسها وهي تغيب عنك وتحتجب - يوماً كاملاً أو ساعات - لظنها أن احتجابها يسعر النار التي في صدرك ويرقى بألسنة اللهيب إلى السماء. وهي تقضي على نفسها بهذا الاحتجاب وخواطرها كلها معك وان كانت تكلم أمها وأخاها وأباها كأنما خلت بها الملهيات الحاضرة التافهة عن كل ذكر لك. وليست المرأة بشيء إذا لم تكن قادرة على هذه المخادعة البريئة. والشرفة الأخرى ليست في جانب غير هذا من البيت، بل الاثنتان على صف واحد، وليست إحداهما بأوسع أو آنق أو أحلى، ولكنها تنتقل من هذه إلى تلك لغير حكمة ظاهرة، إلا أنها تريد أن تفهمك أنها لا تحب أن تراها ولا ترتاح لطول تحديقك فيها. . وليس هذا بصحيح، ولكن المرأة هكذا أبدا. . . وتجلس في الشرفة على الكرسي وفي يدها الكتاب وتتعمد أن توليك ظهرها وأن تجعل وجهها إلى ناحية أخرى لتوهمك أنها غير راغبة فيما ترميها به من النظرات. . . ولا تقرأ شيئاً لأنها لا تقلب الصفحة إذ كان عقلها مشغولاً بك وهل لا تزال واقفاً؟. وهل تراك تنظر إلى غيرها؟. وهل أنت ضاحك أو عابس؟. وماذا كان وقع هذا الأعراض في نفسك؟. هل آلمك جداً؟. هل أغضبك؟. أو زادك تعلقاً بها وإقبالاً عليها؟. وتمد ساقها وتهزها لتلفت

نظرك إلى جمالها. وتنهض واقفة وتنحني لتضع الكتاب على كرسي ثم تخرج من الشرفة - لا لحاجة - بل لتريك خط ظهرها وبراعته وفتنته. . . وترفع رأسها قليلاً - وعلى مهل - حتى تحاذي عينها حافة الشرفة لتنظر أباق أنت أم مللت وذهبت؟؟. وتراك تتهيأ للخروج فتختفي وعينها عليك من وراء الأستار - وفي ظنها أنك لا تفطن إلى ذلك - فإذا انحدرت إلى الشارع برزت في الشرفة لتلقي عليك نظرة أخيرة. . . ويجيء الليل فتجلس في الظلام وأنت في النور لتراك ولا تراها. . وإذا جاء وقت النوم أغلقت باب الشرفة بعنف لا تدعو إليه أي ضرورة سوى أنها تريد أن تؤذنك بذلك.

هذه حياة المسكينة وهذا ما يحوجها إليه ما هي فيه من العزلة والحرمان الدائم. وأي قدرة لمثلها أو عسر يمكن أن يكون فيها الأعسر السجن. . . كان الله في عونها فأني أراني أعطف عليها وأرثي لها في محنتها هذه أكثر مما أراني أحبها. وسلام عليها.

إبراهيم عبد القادر المازني

المغالطة في الوسائل والغايات

للأستاذ عبد الرحمن شكري

كل إنسان ظالم في أمر واحد أو أكثر من أمور الحياة، فأن المرء قد تميل به رغائب نفسه وحاجاتها وشعورها حتى يحسب غايته الدنيئة، ومقصده الوضيع، ورغبته الخسيسة، غاية عالية، ومقصداً نبيلاً، ورغبة شريفة؛ وأساسها لو فطن له الغرور والإعجاب بالنفس، أو محاولة إخفاء نقائصها، أو محاولة كسب الجاه، أو المنفعة من حساب غيره، ومتى تهيأ له قبول الغاية الدنيئة، كأنها غاية نبيلة سهل عليه أن يغالط نفسه مغالطة أخرى فيزعم، أن الغاية النبيلة تزكي الواسطة الدنيئة.

ولا تجد بين الناس من لا يغالط هذه المغالطة أيضاً في أمر واحد أو أكثر من أمر واحد من أمور الحياة.

وهذه المغالطة مزدوجة تجعل المرء يزكى الواسطة الدنيئة بالغاية الدنيئة، لأنة أولاً غالط نفسه فحسب الغاية الدنيئة غير دنيئة، ثم غالط نفسه وحسب هذه الغاية تبرر الواسطة الدنيئة؛ وقد يغالط المرء نفسه مغالطة ثالثة، فيحسب الواسطة الدنيئة، نبيلة، وهذا من قبيل الاحتياط إذا لم يستطع أن يزكي عمله لدى الناس بمبدأ تبرير الواسطة بالغاية.

وهذه المغالطات الثلاث تصل بالمرء إلى حالة نفسية يرى فيها أنه يحاول بلوغ الغاية بالوسيلة النبيلة، وهو إنما يحاول بلوغ الغاية الدنيئة بالوسيلة الدنيئة. وقلما يفطن الناس إلى هذه المغالطات في أنفسهم، وقد يعمون عنها في نفوس معاشريهم، فالمرء قد يكون مدفوعاً في سلوكه بما ركب من طبائع الشر، أو لأنه يمني نفسه أن في قوله أو عمله منفعة لنفسه، أو لأنه يرى فيهما إعلاء لنفسه ولرغبته في الظهور بمظهر الغيرة على الخير والحق ومظهر كره الباطل والشر أو لسبب أخر من أسباب عديدة متنوعة، ولكنه لا يزال يروض نفسه حتى يصرفها عن الأسباب الحقيقة وحتى تعتقد نبل غايتها ومقصدها، وأن مطلبها الحق أو الفضيلة أو الخير أو الدين، وقلما تجد في الناس من يعجز عن أن يقنع نفسه أنه إنما يعادي أو يصادق من أجل هذه المطالب النبيلة الشريفة، فإذا اقتنعت سهل عليها أن تتخذ الوسائل الدنيئة لمحاربة من ترى في محاربته ظاهرة انتصار منها لهذه المطالب، فتتخذ من وسائلها النميمة والكذب واستثارة الأحقاد بالنميمة والغيبة والكذب، وكل هذه وسائل دنيئة، وتحيل النفس على المبدأ المعروف الذي يقول أصحابه الغاية تبرر الواسطة، فتكون الثقة بالنفس قد خطت خطوتين في المغالطة والإيهام: الأولى تحويلها الغاية الدنيئة إلى غاية نبيلة، وهذه خطوة خطتها كي تخطو الخطوة الثانية، وهي اعتناق مذهب المبررين للواسطة بنبل الغاية، ولو أصبح هذا المذهب عقيدة عامة مقدسة لانهارت أركان الديانات وتفككت عن النفوس عرى الفضائل وانحلت قيودها وتسفلت النفوس، ولكن النفوس تأخذ بهذا المبدأ عملياً وفي خفية أو تبثه بطريق الإيحاء وهو من أسباب تحول النفوس عن الخير والفضيلة حتى على خفاء العمل به والاحتيال لتزكيته بوسائل النفوس الجشعة المتعطشة للمكاسب كما هي نفوس أكثر الناس في أحوال كثيرة

وأحسب أنه لولا المغالطة الأولى أي الوهم الذي يقلب الغاية الوضيعة ويجعلها غاية

شريفة لما كثر أخذ الناس بالمبدأ الذي يبرر الواسطة بالغاية النبيلة، إذ أن تلك المغالطة الأولى هي الأساس الذي يبنى عليه هذا المبدأ في كثير من الأحوال والذي يبيح للناس كل وسائل الشر فيواقعونها وهم يحسبون أنهم على خير وإلى خير وفضل. وإذا تتبعت غايات الناس في مساعيهم المختلفة وجدت أن كلاً منهم مهما سفلت غايته يزكيها ويرفع من شأنها ويلبسها لباس الفضيلة أمام نفسه وأمام الناس، وهو يفعل ذلك إذا كانت غايته وضيعة أكثر مما يفعل إذا كانت غايته رفيعة، لأن الغاية الرفيعة ليست في حاجة إلى كل هذا الجهد، وعلى قدر شعور المرء بحقارة غايته تكون رغبته في مغالطة نفسه، وعلى قدر تسفل تلك الغاية يكون غيظه وحنقه ممن يطلعه أو يطلع الناس على حقيقة غايته وأسبابه التي يخفيها. ومن العجيب أنه يحاول أن يستفيد أيضاً من هذا الغيظ الذي سببه الأنانية فيظهره بمظهر الغضب للحق أو الفضل أو الخير أو الدين ولا يزال بنفسه حتى يقنعها أن غيظها ليس غيظ الأناني المحنق الذي أطلع أو كاد أن يطلع أو يخشى أن يطلع الناس على دناءة غايته أو وسائله فيوهمهما أنه غيظ مقدس نبيل وغضب شريف، وهي إذا اقتنعت واعتقدت ذلك سهل عليها إقناع الناس بما اقتنعت به من باطل، وهنا منشأوهم كبير يقع فيه الناس، فأنهم إذا أبصروا إنساناً عظيم التأثير في الناس تعديهم شدة اعتقاده واقتناعه حكموا أنه على حق، ولا سيما إذا كان الحاكم هذا الحكم قليل الخبرة بالنفس الإنسانية، فإذا زادت خبرته بالنفس علم أن شدة اعتقاد الإنسان وعظم اعتناقه وما ينشأ عنهما من عدوى تؤدي إلى شدة اعتقاد الناس وعظم اقتناعهم لا يدل على أن هذا الإنسان على حق فيما يعتقد وفيما أعدى الناس اقتناعه به، ولكنها سنة مألوفة لدى الباحث في النفس وهي أن الإحساس الشديد ينتقل كالعدوى لشدته وكذلك الاقتناع العظيم ينتقل من نفس إلى نفس كالعدوى لعظمه لا لصوابه، ولما كان الاقتناع المؤسس على الحقد أو الأنانية شديداً لأنه مؤسس على إحساس شديد وهو الحقد أو الأنانية، سهل انتقاله إلى نفوس الناس شأن كل اقتناع مؤسس على إحساس شيء شديد آخر، وأحسب أن الناس معذورون بعض العذر في هذه المغالطات النفسية وفي بعض هذا الغيظ والحنق إذا كشف كاشف عن تسفل غاياتهم أو وسائلهم لأنه إذا أتيح لأكثر الناس فهم حقارة غاياتهم ووسائلهم والتأثر بهذا الفهم والتألم من أجل تلك الحقارة ضاعت ثقتهم بأنفسهم وضاعت ثقة الناس بهم واعتراهم الضعف في معالجة أمور الحياة ومعالجة مطالبهم فيها ولا مراء أن بعض هذه النتائج محمود إذا بلغت بهم منزلة القصد والعدل والحق ولم تنحدر بهم إلى منزلة الضعف والعجز ولم تنل من عزائمهم كل منال، ولكن الناس يعرفون أن نفوسهم قلما تنتقل من إحساس إلى إحساس إلا من نقيض إلى نقيض مثل رقاص الساعة فمن فعل إلى رد فعل، ومن رأي إلى نقيضه ومن شعور إلى عكسه فتغيرهم النفسي يختلف عن تغير أمور الطبيعة. ومن أجل ذلك ترى أن الناس في حياتهم وتأريخهم يسبقون سنة التغير في الطبيعة فيحدث رد فعل ورجعة في أمورهم كي يرجعوا إلى ما يناسب تغير أمور الطبيعة، وهذا هو سبب كثرة ما يشاهد من فترات الرجعة ورد الفعل في تأريخ البشر وفي حياتهم. وهذه الطفرة في إحساس النفس مشاهدة بصفة خاصة في العامة والصغار والجهلة والقليلي المدنية أكثر من مشاهدة الباحث لها في خاصة والكبار والمتعلمين والكثيري المدنية. ومن أجل تردد النفس بين الإحساس ونقيضه يخشى الناس على عزيمتهم في الحياة ويخشون النتائج التي يأتي بها إطلاعهم على حقيقة غاياتهم ووسائلهم ويخشون أن يعرفوا ضعتها بعد اعتقادهم نبلها فهذا أمر يفاجئهم مفاجأة قد تحدث هزة في النفس وهذه الخشية تزيد غيظهم وحنقهم فيدفعون بالغيظ ذعرهم من أن تنأى بهم ضعة غاياتهم عن عزائم النجاح ومساعيه، وهم يخشون الفشل والضيعة، وما قد يكون فيهما من الذل أو فقدان وسائل الحياة نفسها؛ ولا شيء يدعو إلى القسوة مثل ذعر المرء إذا خشي أن يفقد وسائل الحياة على اختلاف منافعها بفقد اعتقاده نبل غايته ووسائله حتى ولو كان فقده وسائل الحياة من أجل ذلك بعيد الاحتمال.

ولكن كثيراً ما يحصن المرء ضعة غايته ووسائله بما يعتقد الناس فيه وما يعتقد هو في نفسه من الفضل والجاه والنبل والصدق، ولا تخلو نفس من شيء من هذه الصفات قل أو كثر، وكلما كثر نصيب المرء من هذه الصفات كثرة حصانة غاياته ووسائله، ومن

أجل ذلك ترى الرجل الذي يعتقد الناس فيه هذه الصفات أقدر على مغالطة الناس ومغالطة نفسه فتسهل هذه المغالطة بما له عند نفسه وعند الناس من ثقة بنصيبه من هذه الصفات، وهذا الرجل أشد خطراً على الحق والخير وإذا غالط نفسه، أو غالط الناس لأنه يسهل تصديقه والاقتداء به ولا يحسب أحد أن له غاية حقيرة أو وسيلة دنيئة بجانب ما في نفسه من صفات الفضل والصدق والحق أو بجانب ما اكتسب من جاه وثقة

وكما أنه يسهل أن تحول الغاية الدنيئة غاية رفيعة نبيلة وأن تعتقد أن تلك الغاية التي صارت نبيلة في نظرها تبرر الواسطة الوضيعة يسهل أيضاً أن تستغني النفس عن الخطوة الثانية، وهي تبرير الواسطة الوضيعة أو تحويلها إلى واسطة نبيلة وإبرازها للناس كأنها واسطة شريفة سامية بدل تبريرها بالغاية والمقصد، وهذا من شدة احتياط النفس عند من قد يرفض ذلك التبرير ويأبى تلك التزكية، ونظرة من الباحث المتقصي وسائل الناس تدل على أنهم يتعامون عن ضعة وسائلهم ويغالون في إبرازها في حلة الوسائل السامية وإنما الخلاف بينهم في تزكية كل منهم وسائله واتهام وسائل غيره. وقد يعرض للباحث سؤالان هما هل يتاح للإنسان عصر يكثر فيه من بحث نفسه وتقصى حقائقها؟ وهل يرفع هذا التقصي من نفس الإنسان؟؟ أحسب أن هذا لا يكون مادام ذعره خشية فقدانه وسائل الحياة على اختلاف أنواعها واقعاً محذوراً.

عبد الرحمن شكري

المأساة الفلسطينية

لباحث دبلوماسي كبير

أجل لم تعد قضية فلسطين مسألة من مسائل الاستعمار والسياسة، ولكنها تغدو مأساة حقيقية.

مضت إلى اليوم عدة أسابيع، وفلسطين تجوز أحداثاً هائلة: أهوال الإضراب والمقاومة السلبية، وأهوال القوة الغاشمة تميل عليها وتنكل بها من كل صوب، وتحاول إخماد أصواتها وأنفاسها بكل وسيلة، وتعمل على تجريدها من كل وسائل الأعراب والمقاومة؛ والسياسة المتجنية تشهد آلام شعب بأسره هادئة جامدة، لا تحركها صرخات الألم، ولا إزهاق الأنفس وإهراق الدماء، بل تؤكد هادئة أنها لن تحاول بديلا لخطتها، وأنها ستمضي فيها إلى النهاية غير مكترثة بإرادة شعب وحقوقه، بل بحياته أو موته.

والواقع أن فلسطين اليوم تجوز صراع الحياة والموت؛ وهي تجوز هذا الصراع منذ تسعة عشر عاماً، أعني مذ قضت عليها السياسة الإنكليزية في سنة 1917، بأن تغدو وطناً قومياً لليهودية؛ ولكن خطر الصهيونية على كيان فلسطين لم يُبد في أعوامه الأولى كما يبدو اليوم؛ وكانت الأمة الفلسطينية مازالت في هذه الأعوام الأولى تهجس بشيء من الأمل، أما اليوم فأن الخطر الصهيوني يبدو في ذروة روعته، خطر فناء لا شك فيه؛ وتفقد الأمة الفلسطينية كل أمل في عدالة الاستعمار والعدالة الدولية، وتدفعها اليوم إلى الكفاح نزعة يأس عميق؛ وإذا بلغت الأمم حد اليأس، هانت عليها كل سبل الأقدام والتضحية.

وهذا ما يطبع كفاح الأمة الفلسطينية اليوم، فأنها تجوز غمار هذه الأحداث الهائلة التي نشهدها منذ أسابيع، مقدمة غير مكترثة لبذل النفس والمال، ونثابر على الكفاح بهمة الجلد المستميت.

أسفرت الحرب الكبرى عن وقوع فلسطين تحت نير استعمار مزدوج، فقد فرض عليها الانتداب البريطاني باسم عصبة الأمم، والانتداب هو حماية أجنبية صريحة؛ وقضت عليها السياسة البريطانية من جهة أخرى أن تكون وطناً قومياً لليهود، وأدمج هذا العهد الذي قطعته إنجلترا لليهودية في نص الانتداب الذي أقرته عصبة الأمم، وغدت فلسطين بذلك أرضاً بريطانية كما غدت ميداناً للاستعمار اليهودي الاقتصادي والاجتماعي

ومنذ سنة 1917 يتدفق سيل الهجرة اليهودية على فلسطين، يدعمها تدفق الأموال اليهودية، والنشاط اليهودي بسائر ألوانه ومناحيه؛ ولا تدخر السياسة البريطانية من جانبها وسعاً لرعاية هذا الوطن اليهودي الجديد، وتشجيع نمائه ورخائه، وتذليل كل صعب في سبيل الهجرة اليهودية، وتنظيم الاستعمار اليهودي للبلاد؛ وتفسح السلطة

المنتدبة في ذلك مجالاً كبيراً لآراء الوكالة التنفيذية اليهودية، وهي الهيئة اليهودية الرسمية التي تقوم في فلسطين بجانب سلطات الانتداب طبقاً لصك الانتداب ذاته، وتتمتع بحق الاقتراح والمشورة في كل ما يتعلق بالوطن القومي اليهودي.

ومع أن اليهودية أقبلت من سائر أنحاء العالم على استعمار فلسطين بحماسة شديدة، وحملت إليها مئات الملايين، واشترت من أراضيها مساحات عظيمة، حولتها إلى مستعمرات يهودية، غنية ضخمة، وأنشأت مدينة يهودية عظيمة هي مدينة تل أبيب، وعملت على إحياء اللغة العبرية وجعلها لغة الوطن القومي الجديد، وأنشأت جامعة عبرية كبيرة لتعمل على إحياء التفكير اليهودي؛ مع ذلك كله كانت تشير اليهودية في أعوامها الأولى تسير إلى غايتها متعثرة، ويزعجها سخط العرب وتبرمهم؛ وكانت تخشى دائماً أن تميل السياسة البريطانية إلى إرضاء الأماني القومية العربية بوجه من الوجوه، خصوصاً وأن تصريح بلفور ذاته ينص على احترام حقوق الطوائف غير اليهودية، المدنية والدينية؛ بل لقد مر باليهودية قبل بضع أعوام فقط ساعات يأس حقيقي، وخيل لها غير مرة، أن حلم هرتسل في بعث الدولة اليهودية وإنشاء الوطن القومي اليهودي، سينهار في مهده؛ وكادت الحكومة البريطانية في سنة 1930 بعد أن تبينت عدالة المطالب العربية فيما يتعلق بوقف الهجرة اليهودية، ووقف بيع أراضي العرب، وهي مطالب عززها تقرير اللجنة الإنكليزية التي انتدبت لبحث هذه المسائل، تجنح إلى إرضاء بعض الأماني العربية، وصدرت في مجلس العموم البريطاني تصريحات رسمية في هذا الشأن؛ ولكن سرعان ما تغلب نفوذ اليهودية مرة أخرى، وسحبت الحكومة البريطانية تصريحاتها ووعودها للعرب، بتصريحات معارضة ألقتها تأييداً لوجهة النظر اليهودية وعهد بلفور.

وهكذا استطاعت اليهودية أن تخرج ظافرة من الأزمات والاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي كادت تزعزع إيمانها في حلمها وفي مثلها؛ وذهبت جهود العرب سدى، ولم
يظفروا رغم ثوراتهم واحتجاجاتهم المتكررة بحمل السياسة البريطانية على أن تحيد ذرة عن خطتها.

ثم لقيت الحركة الصهيونية ظرفاً جديداً لنشاطها واضطرامها؛ ذلك أن ألمانيا جاشت بالخصومة السامية عقب قيام النظام الهتلري، ونظمت الحكومة الهتلرية لسحق اليهود في ألمانيا مطاردة عنيفة رائعة، فتوجست اليهودية في أنحاء العالم شراً، وهتفت كلها بأخطار الخصومة السامية، وألفت الصهيونية الفرصة سانحة لتؤكد لأبناء جنسها كرة أخرى أن الوطن القومي اليهودي هو ملاذ اليهودية وعصمتها من تلك النزعات الخطرة؛ وهكذا تدفق سيل الهجرة اليهودية على فلسطين بعنف لم تعهده من قبل، وزاد عدد اليهود في فلسطين بسرعة حتى أنه بلغ الضعف تقريباً في نحو ثلاثة أعوام؛ ولبيان ذلك نقول أن اليهود بلغوا حتى سنة 1932 نحو ثلاثمائة ألف من مجموع سكان فلسطين وقدره مليون. وقد بلغوا في سنة 1936 حسب أخر إحصاء نحو خمسمائة ألف، وبلغ السكان العرب من مسلمين ونصارى نحو سبعمائة وخمسين ألفاً؛ وقد اجتمعت مرافق فلسطين الحيوية في الأعوام الأخيرة في يد اليهودية بسرعة، وأحرزت اليهودية بالشراء السخي معظم أراضي فلسطين الخصبة، وساعدتها السلطة المنتدبة على تحقيق سيطرتها الاقتصادية بجميع الوسائل التشريعية والإدارية، ومازالت هذه السيطرة تزداد توطداً وتمكيناً.

والآن وقد رأى العرب أن بلادهم التي استوطنوها منذ الأحقاب، وأراضيهم ومرافقهم الحيوية، وتراثهم الديني والاجتماعي، كل ذلك يسير سراعا إلى التلاشي والعدم، والدولة المنتدبة تؤازر اليهودية باستمرار على تمكين غزوها المروع؛ وخطر الفناء القومي يلوح في ثنية المستقبل، فهل نعجب إذا رأيناهم ينفجرون سخطاً ويؤثرون السقوط في ميدان الجهاد الشريف على ذلك الإعدام البطيء المنظم؟ وهل تعجب الحكومة البريطانية إذا كانت سياستها في فلسطين قد أدت إلى مثل هذا الانفجار الخطير، وهو الثالث من نوعه في نحو عشرة أعوام؟

إن مؤازرة السياسة البريطانية لليهودية وتعضيدها لإنشاء الوطن القومي يرجعان إلى اعتبارات واضحة معروفة؛ فالسياسة البريطانية تعرف مدى النفوذ اليهودي في عالم

المال والسياسة، وقد حظيت بريطانيا في الحرب العظمى بمؤازرة اليهودية، ومازالت ترمي إلى
الاحتفاظ بهذه المؤازرة؛ وإنشاء الوطن القومي ضمان لاستمرار هذا التعاون بين السياسة البريطانية وبين اليهودية.
بيد أن هنالك اعتبارات أخرى يلوح لنا أن السياسة البريطانية لم تقدرها حق قدرها.
ذلك أن فلسطين هي قطعة من العالم العربي تحوطها الأمم العربية من كل صوب، والأمة الفلسطينية هي عضو في جماعة الأمم الإسلامية الكبرى؛ وإنكلترا التي تسيطر على عشرات الملايين من المسلمين، في أفريقية واسيا يجب عليها أن تحسب حسابا لعواطف المسلمين ومشاعرهم؛ ومن المحقق أن العالم الإسلامي كله يعطف على فلسطين في محنتها وكفاحها كل العطف، ويأخذ على السياسة البريطانية مسلكها نحو فلسطين وأمانيها المشروعة، ومن المحقق أن إصرارها على هذا المسلك سيكون له أسوأ الأثر في العالم الإسلامي، وفي عواطف الشعوب الإسلامية نحو إنكلترا.
وعلى اليهودية ذاتها أن تفطن لهذا الاعتبار؛ فالوطن القومي اليهودي يقوم في قلب العالم العربي والإسلامي، متحديا عواطف العرب والمسلمين، وهم من حوله كالبحر الزاخر؛ ولتعلم اليهودية أن الحوادث قلب، وأن مصاير التأريخ ليست في يدها وأن هذا البحر قد يطغى يوماً فيغمر هذا الوطن القومي بما فيه ويصبح أثراً بعد عين.
والسياسة البريطانية لا يمكن أن يفوتها مثل هذا الاعتبار الخطير الذي تنوه به الصحف البريطانية؛ ولكن الظاهر أن عوامل أخرى على السياسة البريطانية تشددها نحو بحث المسألة الفلسطينية؛ فنحن نعرف أن السياسة البريطانية قد منيت بالفشل الذريع في محاولتها إحباط الغزوة الإيطالية للحبشة، وأن ظفر الاستعمار الفاشستي يثير اليوم في إنكلترا مخاوف خطيرة بالنسبة لمستقبل سيادتها في شرق أفريقية ووادي النيل، وكذلك بالنسبة لمواصلتها الإمبراطورية في البحر الأبيض المتوسط؛ وتخشى إنكلترا أن تساهلها نحو أماني فلسطين - وفلسطين تعتبر قاعدة حيوية في مواصلاتها الإمبراطورية - قد يحمل على نوع من الضعف والتسليم ويعرض هيبتها الاستعمارية للانتقاض. وقد رأينا المندوب السامي في فلسطين يرد على مطالبة العرب بوقف الهجرة الصهيونية بإصدار تصريح جديد بمهاجرة أربعة آلاف وخمسمائة عائلة يهودية، متجاهلاً بذلك أن طغيان الهجرة من أهم أسباب الثورة القائمة. هذا إلى أن نفوذ اليهودية في إنكلترا يعمل عمله؛ وقد
رأينا زعيم الصهيونية الدكتور ويزمان يسارع بالعودة إلى إنكلترا منذ بدء الثورة الفلسطينية؛ وقد كان لمساعي هذا الزعيم دائماً أثرها في موقف السياسة البريطانية نحو فلسطين ونحو رعاية الوطن القومي اليهودي.
على إن السياسة البريطانية لا يمكن أن تحتفظ طويلاً بهذا الموقف الشاذ؛ ففلسطين تقف اليوم موقف الحسم، وتصر على أن تبحث مطالبها وأمانيها بعين الإنصاف، ومن ورائها عطف الأمم العربية والإسلامية كلها؛ وإنكلترا تقدر بلا ريب مدى هذا العطف وآثاره؛ وبحث القضية الفلسطينية بروح الإنصاف لا يمكن أن يعتبر ضعفاً أو تسليماً كما يريد أن يفسره غلاة الاستعمار؛ أما الإصرار على تمكين اليهودية من أعناق فلسطين، ودفع الشعب الفلسطيني إلى منحدر التلاشي والفناء، والاكتفاء بإرسال لجان للتحقيق فسياسة خطرة؛ ولا ريب أنها تعرض مركز إنكلترا في الشرق الأدنى، وفي العالم الإسلامي كله لأشد الأخطار.

* * *

قصة المكروب
كيفية كشفه رجاله
ترجمة الدكتور أحمد زكي
الحصانة واليهودي الأفاق

- 1 -

ما أغرب هذا العلم علم المكروبات، وما أعجب ما كان من أمره في يوم وُلد!
بدأ هذا العلم رجلٌ قماش لم يُثقف ثقافة مذكورة، ومع ذلك كان أول راءٍ رأى المكروبات، ثم جاء كيميائي فأوجد للمكروبات مكانة ذات بال في خريطة الوجود، وأرعب الناس منها وأرعد. ثم تلاه طبيب قرية، فجعل من صيادة المكروب شيئاً منظماً

قارب أن يكون علماً صحيحاً. وأراد فرنسي وألماني أن ينجوا بالأطفال من سم مكروب من أقتل المكروبات، فجزرا في سبيل ذلك أعدادا لا تحصى من الخنازير الغينية ومن الأرانب لو تراكمت لبلغت أكواماً كالجبال. إن تأريخ صيد المكروب تأريخ مليء بالخاطرات الجميلة، والإيحاءات النادرة؛ ولكن به كذلك كثير من الغباوات المدهشة، والمتناقضات المجنونة. ولا يختلف تأريخ علم المكروب في هذا عن تأريخ علم الحصانة وهو العلم الذي لا يزال ناشئاً، وبه تتفسر لنا مناعة الإنسان من المكروب، فالذي بدأ هذا العلم، على نحوٍ ما، هو رجل باحث كثير الاهتياج، قليل الاتزان، ذو جنة تعاوده كثيراً.

وكان هذا الرجل يهودياً يدعى إيلي متشينيكوف ولد في جنوب روسيا عام 1845، وقبل أن يبلغ العشرين قال لنفسه: (إني ذو غيرة وذو مقدرة، وقد حبتني الطبيعة مواهب راجحة، وأنا أطمع أن أكون بحاثاً كبيراً) وذهب هذا الشاب إلى جامعة خركوف واستعار من بعض أساتذته مجهراً، وكانت المجاهر عندئذ نادرة، وأخذ ينظر فيها نظرات لم تكن دائمة بينة واضحة، ومع هذا قام على أثرها فكتب مقالات علمية طويلة، وذلك قبل أن يعلم ما العلم وما كنهه وما جوهره، وغاب أشهراً عن فصول الجامعة وعن دروسها؛ ولم يكن للعب غاب ولكن للقراءة؛ ولم تكن قراءة القصص والنوادر، ولكن قراءة مؤلفات كبيرة في العلم مثل كتاب: (بلورات لأجسام زلالية) وغير ذلك كان يقرأ كتيبات ونشرات لو أطلع عليها رجال الأمن لنفوه إلى مناجم سيبريا؛ وكان يسهر الليالي، ويكرع جالونات من الشاي، ويخطب رفقاءه، وهم أجدادُ بلا شفةِ اليوم، خطباً هائجة صاخبة جاحدة تنكر وجوه الله حتى لقبوه (لا إله) وجاءت خاتمة السنة فقام إلى دروسه التي تراكمت في الأشهر السابقة فحفظها عن ظهر قلب؛ وكانت له ذاكرة أشبه شيء باسطوانات الفونوغرافات منها بالعقل الإنساني، فجاز الامتحان وظهرت النتيجة فكتب إلى أهله يقول لهم إنه نجح وكان أول الناجحين، وفوق ذلك نال وساماً من ذهب.

وكان متشينيكوف شديد العجلة في أمره نفسه، يود أن يسبق الزمن بها، ويحملها على أشياء قبل أن يأتي أوانها. بعث بالمقالات العلمية وهو لا يزال في عقده الثاني، وكان يكتبها في سرعة الهالع بعد ساعات قليلة من تحرير مجهره على بقة أو خنفساء، ويصبح الصباح فيعود إلى مجهره ليراها مرة أخرى، فإذا به يرى ما لم يكن يراه بالأمس فيسرع بالكتابة إلى رئيس تحرير المجلة يقول له: (أرجو أن لا تنشر مقالة الأمس، فقد وجدت نفسي مخطئاً. وأحياناً كان يرسل المقالة فلا تنشرها المجلة فيثور ويغضب ويصيح: (إن الدنيا تجهل قدري) ويذهب إلى غرفته يتأهب للموت وهو يصفر صفير اليائس الحزين: (لو كنت في صغر الحلزون، لطويت جسمي في صدفي).

بكى وناح لأن أساتذته والناس لم يقدروا مواهبه حق قدرها، ولكن لم يفت ذلك في عضده ولم يستطع أن يضعضع من أمله، فنسي ما كان انتواه من قتل نفسه، ونسى ما كان من ضيقه ووجع رأسه، أنساه إياه حبه المقيم لكل شيء حي. ولكنه أفسد على نفسه الفرصة كلما أمكنته من إجراء بحث علمي قيمٍ متواصل، ذلك بأنه كان دائما يشاجر أساتذته وينازع معلميه. وأخيراً كتب إلى أمه، وكانت تؤمن به وتعطف عليه وتفسده، فقال لها: (إن أكبر همي أجده في دراسة البروتوبلازم في دراسة مادة الجسم الحية. . . ولكن روسيا خالية من العلم والعلماء). وعلى هذا ذهب مسرعاً إلى جامعة فرتزبرج بألمانيا؛ فوجد أنه وصل قبل ابتداء العام الدراسي بستة أسابيع. فأخذ يبحث عن بعض الطلبة الروسيين فوجدهم، ولكنهم لم يرحبوا به لأنه كان يهودياً، فضاقت بنفسه مسالك الحياة، وعاد راجعاً إلى بلده وهو يعتزم الموت. وكان في حقيبته بضعة من الكتب التي أقتناها، وكان من بينها كتاب أصل الأجناس لصاحبه داروين، وكان قد خرج إلى السوق حديثاً، فقرأه، وفي جرعة عقلية واحدة بلغ كل الذي فيه، وصار من أنصار نظرية النشوء الشديدين. ومن هذا الوقت دان بهذه النظرية إلى أن تهيأ له الوقت ليصطنع لنفسه من العلم ديانات جديدة يدين بها.

نسي ما أختطه لهلاك نفسه، وبدأ يخطط الخطط لأبحاث في هذه النظرية الجديدة، ورقد الليل ولكن لم ينمه لأنه أخذ يتخيل الخيالات عن ساحات واسعة قد امتلأت بطوائف الأجناس الحيوانية من الصرصور الصغير إلى الفيل الكبير، ثم تخيل إلى جانبها

حيا بالغ الصغر هو جدها الكبير الأبعد.
وكان هذا الانقلاب بدء حياة متشينيكوف الحق، فأنه عندئذ خرج يحاج ويشاجر من معمل إلى معمل، ومن روسيا إلى ألمانيا إلى إيطاليا، ومن إيطاليا إلى جزائر هيليجو لاند وأدام هذا الشجار والحجاج عشر سنوات، واشتغل في بحث نشأة الديدان، وأتهم لوكارت عالم الحيوان العلامة بسرقة بضاعته؛ وكانت أصابعه لا تحسن العمل الدقيق، وكان لا يرجى لها أن تتعلم إحسانه، فذات مرة جاء بعظاية وضرب فيها بكلتا يديه ضربة المستقتل اليائس يريد أن يكشف في بطنها عن سر النشوء، فلما أعجزه أن يعلم منه شيئاً رمى بالذي تبقى من الزاحفة عبر المعمل. كان متشينيكوف على نقيض كوخ ولوفن هوك، فهذان الرجلان العظيمان عرفا كيف يتلطفان إلى الطبيعة فيسألانها عما يريدان وفازا منها بالجواب. أما صاحبنا فقرأ كتباً في نظرية النشوء، فألهمته وحمسته، فأمن بها.
وأعلن إيمانه مسموعاً عالياً، ثم جاء بعد ذلك يعالج التجارب لا ليمتحن بها عقيدته الجديدة، بل ليفرضها على الطبيعة فرضاً، وليدسها في حلقها لتبلعها اغتصاباً. ولكن العجيب أنه أصاب في هذا أحياناً، وعندئذ كانت إصابته ذات خطر كبير. ولم يكن عندئذ يعلم شيئاً عن المكروب، أعني في أخر العقد الثامن من القرن الماضي. ولكن إلحاحه كالمجنون في إثبات أن الأصلح هو الأبقى، وأن الفاسد للذهاب، هو الذي ساقه إلى تلك النظرية البديعة الخلابة نظرية الحصانة التي تصف كيف يصد الإنسان هجمات الفاتكات من المكروب، وهي نظرية صحيح بعضها برغم مظهرها الخيالي الذي لا يدعو إلى التطامن إليها
كانت السنوات الخمس والثلاثون الأولى من حياته كثيرة الاضطراب والصخب أشرف فيها على المهالك، ولكنه سار من طريقها المُخطر على جسر ضيق نفذ به في أخر الأمر إلى
الشهرة الواسعة التي كانت تنتظره على شواطئ صقلية في البحر الأبيض المتوسط. وتزوج قبل أن يبلغ الثالثة والعشرين لُدْميلا فودورفتشي وكانت مسلولة حتى كان لا بد من حملها في كرسّيها إلى حيث يعقد زواجها. وتبع هذا الزواج أربع سنوات مضت عليهما في أبأس حال وأكثرها استدراراً للرحمة، قضياها يجر بعضها بعضاً عبر أوربا يبحثان عسى أن يجدا لذات الصدر دواء. وفي أثناء ذلك، وفي أثناء تمريض هذه الزوجة العليلة المسكينة تمريض عطوف حنان توتر عصبه وثقل قلبه كان يختطف سويعات يجري فيها تجارب يدرس بها تنشؤ بق النبات والاسفنجيات والدود والعقارب، يريد بذلك أن يقع على اكتشاف يهز الناس فتأتيه من ورائه أستاذية تدر عليه مالاً كثيراً. وهمس لنفسه وهو يكتب رسالاته العلمية، وهمس لها وهو يبعث بالرسل ويدفع بالوسائط ويختط الخطط ويحاور ويداور في طلب الوظيفة، قال: (إن البقاء ليس للأصلح؛ وليس هو للأكثر طيبة وخيراً، وإنما هو للأشد مكراً وللأنكى خبثاً وماتت لُدْميلا. وكانت قضت أيامها الأخيرة تتخلص من آلامها بالمرفين. فأقتبس زوجها عادة المرفين منها، ولما نفض تراب قبرها عن يديه قام عنه هائماً يضرب في الأرض، وأخترق إسبانيا متوجهاً إلى جنيفا وهو يزيد كل يوم مقدار العقار الذي يتعاطاه، وساءت عيناه أثناء ذلك وآلمته ألماً كبيراً. وما الباحث في الطبيعة إذا لم يكن له عينان تبصران؟ وصرخ: (ما الفائدة من هذا العيش!) وأخذ جرعة كبيرة من المرفين أيقن أنها لا بد قاتلته، ولكنها كانت أكبر مما تحملته المعدة فقاءها. وصرخ مرة أخرى: (ما نفع هذه الحياة!) وأستحم استحمامة ساخنة وخرج منها يتعرض عامداً إلى الهواء البارد الطلق عسى أن تصيبه من ذلك نيمونيا فتذهب بحياته، ولكن لم يظهر أن الآلهة الحكيمة المزاحة التي تقوم بتجهيز البحاث لهذا الكوكب شاءت له غير الذي شاءه لنفسه، أبقت عليه لحاجة في نفسها. وفي هذه الليلة عينها ساقته رجلاه إلى حيث أبصر طائفة من الحشرات كالغمام تدور وتحوم حول لهب مصباح. فأستوقفه هذا المنظر ووقف يتأمله بتعجب ظاهر وفم مفغور. صاح لنفسه: (إن هذه الحشرات لا تعيش إلا ساعات قليلة، فليت شعري كيف يستفاد بها لدرس نظرية بقاء الأصلح؟) وبهذا عاد فوصل من جديد تجاربه المقطوعة.
حزن متشينيكوف على زوجه حزناً شديداً ووجد عليها وجداً مبرحا، ولكن الأيام كانت

سريعة في شفاء الوجد ولأم الجرح العميق. وتعين أستاذاً في جامعة أودسا، وفي هذه الجامعة علم بقاء الأصلح، وفيها وضح علمه، وأرتفع قدره، وزاد في الناس إجلاله. ولم تمض سنتان على وفاة زوجته الأولى حتى التقى بفتاة في الخامسة عشرة، وفي وجهها بشاشة، وفي قلبها ذكاء. وكان اسمها أولجا، وكانت ابنة رجل ذي يسار، ونظرت أليه، فأسرت عينها إلى قلبها، قالت: (إن وجهه كوجه المسيح في قدسيته. لونه امتقاع، وعليه سحابة من كآبة). ولم يمض طويل من الزمن حتى تزوجها.
ومنذ هذا الزواج هدأت حياته كثيرا، وقلت نداءاته لعزرائيل كثيرا، وأخذت يداه تتعلمان أجراء التجارب لتلحق بعقله الذي نضج قبل أوانه، وأصبح العلم له ديناً، وتعلق به إيماناً؛ وأدخله في كل أمر من أمور عيشه في تحمس لم يسمع بمثله، وأخذ بيد أولجا يدخلها في هذا الدين علماً وفناً، وعلمها حتى علم الزواج وفنه! وعبدت فيه ذلك اليقين المغرق الذي أعطاه العلم إياه، ولو أنها قالت بعد ذلك بسنوات كثيرة: (إن الطريقة العلمية التي طبقها زوجي في غير هودة على كل شيء جاز ألا تخلق لنا إلا شراً في تلك الساعة المخطرة من حياتنا، والنفس دقيقة الحس في انتقالها من حال إلى حال.
(يتبع)
أحمد زكي
للتأريخ السياسي:
اليوم السابع من مارس - 4
ضربة مسرحية في برلين
للدكتور يوسف هيكل
موقف دول لوكارنو وقرار مجلس العصبة
لنر الآن ماذا كان رد الفعل في عواصم دول لوكارنو، وموقف فرنسا وبريطانيا وبلجيكا وإيطاليا إزاء حوادث 7 مارس والمذكرة الألمانية:
كان وقع قرار 7 مارس شديداً على باريس، ولقد أهاج الدوائر الرسمية والرأي العام، برغم أن هذه الحوادث كانت في الحسبان، وأول عمل احتياطي قامت به حكومة باريس هو إبقاء الجنود الذين كانوا على أهبة الذهاب إلى بيوتهم تحت السلاح إلى أجل غير مسمى، ثم إرسال جنود وقوى حربية لتحتل القلاع الواقعة على الحدود الألمانية.
وفي الساعة السابعة والنصف من مساء يوم الأحد الموافق 8 مارس ألقى مسيو سارو، رئيس الوزارة الفرنسية، خطاباً في الراديو على الشعب الفرنسي، عرض فيه العلاقات الفرنسية الألمانية منذ الحرب والجهود التي بذلتها فرنسا للتوفيق بين الجارتين. . . وقد صرح بأن الحكومة عازمة على المحافظة على معاهدة لوكارنو التي هي شرط أساسي لسلامة فرنسا. . وأنها ترفض منهاج الهر هتلر لسببين: أولهما أن ألمانيا قدمت مثلين في تمزيق المعاهدات بقرار منها وحدها خلال سنة واحدة، وهذا العمل المنافي للحقوق الدولية يدعو إلى نزع الثقة من المعاهدات المقبلة التي تعقد معها. والسبب الثاني وهو أشد فظاعة، كون ألمانيا قد أرسلت قوى عسكرية إلى أراضي الرين خلافاً لكل قانون دون أن تعلم الدول بعزمها قبل تنفيذه، ودون أن تفكر في المفاوضة مع دول لوكارنو للوصل إلى حل مرض، بل جابهت هذه الدول (بالأمر الواقع) في أبشع وأفظع صوره. وقال بأن فرنسا سترفع الدعوة إلى مجلس عصبة الأمم، وأنها ستضع قواها المعنوية والمادية تحت تصرف مؤسسة جنيف. . .
وفي يوم الثلاثاء الموافق 10 مارس ألقى مسيو سارو (رسالة) الحكومة في مجلس النواب، ومسيو فلاندان في مجلس الشيوخ، وعرضت الحكومة فيها أعمال الحكومة النازية المخالفة للحقوق الدولية، وتمزيقها المعاهدات المقدسة. . . وأبان بأن عمل الهر هتلر لا يضع على بساط البحث مشكلة الرين، بل مسالة حرمة المعاهدات والعلاقات الدولية وكيان عصبة الأمم. وقال إنه إن أخذت كل أمة ترفض المعاهدات حسب إرادتها فلا سلام ولا حرمه للقانون، بل تحل محل الحق القوة المادية. . .
وفي هذا الخطاب هدأت حكومة باريس ثورتها، ولطفت رفضها البات في المفاوضات، وقالت إنها لا ترفض العمل لحل المشاكل الحالية ولتحسين العلاقات الفرنسية الألمانية، غير أن فرنسا لا تستطيع المفاوضة تحت ضغط القوة التي تمزق المعاهدات الموقع عليها عن طيب خاطر.
وأخذت الصحافة تندد بأعمال الهر هتلر وتبين الخطر الذي سيواجه أوربا نتيجة لعدم

. . .احترام المعاهدات. . . وتلوم بريطانيا لاتباعها اللين مع ألمانيا ولمسايرتها لها
أما في لندن فقد أخبر مستر ايدن السفير الألماني عندما تسلم منه مذكرة بأن حكومة جلالته غير راضية عن انتهاك ألمانيا حرمة المعاهدات. وقال في خطابه الذي ألقاه في مجلس العموم في 9 مارس بعد أن أبان مخالفة عمل الهر هتلر للحقوق الدولية، والخطر الذي ينجم عن اتباع مثل هذه السياسة، إن عمل ألمانيا لا يعد تهديداً، غير أن الحكومة البريطانية تصرح بأنها ستكون في صف فرنسا وبلجيكا فيما إذا هاجمت ألمانيا إحداهما. . .
وغريب بأن يقول مستر ايدن بأن عمل ألمانيا لا يعد تهديداً، ومعاهدة فرساي صريحة العبارة في قولها (البند 44) بأنه في الحالة التي تخالف فيها ألمانيا مضمون البندين 42و43 (تعتبر قائمة بعمل عدائي نحو الدول الموقعة على هذه المعاهدة ومحاولة تعكير صفو السلام).
ولكي يثبت مستر بلدوين من أن الأزمة الحالية سوف لا تقود بريطانيا إلى تطبيق سياسة (العقوبات) الاقتصادية على ألمانيا أصر على أن يوافق اللورد هاليفاكس مستر ايدن في جميع اجتماعاته التي لها علاقة بحوادث الرين، واللورد هاليفكس صديق ألمانيا الحميم. . .
وكان وقع حوادث 7 مارس في الدوائر السياسية اللندنية نقيض ما كان عليه في باريس.
وإن كان ساسة لندن غير راضين عن الطريقة التي أتبعها هتلر في الوصول إلى احتلال أراضي الرين، غير انهم وافقوا ضمناً على نتيجة عمله، حتى أن بعضهم صرح بذلك، والبعض الآخر أخذ يقول بأن عمل هتلر ما هو إلا فرصة مناسبة لحل المشكلات الأوربية، وخصوصاً لإزالة كل خلاف بين ألمانيا وفرنسا! وكانت الصحافة وعلى رأسها (التيمس) تقول بهذا الرأي. ولا عجب في ذلك، إذ أن الرأي العام في بريطانيا ناقم على معاهدة لوكارنو، حتى أنها كانت سبباً في ضياع شهرة السير أستن شمبرلين، ولأن حكومة لندن تريد إنعاش ألمانيا وإدخالها ضمن حلقة دول ذات المكانة في السياسة الدولية، لكي تتخذ منها سنداً ضد فرنسا التي أخذت تعاكس بريطانيا ظاهرة في سياستها الخارجية، من جهة ثانية، ولقد رأينا الهر هتلر عرف كيف يستفيد من هذا الشعور البريطاني ويستغله.
وموقف بلجيكا يشابه موقف فرنسا: فالرأي في الدوائر السياسية والرأي العام ضد حوادث 7 مارس على خط مستقيم. لاسيما وأن بلجيكا لم تكن عضواً في المعاهدة الروسية الفرنسية، التي هي في رأي الهر هتلر، سبب زوال لوكارنو. . .
أما إيطاليا فلزمت الصمت، ولم تبد صحافتها رأياً في ذلك. على أن ممثل إيطاليا صرح بأن حكومته تحترم لوكارنو، غير ان ظروفها الحالية ترغمها على التحفظ. . .
رفعت فرنسا وبلجيكا وحدهما الدعوى إلى مجلس عصبة الأمم، في حين أن معاهدة لوكارنو توجب ذلك على جميع الموقعين عليها، إذ هي تعتبر احتلال أراضي الرين عملاً عدائياً نحو كل من المتعاهدين. . .
وكان مكان اجتماع مجلس العصبة عاصمة بريطانيا حسب اقتراح مستر إيدن. وعقدت الجلسة الأولى الساعة 11 من صباح يوم السبت التالي لحوادث 7 مارس، في قصر (سنت جيمس) وكانت سرية، وقال مستر إيدن في هذه الجلسة إنه يظهر له من المادة 17 من صك العصبة وجوب تمثيل ألمانيا في جلسات مجلس العصبة. وبعد جدال حول هذا التفسير للمادة 17 تقرر أن يرسل سكرتير مجلس العصبة برقية إلى الهر هتلر يقول فيها بأن (. . . مجلس العصبة يدعو حكومة ألمانيا بصفتها عضواً في معاهدة لوكارنو لتشترك في فحص مجلس العصبة للدعوى التي رفعتها حكومتا فرنسا وبلجيكا. . .)
ولقد ذهب مساء يوم السبت السير أريك فيبس، سفير بريطانيا في برلين لمقابلة بارون فون
نيرات وزير خارجية ألمانيا ليعلمه بأن بريطانيا تعلق أهمية كبرى على قبول ألمانيا دعوة مجلس العصبة. وفي صباح الأحد زار السير اريك فيبس (الزعيم) وأوقفه على رأي حكومة لندن.
وبعد أن استشار الهر هتلر مستشاريه أرسل إلى سكرتير العصبة يخبره بأن حكومة

ألمانيا تقبل الدعوة مبدئياً على شرطين:
أولهما: أن يكون لممثل حكومة ألمانيا حق المساواة مع بقية ممثلي أعضاء المجلس في المرافعات وقرارات المجلس.
وثانيهما: أن تتسلم حكومة ألمانيا تأكيداً قطعياً بأن الدول المعنية - مستعدة للدخول حالا - في المفاوضة على (منهاج السلام الألماني)؛ الذي يعتبرونه (أي الدول) وإعادة السيادة الألمانية في أراضي الرين كخطوة سياسية متحدة، وجزأين متلازمين لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر.
واعتبرت بريطانيا الشرط الأول معقولاً ومقبولاً. وأن عزم بريطانيا كان ولا يزال على أن تكون ألمانيا في لندن على قدم المساواة مع الدول الأخرى. وأما الشرط الثاني فقد أغضب الدوائر السياسية وأثار الصحافة على حكومة برلين، وكتبت مقالات رئيسية ناقشت فيها أعمال هتلر وجوابه الأخير، حتى أن لهجة (التيمس) كانت غير مألوفة.
ومما قالته في عددها الصادر في 10 مارس إنه يجب التذكير وإعادة القول بأن عمل ألمانيا كان مهيناً في أسلوبه، و (إن دولة غير شريفة قادرة دائماً وأبداً على أعمال غير شريفة). . وأنه حجر عثرة محال قبوله، ولا يمكن لفرنسا احتماله
وفي الواقع لقد أثار جواب الهر هتلر الرأي العام الفرنسي وأخذت الصحافة تهاجمه مهاجمة عنيفة، واضعة اللوم كله على بريطانيا لمساعدتها ألمانيا وتشجيعها لها. ولقد صرح مسيو فلاندان لمراسلي الصحف بأنه يرفض طلب الهر هتلر لسبب واحد فقط: هو أنه قدم لندن ليسجل الاعتداء على لوكارنو؛ وهو لا يريد مناقشة أي شيء غير هذا، حتى وإن كلفه ذلك مغادرة لندن وترك مجلس العصبة.
ولما رأى الهر هتلر أن الرأي العام ناقم على جوابه، خشي خسران عطفه عليه، فعمل على تخفيف وقع جوابه، فأرسل إلى حكومة لندن يخبرها بأنه خطأ قد حصل في ترجمة جوابه؛
إذ أن المترجم قد ترجم كلمة بكلمة أي (حالا) في حين أنه يجب ترجمتها بعبارة أي (في أقرب وقت). . .
وتلي تلك الجلسة السرية أول جلسة علنية للدورة (91) غير العادية لمجلس العصبة الساعة 11 والدقيقة 45 من يوم السبت الموافق 14 مارس برياسة مستر بروس وجلس عن يمينه مسيو فلاندان وسنيور جراندي، وعن يساره مستر افينول ومستر إيدن، والرفيق ليتفينوف وكلونيك بك، وبقية الأعضاء على الجانبين.
وبعد أن قرأ الرئيس اللائحة التي قدمتها فرنسا وبلجيكا، قام مستر إيدن، ورحب بأعضاء المجلس بالنيابة عن الحكومة البريطانية وقال إنه يترك الكلام إلى ممثلي فرنسا وبلجيكا، وسيبدي وجهة نظر بريطانيا في وقت آخر.
ثم قام مسيو فلاندان وقرأ بيان فرنسا بصوت هادئ وجلي، وقال بان الواجب هو الذي دعا فرنسا إلى رفع الدعوى إلى مجلس العصبة لاحقها في ذلك، لأن فرنسا الحق في اتخاذ إجراءات مادية وعسكرية لإعادة كل شيء إلى ما كان عليه، غير أنها فضلت ألا تزيد في تعقيد المشكلة، بل تريد الوصول إلى حل سلمي ومرضي؛ وهي تثق في عدالة مجلس العصبة، وتطلب منه أن يضع قراراً مبينة فيه الإجراءات الفعالة التي يجب اتخاذها لوضع الحق في نصابه، وقال إن عمل ألمانيا يضع السلام وكيان عصبة الأمم في خطر عظيم. . . وأبان بأن معاهدة فرساي تعتبر احتلال أراضي الرين عملاً عدائياً، ومعاهدة لوكارنو تعتبره تعدياً على المعاهدة؛ وأن فرنسا تطلب تسجيل هذا التعدي في السجل الرسمي. . .
(يتبع)
يوسف هيكل
المتنبي يعشق. . .!
للأستاذ محمد سعيد العريان
(كل أدباء العربية على أن المتنبي نشأ نشأة السواد من أهل الكوفة، وأن حياة الكفاح شغلته وملأت تأريخه حتى لم يكن فيها من الفراغ ما يهيئ له أن يتذوق الحب فيترجم عن إحساس العاشق.
ولكن صديقنا الأستاذ محمود محمد شاكر يرى رأياً غير ذلك؛ فيزعم أن المتنبي علوي) منكور النسب، وأنه كانت له في بلاط سيف الدولة قصة غرام بينه وبين خولة أخت

الأمير، كان لها أثر أي أثر في شعره وحياته من بعد
وهو رأي جديد في تأريخ المتنبي، أحسب أن طائفة كبيرة من أدبائنا لا تطمئن إليه ولا
. . .تأخذ به، حرصا على التقاليد. . . أو حفاظا على القديم وحسب
أما هذا الرأي عندي فهذه قصته، تجلو غامضة، وتؤلف غريبه، وتكشف عنه على ضوء)
(. . .من الفن يهيئ للباحث المصنف أن يجادل أو يقتنع
مضى الفتى العلوي الثائر المتوثب (أبو الطيب المتنبي)، تتقاذفه الفلوات من غربة إلى
غربة، وتتراماه الأحداث من بلد إلى بلد، وتنوشه من كل جانب سهام البغي والشر
. . .والحسد، ويقعد له في كل مرصدٍ كيدٌ يتربص
ممن أبوك يا فتى؟ وما بلدك؟. . . وهل له أن يجيب؟
أما الأولى فمن دونها سيوف (الأدعياء) تنكر عليه أن يجهر بعلويته، وماله قبلُ بأن
!. . .ينازلهم فيثبت لهم
وأما الأخرى. . . وا أسفاه. . .! هذه جدته على الفراش تحتضر، وَحِدَةً منقطعة فريدة،
!. . .فيأبون عليه أن يدخل (الكوفة) ليتزود منها بالنظر الأخير
لمن الملك اليوم؟ إنه للروم والترك والعجم، ولا سلطان لغير الروم والترك
والعجم. . . في العراق، وفي مصر، وفيما بين العراق ومصر. . . في الشرق والغرب
يبسط الأعاجم سلطانهم على الدولة العربية، فأيان يلتفت الشاعر العربي لا يجد إلا
الروم. ومن أين لأبي الطيب أن يسكن إلى ذاك أو يستقر إليه؟ إنه ليرمي بصره إلى
هنا وهناك، فلا يرى إلا ما يحزنه ويتهاوى بآماله؛ لقد خرج إلى الدنيا طريداً يتيماً،
ينكرون عليه نسبه، وينكرون عليه
طموحه؛ ثم ها هو ذاك وقد سلخ أربعا وثلاثين يتلفت حواليه فما تزيده النظرة إلا
شعورا بالوحدة واليتم والغربة. . . ولكن في أعراقه يفور دم العروبة، وفي أعصابه
.تنبض أماني الشباب، وفي نفسه تهمس ألحان الشعر
ستكون أميراً يا أبا الطيب، فأجمع عزيمتك على الجهاد حتى تبلغ، فتنال منالك من)
(. . .(الشامتين)، وتديل للعربية من (دولة الخدم)
وأنطلق الشاعر المتوثب يطوي البيداء مطوياً على هم وألم، وفي نفسه أحقاد تثور،
.وأماني تتضطرع. . . حتى انتهى إلى بني حمدان
هنا دولة العرب، وهنا عز العروبة، وهنا تستقر الأماني لتستجم للجهاد. وأجتمع الشاعر
العربي الثائر، بالمجاهد العربي الظافر؛ وانعقدت أواصر الود بين أبي الطيب المتنبي
وسيف الدولة بن حمدان. وآثره الأمير وأدناه وفتح له بابه. . . فإذا هو منه كبعض أهله.
. . وتراءيا قلباً لقلب، فما بينهما سر ولا دونهما حجاب؛ وتكاشفا رأياً لرأي، فما هو إلا
فكرة واحدة تسعى إلى هدف؛ وَتَنَوَّرَا الأمل المشترك من بعيد، فإذا هما على الخلوة
.يتذاكران الرأي، ويتحايلان للظفر
وصار شاعر الأمير صفيه وخليله وصاحب سره، يلقاه أيان يريد بلا إذن ولا ميعاد. . .
. . .وعرفه حاجب الأمير وأهله، وعرفته (خولة) بنت حمدان، فعرفت رجلها وعرف
وقال أبو الطيب: (لله أنتِ يا أبنة المجد! لعينيك كنت أطوي البيد وتتقاذفني الفلوات!)
وقالت خولة: (ومن أجلك أنت يا أبا الطيب، كانت تخيل لي الأحلام ما ليس من
دنياي!)
وطوت آخر كلماتها في ابتسامة، وأطبق الشاعر شفتيه على كلام؛ وقالت له
. . .عيناها. . . وقالت له عيناه
. . .ودخل الشاعر في تأريخ جديد
وقال المتنبي لسيف الدولة: (أتراك يا أميري تعرف من أمري ما يقنعك بالرضا. . .؟)
. . .فوعده سيف الدولة أن يزوجه خولة
وراح الشاعر يحلم. . . ثم عاد يحاول أن يلقى صاحبته فيقول لها وتقول له، ولكن
الباب كان محكم الغلق؛ فلوى وجهه عن بابها وفي نفسه شوقٌ وحنين، ولكنه استمر
!. . .يحلم
ومضى ينشد أميره من شعره. . . أذلك شعر المتنبي الثائر المتكبر ربيب الوحشة وطريد
الفلوات؟ أم هو الفن النسوي البديع يهيئ للشاعر مادته ويصنع له بيانه. . .؟ أسمعْتَ
وسوسة القُبَل. . .؟

وسمع سيف الدولة وطرب، وسمع جلساؤه فعرفوا الجرس والرنين؛ وهمس شاعر في أذن صاحبه، ومال صديق على من يليه، وقال الخامس للسادس: (إن شاعر الأمير لعاشق!) وامتدت للكلام أطراف وأذناب . . .

وراح الشاعر ثانية يحاول أن يلقى صاحبته، فإذا من دون الباب بواب. . . وعاد إلى الأمير يستنجزه الوعد، فإذا الأمير في شغل عنه بالروم وحرب الروم، فهو يستمهله إلى حين. . . ورجع إلى نفسه يستلهمها الصبر فلا تلهمه، ويستعينها على ما يجد فلا تعينه. . . ونظر حواليه فإذا عيون تنظر، وإذا شفاه تبتسم، وإذا ألسنة في أفواه تلجلج بكلام. . .

كم يلقى العاشق من نأى الحبيب والدار قريب. . .؟

وقال الرجل لنفسه: (ما أنا والأمير وأخت الأمير: إن كانت لي فما يحول بيني وبينها؟ وإن كانت عدة بلا وفاء فما مُقامي؟)

وقالت له نفسه: (هون عليك يا صاحبي، لا حبٌ بلا وجد؛ إلا أن تكون نارٌ بلا إحراق!) فعاد الشاعر ينتظر ويحلم، ولكن الأيام لا تنتظر، ومضى شهر في أذيال شهر، وتصرم عام وراء عام، والشاعر العاشق على صبره يرجو ويتقي. . .

وقال (أبو الفراس الحمداني) الشاعر لصاحبه: ما هذا الرجل بيني وبين خولة ونحن أولاد عمومة؟ أما كفاه مجلسه من الأمير؟ أبعدنا وأدناه، وحرمنا وأعطاه، وأسكتنا وأستمع أليه؟ أفيطمع بعد ذلك في نسب الأمير وصهره. . .؟)

وجاءت مقالته تسعى إلى المتنبي فنالت منه. . .!

أبو فراس يطمع في خولة؟ ولكنها مسماةٌ عليّ؛ أيقف بين الأمير والوفاء بما وعد أن) (أبا فراس من عمومته. . .؟ ومن أكون إن كان ذلك موضعي من نفس الأمير. . .؟

فعادت نفسه تقول: (بعض هذا يا صاحبي، إن الحب حيلة الحياة، فلست تبلغ منه بالكبرياء ما تبلغ منه بالصبر والحيلة. . .!)

ولكن العاشق المتكبر لم يستمع هذه المرة إلى نفسه وهواه؛ لقد غلبته الكبرياء فكفر بالحب؛ وهل كان للمتنبي أن يخضع للحب أو يتضرع. . .؟

وتوزعه العشق والكبرياء، وتقاسمته عزة الرجل ورقة العاشق. . . وغدا على مجلس الأمير ينشده، فإذا الحب المستور يستعلن، وإذا النفس الثائرة تفور، وإذا (أنت) على لسان الشاعر المادح تعود (أنا)، وإذا هو يفتخر وكان يريد أن يمدح. .

وفهم سيف الدولة ما يعني، وفهم جلساء سيف الدولة؛ ولكن حرمات الأمير الكريم ردت الكلام إلى الأفواه، فما استطاع منهم أحد أن يقول: إن في بيت الأمير قصة غرام

ولكن (أبا العشائر الحمداني) لم يسكت، فأرسل غلمانه يأخذون على العاشق الجريء طريقه. . ونجا الشاعر من كيد كان يراد، ولكنه لم ينتقم، وشفع للعدو عند الشاعر أنه منتسب إلى الحبيب.

واستيأس المتنبي ونفذ صبره، فأزمع الرحلة إلى بعيد لعله أن ينسى. . .

وفارق سيف الدولة متكبراً عزيزاً أبياً، ولكنه خلف قلبه وراءه، وخلف الأمل في الملك والجاه والسعادة، وأيقظته الحقيقة بعد حُلم دام تسع سنين؛ ومضى على غير وجهٍ وقلبُه يتلفت إلى تلك التي خلفها وراءه؛ وعادت تتقاذفه البلاد، وتتراماه القفار، يساوم للمجد، ويجاهد للأمارة، لعله يعود إلى من يحب وعلى رأسه تاج. . . .!

ومضت سنوات وقلب العاشق ما ينفك ينبض، وما يبرح يذكر هواه ومن أحب؛ فما ينشد شعراً إلا وفيه لوعة من أثر الفراق، أو حسرة من وحشة الحبيب النائي. . .!

وا أسفا لمشتاقٍ بلا أمل. . . تمضي لياليه بغير جديد، وتنقضي أيامه على غير ميعاد، مغيظاً على بعده (غيظ الأسير على القد. . .!)

ليت شعري. أكان هو وحده المعذب الملتاع بهذا الفراق الذي أختاره فراراً بكبريائه. . .؟

ودخل الكوفة يطلب العزاء في الوطن الذي حرم دخوله منذ الشباب، تتجاذبه الكبرياء والهوى، وتتدافعه الأماني والذكريات، ويسترجع الماضي ويهتف بالغد. . . ولكن ما استقرت به النوى حتى جاءه النبأ. . . ماتت خولة. . .!

وتهاوت آمال الشاعر أملاً أملاً فما عاد يستمسك، ونالت منه الحسرة والتفجيع فانصدعت كبده. وسكت أمير شعراء العربية سنتين لا ينشد، والشعر يترقرق دموعاً

في عينيه ويتصعد زفرات. . .!
يا عجبا! إن النفس لا تجيش بأبلغ الشعر إلا حين يتأبى البيان على اللسان. . .!
وأستنجزه الحب على أن يفي فما تلبث. وأصابته الطعنة القاتلة بعد عام ثالث. . .!
وسكت شاعر العربية إلى الأبد، ولكن الناس ما تزال تتحدث عنه بعد ألف سنة من عمر الزمان ولن تزال. . .
وكتب في تأريخ الأدب قصة غرام عجيبة، لم يعرفها الناس إلا بعد ألف سنة، لأن العاشق فيها أكبر وأعظم من أن يقول؛ (أنا أحب. .!)
وظلت هذه القصة سراً في ضمير الغيب كل هذا الزمان، لتكون بهذا الكتمان العجيب رمزاً عجيباً لصبر هذا الشاعر العاشق: أبي الطيب المتنبي. . .

محمد سعيد عريان

ضوء جديد على ناحية من الأدب العربي

اشتغال العرب بالأدب المقارن أو ما يدعوه الفرنجة

في كتاب تلخيص كتاب أرسطو في الشعر

لفيلسوف العرب أبي الوليد بن رشد

- تلخيص وتحليل -

للأستاذ خليل هنداوي

مقدمة:

إن الإنسان لولوع جداً بإظهار الحقائق على طريق المقارنة، والمقارنة قد تكون مقارنة فرد بفرد أو شعب بشعب. أما الأولى فقد تكاد تكون شائعة في كل عهد لأنها رأس كل نقد. والأوائل لم يغمروا مثلاً امرأ القيس بما غمروه من فيض عبقريته إلا بعد أن قرنوا شاعرية غيره إلى شاعريته. والإنسان مسوق بطبعه الموروث إلى مثل هذه المقارنة التي قد تكون غريزية في كل كائن يفكر ويشعر. أما المقارنة الثانية فهي حديثة النشأة، لأن النقد لم يكن ليخطر في باله أن يقيم الأوزان بين أدباء أمتين مختلفتين ثقافة واتجاهاً وشعوراً. ومن كان يفكر في المقارنة بين شكسبير وراسين، ودانتي وميلتون، وبين ميزات الأدب الألماني والأدب الفرنسي؟ وكل واحد منهم يمت بوسائله إلى أمة مستقلة في تطورها وبيئتها. ولكن الأدب - كما يبدو - له سلطان قاهر، يرمي بالحواجز التي تفصل بين الحدود الصناعية ويقتحم في عوالم الفكر والخيال دون أن يصد اقتحامه شيء لأنه الأدب. . . وهكذا نشأت الصلات الأدبية بين الأمم إلى ما شاء ربك!. . وربطت بين المفكرين ربطا لا يقوم على مصالح سياسية أو مطامع مادية، وإنما يقوم على رفع منارة الفكر وإعلاء كلمة الفكر. فما أطهر هذه الرابطة لو أنها تخرج من هذا العالم غير المحدود إلى العالم الذي سودته الحدود! فتجد الأديب الفرنسي يحلل الأديب الألماني دون أن تطغى على قلبه سورة الحقد. وتجد الأديب الألماني يكتب عن الأديب الفرنسي من غير أن تغلب عليه موجدة. ذلك أن عالم الفكر سما بهما فوق عالمهما المحدود الذي غمرته الحزازات وتقطعت بين وشائجه الأسباب. فهما يتفاهمان في ذلك العالم ويصافح بعضهما بعضاً.

هذا هو الأدب بالمقارنة يعمل على درس ميزات أدب كل أمة بمقارنتها مع ميزات غيرها من الأمم. وهو أدب - كما قلت - حديث الخلق، شجع على نشره شيوع الأدب الإنساني. ولعل رسالة الفلسفة كانت أسبق من الأدب إلى هذه الرسالة. لأنها تنعتق من قيود العاطفة ولا تتخذ مطيتها إلا الفكر. والفكر اصلب عوداً من العاطفة. والفلسفة وحدها كانت أبعد العلوم الفكرية شيوعاً وذيوعاً في كل عصر، تكتسبها الأمم الغالبة من الأمم المغلوبة دون أن يلحقها عار الاكتساب، ودون أن تتحوط له. كما نقل العرب الفلاسفة اليونانية بحذافيرها، وطبقوها على عقائدهم الفكرية والاجتماعية، حتى غدا اليونان أساتذة العرب في الفلسفة. أما الأدب اليوناني فلم يكتب له حظ الانتقال في كثير ولا قليل. ولعل ذلك يعود إلى اختلاف الإحساس والتعبير عند الأمتين. ومن عجب الأيام أن يمتزج المنطق اليوناني مع العقل، ويتبدل حتى يغدو جزءاً من العقل العربي. والأدب اليوناني لا يكتب له إلا الخيبة.

ألم يتدارس العرب الأدب اليوناني، كما تدارسوا الفلسفة اليونانية؟ قد يظن أنهم درسوا شيئاً منه وسمعوا ألحان هوميروس فيه، ولكن ألحانه لم تطب لهم، لأن هذه الأساطير التي يطفح بها أدبهم جاءت في العهد الذي كان يسيطر فيه المنطق اليوناني

على العقل العربي، فصموا عن هذه الألحان ولم يعيروها التفاتاً. وقد يظن أن الأدب العربي الذي كانت معجزة البلاغة منه كان سيد نفسه، لا يميل إلى اقتباس قواعد البلاغة من غيره، وما فوق بلاغة الكتاب بلاغة. وقد يُظن - وأرجح هذا - أن العرب طووا الأدب اليوناني - اعتماداً على الظن الثاني - ولم يلجوا فيه، فلم ينم لهم ذلك الذوق اليوناني الذي يستطيع أن يحس لذة فنهم وعبقريتهم كما يحس أهله! وبذلك طغا العقل اليوناني على العرب. أما أدبه فلم يكن له في الدائرة نصيب.

على أن هذا الأدب لم يترك له أثراً في الأدب العربي قد شغل بعض أذهان رجال من العرب؛ شغلها عن طريق الفلسفة لا عن طريق الأدب. فأبن رشد والفارابي قد ناقشا الشعر اليوناني لا بالطريقة التي ينبغي لصاحبها أن يتبعها ويتخذ لها السبل المختلفة في نفسها، وإنما ناقشاه بالطريقة التي أتبعها أرسطو. فلولا أرسطو لم يتصد ابن رشد والفارابي للشعر

اليوناني، فهما في ذلك متبعان لا مبتدعان. فإذا أثنى ابن رشد على هوميروس فهو لم يثن بلسان نفسه وفن نفسه، وإنما يثني لأن ارسطو أثنى عليه. وسبب ذلك واضح، لأنهما قرءا تحليل أرسطو لهوميروس ولم يقرءا لهوميروس نفسه. وبذلك ظل الأدب اليوناني بعيدا عنهما. وبالرغم من ذلك نرى ابن رشد قد استطاع أن يدرس قواعد شعرهم ويفيد من تلك القواعد ويعمل على تطبيقها في آداب أمته. وعمله هذا هو ما نريد منه (الأدب المقارنة) وهذه المقارنة برغم نقصها الفني جاءت مقارنة حسنة في بابها، مبتدعة وقتها. ألقت على الأدب العربي ضوء دراسة جديدة. على أن أدباء العرب الذين وقفوا على هذه المقارنة وشعروا بهذا التفاوت لم يجدوا في أنفسهم ما يحملهم على مناقشة هذه القواعد والاستفادة منها، وقد رأوا ما حل بإخوانهم الفلاسفة من الوشايات والمكائد التي كانت تنصب لهم، وألوان الاضطهاد الذي نزل عليهم. أضف إلى ذلك أن الألحان الوصفية والعاطفية في الشعر اليوناني كانت تتمشى في تضاعيفها العقيدة والوثنية والآلهة الكثيرة، والعرب كانوا شديدي الغيرة على هذا الواحد زهوا به على الأمم، فصرفتهم الأساطير عن تذوق ما في الأساطير.

تذوق هذان الرجلان بعض روائع الأدب اليوناني ولكن طبيعتهما الأدبية لم تكن لتخول لهما أن يكونا زعيمي مدرسة في الأدب جديدة، فلن يخرج تأثيرهما عما اختصا به. وهيهات أن يصنع الفيلسوف ما يصنعه الأديب في عالم أدبه. فلو أن ابن الرومي مثلاً تذوق هذه الروائع إلى حد بعيد لفعل أكثر مما فعل، ولخلق للشعر أخيلة أخرى ونماذج أخرى، ولكن ابن رشد ما عسى يستطيع أن يعمل وهو ليس بزعيم مدرسة أدبية! إنه يجادل ويحدد ويهدي إلى مناهج ومناهج ولكنه لا يخلق شيئاً.

إن فضل ابن رشد على الأدب العربي في هذا الكتاب لفضل عظيم، لأنه يدل على العربي الأول الذي كتب عن الأدب بطريق المقارنة، ووفق في هذه المقارنة كثيراً؛ ويدل بعد ذلك على أن العرب جربوا أن يدرسوا الآداب الأجنبية ليستفيدوا ويفيدوا من قواعدها، وأن دراستنا - اليوم - للأدب الأجنبي أكثر ضرورة منها بالأمس، بعد أن امتزجت عوالم الفكر واتحدت مناهج الأدب، وأصبح لا يليق بنا أن نترك الأدب العربي محصوراً في عزلته بحجة صيانة ووقايته. وما الذي يخشى عليه؟ وإنما صيانته ووقايته في تعريضه للهواء

والنور لا في حجبه عنهما، وفي تقريبه من الآداب العالمية حتى يساهم معها في تأدية رسالتها لا في تنفيره منها وتنفيرها منه، على أن يبقى أدبنا محتفظاً بألوانه، ويبقى أديبنا عاملاً على إبدائها لا على إخفائها؛ وبهذا نحقق غاية من غايات الأدب، ونفتح لنا زاوية في عمارة الأدب، ونكمل الخطوة الأولى التي خطاها الأوائل ولم يكملوها.

غرض الكتاب وغرض الشعر:

وقعت مصادفة على مقالات منثورة من هذا الكتاب، وهي مقالات لا تكاد تؤلف المصنف كله، وإنما وجدت بأنها تعطي فكرة عامة عن الكتاب ومنهج صاحبه ومترجمه فيه. وقد بينت أن المترجم إنما عنى به لأنه أثر من آثار أرسطو، ولأن قواعده في الشعر ذهبت قوانين عامة، لأن أرسطو الجبار الذي أراد أن يفرض سلطان العقل على كل سلطان أراد أن يوحد مملكة الشعر ويمسك على الإحساس كما أمسك على العقل، جاهلاً أن الفرق بين هاتين المملكتين مملكة الإحساس ومملكة العقل فرق كبير، ولكن الرجل أستدرك وزعم أنه يذكر قوانين عامة للشعر، وهو لا يخوض في تولد

الإحساس وملاءمة التعبير عن الإحساس، لأن هذا مما يتفاوت فيه العباقرة أنفسهم، فألف هذا الكتاب ليكون له كتاب في الشعر كما ترك كتاباً في الخطابة والموسيقى، ولقد أنتصر هذا العقل إلى حد كبير في هذه الميادين التي تختلف عن ميدانه الذي خلق له، والتي لم يكن لها مفر منها ليستطيع أن يمثل حق التمثيل ثقافة عصره. ولقد استطاع إلى حد بعيد أن يكسو هذه الأشياء النافرة عنه بأردية عقله وتفكيره، فتبيت تقرأ الشعر فكراً والتصوير تفكيراً. ولم لا ينتصر وقد أدرك بعين التأمل عبقرية هوميروس وأثنى عليه الثناء الجميل؟ وكيف يوفق الناقد بين رجلين خلدت الطبيعة هذا بعقله وذلك بقلبه؟

كتب أرسطو كتابه عن الشعر لا كما يريد الشعر لأن أرسطو مكبل بعقله مقتحم بمنطقه. فالأقيسة والأسطقسات والبراهين لا تكاد تفارق ما أراد منه أن يكون قوانين عامة للشعر، فجاءت قوانينه بذلك قوانين جافة قاسية يغلب عليها الذهن الرياضي، لو مشى عليها الشعر ذاته لجاء ممسوخاً. وجميل أن تدخل الفلسفة الشعر بشرط أن تتنازل كثيراً عن أقيستها حتى يمكنها أن تتذوق الشعر.

تناول ابن رشد هذا الكتاب وترجمه وتصرف فيه كثيراً وأحسن في هذا التصرف كثيراً، فأنه استغنى عن النماذج اليونانية التي يستشهد بها المؤلف وأحل محلها نماذج عربية احسن انتقائها واصطفاءها ودلت على ثقافة أدبية عالية في ابن رشد لا تقل قيمة عن بقية الثقافات التي يتضلع بها الفيلسوف. ولكن عيب الترجمة في ابن رشد طوى كل النماذج اليونانية، ومن حقه أن يأتي بها ويضع إزاءها ما جاء به من نماذج العرب لتكون الترجمة والمقارنة في الأمانة سواء؛ وجاء تقسيمه للمقالات بحسب تقسيم أبواب الشعر عند العرب، لأنه وقف درسه على هذه الأبواب، وقد أضاف إليها دراسات مختلفة في صناعة الشعر والغاية منها، وفي ألحانه وأوزانه بالنظر إلى التوقيع لا إلى الأعاريض، وفي العلل المولدة للشعر، وفي التخيلات والمعاني، وفي كيفية التخلص إلى ما يراد محاكاته وأنواع المحاكاة المقبولة وغير المقبولة، وفي صناعة الأشعار القصصية. وكان أكثر توسعاً وتصرفاً في درس صناعة (المديح وأجزائها) لأن هذه الصناعة كانت أروج أبواب الشعر في ذلك العهد، وموضع التفات أكثر الشعراء، ولسهولة المقارنة فيها، واستخراج النماذج منها، وقد غض عن ذكر (الهجاء) لأن قوانينه تنطبق على قوانين المديح. على أن ابن رشد ليلام لوما عنيفاً في هذا الباب لإهماله باب الوصف إهمالاً كلياً. ولعل درسه له كان يعمل على خلق جديد فيه. ولا ريب عندي أن أرسطو قد عالج هذا الباب الواسع عندهم معالجته لغيره من الأبواب، ولكن ابن رشد قد طوى كشحاً عنه كما ضرب صفحاً عن غيره.

أما الغرض من هذا الكتاب فهو - كما يقول صاحبه - (تلخيص القوانين الكلية المشتركة لجميع الأمم أو للأكثر في الشعر ونسبة الموجودة في كلام العرب أو كلام غيرهم. والشعر عنده هو أقاويل يحتاج إلى وزن ولحن، ولا يسمى الشعر إلا ما جمع إلى الأقاويل التي تسمى شعراً مع الألحان كهوميروس (ولعل هذا النوع هو ما يدعى الشعر القصصي، وهو أول ما عرفه اليونان من ضروب الشعر)، وقد أدخل على الصناعة الشعرية بعض أقيسة منطقية، دأبها تكبل الشعر، ولكنها تقوم العقل.

(البقية في العدد القادم)

خليل هنداوي

العجوزان - 4

تتمة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال محدثنا: وكنت قد ضقت بهذه اللجاجة الفلسفية ورأيتني مضطغناً على الشيخين معاً؛ فقلت للعجوز (ن): حدثني (رحمك الله) بشيء من قديمكما فأنتما اختصار لكل ما مر من الحياة يستدل به على اصله المطول إلا في الحب. . . وما زلتما في جد الحديث تعبثان بي منذ اليوم، فقد عدلتما بي إلى شانكما ورأيكما في القديم والجديد وبقي أن أميل بكما ميلة إلى سنة 1895. وقد والله كاد ينتحر قلبي يأساً من خبر (كاترينا ومرغريت)؛ ولكأنك تخشى إذ أعلمتني خبر صاحبتك هذه وهي من وراء أربعين سنة - ما تخافه من رجل سيفجؤك معها في الخلوة على حال من الريبة فيأخذك (متلبساً بالجريمة) كما تقولون في لغة المحاكم. . .

قال فضحك العجوزان وقال (ن): لا والله يا بني، أقول ما قال ذلك الحكيم العربي لقومه وقد بلغ مائتي سنة: (قلبي مضغة من جسدي ولا أظنه إلا قد نحل كما نحل سائر جسدي وأعلم يا بني إنه إذا ذهب الحب عن الشيخ بقي منه الحنان يعمل مثل عمله؛ فيحب العجوز مكاناً أو شيئاً أو معنى أي ذلك كان ليعيده ذلك إلى الدنيا أو يبقيه فيها (بقدر الإمكان). . .) فضحك الأستاذ (م) وقال: ولعل ثرثرة العجوز (ن) هي الآن معشوقة العجوز (ن).

ثم قال: وكل شيء يرق في قلب الرجل الهرم ويحول وجهه كأنه لا يطيق أن ينظر إلى معناه الغليظ؛ ولا بد أن يخرج العجوز من معاني الدنيا قبل أن يخرج من الدنيا. ولهذا لا يهنأ الشيخ إلا إذا عاش بأفكار جسمه الحاضر وقدر الأمور على ما هو فيه لا على ما كان فيه. والفرق بين جسمه الحاضر وبين جسمه الماضي أن هذا الماضي كانت تحمله أعضاؤه فهو مجتمع من أعمالها وشهواتها ماضٍ في تحقيق وجودها ومعانيها. أما الحاضر؛ أما الجسم الهرم فهو يشعر أنه يحملُ أعضاؤه كلها وكأنها ملفوفة في ثيابه كمتاع المسافر قبل السفر. . . وكأن بعضها يسلم على بعض سلام الوداع يقول تفارقني وأفارقك.

فتململ الأستاذ (م) وقال: أفٍ لك ولما تقول! لا جرم أن هذه لغة عظامك التي لا صلابة فيها، فمن ذلك لا تجيء معانيك في الحياة إلا واهنة ناحلة فقدت أكثرها وبقي من كل شيء منها شيء عند النهاية. أليس في الهرم إلا أن يبقى الجسم ليكون ظاهراً فقط كعمشوش

العنقود بعد ذهاب الحب منه يقول كان هنا وكان هنا؟

ألا فأعلم يا (ن) إن هذه الشيخوخة إنما هي غلبة روحانية الجسم على بشريته، فهذا طور من أطوار الحياة لا تدعه الحياة إلا وفيه لذته وسروره كما تصنع بسائر أطوارها؛ غير أن لذاته بين الروح والجمال، ومسراته بين العقل والطبيعة، وكل ما نقص من العمر وجب أن يكون زيادة في إدراك الروح وقوتها وشدتها ونورها. وقد قيل لبعض أهل هذا الشأنٍ وكان في مرض موته: كيف تجد العلة؟ فقالوا سلوا العلة عني كيف تجدني؟

وإنما تثقل الشيخوخة على صاحبها إذا هي انتكست فيه وكانت مراغمةً بينه وبين الحياة، فيطمع الشيخ فيما مضى ولا يزال يتعلق به ويتسخط على ذهابه ويتصنع له ويتكلف أسبابه، وقد نسى أن الحياة ردته طفلاً كالطفل أكبر سعادته في التوفيق بين نفسه وبين الأشياء الصغيرة البريئة، وأقوى لذته أن يتفق الجمال الذي في خياله والجمال الذي في الكون؛ وإنه لكما قلت أنت: لا يهنأ الشيخ إلا إذا عاش بأفكار جسمه الحاضر.

وما اصدق وأحكم هذا الحديث الشريف: (إن الله تعالى بعدله وقسطه جعل الرَّوحَ والفرحَ في الرضى واليقين، وجعل الهمَّ والحزنَ في الشك والسخط). فهذه هي قاعدة الحياة، لا تعاملك الحياة بما تملك من الدنيا، ولكن بما تملك من نفسك، وبذلك تكون السعادة في أشياء حقيقية ممكنة موجودة، بل تكون في كل ما أمكن وكل ما وجد. وإذا كان الرضى هو الاتفاق بين النفس وصاحبها، وكان اليقين هو الاتفاق بين النفس وخالقها، فقد أصبح قانون السعادة شيئاً معنوياً من فضيلة النفس وإيمانها وعقلها ومن الأسرار التي فيها، لا شيئاً مادياً من أعضائها ومتاعها ودنياها والأخيلة المتقلبة عليها.

فأطرق العجوز (ن) قليلاً ثم قال: (ربِّ إني وهَنَ العظمُ مني)، ألا ما أحكم هذه الآية! فو الله إن قرأت ولا قرأ الناس في تصوير الهرم الفاني أبدع منها ولا أدق ولا أوفى؛ ألا تحس أن قائلها يكاد يسقط من عجفٍ وهزال وإعياء، وأنه ليس قائماً في الحياة قيامه فيها من قبل، وأن تناقض هذه الحياة قد وقع في جسمه فأخلَّ به، وأن معاني التراب قد تعلقت بهذا الجسم تعمل فيه عملها، فأخذ يتفتَّت كأنما لمس القبر عظامه وهو حي، وأنه بهذا كله أوشك أن ينكسر انكسار العظم بلغ المبرد فيه أخر طبقاته؟

قال محدثنا: فقلت له: ترى لو أن نابغةً من نوابغ التصوير في زمننا هذا، تناول بفنه ذلك

المعنى العجيب فكتبه صورةً وألواناً، لا أحرفاً وكلمات، فكيف تراه كان يصنع؟

قال: كان يصنع هكذا: يرسم منظر الشتاء في سماءٍ تعلق سحابها كثيفاً متراكباً بعضه

على بعض يخيل أن السماء تدنو من الأرض، وقد سدت السحب الآفاق وأظلم بها الجو ظلامه تحت النهار المغطى، واستطارت بينها وشائع من البرق، ثم يترك من الشمس جانب الأفق لمعةً كضوء الشمعة في فتق من فتوق السحاب؛ ثم يرسل في الصورة ريحاً باردةً هوجاء، يدل عليها انحناء الشجر وتقلب النبات، ثم يرسم رجالاً ونساءً يغلي الشباب فيهم غليانه من قوة وعافية، وحب وصبابة، وتغلي فيهم أفكار أخرى. . . وهم جميعاً في هيئة المسرعين إلى مرقص؛ وهم جميعاً من المجددين. . .

ثم يرسم يا بني في آخرهم (على بعدٍ منهم) عمك العجوز (ن)، يرسمه كما تراه، منحل القوة، منحني الصلب، مرعشاً متزلزلاً متضعضعاً؛ وقد زعزعته الريح، وضربه البرد، وخنقته السحب؛ وله وجه عليه ذبول الدنيا، ينبئ أن دمه قد وضع من جسمه في برادة، والكون كله من حوله ومن فوقه أسباب روماتزم. . .

ثم يصوره وقد وقف هناك ساهماً كئيباً، رافعاً رأسه ينظر إلى السماء.

قال المحدث: وضحكنا جميعاً ثم قال الأستاذ (م): لعمري إن هذه الحياة الآدمية كالآلة صاحبها مهندسها؛ فأن صلحت واستقامت فمن علمه بها وحياطته لها، وان فسدت واختلت فمن عبثه فيها وإهماله إياها، وليس على الطبيعة في ذلك سبيل لائمة.

والشيخ الضعيف ليس في هذه الدنيا إلا الصورة الهزلية لمفاسد شبابه وضعفه ولينه ودعته تظهرها الدنيا ليسخر من يسخر ويتعظ من يتعظ.

قال (ن): أكذلك هو يا أستاذ؟

قال الأستاذ. بل هي الصورة الجدية من هذه الحياة الباطلة التي دأبها ألا تصرح عن حقيقتها إلا في الآخر، فتظهرها الدنيا ليُجل الحقيقة من يجلها. وليس إلا بهذه الطريقة يعرف من خراب الصورة خراب المعنى.

قال العجوز (ن): آه من إجلال الشيخوخة واحترام الناس إياها! إنهم يرونه احتراماً للشيخ والشيخ لا يراه إلا تعزية.

وما الأشياخ الهرمي إلا جنازات قبل وقتها لا توحي إلى الناس شيئاً غير وحي الجنازة من
مهابة وخشوع.

قال الأستاذ: إنما أنت دائماً في حديث نفسك مع نفسك، ولو كنت نهراً يا مستنقع لما كان في لغتك هذه الأحرف من البعوض.

قال العجوز الظريف: إن هذا ليس من كلام الفلسفة التي نتنازعها بيننا ترد على وارد عليك، ولكنه كلام القانون الذي لك وحدك أن تتكلم به أيها القاضي.

قال (م): صرح وبين فما فهمنا شيئاً

قال العجوز: هذا كلام قلته قديماً في حادثة عجيبة. فقد رفعت إلى ذات يوم قضية شيخ هرم كان قد سرق دَجاجة؛ وتوسمته فإذا هو من أذكى الناس، وإذا هو يجل عن موضعه من التهمة، ولكن صح عندي أنه قد سرق وقامت البينة عليه ووجب الحكم،

فقلت له: أيها الشيخ ما تستحي وأنت شائب أن تكون لصا؟

قال: يا سيدي القاضي كأنك تقول لي ما تستحي أن تجوع؟

فورد على من جوابه ما حيرني فقلت له: وإذا جعت أما تستحي أن تسرق؟

قال يا سيدي القاضي كأنك تقول لي: وإذا جعت أما تستحي أن تأكل؟

فكانت هذه أشد علي فقلت له: وإذا أكلت أما تأكل إلا حراماً؟

فقال: يا سيدي القاضي إنك إذا نظرت إلى محتاجاً لا أجد شيئاً، لم ترني سارقاً حين وجدت شيئاً.

فأفحمني الرجل على جهله وسذاجته، وقلت في نفسي لو سرق أفلاطون لكان مثل هذا؟ فتركت الكلام بالفلسفة وتكلمت بالقانون الذي لا يملك الرجل معه قولاً يراجعني به، فقلت: ولكنك جئت إلى هذه المحكمة بالسرقة فلا تذهب من هذه المحكمة إلا بالحبس سنتين.

قال محدثنا: وأرمضني هذا العجوز الثرثار وملأ صدري إذ ما برح يديرني وأديره عن (كاترينا ومرغريت)، ورأيت كل شيء قد هرم فيه إلا لسانه، فحملني الضجر والطيش على أن قلت له: وهب القضية كانت هي قضية (كاترينا) وقد رفعت إليك متهمة، أفكنت قائلاً لها: جئت بالمحكمة بالسرقة فلا تذهبين من المحكمة إلا بالحبس سنتين؟ وجرت الكلمة على لساني وما ألقيت لها بالاً ولا عرفت لها خطرا، فاكفهرَّ القاضي

العجوز وتربد وجهه غضباً وقال: يا بغيض! أحسبتني كنت قائلاً لها: جئت إلى المحكمة بالسرقة
فلا تذهبين من المحكمة إلا بالقاضي. . .؟
وغضب الأستاذ (م) وقال: ويحك أهذا من أدبكم الجديد الذي تأدبتم به على أساتذة منهم الفجرة الذين يكذبون الأنبياء ولا يؤمنون إلا بدين الغريزة ويسوغونكم مذاهب الحمير والبغال في حرية الدم. . .؟ أما إني لا أعلم أنكم نشأتم على حرية الرأي ولكن الكلمة بين اثنين لا تكون حرةً كل الحرية إلا وهي أحياناً سفيهة كل السفاهة كهذه القولة التي نطقت بها.
لقد كان الناس في زمننا الماضي أناساً على حدة، وكانت الآداب حالاتٍ عقليةً ثابتةً لا تتغير ولا يجوز أن تتغير، وكان الأستاذ الكافر بينه وبين نفسه لا يكون مع تلاميذه إلا كالمومس تجهد في أن تربي بنتها على غير طريقتها.
قال الحدث: فلججت وذهبت أعتذر، ولكن العجوز (ن) قطع علي وأنشأ يقول وقد انفجر غيظه: لقد تمت في هؤلاء صنعةُ حرية الفكر كما تمت من قبل في ذلك الواعظ المعلم القديم الذي حدثوا عنه أنه كان يقص على الناس في المسجد كل أربعاء فيعلمهم أمور دينهم ويعظهم ويحذرهم ويذكرهم الله وجنته وناره؛ قالوا فاحتبس عليهم في بعض الأيام وطال انتظارهم له، فبينما هم كذلك إذ جاءهم رسول فقال: يقول لكم أبو كعب: انصرفوا فأني قد أصبحت مخموراً. . . . . .
هذا القاص المخمور هو عند هؤلاء السخفاء إمام في مذهب حرية الفكر، وفضيلته عندهم إنه صريح غير منافق. . . وكان يكون هذا قولاً في إمام المسجد لولا أنه إمام المسجد؛ غير أن حرية الفكر تبنى دائماً في كل ما تبنى على غير الأصل، وعندها أن المنطق الذي موضوعه ما يجب، ليس بالمنطق الصحيح إذ لا يجب شيء مادام مذهبها الإطلاق والحرية.
كل مفتون من هؤلاء يتوهم أن العالم لا بد أن يمر من تفكيره كما مر من إرادة الخالق، وأنه لا بد له أن يحكم على الأشياء ولو بكلمة سخيفة تجعله يحكم، ولا بد أن يقول (كن) وإن لم يكن إلا جهله. ومذهبه الأخلاقي: اطلب أنت القوة للمجموع أما أنا فألتمس لنفسي المنفعة واللذة. ويحسبون أنهم يحملون المجتمع؛ فأنهم ليحملونه ولكن على طريق البراغيث في جناح النسر.
قال (م): وكيف ذلك؟
قال: زعموا أن طائفة من البراغيث اتصلت بجناح نسر عظيم واستمرأته ورتعت فيه، فصابرها النسر زمناً ثم تأذى بها وأراد أن يرميها عنه فطفق يخفق بجناحيه يريد نفضها، فقالت له البراغيث: أيها النسر الأحمق! أما تعلم أننا في جناحيك لنحملك في الجو. . .؟
أما أساتذة هذه الحرية الدينية الفكرية الأدبية، فقد قال الحكماء: إن بعرةً من البَعر كانت معلمة في مدرسة قال (م): وكيف ذلك؟
قال: زعموا أن بعرة كبش كانت معلمة في مدرسة الحصى، فألفت لتلاميذها كتاباً أحكمته وأطالت له الفكرة، وبلغت فيه جهدَ ما تقدر عليه لتظهر عبقريتها الجبارة؛ فكان الباب الأكبر فيه أن الجبل خرافة من الخرافات، لا يسوغ في العقل الحر إلا هذا، ولا يصح غير هذا في المنطق. قالت: والبرهان على ذلك أنهم يزعمون أن الجبل شيء عظيم، يكون في قدر الكبش الكبير ألف ألفِ مرة؛ فإذا كان الجبل في قدر الكبش ألف ألفِ مرة فكيف يمكن أن يبغره الكبش. . .؟
قال الأستاذ (م): هذا منطق جديد سديد لولا أنه منطق بعرة.
قال (ن): وكل قديم له عندهم جديد، فكلمة (رجل) قد تخنثت، وكلمة (شاب) قد تأنثت، وكلمة (عفيفة) قد تدنست، وكلمة (حياء) قد تنجست. والزمن الجديد ألا يعرف الطالب في هذا العام ماذا تكون أخلاقه في العام القادم. . . والحياة الجديدة أن تتقن الغش أكثر مما تتقن العمل. . . والذمة الجديدة أن مال غيرك لا يسمى مالاً إلا حين يصيرك في يدك. . . والصدق الجديد أن تكذب مائة مرة، فعسى أن يصدق الناس منها مرة. . . ثم الإنسان الجديد، والحب الجديد، والمرأة الجديدة، والأدب الجديد، والدين الجديد، والأب الجديد، والابن الجديد؛ وما أدري وما لا أدري.
قال (السوبرمان): وتنطعوا في إخراج المخلوق الكامل بغير دينه وأخلاقه، فسخرت

منهم الطبيعة، فلم تخرج إلا الناقص أفحش النقص، وتركتهم يعملون في النظرية وعملت هي الحقيقة.

قال محدثنا: ونهض العجوز (ن) وهو يقول: تباركت وتعاليت يا خالق هذا الخلق؛ لو فهموا عنك لفهموا الحكمة في إنك قد فتحت على العلم الجديد بالغازات السامة. . .

قال: ولما أنصرف العجوز، قلت للأستاذ (م): ولكن ما خبر (كاترينا ومرغريت) وسنة 1895؟

فقال: أيها الأبله، أما أدركت بعد أن العجوزين قد سخرا منك بأسلوب جديد. . . . . ؟

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

ذكرى المولد الشريف

للشاعر المطبوع الأستاذ أحمد محرم

مِنْ هيبةٍ يُغضى القريض ويُطرق ... ويميل فيك إلى السكوت المنطقُ
إيذن يَفِض هذا البيان فإنه ... مما يُفيضُ بيانك المتدفّقُ
ما في النوابغ من لبيبٍ حاذقٍ ... إلا وأنتَ ألبُ منه وأحذق
إن يلبس الشعرُ الجمال منوراً ... عبقاً، فأنت جماله والرونق
والقولُ مستلَبُ المحاسن عاطلٌ ... حتى يقولَ العبقريُّ المفلق
رُضتَ الأوابد لي أقودُ صعابها ... ورضيتني، إني إذاً لموفق
هي مدحتي انطلقت إليكَ مشوقة ... والسُبل تسطع، والمنازلُ تعبَق
أنت المجالُ الرحب تُعتصر القوى ... فيهِ، وتمتحن العتاقُ السَّبق
منبهرٌ و (كعب) عاجز ... و (الشاعر الجعديُّ) عانٍ موثق (حسان)
أطعمتهم فتنازعوا فيك المدى ... وأبيت فانقلبوا وكلٌ مُخفق
لي عذرهم، ما أنت من عدة المنى ... إلا وَراء مخيلةٍ ما تصدق
أنت احتملت الأمر تنصدع القوى ... مما يشق على النفوس، وتصعق
وسننت للمتعسفين سبيلهم ... متبلجاً سمحاً يضيءُ ويُشرق
يمشي الهدى فيه على يدك التي ... هي للهدى عضدُ أبرُّ ومرفق
ذُعرت (قريش) هل يبدل دينها ... رجلٌ ضعيف في العشيرة مُملق؟
لا المال ينصره، ولا هو إن دعا ... خفق اللواءُ له، وخف الفيلق
ينهى عن الأصنام وهي بموضع ... تمحي حواليه النفوس وتمحق
المال والعِرض الممنَع سورُه ... والمجد والشرف الصميم المعرق
من وصفهِ الأسد الضواري تدعى ... والخيل تصهل، والقواضب تبرق
الحقُ أقبل في لواءِ (إمامهِ) ... والحقُ أولى أن يسود وأخلق
يرمى به سودَ الغياهب ساطعاً ... تنجاب حول سناه أو تتشق
حارَ الظلام، فما يلوذ بجانبٍ ... إلا يحيط به الضياءُ ويحدق
الوحي مطرودٌ، وبأس (محمد) ... جارٍ إلى غاياته لا يُلحق
لا الضعف يأخذ من قواه ولا الواني ... بأولئك الهمم الدوائبِ يَعلق
بغى الأولى خذلوه من أنصاره ... والبغي نصرٌ للهداة مُحقق
زعموا الأذى مما يفلُّ مضاءه ... فمضى البلاءُ به، وجد المصدق
يأوي إلى النَفر الضعاف وإنهم ... لأشد منهم في النضال وأوثق
هم في حمى (الوحي المنزل) صخرة ... تعيي الدُّهاةَ، وجذوة تتحرق
وهبوا لربهم النفوس كريمة ... لا تُفتدى منه، ولا هي تعتق
المؤمنون الثابتون على الهدى ... والأرض ترجف والشوامخ تخفق
رزقوا اليقين، فلا ذليلٌ ضارع ... يطوى الجناحَ، ولا جبانٌ مشفق
جند النبيِّ، إذا تقدم أقبلوا ... والموتُ يفزع، والمصارع تفرق
صدعوا بناءَ الشركِ تحت لوائه ... فهوى، وطار لواؤه يتمزق
إن الذي جعل الرسالة رحمةً ... لم يرحم الدم في الغوايةِ يهرَق
بعث الرسول معلماً ومهذباً ... يبني الحياةَ جديدةً يتأنق
يتخير الأخلاق ينظم حسنها ... في كلّ ركنٍ قائم وُينسق
عفت الرسوم وأخلقت فأقامها ... شماء لا تعفو ولا هي تخلق
قدسية الأرجاء، ما برحابها ... عنتٌ، ولا فيها مكان ضيق

تسع الممالك والشعوب بأسرها ... وتفيض خيراً ما بقين وما بقوا
عرفت لحاجات العصور مكانها ... فلكُل عصرٍ سؤلُهُ والمرفق
مَنعت مغالقها الشرورَ وما بها ... للخير والمعروفِ بابٌ مُغلق
فيها لِدنيا العالمين مثابةٌ ... لولا التباعد والهوى المتفرق
أتمّ نظامها ... فانظر أينقضه الغبيُّ الأخرق؟ (المصلح الأعلى)
أوفى على الدنيا، وملءُ فجاجها ... بغي يزلزلها، وظلم موبق
والناس فوضى في البلاد يغرهم ... دينٌ من الخبل المضل ملفق
النفس مغلقةٌ على أوهامها ... والعقل مضطهدٌ يضامُ ويُرهق
سَجدوا لما صنعوا! فأين حلومهم؟ ... ولمن جباهٌ بالمهانةِ تُلصق؟
أهيَ التي رَفعوا وظنوا أنهم ... قوم لهم فوق السماكِ مُحلق؟؟
من يدعي شرفَ الحياةِ لمعشرٍ ... كفروا بمن يهبَ الحياةَ ويخُلق؟
إن تنب (مكةُ) بالرسول فما نبا ... عزمٌ تهدُ بهِ الصعابُ وتُسحق
كذب الطغاة: أيُرجفون بقتله ... والوحي سورٌ والملائك خندق؟؟
وَرَدَ (المدينةَ) زاخراً فجرى بها ... آذيُهُ، وطما العُباب المغرق
بطلٌ توسَع في ميادين الوغى ... لما تضَايق عن مداه المأزق
ساسَ الحوادثَ والنفوس، فتارة ... يَقِصُ الرقاب، وتارةً يترفق
يدعو إلى الحسنى، فإن جمح الهوى ... فالسيف مسنون الغرارِ مذلق
يرمي العوان بكلِّ أغلب باسلٍ ... يهفو إلى غمراتها يتشوق
لَمسَ العروش فما يزال يهزها ... ذعرٌ يطوف بها وهمٌ مقلق
صدعت قُوى الإسلام شامخ عزها ... فإذا الملوك أذلة تتملق
وإذا الممالك ما يهلل مغربٌ ... إلا استجاب له فكبر مشرقٍ
هذا تراث المسلمين، فبعضه ... يُزجى علانيةً، وبعض يسرق
عجز الحماةُ، فنائمٌ متقلبٌ ... فوق الحشيةِ، أو مغيظ مُحنق
عجزوا، فلا السلَب المباح كريمه ... يحمى، ولا العاني المكبل يُطلق
القوم صمٌّ في السلاح، وقومه ... مستصرخٌ يعوي، وآخرُ ينعق
إن كنت ذا حق فخذه بقوةٍ ... الحق يخذله الضعيف فيزهق
لغةُ السيوف تحل كل قضية ... فدع الكلام لجاهل يتشدق
وَكُن اللبيب، فليس من كلماتها ... شرعُ يداس، ولا نظامٌ يخرق
الخيل والرهج المثارُ حزوق ... والنارُ والدمُ والبلاء المطبق
فتشت ما بين السطور فلم أجد ... أن الأسود بصيدها تتصدق
أرأيت أبطالَ الكفاح وما جنى ... أملُ بأجنحة الرياح معلق؟
لا يأس من نفحات ربك إنني ... لأرى السنا خَللَ الدُجى يتألق

أحمد محرم

نشيد وطني

للأستاذ محمود الخفيف

مِصر يا أرض الفراعين الأولى ... موطِنَ العِزةِ في فجرِ الزَّمنْ
أسلمي أنا نزعنا للعلا ... مُذْ دعانا للعلا داعي الوطنْ
وَحيُ ماضينا جَلاَ المستقبلا
فتبينا المكانَ الأوَّلا
وسئمنا في الحمى طولَ الوسَنْ
دَرَجتْ في ظِلِ وادينا الحياه ... وبماضي عزمنا سارَ المثلْ
قل لمن يُزهى بمجدٍ أو بجاه ... نحنُ أهلُ السَّبْق في المجدِ الأوَلْ
نحن أبناءُ الميامينِ الغُزاه
قد رفعنا اليومَ في مِصرَ الجباه
وتغنينا بألحان الأملْ
رُوحنا أعيتْ على الدهر الفناء ... وطوت في صمتها طول الحقبْ
أبداً لن يفقد النيلُ الرجاء ... أو يرى واديه سوَء المنقَلبْ
عادت الروحُ وإن طال الخفاء
فتطلعنا إلى أوج العَلاءْ

وطلبنا موضعاً فوق الشهبْ
سِرُّ وادينا وإن طال السكون ... مستكنٌ فيه باقٌ مُدَّخَرْ
خالدٌ يطفو علىٍ غمر القرون ... نجتليه اليومَ محمودَ الأثرْ
في غدٍ نُحيي به عهدِ الفنونْ
في حمى النيل كما كُنَّا نكون
نجتني من غرسنا أحلى الثمرْ
يا وَريد القلب في الوادي الخضيب ... أنت يا من وهَبَ الوادي ثراه
سر، تدفق أيها النهرُ الحبيب ... يا عباباً يُبهر الفكرَ مداه
يا جَدِيداً وَهوَ للدهرِ ضريبْ
يتجلىَّ فيك لي معنى عجيب
فطن القلبُ إليه فوعاه
أنت كالمصريّ في نزعته ... زاخر بالخير فياض المعين
خالد تحكيه في فطرته ... وادع تنساب في خفض ولين
حالم كابنك في رقته
ولقد تحكيه في غضبته
باعتكار ثم تصفو بعد حين
إيه يا رمز المعالي والخلود ... قد شهدت المجد والدهر غلاء
وصحبت العزَّ في كل العهود ... في هجير الحرب أو ظلِّ السلام
قِرَّ عيناً أيها النهرُ الودود
قد صحونا بعد أن طال الهجود
وجمعنا بين رأي واعتزام
قد أبينا ذلة المستضعفين ... فوثبنا وثبة الأسْد الغضابْ
قد كرهنا البحر مسلوب السفين ... وملِلناَ البرَّموهون الجناب
فتآخينا على ضوء اليقين
وهتفنا نصرةُ الأوطان دين
قد دعت مصرُ فما أحلى العذاب
لم ينل من عزمنا حرُّ الجهاد ... لا ولن نخشى مع الحق الردى
قل لمن أعماه حقدٌ أو عناد ... نحن بالأرواح أعْزرْنا الفدى
لازم الجدُ خطانا والسداد
ولغير الحق لم نُلق القياد
أقبل الدهر علينا أو عدا
جنة الأرض رفعنا ذكرها ... وملأنا باسمها سمْع الأمم
أوَلم ننشر لها دُستورَها ... بالدَّم المسفوح من طيِّ العدم
بُغية النيل عرفنا مهرَها
فَلمحنا بعد حين فجَرها
وغداً نكشف عن مصرَ الظلم
شَيِّع الليلَ فَقَدْ لاح الصباحْ ... لم يَقِفْ يوماً على الدَّأب الفَلَكْ
عَهدُنا عهدُ جهاد وكفَاحْ ... بهما كلُّ عصيٍّ يُمتلكْ
فامتلئ من كبرياءٍ وطماح
وأتجِهْ صوبَ السموات الفساح
يا ابن مِصْر فالعلا والمجد لك
محمود الخفيف
القصص
قصة أندلسية واقعية
محمد الصغير
للأستاذ علي الطنطاوي
قال:
- كنت يومئذ صغيراً، لا أفقه شيئاً مما كان يجري في الخفاء، ولكني كنت أجد أبي رحمه الله - يضطرب ويصفر لونه كلما عدت من المدرسة فتلوت عليه ما حفظت من

(الكتاب المقدس)، وأخبرته بما تعلمت من اللغة الأسبانية، ثم يتركني ويمضي إلى غرفته التي كانت في أقصى الدار، والتي لم يكن يأذن لأحد بالدنو من بابها، فيلبث فيها ساعات طويلة، لا أدري ما يصنع فيها، ثم يخرج منها محمر العينين، كأنه قد بكى بكاء طويلاً، ويبقى أياماً ينظر إلي بلهفة وحزن، ويحرك شفتيه فعلَ من يهم بالكلام، فإذا وقفت مصغياً إليه ولاني ظهره، وانصرف عني من غير أن يقول شيئاً - وكنت أجد أمي تشيعني كلما ذهبت إلى المدرسة حزينة دامعة العين، وتقبلني بشوق وحرقة، ثم لا تشبع مني فتدعوني فتقبلني مرة ثانية - ولا تفارقني إلا باكية، فأحس نهاري كله بحرارة دموعها على خدي، فأعجب من بكائها ولا أعرف له سبباً؛ ثم إذا عدت من المدرسة استقبلتني بلهفة واشتياق، كأني كنت غائباً عنها عشرة أعوام - وكنت أرى والديّ يبتعدان عني ويتكلمان همساً بلغة غير اللغة الأسبانية، ولا اعرفها ولا أفهمها، فإذا دنوت منهما قطعا الحديث وحولاه، وأخذا يتكلمان بالأسبانية فأعجب وأتألم وأذهب أظن في نفسي الظنون حتى إني لأحسب أني لست ابنهما، وإني لقيط جاءا به من الطريق فيبرح بي الألم فآوي إلى ركن في الدار منعزل فأبكي بكاء مراً - وتوالت علي الآلام فأورثتني مزاجاً خاصاً يختلف عن مزاج الأطفال الذين كانوا في مثل سني، فلم أكن أشاركهم في شيء من لعبهم ولهوهم، بل أعتزلهم وأذهب، فأجلس وحيداً أضع رأسي بين كفي، وأستغرق في تفكيري، أحاول أن أجد حلاً لهذه المشكلات. . . حتى يجذبني الخوري من قميصي لأذهب إلى الصلاة في الكنيسة. . .

وولدت أمي مرة؛ فلما بشرت أبي بأنها قد جاءت بصبي جميل، لم يبتهج ولم تلح على شفتيه ابتسامة، ولكنه قام يجر رجله حزيناً ملتاعاً، فذهب إلى الخوري فدعاه ليعمد الطفل، وأقبل يمشي وراءه وهو مطرق برأسه إلى الأرض وعلى وجهه علائم الحزن المبرح واليأس القاتل، حتى جاء به إلى الدار ودخل به على أمي. . . فرأيت وجهها يشحب شحوباً هائلاً، وعينيها تشخصان، ورأيتها تدفع إليه الطفل خائفة حذرة. . . ثم تغمض عينيها، فحرت في تعليل هذه المظاهر، وازددت ألماً على ألمي. . حتى إذا كان ليلة عيد الفصح، وكانت غرناطة غارقة في العطر والنور، والحمراء تلألأ بالمشاعل والأضواء، والصلبان تومض على شرفاتها، ومآذنها، دعاني أبي في جوف الليل، وأهل الدار كلهم نيام، فقادني صامتاً إلى غرفته، إلى حرمه المقدس، فخفق قلبي خفوقاً شديداً، واضطربت، لكني تماسكت وتجلدت، فلما توسط بي الغرفة أحكم إغلاق الباب، وراح يبحث عن السراج، وبقيت واقفاً في الظلام لحظات كانت أطول علي من أعوام؛ ثم أشعل سراجاً صغيراً كان هناك، فتلفت حولي فرأيت الغرفة خالية ليس فيها شيء مما كنت أتوقع رؤيته من العجائب، وما فيها إلا بساط، وكتاب موضوع على رف، وسيف معلق بالجدار، فأجلسني على هذا البساط، ولبث صامتاً ينظر إلي نظرات غريبة، اجتمعت هي ورهبة المكان، وسكون الليل، فشعرت كأني انفصلت عن الدنيا التي تركتها وراء هذا الباب، وانتقلت إلى دنيا أخرى، لا أستطيع وصف ما أحسست به منها. . . ثم أخذ أبي يدي بيديه، بحنو وعطف وقال لي بصوت خافت:

- يا بني! إنك الآن في العاشرة من عمرك، وقد صرت رجلاً، وإني سأطلعك على السر الذي طالما كتمته عنك. فهل تستطيع أن تحتفظ به في صدرك، وتحبسه عن أمك وأهلك وأصحابك والناس أجمعين؟ إن إشارة منك واحدة إلى هذا السر تعرض جسم أبيك إلى عذاب الجلادين من رجال (ديوان التفتيش)

فلما سمعت اسم ديوان التفتيش ارتجفت من مفرق رأسي إلى أخمص قدمي، وقد كنت صغيراً حقاً، ولكني أعرف ما هو ديوان التفتيش، وأرى ضحاياه كل يوم وأنا غاد إلى المدرسة، ورائح منها - فمن رجال يصلبون أو يحرقون، ومن نساء يعلقن من شعورهن حتى يمتن، أو تبقر بطونهن، فسكت ولم أجب،

- فقال لي أبي: مالك لا تجيب؟ أتستطيع أن تكتم ما سأقوله لك؟

- قلت له: نعم

- قال تكتمه حتى عن أمك وأقرب الناس إليك؟

- قلت: نعم

- قال: فأقترب مني. أرهف سمعك جيداً. فأني لا أقدر أن أرفع صوتي. أخشى أن تكون للحيطان آذان تسمعني فتشي بي إلى ديوان التفتيش فيحرقني حياً. . .

فاقتربت منه، وقلت له:

- إني مصغ يا أبت
فأشار إلى الكتاب الذي كان على الرف. وقال:
- أتعرف هذا الكتاب يا بني؟
- قلت لا
- قال هذا كتاب الله
- قلت الكتاب المقدس الذي جاء به يسوع ابن الله؟
فاضطرب وقال:
- كلا هذا هو القران الذي أنزله الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. على أفضل مخلوقاته وسيد أنبيائه، سيدنا محمد بن عبد الله النبي العربي صلى الله عليه وسلم.
ففتحت عيني من الدهشة ولم أكد أفهم شيئاً.
- قال: هذا كتاب الإسلام، الإسلام الذي بعث الله به محمداً إلى الناس كافة. . فظهر هناك. . . وراء البحار والبوادي. . في الصحراء البعيدة القاحلة. . . في مكة، في قوم بداة مختلفين مشركين جاهلين، فهداهم به إلى التوحيد وأعطاهم به الاتحاد والقوة والعلم والحضارة، فخرجوا يفتحون به المشرق والمغرب، حتى وصلوا إلى هذه الجزيرة أسبانيا، وكان ملكها جباراً عاتياً، وحكومتها ظالمة غاشمة، وشعبها مظلوماً فقيراً جاهلاً متأخراً، فقتلوا الملك الجبار، وأزالوا الحكومة الظالمة، وملكوا الأمر في أسبانيا، فعدلوا بين الناس وأحسنوا إليهم وأمنوهم على أرواحهم وأموالهم، ولبثوا فيها ثمانمائة سنة. . . ثمانمائة سنة جعلوها فيها أرقى وأجمل بلاد الدنيا
. . .نعم يا بني نحن العرب المسلمين
فلم أملك لساني من الدهشة والعجب والخوف، وصحت به:
- ماذا؟ نحن؟. . . العرب المسلمين
- قال: نعم يا بني. هذا هو السر الذي سأفضي به إليك. . . نعم نحن. . . نحن أصحاب هذه البلاد، نحن بنينا هذه القصور التي كانت لنا فصارت لعدونا؛ نحن رفعنا هذه المآذن التي كان يرن فيها صوت المؤذن، فصار يقرع فيها الناقوس؛ نحن أنشأنا هذه المساجد التي كان يقوم فيها المسلمون صفاً بين يدي الله، وأمامهم الأئمة يتلون في المحاريب كلام الله فصارت كنائس يقوم فيها القسس والرهبان يرتلون فيها الإنجيل. . .
نعم يا بني. . . نحن العرب المسلمين، لنا في كل بقعة من بقاع أسبانيا أثر، وتحت كل شبر منها رفات جد من أجدادنا، أو شهيد من شهدائنا. نعم. . . نحن بنينا هذه المدن، نحن أنشأنا هذه الجسور، نحن مهدنا هذه الطرق، نحن شققنا هذه الترع، نحن زرعنا هذه الأشجار. . .
ولكن منذ أربعين سنة. . . أسامع أنت؟ منذ أربعين سنة خدع الملك البائس، أبو عبد الله الصغير آخر ملكونا في هذه الديار بوعود الأسبان وعهودهم فسلمهم مفاتيح غرناطة، وأباحهم حمى أمته ومدافن أجداده، وأخذ طريقه إلى بر المغرب، ليموت هنالك وحيداً فريداً شريداً طريداً، وكانوا قد تعهدوا لنا بالحرية والعدل والاستقلال. فلما ملكوا خانوا عهودهم كلها، فأنشئوا ديوان التفتيش، فأدخلنا في النصرانية قسراً، وأجبرنا على ترك لغتنا إجباراً، وأخذ منا أولادنا لينشئهم على النصرانية. فذلك سر ما ترى من استخفائنا في العبادة، وحزننا على ما نرى من امتهان ديننا، وتكفير أولادنا.
أربعون سنة يا بني ونحن صابرون على هذا العذاب الذي لا تحمله جلاميد الصخر ننتظر فرج الله. لا نيأس لأن اليأس محرم في ديننا، دين القوة والصبر والجهاد.
هذا هو السر يا بني فأكتمه وأعلم أن حياة أبيك معلقة بشفتيك؛ ولست والله أخشى الموت، أو أكره لقاء الله، ولكني أحب أن أبقى حتى أعلمك لغتك ودينك، وأنقذك من ظلام الكفر إلى نور الأيمان. فقم الآن إلى فراشك يا بني.
صرت من بعد كلما رأيت شُرفُ الحمراء، أو مآذن غرناطة، تعروني هزة عنيفة، وأحس بالشوق والحزن والبغض والحب يغمر فؤادي؛ وكثيراً ما ذهلت عن نفسي ساعات طويلة، فإذا تنبهت رأيتني أطوف بالحمراء وأعاتبها وأقول لها:
أيتها الحمراء. . . أيتها الحبيبة الهاجرة، أنسيت بناتك وأصحابك اللذين غذوك بأرواحهم ومهجهم، وسقوك دماءهم ودموعهم، فتجاهلت عهدهم وأنكرت ودهم. أنسيت الملوك الصيد الذين كانوا يجولون في أبهائك، ويتكئون على أساطينك، ويفيضون عليك ما

شئت من المجد والجلال والأبهة والجمال، أولئك الأعزة الكرام الذين إن قالوا أصغت الدنيا، وأن أمروا لبى الدهر. أألفت النواقيس بعد الآذان، أرضيت بعد الأئمة بالرهبان!
ثم أخاف أن يسمعني بعض جواسيس الديوان، فأسرع الكرة إلى الدار لأحفظ درس العربية الذي كان يلقيه علي أبي، وكأني أراه الآن يأمرني أن أكتب له الحرف الأعجمي فيكتب لي حذاءه الحرف العربي، ويقول لي: هذه حروفنا، ويعلمني النطق بها ورسمها ثم يلقي عليّ درس الدين، ويعلمني الوضوء والصلاة لأقوم وراءه وهو يصلي خفية في هذه الغرفة الرهيبة
وكان الخوف من أن أزل فأفشي السر، لا يفارقه أبداً، وكان يمتحنني فيدس أمي إلي فتسألني:
- ماذا يعلمك أبوك؟
- فأقول: لا شيء
- فتقول: إن عندي نبا مما يعلمك، فلا تكتمه عني
- فأقول: إنه لا يعلمني شيئاً
حتى أتقنت العربية، وفهمت القرأن، وعرفت قواعد الدين، فعرفني بأخ له في الله، فكنا نجتمع نحن الثلاثة على عبادتنا وقرآننا واشتدت بعد ذلك قسوة ديوان التفتيش، وزاد في تنكيله بالبقية من العرب، فلم يكن يمضي يوم لا نرى فيه عشرين أو ثلاثين مصلوباً، أو محرقاً بالنار حياً؛ ولا يمضي يوم لا نسمع فيه بالمئات يعذبون أشد العذاب وأفظعه، فتقلع أظافرهم وهم يرون ذلك بأعينهم، ويسقون الماء حتى تنقطع أنفاسهم، وتكوى أرجلهم وجنوبهم بالنار، وتقطع أصابعهم وتشوى وتوضع في أفواههم ويجلدون حتى يتناثر لحمهم. . .
وأستمر ذلك مدة طويلة، فقال لي أبي ذات يوم: إني أحس يا بني كأن أجلي قد دنا، وإني لأهوى الشهادة على أيدي هؤلاء، لعل الله يرزقني الجنة، فأفوز فوزاً عظيما؛ ولم يبق لي مأرب في الدنيا بعد أن أخرجتك من ظلمة الكفر وحملتك الأمانة الكبرى التي كدت أهوى تحت أثقالها، فإذا أصابني أمر فأطع عمك هذا ولا تخالفه في شيء
ومرت على ذلك أيام. وكانت ليلة سوداء من ليالي السَّرار، وإذا بعمي هذا يدعوني ويأمرني أن أذهب معه، فقد يسر الله لنا سبيل الفرار إلى عدوة المغرب، بلد المسلمين؛ فأقول له: وأبي وأمي؟. . .
فيعنف علي ويشدني من يدي، ويقول لي: ألم يأمرك أبوك بطاعتي؟
فأمضي معه صاغراً كارهاً، حتى إذا ابتعدنا عن المدينة وشملنا الظلام، قال لي:
- أصبر يا بني. . . فقد كتب الله لوالديك المؤمنين السعادة على يد ديوان التفتيش. . .
.
(دمشق)
علي الطنطاوي
من أسخلوس
لايوس وأوديب
(درامتان مفقودتان)
للأستاذ دريني خشبة
مقدمة: كانت محنة بيت لايوس ملك طيبة، من أعمال بووطيه إحدى مقاطعات هيلاس، مرتعاً خصيبا لأخيلة شعراء اليونان، وقد اتخذوا منها مادة خالدة لمآسيهم، وكتب فيها اسخيلوس ثلاثا من أروع مآسيه هي لايوس، أوديبوس، سبعة ضد طيبة. وقد فقدت الدرامتان الأوليان مع الأسف الشديد، وبقيت الثالثة التي تنم بأسلوبها الرائع عما كانت عليه أختاها من الكمال والسمو. ومما يعزينا من فقدتينك الدرامتين ما وصل إلينا من آثار سوفوكليس؛ فقد ساهم هو الأخر في تخليد تلك المآسي وأبقت غير الأيام على درامتيه القويتين (أوديبوس الملك) و (أوديبوس في كولونوس) ولما كنا لم نسغ تقديم الدرامة الباقية من ثلاثية إسخيلوس وهي (سبعة ضد طيبة) دون التعريف بالدرامتين اللتين تقدمتاها فقد آثرنا تلخيص هاتين الدرامتين عن مصادر محترمة موثوق بها على أن نلخص الدرامة الباقية بعد ذلك.
- 1 -
تزوج لايوس ملك طيبة من الأميرة الجميلة جوكاستا، ومضت سنون والملكة لا تنجب؛

فكان عقمها يشجي الملك، ويكدر صفو حياته؛ وكانت هي أيضاً تحس بما يحس زوجها من مرارة الحياة بلا ولد، وإقفار القصر من بلبل غرد يملؤه موسيقى ويعمر ما أجدب روحي المليكين، ويربط قلبيهما برباطه المقدس، الذي لا ينفصم.

فكان الملك وقتاً ما شقيا وكانت الملكة وقتا ما شقية

- 2 -

ثم أخذها المخاض فجأة، وتحقق الأمل المنشود فوضعته غلاماً زكياً مشرق الوجه مفتر الثغر وضاح الجبين. يقبض كفيه الصغيرتين فكأنما يقبض بهما على نواصي المشرقين والمغربين!

وبدا للملك أن يرسل رسله إلى دلفي يستنبئون كهنة أبوللو عما سيكون من شأن الغلام، وما يضمره له الغيب في صفحته

!!وا أسفاه! لقد عاد الرسل من دلفي بأشأم نبوءة

إذا عاش هذا الغلام فأنه يقتل أباه، ويتزوج من أمه، ويجر على شعبه شقاء ما ينتهي (!!حتى تفنى ذريته)

يا للهول! لقد سمع الملك إلى النبوءة؛ وكأنما انطفأت في عينه شمس السعادة المشرقة، وكأنما ران على قلبه من الهم ما يضنيه، فما يدري ماذا يصنع!؟

أما الملكة، فيالها من شقية مرَزَّأة! لقد أحست، مذ عرفت النبوءة، كأنما قد ولدته أفعوانا أرقم، كهذه التنانين الخرافية التي تمتلئ بها أساطير قومها!. . .

- 3 -

وأسقط في يد الملك، ثم أعتزم أن يقتل الغلام، فعسى أن تبدله الآلهة خيراً منه: (إن نبوءات دلفي لا تكذب ولا تطيش، ومادام هذا الولد سيقتلني إذ عاش، فأني قاتله، ومجنب أمه الفضيحة، وشعبي الرزايا والأشجان!)

ودعا إليه واحداً من خدمه المخلصين فأسر إليه بكلمات. . . وأحتمل الخادم الغلام ومضى به إلى البرية ليذبحه. . .

ونظر الرجل في وجه الطفل فرأى البراءة والطهارة والنقاء، ورأى عينين صافيتان تطل منهما السماء بما فيها من آلهة. . . كأنما تأمره ألا يفعل!. . .

ورأى شفتين رقيقتين كأنما تكلمانه بلغة علوية في ألفاظ كالنسيم الحلو لا تبين، ولكن تغمغم. . . ولا تسمع ولكن تفهم. . . تسترحمانه!

ورأى أذنين ترتعشان كالدينارين، كأنما تقولان له: (أيها الرجل لقد سمعنا ما اسر إليك الملك فحذار أن تقتل هذا الطفل صاحبنا!. . .)

ثم نظر الرجل في السماء فرأى سحاباً رقيقاً ممزقاً تصبغه الشمس بأرجوان خفيف كالدم المطلول، فيجفل قلبه، وتراع نفسه ويقسم ألا يقتل الولد!

ولكن ماذا يقول للملك؟ إذن: (لأربط من عقبيه في هذا الفرع الغليظ من الشجرة، ولأتركه للآلهة تصنع به ما تشاء. . . فإذا حق عليه القتل، سعت إليه وحوش البرية أو عقبان

السماء فاغتذت به. . . وإلا، فليحي حياته التي تريدها الآلهة. . . وليكن بعد ذلك ما يكون!)

- 4 -

وبكى الطفل، وملأ البرية بصراخه المحزن، ورددت الآكام ومشارف الجبال عويله المؤلم، ثم مر به راع كان يتفقد أحد نعاجه الضالة فرثى له، وتقدم فحل الرباط عن عقبيه، وشدهه أن يجدهما متورمين مما ألم بهما، فسماه (أوديبوس!)

وأرتحل به إلى كورنثه، فرآه معه من نم عنه إلى الملك الذي كانت امرأته عقيما لا تلد، فحبب إلى يوليبوس أن يرى الطفل عسى أن يتخذه ولداً. فلما أحضر أليه أنس في عينيه بريقاً عجيباً وفي جبينه لآلاء قويا، وفي روحه الصغيرة روحا كبيراً يكاد يملأ الأكوان. . . فقال للملكة: (إن لم يكن هذا الطفل ابن ملك، فما أحسبه خلق إلا ليكون ملكا. . . ألا نتخذه ولي عهد؟)

وشب أوديبوس، أو أوديب، وأحبه الملك، وغمرته الملكة بإعزازها، وكان هو يهتف بالملك (أي أبي) وبالملكة (يا أمي!) وهو لا يعرف مما أخفياه عنه شيئاً!

- 5 -

أما لايوس، ملك طيبة، فأنه تنفس الصعداء لما حسب من قتل الطفل، وتنفست

الملكة الصعداء كذلك. . . أما الأقدار، فما برحت تسخر منهما، وتضحك ملء أشداقها عليهما. . . وما برحت كذلك تعد العدة للمستقبل الرهيب!

- 6 -

وترعرع أوديبوس، ونشأ مفتول العضل هرقلي الصدر، قويم الأخلاق، فيه نخوة الملك، ورفعة العرش، إلى كرم أرومة وطيب محتد.

وحُم القضاء. . . وأقيم في القصر الملكي حفل فخم، دعي إليه سادات طيبة وشبابها. . . وقدمت الآكال والأشربات. . . وقهقهت أباريق الخمر في الكؤوس. . . وفي الرؤوس، وذهبت أشوابها بوقار الشباب فتحرش بعضهم بأوديب، الذي لم يكن ممن تأسر الخمر لبه، فرده أوديب في حزم، وفي أدب؛ ولكن الشاب خاشن ولي العهد، ثم لمزه، وهو لا يدري ما يقول، لمزةً نبهت غافل أوديب؛ ذلك أنه عيره بأصله المجهول. . .

(أصلي المجهول؟ ماذا يقول هذا المعتوه؟ مجهول كيف؟ أولست ابن بوليبوس ملك كورنثه؟ أوليست هذه الملكة الجليلة أمي؟ بلى؟! لقد كنت أحس دائماً أنني لا استنشق هواء الأبوة في هذا القصر!. . . ويلاه! السر العجيب. . . السر العجيب. . .)

وأنطلق المسكين إلى مخدعه يبكي وينتحب. . . وانطلقت الملكة في إثره ترفه عنه وتواسيه، وتحلف له بالأيمان المغلظة أنه أبنها. . . وأنها أمه. . . ولكن. . . هيهات! فلم يكن أوديب من البله والغفلة بحيث ينخدع بهذه الأيمان التي لا تصدر عن إخلاص الأم الحقيقة، ولا يشف عن صدقها جب الأمهات الذي يدل على نفسه. . .

(لا! بل أنا أوديب التاعس! أنا أوديب المسكين الذي لا يعرف له أماً، ولا يدري له أباً. . . الوداع أيها القيصر المملوء بالخداع. . . الوداع أيها الملك الذي أكرمتني كأنني ابنك. . . اغفري لي أيتها الملكة التي أحبتني كأنني أبنها. . . سأنطلق. . . سأهيم على وجهي في القفار والفلوات. . . لا بد أن أعرف. . . لا بد أن أعرف من أنا. . . من أبي. . . من أمي. . . الوداع. . . الوداع. . .)

وأنطلق المسكين لا يلوي على شيء. . . غير مزود من هذا الملك العريض والسلطان الواسع إلا بسيفه. . . حتى إذا بلغ أفق طيبة، وقف على ربوة عالية يلقي على ملاعب الصبي ومراتع الشباب نظرة باكية. . . ثم مضى. . .

- 8 -

كانت الشكوك القاتلة تعصف بنفس أوديب، وكان يحاول أن ينسى كلمة الشاب المفتون الذي لمزه. . . ولكن عبثاً حاول ذلك. . . وكان يجهد فيما بينه وبين نفسه أن يفسر تلك النظرات الصارمة التي تبادلها ضيوف القصر بعد أن قال الشاب قالته، ولكنها كانت تعتاص بالمعاني السود في نفسه، وتثير في أعماقه ألواناً من الريب تغلي بدمه في رأسه. . .

وذكر أمه - أو الملكة - وهي تحاول أن تتغفله، وذكر سمات الخداع في ألفاظها، فوقر في نفسه أنه لا بد ابن أبوين آخرين غير بوليبوس وزوجه.

(إذن. . . إلى دلفي! لأذهب إلى دلفي! لأستوح كهنة أبوللو، فعندهم الخبر اليقين) وهام على وجهه حتى كان في دلفي، وحتى وقف في هيكل أبوللو يبكي ويستنبئ الكهنة!

وساد المعبد صمت رهيب، وانعقدت في أرجائه سحابة داكنة من بخور العنبر، ثم انقدحت ثمة شرارة هائلة هي التي تسبق كلمات الآلة دائما. . . وإذا بصوت مذبوح يتهدج قائلاً:

(ويح لك يا أوديب! أهو أنت؟ اذهب أيها التعس، فقد قضي أن تقتل أباك، وتتزوج من أمك، وتجر التعاسة على شعبك. . .)

وصمت الصوت، ومضى أوديب لطيته. . . أو لغير طيته!

(لها بقية)

دريني خشبه

البريد الأدبي

المباحث المصرية والعلم الحديث

صدرت نشرة خاصة بمحاضرة ألقاها الأستاذ بلاكمان في جامعة ليفربول عن (قيمة المباحث المصرية في العالم الحديث)؛ وفيها يبسط التجارب الأولى التي قام بها

الحكماء المصريون في الرياضة والفلك، وينوه بحقيقة تاريخية هامة فطن إليها الفراعنة وهي أنه من الخطر أن يسمح لدولة أجنبية أن تحتل فلسطين. ويقول الأستاذ في رسالته إن دراسة الاقتصاديات المصرية في عصر البطالسة تفيد العالم الحديث، وأنه يمكن أن نلاحظ أن مثل هذه الظروف كانت موجودة بمصر منذ الأسرة الثامنة عشرة، وأن المهندس الحديث يستطيع أن يفيد من دراسة الآثار المصرية القديمة، ولا سيما الأهرام، وما تدلي به من نظريات هندسية بارعة في شؤون الزوايا والمخروطات، وفي شؤون الزخارف البديعة التي تناسب أبنيتها. وإذا كان الذوق الحديث يتطلب التناسق بين الأبنية والزخارف، فأنه لم تحرز أمة في التأريخ براعة المصريين القدماء في إتقان هذا التناسق.

ويرى الأستاذ بلاكمان أيضاً أن المصريين كان لهم أثر كبير في نمو الحضارة الغربية، وذلك بتأثيرهم المباشر أو غير المباشر على الحضارة اليونانية، وأن حكمة المصريين كانت ذات اثر قوي في صوغ تعاليم (العهد القديم) بل كانت ذات اثر في صوغ التعاليم النصرانية ذاتها.

كشف جديد لصحراء الأهرام

وفق الأستاذ سليم بك حسن إلى كشف جديد بصحراء الأهرام، وهو مقبرة كاهن من كهنة الأسرة الخامسة اسمه (نخت كا) كان رئيس للمحفوظات الملكية وأمينا على مخازن الملك. وتقع المصطبة التي وجدت بها مقبرته جنوب مصطبة الأمير (جونوم بات)، وهي مبنية من الحجارة الجيرية، ولها مدخل يفتح إلى جهة الشرق، ويفضي إلى بهو ذي أعمدة من الحجر؛ وفي الحائط الجنوبي للبهو نافذة يدخل منها الضوء إلى المكان.

وفي الطرف الجنوبي الغربي مدخل يفضي إلى حجرة زينت بنقوش ورسوم تمثل الحياة اليومية حينذاك.

وهناك بابان وهميان نقشت عليهما تعاويذ وصيغ معروفة

ومن خلف هذين البابين عثر الكاشف على بئر وجدت بعد تفريغها منتهية إلى حجرة صغيرة منحوتة في الصخر، وفي هذه الحجرة عثر على تابوت من الصخر أيضاً فيه الهيكل العظمي للكاهن (نخت كا) ملفوفاً بالذهب.

وقد عثر في هذه المقبرة على 15 آنية من النحاس بينها طست وإبريق لا يختلفان عما يصنع منهما الآن، وكذلك عثر على أطباق ومعدات للأكل موضوعة على شكل مائدة استعداداً لتناول الطعام عندما يبعث صاحب المقبرة، كما عثر بالقرب من هذه المائدة على عظام الثيران التي نحرت وأعدت للطعام.

وعلى جدران المقبرة نقوش تمثل الحياة المصرية، فمنها ما يمثل جوقات رقص وموسيقى، وفي مقدمة الآلات الموسيقية القيثارة والصفارة وإلى جانب هذه النقوش الفنية ما يمثل نوعاً من أنواع التحتية عند قدماء المصريين وهي التحتية الخاصة بقدامى القرابين إلى الكاهن الأكبر، فقد كان كل منهم يتقدم نحو الكاهن وهو يجر بيمناه الثور في حين أنه يلتفت إلى المكان ويضع يسراه على صدره بحيث تلمس الأصابع أعلى الكتف.

إلى زميلنا المهذب صاحب (المكشوف)

شوهت - سامحك الله - في ذهني صورة جميلة كانت للمكشوف. فقد اعتقدت - وكنت على وشك أن أعلن هذا الاعتقاد - أن مجلة (العصبة) في سان باولو، وجريدة (المكشوف) في بيروت، تكتبان اليوم فصلاً قيماً في تأريخ الأدب العربي الحديث؛ وأن العصبة الأندلسية الكريمة التي تصدر تلك المجلة في المهجر، وعصبة العشرة التي تحرر هذه الجريدة في الموطن، إنما تجريان على تقاليد لبنان العربي فتتمان ما بدأ به آل اليازجي وآل البستاني وأضرابهم من رجال الفكر والترجمة والصحافة والتمثيل الذين عاونوا مصر على إحياء هذه النهضة؛ وأن هؤلاء الأدباء الأوفياء إنما هم حجة العربية والعروبة على هذا الأدب الدخيل الذي يستمد وجوده من فينيقية القديمة وفرنسا الجديدة ثم يزعم للأغرار أنه أدب لبنان!

نعم كنت أعتقد في المكشوف ما أعتقد في العصبة حتى قرأت في عدده الأخير مقالاً وجهته إليّ فزعزع في نفسي أساس هذه العقيدة!

ما رأيك في رجل تكلمه في موضوع عام في الأدب فيقول لك: إنك شتمتني فأنا أشتمك؟!

إن كنت تقول إن هذا الرجل لا يوجد في الناس فتعال إذن أسألك: كيف فهمت من مقال (النقد المزيف) أنه رد عليه فقلت ما نصه: (يرد الأستاذ الزيات في رسالته علينا ولا يسمينا مخافة أن يرمي بالجمود حين يحمل على دعاة الجديد والقائلين بأدب الحياة فيعمد إلى اللف والدوران والتلميح. . .) ثم قالت بعد ذلك: (يقول صاحب الرسالة ردا على الحملة التي نحملها على أدب الألفاظ وشعر البكاء المتكلف والرثاء الكاذب. . . (إن هذا النقد إما أن ينبعث من مكامن الحقد فيرمي إلى التجريح، وأما أن ينطلق من مواضع الغرور فيسعى إلى الهدم) ثم رتبت على هذا الفهم أو الوهم ما سوغه لك أدبك. إن كنت تقرأ ما في السطور كما يقرأ الناس فالأمر إذن لمنطق الناس، وإن كنت تقرأ ما بين السطور فالأمر لك وحدك. وما حيلة المنطق في (دون كيتشوت) الذي يريد أن يبني بطولته على معارك الوهم؟ على أنني كنت أحب أن ترعى جانب الأدباء الذين يعاونونك في تحرير المكشوف فتربأ بهم عن هذا الموضع الذي ارتضيته لنفسك. أما حملتك الهوجاء على الأستاذ الرافعي فهو أقدر الناس على ردها عليك إن شاء.

عدد الطلاب الذين تقدموا هذه السنة للامتحانات العامة

بلغ عدد الطلاب والطالبات الذين تقدموا من المدارس المصرية للامتحانات العامة: (البكالوريا، والابتدائية، وكفاءة التعليم الأولى، والمعلمات الراقية) في السنة المكتبية الحالية 23 , 208 فالذين تقدموا لامتحان شهادة الدراسة الثانوية قسم ثان 5 , 445 طالباً، منهم 2 , 155 بالقسم الأدبي، و3 , 290 بالقسم العلمي. والذين تقدموا لامتحان شهادة الدراسة الابتدائية قد بلغ عددهم 16 , 339. وعدد الذين تقدموا لامتحان شهادة كفاءة التعليم الأولى 1 , 364منهم 935 كفاءة المعلمين و429 كفاءة معلمات

وبلغ عدد الطالبات اللائي تقدمن لامتحان شهادة المعلمات الأولية الراقية 60 طالبة منهم 15 بالتعليم العام و17 بقسم التدبير المنزلي و15 بقسم رياض الأطفال والرسم و13 بقسم تخصيص تربية العميان.

أزفالد شبنجلر

نعت إلينا أنباء ألمانيا الأخيرة الكاتب والفيلسوف الاجتماعي الألماني أزفالد شبنجلر توفي

فجأة في مدينة ميونيخ بالسكتة القلبية في السادسة والخمسين من عمره؛ وكان قبل أن يخوض ميدان الكتابة الحرة أستاذاً في إحدى المدارس الثانوية ولكنه في سنة 1911هجر التعليم، ونزل ميدان الصحافة والكتابة الحرة وهو في عنفوان شبابه، واشتهر بكتاباته في الموضوعات الاجتماعية والثقافية، بيد أنه لم يبلغ الذروة في عالم الكتابة يومئذ؛ وإنما بلغ شبنجلر ذروة الشهرة والنفوذ كمفكر وكاتب مبتكر بعد الحرب الكبرى حين اصدر كتابه الشهير: (انحلال الغرب) الذي طبع مرات عديدة في وقت قصير وترجم إلى معظم اللغات الحية.

وقد كان صدور هذا الكتاب حادثاً أدبياً وفكرياً عظيماً، بل يعتبر أعظم حادث فكري وقع في ألمانيا بعد الحرب. وفيه يدرس شبنجلر قوانين النمو والانحلال في التأريخ، ويشرح التطورات التاريخية بطريق الدرس المقارن للعلوم الطبيعية وأصول الحيوان والنبات، ويتناول في بحثه كل ما يتصل بمصير الإنسان وطالعه، سواء من ناحية الدولة أو المجتمع. ويعتقد شبنجلر أنه استطاع بهذا العرض أن يطلع مواطنيه على الحلقة التي يستأنف منها التأريخ سيره، وعلى واجبات المستقبل. وقد أحرز كتاب شبنجلر من الوجهة الأدبية والاجتماعية نجاحاً عظيماً، ولكنه أعتبر سقيما من الناحية العلمية، ذلك أن شبنجلر لم يكن أستاذاً في كل الموضوعات التي تناولها والأصول العلمية التي أعتمد عليها، وهو مشحون بالأخطاء من هذه الناحية؛ بيد أنه من ناحية العرض الاجتماعي يعتبر قطعة رائعة من الدعاية القومية، ويبسط شبنجلر آراءه بقوة وعنف وبساطة؛ ومن ثم كان النجاح الباهر الذي أحرزه كتابه، والأثر العظيم الذي أحدثته آراؤه في الجيل الألماني المعاصر.

مصادرة كتاب عن البلاط النمسوي

من أنباء النمسا الأخيرة أن الحكومة النمسوية قررت مصادرة كتاب صدر أخيراً بالألمانية وعنوانه (لما كنت أرشيدوقاً) ومنعه من التداول في النمسا؛ وهذا الكتاب عبارة عن مذكرات البلاط النمسوي القيصري بقلم ليوبولد فلفلينج، وهو الأسم الشعبي للأرشيدوق ليوبولد سالفاتور أحد أمراء آل هبسبرج السابقين، ومن أبناء عمومة القيصر السابق، وقد عاش هذا الأمير حيناً في البلاط النمسوي، ولكنه كان من الأمراء الثائرين عليه وعلى سياسته ورسومه، فلم يمض غير قليل حتى أبعد عنه، وخاض مدى حين حياة مغامرات متواصلة؛ وتوفي في العام الماضي في فينا فقيراً مجهولاً وهو يقص في كتابه المذكور كثيراً من أحوال البلاط النمسوي وأسراره وحوادثه مدى ثلاثين عاماً، وقد سبق أن نشر بعض فصول كتابه في كبريات الصحف فأثارت يومئذ كثيراً من الاحتجاج والتعليق، لأن منها ما يتعلق ببعض الشخصيات الحية، ولهذا رأت الحكومة أن تمنع تداوله.

وقد تكرر منع الحكومة النمسوية في العهد الأخير لمؤلفات ومذكرات تتعلق بالبلاط النمسوي السابق وبأسراره ومثالبه؛ وهذا ما يفسره بعضهم بأن ذلك يرجع إلى ميول الحكومة الملكية، وإلى حرصها على استبقاء سمعة الملوكية النمسوية بعيدة عن التأثر بهذه الذكريات والقصص المثيرة.

ذكرى مخترع شهير

أحتفل أخيراً في ألمانيا بذكرى عالم مخترع هو أوتوفون جريكه، وهو أول من استطاع أن يطبق نظرية الضغط الهوائي بصورة عملية؛ وذلك لمناسبة مرور مائة وخمسين عاماً على وفاته وكان مولده سنة 1602 في مجد بورج؛ ودرس القانون والعلوم الطبيعية دراسة حسنة، وظهر أثناء الحرب الثلاثينية (حرب الثلاثين عاماً) وأشترك في عقد مفاوضات الصلح، ثم عين بعد ذلك حاكماً لمدينة مجد بورج؛ ولكنه لم ينس طوال حياته أن يشتغل بالعلوم والتجارب الطبيعية؛ وقد استطاع لأول مرة أن يجري أول تجارب في الطبيعة العملية، وكان ميدان بحثه في الهواء وما هيته ومؤثراته؛ فاستطاع بعد تجارب عديدة أن يصل إلى نظرية ضغط الهواء؛ ففي سنة 1654، نظم في مدينة ريجنسبرج أمام القيصر فرديناند الثالث تجربة عملية من هذا النوع، وخلاصتها أنه أتى بنصفي كرة من النحاس قطر كل منهما 36 سنتمتراً، وأطبقهما على بعضهما، وأستخرج منهما الهواء بواسطة مضخة صغيرة؛ ثم رتب أن يجر كل منهما ثمانية من الخيل في اتجاه معاكس، فلم تستطع الخيل أن تنزع نصفي الكرة من بعضهما؛ وكانت هذه أول تجربة عملية ناجحة أثبتت بها قوة الضغط الهوائي، وحاول فرن جريكه بعد ذلك أن يطبق تجاربه على صنه الآلات ولكنه لم يوفق في محاولته، وكان التوفيق في استخدام ضغط الهواء لصنع الآلات من نصيب مخترع إنكليزي يدعى توماس نيوكومن، وذلك في أوائل القرن الثامن عشر.

من هنا ومن هناك

أشهر كتب الخلاصات الحديثة.

كان مؤلفو العرب يعنون عناية فائقة بوضع كتب الخلاصات للعلوم والفنون والآداب؛ وكانت كتبهم تكبر وتكبر حتى تغدو موسوعات ضخمة تسعف القارئ بما يحتاج إليه من المعارف العامة والنبذ الخاطفة من كل علم وفن؛ ولعل كتاب الأغاني هو أول موسوعة عربية من نوعها. ومن الموسوعات العربية أيضاً كتاب نهاية الأرب للنويري، وصبح الأعشى للقلقشندي ولسان العرب لابن منظور المصري، والعقد الفريد لابن عبد ربه ومسالك الأمصار، وتاريخ بغداد. . . الخ، وقد أقتبس الغرب هذه الطريقة الموسوعية عن أسلافنا العرب، فوضع ديدرو موسوعته الفرنسية، ثم كان للإنجليز موسوعتهم كذلك، ونحسب أن الموسوعة الإيطالية الحديثة التي اشترك في وضعها الطاغية موسوليني هي أكبر موسوعات العالم قاطبة، وإن تكن لا تفضل الموسوعة البريطانية في الدقة وتوخي الحقيقة فيما حفلت به من سائر المعارف العالمية، ولكن هذه الموسوعات غالية الثمن غالباً؛ ولا يستطيع الأفراد إلا الأقلون منهم اقتناءها لهذا السبب، فثمن الموسوعة البريطانية الرخيصة مثلاً (الطبعة الرابعة عشرة) خمسة وعشرون جنيهاً أو أكثر، إذا دفع الثمن على أقساط؛ وثمن الطبعة الغالية أكثر من خمسة وسبعين جنيهاً مصرياً. وقد وضعت شركة الكتب الإنجليزية دائرة معارف للأعلام على طريقة وفيات الأعيان لابن خلكان وجعلت ثمنها أربع جنيهات.

لذلك راجت كتب الخلاصات في أوربا عامة، وإنجلترا خاصة، وكان الأديب الإنجليزي الكبير هـ. ج. ولز هو المبتدع لهذه الطريقة الطريفة، وذلك حين وضع كتابه الجميل (خلاصة تأريخ العالم)، يستعرض فيه تأريخ الحياة في هذه الدنيا منذ بدء الخليقة إلى اليوم، فأنت تقرأ فيه لمحة من كل علم، وطرفة من كل فن، وخطفة من كل أدب، وينتقل وتر من الجيولوجيا إلى الانثروبولوجيا، إلى البيولوجيا، إلى التأريخ، إلى الآداب، إلى الفنون، إلى العلوم، إلى الحركات الفعالة التي تناولت الأمم بالهدم والبناء. . . . وكل ذلك بأسلوب طلي، وروح وثاب، وعبارة مشرقة غير مملولة. ولا يكاد القارئ يلتمس شيئا في خلاصة ولز هذه إلا وجدها، وهذه مهارة تحمد للمؤلف، والخلاصة على نفاستها رخيصة الثمن جدا بحيث يستطيع القارئ العادي اقتناءها دون أن يرهق حبيبه.

وقد وضع ولز خلاصه ثانية لا تقل عن قيمتها عن خلاصته الأولى، ولا تزيد في ثمنها عليها، تلك هي كتابة القيم (الإنسان، عمله، ثروته، سعادته)، ويعرض فيه لطائفة رائعة من فنون العمل والحياة لا تكمل ثقافة الإنسان إلا إذا وعاها.

وقد ألف الكاتب الشاعر الإنجليزي (جون درنكووتر) خلاصته في آداب العالم، وهي برغم ما فيها من الشوائب، وما يعتور بحوثها من القصور المعيب أحياناً، خلاصة قيمة بما حفلت به من تأريخ الأدب العالمي منذ فجر التاريخ إلى اليوم في كل أمة. . . إلا الشرق! وإن يكن قد تناول آداب الشرق القديمة بفصول مشوهة مبتورة، وإن يكن أيضاً قد خص الأدب الإنجليزي بأكبر نصيب من خلاصته!

أما الخلاصة الأدبية القيمة حقاً فهي تلك التي كتبها الأديب المؤرخ الأمريكي الشهير برتن راسكو والتي سماها (جبابرة الأدب أو - أعاظم كتاب العالم)، وقد أختار لها برتن راسكو أربعين أديباً وشاعراً من أكبر أدباء التأريخ وشعرائه، بدأهم بهوميروس وختمهم بجورج مور، ثم ختم الخلاصة بلمحة عن الأدب العالمي في الخمسين سنة الأخيرة. وبرغم هؤلاء الأربعين أديباً، فأنك لا تكاد تذكر أديباً أو كاتباً في كل عصور التأريخ إلا وجدت المؤلف حام حوله، وأعطاك لمحة عما يهمك جداً من فنه وطريقته وأشهر مؤلفاته، ومع ذاك فثمن كتابه زهيد جداً.

لذلك أنصرف الناس عن الموسوعات لغلائها ولاشتمالها على موضوعات لا تهم غالبيتهم إلى الخلاصات لرخص ثمنها ولتركزها في باب بعينه كما في خلاصة الفن وخلاصة الموسيقى.

بيكون بين النقص والكمال

يغلو بعض مؤرخي الأدب الإنجليزي فيدعى أنه لا يوجد منذ أرسططاليس إلى فرنسيس بيكون فيلسوف مثل بيكون! ومع اعترافنا بما كان لهذا الرجل من الأثر الكبير في الذهن الإنجليزي في عصر النهضة فأننا لا نفضله على كثيرين من أبطالها ولا سيما هارفي وكبلر وغاليلو. وقد اشتهر بيكون بتفضيله التجربة في العلوم على الاستدلالات المنطقية العقيمة وأكثر المؤرخين على أنه ليس مبتدع تلك النظرية، فقد سبقه إليها العرب، ثم أقتبسها عنهم غير بيكون من علماء النهضة. وكان بيكون معروفاً دائماً بالشذوذ الغريب حتى إنه كان يؤلف أحسن كتبه باللاتينية وذلك لعدم إيمانه بالإنجليزية في ذلك العصر!!

على أن الذي يعنينا في هذه اللمحة عن بيكون هو خلقه الذي أنحدر إلى الحضيض الأسفل من اللؤم والضعة. قال بوب (بيكون فيلسوفنا المحترم! هو أعظم بني الإنسان وأعقلهم، كما أنه أخسهم وألأمهم!!) ولنذالة بيكون قصة مشجية تتلخص فيما يلي:

عندما عاد بيكون من باريس كان أبوه قد مات، وكان أخوه الأكبر قد استولى على جميع التركة بحكم التقاليد الإنجليزية البالية التي كانت سائدة وقتئذ في ذلك الشعب المحافظ العتيق. والتحق بيكون بوظيفة في أحد الفنادق ليعيش، ثم أكب على دراسة القانون حتى نال إجازة الحقوق فأنخرط في سلك القضاء فأبدى نبوغاً عظيماً وعبقرية فذة. وكان اللورد بيرلي يعرف ما لهذا القانوني الشاب من خطر، فشرع يقيم في سبيله العراقيل حتى لا يبذ أبنه روبرت سيسيل الذي كانت له مطامح وآمال في أكبر المناصب القضائية في إنجلترا، فلما شغرت وظيفة (الأفوكاتو العمومي) رشح لها

بيكون بعبقريته ورسوخ قدمه في القانون، ثم روبرت سيسل بحسبه ونسبه وضلع أبيه - اللورد بيرلي - في الحكومة ومنزلته السامية لدى الملكة اليزابث، وكانت هذه المؤهلات كلها (!) كفيلة بتعيينه في المنصب واطراح بيكون

وكان (ايرل اسكس) يعجب ببيكون ويميل إلى تعيينه، فلما ضاعت مجهوداته عبثا عز عليه أن يقتل اليأس نفس الشاب النابغة، فحدب عليه وواساه مواساة طيبة، ثم وهب له أرضاً واسعة تغل له غلة كبيرة، وقصرا من أفخم قصور لندن على نهر التاميز!!

ودار الزمن دورته، وساءت الأحوال بين الملكة وبين ايرل أسكس، وقدم للمحاكمة بتهمة الخيانة العظمى، فانتدبت الملكة أعز أصدقاء الأيرل فرنسيس بيكون ليكون عضوا في

الهيئة التي تتولى الدفاع عنها. . . فماذا جرى؟! لقد كان بيكون أشد المستشارين حماسةً للملكة ضد صديقه الذي حدب عليه، وأبعد عنه شبح الفاقة، برغم ما كان يبدو من براءة الأيرل، وبرغم ما كان يبدو من ميل بقية المستشارين إلى تبرئته. . .

ولم يكتف بيكون بهذا الموقف الشاذ اللئيم، بل قدم مذكرة مسهبة بإدانة صديقه، ثم طلب في نهايتها الحكم عليه بالإعدام! وكافأته الملكة على حماسته، فرفعته إلى أعلى المناصب، وأغدقت عليه أرفع الألقاب، حتى غدا (لورد بيكون!)

ولما كتب بيكون كتابه في الأخلاق عقد فيه فصلاً من أحط ما عرفت البشرية عن (الحب والزواج والعزوبة) وذكر فيه أن الحب هو علاقة جنسية خالصة، وغريزة شهوية وضيعة، وأن المرأة بذلك إن هي إلا متعة للرجل وأنها مطيته إلى اللذة الحيوانية الطارئة. . . الخ. . . فلما تقدم إلى ليدي هاتون يطلب يدها لم تستح هذه المرأة المثقفة أن تصفعه في وجهه بهذه الكلمة الخالدة (ليذهب الفيلسوف البهيم إلى غابة قريبة فلينتق له بهيمة تكون مطيته إلى لذة طارئة ثم ليلقنها فلسفته!)

ودار الزمان دورته مرة ثانية! وأخذت الألسن تلوك إشاعات مخزية عن رشا يأخذها النائب العمومي (وكان هو بيكون في هذه الآونة) واضطر مجلس العموم إلى أن يثور طالباً محاكمته أمامه. . . فلما مثل الرجل وشرع الأعضاء يقذفونه بالتهمة تلو التهمة، لم يسعه إلا أن يعترف، ولم يسعه إلا أن يبكي. . . والتمس من المجلس أن يعامله برحمة. . . وحكم عليه بغرامة هائلة قدرت بأربعين ألف جنيه، ثم بالسجن المؤبد. . . ولكنه لم يحبس غير ليلة واحدة، ثم عفت عنه الملكة!!

هذه لمحة عن أخلاق الرجل الذي وضع كتاباً في الأخلاق ذم فيه أخلاق نبينا!!!

وهذا هو الرجل الذي يخلط بعض مؤرخي الآداب فيدعي أنه كتب كثيراً من الدرامات التي تعزى إلى شاكسبير!!

ترجمة القرآن

لا ندري إذا كان على إمارة المسلمين في زماننا هذا رجل مثل المأمون فماذا عساه كان صانعاً بمن يقولون بعدم جواز ترجمة معاني القرآن بعدما أقرها أكثر العلماء؟

ماذا كان يصنع المأمون بالأستاذ محمد سليمان بعد الذي صنعه بالإمام الكريم ابن حنبل في فتنة خلق القران؟!

لقد كنت أود لو أن الأستاذ محمد سليمان يجيد الإنجليزية إذن لأرسلت نسخة من ترجمة جورج سيل أو الاسكندر روس أو غيرهما ليقرأ بنفسه ما جاء فيها من الشطط في ترجمة الآيات. وهو لو علم أن المسلمين، غير العرب، في مشارق الأرض ومغاربها يتلون كتاب الله في هذه التراجم، ويكاد يصبأ بعضهم لما يلحظه من الضعف والسخف فيها، لهتف حضرته مع الهاتفين بضرورة ترجمة معاني القرآن. . .

هافلوك أليس

ذكرنا في العدد الماضي من (الرسالة) كلمة عن إباحيين من إباحي الأدباء الإنجليز هما لورانس وجيمس جويس، وقد فاتنا أن نشير إلى العلاقة بين مذهبهما ومذهب المنحطين مثل أوسكار ويلد وإضرابه. ونذكر في هذا العدد العالم الكبير هافلوك أليس لا على أنه إباحي مثل لورانس أو مثل جويس، وإن دعا هو الأخر إلى التنعم بلذائذ الحياة من ذهنية وحسية وعدم كبت الغرائز والتفريج عنها. . . ولكن بالوسائل المشروعة.

وهافلوك أليس عالم في التناسليات، ولكنه بكل أسف ليس أديباً، ولكن الأدباء في

إنجلترا يصلون بينه وبين جمهورهم لأنهم متأثرون به.
ولأليس ضريب آخر هو برتراندسل سنتكلم عنه في العدد القادم.
(د. خ)

الكتب

بغداد أو المدينة المدورة
في عهد الخلافة العباسية
للأستاذ إبراهيم الواعظ

كنت في صيف العام الماضي مصطافاً في سوريا ولبنان ولم يمنعني هذا الاصطياف من تتبع أعداد (الرسالة) وقراءتها، وكنت قرأت في العدد (111) منها مقالة تحت عنوان (أغراض الاستشراق) بتوقيع أحد كتاب الرسالة للأستاذ (محمد روحي فيصل) كان قد كتبها للأستاذ الكبير (محمد كرد علي) على أثر كلمة نشرها الثاني في العدد (108) من الرسالة بمناسبة نشر كتاب (المقنع في رسم مصاحف الأمصار مع كتاب النقط) لأبي عمر بن عثمان بن سعيد الداني، وامتدح بها علماء المشرقيات لعنايتهم بكتب الإسلام، وانحنى باللائمة على خاصة أهله لأنهم ساهون لاهون، واستنهض بها همم علماء الأزهر وقادة الثقافة في الأقطار الإسلامية لأحياء السلف الصالح.

وكنت قد هممت أن أكتب كلمة ولكني وجدت في كلمتي الأستاذ (محمد كرد علي) اللتين نشرتا في العدد 114و115من الرسالة ما يكفيني مؤونة الكتابة والرد.

هذا وقد سنحت لي الفرصة الآن بمناسبة كتاب طبع ببغداد في الآونة الأخيرة لأقول كلمة في هذا الموضوع.

إنني أتفق تمام الاتفاق مع الأستاذ (روحي فيصل) فيما كتبه من علماء المشرقيات من ناحية، وأختلف معه تمام الاختلاف من ناحية أخرى: أتفق معه على أن بين هؤلاء العلماء من كان قصده من الاستشراق هدم كيان الدين الإسلامي من جهة، والتبشير بطريقتهم من الجهة الأخرى. ولا جدال أن مثل هذه الفئة من علماء المشرقيات مضرة تمام الضرر، وجرثومة فتاكة يجدر بكل مسلم أن يسعى لمحقها بشتى الوسائل.

على إننا إذا ما صرحنا برأينا في هذه الفئة لا يسعنا أن نغمط حقوق الفئة الأخرى من هؤلاء العلماء، لأن الغمط في مثل هذا المقام تجاوز على الحق والحقيقة معاً.

إننا مهما حاولنا أن ننكر ما لهذه الفئة من فضل على الإسلام والعرب فالواقع يكذبنا ويدحض هذه الإنكار. نظرة بسيطة نرسلها إلى الآثار القيمة والأسفار العظيمة التي اعتنت بطبعها وإخراجها تلكم الفئة تدلنا على أنه لولا الجهود الجبارة التي قام بها هؤلاء العلماء لما أمكننا أن نعلم شيئاً عن الآثار المهمة ككتاب (الطبقات الكبرى) لابن سعد، وهو الكتاب الفريد الذي يعد الآن من أكبر أمهات الكتب من جهة، والمأخذ الوحيد للقضايا الهامة في التأريخ الإسلامي من جهة أخرى. وقل مثل ذلك عن بقية الآثار العظيمة التي نشروها.

هذا كتاب الأنساب (للسمعاني) لولا هممهم لما طبع ولأصبح في زوايا الإهمال؛ لقد طبع هذا الكتاب في لندن طبعة شمسية (فوتوغرافية) ولا يخفى ما تكلف هذه الطريقة للنشر من النفقات والجهود. وهناك كتاب (مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين) للأمام الأشعري. فلولا همة الأستاذ (ريتر) المشتشرق الألماني والمبادرة بطبعه في الآستانة لكان نصيبه التلف في الخزانات. ولا ننس ما لطبعة (ليدن) في (هولانده) من الفضل الأكبر في طبع أمهات الكتب التاريخية والأدبية واللغوية وغيرها، كتاريخ الطبري، واليعقوبي، وتجارب الأمم لابن مسكويه، وتاريخ الصابي، والعيون والحدائق، والمسالك والممالك لابن حوقل، والأصطخري، وكتاب التنبيه والأشراف للمسعودي، والأعلاق النفيسة لابن رسته، وكتاب مراصد الإطلاع لعبد المؤمن، وغيرها من الكتب المهمة التي لم تحضرني أسماؤها. على أن مطابع لندن، وباريس وليبزج وروما وغوتنفن وغريفزولد لا تقل خدمة عن بقية المطابع التي قامت بقسطها من الأعمال الجبارة في إخراج هذا التراث الثمين الخالد ولا يفوتنا أن الكثير من هذه الكتب لم تكن مطبوعة في المطابع العربية إلا النزر القليل منها.

إذن لولا هذه الجهود العظيمة الموجهة إلى خدمة العلم والأدب خاصة، لما أمكننا أن نتوصل إلى مشاهدة هذه الآثار اللهم إلا إذا تجشمنا مصاعب السفر ومصائبه، وفتشنا

عنها في زوايا المكاتب في سائر الأقطار الأوربية والشرقية.
لم تقف أعمال هؤلاء العلماء عند حد الإخراج بالطبع ونشر الآثار وإنما انصرف إلى التحقيق والدرس، وأخيراً إلى التأليف؛ ذلك التأليف المنتج والمستند إلى الحقائق التاريخية. فمن هؤلاء الرجال العاملين المستشرق الإنجليزي الأستاذ الكبير (ليسترنج) فإنه كتب كتاباً عن (بغداد) في عهد الخلافة العباسية ضمنه معلومات تاريخية منقطعة النظير لم يسبقه إليها سابق، ولم يلحقه في تحقيقها لاحق. والذي يجيل طرفه في قائمة المآخذ والمصادر
التي أستسقى منها المؤلف وألف كتابه يعلم قيمة هذا التأليف ومزيته التاريخية. وهذه حلقة أخرى نسجلها لهذه الفئة الصالحة في علماء المشرقيات.
وبعد، فإن الذي حدا بي لكتابة هذه الكلمة هو قيام أحد شبان العراق المخلصين الأستاذ بشير يوسف فرنسيس بترجمة هذا الكتاب ترجمة صالحة قيمة. وإني بدوري أكبره على اهتمامه، وأهنئه على هذا العمل الشاق، وأتوسل - كما توسل من قبل الأستاذ الكبير (محمد علي كردي) - إلى سادتنا العلماء أن يأخذوا باليمين آثار السلف الصالح يحمونها، ويخدمون بها الأمة الإسلامية خاصة، والعربية عامة.
وأخيراً أتمنى للمترجم بشير يوسف توفيقاً وللمترجم رواجاً
(بغداد)
إبراهيم الواعظ المحامي
إصلاح خطأ المحدثين
بقلم برهان الدين محمد الداغستاني
ذكرت في مقال عن أبي سليمان حمد بن محمد الخطابي (عددي الرسالة 98و99) أن لأبي سليمان كتاباً باسم (إصلاح غلط المحدثين)، أورد فيه قرابة مائة وثلاثين حديثاً، يرويها أكثر المحدثين ملحونة أو محرفة، أصلحها وبين الصواب فيها؛ وقلت في الحاشية إن منه نسخة قيمة في دار الكتب المصرية مكتوبة بخط محمد محمود التركزي الشنقيطي تحت رقم (1510) حديث، وقد قام صديقي السيد عزت العطار سكرتير لجنة الشبيبة السورية بالقاهرة بنشر هذا الكتاب فجاء صورة صحيحة لنسخة العلامة الشنقيطي المحفوظة في دار الكتب المصرية.
ولأبي سليمان الخطابي مكانة عظيمة بين رجال الحديث الذين كتبوا في فقه أو غريبه، وتتجلى منزلته في كلتا الناحيتين في كتابيه و (غريب الحديث) الذي لا يزال حبيس دور الكتب إلى الآن. والظاهر أنه بعد فراغه من كتابيه السالفين أراد أن يجمع في كتاب على حدة الكلمات التي يغلظ فيها المحدثون والرواة، فجمع هذه الجمل في كتاب (إصلاح خطأ المحدثين)، ولكنه لم يضع لهذه المجموعة اسماً خاصاً، بل اكتفى بقوله في المقدمة: (هذه ألفاظ من الحديث يرويها أكثر الناس ملحوظة، أصلحناها وأخبرنا بصوابها، وفيها حروف تحتمل وجوها اخترنا منها أبينها وأوضحها، والله الموفق للصواب لا شريك له)
ثم جاء بعد ذلك المؤرخون، فسماه بعضهم (إصلاح غلط المحدثين)، وآخرون (إصلاح خطأ المحدثين)، واقتصر غير هؤلاء وأولئك على تسمية إصلاح الغلط أو إصلاح الخطأ.
وجاء دور دار الكتب المصرية، فسمته في فهرسها بإصلاح الألفاظ الحديثة التي يرويها أكثر الناس ملحونة ومحرفة. وهذا الاسم مع طوله وخروجه على المألوف في الأسماء لم أجد من ذكره من المؤرخين. كذلك أحله منظمو الفهارس فيها غير محله، فوضعوه في فهرس الحديث وحقه أن يوضع في فهرس اللغة العربية فلعل أولى الشأن في دار الكتب يولون هذه الملاحظات ما تستحق من الاعتبار فيصححون اسم الكتاب ويردونه إلى حظيرته في فهرس اللغة والله سبحانه أسأل السداد والتوفيق.
العدد 154 - بتاريخ: 15 - 06 - 1936
محنة فلسطين
أيها المسلمون!
للأستاذ مصطفى صادق الرافعي
نهضتْ فلسطين تحلُّ العقدةَ التي عُقدت لها بين السيف، والمكر والذهب.
عقدةٌ سياسية خبيثة، فيها لذلك الشعب الحر قتلٌ، وتخريبٌ، وفقر.
عقدةُ الحكم الذي يحكم بثلاثة أساليب: الوعدِ الكذب، والفَناء البطيء، ومطامع اليهود

المتوحشة.
أيها المسلمون! ليست هذه محنة فلسطين، ولكنها محنة الإسلام؛ يريدون ألاَّ يثبت شخصيته العزيزة الحرة.
كل قرش يُدفع الآن لفلسطين، يذهب إلى هناك ليجاهد هو أيضاً.
أولئك إخواننا المجاهدون؛ ومعنى ذلك أن أخلاقنا هي حلفاؤهم في هذا الجهاد.
أولئك إخواننا المنكوبون؛ ومعنى ذلك أنهم نكبتهم امتحان لضمائرنا نحن المسلمين جميعاً.
أولئك إخواننا المضطهدون؛ ومعنى ذلك أن السياسة التي أذلتهم تسألنا نحن: هل عندنا إقرارٌ للذل؟
ماذا تكون نكبة الأخ إلا أن تكون اسماً آخر لمروءة سائر اخوته أو مذلتهم؟
أيها المسلمون! كل قرش يدفع لفلسطين يذهب إلى هناك ليفرض على السياسة احترام الشعور الإسلامي.
ابتلوهم باليهود يحملون في دمائهم حقيقتين ثابتتين من ذل الماضي وتشريد الحاضر.
ويحملون في قلوبهم نقمتين طاغيتين: إحداهما من ذهبهم والأخرى من رذائلهم.
ويخبئون في أدمغتهم فكرتين خبيثتين: أن يكون العرب أقلية، ثم أن يكونوا بعد ذلك خدم اليهود.
في أنفسهم الحقد، وفي خيالهم الجنون، وفي عقولهم المكر، وفي أيديهم الذهب الذي اصبح لئيما لأنه في أيديهم.
أيها المسلمون! كل قرش يدفع لفلسطين يذهب إلى هناك ليتكلم كلمة ترد إلى هؤلاء العقل.
ابتَلوْهم باليهود يمرون بينهم مرور الدنانير بالربا الفاحش في أيدي الفقراء.
. . .كل مائة يهودي على مذهب القوم يجب أن تكون في سنة واحدة مائة وسبعين حساب خبيث يبدأ بشيء من العقل، ولا ينتهي أبداً وفيه شيء من العقل.
والسياسة وراء اليهود، واليهود وراء خيالهم الديني، وخيالهم الديني هو طرد الحقيقة المسلمة.
أيها المسلمون! كل قرش يدفع لفلسطين يذهب إلى هناك ليثبت الحقيقة التي يريدون طردها.
يقول اليهود: إنهم شعب مضطهد في جميع بلاد العالم، ويزعمون أن من حقهم أن يعيشوا أحراراً في فلسطين، كأنها ليست من جميع بلاد العالم. . .
. . .وقد صنعوا للإنجليز أسطولا عظيما لا يسبح في البحار ولكن في الخزائن
وأراد الإنجليز أن يطمئنوا في فلسطين إلى شعب لم يتعود قط أن يقول: أنا
ولكن لماذا كنستم كل أمة من أرضها بمكنسة أيها اليهود؟
أجهلتم الإسلام؟ الإسلام قوة كتلك التي توجد الأنياب والمخالب في كل أسد.
قوة تخرج سلاحها بنفسها لأن مخلوقها عزيز لم يوجد ليُؤكل ولم يخلق ليذل
قوة تجعل الصوت نفسه حين يزمجر كأنه يعلن الأسدية العزيزة إلى الجهات الأربع
قوة وراءها قلب مشتعل كالبركان تتحول فيه كل قطرة دم، إلى شرارة دم
ولئن كانت الحوافر تهيئ مخلوقاتها ليركبها الراكب، إن المخالب والأنياب تهيئ مخلوقاتها لمعنى آخر.
لو سألت ما الإسلام في معناه الاجتماعي؟ لسألت: كم عدد المسلمين؟
فأن قيل ثلاثمائة مليون، قلت: فالإسلام هو الفكرة التي يجب أن يكون لها ثلاثمائة مليون قوة
أيجوع إخوانكم أيها المسلمون وتشبعون؟ إن هذا الشبع ذنب يعاقب الله عليه
والغني اليوم في الأغنياء الممسكين عن إخوانهم، هو وصف الأغنياء باللؤم لا بالغنى
كل ما يبذله المسلمون لفلسطين يدل دلالات كثيرة، أقلها سياسة المقاومة
. . .كل أسلافكم أيها المسلمون يفتحون الممالك، فافتحوا أنتم أيديكم
كانوا يرمون بأنفسهم في سبيل الله غير مكترثين، فارموا أنتم في سبيل الحق بالدنانير
والدراهم
لماذا كانت القبلة في الإسلام إلا لتقتاد الوجوه كلها أن تتحول إلى الجهة الواحدة؟

لماذا ارتفعت المآذن إلا ليعتاد المسلمون رفع الصوت في الحق؟
أيها المسلمون! كونوا هناك. كونوا هناك مع إخوانكم بمعنى من المعاني
لو صام العالم الإسلامي كله يوماً واحداً وبذل نفقات هذا اليوم الواحد لفلسطين لأغناها
!لو صام المسلمون يوماً واحداً لإعانة فلسطين لقال النبي مفاخراً الأنبياء: هذه أمتي
لو صام المسلمون جميعاً يوماً واحداً لفلسطين لقال اليهود اليوم ما قاله آباؤهم من قبل إن فيها قوم جبارين. . .
أيها المسلمون! هذا موطن يزيد فيه معنى المال المبذول فيكون شيئاً سماوياً
!كل قرش يبذله المسلم لفلسطين يتكلم يوم الحساب يقول: يا رب أنا إيمان فلان
في النقد الأدبي أيضاً
إلى أخي طه حسين
للأستاذ أحمد أمين
عرضت في مقالي السابق لضعف النقد الأدبي في مصر، وخاصة في السنوات الأخيرة، وذكرت أن رقي النقد لم يساير رقي الأدب، فقد كان الإنتاج الأدبي قليلاً، وكان النقد يؤدي مهمته في هذا القليل ويعرف جمهور القراء به، ويبين مزاياه وعيوبه، وتختلف أنظار النقاد فيه، ويعرضون له من وجوهه المختلفة، وفي كل ذلك فائدة للأدب وتبصرة للقراء؛ ثم كثر الإنتاج وارتقى، وقل النقد وضعف، واكتفى جمهور النقاد بنقد الكتاب من فهرسه ومقدمته. واليوم أزيد هذا الرأي شرحاً وبيانا، وحجة وبرهاناً.
في كل عام يخرج هيكل وطه والعقاد والزيات والمازني وزكي مبارك وغيرهم كتباً عدة، ويخرج الشعراء قصائد كثيرة، ويخرج مؤلفو الروايات روايات تعد بالعشرات، ولكن قلب الصحف والمجلات لترى نقدها نقداً صحيحاً فقل أن تعثر عليه. هذا أقرب كتاب إلينا وهو كتاب (محمد) لتوفيق الحكيم. هو من غير شك عمل جديد في بابه من حيث وضعه للسيرة النبوية في قصة؛ ولكن أين النقد الذي قوبل به الكتاب؟ وأين ما كان من البحث حول قيمة ما فيه من فن، وهل هذا العمل في فائدة التأريخ والأدب أم لا؟ وهل من الخير أن نشجعه أم لا؟ ثم هل هو صور محمداً (ص) صورة صحيحة أم لا؟ نعم أنه اعتمد في كل ما نقله على عبارات السيرة، ولكنه أختار أجزاء وحذف أجزاء، وألف بين هذه الأجزاء، وهذا التأليف بين أجزاء معينة وترك غيرها يجعل الصورة ذات ألوان خاصة يسأل عنها المؤلف كما يسأل عن كتاب كتبه بنفسه وعبر عنه بعبارته.
لم نجد شيئاً كثيراً من ذلك؛ ومر الكتاب بسلام. وأظن أنه لو ظهر من نحو عشر سنين لكان له شأن أخر، ولنال من النقد ما يستحقه. وليس يعنينا أن المؤلف يغضب من النقد أو لا يغضب، فالنقد ليس من حق المؤلف وحده، وإنما هو حق الناس جميعاً وحق الأدب والتاريخ.
وهل أتاك نبأ ما كان منذ شهرين، إذ نشر شاب في الإسكندرية رسالة في (الحديث)، تعرض فيها للرواية والرواة، ونقد بعض المحدثين، وطعن بعض الأسانيد، فأجتمع مجلس
الوزراء وقرر مصادرة الرسالة؟ مع أن المعتزلة منذ ألف سنة قد أنكروا أكثر الأحاديث إلا ما أجمع الرواة على صحته، ولم يكفرهم من أجل هذا أحد، ولم يصادر كتبهم من أجل هذا أحد. ومنذ أكثر من ألف سنة حكى الشافعي في كتابه (الأم) حكاية قوم من المسلمين أنكروا حجية الأحاديث بتاتاً، ولم يشنع عليهم أحد، ولم يقل بكفرهم أحد، وجادلهم المجادلون في هدوء وثبات كما يجادل المؤمن المؤمن. ومنذ عشرين سنة على ما أذكر، كان ينشر المرحوم الدكتور صدقي في (مجلة المنار) مقالات ضافية متتابعة يدعو فيها إلى الرجوع إلى القران وحده، وينقد الرجوع إلى الحديث، ورد عليه جماعة من العلماء، وطال الأخذ والرد والدفاع والهجوم، ولم يجتمع إذ ذاك مجلس الوزراء ويقرر مصادرة المنار كما أجتمع وقرر هذه الأيام. ألا يدل هذا وأمثلته على أننا أصبحنا أضيق صدراً وأقل حرية؟ ومن الغريب أن أحداً لم يحرك لهذا ساكناً ولم يفه ببنت شفة! ولو وقع هذا الحادث من عشر سنين لقام له الكتاب الأحرار وقعدوا، ودافعوا ونقدوا وهذه لجنة التأليف تصدر كل حين كتاباً بل كتيباً، وتهديها إلى الأدباء والصحف والمجلات، ثم تنتظر من يقومها وينتقدها ويبين مزاياها وعيوبها، ويشرح للجنة رأيه في مسلكها وفيما تخرجه من الكتب، ويرشدها إلى وجهة قد تكون خيراً من

وجهتها، فلا تجد إلا القليل النادر والنتف القصيرة التي لا تجزئ وسبب هذا أننا لا ننظر إلى النقد النظر الذي يستحقه من الإجلال والإكبار؛ فمنا من ينظر إلى النقد على أنه إعلان عن الكتاب؛ ومنا من ينظر إليه على أنه مجاملة لصديق أو تحية لصاحب أو استغلال لموقف؛ وقليل جداً من ينظر إليه على انه ميزان دقيق كميزان الذهب يوزن به النتاج الأدبي وزناً محكماً فلا يفوته شيء. وقد أجاد العرب كل الإجادة في تسمية هذا المنحى الأدبي (نقدا) أخذا من نقد الصيرفي الدراهم والدنانير ليعرف جيدها من زائفها.

وقد أدى هذا النظر إلى الصحف والمجلات وكثيراً من الكتاب عدوا هذا العمل عملا ثانوياً يضاف إلى أعمالهم الأساسية، فهم معذورون إن ثقلوا بالأعمال وكان نقد الكتب أحدها فلم يولوها العناية اللائقة بها، ولم يمنحوها ما يجب لها من وقت ودرس وتمحيص. وقد أدركت هذا الواجب الجرائد والمجلات الأجنبية التي تحترم نفسها فاختارت كتاباً من خيرة الكتاب لا عمل لديهم إلا النقد، ويقرؤون الكتب والقصائد والقصص ونحوها ويدرسونها

درساً عميقاً، ثم يظهرون القراء على نتيجة جهدهم ومدى درسهم وقصارى بحثهم.

وشيء آخر كان له دخل كبير في رقي النقد الأوربي وضعف النقد العربي، وأعني به (التخصص)؛ وهذا ظاهر في المجلات الأوربية وكتابها. فأما المجلات فتخصصت، فمجلة للجغرافية خاصة، ومجلة للاجتماع، ومجلة للأخلاق، ومجلة للقصص، ومجلة للسياسة، ومجلة للثقافة العامة. فإذا ألف كتاباً في الجغرافيا أو الاجتماع أو الأخلاق فالمجلة الخاصة بذلك تنقده؛ وإذا هي نقدته عن خبرة تامة بالموضوع وتخصص فيه. وبهذا يفخر المؤلف بأن مجلة كذا مدحت كتابه وأثنت عليه، لأن المدح صدر من واسع الاطلاع عميق البحث يحترم نفسه وقراءه. وأما الكتاب فيشعرون هذا الشعور نفسه، فلا يتعرض ناقد لكتاب ليس من موضوعه الخاص وإن كان مثقفاً فيه ثقافة عامة. فإذا عرض على أديب كتاب في علم النفس أحترم نفسه وقراءه فلم يكتب فيه، وعد ذلك كأديب ينقد رياضيا، أو شاعر ينقد فلكيا، وأنه مهزلة لا يصح أن يقع فيها، وأن الشأن في المعارف كالشأن في الطب، فكما لا يصح أن يداوي طبيب عيون مرضاً باطنياً ولا طبيب الأذن مرض اللثة، فكذلك لا ينقد أديب تاريخياً ولا قصصي جغرافياً؛ إلا إذا تعرض للكتاب من ناحية الأسلوب. بل هم سائرون إلى أكثر من ذلك فيريدون أن يتخصص الأدباء في فروع الأدب نفسه فلا ينقد قصصي كاتب رسائل، ولا ناقد الرسائل والمقالات قصصاً.

إن شئت فانتقل بعد معي إلى الحال عندنا. هل يتعفف أكثر النقاد عن أن ينقدوا ما ليس من اختصاصهم؟ فالكاتب الأدبي عندنا يرى أنه يستطيع أن ينقد في يوم واحد كتاباً عن تاريخ نابليون، وكتاباً عن جزيرة العرب، وديوان شعر. وهو يرى أنه يستطيع أن ينقد كل شيء فلا يأتي بشيء. ومن أجل هذا قدر الناس أكثر النقد العربي بما يستحقه فقط. فمدح المجلة والصحيفة للكتاب لا يدل على شيء وراء هذه العبارة، ولا يدل على أن للكتاب قيمة ذاتية. ولا يستطيع مؤلف عربي أن يتقدم إلى هيئة محترمة ببحوثه ليقول إن مجلة كذا العربية قرظتها وقالت فيها كذا. كما يفعل من يتقدم بمؤلف كتب بلغة أوربية فيستدل على قيمة عمله بأن مجلة كذا نشرته، ومجلة كذا قرظته.

ثم الناقد الحق قاض عادل. والقاضي العادل لا يقضي حتى يدرس قضيته من جميع نواحيها فلا تفوته جزئية منها؛ وهو عالم بالقانون وبالمواد التي تتصل بقضيته محيط بها؛

وهو ماهر في تطبيق المواد على قضيته محكم تطبيقها، وكذلك الناقد والقاضي الذي لا يرجع إلى قانون إلا قانون العدالة المطلقة مخطئ؛ والقاضي الذي يحكم ذوقه وحده مخطئ، والقاضي الذي يدخل الشخصيات في قضيته مخطئ؛ وكذلك الناقد. وكل ما هناك من فرق أن القاضي يحكم وفق قانون موضوع، والناقد الأدبي يحكم وفق قانون لم توضع كل أحكامه ولم تعرف كل مصادره؛ وذلك راجع إلى الفرق بين طبيعة القوانين العلمية والوضعية وقوانين الذوق؛ ولكن على كل حال لا يصح للأديب أن يصدر حكمه بناء على أنه يستحسن أو يستهجن فقط، وإلا كان في استطاعة كل من أمسك القلم أن ينقد. إن كل فرع من فروع الأدب من قصة وشعر ونثر فني له قوانين تبين

رقيه وانحطاطه؛ وكل عنصر من عناصر الأدب من خيال وعاطفة ونحوهما له مقاييس تقاس بها درجة قوته وضعفه؛ وكل ما في الأمر أن بعض هذه القوانين عرفت واستكشفت، وبعضها غامض في دور الاستكشاف. ويجب على الناقد أن يرجع إلى هذه الأسس في صدور أحكامه كما يرجع القاضي إلى قانونه؛ وهذا يسلمنا إلى القول بأن الناقد الحق يجب أن يكون مثقفاً ثقافة واسعة عميقة، وأن يبني حكمه على علل معقولة كما يبني القاضي حكمه على (حيثيات) واضحة، ولسنا ننكر أن الأديب يعتمد في حكمه على ذوقه وشعوره بالجمال والقبح، ولكن لا يعد هذا الذوق راقياً إلا إذا أسس على علم واسع ومعرفة بقوانين الأدب.

وهكذا ضرب لا يزال ينقصنا منه الشيء الكثير؛ فأكثر أحكامنا على النتاج الأدبي أحكام مجردة لا تعلل بعلل مقنعة، ولا يرجع فيها إلى قوانين ثابتة، وبذلك تفقد قيمتها ويقل احترامها.

لقد قال قائلون إنك تعيب النقد العربي ولا تنقد، وتعيب قلة الجرأة ولا تجرؤ، وتدعي قلة النقد ولا تبني في بنائه الذي تنشده حجراً.

قد يكون هذا صحيحا ولكن هل من العيب أن يشرح المريض مرضاً عاماً أصيب به هو وغيره؟ وهل من الشر أن يرفع صوته بالشكوى من كان هو وغيره سبب الشكوى؟ وهل يحجر على الإنسان أن يقول إن هذا ليس بجميل إلا إذا كان جميلاً، وليس بعادل إلا إذا كان عدلاً، وليس أبيض ولا أسود إلا إذا كان هو أبيض أو أسود؟ إن مطالبة الإنسان ألا ينقد إلا إذا كمل، وألا يعيب إلا إذا خلا من العيب يحقن في نفوس الناس آراءهم وقد تكون

صالحة، ويسلبهم الحرية وقد يكون في حريتهم العلاج. على أن المريض قد يكون اصدق في وصف المرض من الصحيح، والجاني قد يصور الجناية بأحسن مما يصورها البريء.

أما بعد، فقد شرحت وجهة نظري في بعض وجوه العيب في النقد العربي من ناحيتها العامة. فأن أراد أخي طه أن يحورها من عمومها إلى شخصيتها، وينقل المسألة من النقد الأدبي إلى النقد السياسي، ويجعل الأمر يدور حول أنا وأنت ونقدت ولم تنقد، وكتبت ولم تكتب، وبئست ونعمت، وشقيت وسعدت، لم أجاره في ذلك، ووقفت حيث أنا إلا أن يعود إلى أساس النظرية، ويقرع حجة بحجة، وبرهاناً ببرهان؛ فأني إذن أساجله القول في ذلك حتى ينجلي الحق ويظهر الصواب. والسلام عليك من أخ يضمر لك من الحب والوفاء ما تضمر له.

أحمد أمين

شخصية غامضة في التاريخ الأندلسي

للأستاذ محمد عبد الله عنان

شخصية غامضة وحادث غامض في التاريخ الأندلسي، في عصر الفتح، تقدم عنهما الرواية النصرانية كثيراً من التفاصيل الغامضة المتناقضة، وتمر عليها الرواية الإسلامية بالصمت؛ ومازال البحث الحديث متردداً في شأنهما.

أما هذه الشخصية الغامضة فهي شخصية ذلك الزعيم المسلم أو النصراني طبقاً لبعض الروايات، الذي تسميه الرواية الفرنجية (منوزا) أو (مونز)، والذي كان يتولى حكم بعض الأقاليم الشمالية في عهد عبد الرحمن الغافقي أمير الأندلس؛ وأما الحادث أو الحوادث الغامضة التي ترتبط باسم هذا الزعيم، فهي مخالفته للدوق أودو أمير اكوتين الفرنجي، وزواجه من ابنته الأميرة لامبجيا التي اشتهرت برائع حسنها، ومشاريعه الغامضة التي نظمها مع الدوق، والتي انتهت بخروجه على حكومة الأندلس، ثم هزيمته ومقتله، وأسر زوجته الحسناء لامبجيا.

وسنحاول في هذا البحث أن نعرف من هو (منوزا) صاحب هذه الشخصية الغامضة. ولقد كنت أعتقد، كما يعتقد كثير من الباحثين في التاريخ الأندلسي أن (منوزا) أو مونز إنما هو تحريف لاسم (ابن أبي نسعة) العربي، وهو عثمان ابن أبي نسعة الخثعمي الذي تولى إمارة الأندلس في سنة 110هـ (728م)؛ وقد سرت على هذا الرأي فعلاً فيما كتبته عن تاريخ هذه الفترة في الفصل الذي خصصته لموقعة بلاط الشهداء في كتابي (مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام)؛ ولكني اليوم أصبحت اشك في صحة هذا الرأي، وفي أن منوزا وابن أبي نسعة هما مسميان لشخص واحد.

وتتفق الروايات النصرانية - ومنها الروايات المعاصرة - على هيكل الحوادث التي ترتبط باسم منوزا من تاريخ أسبانيا المسلمة؛ ومعظمها على أن منوزا كان زعيماً مسلماً، يحكم بعض ولايات البرنيه وسبتمانيا فيما وراء البرنيه باسم حكومة الأندلس؛ وكان ذلك حوالي سنة 725 - 730م؛ وكان الدوق أودو أمير اكوتين الفرنجي في ذلك الوقت يتلمس كل وسيلة لحماية مملكته من غزوات العرب؛ وكان العرب قد غزوا أراضيه مراراً قبل ذلك وأثخنوا فيها؛ وكان جل همه أن يتقرب من حكومة الأندلس أو يجمع الحلفاء من حوله

لمقاومتها، فلما تولى (منوزا) حكم الولايات الشمالية، وهي التي تجاور إمارة اكوتين من الشرق والجنوب، سعى الدوق إلى التفاهم معه؛ وكان منوزا كما تصفه الروايات زعيما قوي المراس، كثير الأطماع نافذ الهيبة في هاتيك الوهاد؛ ولم يكن على اتفاق مع حكومة الأندلس؛ ذلك لأنه كان من أقطاب البربر الذين عبروا إلى الأندلس مع طارق بن زياد؛ ونحن نعرف أن البربر كانوا على خلاف دائم مع العرب، يحقدون عليهم لأنهم استأثروا دونهم بمغانم الفتح والرياسة. فإذا صح أن (منوزا) كان زعيماً بربرياً كما تصفه الروايات الفرنجية المعاصرة، فيكون من المشكوك فيه إذا أن يكون (منوزا) هو عثمان بن أبي نسعة الخثعمي، الذي تولى إمارة الأندلس كما قدمنا. ذلك أن عثمان كان زعيماً عربياً، ينتسب إلى خثعم إحدى البطون العربية العريقة هذا إلى أن الرواية العربية تقدم إلينا عن مصيره رواية أخرى غير تلك التي تقدمها إلينا الرواية النصرانية عن مصير منوزا، فهي تقول لنا إن أبي نسعة ولي الأندلس في شعبان سنة 110 (سنة 728م) واستمرت ولايته خمسة أشهر أو ستة أشهر، ثم عزل وأنصرف إلى القيروان وان فمات بها. أما منوز فقد مات محارباً ومات قتيلاً كما سنرى.

وعلى أي حال فقد تفاهم أمير كوتين ومنوزا؛ وقوت المصاهرة بينهما أواصر الصداقة والتحالف؛ ذلك أنه كانت للدوق ابنة رائعة الحسن تدعى لامبجيا (أو منينا أو نوميرانا على قول بعض الروايات) فرآها منوزا أثناء رحلاته (أو غاراته) في اكوتين وهام بها حباً. تقول الرواية: (وكانت لامبجيا أجمل امرأة في عصرها، كما كان منوزا أقبح رجل في عصره، وكانت نصرانية متعصبة، ولكن أطماع الوالد غلبت على كل شيء فأرتضى مصاهرة الزعيم المسلم). ويصف جيبون مؤرخ الدولة الرومانية هذا التحالف، وتلك المصاهرة في قوله: (أرتضى منوزا الزعيم البربري محالفة دوق اكوتين، وأسلم أودو لباعث المصلحة الخاصة أو العامة، ابنته الحسناء، لقبلات الملحد الأفريقي وعناقه).

وتحيط الرواية النصرانية شخصيا لامبجيا بكثير من الغموض أيضاً، وتختلف في ظروف زواجها من الزعيم المسلم، فتقول مثلا: إن منوزا أسر لامبجيا في إحدى غاراته على أراضي اكوتين، ثم هام بها حباً وتزوجها، وحمل بنفوذها وتأثيرها على محالفة أبيها الدوق، ومناوأة حكومة الأندلس؛ وأنه تزوجها طوعا كما تقدم، وتقول أيضاً إن ابنة دوق اكوتين التي تزوجها (منوزا) لم تكن لامبجيا، وإنما كانت أختها (منينا) التي كانت من قبل زوجة لفرويلا القوطي أمير أوسترياس، وتقول غير ذلك من الأنباء والتفاصيل التي يقع معظمها في حيز الأساطير ونمى أمر من هذا التحالف إلى حكومة الأندلس، فلم تقره، وارتابت في أمره؛ وأبدى منوزا من ضروب التمرد والاستثارة ما حملها على اعتزام تأديبه وتحطيمه؛ وكان أمير الأندلس يومئذ عبد الرحمن الغافقي أعظم ولاة الأندلس، فبعث لتأديب الخارج حملة قوية بقيادة ابن زيان، فامتنع منوزا بمواقعه الجبلية، وتحصن في عاصمة إقليمه (مدينة الباب) الواقعة على منحدر البرنيه، وكان يضن أنه يستطيع أن يتحدى الجيش الإسلامي، وأن يعتصم بالصخر كما أعتصم به الزعيم القوطي بلاجيوس؛ ولكنه كان مخطئاً في تقديره؛ فقد نفذ ابن زيان بجيشه إلى مدينة الباب، وحصر الثائر في عاصمته، ففر منها إلى شعب الجبال الداخلية؛ فطارده ابن زيان من صخرة إلى صخرة، حتى أخذ وقتل مدافعاً عن نفسه؛ وتحطمت أطماعه ومشروعاته (113هـ - 731م) وأسرت زوجه الحسناء لامبجيا، وأرسل بها أمير الأندلس إلى بلاد الشام فاستقبلاها الخليفة (هشام) بحفاوة وإكرام، وتزوجت هنالك من أمير مسلم لا تذكر لنا الرواية اسمه.

والرواية العربية تمر على هذه الحوادث كلها بالصمت، ولا تذكر لنا أي تفصيل أو لمحة تلقي الضياء على شخصية منوزا؛ بيد أن ابن عذاري المراكشي ينقل إلينا أيضاً نصاً يستوقف النظر في حديثه عن ولاية أمير الأندلس الهيثم بن عبيد الكلابي إذ يقول:

(وهو الذي غزا منوسة) فهل تكون (منوسة) هي الافرنجية المحرفة (منوزا) أو بعبارة أخرى هل تنصرف هذه الكلمة إلى الشخص أو تنصرف إلى المكان؟ يرى دوزي أنها تنصرف إلى الشخص، وأن أبن عذاري يقصد هنا (منوزا) صاحب المأساة التي أتينا عليها.

أما نحن فنرى بالعكس أن الكلمة هنا تنصرف إلى المكان، وأنه لا علاقة بين كلمة (منوسة) وبين الزعيم (منوزا)، ذلك أن الرواية العربية لم تعتد أن تعبر عن غزو الأشخاص بهذه الصورة، وإنما تتحدث دائماً عن غزو المكان، هذا إلى أن الحديث هنا يتعلق بغزوات معروفة في الرواية الإسلامية قام بها أمير الأندلس الهيثم بن عبيد الكلابي الذي تولى إمارة الأندلس في أوائل سنة 111هـ (729م)؛ فقد عبر الهيثم جبال البرنيه غازياً؛ وأخترق ولاية سبتمانيا، ثم وادي الرون، وغزا ليون (لودون)، وماسون، وشالون

الواقعة على نهر الساؤون، واستولى على أوتون وبون، وعاث في أراضي برجونيه الجنوبية؛ والمرجح لدينا أن مدينة (ماسون) التي غزاها الهيثم، إنما هي (منوسة) التي يذكرها ابن عذارى، حرفت بالعربية بطريق التقديم والتأخير في الأحرف.

هذا، وهنالك رواية نصرانية أوردها ماريانا المؤرخ الأسباني الكبير؛ فقد ذكر أن (منوزا) كان نصرانياً، أختاره المسلمون لحكم المنطقة الواقعة في غرب البرنيه، ولكنه كان صارماً شديد الوطأة يسوم النصارى سوء الخف؛ وأنه كان للدون بلاجيوس زعيم جليقة القوطي أخت بارعة الحسن، شغف بها منوزا حباً؛ ولكن بلاجيوس لم يوافق على زواجها منه، فاحتال منوزا، وبعثه في مهمة إلى قرطبة؛ وأسر الأميرة أثناء غيبته وتزوج منها قسراً، فأسر بلاجيوس وأخته هذه الإهانة، ولبثا يرقبان الفرص، حتى استطاعت الأميرة فراراً من أسرها، وسارت مع أخيها إلى جبال جليقة حيث أعتصم بلاجيوس مع أنصارهن وأعلن الخروج والثورة. فأخطر منوزا حكومة قرطبة؛ فأرسلت حملة لتأديب الثائر بقيادة (علقمة)؛ ولكن بلاجيوس استطاع مع أنصاره القلائل أن يعتصم بشعب الجبال. فارتد المسلمون منهزمين، وقتل علقمة؛ وارتاع منوزا لفوز خصمه، وخشي انتقام مواطنيه، فحاول الفرار إلى الجنوب، ولكن وقع في يد شرذمة من الفلاحين النصارى فقتلته؛ ويضع سريانا تاريخ هذه الحوادث في سنة 718م.

ولكن رواية ماريانا هذه ظاهرة الضعف؛ أولاً لأنه ليس بمعقول أن تعهد حكومة الأندلس المسلمة بحكم ولاية من ولاياتها إلى زعيم نصراني؛ وثانياً لأن هذه الرواية تخالف في مجموع تفاصيلها كل ما كتبته الرواية المعاصرة عن شخصية منوزا، وعن مصاهرته لدوق أكوتين؛ وثالثاً لأن تاريخ هذه الحوادث متأخر عن التاريخ الذي يعينه ماريانا بنحو عشرة أعوام.

وعنئذ يبقى أمامنا فرض واحد يمكن التعويل عليه في تعيين شخصية منوزا. فهو زعيم مسلم بلا ريب؛ ولكنه شخص آخر غير (ابن أبي نسعة) أمير الأندلس كما أوضحنا. ومن المعقول جداً، أن يكون، كما تصفه الرواية النصرانية المعاصرة، من زعماء البربر الذين دخلوا الأندلس وقت الفتح؛ وقد حرفت الرواية الفرنجية اسمه إلى هذا الوضع، وهنالك في ظروف الأندلس عقب الفتح، وفي عوامل الخصومة التي نشبت بين العرب والبربر، وفي

تنازعهما المستمر على مناصب الرياسة والحكم، ما يؤيد انتماء منوزا إلى البربر؛ وعلى ضوء هذا الفرض وحده نستطيع أن نفهم موقف منوزا وتصرفاته في محالفة دوق أكوتين ومصاهرته وفي محاولته الخروج على حكومة الأندلس، تحقيقاً لأطماع جاشت بها نفسه، ونزولاً على عوامل الخصومة التي يضطرم بها البربر نحو العرب.

محمد عبد الله عنان.

الصفات المحسودة

للأستاذ عبد الرحمن شكري

قال شوبنهور: إن حسد المرء للشيء يكون على قدر يأسه من نيل مثله؛ وهذا اليأس سبب أساسي من أسباب الحسد، فقد يحسد صاحب الضياع والعمارات والسيارات، ولكن حاسده قلما يقصده بحسد كحسده لصاحب العقل الرجيح الأصيل الذي يستمد من العبقرية الموروثة صفاتها. فالأول قد يحسد في فترات غير متصلة، لأن الحاسد يرجو أن ينال الخير على يديه مما لديه، أو يرجو الخير من جاهه ووساطته لدى من

تنفع شفاعته عنده. فالخير يرجى في التحبب إلى الغنى والخضوع له والمهابة عند طلعته؛ وهذه أمور قد تكون ظواهر تستر حسدا، ولكن المرء إذا روض نفسه عليها واعتادها عاد بعضها حقيقة في نفسه يخالطها أو لا يخالطها النفاق. ومما يعين في تحويلها إلى حقيقة أن المرء مأخوذ بوسائل الحياة، منهوم بها من مال وعقار وجاه، فهو يعدها أسباب الحياة الأولية أكثر مما يعد العبقرية من أسباب الحياة؛ ولا يجل الناس عقلاً بلا مال قدر ما يجلون مالاً بلا عقل. فالموهوبات المادية لا يحسدها المرء قدر حسد الموهوبات العقلية، لأنه يرجو الخير عند الأولى بالتحبب إلى صاحبها، ولأنه يهابها، والهيبة والإجلال تتغلب على الحسد للمرء المهيب. أما الثانية فإذا كانت استعداداً موروثاً من صفات العبقرية لا يجلبه التعليم ولا تخلقه التربية، لم يكن للمحروم أمل في نيلها؛ وهذا اليأس منها منشأ الغيظ والمقت والحقد والحسد. ولعل النفس تزكى نفسها بأن المرء المحسود لم ينل الاستعداد الموروث بجد واجتهاد وعمل فهو لا فضل له فيه، وهذه مغالطة، فان الاجتهاد والجد والعمل صفات منشؤها استعداد موروث آخر.

ولا يحسد المرء المال الموروث قدر حسده العقل الموروث، لأن المال الموروث يوجد مثله في السوق، وقد ينال الصعلوك مثله وأكثر منه فيغنى بعد فقر. فالأمل في كسبه موجود دائماً حتى وإن بعدت وسائل نيله؛ وإذا وجد الأمل لطف من عدواء الحسد. أما الاستعداد العقلي الموروث فلا يناله أحد بالاجتهاد والعمل كما ينال العلم المكتسب الذي هو شيء آخر، فليس عند المحروم أمل في نيل صفات العبقرية الموروثة مهما كان أمله عظيما في نيل العلم المكتسب، فتراه يحسد على الاستعداد العقلي الموروث أكثر من حسده على

الضياع والعقار، وأكثر من حسده على العلم المكتسب؛ وهو لا يحسد على الضياع والعقار والمال إلا إذا يئس من بلوغ الخير عند صاحبها، أو إذا يئس من بلوغ مثلها بالجد والاجتهاد، أو بالنصب والاحتيال؛ وهو لا يحسد على العلم المكتسب إلا إذا حرم صفات الجلد والمثابرة والقدرة التي ينال بها العلم المكتسب. فاليأس هو أساس الغيظ والحقد والحسد في كل حالة من الحالات الثلاث ومما يحير الألباب أن ترى أنساناً فقيراً لا حول له يحسد على صفات العبقرية التي هي فيه أو التي يحسبها الحاسد من صفاته أكثر من حسد الحاسد للغني صاحب المال والجاه، فيحار الباحث المفكر في تعليل هذا التفاوت في الحسد؛ وكان المعقول في رأيه أن يكون مقدار الحسد على عكس ما يرى لأن الناس تتقاتل على الذهب والفضة، ولكن إذا عرف الباحث ما ذكر من نشأة الحسد وسببه زالت حيرته وزال عجبه.

ولعل لهذا الانقلاب في مقادير الحسد الذي يقصد به صاحب المال وصاحب العقل الموروث سبباً آخر، وهو أن وسائل القهر والدفاع والانتقام متوفرة عند صاحب المال وهي أمور يخشاها الحاسد، والخوف منها يلطف من غلواء حسده لصاحب المال والجاه خشية أن يصيبه من قدرة الغني أو صاحب الجاه ومن انتقامه وبطشه ما يؤذيه فيردعه الجبن عن الحسد. فترى أن الرهبة من وسائل البطش عند صاحب المال والجاه تعمل أيضاً عمل الرغبة في الاستفادة من التحبب إليه، وكلتاهما تضعف الحسد في نفس الحسود.

ومظاهر العقل المكتسب لا ينالها من حسد الحاسد قدر ما ينال مظاهر العقل الموروث، فالعلم الذي ينال بالاجتهاد وهو من مظاهر العقل المكتسب الذي لا يستطيع كل مثابر أن يناله، أما العبقرية في شتى مظاهرها فلا ينالها المحروم بالجد والاجتهاد، ويأسه منها واقع لا محالة؛ وهذا اليأس هو منشأ غيظ المحروم ومنها ومنشأ حسده، ولا يردعه عن كيد الحسد خوف البطش، لأن العبقري قلما تتوافر لديه أسباب البطش توافرها عند صاحب الجاه والمال. فالجبن الذي يحذر الحاسد من بطش المحسود إذا كان ذا مال وجاه يتطلب في نفس الحسود ما يزكيه وما يداوي ألمه وما يغالط النفس عنه كي لا تعتريها الذلة والاحتقار من أجله بأن يتحول الجبن استطالة وكيداً لصاحب العبقرية الذي فقد وسائل البطش أو لمن خيلت فيه صفات العبقرية.

ومن أجل ذلك ترى أن المرء قد يؤلف كتاباً في الجبر أو الحساب أو الهندسة أو غيرها من العلوم فيروج ويقرأ في شتى المدارس وينشر مؤلفه منه طبعة بعد طبعة حتى يثرى بسببه ويقتني العقار والضياع ويحصل من أجله على مال كثير فلا يصيبه من

حسد الحساد قدر ما يصيب فقيراً من ذوي الفنون أو الفكر الأصيل إذا لمحت فيه مظاهر العبقرية أو خيلت فيه لأن العبقرية استعداد موروث لا أمل للمحروم في نيله، واليأس منشأ الغيظ والحسد. أما صاحب العلم المكتسب الذي يؤلف كتاباً يغتني من أجله فقدرته قدرة مكتسبة يستطيع كل إنسان أن ينال مثلها إذا انصرف إلى وسائل نيلها وخصص نفسه لها، فلا يأس يدعو إلى الغيظ والحسد الشديد؛ وإن كان يصيب صاحب العلم المكتسب حسد عليه فحسد الكسول الذي يستطيع بلوغ العلم المكتسب ولا يتخذ العدة لبلوغه، وهذا حسد كسول مثل صاحبه الحسود. وإذا كان ذا نقص عقلي يمنع من بلوغ العلم المكتسب فالحسد في هذه الحالة على العقل الموروث الذي نقص حظه منه.

وعلى هذا القياس ترى في الفنون أستاذ الصنعة الذي حرم العبقرية واكتسب الصنعة بالجد والاجتهاد، لا يحسد قدر ما يحسد الفنان الذي يرى الناس فيه مظاهرة العبقرية؛ فترى الأول ذا جاه وأصدقاء ومال ولا يحسد على كل هذه النعم قدر ما يحسد الثاني. ومما يزيد الحنق والحقد على ذوي العبقرية في شتى مظاهرها العلمية والفنية أنهم أناس ذوو نظرات جديدة خاصة، والناس من أجل كسلهم الفكري ومن أجل خوفهم من الجديد المجهول غير المألوف يرون صلاح الحياة وضمانها في الاستمساك بالمألوف، حتى ترغمهم العدوى شيئاً فشيئاً على الأخذ بما لم يكن مألوفاً لديهم. ومما يزيد في خوفهم شطط أهل الشطط؛ وهذه الأسباب إذا عللت جانبا من جوانب الحنق والحقد فأنها لم تعلل كل جانب، ولم تعلل الحسد الذي ينشأ من الرغبة في شيء حال اليأس دونه. وكثيراً ما يختفي الحسد وراء ستار فيحسب شيئاً آخر غير الحسد.

وكثيراً ما يحسب فضيلة من الفضائل لأنه يستتر بستار الفضائل ويتخذها لباساً كي يخفي قبح نفسه، وكي يكون أبلغ في الكيد لأنه يبيح كل ضعة. والحسد ليس من صفات المحرومين وحدهم، فإن من الموهوبين من هو شديد الحسد. ومنشأ الحسد في الموهوبين الرغبة في التفرد بكل إجادة. والعبقري الموهوب قد يحسد إذا يئس من حيازة شيء جليل

أصيل وإن كان عنده مثله. فالرغبة في حيازة كل فضل، واليأس من تحقيق تلك الرغبة، ينشئان الحسد في صدره كما ينشأ في صدر المحروم.

وقلما يحسد أشباه العامة ذا العبقرية قدر حسد العلماء أو المتعلمين أو الحفاظ المجتهدين له، فمن أخذ بنصيب من العلم قل أو كثر أحس فقدانه العقل الموروث إذا كان قد حرم صفاته فييأس منها مهما غالط نفسه وادعاها لها. فالمغالطة والحنق الناشئ من اليأس قد يتفق وجودهما في وقت واحد. والعامة إذا أبغضوا ذوي العبقرية كان بغضهم بسبب جلب العبقريين لغير المألوف من المعاني في بعض الأحايين وبسبب قلة فهم العامة، وما ينشأ عنها من الغيظ والخوف والمقت، فيستثمر الحسود المتعلم هذه الصفات فيهم كوسائل لإشباع حسده؛ وقد يستثمرها كي يصرف نفوسهم عن أن يحسدوه على جاه أو مال أو كي يزكي نفسه بمعاونتهم فيما يحس من ضعف وجبن نشأ من اليأس والعجز عن الأمر المحسود الذي لا يستطاع نيله لأنه استعداد موروث.

عبد الرحمن شكري

هل الأمريكيون مصريو الأصل؟

بقلم إبراهيم إبراهيم يوسف

مصر تكتشف أمريكا - رسالة أهل مصر - أقدم حل لمشكلة العاطلين - أقدم بعثة في التاريخ - أول جامعة متنقلة - رحلة يتممها أحفاد الأحفاد

تقدم لنا العلوم بين آن وآن حقائق كنا نجهلها كل الجهل عن أثر قدماء المصريين في بناء المدنيات. ولشد ما كنا نعجب حينما تنبثق من قبور أجدادنا الأقدمين أشعة من النور تبهر العقول قبل الأبصار، فترينا أن المدنيات التي قامت في العالم مدينة في كثير أو قليل لمنتجات عقول سكان مصر الأقدمين. واليوم نقف وبقية العالم في ذهول وحيرة إزاء تلك الاكتشافات العديدة التي قام بها علماء العاديات وغيرهم في البلاد الأمريكية، والتي تثبت أن أول من أستوطن أمريكا هم المصريون. كذلك ثبت لبعض علماء الأجناس أن المصريين كانوا نواة لبعض فصائل من البشر. ولما كان بعض هذه

الحقائق يستند إلى وثائق أثرية وآثار طبيعية يرجع عهد البعض منها إلى ما قبل التاريخ، فعلينا أن نلم إجمالا بالتطورات التي حدت بقدماء المصريين أن يسلكوا ذلك السبيل.
يحزم كثير من علماء التاريخ القديم بأنه كان لمصر مدنية تفوق في تقدمها وازدهارها وشيوعها كل ما عداها من المدنيات. ومن الطبيعي أن هذه المدنية لم تكن إلا نتاجا لسابق جهود تمت خلال عشرات المئات من السنين واصل فيها شعب النيل الفكر والعمل مدفوعا بقوة روحانية يستمدها من مثله الأعلى الذي نصبه لنفسه، والماثل في تهذيب الطبيعة لتجميل الحياة.
ولا عجب أن تكون العظمة طابع تفكيره، وهو الذي إلى على نفسه أن يهذب الطبيعة ويجمل الحياة، إذ لا شيء أعظم من الطبيعة أو اشمل للحياة من الحياة. ولو أن هذا الشعب لم يتصدر لأعظم حلم عرفه التاريخ (وستمر بك تفاصيله)، ولم يبذل جهود الجبابرة لتحقيقه، ثم لم يظفر ببغيته منه، لما كان أهلا لرسالته.
وكان المصريون بما لهم من عقول رياضية قد تحققوا أن هنالك بلادا شاسعة غنية بخيراتها، زاخرة بثروتها الطبيعية، لا زالت بكرا. فسعوا إليها اليهود ليؤدوا رسالتهم فيها؛ وكانت تلك البلاد هي التي أطلق عليها فيما بعد اسم (أمريكا). وكان العلماء في مصر قدروا إذ ذاك موضع أمريكا تقديراً لا خطأ فيه، بدليل أن المصريين في ترحالهم إلى تلك البلاد لم يضلوا الطريق في الوصول إليها، ولم تبتلعهم صحاري ومجاهل آسيا. كذلك لم يغوهم بلد كالهند لوثيق معرفتهم إن الثروة الطبيعية في أمريكا أوفر منها في الهند وأعظم وكانت المدنية المصرية وصلت إلى حد عرفت فيه مشكلة البطالة، وتكاثر في البلاد عدد العاطلين من العمال والمفكرين. ولم يك ذلك إلا نتاجا لسوء نظام الطبقات السائد إذ ذاك. وخشيت الطبقة الحاكمة أن يتصدى العاطلون لنظام الحكم والنظام الاجتماعي، فأوعزت إلى العلماء بالدعاية لفكرة استغلال أغنى بقاع العالم: أمريكا. وكان الضيق قد حل بالعاطلين من أبناء مصر فتقبلوا الفكرة ونظموا جموعهم واستقر قرارهم على الرحيل إلى بلاد الأمل والرجاء، وانتظم في سلك هذه الرحلة العمال والفلاحون والعلماء والفنانون - كل بعدته وأداته. ولم تكن هذه الحملة قاصرة على جحافل من رجال أشداء، بل كل الشيوخ والنساء والبنات والبنون ضمن عناصرها. وهذه الحملة أو البعثة الجامعة إلى الدنيا الجديدة كانت أشبه ما تكون بأمة كاملة تحمل في نفسها كل عوامل الحياة ووسائلها. وليس من المحتمل اليوم أن يجود التاريخ ببعثة تماثلها من حيث التكوين أو العظمة أو الغرض. ولا بد لتنظيم هذه الرحلة والسهر على إنجاحها من عقول راجحة قد يصعب علينا اليوم تصور جبروتها وعتوها. وكان على الجحافل التي تنزح يومياً عن أرض النيل - وكلهم من العاطلين - أن تعمل منذ الساعة الأولى من الرحلة على الإنتاج، كل فيما أختص به. ولم يكن أساس حياتهم الجديدة حب الذات، كما كان الحال في مصر، بل كان التفاني في التضحية لخدمة المجموع رائد الكل، فحل تعاون الجماعات محل الاستئثار، وغلبت الأخوة بين الجميع على فوارق الطبقات، وتمتع هؤلاء الرحل بحرية لم يعرفوا لها نظيرا على ضفاف النيل. وكان صدق حبهم وخالص نيتهم في تحقيق حلمهم العظيم يغريهم بالتمادي في التضحية. ولا يمكننا اليوم ونحن في القرن العشرين وطرق المواصلات ميسورة وعديدة وأغلب البلاد مأهولة وعامرة، تقدير المشاق التي عاناها أجدادنا في اجتياز تلك البقاع. ويرجع تذليل كل صعاب انتابتهم إلى الذهن المتقد وقوة الساعد والإيمان بصدق
الرسالة. ولا شك أن العزيمة واطمئنان النفس كانت تتملك تلك الجماعات من الناس منذ بدء الرحلة التي قاموا بها، فاخترقوا صحراء سينا إلى فلسطين فسوريا فتركيا فالعراق فبلاد الكرد فإيران فالتركستان فشمال الهند، ومنها إلى سهول وصحاري سيبريا الشاسعة حتى ظهر لهم البحر. ولقد قاومت هذه الجماعات الجوع والعطش والقيظ والبرد والحيوانات المفترسة والطيور الجارحة والمتوحشين من الهمج وتغلبت عليها جميعاً بل لقد اجتازت مناطق لم يكن للبشرية فيها من أثر. ولما ان وصلوا إلى أبعد نقطة من شرق آسيا أخذوا يصنعون الفلك الذي أجتاز بهم البوغاز المعروف باسم (طريق بيرنج) حتى وصلوا إلى شبه جزيرة ألسكا.
ويقول الأستاذ الدكتور هردليكا مدرس علم الأجناس في معهد سميث سونيان بأمريكا: (إن الطارقين الأولين للدنيا الجديدة اتخذوا جزيرة كودياك قاعدة لهمم وجعلوها مركز

اتصال بين من تخلفوا منهم في آسيا ومن تقدموا منهم في أمريكا؛ وهؤلاء اجتازوا ألسكا ونزحوا إلى كولمبيا البريطانية فولايات واشنجطن وأوريجون وكاليفورنيا الواقعة على المحيط الهادئ. ولم يجد المصريون رواد أمريكا آدمياً واحداً أو أثر لآدمي، ولكنهم وجدوا حيوانات مردة متوحشة يعلوها الشعر الكثيف المتهدل. ومن هذه الحيوانات المامونت والفيلة العاتية وغيرها مما كان يجتاز الأحراج والبراري في تلك الأرض البكر).

ويسلم الباحثون بأن (رواد أمريكا الأول كانوا على جنب عظيم من الشجاعة والأقدام والمخاطرة) (وأنهم انقسموا إلى فريقين: فالفريق الأول ذهب إلى الشرق، والفريق الآخر اتخذ طريقه إلى جانب مجرى الأنهار الكبرى حتى وصل هؤلاء المصريون إلى المحيط الأطلنطي. وهكذا قطعوا ثلاثة آلاف من الأميال على أقل تقدير). ويميل العلامة الأستاذ بنيت عضو المعهد الأمريكي للمباحث الخاصة بالهنود الحمر إلى (أن المصريين لم يقفوا عند الشاطئ بل ركبوا البحر حتى بلغوا الجزر المترامية في المحيط والمعروفة اليوم باسم جزائر الهند الغربية). ويتفق علماء الآثار الأمريكيون في القول بأن (الفريق الآخر الذي سار جنوباً أخترق بلاد المكسيك وأواسط أمريكا وإحراج استموس في بناما. ثم تدرجوا إلى مجاهل أمريكا الجنوبية). ومن أمد قريب رحل جماعة من علماء الأمريكان إلى بوليفيا لعلهم يقفون على أثر للجماعات الرحل التي تقدمت التاريخ، (هؤلاء الرحل الذين قدموا من وادي النيل قبل أن يقدم أمريكا بأجيال عدة قبائل الآنكاس) على حد تعبيرهم. وسرعان ما وقفت هذه البعثة في عملها، فقد جاء في تقرير الأستاذ بنيت: (إننا وجدنا حول بحيرات تيتيكاكا في بوليفيا آثار مدنيات يرجع تاريخها إلى ما قبل عصر الأنكاس). وجاء في هذا التقرير (وعلى مقربة من البحيرات وجدنا خرائب متفرقة. ولما أن انكشفت عنها الأتربة ظهرت خمسة أبنية كانت على ما يظن معاهد دينية) ولا زالت هذه البعثة مستمرة في أبحاثها. والاعتقاد السائد بين أفرادها أنها سوف توفق إلى اكتشاف مبانٍ ومدافن أخرى يرجع عهدها إلى ما قبل التاريخ.

كذلك وفق الأستاذ هردليكا إلى اكتشاف في كوبا يؤيد وجود اتصال ثقافي ومدني بين الشعوب القديمة والشعوب الشمالية في جزيرة كودياك وقبائل مایاس في أمريكا. ومن المسلم به (أن جميع السكان الشماليين ومن بينهم الأسكيمو هم من سلالات العنصر الذي نزح إلى البلاد الأمريكية عند بدء تعميرها). ولما أن وجد الدكتور هردليكا جمجمة في إحدى حفريات جزيرة كودياك مال إلى رأيه كثير من العلماء وهو (أن تلك الجمجمة هي صلة الوصل بين جميع الأجناس البشرية التي عمرت أمريكا). وهي جمجمة لرئيس قبيلة كما يزعم الدكتور هردليكا، ويضيف إلى زعمه هذا أن أتباع هذا الزعيم اقتطعوا من لحمه حياً والتهموه التهاماً لفرط إعجابهم بكفاءته وفضائله. وهذه العادة كانت متبعة إذ كان يأكل الأتباع سيدهم وهو حي. وكذلك يفعلون مع زعيم أعدائهم اعتقاداً منهم أن مميزاته ومقدرته سوف تتقلص فيهم بعد أكل لحمه. وقد وجدت في جمجمة هذا الزعيم عين صناعية صنعت من سن الفيل وجعلت الحدقة حجراً كريماً. وكانت قبائل الاستكن والمایاس تصنع مثل ذلك أبان ازدهار حضارتهما. وكان الدكتور بنيت أمضى عدة أسابيع في أبحاثه بمدينة بيناردل ريو من أعمال جزيرة كوبا فوجد فيما عثر عليه مائتي ملعقة من المحار وكثير من المطارق الحجرية والأواني المنزلية المصنوعة من الخشب وغيرها من الأدوات التي تتمثل فيها البساطة والفطرة. كذلك وجد في هذه المدينة جمجمة يرجع عهدها إلى ما قبل التاريخ. ويرى فيها الدكتور بنيت حلقة الاتصال بين الهنود الحمر الأول وسكان جزائر الأناتيل، وقد ثبت له كما ثبت لغيره من قبل أن موطن الآباء الأول للهنود الحمر من سكان أمريكا هو وادي النيل.

ومما لا شك فيه أن رحلة العاطلين المصريين هذه إلى أمريكا وكوبا وجزائر الهند الغربية دامت بضع مئات من السنين. وأن عدداً من الأطفال ولدوا أثناء السفر وشبوا وعاشوا وماتوا على بعد عشرات المئات من الأميال من الموضع الذي أبصروا فيه لأول مرة نور العالم من دون أن يصلوا إلى أرض الأمل والرجاء، فورث الأبناء الرسالة وأخذوا على عاتقهم تحقيقها.

وليس باستطاعة أحفاد الأحفاد بناء مدينة في أمريكا تشبه كل الشبه المدنية التي

أقامها المصريون على ضفاف النيل مع أنهم لم يحظوا بالعيش في مصر يوماً لغز قط، فقد كان هؤلاء الرحل من بدء ترحالهم إلى الدنيا الجديدة يعدون العدة لتوفير أسباب إتمام المرحلة التالية. فان وجدوا الأرض خصبة والماء ميسوراً زرعوا الغلال والفاكهة والخضر والزهور وحملوا معهم ما أرادوه ميرة لهم في سفرهم. وكما أن بعضهم كان ينسج الصوف والكتان وغيرهما ملابس وأردية وخياماً، كان البعض الآخر من أصحاب الحرف يلقن الصبية صناعته. وكانت تعقد قبل مسير كل يوم في الصباح من أيام الإقامة حلقات يدرس فيها العلماء علمهم ويقدم فيها الفنانون تجاربهم. وكان لكل علم وفن دراسات وحلقات وفصول أولية وإعدادية عالية. فكانت كل أنواع الثقافات المعروفة في ضفاف وادي النيل تقدم دون تمييز إلى كل الأفراد. وهكذا عرفوا كيف يضعون بين حياة الفطرة وحياة أحفادهم سداً منيعاً. ولما كان لكل فرد في القافلة حق تلقن العلم ودرس الفن الذي يميل إليه أصبح الجميع أحرار الفكر أحرار العمل، خاصة وقد تخلصوا من سلطة رجال الدين. وكان على طلبة الأمس أن يعلموا صبية وبنات اليوم. وهكذا احتفظ بمستوى الثقافة.

وقد وجه السؤال التالي إلى بعض الهيئات:

إذا كان حقاً أن المصريين عرفوا موضع أمريكا الجغرافي وعلموا بتفوق ثروتها الطبيعية، فلم لم يركبوا البحر إليها مباشرة من شواطئ البحر الأحمر؟

وما أيسر الجواب على ذلك. إن المسافر في البحر خاصة في تلك السفن القديمة العهد؛ كان مضطراً إلى هجر صناعته وعدم مزاولته لها ولكثير من دعائم الثقافة وأسس المدنية. وكيف يزال في السفينة فلاحة الأرض وزراعتها، ونحن نعلم أن المدنية المصرية كان أساسها في الزراعة؟ وإذا كان هذا حال الفلاح فكيف يكون حال أولاده وأحفاده. كذلك

تدريس العلوم والفنون أثناء سفر السفينة بعيد الاحتمال، فلا يرجى للناشئ أن يقف على مدنية جديدة عليه أن يبينها من أساسها في أرض جديدة. والأمر الثاني كيف يجوز لهؤلاء العاطلين وهم جماعات عدة أن يحصلوا على المواد الغذائية لمدد طويلة قد تربو على العام؟

ولو أن المصريين الأقدمين ركبوا البحر إلى أمريكا لما وصلوا إلى الدنيا الجديدة ولما وجدنا هنالك أهراماً وتماثيل ومباني تماثل ما نراه على ضفاف النيل للعهود القديمة. أما وقد أنشأوا مدنية جديدة في أرض بكر، وأدوا رسالتهم على الوجه الأكمل فأولى بنا أن نقتبس من روح نظام مجتمعهم الذي مكنهم من تحقيق أكبر حلم عرف في التاريخ.

إبراهيم إبراهيم يوسف.

للتاريخ السياسي

اليوم السابع من مارس - 5

ضربة مسرحية في برلين

للدكتور يوسف هيكل

أما مسيو فان زيلاند، فقد ألقى خطاباً مرتب العبارة أنيق الأسلوب مؤثراً، وقد مس في خطابه شعور كل من سمعه. . وقال إنه لا يوجد بلاد فيها الخوف أشد مما هو في بلجيكا، وأن هذه البلاد الصغيرة لا تملك ما يطمئنها على سلامتها غير معاهدة لوكارنو. . وقد أعتدي على حق بلجيكا التي تحترم المعاهدات والجيران اعتداء لا مبرر له. . . فبلجيكا لم تكن عضواً في المعاهدة الفرنسية الروسية التي أتخذها الهر هتلر حجة لتمزيق لوكارنو. ولا ينبغي أن تتوقف قيمة الإمضاء على معاهدة على قيمة قوى الذي وقع على تلك المعاهدة. . .

وبعد ظهر يوم الاثنين الموافق 16 مارس أجتمع مجلس العصبة اجتماعاً خاصاً ثم اجتماعاً سرياً داما مدى أربع ساعات، ودام البحث خلال ذلك عن الجواب الواجب إرساله إلى الحكومة الألمانية، وعن الأصول الواجب إتباعها للوصول إلى القرار الذي يصدره المجلس. وبعد نقاش طويل تقرر إرسال برقية إلى الهر هتلر يخبره فيها بأن الألمانية الحق في الاشتراك في مناقشة المجلس لطلب فرنسا وبلجيكا على قدم المساواة مع بقية الدول؛ ولا اعتبار لأصوات دول لوكارنو الثلاثة في تقرير التصويت الإجماعي. أما فيما يتعلق بالشرط الثاني فليس من اختصاص المجلس إعطاء التأكيد

الذي تطلبه الحكومة الألمانية.
وقرأ مسيو فلاندان طلب حكومة فرنسا وبلجيكا الذي تقولان فيه بأن على مجلس العصبة أن يقرر بأن ألمانيا قد اعتدت على ميثاق لوكارنو ومعاهدة فرساي، وأن يقف فوراً دول لوكارنو على القرار - وبعد نقاش قصير فضت الجلسة.
وقبل أن تجيب حكومة برلين على برقية مجلس العصبة، أرسلت صباح الثلاثاء 17 مارس إلى حكومة لندن، بواسطة سفيرها في برلين برقية تقول فيها بأن الحكومة الألمانية تأمل من حكومة جلالته بذل جهودها، في الظروف الحالية، للمفاوضة على المنهاج الألماني
في الوقت المناسب مع الدول ذات الشأن فيه. فأسرع مستر ايدن في أخذ رأي ممثلي فرنسا وبلجيكا ثم أجاب حكومة برلين قائلاً: (إن حكومة جلالته باذلة كل جهدها للوصول إلى حل سلمي مرض للمشاكل الحالية. وأن الحكومة البريطانية تؤكد بأن (اقتراحات المستشار) ستناقش في الوقت المناسب كغيرها من اقتراحات ذات الشان في الموضوع)
وفي اليوم عينه اجتمع مجلس العصبة في الساعة الثالثة والنصف وعقد جلسة سرية حسب اقتراح رئيسه ليسمع تصريحاً من ممثل بريطانيا. وقد أطلع مستر ايدن المجلس على برقية حكومة برلين وجوابه عليها. وبعد جدال عنيف حول الموضوع تقرر أن برقية الحكومة الألمانية لا تعد جواباً على برقية المجلس، وأن على المجلس فتح المناقشة حول طلب فرنسا وبلجيكا. وقد حض ممثلا فرنسا وبلجيكا على النقاش الفوري، وأخذ مسيو فلاندان يتكلم بحدة عن ضياع الوقت دون الوصول إلى نتيجة.
وبينا هم كذلك إذ سلمت برقية إلى مستر ايدن، تفيد بأن الحكومة الألمانية قد قررت إرسال مبعوث إلى لندن. وبعد بضع دقائق (تلفن) سفير ألمانيا في لندن إلى رئيس المجلس ليقفه على الخبر. وعلى ذلك انفضت الجلسة ليقوم الممثلون باستشاراتهم الخاصة.
وفي نفس اليوم عقدت الجلسة ثانية وكانت سرية أيضاً. ودار الحديث حول تأجيل المناقشة العامة حتى وصول ممثل بريطانيا، فعارض مسيو زيلاند في ذلك، وأخبر مسيو فلاندان المجلس بأنه يجب أن يؤخذ القرار صباح الخميس، لأنه سيغادر لندن إلى باريس في ذلك التاريخ. وهكذا تقرر أخيراً افتتاح الجلسة العمومية والبحث في دعوى فرنسا وبلجيكا، وكان ذلك في الساعة الخامسة والنصف.
وتكلم في هذا الاجتماع ممثلو تركيا وروسيا وشيلي. وكان أهم ما جاء في الخطب انتقادات الرفيق لتفينوف الشديدة والصريحة لانتهاك ألمانيا ميثاق لوكارنو. وقرأ جملاً من كتاب (كفاحي) توضح أن ألمانيا كانت مصرة على احتلال أراضي الرين عسكرياً وتسليحها لتتمكن من نشر نفوذها على أوربا جميعها وتابع مجلس العصبة اجتماعه في اليوم التالي، وتكلم جميع ممثلي الدول عدا الرئيس وممثل بلاد (الإيكوادور) بسبب مرضه، وأهم الخطب كانت خطب مستر ايدن والسنيور جراندي والكلونيل بيك أما الهر ريبنتروب فلم يصل في الوقت المحدد، ولذلك ألقي خطابه يوم الخميس 19 مارس.
وبعد أن أبان مستر ايدن أن ألمانيا هدمت معاهدة لوكارنو بعملها في 7 مارس قال: (إن واجباتنا ليست فقط التصريح بأن اعتداء قد حصل، بل يجب أن نضع نصب أعيننا غايتنا السامية، ألا وهي الاحتفاظ بالسلام، وإقامة حسن التفاهم بين أمم أوربا على أساس متين ودائم. ماذا كان مقصد لوكارنو؟ لقد كان لها مقصدان: أولهما الاحتفاظ بالسلام، وثانيهما خلق ثقة دولية بتأمين السلام في غربي أوربا. وإنني أصرح بأن موضوعنا اليوم هو هاتان النقطتان. . واستمر يقول بأن الحالة الراهنة التي تولدت عن أعمال 7 مارس حرجة جداً، غير إن هذه الحالة تحتوي على شيئين مهمين يجب لفت النظر إليهما:
أولهما: أن تمزيق لوكارنو لم يحمل معه أي تهديد عدائي، ولا يوجب العمل الفوري الذي توجبه معاهدة لوكارنو في بعض الظروف.
ثانيهما: مهما تكن الحالة خطرة فأنها أوجدت فرصة سانحة لتوليد حسن التفاهم وبناء العلاقات الدولية على معاهدات يحترمها الجميع ويود بقاءها. . .
أما الأمر الأول الذي لفت مستر ايدن إليه النظر فيخالف نص معاهدة لوكارنو الذي

يقول بأن احتلال أراضي الرين يعد عملاً عدائياً، ولدول لوكارنو الحق في اتخاذ إجراءات عاجلة فعالة. وأما النقطة الثانية فلا يستطيع مستر ايدن تأكيدها، إذ هو لا يستطيع ضمان محافظة ألمانيا على المعاهدات التي ستعقد معها. ألا يمكن لحكومة النازي أن تقوم بعد سنين بعين العمل الذي قامت به في 7 مارس بحجة أن المعاهدة التي وقعتها لم تعد تسير مع رغائب الأمة فلا قيمة لها، وأن الحكومة الألمانية في حل منها!

واجتمع مجلس العصبة صباح الخميس الموافق 19 مارس لسماع خطاب الهر فون ريبنتروب واتخاذ القرار. وفي بادئ الأمر عقد اجتماع خاص طلب فيه ممثل الهر هتلر ترك فاصل من الوقت بين نهاية خطابه وأخذ القرار للتفكير. فصرح مسيو فلاندان حالاً، وبدون تردد، بأنه يعضد هذا الاقتراح. وفي الساعة العاشرة والنصف عقد الاجتماع العام. وأومأ الرئيس إلى الهر ريبنتروب، فقام وقرأ خطابه بالألمانية (مع أن اللغتين الرسميتين في عصبة الأمم هما الفرنسية والإنجليزية)، وبصوت هادئ ودون إشارة مدة نصف ساعة، ولم يأت في دفاعه ببراهين جديدة تبرر أعمال 7 مارس، بل كان الدفاع مبنياً على أن حكومة فرنسا اعتدت على لوكارنو بعقدها مع الروسيا ميثاقاً آخر؛ وأعاد تأكيد الهر هتلر

بأن الحكومة الألمانية تود السلام.

وبعد أن ترجم الخطاب إلى الفرنسية والإنجليزية، انفضت الجلسة ليجيل الأعضاء الفكر فيه.

وعندما اجتمع أعضاء المجلس في الساعة الثالثة والنصف ألقى الرئيس بروسي كلمته كممثل لحكومة أستراليا، وأخبر بأنه سيصوت مع طلب فرنسا وبلجيكا.

ثم جرى التصويت على القرار - وهذا نصه: (إن مجلس عصبة الأمم، حسب دعوى وفرنسا وبلجيكا، المقدمة إليه في 8 مارس 1936، يرى بأن الحكومة الألمانية قد خالفت المادة 43 من معاهدة فرساي بإرسالها في 7مارس سنة 1936 قوى حربية إلى الإقليم غير المسلح، والمنوه عنه في المادة 42 والمواد التالية من تلك المعاهدة وفي معاهدة لوكارنو، وإقامتها فيه. انه يخبر السكرتير العام حسب نص البند 2 من المادة 4 من معاهدة لوكارنو لكي يرسل قرار المجلس هذا حالاً إلى الدول الموقعة على تلك المعاهدة)

وقد أخبر الرئيس بأن لجميع الممثلين حق التصويت، غير أن أصوات المتخاصمين لا تعد لمعرفة ما إذا كان التصويت بالإجماع.

وكان جواب ممثلي الدول إيجابياً (نعم). أما جواب ممثل الهر هتلر فكان (لا). ولم تكن حكومة اكوادور ممثلة في هذا الاجتماع؛ ولقد تغيب عن التصويت ممثلي شيلي.

وهكذا أخذ القرار بمخالفة أعمال 7 مارس لمعاهدتي فرساي ولوكارنو بالإجماع؛ وانتهت بذلك الدورة 91 غير العادية لمجلس العصبة.

يوسف هيكل

بعض أبطال النقد وأثرهم في نهضة الآداب الأوربية

عندما قرأت مقال الأستاذ صاحب (الرسالة) في فوضى النقد في مصر، ثم قرأت في الأسبوع التالي مقال الأستاذ أحمد أمين، بدا لي أن أقدم للقراء طائفة من النقاد الأوربيون كان لهم أكبر الأثر في نهضة الآداب كل في مملكته. وقد اشترك هؤلاء في فضيلة واحدة جعلت لكتابتهم قيمتها، تلك الفضيلة هي أنهم لم يقيموا من أنفسهم قضاة يصدرون أحكامهم على الأدباء، ولا اتخذوا من أنفسهم شتامين سبابين، يخرجون عن موضوع النقد إلى الخوض في الأعراض وانتقاص الشاعر أو الكاتب بكل ما يضع من قدره، ويحط في أعين القراء من شأنه. . . بل هم كانوا يعرضون بضاعة الأدباء على القراء ويعينونهم على تقديرها بالنقد والتحليل، ويلفتون أنظارهم إلى ما فيها من جمال أو قبح، ثم يتركونهم يصدرون أحكامهم من تلقاء أنفسهم. وأحسب أن لو أتبعت هذه الطريقة في مصر لعادت على الأدب والأدباء بأكبر النفع، ولا سيما إذا لم تقحم السياسة والإحن والتعصب في المسائل الأدبية التي ينبغي أن تظل بريئة خالصة لوجه الحق والأدب.

أما هؤلاء النقاد الأوربيون فهم: لسنج الألماني، وسانت بيف الفرنسي، وبلنسكي الروسي، ثم كولردج، وشارل لامب، وهازلت، وأرنولد الإنجليز.

1 - لسنج
كانت أوربا كلها إلى ما قبل القرن الثامن عشر تعير ألمانيا بالإفلاس الأدبي، وكانت ألمانيا تنظر إلى خصيمتها فرنسا نظرة كلها حسد وكلها غيرة، وإن كان هذا الحسد وتلك الغيرة لم يمنعاها من أن تكون التلميذة المؤدبة المعترفة بالجميل لفرنسا، ذلك لانتشار الأدب الفرنسي بين الألمان في ذلك الوقت انتشارا كان يأخذ السبل على كل الآداب الأوربية، فما يستطيع أحدها النفاذ إلى ألمانيا، بما في ذلك الأدب الإنجليزي الذي كان بطبعه أقرب إلى ذوق الألمان. فلما ولد جوتهولد إفرايم لسنج سنة 1729 دقت البشائر في ألمانيا كلها، وأخذ الكابوس الذي كان يجثم على صدرها ينظر إلى هذا الطفل ويعد العدة للرحيل!

قضى لسنج أيامه الأولى متنقلاً بين لينبرج وبرلين؛ وكان أبواه قد نذراه للكنيسة، لما كان للرهبان في تلك الآونة من عظيم الشأن في ألمانيا؛ ومن هنا كان الصراع الهائل في نفس الشاب بين ميوله الأدبية الفطرية وبين التزمت الديني في الفكر الذي يقسر عليه رجال الدين عادة. فصبأ من تلقاء نفسه، واحترف الأدب.

وكان لسنج يبغض الأدب الفرنسي ويبغض الأدباء الفرنسيين وفي مقدمتهم فولتير؛ وأكبر الظن أنه كان يصدر عن عصبية ووطنية صارخة لما كان بين الدولتين من منافسات وثارات. ولم يبرح يكتب ويكتب، ولم يبرح المسرح يجتذبه إليه، فعكف أول الأمر ينقد الدرامات الفرنسية التي كانت تكتسح المسرح الألماني، ويظهر الناس على ما فيها من ليونة لا تتفق والقوة التي تنشدها ألمانيا. ولم يقف عند الكتابة في الصحف والمجلات، بل ألف كتابه القيم (تاريخ المسرح) وأصدره سنة 1750، وهو كتاب خطير حسن يلفت فيه لسنج أنظار قومه بشدة إلى روائع المسرح الإغريقي، ويقفهم به على أحسن ما جادت به قرائح إسخيلوس وسوفوكليس ويوريبيدز وأرسطوفان. ثم يدعوهم به إلى الأيمان باليونان والكفر بفرنسا. وكان هذا الكتاب أول محاولة صادقة لإحياء الدراما الكلاسيكية، وقد هرع إليه أدباء ألمانيا فتخذوا منه إنجيلا يبشر بأدب جديد؛ وافتتن به جوته فبشر به؛ وجعله شيللر ناموسه الأكبر إلى أدب المجد والخلود.

وكان لسنج يعجب أيما إعجاب بشكسبير، فدأب على الدعوة له في ألمانيا حتى أفلح أخيراً في صرف الشباب الألماني إليه. وقد حفظ له الإنكليز هذا الجميل فنقلوا إلى لغتهم كل ما كان يكتب ويؤلف.

وقد تمت هزيمة الاتجاه الفرنسي في ألمانيا حينما أصدر لسنج مأساته الخالدة (الآنسة سارة سامبسون) سنة 1755 التي كانت بحق أولى ثمار الأدب القومي الألماني المستقل. وبعد هذه الدرامة فرغ لسنج للنقد فأرشد ألمانيا كلها لما فيه خيرها ولما فيه صلاح نهضتها.

وفي سنة 1766 أصدر لسنج قصته البارعة (لاوكون) التي أتفق كل مؤرخي الآداب على أنها أعظم نتاج أدبي صدر في القرن الثامن عشر بطوله. والقصة تدور على حوادث النبي الطراودي لاوكون الذي وعظ قومه آلا يقربوا الحصان الخشبي وألا يدخلوه إلى مدينتهم لأنه سيكون شراً عليهم. ولقد لخصت (الرسالة) هذه الحادثة في باب القصص في آخر حروب طراودة. وبحسب هذه القصة أن يقول فيها جوته: (يجب أن نرتد طفرة إلى ميعة الشباب وحرارته كي ندرك حقيقة الأثر العميق الذي تركه فينا لسنج بقصته العبقرية (لاوكون) الذي انتشلتنا من صفوف المتفرجين التاعسين البلداء إلى صفوف المفكرين

المنتجين العظماء!) وقد عرض لسنج في ثنايا القصة إلى ضروب من النقد الحر المعتدل البعيد من الصلف جعلتها قانونا عاما لهذا الفن الذي هب أدباؤنا اليوم يشكون مر الشكوى من المتطفلين عليه بغير الحق.

2 - سانت بيف (1804 - 1869)

لا يستغني طالب الأدب الفرنسي عن كتاب (أحاديث الاثنين) لسانت بيف؛ بل نبالغ إذا جزمنا أنه لا غناء لمتأدب في أي أمة عن هذا الكتاب الذي لا يعدله كتاب في النقد الأدبي في العالم. ولم يكن لورد مورلي مبالغاً حين قال إن من شاء استيعاب الأدب الفرنسي كله فحسبه أحاديث الاثنين لسانت بيف، فهي ذوق وذخيرة وعدالة ومفتاح ذهبي لكل من يستغلق عليه شيء من هذا الأدب الحافل.

وقد عرض سانت بيف لطائفة كبيرة من الأدباء الإنجليز والإغريق في أحاديثه، فحلل آدابهم وعرضهم على قرائه عرضاً علمياً شائقاً شهد بعدالته وسموه كبار النقاد الإنجليز أنفسهم، وإن يكن قد قدح في طريقة الناقد الإنجليزي الكبير صموئيل جونسون التي عرض بها لجمهرة من الشعراء في كتابه (حياة الشعراء ولم يكن سانت بيف متعسفاً في هذا القدح، بل كان صائب الرأي فيه إلى حد بعيد؛ ويكفي أن تعلم أن كتاب جونسون هو مجموعة مقدمات لدواوين الشعراء كان يطلب منه تقديمها إلى القراء بها، فكان لا يعني فيها إلا بإبراز محاسن الشاعر وإلا كبار من شأنه غاضاً الطرف عن عيوبه يكفي أن تعرف هذا لتتفق مع بيف في إقلاله من شأن جونسون وكما قدح بيف في طريقة جونسون في نقد الآداب، فكذلك لم ترضه طريقة مواطنه الكبير بوالو (لأنه كان ينظر إلى الأديب نظرة سطحية، ثم سرعان ما يصدر حكمه عليه؛ والناقد العادل ينبغي أن يستعرض حياة الأديب وعصره وبيئته وظروفه فيشرحها للقراء شرحاً مسهباً ثم يدعهم يصدرون أحكامهم؛ فليس من وظيفة الناقد أن يكون قاضياً. . .)

وأحاديث الاثنين فصول ممتعة كان يحررها بيف في إحدى المجلات الدورية ثم جمعها وأصدرها في عدة مجلدات وأردفها بكتابه الرائع في النقد والأدب والفلسفة وقد تناول فيه الحركة الذهنية برمتها في عهد لويس الرابع عشر.

3 - بلنسكي (1811 - 1847)

يرجع تاريخ النقد الأدبي في روسيا إلى عهد الشاعر العظيم بوشكين (1799 - 1837) وذلك للفصول الممتعة القوية التي كان يوالي نشرها في المجلة الروسية (الرسول الأوربي) ينقد فيها الشعر والشعراء منذ فجر النهضة الروسية إلى زمنه. وقد أثارت هذه الفصول حماسة الشباب ولفتتهم إلى درر الآداب العالمية، وربت فيهم ذوقاً خالصاً شفافاً يزن بالنظرة الواحدة قيم الأدب بنوعيه في ذلك العصر من شعر ونثر. وقد استجاب لفصول بوشكين زعماء الشباب من أدباء روسيا واجتذبت بعض أمراء البيت القيصري وفي مقدمتهم الأمير الأديب فيازيمسكي الذي نزل إلى ميدان النقد بقلمه - على نهج بوشكين - في مجلة (كارامزين) (1808 - 1878) - وانتظمت حركة النقد على صدى سانت بيف حين دخل عنصر الاحتراف في الصحافة الروسية وقطعت شوطاً كبيراً على يد الصحافي القدير بولفوي. الذي لفت إليه الأنظار بفصوله الضافية في نقد الأدب والحياة والتقاليد الروسية، وإن أغضب الفئة الرجعية التي لا تخلو منها أمة ما. . .

بيد أن هذه الحركة المباركة لم تبلغ أوجها إلا حين تسلمها فتاها الأكبر فخر أدباء روسيا بلنسكي، الذي وثب من وسط وضيع وأسرة فقيرة وتعليم ناقص مبتور، فاستطاع أن يتسم أسمى ذروة بين مواطنيه، وأن يرسم الخطط لما ينبغي أن يكون عليه الأدب والاجتماع في روسيا جميعاً. وكأننا به قد تسلم تراث أسلافه بوشكين ولرمونتوث وجوجول ليغربله ويسقط ما فيه من نفايات، كيما يخلق منه قادة الأدب العالمي الجديد: جوتشريف وهرزن ودستوئفسكي وتولستوي وشيخوف وجوركي. وبحسبك أن تعلم أن الأربعة الأول قد تتلمذوا على بلنسكي، ورضعوا لبانه ودرجوا في حجره، وثقفوا عنه فلسفة هجل وجيته، وطرائف شاكسبير وروائع الأدب الفرنسي، وآمنوا عن سبيله، بأن الفن للحياة، وليس الفن للفن.

ولشد ما كانت روسيا تشبه مصر اليوم من الوجهة الأدبية، فكان فيها معسكران كبيران ينزع أحدهما إلى التجديد والأخذ عن الغرب، وتسموا باسم (الثائرين) وكان على رأسهم بلنسكي يعاونه ويشد أزره الناقد المحاضر الكبير يوسف لوما يستر، ويساعدهما الأديب الثقة والناقد المحقق هرزن، أما المعسكر الآخر فهم فئة السلافيين وكانوا يتعصبون لروسيا القديمة تعصباً أعمى، وكان أدباؤهم ينقدون معسكر الثائرين نقداً كله شعوذة وكله رمي بالكفر المروق من الدين والوطنية.

وقد أخذ الأستاذ بركنر الألماني في كتابه (تاريخ الآداب الروسية) على بلنسكي وإضرابه من النقاد الروسيين ما كانوا يحيدون به أحياناً عن قوانين النقد التي وضعها سانت بيف ولسنج وأرنولد، وقال إنهم حين كانوا يفعلون ذلك كان يجيء نقدهم سطحياً قليل الغناء، وقد رد الأستاذ بارنج في كتابه (خلاصة الأدب الروسي) على هذا المأخذ بأن بلنسكي ومدرسته كانت تنشد قبل كل شيء خلق وأدب قومي روسي بكل معنى الكلمة ينافس الآداب الأوربية التي كانت تطغي على روسيا نفسها فتجذب إليها

جمهور القراء الروسيين. . . لذلك كان يضطر أحياناً إلى منازلة خصومه بأشد من أسلحتهم في المهاترة والثلب!

4 - كولردج وشارل لامب

لو أن كولردج (1772 - 1834) قصر جهوده على النقد دون النظم لأفاد الأدب الإنجليزي أكثر مما أفاده بشعره، وأن يكن له في هذا الميدان جهده المشكور. ولقد كانت طريقته في النقد مثل طريقة مواطنه وصديقه شارل لامب (1775 - 1834) وإن أختص الأول بعرض أدب شاكسبير أكثر من أي شيء آخر. وكل النقاد الحديثين في إنجلترا يحترمون آراءه في شاعرهم الأكبر ويعتمدون عليها. وشارل لامب هو صاحب النظرية العجيبة في نقد الآداب والتي تتلخص في (وجوب اعتماد الناقد على ذوقه كحاسة سادسة لا على عقله فقط في نقد الأدب!) وهو يشرك الروح في النقد، ويطلب من الشاعر أن يغني ويصور، ويبكي ويتألم، لا أن ينظم حقائق هذه الدنيا فيكون شعره جافا ثقيلا على القلب. فالروح عند شارل للشعر، والعقل للعلم. وقد كان لامب يثير شغف القراء وإعجابهم بفصوله التي كان ينشرها في بإمضاء (إيليا)؛ ولولا أثرته ومدحه لذاته في هذه الفصول لرفعته إلى أسمى مراتب النقاد.

5 - هازلت (1778 - 1830)

لا تقل مكانة وليم هازلت في النقد عن مكانة سانت بيف؛ ويعده الإنجليز واضع أسس النقد الأدبي الحديث في إنجلترا، وهم يقبلون على قراءته إلى اليوم كما يقبل الفرنسيون على قراءة سانت بيف، وكما يقبل الألمان على لسنج، والروس على بلنسكي. ويذكر هازلت أن سبب شغفه بالأدب والنقد خاصة هو لقاؤه الأول بكولردج الذي كان صديق أبيه. وكان يزوره في منزله كأعز ضيف عليه. ولقد حاول هازلت مرة أن يهجر الأدب إلى الفنون، وشغف فعلاً بالتصوير والرسم ولكنه فشل، فحطم ريشته وامتشق براعته، وكان ذلك من حسن حظ الأدب.

وما كاد هازلت ينشر فصوله الأولى في النقد في إحدى المجلات حتى استرعى انتباه الدوائر الأدبية العليا. وحتى دعته مؤسسة رسل لإلقاء بضع محاضرات في (نشوء وترقي الفلسفة الحديثة)، ثم في (الشعر والشعراء الإنجليز) و (كتاب الكوميدي الإنجليز)، و (عصر إليزابيث). ودعته صحيفة المورنتج كرونكل لتحرير قسم النقد المسرحي فيها. وأخذ بعد ذلك ينشر فصوله عن (الدائرة المستديرة) في صحف التيمس والتشامبيون والأجزامينر، واتصل بمجلة لندن فنشر فيها حديث المائدة وبحثه القيم عن (روح العصر). وغير ذلك من الموضوعات الشائقة. وقد شهد البروفيسير سينتسبري - ولم يغل - بأن فصول هازلت في النقد قد فاقت غيرها في جميع الأمم، ولم يستثن سانت بيف - ولولا ما كان من إعجاب هازلت بنابليون لعبده الإنجليز ولقدسوه تقديساً.

6 - مانيو أرنولد (1822 - 1888)

أرنولد من شعراء العصر الفكتوري المجيدين، ولكنه خدم الأدب الإنجليزي بكتابه القيم (فصول في النقد أكثر مما خدمه بشعره؛ ويكاد أرنولد يتفق وهازلت في طريقته في نقد الآداب، غير أنه يمتاز من هازلت بأنه يخلق من القارئ نفسه ناقداً للموضوع أو الأديب الذي ينقده، فما يكاد أحد يتلو فصولاً من كتابه حتى يحس من نفسه القدرة على النقد، كأنما قد تقمصه أرنولد! وهذا ما أفاض في شرحه الأستاذ هربرت بول في كتابه عن أرنولد؛ ولولا تشكك أرنولد وكثرة حيرته، وهما عيبان يبدوان كثيراً في فصوله، لما قل في مرتبته عن هازلت وعن سانت بيف.

وبعد فهذه لمحات خاطفة لمادتنا نقاد الآداب عن زملائهم (!) في بعض الأمم الأوربية، نرجو أن يهتموا بدراستهم في المراجع التي أشرنا إليها ثم ينقدوا بعد ذلك ما يشاءون.

(د. خ)

ضوء جديد على ناحية من الأدب العربي

اشتغال العرب بالأدب المقارن أو ما يدعوه الفرنجة في

كتاب تلخيص كتاب أرسطو في الشعر

لفيلسوف العرب أبي الوليد بن رشد

(تابع المنشور في العدد الماضي)

- تلخيص وتحليل -
للأستاذ خليل هنداوي

أما غاية صناعة الشعر فلم تخرج عن غاية الفلسفة لأن المؤلف والمترجم فيلسوفان يقيسان كل شيء، وبقدرانه بحسب فائدته الخلقية، وهما يريدان من الشعر أن يكون عاملاً على تهذيب الأخلاق حاثاً على التخلق بالآداب السامية (وهذا هو الشعر المدرسي قبل أن ينحت الفن أثلته، وينخر غرسته) لأن الفن قد ضرب بهذه السدود، وحطمها أي تحطيم. والشعر الفني - عند العرب - في اعتقادي - يغشى على الشعر المدرسي لأن أكثره شعر لا يدل على أن أصحابه كانوا يتورعون فيه. ولعل هذا هو ما دعا أبا نصر الفارابي إلى الحملة على هذا النوع من الشعر الفني بقوله: (إن أكثر شعر العرب في النهيم والكريه؛ وذلك أن النوع الذي يسمونه النسيب إنما هو حث على الفسوق؛ ولذلك ينبغي أن يتجنبه الولدان ويؤدبون من أشعارهم بما يحث فيه على الشجاعة والكرم، فانه ليس تحث العرب في أشعارها من الفضائل على سوى هاتين القضيتين وإن كانت ليس تتكلم فيهما على طريق الحث عليهما، وإنما تتكلم فيهما على طريق الفخر، لأن أكثر شعرهم من شعر المطابقة الذي يصفون به الجمادات كثيراً والحيوانات والنبات. وأما اليونانيون فلم يكونوا يقولون أكثر ذلك شعراً إلا وهو موجه نحو الفضيلة والكف عن الرذيلة، وما يفيد أدباً من الآداب أو معرفة من المعارف) وقد بحث في العلل المولدة للشعر، فكان تعليله الأول إلى الفلسفة أدنى منه إلى الشعر. وقد بنى هذه العلل على ميل الإنسان إلى محاكاة الأشياء. وقد تكون - عندي - هذه المحاكاة علة صادقة مبنية على التحليل النفسي، لأن الشاعر أقرب الناس إلى فهم الطبيعة والعمل على تحسينها وإكمالها (لأنه يلتذ بالتشبيه للأشياء التي قد أحسها وبالمحاكاة لها ليلتذ بإحساسها) فما اصدق هذا الإحساس وما أبعده في تعليل العلل المولدة للشعر. إن الشاعر يأتي الطبيعة ويستجليها ويستنطقها ويبث فيها الحياة، ليجعل فيها القدرة على مشاركته في بهجته. وجاء تعليله الثاني تعليلا طبيعيا، نشأ في الإنسان لالتذاذه بالطبع بالوزن والألحان. . . وهو في هذا لا يرى في الوزن والألحان كل الشعر إن لم تنطو هذه الألحان على محاكاة الطبيعة؛ ثم يذهب في اختلاف طبائع الأمم، فأن الأمم التي تغلب الأخلاق عليها تميل إلى مديح الأفعال الجميلة، والعكس بالعكس. ولا بد من ملاءمة الأوزان والألحان للمعاني؛ فرب وزن يناسب غرضاً ولا يناسب غرضاً آخر. وعملهما فيه هو أنها تعد النفس لقبول خيال الشيء الذي يقصد تخيله. وثمة علل كثيرة للشعر، (وإنما المحاكاة هي العمود والأس في هذه الصناعة، لأن الالتذاذ ليس يكون بذكر الشيء المقصود ذكره دون أن يحاكى. ولذلك لا يلتذ الإنسان بالنظر إلى صور الأشياء الموجودة أنفسها، ويلتذ بمحاكاتها وتصورها بالأصباغ والألوان؛ ولذلك استعمل الإنسان صناعة الزواقة والتصوير. وهل كانت غاية المديح مثلاً إلا محاكاة الناس من قبل عاداتهم الجميلة وأمثالهم الحسنة واعتقاداتهم البعيدة؟ ولعل أرسطو كان أكثر إنصافاً لرسالة الشعر منه لرسالة الخطابة (فقد أعترف لها بأنها ليست مبنية على الاحتجاج والمناظرة، وبخاصة صناعة المديح، وبذلك ليس يستعمل المديح صناعة النفاق كما تستعملها الخطابة) وبهذا أحسن إلى الشعر؛ وهل المادح يمدح إلا عن اعتقاد. . . . . وأساء إلى الخطابة - ولكن النفاق قد يدخل الشعر كما يدخل الخطابة، وقد يبرأ الشعر منه كما تبرأ الخطابة منه بحسب قوة الاعتقاد وصدقه عند الشاعر والخطيب.

صناعة المديح وأجزاؤها

قد أسهب ابن رشد في هذا الباب ما شاء له الإسهاب، لأنه يراه أكثر انطباقاً على محاكاة الأخلاق الفاضلة. والفلسفة تكره المحاكاة لمجرد المحاكاة إلا أن يكون من ورائها غرض أو معنى شريف من معاني التهذيب. وقد تصدى لعلة في الشعر لا تزال فاشية في شعرنا، هي علة (الاستطراد) في القصيدة الواحدة، (ويشبه أن يكون جميع الشعراء لا يتحفظون بهذا بل ينتقلون من شيء إلى شيء، ولا يلزمون غرضاً واحداً بعينه ما عدا (هوميروس) في اليونان.

وأنت تجد هذا كثيراً ما يعرض في أشعار العرب والمحدثين وبخاصة عند المدح، أعني أنه إذا عن لهم شيء ما من أسباب الممدوح مثل سيف أو قوس اشتغلوا بمحاكاته

وأضربوا عن ذكر الممدوح. وبالجملة فيجب أن تكون الصناعة تتشبه بالطبيعة، أعني أن تكون إنما تفعل جميع ما تفعله من أجل غرض واحد وغاية واحدة، وإذا كان كذلك فواجب أن يكون التشبيه والمحاكاة لواحد ومقصوداً به غرض واحد، وأن يكون لأجزائه عظم محدود، وأن يكون فيها مبدأ ووسط وآخر، وأن يكون الوسط أفضلها.

أما تعريفه للمحاكاة من حيث الخلق والإبداع فهو تعريف تم عن إحساس عال بالشعر، فليس الشعر يعتمد على التخييل بدون نظام، ولا على تصوير الأشياء التي لا تجول في الذهن. (لأن المحاكاة التي تكون بالأمور المخترعة الكاذبة ليست من أفعال الشاعر - وهي التي تسمى أمثالاً وقصصاً مثل ما في كتاب كليلة ودمنة. لكن الشاعر إنما يتكلم في الأمور الموجودة أو الممكنة الوجود؛ وأما الذين يعملون الأمثال والقصص فان عملهم غير عمل الشعراء وإن كانوا قد يعملون تلك الأمثال والأحاديث المخترعة بكلام موزون. فالفاعل للأمثال المخترعة والقصص إنما يخترع أشخاصاً ليس لها وجود أصلاً ويضع لها أسماء؛ وأما الشاعر فإنما يضع أسماء لأشياء موجودة. . . ولذلك كانت صناعة الشعر أقرب إلى الفلسفة من صناعة اختراع الأمثال) وقد أبى ذهن أرسطو إلا أن يعطف على الشعر ويجعل رسالته مشتقة من رسالة الفلسفة. وإذا نصر الفيلسوف رسالة الشعر وخصها بفضله قد رام - لقاء هذا الفضل أن يضيق عليها حدودها، (فهو يرى أن الأشياء غير الموجودة يجب ألا توضع وتخترع لها أسماء في صناعة المديح، مثل وصفهم الجود شخصاً ثم يضعون أفعالاً له ويحاكونها ويطنبون في مدحه. فهذا النوع من التخييل وإن كان قد ينتفع به فليس ينبغي أن يعتمد في صناعة المديح لأنه ليس مما يوافق جميع الطباع بل قد يضحك منه ويزدريه كثير من الناس.)، وقد يكون اعتقاده على حق لو كان ينطق عن غير الشعر. لأن الشعر لا منصرف له عن خلقه لكثير من أنواع التخيل، (ومن جيد ما في هذا الباب للعرب - وإن لم يكن على طريق الحث على الفضيلة) قول الأعشى:

لعمري لقد لاحت عيونٌ نواظر ... إلى ضوء نار باليفاع تحرَّق
تُشب لمقرورين يصطليانها ... وبات على النار الندى والمحلَّق
رضيعي لبان ثدي أم تحالفا ... بأسحمَ داج عوضُ لا نتفرق

وهو يريد من كل هذا أن ينزه رسالة الشعر عن النفاق وكذب التخيل والاختلاق. (إذ لا ينبغي للشاعر أن يأوي إلى ما يدعى نفاقاً فان ذلك إنما يستعمله المموهون من الشعراء، أعني الذين يرون أنهم شعراء وليسوا بشعراء؛ وأما الشعراء بالحقيقة فلا يستعملونه إلا عندما يريدون أن يقابلوا به استعمال شعراء الزور له، وأما إذا قابلوا الشعراء المجيدين فلا يستعملونه أصلاً. . على أن كثيراً من الأقاويل الشعرية تكون جودتها في المحاكاة البسيطة)

وقد تكون المحاكاة بسيطة مجردة، وقد تكون مركبة تأتي بطريقة المقابلة. إذا أراد أن يحاكي السعادة وأهلها أبتدأ أولاً بمحاكاة الشقاوة وأهلها ثم أنتقل إلى محاكاة أهل السعادة، والمحاكاة الأولى هي الغالبة على شعر العرب

كقول أبي الطيب:

كم زورة لك في الأعراب خافية ... أدهى - وقد رقدوا - من زورة الذيب

فهذا البيت من نوع المحاكاة الأولى

وقوله:

أزورهم وسواد الليل يشفع لي ... وأنثني وبياض الصبحُ يغري بي

فهذا من نوع المحاكاة الثانية المبنية على طريقة المقابلة

ولقد تكون المحاكاة وليدة الانفعالات النفسية كانفعالات الخوف والرحمة والحزن، وهي تكون بذكر المصائب والرزايا النازلة بالناس. ويجب على الشاعر أن يلزم في تخيلاته ومحاكاته الأشياء التي جرت العادة باستعمالها في التشبيه، وألا يتعدى في ذلك طريقة الشعر.

أما هذه المحاكاة فهي عنده على أنواع. منها محاكاة لأشياء محسوسة بأشياء محسوسة من شأنها أن توقع الشك لمن ينظر إليها؛ وكلما كانت هذه المتوهمات أقرب إلى وقوع الشك كانت أتم تشبيهاً. وجل تشبيهات العرب راجعة إلى هذا الموضع. وكلما كانت أبعد من وقوع الشك كانت أنقص تشبيهاً. وهذه المحاكاة البعيدة التي يجب أن تطرح كقول امرئ القيس في الفرس:

(كأنها هراوة منوال)
ومنها محاكاة لأمور معنوية بأشياء محسوسة كقولهم في المنة إنها طوق العنق، وفي الإحسان أنه قيد. وهذا كثير في شعر العرب كقول أبي الطيب:
(ومن وجد الإحسان قيداً تقيدا)
أو قول امرئ القيس:
(بمنجرد قيد الأوابد هيكل)
وما كان من هذه أيضاً غير مناسب ولا شبيه فينبغي أن يطرح، وهذا كثيراً ما يوجد في أشعار المحدثين وبخاصة في شعر أبي تمام كقوله: (لا تسقني ماء الملام) فأن الماء غير مناسب للملام. وكما أن البعيد يجب طرحه كذلك ينبغي أن يكون التشبيه بالجنس الموجود مطرحاً أيضاً، وأن يكون التشبيه بالأشياء الفاضلة.
ومنها المحاكاة التي تقع بالتذكر كأن يرى الإنسان خط إنسان فيتذكره إن كان حياً أو ميتاً، وهذا موجود في أشعار العرب بكثرة كقول متمم بن نويرة:
وقالوا أتبكي كل قبر رأيته ... لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك
فقلت لهم أن الأسى يبعث الأسى ... دعوني! فهذا كله قبر مالك
وكقول المجنون:
وداع دعا إذ نحن بالخيف من منى ... فهيج أحزان الفؤاد وما يدري
دعا باسم ليلى غيرها فكأنما ... أطار بليلى صبراً كان في صدري
وكقول الخنساء:
يذكرني طلوع الشمس صخراً ... وأذكره لكل غروب شمس
وهذا النوع كثير في شعر العرب، ومنه تذكر الأحبة بالديار والأطلال. ويقرب من هذا الموضع ما جرت به عادة العرب من تذكر الأحبة بالخيال وإقامته مقام المتخيل كما قال شاعرهم:
وأني لأستغشي وما بي نعسة ... لعل خيالاً منك يلقى خياليا
وأخرج من بين البيوت لعلني ... أحدث عنك النفس في السر خاليا
وتصرف العرب فيه كثير
ومنها الذي يستعمله السوفسطائيون من الشعراء وهو الغلو الكاذب، وهو كثير في أشعار العرب والمحدثين كقول النابغة يصف ضربة سيف:
تقدُ السلوقيّ المضاعف نسجه ... وتوقد بالصفَّاح نار الحباحب
وهذا كله كذب
(له بقية)
خليل هنداوي
من الأدب الإنكليزي
برسي شلي
-
بقلم خليل جمعه الطوال
لشلي فكرةٌ متوقدةٌ، وعاطفةٌ ذائبةٌ، بل قلب يجيش بالوجدان الحي، ونبع يتفجر بالشعور الصادق، فقد كان شاعراً من أفذاذ الشعراء مشبوب المخيلة، وكاتباً متضلعاً من الكتابة، نظم وكان لا يزال في غضارة الصبى، عديد القصائد التي ما زلنا نطالعها، فندرس فيها مثال الحياة الأعلى، وكمال النفس الأسمى، ونمق كثير المقالات التي ما زالت، ونحن نتصفحها، تحدث في مشاعرنا ضروباً شتى من التأثير والانفعال، فلا عجب إذا كتب لشعر الخلود والبقاء، وسجل لاسمه صفحة حافلةً بجليل الأثر في سجل الزمن وتاريخ الأدباء.
توفي شلي، وكان لا يزال من العمر في مقتبله، وقد أقبل الأدباء على أشعاره يتدارسونها، وهرع النقاد إلى عيوبه وسقطاته يستقصونها، فما كان لأولئك وإن أعياهم الدرس أن يبلغوا شأو غايته، ولا لهؤلاء وإن أعماهم التغرض أن يضعوا من مقدار عظمته. لقد اختلفت فيه المذاهب وتناحرت عليه الآراء، فمنهم من نسى أو تناسى وفاته الباكرة وحياته القصيرة، وراح يبحث في أشعاره عن آية القدر وأعجوبة الزمن، فلما لم يجدها تناوله بألسنة حداد ودحضه بشتى الأحكام الجائرة، بعد أن خضَّل جدثه بوابل من المثالب الجارفة، التي يترفع عنها الأدباء وتنبو عن سماعها آذان الحكماء،

وبعد أن نال من سمعته وحط من مكانته ما شاءت له رغائبه وسولت له أهواءه.
وتمثل لهذا النفر من الرجال الذين أعماهم التغرضُ الممقوت (بوليم هزلت) ولوليم
هذا مكانة في الأدب، مرموقة بالأنظار، محفوفة بالاحترام والوقار، وخليقة بعدم
التحامل السفيه، وبالأعراض عن التشيع الكريه، ومنهم من أسدل على هفواته - وجل
من لا يهفو - ستر الجهل وقناع التجاهل تشيعاً للرجل لا للحق، وراح ينشد آياته
البينات، ويتغنى بأشعاره النيرات، كتوماس أرنولد، وكان من معاصريه ومناصريه.
وهكذا فقد كانوا فيه جميعاً بين القائل من كرامته لم يسلم من الإسراف والتحذلق، أو
مطنبٍ في مدحه لم يسلم من آفة الغلو والإغراق.
وكم نود لو أن لنا من صائب النظر في مهنة النقد ما نعمد به إلى مؤلفاته - وهي خير
ما بقي لنا من آثاره التي تترجم عن آرائه، ونتبين بين غثها وسمينها مقدار عبقريته،
وحقيقة نفسيته، بعد أن بقي طيلة هذه المدة مجهول الهوية مكتوم الطوية، ونرجع
بذلك فيصل الحكم إلى نصابه، وحسام الحقيقة إلى قرابه.
أما وليس لنا من قدرة النقد ما أسلفنا، فلا أقل من أن نعرض لحياته الطافحة بالألغاز
والمبهمات جهد المستطاع وغاية الميسور آملين فيما نقرره أن نبلغ جدة الصواب.

مولده وأخلاقه

ولد برسي شلي في الرابع من شهر أغسطس لعام 1792، وقضى طفولته في لندن
تعصف به الهموم والأحزان، وتنتاشه مخالب البؤس والأشجان، وذلك لما كان يلقاه من
فقر والده ونكد طالعه، وكان - على ما يصفه لنا السير توماس هوج في كتابه - سري
الخُلق سوي الحلق ذا عينين نجلاوين، هزيل الجسم أزهره، ناتئ المفاصل كبيرها،
جعدي شعر الرأس قصيره، وضاء البشرة، جميل الأنف، مليح الفم، أمرد باسر الوجه،
تعلو غضون حاجبيه المقطبين من شدة ما تجرعه من كأس الحياة المريرة سحابةٌ من
الحزن، ولذا كان يكره دور الملاهي وينفر من الحانات. ويروى أنه كان بالغاً من الطول
حد التحدب، ومن الجمال درجة التأنت، حتى أن منظره ليملك القلب ويستهوي
الخاطر. وكان دائماً يحدب على المستضعفين ويرفق بالفقراء والمساكين، ويصبر على
كيد أعدائه الظالمين.

شلي والمعري

جاء شلي فكأنما كان مجيئه ريحاً هادئة أذكت سعير تلك النار التي قدح المعري بزناده
شرارها، وتعهد بآرائه ضرامها، والتي لا تزال تحدث ثورة في الرأي واضطراباً في
العقيدة. جاء شلي، وكان ذلك الصوت الذي أهاب به المعري في ربوع بغداد، وبطاح
سورية، وأرز لبنان - البلاد التي اختلف إليها المعري في أسفاره - لما يتلاش، فرجع
في بلاد الغرب دوى صداه، الذي امتد من جبال (بنسين) في إنكلترا، إلى جبال الألب
في إيطاليا، والذي انفجر في (ورنهام) - محل مولد شلي - فسار منها إلى مدينة روما،
ثم تلاشى بين أمواج خليج (بيزا) المصطخبة.
لقد كان كلاهما روحاً سابحة في عالم الخيال، ونفساً تضطرب بين أنواء الشك
واليقين. بل كان كلاهما ثورة شعواء على العرف والعادات والتقاليد، ومن أشد الناس
سخرية بالدين، وزراية بما اطمأن إليه الخلق من إثابة الصالحين.
لقد كان شلي ملحداً لا يؤمن بالوحدانية، ولا بالحساب، كما كان المعري يسخر من
وعيد الآخرة والثواب؛ وهل لغير الشك أن يملي على المعري قوله
لو جاء من أهل البلى مخبر ... سألت عن قوم وأرخت
هل فاز بالجنة عمالها؟؟ ... وهل ثوى في النار (نوبنخت)
أو قوله:
زعموا إنني سأرجع شرخاً ... كيف بي كيف بي وذاك التماسي
وأزور الجنان أحبر فيها ... بعد طول الهمود في الأرماس؟
أم هل كان شلي في كتابه الذي أرسله إلى (جون جسبورن) من بيزا عام 1822،
والذي جاءت فيه هذه العبارات الآتية
, ;
أي: (إنه لمن الخرافة ومحض السفسطة، أن نعتقد بأن الإنسان الذي يقضي ستين
عاماً من الحياة المريرة سيذهب (بعد موته) ليقضي ستين مليوناً من السنين وهو
يشتوى حياً بنيران جهنم المؤلمة) هل هذا إلا صورة عن المعري في قوله:

أموتٌ ثم حشر ثم نشر ... حديث خرافة يا أمَ عمرو؟
أو عن قوله:
خذ المرآة واستعرض نجوماً ... تمر بمطعم الأرى المشور
تدل على الحمام بغير شك ... ولكن لا تدل على النشور
وهل لغير روح أبي العلاء في قوله:
تحطمنا الأيام حتى كأننا ... زجاج ولكن لا يعاد له سبك
وقوله:
لو كان جسمك متروكاً بهيئته ... - بعد التلاف - طمعنا في تلافيه
أن تملي على شلي قصيدة الخالدة التي ينكر في بعض أبياتها لا نشور الأجسام فحسب، بل
بقاء الروح أيضاً. إذ يقول:
إن روح الإنسان تتلاشى داخل قلبه وهو في القبر كما يخبو نور مصباح طمر في) باطن الأرض ضمن زجاجته. أما جوهر الخلود الذي ينير بسماتنا بشعاع الأمل، فانه يتبدد ويتشعث في عالم الأزلية: واللانهاية.)
ولم نذهب بعيداً في المقابلة والاستدلال ونظرة واحدة إلى رسالة شلي التي نشرها عام 1811 تحت عنوان ضرورة الإلحاد فطرد من جامعة اكسفورد بسببها، ترينا بأنها ليست إلا نسخة عن (رسالة الغفران) لأبي العلاء المعري، لا تختلف عنها إلا في اللغة والأسلوب!
لقد أنكر كلاهما كثيراً من العقائد والمذاهب، فنالا من مرارة النقد ولاذع التقريع ما لم تكسر الأيام من حدته.
أضف إلى اشتراكهما في الرأي والعقيدة ائتلافهما في المزاج وفي نوع المعيشة الزاهدة الوادعة، وترفعهما عن إيذاء الغير وإسرافها في عمل البر. وكل ما يختلفان فيه - إن صح هذا الادعاء - هو أن المعري يعترف بالوحدانية وينكر البعث بينا شلي ينكر البعث والوحدانية.
شلي وبيرون
لا نكاد نمر بصفحة من حياة شلي إلا ويتردد فيها ذكر اللورد (بيرون) فقد كان رئده وصديقه، ومن الذين شهدوا إحراق جثته على خليج بيزا، فلا ندحة لنا عن أن نعرض لسيرتهما معاً ولو بشيء من الإيجاز.
لقد كان كلاهما من شعراء العصر الفكتوري المجيدين، ومن دعاة الحركة الابتداعية المبرزين، عاشا من الزمن فترة واحدة، إلا أنهما لم يجريا في حلبة واحدة من ميادين الشعر والأدب، فيعرف أي الاثنين محرز قصب السبق فيها؛ فبينا نرى شلي ينزع في قصائده، نزعة أبي العلاء المعري، ويسير وإياه على غرار واحد في الحكم والهوى، وفي التمرد على البيئة والتقاليد، نرى أن اللورد بيرون في قصائده يتفق مع أمرؤ القيس في أشعاره ولا سيما في معلقته الشهيرة.
فقد كان كل منهما في جميع ما يكتب إنما يعبر قبل كل شيء عن عواطفه الخاصة، ويسرد
ما كان في حياته الماجنة من ضروب العبث والاستهتار، ومن لذعات الغزل الفاحش والافتخار. حتى قيل في بيرون: (إن حياته كانت محور نظمه، وقصائده فيها أحسن شعره) فشخصيته كأمير وابن أسرة عريقة في المجد والحسب تظهر في أشعاره، ظهور شخصية أمرؤ القيس كملك وابن ملك، وكشاب مسترسل في الشهوات والملذات في معلقته.
وهناك فرق آخر بين شلي وبيرون: ذلك أن شلي كان يعتمد في نظمه على التصورات الخيالة: بينا كان بيرون يعتمد على ذوب عاطفته وإدراكه للأمور العقلية ولعل ما بينهما من هذه الاختلافات يعزى إلى تباين طريقة معيشتهما، ناهيك ما للوراثة من كبير الأثر، فقد نشأ بيرون تحت ظلال المتعة الوارفة، وهو يتقلب على فراش السعادة والرخاء، ويرتشف سلاف الخمر ورحيق الهناء. فأنكب على الملاهي والمنكرات، وتمرغ في حمأة الدعارة والموبقات؛ حتى لقد كان يقاد من أهوائه بشعرة، ويلبي لشهوته كل دعوة. وهكذا ترعرع دون أن يصطدم من الأيام بما يفثأ من جذوة جنونه المتوقد، أو يفل من شباة نفسه المتحفزة، حتى ولا وجد من الأهل يداً صارمة حكيمة تقسو عليه

وتكبح من جماح شهواته الثائرة، وحياته الماجنة، بينما نشأ شلي وهو يقاسي من شظف العيش ألواناً، ومن الأهل ذلاً وهواناً، ومن التعس أنواعاً واشكالاً، ثم أصطدم من الأيام الكاسرة بما تشيب له النواصي وتهتز لهوله الجبال والرواسي. فشحنت المصاعب قلبه بتيار الثورة، وبذرت المصائب في صدره بذور التمرد.

شعره وديوانه:

لم يكن شلي بالشاعر الذي يترقب هبوب العاطفة الشاعرية فينتضحها في قالب من السبك اللفظي، وحسن الأداء، يذكى بهما الحس، ويرهف السمع، ويجعل صدر القارئ أو السامع يجيش بتلك الحماسة التي اعتلج بها فؤاده وانمات لها قلبه، بل كان كثيراً ما يعتسف النظم على غير استعداد من عواطفه، ويستكره خياله استكراهاً، على أن يملي عليه قصيدة شعرية توائم رغبته وإرادته، ولكنها لا تشبع حسه وخياله، فكانت تجئ ملتوية المعنى ملتاثة التعبير، لا شيء فيها من ابتكار الفكرة، وجمال العاطفة. ولقد كان معظم أشعاره التي نظمها في ميعة الصبى وشرخ الشباب تدور في جملتها حول محور من الخيال الفسل والمعنى المبتذل، ولم يبلغ من الشعر درجة تثير كامن العواطف إلا في ضرب واحد من ضروبه، أعني به باب الغناء ولئن كان من أبطال هذا الباب وفرسانه، فأنه لم يبلغ ذروة المشاعر العليا فيه إلا في قصيدتين غنائيتين فقط، وهما: ملكة الجنيات وبروميتس غير المحدود

أما الأولى - ملكة الجنيات - فقد نظمها عام 1813 وهي تحمل بين أسطرها جراثيم الثورة والتمرد على جميع النظم الدينية والمدنية؛ إذ كان لا يراها إلا سداً منيعاً يحول دون تحقيق مثل الحياة الأعلى. وقد تنبأ فيها عن ذلك العصر الذهبي الذي يتكئ على اشرف الفضائل وأسمى المبادئ، ودعا الناس إليه بقوة، بعد أن حثهم على أن يهدموا جميع ما يعترض طريقهم من التقاليد القديمة والعادات الذميمة.

أما الثانية، بروميتس غير المحدود فقد وضع لحمتها في إنكلترا ونسج بردتها في روما بعد هجرته إليها بسنوات قلائل. وهي غرة قصائده؛ وأعملها في إذكاء الحس، وصقل العواطف، واستثارة كامل الشعور.

(للبحث بقية)

خليل جمعه الطوال

الحياة الأدبية في المغرب الأقصى

للأستاذ ع. ك

أما وقد قرأت في مجلة (الرسالة) الغراء مقالين: أحدهما عن (الحياة الأدبية في دمشق) بقلم الأستاذ علي الطنطاوي، والثانية عن الحياة الأدبية في بغداد بقلم عبد الوهاب الأمين، ورأيت من صاحبيهما التبرم والتشكي من ضعف الحياة الأدبية كل في بلده ومن تصوير مظاهر الضعف في هاته الحياة التي كادت تزري بتقدم البلاد من النواحي الأخرى؛ أما وقد قرأت هذا فيحسن بي أن أضم صوتي إلى أخوي الدمشقي والبغدادي، فأكتب كلمة عن الحياة الأدبية في المغرب ليعرف الأخوان والقراء أيضاً أن المغرب قد أغترف غرفة مما غرفت منه دمشق وبغداد، وأن المغرب شريك القطرين العربيين في هذا الضعف المزري بهما

إذا نظرنا إلى المغرب الحديث وأنعمنا النظر في ناحية من نواحيه المهمة، تلك هي الناحية الفكرية والعلمية، وأردنا أن نسير غورها بمسبار لنعرف مدى ما بلغته من الرقي والانحطاط، من القوة أو الضعف، من النهوض أو الجمود، إذا أنعمنا النظر في هاته الناحية استطعنا أن نخرج بنتيجة لا ترضي. . . تلك النتيجة هي في - صراحة - أن المغرب الأقصى يتخبط في ديجور من الجهل قاتم، وفي بساطة فكر مفرطة، وفي خمود وجمود لم يسبق لهما مثيل في عصوره التاريخية. إذا تساءلنا هل هنالك حركة فكرية أو علمية تسود المغرب الأقصى حتى يجنى من ورائها ما يزيح به هاته الظلمة التي تغمره من أقصاه إلى أقصاه وحتى تكون حداً فاصلاً بين هاته (الفترة) وبين الحياة العلمية المترقبة وذهبنا، نلتمس الجواب عن هذا السؤال بالنظر في المغرب والبحث عن مظاهر هاته الحركة حتى وصلنا إلى مهد حركاته العلمية في عصوره السالفة إلى (كلية القرويين) التي أنجبت فطاحل علماء المغرب، استطعنا أن نخرج بالنتيجة الآتية وهي: إن هاته الحركة التي نبتغي البحث عنها وعن مظاهرها هي شيء لم يوجد حتى

الآن، بل هي حلم لذيذ يطرق أفكارنا كطيف الخيال، غير أن هنالك شبه حركة علمية تغذيها كلية القرويين ونظامها الجديد ولكن. . على حال مشوهة لا ترضي ولن ترضي - إذا بقيت الحال كما نرى - فإذا ما أطلقنا عليها (حركة علمية) فقد عرضنا أنفسنا لظلم الحقيقة والتاريخ.

هذه كلمة مجملة أبنا فيها ضعف الحياة العلمية في المغرب وقدمناها بين يدي كلمتنا عن الحياة الأدبية لنعرف السبب الرئيسي لضعف الحياة الأدبية المغربية والعنصر الوحيد الذي يكون هذا الضعف ويمده بسبب منه. . . وإذا بحثنا عن الحياة الأدبية المغربية، أعني وسط الأديب المغربي لنرى هل وسط راق أم منحط. . وهل هناك ما يسمى بالحياة الأدبية حقا، لأم نجد أحسن حالاً من الحياة العلمية، بل نجدها أضعف منها وأحط بكثير؛ ولم نجد هنالك ما يطلق عليه هذا الاسم ويسمى بالحياة الأدبية. فهذه ناحية تنقص المغرب من جملة النواحي التي تنقصه وتزري به وتظهره في العالم العربي أشل. . ننظر إلى العالم العربي ونقيس المغرب بجانبه فيظهر لنا البون الشاسع بين حياته الأدبية وحياة العالم العربي، فهذه المطابع الشرقية تظهر علينا من حين لآخر بعشرات الكتب الجديدة الأدبية والعلمية بأقلام أدباء شرقيين وخاصة في مصر، فأين هي آثار المطابع المغربية من ذاك؟ وأين هي المجهودات الأدبية للأدباء المغاربة أمام مجهود الشرقيين على العموم والمصريين على خصوص؟!. . وهذا العالم العربي يطلع علينا كل يوم بمئات الصحف والمجلات الأدبية والعلمية ويظهر فيها من المقدرة على البحث الأدبي والإنتاج العلمي ما ينبئنا بقوة حياته الأدبية وبلوغها أوج الكمال، فأين هي الصحف والمجلات المغربية الأدبية؟ وأين هو إنتاج المغاربة الأدبي وبحثهم العلمي؟ وهذه الأندية الأدبية في الشرق تخرج لنا كل يوم محاضرات قيمة تغذي بها أفكار الناشئين وتكون فيهم روحاً أدبية تعينهم على مضاعفة جهودهم حتى يبلغوا المستوى اللائق بأمتهم، فأين هي الأندية الأدبية المغربية وأين هي آثارها نحو الناشئة المغربية. .؟

إنا لنبحث عن عوامل التكوين هاته الحياة الأدبية المنشودة في الكتب والمجلات والأندية فلا نجد آثراً لهذه العوامل نفسها، فما هو سبب هذا الضعف في حياتنا الأدبية. . .؟؟ إذا بحثنا عن السبب في ضعف هاته الحياة بل في اضمحلالها لم نجده ينحصر في سبب واحد أو اثنين، ولكنها أسباب تتراكم من بحث عنها وقلب بين جوانبها وسنذكر أهمها في هذه الكلمة.

1 - ضعف التعليم

هذه ناحية مهمة وسبب قوي، بل سبب رئيسي لضعف الحياة الأدبية في المغرب؛ فالتعليم هو قوام كل حياة، وإذا بحثت في الشعب المغربي وأحصيت مقدار المتعلمين وجدت عددهم لا يزيد على خمسة في الألف من شعب عدد سكانه يربو على خمسة ملايين. وهذا القدر الضئيل من المتعلمين يرجع إلى عدم وجود المدارس الكافية في أنحاء الشعب المغربي. أما مدارس الحكومة فهي على قلتها لا تضمن للمتعلم أي مستقبل ولا توجه نظره لأية جهة، فضلاً عن عدم اعتنائها باللغة العربية وعلومها. فلم يبق بين أيدينا سوى كلية القرويين التي يتكفل برنامجها الجديد بتخريج أدباء بل أساتذة في الأدب العربي - وهم الذين تخرجوا في القسم العالي الأدبي - وهؤلاء يمكن أن نعلق عليهم الأمل في بعث حركة أدبية في المغرب، لولا ما ينقص هذا القسم من عدم وجود أساتذة أكفاء يقومون بالمهمة التي نيطت بهم.

إذن فأين هو الوسط الذي تنمو فيه هاته الحياة الأدبية وتزدهر؟ إذا لم يكن وسط المتعلمين فأي وسط؟؟

2 - الصحافة

من عوامل بعث الحركات الأدبية، بل جميع الحركات، الصحافة. ومن البر بالأدب أن ألا ننسى فضل الصحافة عليه وعملها في بعث الحياة الأدبية في الأقطار العربية. فهذه مصر زعيمة الشرق العربي تتخذ الصحافة أداة لترويج سوق الأدب ونفاقه، فإليها يرجع الفضل الكبير في نقل نتائج الحركة الأدبية المصرية إلى الأقطار الشرقية الأخرى. فلننظر في الحياة الأدبية المغربية، ولنر حظها من الصحافة، وعمل هذه الأخرى في تكوينها وبعثها.

المغرب الأقصى من جملة الشعوب التي لم تحظ لحد الآن بصحيفة - أدبية وعلمية - سوى جريدة (السعادة) لسان الحكومة الرسمي وناشرة أخبارها ومقرراتها. ويرجع هذا الفقر الصحفي في المغرب إلى القانون الجائر الذي وضع للصحافة بالمغرب، إن صح لنا أن نسميه قانوناً. وقد أنشئت صحف في منطقة النفوذ الأسباني فطوردت في منطقة النفوذ الفرنسي. نعم هنالك مجلة علمية تصدر شهرياً في تطوان باسم (المغرب الجديد) فعليها نعلق آمالنا في بعث الحياة الأدبية في المغرب. أما (مجلة المغرب) التي تصدر شهرياً في رباط الفتح، فليس يعنيها من الناحية الأدبية والعلمية شيء، وإنما يهمها - الخبز والتعليم - على حد تعبيرها. فإذا علمنا هذا الفقر الذي يعانيه المغرب من الصحف والمجلات،

استطعنا أن ندرك بسهولة سبباً من الأسباب القوية في خمود الحركة الأدبية في المغرب. أما ما نسمع فيه الحين بعد الحين من طنطنة أدبية فيرجع الفضل فيه إلى الصحف الشرقية، ولمجلة (الرسالة) الحظ الأوفر في ذلك.

3 - المشارع الأدبية

لسنا نعني بالمشارع الأدبية سوى تلك الحفلات التي يقيمها جماعة من الأدباء لتكون مسرحاً لمباراتهم الأدبية وحافزاً لهم على القول والكتابة؛ وهي من دواعي النشاط الأدبي والإنتاج الفكري ورثها العرب الخلف عن سلفهم الذين كانوا يقيمون أسواقاً سنوية لقرض الشعر وإنشاده، فقد حدثنا الرواة كثيراً عن أسواق العرب في الجاهلية وما أنشد فيها من شعر وأدب. ولقد اتبع هذه السنة أدباء العربية اليوم فأخذوا يقيمون الحفلات المتوالية لبعث الحركة الأدبية وإحيائها؛ فهم بينما يحتفلون بالعلماء الأحياء الذين قطعوا مفازة كبيرة في الجهاد العلمي، إذا بهم يحتفلون بالأموات تقديراً لمجهوداتهم الأدبية أو العلمية أو غيرها. وفي هذه الحفلات الأدبية ترى ألسن الشعراء والخطباء تتنافس في جيد القول، وكفى بها فائدة للحياة الأدبية.

وإذا نظرنا إلى المغرب الأقصى وأردنا أن نعرف ما يؤديه لحياته الأدبية من ناحية هذه المشارع لم نجد له أي عمل في ذلك، وهذا ما سبب لحياته الأدبية هذا الضعف وهذا الجمود، وأوقعه في هذه الأزمة الأدبية التي يعانيها ويذوق من أجلها الأمرين. نعم حاول بعض الأدباء أن يخطوا بالمغرب خطوة في هذا السبيل فكان من آثارهم حفلة ذكرى الأربعين لخالد الذكر (أحمد شوقي بك) وحفلة الذكرى الألفية لأبي الطيب المتنبي (أقيمت بفاس في 25 رمضان الفارط) وهي خطوة حميدة في هذا الباب كان لها أثر أدبي جميل. غير إن هذا العمل الضئيل الذي قام به هؤلاء الأدباء لا يكفي في بعث الحركة الأدبية وإيقاظها، إذ هو لم يعد حفلتين كانت أولاهما منذ ثلاث سنين أو تزيد، وأخراهما في هذه السنة؛ وإنما الذي نتطلب أن تكون هنالك حفلات أدبية منظمة يتكفل بها أدباء مغاربة حتى يستطيعوا أن يكونوا حياة أدبية وأن يبعثوها من مرقدها، وقد حاول طلبة القرويين مراراً أن ينشئوا جمعية أدبية علمية يكون من أهم أغراضها تأسيس نادٍ لهذه الغاية فلم يظفروا بذلك من الحكومة.

4 - البخل على الأدب

وهذا سبب آخر قد يكون وصمة في جبين الحياة الأدبية المغربية ومانعاً من الموانع التي تعوقها عن التقدم وتدفعها نحو الضعف والجمود، ذلكم السبب هو البخل على الأدب، أعني عدم وجود الناشرين لهذا الأدب الذي نود أن يبعث. فمن دواعي النشاط الأدبي أن يجد الأديب الذي يقف قسطاً من حياته على تأليف كتاب أدبي أو نظم ديوان شعر ناشراً يبرز مجهوداته إلى الوجود ويخرجها إلى الناس ليعرف مقدار عمله، ويكون ذلك مشجعاً له على المضي في سبيله والمغاربة - مع شديد الأسف - ليس فيهم من يشفق على هذه الحياة الأدبية، وينظر إليها بعين العطف والحنان فيقف قسطاً من ماله على نشر الكتب الأدبية والدواوين الشعرية، أو يقدم جائزة - مثلاً - لمن يؤلف كتاباً في الأدب، مع أن فيهم الأغنياء الذين يستهلكون ثروتهم في شهواتهم فقط. وكما لا يوجد أفراد من هذا النوع في الوسط الغربي لا توجد هناك شركات تجعل موضوع تجارتها نشر الكتب الأدبية المغربية. ولست أدري لذلك من سبب سوى عدم الإشفاق على الأدب المغربي. أما لو وجد الناشرون لبرز شطر من الأدب المغربي المخبوء، ولتكونت حركة أدبية في المغرب، فلعل السبب الوحيد الذي يدعو الشعراء المغاربة لعدم نشر دواوينهم هو فقدان هاته المساعدة المادية. فهذا شاعر الشباب الأستاذ

محمد علال الفاسي يود أن ينشر ديوانه (روض الملك) ولكن أين هو الناشر؟
هذه جملة الأسباب التي تعين على ضعف الحياة الأدبية في المغرب أجملنا القول فيها أجمالاً، لنعلل فقط هذا الضعف المزري بحياتنا الأدبية، وليظهر للقارئ السبب الداعي لخمود الحركة الأدبية في المغرب. . .
(فاس - المغرب الأقصى)
ع. ك

دراسات أدبية
في الأدب الإيطالي الحديث
بقلم محمد أمين حسونه
- 5 -

حنة فيفانتي وروايتها عن مصر

تعد حنة فيفانتي أستاذة في الخيال الواضح والأسلوب الرفيع، وقد بدأت حياتها في إنجلترا، ولم تر وطنها - إيطاليا - إلا في الثانية عشرة من عمرها عندما نزحت من إنجلترا لتتعلم فن الغناء. ففي هذه السن المبكرة تتلمذت لطائفة من رجال الأدب وفي مقدمتهم كاردوتشي، ونشرت ديوانا من الشعر الغنائي (ليريكا) يفيض بالعواطف الذاتية والخيال الراقي، فلم يلبث نجمها أن تألق في سماء الأدب الحديث والواقع أن غنى اللغة الإيطالية خطر عليها من بعض الوجوه، فأن طبيعة هذه اللغة تساعد على التمادي في الوصف والاستغراق في الخيال. ولما كان كتاب هذا العصر في إيطاليا أميل إلى التأنق في موسيقية اللغة، وإلى المزاج الفني الصريح، فأن أسلوب فيفانتي الخلاب وجد البيئة التي ينمو فيها، وانطلق في الجو الحالم مرددا العواطف المشبعة بعناصر الجمال. ففي روايات هذه الشاعرة نجد صفة نادرة الوجود عن كتاب الجيل المعاصر، تلك هي غريزة الجمال. والإنسان يشعر لدى مطالعته روايتها بأن الطبيعة في فنها تجاوزت منطقة الجلال؛ وكما يفوق الناس بعضهم بعضاً في المواهب وقوة الإدراك السامية، وتمييز الألوان والأصوات، فأن لفيفانتي قدرة على هتك أسرار الطبيعة وإبرازها في إطار فني جذاب.

ولما كان أسلوبها الروائي ليس من النوع التحليلي فالنتيجة هي أن الشخصيات الثانوية في روايتها أغزر حياة وتأثيراً من البطل نفسه، كما في رواية الغجرية ويمكن تقسيم أبطالها إلى قسمين: الفريق الأول وهم الأبطال الأقوياء الذين يتمتعون بالحياة إلى أبعد حد، مع استفادتهم من ضعف الآخرين؛ والفريق الثاني الفقراء الذين يحنون رؤوسهم أمام قسوة الحياة ذاكرين أنه من فعل القدر.

وحنة فيفانتي صديقة وفية لمصر، ويرجع تاريخ هذه الصداقة إلى يوم أزرت الوفد المصري وهو واقف بباب مؤتمر الصلح في باريس. وكانت من أخلص أصدقاء المغفور له سعد زغلول باشا، وطالما أيدته في صحف بلادها؛ ولا عجب أن توحي إليها هذه الصداقة وتثمر فيها الضيافة التي لاقتها في وادي النيل كتابة رواية (أرض كيلوباترا التي بدأتها بالرحيل إلى مصر، إذ تقول:

حقاً إنني أحلم حلماً جميلاً من تلكم الأحلام الذهبية المترامية الأطراف؛ فعندما يستيقظ الإنسان في الصباح، ويحاول أن يقربها إلى ذهنه تفر أشباحها بعيدة عنه، ولا تلبث أن تختفي في وادي النسيان. برهة وجيزة أستيقظ بعدها فإذا بي في صحراء ليبيا، فوق بعير يجوب في الصحراء متجهاً نحو قبر الملك الشاب توت عنخ آمون. يقود زمامه إعرابي طويل القامة، عريض الهامة، وتتفتح عيناي عن هذه الصحراء الذهبية، فإذا بسرب من الفلاحات المصريات يرتدين أردية سوداء، وفوق رؤوسهن جرار الماء، وعندما أقترب منهن يحدقن في بعيونهن الدعجاء، قائلات: (سعيدة نهارك لبن)

واستطردت الكاتبة في وصف مشاهد الصحراء وأسواق القاهرة، إلى أن أتت على مقابلتها للمرحوم زغلول باشا فقالت: (وفي غداة يوم وصولي إلى القاهرة قصدت إلى بيت (الرئيس الجليل) الذي استقبلني واقفاً خلف مكتبه، وعلى رأسه ذلك الطربوش الأحمر الذي لا يرفعه المصريون للتحية، بل يبقونه فوق رؤوسهم كرمز للوقار. ويبدو لي الرئيس كما كنت أعرفه في باريس منذ سنوات؛ فلا العظمة ولا الاضطهاد، ولا النفي ولا الهتاف باسمه في الشوارع، استطاع أن يغير هذه الهامة الطويلة، ويضعف من ضياء عينيه الوقادتين. وكانت تقف إلى جانبه (صفية زغلول)

التي حيتني باشة مبتسمة. ودار الحديث بيننا بالفرنسية إذ أنها لغة الأجانب الرسمية في مصر، ولأن البحث في الإنجليزية أمر بغيض إلى قلوب المصريين، وما إن بلغته تحية أصدقائه من كتاب إيطاليا وصحفييها الذين أحاطوا قضية بلاده بعطفهم حتى قال:

- إنك كنت صديقة هذه البلاد، وقد أعطيتها محبتك قبل أن تريها؛ فها هي ذي أمامك! اذهبي إلى أي مكان تشائين، عسى أن تتكشف لك نفسية هؤلاء الفلاحين المساكين، فهي نفسية نبيلة شريفة لكنها مجهولة.

وعندما ودعته ختم حديثه معي بأن قال:

- عودي إلينا مرة ثانية، ولا تحسبي أن هذه آخر زياراتك، وعدينا بذلك.

وغادرت منزل الزعيم الوطني ووجهتي مصر العليا عن طريق النيل، لأشاهد الأقصر بحدائقها الغناء، وطيبة ذات المائة باب، وكوم امبو بلدة المعابد، وفيلي جوهرة مصر المكنونة.

هانحن أولاء في أسوان (مدينة الشلالات) التي يقصدها المسلولون طلباً للشفاء، ويأتيها المكروبون عسى أن يفرجوا عن قلوبهم الحزينة أساها وبلواها. هنا حيث الإقامة في بقعة هادئة عميقة، تكتنفها الصحاري من كل جانب، يجد الإيمان الصحيح طريقه إلى السماء.

الله أكبر، الله أكبر! أدعية حارة صادرة عن قلوب عامرة بالإيمان، يرددها العرب في كل آن، فيترجع صداها على شفاهنا المتبتلة بالتسبيح، على حين يتوجه أبناء الصحراء شطر مكة، وهم جاثون على الرمال، ويرددون أسم الله في تقوى وخشوع أشرف على النيل ومياهه التي ينعكس عليها نور السماء الأزرق، وعلى منظر الصخور التي تتراءى عن بعد كوحوش كاسرة، راقدة تحت أقدام (اخنوم) إله الشلالات.

وأخذ القارب ينساب بنا بين الجزر كالأفعى، وترى الشمس تسقط رويداً رويداً عن الشفق، فتلتهب السماء، ويتغير لون الماء من سائل فضي إلى سبيكة من الذهب الإبريز، ثم تنحدر الشمس ككرة من نار، والسماء تحترق فيقع ظلها المتورد الناري على صفحة المياه حتى حسبنا أنفسنا نسير في بحر من دماء.

هانحن أولاء أمام قصر أنس الوجود، أمام فيلي، جوهرة مصر المكنونة، ودرتها الساطعة، عروس النيل وريحانته؛ إيه أيتها الجزيرة الصامتة الحزينة! أيتها الجوهرة الميتة، يا زهرة اللوتس، يا جزيرة السحر ومهبط الجمال، أيتها الجزيرة التي يتربع فوق صدرك آخر معبد فرعوني، لقد غمرتك المياه فغرقت وتواريت، ورحت ضحية قحط الأرض وجوع الرجال!

والرواية مشجعة بأمثال هذه الصور الوصفية، وتحت ستار شفاف من الحنين إلى الماضي، والإشادة بمجد الفراعنة، والتفاؤل بالمستقبل.

بابيني

وجيوفاني بابيني من أغرب الشخصيات في الأدب الإيطالي الحديث، وقد اشتغل بالنقد قبل أن يصبح روائياً؛ على أن الانتقال من النقد إلى الأدب، والمسرح، أو الرواية أمر مألوف في إيطاليا.

قبل الحرب العظمى كان بابيني ألمع شخصية في سماء الأدب، ومحور الحياة الفكرية في الأوساط الإيطالية؛ وقد ظفر بهذه الشهرة إثر المقالات النقدية العنيفة التي كان ينشرها بعنوان (التدمير)، والدراسات الفلسفية التي تحدى - شوبنهاور ونيتشه وهيجل، وأساتذة مدرسة الفلسفة الألمانية. ثم بفضل المجلات الأدبية العديدة التي كان يصدرها لثلاثين ما خلت، أي في الوقت كانت الشبيبة الإيطالية تتلهف على اتهام كل ما يقدمه إليها من ألوان الثقافة الحديثة، فوجدوا ضالتهم بابيني، ومجدوا من شانه. ولكن شباب هذا الجيل سرعان ما حولوا اتجاههم الأدبي عن فنه، إذا أنهم لم يجدوا شيئاً يتعلمونه في كتبه سوى فلسفة جامدة، وفن جاف مضطرب، وتبشير بأساليب الكثلكة مع الرجوع إلى أحضان الكنيسة.

وتعد أقوى روايات بابيني على الإطلاق (مذكرات الله) التي تحدث فيها عن خلق العالم ونشأته، فرواية (الرجل الذي انتهى)، وقد رسم بين سطورها حياة المتاعب والآلام التي تنتاب طبقة المفكرين الذين يقضون نصف أعمارهم بين بطون الكتب، والنصف الآخر في ظلال الفلسفة والنظريات السفسطائية.

(البقية في العدد القادم)
محمد أمين حسونة
!يا ليل
للأستاذ فخري أبو السعود
يا ليلُ هل لك دوني صاحبٌ ثقةٌ ... مُغلٍ لقدرك صافي الود في الناس؟
أغليت سَاعَكَ حتى بِتُ راعيها ... رَعي الشحيحَ كريم الدرَ والماس
أغليت ساعك غيري من يبذرُها ... مثرثراً بين أصحابٍ وجُلاس
وصُنتُ آنكِ لا أمسي أضيِّعها ... وقد صفت - بين سِفرٍ لي وقرطاس
لكنَّ في ملكوتِ الحسن منتجعي ... إذا دَجَوتَ وإسرائي وتعساسي
في ملك حسنك ممتداً ومنبسطاً ... أَحَبُّ مسرى لمرتادٍ وجَواسِ
تدعو فآتي أَغِذُّ السيرَ تلبيةً ... ما بين دَوحٍ رطيب الغصن مياس
راوي الأزاهرِ والأوراق ما برحت ... عليه آثارُ هامي المزنِ رجاسِ
تتلو صفوفٌ صفوفاً منه ماثلة ... كأنها في الدجى أشباح أحراس
أو فوق شط أتيِّ الموج مرسلة ... أمواجُه حُلو أصداءٍ وأنفاس
سالت عذوبتُهُ سيلاً وَرِقَتُّه ... من مائهِ الملحِ أو من صخره الجاسي
يهتزُّ فيه شعاعُ النجم مؤتلقاً ... وآنة ضوءُ بدرٍ سابغٌ كاس
كم طالعتني المعاني فيك سافرة ... وأسلست لي القوافي أيَّ إسلاس
فرداً وحيداً أوافي ملك حسنك قد ... زهدتُ عندك في صحب وأحلاس
في وحدتي وسكون الكون لي رطبٌ ... ووحشتي في الدجى يا ليلُ إيناسي
لا بل خديني آمالي وعاطفتي ... أيانَ سِرتُ وأفكاري وإحساسي
وما جلوتَ لعيني من حُلاك ومن ... أُفُقٍ ونجمٍ وأزهارٍ وأغراس
حديث هاتيك أشهى لي وأعذبُ لي ... يا ليلُ من قولِ جهالٍ وأكياس
للنفسِ ثُمَّ حديثٌ كم تبُثُّ به ... من ذكريات وتأميلٍ وإيجاس
نجواك يا ليل كم تُذْكى بها هِمماً ... وكم تجدِّدُ من عزم ومن باسِ
تُحيي بها أنت آمالاً وترفعها ... عما بِذا العيشِ من قبحٍ وأرجاس
حتى أؤوبَ - ذا آن الإيابُ - كمن ... قد آب من موكِبٍ أو غُزِّ أعراس
مُمَتَّعَ اللبّ والعينين رَاويهَا ... مُنَزَّهَ النفس عن هم وعن ياس
ما دام لي مُلكُ هذا الحسن مطرداً ... فما فؤادي على ما فات بالآسي
ولستُ أغبط من يا ليل قد جهلوا ... لديك فتنةَ أمساءٍ وأغلاس
فخري أبو السعود
!. . .يا فلسطين
آفاقكِ الحمرُ انتشت راياتها ... قد أقسمت ألا تُظلَّ ذليلا
ثوري ولو فرش الذين طغوا على ... طرق الجهاد أسنةً ونصولا
لا بأس إن نضحت دماً جنباتها ... فاليوم لا يغدو دمٌ مطلولا //
إيهِ فلسطين اغضبي وتحرري ... ضاعت حقوقك بين قالَ وقيلا
مدي القلوب على الظُّبى وتبسمي ... تجدي على تلك الحدود فلولا
أمهلت ظالمك العتلَّ وما درى ... أن التهامس يستحيل صليلا
إيه فلسطين المجاهدة اثبتي ... فالظلم مرتعه يكون وبيلا
هاهم بنوك لووا أعنَّات الردى ... وأتوك لا يرضون منك بديلا
يتزاحفون إلى اللهيب كأنهم ... ظمأى وقد عدوا اللهيب النيلا
فلوا حديد الظالمين بمثله ... وبدونه لن تبلغي المأمولا
لا مجد إلا حيث يشتجر القنا ... فتشيده مجداً أشم أثيلا
في كل ناحية شهيد خالد ... هو من ينادي: لا نريد دخيلا
قم يا شهيد القوم واخطب في الورى ... أصبحت حياً مذ غدوت قتيلا
جبل المكبّر طال نومك فانتبه ... قم واسمع التكبير والتهليلا
فكأنما الفاروق دوَّى صوته ... فجلا لنا الدنيا وهز الجيلا
جبل المكبر لن تلين قناتنا ... ما لم نحط فوقك البستيلا
أبو سلمى

العلم
مهداة إلى زعيم الشباب فخري بك البارودي
بقلم عز الدين العطار
أيُّهذا الخفَّاق رَفرِفْ على الده ... ر وتِهْ في العَلاءِ زهواً وحُسنا
الفضاءُ الرحيبُ مِحرابُك الزَّا ... هِرُ فأخفُق وأترعِ الجو لحنا
صورة أنت للربوع الغوالي ... غلْغلت في الإطار داراً ومغنى
وطني أجتليه في رمزكَ السم ... ح وألْقى الرَّفاق خدناً فخدنا
يا تراب الشامِ يا عبقَ الخل ... د ويا نفْحة تُناسِمُ عدنا
في ثراك القدسيّ يثوى الميامي ... نُ فيختالُ طيْلساناً وَرُدْنا
مَلأُوا الكون بالهداية والنو ... رِ وزانوا مغْناهُ علماً وفناً
طلعوا في دُجى الزمانِ شموساً ... هي أبهى من الضياءِ وأغنى
الشبابُ الشبابُ ريْحانَةُ الخُل ... د وبأسٌ على المدى ليس يفنى
عزمات كأنها وهج الشم ... سِ تجوسُ السماءَ صحناً فصحنا
تتفرَّى الدياجرُ السُّحمُ عنْها ... ويغيبُ الدجى ارتعاداً وجُبنا
ابْسمي يا ثغورُ قد أشرقَ الفج ... رُ ومحَّى السَّنا قتَاماً ودَجْنا
وَثبَ الحَق وَثْبةَ الأسد إلقا ... حِم يفْري الفلاةَ ضرْباً وطعنا
تتهاوى من شِدْقهِ زأرَةُ الهو ... لِ فلا تملكُ الطَّرائدِ أمنا
رَجفت من صِيالِهِ ثورَةُ الري ... ح وَريع الأنامُ إنساً وجنَّا
الصحارى تشققت عن ليوثٍ ... آدَميِّين زَعزعوا الموت سِكْنا
عزفوا عن مناعم العيشةِ الرَّغْ ... دِ وَعَبُّوا الحياةَ رَنقاً وأجْنا
عسلُ الذُّلُ يشبه العلْقم المُر ... وصابُ العُلى من المزْن أهْنا
ليس يسمو إلى الخلود غبيٌّ ... عاشَ في رِبقةِ الإسارِ مُعَنى
يحسَبُ العز في المهانةِ والعا ... بِ وَيعنو للخصم إما تجنى
يا صحابي سيرُوا إلى المجد صفاً ... والْبسوا الحرمِ في الحياة مَجِنَّا
وتعالوا نردْ سبيلَ المعالي ... ونُعِدْ ماضياً من النجم أسنى
اذكروا أنكم سلائلُ صِيد ... أترعوا الأرض والسموات يُمْنا
غمروا الناسَ بالمحبةِ والرِّف ... ق ونقَّوهمُ مقالاً وظنا
طاولوا الشهب من قِراع العوالي ... وبنوْا للفخار في الزُّهر حِصنا
ملكوا في البيان ناصيةَ القو ... لِ وصالوا يومَ التنافُرِ لُسْنا
كَفنٌ أنْتَ بالشهيدِ رفيقٌ ... تترامَى عليه لَهْفاً وحزنا
رُبَّ قلْبٍ على خُفُوقِكَ وَقْفٍ ... كلما رفَّ بَنْدُكَ الحُلْوُ حَنَّا
تامَهُ طيفُكُ الحبيبُ فنادا ... كَ وناجَى بِكَ العُلَى وتَغَنَّى
لكَ هَذِي الأرواحُ منا حلالٌ ... فادْعها تسبِقِ الغمائمَ جَفنا
نحنُ يومَ البلاءِ رمْزُ التفادي ... إنْ دعانا داعي الجهادِ أجبنا
بنفوسٍ لم تستكِنْ للوَادِي ... وجُسُومٍ لم تَعْرِفِ الدهرَ وهنا
تتنزَّى كأنها النارُ وقداً ... وترامَى يومَ الهزاهِزِ مُزْنا
تتمشى للمجْدِ عطشَى إلى المَوْ ... ت ولو عبَّتِ الخِضِمَّاتُ دنَّا
قَدْ وهبنا لك النفوس لتحيا ... ليس منا من يَخْبأُ النفسَ ضَنَّا
أنت منا الهَوَى وأنتَ الأماني ... كلَّ رُوحٍ تَرَى بِكَ المُتَمْنَّى
دمشق
عز الدين العطار
الرغام
بقلم إلياس قنصل
اغنم العمرَ فهو أضغاث وهمٍ ... تتلاشى بسرعةِ الأحلامِ
وترشفْ كؤوسه قبل أن تق ... ضي عليها زعازعُ الأيامِ
خُلِقَ المرءُ لا يلقي على أس ... مى اللذاذاتِ حِلَّةً من ظلامِ
ثم يخشى الدنوَّ منها، ويدعو ... خوفهُ نفرةٌ من الأجرام
بل ليستقطر المسرَّة حتى ... من قتاد الهموم والآلام
ويبثَّ الفتون فيما يراه ... حوله من تجهم وقتام

أنت في ميعةِ الشباب وهذا ال ... عهدُ، عهد المراح، عهد الغرام
وهو يدعوك فانتبه وتنعم ... بالجمال المجسم البسام
إن ثغري أحلى من الأمل العذْ ... ب وأشهى من بابليّ المدام
تبعثُ القبلةُ الطويلةُ. . . منه ... كلَّ خافٍ من الأمانيِّ سام
وعلى جسميَ الرشيق تجلّت ... آيةُ اللّه في بديع انتظام
هيكل من هياكل السحر تروي ... ضمة من كلِّ قلب ظام
فرنا الشاعرُ الحزين إليها ... بحنانٍ ولوعةٍ واعتصام
طاوياً في فؤاده حسرات ... دغدغتْ ما يضمه من كلام
أنتِ لا تمنحين قلباً محبّاً ... وأنا لستُ أرتضي بالرغام!

عاصمة الأرجنتين

الياس قنصل

القصص

قصة المفاتيح

للقصصي الروسي مكسيم جوركي

(هذه القصة تكشف عن شخصية هذا الكاتب العظيم، وتؤرخ فترة قاسية من حياته، فضلا على أنها تصور حياة طائفة من الناس أغفل كثير من أدباء الغرب تصويرها)

كان ثلاثتنا: (زيومكا كارجوزا) و (أنا) و (ميشكا) عمالقة بلحى طويلة وعيون واسعة لها زرقة الماء، نبتسم دائماً بثغور فرحة، ويخيل لمن يرانا أننا نترنح من الخمر أبدا. وكنا نأوي إلى بناء قديم خارج المدينة، يكاد من فرط قدمه أن ينقض، ولا يعرف غير الله لم سمي بمصنع الزجاج، ولعل ذلك لعدم وجود لوح زجاجي سليم به. وكنا نتقبل أي شيء دون أن يكون لنا شيء من الخيار، وكنا نكنس ساحات البيوت وننظف الغبار، وننبش المقابر وأكوام القمامة، ونهدم البيوت القديمة، ونقطع الأسوار. وقد حاولنا مرة أن نبني زريبة للعمالقة، إلا أننا فشلنا في ذلك. وكان زيومكا يسعى دائماً للقيام بواجبه، ويتشكك في معرفتنا ببناء زريبة للعمالقة. ولهذا فقد أحظر بنفسه ظهر يوم وكنا في غفوة كل المسامير وقطعتين من الخشب ومنشارا، وكان ذلك كله لصاحب عمل كنا نعمل عنده، وقد طردنا من أجل تلك الفعلة. ولما كنا لا نملك شيئاً يمكن سلبه منا لم يطالبنا بتعويض عن الأضرار التي لحقته بسببنا؛ وكنا في كفاف من العيش؛ وكنا غير راضين بما قسم لنا - وهو أمر طبيعي في مثل هذه الحالة، وتطور هذا الشعور بفعل الزمن فأصبح كراهية لكل ما يحيط بنا. وجرنا ذلك إلى أعمال تهديدية توقعنا تحت طائلة قانون العقوبات. والواقع إننا عشنا في ألم. غير مبالين بالحياة، مرغمين على البحث عن عمل وليس لنا من مظهر الحياة المادي سوى تجاوب ضعيف.

وكنا قد تقابلنا في ملجأ لمن لا مأوى لهم قبل أربعة عشر يوماً من الحادث الذي سأقصه عليك لأنه شائق في نظري؛ وصرنا بعد يومين أو ثلاثة من تعارفنا أصدقاء نسير معاً إلى كل مكان، ويفضي كل منا لصاحبيه بأمله وأغراضه. ويشاطر بعضنا بعضاً كل شيء؛

وبالاختصار عقدنا اتفاقا لا نص له على أن نكافح سواسية مدافعين ومهاجمين الحياة التي ناصبتنا العداء

وفي النهار كنا نبحث بجد عن عمل، في قطع الأحجار، أو الهدم أو الحفر أو النقل، وعندما تتهيأ لنا فرصة مثل هذه كنا نعمل بجد ونشاط.

ولما كان لكل منا غرض أسمى من وضع مواسير المجاري أو تنظيفها - وهو من اشق الأعمال - فقد سئمنا العمل فيها بعد يومين. ثم أخذ زيومكا يتشكك في ضرورة الحياة. ستصير هذه مجاري لأي شيء؟ للقاذورات؟ أليس في وسع الإنسان أن يلقي بها أمام داره؟ كلا هذا لا يصح فأنها تثير رائحة كريهة. هكذا! القاذورات تثير رائحة كريهة. أعمال عظيمة من أجل أشياء تافهة! فلو أن أنساناً قذف مثلاً بخيارة مخللة، غير كبيرة الحجم، فماذا تبعث هذه من رائحة؟ إنها تبقى يوماً. . . ثم تختفي. . . - تتعفن! لا، ولكن إذا قذف بجثة آدمي إلى موضع فيه الشمس فإنها تتعفن حقاً.، إلا أن ذلك عمل منكر!)

مثل هذه الأحاديث كانت تفت في عضدنا وتقلل رغبتنا في العمل. وكان ذلك يفيدنا كل

الفائدة عندما نعمل بأجرٍ يومي في الأعمال الجزئية. فقد كنا نتقاضى أجرنا دائماً قبل أن نتمم ما عهد إلينا به من عمل. وذهبنا مرة إلى مقاول وطلبنا منه أن نعمل في عمل، إلا أنه طردنا وهددنا أن سوف يضطرنا بمعونة الشرطة إلى إتمام العمل الذي أنقدنا أجرنا عليه من قبل. وكنا نجيبه بأنه لا طاقة لنا على العمل وبطوننا خاوية. وتشبثنا مطالبين بالعمل. وكنا نحصل عليه في أغلب الأحيان.

كان ذلك خطأ منا، ولكن لا نكران في أنه كان مفيدا لنا. ولم يكن في وسعنا أن نصلح شيئاً من نظام الحياة الذي فسد، حتى أصبح القيام بعمل والانتفاع به ضدين.

وكان زيومكا في كل مرة يتولى المفاوضة مع أصحاب العمل، وكان يقوم بها بمهارة ولباقة، وكان يبرهن على صحة مطالبه بهدوء الرجل المهدود القوي الذي يرزح تحت عبء الأعمال التي لا طاقة له بها.

وكان ميشكا يقف صامتا إلى جانبه، ويحمله بعينيه ويبتسم ابتسامة الرضا والسرور، كما لو أنه كان في نيته أن يقول شيئاً ولكن خار عزمه. وكان يندر أن يتحدث، فإذا ما تمل أخذ في الكلام كمن يلقي خطاباً. ثم ناداه مبتسماً:

(أخي!) وكانت شفتاه ترتجفان عجبا، وبقي صوته محتبسا في حلقه، وبدا يسعل ليستر خجله، ثم أمسك رقبته بيده

وقال زيومكا، ولم يطق صبراً: (ما بالك؟)

فقال له: (أخي! إننا نعيش كالكلاب، بل أتعس منها. . ولم ذلك؟ لا أحد يدري! ولكن لا بد من أن الله عز وجل أراد ذلك، فكل شيء يسير بإرادته. أليس كذلك يا أخي؟ نعم هو كذلك. ولذا أقول إن ما نلقاه نحن التعساء هو العدل. أليس ذلك تفكيراً صحيحاً؟ وعلى ذلك أفلا يمكن أن تتحسن حالنا؟ يجب أن نرتضي حظنا صابرين. . . أليس كذلك؟)

ولكن زيومكا أجاب على أسئلة زميله المتعددة المثيرة للخواطر بكلمة مختصرة: (يا قليل العقل!)

فانكمش ميشكا وقد عرف خطأه، وابتسم خجلا وبرقت عيناه المنتفختان من الخمر وسكت. ثم قال فجأة: آه، لو أن لنا (خنزيراً).

وكنا ذات يوم نتسكع في السوق نبتغي عملاً، فاصدمنا بامرأة عجوز ضامرة قصيرة ذات وجه كثير التجاعيد؛ وكان رأسها يهتز فوق عنقها. وعلى أنفها منظار كبير محاط بإطار غليظ من الفضة، يتأرجح يمنة ويسرة فتعمل يد العجوز لتثبيته في موضعه. أخذت تحدق فينا النظر؛ وقد وجهنا إليها أنظارنا طامعين في حديثها.

وسألتنا: أليس لكم عمل؟ أتبحثون عن عمل؟

ولما أجابها زيومكا في احترام بالإيجاب، قالت: (حسناً! عندي حمام قديم أريد هدمه. كما أريد أن تنظف النافورة. . . فكم من الأجر تطلبون؟)

فرد عليها زيومكا في احترام أيضاً قائلاً: (يجب أولاً يا سيدتي المحترمة أن يرى الإنسان حجم الحمام، وكذلك النافورة، فلكل نافورة شكلها الخاص، إذ منها ما هو عميق جداً و. . .)

وطلبت منا العجوز أن نرى النافورة. ولم تمض ساعة حتى كنا نعمل مجدين بالمناشير والمعاول في هدم الحمام. فلما انتهينا من عملية الهدم هذه وتنظيف النافورة تقاضينا مبلغاً قدره خمسة روبلات وهو الأجر الذي اتفقنا عليه. وكان الحمام مقاماً في ركن مهجور من الحديقة، وعلى مقربة منه كوخ خشبي تظلله أغصان شجر الكرز. وقد رأينا ونحن نهدم بناء الحمام العجوز جالسة في ذلك الكوخ عاكفة على قراءة كتاب كبير وضعته على ركبتيها. . . وكانت من وقت لآخر ترمينا بنظراتها الحادة، وكان الكتاب يهتز فوق ركبتيها فيلمع القفل الفضي للكتاب.

ليس بين الأعمال أسهل من التخريب والهدم. وقد استفرغنا جهدنا وسط سحابة من الغبار. وكنا نعطس ونسعل ونمخط ونفرك أعيننا حين قد سقط الحمام وتناثرت أجزاؤه، فقد كان عتيقاً ناخراً كصاحبته.

هكذا كان زيومكا يصدر أوامره. (!هيه يا شباب، فنجيبها: واحد، اثنان، ثلاثة، هوب) وهكذا تساقطت كتل البناء الواحدة تلو الأخرى.

وتساءل ميشكا وهو مطرق الرأس مستنداً إلى الفأس مجففاً عرق جبينه: ما عساه

(يكون هذا الكتاب؟ أنه لكتاب ضخم! ولن يكون الإنجيل إذ هذا أضخم منه
وسأله زيومكا مستفسراً: (وماذا يهمك من ذلك؟)
يهمني؟ كلا! إنني أميل لاستماع من يقرأ الكتب. . . أعني الكتب الدينية. وكان في)
قريتنا جندي أسمه أفريكان يقرأ كثيراً في الإصحاح، وكذلك وكان وقع ذلك في أذني
(!كالموسيقى - ما أجمل ذلك
(وسأله زيومكا وهو يشعل لفافة التبغ: والآن؟
لاشيء. لقد كان جميلاً، على رغم أن الإنسان لا يفقهه. إنه لكلام جميل. . . وقد لا -
يسمع الإنسان كلاماً مثله في الشارع. نعم إن الإنسان لا يعرف له معنى، ولكنه يشعره
بأن ذلك له صلة بالروح.
وهزئ زيومكا منه قائلاً: هذا ما لا أفهمه، إن الإنسان ليرى فيك من جديد غباء الحذاء
القديم.
فأجاب الأخر قائلاً: (إنني واثق من أنك تميل إلى السباب)
كيف السبيل إلى مخاطبة مثل هذا الحمار؟ إنه لا يفقه شيئاً غير ذلك: هيا، أعمل)
(معولك هنا - أنتبه. . . هوب
وتقوض بناء الحمام شيئاً فشيئاً وكثرت الأنقاض، وقد أحيطت بغمامة من الغبار كست
أوراق الأشجار القريبة
(وبدأ ميشكا ثانية: هذا الكتاب محلى بالفضة
ورفع زيومكا رأسه، وصوب نظره إلى الكوخ. وقال في اقتضاب:
- (هو كذلك على الغالب)
- (إنه لا شك الإنجيل)
- (ليكن ذلك. وماذا يهمك من أمره؟)
- (!لاشيء)
- لا شيء هذه ملء جيوبي. ولكن إذا كنت تريد أن تستمع إلى ما في الإنجيل فاذهب)
إلى العجوز وقل لها: أقرئي لي يا سيدتي المحترمة شيئاً من الإنجيل، إنه لا سبيل لنا
غير ذلك؛ إننا لا نذهب إلى الكنيسة لأن أبداننا قذرة وملابسنا بالية، إلا أن لنا روحاً
كبقية الناس. . . هيا أذهب).
- (هل أذهب حقاً؟)
- (نعم، أذهب)
وقذف ميشكا بمعوله وأصلح ثيابه ومسح الأقذار عن وجهه بكمه، وقال زيومكا في
نفسه وابتسامة السخرية على فمه: (ستركلك برجلها كأحقر دب) غير أنه تلهف على
متابعة خطوات صاحبه بالنظر، وسار هذا بخطى ثقيلة وابتسامة الخجل والهدوء
مطبوعة على وجهه، ورفعت العجوز رأسها وصوبت نظرها إلى ذلك المتسكع القادم
إليها، وكانت الشمس تضيء زجاج منظارها وإطاره الفضي فيومض
ولم تركله برجلها برغم أن زيومكا تنبأ بذلك، وكان حفيف الشجر يحول دون سماع ما
تحدث به ميشكا إلى صاحبة المنزل، ولكنا رأيناه يخر فجأة أمام قدميها ويجلس على
الأرض حتى يكاد أنفه يمس الكتاب، وكان وجهه يدل على الهدوء والرزانة، وقد رأيناه
وهو يحاول ما استطاع أن ينفخ في لحيته ليبعد عنه الغبار، وأخيراً أستقر في مجلسه
ومد عنقه ووجه نظره إلى يد العجوز التي أخذت تقلب صفحات الكتاب صفحة صفحة.
أنظر إليه فهو كالكلب غير المهذب! له الآن أن يستريح. فهل نذهب نحن كذلك؟ وماذا)
نعمل هنا وحدنا، وهو يجلس هادئاً بينما نحن نعمل من أجله وننهك قوانا. هيا، سر إلى
الأمام).
وبعد دقيقتين جلسنا إلى جواره واحدا عن يمينه والآخر عن يساره، ولم تنبس العجوز
بكلمة ساعة قدومنا، ولكنها كانت تحدق فينا وتقلب صفحات الكتاب كمن يبحث عن
شيء بعينه، وكانت السماء صافية تشيع السرور في النفس، وكان النسيم العليل يهب
من وقت لآخر مداعباً أوراق الشجر، وانساب من هذا وذاك سحر إلى قلوبنا التي كانت
تتهيأ للمحبة والسلام، وبدأ يستيقض فينا الإحساس بأشياء غامضة مجهولة إلا أنها قريبة
منا، وأخذت أرواحنا تتحرر من الأدناس
(بولص، خادم المسيح)
بهذا رن صوت العجوز، وكانت ترتعش وقد هدها الكبر، غير أنها كانت خاشعة، ورسم

مشيكا الصليب، وأخذ زيومكا يتحرك من جنب إلى جنب ليجد مكاناً في الأرض مريحاً، وكانت العجوز ترمقه بعينيها دون أن تمسك عن القراءة.

(البقية في العدد القادم)

أ. أ. ي

من أسخيلوس

لايوس وأوديب

(درامتان مفقودتان)

بقية المنشور في العدد الماضي

للأستاذ دريني خشبة

- 9 -

ويلاه! لقد جئت أستجلي الحقيقة فضاعفوا الغموض في نفسي! أبي من هذا الذي أقتله، وأمي من تلك التي أتزوج منها، وأي شعب هو ذاك الذي أتعسه وأشقيه؟ أتكون الملكة صادقة وأكون ابن يوليبوس حقاً؟! أتكون زلة لسان من هذا العربيد أرسلها وهو لا يدري ما هي؟ إذن لأبعد في الأرض فأنا لا أطيق أن أراني أقتل يوليبوس، أبي، إن كان حقاً أبي. . . وأنا لا أطيق أن أراني زوجاً لأمي الملكة. . . إن كانت حقاً أمي!. . .) وذهب المسكين لا يلوي على شيء، يأوي إلى الكهوف والغيران إذا جنه الليل، ويغتذي بقليل من البندق أو الجوز أو التين إذا ألح عليه الجوع، ويبل غلته من الجداول والغدران.

- 10 -

وبينا هو يطوي الفيافي والقفار، إذا به يصل إلى ملتقى طرق ثلاث، وإذا به يصل ثمة في الوقت الذي يصل ملأ كريم إلى المكان نفسه، وقبل أن يعرف أوديب أي الطرق الثلاث يسلك إذا رجل طوال يبدو عليه ملامحه أنه جندي أو قائد، يأمره بصوت خشن أجش أن ينتحي ناحية حتى يمر الركب. وكانت لهجة الرجل من الجفاف والغلظة بحيث لم يحتملها أوديب، فرفض أن يتزحزح خطوة واحدة، بل زاد فاعترض طريق الركب كأنما يتحدى رجاله جميعاً. وكيف يراد من أوديب الناشئ في بيت ملك كورنثه والذي أعدته الأيام لتولي زمام الملك أن يصدع بأمر رجل عابر طريق، مهما كان الرجل من حول ومن طول؟ إذن ليلتحم أوديب مع كل هؤلاء القوم في عراك عنيف، وليكن من الأمر ما يكون!

وصاح الرجل مرة أخرى، وأرغى من الغضب وأزبد. . . ولكن أوديب وقف مكانه كأنما سمر فيه؛ وأخذ يحدج القائد بعينين تقدحان الشرر، وتنفثان الموت الزؤام! ولم يستطع القائد إلا أن يمتشق سيفه وينقض على أوديب كالصاعقة. . . ولكنه سقط على الثرى قبل أن يصل إليه جثة هامدة! (خذها ضربة من أوديب!!)

وذهلوا الجنود حينما شهدوا قائدهم معفرا بالتراب. . . فتكاثروا على أوديبوس. . . ولكنه صرعهم واحدا واحد بضربات كأنها سنا برق يومض خلل السحاب في يوم عاصف:

ثم نزل من المركبة التي كانت تنهب الطريق في إثر الجنود رجلٌ مسن قد وخط الشيب رأسه؛ وأقترب من أوديب وهو يهدج كالبعير الأبلق، ثم أخذ يحذره من الموت الذي يتربص به. . . (أنت شاب يا بني والحياة حلوة جميلة، وبرد الموت لا يخلق بعنفوانك. . . فانتح ناحية، ولا تركب رأسك، ولا تحسب أنك تقدر علي كما قدرت على هؤلاء. . .) وكان الشيخ يهز في يمينه سيفاً كالمنية. . . ولكن أوديب تبسم من قوله ضاحكا. . . وأعجله بضربة قدت رأسه وأضلاعه. . . وغادرته عند حيد الجبل جزر السباع. . .

وا أسفاه!. . لقد قتل أوديب والده!! ونفذ ثلث القضاء! فمتى ينفذ شطراه الآخران؟!

- 11 -

سلطت على مدينة طيبة هولة رائعة ما برحت تغتال أهلها وتعيث فيها فسادا، وكلما لقيت أحد عرضت عليه حجياً، فأن فسرها وقدر على تأويلها خلت سبيله، وإن لم يستطع غالته وأغتذت به. . . وقد عز على لايوس الملك ألا يقوى أحد على هذه الهولة فيخلص طيبة منها، ويربح من شرها العباد. فلما لم يستطع أحد يفسر حجياها أعتزم أن يذهب إلى دلفي مستخفياً في رهط من جنده، عسى أن يؤول له الكهنة ذلك

الطلسم وينقذ شعبه من ذلك البلاء المبين!
وكأنما سعى لايوس إلى حتفه بظلفه! فقد لقيه ولده أوديبوس وقتله ومن معه على ما وصفنا!
- 12 -
وقبل أن يبلغ أوديب طيبة، كان خبر مقتل الملك وجنوده قد ذاع فيها، ولكن من كان أولئك القتلة؟ فلم يكن أحد يدري. . . إشاعات فحسب! فقائل إن الهولة هي التي أدركتهم
وصرعتهم جميعاً؛ وقائل إن عصابة من قطاع الطرق أحدقت بهم وذبحتهم وهم نائمون. . . . . .
وكان أوديب قد سار في طريق طويلة شاقة انتهت به إلى طيبة. فلما كان ثمة لقيه واحد من الأهالي أنس إليه، وتبسط معه وذكر له خبر تلك الهولة الفظيعة التي قتلت ربع سكان طيبة: (وإذا لم يرح المدينة منها أحد، فقد تقتلنا جميعاً!! وهي تعرض على من تلقاه حجياً يا صاح، فأن عرفها وأدرك تأويلها خلت سبيله. . . وإلا. . . فهي لا بد فاتكة به مهما كان سلاحه، ومهما كانت قوته!! وهاهي ذي قد فتكت وحدها بالملك وجنده في طريقه إلى دلفي. . . وقد أجمعت المدينة على أن من يخلصها من ذلك الشر المستطير فإنها ترفعه إلى العرش فيكون ملكا على طيبة الخالدة، ثم يحظى بالملكة الايم فتكون زوجة له!!)
- 13 -
وكان أوديب قد زهد في حياة التشرد التي شقى بها بعد مغادرته كورنثه، فصمم على أن يلقى الهولة. . . فإما قتلها وفاز بعرش طيبة وبيد الملكة. . . وبحياة ناعمة مخفرجة، وإما قتلته فأراحته من شظف العيش ولؤم الزمان.
ودله صاحبه على مكانها. . . فذهب إليها وبيده جزاره. . . أظمأ ما يكون إلى دم حار وسم زعاف!. . .
وقالت له: (مكانك أيها القادم! أفتني في مخلوق غريب إذا أنبلج الصبح درج على أربع، فإذا أنتصف النهار مشى على رجلين، فإذا أرخى الليل سدوله سار على ثلاث! قل! فأن لم تستطع، فودع الحياة)
وعبس أوديب عبسة قصيرة، وقال: (أيتها الهولة! أهذه حجياك!! إذن أسمعي وعي! ذلك المخلوق هو الإنسان من غير ريب! أليس يحبو على أربع إذ هو طفل، فإذا شب سار على رجلين، فإذا بلغ من الكبر عتياً توكأ على عصا، فكانت له رجل ثالثة؟!)
وما كاد يتم قولته حتى أربد وجه الهولة، وحتى انثنت تأخذ طريقها إلى البحر لتغيب في أحشائه، ولكن أوديب الذي ملأه انتصاره بحل اللغز عجباً وكبرياء. . . انقض عليها وخوض صدرها بجرازه. . . وتركها على الشاطئ جثة خامدة!
- 14 -
وفرحت طيبة بمخلصها العظيم، ومنقذها الكريم، ورفعت أوديب إلى عرشها، ووضعت على ناصيته تاجها، ووهبت له يد الملكة فتزوجها!
وا أسفاه!
لقد تزوج أوديب أمه! وتم الشطر الثاني من النبوءة الصارمة، وأولدها ابنها أربعة أبناء أشقياء، ولدين وابنتين، كأشباح الأسى والردى، والتعاسة والمنون!!
- 15 -
وحكم أوديب فعدل، واطمأنت إلى رحمته قلوب العباد، وتقدمت طيبة واستقامت أمورها، وبلغت من الأيد والقوة مبلغاً لم تكن تحلم به. . .
غير أن النبوءة تأبى إلا أن تتم، ولا بد أن ترث ذرية أوديب التعاسة عن أوديب. ذلك إن طاعوناً أجتاح طيبة، فكان الناس يموتون بالمئين! وكلت حيلة الأطباء، فأرسل الملك من يستنبئ كهنة أبوللو في دلفي عسى أن ترفع الآلهة غضبها بكشف هذا البلاء عن بلده الأمين! وعاد رسل الملك يقولون: (يقول أبوللو ابحثوا عن قاتل لايوس وانتصفوا للملك منه. . . يرفع عنكم ذلك الطاعون!)
قاتل لايوس!! إذن يجمع أوديب شرطة طيبة، ورجال القضاء فيها، ويجري تحقيق دقيق ينتهي بالحقيقة المؤلمة. . .
(يا للخزي!! إذن أنت هو ابني يا أوديب! أنا أمك! أنا أمك! يا للعار)

وتنطلق الملكة إلى غرفتها الخاصة فتنتحر. وقبل أن تفعل ترسل وراء الخادم الذي كان قد أخذ الطفل ليقتله فيحضر! ويعترف بكل ما كان!

أما أوديب، فانه لا يستطيع أن ينظر إلى أمه. . . بل يجن جنونه، ويتناول دبوساً فيسمل به عينيه، وينطلق إلى البرية على غير هدى، فتتبعه أبنته أنتيجونى، تقوده إلى غاب كولونوس حيث تأوي ربات الذعر فيغتلنه. . .

وينكشف الطاعون عن طيبة

ويقتتل ابنا أوديب على العرش، فيقتل بعضهما بعضاً، وتتم المأساة!. . . . . .

دريني خشبة

البريد الأدبي

مكسيم جوركي

وافتنا الأنباء الأخيرة بنعي مكسيم جوركي شيخ الأدب الروسي المعاصر. توفي بعد مرض طويل مضن في نحو الثامنة والستين من عمره. وبوفاة جوركي يختتم ثبت أكابر الكتاب الثوريين الذين مهدوا بكتاباتهم للثورة الاجتماعية الروسية الكبرى أعني الثورة البلشفية، وسيادة الطبقات العاملة، مثل ليون تولستوي، والبرنس كورباتكين. وكان مولد جوركي ببلدة (نجني نفجرود) من أعمال الفولجا في سنة 1868، ومن أسرة عاملة فقيرة، وأسمه الحقيقي ألكسي مكسينوفتش بتشكوف؛ ومات أبوه وهو طفل فكفلته جدته لأمه؛ ولم يتلق لفقره تربية، بل أضطر منذ حداثته أن يعمل ليعيش؛ فالتحق في التاسعة من عمره بخدمة محل لصنع الأحذية. ولبث يتنقل من عمل إلى عمل، وهو يعاني شظف البؤس، ولا يكاد يثبت في عمل ما، لأنه كان منذ حداثته يبدي مللاً مستمراً ونزوعاً إلى الثورة. وكان الفتى ألكسي مع ذلك يختلس الأوقات للقراءة والاهتمام بشؤون السياسة والثورة. وفي سنة 1892، استطاع جوركي أن يخرج كتابه الأول (ما كان شودرا)، وفيه صور قصصية مؤثرة؛ وفي العام التالي أخرج كتابه (شلكاش) على مثل كتابه الأول فصادف نجاحاً كبيراً. وتبوأ الفتى (جوركي) مكانته كأديب وكاتب يحسب حسابه؛ وفي ذلك الحين أيضاً قبض على جوركي لما بدا في كتاباته من النزعة الثورية وأودع السجن، ومرض فيه حتى كاد يموت؛ ولكنه ما كاد يخرج حتى عاد إلى الكتابة؛ وأخذ يطوف أرجاء روسيا متصلاً بزعماء المجاهدين والكتاب الثوريين. وفي سنة 1900 أخرج جوركي قصته الكبيرة (توما جورديف)، فلقيت نجاحاً كبيراً. واتصل منذ أواخر القرن الماضي بفلادمير إلتش أو (لنين) زعيم الثورة البلشفية المستقبلة وصحبه؛ واشتغل بالصحافة الثورية؛ واستمر مع ذلك في إخراج كتبه؛ وكانت معظم كتبه في ذلك الحين قصصاً ثورية تمثل بؤس الطبقات العاملة التي عرفها وعانى ويلاتها صغيراً؛ وفي ذلك يصل جوركي إلى ذروة فنه؛ بيد أنه لم يتمكن قط من وصف المجتمع الرفيع بمثل هذه البراعة؛ وكان ذلك وقفاً على أقطاب درسوا الحياة الرفيعة مثل ليون تولستوي. وأحسن ما يصف جوركي تلك الشخصيات الناقمة التي تخرج على النظم والأغلال الاجتماعية المفروضة، وهي في الواقع شخصية جوركي ذاته.

وعرف جوركي ظلام السجن أكثر من مرة؛ ولكنه كان في كل مرة يخرج أقوى نفساً وأثبت عزماً على الكفاح. وفي سنة 1906 سافر إلى أمريكا موفداً من الجمعيات الثورية الروسية ليدعو إلى قضية الحرية الروسية. ولكنه لم يلق النجاح المرغوب، لما عرف أن السيدة التي ترافقه هي صاحبته وليست زوجته؛ وقام أيضاً بالتجوال في ألمانيا وفرنسا ليدعو ضد القرض الذي كانت تحاول القيصرية عقده، وهو ينذر بأن الشعب الروسي لن يدفعه؛ ولكن مساعيه خابت وعقدت روسيا هذا القرض في فرنسا قبيل الحرب؛ ومع ذلك فقد صحت نبوءته. وجاءت الحكومة البلشفية فأعلنت إلغاء ديون القيصرية كلها.

وعاد جوركي إلى روسيا قبيل الحرب وأسس مجلة أدبية ثورية؛ ثم كانت الحرب، فتفرق زعماء الثورة في كل مكان، ولبث جوركي في روسيا، حتى كانت الثورة البلشفية، فظهر عندئذ في طليعة زعماء الثورة؛ وقربه لينين. وكان جوركي يحترم الرجل الذي حطم طغيان القياصرة، وحقق سيادة الطبقات العاملة، أعني لينين،

ويذهب في هذا الاحترام إلى حد التقديس والعبادة. وغدا جوركي من أقطاب النظام الجديد، وغدا لسانه وزعيمه الأدبي؛ وأغدقت عليه الحكومة البلشفية رعايتها. ومنذ نحو عشرين عاماً يقود جوركي الحركة الأدبية الحديثة في روسيا، ويغذيها بروحه الثوري المضطرم

وأخرج جوركي في تلك الفترة عدة كتب رائعة: منها (الشريدون) و (ذكريات الشباب) و (المتفرج) و (كوموفالوف)، وهو أعظم كتبه؛ و (الأعماق السفلى) وهي قطعة مسرحية قوية؛ وغيرها.

والخلاصة أن جوركي يعتبر من أعظم زعماء الأدب الروسي المعاصر. وقد نوه البرنس كوروباتكن في كتابه عن الأدب الروسي بعبقرية جوركي الأدبية والفلسفية

(ع)

جوركي أديب الصعاليك

كتبنا كلمة في هذا الباب من أبواب (الرسالة) منذ أسبوعين عن حياة جوركي؛ وها قد لفظ أديب الشيوعية الكبير آخر أنفاسه في الأسبوع الثاني من هذا الشهر (9 يونيه سنة 1936)

من أثر التدرن الذي كان يشكو منه دائماً والذي سافر من أجله إلى إيطاليا يستشفي منه، ولكن ما زال به حتى قضى عليه في النهاية. وقد ذكرنا أن جوركي عمل في حداثته عند خباز، ونذكر اليوم أن هذا الخباز كان اسمه (راماس) من مدينة قازان، وأنه كان ذا أثر كبير في توجيه مكسيم جوركي، فقد كان يعمل ليلاً في مخبزه اتقاء لشبهة جواسيس القيصر، ثم يبث في عماله روح الانتفاض على ظلم القيصرية بما كان يلقيه عليهم من أحاديث ملتهبة، وبما كان يقرئهم من كتب ويثقفهم به من معلومات. وكان الفتى جوركي أشد العمال تعلقاً براماس، وكان يلتهم كتبه التهاماً حتى حدثوا عنه أنه كان يقضي نصف أوقات راحته ونومه مكباً على كتب راماس! ولما علق جوركي الأدب ومهر في الخطابة توجه إلى بطرسبرج ودعا الشعب إلى مطالبة القيصر بالدستور، ثم جمع عدداً كبيراً من العمال وتوجه بهم إلى قصر القيصر في مظاهرة صاخبة وهتفوا بحياة الدستور، وما هي إلا لحظة حتى حصدتهم نيران البنادق والمدافع من كل صوب، ونجا جوركي بأعجوبة. ولكنه قبض عليه وحوكم أمام محاكمة عسكرية فقضت عليه بالسجن لمدة سنة وعلى الزعيم الآخر (الأسقف جابون) بسنة مثلها (1905)

وكان جوركي يستشفي في إيطاليا حينما هبت الثورة في روسيا فعاد إليها ليلقى لينين وليكون هو وتروتسكي أشد أعوانه وأكبر مؤيديه، وإن يكن جوركي كان يأخذ على طاغية روسيا وزعيمها الأكبر أخذه الناس بالشدة وسوقهم إلى نظمه بالعنف، وكان يصارحه بعدم رضاه عن هذه الطرق التعسفية في بث مبادئ الثورة مع علمه أن معنى معارضة لينين الشنق والقتل بالرصاص. والعجيب أن عطف جوركي هذا لم يستمر طويلاً. فقد حدث بعد موت لينين أن أختلف ستالين وتروتسكي من أجل تنفيذ مبادئ الثورة تنفيذاً حرفيا فكان من رأي تروتسكي أخذ الفلاحين بالعنف وإخضاعهم بالقوة لتعاليم لينين، ولكن ستالين أبى ورأى في الطفرة تمهيداً لثورة الفلاحين ففضل التدرج معهم في جذبهم إلى حظيرة هذه التعاليم. واشتد الخلف بين أقطاب الشيوعية، وملك ستالين زمام الأمور، وفر تروتسكي خارج روسيا، ولحق به جوركي؛ ولكن جوركي عاد إلى روسيا بعد ذلك فشهد بعينه صدق نظر ستالين، فرجع عن رأيه لما رأى من استقرار الأمور، وعاد إلى سالف تشجيعه للاتحاد السوفيتي فعينه في لجنته التنفيذية.

وجوركي من اشد الملحدين الذين عرفهم التاريخ فهو يقول أن المعبود الذي تعنو له الجباه إن هو إلا خرافة، وهو مصدر الخرافات! وتلك جرأة على الله سبحانه وتعالى من هذا الرجل الذي خبله البؤس وذهب بوجدانه العوز في أكبر شطر من حياته. ويكاد يكون الفيلسوف برجسون أشد أعداء جوركي، فبرجسون روحي بطبعه، والناس في فرنسا يصدقونه في كل شيء حتى لو ادعى النبوة، ولم يدافع أحد من الفلاسفة عن وجود الله في عصرنا الحديث بمثل ما دافع برجسون، وإليه وحده يرجع الفضل في هزيمة داروين وجوركي، وإن جوركي ما يزال منتصرا بقوة الحديد والنار داخل روسيا.

وإلى جوركي يعود الفضل فيما لصق بالثورة الشيوعية من تهم الإباحية وما إليها، لأنه هو نفسه ما كان يتورع أن يظهر أمام الملأ في أعمر ميادين موسكو وبطرسبرج (لينجراد) محاطاً بعشيقاته و (محظياته!). وقصته (الاعتراف) هي نموذج خبيث من

أدب المنحطين تبذ قصص لورانس وجويس وبلزك، وفيها يذكر حديثاً غير محتشم لغادة من الساقطات تدعوه إلى نفسها لترزق منه غلاماً. وفي ذلك شبه من قصة لورانس التي أشرنا إليها مرة في هذا الباب (عشيق لادي شاترلي). وتلك القصة ثالثة ثلاث ألفها إذ هو في إيطاليا والاثنتان هما (الأم) و (الصيف) ونرجئ الكلام عن بقية قصصه وكتبه ومجلاته إلى نبذة أخرى.

د. خ

في المباراة الأدبية

اجتمعت لجنة المباريات الخاصة بموضوع (أثر الحافز الشخصي في التطور الإصلاحي والاجتماعي والوسائل العلمية لتوجيه الرأي العام) التي يرأسها معالي الأستاذ مكرم عبيد باشا فنظرت في البحوث المقدمة إليها وقررت:

1 - منح الجائزة الأولى وقدرها مائة جنيه للأستاذ عباس حافظ الموظف بوزارة الداخلية.

2 - منح الجائزة الثانية وقدرها خمسون جنيها للأديب جميل خانكي.

3 - منح الجائزة الثالثة وقدرها 25 جنيهاً للآنسة زينب الحكيم الحائزة لدبلوم فروبل العليا بلندن.

4 - منح الجائزة الرابعة وقدرها 25 جنيهاً للأستاذ حسن مظهر المحرر بمجلة الطائف المصورة.

وقد رأت اللجنة أن تتقدم إلى صاحب الدولة وزير الداخلية ليسمح بمنح هذه الجوائز برغم انقضاء الموعد المحدد لها.

بين السياسة والأدب

تولى الحكم أخيراً سياسيان عظيمان، هما في الوقت نفسه أديبان كبيران، وهما مسيو ليون بلوم الزعيم الاشتراكي الفرنسي الذي فاز حزبه في الانتخابات الفرنسية الأخيرة، وانتهى بأن تولى زعيمه الحكم؛ ثم السنيور مانويل ازاناديار، الذي أنتخب أخيراً رئيساً للجمهورية الأسبانية؛ فكلاهما أديب كبير، وله مؤلفات تتبوأ مكانها الأدبي. ولنلاحظ أولاً أن مسيو ليون بلوم فوق كونه اشتراكياً، هو يهودي؛ وهذه أول مرة يتولى فيها الحكم في فرنسا يهودي منذ وزارة مسيو كايو الذي تولى الرياسة قبل الحرب.

وكان مسيو بلوم منذ أواخر القرن الماضي صحفياً وناقداً، ففي سنة 1897، كان يتولى تحرير (المجلة البيضاء)، وكان يعرف يومئذ بنقده اللاذع؛ ثم تخلى عن تحرير هذه المجلة إلى الكاتب الشهير (أندريه جيد). ثم تحول إلى الكتابة السياسية منذ حملة تيار السياسة، وكانت مقالاته في جريدة (البوبولير) حتى العهد الأخير تثير أعظم الاهتمام في دوائر السياسة.

وأما المسيو ازانا رئيس جمهورية أسبانيا الجديد فهو مؤلف ذو شهرة واسعة وله عدة كتب في السياسة والأدب نذكر منها: (دراسات عن السياسة الفرنسية الحديثة)، و (ترجمة جوان فالير) وهو كتاب نال به الجائزة القومية الوطنية؛ و (الكتابة والقول) و (في الحكم وفي المعارضة)، ثم رسالة أدبية عن (دون كيشوتي)، وقطعة مسرحية عنوانها، (التاج) هذا ما عدا روايات القصص ومقالات عديدة.

كتاب جديد لهافلوك أليس

صدر أخيراً كتاب النقادة الإنكليزي الشهير هافلوك أليس عنوانه: (مسائل عصرنا) والذين يتتبعون حياة هافلوك أليس وكتاباته يعرفون أنه أعظم المفكرين والنقدة في عصرنا؛ وقد بلغ اليوم عهد الشيخوخة، ولكنه ما زال قوي النشاط، قوي الأثر في الشباب المتأدب؛

وقد كانت كتاباته من أكبر العوامل في الترويج للأدب الجنسي الحديث، وهو الأدب الذي كان يرفضه المجتمع الإنكليزي من قبل. ويشتمل كتاب هافلوك أليس الجديد على مائة موضوع من الموضوعات التي سبق أن عالجها في ظروف ومناسبات مختلفة، وهذه بعضها: (ما هو المجرم. بديل الحرب. مسألة الثورات. التربية في العالم المتطور. الحاجة إلى سماء جديدة. مسألة التعقيم الإصلاحي) وغيرها

ومع أن معظم هذه الموضوعات قد كتب من قبل، فأن الكتاب يطبعه طابع واضح من الجدة، ويبدو تعمق الكاتب وبعد نظره في معالجات موضوعه، حتى أن القارئ ليشعر

بأن كثيراً مما تنبأ به هافلوك أليس في كتاباته عن التطورات الاجتماعية يقع اليوم في العالم بالفعل.

العالم المسرحي والسينمائي

بنكنوت

فيلم شركة لونس على شاشة سينما تريومف

لناقد (الرسالة) الفني

تدفع الأثرة الكثير من المصريين إلى الجمع بين صناعات متعددة، وهذا في عقيدتهم وسيلة من وسائل الشهرة وارتفاع الذكر في حين أن العالم يسير عكس هذه الفكرة، فهو يعمل على توزيع الأعمال حتى يستطيع الفرد أن يتخصص في ناحية واحدة، والتخصص سبيل الإتقان والتبريز

ولقد نقدنا في فلم شارلي شابلن (العصر الحديث) قيام صاحبه بجميع الأعمال الفنية؛ وها نحن اليوم نعود فنكرر قولنا، في رأينا أن زميلنا الأستاذ أحمد جلال يستحق اللوم الكثير لتقليده شارلي، وجمعه بين مهمة تأليف الرواية وكتابة السيناريو وإدارة الفلم وإخراجه ثم تمثيله. ونحن إذا التمسنا الأعذار لشارلي لإعداده الفلم الواحد خمس سنوات، فإن الأمر على العكس من ذلك مع جلال الذي يرهقه العمل الصحفي إلى جانب عمله السينمائي. ولو أنه وزع العمل واكتفى بمهمة واحدة أو اثنتين فربما تلافى الكثير من الأخطاء التي أفسدت الفلم ونزلت به إلى مستوى لا نحبه ولا نرضاه لفلم مصري.

إن مخرجي الأفلام المصرية يستغلون النظارة من المصريين أسوأ استغلال بعرضهم مثل هذه الأفلام التي تنقصها العوامل الفنية التي تتوفر في الأفلام الأمريكية والإنجليزية. ولو أن هذه الأفلام تشبع عواطف المصريين، وتصور ميولهم ونفسياتهم، لما وجدنا مصرياً واحدا يقبل على هذه الألاعيب الصبيانية، ولأحس يومئذ المخرجون أن القومية وحدها ليست كافية لأن تجتذب النظارة إلى دور السينما

وإذا كان الجمهور يقبل على هذه الأفلام، فهو إنما يقوم بواجبه حيال هذه الصناعة الجديدة، وتشجيعاً لأهل الفن من أبناء بلاده، وعسى أن يجد فيما تعرض ما يعبر عن عواطفه. على أن هذا الاستغلال سينكشف يوماً، وسيعرف المصريون أنهم يسيئون إلى أنفسهم وإلى الفن، إذ يقبلون على هذه الأفلام؛ ويومئذ يدرك المخرجون مبلغ الهوة الساحقة التي حفروها بينهم

وبين رواد السينما. ولا أظن هذا اليوم بات بعيدا.

أن أول أسباب لنجاح الفلم أن تكون القصة التي تعرض للنظارة صالحة للسينما؛ ويشترط فيها الفن، والصناعة، وعلم النفس، وغيرها من الشروط التي يجب أن تتوفر في كل عمل فني، ولهذا فأن الشركات الأجنبية تنتقي خيرة القصص العالمية وتقتبسها للسينما، وتدفع من أجل ذلك ألوف الجنيهات، أما في مصر، فأن الشركات تستغني عن المؤلف الأديب، ولا تحفل كثيراً بموضوع القصة، ولهذا فأنك لا تجد بين أكثر الأفلام التي عرضت موضوعاً سامياً ولا قصة رائعة ذات جمال وفن.

ملخص قصة الفلم

سلمى، امرأة مبتذلة، يعود زوجها فجأة فيجدها مع عشيق لها فيطردها من بيته؛ وتخرج لتعيش في الأندية الليلية، ويلتقي بها نجيب مفتش البوليس فيتزوجها وينجب منها طفلة

ويدخل شوكت يوما إلى مكتب نجيب فيراه يضع أوراقاً مالية في مكتبه، ويدعو شوكت نجيباً لقضاء السهرة في النادي، وهنالك نجد شوكت يخسر كل نقوده ويأخذ نجيب مكانه، وينتهز شوكت الفرصة ويسرع إلى بيت صديقه ليسرق الأوراق المالية. وإذ هو في محاولته يعود نجيب ويخاف شوكت أن يضبطه متلبساً بالجريمة فيسرع إلى مخدع الزوجة، ويدخل نجيب فيظن أن زوجته تخونه ويصوب مسدسه إلى شوكت ولكن هذا يفلح في إسقاط المسدس من يده!؟ وتريد سلمى أن تنتقم من شوكت فتطلق عليه الرصاص ولكنها تصيب زوجها.

ويحكم على الزوجة بالسجن ثلاث سنوات، وفي هذه المدة يتعرف شوكت إلى إحدى فتيات الشوارع فيتخذها عشيقة له، ويعدها لتكون شريكة له ووسيلته إلى السرقة والاحتيال. وتخرج سلمى من السجن وتعمل خادمة عند هذه العشيقة فتعرف سرهما

وتحبط تدبيراتهما. ويوفق شوكت إلى اغتصاب آلاف الجنيهات من مكتب مدير إحدى الشركات (وكأن المدير لا يضع نقوده في المصارف!) ولكن سلمى ترشد البوليس إلى السارق. ويجئ نجيب ليقبض على شوكت، وإذ يحاول هذا الهرب مهدداً نجيباً بالمسدس تطلق سلمى النار على شوكت.

يرى القارئ أن الموضوع الذي عالجه الفلم تافه لا يحتاج إلى كل هذا الحشو والتطويل والتعقيد والالتجاء إلى الأمور غير المعقولة التي أغفلناها في تلخيصنا لقصة الفلم، وهذا مما يدل على جهل كاتب القصة بالحياة والخلق المصري. فأين الرجل الذي لا يثور لمرأى عاشق زوجته في بيته؟ وأين الأندية الليلية التي يصحب فيها الرجال زوجاتهم ويلعبون الميسر مع الساقطات أمامهن؟! وأين الرجل الذي لا تأخذه الريبة ولا الشكوك من وجود صديقه في بيته أثناء غيبته؟ ومدير الشركة الذي يولول ويكاد يتملكه الجنون لأن سيدة أغمى عليها في مكتبه، ثم هذه الطريقة المضحكة التي تتعرف بها عشيقة شوكت إلى تاجر الأقطان ومفتش البوليس الذي لا يعرف كيف يتقي شر المجرمين ولا يعرف كيف يستخدم مسدسه. . . هذه الأشياء تبين بجلاء جهل الكاتب بعلم النفس وبالحياة المصرية.

وقد تقوم الفكرة التي تقوم عليها القصة مما لا يصل إليه النقد، كما صرح بعض الزملاء، ولكن العلاج وما يحيط بالقصة من حواش وجو ملئ بالأقذار والأدران مما لا ترتاح إليه النفس، أما تصوير الشخصيات فضعيف مضطرب، وفي بعضها نزول عن المستوى الذي يليق أن يعرض على الجمهور، والذي لا يتسق مع بقية الشخصيات ولا مع موضوع القصة، مثل العشيق الأبله الذي يفتتح به أول مناظر الفلم، أو مثل شخصية الخادم (البلدي) ومسلكه مع مخدوميه، والفتاة السارقة عندما أخذها شوكت إلى بيته لأول مرة، وكذلك شخصية سلوى فيها كثير من الإبهام الذي لا يرتاح إليه النظارة.

والحوار لا بأس به؛ غير أنه في كثير من المواقف يشبه الحوار المسرحي، كما أن هناك إسفافاً في الأحاديث بين شوكت وسلوى وبين الخادم البلدي ومخدومه، وبين شوكت والفتاة السارقة. وقد يقول المؤلف أنه يحاول أن يرسم صورة واقعية، ولكن الفن أسمى من هذا الواقع، ثم أن الواقع في حد ذاته لا قيمة له إلا إذا صقلته وأعدته يد مفتن ماهر.

التمثيل والتصوير

والتمثيل ضعيف، وكثير من المواقف انقلبت إلى مواقف مسرحية، ولو أن المدير الفني كان همه الأول قيادة الممثلين لعاد ذلك بالخير على الفلم؛ وإنني من رأي صديقي الأستاذ أحمد بدرخان في أن للسيدة آسيا مواهب لو استغلت كما يجب لبرزت وعلا نجمها، وهي جديرة بأن تسمى (ماي وست) مصر، ولكنها مع الأسف لم تظهر في فلم يلائمها، ولم تعمل مع مدير فني يستطيع أن يبرز مواهبها، وإن ظهورها الدائم مع ماري كويني ومع جلال

مما يجعل التشابه كثيراً في حركاتها وتمثيلها؛ ونحن ننصح لها أن تبدل الشخصيات التي تعمل معها بين قصة وأخرى، فللوجوه الجديدة أثر وأي اثر في نفوس النظارة أما تمثيل الآنسة ماري كويني، فماذا أقول! إنها كانت تضحك في أغلب أجزاء دورها ضحكا يتردد صداه، حتى إنني لأذكر إنها كانت تضحك ضحكاً متشابهاً يبعث السأم إلى النفس، وتمثيل الرشيدي (نجيب) مسرحي أكثر منه سينمائياً، أما جلال (شوكت) فكان يقوم بمغامراته كأنه لا يحفل بأحد وإذ هو يتسور حاجز الحديقة كأنه يقوم بلعبة في وضح النهار لا يخشى رقيباً.

كان المصور ينتقل في بساطة لا أثر للفن فيها مما يدل على أن كاتب السيناريو والمدير الفني لم يحافظا على الجو السينمائي. وكان يخرقان القواعد، فهما يجهلان متى يجب أن يصور المنظر عن قرب أو عن بعد، وكيف ينتقلان من منظر إلى آخر. وعندي أن هذا أثر الحشو والتطويل. هذا وإنك لا تجد في الفلم زوايا معبرة، ولكن الضوء والصوت في هذا الفلم جعلاه يفوق ما سبق أن قدمته إلينا السيدة آسيا من أفلام.

والشيء الوحيد الذي نذكره في الفيلم هو أنه طوله الذي تستطيع وبكل بساطة أن تحذف منه أكثر من الثلث دون أن تتأثر القصة لاتشعر أثناء عرضه بالملل والسأم

اللذين كنت تحسهما أثناء عرض الأفلام السابقة لشركة (لوتس)، وإن أحسست بثورة على المؤلف والمدير الفني.
يوسف
العدد 155 - بتاريخ: 22 - 06 - 1936
يا شباب العرب!
للأستاذ مصطفى صادق الرافعي
يقولون إن في شباب العرب شيخوخةَ الهِمَم والعزائم؛ فالشبانُ يمتدُّون في حياة الأمم وهم ينكمشون
وإن اللهوَ قد خفَّ بهم حتى ثقلت عليهم حياةُ الجد، فأهملوا الممكنات فرجعت لهم كالمستحيلات
وإن الهزلَ قد هونَّ عليهم كلَّ صعبةٍ فاختصروها؛ فإذا هزءوا بالعدو في كلمة فكأنما هزموه في معركة. . .
وإن الشاب منهم يكون رجلاً تاماً، ورجولةُ جسمه تحتجُّ على طفولة أعماله
ويقولون إن الأمرِ العظيم عند شباب العرب ألا يحملوا أبداً تَبِعَة أمر عظيم
ويزعمون أن هذا الشبابَ قد تمت الأُلفةُ بينه وبين أغلاطه، فحياته حياة هذه الأغلاط فيه
وأَنه أَبرعُ مقلِّد للغرب في الرذائل خاصة؛ وبهذا جعله الغربُ كالحيوان محصوراً في طعامه وشرابه ولذاته
ويزعمون أن الزجاجةَ من الخمر تعمل في هذا الشرق المسكين عملَ جندي أجنبي فاتح. . .
ويتواصَونْ بأن أوَل السياسة في استعباد أمم الشرق، أن يترك لهم الاستقلالُ التام في حرية الرذيلة. . .
ويقولون إنه لابد في الشرق من آلتين للتخريب: قوة أوربا، ورذائل أوربا
يا شبابَ العرب! مَن غيركم يكذِّب ما يقولون ويزعمون على هذا الشرق المسكين؟
من غير الشباب يضع القوةَ بازاء هذا الضعف الذي وصفوه لتكون جواباً عليه؟
من غيركم يجعل النفوس قوانين صارمة، تكون المادةُ الأولى فيها: قَدَرْنا لأننا أردنا؟
ألا إن المعركة بيننا وبين الاستعمار معركة نفسية، إن لم يُقتل فيها الهزل قتل فيها الواجب!
والحقائق التي بيننا وبين هذا الاستعمار إنما يكون فيكم أنتم بحثُها التحليلي، تكْذِبُ أو تَصْدق.
الشبابُ هو القوة؛ فالشمسُ لا تملأُ النهارَ في آخره كما تملؤه في أوله
وفي الشباب نوعٌ من الحياة تظهرِ كلمةُ الموت عنده كأنها أُختُ كلمة النوم
وللشباب طبيعةٌ أولُ إدراكها الثقةُ بالبقاء، فأول صفاتها الإصرار على العزم
وفي الشباب تصنع كل شجرة من أشجار الحياة أثمارها؛ وبعد ذلك لا تصنع الأشجارُ كلها إلا خشبا. . .
يا شباب العرب: اجعلوا رسالتكم: إما أن يحيا الشرق عزيزاً، وإما أن تموتوا
أَنقذوا فضائلنا من رذائل هذه المدنية الأوربيةُ تنقذوا استقلالنا بعد ذلك، وتنقذوه بذلك.
إن هذا الشرق حين يدعو أليه الغرب (يدعو لَمَن ضَرُّه أقربُ من نفعه لَبْئسَ المَوْلى ولبئس العَشير)
لبئس المولى إذا جاء بقوته وقوانينه، ولبئس العَشيرُ إذا جاء برذائله وأطماعه.
أيها الشرقي! إن الدينار الأجنبي فيه رصاصةٌ مخبوءة، وحقوقُنا مقتولةٌ بهذه الدنانير.
أيها الشرقي! لا يقول لك الأجنبي إلا ما قال الشيطان: (وما كان لي عليكم من سلطانٍ إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي)
يا شباب العرب! لم يكن العسيرُ يعسر على أسلافكم الأولين، كأن في يدهم مفاتيح من العناصر يفتحون بها.
أتريدون معرفة السر؟ السرُّ أنهم ارتفعوا فوق ضعف المخلوق، فصاروا عملاً من أعمال الخالق
غلبوا على الدنيا لما غلبوا في أنفسهم معنى الفقر، ومعنى الخوف، والمعنى الأرضي
وعلَّمهم الدينُ كيف يعيشون باللذات السماوية التي وضعت في كل قلب عظمتَه

وكبرياءَه
واخترعهم الأيمانُ اختراعاً نفسيّاً علامتُه المسجَّلة على كل منهم هذه الكلمة: لا يَذِل
حين يكون الفقر قلةَ المال، يفتقر أكثر الناس، وتنخذل القوة الإنسانية، وتهلك المواهب
ولكن حين يكون فقرَ العمل الطيب، يستطيع كل إنسان أن يغتنى، وتنبعث القوة، وتعمل كل موهبة
وحين يكون الخوف من نقص هذه الحياة وآلامها، تفسّر كلمة الخوف مائة رذيلة غير الخوف
ولكن حين يكون من نقص الحياة الآخرة وعذابها، تصبح الكلمةُ قانونَ الفضائل أجمع
هكذا اخترع الدين إنسانَه الكبير النفس الذي لا يقال فيه: انهزمت نفسُه
يا شباب العرب! كانت حكمةُ العرب التي يعملون عليها: أُطلُب الموت تُوهب لك الحياة
والنفس إذا لم تخش الموت كانت غريزةُ الكفاح أولَ غرائزها تَعْمَل
وللكفاح غريزة تجعل الحياة كلها نصراً إذ لا تكون الفكرةُ معها إلا فكرةَ مقاتلة
غريزة الكفاح يا شباب هي التي جعلت الأسدَ لا يُسَمَّن كما تسمَّن الشاة للذبح
وإذا انكسرت يوماً فالحجر الصَّلْدُ إذا تَرَضرَضتْ منه قطعة كانت دليلاً يكشف للعين أن جميعه حجر صلد
يا شباب العرب! إن كلمة (حقّي) لا تحيا في السياسة إلا إذا وضع قائلُها حياتَه فيها
فالقوةَ القوةَ يا شباب! القوة التي تقتل أول ما تقتل فكرةَ الترف والتخنث
القوة الفاضلة المتسامية التي تضع للأنصار في كلمة (نعم) معنى نعم
القوة الصارمة النفَّاذة التي تضع للأعداء في كلمة (لا) معنى لا
يا شباب العرب! اجعلوا رسالتكم: إما أن يحيا الشرق عزيزاً، وإما أن تموتوا.
(طنطا)
مصطفى صادق الرافعي
في النقد
إلى الأستاذ أحمد أمين
من الأستاذ توفيق الحكيم
يا صديقي العزيز! حقيقة أذكر بعد قراءة فصلك الأخير في (الرسالة) أنك كنت عازماً على نقد كتابي (محمد)، فما الذي منعك؟ وأذكر أيضاً أنك أفضيت إلى بخوفك من أن يسئ رجال الدين فهم مرادك فأضارّ أنا بذلك؛ وهى عاطفة نبيلة حمدتها لك. على أني فيما أذكر أيضاً قد شجعتك على المضي في نقدك وهو في جملته لا يؤيدني. بل إني قد وافقتك عليه معجباً بفراستك مقدراً لبراعتك في الوقوع من فورك على المواطن التي يجوز فيها النقد والكلام. فأنت ترى أن المؤلف لم يغضب، بل ابتسم واغتبط ليقظة الناقد. في الواقع أنى لست أومن كثيراً بتلك الأسطورة التي تروى عن غضب المؤلفين. واسمح لي أن أتكلم بلسانهم فأقول إن هذا الغضب لا يجد سبيلاً إلى نفس الكاتب إلا إذا شعر من ناقده بعزوف عن الحق والجد، ونزوع إلى الحط من القدر مبطن بسوء القصد. فالناقد الذي يحترم شخصي ويهدم عملي لا يغضبني. لأني أعلم أن الأديب لا يهمه النقد. فهو كائن ممتاز لا يُهدم، ولا يقبض إلا بأذنه، ولا يقضى عليه إلا بإرادته. إن الأديب لا يموت مقتولاً، بل يموت منتحراً. ومع ذلك فأني لا أحب للمؤلفين أن يغضبوا على أي حال، فان الغضب علامة الضعف الآدمي، ولا شئ في الوجود أقوى من الابتسامة. ولكن من ذا الذي أعطى القدرة على الابتسام الصافي الجميل في كل موقف وفي كل حين؟ أهو الجبار وحده؟ ألا ترى معي أن الجبروت إنما هو الصفاء؟ (إذا أردت أن تسلك طريق السلام الدائم، فابسم للقدر إذا بطش بك، ولا تبطش بأحد) تلك كلمة لعمر الخيام، جعلتها في رأس كتابي (من الشرق) الذي لم أكتب منه في سنوات ثلاث أكثر من ثلاثة فصول. وانك لتعجب إذا قلت لك إن هذا البطء أو هذا العجز مرجعه علة واحدة قد انكشفت لبصيرتي آخر الأمر: عدم استكمال تلك الصفة العليا التي يرتديها بعض رهبان الفكر كما تُرتدى المسوح: الصفاء
إن كنت من رأيي في كل هذا فإن لي عندك حاجة: أن تنشر معي تلك الابتسامة بين

الأدباء، فأن الأدب شئ جميل؛ هو جنة لا صخب فيها؛ وهو معبد لا تدخله الأحقاد. إن أعجب ظاهرة في أدبنا أنه لا توجد فيه صداقات عظيمة جديرة أن يتحدث عنها تاريخ الأدب؛ تلك الصداقات التي نراها في آداب الحضارات الكبرى قد أنتجت من الرسائل والأخبار والآثار ما لا يقوم بمال. ما الذي يعوزنا نحن؟ أهو شيء في الخلق؟ أم هو ضعف في النفس؟ أم هو نقص في الثقافة؟ لست أعلم. إنما الذي أعلمه أن الصداقة الخالصة بين رجال الأدب والفكر هي أظهر دليل على نضوج هذا الأدب وهذا الفكر وبعد، فأني أرجو أن تقبل أطيب التحية من المخلص.

توفيق الحكيم

في النقد

للدكتور محمد حسين هيكل بك

عزيزي الأستاذ الزيات:

أثرت في أعداد (الرسالة) الأخيرة حواراً طريفاُ حول (النقد) بمقالك الذي نشرته في عددها الذي صدر في 18 مايو الماضي، والذي عقب عليه الأستاذان أحمد أمين وطه حسين. وإنني أغبطك كصحفي لما صادف موضوعاً أثرته من هذا النجاح. وأي نجاح أكبر من أن يدخل حلبة الحوار صديقان من كبار كتاب مصر وأدبائها، فيقلبان من المواضيع في (النقد) ما كان ركد، ويشيران إلى مواضع ضعف في كتابنا وأدبائنا، شيوخاً وناشئين، ويصفان علة ركود النقد مع يقظة الأدب؛ ويدعوانني بذلك للاشتراك في حديث بعد العهد بيني وبينه؛ وما كنت أظنني أعود من بعد أليه

ولم يكن انصرافي عن النقد عن إيثار للسلامة، أو مداراة للجمهور، أو اندفاع في تيار هذا الجمهور بعد أن كنت أريد جذبه إلى تياري. كلا! وإنما كان انصرافي عن النقد وعن ألوان غيره من الكتابة أنني أيقنت أن فيما أنا بسبيله اليوم من مباحث في سيرة النبي العربي وفي عصره ما هو أجدى على القراء وعلى الغرض الذي أرجو للجماعة الإنسانية أن تبلغه مما كنت بسبيله من قبل. ولست أريد الآن أن أصف كيف حدث هذا التطور في نفسي فذلك أمر يطول بيانه. وإنما ذكرت منه ما ذكرت لأبين به السبب الذي انصرفت من أجله عن النقد وما يتصل به. وما أحسب منصفاً إلا أن ما يستنفده البحث في السيرة والاتصال بعصرها وبيئتها من وقت وجهد كاف ليشغل الباحث عن غيره من الأمور؛ هذا ولو أنه كان منقطعاً لهذا البحث. ما بالك إذا شغل بالصحافة وبغير الصحافة من شؤون لا تدع له فرصة التنقل من قراءة إلى قراءة، وتدبر كل ما يقرأ تدبراً يسمح له بنقده وتقديره نقداً عادلاً وتقديراً نزيهاً؟

ولست أريد بهذا الذي قدمت أن أعتذر عن انصرافي عن النقد ورغبتي عنه. فأنا أرى هذا الانصراف طبيعياً في شأني وشأن كثيرين غيري ممن عنوا بالنقد وتوفروا عليه منذ عشرين أو خمس وعشرين سنة مضت؛ أي في بدء حياتهم في الكتابة والأدب. وهو طبيعي إلى حد لا يجوز معه توجه اللوم إلينا. فأكثر الكتاب يبدءون حياتهم في الكتابة بالنقد

ثم ينصرفون عنه. هذا شأنهم في أوربا اليوم. وذلك كان شأنهم في غير أوربا من قبل. وهذا شأنهم لأنهم يقرءون يومئذ وهم شبان ليستزيدوا من العلم، وهم ينقدون ليمحصوا هذا العلم، وهم يفتنون في النقد ليكونوا لأنفسهم ملكة التقدير. لعلهم لا يفعلون ذلك متعمدين. لكن ذلك هو الواقع في أمرهم؛ فشأنهم في ذلك شأن الشجر، وشأن كل كائن حي أول نشأته، هو يمتص من الغذاء كل ما حصل عليه أو اتصل به، وهو يصفي هذا الغذاء ويتمثله لينمو بالبقية الصالحة منه للنمو، وهو يفرز ما ينقده ولا يسيغه؛ فإذا بلغ حد النمو قل ما يتناوله من الغذاء، ودقق في اختيار هذا الغذاء القليل الذي يتناوله، لأنه يكون في شغل عن النقد والتمحيص والإفراز بالإثمار والإنتاج، وإن استنفد بأثماره وإنتاجه قوته حتى ينتهي من ذلك إلى استنفاد حياته

فالنقد الذي يبدأ به الناشئون من الكتاب والأدباء حياتهم هو هذا التمثل للغذاء الذي يتناولونه، وهم يعرضون هذا النقد على الجمهور ليسمعوا حكم الجمهور على نقدهم، وليطمئنوا إلى أنهم أحسنوا التمثل. والجمهور يطرب لما يراه من آثارهم طربه لترعرع الناشئ وفتوة شبابه. فإذا انقضت هذه الفترة من الحياة مال الكاتب أو الأديب مع سجيته، واختار الطريق الإيجابي الذي يسلكه في إنتاجه. وقد يتفق هذا الطريق وماضي حياته الأدبية، وقد يكون اتجاهاً جديداً في هذه الحياة يحسبه بعضهم منقضاً لها

بينما هو أثر محتوم من آثارها، لم يكن لصاحبه مفر من الاتجاه فيه ما دام سليم المنطق حسن التقدير
صحيح أن من الكتاب من يجعل النقد رسالته الأدبية طيلة حياته، وقد تتصل سائر آثاره بالنقد ولو بمقدار. ولقد كان من هؤلاء في فرنسا عدد غير قليل أمثال سانت بيف وجول لمتر. لكن هؤلاء إنما جعلوا النقد رسالتهم في الأدب غير مكتفين بما يظهر من الكتب في عصرهم. وهم قد جعلوا النقد رسالتهم على أنه لون من ألوان التصوير لتاريخ الحياة الأدبية في عصرهم وفيما سبقهم من العصور. فهم في عصر النضوج أدنى إلى المؤرخين منهم إلى النقاد. وما كتبه سانت بيف عن القرن السابع عشر وعن (بور رويال) لا يطلق عليه عنوان النقد بمعنى النقد المعروف للآثار الفنية بمقدار ما هو تحليل تاريخي دقيق لصورة من صور الأدب وأسباب نشوئها، وما تأثرت به في نموها وحياتها. ولهذا السبب تختلف آثار هؤلاء النقاد في أيام النضوج عنها في أيام النمو ونشاط تمثل الحياة. نقدهم أيام
النضوج أثر كامل لحياتهم ونضوجهم. أما نقدهم حين النمو ونشاط التمثل فشأنه شأن النقد حين يتناوله غيرهم من الشبان؛ هو تناول لمواد الحياة العقلية والأدبية وهضم وتمحيص إياها، وتمثل للصالح منها، وإفراز لزيفها
وكلنا يعرف طائفة من كبار الكتاب في فرنسا وفي غير فرنسا بدءوا حياتهم بالنقد، ثم انصرفوا عنه لغيره من ألوان الأدب. ويكفي أن يذكر الإنسان أناتول فرانس وبول بورجيه وهما من أعلام أدبها القصصي في القرنين التاسع عشر والعشرين ليقدر أن الكاتب كثيراً ما ينصرف بعد فترة من حياته إلى ما يحسبه رسالته الصحيحة في الحياة بعد أن يكون قد استقى بالنقد من رحيق الحياة صنوفاً وألواناً. وهؤلاء قد حمد الناس لهم ما اختصوا بالكتابة فيه، ولم يطالبهم أحد بالعودة إلى ميدان النقد. ولو أنهم عادوا إلى هذا الميدان لعادوا مؤرخين ولم يعودوا نقادا على طريقة الشبان الناشئين.
لهبوليت تين الفيلسوف الفرنسي الكبير في القرن الماضي ثلاثة مجلدات في النقد والأدب، تناول فيها طائفة من معاصريه من الفلاسفة والكتاب تناولاً دقيقاً غاية الدقة، بديعاً غاية الإبداع. وهي مع ذلك ثمرات شبابه، فلما تقدمت به السن شغل بكتابة تاريخ فرنسا وبوضع كتب في الفلسفة والأدب ككتابه عن الذكاء، وكتابه عن تاريخ الأدب الإنجليزي. ولقد وضع كتاباً فريداً جعل عنوانه (مذكرات عن باريس) هو آية في التهكم اللاذع بحياة عصره، والنقد لطرائق أهل فرنسا في مختلف ألوان حياتهم. وكم تمنى كتاب أن لو سلك تين هذا المسلك ووضع على هذا النحو كثيرا من الكتب. لكن أحدا لم يوجه أليه اللوم لأنه آثر الفلسفة أو التاريخ، علماً من هؤلاء الكتاب بأن الفلسفة وبأن التاريخ هما جوهر الرسالة التي هيأ القدر ذهن هبوليت تين لأدائها في الحياة
ماذا بعد هذه المقدمات؟. . . نتيجتها الطبيعية أنه إذا وجب أن يوجه اللوم عن فتور النقد في هذه الآونة من حياتنا العقلية والأدبية، فإنما يوجه إلى شباب هذا العصر الذين لا يجدون من أنفسهم إقداماً على تمثل الآثار الأدبية وتمحيصها بنقدها، وإشراك الجمهور بذلك في الحياة الأدبية، وحمل الشيوخ الذين ينتجون على تحري الغاية من الاجادة؛ ثقة منهم بذوق الشباب، وحرصاً منهم على تقديم الغذاء الصالح لجمهور القراء. أما والشباب لا ينقد فمعنى هذا أنه لا يقرأ، وأنه إذا قرأ لا يمحص، وأنه إذا محص لا يثور فينقد. وقيمة الحياة
الثورة بالحياة، فهذه الثورة هي وحدها وسيلة التطور الهادئ. أما حيث لا تكون الثورة، فالركود والجمود، وهذا الذي يشكو منه الأستاذ أحمد أمين، والذي يوجه اللوم من أجله إلى رجال قطعوا مرحلة النقد إلى مرحلة غيرها لعلها خير منها ولعلها شر منها وإذا وجهنا اللوم إلى الشباب فجدير بنا أن نوجه اللوم إلى الذين يتولون تهذيب الشباب وإلى الذين يتولون تثقيفه. والساسة يتولون تهذيب الشباب والأساتذة المعلمون يتولون تثقيفه. أي هؤلاء أجدر بأن يوجه اللوم اليه؟ لقد أصبح شبابنا لا يعنى بنقد أثر أدبي لأن نقد الأثر الأدبي قد يدل على علو الكعب في العلم أو في الثقافة أو في التهذيب. ولكن ما قيمة ذلك في مصر اليوم؟!. . أهو يجر مالاً؟! أهو يجر جاهاً؟! أهو يجر احتراماً وتقديراً؟! سل الشباب عن ذلك يجيبوك إنما يجر المال شئ آخر غير العلم أو الثقافة أو التهذيب. والمال اليوم هو الذي يجر الجاه والاحترام والتقدير. ذلك رأى الشباب أو كثرته مع الشيء الكثير من الأسف. لذلك توجه الشباب إلى أقرب

الموارد إلى المال وإلى الاستكثار منه، فبعد بذلك عن العلم وعن الثقافة وعن التهذيب، وبعد بمن كان مهذباً أو مثقفاً من الشبان عن النقد الذي يريد الأستاذ أحمد أمين أن يراه فتياً قوياً ناهضاً
بعد بهؤلاء الشبان عن النقد واصطناعه، لأن النقد أول شروطه الحرية، الحرية العقلية والحرية العلمية والحرية الأدبية؛ فهو لا يعرف الصداقة، ولا يعرف الإكبار والاجلال، ولا يعرف المجاملة والمداجاة؛ وهي فضائل يجب أن يتحلى بها الشباب في كل أمر وفي كل عصر؛ ويجب أن يتحلى بها الناس جميعاً وإن وجب أن تكون في الشباب أكثر وضوحاً وظهوراً. أفتريد هذا الشاب الناشئ أن ينقد كتاباً لهيكل أو لطه حسين أو لأحمد أمين أو للعقاد أو المازني أو لغيرهم ممن شئت، وهؤلاء قد يكونون وسيلته إلى الوظيفة وإلى مال الوظيفة وجاهها وما لها في أعين الناس من احترام وتقدير؟ لذلك آثر الشباب الراحة وجرى وراء الدعة وتعلم المداجاة والرياء حتى في العلم والأدب. والراحة سم الشباب القتال. والدعة والمداجاة مرضان لا يقلان عن الراحة فتكاً بالشباب. فإذا اجتمعت هذه الأدواء فتكت بحرية الشباب وحالت بينه وبين نقد الآثار الأدبية لقعودهما به عن الأيمان بالثورة. وهذا سبب العلة وموضع الداء.
فليلتمس الأستاذ أحمد أمين شباباً حراً يؤمن بالثورة وأنا ضمين له بعودة النقد إلى نهضته
وفتوته. أما هؤلاء الشيوخ الذين يتوجه لهم بالنقد فقد رغبوا إلى لون من الأدب غير النقد. لم يبق منهم إلا صديقي وصديقه الدكتور طه حسين الحريص على أن يبقى مع الشباب حرصه على أن يكون في طليعة الشيوخ. ليلتمس الأستاذ أحمد أمين هؤلاء الشبان، فان لم يجدهم فليلق التبعة عن ركود النقد على الذين يتولون تهذيبهم والذين يتولون تثقيفهم من الساسة والمعلمين. عند ذلك تنكشف له العلة فيما أصاب النقد من ركود، وعند ذلك يكون أدنى إلى الإنصاف إذ يلقي التبعة على من يجب أن تكون عليهم التبعة.

محمد حسين هيكل

ذات الثوب الأرجواني

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

- 2 -

(ملاحظة - الكلام ليس شخصياً وكل ما فيه متخيل ولا حقيقة لذات الثوب الأرجواني)

لم يكن العزم أن أكتب هذا الفصل ولكن (الرسالة) - جزاها الله خيراً - أبت إلا أن تستزيدني فوضعت الرقم (1) تحت عنوان الفصل السابق، فصار لابد أن أكتب الثاني - أو اللاحق - وإلا عدني القراء مقصراً أو مغالطاً أو فاتراً، وأنا أقصر في الأغلب عن غاية أو دونها؛ وقد تغريني طبيعة الحياة أو مطالب الدنيا بالمغالطة، ولكنى والله لست بفاتر - والعياذ بالله! - وأنى لحريص في العادة على هدوء المظهر واتزان الأعصاب، ولكن في جوفي ناراً (أحر نار الجحيم أبردها) كما يقول المتنبي رحمه الله - وكان في عوننا - فقد كان يجيد المبالغة. وما أظن بذات الثوب الأرجواني إلا أنها تحس ناري هذه وتجد لفحها وإن كان بيني وبينها بعدان: بعد طريق وبعد منال. وإذا لم يكن هذا هكذا فسلها بالله لماذا تلبسه لي!. . . أليست تلبسه لأنها تعلم أنه حبيب إلي!. . . ومن أدرها وأنا لم أقله بلساني ولم أفض إلى أحد بسر قلبي؟. . . وما أحسب أحداً سيزعم أنها رأت في مشابه من ثيران أسبانيا فهي تخايلني لتهيجني بهذا اللون؟. . . ومما يدل على العمد في لبس هذا الثوب أنها تبدو ضاحكة مشرقة المحيا في كل ما تكتسي خلافه، فإذا ارتدت الأرجواني قطبت وزوت ما بين عينيها وتكلفت التجهم الشديد. وليس في الثوب أو لونه أو تفصيله أو حسن انسجامه على بدنها الرخص ما يدعو إلى الانقباض. وإن في كثرة لبسها له لدليلاً على الرضى عنه، ولو كانت تشعر بشيء من الضيق للبسه لما أكثرت من ارتدائه، ولكنها على عادة جنسها تفعل الشيء تبغي به رضى رجل معين ثم تذهب تغالط وتدعي غير ذلك، ومن هنا هذا العبوس التي لا تحسنه. وإني لأعرف أنها قرأت بعض كتبي فقد رأيت معها (خيوط العنكبوت) - عرفته من غلافه وما عليه من الرسم، ولكنى أظنها لم تقرأ ديواني لأنه قديم جداً ولأنه نفد من زمن طويل، ولو قرأته لو وجدت فيه هذا البيت:

لا يحسن التعبيس أبلجُ واضح ... ضحك الجمال بوجهه وأضاءا

ولكانت خليقة أن تكف بعد ذلك عن عبوس لا تتقنه؛ ولشد ما أتمنى أن أعود إلى النظم
ولكن هيهات، فما تحركني الحياة كما كانت تفعل، ولو كان شئ يردني إلى الشعر لردني هذا الثوب. . أأقول الثوب؟. يا للمغالطة. أتراني لو رأيت الثوب منشوراً في الشرفة ولم تكن هي فيه أكنت أحفله أو أباليه؟. كلام فارغ!. ويحسن بي أن أدع الثوب وأن أكف عن ذكره فما أعرف له - بمجرده - قيمة. وإنها لجميلة في الأبيض والأخضر والأزرق والبنفسجي والوردي، وفي الطويل والقصير، وفي الخفيف والكثيف، وفي المباذل والهلاهل. ولكنى أحب أن أجرب سلطاني عليها فأزعم أن الأرجواني هو الثوب الأثير عندي. ثم إن صورة المرأة في اللحظة التي تقع فيها من قلب الرجل هي التي تعلق بذهنه وتظل حاضرة ماثلة لا تبرحه ولا تني تجور على غيرها من الصور ولو كانت أبرع وأفتن. وهذا فيما أعتقد - تعليل ما أراده من استبداد هذا الثوب الأرجواني بنفسي وخواطري، فلتلبس ما شاءت غيره ولتطمئن على حسنها فلن تكون إلا جميلة ساحرة وأحسب أن اتزاني المألوف قد خدعها أول الأمر، وأن ابتسامتي التي أرسمها على وجهي - بالألوان - هي التي حيرتها فما هكذا يكون المحب الولهان والعاشق المدنف فيما تصف الكتب والروايات التي لاشك أنها قرأتها، وأين مظاهر الصبابة وآيات الوجد ودلائل الخبل الذي يورثه الحب؟ أين الدموع الغزار التي لا تفتأ تفيض بها الجفون القريحة حتى يصبح المرء في بركة من العبرات؟؟ أين السهد الطويل الذي يترك الوجه مصفراً والجسم مطحوناً مهدوداً؟؟ وأين الزفرات الحرى والشهقات العميقة التي تخرج من أخمص القدم؟. . لا يا ستي. . لست من هذا الطراز وما أراك إلا مثلي تحسنين أن تضبطي عواطفك كما يضبط المهندسون فيضان هذا النيل العظيم بالسدود والخزانات الضخمة؛ ثم إن الحب جميل لا شئ فيه يوجب الحزن والكآبة، وهو يملأ النفس حياة لا موتاً، وينضر الروح ولا يذبلها، وهو سبب عمران هذا الكون فكيف تخرب من جرائه نفس إنسان؟ وهو مبعث الوحي ومصدر الإلهام وسبب الإنتاج على العموم، فكيف يجئ بالانقباض والعقم؟. . لا يا ستي. . أقول لك مرة أخرى اضحكي. . اضحكي واتركي هذا القطوب الذي لا يوائم الجمال والصحة
ولم أر قط كمشيتها في المشي. . . فيها دبة القوي الشاعر بقوته أو المعتز بها؛ وقد تبد لي أحياناً كأنها تدب كما يدب الصبي حين يذهب عنك مغيظاً محنقاً. . ولا داعي لغضبها أو
حنقها. . . وأين هذا الداعي وهي واقفة وحدها في الشرفة تطل منها على الطريق؟ لا بد أن يكون الداعي شيئاً في رأسها أو في نفسها هو الذي يحملها على هذه اللفتة السريعة العنيفة التي لا مسوغ لها مما حولها، إذ كان لا شئ حولها إلا الهواء وإلا هالة هذا الحسن. . . وليتني أستطيع أن أنفذ إلى موضع التفكير أو الإحساس فأطلع على هذا الباعث الخفي! فليس أفتن ولا أسحر من حركات النفس فيما وراء الوعي. وأكبر الظن أنها هي لا تعرف ماذا يلفتها أحياناً على هذا النحو العنيف وإن كانت تحسب نفسها عارفة مدركة. ولو أنك قلت لها إن لفتتها هذه فيها عنف وسألتها عن علته لأنكرت ولكان الأرجح أن يسوءها منك ذلك
على أنى لا أحب أن يتوهم القارئ أن مشيتها عنيفة أو أن فيها ما يعاب - حاشا لله - وإن لها لخ طرة تجعل أهون حركة لها رقصاً. ومن النساء من تمشي بثدييها كأنما تدفعهما أمامها. ومنهن التي تتخلع وتتعوج وتتقصع - تكلفاً أو طباعاً - كأنما لا يمسكها شئ، أو التي تطول وتقصر في مشيتها والتي، تلوح بذراعيها فتزيدهما طولاً - إلى آخر ذلك إن كان له آخر - ولكن ذات الثوب الأرجواني حين تبرز لي في الشرفة صباحاً - على سبيل التحية - وهى لا تزال في منامتها، تنساب كالماء الرقراق، فليس خطوها خطواً وإنما هو تموج. وإني لأراها ماشية من هذا البعد فأذكر بيتاً لابن الرومي هو قوله في وصف صانع الرقاق:
ما بين رؤيتها في كفه كرة ... وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة ... في لجة الماء يلقى فيه بالحجر
ولا رقاق هناك ولا حجر ولا ماء تنداح فيه الدوائر، ولست أذكر البيت لأن هذا وقت الصباح أي وقت الشعور بالجوع، وإنما أذكره لأني أحس - بعيني وبقلبي معاً - أن حركة المشي تبعث في جسمها اللين اضطراباً خفيفاً كاضطراب الماء حين يصافحه

النسيم الوانى؛ ويخيل إلى أن جسمها كله - حين تخطو - تتعاقب على بشرته الرقيقة موجات في إثر موجات تطير العقل وتزدهف اللب. ولا أدري أهذا خيال أم هو الحقيقة، ولكن الذي أدريه أنه بعض ما للمرأة من سحر. فقد ترى رجلا قده أعدل من قد المرأة ولكن مشيته لا يكون فيها هذا التموج، ولا يمكن أن تحدث الحركة في جسمه - أو جلده - مثل هذا

الاختلاج الخفيف الذي هو بعض سحر المرأة. واللين من خصائص الأنوثة - والنعومة والرقة والطراوة أيضاً - وليس أقبح ولا أبعث على النفور من المرأة المسترجلة كما ليس أقبح ولا أدعى إلى الزراية من رجل تغلب عليه صفات الأنوثة، وتخطئ فيه مظاهر الرجولة ومعانيها

وفتاتي تنهض مثلي في البكرة المطلولة - أو أنا هكذا أتخيلها - خفيفة غير متثاقلة - فأنها شئ صغير دقيق يخيل إلي أن في وسعي أن أطويها وآكلها بعظامها - وتدفع باب الشرفة فأنتبه على الصوت - وتقف حاسرة الرأس متهدلة الشعر - وهل يغطى مثل هذا الشعر الذهبي؟ - عارية الذراعين، ثم تتهادى إلى الحافة وتطوي ذراعيها عليها وتدير عينها في مجالي الحياة التي طلع عليها يوم جديد. فتبارك الله خالق هذا الوجه الصابح ومرقرق كل هذه الغضارة والنضارة فيه!. وما أكثر ما وقعت على عيني عينها وأنا أحدق فيها من حيث أحسبها لا تراني! ولشد ما أشعر، حين يحدث ذلك، بفتنة هذا اللحظ، وما أصبحت على وجهها مرة إلا أحسست أن من حقي أن أستقبل يومي بصدر منشرح وقلب مستبشر مطمئن، وما رأيتها إلا كان ظهورها إيذاناً لي بالاضطرام والفورة، فيكون حسبي بعد ذلك أن أعالج نفسي حتى أردها إلى السكون وأفئ بها إلى الهدوء؛ وليس هيناً أن ترغم اليد المرتعشة على الثبات، والأعصابَ المضطربةَ على الاتزان، والعين المحملقة الزائغة على الفتور المألوف، والقلب الذي يعلو ويهبط كأنه لعبة (اليويو) على العود إلى انتظام الدق واعتدال الخفق؛ والساقين المتخاذلتين على الصلابة والتماسك، والنار التي تندلع في الأحشاء على الخمود. . كلا ليس هذا بالهين. . ولكني رضت نفسي على القدرة عليه، فلإرادتي الحكم لا لشعوري وعواطفي؛ وعسير جداً أن يبدو على وجهي شئ مما يضطرب به جناني ويجيش به صدري؛ وإن جوفي ليكون كالبركان الفائر أو البحر الهائج، وتنظر إلى وجهي وتسمع كلامي وتتأمل حركاتي وإشاراتي فلا يخالجك شك في أني أفرغ الناس قلباً وأخلاهم بالاً، ولم لا؟. . . إن ما يدور في نفسي شئ يعنيني وحدي وليس من حق غيري أن يحيط به ويطلع عليه فانه سري؛ ولا من الرجولة أن أعرضه على الناس كأني ألتمس العون أو العطف منهم. وماذا يبقى لي مما يسعني أن أقول إنه (لي وحدي) إذا كنت أبيح الناس ما في صدري وأشركهم في أمري؟. . ولست أستثقل أو أستسخف شيئاً كقول

- الشاعر - وأظنه أبا فراس

فيا حسرتا! من لي بخل موافق ... أقول بشجوي مرة ويقول

فان هذا ضعف وحماقة. والقول بالشجو يفضح ولا يجدي؛ وإذا كان في البث ترفيه، فان الانتصار على النفس أجل وأكرم وأكبر متعة أيضاً؛ والبث ثرثرة تليق بالمرأة ولا تليق بالرجل. وماذا ينفعك أن يعرف صاحبك أنك تحب أو تكره، أو أنك غاضب ساخط أو راض مغتبط؟. . . ماذا يستطيع أن يصنع لك؟. لا شئ!. وأجدى من ذلك عليك أن تعالج أنت نفسك وأن تردها على مكروهها - إذا احتاج الأمر - وأن تحتفظ باعتدال المزاج وهدوء التفكير واستقامة النظر ودقة الوزن وحسن التقدير. ومن كان لا يملك نفسه فأحر به ألا يملك غيره. والحب حرب بينك وبين المرأة، فاحرص على أن يبقى زمامك في يدك وإلا ركبت منك جواداً مسرجاً ملجماً تركضه حيث تشاء هي وحدها. وليس أطغى من المرأة إذا صار في يدها زمام الرجل.

إبراهيم عبد القادر المازني

تراثنا العربي القديم ما يجب لتنظيم إحيائه

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كان تراث العربية حتى أوائل القرن الماضي لا يزال مغموراً محجوباً في ظلمات المكتبات والمجموعات الخاصة؛ وكانت المطابع قد ظهرت في أوربا منذ أواخر القرن الخامس عشر، وطبعت في رومه بعد ذلك بنحو قرن بعض الكتب والوثائق العربية،

منها: مختصر كتاب (نزهة المشتاق) للشريف الإدريسي (سنة 1598)؛ وفي القرن السابع عشر طبعت في مدينة لندن التي ما زالت منذ أربعة قرون مركزاً هاماً لنشر الآثار العربية، عدة مراجع عربية تاريخية، منها: (تاريخ المسلمين) لابن العميد (المكين) (1625)، وكتاب (عجائب المقدور في أخبار تيمور)، لابن عربشاه (سنة 1636)، وكتاب مختصر تاريخ الدول لابن العبري (1663)، وظهرت هذه الكتب بالعربية لأول مرة مقرونة بتراجم لاتينية كانت منذ ظهورها مستقى خصباً لمؤرخي الغرب ولم يظهر في أوربا حتى أوائل القرن التاسع عشر من الكتب العربية سوى طائفة قليلة من الكتب قد لا تعدو عشرات؛ وإلى أواخر القرن الثامن عشر لم تكن مصر قد عرفت المطبعة العربية؛ وقد عرفتها لأول مرة في سنة 1798، حينما وفد نابليون على رأس حملته الفرنسية، وحمل معه مطبعة عربية كاملة استعلمت بالقاهرة لطبع البيانات والأوامر التي كانت تصدرها القيادة العليا ويصدرها الديوان الفرنسي لأهل مصر؛ وكان في مقدمة الكتب التي أصدرتها هذه المطبعة كتاب عن محاكمة سليمان الحلبي قاتل الجنرال كليبر يضم خلاصة التحقيقات والإجراءات بالعربية والتركية والفرنسية، وذلك سنة 1800

ولما بدأ محمد علي في تنفيذ برنامجه الإصلاحي لم تفته هذه الناحية الهامة من تعضيد الحركة الفكرية والثقافية، فأنشأ في سنة 1821 مطبعة بولاق الأميرية، وعني بإعدادها وتجهيزها عناية عظيمة، فكانت أول وأعظم صرح للطباعة العربية في الشرق؛ ولم تقتصر مطبعة بولاق على إخراج الجريدة الرسمية (الوقائع) التي أنشئت بعد ذلك ببضعة أعوام، وإخراج الوثائق والمنشورات الرسمية، بل أعدت منذ إنشائها لإخراج الكتب العربية، فطبعت فيها لأول عهدها عدة من الكتب التي ترجمها بعض أعضاء البعثات العلمية في مختلف العلوم والفنون التي درسوها، فكانت باكورة أعالها في نشر الكتب العربية

على أن مطبعة بولاق لم تقف عند هذا الحد المتواضع في إخراج الكتب العربية؛ وكانت المطابع العربية الأوربية، ولا سيما في ليدن وباريس، قد نشطت منذ أوائل القرن التاسع عشر لإخراج طائفة كبيرة من الآثار العربية النفيسة على يد جماعة من أعلام المستشرقين، فاتجهت الأنظار في مصر إلى العناية بهذه المهمة؛ ونشطت مطبعة بولاق إلى إحياء التراث الإسلامي بهمة فائقة؛ وعكفت طوال القرن التاسع عشر على نشر الموسوعات والآثار العربية الجليلة، وأسدت في ذلك أعظم الخدمات للآداب العربية والثقافة الإسلامية؛ ونظرة واحدة إلى ثبت الآثار الحافلة التي أصدرتها مطبعة بولاق تدل على فداحة المهمة التي اضطلعت بها، وإلى مدى التوفيق الباهر الذي حققته في إنجازها

وإلى جانب مطبعة بولاق، قامت مطابع أهلية كثيرة، ونشطت أيضاً إلى إخراج الكتب العربية؛ وقد كان ميداناً جديداً يغرى بالكسب، فأقبل الكثيرون على استثماره؛ وأخرجت هذه المطابع الأهلية، إلى جانب بولاق، مئات من الكتب والآثار العربية الضخمة في كل أنواع العلوم والفنون، وأعادت طبع كثير مما نشرته بولاق في طبعات رخيصة يسهل اقتناؤها، وساهمت بذلك مساهمة قيمة في إحياء الآداب العربية ونشرها وهذا ما نريد أن نعرض إليه في هذا المقال؛ فقد انقطعت مطبعة بولاق منذ أوائل هذا القرن عن نشر الآثار العربية القديمة، وحلت محلها في ذلك دار الكتب المصرية؛ ولكن دار الكتب تقوم في هذا السبيل بمجهود بطئ جداً، أما المطابع ودور النشر الأهلية فما زالت على نشاطها القديم في إخراج الموسوعات والآثار العربية، ومنها كثير لم ينشر من قبل؛ ومن المحقق أنها ما زالت تؤدى بذلك خدمات قيمة لإحياء الآداب العربية ولكن هذا النشاط إذا لم كان يحمد من بعض الوجوه، فانه يثير اليوم كثيراً من وجوه الاعتراض والمؤاخذة، وإذا كان قد ترك في الماضي حراً طليقاً من كل قيد؛ فإن الظروف تقضى اليوم بضبطه وتنظيمه وتوجيهه بطريقة تحقق الغاية منه

بدأ هذا النشاط في أواخر القرن الماضي، والحركة الأدبية والثقافية في مستهل نهضتها، فكان هذا النشاط في بعث الكتب العربية وإحيائها بالنشر والتداول من عوامل تعضيدها وتغذيتها، ولم يكن من المستحسن يومئذ أن يعرض هذا النشاط لشيء من القيود التي يمكن

أن تؤثر في سيره ونمائه، وذلك رغم ما كان يعتوره من اوجه النقص سواء في اختيار الكتب التي يراد نشرها، أو في الصور المزرية التي كانت تنشر بها؛ ورق اصفر رديء، وطباعة حقيرة، وأخطاء علمية ومطبعية لا حصر لها

أما ألان فقد تغيرت الظروف تغيراً واضحاً، وازدهرت الحركة الفكرية ازدهاراً عظيماً، وظفرت بمصر بطائفة كبيرة من المعاهد والمنشآت العلمية الراقية، وغصت بالشباب المتعلم، وأضحى مما لا يلائم ذوق العصر وأحواله، بل مما يضر بسير الحركة الفكرية ذاتها، أن يترك أمر نشر تراثنا العربي القديم فوضى دون ضابط ودون إشراف

فهناك موسوعات وآثار قيمة سبق نشرها في طبعات جيدة وأضحت نادرة لقدم عهدها، وهناك بدار الكتب المصرية مئات الآثار المخطوطة التي لم تنشر من قبل؛ وهذه جميعاً يقوم على نسخها ونشرها جماعة من الناشرين المحترفين العاطلين من كل مؤهلات علمية أو أدبية، والذين لا هم لهم سوى الكسب الوفير، فيخرجونها في نفس الأثواب والصور المزرية التي ألفناها منذ القرن الماضي، ويتقاضون فيها أثماناً فاحشة لا مبرر لها، منتهزين فرصة ندرتها إن كانت مما نشر، أو ظهورها لأول مرة إن كانت مما لم ينشر من قبل

وقد اتسع نطاق هذه الحركة في العهد الأخير اتساعا واضحاً؛ وألفى الناشرون المحترفون فيها سوقاً رابحة؛ فكثر تهجمهم على الآثار النفيسة مخطوطة وغير مخطوطة؛ وأخذوا ينشرونها في استهتار وجرأة، ممسوخة مشوهة، مشحونة بالأخطاء الشائنة لا يتكلفون في إخراجها سوى الطباعة الرديئة؛ ثم يبيعونها بأثمان فاحشة، كأنهم هم الذين ألفوها وأجهدوا أنفسهم في وضعها وكتابتها

ولا يخفي ما لهذا النشر المشوه لآثارنا القديمة من نتائج سيئة، فهو يخلو من كل ضمانة أو غاية علمية أو أدبية، ولا تحدوه سوى روح الكسب المجرد؛ ومن ثم كانت الصور المثيرة المزرية التي تصدر بها أجل آثارنا الأدبية، والتي كثيراً ما تصد الشباب المتعلم عن تناولها؛ وهو من جهة أخرى عامل كبير في إحجام علمائنا وأدبائنا عن المساهمة في هذا المجهود مع رغبة الكثيرين منهم في القيام على نشر بعض الآثار القديمة التي توفروا على دراستها وتحقيقها؛ ذلك لأن جهودهم العلمية الغالية، وحرصهم على نشر هذه الآثار في أثواب مقبولة لائقة، وما ينفقونه في هذا السبيل من الجهد والمال؛ كل ذلك يقعد بهم عن

مجاراة هذا النشاط التجاري المحض، العاري عن كل درس وتحقيق

ونحن نعرف ما يتكبده العلماء المستشرقون من الجهود الفادحة في إخراج آثارنا القديمة، والتوفر على دراستها وتحقيقها والتعليق عليها بدقة تثير الإعجاب، وإخراجها دائما في أثواب أنيقة محترمة

ولهذا كله نرى أن الوقت قد حان لتعنى السلطات المختصة بالعمل على مراقبة حركة إحياء الآثار العربية القديمة، وتوجيهها وتنظيمها تنظيما يتفق مع ما لتراثنا القديم من كرامة علمية، ويلائم في نفس الوقت حاجات العصر وذوقه وروحه. ويلوح لنا أن دار الكتب المصرية، وهى وريثة بولاق في الاضطلاع بإحياء الآداب العربية، هي أول سلطة أدبية يمكن أن تضطلع بمثل هذا الإشراف العلمي. ذلك أنها هي مستودع تلك الآثار الجليلة المخطوطة التي ترنو إليها أنظار الناشرين المحترفين من كل صوب، فيقبلون عليها بالنسخ المحرف، والنشر المشوه، لا يتكلفون في ذلك شيئا، ولا يصدهم قيد أو إشراف؛ وقد تكون هذه الآثار مما حصلت دار الكتب من الخارج بالتصوير، وأنفقت في سبيله كثيرا من الجهد والمال

ونحن لا نطلب أن تقوم دار الكتب بمنع النسخ والنشر؛ ولكننا نطلب إليها فقط أن تقوم بالإشراف عليها أشرافا فعلياً، وأن تضع لذلك نظاماً يكفل تحققها من وجود بعض الضمانات العلمية والمالية في الناشرين أنفسهم، فإذا لم تتوفر الضمانات العلمية - وهى غالباً غير متوفرة - اشترط أن يقوم بالإشراف على النشر شخص تتوفر فيه مثل هذه الضمانات. ويجب أن تمتد هذه الرقابة حتى صدور الكتاب، وأن يراعى صدوره في ثوب لائق، وأن يحدد ثمنه بعد صدوره بنسبة معقولة من تكاليفه؛ ويصح أن تتولى دار الكتب الإشراف العلي على الكتاب ذاته لقاء أجر معين، ويصح لها أن ترفض التصريح بالنسخ والنشر إذا لم تتوفر مثل هذه الضمانات؛ ويجب على أي حال أن يشمل هذا الإشراف كل أثر مخطوط ينشر في مصر، سواء استنسخ من دار الكتب ذاتها، أو من

أي مكتبة أخرى عامة أو خاصة، في الداخل أو الخارج، لأن الغرض هو الإشراف العلمي على حركة إحياء الآداب العربية في مصر، ويجب أن يكون هذا الإشراف كاملاً شاملاً

ويمكن من جهة أخرى أن تتعاون المعاهد العلمية مع دار الكتب في هذه المهمة، فتشترك

الجامعة المصرية والأزهر في تنظيم هذا الإشراف

هذا ولا بأس أن تفرض الحكومة ضريبة معينة على نسخ الكتب المخطوطة التي لم تنشر من قبل، وعلى نشرها إذا كان النشر لغاية تجارية؛ وتقدر هذه الضريبة بحسب حجم الكتاب أو أهميته؛ ويعفى العلماء من أدائها في جميع الأحوال؛ ويرصد دخلها لتوسيع حركة إحياء الآداب العربية التي تقوم بها دار الكتب

إن الحق في نشر آثارنا القديمة ملك للدولة، وهي الأمينة عليها؛ وإذا كان مما يرغب فيه دائما أن يشجع الإقدام على نشر هذه الآثار، فان مما يرغب فيه أيضاً ألا يكون هذا النشر بضاعة مبتذلة يستثمرها الجهلاء لغايات تجارة محضة، وألا يحاط بكل الضمانات المعقولة التي تكفل تحقيقه على الوجه اللائق المرضى

هذه ملاحظات واعتبارات حان الوقت لبحثها، وقد أصبح من واجب السلطات المختصة أن تنشط لحماية تراثنا الأدبي من تلك الفوضى المثيرة، وأن تعمل لصونه من ذلك الابتذال الشائن، وأن تقوم أخيراً على تنظيم نشره، وتوجيهه بطرق موقرة مستنيرة

محمد عبد الله عنان

من مسرات الحياة

للأستاذ عبد الرحمن شكري

قال ابن خفاجة الأندلسي الشاعر:

وشأن مثلي أن يُرَى خالياً ... بنفسه يبحث عن نفسه

وكنت كلما قرأت هذا البيت أعجب كيف لم ينظم قائله شعراً كثيراً في بحث ميول النفس وأحاسيسها وتعليلها وتحليلها، وقد ذكر في بيته هذا أن من شأنه أن يخلو بنفسه يبحث عن نفسه. ومن كان هذا شأنه فَحَص النفس الإنسانية على اختلاف تربتها، وهذا عمل العمر وأكثر من العمر؛ وهو أيضاً لذة متجددة، وإن أدى البحث إلى ما يؤدي إليه بحث قاع الجب أو قاع البحر وما فيه من در ولؤلؤ ومرجان وغابات بحرية وأعشاب وأحياء تقتتل ويفنى بعضها في بعض ووحوش بحرية غريبة مجهولة، وجيف ورمم، وكنوز ثمينة في بقايا السفن الغائرة؛ فهكذا قاع النفس أيضاً لدى من يسبر غورها ويغوص في أعماقها. وسطح النفس أيضاً مثل سطح البحر، لج وخرير، وشمس تتلألأ أشعتها، ونسيم عليل، ومنظر بهيج هادئ، أو عواصف وأعاصير، ومرأى رائع جليل.

وإذا كانت بعض مظاهر النفس تبعث الرهبة، فان بعض بواطنها أدعى إلى الرهبة، ولكن من الرهبة ما يستصحب المسرة، كالرهبة التي يحسها المرء وهو يستطلع الأمر الغريب الرائع المخوف المجهول؛ ومن أجل ما تستصحب من المسرة نشأ حب الاستطلاع لما يستدعي المخاطرة من مستطلعه

ولعل ابن خفاجة في بحثه النفس كان ينظر إليها نظرة المستريح في ظل الشجرة يفكر فيما حوله وكأنه لا يفكر، فان في مثل حالة هذا المستريح تفكيراً كلا تفكير، وبحثاً كلا بحث، فهو تفكير يقنع فيه المرفه نفسه بالنظر إلى المرئيات وألوانها وأجزائها من غير أن يعني نفسه بالبحث عن سرها خشية أن تضيع لذة الراحة والدعة؛ فشأنه شأن المسحور لا حراك له، وفكره أيضاً لا حراك له، ويخيل إليه في مثل هذه الحال كأن الدهر قد أوقف دورته واستراح، وكأنما يخشى أن يفك عنه الحراك سحر التأمل ولذته المطلقة التي لا تتقيد بتقصي الأسرار والمسببات، ولا هي مثل لذة المخاطر الذي يرى في مشقة استطلاع الغريب المخوف مسرة كما أوضحنا

على أن من الميسور أن ندرك ابن خفاجة في حالة أخرى من حالات بحث النفس، وهى الحالة التي يغوص المفكر على العويص الغائر من أسرارها، ويحس لذة في غوصه تملأ جوانب نفسه حتى تشغله عن لذة التعبير عما يراه في بحثه تعبيراً فنياً، فأني لا أحسب ابن خفاجة رأى أن تتبع حركات النفس وخطراتها وأحاسيسها في شعره غير لائق بشعره إذ أي شئ ألصق بالقريض من النفس وأحوالها وميولها وخطراتها، فالشعر هو لغة النفس وموسيقاها، ومقر كنوزها وحكمتها وأسرارها

ولكن للبحث في النفس مسرات مختلفة، قد تفترق وقد يتصل بعضها وينال في وقت واحد، فمسرة فيما يجلبه التعبير الفني عن أحاسيس النفس من ارتياح الفنان الصانع في صنعه، ومسرة أخرى فيما تجلبه مشاهدة أطوار النفس والتأمل في أحوالها من الارتياح كارتياح مشاهد القصة التمثيلية في تتبع روعة فن القصة كما يبرزه الممثل وهذا الارتياح غير ارتياح المسحور المأخوذ بما يره من المنظر الطبيعي أو الصورة الفنية النادرة، وارتياح المسحور هذا هو أيضاً مسرة أخرى في التأمل في النفس البشرية

ولكل مسرة من هذه المسرات الثلاث قيمة في الحياة، وكل منها تعين المرء على تحمل متاعب الحياة وآلامها، بل إنها لتعين اليائس بما فيها من لذة فن البحث والتقصي على تحمل ما يحس من يأس من النفس البشرية إذا لم يستطع غير اليأس منها. وكل إنسان له نصيب من هذه المسرات الثلاث، فكل فنان، وكل إنسان يعبر عما يراه في أعماق النفس تعبيراً فنياً، إما في ثنايا ما يسلي به نفسه في خلوته من الأغاني والأناشيد، وإما فيما يفوه به من الأمثال العامية أو غير العامية، وإما في آهاته وأناته وأمانيه، وإما في ثنايا قصصه ونكاته وفكاهاته، وفي مجالسه ومباذله، وفيما يقول في سخطه وحزنه وسروره، أو في نثره وشعره إن كان ناثراً أو شاعراً، أو في أدوات الفنون الأخرى من نحت أو تصوير أو موسيقى

وكما أن كل إنسان ينال نصيباً من لذة الفنان المعبر عن النفس تعبيراً فنياً، فكل إنسان ينال أيضاً نصيباً من مسرة المشاهد لقصة الحياة والنفس التي تمثل أمامه، وكل نفس تحاول أن تحول كل ما يمر بها من الحوادث إلى قصة وفن وإن لم يفطن أكثر الناس إلى هذه المحاولة في أنفسهم. وكلما اضطر الإنسان إلى الخروج عن نشوة المتأمل المشاهد لفن

قصة الحياة والنزول إلى ميدان الألم الممض والأحزان، أدى واجبه من ألم الحياة وأحزانها مما لا مفر منه، ورجع بأسرع ما يستطيع إلى موقف المعبر عن الحياة والنفس، أو إلى موقف المشاهد لقصتها، حتى إنه ليحول أو يحاول أن يحول آلامه وأحزانه إلى قصة وفن وأن لم يشعر بتلك المحاولة من نفسه، لأنها في كثير من الأحوال محاولة طبيعية لا تعتمد فيها ولا تصنع، وإن كانت أحياناً تستلزم عملاً ظاهراً يلفت المرء إلى مجراها من نفسه كما يكون شأنها عند الفنانين

وإذا لم يستطع المرء أن يسرع في التنقل من موقف المؤدي واجبه المفروض من آلام الحياة وأحزانها إلى مواقفه الأخرى التي ذكرت حاول أن يجمع بين الأمرين في وقت واحد بأن يقف من آلامه التي يعانيها موقف الممثل من آلام الشخص الذي يمثله في القصة، فيجمع وقتئذ في نفسه نفسين، كما يجمع الممثل بين نفسه ونفس من يمثل، سواء أكان هامليت أو الملك لير أو عطيل الخ

وترى المرء وهو في هذه الحال وفي دموع حزنه معنى آخر مع ما فيها من الحزن والأم

وإذا لم تستطع النفس أن تقف موقف الممثل من آلامها وشجونها التجأت إلى موقف المسحور المأخوذ بصور الحياة ومناظر النفس سواء أكانت بهجة أو غير بهجة، وُقل إنها تسحر بها في بعض الحالات كما تسحر بمناظر الجلال والروعة من مناظر الطبيعة الهائلة. وهذا أيضاً تحول من النفس والتجاء طبيعي لا تعمد فيه فهو قلما يحس، وكلما كان نصيب المرء أوفر من ملكات التحول والالتجاء، أو قل التهرب والنجاة من حوادث الحياة، كانت سيطرته على آلام الحياة أعظم، لأن هذا التحول إنما هو وسيلة من وسائل مكافحة آلام الحياة لا يحتاج المرء إليها إلا بعد الوسائل الأخرى

ومن المشاهد أن النفوس عند وقوفها موقف الممثل من آلامها وحوادث أيامها تختلف في منحاها، فنفوس يكون موقفها أشبه بموقف ممثل الجد، ونفوس موقفها أشبه بموقف ممثل الهزل، والأولى قلما يفطن الناس إلى موقفها التمثيلي، والثانية قد يفطن الناس إلى موقفها التمثيلي لبعد ما بين حقيقة حالها وهزلها. ولعل فطنة الناس إلى موقفها التمثيلي تكون في الحالتين بمقدار قلة إتقانها لدورها أكثر مما يكون لميل موقفها إلى الجد أو الهزل؛ والمرء في هذا الموقف النفساني التمثيلي هو باحث متفهم لدوره دارس له كنا يتفهم الممثل دوره و

يدرسه حتى ولو كان ممن يجيدون التمثيل بالسليقة من غير طول عناء في التفهم والدرس؛ ومسرته إذن متصلة بمسرات البحث في النفس والحياة
ولعل قائلاً يقول إن بحث النفس بحث معاد مملول يجلب السأم، وإن النفس كالتاريخ الذي يعيد نفسه؛ لكن النفس إذا أعادت تاريخاً من تواريخها لم تعده بالنص، وقد يأتي التاريخ مع الأسباب والمسببات القديمة بحوادث جديدة تستدعى التأمل وربط المسببات بالأسباب، وهذا ليس بالأمر الهين ولا هو بالأمر المعاد المملول، ثم إن تحت ما هو معاد مملول من أطوار النفس وأسبابها أسباباً أخرى لا يصل إليها التقصي، وأعماقاً يعجز الغائص عن سبر غورها وفيها مجال واسع لحب الاستطلاع الغريب حتى يأتي الموت فيسدل ستاره على لعب الحياة القدس إلا إذا مل المرء البحث من اليأس والعجز عن بلوغ غور النفس لا من العرفان
والإنسان في رحلة الحياة كالمسافر الجواب للأقطار؛ وترى بين ذوي الأسفار من يتعجب من كل أمر، ومن يضحك من كل شيء؛ ومنهم من يتأفف من كل أمر، ومن يسخر من كل شيء؛ ومنهم من يتحمل أشد مشقة من شغفه باستطلاع الغريب أثناء أسفاره. والناس أيضاً في رحلة الحياة الدنيا يختلفون في أهوائهم؛ ومنهم من يتحمل أيضاً أشد مشقة وأمض ألم من شغفه باستطلاع الغريب مما تأتي به الأيام والليالي أو ما يراه في بحث النفوس البشرية. ومن ذوى الأسفار في أقطار الأرض من يحكم على قوم بحالة واحدة رآها في احدهم، شأنه شأن الإنسان في رحلة الحياة الدنيا يحكم على النفوس بحالة واحدة يحولها إلى قاعدة ونظرية عامة. وذوو الأسفار في الأقطار كالإنسان في رحلة الحياة قد يتعجب ويستغرب الطبيعي المألوف من عادات الناس أو أحوال نفوسهم وأخلاقهم لأن الإنسان ذو خيال يتوقع به أن يرى الناس على ما يود من أخلاقهم وعاداتهم وعلى ما يسره ويرضيه وينفعه منها، فإذا اطلع على المألوف مما لا يود منها فاجأه مفاجأة غير المألوف، وهذا من أثر أنانيته التي تغالط نفسه مغالطات مختلفة، فمرة تغالطه حتى يتوقع من أخلاق الناس الحسن النافع له، ومرة تغالطه حتى يتوقع السيئ الذي يتباهى بالخلو منه، وقد لا يكون ذلك الحسن ولا ذلك السيئ من خصال أو عادات الذين ينعتهم، ولكنه يرجو النفع لنفسه في الحالين ،إما بتوقع الحسن منهم كي يستفيد، وإما بتوقع السيئ كي يعلو بمنزلة نفسه عنهم فليس كل بحث في النفس مصيباً، فالناس في بحث النفوس كالعميان في القصة وقد تلمسوا الفيل من نواح وأطراف مختلفة، فقال أحدهم وقد لمس ساقه إن الفيل كالدعامة المستديرة؛ وقال آخر وقد لمس سنه إنه كالعصا الغليظة؛ وقال ثالث وقد لمس أذنه إنه كالمروحة؛ وأدى بهم الغيظ والغضب لما حسبوه حقاً إلى التقاتل كما يتقاتل الناس غضباً لما يحسبونه حقاً في الحياة. ولعل لذة المفاجأة المتجددة والتي تنفي الملل عن الإنسان تعوضه من ألم الحسرة، على أن الحياة والنفوس لا تأتى له بكل ما يرتضى ويشاء

عبد الرحمن شكري

أعلام الإسلام

سَعيد بنُ المسَيّب

بقلم السيد ناجي الطنطاوي

اسمه ونسبه ومولده

هو أبو محمد، سعيد بن المسيّب بن حزْن أبى وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤيّ بن غالب القرشيّ المخزوميّ التابعيّ المدنيّ
وأبوه المسيّب وجده حزْن صحابيان أسلما يوم فتح مكة. والمسيّب بفتح الياء وكسرها، والفتح هو المشهور، ومذهب أهل المدينة الكسر. وقد روى عنه أنه كان يقول بكسرها ويقول: سيّب الله من يسيّب أبي
وأمه أم سعيد بنت حكيم بن أمية بن حارثة بن الأوقص السُّلمي. وحدث سعيد بن المسيب أن جده حزناً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ما أسمك؟ قال: أنا حزن، قال: بل أنت سهل. قال: يا رسول الله؛ اسم سماني به أبواي فعرفت به في الناس. قال: فسكت عنه النبي عليه السلام. وكان سعيد بن المسيّب يقول: مازلنا نعرف الحزونة فينا أهل البيت

أما تاريخ ولادته فقد اختلف فيه المؤرخون، وتنحصر رواياتهم بين سنة 13 هجرية (بعد استخلاف عمر بن الخطاب بسنتين) وسنة 21 هجرية (قبل موت عمر بسنتين)، والمرجح أنه ولد لسنتين مضتا من خلافة عمر، أي سنة 13 هجرية لأن أكثر الروايات تؤيدها ويؤيدها قوله: ولدت لسنتين مضتا من خلافة عمر بن الخطاب.

واختلف المؤرخون أيضاً في إدراكه عمر، فقد روى ابن سعد عن سعيد أنه قال: سمعت من عمر كلمة ما أبقى أحد حي سمعها غيري: كان عمر حين رأى الكعبة قال: اللهم أنت السلام ومنك السلام.

وعنه أيضاً أنه قال: سمعت عمر بن الخطاب على هذا المنبر يقول: عسى أن يكون بعدى أقوام يكذبون بالرجم. يقولون لا نجده في كتاب الله، لولا أن أزيد في كتاب الله ما ليس فيه، لكتبت أنه حق، قد رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجم أبو بكر ورَجمت. أما بكْير بن الأشج فيروي أن سعيد بن المسيّب سئل هل أدركت عمر فقال؟ لا.

ويقول الإمام مالك: لم يدرك عمر، ولكن لما كبر أكب على المسألة عن شأنه وأمره. ويقول ابن معين: رأى سعيد عمر وكان صغيراً ابن ثماني سنين، وهل يحفظ ابن ثماني سنين شيئاً؟

شيوخه وتلاميذه

أخذ سعيد بن المسيّب علمه عن أبى هريرة - وكان زوج ابنته - وجل روايته المسندة عنه. وسمع من عمر وعثمان وعلى. وسمع من أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم: عائشة وأم سلمة. وكان يقال: ابن المسيّب رواية عمر، قال الليث: لأنه كان أحفظ الناس لأحكامه وأقضيته، وروي عن أبى ذر، وجبير بن مطعم، وحكيم بن حزام، ومعاوية، وسعد بن وقاص، وخولة بنت حكيم، وغيرهم.

وروى عنه جماعة من أعلام التابعين منهم عمر بن عبد العزيز ومحمد بن شهاب الزهري، وعمرو بن دينار، وقتادة، وابنه محمد، وأبو الزناد، وعطاء بن أبى رباح، ومحمد الباقر، ويحي بن سعيد الأنصاري، وغيرهم كثير.

علمه وأقوال العلماء فيه

قال سعيد: ما بقى أحد أعلم بكل قضاء قضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبو بكر ولا عمر مني. (قال الراوي إبراهيم ابن سعد عن أبيه) وأحسبه قال وعثمان ومعاوية.

وقال يزيد بن مالك: كنت عند سعيد فحدثني بحديث فقلت له: من حدثك بهذا؟ فقال يا أخا أهل الشام خذ ولا تسأل فأنا لا نأخذ إلا عن الثقات.

وقال مالك: بلغني أن سعيد بن المسيّب قال: إن كنت لأسير الأيام والليالي في طلب الحديث الواحد

وقال قدامة بن موسى الجمحي: كان سعيد بن المسيّب يفتي وأصحاب رسول الله صلى الله عليه أحياء

وقالوا: كان سعيد جامعاً، ثقة، كثير الحديث، ثبتاً، فقيهاً، مفتياً، مأموناً، ورعاً، عالياً، رفيعاً

وقال محمد بن يحيى بن حبّان: كان رأس من بالمدينة في دهره، المقدّم عليهم في الفتوى سعيد بن المسيّب، وكان يقال: هو فقيه الفقهاء

وقال مكحول: سعيد بن المسيّب عالم العلماء. وقال أيضاً:

ما حدثتكم به فهو عن سعيد بن المسيّب والشّعبي

وعن ابن أبي الحويرث أنه شهد محمد بن جبير يستفتي سعيد ابن المسيّب

وقال علىّ بن الحسين: سعيد بن المسيّب أعلم الناس بما تقدّمه من الآثار وأثقفهم في زمانه

وقال ميمون بن مهران: أتيت المدينة فسألت عن أفقه أهلها فدفعت إلى سعيد بن المسيّب فسألته

وقال شهاب بن عنّاد: حججت، فأتينا المدينة فسألنا عن أعلم أهلها، فقالوا سعيد بن المسيّب

وكان عبد الله بن عمر إذا سئل عن الشيء يشكل عليه قال: سلوا سعيد بن المسيّب فانه قد جالس الصالحين

وقال يحيى بن سعيد: أدركت الناس يهابون الكتب، ولو كنا نكتب يومئذ لكتبنا من علم سعيد ورأيه شيئاً كثيراً
وقال قتادة: ما رأيت أعلم بالحلال والحرام منه، وقال أبو حاتم: هو أثبت التابعين في أبى هريرة
وقال الزهري: العلماء أربعة: ابن المسيّب بالمدينة، والشعبي بالكوفة، والحسن البصري بالبصرة، ومكحول بالشام
وقال القاسم بن محمد: هو سيدنا وأعلمنا، وقال ابن عمر: هو والله أحد التقنين، وقال ابن شهاب: قال لي عبد الله بن ثعلبة ابن أبى صعيران: كنت تريد هذا، يعنى الفقه، فعليك بهذا الشيخ سعيد بن المسيّب
وقال مكحول: طفت الأرض كلها في طلب العلم، فما لقيت أعلم منه. وقال سليمان بن موسى: كان أفقه التابعين
وقال يحيى بن معين: مرسلات بن المسيّب أحب إليّ من مرسلات الحسن
وقال أبو طالب: قلت لأحمد بن حنبل: سعيد بن المسيّب؟ فقال: ومن مثل سعيد؟ ثقة من أهل الخير. فقلت له: سعيد عن عمر حجة؟ قال: هو عندنا حجة، قد رأى عمر وسمع منه، وإذا لم يقبل سعيد عن عمر، فمن يقبل؟
وقال أحمد: مرسلات سعيد صحاح، لا نرى أصح من مرسلاته. وقال ابن المديني: لا أعلم
في التابعين أوسع علماً من سعيد ابن المسيّب
قال: وإذا قال سعيد مضت السنة فحسبك به، قال هو عندي أجل التابعين
وقال الشافعي: إرسال بن المسيّب عندنا حسن
وقال مالك: بلغني أن عبد الله بن عمر، كان يرسل إلى ابن المسيّب، يسأله عن بعض شأن عمر وأمره
وقال قتادة: كان الحسن إذا أشكل عليه شئ كتب إلى سعيد بن المسيّب
وقال العجلي: كان رجلاً صالحاً فقيهاً
وقال أبو زرعة: مدني قرشي ثقة إمام
وقال ابن حبان في الثقات: كان من سادات التابعين فقهاً وديناً وورعاً وعبادة وفضلاً، وكان أفقه أهل الحجاز
وقال الجاحظ: كان أبو بكر رضى الله عنه أنسب هذه الأمة، ثم عمر، ثم جبير بن مطعم، ثم سعيد بن المسيّب، ثم محمد بن سعيد ابن المسيّب.
منزلة عند الخلفاء والولاة
قال مالك بن أنس: كان عمر بن عبد العزيز لا يقضى بقضاء حتى يسأل سعيد بن المسيب، فأرسل إليه أنساناً يسأله، فدعاه فجاء، فقال عمر: أخطأ الرسول، إنما أرسلناه يسألك في مجلسك وقال أيضاً: كان عمر بن عبد العزيز يقول: ما كان بالمدينة عالم إلا يأتيني بعلمه. وأوتي بما عند سعيد بن المسيّب.
تعبيره الرؤيا
قال محمد بن عمر: كان سعيد بن المسيّب من أعبر الناس للرؤيا، وكان أخذ ذلك عن أسماء بنت أبى بكر، وأخذت أسماء عن أبيها
وقال عمر بن حبيب بن قليع: كنت جالساً عند سعيد بن المسيّب يوماً، وقد ضاقت عليّ الأشياء ورهقني دين، فجلست إلى ابن المسيّب ما أدري أين أذهب، فجاءه رجل فقال: يا أبا محمد إني رأيت رؤيا. قال مل هي؟ قال: رأيت كأني أخذت عبد الملك بن مروان، فأضجعته إلى الأرض، ثم بطحته فأوتدت في ظهره أربعة أوتاد. قال: ما أنت رأيتها. قال:
بلى أنا رأيتها. قال: لا أخبرك أو تخبرني. قال: ابن الزبير رآها وهو بعثني إليك. قال: لئن صدقت رؤياه قتله عبد الملك بن مروان، وخرج من صلب عبد الملك أربعة كلهم يكون خليفة. قال: فدخلت إلى عبد الملك بن مروان بالشام فأخبرته بذلك عن سعيد بن المسيّب فسرّه، وسألني عن سعيد وعن حاله فأخبرته، وأمر لي بقضاء ديني وأصبت منه خيراً
وقال رجل: رأيت كأنّ عبد الملك بن مروان يبول في قبلة مسجد النبي أربع مرار، فذكرت ذلك لسعيد بن المسيّب، فقال: إن صدقت رؤياك قام من صلبه أربعة خلفاء.

وقال شريك بن أبى نمر: قلت لابن المسيّب رأيت في النوم كأن أسناني سقطت في يدي ثم دفنتها. فقال ابن المسيّب: إن صدقت رؤياك، دفنت أسنانك من أهل بيتك.
وقال رجل لابن المسيّب: إنني أبول في يدي. فقال اتق الله، فان تحتك ذات محرم، فنظر فإذا امرأة بينها وبينه رضاع وجاءه آخر فقال: يا أبا محمد إني أرى كأني أبول في أصل زيتونه. قال: انظر من تحتك، تحتك ذات محرم، فنظر فإذا امرأة لا يحل له نكاحها.
وقال له رجل: إني رأيت حمامة وقعت على المنارة، منارة المسجد، فقال: اذبح اذبح. فقال: ذبحت. قال: مات ابن أمّ صلاء، فما برح حتى جاءه الخبر أنه مات.
وقال رجل من فهْم لابن المسيّب إنه يرى في النوم كأنه يخوض النار، فقال: إن صدقت رؤياك لا تموت حتى تركب البحر، وتموت قتلاً. فركب البحر فأشفى على الهلكة، وقتل يوم قُدَ يد بالسيف.
وقال الحصين بن عبيد الله بن نوفل: طلبت الولد فلم يولد لي، فقلت لابن المسيّب: إني أرى أنه طرح في حجري بيض. فقال ابن المسيّب: الدجاج اعجمى، فاطلب سبباً إلى العجم. قال: فتسرّيت فولد لي، وكان لا يولد لي.
وكان سعيد بن المسيّب يقول للرجل إذا رأى الرؤيا وقصها عليه: خيراً رأيت. وقال ابن المسيّب: التمر في النوم رزق على كل حال، والرطب في زمانه رزق.
وقال أيضاً: آخر الرؤيا أربعون سنة، يعنى في تأويلها
وقال أيضاً: الكبل في النوم ثبات في الدين.
وقال له رجل: يا أبا محمد، إني رأيت كأني جالس في الظلّ فقمت إلى الشمس. فقال ابن المسيّب: والله لئن صدقت رؤياك لتخرجنّ من الإسلام. فقال: يا أبا محمد، إني أرني
أخرجت حتى أدخلت الشمس فخسلت، فقال: تكره على الكفر. قال: فخرج في زمان عبد الملك بن مروان فأسر فأكره على الكفر، ثم قدم المدينة، وكان يخبر بهذا
(يتبع)
ناجي الطنطاوي
ضوء جديد على ناحية من الأدب العربي
اشتغال العرب بالأدب المقارن أو ما يدعوه الفرجنة
في كتاب تلخيص كتاب أرسطو في الشعر
لفيلسوف العرب أبى الوليد بن رشد
(تابع المنشور في العدد الماضي)
تلخيص وتحليل
للأستاذ خليل هنداوي
ومنه قول المتنبي:
عدوك مذموم بكل لسان ... ولو كان من أعدائك القمران
لو الفلك الدوار أبغضتَ سيرَه ... لعوّقه شيء عن الدوران
وهذا كثير موجود في أشعار العرب، ولا نجد في الكتاب العزيز منه شيئاً، إذ كان يتنزل من هذا الجنس من القول، أعني الشعر، منزلة الكلام السوفسطائي من البرهان؛
ولكن قد يوجد للمطبوع من الشعراء منه شيء محمود كقول المتنبي:
وأنى اهتدى هذا الرسولُ بأرضه ... وما سكنت مذ مر فيها القساطل
ومن أي ماء كان يسقي جياده؟ ... ولم تصف من مزج الدماء المناهل
وقوله:
لبسن الوشى لا مُتَجملات ... ولكن كي يصن به الجمالا
وضفَّرن الغدائر لا لحسن=ولكن خفن في الشعر الضلالا
وههنا موضع آخر مشهور من مواضع المحاكاة يستعمله العرب وهو إقامة الجمادات مقام الناطقين في مخاطبتهم ومراجعتهم إذا كانت فيها أحوال تدل على النطق، كقول الشاعر:
وأجهشت للتوباد لما رأيتهُ ... وكبر للرحمن حين رآني
فقلت له: أين الذين عهدتهم ... حواليك في أمن وخفض زمان
فقال: مضوا واستودعوني بلادهم ... ومن ذا الذي يبقى على الحدثان

ومن هذا الباب مخاطبتهم الديار والأطلال ومجاوبتها لهم كقول ذي الرمة:
وأسقيه حتى كاد مما أبثه ... تكلمني أحجاره وملاعبه
وقول عنترة
أعياك رسم الدار لم يتكلم ... حتى تكلم كالأصم الأعجم
يا دار عبلة بالجواء تكلمي ... وعمي صباحا دار عبلة واسلمي
وذكر أرسطو أن هوميروس كان يعتمد هذا النوع كثيراً
وإجادة القصص الشعري والبلوغ فيه إلى غاية التمام أن يكون متى بلغ الشاعر من وصف الشيء أو القضية الواقعة التي يصفها مبلغاً يرى السامعين له كأنه محسوس ومنظور إليه وهو كثير في شعر الفحول، لكن إنما يوجد هذا النحو من التخييل للعرب إما في أفعال غير عفيفة، وإما فيما القصد منه مطابقة التخييل فقط. مثال الأول قول أمرىء القيس:
سموت إليها بعد ما نام أهلها ... سمو حباب الماء حالاً على حال
فقالت: سباك الله إنك فاضحي ... ألست ترى السمار والناس أحوالي
فقلت: يمين الله أبرح قاعداً ... ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي
ومثال الثاني قول ذي الرمة يصف النار:
وسقط كعين الديك عاودت صحبتي ... أباها، وهيأنا لموقعها وكرا
فقلت لها ارفعها إليك وأحيها ... بروحك واقتته لها قته قدرا
وظاهر لها من يابس الشخت واستعن ... عليها الصبا واجعل يديك لها سترا
والمتنبي أفضل من يوجد له هذا الصنف من التخييل، ولذلك يحكى عنه أنه كان لا يريد أن يصف الوقائع التي لم يشهدها مع سيف الدولة، على أن تعديد كل مواضع المحاكاة مما يطول، وإنما أشار أرسطو بذلك إلى كثرتها واختلاف الأمم فيها.
نقد المحاكاة
أراد بهذا الباب أن يبدي المعايب التي يجب على الأديب أن يجتنبها لأنها من عيوب الإنشاء. واستشهد على ذلك بهوميروس فقد كان يعمل صدراً يسيراً ثم يتخلص إلى ما يريد محاكاته من غير أن يأتي في ذلك بشيء لم يُعتد لكن ما قد اعتيد، فأن غير المُعتاد مُنكر. ولعله دل بذلك على مظهر من مظاهر البساطة التي يزداد بها الكلام روعة وتسلسلاً. فكلما
كان الكلام بسيطاً ممتنعاً كان أذهب في البلاغة وأبعد في الروعة. ولعل ابن رشد أراد أن يجد مغمزاً في الشعراء الذين يحيدون عن غرضهم الموصوف إلى أغراض مختلفة ليست من الموضوع في شيء كالنسيب والغزل المتكلف البالي، وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً. ثم يرى أن يكون التركيب على المشهور عندهم سهلاً عند النطق، وهو عند العرب الفصاحة. وأما أنواع المحاكاة غير المقبولة فعد أشهرها:
منها أن يحاكى بغير ممكن بل ممتنع، وهو الذهاب في أغراب الصورة حتى لا تطابق الواقع وغير الواقع، كقول ابن المعتز يصف القمر في تنقصه:
أنظر إليه كزورق من فضة ... قد أثقلته حمولة من عنبر
وإن هذا لممتع.
ومنها تحريف المحاكاة عن موضعها كما يعرض للمصور أن يزيد في الصورة عضواً ليس فيها، أو يصوره في غير مكانه؛ وقريب منه قول بعض المحدثين يصف الفرس:
وعلى أذنيه أذن ثالث من سنان السمهري الأزرق ومنها محاكاة الناطقين بأشياء غير ناطقة، وذلك أن الصدق في هذه المحاكاة يكون قليلاً والكذب كثيراً، إلا أن يشبه من الناطق صفة مشتركة للناطق وغير الناطق كتشبيه العرب النساء بالظباء وببقر الوحش
ومنها أن يشبه الشيء بشبيه ضده أو بضد نفسه، كقول العرب (سقيمة الجفون) في الحسنة الغاضة النظر، فان هذا ضد الصفة الحسنة، وإنما آنس بذلك العادة ومنها أن يأتي بالأسماء التي تدل على المتضادين. ومنها أن يترك الشاعر المحاكاة الشعرية، وينتقل إلى الإقناع والأقوال التصديقية، وبخاصة متى كان القول هجيناً قليل الإقناع كقول امرئ القيس يعتذر عن جبنه:
وما جبنت خيلي ولكن تذكرت ... مرابطها من بَرْبعيص ومسيرا
وقد يحسن هذا الصنف إذا كان حسن الإقناع أو صادقا كقول الآخر:

الله يعلم ما تركت قتالهم ... حتى رموا فرسي بأشقر مزبد
وعلمت أني إن أقاتل واحدا ... أُقتل، ولا ينكي عدوي مشهدي
فصددت عنهم والأحبة فيهم ... طمعاً لهم بعقاب يوم مفسد

فهذا القول إنما حسن لصدقه، لأن التغيير الذي فيه يسير، ولذلك قال القائل: يا معشر العرب لقد حسنتم كل شيء حتى الفرار وأما أمثلة المحاكاة المبنية على التوبيخات فهي غير موجودة عندنا، إذ كان شعراؤنا لم تتميز لهم هذه الأشياء ولا شعروا بها. ولا أدرى ما يريد ابن رشد بهذه التوبيخات، فان كانت الاعتذاريات فللأدب العربي طائفة منها قد تكون قليلة، ولكنها رائعة لطيفة المأخذ. وكفي باعتذاريات النابغة دليلاً؛ ومن يجحد ما للمتنبي والبحتري من لطيف الاعتذار والتوبيخ، والعتاب؟ ثم ينتقل ابن رشد إلى بحث صناعة الأشعار القصصية، ويريد بها حوادث التاريخ فيقول: إن محاكاة هذا النوع من الوجود قليل في لسان العرب (وكأنه يعترف ضمنا بوجود أنواع منه) وهوميروس هو أبرز من عندهم. ومن جيد ما في هذا المعنى للعرب قول الأسود بن يعفر:

ماذا أؤمل بعد آل محرق؟ ... تركوا منازلهم، وبعد أياد
أرض الخورنق والسدير وبارق ... والقصر ذي الشرفات من سنداد
نزلوا بأنقرة يسيل عليهم ... ماء الفرات يجيء من أطواد
جرت الرياح على محل ديارهم ... فكأنهم كانوا على ميعاد
فأرى النعيم وكل ما يُلهى به ... يوماً يصير إلى بلىً ونفاد

وقد تدل هذه الأبيات الخالية من الروح القصصية على أن ابن رشد لم يتفهم جيداً ما أراد أرسطو بصناعة الأشعار القصصية. ذلك لأنه لم يتأت له أن يقف على هذه الصناعة ويعرف مناهجها. ولأن تكون هذه الأبيات إلى باب العبر أحق من إلحاقها بباب القصص. وما أكثر ما تتردد هذه النغمة في شعر العرب؟ وهى نغمة شاذة عن الألحان القصصية، لأن الشاعر فيها يستلهم عاطفته؛ والقصة لا يغني فيها استلهام العاطفة وحدها. وكأن ابن رشد أراد أن يستنفذ حكمه كمؤرخ فاستطرد وقال: وقد أثنى أرسطو على هوميروس. وكل ذلك خاص بهم وغير موجود مثالهُ عندنا. إما لأن ذلك الذي ذكرت غير مشترك للأكثر من الأمم، وإما لأنه عرض للعرب في هذه الأشياء أمر خارج عن الطبع وهو أبين!

(البقية في العدد القادم)

خليل هنداوي

من الأدب الإنكليزي

- برسي شلي - 2

بقلم خليل جمعة الطوال

كان بروميتس هذا - كما تحدثنا عنه الأساطير الإغريقية - شخصاً سولت له نفسه الشريرة أن يسرق من السماء قليلاً من النار، ولما استجاب للتجربة وارتكب جريمة السرقة، غضب عليه إله أولمب زيوس وهو عظيم آلهة اليونان وابن الآلهة (كرونس) والآلهة فيا وشقيق نبتون. وكان من جراء غضبه عليه أن فصله عن زوجه آسيا وأمر بشد وثاقه وتقييده إلى صخرة عظيمة، حيث كانت العقبان تأتي في كل يوم وتذيقه سوء فعلته وشر صنيعه بمخالبها المحددة ومناقيرها القوية. ثم ما لبث (زيوس) أن رجع عن غضبه لأسباب عديدة، وأمر بحل وثاقه وبإرجاع آسيا إليه ثانية. وهكذا امتزجت روح المحبة في الإنسان بروح المحبة في الطبيعة، وتلخص كلاهما من الفناء الذي استحقاه بسبب جريمة بروميتس

تناول شلي هذه الأسطورة فوضعها في قالب شعري، وكان قد تناولها من قبله وليم ورودزورث، إلا أنه بينا يمتاز سبك وليم بما فيه من التحليل المنطقي وعمق الفكر الفلسفي. يمتاز شلي باتساع أفق الدائرة التي يسرح فيها خياله.

ولعل قصيدة بروميتس هذه هي خيرُ القصائد من نوعها التي تمثل لنا فكرة هدى البشرية بعد ضلالها. كانت شائعة عند اليونان وكثيراً ما ضمنها الشعراء أشعارهم، ناهيك بما فيها من الكيانات والاستعارات ومن التشابيه والمجازات التي رمى بها الشاعر من وراء ستر كثيف إلى أغراض بعيدة تجنباً لما كانت تلاقيه حرية الأفكار في العصر الفكتوري من الإرهاق والإذلال. وفي عام 1817 نظم قصيدة ثورة الإسلام

استفز فيها الشعور من ذلك السبات الذي تسرب إليها عن طريق ما مُنيت به الأفكار الثورية من الإخفاق، تلك الأفكار التي كان يُعلق عليها تحقيق مثله الأسمى، والتي كان ينظر من ورائها إلى ذلك العصر الذهبي الذي كونه له خياله. تطالع هذه القصيدة فتشعر بتيار ألفاظها السحرية، وبنبرات مقاطعها النارية، تجري في مفاصلك بشدة وعُنف؛ وما ذلك إلا لأنه قد نظمها وعواطفه تنماث في قلبه من شدة تأثر حسه وثوب خياله.

وفي عام 1815 طرق شلي باب الأساطير لا اعتقاداً منه بصحتها بل ليرفه عن نفسه من جد الدرس، وليدفع عنها سأم الحياة. ونذكر له من أمثلة هذا الشعر قصيدتين غنائيتين هما غاية في الإبداع وحسن الأداء وهما: القبرة والغيوم

ومن قصائده الغنائية الأخرى: أبولو، إلى النيل، نابولي، هيلين، الريح الغربية، الثور، المتجولون في العالم، الوقت، ثم هيلاس التي تمثل لنا يقظة اليونان وثورتهم على الأتراك واستقلالهم.

وعندما توفي صديقه كيتس عام 1821 نظم في رثائه قصيدة عامرة الأبيات، ملأها بزفرات قلبه وفلذات كبده من شدة ما ناله من الحزن لفقده، ولا يحسب من يقرأها إلا أن شلي كان صنبوراً من الدمع لا ينضب معينه على صديقه.

الدرامة

وقد حاول أن يؤلف درامة يصف فيها أحوال المجتمع ونظمه وعادات البيئة وطبقاتها، فوضع لأول مرة رواية سنسي ثم رواية ريشارد الثاني، إلا أن محاولته هذه باءت بالفشل وارتدت بالأخفاق، ولا سيما إذا قيست بأولى محاولات شكسبير ونجاحها ومع كثرة ما لشلي من الأشعار الغنائية، فلا نكاد نجد له قصيدة واحدة تجمع إلى رقة العاطفة وقوة الخيال انتظام الفكرة وابتكار المعنى. ونستطيع أن نقول خلاصة لهذا الموضوع: إن خير ما نظمه شلي ظهر في ست السنوات الأخيرة من حياته

أما القالب الذي كان يستوعب أفكاره وأخيلته ففي غاية السبك والإبداع، بل كثيراً ما يُقوم من خياله المستكره الفسل، ومن عواطفه النافرة المستعصية. ولقد شهد له بجمال الأسلوب وروعته وليم وردزورث بقوله: (كان شلي خيرنا أسلوباً وأكثرنا ملاءمة بين موسيقى اللفظ وجمال المعنى). وشعره إلى جانب ذلك لا يكتظ بالكلمات اللاتينية التي يكتظ بها شعر ملتون وغيره. هو أبعد الشعراء عن الأساليب الكلاسيكية، وعن استعمال حوشي الكلام وغريب الألفاظ ومهجور التراكيب وأكثرهم جنوحاً إلى سهولة الأداء وإلى الألفاظ الجميلة المخارج والموسيقية الجرس، يتناولها فيجعل منها مع المعنى لحناً موسيقياً بديعاً.

وقد جمع معظم أشعاره في ديوان عنوانه ظهرت الطبعة الأولى منه سنة 1819 فنفدت لسنتها لما كان لها من الرواج. ثم ظهرت طبعته الثانية عام 1821 حاوية لقصيدته الشهيرة

أَلستور، وهى ترجمة دقيقة الوصف لحياته وعواطفه التي كانت تختلج في قلبه إذ يصف فيها مقدار ما يلقاه كل شاعر حر أمام نبوغه من العقبات الكأداء التي تفل من عزيمته وتحط من شاعريته. فهي صورة جلية نتعرف منها خبايا نفسه ومنبع شاعريته.

وقد ضمن هذه الطبعة دفاعه عن الشعراء والشعر ضد مهاجمة (توماس بيكوك) أتى فيه على تعريف الشعر وتاريخه وفائدته في اجتثاث سوءات المجتمع وتشذيب النفوس وصقل الذوق، بعد أن فند آراء بيكوك بلهجة يملؤها الحماس ونبرات تصحبها الثورة.

وفي شلي يقول المؤرخ المشهور والكاتب المأثور ماكولي: (لم أر في حديث الشعراء من تقرأ أشعاره فتعلق بجملتها بشغاف قلبك إلا شلي. أما والله لقد جمع بين جزالة السلف ورقة الخلف، وتعمد الإجادة فأصاب شاكلتها وبلغ غايتها، في حين أنه قصر دونها شعراء كثيرون من أترابه.) ومهما يكن في هذه الشهادة من الغلو والإسراف، فليس لنا سبيل إلى دفعها ودحضها، ذلك لأن شلي قد توفي وهو في سن الثلاثين قبل أن تنضج مواهبه

شلي والحركة الابتداعية:

ترجع هذه الحركة في تاريخها إلى تلك البذرة التي بذرها السير فرنسيس باكون (1561 - 1626) حين أهاب في الأدباء منادياً بأن نظم الحضارة الأرستقراطية تفسد عاطفة الأدب الصالحة، وتبهم عبارة البلاغة الواضح، وأن ليس لهم إلا الخروج عليها

واقتفاء أثر الطبيعة في جميع أغراض الأدب نظماً ونثراً، بل وفي أنظمة الحياة الاجتماعية والسياسية، إذ هي وحدها منبع جميع مشاعر الأديب الحسية ومُسْتفَز ملكاته الخيالية: وإذ كان بيكون غارس بذرة هذه الحركة، فقد كان جان جاك روسو هو الذي تعهد تربتها، وترعرعت في عصره غرستها، حتى آتت أكلها على يد وليم وردزورث ورفاقه، وهم كيتس، ووسلي، وبيرون، وشيلي. وجميعهم يعنى بجمال الأسلوب قبل الفكرة، ويعتمد على الخيال أكثر من الحقيقة، ويهتم في البحث عن أصول الأشياء واستجلاء غوامضها، لا في ذاتها، بل في الطبيعة على اعتبار أنها أجزاء منها، وهم يجعلون موضوع دراستهم الرجل العادي لا الأرستقراطي، ويمارسون الأدب على أنه من وسائل إصلاح المجتمع واجتثاث سوءاته لا على أنه فنّ قائم بذاته لا علاقة له بالهيئة الاجتماعية. وعلى هذا القياس فان درجة الشاعر تعظم في نظرهم بمقدار ما يكون لأشعاره من الإصلاح ومن بليغ الأثر في توجيه دفة الهيئة نحو هذا الإصلاح وتحويل الرأي العام إلى قبوله لا بمقدار ما تثيره من الشعور وتجلبه من عوامل اللذة الروحية المجردة. ويكره شلي من الشاعر خاصة أن يلجأ إلى بحوث عالجها الشعراء من قبله، إذ لا يرى إلى ذلك من ضرورة مطلقة لا سيما والطبيعة دائمة التحول والاستمرار

(البقية في العدد القادم)

خليل جمعة الطوال

دراسات أدبية

في الأدب الإيطالي الحديث

تتمة

بقلم محمد أمين حسونة

وقد ذكر بابيني أن هذه الرواية هي قصة جيل كامل. والواقع أننا لا نلمس فيها سوى أثر الآلام التي يشكو منها جيل المثقفين من المرضى النورستانيين، الذين تتسلط عليهم الأفكار السوداء، فوقف تقدمهم الفكري دون الخلق والإبداع. وقد حاول بابيني في هذه الرواية أن يطبق أصول الفلسفة العملية (البراجماتزم)، وأن يخلط الجد بالهزل ليخرج لنا الحقائق الفاجعة، والسخريات المرة اللاذعة.

أما كتابه الذي أصدره في غضون الأعوام الأخيرة بعنوان (جوج) ففيه ينقد بقسوة الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والدينية ناقماً على الثقافات التي تقود العالم إلى الدمار والخراب ما خلا الثقافة اللاتينية. فهو يزعم أن في استطاعتها وحدها أن تنقذ العالم من الويلات التي يتردى في أعماقها.

والواقع بابيني إنما يستقى فنه من تيار سابق لتفكير بيراندللو. والفرق بينهما أن بيراندللو استطاع أن يتخلص من آثار العقل الخصب، وأن يخلع على أبطاله ظلاً من روح الفكاهة والمرح. أما بابيني فلفرط استغراقه في الفلسفة تراه يطبع رواياته بهذا الطابع الجاف الذي يباعد بينه وبين تفكير الجيل.

وفي الوقت الذي بدأ الناس يميلون إلى الروح الهادئة في الفن القصصي وإلى الشخصيات التي تمثل التضحية أو الإخلاص أو المثل الأعلى، يلجأ بابيني إلى غمر قصصه بالنظريات الفلسفية، تاركاً للقراء حرية تفسيرها في ضوء الحوادث. ولذا نلمح أن معظم أبطاله يعيشون في جو مظلم، ويقاومون أعاصير الحياة عن طريق المذاهب العقلية.

ولعل في حياة بابيني الأدبية عظة بالغة، فهو يحارب الشعراء لأنهم في نظره بلهاء كالأطفال، وقد اتخذ لنفسه منذ نشأته صفة المجادل الذي يحاول مناقشة آراء خصومه عن طريق هدم مجدهم الأدبي تمهيداً لتشييد صرحه فوق أنقاضه، لكنه لم يهدم في النهاية سوى نفسه، حتى إن فلسفته أوشكت أن تموت في أذهان القراء.

المدرسة الإقليمية

وقبل التحدث عن أثر المدرسة الإقليمية في الأدب الإيطالي الحديث يحسن بنا أن نتحدث عن خصائصها ومميزاتها، فهي تلتمس أسلوبها في فن جيوفاني فرجا وتميل بعض الشيء إلى الرواية الهادئة التي تقوم على ذكريات خاصة خالية من روح التكلف، وإلى الحياة الفطرية الساذجة، والعودة إلى أحضان الطبيعة مع إحياء الطابع القومي

الخاص في الأدب الإيطالي الحديث.
وإذا اعتبرنا أن المذاهب الأدبية في إيطاليا تقوم على الوجدانيات المبالغ فيها، والخيال الشعري، والوطنية المتأججة، أمكننا أن نوازن بين الفن الروائي القديم وبين الفن الذي ابتدعه فرجا؛ فهو يقوم على الحس والمشاهدة الملموسة مع تصوير العادات والأخلاق والحوادث التاريخية البارزة.
وربما كان فن المدرسة الإقليمية يمت بأقوى الصلات إلى اسكندر ديماس، وأسلوبها الكتابي إلى جورج صاند التي سبق أن قضت فجر شبابها في ربوع إيطاليا، وكان لجو البندقية الشعري أثر بليغ في روحها الغنائية.
لقد نشأ (فرجا) في مدينة كتانيا بجزيرة صقلية، وطوف بأنحاء إيطاليا بقصد التبشير بفنه الجديد، وتكوين جمعيات أدبية في كل من فلورنسا وميلانو. وقد ساعده على ذلك أن عصره كان يسوده الهدوء الطبيعي وفتور القلاقل السياسية. ومن السهل أن نلتمس في روايات فرجا ظل الحياة الصقلية فهي مسرح فنه ومهبط وحيه. وقد رسم لنا في بعض رواياته الفذة (كالإرادة السيئة) طغيان حكومات عهد الإقطاع على صقلية وأساليب جمعية المافيا الإجرامية التي ظلت تبسط سطوتها على الجزيرة زهاء ثمانية قرون. وكان رائده في كل ما يسرده من الوقائع الإخلاص والشعور المرهف. فرواياته من هذه الناحية ليست ذات قيمة أدبية فحسب، بل يمكن اعتبارها من الوجهة التاريخية وثائق مشرفة للحياة الاجتماعية والسياسية وللأخلاق والعادات في الريف الإيطالي.
وعلى الرغم من أن هذه الرواية لا مغزى لها، فإننا نلمح بين سطورها أثار العقلية الإيطالية الخصبة، ووصف الحروب الاستقلالية والمعارك البحرية في الادرياتيك، وأخلاق الطبقة الدنيا، ومواقف غرامية مفجعة، ونظريات أخلاقية ونفسية،
وتحليل دقيق لأفراد أسرة فقيرة تحترف صيد الأسماك، ظلت تكافح في الحياة وتقاوم الحظ السئ الذي لازمها زهاء نصف قرن لقد كان فرجا يردد العواطف الصادقة في فنه والحقائق القاسية، وليس مذهبه في الأدب سوى رد فعل لمدرسة كاردوتشي، وعلى رغم أن هذا الكاتب العظيم كان أميل إلى الصمت وإلى التحفظ في الكلام نراه متدفقاً كالسيل في رواياته حتى كتب نيفا وثلاثين رواية طويلة وعشرات الأقاصيص. وقد وصفه النقادة روبناس بقوله: (كان ينفر من الشهرة، ولكن الشهرة سعت إليه من حيث لا يدري. وكان شعاره دائماً: فني هو مجدي، وكتبي تراثي في نظر الأجيال)
ومن كتاب المدرسة الإقليمية الذين اشتهروا خارج بلادهم عن طريق ترجمة أعمالهم الأدبية إلى اللغات الحية الكاتب الروائي ماريو بوتشي. ففي مؤلفاته نجد الجو الهادئ الحزين، وبالأخص في حياة الريف. وهذه الصبغة التي تعطي رواياته طابعها الخاص تبين عبء الألم واليأس المنبعث منها. وقد حاول بوتشي في بعض رواياته (كالعبريون) أن ينجو من الجو المظلم الذي يخلع على أبطاله ظلاً من الكآبة، ولكن ما اتصف به من الركود والتأثرات النفسية والتعلق بأهداب الخيال وغرامه بتصوير القسس والفلاحين والجنود جعله بمعزل عن كتاب الجيل المعاصر. والواقع أنه ليس في فن هذا الكاتب أي أثر للعنف أو الاندفاع، إنما نحس من الأعماق أننا أمام شخصيات ابتدعها المؤلف في هدوء ودقة، كما كان أهل وطنه يصنعون الدمى الخشبية بمجهود شاق في القرون الوسطى.
وكان توتزي أقوى كتاب هذه المدرسة على الإطلاق، ولكن الموت عاجله وهو في قمة مجده. وإذا حكمنا على تراثه الفني أمكننا أن نقول إنه أخرج أعظم روايات الأدب الحديث. وفي فنه تتجلى روح البساطة والسير بأبطاله في طريقهم الطبيعي، ورسم مظاهر الانحطاط الإنساني بأسلوب مؤثر. ومن أشهر رواياته (الصلبان الثلاثة) وهى قصة ثلاثة أخوة يدرس بعضهم أخلاق بعض، وتتغلب الغريزة والأنانية والجشع على أعمالهم، وينتهون أخيرا إلى موت غير شريف، ولا يبقى من آثارهم سوى صلبان سود ثلاثة في المقبرة.
ولعل شيكونياني هو الكاتب الوحيد الذي يرتفع بفنه فوق مستوى المدرسة الإقليمية مما
يذكرنا بالمدرسة التوسكانية التي ظهرت آثارها في القرن التاسع عشر. ويخيل إليك وأنت تطالع الصور الفذة التي يرسمها في قصصه أنك تسير في شوارع فلورنسا. وتعد روايته (فيليا) من أحسن الروايات التي ظهرت بعد الحرب العظمى. فالروح الواقعية

التي رسم بها المؤلف شخصية بطلته على أنها فتاة من عامة الشعب محبة لنفسها، مجردة عن الضمير، تجر إلى الهاوية جميع الذين يلتفون حولها، من أروع حالات التصوير الإحساسي والتغلغل في أعماق النفس البشرية.

أما بور جيزي مؤلف رواية (روبي) فهو من المؤلفين الذين توفروا على دراسة النظريات النفسانية الجديدة. وفي هذه الرواية ما يعطينا صورة واضحة من فنه، فهي تحليل دقيق لنفسية رجل أناني مجرد من العواطف الإنسانية، معذب بالشكوك والأوهام، ليس في مكنته مقاومة أعاصير الحياة، فيقذف بنفسه في التيار الذي يبعده شيئاً فشيئاً عن حقيقة الحياة إلى أن تدفعه المصادفة السيئة إلى الانتحار. (فروبي) كما يرسمه المؤلف رجل لا شباب فيه ولا عاطفة؛ وهو لا يعرف الأخلاق، وغير قادر على أن يحب حتى نفسه. وعلى الرغم من تراخيه وكسله يحلم بأن يصل إلى شئ، وأن الصفتين الأساسيتين في خلقه هما ضعف الإرادة ورغبته الدائمة في تحليل عواطفه؛ وهذا التحليل هو الذي يشل روح حركته، ويفقده توازنه، ويقلب في نظره المقاييس الصحيحة للحياة؛ فمرة يحاول أن ينسى نفسه في غمار الحرب ولكن دون حماسة، ومرة يتزوج من امرأة دون أن يشعر بميل إليها؛ وهو معتقد أنه تزوج زواجاً صالحاً إنما هي المصادفة التي قادته إلى هذه المرأة وجعلته يقترن بها ثم يقتلها. ولكن الواقع أنه تركها تموت كمداً من سوء معاملته؛ وقد صور له الوهم انه قتلها مع أن الشجاعة لا تؤاتيه لقتل حشرة حقيرة.

أدب المستقبل

أسس هذه المدرسة بونتمبلي مؤلف رواية (امرأة أحلامي) وكان الغرض منها مقاومة التحليل المادي في القصة، ومناهضة أساليب المدرسة الإقليمية؛ ويمكن أن نعتبر عصرها عصر النفور من الزخرف اللفظي، وتنمية النزعة الخيالية، والتبشير بالأدب الرمزي. ويعد أمبرتوفراكيا من أدباء هذه المدرسة، وقد كانت وفاته في غضون عام 1930 ضربة أليمة في نفوس الجيل الجديد، إذ كان دائم العطف على أدباء الشباب، باذلاً جهده في تنمية الملكة الأدبية وإظهار المواهب المدفونة فيهم، وبسبب ذلك أنشأ مجلة (سوق الأدب) لنشر رسالتهم والدعوة إلى الالتفاف حول (أدب المستقبل).

ومنذ سنوات قلائل تزعم مارينتي هذه الحركة، وأخذ ينشر أفكاره في مجلته (الشعر)، وتدور دعوته حول التطلع إلى المستقبل، وقطع الروابط الوشيجة التي تربطنا بالماضي؛ فالمتاحف في نظره كدور المرضى، والافتخار بمجد الجدود وآثارهم دليل العجز منا عن مجاراتهم والتفوق عليهم. ولما كان من الصعب أن نحكم على القيمة الفنية لأدب مارينتي، فأن هذا لا يمنعنا من الجهر بأن (أسلوبه التلغرافي) وجد البيئة الصالحة التي ينمو فيها خارج ايطاليا، حيث يقبل الفرنسيون على اعتناق كل فكرة أدبية طريفة.

محمد أمين حسونة

الدكتور محمد إقبال

فلسفته

معالم الاتفاق والاختلاف بينه وبين فلاسفة الغرب

للسيد أبو النصر أحمد الحسنى الهندي

إن من نابذ الأديان العداء في العصر الحاضر هو الطبيب النمساوي الفيلسوف سيجموند فرويد صاحب المذهب الخاص في علم النفس التحليلي وقد توفي حديثاً، فهو قد رأى في حقيقة أعمال الإنسان، بل في جميع حركاته وسكناته رأياً غريباً، وهو أن أساسها العاطفة الجنسية، وأن الولد يولد وعنده تلك العاطفة، وأن جميع خواطر الإنسان وهواجسه من الطفولة إلى الشيخوخة ترجع إليها. وعلى هذا فالإنسان عند سيجموند فرويد مجسم الشهوانية وكتلة العاطفة الجنسية، ولا حقيقة عنده للأمور المعنوية الأخلاقية البحتة التي كثيراً ما طمحت إليها نفس الإنسان لتتسم فيها ذروة الشرف، ولا لنظم الروحانية المجردة عن تلك العاطفة مثل الأديان، ولا لأمثالها التي طالما تطلعت إليها روحه فلم يأل جهداً في حيازة كمالها. فهكذا جرد فرويد الإنسانية من أوصافها المميزة، وحطها من مراتبها الروحانية السنية، والدرجات الأخلاقية والمعنوية الرفيعة، إلى حضيض الحيوانية والهمجية.

قرر فرويد أن الدين عبارة عن وهم محض خُلق من المهيجات والدوافع المرفوضة في نفسية البشر، لتجد تلك المهيجات والدوافع في دائرة الدين حرية العمل غير المسدود؛ وأن العقائد والمذاهب الدينية ليست إلا نظريات الطبيعة الابتدائية التي سعى بها الإنسان لإنقاذ الحقيقة من قبحها العنصري، ولجعلها شيئاً أقرب إلى رغبة القلب من غير أن تسمح بذلك حقائق الحياة. ومبنى هذا القرار هو نظريته التي أتى بها في علم النفس التحليلي، وخلاصة تلك النظرية هي أننا حينما نقوّم بيئتنا ونرتب ما حولنا نتعرض للمهيجات والدوافع المختلفة الكثيرة فنرد عليها. وعملية هذا الرد إذا تكررت كثيراً تتحول إلى العادة فتصبح نظاماً للرد أكثر ثباتاً مما لم يتكرر؛ ثم هي تتقدم بالاستمرار في التعقيد، وذلك لأننا عند الرد نقبل بعض تلك المهيجات ونهضمها، ونرفض الأخرى التي لا توافق نظام ردنا الثابت، فتتراجع إلى منطقة من العقل مسماة (بالمنطقة اللاشعورية)، أو (منطقة ما تحت الشعور)، وتبقى فيها حتى تجد فرصة سانحة للانتقام من الذات المركزية والهجوم عليها، وحينئذ تقدر أن تغير خططنا للعمل، وتفسد أفكارنا، وتشيد أحلامنا وأوهامنا، أو تجرنا إلى تصورات سيرتنا الأولى التي كنا تركناها طوع سنة الارتقاء على مسافة شاسعة، فالدين عند فرويد مخلوق هذه المهيجات والدوافع المرفوضة، وثمرة اقتحامها الذات المركزية.

يخالف الدكتور إقبال هذا الرأي السقيم أشد المخالفة؛ وقد وضح ذلك في محاضرة ألقاها بجامعة هندية، إذ قال: (إن من تجرد الشيطانية عن سلطة الألوهية أن قام فرويد وأنصاره بخدمة للدين تفوق التقدير؛ إنني لا أستطيع أن أمتنع عن القول بأن النظرية الأساسية في علم النفس الجديد هذا لا تظهر لي مؤيدة بدليل قطعي حاسم. فلو كانت مهيجاتنا ودوافعنا المتشردة تهاجمنا في الحلم أو في الأوقات الأخرى التي لسنا فيها في حالتنا الأصلية، فلا يتأتى من ذلك الهجوم أنها تبقى مسجونة في مكان يشبه مكان سقط المتاع وراء ذاتنا الطبيعية. إن هجوم هذه المهيجات والدوافع المكبوتة على منطقة ذاتنا الطبيعية يفضي أكثر إلى تبيين أن لنظام ردنا العادي تمزقا وقيتاً من أن يثبت وجودها الدائمي في زاوية مظلمة من العقل (أما القول بأن العقائد والمذاهب الدينية ليست إلا نظريات الطبيعة الابتدائية التي سعى بها الإنسان لإنقاذ الحقيقة من قبحها العنصري ولجعلها شيئاً أقرب إلى القلب من غير أن تسمح بذلك حقائق الحياة، فلا أنكر أن هناك أدياناً وأمثالا من الفن تحث الإنسان على الهروب من حقائق الحياة وتساعده عليه، ولكن الذي أريد أن أقول هو إنه لا يصدق على جميع الأديان. فلا نزاع في أن للمذاهب والعقائد مضامين تتعلق بما وراء الطبيعة، ولكنه أيضاً بين أنها ليست تفسير مدلولات الاختبار الذي هو موضوع بحث العلوم الطبيعية. إن الدين غير علم الطبيعة، وعلم الكيمياء اللذين يشرحان الطبيعة بقانون السبب والمسبب، إنما الدين يقصد التعبير عن منطقة الاختبار الإنساني الذي يختلف عن غيره تمام الاختلاف - الاختبار الديني - الذي لا يمكن أن تحول مدلولاته إلى مدلولات أي علم آخر. وفي الحق إنه يجب علينا أن نقول في إنصاف الدين إنه أصر على ضرورة الاختبار المعين في الحياة الدينية قبل أن يعرف ذلك العلم بكثير. فالخصام بين الدين والعلم ليس بقائم على أن لأحدهما وجوداً والثاني لا وجود له، بل على الاختبار المعين. فكلاهما يقصدان الاختبار المعين كنقطة الافتراق بينهما، وعلى هذا فالخصام المفروض بينهما ناشئ عن سوء الفهم وهو أن كلا منهما يعبر عن مدلولات الاختبار الواحد. إننا ننسى أن الدين يتوخى الوصول إلى المضمون الحقيقي لنوع خاص من الاختبار الإنساني).

ولا يمكن أن نفسر مضمون الشعور الديني بنسبته إلى عملية العاطفة الجنسية. فأن) الشعورين - الجنسي والديني - في الغالب متخاصمان أو على الأقل في أوصافهما المميزة، وفي غرضيهما وفي نوع السيرة التي ينتجها كل منهما يختلفان كل الاختلاف. والحق أننا في حالة العاطفة الدينية نعلم الحقيقة الواقعية بمفهوم أنها خارجة عن دائرة شخصيتنا الضيقة، وللشدة التي تهز بها تلك العاطفة الدينية أعماق وجودنا تلوح للعالم بعلم النفس أنها ثمرة (منطقة ما تحت الشعور). إن في كل علم يوجد عنصر العاطفة، ويزداد موضوع العلم وينقص في قيمة موضوعيته على حسب الزيادة والنقص في شدة تلك العاطفة. فان الشيء الذي يقدر أن يهز جميع شخصيتنا هزاً

شديداً أكثر حقيقة لنا.
صنف في ألمانيا الدكتور آسوالد اشبنجلر أحد كبار الفلاسفة المعاصرين كتاباً اسمه (انحطاط الغرب) ونشره بعد الحرب العظمى مباشرة، فلقي مع اشتماله على أدق الأفكار الفلسفية إقبالا عظيما حيث بيع من الطبعة الأولى مائة ألف نسخة. في هذا الكتاب سعى اشبنجلر لدحض الفكرة السائدة من القرن الماضي إلى الآن وهي أن الحضارة الغربية الحاضرة ثمرة التقدم المسلسل، وأن مصيرها في المستقبل أيضاً التقدم المستمر كالخط اللامتناهي، وأتى بنظرية وهى أن المدنية الإنسانية ليست هي التقدم المسلسل ولا المستمر كالخط اللامتناهي بل هي عبارة عن سلسلة حلقات المدنيات المختلفة كل حلقة فيها مستقلة في روحها عن الأخرى تمثل دور الثقافة والحضارة ثم تموت. ولا اتصال بين تلك الحلقات بتاتاً. وعليه فلكل مدنية عند اشبنجلر طريق خاص للنظر إلى الأشياء والعالم وعر الملتمس لأبناء مدنية أخرى.
لإثبات هذه النظرية استقصى اشبنجلر في كتابه (انحطاط الغرب) مدنيات العالم بحذافيرها فخصص بابين كبيرين للمدنية العربية يرى إقبال أنهما يكونان جزءاً ذا أهمية عظمى لتاريخ آسيا الثقافي. غير أن ما جاء فيهما عن الإسلام هو، في رأي اقبال، مبني على سوء الإدراك لطبع الإسلام كالحركة الدينية، وللتحول الثقافي العظيم الذي أتى به الإسلام في
العالم. قال في محاضرة ألقاها في جامعة هندية: (إن اشبنجلر في اجتهاده لإثبات نظريته يسوق جيشاً عرمرماً من الحوادث والتراجم كالشواهد ليبين أن روح المدنية الأوربية مضادة لروح المدنية اليونانية واللاتينية، وأن تضاد روح المدنية الأوربية هذا ناشئ عن طبع الذكاء الأوربي الخاص وليس عن أي الهام قد تكون استلهمته من الثقافة الإسلامية التي هي عنده (ماجية) في النوع والروح تماماً. إنني قد سعيت في محاضرتي السابقة لأثبت لكم أن تضاد روح العالم الحاضر هذا لروح المدنية اليونانية واللاتينية هو في الحقيقة ناجم عن ثورة الإسلام ضد الفكر اليوناني؛ وظاهر أن هذا الرأي لا يمكن أن يقبله اشبنجلر، فإنه لو قيل إن تضاد روح الثقافة الحاضرة للمدنية اليونانية واللاتينية ناتج عن استلهامها ذلك من الثقافة التي سبقتها مباشرة، لانهارت نظريته من أساسها، لأنه قد قرر فيها أن كل مدنية منفردة مستقلة لا اتصال بينها وبين ما قبلها وما بعدها. لذلك أخشى أن يكون جهد اشبنجلر لتأسيس نظريته هذه قد أفسد نظره في الإسلام كالحركة الثقافية إفسادا تاماً).
يريد اشبنجار (بالثقافة الماجية) الثقافة العمة المشتركة بين ما يسميه اشبنجلر) (مجموعة الأديان الماجية) وهي عنده الديانة اليهودية، والكلدانية القديمة، والمسيحية القديمة، والزرادشتية والإسلام. فلا أنكر أن الغشاء الماجي نبت على الإسلام ولكن مهمتي في هذه المحاضرة كما كانت في محاضراتي السابقة هي حماية صورة صحيحة لروح الإسلام الخالصة المجردة عن غشائها الماجي الذي في رأيي أضل اشبنجلر. إن جهل اشبنجلر للفكر الإسلامي في مسألة الزمان، وكذلك جهله للطريق الذي به ظهرت الأنانية في الاختبار الديني الإسلامي كالمركز الحر للتجربة، مدهش. فبدلا من أن يستفيد ويستنير من تاريخ الفكر الإسلامي وتجاربه هو يفضل أن يؤسس حكمه على عقائد العامة في بداية الزمان ونهايته. فكروا هنيهة! في رجل ذي علم غزير كالجبل الشامخ وهو يستمد لإثبات الجبر المزعوم في الإسلام من المقولات والأمثال العامة الشرقية مثل (قوس الوقت) أو (لكل شيء وقت). إنني على كل حال قد بينت لكم في محاضراتي السابقة أصل فكرة الزمن في الإسلام وتقدمها كما شرحت لكم الأنانية الإنسانية كالقوة المطلقة، وأعتقد أنه وافي بالغرض؛ وأما انتقاد آراء اشبنجلر في الإسلام وفي الثقافة التي نجمت عنه انتقاداً
وافياً فظاهر أنه يحتاج إلى مجلد ضخم. غير أني زيادة على ما قلت أحب أن أقدم (إليكم ملاحظة أخرى عامة
يقول اشبنجلر (إن لب تعليم الأنبياء ماجي. فهناك إله واحد - سواء أيقال له يهوذا، أم اهورامزدا، أم مردوك بعل، وهو الأصل للخير. وأما الآلهة الأخرى فجميعها إما عَجَزة أو شريرة، وضُم إلى هذه العقيدة الأمل في ظهور المسيح الذي كان أكثر وضوحاً في النبي ايشائيا ولكن ذلك الأمل ظهر في القرون بعده في كل مكان تحت ضغط الضرورة الباطنية بالشدة. وهذا الفكر فكر أساسي في الدين الماجي لأنه يشمل من

دون النزاع تصور حرب العالم التاريخية بين الخير والشر مع سيادة قوة الشر في الأوقات المتوسطة وفوز الخير في الآخر في يوم القيامة.) لو أريد تطبيق هذه الصورة لتعليم الأنبياء على الإسلام فهو يحرفه تحريفاً تاماً، فان الفرق الهام بينهما هو أن الرجل الماجي يقبل وجود الآلة الباطلة وان لم يعبدها، بينما الإسلام ينكر نفس وجودها إنكاراً تاماً. واشبنجلر يعجز في هذا الخصوص عن أن يقدر القيمة الثقافية لفكرة ختم النبوة في الإسلام حق قدرها. نعم مما لا شك فيه أن صفة واحدة مميزة في الثقافة الماجية هي موقف الأمل الأبدي، هي الانتظار المستمر لمجيء أولاد زرادشت غير المولودين، أو المسيح، أو بارقليط الإنجيل الرابع، ولكني قد بينت لكم في محاضراتي السابقة الطريق الذي يجب لطالب الإسلام أن يسلكه في البحث عن المعنى الثقافي لفكرة ختم النبوة في الإسلام. وزيادة عليه أقول إنه يمكن أن تعتبر هذه الفكرة علاجا نفسياً للموقف الماجي للأمل المستمر الذي يفضي إلى تقديم صورة كاذبة للتاريخ. لذلك لما رأى ابن خلدون أنه قد ظهرت في الإسلام تحت أثر الفكر الماجي فكرة - ظهور المهدى - التي تشبهها على الأقل في نتائجها النفسية، وأنها تخالف نظره في التاريخ محقها بالانتقاد محقاً تاماً)

السيد أبو النصر أحمد الحسيني الهندي

موسم الإسكندرية

الحول قد حال

للأستاذ فخري أبو السعود

حُيّيت يا بحرُ إن الحول قد حالا ... فاستقْبل اليوم أسراباً وأرْسالا
تسعى إليك من البلدانِ ظامئةً ... إلى الجمال على شطّيك قد جالا
وللضياء على عطفيك مؤتلقاً ... وللنسيم على الآذيِّ مختالاً
ومُلْك شمس على الآفاق مُنبسطٍ ... تعلِيه يوماً فيوماً كلما دالا
ومُزْبِدٍ فيك أشهى للنواظر من ... حبَابِ كأسٍ علا في الكأسِ جِرْيالا
ودافِقٍ ترتوي الأرواح حائمةً ... به وينقع للأجسام صلصالا
وناعس الرملِ قد مرَّت به حِقَبٌ ... عدادَه وسيطوي بعدُ أجيالا
وهائج اللج يغزو الشطَّ مجتهدا ... لا يأتلى عنه إدباراً وإقبالا
دَوْماً يحاول أمراً ليس يبلغُهُ ... وما يزال لما يبغيه محتالا
إذا تكسَّر من صخْر إلى حجر ... شهدت في كلِّ صوبٍ منه شلالا
يشنُّ حرباً على الخلجان عاتية ... دوماً ويعدو على الشطآن صوَّالا
يشن حرباً ويهدي من نسائمه ... خير التحايا كريم الفعل مفضالا
إذا النسيم تعالى من جوانبه ... معطَّر الثوب أردانا وأذيالا
حسبت روضاً وراءَ اللَّج ذا أرَجٍ ... حيَّا أزاهرَهُ الوسميُّ هطَّالا
هذا النسيم بقلبي مُنبتٌ زَهَراً ... وباعثٌ فيه عرْفاً كلما مالا
هذى المحاسنُ كم يبعثن في خلَدِي ... من ذكرياتٍ وكم يحيين آمالا
يُفْسحن عمر الفتى مهما أطاف بها ... حتى تكون بها الساعاتُ آجالا
جَمعتَ عندك آي الحسن قاطبةً ... وطبت يا بحر أسحاراً وآصالا
إن كنت لم تجلُ حُوراً فيك عارية ... كما روَى قِدْما وما خالا
فكم على جانبيك اليوم من فتَنٍ ... لم تحو أسطورةٌ منهن أمثالا
غِيدٌ بِلُجِّكَ أو بالرَّملِ سارحةٌ ... رَفَلْنَ في الحسن أعطافاً وأوصالا
هذى كنوزٌ على شطَّيك مزريةٌ ... بما تُزَوِّدُ غوَّاصاً وَلآلا
كنوزُ حسنٍ إذا أصفى مَوَدَّته ... فَدَع كنوزاً لقارُونٍ وأموالا
الطرفُ منهنَّ مُثْرٍ مسرفٌ بذَخا ... والقلبُ يندُب إعساراً وإقلالا
وكلما خاضَ طرْفي أنْعماً وحُلًى ... تجشمَ القلب أوجاعاً وأهوالا
سبحانَ من أرْسلَ الأحداق في طلَقٍ ... وحمَّل القلبَ في الأضلاع أغلالا
يا من عرضتُم فغادرتُم جوانحنا ... حرّى وقد نال منها الشوقُ ما نالا
بالرغمِ منِّى أن تمضوا على عجَل ... ولا يكونَ وَدادٌ بيننا طالا
تمَّتْ لديكَ صِفاتُ الحُسْنِ واختلطت ... لديك يا بحرُ أشتاتاً وأشكالا
فلا كشطِّكَ للألباب مُنْتجَعٌ ... ولا كأفْقِكَ من وَحيٍ لمن قالا

من أحسن ما قيل في (موسم الشعر)
في قريتي
للأستاذ أحمد الكاشف

جمعت في العيد حولي سائر الآل ... وملتقى الآل حولي كل آمالي
أباً دعوني ومالي فيهمُ ولد ... ولست للقوم غير العم والخال
كأنني وهم في الدار مطلع ... منهم على أمم شتى وأجيال
أعدهم لغد والمقبلين غداً ... في هذه الأرض أجنادي وأبطالي
ما أحسن الشمل أرعاه وأشهده ... لأمهات وآباء وأطفال
فلا أرى فرقة في الدهر قاطعة ... لمطمئن وخفاق وجوال
ولا يصاب هديل في أليفته ... ولا الغضنفر في غيل وأشبال
أقمت في الريف لا أشقى بطاغية ... من الرجال ولا لاهٍ وختال
وعشت بالرطب من بقل وفاكهة ... فيما ملكتُ وماءٍ فيه سلسال
أحرم اللحم لي زاداً وأحسبه ... طعام مفترس في القفر مغتال
وقد أقاتل للحيّ المسالم من ... طير ومن حيوان كلَّ قتال
لو كان للنبت إحساس رأفت به ... وبت للنبت أيضاً غير أكال
كأنما قريتي ما دمت ساكنها ... ولايةٌ وكأني العمدة الوالي
أطلت فيها اعتزال العالمين ولي ... بكل ناحية همي وأشغالي
لقيت في عشرة الجهال عاطفة ... لم ألقها في رجال غير جهال
ولم أجد من وضيع الذكر خامله ... ما ساءني من رفيع الذكر مختال
حملت أثقال قومي وهي فادحة ... عنهم وما شعروا يوماً بأثقالي
وهان شأنيَ حتى ليس يذكرني ... من استعان بأقوالي وأعمَالي
وما حرصت على عينيي وعافيتي ... حرصي على الود في حل وترحال
وما أبالي ونفسي في سلامتها ... طولَ اعتلالي بأعصابي وأوصالي
ومحنة لا عزاء أن أرى بلداً ... سوى بلاديَ أولى بي وأوفى لي
لو كان ما أغفلوا منى وما تركوا ... يعنيهمُ لم يطل تركي وإغفالي
ولو بُليتُ بجبارين ما بلغوا ... مدى الأحبة من قهري وإذلالي
أريد حرية الوادي السليب وبي ... منه جراحي وآلامي وأغلالي
والدهر يجعلني حيناً ويمهلني ... حيناً وسيانَ إعجالى وإمهالي
ولو بلغت من الآجال غايتها ... لما انتفعت بأعمار وآجال
شعري استوى فيه عاصيه وطيعه ... كما استوى فيه إكثاري وإقلالي
وما أفاد غناءٌ فوق رابية ... ولا أفاد بكاءٌ فوق أطلال
وقد تبينت ما في الناس زهدني ... وكان في الزهد إعزازي وإجلالي
ولست يوماً لموجود بمحترس ... ولا على رد مفقود بمحتال
ولو أتى بالنعيم الدهر ملء يدي ... لم يأت إلا لأعلالي وإملالي
ولست أسأل عن حقي وقيمته ... ولو تولاه ميزاني ومكيالي
إن لم يكن ليَ ديوان وحاشية ... يوماً فحسبي محاريثي وأنوالي
ألست ممن دعا الأحزاب فأتلفت ... وردت الأمر من حال إلى حال
كفى من القوم بالزلفى رجوعهمُ ... إلى الذي فيه كانوا أمس عذالي
أرى المودة بالقنطار بينهمُ ... ولم أفز بينهم منها بمثقال
ولم أزل بينهم للخصم متقيا ... دخائلا هي في ذهني وفي بالي
أخشى على رسلهم نياته وهم ... منه أمام جلاميد وأدغال
وما تزال كما كانت سياسته ... يدور فيها بألوان وأشكال
وموضع النِّد أرجو عنده لهم ... لا موضع الصيد من أنياب رئبال
حق المصير تولوه بشملهمُ ... وهْو الكفيل بتغيير وإبدال
إن لم يجئ يومهم بالخير أجمعه ... ففي غد كل إتمام وإكمال
والجو ينذر من نار بعاصفة ... حرباً وفي الأرض إنذار بزلزال
وقد يكون لهم من ضيقهم فرج ... كما تدافع أهوال بأهوال
يا فتية الشعر هذا اليوم موسمكم ... ومهرجان البيان القيم الغالي

أمانة الشعر أديتم ولم تجدوا ... ما تستحقون من عطف وإقبال
وحسبكم أن فيه أخوة لكم ... من أغنياء وأرباب وأقيال
تجاهدون بأذهان وأفئدة ... وترجعون بلا جاه ولا مال
وتملكون من الدنيا سرائرها ... ولا تحلون منها الموضع العالي
وما يتاح لكم في الأرض متسع ... كما يتاح لعرف ودجال
قالوا أنقذ الشعر بعد (الشاعرين) ولم ... يأنس بغيرهما بميدانه الخالي
ولست وحدي لم في مصر بعدهما ... فمصر ملأى بأشباهي وأمثالي
أيشغلَنَّهُمُ ركب مضى وثوى ... عما أمامهمُ والمقبل التالي
إن لم ير الحي بعد الميت منزلة ... منهم فلا خير في المحزون والسالي
وإن كل بناء لا يصير إلى ... أبناء بانيه لهو الدارس البالي
خير من البلد الخصب المباح حمى ... صعب الجوانب من جدب وإمحال
والملك بالجند والحصن المحيط به ... لا بالحقول ونهر فيه سيال
أحمد الكاشف
أوبة الطيار
للأستاذ أحمد رامى
في سكون الماء والبحر ساجٍ ... والسحاب الصبير في الجو سار
كنت أرنو إلى الغروبِ وأروي ... ناظري من صُبابة الأنوار
فإِذا بي ألقى دخاناً ولا غي ... م وريحاً وليس من أعصار
فتبينت استشف جبين ال ... أفق من بين هذه الأستار
فإِذا هي جماعة من بنات ال ... ريح تطوى الفضاء عبر البحار
يتلاحقن ماضيات ويهوي ... ن هُوِيِّ النسور للأوكار
يا حداة الرياح ماذا لقيتم ... من ركوب الأهوال والأخطار
كم جزعتم من الرياح السوافي ... وسهرتم مع النجوم المراري
وصبرتم على المخاوف ترجو ... ن رضاء المهيمن الجبار
رفع الناس عنده درجات ... في مقام الجلال والإكبار
وقضى أمره فأرسل سربا ... منكمُ في مسابح الأطيار
أَيها الطائر المحلق في الج ... وسلام عليك فوق المطار
سهرت أعين ورفت قلوب ... تسأل الله رحمة الأقدار
تتمنى لك السلامة في مس ... راك ليلا وغادياً بالنهار
تسأل الريح هل ألمت خفافا ... بجناحيك أو أطافت ضوار
تسأل البرق هل أضاء لك الأف ... ق وأنجاك من مهاوي العثار
تسأل الفجر أين طالعك اليو ... م وأين السبيل في الأبكار
تسأل الليل هل أصاخ لنجوا ... كَ حنيناً إلى ربوع الديار
هذه مصر فانزل الدار أهلا ... ناعماً في القلوب والأبصار
وأولاء الشباب حولك في مص ... ر يحيُّون أوبة الطيار
طار سرب منهم يخف إلى الغا ... دي ويهدي إليه إكليل غار
وسرى في ركابه يتهادى ... في جلال العلا وعز الفخار
وجرى النيل بين شطين يختا ... ل خلال النخيل والأشجار
وأبو الهول في الفلا كاد يقعى ... ثم يرنو إليه بالأنظار
مشهد يبعث السمو إلى النف ... س ويدعو إلى الأماني الكبار
فانهضوا أمة تتوق إلى المج ... د وتبغي منازل الأحرار
أحمد رامي
القصَص
قصة المفاتيح
للقصصي الروسي مكسيم جوركى
(تتمة ما نشر في العدد الماضي)
وكان زيومكا أثناء ذلك، وهو الملحد الحقيقي، يتثاءب عالياً، فنظر إليه صديقه نظرة احتقار ثم اطرق برأسه؛ وحدقت العجوز بنظرها في زيومكا دون أن تمسك عن القراءة، فخجل من ذلك ومسح أنفه وأدار عينيه ليرى نتيجة تثاؤبه فلم تكن إلا تأوهاً

خاشعاً.
ومضت دقائق هادئة إذ كان لصوت القارئة المرتل أثر في الطمأنينة:
وصرخت القارئة فجأة (. .إن غضب الرب ينزل من السماء على كل غير رباني. . و)
في وجه زيومكا: (أتريد. . .؟)
فأجاب في استكانة: (أنا. . . أنا. . . لاشيء! تابعي القراءة؛ إنني أستمع)
فسألته العجوز غضبى: (لماذا تلمس القفل بيديك القذرتين؟)
إنه ليهمني. . . إن صنعه جميل جداً. . . إنني أفهمه. كنت قبلاً صانع مفاتيح، وأردت) -
أن أجسه. . .)
وقالت العجوز: (انتبهوا، ماذا قرأت لكم؟)
وقال زيومكا: (إنني أستطيع أن أعيده. . . إنني أفهم)
وقالت العجوز: والآن؟
لقد كنت ترتلين تعاليم الدين، وتذكرين عدم الإيمان بالرب. المسألة في غاية) -
البساطة، فكل شيء من ذلك حقيقي. لقد كان ذلك يحز في قلبي.)
ونظرت العجوز إلينا وهزت رأسها وقالت:
(إنكم مفقودون. . . كالحجارة. . . ارجعوا ثانية إلى عملكم)
وقال ميشكا وعلى فمه ابتسامة المعترف بذنبه: (يظهر إنها غضبى)
وحك زيومكا رأسه وتثاءب والتفت إلى العجوز دون أن يراها وسار في طريقه وأطرق
مفكراً: (إن قفل الكتاب من الفضة) وسرت في وجهه قشعريرة
وقضينا الليل في الحديقة إلى جانب أنقاض الحمام الذي هدمناه عن آخره في ذلك
اليوم. وفي ظهر اليوم التالي أتممنا تنظيف النافورة، وقد ازدادت قذارتنا وتبللنا بالماء،
وانتظرنا أمام باب المنزل في انتظار أجرنا، وكنا نتحدث عن غذاء وعشاء دسمين
نتناولهما قريباً؛ ولم يكن لواحد منا أي رغبة في الحديث عن شيء غير ذلك.
وفرغ صبر زيومكا وقال بصوت أجش: والآن أين استقرت يا ترى هذه الغول
الشمطاء؟ لقد هلكت!
وقال ميشكا وقد هز رأسه معاتباً صديقه:
لقد بدأ يسب من جديد. ولماذا يسب يا ترى؟ هذه العجوز امرأة طيبة تخاف الله، وهو
يسبها - هذا هو خلق الرجال!)
وابتسم زيومكا وقال له إنه شديد الحساسية نحو ذلك الطائر الشارد، تلك العجوز. . .
هذه. . .
وقضى ظهور العجوز على هذا الحديث الطريف. وتقدمت إلينا وأخرجت النقود وقالت
في احتقار: (هاهي ذي نقودكم فخذوها وارحلوا من هنا. كنت أريد أن أعطيكم أخشاب
الحمام فتقطعوها قطعا صغيرة، ولكنكم لستم أهلا لذلك)
وأخذنا نقودنا صامتين وذهبنا ولم نحظ بشرف تقطيع أخشاب الحمام إلى قطع صغيرة
للوقود
وقال زيومكا وقد خرجنا من باب الحديقة: أيها البشع العتيق أنظر إلى هذه! ألا
أستحقها يا قبيح الوجه؟ الآن يمكنك أن تسبح باسم ذلك الكتاب.
وأدخل يمينه في جيبه وأخرجها بقطعتين من المعدن اللامع وأرانا إياهما كمن كتب له
النصر
وجمد ميشكا في موقفه، واشرأب عنقه ليرى ما في يدي زيومكا. وسأله حائراً: (هل
خلعت القفل؟)
هذا ما فعلته! إنه من الفضة الجيدة. ويمكن لأي إنسان أن يحتاج إليها. وهى تساوى) -
على الأقل روبلا)
هيه، وما دمت قد فعلت ذلك فارمها بعيداً عني! يا للخجل) -!)
سأفعل ذلك) -)
وتابعنا السير في صمت. وقال ميشكا مفكراً في الأمر. تمت بمهارة، انتزعها ببساطة.
ثم قال: (نعم لقد كان كتابا جميلا وستحقد العجوز علينا)
وقال زيومكا هازئاً: (إنها لن تسترجعنا مرة أخرى لتقدم لنا ثناءها)
وبكم تبيعها؟) -)
بتسعة أعشار الروبل - هذا أقل ثمن، لا أقل من ذلك فلسا. إنني أخسر فيها. أنظر) -

(لقد انقصف لي ظفر
وقال ميشكا في خجل: (بعني إياها)
أإياك أبيعها؟ أتريد أن تجعل منها أزراراً لقميصك؟ أنظر! إنها تكفي لعمل زوج جميل) -
(من الأزرار - وهى تليق بك على ثيابك الخلقة
ثم أخذ ميشكا يستعطفه: (كلا إنني جاد غير هازل. بعني إياها
(اشترها، كم تدفع؟) -
(خذ ما تشاء، ما هو القدر الذي أحصل عليه من شركتي في العمل؟) -
(روبل واحد وعشرون كوبكا) -
(وكم تريد أن تأخذ فيها؟) -
(يا مغفل! ماذا تريد أن تفعل بها؟) -
(بعن إياها. أرجو ذلك) -
وانتهت عملية البيع في النهاية، وأصبح القفل ملكا لميشكا بعد أن دفع تسعين كوبكا
ووقف ميشكا في مكانه وقلب القطعتين في يده وحدق فيهما. ونصحه زيومكا هازئاً
بأن قال: (علقهما في انفك؟)
وأجاب ميشكا جادا: (ولم ذلك؟ إنني لا أريدهما. سأرجعهما إلى العجوز وأقول لها: هاك
يا سيدتي العزيزة المحترمة. لقد أخذناهما سهوا معنا، فأرجعيهما إلى ما كانا عليه
(ولكنك انتزعتهما فكيف إصلاحهما؟ -
وسأله زيومكا وقد فتح فاه: (أتريد حقاً أن تحملهما إليها يا شيطان؟)
نعم ولم لا؟ أنظر إن مثل هذا الكتاب يجب أن يبقى كما هو. ولا يجوز للإنسان أن) -
ينزع منه قطعة. وسوف تغضب العجوز وتحزن. . . وسوف تموت عما قريب. هذا ما
(أردت. فانتظر لحظة يا أخي فسأعود سريعاً
وقبل أن نتمكن من إيقافه اختفي وانعطف بخطوات سريعة وقال زيومكا في غضب
وهو يفكر في أثر هذه الواقعة ونتائجها المحتملة: (ما أضعف هذا الرجل وما أكثر
تغفيله؟)
ثم أخذ يؤكد لي في كل جملة خطأه
ولكن الآن انتهى كل شئ. لقد أوقعنا في الشرك. ولعله الآن جالس متكئ أمام
(العجوز. وقد لا يغيب عنها أن تستنجد بالشرطة
هذا مثل مما يتوقعه الإنسان من مصاحبة هذا الوغد. إنه حقا يدخل الشخص إلى)
السجن من أجل شئ تافه. هذا الكلب! هل رأيت رجلاً له مثل هذه النفس الدنيئة،
ينبغي أن يُلقي بأصدقائه إلى التهلكة، يا إلهي! أهذا هو جيل اليوم؟ هيا بنا، لم هذا
الانتظار؟ أتريد أن تبقى هنا؟ انتظر إن شئت، ليخطفك عفريت من الجن أنت وكل
(الأوغاد من أمثالك. ذلك الوغد! ألا تريد أن تذهب معى؟ هيا
ووكزني زيومكا في جانبي وسبني ومضى لسبيله
وكنت أريد أن أعرف ماذا جرى لميشكا عند صاحبة آخر عمل قمنا به. فذهب ثانية إلى
ذلك المنزل، وكنت أعتقد أن لا خطر في ذلك، وأن السوء لا يمسني من جراء هذا.
ولم يخب ظني، ووصلت المنزل وأخذت أنظر من خلال الحواجز وقد رأيت وسمعت ما
يلي:
كانت العجوز جالسة على سلم المنزل ممسكة بقطعتي القفل الفضي بيدها وهى
تنظر إلى ميشكا من خلال منظارها بدقة كما لو كانت تريد أن تتغلغل في صميمه.
وكان لعينيها الحادتين بريق قوى. وقد ارتسمت على طرف فمها ابتسامة خفيفة رخوة
تحاول إخفاءها: هي ابتسامة المغفرة.
وتبين من خلف العجوز ثلاثة رؤوس: امرأتان إحداهما شديدة حمرة الوجه وعلى رأسها
منديل زاهي الألوان، والثانية عوراء، وقد وقفت خلف رجل عريض المنكبين وإمارات
وجهه تدل على أنه يريد أن يقول:
(أسرع من هنا يا صديقي! أسرع بقدر ما يمكن)
وكان ميشكا يتحدث في ارتباك:
لقد كان كتاباً عظيما!! إنهما نذلان! أما أنا فقد كنت أذكر ربى. هذا هو الحق. وهذا ما)
يجب قوله. إننا تعساء ورجال سوء أنذال - ثم كنت أعود فأفكر في المرأة العجوز
الطاعنة في السن. ولربما كان سرورها الوحيد في كتابها هذا - ذلك ما ظننته. وأردت

أن أهيء للعجوز المتدينة سروراً وأن أرد إليها أشياءها: وقد اكتسبنا بحمد الله شيئاً نقتات به. فالوداع يا أخوتي. إنني أريد الذهاب الآن)
واستوقفته العجوز وقالت له: (انتظر! هل عرفت ما قرأته لك البارحة؟)
أنا؟ أَنَّى لي ذلك؟ إنني استمعت إليك ولكن أي استماع؟ فهل لآذاننا قدرة على استماع كلام الرب؟ إننا لا نفهم مثل ذلك.)
وقالت العجوز: (أهكذا؟ ألا تنتظر لحظة أخرى؟) وتململ ميشكا وأخذ كالدب يضرب الأرض برجليه. فان مثل هذا الحديث لا طاقة له به.
- (هل لي أن أقرأ لك شيئاً قليلاً؟)
- (. . . . . ولكن صديقَّي ينتظران.)
وقال ميشكا بصوت (دعهما ينتظران، إنك رجل طيب. دعهما يسيران حيث شاءا.)
- خافت: (حسناً.)
- (إنك لن تسير معهما بعد الآن؟ أليس كذلك؟)
- (لا.)
- هذا هو الصواب. إنك طفل كبير على رغم مالك من لحية تنزل إلى وسطك! هل أنت متزوج)
- (بل أعزب. إن زوجتي توفيت.)
- (ولم تشرب الخمر؟ أنك تشرب طبعاً؟)
- (نعم.)
- (ولماذا؟)
قال ميشكا متضجراً: (ولماذا أشرب الخمر؟ لتغفيلي. إنني مغفل ولهذا أشرب. ولو كان للإنسان عقل لم جرؤ على تحطيم نفسه بيده.)
- (إنك على حق. فاعمل على أن تكون عاقلاً. حسن من سيرتك وأصلح من أمورك. اذهب إلى الكنيسة واستمع إلى كلام الرب ففيه كل الحكمة.)
وتأوه ميشكا وقال: (سأفعل)
- (هل لي أن أقرأ لك شيئاً؟)
- (نعم، تفضلي)
وأتت العجوز بالإنجيل، وقلبت صفحاته، وبدأ صوتها يدوي، ورمى ميشكا برأسه إلى الوراء، وحك بيده ذراعه اليسرى (وهل تظن أيها الإنسان أن في وسعك التهرب من حكم الرب؟)
وقاطعها ميشكا وكأنه يجهش بالبكاء: (سيدتي المحترمة، دعيني أذهب، أرجو ذلك محبة في الله، سآتي مرة أخرى عن طيب خاطر واستمع. أما الآن فأني جائع جدا. إننا لم نتبلغ منذ أمس.
ودقت العجوز صدرها، وقالت: (أذهب! ابتعد!) ورن صوتها المزعج في الفضاء، واندفع ميشكا مسرعا نحو الباب بعد أن قال لها:
(أشكرك شكرا جزيلاً أيضا)
وتمتمت العجوز تقول: أرواح مغلقة! قلوب غلف كالحجارة!
وبعد نصف ساعة جلسنا في المطعم، وشربنا الشاي وأكلنا الخبز الأبيض. وقال ميشكا وهو يبتسم إليّ بعينه التي تشبه عيون الأطفال سذاجة وفرحا: (كنت أشعر كأن حمى قد انسابت في جسمي، وقد وقفت هنالك وفكرت في القول: أي ربى لم جئت إلى هنا؟ إنه العذاب! وبدأت هي الحديث: هل هؤلاء آدميون! إننا نريد أن نكون شرفاء معهم ونهيئ لهم ما توحي به ضمائرنا، إلا أنهم يفكرون في غير ذلك: يفكرون في متاعهم. فقلت لها: يا سيدتي المحترمة، هذا هو قفلك أرده إليك ولا تغضبي. . . ولكنها قالت: انتظر، ابق هنا، أذكر لي أولاً لم أحضرته؟ وبدأت تخزني بكلماتها، ولقد سئمت كثرة أسئلتها. . . هذه هي الحقيقة)
وتابع الابتسام الهادئ المريح
واهتاج زيومكا وقال له جادا:
(أولى لك يا صديقي أن تموت! وإلا التهمك في الغد الذباب من فرط سخف أفكارك)
- (إنك تتحدث بغباء دائماً. تعال، نريد أن نشرب كأساً على المسألة الستار.) وشربنا كأساً

على نهاية هذه الحادثة العجيبة.
عن الألمانية ا. ا. ي
درامة من أسخيلوس
سبعة ضد طيبة
(الدرامة الثالثة الباقية من مأساة أوديب)
للأستاذ دريني خشبة

خلاصة الدرامتين المفقودتين: ولد لملك طيبة الملك لايوس طفل جميل قالت النبوءة إنه إن عاش فسيقتل أباه ويتزوج أمه ويجر البلاء على شعبه فأرسله الملك مع واحد من خدمه ليقتله ويتخلص بهذا من شره، ولكن الخادم خشي عقاب السماء إذا قتل الطفل فعلقه من عقبيه في شجرة وعاد إلى المدينة. ومر راعي غنم بذلك المكان فأحزنه بكاء الطفل فأخذه وذهب به إلى ملك كورنثه الذي فرح به لعقم زوجته وجعله ولياً لعهده وسماه أوديبوس (أي ذا القدمين المتورمتين). وكبر أوديب وأقيمت حفلة راقصة في القصر وثمل المدعوون وحدث أن أحدهم اصطدم في نشوة السكر بأوديب فلمزه في أصله وأنه ليس ابن ملك كورنثه، فثار أوديب وأظلمت الدنيا في عينيه وترك قصر الملك وهام على وجهه في البلاد باحثاً عن والديه الحقيقيين.

ولقي ركباً ملكياً في طريقه إلى دلفي فأمره القائد أن ينتحي ناحية حتى يمر الموكب ولكنه أبى والتحم مع الجماعة في معركة فقتلهم جميعاً وفيهم ملك طيبة - وبذلك تحقق شطر النبوءة الأول لأنه قتل أباه - ثم سار إلى أن بلغ طيبة فوجد قومها في حيرة من مقتل الملك ومن هولة بحرية فتكت بأهل المدينة لأنهم لم يستطيعوا تفسير حجياها، وسمع أوديب أن مجلس المدينة قرر أن من يخلص الناس من هذه الهولة فانه يصبح ملكا عليهم ويتزوج الملكة الأرمل، فذهب من فوره فلقيها وحل حجياها وقتلها وصار ملكا على طيبة وتزوج الملكة التي هي أمه وهو لا يعلم - وبذلك تحقق شطر النبوءة الثاني - وحدث وباء في طيبة فتك بأهلها فتكا ذريعاً وقالت النبوة إن الوباء لا يرتفع عن حتى يقتل قاتل الملك لايوس. . . وأمر الملك بتحقيق مقتل سلفه فثبت عنده أنه هو القاتل وأنه ابن لايوس هذا وأنه تزوج أمه ونسل منها ولدين وفتاتين فجن جنونه وسمل عينيه وهام على وجهه إلى الغابة لتقتله ربات الذعر جزاء له. . . أما ابناه فقد اقتتلا على العرش واستنجد أكبرهما بالأرجيف أعداء طيبة فثار الشعب عليه. . . وفي المعركة التقى الإخوان فقتل أحدهما الآخر وبذلك تحقق الشطر الأخير من النبوة. . .

- 1 -

اختلف الإخوان، إتيوكليس، وبولينيسيز، بعد مقتل أبيهما من أجل العرش، ثم اتفقا على أن يحكم كل منهما سنة، واتفقا على أن يحكم إتيوكليس، الأخ الأكبر قبل أخيه. فلما حال الحول وأراد بولينيسيز ارتقاء العرش بدوره، أبى أخوه؛ وألب عليه الشعب، وأوغر صدور مجلس طيبة بما لفق على أخيه من المفتريات. واضطر بولينيسيز إلى ركوب الأسنة، لما لم ير له حيلة إلا ركوبها!

- 2 -

ولاذ بملك آرجوس، أدراستوس، فحل به أهلاً ونزل عنده سهلاً، واتفق الملك على أن يزوج الأمير ابنته، عل أن يرسل جيشه العرموم على طيبة لإذلالها، يقوده سبعة من أشد قواده وعلم أتيوكليز بما دبر أخوه فهاج هائجه، وانطلق إلى شعبه يدلهم على خيانة بولينيسيز، ويقدم لهم دليلاً جديداً (على هذا المارق الذي لفظه وطنه فلاذ بأعدائه يشترى الملك بالعبودية، والتاج بالقيد الذي يعده لبلاده، وسعادته الوضيعة بشقاء طبية بأسرها. . .)

- 3 -

(إتيوكليز يحرض الجند على الأسوار)

يا أبناء طيبة! أيها القدميون الشجعان! يا ذادة الوطن! الساعة خطيرة فانتبهوا،) - وإياكم وسنة من النوم تأخذكم والعدو محدق بكم. إنه أن يكن نصر فمن الآلهة التي ترعاكم؛ فان تكن الأخرى، وحاشا أن تكون، فأنني، أنا إتيوكليز ابن أوديبوس الشقي، أنا الرجل ملء الأفواه وملء الأسماع، سأكون عرضة لحقنكم وسخطكم، لأنني لم أستطع الدفاع عن ذماركم فلم أستحق محبتكم. وقانا الله عاقبة السوء، ودفع عن

طيبة هذا البلاء. يا أبناء الوطن! إن كل نَفَس يتردد فوق تلك الأرض المقدسة حري بأن يشترك في الجهاد الأكبر، شيبكم وشبابكم، كبيركم وصغيركم، قويكم وضعيفكم، كل ينفخ في أخيه من روح الوطن، وكل تتدفق في عروقه دماء النخوة حارة ترد بسواعدكم الغزاة العتاة المعتدين!ـ . . قد جدت الحرب بكم فجدوا، ألا فافزعوا إلى أسلحتكم فردوا بها عادية الأشرار عن وطنكم وعن آلهتكم، وعن أطفالكم، وأمهاتكم اللائي أرضعنكم لتكونوا بعون السماء الكماة الحماة اللهاذم الصيد الصناديد! اذكروا ما بعد النصر من عز وفخر، واذكروا ما بعد الهزيمة من عار ودمار ومذلة وأسار!! لقد حدث واعظكم وصفي آلهتكم تيريزبازس، قال: إن قادة الأرجيف قد اعتزموا الكبسة ليلتهم هذه، فمن لطيبة يا أبناءها غيركم!! هلموا!! تبوأوا مواقف للقتال في كل شبر من أرضكم، وقفوا بالمرصاد لعدوكم، وسدوا الثغور فأنها مفاتح بلادكم، واستلئموا في حديدكم ولا ينالُن منكم غرة فتذهب ريحكم، وخذوهم من فوق حصونكم، ولا تهولنكم كثرتكم فالسماء معكم، والآلهة من خلفكم. . . . . .)

- 4 -

(يدخل رسول)

- (حيّا الله مولاي الملك! الأخبار يا مولاي! لقد شهدت بعينيْ رأسي! الأرجيف يا مولاي) في سبعة جيوش جرارة، يقود كل جيش كميٌّ صنديد. لقد ذبحوا قرابينهم من كل عجل جسد وثور سمين، وغمسوا أيديهم في الدماء، ثم تقاسموا ليجعلن عاليَ طيبة الخالدة سافلها أو ليهلكن دونها. . . وكانوا يا مولاي يرمقونها بعيون تقدح الشرر إذْ هم يأخذون مواثقهم، وكانت شفاههم تتلمظ تحناناً ليوم النصر، وفي قلوبهم نار تسعر! وقد عجلت إليك يا مولاي وإنهم ليعبئون صفوفهم، ويأخذون أهبتهم، فخذوا عدتكم واثقفوهم قبل أن يقفوكم، ولتكن طيبة كلها يداً واحدة، وإن لنا لَلْكَرّةَ بمعونة السماء. . .

(يخرج الرسول)

- (يا زيوس العظيم! يا مولاي! يا رب هذا البلد! احمه من الأعداء، ولا تسلطهم عليه فيغتصبوا حريته، ويهدروا كرامته! كن في عون عبادك من ذراري قدموس! إنهم يخبتون لك ويصلون من أجلك!)

- 5 -

ويشرف الطيبيات من أعلى الأسوار، فيرين إلى جحافل الأعداء محدقة بمدينتهم فيتفزّعنْ فرقاً، ويتغنين بالآم الوطن، ويرسلن أنشودة طويلة مبللة بالدموع من أجل طيبة، ويهتفن بالآلهة أن تنقذهن من ذل السبي وهوان الأسار، فما يسمعهن إتيوكليز حتى يهرع إليهن

- (ألا خَبّرْن أيتها المخلوقات اللائى لا يتحملكن قلب ولا يُسر برؤيتكن طرف! أبمثل هذه الأصوات المنكرة تدفعهن عن طيبة بلاء الأعداء!؟ أبهذا الصراخ وذاك العويل تكشفن الغمة عن الوطن الحزين!؟ تالله إنكن عليه بهذا العواء الذي يقذف الرعب في قلوب الجند! أتحببن أن تُحبَسْن ورجالكن في عقور دوركن، وتكن بذاك قد دفعتن عن البلاد غائلة العدو المحدق بنا جميعاً! مالكن تهرولن هنا وهناك باكيات منتحبات؟ إنكن إذن بلاء هذا الوطن وشقاؤه، ولَسْتُن أهله بل أعداءه! إنكفئن إذن وخلين بين الرجال وبين واجبهم الأسمى من مجالدة الأرجيف، والذود عن بيضة الوطن! إنكفئْن! لاسعت بكن قدم؟!)

- (يا حفيد لايوس العظيم! إن قلوبنا لتنخلع من ضوضاء هذا الجيش اللجب المحيط بنا؟!)

- (أذن خبّرْن يا نساء طيبة! أإذا أحيط بالسفينة في البحر اللجي ترك الربان سكانها وفزع إلى السارية لينجو من الغرق؟!)

- (بل نحن قد فزعنا إلى هياكل الآلهة أن تحفظنا من الأسار، وصلينا في كل معبد من أجل رجالنا وأطفالنا!)

- (بل صلين للآلهة أن تقي أسوار المدينة، وأن تنصر أبطالنا على خصومنا! اهتفن بأبنائكن أن ادفعوا عن أوطانكم، ولا تسمحوا لعدوكم أن يجوس خلال هذه المدينة! إنهم وحدهم يقدمون القرابين من أرواحهم لهذه الديار! أما انتن فقرن في بيوتكن، ولا تلقين الرعب في قلوب أبنائكن!! لقد كدتن تفعمنها جبناً وترهقن سواعدهم ضعفاً وخوراً!)

- (ويلاه! إن العدو يأخذ المدينة من أساسها! اسمع!)
(أصوات شديدة وقرقعة)
- (أجل! وإن للمدينة لأبناءً كراماً، وإنها لقعقعة سلاحهم تبيد صفوف الأعداء!)
- (بل هم الأعداء يجرعون أبناءنا غصص الموت!)
- (غصص موت تبيدكن جميعا! أصمتن!)
- (أنت سبب هذا البلاء! كل هذا من أجل لباناتك! أنت جلبتهم على طيبة بالخيل والرَّجْل!!)
- (يازيوس الجبار! أي شياطين بثثت في نفوس النساء؟)
- (النساء التاعسات مثل رجالك الذين أشقيتهم!)
- (أصمْتن يا شقاء الوطن! لقد أزعجتن جنودنا بأصواتكن!)
- (نصمت! آه! لنصمت بأمر الملك)
- (يا آلهة الأولمب رفقاً بطيبة! تقبلي صلواتنا من أجل هذا الوطن! إني لن آلُو جهدا في تخير ستة من شجعان قادتنا يدفعون قادتهم السبع. . . باركي يا سماء وانصري يا آلهة)
(يخرج إتيوكليز)
- 6 -
ويهوج الخورس بأناشيد يترجمن بها عن الفزع الذي يروعهن من هذه الحرب، ثم يصلين من أجل طيبة، ويدعين الآلهة، ويحضر إليهن رسول ممن شهد المعارك فما يوشك يصف ما حدث عند البوابة من الطعن والضرب، والتكبكب والانهزام، والهجوم والارتداد، حتى يجيء إتيوكليز فينفي كلام الرسول، ويخبر أن القائد الطيبي فلانا قد دحرهم، ومزق صفوفهم وخضد بأجناده شوكتهم. فإذا حدث الرسول عما كان من نزال وقتال عند البوابة الثانية رد إتيوكليز فبالغ في شجاعة الطيبين ثمة، وما أبدوا من صمود للهجمة، وصبر في موقف الموت. . . وهكذا. . . فإذا بلغ الكلام عما كان عند البوابة السابعة وذكر الرسول أن بولينيسيز نفسه هو قائد الأرجيف في تلك الجهة امتقع وجه إتيوكليز واربد جبينه، وانعقدت فوقه سحائب من الهم والفكر، ثم تلجلج لسانه بكلمة طويلة عن مصائر هذه الأسرة الشقية التاعسة، وانطلق ليدافع عن البوابة السابعة ضد أخيه بنفسه. غير مصغ إلى تحذير الخورس إياه. ولا حافل بإمارات السوء التي كانت ترقص أشباحها في الميدان.
- 7 -
ويتغنى المنشدات، فيذكرن الأحداث القدامى التي تنبأ بها الكهنة في دلفي عن أوديب طفل لايوس، ويوجسْنَ خيفةً أن يتم اليوم الفصل الأخير من المأساة.
وما يكدن يفرغن من تغنيهن حتى يدخل إليهن رسول يزف إليهن بشرى نجاة طيبة وسلامتها!
- (نجاة طيبة؟ هل انتصرت جيوشنا يا صاح؟)
- (كلا، ولكن انتهى كل شئ! لقد قُتِلا؟)
- (قتلا! من لعمركَ أيها الرسول!)
- (هدئن من روعكن يا سيدات! إتيوكليز وبولينيسيز! لقد قتل كل منهما أخاه، ووضعت الحرب أوزارها!)
وتكاد الفتاتان المنكودتان: أنتيجونى وإسمنيه، ابنتا أوديب تصقعان لهذا الخبر، فهما أختا الأميرين المتحاربين، والبقية الباقية من هذه الذرية الشقية، وسيتألف من شقوتهما أسود فصل في المأساة.
- 8 -
وترثي الفتاتان أخويهما رثاء باكياً حزيناً، وما تكادان تفرغان حتى يدخل القائد العام لجيوش طيبة فيقول:
- (قضي الأمر وانكشفت عن طيبة غمة الحرب التي جناها عليها المارق الأثيم. . . وسنفرغ الآن للاحتفاء بدفن إتيوكليز، حبيب الوطن؛ وصفي الآلهة، وبطل الأبطال. . . ستقف طيبة كلها عند قبره لتذرف عليه دموع المحبة والإخلاص والحزن. . . أما الشقي بولينيسيز، فستنبذ جثته بالعراء، جزر السباع وكل نسر قشعم. . . ستنوشه كلاب البرية بعد أن يجيف وينتن، جزاء له على مروقه من حظيرة الوطن، وعقابا له

على لواذه بأعداء طيبة، وسوقه جيوشهم عليها يقتلون أبنائها ويطفئون جذوة الحياة فيها. . . لن يبكي عليه أحد. . . ولن يوقره أحد. . . ولن تؤدى له طقوس الموت لأنه لا يستحقها، ولن يصب أحد على ترابه خمراً. . . اللئيم المنبوذ. . . بهذا قضى عليه مجلس طيبة الأعلى، فليذق بغض ما قدمت يداه!!)

وما يكاد يفرغ حتى تثور ثائرة انتيجوني حزناً على أخيها وتقول:

- (ماذا أيها القائد؟ لن تقام الطقوس الدينية لأخي! وسينبذ بالعراء تنوشه الكلاب البرية وذؤبانها؟ هاها!. . . أنت تحلم ورجالك أعضاء مجلس طيبة يحلمون! بل أنا. . . أنا الفتاة العاجزة أنتيجوني. . . أخت هذين التاعسين، وابنة ذينك الأبوين البائسين. . . سأقوم لأخي بكل ما أباه عليه مجلسكم الموقر. . . سأدفنه وسأهيل التراب على جسمانه، وسأضرب بقراركم عرض الأفق! ولتفعل قوتكم بضعفي بعد ذلك ما تشاء!)

- (أنصح لك يا فتاة أن تدعي لمجلس الأمة مصير هذه المسئلة!)

- (بل أنا أنصح لمجلس الأمة ألا يأمر بما ليس في مستطاعه!)

- (أحذرك، فهنا شعب نجا الساعة فقط من أهوال الحرب، وهو لذلك لا يعرف الرحمة!)

- (ليكونوا غير رحماء؟ ولكن لابد مما ليس منه بد! سيدفن أخي برغم الجميع!)

- (وكيف؟ إنك تتحدين الدينة بأجمعها! انها تكرهه!)

- (لقد لقي حسابه من السماء، فلم يعد لأهل الأرض حساب معه!)

- (ولكنه عرض الوطن للبوار قبل كل شيء!)

- (لقد أساء التصرف فيما لم يكن له فيه يدان! وسأدفنه وحسبكم مني هذا. . . كفى. . . كفى!!)

- (أنت حرة. . . تفعلين ما تشائين. . . ولكنى سأمنع الدفن بالقوة!)

ويتغنى المنشدات، ويصلى الجميع للآلهة

دريني خشبة

من هنا ومن هناك

سافو وليلى الأخيلية

لعل ليلى الأخيلية من بين شاعرات العرب هي أشبه الشاعرات بسافو شاعرة الإغريق منذ خمسة وعشرين قرناً. فأشعار ليلى تفيض بالحب، ويحس منشدها اللوعة، وتجرى في أبياتها الصبابة؛ وكل هذه مزايا أشعار سافو. ولسافو بين الإغريق مكانة عالية لا يدانيها إلا هوميروس بين الرجال. وهى ثالثة ثلاثة بين شعرائهم الغنائيين: أولهم ألكيوس، وثانيهم أنكريون وقد امتاز ألكيوس بأشعار الحماسة والوطنية؛ وامتاز أنكريون بقصائده التي تشبه قصائدنا العربية في الوصف والبث والبكاء والحكمة. أما سافو فتمتاز بالغزل والنسيب والتشبيب، وقد تختلف من ليلى الأخيلية بالغزل الصارخ الذي لا تعرفه البدويات الرعابيب. وفي نسيب سافو ثورة متأججة من نشدان اللذة في الحب، فهي لا تعرف هذا الهوى العذري الذي نعرفه في ليلى. هذا وإن لم يثبت التاريخ أن سافو كانت (عشيقة) يوماً ما؛ ومن يدرى؟

والإغريق مولعون بأشعار سافو، وكانوا يرددونها على كؤوس الخمر، لأنها أمتع أغانيهم الخمرية سئل صولون المشترع: (افرض أنك تموت الآن يا صولون. فماذا كنت تشتهي قبل موتك؟)؛ فقال: (أغنية من سافو أرددها ثم أموت!!)

سيف الدولة وميسيناس

قال الثعالبي في تيمة الد هر: (إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك، بعد الخلفاء، مثل ما اجتمع بباب سيف الدولة من الشعراء المفلقين!)

وميسيناس في التاريخ الروماني يشبه سيف الدولة في التاريخ العربي، من حيث الميول الأدبية عند كل منهما واجتذاب الشعراء والأدباء بالمنح والعطايا الجزيلة. كان المتنبي شاعر سيف الدولة الفحل، وكان كُشاجم الشاعر الرقيق أحد خدمه، وأبو الفرج الببغاء وصافة الحروب أحد كتبته ومواليه، والسري الرّفّاء والواوي من شعرائه، وكان ابن عمه أبو فراس من بطانته، وكان سيف الدولة مع ذلك الشاعر الفحل والنقادة البارع؛

وربما - لو فرغ للشعر - فاق هؤلاء جميعاً. ويعزون له شعراً لا نعرف في الشعر العربي كثيراً مما يشبهه رقة ودقة. يذكرون أنه خاف على إحدى جواريه فحجزها في إحدى قلاعه، وقال في ذلك:

راقبتني العيون فيك، فأشفق ... ت ولم أخل قط من إشفاق!

ورأيت العدو يحسدني في ... ك مجدّاً بأنفس الأعلاق

فتمنيت أن تكوني بعيداً ... والذي بيننا من الود باق

رب هجر يكون من خوف هجرٍ ... وفراق يكون خوف فراق

وقال يصف قوس قزح:

وساقٍ صبوح للصبوح دعوته ... فقام وفي أجفانه سِنة الغمض

يطوف بكاسات العقار كأنجم ... فمن بين منقض علينا ومنفض

وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفاً ... على الجودُ كنا، والحواشي على الأرض

يطرزها قوس السحاب بأصفر ... على أحمر، في أخضر، إثر مبيض

كأذيال خود أقبلت في غلائل ... مصبَّغة، والبعض أقصر من بعض

والذي يعنينا من عقد المقارنة بين سيف الدولة العربي وميسيناس الروماني هو الوصول إلى أبى الطيب عن طريق سيف الدولة، وهوراس عن طريق ميسيناس. فلقد كان أبو الطيب المتنبي خاملاً حتى اتصل بسيف الدولة فنبه؛ وكان فقيراً فأعطاه سيف الدولة حتى اغتنى. وكان أبو الطيب يحب سيف الدولة بقدر ما يشعر له كما كان يقول الثعالبي؛ وكذلك كان هوراس الشاعر الروماني الكبير من ميسيناس الروماني الكبير كان ميسيناس كبير مستشاري أكتافيوس (تلك الشخصية الفذة التي تدور حولها وقائع الفصل الأخير من درامة الجمهورية الرومانية، والذي ثأر من بروتس وشيعته قتلة قيصر، وتخلص بلباقة من شراك كليوبطره، والذي منحه مجلس الشيوخ لقب (أوغسطس) أي المعظم؛ ولقب برنسبس أي المجلى أو أعظم أعضاء مجلس الشيوخ، والذي صار فيما بعد ذلك طاغية رومة وامبراطورها العظيم)، وقد استطاع ميسيناس أن يكون موضع الثقة من الطاغية حتى أصبح مطلق اليد في شؤون الإمبراطورية، وأصبح فضلاً عن ذلك أكبر شخصية في الدولة يزيدها التفاف الشعراء ومحبة الأدباء بهجة ورواء وتألقاً عرف الشاعر فرجيل هوراس وسمع إليه فأعجب به وضمه إلى جماعة الشعراء الرومانيين المسماة ثم وصله بحاشية ميسيناس فأغرم به المستشار وأغدق عليه النعم وصحبه معه في حروب الدولة وحضر موقعة أكتيوم التي وصفها هوراس ووصف غيرها من الحروب الرومانية كما وصف أبو الطيب حروب سيف الدولة

وقد كان هوراس كما كان أبو الطيب يصبو إلى الحكم في ظل الدولة، فلما انتصر الرومانيون بقيادة أكتافيوس في أكتيوم رأى ميسيناس أن يكافئ شاعره مكافأة تتناسب وقدمه العالية عنده، فأقطعه إقطاعية واسعة في الأراضي السابيّة (وسط إيطاليا) قريباً من روما، وهو ما لم ينله أبو الطيب لا من سيف الدولة ولا من المعتضد، ولا من إمام الآبقين أبي المسك كافور!! والذي يقرأ ديوان هوراس يلفته اسم ميسيناس في أكثر صحائفه كما يلفت القارئ اسم الدولة في ديوان أبى الطيب

وسنعود إلى شعر هوراس في عدد آخر؛ ولكن لا يفوتنا هنا أن نشير إلى براعة ميسيناس في نقد الآداب وتمييز غثها من سمينها؛ ثم إلى براعته في الخطابة ومقدرته الهائلة في التأثير على الجماهير. ولقد كان يفضل هوراس على فرجيل ويعتبره شاعر الرومان المعبر عن خلجاتهم، والناطق بلسان الطبيعة في جميع أنحاء الإمبراطورية. أما فرجيل فكان يعده شاعراً أسطورياً لأنه نسج على منوال هوميروس.

أوسكار ويلد وبرنرد شو

يعتبر أوسكار ويلد زعيم المنحطين في الأدب الإنكليزي، وهو قد نسج في أدبه على طريقة بلزاك وجوتييه من حيث نشدان اللذة الجنسية، ولكنه غلا حتى أجاز الشذوذ في تحقيق هذه اللذة، وقصته (صورة دوريان جراي) آية في الشذوذ. وكما نسج في أدبه على طريقة بلزاك وجوتييه فقد نسج في فنه على مبادئ جون رسكن التي تدعو إلى محاربة الآلات ليرقى الفن وتقول بإخضاع الحياة للفن لا الفن للحياة، وهى مبادئ خطيرة ما تزال بكل أسف تلقى لها أنصاراً كثيرين في سائر الأقطار. وقد كان لأدب أوسكار ويلد ولفنه في

إنجلترا ثمرة مرة، ولكنها مشتهاة، فقد غنى على عوده كثيرون من رجال المدرسة الحديثة أمثال لورانس وجويس وألدوس هكسلي ورسل، وإن لم يكن بعضهم ينهج في قصصه من حيث الأدب الجنسي نهجاً علمياً قد لا ينافي الأخلاق وإن عظم أثره في تكييف سلوك الشباب. وبرنردشو هو نقيض ويلد في كل شئ، إذ يكاد شو يكون صوفياً في نظرته للأدب، في حين ينظر ويلد للأدب نظرة مادية كنظرة الأباحيين إلى تمثال من المرمر لامرأة غاوية خليعة تثير التشهي وتعمل لتحقيقه. وشو يدعو إلى حفظ الجسم بالاعتدال في كل من شهوة البطن والفرج، وقد يحتم الصوم لتحقيق مذهبه، وقد امتنع عن أكل الأطعمة الحيوانية وتناول الأدوية لهذا السبب. وهاهو ذا يتمتع بكمال الصحة في شيخوخته النشيطة الدائبة التي ما تنى، على حين أغمض الموت جفني ويلد في غصص من الأمراض والتهدم الجسماني. . وشو محتشم في كوميدياته، يثير الضحك بتعرية حقائق الأخلاق؛ أما ويلد فمهرج، يتبع في ملاهيه طريقة أرسطوفان الإغريقي الذي لا يرى بأساً من إظهار حمار على المسرح وإلباس رجل لبوس امرأة. ويتفق شو وويلد في ذكائهما النادر ومنشئهما الايرلندي، وفي أنهما خدما المسرح الإنجليزي خدمة لم تكن تقوم قائمته بدونهما.

(د. خ)

البريد الأدبي

جلبرت تشسترتون

في الأنباء الأخيرة أن الكتب الإنكليزي الشهير جلبرت كايث تشسترتون. قد توفي في منزله الريفي في بيكونزفيلد في الخامس عشر من شهر يونيه الجاري. وتشسترتون كاتب وأديب من النوع العام أو النوع (الأنسيكلوبيدى). فهو صحفي، وفنان، وشاعر، وروائي، وكاتب مرح، ومؤرخ، وناقد، وسائح؛ وقد تبوأ مكانته في الأدب الإنكليزي المعاصر منذ أكثر من ثلاثين عاماً، وكان مولده في شهر مايو سنة 1874 في كامدن هل من أعمال كنسنجتون، وتلقى تربيته في مدرسة سانت بول، ولكنه التحق بعد الفراغ منها بمدرسة (ملايد) الشهيرة ليدرس الفنون، ولما غادر مقاعد الدرس بدأ الحياة أديباً ناقداً ينقد الكتب الفنية في بعض المجلات الشهيرة مثل (بوكمان) و (سبيكر) وغيرهما، ويشتغل في نفس الوقت في إحدى دور النشر ليكسب قوته. ومنذ سنة 1900 يستقر تشسترتون في حياته الأدبية ويتخذها مهنة ومرتزقاً؛ وظهر بسرعة في ميدان الصحافة، وتولى التحرير والنقد في كثير من كبريات الصحف مثل (الديلى نيوز) و (البال مال) و (الديلى هرالد) و (الورلد) و (الفور تنيتلى) وغيرها، وأخذ في نفس الوقت يخرج طائفة من الكتب الأدبية المختلفة، نذكر منها (الفارس المتوحش) وهو مجموعة شعرية؛ وترجمة نقدية للشاعر بروننج و (الاثنا عشر نموذجاً) و (نابليون صاحب نوتنهام) (سنة1904)، و (نادي السلع المدهشة) (سنة 1905) وترجمة الروائي دكنز (سنة 1906) و (الأرثوذكسية) (سنة 1908) و (السخافات الرائعة) (سنة 1908) وتاريخ الأدب الفكتوري (سنة 1913) و (السحر) وهى قطع مسرحية؛ وديوان شعر (1915)، ومختصر تاريخ إنكلترا (سنة 1917) و (خرافات الطلاق) (1920) و (الرجل الخالد) (1925) (وليم كوبيث) (1925) و (محاكمة الدكتور جونسون) وهى قطعة مسرحية (1927) والفصول الكاثوليكية وغيرها.

وتشسترتون كاتب وافر الإنتاج والطرفة، معاً يذهب في التحرر من الآراء والنظريات المقررة إلى أقصى حد، وقد تأثر كثيراً بنظريات صديقه الحميم المؤرخ هلير بلوك في التشكك؛ وهو ذو فراسة قوية في تفهم العوامل الاجتماعية وتكييفها، وقد اعتنق تشسترتون الكثلكة في سنة 1922، وسجل بذلك تمسكه (بالأرثوذكسية) في سائر المناحي؛ في الأدب والسياسة والاجتماع وغيرها؛ ومن رأيه أن الإرادة البشرية هي مبعث كل الأعمال والتصرفات، ولا بأس من أن يحيي المجتمع من الأنظمة القديمة ما يناسبه.

وقد أنشأ تشسترتون منذ أعوام مجلة أدبية اجتماعية باسم أعنى أسبوعية جلبرت تشسترتون مرموزا إليه بالحرفين الأولين من اسمه

(ع)

جلبرت كنت تشسترتون أيضاً

توفي هذا الشاعر النقادة الصحافي الإنكليزي الكبير فاندك بموته صرح منيف من

صروح الأدب الإنجليزي المعاصر.
نشأ نشأة متوسطة، ولم تعترضه ظروف قاسية كالتي تعترض لذاته من الأدباء عادة، ولذا عاش حياة كلها مرح، وقضى عمره الغنى الحافل في خدمة الأدب في جميع وجوهه، ومال منذ حداثته إلى قرض الشعر فنظم قصائد متواضعة ثم اشتد باعه فنظم القصائد الرائعة التي مكنت له في عالم الأدب، ورفعت اسمه فوق أسماء الأدباء. وكل عارف بالشعر الإنجليزي لا ينسى قصيدتي تشسترتون (نابليون نوتنج هل)، و (الفندق الطائر).
وتشسترتون يشبه رديارد كبلنج في شدة حبه للإمبراطورية، ويشبه درنكووتر في تفانيه لخدمة اللغة الإنكليزية والأدب الإنكليزي بيد أن قيمة تشسترتون كأديب عظيم لا ترجع إلى أشعاره، ولكن إلى كتاباته في نقد الأدب والحياة والاجتماع. فلقد جال جولات واسعة في أمريكا وفلسطين فنقد كل مرافق الحياة في الأولى في مجلد ضخم، ثم كتب تاريخاً حافلاً للحروب الصليبية ضمنه موجزا لتاريخ فلسطين. وقد آمن بعد تجواله في هذه الأقطار بوجوب استقلال الفلاحين وتدريبهم على حياة التعاون فيما بينهم بما ينفعهم، ولم ينس أن ينصح بمثل ذلك للإنجليز أنفسهم عندما كتب تاريخه المفيد
وبالرغم مما يدعيه هذا الكاتب الإنجليزي من كرهه لطرائق السفسطائيين الإغريق فانه لم يكن سفسطائي أكبر منه في إنجلترا ولا في العالم أجمع في العصر الذي نعيش فيه. وكان معروفاً عنه أنه متى ما رأى رأياً ولو كان خطلاً في خطل فانه ما يني عن سنده بالحجج
وإقامه بالبراهين، وإن تكن حججه وبراهينه دائماً أوهى من خيوط العنكبوت، ولكن قارئه برغم ذلك يكب عليه إكباباً عجيباً، ويشغفه منه هذا الترقرق في سوق حججه، وذاك البيان السهل، والأسلوب الأخاذ، والعبارة الطلية الهينة التي يغطى بها ضعف براهينه. وكان بطبعه هذا ميالاً إلى المبالغة والتهويل، ولذا كان يقع في التناقض دائماً. واليك مثلاً من تناقضه العجيب في فصل عقده عن (استقامة الرأي)، قال:
لا ينشأ الجنون من إدمان التفكير، ولكن من التعقل (!!) فقلما يصاب الشعراء) بالخبل، في حين يأفن لاعبو الشطرنج وتنتهي حياتهم إلى العته. والرياضيون والصيارفة كذلك طالما يصيبهم الجنون أو على الأقل اللوثة، في حين يحيا الفنانون حياة سليمةً برغم أنهم دائماً يعملون قرائحهم ويبتدعون ويخلقون. وأنا بقولي هذا لا أناقض المنطق ولا أهاجم المناطقة، ولكني أقرر أن الشر كل الشر في المنطق والمناطقة. . لا في التفكير. . .)
وقد ساق درنكووتر في خلاصته عن الأدب أمثالاً أخرى عن تناقض تشسترتون (ص 916) نحيل إليها القارئ
والذي سيخلد من كتابات تشسترتون هي فصوله الممتعة في نقد الأدب والأدباء؛ وسيبقى كتابه عن (دكنز) ثروة عظيمة للمتأدبين بالأدب الإنكليزي.
(د. خ)
جريدة إنكليزية لتأييد القضية الحبشية
تلقينا الأعداد الأولى من جريدة أسبوعية تصدر في لندن بعنوان (التيمس الجديدة وأخبار الحبشة) & وعنوانها يدل على موضوعها وغايتها فقد أنشئت أخيراً للدفاع عن القضية الحبشية أمام الرأي العام الإنكليزي والأوربى، واقناعه بفظاعة الاعتداء الإيطالي، وتتولى تحرير الجريدة المذكورة السيدة سلفيا بنكهرست؛ وقد صدرت عددها الأخير بصورة الإمبراطور هيلاسلاسي، ومقال للدكتور مارتن وزير الحبشة في لندن عنوانه (انتظروا وتأملوا بينما يعمل القتل عمله)، وفيه يحمل على المبدأ السياسي القائل بالانتظار والتأمل، لأنه هو الذي أودى بحياة الحبشة، ولو قامت عصبة الأمم المتحدة بعمل حاسم لاستطاعت وقف الاعتداء الإيطالي في الوقت المناسب، وفيه تفاصيل عن مقدم الآمبراطور، ومقال
عنونه (يجب أن ننقذ الحبشة) بقلم مستر هوكن، ونبذ وأخبار أخرى عن الحبشة قبل الحرب الإيطالية وبعدها
مباراة أدبية عالمية
تنظم جمعية التاريخ الجديدة في نيويورك، في الخريف القادم، مباراة أدبية علمية؛ وقد

اختارت للكتابة موضوعاً دولياً عاماً هو (كيف تستطيع شعوب العالم أن تحقق نزع السلاح العام؟) وهذه المباراة مفتوحة لكل شخص من الجنسين، ومن أي الأمم، ومن أي المهن أو الثقافات؛ وستوزع على الفائزين جوائز قدرها خمسة آلاف دولار (نحو ألف جنيه)

وقد تأسست جمعية التاريخ الجديدة في نيويورك منذ سبعة أعوام، ونظمت قبل ذلك عدة مباراة أدبية عامة وصدرت لها جوائز مالية حسنة، وهي تعنى قبل كل شيء بتعرف آراء الشباب والجيل الجديد. ومن أغراضها أنها تدعو إلى إنشاء مجتمع أخوى عام من شعوب الأرض كلها، وتدعو إلى نزع السلاح، ومؤاخاة الدول، وعمل تشريع دولي إنساني عام.

, , وترسل الرسائل في المباراة المذكورة إلى جمعية التاريخ الجديد بنيويورك. , 132

موسم الشعر

في الساعة السادسة من مساء الأحد 14 يونيو سنة 1936 أقام (جماعة الشعراء) في دار جمعية الشبان المسلمين حفلة (موسم الشعر) رأسها صاحب المعالي العرابي باشا، وافتتحها الأستاذ أنطوان الجميل بك، وتكلم عنها الأستاذ محمد الهراوي إفندي؛ وكان الشعراء قد أخذوا مجالسهم من المنصة وعليهم قداسة من جلال الشعر أشاعت في نظراتهم وحركاتهم دلائل الفخر والعزة. افتتحت الحفلة بكلام الله فخنست لإعجازه الخالد شياطين الشعراء، ثم قام الأستاذ الجميل بك فألقى كلمة رائعة رفعت رأس النثر في حضرة الشعر، وتتابع بعده الشعراء فألقى كل قصيدته على منهاج معين، وكان الجمهور شديد الحساسية للصور البيانية، والمعاني المبتكرة، والأغراض الجديدة، والإلقاء الجيد، وجملة شعراء الموسم كانوا سبعة عشر شاعرا، فرغوا من قصائدهم في ساعة ونصف، وهم الأساتذة:

إبراهيم ناجى، أحمد رامى، أحمد الزين، أحمد الكاشف، أحمد محرم، أحمد نسيم، حسن القاياتي، حسين شفيق المصري، زكي مبارك، سيد إبراهيم، عزيز بشاي، كامل كيلاني، محمد الأسمر، محمد الهراوي، محمد الههياوى، محمد عزيز رفعت، محمود رمزي نظيم، السيدة منيرة توفيق.

وموسم الشعر أمنية من أماني الأستاذ الهراوي ظل يرصد لها الأهبة ثلاث سنين. ففي ربيع سنة 1933 تألف بسعيه وبسعي إخوانه (جماعة موسم الشعر) كما تتألف المجامع الأدبية، ونشرت على الناس بياناً جعلت فيه وسائلها قرض الشعر الفصيح، ووضع البحوث في الأدب، وإلقاء المحاضرات في الموسم؛ وحددت فيه أغراضها بإقامة موسم عام للشعر العربي في القاهرة، و (العمل للاحتفاظ في الشعر العربي بقوة الأسلوب ووضوحه، والجري على ما تقتضيه ضوابط اللغة من الصحة وما تتطلبه خصائص البيان من بعد الأسلوب عما يضعفه أو يفنيه في غيره أو يقطع صلة حاضره بماضيه، وتقريب ما بين الشعر العربي وغيره مع المحافظة على السنن العربي والعمل لتنوع أغراضه وفنونه، وأخيلته ومعانيه، وإبراز الحياة الحاضرة والمدنية القويمة في صورها الصحيحة، والمحافظة في الشعر على الذوق العربي مع مماشاته لحاجات العصر وروحه، وتوجيه الشعراء إلى القيام بحاجة العامة والتلاميذ من الشعر في أغانيهم وأناشيدهم، وحفز مواهب الشعراء إلى تهيئة السبل لظهورها والانتفاع بها، وخدمة اللغة العربية ونشر آدابها وتقويم ملكاتها وتنمية ثروتها من الألفاظ والمعاني والأخيلة، وتوثيق الصلات الأدبية بين مصر والأقطار العربية الأخرى)

وقلنا يوم قرأنا هذا البيان إن (الرسالة) تؤيد هذه الأغراض السامية من غير تحفظ، وتدخر غبطتها بها وتصفيقها لها ليوم التنفيذ، فان صوغ الأماني ووضع الأنظمة وإذاعة العزم شيء، وتجويد العمل وتنفيذ الفكرة وتحقيق الغرض شيء آخر.

فإذا قرأت هذا ثم علمت أن الموسم ذا الغرض الضخم أختصر في حفلة واحدة؛ وأن هذه الحفلة التي أقيمت بعد ثلاث سنين كانت مما يمكن أن يقام في كل أسبوع، وأن ما قيل فيها كان كله من الشعر المطبوع على غرار واحد، وأن أكثر هذا الشعر مما أنشد من قبل في الحفلات ونشر في الصحف، وأن في هذا الأكثر مالا يليق إلقاؤه في هذا الحفل، ندمت على أن أسرفت في التصفيق، وعلمت أن الشعراء يساعدون الزمن بكسلهم على إخماد الشعر. ولكن الأستاذين الهراوي والأسمر يقولان بعد ثلاثة أحوال ما قاله فند مولى

عائشة بنت سعد: (تعست العجلة).
على أن البدء في كل عمل صعب، وجمع الشعراء على أمر واحد شاق، والخطوة الأولى على كل حال نصف الطريق.

جماعة البعث والتجديد

تكونت من بعض أبناء الجامعة المصرية جماعة أدبية باسم (جماعة البعث والتجديد). وأغراضها كما يأتي:

1 - بعث الأدب العربي القديم ودراسته دراسات مستفيضة، ليستسيغه الجمهور ويقبل على كنوزه الغوالي.

2 - خلق أدب جديد يمثل نزعاتنا النفسية، وخوالجنا الروحية، ومثلنا الاجتماعية. فيه حياة فوارة، وخيال دقيق، وفن عالمي بكر.

3 - النقد النزيه الحر.

4 - إذاعة أروع ما ابتكرته القرائح العالمية، شرقية وغربية عن طريق التعريف والتلخيص والترجمة.

5 - رفع مستوى القارئ العادي إلى استساغة الجمال والأسلوب الفني.

6 - تنظيم مهرجان شعري لشعراء الشباب وإلقاء سلسلة من محاضرات ومناظرات وقراءات

7 - لسان حال الجماعة (مجلة الشباب) والاتصال بها يومياً من السادسة إلى السابعة مساء شخصياً أو بالمراسلة بعنوان (مجلة الشباب بميدان سوارس رقم 3 بمصر والجماعة ترحب بكل من يحب الانتماء إليها للعمل بمبادئها من أدباء الشباب الموهوبين وأدبياته الموهوبات من أبناء الجامعة المصرية

أما (مهرجان الشعر) فعام لشعراء الشباب جميعاً وسيعلن عن نظامه وموعده فيما بعد، والاتصال بشأنه بعامر محمد بحيرى أفندي بإدارة مجلة الشباب

تدهور التعليم العالي في ألمانيا

من الحقائق المعروفة أن الحركة الفكرية والتعليمية في ألمانيا قد اضمحلت في ظل الحكم الهتلري؛ فقد طاردت الحكومة الهتلرية أكابر الكتاب الذين لا يتفقون معها في الرأي السياسي وسيطرت على الصحافة وصفدتها بأغلال جعلت منها أداة حكومية للدعاية، وغيرت برامج التعليم لتتفق مع غاياتها السياسية، وبسطت نفوذها على الجامعات حتى جعلت منها منابر للدعوة النازية وهكذا

وقد اطلعنا أخيراً في بعض الصحف الكبرى على إحصاء يدل إلى أي مدى سحيق تدهورت الحركة التعليمية في ألمانيا في ظل الحكم النازي خلاصته أن طلبة الجامعة الألمانية بلغ عددهم في العام الدراسي الحالي نصف ما كانوا في صيف سنة 1933، وهى السنة التي تولى فيها هتلر الحكم، فقد كانوا يومئذ 14000 (أربعة عشر ألفاً)، وعددهم في هذا العام 7934 فقط؛ ولم يدخل الجامعات الألمانية في أوائل العام الدراسي المنقضي من الطلبة الجدد سوى سبعة آلاف، وكان عدد طلبة الجامعات والمدارس العالية في ألمانيا سنة 1933، 116000 طالب، فنزلوا هذا العام إلى 77 ألفاً فقط؛ وكانت الجامعات الصغيرة أشد تأثراً بهذا النقص الفادح، وهذه الأرقام تنطق بنفسها، وتدل دلالة واضحة على مبلغ التدهور الذي أصاب الحركة الفكرية في ألمانيا في عهد الهتلريين.

وهذه النتيجة تعتبر من جهة أخرى طبيعية منطقية في ألمانيا الهتلرية؛ ذلك أن نظرية الهتلريين في التربية تميل إلى الإسبارطية القديمة، وتؤثر التربية العسكرية والرياضية على أي نوع آخر من التربية، وتؤثر الأجسام القوية على العقول الراجحة، وعلى الرؤوس المستنيرة.

على أنه مهما كان من رأي الهتلريين ونظرياتهم في التربية، فان هذه النتيجة التي انتهت إليها ألمانيا في مثل هذا العهد القصير ليست مما يشهد للنظم الجديدة، وليست مما يدعم عظمة الأمم.

جمعية هندية للمباحث الإسلامية

تقوم في بومباي (الهند) منذ ثلاثة أعوام هيئة علمية إسلامية تسمى (جماعة البحث الإسلامي)؛ وهى هيئة علمية محضة غير طائفية وغير حزبية يشرف على تعضيدها أكابر

الزعماء والأمراء المسلمين، وتضم جماعة من أعظم المفكرين المسلمين في الهند وفي أوربا، وقد صدر أخيراً تقريرها السنوي الثالث وفيه أنها تعنى بنشر البحوث العلمية الخالصة، وإنها قد عملت لهذه الغاية بإصدار كتب خمسة، وأنها تعنى الآن بنشر طائفة اخرى، ومن ذلك ترجمة هندية لكتاب (تاريخي فيروز شاهي) من الفارسية. وترجمة لمقدمة ابن خلدون من العربية، وكتاب عن مذهب الشيعة؛ وتعنى هذه الجمعية العلمية بنشر المباحث الإسلامية الرفيعة في الهند.

أدبي

مجلة شهرية أدبية تظهر مؤقتاً مرة في كل ثلاثة شهور لصاحبها ومحررها الدكتور الشاعر أحمد زكى أبو شادي، وبين يدينا الآن العدد الأول منها وهو باقة من شتيت الزهر النضير تفتحت عنه قريحة هذا الشاعر الواثق بجهده المخلص لفنه، و (أدبي) مجلة للقراء لا للكتاب والشعراء؛ فهي خاصة بقلم صاحبها (وما يدور حول آثاره من تعليق ونقاش ومساجلة للزملاء الأدباء)، والدكتور أبو شادي مهما قال في إنتاجه النقد، قوة عاملة مؤثرة، وقريحة خصيبة مثمرة، وصوت عال من أصوات النهضة الأدبية لا يزال أينما حل يدعو وينبه

كانت القاهرة تضطرب بالجدل الأدبي العنيف، فرحل عنها فتولاها شئ من الخمول والصمت، وكانت الإسكندرية تضيق بالحياة الأدبية؛ فلما حل بها اعتراها نشاط أدبي عجيب لم تشهده منذ حين. نعتقد أن لو كان الدكتور أبو شادي صرف جهده المثابر في غير الأدب العقوق لكان له بين أقرانه شأن وأي شأن.

العدد 156 - بتاريخ: 29 - 06 - 1936

أروع أيام سعد

!لعل يوم الجمعة التاسع عشر من هذا الشهر كان أروع أيام سعد

انتصر فيه وهو رفاتٌ وفكرة وذكرى على الحقد الذي طالما نبح

المجد، وعلى السلطان الذي طالما قهر الزعامة.

كانت روعة أيامه الغر التي أسفرت عنها ليالي مالطا وسيشيل وجبل طارق من شخصيته التي طاولت العروش، وعزيمته التي صاولت الجيوش، وبلاغته التي عاجزت القدر؛ أما يوم نقل الرفات إلى الضريح الرسمي فكانت روعته من الفكرة التي ثبتت على الاضطهاد وغلبت على الاستبداد وظهرت على الإفك ظهور الدين على الشرك بالإيمان والإخلاص والتضحية. وسر الجلالة العظمى في سعد أنه كان وهو حي يمثل كبرياء الشعب، ثم اصبح وهو ميت يمثل سلطان الأمة. كان يمثل كبرياء الشعب لأنه خرج منه ونبغ فيه، فكان حجة له على كبرائه الذين كانوا يتأبهون عنه، ويلمزونه بالضعة، وينبزونه بالفلاحة؛ ثم عاد يمثل سلطان الأمة لأن جهاده الباسل بها ولها جعل اسمه رمزاً للاستقلال وعلماً على الدستور وعنواناً على الديمقراطية. فمظاهر الفرح المستطير، أو الحزن المُرمض، أو العزة المستطيلة، التي أعلنها الشعب يوم خرج من معتقله أو رجع من منفاه، ويوم الاحتفال بوفاته أو بنقل رفاته، كانت مظاهر صادقة لعواطفه المتحدة، صدرت عنه بدافع من نفسه وباعث من شعوره، لأن سعداً لم يعدْ رجلاً محدود الوجود بذاته ومميزاته ورغائبه، وإنما أصبح معنى مقدساً من معاني الشمول يختصر في نفسه خصائص جنسه، ويجمع قلبه أمانيَّ شعبه؛ فهو علم يخفق بالأمل، ومنارة تشع بالهداية، ورسول من رسل القيادة الذين يبعثهم الله إلى الناس في متاهة السُبل وضلالة النفوس فيكونون رمزاً لرجاء الإنسان في الله، ومثالاً لرحمة الله بالإنسان.

كانت النفس المصرية في ذلك اليوم المشهود على حال عجيبة من شتى الأحاسيس ومختلف العواطف: سرور مَزْهُوٌّ بفوز الإرادة القومية واستطاعتها بعد تسع سنين أن تصحح خطأً فادحاً من أخطاء الغرور الجاهل، وحزنٌ دخيل هادئ لاحتجاب الشعاع وقد غام الأفق واستعجم المسلك، ثم شماتة حانقة تصيح بالجبابرة الضعاف من أفواه الطرق ومنافذ البيوت، وعلى أطوره الشوارع وسُوح الميادين: أنا الأمة! أنا الإرادة الأولى، وأنا

!الكلمة الأخيرة

وكان في موكب الرفات المنتصر قوم يمشون، وجوههم إلى الأرض، وأفكارهم إلى الوراء، يقولون في أنفسهم: استعنا على كبْت هذا المجد الثائر بقوة السلطان وضجة

البرلمان وثورة الخزانة، فإذا كل أولئك معناه هَوَج العاصفة، ورهج الغبار، وسرف المطر؛ وإذا الشمس من فوق أولئك لا تزال ساطعة الشعاع دائبة الارتفاع لا يرتقى إليها صخب، ولا يعلق بها قَتَم! أن الموت نفسه قد إنخزلت عنه قواه فلم يستطع طمسه في عين الوجود ولا محوه من سمع الزمن. لا يزال ملء الحاضر وعدة المستقبل، ومن العناء الباطل أن يحاول الجبروت مهما طغى أن يدخله في الماضي.

هؤلاء هم الجند الذين طالما أكرهناهم على أن يطاردوه في الأقاليم، ويحاصروه في العواصم، ويصادروه في الأندية، ويضايقوه في المنازل، ويحولوا بينه وبين الشعب، قد انقلبوا - بأي معجزة لا أدري - فصاروا زينة لمجدة وقوة لوفده وحرساً لمبدئه!

وكان بازاء الباشا المفكر طالب صادق الحدس ألمعي الفراسة، لا يزال على وجهه الأبلج أثر من عِصِيّ الشرطة وبنادق الجند، فرأى بين الحي المستذل الضارع، وبين الميت المتجبر الشامخ، عبرة من عبر الدهر. وحكمة من حكم القدر؛ فهبَّ يصوغ من هذا المعنى هتافاً له ولرفاقه. ولكنه تذكر أن الوطني لا يحقد ولا يشمت ولا ينتقم، فاكتفي أن يقول للزعيم الرجيم في نفسه: لقد أدركت بعد الأوان أن المجد خير من الحطام، وأن الشعب أبقى من الحكومة! لقد بلغت كل عالٍ غير المجد، وربحت كل نفيس غير الشرف!

ذلك سعد مثال الزعامة الحق يا نواب الأمة! كان في مماته كما كان في حياته موضع القداسة منها وموطن الرجاء فيها، لأنه أول مصري حكمها بأمرها، وساسها برأيها، ونقلها من نظام القطيع إلى نظام الشورى، وحول خزانتها من المتاع الخاص إلى المتاع المشترك، وجعل العلاقة بين الأمة والحكومة (علاقة الجندي بالقائد، لا علاقة الطائر بالصائد).

كان سعد من الشعب وظل طول عمره مع الشعب. تجبر، ولكن على طغيان الثورة؛ وتكبر، ولكن على صلف المحتد. أما علينا وعلى أمثالنا من سواد الناس فكان كالأخ العطوف والوالد الحدب.

بهذه السيرة المجيدة في الحياة يقتدي أصحابه البررة؛ وبهذه العقلية السليمة في الحكم يسير

خليفته إلى الفوز؛ وبهذه الصفحة المشرقة في التاريخ يضع سعد للخاصة دستور الزعامة، ويضرب للعامة مثل البطولة؛ وبهذه المنزلة الفريدة التي نزلها من شعبه يتولد في النفوس الشابة الرغيبة طموح العظمة، فيسعون لها بالحق، ويتنافسون فيها بالكفاية.

هاتان سبيلان واضحتا المعالم بيّنتا الحدود في سياسة الأمة. أدت أولاهما بسعد إلى حياة الموت، وأسرعت أخراهما بفلان إلى موت الحياة! فهل لأكياس الناس بينهما خيار؟

احمد حسَن الزيات

ذات الثوب الأرجواني

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

(تنبيه - كل ما هو مكتوب هنا متخيل. وأنا يوافقني ويلائم مزاجي أن أجعل الكتابة على لساني)

- 3 -

سألني صاحبي وهو يجلس: (إلى أين إن شاء الله؟) قلت: (يا صاحبي العجلة من الشيطان. اجلس أولاً، وتناول - ثانياً - شيئاً، ثم سل ما بدا لك بعد ذلك. على أني أستطيع أن أريح فؤادك القلق، فأقول لك أنا ذاهبون إلى القناطر الخيرية؛ فهل ارتاح قلبك يا مولاي؟)

فصاح بي وهو يخرج السيجارة: (القناطر؟. . . ماذا أخطرها ببالك؟. . . وماذا تصنع هناك في هذا الحر؟. . . شيء غريب!)

قلت: (يا أخي إنك تفاجأ بالخبر فتستغربه، أما أنا فقد أطلت التفكير في الأمر، وعرضت لي آراء شتى نفيتها واحدا بعد واحد، حتى استقر رأيي أخيراً على القناطر)

قال: (ولكن الجو حار الآن. . . الساعة العاشرة، وسنشتوي هناك؛ وأين يمكن أن نجد طعاماً أو شراباً؟) قلت: (لعلك تظن أن القناطر صحراء سيناء. . . ومع ذلك لا تخف أن تجوع، فقد أعددت لمعدتك كل ما تحتاج إليه من طعام و. . .)

قال: (ولكني رأيت السيارة ونظرت فيها فلم أجد شيئاً، وأخشى أن تكون - كعادتك - معتمداً على أنها مدينة عظيمة مقصودة من الناس، ثم نذهب فلا نجد شيئاً)
قلت: (بل ستجد كل شئ. والآن دعنا من حديث المعدة واسمع: إذا رأيت مني ما تنكر، أعني ما يخالف المألوف من عاداتي فرجائي إليك أن تذكر قول الشاعر:
إن من ساءه الزمان بشيء ... لحقيق إذن بأن يتسلى
(فهل أنت لبيب تكفيه الإشارة أم لا بد أن. . .؟)
وفي هذه اللحظة أقبلت الفتاة - أم تراني لم أخبر القارئ أن فتاة كانت ستقبل؟؟ على كل حال. . . المهم أنه - أعني القارئ - قد عرف أن فتاة قد أقبلت، ولا شك أنه استنتج من قولي هذا أنها وسيمة - ولا أبالغ فأقول جميلة - وأن الموعد كان مرتباً من قبل. ونظر صديقي إليها ثم إليّ وهز رأسه ووقف استعداداً لاستقبالها وتحيتها. وكان وجهه كالطماطم
أعني أحمر جداً - وليس هذا لونه في العادة، وإن كان صحيح الجسم، معافى البدن، - حسن اللون والشارة؛ ولكنه شديد الحياء. فقلت للفتاة: (زوزو. . . هذا صديقي الذي حدثتك عنه؛ وفي وسعك أن تعديه صديقاً لك أيضاً. . هل جاءت ليلى؟؟)
قالت وهي تناوله يدها: (نعم. . . وهي تنتظر في الخارج) قلت: (ولماذا لم تدخل؟. . هل أذهب وأدعوها؟) قالت: (كلا. أن معها الأشياء. . . . والأفضل أن نذهب الآن)
ومضينا إلى القناطر على مهل، وكانت السيارة جديدة، ولا بد أن أقتصد في السرعة حتى تلين وتكتسب آلاتها المرونة الأزمة وإلا فسدت وخربت بسرعة وقصر عمرها.
وكانت زوزو وليلى تنظران إلى السيارات الأخرى التي تخطف إلى جانبنا وتتركنا وراءها فتتحسران. وكانت زوزو لا تفتأ تقول لي: (ألا يمكن أن ندرك هذه السيارة؟) وتشير إلى واحدة من السيارات الكثيرة التي كانت تمرق كالسهم، فأقول: (بالطبع نستطيع، ولكن الثمن باهظ. ثم إن العجلة من الشيطان؛ وقد كنت قبل مجيئك ألقي درساً إلى هذا الصديق في وجوب التريث وتحاشي العجلة. والظاهر أنك لست خيراً منه ولا أقل حاجة إلى مثل هذه الدروس التي أعطيها للناس مجاناً)
فتصيح بي: (دروس إيه وعجلة إيه؟؟. كلام فارغ!! كيف تترك هذه السيارات تسبقنا، مع أن سيارتك جديدة وجميلة؟) فأقول: (أشكرك - بالنيابة عن السيارة. ولو كان لها لسان لأسمعتك المطرب المعجب من آيات شكرها وتقديرها لهذا الثناء الجميل، ولكنها كما تعلمين خرساء بكماء لا تحسن إلا أن تجري)
فتقاطعني معترضة: (تجري؟؟ تقول تجري؟؟ إنها تزحف!! ألا ترى كيف سبقنا كل الناس؟. . هل تريد أن نصل إلى القناطر غداً؟)
فأتوكل على الله وأجازف بمستقبل السيارة وأعذر في سري الشبان الذين يكونون مع الفتيات فينطلقون كالقنابل فتتحطم سياراتهم، وقد يلقون هم حتوفهم؛ فأن وجود فتاة مع السائق يغريه بإهمال ما يشير به العقل والحكمة. وقد أركبت فتيات كثيرات فلم أر منهن واحدة ترتاح إلى البطء، وأحسب السبب أن السرعة مظهر من مظاهر القوة وأن السبق غلبة، والمرأة تعجب بالرجل القوي السابق، ولا تعجب بالرجل الضعيف الواني، وهي لا تدخل في حسابها أن هذه سيارة وأن المعول عليها لا على الرجل، وأن الذنب يكون ذنبها
إذا قصرت وكانت بطيئة أو ضعيفة. وإنما كل ما تفكر فيه وتعنى به أن معها رجلاً، وأن رجلها هذا ينبغي أن يكون الأقوى والأبرز والأسرع والأبرع، إلى آخر ذلك. وهو عندها مسئول عن السيارة التي لم يصنعها. ولعل منطقها أنه اشترى سيارة، فلماذا لم يشتر سيارة قوية سريعة؟؟ وقد يكون قليل المال ولكن هذا لا ينهض عذراً له، إذ لماذا يكون قليل المال؟؟ وقد تكون السرعة بغيضة إليه، ولكن الأمر يرجع إلى تقديرها هي لا إلى تقديره، ولا إلى ما يؤثر وما يكره. وإذا كان لا بد أن يتوخى ما يشير به مزاجه، فلماذا يستصحب امرأة؟؟
من أجل هذا اضطررت أن أسرع على خلاف ما يقضي به الواجب والحزم وإلا ساء رأي صاحبتي فيّ، ومن الذي يسره أن يسوء رأي المرأة فيه؟؟ ولا سيما امرأة تكون معه ويكون همه في هذه اللحظة على الأقل أن يرضيها. . وأدركنا بضع سيارات سبقناها ففرحت واشرق وجهها وانبسطت أسارير محياها وكثر ضحكها - بل ضحكهما - بعد التقطيب والوجوم والاعتراض وصارت كلما مرقنا بجانب سيارة تصفق وتصيح

(هيه!!) على سبيل الإعجاب بالسيارة التي هي فيها - أي الإعجاب بنفسها، فان إعجاب المرأة بشيء يكون لها مظهر لإعجابها بنفسها هي - والشماتة بالمسبوق والتعيير له والتحدي أيضاً؛ والمرأة إذا أعجبت برجل جعلت وكدها أن تتحدى الرجال به على صور شتى بعضها أخفي من بعض. وما أكثر ما يكون استمرار إعجابها به رهناً باستمرار فوزه على الأقران وغلبته لهم فيما تورطه فيه.

وبلغنا القناطر بعد نصف ساعة؛ وكانت هذه أول مرة تراها فيها فأقبلت علي تسألني عن كل ما تأخذه العين هناك وجعلت أنا أحيلها على صديقي لا تفزع للسير ومآزقه في هذا الزحام الشديد حتى صرنا عند أول البساتين، وكانت الإحالة على صديقي تغضبها لتوهمها أن ذلك مبعثه الملل أو الأعراض، ولا ملل ولا إعراض منى وإنما هي مشاغل الطريق؛ غير أن المرأة قل أن تقدر ذلك لأن خواطرها كلها دائرة حول نفسها وشخصها، وهي تفسر كل شيء بأنه صادر عن حب أو كره، وعن رغبة أو زهد، وعن إقبال أو انصراف وإعراض، وعن ارتياح أو ملل وسآمة.

وقال لي صاحبي ونحن ندخل البساتين والفتاتان أمامنا: (والآن قل لي ماذا ساءك من زمانك ويوشك أن يخرج بك عن طورك؟)

قلت: (يا أخي إني شاكر لك - وأنت تعلم صدقي - هذه العناية بالاطمئنان على، ولكنى لو أفضيت إليك بهذا السر لما بقيت له لذة تخفف آلمه. انتظر حتى يفتر كل شيء - الألم واللذة جميعاً - فلا يعدو الكلام حينئذ أن يكون حديثاً عن شيء مضى ولا يكاد يعنيني)

فهز رأسه ومضى عنى إلى الفتاتين.

وظللت طوال النهار أضحك وألعب وأثب وأجري وآكل وأشرب وأرسلت نفسي على سجيتها - وإن كان ينقضي أن أعرف أن الخفة من سجاياي - وخلعت ثوب الاحتشام ورحت أكلم من لا أعرف وادعوا إلى طعامنا كل من يمر بنا - رجلاً كان أو امرأة أو طفلاً - وأبدأ بالحديث من لم أر وجهه إلا في ذلك اليوم، وأخطف الكرة ممن يتقاذفونها، وأجر رجلَ هذا، وأشد أذنَ ذاك، وأفعل ما يفعل الأطفال عادة إذا شجعتهم فأنسوا منك الارتياح إلى عبثهم، حتى ضج صاحبي وضاق صدره ولم يعد يطيق هذا الخلق العظيم الذي حف بنا واندمج فينا وشاركني وشاركته في اللعب والضحك والجري. فركبنا زورقاً صغيراً؛ لكن هذا لم ينجه ولم يمنع أن أمضى فيما وطنت النفس عليه في ذلك اليوم، فقد كان هناك زوارق أخرى فصرت أدنو بالقارب منها حتى أحاذيها، ثم أروح أعابث من فيها، فنفذ صبر صديقي وأمر النوتي أن ينأى بنا عن الخلق جميعاً فاستلقيت على ظهري وأغمضت عيني تظاهرت بالنوم.

ولكنى لم أنم، وإنما كنت أحدث نفسي وأسألها عن جدوى هذا الذي صنعت؟ أتراه أنساني شيئاً أو أذهلني عما بي؟؟ ولم يسعني إلا أن أعترف بأن كل ما صنعت كان عبثاً. فقد كانت ذات الثوب الأرجواني ماثلة أبداً أمام ناظري لا تبرحه ولا تفتر صورتها التي تلازمني، وكنت أراها في كل من أرى ما تأخذه العين، فأنا حين أنظر إلى واحدة من هاتين الفتاتين لا أراها وإنما أرى ذات الثوب الأرجواني، ويفتنني منظر فأقول لمن معي: (انظروا. . . ما أبدع هذا) ويكون الذي يفتنني منه ذات الثوب الأرجواني التي تبدو لي في إطار من هذا المنظر. ولما ركبنا الزورق كان يخيل إلى أنها سابحة في الماء كعرائس البحر، وما سمعت ضحكة ناعمة إلا قلت لنفسي لعل ضحكتها أرق وأسحر.

وأعجب من هذا أنى كنت أجدني وأنا أضاحك الناس وأحدثهم وألاعبهم وأسابقهم أفكر فيها

وأسأل نفسي عنها - وكان حسبي ما أنا فيه مما يستغرق جهد النفس - وأقول - في سري وبيني وبين نفسي - هل أنت تحبها؟؟ أواثقٌ أنت أن هذا هو الحب. . فتجيبني النفس أن نعم لاشك في ذلك، فأكر عليها معترضاً على هذا التأكيد وأقول: ولكنك لا تعرفها. . لا تعرف حتى اسمها. . وما رأيتها إلا عن بعد فماذا تحب منها. . لا تستطيع أن تدعي أنك واجد فيها غير صورة جسمية هي التي تتراءى لك من هذا البعد. ولعلها لو دنت قليلاً لطالعك منها ما لا ترتاح إليه، فالأرجح أنك تحب منها صورة ألفتها أنت من الألوان التي استعرتها منها. ولا شك أنك زدت هذه الألوان قوة وأضفت إليها من خيالك. ولو أنك كنت مصورا وحاولت أن ترسم لها صورة من ذاكرتك لما استطعت أن

تثبت شيئاً من ملامحها، ولجاء الرسم لمخلوق من مخلوقات خيالك أنت، وإن كان لا يخلو من شبه بذات الثوب الأرجواني. فحتى الصورة المادية - أو الجسمية - التي تبدو لك ليست ثابتة ولا مقررة في نفسك، لأن الصور لا تثبت خطوطها وألوانها على مثل هذا البعد. ومن السهل أن تُعَفي علها وتمحوها صور أخرى تكون أثبت لأنها تكون أقرب فأقدر على التأثير وأنفذ بسبب القرب إلى أعماق النفس والاستقرار فيها. ولو أن صورة ذات الثوب الأرجواني كانت عميقة الأثر في نفسك ومنقوشة بألوانها وخطوطها المميزة لها على صدرك، أكنت تظن أن في وسعك أن تتسلى كما تتسلى الآن بهذه الفتاة أو تلك ممن تعرف؟؟ أكان يمكن أن ترتاح إلى وجود غيرها وإن كنت تزعم أنك تتسلى؟؟ لا يا صاحبي!. . وحسبك أن تسأل نفسك بأي شيء تذكرها. . ماذا في نفسك منها غير صورتها في النافذة كما تستطيع أن تراها على بعد ثلاثين مترا!؟ لو كنت كلمتها رأيت ابتسامتها ونظرة عينيها ومنطق وجهها وتعبير محياها، وكنت تكون إذ ترق وتحنو، وحين يسرها شئ، وعندما تبدو عليها اللهفة أو الجزع أو الاضطراب، والزهد في شيء والرغبة في آخر، وحينما تتدلل أو تسخو، وإذ تضحك أو تتجهم!! لو كنت رأيت شيئًا من ذلك لامكن أن تقول انك عرفتها وأحببتها، ولكان لحبك لها غذاءٌ ومددٌ من ذكريات هذه الحالات المختلفة. . أما الآن فبماذا يتغذى حبك؟؟ على أي شيء يعيش؟؟ بأي شيء تذكرها إذا غابت عنك. . . بصورة هي أشد غموضاً من الرسم الفوتوغرافي وأخفى منه تعبيرا؟؟ وهي مثلك. . . أتزعم أنها توليك عناية واهتماما، وأنها تفكر فيك، وأنها لا تفتأ تنظر إليك؟ فما يدريك أن هذا ليس من باب التطلع ومن قبيل الاستغراب أو إطاعة لرغبة نشأت في الوقوف على حالات غريبة تبدو من شخص يستحق عناية على كل حال لسبب من الأسباب التي تدعو إلى العناية؟؟ هه؟؟ وهبها - جدلا - أحبتك كما تظن أنك تحبها فان شأنها كشأنك!. . ولعلكما لو تلاقيتما لكره كل منكما صاحبه، أو نفر منه، على الأقل، أو إذا شئت، لفتر ما يجد من الحب، إذ كان لا أساس له إلا الصور الغامضة التي ينقصها البيان والتأثير الذاتي المباشر. . ويظهر أنها مثلك واسعة الخيال. . وشبابها هو عذرها إذا جمح خيالها. . فإنها غريرة ساذجة لا تعرف الدنيا. وأكبر الظن أنها لم تجرب الحب فهي لهذا شديدة الحنين إليه. ولكن أنت؟. أنت؟. أنت المجرب الذي عرف المرأة ودرس وخبر كل ما يسع الرجل أن يخبر. . كيف يمكن أن تخدع نفسك وتغلط على هذا النحو في فهم شعورك؟ إن هذا منك مضحك!

وقد اعترضت على نفسي وأبيت أن أسايرها إلى حيث تريد فأني أعرفها خبيثة شديدة المغالطة، وقلت لها: (كيف تزعمين يا نفسي أن لا شيء عندي من الذكريات أغذي بها حبها؟ ألم تسمعني صوتها في ضحكة فضية؟ (واها لهذا الرنين)! أليست تبدو - أكثر الوقت - في الثوب الأرجواني الذي تعرف أني أحبه؟ أتسألين يا نفس كيف عرفتْ أنى أحب هذا الثوب؟. قبحك الله!. وما شأنك أنت؟. أعرف أنها تعرف والسلام! وأنا على يقين من أنها تعرف. وبيني وبينها لغة لا تحتاج إلى الكلام ولا إلى النظر. . . لغة أفهمها وتفهمها وإن كان كلانا معرضاً عن صاحبه، لأنها ذكية - مثلي ولا فخر - فهي تدرك أنى حين أكف عن النظر إليها، يلتفت قلبي إليها، وإن كانت عيني قد تحولت عنها لسبب غير إرادة النفس وهوى الفؤاد. . ولا يخفى عليها أني حين أنظر إلى ترام عابر أو سيارة تخطف في الطريق أو زمرة مارة، فأني إنما افعل ذلك لأني أخاف عليها من الناس أن يلهجوا بنا. وليبقى حبي وحبها كنزاً لا يعرف سرَّه غيرُنا. . ولا يشاركنا فيه - بالعلم - ثالثٌ. ولست أكلمها - هذا صحيح - ولا أنا أشير إليها، لأني أعرف أنها تعرف أن الإشارة تحصيل حاصل. وما ثلاثون متراً بيننا؟؟ إن قلبها كتاب مفتوح؛ وهل تستطيع الزهرة الأرجة أن تكتم الشذى؟؟. نعم إنها حريصة كيسة، ولكنى مع ذلك أعرف حين أراها مقطبة عابسة أن قلبها يضحك وإن كانت نظرتها صارمة الجد. . ولقد بدت منها إشارات تعمدت ألا أفهمها - لا لأني لم أفهم بل لأني خفت أن تكون قد صدرت عنها عفواً وعلى غير عمد، فأكون قد

تسرعت وأسأت التأويل. ولا أقول ما هذه الإشارات فأني حريص على الاستئثار بها والانفراد دون خلق الله بمعرفتها. وما أكثر ما أذكر من حالاتها حين تكون وحدها وحين يكون معها غيرها. . وهل أنسى أنها حين تغضب عليّ لبلادتي وبطئ فهمي تذهب فتلبس ثوباً غير الأرجوانى؟؟ هل أنسى كيف تلف على شعرها شريطاً وتترك خصلة

الوطفاء مرسلة على جانبي محياها الصابح يبعث بها النسيم فتهز رأسها لتردها وتصلح منها وتسويها؟؟. هل أنسى كيف تجلس وفي يدها الكتاب - على ركبتها - وظهرها إلي وهي مع ذلك تراني وتعرف أنى أنظر إليها ومعجب بها ومتلهف على نظرة منها؟؟ هل أنسى كيف تكايدني وتهيجني وتثير نفسي لتمتحن حبي وترى ماذا يكون من اثر ذلك في نفسي؟؟ وما أعذب مكايدتها وأحلاها!!. وما أجهلها بي إذا كانت تظن أن شيئاً من ذلك يثيرني ويغضبني! فان في وسعي - دائماً - أن أضع نفسي في مكان الغير، وأن أتصور ما يُعْقَلُ أن يصدر عنه وأن اقدر البواعث على ما يبدر منه فاعذره في الأغلب. . والحق أقول إني أراها مقصرة في مكايدتي لا مسرفة. ولا أنكر أنه يعز علي أن تغيب عن عيني، ولكني أنا مضطر أن أغيب عنها وأنقطع عن النظر إليها، وعزائي أنى لا أنعم بأكثر من مرآها وأنها لم تهبني أكثر من منظرها من بعيد، وأنها لم تولني ما أتحسر على فقده إذا فقدته؛ وما دام هذا هكذا فأني أستطيع أن أراها بعين الخيال كما أراها بعيني التي في رأسي. ولو أني كنت مكانها لعرفت كيف أكايدها، فلتحمد الله الذي خلقني رجلاً ولم يخلقني امرأة.

ولو شئت لعذبتها ولكنى أثر الترفق - بطبعي - وإن كنت لخبرتي بالطبيعة البشرية من أعرق الناس بوسائل التعذيب. وأنا أسأل نفسي دائماً (لماذا أعذبها وأنا أحبها؟، وبماذا تستحق التعذيب وهي لو وسعها أن ترضيني لأرضتني؟ لاشك فلي ذلك، وصحيح أنه يسعها أكثر مما تبدي ولكني لا أحب أن أعجل باللوم. . ومن يدري؟. لقد علمتني حياتي أن اليأس سخافة، وأن العجلة من الشيطان، كما أقول لصديقي، وأن طول البال ينيل الأمل، كما يقول المثل العامي، وأن الغضب حماقة، وأن العتاب عبث، وهو في النهاية يفتر الحب، وأنا أحب هذه الأرجوانية الثوب وأحب أن يطول حبها لي، لأني أعرف من نفسي أن حبي لا يفتر وإن كان في وسعي - بفضل رياضتي لنفسي - أن أستر ناره بالرماد. كلا لن أكايدها وسأصبر عليها وأملي لها وأمهلها لأرى ما يكون منها ولأختبر مبلغ حبها فأني

على الرغم من الحب أوثر أن أقدّر لرجلي قبل الخطو موضعها. فإذا رأيت منها ما يطمئن خرجت عن هذا التحفظ الثقيل عليها وعليَّ أيضاً وإلا فأني قادر على خنق هذا الحب ولو كلفني تقليع أحشائي من جذورها.

في هذا كنت أفكر، وبهذا كنت أناجى نفسي، وأنا ألاعب هذه الفتاة وتلك وأضاحكهما وأسابقهما وأسخط صديقي على بترك الاحتشام الذي ألفه منى حتى صار يستغرب منى الابتسام، وليس أعجب من اشتغال النفس بأمرين في وقت واحد. ولكنى لا أكتب مقالاً في علم النفس وإنما أسوق حكاية وأصف حالة فيحسن أن أقتصر على ذلك.

وقد عدت من القناطر بغير ما كنت أرجو أن أفوز به. نعم لهوتُ وضحكت وبدوت لمن لا يعرفني كأسعد ما يكون إنسان. ومن ذا الذي يمكن أن يسمع ضحكتي ويرى وثبي وقفزي ويرتاب في أنى سعيد موفق؟؟ ولكن صديقي كان يعلم أن في صدري شيئاً أكتمه، وأن ما انطوى عليه ليس مما يهون حمله، وإلا لما التمست التلهي ونشدت التعزي، غير أنه كان على هذا يجهل - ومن أين يعرف؟ - أن في جوفي ناراً مضطرمة من القلق والشك والحيرة والاضطراب وقد خرجت من الحوار الذي دار بيني وبين نفسي بالشك وباعتقاد أنى جاهل ما في ضمير الفؤاد - أو على الأقل أن الأمر فيه نظر كبير فالحق أن معرفة النفس أشق المعارف وأعسرها مطلباً. .

إبراهيم عبد القادر المازني

حلم الدولة اليهودية والوطن القومي اليهودي

لمؤرخ كبير

مضى اليوم أكثر من شهرين مذ بدأت فلسطين ثورتها القومية المضطرمة؛ وقد حسب الاستعمار يوم نشوبها أنه أمام حركة تذمر عادية يسهل قمعها بالوسائل المعتادة فإذا به أمام ثورة قومية عامة، وعزم راسخ على النضال، ومعركة حياة أو موت من شعب يؤثر السقوط في ميدان الكفاح الشريف، على الإعدام البطيء المنظم.

ولقد بسطت (الرسالة) قضية فلسطين في مقال سابق، بين فيه كاتبه مبلغ ما ترزح تحته هذه الأمة الصغيرة الباسلة من صنوف الاستعباد المرهق، السياسي والاقتصادي والاجتماعي، سواء من جانب السياسة البريطانية التي قضت باختيار فلسطين منزلاً للوطن القومي اليهودي أو من جانب الصهيونية التي تعمل لتوطيد دعائم هذا الوطن

اليهودي بكل ما وسعت من وسائل الضغط المالي والثقافي متمتعة في جهودها برعاية السياسة البريطانية ومؤازرتها.

وإذا كنا لا نستطيع الآن أن نتنبأ بما تفيده السياسة البريطانية من هذا الدرس، أو بما تزمع أن تتخذه من الخطط الجديدة في المستقبل نحو فلسطين، فأنا نستطيع من جهة أخرى أن نقول إن هذه الفورة العنيفة التي قامت بها فلسطين سيكون لها أثرها العميق في صدع أركان الوطن القومي اليهودي، وفي التدليل على ما في صياغته وتكوينه من أوجه الخيال والعوامل المصطنعة التي تتعارض مع الحقائق التاريخية والعلمية.

إن إنشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين، هو الخطوة العملية الأولى في برنامج الصهيونية الحديثة؛ وهو التمهيد لإنشاء الدولة اليهودية التي هي غاية الصهيونية الحقيقية؛ واليهودية تحلم بإنشاء هذا الوطن القومي وتعمل له منذ أكثر من قرن؛ ولكن برنامج اليهودية النهائي لإنشاء الوطن القومي لم يوضع إلا في أواخر القرن الماضي، حيث بدأ زعماء اليهودية يجمعون المال لإنشاء المستعمرات في فلسطين ويبذلون جهودهم لدى الباب العالي، وحيث أذاع تيودور هرتسل، رسول الصهيونية الحديثة وروحها المضطرم، رسالته الشهيرة عن الدولة اليهودية: وهرتسل كاتب وصحفي يهودي نمسوي، ظهر في أواخر القرن الماضي في فينا بكتاباته الملتهبة في سبيل القضية اليهودية، فالفت صيحته أفقاً صالحاً لأن معظم الدول الأوربية كانت تجيش يومئذ بعوامل الخصومة السامية، وتلقى اليهودية الاضطهاد المنظم في كل مكان. وفي كتاب (الدولة اليهودية) يعرض هرتسل فكرة الوطن القومي عرضا قوياً، ويرى أن يتخذ هذا الوطن صورة دولة يهودية في فلسطين تكون تحت سيادة الباب العالي، وتؤدى له الجزية، وتكون البقاع المقدسة منطقة مستقلة ذات نظام خاص؛ فصادفت الدعوة نجاحاً عظيما بين أقطاب اليهودية في أنحاء العالم كله، وانتظمت الحركة تحت لواء هرتسل وزعامته. وفي أغسطس سنة 1897، عقد مؤتمر يهودي عام في بازل (سويسرا) برياسة هرتسل، ووضع فيه برنامج الصهيونية الرسمي، وعرفت غاياتها ووسائلها على النحو الآتي:

تسعى الصهيونية لتحقق للشعب اليهودي إنشاء وطن قومي في فلسطين يتمتع) بالضمانات التي يقررها القانون العام، ويرى المؤتمر أن يتذرع بالوسائل الآتية لتحقيق هذه الغاية:

(1) أن يشجع استعمار فلسطين بواسطة الزراع والعمال والصناع.

(2) أن ينظم العالم اليهودي بأسره وأن يحشد في الجماعات المحلية أو العامة طبقا لقوانين البلاد المختلفة.

(3) أن تقوى لدى اليهود عواطف الكرامة القومية والاعتزاز بالجنس.

(4) أن تبذل المساعي اللازمة للحصول على التصريحات الرسمية الضرورية لتحقيق غاية الصهيونية.

هذا هو هيكل الصهيونية وبرنامجها العملي؛ وقد تطورت ظروف العالم السياسية منذ عصر هرتسل ومؤتمر بازل، واستطاعت الصهيونية بعد جهود ومحاولات عديدة أن تلقى فرصتها في الحرب الكبرى، وأن تظفر بتحقيق الشطر الأول من برنامجها بإنشاء الوطن القومي في فلسطين، ولكن لا تحت سيادة الباب العإلي، وانما تحت السيادة البريطانية، وذلك بمقتضى عهد بلفور الذي قطعته الحكومة البريطانية على نفسها في نوفمبر سنة 1917.

وقد مضى على قيام الوطن القومي اليهودي في فلسطين زهاء تسعة عشر عاماً، وأصبح في ظل الانتداب البريطاني، وطبقاً لنصوص الانتداب ذاته، من الوجهة الدولية، نظاماً شرعياً معترفاً به من جميع الدول الكبرى؛ وفي هذه الفترة بذلت اليهودية جهوداً جبارة لإقامة هذا الصرح القومي الذي تحلم به منذ الآماد، فتدفقت الهجرة اليهودية إلى فلسطين حتى أصبح عدد اليهود فبها زهاء نصف مليون، وأقيمت المستعمرات والمشاريع اليهودية الضخمة في جميع أنحاء البلاد، وأنشئت مدينة تل أبيب لتكون عاصمة الوطن الجديد، وأقيمة جامعة عبرية لتعمل لأحياء التراث اليهودي الروحي والفكري؛ وعلى الجملة فقد استطاعت اليهودية أن تحقق في فلسطين كثيراً من

المظاهر المادية والاقتصادية والاجتماعية للوطن القومي اليهودي.
ولكن هذه المظاهر على ضخامتها وقوتها تبدو اليوم ضئيلة واهنة أمام ثورة الشعب الذي يقام هذا الوطن في أرضه، وعلى أنقاض حقوقه وموارده؛ فاليوم يهاجم الوطن اليهودي، ويطعن من كل صوب، وتقوض مستعمراته ومنشآته، وتعطل جميع مرافقه ومصالحه، وتشل جميع حركاته ومعاملاته، ويكاد يغدو في حالة حصار مطبق؛ كل ذلك تحت بصر القوى الاستعمارية التي هرعت إلى فلسطين لحمايته. وقد شعرت الصهيونية من قبل غير مرة بخطر الفورات القومية الفلسطينية على صرحها، ولكنها لم تكن تتصور أن الخطر قد يبلغ هذا المدى من الروعة، أو أن هذه الأمة العربية الصغيرة يمكن أن تضطلع بمثل هذا الكفاح الشاق الجلد؛ وإذا لم يكن ثمة ريب في أن القوى الاستعمارية الغاشمة ستتغلب في النهاية على الكفاح القومي الباسل، فانه لا ريب أيضاً في الوطن القومي اليهودي سيخرج من المعركة مثخناً بالجراح، وقد وهنت قواه المادية والمعنوية، وزادت شكوك الصهيونية وهواجسها نحو المستقبل الغامض.
والواقع أن فكرة الوطن القومي اليهودي لم تكن بنت القرن التاسع عشر فقط، ولكنها ترجع إلى أقدم العصور؛ فمذ حطمت مملكة أورشليم اليهودية منذ نحو ألفي عام، وشتت اليهود في أنحاء الأرض، تحلم اليهودية بالعود إلى أرض إسرائيل؛ ومع أن الجماعات اليهودية قد استقرت في الأراضي التي استوطنتها مدى القرون، غير أنها لم تندمج قط في الشعوب التي عاشت بين ظهرانيها، ولبثت تكون دائماً مجتمعات مستقلة. وترجع اليهودية تلك الظاهرة إلى نظم الاضطهاد والعزلة التي كانت تفرض على اليهود، وحرمانهم من الحقوق السياسية والمدنية طوال القرون، حتى أنهم كانوا يرغمون على السكن والاحتشاد في أماكن خاصة تسمى (الجيتوّ). ولكن الحقيقة أن اليهودية هي التي اختارت لنفسها هذه العزلة،
وهذا الاستقلال الخالد عند الشعوب التي استقرت فيها. ذلك أن اليهودية كانت وما زالت تعتبر دائماً أن الدين هو جامعة الجنس بين اليهود، وأن اليهودية هي ملاذ الشعب اليهودي أينما حل، وبعبارة أخرى إن الدين والجنسية بالنسبة لليهود هما وحدة لا تتجزأ. وهذا هو الخطأ الخالد الذي وقعت فيه اليهودية، والذي أثار عليها في كل العصور ريب الشعوب وحقدها، والذي هو في الواقع أكبر عامل في تحريك الخصومة السامية. وهذا هو الأساس الخاطئ الذي تبنى عليه فكرة الوطن القومي الذي يجتمع فيه اليهود من جميع الجنسيات واللغات.
وقد فطن إلى هذا الخطأ الذي هو عنوان التعصب الخالد بعض أقطاب اليهودية، وحاولوا أن يدعوا إلى فصل الدين عن الجنسية، وإلى تشبه اليهود بسائر الشعوب في اعتبار الدين مسألة روحية محضة لا علاقة لها بالجنسية؛ دعا إلى ذلك الفيلسوف الألماني اليهودي موسى مندلزون في القرن الثامن عشر، ورأي أن تتخذ القومية اليهودية صبغة محلية، فينعدو اليهود من أبناء البلد الذي استوطنوه مع احتفاظهم بتراثهم الروحي؛ وآزر مندلزون في هذه الدعوة بعض أكابر المفكرين الألمان من غير اليهود مثل الكاتب الشهير لسنج وغيره؛ ولكن هذه القومية المعتدلة التي أملى بها جو التسامح الذي نعمت به اليهودية يومئذ لم تلق كبير تأييد، ولم يطل أمدها، واستمرت الفكرة الدينية القديمة على قوتها وحدتها.
والوطن القومي اليهودي يقوم كما قدمنا على نفس هذا الأساس، أي على جامعة الدين؛ وهذه أكبر نقط الضعف المعنوي في بنائه، فالقوميات والشعوب الحديثة لا تقام باسم الدين؛ ولم يبق الدين في بلد من بلاد العالم المتمدين أساساً للدولة؛ ثم إن هذا الضعف المعنوي في الوطن اليهودي يتخذ مظاهره المادية، ففي فلسطين يجتمع الآن يهود من جميع الجنسيات والثقافات واللغات والنزعات السياسية، ومن المحقق أن العمل الإجماعي المتناسق بين هذه العقليات والبيئات المتباينة صعب التحقيق. والواقع أن معظم اليهود المهاجرين يفدون على فلسطين لبواعث اقتصادية قبل كل شئ، ولكي يحققوا لأنفسهم بعض وسائل العيش التي يفتقدونها في بلادهم الأصيلة؛ ومنهم من يفد قراراً من الاضطهاد الذي يفرض عليه؛ وهنا نستطيع أن نقول إن الوطن القومي الحديث كان وليد الخصومة السامية (حركة العداء ضد اليهود) أكثر من أي عامل آخر؛ وهذا أيضاً عامل مصطنع في بنائه؛ وإذا كان الوطن

القومي قد أحرز في فلسطيني شيئاً من النجاح والتوسع من حيث الاحتشاد والاستثمار الاقتصادي، فذلك يرجع قبل كل شيء إلى الأموال الطائلة التي تستثمرها الرأسمالية اليهودية؛ والرأسمالية لا تعرف وطناً ولا ديناً، ولا تعرف إلا الفوائد والمغانم المادية.

والخلاصة أن الوطن القومي اليهودي يقوم على عوامل وأسس مصطنعة يكشف الزمن عن ضعفها شيئا فشيئا؛ والزمن وحده كفيل بأن يبين لليهودية أن مشروع الوطن القومي والدولة اليهودية إنما هو حلم عظيم جاشت به أذهان بعض المتعصبين من أقطاب اليهودية ومفكريها، وأنه لا يمكن أن يعتبر بوضعه الحاضر أكثر من مشروع اقتصادي تؤيده الحراب البريطانية، فكل ما يحرزه من نجاح أو يصيبه من فشل يرجع إلى قواعد الاقتصاد العادية دون غيرها؛ وما جامعة الدين التي تستظل بها اليهودية، إلا طلاء السياسة، وهي أضعف من أن تقيم في عصرنا دولة أو وطنا.

مؤرخ

حادثة فلسطين

للأستاذ علي الطنطاوي

لئن كانت حادثة الحبشة فضيحة القرن العشرين، فان حادثة فلسطين - إن تمت - . . . فضيحة الدهر، وعار يلحق كل من يقول: أنا إنسان . . .

بيد أن الحبشة إن غلبت بملايينها وسلاحها وجيوشها، فان هذا الشعب الأعزل الذي لا يبلغ المليون الواحد لن يغلب على أرضه أبداً، لأن وراءه سبعين مليوناً من العرب، إن وراءه أربعمائة مليون من المسلمين، إن وراءه ألف معركة منها أجنادين واليرموك وحطّين، إن وراءه القرآن الذي يقول عن اليهود: (وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ والْمَسكَنَةُ وبَاءُوا بِغَضَبٍ منَ الله) صدق الله العظيم؛ وكذبوا. . . إن الذليل لا يعز، والمسكين لا يملك، والمغضوب عليه لا يفلح أبداً!

إن حادثة فلسطين لو تدبرها العقل، وفهمها على وجهها لما رآها إلا. . . (جريمة): أبطالها طائفة من اللصوص، وشرذمة من الحرّاس، لصوص يتسورّون الدار ليطردوا صاحبها، ويحتلوها ويشردّوا أهلها، وحراس يعينون اللص على المالك وينصرون على الحق الباطل. . .

ولكن الجريمة لن تتمّ: إن الأسد في العرين، وربّ الدار يعرف كيف يحمي الدار. . . فيا أحفاد كعب بن الأشرف، وسلاّم بن أبى الحقيق، وعصماء وأبى عَفْك، نحن أبناء محمد بن سلمة، وعبد الله بن عتيك، وعُمَير بن عديّ، وسالم بن عمير. . . فإذا أغنى عن أجدادكم - إذا هم كانوا أجدادكم حقاً - إذا أغنى عنهم مالهم، أو دفعت عنهم حصونهم، أو نفعهم حلفائهم، وما حزّبوا علينا من أحزاب، أغنى ذلك عنكم:

(هوَ الذي أَخْرَجَ الّذينَ كَفَرُوا منْ دِيارِهِمْ لأوّلِ الحشْرِ مَا ظَنَنْتمْ أَنْ يَخرُجُوا وظَنّوا أَنّهُمْ ما نِعَتُهُمْ حُصُونُهم من الله. فأَتَاهُمُ اللهُ منْ حيثُ لم يحتسِبوا وَقَذَفَ في قلوبِهِمْ الرُّعْبَ يُخْرِبون بُيُوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين. فاعْتَبِروا يا أُولي الأَبْصار)

ولئن اشتدت اليوم المصيبة وعظم الخطب، فقد كانا يومئذ أشد وأعظم، يوم قامت أوربة كلها على قدم وساق، ثم سارت إلينا بقضها وقضيضها، يحدوها التعصب الأعمى، وتسوقها عصا البغضاء والحقد والعداوة الدينية، فأفسدت البلاد وعاثت في الحرم، حتى إذا ظنت

أنها قد ملكت وتمكنت، وبنت فأسست، وباضت وفرّخت؛ جاءها رجل واحد فحطم جيوشها في حطين، ثم ردّهم على أعقابهم خاسرين، ثم أخرجهم منها مذءومين مدحورين.

أفعيينا بأوربة كلها، وعجزنا عنها حتى نعجز عن حفنة من شذ إذ الآفاق ونفايات الأمم وعباد الدرهم والدينار؟ أم قد جفّ الدم الذي روّى عروق صلاح الدين، وماتت الأمة التي أخرجته، وعقمت النساء فلا يلدن شبيهه؟ إن كل مسلم اليوم في فلسطين صلاحُ الدين، وكل بقعة فيها حطين!

ضربت عليهم الذلة والمسكنة: فالذهب في صناديقهم والنظام جمعياتهم، والريّ والخصب في أرضهم، والسلاح في أيديهم، والإنكليز من ورائهم، ثم لا يثبتون ساعة واحدة لهؤلاء العزل الفقراء. . . ولا يقدرون أن يقفوا في وجوههم، ويرتجفون إذا سمعوا ذكر أسمائهم: (إِذَا رأَيتَهُمْ تُعجِبُكَ أَجْسَامُهمْ وإِنْ يَقُولوا تَسْمَعْ لقولِهِمْ كأَنَّهُمْ خشبٌ مُسَنَّدَة يَحْسَبُون كلَّ صَيْحَةٍ علَيهِمْ) أهؤلاء الذين لا يستطيعون أن يمشوا في

الطرقات وحراب إنكلترا تحميهم، يستطيعون بعدُ أن يمسوا سدنة المسجد الأقصى وسادة فلسطين، ويملكوها - وحدهم - رغم أنف المسلمين أجمعين؟ ولو نفخ عليهم المسلمون أربعمائة مليون نفخة لطيروهم، ولو مالوا عليهم لطحنوهم، ولوبصقوا عليهم لأغرقوهم، ولو صرخوا فيهم لقتلوهم؟

أهؤلاء الذين ما عرفهم التاريخ إلا مغلوبين، يتحرشون بمن لم يعرفهم التاريخ إلا غالبين منصورين، ومن حكموا الدنيا فكانوا نعم الحاكمين، وعلموا العالم فكانوا خير معلمين؟ إن معهم وعداً، وإن معنا لوعداً: معهم وعد بلفور. ومنا وعد الله: (وَعَدَ الله الذينَ آمنوا منكم وعملوا الصالحات لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ في الأرضِ كما اسْتَخْلَفَ الّذينَ من قَبْلِهِمْ، وَلَيُمَكِّنَنّ لَهُمْ دينَهُم الذي ارتضى لَهُمْ، وليُبدلنَّهم من بعدِ خَوْفِهِمْ أمنا) ولكنّ الله يمتحن إيماننا وصبرنا واتحادنا وتعاوننا، وينظر أنجاهد في سبيله بأموالنا وأنفسنا، وننصر إخواننا ونكون في توادنا وتراحمنا كالجسد الواحد، إذا تألم عضو منه تداعت له سائر الأعضاء بالحمىّ والسهر، أم قد فرقت بيننا السياسة، وباعدت بيننا الغير، ومزقتنا الأهواء والمطامع، فأمسينا ننام في القاهرة ودمشق وبغداد على فرش الريش والديباج، وإخواننا على شعفات جبال نابلس والقدس لا يغمض لهم جفن، ونأكل الشواء والحلواء وإخواننا هناك قد لا يجدون ما يقوم بأودهم من الخبز، ونبذر المال نقذف به إلى أوروبة ثمناً لهنات هينات، فيصنعون منه مدافع تحصد إخواننا حصداً، وبنادق تمزق صدورهم تمزيقاً، وإخواننا لا يجدون ثمن الحاجات الضروريات، ونلهو ونلعب آمنين مطمئنين، وإخواننا في فلسطين قائمون على حد السيف، بين النار والحديد؟

فيا إخواننا في مصر والشام والعراق والحجاز والمغرب، ويا إخواننا في الهند والصين وأينما بلغت مقالتي هذه. . .

إن الله جل وعز يقول: (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) فهل أنتم مؤمنون مسلمون بجوارحكم وقلوبكم، مخلصون لله في أسراركم وإعلانكم؟ أم أنتم مسلمون بالنسب والاسم وسجل الدولة، لا تعرفون إلا أنفسكم، لا تبالون إلا بلذاتكم، ولا تنظرون إلى أبعد من أنوفكم؟

إذا كنتم مسلمين حقاً، مؤمنين صدقاً، تريدون أن ينصركم الله فانصروا فلسطين ما استطعتم، انزعوا المال من أفواه عيالكم، وأعناق بناتكم، لتشتروا به حياة إخوانكم في فلسطين، اسهروا الليالي تتسقطون أخبارها، وتعلمون علمها، أمسكوا عن لهوكم وأفراحكم فلا تنفرج لكم سنّ حتى تنفرج أزمتها، اجعلوا قضية فلسطين، قضية كل واحد منكم. . .

أما أنتم يا إخواننا في فلسطين:

فاصبروا وصابروا (وَلا تَهِنوا وَلا تَحْزنوا وَأنتم الأَعلَون إنْ كُنتم مؤمنين. إن يَمْسَسْكم قَرْحٌ فقد مسّ القومَ قَرْحٌ مثلُه، وَتلك الأيام نداوِلُها بَيْنَ الناس، وَليعْلَم الله الّذينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ منكم شُهَدَاء، وَالله لا يحبُّ الظالمين، وَلِيَمحِّصَ الّذين آمنوا وَيمْحَقَ الكافرين. أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تدْخُلُوا الجَّنَة وَلَمَّا يَعْلَمِ الله الّذينَ جاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعلم الصابرين)

أما بعد، فان حادثة فلسطين - إن هي تمت - فضيحة الدهر، وعار الإنسانية. . . ولكنها لن تتم بحول الله وقوته ثم بقوة للمسلين. . .

علي الطنطاوي

حماية الطالحين

بحث علمي اجتماعي

للأستاذ إسماعيل مظهر

في أواسط القرن التاسع عشر أصابت العلم هزة من تلك الهزات العنيفة التي تغير مجرى الفكر، وتقلب آيات العلم بعد أن يخيل إلى الناس أن المعرفة قد قامت على قواعدها الرسيسة، رأساً على عقب. ففي سنة 1859 نشر العلامة شارلز روبرت دروين كتابه (أصل الأنواع) فأقام الحجة البالغة على أن الأنواع تنشأ في الطبيعة بعضها منظور عن بعض على مر عصور متطاولة، وأن نشوء الحياة من فوق الأرض موغل في القدم.

ولقد أقام دروين نظريته على ثلاث قواعد أولية، هي التناحر على البقاء، والانتخاب الطبيعي، وبقاء الأصلح. أما التناحر على البقاء فاصطلاح مجازى يؤدى في أوسع

مدلولاته معنيين: فأما أنه يدل على العلاقة القائمة بين الأنواع الحية العائشة في بيئة ما، إذا ما اتجهت الأسباب العاملة على بقاء نوع إلى إبادة آخر أو إفنائه، وإما أنه يدل على الجهد الذي يبذله الأحياء في سبيل الحصول على مقومات الحياة، كمقاومة العوامل والمؤثرات المفنية للأفراد أو المبيدة للأنواع. أما الانتخاب الطبيعي فمحصله أنه يبقى من أفراد الأنواع أو السلالات أقدرها على الحياة في بيئة ما وأن تفنى غير القادرة منها على البقاء. ولما كانت القدرة على البقاء وتخليف المِثْل، إنما ترجع إلى صفات حيوية تتأصل في الأحياء، ونشأ بالانتخاب الطبيعي تدريجياً على مر الأزمان سلالات وأنواع جديدة ممتازة بصفات معينة ثابتة. وقصد باصطلاح بقاء الأصلح أن الأحياء تتكاثر بنسبة رياضية. أي بنسبة 16: 8: 4: 2 وهكذا؛ فإذا لم يهلك معظم نتاجها بعوارض طبيعية ضاقت الأرض عن أن تسع الأحياء. ولذا لا يبقى من الأحياء إلا أصلحها أو أقدرها على البقاء ومقاومة العوارض. وما (بقاء الأصلح) في الواقع إلا اصطلاح يراد به إيضاح عمل الانتخاب الطبيعي المقتضى أن الأحياء التي هي أكثر صلاحية للبقاء في بيئة طبيعية تظل حية لتنتج أمثالها، في حين يفنى غير الصالح منها على هذه القواعد الثلاث شرع دروين مذهبه الذي اتجاه العلم الطبيعي برمته في أواسط القرن الماضي.

أما الذين اكبوا على دراسة الاجتماعيات فقد تساءلوا: إذا كانت سنة الطبيعية الثابتة تقضى، لخير النوع وبقائه

واحتفاظه بمستوى خاص من الحيوية والقدرة على مجالدة الأعاصير والأعداء، بأن يفنى الطالح من نتاجه وألا يبقى إلا الصالح، فان المدنية الحديثة بما تحوط به الطالحين من أسباب الحماية من الهلاك والفناء، إنما تقاوم سنة الطبيعة الثابتة، تلك السنة التي تقضى بأحد أمرين: فأما هلاك يصيب الطالحين ليفوز الصالحون بتخليف النسل فيحتفظ النوع بحيويته وبمثله العليا من حيث القوة والجهد، وإما فساد يصيب طبيعة النوع بلا بقاء على الطالحين الذين يورثونه كل الصفات التي يدركها الاحيائيون بين الأطلح والأصلح.

ولنضرب لذلك مثلاً نقتطعه من حالاتنا الاجتماعية. فلقد استطاع الفلاح المصري أن يقاوم ثلاثة أشياء، تسلط واحد منها على شعب غلت يد الطبيعة عن تزويده بمزايا الانتخاب الطبيعي، كافية للقضاء عليه: فساد الحكومات، والأمراض والحروب، فلقد توالت على هذا الفلاح دورات من استبداد الحكومات منذ عهد الفراعنة إلى الآن، لا يروي تاريخ أية أمة من الأمم لها شبيهاً. وازدياد عدد السكان في مصر إلى عشرين مليوناً في عصر من العصور إلى ثلاثة ملايين في عصر محمد علي، دليل قاطع على عظم ما عانى هذا الشعب من عوامل الإفناء وبرهان على ما فيه من حيوية استمدها من البيئة الطبيعية ومن حالاته المعاشية التي ظلت متروكة لحكم الطبيعة فيه الآلاف من السنين. وليس لي هنا أن أتكلم في الأمراض التي سكنت جسم هذا الفلاح منذ أقدم العصور وأخصها (البلهارسيا) وقد استدل على وجودها بالموميات المحنطة من أقدم العصور: أما الحروب فيكفي أن تعرف أن الجيش المصري حارب في خمس وأربعين وقعة تحت لواء قائدنا العظيم إبراهيم وحده في فترة لا تزيد على ثلاثين عاماً.

فما بالك بالعصور التي هدمت فيها الإمبراطورية المصرية ثم بنيت على أكتاف هذا الفلاح منذ ستة آلاف خَلون من الأعوام؟

هذه الظاهرة تحملنا على أن نتساءل ما هو السر الذي جعل هذا الفلاح على ما في أسباب حياته من عوامل الإفناء يصمد لعوادي الدهر والطبيعة فلا ينقرض ولا يبيد، بل تراه اليوم وقد خرج من معارك التناحر على البقاء منصوراً، وعلى ضفاف نيله المقدس سبعة عشر مليوناً يفلحون أرض مصر ويتطلعون إلى أسمى المثل التي أوجدها التصور الديمقراطي الحديث؟

قد يتفق أن يقول بعض الذين لا يقوون على وصل أسلوب التفكير العلمي بأسلوب التفكير

الاستقرائي إن ذلك راجع إلى صفات خص بها الشعب المصري دون غيره من شعوب الأرض التي عاصرته. وقد يكون في هذا الكلام بعض الحق، فان للصفات الخلقية التي تتصف بها بعض الشعوب أثر في ذلك. ولكن إذا نظرنا في الآمر من الواجهة الطبيعية الصرف ألفينا أن السبب راجع إلى أن هذا الشعب قد ترك للطبيعة معرضاً لعواملها خاضعاً لقوانينها الحديدية منذ أبعد العصور. وظلت الطبيعة تتولى إنساله بالانتخاب

الطبيعي فتفنى غير القادر منها على البقاء، وتبقى في حلبتها الصالحين للبقاء، فاستطاعت بذلك أن تحفظ على هذا الشعب قدراً من الحيوية ظل ثابتاً على مدار العصور. وقد نرى هذا الفلاح اليوم بسحنته السفعاء وجسمه النحاسي، فما تقرأ فيه من آية إلاّ آية الطبيعة خطت على ملامحه الهادئة؛ أمّا وداعة أخلاقه وصبره واحتماله وحدة نظراته وذكائه الموروث، فتحملك لأول وهلة إذا ما نظرتَ إليه أن تقول: هو ذا ابن من أبناء الطبيعة لم يَدْخلْ في فطرته بعد شيء من تزوير المدينة.

ولاشك عندي في أن تزوير المدينة لابد من أن يدرك فلاحنا بعد عهد قصير. فقد علت الصيحة في هذا العصر بوجوب النظر في ترقية الفلاح اجتماعيا. أما إذا كان الذين يصيحون هذه الصيحة لا يقصدون بها إلاّ أن يخرج الفلاح من تلك البيئة التي نشأ فيها إلى بيئة مزورة ندعوها المدينة، بأن نغل يد الطبيعة عن أن تدرك منه أغراضها الانتخابية، وأن تعمل على حماية أولئك الذين كتبت عليهم الطبيعة آية الفناء بأسباب اصطناعية، فان ذلك سوف يكون أول عهد الفلاح بفقدانه الحيوية التي استمدها من الطبيعة على مدار العصور وعلى تتالي الأحقاب. ولم أدرس بعد كيف نستطيع أن نحمي فلاحنا من مفاسد المدينة التي تقضى بأبعاده عن حكم الطبيعة فيه، وإنما أقول إن كل إصلاح اجتماعي لا يعوض على الفلاح ما سوف يسلب من فعل الطبيعة، إصلاح هو إلى الفساد أقرب شيء.

ولقد بحث هذا المشكل الاجتماعي فحول من معاصري الاجتماعيين، وزكىَّ بحوثهم فئة من كبار الأخصائيين في أوروبا وأمريكا، ولقد بان لهم بأجلى دليل أن الحماية المصطنعة التي حَدّ بها العلم من فعل الطبيعة في الطالحين، أي غير القادرين على البقاء في البيئة الطبيعة، لولا تلك الحماية، سبب من اكبر الأسباب التي ولدت ما يظهر على أكثر شعوب الأرض من مظاهر الهرم والضعف الحيوي، حتى لقد لجأت ألمانيا وغيرها من ولايات أمريكا

المتحدة والجزر البريطانية التي تعقر طبقات خاصة من المجرمين والمعتوهين والفاسدين توصلا إلى طريقة عملية يعوضون بها على الأحياء شيئاً مما فقدت بالحماية المصطنعة من فعل الطبيعة والخضوع لسنتها الثابتة.

من هذه البحوث بحث ألقاه لورد (دوصن في الجمعية الطبية بمدينة يورك نشر بعنوان (الطب والتقدم الاجتماعي) تساءل فيه عما إذا كانت النزعة التي تنزع بنا إلى حماية كل الأطفال الذين يولدون من قضاء الطبيعة فيهم، مهما كانوا طالحين غير قادرين على البقاء بغير حماية فعلية، أمراً مناقضاً لما تنشد من ارتقاء السلالات البشرية وخيرها في مستقبل العصور. ففي خلال ستين عاماً انخفضت نسبة الوفيات بين الأطفال من 156 في الألف إلى 60 في الألف، ونزلت في الأطفال الذين هم فوق الخامسة من 68 إلى 18، وزاد عدد السكان في خلال هذه (الفترة 1870 - 1934) خمسين في المائة عما كان قبلا.

على أننا نستطيع أن ندرس الظواهر التي تنشأ عن مثل هذه الحالات، إذا رجعنا إلى أنوع أخرى تعيشنا في الطبيعة. فقد نرى أن الأنواع الأخرى، غير النوع البشري، وغير الأنواع الداجنة التي يكثرها الإنسان لأغراض له فيها، تحتفظ بنسبة ثابتة في الأعقاب، أي في تخليف النسل، وأنه كلما أخذت نسبتها في الزيادة العددية سلطت عليها الطبيعة عوامل تردها إلى النسبة التي لا تسمح بأكثر منها، فقد لحظ أن ازدياد عدد نوع من الأنواع يصحبه دائما ظهور أمرين: إما زيادة في عدد الأنواع المفترسة، وإما ازدياد في الأمراض. وفي هذه الحالة لا يبقى من أفراد الأنواع إلا أقدرها على البقاء وأصلحها لأعقاب نسل يرث ما فيها من صفات تمكن النوع من الاحتفاظ بذاته، فإذا صدت الطبيعة عن أن تقضي في نوع بحكمها هذا، ترتب على هذا انحطاط يظهر في أعقاب هذا النوع.

والمثل على هذا عديدة، نقتصر على ذكر مثالين منها، فقد حدث أن حاول أهل سويسرا أن يحموا نسل حيوان يكثر في جبالهم يدعى (الشموا) وهو فصيلة من قيمة تجارية، فأسروا عدداً منه في داخل مكان متسع أحيط بكل أنواع الحماية، وبخاصة من الذئاب التي هي أنكى أعداء هذا الحيوان. فكانت النتيجة المحتومة أن ظهر في هذا النسل المأسور صفات انحطاطية بينه، وكثر فيه عدد الأفراد المهزولة الضعيفة، وبدت

عليه كل علامات الانحلال الحيوي، حتى أضطر المربون في النهاية أن يدخلوا إلى مكان الأسر عدداً محدوداً من
الذئاب المفترسة، فوجدت هذه الذئاب في الأفراد المنحطة فرائس يسهل اقتناصها؛ وبعد قليل استعادت البقية الباقية كل الصفات المثالية التي يمتاز بها النوع في مرابيه الطبيعية أما في زيلاندا الجديدة فقد تكررت هذه الظاهرة بينها، والمعروف أن هذه الجزر من أمثل بقاع الأرض مناخاً وطبيعة لتربية الأنعام خاصة، وذوات الثدي عامة، ذلك بأنها خالية من الحيوانات المفترسة خلواً تاماً. فلما استوطنها الايقوسيون حسن لديهم أن يدخلوا إليها عدداً من الغزال الأحمر الذي يعيش في جبالهم العليا، فكانت لهذا الحيوان أمثل مباءة، فتكاثر واكتنز لحماً، ولكن بان لهم بعد قليل من الزمن أن النوع الذي جلب من أثيوبيا مملوء حيوية، محتفظ بأسمى الصفات التي يتسم بها في مرابيته، قد ظهرت بينه أنواع انحرفت عن صفات النوع المثالية. فكانت أضعف بنية وأقل مقدرة على العدو، وقد شوه منظرها الخارجي بصفات لم يكن لها من وجود في أسلافها، أما الدواء فكان إدخال عدد من الذئاب المفترسة القوية إلى الجزر، كانت عدة الطبيعة في القضاء على الطالحين من نسل هذا الحيوان، فاستردت البقية الصالحة، بعد فناء غيرها، كل الصفات الحيوية التي يتصف بها هذا النوع في مرابيه.
أمام هذه الحقائق أخذ المصلحون يفكرون في تلك الوسائل التي يحاول بها دعاة المدنية والإنسانية أن يصلوا امن طريقها إلى حماية كل الأطفال الذين يولدون، أليس في الإفراط في اللجوء إلى هذه الوسائل معاندة للطبيعة بأن نكثر من نسل أناس يتصفون بالضعف الأدبي والعقلي والطبيعي؛ مثلنا في ذلك مثل أولئك الذين أرادوا أن يغالبوا الطبيعة في تربية الشموا والغزال الأحمر؟
وحجة الذين يميلون إلى الأخذ بالميول الإنسانية في مثل هذه البحوث العلمية، أن نسبة الزيادة في عدد السكان آخذة في التناقص شيئاً بعد شئ، وقد تقف عند حد خاص بعد زمن وجيز؛ فلا سبب للانزعاج والتشاؤم؛ غير أن هؤلاء تغيب عنهم حقيقة رئيسية، هي أن نسبة زيادة عدد السكان إن كانت قد أخذت في النقص، فانه نقص معكوس الآية، ففي منتصف القرن التاسع عشر كان التجار وأصحاب الحرف الفنية من ذوى الأسر العديدة الأفراد، في حين أن كبر أسرات رجال الدين كان مضرب المثل، فإذا وعينا أن متوسط عدد أفراد الأسرة في أمة تريد الاحتفاظ بكيانها لا ينبغي أن يقل عن أربعة أنفس، ذاكرين
أن هنالك أسراً قد تظل عقيماً، وأخرى تصاب بالثكل، وعلمنا أن عدد الأسرة في طبقتي الأطباء ورجال الدين لا يزيد عن اثنين، علمنا أن اطراد النقص في عدد السكان إنما هو اطراد عكسي. ذلك بأن هذه النسبة تقيد الطبيعية من ناحيتين: الأولى أعقاب النسل بالنسبة للطبيعة؛ والثانية عدم تزويد الطبيعة بمادة للانتخاب، إذ تغربل الناتج لتبقى على الأصلح هذه هي الحالات التي يقع تحت سلطانها إنسان القرن العشرين، فهل من سبيل إلى اتقائها؟ يقول لورد (دوصن) إن اتقاءها مرهون على شرطين: الأول نشر المعلومات التي تتعلق بضبط النسل: والثاني التعقير الاختياري. أما الشرط الأول، وهو شرط قد تحقق منه شطر عظيم بذيوع الوسائل التي تضبط النسل، فان عليه اعتراضاً ذا خطر عظيم، هو أن الذين يجنحون إلى ضبط النسل إنما هم أولئك الذين تعتبرهم زهرة المجتمع الإنساني من أصحاب العقول الراجحة والمزايا الفذة، في حين أن غيرهم من الطبقات الدنيا والطالحين يتناسلون جهد ما تبلغ استطاعتهم.
وفي ذلك مشكل هو بذاته أنكى من حماية غير القادرين على البقاء بالطرق الاصطناعية. فان قلة نسل الأولين وازدياد نسل الآخرين مفسدة سوف تسرع ببعض الجماعات إلى درجة من الانحطاط يخشاها المصلحون، أما التعقير الاختياري فلا يعقل أن يكون دواء ناجعاً. ذلك بأن التعقير تشويه طبيعي لا يرضى به إلا أقلية من الناس لا يعتد بهم إذا قيسوا إلى مجموع الأمة.
ولست أرى أن في هذين الأمرين منجى من الأخطار التي تحيق بالجماعات في هذا الزمان، ولا بد للمفكرين الذين يرغبون في خير الإنسانية، ويودون أن يحتفظ النوع الإنساني بصفاته الرئيسية، أن يقعوا على علاجات أخرى تكون ناجعة في التعويض عن فعل الطبيعة في الانتخاب مع فرض الحماية على المواليد أيا كانوا ومن أي طابع

خرجوا إلى هذه الدنيا.
إسماعيل مظهر
قصة المكروب كيف كشفه رجاله
ترجمة الدكتور أحمد زكي
الحصانة واليهودي الأفاّق
- 2 -
كانت كشوف بستور وكوخ قد شاعت في الناس فثاروا لها جنوناً، فكان لا هم لهم إلا بها، ولا حديث إلا فيها، فلما لما جاء عام 1883 انقلب متشنيكوف من باحث طبيعي إلى صائد مكروب؛ وكان قد خاصم رجال السلطة في جامعة أودسّا، فترك الجامعة وذهب إلى جزيرة صقلية، وصحب معه زوجته ألجا وأخوتها؛ فلما حلوا جميعاً بها اتخذوا لأنفسهم فيها منزلاً صغيراً ذا طابق واحد يطل على المياه اللازوردية لشاطئ كلَبرية، وفي حجرة الجلوس هيأ متشنيكوف لنفسه معملاً مرتجَلاً. وأوحت إليه نفسه بأن الشيء الرائج عندئذ في العلوم هو علم المكروب، فأخذ يحلم الأحلام ويأمل الآمال عن كشوف خطيرة لمكروبات جديدة يكتشفها، وكان يلذّ له العمل أيضاً فيها لذةً صدق، ولكنه لم يكن يدرى من طرائقها الخدّاعة شيئاً، بل قل أنه لم يكن رأي مكروبة واحدة؛ وطال تجواله في حجرة الجلوس هذه يشرح لألجا نظريات علم الحياة تارة، أو هو يدرس نجوم البحر واسفنجياته تارة، أو هو يحكي الحكايات لأخوة ألجا وأخواتها، واختصاراً كان يفعل كل شيء لا يمُتُّ بصلة إلى تلك الأبحاث المجيدة التي قام بها كوخ وبستور.
وذات يوم أخذ يدرس كيف تهضم الاسفنجيات ونجوم البحر أطعمتها، وكان قبل ذلك عثر في داخل هذه الأحياء على خلايا غريبة هي بعض أجسام هذه الاحياء، ولكنها مع ذلك تدور فيها دوران الحر الطليق، وكانت هذه الخلايا الأفاقة التائهة تسبح في مجاريها كما تسبح الخلايا الأشهر المعروفة بالأميبا تضرب ببعض جسمها الرخو قُدُما في سائل الجسم، فإذا برز منه ما يشبه اللسان جرّ ما تخلف من الجسم وراءه.
وجلس متشينيكوف من بيته في غرفة الجلوس، وقعد إلى المنضدة وجاء بعلقات من نجوم البحر، وأدخل في أجسامها شيئاً من صبغة الكرمين وجاهد في إدخالها جهاد الرجل الذي لا تستطيع يداه مجاراة عقله، وضاق بهذه التجربة صدره للذي عانته أصابعه الثقيلة في
أجرائها، وكانت تلك فكرة بارعة من بنات أفكاره الحسان، لأن هذا العَلَق شفّاف كالزجاج، فكان في استطاعة صاحبنا أن يتتبع بعدسته ما يجرى فيه، ونظر فوجد تلك الخلايا الأفّاقة الطليقة تسبح إلى حبّات صبغته، فإذا بلغتها التهمتها التهاماً، ففرح وطَرِب، وخال متشنيكوف إلى تلك الساعة أنه يدرس كيف يهضم نجم البحر طعامه؛ ولكن طافت في حواشي فكره أشباح من أفكار جديدة يتضاءل إلى جانبها موضوع الهضم تضاؤلاً كبيراً، أفكار رائعة مبهمة لا تتصل بمبحَث الهضم من قريب أو بعيد.
وفي الغد ذهبت ألجا بالأطفال إلى السرك يشهدون ألعاب قردة بارعة التمثيل؛ وبقى متشنيكوف حيث هو من غرفة الجلوس وعلى وجهه لحية كلحية القديسين؛ وقد أخذ بشدّ شعراتها شداً؛ وقد أخذ نجم البحر في مائة بوعائه. ولكن لا يرى منه شيئاً. وفي ساعة قصيرة جرى له مثل الذي جرى للقديس بولص وهو في طريقه إلى دمشق لما شعّ في وجهه ذلك النور الباغت فأعماه. نعم في ساعة قليلة، في دقيقة قصيرة، في ومضة برق، أو لحظة عين نزل الوحي على متشنيكوف فتغّير بغتة مجرى حياته.
إن هذه الخلايا الأفاقة التوّاهة في أجسام نجوم البحر تأكل الطعام وتلتهم حبّات) الصبغة - إذن هي لا بد تأكل المكروبات أيضاً. وفي أجسامنا نحن، وفي دمائنا نحن، لا بد أن كراتنا البيضاء هي التي تلتهم الجراثيم فتحمينا من غوازيها. . إن هذه الكرات البيضاء هي سبب حصانتنا من العدوى. . . إنها هي هي التي تقي الجنس البشريّ من فناء سريع تحمله إليه أجناس البشلاّت).
وهكذا، بدون أي دليل، وبدون محاولة أي تجربة، قفز متشنيكوف هذه القفزة الكبرى من هضم نجم البحر إلى أدواء الإنسان.
كتب في مذكراته: (وبغتةً وجدت نفسي قد انقلبتُ عالِمَ أمراض وهذا انقلاب كبير لا يَعْدِلهُ إلاّ انقلاب زمّار إلى فلكيّ. وكتب (وأحسست أن هذه الفكرة ستتمخض عن أمر

كبير الخطورة، فاضطربت نفسي واهتاجت فأخذت أغدو في الغرفة وأروح حتى لَذَهبت إلى شاطئ البحر أستجمع فكرى). وكتب: (وقلت لنفسي لو صّحت هذه النظرية إذن لتوقعت إذا أنا أدخلت فِلقة خشب في نجم البحر أن تتجمع هذه الخلايا الأفّاقة حول الفلقة دفعاً للسوء الطارئ.) وذكر بهذا أن الرجل تدخل في إصبعه الشوكة فينسى أن ينتزعها فلا
تلبث أن تتجمع حولها المِدّة والقيح وما هما إلا طوائف من الخلايا البيضاء التي تطوف في دم الإنسان. ذكر هذا بهذا فهرول إلى الحديقة التي وراء بيته، إلى شجيرة ورد كان ذوقها وزخرفها من أجل أخوة أولجا ليحتفلوا بها في عيد الميلاد، وانتزع منها بعض شوكها، وعاد بالشوكات إلى معمله، وما هو بالمعمل، وشكها جميعاً في جسم أحد نجوم البحر وكان شفافاً كالماء.
وما طلع فجر الغد حتى استيقظ وقد امتلأ قلبه بكل أمل بعيد، ولم يتمهل بعد يقظته طويلاً حتى عرف أن ظنه أصاب، وأن خيال الأمس أصبح حقيقة اليوم. نظر إلى شوكات الورد فوجد طوائف عدة من تلك الخلايا الأفاقة التائهة قد ازدحمت حولها وأخذت تتماوج في كثرتها وبطئ حركتها. وكان فيما رأي الكفاية لإقناعه بأنه وجد تفسيراً للحصانة من جميع الأمراض، وعادته في الطفرة إلى الاستنتاجات السرية معروفة مشهورة. وخرج في هذا الصباح يخبر مشاهير أساتذة أوربا بالذي وجده، وكانوا اجتمعوا اتفاقاً بمدينة مسينا على القرب منه، وقال لهم: (هذا هو السبب الذي من أجله يصمد الإنسان لغائلة المكروبات). وانطلق لسانه حديداً فصيحاً يشرح لهم كيف حاولت خلاياه التواهة أن تأكل الشوك أكلا لما، واستطاع أن يريهم تلك التجربة الجميلة مصداقا لدعواه فصدقه العلماء، حتى ذلك العالم الجليل المخوف الأستاذ الدكتور فرشو آمن به وقد كان سَخِر بكوخ لما أتاه. ومن هذا اليوم دخل متشنيكوف في زمرة صُياد المكروب.
- 3 -
ثم ترك أُلجا والأطفال وراءه يعيشون وحدهم على قدر ما يستطيعون، وذهب إلى فينّا ليعلن من فوق منبرها أن الإنسان حصين من الجراثيم لأن بدمه كريات بيضاء تائهة عملُها بلعُ هذه الجراثيم. وذهب تواً إلى معمل صديقه القديم الأستاذ كِلاوُسْ وكان عالم حيوان، وكان يجهل من أمر المكروب بقدر ما جَهِل متشنيكوف، كذلك أُعجب بالذي سمعه وقال لصديقه الضيف. (انه ليسرني ويشرفني كثيراً أن تنشر نظريتك في مجلتي)
فقال متشنيكوف: (ولكن لابد لي من اسم علمي لهذه الخلايا التي تلتقم المكروبات، أعني اسماً اغريقياً، فأي الأسماء تقترح؟)
فرفع الأستاذ يده إلى رأسه يحكّها، وحكّ الجهابذة العلماء رؤوسهم معه، ونظروا المعاجم ثم
أخبروه أخيراً: (أن الكلمة المثْلى هي فجوسه ومعناها بالإغريقية الخلية الملتهمة فهي إذن ضالتكَ التي تنْشُد)
فشكرهم متشنيكوف، وأخذ هذه الكلمة وعلقها في أعلى ساريته، ثم حل القلاع ومخر بسفينة بحار حياته المضطربة، وهذه الكلمة دينيه، وبهذه الكلمة يفسر كل شئ، وهي صرخته في حربه وفي سلمه، وهي أداة عيشه وآلة رزقه. وصدّقني أو كذّب لقد كان لهذه الكلمة نصيب كبير في حفزنا إلى الدراسة ما هي الحصانة. ومن هذه الساعة أخذ متشنيكوف يبشر بالفجوسات ويذيع من أمرها كل جميل، ويدفع عنها مقالة السوء، وأجرى عليها أبحاثاً لها خطرها، وعادى في سبيلها، ولاشك أنه بذلك أدّى نصيبه في إحداث الحرب العالمية الكبرى حرب عام 1914 بما عكّرت حملاته الشديدة ما بين فرنسا وألمانيا من مودّة لم تكن كثيرة الصفاء أبداً.
وذهب من فينا إلى أوديسا، وهناك ألقى خطاباً عظيما في (القوات العلاجية للكائن الحي)، فدهش أطباء هذا البلد مما قال وأعجبوا به إعجاباً كبيراً، فقد كان إلقاؤه غاية في الإبداع، وحرارة قلبه لا تدع للسامع شكا في إخلاصه، ولكن لا يوجد في السجلات ما يفهم منه المطالع أنه أخبر جمهره الأطباء بهذا البلد أنه لم يكن رأي إلى هذا العهد كرة دموية بيضاء واحدة تلتهم مكروبة واحدة من مكروبات الوباء. إن الناس جميعاً - ومنهم الأطباء العلماء - لا تقع أبصارهم على كلبين يتشاجران حتى تستوقفهم تلك

الحرب الصغيرة فيتجمعون حولها ارواء للطبيعة وانتظاراً لعلم من تكون له الغلبة، وكذلك الحال في أمر متشنيكوف فان حكاية تلك الحروب الطاحنة الدائمة المتواصلة بين الفجوسات الجريئة الباسلة، وهي تنهض إلى الثغور تدفع غزوة تلك المكروبات العادية القاتلة، تلك الحكاية أثارت شوق الناس فأرهفت أذانهم لاستماع، وفتحت قلوبهم لاقتناع.

ولكن متشنيكوف عرف أنه لابد له من البحث عن حقائق ذات بال تقوم دليلاً على الذي يقول؛ ولم يطل به الزمن حتى وجدها بيّنة كالشمس رائقة كالبلور، وذلك في براغيث الماء.

ومضت عليه فترة من الزمن نسى فيها الخطابة، وعكف فيها على صيد هذه البراغيث من البرك ومرابي الأسماك. وكان اختيارا عبقرياً أوحى إليه به لا شكّ شيطانه، فهذه البراغيث

كانت كعَلَق نجوم البحر شفافة، فاستطاع بعدسته أن يرى ما يجرى في داخلها، وأخذ يبحث في جَلَد شديد عن داء يكون في هذه البراغيث، وجاءه صبرٌ نادر على غير انتظار، فعَمِل طويلاً، وبحث كما يبحث البحّاثة القُحّ وقليلاً ما كانة.

لعلك أيها القارئ أدركت من تاريخ المكروبات هذا أن الباحث كثيراً ما يعتزم البحث عن شيء فيبدأ بحثه فلا يلبث به طويلا حتى تقوده الطريق إلى أمور غير التي طلبها أولاً على أن هذا لم يكن من قِسمة صاحبنا؛ فانه أخذ يرقب هذه البراغيث تضرب في حياتها العادية ضرباً غير ذي غاية ولانهاية.

فلم يلبث أن رآها من خَلَل عدسته تبتلع بزور خمائر فيها خطر على حياتها. وكانت بزوراً حادة كالأبر. فلما بلغت إلى ما يشبه المعدة من البرغوث نفذت فيه وأخذت تسير انزلاقاً في جسمه. هنا رأي متشنيكوف ما خصّته الأقدار برؤيته. هنا نظر ما أتحفته الحظوظ الطيبة بنظرته: سارت خلايا البرغوث الأفّاقة التوّاهة: تلك الفَجُوسات التي تقي الجسم شرّ الدخيل، سارت نافرة إلى تلك البزور الفاتكة العادية، فتجمعت حولها، وحلّقت عليها. فأذابتها، وأكلتها أكلا، وهضمتها هضما. . . ومما زاد نظريته ثبوتاً، أن بعض البراغيث كانت تتخاذل فَجُوساتها أحياناً عن النفْر إلى العدوّ الغازي، فكانت بزور تلك الخمائر تستقر في جسم البرغوث فتتنفس عن خمائر حية ناشطة تتكاثر تكاثراً ذريعاً فتسمم البرغوث فتقتله ثم هي تأكله أطلّ متشنيكوف من خلال عدسته على هذه المعارك الجميلة تدور رحاها في هذه الميادين الصغيرة فعرف أولَ عارفِ سرّاً من أسرار الطبيعة خبأته عن الناس زماناً طويلاً، عرف كيف تدفع بعض الخلائق عن نفسها غائلةً لو قعدت عنها لكانت قاتلة. وقد كان صادقاً في الذي رآه، وقد كان بارعاً موّفقاً في الطريق الذي سلكه، فأنىّ يخطر على بال امرئ أن يبحث عن علّة الحصانة في مخلوق غريب بعيد كل البعد عن أذهان الناس كبرغوث الماء.

وقنع بالذي وجده من بحثه، وآمن كل الإيمان بنظريته فلم يتابع دراسة تلك المعارك التي كان يقضى كوُخ السنوات العديدة لو أنه اتفق له منها ما اتفق لمتشنيكوف.

وأخيراً نشر مقالة نمّت عن علم جم وفضل كثير قال فيها: (إن حصانة براغيث الماء ترجع إلى فُجَوساتها، وهي مَثَل للأسلوب الطبيعي في الوقاية من الوباء. . . فان بزرة الخميرة إذا لم

تتلقها خلايا الجسم التوّاهة الدفّاعة فتبتلعها عند نفاذها في الجسم، استطاعت تلك البزرة أن تنبت الخميرة واستطاعت هذه أن تتكاثر وأن تفرز سماً لا يصد خلايا الجسم المدافعة فحسب، بل يقتلها ويذيبها كما يذوب الملح في الماء)

(يتبع)

أحمد زكي

أعلام الإسلام

سَعِيد بنُ المسَيّب - 2

للأستاذ ناجي الطنطاوي

ضربه وحبسه

قال عبد الله بن جعفر وغيره: استعمل عبد الله بن الزبير جابر بن الأسود بن عوف الزهري على المدينة، فدعا الناس إلى البيعة لابن الزبير فقال سعيد بن المسيب: لا: حتى يجتمع الناس، فضربه ستين سوطاً، فصاح به سعيد والسياط تأخذه: والله ما

ربعت على كتاب الله، يقول الله: أنكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع، وإنك تزوجت الخامسة قبل انقضاء عدة الرابعة، وما هي إلاّ ليالٍ فاصنع ما بدا لك، فسوف يأتيك ما تكره. فما مكث إلا يسيراً حتى قتل ابن الزبير. وروى أن ابن الزبير لما بلغه ضرب ابن المسيب كتب إلى جابر يلومه ويقول: ما لنا ولسعيد؟ دعه.

وقال يحيى بن سعيد: كتب والي المدينة إلى عبد الملك بن مروان: إن أهل المدينة قد أطبقوا على البيعة للوليد وسليمان إلا سعيد بن المسيب. فكتب أن اعرضه على السيف، فان مضى وإلا فاجلده خمسين جلدة، وطف به أسواق المدينة. فلما قدم الكتاب على الوالي، دخل سليمان بن يسار، وعروة بن الزبير، وسالم بن عبد الله، على سعيد بن المسيب، فقالوا: إنا قد جئناك في أمر: قد قدم فيك كتاب من عبد الله بن مروان إن لم تبايع ضربت عنقك، ونحن نعرض عليك خصالاً ثلاثاً، فاعطنا إحداهن، فان الوالي قد قبل منك أن يقرأ عليك الكتاب فلا تقل (لا) ولا (نعم)، قال: فيقول الناس بايع سعيد بن المسيب؛ ما أنا بفاعل. (قال): وكان إذا قال: لا، لم يطيقوا عليه أن يقول نعم. قال: مضت واحدة وبقيت اثنتان. قالوا فتجلس في بيتك فلا تخرج إلى الصلاة أياماً، فانه يقبل منك إذا طلبت في مجلسك فلم يجدك. قال: وأنا أسمع الأذان فوق أذنيّ: حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح؟ ما أنا بفعل. مضت اثنتان وبقيت واحدة. قالوا: فانتقل من مجلسك إلى غيره، فانه يرسل إلى مجلسك فان لم يجدك أمسك عنك. قال: فرقاً لمخلوق؟ ما أنا بمتقدم لذلك شبراً ولا متأخراً شبراً. فخرجوا وخرج إلى الصلاة، صلاة الظهر، فجلس في مجلسه الذي كان يجلس فيه، فلما صلى الوالي بعث إليه فأتى به، فقال: أمير المؤمنين كتب يأمرنا إن لم تبايع ضربنا عنقك، قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيعتين. فلما رآه لا يجيب أخرج إلى السدة فمدّت عنقه وسلّت عليه السيوف، فلما رآه قد مضى أمر به فجرّد، فإذا عليه تبّان شعر فقال: لو علمت أني لا أقتل ما اشتهرت بهذا التبّان، فضربه خمسين سوطاً ثم طاف به أسواق المدينة، فلما ردّه والناس منصرفون من صلاة العصر قال: إن هذه لوجوه ما نظرت أليها منذ أربعين سنة.

وروي أن سعيداً لما جردّ ليضرب، قالت له امرأة: إنّ هذا لمقام الخزي، فقال لها سعيد: من مقام الخزي فررنا.

وقال قتادة: أتيت سعيد بن المسيّب، وقد ألبس تبّان شعر وأقيم في الشمس فقلت لقائدي: أدنني منه فأدناني منه، فجعلت أسأله خوفاً من أن يفوتني وهو يجيبني حسبة والناس يتعجبون.

وقال عبد الله بن يزيد الهذلي: دخلت على سعيد بن المسيّب السجن، فإذا هو قد ذبحت لهُ شاة، فجعل الإهاب على ظهره، ثم جعلوا له بعد ذلك قضباً رطباً، وكان كلما نظر إلى عضديه قال: اللهم انصرني من هشام.

وقال أسلم أبو أمية مولى بنى مخزوم وكان ثقة: صنعت ابنة سعيد بن المسيّب طعاماً كثيراً حين حبس، فبعثت به اليه، فلما جاء الطعام دعاني سعيد فقال: اذهب إلى ابنتي فقل لها: لا تعودي لمثل هذا أبدا، فهذه حاجة هشام بن إسماعيل، يريد أن يذهب مالي فأحتاج إلى ما في أيديهم وأنا لا أدرى ما أحبس، فانظري إلى القوت الذي كنت آكل في بيتي فابعثي إلي به، فكانت تبعث إليه بذلك، وكان يصوم الدهر.

وقال قتادة عن سعيد بن المسيّب إنه كان إذا أراد الرجل أن يجالسه قال: إنهم قد جلدوني، ومنعوا الناس أن يجالسوني.

وقال عبد الله بن جعفر وغيره: كتب هشام بن إسماعيل إلى عبد الملك بن مروان يخبره بخلاف سعيد بعد أن وضعه في السجن وما كان من أمره، فكتب إليه عبد الملك يلومه فيما صنع به ويقول: سعيد كان والله أحوج إلى أن تصل رحمه من أن تضربه، وأنا لنعلم ما عند سعيد شقاق ولا خلاف.

وقال الواقدي: كتب الوليد إلى عمر بن عبد العزيز يأمره أن يقف هشام بن إسماعيل للناس، وكان فيه سيئ الرأي، فدعا سعيد ابنه ومواليه فقال: أن هذا الرجل يوقَف للناس أوقد وُقف فلا يتعرض له أحد، ولا يؤذه بكلمة، فأنا سنترك ذلك لله وللرحم، فان كان ما علمت لسيء النظر لنفسه فأما كلامه فلا أكلمه أبداً!

وقال عمران: كان لسعيد بن المسيب في بيت المال بضعة وثلاثون ألفاً عطاؤه، فكان يدعى إليها فيأبى ويقول: لا حاجة لي فيها حتى يحكم الله بيني وبين بني مروان!

معاملة للخلفاء والولاة
قال على بن زيد: قيل لسعيد بن المسيب: ما شأن الحجاج لا يبعث إليك، ولا يحركك، ولا يؤذيك؟ قال: والله لا أدرى إلا أنه دخل ذات يوم مع أبنه المسجد، فصلى صلاة، فجعل لا يتم ركوعها ولا سجودها، فأخذت كفاً من حصى فحصبته به، زعم أن الحجاج قال:
مازلت بعد ذلك أحسن الصلاة.
وقال عمران بن عبد الله بن طلحة بن خلف الخزاعيّ: حجّ عبد الملك بن مروان، فلما قدم المدينة فوقف على باب المسجد، أرسل إلى سعيد بن المسيب رجلاً يدعوه ولا يحركه؛ قال: فأتاه الرسول وقال: أمير المؤمنين واقف بالباب يريد أن يكلمك، فقال ما لأمير المؤمنين إلى حاجة، وما لي إليه حاجة، وإن حاجته إلى لغير مقضية! قال: فرجع الرسول إليه ليه فأخبره فقال له: أجب أمير المؤمنين، فقال له سعيد ما قال له أولاً. فقال له الرسول: لولا أنه تقدم إلي فيك ما ذهبت إليه إلا برأسك. يرسل إليك أمير المؤمنين يكلمك تقول له مثل هذه المقالة؟: فقال: إن كان يريد أن يصنع بي خيراً فهو لك، وان كان غير ذلك فلا أحل حبوتي حتى يقضي ما هو قاض. فأتاه فأخبره فقال: رحم الله أبا محمد، أبى إلا صلابة.
وقال عمرو بن عاصم: لما استخلف الوليد بن عبد الملك، قدم المدينة فدخل المسجد فرأى شيخاً قد اجتمع الناس عليه، فقال: من هذا؟ فقالوا سعيد بن المسيّب؛ فلما جلس أرسل إليه فأتاه الرسول فقال: أجب أمير المؤمنين: فقال: لعلك أخطأت بأسمى أو لعله أرسلك إلى غيري! قال: فأتاه الرسول فأخبره، فغضب وهمّ به، قال: وفي الناس يومئذ بقية، فأقبل عليه جلساؤه فقالوا: يا أمير المؤمنين فقيه أهل المدينة، وشيخ قريش، وصديق أبيك، لم يطمع ملك قبلك أن يأتيه. قال: فما زالوا حتى أضرب عنه.
وقال ميمون بن مهران: قدم عبد الملك بن مروان المدينة، فامتنعت منه القائلة واستيقظ، فقال لحاجبه: أنظر هل في المسجد أحد من حداثنا من أهل المدينة؟ فخرج فإذا سعيد بن المسيّب في حلقة له، فقام حيث ينظر إليه، ثم غمزه وأشار إليه بإصبعه ثم ولي؛ فلم يتحرك سعيد ولم يتبعه. فقال: ما أراه فطن، فجاء فدنا منه ثم غمزه وأشار إليه وقال: ألم ترني أشير إليك؟ قال: وما حاجتك؟ قال: استيقظ أمير المؤمنين، فقال: أنظر في المسجد أحد من حداثي، فأجب أمير المؤمنين، فقال: أرسلك إلي؟ قال: لا، ولكن قال فانظر بعض حداثنا من أهل المدينة، فلم أر أحداً أهيأ منك. فقال سعيد: اذهب فأعلمه أنى لست من حداثه! فخرج الحاجب وهو يقول: ما أرى هذا الشيخ إلاّ مجنوناً! فأتى عبد الملك فقال له: ما وجدت في المسجد إلا شيخاً أشرت إليه فلم يقم، فقلت له إن أمير المؤمنين قال أنظر هل ترى في المسجد أحداً من حداثي فقال: إني لست من حداث أمير المؤمنين. وقال لي: أعلمه، فقال عبد الملك: ذاك سعيد بن المسيّب، فدعه.
وقال هشام بن عروة: لما تزوج الحجاج، وهو أمير المدينة بنت عبد الله بن جعفر بن أبى طالب، أتى رجل سعيد بن المسيّب فذكر له ذلك، فقال: أني لأرجو ألا يجمع الله بينهما، ولقد دعا داع بذلك وابتهل؛ وعسى الله؛ فان أباها لم يزوجها إلا الدراهم، فلما بلغ ذلك عبد الملك بن مروان أبرد البريد إلي الحجاج وكتب إليه يغلظ له ويقصر به ويذكر تجاوزه وقدره، ويقسم بالله لئن هو مسّها ليقطعنّ أحب أعضائه اليه، ويأمره بتسويغ أبيها المهر، وبتعجيل فراقها، ففعل فما بقى أحد إلاّ سره ذلك.
وقال المطلب بن السائب: كنت جالساً مع سعيد بن المسيب في السوق فمرّ بريد لبني مروان، فقال له سعيد: من رسل بني مروان أنت؟ قال: نعم. قال: كيف تركت بني مروان؟ قال: بخير. قال: تركتهم يجيعون الناس ويشبعون الكلاب! فاشرأبّ الرسول، فقمت إليه فلم أزل ارجيه حتى انطلق فقلت لسعيد: يغفر الله لك، تشيط بدمك؟ فقال: أسكت يا أحيمق! فو الله لا يسلمني الله ما أخذت بحقوقه.
وقال صالح بن كيسان: حجّ الوليد بن عبد الملك، فلما دخل المدينة غدا إلى المسجد بنظر إلى بنائه، فأخرج الناس منه، فما ترك فيه أحد، وبقى سعيد بن المسيّب ما يجترئ أحد من الحرس أن يخرجه؛ وما عليه إلا ربطتان ما تساويان إلا خمسة دراهم مصلاه. فقيل له لو

قمت، قال: والله لا أقوم حتى يأتي الوقت الذي كنت أقوم فيه. قيل: فلو سلّمت على أمير المؤمنين. قال: والله لا أقوم إليه! قال عمر بن عبد العزيز فجعلت أعدل بالوليد في ناحية المسجد رجاء ألا يرى سعيداً حتى يقوم، فحانت من الوليد نظرة إلى القبلة فقال: من ذلك الجالس؟ أهو الشيخ سعيد بن المسيّب؟ فجعل عمر يقول: نعم يا أمير المؤمنين، ومِن حاله، ومِن حاله، ولو علم بمكانك لقام فسلم عليك، وهو ضعيف البصر. قال الوليد: قد علمت حاله، ونحن نأتيه فنسلم عليه فدار في المسجد حتى وقف على القبر، ثم أقبل حتى وقف على سعيد فقال: كيف أنت أيها الشيخ؟ فو الله ما تحرك سعيد ولا قام! فقال: بخيرٍ والحمد لله يا أمير المؤمنين. قال الوليد: خير والحمد لله. فانصرف وهو يقول لعمر: هذا بقية الناس. فقلت: أجل يا أمير المؤمنين رفضه أخذ العطاء.

قال عمران بن عبد الله: كان سعيد بن المسيب لا يقبل من أحد شيئاً لا ديناراً ولا درهماً ولا شيئاً، وربما عرض عليه ألا شربة فيعرض فليس يشرب من شراب أحد منهم.

وقال العجلي وغيره: كان لا يقبل جوائز السلطان، وله أربع مائة دينار يتّجر فيها بالزيت وغيره.

(يتبع)

ناجي الطنطاوي

ضوء جديد على ناحية من الأدب العربي

اشتغال العرب بالأدب المقارَن أو ما يدعوه الفرنجة

في كتاب تلخيص كتاب أرسطو في الشعر لفيلسوف العرب

أبي الوليد بن رشد

(تتمة المنشور في العدد الماضي)

- تلخيص وتحليل -

للأستاذ خليل هنداوي

بحث فني في التخيلات والمعاني والألفاظ والأجزاء

وقد بحث في ما هية الأوزان، فجعل من المعاني والتخيلات ما تناسبه الأوزان الطويلة ومنها ما تناسبه القصيرة؛ وربما كان الوزن مناسباً للمعنى غير مناسب للتخيل، وربما كان الأمر بالعكس، وربما كان غير مناسب لكليهما. على أن أمثلة هذه مما يعسر وجدوه في أشعار العرب إذ تكون غير موجودة فيها، إذ أعارفهم قليلة القدر، وألفاظ الشعر يجب أن تؤلف من الأسماء المبتذلة ومن الأسماءِ الأخر يعنى المنقولة الغريبة المغيرة واللغوية، لأنه متى تعرى الشعر كله من الألفاظ الحقيقية كان رمزاً ولغزاً.

ويجب أن يكون الشاعر حيث يريد الإيضاح وألا يخرج إلى حد الرمز كما لا يفرط في الأسماء المبتذلةِ فيخرج عن طريقة الشعر إلى الكلام المتعارف. وأما موافقة الألفاظ بعضها لبعض في المقدار، ومعادلة المعاني بعضها لبعض، وموازنتها، فأمر يجب أن يكون عاماً ومشتركاً لجميع الألفاظ. وقد يستدل على أن القول الشعري هو المغير أنه إذا غير القول الحقيقي سمي شعراً وقولاً شعرياً ووجد له فعل الشعر، مثال ذلك قول القائل:

ولما قضينا من مِنًى كلَّ حاجة ... ومسح بالأركان من هو ماسح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ... وسالت بأعناق المطيِّ الأباطح

وإنما صار هذا شعراً من قبيل أنه استعمل بيته الأخير بدل قوله (تحدثنا ومشينا)، وكذلك

قوله: (بعيدة مهوى القرط)، إنما صار شعراً لأنه استعمله بدل قوله: (طويلة العنق) وكذلك قول الآخر:

يا دار أين ظباؤك اللعس، ... قد كان لي في إنسها أُنس

إنما صار شعراً لأنه أقام الدار مقام الناطق وأبدل لفظ النساء بالظباء، وأتى بموافقة الأنس والأُنس. وأنت إذا تأملت الأشعار المحركة وجدتها بهذه الحال، وما عدا هذه التغييرات فليس فيه من معنى الشاعرية إلا الوزن فقط، والتغييرات إنما تكون بجميع الأنواع التي تسمى عندنا مجازاً، والفاضل من هذه الأشياء أن يستعمل من كل واحد منها ما هو أبين وأظهر وأنبه، وهذا لا يوجد إلا في النادر من الشعراء لأنه دليل المهارة.

وقد أتى المترجم على نموذج من نماذج قصائد المديح، يريد أن يحلل الأجزاء التي تتركب منها القصيدة، فأرجع تأليفها - عند العرب - إلى ثلاثة أجزاء: الجزء الأول الذي يجرى عندهم مجرى الصدر في الخطبة كذكر الديار والتغزل، والجزء المبنى على المديح، والجزء الذي يجرى مجرى الخاتمة في الخطبة. وهذا إما دعاء للممدوح أو تقريظ للشعر الذي قاله. والجزء الأول أشهر من هذا الآخر، ولذلك يسمون الانتقال إلى الثاني استطراداً، وربما أتوا بالجزء الثاني دون الجزء الأول كقول أبى تمام: (لهان علينا أن نقول ونفعلا)

أو قول أبى الطيب: (لكل امرئ من دهره ما تعوّدا) ويرى خير المدائح المدائح التي يوجد فيها التركيب أي ذكر الفضائل والأشياء المحزنة المخوفة والمرققة. . . وكأني بابن رشد لم يفصل هذه الأشياء لأن العرب لا يمزجون الأشياء المحزنة المخوفة والمرققة بمدائحهم. . . وإنما هي من صفات الشعر اليوناني (وبخاصة الأوميروسي).

ثم أنتقل إلى ذاكرة الخرافة، والخرافة تكاد تغلب على الأشعار اليونانية. . . ولكن أرسطو يرى أن الخرافة ينبغي أن يكون مخرجها مخرج ما يقع تحت البصر، لأنه إذا كانت الخرافة مشكوكاً فيها لم تفعل الفعل المقصود بها، وذلك أن ما لا يصدقه المرء فهو لا يفزع منه ولا يشفق له، وفي هذا سر عميق من أسرار الإبداع، إذ ليس الشاعر من أغرب وأعجب، وليس الشعر بالشعر الأذهب في الغرابة والتخيل البعيد عن الصدق كما يذهب إليه بعض الشعراء. والشاعر الموهوب قد يتناول ما بين يديك، ويدخل في عالم نفسك، ثم يحدثك بما تعرفه وتحسب انك لا تعرفه. . . لأنه أدرك بتعمقه وتأمله أشياء منك لم تدركها بنظراتك السطحية.

ثم عرض للأشياء التي يجب أن تمدح في الممدوح محللاً إياها تحليل الفيلسوف الذي لا يسمح بعبث في الفضيلة، ولا بتلاعب في الحقيقة. هو يريد من الشعراء أن يتبعوا هذه الحقيقة، وأن يبرزوا من الممدوح الصفات التي يتحلى بها. . . وإنما تمدح العادات الخيرة والفاضلة، والعادات اللائقة بالممدوح والصالحة له، وذلك أن العادات التي تليق بالمرأة ليست تليق بالرجل. وأن تكون مما يشابهه وأن تكون معتدلة متوسطة بين الأطراف، ثم لا يورد الشاعر في شعره من المحاكاة الخارجية عن القول إلا بقدر ما يتحمله المخاطبون من ذلك حتى لا ينسب إلى الغلو والخروج عن طريقة الشعر. وكما أن المصور الحاذق يصور الشيء بحسب ما هو عليه في الوجود حتى إنهم قد يصورون الغضاب والكسالى مع أنها صفات إنسانية، كذلك يجب أن يكون الشاعر في محاكاته يصور كل شيء بحسب ما هو عليه حتى يحاكى الأخلاق وأحوال النفس ومن هذا النوع من التخيل قول أبي الطيب يصف رسول الروم الواصل إلى سيف الدولة:

أتاك يكاد الرأس يحجز عنقَه ... وتنقد تحت الذعر منه المفاصل

يقوم تقويم السماطَيْن مشيَه ... إليك إذا ما عوَّجته الأفاكل

ينتهي أبن رشد من مقارناته، ويذكر أن شذوذ العرب في كثير من هذه القوانين الشعرية. ويقول مع أبي نصر الفارابي: (وأنت تعلم من هذا أن ما شعر به أهل لساننا من القوانين الشعرية هو نزر يسير) وفي الحق يتبين لنا هذا الشذوذ كثيراً عند دراستنا للشعر العربي دراسة نقدية كما يتصورها أبن رشد، وذلك عائد إلى جهل العرب لهذه القوانين، وإما إلى أن هذه القوانين لم تلائم طباعهم. وهذا القول أرجح عندي لأن الأمة لا يمكنها أن تخلق لشعرها قوانين قبل أن يكون لها شعر!!! وأن شعرها الذي نسوقه هو الذي يخلق قوانين نقدها! إلا إذا أرادت أن تحاكي أمثلة سواها، وأن تقبل التأثر بقوانين غيرها. . . وإننا لن نغلو في التشيع لهذه القوانين لأننا نراها قوانين إذا أفادت مرة فقد لا تفيد كثيراً. . . والعبقرية في الشعر تستلهم نفسها ولا تستلهم قوانين. ولكن ذها لا يصرفنا عن القول بأن هنالك قوانين إذا لم يحترمها الشاعر عاد عليه ذلك بالفساد. وإنما أبلغ سقراط حين شبه الشاعر بالمصور، فليس المصور ذلك الذي يمنح صور الأشياء، أو يخلق أشياء غريبة لا تناسق فيها ولا فكرة. وليس الشاعر بالذي يعطّل نظام الطبيعة الشامل، ويعكس ألوان الأشياء بتخيله المضطرب!!! إنما المصور من يساعد الطبيعة على إبداعها وتزيينها، والشاعر هو من يكون أميناً على ما يتمثل له في الحياة. . .

وقد تكون قوانين سقراط في الشعر - صارمة قاسية لأنه يطلب من الشعر ما يطلبه

من الفلسفة، اعتصام بالفضيلة، واستمساك بالحقيقة. .! وقد يخرج عن هذه الحدود لأنه لا يطيق القيود، وقد يرضى بأن يهذب نفسه ولكنه لا يرضى بأن يفادى بحريته. . .
جناح الفن دائما خفاق يبتغى السمو والعلو، وويل للفن إذا استعان بجناحه على الانحدار بدلاً من الارتفاع، لأن روعة الفن في ارتفاعه لا في انحداره!
وقد كان يبتغى لمثل هذه القوانين الشعرية أن تثير ضجة في الشعر العربي لأنها مقاييس غريبة، منطقية في النقد، ولكنها مرت هادئة كمر السحاب، لا لأن الأدباء لم يفقهوها، وقد قرّبها ابن رشد من الإفهام بعد أن عرّبها وأعربها بالنماذج والأمثلة العربية، ولكن أهل البيان العربي، وجدوا أن الأدب العربي الطافح بما يخالف هذه القوانين، يستحيل عليه أن يحطم ماضيه وأن ينهج طريقاً جديداً يخطه بأيدي هذه القوانين الجديدة التي لا تلائم البيان العربي!!!
(دير الزور)
خليل هنداوي
الحياة الأدبية في تونس
للأستاذ محمد الحليوي
(يجب أن يصف أدباء كل قطر من الأقطار الحياة الأدبية في قطرهم، ومبلغ قوتها وضعفها. . . . . لنتعاون جميعا على علاجها ومداواتها. . . .)
علي الطنطاوي
(الرسالة 136)
الكلام عن الحياة الأدبية في تونس يشمل الكلام عنها من ناحيتين مختلفتين. فان كان المراد بالحياة الأدبية كثرة المشتغلين بالأدب، والمهتمين بالحديث عن رجاله، والمقبلين على مجالسه ونواديه، والمطالعين لكتبه ومجلاته، ففي تونس حياة أدبية لا بأس بها. والظاهرة البارزة في الأوساط المثقفة هي حب الأدب، والتطلع إلى كل ما يمت إليه بصلة. فالشاب التونسي يصرف هواه وجل نشاطه ومجهوده في الاشتغال بالأدب ولواحقه؛ ومجالس الشيوخ والكبراء يغلب عليها الحديث عن الأدب والأدباء، والميل إلى المطارحات الأدبية، والمساجلات الشعرية؛ وكل فكرة جديدة، أو خبر أدبي، أو كتاب ناجح تجد له صداه في كل الأوساط المتعلمة.
ولكننا إذا أردنا بالحياة الأدبية الإنتاج الأدبي والمجهود الفردي لخدمة الأدب بواسطة التأليف والنشر، فتونس ليس لها حياة أدبية تليق بمكانتها التاريخية ومركزها الجغرافي في أفريقية الشمالية. وإنه ليعي الباحث أن يدل دلالة واضحة ملموسة على القسط الذي ساهمت به تونس في تكوين هاتة النهضة الأدبية المعاصرة في الشرق العربي، وأن يبين أن للأدب التونسي ناحية خاصة تميزه، ومعالم معروفة لا يمكن أن ينكرها مُنكر، أو يتجاهلها متجاهل.
وها نحن أولاء نستعرض بعض مظاهر الحياة الأدبية في تونس، ونقول فيها كلمة الحق، وإن كان من الحقائق ما هو مؤلم.
الشعر في تونس
هنالك في تونس شعراء كثيرون، ودواوين شعرية مطبوعة كديوان (خزنه دار)، وديوان سعيد أبو بكر، وديوان مصطفى آغه، ومجموعة للأدب التونسي المعاصر في أربعة أجزاء جمعها زين العابدين السنوسي صاحب مجلة (العالم الأدبي)، وترجم فيها لما يزيد على ثلاثين شاعراً، وأنتخب من شعرهم منتخبات مطولة. ولكن الشعر التونسي في مجموعه لم يبلغ من القوة والابتكار والاستقلال الفكري والمميزات الفردية، وظهور الشخصيات القوية، ما يجعله يقوى على تحمل المقارنة بالشعر العالي أو ينعت بالأدب الرفيع. ومن سوء حظ تونس أن الفرد الوحيد الذي استطاع أن يعلو بشعره إلى مكانة الشعر الراقي ويضاهي به أنبغ شعراء العرب والغرب قد مات في العام الماضي في ريعان الشباب؛ وبكته تونس في حفلة رائعة اشترك فيها كثير من أدباء الأقطار العربية.
والشعر التونسي المعاصر يسيطر عليه تقريباً الشعراء الشيوخ وهم الذين يخصون فنون الشعر القديمة بجل عنايتهم؛ وشعراء الشباب يغلب على شعرهم الميل إلى التجديد في المعاني والأغراض وحتى الأوزان والأساليب، ولكن الذي يعاب عليهم هو

غلبة تفكير الجرائد ومواضيعها على أدبهم، وفقر شعرهم من المعاني القوية والصور الشعرية، واحتياجهم إلى الثقافة العامة القائمة على سعة الاطلاع والإحاطة بتاريخ الحركات الأدبية والفكرية في مختلف العصور؛ ويعاب عليهم أيضاً هذا النوع من الأدب الباكي الذليل، فلا يكاد أحدهم يشدو في نظم الشعر حتى تراه ينظم في البؤس وتوابعه، ويتشاءم من كل شيء في الحياة؛ فنحن نقبل هذا النوع من الكهول والشيوخ الذين دخلوا معركة الحياة وتمرسوا بآفاتها، ولكننا نرفضه من الشباب، لأن الشباب أمل وعزيمة وحب للكفاح والغلبة.

الحياة الكتابية

فنون الكتابة كثيرة، فأية كتابة عندنا وأي كتّاب؟ نقول في الجواب إنه يوجد عندنا الكاتب الاجتماعي والمؤرخ والصحفي. . . فقد نشر في تونس في هاته السنوات الأخيرة كتب بعضها في التاريخ ككتب الأستاذة حسن حسين عبد الوهاب، وعثمان الكعاك، وأحمد توفيق المدني؛ وبعضها في الأدب والاجتماع، ككتاب أبو القاسم الشابي عن الخيال الشعري، وكتاب الطاهر الحداد عن المرأة، وكتاب محمد المرزوقي عن مسائل من الفن والجمال.

وهناك خمس صحف أسبوعية، وجريدتان يوميتان، ومجلة أدبية لم يستطع صاحبها أن ينفخ فيها الحياة، فهي تحتضر منذ سنوات! وعدا ذلك فليس في تونس من يمثل تمثيلا مشرفاً أدب القصة والمسرح، وأدب الأطفال، والأدب القومي؛ وكذلك الناحية النقدية والعلمية في الأدب. وتاريخ تونس لما يكتبْ.

فصفة الكاتب عنيت بها ما يفهم من لفظها أجمالاً وإطلاقا، أما إذا عنينا بالكاتب رجلاً له نظريات خاصة، وأفكار فردية، يخصص حياته لنشرها والدفاع عنها حتى تنتصر، كلفه ذلك الدفاع ما كلفه، فهذا عزيز في الناحية الأدبية. فإذا قلنا مثلاً إن طه حسين كاتب، فليس معنى ذلك في مذهب العقل والتاريخ أنه يجيد رصف الجمل وتأليف الكتب، وإنما معناه أنه رجل يفرض فكرته على الناس فرضاً، ويكتب ما يراه حقاً وإن خالف ما رآه غيره، ولا يضيره أن يوجه قُراءه بغير ما ألفوا سماعه، ويصدمهم بآراء ليست هي آراءهم التي اقتنعوا بها؛ وبعبارة أشمل يرفعهم اليه، ويبعثهم على التفكير والتأمل واعدة النظر فيما ناموا عليه من المبادئ والحقائق؛ وما يزال بهم حتى يكوّن من أنصاره فكرته ومخالفيها مدرسة تنشر تعاليمها وتصادم تعاليم خصومها. فهذا هو الكاتب الذي يحي الأدب ويجدد الأدب، وبهذا وحده يكون الكاتب مثقف عقول، ومغذي عواطف، وقائد أفكار.

أما في تونس فالقارئ هو الذي يقود الكاتب. فعلى الصحفي أن يصلح ما يحب الرأي العام أن يصلح، ويجتنب ما يغضبه ويبهجه. وعلى الكاتب أن يكتب ما يريد قراؤه، وأن يتناول من المواضيع ما يسمحون له بتناوله؛ وحذارِ أن يكون له رأي خاص يخالف رأيهم - وإذا كتب في نقد الأدب القديم فالواجب أن تكون كتابته تقديساً لأصحاب ذلك الأدب، وكلمة الإلحاد وما اشتق منها ما تزال رائجة الاستعمال تُلصق بكل من يظهر نوعاً من الاستقلال الفكري في الأدب؛ وجمهور القراء لم يحسن إلى الآن التفريق بين ما هو أدبي وما هو دينى، فكلّ أديب يقول بالتجديد الأدبي فهو متهم في عقيدته. فكانت نتيجة هذه الحالة فقر أدبنا من الكتاب ومن كثير من فنون الكتابة.

معاهد الثقافة والمؤسسات

وأول مسؤول عن ركود الأدب في تونس هي معاهده الثقافية ومؤسساته الأدبية، فانتشار الأدب لا يكون إلا بكثرة القراء، وعلى قدر نصيبهم من المعرفة والفهم يكون إقبالهم على

تتبع الحركة الأدبية وتقويتها بشراء كتبها ومجلاتها. ونحن نريد أن ينتشر الأدب وتقرأ كتبه ونشراته، لأننا في حاجة إلى تقويم العقلية التونسية وتثقيف ذهن سائر الطبقات، وتصحيح المقاييس التي نقيس بها كل شأن من شؤون الحياة؛ وليس شيء كالأدب يحي ميت الهمم ويبعث خامل العزائم ويشذب شاذ الغرائز؛ وكل مدينة قامت في التاريخ كانت منبعثة من نهضة أدبية أو مصاحبة لها.

فما هو نصيب معاهدنا في هذا العمل وماذا نرجو منها؟ أما المدارس الابتدائية فلا رجاء في أبنائها لأن المعلومات العربية التي يخرجون بها من هاته المدارس لا تؤهلهم لقراءة الكتب الجدية ومطالعة الصحف الراقية، وهم حين يغادرون المدرسة يرجعون

إلى أشغال آبائهم في القرى والبوادي، وليس لهم من الثقافة إلا ذلك النزر القليل الذي يمكنهم بعض التمكن من قراءة رسالة أو كتاب عامي سخيف من تلك الكتب المملوءة بالخرافات ولأوهام.

أما المعاهد الثانوية والعالية فهناك جامع الزيتونة الأعظم والمدرسة الصادقية والمدرسة العليا للآداب واللغة العربية. فأما جامع الزيتونة فهو حصن العربية الأشم، وهو بمثابة الأزهر بمصر، وخريجوه هم صفوة العلماء والحكام والقضاة والعدول، وهم من الطبقة الوحيدة ذات الثقافة العربية المحصنة؛ وأما المدرسة الصادقية ومدرسة اللغة والآداب العربية، فأن الدراسة تقع في هما باللسانين، وربما غلبت فيهما الثقافة الفرنسية على العربية خصوصاً من ناحية الترجمة والعلوم الرياضية، ومن هاتين المدرستين تخرج جلّ كبار موظفي الإدارة الفرنسية ومترجميها، وعن طريقهما سافرت البعثات العلمية التي تتكون اليوم منها نخبة طيبة من الأطباء والمحامين والمهندسين، ولكن أطباءنا ومحامينا قلما يكتبون أو يؤلفون بالعربية. وكم كنا نود لو إن دكاترتنا كانوا كدكاترة مصر الذين قامت على سواعد أكثرهم نهضة مصر الأدبية والعلمية.

أما المؤسسات الأدبية فهناك الجمعية الخلدونية، وهي اقدم المؤسسات التونسية، ثم جمعية قدماء تلامذة المدرسة الصادقية، وأخيراً جمعية الكتاب والمؤلفين - فأما الخلدونية وقدماء الصادقية فأغلب نشاطهما منصرفٌ إلى تنظيم المسامرات الأدبية والعلمية، وإقامة الحفلات لأحياء ذكرى نوابغ الأمة العربية في القديم والحديث؛ وأما جمعية المؤلفين والكتاب التونسيين فأنها افتتحت أعمالها بإقامة حفلة ذكرى الشاعر العبقري المرحوم أبى القاسم

الشابي. ثم لم تفعل بعدها شيئاً إلى الآن خصوصاً وقد علقت عليها آمال ضخام في انتشال البلاد من هذا الركود الأدبي بتوحيد جهود أدبائه وتسهيل نشر كتبهم بواسطة القروض التي تسبقها والدعاية التي تقوم بها للمؤلفات.

أسباب ركود الأدب

إذن فأسباب ركود الأدب كثيرة، ولكن يمكن تلخيصها في سببين:

الأول: قلة القراء في الأواسط الشعبية نظراً للأمية الغالبة على السواد. ثم جهل كثير من الشباب لغته القومية أو نزارة معارفه التي لا تسمح له بالاستفادة من الأدب والصحف الجدية.

الثاني: عدم وجود من يأخذ بيد الأديب إذا هو أراد أن ينتج وينشر، فطبقة القراء القليلة تزهد في كل عمل تونسي، ولا تُقبل على تأليف تونسي، كما تقبل على التأليف المصرية والشامية، والصحف اليومية لا تقوم بأي مجهود لاستكتاب الأدباء، وحمل القراء على المطلعة الأدبية، وإذا نشرت شيئاً من الأدب فالأغلب أن يكون من الأدب السهل الرخيص.

والخلاصة أن الأدب في تونس لا يعدو كونه هواية من الهوايات، ولا يوجد الأديب المحترف، وإن وُجد الصحافي. والمؤلف يقاسي الأمرين من فقدان الناشر والقارئ. وليس هناك من المشجعات للأديب ما يجعله دائب الإنتاج والعمل.

فلا مكافآت، ولا جوائز، ولا مجاملات لنشر آرائه، ولا حرية لمن أراد أن يفكر باستقلال؛ والأصوات التي ارتفعت في تونس وترقّب منها كلُ مخلص أن تكون في يوم من الأيام داويةً في العلم العربي خفتت وصمتت لتكاتف هاته العوامل عليها.

رجاء

على أنه لا يسعني أن أختم هاته الكلمة دون أن أنوه بما يبديه؟ الشباب التونسي في هاته المدة الأخيرة من النشاط والحيوية. فهنالك جمعيات للشبيبة لا زالت توالى الجهود في إقامة الحفلات المختلفة وإلقاء المسامرات في مختلف المواضيع، ونشر النشرات التي يرى القارئ من خلال سطورها هاته القلوب الفتية التي تتقد إيماناً بمستقبل الأمة التونسية، وحباً لأدبها ولغتها القومية. وإنه وإن كان نشاط هاته الجمعيات مقصوراً على العواصم وفي

أواسط مخصوصة، فأنا لنرجو أن توفق إلى تعميم هاته الحياة في كامل البلاد بكل وسائل النشر والدعوة؛ فان الأمة التونسية لفي أشد الحاجة إلى حيوية شبابها وعزيمته الصادقة وإيمانه القوي باسترداد مجد تونس الزاهر وعصرها الذهبي.

(راداس - تونس)
محمد الحليوي
من الأدب الإنكليزي
- برسي شلي - 3
بقلم خليل جمعة الطوال
تعريفه للشعر والشاعر

لِشلي نظرية في الشعر طويلة لا يتسع مقالنا هذا لاستيعابها بكاملها، نقتطف منها إحاطة بالموضوع من جميع نواحيه ما يأتي: ليس الشعر بالحدث الطارئ الجديد على عواطفنا ولا من صفاتنا المكتسبة بطوال التمرسن والمران، بل هو فينا غريزة فطرية كغريزة الجوع والنوم والكلام والألم، وليس ما نبديه من الحركات المبهمة والإشارات الغامضة، أو ما نفوه به من الكلام وتجيش به صدورنا من العواطف المضطرمة إلا أنواعاً من الشعر في أدنى مواضعه وأضيق حدوده. ولولا ما فينا من عواطف الشعر الهائجة الكامنة والثائرة ألوا دعة، لما كنا نكتئب ونفرح لأوهى الصدمات وأدنى المؤثرات.

وليس الشعر بعلم من العلوم التطبيقية كالهندسة والكيمياء وكالفلك والكهرباء وإلى ما هنالك من العلوم التي تعتمد على التجربة ولا تثبت إلا بالبرهان، بل هو فن من الفنون الجميلة - وهي الرسم والموسيقى والرقص والغناء والشعر والبناء - التي تعنى بظواهر الأشياء وأشكالها دون باطنها، وبجمالها وأعراضها دون جوهرها: وما الإنسان إلا كآلة موسيقية تتعاقب عليها شتى الانفعالات الداخلية والمؤثرات الخارجية: فتتجاوب أوتارها لكل منها بنغمة خاصة تختلف عن سالفتها في الدرجة لا في النوع.

لقد كان الإنسان في بدء أطواره يُقلد مختلف الظواهر الطبيعية بحركاته وساكناته، فكان كل من هزيم الرعد، وهزيز الريح، وزمزمة النار، وخرير المياه، وحفيف الأشجار، وقد غردت فوقها الأطيار الجميلة الألوان والشجية الألحان، يحدث في نفسه انفعالات داخلية عديدة، وشحنات كهربائية عنيفة، لا يرى لها مخرجاً إلا في فنّ من الفنون الجميلة، ولكن الناس ليسوا سواءً في الاستجابة لهذه المؤثرات، فهم وإن تشابهوا في نوع احساساتهم إلا أن فيهم البليد الشعور، وفيهم السريع الانفعال، وهذا الأخير هو ما نسميه اصطلاحاً بالشاعر.

والشعرُ يتكئ على الخيال كما يتكئ على الحقيقة، ويعتمد على اللغة بمقدار ما يعتمد على الموسيقى والغناء. وليست هذه الأشياء في مجموعها إلا من مكونات الشاعر الأولية، وبمقدار حظه منها يكون حظه من الشاعرية.

على أن أسمى مظاهر الشعر وأبينها هي تلك العواطف والانفعالات المنضوحة في وعاء من الكلام الموزون المقفى؛ ذلك لأن جمال اللغة وموسيقى الألفاظ، أقرب إلى الخيال وأعمل في إذكاء النفس وإرهاف الحس من التصوير والبناء، ونغمة الآلة والرقص والغناء. ولكن هذه المفاضلة تحصر الشعر في دائرة ضيقة، لا تتسع لاستيعاب ذلك الخيال المشبوب وتلك العاطفة الوثابة اللذين لا يجدان لهما من منفذ آخر عدا الشعر المقفى إلا بالتلحين وبالحركات. ومن هنا كان تفرع الرقص والغناء عن الشعر الذي هو الأساس.

الشعر هو تلك المرآة التي تنعكس عنها شتى الانفعالات النفسية التي يجيش بها الصدر وينماث لها القلب؛ وبمقدار ما يكون لهذه المرأة من دقة الصنعة والإتقان يكون للشاعر من جودة الفن وغايته في الإبداع والإحسان.

ولعل ضرورة الوزن والقافية للشعر إنما جاءت من ضرورة الرقص والموسيقى للغناء. فأنت لا تكاد تنبس ولو ببيت من الشعر إلا وتختار لا لقائه أجود التوقيع، وتقرنه بأشرات قد تكون في الغالب مبهمة، إلا أنها مع كل ذلك تدل على عاطفة كانت مكبوتة فظهرت، وكانت هادئة فاضطربت.

الشعر هو صورة الحياة في حقيقتها الأزلية والشاعر هو تلك الريشة التي تظهر بواسطتها هذه الصورة والشاعرية هي القدرة على إبرازها في أجمل ألوانها وأزهارها وأشكالها.

الشعر هو الألمُ والسرورُ، هو الكآبة والحبور، والشاعر هو ذلك الذي تضطرب نفسُه بين موجات الحزن ونغمات الفرح. بل هو ذلك الشعاع الذي يصقلَ النفسَ ويرهف

الحس ويهذبُ الشعور.
الشعرُ يهذب الأفرادَ والدرامة تُصلح سوأت المجتمع، ولهذا أحسن تاسو الإيطالي إذ قال: ليس من مبدع إلاّ الله والشاعر، وليس من مدنية إلا بالدرامة.
ثورة شلي الفكرية
لقد تمرد شلي على الهيئة الاجتماعية وخرج على جميع نظمها وتقاليدها الدينية والمدنية،
فانثال على الدولة والكنيسة بحملة متطرفة شعواء، نقضت ما كان لهما في نفوس الناس من الجلال والاحترام، وكان يعلق كبير الأمل في التخلص منهما، وفي تحقيق مثله الأسمى على تلك الأفكار الثورية التي تلقحت بها عقول الناس من كتابات فولتير وروسو ومنتسكيو، والتي كظمت مدة ثم انفجرت بالثورة الفرنسية، ولكن للشد ما أسف إذ رأى ما منيت به أفكار الثوار من الإخفاق.
ولما اندلعت نيران الثورة في أسبانيا ونابولي وأثينا ثانية بدت له - في عالم الخيال - بارقة أمل جديدة في تحقيق مثله الأسمى، فاخذ يتغنى بهمة الثوار ويستفز حميتهم بشتى القصائد الرائعة كقصيدة (نابلي) وقصيدة (هيلاس) ولكن الثورة اشتدت ووضعت أوزارها، دون أن تحقق له غرضاً من أغراضه التي مات وهو مُصر عليها برغم ما لقيه من قوة السلطة وصدمة الحوادث.
فكرة شلي عن الله
يرى شلي أن فكرة الإنسان عن وجود الله تشوه جماله كما يشوه الزجاج الملون منظر الأجسام التي من ورائه. وأنها فكرة خاطئة تتناقض ومبادئ العدل والإنسانية العليا. ويقول إن الله لم يخلقنا لكي يبعث بنا في الآخرة أو يجزي شرورنا بمثلها لأنه رحيم لا حد لرحمته، ولأن الانتقام من صفات الإنسان وليس من صفاته فهو والحالة هذه يشبه عمر الخيام إذ يقول:
إذا كنت تجزى الذنب مني بمثله ... فما الفرق ما بيني وبينك يا ربي
ويستأنف في قوله إلى أن ليس لله كيان مستقل بذاته بل هو متمثل في جميع مظاهر الكون وكائناته من إنسان وحيوان. فليس ما نشعر به في عواطفنا من عوامل الخير والفضيلة والإحسان والشفقة أو ما نشاهده في الدودة التي تعيش في باطن الأرض من المحبة والاطمئنان إلا من مظاهر ذلك الإله العادل.
لقد تصور شلي في الإنسان أسمى ما يمكننا تصوره، وراح يعرض هذه الصورة الجديدة على معاصريه المتزمتين بلسان عي؟ وخلق سرى، بل بيد جذاء وكنانة جوفاء إلا من ذخيرة الأيمان بدعوته. ولذا فلا عجب إذا وقرت دونه آذانهم، بعد أن أذاقوه من لاذع النقد ومر التقريع شأن ما يلقاه أصاحب البدع في كل جمهور متزمت.
وفي عام 1811 نشر رسالة مطولة: عنوانها (حاجتنا إلى الإلحاد) دعا فيها جميع الأستاذة إلى الإلحاد أو إلى تفنيد آرائه ودحضها بالمناقشة، ولكنهم ألقوا بدعوته دبر آذانهم ثم طردوه من الجامعة هو و (السير توماس جفرسن) المتشرع المشهور لأنه استجاب لدعوته واعتنق جميع مبادئه.
وفي عام 1858 ألف (توماس جفرسن) كتاباً عظيماً عن صديقه شيلي أكسبه شهرة واسعة في الأوساط الأدبية، وقد نشره تحت عنوان وهو يتضمن حياة شلي وتعاليمه مذيلة بشروح عظيمة لا نعثر عليها في غيره.
آراء الأدباء في شيلي
يقول روبرت براوننج: لقد هاجم شيلي مبادئ المجتمع العظيمة دون أن يتحقق صحيحها من فاسدها، وغثها من سمينها، ونسب إلى الكنيسة والحكومة الشيء الكثير، مما يزري بشأنهما ويحط من مقامهما في أعين الناس. ولقد كان في حملته التي شنها على العرف والعادات، وعلى الشرائع والديانات، يُقاد بتهور العاطفة لا بتمحيص العقل، وبنشوة الشباب لا برصانة الفكرة؛ وكان يلقى بأحكامه جزافاً قبل أن يعمل فيها مشرط العقل وقبل أن يعرضها على محك الاختبار.
ويقول سوينبرن: إن إعجابي بشيلي عظيم لا ينتهي، وما ذاك إلا لفرط محبته الواسعة لجميع المخلوقات، تلك المحبة التي تقرن اسمه بالمسيح ما دام في الكون فقراء ومساكين. لقد درس آراء أفلاطون - ولا سيما في ثناياها بأسمى ما عرفه من المثل العليا، تلك المُثل التي صرف في تحقيقها ريق العمر وزهرة الشباب فما أفلح.

ويقول أرنولد: ثلاثة ينبغي تقديسهم: بوذا لتضحيته، والمسيح لمحبته، وشلي لإنسانيته.
ويقول بيكوك: مهما يكن من الحاد شيلي فآني أرى فيه مثال الدين الصحيح لإقباله على عمل البر وحدبه على الفقراء. فقد شهدته مرة وقد ابتاع من أحد المتاجر مجهراً، فما لبث أن أودعته لساعته عند تاجر آخر وأخذ مقابله قليلاً من المال، ورأيته يركض بعد ذلك بخطوات فسيحة لينقذ بائساً رآه في وهده الشقاء. وكانت تلك الكمية صبابة ما بقى لديه من المال.

حياته وزواجه:

دخل شيلي مدرسة أثن عام 1804، وكان لا يزال في الثانية عشرة من العمر، ثم تركها والتحق بجامعة اكسفورد حيث طُرد منها عام 1811 بسبب رسالته الإلحادية. وفي شهر يونيه من السنة نفسها تزوج (هاريت وستبروك) وارتحل إلى بلدة (كزوِك) هرباً من تعنت والده، وهناك التقى (بسوثي) أحد شعراء إقليم البحيرات البارزين. ثم أخذ يتعاطى مهنة الصحافة مع (وليم فودوين) السياسي الشهير فتشرب منه روح السياسة. وفي عام 1812 سافر إلى أيرلندا ودبلن حيث أخذ يؤلب الناس على الكنيسة الرومانية، فاستجاب له خلق كثير وأعرض عنه الباقون.

وفي سنة 1813 ولدت له هاريت صبية دعاها (لانث).

ثم ارتحل إلى أدنبرة ألقى هناك عصا التسيار مدة من الزمن، كان يستجم فيها ويعد العدة لحملة جديدة يحمل بها على الدين والمجتمع معاً. وفي مسهل عام 1814 برزت هذه الحملة الجديدة في رسالته التي نشرها تحت عنوان (تفنيد وحدانية الله وفي العاشر من شهر ديسمبر اضطرب حبل مودته مع زوجه هاريت، فطلقها وتزوج من عشيقته ماري ولستونكرافت ابنة الصحافي الكبير فودوين، وبعدها سافر إلى سويسرا ثم إلى فرنسا، وفي أثناء غيابه ولدت منه زوجه الأولى هاريت صبياً دعته شارل بيش، وما أن رجع من رحلته هذه إلا وقد توفي جده بيش شيلي فورث عنه أموالاً طائلة.

وفي عام 1816 ولدت له زوجه مارى ولداً سماه وليم شلي إلا انه لم يُعمر طويلاً بل توفي بعد عامين من ولادته، وفي شهر أبريل التقى بكيتس لأول مرة، وكانت قد اشتدت روابط الصداقة بينه وبين اللورد بيرون.

وفي العاشر من شهر ديسمبر ألقت (هاريت بنفسها في اليم وما أخرجت من الماء إلا وهي جثة هامدة. وهكذا أصبحت مارى ولستونكرافت زوجته الشرعية).

وفي عام 1817 سافر إلى إيطاليا وأقام هناك، وكانت محكمة شانسري قد حرمته من حضانة ولديه من زوجته الأولى (هاريت). وفي ايطاليا تفرغ شلي لقرض الشعر ولدراسة الآداب دراسة جدية.

وفي الثامن من شهر يوليو لعام 1822 بينما كان يسبح في خليج بيزا لقيه اليم بموجة عظيمة كان فيها حتفه إذ ألقته على الشاطئ جثة هامدة. ثم أحرقت جثته فوق رمال ذلك الشاطئ على مشهد من صديقه اللورد بيرون ووضع رماده في قبر أُعدَّ له في روما. وكان قد أوصى في حياته بالا ينقش على ضريحه إلا تاريخ ولادته ويوم وفاته والكلمة الآتية: ومعناها غير مغرور.

وفي بعض المصادر نجد أنه أوصى بنقش هاتين الكلمتين لا الأولى وهما قلب القلوب ولعل الأولى أقرب إلى الصواب.

وهكذا طوت الأيام تلك الصفحة المجيدة المملوءة بجليل المآثر والحافلة بعظيم الأعمال.

(شرق الأردن)

خليل جمعة الطوال

فاز سعد!

للأستاذ عباس محمد العقاد

عرف النفيَ حياة ومماتا ... وأصاب النصر روحا ورفاتا
كلما أقصوه عن دار له ... رده الشعب إليها واستماتا
كيف يجزيه افتياتا وهو مَن ... كان لا يرضى على الشعب افتياتا
أصبحت دارك مثواك فلا ... تخش بعد اليوم يا سعد شتاتا
حبّذا الخلد ثماراً للذي ... غرس المجد ونَمَّاه نباتا

كل أرض للمصلى مسجد ... غير أن الكعبة الكبرى مقام
هكذا قبرك مرفوع الذرى ... في جوار البيت أو سفح الأمام
أرض مصر حيث أمسيت بها ... فبنو مصر حجيج وزحام
غير أن الذكر يبغي منسكا ... مثلما يبغيه حج واستلام
فالق في قبرك خلداً كلما ... مرّ عام تبعته ألف عام
اعبر القاهرة اليوم كما ... كنت تلقاها جموعا ونظاما
ساعة في أرضها عابرة ... بين آباد طوال تترامى
ساعة من عالم الفردوس لا ... تشبه الساعات بدءاً وختاما
كل من شاهدها زِيدَ بها ... من معانيك جلالاً ودواما
قل لهم أبلغ ما قلت لهم ... أيها الواعظ صمتاً وكلاما
جرّدوا الأسياف من أغمادها ... ذاك يوم النصر لا يوم الحداد
ارفعوا الرايات في آفاقها ... أين يوم الموت من يوم المعاد؟
لا يلاقي الخلد بالخزن ولا ... يكتسي الفتح بجلباب السواد
ذاك يوم ما تمناه العدى ... بل تمناه ولاء ووداد
فانفضوا الحزن بعيداً واهتفوا: ... فاز سعد وهو في القبر رماد
الفراعين الأولى أجليتهم ... لتمنوا لو أجازوك الطريق
أنت أضفيت على أوطانهم ... سعة، وهي من الأسر مضيق
أنت أيقظت لهم تاريخهم ... وهو في نومته لا يستفيق
فضلك اللاحق أحيا فضلهم ... فاستوى منه طريف وعريق
آية في الحق لا ينسخها ... في مدى الدهر عدو أو صديق
يا بني مصر اجعلوا نقلته ... رمز أحياء وعزم ومضاء
وانظروه كيف حالت دونه ... غِيَرُ شتى، وما حال القضاء
المعيقون تنحوا جانبا ... آخر الأمر، وسعد في البناء
كل ذي حق سيعطى حقه، ... ليس للمجد من الخلد نجاء
كل ما عارض سعيا باقيا ... عَرَض فان وزور ورياء
ترمز الشمس إلى نقلته ... بسفور غالب بعد حجاب
صرعت ليلين صبحاً فروت ... عن حضور ناصع بعد غياب
هو أيضا قد طوى ليل الردى ... وطوى ليل الغواشي والكذاب
في السموات وفي الأرض له ... أثر ينبئ عن يوم المآب
أثر الفجر إذا إنجاب لنا ... عن ضحاه،، بعد لأي وغِلاب
دان يا سعد لك الذكر بما ... شيد الباني وما خط الزبور
قدر نادى فلبته على ... موعد الذكرى صخور وسطور
أَنا بان لك في ملك النهي ... منزلاً يبقى ولا تبقى الصخور
من أسانيدك أساس له ... ومن الحق له حسن ونور
إن أنل شأوك فيه إنني ... بالذي شيَّدت منه لفخور
فتية الوادي بسعد فاقتدوا ... إن تخيرتم له خير وفاء
أذكروه بالذي يعمله ... منكم العامل في غير وناء
واذكروه بالذي امتاز به ... من مزاياه الأبيَّات الوضاء
هكذا يخلد سعد بينكم ... بتماثيل حياة ورواء
كل ما يعظم من أعمالكم ... هو تخليد لذكرى العظماء
كل بيت فيه سعد ماثل
للأستاذ علي الجارم
اكشفوا الترب عن الكنز الدفين ... وارفعوا الستر عن الصبح المبين
وابعثوه عسجداً مؤتلقاً ... زاد في لألائه طوال السنين
واجتلوه درة ساطعة ... صدفُ الدهر بِشَرْواها ضنين
وانتضوا من غمده سيف وغى ... كان إن صال يقد الدارعين
وقناة جل من ثقفها ... للحفاظ المر والعزم المكين
لوت الدهر على باطلة ... وهي كالحق صفاة لا تلين
هزمت جيش الأباطيل فما ... غادرت غير جريح أو طعين

كتب الله على عاملها ... إنما الخلد جزاء العاملين
جدث ضم سناء وسني ... ومُصاص الطهر في دنيا ودين
طاعة الأملاك فيه امتزجت ... في السموات بعز المالكين
فتشوا في الترب عن عزمته ... وعن الأقدام والرأي الرصين
واخفضوا أبصاركم في هيبة ... إن رأت أبصاركم نور اليقين
واخشعوا بالصمت في محرابه ... أفصح الألسن صمت الخاشعين
وانتحوا من قبره ناحية ... واحذروا أن تزحموا الروح الأمين
وحناناً بضريح طالما ... صقلته قبلات الطائفين
وجثت مصر به خاشعة ... تذرف الدمع على خير البنين
صيحة قدسية إن سكتت ... فلها في مصر رجع ورنين
وعرين حل فيه ضيغم ... رحمة الله على ليث العرين
ومضاء عرفت مصر به ... إن للحق يميناً لا تمين
لا أرى قبراً ولكني أرى ... صفحة من صفحات الخالدين
أو أراه قصب المجد الذي ... دونه ينفق جهد السابقين
أو أراه علماً في فدفد ... لمعت أضواؤه للحائرين
أو أراه روضة إن نفحت ... خجل الورد وأغضى الياسمين
أو أراه دوحة وارفة ... نشرت أفياءها للاجئين
أو أراه قلب مصر نابضاً ... بمنى تمحو من القلب الأنين
نقلوا التابوت تحتفُّ به ... رحمات من شمال ويمين
ذاك بعث حييت مصر به ... من جديد تلك عقبى الصابرين
هل علمتم أن من واريتم ... في حنايا كل مصر دفين
ما لسعد حفرة واحدة ... هو ملء القلب ملء لأرَضين
كل بيت فيه سعد ماثل ... في إطار من حنان وحنين
بسمة الآمال في بسمته ... وانبلاج الحق في ضوء الجبين
هو للأبناء عم وأب ... وهو للآباء خل وخدين
كان سعد علماً منفرداً ... هل يرى للشمس في الأفق تنين
إن أم المجد مقلاة فكم ... سوفت بين جنين وجنين
تبخل الدنيا بآساد الشرى ... أيها الدنيا إلى كم تبخلين
أنت قد أنجبت سعداً بطلاً ... وقليل مثله من تلدين
قاد للمجد مناجيد الحمى ... كلهم أروع منبتُّ القرين
تقرأ الأقدام في صفحته ... مثلما تقرأ خط الكاتبين
كلما مرت به عاصفة ... زعزع مرت على طود ركين
تقرع الأقدار منه عزمة ... أنفت صخرتها أن تستكين
حُشُدٌ حول الرئيس (المصطفى) ... نبعة الإخلاص والخلق المتين
وجدت مصر به وأحدها ... رب فرد بألوف ومئين
ومن الناس نضار خالص ... ومن الناس غثاء وغرين
ومن الناس أسود خدر ... ومن الناس ذباب ذو طنين
وضعت مصر به آمالها ... فاستقرت منه في حصن حصين
مسح الدمعة من أجفانها ... ومحا من لوعة القلب الحزين
أيها الربان أبحر آمناً ... وثق الركب بربان السفين
كل ما حولك رهو هادئ ... والبقيات على الله المعين
لاحت الفرصة في إبانها ... إنها لا ترتجي في كل حين
فتقدم بطلاً جم المنى ... أنت بالنصر حريٌّ وقمين
صدق الله تعالى وعده ... إنما الفوز ثواب المخلصين

علي الجارم

القصَص

قصة مصرية

الأعمى. . .

بقلم محمود البدوي

تمر ترعة الكامل بقرية (س) وهي قرية صغيرة من قرى الصعيد، فتشطرها شطرين غير متساويين، فقد جارت على الجانب الأيسر بقدر ما أضفت على الأيمن، فاتسع هذا واستفاض حتى أصبحت منازله وبساتينه ونخيله وأعنابه لا يحدها البصر ولا تحصرها العين، واستدق ذاك واستطال حتى قامت منازله الصغيرة على شط الترعة ذليلة منكسرة واجمة، تشكو إلى الله ظلم الطبيعة بعد أن شكت جور الإنسان الذي خلفها سوداء قذرة تمرح فيها الحشرات من كل لون وجنس.

وإذا استقبلت القرية وأنت قادم على جسرها الطويل، بصرت أول ما تبصر بمنزل صغير من هذه المنازل بنى بالطوب الأسود، وخط جواره بستان، ليس فيه سوى نخلتين! مالت إحداهما على الترعة، حتى غرقت فروعها في الماء، وسمقت الأخرى في الجو، حتى ناطحت بسعفها السماء، ولا تدر النخلتان ثمراً الآن، ولا يرجى منهما شيء في المستقبل، فقد جف عودهما وذهب شبابهما. وتقيم في هذا المنزل منذ أكثر من تسعة أعوام أرملة في الخمسين، وهي امرأة دمثة الطبع - على خلاف العجائز من مثيلاتها - ناحلة الجسم معروقة العظم واهية البناء، تستريح في بيتها معظم العام، حتى يهل رمضان، فإذا هل، خرجت في الهزيع الأول من كل ليلة حاملة على ذراعها صفيحة قديمة تطوف بها على منازل القرويين، وهي تنقر نقراً خفيفاً، وتغنى بأغنية قديمة، قل من يدرك معناها ومبناها من سكان القرية! على أنهم كانوا يهبون من مضاجعهم عندما يصافح سمعهم إيقاعها وغناؤها ويبسطون موائد السحور، وان كان الليل لم ينتصف بعد!! وهذا العمل الضئيل لا يجلب لها في الغالب رزق شهرين أو ثلاثة، فكيف تقتات باقي العام؟ وكيف تعيش؟ هذا هو السؤال! على أن الذين انحدروا من الريف، يعرفون تمام المعرفة أن هناك الملايين من أمثالها يضعون دائماً أيديهم على بطونهم ليحفظوا بذلك التوازن الاجتماعي لتخمة الأغنياء.

مثل هذه الأيم السواد الأعظم من الفلاحين الذين لا يعرفون وخير لهم أن لا يعرفوا، أنهم أتعس المخلوقات البشرية في الدنيا جمعاء. إنهم مخلوقات ذليلة تاعسة، لصقوا بالأرض حتى أكلتهم الأرض، وأفنوا عصارة حياتهم فيها حتى استنفذت قوتهم واستفرغت جهدهم. ولو رأيتهم وهم عائدون من الحقول مع مغرب الشمس، والصفرة الباهتة تعلو وجوههم، والغبار القذر يملأ أعينهم ويسد أنوفهم، لعلمت أنهم أتعس الناس في الناس، وأشق الطبقات العاملة على الإطلاق. إنهم مخلوقات مريضة فقدت بهجة الحياة ونعيمها واستسلمت صاغرة للمرض والفناء.

ويسكن مع هذا الأيم أعمى في الثلاثين من عمره، وهو شاب أسمر فارع ضليع الجسم مفتول العضل وثيق التركيب، وهو المؤذن لمسجد القرية منذ أن شب عن الطوق وانخرط في عداد الرجال. على أن الذي جمع بين هذه الأيم العجوز وهذا الأعمى الشاب، لم يكن قرابة ولا نسبا، وأن كان القرويون يسمون العجوز (أم سيد) وسيد هو الأعمى؛ وكانت المرأة تمتعض وتهتاج لهذه التسمية في أول الأمر، وهي التي لا (سيد) لها، ثم ما لبثت أن استراحت لها على مرور الزمن فقر هائجها وسكن، حتى تعمدت ألا تدفع هذا القول بما يكذبه، وهي المتيقنة بأن الجدل في أمثال هذه الأمور غير مجد في الواقع.

فمن الذي يقف في وجه التيار الجارف؟ ومن الذي يمكنه ن يمنع ألسنة الناس الطويلة جداً إلى حلوقها؟ لا أحد على التحقيق.

على أن المنزل لم يكن للعجوز والشاب في الحقيقة، وإنما هو لرجل ملاح يعمل في النيل ويقضي فيه العام كله. ولا يهبط القرية إلا زمن التحاريق، فإذا جاء، بات في سفينته، فقد ألف الرجل النيل، ونسى منزله على توالي السنين.

وكان المسجد الذي يؤذن فيه الأعمى في طرف القرية الشمالي، ولكي يبلغه لا بد له أن يجتاز الترعة وعليها جسر ضيق، يجوزه المبصر وهو راجف حذر، فكيف بالأعمى، ثم يدور بعد ذلك في دروب وينعطف في منعطفات، ويجتز بساتين من النخيل يكثر فيها الحسك والشوك، وعلى الرغم من هذا كله، فان الرجل كان يبلغ المسجد وكأنه المبصر الحديد البصر، فلا يضل ولا يتباطأ في سيره؛ ولا يعتمد على الحائط، ولا يستند إلى الجدار، وشد ما تعجب لذلك وتدهش! على أنك متى ما سمعت القرويين وهم يقولون إن

الرجل يبصر بقلبه ذهب عنك العجب كله.
وإذا طلع الفجر على القرية، وهي غارقة في سبات عميق، وكل شيء فيها ساكن هاجع، فلا نأمة ولا حركة، اللهم إلا سامقات النخيل وهي تترنح مع النسيم الواني، وسيقان الزرع وهي تتمايل مع الريح الرخاء، طلع الأعمى إلى سطح المسجد، وانطلق يؤذن في صوت حلو النبرات عذب الرنين، ينفذ إلى كل قلب، ويهفو إلى كل أذن، ومن الذي يسمعه وهو يقول: (حي على الصلاة!) فيتأخر بعد ذلك عن الصلاة؟ لقد كان صوته ليناً شجياً يرن في سكون الليل جميل اللحن عذب الرنين، فيهب له القرويون من مضاجعهم، ويخفون إلى المسجد خاشعين صامتين.
وكان الرجل محبوباً من أهل القرية جميعاً إلا النساء والأطفال. أما النساء فيكرهنه لأنه يزجرهن عن بئر المسجد، ويمنعهن من ملء الجرار منها بقسوة وغلظة، حتى ينقلب صوته الحنون عند محادثتهن إلى صوت أجش خشن مرعب أحياناً! والقرية لا تستغني عن ماء البئر خصوصاً زمن الفيضان عندما يصبح الماء عكراً نصفه طين. وكم تغفلنه مراراً، وهو الأعمى وهن النجل العيون! على أن سمعه المرهف دائماً كان يغيظهن أشد الغيظ!! فإذا أدلت إحداهن الدلو في البئر وحركت (الجبيذ) (البكرة)، وهو خشبي يحتاج للسقي بالزيت ليحبس صوته في جوفه، صر هذا، فيمد الأعمى قامته ويقول بصوت جاف:
(مين؟)
فيتركن الدلو والجرار ويرحن يصلصلن بالحلي، ويطرن على وجوههن هاربات، وقد تقع إحداهن على وجهها، فتخوض فيها الأخرى من فرط الرعب، ويقمن وجلات مذعورات ضاحكات أيضاً، على أن هذا لم ييئسهن من البئر اليأس كله، فهن يعلمن أنه يتروح بعد العشاء، فإذا بصرن به خارجاً من المسجد انطلقن إلى البئر وهن راجفات أيضاً. فشد ما كانت تخيفهن عصاه الغليظة وإن كانت لم تصافح إحداهن حتى الآن.
ومن هنا نشأت العداوة بينه وبينهن واشتدت مع الزمن أما الأطفال فكانوا كلما بصروا به على الجسر، وهو في طريقه إلى منزله، تقوده عصاه، وصدره إلى الأمام، وسمعه مرهف، ورأسه مستو، وقامته منتصبة، وخطواته ثابتة متزنة جروا وراءه يسبونه، وقد يحصبونه بالحصى أو يرمونه بالحجارة، وهو صامت باسم لا يلتفت إليهم ولا يكلم أحدا منهم، حتى
يقرب من بيته، وهنا يطلع عليهم كلب للجيران أسود ضخم يربض دائما على الجسر، فينطلق وراءهم حتى يشردهم في الدروب. وشد ما غاظ هذا الكلب الأطفال حتى تسمعهم يهمسون خوفا من أن يسمعهم الكلب (لولا هذا الكلب. . ابن الكلب. . لكان الأعمى. . .) وإن كانوا يقررون بينهم وبين أنفسهم أنه قلما كانت تصيب الرجل حصاة واحدة من كل ما يرمونه من حصى وحجر.
ولم يكن لهذه العداوة سبب ظاهر في الحقيقة، اللهم إلا الطبع الشرير الذي ينزع بالأطفال إلى السوء، ويجلب لهم أذى الضعفاء من الناس.
تأخر الأعمى مرة في المسجد حتى زحف الليل، وتكاثف الظلام واشتد، فسمع وهو راقد في ركن من أركان المسجد صوت الدلو في البئر، فاستوى على قدميه، ومشى على أطراف أصابعه كاتما أنفاسه، وصدره يضطرب، وجسمه كله يهتز، حتى جاز صحن المسجد، وتيامن إلى البئر، وقلبه واجف. وكان قد خفت صوت الدلو، ووضح صوت (الجبيذ) فقال لنفسه، لا بد أن امرأة تجذب الدلو الآن وهي مشتغلة به فلا تسمع خطوات قادم. . . ووقف برهة ثم صاح بصوت خشن: (مين؟)
فاستدارت المرأة وحملقت في الظلام. أواه. . . إنه سيد الأعمى على مدى ذراعين منها، ورمت الدلو وأذهلها الموقف المرعب عن إبداء حركة ما، فوقفت فاغرة فاها، ثم أسعفتها غريزة الهروب بعد ثوان، فولت هاربة، فسمع وقع أقدامها فجرى ورائها، وسمعه إلى خطاها، وجرت حتى جاوزت المسجد، وبودها لو تصيح بأعلى صوتها، ولكن من أين لها القوة على ذلك؟ وكيف يطاوعها الصوت؟ وعثرت قدمها بحجر في الطريق فكبت على وجهها مذعورة، وأنت عند ذلك أنة قوية، فجرى على الصوت وأهوى بيده العمياء ولمس كتفها، وكان قد بلغ منه الجهد فوقف يلهث ويده ممسكة بكتفها، ثم أنزل يده حتى قبض بعنف على رسغها، وقامت المرأة متراجعة، تود لو تفلت منه بكل ما تستطيع من قوة، ولكنه ضغط على يدها بشدة، وتحسس بيده الأخرى وجهها وقال

في صوت متزن:
(جميلة. . .؟)
(. . . . . .)
ووقفت المرأة صامتة تهتز وترتجف
(لم لا تناديني لأملأ لك الجرة؟)
وقد رق صوته جداً، فدهشت من تطور حاله وصمتت
(لماذا؟)
فشجعها صوته اللين وأجابت
(إنك لا تسمح لأحد بالدنو من البئر. . . فكيف أناديك؟)
ليس لواحدة أو اثنتين. . . وإنما عندما تجئن بالعشرات فتقطعن الحبل، وتمزقن الدلو، وتهشمن خشب الجبيذ. . . في البلد أكثر من أربع آبار قريبة، فلماذا تجئن إلى هنا دائماً. . .؟)
(. . .لأن هذه أعذبها ماء)
(. . .هذا الماء العذب كثيراً ما ينزح)
(. . .النيل في فيضانه والماء كثير)
(أجل. . . أ. . . أ. . . ولكن. . . أملأت الجرة؟)
(. .نصفها)
(سأكملها لك)
وانقلب إلى البئر، فمشت وراءه مطمئنة، وأدلى الدلو وهو يحس بعض الاضطراب، فأخذ يدير الجبيذ بسرعة ليملأ لها الجرة ويصرفها عنه، ويبعدها عن وحدته وسكونه. وقال وهو يفرغ الدلو بصوت خافت لين المخارج:
(إذا جئت مرة أخرى. . . ناديني لأملأها لك)
(كتر خيرك)
وساعدها على حمل الجرة، وانطلقت بها إلى بيتها، ووقف ينصت إلى هزيم الريح القوية في الحقل البعيد.
وأخذت جميلة بعد هذه الليلة تتردد على البئر دون خوف أو وجل، كانت تجئ في كل يوم مرة، عند مطلع الفجر أو بعد أذان العشاء، لأن زوجها لا يسمح لها بالسير في طريق القرية إلا بعد أن ينام الناس، وتنقطع الرجل. . فهي فتاة في رونق صباها رائعة الحسن غضة العود وزوجها يخشى عليها العين! ولا يحب لها ملاقاة شبان القرية الذين يقفون على
رأس الطريق في ساعات معينة من النهار! وكانت تقابل سيد الأعمى في غالب الأوقات التي ترد فيها البئر، وكثيراً ما اترع لها الجرة، وأعانها على حملها، أو ملأ لها الحوض الصغير الذي على يمين البئر لتغسل وجهها ورجلها قبل الذهاب إلى بيتها، وكانت تطوى كميها إلى مرفقيها، وتحسر شالها عن شعرها، وترفع ثوبها إلى ساقيها وهي منحنية على الحوض تغتسل. كانت تفعل ذلك، دون خجل أو حياء لأن سيداً أعمى.
واستراح سيد الأعمى مرور الأيام لمحضَرها حتى أصبح يشعر في الأيام التي تتخلف فيها بالانقباض والوحشة. كان يحس، من أعماق نفسه، أن شيئاً ينقصه، شيئاً يستريح معه، وينشرح له صدره، وتنتشي حواسه، وتهدأ ثائرة أعصابه.
وكانت جميلة تدفعها غريزتها أول الأمر إلى الخوف منه واتقاء شره كرجل، بصر النظر عن كونه أعمى، ولكنها ما لبثت - بعد الانفراد معه مرة ومرات - أن استراحت واطمأنت ووثقت من عفته وخلقه، حتى كانت تخرج معه إلى حد المداعبة، كأن تخفي عكازته، أو تخلع الدلو، أو تقطع الحبل، أو ترشه بالماء، وكان يضحك لهذا حتى يرقص قلبه، ويلوح لها بعصاه مهدداً على أن هذا التآلف الذي أصبح بين سيد وجميلة، لم يشجع غيرها من النساء على القرب من البئر، لأنهن كن لا يعلمن بتغير حاله، وإن علمن لا يصدقن، ولم يكن هو يزجرهن عن البئر، ويمنعهن من ملء الجرار منها، لأنه كان يخاف على الماء فقط، بل لأن شيئاً خفياً في أعماق نفسه، كان يدفعه إلى النفور منهن وإبعادهن عن جوه. . . دافع باطني عجيب كان يخرجه عن هدوئه وسكونه، عندما يسمعهن يتحدثن على الماء أعذب حديث وأرقه، كان يرجف له ويضطرب، وهو الرجل

. . .وهن النساء
شعور باطني غريب كان يحمله على فعل ذلك ولم يستطع تحليله ولا تعليله، وهو الجاهل الذي لم يذهب إلى المدرسة ولم يدرس علم النفس. لقد قضى الرجل حياته بعيداً عن جو المرأة فأخرجها عن دائرة تفكيره، بعد أن خرجت عن دائرة وجوده، ولم يعد يفكر فيها مطلقاً. . . لم يعد يفكر فيها، ولا يحن إلى لقياها، ولا يستريح لرفقتها.
وكان يتضايق حتى من وجود أم سيد معه في منزل واحد. . . وإن كان ينام بعيداً عنها، ولا يلاقيها إلا نادراً - غالباً في الأوقات التي كان يرجع فيها إلى البيت مبكراً ليتعشى - فكان يتذمر ويضطرب لمحضرها، وإن كان يعدها أماً. كان يرتجف لوجودها معه، ويحس
بروحها تثور، لأنه ما كان يحب أن يتصورها جالسة أمامه ترقبه وهو يمضغ الطعام، ويقطع الخبز بأسنانه، وكان لا يعود لهدوئه وسكونه إلا بعد أن يتنفس الصعداء في قاعته.
ولما اعترضت جميلة طريقه أول مرة، كان يحمل معه عصاه ليضربها؛ ولكنه لما سمع صوتها عن قرب، ووقف عند رأسها، وأمسك بيده رسغها، وصافحته أنفاسها، تراجع، وأيقن أنه أمام مخلوق لا يستحق الضرب!
وأخذ بعد ذلك يترقب حضورها، ويتأخر في المسجد عامداً ليعينها على حمل الجرة، ويملأ أذنيه من صوتها.
(لها بقية)
محمود البدوي
البريد الأدبي
المؤتمر الدولي لنادى القلم
يعقد المؤتمر الدولي الرابع عشر لنوادي القلم في مدينة بوينس ايرس عاصمة الجمهورية الفضية (أمريكا الجنوبية) في شهر سبتمبر القادم، وتستمر دورة الانعقاد عشرة أيام من 3 سبتمبر إلى 13 سبتمبر منه. وقد أتخذ نادى القلم الأرجنتيني استعدادات عظيمة لعقد هذا المؤتمر، وسعى جهده لجمع أكبر عدد ممكن من مندوبي النوادي المختلفة في عاصمة الأرجنتين ولم يبخل في سبيل هذه الغاية بأنفاق آلاف الجنيهات لتسهيل سفر المندوبين من بلادهم النائية إلى أمريكا الجنوبية وإضافتهم مدة انعقاد المؤتمر؛ وقد استأجر لهذه الغاية باخرة خاصة تقوم من مياه البحر الأبيض بجميع المندوبين الرسميين في أوائل شهر أغسطس القادم، ثم تعيدهم إلى نفس المياه في أوائل شهر أكتوبر ومنها يتفرقون عائدين إلى بلادهم.
وسيشهد نادى القلم المصري هذا المؤتمر الكبير؛ وقد أختار لتمثيله أحد أعضائه الدكتور محمد عوض الأستاذ بالجامعة المصرية وقد سبق أن مثل حضرته نادى القلم المصري في مؤتمر القلم الذي انعقد في مدينة ادنبورج بايكوسيا في صيف سنة 1934.
وسيعنى المؤتمر ببحث جميع المسائل المتعلقة بالأدب والكتابة وحقوق التأليف وحرية القلم ومسائل النشر وما إليها؛ وتلقى فيه عدا ذلك عدة مباحث عالمية من بعض المندوبين. وسيلقى مندوب مصر ما يناسب المقام.
وهذه بعض المسائل التي سيعنى ببحثها المؤتمر:
(1) مهمة الكاتب في المجتمع، وما يستطيع نادي القلم أن يفعل في ذلك السبيل.
(2) نشر المؤلفات الأدبية وتبادلها بين مختلف البلدان، ومسألة التراجم، والعلاقة بين المؤلفين والمترجمين، والعلاقة بين المؤلفين والناشرين في الداخل والخارج
(3) مسألة إعانة الكتاب المعسرين.
ومسائل كثيرة أخرى تهم الأدب والكتاب
تطور الفكرة التاريخية اليهودية
نشطت الخصومة السامية، أعنى حركة العداء ضد اليهود في الأعوام الأخيرة نشاطاً ظاهراً
وذلك لأسباب سياسية واجتماعية كثيرة لا محل لشرحها هنا. وقد أثارت هذه الحركة من جانبها نشاطاً كبيراً في التفكير اليهودي والآداب اليهودية؛ ومما يلاحظ بنوع خاص أنه قد صدرت في الأعوام الأخيرة عدة كتب جديدة عن تاريخ اليهود أشرنا إلى بعضها

في فرص سابقة، وقد صدرت أخيراً ترجمة فرنسية لمختصر تاريخ اليهود الذي ألفه المؤرخ اليهودي الشهير سيمون دوبنوف بالروسية؛ وهذا التاريخ في الأصل ضخم جداً، ويقع في عشرة أجزاء كبيرة، ويعتبر من أمهات التواريخ اليهودية التي صدرت في العهد الأخير؛ وقد وضع سيمون دوبنوف لمؤلفه مختصرا في مجلد واحد هو الذي ترجم أخيرا إلى الفرنسية تحت عنوان (مختصر التاريخ اليهودي منذ نشأته حتى سنة 1934 ?)
1943
وأهمية هذا المؤلف الجديد وما تقدمه في الأعوام الأخيرة عن تاريخ اليهودية ترجع إلى تحول النظرية التاريخية اليهودية، فقد كانت هذه النظرية تقوم من قبل على أسس دينية وينوه فيها دائما بما للشعب الإسرائيلي من مركز ديني ممتاز، وبما تذهب إليه التقاليد اليهودية القديمة من أن إسرائيل هو الوسيط بين الله والناس، وأنه الشعب المختار، إلى غير ذلك من المزاعم الدينية القديمة؛ أما هذه الكتب اليهودية الجديدة فقد كتبت من الناحية القومية، ولوحظ فيها أن اليهودية هي جامعة قومية لا دينية؛ ويرجع ذلك كما قدمنا إلى انتعاش الفكرة القومية اليهودية إزاء اشتداد الخصومة السامية، وما تلاقيه الصهيونية من المتاعب والمحن.
وكتاب دوبنوف برغم إيجازه قوي واضح، وقد ألم إلماما مدهشا بمواقف التاريخ اليهودي في مدى ألفي عام.
موسم سالزبورج الموسيقي
يقام في سالزبورج بالنمسا في كل صيف موسم فني عالمي للتمثيل والموسيقى. ومواسم سالزبورج شهيرة منذ أعوام طويلة؛ وسالزبورج هي موطن موتسارت، وما زالت بها أكاديمية موسيقية تحمل أسم الموسيقي العظيم. وسيكون موسم هذا الصيف الذي يعقد ما بين 25 يوليو و31 أغسطس من أبدع وأروع المواسم المسرحية والموسيقية التي عرفها العالم في الأعوام الأخيرة. ويكفي أن تعلم أن المشرف على تنظيم برامج هذا الموسم هو
أعظم الفنانين والموسيقيين المعاصرين: ماكس رينهارت، وارتورو توسكانينى، وبرونوفالتر، وفيلكس فون فاينجارتنر. وسيشمل البرنامج المسرحي تمثيل عدة من القطع العالمية الخالدة مثل (فيجارو) وموسيقاها لموتستارت. و (فيديليو) وموسيقاها لبتهوفن و (أقطاب الغناء في نورمبرج) لفاجنر؛ و (تريستان وايزولدا) وموسيقاها له أيضاً و (اريفوس وايزولدا) وموسيقاها لجوك. و (فالستاف) وموسيقاها لفردي. وسيقود الفرق الموسيقية توسكانيني وفالتر وفاينجارتنر. ويشمل البرنامج الموسيقي عدة حفلات موسيقية بديعة لموتستارت وبيتهوفن ولزث وشوبرت وباخ وستقام في نفس الوقت حفلات موسيقية دينية في الكاتدرائية الكبرى.
وتغص سالزبورج في مثل هذا الفصل بالوافدين عليها من جميع أنحاء العالم. ولكن الأنباء الأخيرة تدل على أن احتشاد الوافدين في هذا الفصل قد بلغ حداً لم تعرفه سالزبورج من أعوام بعيدة
عضو جديد في الأكاديمية الفرنسية
من أنباء باريس الأخيرة أن الأكاديمية الفرنسية قد استقبلت عضوا جديدا هو لوى جيليه، وقد انتخب في الكرسي الذي خلا بوفاة الكاتب الشهير البيربينار، وترجم سلفه في اجتماع حافل من أعضاء الأكاديمية طبقا للتقاليد المعتادة. والعضو الجديد من طراز خاص من المفكرين يندر أن يوجد بين أعضاء الأكاديمية، ذلك أن لوى جيليه رجل فن وناقد فني فقط، وهو منذ أعوام طويلة مدير لأحد المتاحف الباريزية. وقد اشتهر في العهد الأخير بعدة مؤلفات قيمة عن الفن وتاريخه منها (تاريخ التصوير في أوربا في القرن السابع عشر) (تاريخ الفنون في فرنسا) , وغيرها، وهو من أشهر النقدة الفنيين في نوعه ينقد الصور والتماثيل الحديثة، ويكتب عن معارض الفنون رسائل قيمة.
جوائز أدبية
منحت جمعية النقدة الفرنسيين المؤلفة من جماعة من أعظم الكتاب والنقدة (جائزة النقد) السنوية إلى كاتبين كبيرين هما مسيو رنيه دومزنل، ومسيو مارسل تيبو؛ ولكل

منهما في النقد مواقف مشهورة؛ وقد أمتاز مسيو دومزنل بنوع خاص بدراساته لبعض أكابر كتاب
الجيل المنصرم مثل موباسان وهيسمان وفلوبير. ومما يؤثر عنه أنه كان طبيباً بالمهنة فاستهواه النقد وتدرج فيه حتى اعتزل الطب؛ وأما مارسيل تيبو فهو المحرر النقدي (لمجلة باريس) الشهيرة.
ومنحت جائزة الأدب الشعبي إلى ترستان ريمى، وهو من كتاب (الصعاليك) والعوالم السفلى، وقد أشتهر بقصته (حي سان أنتوان) وله عدة قصص أخرى تدور حول حياة الطبقات الدنيا في باريس.

الاقتصاد وسيلة لتحقيق السلام

يعانى العالم أزمات سياسية واقتصادية لا نهاية لها؛ وتكاد النظم الاقتصادية في بعض الأمم العظيمة تنهار؛ وتر أمم عظيمة أخرى أن الحرب ربما كانت أفضل الوسائل للخروج من أزماتها ومتاعبها؛ ويكد معظم الحكومات والساسة للخروج من هذه المآزق، وقد نشر أخيراً أحد الكتاب الإنكليز كتاباً طريفاً يدلى فيه برأي غريب لإنقاذ الأمم من أزماتها؛ وعنوان هذا الكتاب (في وسع الأمم أن تعيش في أرضها) ومؤلفه هو المستر ولكوكس وهو عالم في الاقتصاد الزراعي، ويحاول المؤلف أن يرد في كتابه على السؤال الآتي: (ما هو أكبر عدد يمكن أن يعيش من منتجات فدان أو ميل مربع من الأرض الصالحة؟) ويرى مستر ولكوكس أن الجواب على هذا السؤال تتوقف عليه نتائج اقتصادية وسياسية خطيرة؛ وهذا هو ملخص رأيه:
إن أنجع الوسائل لتحقيق السلام الدولي، وتقليل خطر الحرب إن لم يكن إلغاؤه، هو (تحسين الإنتاج الزراعي إلى حد يمكن الأمم من أن تعيش في أرضها، ويبعد عنها خطر الجوع أو الحرمان، وأن تستغني إذا اقتضى الحال عن الموارد الأجنبية وما يلزم للرفاهة والحياة الناعمة)
ولقد تنبأ العالم الاقتصادي ملتوس منذ أكثر من قرن بما سيعاني العالم من وفرة السكان ونادى بنظرية ضبط النسل؛ ولكن العالم في أنحاء كثيرة لم يصل في وفرة السكان إلى الحد الذي يدعو إلى القلق. بيد أن هناك أمماً قد وصلت في ذلك إلى حد مزعج مثل ألمانيا واليابان وإيطاليا، ويرى مستر ولكوكس أن تقدم الإنتاج الزراعي هو خير علاج لهذه الأزمة.
والكتاب علمي في أسلوبه ومناحيه، ولكنه واضح بعيد عن ذلك التعقيد الفّني الذي يذهب بكثير من قيمة الشروح والبيانات القيمة.

إلى الأستاذ محمد عبد الله عنان

لما استطردتم في مقالكم القيم عن (البارون فون إوفنباخ) في الرسالة 141 إلى ذكر الماسونية وقلتم (إن لها أغراضاً خفية غير الأغراض الإنسانية التي تتظاهر بها، وإنها تعمل لغاية ثورية شاملة هي سحق الأديان والمعتقدات القائمة كلها، وإدماج الإنسانية كلها في نوع من التفكير الحر المطلق والمساواة الاجتماعية المطلقة) قرت عيون جمهرة القراء عندنا وعدوها لكم منقبة، وباتوا يرقبون عودة منكم إلى هذا الموضوع، لأن الناس لا يشكون من شيء عندنا ما يشكون من الماسونية. ولا يرون ظلماً ولا إلحاداً ولا رذيلة إلا وللماسونية صلة به، ذلك أن الماسونية عندنا ليست - على الأكثر - إلا شركات نفعية مؤلفة من أشخاص ليس لهم مبدأ معروف، ولا غاية نبيلة، ولكن مبدأهم ومنتاهم جلب النفع لأنفسهم ودرء الضرر عنها، ولو كان في ذلك ضرر المجتمع، وذهاب الفضيلة وهدم الدين؛ يتعاونون على الخير والشر، ويتناصرون على الحق والباطل، ويدوسون كل المقدسات في طريقهم إلى منفعتهم، فيدافع القاضي عن المجرم، ويتنكب سبيل العدل، ويخون المعلم منهم في الامتحان، فينجح المقصر، ويسقط المجتهد؛ وإذا خلت وظيفة لم يعين العالم الكفء القدير، ولكن يعين لها من له صلة بالماسونية التي يعتنقها من بيدهم أمر تعيينه، ولو كان جاهلاً، ولو كانت وظيفة رئيس المفتشين في وزارة المعارف، أو عضو الاستئناف في وزارة الحقانية، أو غير ذلك. . .
فهل هذه هي الماسونية؟ وهل يتفضل سيدي الأستاذ فيجلو لنا غامضها، ويكشف لنا خفيها، فيبين منشأها وأصلها ومبادئها، ويذكر لنا ما هي قيمتها اليوم في أوربا وفي بلدان الشرق الأدنى، وما هي علاقتها بالدين والوطنية في فصل تخطه يراعته البليغة؟

(دمشق)
(ع)
ديوان حافظ إبراهيم
قررت وزارة المعارف العمومية طبع ديوان الشاعر الخالد حافظ بك إبراهيم. وقد ندب معالي الوزير لهذا العمل الخطير صديقنا الأستاذ أحمد أمين، فكلفه أن يجمع أشعاره ثم يرتبها ويبوبها ويصححها ويشرحها ويقدم لها ويعلق عليها.
وهذه مأثرة جميلة لوزارة المعارف نرجو أن يساعدها على إتمامها كل من عنده اثر من آثار الشاعر العظيم مما لم ينشر في صحيفة أو يطبع في ديوان فيرسل صورة إلى الأستاذ الشارح خدمة للأدب وبراً بالأديب.
من هنا ومن هناك
آثار مصر القديمة منذ 650 سنة
ألف الأديب الرحالة المصري أبن فضل الله العمري كتابه الموسوعي العظيم (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) منذ خمسين وستمائة سنة (هـ) في عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وظل الكتاب مخبوءاً في زوايا الإهمال حتى أتيح بعثه على يد فقيد العروبة العامل الأستاذ أحمد زكى باشا سنة 1924، والكتاب ذخيرة ثمينة حقاً، وهو لا يقل في قيمته عن الموسوعات المصرية الثلاث الأخرى (صبح الأعشى، ونهاية الأرب، ولسان العرب).
ولعل أظرف فصل عقده المؤلف في كتابه (ج1) هو ذلك الفصل الذي يتكلم فيه عن آثار مصر القديمة، وما كان الناس يفترضونه من تاريخها، وما يعللون به تشييد تلك المباني الضخمة والهياكل العتيدة!
وقد وصف أبن فضل الله أهرام الجيزة فقال: (. . وهي أشكال لهبية، كأن كل هرم لهبة سراج، آخذة في أسفلها على التربيع مسلوبة في عمود الهواء، آخذة في الجو حتى إلى التثليث، لولا استدارة أُبلوج السكر (قمع السكر!) لشبهناها به، ويحتمل أن يكون هذا الشكل موضوعاً لبعض الكواكب لمناسبة اقتضته. .) وذكر قبل ذلك سبب بنائها قال: (قيل إنها هياكل للكواكب، وقيل قبور ومستودع مال وكتب، وقيل ملجأ من الطوفان، وهو أبعد ما قيل فيها!) ثم يعلل أنها لم تكن ملجأ للطوفان بأنه شاهد بعض الأهرام في مصر العليا مبنية من اللبن! وبعد أن يذكر بعض أقوال الشعراء في صفتها ينتقل إلى أبى الهول فيقول: (. . . وهو اسم لصنم يقارب الهرم الكبير، وفي وهدة منخفضة تقع دونه شرقاً بغرب.
لا يبين من فوق سطح الأرض إلا رأس ذلك الصنم وعنقه، أشبه شيء برأس راهب حبشي، عليه غفّارية؛ على وجهه صباغ أحمر إلى حُوّة، لم يحل على طول الأزمان وقديم الآباد، وهو كبير، لو كان شاخصاً كله لما قصر عن عشرين ذراعاً طوله في غاية مناسبة التخطيط!! يقال إنه طلسم يمنع الرمل عن المزدرع. . .).
ويسمى أبن فضل الله سلسلتي جبال العرب وليبيا (حائط العجوز!!) (وهو حائط يستدير بالديار المصرية ممتداً على جانب المزدرع بها كأنه جعل حاجزاً بين الرمل والمزدرع. .
).
ويقول. . . (إنه من بناء امرأة اسمها دلوك. . .)
ومع هذا لا يرى أبن فضل الله أن يتورط في ذكر الخرافات التي تقال في سبب بناء دلوك لهذا الحائط فيقول: (ويذكر في تلك الكتب - بسبب بناء العجوز له - خرافة لسنا نرضى ذكرها!!)
ويسمى المؤلف تمثالي ممنون بالقرب من وادي الملوك (شامة وطامة!!) ثم يصف البرابي فيبدع إبداعاً تاماً، وينتقل إلى الإسكندرية فيصف عمود السواري، والمنارة، والملعب الكبير وصفاً يدل على ذوقه الفني الدقيق!!
فلوبير وحديقة الكرمب
يعتبر جوستاف فلوبير (1821 - 1880) الوارث الأكبر للمدرسة الابتداعية في الأدب الفرنسي عامة، والوارث لبلزاك خاصة، وإن يكن هو من الكتاب الريالست، وإن يكن أيضاً يمتاز من بلزاك بطلاوة أسلوبه ونقاء عبارته وإشراق ديباجته، وعدم إسفافه. . . وهي مزايا لم يكن بلزاك يعرف شيئاً منها.

ويشبه فلوبير في شدة عنايته بأسلوب شاعرنا الجاهلي زهير أبن أبى سلمى المعروف بصاحب الحوليات. فلقد كان فلوبير يأرق الليالي الطوال من أجل لفظة واحدة؛ حتى إذا فاز بها، ثم مضى زمن يسير، رجع فحذفها من مقاله أو من كتابه، وقد يكون ذلك وقت الطبع، ومن هذه الموسيقى الحلوة التي اشتهرت بها كتبه لا سيما في (مدام بوفاري) و (سانت أنطوني وسلامبو).

وقد بلغ من شدة شغف فلوبير بتقرير الواقع في قصصه أنه كان يجشم نفسه الشاق والأهوال ليصف منظراً عارضاً في زاوية منسية من زوايا هذه القصص. من ذلك أنه أراد وصف مزرعة كرمب في ليلة مقمرة مقرورة. . . فترك القصة بحذافيرها، وانتظر حتى كان موسم الكرمب، ثم رحل إلى ضاحية اشتهرت بنوع جيد من هذا المحصول، وثمة تلبَّث حتى آذنت الليالي المقمرة. . .

ولكن صاحبة البدر طفق يتدلل ويتستر وراء السحب القاتمة. وكان الشتاء القارس يعذبه ببرده ولياليه الطوال، وكان فلوبير ما يبرح واقفاً وسط المزرعة بقلمه وقرطاسه، منتظراً إشراقة واحدة من حبيبه القمر ليصف فيها منظر أشعته الفضية على أوراق الكرمب. ونال أمنيته بعد أن نال منه القمر كل أمانيه!!

روبرت أون والعمال

تنتقل مصر رويداً رويداً من الطور الزراعي الذي لا يتفق ومدنية هذا العصر إلى الطور الصناعي. . . طور المدنية والقوة والسيادة. وقد رأت إنجلترا مثل هذا الانتقال، ورأت فيه جملة ثورات اجتماعية كانت الاشتراكية أهمها جميعاً. والاشتراكية تعنى سعادة البشر ومكافحة الفقر، ومن هنا انضواء غالبية المفكرين تحت لوائها وسهرهم على تعميمها في كل مناحي الحياة حتى في دور العلم! ويعتبر روبرت أوِن (1771 - 1858) خالق الاشتراكية وواضع مبادئها بالعلم والعمل، بل هو الذي استحدث هذه الكلمة في النصف الأول من القرن التاسع عشر (1835). ومن العجيب أنه كان من أكبر غزالي القطن في منشستر، وله جملة ابتكارات في صناعة الغزل تعتبر أسُساً لتقدمها.

وكان أون يحب الاختلاط بالعمال، ودأب من كثب على دراسة أحوالهم ومعايشهم، وكان يروعه فقرهم وقذارتهم وعدم قيام رواتبهم الضئيلة بحوائجهم، فنذر، إذا واتاه الحظ، أن يحدث في حياتهم ثورة تطفر بهم إلى السعادة. . . وقد حققت الأيام مطامحه فأصبح من أغنياء منشستر، وذكر نذره فأنشأ مصانعه العظيمة في نيولانارك على أحد النظم وعلى أحسن القواعد الصحية، وكان أهم ما عمله لترقية العمال تحسين أجورهم وتقليل ساعات العمل (وكانت 12 ساعة فخفضها إلى عشر، ثم إلى ثمان)، وأنشأ لهم مساكن صحية، وحرّم العمل على صغار الأطفال (أقل من عشر سنوات)، وضمن التعليم الابتدائي بالمجان لأبنائهم، وأنشأ لعماله مستشفي بجوار المصنع جلب إليه أمهر الأطباء وأحدث الآلات الطبية، ووضع للطاعنين في السن منهم نظاماً يكفل لهم شيخوخة سعيدة.

ولم يكتف أوان باستخدام هذه النظم لرفاهية العمال في مصانعه فقط، بل عمل على تعميمها في المصانع الأخرى. . . ولذلك ثار في وجهه أصحاب هذه المصانع، وكان أكثرهم من اليهود، ممن لا هم لهم إلا امتصاص دماء الإنسانية وصهرها ثم تحويلها إلى ذهب! ولكن أون العظيم صمد لهم، وما زال بالشعب وبالعمال وبالحكومة حتى انتصرت مبادئه، وأصبح العامل الإنجليزي مدى قرن من الزمان أسعد ألف مرة من إخوانه في جميع الآفاق.

ولم يكن أون صاحب مصانع فحسب، بل كان كاتباً وخطيباً مفوهاً، ولذا كانت خطبه تسحر العمال وتبعث فيهم الشعور بالكرامة وتشيع في أعطافهم الكبرياء

اليوجنية الحديثة

اليوجنية أو علم تحسين النسل وهو علم حديث يرجع إلى سنة 1885 فقط، وموجده هو السير فرنسس جالتون المتوفى سنة 1911. وقد أوصى عند موته أن يرصد جزء كبير من دخله لإنشاء كرسي لهذا العلم في جامعة لندن؛ وقد اشتغل السير جالتون بعلوم الأحياء قبل أن يلتفت إلى هذا العلم.

ومن رأيه قصر التناسل على الفتاة العاقلة القوية ذات الفضائل من الناس لإيجاد جيل

راق يقود البشرية مرحلة كبيرة إلى السوبرمان؛ وقد سمى هذه العملية من برنامجه ومن رأيه كذلك حرمان البلهاء والمرضى والمجرمين وأهل الرذائل من التناسل حتى لا يؤخروا موكب الإنسانية عن التقدم والرقى ويسمى هذه العملية
وسير جالتون يعنى عناية كبيرة بمذهب السلوكيين في السيكولوجية الحديثة، بل هو قد اتخذ من مباحثهم الطريفة نبراساً له في وضع الدعائم لهذا العلم الجديد.
(د. خ)
الكتب
البراجماتزم
الأستاذ يعقوب فام
أصدرته لجنة التأليف والترجمة والنشر
بقلم الأديب ت. الطويل
يقول الأستاذ الجليل أحمد أمين في المقدمة التي مهد بها لقصة الفلسفة اليونانية: (لا بد للأديب الحق من وقوف تام على علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الجمال وبالجملة على فروع الفلسفة، فذلك يجعل نتاجه أقوم، وتفكيره أعمق، وأفقه أوسع، ومنابع تفكيره أغزر، ويحمله على أن يفلسف الأدب؛ ولا يتسنى ذلك إلا إذا أدَّبنا له الفلسفة).
وقد أدب الأستاذ وزميله الفلسفة اليونانية فأحسنا تأديبها، والتزما في عرضها مسالك الأدب في الكشف عن خواطره في أسلوب يجمع بين السلاسة والرصانة. واستفرغا الوسع في العمل على رفعة القارئ إلى مستوى الكاتب. . . ثم أخرج الأستاذ يعقوب فام كتابه في (البراجماتزم) وسلك فيه مسلك العلماء في تبيان خواطرهم وعرض آرائهم وتبسيط المعقد من أفكارهم. لم يقف حيث هو في ذروته ويمد يده إلى القراء ليرفعهم إليه ويعلو بهم إلى مستواه. بل هبط إليهم وتبسط معهم وأخذ يتألفهم ويترضاهم في إسراف - قد يدعو إلى الملل أحياناً - رغبة منه في اكتساب مرضاتهم عنه حتى يقبلوا اصطحابه إلى حيث يعيش. . فأنت تقرأ الكتاب فلا تحس وأنت ماض بين صفحاته إلا أن الأستاذ يعقوب مدرس يلقى على تلامذته الصغار درساً في الفلسفة، فهو مشفق عليهم من وعورة مسالكها وظلمة سراديبها ورحابة آفاقها، يعرضها عليهم فكرة بعد فكرة في تفصيل وإطناب، ولا يترك رأياً إلا دار حوله بعد الإسهاب في شرحه متوهماً أن بعض التلاميذ لا يزالون يعالجون الفهم فيستعصي عليهم، ولكنه يعود فيتذكر أنه يكتب كتاباً ستتناوله أيدي فئات من القراء تتفاوت في المدارك قوة وضعفاً، فيتعذر لقارئه عن الإطالة ويستأذنه في المضي إلى طريقه؛ ويعود سيرته الأولى موضحاً رأيه بأسلوب يمتاز بالسهولة والبساطة وإن لازمته الركاكة، ويسوق لتلامذته الأمثلة المستمدة من حياتهم اليومية، حتى إذا فرغ من شرحه عاد
فلخص ما أسلف فيه القول، ولم يبقى عليه بعد هذا إلا أن يضع لهم طائفة من الأسئلة يتناول بها آفاق الموضوع شأنه في ذلك شأن المدرسين الذين يضعون لتلامذتهم مصنفات تتناول برامج الدراسة المقررة. .!
والأستاذ أحمد أمين أديب عالم، ولكنه قد سلك مسلك الأدباء في الكتاب الذي صنفه بالاشتراك مع زميله الأستاذ زكى نجيب مؤثراً هذه الطريقة مقتنعاً بها راضياً عنها. وكذلك قل في الأستاذ يعقوب وإيثاره للطريقة التي أسلفنا الإشارة إليها الآن؛ وأكبر الظن عندي أنه لا يستطيع غيرها إن لم يكن مقتنعاً بها.
وأنه غير نادم على عجزه عن (تأديب) الفلسفة. لأنه لا يحترم الأدب ولا يكبر أهله. فالأديب رجل مُخَرِّف لا تعنيه إلا زخرفة اللفظ وبهرجة الأسلوب اللغوي. .! فان كان القارئ قد تملكه العجب لهذا التعبير فليسمع نَصَّ ما يقوله الأستاذ يعقوب فام ص 72:
(هل العقل الإنساني مرآة فقط ليس لها من عمل سوى أن تعكس الحقائق الخارجية دون تصرف أو تدخل من ناحية؟ أم هو كالفنان الذي يتناول قطعة الحجر ويصنع منها تمثالاً جميلاً منظماً متناسباً؟ أم هو لا هذا ولا ذاك وإنما يشبه الأديب الذي يخلق الأشخاص والحوادث والبيئة المحيطة بهذين خلقاً من العدم؟ (العفو!) على الإجابة عن هذا السؤال يتوقف الشيء الكثير. فلو قلنا إن العقل كالمرآة كنا من أتباع فلسفة الواقعيين؛ وإن قلنا إن العقل كالأديب يخلق الكون خلقاً، وإن الأشياء لا وجود لها في ذاتها وإنما وجودها يتوقف على العقل وحده كنا من أتباع الفكريين يزعمون أن الحقيقة

هي عقل أو فكر وأن المادة شيء وهمي لا وجود له. وأما إن قلنا إن العقل يكيف الحقائق الخارجية كما أن. . . . الخ).
هذه هي نظرية الأستاذ إلى الأدب وأهله. ولست أعرف في الأدب مذهباً يتيح لصاحبه أن يخلق من العدم أشخاصه وحوادثه وبيئته - إن كان في وسعه أن يفعل ذلك - والغريب أن يفرق الأستاذ الكريم بين الأدب والفن هذه التفرقة العجيبة التي لم أسمع بها على هذا النحو من قبل اليوم. ثم كيف يخلق الإنسان من العدم بيئة تعج بالحوادث والأشخاص؟ أبا لخيال؟ إن عجبك ليشتد وينمو حتى يملأ شعاب نفسك حين ترى الأستاذ يقول ص 83 ما نصه:
هذا الشعور الخفي بالحق (عند المتصوفة) يقابل الخيال عند الرجل العادي. فالخيال) ينتج
من التفاعل بين مجموعة الاختيارات التي جازها الفرد في حياته اليومية، ومن نشاطه بين أفراد نوعه، ومن الغرائز الموروثة. هذا التفاعل بين الاختبارات والدوافع الموروثة عند الفرد هو الذي ينتج الخيال. ومع أن النتيجة قد تكون واحدة إلا أن الفرق بين التصوف والخيال واضح، فالأخير مبنى على العقل والاختبار، والأول مبنى على القوة الخارقة للطبيعة التي تلقى بالمعارف إلى الإنسان إلقاء. الخيال إنما هو قفزة يقفزها الإنسان إلى الامام، والتصوف هو الاستسلام للاتصال الخفي بين الفرد وعالم الأرواح، أو الفرق بين الرجل العادي ذي الخيال الخصب، والرجل الصوفي هو هذا:
الأول منهما متصل بالحياة وبالاختبار وبنشاط الجسد من مشاهدة وحس بأنواعه. . .).
هذا هو الخيال عند الرجل العادي كما يفهمه الأستاذ يعقوب، أما الخيال عند الأديب كما قال، فهو توهم ما لا وجود له، وتصوير ما لم تره عين، وتسمع به أذن، ولم يدركه حس؛ هو نوع من الرجم بالغيب والحدس باللا معلوم! لا تقل إن الأديب في عرف الأستاذ رجل مجنون، فان المجنون لا يفعل في تصرفاته أكثر من أن يستعيد صوراً ذهنية عن مدركات حسية في شكل مبالغ فيه إلى حد يتجاوز حدود العقل ويتخطى نطاق العرف. فالمجنون أقرب إلى الحياة من الأديب في رأى الأستاذ. .! ولهذا ارتقى إلى ذهني الظن بأن الأستاذ غير نادم على أنه لم يكن أديباً. . كما أشرت إلى هذا قبلاً.
وأكبر الظن أن الأستاذ يعقوب قد اختلط عليه معنى الـ في الفلسفة ومعناها في الأدب. ففي الفلسفة يراد باللفظة (التصوريون) - وأنا أوثر هذه الترجمة على (الفكريين) التي يستعملها الأستاذ حتى لا يختلط معناها بالعقليين - وهم الذين يظنون أن الحقيقة فكر، وأن المادة لاوجود لها، كما أبان الأستاذ، ثم يراد بلفظة الـ في الأدب (المثاليين)، وهم الذين ينزعون إلى تصوير المثل العليا، والتحدث إلى الناس عما ينبغي أن يكون. فهي في الفلسفة مشتقة من أي فكرة أو صورة ذهنية. وهي في الأدب مشتقة من أي مثل أعلى. والأديب المثالي لا يخلق من العدم شيئاً، وإنما يدرس (الكائن) في هذه الدنيا فلا يعجبه ولا يروقه فَيَحِنّ إلى كمال يعوض هذا النقص، ويصور المثل الأعلى الذي يحقق ما ينبغي أن يكون. وهو في تصوره إنما يعتمد على المدركات الحسية في أرحب معانيها، وخياله لا يؤلف له الصور الحبيبة إلى النفس إلا بالاعتماد على ما يعرفه من مدركات الحس. فان
كان للمذهب التصوري وجاهته في الفلسفة فهو بمعناه الفلسفي هراء في عرف الأدب وأهْله.
على أن هذا الكلام لا يراد به الطعن في الطريقة التي سلكها الأستاذ يعقوب. فأن تأليف كتاب يتناول هذه الآفاق الرحيبة في الفلسفة وعلاجها على هذا النحو البسيط السهل الميسور لكل قارئ لمقدرة ومهارة تستحقان كل ثناء وإعجاب. فان كنت في شك من هذا فقارن ما كتبه الأستاذ بما يكتبه أغلب الذين ينقلون إلى الجمهور نظريات علم النفس، تَرَ العجز البيّن عن تمصير ما يكتبون حتى في نقل الأمثلة التي قرءوها في المراجع الأجنبية. . أما الأستاذ يعقوب فهو يحدثك عن أحدث مذاهب الفلسفة وأقدمها فَتُحِسّ وكأن أصحابها مصريون تحسن فهمهم وتجيد تقديرهم ولا تجد بينك وبينهم هوة في فكرة أو روح. .!
وقد انتهي الأستاذ إلى هذا التوفيق بعد جهد كان أبرز آياته الاتئاد عند كل فكرة والإطناب في شرحها حتى يطمئن على سهولة فهمها ويسر إدراكها. على أن هذا الاتئاد وإن لازمه في (شرح) الكاتب منذ بدايته حتى نهايته، فان بعض الفصول التي

أضافها الأستاذ توضيحاً للمذاهب أو تمهيداً لذكرها أحكاماً يشوبها الضعف أو نقصاً في استيفاء الموضوع. أو هكذا يخيل إليّ. . . فتراه يكتب فصلاً يدلّل فيه على أن الناس خاصتهم وعامتهم يتفلسفون وإن أنكر بعضهم أنه يتفلسف. .! ذلك لأنهم يعيشون في الدنيا ويضربون في زحمتها متأثرين بآراء قد تولت الفلسفة البحث فيها وانتهت منها إلى نظريات ومذاهب قد يعرفها طغام الناس. وهذا رأى غريب، لأن الفلسفة ليست (عناوين) من عرفها كان من حقه أن يكون فيلسوفاً، وإنما هي (بحث) يتناول الآفاق المجهولة في رحاب الحياة، هي (بحث) مجهول للناس يتناول ما تجهله العلوم وأهلها - ونهجها في ذلك توضيحه هذه الجملة: أنى وقف التفكير العلمي بدأ التفكير الفلسفي - فالناس عامتهم وخاصتهم لا يتفلسفون وإنما تبلغهم آراء يوحي بها الدين أو يمليها العرف - بما يؤلفه من مختلف العناصر - فيعملون بها ويسيرون على نهجها من غير تفكير في أمرها؛ فان تناولوها بالجدل حيناً فسرعان ما ينحرفون عنه مقتنعين ولو بلا شئ. وليس هذا شأن المتفلسفة في آي زمان أو مكان. . . أو ترى الأستاذ يكتب فصلاً ممتعاً يتناول فيه وظيفة العلم وطريقته في البحث ويلخص لك ما ينتهي إليه ويثبته في أرقام مسلسلة ليتيسر للقارئ معرفة الفوارق بينه وبين الفلسفة،

ولكنه ينسى أن يتحدث في هذا الفصل عن أولى الخواص التي لا يستطيع الإنسان في العصر الحديث أن يتصور العلم من دونها، وهي أن العلم يمتاز من سائر آفاق المعرفة الإنسانية في أنه (يبحث الشيء من حيث هو شئ) وليست تعنيه علاقة هذا الشيء بغيره من الناس. ولهذا كان العلماء آخر من يفكر في الإنسانية ويعطف عليها، لأن التفكير في صالحها يدخل في باب العاطفة، وبين العلم والعاطفة عداء مستحكم الحلقات. فمخترع الغازات السامة أو الغواصات أو الدبابات وما إليها عالم موفق قد تهيأت له أسباب النجاح في تطبيق نظريات العلم - وإن ساء فيه رأى المجتمع وجزع الناس لما أخترع - وإن قلت له إن عملك يشقي الناس أجابك على الفور:

أنا عالم، أبحث الشيء من حيث علاقته بذاته، ولا شأن لي بعد هذا بما تفضي إليه نتائج البحث وتطبيقها خيراً كان أو شرا).

على أن من العدل أن نقول إن قيمة الكتب لا يحددها اتفاق الرأي بين الكاتب والقارئ، وإن خلوها من المآخذ التي يتصورها الناقد لا يصلح أن يكون مقياساً للإعجاب بها والرضا عنها، لأن مدارك الناس في تفاوت، ثم إن خلوها من النقص محال.

وقد تثير هذه الكلمة في نفسك سؤالاً تطلب إلي فيه أن ألخص لك (البراجماتزم) ولكنى لن أجيبك إلى مطلبك إشفاقاً على نفسي من الاضطلاع بهذا العمل. وأمامك كتاب الأستاذ يعقوب فأقرأه تعلم أن لجنة التأليف والترجمة والنشر قد أنصفت في اختيار هذا الرجل للقيام بتأليف هذا الكتاب، فهو عالم يكثر الاطلاع، ويحسن الفهم، ويجيد العرض؛ ويحب أمريكا! ومن أقدر على الكلام في (البراجماتزم) من رجل تتوفر له هذه الصفات. .؟

ت. الطويل

ليسانسييه في الفلسفة

العدد 157 - بتاريخ: 06 - 07 - 1936

في النقد أيضاً

عزيزي الدكتور هيكل بك:

كان للفصل الذي كتبته منذ أسابيع في (النقد المزيف) أثران مختلفان: اثر رضيته أنت فسميته نجاحا صحفيا، لأنه أثار حواراً طريفاً بين صديقين من كبار الكتاب في مصر فدعواك بما شققا منه إلى المشاركة فيه؛ واثر سخطته أنا فسميته مصاباً أدبيا، لأنه ألب عليَّ كثيراً من طوائش الأفهام في مصر وفي غير مصر؛ ففريق ظن أنني عنيته بهذا المقال، كأنه لمح في نفسه آثار تلك العيوب فاتهم ثم حكم ثم غضب لأنني قلت الواقع وقال الحق، ثم حاول بهذا الغضب أن يستفزني إلى المسافهة؛ وفريق زعم أنني غمطت مدارك الشباب فاستعجزتهم عن النقد، واستحمقتهم في تكلف ما لا يحسنون بحكم السن والدرس والطبيعة؛ ثم جعلوا رأيك في ذلك نقيض رأيي، ومضوا يتعززون به ويدافعون وليس منا هجوم، ويرافعون وليس بيننا قضية

الواقع أنني هاجمت نوعا من النقد فشا على بعض الأقلام الرخوة، يصور الحق بلون الباطل ليضحك، ويبرز الجميل في مظهر القبيح ليسيء؛ وهو ينبعث إما من مكامن

الحقد فيرمي إلى التجريح، وأما من مواطن الغرور فيرمي إلى الهدم. وذلك الضرب من الهوى العابث يترفع عنه الشاب والشيخ، بدليل أن أحدهما إذا ملكته الحفيظة لجيله رمى به الآخر. على أنني حين قلت أن النقد المنطقي ملكة فنية أصيلة، وتربية أدبية طويلة، وثقافة علمية شاملة؛ وان الناقد بهذا الاعتبار يشارك المشترع في صدق التمييز، والفيلسوف في دقة الملاحظة، والقاضي في قوة الحكم، كان في نفسي - واعترف بذلك - أن الشيوخ في الغالب هم أصحاب هذا الفن وأرباب هذه الملكة. وأقول (في الغالب) لأني قرأت منذ سنين للأستاذين: (غريب) و (المصري) وهما من كتاب الشباب فصولا في النقد كانت موضع الإعجاب في (البلاغ). ولكنك تقول إن النقد ظاهرة من ظواهر الشبيبة تحدث دائماً في شرَّة العمر، حتى إذا انكسرت (مال الكاتب مع سجيته، واختار الطريق الإيجابي الذي يسلكه في إنتاجه)، كما وقع لك؛ ثم تخرج من ذلك إلى أن العلة في ركود النقد هي أن الشباب لا يقرأ، وإذا قرأ لا يمحص، وإذا محصلا يثور فينقد. وفي هذه الفكرة وحدها ينحصر الخلاف بيني وبينك.

أنا أفهم أنك تنصرف عن النقد إلى معالجة السيرة النبوية بهذا التحليل المنطقي البارع،

لأنه أجدى على الناس، وأعود على الأدب، وأجدر بالكاتب المرسل؛ ولكنني لا أفهم أن يكون انصرافك عن النقد نتيجة محتومة لانصراف الشباب عنك؛ لأن ذلك يناقض طبيعة النقد في ذاته، ولا يوائم فيما أظن قولك: (إن نقد الأثر الأدبي يدل على علو الكعب في العلم أو في الثقافة أو في التهذيب)

يخيل إليَّ أن منشأ هذا الخلاف أنك سميت التمرد نقداً، والنقد تحليل تاريخ وتعليل أدب؛ فان من أقوى خصائص الشباب ذلك الطموح الذي يولد القلق، والقلق الذي يخلق التمرد، والتمرد الذي يحدث الثورة. في هذا معنى الحياة ومعنى التطور ومعنى التكمل ومعنى التحرر، ولكن ليس فيه على الكثير الغالب معنى التمييز الذي يقتضي طول الخبرة، والتفضيل الذي يوجب شمول العلم، والحكم الذي يطلب نزاهة العقل.

إنك لا تستطيع أن تُخلص الشباب من سطوة الهوى وفتنة الغرور وغلبة العاطفة؛ وأولئك هن آفات النظر الفاحص والرأي المستقر؛ فالشاب يخضع في أحكامه لتأثير الساعة من قراءة أو صداقة أو استفزاز أو اشمئزاز أو إيحاء أو مرض؛ وهو في تسبيب هذه الأحكام يتعارض مع المعروف ويتناقض مع الواقع.

هذا كاتب شاب أعجلته ضرورات العيش عن استكمال العدة للكتابة، فهو يكتب بقوة المحاكاة، لا يحور إلى فن ولا يجري على مذهب؛ وهو بالطبع يفتقد الكلام المعرب والأسلوب المحكم والأدب الموروث، على حين يحفظ عن ظهر الغيب قواعد اللغة الأجنبية، ولا يجيز لنفسه أن يخطئ في صيغها المتعددة ولا في إملائها المعقد. وهذا أديب شاب ينتقدك أنت ويرميك بالرجعية وتمليق العامة، لأنك كتبت عن (محمد) بعد أن كتبت عن (روسو) و (شلي). وهذا مؤلف شاب له كتاب في نقد (حافظ) لم أقرأه بعد، كتب إلي يتهمني بأنني قصدته بمقالي لأنني كتبته على أثر ظهور كتابه. ويقول إنه يستطيع أن ينقد ما كتبته في الرواية المسرحية بأنه منقول عن الفرنسية. ودليله بالطبع أن هذا الموضوع لا مرجع له في أدب العرب، إذن فمن أين جاء؟ من اللغة الفرنسية التي أعلمها! ولو كنت أعلم الإنجليزية مثلاً لكان النقل عنها ولا شك، ما دام النقد في عرفه حكما من غير تعليل ودعوى من دون دليل. ولا أدري لم لم يقل إن كتابي في تاريخ الأدب العربي منقول عن العربية كذلك لأن مراجعه منها!

فهل يرى الدكتور في مثل هذا النقد أنه كما قال (تناول لمواد الحياة العقلية والأدبية وهضمها وتمحيصها وتمثّل الصالح منها ونفي الزائف عنها؟) أم الحق أن ركود الأدب وفوضى النقد لا يرجعان إلى الشّيب ولا إلى الشباب، وإنما يرجعان إلى تهريج الصحف وكسل الكتاب؟

احمد حسن الزيات

قصة الأيدي المتوضِئة. . .

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال راوي الخبر: ذهبت إلى المسجد لصلاة الجمعة؛ والمسجد يجمع الناس بقلوبهم ليخرج كل إنسان من دنيا ذاته، فلا يفكر أحد أنه أسمى من أحد؛ ولقد يكون إلى جانبك الصانع أو الأجير أو الفقير أو الجاهل، وأنت الرئيس أو العظيم أو الغني أو العالم،

فتنظر إليه وإلى نفسك فتحس كأن خواطرك متوضئة متطهرة؛ وترى كلمة الكبرياء قد فقدت روحها، وكلمة التواضع قد وجدت روحها؛ وتشعر بالنفس المجتمعة قد نصبت الحرب للنفس المنفردة. ولو خطر لك شيء بخلاف ذلك رأيت الفقير إلى جانبك توبيخاً لك، ونظرت إليه ساكتاً وهو يتكلم في قلبك، وشعرت بالله من فوقكما، واستعلنت لك روح المسجد كأنها تهم بطردك، وخيل إليك أن الأرض ستلطم وجهك إذا سجدت، وأيقنت من ذات نفسك أن لست هناك في دنياك وليس صاحبك في دنياه، وإنما أنتما هناك في انسانية ميزانها بيد الله وحده؛ فلا تدري أيكما الذي يخفّ وأيكما الذي يثقل.

قال: والعجيب أن هذا الذي لا يجهله أحد من أهل الدين، يعرفه بعض علماء الدين على وجه آخر، فتراه في المسجد يمشي مختالاً، قد تحلى بحليته، وتكلّف لزهوه، فلبس الجبة تسع اثنين، وتطاول كأنه المئذنة، وتصدّر كأنه القِبلة، وانتفخ كأنه ممتلئ بالفروق بينه وبين الناس؛ وهو بعد كل هذا لو كشف الله تمويههُ لانكشف عن تاجر علم بعضُ شروطه على الفضيلة أن يأكل بها، فلا يجد دنيا ذاته إلا في المسجد، فهو نوع من كذب العالم الديني على دينه.

قال الراوي: وصعد الخطيب المنبر، وفي يده سيفه الخشبيُّ يتوكأ عليه؛ فما استقر في الذروة حتى خُيل إليَّ أن الرجل قد دخل في سر هذه الخشبة، فهو يبدو كالمريض تقيمه عصاه، وكالهرم يمسكه ما يتوكأ عليه؛ ونظرت فإذا هو كذب صريح على الإسلام والمسلمين، كهيئة سيفه الخشبي في كذبها على السيوف ومعدنها وأعمالها.

وتالله ما أدري كيف يستحلُّ عالم من علماء الدين الإسلامي في هذا العصر أن يخطب المسلمين خطبة جمعتهم وفي يده هذا السيف علامة الذل والضّعة والتراجع والانقلاب والأدبار والهزل والسخرية والفضيحة والإضحاك؛ ومتى كان الإسلام يأمر بنجْر السيوف من الخشب ونحتها وتسويتها وإرهاف حدها الذي لا يقطع شيئاً، ثم وضعها في أيدي العلماء يعتلون بها ذُؤابة كل منبر لتتعلق بها العيون وتشهد فيها الرمز والعلامة، وتستوحى منها المعنوية الدينية التي يجب أن تتجسّم لتُرى؟

أفي سيفٍ من الخشب معنوية غير معنى الهزل والسخافة وبلاهة العقل وذلة الحياة ومسخ التاريخ الفاتح المنتصر، والرمز لخضوع الكلمة وصبيانية الإرادة؟

قال: وكان تمام الهزء بهذا السيف الخشبي الذي صنعته وزارة أوقاف المسلمين أنه في طول صَمْصَامة عمرو بن معد يكرب الزبيدي فارس الجاهلية والإسلام فكان إلى صدر الخطيب، ولولا أنه في يده لظهر مقبضه في صدر الرجل كأنه وسام من الخشب. . .

قال: وكان الخطيب إذا تكلّف وتصنّع وظهر منه أنه قد حَمِيَ وثار ثائرة - ارتجّ وغفل عن يده فتضطرب فيها قبضة السيف فتلكزه في صدره كأنما تذكره أن في يده خشبة. . . لا تصلح لهذه الحماسة.

قال: وخطب العالم على الناس، وكان سيفه الخشبي يخطب خطبة أخرى؛ فأما الأولى فهي محفوظة معروفة ولا تنتهي حتى ينتهي أثرها إذ هي كالقراءة لإقامة الصلاة، وكانت في عهدها الأول كالدرس لإقامة شأن من شؤون الاجتماع والسياسة، فبينها وبين حقيقتها الإسلامية مثل ما بين هذا السيف من الخشب وبين حقيقته الأولى. وأما الخطبة الثانية فقد عقلتُها أنا عن تلك الخشبة وكتبتها وهذه هي عبارتها:

ويحكم أيها المسلمون! لو كنتُ بقية من خشب سفينة نوح التي أنقذ فيها الجنس البشري لما كان لكم أن تضعوني هذا الموضع، وما جعلكم الله حيث أنتم إلا بعد أن جعلتموني حيث أنا، تكاد شرارة تذهب بي وبكم معاً لأن فيَّ وفيكم المادة الخشبية والمادة المتخشبة.

ويحكم! لو أنه كان لخطيبكم شيء من الكلام الناري المضطرم لما بقيت الخشبة في يده خشبة. وكيف يمتلئ الرجل إيماناً بإيمانه، وكيف يصعد المنبر ليقول كلمة الدين من الحق الغالب وكلمة الحياة من الحق الواجب - وهو كما ترونه قد انتهى من الذل إلى أن فقد السيف روحه في يده؟

أيها المسلمون! لن تفلحوا وهذا خطيبكم المتكلم فيكم إلا إذا أفلحتم وأنا سيفكم المدافع عنكم؛ أيها المسلمون غيِّروه وغيروني.

قال راوي الخبر: ولما قُضِيتْ الصلاة ماج الناس إذ انبعث فيهم جماعة من الشبان يصيحون بهم يستوقفونهم ليخطبوهم. ثم قام أحدهم فخطب فذكر فلسطين وما نزل بها، وتغيّر أحوال أهلها، ونكبتهم وجهادهم واختلال أمرهم؛ ثم استنجد واستعان ودعا الموسر والمخِفّ إلى البذل والتبرع وإقراض الله تعالى؛ وتقدم أصحابه بصناديق مختومة فطافوا بها على الناس يجمعون فيها القليل والأقل من دراهم هي في هذه الحال دراهم أصحابها وضمائرهم

قال: وكان إلى جانبي رجل قروي من هؤلاء الفلاحين الذين تعرف الخير في وجوههم والصبر في أجسامهم والقناعة في نفوسهم والفضل في سجاياهم، إذ امتزجت بهم روح الطبيعة الخصبة فتخرج من أرضهم زُروعاً ومن أنفسهم زروعاً أخرى - فقال لرجل كان معه: إن هذا الخطيب خطيب المسجد قد غشنا وهؤلاء الشبان قد فضحوه، فما ينبغي أن تكون خطبة المسلمين إلا في أخص أحوال المسلمين.

قال: ونبهني هذا الرجل الساذج إلى معنى دقيق في حكمة هذه المنابر الإسلامية؛ فما يريد الإسلام إلا أن تكون كمحطات الإذاعة يلتقط كل منبر أخبار الجهات الأخرى ويذيعها في صيغة الخطاب إلى الروح والعقل والقلب، فتكون خطبة الجمعة هي الكلمة الأسبوعية في سياسة الأسبوع أو مسألة الأسبوع؛ وبهذا لا يجيء الكلام على المنابر إلا حياً بحياة الوقت فيصبح الخطيب ينتظره الناس في كل جمعة انتظار الشيء الجديد؛ ومن ثم يستطيع المنبر أن يكون بينه وبين الحياة عمل

قال: وخيل إلي بعد هذا المعنى أن كل خطيب في هذه المساجد ناقص إلى النصف لأن السياسة تُكرهه أن يخلع إسلاميته الواسعة قبل صعوده المنبر وألاّ يصعد إلا في إسلاميته الضيقة المحدودة بحدود الوعظ الذي هو مع ذلك نصفُ وعظ. . . فالخطبة في الحقيقة نصف خطبة أو كأنها أثر خطبة معها أثر سيف. . .

قال: وأخرج القروي كيسه فعزَل منه دراهم وقال هذه لطعام أتبلّغ به ولأوبتي إلى البلد، ثم أفرغ الباقي في صناديق الجماعة؛ واقتديت أنا به فلم أخرج من المسجد حتى وضعت في صناديقهم كل ما معي؛ ولقد حسبت أنه لو بقي لي درهم واحد لمضى يسبني ما دام معي إلى أن يخرج عني

قال الراوي: ثم دخلت إلى ضريح صاحب المسجد أزوره وأقرأ فيه ما تيسر من القرآن فإذا هناك رجال من علماء المسلمين، إثنان أو ثلاثة (الشكّ في ثالثهم لأنه حليق اللحية). ثم توافى إليهم آخرون فتموا سبعة؛ ورأيتهم قد خلطوا بأنفسهم صاحب (اللالحية) فعلمت أنه منهم على المذهب الشائع في بعض العصريين من العلماء والقضاة الشرعيين، أحسبهم يحتجون بقوله تعالى: (ولقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم)؛ وكل امرئ فإنما تُبصره مرآته كيف يظهر في أحسن تقويم، أبلحية أم بلا لحية. . ؟

وأدرت عيني في وجوههم فإذا وقار وسّمْتٌ ونور لم أر منها شيئاً في وجه صاحب (اللالحية)؛ وأنا فما أبصرت قط لحية رجل عالم أو عابد أو فيلسوف أو شاعر أو كاتب أو ذي فن عظيم، إلا ذكرت هذا المعنى الشعريَّ البديع الذي ورد في بعض الأخبار من أن لله تعالى ملائكة يُقْسِمون: والذي زين بني آدم باللحى.

وكان من السبعة رجل ترك لحيته عافيةً على طبيعتها فامتدت وعظمت حتى نشرت حولها جواً روحانياً من الهيبة تشعر النفس الرقيقة بتياره على بُعد، فكان هذا أبلغ رد على ذاك

قال: وأنصت الشيوخ جميعاً إلى خطب الشبان، وكانت أصوات هؤلاء جافيةً صُلبة حتى كأنها صَخبُ معركة لا فنُّ خطابة، وعلى قدر ضعف المعنى في كلامهم قوي الصوت؛ فهم يصرخون كما يصرخ المستغيث في صيحات هاربة بين السماء والأرض

فقال أحد الشيوخ الفضلاء: لا حول ولا قوة إلا بالله! جاء في الخبر: تَعِس عبدُ الدينار، تَعِس عبدُ الدرهم، ووالله ما تعس المسلمون إلا منذ تعبدوا لهذين حرصاً وشحاً؛ (ومن يوق شُحّ نفسه فأولئك هم المفلحون)، ولو تعارفت أموال المسلمين في الحوادث لما أنكرتهم الحوادث

فقال آخر: وفي الحديث: (إن الله يحب إغاثة اللهفان) ولكن ما بال هؤلاء الشبان لا يوردون في خطبهم أحاديث مع أنها هي كلمات القلوب. فلو أنهم شرحوا للعامة هذا الحديث: (إن الله يحب إغاثة اللهفان) لأسرع العامة إلى ما يحبه الله

قال الثالث: ولكن جاءنا الأثر في وصف هذه الأمة: إنها في أول الزمان يتعلم صغارها من كبارها فإذا كان آخر الزمان تعلم كبارهم من صغارهم؛ فنحن في آخر الزمان وقد سلط الصغار على الكبار يريدون أن ينقلوهم عن طباعهم إلى صبيانية جديدة

قال الراوي: فقلت لصديق معي: قل لهذا الشيخ ليس معنى الأثر ما فهمت، بل تأويله أن آخر الزمان سيكون لهذه الأمة زمن جهاد واقتحام وعزيمة ومغالبة على استقلال الحياة فلا يصلح لوقاية الأمة إلا شبابها المتعلم القوي الجريء كما نرى في أيامنا هذه فينزلون من الكبار تلك المنزلة إذ تكون الحماسة متممة لقوة العلم. وفي الحديث: أمتي كالمطر لا يُدرى أوله خير أم آخره.

قال الراوي: ولم يكد الصديق يحفظ عني هذا الكلام ويهم بتبليغه حتى وقعت الصيحة في المكان فجاء أحد الخطباء ووقف يفعل ما يفعله الرعد، لا يكرر إلا زمجرة واحدة. وكان الشيوخ الأجلاء قد سمعوا كل ما قيل فأطرقوا يسمعونه مرة رابعة أو خامسة. وفرغ الشاب من هديره فتحول إليهم وجلس بين أيديهم متأدباً متخشعاً ووضع الصندوق المختوم

فقال أحد الشيوخ: ممن أنت يا بني؟ قال: من جماعة الأخوان المسلمين. قال الشيخ. لم يخف علينا مكانك وقد بذلتم ما استطعتم فبارك الله فيك وفي أصحابك

وسكت الشاب وسكت الشيوخ وسكت الصندوق أيضاً ثم تحركت النفس بوحي الحالة فمد أولهم يده إلى جيبه، ثم دسها فيه! ثم عيّثَ فيه قليلاً؛ ثم. . . ثم أخرج الساعة ينظر فيها

وانتقلت العدوى إلى الباقين فأخرج أحدهم منديله يتمخط فيه. وظهرت في يد الثالث سبحة طويلة. وأخرج الرابع سواكا فمر به على أسنانه. وجرَّ الخامس كراسة كانت في قبائه. ومد صاحب اللحية العريضة أصابعه إلى لحيته يخللها. أما السابع صاحب (اللالحية) فثبتت يده في جيبه ولم تخرج كأن فيها شيئاً يستحي إذا هو أظهره أو يخشى إذا هو أظهره من تخجيل الجماعة

وسكت الشاب وسكت الشيوخ وسكت الصندوق أيضاً

قال الراوي: ونظرت فإذا وجوههم قد لبست للشاب هيئة المدرس الذي يقرر لتلميذه قاعدة قررها من قبل ألف مرة لألف تلميذ. فخجل الشاب وحمل صندوقه ومضى

أقول أنا: فلما انتهى الراوي من (قصة الأيدي المتوضئة)، قلت له: لعلك أيها الراوي استيقظت من الحلم قبل أن يملأ الشيوخ الأجلاء هذا الصندوق، وما ختم عقلك هذه الرواية بهذا الفصل إلا بما كددت فيه ذهنك من فلسفة تحول السيف إلى خشبة. ولو قد امتد بك النوم لسمعت أحدهم يقول لسائرهم: بمن ينهض إخواننا المجاهدون وبمن يصولون؟ لهذا

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (جاهل سخيّ أحب إلى الله من عالم بخيل)؛ ثم يملئون الصندوق. . . . . .

(طنطا)

مصطفى صادق الرافعي

الجانب الصوفي في الفلسفة الإسلامية

للدكتور إبراهيم بيومي مدكور

نجتمع الليلة - أيها السادة - لنناجي القلب ونحادث الروح. ومناجاة القلب طهرة لمن شاء أن يتطهر، وصفاء لمن أراد التبرؤ من الرجس والدنس. ومحادثة الروح عروج إلى سماء النور والملائكة، وصعود إلى عالم الفيض والإلهام. نجتمع الليلة لنهجر الأجسام زمناً ونفرغ إلى نفوسنا حيناً. والجسم والنفس كانا ولا يزالان في صراع دائم ومعركة مستمرة، يقدر فيها لأحدهما الفوز تارة وللآخر أخرى. وقد يبدو غريباً أن نتحدث عن فيض وإلهام وروح ونفس في عصرنا الحاضر الذي طغت فيه المادة على كل شيء، فأصبحنا لا نؤمن إلا بكل مشاهد، ولا نسلم إلا بكل مرئي. بيد أنا حتى في هذا العصر المادي نشعر بحاجة ماسة إلى كشف ما غاب عن أبصارنا وانطوت عليه نفوسنا، ونركن كثيراً إلى ما تمليه ضمائرنا. وما دام فينا قلب يخفق وعاطفة تتأجج، فإنا لا نستطيع إنكار لغة القلوب والأرواح؛ وإذا تتبعنا المذاهب الفلسفية على اختلافها وجدنا أنه لم يخل واحد منها من نزعة صوفية. وها هو ذا أرسطو الذي كان واقعياً في بحثه وطريقته، ورجل مشاهدة وتجربة في ملاحظاته واستنباطاته، قد انتهى به الأمر إلى أن

بنى دراسته النفسية على شيء من الفيض والإلهام، ووضع في قمة الأخلاق فضائله العقلية التي هي أسمى درجة من درجات التأمل والمشاهدة الصوفية
حقاً إن الإدراكات الروحية والإلهامات القلبية قد تكون غير يقينية، أو قد يعز على الأقل إثباتها ببراهين قطعية يتقبلها الآخرون؛ إلا أنها مبعث طمأنينة وهدوء وسكون؛ ذلك لأنها معرفة شخصية مباشرة؛ والكلام إذا خرج من القلب وصل إلى القلب. وكم يجهد الإنسان نفسه في صوغ الأقيسة وإقامة البراهين لإثبات أمر ما دون أن ينعم بالهدوء والسكون اللذين يحس بهما حين يناجيه قلبه وتخاطبه روحه. وقديماً مر الغزالي بمراحل من البحث والنظر، واشتغل بدراسات كثيرة، ولكن لم تطب نفسه إلا للمعرفة الصوفية تفيض عليه فيضاً ويلهمها إلهاماً. وحديثاً شك ديكارت في كل شيء، اللهم إلا في نفسه وتفكيره. ولما انتهى إلى هذه الحقيقة الثابتة كانت أساس اليقين في رأيه ونقطة البدء لكل فلسفته. وهناك فلسفات قامت بأسرها على المناجاة الروحية والاتصال بالله؛ فأفلوطين في مدرسة
الإسكندرية يرى أن الجذب والفيض هما السعادة التي ليست وراءها سعادة؛ وقد جد شخصياً في تحقيقهما طول حياته، ولم يحظ بهما إلا بضع مرات. ومالبرنش في القرن السابع عشر يقول باتصال مستمر بين العبد وربه. فمعرفتنا ليست إلا فيضاً من الله، وما يبدو منا من عمل خارجي ليس إلا ظروفا ومناسبات لتحقيق إرادة الله، وبهذا يتلاشى المخلوق في الخالق، ويندمج الأثر في المؤثر.
لسنا نحاول هنا التحدث عن التصوف في جملته، ولا التعرض لمختلف مظاهره وأدواره منذ نشأته، وإنما نريد فقط أن نفصل القول في نزعة صوفية سادت الفلسفة الإسلامية؛ فنتبين كيف تكونت وشبت ونشأت، ونشرح الأصول التي صدرت عنها، والعوامل التي أثرت فيها، ونحدد مدلولها ومرماها. وإذا ما تم لنا هذا استطعنا أن نوضح آثارها ونتائجها. فحديث القلب والروح الذي نحن بصدده مقصور على ما جاء به الفلاسفة المسلمون، ووقف على الجانب الصوفي في الفلسفة الإسلامية. وما كان أجدرنا في بحث كهذا أن نستعمل لغة خاصة وأسلوباً خاصاً، بل وأن نلجأ إلى مكان خاص، فان لغة العقل تعجز أحياناً عن التعبير في دقة عما يكنه القلب، وأسلوبنا المشوب بشوائب مادية قد لا يجد السبيل إلى وصف الإلهامات النفسية، والأرواح التي تسبح في عالم النور تعز مناجاتها في حيز المادة والجسم المحدود. وعلّ الصوفية مصيبون في التزيي بزي خاص، كي يتفق ظاهرهم مع باطنهم، وفي اتخاذ لغة معينة تفصلهم عمن سواهم؛ غير أن هذه اللغة زادت آراءهم تعقيداً، وكست نظرياتهم بثوب كثيف من الغموض والإبهام. وسنجتهد في أن نجلي غامضها، وأن نقربها ما استطعنا من العرف المألوف.
عني الباحثون من قديم بدراسة التصوف الإسلامي في جملته مدفوعين غالباً بما في الموضع من طرافة، ومحاولين أن يكشفوا ما احتواه الإسلام والشرق من حقائق وأسرار. ويغلب على الظن أن الأبحاث الصوفية أول موضوع استلفت أنظار المستشرقين؛ ولا تزال هذه الأبحاث محل عنايتهم حتى اليوم؛ ومؤلفاتهم فيها تزيد كثيراً على ما كتبوه في الدراسات الإسلامية الأخرى. ولا غرابة فالغرب متعطش دائماً إلى تعرف صوفية الشرق. وكأن هذا الأخير وهو مصدر النور والضوء أبى إلا أن يكون في الوقت نفسه مقر القوى الخفية والأسرار الغامضة. ودون أن نعرض لكل من اشتغلوا بموضوع التصوف من كبار
المستشرقين نكتفي بأن نشير إلى رجال القرن العشرين، ونخص بالذكر منهم جولد زيهير النمسوي الذي عقد للتصوف فصلاً ممتعاً في كتابه (عقيدة الإسلام وقانونه) بجانب أبحاث أخرى قيمة؛ والأستاذ مكدونلد الأمريكي الذي وضح كثيراً من آراء الغزالي الصوفية، والأستاذ نكلسون المدرس بجامعة كمبردج، والأستاذ ماسنيون المدرس بكليج دي فرنس، والدكتور محمد إقبال العالم الهندي المشهور؛ وعلى رأس هؤلاء جميعاً أن نضع نكلسون وماسنيون، فانه يرجع إلى الأول الفضل في نشر كثير من مخلفات الصوفية القيمة والتعريف عنها؛ أما أستاذنا ماسنيون فقد رسم في التصوف طرائق جديدة، وقدم لنا الحلاج صورة غنية بالألوان والمعاني الدقيقة في كتاب يعد أوسع مؤلف في تاريخ التصوف الإسلامي.
غير أن آراء فلاسفة الإسلام الصوفية لم تدرس بعد ولم توجه إليها العناية التي

تستحقها. حقاً إن مهرن المستشرق الدنمركي، تنبه إلى بعض مؤلفات ابن سينا الصوفية، وقام بنشرها وترجمتها. كما أن البارون كارادي فو لمح لدى الفارابي نزعة صوفية واضحة. إلا أن هذه الأبحاث ناقصة وغير ناضجة. وعلى هذا لا زلنا نجهل أفكار فلاسفة الإسلام الصوفية كما نجهل نظرياتهم الفلسفية بالمعنى الدقيق. وكل ما نرجوه أن نكشف الغطاء عن هذه الناحية وأن نوجه الأنظار إليها.

إذا شئنا أن نعرف أقدم صورة للأفكار الصوفية عند فلاسفة الإسلام، وجب علينا أن نصعد إلى أبي نصر الفارابي. فانه أول من صاغ الفلسفة الإسلامية في ثوبها الكامل ووضع أصولها ومبادئها. نحن لا ننكر أن الكندي تنبه قبله إلى دراسة أفلاطون وأرسطو وعرض لبعض نظرياتهما بالشرح والاختصار؛ ولكنا لا نجد لديه مذهباً فلسفياً كاملاً بكل معاني الكلمة، بل هي نظرات متفرقة ومتعلقة بمواضيع مختلفة لا رابطة بينها. أما الفارابي فقد لم هذا الشعث وأقام دعائم مذهب فلسفي متصل الحلقات. ومن أهم أجزاء هذا المذهب وعلى قمة هذا البناء نرى نظرية صوفية امتازت بها الفلسفة الإسلامية من كثير من الفلسفات الأخرى. فالتصوف إذن قطعة من مذهب الفارابي الفلسفي لا ظاهرة عرضية كما يزعم كارادي فو. ولا أدل على هذا من أن هناك رباطاً وثيقاً يربطه بالنظريات الفارابية الأخرى نفسية كانت أو أخلاقية أو سياسية. وقد أثر هذا التصوف تأثيراً عميقاً فيمن جاء بعد من فلاسفة الإسلام.

لعل أخص خصائص النظرية الصوفية التي قال بها الفارابي أنها قائمة على أساس عقلي. فليس تصوفه بالتصوف الروحي البحت الذي يقوم على محاربة الجسم والبعد عن اللذائذ لتطهر النفس وترقى مدارج الكمال، بل هو تصوف نظري يعتمد على الدراسة والتأمل. وطهارة النفس في رأيه لا تقصد عن طريق الجسم والأعمال البدنية فحسب، بل عن طريق العقل والأعمال الفكرية أولاً وبالذات. هناك فضائل عملية جسيمة ولكنها لا تذكر في شيء بجانب الفضائل العقلية النظرية، ولئن كانت الأعمال الحسنة والخلال الحميدة بعض الخير، فالخير كل الخير في مسألة نتدارسها وحقيقة نكشفها ومعرفة تتهذب بها نفوسنا وتسمو عقولنا. وذلك أن العقل البشري سالكاً سبيل رقيه وتطوره يمر بمراحل متدرجة بعضها فوق بعض. فهو في أول أمره عقل بالقوة، فإذا ما أدرك قدراً كبيراً من المعلومات العامة والحقائق الكلية أصبح عقلاً بالفعل. وقد يتسع مدى نظره، ويحيط بأغلب الكليات فيرقى إلى أسمى درجة يصل إليها الإنسان وهي درجة العقل المستفاد أو درجة الفيض والإلهام. وعلّ في هذا ما يبين كيف اتصل التصوف عند الفارابي بعلم النفس، ونظرية المعرفة.

ولن يقف الأمر عند هذا الحد، بل التصوف الفارابي متين الصلة بالنظريات الفلكية والميتافيزيقية، فان الفارابي يتخيل نظاما فلكياً أساسه أن في كل سماء قوة روحية أو عقلاً مفارقاً يشرف على حركتها ومختلف شؤونها، وآخر هذه القوى وهو العقل العاشر موكل بالسماء الدنيا والعالم الأرضي، فهو نقطة اتصال بين العالمين العلوي والسفلي، وكلما اتسعت معلومات المرء اقترب من العالم العلوي ودنت روحه من مستوى العقول المفارقة، فإذا وصل إلى درجة العقل المستفاد أصبح أهلاً لتقبل الأنوار الإلهية وأضحى على اتصال مباشر بالعقل العاشر. فبالعلم والعلم وحده يمكننا أن نربط السماوي بالأرضي والإلهي بالبشري والملائكي بالإنساني، وأن نصل إلى أعظم سعادة ممكنة. والمعرفة النظرية الميتافيزيقية هي أسمى غاية ينشدها العقل الإنساني. وإذا ما انتهينا إلى هذه المرتبة تحررت نفوسنا بتاتاً من كل ما هو مادي وجسمي والتحقت بالكائنات العقلية واطمأنت إلى حالها هذه راجية أن تبقى فيها إلى النهاية هذه هي السعادة التي تنحو نحوها الفلسفة والأخلاق ويوصب إليها النظر والعمل ويسعى إليها الإنسان بدراسته وسلوكه، هي الخير المطلق وغاية الغايات ومنتهى الرفعة الإنسانية وجنة الواصلين، يقول الفارابي: (والسعادة هي أن تصير نفس الإنسان من الكمال في الوجود بحيث لا تحتاج في قوامها إلى مادة، وذلك أن تصير في جملة الأشياء البريئة عن الأجسام، وفي جملة الجواهر المفارقة للمواد، وأن تبقى على تلك الحال دائماً أبداً، إلا أن رتبتها تكون دون رتبة العقل الفعال، وإنما تبلغ ذلك بأفعال إرادية، بعضها أفعال فكرية وبعضها أفعال بدنية، وليست بأي أفعال اتفقت، بل بأفعال

محدودة مقدرة تحصل عن هيئات ما وملكات ما مقدرة محدودة. وذلك أن من الأفعال الإرادية ما يعوق عن السعادة، والسعادة هي الخير المطلوب لذاته، وليست تطلب أصلاً ولا في وقت من الأوقات لينال بها شيء آخر؛ وليس وراءها شيء آخر أعظم منها يمكن أن يناله الإنسان. والأفعال الإرادية التي تنفع في بلوغ السعادة هي الأفعال الجميلة. والهيئات والملكات التي تصدر عنها هذه الأفعال هي الفضائل؛ وهذه ليست خيراً لذاتها، بل لما تجلب من سعادة. والأفعال التي تعوق عن السعادة هي الشرور والأفعال القبيحة. والهيئات والملكات التي تصدر عنها هذه الأفعال هي النقائص والرذائل والخسائس).

(يتبع)

إبراهيم بيومي مدكور
مدرس الفلسفة في كلية الآداب

تطور العقلية الإسبانية في تقدير تراث الأندلس

للأستاذ محمد عبد الله عنان

في أوائل سنة 1929، احتفلت جامعة غرناطة بذكرى الخلافة الأندلسية لمناسبة مضي ألف عام على قيامها فكان أول حادث رسمي من نوعه ينم عن تطور عميق في تقدير إسبانيا النصرانية لتراث الأندلس المسلمة

وتاريخ الإسلام في الأندلس مرحلة باهرة في تاريخ إسبانيا القومي، بل أعظم مراحله وأسطعها، فقد لبث العرب في إسبانيا زهاء ثمانية قرون أنشئوا فيها أعظم حضارة عرفت في العصور الوسطى، وكانت وحدها مدى هذه العصور مورد النور والعرفان لأمم الشمال؛ وأخرج المسلمون من إسبانيا بعد أحقاب من الكفاح المتواصل، فتركوا في إسبانيا طابعهم الخالد؛ وما زالت آثارهم الباقية تشهد بعظمة عصرهم وحضارتهم، وما زالت الحياة الاجتماعية الإسبانية تنم في كثير من نواحيها عن تأثير العرب ورسومهم وتقاليدهم.

ولكن إسبانيا النصرانية لم تقنع بسحق الأندلس المسلمة، واستعادة آخر بقعة للإسلام في إسبانيا، بل رأت غداة ظفرها أن تطارد الإسلام بكل ما وسعت، وأن تمحو كل رسومه وآثاره من صفحة حياتها، وأن تدفن ذلك الماضي المجيد إلى الأبد، وأن تعتبره محنة قومية نزلت بها، وأن تمحوه من صحف تاريخها القومي؛ وتأثر التفكير الإسباني بأهواء السياسة المتعصبة، فأشبع بهذه الروح المجحفة؛ ولبث الأدب الإسباني عصورا يشيع بلعناته المتواصلة عصر الإسلام وتراثه، وكل ذكرياته؛ ولم ينج التاريخ من هذه النزعة المغرضة، فطغى التعصب على المرحلة الإسلامية من تاريخ إسبانيا القومي؛ وكتب المؤرخون الأسبان تاريخ العرب في إسبانيا بروح عميق من التحامل، وجعلوا جل اعتمادهم على الروايات النصرانية القديمة التي تفيض بمختلف الأكاذيب والتهم، ولم يفكروا في مراجعة المصادر الإسلامية والانتفاع بها؛ ذلك أن إسبانيا النصرانية أصدرت منذ غداة ظفرها حكمها على المغلوب، ولم ترد بعد ذلك أن تسمع صوتاً للأندلس الذاهبة، أو أن تراجع ذلك التراث الذي تعتبره رجساً، وترى فيه عنوان عصور مشئومة، مليئة بالمحن القومية.

وبهذه الروح كتب أكابر المؤرخون الأسبان تاريخ إسبانيا، فكتب ماريانا في عصر شارلكان تاريخ إسبانيا العام، وخصص منه مجلدين كبيرين لتاريخ الأندلس، ولكنه كان متحيزاً متحاملاً يغدق المطاعن والتهم على العرب وعصور الإسلام؛ وحذا حذوه من جاء بعده من المؤرخين؛ وطبعت مؤلفاتهم جميعاً بهذا الطابع المغرض؛ وكانت السياسة الإسبانية تحرص دائماً على حجب آثار العصر الإسلامي، وتخفيها عن كل باحث ومتطلع، كأنما كانت تخشى أن تؤثر روح التفكير الإسلامي في تفكير إسبانيا النصرانية، وهي لم تدخر وسعاً في مطاردة هذا الروح وقتله؛ ولبثت الآثار الإسلامية عصوراً مقبورة في أقبية الأسكوريال المظلمة، وكانت حتى أواخر القرن السابع عشر تبلغ زهاء عشرة آلاف مجلد جمع معظمها أيام سقوط غرناطة، وضمت إليها بعد ذلك نحو ثلاثة آلاف مجلد كانت للسلطان زيدان السعدي ملك مراكش؛ وكانت مشحونة في مركب مغربي لتنقل إلى بعض ثغور المغرب خوفاً على ضياعها أثناء الفتنة، فأسرتها بعض المراكب الإسبانية وحملت شحنتها إلى إسبانيا؛ وفي أواخر القرن السابع عشر أصابت هذه البقية الباقية من تراث الأندلس محنة أليمة، إذ شبت النار في الأسكوريال

والتهمت معظم هذا الكنز الفريد، ولم ينقذ منه سوى ألفين. عندئذ استفاقت الحكومة الإسبانية من سباتها؛ وحررت ذهنها بعض الشيء من ذلك التعصب العميق الذي صرفها عصوراً طويلة عن العناية بهذا التراث، واستدعت من رومة حبرا شرقياً وعلامة لغوياً كبيراً هو ميشيل الغزيري اللبناني الذي يعرف في الغرب باسم (كازيري) وعهدت إليه بدرس الآثار العربية ووضع فهرس جامع لها؛ فلبث الغزيري أعواماً طويلة يدرس وينقب في تلك المخطوطات حتى أتم المهمة، وأخرج في سنة 1760 باللاتينية فهرسة الجامع بعنوان (المكتبة العربية الإسبانية في الأسكوريال) - وصدر كازيري معجمه بمقدمة طويلة شرح فيها قيمة المخطوطات العربية وأهميتها، ونقل في فهرسه نبذاً كثيرة من بعض الآثار الهامة؛ فأثار ظهور هذا الفهرس الجامع لأول مرة اهتماماً كبيراً في دوائر البحث والتفكير، ولفت نظر المؤرخين الأسبان إلى تلك الناحية الهامة من تاريخ إسبانيا القومي، وإلى تلك المراجع النفيسة التي تلقي أعظم ضوء على تاريخ الأندلس وأحوال المجتمع الإسلامي؛ وعني طائفة من الباحثين في أواخر القرن الثامن عشر مثل أندريس وماسدي ببحث المصادر العربية والانتفاع بها، والاقتباس منها؛ وأخرج أندريس كتابه عن (أصول الأدب) وأخرج ماسدي مؤلفه الجامع عن تاريخ إسبانيا والحضارة الإسبانية وفيه نبذ شائقة عن المجتمع الإسلامي ونواحي التفكير الإسلامية مستمدة من المراجع العربية؛ وهكذا بدأ تطور الروح الإسبانية في تقدير التراث الإسلامي، وظهر صوت الأندلس المسلمة لأول مرة في التواريخ العامة والخاصة.

على أن هذا التطور المحمود من التحامل والتعصب إلى جانب الروية والإنصاف لم يقف عند هذا الحد، ففي أوائل القرن التاسع عشر عمد المؤرخ يوسف كوندي أمين مكتبة أكاديمية مدريد إلى دراسة المراجع العربية في الأسكوريال دراسة مستفيضة ورأى أن يكتب تاريخ أسبانيا المسلمة بصورة جديدة هي الصورة التي تقدمها إلينا المراجع العربية، أو بعبارة أخرى رأى أن يكتب تاريخ الأندلس كما يعرضه تراثها العربي، وكانت نتيجة هذه الدراسة كتابه الشهير (تاريخ دولة العرب في أسبانيا) الذي صدر الجزء الأول منه سنة 1810؛ وتوفى كوندي في نفس العام، فنشر الجزءان الباقيان من مخطوطاته في العام التالي؛ وليس مؤلف كوندي قوياً من الناحية النقدية، لأن مؤلفه ينقل مختلف الروايات العربية دون تمحيص، ولأنه يقع في كثير من الأخطاء التاريخية التي ترجع في الغالب إلى عدم الدقة في النقل؛ ومع ذلك فانه يمتاز بالصراحة الجمة حتى أن كوندي يذهب في كثير من المواطن إلى إصدار أشد الأحكام على أمته ومواطنيه خصوصاً في الحوادث التي اقترنت بسقوط غرناطة، واضطهاد الأسبان للعرب ومطاردتهم وإرغامهم على التنصير، ثم إخراجهم بعد ذلك من أوطان آبائهم وأجدادهم في غمر من الفظائع والدماء؛ وأهمية مؤلف كوندي في أنه يعرض للغرب لأول مرة أقوال الرواية العربية مستمدة من مصادرها الأصيلة، ومنها تعرف وجهة النظر الأندلسية في كثير من الحوادث والشؤون.

وكان صدور مؤلف كوندي حادثاً فريداً في كتابة التاريخ الأسباني، وكان أول مؤلف من نوعه يسجل كلمة الأندلس في المرحلة التي قطعتها من تاريخ إسبانيا القومي.

ويسجل في نفس الوقت بدء عهد جديد من حرية البحث والتقدير؛ ومن الغريب أن كتاب كوندي صدر في نفس الوقت الذي صدر فيه أثر تاريخي آخر كان لصدوره أعظم وقع في إسبانيا وفي أوربا، وهو كتاب الدون انتوينو لورنتي عن تاريخ محاكم التحقيق (التفتيش) الأسبانية، وعن نظمها وإجراءاتها الدموية، وفيه يورد مؤلفه طائفة عظيمة من الوثائق الرسمية التي تكشف عن فظائع هذه المحاكم الشائنة، وخصوصاً في مطاردتها للعرب والعرب المتنصرين، ويورد في نفس الوقت طائفة كبيرة من القضايا والمحاكمات الخاصة بالعرب المتنصرين مستمدة من وثائقها الأصلية؛ وكان كتاب لورنتي فتحاً جديداً في هذه الناحية من تاريخ العرب المتنصرين. وكان لصدوره وقع عظيم في أوربا، خصوصاً وأن مؤلفه من أكابر رجال الدين والكنيسة، وقد لبث أعواماً طويلة سكرتيراً عاماً لديوان التحقيق (التفتيش) واستطاع أن يستخرج وثائقه من محفوظات الديوان الرسمية ذاتها

وفي أواسط القرن التاسع عشر عنى العلامة المستشرق الأسباني دون باسكوال دي

جاينجوس بدراسة المصادر العربية في تاريخ الأندلس، وقام بترجمة القسم الأول من كتاب (نفح الطيب) للمقري إلى الإنكليزية مع بعض التصرف وسماه (تاريخ الدول الإسلامية في إسبانيا) وظهرت هذه الترجمة في لندن سنة 1840 في مجلدين كبيرين مقرونة بملاحظات ومقارنات نقدية قيمة؛ ولم تمض أعوام قلائل على ذلك حتى صدرت في ليدن ترجمة فرنسية لهذا القسم الأول من كتاب المقري بقلم المستشرقين دوزي ودوجا تحت عنوان (مختارات في تاريخ وآداب العرب في إسبانيا) (سنة 1855 - 1861) ' ' '

وهكذا وقفت إسبانيا، ووقف الغرب، بعد عصور طويلة من النسيان والتحامل على وجهة النظر الإسلامية في التاريخ الأندلسي، وسقط ذلك الحجاب الكثيف الذي ضربته السياسة الأسبانية مدى ثلاثة قرون على تراث الأندلس وآدابها، وتطورت فكرة التاريخ الأسباني ومادته، وأدرك المؤرخون المحدثون أهمية المرحلة الإسلامية في تاريخ إسبانيا القومي، وعدلوا كثيراً من الآراء والأحكام المجحفة التي أصدرها المؤرخون القدماء نزولاً على مؤثرات الجهل والتعصب القومي والديني والسياسي.

ونرى في أواخر القرن التاسع عشر جماعة من أعلام المستشرقين الأسبان يبذلون جهداً عظيما في نشر مجموعة كبيرة من المصادر الأندلسية الجليلة التي تحتويها أروقة الأسكوريال، باسم المكتبة الأندلسية، وهي مجموعة نفيسة في عشرة مجلدات، تحتوي على عدة كتب لابن بشكوال، وابن الآبار، والضبي، وابن الفرضي، وأبو بكر الاشبيلي، وتعليقات وفهارس مفيدة. وقد ظهرت المجموعة بين سنتي 1885 و 1894 في مدريد

وسرقسطة، وكان الجهد الذي بذل في إخراجها تحية جديدة من إسبانيا الجديدة لتراث العرب والإسلام في الأندلس.

وأخيراً توجت تلك الجهود الحرة الموفقة لبحث الصلات والعلائق القومية بروح الإنصاف والنزاهة، بقيام جامعة غرناطة بالاحتفال بالذكرى الألفية للخلافة الأندلسية وعصرها الباهر، وهي خطوة كان لها أعظم وقع في إسبانيا وفي العالم الإسلامي.

وهكذا يتبوأ تاريخ الأندلس وتراث الإسلام في إسبانيا مكانته الحقة في التاريخ القومي، وفي الآداب التاريخية الغربية، بعد عصور طويلة من التعصب والتحامل والنسيان.

محمد عبد الله عنان

بين عالمين

نظام الطلاق في الإسلام

للأستاذ أحمد محمد شاكر

منذ بضعة أشهر أخرجت كتابي (نظام الطلاق في الإسلام) فتقبله العلماء الأعلام في مصر وفي سائر الأقطار بقبول حسن والحمد لله، وأكثروا من الثناء عليه وعلى مؤلفه، وجاءتني كتب متواترة من كبار علماء الإسلام في الحجاز والهند والعراق والشام وغيرها، ومن كبار المستشرقين في أقطار أخرى، ولا أراني أهلاً لكل ما أثنوا به عليّ، وإنما هو حسن الظن منهم، وقد أعجزني أن أوفيهم حقهم من الشكر على هذا الفضل الجمّ، وأسأل الله أن يجزل لهم المثوبة على فضلهم

وفي بعض ما جاءني من الكتب أبحاث قيمة من النقد العالي المبني على الحجة والبرهان، مما يصلح أن يكون مثالاً يحتذى للباحثين المجتهدين، في دقة النظر، وعلو الفكر، وأدب القول، والتسامي عن العصبية والهوى، والتزام ما ينصره الدليل الصحيح؛ وهي الخصال التي نرجو أن يسير على نهجها كل عالم مفيد، وكل طالب مستفيد، وخصوصاً في علوم الدين. وهي الخصال التي جاهد أسلافنا في سبيل حمل الناس على الأخذ بها واتباعها، ثم تبعناهم من بعدهم، فجاهد أخواني وجاهدت معهم في سبيل ذلك جهاداً كثيراً، منذ نيف وعشرين سنة، ولا نزال - والحمد لله - نسير على هذا النهج القويم، والصراط المستقيم.

ومما يجب عليّ، إحقاقاً للحق، واتباعاً لسبيل الهدى، أن أفكر فيما ورد على كتابي من اعتراض ونقد، وأُعيد النظر فيما اخترتُ ورأيتُ، وأكشف عن حجة خصمي وعن حجتي، لي وللناظرين: فأما انتصر قول خصمي ورجعتُ عن قولي، وإما انتصرتُ لقولي وزدته بياناً وتأييداً، لا أبالي أي ذينك كان، وإنما أنا طالب علم، فأي قول أو رأي نصره عندي الدليل فأنه العلم الذي أطلبه وأسعى إليه، لا ابغي به بدلاً.

ولذلك رأيت أن أنشر في (الرسالة) الغراء - مجلة الآداب الرفيعة والثقافة العالية - ما أراه جديراً بالنشر مما جاءني من نقد واعتراض، وأساجل كاتبيه البحث، أملاً في أن يشترك معنا كثير من العلماء الأعلام في هذا المجال، علنا نصل إلى الحقيقة فيما كان موضع اختلاف ونظر. وقديماً قال الناس: الحقيقة بنت البحث.

ومن أشرف ما وصل إليّ وأعلاه: كتاب كريم من صديقي الكبير وأستاذي الجليل، شيخ الشريعة، وإمام مجتهدي الشيعة، بالنجف الأشرف، العلامة الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء؛ فقد تفضل - حفظه الله - بمناقشة رأيي في مسألة من مسائل الكتاب، وهي (مسألة اشتراط الشهود في صحة مراجعة الرجل مطلقته)، فإنني ذهبت إلى اشتراط حضور شاهدين حين الطلاق، وإنه إذا حصل الطلاق في غير حضرة الشاهدين لم يكن طلاقاً ولم يعتدّ به. وهذا القول وإن كان مخالفاً للمذاهب الأربعة المعروفة إلا أنه يؤيده الدليل، ويوافق مذهب الأئمة أهل البيت والشيعة الإمامية. وذهبت أيضاً إلى اشتراط حضور شاهدين حين المراجعة، وهو يوافق أحد قولين للإمام الشافعي، ويخالف مذهب أهل البيت والشيعة. واستغربت من قولهم أن يفرقوا بينهما، والدليل واحد فيهما، فرأى الأستاذ - بارك الله فيه - أن يشرح لي وجهة نظرهم في التفريق بينهما فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم. وله الحمد والمجد

من النجف الأشرف 8 صفر سنة 1355 إلى مصر

لفضيلة الأستاذ العلامة المتبحر النبيل الشيخ أحمد محمد شاكر المحترم أيده الله

سلامة لك وسلام عليك. وصلتني هديتك الثمينة رسالة (نظام الطلاق في الإسلام)، فأنعمت النظر فيها مرة بل مرتين إعجاباً وتقديراً لما حوته من غور النظر، ودقة البحث، وحرية الفكر، وإصابة هدف الحق والصواب. وقد استخرجت لباب الأحاديث الشريفة، وأزحت عن محيا الشريعة الوضاءة أغشية الأوهام، وحطمت قيود التقاليد القديمة وهياكل الجمود بالأدلة القاطعة، والبراهين الدامغة. فحياك الله، وحيا ذهنك الوقاد، وفضلك الجمّ

وأمهات مباحث الرسالة ثلاث: (1) طلاق الثلاث (2) الحلف بالطلاق والعتاق (3) الإشهاد على الطلاق

وكل واحدة من هذه المسائل الثلاث قد وفيتها حقها من البحث، وفتحت فيها باب الاجتهاد الصحيح على قواعد الفن ومدارك الاستنباط القويم من الكتاب والسنة. فانتهى بك السير على تلك المناهج القويمة إلى مصاص الصواب، وروح الحقيقة، وجوهر الحكم الإلهي، وفرض الشريعة الإسلامية.

وقد وافقت آراؤك السديدة في تلك المسائل ما اتفقت عليه الإمامية من صدر الإسلام إلى

اليوم، لم يختلف فيها منهم اثنان، حتى أصبحت عندهم من الضروريات، كما اتفقوا على عدم وجوب الإشهاد في الرجعة، مع اتفاقهم على لزومه في الطلاق، بل الطلاق باطل عندهم بدونه

وقد ترجح عندك قول من يقول بوجوب الإشهاد فيهما معاً. فقلت في صفحة (120) ما نصه: (وذهبت الشيعة إلى وجوب الإشهاد في الطلاق وأنه ركن من أركانه، كما في كتاب شرائع الإسلام. . . ولم يوجبوه في الرجعة. والتفريق بينهما غريب ولا دليل عليه) انتهى

وفي كلامك هذا (أيدك الله) نظر أستمحيك السماح في بيانه، وهو أن من الغريب حسب قواعد الفن مطالبة النافي بالدليل والأصل معه! وإنما يحتاج المثبت إلى الدليل. ولعلك (ثبتك الله) تقول قد قام الدليل عليه، وهو ظاهر الآية، بناءً على ما ذكرته في صفحة (118) حيث تقول: (والظاهر من سياق الآيتين أن قوله: (وأشهدوا) راجع إلى الطلاق وإلى الرجعة معاً) إلى آخر ما ذكرت، وكأنك (أنار الله برهانك) لم تمعن النظر هنا في الآيات الكريمة، كما هي عادتك من الإمعان في غير هذا المقام، وألا لما كان يخفى عليك أن السورة الشريفة مسوقة لبيان خصوص الطلاق وأحكامه، حتى إنها قد سميت بسورة الطلاق، وأبتدأ الكلام في صدرها بقوله تعالى: (إذا طلقتم النساء) ثم ذكر لزوم وقوع الطلاق في صدر العدة، أي لا يكون في ظهر المواقعة ولا في الحيض، ولزوم إحصاء العدة وعدم إخراجهن من البيوت، ثم استطرد إلى ذكر الرجعة في خلال

بيان أحكام الطلاق، حيث قال عز شأنه: (فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف) أي إذا أشرفن على الخروج من العدة فلكم إمساكهن بالرجعة أو تركهن على المفارقة، ثم عاد إلى تتمة أحكام الطلاق فقال: (وأشهدوا ذوي عدل منكم) أي في الطلاق الذي سيق الكلام كله لبيان أحكامه، ويستهجن عوده إلى الرجعة التي لم تذكر إلا تبعاً واستطراداً. ألا ترى لو قال القائل: إذا جاءك العالم وجب عليك احترامه وإكرامه وأن تستقبله، سواء جاء وحده أو مع خادمه أو رفيقه ويجب المشايعة وحسن الموادعة، فانك لا تفهم من هذا الكلام إلا وجوب المشايعة والموادعة للعالم، لا له ولخادمه ورفيقه، وإن تأخرا عنه. وهذا لعمري حسب قواعد العربية والذوق السليم جليٌّ واضح، لم يكن ليخفى عليك، وأنت خِرِّيتُ العربية، لولا الغفلة (والغفلات تعرض للأريب) هذا من حيث لفظ الدليل وسياق الآيات الكريمة

وهنالك ما هو أدق وأحق بالاعتبار من حيث الحكمة الشرعية والفلسفة الإسلامية وشموخ مقامها، وبعد نظرها في أحكامها. وهو: أن من المعلوم أنه ما من حلال أبغض الى الله سبحانه وتعالى من الطلاق، ودين الإسلام كما تعلمون - جمعيّ اجتماعي - لا يرغب في أي نوع من أنواع الفرقة، سيما في العائلة والأسرة، وعلى الأخص في الزيجة، بعدما أفضى كل منهما إلى الآخر بما أفضى. فالشارع بحكمته العالية يريد تقليل وقوع الطلاق والفرقة، فكثر قيوده وشروطه، على القاعدة المعروفة من أن الشيء إذا كثرت قيودُه، عَزّ أو قلّ وجودُه، فاعتبر الشاهدين العدلين للضبط أولاً، ولحصول الأناة والتأخير ثانياً، وَعسى إلى أن يحضر الشاهدان، أو يحضر الزوجان أو أحدهما عندهما يحصل الندم ويعودان إلى الألفة، كما أشير إليه بقوله تعالى (لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً) وهذه حكمة عميقة في اعتبار الشاهدين، لا شك أنها ملحوظة للشارع الحكيم، مضافاً إلى الفوائد الأخر.

وهذا كله بعكس قضية الرجوع: فان الشارع يريد التعجيل به، ولعل للتأخير آفات، فلم يوجب في الرجعة أي شرط من الشروط. وتصح عندنا - معشر الإمامية - بكل ما دل عليها من قول أو فعل أو إشارة، ولا يشترط فيها صيغة خاصة، كما يشترط في الطلاق. كل ذلك تسهيلاً لوقوع هذا الأمر المحبوب للشارع الرحيم بعباده، والرغبة الأكيدة في ألفتهم وعدم تفرقهم. وكيف لا يكفي في الرجعة حتى الإشارة ولمسها ووضع يده عليها بقصد الرجوع، وهي - أي المطلقة الرجعية - عندنا، معشر الإمامية، لا تزال زوجةً إلى أن تخرج من العدة، ولذا ترثه ويرثها، وتغسله ويغسلها، وتجب عليه نفقتها، ولا يجوز أن يتزوج بأختها وبالخامسة، إلى غير ذلك من أحكام الزوجية

فهل في هذا كله مقنع لك في صحة ما ذهبت إليه الإمامية من عدم وجوب الإشهاد في الرجعة بخلاف الطلاق؟! فان استصوبته حمدنا الله وشكرناك، وإلا فأنا مستعد للنظر في ملاحظاتك وتلقيها بكل ارتياح، وما الغرض إلا إصابة الحقيقة، واتباع الحق أينما كان، ونبذ التقليد الأجوف، والعصبية العمياء، أعاذنا الله وإياك منها، وسدد خطواتنا عن الخطأ والخطيئات، إن شاء الله، ونسأله تعالى أن يوفقكم لأمثال هذه الآثار الخالدة، والأثريات

اللامعة، والمآثر الناصعة، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً، ولكم في الختام أسنى تحية وسلام من

محمد الحسين آل كاشف الغطاء.

ملاحظة: ومن جملة المسائل التي أجدت فيها البحث والنظر: مسألة بطلان طلاق الحائض، وقد غربلت حديث ابن عمر بغربال الدقيق، وهذه الفتوى أيضاً مما اتفقت عليها الإمامية، وهي بطلان طلاق الحائض إلا في موارد استثنائية معدودة.

هذا هو نص كتاب الأستاذ شيخ الشريعة، لم أحذف منه شيئاً، إلا كلمة خاصة لا علاقة بها بالموضوع، وإنما هي عن تفضله بإهداء بعض كتبه إليّ. وسأحاول أن أبين وجهة نظري، وأناقش أستاذي فيما رآه واختاره، بما يصل إليه جهدي في عدد قادم، إن شاء الله.

أحمد محمد شاكر

القاضي الشرعي

ذات الثوب الأرجواني

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

(تنبيه: الكلام خيالي ولا أصل له، كما مللت أن أقول وأؤكد في كل مرة)

- 4 -

غضبت علينا ذات الثوب الأرجواني. . . وما أعرف لي ذنباً جنيته إلا النظر، وما أحسبها تريد أن تحرم هذا علينا أو تكرهه منا. وأين المرأة التي يسوءها أن ينظر الرجال إليها ويعجبوا بها ويفتتنوا بحسنها؟ أو يسرها أن ينصرفوا عنها ولا يبالوها ولا يعنيهم أبقيت بينهم أو أمامهم، أم اختفت عن عيونهم؟ إن إتباعَ النظرةِ النظرةَ ثناء صامت. والثناء قوت المرأة - وخمرها أيضاً - وقد ترى نساء يسوءهن النظر إليهم لسبب غير راجع إلى وحي الطبيعة في نفوسهن، فيرتبكن ويضطربن، وتضيق الدنيا في وجوههن ويشق عليهم ذلك حتى ليكبر في وهمهم أنهن جنينه على أنفسهن وأثرن فضول الرجال. ولكن حتى هؤلاء لا يكرهن الثناء، بل تشرق له وجوههن، وتنشرح صدورهن، إلا إذا جاوزت الإطراء إلى ما هو خليق بسبب نشأتهن أن يزعجهن. وقد كنت مرة أتعلم الفرنسية وأتلقى دروساً فيها على فتاة أمها روسية وأبوها نمسوي، فاستغربت بعد بضعة أيام أنها تلقاني متجهمة! وبدا لي أنها تستثقل الدرس والتلميذ، فشكوت إلى صديق وقلت له: إن معلمتي لا تكف عن النفخ، وأنها طول الدرس تتأفف، وإني أريد أن أبحث عن معلمة أخرى، فلست أطيق هذا الضجر الذي لا تنفك تواجهني به. فقال: (لا تفعل). قلت: (ولكني لا أستطيع الصبر على هذه الحال). قال: (لك العذر، ولكن ضاحكها وعابثها. . . اثن على حسنها. . . غازلها برفق، أي من غير أن تخرج عن حدود الأدب). فوعدته أن أجرب ذلك، وقد كان. أقبلت عليها فأقبلت عليّ، وصارت تهش لي وتبش، وأصبحت تلميذها الأثير. وكان لي زميل يتلقى عليها دروساً في وقت آخر، وكان مثلي قبل أن يرشدني صديقي، أي أنه كان معها كأنها معلم بلحية لا معلمة مدلّة بجمالها وشبابها، فكان إذا جاء تعبس وتقول: فلينتظر! فأقول لها: (بل أخرج أنا لئلا يغضب فيضيع عليك درسه)، فتقول: (دعه يغضب. . . إنه يملني ويزهق روحي). وكان اسمه (عثمان أفندي) فصرنا - هي وصديقي الذي علمني وأنا - نطلق اسم (عثمان أفندي) على كل من نراه بليدا جامدا في حضرة النساء.

وأعود إلى ذات الثوب الأرجواني فأقول إنها كانت راضية عني. وآية رضاها أنها ظلت أياماً لا تبدو لي إلا في ثوب أرجواني. وكنت لا أراها إلا خفيفة مرحة، وإذا بها - فجأة - تخرج إلى الشرفة في صباح فلا تكاد تراني حتى تنثني راجعة، فأعجب وأتساءل: (ما لها؟. . .) ولا أجد جواباً لسؤالي، فأهز كتفي وأقول: (سنرى)، ولكني لا أرى بعد ذلك إلا الإعراض والنفور وطول الاحتجاب، فلا يسعني إلا أن أعرض أنا أيضاً، وأن أظهر قلة المبالاة؛ فلا أفتح النافذة ولا أطل منها إذا كانت مفتوحة، ولا أنظر إليها إذا طلعت، فان في طبعي عناداً، وأنا مفطور عليه وعلى المجازفة، ولست أعرفني اكترثت للعواقب حين يستفزني شيء. وما أكثر ما أخسر بسبب ذلك. ولكني أستطيع أن أكبح ثورة نفسي ولا أستطيع أن أصرفها عن الزهد. وما عجزت قط - إلا في الندرة القليلة - عن ضبط عواطفي وصد نفسي عن الاندفاع، ولكني أراني عاجزاً عن علاج نفسي إذا انصرفت عن الشيء وحملها على الإقبال عليه مرة أخرى. وقد كانت أمي تقول إن قلبي أسود، وكانت تعني بذلك أني لا أنسى الإساءة؛ على أني لا أنسى المعروف أيضاً ولا أجحده، فأنا كما يقول ابن الرومي: (للخير والشر بقاء عندي)، وقد صدق فأنا من طينة الأرض، (والأرض مهما استودعت تؤدي). وما أساء إليّ أحد إلا نازعتني نفسي أن أنتقم منه، ولكني لا أزال أحاورها وأداورها حتى أقنعها بان الدنيا تغيرت، وأن أخلاق البدو لا تصلح في هذا العصر المتحضر، وأن الناس لا يقتل بعضهم بعضاً في هذا الزمان من أجل تمرة أو من جراء كلمة يسبق بها اللسان، حتى تسكن وتكتفي بالانصراف.

وجلست أحاسب نفسي وأسائلها عن ذات الثوب الأرجواني ما خطبها؟. ولِمَ تبدي هذا النفور؟. أتراها تتكلفه؟. ألعل أهلها قد أغلظوا لها وضيقوا عليها فرأت أن تخفف عن نفسها وتعفيها من ثقل تدخلهم بالاحتجاب؟. ألا يجوز أن يكونوا قد كرهوا مني طول النظر إليها فكلموها في ذلك فلم يسعها إلا أن تكف عن الظهور؟. جائز!! ولكن من الجائز أن أكون قد صنعت شيئاً أغضبها. . ومن الحزم على كل حال أن أعرض أنا أيضاً إلى حين، حتى تسكن الثورة التي لعلها ثارت في بيتها وبين أهلها. . ولكن من الإنصاف أيضاً أن أحاسب نفسي قليلاً. . فتعال هنا. . أخل بنفسك واجتهد أن تتذكر. .

فتذكرت. . . ذلك أني كنت يوماً في حجرتي فزارني صديق: وكان الجو حاراً جداً ففتحت
له النوافذ جميعاً، فقال لي بعد برهة: (أنظر. .) فسألته (ماذا؟) قال (هذه النافذة. . ألا ترى الفتاة التي تبدو منها؟) قلت: (إنك بعيد النظر. . وأنا أعترف أني لا أرى فتاة وإنما أرى ذراعاً) قال: (هذا ما أعني. . لا يبدو منها الآن إلا ذراعها ولكنها كانت منذ لحظة تطل علينا وتنظر إلينا). قلت: (جائز. . كل شيء جائز. . صحيح إن العمارة التي نحن فيها سبع طبقات. . أو عشر. . لا أدري. . وفي كل طبقة شقق كثيرة. . ولكل شقة نوافذ وشرفات لم أعدها. . وقد يكون في بعض هذه النوافذ والشرفات التي لا نراها رجال يطلون منها. . ولكن المعقول أن الفتاة التي لا أزال لا أرى منها غير ذراعها - تنظر إلينا نحن دون هذا الخلق الذي لعله في الشرفات والنوافذ ونحن لا ندري
قال: (لا تمزح. . إن نظرتها إلينا نحن. . وهل يخفى اتجاه النظر؟)
قلت: (ما يدريني ويدريك؟. ألا يمكن أن تكون حولاء؟؟ تعرف كيف ينظر الأحول!؟ تكون عينه عليك ولكنه لا يراك بل يرى الذي إلى اليمين أو إلى اليسار. . أليس هذا جائزاً؟)
قال: (حولاء؟؟ كلا!! من قال هذا؟؟ كلام فارغ!! إن عينيها جميلتان جداً)
قلت: (معذرة! إني - كما تعلم - لم أر سوى ذراعها. . وعهدي بالعيون تكون في الوجوه لا في الذراع. وأظن أن هذا النظام لا يزال هو المتبع في الخلق. . . على كل حال لم أر عينيها الجميلتين. . .)
قال: (والله إنها تنظر إلينا)
قلت: (صادق. . صادق. . . هذه أصابعها تنقر على حافة النافذة ولا شك أنها تعنينا الآن. .)
فقال: (دع المزاح بالله. . أنظر. . أنظر. .)
فنظرت. . وكففت عن المزح بلا حاجة إلى زجر آخر. . وكانت الفتاة سمراء - لا بيضاء كذات الثوب الأرجواني - وكانت نظرتها إلينا - لا شك في ذلك - والرجل يدير رأسه أن يرى امرأة تُثْئره النظر ولا تكاد تحول عينها عنه. فإذا كنت قد نهضت إلى النافذة وأخرجت رأسي منها ورحت أحدق في هذه السمراء الجميلة التي تقبل عليه ولا تعرض عنا أو تتدلل علينا، فأظن أن لي العذر. . ومن أين لي أن أعرف أن ذات الثوب الأرجواني كانت واقفة في هذه اللحظة وأنها كانت تراعيني وتراقبني؟؟ ولو كنت أعرف
ذلك لما صدني عن النظر، فأن حبي لذات الثوب الأرجواني ليس معناه أني عميت وأن عيني لا تستطيع أن ترى غيرها وأني فقدت القدرة على الإعجاب بالجمال في مظاهره المختلفة. ولكن المرأة أمرها غريب، وإني لأذكر أني كنت راكباً مع فتاة من صديقاتي - وكنت أنا السائق كما لا احتاج أن أقول - فرأيت فتاة جميلة واقفة على الرصيف فتمهلت لأنظر إليها، وإذا بصديقتي تقرص أذني فصرخت فقالت: (هذا جزاؤك) فسألتها: (ماذا صنعت؟. . بأي شيء أستحق أن تقطعي لي أذني؟؟. وكيف أستطيع أن أسمع صوتك الحلو بعد ذلك) فقالت (ابق اسمع صوت التي كنت تنظر إليها الآن) قلت (مالها؟. . ألا تعجبك؟. ألا ترينها جميلة؟) فعادت إلى القرص، وعدت إلى الصراخ، حتى كدت أستنجد بالمارة. وقد ساء رأي صاحبتي في بعد ذلك، وصارت كلما ركبت معي تشترط ألا أنظر لا يميناً ولا شمالاً، فأقول: (ولكن لماذا؟ ما الضرر من النظر والتلفت؟ ثم كيف أستطيع أن أثبت عيني في اتجاه واحد وقد خلق الله لي عينين تتحركان ولا تثبتان؟) فلا تجيب عن السؤال وإنما تروح تهددني وتتوعدني فأخاف فأن لها قرصاً حامياً وأنا جلدي رقيق. ولكني لا أفهم هذا التحكم من المرأة. وما أكثر ما قلت لإحداهن وقد أغضبها أن لي عيناً ترى وقلباً لا يسعه إلا أن يحس (يا ستي إن لك حديقة زهر. وفيها الفل والياسمين والورد الأحمر والأبيض والنرجس وما لا أدري أيضاً. . وأنتن يا نساء كالزهور. . فلماذا تريدين ألا تكون في حديقتي إلا حواء واحدة؟)
فتقول: (بالله دع هذه الفلسفة السخيفة. . . ثم إني أكره المكايدة)
فأؤكد لها أني لا أقصد إلى المكايدة، وأقول: (نعم أن حواء واحدة مصيبة. . . وثقي أن غلطة أبينا آدم هي أن جنته لم يكن فيها إلا هذه الحواء المفردة. . ولو كان فيها. . سواها. . عشر مثلاً أو عشرون. . لما خرج من الجنة)

(فتثور بي وتذهب وتعدو ورائي فأضع ذيلي بين أسناني وألوذ بالفرا
وما أشك في أن ذات الثوب الأرجواني أسخطها عليّ نظري إلى السمراء. وما تعنيني
السمراء لو علمت. ولكنها المرأة لا تعرف إلا نفسها ولا ترضى عما تسميه (العين
الزائغة) وهي تشعر بالمنافسة من كل امرأة مثلها، ولا تستطيع أن تفسر النظر إلى
امرأة غيرها إلا بأنه تفضيل لهذه الأخرى عليها ولو كانت واثقة من حب بعلها أو رجلها.
كنت مرة أتنزه
في إحدى الحدائق مع صديقة فقالت: (هل نركب زورقاً؟) فاستحسنت هذا الرأي
وانحدرنا إلى الماء واستأجرنا قارباً، وقبل أن نمضي به تناولت ذراعي وهمست في
أذني: (لا تتحرك. . إني لا أكاد أصدق)
فرفعت عيني إليها فألفيتها ناظرة إلى الحديقة التي انحدرنا عنها إلى الماء. وكان
الهواء ساكناً والمنظر الذي أمامنا كأنه مرسوم، وكان لفرط جماله يذكرني بأعذب ما
قرأت من الأغاني. ثم أشارت بيد أحلى من أناشيد سيمان بن داود وقالت: (ليتني
أستطيع أن آخذها!!.) وكأنما قرأت في وجهي استغراب هذا الكلام فقالت (إنها أحلى
لعبة رأيتها في حياتي!)
فقلت مستفسراً (لعبة؟؟ هل قلت لعبة؟؟ أين هي؟)
فصاحت بي وهي تشير بأناملها المغرية (هذا. . هذا. . هذا المنظر. . ألا يروقك؟)
فأدركت مرادها وإن كنت قد بقيت أستغرب عبارتها، وقلت (لا. . ليس هذا لعبة. .
وإنما هو أسطورة. .)
فهزت رأسها كالموافقة ثم وضعت راحتها على كتفي وقالت (إني سعيدة لأني رأيت
هذا)
قلت: (هو أسعد منك. . وما أكثر ما رأى هذا البستان من نساء ولكنه احتاج أن ينتظر
إلى اليوم حتى تروده حواء لها دل الفتاة وقلب الطفل)
قالت: (لا أظن. .) ثم رفعت وجهها إليّ وقالت:
(انتظر. . لا تتحرك. . إني أنظر إلى نفسي في عينيك)
فقلت - وقد أعجبني ذلك: (حسن. . والآن. . لا تتحركي أنت. . فأني أتأمل قوس هذه
الشفة. . .)
فذهبت إلى آخر الزورق وأرسلت لي مع الريح قبلة
وقالت وهي تجلس هناك: (إن الذي يعجبني منك هو هذا. . أنك لا تأخذني على غرة. .
الأكثر في الرجال يعدون المرأة صيداً أو قنصاً. . أما أنت فتشجعني على استعمال
حريتي وعلى الشعور بأن لي استقلالاً وإرادة يجب أن يحسب حسابهما. . وكأني بك
يسرك أن تدع غيرك يحيا حياته على هواه هو، أكثر مما يسرك أن تفوز من دنياك بمتع
حياتك. . والآن ألا نمضي؟؟)
فقلت وأنا اضرب الماء بالمجداف: (إن فيما قلته عني بعض الغلط. . فأنا احب أن
أصحح لك هذا. . وأنا أعترف أني لست وحشاً. . إذا كان هذا ما تعنين. . ولكن نظريات
أفلاطون لا تروقني. . نعم يسرني أن أرى كل إنسان يحيا حياته كما يروقه - ولم لا؟ -
ولكن من أبرز نقط الضعف في نفسي أني أحب أن أحيا أنا أيضاً كما أشتهي)
فدنت مني وأراحت أناملها على كتفي، وأسندت وجهها إلى صدري وقالت وهي
تضحك: (إنك عبيط. . ألست كذلك؟ وهذا هو الذي يحببك إليّ. .)
قلت: (يا ملعونة. .) وأحطتها بذراعي - (ارفعي فمك فإني أريد أن. . أسوي ربطتي في
مرآة عينيك. . .)
وفي هذه اللحظة الحافلة بالاحتمالات خطرت في دائرة نظري فتاة كان لا يسعني إلا
أن أراها. وليس لي في هذا حيلة ولا كان مني عن عمد. ولكنها صارت أمام ناظري،
فأنا لا بد أن أبصرها. وأحست صاحبتي أن عيني تحولت - كما كان لا بد أن يحدث -
فحولت وجهها إلى حيث أنظر فأبصرت الفتاة، فما كان منها إلا أن انتفضت قائمة،
وضربت المجداف من يدي، وصاحت بي:
(. .ارجع بي حالاً. . . إلى البر. . . قبل أن نبعد)
فذهلت وقلت: (ولكن لماذا؟؟. . . إنا لم نبعد إلا خمسة أمتار. . .)
قالت: (ليتنا بعدنا جداً. . . ولكن لا. . . كنت إذن أبقى مغشوشة. . . مخدوعة. . . ارجع.
. . أقول لك ارجع. . .)

ولا حاجة إلى رواية كل ما قالت وما أجبت به، وليثق القارئ أن ريقي نشف كما لم ينشف قط، فقد ثقل عليّ هذا الطبع، وأضجرتني هذه الغيرة السخيفة التي لا محل لها على كل حال. فبعد أن تألفتها من نفرتها ذهبت ألقنها درساً لا أظن أنها ستنساه في حياتها

ولكن أمثال هذه الدروس لا خير فيها ولا جدوى منها؛ وما أظنها إلا كالكتابة على الماء وقد تظهر المرأة مجاراتك ساعة تتلقى الدرس، لأنها ترى هذه المجاراة والتظاهر بالاقتناع والتوبة أحزم وأحسم للنزاع، ولكنها لا تملك أن تغير طبيعتها، فهي تظل على الرغم من دروسك كما هي

وقد أحنقني من ذات الثوب الأرجواني هذا النفور الذي لا داعي له، فغضبت وثرت وانتفضت، فرميت ورقات كانت بيدي؛ وكنت جالساً بحيث أراها وتراني، ويظهر أن ما رأته من خروجي عن طوري المألوف أدهشها جداً، فقد رأيتها تهب وتطل، فِعْلَ من يريد أن يثبت ويتحقق. ومضيت أنا في ثورتي، فجعلت أروح وأجيء في الغرفة، وأقول لنفسي:

(لماذا تحرمُ قبل أن تعطي؟؟ لماذا تبدأ بالمنع ولا تبدأ بالجود؟؟ لماذا تؤثر السوء ولا تؤثر الخير؟ ما هذه الطباع؟ وماذا جنيت أنا؟ إني أراني وهبتها الشعور بحسنها حين أحببتها، ولو أنها لم يحببها أحدٌ لما وسعها أن تدرك أن لها حسناً يعشق وجمالاً يُحب. . . فشعورها بحسنها هو هبةُ وعطية مني، لأني أحببتها. . . فكيف تتيه عليّ وتتدلل، وتحاول أن تعذبني جزاء لي على مجهودي الذي استفادت هي منه ولم أستفد أنا شيئاً؟ أي يد لها عليّ؟؟ أني أراها؟؟ فكل من شاء أن ينظر إلى شرفتها ساعة تكون فيها يستطيع أن يراها مثلي فلا فضل لها في ذلك يحسب عليّ. . ماذا غير ذلك؟ لا شيء. . انتهينا إذن!

وما دامت لا تختصني بشيء فلا حق لها فيما تتكلفه من حرماني. . . لو كانت لم . . تتكلف لما عبأت ولما أحسست أن في الأمر عمداً. . ولكنها عامدة ولست أنوي أن أشايعها على ظلمي. . إذن فأنا أنفر كما تنفر. . . وأحتجب كما تحتجب وليكن ما يكون!)

وبعد أيام عدت أقول لنفسي: (اسمع. . إنها ليست مثلك. أنت تستطيع أن تخرج، وتروح، وتجيء، وتتسلى وتتلهى، ولكنها مسكينة لا تملك ما تملك من الحرية ومن وسائل التعزي. . وما يدريك أنها ليست مضطرة إلى هذا الذي ثقل عليك وكرهته منها؟؟ ولا تنس أنها رقيقة القلب. . أليست قد رأت أنك تشكو ألماً في ذراعك فحدثتك نفسك أن قد بدا لك منها عطف كان له وقع حسن في نفسك

وقد توسطت وخير الأمور الوسط - كما يقولون - فأنا لا أتكلف الاحتجاب ولا أتعمد أو أتحرى أن أراها، وأدع هذا وذاك للمصادفة؛ وسأرى ما يكون. وأخوف ما أخافه أن أمل هذا التعب العقيم فيركبني عفريت العناد وأجازف

إبراهيم عبد القادر المازني

أثر الحرب الكبرى في بريطانيا

للأستاذ رمزي ميور

أستاذ التاريخ الحديث في جامعة منشستر سابقاً

ترجمة الأستاذ محمد بدران

ناظر مدرسة بمباقادن الابتدائية

ليس في العالم كله مجتمع أو طائفة من المجتمعات أثرت الحرب في مصائرها كما أثرت في بريطانيا وما يتجمع حولها ويرتبط بها من الشعوب المؤتلفة المنتشرة في أنحاء العالم

ولقد كانت الحرب الكبرى التي دارت رحاها بين عامي 1914، 1918 هي آخر عراك من أربعة يحدد كل منها فترة من فترات التاريخ اضطلعت بريطانيا فيها بدور حيوي هام هو إنقاذ العالم من سيطرة دولة واحدة، أو نزعة للحضارة واحدة؛ وكان لكل عراك منها أثر بليغ في مركزها هي. فأما العراك الأول فهو حرب إسبانيا أيام الملكة اليصابات، وفيه قهرت ذلك الخصم العنيد، وصانت حرية البحار، وخرجت منه وهي أكبر الدول البحرية، والقادرة على أن تحيا حياتها الخاصة من غير خطر يتهددها، وأن تنشر تجارتها وتبسط سلطانها فيما وراء البحار

وأما في العراك الثاني فهي التي قادت الحلف الذي أذل كبرياء لويس الرابع عشر، ووثقت روابطه وخرجت منه وهي أعظم الأمم التجارية وأولى الأمم ذات الحكومات الديمقراطية، وفتح أمامها باب سيادة العالم الجديد فنالت تلك السيادة قبل أن ينقضي على الحرب نصف قرن. وفي العراك الثالث كانت هي العدو الوحيد الذي لم تقو الثورة الفرنسية ونابليون على هزيمته، وذلك بفضل قوتها البحرية، وخرجت من هذا العراك وهي من غير شك أقوى دول العالم وسيدة البحار بلا منازع، ومالكة الثروة التي أخرجتها وسائل الإنتاج الآلية الحديثة، والمسيطرة على إمبراطورية عظيمة تضم بين أطرافها القارات وأشباه القارات. وكانت كل حرب من هذه الحروب العالمية سبباً في ارتفاع شأن الشعوب البريطانية وزيادة قوتها. فماذا كان أثر الحرب الأخيرة فيها؟ كانت بريطانيا العظمى في خلال القرن التاسع عشر أقوى دول العالم أجمع، لا ينازعها في
ذلك المركز منازع. وكان مرجع قوتها إلى عدة عوامل: أولها عزلتها البحرية التي أمنت بها أخطار الغزو الأجنبي أمناً لم يتمتع به غيرها من الدول الأوربية، ومكنها من أن تُنَمِّي نظم الحكم الذاتي الخاصة بها في أمن واطمئنان، وأن تغرس في نفوس أبنائها حب الهدوء وإطاعة القوانين. وثاني هذه العوامل هو تفوقها البحري الذي لم يكن يسمو إليه غيرها من الدول؛ وبفضل هذا التفوق أمنت بريطانيا على نفسها أكثر مما تأمن على نفسها أمة أخرى في العالم؛ وعظم نفوذها في شواطئ البحار، وأضحت هي الممثلة للحضارة الأوربية لدى معظم الشعوب غير الأوربية. وثالث هذه العوامل هو إمبراطوريتها الواسعة الأرجاء التي تمتلكها بوسائل سهلة، والتي أخلصت لها شعوبها المحكومة، والتي اتخذتها بريطانيا سوقاً لمصنوعاتها، ومستودعاً للمواد الغفل لم تنل مثله غيرها من الأمم. ورابعها تفوقها في وسائل الإنتاج الصناعي الحديثة ووجود مناجم غنية بالفحم سهل الاستخراج كان إلى عهد قريب هو القوة الصناعية الوحيدة في العالم. والعامل الخامس هو ما انطوت عليه صدور أبنائها من حب المغامرة وما طبعوا عليه من قوة الابتكار الفردي. وسادسها هو قوتها المالية التي نشأت من انتشار عادة الادخار والاستثمار بين أبنائها، ومما أنشأته من نظام مصرفي عجيب؛ وقد أصبحت بفضل هذه القوة مركز العالم المالي والدولة الدائنة العظيمة التي مدت العالم بمعظم ما احتاجه من رؤوس الأموال لاستثمار البلاد الجديدة، وبفضل وسائلها ومبتكراتها المالية يتبادل العالم تجارته الدولية. والعامل السابع في عظمة بريطانيا أنها هي وحدها السوق العظيمة الحرة والمستودع المركزي العام الذي تأتي إليه جميع غلات العالم كله ولا يحول بينها وبينه حائل. وكان في مقدورها أن تختط لنفسها هذه الخطة لأنها لا تخشى المنافسة، ولأنها هي المضطرة إلى أن تبيع بضائعها في كل جزء من أجزاء العالم تعلم حق العلم أنها إذا لم تقو على منافسة الدول لها في بلادها فلن تقوى على المنافسة في خارجها. وآخر أسباب هذه العظمة، وإن لم يكن أقلها أهمية، هو نظام حكومتها الحر الذي أعجبت به ونسجت على منواله أمم العالم أجمع، لأنه جمع في نظرها بين الحرية والاستقرار وثبتت بالتجربة صلاحيته، وخضع له جميع رعاياها المخلصين، لأنه يكفل لهم حماية القانون ولا يقيد حريتهم فوق الحد الواجب ولقد كانت السيادة البريطانية في كل ناحية من هذه النواحي سيادة موقوتة لا يمكن أن تكون
لها صفة الدوام، لأن في العالم أمما أخرى لا تقل عن بريطانيا في مواهبها الطبيعية أو مواردها المادية، وكانت ثمة عوامل عدة تعمل على تقويض دعائم هذه السيادة في خلال الجيل السابق للحرب؛ وكانت الحرب نفسها تنذر بزوال سيادة بريطانيا المضمحلة سيادة الزعامة والنفوذ وإحلال سيادة ألمانيا سيادة النظام والقوة محلها. هذا الانقلاب على الأقل لم يقع، ولكن شعباً واحداً لا يستطيع أن يكون له شيء يسمى سيادة في هذا العالم الذي يسير في طريق الحرية، بل لا يحق لشعب أن يرغب في هذه السيادة، ولذلك أخذت سيادة بريطانيا القديمة تزول شيئاً فشيئاً بعد الحرب وبسبب الحرب، وأصبح واجباً عليها أن تكيف نفسها لمركز جديد في العالم؛ ولا شك أنها تلقي في سبيل هذا التكييف نصباً. ولنبحث أولاً فيما اعترى أسباب عظمتها من تطورات:

لم يعد مركز بريطانيا البحري يضمن لها ما كانت تتمتع به من سلامة؛ ذلك بأن التقدم

السريع في وسائل النقل الجوي يعرضها لخطر الغزو بشكل مرعب عرفته أثناء الحرب الكبرى، ونقول بشكل مرعب، لأن مدنها الواسعة المكتظة بالسكان يمكن تدميرها بين عشية وضحاها، ولم تستكشف بعد وسيلة لاتقاء هذا الخطر إلا منع الحروب بتاتاً. وليس هذا كل ما في الأمر، فان اعتمادها في بقائها على ما يأتي إليها من الطعام من وراء البحار يعرضها إلى الخراب العاجل المفزع إذا هاجمت سفنها الغواصات، وذلك خطر ليس في الاستطاعة اتقاؤه إلا بوسائل غاية في البطء والمشقة كما دلت الحرب. فان أهلها كادوا يموتون جوعاً بسبب الغواصات القليلة العدد التي استخدمتها ألمانيا في الحرب. وإذا ما هاجمها في المستقبل أسطول من الغواصات كالذي تمتلكه فرنسا مثلاً كان هذا الهجوم أكثر مفاجأة لها وأشد خطراً عليها، لأن الجزيرة التي كانت من قبل معقلاً منيعاً لأهلها أصبحت الآن شركاً منصوباً لهم. وليس في استطاعة بريطانيا أن تعتمد في سلامتها على مواردها الخاصة كما كانت تعتمد عليها في الأيام الماضية. فإذا أرادت أن تأمن على نفسها فإن عليها أن تُعوِّل على ما يقوم به العالم المتمدين من عمل إجماعي لجعل الحرب مستحيلة الوقوع

ولقد انقضى الآن عهد سيادة بريطانيا البحري انقضاء لا مرَدَّ له بعد أن دام ثلاثة قرون واضطرت بريطانيا في معاهدة واشنجتن (سنة 1922) أن تعترف (بمساواة) الولايات المتحدة لها وهي تعلم علم اليقين أنه إذا قام التنافس في التسلح بينها وبين الولايات المتحدة تغلبت عليها الأخيرة بمواردها التي لا ينضب معينها. وليس هذا كل ما في الأمر فإن الحرب أظهرت أن الأحوال الحاضرة تجعل الاحتفاظ (بسيادة البحار) على الوجه الأكمل من أصعب الأمور. فلقد كان عدد السفائن الألمانية المغيرة التي انطلقت في بداية الحرب أو استطاعت أن تفلت من الحصر في أثنائها صغيراً لا يذكر، ولو لم يكن ساحل ألمانيا غاية في القصر سهل الرقابة لما كان عدد هذه المغيرات قليلاً إلى هذا الحد، ولكنها على قلتها لم يقتنصها إلا مائة وأربعون طراداً. ذكر ذلك اللورد جليكو في المؤتمر البحري المُعْجَل الذي عقد في عام 1927 لكي يتذرع به للاحتفاظ لبريطانيا بسبعين طراداً فقط. أما إذا أرادت أن تضمن لنفسها سيادة البحار في كل الأحوال فلا يكفيها سبعون طراداً بل لابد لها من سبعمائة، فليس في استطاعتها إذن أن تعتمد على مواردها الخاصة لتضمن سلامة البحار، تلك السلامة التي تقف عليها حياتها، بل عليها أن تعتمد على تعاون هيئة عالمية منظمة. وقد يعز على بريطانيا بطبيعة الحال أن تقر بهذه النتيجة، لكنها برغم ذلك نتيجة محتومة لا مناص منها. كانت بريطانيا أكثر الأمم اكتفاء بنفسها - في هذا الميدان على الأقل - أما الآن فقد أصبح موقعها يحتم عليها أن تكون أول داع إلى اعتماد الدول بعضها على بعض إذا قدرت ما يعرضها إليه موقعها من الأخطار.

أما الإمبراطورية فإذا نظرنا إلى أجزائها الرئيسية رأينا أنها لم تبق (إمبراطورية) مهما توسعنا في فهم هذا اللفظ، ولم يبق لبريطانيا (إشراف) عليها، بل أصبحت شركة مفككة الأجزاء من دول حرة تسعى كل منها إلى (الاكتفاء بنفسها) عن طريق الحواجز الجمركية، ولم تبق أسواقها مفتحة الأبواب للبضائع البريطانية. وينطبق هذا الوصف على بلاد الهند التي كانت أعظم الأسواق لتصريف المنسوجات القطنية، وهي أهم الصادرات البريطانية؛ وكان تصميم الهند على الاستغناء عن هذه البضائع قدر استطاعتها من أكبر الأسباب التي أدت إلى كساد هذه الصناعة بعد الحرب. وكان ما اعترى الإمبراطورية البريطانية بعد الحرب من تطور وعدم وجود سياسة عامة منسجمة تحل محل ما كان لبريطانيا من إشراف قد نقص الآن إلى الحد الأدنى. كان ذلك كله من أهم المظاهر التي بدت على هذه الدولة بعد الحرب ولأهميتها سنفرد بحثاً خاصاً فيما بعد

كذلك لم يبق لبريطانيا ما كانت تتمتع به من التفوق في وسائل الإنتاج الصناعي بل أصبح يشاركها في هذا التفوق على الأقل عدد من الأمم الأخرى، وسبقتها الولايات المتحدة وألمانيا في تطبيق العلم على الصناعة تطبيقاً حديثاً. وسبب ذلك أن رجال الأعمال فيها لا يزالون يحتقرون البحث العلمي، وأن بريطانيا تأخرت عن غيرها من الأمم في استخدام النظم الحديثة للإنتاج الكبير وفي تنظيم الصناعة تنظيماً يرمي إلى الوصول إلى أبعد حدود الاقتصاد والإتقان مجتمعين. وهي تقاسي الآن من جراء تأخرها

هذا أوخم العواقب كما تقاسي عناد كثيرين من أصحاب الأعمال فيها وتمسكهم بالقديم الرث وتَشَدُّدهم في الاحتفاظ بكل ما كان صالحاً أيام آبائهم، وتقاسي أيضاً عاقبة عناد نقابات عمالها الكاملة النظام والتي تخلق الصعاب إذا ما أريد تغيير الوسائل الصناعية وخشيت أن يصيب العمال من جراء ذلك التغيير عطل مؤقت، وتتمسك أشد التمسك بالقيود والإجراءات التي كانت تسير عليها في سني الرخاء السابقة للحرب. كذلك لم يبق لبريطانيا ما كان لها من تفوق في امتلاك مصادر القوى الصناعية لأن فحمها الآن يوجد على عمق أكبر من عمق الفحم الجديد الذي يستخرج من الولايات المتحدة وغيرها من البلاد، وقد أبطأت في استخدام أنجع وسائل الإنتاج الكبيرة في صناعة الفحم وفي اتباع الطرق الآلية لتقليل نفقات الإنتاج. وزيادة على ذلك فإن مصادر أخرى للقوة لا تملكها بريطانيا أخذت تحل محل الفحم في كثير من الصناعات، فمنها القوى المائية التي لا تستطيع بريطانيا أن تنافس فيها البلاد ذات المجاري الكثيرة المتدفقة من رؤوس الجبال، ومنها النفط الذي لا تكاد تنتج أرضها منه شيئاً والذي لا بد لها أن تستورده وتنفق على استيراده أموالاً طائلة كل عام ويلوح أيضاً أن ما كان يتصف به أهلها من نشاط وقوة مغامرة بدأ يضمحل وإن كان هذا مما لا يستطاع إثباته بالإحصاءات. وسبب هذا الاضمحلال أن بريطانيا خاضت غمار الحرب معتمدة على نظام التطوع الاختياري؛ ومعنى ذلك أن خير أبنائها وأشدهم حماسة ذهبوا إلى ميدان القتال أولاً وهلكوا زرافات. وقد يكون هذا هو السبب فيما نشاهده بعد الحرب من نقص مخيف في رجالها المُبرِّزين الذين يتقدمون طائعين لتحمل التبعات ومواجهة الصعاب وهو أمر مشاهد في كل ناحية من نواحي الحياة: في السياسة وفي الأعمال الصناعية والتجارية وفي الفنون، فكلها لم يظهر فيها بعد الحرب رجال أوتوا حظاً عظيماً من الشهرة، ولا يزال الأفذاذ النابهون من الإنجليز، رجال ما قبل الحرب. كذلك نرى في طوائف كثيرة من الشعوب البريطانية ميلاً متزايداً للاتكال على الحكومة في إصلاح عيوبها؛ وقد يكون منشأ هذا الميل لدى عامة الشعب ما وضعته الحكومة في السنين الأخيرة من نظم محكمة لتخفيف الضنك أو ما سلكته من الطرق في تنظيم هذه النظم؛ لكننا نشاهد هذه العادة نفسها: عادة الاتكال على الحكومة بين مديري الصناعة الذين يتطلعون إلى الحكومة لتقيهم شر المنافسة الأجنبية مع أن آباءهم كانوا يرون واجباً عليهم أن يقفوا أمام منافسيهم وجهاً لوجه لا يميزون منهم في شيء (شأنهم في ذلك شأن سائر أفراد الأمة) فإذا لم يقووا على المنافسة سقطوا صرعى في الميدان. ويلاحظ البعض أن أخلاق البريطانيين بعد الحرب طرأ عليها تغير خطير، فقد أخذ يسري في نفوسهم روح الجمود والاستسلام والرغبة في الفرار من الصعاب والتخلص منها بالتجائهم إلى الألعاب وغيرها من ضروب الراحة والتسلية. قد تكون هذه الميول عارضة لا تلبث أن تزول، ولكنها مادامت موجودة خطر ينذر بشر مستطير. وإذا صدق هذا الظن وكانت هذه الميول موجودة حقاً فربما كانت رد فعل طبيعي للمجهود الذي قاساه الشعب في الحرب وزوال ما كان يغشي بصائره من الغرور

كذلك كانت الحرب سبباً فيما اعترى قوة بريطانيا المالية بعدها من ضعف مخيف. ذلك إن البلاد حملت من الديون والضرائب ما لم تتحمله أمة أخرى، لأنها مدت حلفائها بجانب عظيم من نفقات الحرب؛ ولم يكد يرد إليها هؤلاء الحلفاء شيئاً من هذه الأموال ولن يردوا إليها شيئاً في المستقبل إلا ما استدانته باسم هؤلاء الحلفاء من الولايات المتحدة الأمريكية. وبينما تعمل الدول الأخرى لتخفيف العبء عن كاهل أهلها تزيد بريطانيا أعبائها بالتدريج؛ وتجيز كلتا الهيئتين السياسيتين القويتين في بريطانيا زيادة الضرائب وتراها أمراً مرغوباً فيه لذاته، فأحدهما تريد زيادة الضرائب المقررة والأخرى ترغب في زيادة الضرائب غير المقررة من غير نظر إلى ما سوف تنفق فيه الأموال. وهذه الأعباء الثقيلة تشل قدرة بريطانيا على الإنتاج من وجوه عدة، وتضعف ملكة الادخار والاستثمار لدى كثير من طبقات الشعب ضعفاً خطيراً. ويزيد من هذا الخطر تمسك الشعب بمستوى معيشته الراقي دون أن يراعي ضعف الوسائل التي تمكنه من ذلك، وهذا أمر مشاهد لدى جميع الطبقات.

ولهذه الأسباب لم تعد بريطانيا كما كانت من قبل الأمة العظيمة الدائنة لأمم العالم والتي تقدم ما يلزم من المال لاستثمار موارده الطبيعية، وأخذت الولايات المتحدة تحل محلها، وتستحوذ على ما لهذا المركز من قوة ونفوذ. كذلك لم يستطع نظامها المصرفي برغم ما اتصف به من ثبات أن يجاري مطالب العهد الذي أعقب الحرب وما فيه من صعاب، فلقد أصبح المسيطرَ على هذا النظام عدد قليل من المؤسسات المالية الضخمة أفقدته كثيراً مما كان له من مرونة، وطالما استخدمت هذه المؤسسات ما لها من سلطان على وسائل الائتمان المالي في إضعاف المشروعات المالية وإعاقتها بدل أن تعينها وتشجعها

(يتبع)

محمد بدران

أعلام الإسلام

سعيد بن المسيب - 3

للأستاذ ناجي الطنطاوي

تزويجه ابنته

قال يحيى بن سعيد: كان لسعيد بن المسيب جليس يقال له عبد الله بن أبي وداعة، فأبطأ عنه أياماً، فسأل عنه فقيل له: إن سعيد بن المسيب سأل عنك، فأتاه وسلم عليه، ثم جلس، فقال له سعيد: أين كانت غيبتك يا أبا محمد؟ فقال: إن أهلي كانت مريضة فمرضتها ثم ماتت فدفنتها. فقال يا عبد الله، أفلا أعلمتنا بمرضها فنعودها، أو بموتها فنشهد جنازتها؟ ثم عزّاه عنها ودعا له ولها، ثم قال: يا عبد الله، تزوج ولا تلق الله وأنت عزب. فقال: يرحمك الله! من يزوجني؟ فوالله ما أملك غير أربعة دراهم. فقال: سبحان الله! أو ليس في أربعة دراهم ما يستعف به الرجل المسلم؟ يا عبد الله! أنا أزوجك ابنتي إن رضيت. قال عبد الله: فسكت استحياء منه وإعظاماً لمكانه. فقال مالك سكت؟ ألعلك سخطت ما عرضنا عليك؟ قال: يرحمك الله! وأين المذهب عنك؟ فوالله إني لأعلم أنك لو شئت زوجتها بأربعة آلاف وأربعة آلاف، قال: قم يا عبد الله فادع لي نفراً من الأنصار، فقمت فدعوت له حلقة من بعض حلق الأنصار، فأشهدهم على النكاح بأربعة دراهم، ثم انقلبنا، فلما صلينا العشاء الآخرة وصرت إلى منزلي، إذا برجل يقرع الباب، فقلت: من هذا؟ فقال: سعيد. فوالله خطر ببالي كل سعيد بالمدينة غير سعيد بن المسيب؛ وذلك انه ما رؤى قط خارجاً من داره إلا إلى جنازة أو إلى المسجد. فقلت مَن سعيد؟ قال: سعيد بن المسيب. فارتعدت فرائضي، وقلت: لعل الشيخ ندم فجاء يستقيلني، فخرجت إليه أجر رجلي وفتحت الباب فإذا بشابة ملتفة بساج، ودواب عليها مذابح؛ وخادم بيضاء؛ فسلم علي ثم قال لي: يا عبد الله هذه زوجتك. فقلت مستحيياً منه: يرحمك الله! كنت أحب أن يتأخر ذلك أياماً. فقال لي: لمَه؟ أولست أخبرتني أن عندك أربعة دراهم؟ قلت: هو كما ذكرت، ولكن كنت أحب أن يتأخر ذلك. قال: إنها إذن عليك لغير ميمونة، وما كان الله ليسألني عن عزبتك الليلة وعندي لك أهل. هذه زوجتك، وهذا متاعكم، وهذه خادم تخدمكم معها ألف درهم نفقة لكم، فخذها يا عبد الله أمانة لك، فوالله إنك لتأخذها صوامة قوامة، عارفة بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاتق الله فيها، ولا يمنعك مكانها مني إن رأيت منها ما تكره أن تحسن أدبها. ثم سلمها إليّ ومضى. قال: فوالله ما رأيت امرأة قط أقرأ لكتاب الله تعالى، ولا أعرف بسنة رسول الله صلى عليه وسلم، ولا أخوف لله عز وجل منها. لقد كانت المسألة المعضلة تعي الفقهاء فأسألها عنها فأجد عندها منها علماً

وروى أنها لما تزوجت، وبكر زوجها خارجاً سألته: أين يذهب؟ فقال لها إلى حلقة أبيك سعيد. قالت له:

اجلس أعلمك علم سعيد!

تقشفه وعبادته

قال ميمون بن مهران: بلغني أن سعيد بن المسيب عمّر أربعين سنة، لم يأت المسجد فيجد أهله قد استقبلوه خارجين منه قد قضوا صلاتهم

وقال ابن حرملة: اشتكى سعيد عينه، فقالوا له: لو خرجت يا أبا محمد إلى العقيق

!فنظرت إلى الخضرة لوجدت ذلك خفة، قال: كيف أصنع بشهود العتمة والصبح؟
وقال عمران: قال سعيد: ما أظلني بيت بالمدينة بعد منزلي، إلا أني آتي ابنة لي
فأسلم عليها أحياناً، (قال): وكان سعيد يكثر الاختلاف إلى السوق
وقال محمد بن سعيد: كان سعيد بن المسيب أيام الحرة في المسجد لم يبايع ولم
يبرح، وكان يصلي معهم الجمعة، ويخرج إلى العيد، وكان الناس يقتتلون وينتهبون وهو
في المسجد لا يبرح إلى الليل. قال: فكنت إذا حانت الصلاة أسمع أذاناً يخرج من قبل
القبر حتى أمن الناس، وما رأيت خيراً من الجماعة
وقال ابن حرملة: قلت لمبرد مولى ابن المسيب: ما صلاة ابن المسيب؟ فأما صلاته
فقد عرفناها. فقال: والله ما أدري، إنه ليصلي صلاة كثيرة، إلا أنه يقرأ بـ (ص والقرآن
ذي الذكر)
وقال عطاء: إن سعيد بن المسيب كان إذا دخل المسجد يوم الجمعة لم يتكلم كلاماً
حتى يفرغ من صلاته، وينصرف الإمام، ثم يصلي ركعات، ثم يقبل على جلسائه ويُسأل
وقال عاصم بن العباس: كان سعيد بن المسيب يذكّر ويخوف
وقال: سمعت سعيد بن المسيب يقرأ القرآن بالليل على راحلته فيكثر
وقال: سمعت سعيد بن المسيب يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم
وقال عمران: كان في رمضان يؤتى بالأشربة في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم
فليس أحد يطمع أن يأتي سعيد بن المسيب بشرابه فيشربه، فان أتى من منزله
بشراب شربه، وان لم يؤت من منزله بشيء لم يشرب شيئاً حتى ينصرف
وقال عبد الله بن يزيد الهذلي: إنه كان يصوم الدهر، ويفطر أيام التشريق بالمدينة.
وكان يقول لنفسه إذا دخل الليل، قومي يا مأوى كل شر، والله لأدعنّك ترجفي رجف
البعير، فكان يصبح وقدماه منتفختان، فيقول لنفسه: بذا أمرت ولذا خلقت
وكان يقول: ما فاتتني فريضة في جماعة منذ أربعين سنة، وما أذن المؤذن منذ ثلاثين
سنة إلا وأنا في المسجد. وصلى الصبح بوضوء العشاء خمسين سنة. وكان يقول: ما
فاتتني تكبيرة الإحرام منذ خمسين سنة
وقال عبد الرحمن بن حرملة: سمعت سعيداً يقول: حججت أربعين حجة
وقال سعيد ما دخل عليّ وقت صلاة إلا وقد أخذت أهبتها ولا دخل عليّ قضاء فرض إلا
وأنا إليه مشتاق
وكان يقول وقد أتت عليه أربع وثمانون سنة: ما شيء أخوف عندي من النساء. فقالوا
يا أبا محمد، إن مثلك لا يريد النساء ولا تريده النساء قال: هو ما أقول لكم
هيبته
قال عبد الرحمن بن حرملة: ما كان إنسان يجترئ عل سعيد ابن المسيب يسأله عن
شيء حتى يستأذنه كما يستأذن الأمير
وقد ذكرنا أن الحرس، عند دخول الوليد المسجد، أخرجوا جميع من في المسجد وبقي
سعيد لم يجترئ أحد منهم أن يخرجه
سماعه الشعر
قال: ابن أبي ربيعة أشعر في الغزل، وابن قيس أكثر أفانين شعر
وقال عاصم: كان يحب أن يسمع الشعر ولا ينشده
وقال الأصمعي: قيل لسعيد بن المسيب: هاهنا قوم نسّاك يعيبون إنشاد الشعر قال:
نسكوا نسكا أعجمياً
وروى صاحب الأغاني عن إبراهيم بن محمد بن عباس المطلبي انه قال:
مر سعيد بن المسيب في بعض أزقة مكة فسمع الأخضر الحربي يتغنى في دار العاص
بن وائل:
تضوع مسكا بطن نعمان إذا مشت ... به زينب في نسوة خفرات
فضرب برجله وقال: هذا والله مما يلذ استماعه، ثم قال:
وليست كأخرى أوسعت جيب درعها ... وأبدت بنان الكف للجمرات
وعلت بنان المسك وحفاً مرجلاً ... على مثل بدر لاح في الظلمات
وقامت تراءى يوم جمع فأفتنت ... برؤيتها من راح من عرفات
قال: فكانوا يروون أن هذا الشعر لسعيد بن المسيب

(البقية في العدد القادم)
ناجي الطنطاوي
قصة المكروب
كيف كشف رجاله
ترجمة الدكتور أحمد زكي
الحصانة واليهودي الأفّاق
- 4 -
وصل الفائت
اكتشف متشنيكوف في بعض الأحياء المائية الصغيرة خلايا تدور في أجسامها فإذا هو حقن في هذه الأحياء صبغة تجمعت تلك الخلايا فأكلت الصبغة. وإذا شك الحيوان بشوكة نهضت تلك الخلايا إليها تدفع السوء الداخل. وأدخل في أجسام تلك الأحياء خمائر قاتلة، فنهضت إليها الخلايا فالتهمتها. عندئذ فسر الحصانة بأنها حرب بين خلايا طليقة في الأجسام كمثل كرات الدم البيضاء وبين المكروبات الداخلة إليها. وأسمى هذه الخلايا فجوسات
اتجه متشنيكوف بعد ذلك يبحث في هذه الحروب هل هي عينها التي تقع في الضفادع والأرانب. وفي عام 1886 وردت أخبار بستور من وراء الحدود تنقل حديث شفائه الروسيّين الستة عشر من عضة الكلب المسعور بعد ضياع الرجاء فيهم، فاهتز أهل أودسا الأخيار لهذه الأخبار، ونهضوا، ونهض معهم أهل الريف الذي حولهم حتى حدود المقاطعة، نهضوا جميعاً يشكرون الله على ما حبا، ويهتفون لبستور على ما أتى، وجمعوا كيساً ضخماً من الروبلات لإقامة معمل يُنشأ توّا في أودسا. وعينوا متشنيكوف مديراً علمياً لهذا المعهد الجديد. ولمَ لا؟ أليس هو الرجل الذي درس في كل جامعات أوربا؟ أليس هو العالم العلاّمة الذي خطب أطباء أودسا فأفاض عليهم من منابع علمه تلك الإفاضة الكبرى؟ أليس هو الذي شرح لهم ما خفي من أمر فَجُوسات الدم التي تأكل المكروب أكلا لمّا؟ ونسوا حيناً أنه يهوديّ!
وكنت إذا تسمعت إلى الناس وجدتهم يقولون: (من يدربنا! فلعل في معهدنا الجديد يستطيع
أستاذنا متشنيكوف أن يدرّب هذه الفجوسات الصغيرة على التهام كل أنواع المكروبات!)
وقَبِل متشنيكوف هذا المنصب الجديد، ولكنه احتاط فقال لرجال السلطة قول الحذر البصير: (أنا رجل أكبر همّه في النظريات، وأبحاثي كثيرة لا يكاد يتسع لها وقتي، وإذن فمن الواجب أن يتدرب غيري على صناعة الألقحة وأن يقوم بالجزء العملي من واجبات المعمل)
ولم يكن في أودسا في ذلك الوقت رجل واحد يعرف عن صيادة المكروب شيئاً. لذلك أرسلوا صديق متشنيكوف الدكتور جَمالَيّة بسرعة إلى باريس إلى معهد بستور. فلما حل فيه صَحِب بستورَ وصحب رو في عملهما وتعلم منهما الشيء الكثير، ولكن هذا الكثير لم يؤذن له ببلوغ الكفاية، فان أهل أودسا قل صبرهم، وزاد قلقهم، واشتدت رغبتهم في الخلاص من الأمراض فصاحوا يطلبون الألقحة، فاضطرت السلطة تحت هذا الضغط العام إلى استدعاء الدكتور جمالية، ولم يكن طال مقامه في باريس. فلما عاد بدأ يصنع لقاحاً لداء الجمرة تخليصاً لشياه الريف، ولقاحا لداء الكلب دفعا له عن أهل المدينة. عندئذ صاح متشنيكوف في الناس: (والآن كل شيء لا بد سائر كما نهوى) وهو يجهل كل الجهل تلك الألاعيب الثقيلة التي تلعبها المكروبات أحيانا على ممارسيها. ثم اعتكف إلى نظرياته يبحث في الأرانب والكلاب والقردة ليرى أفي استطاعة فجوساتها أن تبتلع مكروب السل والحمرة والحمى الراجعة. وانطلقت النشرات العلمية تخرج من معمله في تلاحق سريع، وأخذ بُحّاث أوروبا يتأثرون بكشوفات ذلك الرجل العبقري ببلاد الروس السفلى. ولكنه لم يلبث أن بدت له المصاعب في نظريته، فالكلاب والأرانب والقردة ليست شفافة كبراغيث الماء ثم أخذ الحال يسوء في المعمل، فأخذ الخصام يدب بين رجاله وعلى رأسهم الدكتور جمالية، فاختلطت الألقحة وتلوثت، وانكبت على الأرض من أنابيبها. وجاء أطباء البلد يتسللون وفي قلوبهم بالطبع حفيظة وغيرة من هذا العلاج الجديد، وأخذوا يسألون

الأسئلة المحرجة ليشيعوا شاعة السوء في الناس: (من هذا الأستاذ متشنيكوف؟ ومن أين جاءته الأستاذية وهو لا يحمل شهادة طبيب؟ إنه ليس إلا رجل طبيعي وصياد جراثيم، فمن أين جاءته معرفة الأمراض والوقاية منها؟)
وصاح الناس: (أين العلاج المزعوم؟!) وصاح المزارعون الذين نزلوا بأيديهم عميقاً في أكياسهم طَلَبَ النقود الكثيرة يبذلونها طواعية: (أين الحصانة الموعودة؟). واضطر متشنيكوف إلى الخروج من محرابه ساعة، والبروز من ضباب نظريته وفجوساته حيناً، ليصرف الناس عن شكواهم، وكانت الفئران عاثت في الحقول فأكلت المحاصيل، فبذر في تلك الحقول بشلة كوليرا الدجاج لتقضي على الفئران. ولكن تقريراً خطيراً كاذباً كُتِب من نار ظهر في الجريدة اليومية يتهم متشنيكوف أنه إنما بذر الموت والوبال في الحقول، لأن كوليرا الدجاج تستطيع أن تتحول إلى كوليرا الإنسان. . .!
فضجر متشنيكوف وشكا في خفوت: (ما شأني بهذا الصخب! أنا رجل باحث وأبحاثي متكاثرة عليّ، وأنا رجل ذو نظرية، ونظريتي في حاجة إلى كثير من الهدوء لتشتد وتنمو. . .) وسأل أهل السلطة إجازة فأعطوه إياها، فحزم حقيبته وذهب إلى مؤتمر فينا ليخبر كل من يجد هناك بأمر فجوساته، وليجد لنفسه ركناً هادئاً يستقر فيه ويعمل بعيداً عن الضوضاء، فلا يكون مضطراً لإثبات صحة نظرياته لسلطات قليلة الصبر تطلب خلق العلاجات، ولا يكون مدفوعا لارواء شهوة الفلاحين وتعويضهم عن كل قرش دفعوه بتعجل الأدوية وابتسار الحصانات. ومن فينا ذهب إلى باريس، وفي باريس انتظره نجاح باهر لم ينتظره، فهناك تعرف إلى بستور العظيم، فما إن تَم التعرف حتى انفجر يحدثه عن فجوسته ونظريته فيها، وَوَصَف له المعارك التي تقع بين الفجوسات والمكروبات وصفا بديعا سِمَّاويّا جذابا، وتأمل شيخ المكروب صاحبنا بعين متعبة طميسة أخذت تبرق للذي تسمع حينا بعد حين، فلما انتهى الحديث، قال بستور: (أنا في صفك يا أستاذ متشنيكوف، ذلك لأنه كثيرا ما استوقفتني معارك كالتي تصف كنت ألحظها بين شتى الأحياء المجهرية الدنيئة، وإني لأحسبك سائرا على هدى في الطريق الذي أنت فيه)
لم يكن بين المعارك التي ذكرها بستور وبين تلك التي يصفها متشنيكوف صلة أصلاً، ومع هذا فقد امتلأ قلب متشنيكوف مما سمع سروراً، وامتلأت نفسه زهواً. وكيف لا، وهذا أبو المكروبات الشيخ الأجل استمع له وفهمه ثم آمن به. . . وكان أبو ألجا قد مات وترك لهم دخلاً متواضعاً. وتراءى لمتشنيكوف أن باريس مهد طيب لنظرية الفجوسات إذا هي آزرها معهد ذو جاه كمعهد بستور، فسأل بستور: (سيدي، أود لو يكون لي مكان في
معهدكم، وأنا بهذا إنما أبغي العمل في معملكم على أية صورة وبغير أجر). وأدرك بستور أنه لابد من استبقاء حماسة الجماهير لصيادة المكروب، وأن رجل الشارع لا يفهم من العلم غير تلك الأحداث المهيجة والدرامات المثيرة، فأجاب متشنيكوف عن سؤاله: (أنا لا أقبلك تعمل في معملي فحسب، بل سيكون لك فيه معمل كامل موقوف عليك). وسافر متشنيكوف إلى أودسا، وفي طريقه التقى بكوخ فجَبَهه كوخ واستغلظ له، وأخذ يفكر ويخاير نفسه بين القبول في المعهد الفرنسي والتخلص من قوم لا يفتأون يصرخون يستعجلون النتائج، وبين البقاء في المعمل الروسي والإبقاء على المرتب الطيب الذي يتقاضاه منه. . . وقرر بعد التردد أن يبقى حيث هو من أودسا وواصل عمله فيها، ولكن حدث بعد قليل حَدثٌ لم يترك لنفسه خياراً. ذلك إن الفلاحين زادت شكواهم من القطعان التي تموت بالجمرة وعلت أصواتهم في طلب الألقحة، فأمر متشنيكوف الدكتور جمالية أن يحقن الشياه بلقاح الجمرة جملة واحدة.
وذهب متشنيكوف وزوجته ألجا إلى بيتهم الريفي الصيفي، وذات يوم جاءتهم فيه الرسالة التلغرافية الآتية من الدكتور جمالية:
قَتَل لقاح الجمرة آلافاً من الشياه
فلم تمض أشهر قليلة حتى كان متشنيكوف استقر في معهد بستور الجديد في باريس، وإلى جانبه ألجا - تلك الزوجة الطيبة - التي كانت لا تُقصّر في عمل أي شيء لزوجها لأنه عبقري وعطوف عليها - قامت إلى جانبه تمسك له الحيوان وتغسل له الزجاجات، وهي لو تُركت لنفسها لفضّلت تصوير الزيت أو نحاتة الحجر - فَنَّين جميلين أقرب لمتعتها وأملأ لشهوتها. ومن تلك الساعة مشى الزوجان، يداً في يد، في طريق النصر

من غلبة إلى غلبة، وقد انتثرت على جانبيه من أخطائهما ورود زادت طريقهما روعة وجمالاً
(يتبع)
أحمد زكي
مقاييس الشعر
للأستاذ عبد المتعال الصعيدي
ذكر ابن سلام أنه شهد خَلَفاً وقد قيل له من أشعر الناس؟ فقال: ما ينتهي هذا إلى واحد يجتمع عليه، كما لا يجتمع على أشجع الناس، وأخطب الناس، وأجمل الناس وإذا أردنا أن نبحث عن السبب في تشعب الخلاف في ذلك إلى هذا الحد لم نجده يرجع إلا إلى أن علماء الأدب لم يهتدوا في ذلك إلى مقياس عام للشعر يمكن به وضع كل شاعر في مرتبته التي يستحقها بموجب هذا المقياس العام، ويرجع إليه علماء الأدب فتتفق عليه كلمتهم في ترتيب طبقات الشعراء، أو يقرب الخلاف بينهم في هذا ولا يتشعب ذلك التشعب. وإن عدم اهتدائهم إلى ذلك المقياس العام للشعر ليجعل خلافهم في ترتيب طبقات الشعراء على استفحاله بينهم مما يجدر بالباحث عدم الاعتداد به، لأنه يكاد يكون خلافاً لفظياً لا حقيقياً، إذ لكل فريق وجهة نظر فيمن يقدمونه من الشعراء خلاف وجهة نظر الآخرين كما يقدم أهل البصرة امرأ القيس لسبقه إلى ابتداع أشياء استحسنها العرب واتبعه الشعراء، من استيقاف الصحب وبكاء الأطلال، وتشبيه النساء بالضباء وغير ذلك. وكما يقدم أهل الحجاز زهيراً والنابغة، لأن أهل زهيراً كان أحكم الشعراء شعراً، وأبعدهم من السخف، وأجمعهم لكثير من المعاني في قليل من الألفاظ، وأنه كان لا يعاظل بين الكلام، ولا يتبع حوشيه، وأنه مع بلوغه ما بلغ في المدح لم يمدح أحداً بغير ما هو فيه. ولأن النابغة كان أحسنهم ديباجة شعر، وأكثرهم رونق كلام، وأجزلهم بيتاً، وكأن شعره منثور لا تكلف فيه. وكما يقدم أهل الكوفة الأعشى لأنه كان أكثرهم عروضاً، وأذهبهم في الشعر فنوناً، وأكثرهم طويلة جيدة
وقد قسم علماء الأدب الشعراء تقسيماً يمكن أن يعد من المقاييس العامة للشعر، ولكنه لا يفيدنا في ترتيب طبقات الشعراء الفائدة المطلوبة. فقالوا إن الشعراء أربعة أقسام: شاعر فحل وهو الذي يجيد الشعر ولا يروي لغيره؛ وشاعر خِنْذِيذٌ وهو الذي يجيد الشعر ويروي الجيد من شعر غيره، فهو شاعر وعالم بالشعر. وقد يقال الفحل لما يشمل هذين القسمين فيكون أعم من الخنذيذ؛ وشاعر وسط وهو الذي لا يبلغ رتبة الفحول ولا ينحط شعره إلى الرديء؛ وشُعْرُورٌ أو شويعر وهو الرديء
وقد وضعنا للشعر مقياساً عاماً يتفاضل فيه الشعر باعتبار نبل أغراضه وشرف مقاصده، قبل أن يتفاضل بجماله وألفاظه ومعانيه. ولقد وازنا بهذا المقياس بين امرئ القيس وعدي بن زيد في كتابنا (زعامة الشعر الجاهلي)، وبين أبي العتاهية وبشار وأبي نؤاس فيما كتبناه في مجلة (الرسالة) الغراء عن أبي العتاهية، فخرجنا من هذا بتفضيل عدي بن زيد على امرئ القيس، وتفضيل أبي العتاهية على بشار وأبي نؤاس، وهو أمر لا يمكن أن يخالفنا فيه أحد يوافقنا على صحة هذا المقياس الذي وضعناه للموازنة بين الشعراء؛ وإنها لميزة كبيرة له يظهر فضلها إذا نظرنا فيما روى في ذلك عن خَلَفٍ فيما سبق
ولكن جمهرة أدبائنا لا يوافقون على هذا المقياس الجديد، وينكرونه علينا أشد الإنكار. وهم معذورون في هذا الإنكار أشد العذر، لأن دراسة الأدب قد سارت من نشأتها إلى الآن على خلاف رأينا في هذا المقياس، حتى إن الأصمعي رحمه الله وسامحه كان يقول: إن الشعر لا يقوى إلا في باب الشر، فإذا دخل في الخير لان. وطريق الشعر هو طريق شعر الفحول مثل امرئ القيس وزهير والنابغة من صفات الديار والرحل والهجاء والمديح والتشبيب بالنساء وصفة الحمر والخيل والحروب والافتخار وغير ذلك وقد ذكر قدامة بن جعفر في كتابه (نقد الشعر) رأيا في ذلك أخف من رأي الأصمعي، فهو يرى أن الذي يلزم الشاعر فقط أنه إذا شعر في أي معنى كان من الرفعة والضَّعَة، والرَّفَث والنزاهة، والبذخ والقناعة، والمدح والذم وغير ذلك من المعاني الحميدة أو الذميمة التي يمليها على الشاعر وجدانه، ويوحي إليه شيطانه، أن يتوخى البلوغ من التجويد في ذلك إلى الغاية المطلوبة

وقد حملني ذلك النفور من رأيي في قياس الشعر بأغراضه ومقاصده قبل ألفاظه ومعانيه على تقييد كل ما أجده يؤيده في مطالعاتي، فوصلت في ذلك إلى طائفة صالحة من أقوال الحكماء والشعراء، ولم أقصد من مقالي هذا إلا تقييدها على صفحات مجلة (الرسالة الغراء)

قال الأحوص:

وما الشعر إلا حكمةٌ من مؤلِّفٍ ... لمنطق حقٍّ أو لمنطق باطل

وقال فكتور هوجو: الشاعر مصلح عظيم، ونبي كريم، أرسله الله لقومه هادياً إلى الحرية والحمال والحب

وقال حسان بن ثابت:

وإن أشعر بيت أنت قائله ... بيت يقالُ إذا أنشدتَهُ صَدَقا

وإنما الشعر لُبُّ المرء يعرضه=على البرِّية إن كيْساً وان حُمقَا

وقال معاوية بن أبي سفيان لعبد الرحمن بن الحكم: إنك قد لهجت بالشعر، فإياك والتشبيب بالنساء فتعرّ شريفة، والهجاء فتهجن كريماً، أو تثير لئيما. وإياك والمدح فهو كسب الأنذال، ولكن افخر بمآثر قومك، وقل من الأمثال ما تزين به نفسك، وتؤدب به غيرك، وإن لم تجد من المدح بداً فكن كالملك المرادي حين مدح فجمع في المدح بين نفسه وبين الممدوح فقال:

أحللتُ رَحْلي في بني ثُعَل ... إن الكريم للكريم مَحَلٌّ (؟)

وقال النابغة الشيباني:

وإني حاكمٌ في الشعرُ حكماً ... إذا ذُكرَ القوافي والنَّشِيدُ

فخير الشعر أكرمه رجالاً ... وَشَرَّ الشعر ما نطق العبيد

وقال أيضاً:

من الشعراء أكفاءٌ فحولٌ ... وفَرَّ أُثون أن نطقوا أساءُوا

فهل شعر أن شِعْرُ غِناً وحكمٌ ... وشعرٌ لا نصيح به سواءُ

وقال أبو نؤاس:

الشعر ديوانُ العربْ ... أبداً وعنوانُ الأدبْ

لم أعْدُ فيه مفاخري ... ومديح آبائي النُّجُبْ

ومقطَّعاتٍ رُبَّما ... حلّيت منهنَّ الكتب

لا في المديح ولا الهجا ... ء ولا المجون ولا اللعبْ

ودخل العجاج على عبد الملك بن مروان فقال له: بلغني أنك لا تحسن الهجاء، فقال: يا أمير المؤمنين من قدر على تشييد الأبنية، أمكنه خراب الأخبية، قال: وما يمنعك من ذلك؟ قال إن لنا عزاً يمنعنا من أن نُظلم، وحلما يمنعنا من أن نظلم. قال لكلماتك أحسن من شعرك. فما العز الذي يمنعك من أن تظلم؟ قال الأدب المستطرف، والطبع التالد. قال لقد أصبحت حكيما، قال وما يمنعني من ذلك وأنا نجي أمير المؤمنين؟

وقال أبو العلاء المعري:

مُلَّ المُقَامُ فكم أعاشر أمةً ... أمرت بغير صلاحها أمراؤها

فِرَقاً شعرتُ بأنها لا تقتني ... أدباً وأن شرارها شعراؤها

وقال الفارابي: إن أكثر شعر العرب في النهيم والكريه، وذاك أن النوع الذي يسمونه النسيب إنما هو حث على الفسوق ولذلك ينبغي أن يتجنبه الولدان، ويؤدبوا من أشعارهم بما يحث فيه على الشجاعة والكرم، فأنه ليس تحث العرب في أشعارها على شيء من الفضائل سوى هاتين الفضيلتين، وإنما تتكلم فيهما على طريق الفخر، لأن أكثر شعرهم من شعر المطابقة الذي يصفون به الجمادات كثيراً والحيوان والنبات. وأما اليونانيون فلم يكونوا يقولون أكثر ذلك شعراً إلا وهو موجه نحو الفضيلة والكف عن الرذيلة، وما يفيد أدباً من الآداب، أو معرفة من المعارف

وقال محمود سامي البارودي:

الشعر زَيْنُ المرء ما لم يكن ... وسيلة للمدح والذَّامِ

قد طالما عَزَّ به معشرٌ ... وَرُبَّما أرْرَى بأقوامِ

فاجعله فيما شئت من حكمة ... أو عظة أو حسب نام

وَاهْتِفْ به من قبل تسريحه ... فالسهم منسوب إلى الرامي
ولا شك أن من ينظر في هذه الأقوال والأشعار لهؤلاء الحكماء والشعراء يجدها تتفق تمام الاتفاق مع ذلك القياس الذي وضعناه للشعر ليصلح به أمره، ويحسن في الناس أثره

عبد المتعال الصعيدي

نُجح وإخفاق

للأستاذ فخري أبو السعود

نَلْ ما تُريدُ من الأيام مقتدرا ... وطُفْ بموكبها العَجَّاج منتصرا
وسِرْ حياتَكَ مِن نَصرٍ إلى ظفرٍ ... وقَضِّ في غَزْوِ غاياتِ العُلى العُمُرا
وازدَدْ بنفسك إيماناً إذا وَطَرٌ ... شآك لا تَلحَ إنسانا ولا قَدَرا
واعلمْ بأنك تَرْقي اللجَّ معتليا ... إذا هوَى بك بعضُ اللّجِّ منحدرا
كُنْ - إذْ علمتَ طباعَ الهر كيف جَرَتْ ... وقد علمتَ طباع الخَلْق - مُعْتَبِرا
كم لُمْتُ نفسي على ما فاتَ من أَرَبٍ ... ولم أَلُمْ قَدَراً يوماً ولا بَشَرا
لو كنتُ أبصر بالمسعى خَلصتُ إلى ... مُنايَ ما أبْتُ مِن مَسعَاي مُنكسرا
الدهرُ نِعمَ المُرَبِّي بَثَّ حكمتَهُ ... في كُلِّ ما نَاب من أحداثِهِ وعرا
أكلما لقَّن الإنسانَ تجربةً ... أنحى عليه بِذَمٍ؟ لو دَرَى شَكِرا
ما لائم الدهر إلاّ كالصبي إذا ... مَشى إليه المُرَبي بالعصا جَأرا
من علَّمته رزايا الدهر موعظةً ... فانه قد جَنى أضعافَ ما خَسِرا
-إني - وقد صنتُ نفسي أن يؤدِّبَها ... سوايَ يُلقى إليها الواعظَ والنُّذُرا
أُمسي عليها رقيباً ساهراً يقظاً ... عمري وأضحي حسيباً مغلظا عسِرا
النُّجح يعرفني إن نلت غايته ... لم أَلْف لا قانعا جهلاً ولا أَشِرا
والرُّزءُ يعهدني: إن جل موقعُه ... ألوذُ بالعزم والإيمان مصطبرا
صحبتُ دهري وصاحبتُ الأنام على ... عِلاَّتِهِمْ ولكم أغضى مَنِ اختبرا
كم أَوْلَعتْ بِيَ شرّيرا طَوِيَّتُهُ ... وحدثته بفعل السوءِ فابتدَرا
كان المُسيء فلم أحفل إساءته ... وقد غفرتُ ولم يحلَم ولا غفرا
مَن ليس تقصر دون الأفق هِمَّته ... ولا يُطارح إلا الأنجُمَ السَّمَرا
فكم يبيتُ عن الأضغانِ في شغل ... وكم يمر بأهل الضغن محتقرا

فخري أبو السعود

هرم خوفو

للأستاذ عبد الرحمن شكري

يا موجة للدهر لم تُهْزَمِ ... تعلو عُلُوَّ الجبل الأعظم
وما رأينا قبلها موجة ... تعلو فلا تحدر للمحطم
ما الناس والآثار من بَعْدِهم ... إلا كموج إن علا يُهْزَمِ
موج لبحر ما له ساحل ... إلا الردى في لحده المظلم
كم عند شط الموت شِلْوٍ رَدى ... يقذفه الدهر إلى ضيغم
هل أنت شِلْوٌ لزمان مضى ... رفاته الآثار لم تُرْدَمِ
لم يبق من عمران من قد مضوا ... إلا بقايا الجلد والأعْظُمِ
كأنما يُذْخَرُ من مجدهم ... ما يُذْخَرُ النمل من المَطعمِ
كيف تُرَجِّي الدهر ذا عفة ... إن ذاق طعم اللحم لم يقرم
لا يسمع الدهرَ سوى مُنْصِتٍ ... بالروح إن يُصْغِ له يبكم
همهمة يطلقها عارم ... إن يمضغ المودى به يبغم
هل خاف هذا الدهر صرف الردى ... فشاد صَرْحاً منك لم يُثْلَمِ
لا يجرؤ الموت على بيته ... في هرم كالجبل الأدهمِ
أم شادك العقلَ لكيما يرى ... من فوقك الأقدار لم تهجم
بعيدة لم تَبْدُ أشخاصها ... تهفو لنا في يومها الايومِ
كي يؤْذِنَ الناس بإقبالها ... من قبل أن تفجأ بالمَقْدَمِ
إن أرزم الرعد على شاهق ... ففوقك الأيام كالمرزمِ
أو كللت هَامَته ديمة ... وطفاءُ مثل المِجْسَدِ المسهم
فوقك أرواح عصور خلت ... كديمة سوداء لم تحسمِ

هدت يدُ الدهر مشيدَ البنى ... وهو إذا أمَّكَ كالأجذم
كم أنزل الدهر شآبيبه ... على جبين منك لَم يهرم
كالمزن فوق الزهر يحيا به ... زهر الرُّبى من غيثه المُرْهِم
كأنما روح زمان مضى ... معشش فوقك كالقشعم
يا معبداً يُعْبَد فيه الحجا ... إلى الحجا في صنعه ينتمي
أجلُّ ما تعبد فيه النهى ... سليلها في صنعه المحكم
يا عَلَم الدنيا الذي قد غدا ... عجيبة الغائر والمنْهَمِ
علت بك الأرض كمن قد علا ... برأسه الكبر فلم يُهضم
رفعت رأساً منك ما طاله ... رأس البناء الشامخ الأقوم
كأنما كل البنى سُجَّدٌ ... من هيبة للملك الأعظم
يا ملكا ما انحلَّ سلطانهُ ... قد هُدِمَ الماضي ولم يُهدَم
كم دولة قد ضاع سلطانُها ... ودولة الأهرام لم تهرم
يا غِيَرَ الأيام في كَرِّها ... من أبيض نأمن أو أسحم
تباعَدِي إن شئت أو فاهجمي ... على شبيه البطل المُعْلَمِ
هيهات لم يبدُ له مَقْتَلٌ ... قد أخطأ الرامي فأشْوَى الرَّمي
كم خال فيك الناس سرا طوا ... هـ الدهر لم يُكشَفْ ولم يُعلم
خالوا الأولَى شادوك قد أوعدوا ... فيك رموز المطلب الأكرم
ما أودعوا إلا كنوزاً غدت ... نهبة كف الصائل المجرم
وكل ما لم يَبْدُ كُنهُ له ... يخالُ كنز الحق والمغنم
والمرء يبغي الحق في خدره ... ولو بدا في أعين الأنجم
ورمه خبأها كاهنٌ ... لقَاتِك الآراء والمخذم
رمة رب رائع عزمه ... قد أُخرجَت من بعدُ للمرجم
جلال روح منه ذي همة ... مجسم في صنعه المحكم
لا تحسبنَّ الناس لم يُغنهم ... غير منال البُرْد والمطعم
فالنفس تبغي أن ترى كُنْهَهَا ... مُجَسَّماً في صنعها الأعظم
لم يُصلح الناسَ لِذِي أمرهم ... غيرُ شفيع السيف والدرهم
أظلمهم من ساغ طعم الأذى ... ليس الذي يَظلمُ بالأظْلَمِ
كل ضعيف خيره علة ... من ذا الذي صح فلم يعرم

آية الصبح

بقلم الشاعر عثمان حلمي

غرَّد العصفورُ للصبح فهيا ... يا حبيبي فتَّح الصبح فهيا
آية الصبح تجلَّتْ، قمْ بنا ... قبل أن تطوي بضوء الشمس طيّا
إن نور الله في بهجته ... دلَّنا أن له سراً خفيا
وكأن الكون فيه ملك ... يتغنى نغماً حلواً شجيا
سكَبَ الحسن على جبهته ... ماءه فانتعش العالمُ رِيا
كلُّ شيء ضاحكٌ مبتهجٌ ... بعَثَ الصبحُ موات الكون حيا
فهنا الريحانُ في أوراقه ... ناشراً من روحه روحاً زكيا
وهنا النرجسُ في جلبابه ... لابساً من حسنه ثوباً بهيا
وهنا الوردُ على أغصانه ... خَجِلاً من حسنه الزاهي حَييا
وهنا الطيرُ تُغنِّي لغةً ... فهم الزهر لها معنى خفيا
كلما غرَّدَ منها طائرٌ ... خِلْتُه كان إلى الطير نبيا
وهنا الأشجارُ في خضرتها ... لبست ثوباً من الحسن زهيا
خَلَعَ الصيفُ عليها بُرْدَه ... وحباها ثمراً حلواً جَنيا
رضى الله على الدنيا فما ... تبصرُ العينُ من الدنيا دَنيا
كفُّ جبريل عليها نثرتْ ... من رُبىَ جنته حسناً نديا
من حياة الخلد أو من حسنه ... ما يعيد الميْت في الأنفس حيا
أو مشى يوسفُ فيها طرباً ... وحبا الجوَّ بها عطراً زكيا
وحبا الأنظارَ من طلعته ... ما يُعيد الحب في النفس فتيا
فإذا ما عبث الحبُّ بها ... جعلته مثلاً منه عليا

يا حبيبي سِرْ بنا في روضةٍ ... نروِ منها الطرف إن كان صدِيا
والذي صوَّر في الكونَ لنا ... بيديْ إحسانه حسناً سأويا
والذي نمَّقَ من قدرته ... كلَّ ما ينطقُ بالحق جليا
والذي قلبي ونفسي صُنْعه ... كنت منه أولياً أبديا
والذي سواك من نور الضحى ... بعد أن لم تك في ماضيك شيَّا
والذي أرسلني منكَ إلى ... كلِّ من يشعرُ للحب نبيا
والذي اكسب نفسي نغماً ... باعثاً للحسن في الناس دويا
والذي أبدعَ في صوتك ما ... يملأ السمع به خمراً شهيا
غنِّني شعري وقل في طربٍ ... غرَّدَ العصفورُ للصبح فهيا!
جلَّ من أنشاكَ في صورته ... مثلاً في حسنكَ الزاهي عليا
وحباني الحب حتى ما أرى ... غيرَ حبي كان حبا عبقريا
جلَّ من أرسل منِّي شاعراً ... يتغنى فيك بالشعر شجيا
أنت في شعري جميلٌ خالدٌ ... بعد ما يطوي حياتي الدهر طيا
آه لو تفهمه لم تنسني ... أبدَ الدهر ولو كنت نَسِيا
هاك رتِّله، ففي ترتيله ... ما الباكيَ النفس رضيا
فهو مثلُ الصبح، في آيته ... ما يعيد الأمل الحلو قويا
هاهو الصبحُ، فلولا حسنه ... كانت الدنيا جحيماً أبديا
سطَّر الرحمنُ في صفحته ... نورَه نوراً سماوياً سنيا
وأجاد الله في صنعته ... لم يدع في خلقه للنقص شيا
ليتَ شعري ما عسى جنته ... تلك حيث النفس لا تلقي رديا
طهِّرتْ من نقصنا وأبتهجتْ ... من سناهُ كاملاً فيها جليا
ليتني رضوانُها أو ليتني ... ملَكٌ فيها يظلُّ الدهر حيا
وأرى شخصاً فيها ملكاً ... نتناجى الحب في الخلد سويا
تتناجى حُبَّنا عن كثبٍ ... ويكون الحبُّ حباً أبديا
ونرى الرحمنَ فيها أو نرى ... من يرى الرحمنَ في الخلد هنيا
فهناك المثلُ الأعلى لمن ... عَرف الأدنى من الدنيا قويا
قم إذن نسعَ إلى الروض سويا ... يا حبيبي، فتَّح الصبح فهيا!
لا يطيب العيش لي منفرداً ... أو أرى وحدي جلال الحسن شيا
لو ملكت الخلد وحدي لم أكن ... لا عن النفس ولا عنه رضيا
نزعت نفسي إلى مؤنسها ... أو حبيب اجتلى منه المحيا

(الإسكندرية)

عثمان حلمي

القصص

قصة مصرية

الأعمى. . .

(تتمة ما نشر في العدد الماضي)

بقلم محمود البدوي

بقى الأعمى في المسجد بعد أن فرغ المصلون من صلاة العشاء بساعة، ثم مشى إلى جانب المنبر فتناول عصاه وأم الباب، ولما بلغ عتبته سمع صوت الدلو في البئر، فنصب قامته وأرهف سمعه. . لقد جاءت جميلة على عادتها، ولكنها متأخرة قليلاً هذه الليلة. واستمر واقفاً وسمعه إلى الماء المتقاطر من الدلو كدفعات المطر غب سحاب ورعد؛ ثم انقطع صوت الماء، فأدرك أنها ملأت الجرة، فدفع الباب وخرج، ومضى تحت جدار المسجد خطوات. . . ثم توقف عن سيره وأخذ يفكر. . . ثم ارتد إلى حيث كان، حاثاً الخطى كأنما يسوقه سائق. . . وعطف على البئر وقلبه شديد الخفقان

(جميلة. . .)

(نعم. . .)

(أملأت الجرة؟)

(أجل!)

(وذاهبة إلى البيت؟)

(!أجل)
. . . . . .وكانت الجرة على رأسها، وقد تهيأت للسير، فاستدارت ووقفت
ومد عنقه وقال:
سأروح معك من غرب البلد. . . لأن كلاب الشيخ عبد الكريم عادت من العزبة. . .)
(وهي تقطع عليّ الطريق
(. . . . . .هيا)
ومشيا صامتين والليل ساكن والقرية نائمة، والظلام مخيم؛ حتى أحس بأنفاسه خلصت،
فأدرك أنهما خرجا إلى الخلاء. بعد خطوات سمع حفيف الريح في عيدان الذرة، فأيقن أنهما قربا من الحقول، وسأل وقلبه يرجف:
(أوصلنا بستان الشيخ حسين؟)
(. . . . . .قربنا)
ولم يكن ألف هذه الطريق، وإن يكن يعرف أن هناك قناة صغيرة تمتد بين البستان وحقل الذرة، وعليهما أن يعبراها لينحدرا منها إلى جنوب القرية، ثم إلى حيهما. وكان منذ أن غادر البئر واقعاً تحت تأثير خواطر عاصفة، اشتعل لها رأسه، وجاش صدره؛ فكان يتخلف عنها قليلا ويجعلها تتقدمه خطوات. فهذه هي المرة الأولى التي ينفرد فيها مع امرأة في ظلام الليل وسكونه، على أن تخلفه عنها لم يخفف من حاله، بل على العكس من ذلك، كان يفسح المجال لوضوح رغباته وتركزها وأخذها السبيل عليه، فمضى وراءها والاضطراب يعصف بقلبه وصدره وكيانه، حتى وصلا القناة فدفع لها عصاه، ونزل وراءها في الماء، وغاصت أقدامهما في الوحل، وخرج ينفض رجليه في العشب الممتد على حافة الحقل. وأنزلت هي جرتها وانحنت على الماء تغسل رجليها، ثم انتصبت تصلح ثوبها، وهو واقف خلفها يفتح رئتيه وصدره لهواء المساء العليل، ويحاول أن ينحني عن رأسه عن الخواطر العاصفة التي ألهبت أليافه وهيمنت على كيانه
وواجهته وقالت بصوت ناعم:
(. . . . . .ناولني)
فمد يده إلى الجرة. . . فلمست يدها، فكأنما لامس لهب كاو، فوقف ويده تلاصق يدها ثم أمسك بيدها ورفعها عن الجرة، حتى استطاع أن يقبض عليها بقوة، فمدت وجهها مشدوهة وقالت وصوتها يرتعش:
(. . . . .ناولني)
فرفع يده إلى ذراعها وضغط؛ وقد أحس بألياف لحمه تلتهب
(. . .!.نـ. . . ناولني)
فأبقى يده ضاغطة على ذراعها، وهو واقف يتردد
(ما الذي تريده مني؟)
فلم يقل شيئاً. ثم مال عليها وضمها إلى صدره، وضغط على جسمها فتراخى، وحملها على ذراعيه بسرعة، ودخل بها حقل الذرة. . . . . .
مشت جميلة إلى بيتها خائرة القوى، مرضوضة الجسم، ذاهبة اللب، وقد أسود في نظرها الوجود واحلولكت الدنيا. . . مشت ذاهلة ساهمة لا تحس بشيء مما حولها، ولا تعرف إلى أين هي ذاهبة. . . على أن رجليها كانتا تقودانها، بحكم العادة، إلى بيتها. مشت تحملق في الظلام، وهي والهة مرتاعة ترى بعد كل خطوة شبحاً، وتتصور عند كل قدم حفرة. . . . . لقد فعلتها. . مع من؟ مع سيد الأعمى. . . لقد ساقتها قوة أزلية إلى الهاوية! لقد حملها المقدور الحتم إلى الوحل. . . لقد جرفها التيار فغاصت في الوحل إلى ساقيها
إننا نسير في الطريق مسوقين بقوة أعلى منا وأقوى. قوة جارفة لا نستطيع ردها، ولا نقوى على دفعها، تسوقنا في الظلام إلى المصير الحتم. . . لقد غدت جميلة، فتاة الريف العفيفة الطاهرة، المرأة الدنسة القذرة التي غاصت بقدميها في الوحل. . . سيظل الوحل عالقاً بها دائماً، وإن غسلت رجليها صباح كل يوم ومساءه، سيظل الوحل عالقاً بها أبداً
ستذكر دائماً إن قوة خفية ساقتها، بمحض إرادتها، إلى الوحل، قوة أعلى منها لا

تستطيع فهمها ولا تحاول فهمها ولا تعليلها. هذه القوة الخفية الأزلية تعمل دائماً من وراء الحجب، تعمل أبداً من وراء الغيب، وتسوقنا إلى المصير المحتوم
ستذكر جميلة، الفتاة الريفية الجميلة المزهوة، أن قوة خفية ساقتها إلى البئر، لتقودها إلى الأعمى، ولتجرفها إلى الحقل
لا لذة ولا متعة، ولا إحساس بشيء من هذا كله، ولكنها استسلمت ورضيت، لأنه حكم عليها بأن تستسلم وترضى
لا إحساس بنشوة، ولا شعور بمتعة، وإنما مر كل شيء كالعاصفة الهوجاء وهي تلف كل شيء لفاً
لما فتحت عينيها على الدنيا الرحيبة الباسمة، من قبل، كان كل شيء قد تغير؛ كل شيء قد تغضن واربد وعلته غشاوات، ولفه السواد في جلبابه، وطوته العاصفة الرعناء في طياتها؛ كل شيء قد انمحى من باصرتها ومات وذهب مع العاصفة، وبقيت ظلمات يأخذ بعضها برقاب بعض. . . . وعليها أن تسير في جوف الظلام وتمضي
ستطلع شمس الصباح الجميلة على القرية الوادعة، وستقابل القرويات، وستتحدث وتبتسم وتضحك، ولكن بأي وجه؟ وأي لسان؟؟ وستقابل الزوج، عندما يطلع النور؛ ستواجه زوجها وتقف أمامه؛ ولكنه لن يعرف شيئاً، ولن تعرف النسوة شيئاً، ولكنها مع هذا ستشعر بالخجل، وتغض الطرف وتنكس الرأس، وهي الجميلة المزهوة التي تعلو على أقرانها ولداتها
ستسير في القرية مطأطئة الرأس، خافضة الطرف، لا تستطيع أن تقابل نظرة امرأة بمثلها. . . ستفعل ذلك ما دام الإحساس بالجريمة يلازمها؛ وإذا ما بارحها هذا الإحساس ستنسى، ولكنها لن تستطيع أن تنسى كل شيء. ستذكر دائماً أنها فعلت ذلك بمحض إرادتها، وكان عليها أن تقاوم وتمزق الثوب وتشق الجيب، وتملأ الدنيا صياحا. إنها لم تأخذ شيئا، لم تأخذ شيئا مطلقاً، وأخذ الرجل كل شيء!
ولن تذهب إلى البئر بعد اليوم، لا في الصباح الباكر، ولا في الليل الزاحف؛ لا وحيدة ولا برفقة أحد، كل ما توده الآن هو أن تنسى، هو أن تحاول أن تنسى. كل شيء في الحياة يتغير في ساعة، يتغير في ساعة أزلية مسطورة في صفحة حياتنا. لقد غدت الفتاة المشرقة الضاحكة الناضرة، المرأة المشوهة المنكسرة الواجمة. . . بعد ساعة مرت كالعاصفة
فتاة الريف لا تزال بخلقها البكر، لا يزال ضميرها حياً، لم تخدره بهارج المدنية الكاذبة، إنها لا تزال ترى الأشياء على حقيقتها. لا تزال بطبعها البكر طاهرة نقية قوية الإيمان عفيفة الأزار. . . . تستهول الجريمة الجنسية، وتستفظع الخيانة الزوجية، وترجف حتى من التفكير فيها، هكذا شعورها بفطرته، تعرف من غير معلم ولا مدرسة أنها خلقت لرجل واحد ليس إلا. رجل واحد يأخذ منها قلبها وجسمها، ويستغرق تفكيرها ووجودها. وتدفعها فطرتها إلى أن تكون له أبداً. أما إذا زلت قدمها، وجرفها التيار إلى الوحل مرة! فما الذي تفعله؟ تحاول بكل ما تستطيع من قوة أن تنسى. . . لأنها لو ذكرت ربما عاودتها مع الذكرى أشياء لا تحبها ولا تود التفكير فيها
ولما أشرفت على الجسر الذي ستنحدر منه إلى حيها راعها نباح الكلاب الشديد! إنها لم تنبح بمثل هذه الشدة مطلقاً؛ إنها تطارد في ظلام الليل أشباحاً مخيفة تروعها. وأحست بوخز الإبر في جسمها. أخذ جسمها يرتعش، ومع الرعشة برودة الثلج. فمالت إلى جدار
قائم في الطريق واعتمدت عليه دقائق. ولما رجعت إليها بعض قوتها استأنفت سيرها، وتقدمت تسحب رجليها سحبا، وقد آب لها بعض حسها؛ على أن جسمها كان يشوكه مثل الشوك دائما. وأخذت عينها الترعة، وماؤها يتدافع ويجري. وقد تراقصت الصور في مخيلتها واختلطت. بعد خطوات ستصل المنزل وتلاقي زوجها. وحدقت في الماء وهو يجري متدفقا منطلقا كالسهم، لا شيء يقف في طريقه، يجرف معه دقيق الحصى والتراب، ويحمل على متنه خفيف الريش، لقد حملها التيار، إلى أين ذاهبة؟ إلى أين ذاهبة؟
ما الذي سيحدث لو علم زوجها؟ سيذبحها كما يذبح الفروج. ليس أيسر على الريفي من ذلك في سبيل عرضه وشرفه، وهو ثروته الباقية على الأيام. ماذا يحدث لو علم لداتها؟؛ ما الذي سيحدث لو علم أقرانها اللواتي تزهي عليهن بجمالها وتشمخ؟

سيمزقنها بألسنتهن، وستغدو حديثهن في كل سمر، ومتعتهن في كل مجلس. ما الذي سيحدث لو علم أهلها؟ أخوها أقوى شباب القرية سيدفنها حية كما دفنت ناعسة ومبروكة وعزيزة من فتيات القرية التي حامت حولهن الشبهات، وعفى عليهن الآن ذيل النسيان فلا يستطيع أحد أن يذكرهن لأن في الذكرى جريمة. . . حتى ذكراهن عند القروي جريمة

ونزلت من الجسر إلى الدرب الذي في نهايته منزلها، ومشت مستريحة إلى الظلام المتكاثف. كل ما توده الآن هو أن تسير في جوف الظلام متقية به أعين الناس. لقد مشت على الجسر راجفة مروعة تخاف أن يبصرها خفير الدرك، ولكنها الآن في جوف الظلام آمن وأسلم

وتقدمت في الدرب متخاذلة متثاقلة تحس الأرض تنشق تحتها، تصعد أكوام الرماد الملقاة عند أبواب المنازل وتهبط معها وهي تتصور أنها ترقي تل الصحراء. ولما بلغت باب البيت وقفت لحظات. . . ثم تجاسرت ودفعته

كان زوجها نائما على السطح فانتبه على حركة الباب، وصاح بصوت جاف:

(. . .تأخرت يا جميلة)

وكان صوت زوجها يرعد. أواه ظنته نائما فإذا بعينه ساهرة، فلم تجب، وغضت رأسها ووقفت في صحن البيت جامدة. ولو بصر بها زوجها لرأى أغرب صورة. ولم ينتظر جوابها فصمت، ثم قالت بعد مدة:

(. . .اسقي البقرة واعلفيها)

ومضت فترة قصيرة سمع بعدهابكاء عالياً، فسأل بغضب وقسوة، فأسخف ما في نظر القروي بكاء امرأة:

(ما الذي جرى؟)

فلم ترد. . . وزاد نحيبها

(ما الذي جرى؟)

وأنتصب وأطل من صحن البيت

(ما الذي جرى؟)

(. . .الجـ. . . الجر. . . الجرة. . . آه. . . أهئ)

(كسرت؟)

(أجل. . . آه. . . أهئ)

(!وهي تستحق كل هذا البكاء؟. . . . كفى)

(. . .آه. . . أهئ. . . آه)

بصوت راعد (. . .كفى)

!فحبست زفراتها وغيضت عبراتها ودفنت وجهها في حجرها ونام الزوج وغط

زحف الأعمى إلى المسجد قبل الفجر، وهو متخاذل الجسم متسعر الجمجمة. وكانت قد ساورته في الليلة التي خلت حمى شديدة تصبب لها عرق يملأ القرب؛ وبات يتقلب على مثل الشوك ويود من فرط الحمى المتأججة في جسمه من يقذف به إلى اليم. بيد أنه تحامل على نفسه لما لاح النور ومشى إلى المسجد متوكئا على عصاه، فما من الأذان بد. أجل ما من الأذان بد! كيف يغفل عن أذان الفجر!

وصعد إلى سطح المسجد ووقف ناصباً قامته ماداً عنقه، ويده على الساعة يتحسس بها العقرب، حتى حان وقت الفجر فوضع يده عند أذنه وانطلق. . .!! ولكن ما هذا؟ ما الذي جرى؟ لقد اختنق صوته واحتبس، وأصبحت الحروف تخرج من حنجرته مصفرة عاوية عواء الذئب. ما الذي حدث؟ ما الذي جرى؟ حاول مرة ثانية فأخفق، وتمهل لحظة؛ وحاول مرة ثالثة، فأخفق أيضاً؛ وهبط إلى صحن المسجد، وهو يهتز اهتزاز القصبة الجوفاء في

مهب الريح العاصف، وتقدم حتى وقف على رأس رجل نائم

(!. .يا شيخ علي. . . شيخ علي)

(. . .نعم)

(. . .قم أذن الفجر. . . فصوتي لا يطاوعني اليوم. . . أصابني البارحة برد شديد)

وبارح المسجد قبل طلوع الشمس، وسار على الجسر حتى بلغ الحقول المجاورة. وكان قد نال منه التعب، وبلغ منه الجهد، فاستراح تحت شجرة من شجر السنط،

وضربه هواء الصباح على إذنه فنام حتى القيلولة. وقام وقد حميت الشمس، وتوقدت الهاجرة، وانقلب الهواء راكداً خانقاً يلفح الوجوه بوهج السعير، واستوى على قدميه وأمسك بعصاه، واتجه إلى القرية، وكل شيء فيها ساكن وادع إلا الأطفال الذين لا يقيمون وزناً ولا يبالون بحر أو برد

(!أحمد. . . سيد الأعمى)

(. . .صحيح؟)

(. . .والنبي)

وتجمع الصبية على الجسر، ووقفوا صامتين وعلى شفاههم بسمات خفيفة، حتى جاوزهم الأعمى، وهو يسير سيره المألوف. ولما بعد عنهم قليلاً، رماه أصغرهم بحصاة استقرت عند صدغه. ما هذا؟ لقد أصابته للمرة الأولى أول رمية اصغر صبي! ما الذي جرى؟ وانهالوا عليه بعد ذلك يداً واحدة حتى مطروه وابلاً من الحصى والحجارة. فاستدار لهم الرجل وقد تميز غيظاً، ولوح بعصاه يهدد ويتوعد، فتفرقوا عنه وأستأنف سيره بعد برهة قليلة، واستأنفوا هم بدورهم حصاهم وحجارتهم. فما أقل الصبر عند الأطفال! وأصابه حجر في الجانب الأيسر من صدغه فشجه وسال الدم، وآلمه الجرح جداً حتى خرج به عن رشده، فدار على عقبيه وجرى وراء الصبية يضرب بعصاه يميناً وشمالاً، ولا يبالي أين تقع وتصيب، وهو مخبول تماماً، حتى أصابت ضربة قوية صبياً في رأسه فجرحته جرحاً بليغاً، ونزا دمه الأحمر فلطخ وجهه؛ وكان الكلب رابضاً على الجسر في ظل جدار لمنزل خرب، وعينه إلى المعركة التي حميت واشتدت، فقام ينفض جسمه نفض الليث، وتوثب وثبات جامحة، ثم دار دورات سريعة يقذف في خلالها الهواء بغبار رجليه، ثم انقض

الرجل فمزق الجزء الأمامي من ثوبه! وطار به، والصبية يبصرون هذا ولا يكادون يصدقون، وشجعهم الكلب على معاودة الكرة على الرجل فانهالوا عليه، وقد حموا ونشطوا، يرجمونه بالحصى والحجارة، حتى انطلق الرجل يسابق الريح. وما زالوا يتبعونه حتى أجلوه عن القرية. ولما كلت سواعدهم رجعوا إلى القرية ضاحكين.

وانطلق هو يجري كالمخبول لا يلوى على شيء

وبصر القرويون في صباح اليوم التالي وهم في الطريق إلى سوق (المركز) بجثة ملقاة على قارعة الطريق، فمنهم من قال إنها لسيد أعمى؛ ومنهم من أنكر ذلك على أن الذي نحن على يقين منه أن الرجل لم يدخل مسجد القرية بعد ذلك أبداً

محمود البدوي

البريد الأدبي

حول البناء الحر (الماسونية)

وجه إلى الأستاذ (ع) من دمشق على صفحات (الرسالة) كلمة يعلق فيها على عبارة لي وردت عرضاً في مقالي عن (البارون فون أوفنباخ) (الرسالة عدد 141) بشأن (البناء الحر) (الماسونية) وغاياته

وما قلته يومئذ من أن البناء الحر إنما هو حركة من حركات الخفاء العالمية وأنه يعمل منذ الأحقاب لغايات بعيدة المدى، لا تدركها المحافل الصغيرة، ولا المراتب الدنيا، خلاصتها هدم النظم والعقائد القائمة كلها، وإدماج الإنسانية في مجتمع عام حر التفكير تسوده المساواة الاجتماعية المطلقة، هو أرجح الآراء التي انتهى إليها البحث الحديث في شأن البناء الحر وغاياته

وقد ذهب بعض أكابر الباحثين إلى أن حركة البناء الحر ليست إلا وجهاً من وجوه (الثورة العالمية) التي تسعى لإحداثها حركات هدامة كالشيوعية وغيرها

وقد كان البناء الحر وراء معظم الحركات الثورية في العصر الأخير، ولا سيما في إسبانيا والبرتغال وإيطاليا وبلجيكا

بل ذهب بعض الباحثين، ومنهم المؤرخ الفرنسي الكبير أولار، إلى أن الثورة الفرنسية ربما لم تكن في جوهرها سوى مؤامرة دبرها البناء الحر، وحاول أن يصل بإضرامها إلى تحقيق غاياته

وكنت أود أن أزيد السائل الأديب بياناً، ولكن يحول دون ذلك اعتلال صحة وأهبة عاجلة للسفر إلى الأندلس

بيد أني أحيله على بحث مستفيض عن البناء الحر وتاريخه ونظمه وغاياته ووسائله

نشرته منذ أعوام في كتابي (تاريخ الجمعيات السرية) (ص87 - 115)
م. ع. ع
كتاب عن برلين
ظهر في العهد الأخير نوع جديد من الأدب الوصفي هو دراسة العواصم الكبرى باعتبارها
أكمل مظهر لمختلف الشعوب والأمم؛ وبلغ هذا الضرب الجديد من الأدب روعته على يد كتاب عظام مثل بول موران، الذي تعتبر كتبه عن لندن، ونيويورك، وبخارست من أبدع آثار الأدب المعاصر. وقد ظهر أخيراً كتاب من هذا النوع عن مدينة برلين بقلم الكاتب والمؤرخ المعروف هنري بيدو، وهو يصور لنا برلين كمارد فخم يجثم في وهاد براندنبورج وفيما بين الغابات والمستنقعات؛ وقد لوحظ كثيراً أن برلين ليست كباقي العواصم الأوربية الكبرى من حيث مناسبة موقعها وكونها تعبر عن مظهر لألمانيا الحقيقي فهي من حيث الموقع لا تضارع رومة التي تقع في وسط إيطاليا وتشرف على البحر الأبيض، وباريس التي تعتبر كأنها عجلة الإدارة الفرنسية، وموسكو التي تجتمع حولها موارد روسيا الشاسعة، ولندن ونيويورك وغيرها؛ ثم هي لا تعبر عن مظهر ألمانيا، أولاً لأن العنصر السلافي يغلب فيها فهي ليست مدينة ألمانية حقة مثل ميونيخ أو لايبزج أو فرنكفورت، وثانياً لأنها تبدو دائماً كأنها عاصمة مفروضة على ألمانيا، فرفضها آل هوهنزلرن رمزاً لقوة بروسيا، ثم فرضتها الظروف بعد ذلك؛ وحياتها الاجتماعية كمدينة عظيمة تكاد تكون معدومة ذلك لأنها تبدو دائماً كمعسكر، تغلب عليه المظاهر الآلية والخشنة، فالحياة المعنوية والاجتماعية فيها راكدة لا تروق الأذهان الحساسة الرفيعة. ولقد كانت ألمانيا تقدر منذ بعيد أن برلين الحديثة سيبلغ سكانها في فترة وجيزة 12 مليوناً من الأنفس، ولكن برلين لم تبلغ مع الجهد ثلث هذا الرقم، وهو دليل آخر على ركودها المعنوي والمادي
هذه هي الصورة التي يقدمها إلينا هنري بيدو عن العاصمة الألمانية، وهي صورة لا تغبط عليها مثل هذه العاصمة الكبرى
جورج دوهامل عضو الأكاديمية
وأخيراً انتظم جورج دوهامل بين أعضاء الأكاديمية الفرنسية وأصبح من الخالدين. وجورج دوهامل كاتب من أعظم كتاب فرنسا المعاصرين، وكاتب اجتماعي وأنساني قبل كل شيء؛ وقد اشتهر بعدة من آثاره القيمة وبالأخص بكتابين هما (حياة الشهداء) و (اعتراف منتصف الليل)
وزار دوهامل مصر أكثر من مرة، في شتاء سنة 1929 وفي صيف سنة 1934؛ ولم يكتب دوهامل عن مصر ولم يصفها كما يفعل زملاءه الذين يزرونها؛ ولكن يؤثر عنه بأنه وصف مصر بأنها (الأرض التي يسود فيها منذ الآماد عشق الحياة الأخرى) وقد تأثر دوهامل أيما تأثير مما رأى من آثار الفراعنة التي تتجسم فيها فكرة الخلود والأبدية ودوهامل يكتب بأسلوب رائع وبيان قوي؛ وتطبع كتاباته كلها نزعة إلى الإنسانية وإلى التسامح العام
ولم يكن دوهامل يوما من الساعين إلى الدخول في الأكاديمية ولكنه حينما رشح وأنتخب لهذا الكرسي الرفيع لم يسعه إلا أن يتبوأه مغتبطا
بعثة جديدة إلى الأرض الخضراء
سافرت أخيراً إلى الأرض الخضراء (جرينلند) بعثة علمية فرنسية، لتقوم بقطع هذه الجزيرة القطبية الشاسعة من الغرب إلى الشرق؛ وهي مؤلفة من الدكتور جيسان، وميشيل بيريه، والكونت كوند، ورئيسها بول أميل فكتور. ومن أهم أغراض البعثة أن تقوم بإسعاف السكان الذين يقطنون هذه الصحاري الثلجية والذين تفتك بهم (الأنفلونزا) في الوقت الحاضر فتكا ذريعاً
وقد سبق لرئيس هذه البعثة، وهو بول فكتور أن قام برحلة كبيرة إلى الأرض الخضراء، وسلخ عاما في مدينة انجمسالك في شرقي الجزيرة، وهو يعيش عيشة أهلها الصيادين ويقلدهم في جميع عاداتهم وأحوالهم الخشنة
وقد حالت تلال الثلوج دون سير السفينة (بوركوا) القطبية، فاضطرت البعثة أن تحاول الوصول إلى أنجمسالك من طريق اليابسة
ومن أغراض البعثة العلمية أن تقوم بتحقيق ملاحظات العلامة المكتشف فنجر الذي

قام سنة 1930 بسبر غور أعماق الطبقة الثلجية التي تغطي الجزيرة كلها، وإن تكرر تجاربه من نسف الثلوج بالديناميت، وقياس سرعة تغلغل الديناميت ليستدل بها على الأغوار؛ وقد ثبت من تجارب العلامة فنجر أن أعماق الطبقة الثلجية تتراوح بين 2000 و 2700 متر؛ وتنوي البعثة أيضاً أن تقوم ببعض دراسات أقليمية، وأن تدرس طبائع السكان وأحوالهم الجنسية

رحلة إلى الأندلس

اعتزم صديقنا الكاتب المؤرخ الأستاذ محمد عبد الله عنان أن يقوم هذا الصيف برحلة جامعة إلى إسبانيا، يدرس خلالها جميع المراجع والمخطوطات العربية في مكاتب الأسكوريال ومدريد وغرناطة ودير ساكرومونتي، وجميع الآثار والنقوش العربية في مختلف المتاحف الإسبانية؛ ويتجول في ربوع الأندلس وقواعدها القديمة مثل طليطلة وقرطبة واشبيلية وغرناطة ومالقة وبلنسية وغيرها؛ فيشاهد ما بها من الآثار العربية، ويدرس في الطبيعة معالم الوقائع والأحداث التاريخية الشهيرة

ويقوم الأستاذ بهذه الدراسة استكمالاً لمواد كتابه الذي يضعه عن تاريخ الأندلس، والذي توفر منذ أعوام على وضع منهجه وإعداد مواده

بناة العالم لاشتيفان زفايج

نعرف أن للكاتب النمسوي الكبير اشتيفان زفايج عدة دراسات نقدية هامة عن طائفة من أقطاب التفكير والكتابة، صدرت من قبل تحت عناوين مختلفة، فمثلاً صدرت الدراسات الخاصة ببلزاك ودكنز ودستوديفسكي تحت عنوان (الأساتذة الثلاثة)، وصدرت تراجم هلدرلن وكلايست ونيتشه تحت عنوان (النضال مع الشيطان)، وكازانوفا وشتندال وتولستوي تحت عنوان (شعراء ثلاثة لحياتهم)

وقد صدرت أخيراً طبعة ألمانيا جامعة لهذه الدراسات الشهيرة تحت عنوان جديد هو (بناة العالم) - وصدرت عن مطبعة ريختر النمسوية الشهيرة في ثوب أنيق جداً والمعروف أيضاً أن هناك تراجم فرنسية وإنكليزية لهذه الدراسات القيمة ظهرت متفرقة ومجتمعة

ويقيم اشتيفان زفايج معظم شهور السنة في مدينة سالزبورج الشهيرة بفنونها الموسيقية والغنائية، ويقضي باقي الوقت في مدينة فينا

رحلات أفريقية

صدر أخيراً بالإنكليزية سفر من أسفار الرحلات الممتعة عنوانه (فجر الاستواء) بقلم الكاتبة والرحالة الإنكليزية الشهيرة السيدة دروثي أونا راتكليف (أو مسز ماك كريجور فلبس)، والسيدة راتكليف شاعرة غنائية رقيقة ولها ديوان شعر ممتع تترنم فيه بمحاسن

موطنها ومهد طفولتها (يوركشير). وهي رحالة كثيرة الأسفار، تجولت كثيراً في قلب أفريقية، وفي أعماق وهادها وغاباتها؛ وقد أصدرت من قبل كتاباً عن بعض رحلاتها الأفريقية عنوانه (صيف في جنوب أفريقية) وفي كتابها الحالي تصف رحلاتها برفقة زوجها وجماعة من الأصدقاء الرحل في كنيا وأوغندا وتنجانيقا، والكونغو، والسودان والنوبة؛ وقد كانت غاية هذه الجماعة المخاطرة أن تقوم باقتناص الوحوش الضارية في أعماق الغابات والوهاد الخطرة، وأن تصور مناظر الصيد تصويراً طبيعياً دقيقاً، وأن تدرس طبائع الوحوش وحياتها من الوجهة العلمية. وقد استطاعت البعثة أن تصور مناظر الوحوش من آساد وفيلة وسباع البحر، والطيور تصويراً بديعاً؛ واستطاعت أيضاً أن تجوس خلال القبائل الزنجية العارية وأن تدرس أحوالها وطباعها. وقد لقيت السيدة راتكليف ورفاقها كثيراً من المخاطرات والحوادث المشجية والفكهة معاً، فدونتها كما وقعت بأسلوب ساحر. وفي الكونغو استطاعت البعثة أن تقوم بالصيد والدرس في (بستان الكونغو) وهو أعظم حظيرة لصيد الضواري في العالم وتشرف عليه سلطات الكونغو البلجيكية؛ وتصف المؤلفة إدارة الكونغو البلجيكية، وتصف حياة السكان، والبعثات الدينية والمهاجرين القلائل في حياتهم الساذجة الشاقة، وتصف لنا التماسيح المقدسة في بحيرة فكتوريا، وما حول هذه الوهاد من المناظر الطبيعية الرائعة، وما يعمرها من عالم الحيوان والإنسان. والخلاصة أنها تقدم إلينا صوراً حية بديعة من الحياة الأفريقية في أروع وأعجب أشكالها، وكتابها ممتع خلاب، يعتبر بمحتوياته وأسلوبه من كتب الرحلات الرفيعة

تدريب الكلاب على السير
يبدي الإنكليز عناية كبيرة بالحيوان ورفاهته والمحافظة على حياته؛ ومن ذلك الكلاب؛ فإنها تلقي كثيراً من الرفق والعناية وقد لوحظ أخيراً في إنكلترا أن عدداً عظيماً من الكلاب يقتل كل عام بسبب حوادث السيارات وغيرها في الطرق العامة، فارتفعت الأصوات بوجوب العمل على حماية هذه الحيوانات، وقضت المحاكم في كثير من القضايا التي رفعها أصحاب الكلاب المقتولة على أصحاب السيارات بتعويضات كبيرة؛ وأخيراً رؤى أيضاً أن التعويض لا يكفي لتعزية أصحاب الكلاب العزيزة، فرؤى تقليلاً للخطر أن تدرب الكلاب نفسها على السير في الطرق العامة كما يدرب الأشخاص وقد أجريت أخيراً تجارب عديدة في هذا الباب، وقام نادي (تيل واجرز) بدعوة واسعة النطاق لتدريب الكلاب وتعويدها الطاعة وفهم الإشارات المختلفة؛ وأسفرت التجارب التي أجريت على بعض الكلاب بدفعها في الطرق وأمرها بالسير في اتجاهات وأوضاع معينة عن نتائج حسنة، وأمكن لهذه الكلاب أن تتجنب كثيراً من السيارات والعربات الثقيلة في مآزق حرجة

من هنا ومن هناك

دانتي والكوميدية الإلهية

حينما بعثت رسالة الغفران لشاعرنا العظيم أبي العلاء كثر الجدل بين الأدباء حول الأصل الذي استقى منه دانتي أليجيري صوره الرائعة التي حشدها في كوميديته، وكاد الجميع يجزمون أن ذلك الأصل هو رسالة الغفران، وأيدهم في ذلك مستشرقون كثيرون حتى كادت المسألة تعتبر مفروغاً منها وأن دانتي إن هو إلا عالة على أبي العلاء. . . ثم قام أديب مسيحي فاضل فنقل الموضوع إلى ميدان آخر إذ حاول أن يثبت أن دانتي لم يقلد أبا العلاء وإنما هو قلد (رؤيا يوحنا اللاهوتي) الواردة بالإنجيل. وقد يكون هؤلاء وهؤلاء على شيء من الحق فيما ذهبوا إليه من رأي، وان كنا نحن لا نميل كثيراً إلى رأي أصحاب أبي العلاء - لأننا برغم براهينهم الكثيرة التي أدلوا بها - نشك في سرعة تنقل الثقافة العربية من شرق البحر الأبيض المتوسط إلى وسطه وغربه بهذا القدر الذي يبالغون في وصفه لا سيما في أسود فترات العصور الوسطى: ثم نحن لا نرى كبير شبه بين آل في كوميدية دانتي وبين جحيم أبي العلاء، ويكاد هذا الشبه ينعدم فيما يتعلق دانتي والبعث في أبي العلاء. . . أما دانتي فهي شيء وفردوس أبي العلاء شيء آخر. . . ونحن نعترف أن ثقافة العرب كانت تجرف أوروبا خصوصاً من جهة الأندلس ثم من جهة صقلية، ولكن الذي نشك فيه هو انتقال أدب أبي العلاء إلى إيطاليا لدرجة أن يؤثر في أدبائها إلى هذا الحد وفي زمنه كانت طرق المواصلات محفوفة فيه بأكبر المخاطر، ذلك إلى غلاء وسائل الثقافة حينئذ وأهمها الكتب التي كانت تكتب كلها باليد، ونحن نرجح أن دانتي تأثر إلى حد بعيد بالمصادر الدينية (وأهمها الإنجيل والقرآن) والمصادر اليونانية وأهمها (الإلياذة والأوديسة) ثم بملحمة مواطنه العظيم (فرجيل) الأنييد

فمن رؤيا يوحنا اللاهوتي ومن الأوصاف البارعة للجحيم وطبقاتها وصنوف المجرمين الواردين عليها المذكورة في كثير من سور القرآن قد اقتبس دانتي خياله الذي نسق به جحيمه ولا ننس أن احتكاك أوروبا بالمسلمين في الحروب الصليبية كان يغشى الثقافة الإسلامية في هذه الفترة أوانئذ، وخير ألوان هذه الثقافة ما في كتاب الله، أما تأثره بالإلياذة والأوديسة والأنيد فهو أقوى وأظهر، وقد درسنا هذه الملاحم جميعاً وأنعمنا النظر في أل

فكان يدهشنا أن يترسم دانتي خطى الشاعرين الخالدين هوميروس وفرجيل ويأخذ عنهما كل ما ورد في الأساطير القديمة من أوصاف (هيز) وما يحيط بها من أنهار تفوح بالحمم وما تعج به من سعالي وثعابين وسنتورات وتنانين. . . وكان دانتي يمزج في كوميديته ألواناً من الفكر اليوناني لا تخفى على الملم بأدب الإغريق. أما في المطهر والفردوس فما نحسب أن دانتي كان مقتدياً بلون ما من أدب السلف، ولعل ذلك هو السبب في فتور هذين الجزءين من الكوميدية

هذه كلمة خاطفة نؤثر عليها فصلاً طويلاً نقارن فيه بين هؤلاء الشعراء الخالدين

روجر بيكون (1210 - 1293)

من أحسن الكتب التي ألفت عن العصور الوسطى كتاب الأستاذ العلامة هنري أسبرن

تايلور بل لعل هذا الكتاب هو أحسنها جميعاً. وقد لا نجد مؤلفاً محققاً مثل تايلور انصف الرجل المفكر المسكين روجر بيكون الذي يعتبر أول رائد من رواد الحضارة الحديثة التي ننعم بها، والتي تتضاءل بجانبها أزهى الحضارات القديمة. وأغرب ما يروق القارئ من روجر بيكون أنه لم يكن يعيش في العصر الذي وجد فيه، بل هو كان لذلك العصر بجسمه وآلامه فقط، أما بروحه وعقله فقد كان يعيش معنا ويفكر تفكيرنا، ويشغله من مستقبل الإنسانية ما يشغلنا. ولقد كان بيكون عدواً لدوداً لمعسكرين يعتبر كل منهما نقيض الآخر. كان عدواً للكنيسة التي تفرض سلطانها وتزمتها على العقول فرضاً، وكان يوصي الناس ويحضهم على عدم الخضوع لغيرها والتحلل من ربقتها في تفكيرهم، ومن هنا ما لقيه بيكون من السجن والنفي والتشريد وألوان العذاب التي تتحيفه من حين إلى آخر. . ثم هو كان عدواً لآرسطو وفلسفته: (التي كانت كتبها في نظره جديرة بالتحريق لأنها مضيعة للزمن، وتحصيل للخطأ، وتكثيف للجهل!) وربما كان روجر معذوراً في هذه النظرة السوداء إلى آرسطو الذي كانت كل تراجمه خطأ في خطأ في تلك العصور؛ ولكن روجر بيكون كان يرى في فلسفة آرسطو شقشقة طويلة لا تؤدي الثمرة المشتهاة التي كان ينشدها هو في العلوم عن طريق التجربة، ومن هنا أيضاً حبه العظيم وإعجابه الذي لا يحد بالعرب وبالثقافة العربية في الطب والكيمياء، وعلم الأقرباذين وعلم المعادن؛ وربما كانت عداوته لأرسطو نتيجة انكبابه على دراسة العلوم العربية التي كان المعمل وحده ميدانها

والمضحك أن الكنيسة، ومن ورائها الشعب الساذج الذي لا عقل له، كانت تعتبر بيكون دجالاً مشعوذاً يجيد صنوفاً كثيرة من السحر. وكان الجميع يعدونه مجنوناً حين كان يتنبأ عن إمكان صنع سفينة تسير بالبخار (بدون شراع أو مجاديف) أو قاطرة أو سيارة (لا يجرها حصان أو زوج من الثيران) أو طائرة (ترتفع في الجو بجناحين من المعدن يضربان الهواء كما يصنع الطائر) . . .

توماس مور وكتب الطوبى

ليس شك في أن سير توماس مور هو خالق إنجلترا الحديثة، لأنه بطل نهضتها في العصور الوسطى، وقد ولد قبل شاكسبير بمائة سنة تقريباً، وكان صديق إرزم الأديب الهولندي الكبير، وبطل النهضة في الأراضي المنخفضة. ويقولون إن توماس مور هو أول إنجليزي تعلم اللغة الإغريقية وقرأ فيها آدابها، ومن هنا تأثره العظيم بأفلاطون وتأليفه كتابه القيم الجميل (طوبى على نسق (جمهورية أفلاطون) وقد كتب مور طوباه باللاتينية لغة العلوم والمعارف في العصور الوسطى وطبعت للمرة الأولى في لوفين (1516) ثم طبعت في باريس (1517) وفي بازل (1518) ولم تترجم إلى الإنجليزية إلا سنة 1551 بواسطة الأديب الكبير رالف روبنسون

ومما لا ريب فيه أن اكتشاف أمريكا كان أهم الأسباب التي أوحت إلى مور تأليف طوباه، فقد أذكره هذا الحادث حلم أفلاطون بالمدينة الفاضلة، وتصور أن الأوان قد آن لتحقيق هذا الحلم، وخال شعباً من خيرة أهل الدنيا القديمة يبحر إلى أمريكا فيعيش في رغد وبلهنية، لا يعرف أدواء الإنسانية التي فتكت بها في هذا العالم القديم. وقد دعا مور في طوباه إلى احتقار القوة وأعمال العنف، وبشر بمحبة ومؤاخاة يسودان العالم، وعاطفة خير توجه مصائر الناس. وعندنا أن مور بكتابه الجميل قد سبق مواطنه هـ. ج. ولز - الذي ألف هو الآخر طوبى جديدة - إلى الدعوة إلى العالمية والإيمان بالبشرية والتهوين من قيمة الوطنية، وأن يجعل الناس هذا الكوكب الأرضي الجميل وطنهم الأكبر فلا يلطخوه بالدماء

وقد كان فرنسيس بيكون معجباً إلى أبعد حدود الإعجاب بتوماس مور، وقد نسج على منواله فألف كتابه (أتلانتيس الجديدة) على منهاج طوباه، وكتب مثله في اللغة اللاتينية ولقد وقف مور في محنة الكنيسة الإنجليزية في عهد هنري الثامن موقفاً حازماً كلفه حياته؛

فخسرت إنجلترا فيه أديباً كان يساوي عشرة ملوك من ملوك هذا الزمن

بعض الكتب

سألنا قارئ فاضل عن أسماء بعض الكتب التي ورد ذكرها في هذا الباب بالإنجليزية لولز وبرتن راسكو وقد أجبناه بالبريد، وسنجتهد في إثبات الأسماء الإفرنجية كلما

أمكن ذلك لتتم الفائدة
د. خ
الكتب
الرحيل - رجل
تأليف محمود البدوي
للأستاذ محمد علي غريب
القصة المصرية عندنا ما تزال في مهدها اليوم، وأكبر الظن أنها سوف تبقى في لفافات الطفولة إلى مدى طويل، وأن يفقد الأدب العربي عندنا هذه الثروة الضخمة التي انحصرت في القصة ومنحت الآداب الغربية ما لها اليوم من تفوق ونجاح وقل أن تقع في يدي قصة مصرية فأهوى بأوراقها إلى الطاهي ليصنع منها أغطية لزجاجاته الكثيرة، فما وجدت من هذه القصص السخيفة إلا كل سخف وسماجة وموضوع يمسك هذا بطرفه وذاك بالطرف الآخر منه ثم يتنازعان نهايته. . فتاة فقيرة أو غنية، يعشقها أو تعشق هي شاباً فقيراً أو غنياً، على شرط أن لا يكون أحدهما كفؤاً للآخر في الثروة؛ وبعد دموع كثيرة وزفرات تدير الطواحين تنتحر الفتاة أو ينتحر الشاب أو ينتحران معاً. . طبقاً لرغبة المؤلف وميله إلى أحد البطلين
ذلك رأيي. . . ومنذ شهور أهدى إليّ صديقي الأديب الفاضل الأستاذ محمود البدوي قصته (الرحيل) فتركتها معه ريثما آخذ نفسي بأن تدع محاباة الصديق في تلك الهدية، وقرأتها؛ وبعد ذلك أهدى إليّ قصته (رجل) فقرأتها، ولأول مرة يندب الطاهي حفظ زجاجاته
لست أثني على صديقي لأن بيني وبينه هذه الصلة، فأن من الخير لي وله أن أجاهره بالرأي الصريح ولو كان به ما يؤلمه، فأنني أعرف فيه حسن تقبله للنقد؛ ولم تصلح الصداقة يوماً ما رشوة بين صديقين يحب كلاهما صاحبه ويخلص له. فالواقع أن هذين الكتابين اللذين أخرجهما الأستاذ البدوي لقراء العربية من خير المحاولات المفيدة الناجحة في سبيل بعث القصة المصرية ووجودها
في قصة الرحيل ترى يد شاب امتلأ صدره بشتى العواطف والنزعات، ترسم على الورق بعض ما يروح عنها. . إنه شاب نشأ في البيئة الخانقة المزعجة، فلما بهرته أضواء المدينة ورأى فيها حيلته عاجزة كليلة راح يستصغر نفسه دونها ويحاول أن يخفي ارتباكه
بإطلاق العنان لهذه الجياد الجامحة في نفسه؛ فهو طوراً يمجد الجمال ويتفهم الحب، وطوراً ينزع إلى الرغبة في التحرر من كل قيد، وطوراً تعود به نفسه إلى طبيعته الأولى فيستهويه صوت المؤذن ويخشع قلبه للدين وتعاليمه
وأنت إذا قرأت هذه القصة على هذا النحو أمكنك بسهولة أن تدرك لماذا لم يحتفل المؤلف بأسلوبه، وكيف جاءت ألفاظه مكررة في بعض المواضع، ولأي شيء التجأ إلى الغموض والإبهام في عباراته
إنه يرسم صورة من نفسه، ونفسه ترسف في أغلال قوية وتحاول الخروج منها، فإذا عجزت عن المحاولة ترنمت بالإيمان، وإذا نجحت في التنفيس عن كرباتها فرحت بهذه الأضواء الباهرة التي يجد فيها حياته كلها وجميع أمانيه. . .
أما قصته (رجل. . .) وقصصه الصغيرة الأخرى، فعلى هذا الطراز الفخم من الدقة والقوة والمتانة. . قصص يمكنك أن تقول عنها إنها من أقوى القصص المصرية الناجحة، دون أن يضطرب ضميرك، أو تنزعج نفسك، ومن بينها قصة (الأعمى). إنها صورة صادقة من أبلغ ما كتب الأدباء المصريون، وقد امتزج فيها الفن بالواقع، فترى أمامك مزيجاً منهما يلزمك أن تعاود قراءتها
ولست في الواقع أريد أن أتحدث كثيراً عن هذه الباكورة الشهية التي تفتحت عنها جهود شاب أديب، وكان خيراً لي وله أن أصبر طويلاً حتى أستوعب هذه القصص وأكتب عنها طويلاً، ولكننا في هذه الأيام نحتاج إلى السرعة والتعجل حتى لا نفقد الفرصة المناسبة، ولهذا كتبت تلك الكلمة الصغيرة على الرغم مني
والذي ألاحظه كثيرا في هذه القصص أن ناقدها لا يستطيع أن يسبر غورها مهما حاول ذلك. . . أترى لأن كاتبها لجأ إلى الغموض كما أوضحت، أم لأنها قصص كتب بعضها عن شخص مؤلفها، فما دام هو يفهم رموزها ويستشف غامضها كان على قرائه أن يقنعوا

من الرموز والغموض بما وصلت إليه أفهامهم؟
لست أدري. . ومع ذلك فهذه القصص اللطيفة صغيرة الحجم وثمنها زهيد، وما على القارئ إلا أن يقتنيها ليرى كيف يبدأ شاب أديب فجر حياته الأدبية؛ وإذا كانت هذه هي بدايته المباركة فماذا عسى أن يكون بعد سنوات؟
سوف يكون دون مبالغة من طراز انطون تشيكوف
محمد علي غريب
الثورة الوهابية
تأليف: عبد الله القصيمي
صفحة - طبع مصر (140)
هذا الكتاب شرح لمبادئ الدعوة السلفية، وعرض لتاريخها وتاريخ رجالها. افتتحه المؤلف بفصل تحليلي عن الثورة وطبيعتها وأقسامها، والمفاضلة بين الثورات السياسية والثورات الدينية، كالثورة الوهابية (المؤسسة على أسمى المعاني الإنسانية الخلقية المنتزعة من رسالة جبريل سيد الملائكة إلى محمد سيد البشر). ووازن بينها وبين الثورة الفرنسية، وبحث عما أسدت ثورة فرنسا الإنسانية المسكينة من إخاء وحرية ومساواة، وأحال في الجواب على سوريا ومراكش والجزائر!. . .
ثم تكلم المؤلف عن منشأ هذه الدعوة وتاريخها وسيرة صاحبها، وتكلم عن أهم ما دعا إليه وما أنكر عليه، وبين أن، أول مقومات هذه الدعوة (أستغفر الله بل أول مقومات الإسلام) منع دعاء غير الله - كدعاء الأموات - مهما كانت نية الداعي ومهما كان مقام المدعو، ومنع الاستغاثة بغير الله والاستعاذة به، ثم منع الابتداع في الدين منعاً باتاً لا هوادة فيه ولا استثناء، سواء في ذلك الأدعية الفاسدة والأذكار التي لم ترد عن صاحب الشريعة، والشطح والرقص في الذكر والطرق المبتدعة وما إلى ذلك - ثم الإيمان بما جاء في الكتاب والسنة من أن الله تعالى مستو على العرش استواء يليق به، لا كما يستوي المخلوق، وكذلك الإيمان باليد والساق من غير تعطيل ولا تشبيه، ثم إقامة الحدود الشرعية، وهذه منقبة لو لم يكن للحجاز غيرها لكفى. وهل تماثل حكومة تقيم حدود الله على الزاني وشارب الخمر، بحكومات إسلامية تجيز الزنا وشرب الخمر وتفتح لهما البيوت والحانات وتحمي أصحابها ومن يعكف عليهما؟. ثم أن للمسلم أن يتفهم كتاب الله ويتدبره، وألا يدع حكم الله وحكم رسوله لقول إنسان ما، وكل هذا حسن بشرط ألا يفهم منه العامي بأن له الاجتهاد، وله أن يدع حكم مذهبه إذا سمع حديثاً صحيحاً قد يكون منسوخاً بحديث أصح منه، بل عليه أن يتتبع أحكام المذهب إلى أن يرزقه الله من الإطلاع على كلام العرب وسننها ما يفهم به كتاب الله وسنة رسوله على وجهها، ومن معرفة الأصول ما يعلم به إستنباط الأحكام ويعرف الناسخ والمنسوخ؛ وكما أن القول بسد باب الاجتهاد
سخف، فكذلك القول بفتحه للناس كلهم بلا تفريق بين عاميّ ومتعلم
هذا وقد طال بي نفس القول ولم أصف من الكتاب إلا جزءاً قليلاً، ولا أجد بداً من أن أقطع الكلام وأحيل القارئ على هذا الكتاب القيم ليقرأه بنفسه فليس يغني عن قراءته وصفي، وإذا كان لي أن أختم هذه الكلمة برجاء أرفعه إلى جلالة الملك عبد العزيز بن سعود فهو أني أرجوه أن يولي هذا الأستاذ الجليل شيئاً من العناية. ويأخذ بيده على ما هو فيه من خدمة الإسلام والدفاع عن السلفية - وأن يشجع أمثاله - وقليل ما هم - على سلوك هذا السراط المستقيم. وأني أرجو لجلالة الملك التوفيق والهداية وللأستاذ المؤلف النجاح والأجر
(دمشق)
(ع)
العدد 158 - بتاريخ: 13 - 07 - 1936
لَوْ!. . . .
للأستاذ مصطفى صادق الرافعي
رأيتُني جالساً في مسرح هزلي بمدينة الإسكندرية كما يجلس القاضي في جريمة يحمل أهلها بين يديه آثامهم وأعمالهم ويحمل هو عقله وحُكمه. وقد ذهبت لأرى كيف يتساخفُ أهلُ هذه الصناعة فكان حكمي أن السخافة عندنا سخيفةٌ جداً. . . .
رأيتهم هناك ينقدون العيوب بما يُنشئ عيوباً جديدة، ويسبحون بأيديهم سباحة ماهرة

ولكن على الأرض لا في البحر، وتكاد نظرتهم إلى الحقيقة الهزلية تكون عمىً ظاهراً عما هي به حقيقة هزلية؛ ولا غاية لهم من هذا التمثيل إلا الرقاعة والإسفاف والخلط والهذيان، إذ كان هذا هو الأشبه بجمهورهم الذي يحضرهم، وكان هو الأقرب إلى تلك الطباع العامية البليدة التي اعتادت من تكلف الهزل ما جعلها هي في ذات نفسها هزلاً يسخر منه

ولا أسخف من تكلف النكتة الباردة قد خلت من المعنى، لا تكلفُ الضحك المصنوع يأتي في عقبها كالبرهان على أن في هذه النكتة معنى

فالفن المضحك عند هؤلاء إنما هو السخفُ الذي يوافقون به الروح العامية الضئيلة الكاذبة المكذوبَ عليها التي يبلغ من بلاهتها أحياناً أن تضحك للنكتة قبل إلقائها، لفرط خفتها ورعونتها، وطولِ ما تكلفت واعتادت. فما ذلك الفن إلا ما ترى من التخليط في الألفاظ، والتضريب بين المعاني، وإيقاع الغلط في المعقولات؛ ثُم لا ثُم بعد هذا. فلا دقة في التأليف، ولا عمق في الفكرة، ولا سياسة في جمع النقائض، ولا نفاذ في أسرار النفس، ولا جدّ يؤخذ من هزلية الحياة، ولا عظمة تستخرج من صغائرها، ولا فلسفة تعرف من حماقاتها

والفرق بعيد بين ضحكٍ هو صناعة ذهنٍ لتحريك النفس وشحذ الطبع وتصوير الحقيقة صورة أخرى، وبين ضحكٍ هو صناعة البلاهة للهو والعبث والمجانة لا غير

وكان معي قريب من أذكياء الطلبة المتخصصين للآداب الإنجليزية، فلم نلبث غير قليل حتى جاء ثلاثة من ضباط الأسطول الإنجليزي فجلسوا بحذائنا صفاً تلوح عليهم مخايل الظفر، ولهم وقار البطولة، وفيهم أرواح الحرب. وهم يبدون في ثيابهم البيض المطَرَّاة كأنهم ثلاثةُ نسور هبطت من الغمام إلى الأرض، فلأعينها نظرات تدور هنا وهناك تنكر وتعرف

وأعجبني أن أراهم في هذا المكان الهزلي الممتلئ بالضعفاء، كأنهم ثلاثُ حقائق بين الأغلاط، أو ثلاث أغلاط كبيرة. . .

وكان أبدع ما أراه على هيئة وجوههم وأسرُّ له تواضع هذا الاستعداد الحربي وتحوله إلى استعداد للسخرية. . .

ثم تأملتهم طويلاً فإذا صرامة وشهامة وسكينة ووداعة وحُسن سَمْتٍ وحلاوة هيئة في جلسة رزينة متوقرّة، لا يشبهها في حسّ النفس التي تعرف معاني القوة إلا وضع ثلاثة مدافع مصوبة

وجعلت أقلب عيني في الناس الموجودين وملامحهم وهيئاتهم ثم أرجع البصر إلى هؤلاء الثلاثة، فأرى المصريَّ كالمقتنع بأنه محدودٌ بمدينة أو قرية لا يعرف لنفسه مكاناً في غيرهما، فهو من ثم لا يرحل ولا يغامر ولا تَتَقاذفه الدنيا؛ وأرى الإنجليز كالمقتنع بأن كل مكان في العالم ينتظر الإنجليز. . . .

وخيل إلي والله أن رجلاً من هؤلاء الإنجليز الأقوياء المعتدين بأنفسهم لا يهاجر من بلاده إلا ومعه نفسه واستقلاله وتاريخه وروح دولته وطبيعة أرضه، فهو مستيقن أن الله لا يرزقه رزقاً أيَّ الرزق كان على ما يتفق، بل رزقاً إنجليزياً: أي فيه كفايته

ورأيت شيئاً عجيباً من الفرق بين طابع السلم على وجوه، وبين طابع الحرب على وجوه أخرى؛ ففي تلك معاني السهولة والملاينة والحرص على مادة الحياة، وفي هذه معاني العزم والمقاومة والحرص على مجد الحياة لا على مادتها

وتبيَّنتُ أسلوبين من الأساليب الاجتماعية: أحدهما في فرد قد بنى أمرهُ على أن أمةً تحمله فهو يعيش بأضعف ما فيه، والآخر في فرد قد وضع الأمر على انه هو يحمل أمةً فلا يدع في نفسه قوة إلا ضاعفها

وعرفت وجهين من وجوه التربية السياسية: أحدهما بالطنطنة والتهويل والصراخ واستعارة ألفاظ غير الواقع للواقع وتحميل الألفاظ غير ما تحمل، والآخر بالهدوء الذي يقهر الحوادث والصبر الذي يغلب الزمن والعقيدة التي تفرض أعمالها العظيمة على صاحبها وتجعل أعظم أجره عليها أن يقوم بها

وميَّزت بين أثرين من آثار الأرض في أهلها: أحدهما في المصري السَّمحْ الوادع الألوف الحي الذي هو كَرمُ الطبيعة، والآخر في الإنجليزي العسر المغامر النَّفور الملحّ على الدنيا كأنه تطفّل الطبيعة. . . .

وألقى ابن العم الذي كان معي سَمعه إلى هؤلاء الضباط وهم من فلاسفة الرأي على

ما يظهر من حديثهم، ثم نقل إلي عنهم، فقال كبيرهم: لقد فرغت من بحثي الذي وضعته في فلسفة خمول الشرقيين أفضيتُ منه إلى حقائق عجيبة أظهرها وأخفاها معاً أن أمةً من هذه الأمم لا يُمكَّن للأجنبي فيها ولا تثقل وطأتهُ عليهم ولا يطول ثواؤهُ في أرضهم ولا يحتلها من يطمع فيها، ما لم يكن سادتها وأمراؤها وكبراؤها كأنهم فيها دولة محتلة

وهؤلاء الكبراء هم آفة الشرق؛ فمن أعظم واجباتنا أن نزيد في تعظيمهم، وأن نمد لهم في المال والجاه، ونبسط لهم اليمين والشمال، ونوهمهم أن عظمتهم هكذا ولدت فيهم وهكذا ولدوا بها من أمهاتهم كما ولدوا بأيديهم وأرجلهم. . . وخاصة عظماء رجال الأديان المفتونين بالدنيا؛ فإننا نصنع بغرور الجميع وسخافاتهم وحرصهم وطمعهم أشياء اجتماعية ذات خطر لا يصنع لنا مثلها إلا الشياطين. ومن لنا بالحكم على الشياطين؟ وهذا ما تنبه له غاندي ذلك المهزول الهندي الذي تُقوَّم دنياه بأربعة شلنات، ولا يزن أكثر من بضعة أرطال من الجلد والعظم، ولا بطش عنده ولا قوة فيه، وهو مع ذلك جبار سماوي في يده البرق والرعد يُرى ويُسمع في أرجاء الدنيا

قال ضابط اليمين: وبصناعة الكبراء هذه الصناعة يكون رجلُ الشعب من هؤلاء الشرقيين رجل تقليد بالطبيعة، ورجل ذل بالحالة، ورجل خضوع بالجملة؛ فليس في نفسه أنه سيد نفسه ولا سيدُ غيره، بل أكبر معانيه أن غيره سيد عليه فيكون معه دائماً خيال استعباده

وتكلم ضابط اليسار: ولكن المترجم لم يميز أقواله، لأن ثلاث عشر امرأة كنَّ يصرخن في الرواية الهزلية بلحن طويل يقلن في أوله: (عاوزين رجّالة تدلّعْنا. . . .) وكانت الموسيقى تصرخ معهن وتولول كأنها هي أيضاً امرأة محرومة. . .

ثم أرهف المترجم أذنه فقال كبيرهم: إن لهؤلاء الشرقيين ست حواس: الخمس المعروفة وحاسة الخمول الذي خدعتهم عنه الطبيعة البليدة فسموه الترف والهزل واللهو، والأمة الأوروبية التي تحتل بلاداً شرقية تجد فيها لصغائر الحياة جيشاً أقوى من جيشها. فعشرة

آلاف جندي بعتادهم وآلاتهم لا يصنعون شيئاً إلا الاستفزاز والتحدي وإثبات أنهم غاصبون، ولكن ما أنت قائل في عشرة آلاف مكان كهذا المسرح براقصاته ومومساته وخموره ورواياته وبهؤلاء الرجال المخنثين الهزليين الرقعاء الذين هم وحدهم معاهدة سياسية ناجحة بيننا وبين شباب الأمة. . .؟

قال ضابط اليمين: نعم إن فن الاحتلال فن عسكري في الأول ولكنه فن أخلاقي في الآخر؛ ولهذا يجب تعيين نقطة اتجاه للشباب تكون مضيئة لامعة جذابة مغرية ولكنها في ذات الوقت محرقة أيضاً، وهذه هي صناعة إهلاك الشباب بالضوء الجميل، وما على السياسي الحاذق في الشرق إلا أن يحمي الرذيلة، فإن الرذيلة ستعرف له صنيعه وتحميه. . . فتكلم ضابط اليسار، ولكن صوته ذهب في عشرين صوتاً من رجال المسرح ونسائه يصيحون جميعاً: (يا حِلوة يا خفَّافي يا مجنَّة الشبان. . .)

ولما ألممت بحوار الضباط الثلاثة قلت لصاحبي: أستأذن لي عليهم أكلمهم. ففعل وعرفني إليهم وترجم لهم مقالة (يا شباب العرب) وكان يحملها. فكأنما رماهم منها بالجيش والأسطول.

ثم قلت لكبيرهم: لست أنكر أن الإنجليزي لو دخل جهنم لدخلها إنجليزيا. . ولا أجحد أن له في الحياة مثل هداية الحيوان لأنه رجل عملي دليل منفعته أنها منفعته وحَسْبُ، ثم لا دليل غير هذا ولا يقبل إلا هذا. فإذا قال الشرقي (حقّي) وقال الإنجليزي (منفعتي) بطلت كل الأدلة، ورأى الشرقي أنه مع الإنجليزي كالذي يحاول أن يقنع الذئب بقانون الفضيلة والرحمة

وقد عرفنا أن في السياسة عجائب منها ما يشبه أن يلقي إنسان إنسانا فيقول له: يا سيدي العزيز، بكل احترام أرجو أن تتلقى مني هذه الصفعة. . . . وفي السياسة مواعيد عجيبة: منها ما يشبه غرس شجرة للفقراء والمساكين والتوكيد لهم بالإيمان أنها ستثمر رُغفاناً مخبوزة. . . . ثم بعد ذلك تطعَّم فتثمر الرغفان المخبوزة حشوُها اللحم والإِدام

وفي السياسة محاربة المساجد بالمراقص، ومحاربة الزوجات بالمومسات، ومحاربة العقائد بأساتذة حرية الفكر، ومحاربة فنون القوة بفنون اللذة. ولكن لو فهم الشباب

أن أماكن اللهو في كل معانيها ليست إلا غدراً بالوطن في كل معانيه! ولو عرف الشباب أن محاربة اللهو
هي أول المعركة السياسية الفاصلة! ولو أدرك الشاب أن أول حق الوطن عليه أن يحمل في نفسه معنى الشعب لا معنى نفسه! ولو رجع الدين الإسلامي كما هو في طبيعته آلةً حربية تصنع من الشباب رجال القوة! ولو علم الشباب أن روح هذا الدين ليست: اعتقدْ ولا تعتقد، ولكن افعلْ ولا تفعل! ولو أيقن الشباب أن فرائض هذا الدين ليست إلا وسائل عملية لامتلاء النفس بمعاني التقديس! ولو فهم الشباب أن ليس في الكون إلا هذه المعاني تجعل النفس فوق المادة وفوق الخوف وفوق الذل وفوق الموت نفسه! ولو بحث الشباب النفس الإنجليزية القوية ليعرف بالبرهان أنها نصفُ مسلمة فكيف بها لو كانت مسلمة؟ . . .
وكان المترجم ينقل إليهم كلامي فما بلغت إلى حيث بلغت حتى شدَّ الضابط على يدي وهزّها؛ فنظرت فإذا أنا قد كنت نائماً بعد سهرة طويلة في ذلك المسرح، وإذا يد المترجم نفسه هي التي تهزني لأنتبه
طنطا
مصطفى صادق الرافعي
ذات الثوب الأرجواني
للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني
تنبيه: الكلام خيالي ولا أصل له، كما مللت أن أقول وأؤكد (في كل مرة)
- 5 -
قالوا لي أمس في البيت: (قم ركب لنا هذه الستائر!)
فقلت: (ستائر؟؟ يا حفيظ!! يا ناس ما هذا الحال المقلوب؟. . في الشتاء نرفع الأستار، وفي الصيف الحامي نضعها لنزيد الوقدة ويعظم البلاء!؟ أما إن هذا لعجيب!)
قالوا: (بل هي تحجب الشمس التي بهت منها لون السجاجيد. . .)
قلت: (كونوا منصفين. . السجاجيد قديمة، وعسيرٌ أن نطلب من القديم البالي أن يكون له لون الجديد الطريف الزاهي. . خذوا مثلاً هذه الخادمة العجوز. . . هل كان وجهها مغضناً هكذا في صباها؟ أو كان شعرها كما هو الآن أبيض؟ وهل كانت عينها كعين الموتى - لا حياة فيها ولا معنى ولا تعبير؟)
قالوا: (دع الخادمة فإن ذنبها إليك معروف. . . لو كانت شابة لأغضيت عن كل عيب)
فاعترضت على هذا الرأي السيئ والاتهام القبيح لذوقي، ولكنهم ردوني إلى موضوع الستائر الذي أردت أن أستطرد عنه إلى حديث آخر، فقلت: (الأمر لله. . . إنما ينبغي أن تجيئوني بالأدوات اللازمة كلها. . يعني السلم والمسامير الصالحة لعمل فني دقيق كهذا. . وهاتوا أيضاً قلعاً (أي فأساً صغيرة)، فما أستطيع أن أستعمل هذا المعول الضخم، فإني كما تعلمون رجل رقيق مترف. . ثم لا بد من تمليس الحائط بعد دق المسامير فيه، وإلا بدا للعين الفاحصة متضرساً غير مستو. . .)
فلم يجبئوني بما كان من حقي أن أطالب به وأصر عليه؛ وإنما جاءوا بمطرقة كبيرة أحتاج في حملها إلى رجلين معي، ووضعوا في يدي مسامير كالتي كانت في فلك نوح. . . لا تصلح لهذا الزمن أبداً. . . ولكني كما لا يعرف القراء رجل تضحية - وما أكثر ما أتقبل بالصبر - ومن غير تعليق طويل - ما يمتحنني به الزمن الغادر. لذلك دعوت الله في
سري أن يبيض وجهي، فان سواده الحالي كاف جداً؛ وشرعت أعمل؛ ولكن هل تركوني أعمل كما ينبغي أن يفعلوا لأكسب رضاهم بعرق جبيني؟ كلا. . . فقد أحاطوا بالسلم وجعلوا يصدرون إليّ أوامر غير معقولة. فقلت لنفسي: (إن جدالهم عبث، فدعهم في جهلهم واتركهم ولا تجبهم فأنهم يحبون الكلام. وماذا على أن يثرثروا. .)
ولم أجعل بالي إليهم، ولم أرد عليهم، ورجوت أن يشغلوا بالحديث والثرثرة عما عدا ذلك. ولكنهم لما يئسوا من إصغائي لهم جعلوا يهزون السلم لألتفت، فحدث ما كان لا بد أن يحدث، وما كان طفل صغير يستطيع أن يتوقعه؛ ذلك أني اضطربت وأنا على السلم، وكنت أهم بدق مسمار، فوقعت المطرقة على أصابعي لا على رأس المسمار كما كان ينبغي أن تفعل لو كان لها عقل! فصرخت. . وهل أنا حجر؟؟ ثم ما أشعر إلا

والسلم يهوى بي إلى الأرض. . . وقد كانت أيديهم عليه، وكان في وسعهم أن يمنعوا سقوطي وسقوط السلم معي، ولكني دققت أصابعي فيجب أن يضحكوا!! نعم ضحكوا، بل قهقهوا، بدلاً من أن يأسفوا أو يقلقوا عليّ، أو يحزنوا لما أصابني في سبيلهم، فتركوا السلم يفعل بي ما يشاء. . . وقد أسمعتهم رأيي الصريح فيهم وفي هذا الكفران لنعمتي، والجحود لفضلي، وفي تعريضي للمضرات، وفي أنهم إذا حاق بي مكروه في سبيلهم ضحكوا وسروا وفرحوا جداً. . . . ثم تركتهم ومضيت أظلع - فوق ظلعي - إلى النافذة، وكنت أفرك أصابعي لأسويها وأرد إليها استدارتها فقد عجنتها المطرقة، ولألطف الألم أيضاً فإني لست بحجر كما أسلفت، وإذا بذات الثوب الأرجواني واقفة في شرفتها تضحك كما يضحكون!! فنظرت إليها آسفاً وقلتُ - كما قال يوليوس قيصر حينما طعنه بروتس -: (وأنت أيضاً؟؟) ولولا أن وقع المطرقة على أصابعي لم يفقدني حبي للحياة ولم يضعف أرادتها في نفسي لتمثلت بقول القائل: (فيا موت زر إن الحياة ذميمة) ولكن الحياة ليست ذميمة على الرغم من المسامير العتيقة والمطارق الطائشة التي لا عقل لها في رأسها الناشف والأهل الجاحدين والحبيبة التي يسرها أن تفرم أصابعك وتلتوي ساقك، بل هي جميلة - أعني الحياة ومرضية على كل حال وحميدة كيفما كانت - بل أعني الحبيبة أيضاً وإن كانت تسخطني ولا ترضيني، ولا أدري ما لذتها التي تستفيدها من هذه المكابدة؟؟ والله إن النساء أمرهن عجيب!! هذه ذات الثوب الأرجواني تفتح النافذة وتنظر ثم توليني جنبها، وما شبعت من وجهها، ثم تدير لي ظهرها ثم تهز رأسها فينتشر شعرها الجميل ويعود كالشمسية المفتوحة ثم ينسدل على جانبي وجهها ثم ترمي إليّ نظرة سريعة جداً يغيب عني معناها من شدة السرعة - مضافاً إليها البعد - ثم تدخل وتختفي!! ماذا كسبت بالله من هذا؟؟. وما حيلتي إلا أن أهز رأسي أنا أيضاً وأقول لنفسي أن أصحاب العقول في راحة! ولو كانت تسمعني لغضبت، ولكنها بعيدة . .!فأنا أقول ما أشاء وأنا آمن

ومكايدة أخرى ظهرت - لي - في الشرفة يوماً في ثوب ازرق لا احبه، وكنت لابساً ثيابي ومتهيئاً للخروج فما أستطيع أن أقضي حياتي في شرفة - كما تفعل هي - وإذا بها تدخل ثم تعود في ثوب أبيض جميل من الحرير الأبيض له شقتان واحدة على الصدر والأخرى تحتها على سائر البدن إلى القدمين، وعلى رأسها قبعة بيضاء كقلبها - مجازاً فما فتح لي قلبها إلى الآن - تثني حافتها على حاجبها الأيسر دلالاً. فقلت لنفسي: (إلى أين إن شاء الله؟؟ وإنها لحادثة فما رأيتها قط تخرج، بل هي بشرى نعش الأمل. إذ ما دامت تخرج فلا موجب لليأس، وإذا بها بعد قليل خارجة من باب البيت، ولكن مع أهلها!!. فسبحان الله العظيم!! وهل كان لا بد من هؤلاء الأهل؟ ما فائدتهم أو ما الضرورة إليهم على كل حال؟؟ ثم إن الأهل لا داعي للحرص على الاتصال بهم وملازمتهم لأنهم في الحقيقة ثمرات المصادفة البحت والاتفاق المحض. الأخ مثلاً شيء يجيء مصادفة. . ولو كان أبي - ولست أتكلم عن نفسي وإنما أضرب مثلاً تأييداً لنظريتي ليس إلا - أقول لو كان أبي مات قبل أن يموت بأربع سنوات أو خمس - وهو قد مات على كل حال، فما ضر أن يموت قبل ذلك؟ - لما صار لي أخ، ولكنه اتفق أن عمر أبي طال أكثر مما ينبغي - إذا اعتبرنا الذرية والإسراف الذي لم يدع لنا ميراثاً يستحق الذكر - فصار لي أخ كان من الممكن ألا يكون لو أن أبي كان عاقلاً مقتصداً - على الأقل في الأبناء - وقل مثل ذلك عن الأب والأم وأبناء العم وبنات الخال إلى آخر هذا البلاء الطويل فأنهم جميعاً أقارب بالمصادفة ليس إلا. . . فلماذا يجب أن أحبهم وأراعي مزاجهم وأتحرى مرضاتهم؟؟ ولا بأس بالحب فإني مستعد أن أحب الدنيا كلها ما دام هذا الحب لا يضايقني ولا يفرض علي أعباء لا أطيقها أو لا أستسهل حملها. . ولكن الملازمة وتوخي المرضاة هذا تكليف ثقيل جداً. هذه المسكينة مثلاً لا بد أن تخرج مع أخيها أو أبيها أو لا أدري من أيضاً من هؤلاء الذين هم أهلها بالصدفة. . . لماذا؟؟ ماذا جنت؟؟ ما ذنبها هي إذا كان هذا أو ذاك قد شاء أن يكون أخاها أو عمها أو أمها؟. . لماذا لا تخرج وحدها فيتيسر أن تشعر بأن لها وجوداً خاصاً مستقلاً عن وجود هؤلاء الآباء والأمهات والأخوة والأعمام والخالات الخ؟؟ والحق أقول أني تحسرت عليها ولها، فأنها مسكينة ولا شك تحيا حياة مرهونة بحيوات أخرى على حين لكل من هؤلاء الآخرين حياته الخاصة المستقلة التي لا علاقة لها بحياة هذه

الفتاة
وقد كانت تضحك وهي واقفة تنتظر الترام مع أقرباء الصدفة ومن حقها أن تضحك، فقد نزلت إلى الأرض وداست قشرتها الصلبة بقدميها الصغيرتين وركبت الترام - أو هي ستركبه بعد دقيقة - ورأت الناس عن قرب بعد أن كانت تراهم عن بعد كالأشباح، وألفت نفسها سابحة في لجة الحياة التي لا يمكن أن تحسها أو تدركها وهي في شرفتها. . . نعم كانت في المريخ تحلم بدنيا لا تعرفها فهبطت إليها وصار الحلم حقيقة والظن يقينا. . . فلها أن تضحك وتسر
وأنا؟ أنا أبدي لها المودة فتتلقاها بهذه الجفوة والنفور والتخفي والتدلل كأنما أسيء إليها بحبي لها، وأجني عليها بميلي إليها، أو كأنما من الشتم لها أني تركت مئاتٍ ومئاتٍ من الفتيات وآثرتها عليهن جميعاً!! فلو أني كنت أبدي لها الكره والاستخفاف والاشمئزاز أكانت تقابلني بشر من هذا؟؟ كلا! بل كانت حينئذٍ تتعمد أن تبدو لي وتتكلف أن يكون ظهورها في حفل من الزينة، لأنه كان يشق عليها في تلك الحالة أن رجلا لم يَصْبُ إليها، ولم يفتنه جمالها، ولم يسب لبه حسنها، وكان هذا الإحساس خليقاً أن يدفعها إلى التحدي - غير أنه تحدي ينطوي على استجداء للإعجاب من الرجل. وأنا أقول الاستجداء وأعني ما أقول بلا نقص. ذلك أن الجمال هو السلاح الوحيد الذي وُهبتْهُ المرأة، وليس لها في كفاحها في الحياة سلاح غيره، فإذا فقدته فحكمها هو حكم كل مناضل ليس له سلاح، وصار أعزل لا يملك كراً ولا فراً ولا مصاولة ولا محاورة ولا مداورة. وماذا يملك الأعزل أمام الشاكي إلا أن يذعن لقضاء الله فيه ولتحكم القوة المسلح؟؟ ولا فرق بين أن تفقد السلاح الذي تصول به وتجول، وبين أن يثبت لك أنه قد صار لا فعل له فأن عمل السلاح ومزيته أن يحدث أثره لا أن يكون في يدك والسلام. فإذا لم يكن له أثر كأن يكون قد فله شيء، أو لاقى ما يثنيه أو يرده أو ما يصبر على وقعه ولا يتضعضع أمامه، فهو وعدمه سيان؟ كذلك
المرأة - إذا فقد سلاحُها قيمته فلم يعد جمالها يحدث أثره المطلوب في نفس الرجل فأنها تكون فيما تحس حيال هذا الرجل عزلاء لا حول لها ولا طول فلا يسعها إلا أن تخضع وتذعن وتروح تستجدي العطف وتلتمس الرضى، وتتوسل إليه باللين والمصانعة والتحبب والإغراء بعرض كل ما عندها من المفاتن. وكأني بذات الثوب الأرجواني قد خيل إليها أنها قد ضمنت حبي واستوثقت منه، فهي لا تباليني لأنها في ظنها مني على يقين، وأولى بها أن تعني بغزو قلب غير قلبي - قلب آخر لا يزال مستعصيا عليها نابيا في يديها - أما أنا فقد علق جناحي بالشرك فكيف الفكاك وأين المهرب؟ وهذا ظن كل امرأة معشوقة من الرجل الذي تعرف أنه يحبها وتأنس منه الصبر على دلالها، وليس يصرفها عن ذلك إلا أن تساورها الشكوك، وتدور في نفسها الوساوس، ويحك في صدرها الخوف من ملل الرجل وضجره من هذا العبث. ولو كانت تعرفني لخافتني فما أنا ممن يصبرون على هذا اللعب. وإني لأحبها - أو هكذا يخيل إليَ - ولكني فيما أظن أحب نفسي أيضاً. وحبي لها هو بعض حبي لنفسي، وليس الأمر على العكس، وحب الرجل للمرأة معناه أنه يريدها خالصة لنفسه، لينعم بها وحده، ويستأثر بالمتعة المستفادة من جمالها. وليس معناه أنه يريد أن يعذب نفسه وينقص عيشه ويسود وجه الحياة في عينيه. أما حب المرأة للرجل فمعناه أنها رأته - بغريزتها لا بعقلها فأنها تنقاد لغريزتها ولا تفكر بعقلها - أحق رجل بامتلاك زمامها والسيطرة عليها وأكلها وهضمها. فالرجل يحب نفسه حين يحب المرأة أما المرأة فأنها تطلب الرق وتسعى للتضحية الكبرى حين تحب الرجل. فهو لهذا أناني في حبه، وهي لهذا مضحية في حبها. فليس عجيباً أن تحتمل هي المكاره في سبيل الحب لأن حبها تضحية كبرى فأولى أن تصبر على التضحيات الصغرى، بل العجيب ألا تصبر ولا تحتمل. أما الرجل فهو كما قلت أنانيٌّ فلا صبر له على تضحية ولا احتمال منه للعذاب إلا وهو كاره أو عاجز عن الفوز بالراحة، لأن طبيعة حبه لا تبيح له أن يفهم هذه التضحية ولا تجعله مستعداً لها. ومن هنا كانت المرأة أوفى وكان الرجل أغدر بالمعنى الشائع لا الحقيقي، فأن الوفاء من الرجل إفلاس نفسي وخيانة لطبيعته التي فطر عليها. وهذا هو الأصل ولذلك رأينا الرجل في تاريخ الإنسانية يتخذ المرأة والمرأتين والثلاث والأربع وتكون له الجواري فضلا عن الزوجات أو من هن في حكمهن، ولم نر المرأة تتخذ من

الرجال اثنين أو ثلاثة أو أربعاً، إلا أن تفعل ذلك سراً وخفيةً ولعلةٍ. ولكن الرجل لم يكن يعمل هذا سراً بل جهراً، وكان يقيمهن في بيت واحد. وكانت المرأة ترضى وتذعن وتسعى سعيها لتكون هي الأثيرة لا الوحيدة. وكان الرجل لا يكف عن الاشتهاء والتطلع إلى غير الموجودات، والتبرم بالموجودات، وهذا هو قضاء الطبيعة وحكم الفطرة في الرجل والمرأة. فمن كان يشق عليه أن يقرأ هذا فليتدبر تاريخ الإنسانية قبل أن يفتح فمه، وليحاول أن يعلل هذا التاريخ على وجه مقبول معقول قبل أن يعترض. ثم فليتأمل حاضر الإنسان وليسأل نفسه عنه أتراه يختلف عن الماضي إلا في المظهر دون المخبر والجوهر؟؟

فالوفاء - فيما يتعلق بالرجل - أكذوبة ومنافاة للطبيعة، ولكنه فيما يتعلق بالمرأة صدق وإخلاص للطبيعة؛ ومن هنا أن المرأة لا تزال تتهم الرجل بالغدر والتحول والتقلب وقلة الثبات. وهذا هو تفسير الغيرة الشديدة من جانب المرأة، وهي غيرة لا تقاس إليها غيرة الرجل مهما عظمت، لأن غيرة الرجل على امرأته هي كغيرته على كل ما يملك؛ فإذا أمن أن يضيع ملكه لم يبال ما دون ذلك مبالاة تذكر؛ فغيرته في الكليات لا في الجزئيات والتوافه، ولكن غيرة المرأة مرجعها إلى إدراكها - بغريزتها الذكية التي تهديها في حياتها - إن الرجل لا يستطيع الصبر على الوفاء، ولا يملك إلا أن يتحول وينقلب في حبه، وإلا أن يصرف قلبه من هنا إلى هنا، فكل حركة منه أو لفتة نذيرٌ منه عندها بوشك هذا التحول، وفقدان ما كان لها عنده من مقام ومنزلة وإيثار، وعودتها واحدة من مئات الآلاف اللواتي لا يباليهن ولا يحفلهن ولا يحسهن أو يفطن إلى وجودهن، فهي غيرة على الوجود وكل ما ينطوي عليه من الحقوق والمزايا، ولذلك لا تنفك مشبوبة مضطرمة

ومن حق ذات الثوب الأرجواني أن تغار وتقلق، ويجب أن أكون منصفاً، فإني أنا أثرت غيرتها بطول النظر إلى جارتها، وأقول جارتها وإن كان بينهما مثل ما بيني وبينها هي من البعد

والحق أن جارتها جميلة فاتنة، ولست أحبها - على الأقل إلى الآن - ولكني لا أرى ما يمنع أن أحب الاثنتين معاً، فأن لكل منهما مزيتها وخصائص حسنها وتعبيرها الذي لا يشبه تعبير الأخرى؛ والسمراء ألين وأسلس في العنان على ما يبدو لي. نعم إن ذات الثوب

الأرجواني أسلم فطرة وأنقى وأخلص سريرةً وأبسط قلباً وأبرأ من العبث، ولكن تلك شيطانة ملعونة وعفريتة من الجن تجعل الحياة كلها حركة دائمة، وما قيمة الحياة الراكدة؟؟ على أني كما قلت لم أحببها بعد، وإن كنت أعجب بحيويتها الزاخرة. وقد أحبهما معاً، أو تستأثر بي التي هي أقدر.

إبراهيم عبد القادر المازني

الصراع الحاسم بين الطغيان والديموقراطية

بقلم باحث دبلوماسي كبير

جازت الديموقراطية المعاصرة مرحلتين حاسمتين في تاريخها: ففي غداة الهدنة التي اختتمت بها الحرب الكبرى استقبلت الديموقراطية طوراً جديداً من القوة والظفر؛ وكانت الحرب الكبرى من بعض الوجوه صراعا بين الطغيان والديموقراطية؛ ففي معسكر الطغيان تجتمع الأسر القديمة الطاغية - آل هبسبرج وآل هوهنزلرن - والعسكرية البروسية تحركها أطماع مضطرمة في السيادة الواسعة؛ وفي المعسكر الخصيم تجتمع الأمتان العريقتان في الديموقراطية فرنسا وبريطانيا؛ وإذن فقد كانت هزيمة الدول الوسطى في الحرب الكبرى هزيمة للطغيان والملوكية المطلقة؛ وكان ظفر بريطانيا وفرنسا من بعض الوجوه ظفراً للديموقراطية والنظم الشعبية؛ وظهرت نتيجة هذا الظفر واضحة في قيام عدة من الجمهوريات الفتية في روسيا وألمانيا والنمسا وبولونيا وتشيكوسلوفاكيا، وفي دول البلطيق الصغرى؛ فهذه مرحلة ظفر للديمقراطية المعاصرة

ونعمت الديمقراطية بظفرها بضعة أعوام، ولكنها انحدرت إلى معترك من الشقاق الخطر، وانقسمت إلى شيع متخاصمة؛ وبدلاً من أن تجتمع في معسكر موحد، أخذت في نضال عنيف مستمر فيما بينها باسم المبادئ والصيغ المختلفة ما بين اشتراكية وديمقراطية متطرفة ومعتدلة، حتى دب الفشل إلى صفوفها؛ وكانت أول نتيجة خطرة

لهذا الشقاق قيام الفاشستية في إيطاليا وسحق الديمقراطية فيها؛ ولم تلبث قوى الطغيان أن ظفرت تباعا في بولونيا حيث تقوم حكومات مطلقة تستتر وراء الجمهورية، ثم في ألمانيا حيث قامت النازية أو الهتلرية ونظمت أعظم طغيان عرفه التاريخ الحديث، ثم في النمسا حيث طغت الأحزاب الفاشستية؛ وأما في روسيا، فأن النظام الذي استحدثه البلاشفة للجمهورية الجديدة لم يكن سوى طغيان شنيع يستتر باسم سيادة الطبقات العاملة؛ كذلك لم تلبث الجمهورية التركية الناشئة أن تحولت إلى طغيان عسكري مطلق يستتر تحت نظام جمهوري صوري؛ فهذه مرحلة انحلال للديمقراطية المعاصرة

والآن تبدو في الأفق ظاهرة جديدة؛ ولقد ظفرت الديمقراطية في إسبانيا منذ أعوام قلائل ظفراً مبيناً، فسحقت الملوكية الطاغية القديمة، وأقامت حكم الجمهورية والنظم الدستورية،

ولكن هذا النصر كان محلياً، ولم تفد منه الديمقراطية الأوربية قوة جديدة، ولكنا نشهد من جهة أخرى وثبة جديدة للديمقراطية الفرنسية، فقد أسفرت الانتخابات الفرنسية الأخيرة عن فوز عظيم لأحزاب اليسار أنصار الديمقراطية المتطرفة والحريات الدستورية الواسعة، وهي تتربع الآن في دست الحكم؛ وأسفرت الانتخابات البلجيكية في نفس الوقت عن فوز الأحزاب الاشتراكية؛ وفي روسيا السوفيتية يتحول الطغيان البلشفي منذ أعوام إلى نوع من النظام الدستوري العام تنمو في ظله الحريات والحقوق الفردية باطراد؛ ومنذ أشهر قلائل شهدنا تحالف الديمقراطية الفرنسية، والديمقراطية السوفيتية في ميثاق مشترك لمقاومة الخطر الألماني المشترك. فهذه الظروف والأحداث كلها تنم في نظرنا عن أن الديموقراطية الأوروبية تدخل في طور جديد من أطوار نهضتها

ومما يلفت النظر في عوامل هذه الوثبة الجديدة التي يلوح لنا أن الديموقراطية الأوربية تجيش بها، هو أن فوز الأحزاب الاشتراكية الفرنسية في الانتخابات الأخيرة هذا الفوز الشامل يرجع من وجوه كثيرة إلى المسألة الحبشية التي أثارتها الفاشستية الإيطالية واتخذتها ذريعة للتوسع الاستعماري المسلح؛ فقد كان غزو الفاشستية للحبشة وظفرها بالاستيلاء عليها ممزقة بذلك كل العهود والمواثيق التي ارتبطت بها في العهد القريب، متحدية أوربا وعصبة الأمم والعالم كله، مظهراً قوياً من مظاهر ظفر الطغيان المنظم ونفثة خطرة من نفثاته تنذر العالم بأخطر العواقب، وكان موقف حكومة لافال الفرنسية وتقبلها ونفاقها إزاء المسألة الحبشية، وما قامت به من المعاونات السرية لحكومة رومة، أكبر عامل في تتويج الاعتداء الفاشستي بهذا الظفر الذي تزهو به الفاشستية اليوم وتتخذ منه نذيراً لأوربا، فلما ردت السياسة البريطانية على موقف فرنسا في المسألة الحبشية، بموقفها في مسألة الرين وتخليها عن فرنسا، أدرك الرأي العام الفرنسي أن فرنسا تخاطر بفقد صداقة إنكلترا، فلم ير بدا من التحول في الانتخابات الأخيرة إلى ناحية اليسار لتقوم حكومة تعمل بالتفاهم مع الديموقراطية الإنكليزية، وتتعاون معها على درء خطر الطغيان الفاشستي والطغيان الهتلري

ومن الخطأ أن تعتبر هذه الحركات الطاغية الخطرة التي تضطرم بشهوة الاعتداء والتوسع حركات محلية لا تعني سوى الأمم التي تقوم فيها. فالفاشستية مثلاً تزعم لنفسها صفة عامة،

وتدعي أنها أمثل النظم الحديثة للدولة وتدعيم القومية، وضمان رفاهة الشعب؛ ويزعم طغاة ألمانيا الجدد (هتلر وشيعته) أنهم رسل المثل الأعلى للدولة الكاملة، والعظمة القومية، ورفعة الجنس، وأن نظرية الحريات الدستورية والحقوق العامة هي نظرية خطرة على كيان الأمم، ويجب أن تكون جميع الحقوق والسلطات متمركزة في الدولة، والدولة في نظرهم هي الحزب النازي، ويزعم بعض دعاتهم أن هذا النظام الغاشم سيعيش قروناً. ولقد كان لهذه الحركات والمزاعم بعض الأثر، فظهرت في إنكلترا حركة فاشستية صغيرة؛ واشتد ساعد الجمعيات الرجعية في فرنسا، وساعدت على ذلك ظروف سيئة ظهرت فيها النظم الجمهورية بمظهر النظم الفاسدة المفككة، وعاونت بعض الفضائح الخطيرة مثل فضيحة ستافسكي وغيرها على الاعتقاد بانحلال هذه النظم ووجوب تعديلها، بل قامت بعض جمعيات تدعو إلى إقامة الدكتاتورية إنقاذاً

لفرنسا من هذا الفساد الدستوري الخطر؛ وظهرت في دول أخرى مثل رومانيا والمجر وتشيكوسلوفاكيا نزعة إلى الاقتباس من الفاشستية والنازية؛ ومن ثم ففي وسعنا أن نقارن مبادئ الفاشستية والنازية، من بعض الوجوه بمبادئ الثورة الفرنسية التي تعدت حدود فرنسا واجتمعت حكومات أوربا المطلقة على مقاومتها

والآن نرى في أوربا معسكرين عظيمين يتأهب كل منهما لمكافحة الآخر؛ يتألف أحدهما من إنكلترا وفرنسا وبلجيكا وروسيا؛ ويتألف الثاني من ألمانيا وإيطاليا؛ وينحاز لكل منها بعض الدول الصغيرة؛ فإذا تأملنا في هذا التكوين من الناحية الدستورية ألفينا الديموقراطية ممثلة في الطريق الأول، والنظم الطاغية - الفاشستية والنازية - ممثلة في الطريق الآخر؛ وقد رأينا أن الحرب الكبرى قامت على مثل هذا التقسيم في القوى المتحاربة؛ وأن الدائرة قد دارت على الحكومات المطلقة وعقد النصر للدول الديموقراطية؛ وإذا تأملنا تاريخ أوربا خلال القرن التاسع عشر، لمحنا أثر هذا النضال الدستوري في معظم الحروب والمعارك التي دارت رحاها فيه؛ فقد عقدت المعاهدة المقدسة في سنة 1815 بين قيصر روسيا، وإمبراطور النمسا، وملك بروسيا، أو بعبارة أخرى بين الأسر الثلاث التي تمثل الحكم المطلق وتتذرع بالحق الآلهي، وهم آل رومانوف، وآل هبسبرج، وآل هوهنزلرن، وغرضها الظاهر توثيق عرى الأخوة المسيحية والتحالف بين الدول الثلاث، وغرضها الحقيقي مقاومة الحركات الشعبية والدستورية؛ وقد كانت أوربا طوال هذا القرن كله مسرحاً لكثير من هذه الحركات التي ترمي إلى الحد من طغيان الحكم المطلق ومساوئه، وتنمية الحقوق العامة للفرد سواء في الدولة أو المجتمع

إن مجرى السياسة الدولية الحالية يفصح بذاته عن مظاهر تلك المعركة الكبرى التي يسير هذان المعسكران إلى خوضها؛ فإنكلترا وفرنسا تعملان من ناحية على مؤازرة عصبة الأمم، وإقالتها من عثرتها السحيقة في المسألة الحبشية، ومن ورائهما السوفييت ودول أوربا الصغرى كلها تؤيد هذه الحركة، لأن مبدأ السلامة المشتركة الذي أريد أن يكون دستور عصبة الأمم ضماناً لتحقيقه، قد صار بعد ظفر الفاشستية المعتدية بالاستيلاء على الحبشة - وهي من أعضاء العصبة - عقيماً لا أثر له من الوجهة الدولية؛ والدول الصغرى أضحت تخشى على مصايرها بعد انهيار هذا الضمان المشترك الذي كانت تعتمد عليه. ونرى من جهة أخرى إيطاليا وألمانيا تسخران من عصبة الأمم، ولا تدخران وسعاً في مناوأتها وعرقلة أعمالها لأن توطيد السلامة المشتركة وحريات الأمم وحقوقها إذا تحقق بعمل دولي قوي من جانب الدول الديموقراطية، فانه يقف سداً في وجه أطماعهما في التوسع والاستعمار، ويؤدي إلى ضعف النظم الداخلية التي تغذي هذه النزعة الخطرة على حقوق الأمم وحرياتها

والخلاصة أنه حيثما تأملنا في نواحي السياسة الدولية ألفينا مظاهر المعركة الحاسمة التي يوشك أن تخوضها الديموقراطية. والديموقراطية تلتزم خطة الدفاع لأنها بطبيعتها أقل ميلاً إلى الحرب، ولأن الدول التي تمثلها، هي فريق الدولة الراضية المستأثرة بالسيادة الاستعمارية الواسعة والموارد الغنية؛ ولكنها ستضطر إلى الدفاع عن نفسها إذا هوجمت، وعندئذ تقع معركة الفصل في مصاير أوربا الجغرافية والدستورية، وتقع معركة الفصل في مصاير المدنية، فأما أن تفوز الديموقراطية فتفوز بذلك المدنية المؤسسة على احترام الحقوق والحريات البشرية، وإما أن تفوز مبادئ القوة الهمجية التي تنادي بها الفاشستية والهتلرية، وعندئذ تنهار نظم الحضارة المستنيرة وترجع أوربا إلى نظم العصور الوسطى

ولكن الديموقراطية التي صمدت لهذه القوى الهمجية منذ القرن التاسع عشر تستطيع بلا مراء أن تدافع عن نفسها ومن ورائها الرأي المستنير في العالم كله

* * *

هنري روبير

عضو الأكاديمية الفرنسية ونقيب المحامين

للأستاذ عبد الحليم الجندي المحامي

إلى المحاماة، في شخص المحامي الأول، والنقيب الأول،

إبراهيم الهلباوي بك

في 13 مايو الماضي مات هنري روبير نقيب المحامين في باريس وعضو الأكاديمية،

ووقف لتأبينه النقيب (دي مورو جيافري) فقال: (إن المحاماة قد فقدت اليوم أكبر رجل رفع من شأنها منذ عهد بريبه). وهي عبارة تعطيك أبلغ فكرة عن مكانة هنري روبير في التاريخ؛ فلعل (بريبه) أكبر رجال المحاماة في التاريخ الفرنسي؛ هو الذي حمل لواء الدفاع عن (لامنيه)، وعن (شاتو بريان) ضد لويس فيليب عندما هتف قائلاً للدوقة (دي برِّي): سيدتي، إن ابنك هو الملك. وكان لويس فيليب يومئذ هو الملك! ثم ترافع عن البرنس لويس نابليون عندما طلب إعدامه فأنقذه دفاع (بريبه) ليصير بعد سنين جلالة الإمبراطور، وهو الذي كان يدافع عن المتهم في إحدى جنايات القتل فأخذ محامي المدعي المدني (النقيب كرسون) يحذر القضاة من عبقرية الدفاع الذي سيسمعونه من فخر التاريخ القضائي في فرنسا. فإذا جاء هنري روبير بعد هذا الرجل الخالد دون أن يقف أمامه ش دستايج أو ليون ديفال أو جول فافر أو روس أو (ألو) أو محامي مدام لافارج الذي كان يقول عن نفسه: (أنا الدفاع) صديق الإمبراطور الشخصي أعني (لاشو)؛ ثم باربو؛ ثم لابوري، لابوري الهائل، الذي نفذ رصاص الحمقى إلى جسده ولم ينفذ الرعب إلى قلبه، فطلب تأجيل قضية إميل زولا حتى يبرح المستشفى ليترافع ضد الجيش وحزب الجيش ومنهم مطلق الرصاص؛ لابوري الذي قال عنه هنري روبير وهو يلقي الكلام في تأبينه: (قوة من قوى الطبيعة ومارد في موقف الدفاع)؛ ثم دي بوي أستاذ بوانكاريه؛ والرئيس أو النقيب بوانكاريه نفسه، محامي جونكور وجائزة جونكور ووصية جونكور؛ والرئيس فيفياني أو البلاغة كما كان يسميه بنو العصر؛ وشنى (أفضلنا) كما كان يقول هنري روبير؛ ووالدك روسو؛ والنقيب (بويو) حفيد النقيبين أو قل وزيري الحقانية بويو وباروش. . كل أولئك لا . . .يراهم جيافري قد أعلوا من شأن المحاماة مثلما أعلى من شأنها هنري روبير

وفي الحق أن هنري روبير قد بلغ ذلك الأوج لظروف خاصة؛ فهو قد ظل ربع قرن كامل محامي فرنسا الأول، حتى ليكاد المرء يخاله قد وصف نفسه عندما وصف فيكتور هوجو بأنه استوى على عرش الأدب نصف قرن كأنه نصف إله؛ وفرنسا أمة محامين تحكمها حكومة محامين. وكان هنري روبير (نقيب الحرب) كما كانوا يقولون إذ ظل نقيباً لمدة أربع سنوات دون أن يعاد الانتخاب؛ فالمحامون كانوا جميعاً في الخنادق، ولم يكن لذلك بد من تأجيل الانتخابات؛ وبذلك اقترن اسمه بالنظام القضائي طيلة أيام المحنة. وكان يلقي في تأبين المحامين الذين تفقدهم فرنسا كلمات خالدة تخلب الألباب. وكان يمثل المحاماة في كل معترك، ويحمل رداءها في كل حفل. وهكذا حمل اسمها ولواءها عند الكافة. فلما خمد لهيب جهنم لم تخب تلك الشهوة اللامعة فارتفعت بصاحبها من مستوى الذين يموتون إلى مستوى الذين لا يموتون في سنة 1923 خلفاً لربيو. وكانت آخر كلمة له في المجمع تأبين الفقيد الجليل جاك بانفيل؛ حتى إذا تفرغ للتأليف من سنة 1928 أخذ يقرؤه عالم الأدباء بعد أن كان يقرأ عنه، وبعد أن كان محامياً عن الأفراد أصبح محامياً عن المحاماة؛ وبعد أن كان اسمه يذكر بمناسبات أصبح اسمه يدوي في المسامع باستمرار

وظل هنري روبير طول أيامه عزوفاً عن السياسة معتزاً بالمحاماة، فلم يغب باسمه ولا بجسمه عن قصر بوربون

إلى تلك الملابسات التي أحاطت بالرجل كان الرجل نفسه كنزاً زاخراً حافلاً بالكفايات، والكفايات في أمة كفرنسا وفي وسط كالمحاماة يندر أن تضيع

هذه الشخصية الخالدة يجب أن ندرسها في مصر، ولو في عجالة وبإيجاز. ولعلي بهذا البحث أشق الطريق للأدب المرجو الذي أنادي به من عشر سنين: أدب المحاماة

ولد هنري روبير في 4 سبتمبر سنة 1863، وفي 29 أكتوبر سنة 1885 حلف اليمين لينتظم في سلك المحامين. وفي يوليو سنة 1887 انتخب سكرتيراً لمؤتمر المحامين وانتخب معه اثنان آخران يكفي أن تعرف اسميهما لتدرك مقدار ما يتضامن الماضي مع المستقبل، فأولهما الأستاذ واتين الذي يتولى اليوم توزيع العدالة وشرع الأحكام في كرسيه في رياسة دائرة محكمة النقض؛ وأما ثانيهما فانه فرنان لابوري: وما أدراك ما لابوري؟

لسان الدفاع عن فايان الذي ألقى القنبلة الأولى على مجلس النواب، ذلك الدفاع الذي لا نستطيع بعد قراءته إلا أن نتساءل مع هنري روبير: (كيف لم يبرئوا المتهم؟) ولسان الدفاع عن أميل زولا؛ الدفاع الذي أفقده أمواله وعملاءه وأكسبه الفخار

والشرف: والذي نقل إلى الأجيال أروع كلمة قالها محام في الذب عن حياض المحاماة؛ فعندما هوت من فم النائب العام - وهو جالس على كرسيه بجوار المحكمة في أعلى القاعة - كلمة جارحة بالنسبة للابوري صرخ صرخته الداوية في وجه النائب: (إن الشتائم التي تساقطها من كرسيك الرفيع لن تستطيع - مهما كان كرسيك عالياً - أن ترقى إلى المنصة التي يترافع منها الدفاع)

ولم يكد هنري روبير يستمرئ حلاوة ظفره في الانتخاب حتى اختاره النقيب دريبه سكرتيراً له وولاه أعمال مكتبه في أول أكتوبر سنة 1887

وقضى السكرتير الجديد بمكتب النقيب سنتين حتى قبض الله إليه النقيب فلم تبرح ذاكرته ذكراه حتى قضى هو الآخر فتراه يهدي إليه بعد أربعين عاماً كتابه (المحامي)، فتراه يختصه بأروع الصفحات في بعض مؤلفاته؛ فلقد كان دريبه أباً يخلص الحب، ولم يكن أستاذاً فحسب؛ كان يفتح صدره لسكرتيره، وكان يفتح أمامه أيضاً أبواب داره.

وفي نوفمبر سنة 1888 رحل النقيب والسكرتير للمرافعة في قضية القتل التي قارفها تلميذ بول بورجيه وصديقه كاميج والتي أوحت لعميد الأكاديمية المتوفى (بورجيه) أروع مؤلفاته وهو كتاب (التلميذ)، فلقد قتل كامييج عشيقته الفاضلة مدام جريل بعد أن تعاهدا على الانتحار فأصابها ثم أخطاء نفسه؛ فترافع دريبه ومن ورائه هنري روبير ففتح لنفسه طريق الخلود

وفي ذات ليلة انتقلت هيأة الدفاع كاملة! على ضوء الشموع لا إلى المحكمة ولكن إلى المقهى، ولا لتطلع على المستندات ولكن لتطلع على رقص (أولاد نايل)، فهمس دريبه في أذن سكرتيره (يا صديقي ماذا يقول مجلس النقابة إذا رآنا هنا؟) فأجابه زعيم الارتجال (هو بلا شك يحسدك يا سيدي النقيب!)

وأخذ هنري روبير يمشي قدماً في عالم المحاماة، وكانت الحياة رخية في أعقاب حرب السبعين إلى فاتحة القرن الحالي، فلم يكن يخشى على الكفايات الممتازة من منافسة الجشع والخسة والأساليب الدنسة التي تخلقها ظروف الحياة العصيبة، فتهيأت للمحامي الناشئ

قضايا هائلة ظهر فيها هائلاً أيضاً، فترافع عن جبريل بومبار في سنة 1890 ليستل رأسها من تحت المشنقة، وعن واشيه المتهم بقتل أبيه ليظفر لدولمن معه ببراءة خالصة وفي سنة 1898 ترافع عن الطبيب لايورت مرافعته الخالدة. وفي سنة 1902 ترافع عن مدام همبير ضد الصيرفي قطاوي واختتمها بتلك الكلمة التي اختتم بها الأستاذ سابا حبشي مرافعته القيمة في قضية نزاهة الحكم (. . . وستثبتون ببراءة مدام همبير أنكم تصدرون أحكاماً ولا تؤدون خدمات) وفي سنة 1904 ترافع عن المهندس بيير في مقتل كاديو، وفي سنة 1908 في مقتل ريمي الخ الخ. . وفي سنة 1925 ترافع عن بوربووش وفي سنة 1929 ترافع عن الجنرال ميشيل فنال له ما عجز عن نيله أستاذ الجيل (لاشو) في محاكمة المارشال بازان عن موقفه في حرب السبعين، ثم عن الحسناء البولونية فالنتين أو متسكا، ثم عن القسيس هيجي، ويومئذ اختتم مرافعته أمام محكمة جنايات السين بما ختم به عمله القضائي الخالد أمام تلك المحكمة قائلاً: (. . أيها الأب. . صح معي وبأعلى صوتك: فلتحي فرنسا.)

فما هي إذن تلك الكفايات التي رفعت صاحبنا وصاحبها إلى تلك الذروة؟ الجواب عندي يتلخص في كلمة واحدة هي: أنه كان يفهم قضاياه كما كان يفهم عقلية القضاة؛ وهذا هو الذي جعله بحق أحدث القدماء وأقدم المحدثين. وبعبارة واضحة هذا هو الذي جعله مترافعاً عظيماً في أواخر قرن البخار، مترافعاً عظيماً في أوائل قرن اللاسلكي؛ بل بعبارة أوضح هذا هو الذي جعله يكيف المرافعات (التقليدية) التي كانت آية البيان في أعقاب الحرب الأولى، أعني حرب السبعين بما يستسيغه القضاة بعد الحرب الثانية في سنة 1920: هؤلاء القضاة الذين يضعون الساعة أمام عيونهم فان لم يضعوها أمامهم تصوروها كائنة في رؤوسهم. . . تدق باستمرار . . . !

نحن الآن في المحكمة، وهذا هو النائب العام يترافع؛ وذلك محام هادئ يكاد ينام؛ لكنه نهض الآن، رفيع القامة، رفيع المقام، يتكلم في سرعة غريبة كأنه يخشى أن يُدفع ضده بفوات الميعاد! إنه يتكلم كأنه يتحدث؛ وها قد مضت خمس دقائق دون أن يظهر لك أنه محام كبير، لكنه قد أوغل في صميم الموضوع فوراً، وحميت الوقدة واندلع

لهيب النار، فهو يضرب يميناً ويضرب شمالاً وبقسوة وبصوت محترم، والحجج تنساق متدافعة معجلة
إلى أسماع المحلفين فيعجبون لتقديم هذا المتهم البريء! وفي عشرين دقيقة أو ثلاثين!! يبدو لهم أن النائب المترافع كان يسيء استعمال وقتهم عدو ساعات في مرافعاته ضد رجل طاهر كالطهر، مظلوم كالمسيح
تلك كانت صورة هنري روبير وهو يترافع كما حكى لنا سامعوه ومؤرخوه وكما يظهر لنا من كتاباته
حدثنا هنري روبير عن رجل من أرباب القضايا دخل القاعة فوجد محامياً يترافع، فتساءل من الأستاذ؟ فقيل له إنه الأستاذ (آنتل) قال: كيف هذا؟ إنه يتحدث في بساطة مجردة! لا يمكن أن يكون هذا هو الأستاذ آنتل البعيد الصيت!
فإذا رجعت إلى كتاب الأستاذ الجداوي المسمى (مرافعات) وجدت أن الأستاذ الجداوي هو ذلك الرجل الذي دخل القاعة، وأن المحامي الذي تساءل عنه وتلقى الجواب بدهشة وبإعجاب لم يكن الأستاذ آنتل بالطبع ولكنه كان الأستاذ هنري روبير!.
وفي مقال بعث به إلى فقرأه الأحياء في 21 مايو الماضي بعد أن كان هو قد سقط من سجل الأحياء!. في ذلك المقال المعنون: (فتحت الجلسة) محض هنري روبير المحامين النصح أن يقرءوا مرافعات (والدك روسو) ليتعلموا فن (البساطة والسهولة والدقة). وفي كتاب (المحامي) يهيب بالمحامي أن يتذكر أنه يقف أمام القضاء (ليقنع لا ليلمع) وأن القرن السادس عشر قد حمل إلينا وديعة من أجيال الفصاحة القضائية الأولى هي أن تترافع (باختصار وبلباقة وبإخلاص)؛ وعلى ذلك تجد مؤلفاته كمرافعاته؛ فهو يبدأ مرافعاته لينتهي منها بسرعة وحرارة، وأنت تبدأ قراءة كتبه فلا تستطيع أن تدع الكتاب حتى تصل إلى خاتمته؛ وهذا كتاب قضايا التاريخ الكبرى يعرض للناس أفظع ما اجترح الضمير الإنساني من أوزار وحيل وخبائث، وهذه مرافعته الفنية عن الدكتور لابورت، كل تلك الأعمال يبسطها روبير فتروعك بسهولة عبارتها وسحر دلالتها حتى لكأنها دروس تلقى على التلاميذ!.
ذلك لأنه كان يفهم قضاياه فيعرضها من حيث يجب أن تعرض؛ وما دام يفهمها فهو - بأسلوبه - فمين أن يُفهمها؛ ومن المسلم به أن الذي لا يفهم لا يستطيع أن يفهم، وأن تبسيط الأشياء أصعب من تعقيدها، وأن الغموض في العبارة هو غالباً أثر الغموض في التفكير
ويمتاز هنري روبير من رجال الدفاع في العالم طرا بالسرعة المتناهية في الإلقاء، وله من جراء هذه السرعة حادثة ذكرها لنا في مقال (كانديد)، إذ كان يترافع عن قاتل عشيقته فقال وهو يطير في أجواء الكلام (. . . فعقد العزم على أن يقتل نفسه ثم يقتلها فوراً. .) ولم ينتبه أحد سواه إلى ما في هذا الكلام من استحالة لأن الجمهور والمحلفين كانوا يجرون معه إلى الغاية كالزورق الذي يحمله التيار
ولذلك الإسراع تجده ينتزع المتهم من براثن النائب العام بعد 17 دقيقة فقط كما شهدت المحامية أوديت سيمون أو (بعد عشرين دقيقة لا أكثر ولا أقل) كما تعهد هو للمحلفين وهو يستهل الدفاع في قضية بوبوروش عندما قتل الرجل الذي أخبره أن امرأته تخونه. ومن الغريب أن يقولها للمحلفين بعد أن قال ساخراً (. . ساعتان كاملتان، واتهامان متضافران، من المدعي المدني ومن النائب العام!) ثم يختتم دفاعه وهو يناجيهم (. . . إنني أرجو أن تبرئوا بوبوروش حتى إذا عدتم إلى مساكنكم في المساء ألقيتم على زوجاتكم وبناتكم نظرات كلها اطمئنان). وفي 28 يونيو سنة 1913 كتب الأستاذ (فرنان بايان) - قبل أن يصبح نقيباً، ومؤرخاً لبوانكاريه - كتب في الفيجارو دراسة لهنري روبير نشرها في كتابه وعلل هذه السرعة بأن الرجل يخشى أن يضيع أثر كلامه في المحلفين، فهو ينتهي منهم بسرعة ليتركهم تحت أثقال حججه وبراهينه. وعندي أن العلة في ذلك كانت صفاء عقل هنري روبير وقدرته على الارتجال، ذلك الارتجال الذي قال هو عنه كما سيجيء بعد: إنه نتيجة ترديد الكلام قبل المرافعة، حتى كان يسمي نفسه (آلة كلام)، فهو كان يبدأ لينتهي؛ أفكار واضحة وعبارات حاضرة؛ كان يفتتح المعركة لينتهي منها بأسرع ما يستطيع؛ والنصر الحاسم هو غالباً النصر السريع. ثم - وهذه مسألة أساسية - كان هنري روبير عدوا للتصويرات البيانية ولحشد الأمثال والسوابق، فهو كان مقيداً دائماً بموضوعه، لا يرسم الصور، ولا

يلقي الحكم، ولا يتفيهق بالألفاظ، ولا يتطلب الشهرة، لأنها قد دانت من زمان؛ فهو إذن يلقي الحجج واحدة بعد أخرى كالفيلق في آثار الفيلق، وكالانتصار في أعقاب الانتصار؛ وهو إذن كان يستغني عن أربعين دليلاً بأدلة أربعة لها قوة الأربعمائة ووضوح الدليل الفرد

كان هنري روبير يرتجل كما قلنا، لكنه يشرح ارتجاله حيث يقول (إنني لا أفكر في الكلام

حين ألقيه) ثم يقول (أنا لا أحضر مرافعاتي بالكتابة؛ وإنما أترافع بيني وبين نفسي على انفراد وبلا صوت عال؛ لا أتكلم، وإنما تجري العبارات في مخيلتي وأنا أمشي أو وأنا في عربتي، وفي المساء تتوارد لدي خواطر ذات بال (وهذه العبارة تشرح للقارئ حالة خاصة كان يشهدها سامعوه عندما يفتتح الجلسة في قضية خطيرة، إذ كانت تبدو عليه علامات الانفعال. وقديماً كان (تورين العظيم) لا يدخل المعركة إلا وهو يرتعد، فكان ينادي جسمه (ارتعد. . تزايل. . إنك لا تدري إلى أين أقذف بك. . .) وكان تورين أعظم القواد في تاريخ فرنسا عند نابليون

أما خطة هنري روبير في مرافعاته فقد تعلمها على الرجل الذي كسب ستين معركة؛ وهي أن الهجوم خير وسيلة للدفاع. فإذا شرع في مرافعته اتجه في شتى الجهات يبحث عن متهم غير موكله ليلقي عليه أفدح أثقال الاتهام؛ فإذا لم يكن هناك مجرم آخر فلا شك أن هناك أباً لم يعلم ولده فهوى به - هو - إلى أحضان الجريمة؛ أو أن هناك تحريضاً أو استفزازاً وإلا فاستسلاماً صدر من المجني عليه؛ أو أن الهيئة الاجتماعية قد قصرت أو أساءت إلى غير ذلك من أساليب الدفاع، وإذا شئت فمن أساليب الاتهام. والذين سمعوا وهيب دوس يترافع في قضية نزاهة الحكم أو في مقتل السردار أو في قضية الأطباء - بخاصة - يدركون مقدار ما يتساوى الرجلان في تلك الخطة التي شرعها نابليون للناس، أو نقلها عن هانيبال للأجيال اللاحقة، عندما كان يعلم بقيام حلف ضده في وسط القارة أو في شرقها أو في غربها فلا ينتظر في قصر التويلري بل تجده مرتين تحت أسوار فينا ومرة أخرى في قصر فردريك العظيم ليأخذ ساعته الدقاقة إلى سنت هيلين من بعد باريس!. . . ومرة ثالثة تجده في موسكو. . . أمام الحريق، بل أمام اللانهاية، بل أمام باب الفشل. . . . .

(البقية في العدد القادم)

عبد الحليم الجندي

شعراؤنا المنسيون

الأبيوردي

المتوفى في مثل هذا اليوم (20 ربيع الأول) سنة 557

بمناسبة مرور (798 سنة) على وفاته

للأستاذ علي الطنطاوي

مقدمة: بين المعري والبارودي عصر أدبي مديد قد نسى اليوم أو كاد، فمحي من برامج التعليم عندنا، وحكم عليه جملة واحدة بأنه عصر انحطاط في الأدب وجفاف في القرائح، وضعف في الإنشاء، وقحط في الرجال، وانصرف عنه الناس - إلا الخاصة من أهل الأدب - وزهدوا فيه، وارتضوا لأنفسهم الجهل به، وانقطعت الصلة بينهم وبينه، فلا تقرأ لأحد بحثا فيه، ولا تحليلا لشاعر من شعرائه. ولا تسمع اسم رجل من رجاله يتردد على أطراف ألسنة الخطباء، وأسلات أقلام الكتاب، كما تردد اسم بشار والبحتري والمتنبي والمعري، في حين أن هذا العصر الطويل قد أنجب شعراء إذا هم لم يضارعوا الفحولة السابقين، فليسوا خالين من كل مزية، ولا عاطلين من كل حلية. بل إن فيهم لشعراء فحولا، زودوا الأدب العربي بزاد قيم، وأورثونا أدبا جما، وشعراً كثيرا من حقه أن يحفظ وينظم، ويدرس ويحلل. لا سيما ونحن في إبان نهضة أدبية شاملة. . .

وقد أحببت أن أفتح هذا الباب في (الرسالة) لأنها اليوم بمثابة الإمام في الأدب العربي، ولأن في يدها دفة السفينة فهي التي توجهها الوجهة الصالحة إن شاء الله. ولست أسوق هذه الكلمة على أنها دراسة كاملة لهذا الشاعر. ولكن على أنها كلمة موجزة عن نفسيته وشعره، بمناسبة ذكرى وفاته، عل هؤلاء الشعراء المنسيين يبعثون كما بعث بن الرومي من قبل. فيقام للأبيوردي بعد سنتين مهرجان كمهرجان المتنبي

بمناسبة مرور ثمانية قرون على وفاته. . . (ع)
قال الأبيوردي:
تنكر لي دهري ولم يدر أنني ... أعزّ وأحداث الزمان تهون
فبات يُريني الخطب كيف اعتداؤه ... وبتّ أريه الصبر كيف يكون
والأبيوردي هو أبو المظفر محمد بن أحمد الأبيوردي المعاويّ الأموي العبشمي الذي يقول:
ملكنا أقاليم البلاد فأذعنت ... لنا رغبة أو رهبة أُمراؤها
فلما انتهت أيامنا علقت بنا ... شدائد أيام قليل رخاؤها
وكان إلينا في السرور ابتسامها ... فصار علينا في الهموم بكاؤها
وصرنا نلاقي النائبات بأوجه ... رقاق الحواشي كاد يقطر ماؤها
إذا ما هممنا أن نبوح بما جنت ... علينا الليالي لم يدعنا حياؤها
هذه نفس الأبيوردي، وهذا شعره
قال الشعر فأكثر، وسار فيه على سنن من تقدمه وعاصره، فمدح وهجا وتغزل، واستنفد المدح أكثر شعره، وعُنى بالصناعة البديعية، وغاص على المعاني المبتكرة، والتوليدات الدقيقة؛ وكان شأنه في ذلك شأن جمهرة الشعراء المداحين لم يأت فيه بجديد، ولم تكن له ميزة في شيء منه، ولكن ميزته في شيء وراء ذلك كله، هو أن له شخصية قوية واضحة تشبه شخصية المتنبي في كثير من نواحيها، وإن هذه الشخصية تظهر في شعره كله، في المدح وفي الهجاء وفي الغزل
وستفهم هذه الشخصية، وترى مبلغ ظهورها في شعره حين تعرف نسبه وأخلاقه، وتقرأ ما سأعرض عليك من شعره
أما نسبه فقد علمت أنه يتصل بأبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس جد الخلفاء الأمويين، الذين ملكوا الدنيا، وفتحوا المشرق والمغرب؛ وقد كان الشاعر معتزاً بهذا النسب لا ينساه ولا يكتمه، ولا يحجم عن أن يواجه به الخلفاء من بني العباس، وأن يفاخرهم به في وجودهم!
كتب مرة إليّ أمير المؤمنين المستظهر بالله رقعة على رأسها الخادم المعاويّ، فغضب الخليفة وأخذ الرقعة فكشط الميم من المعاويّ وردّها إليه. . .
وكان مرة يمدح الخليفة المقتدي العباسي، ففخر أمامه بنسبه الأموي، ووازاه بنسب الخليفة، ولم يزد على أن جعل جدّ الخليفة العباسيّ (ساقي الحجيج) ندا لجده وقريعاً، قال:
وقد ولدتني عصبة ضمّ جدّهم ... وجدّ بني ساقي الحجيج عروق
وإني لأبواب الخلائف قارع ... بهم ولساحات الملوك طروق
ولم يكن يمتنع من أن يفخر بأجداده الأمويين، ويملأ الدنيا ثناء عليهم، ويفضلهم على الناس كلهم، على مسمع من العباسيين أرباب السلطان وأولياء الأمر، وأن يعرض في فخره بالدولة العباسية وزوالها، قال:
أنا ابن الأكرمين أباً وجداً ... وهم خير الورى عماً وخالا
أشدّهم إذا اجتلدوا قتالا ... وأوثقهم إذا عقدوا حبالا
وأرجحهم لدى الغمزات عوداً ... إذا الخفرات خلين الحجالا
(إلى أن قال):
وهم فتحوا البلاد بباترات ... كأن على أغرتها نمالا
ولولاهم لما درّت بفيء ... ولا أرعى بها العرب الفصالا
وقد علم القبائل أن قومي ... أعزّهم وأكرمهم فعالا
وأصرحهم إذا انتسبوا أصولا ... وأعظمهم إذا وهبوا سجالا
مضوا وأزال ملكهم الليالي ... وأية دولة أمنت زوالا؟
أما أخلاقه فقد كانت أخلاق الصيد من الملوك، لا أخلاق المداح من الشعراء، فقد ذكروا أنه كان عالي الهمة، عزيز النفس، متكبراً تيّاهاً، ذا بأو وصلف وعجب، وكان يتخذ العبيد والغلمان، ويأمر من يمشي بين يديه بالسيف فعل الملوك، وكانت له آمال سياسية، كان يرجو أن يبلغها من طريق المرتبة والولاية، فطلبها وألح في طلبها؛ فلما أيس منها عزى نفسه بأنه سيطلبها بالسيف، فهو يشبه في هذا المعنى المتنبي شاعر العرب الأكبر؛ يدلّ على آماله السياسية وطموحه إلى الملك شعره الذي سيمر بك

عما قريب، ودعاؤه عقب كل صلاة: (اللهم ملكني مشارق الأرض ومغاربها)، وتيهه على ممدوحيه من الملوك والوزراء، وفخره بنفسه بين أيديهم
أما الشعر فكان ينظمه ترويحاً عن نفسه، وترجمة عن أدبه، ويمدح به من يمدح للأدب لا للنشب، وللوفاء لا للعطاء:

ولم أنظم الشعر عجباً به ... ولم أمتدح أحداً من أرب
ولا هزّني طمع للقري ... ض ولكنه ترجمان الأدب
إني بمدحك مغري غير ملتفت ... إلى ندى خضل الأنواء مطلوب

وكان يترفع عن أن يستجدي بالشعر، وأن يعد من الشعراء السؤّال. ويرى نفسه نداً لممدوحيه. فهو ينظم لهم هذه القصائد المعجزة. يبتغي بها ودهم وإخاءهم لا نوالهم وعطاءهم:

ولولاك لم تخطر ببالي قصائد ... هوابط في غور طوالع من نجد
لحقت بها شأو المجيدين قبلها ... وهيهات أن يؤتى بأمثالها بعدي
فهن عذارى مهرها الود لا الندى ... وما كل من يعزى إلى الشعر يستجدي

ولم يكن يسلك سبيل شعراء المدح في الكذب والغلو والمبالغة. ولكن سبيله وصف ما يرى من صفات ممدوحيه وخلالهم وصفاً صادقاً، لا كذب فيه ولا إغراق:

وصدق قولي فيك أفعالك التي ... أبت لقريضي أن أوشحه كذباً
لا زلت تلقح آمالاً وتنتجها ... مواهباً يمتريها كل محروب
وتودع الدهر من شعر أحبره ... مدائحاً لم توشح بالأكاذيب

وكان عارفاً بقيمة شعره، مؤمناً بعلو منزلته وجلالة قدره، فهو يوجه إليه أنظار ممدوحيه ويدل به عليهم، ويمن على من يمدحهم بأن ملوك الأرض يتمنون أن يمدحوا به، ولكنه لا يتنازل إلى مدحهم، ولا يعرج عليهم، ولا يلتفت إليهم:

قليل إلى الري الذليل التفاته ... وان كثرت للواردين المناهل
فدونك مما ينظم الفكر شردا ... سلبن حصى المرجان كل نظام
تسير بشكر غائر الذكر منجد ... يناجي لسانَيْ معرق وشآمي
ويهوى ملوك الأرض أن يمدحوا بها ... وما كل سمع يرتضيه كلامي
وكم ماجد يبغي ثناء أصوغه ... ولكنني عن مدح غيرك أزوُّر

ويودع سيداً كبيراً فلا يجد ما يأسف عليه عند وداعه إلا هذا الشعر الذي يضيق به الحساد، و (تكبو دونه الشعراء) وتنشده الأيام، أن يضيع بعد رحيله ولا يبقى له أهل يخاطبون به

رحلت فالمجد لم ترقأ مدامعه ... ولم ترق علينا المزن أكبادا
وضاع شعر يضيق الحاسدون به ... ذرعاً وتوسعه الأيام إنشادا
فلم أهب بالقوافي بعد بينكم ... ولا حمدت وقد جربت أجوادا

وإذا أنت سألت الشاعر عن منزلته في الشعر لما تردد في القول بأنه فاق الشعراء وبذهم؛

فإذا عجبت منه كيف يعجز الشعراء ويبذهم وهو واحد منهم، أجابك جواب المطمئن المؤمن بما يقول: المعتد بنفسه قائلاً:

فقت الأعاريب في شعر فأنت به ... كأنه لؤلؤ في السلك منضود
إن كان يعجزهم قولي ويجمعنا ... أصل فقد تلد الخمر العناقيد

فمن كان له هذا المجد التليد، ينم عنه هذا المنطق المبين:

ينم بمجدي حين أفخر منطقي ... ويعرب عن عتق المذاكي صهيلها

ومن كان سليل الملوك، وشاعر العصر، وذا المجدين: المجد الموروث وهو هذا النسب العالي النبيل، والمجد المكسوب وهو هذا البيان الصافي الأصيل، كان له أن يقوم بين أيدي ممدوحيه مقام العزيز الشامخ بأنفه، وأن يصرخ في وجه الوزير، وقد قام مادحاً له، فنسيه وذكر نفسه، فانقلب منافراً مفاخراً:

وسل بي المجد تعلم أيّ ذي حسب ... في بردتيّ إذا ما حادث هجما
يلين للخل في عزّ عريكته ... محض الهوى وله العتبى إذا ظلما
من معشر لا يناجي الضيم جارهم ... نضو الهموم غضيض الطرف مهتضما
والدهر يعلم أني لا أذل له ... فكيف أفتح بالشكوى إليه فماً

وكيف يشكو الدهر، وشعره غرة في جبين الدهر:

وكيف يشكو الدهر من شعره ... على جبين الدهر مكتوب؟
أو لست تذكر المتنبي شاعرنا الأكبر، حين تقرأ للأبيوردي فخره بنفسه وتمدحه بادلاجه في الليل، وانفراده في الفلوات ترنو إليه النجوم وهو ساع ليكسب قومه عزاً وفخراً في مطلع قصيدة يمدح فيها ويهنئ بالعيد. قال:

وبي عن خطة الضيم ازورار ... إذا ما جدّ للعلياء جدّي
فهل من مبلغ سروات قومي ... مصاحبتي على العَزّاء غمدي
وإدلاجي وجنح الليل طاوٍ ... جناحيه على نصب وكدّ
وقد رنت النجوم إليّ خُوصاً ... بأعين كاسرات الطرف رُمد
لأورثهم مكارم صالحات ... شفعت طريفها لهم بِتَلْدِ

وهو لا يزال أبداً يحب أن يجمع إلى المجد التليد مجداً طريفاً وأن يؤيد المجد الموروث بمجد مكسوب، لا يقنع بعلو نسبه ورفعة أجداده:

فشيدت مجداً رسا أصله ... أمت إليه بأمّ وأب

ولا يزال يمدح بهذه الخلة من يجدها فيه من ممدوحيه. قال:

مقتل السن عقيد النهى ... تقصر عن غاياته الشيب
والملك لا يحمل أعباءه ... من لم تهذبه التجاريب
شيد ما أثّل من مجده ... والمجد موهوب ومكسوب
أبو علي له في خندف شرف ... لف العلى منه موهوباً بمكسوب

وهو لا يقنع من المجد بالشعر والأدب، ولا بالمال والنسب، ولكن له أملاً سياسياً بعيداً، فهو يألم لما يرى من تفرق الأمراء وغلبه الأعاجم، وينتظر (رجل الساعة. . .) المصلح المرتقب، الذي يجمع شمل الأمة، ويعيد لها شبابها، فيدعو لذلك الملوك، ويهيب بهم، فلا يجد هذا البطل الأروع فرّاج الغمة، محيي الأمة:

دهر تذأب من أبنائه نقد ... وأوطئت عرب أعقاب أعلاج
وأينع الهام لكن نام قاطعها ... فمن لها بزياد أو بحجاج
وكم أهبنا إليها بالملوك فلم ... نظفر بأروع للغماء فراج

فيفتش في أمراء العرب وملوكهم فلا يجد فيهم من يرجى إلا الأمير أبا الشداد، فيقصده بقصيدة يستثيره ويستفزه، ويهيج في نفسه الحمية العربية، ويسأله كيف يرضى وهو اليوم أمل العرب وملجؤهم بأن يقنع العرب بصحراء زرود ورمال حاجر، بينما يأكل الأعاجم الدنيا، ويتناهبون الثراء والمجد، ويحضه على أن يثيرها داحسية شعواء:

فآيهٍ أبا الشداد إن وراءنا ... أحاديث تروى بعدنا في المعاشر
أترضى وما للعرب غير ملجأ ... توسدهم رملى زرود وحاجر
فأين الجياد الجرد تخطو إلى العدى ... على عَلَق تروى به الأرض مائر
وفتيان صدق يصدرون عن الوغى ... وأيدي المنايا داميات الأظافر
وحاجتهم إحدى اثنتين من العلى ... صدور العوالي أو فروع المنابر

فإذا يئس من أن يجد في الناس هذا الرجل، تقدم ليحقق أمله بنفسه، فكانت حاله كحال المتنبي، يسعى إلى رتبة أو ولاية يتخذها سلماً إلى مثله الأعلى، فيطلبها ولا يراها بدعاً ولا عجباً، ولا يراه خلق إلا لها. . . واسمعه يقول لمؤيد الملك:

إليك أوى يا ابن الأكارم ماجد ... له عند أحداث الزمان طوائل
تجر قوافيه إليك ذيولها ... كما ابتسمت غبّ الرهام الخمائل
وعندك ترعى حرمة المجد فارتمى ... إليك به دامي الأظلين بازل
قليل إلى الري الذليل التفاته ... وإن كثرت للواردين المناهل
وها أنا أرجو من زمانك رتبة ... يقل المسامي عندها والمساجل
وليس ببدع أن أنال بك العلى ... فمثلك مأمول ومثلي آمل

كان هذا أمله في حله وترحاله، وغايته من اغترابه عن بلده، ونأيه عن أهله، وما كان يطلب مالاً ولا ثروة، وما كانت به حاجة للمال ولا ضاقت أرضه برزقه، ورزق عياله، واسمعه يقول لسيد الوزراء أحمد بن الحسين:

ولم نغترب مستشرفين لثروة ... فمرعى مطايانا بيبرين مبقل
ولكننا نحمي ذمار معاشر ... لهم آخر في المكرمات وأول

ومن سلبته نوشة الدهر عزه ... فنحن لريب الدهر لا نتذلل
ولو هو أراد الغنى لناله، لا سؤالاً واستجداء، ولكن على ظبي السيوف وأطراف الرماح، ولكنه يريد غاية بعيدة، دونها جرع الردى وحياض الموت، يسعى إليه بفتيان (من أمية) هم موقدو الحروب ومطفئوها:

ومن خاف أن يستصعر الفقر خده ... وفى بالغنى لي أعوجي ومنصل
ومكتحلات بالظلام أثيرها ... وهن كأشباح الأهلة نحّل
ولا صحب لي إلا الأسنة والظبى ... بحيث عيون الشهب بالنقع تكحل
وحولي من روقى أمية غلمة ... بهم تطفأ الحرب العوان وتشعل
سريت بهم والناجيات كأنها ... رماح بأيديهم من الخط ذبَّل
فحلوا حُبَى الليل البهيم بأوجه ... سنا الفجر في أرجائها يتهلل
وخاضوا غمار النائبات وما لهم ... سوى الله والرمح الرديني معقل
يرومون أمراً دونه جرع الردى ... تعلّ بها نفس الكميّ وتنهل
فبتنا وقد نام الأنام عن العلى ... نسارى النجوم الزهر والليل أليل

وتمر الأيام وهو لا يصل إلى شيء مما يؤمل، ويضيق بحالة الذل والمهانة، فيلوم نفسه على قعوده، ويعزم العزمة الفاصلة التي تكون فيها المنى والمنايا:

تقول ابنة السعدي وهي تلومني ... أمالك عن دار الهوان رحيل
فان عناء المستنيم إلى الأذى ... بحيث يذل الأكرمون طويل
وعندك محبوك السراة مطهم ... وفي الكف مطرور الشباة صقيل
فثب وثبة المنايا أو المنى ... فكل محبّ للحياة ذليل

وثبة أموية، ينال بها عزّ أجداده الأمويين ومجدهم. فليس العز إلا أن يغامر المرء. ويحمل نفسه على الخطة التي تبقي ذكره في الناس أبد الدهر، فأما أن يموت فيقال لله دره، وإما أن يكتب له الظفر:

ألم تعلما أني على الخطب إن عرا ... صبور إذا ما عاجز عيل صبره
فلا عزّ حتى يحمل المرء نفسه ... على خطة يبقى بها الدهر ذكره
ويغشى غماراً دونها جرع الردى ... فان هو أودى قيل: لله درّه
ولا بدّ لي من وثبة أموية ... بحيث العجاج الليل والسيف فجره

ولا يثنيه عن وثبته الأموية بعد المدى، ووعورة الطريق، وما يعتور السبيل إليها من أخطار وخطوب أهونها الموت، لأنه ألف حمل الخطوب، وتعود الصبر، وأعد للنائبات عزائم تروض إباء الدهر إذا شمس الدهر، ولم يحفل بالدنيا وهي غضة غريضة ولم يبال بها، أفيقبل عليها وهي جافة ذابلة، وهل تثنيه عن مرامه لذاذاتها؟ أسمعه حين يقول:

سل الدهر عني أي خطب أمارس ... وعن ضحكي في وجهه وهو عابس
سأحمل أعباء الخطوب فطالما ... تماشت على الأين الجمال القناعس
وأنتظر العقبى وإن بعد المدى ... وأرقب ضوء الفجر والليل دامس
وإني لأقري النائبات عزائما ... تروض إباء الدهر والدهر شامس
وأحقر دنيا تسترق لها الطلى ... مطامع لحظى دونها متشاوس
تجافيت عنها وهي خود غريرة ... فهل أبتغيها وهي شمطاء عانس
ولي مقلة وحشية لا تروقها ... نفائس تحويها نفوس خسائس

ولا يثنيه عنها رقة حاله، ورثاثة أطماره، فهو كالسيف القاطع البتار، لا يضره الغمد، وهمته كامنة في ضمير الدهر، ولا بد للضمير المستتر أن يظهر:

رأت أميمة أطماري وناظرها ... يعوم في الدمع منهلاً بوادره
وما درت أن في أثنائها رجلاً ... ترخى على الأسد الضاري غدائره
أغر في ملتقى أوداجه صيد ... حمر مناصله بيض عشائره
إن رث بردى فليس السيف محتفلاً ... بالغمد وهو وميض الغرب باتره
وهمتي في ضمير الدهر كامنة ... وسوف يظهر ما تخفى ضمائره

وكأنك تسأل بعد هذا كله، ألم يلق الشاعر شدة وعناء وهو يصرح بذكر الوثبة الأموية، ويدعو إليها علناً في ظلّ الحكم العباسي، ألم يتنكر له أولو الأمر، ويزوروا عنه ويناوئوه العداوة، ويبطشوا به؟ وها هوذا الشاعر يخبرك بأنه لقي أذى كثيراً، وشراً مستطيراً، فريع من غير أن يذنب، وجفى من غير أن يخون؛ ولكنه اعتصم بالصبر، ولاذ بالحزم،

ولم يلن ولم يشك ولم ينهزم:
وقد طرقتني النائبات بحادث ... لو أن الصفا يرمي به لتصدعا
أراع ولم أذنب وأجفى ولم أخن ... وقد صدَّق الواشي فأخنى وأقذعا
ولست وإن عض الزمان بغاربي ... أطيل على الضراء مبكى ومجزعا
إذا ما أغام الخطب لم أحتفل به ... وضاجعت فيه الصبر حتى تقشعا
ولماذا يذل ويخضع، وهو إن ضاقت عنه بلدة فستتسع له أخرى، وحسب البلدة عاراً أن يرحل الشاعر عنها، وإن أدلت عليه بابل بسحرها الحرام، فهو يدل عليها بسحره الحلال، ويجعل من شعره حيثما حلّ بابل. . .
أبابل لا واديك بالرفد منعم ... لدينا ولا ناديك بالوفد آهل
لئن ضقت عنا فالبلاد فسيحة ... وحسبك عاراً أنني عنك راحل
وإن كنت بالسحر الحرام مدلة ... فعندي من السحر الحلال دلائل
قواف تعير الأعين النجل سحرها ... فكل مكان خيمت فيه بابل
وأي فتى ماضي العزيمة راعه ... ملوكك لاروّى رباعك وابل
وبعدُ. . . فاسمع الشاعر نفسه يصف لك شخصيته، ويخبرك أنه يمدح ويأخذ، ولكنه أعزّ من أن يملكه الملوك بثوابهم ونوالهم، وأنه لا يستسيغ الذلّ ولا يحب أن يتمرغ فيه ظهراً لبطن، ولا يألف حياة الدعة والأمن في ظل الروض بين الكأس والطاس، ولا يفرق من المنايا ويخشى المهالك، ولكنه يريد أن يثيرها حرباً عواناً في سبيل غاياته ومطامحه:
سواي يجرّ هفوته التظني ... ويرخى عقد حبوته التمني
ويلبس جيده أطواق نعمى ... تشف وراءها أغلال منّ
إذا ما سامه اللؤماء ضيما ... تمرّغ في الأذى ظهراً لبطن
وظلّ نديم عاطية وروض ... وبات صريع باطية ودنّ
وأشعر قلبه فرق المنايا ... وأودع سمعه نغم المغنى
وصلصلة اللجام لدي أحرى ... بعز في مباءته مبنّ
فلست لحاضن إن لم أقدها ... عوابس تحت أغلمه كجنّ
وهأنا أوسع الثقلين صدرا ... ولكنّ الزمان يضيق عني
هذه شخصية الأبيوردي وهذا شعره، أفيستحق أن يهمل وينسى؟ . . .
(دمشق)
علي الطنطاوي
أثر الحرب الكبرى في بريطانيا - 2
للأستاذ رمزي ميور
أستاذ التاريخ الحديث في جامعة منشستر سابقاً
ترجمة الأستاذ محمد بدران
ناظر مدرسة بمباقادن الابتدائية
كذلك لم يعد لبريطانيا بعد الحرب ذلك السلطان الكبير الذي كان يوليها إياه تفوقها التجاري على أمم العالم أجمع. نعم أنها لا تزال تمتلك وتُسير ثلث سفائن العالم، وذلك لأنها أوسع أسواق الأرض حرية، لكن نصف سفنها معطل؛ وقد خسرت جزءاً كبيراً من تجارتها الخارجية التي تُعَوّل عليها في حياتها وإن كانت صادراتها (منسوبة إلى عدد السكان) لا تزال ضعفي صادرات أكبر الأمم المنافسة لها تقريباً. على أن ما فقدته من تجارتها الخارجية إذا رجع بعضه إلى خطأ ارتكبته فلا يرجع كله أو جله إلى ذلك الخطأ.
ذلك بأنها في أثناء الحرب اضطرت أن تضحي بمعظم أسواقها الخارجية لكي تركز جميع قواتها القومية في الأعمال الحربية. وذلك الفراغ الذي تركته شغلت بعضه أمم أخرى (كاليابان والولايات المتحدة) لم يُنقِض ظهرها عبء الحرب وشَغَل البعض الآخر ما قام من الصناعات القومية على أنقاض الواردات البريطانية. فلما وضعت الحرب أوزارها أقيمت لحماية هذه الصناعات حواجز من الضرائب الجمركية العالية، وأخذت الأمم جميعها في داخل أوربا وخارجها تعمل (للاكتفاء بنفسها)، فأدى ذلك العمل إلى النتيجة السالفة الذكر؛ وكان من جراء ذلك أن بريطانيا التي لا أمل لها في أن تكتفي بنفسها والتي لا تستطيع أن تحيا إلا بالاتجار مع العالم أجمع تجارة واسعة، انحطت إلى المنزلة التي انحطت إليها مدينة (ويانة) بعد الحرب. لقد كانت بريطانيا كما كانت ويانة

تعتمد في رخائها على موقعها في ملتقى الطرق التجارية الكثيرة فنالها ما نال ويانة بعد أن أقيمت الحواجز المتعددة في هذه الطرق التجارية، وإلى هذا يرجع معظم السبب في ازدياد عدد المتعطلين. وقد بلغ من خطورة هذه الحال الجديدة أن أخذ قسم كبير من الرأي العام يدعو إلى ترك نظام الحرية التجارية الذي تسير عليه بريطانيا واتباع سياسة (الاكتفاء بالنفس) التي تتبعها البلدان الأخرى. ولما كانت بريطانيا لا تستطيع أن تكتفي بنفسها إلا إذا خلصت من نصف سكانها فقد قويت فيها الدعوة إلى التوسل لتلك الغاية، غاية الاكتفاء بالنفس اكتفاء تاماً - بتوحيد الإمبراطورية من الناحية الاقتصادية. فإذا ما رضيت أجزاء الإمبراطورية بأن تتخلى عن مسعاها للاكتفاء بنفسها - وبعيد أن ترضى بذلك في القريب العاجل - كان معنى رضائها أن بريطانيا تضعف باختيارها أو قل تعطل ثلثي تجارتها الخارجية لكي تتفرغ إلى إنماء الثلث الباقي؛ وإذا فعلت ذلك فإنها تكون قد تحولت تحولا تاما عن السياسة التي قام عليها النظام الاقتصادي البريطاني حتى الآن

هذه التطورات تعد في مجموعها انقلاباً خطيراً في مركز بريطانيا ومبادئها يتطلب تعديلاً في سياستها القومية، ولاشك في أن بريطانيا تجتاز الآن أزمة بل خطراً قومياً شديداً. على أن كل تغيير بمفرده لا يعد خطيراً في ذاته. فإذا كان مركز بريطانيا الجزري لم يعد يكفل لها السلامة فان سياسة عالمية رشيدة تكفل لها سلامة أبقى وأعظم؛ ولا يزال موقع هذه الجزيرة في وسط أهم الطرق التجارية البحرية وفي قلب العالم المتمدين تقريباً خير موقع جغرافي يتمتع به بلد على وجه الأرض. وإذا لم تكن بريطانيا الآن سيدة البحار بلا منازع فان ذلك لا أهمية له إذا بقيت البحار في سلام. وإذا لم تكن لها (السيطرة على إمبراطورية فان خيراً من هذه السيطرة أن تكون هي القلب النابض لمجموعة من الأمم الحرة على شريطة أن تنظم هذه المجموعة تنظيماً يمكنها من أن تتعاون تعاوناً حراً. وقد تكون بريطانيا وراء غيرها من الأمم في اتباع أحسن وسائل التنظيم الصناعي، ولكن هذا أمر يستطاع تداركه بالعمل والحكمة. وإن اندماج أجزاء مقاطعاتها الصناعية وقربها من الثغور التي تستمد منها حاجاتها ومن مصادر القوى اللازمة لها، كل ذلك يكسبها ميزات عظيمة إذا أحسن الانتفاع بها. وقد لا تجد بريطانيا في بلادها حاجتها من الزيت أو القوى المائية. ولكن العلم والعمل كفيلان باستخراجهما من مناجم فحمها الغنية؛ وربما كان النقص قد اعترى قدرتها المالية، ولكن هذه القدرة لا تزال عظيمة برغم هذا النقص، وفي الإمكان زيادتها إذا اتخذت الوسائل الكفيلة بتشجيع الادخار؛ وإذا أحسن توحيد مجهودها القومي بقيادة رشيدة فان هذا المجهود خليق بتخفيف عبء الضرائب الذي لا يزيد كثيراً على ما كان عليه منذ مائة عام إذا روعيت النسبة بين العهدين. كذلك لا يرجى أن تحتفظ بريطانيا بما كان لها من تفوق عظيم في التجارة العالمية، ولكن إذا أيقن عمالها والمشرفون على الصناعة فيها أن الواجب يقضي عليهم بأن يقاوموا كل منافسة شريفة بكفايتهم وحدها وأن يكونوا أنداداً لمنافسيهم وأن ينظموا بيوتهم، إذا أيقنوا بذلك استطاعت بريطانيا أن تستعيد من الأسواق ما يضمن لأهلها ارتقاء مطرداً في مستوى معيشتهم، وأن تنمي مواردها وموارد الإمبراطورية نماء عظيما

ولكن يلوح أنها إذا شاءت أن تنال هذه الأغراض فان عليها أن توجه إليها مجهوداً قومياً عاماً شبيهاً بالمجهود الذي أنالها النصر في الحرب. ولا بد لها أن تتغلب على روح الاستسلام والقنوط وما يؤدي إليه من خور في العزيمة. وأخيراً إن بلوغ هذه الغاية موقوف على نوع الحكومة القائمة في البلاد وصفاتها، وذلك لأن واجبات الحكومة في الوقت الحاضر أكبر شأناً وأعظم أثراً مما كانت في الماضي. وإن للطريقة التي تؤدى بها هذه الواجبات أثراً بليغاً في نفوس الشعب لا يعادله أثرها في الماضي، ولذلك يهمنا أن نعرف كيف عدل نظام الحكومة البريطانية ذو الشهرة العالمية الكبيرة لكي يتفق مع مقتضيات العهد الذي أعقب الحرب

ليس الجواب عن هذا السؤال مما يسر له الخاطر؛ فإننا إذا حكمنا على الأشياء بنتائجها تبين لنا أن نظام الحكم البريطاني أقل نجاحاً من النظام الفرنسي أو الألماني الحديث في بعث روح النشاط القومي الموحد وفي قيادة الأمة في هذه الأوقات العصيبة؛ وإذا حكمنا على هذا النظام بأثره في أخلاق الناس من كافة الطبقات رأينا أنه لم يخلق زعماء أنجادا قادرين على التفكير والإنشاء ينالون ثقة الأمة ويتحملون التبعات أمثال

شترزمان في ألمانيا، أو بوانكريه وبريان في فرنسا (رغم ما فيهم من نقص). وقصارى القول إن هذا النظام لم يفلح في إشعار الأمة بحاجتها إلى توحيد جهودها وخلق الزعماء الذين يقودونها في بذل هذه الجهود

وقد يكون سبب هذا العجز أن بريطانيا الآن تواجه عهداً جديداً بإداة حكومية لا تستطيع أن تعالج ما فيه من المشاكل. ويلوح أن السياسة البريطانية يسيطر عليها أكثر مما يجب التنافس الدائم على السلطة بين الأحزاب المختلفة التي لا يبذل كل منها جهده في العمل الإنشائي المنتج بل في التشهير بغيره وكشف عيوبه ونقائصه. لسنا ننكر أن الأحزاب

السياسية أداة ضرورية للحكم الديمقراطي، ولكن يلوح أن نظام الأحزاب البريطانية جامد خال من المرونة يجعل المشرفين على سياستها شرذمة قليلة من الزعماء المطلقي التصرف يستقلون بوضع خطط الحزب، ولا ينفكُّ أتباعهم أنفسهم يضمرون في نفوسهم الثورة عليهم وإن أطاعوهم في إعطاء أصواتهم، وذلك لأن هؤلاء الزعماء ينكرون عليهم حرية المناقشة بله حرية العمل

لقد تكلمنا من قبل عما طرأ على نظام الحكم البريطاني من تغيير، وقلنا إن أهم مظاهر هذا الحكم مظهران: أولهما تركيز السلطة جميعها من تشريعية ومالية وإدارية في يد وزارة حزبية قليلة العدد أوقرت ظهرها المسئوليات الجسيمة التي أخذتها على عاتقها فأصبحت عاجزة عن النظر إلى حاجات الأمة نظرة واسعة المدى. وثانيهما حرمان البرلمان من كل سلطة إلا من إشراف صوري محض على أعمال الحكومة حتى صار عمله في الحقيقة مقصوراً على نقدها. إن في وسع البرلمان أن يشهر بأعمال الحكومة ويعطلها. ولكنه ممنوع من أن يعمل شيئاً من عنده لإصلاحها، فلا عجب والحالة هذه إذا لم يكن في الإمكان مواجهة الطوارئ القومية الخطيرة وعلاجها علاجاً ناجحاً. وإذا شاءت بريطانيا أن تنازل الصعاب التي قامت بعد الحرب وهي واثقة من النجاح كان عليها كما يلوح أن تبدأ بإصلاح زعامتها وأداتها الحكومية

الإمبراطورية البريطانية - 2

تتألف الإمبراطورية البريطانية من ثلاثة عناصر مختلفة: أولها الأملاك العظيمة التي تحكم نفسها بنفسها، وهي أملاك كانت منذ زمن طويل ولا تزال حتى الآن دولاً مستقلة كل ما بينها وبين بريطانيا من روابط أنها تدين معها بالطاعة لتاج واحد، وأنها تشترك معها فيما تتمتع به من نظم الحرية. وثاني هذه العناصر هو البلدان الشرقية ذات الحضارة القديمة، وهي الهند وسيلان وبلاد الملايو؛ وهي بلاد للحكومة البريطانية عليها إشراف مباشر أكبر مما لها على البلدان الأولى، وإن كانت هذه البلدان أيضاً أخذت تطالب بحقها في حكم نفسها بنفسها ونالت بعض هذا الحق في السنين الأخيرة. والعنصر الثالث أجزاء الإمبراطورية المحكومة، وتشمل أصقاعا واسعة في أفريقية لم تنضم إلى الإمبراطورية إلا في خلال الخمسين سنة الأخيرة. وهذه الأملاك تسيطر عليها الحكومة البريطانية سيطرة فعلية

بأشكال مختلفة. هذه الإمبراطورية العجيبة التكوين التي تشمل ربع مساحة المعمورة وربع سكانها، ليست موحدة التركيب ولا النظام، وليست لها قوة مركزية فعالة تفرض طاعتها على هذه الأجزاء، اللهم إلا قوة الأسطول. ولقد أخذ شكل هذه الإمبراطورية منذ عام 1830 يتغير تغيراً مضطربا حسب الظروف، ويتحول بالتدريج من إمبراطورية بالمعنى الصحيح إلى ما يسمونه الآن أسرة من الأمم

على أن هذه الإمبراطورية كانت إلى ما قبل الحرب بقليل وحدة متماسكة من ناحيتين مهمتين على أقل تقدير، فقد كان لها سياسة خارجية واحدة تسيرها كلها (هويت هول)؛ وكانت جميع أجزائها حتى الأملاك المستقلة التي كانت الروح القومية تضطرم فيها راضية بترك العلاقات الخارجية في يد وزارة الخارجية البريطانية، وذلك لقلة دراية هذه الأجزاء وقلة اهتمامها بمشاكل أوربا، واعتقادها أن لا شأن لها بهذه المشاكل؛ ولم يؤخذ رأي مندوبي الأملاك المستقلة في السياسة الخارجية إلا في السنين المضطربة التي سبقت الحرب عندما اشتد الخطر الألماني، فعقد المؤتمران الإمبراطوريان في عامي 1907، 1911؛ على أنه حتى في ذلك الوقت لم تتخذ وسائل رسمية لتنظيم طرق هذه الاستشارة أو الإدارة العامة، وبقي وزير خارجية بريطانيا هو نفسه وزير خارجية الإمبراطورية جميعها. كذلك كانت الإمبراطورية كلها تعتمد على نظام مشترك

للدفاع عن جميع أجزائها، وكان عبء هذا الدفاع يكاد يقع كله على عاتق بريطانيا، كما كانت أداته الفعالة بطبيعة الحال هي الدستور الذي يحفظ طرق المواصلات البحرية بين مختلف أجزاء الإمبراطورية مفتوحة. والذي جعل للأسطول هذه الأهمية أن الإمبراطورية البريطانية لا يستطاع غزوها براً إلا من مكان واحد هو حدود الهند الشمالية الغربية؛ فلما بدأت بريطانيا تخاف ألمانيا قبيل الحرب تبادلت أجزاء الإمبراطورية الرأي لأول مرة في شؤون الدفاع، واشتركت الأملاك المستقلة بعض الاشتراك في نفقات الأسطول، واتبع في تنظيم القوات الحربية القليلة التي كانت هذه الأملاك تحتفظ بها نظام الجيش البريطاني؛ وكان هذا الجيش قد أعيد تنظيمه قبل ذلك الوقت على يد اللورد هلدين، ولكنه مع ذلك لم توضع خطة للدفاع الإمبراطوري، كما أنه لم تكن ثمة استشارة إمبراطورية في الشؤون الخارجية

وكان كثير من الناس يتوقعون أن الإمبراطورية ستنهار وتتقطع أوصالها إذا ما لاح شبح الحرب لسبب ما هي عليه من ضعف في النظام. وكانت ألمانيا بوجه خاص تتوقع أن تنفض الأملاك المستقلة يدها من النزاع، وأن يندلع في الهند لهيب الثورة؛ وأن الأملاك الجديدة في أفريقية وغيرها من القارات سيحتاج الاحتفاظ بها إلى قوى كبيرة. لكن مجرى الحوادث بدد هذه الأوهام، وكان من أعظم مظاهر الحرب ما تجلى من روح الإخلاص الإجماعي الحماسي في كل جزء من أجزاء الإمبراطورية تقريباً، وما ضحت به هذه الأجزاء من أنفس وأموال تقدمت بها الشعوب في أطراف الأرض عن رضا وطيب خاطر، فقد جندت كندا وزيلندة الجديدة وأستراليا جميع رجالها تقريباً. ولما تمردت طوائف البوير المشاكسة في جنوب أفريقية أخمد البوير أنفسهم هذا التمرد على الفور، ثم بذل الشعبان اللذان تتكون منهما تلك البلاد جهداً عظيماً في الاستيلاء على المستعمرات الألمانية، وأرسلا كتائب من بلادهما إلى خنادق فرنسا. وفي الهند سكن الاضطراب السياسي الذي كان منتشراً قبل الحرب وأرسلت منها إلى فرنسا وفلسطين والعراق والصين جيوش لم ترسل الهند مثلها من قبل إلى ميادين القتال، ولاح أن الحرب ومحنها أثبتت صلاحية نظام الإمبراطورية الحر الطليق على الرغم من تراخيه وقلة تماسكه. لكن ضخامة هذه التضحيات بدل موقف الإمبراطورية بازاء مشاكل الدفاع والسياسة الخارجية، وأحدث في بناء هذه الإمبراطورية تطورات غاية في الأهمية، فلم يعد في الإمكان بعدئذ أن تعالج هذه الأمور وكأنها لا تعني الأجزاء النائية من الإمبراطورية، بل كان لا بد من استشارة ممثليها بوسيلة من الوسائل إذا أريد أن تبقى هذه قائمة

وفضلا عن ذلك فقد شعرت الهند، وكان لا بد أن تشعر، أنها بعد أن اضطلعت في الحرب بهذا العمل الخطير قد قويت حجتها في أن يؤخذ رأيها عن طريق الموظفين البريطانيين الذين يديرون دولاب حكومتها، وأن يعترف بأنها وحدة قائمة بذاتها، وأن تتمتع بما يتمتع به غيرها من أجزاء الإمبراطورية من حقوق الاستقلال الداخلي؛ وبذلك كانت الحرب سبباً في تقوية الحركة القومية في الهند وفي غيرها من أجزاء الإمبراطورية

(البقية في العدد القادم)

محمد بدران

في النقد أيضاً

للأستاذ محمد رفيق اللبابيدي

سيدي الأستاذ صاحب الرسالة

كنت أطمع، وكان القراء يطمعون معي أن نظفر بسلسلة متصلة الحلقات من ردود فحولة أدبائنا على ما عرضت له في (النقد المزيف)، وعلى ما عرض له الأستاذ أحمد أمين ومن جاء بعده؛ وكنا نود أن يكون لنا من هذا باب للولوج في بحوث أخرى تعيد الأدب رجْعه إلى أيام احتدام النهضة الأدبية فيثب بعض الوثوب بعد قعوده هذا القعود طوال عشر السنوات الأخيرة، وكأنا ذهبنا في أمانينا هذه بعيداً فلم يعدُ الكلام بضع كلمات شابها كثير من الألوان التي نشكو منها ويشكو منها أيضاً الأستاذ أحمد أمين. . .

وكاتب هذه الكلمة إليك - أو هذه الرسالة إلى صاحب الرسالة - من تعلم صغير جداً وضئيل، وليس له من القوة ما ينزل به في ميدان يصول فيه كبار الكتاب والأدباء؛ غير أنه ساير البعث الأدبي في مصر منذ حين طالباً فيها، وساير هذا الجمود في الأدب

أستاذاً في معهد ثانوي بعيد عنها؛ وقد يرى البعيد ما لا يراه القريب. ونحن معشر القراء في خارج مصر أقدر على الحكم المجرد من العاطفة فيما هو جدير بالاحتفال به من آثار الأدباء والعلماء؛ ثم نحن أقدر على إلغاء المجاملة الأدبية فيما نكتبه وهي ما تعوده الكتاب بعضهم من بعض، يلبس كل منهم نقده لباساً من الأسلوب الصفيق لا تُرى من خلاله الحقيقة إلا كما ترى الشمس في يوم ماطر ملبد بالغيوم

ولست أدري، أو إني لا أحب أن أدري، السر في هذا الذي يغمر بيئتنا الأدبية من قواعد الكياسة في الحذر من إغضاب الأصدقاء والمقربين حين نعرض لنقدهم. فالكاتب يريد أن يقول كلمته، ولكن في لجلجة المشفق الفِرق، ويريد أن يجهر بما في نفسه، ولكنه يتورع أن يكون جريئاً، فقد يكون في الغد فيما يكون فيه سواه اليوم، وقد يقال فيه ما سيقوله هو في غيره، فهو واسع الحيلة يداور في إرضاء القراء والذين يعرض إلى نقدهم مداورة تحمله أن ينقد نقداً مجملاً فيه إمتاع بالفكرة التائهة والرأي الطائر، وذلك حسبه في نقده

والحق أني لو كنت كاتباً نابه الذكر، طائر الصيت، لربما كنت أشفق أن أقول إشفاق هؤلاء الكبار الفحول؛ وداؤنا في الشرق مستعص ما دام النقد شخصياً بعيداً عن المثل الأعلى؛

وهذا الضعف الخلقي في النقد إليه وحده يرجع - فيما نعتقد - سبب هذا الركود وهذا الجمود في أدبنا المقعد

وبعد فيا سيدي الأستاذ هل النقد بالمعنى الذي نراد عليه نحن معشر القراء - والقراء من فئة خاصة طبعاً - هو هذا اللون من تناول الكتاب أو البحث تناولاً صورياً والكتابة فيه مثل هذه الكلمات الضافية، فيها قدرة الكاتب وبراعته، وليس فيها علمه وعقله،؟؟ وهل النقد الأدبي هو هذا الذي نسيغه في صحافتنا كل يوم أو كل أسبوع من عجالات الكتاب وبحوثهم العابرة؟؟

وهل النقد هو هذا التقريظ الذي يتولاه كتابنا حين يدفع المؤلف أو الباحث إلى المطبعة كتابه أو مؤلفه فيخرجه بعد الجهد الجاهد في أيامه وأعوامه ليتولى الحكم فيه كاتب يقلب صفحاته بعض الساعة وقد لا يزيد؟.؟

الحق يا سيدي الأستاذ أن ضعف النقد يرجع إذا أجملنا القول إلى:

1 - احتفال الناقد بشأن المنقود

2 - النقد العابر الصوري

وإن النقد في مصر - وهي سوق عكاظ العرب اليوم - لا يتجاوز هذين اللونين. والكتاب بين فريقين: فريق يتحامى المنقود، وفريق يجهل فضله فيقول ما لا وزن له ولا قيمة، فلا يعبأ بما يقوله القراء

ثم إن الطائل الذي يقع على كتاب مصر الفحول ومشيخة الأدب فيها عظيم جداً، فهم قادة مسئولون ورعاة مطالبون بتأدية رسالتهم الأدبية؛ والنقد بمقاييسه العلمية الصادقة يكشف المخبوء المتواضع من العبقريات المغمورة. وربَّ بحثٍ في صحيفةٍ وجّه الأدب وجهة قوية ودفعه إلى الغاية التي ينشدها هؤلاء العامة عليه دفعاً لا ازورار بين يديه ولا نكوص

ومتى كان لهذا النقد هذا الوزن فقال الناقد قوله لم يخطب به ودّ المنقود، ولم يتملق به عاطفة الجمهور، ولم يستلّ به سخيمة في نفسه، اختفت هذه العيوب التي نشكوها، وقويت الصراحة على هذا الضعف، وأحجم غير الأكفاء أن يلجوا بابه ويقتحموه ولوجهم له اليوم، وكان ما يدور بين الكتاب والأدباء والعلماء درساً من دروس عامة يفيد منها الجمهور وتفيد منها البيئة الأدبية، ثم كان هذا النقد أساساً صخرياً في بناء نهضتنا الأدبية في عصرنا الحاضر

هذا وحسبي يا سيدي الأستاذ أن أكون في كلمتي هذه قد بثثتك بعض ما يُحسُّ به كثير من القراء في الخارج، وقد يكون بعض ما يحسُّ به كثيرون في مصر؛ ورجاؤنا أن يتسع صدر (الرسالة) لمثل هذا النقد اتساعه للنواحي الأخرى التي نرى، وان تكون رسالتها سفارة الحقيقة المبسوطة بين الكتاب والقراء لا ترعى في ذلك غير ما تقتضيه إياها المقاييس الأدبية؛ والسلام على الأستاذ ورحمة الله وبركاته

محمد رفيق اللبابيدي

شعراء الموسم في الميزان

نقد وتحليل

للأديب عباس حسان خضر

- 1 -

ما أظن أننا كنا نجد فرصة، مثل موسم الشعر، نقف فيها إلى الشعراء لنرى ما عندهم، فقد أنشد كل شاعر قصيدة هي خير ما عنده، أو من خير ما عنده. ولو أن الحفل كان لمناسبة من المناسبات التي يقال فيها الشعر في غرض واحد، لما كان يصح أن تكون مقياساً لتفاوت الشعراء وتفاضلهم، فقد لا يجيد شاعر في الرثاء مثلا ويجيد في غيره، وفي الوقت نفسه يكون إلى جانبه شاعر على عكسه في ذلك. أما موسم الشعر فقد قال فيه كل شاعر فيما يحسنه، وما تواتيه قريحته في تناوله، فالموسم إذن ميزان تميل كفته بالراجح في الشعر لا ينقص من قدره شيء ولقد كان الناس يقولون بانقضاء الشعر بعد شوقي وحافظ، وكان الشعراء يدافعون هذا القول بوثبات غير مقنعة كل الإقناع، ولكن موسم الشعر حمل إلى الناس دليلاً على أن في الجيل الحاضر جيلاً من الشعراء لا بأس به في مجموعه، وإن كان منهم من برز وبرع

ولكن الفرصة كادت أن تفلت، وكاد الموسم يقضي بانقضاء الساعتين اللتين شغلهما الشعراء بإلقاء القصائد، مودعاً بكلمات إخبارية من الصحف لا تغني عن النقد شيئاً؛ فلم يقض الموسم من عمره إلا المرحلة الأولى وهي عرض الشعراء قصائدهم، فما كادوا ينتهون من ذلك حتى انفضت السوق ولم ينصب لهم ميزان؛ والحق أنني كنت أوثر أن أكون شاهدا للموسم، مستمتعاً بما يجري فيه على أن أجوب معمعته وأقيم ميزان النقد في سوقه؛ ولكن النقاد حرموني هذه المتعة بإحجامهم عن النقد، ولست أدرى لماذا أحجموا

أما وقد أخذت على نفسي أن أسلك في هذه المهمة سبيل الحق، عالماً بما في هذا السبيل من أشواك، موطد العزم على اجتيازها، فلا يبقى إلا رجاء التوفيق وإلهام الصواب. وأخذا في تلك السبيل سنتبع في تصفح القصائد وتفحصها ترتيب الشعراء أنفسهم في الإلقاء إذ كان ذلك على حسب الحروف الهجائية

عاصفة روح

قصيدتان ألقاهما الدكتور إبراهيم ناجي، وقدم لهما بهذه العبارة: (قصة نفس، ذات فصلين: الأول ثورة النفس بينما الزورق يغرق والملاح يستصرخ؛ والثاني استيقاظ الكبرياء بعد هدوء العاصفة)

والواقع أن هذه العناوين: (عاصفة روح. قصة نفس. ثورة نفس. كبرياء) ليست ذات حظ كبير من المدلولات في القصيدتين، نستثني منها (الكبرياء) لأربعة أبيات في آخر القصيدة الثانية التي سماها بهذا الاسم (الكبرياء) تحدث في هذه الأبيات عن الشمم والكبرياء حديثاً يملأ النفس ويفعم القلب، وهي:

أيخيفني العشب الضعيف أنا الذي ... أسلمت للشوك الممض أديمي
وإذا ونى قلبي يدق مكانه ... شممي وتخفق كبرياء همومي
ورجعت أحمل جعبتي متحدياً ... زمني بها وحواسدي وخصومي
ورفعت نحو الله رأساً ما انحنى ... بالذل يوماً في رحاب عظيم

وهذه أبيات جيدة؛ غير أن كبرياء الهموم أمر لا يطاق! وسياق المعنى يقتض كبرياءه هو لا كبرياء همومه؛ أما فيما عدا هذه الأبيات فلا تجد روحاً، لا عاصفة ولا غير عاصفة، ولا تجد في قصيدة (ثورة نفس) وهي الفصل الأول (للاقصة) نفساً، لا ثائرة ولا هادئة؛ وإنما هي ثورة كلمات على أوضاع الكلام، وتمرد عبارات على أداء المعاني. . مهلاً أيها القلم، لقد قالوا إن هذا شعر جديد. . وأغض النظر عن كلمتي جديد وقديم، وأناقش هذا الكلام على أنه شعر لا بد أن يؤثر في النفس، ولا بد أن يصاغ في عبارات سليمة، ولن تغني كلمة جديد عن شيء من ذلك

يقول الشاعر:

أين شط الرجاء ... يا عباب الهموم
ليلتي أنواء ... ونهاري غيوم
أعولي يا جراحْ ... أسمعي الديان

لا يهم الرياح ... زورق غضبان
البلى والثقوبْ ... في صميم الشراع
والضنى والشحوب ... وخيال الوداع

إلى هنا تستطيع أن تعرف أن نفساً غارقة في الهموم تسأل عن شط الرجاء، وتشكو من أنواء الليل وغيوم النهار، وتطلب إلى جراحها أن تعول لتسمع الديان، فالرياح لا يهمها زورق بقول عنه الشاعر: غضبان! مع أن الرياح هي الغاضبة عليه، وأما هو فمسكين، رقيق الحال، بال، مثقوب الشراع؛ ويظهر أن الضنى والشحوب وخيال الوداع من آلام تلك النفس، إذ لم يقل لنا ماذا جرى لها، وليس فيما قبلها ماله صلة بها.

إلى هنا تستطيع أن تدرك معنى هذا الكلام، وان كان لم يؤد إليك تأدية شعرية تصل إلى نفسك، أما ما بعد ذلك فكلمات صاخبة في بحر من النظم، وعبارات متمردة ثائرة: فالسكين ترقص، والفجر مذبوح، والدجى مخمور، والردى سكران، والظلام يتولى في عناق الصخور؛ ولا يقولن أحد إنني أبتر الكلام، فهذان البيتان:

كان رؤيا منام ... كأسك المسحور
يا ضفاف السلام ... تحت عرش النور

!!ما معناهما؟ ضفاف السلام التي تحت عرش النور كأسها المسحور كان رؤيا منام

والمتأمل يرى أن في القصيدتين محاولة لتصوير قصة نفس وإبراز فكرتها وهي اعتصام النفس بالكبرياء من عواصف الهموم والآلام، ذلك أن النفس الكبيرة تمر بها الهموم والآلام لا تنال منها شيئاً، وإن استسلمت لتواردها فأنها لا تلبث أن تمتنع منها بالكبرياء والشمم؛ ولكن القصة وفكرتها لم يأخذا حظهما من التصوير والإبراز

أوبة الطيار

وهي قصيدة الأستاذ أحمد رامي، مستواها عادي، ومعانيها عامة وقليلة، ونستطيع أن نقول إنها قصيدة لفظية، فألفاظها سمحة وإن كانت ضنينة بالمعاني. ومن يسمع هذه القصيدة أو يقرؤها يدرك قصور الشاعر عن التحدث في موضوع القصيدة عن خوالج نفسه، أو بإفقار النفس من الخوالج في هذا الصدد

يقول في مطلع القصيدة

في سكون المساء والبحر ساج ... والسحاب العبير في الجو سار
كنت أرنو إلى الغروب وأروي ... ناظري من صبابة الأنوار
فإذا بي ألقى دخاناً ولا غي ... م وريحاً وليس من إعصار
فتبينت أستشف جبين ال ... أفق من بين هذه الأستار
فإذا هي جماعة من بنات ال ... ريح تطوي الفضاء عبر البحار

أعجبني البيت الثاني، ومن حسنه التعبير بصبابة الأنوار عما يكون وقت الغروب، وتروية النظر بهذه الصبابة التي هي أجمل من النور كله؛ وبعد ذلك يقول إنه لقي دخاناً غير مصحوب بغيم وريحاً ليست من إعصار، فلما كان الدخان من غير غيم والريح من غير إعصار، فقد جعل يتبين . الخ، وفي هذا خطأ في ترتيب الفكر فليس الدخان ينشأ من الغيم، والريح لا يلزم أن تكون من إعصار، حتى يتلمس لهما سبباً آخر. على أنه لا يزال في موقفه ومشهده، ويذكر في البيت الأول أن السحاب يسير في الجو، ثم يقول في الثالث: لا غيم. وهل الغيم سوى السحاب؟!. وفي البيت الخامس يشبه سير الطيارات في الفضاء بعبور البحار، وهذا التشبيه ليس إلا عبرا إلى القافية

والتعبير (حداة الرياح) في قوله:

يا حداة الرياح ماذا لقيتم ... من ركوب الأهوال والأخطار

ليس من الصواب في شيء لأنهم لا يسوقون الرياح ولا يغنون لها، وإلا فما معنى حداء الرياح؟

ومن الأبيات الحسان في القصيدة قوله عن الطيار:

وأبو الهول في الفلا كاد يقعى ... ثم يرنو إليه بالأنظار

وإن كان أبو الهول في فلاة واحدة لا في (فلا) متعددة

والملتقى عند قصيدة (صرعى الأغراض) للأستاذ أحمد الزين

عباس حسان خضر

قصة المكروب كيف كشفه رجاله
ترجمة الدكتور احمد زكي
الحصانة واليهودي الأفّاق
- 5 -
ونزل متشنيكوف في معهد بستور، على سكون هذا المعهد ووقاره، نزول الصخرة فهزّه هزّا. ونصب فيه مِهرجاناً بهلوانياً عظيما ظل منصوباً عشرين عاماً، ووقف على باب هذا المهرجان يزعق ويصفق ويصفر ويزمر يدعو الناس إلى إحيائه بالدخول زُمراً إلى رِحابه وأرجائه، فكان كالدلاّل قام على باب مسجد لا يغشاه إلا نُسّاك زهّاد لم يذوقوا للهو طعما ولم يستسيغوا دُعابة أبدا
جاء باريس فوجد اسمه شائعاً، وأمره معروفاً مشهوراً. فنظرية الحصانة التي ابتدعها - ولعل وصفها بالدرامة الهيّاجة أوفق وأنسب - هذه النظرية التي تخبّرنا بأننا حصينون من الأدواء لأن حرباً طاحنة لا تفتأ قائمة بين الكرات البيضاء التي في دمائنا وبين المكروبات الغازية - هذه النظرية بل هذه الأحدوثة كان شاع أمرها لدى بُحاث أوروبا فقاموا لها وقعدوا. وعارضه فيها أكثر بُحّاث ألمانيا والنمسا فلم يؤمنوا بها، بل لعلهم أُغروا بالإيمان بها لبساطتها ولجمالها، فقام هذا الإغراء يدفعهم إلى نقيضه لما أحسوا ضعف أنفسهم فيه فأنكروها إنكارا شديدا قاسياً. ونالوا من متشنيكوف باللسان في المؤتمرات، وبالتجربة في المعامل. مثال ذلك رجل ألماني شيخ نذر على نفسه لله ألا يمر عليه حول حتى يكتب مقالاً في مجلة علمية خطيرة يدحض بها تلك النظرية وينال فيها من الفجوسات ومن صاحبها. وجاء على متشنيكوف حين من الزمن لم تقو رجلاه على حمله من تلك اللطمات، وكان يُغشى عليه فيسقط إلى الأرض صريعاً. وعزّه النوم وطالت لياليه فكاد يفزع إلى عقاره المخدر القديم - إلى المرفين، حتى لقد عاوده خاطر انتحاره المعهود. أوّاه! كيف لا يستطيع هؤلاء الألمان الخبثاء الأنجاس أن يروا الحق في الذي يقوله عن هذه الفَجوسات! ثم اشتفى من كمده، فكأن وتراً انقدّ في مخه، فنهض كالليث يحمي عرينه ويدفع عن نظريته بعزيمة لا تخشى شيئاً، فجال وصال، وطلب الخصام والنزال، وكانت معركةٌ بها
أضاحيك كثيرة وعلمٌ قليل، ولكنها برغم ذلك تضمنت نِقاشاً عليه انبنى ذلك النزر اليسير الذي نعلمه اليوم من سبب حصانتنا من المكروبات
صاح أميل بارنج من وراء الحدود الألمانية: (لقد أوضحتُ إيضاحاً لا ريبة فيه أن مصل الفئران هو الذي يقتل جراثيم الجمرة - أن دم الحيوانات لا كراته البيضاء هي التي تحميهم غائلة المكروب وتحصنهم منه). فصاح كل خصوم متشنيكوف وكل أعدائه الألداء يؤمنّون في نَفَس واحد على الذي قال بارنج. وخرجت المقالات العلمية تتبارى إلى النشر بمقدار يملأ دور كتب جامعية ثلاث كُتبت جميعها في فضائل الدم وأنه الشيء الوحيد الخطير في منع الأدواء
وزأر متشنيكوف من وراء الحدود الفرنسية: (إن الفجوسات، إن كرات الدم البيضاء هي التي تأكل الجراثيم العادِيَة فتدفع سوءها عنا)، ونشر تجارب بديعة أجراها فأثبتت بها أن بشلات الجمرة تستطيع النماء بوفرة في دم الشياه التي حصنتها ألقحة بستور وصمد الفريقان للكفاح زماناً طويلاً، وتمسك كل بموقفه الكاذب رغم ما فيه من غلّو، وغمرهما غبار الحرب الكثيف وأعمتهما غضبته عشرين عاماً، فلم يخطر على بال أيهما أن يستمهل قليلاً، وأن يخلو إلى نفسه للتفكير يسيراً، فلعل كلاً منهما رأى وجهاً واحداً من أوجه الحقيقة وهي عديدة، ولعل الذي يحمينا من غائلة المكروب ليس هو الدم وحده، وليست هي كراته البيضاء وحدها، بل هما جميعاً. لقد كانت حرباً رائعة ومزرية في آن، حرباً من تلك الحروب التي يقول فيها الخصم لخصيمه: (أنت كذاب) فيرد عليه صاحبه الجواب بمثله: (لا، بل أنت الكذاب)، وفي أثناء هذه التهم عمِيَ متشنيكوف وخصماؤه فلم يفطنوا إلى أن سبب الحصانة قد يُرد بعضه إلى الذي قال متشنيكوف، ويرد بعضه إلى الذي قال به خصماؤه. ما كان أجدر الاثنين أن يضعا الحرب حيناً فيعصرا العرق عن جبهتيهما، ويمسحا الدم من أنفيهما، ويفكرا في هدوء ساعة ليدركا كثرة ما يجهلان، وقلة علمهما مما فيه يختصمان، وليدركا أن الدم وفجوساته أشياء معقدة خدّاعة ليست في البساطة التي يزعمان، إذن لأبطآ في السير واستمهلا في الاستنتاج وأيقنا أن من الغباوة في ظلمة هذه الجهالة أن يتعجلا تفسيرات مبتسرة

لحصانتنا من الوباء
ليت متشنيكوف لم يخرج عن أودسا، بل ليته اعتكف فيها يلفّه خمول ذكره ويحميه، ثم تدرّع بالصبر وتابع أبحاثه الجميلة في تعليل لِمَ تأكل الخلايا الأفاقة في براغيث الماء تلك الخمائر التي دخلت إليها. إذن لأتى على كل أمرٍ جلل خطير. ولكن من ذا الذي يتحكم في أقدام البحاث وهي لا تسير دائما في الطرق السلطانية التي رصفها المنطق وعبّدها العقل السليم
في أيام بستور العظيمة، أيام كافح داء الحمرة وانتصر على داء الكلب، كان يعمل في خفاء شديد كأنه بعض القطارين الذين يقطرون السموم خُفية في أقباء احتجبت تحت الأرض عن أعين الناس، ولم يأذن لأحد أن يطلع على ما هو فيه إلا عونيه رو وشمبرلاند ورجلاً أو اثنين آخرين، وفي ذلك المعمل الرطب المعتم بشارع ألم كان لا يلقى المتطفلين المتشوفين إلى علم ما يجري بمعمله إلا بالنهر والتجبيه، وطرد عن بابه حتى كل جميلة من الأوانس فاتنة. هذا بستور! أما متشنيكوف فله في ذلك حديث غير هذا الحديث
اختلف متشنيكوف في هذا كل الاختلاف عن بستور. كانت له لحية لها أثرها البالغ في رائيها، وجبين عريض يعلو عينين تنظران بحولٍ ظاهر وذكاء بين من وراء نظاراته، وشعر طال في قفاه حتى غطاه على حال تنبئك بأنه غارق في أفكاره فلا يكاد يصحو فيحس الحاجة إلى حلقه. وكان واسع العلم فلا تكاد تفوته فائتة. وكان يستطيع أن يفاكه ويسلي - وهذا محقق عنه ثابت - بألوف من طرائف علم الحياة وممتع خفاياه، فهو يحدثك بأنه رأى الخلايا الأفاقة الدوارة في جسم فرخ الضفدع تذهب إلى ذيله فتأكل منه حتى تأتي عليه فيصير الفرخ ضفدعا وهو يحدثك بأنه أشعل ناراً في دائرة حول عقرب ليثبت أن هذه الخلائق التعسة لا تقتل نفسها انتحاراً كما يقول الناس بلدغ نفسها حين لا تجد مخلصاً من النار، وهو يحدثك بهذه الفظائع بطريقة تجعلك ترى الخلايا الأفاقة تروح وتجيء تبتلع ذيل الضفدع بلا أسف ولا تبكيت، أو تسمع حسيس العقرب وقد عز عليها الخلاص وحلق بها الفناء
وكانت تسنح له أفكار رائقة في إجراء تجارب فيقوم عليها محاولاً إنفاذها بعزم قوي وتركز شديد، ولكنه كان يزيح العلم وينحّى التجريب إذا سنحت له السانحة بمدح متسرت وأُبَراته، أو خطر له الخاطر من بتهوفن فهزّه إلى صفير شيء من سنفوناته. وإنك لحَاسبه أحياناً يعلم عن جوته ودراماته، ويعلم عن عشقه ومعشوقاته، فوق الذي يعلمه عن
فجوساته، وهي التي بنى شهرته عليها. وكان لا يتكبر على من هم دونه، وكان كثير التصديق لكل ما يقال له حتى لأمتحن الأدوية لبعض الدجالين المتطببين بأن أعطاها لخنازيره الغينية وهي في سبيل الموت زعماً أنها تشفيها. وكان رجلا طيبا ذا قلب عطوف رحيم، فكان إذا مرض له صديق غمره بكل هدية مستطابة وكل نصيحة مختارة، وبلل وسادته بالدمع يجري مدراراً فأسموه من أجل ذلك (بالخالة متشنيكوف) وكانت آراؤه في غرائز البدن وحاجات الحياة تختلف اختلافاً رائعاً عن أي باحث سمعت به غيره. (والحق أن العبقرية الفنية، أو لعلها كل العبقريات من كل نوع كان، تتصل اتصالاً وثيقاً بالنشاط الجنسي. . . ومن أجل هذا تجد الخطيب أبرع وأخطب في حضرة امرأة يبذل لها من وده وقلبه)
وكثيراً ما أكد لنا هو نفسه أنه أقدر ما يكون في التجربة على الإحسان، إذا كان على مقربة منه أوانس حسان
(يتبع)
أحمد زكي
أعلام الإسلام
4 - سَعِيد بنُ المسَيِّب
تتمة
للأستاذ ناجي الطنطاوي
مرضه
قال عبد الرحمن بن حرملة: رأيت سعيد بن المسيب في مرضه يصلي مضطجعاً مستلقياً فيومئ برأسه إلى صدره إيماء، ولا يرفع إلى رأسه شيئاً

وقال أبو حازم: قال سعيد بن المسيب في مرضه الذي مات فيه: إذا ما متّ فلا تضربوا على قبري فسطاطاً، ولا تحملوني على قطيفة حمراء، ولا تتبعوني بنار، ولا تؤذنوا بي أحداً، حسبي من يبلغني ربي ولا يتبعني

وقال عبد الرحمن بن الحارث المخزومي: اشتكى سعيد ابن المسيب فاشتد وجعه، فدخل عليه نافع بن جبير يعوده وهو مضطجع على فراشه، فأغمى عليه، فقال لمحمد ابنه: حول فراشه، فاستقبل به القبلة، ففعل، فأفاق فقال: من أمركم أن تحولوا فراشي إلى القبلة؟ أنافع بن جبير أمركم؟ فقال نافع: نعم، فقال له سعيد: لئن لم أكن على القبلة والملة لا ينفعني توجيهكم فراشي. وفي رواية: ألست امرأ مسلماً، وجهي إلى الله حيثما كنت؟

وقال زرعة بن عبد الرحمن: شهدت سعيد بن المسيب يوم مات يقول: يا زرعة، إني أشهدك على ابني محمد، لا يؤذن بي أحداً، حسبي أربعة يحملوني إلى ربي، ولا تتبعني صائحة تقول فيّ ما ليس فيّ

وقال يحيى بن سعيد: لما حضر سعيد بن المسيب، ترك دنانير، فقال: اللهم إنك تعلم أني لم أتركها إلا لأصون بها حسبي وديني

وقال: دخلنا على سعيد نعوده، ومعنا نافع بن جبير، فقالت أم ولده إنه لم يأكل منذ ثلاث فكلموه، فقال نافع بن جبير: إنك من أهل الدنيا ما دمت فيها، ولا بد لأهل الدنيا مما يصلحهم فلو أكلت شيئاً. قال: كيف يأكل من كان على مثل حالنا هذا بضعة يذهب بها إلى النار أو إلى الجنة. فقال نافع: أدع الله أن يشفيك، فان الشيطان قد كان يغيظه مكانك من المسجد. قال: بل أخرجني الله تعالى من بينكم سالماً. ودخل المطلب بن حنطب على سعيد في مرضه وهو مضطجع، فسأله عن حديث، فقال: أقعدوني، فأقعدوه فقال إني أكره أن أحدث حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا مضطجع

وقد اختلفت روايات المؤرخين في سنة وفاته، وتنحصر رواياتهم بين سنة 91 وسنة 105، على أن أكثر الأقوال تؤيد أن وفاته كانت سنة 94

شيء من أقواله وفتاويه

قال: ما من تجارة أحب إليّ من البرّ، ما لم تقع فيه الأيمان

وقيل له: ادع على بني أمية فقال: اللهم أعز دينك، وأظهر أولياءك، واخز أعداءك في عافية لأمة محمد صلى الله عليه وسلم

وقال علي بن زيد: قال لي سعيد بن المسيب: قل لقائدك يقوم فينظر إلى وجه هذا الرجل وإلى جسده، فانطلق فنظر فإذا رجل أسود الوجه، فجاء فقال: رأيت وجه زنجي وجسده أبيض. فقال: إن هذا سبّ هؤلاء الرهط: طلحة والزبير وعلياً، فنهيته فأبى فدعوت عليه وقلت: إن كنت كذابا فسود الله وجهك، فخرجت بوجهه قرحة فاسود وجهه!

وأدرك رجلاً من قريش معه مصباح في ليلة مطيرة، فسلم عليه وقال: كيف أمسيت يا أبا محمد؟ قال: أحمد الله. فلما بلغ الرجل منزله دخل وقال: نبعث معك بالمصباح؟ قال: لا حاجة لي بنورك، نور الله أحب إليّ من نورك

وقال: ولا تقولن مصيحف ولا مسيجد، ولكن عظموا ما عظم الله، كل ما عظم الله فهو عظيم حسن

وكان يقول: لا خير فيمن لا يجمع الدنيا يصون بها دينه وحسبه ويصل بها رحمه

وكان يقول: الناس كلهم تحت كنف الله يعملون أعمالهم، فإذا أراد الله فضيحة عبد أخرجه من تحت كنفه، فبدت للناس عورته

وكان يقول: لا تملئوا أعينكم من أعوان الظلمة إلا بالإنكار من قلوبكم لكيلا تحبط أعمالكم الصالحة

وكان يقول: من استغنى بالله افتقر إليه الناس

وكان يقول: ليس من شريف ولا دنيّ ولا ذي فضل، إلا وفيه عيب، ولكن من الناس من لا ينبغي أن تذكر عيوبه، فمن كان فضله أكثر من نقصه، وهب فضله لنقصه

وقال: يقطع الصلاة الفجور، وتسيرها التقوى

وقال: ما أكرمت العباد أنفسها بمثل طاعة الله عزّ وجل، ولا أهانت نفسها بمثل

معصية الله، وكفى بالمؤمن نصرة من الله أن يرى عدوه يعمل بمعصية الله
وقال ما أيس الشيطان من شيء إلا أتاه من قبل النساء
وقال: يد الله فوق عباده، فمن رفع نفسه وضعه الله، ومن وضعها رفعه الله
وقال: دخلت المسجد في ليلة أضحيان، وأظن أني قد أصبحت، فإذا الليل على حاله، فقمت أصلي، فجلست أدعو، فإذا هاتف يهتف من خلفي: يا عبد الله، قل. قلت: ما أقول؟ قال: قل: اللهم إني أسألك بأنك مالك الملك، وأنك على كل شيء قدير، وما تشاء من أمر يكن. قال سعيد: فما دعوت بها قط بشيء إلا رأيت نجحه
وقال: إن الدنيا نذلة، وهي إلى كل نذل أميل، وأنذل منها من أخذها بغير حقها، وطلبها بغير وجهها، ووضعها في سبيلها
وكان يستفتح القراءة ببسم الله الرحمن الرحيم ويقول: إنها أول شيء كتب في المصحف، وأول الكتب، وأول ما كتب به سليمان بن داود إلى المرأة (بلقيس)
وقال حبيب بن هند الأسلمي: قال لي سعيد بن المسيب ونحن على عرفة: إنما الخلفاء ثلاثة: قلت: من الخلفاء؟ قال: أبو بكر وعمر وعمر (يعني عمر بن عبد العزيز) قلت: هذا أبو بكر وعمر قد عرفناهما فمن عمر؟ قال: إن عشت أدركته، وإن مت كان بعدك
وقيل له وقد نزل الماء في عينه، ألا تقدح عينك؟ قال: عني - على مَن - أفتحها؟
وقال: كنت بين القبر والمنبر، فسمعت قائلا يقول ولم أره: اللهم إني أسألك عملاً باراً، ورزقاً دارًّا وعيشاً قاراً. قال سعيد فلزمتهن فلم أر إلا خيراً
وسأله عبد الرحمن بن حرملة قال: وجدت رجلا سكران، أفتراه يسعني إلا أرفعه إلى السلطان؟ قال له سعيد: إن استطعت أن تستره بثوبك فاستره
وقال له برد مولاه: ما رأيت أحسن ما يصنع هؤلاء، قال سعيد: وما يصنعون؟ قال: يصلي أحدهم الظهر، ثم لا يزال صافاً رجليه يصلي حتى العصر. فقال سعيد: ويحك يا برد! أما والله ما هي بالعبادة، تدري ما العبادة؟ إنما العبادة التفكر في أمر الله والكف عن محارم الله.
وقال: قلة العيال أحد اليسارين
وسئل عن قطع الدراهم فقال: هو من الفساد في الأرض
وسئل عن آية من كتاب الله فقال: لا أقول في القرآن شيئاً وكان لا يكاد يفتي فتياً ولا يقول شيئاً إلا قال: اللهم سلمني وسلم مني
وقال: من حافظ على الصلوات الخمس في جماعة فقد ملأ البر والبحر عبادة
وسئل عن اللعب بالبرد فقال: إذا لم يكن قماراً فلا بأس
وغضب سليمان بن عبد الملك على ابن عبيد مولاه، فشكا إلى سعيد بن المسيب فكتب إليه: أما بعد، فان أمير المؤمنين في الموضع الذي يرتفع قدره عما تقتضيه رعيته، وفي عفو أمير المؤمنين سعة للمسيئين فرضى عنه
(دمشق)
ناجي الطنطاوي
بكالوريوس آداب
الإسكندرية
بقلم حبيب عوض الفيومي
لا روضَةٌ كغِياضِ الرمْلِ مِئْنَافُ ... ولا كمصطافها في الأرض مُصْطاف
ولا كمنظرِها سَلْوَى لذي حَزَنٍ ... ولا كألّافها في الحسنِ ألّاف
أضحت على كل حُسن مؤنقٍ عَلَماً ... مذ كان للشيء أعلامٌ وأوصافُ
باكرتُها وطيورُ الدوحِ جاثِمةٌ ... ولؤلؤ الطلِّ فوقَ الزهر رَفَّاف
وللنجوم تلاشٍ في مِسارِبِها ... كأنها لسهامِ الشمسِ أهداف
والأُفْقُ مُلتهِبٌ في الشَرقِ تَحْسَبُه ... تِبراً له من وراءِ الغَيم تَخْطاف
والريحُ عاطرةٌ بالنشرِ ساطعةٌ ... يُنْشِيكَ مُنْتَشَقٌ منها ومُستافُ
في فِتيةٍ أُنشئُوا إنشاء قَسْورَةٍ ... فليس فيهم لدى الإقدام وقَّافُ
ذوي وجوهٍ وآراءٍ تُضيُء لهم ... إذا أُدْلَهمَّتْ من الأحداث أسداف
من كل منتخَبٍ في القول مُنْتَدَبٍ ... في الهولِ، فهْوَ أديبٌ وهْوَ سَيّافُ
في جنةٍ مثَل تزْوِيضِ البِسَاطِ زَهَتْ ... منها عُصونٌ مُوَشَّاةٌ وأفواف

تَشابهت في التفافِ النَبْتِ واختلفت ... أفنانُها فَهْيَ ألوَانٌ وأَلفاف
فيها نخيلٌ وأعنابٌ وفاكهةٌ ... شتّى وأجناسُ رَيْحانٍ وأصناف
رَفَّ الذبابُ على نَوَّارِها فله ... في بَلْجَةِ الشمسِ تغريدٌ وَتهفْاف
وللأكمَّةِ من أزهارِها سُرُجٌ ... مضيئةٌ حولَها للنحل تَعْزَافُ
يَهفْوُ الفَرَاشُ عليها أبيضاً يِقِقاً ... كما أطارَ فُضَاضَ البِرْسِ مِنْدَاف
وللطيورِ على أغصانها زجَلٌ ... تُشجيك منه مزاميرٌ وأعزَافُ
تجمعت في سماءٍ فهي فاخِتَةٌ ... وَساقُ حُرٍّ وشُحْرورٍ وَخُطَّاف
تَعلو ألاَئِفَ شتَّى ثم تُذْهِلُها ... نجوى الهوى فلها في الأرضِ إسفافُ
وأينما مِلْتَ فالإيقاعُ مُتَّصِلٌ ... تُلْقيه هَتّافةٌ تَشْجُو وهَتّافُ
حتى إذا ذرَّ قرنُ الشمسِ والتمعت ... على رؤوسِ الروابي منه أسياف
عُجنا إلى أيْكةٍ شجراَء سامِقَةٍ ... لها مع الحرِّ إظلالٌ وإيراف
تواشجت وسمت من كل ناحيةٍ ... فإنما هي أسياجٌ وأسجاف
زينت بشتى تماثيلٍ تلوحُ على ... سِيمائها من سماءِ الفن ألطاف
تكلمتْ عن أمورٍ وَهْيَ جامدةٌ ... وصُوِّرت من صخورٍ وهي أطياف
مِن كلِّ عاريةٍ رَيَّا وكاسيَةٍ ... إزارُها عن خفيِّ الحسنِ شفَّاف
وما لِبِسْنَ وما عرَّينَ عن بَشَرٍ ... وإنما هُنَ إتحافٌ وإطراف
كأنها ونوافيرُ النميرِ لها ... من فوقِ أرُؤُسِها سَح وتَوْكاف
سِرْبٌ تجرّد من أثوابه فلَهُ ... في غفلةِ الناسِ تَلعابٌ وتَطواف
ما بينَ حاملةٍ جاماً وصادِحَةٍ ... غَنَّاَء في يدها للشَدْوِ مِعزاف
وبين رافعةٍ مِصباحَها بيَدٍ ... لها على الماءِ إطلالٌ وإشراف
وبين حاسرةٍ ريعت فنازَعها ... لُبْسَ الخميصةِ إيجاسٌ وتَخواف
وبينهنَّ كلابُ الصيدِ قد نَفرت ... وأطلقت أيدياً للوحشِ تَقتاف
وإذ تَلاقى بنا ذو صبوةٍ وَصدٍ ... إلى السُّلافِ ومِتلافٌ وَوَصَّاف
قلنا: المُدامَ. فجاؤونا بمُذْهَبَةٍ ... مذاقُها لِسَقيمِ القلبِ إخطاف
لم يبقَ منها وقد طالَ الزمانُ بها ... في الدَنِّ إلا شُفافاتٌ وأنزاف
سبيئةٌ سبقتْ نوحاً فكان لها ... تحتَ العرائشِ قبل الشَّرْبِ آلاف
يلوحُ منها قَوامٌ ثم تُدرِكُها ... لطافَةٌ فَتجَلّى وهي إشفاف
ما اعتادها لونُها الجادِيُّ عن عُرِضٍ ... وإنما هو لونُ الشمسِ يَشتاف
كرَّ الربيعُ وضوءُ الشمس يُنضِجُها ... في كرْمِها بعد ما غَذَّته أرياف
ورَاقَ منظرُها إذ رَقَّ جَوْهَرُهَا ... فالحسنُ منها عن الاحسانِ كشّافُ
تَسْمو إلى رأسِ حاسيها لِخفّتها ... إذ لا تلائِمُ ذاكَ الجِرْمَ أجوافُ
وتترُكُ المُحتَسِي نشوانَ لا نَزَقاً ... وإنما هو إحصافٌ وإرْهَافُ
يُهدَي لحانوتها المُعْتَسُّ في غَلَسٍ ... بريحِها وَلَوَ أنَّ البُعْدَ أفْيافُ
ويَسْتضيءُ بها في السيرِ ملتَمِسٌ ... ضَلَّ السُّرَى ولجنحِ اللّيلِ إغدافُ
نَشتفُّها ونناجيها ونرفعُها ... ونجتلي قبَساً منها ونَستافُ
ونملأ الرُّوحَ وحياً من معارجها ... فانما هي إيحاءٌ وإلطاف
فآيةٌ لبخيلٍ ذَاقَها كرَمٌ ... وآيةٌ لِسَجِيلِ العزمِ إحصاف
صُبَّتْ فَرَقْرَقَها طبعٌ فَشَعْشَعَها ... مثْلَ الضرام تعَالَى منه أطرَاف
وثار ثائِرُهَا حَمْياً فَهذّبَه ... حِلمُ النميرِ فقرَّتْ منه أعطاف
حتى إذا ما عَلا رَأْدُ الضُحَى ودَنَا ... من شاطئ البحر فُرَّاطٌ وَسُلاَّف
أَقَلْنا ظَهْرُ طامٍ لا قَرَارَ له ... وهل يَقَرُّ حَرُونٌ وهو رَجَّاف؟
في سابحٍ أسحمِ الدَّفَّينِ مُنْسَرِحٍ ... يدافعُ الماَء من حَرْفَيْهِ مِجْذَاف
مُسْتَوْسِقٌ ظَهْرَه يَسعى على مَهل ... من الوَنَى فهْوَ تحْتَ الوَسْق دلاف
نَظَلُّ منه على سِيْسَاءِ مُنْجَرِدٍ ... ما لاقه قَطُّ إسرَاجٌ وإيكاف
بينا يسير رويداً إذ تُلاَطِمُهُ ... مَوَّارةٌ فإذا الإروادُ إعْناف
طَوْرَا يُصَوِّبُنا غَوْرُ وآونةً ... تعلو بنا منه أحْقافٌ وأعراف
ما بين رافِعةٍ عَلوَا وخافِضَةٍ ... أهْضامُها في حُدُورِ الموج أنياف
وللعُبابِ زئيرٌ في تدافُعهِ ... وَزَخْرَةٌ فهْوَ بالأمواج غَرَّاف
له غواربُ لا تنفكُّ جائشةً ... ما هبّ من مُعصراتِ الريحِ زفْزاف

وطافياتٌ تعالَى وهي مقبلةٌ ... لها رُؤُسٌ منيفاتٌ وأشعاف
يظُنها من يراها وهي دانيةٌ ... أبا قُبَيْسٍ له باليَمِّ تَزحاف
فإن ترفقتِ الريحُ الهَبوبُ به ... فكلُّ حُسنٍ عليه ثَمّ عكّاف
تلوحُ فيه وضوءُ الشمسِ مُنعكسٌ ... للعينِ أرباعُ أقراطٍ وأنصاف
كأنه لهبٌ يُذكَى به ذهبٌ ... أو زئبقٌ بمذابِ الصُفْرِ مُنداف
قَذْفُ البُحورِ لآلٍ دونَها صدفٌ ... ولُجُّهُ بلآلي الحورِ قَذَّاف
توائمٌ ينتظمن الشطَّ في نَسَقٍ ... مثل القلائدِ والظُلاّتُ أصداف
ماذا أعدت لنا الإسكندريةُ من ... فَتكٍ به لسليم القلبِ إزهاف؟
جيشاً من الحسنِ يغزونا وليس لنا ... من دونه غيرَ حول الله تَجفاف
مجراً جَناحاهُ دُعْجٌ بالعقولِ لها ... فتكٌ ونُعْجٌ لها في القلبِ أزحاف
شاكي السلاحِ فمن آلاتِهِ مُقَلٌ ... مُفوَّقاتٌ وأعطافُ وأرداف
فُرسانُه نُهَّدٌ بالماءِ سابحة ... وَرَجْلُه ساحراتُ الطَرْفِ طرّاف
أشباهُ ماءٍ على ماءٍ يكدن به ... أن يمتزجن وللأبشارِ ترجاف
يَطْلُعنَ كالروض مَطلولا تُعارِضُه ... شمس الضحى فله في العين تَرفاف
عَرْفٌ يفوحُ وأوضاحٌ تلوحُ وكم ... في الروضِ ألوانُ أوضاحٍ وأعراف
روضٌ يروقُكَ منه منظرٌ عَجبٌ ... لكنَّ مَجناهُ أحساكٌ وأحشاف
والروضُ يقطِفُك الأثمارَ يانعةً ... وما لهنَّ سوى الإيحاشِ إقطاف
مُستهدفاتٌ وما فيهن من هدفٍ ... وإنما هنَّ إسقامٌ وإدناف
وَمُشفقاتٌ وما فيهن مُسعَدةٌ ... وإنما هنَّ للادمال إقراف
واهاً لنفسي وما واهٌ بنافعةٍ ... إذا تحَرَّقَ أوَّاهٌ وَأفَّافُ
هل هُنَّ بُؤْسَى وهُنَّ الحسنُ مُحْتَشِداً ... أم هُنَّ نُعْمَى وما فيهنَّ إنصاف؟
فليس عنهنَّ سُلْوَانٌ لذي شَغف ... ولا لهنَّ به ما عاش إيلاف
حُسنٌ ومنعٌ وأشقَى الناس متَّصِلٌ ... يلقاه حُسْنٌ وَلا يَلقاهُ إتْحَاف
والمنعُ والماءُ نَزْرٌ لا احتجاجَ به ... والمنْعُ وَالمَاءُ طامي اللُّج إجحافُ
بل هُنَّ ماءٌ كآلٍ لا ارتواء به ... يُبديه سهْبٌ بعيدُ الوِرْدِ مهياف
يَظَلُّ وَارِدُهُ صَدْيَانَ مُحْتَرِقاً ... عقباهُ شَلٌ إذا استسقَى وإلهاف
أورت لَظَى كَبِدِي منْهُنَّ شامسَةٌ ... وحْشيَّةٌ وَأيُها غَدْرٌ وَإخلاف
جنّيةٌ وصلُها دَلٌّ وَلَمحْتُها ... تَبْلٌ وإعراضُها قتْلٌ وَإتلاف
بيضاءُ تختَالُ مثلَ الشمسِ عارِيةً ... بل حسنُها في مُتوع الشمسِ كسَّاف
ألفاظها تُنعِشُ المُصْمَى ونظرتها ... تُصْمِى الصحيح فلا يُجْديه اسعاف
ضعيفة الأسرِ وَسْنَى من بُلَهْنيَةٍ ... وفي خلابتها للأسرِ إصْعاف
تُوحي القنوتَ بطرفيْهَا وَفِعلُهُما ... يصبى الرجالَ وهم من قبلُ أحناف
وَزْنُ الوفاءِ لها بالقِسط مُكتمِلٌ ... واف وميزانُها في الحبِّ طَفَّاف
تَفتَرُّ عن مبسِمٍ عذبٍ له أشَرٌ ... يشفى أوارَ الجوى منهن تَرْشاف
كأنه أقْحُوَانٌ بالنَدى خَضِلٌ ... أو لؤلؤٌ مازَهُ في السِّلْكِ رَصَّاف
تُزْهى بِقَدٍّ نضير العودِ تَحْسبُهُ ... غصناً تَنَثْهُ النُّعامَى فهو غَيَّاف
تهفو القلوبُ له وجداً إذا خَطَرَت ... كأنما هو بالأرواح هفّاف
غيسانةٌ عَيشها من نَعْمةٍ وَغنىً ... رِيٌّ وعيشي بها سُقْمٌ وإنحاف
أعَزَّها أنها دانت لِعزَّتها ... هَامٌ وذلَّتْ لها في الحبِّ آناف
وزاد من فتكها خَلْقٌ لها عَممٌ ... وحُسْن سُمتٍ له في القلب إشعاف
أقرّ بالحسنِ ربَّاتُ الدلالِ لها ... طوعاً وهنَّ معاصيرٌ وأنصاف
وألهَجَ العاشقين المولعين بها ... أنّ ابتسامتَها للصب أهناف
لاقيتُها وجَناني جِدُّ منبسطٍ ... وعُدتُ عنها ودمع العين ذَرَّاف
وما رجعتُ ولكني تَراجعَ بي ... يأسٌ فَرُجعايَ إقرانٌ وإرساف
ولو بعمري بها أحظى وقد عرضتْ ... لكان بالعمرِ لي قُربَي وإزلاف
لكنَّ بيني وبين المُشتهى جبلٌ ... عالٍ ومهوىً سحيقُ الخرقِ نفناف
ولي حياءٌ عن العوراءِ يصدف بي ... ولي لسانٌ عن الفحشاءِ نكّاف
يُشْوي وصال الغواني كلَّ ذي أدبٍ ... جمٍّ يحظى به نَوْكَى وأجلاف
يَحظى أخو الجهلِ لا يَدري بِحُظْوَتهِ ... وليس يحظى لبيبٌ وهو عرّاف

وَشيمة الدهر لا تَجْرى على سَننٍ ... وَحالة الدهر إجراءٌ وَإيقاف
فغَارِقٌ في غِمَارِ اليَمِّ مُرْتكِسٌ ... وَظَامئٌ في قِفَارِ البِيدِ عَسَّاف
ما ساءني أنّ غيري حظُّه سِمَنٌ ... من الزمانِ وحظي منه إعجاف
لي من زماني فكرٌ راضهُ بصرٌ ... وللبهائم أرواقٌ وأظلاف
قد يُرْزَقُ الفَدْمُ مالا وَهو منخِفِضٌ ... وَيُحْرَمُ النَدْسُ مالاً وَهْوَ نَيَّاف
وليس مِثلينِ ذو عِلمٍ وذو سفَهٍ ... ولا شبِيهَيْنِ لألٌ وصداف

حبيب عوض الفيومي

القصص

قصة مصرية

الشيخ عبد الباسط يتزوج. . .

للأستاذ محمد علي غريب

بين الأزهر وبين القرية، يولد طالب العلم كل يوم مرة على تجارب لم يشهدها وحياة لم يألفها، في تلك المدينة التي يختنق صوت المؤذن فيها بصيحات المعربدين الفجار، والتي لو بعث فيها اليوم منشئها الأول جوهر الصقلي لما وجد فيها مكاناً يأوي إليه، ولآثر عليها منادمة منكر ونكير. . .

ويوم غادر الشيخ عبد الباسط محمد حسين أبو جبل قريته الصغيرة لينتسب إلى الأزهر، كان أكثر أهله في وداعه، وقبيل أن يعلن القطار ضجره من الانتظار بصفيره المزعج، انتحى به والده ناحية منعزلة وأوصاه بالصلاة والمذاكرة وطاعة شيوخه واحتقار ملذات الدنيا الفانية

ثم دس الوالد في يد ولده خطاباً علت غلافه بصمات أصابعه المغمورة بالتراب، وطلب منه أن يقدمه إلى سيد القرية في القاهرة وهو رجل من الأثرياء يملك أكثر أرض هذه البقعة وينظر إليه الأهلون كإنسان لم يخلقوا على طرازه، فلا بدع أن يتخذوا منه السيد والمولى، وأن يخشوا غضبه كما يخشى العابد غضب الإله

وحل الشيخ عبد الباسط في غرفة مظلمة في حي الباطنية بالقرب من الأزهر، وحل معه فيها خمسة من الطلاب ومجموعة من الهوام والحشرات كانت تشارك أهل هذا الكهف طعامهم وشرابهم، وتخفف الدم النقي من جسومهم فلا يشعرون بالحاجة إلى معصية الله. . .

ولم يكد يضع عبد الباسط رحله، ويؤدي الصلاة المكتوبة، ويستفسر من زملائه الذين سبقوه عن مواعيد الدراسة وعن كراء البيت حتى ذكر خطاب سيد والده الغني، فأخرجه من جيبه بوقار وخشوع وراح يسأل عن هذا العنوان:

- جاردن. . جا. . جار. . دن. . جاردن ستي. . أي عنوان هذا؟. . محمد بك الخربوطلي بجاردن ستي!

وتضاحك زملاؤه الخمسة من جهل صاحبهم بأحياء القاهرة وهم الذين يعرفونها حياً حياً. . وراودت النكتة اللفظية أحدهم عن نفسه فأطلقها:

- ستّي ولا ستّك. . ها ها!

وضحك الجميع حتى الشيخ عبد الباسط عن طيب خاطر

يعيش محمد بك الخربوطلي في منزل يضم فتياته الثلاث (صفية وحكمت وآمال) وكلهن جاوزن سن الزواج. ولما كان الأب فاجراً متهتكاً فقد نسج فتياته على منواله، لذلك وجدت كل واحدة منهن أصدقاء كثيرين ولكنها لم تجد زوجاً إلى اليوم

وكان محمد بك رجلاً في حدود الخمسين؛ وقد توفيت زوجته في حادث مؤلم، فراح ينسى الدنس الذي علق بشرفه بالإفراط في كل ما يستثير شهواته الخسيسة، ولم يكن في برنامجه أن يحتفل بتربية بناته بل تركهن في أيدي الظروف

في يوم من أيام الربيع الصافية، وقف الشيخ عبد الباسط ومعه زملاؤه الخمسة الذين تطوعوا بتعريفه منزل السيد، يصفق بيديه على باب المنزل، ويمسح العرق المتصبب من جبينه بطرف جبته الخضراء على حين جلس زملاؤه فوق المقعد الخشبي الذي يجلس فوقه حارس الباب وهم يلهثون

وجاء البستاني العجوز وهو يبصق الشتائم والإهانات من فمه، فقد أزعجه هذا الذي يصفق دون أن يسكت، ثم سأله:

- ماذا تريد؟

قالها بلهجة حاكم متغطرس لخادم عنده. ولم يكن الشيخ عبد الباسط يتوقع هذه الخشونة، أمام زملائه على الأقل، فأخفى خجله في سعاله وسلم إلى البستاني خطاب والده إلى سعادة ألبك. . وعاد البستاني يقول له باللهجة الأولى:

- أدخل. . .

ثم ضرب البستاني الباب الحديدي وراءه بعنف وغضب. فدخل الشيخ عبد الباسط وقلبه يتراكض بين جنبيه؛ ثم اقتيد إلى حجرة بهره فيها أثاثها الفخم مما لم ير مثله إلا في الحوانيت التي قاده للفرجة عليها زملاؤه. فأدرك لفوره في أي طريق ينفق سيد القرية أمواله. .

وشهد في الحجرة وسادة ملقاة على الأرض فرام الجلوس فوقها، بيد أن الخادم الطيب أنهضه ليجلس على مقعد مريح. وهنا ابتسم الشيخ عبد الباسط على رغم أنفه. ابتسم لأنه لم يكن يقدر على البكاء. . . .

وبينما هو يجول ببصره فيما أثبت على الجدار من صور وما حشد في الحجرة من نفائس، إذا بصوت ناعم يصل إلى أذنيه، وإذا بفتاة هيفاء تدخل إلى الحجرة وهي تغني، فلما رأت الشيخ الجالس أمامها تظاهرت بالفزع وصاحت:

- بردون يا. . يا أستاذ! ثم واصلت الغناء. . .

وجاء الخادم يشرح للفتاة من يكون هذا الشيخ؟ إنه نجل وكيل والدها في ضيعته، وقد جاء إلى القاهرة ليطلب العلم فأرسله أبوه إلى سيده ليشمله برعايته. . .

وتلطفت الفتاة وصوبت بصرها إلى هذا المخلوق، فإذا هو شاب ممتلئ الجسم في لحية قصيرة كأنما صنعها بيديه. أما ذلك المخلوق فلم يكن يدري أحد ماذا يعتلج في ذهنه من الخواطر، وقد غمره الموقف الشاذ بفيض من البلاهة، ففغر فمه وبقي في صمته الجليل، وقد غض الطرف وذكر نصيحة والده له فلم يخالس الفتاة النظر سوى مرتين

وجاء السيد في جلباب حريري أزرق، فنهض الشيخ عبد الباسط وقبل يده ثلاث مرات كما يصنع مع شيخه في الدرس، ثم وقف صامتاً وقد أنساه الشيطان الكلمات الفخمة التي زورها ليلقي بها في هذا المقام

وقال السيد وهو يعبث بلفافة تبغ في أصابعه:

- كيف والدك؟. . . هل بعث معك مالاً؟. . كيف أنت؟. . اجلس. . هل تدخن؟. . .

وماتت الإجابة على هذه الأسئلة كلها فوق شفتي الشيخ عبد الباسط فلم ينطق وإن كان قد جلس على حافة المقعد ورقبته ممتدة ويده العابثة بلحيته ترتعش

وجاءت القهوة، فشرب نصف ما في الفنجانة، وضمخ بالنصف الآخر ثيابه من الدهشة والخوف. ومرت به الفتاة التي رآها حينذاك وهي تغني، فربكه مرآها واختل توازنه فوق حافة المقعد وهوى على الأرض؛ ومن ثم ضحك السيد والفتاة والخادم الواقف بقرب الباب. . . وضحك الشيخ عبد الباسط أيضاً!

وكثر تردد الشيخ عبد الباسط على منزل السيد، وفي المرات الأولى كان ظله ثقيلاً على نفوس أهل المنزل؛ فلما كشف عن سذاجته وألح في الزيارة استطابوا وجوده. وكان في كل يوم يكشف عن أسماء النفائس التي يراها في المنزل فيحفظها كما يحفظ ألفية ابن مالك؛ ولم يكن يبالي السخرية به والتهكم عليه، فان العبد وما ملكت يده لسيده؛ وكان يؤثر على الجميع الفتاة التي تغني، وكانت هي من جانبها تزيد في الإساءة إليه فيحسب أن يده تقبض على قلبها

ولم يعد الشيخ عبد الباسط يحتفل بدروسه، لا ولا بصلواته. أما زملاؤه فقد أنكروا عليه هذا الإهمال، وتوعدوه بالخزي في الدنيا والآخرة. غير أنه كان يتمثل في وجوههم شقوة البؤس، فلم يعبأ حتى بأن يدفع نصائحهم عنه بطرف أصبعه

وانقلب الشيخ عبد الباسط فجأة إلى متظرف يطالع الصحف ويغشى المقاهي ويتهكم بشيوخه الأعلام، حتى زجاجة العطر التي لمحها في أحد الحوانيت ظل يقتصد ثمنها واشتراها، والساعة والمنديل الحريري والحذاء اللامع. . . كان ذلك كله في سبيل أن يحوز رضاء تلك الفتاة اللعوب التي لا تعرف من الدنيا سوى الغناء

وكان الشيخ عبد الباسط يرى في منزل السيد كل مرة أصنافا من الشبان يفدون على الدار في أزياء خليعة، حاسري الرؤوس حليقي اللحى والشوارب، وكان يسأل الخدم

عنهم واحداً فواحداً، ويعرف أنهم أصدقاء الأسرة فيسكت، ويكلفه سكوته هذا لعنة أولئك الشبان في سره وذلك أضعف الإيمان
ولم يكن الشيخ عبد الباسط يجترئ على التفكير في هذه الدنيا العجيبة التي يضمها منزل السيد، وإن كان قد فكر مراراً في أنه أصبح مطلوبا ومرغوبا فيه
ألم يقل له محمد بك ذات يوم:
- حصلت البركة يا أستاذ!
كلمة لا يقولها السيد إلا لمن يحبه ويوده. ألم تصارحه الفتاة التي تغني ذات مساء بأن دمه خفيف. ثم ضربته بيدها على وجهه، وضرب الحبيب مثل أكل الزبيب!
ترى هل حان الوقت الذي يصارحهم فيه بما تضطرم به نفسه من رغبات!
وجاء ذلك الوقت فلم يفاجئ الشيخ عبد الباسط برغبته رب الأسرة، لأنه كان رغم كل شيء
يتهيب ويخجل. وكانت رغبته أن يتزوج بتلك الفتاة التي تغني دائما والتي لم يعرف اسمها بعد. وكثيرا ما تمثل هذا البدن الناعم البديع واستعاد ذكريات أمسه السعيد، فيسمعه زملاؤه في الغرفة يئن ويصرخ من هول ما يعتمل في صدره. . .
لم يقدر الفوارق الهائلة بينه وبينها، ولا راعى مركزه كطالب علم فقير، ولكنه أقنع نفسه بأن كل شيء يسوى بنفسه، والمصادفات قد تكون في بعض الأحايين سبباً في أن يرتفع المرء من الغرفة الحقيرة إلى القصر المنيف
وبعد تفكير طويل أودع الشيخ عبد الباسط سره الخطير لدى أحد الخدم في المنزل، فتضاحك الخادم وسكت، وكان في سكوته ما حمل الشيخ عبد الباسط على أن يتأول ويستولد عدم استحالة الوصول إلى مبتغاه
والظاهر أن الخادم أفضى إلى الفتيات بما قال الشيخ، ولا ريب أنهن تضاحكن وعبثن بالفتاة التي وقع عليها اختياره، ثم انقلب الموضوع إلى فكرة ضخمة. لذلك استقبل الشيخ عبد الباسط في اليوم التالي استقبالاً فخما، وكأنما كان يتوقع ذلك فراح يفرض وجوده في المجلس ويصعر خده للجالسين والجالسات. . .
واقترب يوم الزواج ولم يكلف الشيخ عبد الباسط أن يدفع شيئاً وزاد أهل المنزل في الحفاوة به والترحيب فكان الذي يشغله أنه يتزوج ووالده لا يعلم، ولكن ماذا يهم والفتاة جميلة ووالدها سيد القرية. .
وفي اليوم الموعود كان رب المنزل غائباً، ومن الإنصاف أن نقول إنه لا يعرف عن هذا الموضوع شيئاً؛ غير أن الشيخ عبد الباسط لم يكن يهمه ذلك، فقد آمن بأن الرجل يعلم دون شك ولم يفاتحه في الأمر حتى لا يسئ إلى ذات نفسه ويخجله
وأنيرت الدار وأقبل المدعوون، ولم يجرؤ الشيخ عبد الباسط على دعوة زملائه حتى لا يفسدوا عليه خياله، واكتفى بأن زاد في الأناقة وفي التجمل، وراح يحفظ قصائد الغزل كلها ليسكب بها في أذن عروسه الحسناء. .
وتم عقد الزواج على يد مأذون حليق اللحية والشارب وإن كان يرتدي جبة وعمامة، وكان هناك مغن يترنم بصوته والمدعوون من كل صنف يقصفون ويلهون. .
واقترح أحدهم على الشيخ عبد الباسط أن يشرب قدحاً قدمه إليه فلم يستسغ طعمه، ثم
أعطاه قدحاً آخر وقدحاً ثالثاً. . والجمع الصاخب يطلق الضحكات المخمورة من عقالها وهو ذاهل لا يعرف رأسه من قدميه. .
وأفردت له ولعروسه حجرة خاصة في المنزل الفخم، ولما أحس دوارا في رأسه انكفأ إلى حجرته وهبط إلى الفراش لا يقوى على النظر ثم أدركه النوم العميق. .
وفي الصباح وجد إلى جانبه عروسا من الخشب. . والجمع الحاشد يغمر حجرة نومه بالضحك، ثم تكشفت له الحيلة شيئاً فشيئاً حتى عرف كل شيء. . .
عرف أن المأذون شاب من أصدقاء أهل الدار استعار جبته وعمامته من فقيه المنزل، وعرف أنه شرب في الأقداح الثلاثة خمرا حرمها الله؛ وأخيراً عرف أن عروسه من الخشب وليس لها طاقة على الغناء!

محمد علي غريب

مأساة من سوفوكليس

أنتيجونى

للأستاذ دريني خشبة

سوفوكليس: ولد سوفوكليس سنة 496ق. م، ومات سنة 406 أي أنه عاش عمرا طويلا مباركا قضى منه أكثر من 65 سنة في إنتاج أدبي متصل. ولم يصلنا من مآسيه التي أربت على المائة غير سبع فقط إحداها مأساة اليوم (أنتيجونى)، التي تعتبر أطرف تحفة في الأدب الكلاسيكي المسرحي. وسوفوكليس هو تلميذ إسخيلوس، وقد ظل يقلده ويمشي على دربه أكثر من عشرين عاما ثم استقل بعدها بخطته وطرائقه في الأدب، ولكنه عاد فقلد منافسه الأكبر بوريبيدز. ولم يحدث سوفوكليس ثورة ما في روح الرواية المسرحية ولكنه ثار بالمسرح نفسه من الوجهة الشكلية (التكنيكية) فأكثر من الممثلين وعدد من المناظر وقلل من أهمية الخورس، وقد ساعدته ثروته وعيشته الراغدة على تغذية المسرح برواياته الهادئة التي كان يخدم بها الفن من حيث هو فن خالص، ولا يبتغي بها ثورة على التقاليد أو إحداث تغيير في نظم الحياة. وكان مؤدبا مع الآلهة، فلم يصنع ما صنعه إسخيلوس مع ربات الذعر حين سفه منطقهن في محاكمة أورست مثلا. وسوفوكليس هو أستاذ شاكسبير من حيث تركيز البطولة في أكثر مآسيه في المرأة وسترى ذلك فيما نلخصه لك من المآسي. ولم يتقيد سوفوكليس بالدرامة الثلاثية مثل أستاذه، ولكنه فضل المأساة المستقلة الواحدة وإن كان قد كتب ثلاث مآس في موضوع واحد متصل، فانه كان يجعل كلا من أجزاء هذا الموضوع فصلا مستقلا بنفسه كل الاستقلال عن الفصلين الآخرين، وقد تعلم سوفوكليس الموسيقى في صغره وحذقها وترأس فرقة موسيقية في الاحتفال بذكرى (سلاميس) وكان على قسط كبير من الجمال في صباه، وكانت أدوار النساء في بعض الدرامات - ومنها دراماته - توكل إليه لتأديتها لهذا السبب. ولم يشترك في حروب وطنه (أثينا) لاعتباره من كبار الأعيان ولأنه كان صاحب مصانع الأسلحة التي تزود الجيوش بكل ما تحتاج من عتاد. وقد تورط بسبب حياة الترف التي كان يحياها في غرام آثم كلفه كثيرا من ماله، فاضطر ابنه إلى مقاضاته وطلب من المحلفين الحجر عليه، ولكن سوفوكليس عرف كيف يدافع عن نفسه حتى برئت ساحته، ثم استقام بعد ذلك. وقد فاز

سوفوكليس على إسخيلوس للمرة الأولى سنة 468 بدرامته المفقودة (تربتوليموس) ثم فاز في عشرين مباراة بعد ذلك وعين سنة 440 أميرالا للأسطول (وإن لم يخض حربا ما)، وعين سنة 443 عضواً في مجلس الوكلاء (مجلس العشرة) وبحسبه أن يكون أقوى شخصية تمثل عصر بركليس بطوله. ومات قبل أن يشهد سقوط أثينا

- 1 -

حينما اكتشف أوديبوس السر الهائل، وعرف أنه قتل أباه وتزوج من أمه، وأولدها ولديه وابنتيه، جن جنونه، وسمل عينيه، وهام على وجهه في الأرض حيران، وتبعته ابنته التاعسة أنتيجونى، لهديه سبيله إلى غابة كولونوس، حيث غالته ربات الذعر بما لم تجن يداه!

. . . . . وعادت أنتيجونى لتجد أخويها يقتتلان من أجل العرش وقتل الأخوان المتحاربان كل بيد الآخر في مبارزة مشئومة واستوى كريون على عرش طيبة، وأصدر أمرين كل منهما نقيض الآخر

أمر بأن تحتفل طيبة كلها بملكها السابق إتيوكليز. . أما أخوه. . أما بولينسيز. . . فيترك في بطحاء طيبة جزر السباع تنوشه جوارح الطير وكلاب البرية، من غير أن تقام له الشعائر الدينية التي تقام لعباد الآلهة المؤمنين، ومن غير أن يضم رفات قبر، أو يحثى عليها تراب! وقضى أن كل من يجرؤ على مخالفة هذا الأمر فجزاؤه القتل في أبشع صورة. والتنكيل والتمثيل!

- 2 -

(أنتيجونى وأختها اسمنيه أمام القصر الملكي بطيبة)

- (أختاه! إسمنيه! أهكذا قضت السماء أن نتجرع أنا وأنت ثمالة الكأس، والنطف الأخيرة من آلام أوديبوس! ألا حدثي يا أختاه، هل بلغك الأمر المأفون الذي أصدره كريون الملك بخصوص أخوينا؟)

- (أي أمر يا أختاه!)

- (لهذا جئت معك إلى هنا كيلا يسمع نجوانا أحد!)

- (إذن. . . تكلمي! إن نظراتك المضطربة تشف أنباء هائلة!)
- (لماذا يفرق كريون بين الموتى في حقوق السماء المقدسة؟ لقد أمر أن تحتفل طيبة بأسرها بجناز إتيوكليز. . . في حين تترك جثة بولينيسيز في عراء طيبة لجوارح الطير، وسباع البرية، من دون ما دفن ولا إقام شعائر. . حتى التراب. . لقد أبى أن يحثي عليه التراب يا أختاه! والآن! لقد أنبأتك بكل شيء! فهل تبرهنين على كرم أرومتك! وشريف عنصرك، فتعاونيني فيما اعتزمت، أم . . .
واشؤماه! وهل بيد ضعيفة مثل حل أو ربط؟! ماذا ترينني أصنع؟
- (ألا تقاسميني حلو هذا الأمر ومره؟)
- ماذا تعنين؟)
- (نتقاسم، أنا وأنت، فنذهب إلى أخينا من فورنا هذا فندفنه؟! . .
- (ندفنه على الرغم من نذير الملك؟ أهذا رأيك؟)
- (إي وايم السماء! سأدفن أخي وأخاك فأما امتنعت فإني لن أنكص، ولن أخون أخوتي وحناني وكبريائي ودمي!!
- (مجنونة!! وكريون! أما تبالين أوامره!)
- (كريون؟ وهل له الحق في منعي من القيام بشعائر ديني نحو أخي؟!)
- (أختاه! أنتيجونى! قليلاً من الحكمة يا أختاه! اذكري كيف كانت نهاية أبوينا العزيزين! أذكر كيف شنقت أمنا نفسها حين علمت أن زوجها هو ابنها؟ واذكري كيف سمل أبونا عينيه وذهب معك إلى كولونوس ليتحسى كأس المنون! واذكري أيضاً كيف اقتتل إخوانا وقتل كل منهما الآخر! أفلم يبق وراء كل أولئك إلا أن نلقى بأيدينا أنا وأنت إلى التهلكة؟! أما عن نفسي، فإني أفضل الخضوع لأمر ولي الأمر، فإني امرأة ولم تخلق النساء لمشاكسة الرجال!
- (إذن. . . فلن أرغمك على شيء. . . وحسب هذه اليد الكريمة أن تقوم بالأمر كله وحدها! يا للفخر أن أضطلع بكل شيء ثم أموت! كم تشيع الكبرياء في نفسي حين ألقى أخي في الدار الآخرة وقد أديت له هذا الحق بمفردي؟! إن هذه الحياة لا بد أن تنتهي، فلم لا تكون نهايتها هذه الجريمة المقدسة؟ أنت تأبين أن تزدري قوانين الأرض، ولكنك لا
ترفضين أن تحتقري مع كريون شرائع السماء! فهنيئاً لك! يهنيك ما اخترت لنفسك يا أختاه!
- (أنا لا أزدي ولا أحتقر، ولكن أخشى ثورة الأولياء!)
- (كأني بك تعتذرين عن جبانتك! اطمئني! سأذهب وحدي لأدفن جثمان أخي!)
- (يا للآلهة! كم أخشى عليك!)
- (لا تضيعي خشيتك ومخاوفك عبثاً! عليك نفسك!)
- (إذن لا تبوحي بسرك لأحد، وسأكتم أنا الأخرى كل شيء!)
- (بورك فيك! بل تحدثي به لكل من يلقاك. . . للناس أجمعين!)
- (أنت تتحدين خصومك! يا للطيش!)
- (تحد يسر قوماً آخرين. . .)
- (هذا إذا نجح قصدك، وتم تدبيرك. . . على أنني أراك تضربين على غير هدى)
- (حسنا! سأحاول، فإذا فشلت فقد أديت واجبي)
- (بل ينبغي ألا يحاول الإنسان المحال)
- (ها. ها. . إن كلامك جدير باحتقاري بقدر ما هو خليق بمقت أخيك. . . اصمتي! على وحدي وزر ما أنا قادمة عليه. . . ولن يحزمني القضاء من موتةٍ شريفة خالدة!)
- (لتذهبي! إنه يبدو لي أن لا سبيل للوقوف بسبيلك، يا طائشة! وإن تكن جرءاتك آية وفائك وبرهان محبتك. .
(تخرج كل منهما من ناحية)
- 3 -
ويقبل الخورس (عجائز طيبة) فينشدون ويهزجون، ويتغنون آلام طيبة ذات سبعة الأبواب وأشجانها، ويرددون ألحان المأساة الباكية. . . مأساة أوديب، ثم يلمح رئيسهم كريون، ملك طيبة وطاغيتها. مقبلا، فيصمت ويصمتون

(يدخل كريون)
- (أيها الأصدقاء! إخواني أبناء طيبة الأخيار! أصغوا إلي! لقد تمت المأساة، وانقرض الذُّكران من نسل لايوس، وبالأمس ما ضرجوا ثرى الوطن بدماء لا يُرضى الآلهة إهراقها، وها قد آلت السلطة إلي، سلطة الحكم، وسلطان الملك، وسلطان الملك محك الرجال؟ وإني آخذ فيكم بخطة هي إلى خيركم أقرب، وعلى وطنكم أجدى؛ لا أحب الجبان، ولا أوقر رجلا يؤثر صالحه أو صالح أصدقائه على صالح الوطن. . . الوطن سفينة الجميع، فيجب على الجميع هدايته إلى شاطئ الأمان، ويجب أن نزيد دائما في عظمة طيبة وعنفوانها ومجدها! ولقد علمتم ما كان من ولدي أودبيوس، وعرفتم كيف كان إيتوكليز يفدي بنفسه بلاده، ويرد عنها جحافل الأعداء الذين جردهم عليها بولينيسيز. . . الخائن! الذي أشقى أمته وأهان دولته وكان عليها شجناً من أشجان الزمان! من أجل ذلك صدرت إرادتنا أيها الأصدقاء بأن تحتفل طيبة بملكها الراحل احتفالاً يليق بتضحياته العزيزة، وأن تمشي الأمة بأسرها في إثره إلى مقره الأخير، حيث يذرف كل منا عبرةً على جثته إلى الأبد قربان المحبة ورمز الإعزاز! أما بولينيسيز! فسينبذ بالعراء فتمزقه الكلاب وتتغذى به جوارح الطير. والويل كل الويل لمن تحدثه نفسه بدفنه، أو حثو التراب عليه. . وسنجزي الظالمين!!)
رئيس المنشدين: (كلمتك قانون على الأحياء، وشريعة من السماء، أيها الملك العظيم إذن. فلتكن طيبة كلها عيونا ساهرة على تنفيذ أمرنا!)
- (لها بقية)

دريني خشبة

من هنا ومن هناك

إبسن وأرنولد بنت

كتبنا هنا كلمة عن أثر إبسن في إحياء الدرامة في الأقطار الأوربية عامة وإنجلترا خاصة، وأشرنا إلى العلاقة بين إبسن وبين صمويل بطلر صاحب قصة (طريق اللحم) وبين بطلر وبرنردشو وهم جميعاً من أنصار المرأة الذين وقفوا جهود الجبابرة للدفاع عن قضيتها والنضال في سبيلها لتحصل على أوفر قسط من الحرية التي ما تزال - تحت ضغط التقاليد - محرومة منها إلى اليوم. وقد كنا نقرأ درامة القصصي الإنجليزي الطائر الصيت أرنولد بنت المسماة (مباراة الحب) فراعنا أن نجد هذا الكاتب العبقري يحاول محاولة صادقة أن يتمم جهود إبسن!!

والمعروف أن إبسن كان يعرض في دراماته لعلل هذا العالم فيشخصها ويعرضها للنظارة، ولكنه يتركها دون أن يصف لها علاجا، وأحسن مثال لذلك درامته (بيت عروس) ' التي يعرض فيها حياة الفتاة نورا وما تورطت فيه من غرام بشخص غني حاولت أن تحصل منه - بسبيل هذا الغرام - على مبلغ من المال يستعين به زوجها المريض على السفر إلى الجنوب للاستشفاء مما به من مرض. . . ولكن زوجها يكتشف علاقتها بذلك الرجل الغني فيعاتبها. . . ولكنها تثور وتتهمه أنه هو سبب هذا السلوك الذي آلمه منها، وأنه لم يحسن تكييفها حتى تكون ربة منزل، وأنها لا بد تاركته لتدرس الدنيا والحياة من جديد، لأنها ترفض أن تظل إلى الأبد (دمية أو لعبة) في المنزل، تأكل الشوكولاته، وتغشى صالات الرقص، وتقتني الأزهار، وهي لا تعرف من الشؤون المنزلية كثيراً أو قليلاً. . . فإذا سألها زوجها ولمن تترك تربية الأطفال أبناءها؟ أجابته إنها تتركهم له أو أنها لا تدري. . . وكيف تربيهم وهي لم تترب؟ أليس أولى أن تتربى هي أولا؟!

وعند هذا تنتهي الدرامة وتنزل الستار!! وبذلك لم يصف لنا إبسن كيف تعالج نورا؟ أو إلى أين تذهب لتحصل على القسط الذي يعوزها من التربية. لذلك راعنا من أرنولد بنت محاولته معالجة هذه الزوجة إلتيّ تغرم بأكل الشوكولاته وتولع بالمراقص والمسارح ودور الصور والصالات، ولا تعرف من أمور منزلها أي شيء حتى ولا كيف تسوس الخدم!! وتتلخص درامة بنت في أن نينا الممثلة البارعة وزوجة مدير مسرح الملك جورج بلندن قد أحبها (روس) أحد كبار الأغنياء الإنجليز، وقد حدث أن أشرف الزوج - مدير المسرح - على الإفلاس، فاضطر لأن يذهب إلى (روس) ليقترض منه بضعة آلاف من الجنيهات يصلح بها مالية مسرحه ويحفظه بها من الإغلاق. . وتكون نينا عند روس في هذه الآونة

تساقيه كؤوس الغرام فما يكادان يعلمان بقدومه حتى يصلحا من شأنهما ويتأهبا للقائه، ويعده روس خيراً وينصرف على ميعاد آخر، فإذا حان هذا الميعاد أقبل الزوج وكله أمل أنه قابض الآلاف التي يبتغيها، وتكون نينا في هذه المرة أيضاً بين ذراعي روس، فإذا دق الجرس وعلم روس أنه هو، خبأ نينا في مخدعه ولقي الزوج. . . ولكن ثورة من الشرف والكرامة تتفجر في قلب روس فيصارح الزوج بعلاقته الغرامية بزوجته، وتخرج الزوجة صعقة، ويغادر الزوج المنزل ليطلق زوجته، ويتمالك روس قواه ويتناول التلفون فيخاطب أحد أصدقائه أصحاب الملايين في إقراض مدير المسرح بضعة آلاف من الجنيهات على أن تحتسب على روس بشرط ألا يعلم مدير المسرح. ويتزوج روس من حبيبته. . . ثم يبدأ الدرس القاسي الذي يصلح به سلوكها ويخلق منها زوجة مدبرة وربة منزل بكل ما تحمل الكلمة من معان؛ وذلك بعد أن تسوءه منها بعض التصرفات التي تدل على طيش النساء اللائى لم يحصلن على أية ثقافة منزلية يدعي روس أنه جازف في عمل تجاري ولكنه جر عليه الإفلاس، وأنه مضطر لأن يبيع كل شيء. . . منزله وضياعه وعرباته وكثيراً من ملابسه وأثاثه ليسدد ديونه. . . ولكنه يلقى من نينا كل عطف وتضحية، فإنها بدلاً من أن تتركه لتلوذ بغيره من الموسرين، تقدم له كل حليها وجواهرها التي تسوى آلافاً كثيرة. . . فيسير روس في درسه. . . وينتقل إلى (شقة) حقيرة في منزل قذر ليعيش فيه عيشة الكفاف، فلا تأبى نينا أن تقاسمه صرامة هذا العيش، بل تقوم هي على حاجيات المنزل فتحسن تدبيرها كل الإحسان. . ويكون اليوم السابع والعشرون من الشهر ويحضر محصل (البلدية) من أجل ثمن الغاز فلا يكون مع نينا إلا أربعة بنسات ونصف فينذرها المحصل بقطع التيار إن لم يسدد المبلغ (باكرا) ويحضر روس فتطلب إليه قليلاً من النقود لهذا الغرض فيثور بها ويتهمها أنها غير مدبرة وأنها مسرفة كل الإسراف، ويطلب إليها أن تطلعه على (كشف بالمصاريف الشهرية) فتدهش نينا لهذا الطلب، ولكن روس يداعبها ويطلب منها أن ترتدي أحسن ملابسها لزيارة

ولكنها تكاد تجن لأنها لم تعتد زيارة هذه الأماكن الجدية. . . (!المتحف البريطاني؟)

وتأتي أختها آن لزيارتها فيتركهما روس وينصرف. . . وتعجب آن لقذارة (الشقة) وتسأل أختها لم تسكن هي وزوجها في مثل هذا الحي الوضيع مع أنه قد أصبح أغنى رجل في إنجلترا؟ وتضحك نينا وتقول بل إنه أفقر رجل في إنجلترا لأنه أفلس وباع كل ما يملك ليسدد ديونه؟! وتدهش آن وتؤكد لها أن روس قد ربح أمس فقط من صفقة البن البرازيلي سبعة ملايين من الجنيهات، وأنه لا بد قد تعمد أن يلقنها هذا الدرس في الاقتصاد والتدبير المنزلي تعمدا. . . وتفطن نينا للسر فتثور وتذهب من فورها إلى روس في محل عمله الذي كان قد أخبرها أنه أغلقه فتجده غارقاً في أعمال لا حصر لها وتتأكد من صدق ما أخبرتها به آن. . . ويعود الجميع إلى قصرهم القديم حيث تجد نينا كل الخدم وكل الخير القديم كما كان. . . فتعاتب روس الذي يذهب بها إلى (دولاب) مجوهراتها فتجدها سليمة لم تبع!! ويعيشان عيشة راغدة جديدة ولكن عيشة كلها جد وعمل!!

وقد لمحنا أثر إبسن في أرنولد بنت واضحاً لأنه ذكر (عروس بيت) غير مرة في ثنايا الدرامة فكأنه كان يقول (أنا أتمم جهود إبسن!!)

أوجست سترندبرج

وما دمنا قد تحدثنا هذا الحديث عن إبسن النرويجي العظيم فلا بأس من إيراد شيء عن منافسه السويدي الكبير أوجست سترندبرج الذي كان يهزأ بتعاليم إبسن ويسخط على دفاعه عنها ويعتبر دراماته ضرباً من الجنون والحماقة يجب عرضه في مستشفيات المجاذيب بدل عرضه في المسارح. . والسر في كراهية سترندبرج للمرأة هو نفس السر الذي جعل الأديب اليوناني الكبير يوريبيدز ألد أعدائها منذ أربعة وعشرين قرنا، فلقد تزوج كل منهما وفشل في زواجه ثلاث مرات وكانت زوجاتهما هن اللائي طلبن الطلاق وعملن له حتى حصلن عليه، وبذا كانت نظرة كل من الأديبين الكبيرين للمرأة نظرة سوداء كلها شؤم وكلها موجدة، وقد وجد يوريبيدز من ينتقم منه للمرأة بعد موته وكان ذلك هو أرسطوفان الروائي الفكاهي الخبيث الذي وضع معظم دراماته في الطعن على يوريبيدز والتشهير به وبآرائه. أما سترندبرج فقد مات ولم

يشعر به أحد، لأن إبسن كان يدعو إلى تحرير المرأة دعوة حارة صادقة استجابت لها أوربا بأسرها، وبدأ العالم كله يستجيب لها حتى في مجاهل آسيا وأواسط أفريقيا المظلمة

ولد إبسن سنة 1828 في بلدة سكين في جنوب النرويج ومات سنة 1906 وولد سترندبرج في ستوكهلم سنة 1849 ومات سنة 1912

هزيمة غاندي وانتصار طاغور

انهزم غاندي، وأسدل الستار على الفصل الأخير من درامة المهاتما، ولو قد مات غاندي في إبان مقاومته لإنجلترا في حركة العصيان المدني لاعتبره المؤرخون لغزاً كما لو كان نابليون قد مات بعد يينا أوتِلست. . . ولكن القدر الساخر يأبى إلا أن يلطخ البطولة ويفضحها. . . وذلك بطول العمر!! والحقيقة أن طاغور لم يكن يوماً من الأيام راضياً عن وسائل غاندي، وكان يتهمه بالتهريج والشعوذة كلما رآه يحبذ كهانات الهند ويدمج عقليته في صميم عقلية الجماهير. وكانت غضبة طاغور على المهاتما شديدة قاسية سنة الزلزال المشهور الذي خسف جانباً من الأرض، لأن غاندي عزا الزلزال إلى سخط الإله وغضبه ولم يعزه إلى أسبابه الجغرافية التي يتعلمها صغار التلاميذ في المدارس. ويبدو أن لقب مهاتما أثر أثراً سيئاً في روح غاندي، وملأه بشعور النبوة إن لم يكن الألوهية، ودليلي ذلك ادعاءه غير مرة أنه يصوم بأمر الإله. . . وأنه لم يفعل كذا إلا بعد أن سمع صوت الإله يناديه ويناشده. وقد كانت أول هزيمة غاندي في تجرده من زعامته السياسية وتفرغه للزعامة الاجتماعية. . . وبذا فقد الزعامتين جميعاً، مع أن كثيرين حبذوا تصرف غاندي أول الأمر ولا سيما بعد أن أعلن أنه سيفرد جهاده لخير المنبوذين. . ولكنه، ويا للأسف، أراد من المنبوذين أن يطيعوا الشرائع ويؤدوا ما فرضت عليهم. . . أي أنه لم يحللهم من مبادئ النجاسة. . . ثم غلا هو في امتثاله أوامر دينه فلم يبرح يقدس البقرة ويتبرك بروثها ويتطهر ببولها. . . وذلك ما عيّره به ابنه الذي هداه الله إلى الإسلام أخيراً. . . والحقيقة أن سلوك غاندي الأخير لا يطاق، بل كان سبباً في ثورة الشباب ضده، وتألبهم عليه، واعتبارهم إياه سبب ضعف الهند وخضوعها

وفي هزيمة غاندي انتصار لطاغور من غير ريب. . . رابندرانات طاغور شاعر الهند وأديبها الأشهر وفنانها العظيم. . . الرجل الذي خدم الهند بشهرته العالمية في دولة الآداب أكثر مما خدمها غاندي بسياسته العقيمة وأساليبه الرجعية الواهية لقد كان طاغور يمقت من غاندي عداءه للجسم وتوهينه له وتهريجه لروح على حسابه، وكان يرى أن الجسم نصف الإنسان والروح نصفه الآخر، وأنه ينبغي أن يعنى بهما بمقدار واحد، لا أن نوهن أحدهما على حساب الآخر، فليس روح سليم إلا في جسم سليم، وقد ظل طاغور يشهر من أدبه أسلحة مهلكة على تعاليم غاندي، وبذلك تم له الفوز، وانتشل من يديه شباب بلاده الذين أخذوا يدمنون قراءة قصصه بشغف وتلذذ، بعد ما كانوا يكرهونها بسبب غاندي

قصص طاغور

كان طاغور شاعر قبل أن يكون قصصياً، وأشعاره هي غناء الروح، وبلسم القلوب الجريحة، وشفاء النفوس المكلومة؛ وأغانيه هي هتاف الغاب، وموسيقى أحراش البنغال، ورفيف النسيم الحلو على حقول الأرز فوق عُدْوَتي الكنج! ومن أمتع أشعاره التي كتبها بالإنجليزية (البستاني حيث تبدو مهارته في مزج الحب بالبكاء، والألم بالغزل، والعبوس بالابتسام

وبين طاغور الشاعر وطاغور القصصي صلة لا تنفصم، ذلك أنه يضفي روحه الشعرية على قصصه، فتخرج قصائد طويلة منثورة تنقع غلة القلب، وتؤدب النفس، وتسمو بقارئها فوق أدران البشرية، وتحلق به في سموات من النقاء والصفاء

بيد أننا نفضل أقاصيص طاغور على قصصه، وذلك لبراعته التامة في كتابة القصة القصيرة، وفشله الذريع في القصة الكبيرة؛ فمن يقرأ مثلاً روايته (الضحية)، أو (وكيل البريد)، أو (خالتي)، أو (الناسك). . . . . الخ روعه من طاغور ذلك الخيال الخصب، والتفكير العميق، والفن الكامل في كتابة القصة أو الرواية

ولكنا، بكل أسف، حينما قرأنا قصته الطويلة (الغرق) وجدناه ينحدر عن ذروته السامية

التي كان يحلق فوقها في القصة القصيرة، وذلك لأنه كان كلما وقع خلال القصة في ورطة، أو وصل إلى عقدة لم يجد منها مخرجاً إلا بالركون إلى (الصُّدفة)، ولذا كانت القصة كلها مصادفات قللت كثيراً من قيمتها كقصة من فن طاغور. ذلك بالرغم مما فيها من طلاء الأسلوب وحلاوة الروح الشعري الجميل الأخاذ.

(د. خ)

البريد الأدبي

العيد المئوي للصحافة الشعبية

نشأت الصحافة الحديثة منذ نحو قرن ونصف قرن، وكثير من الصحف الأوربية الكبرى قد جاوز العيد المئوي؛ ولكن الصحافة الشعبية أو بعبارة أخرى الصحافة المعاصرة التي نقرؤها اليوم ترجع إلى مائة عام فقط؛ وكانت الصحف قبل مائة عام أداة من أدوات الترف، لا يحرزها سوى الأغنياء، وكانت في الغالب صحفاً أدبية فلسفية، قلما تفسح لما نسميه اليوم بالأخبار المحلية مجالا كبيراً. وقد أدرك سر هذا النقص صحفي فرنسي بارع هو أميل دي جيراردان؛ وكان كاتباً ساحر الأسلوب بدأ حياته الأدبية بإصدار رواية عنوانها (أميل) يقص فيها سيرة حياته؛ ثم خطر له أن يصدر مجلة أسبوعية أدبية، ينقل فيها أحسن المقالات والقصص عن الصحف الأخرى وسماها (السارق) دلالة على خطبتها في النقل؛ بيد أنه تطرف بعد ذلك إلى مشروع أهم، فقد خطر له أن يصدر صحيفة يومية شعبية رخيصة الثمن تحتوي على أهم الأخبار الأخيرة؛ وفي أوائل يوليه سنة 1836، أعني منذ مائة عام، أصدر جيراردان جريدة الصحافة وقدمها للجمهور بنصف الثمن المعتاد وجعل اشتراكها السنوي أربعين فرنكا فقط، فكانت فكرته فتحاً جديداً في عالم الصحافة، ولأول مرة أقبل الجمهور المتوسط على اقتناء الصحف، واستطاع لأول مرة أن يقرأ الأخبار الأخيرة بصورة منتظمة متوالية وكان هذا بدء الصحافة المعاصرة التي تطورت حتى أصبحت بمحتوياتها الأدبية والخبرية ضرورة من ضرورات الحياة الاجتماعية

طبعة جديدة من الأنيس المطرب

تصدر الآن بالمغرب الأقصى (بمدينة الرباط) طبعة جديدة لتاريخ ابن أبي زرع الفاسي المسمى (الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس)؛ وقد ظهر من هذه الطبعة الجديدة الجزء الأول، وحققه وعلق عليه الأستاذ محمد الهاشمي الفيلالي من أدباء فاس، وأخرجته شركة النشر المغربية التي ألفت أخيراً بالمغرب من بعض الأدباء لتعني بإحياء الآداب المغربية

وتاريخ ابن أبي زرع مشهور بين التواريخ المغربية، وهو يتناول تاريخ المغرب ودوله منذ دولة الأدارسة إلى زمن المؤلف (سنة 726هـ)؛ وقد ظهر لأول مرة في مدينة أوبسالا في السويد محققاً بعناية المستشرق كارل تورنبرج، ومقروناً بترجمة لاتينية (سنة 1843 - 1846)؛ ثم طبع بعد ذلك بفاس أكثر من مرة. ولكن هذه الطبعات جميعها كانت مشحونة بالأخطاء التاريخية واللغوية؛ ولهذا رأى بعض أدباء المغرب أن الوقت قد حان لإظهاره في ثوب جديد

وقد تصفحنا الجزء الذي صدر منه الطبعة الجديدة فألفينا فيه أثر العناية بالتحقيق والتصحيح، وهو يقع في أكثر من مائة وثمانين صفحة من القطع الكبير، ويشمل تاريخ المغرب حتى أوائل القرن الخامس الهجري (سنة 410هـ)

فنرجو لإخواننا الأدباء المغاربة كل توفيق ونجاح في مشروعهم الأدبي؛ ونرجو أن يتلو إخراج الأنيس المطرب إخراج بعض الآثار المغربية الأخرى، ولا سيما المخطوط منها

وفاة الدكتور سنوك هور جرونيه المستشرق الهولندي

توفي في ليدن المستشرق الهولندي الدكتور سنوك هور جرونيه يوم السبت 4 يوليو في الحادية والثمانين من عمره

وقد ولد في 8 فبراير سنة 1857، وبعد ما أتم دراسته العالية في علوم الفقه واللغات الشرقية رحل إلى بلاد العرب، وكانت رحلته إليها متأخرة عن رحلة السر رتشرد برتون المشهورة نحو ثلاثين سنة، فتمم بالمعلومات التي جمعها معلومات السر تشرد برتون ومباحثه

نزل في جدة في خريف سنة 1885، فقضى على سواحل البلاد خمسة أشهر قبل أن يقصد إلى مكة المكرمة في زي طبيب عالم، فقضى في مكة خمسة أشهر درس في

خلالها المجتمع العربي هناك بين وصول قوافل الحجاج ورجوعها، ولولا وشاية قنصل فرنسا به لاستطاع أن يطيل إقامته هناك، ولكن قنصل فرنسا أنبأ السلطات التركية بوجود هورجورنيه في مكة فأخرج منها

وفي سنة 1888 - 1889 أصدر كتابه (مكة) في مجلدين وقد جاء وصفه لمدينة الكعبة مؤيداً لدقة وصف بوخاردث؛ أما وصفه للمجتمع العربي في مكة فكان دقيقاً ومسهباً: وصف الأسواق والعبيد والأماكن المقدسة وحراسها والبيوت والأعياد والولائم والفضائل

والنقائص، وكان بحثه في حياة المدن ببلاد العرب مدققاً؛ ولكن يقال أنه كان يعوزه شيء من العطف لكي يخرج تاماً، وهذه الصفة صفة العطف مكنت بالجريف ودرطي من الامتياز والتفوق فيما كتباه عن حياة الجزيرة

وبعد ما أتم هورجرونيه كتابه عن بلاد العرب رفض أن يعين أستاذاً للغة العربية في جامعة كمبردج خلفاً للأستاذ روبرتسن سمث، وكذلك رفض ما عرض عليه من هذا القبيل في ألمانيا وليدن، مفضلاً أن يمضي في دراساته الإسلامية في جزائر الهند الشرقية التابعة لهولندا حيث بقي بضع سنوات مستشاراً للحكومة في الشؤون الإسلامية

وعاد إلى هولندا سنة 1906 وقبل أن يشغل منصب أستاذ للغة العربية في جامعة ليدن. وفي سنة 1907 عين مستشاراً في الشؤون الهندية والعربية لحكومة جزائر الهند الشرقية الهولندية

مجلة خاصة لمسائل الأجناس

صدرت أخيراً بمدينة شتوتجارت بألمانيا مجلة خاصة لمسائل الأجناس بعنوان (مجلة لمباحث الأجناس والمعروف أن مسألة الأجناس تتخذ في ألمانيا الحاضرة أهمية خاصة؛ وأنها في مقدمة النظريات الهتلرية التي تسيطر اليوم على ألمانيا، وأن الآرية وغير الآرية أصبحت أساس الدولة النازية الحاضرة، وأساس الاضطهاد المنظم الذي تنظمه ألمانيا ضد اليهود وضد جميع الأجناس السامية؛ ومن ثم فقد أضحت المباحث والنظريات الخاصة بالأجناس في مقدمة المسائل التي يعنى بها الكتاب والعلماء الألمان اليوم؛ وقد صدر من المجلة المشار إليها عددان حافلان بهذه المباحث؛ ويحررها الدكتور فون ايكشتيت، وافتتحها ببحث من قلمه يذهب فيه إلى أن نظريات الأجناس قد تطورت اليوم تطورا عظيما؛ فمنذ عصر (تيريك) حيث كانت الجمحمة البشرية تقاس في مائة موضع لكي تعرف خواصها، نرى علم الأجناس اليوم يميل إلى الحياة، ويميل بالأخص إلى بحث الخواص العامة؛ وعرض إلى مسألة الذكاء، وكونه هبة لبعض الأجناس؛ وكون الموهوبين يهاجرون دائماً من القرية إلى المدينة، فتقفر القرية دائماً من الذكاء الموهوب؛ وهذا عامل يسيء في تكوين المجتمع الحاضر؛ وفي المجلة الحاضرة بحوث أخرى في هذا الباب لأشهر العلماء الألمان الذين يشتغلون بها

كتاب جديد لمسيو هانوتو

المسيو هانوتو الوزير الفرنسي السابق مؤرخ كبير، وله عدة مؤلفات تاريخية قيمة، وقد اشترك في وضع بعض أجزاء سلسلة التاريخ المصري التي تصدر بالفرنسية، وإن كان هذا الاشتراك لم تسفر عنه نتائج علمية باهرة. وقد أصدر أخيراً كتاباً عن علائق نابليون وأسرة بوهارنيه الشهيرة التي تنتمي إليها زوجته الأولى جوزفين بوهارنيه عنوانه (آل بوهارنيه والإمبراطور) ' وكان قد نشر قبل ذلك كتاباً عن الملكة هورتنس ابنة جوزفين من زوجها الأول، وفي الكتاب الجديد يقدم إلينا مسيو هانوتو سلسلة من الرسائل التي وجهتها جوزفين إلى ولدها البرنس أوجين؛ وتلقي هذه الرسائل كبير ضوء على الصراع الذي كان ناشباً وراء الستار بين آل بونابارت (أسرة الإمبراطور) وبين آل بوهارنيه (أسرة الإمبراطورة)؛ وقد كانت أسرة الإمبراطورة دائماً على أهبة للتفاهم والوفاق كما يدل على ذلك خطاب من جوزفين لولدها تقول فيه: (إن أولئك الناس لا حق لهم جميعاً في بغضنا، ولو أحسنوا موقفهم لما وجدوا أصدقاء أخلص منا) وقد كان نابليون يدافع دائماً عن جوزفين حتى بعد طلاقها منه، وكانت جوزفين تخلص له دائماً حتى بعد زواجه؛ ولكنها بعد مصائب سنة 1814، أدركت أن الخاتمة قد وقعت، وكتبت إلى ولدها تقول له إنه غدا حراً لا تربطه نحو الإمبراطورية رابطة ولاء بعد، وأنه يستطيع أن يعمل لأسرته بعد أن اختفى الإمبراطور من الميدان

العدد 159 - بتاريخ: 20 - 07 - 1936
(إلى صاحب السعادة المحافظ)
أمين أفندي الحاوي (كاتب عمومي) له في هذه الصناعة القدم الأولى والمكان المنفرد. حفظ في صدر أيامه كتابي: (إنشاء العطار، للمحبين والتجار)، و (أبدع الأساليب، في العرائض والمكاتيب)، وهما كتابان يجمعان أعاجيب شتى مما يخطر للبكم من أهل الهوى، ويعرض للجهال من ذوي الحاجة. ثم دخل الجندية في (قرعة الخديوي عباس)، وهي القرعة التذكارية التي طلب فيها لداته (للجهادية)؛ فكان يكتب لرفاقه الجنود رسائل الشوق والعشق والسلام كل رسالة بنصف قرش. فلما خرج من الجيش العامل إلى (الرديف) سلك نفسه في نظام (البوليس) تسع سنين كوامل، ازداد فيها علما بطرائق النظام وطوائف الحكام وأحوال المجتمع؛ وكان من الممكن أن يتقلب في نعيم الشرطة مدة اطول، ولولا إن خيرها الدفاق في يده من الشوارع والحوانيت قد فاض على جسمه فتراكب لحمه، وتدلى بطنه، واستغار فيه الشحم حتى كاد ينقطع قيامه، فلم يكن بد من الحكم عليه بهذه الحجة القائمة على طِماح عينه، وطول يده، وقعود همته؛ فخرج إلى حياة (التحرير)، وهي منذ شب حديث عبقريته ومطمح امانيه، واتخذ له مكتبا تحت السماء أمام (سراي المحافظة)، وألقى حيله الموهوبة والمكسوبة في غمرة الحياة وزحمة العيش، فعادت له بالشهرة الرابحة في دنيا القضايا والشكايا والسمسرة. فكانت العريضة أو الرسالة أو (الكمبيالة) التي يحررها الحاوي، أملاً لحرفائه في ضمان الفوز، ومثلا لزملائه في فن الكتابة. ثم تدخل في زوايا البيوت، وتغلغل في طوائر السرائر، وتبسط على موائد الانس، وتفنن في أساليب الوساطة، فكان دليل (الخاطب)، ونديم الشارب، وسلوة المحزون، وسمسار المشتري، ووكيل المدعي، وسفير الخصوم، ورسول الأحبة. تراه اكثر النهار على مقعده الخشبي الضيق في جلباب فضفاض من الكستور المخطط، ومعطف رقيق من النسيج المهلهل، ورغائب الناس تنثال عليه انثيال النحل العاسلة على الخلية الضخمة: هذا صاحب مظلمة يريد عرض حال، وذاك طالب مصلحة يتلمس طريق المسعى، وتلك زوجة هاجر أو حبيبة فاجر تطلب المعونة من قلمه أو لسانه، وهذا رافع دعوى يرغب توكيل عام، وذلك زميل عجلان يطلب كلمة لغوية أو جملة نحوية يزين بها رسالته الغالية الثمن (لزبونته) الرفيعة القدر، وأمين الأريب في يده قلم، وفوق أذنه قلم، وعلى شفته بسمات تتعاقب مختلفات في السعة واللون والدلالة، يتلقى كل طالب برغبته، وكل سائل بجوابه. وهو بعد ذلك لكثرة ما يغشى بيوت الناس عارف بأحاديث الأسر، عالم بأحداث المجامع، خبير بألوان المطاعم، فعنده قصة كل زوجين، وخبر كل صديقين، وخصيصة كل صفحة من صحاف المائدة، فالقرع شفاء من كل داء، والرز نصيب الأرض من حقول السماء؛ وفي الكبد خروق لا تسدها إلا الملوخية، وفي الجسم عروق لا ينبضها إلا الكنافة

من عادة أمين أفندي أن يزورنا كما يزور غيرنا حينا بعد حين، فيمتعنا ساعة بأخباره وأسراره ونوادره، ثم ينصرف وتحت إبطه رزمة مما تكدس عندنا من المجلات المقروءة. دخل علينا أمس جاداً على غير عادته، وقوراً على خلاف طبعه؛ ولم يكد يلقي التحية حتى ألقى إلي في شيء من الزهو صحيفة مسطرة من ورق (العرائض) وفي رأسها بقلم الثلث: (إلى صاحب السعادة المحافظ)، وفي ذيلها بقلم الرقعة: (ابن الحاوي)، وقال:

كتاب مفتوح إلى سعادة المحافظ عن طريق الرسالة. أتنشره أم تطويه؟

فقلت له: وماذا تريد من سعادة المحافظ يا أمين أفندي؟

فقال: قرأت في الصحف انه ألغى (مصايف الأطفال)، فهزني الخبر، وملكتني شهوة الكلام، فكتبت إليه هذا الكتاب أريد منه أن يضيف نقطة من بحر كرمه إلى (مصايف)، فتصبح بفضله (مضايف)! والكتاب بين يديك فاقرأ

قرأت الكتاب في غمر من أحاسيس شتى تتلون تباعا بالإعجاب والإنكار، والحزن والضحك، والانفعال والتبلد؛ ثم قلت له: أنى اقبل كتابك موضوعا وارفضه شكلا، لأنك عرفت كيف تفكر، ولم تعرف كيف تعبر؛ ولغة الدواوين وأسلوب (العرائض) لا يدخلان من أبواب الرسالة؟

فقال وقد طغى في وجهه الدم، ونزا في رأسه الغضب، وانتشر على شفتيه شاربه

الأزرق: كيف! لقد حفظت الكفراوي، ولزمت الشيخ عليش، وصحبت الشيخ رشيد، وجادلت الأستاذ وجدي، وقضيت في (التحرير) أربعين عاماً! أفتجابهني بعد ذلك بأنني لا اعرف كيف اكتب؟! فقلت له: هون عليك! سأكتب لك هذا الكتاب بلغة المجلات فإن أعجبك أمضيته. ثم شرعت اكتب: (صاحب السعادة محافظ القاهرة:

يتقدم إليك بهذه الكلمة والد فقير كابد من نصب العيش وعنت البؤس وتربية الأولاد) ما جعله مثلا صحيحا لآلام طبقته. انك ألغيت (مصايف الأطفال) فألغيت حقا كسبه الفقير من

الغني، وأخذته العامة من الخاصة. كان هذا الحق لنقصه وقصوره كنظرة أهل النار إلى أهل الجنة يضاعف ألم الحرمان ويجسم شقاء البؤس، ولكنه على أية حال كان ترضية لكرامة الشعب

ولقد كان في نفسي أن اطلب إلى وزارة الأمة أن تجعل المصايف مضايف تؤوي شرداء الطفولة وطرداء الفاقة، فتنقلها بذلك من الخصوص إلى العموم، وتحولها من تملق الكمال إلى معالجة الضرورة. فأفاريز الشوارع وأفواه الطرق وزوايا الأبنية مغطاة في الليل القارس القاسي بجسوم اليتامى والهمل من أطفال القاهرة، تترعرع في أحضانهم القذرة أغراس الرذيلة، وتتكاثر على روائحهم الكريهة جراثيم المنكر، والملاجئ وحدها علاج هذه الحال الأليمة. فإذا كان هذا الإلغاء لسد هذا الخلل وإصلاح هذا الفساد، فما عدوت الصواب ولا أخطأت الحزم؛ وأما إن كان لقلة المال أو ضعف الرغبة فقد قضيت على فكرة جميلة واعتديت على حق مقدس. . .). . .

وكان أمين قد سكت عنه الغضب، فنظر فيما اكتب ثم قال منفعلا: ما هذا؟ أين (الديباجة)؟ وأين ما يجب لمثل هذا العظيم من عبارات التفخيم؟ أرجو ألا تكمل! سآخذ كتابي وأسلمه إلى الباشا يداً بيد! فقلت له: أرحتني أراحك الله! وسلمته الكتاب يداً بيد، ثم صافحته يداً بيد. وخرج الحاوي وأنا ارجح أنى كسبت عدوا جديداً من جراء النشر في الرسالة

أحمد حسن الزيات

أحلام في قصر

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

كان فلان بن الأمير فلان يتنبَّل في نفسه بأنه مشتقٌ ممن يضع القوانين لا ممن يخضع لها، فكان تياها صلفا يشمخ على قومه بأنه ابن أمير، ويختال في الناس بان له جداً من الأمراء، ويرى من تجبره أن ثيابه على أعطافه كحدود المملكة على المملكة لان له أصلاً في الملوك

وكان أبوه من الأمراء الذين ولدوا وفي دمهم شعاع السيف وبريق التاج، ونخوة الظفر، وعز القهر والغلبة؛ ولكن زمنه ضرب الحصار عليه، وأفضت الدولة إلى غيره فتراجعت فيه ملكات الحرب من فتح الأرض إلى شراء الأرض، ومن تشييد الإمارات إلى تشييد العمارات، ومن إدارة معركة الأبطال إلى إدارة معركة المال؛ وغبر دهره يملك ويجمع حتى أصبحت دفاتر حسابه كأنها (خريطة) مملكة صغيرة

وبعض أولاد الأمراء يعرفون أنهم أولاد أمراء فيكونون من التكبر والغرور كأنما رضوا من الله أن يرسلهم إلى هذه الدنيا ولكن بشروط. . . .

وانتقل الأمير البخيل إلى رحمة الله، وترك المال واخذ معه الأرقام وحدها يحاسب عنها، فورثه ابنه وأمرَّ يده في ذلك المال يبعثره؛ وكانت الأقدار قد كتبت عليه هذه الكلمة: غير قابل للإحسان، فمحتها بعد موت ابيه، وكتبت في مكانها هذه الكلمة: جمع للشيطان

أما الشيطان فكان له عمل خاص في خدمة هذا الشاب، كعمل خازن الثياب لسيده، غير انه لا يلبسه ثيابا بل أفكاراً وآراءً وأخيلةً. وكان يجهد أن يدخل الدنيا كلها إلى أعصابه ليخرج منها دنيا جديدة مصنوعة لهذه الأعصاب خاصة، وهي أعصاب مريضة ثائرة متلهبة لا يكفيها ما يكفي غيرها فلا تبرح تسأل الشيطان بين الحين والحين: إلا توجد لذة جديدة غير معروفة؟ ألا يستطيع إبليس القرن العشرين أن يخترع لذة مبتكرة؟ ألا تكون الحياة إلا على هذه الوتيرة من صبحها لصبحها؟

كان الشاب كالذي يريد من إبليس أن يخترع له كأساً تسعُ نهراً من الخمر، أو يجد له امرأة واحدة وفيها كل فنون النساء واختلافهن. وكان يريد من الشيطان أن يعينه في

اللذة على الاستغراق الروحاني ويغمره بمثل التجليات القدسية التي تنتهي إليها النفس من حدة الطرب وحدة الشوق؛ وذلك فوق طاقة إبليس، ومن ثم كان معه في جهد عظيم حتى ضجر
منه ذات مرة فهم أن يرفع يده عنه ويدعه يدخل إلى المسجد فيصلي مع بعض الأمراء الصالحين
وهؤلاء الفساق الكثيرو المال إنما يعيشون بالاستطراف من هذه الدنيا، فهمهم دائما الألذّ والأجمل والأغلى؛ ومتى انتهت فيهم اللذة منتهاها ولم تجد عاطفتهم من اللذات الجديدة ما يسدها ضاقت بهم فظهرت مظهر الذي يحاول أن ينتحر. وذلك هو الملل الذي يبتلون به، والفاسق الغني حين يمل من لذاته يصبح شأنه مع نفسه كالذي يكون في نفق تحت الأرض ويريد هناك سماءً وجواً يطير فيهما بالطيارة. . .
قالوا: واعترض ابن الأمير ذات يوم شحاذ مريض قد أسنَّ وعجز يتحامل بعضه على بعض، فسأله أن يحسن إليه وذكر عوزه واختلاله وجعل يبثُّه من دموعه وألفاظه. وكان إبليس في تلك الساعة قد صرف خواطر الشاب إلى إحدى الغانيات الممتنعات عليه وقد ابتاع لها حلية ثمينة اشتط بائعها في الثمن حتى بلغ به عشرة آلاف دينار، فهو يريد أن يهديها إليها كأنها قدر من قادر. . . وقطع عليه الشحاذ المسكين أفكاره المضيئة في الشخص المضيء فكان إهانةً لخياله السامي. . . ووجد في نفسه غضاضةً من رؤية وجهه واشمأز في عروقه دم الإمارة وتحركت الوراثة الحربية في هذا الدم ثم ألقى الشيطان إلقاءه عليه، فإذا هو يرى صاحب الوجه القذر كأنما يتهكم به يقول له: أنت أمير يبحث الناس عن الأمير الذي فيه فلا يجدون إلا الشيطان الذي فيه. وليس فيك من الإمارة إلا مثل ما يكون من التاريخ في الموضع الأثرى الخرب. ولن تكون أميراً بشهادة عشرة الآلاف دينار عند مومس، ولكن بشهادة هذا المال عند عشرة آلاف فقير. أنت أمير، فهل تثبت الحياة انك أمير أو هذا معنى في كلمة من اللغة؟ إن كانت الحياة فأين أعمالك، وإن كانت اللغة فهذه لفظة بائدة تدل في عصور الانحطاط على قسط حاملها من الاستبداد والطغيان والجبروت، كأن الاستبداد بالشعب غنيمة يتناهبها عظمائه، فقسم منها في الحاكم وقسم في شبه الحاكم يترجم عنه في اللغة بلقب أمير
ألا قل للناس أيها الأمير: إن لقبي هذا إنما هو تعبير الزمن عما كان لأجدادي من الحق في قتل الناس وامتهانهم
وكان هذا كلاما بين وجه الشحاذ وبين نفس ابن الأمير في حالة بخصوصها من أحوال النفس، فلا جَرَم أُهين الشحاذ وطرد ومضى يدعو بما يدعو
ونام ابن الأمير تلك الليلة فكانت خيالتُه من دنيا ضميره وضمير الشحاذ: فرأى فيما يرى النائم أن ملكا من الملائكة يهتف به:
ويلك! لقد طردت ذلك المسكين تخشى أن تنالك منه جراثيم تمرض بها، وما علمت أن في كل سائل فقير جراثيم أخري تمرض بها النعمة؛ فإن أكرمته بقيت فيه وإن أهنته نفضها عليك. لقد هلكت اليوم نعمتك أيها الأمير واستردَّ العارية صاحبها وأكلت الحوادث مالك فأصبحت فقيراً محتاجاً تروم الكسرة من الخبز فلا تتهيأ لك ألا بجهد وعمل ومشقة؛ فاذهب فاكدح لعيشك في هذه الدنيا فما لأبيك حق على الله أن تكون عند الله أميراً
قالوا: وينظر ابن الأمير فإذا كلُّ ما كان لنفسه قد تركه حين تركه المال، وإذا الإمارة كانت وهما فرضه على الناس قانون العادة، وإذا التعاظم والكبرياء والتجبر ونحوها إنما كانت مكْراً من المكر لإثبات هذا الظاهر والتعزز به. وينظر ابن الأمير فإذا هو بعد ذلك صعلوكٌ ابتر مُعدم رثَّ الهيئة كذلك الشحاذ، فيصيح مغتاظاً: كيف أهملتني الأقدار وأنا ابن الأمير؟
قالوا: ويهتف به ذلك الملك: ويحك إن الأقدار لا تدلل أحداً لا ملكا ولا ابن ملك ولا سوقياً ولا ابن سوقي، ومتى صرتم جميعاً إلى التراب فليس في التراب عظم يقول لعظم آخر: أيها الأمير
قالوا: وفكر الشاب المسكين في صواحبه من النساء وعندهن شبابه وإسرافه، ونفقاته الواسعة فقال في نفسه: اذهب لإحداهن؛ واخذ سمته إليها فما كادت تعرفه عيناها في أسماله وبذاذته وفقره حتى أمرت به فجر بيديه ودُفع في قفاه. ولكن دم الإمارة نزا

في وجهه غضباً وتحركت فيه الوراثة الحربية فصاح واجلب واجتمع الناس عليه واضطربوا وماج بعضهم في بعض. فبينا هو في شأنه حانت منه التفاته فابصر غلاماً قد دخل في غمار الناس فدس يده في جيب أحدهم فنشل كيسه ومضى

قالوا: وجرى في وهم ابن الأمير أن يلحق بالغلام فيكبسه كبسة الشرطي وينتزع منه الكيس وينتفع بما فيه، فتسلل من الزحام وتبع الصبي حتى أدركه، ثم كبسه واخذ الكيس منه واخرج الكنز فإذا ليس فيه إلا خاتم وحجاب وبعض خرزات مما يتبرك العامة بحمله ومفتاح صغير. . .

فامتلأ غيظا وفار دم الإمارة وتحركت الوراثة الحربية التي فيه. وألم الصبي بما في نفسه وحدس على إنه رجل أفاق متبطل لا نفاذ له في صناعة يرتزق منها، فرثى لفقره وجهله ودعاه إلى أن يعلمه السرقة وأن يأخذه إلى مدرستها. وقال: إن لنا مدرسة فإذا دخلت القسم الإعدادي منها تعلمت كيف تحمل المِكتل فتذهب كأنك تجمع فيه الخرق البالية من الدور حتى إذا سنحت لك غفلة انسللت إلى دار منها، فسرقت ما تناله يدك من ثوب أو متاع، ولا تزال في هذا الباب من الصنعة حتى تحكمه. ومتى حذقته ومهرت فيه انتقلت إلى القسم الثانوي. . .

فصاح ابن الأمير: اغرب عني، عليك وعليك، أخزاك الله! ولعن الله الإعدادي والثانوي معاً

ثم انه رمى الكيس في وجه الغلام وانطلق، فبينا هو يمشي وقد توزعته الهموم أنشأ يفكر فيما كان يراه من المكدِّين وتلك العلل التي ينتحلونها للكدية كالذي يتعامى والذي يتعارج والذي يحدث في جسمه الآفة؛ ولكن دم الإمارة اشمأز في عروقه وتحركت فيه الوراثة الحربية؛ وبصر بشاب من أبناء الأغنياء تنطق عليه النعمة فتعرض لمعروفه وأفضى إليه بهمه وشكا ما نزل به ثم قال: وأني قد أملتك وظني بك أن تصطفيني لمنادمتك أو تلحقني بخدمتك. وما أريد إلا الكفاف من العيش، فإن لم تبلغ بي فالقليل الذي يعيش به المقل. وصعد فيه الشاب وصوب ثم قال له، أتحسن إن تلطف في حاجتي؟ قال: سأبلغ في حاجتك ما تحب. قال الشاب، ألك سابقة في هذا؟ أكنت قواداً؟ أتعرف كثيرات منهن. . . .؟

فانتفض غضباً وهم أن يبطش بالفتى لولا خوفه عاقبة الجريمة، فاستخذى ومضى لوجهه، وكان قد بلغ سوقاً فأمَّل أن يجد عملا في بعض الحوانيت، غير أن أصحابها جعلوا يزجرونه مرة ويطردونه مرة، إذ وقعت به ظنَّةُ التلصص، وكادوا يسلمونه إلى الشرطي فمضى هارباً وقد اجمع أن ينتحر ليقتل نفسه ودهره وإمارته وبؤسه جميعاً

قالوا: ومر في طريقه إلى مصرعه بامرأة تبيع الفجل والبصل والكرات وهي بادنة وضيئة ممتلئة الأعلى والأسفل، وعلى وجهها مسحة اغراء، فذكر غزله وفتنته وإستغواءه للنساء، ونازعته النفس، وحسب المرأة تكون له معاشاً ولهواً، وظنها لا تعجزه ولا تفوته وهو في هذا الباب خرَّاجٌ ولاَّجٌ منذ نشأ، غير انه ما كاد يراودها حتى ابتدرته بلطمة اظلم لها الجو

في عينيه، ثم هرت في وجهه هريراً منكراً واستعدت عليه السابلة فأطافوا به وأخذه الصفع بما قدم وما حدث، ومازالوا يتعاورونه حتى وقع مغشيا عليه

ورأى في غشيته ما رأى من تمام هذا الكرب فضرب وحبس وابتلي بالجنون وأرسل إلى المارستان وساح في مصائب العالم وطاف على نكبات الأمراء والسُّوقة بما يعي وما لا يعي، ثم رأى انه قد أفاق من الإغماء فإذا هو قد استيقظ من نومه

ويا ليت من يدري بعد هذا؛ أغدا ابن الأمير على المسجد وأقبل على الفقراء يحسن إليهم، أم غدا على صاحبته التي امتنعت عليه فابتاع لها الحلية بعشرة آلاف دينار؟

يا ليت من يدري! فإن الكتاب الذي نقلنا القصة عنه لم يذكر من هذا شيئاً بل قطع الخبر عندما انقطع الصفع. . . . .

(طنطا)

مصطفى صادق الرافعي

فوز نسوي جديد

ملكات ووزيرات

بين الماضي والحاضر

للأستاذ محمد عبد الله عنان

منذ فجر التاريخ استطاعت المرأة أن تتبوأ الملك وان تحكم الشعوب؛ وهي مازالت تتبوأ الملك وتحكم الشعوب في عصرنا

ويقدم إلينا التاريخ منذ العصور الغابرة ثبتاً حافلاً من ملكات عظام شغلن عروشا خطيرة، وألقيت إليهن مصاير أمم وشعوب عظيمة، وقمن بتدبير الملك وقيادة الجيوش؛ ففي مصر الفرعونية، وفي مملكة سبأ، وفي تدمر، يتبوأ الملك نساء قويات العزم والشكيمة؛ وفي مصر أيضاً نرى ملكة رائعة الحسن هي كليوباترا تحاول رد الغزو الروماني عن مصر، وتفتدي الهزيمة بالحياة؛ ثم نرى في عصر الإسلام ملكة مصرية هي شجرة الدر تنظم شؤون الدفاع في مصر إزاء الخطر الصليبي؛ ونرى في الغرب، وفي العصر الحديث، عدة من الملكات العظيمات يسهرن على مصاير اعظم الدول الأوروبية مثل إيزابيلا ملكة قشتالة، وماري تيودور واليصابات ملكتا إنكلترا، وكاترين الكبرى إمبراطورة روسيا، وماريا تيريزا إمبراطورة النمسا

وفي يومنا هذا تتبوأ عرش هولندا أميرة عظيمة هي الملكة ولهلمينا؛ بيد أنه من غرائب الاتفاق ومفارقات الحوادث أن المرأة التي وصلت منذ العصور الغابرة إلى تبوئ العروش وقيادة الدول مازالت تناضل في عصرنا للحصول على ابسط الحقوق العامة التي يتمتع بها الرجل، فإذا ظفرت ببعض هذه الحقوق في بلد من البلاد اعتبر ذلك فوزاً عظيما لقضيتها

وقد وقع أخيرا في فرنسا حادث يعتبر فوزاً عظيما لحركة النسوية؛ ففي الوزارة الفرنسية الجديدة التي يرأسها زعيم الاشتراكية الفرنسية، مسيو ليون بلوم ثلاث نساء يشغلن مركز الوزارة، وهن مدام سيسيل برونشفيج إحدى زعيمات الحركة النسوية الفرنسية، ومدام ايرين كوري العالمة الكيميائية الشهيرة، ومدام سوزان لاكور الكاتبة الاشتراكية التي اشتهرت بجهودها في سبيل حماية الطفولة

وهذه أول مرة في تاريخ فرنسا تتبوأ فيها المرأة كرسي الوزارة؛ ويزيد الحادث غرابة وطرافة أن أولئك النسوة الوزيرات لازلن كباقي نساء فرنسا، محرومات بنص الدستور من مزاولة أبسط الحقوق العامة، أعني حق الانتخاب، وهو حق تجاهد المرأة الفرنسية للحصول عليه بكل ما وسعت، وتأباه عليها الحكومات والبرلمانات المتعاقبة

ولقد تخلفت فرنسا في هذا الميدان عن باقي الأمم الديموقراطية العظيمة مثل إنكلترا وأمريكا وروسيا حيث تتبوأ المرأة مناصب الحكم ومقاعد النيابة منذ أعوام بعيدة؛ وفي البرلمان الإنكليزي اليوم عدد كبير من النسوة النائبات، وفي الوزارة الإنكليزية القائمة سيدة هي مس بونفيلد وزيرة العمل؛ وفي أمريكا تشغل المرأة مناصب الحكم كثير من الولايات، وتحتل عدداً كبيراً من المقاعد النيابية؛ وفي روسيا السوفيتية تتمتع المرأة بجميع الحقوق السياسية والعامة التي يتمتع بها الرجل، وتشغل كثيراً من مراكز الحكم والنيابة في سائر الإدارات والمجالس السوفيتية، وأحياناً تشغل منصب السفارة، مثل السيدة الكسندرا كولانتاي، التي لبثت مدى حين سفيرة لروسيا في المكسيك ثم في السويد؛ بل نرى المرأة تفوز في بعض الأمم الفتية بحق الانتخاب والنيابة، كما حدث أخيراً في تركيا

كانت الحرب الكبرى ميداناً عظيما لجهود المراة، ففيها استطاعت لأول مرة أن تضطلع بكثير من المهام والأعمال الشاقة، وفيها لقيت الحركة النسوية المعاصرة فرصة عظيمة لنشاطها وظفرها؛ ومنذ غداة الحرب استطاعت المرأة أن تحقق كثيراً من أمانيها ومطالبها، فغزت جميع ميادين الحياة العامة، ونفذت إلى معترك الوظائف والمهن الحرة، وفتحت لها أبواب التعليم الجامعي بسائر أنواعه، ولم تعد تقتصر على مزاولة المهن السلمية الهادئة كالطب والمحاماة والصحافة؛ بل غدت تنافس الرجل في اشق الأعمال وأخطرها، كالهندسة والطيران وبعض الأعمال العسكرية والبحرية، وغيرها مما كان اضطلاعها به يعتبر من قبل ضرباً من المستحيل

ولكن المرأة مازالت ترد بعنف عن حظيرة التشريع والسياسة العليا، وعن مواطن المسؤولية العامة؛ وإذا كانت قد استطاعت أن تفوز في بعض الأمم بحقوق الانتخاب والنيابة، وأن تحتل بعض الوظائف الكبيرة، فإنها مازالت بعيدة جداً عن التأثير في سير السياسة العليا، وسير التشريع القومي؛ ومازال الرجل يستأثر وحده بتوجيه السياسة والتشريع بعيدا عن تدخل المرأة أو إشرافها. وقد تمضي أجيال أخرى قبل أن تستطيع المرأة أن تغزو هذا الميدان غزوا حقيقياً، أو أن تساهم فيه مساهمة تذكر

وهذه ظاهرة تدعو إلى التأمل؛ فقد أتيح للمرأة، في كثير من العصور أن تتبوأ الملك وأن تقود الأمم، وأن تستأثر بتوجيه السياسة العليا، ولكنها تحرم في عصرنا، وهو عصر تقدمها وظفرها، من تبوء مناصب الحكم والمسؤولية. وبعبارة أخرى، فقد سبق فوز المرأة بالملوكية، فوزها بالوزارة أو ما يماثلها؛ بيد انه ليس من الصعب أن نفسر هذه الظاهرة التاريخية؛ ذلك أن فوز المرأة بالملوكية لم يكن راجعاً في عصر من العصور إلى مواهب ومزايا تؤهلها للاضطلاع بهذا المنصب الخطير، ولكنه كان يرجع دائماً إلى حقوق الأسرة وتطورات الحوادث؛ وقد كانت حقوق الأسرة في الملك تتشح في العصور القديمة والوسطى بنوع من الحق الإلهي، وفي ظل هذا الحق المزعوم الذي كانت تقدسه الشعوب في تلك العصور استطاعت المرأة أن تتبوأ الملك بالوراثة والتعيين لا بالأهلية والاستحقاق

وإذا كان من الإنصاف أن نقول إن المرأة استطاعت في ظل الملوكية أن تقوم أحياناً بمهام الملك والسياسة بقوة وبراعة، فانه يجب ألا ننسى أن وجودها في هذا المركز لم يكن عنوان فوزها الاجتماعي، ولم يكن نهاية في تطور النضال بينها وبين الرجل، وإنه لم يكن اكثر من ظاهرة تاريخية عرضية كما بينا

على أن المرأة لم تقف في توجيه العروش والسياسة عند هذا الموطن الذي ارتفعت إليه في ظل الأسرة والحق الإلهي، بل استطاعت في ظروف كثيرة أن تصل بقوة عزمها ونفوذها إلى التأثير المباشر في توجيه الدول والحكومات؛ ويقدم لنا التاريخ أمثلة طريفة جمة من هذا النوع البارع من النساء. ولم يخل التاريخ الإسلامي نفسه من أمثلة من هذا النوع؛ ففي تاريخ الأندلس نجد امرأة نصرانية بارعة هي صبح النافارية جارية الحكم المستنصر وأم ولده المؤيد، تسيطر بنفوذها على الحكم وعلى حكومة قرطبة زهاء عشرة أعوام، وتؤثر في سياسة القصر والدولة؛ فإذا توفي الحكم نراها تستأثر مدى حين بالوصاية على ولدها المؤيد وتوجه ناصية الشؤون ببراعة ودهاء حتى يسطع نجم المنصور بن أبى عامر (الحاجب المنصور) فيسلبها كل سلطة وكل نفوذ. وفي دولة بن عباد باشبيلية، نرى جارية أخري هي اعتماد الرميكية جارية المعتمد بن عباد وأم أولاده تسيطر على حكومة أشبيلية

مدى حين. وفي أواخر دولة الإسلام بالأندلس نجد امرأة نصرانية هي ثريا زوجة السلطان أبى الحسن النصري ملك غرناطة توجه شؤون الدولة طبق أهوائها وتثير بمساعيها ضرام الحرب الأهلية التي انتهت بسقوط غرناطة في أيدي النصارى. ويقدم إلينا التاريخ الأوروبي نماذج عديدة مدهشة من نساء يسيطرن على الدولة بطرق غير مباشرة، ونكتفي بأن نقدم من ذلك مثلين بارزين: أولهما مثل المركيزة دي بومبادور صاحبة لويس الخامس عشر ملك فرنسا، وقد حلت في البلاط مكان الملكة الحقيقية، وسيطرت مدى أعوام طويلة بنفوذها على شؤون القصر والدولة، تولي وتعزل، وتأمر وتنهي، وتؤثر في توجيه سياسة فرنسا الخارجية أعظم تأثير، وتقبض على مقاليد السلام والحرب. والمثل الثاني هو مثل البارونة بربارة فون كريدنر، وهي سيدة روسية غادرت حياة زوجية نكدة لتعتنق حياة الزهد والتصوف، وقصت علينا حياتها الأولى في كتاب عنوانه (فاليري)، وطافت أرجاء ألمانيا وسويسرا وهي تحض على الزهد واحتقار متاع هذه الحياة الدنيا، ثم ألقت بها المقادير إلى بلاط القيصر اسكندر الأول، فأثرت في نفسه تأثيراً عظيما واستولت على مشاعره وتفكيره؛ وكان يقضي معها كل يوم ساعات عديدة في الصلاة والشورى؛ وقد ظهر تأثير هذه المرأة الغريبة في عقد (المعاهدة المقدسة) الشهيرة، التي عقدها القيصر مع النمسا وبروسيا (سنة 1815) وغرضها الظاهر تنظيم العلائق الدولية طبقا للمبادئ المسيحية، وترويج المحبة الأخوية بين الشعوب، وغرضها الحقيقي مقاومة النزعات والحركات الحرة؛ وكان للبارونة فون كريدنر في الحث على عقدها أعظم أثر، كما إنها لبثت مدى حين توجه سياسة القيصر طبق آرائها ونصائحها

فهذه الأمثلة التاريخية العديدة توضح لنا إلى أي مدى استطاعت المرأة أن تغزو مواطن التأثير والنفوذ في الشؤون العامة بطرق ووسائل غير مباشرة؛ بيد أن هذا الفوز الذي يرجع دائماً إلى عوامل وظروف عرضية، لم يكن ثمرة أو تطور طبيعي؛ أما اليوم فإن المرأة تسير في ميدان النضال بخطوات حثيثة، وتحقق لنفسها بوسائلها وجهودها ظفرا بعد ظفر؛ وإذا كانت المرأة تتبوأ اليوم كراسي النيابة والوزارة، فذلك

لأنها استطاعت أن تشق طريقها إلى تلك المناصب، وأن تدلل على أهليتها لتوليها، فهي إذن تسير في طريق طبيعي لا أثر فيه للطفرة أو العوامل العارضة التي رفعتها من قبل إلى مواطن نفوذ لم تكن تحلم بها

ولا ريب أن المرأة لن تقف عند هذا الفوز اليسير الذي يكاد يعتبر فوزاً رمزياً فقط؛ ومن المحقق إنها ستعتز بهذا الفوز على ضآلته فتضاعف جهودها؛ وإذا سارت الحوادث في طريقها، وإذا لم تعقها العوامل والمؤثرات الرجعية، فإن المرأة ستصل في المستقبل القريب في تحقيق أمانيها إلى مدى يصعب اليوم إدراكه وتقديره، وإن لم يك ثمة شك في أنه سيكون عظيما بعيد الأثر.

محمد عبد الله عنان

هنري روبير

عضو الأكاديمية الفرنسية ونقيب المحامين

للأستاذ عبد الحليم الجندي المحامي

إلى المحاماة، في شخص المحامي الأول، والنقيب الأول،

إبراهيم الهلباوي بك

(بقية ما نشر في العدد الماضي)

ولكن ما الذي يقوله هنري روبير في تلك القضايا التي سلخ المحقق في تحقيقها عاماً كاملاً، أو التي اسودت فيها آلاف الصحف؟ للجواب على ذلك نقول إن هنري روبير كان يجيد عدم الكلام بقدر ما كان يجيد الكلام، فهو يعمد أولاً إلى المسالة التي تحكم القضية - إذا صح هذا التعبير في لغتنا العربية - فيظهرها على طريقته بقوة وبسرعة وإيجاز، ثم يسقط من كلامه اكثر ما في القضية من حواش تنأى به عن الجوهر؛ فهو يدرك كل الإدراك إن الخير للمحامي ليس عرض كل ما في الإضبارة، بل الفن الحقيقي هو ترك ما يجب أن يترك فيها؛ وقديماً علمنا أساتذتنا أن فن الحذف يساوي تماماً فن الكلام. . . ولذلك كنت تجده مسرعا، ممتعاً، مقنعاً؛ كل ذلك في وقت واحد كان يقول إنه درس (لاشو) دراسة عميقة؛ لكنك لا تجد فيه مشابه من أستاذه؛ فمرافعات روبير كانت مرافعاتٍ موضوعية مجردة، لا تتخللها الجلجلة ولا الصوت الداوي، ولا الصور التاريخية، ولا العبارات البيانية الخلابة التي يتشابه فيها لاشو مع أستاذ ذلك العصر (فكتور هوجو). والحق أن تلاميذ لاشو لم يكن منهم نقيبنا الذي يتحدث عنه، بل أن لاشو قد خلف من بعده باربو نابغة الفن التقليدي في الدفاع، ولابوري، المهيب الذي يُرعب بقدر ما يستطيع الإقناع؛ أما هنري روبير فلم يكن يهمه رسم الصور، ولا طلاء اللفظ، ولا طلاوة الأسلوب، ولا تفخيم المعاني؛ فإذا جاءت صورة من الصور أو حكمة من الحكم في معرض الدفاع وجدتها منتزعة من صميم الواقع لا من آفاق الخيال، ووجدتها من لباب القضية لا مترددة بين الحواشي لتثير الإعجاب

رحمه الله! ألا فليقل لنا إن كان حقاً قد تتلمذ لأستاذ القرن الماضي - بعد برييه - هل هو

كان يرى أن يقول للمحلفين تلك الكلمة المسرحية أو الخطابية التي قالها لاشو في سنة 1855 وهو يترافع عن رودلف المتهم بدس السم إلى عشيقته (ميمي): (ها إن السماء تدوي لكأنها تكاد تنقض؛ إنكم تسمعون هزيم الرعد وعصف العاصفة!. . . إن السماء تزمجر سخطاً على ما على الأرض من إعنات. . . أنها تحتج معي على تلك الإجراءات!!) أو تلك الكلمة الهائلة التي صوبها إلى القضاة في مرافعته ضد الجنرال (تروش) بعد حرب السبعين، وكان تروش قد تهاون في قضية الإمبراطور، وكان الإمبراطور قد خلع، وكان الإمبراطور صديقاً شخصياً للاشو، قال: (. . . إنكم ستحكمون في قضية الجنرال تروش. . . ولكن التاريخ سيصدر حكمه على حكمكم!. . وسيقرأ التاريخ كل ما دار في هذه الجلسات. . فحذار أن تضحوا كل شيء مرة واحدة. . فيقول بنو الأجيال المقبلة: إن كل شيء في هذه الأمة قد ضاع (حتى العدالة نفسها!) لم يكن روبير ينحو ذلك النحو البلاغي في الدفاع، لان وظيفة المحامي عنده كما قال: (أن يقنع لا أن يلمع)، ولان الدنيا تغيرت، والمحاكم ضاقت، وصدور القضاة والحضارة نفسها أصبحت معجلة كأنها تريد أن تصل بالدنيا إلى آخر الدنيا. . .

إنما تلاميذ لاشو ولداته هم أولئك الذين يقولون مثلما قال باربو عن دلسبس: (. . . ذلك الإنسان الذي أضاف بعض الـ (رتوش) إلى صورة الخليقة كما أبدعتها يد الخالق. . .) أو مثل فكتور هوجو وهو يترافع عن ولده شارل ضد عقوبة الإعدام (. . هذه العقوبة التي إذا وقعت على مجرم جعلته يشك في وجود الإنسانية، فإذا وقعت على بريء جعلته يشك في وجود الله!. .)

أو مثل فكتور هوجو أيضاً وهو يترافع في هذه القضية، وإذا شئت فقل مثل النمر - الأب النصر كما سموه بعد الحرب الكبرى - اعني كليمنصو عندما ترافع عن أميل زولا عقب لابوري، فنقل عن هوجو تلك الإشارة البديعة إلى تمثل المسيح، وكان إلى ذلك الوقت يوضع خلف هيئة المحكمة في الجلسات وقال: (انظروا ورائكم، فهذه اكبر ضحية عرفها التاريخ لأخطاء القضاة!!. . . . . وكانت قضية أميل زولا تدور حول إعادة النظر في قضية دريفوس، أو الهلباوي مثلا في قضية نزاهة الحكم، وبتلك الوثبة الذهنية البارعة، بل تلك الأعجوبة الرائعة الخالدة، عندما رد حفني بك محمود أحد المستشارين لشبهة عرضت

له فرفض الرد وأخذ الدفاع عن الخصم يعيِّر حفني بك بأن رده رفض وبأنه يتشكك حتى في القضاة، ويتهم حتى رجال العدل، قال هلباوي بك (. . . فلما عرضت له الشبهة في قاضيه لم ينخلع فؤاده فَرقًا، بل اقدم على أن يطلب الحقيقة عارية والعدالة مجردة، ليطمئن قلبه؛ وقديماً، وفي سبيل الاطمئنان قال موسى: (رب ارني انظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل، فإن استقر مكانه فسوف تراني. فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقاً. فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين)

فالاطمئنان الذي نشده موسى وظفر به، هو الاطمئنان الذي نشده حفني وظفر به! والذي حصل من حفني حصل من إنسان أسمى منه ألف مرة، وبالنسبة لمن؟ بالنسبة لمن هو أسمى من سعادة المستشار لا ألف مرة، ولا مليون مرة، ولكن بمقدار الفرق ما بين الإنسان وخالق الإنسان. .!!)

لا تجد لذلك التصوير وأشباهه نظائر عند هنري روبير، لكنك تجد له خواطر ممتعة تستحيل عند تلاوتها إلى حجج موضوعية في القضية المطروحة. ومثل ذلك ما نقلناه من قبل في ختام مرافعته عن بويورش؛ ومثل ذلك أيضاً ما جاء في مرافعته عن الدكتور لابورت فاستمع إليه يوجه نظر القضاة إلى الأطباء:

انظروا إلى تلك الغرفات الفساح في المصحات والمستشفيات حيث الهواء . . .) مشبع بسموم الدفتريا وجراثيم الطاعون، وانظروا إلى أولئك الرائحين الغادين في تلك الغرف أمام مرضى ينفثون الموت الزؤام من الشهقات الزفرات؛ هل علمتم على واحد منهم انه أجفل أو أنه ارتعد؟ هل تردد واحد منهم عن القيام بكل ما يفرضه عليه الواجب؟ ارجعوا إلى إحصاءات الحمى الصفراء والكوليرا، وأسالوا كم من هؤلاء الفرسان قد سقط في ساح الشرف! انظروا إلى هذه الطائفة وقولوا هل هي الطائفة المتمردة على القانون والتي يجب أن يضرب على أيديها ضربات البطش والانتقام!. . لا. لا. . إنكم ستجدون هؤلاء البنين البررة للعلم وللفن وللإنسانية قد وهبوا نفوسهم للعلم وللفن وللموت في سبيلهما؛ فهم تارة يصرعون الموت وتارة يصرعهم، لكنهم يستحقون الإعجاب في كل حال!!. .)

وكانت له وثبات في الارتجال يتناقلها الكافة؛ فمثل ذلك رده على النقيب دريبه الذي جاء في صدر هذا البحث، ومثله ما رواه (جولندن) في (اشهر قضايا سنة 1932) ولقد كان

توريز المحامي الأشهر يدافع بجلسة 19 أكتوبر سنة 1932 أمام استئناف الجنح عن موكله (فرمون) ضد (تاكوشيما) موكل هنري روبير، وكانت التهمة نصباً موجها ضد فرمون، وكان هنري روبير محامي المدعي المدني، وكانت نظرية توريز إن تاكوشيما سبق أن نصب على فرمون فجاء فرمون واصلح ما أفسده عليه تاكوشيما، واختتم دفاعه بكلمة مسرحية تخلب الألباب قال:

لقد كانت رواية: أما الفصل الأول فتاكوشيما يضرب فرمون، والفصل الثاني . . .) وبينما هو يسترسل نادى هنري روبير بصوت ضخم: (. . . (. . .فرمون يضرب تاكوشيما الفصل الثالث: المحكمة تضرب فرمون!!!!. .)

كان زعيم الارتجاليين كما قلنا، فما هو الارتجال إذن؟ أما ارتجال الفكرة فمجازفة بحقوق الناس، ووصمة للمحاماة، واستهتار بالقضاة؛ وأما ارتجال الألفاظ فذلك شيء آخر؛ والمحامي الذي يرتجل الكلام هو الذي يملك أعنة البلاغة، أو هو الذي حضر مرافعته مرات ومرات، أو هو الذي مرن على مواجهة الأحداث ومجابهة ما يفاجيء؛ وإذن فهو لا يرتجل وإنما هو يستخرج ما في مواهبه من كنوز غائرة تظهرها الحاجة، فهذا تحضير غير مباشر، وهذا هو بالطبع ما عناه شارل شني في محاضرته لفتيات الجامعة في سنة 1911، إذ حدثهن عن حياته الأولى في المحاماة قال: (. . . وكنا جميعاً نساهم بنصيب ضخم في تلك الأكذوبة الشائعة وهي أننا نرتجل عفو البديهة كلاماً سهرنا في تحضيره طول الليل وأثناء النهار. .!!) وفي أواخر القرن الماضي أشار محام - كان عضواً في مجلس النواب - إلى أن القضاة سيسمعون من (باربو) مرافعة اصلها مكتوب، فصرخ باربو بصوته الداوي: (نعم إن احترامي لهذه الساحة يضطرني لتحضير ما أقول، لكن الذين لا يحضرون كلامهم ويملؤونه بالتناقض يجدون صدوراً رحبة في ساحة أخرى. .) وكانت الساحة الأخرى طبعاً مجلس النواب

كان هنري روبير يوصي المحامين دائماً بالاطلاع والاستعداد؛ كان يوصي بالقراءة دائماً وبالكتابة دائماً؛ كان يقول مثلما قيل من قبله: إن سر النجاح هو (أولاً: العمل، وثانياً: العمل، وثالثاً: العمل) ولقد يكون المحامي موهوباً وكله كفايات، فإذا لم يجدد نفسه ويزودها بالمعلومات وجد نفسه بعد سنوات أجوف فارغاً يردد اليوم ما يردده غداً.

حدثنا النقيب

بايان عن شني وباربو أنهما قضيا نحو العشرين عاماً في زاوية من زوايا المحاماة لا يعرفها إشعاع النور؛ وفي تلك الأثناء كانا، وخاصة باربو يتسلحان بدراسة عميقة للعلوم والتاريخ؛ حتى إذا انقضى ثلث قرن كان باربو يفتح كراساته ليستخرج منها شواهد هي آية الآيات في المحاماة بل في الأدب الكلاسيك؛ ولكن روبير قد عرف الشهرة في مستهل حياته فهو لم يكن ينعم - أو يشقى - بما سماه الفراغ الإجباري للمحامين، ولكنه مع ذلك كان يجبر الزمان وصحته على أن يمنحانه الفراغ والعلم. وإذا رجعت إلى مؤلفاته وخصوصاً قضايا التاريخ الكبرى، تلك القضايا التي تعتبر القضية الواحدة منها دنيا كاملة في قرن كامل، عندئذ يتضح لك مبلغ ما اخذ به روبير نفسه من نصيحته للمحامين

إلى هذه الكفايات العظمى كان يضيف كفاءة خاصةً هي الخلق العظيم: هي التواضع. وقدْماً قال (لابروبير) (إن التواضع مع الكفاءة، كالظلال مع الصورة، تظهرها وتوضحها وتجلّيها)

هكذا كان رجلنا مع رجال القضاء ومع الزملاء

هو قد سلخ قرابة نصف قرن يترافع أمام القضاة والنواب، ومع ذلك لم نسمع له بحادث واحدٍ كلابوري كما أسلفنا عنه المقال، أو كفيفياني حتى قُدم للمحاكمة وأوقف مدة لم تكد تنقضي حتى صار وزيرا للحقانية!! ثم صار رئيساً للوزراء! أو أميل أوليفييه، أو كأسلوب (بريبه) عندما ترافع في قضية الثلاثة عشر فقال للنائب العام: (. . لا لست حسن النية في هذا الذي تقول؛ إن القوانين لا تطبق في هذه الأيام ولكنها تفسر دائماً بما لا تحتمله؛ إن النصوص ترهق كيما يُرهق بها الرجال.!) ولا كأسلوب فولتير عندما قال عن قضاة كالا: (. . لا تذكروني بهؤلاء القضاة الذين نصفهم قرود ونصفهم قضاة!) ذلك لان هنري روبير كان يعرف إن جلال المحاماة من جلال القضاء، وأن شخصية القاضي جزء من معنى القضاء لا ينفصلان. أما مع الزملاء فكان خير الزملاء، عطفا وأدباً وحسن وفاء. إليك ملفاته جميعاً، كلها ذكريات حلوة عن الزملاء والأساتذة. هذه أعذب العبارات يكتبها عن أستاذه دريبه؛ وهذه أمداح تترى للنقيب مارتيني، وتقدير لا حد له للخالدين بوانكاريه وبارتو، ولدبوي وملران ولبريان ذي الصوت العذب عندما يترافع، وهذا إعجاب لا حد له بلابوري، وحب لشارل شني، وإكبار لباربو وروسو الخ. هذا الثبت الحافل من الرجال

الذين تتردد أسماؤهم في مؤلفاته. حتى إذا راودته المنية عن نفسه استمهلها ليكتب سطوراً لم تحل الوفاة بينها وبين الناس ليملأها مدحاً للقضاة ولرجال المحاماة في الأمس الدابر، وللمحاماة نفسها، تلك الآلهة التي طالما قدسها، تلك الغانية التي طالما عبدها واخلص لها الحب والعبادة بل التي ملأ الوجود الإنساني بكلام عنها يشبه الألحان

وبعدُ: فما هي المحاماة؟ (المحاماة أسمى مهمة في الدنيا) كما قال فولتير وكما قال أيضاً (كما كنت أرجو أن أكون محامياً) بل هي كما قال ماكس باتو (إن المحامي ملك)؛ ليست هذه العبارات لوحات أدبية معلقة؛ لكنها حقائق قائمة منتزعة من صميم الواقع؛ فانظر إلى المحامي وهو يترافع؛ لا إلى (بريبه) وهو يترافع عن ملك مستقيل ضد ملك قائم، وعن ملك مخلوع ضد ملك منصب، ولا إلى ماليرب وزملائه وهم (يحملون إلى الكونفاتسيون الحقيقة ورأسهم) دفاعاً عن لويس السادس عشر، ولا إلى الهلباوي وهو يترافع في آخر القرن الماضي عن البرنس سيف الدين ضد ملك، وفي 1933 عن البرنس محمد علي ضد من؟ أو في سنة 1914 عن خيري باشا ومحرم باشا وورائهما من كان ورائهما؛ ما إلى هؤلاء قصدت ولكن إلى المحامي الصغير - اعني الشاب، فليس في المحاماة صغير وكبير، بل فيها شاب ومكتهل - إلى المحامي الناشئ وهو يقف أمام المنصة، في محكمة الجنح أو أمام القاضي الجزئي؛ هو ذا يدلي بمرافعته بين الاحترام العام أو الإعجاب العام في بعض الأحوال، كلمات متزنة، وعباراتٍ واضحةٍ كلها إخلاص؛ مسموع الصوت مسموع الكلام، لكأنك به في ردائه الأسود، الكاهن الجليل في ساحة المعبد؛ الأعناق مهطعة إليه، والآمال معقودة عليه؛ ففي يده مستقبل أسرة أو ثروة فقير أو كرامة رجل أو عرض غانية؛ ولقد يكون المحامي في سبيل الدفاع عن موكليه قد ضحى ما ضحى، أضعاف أضعاف ما كسب، وهو قد يكون قد تقدم إلى الدفاع كما كان يتقدم أسلافنا الأولون، بدافع النجدة والمروءة وفي سبيل الشرف لا في مقابل المال؛ هو ذا يقف ببسالة أمام الطغيان، طغيان الأفراد أو طغيان الطبقات أو طغيان الأمة أو طغيان الحكومة ذاتها. . إنك تكاد تحسب عندئذ أن المروءة والبسالة قد اتخذتا شكل رجل يتكلم، حتى إذا انتهى من مرافعته أملى التاريخ إملاءة بسيطة ليسمع كلمة القضاء أو كلمة القدر

انظر إلى المحامي في تلك الصورة المصغرة التي رسمناها، وقل لنفسك مع ماكس باتو

(إن المحامي ملك)

ولكن - أيها الإخوان المحامون - إذا كان حقاً أن ليست هناك مهن وضيعة، وإنما هناك أشخاص وضيعون فإن ثمة حقيقة أخري هي أنه ليست هناك مهن رفيعة، وإنما هناك رجال يرفعون من شان المهنة. فاعملوا إذن على رفع مستوى المحاماة دائما باستمرار: اعلموا إن الحياة المادية ليست هي المطمح السامي لمن لبس هذا الرداء الأسود، بل إن هذا الرداء كما قال الهلباوي في مرافعته عن الورداني إنما يذكرنا بأننا قسيسون في معبد العدالة نشاطر الناس لواعجهم وأشجانهم؛ وكلما سمت المهنة سما بها بنوها عن الابتذال. واعلموا إن نصف الوزراء في الحياة الديموقراطية لا يعيشون بعد الخدمة إلا عيشة الكفاف

اعلموا إن المحاماة رسالة وليست تجارة؛ وان السعيد من استطاع أن يفهمها على غير أسس المال؛ هاتوا صحائف التاريخ تشهدوا الثروات تتدفق على المحامي دائماً بعد أن يكون قد قام بواجبه في سبيل الشرف أو في سبيل الصالح العام؛ تشهدوا المال يلاحق المحامي بعد أن يكون قد أدى رسالته في خدمة المظلومين أو في مدافعة الطغاة؛ تشهدوا المحامي العظيم لا يسعى إلى المال وإنما يسعى إلى الشرف، وكلما اعرض عن جمع المال انحدر إليه المال من كل ناحية. فالسعيد منكم من استطاع أن يفهم المحاماة على أنها مهمة ومهنة. فاملئوا نفوسكم بالقناعة، واملئوا أذهانكم بالعلم، واملئوا فراغكم - الإجباري أو الاختياري - بالدرس وبالتحصيل وبالسعي المطرد نحو الكمال

وانتم أيها المحامون الشبان: اسمعوا! إن المحاماة في مصر لم تصل إلى أزهى عصورها بعد؛ فانتم إذن أملها المرموق بالعناية. اكتبوا دائماً، واقرءوا دائما، وتعلموا حسن الأداء - فالمحاماة في الحقيقة ليست إلا حسن أداء - واذكروا إن الحياة الديموقراطية قد ذللت لكم كل شعاب المجد، وفتحت لكم الأبواب على مصاريعها، فأدوا رسالتكم على خير وجوهها، وكونوا دائما شجعانا؛ وأضيفوا إلى مبادئكم إن خير ما علمنا أساتذتنا هو إن احترام المحاماة من احترام القضاء، وان خير ما يكسب به الدعوى هو سلامة الأسلوب ونزاهة الغاية

اذكروا أن رئيس محكمة النقض السابق كان رئيسا لنقابتكم، وأن رئيس نقابتكم

السابق هو الرئيس الثاني في الدولة بعد رئيس الوزارة، واذكروا إن رئيس الوزارة اليوم بل صاحب
الرياسات جميعاً، كان وما يزال محاميا منكم. واعلموا أخيراً إن هؤلاء الذين شاركوكم كزملاء لا كرؤساء سيعود إليكم منهم من يعودون ليتشرفوا بحمل ذلك الرداء الأسود الذي يساوي كلمة الدفاع، ذلك الرداء الذي كان يحمله بوانكاريه وملران بين رياسة الجمهورية ورياسة الوزارة مثلما كان يصنع فيفياني ووالدك روسو ومثلما يصنع عبد العزيز فهمي ومكرم عبيد
كم كنت أود لو نقلت إليكم تلكم الخطبة الخالدة التي ألقاها المستشار (داجوسو) من نحو مائتي عام في المحامين والمحاماة، ولكن المقام ضاق فإليكم منها تلكم الخاتمة:
-
حسبكم جزاء على آلائكم العظمى التي تسدونها إلى الناس هذه العظمة وذلكم . .) الجلال، وألا تكونوا مدينين بالعظمة وبالجلال إلا إلى أنفسكم. حسبكم إن يتخذ منكم الناس مثلما اتخذوا من أسلافكم من القادة والهداة والرسل، وان ترتفعوا إلى تلكم المكانة العليا فوق الكافة فتتولوا صرف المنازعات وفض الخصومات، تتولوا القضاء الفعلي بين الناس كما يتولاه القضاة الموظفون ولكن بما لكم من سمو الغاية ونزاهة القصد ونصيب ضخم من الاحترام العام وبما لكم من نفوذ الكلمة وبلاغة التأثير وجلال العبارة. . . . فهل انتم إذن ستكونون لأنفسكم أداة تقدم لا عوامل تنفتل بكم إلى الوراء؟. . هل ستكون هذه المحاماة التي طالما عملت لمجد الأمة، وكم ستعمل في سبيلها؟ هل ستكون عند رجائنا فيها فتحتفظ لنفسها بمنزلتها الرفيعة العليا بين المهن، بالفقه وبالبيان ولكن بالعدل والنزاهة أيضاً؟ .)
أيها الزملاء! كلمة أخيرة
إن نقيكم العظيم المضطلع بشتى شؤون الدولة يكاد يقول مثل (الملك الشمس) (أنا الدولة) فأهيبوا به أن يذكرنا. . . . وعندما يصدر القانون، وتتقرر حصانة المحامي في الجلسات، يومئذ تلمسون بأصابعكم ما قاله ماكس باتو من أن المحامي ملك، بل وتضيفون إليه أيضاً أن المحامي ملك
عبد الحليم الجندي
صوت الجبل
(مهداة إلى الأستاذ الزيات)
للأستاذ معروف الأرناءوط
لقد قال لها إن الجبل يناديني يا (سافو). . . ثم رفع . . .)
صوته قائلا: إن الله قريب مني وإني لأراه في هذا النور الذي
يطفو على (سيناء)! وفي هذا الفتون الذي يراق على بادية
التيه!)
قال (كريستيا) (لسافو) وقد اطرح الدير في الليلة الجوناء وهبط (وادي العربة) تاركا وراءه قنن جبل (حور): ناشدتك الله يا أخية أن تسمعني شيئا من حوار (أوديب) حينما اشتملت عليه جبال وطنه، فإنه ليروق لي وقد شابهت هجرتي هجرته وماثلت شجوني شجونه، وحاكت ليالي لياليه، أن استمع لجرسه الشجي في هذا الوادي المصحر. . . إنك لتتذكرين خروج هذا الملك في ذات ليلة إلى جبال (كولون) ومعه ابنته (أنتيغون) فلما أظلته السحب وأرزمت السماء وقعقعت تهافت على ابنته في رفق وحب وسألها أن تذكر له اسم الأرض التي وطئها وقال لها انه يحب أن يدفن آلامه ومتاعبه وذكرياته في المنفى، فطفقت (أنتيغون) تتحدث إليه عن وطنه الجديد، فرق وسكن ولطفت أحاديثها حزنه. نعم حدثيني يا (سافو) عن (أوديب) وعن (أنتيغون) فإنما أنا ذلك التعس (أوديب)، وأنت (أنتيغون) رفيقته في أرض المنفى، ولكن سافو كانت تفكر في (فروه ابن عمرو) وفي المعركة التي نهد إليها برجال حصدت نصفهم الحرب وما يستطيع الذين نجوا من غضب (قيصر) أن يستبقوا الحياة إلى ليل فلقد تتعاورهم الرماح والنبال والسيوف من كل ناحية ويمنعهم هذا الجيش الكثيف الرابض عند منافذ الأودية ومسارب الطرق من الإفلات. فتضيق بهم (سلع) ويضنيهم الحصار والطوى والبرد وانقطاع المدد:
لقد كانت تفكر في هذا كله ساعة أرادها الشاعر المثال على قراءة قصة (أوديب)

الملك، فلما لم تسمعه صوتها تغنى بشعر (سفوكليس) وحسب نفسه وهو يطأ الجبل أنه ذلك التعس
فقال بصوت شجي يشبه الرثاء (أوديب):
أوديب
انتيغون، يا ابنة ذلك الأعمى الشيخ، ناشدتك الله ألا ما حسرت لي عن هذا البلد الذي) بلغنا نواحيه، وأي شعب هذا الذي نزلنا منازله، ومن هم جيرتنا في البلد النزح؟ في هذا اليوم يستجدي (أوديب) الهائم السادر الناس، فيعطيه هؤلاء عطاءا حقيراً، بلى لقد طلبت قليلاً وأعطيت يسيراً، وفي هذا غناء لي وكفاء، فقد علمتني الآلام والأهوال والمحن وتعاقب السنين ونفسي الصابرة، علمني كل أولئك الاستسلام والرضى، فهلمي يا بنية، هلمي إلي فلئن لمحت مقعداً في مكان رجس أو في غاب مقدس فقفي بي عنده وانزلي بي في أديمه، ثم لا يضيرني ولا يضيرك أن نمضي إلى الناس فنسألهم الطريق وفي أي موضع منه نحن؟ فإننا غرباء عن الديار ومن حقنا أن نسأل الغادي والرائح)
ولكن سافو لم تفعل ما فعلته (أنتيغون)، ولم تدله على المكان الذي نزل فيه فانثنى هامساً بمثل ما همست به (أنتيغون) في أذني أيها البائس:
أنتيغون
أوديب! أيها الوالد التعس، يا من أضماه الألم، وأذبله الداء! ليخيل إليَّ إن سور مدينة قد ارتسم في الأفق أمام عيوننا، وهذه الأرض التي تنزل فيها لا يزال عليها عبق من قداسة ونفاسة، يدلك على ذلك هذا الغار المتشابك وهذه الأدواح الظليلة، وهذه الينابيع الرقراقة، ثم هذه البلابل التي تغني في الغاب الوارف. اطو يا أبتاه قدميك فلعلك تستطيع الجلوس على هذا الصخر الوعر، فلقد طال شرودك، وامتدت المسافات بك، وأنت ذلك الشيخ الذي لا يستطيع إمعاناً في صعود وفي هبوط
أوديب
بلى، بلى، دعيني اجلس، واسهري على الأعمى العاثر الجد
وراح (كريستيا) جالساً على الصخر وقلبه يميد وجبينه يتندى عرقاً وعيناه ترعشان في كل ناحية من نواحي هذا الأفق المديد الفسيح؛ وجلست (سافو) بجواره وفي نفسها اثر من جراح نفسه، ثم لم تلبث أن رقت له رقة أليمة، وأخذت يده وقالت له: أتدرى أين مسكنك؟
قال لا، قالت في (وادي العربة) هذا الذي يفصل (البحر الميت) عن (خليج أيلة) وكان قد أمضى بعض ليله على روابي جبل حور، فلما نزل فرع الوادي لم يشعر بالمسافات الطويلة التي خلفها وراءه ولم يفطن إلى ثوبه الذي مزقته الصخور والأدغال المتشابكة ولم ينتبه إلى الإعياء الذي تعاور (سافو) وكذلك ما كان يهمه أن يحتويه المكان الفارع، فلقد جلس على الصخر في سكينة ودعة، وجعل يقلب عينيه في الجبال التي تحيط بالسهل من الشرق إلى الغرب وقد خلعت على الوادي ظلاً شاحباً فبدا عميقا كأنه هوة من هوات الجحيم!
وكان من احب أمانيه أن يتعرف إلى طريق البحر الميت والأردن ليلحق بحسناته (بنيامينا) ويقضي ما تبقى من أيامه في الأرض التي نبت عنها الشهرة وأطرها المجد فما يردد نظراته في جنوب الوادي حتى يكرهه ويمله وحتى يعاف أن يحدق إليه، وذلك لأن في جنوب وادي العربة طريقا تدفع إلى خليج أيلة، إلى ذلك البحر الذي لا تفارقه سفن (هراقليوس) وفلكه ثم يحلق وهمه في طريق الشمال فتتمثل له الأرض منحدره هابطة إلى البحر الميت وإلى الأردن فيرق ويتشاجى ويذكر (بنيامينا) النازلة شواطئ النهر المقدس ثم يتلفت إلى (سافو) ليسألها أن ترافقه فيرى إليها نائمة حالمة فيمنعه حبه لها وبره بها أن يبتعثها على استفاقة تخرجها من أحلامها الهادئة ثم يعود فيستعرض وادي (العربة) من مكانه على الصخر، فإذا امتدت نظراته من الشمال إلى الشرق استبحر المكان أمامه وعرض له أخدود راعب يتساقط الماء على جوانبه من قلل جبل الشراة فيزعجه ويؤلمه أن ينبطح السيل في مفاجر الوادي ومرافضه فيضع يده على راس (سافو) النائمة الحالمة فتستفيق وتنهض وتدير لحاظها في تلك الأرجاء الفيحاء ثم لا تلبث أن تدرك مأساة حياتها، ويزيدها غماً ويأساً أن يلبس هذه المأساة هذا الحزن الذي يغشى جروف (العربة) وفلوجه ومسايله ومنحدراته، ولما أرادها

(كريستيا) على اصطحابه في طريق البحر الميت لم تجد معدى عن مجاراته ومسايرته، فوقفت على الصخر ونظرت إلى الجنوب فإذا الطريق قد فرقت فروقاً عظيما حتى لتوشك أن تنتهي عند خليج (أيلة) فأخافها أن تمتد الطريق وتفيح، ثم نظرت كرة أخرى إلى الشمال فإذا الوادي يهبط إلى خيف لين رقيق ثم هو يزلق إلى الغور

وقد كان عسيراً على الأخوين وقد برح بهما السير في الأخاديد والأغوار والهوات والأودية أن يستأنفا الرحلة في الأرض البراح، ومع هذا كله ما كانت (سافو) تستطيع أن ترده عن منازعه، فلما جاز الإخوان بعض الطريق وأوشك وادي (العربة) أن يتقلص ويغيب ترقرقت خيالة (سلع) في عيني (سافو) فذكرت زوجها الغطريف، وابتعثها التذكار على الوفاء له فقالت لأخيها:

- إنه ليجمل بك أن تدأب في سيرك حتى يطلع عليك (الأردن) أما أنا فلقد نذرت رجوعاً إلى (سلع) حيث الحق بزوجي الذي لم يترك سلاحه بعد!

وكانت لهجتها صريحة وصادقة، فلم يستطع (كريستيا) وهو الذي يعرف حبها لزوجها أن يعصى لها أمراً، فلحق بها إلى وادي (العربة) وكان لا ندحة لهما عن الرجوع معاً إلى جبل (حور) ثم ينحدران إلى الدير ويلحقان (بسلع)!

وبعد طوافٍ عنيفٍ في الأرض الغطشاء، فرع الشقيقان في جبل (حور) فنزلا بضلعه الشرقية وقدر لهما وهما على المرتفع الشاهق المطل على الطريق، أن يريا إلى وادي (العربة) الجميل وإلى صحراء (التيه) فوقف (كرستيا) خاشعاً أمام هذا المنظر الرائع حتى لقد جنب شعوره أن يحلق في عالم آخر. وكيف يستطيع إحساسه الثائر أن يحلق في عالم آخر، وهذه الأرض المقدسة من (سيناء) ترعش في نظراته وتطفو على جوارحه وتلهب ذكائه وتذكره بماضي هذه البطحاء التي استمعت إلى صوت الله وهو يتحدث إلى نبي!

خيل إلى (كريستيا) وقد وطئ كرة أخرى حضيض الجبل الملهم أن الدنيا طويت له واجتمعت عنده فأنّى تلفت تمثلت له قلل جبل الشراة الرفيعة يغمرها موج دافق من رواء المساء وبهاء السماء، وأنّى استقر أخذته المشاهد الموحشة وعليها من الروعة والجلال والتذكارات ما ليس يجده الشعر المهذب في خيال رواته وقائليه، بل لم يكن يستطيع وقد عرضت له (سيناء) وصحراء (التيه) وقيعان وادي (العربة) وجروفه أن ينزع من صدره صورة هذه الدنيا العبقة بعطر النبوة والوحي

ولما أوشك أن يرقى القنة التي عليها قبر (هارون) أرخى الشفق عليه ظلاله الساجية فاستراح بجوار القبر المقدس، ووقفت (سافو) حياله، فما فاتها وقد لصقت به أن تسمع صليل جوفه، وأن ترى إلى عينيه وقد غابتا في عقيق (سيناء)!

في تلك الأثناء حفا البرق في الصحاري، وامتدت شعله وخيوطه على حواشي جبل (سيناء) حتى ضوأت قلله وقننه، وكشفت ربوده ومصاده وشعافه، وحسرت عن جروفه وفلوجه وغيرانه، ثم أضاء البرق ولمع، ثم أضاء ولمع، وتلت ذلك أصوات تشبه الهزيم، وترقرقت ألوان الشفق الحمراء في كل ناحية حتى اصبح الأفق وردة كالدهان، فخيل إلى الشاعر أن هذه الأطواد التي تجاوره وتصاقبه لا تريده على فراقها، وإنما هي تريده على أن يستشرق بهذا القبس الشاعل الذي تراءى لموسى النبي في البادية الغلفاء، فلصق بمكانه وقال (لسافو): انه يكره الرجوع إلى (سلع)، وإن من احب المنى إلى نفسه أن يموت وعيناه تنظران إلى أضواء هذا القبس الذي ترمي به قلل (سيناء) الرفيعة إلى الصحارى والبوادي

ومازال البرق يضيء ويلمع على روابي (سيناء)، ومازالت الأصوات الخفية تتغاير في الأفق على مدى بعيد، ومازالت ألوان الشفق الحمراء تتفجر هابطة صاعدة، وريح النعناع تفغم الخياشيم حتى أحس (كريستيا) قداسة هذه الأرض، فخلع نعليه وركع بجوار قبر (هارون) النبي مصلياً وداعياً، منتحباً وباكياً!

لقد قال لها إن الجبل يناديني يا (سافو)، وكل جارحة من جوارحي تقول لي لا يجمل بك أيها الشاعر أن تغمض عينيك على السحب الصادرة في (سلع)! ثم رفع صوته وانثنى قائلا: إن الله قريب مني، وإني لأراه في هذا النور الذي يطفو على (سيناء)، وفي هذا الفتون الذي يراق على بادية (التيه)، بل إني لأسمع صوته في قسطلة الماء عند سفوح جبل (حور). لم يعد في هذه الحياة التي أخذتني خطوبها وكوارثها ما أخافه،

وما احرص عليه، فالمجد الذي جنبني طيفه في ميدان (سلع) حيث يقتتل الناس أما زلفى (لقيصر)، وأما زلفى (لفروة ابن عمرو)، قد تمثل لي أحد هذه القنن الرفيعة بألوانه وأنواره وطيوبه ونغماته، وروحه الساكن الوادع، وشبحه المضيء، وجرسه العذب؛ إنه ليخلع على جسمي الذي قرسه برد العشية دفء نفسه لأموت محترقاً في سناه، فذلك امثل من موت يزحمني ظله الصادر عند روماميس (سلع)! ولان تحتويني هذه الأرض المقدسة افضل من أن تحتويني هذه الأرض التي لا تعرف القداسة! وعبثاً كانت تصده عن ميوله ومطامعه، فلقد احب أن يموت على جبل (حور) كما مات موسى النبي، وكما مات هارون النبي، ثم هو إلى ذلك شاعر يحب فنه وما يليق بالشاعر أن يموت في الأرض التي لا تتصدع فيها السحب والبروق، ولا يزهر على حواشيها الآس والنعناع والورد

وانهما ليتحاوران ويتساجلان في غير جدوى ولا طائل، إذ حملت أعراف الليلة الساجية ترجيع الأبواق في وادي (سلع) فرجفا معاً. وقالت (سافو): إنها أبواق (فروة) يا (كرستينا)، وانه المنتصر على (هراقليوس). ناشدتك الله أن تمضي معي أو تبقى لوحدك على هذه القنن

ورأى المسكين وقد اذكره صوت البوق حاضره أن يلحق بها، ولكنه لم يكد يبرح مكانه حتى حفت البروق وتوامضت على مدى واسع فبانت له كرة أخرى جبال (سيناء) وصحراء (التيه) فألاعته الأضواء الغامرة وأحرقت أحلامه، فوقر في ذهنه أن يبقى في جبل (حور) طوال ليله فلا يفارقه ولا يخفره ولا يمل الطواف بشغافه ورعانه، ولا يسأم الهبوط إلى حضيضه وسفحه، نعم انه مريض وإنه مُدْنف وإنه ذلك المنفى الذي يقبس أغانيه من نفس عامرة بالألم زاخرة بالشجن، ولكنه على مرضه ودنفه كان يلذ أعراف هذه الأماكن المقدسة ويرى فيها العافية التي يشتاقها ويحب أن يغني أغانيه في هذه الأصلاد بصوت الشاعر الملهم لتسمعها روابي (سيناء) كما سمعت صوت النبي الملهم؛ وكان يشعر بقرب النهاية فنازعه شعوره إلى المكوث في هذه الأرض حتى يأخذ الله وديعته فيرقد رقاده الأبدي في شعفة تطل على (الأردن) وعلى (حرمون) وعلى (بيت المقدس)!

لقد باح بخواطره، وقال لها إن في (سلع) مكاناً للبطولة الرائعة، وليست تعرف فيه ذلك البطل المقارع فمن حقه أن يجد مكانه على الربى الشم حيث تترقرق أضواء السماء، وحيث ذكاء الشاعر يبحث عن السنى والسناء! فلما سمعت قوله لم تأنف أن تطرحه في الجبل فتولت عنه وتدفقت في سيرها تحت ضياء الكواكب، ومازالت تمعن في الهبوط حتى استقبلت السفح ووارتها عن عيني (كريستيا) فجاج وشعاب وقلب عينيه في هذه الأرجاء الفيحاء، فإذا هو وحده على الشعفة السامقة يحيط به عالم تطفو على حواشيه أشباح وأرواح، وتجري في سمائه كواكب متقاربة متباعدة، وتنوح على أطرافه وجنباته ريح ذات هدير وصليل، وتخرج من جروفه وغيرانه أصوات كأنها عزيف الجن، يضاف إلى هذه المشاهد الراعبة قبس يخطف على سيناء في أقصى الأفق!

لقد روعته العزلة فتمايد وتمايل، وخيل إليه أن بهذه النجوم الدانية من القلل والقنن عيونا تنظر إليه، ففغر فمه وبرق بصره، ثم تساقطت الشهب في الأبعاد النائية كأنها الحريق الشاعل. فغشيته ذهلة أليمة، وخيل إليه أن السماء قد ألقت إليه بنارها ودخانها فجفا مكانه على القبر وطفق ينادي: (سافو)! لك الله يا أخية أين أنت؟ وهام على وجهه فما ينحدر من رابية حتى يغيب في أخدود ضيق، فإذا حسر الأخدود عنه أمسى في غار مظلم، فإذا أوغل في ظلمة الغار تساقط الماء على ثوبه من صدوع في الصخر النابي فتندى وقَرَسهُ البرد، ثم يخرج من الغار فإذا هو بعد طوفة جاهدة عند سفح الجبل وإذا (سافو) لا تزال على السفح كأنها كانت تتوقع أن تضجره العزلة وتخيفه الوحدة فيأنس إلى إلحاق بها

ورأت (سافو) إليه تحت ضياء العشية فنادته بصوتها الرقيق الناعم: إني أخاف عليك برد الجبال فهلم فاتبعني إلى (سلع) فلعلك تجد عندها ذلك القبس الذي يضرم شعورك وكان الانحدار إلى (البتراء) سائغا ولذيذا فأحوتهما معاً طريق قديمة نقرت في الجلامد فأوغلا فيها، وأظلتهما حجارتها، الناعمة الملساء، وتراءت لهما في اليمين وفي الشمال

أسوار حمراء بلون العقيق، ولكنها أسوار عظيمة لم تتحيفها غلظة ولم تتخللها قرون وشعف، فجازا الطريق إلى الوادي وطلعت عليهما غيران ضيقة ولكنها قصيرة، ثم إذا هما يخرجان إلى طريق تدفع إلى دغل تكاثفت على حضيضه النباتات فسلخا في اجتيازها ساعتين ثم طلعت عليهما قبور (سلع) الأولى
ولم تكن سلع قد أطلت عليهما بعد، فلقد وارتها حوائط من الحجر الصلد فارتدا إلى ناحية الشمال وفزعا إلى الجانب المظلم من صخور لا تضيئها أنوار المساء، ورأيا إلى القبور المحفورة وقد تراكب بعضها فوق بعض وفتحت أشداقها وحسرت عن ثقوبها فأخذتهما أشعة خفيفة تزلق إليهما من الجبال، وسحرهما أطلال هذا المشهد بعد تلك السياحة الكامدة فأحسا الحياة وطفقا يتأملان معاً في هذه المدافن المعلقة بين السماء والغبراء، وسرهما أن يتعرفا الديار والرسوم والأطلال، ولذهما أن خيالة (سلع) عادت تطوف بصدريهما الراعشين
في أعماق هذا الجرف الذي تحميه من كل نواحيه أطواد وأصلاد تنام مدينة (سلع) عن كثب من أطلالها وقصورها وخرائبها وينبوعها الثر!
جلس (كريستيا) على عمود رخامي كان جاثماً على الأرض، فجلست (سافو) حياله وطفقا معاً ينظران في ذهلة إلى هذه الروائع الفواتن يحفهما صمت ويغشهما سكون، ويخترق آذانهما هدير الماء ودفعه على الأصنام المتداعية والعمد المنهارة في ظل ظليل من أشجار الغار الواشجة
لم يجرؤ (كريستيا) على الهمس فلقد أمالته الصور البارعة إلى غرق وأنسته ذلك الألم الذي تحيفه خلال طوافه بقنن جبل (حور) ونزوله إلى حدور وادي (العربة) بل لقد ألهته قسطلة الماء في الصعيد المهجور عن أولئك الناس الذين نفروا إلى قتال (قيصر) تحت لواء (فروة بن عمرو) فما عادت صورهم تمر بصدره، وكذلك كان شأن (سافو) فلقد غرقت مثل غرقه وسبحت مثل سبحه، وأنستها هذه الظلال الندية الرخية تلك الثورة التي عصفت بنفسها الرقيقة في ذلك الوادي الذي تتلاقى عند قيعانه وكثبانه طرق (أيلة) والبحر الراعب، فأية فتنة هذه التي هدهدت التياع الملتاعين وحملت إلى النفوس الضارعة بعض العزاء التي تحبه وتأنس إليه
هذه الرائعة ما كانت تعدو ماضي (سلع) ففي هذه الدمن التي يغنيها الماء الدافق الهادر غناءه الشجي من أبعد عصور التاريخ لا تستطيع النفوس الكامدة أن تستبقي حزنها إلى الأبد، إذ لا معدى لها عن استمراء الوحدة والإصغاء إلى حديث حياة منقرضة وإذ هي محمولة على الشرود في جلال الموت وفي روعة السماء
معروف الارناءوط
عضو المجمع العلمي العربي
ذات الثوب الأرجواني
للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني
(تنبيه: الكلام خيالي ولا أصل له)
- 6 -
كذبت على الله وعلى نفسي حين زعمت أني معجب بالسمراء وأني لا احب الثوب الأزرق. . لا والله. . فما أبالي السمراء ولا إعجاب لي بها. وكل ما في الأمر أنى رايتها كثيرة المرح فراقني أن تتلقى الحياة هاشة باشة، وأن تضحك للدنيا، ولكن هذا قد يكون عن خفة لا عن فلسفة، وأنا مفطور على الجد، ولهذا سهل أن أتعود الاحتشام، ولكن وطأة الحياة ثقلت على كاهل صبري، فأنا لا أزال أتلمس التسرية والترفيه بما يدخل في طوقي من الوسائل، ومن هنا هذا التناقض الذي يراه الناس في طباعي. ولا تناقض هناك فيما اعلم، وأني لكما كنت طول عمري، وإنما اختلفت المظاهر، وأولاي معقودة بأخراي، ولقد كنت في صباي يائساً من الخير والسعادة في هذه الحياة، وأنا الآن اكفر بهما، ولكني كنت في حداثتي يحزنني عجزي عن الاطمئنان إلى الخير فاكتئب وأتجهم وأروح أعذب نفسي واقطع قلبي حسرة، وأغراني هذا بالزهادة ونشدان الراحة - على الأقل - بتوطين النفس على اليأس ورياضتها على السكون إليه، وكنت أقول لنفسي جاداً أني تهالكت فما أفدت إلا الحرمان وإلا الظمأ والالتياح، وإني طلبت اللذات فما وجدت فيها لعاقل غناء. . فلعل الزهادة تحسم داء لم أجد في الطلب شفاء منه. ولكني ما لبثت أن وجدت أن رفض الحياة يزيد المرء إحماءً، وأن

الزهد ليس منجي، وأن النفس تخسر به طيبها ورضاها، وأن الذي لا يمد يده ليجني ويقطف لا يحق له أن يزعم أنه حرم الثمار التي يراها علا أفنان الشجرة، وقد لا يفوز الطالب الساعي بكل ما يبغي، ولكنه لاشك خليق أن يظفر بكثير مما هو دونه، فإذا فاتتك الغاية القصوى فقد لا يفوتك ما دونها من المتع، فالطلب أولى، والسعي أوجب، لأن الطلب والسعي من مقتضيات الحياة، والحياة هي الحركة لا السكون ولا الجمود، والزهد قهر للنفس، والطلب فيه كذلك قهر للنفس، وقهر النفس مع إفادة ما يمكن أن يفاد خير من قهرها مع الحرمان، والدنيا تسير على مقتضى نواميسها هي، لا على هواناً نحن، فسيان أن تضحك لها وان تعبس، وللضحك إذن خير واحزم وأولى بالعاقل وعلى ذكر الضحك أقول أنى اعجب لذات الثوب الأرجواني لماذا لا أراها تضحك أبداً؟؟ إن من تعاريف الإنسان أنه حيوان يضحك - أي يستطيع الضحك - ولكن هذه لم أرها تضحك إلا مرة واحدة، فعظم وقع ذلك في نفسي لندرته ولأنه كان فلتة مفردة، فوجهها كالقمر - سوى أن ماء الحياة والشباب والصحة يجري فيه - أعني إن تعبيره لا يتغير ولا يختلف ولا يتعدد، وقاتل الله البعد! وما يدريني؟؟ فلعلها تبتسم ولكني لبعدها لا أراها رؤيتها، ولست أذكر أني رأيت وميض عينيها، أو أن عذوبة نظرتها أو قوتها حركت قلبي، أو أن ابتسامتها الحلوة أو الساخرة أغرتني بالأمل أو الحزن. . ولكني على هذا سمعت صوتها. . نعم سمعته على الرغم مما يفصلنا من البعد. . وكانت الليلة مظلمة والحر شديدا، وكنت قاعدا في الشرفة والشجر على جانبي الطريق كأنه صور مرسومة من فرط الركود، فرأيتها تميل على جانب الشرفة؛ فنظرت فإذا جارتها في شرفتها وبينهما نحو مترين أو زيادة، وانطلقتا تتحدثان بصوت خفيض في أول الأمر، ولم اكن أرجو أن اسمعهما، ولا كنت آمل ذلك وإذا بالصوت يرتفع في الليل الساكن وإذا بصوت فتاتي يحمله إلي. . ماذا؟ لا ادري! فما كان هناك نسيم حتى أقول انه حمله. . ولكنه صافح أذني على كل حال، وقد شق علي أن أكون بحيث اسمع حديثهما، ولكني لم أكن أتسمع، وكان بيني وبينهما عشرون أو ثلاثون متراً - إذا حسبت الارتفاع - فإذا كانتا قد شاءتا أن تتكلما بصوت يسمعه الجيران فأظن إن هذا ليس ذنبي. ولولا الحر والركود الخانق لدخلت حجري وأويت إلى حيث لا يبلغني الصوت، وكنت ساعة تهدى إلى الصوت انظر إلى الطريق الخالي الموحش في هذا الليل الساكن - ولو شئت لقلت الراكد ولكني شاكرٌ - وكنت ربما رفعت عيني إلى النجوم الخفاقة اللمعان، وإذا بالصوت يقع في مسمعي فيكاد قلبي يقف. . . فلم يخالجني شك في أن هذا صوتها هي لا صوت الجارة. . ولا ادري من أين جاءني هذا اليقين؟! ويا له من صوت!!. رنان. . نافذ. . عميق الوقع. . فلو كنت تغنين لما كان أحلى ولا أسحر. . بل أنت كنت تغنين. . فما يرتفع الصوت بهذا الوضوح البلوري ولا يخفت - في غير عمود - إلى مثل الهمس، ويبريه الشجى أحياناً، ثم يعلو كأنه صيحة الحرية، ثم يضطرب ويتردد كأنه زفرة الأسى التي تتمرد على الكتمان - أقول ما يكون الصوت هكذا إلا في الغناء. . ولا ادري لماذا، ولكني لم أكد أسمع صوتك حتى خيل إلى أنى أسمع (أورفيوس) يناشد حبيبته ويدعوها إليه ويصيح (ماذا تراني اصنع بغير يوريديس؟). نعم. . كذلك بدا لي أن صوتك الذي هفا إلي على جناح النسيم الراكد. . صوتك الحافل بالأسى المكتوم والرغبة المكبوتة. ينادي. . . ويدعو. . ثم لم اعد أدري ماذا جرى لي ولا ماذا أصاب الدنيا حولي؟. وأحسست إن حياتي التف عليها صوتك كما تلف الحبال على أعضاد الأسير. . وكأنما تسرب وجودي في وجودك الغامض. . . وأطفئت الأنوار. . وازداد الليل حولي ظلاماً وصار السكون اعمق، وأنا واقف لا اشعر إلا بخفق هذا الصوت الملائكي في نفسي، وطلع النهار - نهار الناس - وأنا ماثل على حافة الشرفة انظر ولا أرى. . .

وقد صارت لي بعد تلك الليلة حياتان تتصارعان - أنا الذي كنت لو تصدقنني، اقضي أيامي ساكناً لا يكاد يسرني أو يسوءني شيء - أما الآن فإني أثب وأتنقل من الرغبة الجامحة إلى عقل الجاف الممحل. وأحس دمي الحار ينبض في عروقي - لا بل أراه - وقلبي يثب إلى حلقي وتتعلق أنفاسي وتكاد تحتبس، ثم تغمرني موجة من المرارة الأليمة. . ويسخر مني عقلي ويهزأ مما تخيلته من صيحة أورفيوس إذ يدعو إليه يوريديس. وما دعا إلا قلبي، وأين مني أورفيوس؟ وأين منك تلك التي لم اعرفها إلا من (جلوك)

وليت من يدري أين أنت الساعة؟؟ إن الليل ساج كليلتنا تلك، والدنيا ساكنة تنتظر أن تخرجي إليها في هالة من الحسن، وأنفاسي معلقة وأذني مرهفة لأسمع، ولي على هذه الشرفة ثلاث ساعات طويلات المدد، ولست أحس تعباً أو اشعر بقلق، فإني كالمجنون أو المخمور، وإني لأرسل إليك من صيحات القلب ما لا يسمعه سواك لو انك تصغين. . ثلاث ساعات وأنا أدعوك وأنت لا تجيبين. . كلا!! صوتك الملائكي لا يسمع مرة اخرى، ولا ينطلق في هذا الليل الساجي لينعشه ويحييه. وان نوافذ بيتك لمفتوحة، وان الحجرات لمضاءة، ولكنها ساكنة كأنها مهجورة، حتى ليفزعني النور الذي يخرج منها

لم أسمع صوتك بعد ذلك ولكني رأيت الوردة التي في يدك وكنت تنفضين عنها الطل أو الماء، ثم غبت بها واختفيت بعدها كأنما يكفي غذاء لروحي أن أرى معك وردة حمراء. . كلا. . . لست أريد ورداً وإنما أريد أن اسمع ذلك الصوت وانعم به، وان اجتلي عينيك وأرى في صقالهما روحي، وأن أرى رجفة شفتيك وأنت تبادلينني الأعراب عما ضاق

الصدر بما اجن منه والقلب بما وجد، وأن أحس خفق قلبك وتحسين دقات قلبي. . . فإذا كنت تؤمنين بما أؤمن به - وما أؤمن من الناس إلا بكِ وحدكِ لا شريك لكِ - وإذا لم تكوني خيالاً ينسخه النور. . وإذا كنت أنثى. . وكان لك قلب، فبالله ألا ما أسمعتني هذا الصوت مرة أخرى!! وهل أقل من ذلك؟؟

إنك جميلة وحزينة يا من لا أعرف اسمها - ولو كنت اعرفه لظننت به على الدنيا التي تجملينها - هذا ما قاله لي صوتك حين سمعته في فحمة الليل الساكن. وقد رأيتك بعد ذلك في الشرفة وفي يدك الوردة الحمراء ونظرت إلى عينيك الواسعتين تحت حاجبيهما المستقيمين فأعادت على نظرتهما ما كان صوتك قد أوحى به إلي - وإلا فلماذا يرتخي الهدب الطويل الأوطف إلا ليحجب ما عسى أن تشي به النظرة من الخواطر؟؟ ورأيت فمك الجميل وشفتيك الورديتين خلقة لا صناعة. . . شفتيك اللتين لا تعرفان كيف تبتسمان. . وفكرت في هاتين العينين اللتين لا اجتلى فيهما البشر والرضى، وفي هذا الفم الحلو الذي لا تريدين أن تدعيه يفتر عن ابتسامة - ولو ساخرة - فكرت في ذلك لحظة وان كانت عيناك وشفتاك جديرة بالتأمل دهراً كاملاً. . . ومن أعاجيبك أنى أراك أحياناً مسرورة ويبدو لي أنك قريرة العين ولكن لا ابتسام، ولا ضحك، ولا شيء من مظاهر السرور المألوفة. . . فقد لاحظتك ودرستك وخبرتك بقدر ما يتيسر ذلك لبعيد مثلي لا يراك إلا من النافذة، وأعجبت بشبابك وجمالك ورزانتك وكبريائك أيضاً، وبذوقك السليم في الثياب والزينة. . ودرست الذين حولك من أهلك. . . واحسب هذا الرجل المحتشم أباك وأظنك ورثت عنه هذا الجد الصارم والتحفظ الشديد. . وتلك احسبها أمك وان كانت تبدو اصغر من أن تكون أماً. ويعجبني منك ومنها إنكما تبدوان كصديقتين لا كأم وابنتها. والآخرون. . ولكن مالي وهؤلاء جميعاً؟؟

وقد رأيتك أمس تخرجين مع أمك أو يحسن أن اسميها صديقتك فإنها أشبه بذاك - وكنت واقفة بالباب تنتظرين أن تلحق بك وفي يدك وردة صغيرة تشمينها. . وإني لمجنون. . وإن لك أن تقولي إني طفل يرجو ويؤمن، أو رجل يحلم، ولكني اعتقد أن هذه الحركة الرقيقة كنت أنا المقصود بها، فما كان في الطريق ولا في النافذة غيري. . ونظرت إلى ناحيتي ثم رفعت الوردة إلى انفك الجميل وبعثت إليّ بهذه الوسيلة رسالة. . رسالة من

مجهولة إلى مجهول. . وخيل إليَّ - وقد أكون واهماً - إني لمحت امتقاعاً في لونك حينئذ فزادت الرسالة غموضاً على جمالها. . ثم مضيت وما لبثت أن غبت عن عيني. . وبقيت أنا مسمراً في مكاني لا أبرحه انتظاراً لعودتك. . مضت ساعة وأخرى وثالثة وأنت لا تعودين. . وإذا بك في الشرفة!! فإن كنت قد دخلت قبل ذلك بكثير ورأيت عيني التي لا ترفع عن الطريق حتى لا يفوتها منظرك وأنت عائدة، فلا شك إنك قد ضحكت من هذا الأبله المخبول الذي ينظر ولا يرى من فرط الاضطراب. . لا بأس. . وإذا كنت لم أرك فإنك في قلبي. . قلبي الذي صار محراباً لحسنك. . وإني لاحس أني أصبحت شيئاً مقدساً بحلولك فيه. . . .

إبراهيم عبد القادر المازني

بين عالمين
نظام الطلاق في الإسلام
للأستاذ أحمد محمد شاكر
نشرت في الرسالة (العدد 157 في 6 يوليو لسنة 1936) كتاب أستاذنا الكبير العلامة شيخ الشريعة، إمام مجتهدي الشيعة، الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء، في نقد ما ذهبت إليه في كتابي (نظام الطلاق في الإسلام) من اشتراط الأشهاد في الطلاق وفي الرجعة، خلافاً لما ذهب إليه أئمة الشيعة من إشتراطه في الطلاق دون الرجعة، وقد انتصر الأستاذ - حفظه الله - لمذهبهم بأبدع بيان، مما لم نجد له نظيراً فيما بين أيدينا من كتب العلماء من الشيعة الإمامية
ووعدت أن أناقش الأستاذ فيما ارتأى واختار، وان أبين وجهة نظري، ملتزماً ما رسمته لنفسي من شرعة الأنصاف في البحث والنظر (فاكشف عن حجة خصمي وعن حجتي، لي وللناظرين: فأما انتصر قول خصمي ورجعت عن قولي، وإما انتصرت لقولي وزدته بياناً وتأييداً، لا أبالي أي ذينك كان)
ووفاءاً بما وعدت انشر هنا ما قلته في الكتاب (ص 118 - 121):
قال الله تعالى في أول سورة الطلاق: (يأيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة، واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، وتلك حدود الله، ومن يتعدَّ حدود الله فقد ظلم نفسه. لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً. فإذا بلغن أجلهن فامسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف، وأشهدوا ذَوَيْ عدل منكم، وأقيموا الشهادة لله)
والظاهر من سياق الآيتين إن قوله (وأشهدوا) راجع إلى الطلاق والى الرجعة معاً، والأمر للوجوب، لأنه مدلوله الحقيقي، ولا ينصرف إلى غير الوجوب - كالندب - إلا بقرينة، ولا قرينة هنا تصرفه عن الوجوب. بل القرائن هنا تؤيد حمله على الوجوب: لأن الطلاق عمل استثنائي يقوم به الرجل - وهو أحد طرفي العقد - وحده، سواء أوافقته المرأة أم لا، كما أوضحنا ذلك مراراً، وتترتب عليه حقوق للرجل قِبَل المرأة، وحقوق للمرأة قبل الرجل، وكذلك الرجعة، ويخشى فيهما الإنكار من أحدهما، فإشهاد الشهود يرفع احتمال الجحد، ويثبت لكل منهما حقه قبل الآخر، فمن أشهد على طلاقه فقد أتى بالطلاق على الوجه المأمور به، ومن أشهد على الرجعة فكذلك، ومن لم يفعل فقد تعدى حدَّ الله الذي حده له، فوقع عمله باطلاً لا يترتب عليه أي أثر من آثاره)
وهذا الذي اخترناه هو قول ابن عباس: فقد روى عنه الطبري في تفسير (ج28 ص 88) قال: إن أراد مراجعتها قبل أن تنقضي عدتها اشهد رجلين كما قال الله: (وأشهدوا ذوي عدل منكم). عند الطلاق وعند المراجعة. وهو قول عطاء أيضاً فقد روى عنه عبد الرزاق وعبد بن حميد قال: النكاح بالشهود والطلاق بالشهود، والمراجعة بالشهود. نقله السيوطي في الدر المنثور (ج6 ص232) والجصاص في أحكام القرآن بمعناه (ج 3 ص456). وكذلك هو قول السُّدّي. فقد روى عنه الطبري قال: في قوله: (وأشهدوا ذوي عدل منكم): على الطلاق والرجعة
وذهب الشيعة إلى وجوب الأشهاد في الطلاق وأنه ركن من أركانه، كما في كتاب (شرائع الإسلام ص208 - 209 طبعة سنة 1302) ولم يوجبوه في الرجعة، والتفريق بينهما غريب، ولا دليل عليه)
وأما ابن حزم فإن ظاهر قوله في المحلي (ج10 ص251) يفهم منه انه يرى اشتراط الإشهاد في الطلاق وفي الرجعة، وان لم يذكر هذا الشرط في مسائل الطلاق، بل ذكره في الكلام على الرجعة فقط. قال: فإن راجع ولم يشهد فليس مراجعاً، لقول الله تعالى: (فإذا بلغن أجلهن فامسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوي عدل منكم) فقرن عز وجل بين المراجعة والطلاق والإشهاد، فلا يجوز إفراد ذلك عن بعض، وكان من طلق ولم يشهد ذوي العدل، أو راجع ولم يشهد ذوي العدل: متعدياً لحدود الله تعالى، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)
واشتراط الإشهاد في الرجعة هو أحد قولي الشافعي. قال الشيرازي في المهذب (ج 2 ص111): لأنه استباحة بضع مقصود، فلم يصح من غير اشهاد، كالنكاح، وهو أيضاً

أحد قولي الإمام أحمد. أنظر المقنع (ج2 ص259) والمغني (ج8 ص 482) والشرح الكبير (ج8 ص472 - 473)

والقول باشتراط الإشهاد في صحة الرجعة يلزم منه أنها لا تصح إلا باللفظ، ولا تصح (بالفعل، كما هو ظاهر. وهو مذهب الشافعي

هذا ما قلته في المسالة، وقد رد عليه الأستاذ شيخ الشريعة من جهتين: من جهة لفظ الدليل وسياق الآيات الكريمة، ومن جهة الحكمة الشرعية والفلسفة الإسلامية. فقال في الوجه الأول: (إن السورة الشريفة مسوقة لبيان خصوص الطلاق وأحكامه، حتى إنها قد سميت بسورة الطلاق، وابتدأ الكلام في صدرها بقوله تعالى: (إذا طلقتم النساء) ثم ذكر لزوم وقوع الطلاق في صدر العدة، أي لا يكون في طهر المواقعة ولا في الحيض، ولزوم إحصاء العدة وعدم إخراجهن من البيوت، ثم استطرد إلى ذكر الرجعة في خلال بيان أحكام الطلاق، حيث قال عز شانه: (فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف) أي إذا اشرفن على الخروج من العدة فلكم إمساكهن بالرجعة أو تركهن على المفارقة، ثم عاد إلى تتمة أحكام الطلاق فقال: (وأشهدوا ذوي عدل منكم) أي في الطلاق الذي سيق الكلام كله لبيان أحكامه، ويستهجن عوده إلى الرجعة التي لم تذكر إلا تبعاً واستطراداً)

وأما أن السورة مسوقة لبيان خصوص الطلاق وأحكامه حتى إنها سميت سورة الطلاق: فنعم. ولكن هل معنى هذا أنها مسوقة لأحكام إنشاء الطلاق وإيقاعه: من اشتراط حصوله في قبل العدة، ومن وجوب الإشهاد عليه، لا غير؟! ما أظن أحداً يرضى أن يدعي ذلك! ولو سميت السورة سورة الطلاق!!

فإن في السورة اثنتي عشرة آية، فيها نحو من خمسين ومائتي كلمة، لم يذكر فيها من الأحكام الخاصة بإنشاء الطلاق وإيقاعه إلا إحدى عشرة كلمة في الآيتين الأوليين. ثم سيق نصف السورة تقريباً لبيان الأحكام المتعلقة بالطلاق عامة، من إنشاء وإيقاع، ومن إمساك بمعروف أو مفارقة بمعروف، ومن عدة وإنفاق وإسكان وإخراج وأجرة إرضاع، ومن بيان لحدود الله في الطلاق ووعيد شديد لمن تعداها، ومن ترغيب في تقوى الله والتوكل عليه، كل أولئك في الآيات السبع الأولى من السورة الكريمة ثم سيق سائرها لأشياء أخرى ليست لها علاقة بالطلاق

فهل كل هذا ذكر تبعا لسبع كلمات في الأحكام الخاصة بإنشاء الطلاق في الآية الأولى، ولأربع كلمات في الآية الثانية؟! كلا! إنها سورة الطلاق، ذكر فيها كثير من أحكامه عامة، وسيق نحو نصفها لإرشاد الرجال إلى ما يجب عليهم عند الطلاق وبعده، وكل ذلك أصل

مقصود، لم يذكر شيء منه تبعاً ولا استطرادا

ولو قرا القارئ الآيتين الأوليين بأناة وروية، وتأمل فيهما على ما تقتضيه الفطرة العربية المستقيمة والذوق السليم، لتبين له إن الأمر بالإشهاد راجع إلى الأشياء الثلاثة المذكورة في الآيتين، وهي الطلاق: أي إنشاؤه، والإمساك بالمعروف: أي الرجعة، والمفارقة بالمعروف: أي إنفاذ الطلاق بتسريحها بإحسان عقيب انقضاء عدتها، وأنه لو كان المراد الأمر بالإشهاد عند إنشاء الطلاق فقط لكان موضع ذكره في صدر الآية الأولى عند قوله: (فطلوقوهن لعدتهن وأحصوا العدة)، أما تأخيره بعد ذكر الإمساك أو المفارقة فأنه صريح في عودته إلى جميع ما تقدم عليه

وهذا هو الذي فهمه اكثر العارفين باللغة والمتمكنين منها، ولم يستهجن أحد منهم عوده إلى الرجعة، ولا ادعي إنها ذكرت تبعاً واستطراداً، فابن عباس وعطاء والسدي وغيرهم فهموا أن الأمر بالإشهاد راجع إلى الطلاق وإلى الرجعة معاً، ولذلك قال ابن حزم (فقرن عز وجل بين المراجعة والطلاق والإشهاد، فلا يجوز إفراد بعض ذلك عن بعض)

وكذلك قال الإمام محمد بن إدريس الشافعي، وهو من اعلم الناس باللغة وأفصحهم، فقد قال في كتاب الأم (ج5 ص226): (ينبغي لمن راجع أن يشهد شاهدين عدلين على الرجعة، لما أمر الله به من الشهادة، لئلا يموت قبل أن يقر بذلك؛ أو يموت قبل تعلم الرجعة بعد انقضاء عدتها، فلا يتوارثان إن لم تعلم الرجعة في العدة، ولئلا يتجاحدا أو يصيبها فتنزل منه إصابة غير زوجة)

وقال محمد بن جرير الطبري في التفسير (ج28 ص88): (وقوله: وأشهدوا ذوي عدل

منكم. وأشهدوا على الإمساك إن أمسكتموهن، وذلك هو رجعة)
وقال العلامة جار الله الزمخشري في الكشاف (ج2 ص403): (وأشهدوا يعني عند الرجعة والفرقة جميعاً، وهذا الإشهاد مندوب إليه عند أبي حنيفة، كقوله: وأشهدوا إذا تبايعتم. وعند الشافعي هو واجب في الرجعة مندوب إليه في الفرقة. وقيل فائدة الإشهاد ألا يقع بينهما التجاحد، وألا يتهم في إمساكها، ولئلا يموت أحدهما فيدعي الباقي ثبوت الزوجية ليرث)
وقال أبو حيان في تفسيره البحر المحيط (ج8 ص282): (وأشهدوا: الظاهر وجوب الإشهاد على ما يقع من الإمساك وهو الرجعة، أو المفارقة وهي الطلاق. وهذا الإشهاد مندوب إليه عند أبي حنيفة، كقوله: وأشهدوا إذا تبايعتم. وعند الشافعية واجب في الرجعة مندوب إليه في الفرقة. وقيل: وأشهدوا يريد به على الرجعة فقط؛ والإشهاد شرط في صحتها، فلها منعه من نفسها حتى يشهد. وقال ابن عباس: الإشهاد على الرجعة وعلى الطلاق يرفع من النوازل أشكالاً كثيرة)
وبنحوه قال سائر المفسرين، حتى لقد قال العلامة أمين الدين أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي المفسر من كبار أئمة الشيعة الامامية، المتوفي سنة 548 في تفسيره مجمع البيان (ج2 ص430 طبع إيران): (وأشهدوا ذوي عدل منكم. قال المفسرون: أمروا أن يشهدوا عند الطلاق وعند الرجعة شاهدي عدل حتى لا تجحد المرأة المراجعةَ بعد انقضاء العدة، ولا الرجلُ الطلاقَ. وقيل معناه، وأشهدوا على الطلاق صيانة لدينكم، وهو المروي عن أئمتنا، وهذا أليق بالظاهر، لأنا إن حملناه على الطلاق كان أمراً يقتضي الوجوب، وهو من شرائط صحة الطلاق، ومن قال إن ذلك راجع إلى المراجعة حمله على الندب)
فهذا الإمام الشيعي لا يرى مانعاً من جهة اللغة والسياق أن يرجع الأمر بالإشهاد إلى الرجعة والى الطلاق معاً، ويتأول ذلك، أو يدعي أن الظاهر رجوعه إلى الطلاق فقط، انتصاراً لمذهب الأئمة من أهل البيت في اشتراطه الطلاق دون رجعة
ومع ذلك فإن مذهب الإمامية أن الأشهاد على الرجعة مندوب إليه مستحب، نص على ذلك في كتبهم في مواضع مختلفة
وقد ورد في رواياتهم عن أبى جعفر الباقر عليه السلام في بيان طلاق العدة أنه: (إذا أراد الرجل أن يطلق امرأته طلاق العدة فلينتظر بها حتى تحيض وتخرج من حيضها، ثم يطلقها تطليقة من غير جماع، ويشهد شاهدين عدلين، ويراجعها من يومه ذلك إن احب، أو بعد ذلك بأيام قبل أن تحيض، ويشهد على رجعتها الخ) نقله الطبرسي في التفسير، وشيخ الطائفة محمد ابن الحسن الطوسي في التهذيب، والإمام السعيد أبو جعفر محمد ابن علي بن بابويه القمي في كتاب (من لا يحضره الفقيه) وغيرهم
فهذا يدل على انهم يرون أن الأمر بالإشهاد في الآية راجع إلى الرجعة كما هو راجع إلى الطلاق، وان كانوا لا يشترطونه في صحة المراجعة، فذاك لشيء آخر وهو اتباع الأئمة من أهل البيت، ولولا أن الأمر راجع إليهما لما كان لديهم دليل على استحباب الإشهاد في
الرجعة، ولما قال أبو جعفر الباقر عليه السلام: (ويشهد على رجعتها) فأنه لم يرد طلب الإشهاد فيها في شيء من القرآن إلا في هذه الآية، ولم يرد أيضاً في شيء من الأحاديث الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم، وإن كان قد ورد في أقوال الصحابة والتابعين، كما نقلنا عن ابن عباس وغيره
وكما روى أبو داود (ج3 ص257)، وابن ماجه (ج1 ص 319) عن مطرف بن عبد الله: (أن عمران بن حصين سئل عن الرجل يطلق امرأته ثم يقع بها ولم يشهد على طلاقها ولا على رجعتها؟ فقال: طلّقت لغير سنة، وراجعتَ لغير سنة، أشهد على طلاقها وعلى رجعتها ولا تعد)، وروى البيهقي في السنن الكبرى (ج7 ص373) نحوه من طريق ابن سيرين عن عمران بن حصين، وإسناده عند أبى داود إسناد صحيح كما قال الحافظ ابن حجر في بلوغ المرام (ص228)
وروى البيهقي بإسناد صحيح عن نافع قال: (طلق ابن عمر امرأته صفية بنت أبى عبيد تطليقة أو تطليقتين، فكان لا يدخل عليها إلا بإذن، فلما راجعها اشهد على رجعتها ودخل عليها)
فعبد الله بن عمر فهم من الآية أن الأمر بالإشهاد راجع إلى الرجعة ولذلك أشهد على

رجعة مطلقته، وعمران بن حصين فهم ذلك أيضاً، وأنكر على من طلق ولم يشهد وراجع ولم يشهد، وأعتبره مخالفاً للسنة، إذ خالف ما أمر به في القرآن. وهما عربيان يفهمان لغتهما بالفطرة السليمة، قبل فساد الألسنة، ودخول العجمة على الناس وأنا إذ أحتج بأقوال من نقلت قولهم من الصحابة والتابعين والمفسرين فإنما أحتج بها من وجهة الدلالة العربية وفهم مناحي الكلام في الآيات الكريمة، لا من جهة الرأي الفقهي الاستنباطي، فقد اختلفوا فيه اختلافاً كبيراً، فبعضهم يرى وجو بالإشهاد على الطلاق وحده ويجعله شرطاً في صحته، وبعضهم يرى وجوبه على الرجعة وحدها ويجعله شرطاً في صحتها، وبعضهم يراه مستحباً فقط في أمرين، وبعضهم يراه واجباً فيهما ولا يراه شرطاً في صحة واحد منهما، كما يفهم من كلام عمران بن حصين وأما الذي أراه واذهب إليه فهو وجوب الإشهاد في الأمرين جميعا وانه شرط في صحة كل منهما، لأنه ثبت من دلالة الآيتين في أول سورة الطلاق إن الله سبحانه أمر الرجلين

بالإشهاد عند الطلاق وعند المراجعة؛ والأمر في حقيقته دائماً للوجوب، ولا يدل على الندب إلا دلالة مجازية؛ والمجاز لا يراد من الكلام إلا بوجود قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي، ولا قرينة هنا أبداً تمنع إرادة المعنى الحقيقي، وإن أدعى شوكاني في نيل الأوطار ذلك إذ قال (ج7 ص43 - 44): (ومن الأدلة على عدم الوجوب أنه قد وقع الإجماع على عدم وجوب الإشهاد في الطلاق، كما حكاه الموزعي في تيسير البيان)، وما أكثر دعوى العلماء الإجماع، خصوصاً في مسائل الطلاق!! وهي دعوة عريضة، يدعونها في كثير من المواطن إذا ما غلبتهم الحجة وأعوزهم البرهان، وليس لهم عليها أي دليل! كما قلت في (نظام الطلاق) وبينت هناك المعنى الصحيح للإجماع، (لكثرة إرجاف المرجفين بدعوى الإجماع في الطلاق، ليرعبوا العلماء المجتهدين الصادقين المخلصين، ويصرفوهم عن البحث فيه، أو يؤلبوا عليهم العامة والغوغاء. فتحاماه أكثرهم وأحجموا عنه، إلا من ثبت الله قلبه وأيده بروح من عنده) (ص 96 - 103)

(البقية في العدد القادم)

أحمد محمد شاكر

القاضي الشرعي

دانتي الليجيري والكوميدية الإلهية وأبو العلاء المعري ورسالة الغفران

نفينا في كلمة سالفة أن يكون دانتي الليجيري قد تأثر في كوميديته برسالة الغفران لأبى العلاء، ورجحنا أن يكون قد احتذى ملحمة (الأنّييد) للشاعر الروماني الخالد فرجيل، وأن تكون ثقافته الكبيرة واطلاعه الواسع على الأدبين المسيحي والإسلامي، ثم إلمامه بالأدب الإغريقي القديم قد شقق له فجاج الخيال فاستطاع أن يضفي على كوميديته ظلالاً عبقرية جذابة من أشتات هذه الثقافات. فمن الأدب المسيحي استمد إيمانه الذي تفيض منه الكوميدية، واقتبس من رؤيا يوحنا اللاهوتي أمواهاً لون بها فصوله؛ ومن قراءاته الإسلامية - وأهمها القرآن - أفترض أخيلةً للجحيم خصبة قوية ارتفع بها إلى ذروة الأدب السامي الرفيع. . . أما من الأدب الإغريقي القديم فسنرى أن دانتي - أما بالذات وأما بالوساطة - قد قبس قبسة أسطورة أورفيوس وقبسة أخرى من هرقل وقبسات غير هذه وغير تلك من الأساطير التي تتناول الدار الآخرة (هيدز)

على إن ملحمة الانييد لفرجيل هي التي أوحت إلى دانتي فكرة الكوميدية. وقد رجعنا إلى الفصل الطويل الممتع الذي كتبه (بوكاشيو) عن مواطنه، وقرأنا كذلك ما كتبه الأستاذ فلبو فللاني في مجموعته وما كتبه الأستاذ العلامة ج. أ. سيموند عن دانتي، والمقدمة التي كتبها إدمند. ج. جاردنر للكوميدية (ترجمة كاري سنة 1908)، ثم الفصل الطريف الذي عقده الأستاذ رتشارد جارنت عن دانتي في كتابه (تاريخ الأدب الإيطالي ص24 - 52) فتأكد لنا إن دانتي كان معجباً إلى غير حد بالشاعر الروماني فرجيل وأنه كان يحفظ الكتاب السادس من الأنييد عن ظهر قلب، وأن هذا الكتاب السادس (الذي سنلخصه للقراء) من الأنييد إن هو إلا صورة مصغرة لجحيم دانتي مع فارق الغاية واختلاف المقصد بين كل من الشاعرين

أما أسطورة المعراج الملفقة التي لفتتنا إليها الرسالة، والتي خال بينها وبين الأساطير التي نحن بصددها علاقة أستاذنا الجليل صاحب (ذكرى أبي العلاء) فلنا فيها رأي سنذكره عند الكلام عن فردوس دانتي وعن جحيمه أيضاً

ولتشعب البحث نرى أن نضع بين يدي القارئ خلاصات موجزة لكل من رسالة الغفران ورؤيا يوحنا اللاهوتي، وبعض مجازفات ،(مع صور للجنة والجحيم من القرآن الكريم) أوليسيز من (الأوديسه)، وأسطورة أرفيوس، ورحلة هرقل إلى هيدز، والجزء السادس من أنيد فرجيل، ونتبع ذلك بخلاصة لكوميدية دانتي بأجزائها الثلاثة: الجحيم، والمطهر، والفردوس، ثم نقفي بمقارنة تاريخية لن تضر شاعرنا العربي العظيم في شيء، لأنه ليس ضيراً ألا يكون دانتي قد احتذى مثال أبى العلاء أو قلد أسطورة المعراج

رسالة الغفران - 1

أرسل علي بن منصور الحلبي المعروف بابن القارح إلى أبى العلاء رسالة إضافية تستفتيه فيها عن بعض مشكلات النحو والصرف، ثم يبدي (غيضه على الزنادقة والملحدين، الذين يتلاعبون بالدين، ويرومون إدخال الشبه والشكوك على المسلمين، ويستعذبون القدح في نبوة النبيين، ويتطرفون ويتبذئون - إعجاباً بذلك المذهب: (تيه مغن وظرف زنديق). . .) ويلم بأخبار بعض الزنادقة كبشار والقصار الأعور والصناديقي والوليد بن يزيد وأبي عيسى بن الرشيد والجنابي والحلاج وابن أبي العُذافر. . . الخ. . .

ويشير إلى النبي صلى الله عليه وسلم إشارة لها معناها، ثم يذكر شيئاً عن حجه وأسفاره وتحصيله لعلوم اللغة. . . ويتبسط في الحديث كأنما رفعت الكلفة بينه وبين أبي العلاء فيضع بين أيدينا مفتاح رسالة الغفران. . .

وقد قرأنا كل ما كتبه أدباؤنا عن رسالة أبي العلاء فراعنا أن واحداً منهم لم يعرض لرسالة ابن القارح بكلمة، وراعنا أن واحداً منهم لم يتوفر على دراستها ليدرك العلاقة بين الرسالتين، وكان يؤلمنا أن بعض أدبائنا لم يكن يدري من أمر رسالة الغفران شيئاً إلا إنها تهكم وسخرية بابن القارح؛ مع أنها رجع الصدى لزندقته وإلحاده

قال ابن القارح في ختام رسالته: (كنت بتنيس وبين يدي إنسان يقرأ، ويحزن،: (يُوفون بالنّذْر ويخافون يوماً كان شرُّه مستطيراً؛ ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً؛ إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً؛ أنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً؛ فوقاهم الله شر ذلك اليوم، ولقاهم نَضرَة وسروراً؛ وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً؛ متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً، ودانية عليهم ظلالها، وذُللت قطوفها تذليلاً؛ ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا، قوارير من فضة قدورها تقديراً، ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً؛ عيناً فيها تسمى سلسبيلاً؛ ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رايتهم حسبتهم لؤلؤا منثوراً؛ وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً؛ عاليَهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحُلُّوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً؛ إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً؛ أنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً، فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً؛ واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا، ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً؛ إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون ورائهم يوما ثقيلاً. . . . . .) قال ابن القارح: وكان القارئ يتألم ويبكي، فخطر لي خاطر فقلت: أنا بضد هؤلاء القوم، صلوات الله عليهم!!، أنا لا أنذر، ولا أفي، ولا أخاف شقاء ولا عناء!!)

أفرأيت وسمعت؟! ابن القارح ضد هؤلاء القوم، صلوات الله عليهم، لا ينذر ولا يفي ولا يخاف شقاء ولا عناء!! ومع ذاك فهو من علماء المسلمين الذين يفهمون معاني الآيات، ويعرفون من هم أولئك الأبرار الذين يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. . . ابن القارح الذي ذكر في رسالته أنه يغتاظ على الزنادقة والملحدين والطاعنين في الأنبياء بغير الحق لا يهمه أن يكون بضد الأبرار المذكورين في سورة الدهر، ولا يهمه ألا ينذر ولا يفي فلا يخاف عناء ولا شقاء؟!

هنا مفتاح رسالة الغفران!!

ومن اجل ذلك كان عجبنا شديدا كيف أن أحداً من أدبائنا لم يلتفت إلى رسالة ابن القارح ليهتدي إلى الروح التي أملت رسالة الغفران. . لقد طرب أبو العلاء أيما طرب أن وجد أديباً مثله معجباً به يقدر أدبه وفلسفته وآراءه في الحياة والناس ويخاف مثله

من مصارحة الناس بما يؤمن فيكتب بهذا الأسلوب المضمر الملغوز الذي يقول في أوله: إني اغتاظ على هؤلاء الزنادقة والملحدين مثل بشار والقصار والجنابي والحلاج ومن إليهم ممن يجدفون في الله وفي كتبه ويشككون الناس في أنبيائه؛ ثم يقول في آخره انه خطر له خاطر حين سمع قارئ سورة الدهر وهو يقرأ ويحزن ويبكي انه بضد هؤلاء الأبرار (صلوات الله عليهم؟!!) لأنه لا ينذر ولا يفي، ولا يخاف شقاء ولا عناء!

طرب أبو العلاء أيما طرب لأنه وجد رجلا مثله لا يؤمن بهذه الجنة التي عرضها السموات والأرض، ولا بهذه الأنهار من لبن وعسل وخمر، ولا بهذه العين السلسبيل، ولا بهؤلاء الولدان المخلدين الذين يطوفون على المؤمنين بأكواب من فضة، ولا بالحور العين. . . ولا يؤمن بما جاء في أول سورة الدهر مما اعد للكافرين من سلاسل وأغلال وسعير. . وإذن، فليكتب أبو العلاء إلى ابن القارح، وليخضع في كتابته إلى ابن القارح لما تسميه السيكلوجية (تداعي المعاني) فيدخل به الجنة. . . ولكن قبل أن يدخل الجنة لا بد أن يبعث. . . وقبل أن يبعث لا بد أن يموت. . وسيلقاه عزرائيل ساعة الموت، فلا بأس من أن يناقشه أبو العلاء مناقشة صرفية فكهة مضحكة. فإذا دخل القبر وأغلق عليه وجاء الملكان منكر ونكير فأي بأس من أن يجادلهما كما جادل عزرائيل، فإذا رفعا الأرزبة ليدقا بها عنقه فأي بأس أيضاً من أن يربكهما بمناقشة صرفية عن هذه الآلة المحطمة ليشغلهما قليلاً عن تعذيبهما إياه. . . ثم أي بأس أيضاً من أن تستمر هذه المناقشة الصرفية في كل مكان من البعث، إلى أسوار الجنة، إلى الصراط، إلى داخل الجنة نفسها، إلى جهنم. . . الخ أليس قد أراد أبو العلاء أن يشارك ابن القارح سخريته؟ فلم لا يشاركه دعابته؟ ولم لا يداعبه تلك المداعبة المضحكة بشرط ألا يفهم أنها دعابة إلا ابن القارح، فإذا قراها رجل غير ابن القارح وكان عارفاً باللغة وأسرار نحوها وصرفها راقه ذلك التحقيق الفقهي لتصريف تلك الكلمات التي لا يسمن تصريفها ولا يغني من جوع من مثل (عزرائيل وملك وإرزبة وجهنم. . . الخ. . .)

فإذا كان القارئ مؤمناً ورعاً يسره الحديث عن الجنة وملاذها ويخيفه الحديث عن جهنم وآلامها شاقه حديث الرسالة عن متع الفردوس، وهذا الإوز الذي ينتفض فيكون حورا عينا بإذن الله، وسمك الحلاوة الذي يسبح في أنهار الخمر والعسل واللبن والأري. . . وأخافه ما يرى في السعير من صنوف المجرمين الكافرين الذين كذبوا بيوم الدين. . . وما يكذب به إلا كل معتد أثيم. . .؟!

وقد طرب أبو العلاء أيضاً، وازدادت ثقته بصاحبه لأنه عرف فيه رجلاً يعطف مثله على الحيوان. . . . . لأنه (حدثه من يثق به وكان زاهداً (!) قال: كنت مع أبي البكر الشبلي ببغداد في الجانب الشرقي بباب الطاق، فرأينا شاوياً، وقد اخرج حملاً من التنور، وإلى جانبه قد عمل حلاوي فالوذجا، فوقف ينظر إليهما، وهو ساه مفكر، فقلت: (يا مولاي! دعني آخذ من هذا وهذا ورقاقاً وخبزاً، ومنزلي قريب، تشرفني بأن تجعل راحتك اليوم عندي، فقال: (يا هذا، أظننت أني اشتهيتهما؟ وإنما فكري في الحيوان كله!! لا يدخل النار إلا بعد الموت. . . ونحن ندخلها أحياء!)

إذن، فليطمئن أبو العلاء إذا كتب إلى ابن القارح، وليطف به من البرزخ إلى المحشر إلى الصراط، ولتحمله وصيفة فاطمة الزهراء إلى داخل الجنة (زقفونة)! وليجذبه إبراهيم إلى الجنة رغم أنف رضوان. . . ولتكن هذه الحياة الأخرى مهزلة وملهاة مضحكة سواء أفي الجنة أو في الجحيم. . . وليحرض إبليس زبانية جهنم على جذب ابن القارح ليكون معه في بطن سقر. . . . . وليتقارض هذان الساخران الملحدان الضحك على المؤمنين وإله المؤمنين وأنبياء المؤمنين وجنة المؤمنين. . . . . وليتقارضاه آمنين مطمئنين فليس كل الناس بقادر على أن يدرك انهما يستهزئان بكل ذلك. . . . . بل كل الناس ستكبر أدب ابن القارح أدب أبي العلاء. . . . لأن ابن القارح (يغتاظ على أولئك الزنادقة الملحدين مثل بشار والقصار والجنابي والحلاج لأنهم يجدفون في الله وينكرون أنبياء الله ويكفرون بكتب الله ويشككون الناس في كل ذلك)، ولأن أبا العلاء قد أعطاهم صورة من الجنة تزيد المؤمنين إيماناً على إيمانهم وصورة من الجحيم تزيدهم منها خوفاً فوق خوفهم. . . وليفرح النحاة بابي العلاء لأنه حل لهم ألغازاً من الصرف والنحو لم يكونوا قادرين عليها، وهي عند أبي العلاء ضرب

من الهذيان لا غناء فيه
على أن أشياء أُخر في رسالة أبي القارح تشعر القارئ برقاعة وفجور لا يدلان إلا على زندقة وفسق، ونفس خبيثة لا تتوقر، ولسان بذيء ينفث الفحش، وفم يقيئ الدنس. . . اقرأ هذه النبذة التي دسها ابن القارح من غير ما مناسبة اقتضتها في رسالته: (دفع رجل إلى صديق له جارية وأودعها عنده وذهب في سفره، فقال بعد أيام لمن يأنس به وتسكن نفسه إليه: يا أخي! ذهبت أمانات الناس! أودعني صديق لي جارية، في حسابه أنها بكر، جربتها فإذا هي ثيب!!)
وهو قبل ذلك يشكو إلى أبي العلاء انصرافه عن طلب العلم وانغماسه في الأغراض البهيمية وانه قبل أن يجيء إلى مصر كان يذاكر خمسين ورقة كل يوم، ولكن الأغراض البهيمية التي عرفها في مصر وانغمس فيها ثمة صرفته عن جده ومثابرته فهو لا يذاكر إلا خمساً ومع ذلك تكل عيناه في تحصيلها على قلتها. .
وحديث ابن القارح عن الزنادقة حديث الهازل غير الجاد. . حديث (المستملح) لما كان يصدر عنه هؤلاء الزنادقة من عتو وإلحاد والتماس الرفد والتوسل إلى المنفعة بالتدين. وقد اشتهر عن أبى العلاء نفسه انه كان يتهم الأنبياء بمثل ما اتهم به ابن القارح الزنادقة من هذا الالتماس للرفد عن طريق الدين، واللزوميات تفيض بشواهد كثيرة على ذلك
ونحن لا ندري لم حشد ابن القارح هذا الحشد الكثير من الزنادقة في رسالته، وألم فيها بشر ما كان يصدر عنهم من تسفيه الانبياء، وسب الخلفاء، والتبرم بالإسلام والمسلمين؟ أليس كان يشير أبو العلاء إلى كثير مثل هذا في لزومياته؟
أسمع إلى هذا الرجل من يهود خيبر يعرض بموسى ويستهزئ بعمر حين أجلى أهل الذمة عن جزيرة العرب:
يصول أبو حفص علينا بِدِرّة ... رويدك إن المرء يطفو ويرسب
كأنك لم تتبع حمولة مأقطٍ ... لتشبع، إن الزاد شيء محبب
فلو كان موسى صادقاً ما ظهرتمو ... علينا، ولكن دولة لم تذهب
ونحن سبقنا كم إلى المين فاعرفوا ... لنا رتبة البادي الذي هو أكذب
مشيتم على آثارنا في طريقنا ... وبغيتكم في أن تسودوا وترهبوا
واسمع إلى الذي يسب أبا بكر لشدة ما نالته منه فرحل إلى بلاد الروم:
لحقت بأرض الروم غير مفكر ... بترك صلاة من عشاء ولا ظهر
فلا تتركوني من صبوح مدامة ... فما حرم الله السلاف من الخمر
إذا أمرت تيم بن مرة فيكمو ... فلا خير في أرض الحجاز ولا مصر
فإن يك إسلامي هو الحق والهدى ... فإني قد خليته لأبي بكر!!
وهكذا يحشد ابن القارح في رسالته كل ذلك الفحش من أقوال الزنادقة وهو يعرف أن أبا العلاء قد قال مثل ذلك في لزومياته، فكأنه قصد إلى أن يغني على عوده ويضرب وراء هواه،. . . ولا ينفعه بعد ذلك سبه لهؤلاء الزنادقة، هذا السب الذي يكاد يكون رشقاً بالورد وتحية بالريحان وتزويراً على القارئين
وبعد فموضوعنا دانتي وأبو العلاء، وهذا حديث طويل عن ابن القارح.،. ولكنه حديث عن السبب في كتابة رسالة الغفران سنحتاج إليه حين نتكلم عن السبب في كتابة الكوميدية الإلهية
ولنختم هذا المقال بذيل عن رسالة الغفران ليكون بين يدي القارئ خلاصة خاطفة لها: دخل المعري بصديقة ابن القارح جنة الفردوس، فركب نجيبا ينتقل عليه في آفاقها، ثم طفق يطوف على أهلها ممن غفرت لهم خطاياهم في الدار العاجلة ببيت شعر أو كلمة طيبة، وترك المعري لخياله عنانه الطويل فتفنن ما شاء في وصف حور الجنة وأنهارها وألوان نعيمها. . . ويلقى ابن القارح تميم ابن أبي الشاعر فيسأله عن أبيات كان قد قالها، ثم يتشقق الحديث فيقص ابن القارح على تميم قصة بعثه وهول المحشر ثم حديثه مع رضوان وزفر، وورود على الحوض المورود ولقائه فاطمة بنت النبي واستشفاعه بها وجذب إبراهيم بن النبي إياه فيكون داخل الجنة. . .
ويعود ابن القارح إلى محاورة أهل الفردوس ممن غفر لهم ويطوف بحدائق الحور ثم ينفتل إلى جنة العفاريت فيحدثه أهلها بأعجب الأحاديث. . . ويشتاق إلى الاطلاع على أهل الجحيم، فيتحدث إلى الخنساء (والعجيب وضعها في النار مع حسن إسلامها ووضع

اشد الكفار عتوا في الجنة!!) ويتحدث إلى إبليس والى طائفة كبيرة من شعراء الجاهلية. . . ثم يعود إلى الفردوس فيتحدث إلى آدم. . . ويخلص إلى جنة الرُّجاز. . . ويختتم الكوميدية بوصف بارع لنعيم الخلد. . . .

(يتبع)

د. خ

شعراء الموسم في الميزان

نقد وتحليل

للأديب عباس حسان خضر

- 2 -

صرعى الأغراض

تناول شعراء الموسم مختلف الأغراض، فلم يكن منها في صميم ما يحس به جمهور الشعب إحساساً عميقاً شاملاً غير هذه القصيدة، وقصيدة (وطني) للأستاذ محمد الههياوي، فلقد كانت هذه الصيحة التي أعلنها الأستاذ أحمد الزين حبيسة في نفوس الكثيرين، حتى لقد كانت زفرات الصعداء تقترن بتنفس الإعجاب، ولقد تناول الأستاذ جزئيات الموضوع في استقصاء وبيان لا يتأتيان لكاتب مطلق القلم من قيدي الوزن والقافية. استمع إليه يفند دعاوي العدل والمساواة والحضارة، في حجج بالغة:

لا يدعي العدل قوم في عدالتهم ... صرعى الكفايات تشكو ظلم أهليها

ولا المساواة، والأفهام لو وزنت ... مع الغباوة فيهم لا تساويها

ولا الحضارة من تجزي نوابغهم ... وحشية تسكن البيداء والتيها

والأستاذ الزين يأتي المعاني من أبوابها، ويتناول مفاتيحها تناولاً حسناً، ثم يجلوها في ألفاظ عذبة مونقة؛ يؤلف بين الشقائق، ويجمع بين الأشباه والنظائر، فلا تجد كلمة في غير موضعها، وإن ما يضطر إليه الشعراء من التقديم والتخير وغيرهما لا تجد له أثراً في شعره، وهذه قصيدة (صرعى الأغراض) التي نحن بصددها، اقرأ مطلعها:

هات المدام ولا تسمع لشانيها ... إن الزمان يصافي من يصافيها

هل تستطيع أن تلفظ كلمة وتقف؟ لا، لا بد أن يجري البيت كله على لسانك حتى لتشعر كأنه ليس مؤلفاً من كلمات ينفصل بعضها عن بعض

وفي الأبيات التالية تصوير يدل على المهارة الشعرية:

ملء المناصب منهومون قد جعلوا ... من دونها سد ذي القرنين يحميها

على مناعة ذاك السد تنفذه ... عصابة تتواصى في حواشيها

من كل أخرق تنسل الحظوظ به ... إلى المراتب يسمو في مراقيها

خابي القوى عبقري الجهل يثقله ... عبء الرياسة إذ يدعوه داعيها

فتراه قد استوعب في هذه القوالب الشعرية أكثر المعاني التي تتركب منها هذه الموصوفات، وهذه غاية التصوير الشعري؛ وفي (عبقري الجهل) ظرف كثير، وقد أخذت هذه الكلمة سبيل الكلمات السائرة

والقصيدة زاخرة بالمعاني، منها ما هو عام يجول في نفس الشاعر وفي نفوس غيره، بيد أنه تفرد في ترجمة المعنى وصوغه في صور طريفة، ومنها معان مبتكرة مضى إليها خياله سابقاً، فمن النوع الأول قوله:

أرخصتمو غالي الأخلاق في بلد ... لم تغل قيمته إلا بغاليها

يا رب نفس أضاء الطهر صفحتها ... أفسدتموها فزلت في مهاويها

وكم قلوب كساها الحسن نضرته ... دنستموها فعاد الحسن تشويها

أغلقتمو سبل الأرزاق لم تدعوا ... لفاضل الخلق سعياً في نواحيها

مدارس تغرس الأخلاق في نشأ ... ومغلق الرزق بعد الغرس يذويها

لا تلح طالب رزق في نقائصه ... إن الضرورات من أقوى دواعيها

ما أطهر الخلق المصري لو طهرت ... تلك الرياسات من أهواء موحيها

ومن أبكار المعاني قوله في الخمريات التي ابتدأ بها:

بكرا تدور على الندمان لابسة ... عقداً من الحبب الدري يزهيها

سرى شذاها فحيا النفس أنفسا ضعفت ... من الهيام بها عن أن تحييها

فهذا (الزين) أول من يلبس الكأس عقداً؛ والبيت الثاني اشتمل على معان لا يسلكها في بيت واحد إلا شاعر فحل، فالكأس ذات شذى يحي الأنفس، والأنفس تتأثر بالشذى

حتى يستهلكها، فما تعود قادرة على تحية الكأس الوافدة عليها يقدمها شذاها محيياً.
وإليك هذين التشبيهين في مواهب النوابغ:
جادوا بأعمارهم حتى لجاحدهم ... إن المواهب سلم في أعاديها
كالشمس تقيس منها عين عابدها ... وترسل النور في أجفان شانيها
والنفس إن ملئت بالود فاض على ... نفوس أعدائها بالود صافيها
كالسحب إذ ملئت بالغيث فاض على ... جدب البلاد خلوف من هواميها
بعد أن تقرأ التشبيه الأول وتقضي حقه من الإعجاب قف هنيهة عند التشبيه الثاني، وانظر قوة معانيها وكثرة اوجه الشبه فيه، فالنفس المشبعة بالود كالسحب المشبعة بالغيث، والنفوس التي تجحدها كالأرض الجدب، ومع هذا فالنفوس الخيرة تعلو علو السحب وتفيض على جاحديها بالود كما تفيض السحب على الجدب بالغيث
والزين أول من يطالب بدم قتلى المواهب في قوله:
يا آخذين بقتل النفس قاتلها ... قتلى المواهب لم يسمع لشاكيها
كم للنبوغ دماء بينكم سفكت ... باسم المآرب لا اسم الله مجريها
هلا اقتصصتم لها من ظلم سافكها ... وقل فيما جناه قتل جانيها
أولى الورى بقصاص منه ذو غرض ... يخشى المواهب تخفيه فيخفيها
ويصور القاتل في هذه الصورة النفسية المبدعة يخفي المواهب بقتلها حتى لا تغطي عليه وتخمله
وهذه القصيدة من الشعر الذي يقال فيه: ألفاظه قوالب معانيه؛ فالمعنى يسابق اللفظ حتى يكاد يسبقه، واعتقد أن نجاحها - إذ كانت قصيدة الموسم غير منازعة - يرجع أكثره إلى شدة إحساس الشاعر بمعانيها، وصدورها عن شعوره العميق في ثوب من البيان السليم من التكلف والتعقيد
ويظهر أن حسن القصيدة شغلني عما عساه أن يكون فيها من المآخذ؛ وان كان الإنصاف قد اقتضاني أن أبدي - ما استطعت - بعض حسناتها، فإن الإنصاف نفسه يقتضيني أن أنظر إلى الكفة الثانية. .
يقول:
كم للنبوغ دماء بينكم سفكت ... باسم المآرب لا اسم الله مجريها
يقال - مثلاً -: إن هذا الإثم ارتكب باسم المصلحة العامة، أي أن المصلحة العامة اتخذت اسما فحسب لتبرير الفعل، وتكون الحقيقة أن هناك باعثاً على الفعل غير الذي اتخذ اسماً؛ فالتعبير الذي في البيت وهو أن الدماء سفكت باسم المآرب يفهم أن المآرب اتخذت اسماً فقط، مع أنه يريد أن المآرب هي الباعث الحقيقي على سفك دماء النبوغ
ويقول منددا بإقامة الدور لحفظ الآثار:
ورافعين من البنيان شاهقه ... فيه الذخائر قد صفت لرائيها
فبينما هو يغض من شأن الآثار ويقول عنها في الأبيات التي قبل هذا البيت: خرق وخزفات. . إذ به يسميها ذخائر! ولو صح عنده أنها ذخائر ونفائس لما كان هناك موضع للسخرية من الاهتمام بها؛ على أنني لا أدري لماذا يحمل الأستاذ الزين على الآثار هذه الحملة العنيفة، هل العناية بها تمنع من تقدير ذوي المواهب؟
قد يقال: إن الشاعر لا يُنقد في رأيه؛ ولو خالف به ما أجمع عليه الناس، مادام قد اخرج ما ذهب إليه مخرج لطف وإبداع. هذا صحيح ولكن هذه القصيدة تعد من الشعر الكتابي الذي يمحص فيه الرأي، لذلك ولأن القصيدة ذات أثر في نفوس الجمهور احب أن أناقش الشاعر في رأيه هذا، فماذا لو أنه جمع بين العناية بالبحث عن الآثار القديمة وبين تقدير ذوي المواهب؟ على أن الأستاذ الزين نفسه يعمل في البحث عن الآثار القديمة، ويدأب في دار الكتب على كشف كنوزها، وينشئ لها من تحقيقه وتصحيحه ما يجدد باليها ويحفظ، وهو الآن يعمل في كتاب نهاية الأرب، وهو أثر من الآثار العربية القديمة
أفيجب أن يكف الأستاذ عن عمله هذا حتى يلتفت الناس إلى تقدير المواهب والعناية بالنوابغ؟ أم هو رأي شاعر كالزهرة ينبغي مسها برفق لأن العنف بها يودي بنضرتها. . .
في قريتي
يتحدث الأستاذ أحمد الكاشف في هذه القصيدة عن حاله في قريته وما يتصل بها في

غيرها حديثاً تنفحك منه ريح الفطرة المحببة، وتجد فيه روح الشعر الجاهلي المرسل على طبيعته لا يُعرِّج على عمق ولا يرهق حساً؛ فالشاعر يسترسل في بيان ما يشعر به استرسال شعوره بما يترجم عنه، وقد جاءت القصيدة مطبقة لكل ما يحيط بشاعر معمِّر مثل الكاشف قد طبع على الشعر، ومر به من الحوادث ما يستفيد منه شاعر متيقظ الذهن، يقيم في قرية يطل منها على الحياة العامة في سائر البلاد؛ فهو يَطلعُ علينا بقوله:

جمعت في العيد حولي سائر الآل ... وملتقى الآل حولي كل آمالي

ويمضي في مثل هذه لديباجة العربية وهذا الأسلوب الجزل يعرض شأنه مع آله، ويتمثل الأجيال المقبلة من النشء الذين يرعاهم ويعدهم للغد، في قوله:

كأنني - وهم في الدار - مطلع ... منهم على أمم شتى وأجيال

أعدهم لغد والمقبلين غدا ... في هذه الأرض أجنادي وأبطالي

ويصف حياته في الريف واعتزاله فيه، ثم يشكو من إهماله شكاية لا يلبث بعدها أن يعود إلى ذكر قناعته بما يزاوله في الريف قائلا:

إن لم يكن لي ديوان وحاشية ... يوما فحسبي محارثي وأنوالي

وهو صاحب الشعر السياسي، فلا بد أن يفخر بما أبداه في شعره من الآراء النافعة في الحياة السياسية عاتباً على القوم إهمالهم له، فيقول:

الست ممن دعا الأحزاب فائتلفت ... إلى الذي فيه كانوا أمس عذالي

أرى المودة بالقنطار بينهمُ ... ولم أفز بينهم منها بمثقال

ثم يتكلم في المحادثات الجارية الآن بين الجانبين: المصري والبريطاني كلاما جامعاً، على قصره، ويصيب به الغرض فيقول:

ولم أزل بينهم للخصم متقيا ... دخائلاً هي في ذهني وفي بالي

أخشى على رسلهم نياته وهمُ ... منه أمام جلاميد وأدغال

وما تزال كما كانت سياسته ... يدور فيها بألوان وأشكال

وموضع الند أرجو عنده لهم ... لا موضع الصيد من أنياب رئبال

إلى أن يقول:

وكم يكون لهم من ضيقهم فرج ... كما تدافع أهوال بأهوال

ثم يعطف على إخوانه الشعراء فيتألم لعدم نيلهم ما يستحقون، ويخاطبهم بقوله:

وتملكون من الدنيا سرائرها ... ولا تحلون منها الموضع العالي

وما يتاح لكم في الأرض متسع ... كما يتاح لعراف ودجال

ثم يدفع ما يقال من انقضاء الشعر بعد شوقي وحافظ بان مصر ملأى بأشباهه من الشعراء، وهو، باعتزازه، يرى في أن هذا الكفاية، إلى أن يقول في ذلك:

إن لم ير الحي بعد الميْت منزلة ... منهم فلا خير في المحزون والسالي

والقصيدة - كما ترى - ليس لها وحدة، ولا تدور حول فكرة، وإنما موضعها شاعر يقول فيما يحس به من الحياة القروية ويعبر عما يخالجه نحو بعض الشؤون العامة؛ وهي ممتعة

مقنعة للنفس بما تتطلبه من الشعر، وأن كان للناقد فيها مواقف للمؤاخذة الشاعر قليل العناية بالملائمة بين المعاني التي تناولها، ففي القصيدة كثير من الأبيات التي يقول عن مثلها نقاد الأدب من القدماء: (أبناء علة) أي أنها متنافرة تنافر الاخوة غير الأشقاء مثل هذين البيتين:

لو كان للنبت إحساس رأفت به ... وبت للنبت أيضاً غير أكال

كأنما قريتي مادمت ساكنها ... ولاية وكأني العمدة الوالي

وبينما تجده يمدح عشرة من يعاشرهم وما يلقاه فيها من عاطفة، إذ بك تراه ينعى على قومه انهم لا يساعدونه في حمل أعبائه كما قام بأعبائهم، وهوانه ليدهم إلى أن يقول في هذا:

ولو بليت بجبارين ما بلغوا ... مدى الأحبة من قهري وإذلالي

فيبدو في ذلك كأنه متناقض؛ والواقع انه يريد من الأولين الذين يبدي ارتياحه إلى عشرتهم - أبناء قريته؛ أما الشكوى فممن عداهم من أبناء البلاد، ولكنه لم يبين، بل مزج الكلام وراح يتحدث عن الفريقين كأنهم فريق واحد!

قرأت هذا البيت:

أعدهم لغد والمقبلين غدا ... في هذه الأرض أجنادي وأبطالي
فوقفت عند (أجنادي وأبطالي) ما شأنهم؟ أيخبر بهم عن (المقبلين) إذن يجب أن تكون (المقبلون) ولكن في الهامش أن الواو للعطف، فيبقي (أجنادي وأبطالي) لا شأن لهم بما قبلهم ولا بما بعدهم
وهو يفسر هذا البيت:
ما أحسن الشمل أرعاه وأشهده ... لأمهات وآباء وأطفال
بما بعده:
فلا أرى فرقة في الدهر قاطعة ... لمطمئن وخفاق وجوال
ولا يصاب هديل في أليفته ... ولا الغضنفر في غيل وأشبال
وعلماء الأدب يعدون من عيوب المعاني ألا يستكمل التفسير أفراد المفسر؛ فهو قد بين شمل الآباء والأطفال بقوله: (ولا الغضنفر في غيل وأشبال) ولم يأت بذكر الأمهات، وزاد الأليفة
ويقول انه يعيش بالبقل والفاكهة، ولا يأكل اللحم رأفة بالحيوان إلى أن يقول:
وقد أقاتل للحي المسالم من ... طير ومن حيوان كل قتال
لو كان للنبت إحساس رأفت به ... وبت للنبت أيضاً غير أكال
فكيف يرأف بالحيوان ثم يقاتل حيواناً آخر، لو قال: (أدافع) بدل (أقاتل) لكان مقبولا. أما قتال الحيوان فلا تقتضيه الرأفة به. ويقول انه لو كان للنبت إحساس لم يأكله أيضاً! انه إذن لن يجد شيئاً يعيش منه، وماذا يفعل لو علم أن العلم الحديث أثبت أن للنبت إحساساً؟
وقال:
ولم أجد من وضيع الذكر خامله ... ما ساءني من رفيع الذكر مختال
قابل بين وضيع الذكر ورفيعه، وهذه مقابلة صحيحة. أما المختال فلا يقابل خامل الذكر، إنما يقابل الخامل النابه
(يتبع)
عباس حسان خضر
الكمال
للأستاذ فخري أبو السعود
قد أسرَّت إليَّ نفسيَ يوما ... أنها لا تحب إلا الكمالا
لا تحب الأمور قد شابها النق ... صُ وساوى الفحولَ فيها الكسالى
هتفت بي: إلامَ تطلب في كلٍّ ... ضئيل من الأمور مجالا؟
قانعاً بالقليل قصداً وبالهيْ ... نِ مقالا وبالتوسُّط حالا
قد أسَغتَ الفضولَ واللغو حتى ... بتَّ عندي تُشابِهُ الجهالا
رمتُ إرضاَءها فآليت لا أر ... ضى بغير الكمال يوما منالا
وحواني جمعٌ فصممت لا أنْ ... طق فيهم سوى الصحيح مقالا
ومضت ساعةٍ فأخرى وما أسْتَغ ... تُ جواباً ولا استطبتُ سؤالا
صامتاً عابس الجبين ازدراءً ... لحديثٍ بين الجماعة جالا
ضقتُ ذرعاً بالجِدّ منهم وبالهز ... ل وضِحكٍ مستهجَن يتعالى
ضقت ذرعاً بهم وأنكرَ منِّى ال ... قومُ زهواً وجفوةً وملالا
وبدَتْ فرصةٌ تبشِّر بالخي ... ر ويُحيى سنوحُها آمالا
فرصة جاد لي بها الدهر عفوا ... رحت أسعى لها وابغي احتيالا
فتذكرتُ قول نفسي، فاعرض ... تُ أزوراراً عن مطلبي واختيالا
قلتُ: ما يستحق مني عناءً=مِثْلُ هذا أو يستحق احتفالا
إن يَلُحْ مطلبٌ بمثلي خليقٌ ... كنتُ فيه الهمام والفعَّالا
وتراءت بخاطري فِكَراتٌ ... وأحاسيسُ كل يوم تَوالى
كلما قلت: سوف أنظم من ها ... تيك سحراً من البيان حلالا
حقّرتْها نفسي وقالتْ: هراءٌ ... ليس يُلقى إليه ذو اللُّب بالا
تحتفي اليومَ ناظما لِمَعانٍ ... في غدٍ سوف تحتويها ابتذالا
فَدعِ القولَ أو يَعِزَّ عظيمٌ ... وصُنِ الشعرَ خيفةً أن يُذالا

فهجرتُ اليراع دهراً ولم أُلْ ... فِ جديداً مستأهلا إن يقالا
صاحِ ذا عالمُ النقائص من را ... مَ كمالاً به أراد المحالا
من أراد الكمال في كل قصد ... حقّر السعي واستخسّ النضالا
من بغى المنتهى أقام فلم يَبْ ... رَحْ وعافَ المقالَ والأفعالا
فخري أبو السعود
أبو الهول
للأستاذ عبد الرحمن شكري
أنَخْتَ فوق الدهر بالكلكل ... وكُنتَ مثل الواعظ المُرْسَلِ
عندِ فلاة قلَّ قُطَّانها ... هل باختيار كنتَ في معزلِ
مضى الألى شادوك في مجدهم ... كأنه منك لدى موئل
فهل مللتَ العيش من بعدِهم ... كأنما جُلِّلْتَ بالمُثقِل
ثقل من الدهر تحمَّلته ... لو حل بالأطواد لم تحِمْل
فهل يَدِرُّ العيش من بعدهم ... أم ما ضُروع الدهر بالحُفل
وأنت مثل الخان في لبثه ... ونحن مثل الراكب المُعْجَل
غدا ترى عيناك من بَعدنا ... غير حُلولِ الحي والمنزل
كم أمة من بعدها أمة ... قد رحلت عنك ولم ترحل
فأنت سِفْرُ الدهر خطَّت به ... يداه آي المُحْكَمِ المُنْزَلِ
فاتل لنا من آية آية ... لعلنا نُجْنُبُ ما يبتلى
كم وعظ الدهر فلم تَزْدَجِرْ ... وكم سما الناس ولم تَعْتل
نعاف مستطرف ما يُرتجى ... كأننا في العيش لم نُجْبَل
قيدنا العجز ونرجو عُلًى ... يسمو الذي في الطير لم يُكبل
فيا مثال الدهر يا رمزه ... كم صنم في القلب لم يَبطُل
كأن روح الدهر في جسمه ... إن ترَهُ من نحوه تمثُلِ
تحسبه من هيبة عاقلا ... من حسب المرهوب لم يعقِل
كأنما في طيِّ ألحاظه ... ذكرى لعهد الزمن الأول
كأنه في صمته حارس ... يحرس باب القَدَرِ المقفَل
يا عجباً أبصرتَ ما قد مضى ... ونظراتٌ منك لم تُقتَلِ
أبصرتَ أكل الدهر أبناءهُ ... ألم تُرَعْ من ذلك المأكل
بينكما نجوى على صمته ... وصمتة في فيك كالمِقْوَلِ
مرت بك الأيام مخشية ... كأنها مرت على هيكل
فابعث لنا من عزمها عُدَةً ... فلو سألتَ الدهر لم يبخل
ولو نهيتَ الدهر لم يَعْتَدِ ... ولو زجرتَ الدهر لم يُقبِل
والدهر كم تَسْحرُ أحداثُهُ ... لب غضيض اللب والمِفصل
أي حكيم قد رأى ما رأت ... عيناك في الدهر ولم يذهل
يا ناظرا ينظر هذا الورى ... نظرة طرف الناظر المُعضِل
انظر إلى الأقدار في غيبها ... واذكر مآل العيش في المُقبِل
أغابر الأيام في صرفها ... كمُضمَرٍ في الغيب مُستقبل
أمالكٌ عُوجلَ عن مُلكه ... كذي علاء بَعُدَ لم ينزل
وللناس حلْيُ القاهر المُعتلي ... يألم نار الحاذق الصيقل
يصوغهم كل غَلُوبٍ على ... سنة مُلكِ الرمح والمنصل
كم عَبْرَةٍ للناس أبصرتها ... وعبرةٍ للهاطل المُسبِلِ
فهل دموع النحس تحي الورى ... مثل عقيب المطر المرسل
أراك لا ترثي لما نابَهم ... يا ليتني مثلك لم احفل
ومقلة تخبر ألحاظها ... أنَّ عيون الدهر لم تُسمل
والدهر وهو الساهر المعتدي ... يُغضي وعين لك لم تغفل
ورب لحظ منك قد رِشْتَهُ ... في قلب هذا الدهر كالموغل
فابحث خباياه وأحناءه ... واكشف لنا عن ذلك الغيطل
كأن روح الدهر تبغي به ... وكُناً لها أُحْكِمَ كالمعقل
تحسبه لو جئته ناشداً ... معنى حياة الناس لم يجهل

يا من سؤال العيش في صمته ... اسأل ومن لم يَدْرِه فاقتُلِ
كم امتطى الأيام تجري به ... كأنه والخلد في منزلِ
كم عَبَّ لج الدهر ثم انثنى ... إلا بقايا الماء في الجندل
كأنه منتظرٌ مَوعِدا ... حُيِّنَ كي ينطق بالمِفْوَلِ
لوفاه يوماً ذاكراً سره ... لم يعجب الرائي ولم يَعْجَلِ
أو انه المسحور في صمته ... قد كان يمشي مِشيَةَ المُشبِلِ
فخاف صرف الدهر من فتكه ... وعلمه بالحادث المُقبِلِ
فذاده بالسحر عن نطقه ... حتى تناسى عيشه المُنْجَلي
عبد الرحمن شكري
العمر والأماني
بقلم الشاعر عثمان حلمي
مُنىً تناثرنَ حولَ النفسِ ذابلةً ... كما تناثرَ حولَ الدوحةِ الورق
تأبى التجاريبُ إلا أن تودِّعها ... بين الطِّماح وبين اليأس تصطفق
والعمرُ يجري كما يجري السحاب فما ... يعودُ ما جدّ منه وهو يستبق
وإن أعيدَ فلا حمدٌ لعودته ... هي الليالي غضابٌ أو بها خرَق
وكالأعاصير في قلبي مضاضتها ... أو كالجحيم وفيها القلبُ يحترق!
نظرتُ للسالف الماضي فوا جزعاً ... إذا تلاقت به في المقبل الطرُق
ونظرتي لحياتي وهي مقبلةٌ ... اليوم غيَّرها سارٍ بها نَزِق
تبدَّلت نظراتي في الحياة كما ... تبدَّل اللونُ لما طاشت الحدَق
مالي وللمنى ما جدَّ بي زمنٌ ... إلا وطاحَ بنفسي عاصفٌ حَنِق
لونُ الحياةِ كلونِ النفس تبصره ... ما طويت فلا مينٌ ولا ملق
في غاية النفس والدنيا وسرّهما ... تحيَّر الخلق في سّرٍ له خُلقوا
غادٍ على الأرض فيها رائح جَزِعٌ ... ذو الصبر يطوي ويطوى الجازع الحمق
وكلُّنا في الليالي صاعدٌ جبلا ... تَزَلُّ أقدامُنا عنه وتنزلق
متى بَصُرْتَ بآلام الحياة ضحًى ... أيقنتَ أيَّ رجاءٍ ضمَّه الغسق
والحبُّ والبغض إن جدَّا زوالهما ... حقٌ وأيُّ جميعٍ ليس يفترق!
وادمعٌ ليَ حيرى في محاجرها ... ولي فؤادٌ ولكن بالأسى خَفِقَ
فكنتُ أحسبُ أحلامي محققةً ... ولا محالة حتى لاح لي الشفق
آمنتُ أنّ وجودي كلَّهُ خُدَع ... وأنّ نفسي تحكي كلِّ من سبقوا
(الإسكندرية)
عثمان حلمي
القصص
البدوي رحاب
للأستاذ إبراهيم بك جلال
وكيل محكمة الزقاقيق الأهلية
كان في أقصى الصعيد نجع قريب من الجبل يسكنه جماعة من فقراء الفلاحين وبينهم بعض الأعراب الذين سكنوا القرى المصرية واعتادوا حياة الريف والاستقرار، ولكن لم تتبدل فيهم غرائز البدو وعاداتهم الموروثة. وكان في النجع بدوي شيخ قد ناهز الثمانين، أسمر البشرة، حديد البصر، اسمه (رحاب)، إذا مشى خلف جماله اطرق برأسه غير ملتفت إلى أحد من الذين يحيطون به معجبين باستقامة عوده ونشاط بدنه، على ما بدا من شيخوخته، فلا يفارق عصاه الغليظة يبسطها على عاتقه ويلف عليها ساعديه، وهو حافي القدمين قد اشتمل بعباءة من وبر الجمال، واعتاد أن يحمل خيوطا كثيرة من ذلك الوبر الذي كان يغزله
وكان له ولد يدعى (دياب) في الثلاثين من عمره قد أصبح مضرب المثل في حسن الفتوة وكمال التكوين والقامة المديدة؛ له عينا صقر وشارب مفتول، ولكنه كثير الاغتراب والأسفار، يطوي الفيافي والبيد سعياً على قدميه، ويجوب أقاليم الصعيد من أقصاها إلى أقصاها يبيع للفلاحين النوق والجمال، ثم يعود إلى مضرب أبيه مفعم الكيس بالمال. أما أبوه الشيخ رحاب فإنه لا يغادر الخباء إلا إذا سرحت جماله في الأراضي البور المترامية خلف النجع وعلى ضفاف النيل، فيمشي خلفها حتى إذا بلغ

رابية بأقصى الساحل جلس عندها وتناول مغزله يديره طول يومه، فإذا جاع تناول قبضة من التمر اليابس، ثم اشتمل بعباءته ونام بعين الساهر اليقظ. وكانت له فتاة صبوحة الوجه، مليحة التكوين، تخطر في مشيتها فيفتتن الناظر بسحر أحداقها المتقدة حسنا ورقة، وكانت الفتاة، واسمها (سلمى) تزين صدرها بألوان من العقود، وتطوق خصرها بنطاق من الحرير الأحمر، ولها في الخباء صندوق احمر عليه تصاوير وألوان مما يباع لأهل القرى، يتدلى مفتاحه من غدائرها، وقد جمعت فيه ثيابها وأقراطها وأساورها، وكل ما حرصت على جمعه من ألوان الزينة التي يحبها بنات العرب

وكان بيت هذه الأسرة في أقصى النجع قد قام من أوبار الجمال، فيه فراش للوالد الشيخ وآخر بجانبه لزوجته جازية؛ أما سلمى فكان فراشها بمعزل عن والديها. وكان في ناحية من الخباء جرن كبير من الحديد يؤدي عمل الرحى، فيدقون فيه الشعير، وله يد كبيرة غليظة لا تقل زنتها عن نصف قنطار يعجز الرجل من أهل المدن أن يحركها إلا بكلتا يديه، ولكن سلمى كانت تدق بها حب الشعير كما يستعمل نساء المدن الهاون النحاسي سهولة واعتيادا بغير عناء أو مشقة، وكذلك كانت جازية أمها. والعجيب أن الشيخ الفاني كان يتناول ذلك القضيب بإحدى يديه كما يفعل بعصاه يحركه ويدق به، وكان عندهم عنزات لطاف يطلقونها بالنهار في أطراف المزارع، وتمشي الأم جازية تحرسها من بعيد فتجمع لها بعض الحشائش الجافة، فإذا مر بها رجل من أهل القرى أسبلت نقابها الأحمر وتوارت حتى ينصرف الرجل وما كانت تكف هي الأخرى عن الغزل طول يومها

ولم يبق بالخباء إلا الفتاة سلمى الكاعب اللعوب، تراها تغزل أحياناً وحيناً تطبخ الدشيش وتسقيه من لبن النوق، ثم تملأ منه القدر الكبيرة وتجلس بعد ذلك ترقب الطريق كأنها على موعد مع أحد الناس

وكان بإحدى القرى القريبة من النجع فتى من سادات الأسر الكريمة بصعيد مصر، مات أبوه عن ضيعة عامرة بالأنعام وأنواع الدواب، وبها أهراء حافلة بالغلال والأقطان، وأستقر الفتى حسان في ضيعة أبيه مجداً دائباً في الزرع والإنبات حريصاً على مرضاة الفلاحين، وقد اتخذ جناحاً من دار أبيه لسكناه مع أمه الأرمل المريضة، وكف عن حياة السرف وكثرة الإنفاق على الولائم والأضياف. وكانت له فرس شقراء من عتاق الخيل يركبها ويطوف بها بين المزارع في كل صباح باكر وكل عشى

مر يوماً بخباء رحاب فلمح سلمى تحلب عنزاتها عند باب الحظيرة، فترنح الفتى على سرج فرسه من روعة حسنها وقوة فتنتها وجمال جيدها، والتقت عيناهما لمحة قصيرة ثم أرخت قناعها وولت على استحياء، واكثر حسان من الطواف بخدرها كل غداة، فكان يجدها منفردة عن أبويها، وشجعه على التحديق فيها صمتها وجلوسها كل يوم عند كثيب خلف الخباء كأنها ترقب حضوره

وخرج حسان يطوف المزارع كعادته في يوم شديد القيظ، فساقته فرسه إلى باب الخباء، فنادى أهل الدار يلتمس ماء أو جرعة من لبن الإبل يتعلل بها، وقابلته الأم عند الباب وقد أرخت قناعها الأحمر وسألته عن حاجته، فلما طلب قدحاً من اللبن نادت ابنتها سلمى، فجاءت تتعثر بأذيالها وهي حاسرة الوجه تبهر الناظر بحسنها وملاحة قدها، ومدت إليه يمينها بالقدح فترجل حسان لدى الباب وقد سنحت له الفرصة فرآها عن قرب ولمس كفها، وطالع في غرتها آية الحسن الذي لم ير مثيلاً له بين بنات القرى ولا في سائر البنادر التي زارها، وابتسمت سلمى من رؤية محبها وقد أذهلته الفتنة وشغفه حبها وملأت ناظريها منه، وكان فتى حسن الهيئة والثياب، ثم ارتدت إلى البيت وتوارت عن ناظريه

وأراد حسان ألا تضيع الفرصة، فسال الأم أن كان لديهم بعض من صغار الخراف ليشتريها ويحملها إلى المزرعة بين دوابه وأغنامه، فأنعمت الأم وغابت عنه قليلا، ثم عادت تسوق بين يديها حملين صغيرين، وجاءت على أعقابها سلمى تسوق حملين آخرين وساومهما حسان ونقدهما ثمناً معجلاً في الخراف الأربعة، ثم بدت له مشكلة حمل الخراف إلى قريته، فهونت عليه جازية الأمر وساقت بين يديها الخراف تساعدها سلمى ومشى حسان بين المرأتين يحدثهما طول الطريق ويختلس النظر إلى سلمى التي ما كانت تضن عليه بعطفها وابتسامها، وبلغوا المزرعة فادخل الخراف في

الحظيرة ثم قدم لجازية وسلمى طعاماً شهياً من موائد أهل المدن بين دجاج وشرائح من لحم مشوي وخضر مطبوخة، وصحفة كبيرة من الحلوى بهر بها أبصار ضيوفه، ثم حمل إليهما النقل والفاكهة ولم يدع مزيداً من واسع الكرم وطرائف النعم

وخلا حسان بفاتنته سلمى في ساعة شغلت فيها جازية بالحديث مع أمه العجوز المريضة بأعلى حجرات الدار، واشتفى المحبان في خلوتهما، وخطبها حسان لنفسه وحمل إليها من خزانته صرة من الحرير الأبيض فيها مائة جنيه من الذهب صداقا معجلا ليستحل بذلك عناقها، ولكن سلمى نأت بجانبها أسى وأسفاً، وأطلعته على همها الدفين، فإن أباها قد عقد العزم على تزويجها من ابن أخيه وهو كهل من قبيلتها، له زوجتان وبنون وبنات، وهو فوق ذلك قد جاوز سن الشباب، فظ غليظ القلب، رقيق الحال، ومن اجل ذلك كله قد تنكد عيشها، لان أباها وأخاها (دياب) كلاهما ملح في تزويجها من ذلك الرجل البغيض، وقد

انذراها بالموت إن هي ترددت في القبول والرضى، وبكت سلمى وغمرت وجهها في صدر محبها، وضمها حسان وقال لها أني اشهد الله انك ستكونين أهلي وهذا صداقك بين يديك، وليقض الله فينا بمشيئته، واستسلمت له الفتاة وتعاهدا أن يدعو في الصباح مأذون القرية ومعه شاهدان ليعقد عليها بغير علم من أبيها أو أمها

وما اشرق الصبح حتى هبط حسان إلى فرسه فامتطاها وانطلق بين أنفاس الربى يطير بجناحي شوق

وانقضت اشهر والحبيبان يلتقيان بالخباء في غفلة من رحاب وزوجه، وكثر سروح سلمى تمشي إلى زوجها في دجى الليل بعد أن ينام أبواها حتى ظهر الحمل وتحرك الجنين ولم يبق على الوضع إلا بقية من الشهر الأخير، فرفع رحاب حاجبيه يوما بكلتا يديه وظهر له ما كان مستورا عنه من أمر سلمى؛ فناداها: أنى لك هذا وما كنت بغياً؟ وطار شرر الغضب والوعيد من مقلة الشيخ، ففرت زوجته جازية بين الربى والاكام، واستسلمت الفتاة المسكينة، فقال أبوها خبريني عن هذا الذي في أحشائك من أبوه، فقالت معاذ الله ما أثمت والله يا أبت، ولكن بكتاب الله وسنة نبيه، فقال هذا غاية ما بلغ به فجورك، إن اليوم هو آخر أيامك من الدنيا، فمن شريكك في الإثم؟ من هو الذي انتهك حرمتي وفضح ربة الخباء؟ لعله الفتى الذي يجوب الربى بفرسه الشقراء كل يوم! لقد أغدق عليك من خيره يوم ابتاع منك الخراف. فصاحت سلمى باكية وقالت: بل هو سيد كريم قد مهرني مائة جنيه من خالص الذهب وأغدق علي ألواناً من الثياب والعقود والجوهر الكريم، ودخلت الخباء ثم عادت تحمل بيدها صرة من الحرير الأبيض بها صداقها وقالت هذا هو المهر الذي استحل به عناقي، فصاح بها أبوها سارد إليه هذا الذهب وأنال به مهرا أغلى واشد خطراً يجري من دمه فأغسل به باب هذا الخدر.

فصاحت سلمى: يا أبت إنني وحدي الأثيمة فاقتص مني دونه ودعه بالله وشأنه فانه الوحيد المرجي لأمه المسكينة. لقد مات أبوه رميا بالرصاص في ظروف محزنة، ولم يبق من أسرته إلا هو. دعه يا أبت يعش ويستوف نصيباً من نعمة الدنيا، فصاح بها أبوها أن احملي إلي قضيب الجرن، فنكست رأسها وجرت مدامعها وقد لاح لها ملك الموت، وأضجعها أبوها فاستكانت له، فهوى بالقضيب يقصم ظهرها ويفري حشاها صدعا شديدا وضربا لا رحمة فيه ولا هوادة،

وتراخت يداها وأخذتها غشية الموت، فناولها جرة الماء وصاح بها لتحملها إلى غدير الماء وتملأها غلواً في قتلها وإرهاق نزعة الموت الأخيرة فيها، ودفعها بيده وهي تحبو إلى الغدير حبوا حيث فاضت روحها، فركلها أبوها الوحش بقدمه فحملها الماء إلى الشط. وصاح الناس قتيل بالشط! فأقبل العمدة وجنوده وعرفوها سلمى ابنة رحاب؛ واحتشد الناس في أقصى المزارع حول جسد مسجى في إزار من الحرير الأبيض يبين منه وجه حسان وقد مزقت أحشاءه قذائف الرصاص، وتدلى من إزاره صرة من الحرير الأبيض بها مائة جنيه من الذهب الاصفر، حولها مائة قطرة من الدم الأحمر الزكي الشهيد!

إبراهيم جلال

مأساة من سوفوكليس

أنتيجونى - 2

للأستاذ دريني خشبة

- 4 -
(يدخل أحد الحراس مفزعا)
- (مولاي! مولاي! أ. . . أ. . . أنفاسي تتقطع يا مولاي! أفكاري مشتتة! لقد أوشكت ألا احمل النبأ العظيم! يا للهول، يا للهول!)
- (تكلم أيها الحارس، ما ورائك! تكلم!. . . ماذا تخشى؟)
- (الجثة يا مولاي! لقد هيل عليها الثرى. . . و. . . دفنت! وأديت لها كل شعائر الآلهة! أما من صنع هذا. . ف. . . لا ندري. . . لقد لاذ بالفرار! فر دون أن يراه أحد!)
- (. . .!ها. . .!! الجسور الذي صنع كل هذا)
- (لا ادري! انه لم يترك ورائه أثراً يعرف به! ونحن أيضاً لم نعرف ما تم حتى أيقظتنا آراد الصباح المنبعثة من أعين الشرق! لقد فزع الحراس، واقترعوا على من يبلغ مولاي! فيا لشقوتي ويا لتعاستي! لقد وقعت القرعة علي. . . وهل أشأم من حامل أخبار الشؤم!؟)
- (الحورس: (مولاي! إنها قوة سماوية مقدسة لابد! هي التي صنعت كل هذا!)
- (الملك: (أية قوة سماوية يا أحيمق؟! إصمت! أية آلهة تزعم إنها توقر النذل الخائن الجبان! إنك تضرم غضبي وتؤجج لظى السخط في أعماقي! ويلكم أيها الحراس الأنجاس! بل أنا اعرف من أين وصلتكم الرِّشى فغضضتم الطرف عن إجرام المجرمين! النقود! دائماً النقود. . .! تعاويذ السحر، والرقى التي تذهب بالألباب! ليس مثلها في إفساد ضمائر الأمم، وتدنيس كرامات الشعوب! ولكن لا. . .! فأما تأتونني بالمجرمين مصفدين في الأغلال، وإلا فالشنق ايسر عقوبة تستأهلونها! أيها اللؤماء! يا عبدة الذهب)
- (إذن!. . . أ. . . أيسمح لي مولاي بكلمة؟ أم انقلب على وجهي؟)
- (بل كلمات. . . تكلم!. . . أضرم نيران السخط عسى أن تحرقك!)
- (أنا على الأقل. . . لست صاحب ذلك الوزر!)
- (ها. . . ها ها. . .؟ كل ما فيك لسان ليس يفتر عن هراء! المجرمين. . . وإلا. . . أغرب فرؤوسكم أجمعين!. . .!)
(يخرجون تباعا ما عدا الخورس)
- 5 -
وما يكاد المنشدون يفرغون من هزج حلو النغم، ضافي الحكمة، حتى يشهد رئيسهم أحد الحراس مقبلا وبين يديه الفتاة الجريئة التاعسة أنتيجونى يسوقها سوقاً (يدخلان)
- (الفتاة التي صنعت كل شيء! لقد ضبطناها تدفنه! أين الملك؟)
- (هاهو ذا قادما للقائك أيها الحارس، فحدثه بكل شيء)
(يدخل الملك)
- (مولاي! هاهي ذي! لقد ضبطناها تحثو التراب على جثمان القتيل! ما احسبها تنكر، لان الإنكار لن يفيدها من الحق شيئاً! حمداً للآلهة! لقد أنقذتنا بالتوفيق من موت كاد يتخطفنا! سلها يا مولاي فاكبر ظني إنها ستعترف!)
- (هذه الفتاة! أين وجدتها إذن؟)
- (وجدتها تدفن الأمير قلت لك!)
- (ما أحسبك إلا مأفوناً!)
- (لقد وجدتها تدفن القتيل الذي أنذرت ألا يدفن! ماذا تريد مني أن أكون أصرح من هذا؟)
- (وكيف إذن كشفتم هذا الأمر؟)
- (لقد كنا يا مولاي نجلس (فوق ريح) القتيل حتى لا يصدم أنوفنا نُتْنه، ولا يضرنا جيفه، وفجأة، حين أشرقت ذكاء وغمرت بسناها البطاح، هبت زوبعة قوية حجبت الشمس بكثرة ما أثارت من تراب ورمال! فخفنا على أبصارنا أن تصرها الريح العاصف فأغلقناها، وما كادت تهدأ العاصفة ويصفو الجو حتى رأينا هذه الفتاة تبكي القتيل وتسقيه أحر عبراتها، ثم حثت فوقه التراب وصبت عليه ثلاثا من جرار الخمر المقدسة، سلها يا مولاي فإنها اعترفت بكل شيء، وستعترف لك بكل شيء!)
- (أنت أيتها الفتاة التي تبحث بعينيها تراب الأرض!! أتقرين بما تقول عليك الحارس أم)

(تنكرينه؟
- (أنا!. . . ها ها!! أنا لست أنكر مما ذكر حرفاً واحداً!! لقد نذرت ذلك وأنفذت ما نذرت!)
- (إذن. . . انطلق أنت أيها الحارس. . . فلقد نجوت. . . أما أنت أيتها الفتاة. . . أما علمت بما صدرت عنه إرادتنا؟ ألم تكوني تعرفين أن ما صنعت محذور منه منهي عنه؟)
- (كنت اعلم ذلك جميعه!)
- (وكيف تجاسرت إذن على خرق القانون إلى هذا الحد؟)
- (انه قانون لم يتنزل عليَّ من السماء، ولم تأمر به ربة العدالة! إن هي إلا قوانينكم انتم، ولكن للآلهة قوانينها كذلك، وقد فرضتها منذ الأزل على بني الإنسان، وأنى لبني الموتى أن تضرب بعرض الأفق شرائع السماء! أينا اخطأ أيهذا الرجل؟ أنا التي عصيت قوانينكم الظالمة، أم انتم الذين ثرتم على قوانين آلهتكم؟ ألا مرحبا بالموت يريحني مما كنت أغص به من آلام! أيترك أخي من غير قبر يستره ويردني تهديدكم بالإعدام عن دفنه؟ ألا إن هذا هو الإعدام! ألا إن كنت في نظرك مجنونة، فإني لكذلك في نظر مجنون!. . .
رئيس المنشدين: (يا للجرأة! إن الفتاة لا تبالي صاحب تاج طيبة! إن الردى الذي يرقص أمام عينين لا يفل من عزيمتها)
الملك: (إي وحق السماء! ولكن سرعان ما تذوب هذه الروح المتمردة حين تلقى في سعير العذاب! خيلاء! ها! شيء لا يحتمل من مجرم! إنها داست القانون ولم يكن بحسبها ذلك، بل هي تضاعف أوزارها بالقحة! إنها تستهزئ بنا كأنها صاحبة الأمر والنهي فينا! من أنا إذن! لعلها تحسب إنها بنجوة من العقاب لأنها ابنة أختي! ها. . . ولكن. . . لا. . . فو حق السماء لو أنها اقرب الناس إلي لما أفلتت من الجزاء الصارم. . . ولكن. . . أين شريكتها في هذا الوزر؟ أختها! إنهما كانتا تتناجيان في هذا القصر. . . إلى بها هي الأخرى. . . إنها اخبث منها!. . .)
أنتيجونى: (على رسلك أيها الملك! أتبتغي شفاء لحردك اكثر من قتلي! ألا مرحباً بالموت!)
الملك: (بحسبك! هذا شأني سينهي الموت كل شيء!)
- (وفيم الإبطاء إذن! إنك لا تخيفني بتهديداتك، فلقد نلت مشتهاي بدفني أخي، وأي فخار
ابعد من هذا؛ إن هؤلاء جميعا شهودي، فسلهم يجيبوك! حل عقال ألسنتهم. . . كلمهم!
- (لبس في طيبة فرد يرى القضية بعينيك!)
- (بل هم يرونها كما أرى، ولكن جبروت السلطان يلجم أفواههم!)
- (وهلا تستحين من تحديك مدينة بأسرها؟)
- (مِمَّ استحي؟ ألأني أخته، ذلك الذي وفيت له؟)
- (أولم يكن إتيوكليز أخاك كذلك؟)
- (أخي وشقيقي من أبى وأمي!)
- (لم يكن من الوفاء له إذن أن تفعلي ما فعلت!)
- (انه وقد مات - لا يؤمن بما تقول! على أن الذي دفنته هو أخوه أيضاً ولم يكن عبداً مرة ما!)
- (لكنه حارب وطنه وأراد إذلال بلاده!)
- (لا يعرف الموت هذه الفروق الدنيا!)
- (ليس الخير والشر سواء كما تعلمين!)
- (قد يستويان في الدار الآخرة، من يدري؟)
- (العدو مكروه أبداً حتى في الموت!)
- (ومن أين لقلبي بكراهية أخي! أني احبه!)
- (ها. . . ستحبينه كثيرا بعد قتلك! أبداً لن تسيطر علي فتاة مثلك!)
(تدخل إسمنيه)
(لها بقية)
دريني حشية

البريد الأدبي

كتاب جليل عن مستقبل الديموقراطية

تثير نظم الدولة والحكم اليوم كثيراً من الاهتمام، ويتساءل الساسة والمفكرون في مختلف أنحاء العالم، أيكون المستقبل للديموقراطية أم يكون لتلك النظم الجديدة الطاغية التي تستتر وراء فكرة الدولة وتقضي على كل الحريات الدستورية؟ وقد صدر أخيراً بالفرنسية في هذا الموضوع كتاب جليل الشان عنوانه: (الفوضى أو السيادة المطلقة، أزمة الديموقراطية، وحلها) بقلم السنيور دي مدارياجا سفير إسبانيا في باريس ومندوبها لدى عصبة الأمم، وهي خلاصة المحاضرات التي ألقاها في معهد الدراسات الخاصة بالثورة الفرنسية بجامعة السوربون منذ سنة 1833

والسنيور مدارياجا من أعظم ساسة أوربا المعاصرين، ومن أعظم الكتاب الدوليين، وهو ديموقراطي بالفطرة لا يدخر وسعاً في الذود عن الديموقراطية بقلمه ولسانه، وهو يقول لنا في كتابه أنه لما رأى القوى الخصيمة تثب وتناوئ الحريات الديموقراطية، ورأى الحرية نفسها تضعف وتتضاءل، رأى أن يبحث ما إذا كان من المستطاع أن ننظم ديموقراطية الغد وننقذها

ويرى السنيور مدارياجا أن فهم الحرية قد تطور جداً عما كان عليه أيام روسو ومونتسكيو، وأن الحرية قد غدت بالنسبة لبعض الأفراد عبئاً لا يراد حمله، وان المساواة غدت في نضال مستمر مع أنواع الإيثار التي تقوم على النظام الطبيعي، وأن الديموقراطية القائمة على سيادة الشعب غدت من التعقيد بحيث تخرج عن طاقة الفرد وسلطانه

ويقول لنا إن عوامل التأثير والتعقيد في الديموقراطية المعاصرة ترجع إلى الرأسمالية التي أصبحت كابوساً على العمل، والمالية التي تسخر كل القوى لصالحها؛ وقد غدت القوى المنتجة في الأمة معتركا من النضال المستمر؛ وأضحت الفكرة القومية في نضال مستمر مع النزعة الدولية، بيد أن ذلك كله لا يعني أنه يجب على الأمم أن تترك قوى الحرية السياسية التي تغذيها المبادئ الديموقراطية، بل يجب عليها بالعكس أن تحاول تنظيم هذه القوى بأسلوب جديد

ويحاول السنيور مدارياجا أن يعالج هذه الأسس التي يجب أن تقوم عليها ديموقراطية الغد،

ويحمل بكل قوة ومنطق على النظم الطاغية التي تحاول أن تجعل الأمة فوق الفردية. وفي رأيه أن الدولة لا حق لها أن تجعل من نفسها نهاية مقصودة، وان الفرد مرتبط حتما بالمجموع، أنه يجب وضع قاعدة للتوسط بين الحرية والسلطة

ثم يعالج السنيور مدارياجا بعد ذلك الوسائل الاقتصادية والاجتماعية التي يجب أن تتذرع الديموقراطية بها لتحقيق مبادئها

وقد أثار كتاب السنيور مدارياجا كثيرا من الاهتمام والتقدير في دوائر السياسة العليا، ودوائر عصبة الأمم التي يعتبر من أقطابها

المهرجان الألفي للمتنبي في المجمع العلمي العربي

أرسلت كتابة سر المهرجان رسائل الدعوة إلى اشهر رجال العلم والأدب من الفرنجة والعرب وإلى الجامعات العلمية لترسل من يمثلها في موسم المتنبي الذي يفتتح في اليوم الثالث والعشرين من شهر يوليه الحالي ويستمر إلى آخره. وقد أخذت سائل التلبية تتوارد إلى المجمع العلمي فندبت الجامعة المصرية الأستاذ أحمد أمين ليمثلها رسمياً في المهرجان، وندبت الجامعة الأمريكية الأستاذ أنيس الخوري المقدسي لتمثيلها، وندبت الجامعة السورية الأستاذ الدكتور مرشد بك خاطر عضو المجمع العلمي لتمثيلها، وندبت جامعة عليكرة الهندية الأستاذ عبد العزيز الميمني الراجكوتي. وسيمثل القطر المصري مع الأستاذ أحمد أمين الأستاذ عبد الوهاب عزام، ويمثل العراق الأستاذ طه الراوي عضو المجمع العلمي العربي وكاتب سر مجلس الأعيان، ويمثل لبنان الأستاذ الدكتور نقولا فياض، وفيلسوف الفريكة الأستاذ أمين الريحاني عضوا المجمع العلمي العربي، والأستاذ حليم دموس الشاعر المعروف؛ وينوب عن جبل عامل الأستاذان أحمد رضا وسليمان ضاهر وكلاهما عضو المجمع العلمي العربي، وينوب عن حلب الشهباء شاعرها الأستاذ عمر أبو ريشة. ولا يتسع المجال لتعدد جميع ضيوف المهرجان من أعيان البيان

وقد قررت اللجنة العامة في جلسة الاثنين المنصرمة أن يكون يوم 17 يوليه الحالي آخر يوم من الأجل المضروب لقبول الخطب والقصائد، وذلك لكيما تتمكن اللجنة من تصنيفها وتوزيعها على أيام أسبوع المتنبي

واللجنة العامة تشكر المفوضية العليا على منحها مبلغ (300) ليرة سورية إعانة للمهرجان،

كما تشكر مدير المعرض الصناعي الأستاذ عارف بك النكدي عضو المجمع العلمي لمساعدتها بمبلغ (300) ليرة سورية، وكما تشكر محافظ مدينة دمشق الممتازة الأستاذ توفيق بك الحباني الذي قرر أن يسمي الشارع الجديد المجاور لدائرة التبليك باسم (شارع المتنبي) وذلك يوم افتتاح المهرجان

سجون سيبيريا

كانت سجون سيبيريا منذ الحكم القيصري دائماً مثار الروع والرهبة؛ وقد أوحت شناعتها وهولها إلى كثير من الكتاب الروس كتباً وفصولاً مؤثرة مروعة؛ وللكاتب الروسي الأشهر دستيوفسكي الذي قضى ردحاً من الزمن منفياً في هذه السجون الهائلة كتاب ساحر مؤثر عنها اسمه (دار الموتى) يصف فيه هولها، وما يقاسيه المسجونون فيها من ضروب العذاب والويل، وقد نسى الناس اسم سيبيريا ونسوا سجونها مذ قام الحكم البلشفي في روسيا، ولكن الحقيقة أن السجون السيبيرية مازالت جحيم المحكوم عليهم في العصر الجديد كما كانت أيام الحكم القيصري

وقد صدر أخيراً بالألمانية (وصدرت له ترجمة إنكليزية) عن سيبيريا وسجونها الهائلة عنوانه (القرية المنسية) بقلم ضابط ألماني أيام الحرب الكبرى يدعى تيودور كروجر؛ والكتاب مؤثر مروع معاً، وفيه يقص مؤلفه كيف أسر في الحرب الكبرى سنة 1914 في روسيا، وكيف حاول الفرار فقبض عليه وسجن؛ ويصف لنا المؤلف روعة هذا السجن الأول؛ ويكفي في وصف هوله أنه كان عائشاً في الظلام الدامس، وأن الماء القذر كان في معظم الأوقات يغمره حتى كتفيه، ثم اخذ الأسير إلى سيبيريا مصفداً في الأغلال الثقيلة؛ وبعد حين افرج عنه، واستطاع أن يكتب إلى ألمانيا وأن يستحضر بعض المال؛ وهنالك، في منفاه الثاني تزوج من فتاة منغولية، وتذوق بعض السعادة؛ وساعد في تنظيم مسألة الأسرى الألمان، واستطاع أن يرتب لهم أعمالاً، فاحترفوا الخياطة والنجارة والنقش وغيرها، وأسس قرية صغيرة؛ أما هو فاحترف تجارة الفراء، وحسنت حاله، ولكن الثورة البلشفية نشبت في سنة 1917، فاضطربت الأمور، ونسى الأسرى الألمان من العالم كله، وهلك كثيرين منهم من الجوع والأوصاب وكان حظ المؤلف اتعس حظ، فقد قتلت زوجه وولده بيد أحد أعدائه، في نفس الوقت الذي عقد فيه الصلح بين ألمانيا وروسيا

والكتاب ساحر مؤثر برغم روعة حوادثه، وفيه يدلل المؤلف على معرفة وثيقة بأسرار النفس الروسية، وأحوال سيبيريا المجهولة

مجلة المجلات العالمية

شعرت الصحافة الإنكليزية أخيراً بحاجتها إلى التوسع في معالجة المسائل الدولية، بعدما وصلت إليه من التشعب والتعقيد، ولم يعد يكفي أن تعالج بصورة محلية؛ وقد تصدى لتحقيق هذه المهمة صحفي وكاتب سياسي كبير هو المستر فرنون بارتلث، الذي لبث زهاء عشرين عاماً مراسلاً سياسياً لكبريات الصحف الإنكليزية، والذي مازال محرراً للشؤون الخارجية في جريدة الديلي تيليغراف. فأنشأ مجلة سياسية كبرى تصدر كل شهر بعنوان (مجلة المجلات العالمية) وهي في الواقع إدماج لمجلتين شهيرتين: الأولى (مجلة المجلات) التي أسسها الصحفي الكبير مستر ستيد في سنة 1890، ومجلة (العالم) التي أنشأها مستر بارتلث في سنة 1934، وستعنى المجلة الجديدة بمعالجة أهم الشؤون الدولية، ومسائل عصبة الأمم التي يتفوق مستر بارتلث في دراستها بنوع خاص، وستكون مستقلة محايدة في آرائها وتعليقاتها

وقد صدر العدد الأول من المجلة الجديدة مصدراً بكلمة للمستر انتوني ايدن وزير الخارجية البريطانية يقول فيها: (يسرني أن ابعث بكلمة ترحيب لهذا المجهود الجديد الذي يرمي إلى تهيئة الفرصة للشعب البريطاني ليطلع على ما يكتبه وتراه الشعوب الأخرى في المسائل الدولية

حماية النسل في روسيا

كان من نتيجة الأنظمة والقوانين الإباحية التي سادت روسيا البلشفية في الأعوام الأخيرة ولاسيما فيما يتعلق بالزواج والعلائق الاجتماعية، أن ذاعت حوادث الإجهاض ذيوعا مزعجا، وأخذت تهدد كيان الأسرة والأمومة في روسيا؛ وقد تبينت حكومة موسكو أخيرا خطر هذه الإباحة على مستقبل الشعب الروسي، فأصدرت قانوناً جديداً خاصا بحوادث الإجهاض يسري مفعوله منذ 15 يوليو الجاري؛ وخلاصة نصوصه أنه ما خلا الأحوال التي تتطلب فيها حالة المرأة الصحية إجراء عملية الإجهاض يحضر الإجهاض قطعاً،
ويعاقب الأزواج أو الآباء بعقوبات شديدة من السجن والغرامة إذا عاونوا على ارتكاب الإجهاض في حالة غير المصرح بها قانونا
وينص نفس القانون على أن الأسر التي تضم ستة أولاد فاكثر تمنح إعانة من الحكومة؛ وفي حالة الطلاق، يلزم الوالد بدفع ربع مرتبه أو إيراده للزوجة إذا كان له منه ولد، فإذا كان له ولدان فرض عليه الثلث، وأن كان له منها ثلاثة أولاد فأكثر فرض عليه أن يدفع للزوجة نصف المرتب أو الإيراد
وقد رأت روسيا السوفيتية أن تتشبه في ذلك بالدول التي تعنى بمسألة النسل والإكثار من السكان مثل إيطاليا وألمانيا حيث تتخذ حماية الأمومة أهمية خاصة
الكتب
رواية عمر بن الخطاب
تأليف الأستاذ معروف الأرناءوط
للدكتور منير العجلاني
أنا لا اصدق أن هذه التهاويل الثلاثة: الحب، الطبيعة، البطولة، التي جمعها أستاذنا الأرناءوط في كتابه الجديد (عمر بن الخطاب) رواية . . .!
وإذا كان يحرص على أن يسمي (رواية) هذا العالم الذي أبدعه وشحنه بالأخيلة العجيبة والألوان النضرة والأنغام الحلوة فإني استحلفه (بكريستيا) الذي ينحت تمثاله، و (فروة) الذي يقود رجاله، و (نفتالي) الذي يندب آماله؛ بل استحلفه بهذه الغانية (بنيامينا) التي تسلب العاقل لبه، والشجاع قلبه، وتنسي الوثني ربه؛ بل استحلفه بهذه الفتاة الصغيرة الخيرة (سافو) - شقيقة البدر وبنت السحر - أن يسميها رواية شعرية لا اجتماعية ولا تاريخية، فإني نسيت الجماعات ونظمها، والتواريخ وحكمها، ورحت أنتقل على أجنحة كتابه من حجرة حب، إلى ساحة حرب، ومن مأتم عبقري، إلى عرس شعري، ومن صلاة الفجر الروحانية، إلى مناجاة البخور الجثمانية، وما أذكر أنني أحسست هذا الحس الذي يكاد يكون مزيجا من الصوفية واللذة إلا في (خطبة مسينا) و (ايفجيني في أوليس) و (بولس وفرجيني) و (أنا كارينين) و (البعث) و (أغاني بيليتس) و(بسيشة) وبعض أشعار (أوسكار ويلد) . . .
وأشهد إن في أستاذنا الأرناءوط من هؤلاء جميعاً، فقد نسج على منوال يونان والغرب فجاء بشيء لم تألفه العرب لأنه جديد. ولكنها لم تنكره لأنه جميل، وصاحبه لا يتهم بالنقل ولا التقليد لأنه صانع مبتكر، ومتى ذكر الشعر فهو في دنياه
نعم (عمر بن الخطاب) قبسة من شعوره وقصيدة من شعره، ولكنها لا تشبه هذه البرك التي تقاس بالشبر وتنظم على أشكال هندسية بل هو نهر يجري: يركض ويتباطأ، يهبط ويصعد، يستقيم ويلتوي، ولكنه يذهب بعيداً. . . وفي مائه الرقراق يستحم الطير وتستنقع العذارى، ويرتوي النعناع، ويرف الحصى، وبالجملة تحيا الحياة أيهما أشعر؟ البركة أم النهر؟ (عمر بن الخطاب) أم الشعر؛ ما أدرى؛ ولعل الرواية - إذا كان عمر بن الخطاب رواية - أشعر من الشعر! على أن عمر بن الخطاب ونحن في حديثه، لم يعط الجزأين الأولين من الرواية أكثر من اسمه. . . فهو يمر في الأول كخطفة البرق، ويهم في الكتاب الثاني بالظهور. ولعلك تصغي إليه وتجلس بين يديه في الكتابين الموعودين، أما الآن فأنت في عالم الحب؛ فلا تقل وقد استنمت إلى أنغامه المهدهدة أين نحن من دنيا ابن الخطاب؟ وما علاقتنا به؟ عما قريب تلتفت إلى (سافو) التي لم تكن تعرف من العرب إلا حبيبها، فتسمعها تحدثك عن رعاة الغنم، الذين ملكوا رعاة الأمم، والبدو الذين علموا الحضارة الحضر. . . والعقيدة التي غلبت القوة، وحينئذ تدرك السر الذي نشده الأستاذ الارناءوط، فهو يريد أن يقفنا في هذا الصراع القائم بين العرب والرومان على لونين من الحب: حب السماء وحب الارض،

وعلى رسالتين: رسالة العاشق ورسالة المجاهد؛ وعلى دولتين: دولة الطبقات، ودولة المساواة، وإذا كان في الأدب الفرنسي كتاب أسماه صاحبه - شاتوبريان - (عبقرية النصرانية) وأراد أن يعرض فيه دينه في أحسن معرض، فانه يخيل إلي أن الأستاذ الارناءوط سائر في هذه الطريق. فما (سيد قريش) و (عمر بن الخطاب) إلا فصول في كتاب سنطلق عليه ذات يوم اسم (عبقرية الإسلام) وإذا ما شئت (عبقرية العروبة)

أيها القارئ! ضع شارة تحت جملة بارعة في الجزء الأول من (عمر بن الخطاب) (أي قدر سعيد ألقاك في طريقي يا من يهيمن على حياتي؟) فأنه قدر سعيد حقاً. . . أن تعيش في عالم (كريستيا) و (بنيامينا) و (سافو) و (فروة) و (نفتالي)، قدرٌ سعيد أن تعيش تحت سماء (كأنها لفرط الضياء جنة من اللؤلؤ) وأن ترى إلى (كريستيا) يلتمس حبيبته في الحلم ولكنه (لا يجرؤ أن يمس وهو سادر في وهمه جسدها المترنح مخافة أن تفوته لذة هذا الوهم) وأن تستمع إليه ينشد بين يديها: (لقد رأيتك في ذات ليلة أمام المرأة تريقين على جسدك العاري عطور النارنج، ورأيتك تغسلين فخذيك الناعمتين بعطر الورد، ثم رأيتك تصبين على نهديك عطوراً حملها إليك محبوك من مصر وفينيقية والشام، فوددت لو أنك تبدلين طيوبك بطيب آخر لم تحفل بمثله أرض فينيقية ذات السماء المصحية، ولا جنات مصر الضاحكة على ضفاف النيل. . . بطيب انبعثت براعمه في نفسي). . . ثم اخرج من عالم الحب إلى عالم البطولة وأنظر إلى (فروة بن عمرو) يعلق على الصليب في سبيل الرسالة، واستمع إلى أغانيه العلوية. . .!

ولكن ما أكثر الصور والألوان الحلوة في هذا الكتاب؟ بل أية صورة أستطيع أن أقول أنها أقل جمالا من غيرها فأزهد في نقلها؟!

طالع الكتاب كله وقل معي

بورك فيك يا أستاذنا الأرناءوط! بورك فيك ثلاثاً باسم الحب وباسم الشعر وباسم البطولة. . . وبورك فيك باسمنا نحن الذين وهبت لنا ساعات لذيذة ودنياوات حلوة أي مؤلف (عمر بن الخطاب)!

سوف ألقاك فأراك غير ما كنت أراك لأنك ستسير دائماً في موكب من الأبطال الذين بعثت فيهم الحياة. وسنشعر جميعاً أن روحك ليست غريبة عن روح أبطالك، فلولا أن سكبت فيهم من قلبك ومن فكرك لما كان كتابك خالداً

إن حياة كتابك من كتاب حياتك

حياتك الشاعرة!

منير العجلاني

رئيس تحرير القبس

وراء البحار

تأليف محمد أمين حسونه

بقلم محمود عزت موسى

أتيح لي منذ أيام أن أقرأ الكتاب الذي ألفه وأصدره أخيراً صديقي الأستاذ محمد أمين حسونه واسماه (وراء البحار)؛ وفي هذا الكتاب رحلة المؤلف إلى اليونان وتركيا ورومانيا والنمسا والمجر، وقد عني بطبعه عناية فائقة فجاء مثالا بديعاً للذوق الرقيق. وليست هذه هي المرة الأولى التي أتيح لي فيها أن أقرأ للأستاذ حسونه، فأنا أقرأ له منذ صدر حياتي الأدبية، وقد التقت أقلامنا على صفحات السياسة الأسبوعية في عام 1929 وفي ذلك الحين أيضاً التقت صداقتنا؛ ولقد قرأت له كتابه الأول (أشبال الثورة)، وهي الرواية التي استهل بها أدبه القصصي، ثم قرأت له (الورد الأبيض)، وهي المجموعة القصصية التي جعلته في طليعة أدباء الشباب، ولعلني استطعت من خلال تلك القراءات كلها أن أتعرف على أسلوبه وأدبه، ومن أجل هذا كله كنت أود أن انصف الأستاذ حسونه أكثر مما أنصف نفسه هو فأقول بإن كتابه (وراء البحار) ليس في الواقع إلا قصة طويلة لحياة شاعر في خلال رحلة فنية إلى بلاد تاقت نفسه إليها. . . واستقرت عواطفه في أجمل بقاعها، فراح يصفها لا بلغة المسافر، ولكن بلغة الشاعر، فلم يذهب فيما ذهب إليه الذين سبقوه في وصف رحلاتهم، ولكنه انتحى لنفسه منحى غير الذي ألفه الناس فيما قرءوا. . فلم يحاول أن يكتب عما شغل غيره من كتاب الرحلات في الأوصاف التي يمكن للإنسان أن يجدها بسهولة في كتب السياحات،

ولكنه ذهب إلى تلك البلاد حاملاً بين جنبيه تلك النفس الطامحة المضطرمة شباباً ونشاطاً، فتبدو في بعض الصفحات مشبوبة حارة ملتهبة تفيض خيالاً وعذوبة، والتي تغزوها الآلام والأحزان فتبدو في انقباضة القلق الحائر. وانه ليحلو لي أن اصف نفسية الكتاب، ولا أتناول فصوله فصلاً فصلاً تناول الذي يمسك مبضعه ليقيم نفسه جراحاً - أو جزاراً - على عمل أدبي، يحلو لي أن أصف نفسية الكتاب لأنني أعتقد باني قد ألفيت فيه وحدة فنية قائمة بذاتها، ترتكز على شخصية واحدة، هي شخصية المؤلف؛ وهذه الوحدة الفنية تجعلني أرى أن المؤلف إنما عمد إلى رحلته بدافع الاستمتاع الذهني والقلبي في وقت واحد، فوفق. ولم تذهب هذه الشخصية عنه في أية لحظة، بل هو يصفها دافع الإعجاب، ولكن بشخصية، أو بمعنى آخر بقومية، ومن هنا ترتقي مكانة الكتاب عندي، لأنه يقول في معرض حديثه عن الأكروبول. . . (ولكن أين ربوات الأكروبول من ساحل طيبة الخالد على مر الدهور، أو من مهابة الأهرام ومعابد الكرنك وقصور فيلي؟ تلك الكاتدرائيات الفرعونية العظيمة التي شيدتها ونقلت جلاميدها الصخرية الهائلة الأيدي السحرية العجيبة. . .) أو عندما يذكر (أذكر أني قابلت في أحد المطاعم (في أثينا) جندياً في الجيش كاد يبكي وهو يحدثني بالعربية في السعادة التي تنعم في أعطافها يوم أن كان يعمل (جرسونا) بمقاهي القاهرة الكبرى. . . .) (ويستطرد في القول). . . وأحسب انه نتيجة عطف أولته مصر لأبناء هذه البلاد منذ انبثق فجر التاريخ. فقديماً لقنهم المصريون أسرار الحكمة وأصول التشريع وزودهم بأسلحة من العلم واستقامة الفهم، فذاناؤس وككرلس وفيثاغورس شهب ثاقبة في سماء الثقافة الإغريقية، لكنهم لم يزيدوا على أن يكونوا مصريين. .) وكما يبدو في حديثه عن الإسلام وسلاطين آل عثمان في خلال وصفه لاستامبول، وهذه الظاهرة الفريدة في الكتاب تجعلني أسجلها مغتبطاً قد كنت أؤثر أن يحدثنا - فوق ذلك - الأستاذ حسونه عن تلك البقاع التي زارها أحاديث تتناول صميم الحياة هنالك، عن وسائل رقيهم، وصناعاتهم، ونظم الجمعيات الهامة فيها، والروح الفردية في تلك الأمم، ونواحي الضعف في جماعاتهم، وأسبابها، والظواهر التي يلمحها في أنظمتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وأن يتناول بالبحث الانقلاب الكمالي من جذوره في زيارته لتركيا ليصف ويقرر الحقائق التي لا يمكن للقارئ أن يجدها في الصحف لاعتبارات شتى، وأحسب أنه قد لمح إلى ذلك تلميحاً خفيفاً فهل فعل ذلك عن عمد؟ احسب ذلك. ولكنني أرجو أن يوفق إلى ذلك في كتابه المقبل، في صراحة تامة؛ فبلادنا في عصر نهضة، ولنكن حطب هذه النهضة، وكلما زدناها ناراً ازدادت اشتعالاً ونوراً وارتفاعاً، ولن يكون ذلك إلا إذا أفرغنا في سبيلها الجهد كل الجهد وعنينا بتوضيح كل ما يفيد هذه لنهضة ويوطد دعاماتها.

محمود عزت موسى

العدد 160 - بتاريخ: 27 - 07 - 1936

الطَّماطم السياسي. . .

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

كان (م) باشا رحمه الله داهية من دهاة السياسة المصرية. يلتوي مرة في يدها التواء الحبل، ويستوي في يدها مرة استواء السيف، ولا يرى أبداً منكمشا متحرزاً كأن له عدواً لا يدري أين هو ولا متى يقتحم عليه، ولكنه كغيره من الرؤساء الذين كانوا آلات للكذب بين طالب الحق وغاصب الحق - يعرف أن عدوه كامنٌ في أعماله. وكان ذكياً أريباً، غير أن ملابسته للسياسة الدائرة على محورها - جعلت نصف ذكائه من الذكاء ونصفه من المكر. فكان في مراوغته كأن له ثلاثة عقول: أحدهما مصري والآخر إنجليزي والثالث خارج من الحالين

وبهذا تقدم وعاش أثيراً عند الرؤساء من الإنجليز، واستمرت مجاريه مطردةً لديهم حتى بلغوا به إلى الوزارة إذ كان حسنَ الفهم عنهم سريع الاستجابة إليهم؛ يفهم معنى ألفاظهم، ومعنى النية التي تكون وراء ألفاظهم، ومعنى آخر يتبرع هو به لألفاظهم. . . فكان هو وأمثاله في رأي تلك السياسة القديمة رجالاً كالأفكار، يوضع أحدهم في مكانه من الحكم كما توضع صيغة الشك لإفساد اليقين، أو صيغة الوهم لتوليد الخيال، أو صيغة الهوى لإيجاد الفتنة

وكان صديقي (فلان) رحمه الله صاحب سره (السكرتير) وقد وثق به الباشا حتى إنه

كان يعالِنه بما في نفسه، ويبثه همومه وأحزانه، ويرى فيه دنيا حرة يخرج إليها كلما ضاقت به دنيا وظيفته، ويستعير منه اليقين أحياناً بأنه لا يزال مصرياً لم يتم بعد تحويله في الكرسي. . . .

فحدثني الصديق بعد موت هذا الباشا قال: إنه دعاه يوماً ليفاتحه الرأي في أمر من أموره، ثم قال له: إن الرئيس الإنجليزي غير مطمئن إليك لأن حقيقة من الحقائق الصريحة ظاهرة على وجهك فأنت تنظر إليه وكأنك تقول له بعينيك إنك مصري مستقل

قال صاحب السر: لئن كان ذلك ما يغضبه إن الخطب لهين، فلست أنظر إليه بعد اليوم إلا من وراء نظارة سوداء. . . .

فضحك الباشا وقال: يا بني هذا الإنجليزي عندنا كالشيطان (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم)، ووالله يا بني إني لأشد أنفَةً منك وأن صدري لشجيٌ مما أنا فيه من هذا الكرب، ولكننا نحن الشرقيين قد ضعنا منذ فقدنا الشخصية الاجتماعية

أتراك تفهم شيئاً لو قلت لك: رجل، أسد، جبل، مدينة، أسطول؟ أن تركيبنا الاجتماعي شيء كهذا الكلام فيه من ضخامة اللفظ بقدر ما فيه من انحلال المعنى واضمحلاله. ولكل كلمة إذا أفردت معنى صحيح يقوم بها وتقوم به غير أنه يتحول في الجملة إلى معنى كلا معنى

أصبح الشرقي يعيش في أمته على قاعدة أنه منفرد لا صلة بينه وبين الأطراف لا في الزمان ولا في المكان. ونسى معنى الحديث الشريف: (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً) فماذا كان يريد أعظم المصلحين الاجتماعيين من قوله (كأنك تعيش أبداً) إلا أن يقرر لأمته أن الفرد ينبوع الأجيال المقبلة كلها فليعمل لها ولنفسه كأنها موقوفة عليه وكأنه مستمر فيها

هذه حكمة إسلامية دقيقة عندنا نحن لفظها ولسنا نعرف معناها، وعند الإنجليز معناها ولا يعرفون لفظها. أهم المسلمون أم نحن؟

وعلى قاعدة الانفراد انفرد كل شيء، فآثر الشرقي حياته على وطنه، وقدم لذته على واجبه، وتعامل بالمال في مواضع المعاملة بالأخلاق؛ وكان طبيعياً مع هذا أن يختصر الدين اختصاراً يجعله مقداراً بين مقدارين فلا هو دين ولا هو غير دين، وبذلك يناسب فرديته ويقعد تحت حكمه وهو خارج عليه. فترى الرجل من هذه الملايين يؤمن بالله وهو يحلف به كذباً على درهم، ويصلي ويفجر في يوم واحد، ويتعبد في نفسه ويخون سواه في وقت معاً

ومتى كانت الحالة النفسية للأمة هي هذه الفردية ومصالحها ودواعيها كان الكذب أظهر خلال هذه الأمة، إذ هو انفراد الكاذب بحظه ومصلحته وداعيته؛ ولا يكذب عليك إلا من يرجو أن تكون مغفلاً أو من قدر في نفسه أن المعاملة العامة في الأمة هي على قاعدة المغفلين. . . ويكذبون في هذا أيضاً فيسمونه حذقا وبراعة (وشطارة)

وإذا عمَّ الكذب فشا منه الهزل؛ فكل كاذب هازل، وهل يجدُّ الكاذب وهو يكذب إلا إذا كان مجنونا؟ ومن الهزل ضربٌ هو المباسطة بالكذب، ومنه ضربٌ من كذب الحقائق، ومنه من كذب الخيال، وكيفما دارت الحال لا تجده إلا كذباً

ومتى صار الكذبُ أصلاً يعمل عليه، تقرَّر عند الناس أن الكلام إنما يقال ليقال فقط أفلست ترى الرجلين إذا أخبر أحدهما صاحبه بالخبر فيه شيء من الغرابة أو البعد، لا يكلمه الآخر أول ما يتكلم إلا أن يسأله: صحيح؟ صدق؟

ولا اضر على الأمة من هذه العقيدة - عقيدة أن الكلام يقال ليقال فقط - فإنها هي طابع الهزل على أخلاق الأمة وعلى كل أحوالها وعلى حكومتها أيضاً

ومن الهزل والكذب ترانا مبالغين في كل شيء حتى ليكون لنا الواحد كالآحاد في غيرنا فنجعله مائة بصفرين نجيء بأحدهما من اعتيادنا الكذب على الحقيقة، ونجيء بالآخر من حقيقة إفلاسنا. هذه مبالغة خطرة وأخطر ما فيها أننا نريد بها المبالغة في الدلالة على الأشياء، فتنقلب مبالغةً في الدلالة علينا نحن وعلى كذب طباعنا وعلى فوضى العقل فينا. نعم وحتى تثبت أننا لا عزم لنا من كونها مبالغة لا تدقيق في معناها، وأن لا صبر لنا من أنها لا ثبات لحقيقتها المهزومة، وأن لا شدة لنا في طلب الحق لأننا بها من أهل الغفلة في وصف الحق، وأننا لا نتمثل العواقب إذ نرسل الكلام إرسالاً ولا نخشى

ما يكون من عاقبته. وأيسر ما يفهم من هذه المبالغات التي أصبحت طريقة من طرق الشعب في التعبير - أن هذا الشعب لا يصلح في شيء إلا بالحكومة، فهو نفسه كالمبالغة، والحكومة له كالتصحيح. وهذه هي العلة في أن الشعب الكذوب يلجأ إلى حكومته في كل كبيرة وصغيرة في العمل، كما أنها هي العلة في أن حكومته تكذب عليه بكل صغيرة وكبيرة في السياسة

ومن أثر الكذب الشعبي والمبالغة الشعبية ما نراه من اهتمام كل فرد بما يقول الناس عن أعماله فيديرها على ذلك وإن قلت منفعتها، وإن فسدت حقيقتها، وإن جلبت عليه من الضرر في ماله ونفسه ما هي جالبة؛ فقاعدتهم هي هذه: ليس الشأن في الحياة للعمل في نفسه ولكن فيما يقال عنه، فإن لم يقل شيء فلا نعمل شيئاً. . .

هذه يا بني أمة لا يكون حكامها إلا مبالغات أيضاً

قال صاحب السر: وأرتفع من الطريق صوت بائع ينادي على سلعته: أحسن من التفاح يا طماطم. . .

فضحك الباشا وقال: هكذا يقولون لنا عن الطماطم السياسي العفن، إنه ليس تفاحاً وحسب، بل هو أحسن من التفاح

إن الأمة لن تكون في موضعها إلا إذا وضعت الكلمة في موضعها، وإن أول ما يدل على صحة الأخلاق في أمة كلمة الصدق فيها، والأمة التي لا يحكمها الصدق لا تكون معها كل مظاهر الحكم إلا كذباً وهزلاً ومبالغة.

(سيدي بشر بإسكندرية)

مصطفى صادق الرافعي

عفواً أيها النقاد!

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

أطلب إليكم العفو يا معشر الناقدين، فإني لا أقصد بهذه الكلمة إلا الدعابة والمفاكهة - فقد رأيت الصيف قد اشتد، واحتدمت وقدته، وأردت أن أتقرب إليكم بما يزيل لسعته أو يخفف منها - ولا أدري ما الذي أغراني بهذه المداعبة المخطرة، فوالله لقد كنت أرى أن مداعبة الفهود والنمور أهون أمراً وأسلم عاقبة من مداعبة نقاد الأدب. ولقد كانت دوني لو أردت مندوحة عن ذلك التعرض، فلو شئت لداعبت الأدباء كافة، ولم يكن علي بأس منهم، فإني لا أخشى من الأدباء بطشاً ولا صولاً، لأنهم يسيلون رقة وليونة، وقد طبع الله في قلوبهم وداعة وسلاماً، فمنهم من يأخذه الجمال فيسلم له قياده حتى ليصير كالحمل يصرفه أضعف الخلق كيف يشاء، وإن منهم قد استغرقه الفكر وغلب عليه فلا تراه إلا حالماً لا يكلف أحداً مؤونة في تصريفه ولا مشقة في معاملته - فهؤلاء لا يأتي خوف من قبلهم ولا يتكلف المرء حيطة في معابثتهم - ولكن الناقد - والله يكلؤنا بحمايته، فبه صلابة وله شوكة؛ فهو دائماً معقود الجبين على الصرامة، محملق العينين على اليقظة، كثير التجهم واللوم، فإذا أخذته الرقة أحياناً رأيته يربت على كتف الناس متنازلاً من عليائه، وكل حركة من حركاته تنم عن دخيلة نفسه وكمين عقيدته، إذ كأنما يقول عند ذلك: (إنا نعطف على هؤلاء المساكين تشجيعاً لهم حتى لا تنكسر قلوبهم)

لست أدري ما الذي أغراني بهذه المداعبة إلا أن يكون هذا الصديق العجيب التأثير الأستاذ أحمد حسن الزيات، فإنه منذ كتب في النقد وأنا أمانع نفسي وأغالبها لكي أمتنع عن الخوض في الميدان الذي أثار غباره - ثم هاأنذا تغلبني نفسي على الأمر، فأكتب للنقاد متعرضاً لما يتعرض له الداخل إلى حظائر السباع

على أني مع ذلك قد قدمت في أول قولي إني إنما أداعب ولا أقصد إلا المفاكهة - فلعل تقدمي على هذا النحو يلوي عني الشوكة التي أخشاها، ويكف عني الغضب والنقمة

لقد جعل الأستاذ أحمد الأمين يحن إلى عصر مضى من عصور الأدب في مصر، وجعل يعير نقاد العصر الحاضر بالتقصير والميل حتى لقد استعبرت من فرط الأسى على ما فات من عصرنا الحاضر من جليل النفع. ولكني ما لبثت أن أفقت من أثر قوله وجعلت أرجع بالذهن إلى العصور التي شهدتها فلم أجد ذلك العصر الذي يؤبنه ويذكر محاسنه؛ فلعله يشير إلى عصر لم أشهده ولم أعرف شيئاً عنه، وذلك أني لم أعد بعد حلقة الخمسين

من السن ولا علم لي بما كان قبل ذلك، وأني لم أدرك ما كان حولي إلا نحوا من ثلاثين عاما، وليس في هذا ما يكفي لأن أرد على الأستاذ حكمه، فرجائي إليه أن يحدد ذلك الماضي أين وقع؟ وهل كان منذ ثلاثين عاما أم كان منذ أربعين أو خمسين، فهو أعلم بما يقول مما شهد في حياته المباركة إن شاء الله

على أني إذا كددت الذاكرة في السنوات الثلاثين التي أدركت فيها ما كان حولي لم أذكر إلا محاولة ضئيلة في النقد كان أكثرها من شبان أكبر همهم أن تذكر أسماؤهم إلى جانب الأسماء النابهة في عصرهم - ولقد كانت وسيلتهم دائماً أن ينالوا من مقام أديب نابه لهجت الألسنة بذكره، لا يقصدون النقد والحق، ولكن يقصدون أن تتحول الأنظار إلى شخوصهم

ولست أذكر فيما أذكر من تلك السنوات أن تعرض نقد تعرضاً يذكر إلا لأمثال شوقي وحافظ - كأنما النقد قد صب صباً في قالب واحد، فهو لا يتسع لغير الشعر وقصائده ودواوينه، وأما ما عدا ذلك فلا أذكر أن قامت معركة على كتاب من الكتب التي نقلها الأستاذ الكبير فتحي زغلول، ولا على كتاب مثل (التربية الاستقلالية)، بل لا أذكر نقداً يذكر قابل به النقاد ترجمة حافظ لجزء من البؤساء، أو قصة (زينب) الهيكلية، أما ما ألفه المنفلوطي، أو الأستاذ فريد وجدي

وإني كلما أدرت الفكر في ذلك العصر الماضي لم أجد إلا محاولات بسيطة تشبه محاولات الطفولة في النقد - وقد صدق الأستاذ هيكل في تصوير ذلك إذ قال إن النقد أول ما يعانيه الأديب الناشئ من المحاولات

فإن كان لنا من تعرض إلى ذلك الأمر فإنا نحمد الله إذ انقضى ذلك العصر بما كان فيه

فهل في شرعة الأنصاف أن يتوفر مؤلف على كتاب لا يزال دائباً على البحث من أجله، ويقضي النهار والليل في التحقيق والتثبت ليخرج به على الناس فيجلو لهم أموراً كانت من قبل مظلمة، ويبين لهم مواطن كانت مبهمة غامضة، فإذا به يرى ناشئاً من الشباب يريد أن يحول الأنظار إليه فيتناول ذلك الكتاب المسكين بالنقد ولا يزال به حكا وتجريحاً بيد ثقيلة غير صناع حتى يدميه ويلهبه؟ إن هذا إذن لشبيه باليتيم المسكين الذي يذهب إلى الحلاق

ليسوي له شعره ويزيل عنه الشعث والأغبار فإذا بذلك الحلاق يدفعه إلى أحدث صبيانه وأقلهم مهارة ليتعلم الصناعة في رأسه. لا. لا. فاللهم حوالينا ولا علينا. فما كان لنا أن نلوم شباب اليوم كما يحب لنا الدكتور هيكل أن نفعل، بل إن علينا أن نحمد فيهم ذلك العقل الراجح وهذا الذوق الجميل الذي حدا بهم إلى تجنب النقد في هذه الأيام؛ وإنها لمفخرة لعصرنا أن موجة النقد قد ركدت فيه مادام ذلك النقد لا يقوى إلا إذا أخذ به الشباب الناشئ ليجعله وسيلة ليظهر للناس مقدرته على الكلام والكتابة وتدوير المعاني وتلفيفها

على أني أرجو أن يغفر لي النقاد إذا قلت لهم إن هذا العصر لا يشكرهم على يد أطول من انصرافهم عن النقد. فإن الأدباء قد وجدوا في صمتهم متنفساً. وإنها لفرصة لمن شاء أن يؤلف فليغتنمها المؤلفون في غفلة من الدهر. وأي شيء أعدل وأسمح من أن يؤلف المؤلف إذا شاء فإذا وجد من يقرأ له كان سعيداً مجدوداً. وللناس عقولهم، فإذا أعجبهم ما قرأوا له أقبلوا على مؤلفاته وألقوا إليه بأنواع التحية وأشاروا إليه بالبنان كلما رأوه كما كان يفعل الناس في الأعصر الخوالي. وأما إذا كره الناس ما قرأوا للمؤلف انصرفوا عنه، وحسبه بعد ذلك أن يخسر ما بذل من ثمن الحبر والورق والطبع. .

إن القوامة مكروهة أينما كانت؛ فإذا اتخذ النقد شكل القوامة كان حرياً بأن يكون مكروهاً. هذا إذا كان القيم ممن يحسنون السيطرة ويعدلون في الهيمنة - فما بالنا به إذا كان يسرف ويدل؟ وإلا فوايم الله إن من النقاد من لو حكمت في أمره لأمرت جميع بائعي الأقلام من كل الأنواع بأن يمتنعوا عن أن يبيعوه قلماً واحداً. وإني لأذكر أحد هؤلاء وهو ممن تزعموا في العروبة وقد نقد كتاباً مترجماً عن الإنجليزية في تاريخ مصر. ولم يشأ أن يجعل نقده لذلك الكتاب في مقالة مفردة فقرن بينه وبين كتاب في فن (الطهي الحديث) وأطايبه. ولقد رأيت ذلك الكاتب المفضال بعد ذلك يتنقل في النقد ما بين العلوم والفنون فضرب عافاه الله في التاريخ والتصوف والحديث واللغة والدين والفلسفة. ولا أعلم بعد إذا كان قد بلغ حضائر الطب والموسيقى والفلك أم هو

سائر في طريقه إليها. ولم يكن هذا الناقد فذاً في هذا النهم العلمي! بل لقد رأيت علماً من أعلام النقد في مصر يستعرض سلسلة من المؤلفات ويبدي رأيه في كل منها، ويهز رأسه عند الانتهاء من نقد كل منها، ويلمس لحيته لمس الفلاسفة الأقدمين! وكأني به قد نسى أن العصر قد تقادم على عهد سقراط وأفلاطون وأرسطو، وأن الناس قد أخذوا لحاهم أخذا شديداً فلم يدعوا فيها شعرة واحدة. ولقد رأيت كاتباً عبقرياً أخذ على نفسه أن ينقد الأدباء. وواتاه القلم على عادته وأصاخ له الناس على عادتهم، وهو إذا تكلم أو كتب فالناس كلهم أسماع ثم استعرض بين حين وحين كتاباً فكان كل ما استعرضه أو جله دواوين للشعر، وهذا حسن، فلعله قد خصص نفسه للغة وما يتعلق بها، وقرأت نقده كما قرأه الناس فكان لبقاً كعادته حلو الحديث مما وهبه الله في اسلوبه، ولكني لم أستطع أن أفهم ما قال. فلقد كان قوله إما مدحاً يسر الخاطر ويشرح الصدر - أقصد صدر المؤلف الممدوح، وإما ذما يكسر القلب ويدمي الفؤاد - وأني لم أكن أحد هؤلاء الشعراء فلهذا لم ينلني ذمه بألم ولا مدحه بفرح، وعلى ذلك خرجت من كل ما كتب، ولم أفقه شيئاً، ولم أعرف ماذا أراد أن يقول

إن أغلب ظني أن الغباوة هي التي قد حالت بيني وبين فهم ما قال ذلك الأديب الكبير، ولكني لم أسأل أحدا من أصدقائي عن رأيه إلا وجدته على مثل حظي من الغباوة وقلة الإدراك

ولهذا السبب كان ذلك الأديب كثير التردد والتقلب في رأيه، فبينا هو اليوم يصفق إعجابا بشاعر أو يصيح تقديراً لأديب، إذا به بعد قليل وقد لمح من ذلك الشاعر أو من ذلك الأديب نكراناً لفضله أو جحوداً لجميله فينقلب مدحه إلى ذم يكاد الدم يسيل من وقعه

ولقد حسبت مرة أن ذلك الأديب الكبير قد خصص نفسه للنقد حقاً، فأرسلت إليه بمؤلف حقير لي ثم تواريت خجلاً وجعلت أنتظر نقده وأقرأ جرائده كل يوم مدة طويلة حتى مللت ولم أظفر بشيء. ثم نسيت ذلك الأمر وعدت بعد سنوات إليه فأرسلت إليه بمؤلف آخر لا يقل في حقارته عن المؤلف الأول، وقلت في نفسي إنه في هذه المرة لابد واثب على كتابي، وممزقه كل ممزق - ولبثت أنتظر طعنته وأنا متوار، وطال بي الانتظار على غير جدوى، فعرفت أن من الكتب ما ينحط عن مقدار النقد، ولو قد تكرم ذلك الناقد فقال لي كما قال مرة لأحد الشعراء: (إنك لا تعرف شيئاً) لما تألمت مثل تألمي من سكوته عني، لأني كنت عند ذلك أفاخر الناس بأن ذلك الأديب قد قرأ كتابي، وحكم عليّ بأني لا أعرف شيئاً. ولا عجب في ذلك، فقد كان من أجدادي رجل - كما كان من أجداد كثير من القراء مثل جدي - أقول كان من أجدادي رجل إذا امتنع عن دفع المال للحاكم أمر المدير فأحضره

وألهب ظهره بمائة سوط - فكان إذا أفاق من غشيته بعد الضرب يضحك ويقول: الحمد لله إذ ضربني المدير بنفسه) ثم نظر إلى الحاكم الغاضب وضحك مرة أخرى وقال: (ضربك شرف يا سعادة البك!)

وبعد فلقد آنساني آخر الكلام أوله، ولابد من أن أعود إلى ما كنت فيه. أقول إني أخالف الأستاذ أحمد الأمين في رأيه كل المخالفة، ولا أذم النقاد في عصرنا الحاضر، بل أني أشكرهم وأعدها لهم مكرمة عظيمة أن فتروا في النقد وخشعوا عنه. ولعل فيما قدمت من قولي ما يقنع الأستاذ ومن يرى رأيه بأن واجبنا أن نحمد الله على قلة النقد وتعفف الناقدين عنه، واقتصارهم على الإعلان والمجاملة أحياناً، أو التجهم أو التنكر أحياناً أخرى بحسب مكان المؤلف منهم وهل هو صديق أم هو بغيض؛ فلقد أدرك الناس منهم ذلك واطمئنوا إليه. فإذا أراد الأستاذ بعد ذلك أن يستمر في المحاجة والمناقشة فإني مضطر إلى أن ألجئه إلى ركن لا يستطيع فيه المقاومة ولا يجد لنفسه مناصاً من الإقرار لي بالغلبة - وذلك أنه قال إن التأليف قد زاد في عصرنا - أليس كذلك؟ ثم قال أن النقد قد ركد كذلك في عصرنا - أليس كذلك؟

أفلا يرى الأستاذ اللوذعي أن هاتين الحقيقتين منذ تلازمتا كانت إحداهما نتيجة للأخرى؟ فإذا أراد الأستاذ أن يستمر التأليف على نهضته كان عليه أن يترك النقد نائماً ولا يوقظه

أيحاول الأستاذ الأمين بعد هذا مجادلة؟
محمد فريد أبو حديد
ذات الثوب الأرجواني
للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني
(تنبيه: الكلام كله تخيل ولا أصل أو حقيقة له)
- 7 -
طلبت من الريف ما لا سبيل إليه في هذه المدينة العظيمة ذات العمائر الشامخة، والبنى الرفيعة، والهواء الحبيس، والنفوس المروضة على تكلف غير طباعها. وكان بعض قومي قد سبقوني؛ فأنبأتهم أني لاحق بهم، وإذا ببرقية تردني منهم يقولون فيها (هات فتنة معك) فلم أدر ما - أو من - (فتنة) هذه. . أقطة هي يا ترى؟ أم فتاة؟ أم كلبة؟ أم ماذا؟. . . وكنت أعد حقائبي، ومكتب البرق بعيد مني، وحدثتني نفسي أنهم يعرفون أني لا أعرف (فتنة). فالأرجح أن يكونوا قد أبرقوا إليها لتتصل بي، أو لأصاحبها إذا كانت حيواناً. وقلت سأسافر على كل حال في الوقت المعين. جاءت (فتنة) أم لم تجئ. وأقبلت على الحقيبة أحشر فيها - فما لي قدرة على الترتيب والتنظيم - ما اقدر أن سأحتاج إليه، وإذا بالباب يقرع قرعاً مزعجاً لا عهد لي به، ففزعت ومضيت إليه على عجل مخافة أن يكسره الطارق. ودار في نفسي أن هكذا دق (تيمون الأثيني) باب الآخرة حين انحدر إليها بعد أن وافاه حينه الذي كان ينتظره بصبر فارغ من فرط كرهه للناس، فإن أساطير اليونان تزعم أن الناس يهبطون بعد موتهم إلى وادي الظلال، وهناك يحشدون في الفجر ويعدون وتقيد أسمائهم ثم يركبونهم زورقاً - غير بخاري بالطبع - إلى وادي القنوط حيث يكون الحساب. ومن غرائب هذه الأسطورة أن على كل راكب أو محمول في هذا الزورق أن يؤدي أجرة العبور إلى وادي القنوط. . . وقد ضحكت وأنا أذكر هذا إذ أمشي إلى الباب، وقلت لنفسي والله أن بيتي لكوادي القنوط بفضل (ذات الثوب الأرجواني). وما أخلقني حين أفتح الباب لهذا الزائر المستعجل أن أرحب به بهذه الأبيات القديمة التي نظمتها لمناسبة شبيهة بهذه:
(دارنا مغرب أنوار الحياءْ ... من رآها لم ير الضوء الطليق
ما لمن يهوى إليها من نجاءْ ... ما لما يغرب فيها من شروق
وهي، في الأكوان، دنيا عاقرُ ... كل زخّار له فيها ركودْ
ضرب السحرَ عليها ساحرُ ... فهي عنوانٌ على عقم الوجود)
ولكن شيئاً - لعله الإلهام - صرفني عن هذه التحية غير الطيبة، فقد كان الزائر فتاة أشهد إنها من أجمل - إذا لم تكن أجمل - من رأيت في حياتي؛ وكانت رشيقة ممشوقة، ووجهها وضاح؛ أما عينها فأعوذ بالله منها! أعني أن البراقع ما اتخذت إلا لتقي الناس سحر مثلها
وقالت وهي تنساب كالماء الرقراق: (لست تعرفني بالطبع. . ولكني أنا أعرفك)
قلت: (تفضلي. . أعني أولاً. . وبعد ذلك يتسع الوقت للسؤال والجواب)
قالت: (متى تسافر؟)
قلت: (هل تعلمت في إنجلترا. . أو لعل أباك إنجليزي؟)
قالت: (لماذا. . أنى سمراء. أو لوني أقرب إلى السمرة. . ثم أني لا أعرف الإنجليزية. . تعلمت في (الميردة دييه (فقط))
قلت: (هذا أحسن. . على كل حال إنما عنيت إنك تمضين إلى غرضك بلا لف ولا تضيعين الوقت. . سأسافر في الفجر)
قالت: (سأبعث إليك أذن بالحقائب الليلة وأجيء أنا قبيل الفجر)
قلت: (بفرح أنت إذن (فتنة)؟؟ لقد صدق الذي سماك)
فقالت وهي تنهض عن الكرسي وتمضي إلى المنضدة وتقلب ما عليها: (أليس عندك سجاير؟. أم أنت لا تدخن؟.)
قلت: (إنك صغيرة جداً. . ولكن خذي)
فأخذت سيجارة وانطلقت تدخن وهي ساهمة وأنا أنظر إليها ولا أقول شيئاً، فقد خطر لي أني سأشهد فصولاً كثيرة متعاقبة لهذه الرواية. وإذا بها ترمي السيجارة من النافذة وتقول (إلى الملتقى إذن. . وشكراً لك)
وليس أبغض إلي من أن يرى الناس ما أصنع أو يشهدوا خروجي ودخولي وسفري

وإيابي. ولكني احسب الدنيا - دنيا شارعنا على الأقل - قد علمت أني مسافر بالسيارة، وأن معي فتاة جميلة ستريني النجوم في الظهر الأحمر. . واطلعت - أعني الدنيا الخاصة - على ما في حقيبتي الصغيرة وحقائبها الكثيرة المنتفخة فقد كانت لا تفتأ تأمرني بأن أغير

كل ما رتبت. هذه الحقيبة لا يجوز أن تكون تحت غيرها لأنها من جلد طري فهي تخشى عليها التلف. . وهذه الكبيرة فيها ما قد تحتاج إليه في الطريق فيجب أن تكون فوق. فأقول ولكن الطرية يجب أن تكون فوق فماذا أصنع؟؟ فتقول هات الطرية معنا في السيارة فأطيع وأحل ما عقدت، وأعقد ما حللت. ثم يتضح أن فيما ربط خلف السيارة أشياء لا بد منها كل يضع دقائق في الطريق، فأسأل مثل ماذا؟ فتقول مثل زجاجة الكولونيا الصغيرة وملحقاتها من أدوات الزينة المعروفة التي لا غنى عنها - حتى الفتيات الصغيرات مثل (فتنة) صرن لا يستغنين عن ذلك، فأعود إلى الحل والعقد وأفتح لها الحقائب - في الطريق من فضلك - ولم تكن الشمس قد طلعت، ولكنه كان هناك خلق كثير أحتشد لمكيدتي!! وقد عنيت بأن أحصي هذا الخلق وإليك البيان:

(1) سائق مركبة (كارو) - سكران على الأرجح

(2) ستة من عمال الطرق عائدون يمشون صفين ومعهم المكانس يحملونها كما يحمل الجنود البنادق. وقد وقفوا ينظرون إلينا مسرورين

(3) قطتان: واحدة على رصيفنا والأخرى على رصيف (ذات الثوب الأرجواني)

(4) أربعة غلمان كانوا سائرين فلما رأونا راقهم منظرنا فوقفوا ينظرون ويتبادلون الملاحظات ولا أدري من أين جاءوا ولا إلى أين كانوا ذاهبين في هذه البكرة

(5) رجل من عمال شركة النور كف حين رآنا عن إطفاء المصابيح وجاء ووقف مع الغلمان

ولم أحسب المارة الذين أبى لهم أدبهم - أو ذهولهم - أن يقفوا ويتفرجوا. وقد كان هؤلاء جميعاً يضحكون منا حتى القطتان

ولا أمل القارئ بوصف هذه الرحلة وما جرى فيها فليس لهذا آخر، فقد كان كل كيلو فيها لا يخلو من حادثة، وصار لي في هذه السكة الزراعية من الذكريات بعدد ما على جانبيها من الأشجار. ولما دنونا من البلدة قالت: (هل هذه هي. . .)

قلت: (قربنا)

قالت: (أراهن أنك لن تقبل بعد اليوم أن تحمل في سيارتك فتاة أخرى) ثم التفت إلي لأعني أنها انحنت قليلاً إلى الأمام وواجهتني وهي تبتسم وقالت: (قد تكره أن تسمع مني هذا

ولكني شاكرة. . . شاكرة جداً. . وقد أتعبتك. . لا تقل شيئاً فإني واثقة أني أتعبتك. (ولكنك كنت حليماً جداً

فقلت: (كلام فارغ. . قولي شيئاً آخر)

قالت: (لا أدري متى يتاح لي أن أراك مرة أخرى ولهذا عجلت بشكرك في الطريق)

فضبطت نفسي بجهد، ومع ذلك كانت (إيه؟) التي ندت عني كالصيحة فقالت: (نعم فأني مرتبطة بأهلي فإذا رحلوا - كما ينوون أن يفعلوا - إلى الإسكندرية رحلت معهم وإلا بقينا. . وأنا أرجو أن يبقوا فأني أريد أن أتملى بـ. . . وبـ. . .)

فصحت بها: (ماذا تعنين؟؟ أعني ما الفائدة من حملك كل هذه المسافة من القاهرة إلى هذه القرية السحيقة إذا كنت ستختفين غداً؟؟)

قالت: (وماذا أصنع؟. وعلى كل حال كيف يعنيك هذا؟. ماذا يهمك؟)

قلت مغالطاً: (لا شيء بالطبع! لك الحق)

قالت: (لقد كنت أهم بأن أقول لك أكتب إلي إذا شئت ولكني عدلت الآن. . من فضلك أنتظر لحظة. . دقيقة واحدة فإن جوربي أتسخ جداً وأريد أن أغيره قبل أن ندخل البلدة)

فوقفت ونزلت من السيارة وذهبت أتمشى فلما عدت - إجابة لندائها - قالت: (الآن أنا نظيفة وجميلة)

فقلت: (أنت دائماً هكذا)

قالت: (صحيح؟) وكنت صادقاً فما فقدت ذرة من نضارتها ورونقها بعد مائة وثمانين كيلو متراً

فقالت: (إن خير ما فيك أنك تعني ما تقول. . فأنا أعرف الآن أني دائماً جميلة. . وأنا أعرف بغير معونتك أن ساقي جميلتان لا تكابر. . لقد قلت هذا. . ولكن عيني. . و. . و. وشعري. . أنا مضطربة. . لم أسمع منك ثناء على عيني وشعري) .

فقلت باختصار: (خير ما رأيت)

فابتسمت وقالت: (ثناء وجيز. . وجيز جداً. . ولكنه يكفي للاطمئنان. .)

فلم يسعني إلا أن أقرصها وأنا أصيح بها (يا ملعونة)

وأعود إلى الريف الذي نشدت في ظله الروح والراحة فأقول أن هذه الزروع التي تمتد إلى النهر والتي كانت تبدو لي في الظلام سوداء أنعشت روحي وبردت دمائي التي كانت تغلي في عروقي ووهبتني السكينة والهدوء لأعصابي التي أثارها الغيظ والغضب، والروح لقلبي الذي أجهده حب عقيم، ولكنه مع ذلك مضطرم. وقد كلمتني الأشجار الوارفة، والمياه الجارية، والهواء الندي، والظلال المديدة تحت الألفاف المتشجّنة. وقالت لي كلها أني مخطئ في ثورتي وغضبي وأني يجب أن أعرف وأدرك أني لا شيء في حياة ذات الثوب الأرجواني، ولما كنت لا شيء فإن من التطاول والغرور أن أحاول أن أحشر نفسي في حياتها، وأن أزحمها بوجودي وأن أهيمن عليها وأسيطر. نعم أنا لاشيء. وليس لي عند ذات الثوب الأرجواني شيء. . لا اختلاجه واحدة من جفنها. ولا نبضة من عروقها. ولا خفقة مفردة من قلبها، ولا خاطراً مما يجول في رأسها أو يدور في نفسها. . ولا نفساً واحداً من هذه الآلاف والملايين من الأنفاس التي يعلو لها صدرها ويهبط. . حتى هذا الذي هو للهواء ليس لي منه شيء!!

وقضيت يومين بين أحضان الطبيعة الصريحة فكانت أشجارها ومياهها وأطيارها تعيد على مسمعي هذا المعنى في كل ليلة وتكرره وإن اختلفت الأنغام وتعددت الأصوات، وما كانت تعيد أو تسمعني إلا ما كانت نفسي تحدثني به، وقلبي يخبرني أنه الحق الذي كنت أحاول بالأمل أن أخنقه كل ليلة في ظلمة الليل على وسادتي كأنه صوت (ديدمونه) إذ يميل على عنقها عطيل بيديه الكبيرتين الغليظتين.

وعدت وقد وطنت نفسي على اليأس، وخيل إلي أنها سكنت واطمأنت، فجلست في شرفتي ملفوفا في سواد الليل، وفي قلبي برد السكينة، أنظر إلى النجوم المتلامحة، ولا أنظر إلى شرفتك وإذا بصوتك يهفو إلي منها. . . صوتك إذ تنادين أخاك. . فذهبت سكينة نفسي ومزقتها العاصفة الكامنة في أعماق البحر، وأحسست أن روحي كلها تهزها نبرات هذا الصوت العجيب. . . وخفت صوت الطبيعة التي ناجتني به في الريف في ظل الشجر وعلى سيف النهر. . وكنت تميلين على حافة الشرفة وترسلين الصوت مجلجلاً في سكون الليل، وتهيبين بأخيك أن يرتد إليك قبل أن يذهب في شأنه، فوددت لو أقف وأصيح به وأعينك على أسماعه ورده! ونهضت فعلاً، ولكني وضعت يدي على فمي، وكتمت ما كان يوشك أن ترتفع به عقيرتي ثم انحططت على مقعدي وقد شاع فيّ اليأس (علوا وسفلا) كما يقول النواسي - اليأس من الشقاء - والسخط على نفسي إذ ذهبت إلى الريف وحرمت نفسي مرآك يومين كاملين بلا جدوى.

كلا. . لست ذلك (اللاشيء) الذي زعمتني الطبيعة الساذجة!. وليس صحيحاً أن أنفاسك كلها ذاهبة في الهواء كما تذهب أنفاس الناس. . ولا أن خفقات قلبك ليس لي منها نصيب. . ولقد غافلتك ومضيت إلى غرفة مظلمة واستعنت بمنظار مكبر، فإذا عينك على شرفتي، وإذ أنت تتلفتين ثم تحدقين لتتبيني ولتعرفي أباقٍ أنا في الشرفة حيث كنت أم دخلت؟. وكنت قد غالطتك وخادعتك فأسندت شيئاً على الكرسي مكاني لتظلي متوهمة أني هناك حين تنظرين، ولأستطيع أن أعرف أين تنظرين حين تفعلين. . فزال الشك فقد طال تحديقك ثم كأنما رابك شيء من جمود هذا القائم على الكرسي فجعلت تتحولين إلى كل موضع في الشرفة وتنظرين، ولبثت هكذا زمناً ثم دخلت، فما كان مني إلا أن أسرعت وعدت إلى الكرسي فقعدت عليه مطمئناً كما كانت الحبشية التي وضعتها قاعدة! إذن كانت لي تلك الوردة الحمراء التي نفضت عنها طلّها وشممتها. . ولي هذه الإشارة إذ تظهرين على الشرفة فترفعين أناملك إلى خصل شعرك المرسل وتردينها عن أذنك. . ولي هذه الابتسامات الوضيئة حين يسرك من جليسك أو جليستك ما تسمعين. . . وأذن لم يكن عفواً أن الفتاة التي زارتك عصر

يوم كانت لا تنفك تدير وجهها وتنظر إلى ناحيتي كأنما تريد أن تراني. ولقد عجبت يومئذ لكثرة تلفتها ونظرها إلي وظننت أن هذا من الفضول المألوف، ثم ترددت وشككت فقد رأيتك تتكلمين ورأيتها تتلفت، فتخفين أنت وجهك حتى ترد هي وجهها إليك. وتكرر هذا مع زائرة أخرى جلست معك في الشرفة - وكنت أحسبها قديماً أختاً لك متزوجة لمشابه رأيتها فيها منك - وكان ظهرك إليّ وجهها هي إليك وإليّ، وكان الكلام يدور بينكما، ولكن عين الزائرة لم تكن إلا عليّ أنا، وأنا أتشاغل عنكما ولكني أراكما، وقديماً قالت أمي عني أن لي عيناً في قفاي. . وإذن ليس عفواً أن أهلك جميعاً معنيون بي وأنهم لا يزالون يراعونني وينظرون إلي بل يراقبونني - لولا أني أكره هذه اللفظة - حتى ليبدو لي أحياناً أنهم يصطفون في الشرفة ويبعثون إليك وأنت في الحجرة بأخباري وأنبائي لتعرفي أباق أنا أم خارج. كأنما يحجرون عليك ويمنعونك أن تظهري لي، ولا يسمحون لك بالبروز إلا بعد أن يوقنوا أني خرجت وأن في الوسع اتقاء شري. .

كأنما في الأمر شر. . ويكبر هذا في وهمي أحياناً حتى لأترك البيت لغير سبب أو داع سوى أن أعفيك من عنت أهلك، وأطلق لك الحرية التي يقيدونها بسببي. . وإذا جلست في الشرفة تعمدت أن أحول عيني إلى ناحية أخرى وإن كان هذا حرماناً لي لا حق لهم فيه، ولكني من أجلك أحتمله وفي سبيلك أصبر عليه. وليت من يدري بأي شيء لفت نظر أهلك إلى حبي لك وأنا أتحاشى كل إشارة؟ بل أنا أجتنب أن أنظر إليك حين يكون معك أحد ولو كان طفلاً صغيراً. . فهل ترى حدثتهم أنت بما أحسست من ناحيتي؟؟ ربما. . فإن كنت قد فعلت فأنت طائشة، فقد جعلت على نفسك منهم رقباء بلا موجب، فما بيننا شيء سوى النظر (وهل ذاك نافع؟) كما يقول الشاعر القديم. . وقد حدثت نفسي أمس أن أشتري ورداً أحمر، فأنك تحبينه على ما يظهر، وأن أشير به إليك، ولكني لم أفعل وقلت لنفسي: (ما الفائدة؟. هبني أشرت وأشرت وهبها أجابت وأجابت؟؟ أفنظل أنا أشير إليها من بعيد، وهي تجاوبني من بعيد؟؟ ثم لا شيء غير ذلك. . عرفنا أنا محبان ثم ماذا بعد هذا؟؟ هي تظهر في الشرفة، وأنا أنظر إليها من الشرفة. . هي في السماء نجم لامع، وأنا فوق الأرض عين يرفعها إليه قلب واجف!! كلا! لا ورد ولا شبهه!. ما الفائدة؟. ما الفائدة؟. إني أراني أرجع القهقرى قروناً. . بل أنا لا أرجع ولا أتقدم. . وإنما أرى الحياة تركد وتأسن من حولي لأن ذات الثوب الأرجواني شاءت أن تكون قطعة من أثاث بيت فهي فيه لتكون زينة له لا لتحيا وتنعم بالحياة. . وأثارني هذا الخاطر فغضبت وسخطت وأحسست أن نفسي امتلأت مرارة حتى لو وجدت طعمها على لساني. . . سخطت على نفسي لأني خيل إلي أني إنما أحب فتاة ساذجة يسرها أن تكون محبوبة وتقنع من الحب بأن تنظر إلى الرجل وترى الرجل ينظر إليها. . . وغضبت لأني رأيت أن هذه مهزلة فأنا أذوي نفسي، وأمزق أعصابي، وأحرق دمي، وهي تظن أني مغتبط راض قانع بمرآها في هذه الأثواب العديدة التي لا تنفك تخلع منها واحداً وتلبس آخر؟. وما أكثر ما آليت لأسحقن هذا الحب ثم ما هو إلا أن أراها ناظرة إلي حتى يتحلل العزم وينقض ما كنت أبرمته منه. فالحق أن هذه مصيبة لم تكن لي في حساب ولا كان يخطر لي في بال أنها ستنصب يوماً على أم رأسي. . وانظر ماذا تصنع معي!! تبدو لي في الأرجواني، وتبقى فيه حتى أراها - أعني حتى توقن أني رأيتها فأني أراها كثيراً وهي لا تراني - فإذا وثقت دخلت وغيرته!! أليست هذه

مكايدة متعمدة. .؟

إبراهيم عبد القادر المازني

المقري مؤرخ الأندلس

حياته وتراثه

للأستاذ محمد عبد الله عنان

- 1 -

عرفت المقري - صاحب نفح الطيب حدثاً، وشغفت بأثره الجامع عن الأندلس، وأعجبت بجهده الجلد، وأدبه الممتع، واستطعت بعد أعوام طويلة من البحث والتنقيب في تاريخ الأندلس، أن أدرك أهمية الشذور الضافية والوثائق الجمة، التي وقف عليها المقري في عصره، وألهم أن ينقلها إلينا في كتابه، ولولاه لغاضت مع مصادرها الأصيلة

إلى الأبد، وحيل بيننا وبين الانتفاع بذلك التراث الحافل الذي يقدمه إلينا المقري في كتابيه نفح الطيب وأزهار الرياض
وقد خطر لي غير مرة أن أكتب ترجمة موجزة للمقري، وأن أستعرض مجهوده وتراثه؛ وأحسب الآن أن فرصة خاصة تعرض للوفاء بهذه المهمة، ذلك أني قد أزمعت - بعون الله - الرحلة إلى تلك الأندلس التي ملأت حياة المقري، وأذكت أدبه وبيانه، وأجرت قلمه أعواماً طوالا، وأزمعت أن أحج إلى تلك الربوع والمروج والمعالم التي أفاض المقري في وصفها، والتغني بمحاسنها الذاهبة، وآثار أطلالها الدارسة، والتي مازالت ذكرياتها قبل المقري وبعده تسيل عبرات التاريخ الإسلامي
هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد الشهير بالمقّري نسبة إلى مقّرة، موطن أسرته القديم، وهي بلدة من أعمال قسطنطينية، واليها ينتسب عدة من أدباء المغرب الأكابر. ولد، كما يحدثنا في مقدمة كتابه (نفح الطيب) بمدينة تلمسان ونشأ بها، ولم يذكر لنا تاريخ مولده، وهو تاريخ يضعه بعض الباحثين المحدثين في نحو سنة 1000 هـ (1591 - 1593)؛ بيد أنه يلوح لنا من تتبع نشأة المقري وحوادث حياته حسبما يقصها علينا، أنه ولد قبل ذلك التاريخ بعدة أعوام، فهو أولاً يذكر لنا أنه (نشأ بتلمسان إلى أن رحل عنها في زمن الشبيبة إلى مدينة فاس سنة تسع وألف)، فلو كان مولده سنة1000 لما تحدث هنا عن الشبيبة، إذ يكون عمره عندئذ تسعة أعوام فقط، أعني غلاماً حدثاً، وهو ما لا ينصرف إليه
الشباب؛ ثم هو يشير حين التحدث عن اعتزامه كتابة موسوعته عن الأندلس إلى شبابه الذاهب الذي قضاه بالمغرب قبل وفوده على مصر سنة 1027هـ، وفي هذه الإشارة أيضاً ما يدل على أن المقري حين مقدمه إلى مصر، كان قد طوى مرحلة الشباب الأولى؛ وربما كان يومئذ في نحو الخامسة والثلاثين من عمره؛ وعلى ذلك يكون مولده قبل الألف بنحو ثمانية أعوام؛ أعني حوالي سنة 992هـ (1584) م
ونشأ المقري في تلمسان، التي نشأ بها أبوه وأجداده من قبل، وتلقى بها دراسته الأولى، ودرس الأدب والحديث والفقه المالكي دراسة حسنة، وكان بين أساتذته عمه أبو عثمان سعيد المقري مفتي تلسمان؛ وكانت تلمسان مازالت حتى عصره من أهم مراكز الدراسة الدينية بالمغرب، وزار فاس لأول مرة سنة 1009هـ، وقضى بها حيناً في الدرس؛ ثم زارها مرة أخرى في سنة 1011؛ ثم استقر بها منذ سنة 1013. وكان ذلك في فاتحة عصر السلطان أبي المعالي زيدان السعدي؛ وسنحت له في فاس عاصمة المغرب الدينية والعلمية فرص الدرس المستفيض، ولاسيما في المكتبة السلطانية؛ واتصل بمولاي زيدان وآله الأشراف السعديين أمراء مراكش، وولي الإمامة والخطابة لجامع القرويين الشهير، ثم ولي الإفتاء، واستمر في منصبه حتى سنة 1027هـ
وفي أواخر سنة 1027هـ، اعتزم المقري الرحلة إلى المشرق. والظاهر أنه لم يعقد هذا العزم مختاراً، وأنه أرغم عليه لأسباب وظروف يشير إليها، ولا يوضحها؛ فهو يقول لنا أنه (لما قضى الملك الذي ليس لعبيده في أحكامه تعقب أورد. . . برحلتي من بلادي، ونقلتي عن محل طارفي وتلادي، لقطر المغرب الأقصى، الذي تمت محاسنه لولا أن سماسرة الفتن سامت بضائع أمنه نقصاً، وطما به بحر الأهوال. . . وذلك في أواخر رمضان من عام سبعة وعشرين بعد الألف، تاركاً المنصب والأهل والوطن والألف. . .) أما هذه الظروف التي يشير إليها المقري والتي قضت عليه بالرحيل عن الوطن، فنستطيع فهمها على ضوء الحوادث التي كانت تجوزها مملكة فاس يومئذ؛ فقد تولى مولاي زيدان الملك دون أخويه المأمون، وأبي فارس (سنة 1013هـ) ولم يلبث أن نشبت بينهما حروب أهلية متوالية؛ وهزم مولاي زيدان أولاً، وفر إلى تلمسان، ثم استعاد ملكه بعد عدة محاولات دموية، وبعد أن أجلي عنه غير مرة، في سنة 1108هـ؛ بيد أن عهده كان
مضطرباً، فياضاً بالحروب والفتن؛ ولا ريب أن المقري لم ترقه هذه الحياة المضطربة، وأنه اضطر إلى مغادرة المغرب تفادياً من عواقب الفتن والدسائس المستمرة التي كانت تكدر صفو الحياة في فاس، وعلى كل حال فقد غادر المقري وطنه في أواخر سنة 1027هـ، وركب البحر إلى مصر، وعانى من اضطرابه وروعته أهوالاً يصفها لنا في عبارات قوية مروعة؛ والظاهر أيضاً أن سفينته كانت تخشى مطاردة القرصان

النصارى، فكان الخوف مضاعفاً؛ وقد كانت مياه البحر الأبيض المتوسط يومئذ مسرحاً لمعارك هائلة مستمرة بين سفن المسلمين والنصارى، ووصل إلى مصر بعد رحلة شاقة مزعجة في أواخر سنة 1027هـ؛ ونزل بالقاهرة فبهرته معالمها ومحاسنها برغم ما أصابها في ظل الحكم التركي من عفاء وتدهور؛ وأقام بها أشهراً، ثم اعتزم الرحلة إلى الحج في أواخر سنة 1028هـ (1618م) فركب البحر إلى الحجاز وطاف بالأماكن المقدسة، وعاد إلى القاهرة في المحرم من العام التالي؛ ثم زار بيت المقدس في شهر ربيع الأول، وعاد إلى القاهرة واستقر بها؛ وتزوج سيدة مصرية من سيدات الأسرة الوفائية؛ ولكنه لم يكن زواجاً موفقاً، وقد فصمت عراه كما سنرى بعد أعوام من الحياة الزوجية الكدرة. وكرر المقري الرحلة إلى الحجاز، وأدى فريضة الحج مراراً، فلم تأت سنة 1037هـ حتى كان قد أداها خمس مرات؛ وجاور أثناء الحج في مكة، وألقى فيها كثيراً من دروسه، وأملى الحديث في المدينة، وعاد إلى مصر من حجته الخامسة في فاتحة سنة 1037 (1627م)

واستقر المقري في القاهرة طوال هذه الأعوام، ولازم الدرس والتدريس بالجامع الأزهر، وتبوأ مكانته في مجتمع مصر العلمي والأدبي، وفي رجب سنة 1037هـ زار المقري بيت المقدس مرة أخرى، وألقى بعض دروسه بالجامع الأقصى، ثم غادرها بعد بضع أسابيع إلى دمشق، فبهرته محاسنها كما بهرته القاهرة من قبل؛ ورحب به كبير علمائها ومفتيها الشيخ عبد الرحمن عماد الدين؛ واتصل بكثير من أدبائها وأعيانها وبالأخص بالمولى أحمد أفندي شاهين وهو من أعيانها الأدباء؛ وألقى بعض دروسه في الحديث في الجامع الأموي فاحتشد الطلاب حوله من كل صوب، وحفل به المجتمع الدمشقي. وكان يبكي السامعين بخطبه ومواعظه، ويتسابق العلماء والطلاب إلى لثم يده؛ وكان أثناء إقامته بدمشق يكثر الحديث في حلقاتها الأدبية عن الأندلس ومحاسن تاريخها وذكرياتها وبالأخص عن وزيرها الكبير ابن الخطيب، فاقترح عليه صديقه المولى أحمد شاهين أن يضع كتاباً في التعريف بابن الخطيب، ومناقبه، وتراثه من نظم ونثر؛ فاعتذر أولاً بكثرة مشاغله، وقلة مادته ومراجعه، وخصوصاً لأنه ترك معظمها في المغرب، ولكنه اضطر إزاء الإلحاح أن ينزل عند هذه الرغبة، ووعد بالوفاء منذ عوده إلى القاهرة

وعاد المقري إلى القاهرة بعد أن أنفق في دمشق بضعة أسابيع، وعكف حيناً على إنجاز المهمة التي أخذها على نفسه، أعني كتابة ترجمة ابن الخطيب والتعريف بمآثره وتراثه؛ ويقول لنا أنه استطاع غير بعيد أن ينجز منه قسماً لا بأس به، ولكن عاقته عن إتمامه مشاغل وهموم؛ والظاهر أن المقري لم يكن في مقامه النائي عن وطنه، هانئاً قرير البال، فهو يحدثنا غير مرة عن آلام الغربة ومتاعبها. ومما يقول في ذلك: (وليت شعري علام يحسد من أبدل الاغتراب شارته، وأضعف الاضطراب إشارته، وأنهل بالدموع أنوائه، وقلل أضوائه، وكثر علله وأدوائه، غير عنده التأمل رواءه، وثنى عن المأمول عنانه، وأرهف بالخمول سنانه، حتى قدح الذكر حنانه، وملأ الفكر جأشه وجنانه. . . وشتان ما بين الاقتراب والاغتراب، والسكون في الركون، والنبو عنها والاضطراب، فذاك تسهل غالباً فيه الأغراض والمآرب، وهذا تتعثر فيه المقاصد وتتكدر المشارب

وما أنا عن تحصيل دنيا بعاجز ... ولكن أرى تحصيلها بالدنية
وإن طاوعتني رقة الحال مرة ... أبت فعلها أخلاق نفس أبية

وقوله:

تركت رسوم عزي في بلادي ... وصرت بمصر منسي الرسوم
وصنت النفس بالتجريد زهداً ... وقلت لها عن العلياء صومي
مخافة أن أرى بالحرص ممن ... يكون زمانه أحد الخصوم

كان المقري إذن في منفاه متعباً معنى؛ والظاهر أنها كانت متاعب العيش فوق شجون الاغتراب؛ فقد كانت سوق العلم والأدب يومئذ كاسدة، وكان المجتمع القاهري قد فقد في ظل النير التركي بهاءه وسعته ورخاءه، وعفت روعة الأزهر الذي كان من قبل موئل الوافدين من كل صوب

ولكن المقري عاد فاستأنف الكتابة نزولاً على إلحاف صديقه أحمد شاهين واستنجازه،

واستطاع أن يتم كتابه عن ابن الخطيب بصورته الأولى في بضعة اشهر فقط لعودته من دمشق، وذلك في أواخر شهر رمضان سنة 1038هـ (1628م)؛ وفيه يتناول حياة ابن الخطيب، ويستعرض صفاته وخلاله ومآثره، وكثيراً من نثره ونظمه؛ ويقول لنا أنه سمى مؤلفه لأول مرة (عرف الطيب في التعريف بالوزير ابن الخطيب)

غير أن ذلك المؤلف الأول لم يكن هو (نفح الطيب) كما انتهى إلينا. ذلك أن المقري خطرت له بعد الفراغ من التعريف بابن الخطيب فكرة أخرى هي أن يمهد لكتابه بذكر الأندلس وتاريخها ومحاسنها وذكرياتها، وتطورت هذه الفكرة حتى غدت هيكل الكتاب الأصلي؛ فاستمر في الكتابة عاماً وبضعة اشهر أخرى، وأتم مؤلفه حسب وضعه الجديد، كما يحدثنا في خاتمة مؤلفه، في آخر ذي الحجة سنة 1039هـ (1629 - 1630م) واختار عندئذ لكتابه اسما جديدا، هو الذي انتهى به إلينا، وهو:

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب)

(وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب

والواقع أنه من التواضع أن يسمى (نفح الطيب) كتاباً، فهو كما سنرى موسوعة ضخمة عن الأندلس، تاريخها، وجغرافيتها وآدابها؛ ومن المدهش حقاً أن يستطيع المقري أن يضع مثل هذا الأثر الضخم في مثل هذه المدة القصيرة؛ ولكن سنرى أن فضل المقري في وضعه يرجع إلى الاقتباس أكثر مما يرجع إلى التأليف؛ وسنرى مع ذلك أن للمقري في هذا الاقتباس فضلاً لا يقدر وأن نفح الطيب هو أقيم مصادرنا العربية عن تاريخ الأندلس وآدابها

وكان المقري منذ عوده من دمشق قد طلق زوجته الوفائية، ووضع بذلك حداً لتلك الحياة الزوجية الكدرة؛ وما كاد يتم مؤلفه حتى أزمع العودة إلى دمشق ليتصل فيها بأصدقائه وليطلعهم على مؤلفه الذي وضعه نزولاً على إشارتهم؛ ولكن الموت عاجله، فتوفى في جمادى الآخرة سنة 1041هـ (يناير سنة 1632م)، ودفن في بقرافة المجاورين بالقاهرة

(للبحث بقية - النقل ممنوع)

محمد عبد الله عنان

مقتل أبي الطيب المتنبي

بمناسبة مرور ألف سنة على وفاته

للدكتور عبد الوهاب عزام

خرج أبو الطيب من شيراز لثمان خلون من شعبان قاصداً بغداد فالكوفة

ويقول بعض الرواة إن أبا الطيب لما قدم على عضد الدولة ومدحه وصله بثلاثة آلاف دينار وثلاثة أفراس محلاّة، ثم دس إليه من يسأله أين هذا العطاء من عطاء سيف الدولة؟ فقال: إن سيف الدولة كان يعطي طبعاً وعضد الدولة تطبعاً. فغضب عضد الدولة وأوصى إلى جماعة أن يقتلوه. وروى صاحب الإيضاح أن عضد الدولة قال إن المتنبي كان جيد الشعر بالغرب. فلما بلغت المتنبي قال: الشعر على قدر البقاع

وهاتان روايتان لا تثبتان على النقد. فأبو الطيب قد أفرغ وسمعه في مدح صاحبه ونال من جوائزه ما ملأه شكراً. فكيف قال ما نسب إليه؟ وكيف وهو يعلم أن كلامه حري أن يبلغ عضد الدولة؟

وعندنا رواية تخالف هذه:

قال صاحب الصبح المنبي: حكى عبد العزيز بن يوسف الجرجاني كاتب الإنشاء عند عضد الدولة قال: لما دخل أبو الطيب المتنبي مجلس عضد الدولة وانصرف عنه أتبعه بعض جلسائه، وقال له سله كيف شاهد مجلسنا وأين الأمراء الذين لقبهم منا. قال: فامتثلت أمره وجاريت المتنبي في هذا الميدان. وأطلت معه عنان القول. فكان جوابه عن جميع ما سمع مني أن قال ما خدمت عيناي قلبي كاليوم. ولقد اختصر اللفظ وأطال المعنى وأجاد فيه. وكان ذلك من أوكد الأسباب التي حظي بها عند عضد الدولة

فهذه الرواية أشبه بحزم أبي الطيب. ولماذا يقول الشاعر في أمير أفاض عليه عطاءه إن هذا عطاء متكلف وسيف الدولة كان يعطي طبعاً؟ أكان يبغي إرضاء سيف الدولة وهو في شيراز ولا يبالي إغضاب عضد الدولة وقد قصده وبذل في مدحه وسعه، ونال من عطاياه ما أثقله شكراً. ورواية (الشعر على قدر البقاع) سبيلها في الرد والدحض سبيل أختها

ثم ما الذي يغري ابن بويه بقتل شاعر عظيم أشاد يذكره وآثره بالمدح على ابن عمه معز الدولة ووعده أن يرجع إليه ليخلد مآثره. إن أعداء عضد الدولة أولى بهذه التهمة. وقد
أدرك بعض المعاصرين أن قتل أبي الطيب إخفار لذمة عضد الدولة فأنشأ أبياتاً يحرضه فيها على عقاب من أخفروا ذمته
سار الشاعر بمراكبه وأحماله وغلمانه حتى بلغ الأهواز وبين الأهواز وشيراز واحد وخمسون فرسخاً. ثم سار خمسين فرسخاً حتى بلغ واسط. وهنا نقف لنعرض على القارئ روايتين: الأولى مروية في الصبح المنبي عن الخالديين قالا:
كنا قد كتبنا إلى أبي نصر محمد الجبلي نسأله عما صدر لأبي الطيب المتنبي بعد) مفارقته عضد الدولة وكيف قتل - وأبو نصر هذا من وجوه الناس في تلك الناحية وله فضل وأدب جزل وحرمة وجاه - فأجابنا عن كتابنا جواباً طويلاً يقول في أثنائه: (وأما ما سألتما عنه من خبر مقتل أبي الطيب فأنا أسوقه وأشرحه شرحاً بيناً) وفي هذا الشرح يذكر أبو نصر قتل أبي الطيب وسببه. ثم يبين تربص فاتك الأسدي في طريق الشاعر وعزمه على قتله فيقول:
وأما شرح الخبر فان فاتكا هذا صديق لي. وهو كما سمي فاتك لسفكه الدماء) وإقدامه على الأهوال في مواقف القتال. فلما سمع الشعر الذي هجا به ضبة اشتد غضبه. ورجع على ضبة باللوم وقال له كان يجب ألا تجعل لشاعر عليك سبيلاً. وأضمر (غير ما أظهر
واتصل به انصراف المتنبي من فارس وتوجهه إلى العراق. وعلم أن اجتيازه بجبل دير العاقول. فلم يكن ينزل عن فرسه ومعه جماعة من بني عمه رأيهم في المتنبي مثل رأيه من طلبه واستعلام خبره من كل صادر ووارد
وكان فاتك خائفاً أن يفوته. وكان كثير ما ينزل عندي. فقلت له يوماً وقد جاءني وهو يسأل قوماً مجتازين عن المتنبي فقلت له أكثرت المسألة عن هذا الرجل. فأي شيء رجل تريد منه إذا لقيته؟ فقال ما أريد إلا الجميل وعذله على هجاء ضبة. فقلت له هذا لا يليق بأخلاقك. فتضاحك ثم قال: يا أبا نصر والله إن اكتحلت عيني به أو جمعتني وإياه بقمة لأسفكن دمه، ولأمحقن حياته. قلت له كف عافاك الله عن هذا القول، وأزل هذا الرأي من قلبك فان الرجل شهير الاسم، بعيد الصيت. ولا يحسبن منك قتله على شعر قاله. وقد هجت الشعراء الملوك في الجاهلية والخلفاء في الإسلام. فما سمعنا بشاعر قتل بهجائه. وقد قال الشاعر:
هجوت زهيراً ثم إني مدحته ... ومازالت الأشراف تهجى وتمدح
ولم يبلغ جرمه ما يوجب قتله. فقال يفعل الله ما يشاء وانصرف
ولم يمض لهذا القول غير ثلاثة أيام حتى وافاني المتنبي ومعه بغال موقرة بكل شيء من الذهب والطيب والتجملات النفيسة والكتب الثمينة والآلات. لأنه كان إذا سافر لم يخلف في منزله درهماً ولا شيئاً يساويه. وكان أكثر إشفاقه على دفاتره لأنه كان قد (انتخبها وأحكمها قراءة وتصحيحاً
قال أبو نصر (فتلقيته وأنزلته داري، وسألته عن أخباره وعمن لقي. فعرفني من ذلك ما سررت له وأقبل يصف ابن العميد وعلمه وكرمه وكرم عضد الدولة ورغبته في الأدب وميله إلى أهله
فلما أمسينا قلت يا أبا الطيب على أي شيء أنت مجمع؟ قال على أن أتخذ الليل مركباً فإن السير فيه يخف علي. فقلت هذا هو الصواب رجاء أن يخفيه الليل ولا يصبح إلا وقد قطع بلداً بعيداً. وقلت له والرأي أن يكون معك من رجالة هذه البلدة الذين يعرفون هذه المواضع المخيفة جماعة يمشون بين يديك إلى بغداد. فقطب وجهه وقال لم قلت هذا القول؟ فقلت لتستأنس بهم، فقال أما والجراز في عنقي فما بي حاجة إلى مؤنس غيره. قلت الأمر إليك، والرأي في الذي أشرت عليك. فقال تلويحك ينبي عن تعريض، وتعريضك ينبي عن تصريح. فعرفني الأمر وبين لي الخطب. قلت إن الجاهل فاتكا الأسدي كان عندي منذ ثلاثة أيام وهو غير راض عنك لأنك هجوت ابن أخته ضبة. وقد تكلم بأشياء توجب الاحتراز والتيقظ، ومعه أيضاً نحو العشرين من بني عمه قولهم مثل قوله. فقال غلام أبي الطيب وكان عاقلاً: الصواب ما رآه أبو نصر. خذ معك عشرين رجلاً يسيرون بين يديك إلى بغداد. فاغتاظ وشتمه شتما قبيحاً. وقال

والله لا أرضى أن يتحدث عني الناس بأني سرت في خفارة أحد غير سيفي. قال أبو نصر فقلت يا هذا أنا أوجه قوماً من قبلي يسيرون بمسيرك وهم في خفارتك. فقال والله لا فعلت شيئاً من هذا

ثم قال: يا أبا نصر! بخرء الطير تخوفني ومن عبيد العصا تخاف علي؟ والله لو أن مخصرتي هذه ملقاة على شاطئ الفرات وبنو أسد معطشون بخمس وقد نظروا إلى الماء كبطون الحيات ما جسر لهم خف ولا ظلف أن يرده. معاذ الله أن أشغل فكري بهم لحظة

عين. فقلت له: قل إنشاء الله تعالى، فقال هي كلمة مقولة لا تدفع مقضياً ولا تستجلب آتياً

ثم ركب فكان آخر العهد به.) اهـ

نقف هنا لنتأمل في هذه الرواية المطولة قبل أن نقيسها إلى رواية أخرى:

يقول الخالديان إنهما كتبا إلى نصر محمد الجبلي ثم يقولان: (وأبو نصر هذا من وجوه الناس في تلك الناحية) ليس في الرواية تصريح باسم ناحية ولكن ذكرت ضمناً في نسبة أبي نصر (الجبلي). والذي أراه أنها نسبة إلى جَبُّل وهي بلدة بين النعمانية وواسط على دجلة تبعد عن النعمانية خمسة فراسخ إلى الشرق الجنوب، وعن دير العاقول ثلاثة عشر فرسخاً. فهذا الراوي من بلدة تبعد عن مقتل أبي الطيب نحو أحد عشر فرسخاً وهو صديق للشاعر وقاتله. وخلاصة روايته:

1 - أن فاتكان الأسدي خال ضبة العيني الذي هجاه أبو الطيب كان يكثر السؤال عن الشاعر ليقتله انتقاماً لأخته التي هجاها. وقد صرح بهذا لأبي نصر

2 - وأن أبا الطيب نزل على أبي نصر بجبَّل فأخبره ونصحه بالحذر فلم يقبل. واحتقر فاتكا وقومه احتقاراً شديداً وغلا في كلامه غلواً لا يليق برجل عاقل

وفي خزانة الأدب نقلاً عن الإيضاح رواية أخرى نصها:

وأخبرنا أبو الحسن السوسي في دار الوقف بين السورين، قال: كنت أتولى الأهواز) من قبل المهلبي. وورد عليه المتنبي ونزل عن فرسه ومقوده بيده وفتح عيابه وصناديقه لبلل مسها في الطريق وصارت الأرض كأنها مطارف منشورة. فحضرته أنا وقلت قد أقمت للشيخ نزلاً. فقال المتنبي إن كان ثم فهاته. ثم جاء فاتك الأسدي يجمع وقال قدم الشيخ هذه الديار وشرفها بشعره والطريق بينه وبين دير قُنّة موحش قد احتوشته الصعاليك وبنو أسد يسيرون في خدمته إلى أن يقطع هذه المسافة، ويبر كل واحد منهم بثوب بياض. فقال المتنبي ما أبقى الله بيدي هذا الأدهم وذباب الجراز الذي أنا متقلده فإني لا أفكر في مخلوق. فقام فاتك ونفض ثوبه من رتوت الأعاريب الذين يشربون دماء الحجيج حسوا سبعين رجلاً ورصدوا له. فلما توسط المتنبي الطريق خرجوا عليه، الخ)

هذه الرواية تؤيد الأولى في أن أبا الطيب أبى أن يسير في خفارة أحد، وتخالفها في أن فاتكا هو الذي عرض على الشاعر أن يخفره. ومعنى هذا أنه ما كان مبيتاً شراً له وأنه لو قبلت خفارته ما قتله. وفي الرواية مطاعن:

فقول: أبي الحسن السوسي: (كنت أتولى الأهواز من قبل المهلبي الخ. يؤخذ منه أن مرور أبي الطيب بالأهواز كان في عهد المهلبي، والمهلبي توفي سنة 352 كما تقدم ولو أن فاتكا لقي أبا الطيب في الأهواز فعرض عليه خفارته فأبى فعزم على قتله أو سلبه ما صبر عليه حتى قطع المسافة من الأهواز إلى واسط وهي خمسون فرسخاً، ثم سار من واسط حتى جاوز النعمانية، كما سيأتي، وذلك أكثر من عشرين فرسخاً.

وقول فاتك إن الطريق إلى دير قنة موحش بعيد أن يقال في الأهواز وبينها وبين دير قنة مراحل كثيرة وبلدان عامرة، وإنما يقال مثل هذا في موضع قريب من دير قنة النعمانية أو جبل.

ثم عرض فاتك خفارته على أبي الطيب وفي نفسه منه ما فيها مستبعد كذلك فرواية أبي نصر أجدر بالقبول بعد حساب المبالغة فيها كقول أبي الطيب عن بني أسد (ابخرء الطير تخوفني الخ.) فالرجل مهما تكبر وتهور كان أعقل من أن يقول مثل هذا القول: وأحسب أبا نصر حينما سئل عن مقتل أبي الطيب أراد أن يبين عن نصيبه في هذه القصة التي يتشوف الناس إلى سماعها فأدخل شيئاً من الصنعة، ومبالغة

القصاص، وبالغ في نصحه أبا الطيب وفي إباء هذا قبول النصيحة وهكذا
- 2 -
سار أبو الطيب من الأهواز إلى واسط فنزل بها، قال علي ابن حمزة البصري عن القصيدة الكافية التي ودع بها الشاعر عضد الدولة: (هذه القصيدة آخر شعر قاله أبو الطيب. وكتبتها والتي قبلها عنه بواسط يوم السبت لثلاث عشرة بقيت من شهر رمضان سنة أربع وخمسين وثلاثمائة)
بين واسط وبغداد زهاء أربعين فرسخاً، وعلى الطريق بلاد نذكر منها ما ذكر في روايات مقتل أبي الطيب: وهي النعمانية ودير قُنىّ ودير العاقول والصافية
النعمانية في نصف الطريق بين واسط وبغداد غربي دجلة وهي قائمة اليوم. وكانت تسمى بغيلة فأعيد أسمها القديم. ودير العاقول كان على شاطئ دجلة الشرقي، وكان عنده مدينة مسماة باسمه، وكان على ميل من النهر أيام ياقوت. وبينه بين بغداد 15 فرسخاً، وبينه
وبين النعمانية زهاء خمسة فراسخ
وإلى الجنوب الشرقي من دير العاقول على مقربة منه دير مرماري الذي يسمى دير قُنىّ أو (قُنّه) وهو على 16 فرسخاً من بغداد يبعد على الشاطئ قليلا
وأمام دير قُنى على الشاطئ الصافيةُ على فرسخين إلى الجنوب والشرق من دير العاقول. وكانت على ميل من الشاطئ في زمن ياقوت.
وعلى نحو ثمانين كيلاً من بغداد إلى الجنوب والشرق توجد اليوم أرض تسمى أرض الدير. ذهبت إليها يوم الجمعة الثاني والعشرين من ربيع الأول سنة خمسة وخمسين وثلاثمائة. فإذا تلال كثيرة متقاربة قليلة الارتفاع عليها حطام من الآجر والخزف تبعد عن شاطئ دجلة الشرقي نحو كيل واحد
وقد سألت أعراباً نازلين هناك من قبيلة شّمر عن أرض أخرى تسمى أرض الدير في هذه الناحية فنفوا هذا. وسألت عن أسماء العاقول وقنى والصافية، أتعرف اليوم هي أو ما يقرب منها؟ فنفوا جازمين
وإذا نظرنا إلى المسافة بين هذه الأرض وبغداد فهي تقارب خمسة عشر فرسخاً. وهي المسافة المقدرة بين بغداد ودير العاقول في معجم البلدان وغيره
ومهما يكن فأكبر الظن أن هذه التلال بقايا دير قنى أو دير العاقول. وكانا متقاربين، وهذا يدل على أن دجلة لم تغير مجراها كثيراً في هذه الناحية
وأما الصافية فأحسب موضعها الآن في مجرى النهر، فقد كانت أيام ياقوت على ميل من دير قنى، ويؤيد هذا القول صاحب مراصد الإطلاع عن الصافية، (وقيل موضع دجلة)
- 3 -
الروايات في مقتل أبي الطيب متفقة في جملتها، ولكن بعضها أبين وأكثر تحديداً من بعض، وهي في التحديد قسمان:
1 - روايات تجعل مقتله قرب النعمانية أو قرب دير العاقول دون ذكر الموضع الذي قتل به
2 - روايات تذكر الصافية على أنها موضع القتل أو قريبة منه وهي على مقربة من دير العاقول، بينه وبين النعمانية، فليست تناقض الروايات الأولى، بل تزيد عليها تحديداً
3 - رواية ابن خلكان التي تحاول الجمع بين الروايات فتقول: (بالقرب من النعمانية في موضع يقال له الصافية من الجانب الغربي من سواد بغداد عند دير العاقول بينهما مسافة ميلين)
وحق أن الصافية قريبة من دير العاقول ولكنها ليست قريبة من النعمانية إلا قرباً نسبياً
4 - رواية ابن جني ونسخة بغداد ونسخة في الموصل تذكر مكاناً محرّفاً مضطرباً بين فرع ونيزع وشرع. ولم أجد لها ذكراً في الكتب
يستطيع الباحث بعد هذا أن يقول إن أبا الطيب قتل على مقربة من الصافية، ولكن ابن خلكان وابن الأنباري يقولان: (من الجانب الغربي من سواد بغداد) والصافية على الشاطئ الشرقي، فكيف هذا؟
رواية ابن خلكان متناقضة بلا ريب، فهو يقول في موضع يقال له (الصافية من الجانب

الغربي) وهذا خطأ، وأحسبه اتبع ابن الأنباري فالعبارتان متقاربتان. فهل عبارة ابن الأنباري مقبولة؟
هو يقول (حيال الصافية من الجانب الغربي) فيمكن أن يقال إن مقتل الشاعر في الجانب الغربي حيال الصافية على الضفة الشرقية - وكلمة حيال هذه صحفت في بعض الروايات إلى جبال وليس عند الصافية جبال
يمكن قبول رواية ابن الأنباري بهذا التفسير لو لم نعرف الطريق بين واسط وبغداد أتساير الضفة الشرقية أم الغربية من دجلة، ولكننا نعرف من كتب المسالك أن الطريق شرقي دجلة. وقد عرفنا أنه مر بجبّل وليس لنا أن نفرض أنه سار شرقي النهر من واسط إلى جبل حيث نزل على ابن نصر ثم عبر إلى النعمانية ليعبر إلى الشرق مرة أخرى
وخلاصة هذه الكلمة أن جمع هذه الروايات ونقدها وتعّرف مواقع البلاد التي ذكرت في الروايات والطريق بين واسط ودار الخلافة. كل أولئك يبين لنا أن مقتل أبي الطيب كان عند الصافية شرقي نهر دجلة على نحو ستة عشر فرسخاً من بغداد

سار أبو الطيب من واسط يؤم بغداد في طريقه إلى الكوفة وكان مسيره يوم السبت سابع عشر رمضان. وفي هذا اليوم كتب عنه علي بن حمزة البصري روايته القصيدتين الأخيرتين من شعره كما تقدم
وبلغ جبّل بعد أن سار زهاء سبعة عشر فرسخاً فنزل عند أبي نصر الجبلي كما تقدم. ثم أخذ طريقه حتى حاذى النعمانية وهي في نصف الطريق بين واسط وبغداد ثم سار فمر بجرجرايا على أربعة فراسخ إلى الجنوب والشرق من دير العاقول ثم تقدم حتى قارب الصافية وبينه وبين بغداد ستة عشر فرسخاً
وهنالك خرج عليه فاتك بن أبي جهل الأسدي خال ضبة ابن يزيد الذي هجاه أبو الطيب. وكان فاتك في نيف وثلاثين فارساً رامحين وناشبين وكان مع أبي الطيب ابنه محسد وغلمانه الذين وصفهم في القصيدة الميمية التي رثى فيها فاتكا وفي قصيدة توديع ابن العميد كما تقدم
ولا ندري كم كان غلمانه ولكنهم كانوا ولا ريب أقل عدداً من عدوهم قاتل الشاعر الشجاع حتى قتل. وقتل ابنه. وأكثر الروايات تخص من بين غلمانه غلامه مفلحاً. وفي الخزانة أنهم قتلوا كل من كان معه. وما أحسب الغلمان ثبتوا كلهم بعد قتل سيدهم. وفي رواية الخزانة أيضاً (وحمل فاتك على المتنبي وطعنه في يساره ونكسه عن فرسه. وكان ابنه أفلت إلا أنه رجع يطلب دفاتر أبيه فقنع خلفه الفرس أحدهم وحز رأسه)
قال أبو نصر: ولما صحّ خبر قتله وجهت من دفنه ودفن ابنه وغلمانه وذهبت دماؤهم (هدراً)
ردي حياض الردى يا نفس واتركي ... حياض خوف الردى للشاء والنعم
إن لم أذرك على الأرماح سائلة ... فلا دعيت ابن أم المجد والكرم
عبد الوهاب عزام
بين عالمين
نظام الطلاق في الإسلام
(بقية المقال المنشور في العدد السابق)
للأستاذ أحمد محمد شاكر
هذا عن الدليل على وجوب الإشهاد في الطلاق وفي الرجعة، وأما الدليل على أنه شرط في صحتهما، وأن من طلق أو راجع بغير إشهاد فقد بطل طلاقه وبطلت رجعته، ولم يصح واحد منهما - فان الطلاق عمل استثنائي صرف، يخالف القواعد العامة في العقود والفسوخ، وكذلك الرجعة، لأن كلا منهما تصرُّفٌ في عقد بين اثنين، يقوم به أحد طرفي العقد وحده، وهو الرجل من غير اختيار أو مشاركة له فيه من الطرف الآخر، وهو المرأة، أُذِنَ بهما الشارع الحكيم، في حدود معينة، وبنظام خاص، وليسا مما يملكه الرجل وحده بطبيعة التعاقد، لأن الزواج عقد كسائر العقود، لا يملك أحد طرفي العقد التصرف فيه بالإلغاء أو الإنهاء وحده، لولا ما أذن به الله للرجل من حق الانفراد بالطلاق؛ وكذلك الرجعة، هي إعادة للعقد الذي نسخه الرجل وحده بما جعل

الله له من الحق في ذلك، وهي إنما يملك الرجل الانفراد بها - دون الطرف الثاني من العقد - بما أذن الله له فيها، ولو لم يأذن الله بالطلاق وبالرجعة للرجل، لم يكن له أن ينفرد بواحد منهما من غير رضا الطرف الآخر في العقد

وقد أذن الله في شريعته للرجل بالاستقلال بإيقاع الطلاق، وبالانفراد برد المطلقة إلى عصمته، بصفات معينة، وفي أوقات خاصة، فتكون كلها شروطاً في صحة ما يفعله المطلق حين طلاقه، والمراجعُ حين رجعته. فإذا تجاوز الصفات التي رُسمت له فيهما، أو الأوقات التي أُقِّتَتْ له، كان عملاً باطلاً، لأنه خرج عن الحدّ الذي ملك فيه الانفراد بالتصرف بالإذن من الشارع الحكيم

ولذلك قلنا ببطلان الطلاق لغير العدة، وببطلان الطلاق من غير إشهاد، وببطلان سائر أنواع الطلاق الذي يسمى (الطلاق البدعي). وقلنا أيضاً ببطلان الرجعة من غير إشهاد، وببطلانها إذا قصد بها المضارّة ولم يقصد بها الإصلاح، كما قال الفقهاء جميعاً ببطلان الرجعة إذا كانت بعد انقضاء العدة، وببطلانها إذا كانت بعد الطلقة الثالثة وهكذا

وهذا المعنى قد أوضحته مراراً في كتاب (نظام الطلاق في الإسلام)، فمما قلته (ص 60 - 63:

(وليس المقصود من الطلاق اللعبَ واللهوَ، حتى يزعم الرجلُ لنفسه أنه يملك الطلاقَ كما شاء، وكيف شاء، ومتى شاء؛ وأنه إن شاء أبان الْمَرْأَةَ بَتَّةً، وإن شاء جعلها معتدةً يملك عليها الرجعة)

(كلا، ثم كلا، بل هو تشريع منظم دقيق من لَدُنْ حكيم عليم، شَرعَهُ الله لعباده ترفيهاً لهم، ورحمة بهم، وعلاجاً شافياً لما يكون في الأسرة بين الزوجين من شقاق وضرار، ورَسمَ قواعدَه، وحدَّ حدودَه بميزان العدالة الصحيحة التامة ونهى عن تجاوزها، وتوعد على ذلك. ولهذا تجد في آيات الطلاق تكرار ذكر حدود الله، والنهيَ عن تعديها وعن المضارَّة: (تلك حدود الله فلا تعتدوها. ومن يتعد حدود الله فأؤلئك هم الظالمون). (وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون). (ولا تمسكوهن ضِراراً لتعتدوا، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه، ولا تتخذوا آيات الله هزُوا) (واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فأحذروه)

(وهو تشريعٌ تَقَطَّعَتْ دونه أعناق الأمم قبل الإسلام وبعده، وهأنت ذا ترى الأمم العظيمة التي تزعم لنفسها المدنية ويزعمها لها الناس: - تحاول إصلاح نظام الأسرة، وتشريع القوانين لديها للطلاق، فلا تصل إلى شيء معقول، بل هي تتخبط في الظلمات، وتأتي بالبلايا والمضحكات وذلك أنها تصدر في تشريعها عن العقل الإنساني القاصر. أما التشريع الإسلامي فأنه وحيٌ الهي كريمٌ، أرسَل به أعظم رجل وأعقل رجل ظهر في هذا الوجود، وأمره أن يفسره للناس ويبينه لهم، ثم يحملهم على طاعته والعمل به)

(وإنما المقصود من الطلاق في هذه الشريعة النقية الواضحة الكاملة: أن بين الزوجين عقداً - كسائر العقود - على المعايشة والمعاشرة بالمعروف، فإن هما فعلا تحقق المقصد الصحيح من الزواج وطاب عيشهما، وإن هما تباغضا وتنافرا وخافا ألا يقيما حدود الله ورغبا في الفراق، فهما كغيرهما من كل متعاقِدَيْن: لهما أن يتفقا على الانفصال في مقابل عوض من المرأة للرجل، كما تعاقدا في أصل النكاح في مقابل الصداق من الرجل للمرأة. وبذلك جاء نص القرآن الكريم: (فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به) فشرع لهما الخلعَ والمبارأة، وكانت المرأة به بائناً تملك أمر نفسها، وليس للرجل عليها حق المراجعة إلا بعقد جديد واتفاق آخر؛ ولم يكن عليه للمرأة حقوق أخرى من حقوق العقد، كالصداق والنفقة وغيرهما، إلا أن يتشارطا على شيء: فالمسلمون عند شروطهم)

(واختار الله لعباده - لحكمة سامية - أن يستثني النكاح من القاعدة العامة في فسخ العقود، فأباح للرجل أن ينفرد بفسخ هذا العقد بإرادته وحده، بشرائط خاصة ونظام واضح، ورَتَّب لكل من المتعاقدين حقوقاً قِبَلْ صاحبه، لا يجوز لأحدهما أن يتهرب منها. فمن وقف عند حدود الله وفَسَخَ عقد النكاح الذي بينه وبين زوجه في دائرة الحدود التي حدَّ الله له، كان قد استعمل حقاً يملكه بتمليك الله إياه، وجاز عمله، وترتبت عليه آثاره. ومن تجاوز حدود الله، واجترأ على حل عقدة النكاح على غير المنهج المرسوم

له. كان عابثاً، وكان عمله باطلاً لغواً، كما إذا انفرد أحد المتعاقدين بإلغاء عقد البيع أو عقد الرهن مثلاً، فإن عمله لاغٍ لا أثر له في العقد. فكذلك المطلق في غير الحدود (التي أذن فيها

وقلت أيضاً (ص71): (إذنْ، فقد منح الله الرجلَ حق الانفراد بالطلاق، وهو حل لعقدة النكاح: بين الزوجين عقد كسائر العقود، وهو عقد الزواج، فإذا أراد أن يطلق بمحض إرادته وحده، فلن يملك من ذلك إلا أن يتبع أمر ربه الذي شرع له هذا الحق وأذنه به) فهذا التفسير لمعنى الطلاق ولمعنى الرجعة هو المطابق كلَّ المطابقة لنصوص القرآن الكريم. ولمقاصد الشارع الحكيم، ولقواعد العقل السليم، وللفقه الصحيح في الدين.

وليس من المعقول أن تترك هذه الشريعة الدقيقة - شريعةُ الطلاق والرجعة - لأهواء الناس وآرائهم وألاعيبهم في الألفاظ. إنما هي مقاصد سامية، تتعلق بأدق الشؤون الاجتماعية وأشدها خطراً في حياة الإنسان وأشرف الروابط بين الناس وأعلاها وأنفعها للنوع الإنساني، وهي رابطة الحياة الزوجية. (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها، وجعل بينكم مودَّةً ورحمةً، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون)

فلم يكن الطلاق - في الشريعة الإسلامية - حقاً مطلقاً للرجل من غير قيد، كما يفهم ذلك أكثر الناس، بل عامتهم، وإنما هو مقيد بقيود كثيرة، بعضها قيود في نفس إنشاءه وإيقاعه، وهي شروط في صحته عندي وفي رأيي، وبعضها قيود تتعلق بحال المطلق وظروف طلاقه، وهي تعليم من الشارع وتأديب، لأنها ترجع إلى أمور نفسية وأحوال دقيقة في

المعايشة والمعاشرة، لا تدخل تحت القواعد القضائية التي تكاد تكون مادية، فجعل الرجل فيها أمينَ نفسه، ورقيباً على أعماله، أو جعلت تحت رقابة ضميره - كما يعبر الكتاب من أهل هذا العصر -

فإن أتبع في ذلك أوامر الله في كتابه وفي سنة رسوله ووقف عند حدود الله: كان طلاقه صحيحاً، وبريء من أثم العدوان في الطلاق، وإن لم يتبع ما أمر به، ولم يجعل طلاقه في الحدود التي حدت لإنشائه وإيقاعه، فكأنه لم يعمل شيئاً ولم يوقع طلاقاً، وإنما كسب خطيئة وإثماً بمخالفة أمر ربه

وإن جعل طلاقه في الحدود التي حدت للإنشاء والإيقاع ولكنه تجاوز في القيود الأخرى التي تتعلق بحاله وظروف طلاقه كان طلاقه واقعاً، ولكنه كان آثماً بمخالفته وعدوانه، لأن هذه الشؤون ليست مما يدخل تحت سلطان الحاكم وتقدير القاضي، وإنما يحاسب عليها بين يدي ربه يوم القيامة

لأن الشريعة الإسلامية يمتزج فيها - دائماً - التشريع القانوني القضائي بالشؤون الدينية النفسية والخلقية التهذيبية، وتجمع في أحكامها بين الوجوب أو الإباحة أو الندب أو الكراهة أو الحل أو الحرمة، وبين الصحة أو البطلان أو الفساد، وهكذا فهي شريعة ودين معاً

وكذلك الرجعة: ليست من حقوق الرجل بإطلاق من غير قيد، بل هي مقيدة بقيود كالطلاق، ولكنها أقل قيوداً منه، تيسيراً من الشارع الحكيم، وترغيباً في وصل ما انقطع من علائق الزوجية

فمن قيودها ما هو راجع لأصل إيقاع الفعل وإنشاءه، فيكون شرطاً في صحته، وكلها منصوص عليه في القرآن نصاً: فمن ذلك ما اتفق عليه أهل العلم ولم ينقل فيه خلاف عن أحد منهم، وهو أن تكون المطلقة مَدْخولاً بها، وألا يكون ذلك بعد الطلقة الثالثة، وأن تكون الرجعة وهي في عدة المطلق

ومن ذلك ما اختلف فيه، واخترنا انه شرط في صحة الخلع أيضاً ونصرنا القول به، وهو أن تكون الرجعة بإشهاد شاهدين على ما بينا آنفاً، (واشهدوا ذوي عدل منكم) وأن يريد برجعتها إصلاح ما أفسد الطلاق، وإصلاح حاله وحالها (وبعولتهن أحقّ بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحاً) لا يقصد بها الإضرار والعدوان (ولا تمسكونهن ضراراً لتعتدوا)

وقد بيّنا ذلك في كتابنا بوضوح (ص121 - 124) ومما قلنا هناك: (إن الطلاق والرجعة بإرادة الرجل وحدة عملان مستثنيان من القواعد العامة، أذنه الله بهما بصفات خاصة فلا يملك منهما إلا ما أُذِنَ به. والشأن هنا في الرجعة أقوى، لأن الله سبحانه جعل الرجلَ أَحَقَّ بها بشرط صريح، وهو إرادة الإصلاح، فإذا تخلف الشرط لم يكن الرجل أحقَّ بردها، فصار لا يملك هذا الحق)

وهذا الذي اخترناه وذهبنا إليه لا ينافي ما ذكره أستاذنا شيخ الشريعة (مما هو أدق وأحق بالاعتبار، من حيث الحكمة الشرعية، والفلسفة الإسلامية، وشموخ مقامها، وبعد نظرها في أحكامها)، لأن القيود التي قيد بها حق الطلاق أوثق وأقوى مما اشترط في صحة الرجعة، (على القاعدة المعروفة من أن الشيء إذا كثرت قيوده، عزَّ أو قَلَّ وجوده)

وما اشترط في صحة الرجعة إنما اشترط ضماناً لبقاء الحياة الزوجية صحيحة سالمة من إرادة العبث بها، وبعداً بها عن مواطن الشبهات، وعن الأضرار بالمرأة عن إرادة النكول والجحد لإضاعة حقها

ولست أظن أني بحاجة إلى بيان وجه (الحكمة الشرعية والفلسفة الإسلامية) في اشتراط إرادة الإصلاح في صحتها، إذ هو واضح بالبداهة، وصريح من نص الكتاب الكريم

وأما اشتراط الأشهاد فأنه ليس قيداً يفوت به مقصد الشارع في تقليل وقوع الطلاق والفرقة، وفي إرادة التعجيل بالرجعة، وإنما هو شرط يقيد في ضمان ثباتها وبقائها، وفي حفظ عزة المرأة وكرامتها

فالرجل حين يطلق يُشهد على طلاقه، وهو إعلان له واثبات، ثم يذهبُ فيراجع سرّاً من غير حضرة الشاهدين؛ ولعله قد يبدو له أن يندم على رجعته، أو يرى له فائدةً مادية حقيرة في إنكار ما فعله وجَحده، وتعجز المرأة عن إثبات حقها واثبات إجرامه، ولا ترى لها شاهداً ولا دليلاً؛ وقد يفعل ذلك ورثتُه إذا مات قبل إعلان رجعته، فيضيع في الحالين حقها، وتهدر كرامتها، ويُمس عرضها، وهي عاجزة في أول أمرها وآخره

ولو رأى الأستاذ - حفظه الله - ما نرى في مجالس القضاء من ألاعيب الناس وحيلهم، وإقدامهم على إضاعة الحقوق، وحرصهم على أكل أموالهم بينهم بالباطل، وجرأتهم على تعدي حدود الله، لعلم أن هذه الشروط ليست قيوداً يعزُّ معها وجود الرجعة أو يقلُّ، ولا

يستيقن أنها تطابق الحكمة الشرعية، والفلسفة الإسلامية، وتدل على شموخ مقامها، وبعد نظرها في أحكامها

وبعدُ: فإني أرسل تحياتي إلى أستاذي الجليل على صفحات (الرسالة) الغراء، مجدداً ذكرى صداقةٍ لم تزدها الأيام إلا ثباتاً وقوة، مذ كان الأستاذ حفظه الله في مصر، من نحو خمس وعشرين سنة، وكنا نقتبس من بحار علومه، ونقتدي به في مكارم أخلاقه، وكنت له كالتلميذ الخاص، ألازمه في غدواته وروحاته. بارك الله فيه، ونفع به الإسلام والمسلمين

وأخيراً: أدعو المثقفين من المسلمين، وقادتهم من علماء الدين، لينظروا في مسائل الزواج ومشاكله، وهي جمة متوافرة، لا بالنظر التقليدي القديم، ولا بالنظر الإفرنجي الحديث، ولكن بالنظر الإسلامي الصحيح.

أحمد محمد شاكر

القاضي الشرعي

2 - دانتي أليجييري والكوميدية الإلهية

وأبو العلاء المعري ورسالة الغفران

عرفنا من الكلمة السالفة أن أبا العلاء كتب رسالته يرد بها على ابن القارح وهو طرب أيما طرب لأنه وجد فيه. . . عنقاءه والخل الوفي! وعرفنا أن ابن القارح لم يكن يقل زندقة وإلحاداً عن أبي العلاء لأنه استهزأ بالأبرار والأطهار الذين ورد ذكرهم في سورة الدهر، ولأنه عاب عليهم خوفهم يوماً كان شره مستطيراً. . يوماً عبوساً قمطريراً. . . ولو كانوا مثله. . . مثل ابن القارح. . . لما نذروا، ولما وفوا. . . ولما خافوا شر ذلك اليوم

وعرفنا كذلك أن ابن القارح لم يكن صادقاً حقاً في (تغيظه على هؤلاء الزنادقة والملحدين) الذين حشدهم وجمع أقوالهم في رسالته من غير ما مقتض لحالها. . . اللهم إلا أنه كان يخاطب أبا العلاء بلغة العصر الذي كانت تهدر فيه الدماء لمجرد الريبة تحوم حول الرجل في دينه، فاضطر أن يلغز هذا الإلغاز الذي لا يجوز مظهره على ذكاء أبي العلاء. . .

ونريد اليوم أن نعرف السبب الذ ي حدا بدانتي إلى كتابة كوميديته؛ فلا نرى بأساً من

أن نضع بين يدي القارئ ترجمة سريعة لهذا الرجل الذي كان يعيش ملء عصره، ويساهم بقلبه وعقله ويده في شؤون إيطاليا عامة وفلورنسا خاصة

ولد دانتي في مايو 1265، أي بعد أن وضعت الحرب الصليبية أوزارها (1096 - 1244)، وفي زمان كان فيه اختلاط الشرق بالغرب شاملاً كل شيء ولا سيما الثقافة، وكان الغرب يرشف من مدنية الشرق ما يشاء عن طريق الشام ومصر وصقلية وتونس والأندلس. واختلف المؤرخون في منشأ أسرة دانتي. . . فبعضهم يقول إنها من رومه، وبعضهم يقول إنها من فرّارا، والبعض يقول إنها من بارما، أو من فيرونا؛ على انهم متفقون على أن الفتى نشأ في فلورنسا وفيها، وأنه تثقف على أشهر علمائها في ذلك الزمن (برونتو لاتيني)

وقد كان أبوه أليجييرو رجلاً فقيراً من وسط برجوازي مكروه من الحزب الديمقراطي، وقد ماتت أمه موتّا بللا بعد أن وضعته بزمن قصير. وفي التاسعة من عمره رأى فتاته وحبيبته بياتريس، فنفثت في قلبه السحر، وحلت عن لسانه عقدة الشعر، وجعلت حياته دراما رومانتيكية بارعة من الحب الأفلاطوني الحزين. . . وترعرع دانتي. . . ونظم

. . .الشعر في بياتريس

وفي الثامنة عشرة، نظم أولى غرر قصائده يطلب فيها تفسير حلم جميل (من كل مغرم دنف، برح به الحب، ولفح قلبه بارح الهوى. . .) وكانت قصيدة رائعة لفتت إلى الشاعر الشاد نظر كبير شعراء إيطاليا إذ ذاك جيدو كفالكانتي، فكانت عربون الصداقة بينهما، ورمز المحبة والوفاء

واشترك الشاعر الفتى في حملات حربية سخيفة، وحضر معركة كمبلدينو سنة 1289. . . ثم انغمس في النضال الحزبي الذي كان يجرف فلورنسا وإيطاليا في ذلك العهد، وكان ناشباً بين حزبين قويين ما يلبث أحدهما أن ينتصر حتى تكون للآخر الكرة عليه؛ وكان دانتي في جانب الجلفيين. وحدث إن كان في بعثة سياسية لدى البابا حين انقض الجبليون - الحزب الآخر - على المدينة وانتزعوا مقاليد الحكم من الجلفيين، وقضوا على دانتي بالنفي المؤبد، وبالإعدام حرقاً إذا فكر في الرجوع إلى فلورنسا

وكانت بياتريس قد ماتت قبل ذلك، وكان الشاعر قد فقد صداقة جيدو كفالكانتي من جراء الحزازات الحزبية التي كثيراً ما قضت على روابط وأواصر وصداقات. . . وكان قد تزوج كذلك وإن لم يسْلُ بياتريس - التي كانت قد تزوجت من غيره - من الفتاة جمَّادوناتي التي كانت تنتمي إلى حزب الجبليين. . . فكانت حياته معها سلسلة متلاحقة من الآلام لدرجة إنها رفضت أن تلحق به من منفاه وحرمته بذلك حتى من النظر إلى أبنائه. . . ومن أجل ذلك لم يتورع دانتي من الإشادة بذكرى حبيبته بياتريس في كتابه (الحياة الجديدة) ومن الوعد في آخر هذا الكتاب بتأليف معجزته الخالدة (الكوميدية الإلهية) في تخليد ذكرى بياتريس. بل هو لم يتورع كذلك من أن يدس جمَّادوناتي في أشد دركات جحيمه في هذه الكوميدية. . . كما سيجيء ذكره

وقد طَوَّف دانتي في أنحاء إيطاليا، وذاق في منفاه مرارة العيش وشقوة التشرد، وجاب الرحب فزار باريس، ويقال إنه ارتحل إلى إنجلترا وألقى عصاه في أكسفورد. ولعل حظ الأدب من مرارة ذلك العيش، وشقوة ذاك التشرد كان عظيماً جداً، فقد قسم لدانتي أن يبر بوعده بتأليف الكوميدية إذ هو مشرد في الآفاق، طريد من فلورنسا، بعيد عن أحزابها، بنجوة من قلق السياسة واضطراب السياسيين. ففي سنة 1300 ألف كتابه الجميل (الحياة الجديدة) أو الفيتانوفا الذي يصف له خلجات قلبه وضمنه ترجمة طلية لحياته وصلته بالفتاة الفتانة بياتريس دبورتيناري وجمع فيه كل الأشعار التي تغزل فيها بحبيبته. والكتاب رائع حقاً، ويعتبره المؤرخون أول كتب من نوعه في فجر النهضة وآخر ومضة من الأمل في العصور الوسطى

ولقد كان دانتي يحل ضيفاً على أمراء الولايات الإيطالية الشمالية فيقابل بالترحاب من الجميع، وكان الجميع يكرمون وفادته ولا سيما كين دلّلاسكالا أمير فيرونا الذي لبث دانتي في ضيافته حتى عام 1320، ثم ارتحل إلى جيدو نوفللو دابولنتا عظيم رافنّا ومن ثم ذهب إلى البندقية في بعث سياسي. . . ولكن البندقيين استخفوا به فأثر ذلك في نفسه حتى قيل إنه حم، فعاد أدراجه والمرض يفتك به. . . ولقي حتفه عقب ذلك

بزمن قصير
وفيما بين سنة 1306، 1308 ألف دانتي كتابه الفلسفي (الوليمة) وقد حاول فيه تبسيط الآراء والنظريات الفلسفية لتسيغها أفهام العامة، وهو في رأينا أقل قيمة الفيتانوفا. وإن يكن دانتي نفسه قد فضله على الفيتانوفا
ويقولون إنه ألف قبل ذلك (1304) كتابه العجيب (في فصاحة اللغة العامية) حاول فيه خلق لغة قومية للإيطاليين يكتبون بها ويؤلفون فيها كتبهم بدل اللغة اللاتينية التي كانت مستعملة في ذلك الوقت
وفي سنة 1309 ألف كتابه - وفيه يتغنى بالإمبراطورية الرومانية القديمة ويحفز همم الإيطاليين لإحيائها (لأنها نظام فرضه الله على البشر، وهي وحدها التي تأخذ بأيدي الناس إلى السلام والنظام والعدالة، وهي سلسلة متصلة في التاريخ لا انفصام لها. . .) وتلك نُعَرة عرف بها دانتي، انتقلت بعجزها وبجرها إلى زعيم إيطاليا الحديثة ويرجح مؤرخو دانتي أنه كتب الكوميدية الإلهية إذ هو ضيف كريم على أمير فيرونا ثم أتمها في رافنّا قبيل وفاته في سبتمبر سنة 1321
وهاك ما أختتم به الفيتانوفا بصدد الكوميدية الإلهية:
أبتهل إلى الله القدير أن يمد في أجلي - إذا شاء - كي أكتب في ملاكي ما لم . . .) يكتبه أحد في امرأة من قبل. . . حينئذ. . . كم تكون روحي سعيدة حين تسبح في ملكوته الأعلى لتتزود نظرة من. . . بياتريس(!)
وقد مد الله في أجله فعلاً، وكتب في ملاكه ما لم يكتبه أحد في امرأة من قبل، وذهب في إثر رائده فرجيل يخوض دركات جهنم، ويوقل في شعاف المطهر، ليلقى بياتريس في ظلال الخلد، ونعيم لا يفنى
جحيم دانتي
رأى دانتي كأنه يضرب على غير هدى في تيه لا أول له ولا آخر، ثم رآه يضل (1) طريقه في غابة مظلمة تعج بالأفاعي وتضج بالوحوش، حتى إذا بلغ طوداً رفيع الذرى وحاول أن يرقاه زأرت في وجهه أسود وهمهمت حوله ذؤبان أوشكت أن تفتك به، لولا أن أبصر فرأى الشاعر الروماني الخالد فرجيل يقترب منه فينقذه من الكواسر المحدقة به، ثم يذكر له أنه قادم من لدن حبيبته بياتريس ليهديه سواء السبيل، وليخوض به دركات الجحيم ليريه من آيات ربه، ثم ينفذ به إلى جبال المطهر. . . وليتركه عند باب الفردوس، حيث تلقاه حبيبته، فتمضي به إلى جنات النعيم (لأني غير مأذون لي بدخولها)
ويتلكأ دانتي قليلاً، ولكن فرجيل ما يزال به يغريه حتى يتبعه (3). . . وينطلقان (2) حتى يكونا عند باب جهنم. . . وينظر دانتي فيرى كلمات نقشت من نور على لوحة علقت أعلى الباب. . . هي كلمات الإله العزيز من غير شك. . . ويؤذن لهما فيدخلان، ويسمع دانتي إلى أنين المعذبين، فيخبره فرجيل أنهم أولئك الذين قضوا حياتهم الدنيا في لهو ولعب، لا يعنيهم أن يقدموا عملاً صالحاً ينفعهم في الدار الآخرة. ثم يبلغان عدوة نهر أشيرون، ويريان جباره العتيد ذا الطول (خارون) منتصباً كالوحش في زورقه الذي ينقل فيه أرواح الأشقياء من هذه العدوة إلى العدوة الأخرى. . . وهنا. . . تدور جهنم برأس دانتي فيعروه من الغثيان والغَشْيَة ما يهوي به إلى الأرض (4). . . ثم يدوي رعد قاصف في أركان جهنم فيهب دانتي من غيبوبته، ويتعلق بأذيال فرجيل، وينطلقان حتى يبلغا الدرك الأول من دركات الجحيم واسمه (لمبو حيث يشقى أولئك الذين استهتروا بتقاليد الكنيسة، فلم يبالوا أن (يُعَمَّدوا)!! ولو أنهم كانوا مع ذلك بررة أخياراً، (5) ويبلغان الدرك الثاني من النار، ويرى دانتي إلى مينوس أحد قضاة الجحيم الذي يسائله كيف نفذ إلى هذه الدار وهو ما يزال حياً من أهل الدار الفانية، وينذره أنه لن يحتمل زفير سقر. . . وينظر دانتي فيرى إلى جموع الفجار الشهوانيين من أهل الفسق تعصف بهم ريح السموم، وتنثرهم هنا
وهناك كما ينثر الريش في يوم عاصف. . . ومن هؤلاء هيلين التي شبت بسببها حروب طروادة، وكليوبطرة، ثم يرى الزوجة المفتونة فرنشسكا التي أحبت أخا زوجها (باولو) حين كان يقرأ لها قصة لانسلوت الغرامية (فلما بلغنا هذا الحد من القصة، ورأينا باولو يطبع قبلة حارة على فم فرنشسكا، نظر باولو إلي، واغرورقت عيناه بالدموع، وأهوى على فمي يقبله. . . واستسلمت. . . فلم أقاومه!!) ويألم دانتي أشد الألم وأبلغه،

فيغشى عليه حزناً على فرنشيسكا التي كانت تقص عليه خبرها (6) وينهض من غشيته، ويبلغان الدرك الثالث، حيث الحمأ المسنون والوحل المركوم تسبح فيه أرواح المنهومين الطماعين، وتنصب فوقهم شآبيب من برد وثلج، ويمزق الكلب سيربيروس أبدانهم شر ممزق. ويلقيان (كياشو) أحد الأشقياء فيتنبأ لهما بما سيجتاح فلورنسا من شدائد (7) وينطلقان حتى يكونا في الدرك الرابع حيث تعذب أرواح البخلاء والمبذرين الذين يعير بعضهم بعضاً، ويبلغان الدرك الخامس حيث تعذب أرواح العابسين وأهل الشر في بحيرة (ستيجيا). ويطوفان قليلاً حول البحيرة ثم يصلان إلى سفح برج منيف (8) فيقبل نحوهما نوتي اسمه فلجياس فيحملهما في زورقه إلى شاطئ البحيرة المقابل - ويصلان أيضاً إلى مدينة ديس حيث تعذب أرواح الجن والعفاريت ولكن هؤلاء الجن لا يسمحون لهما بدخول مدينتهم ويذودونهما عن أبوابها (9) ولكن ملكا كريماً يهبط عليهما فيدخل بهما إلى ديس حيث يريان أضرحة فيها نار مشبوبة تعذب فيها أرواح المجدفين والمهرطقين (10) ويأخذ دانتي في مجادلة بعضهم (11) ويبلغ دانتي الدرك السابع حيث يلقى كبيراً من هؤلاء الهراطقة ويتمنى لو أن جميع من لقيهم في الجحيم (في الدركات السابقة) كانوا في ديس ليتعذبوا كعذاب هؤلاء! وينظر دانتي فيرى إلى بعض المرابين (12) ويبلغان الدرك السابع حيث يقودهما سنتور عظيم فيقفز بهما من صخرة إلى صخرة حتى يكونوا في قرار الدرك. وهناك ينظرون إلى نهر من الدم تسبح فيه أرواح شريرة هي أرواح الذين آذوا جيرانهم. ثم يحملهما سنتور آخر إلى الشاطئ المقابل (13) فيشهدان طوائف من الأشقياء (14) في أقسام مستقلة من الدرك السابع. ويتحدث فرجيل إلى دانتي عن تمثال كبير كان في جبل إيدا (أولمب)؛ وهو الآن ينصهر منها في نيران الجحيم (15) ويقابلان حشداً من الأرواح الهائمة فوق الحصباء المتأججة تتلمس شاطئ النهر، ويشهد دانتي بينهم أستاذه (!) برونتو
لاتيني فيحادثه طويلاً (16) وينطلقان مع النهر حتى يصب في الدرك الثامن فيقابلهما فوج من مواطني فلورنسا العسكريين فيتحدث إليهم دانتي حتى يحجزهم عنه وحش من وحوش الجحيم (17) ويلقيان التنين جيريون فيرجوه فرجيل أن يحملهما إلى الدرك الثامن ويكون دانتي قد انتهز فرصة تحادثهما وانطلق يكلم الأشقياء الذين يعذبون هنا من أجل محاربتهم للفنون في الدار الأولى - ويركبان فوق ظهر جيريون (18) فينطلق بهما إلى الدرك الثامن الذي ينقسم إلى عشر دركات يصف الشاعر اثنتين منها فقط في هذا الفصل وهما درك المزورين ودرك المخادعين ويتعذبون في حميم آن وحمأ وروث (19) ويبلغان الدرك الثالث من الدرك الثامن حيث يثوي الخبثاء من رجال الكنيسة الذين دأبوا على بيع وظائفها بالمال (20) ثم ينتقلان إلى الدرك الرابع حيث يأوي الدجالون والمشعوذون (21) ثم إلى الدرك الخامس حيث يسبح المختلسون وآكلوا التراث في صديد يغلي وقار، عليهم حراس من زبانية شداد (22) وتقودهما طائفة من الجن في الدرك الخامس أيضاً ويحدث أن يحاول أحد المجرمين الإفلات من ربقة الزبانية (23) ويصلان إلى الدرك السادس حيث المنافقون يلبسون عباءات من نار وطراطير من جمر، وحيث إخوان الصفاء من أهل بولونا (24) وينطلقان إلى الدرك السابع حيث اللصوص والنشالون تقذف الحيات والأفاعي سمومها في وجوههم وحيث الطواعين تصطلمهم (25) ويلقيان شيخ المجدفين (فوشي) حيث تمزقه الثعابين وتنفث فيه سمها الأراقم، ويلقيان أيضاً بعض الفلورنسيين المارقين. (26) ويهطعان إلى الدرك الثامن حيث يعذب نصحاء السوء في لهب مندلعة ونار ترمي يشرر كالقصر كأنه جمالات صفر! وهنا يلقيان الفارسيين الإغريقيين ديوميد وأوليسيز فيتحدث ثانيهما عن كيفية موته (27) وجيد وذامونتفلترو (أحد الفلورنسيين من خصوم دانتي!!) (28) ويصلان إلى الدرك التاسع من الدرك الثامن حيث حشد الشاعر المتعصب من سماهم زراع الفتن وتجار الضلالات وحيث جعل منهم نبينا صلى الله عليه وسلم محمد بي عبد الله وابن عمه عليا ابن أبي طالب اللذين أتهمهما هذا الكاثوليكي الوقح بأنهما من أهل الشهوات وأهل الشقاق والنفاق (29) ويعبران إلى الدرك العاشر حيث المزيفون والكيميائيون تفتك بهم الطواعين وتضنيهم الأمراض (30) وفي هذا الدرك أيضاً يلقيان طوائف أخرى من النصابين والممالقين (31) ويسمعان نافخاً في صور يدوي في

آفاق جهنم فيقصدان إليه، فإذا هما الدرك التاسع من النار حيث المردة والشياطين وكل خناس عظيم. ويأخذهما أحدهم (أنتيوس) في قبضته فيجعلهما في قرار الدرك (32) حيث زمهرير وبرد وثلج وحيث بعض الإيطاليين جاثمون يتعذبون (33) ويتحدث إليه بعض هؤلاء بما كان من خيانة أحد مواطنيه ويحدثه عن جريمة قتل حدثت في فلورنسا ولم يعرف مقترفها (34) ويصلان إلى الدرك الرابع من الدرك التاسع فيريان الذين أساءوا إلى من أحسنوا إليهم، مطمورين في ثلج وجليد إلى أذقانهم. ثم يحملهما السنتور لوسيفي فيكونان في هذه الدار مرة أخرى ويريان النجوم تتلألأ في السماء كأنه لم يكن شيء!! وبذا ينتهي طوافهما بالجحيم

(لها بقية)

د. خ

شعراء الموسم في الميزان

نقد وتحليل

للأديب عباس حسان خضر

- 3 -

ثورة القدر

نظم الأستاذ أحمد محرم في هذه القصيدة قصص الأنبياء المقصوصة في القرآن ليشيع فيها فكرته: ثورة القدر؛ ففي كل من تلك القصص ناس ثار عليهم القدر. وليس فيما قصه (نظما) من جديد سوى أن يخبر عن أولئك الناس بأن الذي نزل بهم هو من ثورة القدر. ولقد حاول، في أبيات، أن يستخلص العبرة فكأن القدر وقف في سبيل توفيقه في ذلك. . . وليته ترك العبرة لتؤخذ من الخبر كما قال في القصيدة:

ما حياة المرء إلا خبر ... فخذ الحكمة من معنى الخبر

على أن قوام ذلك من استخلاص العبرة أو أخذها من الخبر، أن يمزج بأحاسيس الشاعر، ويؤدي إلى أحاسيس الناس فيطربهم، أو يجتذب ارتياحهم، أو ما بين ذلك من درجات التأثير. فماذا في القصيدة من ذلك؟ إليك المطلع تليه قصة آدم وإبليس:

عاصف ما قيل أمسك فازدجر ... زلزل الأقطار واجتاح البشر

هاجه من قبل في مربضه ... طائف ما مسه حتى انفجر

أخذ الخصمين في هبوته ... وهوى غضبان يرمي بالشرر

من طريد أهلكته سجدة ... وشريد غاله شؤم الشجر

ثورة في الأرض من آثارها ... كل يوم ثورة تزجي العبر

شمخ الكبر بهذا فهوى ... وأراد الخلد هذا فدثر

ثورة خاطئة لو لم تقم ... في ظلال العرش ما ثار القدر

تجمح النفس فلا تنفعها ... بينات الأمر من خير وشر

وجلال الحق في صورته ... مظهر العزة في هذى الصور

فاز بالرضوان من أكبره ... فتجافي عن هوان وصغر

فترى أن أكثر العناية في قوة الألفاظ وقوة القافية، وهذا موائم لحال المعنى؛ ولكن هذه الأبيات، بل القصور المؤلفة من صخور الكلم وجلاميد القوافي لا تملأ جوانبها روح الشعر، ولقد وصف الشعر في هذا البيت من القصيدة:

ومن الشعر قصور فخمة ... وقبور موحشات وحفر

بما ينطبق على شعره، فهو يقدم الشعر، من حيث الجودة والرداءة إلى القصور الفخمة والقبور الموحشة، فيعبر عن الشعر العالي بالقصور الفخمة وإن كانت غير آهلة!

سرد الشاعر القصص مبيناً فيها مواطن ثورة القدر، وفي جميعها لم يثر القدر إلا على أقوام أبوا إجابة دعوة الرسل وسخروا منهم وأفسدوا في الأرض فكان ما نزل بهم عقاباً لهم على طغيانهم؛ ثم أخذ يصف هذا القدر المعاقب بالظلم والبغي، فيقول:

ينصب الظلم على مخلبه ... ما تمنى من قصور وسرر

وترى البغي على أنيابه ... ناعم الروحات ريان البكر

فكيف يتفق رميه القدر بالظلم والبغي مع ما قدمه قبل ذلك من الإشادة بعدله في صرع المتجبرين العاصين؟!

والشاعر يتحدث في آخر القصيدة عن الشعر وعن موسم الشعر بدون مناسبة

للموضوع، ولو كان ثمة مناسبة لكان استطراداً مقبولاً
ولقد أحسن في وصف من أغرقهم الطوفان بقوله:
غمر القوم فهم في جوفه ... فتنة غرقى وكفر مستسر
أمم كالملح ذابت وقرى ... ذهبت كالحلم أو وهم خطر
فقد ألم في هذين البيتين بمعان سرية ودل عليها بأوجز لفظ
لامية نسيم
بي فوق ما بك منهم أيها الطلل ... لك البلى ولي التبريح والعلل
محتك من عاصيات الريح سافية ... وواكف من شآبيب الحيا هطل
أود أن أعرف أين الطلل الذي يخاطبه الأستاذ أحمد نسيم هذه المخاطبة، فما أظن من كان يحبها إلا ساكنة في (عمارة) أو (فيلا) أو في بيت عادي على الأقل. وإذا ارتحلت عن مسكنها فلابد أن يحل محلها من يعمره؛ وهو إذا بكى فلابد من هدمه وبنائه من جديد، فلا
الريح السافية تمحوه، ولا واكف المطر يهطل على رسومه. لقد كان الشعراء الأولون يقفون على أطلال حبائبهم، فتملأ نفوسهم تشوقاً وحسرة على ما مضى، فيقولون الشعر فيما يحسون، أما نحن في هذا العصر فلا نقف - بعد زوال عهد الصبابة - إلا على ما تحتويه أدراج المكاتب من الرسائل الغرامية والصور الفوتوغرافية وما إلى ذلك، فمن يقف منا على طلل فإنما يقف على طلل الزمن القديم لا على طلل الأحبة على أنه مهما يكن من شيء فان الأستاذ نسيم يكاد يبلغ في هذا المعنى مبلغ المجيدين من قدامى الشعراء، وخاصة في قوله:
(لك البلى ولى التبريح والعلل)
والقصيدة ليست في موضوع خاص، وإنما هي (لامية نسيم) أي أن موضوعها ما يقوله نسيم على قافية اللام. . . وهي مع هذا منسجمة المعاني، متآلفة الأجزاء، يزينها البيان، وأبياتها عامرة بالمعاني، منها قوله في وصف المشيب:
قل للمشيب إذا ما لاح مشتعلاً ... ما أنت إلا لظى في القلب مشتعل
إلى أن يقول:
كأنه أحرف بيض يسطرها ... في مفرقي كاتب للعمر مختزل
وأناشدك الشعر أن تقف معي برهة عند هذا القصر الفخم، لا البيت، ولا الطلل الذي وقف عليه الشاعر؛ لنجتلي ما يحتويه من الغرائب، فهذا كاتب يتعبه الحساب: حساب سني العمر الطويلة، فيعمد إلى اختزالها بطريقة غريبة، وهي تسيطر الحروف البيضاء في المفارق
ومن محاسن القصيدة قوله:
شرٌّ من الخطب مثر رحت تحسبه ... أهلاً لغوثك وهو العاجز الوكل
يختال في حلل خز ولو عقلت ... لنسلت نسجها من خزيها الحلل
وكيف يفخر مغتر بحليته ... وصدره من قلادات النهى عطل
شأن الغني الذي يضحي بلا عمل ... شأن الغبي الذي يزري به الكسل
ولكن وصفه لنفسه، بضمير الغائب، في قوله:
كأنه شامخ لا الحزن يوهنه ... ولا يحرك من أركانه الجذل
لا يليق بالشاعر الذي من خصائصه أن يكون مرهف الحس فلا بد أن يطرب ويحرك الجذل من أركانه
اجتماعيات
قصيدة الأستاذ السيد حسن القاياتي، وهي قصيدة قديمة تردد مجالس الأدب بعض أبياتها كقوله:
كأن وساما يعتلي صدر جاهل ... جنى من الأزهار يحمله قبر!!
ويتنادرون بأنه أنشدها المرحوم حافظ بك إبراهيم فلما جاء عند قوله:
لو إن المساعي تكسب المجد لم يلح ... بأوج العلا إلا أنا وأخي البدر
قال له حافظ: أيه يا أخانا. . يورى بأنه البدر
وهي - كسائر شعر القاياتي - نبيلة الأغراض، مركزة المعاني، وكثيراً ما أغار على معانيها لصوص الشعر كأن صاحبها قد أنهبها. . تضيق ألفاظها بمعانيها، فبعض المعاني يعوزه البسط في التأدية مثل قوله:

حبيب إلي الإنسان كل طريفة ... ولو بات في أثناء بردته البدر
فهو في حاجة إلى أن يبين بأن الملازم ممل ولو كان البدر؛ على أن أكثر المعاني يؤديها اللفظ بإيجاز بليغ كقوله:
شمائل غر أصبحت وهي سؤدد ... ويانعة الأثمار أولها زهر
والقاياتي عميق الفكرة، دقيق الالتفات، ولعل هذا هو الذي يجعله ضنيناً بالبسط، فهو يرى أنه أبان بتأديته المعاني بذلك الإيجاز، فالزيادة حشو، وهو يعلو في أسلوبه مترفعاً بالجزالة عن السهولة والتبذل، أنظر إلى قوله:
أَشَفُّ وصال الغانيات ملاحة ... تُلهِّيك بالحسناء ليس لها مهر
فأنك وأنا إذا أردنا أن نعلم ما يقول لابد أن نشحذ الذهن لينفذ إلى عمقه، وهناك نقف على معناه، يقول: ملاحة الحسناء التي لا تتزوجها فلا تدفع لها مهراً أشهى وصال الغانيات وأشده قتلاً للكلف المدلَّه
والقاياتي شاعر مجدد. . من المجددين الحقيقيين لا الذين يرددون كلمة التجديد، ويتحلون بمضغها، فهذه قصيدته قل أن تجد فيها معنى من المعاني العامة، فأكثرها مشابه من خواص المعاني التي لم يسبق إليها كقوله:
كأن وساماً يعتلي صدر جاهل ... جنىّ من الأزهار يحمله قبر!
وقوله:
تطالعنا تحت البراقع أوجه ... حسان كما يغري دُجُنَّته الفجر
وقد تناول في القصيدة بعض النواحي الاجتماعية بالنعي والنقد المر كقوله يصف المجالس والمجتمعات:
مجالس حفل بالقبيح كأنها ... مغاني بغايا ملؤها الفحش والهجر
إلى أن يقول في ذلك:
تحياتهم سب الجدود فكاهة ... وكم نيل فيمن يشتهون فتى برر
سباب تهاداه الثغور بواسما ... كأن الذي أهداه بينهم عطر!
وقد صور نوازعه وأحاسيسه في القصيدة تصويراً بارعاً صادقاً والأبيات الآتية تدل على نبل خلقه، وتصور ميول نفسه، قال:
إلى الله أشكو أنني لست واجدا ... سوى لذة من دون تحصيلها العهر
أشف وصال الغنيات ملاحة ... تلهيك بالحسناء ليس لها مهر
إذا أمكنت من ريقها الخمر صاح بي ... نذير الهدى: ما أنت والخمر
أمر بها في الكأس حمراء عذبة ... فأحسبها جمراً وفي كبدي جمر
وفي البيت الأخير يقول أنه يمر بالكأس حمراء عذبة، فإذا كان يشهدها حمراء فكيف علم عذوبتها؟!
قد يباح للشاعر أن يتردد ويتناقض في قصائد من شعره لاختلاف الظروف التي تحيط بمشاعره، فان للشاعر من ذلك ما ليس للعالم الباحث؛ ولكن لا يجوز له أن يتردد أو يتناقض في قصيدة واحدة، فكيف يجمع شاعرنا بين قوله:
كفى ضيعة للحسن خدر يصونه ... أرى الطيب كل الطيب أن يهتك الخدر
وقوله:
كناسكم يأيها الغيد أنني ... ضمنت لكم أن ينهب اللؤلؤ النثر
هو العار فليقن الحياء وإنه ... لكالنحر للعشاق أن يكشف النحر
وفي البيت التالي مغالطة:
يقولون إن الراح للفكر صيقل ... وربك ما في الراح عقل ولا فكر
فإن خلو الراح من العقل والفكر لا يمنع من أن تصقل الفكر، وهناك كثير من الأشياء تصقل الفكر وليس لها عقل ولا فكر
الشباب
والأستاذ حسين شفيق المصري لا يذكر الشباب إلا بالهوى والشراب كأن الشباب ليس فيه ما يذكر وما يتحسر عليه إلا الأوانس والحميا، فهو يقول في المطلع:
تذكر بعد أن شاب الشبابا ... فأنَّ وقد دعاه فما أجابا
وشاقته الأوانس والحميا ... فود من التشوق لو تصابى
وليس في القصيدة ذكر للشباب بغير اللهو والمجون، فهي لا تعني الشباب إلا بما فيه من التماجن، أما ما يلابس الشباب من نواحي الجد فلا أثر له فيها

والقصيدة عليها مسحة من الجودة، وفيها أبيات مطربة كقوله في وصف الكأس والنديم:

أيا حزناً عليَّ ولست أنسى ... ليالي كنت أحسوها شرابا
ينادمني غضيض الطرف صاح ... ذكي يستبيك إذا تغابى
يميل بكأسه يسقيك منها ... صفاء بعد أن رشف الحبابا
فلا أدري أكانت من رحيق ... كنفح الطيب أم كانت رضابا
سحرت وهل شرابك غير سحر ... وضوء الشمس بين يديك ذابا
حنانك أبق من عقلي قليلاً ... لأعلم حين تسألني الجوابا

وهذا في الحق إبداع وفي قوله: (ذكي يستبيك إذا تغابى) جمال يستبيك وشعر الأستاذ حسين شفيق خفيف الظل، تشييع فيه روح الفكاهة. ويظهر أن هذه الروح تلازمه حتى أنك تجدها في التحسر على سالف الشباب، وكم هو ظريف في قوله:

ومن يكتم حساب سنيه يوماً ... فصفحة وجهه تبدي الحسابا
كأن صفحة الوجه (عداد) للسنين . . .

وهو في هذا البيت:

ولولا أن يقال دهاه مس ... فخولط ما تأبيت الخضابا

لا يأبى الخضاب إلا خشية اللوم، أي أن الخضاب عنده إن لم يكن يوده فهو أمر لا غبار عليه، ولكنه في البيت التالي:

ومن ظن الشباب صبيغ شعر ... فان الصقر قد أمسى غرابا

يسخر من صبغ الشعر، فيقول أن صبغ الشعر لا يجتلب الشباب، وإنما يشوه، كما يمسخ الصقر غرابا إذا صبغ بالسواد، والخضاب والصبغ من قبيل واحد، فودادته الخضاب في البيت الأول لا تتفق من السخرية من صبغ الشعر في البيت الثاني وقد تعارف الناس على أن شارة الحداد السواد، ولكنه يقول:

اتخذت بياض رأسي لي حدادا ... على عمر الشباب فوا شبابا

فكيف يتخذ البياض حدادا؟

غريب في باريس

ليس يكفي هذا العنوان وعِلْمُ الناس أن الدكتور زكي مبارك قضى فترة من الزمن في باريس يطلب العلم في إحدى جامعاتها، لأن تصف هذه القصيدة غريباً في باريس، بل لابد أن تفي القصيدة نفسها بهذا الغرض، لابد أن تصف غريباً وتصور نوازعه وحنينه إلى وطنه، ولابد أن يكون هذا الوصف ملابساً لباريس مشتملاً على خصائصها. أما عن الشطر الأول فقد فعل وأحسن، وإن كان لم يُجد الإجادة التي تنبغي للدكتور زكي مبارك؛ تألم من الغربة فقال:

يا جنة الخلد كيف يشقى ... في ظلك النازح الغريب
الناس من لهوهم نشاوى ... ودمعه دافق صبيب
يقتات أشجانه وحيداً ... فلا صديق ولا قريب
أقصى أمانيه حين يمسي ... أن يهج الخفق والوجيب

وهذه الأبيات أحسن ما في القصيدة

وحن إلى وطنه فقال:

مغاني النيل كيف أقصت ... ربيب أزهارك الخطوب
وكيف ألقينه بأرض ... أصح أحلامها كذوب

وصور نوازعه إلى المجد الذي وقد اغترب من أجله فقال:

يسدد السهم ليس يدري ... أيخطئ السهم أم يصيب
يطارد المجد في زمان ... إقباله غادر لعوب
الشهم من ناسه شريد ... والحر من أهله غريب

وهذه الأبيات - وإن كانت عادية - فيها روح من يطارد المجد

وأما باريس، فلها الله باريس! كل ما أثنى به عنها قوله في المطلع: (يا جنة الخلد) وقوله بعد ما ذكر أنه ألقى بأرض أصح أحلامها كذوب:

أديم أجوائها سواد ... فلا شروق ولا غروب
وحب غاداتها موات ... فلا سكون ولا هبوب

أكل ما يقال عن باريس أن الضباب يملأ أجوائها وأن حب غاداتها موات؟ وهل تعد هذه الأشياء من خصائص باريس التي تميزها من غيرها؟ أو لا يصح أن يطلق على القصيدة بدلاً من (غريب في باريس): غريب في أي بلد من بلاد الله التي يصح أن تشبه بجنة الخلد، ويكثر فيها الضباب ويكون حب غاداتها مواتاً. .؟

ألا إن الغريب في باريس يقول قصيدة لم يقلها بعد الدكتور زكي مبارك

ثلاثة شعراء

هم الأساتذة: سيد إبراهيم، عزيز بشاي، كامل كيلاني. أنشد كل منهم قصيدة كنا نود لو أنشأ أو أختار من شعره غيرها تكون أدنى إلى الغاية المرجوة من الموسم، فالناس يبتغون من موسم محتفل له شعراً يشعرهم بجزالته وعلو معانيه وسمو أخيلته أن للموسم خطراً. . . أما الأول والثاني فكان قولهما تافهاً: معان عامة وأفكار عادية وأسلوب خال من القوالب والتعبيرات الشعرية مثل قول الأول يناجي ولده:

جذلان تفرح لو يز ... يد على نصيبك درهم

وقول الثاني يصف حال الأغنياء:

لا يملؤون بمليم عقولهم ... ويملؤون بطوناً بالجنيهات

وما إلى هذا مما لا نطيل بذكره لعدم فائدته. وإنه لخير للأستاذ إبراهيم أن يقتصر على خطه الجميل ويدع الشعر للشعراء

أما الثالث وهو الأستاذ كامل كيلاني فقد ألقى قصيدته (الباز والقبرة) وهي تحكي أن (بازاً) اصطاد (قبرة) فجاءه (لقلق) يأخذ عليه استبداده بالقبرة الضعيفة، فقال له الباز: وأنت أيضا

تصطاد الضفدع الضعيف فهلا تركته كما تريد مني أن أدع القبرة. ثم علق الأستاذ على الحكاية بعد أن ساقها نظما بقوله:

كم خطيب على المكا ... رم قد حث معشره

إن رأى ناكباً عن الخي ... ر لحاه وعيره

هفوات الورى يرا ... ها ذنوباً مكبره

ثم يلقي ذنوبه ... هفوات مصغره

مثل هذا منافق ... جعل النصح متجره

نصحه كله خدا ... ع وغش وثرثره

وموضع قصيدة مثل هذه كتاب من كتب الأطفال، لا موسم الشعر؛ وأسلوبها سليم، ونظمها طبيعي لا تكلف فيا أما نقدها من حيث الموضوع فمن اختصاص أهل العلم بتربية الأطفال، فلا نقول فيما لا نعلم

عباس حسان خضر

أثر الحرب الكبرى في بريطانيا - 3

للأستاذ رمزي ميور

أستاذ التاريخ الحديث في جامعة منشستر سابقاً

تتمة

ترجمة الأستاذ محمد بدران

ناظر مدرسة بمباقادن الابتدائية

وفي أيرلندة أيضاً لاح أن الحرب قد أتاحت لها فرصة العمل على نيل ما كانت تطلبه منذ زمن بعيد من تقرير حقها في الحكم الذاتي. وكانت أيرلندة هي الجزء الوحيد من أجزاء الإمبراطورية الذي انتهز فرصة الحرب للثورة مع أن هذه البلاد كانت من الوجهة القانونية جزءاً من المملكة المتحدة ممثلاً في البرلمان البريطاني أتم تمثيل. وقد فعلت أيرلندة ذلك من قبل فثارت في كل حرب من الحروب الأوربية الثلاث التي اشتبكت فيها بريطانيا في القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر. شبت الثورة فيها علنا سنة 1916، ثم أخمدت ولكن الحكومة شعرت أن من الخطر أن تطالب أيرلندة بما كانت تطالب به إنجلترا واسكتلندة وويلز من الرجال، ومع أن كثيرين من الأيرلنديين قد تطوعوا للحرب باختيارهم فقد بقي الشعب الايرلندي بوجه عام في معزل عنها يدعوا الله أن يخذل بريطانيا. ولما وضعت الحرب أوزارها شبت فيها من جديد نار الثورة التي كان يلوح وميضها خلل الرماد، ودارت فيها رحى حرب أهلية طاحنة انتهت بإذعان بريطانيا وتسليمها للقوة بما لم ترض أن تسلم به للنزاع

الدستوري فأعطت الايرلنديين أكثر مما كانوا يرتضونه قبل ذلك الحين، ذلك أنها قبلت في سنة 1921 أن تتكون من أربعة أخماس أيرلندة (دولة أيرلندة الحرة) وهي دولة ذات استقلال داخلي تام تتمتع بنظام (الأملاك المستقلة) وبحق تقرير ضرائبها الجمركية وإنشاء جيشها وسن قوانينها وسك عملتها. وبذلك كان جزء الإمبراطورية الوحيد الذي ظل طلبه الحكم الذاتي يرفض على الدوام جزءها الوحيد الذي نبذ كل فروض الطاعة والولاء أثناء الحرب، وكان أعظم النتائج السياسية للحرب وأعجبها أن انتهى بهذه الطريقة الحاسمة ذلك الكفاح الطويل الذي دام أربعة قرون، وتلك مقارنة ذات مغزى جليل تثبت أن الحرية لا الإرغام هي التي تمسك أجزاء الإمبراطورية وتمنعها من التصدع والانهيار، وهي أول إمبراطورية قامت في تاريخ العالم ينطبق عليها هذا المبدأ

وأول ما نشأ عن مطالبة أجزاء الإمبراطورية أن تشترك اشتراكا أوسع من ذي قبل في الإشراف على شؤونها أن دعيت طائفة من الساسة يمثلون الأملاك المستقلة والهند لينضموا إلى عضوية (المجلس الحربي) وكان لهؤلاء الأعضاء شأن كبير في تقرير السياسة التي اتبعت في آخر أدوار الحرب، وكان يظن أن هذا سيؤدي إلى وضع نظام للتعاون بين أجزاء الإمبراطورية أدق وأوفى بالغرض من النظام القديم. لكن شيئاً من ذلك لم يحصل لسبب رآه المتتبعون لسير الحوادث نذيراً بانحلال الإمبراطورية في المستقبل، ذلك أنه لما عقد مؤتمر الصلح حضره مندوبون عن الأملاك المستقلة والهند، ولكنهم لم يحضروه من حيث هم أعضاء في وفد الإمبراطورية البريطانية فحسب، بل من حيث هم ممثلون لبلادهم أيضاً، ثم وقعوا المعاهدات كممثلين لدول مستقلة، ولما تكونت عصبة الأمم ظهرت الأملاك المستقلة والهند مرة أخرى وإن كان ظهورها في هذه المرة اختلف بعض الاختلاف عنه في المرة السابقة؛ فقد جعلت الإمبراطورية البريطانية من حيث هي وحدة قائمة بذاتها عضواً دائماً في مجلس العصبة، لكن كندا واستراليا وزيلندة الجديدة وجنوب أفريقية والهند أصبحت كلها أعضاء في الجمعية العمومية للعصبة لها ما للدول المستقلة، وأصبحت كندا بالفعل عضواً من أعضاء المجلس غير الدائمين. ويرى البعض في هذه الظواهر دليلاً على أن الإمبراطورية لا ينظر إليها في هذه الهيئة العالمية كما ينظر إلى وحدة سياسية، بل يعامل كل جزء من أجزائها معاملة دولة مستقلة ذات سيادة، ويعزز هذا أن تلك الأملاك أعطيت حقها كاملاً غير منقوص في بحث المسائل الدولية داخل العصبة أو عن طريقها، وأن الذي تبحثه ليس هو السياسة التي يجب أن تسير عليها الإمبراطورية المؤلفة من هذه الأملاك، بل إنها تشترك في البحث اشتراك الدول المستقلة

وهكذا أظهرت الحرب ولاء أعضاء الإمبراطورية لها، ولكنها أعقبها ضعف ظاهر في الروابط التي تؤلف بين هؤلاء الأعضاء. فالأملاك المستقلة تطلب لنفسها حق تعيين سفراء من قبلها لدى الدول الأجنبية وأصبحت تتمتع بهذا الحق دون معارضة، فقد عينت كل من

كندا وأيرلندة سفيراً لها في واشنجتن، وتطالب هذه الأملاك أيضاً بحق عقد المعاهدات مستقلة مع الدول الأجنبية. وقد عقدت جنوب أفريقية بالفعل معاهدة مع ألمانيا. واعترفت بريطانيا نفسها بهذا الانحلال التدريجي وبتفكك وحدة الإمبراطورية السياسية فقد نص في معاهدات لوكارنو صراحة على أن بريطانيا وحدها هي التي تربط بالتعهدات المدونة في هذه المعاهدات وأن الأملاك المستقلة لا شأن لها بها. ووضع هذا النص بناء على طلب الأملاك المستقلة نفسها لأن السياسة التي قامت عليها هذه المعاهدات لم تكن وليدة اتفاق عام بين أجزاء الإمبراطورية بل قررتها بريطانيا بمفردها إذ لا توجد أداة لوضع سياسة عامة تسير عليها الإمبراطورية

وبهذه الطريقة أصبحت الإمبراطورية البريطانية بعد الحرب هيئة سياسية مفككة العرى؛ فليست هي دولة واحدة إلا في خضوعها خضوعاً اسمياً لتاج واحد، وليست هي دولة تعاهدية أو حلفاً قانونياً أو عصبة مجتمعة تعرف بها، وذلك لأنه لا توجد معاهدة تحتم على أعضائها الاشتراك في العمل. وإنما هي شركة مفككة مكونة من دول مستقلة تربطها بعضها ببعض عاطفة ومصالح مشتركة ولكل عضو فيها كامل الحرية في أن يختط لنفسه الخطة التي تلائمه في أي وقت شاء. واعترف بهذا اعترافاً كاملا

صريحاً في المؤتمر الإمبراطوري الذي عقد في عام 1926 والذي كانت قراراته من أهم الحوادث البارزة في تاريخ الإمبراطورية البريطانية. وقد يرى فيها المؤرخون في المستقبل تسجيلاً نهائياً لترك كل محاولة ترمي إلى تدعيم وحدة الإمبراطورية السياسية واعترافاً بانحلال هذه الإمبراطورية انحلالاً ودياً نهائياً. والدليل على ذلك أن الأملاك المستقلة أعضاء في عصبة الأمم تربطها بها روابط وثيقة وليست أعضاء مرتبطة في جسم الإمبراطورية

ومع هذا فإن الأملاك المستقلة (مع جواز استثناء دولة أيرلندة الحرة وجنوب أفريقية) تعد نفسها مرتبطة بالإمبراطورية برباط أقوى مما بينها وبين العصبة. وإنما الفارق بين الهيئتين أن العصبة أوجدت أداة للاستشارة المشتركة، والعمل المشترك أحكم من كل ما فكرت فيه الإمبراطورية. فللعصبة جمعيتها العمومية التي تنعقد بانتظام في كل عام والتي تدور فيها المناقشات العامة، وللعصبة مجلسها الذي يجتمع ثلاث مرات في السنة. أما الإمبراطورية فليس لها إلا المؤتمر الإمبراطوري الذي يجتمع مرة في كل أربع سنوات

والذي حددت له واجباته. وللعصبة سكرتيرية بديعة النظام ذات هيئات خاصة من الخبراء تبحث المشاكل الحربية والاقتصادية ومسائل العمال والصحة وما إلى ذلك؛ أما الإمبراطورية فليست لها هيئة مركزية إلا وزارة المستعمرات التي هي جزء من الأداة الحكومية لعضو واحد من أعضائها وهي لذلك لا تستطيع أن تعمل معتمدة على تأييد جميع الأعضاء

ويرى الجنرال أسمطس الذي ربما كان أعظم ساسة الإمبراطورية كلها والذي كان منذ ثلاثين عاماً يقاومها بقوة السلاح، ويرى هذا الجنرال أن الحكومة اللامركزية في الإمبراطورية وصلت إلى أبعد حد حتى أصبحت انحلالاً حقيقياً، وهو قوي الاعتقاد بأن الرابطة السياسية التي نشرت لواء السلام على ربع بلاد العالم هي رابطة جليلة القدر يجب ألا يسمح لها بالانحلال تدريجياً، ولذلك يدعو إلى العمل فوراً لتقوية هذه الرابطة بوسيلة لا تنقص من استقلال أجزاء الإمبراطورية كما لا تنقص عصبة الأمم من هذا الاستقلال

فإذا ما شرع في العمل لهذه الغاية فان أربعة أمور تجب مراعاتها بنوع خاص: أولها أن توجد وسيلة للتشاور الدائم في السياسة الخارجية تضمن اتحاد الإمبراطورية كلها في العمل داخل دائرة العصبة وبهذه الوسيلة يتسنى للإمبراطورية (التي هي أكبر قوة لنشر لواء السلم في العالم) أن تضطلع بقسط كبير في تقوية دعائم السلم العالمي. والأمر الثاني أن توضع سياسة مشتركة للدفاع الإمبراطوري يمكن بواسطتها تنفيذ العهود التي يلقيها على عاتقها ميثاق العصبة ونشر لواء السلم والقانون في الأصقاع الواسعة المتأخرة غير المستثمرة داخل الحدود الإمبراطورية. والأمر الثالث أن توجد وسيلة للتشاور والإتقان على الطريقة التي تعامل بها الشعوب المتأخرة التي تكون الآن قسماً كبيراً من سكان الإمبراطورية. ذلك بأن تبعة حكم هذه الشعوب المتأخرة يقع معظمها الآن على عاتق بريطانيا. غير أن أفريقية الجنوبية تقع عليها أيضاً تبعات كبيرة من هذا القبيل. كذلك انتدبت استراليا وزيلندة الجديدة بعد الحرب لإدارة أرضين واسعة في غانة الجديدة وجزائر المحيط الهادي. وتعاني كندا مشاكلها الخاصة في كيفية حكم الهنود الحمر في غربها والإسكيمو في شمالها. ومع أن الشعوب البريطانية أخذت على عاتقها هذه التبعات العظيمة وهي إرشاد الشعوب المتأخرة ونشر المدنية بينها فإنها لم تعن إلا عناية قليلة بدراسة

المشاكل الناشئة من هذا الواجب دراسة علمية، ولم تحاول الشعوب البريطانية أن تتبادل الرأي للاتفاق على المبادئ التي يجب أن تسير عليها في تحضير هذه الشعوب. وأخيراً إن الإمبراطورية في حاجة شديدة إلى اشتراك أجزائها في العمل في الميدان الاقتصادي. لقد أخذت الشعوب البريطانية على عاتقها القيام بعمل كبير هو تنمية موارد أصقاع واسعة في العالم، لم تنمَّ بعد، حتى تنتفع الإنسانية بهذه الموارد، ولكنها لم تعر هذا العمل ما يستحقه من العناية. وليس لها أن تعده مجرد وسيلة لاستغلال هذه البلاد أو تتركه للظروف والأقدار أو تكله لإشراف الاتحادات التجارية الكبيرة غير المنظمة بل يجب عليها أن تفكر فيه وتنظمه على قاعدة تعاونية بالاتفاق مع جميع الدول الداخلة في دائرة الإمبراطورية والتي تشترك معها في تحمل تبعته كما أن عليها

عندما تقوم بهذا الواجب أن تراعي جانب العدل في معاملة الشعوب الهمجية
إن المجال لا يتسع هنا لبحث ما يتبع من الوسائل في أداء هذه الواجبات أو الأداة
اللازمة لأدائها، ولكن الذي لا مرية فيه أنه إذا لم يشرع العاملون على تنمية موارد
الإمبراطورية في عملهم بمثل هذا الروح الذي وصناه وهم عالمون بما في وسعهم أن
يصلوا إليه بمجهودهم، إذا لم يفعلوا ذلك فان الأمل قليل في بقاء الإمبراطورية
البريطانية كهيئة سياسية عاملة. لقد أخذت هذه الإمبراطورية تسير بعد الحرب نحو
الانحلال السلمي بخطى سريعة، وإذا ظلت تسير في هذه السبيل كان ذلك دليلاً على
إفلاس السياسة البريطانية
ولقد كان من نتائج شعور الإمبراطورية بحاجتها إلى سياسة تعاون قومية أن وضعت
عدة اقتراحات ترمي كلها إلى تدعيم وحدتها بتقوية الروابط المالية بين أجزائها
المختلفة. ومن هذه الاقتراحات أن تترك الأملاك المستقلة والهند سياسة الاكتفاء
بالنفس من الناحية الاقتصادية أو تعدلها بعض التعديل على أن تعود الإمبراطورية
مجتمعة إلى السياسة التي كانت تسير عليها بين عام 1660 وثورة المستعمرات
الأمريكية فتبدأ بإقامة سياج جمركي حول الإمبراطورية كلها بصد تجارة البلاد غير
البريطانية ثم يتبع في داخل هذا السياج بالتدريج نظام التجارة الإمبراطورية الحرة.
ويرجو أنصار هذا الرأي أن تؤدي هذه الوسائل إلى تمكين الإمبراطورية البريطانية
بصفة عامة من الاكتفاء بنفسها وهو ما تعجز عنه بريطانيا وحدها بطبيعة الحال. وبذلك
تصبح الإمبراطورية وحدة مالية على نمط
الولايات المتحدة الأمريكية وتحقق الفكرة التي يدعو إليها بعضهم لتكون علاجاً لما نزل
بأوروبا من الكوارث وهو إنشاء ولايات متحدة أوربية وإن كان الأمل في تحقيق هذه
الفكرة ضعيفاً. على أن الصعاب القائمة في وجه هذا المشروع البريطاني كبيرة جمة.
منها أن الأملاك المستقلة والهند لم تظهر دليلاً على استعدادها لترك سياسة الاكتفاء
بالنفس التي تسير عليها أو تسمح بدخول البضائع البريطانية التي تنافس منتجاتها إلى
بلادها، ومنها أن الرخاء الذي تتمتع به معظم البلاد التابعة للإمبراطورية ناشئ من
قدرتها على الاتجار بكامل حريتها مع جميع بلاد العالم وان الأمم التجارية الأخرى
تعارض في نقض هذه السياسة. وزيادة على ذلك فإن المعاهدات التي تحتم على كثير
من الأملاك البريطانية وبخاصة ما كان منها تحت الانتداب أن تسوى بين بضائع جميع
الأمم في بلادها وحتى إذا أمكن التغلب على هذه الصعاب فان كثيرين من الناس
يعتقدون أن الإمبراطورية إذا استحالت وحدة مالية مستقلة عن غيرها أصبحت سبباً
للاحتكاك والحرب بدل أن عاملاً من عوامل السلم، وإن إتباع سياسة الاكتفاء بالنفس
والاستقلال عن الغير إلى هذا الحد الكبير يجر الخراب على العالم، ومن الناس من
يعتقد أن بريطانيا نفسها لا تستطيع وهي آمنة أن تغامر هذه المغامرة الخطرة فتضحي
بثلثي تجارتها مع البلدان الأجنبية لكي تنمي الثلث الباقي وهو تجارتها مع سائر أجزاء
الإمبراطورية
على أن الجدل الذي قام حول هذه المشكلة المالية لا يمت بصلة إلى المشكلة
الأخرى الكبيرة التي قد تطغى عليها المشكلة المالية وهي: هل يسمح أن تستمر
عملية التفكك التي يلوح أنها أخذت تدب في جسم الإمبراطورية بعد الحرب دون أن
تتخذ الوسائل لوقفها عند حد؟ وهل تستمر الإمبراطورية على إنها أخوة من الأمم لا
يرتبط بعضها ببعض إلا برباط العواطف وأن يكون ما فيها من أداة للتعاون أقل صلاحاً
للعمل من أداة عصبة الأمم وهي الهيئة التي ليس بين أعضائها من الروابط ما بين
أجزاء الإمبراطورية؟ أو هل يستطاع إيجاد وسائط للتشاور والاشتراك في السياسة
الخارجية والدفاع وحكم الشعوب المتأخرة وما اضطلعت به من إنماء موارد البلاد
الواسعة من غير أن يمس ذلك استقلال أعضائها الداخلي بحال من الأحوال؟ إن هذا
النظام إذا أنشئ لا يتعارض بطبيعة الحال مع الأغراض التي قامت من أجلها عصبة
الأمم بل يقوى بناءها ويمكن أساسها، كما أنه لا
يزيد في أخطار الاحتكاك والنزاع إلا إذا اتبعت فيه سياسة العزلة التجارية. ولن يكون
له إلا معنى واحد وهو أن أكبر إخاء من الشعوب المختلفة رآه العالم في تاريخ حياته
يستخدم ما يخوله التعاون من قوة في استثمار موارد ربع أنحاء المعمورة وتهيئة هذه
الموارد لخير هذا الإخاء ولخير العالم المتمدين كله ولترقية الشعوب المتأخرة

ليس بين المشاكل التي خلفتها الحرب وتركتها من غير حل أعقد من هذه المشكلة وأعصى منها على الحل.

محمد بدران

مقطوعات شعرية

للأستاذ عبد الرحمن شكري

صلاح الحياة أم غايتها

قل كيف نحيا ولا تقل لي ... ما حكمة العيش والبقاءْ
فمطلب للعلاء يحدو ... وآخر كله عناء
كم سأل السائلون قدماً ... ما الكون ما العيش ما الفناء
مسألة ما لها جواب ... وليس يُلفَى لها غناء
كساخط من طروق داء ... وتارك خلفه الدواء

ود الأسى

يا رفاقاً طالما أَنْسَنْهم ... لذةُ العيش حزيناً، يا رفاق
قد وجدت الصدق في ود الأسى ... مِقَةُ اللذات كسب ونفاق

غبي ذكي

يا غبياً رأى الذكاء شقاء ... ورأى النحس أن يكون أريبا
أنت أذكى من الذكيِّ الذي يح ... يا شقياً لكي يكون أديبا
وإذا كانت الغباوة نعمى ... فمن الحمق أن تكون لبيبا

البصير الأعمى

يا قلب صبراً ولا تعتب على قسَم ... قد استوى الناس في عتب على القِسَمِ
الحظ أعمى لدى من لم ينلْ أرباً ... وهو البصير لدى من فاز بالنعم

خطة الضعة

في كل نفس من نفوس الورى ... شيء من الحقد وسوء الظنون
إن كَذَّبَ المُثنى على نفسه ... صَدَّقَ من يُزْري بفضل القرين
لذاك يُعْلى الخب من نفسه ... إن هَدَّ من فضلٍ بمدحٍ قمين
أكثر من إعلائه نفسه ... بأن يزكي النفس عند الفطين

ناجح

كل بِشْرٍ منه فَخٌّ ... كل لفظ منه غدرْ
بلغ النجحَ بلؤم ... إن بعض النجح وِزْرْ

الكذب

للكذب في الناس أوساط مُجَنَّحةٌ ... والصدق يسعى لديهم كالسُلَحفَاةِ
يهوون ما لا يسيغ العقل من كذب ... وينبذ الحق من حرص المجاراة
كأنما الكذب ملح يستلذ به ... طهي الحديث وإشباع السخيمات

إخفاء السريرة بالنطق

أتحسب أن الله أعطاك منطقاً ... لتبسط من لغو الكلام على الصدق
وإن لسانا بين فكيك ناطق ... لإخفاء ما دون السريرة بالنطق
وتكتم ما قد يُظهِر الوجه أمرَه ... بقولك قولاً باطلاً مشبه الحق

عجائب الحقد

عجبت للمرء في بغض وفي مِقَةٍ ... هما العجيبان إن آخى وحين عدا
يرمي النِّفَايةَ لا يبغي لها ثمناً ... حتى إذا ما حواها راغب حسدا
ويغفر الذنب من إحسان فاعله ... حتى إذا ما نفدت آلاؤه حقدا

فخر الناجح

قبيح نجاح المرء إن هو شأنه ... بفخر فلا يقْبُح نجاحك بالفخر
كأن لم يكن أهلاً له حين ناله ... هو الصمت قد يُطري إذا الفخر لا يطري
جلا منه عيب النفس من بعد ستره ... كذاك حديث العهد بالمال واليسر
ويا رُبَّ نُجْحٍ يسلب المرء رشده ... ويبدي خصالاً منه تقتل أو تُزري

نذالة الحسد

عدوك مرجوٌّ فإن كان حاسداً ... فلا رحمة ترجى لديه ولا عدل
وليس بنذل كل من صال أو عدا ... وتاب ولكن الحسود هو النذل

مغفل لمغفل
قالوا الأنام إذا اختبرت أمورهم ... وبلوت من أحوالهم ما يبتلي:
غر يخادعه لئيم عاقل ... ولبئس حظ المرء إن لم يعقل
كذبوا، فما عيش الأنام وهزله ... إلا خداع مغفَّلٍ لمغفل
يتهارشون على الحياة ورجسها ... فعل الكلاب على خبيث المأكل
عبد الرحمن شكري
جهاد فلسطين
للأستاذ أمجد الطرابلسي
ثاوٍ فهل تستطيعُ إخمادَهُ ... عزْمٌ أراد الله إيقادَهُ
لا يأتلي مُضطرِماً لاهِباً ... أو يلقَفَ الظلْمَ وأجناده
ويصرَعَ البَغيَ وأنصارهُ ... ويحطِمَ الذُّلَّ وأصفاده
قد وَثَبَ الشعبُ يرُدُّ الأذى ... وينزعُ الغُلَّ الذي آدَهُ
يُرخِصُ للأوطانِ آمالَهُ ... طوعاً، وَدُنياهُ وأولاده
والدَّمَ فوّاراً يُروّي الحِمى ... أغوارهُ العطشى وأنجاده
يسكُبُهُ كلُّ فتىً سيِّدٍ ... لا يرهب البَغيَ وإيعاده
الدَّمُ في أعراقِه صارخٌ ... يدعوه أن يبعثَ أمجاده
والثأرُ في خَفّاقِه ثائرٌ ... يدعوهُ أن يُطفِئَ أحقاده
والسيفُ، قبل النصر، في كفِّهِ ... أقسمَ لا يسكُنُ أغماده
أما سمعتم أمسِ تَرْآرَهُ ... يُطبِّقُ الأرضَ، وإرعاده
ذاكم وَعيدُ اللَّيثِ؛ ويلٌ لمن ... ينتهكُ الغابَ ليصطاده
تُمَزِّقُ العاديَ أنيابهُ ... وقد يصيدُ الليثُ صيَّاده
قُومي فِلَسطينُ على المعتدي ... وقَوِّمي بالحقِّ مُناآده
قومي على الذلِّ، على واغلٍ ... سِيمَ هوانَ الذلِّ فاعتاده
قد تَخِذَ الخنْلَ إلَهاً لهُ ... والمالَ والباطِلَ أعضادّه
قومي فإن النصر ما عَلَّهُ ... مِثلُ دَمِ الأحرارِ أوجاده
غيرُ دمِ الأحرارِ لا يُرْهِقُ ال ... بَغيَ ولا يحطِمُ أقياده
غيرُ دمِ الأحرارِ لا ينقَعُ ال ... ثأرَ ولا يُطفِئُ وَقّاده
غيرُ دمِ الأحرارِ لا يبعَثُ ال ... مَجدَ ولا ينشُرُ أعياده
قومي فَهل أمجدُ من أمَّةٍ ... لا تَرهبُ الجوْرَ وإرْباده
قومي فهل أخلَدُ ممن قضى ... فشادَ للتاريخ ما شاده
ماتَ ليحيا وَطَنٌ مُرْهَقٌ ... عانٍ يريد اللهُ إسعادَه
قومي وَغنّينا نشيد الرَّدى ... لا تسأمي في النقع ترداده
فالموتُ للمغلولِ حُرِّيةٌ ... والموت لا يمنعُ وُرّاده
يأيها العادِي رَبيبَ الأذى ... يا عِترةَ الشرِّ وأنداده
يا شيعةَ الغدرِ وأنصارَهُ ... يا عصبةَ المالِ وعُبّاده
القبلةُ الأولى، على جودِها، ... لا تُكْرِمُ الذُّلَّ وأحفاده
لا تُنزِلُ الشدّادَ، في قُدْسِها ... طرائدَ الغربِ وأوغاده
من ذا الذي ارتادَ لكم مَنزِلاً ... في الشامِ؟ إن القبرَ ما ارتاده!
زُمّوا رِحال الشؤمِ من قبل أن ... نبتلع الظلمَ وأسناده
فازَ الذي يجمع أطمارَه ... للْبَيْنِ، أو ينزعُ أوتاده
الغِيلُ من يجعلُهُ دارَهُ؟ ... والسُّمُّ من يجعلُهُ زاده؟
غرَّتكمُ استجمامةٌ للحِمى ... فَخِلتُم للهُونِ إخلاده
والغابُ لا تستطيعُ إخضاعَهُ ... حتى تَخطي قبلُ أساده
يا عربُ هيا فانصروا مَوْطِناً ... للعُرْبِ، هاجَ القِدُّ أفراده
هناكَ شعبٌ عربيُّ الهَوى ... يحاولُ الغاصبُ إنفاده
يسومُهُ الخسْفَ وأغلالَهُ ... ويدَّعي بالنارِ إرشاده
ثارَ على ظُلاّمِهِ مُكرِماً ... تُراثَه الأسمى وأجداده
مجاهداً أقسمَ لا ينثَني ... أو تُعْتِقَ الأطواقُ أجياده
شعبُ فلَسْطين يناديكم ... مُستبْسِلاً، يصرَعُ جلاّده

تُدَمِّرُ النيرانُ أبياتَهَ ... وتحصُدُ الأسيافُ أجساده
أخاكمُ يا قوم! لا تُهملوا ... إرفاده اليوْمَ وإمداده
رِقّوا لِبَلْواهُ وَثوروا لهُ ... حتى يُبيدَ الحقُّ أضداده
فُذُلُّهُ تُكسوْنَ أبرادَهُ ... ونَصروُهُ تَجنونَ أورادَهُ
أمجد الطرابلسي

القصص

من الحياة

أهل ووطن

للأستاذ كامل محمود حبيب

أرخى الليل أستاره السود القاتمة على دنيا غضبى تزمجر في صوت عاصفة هوجاء، وسماء ينهمر منها سيل دافق، وقد قر كل إنسان في داره، ونامت الحياة في كل حي، والفتى جالس إلى موقد في زاوية الحجرة، تغمره لجة من الأفكار المضطربة، والخواطر المتناقضة، فتحجبه عن دنيا الناس. لقد رأى نفسه تعصف بها حادثات الأيام فتذرها بددا، فإن مد يده ليجمع أشتاتها لم يجد منها إلا صبابة من نفس لا تستطيع أن ترد إليه جمال الحياة التي عاش شطراً منها بين أهله وذويه، في وطنه الأول حيث ملاعب الطفولة ومراتع الشباب. وجاءته الذكريات من أقصى الطفولة تحمل على أجنحتها لذائذ ولذائذ لتنصَّب في قلبه هموماً وهموماً، واضطربت جوانح الفتى أن وقف خياله عند الساعة التي أفزع فيها هن وطنه وأهله فبكى بكاء الثكلى تفقد صبرها حين تفقد قلبها. ما الذي أزعجك عن وكرك أيها الطير وأنت ناعم على فنن تغرّد، ترى كل مباهج الحياة عند هذا العش الصغير؟ لقد ضاقت بك الدنيا لأنك تركت قلبك هناك. . . هناك في هذا العش . . .!

لم يكن الفتى كَلاً على أحد، ولم يكن معدماً، ولم يكن ضعيفاً ولا عاجزاً، ولكنه هجر وطنه وأهله حين لم يجد فيها جمال الوطن ولا عطف الأهل، وحين لم يجد بين أهله قلباً كقلب أبيه ينبض له نبضات الحنان والرحمة، ولا رجلاً في رجولته يفيض عليه من بسمات نور الحياة وجمالها. ووقف خيال الفتى عند الساعة التي همَّ فيها يفارق وطنه وأهله تتجاذبه عاطفتان: قلبه من خلف، وتأبِّيه أن يقيم على الضيم من أمام! ثم غلبته كبرياؤه فانصاع لها تقوده إلى حيث يجد أهلاً غير أهله، ووطناً غير وطنه؛ أو لا يجد . . .

ماذا كان؟ ماذا كان أيها المنزوي في ناحية من حجرة تحدث نفسك حديث الماضي؟

مرض الفتى فراح يَطبّ لمرضه في عزم الشباب وقوته، وأريد على أن يلبث في مستشفى حيناً، فما خاطب أهله في شأنه، وغاب عنه أن المرض ألم في الجسم وقلق في النفس، وأن الشفاء يحمل إلى المريض على كفين: كف الأسى وكف الطبيب معاً

لقد خاف - بادئ الرأي - أن يفزع أهله أن ساق إليهم الخبر في صورته المزعجة، فاستأنى حتى ينزع الطبيب مشرطه، ليرسل إليهم خبراً هادئاً فيفدون على مهل. ونفض جملة حاله أمام ابن عمه الشاب فلم ير هذا في حديثه إلا صفحة من الاعتداد بالذات، والتفاني في الوثوق بالنفس؛ ثم نظر إليه نظرات ذات معنى وقال: (أيضيرك أن تستعينهم على مرضك ووحدتك؟) فقال الفتى: (لا ضير؛ غير أنى أريد أن أفاجئهم بالخبر) قال الشاب (أفتراني أملأ فراغ قلبك حيناً من الدهر؟) قال: (ولم لا وقد عرفتك منذ نشأتي تفيض عطفاً وحناناً، وتسدي النصيحة خالصة للحب وللقرابة، وتنير لي طريق الحياة بحكمتك فأسير في سنا ضوء عقلك. لقد كنت لي جماعة في فرد. والآن. . . .. . والآن أريد أن أعرفك في مرض.) فصمت الشاب وقد حمَّله الفتى العبء وحده وحمل البرق رسالة الشاب (فتاكم في مستشفى (كذا) يطب لمرضه وينتظر قدومكم، لا خوف. . .) ثم انطلق الشاب يحمل إلى مريضه خبر الرسالة

هل وعى المريض ما قاله الشاب الباسم؟ لقد كانت وخزات الجرح تنفذ إلى قلبه في مثل طعنات الخنجر وهو يصمد لها في ثبات وصبر، وعلى وجهه علامات الضجر؛ وكان العرق ينضح من جبينه بارداً غزيراً ليرسم عليه صورة ناطقة لآلامه ومتاعبه. وأربد وجه الشاب حين رأى الفتى تتعاوره الآلام، وتتناهبه الأسقام، ثم ابتسم في رقة وهدوء ليداعب صاحبه وينزعه من آهاته العميقة، ولكنه كان يجهد نفسه ليرتد إليه جهده خائباً مخذولا

وفي أنة المحزون انقلب المريض إلى ابن عمه الشاب يقول: (ماذا فعلت؟ ماذا فعلت؟ أنني أريد أخوتي وأعمامي وأهلي. . . آه ما شعرت بالوحدة كاليوم. . .!) ورن صدى هذا الصوت الضعيف في قلب الشاب طعنات من يد القدر فراح يقول له . . .
ومضى يوم ويومان وثلاثة. . . ويد الطبيب تمر رفيقة على جرح المريض فيلتئم صدع منه على صدع، وتنفرج في قلبه صدوع وصدوع، لأنه لم يفز بعد برؤية أحد أقربائه؛ ولم يستشعر لحنان إلا من قلب هذا الشاب الذي يختلس من أوقات عمله فترات من فراغ يقضيها إلى جانب مريضه يواسيه ويعطف عليه ويحمل إليه - فيما يحمل - هدية صغيرة، تنتزعه حيناً من أفكاره المظلمة. . .
واستطاع الفتى أن يجلس إلى ابن عمه يحدثه: (ماذا جرى كأنك لم تقص على أهلي خبري. لقد مضى أسبوع ولم يزرني سواك. أنك تملأ قلبي سلوة وعزاء بجمال جلساتك القصيرة، ولكن. . .) وراح الشاب يتلمس لأهله الأعذار: (من ذا يستطيع أن يقول سأفعل. . . لعل حادثاً لم يترام إلينا خبره حال بينهم وبيننا. . . واضطربت الكلمات على شفتي الشاب حين أراد أن ينزع عن صاحبه بعض أفكاره، وحين أراد أن يقول له أنه أصاب الهدوء والراحة حين عاقهم ما عاقهم عن أن يسرعوا إليه. اضطربت الكلمات على شفتيه لأنه كان يسمع من أقصى ضميره صوتاً يقول: (أن لا عذر. . . لا عذر اليوم!) وكان يرى في إبطائهم استخفافاً وامتهاناً، غير أن حكمته أبت إلا أن تسدل على عيني الفتى ستاراً من الوهم. وما كان للفتى أن يسمع، وأن سمع فما كان له أن يصدق، فهو وحده يشعر بالوحدة حين يخلو إلى نفسه، وهو وحده يحس ألم الصدمة. لقد أراد أن يفجأهم بخبر هادئ فانصرمت أيام وما رآهم. وتماثل العليل للشفاء، وهمَّ يريد داراً غير هذه ولم ير منهم أحداً. يا ويح هذا الفتى! لقد راح يطلب الشفاء من علة في جسمه، فملأت الأيام قلبه عللاً سلبته لذة الشفاء
وجلس الفتى إلى عمه يعاتبه: (أفكان من العطف أن أنبذ في حجرة، وحيداً، متألماً، مريضاً، أقاسي ما أقاسي فلا أجد منكم من يزورني أو يكتب إلي؟ لقد كان أبي منكم بالمكان الذي تعرفونه، وكنت من أبي من تعرفون؛ أفلا ترعون حقه في أبنه الملقى على سرير في حجرة موحشة لا يجد من يواسيه إلا ابن عمه الشاب؟) وأحس العم عظم الخطيئة فراح يعتذر: (لقد حجبنا عنك موت إحدى قريباتك) وانطلق الفتى يقول: (لقد سعيتم إلى الميت وقد انتهى، ولبثتم حول قبره أيام تبكون، لتتركوا الحي الذي لا هو بالحي ولا هو بالميت يستروح نسمات الحياة منكم فما يجدها. أفبعد هذا تزعمون، وتزعمون. . .؟) وسبقت زلة من لسان العم: (ولكن. . . أن لك لهنات!) فأسقط في يد الفتى أن سمع عمه يتشفى، وآلمه أن ينتقم أهله. لقد زل الفتى مرة وكل فتى يزل، وما كان لهم أن يعاقبوه وهو يحن إلى بعض عطفهم، وما كان لهم أن ينبذوه في الهاجرة وهو المشوق إلى فيء ظلهم. أي أهل؟ وأي أنسانية؟ واندفع الفتى المغيض: (هذا وقت تنسى الهنات، وتنطوي الزلات. أن لي لهنات لأني لم ابلغ سن العقل، ولكم أخرى لأنكم لم تبذلوا النصيحة. ولقد كفاني أن تبدي لي الأيام ما كان خافياً، وأن تكشف لي الشدائد عن أشياء كنت أجهلها، وعن أخلاق ظننتكم تترفعون عنها. . .) ثم غمرت الفتى آلامه فأمسك، وترقرقت في عينه عبرة حبستها الكبرياء فما تبرح. غير أن أحزانه ثارت في نفسه فقال: (لقد ظننتكم أهلي، وركنت إليكم لأنكم أهلي، وشمت الخير فيكم لأنكم أهلي. أما الآن فيا خيبة الرجاء ويا ضيعة الأمل!)
ونزت في العم سورة من غضب أن رأى الفتى الطائش يلومه فيشتد في اللوم، ويعاتبه فيسرف في العتاب، وألم أن يقع بينهما تنابذ، ولكن الفتى كان قد صهرته الفكرة في بوتقة من الأحزان حين رأى عمه يتعلق بأوهى الأسباب بعد إذ عاقبه أهله على غير جريرة، في جفاء وغلظة، فرجع إلى نفسه يحدثها ويرغمها على أن تلقي السلم، فألقت واضطربت الخواطر في رأس الفتى، فتركته موزعاً ينحى على نفسه باللائمة أن قال. .
ولشد ما آلمه أن يكون هو ابن أبيه، ووحيده، واقتراحه على الله حين أعجزته الأيام عن أن يكون له ولد، والأمل الباسم في شيخوخة الشيخ وهو يدب على عصاه في طريق الفناء؛ ثم يرى أهله ينبذونه في مستشفى، ملقى على سرير، في حجرة موحشة، لا يأنس إلا بوجه ابن عمه الشاب عصر كل يوم، ثم هم يغلظون له في

الحديث، ويشتطون في العقاب. ولشد ما أحزنه ألا يكون له في هذا العالم إلا ابن عمه يحنو عليه، وينظر إليه نظرات فيها العزاء وفيها السلوة، ويدخل إلى نفسه بكلام في رقة الأصيل لينسيه بعض ما همه؛ وهو كان يرى - عن كثب - الفتى أو الشيخ من أسرته يصيبه بعض ما أصابه هو فينطلق إليه أبناء الأسرة زمراً زمراً يواسونه، ويعطفون عليه، وينزعون عنه آلامه وأحزانه. أما هو. . . أما هو. . .! وتناهبته الآلام: آلام المرض، وآلام الوحشة، وآلام عزوف أهله عنه، فأخفى ضعفه المنسكب من عينيه في منديل

وخرج الفتى من لدن عمه مطوياً على آلام مبرحة تحز في نفسه، وتعض على قلبه حين رأى قلوباً تأكلها أحقادها، وعقولاً تعصف بها ترهاتها، وضاقت الدنيا في عينيه حين انهار مثله الأعلى حجراً حجراً بعد ما رأى من عمه وما سمع، فهام على وجهه يطلب الفُسحة في أرض الله. . .

وهبت أول نسمة من نسمات الفجر تشهد قلباً كبيراً ينزح عن وطنه، ويهجر أهله إلى حيث تتقاذفه مطارح النوى، إلى حيث لا ينبض لذكره قلب. . .

وانصرمت سنون ألبست الفتى شيخوخة باكرة، ورسمت على فوديه آثار حادثة مروعة استقرت في خياله فما تريم، لقد سكن إلى وطن وأهل غير وطنه وأهله، وقلبه ما يزال عند الساعة التي أفزع فيها عن وطنه وأهله يبكي ويبكي. . .

ليتك نسيت أيها المنزوي في ناحية من حجرة تحدث نفسك حديث الماضي، ليتك نسيت أنك كنت. . .!

كامل محمود حبيب

مأساة من سوفوكليس

أنتيجونى - 3

للأستاذ دريني خشبة

- 6 -

(تدخل إسمنيه فيخاطبها الملك)

- (ها! هلا! أيتها الحية الرقطاء التي ما تبرح تتحوى هي وأختها تحت عرشي! ماذا عندك من سموم تنفثينها؟ خبري! ألست ذات ضلع في هذه المأساة؟ أم أنك ستحلفين بأغلظ الأيمان أنك لا تعرفين منها قلاً ولا كثراً؟)

- (إن كانت هي قد حدثت عني بشئ، فأنا شريكتها في كل شئ، ولن أقول شيئاً أتحلل به من نصيبي في القصاص!)

فتقول أنتيجونى: (حاشا! تأبى العدالة أن يحمل البريء وزر الجاني! أنا وحدي اضطلعت بكل شئ، ولقد رفضت أن أشركك في أي شئ!)

- (ولكني لن أدعك في تلك الملمة وحدك!)

- (الحنان من طرف اللسان لا يعنيني يا أختاه! الآلهة وحدها تعلم من فعل الفعلة)

- (أوه! أنت تأبين علي أن أقاسمك شرف الموت معك من أجل شقيقي!)

- (لا ينبغي أن تموتي معي من أجل شيء لم تجنيه! حسب أخي أن تموت أخت له واحدة في سبيله!)

- (وماذا أسيغ من مباهج الحياة بعدك يا أختاه!)

- (سلي كريون يجبك! إنه كفيل لك بكل هذه المباهج!)

- (وماذا يسرك من إيلامي ووخزي هكذا؟!)

- (قلبي مفعم بالألم، ومن أجل ذلك فشفتاي تضحكان عليك!)

- (وهل لك حاجة أستطيع أن أؤديها لك الآن يا أختاه؟)

- (أجل! حاجتي إليك أن تنجي بحياتك!)

- (وا أسفاه! أهكذا يحال بيني وبين مشاركتك هذا الجد؟)

- (ولمه؟ قد اخترت الحياة، أما أنا فقد فضلت الموت!)

- (لقد نصحت لك!)

- (أجل! لقد نصحت لي! وقد يحمد لك تيهك في هذا العالم الفاني، أما أنا، فستحمد لي الآلهة تفانيّ وحكمتي في العالم الباقي!)

- (ولكنا سيان في هذه الزلة)

- (لا تنزعجي يا عزيزتي! ستعيشين طويلاً! أما أنا، فقد قدمت حياتي قرباناً للموتى منذ

زمن طويل. وإذ يبلغ حوارهما هذا الحد، يقول الملك: (إحدى الفتاتين قد فقدت صوابها كله، أما الأخرى. . . فلا صواب في رأسها البتة!!)
فتقول إسمنيه: (مولاي! في مثل هذه المحنة لا يملك أحد صوابه!)
فيقول الملك: (على كل حال لقد فقدت صوابك بمحاولتك مشاركة هذه المجرمة في إجرامها!)
- (وما قيمة الحياة لدي إذا فقدت أختي يا مولاي؟)
- (لا تقولي أختي! إنها لا شئ! لا شيء منذ الآن!)
- (ماذا!! أتقتل خطيبة ولدك؟ أتقتل أنتيجونى؟)
- (النساء كثير يا إسمنيه!)
- (والحب!! الحب الذي ألف بين قلبيهما يا مولاي؟)
- (ومن يبتغي رفيق إفك وعرس خبث لولده؟)
وما كاد الملك يقولها حتى تنتفض أنتيجونى انتفاضة هائلة وتقول:
- (هايمون! حبيبي هايمون! كم ذا يسيء أبوك إليك!)
فيقول الملك: (بل أنت وزيجتك النكراء شجو علي، وظلام في حياتي!)
ويتساءل رئيس المنشدين: (وهل تفصل بينهما يا مولاي؟ أتحول بينها وبين ولدك؟)
فيقول الملك: (أنه الموت وحده سيحول بينهما!)
- (إذن. . . انقشعت سحب الريب! ستقتل الفتاة!)
- (ما في ذلك شك! أيها الجنود! هلموا بها إلى السجن! ستذوب شجاعتها حين يقترب الموت من عينيها العنيدتين!)
(يقودها الجنود إلى الداخل وتذهب إسمنيه في أثرها)
- 7 -
ويأخذ المنشدون في نشيد طويل حلو مليء بالعبرة مبلل بالدموع، ويذكرون محنة بيت قدموس منشئ طيبة وجد أوديب، ثم يرتلون صلاة شعرية لزيوس ما يوشكون يفرغون منها حتى يقبل هايمون المسكين العاشق - خطيب أنتيجونى - فيخاطب رئيس الخورس الملك قائلاً:
- (هايمون أيها الملك! ولدك الأوحد، وآخر عُسلوج في دوحتك! هاهو ذا مقبلاً وقد حطمه الهم، وهدمته المصيبة الفادحة. . . أوه! أنه يبكي! يا للآلهة! أيذرف الدمع من أجل حبيبته. . . الضحية؟ أم هو قد جاء يلتمس منها نظرة للوداع؟)
(يدخل هايمون)
- (من يستطيع أن يحدس؟ سنعلم كل شيء فانتظر. (مخاطباً ولده) أحق يا بني أنك جئت إلى هنا مدفوعاً بثورة من الهم مما آل إليه أمر خطيبتك؟ أكبر ظني أن حبك أباك سيرجح عندك كل حب، وطاعتك إياه ستبرر لديك تصرفاته مهما تكن!)
ويصبر قليلاً كمن جف لسانه من الظمأ والغشية، ويقول: (أنا ابنك يا أبتاه! سأخضع لكل ما ترى من رأي، ولن أوثر على محبتك أجمل حسبان الخلد)
- (بورك فيك يا ولدي لقد كان هذا أكبر رجائي في رجاحة عقلك وعظم قلبك! إنه ليس أحب إلى الآباء من ذرية صالحة طيّعة يخزون بها الأعداء، ويسرون بها الأصدقاء؛ وإني لأثق أن هايمون اللبيب لن يفقد صوابه من أجل امرأة! اسحقها يا بني كما تسحق ألد أعدائك، وأبعث بروحها الشريرة تبحث لها عن زوج شرير في ظلال هيدز!! لقد ثارت وحدها على الملك وعلى مجلس طيبة، وقد صممنا على إعدامها من أجل ذلك، ولن ننكص على أعقابنا فيما أبرمنا! إننا هنا لا يُملى علينا ونحن أصحاب الأمر والنهي، وقد ركزت المدينة الخالدة سلطانها المبين في شخصنا فيجب أن نطاع إطلاقاً ولو كانت أوامرنا ضرباً من الشطط. . . إنه لا يهدم عظمة الشعوب كقيام الرعية ضد ملوكها ولا يهزم الجيش العرمرم ذا الأيد كعصيان جنوده قواده! وسيرى الجميع أنني هنا لأحمي القانون، وأنني لست هنا لأذل أو أتقهقر أمام امرأة!)
ويقترب رئيس الخورس من الملك فيقول: (الحق قلت، والحق دائماً تقول!)
ويتقدم هايمون إلى أبيه الملك، ويشهق شهقة هادئة ويقول:
- (مولاي! السداد بذرة صالحة تغرسها الآلهة في نفوس الصالحين! ألا كبرت كلمة أن أقول إنك أخطأت يا أبي! ولكني كابنك الأمين أرى لزاماً على أن أتقصى أقوال الناس وأفعالهم، بل وآراءهم أيضاً في ملكي الذي هو والدي؛ وأكبر ظني أن سلطان الملك

يلجم أفواه الناس فما يحيرون؛ بيد أنني سمعت همساً أن الطيبيين على بكرة أبيهم يذرفون الدمع مدراراً من أجل الفتاة التي أمرت بإعدامها، وإنهم يرون في قضية القتيل رأيها ويؤيدونها كل التأييد. على أنها ماذا صنعت هذه الفتاة؟! لقد دفنت أخاها الذي غودر مضرجا بدمه، معفراً بثرى الجلبة، وأشفقت أن تدعه لكلاب الفلاة وبواشق الطير تنوشه وتغتذي به. . . . ألا وآلهة الأولمب إنها بالمكافأة أخلق، وبالعطف والإعجاب أحرى! بذلك تتلحلج ألسن القوم يا أبتاه، وهم يرددونه في كل مكان، فمن لك بمن يبلغك أقاويلهم غير ابنك الذي يحرص على سمعتك ونقائك كما تجهد أنت أن تبني له مستقبله وشهرته!! أبداً لا تسمع للذين يفتنونك عن نفسك حين يقولون لك أنك لا تعمل إلا الصواب ولا تنطق عن الهوى. فمثل ذلك لا يكون بشراً، في حين يخطئ البشر ويصيبون! ألا وأن من يدعي أنه أحكم الناس وأطيبهم كلمة يكتشف لك إذا خبرته عن خواء، وعن فؤاد هواء! أبي! ليس في الاصاخة للحق ما يُخجل، ولا في الرجوع عن الخطل ما يخزي! ألا وإن أضعف الكلأ ليقف لسيل العرم لأنه يلين له، في حين يجرف سيل العرم أذهب الدوح في السماء لأنه يأبى أن يلين لشيء! ألا وأن الملامح الذي لا يرخي العنان لهوج الرياح يكسر قلاعه ويفقد في اللجة آماله، فأي عار في أن تلين يا أعز الآباء؟! أنني ما أدعي الحكمة، ولا أقول بعلم كل شيء، ولكنك غذوتني، ونشأتني على الرأي السديد والتبصر، فأنا أعظك أن تكون ممن لا يرى إلا رأيه، أو يتبع هواه فيردي!)

ويلمح رئيس الخورس وجوماً بين الأب وابنه فيتدخل قائلاً:

- (مولاي! لا ضير أن تصغي لما في نصيحته من حق وأنت يا هايمون ينبغي أن تنتفع بتجاريب مولاك!)

فيقول الملك: (ها. . . هاها. . . بعد هذه السنين وذلك الشيب يرشدنا هذا الصبي الطرير!!!)

فيقول هايمون: (بما هو حق فحسب؟ ولا حساب للسنين في ضرورة تنزل بك قاهرة!)

- (وأي ضرورة في أن تلوذ بأذيال الثائرين؟)
- (أبداً لم ألذ بأذيال مجرم أفاق يا أبي!)
- (ولمه؟ أليست قد نهضت عليها الأدلة ودمغتها البراهين)
- (حاشا! إن طيبة كلها تنكر ذلك؟!)
- (وهل طيبة تحكمني أم أنا الذي أحكم طيبة؟)
- (في الحق أنها هي. . . لولا أن تسفِّه نعومة سني وتنسبني للنزق!)
- (أي أن آخرين يشركونني في أمري؟!)
- (أن رجلاً بمفرده لا يقوم مقام مدينة بأسرها يا أبي!)
- (أو ليس كل مدينة في قبضة ملكها؟)
- (هذا إذا كان الملك يحكم كثباناً في صحراء!)

ويكون الملك قد عيل صبره فيقول:

- (إذن. . . أنت حامي المرأة أيها البطل الصغير؟)
- (أنت هو المرأة!. . . وأنت وحدك الذي تعنيني!!)
- (وقح!! تأبى إلا أن تناقش أباك. . . سفسطة!!)
- (بل أجهد أن أردك عن التمادي في خطئك!)
- (وأي خطأ في أن أؤيد سلطاني وأحفظ وقاري؟)
- (وأي وقار في تحقير الآلهة؟)
- (أيها الشرير! يا من تأخذ بزمامك امرأة؟)
- (أجل. . . ولكنها لن تقودني إلى مفسدة!)
- (ولذا بذلت لها دفاعك!)
- (بل بذلته لك ولي. . . وبذلته من أجل الآلهة في الدار الآخرة!)
- (إنها لن تعيش حتى تكون زوجتك في هذه الدار الأولى!)
- (أعرف. . . وأعرف أيضاً من تكون سبب خرابه وانهياره بموتها!؟)
- (هه! أنت تهدد وتتوعد أيها العاق (يا قليل الأدب!))
- (ليس يتوعد ولا يهدد من يقول قولة الحق. . . والحق الصراح!)
- (هه. . . هاها. . . ستدفع ثمن هذه القحة! أيها الناصح الغبي!)

- (!!لو لم تكن ملكي وأبي، لزعمتك مذهوباً به)
- (!أنت! أيها المفتون! يا من تصيبك امرأة! أصمت! لا ترد علي
- (!ليكون كل الكلام لك)
- محال! هذا محال! لابد أن تجرع كأس المنون بين يدي عشيقها! لابد أن تردى أمام) ناظريه وملء عينيه! إلي بها. . .)
- بل هذا هو المحال! لا تحلم يا أبتاه بتجريعها كأس الموت من يديك أمام ناظري. . .) بل لا تحلم بأن تراني آخر الدهر بعد الآن!)
(وينطلق هايمون)
- 8 -
ويقول رئيس المنشدين: (مولاي! لقد أخذ الغضب منه كل مأخذ، والشباب المغضب يركب رأسه إذا أهين كبرياؤه، وقد يأتي من الفعال ما لا تحمد عقباه!
- ليفعل ما بدا له! ليركب رأسه في طريق من الشوك انه لن ينقذ الفتاتين مما قسم) لهما)
- (الفتاتان! وهل تُقتلان كلتاهما؟)
- (معك حق! بل الطائشة وحدها. . . تلك التي فعلت الفعلة!)
- (وبأية طريقة توقع عليها عقوبة الإعدام؟)
- في القبو!! القبو المظلم تحت هذا القصر. ستنفرد فيه وسيفرش لها مهاد من) الشوك يخز روحها وبدنها حتى تموت ولتعبد ولتبعد هنالك آلهتها. . . آلهة الفناء. . . حتى تقضي فيها قضاءها. . .)
(ويخرج كريون)
(لها بقية)
دريني خشبة
البريد الأدبي
الأدب الهندي في مختلف أطواره
تتكون اللغة الهندية الحديثة من ثلاثة عناصر؛ من أصول سنسكريتية خالصة ومن أصول سنسكريتية حورت بحسب الحاجة، ومن أصول حديثة مبتكرة أو مشتقة من اللغات الأخرى وهذه الأصول الثلاثة هي اليوم قوام اللغة الهندية المعروفة (بالهندستاني) أما اللغة الهندية التي اشتقت من الأصول الفارسية والعربية فتسمى باللغة الأوردية ويبدأ الأدب الهندي، كما تبدأ معظم آداب العالم، بالشعر؛ وينقسم الشعر الهندي القديم إلى ثلاث مراحل تتمشى مع سير التاريخ الهندي. فمنذ القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر حيث تكثر الحروب الأهلية والغزو الأجنبي، يسود الشعر عنصر الفروسية، وكان الملوك يومئذ يلحقون الشعراء بحاشيتهم، ليثيروا الحماسة في الصدور بشعرهم. وكان أعظم شاعر في هذا العصر هو شانديارداي صاحب المقطوعة الشعرية الخالدة: (برتفيراج رازو)، ويليه الشاعر بوشان صاحب مقطوعة (شيفاباواني)
وبعد الفتح الإسلامي ضعف شعر الفروسية في الهندية؛ فقد رأى الهنود ما أصاب دينهم من الذلة ومعابدهم من الهدم، فاتجهوا نحو الشعر الديني، واستمرت هذه المرحلة من القرن الرابع عشر حتى القرن السابع عشر؛ وينتمي جماعة من أقطاب الشعر الهندي إلى هذا العصر مثل كبير، وجورو، وناناك، وجياسي، وميرابي، وكيشافا، وصور، وتولسي، وتولسيداس وقد وهب هؤلاء الشعراء الأدب الهندي تحفاً رائعة من الشعر الخالد؛ وكان تولسيداس بالأخص نبياً كما كان شاعراً عظيماً؛ وكانت تحفته الخالدة (راميان) عاملاً في توثيق أواصر الوحدة الهندية. وقد ساهم الكتاب المسلمون في نهضة الشعر الهندي في ذلك العصر، وإن لم يكن شعرهم كله من النوع الديني وأما المرحلة الثالثة من شعر العهد القديم، فقد عرفت بمرحلة الشعر الشرعي؛ وقد ساد فيها السلام نوعاً، واتجه الشعراء إلى التنوع والابتكار؛ وكان أشهر شعرائها بهاري، وماتيرام، وبوشان، وصردهار كاويرايا
وبعدئذ طرأ على الشعر الهندي تطور عظيم، وأخذت الهندية الحديثة تحل تدريجياً مكان الهندية القديمة؛ وتطور الشعر ذاته فأخذ الشعراء يصفون الطبيعة والمسائل الاجتماعية

والسياسية، وكان البنديت شريدار باتالا في مقدمة الشعراء الذين استعملوا الهندية الحديثة، ومن مشاهير الشعراء المحدثين أيضاً، أبوديا سنغ أو باديايا، ومهابير دفيدي، ورمشاريت أو باديايا، وسريماتي ماديفي فارما

وأحدث أطوار الشعر الهندي، هو توجهه نحو (التصوف) وقد كان البادئ بهذا النوع الحديث من الشعر الشاعر الأمريكي والت هويتمان

وكان في الأدب الهندي قبل مجيء الإنكليز قليل من كتب النثر، وكان سادا سكلال، وانشاء الله، وسادالا مسرا طلائع النثر في الأدب الهندي، ثم جاءت البعثات التبشيرية بعد ذلك وترجمت الكتب النصرانية إلى الهندية؛ وألف الكاتب ساراسواتي كتبه بالنثر ومنها كتابه الشهير (ستيارث براكاشي) وذلك لكي ينشر دعوته الشهيرة (الآرياسماج)، وكان أعظم الكتاب الناثرين في هذا العصر بارتندو هاريشاندرا، فكتب بالنثر عدة قصص تمثيلية وأذاع دعوة النثر بين أصدقائه؛ وظهرت في ذلك العهد أيضاً بعض المجلات التي تكتب بالهندية المنثورة، ويعرف هذا العهد بعهد بارتندو

ويعرف العهد الثالث من النثر الهندي بعهد (ماهابير براساد)، ففي سنة 1903 انتخب هذا الكاتب الشهير لتحرير مجلة (ساراسواتي) في الله آباد، وقد كانت أشهر مجلة أدبية في ذلك العهد، وقد استطاع ساراسواتي أن يخلق بواسطة هذه المجلة معيارا جديدا لكتابة النثر الهندي، وأن يعاون على الظهور كثيراً من كتاب الشباب

ويبدأ النقد الأدبي في الأدب الهندي من ذلك التاريخ، وكان أشهر النقدة يومئذ المهابير براساد دويفيدي، والنبديت شارما، وبابوشيامسوندرداس، والنبديث شوكلا

ويمتاز العهد الحاضر من النثر الهندي بنشاط جم في جميع الفنون، وقد أدت ترجمة القصص البنغالية الحديثة إلى العناية بوضع قصص هندية مسرحية، وفي مقدمة مؤلفي المسرح اليوم جاباشانكار براساد، بيد أن الرأي العام لا يهتم الآن كثيراً بهذا النوع من الأدب بعد أن زاحمه القصص العام والسينما

وأهم أنواع الأدب الهندي المنثور اليوم هو القصص، وقد أدخلت القصة القصيرة إليه حديثاً، وأعظم كتاب القصص الهندي هو (مونشي برمشاند)، وقصصه من أعظم وأرفع الأنواع، ولو إنها توصف أحياناً بأنها مغرقة في المثل، وأسلوبه نموذج للشباب

وأما جاياشانكار براساد فهو فنان وشاعر يضع قطعاً مسرحية فوق مستوى القارئ العادي

وأشهر كتاب القصص في الهند اليوم هم سودارشان، وأورجا وشاتورسن ساستري، وجانندار، وهنالك مئات الكتاب الشبان الذين ينقطعون لكتابة القصة؛ ومادة القصص هي في الغالب المسائل الاجتماعية والسياسية، وهنالك قليل من الكتاب الفكهين

وهنالك مجلات هندية كثيرة من الدرجة الأولى، ومن أشهرها: شاند، وسارسواتي، وهانس، ومدهوري، وآرج، وبرأتاب، ونافيوج، وفارتمان، وغيرها

أما الأدب العلمي فلم ينضج في الهندية بعد، ولم يكثر إنتاجه. ذلك أن الهندية ليست وسيلة للتعليم الفني؛ ومع ذلك فقد ظهرت بالهندية عدة كتب علمية وفنية

ومن الظواهر الجديدة في الأدب الهندي، أن كثيراً من الكتاب الذين لا يتكلمون بالهندية يكتبون اليوم بها؛ ومن هؤلاء أمير خوسرو، ورحيم، وأمير علي مير، وغيرهم من الكتاب المسلمين

كتاب جديد لماري ستوبس

صدر أخيراً كتاب جديد للدكتورة ماري استوبس التي اشتهرت بمباحثها عن الحياة الزوجية، عنوانه (تطور الحياة عند الرجال والنساء) وتعالج الدكتورة استوبس في كتابها الجديد ناحية جديدة من الحياة الزوجية هي التطورات التي تطرأ على علائق الزوجين وعواملها النفسية والاجتماعية، وتحول عواطف الشباب إلى عواطف الكهولة؛ وتتناول بين موضوعات كتابها ما يأتي: التقدير الحسن والأزمات، التطور في الرجل والمرأة. بعض عوامل فسيولوجية في الرجل، بعض عوامل فسيولوجية في الجنسين، بعض هذه العوامل في المرأة، بعض وسائل المعالجة. . الخ وللدكتورة ستوب شهرة واسعة جدا بين الشباب الإنكليزي وهو يقبل على قراءة مؤلفاتها بشغف؛ مثال ذلك أنه بيع من كتابها عن (الحب الزوجي) نحو مليون نسخة في عشرين عاماً؛ ولها عدة كتب أخرى تلاقي في إنكلترا وأمريكا مثل هذا الانتشار المدهش

أثر تذكاري للموسيقي لست

من أنباء النمسا الأخيرة أن الحكومة النمسوية قد أعدت أثراً تذكارياً للموسيقي النمسوي
المجري الكبير فرانز لست لينصب في مدينة ايزنشتات من أعمال مقاطعة بورجنلند النمسوية، وذلك بمناسبة مرور خمسين عاماً على وفاته ومرور مائة وخمسة وعشرين عاماً على مولده؛ وقد ولد لست في سنة 1811 في ريندج من أعمال المجر يوم كانت قطعة من الإمبراطورية النمسوية ودرس في فينا وباريس، ونبغ في الموسيقى تأليفاً وعزفاً، وطاف عواصم القارة وبهر مجتمعات ذلك العصر ببراعته وسحر عزفه؛ وفي سنة 1865 اعتزل الحياة الدنيا واعتنق الرهبنة، ولكنه اشتغل بالموسيقى الكنسية، وألقى في كنائس أوربا الكبرى عدة قداسات موسيقية اشتهرت في ذلك العصر، وحجت إليها الجماهير من مختلف أنحاء العالم، وتوفي لست في سنة 1886، ومع أن لست كان مجرياً بمولده، فهو نمسوي التربية والفن، ولذلك رأت الحكومة النمسوية أن تكرم ذكراه بصنع هذا الأثر التذكاري ونصبه في مدينة ايزنشتات وهي التي عاش فيها لست أعواماً طويلة، وهذا الأثر عبارة عن تمثال رائع قام بصنعه المثالان الشهيران باراي وتسانباور؛ وقد أجرى رفع الستار عن الأثر التذكاري في حفل رائع في مدينة إيزنشتات، خطب فيه وزير المعارف ونوه بعبقرية الموسيقي الشهير، واختتمت الحفلة بعزف بعض قطع شهيرة من تأليفه

العدد 161 - بتاريخ: 03 - 08 - 1936

البك والباشا

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

وحدثني صاحب سرّ (م) باشا رحمه الله قال: جاء يوماً إلى زيارة الباشا رجلٌ دخل عليَّ متهللاً مُشرقَ الوجه كأنه مُضَاءٌ من داخله بشمعة. . . ويترنح غِطفاه كأنما تهزُّه أسرار عظمته، ويمشي متخلِّعاً كالمرأة الجميلة التي أثقلها لحمُها وأثقلتها المعاني الكثيرة من أعين الناظرين إليها، وعلى شفتيه خيال من فكرة هؤلاء الكبراء المغرورين الذين لا يأمر أحدهم رجلاً صغيراً إلاّ ليُعلمه إنه هو كبير فيكون في الأمر شيئان: الأمر واللؤم. وأقبل عليّ في هيئة شامخة لو نطقت لقالت: سبِّح اسمَ ربك الأعلى. سبِّح اللهَ الذي خلق في الأسد شعرةً جبارة خرج منها الأسدُ كله. . . .

سبحان الله ولا إله إلا الله. هذا (فلان باشا) الذي قرأت في الصحف أمس إنهم أنعموا عليه برتبة الباشوية؛ خلقه الله من تراب وحوَّلت الرتبة هذا التراب الذي فيه إلى ذهب خالص. . . ينظر إليَّ ويرغمه أن تقف عيناه عليَّ وعلى الحائط؛ ولا تجد نفسه المزهوَّةُ سبيلاً إلى التعبير عن الرتبة إلا هذا الازدراء المنبعث من شخصه العظيم لمن لم يكن كشخصه. ما بين أمسِ واليوم زاد هذه الزيادة الآدمية، أو كأنما كانت صورته خطوطا فقط فوضعت فيها الألوان. . .

هذه الباء وهذه الألف وهذه الشين الممدودة ليست حروفا خارجة من الأبجدية !(باشا) العامة، فإن الأبجدية قد تجعل الباء في بليد مثلاً، والألف في أبله، والشين الممدودة في شاهد زور مثلاً مثلاً. . . . بل تلك حروف من حروف الدولة منتزعة من قوة قادرة على أن تجعل لحياة صاحبها من الشكل ما يسبغه الفن على الحجر من شكل تمثال ينصب للتعظيم

قال: وكنت أعرف هذا الرجل وهو رجل أميٌّ لا يحسن إلا كتابة اسمه كما تكتب الدجاجة في الأرض. . . فكانت الرتبة عليه كإطلاق لفظ الحديقة على صخرة من الصخور الصَّلدة؛ وهذا مما يحتمله المجاز بعلاقة ما. ولكن الذي لا يسوغ في المجاز ولا في مبالغات الاستعارة ولا في خرافات المستحيل أن تزعم الصخرة للناس أن لفظ الحديقة الذي أطلق عليها قد أنبت فيها أشجار الحديقة

قال صاحب السر: واستأذنت له على الباشا فسهل له الإذن وقال: هذا رجل أصبح كالورقة المبصومة بخاتم الدولة فلتكن ما هي كائنة فان لها اعتبارها. ثم تلقاه تلقي الهازل المتهكم وقال له: أهنئك بالنحوي. . . مباركون يا باشا. . . وأقبل عليه وبسط له وجهه

وكان في الباشا دعابة ظريفة يعرف بها، وهو كثير النوادر والمُلَح، وله خصيصة عجيبة فيكون بين يديه كدس من الأوراق التي تعرض عليه ينظرفيها ويقرؤها ويتدبرها، وهو في ذلك يستمع إلى محدثه ويراجعه ويرد عليه، فيصرف الناس والأوراق في وقت

واحد، ويستعمل ناحيتين من فكره استعمالاً واحداً لا يخل بالإصابة في شيء من هذه ولا من تلك
ثم قال للباشا الحديث وعينه إلى ما بين يديه: هذه أوراق سرقة ثور عظيم فكم يساوي الثور العظيم الآن. . .؟
قال صاحبنا الذكي الفطن: إذا كان من الثيران التي تعرض في المعارض وتنال المداليات الذهبية فقد يبعد سعره ويغالي به
قال الباشا: نعم نعم. إن من الثيران ثيرانا ينعم عليها بالأوسمة، ولكن هذا الثور الذي سألتك عنه يا باشا هو ثور محراث لا ثور معرض. . .
قال الآخر: إذا كان ثور محراث فمثله كثير فلا يكون ثورا عظيما كما قلت وليست له إلا قيمة مثله
. . .قال الباشا: أراني أخطأت ولعن الله العجلة؛ فهذه أوراق سرقة حمار
قال صاحب السر: وانصرفتُ عنهما بأوراقي وقد رأيت يدَ الباشا مملوءة لصاحبنا بتحيات كلها صفعات. فلم يكن إلا يسير حتى خرج مبتهجاً يميد السرورُ بعطفيه. ثم دعاني الباشا ودفع إليَّ بطاقة بالحاجة التي جاء فيها الرجل ثم قال:
يا ليت لنا في ألقاب الدولة لقب (رحمه الله). . . ينعم به على مثل هذا. أتدري يا بني أن هذه الرتب وهذه الألقاب لم تكن في القديم إلا كوضع علامة الشر على أهل الشر. . .ليهابهمُ الناس حتى كأنما يكتب على أحدهم من لقب بك أو باشا: مُلْحَق بالدولة
وكان الشعب أمياً جاهلاً. لا يستطيع الإدراك ولا يحسن التمييز. فكانت الألقاب كالقوانين الشخصية الموضوعة في صيغة موجزة مفهومة متعينة الدلالة، وكان كل من يحمل لقباً من الحكومة يستطيع أن يقول للناس: لقد وضعت الحكومة كلمة الأمر في شفتّي. . . .
وكأن اللقب إعلام من الحكومة المستبدة لشعبها الجاهل: إن هذا البك والباشا ممن يحقُّ له أن يخشى فيجب له أن يحترم
من الهزل أن يشتري اسمُ النصر الحربيّ أو يوهب أو يُعار؛ وأقبح منه في باب الهزل أن ينعم على مثل هذا الأمي بلقب باشا. وأنا أعرف إنه قد بذل في سبيله ما بذل وأضاع ما أضاع فكأن الذين منحوه إياه لم يفعلوا شيئاً إلا وضع توقيعهم على أخذ الثمن. . .
ولقد أصبح الرجل تحت تأثير الكلمة العظيمة مخبولاً بسحرها الوهمي فحسِبَ ذلك إدخالاً له في وظيفة كل حاكم وإشراكاً له في الحكم متى اقتضته مجاري أموره وأحواله أو حاجات أسبابه وأتباعه، وها هو ذا قد جاء يطلب حقه فان مثله لا يفهم من لقب (باشا) إلا إن الحكومة قد سوَّغت سلطَته الظهورَ والعمل فمدَّتْ باعه وقوَّت أمره ونوَّهت باسمه لمصالحها وعمالها؛ فهو عند نفسه قد التحم منذ اليوم بالنسب الحكومي. وفي كلمة واحدة هو قد وُلد من بطن الحكومة. . .
ألا ترى إن الشعب لو استردَّ سلطته الكاملة وان الناسَ لو أيقنوا إن هذه الألقاب ألفاظ فارغة من الأمر والنهي والوسيلة والشفاعة لما بقي من يعبأ بها ولكان حاملها هو أول من يسخر منها؟ فهي إذن شعبذة من الحكومة وتظليل في مثل هذا الرجل الأميّ، وهي ضرب من التهويل والمبالغة في سواه من الكبراء والعظماء؛ كأن الوزير الذي يلقب بالباشا يجعل فيه لقبه وزيرين، وكأن مثل هذا الأميّ المغفل يجعل فيه لقبه شخصاً آخر غير الأمي المغفل
أنا قلما رأيت رجلاً يحتاج إلى ألقاب يتعظم بها إلا وهو لا يستحقها؛ وقلما رأيت رجلاً يستحقها إلا وهو لا يحتاج إليها؛ فأين يكون موضع هذه الرتب والألقاب؟
(سيدي بشر بإسكندرية)
مصطفى صادق الرافعي
ذات الثوب الأرجواني
للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني
(تنبيه: الكلام كله تخيل ولا أصل أو حقيقة له)
- 8 -
لو كانت ذات الثوب الأرجواني مع (موسى) - عليه السلام - لمّا ذهب إلى فرعون يدعوه إلى ربه لكان الأرجح أن يؤمن ولا يكفر، ولكان من المحقق - عندي على الأقل

- ألا ينزل بمصر ما نزل بها من البلايا والضربات والمصائب الكبَر. ولكن موسى - عليه السلام دائماً - لم يكن على ما يؤخذ من تاريخ حياته - يعرف مبلغ تأثير الأرجوانيات فلم يسأل الله أن يشد أزره إلا بأخيه هارون؛ وقد فطن قومه إلى هذه الحقيقة، ولكن بعد خراب البصرة. على إني لا أرى ذات الثوب الأرجواني تقيني شيئا ولا أعرفها تدفع عني بلاء. وإن المكاره جميعاً لتحيق بي تحت عيها ومع ذلك لا تحرك ساكناً، ولا ترفع إصبعاً كابحاً، فأي حب هذا بالله؟؟. . . . لكأني بها تشمت بي ويسرّها أن يصيبني كل يوم سوء، وكأنما تظن أن حسبي كلما مسني ضرّ أن أنظر إليها وهي قاعدة على كرسيها، وإحدى ساقيها على الأخرى، وذراعاها على حانة الشرفة، وخدها على ظهر كفها، وأصابعها تنقر على الحجر، وقدمها الدقيقة تتحرك متابعة نقر الأصابع، كأنها تحلم بصوت أو كأنما تدندن لنفسها بصوت خفيض. . . وليتني مع ذلك أسمع!! إذن لكان لي بعض العزاء. . . ولقد سمعت صوتها إذ تكلم جارتها أو تدعو أخاها - أو هو لا بد أن يكون أخاها - ولكني لم أسمع غناءها. وما من شك عندي في أنه شجي وأن صوتها رخيم فأنه خالص كالفضة. ولكنها بخيلة. . . جداً. . .

وآخر ما حدث مما لم تدفع عني شره إني بعد أن كتبت فصلاً من هذه الفصول كان في البيت لفيف من الأهل والأنسباء - قبحهم الله جميعاً - فقالوا ما هذا؟ قلت: (فصل في ذات الثوب الأرجواني). قالوا: من عساها تكون؟ فكرهت هذا الفضول منهم - ولكنهم يحسبون أن كونهم أقارب يشفع لهم في كل فضول - غير أني كتمت مقتي لفضولهم - لا لهم هم - وقلت: (إنها من مخلوقات الخيال) فجعل هذا يزوم، وذاك يحدق في وجهي، وثالث يقول لي: (عيني في عينك؟) ورابع يقول: (طبعاً. طبعاً) إلى آخر ذلك. ثم اقترح واحد منهم - هو أخبثهم - أن أقرأه لهم، فقلت: حتى ينشر. قالوا: بل الآن وهل ثم مانع؟ وما الفرق بين أن نسمعه الآن وأن نقرأه مطبوعاً في (الرسالة)؟؟ فاقتنعت - لا أدري كيف؟ - وشرعت أقرأ لهم، وليتني ما فعلت فقد كنت كأنما بعت نفسي. . .

وقال أحدهم: (اسمع. . مادام أن الأمر كما تقول فان من الواجب تغيير كذا وكذا وإبداله بكيت وكيت. . .)

فقلت: (هذا مستحيل. . لقد كتبت ما خطر لي وانتهى الأمر)

قال: (كلا. . يجب أن تجعل الرجل الذي تتحدث بلسانه أرق مما يوهم كلامك)

قلت: (ولكنه هكذا. . وقد خلقه الله كذلك فكيف أشوهه أنا؟؟)

قال: (إذا هو شخص حقيقي.؟)

قلت - وقد أحسست إني وقعت - (يا أخي وما لك أنت؟. إن صورته في ذهني هي كما أصف. . ولست أستطيع أن أغيرها إلا إذا استطعت أن أغير طريقة تفكيري وصبغة خيالي. . وهذا شيء لا قِبلَ لي به فاقصر بالله عليك)

فشرعوا يتهكمون ويسخرون. وقال أحدهم: (هل قلت إن أنفه أقنى؟؟)

قلت: (كلا فإني أستقبح هذا النوع من الأنوف)

قال: (إني واثق انك كنت تتصورني وأنت تصف هذا العاشق المدنف، ولهذا أرى من حقي أن أستشار فيما تكتب عنه)

قلت: (إن عاشقي ليس مدنفاً. . . هو على العكس صحيح معافى. . . ثم إنك آخر من يصلح لهذه المواقف الإنسانية. . . ولست مجنوناً حتى أصفك في قصة)

قال: (هل تسمعون؟؟ لا بأس!. عض اليد التي تطعمك وتغذيك!!. هذا جزاء من يسمح لك أن تصور شخصيته البارعة. . لا بأس!! ولكني لا أفهم كيف تكون هذه الحبيبة عصرية ولا يكون لها كلب؟. أو على الأقل جرو صغير؟؟. . نعم لا بد من كلب فقم أدخله في القصة)

فقلت بغيض: (يكفي لأنك ستقرأها فيتحقق مرادك) فلم ينهزم وقال: (صحيح؟؟ ولكن هذا لا ينفي أن الفتاة المسكينة لا كلب لها إلاّ على بعد ثلاثين مترا!! كلاّ. هذا لا يليق!! اسمع مني وغير ما كتبت. . وهاأنذا مستعد أن أساعدك. . إن المناسبة توجد الرجل الصالح. .

وأنا أسألك بإخلاص أي شيء أوفق من أن أمد يدي إليك لأشد أزرك؟ وهل يليق بي أن أقعد ساكتاً وأنا أراك تخلط وترسم لنا صورة رجل وامرأة لا يمكن أن يمشي مثلهما في الدنيا؟؟ كلاّ - على التحقيق. . . (والتفت إلى الموجودين وسألهم) أهذا ينتظر

(.مني؟؟
ولأول مرة في هذه الجلسة سررت إذ سمعتهم جميعاً يقولون بلسان واحد (نعم)
ولكنه لم يعبأ بهم ومضى يقول: (هاأنذا. . أجيء في اللحظة الحافلة بالاحتمالات
متنكراً في زي رجل هرم وفي قدمي حذاءان قد يليقان بأبينا آدم - فقد زعموا أن
طوله والعياذ بالله أربعون متراً - وبفم ليس لحلقه سقف. . حسن. . ولا يراني أحد. .
ولا تفطن إلى وجودي الفتاة ذات الثوب الأرجواني، على الرغم من حذائي
المهولين. . . فأخرج منهما، وأتسلق أنابيب المجاري حتى أبلغ الشرفة التي تتخذها
ذات الثوب الأرجواني، غرفة جلوس، وحجرة استقبال وبستاناً للنزهة، وملعبا للتنس
ومرصدا للأفلاك!! فأفاجئها وهي قاعدة تفكر في حبيبها المخرف الذي لا يستطيع حتى
أن يحرك إصبعاً يشير به إليها وأقول لها بخ بخ. . فتفزع وتصيح ياي. . ياي. .)
فلما سكنت الضجة قلت: (إني أكتب قصة ولست أصف ملعب مهرجين أو سرك
حيوانات)
قال: (ما أحسن هذا الأدب!! أنت لا تستطيع أن تفهم المواقف الروائية ولهذا. . .)
فصاحت إحدى الفتيات الموجودات. . (هس. . أظن أن هذه هي ذات الثوب الأرجواني.
. الحق إنها جميلة. . ويجب أن نعترف أنه معذور)
فعاد اللعين يقول: (آه. . لا شك. . لا شك. . جميلة جداً. . ولكن انظروا ماذا صنع بها؟؟
لقد صارت في يده. . أعني في وصفه لها. . ثوبا أرجوانيا لا فتاةً من لحم ودم. . ولو
أنه استمع لي. .)
وهنا ضاق صدري ونفذ صبري ولم تبق لي طاقة على احتمال هذه السخرية فتناولت
الورقات التي كانت مكتوبة وكنت أقرأها لهم ومزقتها كل ممزق
وليس هذا سوى مثل لبعض ما ألقى في سبيل ذات الثوب الأرجواني، وهي لا تعبأ ولا
تبالي!! والحق أقول إني لم أعد أفهم شيئاً من أمرها. فأما أنها معنية بي فهذا ما لا
يخالجني شك فيه. ولقد حرصت مرات على أن أتبين هل في العمارة التي أسكن
إحدى شقاتها من يغازلها أو يناجيها أو يصنع ما يصنع المعجب أو العاشق أو المفتون،
فلم أجد أحداً وكثيراً
ما انحدرت إلى الشارع ووقفت على الرصيف الآخر المقابل لرصيفنا ونظرت إلى
عمارتنا، وقد وجدت في كل مرة أن النوافذ جميعاً إما موصدة أو لا أحد فيها. ثم إني
أعرف متى يكون مساكنيّ في بيوتهم ومتى يخرج كل منهم؛ فقد لاحظتهم جميعاً
وعرفت عاداتهم - حتى الشبان الملاعين الذين تخشى مزاحمتهم - فلا أحد هناك تنظر
إليه أو ينظر إليها سواي في هذه العمارة الضخمة ذات الطبقات السبع. فهي لا شك
تعنيني وحدي بكل ما يبدو عليها من ارتياح واشمئزاز، ومن نفور وإقبال، وأنا المقصود
بكل ذلك. ومؤدى هذا أن لها عناية بي، وليس المهم أن تكرهني أو تحبني فإن المآل
واحد في الحالتين؛ ومتى نجح الرجل في لفت المرأة إليه فانه يستوي أن تظهر له
البغض وأن تبدي المودة؛ فان المهم أنها صارت تعني به، وأنها أصبحت مشغولة بأمره،
ولا بد أن يؤدي هذا إلى الحب آخر الأمر. فليس للحب أول عند المرأة إلاّ العناية مهما
كان باعثها والداعي إليها، ولا ريب في عنايتها بي. بل في وسعي أن أقول وأنا آمن
ومطمئن إنها تدرسني في الصحة والمرض، والسرور والحزن، والضحك والكآبة، والجد
واللعب. بل هي ترصد كل حركة لي، وكل إشارة، وتتبع ما يصدر عني وما يكون مني
ما دمت بادياً لها، وقد كنت أمس أنظر من الشرفة إلى الطريق وأتأمل الرائحين
والغادين وأسرّي عن نفسي بمناظر الناس وما يكون منهم، فاتفق أن رأيت فتاة في
ثوب بني محبوك وحذاءين خيل إلي أن أحدهما أبيض والآخر أسود، فاستغربت أن
تلبس فتاة حذاءين مختلفي اللون، ودعوت إحدى من في البيت إلى النظر فوقفت
مستغربة مثلي، وكانت الفتاة تروح وتجيء على الرصيف في انتظار الأمنيبوس، وقد
أبطأ عليها فطال تمشيها أمامنا، وطال عجبنا من حذاءيها المختلفين، وكنت أشير إليها
وأنا أتحدث عنها ثم رفعت رأسي إلى شرفة الأرجوانية فإذا فتاتي قد نهضت وانحنت
تطل على هذه الأعجوبة، وقد ظهر لنا أن الحذاءين ليسا مختلفين وأن كل منهما نصفه
أبيض والنصف الآخر أسود. ولما كانت الفتاة تسير وجانبها ألينا فأنه لم يكن يبدو لنا
من لوني كل حذاء إلاّ جانب واحد، ولهذا ظنناها بالغت وأسرفت في الأناقة إلى حد
اتخاذ حذاءين: واحد أبيض، والثاني أسود

أريد أن أقول إن بال الأرجوانية إليّ - لا شك في ذلك - وأن عينها على كل حركة لي وأنها تتعقب إشاراتي - وكلامي أيضاً - وتحاول أن تدرك المقصود منها والمراد بها، ولم أقص حكاية الحذاءين وصاحبتهما إلا على سبيل التمثيل. وثم قصص أخرى تجري هذا المجرى وتؤدي إلى هذه الدلالة، وفي ذكرها تطويل لا موجب له. ومع ذلك تجاهد ذات الثوب الأرجواني أن تخفي حبها - أو على الأقل عنايتها الشديدة - وتروح تغالطني فتبدي لي صفحة الأعراض بعد أن تشير لي بوردة وتطمعني بهذه الإيماءة الرقيقة. وما أكثر ما تنتفض قائمة كأنما شكها أحد بسيخ محمي وتخرج ثم لا تلبث أن تعود ضاحكة مشرقة الديباجة!! ويجن الليل فتجعل من شرفتها مرصداً لأنها هي في الظلام وأنا في النور. وتظن أني لا أراها. وأنا يحلو لي أن أجلس في الصيف في شرفتي وأتعشى فيها أيضاً، فإن الغرف حارة حامية كاوية، كنار الله الموقدة، والعياذ به تعالى وليس أحلى من ليالي الصيف إذا لم يركد الهواء. فإذا جلست في شرفتي جعلت ذات الثوب الأرجواني تراعيني من مكمنها المظلم وهي تحسب أني غافل عنها، أو أني لا أرى في الظلام ولها العذر. ومن أدراها أن لي عينا كعين القطة؟ - ترى في الظلمة كما ترى في النور. . . وأحسب أن الأرجوانية قد صارت تعرف كل شيء عني فليس عندي ما أكتمه. وإذا كان أحد من خلق الله يؤمن بالسر فإني لا أؤمن بذلك، ولا أعتقد أن في الدنيا شيئاً يبقى سراً مكتوماً. ولهذا أرى أن من العبث أن أحاول كتمان أمر. وما دام ليس هناك ما يخزيني فلماذا أتكتم وأتستر؟؟ ولا بد أن يعرف الناس ما تحاول إخفاءه، فأولى بك أن تدعهم يعرفونه منك اتقاء للتشويه، واجتناباً للغلط وسوء التصوير. ولكني لا أعرف عنها إلا القليل البادي لأنها فتاة وليست رجلا مثلي. وللرجل من الحرية ما ليس للمرأة. وقد لا يضير الرجل أن يعرف عنه الناس أنه عاشق، ولكن فتاة صغيرة غضة السن قد يضيرها ذلك، ولا سيما إذا كانت لا تعرف آخرتها مع الرجل الذي ترى قلبها مجذوباً إليه. ومن هنا أعذرها، ولكن الذي لا أستطيع أن أتبين وجه العذر فيه أو الحكمة هو هذا التقلب، فإنها تارة ترضى وأخرى تغضب، ومرة تقبل وطوراً تنفر. وإنها لتقبل أحياناً حتى لا تبقي ذرة من الشك في سرورها بحبي لها وحتى لأحس برغبة شديدة في أن أقفز من النافذة إذ يخيل لي في هذه اللحظات أني أستطيع أن أطير إليها من فرط الخفة والسرور، ثم تعرض وتنفر فيثقل على نفسي ذلك حتى لأهم بأن أضرب حجارة الشرفة بيدي وأركلها برجلي كأنها هي المسؤولة عما أرى من إعراضها. . ولا سبب أعرفه لإقبالها ولا لإعراضها فما بيننا أكثر من النظر. . ولو شاءت لكان بيننا ما يختصر هذه الثلاثين متراً ويجعلها متراً أو نصف متر أو شبراً أو اقل من ذلك. . ولكنها لا تشاء. وأكبر الظن أن ليس لمشيئتها دخل في الأمر وأن رغبتها لا تقدم أو تؤخر. . كان الله في عونها. . وفي عوني أنا أيضاً، فان ضيق صدرها بما تجد من القيود التي حولها ينقلب على أم رأسي أنا. . ومالي ذنب ولكن العامة صدقوا في قولهم (ضربوا بتاع الكسبري. . .)

إبراهيم عبد القادر المازني

المقري مؤرخ الأندلس

حياته وتراثه

للأستاذ محمد عبد الله عنان

- 2 -

يقسم المقري كتابه عن الأندلس إلى قسمين كبيرين؛ يخصص أولهما للتعريف بالأندلس وتاريخها وآدابها. والثاني للتعريف بابن الخطيب. ويشتمل كل قسم على ثمانية أبواب، فيشمل الأول وصف الأندلس وجغرافيتها وفتحها على يد موسى وطارق وتاريخها في عهد الولاة وبني أمية وملوك الطوائف، ووصف قرطبة ومعاهدها وضواحيها ومتنزهاتها ثم التعريف بالراحلين من الأندلس إلى الشرق، والوافدين من المشرق على الأندلس. واستعراض آداب الأندلس ومنثورها ومنظومها، ثم تاريخ الصراع الأخير بين الأندلس وأسبانيا النصرانية وسقوطها الأخير في يد النصارى. ويشتمل القسم الثاني على نشأة ابن الخطيب، وتدرجه في طريق المجد وما لقي من الأحداث والمحن حتى وفاته وذكر أساتذته وأشياخه، وما وجه إليه من الرسائل الملوكية ومن أكابر عصره، ومقتطفات كبيرة من كتبه ورسائله ونثره ونظمه، وذكر مؤلفاته وذكر بعض تلامذته الآخذين عنه، ثم ذكر أولاده ووصيته

ويشغل الكتاب كله أربعة مجلدات ضخمة، كل قسم مجلدين؛ فهو كما قدمنا موسوعة صحيحة سواء من ناحية حجمه أو محتوياته؛ ذلك أن المقري يحشد في كل باب من هذه الأبواب العامة كثيراً من المعلومات والشذور والوثائق والرسائل والمختارات؛ ويكاد كل منها يضارع كتاباً بأسره. ويجري المقري على قاعدة الاستطراد فينتقل بقارئه من موقف إلى موقف، ومن شذرة أو رسالة أو قصيدة إلى أخرى حسبما تسوقه شجون الكلام والرواية. وقد ترد خلال حديثه أهم المعلومات والوثائق حيث لا ينتظر ورودها. وفي كثير من الأحيان ينقل المقري إلينا رسالة بأسرها أو كتاباً بأسره؛ ولا يعني المقري بالتنظيم والتناسق، وإنما يعرض مادة كتابه مبعثرة حسب التقسيم البسيط الشامل الذي ذكرناه

ذلك أن المقري لم يكن مؤرخاً بالمعنى الحقيقي، بل كان أديباً فقط؛ وهو لا يزعم انه مؤرخ

أو محقق أو ناقد، وإنما يقول لنا انه ناقل فقط يورد من المعلومات والشذور ما اتفق ولا يعني بتمحيصها أو تحقيقها. ولكنا مع ذلك نشعر أن للمقري في كتابه شخصية قوية، ونشعر بالأخص بأن حرارة خاصة تنبعث من هذه الصحف الأندلسية؛ ذلك أن المقري يكتب عن الأندلس بروح يضطرم إعجاباً وأسى؛ ولا غرو فقد كانت ذكريات الأندلس ما تزال في عصره حية مضطرمة في المغرب، ولم يكن قد مضى أكثر من قرن على سقوط الأندلس النهائي في يد إسبانيا النصرانية؛ بل لقد وقع في عصر المقري بالذات حادث أذكى هذه الذكريات الشجية، هو نفي (الموريسكيين) أو العرب المتنصرين من إسبانيا (في سنة 1609م - 1017هـ) والعرب المتنصرون هم بقية الشعب الأندلسي المجيد أرغموا على التنصر بعد سقوط الأندلس؛ وقد وفدت منهم عند النفي عشرات الألوف إلى ثغور المغرب وقواعده، وعاد معظمهم إلى الإسلام. وشهد المقري هذه الخاتمة المؤسية، وهو يومئذٍ بفاس، وشهد ألوفاً من أولئك العرب المتنصرين، وتركت هذه الذكريات والمشاهد المؤلمة في نفسه أعمق الآثار، وأذكت في نفسه بلا ريب شغف التنقيب عن تاريخ الأندلس وماضيها المجيد وأيامها الزاهرة وقد وضع المقري كتابه عن الأندلس في القاهرة كما قدمنا، ولكنه كان قد جمع معظم مواده في المغرب. ويقول لنا المقري إنه عنا منذ شبابه بالتنقيب في تاريخ الأندلس وأحوالها وآدابها وأنه استخرج من مراجعه أغزر المواد وأنفسها، ولكنه تركها بالمغرب، ولم يستصحب معه حين الرحلة سوى القليل منها، ومنها أوراق سودها، وأشياء علقت بذاكرته. ويقول لنا أيضاً: (إنه لو حضره ما خلفه مما جمع في ذلك الغرض وألف، لقرت به عيون، وسرت ألباب. . .)؛ وإذا كان المقري يعني بهذا القليل من مادته ما ضمنه كتابه، فلا ريب أن ما جمعه من المواد الأصلية كان غزيراً جداً، ذلك لأن هذا القليل الذي ضمنه (نفح الطيب) هو في ذاته مجموعة حافلة من المواد والوثائق المختلفة التي تلقى أعظم الضياء على تاريخ الأندلس وآدابها

وقد قلنا إن المقري ناقل ومصنف؛ ولكن له في هذا النقل والتصنيف فضلاً لا يقدر؛ فقد نقل إلينا عشرات الشذور والوثائق من مصادر أندلسية جليلة لا وجود لها اليوم، بل نقل إلينا رسائل وكتباً برمتها بددت ولم نظفر بأصولها حتى اليوم؛ ولولا عناية المقري بنقلها

وتصنيفها لحرمنا إلى الأبد من هذه المراجع والوثائق الهامة. ولقد كان المغرب الأقصى حتى عصر المقري أعظم مستودع لتراث الأندلس الأدبي؛ وكانت مكاتب المغرب، ولا سيما مكتبة الأشراف السعديين، عامرة إلى ذلك العهد بكثير من الآثار الأندلسية النادرة؛ وكان لمولاي زيدان سلطان فاس لعهد المقري شغف خاص بجمع الكتب النادرة؛ وقد انتفع المقري بهذا التراث الحافل؛ واغترف منه وقيد ما شاء؛ ولكن الظاهر أيضاً أن هذا التراث قد بدد معظمه بعدئذ بقليل؛ ذلك انه قد حدث في أواخر عهد مولاي زيدان حادث يخيل إلينا انه ذو علاقة مباشرة بضياع الآثار الأندلسية؛ وذلك أن السفن الأسبانية أسرت مركباً مغربية مشحونة بآلاف من الكتب والتحف المملوكة لمولاي زيدان، وحملت شحنتها إلى إسبانيا؛ ويشير السلاوي في تاريخه إلى ذلك الحادث نقلاً عن الرواية الأسبانية، فيقول: (وقال منويل إن قراصين الأصبنيول غنمت في بعض الأيام مركباً للسلطان زيدان فيه آثار نفيسة من جملتها ثلاثة آلاف سفر من كتب الدين والآداب والفلسفة وغير ذلك) وتقول الرواية الأسبانية إن وقوع هذا الحادث

كان في عهد فيليب الثالث ملك أسبانيا (1598 - 1621م)؛ والظاهر انه وقع نحو سنة 1030هـ (1630م) حينما اشتد اضطراب العلائق بين أسبانيا والمملكة الشريفية؛ وعلى أي حال فقد حملت كتب مولاي زيدان، وهي بلا ريب أنفس مجموعة من نوعها، إلى أسبانيا، وأودعت في دير الأسكوريال إلى جانب بقية التراث الأندلسي التي كانت مودعة فيه منذ سقوط غرناطة، فاجتمع بذلك الأسكوريال نحو عشرة آلاف مخطوط عربي معظمها من تراث الأندلس؛ ولكن محنة نزلت بهذا التراث النفيس، وقد شبت النار في الأسكوريال سنة 1671، والتهمت معظم الكتب العربية، ولم يبقى منها سوى ألفين؛ وبقيت ضمن هذه المجموعات عدة من كتب مولاي زيدان لا تزال إلى يومنا في الأسكوريال

وهذا فيما نعتقد هو السر في اختفاء الآثار الأندلسية التي كانت تحفل بها قواعد المغرب ومكاتبه في عصر المقري؛ وقد جمع المقري مادته ودون مذكراته أثناء مقامه بفاس بين سنتي 1013 - 1017هـ (1603 - 1616م)، وكان بذلك من أواخر أولئك الذين استطاعوا من أدباء جيله أن يظفروا بمراجعة هذا التراث والانتفاع به. ومما يدل على أن المقري انتفع بنوع خاص بالمراجعة في مكتبه مولاي زيدان التي فقدت، أنه ينقل عن

نسخة وحيدة من مسند ابن مرزوق المغربي كانت ضمن هذه المجموعة ولا تزال في الأسكوريال، وكذلك يستقي معظم رواياته عن سقوط غرناطة وعن العرب المنتصرين من كتاب (أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر) ومنه نسخة وحيدة أيضاً في الأسكوريال

ولا يتسع المقام هنا لاستعراض المصادر العديدة التي نقل عنها المقري، ما ضاع منها، وما يزال قائماً؛ ويكفي أن نقول إن طائفة كبيرة من المصادر الأندلسية الجليلة التي ينقل عنها قد اختفت ودرست معالمها؛ ومن ذلك تاريخ ابن حيان الكبير مؤرخ الأندلس، وتواريخ الحميدي، والحجاري، وابن بشكوال والرازي وغيرهم، وكتب عديدة لابن الخطيب، وقد بقيت من تاريخ ابن حيان قطعة صغيرة نشرت أخيراً؛ ووجدت منذ أعوام بالمغرب نسخة كاملة من كتاب الذخيرة لابن بسام، وفيما عدا ذلك لم يظفر البحث الحديث بشيء من تلك المصادر الجليلة التي ينقل إلينا المقري عنها بسخاء يزيد اليوم في فضله وفي أهمية كتابه

ويتصل بمجهود المقري عن الأندلس كتابه (أزهار الرياض، في أخبار القاضي عياض)؛ وهو سفر كبير يخصصه لترجمة الفقيه الكبير عياض السبتي، واستعراض آثاره، على نحو ما يُكتب عن ابن الخطيب في نفح الطيب؛ بيد أنه يستطرد كعادته، ويذهب في الحديث شجوناً شتى، وينقل إلينا بعض الأقوال والوثائق المتعلقة بسقوط غرناطة وتاريخ الموريسكيين أو العرب المتنصرين، ولهذه الوثائق على قلتها وإيجازها أهمية خاصة، لأنها كل ما انتهى إلينا من الرواية الإسلامية في هذا الموطن، وهي أقوال معاصرين للمأساة شهدوا بعض حوادثها بأعينهم أو سمعوا أخبارها في الضفة الأخرى من الأندلسيين الوافدين على المغرب؛ منها رسالة لمجهول يظهر انه من معاصري سقوط غرناطة يصف فيها نقض ملك قشتالة لعهوده إزاء المسلمين، وما اتخذه النصارى من وسائل الإرغام والقهر لإكراه المسلمين على التنصر، وما فرضته محاكم التحقيق (التفتيش) على المخالفين من العقوبات المروعة؛ ومنها قصيدة طويلة لابن العباس أحمد الدقون أحد علماء المغرب في القرن التاسع الهجري عنوانها (الموعظة الغراء بأخذ الحمراء) يرثي فيها الأندلس؛ ومنها أيضا وثيقة ذات أهمية تاريخية خاصة؛ وهي رسالة كتبها أندلسي منتصر عقب سقوط غرناطة، إلى بايزيد الثاني سلطان الترك يستغيث به ويستصرخه لنصرة إخوانه العرب المتنصرين، ويصف له في شعر قوي التعبير على الرغم من ركاكته، ما يصيب العرب

المتنصرين من أهوال ديوان التحقيق ورائع مطاردته وعقوباته؛ وهذه وغيرها من الوثائق والشذور التي ينقلها إلينا المقري في أزهار الرياض قد ضاعت أصولها، ولولا عناية المقري بنقلها لما ظفرنا بها

وهذان الأثران الكبيران هما أهم ما في تراث المقري. بيد أن للمقري ثبتاً آخر من الكتب والرسائل الأدبية والدينية انتهى إلينا معظمه؛ ومن ذلك: (إضاءة الدجنة في عقائد أهل السنة)، (فتح المتعال في مدح الفعال المتشرفة بخير الأنام). (حسن الثنا

في العفو عمن جنى). (قطف المهتصر في أخبار المختصر) (عرف النشق في أخبار دمشق). (روض الآس العاطر الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام مراكش وفاس). (الدر الثمين في أسماء الهادي الأمين)، وغيرها

وقد كتب المقري معظم كتبه في القاهرة؛ والمرجح أنها كتبت جميعاً أو كتب معظمها قبل نفح الطيب، لأن المقري لم يعش بعد كتابته طويلاً كما رأينا؛ وكان المقري يحتل في المجتمع القاهري الأدبي مكانة رفيعة؛ ويكفي أن نذكر هنا ما وصفه به المحبي الذي ترجمه بعد ذلك بنحو نصف قرن: (حافظ المغرب. لم ير نظيره في جودة القريحة، وصفاء الذهن وقوة البديهة؛ وكان غاية باهرة في علم الكلام والتفسير والحديث، ومعجزاً باهراً في الأدب والمحاضرات)، والواقع أن المقري يكتب بأسلوب قوي، وبيان ساحر، يشهدان له بغزارة البلاغة في عصر كان الأدب العربي يجوز فيه مرحلة انحطاط قوي

وقد أخرجت مطبعة بولاق كتاب (نفح الطيب) كاملاً في 1279هـ (1862) في أربعة أجزاء كبيرة؛ وكان جماعة من المستشرقين على رأسهم العلامة دوزي قد عملت قبل ذلك لإخراج القسم الأول من كتاب نفح الطيب وهو الخاص بالأندلس بين سنتي 1855 و1861 تحت عنوان ' ' ومهد لهذه الطبعة المستشرق دوجا بترجمة للمقري؛ وطبع نفح الطيب بالقاهرة بعد ذلك أكثر من مرة في أربعة أجزاء أيضاً على نسق طبعة بولاق ونشر في تونس الجزء الأول من إزهار الرياض في سنة 1922؛ ونشرت بعض آثار المقري الأدبية، مثل كتاب (حسن الثنا في العفو عمن جنى) (القاهرة)، وظهرت في سنة 1840 في لندن ترجمة إنكليزية ملخصة للقسم الأول من نفح الطيب بقلم المستشرق الأسباني الدون جاينجوس تحت عنوان: (تاريخ الدول الإسلامية في أسبانيا)

مقروناً بتعليقات وفهارس قيمة، وترجم للمقري غير من ذكرناهم أكثر من مستشرق مثل فستنفلد في كتابه (مؤرخو العرب) (بالألمانية) وبروكلمان في (تاريخ الأدب العربي) (بالألمانية أيضاً) والأستاذ ليفي بروفنسال في كتابه (مؤرخو الأشراف) (بالفرنسية)، وآخرون غير هؤلاء

(تم البحث - النقل ممنوع)

محمد عبد الله عنان

أثر النحو في تقويم اللسان

للأديب محمد طه الحاجري

قالوا، في رسم النحو رسماً غائياً: انه علم تعصم مراعاته اللسان عن الخطأ في الكلام، ومضوا على هذا الاعتبار يضعون القواعد، ويقيمون الحدود، ويكدون الأذهان، ويحملون على النشء في ذلك ما لا يحتمل. فإذا رأوا أن التوفيق إلى الغاية النبيلة قد أخطأهم، وأن السبيل التي رسموها قد بعدت بهم، لم يلتمسوا طريقاً آخر يكون أهدى إلى الغاية؛ فحسبهم أن ينثروا الطريق بالأزهار، وان يزيحوا بعض ما فيه من الأحجار، حتى تتبدل - في زعمهم - طبيعته، وتستقيم نحو الغاية محجته، ويبلغوا بذلك ما اعجز الأجيال السالفة. . . وهكذا جعلوا كل همهم من الإصلاح اللغوي أن يهذبوا قواعد النحاة وينسقوها ويحذفوا فضولها. . . ليصلوا بذلك إلى عصمة اللسان، وهيهات هيهات!!

وأنا ما عرضت لأمر الصلة بين تعليم النحو وتقويم اللسان إلا اندفعت أمام ذهني صورة صبي صغير لا يكاد يبلغ التاسعة، وقد جلس على مقعده الصغير في المدرسة، وأمامه كراسة أكب عليها، وجعل ينظر في جمل منسوقة كتبت فيها؛ وكان المعلم قد طلب منه ومن رفاقه أن يضبطوا أواخرها، امتحاناً فيما عُلِّموه، وتثبيتاً لما قد عرفوه، فاخذ ذلك الصبي يتحسس ما كان قد ألقي عليه، ويحاول أن يضبطه في ذهنه، ويضبط به ما أمامه، فكان ذلك عبثاً لم يجد عليه شيئاً. . . وإذا فماذا يصنع ولابد من الإجابة صواباً أم خطأ؟ أخذ يقرأ الجملة ويجرب على كلماتها علامات الأعراب، فكان يشعر عند بعضها بارتياح، ويحسبها أدنى إلى ما يقرأه في كتاب المطالعة وغيره من الكتب التي اعتاد أن يبعث بها. . . فيثبت الشكل الذي ارتاح إليه؛ ثم يمضي إلى غيره، وهكذا، ثم يعطي الكراسة للمعلم لتصحيحها، فيغتبط حين ترد إليه فيعلم انه لم يخطئ إلا قليلاً

أكانت المصادفة هي التي تملي على ذلك الصبي المسكين، أم كان شيئاًآخر في

طبيعته وكيانه هو البذرة الأولى المطمورة في أعماق النفس للسليقة العربية، قد ورثها لأنها بعض ما يقوم الجنس الذي ولد بجميع مشخصاته، ثم أخذت هذه البذرة تستروح نسيم الحياة في هذا الكلام العربي الذي يقرؤه صاحبها بين حين وحين، فلا عجب أن يبرز فيها شيء من مظاهر هذه الحياة، فتحاول تكييف ذوق ذلك الصبي، بمقدار ما أتيح لها من حياة هينة
ضعيفة مضطربة؟؟

أما التفسير بالمصادفة فهروب من المسلك العلمي، وأما السليقة العربية الموروثة فلاشك في وجودها؛ وفي أنها وحدها التي تقوم ألسنتنا، وتصحح عبارتنا، على قدر ما تلقى من العناية والرعاية، وعلى قدر ما نتعهدها به من التربية التي تناسب طبيعتها، فأين نلتمس هذا النوع من التربية؟
أنلتمسه في كتب النحو وقواعد العربية كما يفعل الناس جميعاً، فيظن الواحد منهم أن من تجرع جرعات من الألفية أو الدروس النحوية كان خليقاً أن تصح سليقته، ولا يخطئ من بعد في كلمة من الكلام؟

لو جاز هذا الجاز للرجل الضعيف المتهالك أن يقرأ مجموعة من مجاميع الرياضة البدنية، أو يستظهرها، أو يستبطن أسرارها ومواطن تأثيرها، فإذا هو قد اصبح، بسحر هذه المجموعة، قوياً نشيطاً مهزوزاً تتألق عليه الفراهة والعافية، وإذا هو قد اصبح كذلك الرجل (الفلاح) الذي يغذي موطن القوة فيه غذائها الطبيعي من الشمس والهواء والعمل. ولكن أحداً لا يقول هذا ولا يتوهمه، والأمر لا يعدوا هذا القياس في تربية الغريزة اللغوية

وأني لأعرف فريقين من الناس بأعيانهم معرفة صحيحة صادقة يمثلاًن طرفي هذه الحالة التي نتناولها ويثبتان القضية التي نقررها طرداً وعكساً

أما أحد هذين الفريقين فقد صرف عن النحو صرفاً، حتى لا يكاد يعرف من قواعد النحاة حرفا؛ ولكن مزاجه الفني أقبل به على ينابيع الأدب العربي فأقبل على الكتب الأدبية يقرؤها ويتذوقها ويملأ نفسه بما فيها من جمال ومتعة، فصفت بذلك سليقته، وصحت ملكته، حتى ليحس اللحنة في الكلام، كما يحس الموسيقي النشوز في الألحان. واستقام لسانه حتى لا يكاد يلحن أو يخطئ

وأما الفريق الآخر فطائفة من شيوخ الأزهر الذين أدركنا أعقابهم، قرءوا من كتب النحو الأجرومية والكافية وما بينهما، وأحاطوا بقواعد النحاة وما دار حولها من خلاف وجدل، وربما أدركوا سر الكثير منها، ثم كان الواحد منهم مع هذا لا يكاد يصيب فيما يقرأ أو يكتب إلاّ بعد تكلف شديد، فما أغنى عنه ما بذل من جهد جهيد وعمر مديد في قراءة النحو وتفهم مشكلاته واستيضاح غوامضه. فماتت سليقته اللغوية ولما تستروح الحياة، لأنه لم

يمدها بالغذاء الطبيعي الحي الذي يمكن أن يتمثل فيها، ويبعث فيها الحياة ماضية قوية، ولكنه ألقمها أحجاراً جامدة إن لم تقضي عليها فلم تبعث فيها شيئا من معاني الحياة الصحيحة

ولقد بقي لنا من عصر الحملة الفرنسية وثيقة من الوثائق التي تؤيد هذا المعنى تأييداً تاماً، وهي رسالة كتبها بخطه شيخ الإسلام ورئيس الديوان، الشيخ عبد الله الشرقاوي وهي حجة قاطعة في قيمة التعاليم النحوية من ناحية أثرها في تقويم اللسان وإصلاح اللغة على الأسلوب العربي، فلن يشك أحد في أن الشيخ الشرقاوي قد تلقى من (النحو) أوفر ما كان يتلقى في ذلك العهد

وهذه ملاحظة ظاهرة جلية لا نكاد نحسب أحداً يجادلنا فيها أو يخالفنا عليها، وقد لاحظها من قبل العلامة الدقيق ابن خلدون، فقال في مقدمته، بعد أن قرر أن العلم بقوانين الإعراب إنما هو علم بكيفية العمل وليس هو نفس العمل: (ولذلك نجد كثيراً من جهابذة النحاة والمهرة في صناعة العربية المحيطين علما بتلك القوانين إذا سئل في كتابة سطرين إلى أخيه أو ذي مودته أو شكوى ظلامة أو قصد من قصوده أخطأ فيهما عن الصواب، وأكثر من اللحن، ولم يُجد تأليف الكلام لذلك، والعبارة عن المقصود على أساليب اللسان العربي. وكذا نجد كثيراً ممن يحسن هذه الملكة، ويجيد الفنين من المنظوم والمنثور، وهو لا يحسن إعراب الفاعل من المفعول، ولا المرفوع من المجرور، ولا شيئاً من قوانين صناعة العربية)

فليس عجيباً إذا ما يروي لنا من أن رجلاً جاء لابن خالويه - وهو من هو! - فقال له: أريد أن تعلمني من النحو والعربية ما أقيم به لساني. فقال له أبن خالويه: أنا منذ خمسين سنة أتعلم النحو! ما تعلمت ما أقيم به لساني

فالأمر في اللغة هو أمر سليقة يجب أن تربى، وملكة يجب أن تكوَّن. ولن يكون ذلك بواسطة النحو، فانه قواعد ميتة، بل بواسطة البيان والأدب الذي هو مظهر اللغة ومجلى حيويتها. أما النحو الذي أبى على ابن خالويه أن يقوم لسانه، فلا مطمع لنا في أن يجدي علينا ما أباه على ذلكم الإمام

وكيف كانوا يقومون ألسنتهم عندما بدأت السلائق تضعف والألسنة تضطرب؟ كانوا - كما

يعرف الناس جميعاً - يذهبون إلى البادية، ويندمجون في الحياة العربية، فيهيئون بذلك لسليقتهم سبيل القوة، فتصبح من بعد ذلك المتحكمة في منطقهم والمصرفة لألسنتهم، وليس لدينا مثل هذه الحياة العربية التي كانوا يلجئون إليها، ويندمجون فيها؛ ولكن إذا فاتنا ذلك فإنا نستطيع أن نعيش بقلوبنا وعقولنا في حياة عربية اللسان، فيكون لهذه ما لتلك من الأثر الطيب المبارك. أما هذا النحو فقد أعلن إفلاسه فيما نطلبه من أجله، وهو عصمة اللسان من الخطأ في الكلام، منذ عهد ابن خالويه إلى أيامنا هذه. ولن تجد امرأ صحيح اللسان قويم المنطق إلا وهو يرجع الفضل في هذا إلى ما أمد به سليقته من الآداب العربية

ويعلل ابن خلدون وجود الملكة العربية في بعض المهرة في صناعة الأعراب بدراستهم لكتاب سيبويه، وطول مخالطتهم له لا من ناحية ما تناوله من تقرير القواعد. بل من ناحيته الأدبية (فانه لم يقتصر على قوانين الأعراب فقط، بل ملأ كتابه من أمثال العرب وشواهد أشعارهم وعباراتهم، فكان فيه جزء صالح من تعليم هذه الملكة، فتجد العاكف عليه، والمحصل له، قد حصل على حظ من كلام العرب واندرج محفوظه في أماكنه، ومفاصل حاجاته، وتنتبه به لشأن الملكة، فاستوفى تعليمها، فكان أبلغ في الإفادة ولسنا نضع بهذا - معاذ الله - من قيمة النحو، وإنما نريد بهذا أن نضعه في مكانه الحقيقي، ونلتمس به غايته الطبيعية، وهو معرفة قوانين اللغة العربية، والنفوذ إلى أسرار التركيب فيها. وأكبر به من مكان، وأعظم بها من غاية!

ترى لو كان أمر اللغة كأمر العلوم الأخرى التي تتلقى قوانينها واحدة بعد الأخرى، ثم لا يشعر صاحبها إنها غيرت في كيانه الداخلي، لو كان الأمر كذلك في اللغة أكنا نشعر بهذا الاستهجان والمضض الشديد حين نسمع خطيباً يلحن أو يغير في الوضع العربي، ونحس بعباراته الملحونة كأنما أصابت موضع الكرامة أو العزة فنتململ ونتضجر كما نحس حين نسمع رجلاً يتناول ديننا أو وطننا أو قوميتنا بما نكره؟ وماذا لو أن رجلاً أخطأ في تقرير قاعدة أو تطبيق قانون علمي؟ فهذا الفرق القائم بين اللغة والعلوم الأخرى ينبغي أن يراعي في التربية والتثقيف. فكما لا يجدي تلقين القوانين الدينية والتعاليم الشرعية في تكوين الضمير وتربية العاطفة الدينية. وعصمة الرجل عن الزلل في الحياة، كذلك لا تغنى القواعد النحوية شيئاً في عصمة اللسان وتصحيح الكلام وبعد فلا بد أن نكرر القول بأنا لا نريد الغض من مكانة النحو وخطورة درسه في اللغة العربية، بل إنا لنراه - مستيقنين - في المكان الأول منها، باعتباره المبين لنظامها، والكاشف عن قوانين التركيب فيها، وقد خطا النحاة منذ أول العهد بالنحو؛ خطوات موفقة في هذه السبيل، رغم ما غلب عليها في العهود الأخيرة من الشطط والتكلف والبعد عن روح اللغة. وقد خطت الجامعة في العصر الحديث - في دراسة النحو - خطوة جديدة مسددة بعيدة، نرجو أن تكشف عنها الأيام القريبة المقبلة إن شاء الله تعالى.

محمد طه الحاجري

في النقد الأدبي

للأستاذ إسماعيل مظهر

العصر الذي نعيش فيه عصر قوامه النقد. حتى لقد قال (إدورد كيرد) وهو من الفلاسفة المعاصرين في أول كتابه عن فلسفة كَنْت: إن النقد هو الذي هدَّ العروش المقدسة، ومنها عرش الدين قائماً من فوق العقيدة، وعرش القانون قائماً من فوق السلطان والجبروت. فإذا عني أعلام كتابنا بالنقد، فإنما يعنون بشيء قد تغلغل في

صميم الحياة الحديثة، ونفذ إلى أبعد غور من أغوار الأشياء الإنسانية. وما حفزهم إلى الكلام في النقد، وفي النقد الأدبي على الأخص، إلا شعورهم - وقد ركدت حركة النقد - بأن في الجو الأدبي فراغاً جعلهم يستوحشون من الحياة التي يحيونها، وجعلهم يعتقدون شيئاً آنسوا فيه الحياة ألفوها. على أني لحظت في نزعة الكتاب الذين عالجوا هذا الموضوع شيئاً أو أشياء، على كبير علاقتها بالنقد الأدبي، وعلى عظيم خطرها، لم يعرض لها أعلام كتابنا ولو بإشارة، ومن طرف خفي، كأن الكلام في هذه الأشياء عسير على النقد أو هي من الأشياء التي يجب أن تخرج من مجال النقد، وكانت هذه الظاهرة فيما كتبوا بنية جلية، حتى لقد خيل إليَّ أن ما كتب في النقد جدير بأن ينقد، وخليق بأن يحلل تحليلاً لا هوادة فيه

سألت نفسي: أناحية النقد الأدبي وحدها هي الجديرة بالتقدير والوزن، أم إن ناحية النقد العلمي والفلسفي لها من المكانة والشرف ما يجعلها خليقة بأن تساوي النقد الأدبي قيمة ووزناً؟ ولم نخص النقد الأدبي وحده بقسط من العناية يستوفي كل جهودنا العقلية، ولا ننظر ولو التفاتاً وبقليل من الاكتراث إلى النقد العلمي والفلسفي؟ ألأنَّ الأدباء كثيرون، والعلماء والفلاسفة قليلون؟ كلا وإنما السبب أن عقليتنا لم تتكون بعد التكون العلمي ولا التكون الفلسفي. وهذا التكون سابقة ينبغي أن تسبق في الحياة العقلية ظاهرة النقد، في مجال ما من مجالات الحياة الثقافية. ذلك بأن وجود العلماء لا يكفي في تكوين العقلية العلمية، ولا وجود الفلاسفة بكافٍ لتكوين العقلية الفلسفية

ثم سألت نفسي: أللنقد موانع؟ أيمنعنا من النقد عوامل خلقية؟ أيمنعنا من النقد عوامل تقليدية؟ أيمنعنا من النقد عوامل اقتصادية؟ أيمنعنا من النقد عوامل سياسية؟ أيمنعنا من النقد عوامل نفسية؟ وهل يمكن أن يفلت النقد من أثر هذه العوامل؟ وبعد أن أطلت النظر

في كل سؤال من هذه الأسئلة، بل إن شئت فقل في كل معضلة من هذه المعضلات، حكمت بأن هذه الموانع كائنة، وأن بعضها أقوى أثراً من بعض، وأن الناقد لن يفلت من دائرتها، أو يخرج من أقطار هذه الأرض منبوذاً مدحوراً

وبعد هذا وذاك هل وضعنا للنقد قواعد يقوم عليها هيكله، وتشيد من فوقها أركانه؟ ألنا في النقد مذاهب مقررة ينتحيها الناقدون؟ وهل لنا في النقد قواعد تحدد للنقد حدوده، وترسم تخومه، وتعين اصطلاحاته، شأن كل الأشياء العلمية والأدبية التي لها أثر في تطور العقليات والمعقولات؟

كلا. ليس لنا في النقد مذاهب، وإنما اتبعنا إلى الآن في النقد طريقة ميزانها الذوق والشعور، وهي طريقة إن مال ميزانها نحو اليمين قيد شعرة كانت إفراطاً في المدح والتقريظ، وإن مالت نحو الشمال شعرة كانت تفريطاً في كل ما يقتضي النقد من حكمة في تقويم الآثار الأدبية بميزان صادق الدلالة على قيمة ما في كفتيه. وجملة الأمر أننا ذهبنا في النقد المذهب التقديري، ولم ننزع إلى المذهب التقريري. ذلك بأن المذهب التقديري مذهب سهل المأخذ، لين المنحى، مطواع للأهواء، يسع الأثر الذي تمليه الصداقة على شعور الناقد، ويسع الأثر الذي تمليه العداوة والبغضاء على انفعالاته. وهو فوق كل هذا مذهب بُدائي لا ضوابط له ولا قواعد، ولا نظريات ولا حقائق؛ وبالأحرى نقول إننا مضينا ننقد حتى الآن ورائدنا في النقد الأثر الذي تتركه في أنفسنا مختلف المنتوجات الأدبية، بما فيها من علاقات ذاتية وميول وعواطف وأخيلة وأحاسيس؛ وعلى الضد من هذا كله مذهب النقد التقريري القائم على نظريات أو حقائق لها حدود مضبوطة ومصطلحات معينة ونماذج يمكن أن ينسج على منوالها؛ ناهيك بأن مذهب النقد التقريري قد تكون له في بعض الأحيان فكرة عامة شاملة ترمي إلى غاية معينة. فانك إن نظرت مثلاً في محاورات سقراط التي أثبتها تلاميذه في كتبهم، تبينت من خلالها فكرة جامعة وغاية أخيرة ترمي إليها، هي التي أبان عنها كل الإبانة في دفاعه عن نفسه أمام قضاته قبل الفتوى بإدانته. وعندي أن محاورات سقراط، أول ما وضع في تاريخ الآداب الإنسانية من نقد قائم على المذهب التقريري

ولقد ترى أثر هذا الرأي - رأي أننا ننقد على المذهب التقديري لا على المذهب التقريري

ظاهراً جلياً في كل نواحي النقد، لا في النقد الأدبي وحده. فإن نزعتنا هذه قد تجلت - بينة في النقد السياسي على الأخص، حتى لقد اتهم النقاد السياسيون في مراميهم وأوذوا في سمعتهم السياسية، لا لشيء إلا لأنهم نقدوا على غير مذهب، وكتبوا على غير نظرية سياسية، ومضوا يتكلمون في السياسة وليس أمامهم غاية عامة نهائية يرمون إليها، اللهم إلا أن تستقر الأحوال على صورة تقر ما كان قائماً قبل انقلاب حدث ولو كان ما يطلب الرجوع إليه من نظام فيه من أوجه النقد ما لا يقل قيمة أو أثراً عما يراد إدالته من نظام قائم

على أن ما ترى في النقد السياسي من شيوعية في المرامي واستهتارية في الغايات، قد تراه بذاته في أكثر النقود الأدبية التي تجري بها أقلام الذين يتصدون للنقد في هذا العصر. وما السبب في هذا إلاّ أننا نزعنا في النقد النزعة التقديرية، فأوسعنا المجال للخيال دون العقل، وفتحنا الباب على مصراعيه للذوق وحده، من غير أن نجعل للذوق ضابطاً من القيود المنطقية أو النظريات المقررة أو الحقائق الجامدة

لقد عاب الأستاذ أحمد أمين على النقاد أن ينتقدوا ما ليس من اختصاصهم، وأن الكاتب الأدبي عندنا يرى أنه يستطيع أن ينقد في يوم واحد كتاباً في تاريخ نابليون، وكتابا عن جزيرة العرب، وديوان شعر! ولا مرية في أن الأستاذ على حق فيما يقول.

أما السبب في هذه الفوضى الغامرة فالذي أذهب إليه من أن النقد عندنا قد نزع النزعة التقديرية دون النزعة التقريرية. وهل أسهل من أن أقول إن كتاباً عن نابليون ضعيف الأسلوب، وإن كتاباً عن جزيرة العرب ثقيل الظل، وإن ديوان شعر بارد الأنفاس؟ ولكن غاب عن الأستاذ حقيقة أخرى هي أن الأدب والنقد عندنا، لقلة ما لهما من ضوابط وقواعد، قد هيأ للكتاب والنقاد سبيل الانسلاخ في هيئات جديدة تقتضيها ظروف الأحوال. فهذا كاتب سياسي أصبح مؤرخاً. وذاك مؤرخ أصبح شاعراً. وثالث كان أديباً فأصبح سياسياً، ثم ارتد ناقداً، ثم انسلخ في صورة ديماجوج، يضرب على نغمات تحبها آذان الجماهير. ورابع كان صحفيا فأصبح مصلحاً سياسياً. وخامس كان لاشيء أصلاً فأصبح علماً يشار إليه بالبنان في جميع ما تتخيل أن إنساناً يستطيع أن يبرز فيه من علم وفلسفة وأدب وفن، وما الله به أعلم من مظاهر الكفاية. وإن واحداً صار نصير الإنسانية، وآخر أصبح سادن الدين، وثالثاً أبا الحرية، ورابعاً حافظ الديمقراطية، إلى غير ذلك من الألقاب التي تذكر المرء بألقاب أهل الدول إذا ارتج أمرها وكادت تميد بها الأرض، فيعمد خيال أهلها إلى الألقاب يضخمون منها بما يخيل إليهم أن فيه المنجى والملاذ

أليست هذه ظاهرة من ظاهرات الفوضى العقلية الدالة على أن النقد عندنا إنما يقوم على نزعة تقديرية لا تزن الأثر ولا تزن الشخص، وإنما تزن الأثر والشخص على مقتضى الظرف الحاصل؟ ولو أننا نزعنا في النقد النزعة التقريرية مؤمنين بعدد ثابت من الحقائق والنظريات والمثاليات، مؤتمنين بما توحي به من آداب اجتماعية عليا، إذن لاستطعنا أن نقضي على هذه الفوضى الغامرة التي تكاد تبتلعنا لججها

وما كان لي أن أتكلم في موانع النقد في بيئتنا الجديدة، اللهم إلا أن أكون قد قذفت بنفسي في أتون تترع نيرانه الشوى. فليتصد للكلام في هذا غيري ممن لا حاجة به إلى شواء

إسماعيل مظهر

بمناسبة المهرجان الألفي لأبي الطيب في دمشق

دين المتنبي

للأستاذ سعيد الأفغاني

عاش في هذه الدنيا قبل ألف عام رجل قضى إحدى وخمسين سنة يعمل في حياته للمجد؛ ركب إليه المكاره واقتحم الغمرات؛ أراد مرة من طريق الدين فخاب، ثم راوغه من طريق الولاية فأخفق، ثم مضى قُدُماً يجالد دون سبيله هذه جيوشاً من أذى الأعداء ونكاية الحساد وكلب الزمان وتخلف الجد

تقاذفته الأقطار ضارباً في الأرض: من حلب، إلى دمشق، إلى فلسطين، إلى مصر، إلى العراق، إلى فارس؛ حتى إذا ملأ الدنيا وشغل الناس وقفل راجعاً من شيراز وشارف بغداد وحط في سوادها الغربي، أحاط به أعداؤه في دير العاقول ليغتالوه، فقاتلهم قتال المستبسل المستميت حتى سقط دفاعاً عن نفسه وشرفه، فصعدت

روحه إلى بارئها يحاسبها على ما قدمت في عاجلتها من خير أو شر
وإذا كان موضوعنا البحث في دين الرجل فلا بد أن ننبه قبل الشروع فيه إلى أنا سنخرج على ذلك السخف التقليدي الذي توارثناه في عصورنا الأخيرة جيلاً عن جيل، في تكفير الناس من أجل كلمة قالوها أو عمل قاموا به؛ نتعلق لذلك بأوهى الأسباب ونتكلف له كل التكلف لنخرج مسلماً عن دينه وإن كرهناه، أو نؤول له ما زل به لسانه إن أحببناه. تعقد لذلك المجالس في المساجد والمدارس وعند السلطان، وتؤلف الرسائل وتثار الفتن وتراق الدماء، حتى لقد سؤل الشيطان لبعض الحكام أن يتخذ من عبدة الهوى هؤلاء مطايا يركبها إلى غاياته فيمن يكره من كل أمر بمعروف أو جبّاه بحق أو ثائر على ظلم، فما أسرع ما كانت تخرج الفتيا بالتكفير، وما أسرع الحاكم حينئذ إلى البطش والفتك
ولولا الخروج عن الموضوع لأفضت في شرح هذه الناحية من تاريخنا وما أدت إليه من سوء العقبى، وما جرت على العلم والدين من ويلات وخراب، وخاصة أخريات عصور الجهل، يوم كان يضطلع بهذه المهازل شيخ الإسلام في السلطنة العثمانية. وحسب المرء أن يذكر على سبيل التمثيل آراء المحبين والمبغضين في أجلاء الصحابة - رضي الله عنهم - صدر تاريخنا، ثم أقوال هؤلاء وهؤلاء في الحلاّج ومحي الدين بن عربي وتلك
الطبقة. بل مالي أعمد إلى التاريخ البعيد وفي فجر نهضتنا مثل صالحة من ذلك. فاذكروا إن شئتم الأئمة جمال الدين ومحمد عبده ورشيد رضا ومن لف لفّهم. ألم يرفعهم قوم إلى درجات المصلحين المجتهدين، ويهبط بهم آخرون إلى دركات الكفار أعداء الدين؟!
وغريب منهم هذا الفضول والتطفل والله تعالى لم يجعل إلينا أمر الناس، حتى نزج أنفسنا في هذه المزالق. ومتى ملك بشرٌ أمر بشر والله يقول: (ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء.) أما كان في خوَيصة أنفسهم ما يشغلهم عن الناس والتحكم في آخرتهم؟ وما كان أقربهم من إنصاف لو عرضوا القول أو الفعل على الحق فسموا الأشياء بأسمائها وحكموا عليها بالخطأ أو الصواب ولم يحمّلوا النصوص ما لا تحمل ووكلوا أمر الناس إلى الله، إذن لو فروا على أنفسهم عنتاً طويلاً ووقتاً سيسألهم الله عن إنفاقه في هذه السفاسف والآثام، وجهوداً لم يرزقهم الله إياها ليفرقوا دينه شيعاً ويؤلبوا عباده بعضهم على بعض
وأنا إذ أعرض لدين المتنبي فإنما أحكم على أقوال قالها وعلى هنات صدرت عنه، فأعرضها على الحق، وسواء على الباحث، إذا اجتهد وأخلص، أكان المتنبي بعد ذلك مسلماً أم ملحداً، فما لنا إيمانه ولا علينا كفره، ولا يملك إنسان لإنسان عذاباً ولا ثواباً أمهد لبحثي بكلمة عن الحالة الدينية في النصف الأول من القرن الرابع الهجري، وهو الأمد الذي عاش فيه شاعرنا؛ وأنا حين أفيض فيه إنما أتكلم عن المتنبي نفسه لشدة العلاقة بين الرجل وعصره، ولأن كل شيء من أحوال ذلك العصر كان يهيئ للدعوات السياسية والدينية. وسنرى أن تنبؤ أبي الطيب ليس بالأمر الأد في ذلك الزمن الذي يعج بالأحزاب والنحل وأهل الأهواء
كان الدين أروج التجارات حينئذ في جميع الأقطار الإسلامية؛ فمن بغى ملكا تذرع له بالدين، ومن أراد ثورة جعل شعارها الدين، ومن دعا إلى نحلة فإنما سلاحه هذا الوتر الحساس من النفوس؛ ودولة بني العباس إذ ذاك منكمشة في رقعة صغيرة في العراق، تعيش مع ذلك خاضعة لسلطان الأمراء المتغلبين من الفرس أو الديلم أو الترك، والانتساب إلى آل بيت الرسول - صلى الله عليه وسلم - أمضى سلاح يصرفه الخوارج وأرباب الأطماع
كان في حلب بنو حمدان وهم علوية، وأنقرض الأغالبة في المغرب فدعى للفاطميين في رقاده من أرض القيروان سنة 296 وهم ينتسبون إلى فاطمة، وكل خارج على الدولة إنما كان يدعو الناس إلى الرضى من آل محمد، وكان في تعاليم الشيعة ما يحفز الطامحين إلى شق العصا: كلٌّ يدعي انه الإمام المنتظر
وأعظم النحل تسلطاً ونفوذاً يومئذ ثلاث: الباطنية والشيعة والحنابلة، وهؤلاء الأخيرون انحصر سلطانهم في بغداد فترة من الزمن فقط، بينما انبث دعاة الشيعة والباطنية في كثير من الأقطار. وكان أهول الجميع خطراً وأبعدهم أثراً القرامطة، وهم طائفة

مؤولة باطنية حلولية، جعلوا للشرع ظاهراً وباطناً، وبنوا مذهبهم على تأويل الأحكام والآيات. ظهروا 278هـ وانتشروا بالشام وسواد الكوفة ثم اشتد أمرهم حتى زحفوا على حمص، وخضعت لهم دمشق على جزية، ثم زحفوا إلى الكوفة وعظم خطرهم وتفاقم شرهم، وعجز جند الخلافة عن إخضاعهم (وما زال أمرهم إلى قوة حتى استولوا على أكثر بلاد الفرات وأسسوا دولة بالبحرين، ودحروا جيوش الخليفة المقتدر، وثارت منهم طائفة في نواحي الحجاز، فانقطع الحج سنين خوفاً منهم. ولما أرسل إليهم المقتدر جيشاً بقيادة منصور الديلمي دحروه وقتلوا الحجاج يوم التروية في المسجد الحرام قتلاً ذريعاً وطرحوا القتلى في بئر زمزم، واقتلع زعيمهم الحجر الأسود من مكانه في الكعبة، وأخذه معه إلى هجر حيث بقي اثنين وعشرين عام حتى رد إلى مكانه أيام المطيع العباسي سنة 393)

ذكر المعري في رسالة الغفران: (أن للقرامطة بالأحساء بيتاً يزعمون أن إمامهم يخرج منه ويقيمون على باب ذلك البيت فرساً بسرج ولجام، ويقولون للهمج والطغام: (هذا الفرس لركاب المهدي يركبه متى ظهر.) وإنما غرضهم بذلك خدع وتعليل، وتوصل إلى المملكة وتضليل. ومن أعجب ما سمعت أن بعض رؤساء القرامطة في الدهر القديم لما حضرته المنية، جمع أصحابه وجعل يقول لهم لما أحس بالموت: (إني قد عزمت على النقلة وقد كنت بعثت موسى وعيسى ومحمداً، ولا بد لي أن أبعث غير هؤلاء) فعليه اللعنة، لقد كفر أعظم الكفر في الساعة التي يؤمن فيها الكافر، ويؤوب إلى آخرته المسافر) أهـ

نجد أن القرامطة أخذوا بالحلول والتناسخ المتسربين إلى المسلمين من الهند وفارس، وشاركوا بعض فرق الشيعة في فكرة الإمام المنتظر، وأصبح من ديدن كل داعية إلى بدعة

أو خروج على سلطان، أن ينتسب إلى علي رضي الله عنه، أو أن يدعو إلى الرضى من آل محمد إن تعذرت عليه النسبة مباشرة. وكثر هؤلاء الدعاة والخارجون، وفشت فاشيتهم حتى امتلأت حوادث تلك الأيام بذكرهم. وكان سقوط هيبة الخلافة وانحلال العصبية العربية من أهم العوامل في كثرة تلك الطوائف والانقسامات. وأصبحت الدنيا في كل مكان لمن غلب، وجهر المتغلبون وجنودهم بضروب من المناكر أنفذت صبر البقية الصالحة، فثار في بغداد جماعة من الحنابلة، واضطرمت قلوبهم بالغيرة على الدين من أن تنتهك محارمه، فأجمعوا أمرهم وانتظموا معسكرات تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر بالقوة والسلاح؛ واستفحل شأنهم وقويت شوكتهم، حتى صاروا يكبسون بيوت القواد والعامة فحيثما (وجدوا مسكراً أراقوه، أو مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء.) ولم يطل بهم الزمان حتى أذعنوا لمؤثرات العصر، فتسرب إلى جماعات منهم أقوال هي إلى الحلول والتشبيه، واندس في غمارهم - على ما يظهر - أناس ليسوا منهم، فعظمت أذيتهم على الناس، فتقدم إليهم الخليفة بالإنذار فما أفاد، فأضطر إلى قمعهم بالقوة وإراحة الناس منهم

هذا إلى أناس كثيرين جعلوا الدين وسيلة إلى الدنيا يتاجرون به متاجرة، فيوماً تراهم معتزلة ويوماً شيعة؛ وحيناً باطنية وتارة حلولية يقولون بالتناسخ، يميلون مع الريح حيث مالت، ويعرضون في كل سوق ما يروج فيها، لا يرجعون إلى عقيدة، ولا يصدرون عن إيمان، بل هم أبداً متقلبون (يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم)

تلك هي حال الدين في عصر أبي الطيب وفي البلاد التي حل فيها. فما ظنكم بفتى دون العشرين من عمره، يتوقد الذكاء، ويتفجر فصاحة، طماح مغامر، يعشق السيادة، وينشد المجد بكل قوته، التفت حوله فما رأى إلا جماهير بلا عقل، تتبع كل ناعق، عليهم رؤساء جهال، لا علم لهم ولا فضل ولا أدب، ما فهم على كثرتهم من يقاربه في ذكائه ومواهبه وعظم نفسه، ثم أبصر سوق الدعوات رائجة كل الرواج، وكان في طبيعة كثير منهم ما يدعو الطامح إلى محاولة السيادة عن طريق الدين

شاء هذا الفتى أن يقيم نسبة بين دعوتهم ودعوته تتسق هي والفرق بينهم وبينه، فإذا كان فيهم من ادعى انه الإمام المنتظر، والمهدي، أو الرضى، فان النسبة تقضي أن يدعي النبوة دفعة واحدة، وقد فعل

ولا مندوحة لي هنا عن القول بأن تنبؤه في الأعراب أمر وقع حقيقة ولا سبيل إلى الشك فيه، تضافرت على ذلك كل المصادر الموثوقة، حتى التي كانت تميل إليه كل

الميل، فأنها لم تنف الأمر وإنما التمست له المعاذير. وما كان أغناها عن ذلك، فأن في السن التي وقعت فيها هذه الزلة العذر كل العذر؛ وليس من الأنصاف أن نلمز حياة خمسين سنة من أجل هناة كانت في سن الفتوة. فلأشرع في ذكر هذا التنبؤ بإيجاز؛ ثم لا فض في علاقة الرجل بالدين مدى حياته. وسأعتمد في قص الحادث على أبي العلاء خاصة، لفضله ولتحريه وقرب زمانه. وسأعفي نفسي من أشياء كثيرة وردت في (الصبح المنبي) لا يقبلها عقل ولا تؤيدها قرائن

وقع المتنبي إلى بادية السماوة وأظهر دعوته، فتبعه قوم من الأعراب من بني كلب، خلبهم بذلاقة لسانه، وحسن بيانه. وتلا عليهم كلاماً زعم أنه أنزل عليه. نقله الأنباري في طبقاته عن أبي علي بن حامد قال:

(وكان قد تلا على البوادي كلاماً زعم أنه قرآن أنزل عليه. فكانوا يحكون له سوراً كثيرة نسخت منها سورة ثم ضاعت وبقي أولها في حفظي وهو: والنجم السيار، والفلك الدوار، والليل والنهار، إن الكافر لفي أخطار. امض على سننك واقف أثر من قبلك من المرسلين، فان الله قامع بك زيغ من ألحد في دينه وضل عن سبيله).

وقد حفظ لنا التاريخ مشهداً من مشاهد هذه الدعوة في اللاذقية، ولا ريب أنه كان بعد أن توثق أمر المتنبي بعض التوثق في البادية. قال أبو عبد الله معاذ بن إسماعيل اللاذقي:

(قدم أبو الطيب المتنبي اللاذقية في سنة 320هـ وكان عمره يومئذ سبع عشرة سنة وهو لا عذار له، وله وفرة إلى شحمتي أذنيه، فأكرمته وعظمته لما رأيت من فصاحته وحسن سمته؛ فلما تمكن الأنس بيني وبينه وخلوت معه في المنزل اغتناماً لمشاهدته واقتباساً من أدبه قلت له: (والله انك لشاب خطير، تصلح لمنادمة ملك كبير.) فقال: (ويحك! أتدري ما تقول؟ أنا نبي مرسل.) فظننت أنه يهزل، ثم تذكرت أني لم أسمع منه كلمة هزل قط منذ عرفته فقلت له: (ما تقول؟) فقال: (أنا نبي مرسل.)

فقلت له: (مرسل إلى من؟)

قال: (إلى هذه الأمة الضالة)

قلت: (تفعل ماذا؟)

قال: (أملأ الدنيا عدلاً كما ملأت جوْراً)

قلت: (بماذا؟)

قال: (بإدرار الأرزاق والثواب العاجل لمن أطاع وأتى، وضرب الأعناق لمن عصى وأبى)

فقلت له: (إن هذا أمر عظيم أخاف عليك منه أن يظهر) وعذلته على ذلك فقال بديهاً:

أبا عبد الإله معاذ إني ... خفي عنك في الهيجا مقامي
ذكرت جسيم مطّلي وأنا ... نخاطر فيه بالمهج الجسام
أمثلي تأخذ النكبات منه ... ويجزع من ملاقاة الحمام
ولو برز الزمان إلى شخصاً ... لخضب شعر مفرقه حسامي
وما بلغت مشيئتها الليالي ... ولا سارت وفي يدها زمامي
إذا امتلأت عيون الخيل مني ... فويل في التيقظ والمنام

بهذه القوة والاطمئنان يتحمس المتنبي لنصرة دعوته ويحاول تمكينها من القلوب، فلنصغ إلى أبي العلاء المعري في رسالة الغفران يحدث عن معجزات نسبت إلى أبي الطيب،

قال:

(وحدثت أن أبا الطيب لما حصل في بني عدي وحاول أن يخرج فيهم قالوا له وقد تبينوا دعواه: (ههنا ناقة صعبة فان قدرت على ركوبها أقررنا أنك نبي مرسل. وأنه مضى إلى تلك الناقة وهي رائحة في الابل، فتحيل حتى وثب على ظهرها فنفرت ساعة، وتنكرت برهة، ثم سكن نفارها ومشت مشي المسمحة، وأنه ورد بها الحلة وهو راكب عليها، فعجبوا له كل العجب، وصار ذلك من دلائله عندهم

وحدث أيضاً أنه كان في ديوان اللاذقية، وأن بعض الكتاب انقلبت على يده سكين الأقلام فجرحته جرحاً مفرطاً، وان أبا الطيب تفل عليها من ريقه وشد عليها غير منتظر لوقته، وقال للمجروح: لا تحلها في يومك، وعد له أياماً وليالي، وأن ذلك الكاتب قبل منه، فبرئ الجرح، فصاروا يعتقدون في أبي الطيب أعظم اعتقاد ويقولون هو

يحي الأموات
وحدث رجل كان أبو الطيب قد استخفى عنده في اللاذقية أو في غيرها من السواحل، أنه أراد الانتقال من موضع إلى موضع، فخرج بالليل ومعه ذلك الرجل، ولقيهما كلب ألح
عليهما في النباح، ثم انصرف، فقال أبو الطيب لذلك الرجل وهو عائد: إنك ستجد لك الكلب قد مات، فلما عاد الرجل لقي الأمر على ما ذكر
ولا يمتنع أن يكون أعد له شيئاً من المطاعم مسموماً وألقاه له وهو يخفي عن صاحبه ما فعل.)
هذا ما ذكر المعري من معجزاته وقد ذكر غيره معجزات أخر نضرب عنها صفحاً، لبعدها عن العقل ولأن راويها ليس في التثبت بمكان أبي العلاء
وفي ديوان أبي الطيب قصيدتان قالهما في صباه، تفيضان أملاً وطموحاً وكفاحاً، وأنا أجعل زمانهما فترة التنبؤ هذه، حين كانت نفسه تجيش بأبعد المطامع وتوقن بالفوز والنجاح. لما وجد تلكؤ الناس عن إجابة دعوته في نخلة - إحدى قرى بني كلب - ومظاهرته بالعداء، عزم على المضي بأمره وتحمل الأذى، ورسم لنفسه هذه الخطة الواضحة في قصيدته:
ما مقامي بأرض نخلة إلا ... كمقام المسيح بين اليهود
مفرشي صهوة الحصان ولك ... ن قميصي مسرودة من حديد
أين فضلي إذا قنعت من الده ... ر بعيش معجل التنكيد
ضاق صدري وطال في طلب الرز ... ق قيامي وقل عنه قعودي
أبداً أقطع البلاد ونجمي ... في نحوس وهمتي في سعود
عش عزيزاً أو مت وأنت كريم ... بين طعن القنا وخفق البنود
فاطلب العز في لظى ودع الذ ... ل ولو كان في جنان الخلود
إن أكن معجباً فعجب عجيب ... لم يجد فوق نفسه من مزيد
أنا ترب الندى ورب القوافي ... وسمام العدا وغيظ الحسود
أنا في أمة تداركها الل ... هـ غريب كصالح في ثمود
ولما رزقت دعوته بوارق من الإقبال في بني كلب سكر بنشوتها وطفقت نفسه تحدثه بقرب تحقيق الأمنية، ثم استمر خياله يبني له هذا المجد حتى أنس من نفسه قوة وتحفزاً، فراح يتحدث بإنفاذ ما رسم من خطة، ولو وقفت دونه ملوك الأرض، إلى أن تتم دعوته ويسود الناس. إن شئت فانظر في هذه الأبيات أهي لهجة شاعر يفتخر، أم إيمان طماح واثق من نفسه كل الثقة؟
سيصحب النصل مني مثل مضربه ... وينجلي خبري عن صمة الصمم
لقد تبصرت حتى لات مصطبر ... فالآن اقحم حتى لات مقتحم
لأتركن وجوه الخيل ساهمة ... والحرب أقوم من ساق على قدم
وما قولك فيمن سيغني الأرض بالدماء عن الأمطار:
تنسى البلاد بروق الجو بارقتي ... وتكتفي بالدم الجاري عن الديم
ويخاطب نفسه هذا الخطاب الناري، مشجعاً إياها، مهوناً عليها أمر الناس فيقول:
ردي حياض الردى يا نفس واتركي ... حياض خوف الردى للشاء والنعم
إن لم أذرك على الأرماح سائلة ... فلا دعيت إبن أم المجد والكرم
ثم انظر هذا الإنذار الشامل والوعيد الرهيب لأهل الأرض وملوك العجم والعرب:
ميعاد كل رقيق الشفرتين غداً ... ومن عصى من ملوك العرب والعجم
فان أجابوا فما قصدي بها لهم ... وإن تولوا فما أرضى لها بهم
هذه نفثة نفس جائشة تسلحت باليقين ورأت الخيال يلوح لها بقوة الحقيقة الواقعة، مؤمن بالفوز، واثقة من كفائتها وإضطلاعها بالأمور الجسام. وما أظن أبا الطيب حين قال هذه القصيدة كاذباً في نفسه، لا بل كان يحدث عنها أصدق الحديث، وإنما كان مخدوعاً ثائراً يريه شبابه الفائر ومواهبه المتقدة السراب ماء فذهب يصف ما تريه نفسه. وإلا فكيف تكون القصيدة أقوى ظهوراً منها فيما تلوت من شعره
تبعت أبا الطيب شراذم من عامة وأعراب، ثم نمى خبره إلى لؤلؤ أمير حمص من قبل الأخشيدية. وأنه يخشى أن يستفحل أمره (فخرج إليه لؤلؤ، فقاتله وأسره وشرد من كان معه من بني كلب وغيرهم من قبائل العرب. وحبسه في السجن دهراً طويلاً حتى

كاد يتلف، فكانت حاله إلى الضراعة والاستكانة. وكانت هذه الضربة كافية في إعادة رشده إليه وفي يقظته من حلمه اللذيذ الذي نعم به زمناً يسيراً فاستفاقت تلك النفس التي كانت تهذي في حلمها وتقول:

إذا امتلأت عيون الخيل مني ... فويل في التيقظ والمنام

وتقول:

ميعاد كل رقيق الشفرتين غداً ... ومن عصى من ملوك العرب والعجم

وهبطت من عليائها إلى أسفل الدركات فقالت:

أمالك رقى ومن شأنه ... هبات اللجين وعتق العبيد

دعوتك عند إنقطاع الرجا - ء والموت مني كحبل الوريد

ثم سئل لؤلؤ في أمره فاستتابه وكتب وثيقة وأشهد عليه فيها ببطلان ما ادعاه ورجوعه إلى الإسلام وأطلقه. وبهذا انطوت صحيفة من تاريخ أبي الطيب في صباه، على نزوة خلدها التاريخ على قلة ما يسجل للصبيان من نزوات

لم يفد أبو الطيب من مغامرته هذه إلا لقب (المتنبي) الذي لصق به على كره منه، فكان يستحي بعد توبته كل الاستحياء. ذكر عنه المعري أنه سئل عن حقيقة هذا اللقب: (هو من النبوة أي المرتفع من الأرض) ولما كان في بغداد قال له أحد الأكابر: (خبرني من أثق به أنك قلت إنك نبي؟) فقال أبو الطيب: (الذي قلته: أنا أحمد النبي) قال أبو علي بن حامد: (كان المتنبي في مجلس سيف الدولة: إذا ذكر له قرآنه أنكره وجحده. وقال له ابن خالويه يوماً في مجلس سيف الدولة: (لولا أن أخي جاهل لما رضي أن يدعى بالمتنبي لأن معنى المتنبي كاذب، ومن رضي أن يدعى بالكذب فهو جاهل. فقال أبو الطيب: لست أرضى أن ادعى بذلك وإنما يدعوني به من يريد الغض مني، ولست أقدر على المنع)

ونقل صاحب طبقات الأدباء ص371 عن التنوخي قال: قال لي أبي: (أما أنا فسألته بالأهواز عن معنى المتنبي لأني أردت أن أسمع منه هل تنبأ أو لا؟ فجاوبني جواب مغالط وقال: (إن هذا شيء كان في الحداثة، فاستحييت أن استقصي عليه فأمسكت) وزعم جماعة أن اللقب لصق به لتشبهه بالمسيح مرة، وبصالح مرة في أبياته التي مرت

وكيفما كان فان الذين عاشوا في زمن المتنبي وبعده مجمعون على ادعائه النبوة، وكان هو يجهد أن ينفي التهمة في حياته خجلاً وحياء. وليس بين الأمرين تناقض ولا داع إلى حيرة. وقد كان هذا اللقب على أبي الطيب من أشد ما كابد في حياته: فقد منعه كافور الولاية بسببه، ولما عوتب قال: (يا قوم، من ادعى النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم ألا يدعى الملك مع كافور؟ فحسبكم) وكلما أراد عدو أو شاعر ايلام المتنبي هجاه ونبزه بهذا اللقب

(للبحث بقية)

سعيد الأفغاني

دانتي الليجييري والكوميدية الإلهية وأبو العلاء - 3

المعري ورسالة الغفران

المطهر

تنفس دانتي صعداءه حين انتهى من دركات الجحيم، وحين هب عليه أول أنفاس (1) الفجر المنعش الندَّي! ونظر فرأى نجوماً أربعة تتألق في بنفسج السماء، ولجةً صاخبة ترغي وتزبد حول جزيرة نائية، ينهض فوقها جبل شامخ رفيع الذرى، كأنما يحمل القبة الأثيرية برَوقْيه؛ وسأل عنه فرجيل فأنبأه أنه جبل المطهر، وأنهما لا بد موقلان فوقه، ليصلوا منه إلى الفردوس

ويلتفتان فيريان شبحاً ميمماً شطرهما، وإذا هو شبح كاتو من يوتيكا، أقبل ينذرهما بما ينبغي لهما أن يتزودا به من الإيمان والصبر في سفرتهما الشاقة في أحياد الجبل، وفوق صياصيه. ويتقدمان من الشاطئ فينضح فرجيل الماء على وجه دانتي، ويلف حول خصره قصبة مما ينبت فوق الشاطئ (2) وما يكادان يفرغان حتى يريا زورقاً يثب في البعد فوق نواصي الموج، وفيه ملك كريم يجريه بين العُدْوَتين؛ وبين يدي الملك أرواح الموتى، أقبلت من الدار الفانية إلى دار البقاء؛ ويتبين دانتي بينهما روح صديقه كاسيللا المغني الفلورنسي المشهور، الذي طفق يملأ الفجر بأغنياته الحلوة

يحيي بها دانتي، لولا أن استحثهما كاتو فانطلقا يهرولان شطر الجبل (3) وينظر دانتي فلا يرى إلا خياله، حين تشرق الشمس، منبطحاً على السفح وراءه، فينزعج ويحسب إن فرجيل قد غادره ورحل، ولكن فرجيل يطمئنه، ويخبره أن أرواح الموتى إن هي إلا أضواء شفافة لا تكون لهلا ظلال كما لأهل الدار الفانية. ويبلغان منحدراً صعباً لا يستطيعان تسلقه، ولكن بعض أرواح الموتى تدلهما على شِعبْ ضيق فينفذان منه ويلقيان فيه الملك منفريدي ملك نابلي الذي يعرف دانتي ويرجوه، إذا رجع إلى الدار الأولى، أن يلقي ابنته كونستانزا ملكة أرجوان ويحدثها عن حكاية مقتل والدها التاعس الذي لا يدري أحد كيف قتل (4) ويُصعدان في الجبل، في طريق كلها نؤى وركام وأحجار، ثم يجلسان عند منعرج يستريحان مما عراهما من نصب. . . حيث يهتفُ بهما بعض أرواح الموتى، ويعرف بينهما دانتي روح صديقه بيلاكوا، الذي يحدثه أنه استحق أن يكون خارج الفردوس دهراً لأنه لن يعجل بالتوبة قبل موته إلا حين أدركه المنون. (5) وينطلقان، فيلقيان أفواجاً ممن لم يعجلوا لتوبتهم فأمهلوا عن دخول الفردوس كما أمهل بيلاكوا. (6) ويلقيان أفواجاً أخرى فتتكبكب حول دانتي، تتألم وتبكي، وترجوه إذا عاد إلى الدار الأولى، أن يبلغ أهليهم تحياتهم، وأن يرجوهم أن يستكثروا لهم من الصلاة والدعاء، عسى أن يخفف عنهم، وأن يعجل بهم إلى الجنة!! ويعجب دانتي، ويسائل فرجيل (وماذا تفيد هؤلاء صلوات أهليهم؟ وهل للإنسان إلا ما سعى؟)، ولكن فرجيل يذكر بياتريس ويذكر أن صلاة دانتي قد نفعتها، وقد عجلت بها إلى الفردوس. ثم يلقيان سوردللو، فيشكو إليه دانتي تدابر الإيطاليين وتقاطعهم وقلة اهتمامهم بجمع كلمة إيطاليا وإنهاض الإمبراطورية الرومانية. (7) ويرخي الليل سدوله فيتقدم سوردللو ليهديهما سواء السبيل فيدلهما إلى منعرج مزهر يريان فيه أرواح بعض الملوك والأمراء كالإمبراطور رودولف، وأوتوكار ملك بوهيميا، وهنري الثالث ملك إنجلترا. . . الخ. . . ويتحدث دانتي إلى بعضهم (8) ويتنزل ملكان عظيمان من السماء، في يد كل منهما سيف من نور فيحرسان الوادي، ولكن سوردللو يستأذنهما فيأذنان له، فيقود الشاعرين إلى شِعب جميل يلقى فيه روح نينو قاضي جاليورا فيكلمه دانتي في بعض ما كان من مشكلات الدنيا، ثم يلقى أحد إخوانه من الموتى فيتنبأ له عما سيلقاه من نفي وتشريد ونزح عن الديار حين يعود إلى الدنيا (9) وينام دانتي، ثم يصحو بعد الشروق بساعتين فيجده قد حمله من يدعى لوسيا إلى باب المطهر حيث يأذن لهم حارسه، وهو من الملائكة، باجتيازه. (10) ولا ندري كيف ينتكس دانتي فيعطينا في المطهر صورة من أبشع صور الجحيم في هذا الفصل العاشر. . . فبعد أن يجتازوا (سوردللو وفرجيل ودانتي) طريقاً حلزونياً حول صخرة كبيرة يشرفون على واد سحيق مكتظ بأهل الكبرياء والخيلاء من موتى الدار الفانية وقد وقفوا فيه وفوق كواهلهم حجارة ضخمة من الرخام ينوؤون تحتها ويتضاغون ويبكون! (11) ويمرون بأقوام من أهل الدنيا الفانية قضى عليهم كِبْرهم أن يؤخروا في منزلق صعب عن الجنة جزاء صلفهم في دار الغرور (12) ثم يتقدم إليهم ملك فينقلهم من دارة المطهر الأولى إلى دارته الثانية. (13) حيث أهل الحسد والحقد والغيرة. . . وقد خيطت أعينهم بسلوك من حديد، ويجد دانتي من بينهم السيدة سابيا السينية التي تتحدث إليه فتخبره عن سبب تخلفها هنا. (14) ثم يلقى واحداً من سكان وادي الأرنو (النهر الذي تقع عليه فلورنسا) فيحدثه عن سبب انحطاط الفلورنسيين وسائر سكان هذا الوادي، ثم انحطاط الناس في رومانا. . . . ويمضي الشاعران بين ضجيج الأرواح الهائمة، تلغط جميعاً بهراء من الحسد والأحقاد القديمة (15) ويحدوهما ملك كريم إلى الدار الثالثة من المطهر حيث تطّهر الأرواح من سورة الغضب والجموح الدنيوي، وبعد أن يكلم دانتي بعض هذه الأرواح السادرة ينشر ضباب كثيف يغشى الوادي، ويظل فيه الجميع (16) ويتعرفون الطريق على أصوات الأرواح التي تصلي لبارئها، ثم يبرز من الضباب روح جريء (ماركو لومباردو) فيكلم دانتي ويقنعه أن الله القدير قد وضع في كل نفس إرادةً حرة تهدي إلى الرشد أو تنتهي إلى الضلال، وأن فساد الدنيا هو الثمرة المرة لهذا المزيج غير المتكافئ في نفوس الحكام من القوى الروحية والشهوات الحسية (17) وينجاب الضباب أو هم يخلصون منه آخر الأمر، ويتقدم إليهم ملك جميل فيقودهم إلى الدار الرابعة من دارات المطهر؛ حيث يقر أهل الكسل وعدم المبالاة ليخلصوا من أدرانهم (18 - 19) ويتحدث

فرجيل حديثاً طويلاً عن الحب، فيقسمه إلى حب طهري وحب شهوي، ويعزو إلى الأول كل ما يصدر من خير وإلى الثاني كل ما يمسخ الحياة من شر؛ ثم يقودهما ملك آخر إلى الدار الخامسة حيث يطهر الطماعون وجماعو المال من خبثهم، ويلقي بين هؤلاء البابا أدريان الخامس فيكلمه (20 - 21) ويلقى دانتي الملك هوج كانت من ملوك فرنسا فيحدثه هذا عن أحفاده وذراريه من ملوك ذاك البلد. ثم تزلزل الجبل ويميد بمن عليه فتهتف الأرواح الهائمة على جنباته: (المجد لك يا رب. . . العظمة لك يا الله!). ثم يتقدم إلى الشاعرين روح قد تم تطهيره واخذ طريقه إلى الفردوس، ويدعى ستاتيوس فيشرح لهما سبب الزلزلة السالفة، ثم يتقدم إلى فرجيل فيعرفه ويكاد يطير من الفرح للقائه (22) ويخب الثلاثة في طريقهم إلى الدارة السادسة حيث يطهر المنهومون وأهل البطنة، وحيث يرون شجرة باسقة ذات طلع نضيد وفاكهة حلوة يفوح ارجها، في أوراقها أرواح تذكر الله وتسبح بحمده وتشكر له ما رزقها من عفة (23 - 24 - 25) وينظر دانتي فيرى روح صديقه فوريز الذي ينتقد بشدة هذا الملبس الجديد الشاذ الذي اتخذه أهل فلورنسا، ثم يرى دانتي جماعة من أصدقائه المتلبثين في
المطهر ومنهم خصمه السياسي الكبير كورسو دوناتي، ويصل الثلاثة إلى شجرة أخرى تخرج من بين أوراقها أصوات رائعة تردد أمثلة في النهم، ثم يتقدم إليهم ملك فيهديهم إلى الدارة السابعة والأخيرة من المطهر حيث يطهر أولئك الذي كانوا لا يستطيعون كبح نفوسهم وضبط عواطفهم ساعة الغضب. وهم يطهرون ثمة في نار حامية (26 - 27) وترى الأرواح الهائمة في النار ظل دانتي على اللهب فتدهش لوجود حي من بني الدار الفانية في هذا المكان الأخروي المقدس، ثم يتقدم إليه روح صديقه جيدو جوينيشبلي الشاعر الإيطالي المعروف فيتحدث إليه برهة كما يتحدث إليه روح آخر. ثم يقودهم ملك كريم عَبْر النار إلى المعراج المؤدي إلى السماء. . جنة الأبرار. . ولكن الليل يقبل، فيجلس الثلاثة (فرجيل ودانتي وستاتيوس) عند حنية رخية النسيم، حيث ينام دانتي فيرى رؤيا جميلة. ثم يهب مع الصباح فيودعه فرجيل، ويترك له الحرية الكاملة للتجول في السماء حتى يلقي بياتريس (28) ويذهب دانتي في السماء صعداً حتى يبلغ الغابة الفردوسية الوارقة، ولكن نهراً من أنهارها يحجز بينه وبين فتاة لاهية هيفاء وقفت في روضة ناضرة تقطف الزهر ذا الشذى؛ فيكلمها دانتي، ولكن الفتاة تأخذ معه في شرح جغرافية هذا المكان، وتخبره إن هذا النهر الذي يفصل بينهما هو نهر ليث، وإن يكن اسمه يونو في مكان آخر (29) وتخطر الفتاة، في عكس مجرى النهر، ويمشي دانتي تلقاءها، ويتحدثان حديثاً مشجياً، ثم يسمعان موسيقى بعيدة فينظران، فإذا حفل حاشد في أديم الفردوس يلوح في الأفق. (30) وتمضي لحظة، وإذا ملاك كريم يتيه في شفوف بيض يتنزل من السماء إلى مسرى دانتي، وينظر الشاعر، فيرى حبيبته بياتريس هي هذا الملاك الطاهر فيكاد يجن من الفرح. . . ولكن بياتريس تأخذ معه في عتاب حلو وعذل رفيقه (31) فيعترف الشاعر انه مخطئ في كل ما أخذت عليه حبيبته، ويركع بين يديها معتذراً ثم يسجد سجدة طويلة باكية، وتتقدم إليه ماتيلدا - الفتاة السابقة - فتأخذ بيده، وتخوض به لجج ليث، ثم تقدم إليه أربع عذارى فاتنات، يمثلن الفضائل الكنسية، وهؤلاء يقدنه إلى جريفون، رمز المخلص، السيد المسيح، وإلى ثلاث عذارى أخريات يمثلن الفضائل الإنجيلية، وهؤلاء يقدمنه إلى بياتريس التي تنسي دانتي جمالها الخلقي، وتشغفه بجمالها الروحي (32 - 33) وينطلق الجميع (دانتي وماتيلدا وستاتيوس وبياتريس) ويحذرون دانتي الا يحدق النظر في حبيبته لئلا يعشى بصره من شدة لألائها. ثم يصلون إلى دوحة عظيمة هي شجرة المعرفة التي أكل منها آدم وطرد بسببها من الجنة، فيرى إلى أطيار وأشباح غريبة تهبط من علٍ فتكون فيها، ويتبين منها دانتي بازياً ونسراً وثعلباً وتنيناً. . . . وتتقدم بياتريس إلى الشجرة هي والعذارى السبع فينشدنه أنشودة من أناشيد الجنة، ثم يمضي الجميع وتكلم بياتريس دانتي، فتكشف له عن شؤون غيبية ستحدث له في الدار الفانية حينما يعود إليها. ويكونون عند النبع الأكبر الذي يفترق عنده النهران ليث ويونو؛ وهنا تشير بياتريس إلى ماتيلدا فتتقدم هذه إلى دانتي وتسقيه جرعة من مياه يونو، التي تكون هي وأمواه ليث عظمة الإله وحكمته وجبروته

(للبحث بقية)
(د. خ)
أندلسيات
أبو بكر بن العربي
للأستاذ عبد الرحمن البرقوقي
نترجم اليوم لإمام عظيم من أئمة المسلمين، وعلم من أعلام هذا الدين، الذين أنجبتهم الأندلس فيمن أنجبت، فأثروا في العلوم الإسلامية تأثيراً، ونظروا فيها تنظيراً، وفصلوا ما أجمل منها تفصيلاً، وسجلوا من ثم أسمائهم في سجل الخلود تسجيلاً. .
هذا الإمام هو العالم الحافظ الأصولي المحدث الفقيه الأديب الثبت الثقة أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد المعافري الإشبيلي الأندلسي المعروف بالقاضي أبي بكر بن العربي. .
نجل هذا الإمام أبوان كريمان فاضلان معرقٌ لهما في الفضل والكرم، ومن ثم تداركته أعراق صدق وكان منه هذا النابغة العظيم، ولا جرم، فأن للوراثة أثرها، وللبيئة أثرها البالغ كذلك، هيأهما قدر من الله نافذ، وخط في أم الكتاب مسطور، وذلك أن أم المترجم له هي بنت أبي سعيد عبد الرحمن الهوزني صاحب صلاة الجماعة بقرطبة في عهدي عبد الرحمن الداخل وابنه هشام، وهو رأى أبو سعيد والد أبي القاسم الحسن الهوزني أحد العلماء الأعلام والسروات النابهين، وهو - أي أبو القاسم - والد أبي حفص عمر ابن الحسن الهوزني الكاتب البارع الألمعي. أما أبو المترجم له فهو أبو محمد عبد الله بن محمد أحد فقهاء أشبيلية ورؤسائها، وكان له عند المعتمد بن عباد أعظم ملوك الطوائف وعند أبيه المعتضد من قبله منزلة باسقة. . ولما انقضت دولة المعتمد بن عباد وسائر ملوك الطوائف باستيلاء يوسف بن تاشفين ملك مراكش على الأندلس خرج أبو محمد ومعه ابنه المترجم إلى الحج، وذلك سنة 485هـ - سنة 1092م - وسن المترجم له إذ ذاك زهاء سبعة عشر عاماً، إذ كان مولده سنة 1075م، وقد تأدب المترجم بأشبيلية قبل ارتحاله مع أبيه وقرأ القراءات وسمع أباه وخاله أبا القاسم الحسن الهوزني وأبا عبد الله السرقسطي وغيرهم، وفي ذلك يقول من كتاب له: (حذقت القرآن ابن تسع سنين ثم ثلاثة لضبط القرآن والعربية والحساب، فبلغت ستة عشرة، وقد قرأت من الأحرف نحواً من عشرة بما يتبعها من إظهار وإدغام ونحوه، وتمرنت في العربية واللغة ثم رحل بي أبي إلى الشرق.)
ولما ذهب إلى الإسكندرية سمع الأنماطي وغيره، وسمع بمصر أبا الحسن الخلعي وغيره، وبدمشق غير واحد، ولقي ببغداد أبا حامد الغزالي وغيره، وفي لقائه الغزالي يقول في كتابه قانون التأويل: (ورد علينا ذا نشمند - يعني الغزالي - فنزل برباط أبي سعد بازاء المدرسة النظامية معرضاً على الدنيا مقبلاً على الله تعالى فمشينا إليه، وعرضنا أخيلتنا عليه، وقلت له: أنت ضالتنا التي كنا ننشد، وإمامنا الذي به نسترشد، فلقينا لقاء المعرفة، وشاهدنا منه ما كان فوق الصفة، وتحققنا أن الذي نقل إلينا من أن الخبر على الغائب فوق المشاهدة ليس على العموم ولو رآه علي بن العباس - ابن الرومي - لما قال:
إذا ما مدحت امرأ غائباً ... فلا تَغْلُ في مدحه واقصِدِ
فإنك إن تَغْلُ تَغْلُ الظنو - ن فيه إلى الأمد الأبعد
فَيَصغُرُ من حيث عَظَّمتَه ... لفضل المغيب على المشهد
ثم حج في موسم سنة 489 وسمع بمكة أبا علي الحسين بن علي الطبري وغيره، ثم عاد إلى بغداد ثانية وصحب أبا بكر الشاشي وأبا حامد الغزالي والخطيب التبريزي وغيرهم من العلماء والأدباء وقرأ عليهم الفقه والأصول والأدب، وقيد الحديث وإتسع في الرواية وأتقن مسائل الخلاف والأصول والكلام (علم التوحيد) ثم صدر عن بغداد إلى الأندلس وعاج على الإسكندرية وأقام بها مدة عند أبي بكر الطرطوشي فمات بها أول سنة 483 ثم انصرف هو إلى الأندلس سنة 495 وقدم بلدة أشبيلية بعلم كثير لم يأتي بمثله أحد قبله ممن كانت له رحلة إلى المشرق - إلا الإمام الباجي كما يقول المترجم من كلمة له - وسنترجم للباجي - وكانت رحلة علماء الأندلس وأدبائها إلى المشرق - إلى أفريقية - تونس والجزائر - ومصر والشام والعراق والحجاز، وإلى خراسان وما إليها بل وإلى الهند والصين أحياناً - في حركة ودؤوب عجيبين، لا يكادان

يفترقان على بعد المشقة وصعوبة المواصلات واختلال الأمن، كما كان كثير من المشارقة يرتحلون إلى الأندلس، غير أن رحلة الأندلسيين إلى المشرق كانت في الأعم الأغلب لنشدان التبحر في العلم والأدب واللغة والارتواء من سلسبيلها الثر الفياض إذ الأندلسيون يعلمون أن المشرق هو مهد العلوم والمعارف، فكانوا لذلك يقفون من المشارقة موقف الأبناء من الآباء، أو التلاميذ من الأساتيذ. كما كان من أغراضهم تأدية فريضة الحج. أما المشارقة فقد كان ارتحالهم إلى الأندلس إما بدعوة من ملوكها للإفادة وبث العلم والفن والأدب كما كان الشأن مع أبي علي القالي إذ دعاه الحكم المستنصر ولي عهد الناصر، ومع زرياب الموسيقي العبقري إذ دعاه عبد الرحمن الأوسط، وإما للربح والاتجار كما كان من الرازي محمد بن موسى والد ابي بكر أحمد بن محمد الرازي كبير مؤرخي الأندلس، وإما للاستكشاف وحب الاستطلاع خدمة وللعلم من طريق والسياحات كما كان من مثل ابن حوقل، وإما للإقامة بالأندلس والاستمتاع بذلك الفردوس الإسلامي المفقود كما كان من كثير ممن نزحوا إلى الأندلس وأقاموا بها. . . (وبعد) فأنا في الحق لا نعلم أمة من الأمم كانت تعني بالعلم وتحصيله، وتعاني ما تعاني أراضيه في سبيله، عناية المسلمين الأولين. وكان ذلك منهم نزولاً على حكم دينهم وحضه على التعلم والتعليم وطلب العلم ولو بالصين. . . ولمناسبة السفر وصعوبته في العصور نورد هنا نبذة للمترجم له أوردها المقري، قال: (ولما ذكر القاضي أبو بكر ابن العربي في كتابه قانون التأويل ركوبه البحر في رحلته من أفريقيا قال: وقد سبق في علم الله تعالى أن يعظم علينا البحر بزَوْلِه، ويغرقنا في هوله، فخرجنا من البحر، خروج الميت من القبر، وأتهينا بعد خطب طويل إلى بيوت كعب بن سليم ونحن من السغب، على عطب، ومن العرى، في أقبح زي. . . تمجنا الأبصار، وتخذلنا الأنصار. فعطف أميرهم علينا فأوينا إليه فآوانا، وأطعمنا الله تعالى على يده وسقانا، وأكرم مثوانا وكسانا، بأمر حقير ضعيف، وفن من العلم طريف. وشرحه أنا لما وقفنا على بابه ألفيناه يدير أعواد الشاه، فِعْلَ السامدِ اللاّه، فدنوت منه في تلك الأطمار، وسمح لي بياذقته، إذ كنت من الصغر في حد يسمح فيه للأغمار، ووقفت بازائهم، أنظر إلى تصرفهم من ورائهم، إذ كان علق بنفسي بعض ذلك من بعض القرابة في خُلس البطالة، مع غلبة الصبوة والجهالة، فقلت للبياذقة: الأمير أعلم من صاحبه، فلمحوني شزراً وعظمت أعينهم بعد أن كنتُ نزراً، وتقدم إلي الأمير من نقل الكلام إليه، فاستدناني فدنوتُ منه، وسألني هل لي بما هم فيه بصر؟ فقلت: لي فيه بعض نظر، سيبدو لك ويظهر، حرّك تلك القطعة، ففعل، وعارضه صاحبه، فأمرته أن يحرك أخرى، وما زالت الحركات بينهم كذلك تترى، حتى هزمهم الأمير، وأنقطع التدبير، فقالوا: ما أنت بصغير وكان في أثناء تلك الحركات قد ترنم ابن عم الأمير منشداً:

وأحلى الهوى ما شك في الوصل ربه ... وفي الهجر فهو الدهر يرجو ويتقي

فقال: لعن الله أبا الطيب أوَ يشكّ الربّ؟

فقلت في الحال: ليس كما ظنّ صاحبك أيها الأمير، إنما أراد بالرب ههنا الصاحب، يقول: ألذ الهوى ما كان المحبُّ فيه من الوصال، وبلوغ الغرض والآمال، وعلى ريب، فهو في وقته كله على رجاء لما يؤمله، ونقاة لما يقع به، كما قال:

إذا لم يكن في الحب سخط ولا رضى ... فأين حلاوات الرسائل والكتب

وأخذنا نضيف إلى ذلك من الأغراض، في طرفي الإبرام والانتقاض، ما حرّك منهم إلى جهتي دواعي الانتهاض، وأقبلوا يتعجبون مني، ويسألونني كم سنّي، ويستكشفونني عني، فبقرت لهم حديثي، وذكرت لهم نجيثي، وأعلمت الأمير بأن أبي معي فاستدعاه، وقمنا الثلاثة إلى مثواه، فخلع علينا خلعه، وأسبل علينا أدمُعه، وجاء كل خوان، بأفنان الألوان، ثم قال - بعد المبالغة في وصف ما نالهم من إكرامه - فانظر إلى هذا العلم الذي هو للجهل أقرب، مع تلك الصبابة اليسيرة من الأدب، كيف أنقذا من العطب. . .

(لها بقية)

عبد الرحمن البرقوقي
جامعة الإسكندرية

بقلم إبراهيم جمعة

المتحف الإسكندري - جامعة على غرار الأكاديميات الأثينية

وجه الخلاف بينهما - الغرض من إقامة المتحف - راعي -
المتحف - جامعة الإسكندرية وجامعات العصور الوسطى في
أوروبا - الشبه بين كلية الملكة وكلية أول سولز في اكسفورد
وبين جامعة الإسكندرية - النظام الداخلي للجامعة - علماء
هذا العصر - مكتبة المتحف

- 1 -

تحققت في مصر سياسة الإسكندر الأكبر - تلك السياسة التي كانت ترمي إلىصبغ البلاد المفتوحة بصبغة إغريقية هلينية، وقد ساعد على تحقيق حلم الإسكندر إنشاؤه مدينة الإسكندرية لتكون مركزاً لتلك الثقافة الجديدة. وقد جرى أعقابه في مصر من البطالسة على سياسته، فجعلوا الإسكندرية من حيث التجارة وريثة لبيريه ميناء أثينا التجارية كما جعلوها وريثة لأثينا نفسها من الوجهة العلمية - وهكذا تكون الإسكندرية قد قامت في وقت هوى فيه لواء العلم من عل بمهمة سامية ظلت تقوم بأعبائها عدة قرون

وكان أكبر مظاهر هذه الوراثة تأسيس بطليموس سوتر لمتحف الإسكندرية - والمتحف الإسكندري جامعة علمية، وإنما سميت الجامعة متحفاً لقيامها في ركن من أركانه. وقد كانت تلك التسمية شائعة في العصر الإغريقي، فقد كان يطلق لفظ (الجمنازيوم) على جامعة بيرين . وقد انحدرت هذه التسمية من العصور القديمة إلى العصور الوسطى فالحديثة، فما يزال يطلق لفظ المتحف (ميوزيوم) على بعض الأندية الأدبية في ألمانيا حتى الآن

فلا غرابة إذن إذا أطلقنا لفظ المتحف الإسكندري وأردنا به جامعة الإسكندرية، فقد كان كل ما في المتحف من شتى أنواع الحيوان والنبات ومن مجموعات الكتب النفيسة

والمخطوطات وما إلى ذلك عوناً على الدراسة العلمية المنظمة، والبحث في حياة الكائنات، وتقصي الحقائق والتأليف، مما كان في مجموعة أشبه شيء بمهمة الجامعات في العصور الحديثة

أنشأ سوتر هذا المتحف بمساعدة فيلسوف أثيني هو (ديمتريوس فاليرون) الخطيب اليوناني الذي استصحبه سوتر في عودته من حرب ديمتريوس ملك مقدونية. ومما يدعو إلى كثير من الأسف أننا لا نعثر الآن على كثير من معالم ذلك المتحف في حين استطعنا أن نلم بكثير من المعلومات عن المعاهد المعاصرة له. ومن عجب أن يكون هذا، لأن المتحف أنشئ في وضح التاريخ، وفي عصر عاهل شهير، وفي مدينة من أعظم مدن العالم القديم! ولعل التنقيب يكشف عن بعض معالم المتحف الإسكندري لو كان للتنقيب من سبيل

غير أنه لحسن الحظ استطعنا أن نصل إلى بعض إنتاج المتحف الإسكندري في النقد الأدبي وفي العلوم الرياضية والجغرافية وغير هذه وتلك من فروع المعرفة الإنسانية، فإذا لحظنا ضعفاً ظاهراً في الأدب والشعر والفلسفة، فإنما يعزى ذلك إلى ضعف هذا العصر الأول من عصور الجامعة في هذين النوعين من الإنتاج بالمقارنة مع أثينا وأيونيا اللتين كانتا إذ ذاك في أوجهما العلمي

إن فكرة جعل الإسكندرية مركزاً للتجارة ومستقراً للعلوم والآداب والفنون، اختمرت تدريجا في ذهن بطليموس سوتر اختماراً ساعد على إخراجه إلى عالم الحقيقة ذلك الفيلسوف الإغريقي. . وكان لا بد أن يكون تأسيس المتحف على غرار يوناني بحت، إذ أنه وليد فكر يوناني كما نرى. .

نشأت المدارس اللاتينية بادئ الأمر في شكل حلقات للدرس، تنتظم حول معلم يتحدث إلى تلاميذه في فرع من فروع المعرفة، وما لبثت هذه الحلقات أن استحالت إلى هيئات علمية منظمة، عرفت كل منهما باسم معلمها الأول، واتخذت اسم (الأكاديمي) وقد كانت هذه الهيئات العلمية في بلاد اليونان بعيدة عن أي إشراف حكومي، إلا في الأوقات التي كانت ترى فيها الحكومات ضرورة قصوى للتدخل في حريتها العلمية ابتغاء الحد من تلك الحرية، محافظة على سلامة الأداة الحكومية من أي شطط ينتجه التفكير الحر

أما في مصر فقد حتمت البيرقراطية الحربية أن يكون المتحف تحت الإشراف الحكومي
المباشر وفي رعايته. وهكذا كان المتحف، أو كانت الجامعة الإسكندرية، من بدء إنشائها هيئة حكومية تستمد وجودها مباشرة من الملك، ويستمد كل فرد من أفرادها حريته منه
لم يكن الغرض الذي قصد إليه بطليموس من إنشاء هذا المتحف هو أداء رسالة معينة تصدر عن ذلك المعهد، ولم يكن هو يدري في كثير أو قليل الفرق بين المعهد الذي أنشأه وبين تلك الأكاديميات الأثينية التي ازدهرت في أثينا، وإنما الظاهر للباحث أنه قصد من وراء إنشائه إلى غرض قد يكون سياسياً وقد لا يكون، قصد إلى أن يجعل المدينة التي جعلها الإسكندر عاصمة له مركزاً لحكم العالم الهليني بأسره، فمن أجل هذا كلف سوتر بالاستيلاء على مقدونية، وبفرض سيطرته المطلقة على البحر الأبيض الشرقي؛ ولا شك أن هذه السياسة شبيهة بسياسة التوسع التي جرى عليها الإسكندر مع فرق جوهري هو أن الإسكندر كان يجعل مقدونيا نواة لإمبراطوريته، بينما كان سوتر يرمي إلى جعل مصر التي آلت إليه بعد موت سيده نواة لإمبراطورية بطليموسية
والذي يتأمل في شخصية سوتر لا يرى غرابة في سعة أطماعه التي أصبحت الإسكندرية بحكم الظروف مركزها الطبيعي، لهذا لم يأل سوتر جهداً في توفير مظاهر الأبهة والعظمة لمدينته الخالدة، وإذا فقد كان الغرض الأول والأخير من إنشاء المتحف هو أن يجمع في الإسكندرية جمهرة من العلماء تفكر، وتحاضر، وتكلف بالبحث، امتازت بتفوقها العلمي والأدبي لأنها كانت جمهرة منتقاة ابتغاء التشبه بأثينا وعلمائها، أثينا عاصمة العام الهليني ومستودع علمه. . وبهذا تكون رغبات سوتر منحصرة في أن يسلب مقدونيا نفوذها السياسي ليتركز في مصر، وأثينا نفوذها العلمي ليستقر في الإسكندرية
وكانت هذه الجمهرة من العلماء تسكن المتحف، تحت إشراف رئيس ديني يعينه الملك من الكهنة، ويجدر أن نذكر هنا أنه لم يكن مصرياً كمعظم هيئة المتحف، وقد كانت مهمته قاصرة على رعاية المتحف رعاية دينية، وهو تقليد جامعي نقلته جامعة الإسكندرية عن جامعة أثينا بشيء من الاختلاف، إذا كان راعي الأكاديمية الأثينية ينتخب انتخاباً. أما راعي جامعة الإسكندرية فقد كان يعين تعييناً لمدة تطول وتقصر تبعاً للإرادة الملكية
ولما أن استطاع سوتر أن يجعل للإسكندرية مكانة سياسية ممتازة، وتمكن في الوقت نفسه أن يحيطها بجو علمي خاص، أمها الطلاب من جميع أنواع العالم الهليني يطلبون العلم
على خير أساتذته
وقد كانت مهمة هذه الجامعة الناشئة أول أمرها قاصرة على النقد العلمي، والنظر في مؤلفات السابقين، دون أن تكون مبتدعة أو مضيفة إلى الثورة العلمية. . وتعوزنا المعلومات عن عدد الطلاب المختلفين إلى حلقات الدرس في الجامعة، وعن نظام معيشتهم، وعن العلاقة بين هؤلاء الطلاب وبين أساتذتهم لنستشف من هذه العلاقة شيئاً عن الروح الجامعية في جامعة الإسكندرية
وفي هذا السبيل لم نصل إلى أكثر من أن عدداً من الطلاب الغرباء أم الإسكندرية طلباً للعلم، ولا بد أن يكون هذا العدد قد سكن المتحف أو سكن المدينة على مقربة من المتحف، حيث لم يكن لهم في المدينة غاية غير الدراسة
حقاً لقد كان بالمتحف أروقة، ولكن الشائع أنها كانت لسكن العلماء، ولكن حقيقة معينة تدعو إلى الاعتقاد بأن الطلاب عامة سواء أكانوا من الوطنيين أم الأجانب النازحين، كانوا يساكنون الأساتذة في تلك الأروقة، تلك هي التي يذكرها (مافي) في كتابه (الحياة والعقائد الإغريقية) ويقرر فيها أن نظام جامعة الإسكندرية كان كنظام (كلية الملكة) في اكسفورد في أول إنشائها، أشبه شيء بمدرسة داخلية يختلف فيها الطلاب إلى دروس يلقيها الأساتذة ثم ينصرفون في أوقات فراغهم إلى الاستذكار. وأقل ما يؤخذ من هذا أن الطلبة كانوا يعيشون مع أساتذتهم في بناء واحد، ومن شأن هذا أن يعطي مجالاً للتعاون العلمي بين الطلبة من ناحية وبين الطلبة وأساتذتهم من

ناحية أخرى؛ ومن شأنه أيضاً أن يظهر الجامعة بمظهر لا يتفق مع سمو النظام الجامعي الذي يجب أن يكون أميز خصائصه البحث العلمي، وأخذ الطلاب به تدريجاً حتى تنمو فيه ملكته. وهذا ما فطنت إليه جامعة الإسكندرية، فنزلت عن النظام العتيق تدريجاً واشترك الطلبة في الأبحاث العلمية، وقاموا أحياناً بواجب الأساتذة تمريناً لهم على مزاولة التدريس الجامعي. ووقعت جامعات أوربا في العصور الوسطى - ولا سيما كلية الملكة في اكسفورد - في مثل ما وقعت فيه جامعة الإسكندرية من خطأ، ولكنها أدركت ما في هذا النظام من قصور؛ وجاءت كلية (أول سولز) في شكلها الأخير مصححة لهذا الخطأ في النظام الجامعي حيث يقوم (الرفقاء) بأبحاث علمية وأدبية بعد حصولهم من جامعة اكسفورد على درجاتهم العلمية

ويحق لجامعة الإسكندرية أن تفاخر جامعات العالم طرا بما سبقت إليه من جمع الآداب اليونانية، وتهذيبها، وتنقيتها من الشوائب، بما توفر لعلمائها وطلابها في زمن بطليموس فيلادلف من المقدرة الفائقة على النقد الأدبي

ولم تكن الجامعة معهد العلم الوحيد في المدينة، فقد كان إلى جانبها بعض المدارس اليهودية يتلقى فيها أبناء اليهود شرائع ديانتهم - وقد صحب دخول المسيحية نشأة بعض المدارس النصرانية، ناوأت الجامعة واليهودية معاً، وفيما نمت القومية المصرية، ونضج الشعور القومي، وانتقض في وقت ما على الآثار الإغريقية والرومانية كما سنفصله فيما بعد

ويذكر (مافي) في كتابه (إمبراطورية البطالسة) أن جامعة الإسكندرية اتخذت نموذجاً لكل الجامعات التي تلتها في أوربا، فعلى غرارها تأسست جامعات أوربا في العصور الوسطى

أما المكتبة الشهيرة فلا تمدنا المصادر التاريخية بشيء قاطع في شأن مكانها: أكانت متصلة بالمتحف، أم كانت منفصلة عنه، وهل كان أمين تلك المكتبة - هو شخصية عرف عنها كثير من الفضل والأدب - عضواً من أعضاء المتحف. والغالب على الظن أن المكتبة كانت وثيقة الاتصال بالمتحف، تمد الباحثين فيه بحقائق العلوم التي وصل إليها الإغريق في أثينا وأيونيا من قبل

وترجح أن تكون أول مكتبة أنشئت مع المتحف في وقت واحد في حي البروكيون - ولا يذكر (سترابو) وقد زار الإسكندرية في عهد أغسطس شيئاً ما عن المكتبة أو عن احتراقها - وكل ما ذكره (ديودور) أنه اطلع على نشرات كانت تصدر في البلاط الملكي استمد منها بعض معلوماته

ويغلب أن تكون المكتبة قد جمعت بنفس الطريقة التي جمعت بها بعض المكتبات الإنجليزية الشهيرة كمكتبة (سنيردلاند) ومكتبة (سبنسر) كما تجمع وتقتني قطع الخزف الأثرية أو الصور التاريخية سواء بسواء

(للبحث بقية)

إبراهيم جمعة

من أدبنا المجهول - شاعر يرثي ولده بديوان

اقتراح القريح واجتراح الجريح

لأبي الحسن الحصري

(للأستاذ الزيات عزاء وسلوة)

للأديب السيد أحمد صقر

- 3 -

نموذج من شعره:

- قال أبو الحسن علي الحصري من قصيدة - وهي الأولى

حاشاك من نار على الأحشاء ... يزداد ضِعفاً حرها بالماء

عزيتني فيما ترى وعزوتني ... للصابرين ولات حين عزاء

من لي بأجر الصابرين وأعظمي ... موهونة من أعظم الأرزاء

هل مستطيع أن يكفكف دمعه ... من لا براح له على البُرَحاء

لهفي على ريحانة راحت إلى ... مثوى ثواب ليت فيه ثوائي

سالت حشاشة نفسه من أنفه ... فشهدت منه مصرع الشهداء

ونظرت في قطع الرعاف فلم تمط ... حكم المنية حيلة الحكماء

فإذا أراد الله ميتة مدنف ... أخفى على الآسى دواء الداء
داواه من أدواه حتى قال لي ... لا تأتني من ذا الردى بدواء
لا أشتكي أني حرمت إجابة ... لولا شعوب لدَعَّ عنه دعائي
والخير فيما اختار خالقه فقد ... آلت به الضراء للسراء
ولقد يَسُرُّ الله بالبأساء في ... أحكامه ويضر بالنعماء
عرضت له تفاحةً نفاحة ... بعضُ الأماء فرد بالأيماء
ولو استطاع القول قال مشافها ... تفاح جنات الخلود شفائي
عبد الغني لك المسرة غائبا ... ولي المساءة مصبحي ومسائي
وقال من قصيدة:
كان عبد الغني للعين نورا ... ولقلبي هدى وللعيش طيبا
كان شيبي به شبابا فلما ... بان رد الشباب مني مشيبا
كنت في غربتي كأني به في ... وطني، فانقضى فعدت غريبا
لم يدع فقده لمغناي معنى ... فخلا آهلا وضاق رحيبا
لست أنسى مقامه ومقامي ... وكلانا مثل القتيل خضيبا
أنفه ينثر العقيق وعيني ... تنثر الدمع بالعقيق مشوبا
ضمني شاكيا إلي فقلبي ... كلما يشتكي يطير وجيبا
وبودي لو احتملت فداء ... عنه ذاك الضنى وتلك الكروبا
لو أطق فيه حيلة غير أني ... مذ قضى نحبه ألفت النحيبا
مات من كنت أقطع البيد جرا ... هـ وأرجو المنى وأخشى الخطوبا
ما أعز الحياة للمرء! ما اب ... عد آماله وأدنى شعوبا
ما أقل الوفاء، ما أضعف الطا ... لبَ في ذا الزمان والمطلوبا
يا حبيب الآله لولا المنايا ... لشفي منك ما أعل الطبيبا
يوم ناديتَ: (فرج الله كربي ... إنني اشتقت مسجدي والأديبا
ولِداتٌ سبقتهم لحقوني ... صار من كان غالباً مغلوبا
طال سقمي فارفع دواتي وأقلا ... مي ولا تمح لوحي المكتوبا
(فإذا ما أفقت أدركت من فا ... ت وعادت عنقاؤهم عندليبا
قُلتَ ما قلت ثم زاد سقام ... ودم غادر البياض شحوبا
فجرت عبرتي وأحسب نفسي ... فجرت، كان برّها أن تذوبا
ولدي! كيف نستوي؟ أنا في حرّ ... الرزايا وأنت في ظل (طُوبى)
أنت حيث المقربون فأبشر ... وسل الله أن أراك قريبا
خضعت بعده رقاب لداتٍ ... كان فيهم معظما ومهيبا
كان يهدي قلوبهم ثم ولّى ... فمعوا الآن أعينا وقلوبا
حق لي أن أشق قلبي بكاء ... لا أوفيك إن شققت الجيوبا
وقال:
إن قلوبا وجبت ... حق لها أن تجبا
مثلك يا عبد الغنيّ (م) ... البرّ لن أنتجبا
وقال من قصيدة:
يا نور عيني فقدتُهْ ... ففي الفؤاد وجدتُهْ
يا كوكبا لقبوني ... بالبدر يوم ولدته
لم يهد ركني سناه ... حتى خبا فلحدته
أنت النجيب ولكن ... أبى الردى ما أردته
حلت يد الدهر عقدا ... قد كنت من قبل شدته
أعارني منك علقا ... ثم اقتضى فرددته
بل سرني فيك ربي ... وساء ني فحمدته
تقاصر اليوم باع ... للفخر فيك مددته
سهرت بعدك ليلي ... وطالما قد رقدته
وكم نضحت بدمعي ... حر الحشا لو بَرَدته
يا رب وف المرا ... دِي بولده ما وعدته
لا ضيع الله أجري ... فأي وجد وجدته

أيوم مصرعه أم ... يوم الحساب شهدته؟
كان ابن تسع ولكن ... في الأكثرين عددته
لا حبذا العيش إني ... على الممات حسدته
عبد الغني مفيدي ... من الغنى ما أفدته
بيمنه كنت مهما ... نصبت لليث صدته
وما زرعت رجائي ... في الصلد إلا حصدته
يا ابني الذي كان يبني ... مجدي وإن كنت شدته
حططتني يوم أودي ... ت من منيف صعدته
قميص مصطبري من ... قبل عليك قددته
وفي جوارك أحبب ... ت مضجعي لو مهدته
لعل قربك يشفي ... كربي كما قد عهدته
إني وربي هداني ... لنوره فتبعته
ما غاض بعدك ثكلي ... إلا بكيت فزدته
وقال:
بكيت من سكن في أضلعي سكنا ... لو عاش لي لكفاني الدهر أوقاتا
في كل وقت على فقديه أذكره ... وربما نسى الأحباب أوقاتا
وقال من قصيدة:
دهر حوادثه شتى الأحاديث ... فاسمع بما شئت عن نوح وعن شيث
تغرنا دارنا الدنيا بزخرفها ... ونحن في طلب للموت محثوث
تُوُفِّيَ الخلف الزاكي وعشت كما ... ترضى العدى عيش مكروب ومكروث
حتى أعاف شراباً لست أمزجه ... بعبرتي وطعاماً غير مغلوث
وكنت في جنة حفت جوانبها ... بالزرع والنخل والأعناب والبوث
فأصبحت يوم أودي وهي خاوية ... جرداء من كل مغروس ومحروث
ويلاه ويلاه لا أشفي بتثنية ... حتى أزيد ولا أشفي بتثليث
بكيت مستسقياً للدمع حين جرى ... فلم أزد نار قلبي غير تأريث
أحب لقياه والبقيا لأندبه ... فيا شعوب إعجلي إن شئت أو رِيثي
أهم بنبشي قبرك الطيب الثرى ... لعلي أستشفي وإن حرم النبش
كأني وقد أودعتك القبر طائر ... كسير جناح لا فراخ ولا عش
إلى العيد
قد كنت هيمان مهموماً بلا جلد ... فزدت ضعفين في همي وتهيامي
عهدتُ ليلتك البيضاء نيرة ... فما لها كحلت عيني بإظلام
حتى تناسيت ما عودت من فرح ... وقُبحُ يوم يُنَسى حسن أيام
فما لبست سوى الأحزان سابغة ... ولا نحرت سوى إنساني الدامي
ولا برزت لزواري مخافة أن ... أساء منهم بطلق الوجه بسام
ورافل في جديد كان يرفل في ... مثاله ابني غداة العيد مذ عام
حبيبَ نفسيَ لو أعطيت ساكنها ... أصاب نحري وأخطأ نحرك الدامي
كأنني لم أكلم منك نابغةً ... ولا رأيتك ملء العين قدامي
ولا سمعتك تتلو الذكر في سحر ... بصوت داود في إفصاح همام
مخايل فيك راقتني محاسنها ... سَرَّت ببدء ولم تسرر بإتمام
الحمد لله عدل منك ما نفذت ... به المقادير من نقض وإبرام
سيد أحمد صقر
-
من تلميذ إلى أستاذه
بقلم محمد عبد السلام بحر
منذ سنوات خلت كنت أجلس أمام معلمي الأستاذ عبد الله عفيفي في درسه وكلي أذن صاغية وقلب واع لما يدور في خلده من شتى المعاني والصور، فيجري على لسانه خير آيات وعبر
بين جدران الفصل الأربعة، وفي ذلك العدد القليل من زملائي، كنت أنتهل من مورده العذب في صمت مقتنعاً برأيه لا أنبس ببنت شفة - ولقد عودنا الأستاذ فيما عودنا

حرية الرأي - فاليوم وقد نضجت في أثماره فليهنأ بجنيها - ولكن أما وقد كبر الشيخ وذهبت أسنانه بددا - فليعان قضمها، وليسمح لي بأن أجابهه بلسان الحق وعلى ملأ من الأدباء بمناقشة أدبية في قصيدته التي رثى بها المغفور له الدكتور شاهين باشا.
ولكن في رفق كما كان يرفق بي، وفي أدب كما يجب أن يتأدب ولد مع والد
لقد قال الأستاذ:
أشكو الأسى ويد الآسي موسدة ... لقد تمادين في الإسراف أيامي
ولقد سبق فضل الأستاذ علي فعلمني أن الفعل يطابق الفاعل إفراداً وتثنية وجمعاً، تذكيراً وتأنيثاً إذا جاء بعده، أما إذا سبقه فيجب إفراده؛ وترونه هنا يقول (تمادين أيامي). معاذ الله أن أقول إن الأستاذ نسي هذه القاعدة. أو إنه تغافل عنها لضرورة (الوزن)، وإنما أقول إنه يكشف عن آثار اللغات القديمة أمثال لغة (أكلوني البراغيث) التي كثيراً ما كان يعيب علينا وقوعنا فيها في موضوعاتنا الإنشائية
ثم يقول:
كد لعقل وأشغال لأفهام ... .
وهنا لا أقول إنني بحثت عن (أشغال) في معاجم اللغة فلم أجدها، وإنما أذكر الأستاذ بطرفة من طرفه الممتعة التي كان يخفف بها عنا عناء الدرس إذ قال: - كتب أحدهم مرة إلى ابن العميد - (أريد إشغالي عندك) - فرد عليه ابن العميد - (إن من يكتب لي إشغالي، لا يصلح لأشغالي)
ثم يقول:
عن نوح نائحة أو دمع أقلام ... .
وفي بيت آخر:
رقبي الهلال على ديباجة العام ... .
هنا لا يمكنني أن أقول إنني لا أفهم (دمع الأقلام ولا ديباجة العام) - فإن تأنيب الأستاذ في مثل هذه المواقف لا زلت أذكره ولا يزال يرهبني - وإنما تخلصاً من هذا المأزق أقول إن الأستاذ يتصرف في المعاني تصرفاً قياسياً، فهو يقول: (دمع الأقلام وديباجة العام) وأنا أطأطئ رأسي خاشعاً لهذه البلاغة العميقة فهي ليست على قياس (جناح الذل وماء الملام) فحسب، بل هي أبلغ من هذا وأسمى. على أنه في نفس الوقت كان يقصد (بديباجة العام) - ديباجة الشهر، ولكن استلزمته القافية لأن يخلق هلالاً سنوياً على رأس أهلة الشهور الاثني عشر لا يرقبه سواه
ثم يقول:
أبو الأطباء أودى ليت ناعيه ... لاقى الردى قبل منعاه بإرغام
هنا يخيل إليّ أن الأستاذ قد آلى على نفسه إلا أن تكون القصيدة أربعين بيتاً كاملاً، فقد زج بهذه الألفاظ في هذا القالب زجاً - أو أنه قال: أبو الأطباء أودي - وقد تورط فرأى أن يدعو على الناعي الذي لا ذنب له فأتى بباقي البيت التزاماً للقافية - وأما إذا كانت هذه هي سنته في كل مصرع فأولى به أن يدعو على سيدنا أبي بكر الذي نعي موت الرسول صلى الله عليه وسلم إذ قال: (من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت). ثم يقول:
مضى الطبيب الذي للطب من يده ... إحياء أفئدة موتى وأجسام
هنا تأخذني الحدة ولا أذكر ورقة العقاب وأقول (لا حياء في العلم) وأعلن رأيي جهاراً بأن الأستاذ لم يتحفظ في هذا البيت بل كبا كبوة ما لها من مقيل. متى أحيا شاهين باشا الموتى؟ دون هذا وينفق أطباء العالم. ثم لأذكر فضل الأستاذ علي فلا أبارزه بحسامه، ولأهدأ قليلاً ثم أصلح له زلة كم أصلح لي من أمثالها فأقول:
مضى الطبيب الذي للطب من يده ... شفاء أفئدة مرضى وأجسام
ثم يقول:
وليس للموت من نقض وإبرام ... .
هنا أنسته المشاكلة اللفظية أن الموت قضاء مبرم وانه هو ينفي إبرامه؛ ثم يقول:
لو رامه الليل لم يلمم بإظلام ... .
ولا أدري كيف قال هذا مع أنني أعلم جيداً أنه يمقت مثل هذه المبالغة المتطرفة وهو على يقين من أن الليل والنهار نظام لا يتغير (وكل في فلك يسبحون)
ثم يقول:

من وحي طبعك لا من وحي أقلامي ... .
فما أظن أحداً قبل هذا قال إن للأقلام وحياً - ما كان أصوبه لو قال (من محض إلهامي)
هذا إلى أنني تحاشيت أشياء أخرى مخافة أن يرميني بعض سيئي الظن بالعقوق، في حين أنني لم أكتب هذا إلا تحاشياً لمهاجمة ناقد متبجح يناقشه الحساب العسير، ولأبهج نفس الأستاذ بتلميذ له بلغت به الشجاعة الأدبية إلى الوقوف أمام أستاذه وقوف الند للند يسائله ويساجله مع احترامه لشخصه المبجل كمعلم فاضل وكأديب إمام

محمد عبد السلام بحر

الامتيازات الأجنبية

للأستاذ محمد الأسمر

ما عندكَ اليوم من معنًى ومن كلم ... جلّ المقام عن القرطاس والقلمِ
أرضُ الفراعينِ ذلَّتْ بعد عزّتها ... مَنْ جرَّأ الذل حتى حلَّ بالأجمِ
فلو ترانا ونحن المالكون لها ... رأيتَنا وعلينا مِيسمُ الخدم
جاء النزيلُ فأكرمنا وفادتَهُ ... واليومَ نسألُه شيئاً من الكرم
فأعجبْ لمصرَ وكم في مصرَ من عجبٍ ... وانظر إلى القلب في الأوضاع والنظم
كدنا لما صار من عكس الأمور بها ... نمشي على الرأس لا نمشي على القدم
كنانةُ الله تلك اليوم حالتُها ... وجودُها أشبهُ الأشياءِ بالعدم
لهوُ الأجانبِ فيها لهوُ منتصرٍ ... عاثت كتائبُه في أرض منهزم
يُمثِّلون عليها من حقائِقهم ... ما لا يمثلُه الكابوسُ في الحلم
روايةٌ هي مأساةٌ ومهزلةٌ ... فإن تشأ فابكِ أو إن شئت فابتسم
روايةٌ قذف الأتراكُ مسرحَها ... عن أرضِهم مثلَ قذف البحر للرمم
رموا به أنفاً من أن يقال لهم ... ما بالُه وهو عار غيرَ منهدم
ونحن لسنا بدون الترك منزلةً ... ونحن لسنا بدون الصينِ والعجم
هُمْ حطّموه فما مالَ الوجودُ بهم ... ولا تداعت نواحي الأفْق بالسُّدُم
هم حطّموه ورحنا نحن نحمله ... فوقَ الكنانةِ حمل الهم والسقم
الأجنبيُّ على الوادي يسيرُ به ... كما تسيرُ رعاة الشاء بالغنم
من يوم حلّ به ضيفاً تملكه ... ينهى ويأمرُ فيه غيرَ محتشم
ينهى ويأمرُ فيه جائراً أبداً ... فمن يقولُ له أخطأت فاستقم
ينال ما يشتهي منه وليس لنا ... إلا الفتاتُ، وما يُلقي من اللُّقم
تشكو المجاعةَ بالوادي عشيرتُه ... والأجنبيُّ به يشكو من التخم
الغرم قِسمتُنا والغُنم قسمتُهم ... لبئس ما فرضوا فيه من القِسَم
لو لم نكن رمما في الناس ما ظفرت ... بنا عصائبُ للغربان والرَّخم
حامت علينا، ولو ألفت بنا رمقا ... لأجفلت مثل ما جاءت ولم تحم
حطَّت جِياعاً، فلما أتخمت نهضت ... كما تطيرَ، فما اسطَاعتْ، فلم تقم
فهي الغداةَ بوادي النيل جاثمةٌ ... مقيمةٌ أشبه الأشياء بالهرم
فما يزحزحها شعرٌ نصيح به ... ولا البليغ من الأمثال والحكم
لا يدفع الضيمَ قولٌ أنت قائلُه ... بل يدفع الضيم غرمٌ غيرُ منفصم
ويدفع الضيمَ بأسٌ لا مَردَّ له ... ويدفعُ الضيمَ شَعْبٌ غيرُ منقسم
خاطبْ بكفك إن لم يستمع أحدٌ ... لعلّ في اليد ما يشفي من الصمم
وأعلمْ بأن براهينَ اللسان إذا ... لم تدَّرع قُوَّةً شرٌ من البَكم
لولا أظافرُ للآساد مرهفةٌ ... لم يرهب الناسُ زأرَ الضيغم القرم
لا يَنْزِلُ الظلمُ عن ظَهْرٍ طَواعيةً ... إن لا يزلْ عنهُ رغم الأنف لا يَرِم
في (الامتيازات) ما أغرى النزيلَ بنا ... فيا لها نِعَماً جرَّت إلى نِقَم
وغرسُك الخيرَ في الأرض التي خلقت ... للشرِّ غَرْسُكَ للأعواد في الضرم
لا تنبتُ النارَ يوماً ما لكم شجراً ... ولا تسوقُ إليكم هاطلَ الديم
تأبي طبائعُ قوم عنهمُ حِولا ... فاستخلصوا ما وهبتم قبلُ للأمم
لو سِيمت العجمُ ما سيمَ الحمى غضبت ... على الشكائم واستعصتْ على اللجم
ثوبٌ من العارِ قمنا اليوم نخلعه ... كفى كفى ما لبسنا منه في القدم
كم فرَّ من يدك الشلاء متَّهمٌ ... يأيها الوطنُ المرميُّ بالتهم

وكم قتيل على الوادي وقاتله ... في (الامتيازات) مثلُ الطيرِ في الحرم
صَعْبُ المنالِ على القانون ممتنعٌ ... كالنجم في الأفقِ لم يدركْ ولم يُرَم
هذا هو الذلُّ لا ذلُّ الغريب ولا ... ذلُّ الرقيق بسوق الأعْبُدِ القزم
وما ذليلٌ له أرضٌ لها علمٌ ... مثلُ الذليل بلا أرضٍ ولا علم
لا يفعلِ الخيرَ بعدَ اليوم فاعله ... مَنْ يفعلِ الخيرَ يندمْ أيَّما ندم
أقسمتُ بالله لو أغنى دمي لمشت ... نفسي به، وقليلٌ للبلاد دمي
محمد الأسمر
جبل النار
جبل النار لقب يطلق على جبل نابلس وهو سلسلة جبال تدور فيها أشد المعارك بين الثوار المجاهدين وبين الجنود البريطانيين)
للأستاذ أبو سلمى
جبل النار يا أعز الجبال ... أنت لا زلت مقعد الآمال
ينبت المجد فوق سفحك فينا ... ن وتسقيه من دم الأبطال
يفصح الصخر عن شمائل أبنا ... ئك فوق اللظى وعند النزال
ما ذكرنا حماك إلا انتسبنا ... وانتشت نخوة رؤوس الرجال
يفزع (التَّنْكُ) من صياصيك ... (والرشاشُ) يخشى حتى من الأدغال
أيها الثائرون في جبل النا ... ر سلاماً يا زينة الأجيال
لكم الله يا حماة فلسطي ... ن زحمتم مصارع الآجال
تحملون الأرواح فوق أكف ... وتبيعونها ولكن غوالي
ورصاصاتكم تمر على الأيا ... م حمراً مضيئة في الليالي
تصرع الطائرات مثل طيور ال ... جو تُهوى ما فوق تلك التلال
يسمع الجند في صداها لغي المو ... ت فلا يثبتون يوم القتال
أيها الثائرون قولوا فان ... الكونُ يصغي إلى لهيب المقال
والمعوا في غياهب الظلم تجلو ... ها فان الجهاد رحب المجال
إنما الحق من بنادقكم يس ... طع والعدل من وراء العوالي
انظر اليوم كيف يلتفت ال ... تاريخ حتى يرى بريق النصال
جبل النار! زأرة تجعل الده ... ر يُحيِّي محطم الأغلال
جبل النار! لم تخلدك إلا ... ثورة في سبيل الاستقلال
جبل النار! اقذف النار حتى ... نبصر النور يا أعزّ الجبال
(فلسطين)
أبو سلمى
القصص
قصة سورية واقعة
النهاية. . . .
للأستاذ علي الطنطاوي
في ليلة قمراء من شتاء 1929
بينما كان حيّ المهاجرين (في دمشق) يرفل في حلل الرخاء والترف، ويجر أثواب الدعة والنعيم، ويثب من الطرب، ويمشي على الذهب. . . وبينما كانت قصوره البُلْق تشتعل بالكهرباء فتأتي في الليل بالنهار، وشوارعه المتوازية الصاعدة إلى سرّة الجبل تتمايل أشجارها تمايل العروس، وتلوح أنوارها للعين، كأنها في تسلسلها وانتظامها حبال اللؤلؤ، ويسبغ عليها القمر حلة منسوجة من خيوط النور، وتتراقص على نسيمها المعطر نغمات الحاكي والمذياع. . .
كان في الشارع العام الممتد على سفح الجبل، شيخ همّ، أبيض اللحية، متفكك العظام، مقوس الظهر، قد أخنى عليه الزمان، وحطمه الدهر، يسير منفرداً يتوكأ على عصا، لا أنيس له إلا ظله الذي يمشي معه، ينمو ويتطاول كلما ابتعد عن المصباح، ثم يضعف ويختفي، ثم يولد ظلّ جديد. ويبدأ قوياً واضحاً، كما تنمو الكائنات وتقوى، ثم يدركها الضعف، ثم تبيد لتأخذ مكانها كائنات أخرى أقدر منها على العيش، وأحق منها بالحياة. . . حتى بلغ (قصر الوالي)، هذا القصر الأبيض الفخم، المعتزل وسط الجنائن . . .

الواسعة، الذي يخطر أمامه الجندي الذي يحمي (حمى رئاسة الجمهورية. . .) فوقف على الدرابزين وجعل يحدق في القصر ويتأمل شرفه ونوافذه المضيئة، ويستمع إلى صوت الحياة الرغدة الناعمة ينبعث من غرفه وأبهائه، حتى علق بصره بغرفة بعينها ينبثق منها ضوء شديد، فجعل يحدق فيه حتى زاغ بصره وعراه شبه دُوار، فجلس على طرف الدرابزين وأمسك بحديده البارد، وألقى برأسه على كفه، وانطلق يفكر. . . يفكر في دنيا بعيدة. . . بعيدة جداً، قد طم عليها لجّ النسيان؛ يعالجها بالذكرى، فيراها ينحسر عنها الماء، وتبدو له شيئاً بعد شيء، وتعرض عليه كما يعرض (فلم سينمائي) غريب عنه لا عهد له به، ولا صلة بينه وبينه، وان كان من القائمين به، والممثلين فيه. . .

ففتح عينيه، وراح يحدق في الظلام . . .

رأى دمشق في أواخر القرن التاسع عشر - وهي ولاية عثمانية - ورأى ناظم باشا (والي دمشق) وقد اصبح ذات يوم لقسَ النفس ضيق الصدر، فأقبل على عمله فلم يجد له عزماً. فعمد إلى المطالعة والتسلية فلم يزد إلا ضيقاً. فأمر أعوانه أن يتمموا له منزلاً جميلاً مشرفاً، فينصبوا فيه خيامه، ويعدوا فيه مجلسه، ليصطبح فيه، وينزله بقية يومه. فتسابقوا إلى طاعته، وتباروا في خدمته، فلم تكن إلا ساعة واحدة حتى كان المجلس معداً. فلما جلس واطمأن نظر فرأى منظراً عجيباً، ما رأى له مثيلاً وقد جاب أنحاء المملكة: رأى كأن أمامه متحفاً للطبيعة فيه من كل مشهد صورة، ومن كل لون مثال؛ فحواليه تلال وسفوح ما لها حدّ، وعن يمينه جبال صخرية قائمة فيها روعة وعليها جمال، ومن أمامه (يزيد) يجري زاخراً مزبداً يحيط بهذه السفوح ويحدق بها، وهو يلمع في شعاع الشمس فتخاله العقد مستديراً بجيد حسناء، ومن وراء النهر الغوطة الخضراء، إحدى عجائب الدنيا، تمتد إلى نهاية الأفق، والمزة وصحراؤها الواسعة، وسهولها الفيح، فلم يكن يشاء أن يرى جبلاً ولا نهراً ولا خضرة ولا بادية إلا رآها، والسماء تبدو حيال الأفق كأنها البحر، يا لروعة البحر في دمشق . . .!

ودمشق تظهر من بعيد، وهي نائمة على هذا البساط السندسي الأزلي، عليها غطاء من نسج الغصون موشي بالزهر، وقد هبت عليها نسائم الصباح الرخية، تمس وجهها مساً رفيقاً، وسقسقت في أذنيها العصافير توقظها برقة ولطف، وهدر في مسامعها بردي يهزها كي تفيق. . .

والجامع الأموي يظللها بقبته المشمخرة العالية، ومآذنه الطويلة السامقة، وبنائه الضخم الهائل، الذي يحمل أعباء القرون الثلاثين التي مشت عليه، مذ كان معبداً وثنياً - إلى أن صار - كنيسة نصرانية، إلى أن سما فكان مسجداً إسلامياً، يجهر فيه بالآذان، فيرن صداه على ضفاف الكنج، وشاطئ اللوار، ويقوم الناس إلى الصلاة صفاً واحداً ممتداً من قلب الهند إلى قلب فرنسا

فانتفي عنه الهم، وطار به السرور، فسأل من حوله:

- ما للدمشقيين لا يبنون هنا، ويقيمون على هذا السفح حياً لا يكون مثله مصيف في الدنيا ولا مشتى؟

فما بقي منهم إلا من وثب الضحك إلى شفتيه، وهم بقهقهة مجلجلة، ولكنه أمسك حرمة للوالي، وحياء منه، وقالوا له:

- ولكن يا مولانا، من يرضى أن يقيم في هذا المنفى ويسكن في جبل أجرد، لا ماء فيه ولا نبات، ويسافر كل يوم ساعة كاملة، ليصلي في الأموي، أو ليرد السوق؟

فأطرق الوالي يفكر ويجيل عقله الكبير وعزمه النافذ في كافة الممكنات ليجعل من هذه السفوح القاحلة أجمل حي في اجمل مدينة، ويحيل هذه الرمال رياضاً تجري من تحتها الأنهار!

ثم انقطع الفلم ودار ابيض يحمل أياماً وسنين خالية لا شيء فيها ثم وضحت فيه صورة. . .

فإذا هو يرى حادثة كريد (اقريطش) حين غدرت أوربا - على عادتها دائماً - بالمسلمين، وشردت أهل الجزيرة من آمن منهم بالله واليوم الآخر بين سمع الأرض وبصرها، فدعا بهم ناظم باشا والي الشام وجمعهم وبنى لهم من أموال الدولة بيوتاً صغيرة متشابهة، متشابهة كمحطات القرى، ضيقة كغرف الخفراء، بناها على سفح قاسيون فكان لهم عصمة ومأوى، وكانت للحي الذي يحلو بذرة ونواة

ثم استدار الفلم وإذا بدمشق خارجة تستقبل إمبراطور ألمانيا وقد جاء يزورها زيارته المشهورة، ففرشت له الحكومة الحرير وأوطأته الديباج، فلم يطلب من ناظم باشا إلا أن يزيره الجبلين العظيمين والأثرين الخالدين: قاسيون، وقبر صلاح الدين! فانطلق العملة والبناءون يقيمون له على سفح قاسيون (المسطبة) التاريخية التي تدعى اليوم وإلى الغد (مسطبة الإمبراطور) ويمهدون له الطريق إلى مقبرة صلاح الدين في الكلاّسة

وهناك في أصل جدار الأموي الشامخ، وعلى هذه العتبة الواطئة وقف إمبراطور ألمانيا، وأعظم ملوك العصر، مطأطئ الرأس خاشعاً خاضعاً، ثم ركع على ركبتيه، ثم سار حبواً حتى وصل إلى جانب القبر، فوضع عليه إكليلاً من الزهر، وقال:

- هذه لك يا سيد أبطال العالم

ثم أمَّ قاسيون، فلما استوى على (المسطبة) ورأى هذا المنظر استخفه الطرب فصاح:

- ما على الأرض أجمل من دمشق! ما على الأرض أجمل من دمشق!

فصحت عزيمة الوالي على إنشاء الحي، وبادر إلى الأمر ببناء هذا (القصر الأبيض) واستدار الفلم فرأى ناظم باشا قائماً في شرفة القصر، يتأمل في الوفود الذين أتوا ساحة القصر، ليكرموا الرجل الذي تغلبت إرادته الماضية على الصخر الأصم فخرقته، وعلى البعيد النائي فقربته، حتى تم مد القناة العظيمة من الفيجة إلى دمشق لتسقي أهلها، وتسيل في هذا الحي الذي قام ليكون زينة دمشق وعروسها . . .

ورن في أذنيه صوت الخطيب وهو يقول للوالي:

(. . . . . إن دمشق التي أحببتها وسقيتها وعمرتها، لن تنسى فضلك أبداً: ولن تحيد عن حبك وإكبارك، وسيظل منقوشاً على أفئدة أبنائها إلى آخر الدهر هذان الاسمان العظيمان اسما مصلحي دمشق: مدحت باشا. وناظم باشا)

ثم انقطع (الفلم) وتبدد الحلم، وأحس الشيخ بيد قوية تقبض على كتفه، فعاد إلى نفسه ورفع رأسه فإذا الجندي القائم على باب القصر، يصيح به:

- ماذا تصنع هنا أيها المتشرد؟

ثم يكسعه ويضربه أم كيسان، فيقوم الشيخ ورأسه إلى الأرض من غير أن ينطق بكلمة. . .

عاد الشيخ أدراجه يطوف الحي، ويدخل من شارع إلى شارع، فلا يعرفه أحد ولا يفتح له باب، حتى إذا نال منه الجوع، وبرح به التعب، رأى زقاقاً ضيقاً فولجه، حتى إذا انتهى إلى بيت حقير من بيوت المهاجرين الأولين، وقف ينظر إليه، وتبرق عيناه كأن مرآه يذكره بشيء، ثم مد إلى حلقة الباب يداً مرتجفة فقرعه قرعة ضعيفة، ولبث ينتظر: فلما لم يرد أحد عاد وقرعه وشدد القرع، وسكت فلم يسمع إلا صدى أصوات الغناء والطرب تهبط عليه من أعالي الجدران، تهزأ بالفقراء، وتسخر من الحياة، فعاد يخبط خبطاً قوياً وينادي:

- كريتلي زاده. . . كريتلي زاده محمد أفندي. . .

فتحركت عجوز من أقصى الدار، وصاحت:

- من هذا الذي يسأل عن محمد أفندي؟

وخرجت تدب على عصاها حتى بلغت الباب فنظرت في الظلام وصاحت صيحة الفزع:

- من هذا الذي يسأل عن الرجل الذي مات منذ خمس عشرة سنة

فلما سمع الشيخ ما تقول وجم ولم ينطق

فأقبلت نحو الضوء، حتى إذا اقتربت من الرجل رجعت تصيح بصوت مرعب:

- من أنت؟ قل لي من أنت أيها الرجل؟ ماذا تريد؟

- قال: أنا يا حاجة صفية، أنا؟

- من أنت؟ تعال، تعال إلى النور حتى أراك، فلما رأته واستبانته، صاحت:

- آه

- قال: هل عرفتني؟

- قالت: آه كيف لا أعرفك يا سيدي، ولكن. . . كلا كلا. أنا واهمة، هذا مستحيل. قل لي حالاً من أنت؟

- أنا ناظم. . . ذاك الذي كان يدعى يوماً ما ناظم باشا، ذاك الذي كان والي الشام. . .

ألا تذكرين يا صفية كيف كنت تلعبين في رحبة القصر وأنت صبية صغيرة؟ وكيف كنت تتسلقين الأشجار وتطاردين الغزال الذي كان في الحديقة؟ هل تذكرين؟ـ . . حتى إذا مللت وتعبت عدت مع أبيك محمد أفندي إلى الدار

- آه يا مولاي آه! إذن أنت هو! لم أكن مخطئة. قل لي يا سيدي أين أنت؟ وما جاء بك؟ لا لا ادخل أولاً! أهلاً وسهلاً، ليس عندي شيء أقدمه لك، ليس عندي شيء . . .وانطلقت تبكي

- إني عجوز فقيرة ليس لها إلا الله، لم يعد يسأل عنا أحد بعدك. إنني سأموت فقيرة تحت أثقال ذهب الجيران، وأختنق جائعة برائحة اللحم. إن هذه القصور ستبتلع كوخي الذي لم يبق غيره. . .

. . .وألحت في البكاء

إنني لا أستطيع أن أضع لك شيئاً، آه ليتني مت قبل أن أراك يا مولاي على هذه الحال فمسح الباشا دموعه، وقال لها:

- . . .ولكني لا أحتاج شيئاً. أنا في نعمة، وإنما جئت أزورك. والآن وداعاً

فلما ابتعد فتش جيوبه، وقلبها كلها، فلم يجد إلا فرنكين كان يدخرهما لعشائه فدفعهما إليها، ومشى قبل أن تسمع ما يقول:

عاد يطوف في الحي يخرج من شارع إلى شارع منفرداً منكراً، ولقد فارق دمشق وهو ربها وسيدها، وصاحب الأمر والنهي فيها، ولكن هذه الأعوام التي كرت سريعة محملة بالأحداث الجسام قد بدلت كل شيء

لقد انفجر بركان الحرب، فهد هذا الفلك العظيم، فلك الخلافة الإسلامية، فتناثرت نجومه وكواكبه، وانطفأت شمسه وأظلمت نيراته، وعبست مكة للقسطنطينية وبسمت للندن، وصافحت الحلفاء، وقابحت الخلفاء، وولد استقلال سورية في القصر المنيف على بردى، ومات طفل في الصحراء القاحلة من ميسلون، وكان الانتداب وكانت ليلاته الحالكات

وذهب جيل من الناس كان يعرف الباشا حق المعرفة، وجاء جيل جديد ينكره أشد الإنكار

فنفض الباشا يده من كل شيء، وانحدر إلى الشارع الأعظم على سفح الجبل، فجلس على حجر قبالة القصر الذي بناه، وكان صاحبه ومولاه، فطرد الليلة عنه كما تطرد الكلاب. وأسلم رأسه إلى كفيه، وراح يفكر في غير شيء. . .

فما نبهه من ذهوله إلا ولد يقفز بقبقابه على بلاط الشارع، فاستوقفه يسأله:

- ما اسم هذا الشارع يا ولد؟

فارتاع الولد وفر، حتى إذا ظن انه قد فاته، صاح به:

- ألا تقرأ اللوحة يا أعمى؟ هذا شارع ناظم باشا

فابتسم الباشا ابتسامة صفراء وعاد إلى صمته، وهبت الرياح فلم تلبث أن أنشأت سحاباً حجب القمر، فشمل الشارع ظلام رهيب

ومر رجل فألقى على الباشا نظرة واحدة، ثم سار في طريقه ينحدر في طريق البساتين، حتى إذا ابتعد عن العمران رفع عقيرته يتغنى بصوت شجي محزن:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيس ولم يسمر بمكة سامر

بلى نحن كنا أهلها فأبادنا ... صروف الليالي والجدود العواثر

فصرنا أحاديثاً وكنا بغبطة ... كذلك عضتنا السنون الغوابر

وناظم باشا يصغي إليه، وقد هاج في نفسه عواطف هائلة كادت تنسف كيانه نسفاً، حتى ابتعد الصوت ونأى، ثم ابتلعه السكون

فقام ناظم باشا يجر رجله ليغادر دمشق التي نسيت إحسان المحسن كما تنسى (دائما) إساءة المسيئ، ليذهب فيموت حيث لا يعلم به إلا الله

واشتدت الرياح وصفرت صفيراً مرعباً، وهطل البرد مجنوناً ثائراً، بينما كان يسدل الستار الأخير على هذه المأساة. . .

علي الطنطاوي

مأساة من سوفوكليس

أنتيجونى - 3

ويرسل الخورس أغنية عن الحب، وعن خضوع الآلهة والعباد لسلطانه على السواء
تدخل أنتيجونى وحولها حرس
- (سلام عليكم يا رعايا أبي وأمناء مملكته! شعاعة واحدة يا هكيوز الكريم أتزود بها لرحلتي إلى الدار الآخرة فتنير لي ظلمات طريقي! إنها تكفل لي أن أذهب إلى هيدز والحياة تدب في قلبي! أوه! ألا يتنفس لي فجر حلو بعد اليوم؟ وقداسي وأفراح عرسي؟ ألا تملأ أهازيجها سمعي؟ وهايمون!! آه يا حبيبي هايمون أشيرون وحده سيكون زوجي. . . لا أنت يا هايمون الحبيب. . . فوق شطئان نهره الفائض بالحمم!)
الخورس: (أجل يا بنية! لكنك تذهبين ثمة لا كما يذهب الموتى، بل تذهبين وفي قلبك الحياة تنبض وتنبض. . . وتذهبين باختيارك لا برغمك، لأن سيفاً لا يغمد في أحشائك، ولأن مرضاً لم يلم بك ولم يسلمك للردى!)
أنتيجونى: (هيه!. . . لي أسوة بابنة تنتالوس، وستهبني الآلهة نعاسا فلا أحس شيئاً)
الخورس: (ولكنها ربة وابنة إله عظيم!)
- (ويحكم يا رعايا أبي! أتستخفون بي حتى في طريقي إلى هيدز؟ ألا يروعكم ذهابي إلى القبو المظلم الذي من أجلي إلى مقبرة أحياء. . . أتجرأ فيه غصص الردى قطرة فقطرة!! يا لها من موتة!! ألا من لشبابك يا أنتيجونى؟
- (تجلدي يا فتاة! إن جدود أبيك العواثر تكتسحك في طريقها!!)
- (أوه! إنكم تؤلمونني يا قوم! جدوده العواثر! ما كان أتعسها من زيجة تلك التي كشفت سرها أمي!! ويا لقساوتها أبوة تلك التي ابتلى بها أبي! أما أنت يا أخي. . . فما كان أتعسها من زيجة كذلك تلك التي أشقيت بها نفسك وجررت بها الموت عليك وعلي. . .!
- (لا ريب أنك صنعت جميلاً يا بنية (بدفنك جثته)، ولكن ما العمل فيمن يأبى إلا أن يظهر سلطانه ويدل بجبروته!
- (ويلاه! أأساق إلى الموت غير مبكية. . . وفي يوم عرسي؟ الشموع! أين الشموع التي كانت تضيء لي تحية ليل وسلام إمساء؟ ألا يذرف أحد عبرة من أجلي؟!
(يدخل كريون)
- (ما تزال هنا؟ هلموا بها إلى القبو المظلم. . .! هلموا! لتساقط نفسها أنفساً! لتذب روحها ولتهو إلى الحضيض قطرة فقطرة! هي الجانية على نفسها. . . لم يجن عليها أحد! لتذق وبال أمرها في ظلمات السفل؟
- (القبو! مرحباً بالقبو والقبر معاً!! لتكن يا قبو غرفة عرسي! يا مقبرة الأحياء مرحباً مرحباً في جوار برسفونيه الجميلة التاعسة سأقضي حياة حدودها الأبد! ألا كم من حسناء حوراء ضمها الموت إلى سرب برسفونيه! لم لا أنظم إلى السرب زهرة اختضرها الموت قبل أن تفتح!! لم لا أطوي تلك المرحلة الأخيرة من هذه الحياة المفعمة بالآلام والمظالم لألقى أبي. . . وأمي وأخوي. . . في هيدز! وأنت خاصة يا بولينيسيز سألقاك وسأعانقك وستبتسم لي. . . أنا أختك. . . التي ضحت بشبابها الفينان من أجلك! ألا من للإنسان بعد أمه وأبيه وأخيه (الذي مثل بولينيسيز)! الابن إذا قضى فقد يجيء ابن غيره. . . ولكن الأب. . . ومثله الأم. . . لا عوض عنهما إن غالهما الردى! أما أخي! فسامح الله كريون الذي يأبى إلا أن يأخذني بمحبتي له وفدائي من أجله! آه يا أخي! انفض أطباق الثرى قليلاً وأنظر إليّ! أنظر إلى مسوقة إلى حتفي مصفدة بالأغلال، مسلوكة في القيود. . . إلى القبو المظلم الذي لا تؤنسني فيه غير أشباح الموت. أواه يا آلهة السموات! من نصيري وقد جد بي الجد؟ إن كنت قد أجرمت فعلي إجرامي. . . ولكن هؤلاء!! هؤلاء الذين داسوا شرائعكم أيها الآلهة! خذوهم بظلمهم، وابتلوهم بضعف الحياة الدنيا والآخرة أولئك المجرمون!. . .)
رئيس الخورس: (العاصفة تشتد في نفس الفتاة! وما تزيدها الآلام إلا اصطخاباً!)
كريون: (وكل من يلوذ بها أو ينافح عنها قد يشجي شجوها!)
أنتيجونى: (وا حرباً! إني أسمع دبيب المنايا في هذه الكلمات!)
كريون: (وهل بقى في ذلك ريب؟)

- (يا طيبة يا أرض المجد! يا مهد الجدود يا هيكل الآلهة الأطهار! وداعاً!! إلى هيدز، سأذهب إلى هيدز! أنا أنتيجونى آخر فنن من أفنان دوحة قدموس ولايوس! إلى هيدز! قرباناً لك يا آلهة، وفي سبيل شرائعك يا سماء!. . .)
(تخرج ومن حولها الحرس)
- 10 -
ويرثي الخورس للفتاة البائسة الشقية، ويرسلون ورائها لحناً بائساً شقياً
(يدخل تيريزياس الكاهن الأعمى يقوده ولده)
- (هيه! سلام على سادات طيبة! لقد وصلنا والسلام!)
الملك: (وماذا جاء بك يا تيريزياس؟)
- (سأنبئك. . . إ. . . إن أصغيت لي)
- (مرحباً بك يا كاهن طيبة! وهل يأبى أن يسمع لك أحد؟)
- (شكراً! إنك بمثل هذه المهارة قدت السفينة إلى بر الأمان!)
- (الفضل في ذلك لتجارب الزمان يا تيريزياس!)
- (هذا حق ولكن. . . برغم ذلك ينبغي أن تحترس! إنك على شفى جُرُف هار!!)
- (وأي شفى جرف يا تيريزياس؟ إنك تزعجني!)
- (إي وايم الحق! نبوءاتي! سأقص عليك نبوءاتي التي استوحيتها اليوم! لقد تنزل علي منها قدر عظيم أيها الملك! وليس يتنزل علي منها إلا الحق حين استوى على كرسي كهاناتي! طيور!. . . بواثق جارحة. . . كانت تحلق فوق معبدي! لقد ظلت تضرب الهواء بخوافيها. . وكانت ترسل في السماء أصواتاً مزعجة كقصف الرعود. . .! قمت إلى المذبح وضرّمت النيران. . . وا أسفاه! لقد رفض إله النار أن يقبل منها قبسا! وتناثر القربان! وأنطلق الشرر في سماء الهيكل! وكفى بذلك نذير سوء أيها الملك! لقد شهد هذا غلامي هذا، وأنا أشهد به أمامكم الآن! الدمار يكاد يقضي على طيبة بسببكم يا مولاي! إن الآلهة قد تكلمت بألسن النسور والبزاة التي اغتذت بلحم ابن أوديبوس المسكين! من أجل ذلك رفضت قرابيننا أيها الملك، وقذفت بها في وجوهنا! والآن! خذ حذرك يا بني! كلنا بنو الموتى! وكل بني الموتى يخطئون! وما تزال في الوقت فسحة لمعالجة هذا الخطأ! الحمقى
فقط هم أهل العناد والاستبداد بالرأي! ما لنا وللموتى! إن أمرهم إلى الآلهة، وليس يفيدنا أن نمثل بالقتلى وقد فرغ حسابنا معهم! ألا قد بلغت! فأسمع وعِ. . . واشهدي يا سماء!)
- (لم يبق إلا الكهنة أمثالك فأكون غرضاً لسهامهم يا تيريزياس! أنت تحاول عبثاً!. . . لن يدفن مهما حاولت! ولكن. . . آه! الذهب! قاتل الله الذهب ولو أنصب في يديك من منجم! الآلهة؟ ها. . . لترسل الآلهة نسرها الباشق فليغتد هو الآخر به!)
- (وي! أين الحكمة إذا؟ ألا من يتعظ!)
- (من؟. . . أي شك؟)
- (كنوز الذهب الأبريز موعظة حسنة ورأي سديد!)
- (والجهالة آفة الآفات!)
- (أجل. . . الجهالة طاعون كاد يرديك!)
- وبعد؟. . . أوثر ألا أبادل الكاهن ضربة بضربة!
- (وأي ضربة لازب أشد علي من أن تُحمّقني؟!)
- (بل الذهب هو طاعون الكهنة!!)
- (والربح الخسيس هو آفة الملوك؟)
- (طاش صوابك إذا حين تخاطب مليكك بمثل هذا؟)
- (أجل! وإلا ساعدتك في تعجيل الخراب لهذا البلد؟)
- (نظرك بعيد أيها الأب! ولكنك غير أمين ولا وفي مع هذا؟)
- (ستندم لأنك لم تر أن تسمع إلى نصيحتي!)
- (هيه. . . تكلم. . . إهرف. . . فلو تنال مني ربحاً؟)
- (ومنك تحسبني ألتمس الربح وأنشد الغنم؟)
- (لن تربح تجارتك معي أيها الكاهن!)
- (آه! إن دمك فقط كفيل بأن يغسل وزريك العظيمين دفنك فتاة حية لتموت من غير

ذنب في قبو مظلم. . . وتركك قتيلاً في البرية تنوشه السباع من دون أن تقام له شعائر الدين أو تؤدي من أجله مراسيم الآلهة! هذا تصرف مخز لن تقبله آلهة هيدز ولا من أرباب الأولمب! ويل لك؟ إن أرباب النقمة تتربص بك، وربات الذعر تكاد تنقص عليك! ولن
يأخذنك إلا بعملك ولا يجازينك إلا بوحشيتك! أنا جئت إليك ألتمس رفداً؟ يا لخباثتك! ستعلم عما قريب! سينقض هذا القصر فوق رأسك ليقول لك: لا! لا! وسترن في أذنك أصوات الصراخ والعويل والندبة من أجل موتى كثيرين، أعزاء عليك. . . وسترى! يا غلام! هلم! لتنطلق من هنا! وسيأتيه اليقين فيثوب إلى رشده ويطهر لسانه!)
(يخرج الكاهن يقوده الولد)
(البقية في العدد القادم)
دريني خشبة
البريد الأدبي
أسبوع المتنبي في دمشق
في الساعة الخامسة من مساء يوم الخميس الماضي، 27 يوليو 1936 أفتتح مهرجان المتنبي في مدرج الجامعة السورية بحضور فخامة رئيس الجمهورية ووكيل المفوض السامي ميريه ودولة رئيس الوزراء ومندوب المفوض السامي ووزيري العدلية والاقتصاد الوطني، فافتتحت الحفلة بآي من القرآن الكريم، ثم ألقى وكيل المفوض السامي خطبة وجيزة ضمنها عطف المفوضية العليا على هذه الحفلة وشعورها مع اللجنة القائمة بها ومع الأمة العربية جمعاء في احتفالها بمرور ألف سنة على وفاة سيد شعرائها بلا منازع وتتابع بعده الخطباء فألقى رئيس الوزراء كلمة وزارة المعارف، وألقى السيد الطباطبائي أستاذ الأدب الفارسي في الجامعة الأمريكية قصيدة شاعر الفرس خسرو داراني، ثم تكلم أحد المستشرقين عوضاً عن المستشرق الأستاذ بلاشير الذي تأخر وصول كلمته
ونهض بعده الأستاذ أحمد أمين مندوب الجامعة المصرية فألقى خطبة قيمة جاء فيها على ذكر ناحية واحدة من نواحي حياة المتنبي مستدلاً على أخلاقه من آثاره وأخيراً اقترح الأستاذ عبد المنعم رياض وضع جائزة سنوية شبيهة بجائزة نوبل تعطى للمبرزين من الأدباء والشعراء
وفي الساعة العاشرة من صباح يوم الجمعة - أمس - احتفل أمام بناية المعرض بإزاحة الستار عن نصب أقيم في الزاوية الغربية من الجدار المحيط بالبناء وقد نقش عليها عبارة (شارع المتنبي) وقد أفتتح الحفلة محافظ العاصمة بخطبة وجيزة شرح فيها الغاية منها، وعقبه الأستاذ عزالدين علم الدين سكرتير لجنة المهرجان بكلمة شكر فيها لمحافظة المدينة اهتمامها بإطلاق أسماء رجال الأمة العربية الخالدين على شوارع المدينة وأعلن أن هناك شوارع جديدة سوف تطلق عليها أسماء العظماء كأبي العلاء المعري والبحتري وغيرهما
وفي مساء اليوم نفسه غص مدرج الجامعة السورية بالمحتفلين وخطب الأساتذة الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد مندوب الجامع الأزهر والقيت كلمة الدكتور عبد الرحمن شهبندر وقصيدة للأستاذ خليل مردم بك ثم خطب الدكتور عبد الوهاب عزام فالأستاذ نجيب الارمنازي وأنصرف الخطباء والمندوبون بعد ذلك لتناول طعام العشاء على مائدة أعدها
المجمع العلمي
وعلى المنهاج الموضوع للمهرجان سيلقي في اليوم الثالث (السبت) كلمة الأستاذ معروف الرصافي مندوب العراق وقصيدة الأستاذ رضا الشبيبي (ذكرى شاعر) وقصيدة الأستاذ علي الشرقي (صوت الكوفة) وخطبة الأستاذ طه الراوي. قصيدة الأستاذ عزالدين التنوخي كاتب سر المهرجان. وليمة الصحة العامة
اليوم الرابع (الأحد) - خطبة الأستاذ نقولا فياض: مندوب لبنان (هل كان المتنبي مجدداً)ـ خطبة الأستاذ أنيس المقدسي مندوب الجامعة الأمريكية. خطبة الأستاذ أمين الريحاني (المتنبي رسول العروبة) خطبة الأستاذ فؤاد البستاني مندوب الجامعة اليسوعية. قصيدة الأستاذ حليم دموس (مهرجان المتنبي) وليمة وزارة المعارف
اليوم الخامس (الاثنين) - خطبة الأستاذ أحمد رضا (روح الطموح في المتنبي) قصيدة

الأستاذ سليمان ظاهر (حياة المتنبي) خطبة الأستاذ حبيب شماس مندوب المدرسة البطريركية. خطبة الأستاذ أديب التقي. قصيدة الآنسة ماري عجمي، وليمة الجامعة السورية

اليوم السادس (الثلاثاء) - خطبة الأستاذ خليل الخالدي، خطبةالأستاذ سامي الكيالي (المتنبي في بلاط سيف الدولة) خطبة الأستاذ عبد القادر المبارك (لغة المتنبي). قصيدة الأستاذ محمد البزم، وليمة معرض دمشق

اليوم السابع - كلمة الأستاذ مرشد خاطر: مندوب الجامعة السورية. قصيدة الأستاذ عمر يحيى. خطبة الأستاذ سليم الجندي، قصيدة الأستاذ عمر أبي ريشة خطبة الأستاذ جميل صليبا (فلسفة المتنبي) كلمة الختام، وليمة مدينة دمشق.

خطاب وكيل العميد السامي في مهرجان المتنبي

سيداتي وسادتي:

إذا ذكر المتنبي فلا يثير ذكره في قلبنا صورة أعظم عصر من عصور تاريخ حلب، وصورة أمجاد سورية الحمدانية فحسب، وإن يكن ذلك من الأسباب التي تحببه إلى نفوسنا، فلا بد لنا من القول إن المتنبي لا ينتمي إلى مدينة واحدة ولا إلى عصر واحد بل أنه يدوي صداه في خلال عصور الشعر العربي وخلال نواحي الشعور الأدبي المترامية الأطراف،

فقد ذهب شاعر الكوفة العالم العربي نماذج من الشعر خالدة، وضروباً من التعبير صافية ورفعة لا تطال، وفناً أنوفاً دقيقاً، وهدفاً شريفاً، وتشاؤماً عالياً؛ وجميع هذه الصفات المتغلغلة في أعماق نفسه تتفق مع أعرق مميزات الفكر الأدبية العربية، تلك الفكرة الطامحة إلى المعالي، الهائمة بالشرف، المغرمة بما عز وكرم من المعاني، الساعية وراء خير المثل العليا، تلك الفكرة التي تطلب في الشعر (حالة نادرة) كما قال في ذلك شاعرنا الفرنسي (مالارمه)

هذا ما أهل المتنبي أن يكون شاعر الأمة العربية؛ وهذا ما حدا بكم جميعاً للاعتراف له بهذا اللقب. إن الأمة العربية ترى في المتنبي بعض ميولها الجوهرية، وبعض شواعرها الثابتة، فيلذ لي والحالة هذه أن أحيي في هذا الحفل، إلى جانب السلطات العليا ورجال العلم في سوريا، ممثلي الدول المجاورة، والشعراء والكتاب والعلماء من جميع البلدان التي يرن فيها صوت لغتكم الجميلة، وأن أحي مندوبي المجامع العلمية ومؤسسات الثقافة العالية التي تحافظ في جميع البلاد الغربية على تقاليدها الروحية المشتركة، ولهذا أيضاً رغبت في أن أرحب بكم، وفي أن أحمل إليكم في هذا المهرجان حيث للفكرة والأدب المحل الأرفع، عربون عطف المفوضية العليا على هذا المهرجان واهتمامها به، وكذلك عطف الجمهورية الفرنسوية؛ من يشك في الفائدة التي تجنى من هذه الأحتفالات، إنها توثق عرى التضامن المكين، والتقارب الجوهري؛ وتدل على أن فوق المصالح الأنانية التي تفرق بين الناس وتبعدهم بعضهم عن بعض عبقرية لا يزال في وسعها أن تجمع بين ذوي النوايا السليمة جميعاً خلواً من كل ما يكدر صفاءه

سيداتي وسادتي: إني لأجد لذة عظيمة في إعلان افتتاح المهرجان الذي يحتفل فيه بذكرى مرور ألف سنة على وفاة الشاعر المتنبي

خطاب وزارة المعارف في مهرجان المتنبي

أرحب بجميع الوفود التي جاءت من مختلف الأقطار العربية لتشارك حكومتنا في إظهار عاطفتنا الصادقة نحو شاعر العربية العظيم أبي الطيب المتنبي وأتمنى لجميع العلماء والكتاب والشعراء الذين أموا دمشق لهذه الغاية مقاماً سعيداً وراحة طيبة، ولاشك أن جو الفيحاء الرطب وإقليم الغوطة العذب سيوحيان إلى كل منهم بأحسن الصور، ويرويان ما

أحتدم في قلوبهم من قوة العاطفة وشدة الخيال فيسكبون عواطفهم في قالب من الألفاظ السحرية التي تليق بالمتنبي وعبقريته الخالدة. إن فكرة هذا المهرجان ليست وليدة الساعة بل هي فكرة قديمة خطرت ببال حكومتنا منذ الصيف الماضي فحالت دون تحقيقها إذ ذاك عقبات كثيرة، ولما ذللت جميع العقبات أحبت الحكومة أن تجعل أيام المتنبي داخل أيام المعرض الصناعي لتبرهن بعملها هذا على رغبتها في إحياء النهضتين الأدبية والاجتماعية معاً

ونحن إذا أقمنا هذا المهرجان لمرور ألف عام على وفاة المتنبي فإنما نقيمه لأن بينه وبين سوريا صلة قوية. فقد جاء المتنبي من العراق إلى سورية وهو شاب معدم فعانى فيها ما يعانيه شبان اليوم من مشاكل العيش وضيق أبواب الرزق ولم يزل يتنقل بين منبج وانطاكية واللاذقية وطرابلس وحلب ويمدح أمراء سوريا حتى اتصل بسيف الدولة أعظم ملوك بني حمدان وصار شاعره الخاص وعاش في بلاطه فانكشفت قريحته وجاد شعره وتحسن خياله ورق لفظه بما لقيه من حفاوة الأمير وعنايته به، ولو بعث اليوم سيف الدولة لما اتخذ لنفسه شاعراً غير المتنبي لأن المتنبي لا يزال حتى اليوم يعبر بشعره عن عواطف كل منا، فهو شاعر العروبة ورمز العواطف القومية، يجد كل منا في شعره نزوة الشيوخ وصور العدل والرحمة كما وصف الظلم والقسوة وتغنى بالأباء والكرم والعز والشجاعة كما بكى على المجد المفقود والأمل الضائع، فنحن نفاخر بشاعر أمراء سوريا بل بشاعر سوريا والعراق ومصر وننقل إليه من وراء حجب الزمان عاطفة شعب تثقف بشعره وتغذى بإحساسه حتى خالط لحمه دمه

فإن تباعدت الأقطار فإنها حول المتنبي لتجتمع، وإن نفرت القلوب فأنها في أبي الطيب لتتحد، وليس أدل على هذه الوحدة من اجتماعكم لإحياء ذكرى هذا الشاعر الخالد. فأشكركم جميعاً على ما تحملتموه من المتاعب وتحملتموه من عناء السفر وأشكر فخامة رئيس الجمهورية على رغبته في جعل هذا الاحتفال احتفالاً رسمياً كما أشكر بصورة خاصة فخامة المفوض السامي على عنايته بهذا المهرجان وإعانته المادية والمعنوية معاً، وأشكر ممثلي الجامعات العربية والأجنبية المختلفة ووفود الأقطار العربية الشقيقة وجميع الخطباء والشعراء على ما أكسبوه إيانا من الشرف بكتاباتهم وما أحدثوه في هذا المهرجان من البهاء

والازدهار بقدومهم وأخص أعضاء مجمعنا العلمي من عرب ومستعربين بأحر الشكر على تعاونهم في إحياء ذكرى شاعر العربية ورمز نهضتها الأدبية الحديثة وأتمنى لهم نجاح السعي وطيب الإقامة والسلام

جمعية أدبية مختلطة في سورية ولبنان

دعت الجريدتان الفرنسيتان (لجور) في بيروت، و (لا كرونيك) في دمشق إلى تأليف جمعية أدبية كبرى في البلاد السورية واللبنانية بكون الغرض منها: السعي والدعاية لنشر الأدب والثقافة في البلاد، ثم الدفاع بمختلف الوسائل المشروعة عن حقوق المؤلفين ومصالحهم، وهذه الجمعية بعيدة عن الأحزاب السياسية والخلافات الدينية، تجمع نخبة من الكتاب السوريين واللبنانيين الذين يسعون إلى نهضة فكرية في البلاد، تجدد في الأدب الحديث مع العناية بالأدب القديم

وهي تتألف من الكتاب والمؤلفين في اللغة العربية أو في اللغة الفرنسية وتنتخب مجلساً يتألف من عشرة أعضاء ستة من المؤلفين في اللغة العربية وأربعة من المؤلفين في اللغة الفرنسية، ويرأس هذا المجلس مؤلف عربي له نائب من المؤلفين في اللغة الفرنسية

وتنتخب مكتباً دائميا لأمانة السر، ومكتباً للاستشارات القضائية والحقوقية، وتتصل بالاتحاد الدولي لجمعيات حملة الأقلام في جنيف، وتعني بغير ذلك من الأمور لتأمين سير الجمعية ورقيها

فلسطين تناشد العالم الإنساني

إن الأيام التي مرت على جهاد فلسطين العربية المقدسة وما لقيت في خلالها من هول الأحداث قد أصابها بأضرار فادحة وأنزل بها خسائر جسيمة في الأرواح والأموال مما لا يمكن حصره ولا تعوض خسارته، فهناك عشرات من القرى قد دمرت وأتلفت أرزاقها وأحرقت مزروعاتها وصودرت أموالها، وهذا غير ما أحدثه نسف مدينة يافا الفيحاء ذات الحدائق الغناء بالديناميت بعد إحراق معظم حي المنشية فيها بأيدي مجرمي اليهود، وغير حدائق البرتقال الكثيرة التي قطعت بأيدي الأشرار ودوساً بالدبابات. وغير المئات من أكواخ الفقراء في ضواحي يافا وأطراف حيفا، ومنازل مدينة اللد التي دوهمت بالدبابات

فانطمست آثارها

فهذه الأهوال العظيمة قد أسفرت عن مائة ألف نسمة نكبوا بصورة مباشرة فمنها عائلات الشهداء وأيتامهم وأراملهم، وعائلات المسجونين والمعتقلين وأقاربهم، وسكان

المدن والقرى التي دمرت بعد أن فروا عند النسف والهدم من منازلهم، تاركين جميع حاجاتهم وأثاثهم وملابسهم، فتشردوا في العراء بلا فراش ولا طعام ولا مأوى. وقد كثرت في هؤلاء المنكوبين الأمراض والوفيات. ولولا أن بقية الأهالي قد قادوا وبذلوا كل شيء يستطيعونه لإغاثة إخوانهم بعض الغوث - وهو ما لا يفي بحاجة ولا يسد ثلمة - لكانت الكارثة أوجع والخطب أفجع

على أن الحالة برغم شهامة الناس هناك قد تجاوزت كل ما يتصور العقل من شناعة وفظاعة مما ستكشفه الأيام بعد حين وعندما يباح نشر الرسوم ووصف الخطوب وسيتضح عند ذلك أن ما نزل بفلسطين إنما هو من النوع الذي أصاب البلاد العربية على الخصوص والإسلامية على العموم من جنكيز وهولاكو وتيمور. ويا حبذا لو تنتدب الأقطار المجاورة وفوداً تجوب نواحيها لترى بالعين وتسمع بالأذن ما أصابها وما حل بها. حيث لا تقع العين إلاَّ على قتيل أو شهيد. ولا يصادف المرء في طريقه سوى الخراب والدمار في المدن والريف

فاللجنة الفلسطينية العربية في مصر توجه إلى هذه المحن الأليمة عواطف الإنسانية جمعاء، وتنادي كل قلب فيه ذرة من الحمية ليبادر المحسنون إلى نجدة المنكوبين وإغاثة الملهوفين بما يخفف هول النكبة ويلطف ألم البلوى. والله لا يضيع أجر المحسنين

وهذه اللجنة ترجو من أهل الخير أن يرسلوا تبرعاتهم إلى منكوبي فلسطين بواسطة جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة وهي تتولى توصيلها إلى الهيئة المختصة في فلسطين فتوزعه على المحتاجين

محمد علي الطاهر

رئيس اللجنة الفلسطينية العربية بالقاهرة

استدراك

جاء في أول هذا الباب تحت عنوان (أسبوع المتنبي في دمشق) أن افتتاح المهرجان كان في يوم 27 يوليو الماضي والصحيح أنه كان في يوم 23 يوليو

فتوى مشيخة الأزهر في (الحجاب) و (الختان)

نص الفتوى:

كتب إلينا من البلاد الهندية أن طوائف من أهلها الهندوكيين يريدون أن يتخذوا الإسلام) ديناً لهم، ولكن عادتي حجاب النساء والختان تثبطانهم عنه بعض التثبيط. وقد طلب إلينا أن نبدي رأينا في هاتين العادتين وعن علاقتهما بالدين الإسلامي، فلم نر بد من تلبية هذا الطلب راجين أن يكون فيه هدى للمسترشدين وبيان للمتثبتين

شرع الله تعالى الدين الإسلامي ليكون ديناً عاماً للبشر كافة في كل زمان ومكان، فجاءت شريعته مراعية لجميع الحاجات المادية والمرافق العمرانية للأفراد والجماعات، وضامنة كل ضروب الحريات الضرورية لهم في حدود الناموس الأدبي العام، بحيث لا تتعاكس هذه الحريات ومصالح الاجتماع، ولا تتضارب والأخلاق التي هي أساس العمران. فليس يوجد بين النظم الدينية والاجتماعية ما يوفق بين مطالب الأرواح والأجساد ويربطها برباط وحدة وثيقة غير النظام الذي جاء به الإسلام

لست بصدد تفصيل هذا الإجمال، فلا أتعرض له إلاَّ لبيان أمرين فيه هما مسألتا الحجاب والختان، وهما اللتان طلب إلينا بيانهما

الحجاب

إن حجاب النساء كان معروفاً ومعمولاً به قبل مجيء الإسلام بقرون كثيرة في جميع الأمم المعرقة في المدنية، وقد أخذه عنهم اليونانيون والرومانيون على أقصى ما يعرف عنه من التشديد قبل الإسلام بأكثر من ألف سنة، وكان الإسرائيليون جارين عليه أيضاً على عادة معاصريهم

فلما شرع الله الإسلام راعى في هذه المسألة ما راعاه في جميع المسائل الاجتماعية من الاعتداد بالمصلحة العامة في حدود الناموس الأدبي العام فأنزل قوله تعالى: (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون. وقل

للمؤمنات يغضضن من أبصارهم ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلاَّ لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو نسائهن

أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الأربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون)

هذه الآية هي أطول آيات الحجاب، وهي تنص على وجوب إتباع الجنسين على السواء للآداب الواجبة لأحدهما حيال الآخر

ولما كان النساء محلاً للفتنة خصوا بالأمر لضرورة التصون في مخالطة الرجال وعدم أبداء زينتهن لهم إلا مالا يمكن إخفاءه منها أثناء مزاولتهن أعمالهن من خاتم وسوار وقد اجمع الأئمة على أن الوجه والكفين ليسا بعورة، وأن ليس على المرأة من بأس أن تزاول أعمالها خارج بيتها، وأن تمارس مهناً لكسب قوتها على شرط أن لا تظهر ما يثير العاطفة من جسمها وجيدها وزينتها

وما حدا بالإسلام إلى وضع هذه القيود إلا المحافظة على النفوس أن تفسدها الشهوات. والمجتمعات أن تحل روابطها الموبقات. وليس بخاف ما جرته هذه الشهوات على الأمم الخالية من الانحلال والزوال

فالإسلام لم يفرض على المرأة أن تعيش كما تعيش الأنعام، أو أن تسجن كما يسجن المجرمون؛ ولكنه على العكس أمر أن تحضر الصلوات في المساجد في صفوف خلف الرجال، وأن تحضر اجتماعات المسلمين العامة في الأمور الهامة، ولم تمنع قط من إبداء رأيها فيها، ومن أن تتعلم كما يتعلم الرجال، وأن تتصرف في أموالها بكل وجوه التصرفات بدون توقف نفاذها على زوجها أو والدها أو أي أحد غيرها، وأن تتعاطى ما تشاء من الأعمال الحرة

هذه حقوق منحتها الديانة الإسلامية للمرأة منذ نحو أربعة عشر قرناً، فلم تصل إليها أية امرأة سواها في العالم إلى اليوم

والإسلام إزاء هذا كله لم يشرط عليها إلا حفظ كرامتها كامرأة شريفة غير مبتذلة ولا متبرجة لتكون عضواً صالحاً في المجتمع بدل أن تكون عاملة فتنة فيه

هذه نزعة تقر الإسلام عليها كل نفس شريفة، ولا تصادف معارضة من أي فريق حتى أصحاب المذاهب المتطرفة

الختان

أما مسألة الختان - فلا تصح أن تكون عقبة أمان الذين يريدون الإسلام، فإن الختان كان معروفاً عند بني إسرائيل قبل مجيء الإسلام، وقد اقتبسه عنهم العرب الجاهليون. فلما جاء الإسلام أقره شأنه إزاء كل عادة نافعة أو عمل صالح

وقد قرر الأطباء أن الختان من انفع العادات واحفظها من الأمراض التناسلية، فإن القلفة بتغطيتها لرأس العضو تختزن في طيها الأقذار وتكون موطناً للجراثيم الضارة، وغسلها من باطنها مرات في اليوم من الأمور المتعذرة، فإزالة هذه القلفة مما يندب إليه قانون الصحة؛ وقد علم أن بقائها في الأمم لم تعتد إزالتها قد كان سبباً في انتشار الأمراض السرية، وهذه الأمراض لم تعرف في بلاد المسلمين إلا بعد اختلاطهم بجاليات الأمم من طرق العدوى

على إن الإسلام لم يوجب على أهله الاختتان إيجاباً كما هو مذهب الإمامين أبو حنيفة ومالك ولم يجعله شرطاً للإسلام، فهو في نظره سنة للرجال إن شاءوا أخذوا به تصوناً وتطهراً وإن شاءوا تركوه

أما النساء فلم يصل إلى درجة السنة في مذهب الإمامين السابقين، ولكنه عندهما كرامة لهن فقط. لذلك تجد أكثر المسلمين لا يختنون نساءهم؛ فالأتراك كافة والمغاربة والإيرانيون والهنود وغيرهم لا يعملون بهذه العادة فيما يتعلق بنسائهم والعادة أن الاختتان يكون في السنين الأولى من الطفولة بين ثلاث وعشر غالباً، وليس فيه كبير مشقة ولا يتوقع من ورائه خطر إذ أنه لا يتعدى قطع الجلدة الزائدة المغطية للعضو مع عدم المساس بالعضو نفسه، ناهيك أنه يعمل بواسطة العارفين، واختتان الكبار كاختتان الصغار ليس فيه أقل ضرر

بقيت مسألة ربما تهم الذين يريدون الدخول في الإسلام جماعات غفيرة وهم كبار في السن، وهي أن يعرفوا ما حكم الإسلام فيهم، فإلى هؤلاء نوجه قول الحسن البصري رضي الله عنه، وهو إمام الأئمة المجتهدين، قال العلامة ابن قدامة الحنبلي في المجلد الأول من كتابه

في الصفحة السبعين عن الختان ما يأتي (المغنى):
والحسن يرخص فيه ويقول: إذا أسلم لا يبالي أن لا يختتن. ويقول: أسلم الناس (الأسود والأبيض لم يفتش أحد منهم ولم يختتنوا)
وهذا ما رأينا أن نأتي به من حكم الدين الإسلامي في أمر الختان والحجاب، وقد تبين أن واحداً منهما لا يتأتى أن يكون عقبة في سبيله
(والله يهدي من يشاء إلى سراط مستقيم)
مشيخة الأزهر
رأي أستاذ فرنسي في رواية شهرزاد
الأستاذ لوني بو - مؤسس مسرح الأوفر في باريس يعتبر بحق أحد الأركان التي قام عليها المسرح الحديث في أوربا وهو الذي أخرج رواية (سالوميه) لأسكار وايلد سنة 1892، وعرف الفرنسيين بابسن ومترلنك، ورأيه في الأدب المسرحي له من غير شك وزانته وقيمته. كتب خطاباً إلى ناشر (شهرزاد) للأستاذ توفيق الحكيم جاء فيه عن هذه الرواية: (لقد قال: (لكنت) (واضع مقدمة الرواية) فأحسن القول. والرواية تستحق أن تمثل على المسرح الفرنسي في ذوق وفطنة. وهي تبقى بعد كل شيء رائعة الجمال شديدة العمق)
العدد 162 - بتاريخ: 10 - 08 - 1936
. . .ساكنو الثياب
للأستاذ مصطفى الرافعي
قال صاحب سرّ (م) باشا رحمة الله: وجاءني يوما اثنان من شيوخ الدين من ذوى هيئاتهم وأصحاب المنزلة فيهم، كلاهما هامَةٌ وقامة، وجُبَّة وعمامة، ودرجة من الإمامة؛ ولهما نسيم ينفُحُ عِطْرا حسبتُه من ترويح أجنحة الملائكة، وعليهما من الوقار كظل الشجرة الخضراء في لهب الشمس تفيء به يمنةً ويَسْرةً. فتوجَّهتُ إليهما بنظري، وأقبلتُ عليهما بنفسي، ووضعت حواسي كلها في خدمتهما؛ وقلت هؤلاء هم رجالُ القانون الذي مادتُه الأولى القلب
ما أسخف الحياةَ لولا أنها تدل على شرفها وقدرها ببعض الأحياء الذين نراهم في عالم التراب كأن مادتهم من السُّحُب، فيها لغيرهم الظل والماء والنسيم، وفيها لأنفسهم الطهارة والعلوُّ والجمال. يثبتون للضعفاء أن غير الممكن ممكن بالفعل، إذ لا يرى الناسُ في تركيب طباعهم إلا الإخلاصَ وإن كان حرماً، وإلا المروءة وإن كانت مشقة، وإلا محبة الإنسانية وإن كانت ألماً، وإلا الجِد وإن كان عناء، وإلا القناعة وإن كانت فقراً هؤلاء قوم يؤلَّفون بيد القدرة، فهم كالكتب قد انطوت على حقائقها وخُتمت كما وضعتْ لا تستطيع أن تخرج للناس من حقيقةٍ نصفَ حقيقة ولا شبه حقيقة ولا تزويراً على حقيقة
وما أعجبَ أمرَ هذه الحياة الإنسانية القائمة على النواميس الاقتصادية! فالسماءُ نفسها تحتاج فيها إلى سماسرة لعرض الجنة على الناس بالثمن الذي يملكه كل إنسان وهو العملُ الطيب
قال: ونظرت إلى الشيخين على اعتبار أنهما من بقية النبوَّة العاملة فيها شريعةُ نفسها، تلك الشريعة التي لا تتغير ولا تتبدل كيلا يتغير الناس ولا يتبدلوا. ثم سألتهما عن حاجتهما فإذا أحدهما قد عمل أبياتا من الشعر جاء يمدح بها الباشا ليزدلفَ إليه؛ فقلت في نفسي: ما أشبهَ خَجلَ الجبال بألوان صخرها! هذا عالِمُ دنيا يحدها من الشرق الرغيفُ، ومن الغرب الدينار، ومن الشمال الجاه، ومن الجنوب الشيطان ثم نشر ورقةً في يده وأخذ يسرد علي القصيدة، وهي على رَويّ الهاء تنتهي أبياتها ها. ها. ها. فكان يقرؤها شعرا أو كما يسميه هو شعرا، وكنت أسمعها أنا قهقهة من الشيطان الذي
. . . .ركب أكتافَ هذا العالم الديني ها. ها. ها. ها
قال صاحب السر: وأدخلتهما على الباشا فوقف المدَّاح يمدح بقصيدته، وأخذت لحيته الوافرة تهتز في إنشاده كأنها مِنفضة ينفض بها المَلل عن عواطف الباشا. وكان للآخر صِمتٌ عاملٌ في نفسه كصمت الطبيعة حين تنفطر البذرةُ في داخلها، إذ كانت الحاجة حاجتَه هو، وإنما جاء بصاحبه رافداً وظهيراً يحمل الشمس والقمر والليث والغيث لتتقلب الأشياء حول الممدوح فيأخذه السحر، فيكون جواب الشمس على هذه اللغة

أن تضيء يوم الشيخ، وجواب القمر أن يملأ ظلامه، وجواب الليث أن يفترس عدوَّه، وجواب الغيث أن يهطل على أرضه

والباشا لا يدع ظرفه ودعابته، وكان قد لمح في أشداق العالم المتشاعر أسناناً صناعية، فلما فرغ من نظمه الركيك قال له: يا أستاذ احسبني لا أكون إلا كاذباً إذا قلت لك لا فُضَّ فوك. . .

ثم ذكر الآخر حاجته وهى رجاؤه أن يكون عمدة القرية من ذوي قرابته لا من ذوي عداوته. فقال الباشا: ولقريتكم أيضاً أبو جهل. . . .؟

ولما انصرفا قال لي الباشا: لأمر ما جعل هؤلاء القوم لأنفسهم زياً خاصاً يتميزون به في الناس، كأن الدين بابٌ من التحرف والتصرف، بعض آلته في ثيابه؛ فهؤلاء يسكنون الجبب والقفاطين وكأنها دواوينُهم لا ثيابُهم. . .

قد أفهم لهذا معنى صحيحاً إذا كان كلُّ رجل منهم محصوراً في واجبات عمله كالجندي في معاني سلاحه، فيكون التعظيم والتوقير لثوب العالم الديني كأداء التحية للثوب العسكري، معناه أن في هذا الثوب عملاً سامياً أوله بيع الروح وبذل النفس وترك الدنيا في سبيل المجتمع؛ هذا الثوب الموت يُفْرَض على الحياة أن تعظّمه وتجله، وثوب الدفاع تجب له الطاعة والانقياد، وثوب القوة ليس له إلا المهابة والإعزاز في الوطن. . .ولكن ماذا تصنع الجبة اليوم؟ تُطعم صاحبها

أثر الجيش معروف في دفاع الأمم العدوة عن البلاد، فأين أثر جيش العلماء في دفاع المعاني العدوَّة عن أهل البلاد وقد احتلت هذه المعاني وضَربت وتملكت وتركت هذا العالم الديني في ثوبه كالجندي المنهزم يحمل من هزيمته فضيحة ومن ثوبه فضيحة أخرى؟

أنت يا بني قد رأيت الشيخ محمد عبده وعرفته؛ فرحم الله هذا الرجل ما كان أعجبَ شأنَه! لكأنه والله سحابة مطوية على صاعقة. ولو قلتُ إنه قد كان بين قلبه ورأسه طريقٌ لبعض الملائكة لأشبه أن يكون هذا قولاً

كان يزورني أحياناً فأراني مرغماً على أن أقدم له مجلسين أحدهما قلبي. وكان له وجه يأمر أمراً إذ لا تراه إلا شعرت به يرفعك إلى حقيقة سامية

رجل نَبتَ على أعراقٍ فيها إبداعُ المبدع العظيم الذي هيأه لرسالته، فعواطفه كالعطر في شجرة العطر الشَّذِيَّة، وشمائله كجمال السماء في زرقة السماء الصافية، وعظمته كروعة البحر في منظر البحر الصاخب. وكثيراً ما كان يتعجب من هذا أستاذه السيد جمال الدين الأفغاني فيسأله مندهشاً: بالله قل لي: ابن أي ملك أنت؟

لم يكن ابن ملك ولا ابن أمير، ولكنه ابن القوات الروحية العاملة في هذا الكون؛ فهي أعدته، وهى ألهمته، وهى أنطقته، وهى أخرجته في قومه إعلاناً غير كتمان، ومُصَارحةً غير مخادعة، وهى جعلت فيه أسدية الأسد، وهى ألقت في كلامه تلك الشهوة الروحية التي تذاق وتُحَب كالحلاوة في الحلوى

هذا هو العالم الديني؛ لابد أن يكون ابن القوات الروحية لا ابن الكتب وحدها، ولابد أن يخرج بعمله إلى الدنيا لا أن يدخل الدنيا تحت سقف الجامع

وأنا فما ينقضي عجبي من هؤلاء العلماء الذين هم بقايا تتضاءل بجانب الأصل. يبحثون في سنن النبي صلى الله عليه وسلم كيف كان يأكل ويشرب ويلبس ويمشي ويتحدث، كأنهم من الدنيا في قانون المائدة وآداب الولائم ورسوم المجتمعات. أما تلك الحقيقة الكبرى وهى كيف كان النبي صلى الله عليه وسلم يقاتل ويحارب لهداية الخلق، وكيف كان يسمو على الدنيا وشهواتها، وكيف كان بطباعة القوية الصريحة تعديلاً فعالاً في هذه الإنسانية للنواميس الجائرة، وكيف كان يحمل الفقر ليكسر به شِرَّةَ النواميس الاقتصادية التي تقضى بجعل الأخلاق أثراً من آثار السعة والضيق فتخرج من الغنيّ متعفّفاً ومن الفقير لصاً، وكيف استطاع صلى الله علي وسلم بفقره السامي أن يحول معنى الغنى في نفوس أصحابه فيجعله ما استغنى عنه الإنسان من شهوات الدنيا ما لا نال منها؛ أما هذا ونحوه من حقائق النبوة العاملة في تنظيم الحياة فقد أهملوه، إذ هو لا يوجد في الكتب وشروحها وحواشيها

ولكن في الحياة وأثقالها وأكدارها. وبذلك أصبح شيوخنا من الأمة في مواضع لم يضعهم فيها الدين ولكن وضعتهم فيها الوظيفة

ألا ليتهم يكتبون على أبواب الأزهر هذه الحكمة: سئل بعض العرب: بم ساد فلان

فيكم؟ قالوا: احتجنا إلى علمه واستغنى عن دنيانا
(سيدي بشر بإسكندرية)
مصطفى صادق الرافعي
من ذكريات عابر سبيل
للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

كان أحد الأخوان يصحح قول الشاعر: (وسافر ففي الأسفار خمس فوائد) فيقول - بعبارة لا أستطيع أن أرويها بحروفها - إن الفوائد ثلاث فقط: البعد عن المرأة، والنوم كيفما اتفق، وتكليم الناس بلا معرفة. فأما البعد عن المرأة - أي الزوجة - فإني لم أعد أدرى أهو مزية وخير أم ضرورة وعيب وشر؟. ولكن الذي أدريه أني حاولته مرة بلا لف أو مداورة، ثم عدلت عن التماسه ووطنت النفس على اليأس منه، ورضتها على السكون إلى القرب والمودة. وتجاربي في هذا الباب تخولني أن أنصح لمن يريد أن يسافر وحده أن يجازف ويلح على زوجته أن تكون معه، فإذا أبت كان هذا هو المراد من رب العباد، وإلا فلن يصيبه إلا ما كان مكتوباً عليه. على أنه يجب أن يكون مفهوماً أن المعول في هذا الأمر على أسلوب الحوار وطريقة الكلام. والزواج - كما هو معروف - من مزاياه أنه يكسب الإنسان مرونة في التعبير، وقدرة على الاحتياط، وبراعة في التحرز، وسعة في الحيلة. وإني لأذكر أنى كنت في سوريا مع أسرتي منذ نحو سنتين؛ فذهبنا مرة إلى بيروت لنشتري أشياء نهديها إلى أهلنا ومعارفنا عند عودتنا؛ فرأت زوجتي معطفاً من الفرو ثميناً جداً فأعجبها واشتهت أن يكون لها، ولكنى نظرت إلى ثمنه فدار رأسي، وأيقنت أنا إذا اشتريناه سنضطر إلى الاستجداء والتسول، فأصابتني فجأة نوبة عصبية حادة لم ترها زوجتي قط من قبل، ففزعت ودعت أصحاب المحل أن يدلوها على طبيب بارع في الأمراض العصبية، فقد خيل إليها أن هذا الذي أصابني لابد أن يكون ضرباً من الصرع أو التشنج أو لا أدرى ماذا غير هذا، فحملوني إلى طبيب فرنسي قالوا لها إنه هو الأخصائي الوحيد هنا، وإنه من آيات الله ومعجزاته في طب الأمراض العصبية، فأدخلوني عليه فاتضح له من استجوابي ومما عرفه من تاريخ آبائي وأجدادي من قبلي أن أهلي - في حداثتي - خوفوني مرة بدب صناعي له فرو كثيف، وكانت صدمة الفزع الذي انتابني في صغري شديدة جداً، فأنا من ذلك الحين أضطرب جداً جداً إذا وقعت عيني على الفرو. . فسألته زوجتي التي لم تكن تعرف هذا الجانب من تاريخ حياتي الحافل بالمفاجآت - سألته عن العلاج ،فقال:: (أوه. . لا شيء. . لا داعي للقلق. . ولكن يجب ألا يرى الفرو أبداً. .) والحق أقول إنه كان طبيباً بارعاً جداً، فإن مرضى العصبي لم يعاودني بعدها أبداً. . والفضل بعد الطبيب هو بلا شك لزوجتي التي حرصت أعظم الحرص على ألا أرى الفرو. .

وأما النوم كيفما أتفق فهذا أشهد أنه صحيح. . وأذكر بسرور أن قطاراً سافرت فيه مرة كان غاصاً بالركاب. وكانت المسافة طويلة والشقة بعيدة تستنفد الليل كله من النوم. ولو كانت الجلسة مريحة لنمت وأنا قاعد، ولكنى كنت كالبلحة في قفة عجوة، فحرت ماذا أصنع. ثم فتقت الضرورة لي حيلة فنحيت الحقائب عن الشبكة الممدودة لها فوق رؤوسنا ورقدت مكانها، ونمت أهنأ نوم إلى الصباح، ولو كنت ضخم الجسم لما تيسر لي ذلك فالحمد لله على الضآلة. .

وأما تكليم الناس على غير معرفة فهذا هو قانون السفر، ولست تحتاج أن يعرفك أحد بأحد في رحلة، وما عليك إلا أن تبدأ من تشاء بالكلام كأنما كنت تعرفه من عهد آدم، ولكن هذا لا يخلو من خطر؛ فقد تقع على ثقيل أو ثرثار فينغص عليك وقتك ويحرمك كل متعة يمكن أن تفوز بها وأقلها متعة الراحة وخلو البال من المنغصات؛ ولكثرة ما أصابني من ذلك صرت أكره السفر بالقطار وأوثر السفر بالسيارة؛ فإذا اضطررت إلى القطار عمدت إلى الحيلة وهي أن أضع حقيبتي في أي مكان حتى يتحرك القطار، ثم أتركها وأذهب أبحث عن مكان آخر أتوسم في أهله الطرف والإيناس، وهذا يتطلب فراسة صادقة، والفراسة استعداد ولكنها تكتسب إلى حد ما بالتجربة

ومن الفوائد المجربة في الأسفار أن يستصحب المرء معه كتاباً في فن الطبخ، ولست أعني أنه قد يحتاج أن يصنع طعامه بيده وإن كان هذا محتملاً، ولكني أقص ما وقع لي في هذا الباب - أو بعضه على الأصح - فقد كنت مرة في فلسطين وكنت ضيفاً على

صديق لي، فأصابني برد شديد من كثرة التنقل بين البلاد فوق الجبال بالسيارة في الليل وعاودني مغص الكليتين، فلم يبق بد من الرقاد والحمية وانتظار مشورة الطبيب وإن كنت عارفاً بدائي ودوائه، ومضى يوم ثاني وثالث وطلع الرابع وأنا لا آكل إلا الموصوف من الأطعمة الخفيفة المأمونة، وهذه لا طعم لها ولا لذة لآكلها، وكل طعام يفرض على المريض يكون بغيضاً إليه، فاشتهت نفسي أشياء قالوا لي إنه لا سبيل إليها لأن الطبيب منع أن تقدم إلي،

فاعترضت على هذا وقلت لهم إن الألم قد زال وإن الصحة قد عادت ولله الحمد، وإني أستطيع الآن أن أفعل ما أشاء وآكل ما أحب، فقالوا (حتى يراك الطبيب) فقلت إن هذا طعن في ذمتي لا أقبله ولاسيما في أمر يعنيني وحدي، وأنا على كل حال أدرى من الطبيب بنفسي بل أدري من أطباء الدنيا جميعاً. وهل كان الطبيب قد أحس بالألم حين جاءني المغص. . هل عرف أني ممغوص إلا مني. . إذن انتهينا. . أنا أنبأته أني مريض ولولا ذلك لما عرف. وأنا أيضاً أنبئه أني شفيت وأنه صار من حقي أن أتمتع بمزايا الصحة. . وإذا كان الطبيب قد صدقني في واحدة فيجب حتماً أن تصدقوني في الثانية، فروحوا هاتو كذا وكذا من الآكال، وكيت وكيت من الأشربات. .

فضحكوا وأبوا أن يجيبوني إلى ما طلبت قبل أن يأذن لي الطبيب، فلم يسعني إلا أن أذعن للحرمان - فإني في بلد غير بلدي - ولكني طلبت أن يجيئوني بكتاب في فن الطبخ فاستغربوا وسألوني عما أنوي أن أصنع به فلم أعبأ بهم، فجاؤوني به فقلت لهم: (ألا تستطيعون أن تذهبوا عني إلى حيث تشاؤون فحسبي هذا الكتاب وكفى به أنيساً في وحدتي ومسلياً لي في غربتي)

وفتحته في موضع الفهرس وانتقيت الألوان التي اشتهيها وانطلقت أقرأ بنهم. وصدقوني حين أقول إن ريقي كان يجري وإني كنت أنعم بأقوى من لذة الشره المبطان وأنا أقرأ فيه

كفتة الدجاج - تسيح الزبدة ويضاف الدقيق ثم اللبن بخفة مع استمرار التقليب حتى) يصير المزيج في قوام القشدة، ثم يضاف الملح والبقدونس والفلفل، ثم تغلى مدة ثلاث دقائق، ويضاف لحم الدجاج ويخلط جيداً، ثم يصب هذا فوق طبق مسطح حتى يبرد ويؤخذ من المخلوط بملعقة كبيرة ويوضع في دقيق ويعمل على هيئة كور أو أقراص أو أشكال بيضاوية وتوضع في مكان بارد حتى تتجمد تماماً، ثم تتبل في فتات خبز، وتغطس في بيض مخفوق مخلوط باللبن، ثم في فتات الخبز ثانياً وتقلى في سمن ساخن جداً حتى تحمر ثم تنشف على فرخ ورق غير مصقول. . تنبيه - هذه الكمية تصلح أن يعمل منها أربع عشرة قطعة (ولكني نسيت أن أذكر الكميات والمقادير. . لا بأس. فليس هذا كلاماً عن الطبخ. . ولا عجب أن أذوق بالوهم والخيال مثل لذات الحقيقة فإن هذه حياتنا معشر الأدباء. . وما أكثر ما نترك الحقائق ونروح نجري وراء الظلال! ثم نحاول أن نعزي

أنفسنا بأن الحقائق المشتهاة كثيراً ما أثبتت التجربة أنها دون ما كان متوقعا، وأن الخيال أفسح رحاباً وأوسع آفاقاً؛ فهو أقدر على إمتاعنا. وأن الحقيقة نفسها إنما تكون ممتعة وجميلة بفضل الخيال، ولولاه لما كان لها طعم ولا فيها متعة. فعمل الخيال لابد منه للإمتاع على كل حال سواء أكنت آكلا بالفعل أم متوهماً أنك تأكل؛ والفضل والمزية للخيال لا للمادة فإنها بمجردها لا شيء، وإنما تكون شيئاً بما يفيضه عليها الخيال من السحر والفتنة وما يضفيه عليها ويفيضه إليها ويزينها به

وعلى ذكر فلسطين أقول إني أحب السفر إليها لأنها لا تكلفني إلا أجرة القطار. أما الأكل والنوم والنزهة فعلى الله والإخوان بارك الله فيهم. وقد حدث في العام الماضي أني تعبت من العمل المتوالي فأشاروا علي بالراحة. فقلت اذهب إلى فلسطين. وكان الوقت شتاء والبرد في جبال فلسطين يكون قارساً. فقال لي صديق اذهب إلى الأقصر فقلت: فلسطين أفضل، فاستغرب وبدأ يجادل، فضاق صدري وقلت له: يا أخي إن الأقصر تحتاج إلى مال كثير، أما فلسطين فيكفيني أن تكون معي أجرة القطار

ومن الغرائب التي لا أظن أن كثيرين وقع لهم مثلها أني كنت مرة في جزيرة مع إخوان لي، فقلنا: نصيد سمكا نشويه ونأكل منه في يومنا هذا، فاخترنا شرماً يضرب الماء فيه ويمعن في البر لأنا قدرنا أن يكثر فيه السمك، وجئنا بديدان اتخذناها طعاماً وجلسنا ننتظر أن يخدع السمك. فمضت ساعة وأخرى ونحن لا نظفر بشيء، فنفذ

صبر أحدنا فتركنا وغاب شيئا ثم عاد بفونوغراف أداره وهو يقول مازحا: (لعل السمك يحب الموسيقى. . من يدري. . أليس له حاسة فنية؟) فسرنا أنا وجدنا شيئا نتسلى به في هذه الجلسة المملة، وإذا بالسنارة التي كانت معي تضطرب وتنجذب إلى الماء، فشددتها فخرجت سمكة حسنة، فصحت بصاحبي (أعد! أعد. . أعني للسمك فما جاء إلا على الموسيقى) وكنت أنا أيضاً أمزح، ولكنا ما لبثنا أن وجدنا هذا حقيقة. فكان السمك يكثر ويشتد إقباله على الناحية التي نكون فيها إذا أدرنا الفونوغراف، ويقل ويذهب عنا إذا سكت. ولو كانت معنا مجموعة وافية من الاسطوانات لا استطعت أن أجرب أي الأدوار أحب إلى أي أنواع السمك، ولعرفت أي الأسماك تحب التانجو وأيها يؤثر الفوكس تروت وهكذا. وقد اتفق منذ بضعة شهور وأنا في العراق أن كنا مدعوين إلى الغداء في بيت على نهر دجلة - والعراقيون يسمون كل مسكن على النهر قصراً أو سراي ولو كان كوخاً - وكان بيت صديقنا هذا ضخما فخما وفيه جهاز للراديو، وكانت الساعة الأولى مساء - وهي بحساب الوقت في مصر الساعة الثانية عشرة - فخطر لي أن أجرب تأثير الموسيقى في السمك، فرجوت من صديقنا أن يفتح الراديو وأن يسمح لنا بالانحدار إلى الحديقة، وهي متصلة بالنهر، واتفق أنه كان مغرماً بالصيد، ولكنا لم نسمع من مصر إلا شريطاً مسجلا لأحد المغنين، ويظهر أن السمك لا يحب المعاد أو لعله لم يعجبه الغناء وإن كان يطربنا نحن الآدميين. فقلت أعود في المساء وأرى. غير أني لم أستطع أن أعود إليه قبل الساعة التاسعة مساء - أي الثامنة بحساب الوقت في مصر، واتفق أن كان الذي يذاع حديثاً فنفرت الأسماك جميعها نفوراً ظاهراً. وفي اعتقادي أن محطة الإذاعة تستطيع أن تساعد على ترقية المصايد المصرية - فتخدم السمك والناس - إذا هي عنيت بأن تدرس طبائع الأسماك وأمزجتها وما يوافقها من ضروب الموسيقى، وفي وسعها بالإذاعة المتخيرة أن تنظم صيد السمك، وأن تجعل لكل نوع منه وقتاً معيناً. فإذا كان المراد مثلاً صيد ما يسمى البوري وما يماثله أذاعت للصيادين بعض الأغاني الشجية التي تفتر النفس. وإذا كان المطلوب صيد ثعابين الماء أو حياته أسمعتها أغنية (هاتشي بشي) وهكذا فيكثر المحصول بلا عناء وينتظم الأمر كله. ويعرف الناس ماذا يستطيعون أن يأكلوا من السمك في كل يوم بمجرد الاطلاع على برنامج الإذاعة ومن غير خوف من أن يغشهم التاجر ويدخل عليهم صنفا باسم صنف آخر

والحجاز وإنجلترا هما - فيما أعرف - البلدان الوحيدان اللذان تستطيع فيهما أن تترك حقائبك أو أشياءك في الطريق فلا تمسها يد غير يدك ولا يسطو عليها سارق. فأما في الحجاز فقد سقطت مني عصاً في الطريق بين جدة ومكة فتعطل السير من الجانبين وانقطع المرور حتى اهتدى الشرطة إلى أني صاحبها فخاطبوني بالتليفون وأنا في الشمسية - قرب مكة - فرجوت منهم أن يردوا العصا اللعينة إلى جدة مخافة أن ترتكب إثماً آخر فيأخذوني بذنبها. وأما في إنجلترا فقد تركت حقائبي ساعة وصلت إلى لندن على الرصيف أمام البيت الذي اختاره صديق لي لأنزل فيه وذهبت معه - أي مع الصديق - إلى بيته حيث اغتسلت وحلقت ذقني وشربت القهوة واسترحت ثم عدت إلى الحقائب بعد ساعتين فوجدتها في مكانها كما كانت. وأغرب من ذلك أني راهنت صديقي هذا أن أقضي يوماً في

لندن لا أتكلم في إلا اللغة العربية فخاف أن نتورط فيما لا يحمد واقترح أن نقتصر على السعي للوصول إلى وستمنستر أبي (من غير أن ننطق كلمة بغير لغتنا. فوافقت وتوكلنا على الله وخرجنا من البيت - هو وزوجته وأنا - وكنا نعرف الطريق ولكنا تجاهلناه، فراقني منظر رجل واقف بجانب حانة ينتظر على الأرجح وقت السماح ببيع الخمر - فإن لذلك وقته المعين حوالي الظهر وفي المساء - فدنوت منه وحييته التحية المصرية - أي برفع يدي ثم مدها إلى يده لمصافحته، وسألته - بالعربية طبعاً - عن وستمنستر، وتعمدت أن أحرفها تحريفاً شديداً فنطقتها (وستمنصته)، وأقول الحق إن الرجل فزع واعتدل بعد الميل ونسي الخمر التي يحلم بها وينتظر أن يسعد باحتسائها؛ فأعدت السؤال برفق فلم يفهم طبعاً على الرغم من صدق رغبته في ذلك، فلما يئس قال تعال معي، وقادني إلى الشرطي وهو شيء ضخم جداً وأنا شيء ضئيل أو كما يقول ابن الرومي:

أنا من خف واستدق فلا يث ... قل أرضاً ولا يسد فضاء

وقال له إن هذا الغريب يبدو لي أنه يسأل عن شيء لا أستطيع أن أتبينه، فمال علي العملاق الإنجليزي وقال يستحثني: نعم؟ فسألته عن (وستمنصته) فجعل يهز رأسه ويستعيدني، وأنا أهز له رأسي أيضاً كأني غير فاهم، وألح في السؤال عن (وستمنصته) فأحس أن في الكلمة شيئاً يمكن أن يهديه إلى مرادي وقال (قل هذا مرة أخرى) ولكني تغابيت وجعلت أتلفت، ثم قلقت وخفت، فقد رأيت صديقي وزوجته قد تركاني وذهبا فوقفا على الرصيف. وليت هذا كل ما حدث. . . إذن لما كان فيه بأس ولكنهما كانا يضحكان حتى لخيل إلي أنهما سيقعان على الأرض. وكان ضحكهما بصوت عال فخفت أن يفطن إلى أن الأمر مزاح فيستثقله أو يعده سخرية منه فتسوء العاقبة، فخففت التحريف فلم يلبث أن فطن إلى مرادي فأستوقفني حتى مرت سيارة أمنيبوس معينة فأمرني أن أصعد وتبعني صديقي وأمر الكمساري أن يأخذ منا الأجر إلى وستمنستر وأن يحرص على أن ينزلنا هناك، فأخرجت نقوداً ومددت بها يدي إلى الكمساري ليأخذ منها ما يشاء لجاجة مني في دعوى الجهل باللغة الإنجليزية. وهكذا كسبت الرهان وفي غير بوليس لندن لا تجد مثل هذا الصبر والرغبة المخلصة في المعاونة. وأذكر مثالاً آخر فأقول إن صديقاً لي أعارني سيارته لأذهب بها من لندن إلى اسكتلندا وأتمتع في طريقي بأجمل ريف في العالم، وهو ريف إنجلترا، وكانت السيارة كبيرة ضخمة ويكفي أنها من طراز (ديملر)، فكنت إذا جاء الليل قبل أن أصل إلى بلد ما وخفت أن أضل، أميل عن الطريق إلى الأرض المعشاب وأتعشى بما أعددت من الطعام، ثم أنام في السيارة إلى الصباح الباكر، فاتفق يوماً أن فرغ البنزين وأنا سائر قبل أن أنتبه، فوقفت مضطراً حيث كنت. ولما كانت السيارة كبيرة وثقيلة فقد عجزت عن تحويلها عن الموضع الذي تشغله من الطريق، فجلست على سلمها وشرعت أدخن حتى يوفقني الله إلى شيء، فمر بي شرطي كان قد فرغ من العمل على ما أخبرني، فهو ماض إلى بيته، فسألني: هل بالسيارة خلل؟ قلت: لا، ولكنها أتت على كل ما في خزانها من الوقود. فقال: انتظر، ومضى عني إلى حقل قريب، وهناك استعار دراجة - بسكليت - ركبها وعاد بها، وما لبث أن رجع حاملاً معه مقدارا كافياً من البنزين وقمعاً لإفراغه في جوف السيارة، فشكرته وقدمت له كأساً من الوسكي الذي معي في السيارة، وبعد قليل حملت القمع والصفيحة معي وذهبت بهما إلى محل البنزين، وكان على مسافة ثلاثة أميال، فرددت الأشياء ودفعت الثمن. ومن الإنصاف أن أقول إنك لا تعدم شرطياً غير إنجليزي يفعل هذا، ولكن هذه الروح في الإنجليزي طباع

وأعود إلى فلسطين فأقول إن في عكة مسجداً كبيراً هو الآن مسجد ومدرسة في آن معاً، وقد بناه - على ما أظن - أحمد الجزار باشا الوالي التركي في ذلك الزمان، وهو رجل مشهور فلا أحتاج أن أحدثكم عنه، ولكني أقول إني وجدت مكتوباً على باب المسجد من الداخل هذا البيت العجيب في مدح الجزار باشا:

(ذاك الوزير الشهم أحمد من غدا ... جزار أعناق العباد كما يجب)

. . . .وأظن هذا بيتاً يستحق التدوين

وفي بغداد دعانا الشيخ ابن معمر - القائم بأعمال المفوضية العربية في العراق إلى أكلة على الطريقة البدوية فاستحسنا ذلك جداً، وآثرناها على وليمة أخرى؛ فلما ذهبنا ألفينا السماط ممدوداً. . . وأصف ما رأيت فأقول إن السجادة غطيت بملاءة بيضاء وضع عليها جفنة ضخمة فوقها صينية عظيمة لا أدري من أين جاءوا بها، وقد قالوا لي إن عندهم ما هو أكبر منها بكثير، وفوق الصينية طشت هائل مليء أرزاً مخلوطاً بالزبيب واللوز والفستق، وعلى الأرز خروف عظيم مشوي - هذا في الوسط، وحول الجفنة وعلى مستدارها أطباق عديدة لا يأخذها الحصر، فيها أنواع شتى من الطعام. . . كالدجاج والحضر والعصيدة والولائق المختلفة، وهي من دقيق وسمن ولبن، وقد عرفوا أننا لن نستطيع مجاراتهم، فأعدوا لنا أطباقاً وملاعق وسكاكين وأشواكا، فجعلنا نحن نأكل على طريقتنا، أي أن نأخذ ما نشتهي في أطباقنا. أما هم فأكلوا على الطريقة البدوية الصرف، وهي أن يتناول الواجد قبضة من الأرز ويطوي عليها أصابعه ويضغطها حتى تصير كالكفتة، وبعد أن يفتلها على هذا النحو يقذف بها في فمه. وهذا يبدو هيناً سهلاً، ولكن المصيبة أن الطعام يكون كالنار فيحرق الكف، فكيف بالفم واللسان؟ أما اللحم

فيهبر منه ما تستطيع أصابعه قبل أن تقطعه أو تمزقه ويرمي به في فمه، وما يرمي في الحقيقة إلا جمراً مضطرماً. وعلى ذكر الجمر أقول إن للعرب - أو على الأصح للبدو - طريقة عجيبة في علاج الجروح، وقد جربتها فأنا أتكلم عن خبرة ويقين، ذلك أن راحتي أصابتها النار، فجعلت أوحوح وأنفخ فيها، ولا أدري ما أصنع لتسكين الألم على الأقل، فصاح أحد النجديين الذين كانوا حاضرين هناك: - هذا كان في الحجاز: (ملح. . . ملح. . .) فجاءوه بقليل من الملح الخشن فمد به يده إلي وقال (خذ قبضة) (فتناولت منه بيدي السليمة وأنا أضحك في سري وأقول لعله يظن أن الحروق يفيد فيها السحر) فصاح بي (بيدك المحروقة)، ففهمت وأخذت قبضة بيدي المحروقة فقال (أطو عليها أصابعك) ففعلت فقال (أبق هكذا) فظللت قابضاً على الملح الخشن دقائق ثم نظر في وجهي وقال: (استرحت الآن. . زال الألم. .) ففتحت كفي وأنا أبتسم ولا أكاد أصدق، فما كنت أشعر بأي ألم ولا رأيت أي أثر للحرق! فما قول الأطباء في هذا؟ وليكن رأيهم ما يكون فأني أنا لا أنوي أن أداوي الحروق التي تصيبني - وعسى ألا يصيبني شيء - إلا بالملح. . .

وفي لبنان أنقذتني فتاة لا أعرفها من هلاك محقق، وهذه الفتاة من أعاجيب الخلق، فإن لعينها نظرة تنيم الحية - كما عرفت بالتجربة المرعبة - وأنا قوي النظرة حادها وفي وسعي أن أحدق في قرص الشمس، ولكني لم أستطع أن أحدق في وجه هذه الفتاة العجيبة. وكنت كلما وقعت عيني على عينها لا أزال أطرف ثم لا أجد بداً من تحويل عيني إلى ناحية أخرى. وكنا قد لقيناها في الصباح ونحن نصعد في جبل في رأسه ينبوع أردت أن أرى الموضع الذي يتفجر منه ماؤه. وكانت تحمل جرة فيها من ماء هذه العين، وكنا نخاف أن نضل، فسألناها عن الطريق واستملحناها فاستسقيناها وأردت أن أنقدها بضعة قروش فأبت، وأنبأتها أني أريد أن أرى مفجر العين فنهتني عن ذلك، فسألتها عن السبب فقالت وهي تهز كتفيها: (هيك) ولم تزد، ولما ودعناها عادت فحذرتني، فضحكت وشكرتها وأبيت إلا أن أصعد إلى حيث ينبثق الماء، وصعدت وحدي فقد رأى إخواني وعورة الطريق فانصرفوا عن مرافقتي، فوجدت كهفاً على بابه عشب ونبات طويل ورأيت الماء يخرج من الكهف، فقلت أدخل لأرى فنحيت النبات وإذا بي أرى عينين لامعتين فظيعتين ثابتتين تحدقان في عيني، وكانت نظرتهما من القوة بحيث لم أستطع أن أحول وجهي، وزاد فظاعة النظرة وعمق تأثيرها أن العين لا تطرف والجفون لا تتحرك وأن البريق شديد جداً في ظلام الغار. وكانت العينان ترتفعان عن الأرض شيئاً فشيئاً وتدنوان مني على مهل وأنا أنظر إليهما ويداي إلى جانبي وقد جمدت في مكاني وشعرت بالخدر في أعضائي. وكنت قد أدركت أن هذه حية وأنها من النوع الوثاب الذي تتحرك عيناه ولا تطرف جفونه، ومن هنا عمق تأثير نظرتها، ولم يخالجني شك في أني مقضي علي بالهلاك. وكيف أنجو وأنا مسمر في مكاني لا أستطيع حراكاً؟ ولو وسعني أن أتحرك لو ثبت الحية علي وأنشبت في أنيابها قبل أن أدور على عقبي. وكانت نفسي تنازعني أن أصرخ مستنجداً ولكن شفتي كانتا مطبقتين لا تنفرجان. وإذا بالعينين المرعبتين تتراجعان في الظلام وتهبطان إلى الأرض بعد أن كانت ترتفعان عنها وتزحفان إلي، وأحسست أن نظرتهما تفتر وأن تأثيرهما في نفسي صار أقل وأضال، وشعرت بأني صرت أملك أن أحرك أعضائي بعد طول الجمود؛ فتلفت فإذا الفتاة التي لقيناها في الصباح تحدق في عيني الحية بأقوى من نظرة الحية. ويكفي أنها ردتها بعينها. واختفت الحية فتشهدت وملت على الفتاة لأشكرها بقدر ما كان يسعني أن أفعل في مثل هذه الحالة، فلامتني على مخالفتها وذكرتني أنها حذرتني وقالت إنها أشفقت علي من المصير الذي كان لا مفر منه فأدركتني قبل أن أقضي نحبي فسكت ولم أقل شيئاً. . . وماذا أقول؟.

إبراهيم عبد القادر المازني

من (الكتاب الذهبي) قبل أن يطبع

لغة الأحكام والمرافعات

للأستاذ زكي عريبي

دستور (البحث)

أي شئ يراد بهذا العنوان (لغة الأحكام والمرافعات)؟

الموضوع مطلوب للكتاب الذهبي بمناسبة انقضاء خمسين عاماً على إنشاء المحاكم الأهلية. فهل يجب أن يقتصر على المرافعات القومية كيف كانت لغتها قديماً وكيف تطورت وإلام انتهت وكيف يجب أن تكون؟

أهذا هو محور البحث؟ أم إن له مدى أبعد ودائرة أوسع؟

الحق إن نواحي الموضوع حسبما يوحي عنوانه أكثر من أن تعد أو تحصى. لقد كان للناس محاكم منذ أقدم العصور وفي جميع البلاد المتمدنة، ولكل عصر من عصور التاريخ، ولكل بلد من بلاد المعمورة، مميزاته في تسيير العدالة وما يرتبط بها، ومنه ما نحن بصدده. ثم إنك إذا تحدثت عن لغة المرافعات استحال عليك أن تقصر بحثك على نحو الكلام وصرفه وباقي صفاته اللغوية؛ بل أنت تريد إلى جانب هذا أن تنظر في الأحكام والمرافعات من حيث الأسلوب، واختيار اللفظ، وترتيب الكلام، ومراعاة المناسبة، وملاحظة الصوت والإشارة. ثم إن الموضوع ذو شقين بطبعه، إذ أن لغتك وأنت جالس للقضاء غيرها وأنت قائم للدفاع. ثم إن الحال في مصر تختلف عنها في أكثر بلاد الدنيا، فنحن هنا نطبق أحكام قانون نبت في بلاد أجنبية ولم تحتضنه لغتنا إلا منذ قريب. فأكثر المشتغلين بتطبيقه قد درسوا مبادئه ثم تعمقوا في أصوله بغير اللغة التي يكتبون بها أحكامهم أو يعدون بها دفاعهم

أي ناحية من هذه النواحي الكثيرة المتعددة يجب أن تعالج في مقال أكبر الظن أن الحيز المخصص له محدود وسط الأبحاث الهامة القيمة التي سوف ينطوي عليها (الكتاب الذهبي)؟

لقد فكرنا في الأمر ملياً فانتهينا إلى أنه خير لهذا المقال إذا انفرجت حلقة البحث فيه فجاوزت الحدود المصرية البحتة إلى إلمامة بالحال عند غيرنا من المعاصرين ومن سبقهم من النابهين الذين يمكن أن يعدوا بحق واضعي أسس فن الكلام القضائي. فإذا فرغنا من ذلك، ولن نطيل فيه، عرضنا لتاريخ لغة القضاء عندنا ماضيها القريب وحاضرها وما ينتظر لها على يد حملة لواء نهضتها الحالية

ولا ننتظر من هذا المقال بحثاً لغوياً عميقاً؛ فليس لنا بذلك طاقة ولا المحل هنا محله. هذا إلى أن نواحي البحث الأخرى أجدى وأنفع. وسوف نعنى بالتفريق بين لغة المرافعات ولغة الأحكام، فإن لكل منهما مميزات تختص بها ونحب التنبيه عليها، ولو أن كلا منهما تلقى في مصر صعوبات مشتركة يجب على العائلة القضائية بأسرها التضافر على مغالبتها وتذليلها

ولنبدأ بهذا قبل أن تنفرج قاعدتا الزاوية بحكم اضطرارنا إلى الفصل بين شقي هذا البحث

متاعب اللغة العربية

المتاعب التي يلقاها المترافعون وصائغو الأحكام على السواء في مصر جزء من متاعب لغة قديمة كريمة نامت نومة أهل الكهف زمناً، ثم أوقظت على حين غفلة لتقف على قدميها دفعة واحدة فتتفهم والنعاس مايزال يغالبها ويعقد أجفانها أحوالاً جديدة ليس لها بها عهد ولا سابق معرفة. أوقظت بشدة ودفعت بعنف لضرورة ملحة لتساير وتلاحق في ميدان لا تحده سوى حدود العقل البشري لغات وثيقة الصلة بنهضة العلوم التي رفعت أوربا إلى مقامها الممتاز الحالي، وجعلت منها منارة العلم والفلسفة والأدب والتشريع والاختراع. لغات صقلتها قرون متعاقبة عامرة بجهود متواصلة ربطت طارفها بتليدها وهيأتها أداة مرنة صالحة لما يطلب منها في مختلف ميادين النشاط العقلي

وأنت في مصر كاتباً كنت أو أستاذاً في جامعة، محامياً أو قاضياً، مهندساً أو طبيباً، لا تكاد تذكر أمامك اللغة حتى تتجه بفكرك إلى مختلف الصعوبات التي تعانيها إذا طلب منك أن تكتب أو تحاضر في فرعك الخاص. لقد أخذت كما أخذ أفراد هذا الجيل والذي تقدمه العلم عن أوربا؛ أخذته سهلاً ميسوراً بلغة أجنبية لقنتها صغيراً في طرازها الأخير فحصلت بها على أداة دقيقة مطواعة لحاجات العصر قد استوفت دقائقها من مسميات وأفعال وتعبيرات لها دلالتها الخاصة المحدودة. درست بهذه الواسطة في لين وسهولة، ثم إذا بك وقد انتقلت

فجأة بمحصولك العلمي إلى محيط يريد أن يفهم منك ما فهمته ويأخذ منك ما أخذته، وليس سبيل للتفاهم مع هذا المحيط إلا لغة قد يكون معدنها ذهباً ولكنه ذهب ما يزال

تبراً مخلوطاً بأتربة تراكمت منذ أجيال. فأنت مضطر إلى تطهيره من كل عنصر زائف، ثم عليك بعد ذلك صهره في بوتقة العصر ثم صقله ثم ضربه نقوداً من أعيرة وفئات مختلفة. فإذا ما استقام لك هذا كله لزم أن يجرب الناس عملتك هذه الجديدة وأن يتداولوها زمناً قبل أن تستقر نظاماً مألوفاً معمولاً به

ليس مركز المتكلم أو الكاتب باللغة العربية إذن سهلاً ميسوراً في هذا العصر. اللهم إلا أن يقول شعراً يحتذي فيه المتنبي، أو يكتب نثراً ينسج فيه على منوال عبد الحميد الكاتب أو ابن المقفع. أما أن يعرض بقلمه لشيء من مختلف العلوم والفنون الحديثة فهو أعزل إلا من العزم الذي تبعثه الصعاب، فقير إلا من عناصر الثروة المخبوءة في لغة مجيدة تتطلب كثيراً من الجهد في استكشافها ثم مثابرة وصبراً لإقرار ما يكتشف وإحلاله محله من نظام مقبول

ولكن أيمكن حصر هذه الصعوبات ومعالجتها؟

ليس في هذه العجالة متسع للخوض في موضع قلنا ونكرر إنه خارج اختصاصنا وفوق مقدورنا. ولكن ما نراه في عالم الحقوق يجيز لنا أن نعتقد أنه ليس في اللغة العربية أدواء أصيلة تمنعها من أن تأخذ مكانها تحت الشمس كلغة عصرية تضرب بسهم في مختلف العلوم والفنون. فقد سبق لها أن دعيت إلى مثل ما تدعى إليه اليوم وهي بعد أقرب إلى البداوة منها إلى استقرار الحضارة، فوثبت إلى غايتها العلمية وثبة الجواد الكريم. ودرس العرب حضارة الإغريق وفلسفتهم وطبهم بالعربية وحلوا محل الرومان في حمل مشكاة الحضارة قروناً يؤلفون في كل علم وفن بل ويزيدون في ثروة العالم العلمية بما استنبطوا من معارف جديدة. فهل تعجز العربية ولها هذه السابقة المجيدة وذلك التراث الباهر أن تصل فجرها الجديد المتألق بمسائها الباهر؟ إن لنا أن نأمل بل لنا أن نطمئن إلى غد سعيد أخذاً بالقياس

ولكن لنعد إلى ما كنا فيه ولنتحدث قليلاً عن صعوبات الحاضر فقد يتعين هنا التنويه باثنتين:

تجاوز القصد

كثيراً ما عيرنا - وأخشى أن نكون قد عيرنا بحق - بأننا نجاوز إذا جلسنا للكتابة أو قمنا للكلام الغرض الذي نتوخاه بأحدهما، وأن اللغة التي نستعملها في عصر اللاسلكي أو الكهرباء ما تزال تغشاها المحسنات اللفظية وتغمرها المترادفات ويفسدها الحشو ويرهقها استطراد يمكن التخفيف من كثير منه. فأغلب الكتاب إذا ذكر الظلم ألحق به الاستبداد، وإذا تكلم عن الرحمة أردفها بالشفقة والحنان. وليس الذنب في هذا على اللغة العربية بل على تقاليد سيئة وجهل بمقتضيات العصر. إن لغتنا موسيقية بلا مراء ولكن بإعرابها. وهي غنية غاية الغنى بأسمائها وأفعالها ونعوتها. ولكن هذه الثروة لم تجمع للزينة فحسب، ولم تدخر في بطون المعاجم لكي يتزن بها الروي وتستقيم القافية ويحسن السجع، وإنما لتكون منها وسائل لأداء معان مختلفة وان تقاربت. وأول واجب على الكاتب في هذا العصر أن يستعمل كل لفظ فيما أعد له من الأصل؛ فيعرف مثلاً متى ينعت صاحبه بالإقدام ومتى يسميه شجاعاً ومتى يصفه بالجرأة. وبعبارة أخرى نحن أحوج ما نكون اليوم إلى فقه صحيح دقيق للغة العربية نعرف منه متى نستعمل لفظاً معيناً في معنى معين. وهذا إذا تم استتبع حتما سير قلم الكاتب ولسان المتكلم في سبل مرسومة وطرق معبدة، فلا يكتب ولا يقول إلا بقدر حاجة الموضوع دون استطراد يحاول به تمكين المعنى في نفس القارئ أو سامع يخشى أن يفوته القصد

على أنه من الإنصاف أن نقرر هنا أن لغة الجدل الفقهي في مصر قد قطعت شوطاً بعيداً فيما نتمناه لأسلوب الكتابة على وجه العموم

وأول مثل يحضرني أسلوب أستاذي طيب الله ثراه المرحوم أحمد بك لطفي، فقد كانت لغته مرآة مصقولة لفكره الرائق المرتب: ألفاظ سهلة مختارة، وجمل على قدر حاجة الكلام لا أقل ولا أكثر لا تستطيع حذف عبارة منها حتى يختل المعنى وتضيع الفائدة

أنظر إليه يترافع عن الورداني في قضية اهتزت لها جوانب القطر كيف يروي وقائعها في بساطة وسهولة توطئة لبحثه القانوني:

نزل رئيس الوزارة المصرية يوم الحادث من ديوانه يحيط به كعادته رجال الحكومة)

حتى بلغوا به سلم نظارة الحقانية ولم يكد يودع مشيعيه حتى ابتدره هذا الفتى فأفرغ فيه عدة
رصاصات طرحته على الأرض يتخبط في دمه؛ أطلقها من مسدس كانت تحمله يد لم تخنها قواها، يقلبه بقلب كأنه قد من الحديد، فأنفذ حشوها فيه كما ينفذ الجلاد حكم القضاء في المنكودين، ولكن مع الأسف لم يكن حول الفقيد يد شهم مخلص مقدام كيد أحمد البحراوي التي أنقذت سعادة حكمدار العاصمة من الرصاص الذي صوب إليه، ولذلك وجدت رصاصات ذلك الفتى سبيلاً إلى جسم رئيس الوزارة)
بل استمع إليه وهو يختتم هذه المرافعة بتوجيه الخطاب إلى المتهم كيف يطلق العنان للعاطفة دون أن يختل ميزان أسلوبه السهل الممتنع:
أما أنت أيها المتهم: فقد همت بحب بلادك حتى أنساك ذلك الهيام كل شيء حولك.) أنساك واجباً مقدساً هو الرأفة بأختك الصغيرة وأمك الحزينة فتركتهما يبكيان هذا الشباب الغض. تركتهما يتقلبان على جمر الغضا. تركتهما يقلبان الطرف حولهما فلا يجدان غير منزل معفر غاب عنه عائله. تركتهما على ألا تعود إليهما وأنت تعلم أنهما لا تطيقان صبراً على فراقك لحظة واحدة فأنت أملهما ورجاؤهما. دفعك حب بلادك إلى نسيان هذا الواجب وحجب عنك كل شيء غير وطنك وأمتك وأخيك فلم تعد تفكر في تلك الوالدة اليائسة وهذه الزهرة اليانعة ولا فيما سينزل بهما من الحزن والشقاء بسبب ما أقدمت عليه. ونسيت كل أملك في هذه الحياة وقلت إن السعادة في حب الوطن وخدمة البلاد، واعتقدت الوسيلة الوحيدة للقيام بهذه الخدمة هي تضحية حياتك: أي أعز شيء لديك ولدى أختك ووالدتك فأقدمت على ما أقدمت راضياً بالموت لا مكرهاً ولا حباً في الظهور. أقدمت وأنت عالم أن أقل ما يصيبك هو فقدان حريتك؛ ففي سبيل حرية أمتك بعت حريتك بثمن غال
فاعلم إذن أيها الشاب أنه إذا تشدد معك قضاتك ولا أخالهم إلا راحميك، فذلك لأنهم خدمة القانون، وهو هذا السلاح المسلول فوق رأس العدالة والحرية. وإذا لم ينصفوك ولا أظنهم إلا منصفيك، فقد أنصفك ذلك العالم الذي يرى أنك لم ترتكب ما ارتكبته بنية الأجرام، ولكن باعتقاد أنك تخدم بلادك. وسواء وافق اعتقادك الحقيقة أو خالفها، فتلك مسألة سيحكم التاريخ فيها وإن هنالك حقيقة عرفها قضاتك وشهد بها الناس، وهي أنك لست مجرماً سفاكا للدماء ولا فوضياً من مبادئه الفتك ببني جنسه ولا متعصباً دينياً، وإنما أنت مغرم ببلدك هائم بوطنك، فليكن مصيرك أعماق السجن أو جدران المستشفى، فإن صورتك في البعد
والقرب مرسومة على قلوب أهلك وأصدقائك، وتقبل حكم قضائك باطمئنان، واذهب إلى مقرك بأمان)
ومثل آخر لإيراد الكلام على قدر المعنى المطلوب تجده في مذكرات صديقي الأستاذ سليمان حافظ المحامي، وأغلب ظني أنه يحتذي إمامنا الراحل. قال في صدر إحدى هذه المذكرات يحدد موضوع البحث ويبين ما سبق من الرأي، وينتهي إلى غرضه من الاستشهاد بحكم محكمة النقض. وهذا كله في أسطر معدودة
بيعان أحدهما من مورث والثاني من وارث عن عين بذاتها. وبيع الوارث أسبق تأجيلا.) فأيهما أحق بالتفضيل؟ وأي المشترين تملك؟ المشترى من المورث أو المشترى من الوارث؟ ذلك هو موضوع البحث ومناط الفصل في هذه الدعوى
قد يقال إن العقد الأسبق تسجيلاً هو العقد الأحق بالتفضيل؛ غير أن نظرية التفاضل بالتسجيل لا محل لها ما لم يكن البيعان صادرين من مالك واحد. وهنا يحق البحث فيما إذا كان الوارث والمورث شخصاً واحداً بمعنى أن الوارث استمرار لشخص المورث، أو أن لكليهما شخصية قانونية مستقلة عن الأخرى؟
وقع الخلاف فيما مضى على هذه المسالة فقال فريق إن شخصية الوارث تكمل شخصية المورث أخذاً بقواعد القانون الفرنسي. وقال فريق آخر إنها مغايرة لشخصية المورث طبقاً للشريعة الإسلامية. وتزاحمت الأحكام بين الرأيين، وانقسم الفقهاء المصريون إلى شطرين، حتى طرحت هذه المسألة أمام محكمة النقض وأصدرت فيها (حكمها بتاريخ 3 ديسمبر سنة 1931: أخذ بالرأي الثاني ووضع نهاية للخلاف السابق
ترجم هذا الكلام حرفاً بحرف إلى اللغة الفرنسية أو إلى الإنكليزية التي اشتهر أهلها بحب الإيجاز فلن يجد فيها الفرنسي أو الإنكليزي أثراً لحشو أو تزيُّد مما يؤخذ على

كثيرين من كتابنا
(يتبع)
زكي عريبي
المحامي أمام محكمة النقض والإبرام
خواطر في السياحة
مجاز الشرق والغرب
للأستاذ محمد عبد الله عنان
للسياحة أدب خاص. وربما كان أدب السياحة أقدم أنواع الأدب بعد أدب الأساطير والفروسية. فمنذ القرن الخامس قبل الميلاد نجد هيرودوت أبا التاريخ يجوب أنحاء آسيا الصغرى وفارس والشام ومصر، ويقدم لنا دراسته ومشاهداته في أثر ممتع هو الأول من نوعه. وقد جرى أكابر الرحل والرواد في كل عصر وقطر على تدوين رحلاتهم ومشاهداتهم. ولدينا في تراثنا العربي طائفة كبيرة من الآثار الهامة التي تعتبر وثائق نفيسة عن أحوال العصور التي كتبت فيها والبلاد والمجتمعات التي تناولتها وقد كانت السياحة من قبل مغامرة محفوفة بالمشاق والمخاطر، ولكنها أضحت في عصرنا هينة ميسورة، بل غدت متاعاً ونزهة بما مهد لها من وسائل المواصلة السهلة الأمينة في البر والبحر والهواء، وتنوعت سبلها ووسائلها ومرغباتها، وأضحت في كثير من البلاد التي حبتها الطبيعة بمحاسنها صناعة قومية تنظم لاجتذاب الموسرين والمترفين

ومن الحقائق المعروفة أن السياحة تذكي الخيال وتلهم القلم؛ ذلك أن السياحة تقدم إلى الكاتب مادة غزيرة من الجديد في كل شيء: في الطبيعة والإقليم، وفي الأشياء والناس، وفي مختلف نواحي الحياة الاجتماعية؛ وهي بما تحمله من متاع للنفس والعين والروح تمد الكاتب بذلك الغذاء الروحي الذي يستمد منه صوره، وتبعث إليه في معظم الأحيان رغبة ملحة في التحدث والإفضاء بما رأى وشاهد

وصلنا إلى مرسيليا بعد أن قضينا في البحر خمسة أيام في جو هادئ وسير ناعم مريح، وأرسينا في الصباح الباكر في مرفئها الشاسع. ومرسيليا ثغر عظيم، ولكنها لا تمتاز عن غيرها من الثغور الكبيرة في مظاهر حياتها ونشاطها؛ بيد أن ما نلاحظه عادة في حياة الثغور من تباين في الناس والمجتمع يبدو في مرسيليا أقوى وأشد وضوحا. فهنالك يلتقي الشرقيون والغربيون من مختلف الأجناس والأمم، وتغص بهم شوارعها ومقاهيها وفنادقها، ولكن هذا المجتمع المتباين يجوز دائماً حياة طائرة غير مستقرة؛ ذلك أن مرسيليا مجاز فقط بين الشرق والغرب، تجتازها الجموع مسرعة، سواء إلى المشرق أو إلى المغرب، ولا تترك فيها أثراً، ولا تحمل منها ذكريات ذات شأن

وليس في مرسيليا ما يجذب السائح المتجول من المشاهد الاجتماعية ويترك في نفسه أثراً خاصاً سوى حبها الشهير المسمى (الكانبيير فهو قلبها النابض، يضطرم دائماً بحركة زاخرة مستمرة، وتجتمع فيه أهم مرافقها التجارية؛ وهو ثغرها الباسم، يغص من الجانبين بالمقاهي الأنيقة، ويغدو بالليل قطعة من الأنوار الساطعة، ويؤمه المجتمع الأنيق المرح، وهو أشبه الأحياء بشارع عماد الدين عندنا، بيد أنه أكثر منه ظرفا وبهاء ومما يجدر ذكره أن هذا الحي الأنيق (الكانبيير) كان منذ عامين مسرحا لفاجعة دموية مروعة اهتزت لها أوربا، وكادت تودي بالسالم الأوربي؛ تلك هي مصرع الملك اسكندر ملك يوجوسلافيا، ومسيو لوي بارتو وزير الخارجية الفرنسية الذي كان يرافقه في العربة الملوكية؛ وقد وقع الحادث على مقربة من ملتقى (الكانبيير) بالميناء القديم؛ ورأت الحكومة الفرنسية أن تخلد ذكرى تلك الفاجعة المرسيلية بإقامة نصب تذكاري إلى جانب المكان الذي وقعت فيه، وقد سطرت في رأسه هذه العبارة: (هنا سقط اسكندر ملك يوجوسلافيا، والرئيس لوي بارتو في سبيل قضية السلام والحرية، في 9 أكتوبر سنة 1934)

أما عن المشاهد الأثرية فليس في مرسيليا منها ما يستحق الذكرى سوى أثرين: الأول في داخلها، وهو قصر لونشان، وهو قطعة بديعة من الفن تزين واجهته نافورة ضخمة رائعة الجمال، وتحيط به حدائق عظيمة، نصبت فيها تماثيل عديدة، رأينا منها تمثالاً لمسترال الشاعر البروفنسي الشهير، وأخر لشاعر الحب والجمال الفونسى دى

لامرتين
وأما الأثر الثاني فهو خارج الميناء، في جزيرة صخرية صغيرة، وهو حصن (ايف) (شاتوديف) الشهير
وليس لحصن ايف في ذاته أية أهمية فنية أو أثرية، ولكنه يلفت النظر بقواعده وجدرانه المنيعة التي قدت من الصخر الهائل، والتي يتكسر عليها الموج المزبد وقد ارتبطت بهذا الحصن الصغير الذي أنشأه فرانسوا الأول في أوائل القرن السادس عشر ليكون سجناً سياسياً، ذكريات مروعة، مازالت أوكاره المظلمة الضيقة تحمل أثارها؛ ذلك أن هذه الأوكار السحيقة التي لا يكاد يدخلها شيء من الهواء أو الضوء كانت مثوى لطائفة من أكابر الزعماء والساسة، منهم (ذو القناع الحديدي) الشهير الذي ماسزالت شخصيته
لغزا على التاريخ، والذي يعتقد فولتير أنه أخ غير شرعي للويس الرابع عشر، قضى بسجنه وإخفاء وجهه بقناع دائم حتى لا يعرفه إنسان قط. ومنهم (ميرابو) خطيب الثورة الفرنسية، و (فيليب دورليان) ابن عم لويس السادس عشر، و (لويس فيليب) الذي تولى الملك فيما بعد، وغيرهم من الزعماء والأكابر الذين سطرت أسماؤهم جميعاً فوق الغرف التي سجنوا فيها
ومن ذكريات (ايف) المروعة تلك المخادع الشاسعة المنخفضة التي تسمى (بمخادع النسيان) والتي كان يزج إليها بعض المغضوب عليهم، فلا يذكرهم بعد ذلك أحد من أولى الشأن، وربما تركوا فيها حتى يهلكوا في غمر الظلام والنسيان
بيد أن لحصن (ايف) ذكرى شهيرة أخرى، أوحت إلى اسكندر ديما أعظم قصصه وأبدعها ونعني قصة (الكونت دي مونتي كريستو)
مَن مِن عشاق القصص الرائع لا يعرف (الكونت دي مونتي كريستو) تلك الشخصية العجيبة التي خلقها اسكندر ديما من شخصية أدمون دانتيس سجين شاتوديف؟ ومن ذا الذي لا تطربه وتشجيه محنة أدمون في سجنه السحيق، وقصة اتصاله بالأب فاريا صاحب الكنز العجيب، ثم فراره من أسره الهائل بعد مخاطرات مروعة، وحصوله على كنوز جزيرة (مونتي كريستو) وظهوره بعد ذلك على مسرع الحوادث في ثوب تلك الشخصية الخرافية التي يفيض من حولها الذهب والجوهر؟
في حصن إيف وكر صغير مظلم قد في الصخر، وفيه ثلمة صغيرة تصل بينه وبين مخدع آخر في مثل روعته وظلامه؛ ففي أواخر عهد نابليون زج أدمون دانتيس في المخدع الأول بتهمة مؤامرة ملفقة؛ وكان جاره في المخدع الثاني راهب شيخ يدعى الأب فاريا سجن قبله بأعوام طويلة لأسباب مجهولة؛ ولبث أدمون أعواماً يرسف في وكره، وهو يدبر وسائل الفرار حتى وفق إلى حفر ثلمة صغيرة في جدار كان يظن أنه يفضي إلى فناء السجن أو إلى البحر، ولكنه ألفاه يفضي إلى مخدع مجاور، فتعرف بجاره وشريكه في الأسر، الأب فاريا، ووثقت بينهما المحنة أواصر الصداقة؛ وكان الأب فاريا قد وقف قبل محنته من وثائق كانت في حوزة بعض الأحبار على سر كنز عظيم من المال والجوهر خبأه الكردينال سبادا في جزيرة (مونتي كريستو) على مقربة من الشواطئ الإيطالية، فأطلع
أدمون على سره حتى إذا فر دونه استطاع الحصول عليه
ثم توفي الأب فاريا فجأة؛ وكانت العادة أن السجين المتوفى يكفن ويلقى في البحر، فدبر أدمون وسيلة عجيبة للفرار خلاصتها أنه بعد أن كُفن الأب فاريا، وترك في مخدعه حتى موعد إلقائه، نفذ أدمون إلى ذلك المخدع من الثلمة الشهيرة، ووضع نفسه في الكفن مكان الأب المتوفى، ووضع الجثة في مخدعه؛ وانتظر حتى جاء عمال السجن وحملوه، وهو مستتر بالكفن وألقوه إلى البحر ظناً أنه هو الأب المتوفى؛ فاستطاع أن يخرج من كفنه، وأن يسبح حتى الشاطئ؛ ونجا بتلك الوسيلة العجيبة؛ وسافر إلى الجزيرة، وبحث عن الكنز المنشود حتى عثر به، وتسمى بالكونت دي مونتي كريستو، وعاش في بذخ عجيب، وهو يعمل للانتقام من أعدائه الذين أوقعوا به حتى أفناهم أو نكبهم جميعاً
تلك هي الحوادث والسير العجيبة التي يثيرها منظر ذينك المخدعين المروعين المتجاورين في حصن إيف: مخدع أدمون دانتيس وزميله الأب فاريا
ولقد ذكرنا منظر حصن إيف بحصن أقدم وأروع يماثله في النشأة والغاية هو حصن

سانت أنجلو في رومة، وهو معقل هائل يرجع إلى العصور الوسطى، وبه مخادع مظلمة مروعة كانت معقلاً لطائفة من الأكابر، مثل بنفو نوتوتشلليني الفنان الشهير، والعلامة جوردانو برونو؛ وكان مدى عصور سجناً رسمياً لديوان التحقيق (التفتيش) الروماني، وكان مسرحاً لكثير من المآسي الدموية وحوادث الفرار الشائقة

هذا بعض ما أوحته المناظر والمشاهد المرسيلية إلى الخاطر. ومما يجدر ذكره بهذه المناسبة قصة (البقشيش) (البوربوار) التي قرأنا عنها في الصحف قبل السفر، وعلمنا أنها كانت موضع اهتمام خاص من الوزارة الفرنسية الجديدة؛ فقد استصدرت وزارة مسيو ليون بلوم من البرلمان في أوائل يونيه تشريعاً يقضي بإلغاء (البقشيش) في جميع فرنسا، وذلك لما رأته من تغلغل هذا الداء في جميع المعاملات تغلغلاً يجعله أشبه بضريبة غير رسمية؛ وقد اعتقدنا حين وصلنا إلى مرسيليا أننا تخلصنا من هذا الداء المنغص بفضل المسيو ليون بلوم، فإذا نحن واهمون، وإذا البقشيش لا يزال عماد المعاملة في كل خطوة، وكل شيء وكان أول ما لفت نظرنا في الفندق إعلان جاء فيه: إنه نظراً لإلغاء البقشيش فقد رأت الإدارة أن تضيف إلى جملة الحساب عشرة في المائة نظير الخدمة! فتساءلنا عندئذ ما الذي

ألغاه القانون الجديد، وما الذي فعلته وزارة المسيو ليون بلوم؟

ومما يلاحظ الآن في فرنسا بنوع خاص أن الجبهة الشعبية التي تؤيد الوزارة الجديدة تلقى تأييداً شديداً، وأن النزعة الديموقراطية التي كانت قد فترت في العهد الأخير قد عادت إلى حدتها؛ وفي ذلك ما يدل على أن الشعب الفرنسي يشعر اليوم شعوراً قوياً بما يهدد الديموقراطية من الأخطار، ويزمع أن يتمسك بنظمه الحرة العريقة، على رغم ما يعتورها أحياناً من أوجه الفساد والضعف، وأن يدافع عنها ضد تلك النظم الطاغية الهمجية التي تسود اليوم بعض الدول العظمى، والتي تحاول أن تسود أوربا القديمة كلها

بورفاندر (سفح البرنيه) في أواخر يوليه

محمد عبد الله عنان

بمناسبة المهرجان الألفي لأبي الطيب في دمشق

دين المتنبي - 2

(تتمة ما نشر في العدد الماضي)

للأستاذ سعيد الأفغاني

أنتقل الآن إلى الكلام عن اعتقاد أبي الطيب، وهو الموضوع الذي زلت فيه أقدام كثيرين، إما لميل إلى الرجل أو عليه، وإما لاكتفائهم من البحث بأدنى نظرة، وتعلقهم مظاهر من القول دون نفاذ إلى حقيقته ولا تطلع إلى ما حف به من قرائن. والحيطة في هذا ضرورية لمن يريد استنباط أمور من الشعر العربي وخاصة في عصر كعصر أبي الطيب فشا فيه المدح والغلو والتلاعب بالألفاظ، وأصبح كل مادح على مذهب ممدوحه في الأغلب، فإن كان شيعياً أشاد الشاعر بسراة الشيعة ورفع من مقالتهم، وإن كان يقول بالتناسخ مال الشاعر إليه، وان كان معتزلياً أو سنياً فالشاعر معتزلي أو سني. . وهكذا دواليك

فشت هذه الظاهرة من النفاق في الناس وكانت أشد ما تكون في الشعراء، حتى لقد شهد المعري عليهم وعلى عصرهم بذلك؛ وحسب التاريخ شهادة شيخ المعرة، فقد أيدها بالدليل، وأرسل فيها قولاً حكيما يعرف رشده وصوابه كل من أمعن الفكرة، ولم يكتف بالنظرة. قال بعد أن ذكر تنبؤ أبي الطيب والأبيات تدل على تألهه:

وإذا رجع إلى الحقائق فنطق اللسان لا ينبئ عن اعتقاد الإنسان، لأن العالم مجبول) على الكذب والنفاق، ويحتمل أن يظهر الرجل بالقول تديناً وإنما يريد أن يصل به إلى ثناء أو غرض؛ ولعله قد ذهب جماعة هم في الظاهر متعبدون وفيما بطن ملحدون. وما يلحقني الشك في أن دعبل بن علي لم يكن له دين، وكان يتظاهر بالتشيع وإنما غرضه التكسب؛ ولا أرتاب في أن دعبلاً كان على رأى الحكمي وطبقته، والزندقة فيهم فاشية ومن ديارهم ناشئة.)

وقال في موضع آخر: (وفي الناس من يتظاهر بالمذهب ولا يعتقده، يتوصل به إلى الدنيا الفانية، وكان لهم (يعني القائلين بالتناسخ) في المغرب رجل يعرف بابن هانئ

وكان من شعرائهم المجيدين فكان يغلو في مدح المعز غلواً عظيما حتى قال فيه وقد نزل بموضع
يقال له رقّادة:
حل برقَّادة المسيح ... حل بها آدم ونوح
حل بها الله ذو المعالي ... وكل شيء سواه ريح
فمن الضلال البين إذن أن نلزم أبا الطيب عقيدة ذكرت في شعره عرضاً، إلا إذا صحبتها قرائن تقويها وتدل على اعتقاده إياها. وليس من الصواب في شيء اعتبار الشعر - وحاله ما بيّنا - مصدراً من مصادر التاريخ وما أجهل المؤرخ إذا حكم على أخلاق سيف الدولة أو كافور بشهادة شعر المتنبي فيهما
بهذا الحذر أخوض الكلام في اعتقاد المتنبي مع علمي بأنه لم ينظم شيئاً يبين فكرته في الدين خاصة، وإنما هي أبيات وقعت في جملة شعره، بوسع المؤرخ أن يستأنس بها بعد أن يدرس سيرته
جاء في خزانة الأدب للبغدادي كلام عن اعتقاد أبي الطيب منقول عن الأصفهاني وهذا نصه:
وهو (أي أبو الطيب) في الجملة خبيث الاعتقاد؛ وكان في صغره وقع إلى واحد يكنى) أبا الفضل بالكوفة من المتفلسفة فهوّسه وأضله كما ضل. وأما ما يدل عليه شعره فمتلون، وقوله:
هون علي بصر ما شق منظره ... فإنما يقظات العين كالحلم
مذهب السوفسطائية. وقوله:
تمتع من سهاد أو رقاد ... ولا تأمل كرى تحت الرجام
فإن لثالث الحالين معنى ... سوى معنى انتباهك والمنام
مذهب التناسخ. وقوله:
نحن بنو الدنيا فما بالنا ... نعاف ما لابد من شربه
فهذه الأرواح من جوه ... وهذه الأجسام من تربه
مذهب القضائية. وقوله:
فإن يكن المهدي من بان هديه ... فهذا، وإلا فالهدى ذا، فما المهدي؟!
مذهب الشيعة (كذا). وقوله:
تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم ... إلا على شجب والخلف في الشجب
فقيل: تخلد نفس المرء باقية ... وقيل: تشرك جسم المرء في العطب
مذهب من يقول بالنفس الناطقة. ويتشعب بعضه إلى قول الحشيشية. والإنسان إذا خلع ربقة الإسلام من عنقه وأسلمه الله عز وجل إلى حوله وقوته وجد في الضلالات مجالاً واسعاً، وفي البدع والجهالات مناديح وفسحاً.) اهـ
فأبو الطيب في رأى هذا الفاضل: سوفسطائي، تناسخي قضائي شيعي حشيشي. . مجموعة مذاهب لو فُرقت على مملكة عريضة لخربتها في يومين؛ فما الحال إذا اضطلع بها كلها قلب رجل واحد؟
على أن الشواهد التي استند إليها في أحكامه هذه لا تحمل ما حمّلها: فالشاهد الثاني (تمتع من سهاد. . البيت) ليس فيه ما يصرح بالتناسخ. وقوله: (فإن يكن المهدي. . .) يخرجه من الشيعية إخراجاً، لأنه شك في المهدي أول البيت، ثم جعل ممدوحه هو المهدي إن كان هناك مهدي، ثم ختم البيت بهذا الاستفهام التهكمي: ما المهدي!!؟
وإن دل الشاهد الأخير (تخالف الناس. . البيتين) على شيء فعلى تردد أبي الطيب بين القولين وعلى شكه وحيْرته بدليل البيت الذي بعدهما:
ومن تفكر في الدنيا ومهجته ... أقامه الفكر بين العجز والتعب
والذي استفدناه من كل ذلك أن المتنبي وقع في حداثته إلى رجل من المتفلسفة فهوّسه وأضله، والظاهر أن أثر هذا الأستاذ كان في أبي الطيب بالغاً، فقد بقي ضعف العقيدة وعدم الاعتداد بآداب الدين ملازماً أبا الطيب حتى مات
ومهما يكن فقد ألم المتنبي بكثير من النحل الشائعة في عصره دون اعتقاده بواحدة ما. وذكر بعضها في شعره منزّلة خير تنزيل: مدح طاهراً العلوي مرة فقال:
إذا علوي لم يكن مثل طاهر ... فما هو إلا حجة للنواصب
والنواصب الخوارج الذين نصبوا العداء لعلي

وذكر المانوية أصحاب الاثنين الزاعمين أن الخير كله من النور وأن الشر كله من الظلام فقال:

وكم لظلام الليل عندك من يد ... تخبّر أن المانوية تكذب

وعرض لذكر المجوس ومذهبهم في نكاح الأخوات حين أراد الثناء على حسن امرأة ود أخوها لو كانت تحل له لفرط جمالها فقال:

يا أخت معتنق الفوارس في الوغى ... لأخوك ثَمّ أرق منك وأرحم

يرنو إليك مع العفاف وعنده ... أن المجوس تصيب فيما تحكم

ووقع في شعره ذكر كلمة يصح أن يتعلق بها من يريد جر أبي الطيب إلى طائفة ما، وهي كلمة (الوصيّ) في قوله:

هو ابن رسول الله وابن وصيه ... وشبههما شبهت بعد التجارب

وقوله:

وتركت مدحي للوصي تعمداً ... إذ كان نوراً مستطيلاً شاملاً

وقد فرغت من بيان أن مثل هذا لا يدل على شيء، ولا ينهض دليلاً ولا بعض دليل، لجريان عادة الشعراء بمجاراة الممدوح في عقيدته ورأيه

وبعد، فإن لم يكن للحكم على دين المتنبي مجال في شعره، ففي تلك الشناعات القبيحة التي زجه فيها الغلو في المدح حتى قل أدبه مع الله ومع رسله وكتبه، حين زعم لممدوحيه علواً يرفعهم إلى ذلك المستوى. والمدح متى جاوز الواقع فهو محظور في كل الأديان فكيف إن بالباطل وإلى التغالي. دع ما يريق من ماء وجه المادح وما يكسر من عزته ويضيع من كرامته. ومتى كان مسلما من لا حياء له ولا عزة ولا كرامة؟

وودت والله لو أن شعراءنا هجروا هذا الباب، باب المديح، مرة واحدة بمحاسنه ومقابحه، وشغلوا عنه بغيره من فنون القول الواسعة، فما هو بالفن المشرف ولا المأسوف عليه إن فقد. وقد حفظ الأدب العربي كثيراً من المبالغات الممقوتة والغلو الشنيع، ولكن ما في ديوان أبي الطيب وحده هو بكل ما في مكتبتنا قبحا وشناعة وإساءة أدب:

مرة يحاول السجود لممدوحه فلا يكفه إلا الزجر:

طلبنا رضاه بترك الذي ... رضينا له فتركنا السجودا

ومرة يشرك هذا الممدوح بالله فيقول:

ما يرتجي أحد لمكرمة ... إلا الإله وأنت يا بدر

ويقول:

ترى القمر والأرض والملك الذي ... له الملك بعد الله والمجد والذكر

ويقول:

إذا بقيت سالما أبا علي ... فالملك لله العزيز، ثم لي

ويقول:

أنا مبصر وأظن أني نائم ... من كان يحلم بالإله فأحلما

ويقول:

تتقاصر الأفهام عن إدراكه ... مثل الذي الأفلاك فيه والدنا

يعني الله سبحانه. ويستخف تارة بالمصطلحات الدينية استخفافا ظاهراً فيقول:

يترشفن من فمي رشفات ... هن فيه أحلى من التوحيد

وقد أرادوا تأويل هذا البيت فكان التكلف والتعسف ظاهريْن في تأويلهم. وقال:

وأعطيت الذي لم يعط خلق ... عليك صلاة ربك والسلام

وجعل ممدوحه أعظم معجزات النبوة في قوله:

وأبهر آيات التهامي أنه ... أبوك وأسمى مالكم من مناقب

وهو لا يرى لممدوحه شبيها أبداً فيقول:

لم يخلق الرحمن مثل محمد ... أبداً وظني أنه لا يخلق

ويقول:

إن كان مثلك كان أو هو كائن ... فبرئت حينئذ من الإسلام

وانظر هذا الغلو الممقوت في قوله:

لو كان علمك بالإله مقسما ... في الناس ما بعث الإله رسولا

لو كان لفظك فيهمُ ما أنزل ال ... قرآن والتوراة والإنجيلا
وفي قوله:
أو كان صادف رأس عاذر سيفه ... في يوم معركة لأعيا عيسى
أو كان لج البحر مثل يمينه ... ما انشق حتى جاز فيه موسى
يا من نلوذ من الزمان بظله ... أبداً ونطرد باسمه إبليسا
وهذا الهذيان ما معناه؟
يأيها الملك المصفى جوهراً ... من ذات ذي الملكوت أسمى من سما
نور تظاهر فيك لا هو تِيَّهُ ... فتكاد تعلم علم ما لن يعلما
وهو حيناً كالمسيح (ما مقامي بأرض نخلة. . . البيت)
وحيناً كصالح (أنا في أمة. . . البيت) ولا يخجل بعد هذا الادعاء أن يضرع إلى من سجنه بهذه العبودية:
أمالك رق ومن شأنه ... هبات اللجين وعتق العبيد
هو من حداثته مهوس مضلل لم يستنر قلبه بنور عقيدة، ولا شعر صدره ببرد يقين. فلم ينشأ تنشئة دينية في صباه، ثم طرح إلى هموم الحياة وأتعابها فاضطر إلى التكسب بالمدح من صغره، وشغل عن عبادة الله والتدين بعبادة الناس والمال لهذا السبب، لا (لأنه صاحب مطامع دنيوية وعقل موكل بالأعمال والوقائع لا بالعقائد والعادات) فليس هناك تناف بين التوكيل بالأعمال والتدين، ولم يخل المتدينون يوماً عن مآرب ومطامع في هذه الحياة
وهذا وليس للمتنبي فلسفة إلهية حتى نقول إنه استهان بالدين تفلسفا؛ وليس لعقله ما لعقل أبي العلاء من مواهب تؤهل صاحبها للنظر والحكم في المقالات والمذاهب، بل هو في هذا الاستخفاف الذي نم عليه شعره لا يترفع كثيراً عما نرى عليه بعض العامة المستخفين
كان إلى جانب المحن والثورات الداخلية التي منى بها المسلمون في القرن الرابع غارات أجنبية متواصلة تشن على ثغور المسلمين؛ وكان أمراء العرب في تأهب مستمر لرد هذه الغارات فيظفرون تارة وتارة يغلبون، وسيف الدولة أحد هؤلاء الأمراء الذين أصلوا الروم بنيرانهم وشغلوا برد غاراتهم
ونزعة الحروب في الشرق - قديما وحديثا - دينية أبداً ما تغيرت يوما من الأيام، إلا أن الروم كانوا في القرن الرابع الهجري صريحين، لم يهتدوا بعد إلى هذا الطلاء الكاذب الذي أسموه تمدينا بعد عشرة قرون
وشاعرنا أبو الطيب شارك سيف الدولة في جهاده الديني فقاتل بجسمه وتعرض للخطر، وناضل بلسانه. وفي شعره من مواطن الغيرة على الدين وأهله من تسلط الروم ما يحمل المنصف على عدها في حسناته، كان يرى هذه الحروب كما كان يراها غيره من أهل زمانه وكما هي في الواقع - دينية لا قومية، وهذا هو الفارق بينها وبين حروب سيف
الدولة مع خصومه من الأمراء. فكانت قصائد أبي الطيب التي يصف فيها هذه الحروب تطفح بالحمية الدينية والنزعة الإسلامية، فهو يثني على سيف الدولة الذي هزم الدمستق وأنقذ المسلمين من إكراه الروم لهم على الردة فيقول:
فخرُّوا لخالقهم سجداً ... ولو لم تغث سجدوا للصُلُب
ولم تعجبه هدنتهم مع الروم فقرعهم ومدح سيف الدولة لتدينه فقال:
أرى المسلمين مع المشرك ... ين فإما لعجز وإما رهب
وأنت مع الله في جانب ... قليل الرقاد كثير التعب
ومن هنا تلقيبه سيف الدولة بسيف الرب وسيف الدين في أقواله:
أيا سيف ربك لا خلقه ... ويا ذا المكارم لا ذا الشطب
يا سيف دولة دين الله دم أبدا ... وعش برغم الأعادي عيشة رغدا
يا سيف دولة ذي الجلال ومن له ... خير الخلائف والأنام سميا
خضعت لمنصلك المناصل عنوة ... وأذل دينك سائر الأديان
ونعته بنفرته الشديدة من الردة وتعلقه بالإسلام فقال:
كأن سخاءك الإسلام تخشى ... إذا ما صلت عاقبة ارتداد
وهو رجاء الإسلام والموقي من الرحمن ونصير التوحيد:

ولست مليكا هازماً لنظيره ... ولكنك التوحيد للشرك هازم
هنيئاً لضرب الهام والمجد والعلا ... وراجيك والإسلام أنك سالم
ولمْ لا يقي الرحمن حديك ما وقى ... وتفليقه هامَ العدا بك دائم
أبو الطيب يذهب أبعد من هذا: لا يكتفي باستنكار سلطان الروم على قومه، بل يأنف لهم أن يحكمهم مثل كافور، وإن كان مسلماً مثلهم، ولا يرضيه سكوت الناس عليه؛ ويغضبه أن يعظموه فيصرخ فيهم هذه الصرخة ويعرض بأم كافور:
نُوَبيّة لم تدر أن بنيها ال ... نوبي دون الله يعبد في مصر
ثم يرسلها ملعلعة تتنزى بالألم والحسرة والأسف على ما صار إليه الإسلام فيقول:
سادات كل أناس من نفوسهم ... وسادة المسلمين الأعبد القزم
رحم الله أبا الطيب! ما تراه كان قائلاً لو بُعث اليوم فشاهد ما نشاهد! إذن لرأى هؤلاء الأعبد القزم شرفاء قياساً إلى غيرهم، بل أنبياء
لصاحبنا إزاء ما تقدم من أبيات يأباها الدين والعقل، أبيات أخرى هي من صميم الدين وروحه، يتقاضاني الإنصاف ذكر شيء منها كما ذكرت تلك، فقد نص في بعضها على أنه لا يخضع لمخلوق أبداً
تغرب لا مستعظماً غير نفسه ... ولا قابلاً إلا لخالقه حكما
وقد جعله أبو العلاء بهذا البيت من المتألهين. ويعترف بتصرف الله المطلق في الكون:
ألا إنما كانت وفاة محمد ... دليلاً على أن ليس لله غالب
وأن الله هو الملحوظ في كل فعل وحركة:
فأنت حسام الملك والله ضارب ... وأنت لواء الدين والله عاقد
وهذا البيت ينظر إلى قول الله مخاطباً نبيه: (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) وهو يجعل شكر الله واجباً في دوام النعمة حين قال في ممدوحه:
مقلداً فوق شكر الله ذا شطب ... لا تستدام بأمضى منهما النعم
وكما أبى قبول الحكم من غير خالقه أبى الشكوى إلى الناس وهذا غاية ما يأخذ به الموحد نفسه:
ولا تَشَكِّ إلى خلق فتشمته ... شكوى الجريح إلى الغربان والرخم
ولنذكر أن صاحب دمشق وكان يهودياً يعرف بابن ملك حمل المتنبي على مدحه فأبى أنفة، وكذلك فعل مع ابن كيغلغ وكان رومياً
هذا ما رأيت في شعر أبي الطيب من تعلق بالدين سلباً أو إيجاباً، ذكرته على حقه بحرية وصراحة. أما سيرته العملية فقد ذكروا له أخلاقاً يحمده عليها الدين وهي عفة المذهب والصدق. وقد كان المتنبي - كما ذكروا - لم يؤثر عنه فسوق قط. وقوله
إني على شغفي بما في خمرها ... لأعف عما في سراويلاتها. . الخ
صحيح كل الصحة في الدلالة على عفته، فقد أيدته سيرته طول حياته. وكذلك في التزامه جانب الصدق:
ومن هوى الصدق في نفسي وعادته ... رغبت عن شعر في الرأس مكذوب
ثم ذكروا له خلالاً ثلاثاً دلت على أن الرجل لم يأخذ نفسه بشيء من التكاليف الشرعية، أي
لم يكن مسلماً بالعمل. قال أبو حمزة البصري:
بلوت من أبي الطيب ثلاث خلال محمودة: هي أنه ما كذب ولا زنى ولا لاط، وبلوت (منه ثلاث خلال مذمومة وهي أنه ما صام ولا صلى ولا قرأ القرآن.)
فإذا أضفت إلى ذلك ما تعرف في سيرته من البخل والتعاظم وسلاطة اللسان، وأن له في القذف فحشاً ما عرف أقبح منه ولا أدنس، استقام لك من كل ما قدمت رأي لعله أن يكون أقرب الآراء من صواب
وأنا لست أقول فيه ما قالوا من أنه: (خبيث الاعتقاد قد خلع ربقة الإسلام) ولا أتكلف له التأويل والمحال، فقد قدمت الإشارة إلى بطلان المذهبين معاً
ولكني ألاحظ أنه شاعر، والشاعر كثيراً ما يبيع دينه بدنيا غيره، فإن خرج على الإسلام في غلوه فما قصد إلى هذا الخروج قصداً، وإنما أراد الزلفى عند الممدوح، فأداه الغلو إلى الخروج
وليس من الحق أن نحكم على آخرة رجل بنزوة كانت منه في الحداثة، أو حماقات صدرت في فترات من حياته. ومن ذا زعم أن أبا الطيب كان يعتقدها اعتقاداً حتى

نجعله بها صاحب مذهب في الدين، وقد علمنا أن عقله لم يفرغ لهذا قط؛ فمن سره أن يجر النوابغ المشهورين إلى طائفة بالسلاسل والأغلال، يكثر بهم سوادها فما أراني مضطراً إلى شيء من هذا، وقد فرغ أهل البصر من هلهلة هذه الطريقة التي سلكها بعض المؤلفين الحديثين في كتب التراجم جهلاً وعصبية، فما هي إلى علم ولا إلى أمانة. والحكم على دين رجل أبعد منالا من أن يكتفي فيه بورود اسم هذا الدين في كلامه، فما بالك إن كان ذكره له مجاراة أو حكاية أو ردا أو شتيمة؟

وقد ذكر المتنبي في شعره هذه الديانات: المانوية، المجوس، اليهود، النصارى. . . الخ أفيستقيم في هذا الزمان أن ينهض منتسب إلى العلم فيعد أبا الطيب مانوياً أو مجوسياً؟

إن العلم والأدب أمانة، فلينظر قارئ في كتاب ما ترك مؤلفه من عقله وأمانته وما أخذ أما أنا فأستطيع الآن بعد ما قدمت من بحث تحريت فيه بجهدي، ودعمته بما رأيت من برهان أن أرسل كلمتي مطمئناً في دين أبى الطيب فأقول:

آمن لسانه وتخلف عمله، ولم يكن الدين همه يوما من الأيام

(دمشق)

سعيد الأفغاني

في النقد أيضاً

بقلم محمد مظهر الجلاد

إلى الأساتذة الأكابر:

كان للفصول التي كتبتموها في النقد أثر كبير في كشف غوامض العلل التي أصابت الأدب والنقد معاً، وما أراني تكلفت الصبر في شيء كما تكلفته في انتظار (الرسالة) حين كتابة هذه الفصول. وإني لها لعلى انتظار واشتياق

كتب الأستاذ الزيات مقالين في (الرسالة) افتتح بأحدهما باب النقد واختتمه بالآخر، وكانت بينهما معركة، وكانت بينهما نفحة من نفحات النصر الجميل تخطَّر لها الأدب، وانتعش بها النقد، والتذت بها الفكرة؛ حتى إذا تمتع الطرف، وأرهف الحس وثارت العاطفة علا هُتاف الإلهام يقول: ألا إن لله في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها

كتب الأستاذ أحمد أمين مقالين ألقى فيهما مسؤولية النقد على الشيوخ ردَّ في غضونهما الدكتور طه حسين على الأستاذ الأمين؛ ثم كتب الدكتور هيكل فصلاً رمى فيه تبعة النقد على الشباب، ثم ختم الأستاذ الزيات مقاله قائلاً: (الحق إن ركود الأدب وفوضى النقد لا يرجعان إلى الشيب ولا إلى الشباب، وإنما يرجعان إلى تهريج الصحف وكسل الكتاب)

وأنا لا أجد بأساً من التعليق المجمل على ما كتبه السادة الأدباء في هذا الموضوع، لا لأني سأزيد على ما كتبوه شيئاً لم يكن، وإنما هي كلمة الأستاذ الزيات أثارت في نفسي شيئاً حملني على الكتابة، ووجدتني مضطراً إلى التعبير عن هذه الثورة، وألجأتني إلى الخجل والاستحياء من أساتذتي الكرام، حيث كتبت فيما يكتبون، في حين أن البون شاسع بيني وبينهم؛ غير إني لم أنس أيضاً أن للتلميذ حقاً كما أن للأستاذ حقاً، ولكل منا مقام

أبدع الأستاذ الأمين فيما كتب؛ غير أني أعتقد أن علة النقد ترجع إلى أساسين اثنين: أحدهما العلم، وثانيهما الخُلُق. فأجاد هو في شرح أكثر الأول، ولا أدري علامَ أرجأ الثاني. إنه سطوة الهوى، وفتنة الغرور، وغلبة العاطفة

إن الأدب والذوق والعلم عدة النقد الكافية، وإن هذا الأدب والذوق والعلم ليثقف العقول ويرهف المشاعر، وإن هذه العقول وهذه المشاعر لتبدع النقد، وتجيد التمحيص، وتعرف موضع الداء والدواء. وبقي أن نعرف أن هذه الملكة الأدبية الصافية قد تتحوّل عند النقد

أحياناً أو أبداً إلى ملكة نفسية تتصرف بالقلم لا كما يشاء الأدب والفن، بل كما يشاء الغرور وكما يريد الهوى

ليت شعري أي رجل من الرجال يتقلد مفاتح النجاة من حق فاضح، وحكم صحيح، ونقد نزيه، ثم لا يفر من خصمه بأي أساليب الحيلة شاء، وبأي ضروب القول أراد، إذا لم يؤت سَعَة في الصدر وقوة في الخُلق ترغمه على قبول الحق مهما يكن مُراً؛ ولاسيما من أوتي قوة الجدل المنطقي والحوار اللانهائي

أين ذلك الخُلق الذي يقول: أخطأ عمر وأصابت امرأة. هناك ناس يخبطون في النقد خبط عشواء، فلا يحملون في نفوسهم غير الضغينة، ولا تعرف ألسنتهم غير البذاء. وكم يتعجرف هؤلاء وكم يجدون لأنفسهم من مكانة، ولأدبهم من شعر وفن وجمال، ولنقدهم الصحة والدقة والذوق؛ فهم يتطاولون ليجثموا فوق القمر، ويجلسوا على النجم، ليكون للناس منهم نصيب وافر وحظ عريض

وهناك من ينقد عن بصيرة وعلم، فهو يفتش عن علل العيب في خصمه، لا لينقده ويرشده إلى الصواب، بل ليحط من قدره وينال من كرامته. فأنت تجد في نقده الصحة والذوق والسمو، ولكنك لا تجد طهر السريرة ونزاهة النقد. على أن هناك أساتذة أدباء وهبهم الله العلم والذوق والخُلق الجميل يكتبون بلغة الناس وروح السماء، لا تكاد تقرأ لهم شيئاً حتى تخال نفسك طائراً ملائكياً يسبح في عالم الجمال، فيه الملائكة والروح تتنزل بإذن الله على من يشاء من عباده

لابد من الأخلاق في هذا الموضوع إذن، وإنها لمن أكبر ضروراته وأعظم مميزاته؛ وأنا أعرف أن النقد شيء والخلق شيء آخر، ولكن شدة الصلة بينهما وقرب الوشيجة دعواني لربط أحدهما بالآخر، وما أرى أن أحداً ينكر عليَّ هذا

وأرى أيضاً أن في النقد الحاقد المشوه هدماً لكيان أمة برمتها وسبباً من أسباب الأحن الفتاكة التي تكبر وتكبر حتى لكأنها دولة فيها الجند والأسطول والمدفع والغاز لا تهدأ إلا لتثور، ولا تخمد إلا لتستقر، وهكذا دواليك

لعل قائلاً يقول: إن النقد اللاذع يبعث على النضج الأدبي السريع إذ تشحذ الأذهان، وتبرى الأقلام، وتلتهب الغيرة، ولن يتاح هذا الإنتاج السريع بهدوء النفس وفتور المشاعر، فنقول

له: إن ما يخسره الأدباء من الصلة الأدبية بينهم وما يكون من اجتماعاتهم وروابطهم حيث تعطى عصارة الرأي وناضج الأدب وصرف الجمال، أكبر من الربح السريع فيه معاني التجزئة، وحقيقة التشويه، وذل الأمة

النقد النزيه وحده كاف لأن يكون أثراً فعالاً وقوة ريّضة لإيقاد الشعور وتحفيز الهمة. ولِمَ لا وقد يجد المنقود في النقد النزيه أخاً يجادله في حب، ويناظره في لين، ويكاتبه في ابتسام وسرور. وكم يجد لعزائه من سلوة حينما يجد ناقده النزيه يكشف له عن عيبه في رقة وعن خطئه في إشفاق. ولا تنس أن ذكر المحاسن في النقد والتماس التشجيع في امتداح الجودة وشكر الجميل وسيلة كبرى في نشر الثقافة ورقي الأدب وانتصار النقد

قد يحجم أكثر المتأدبين عن النقد ويركنون إلى الدعة والراحة إذا ما رأوا كاتباً من الكتاب يحترق في لهيب النقد الغاضب راضين من الغنيمة بالإياب، وتلك هزيمة منكرة تشنها الفوضى الأخلاقية على العقل والعلم والأدب والنقد جميعاً، كما أني لا أقصد الإفراط في التلطف والشكر على قبيح يشوه حقيقة النقد من أجل رعاية الخلق والأخلاق. لا. وإنما أريد الاعتدال والنصفة، حيث يلتقي كلا الخصمين على شاطئ الإخاء يقودهم الأدب إلى حيث اللقاء الدائم والصفاء المستمر

محمد مظهر الجلاد

شعراء الموسم في الميزان

نقد وتحليل

للأديب عباس حسان خضر

- 4 -

ميلاد الرسول

كانت هذه القصيدة من أقوى العمد التي قام عليها نجاح الموسم، وقد عرف الأستاذ محمد الأسمر كيف يحكم فيها الصلة بين وجدانه ووجدان المستمعين باختيار الموضوع، وحسن الالقاء، وبراعة التأدية. وإذا كانت الطبيعة الشعرية خصبة، وكان التعبير عما تنتجه، وتوصيل هذا التعبير إلى (مستهلكي) الشعر جيدين، فقد بلغ الشاعر ما يرمي إليه من غرض الإجادة. فما حظ هذه القصيدة من ذلك؟ إليك منها في وصف يوم ميلاد الرسول:

يوم أغر كفاك منه أنه ... يوم كأن الدهر فيه تجمعا

ويكاد غابر كل يوم قبله ... يثني إليه جيده متطلعا

فلو استطاع لكر من أحقابه ... وثبا على هام السنين ليرجعا
ويكاد مقبل كل يوم بعده ... ينسل من خلف الزمان ليسرعا
فلو استطاع لجاء قبل أوانه ... وانساب يخترق السنين وأتلعا
تتنافس الأيام في الشرف الذي ... ملأ الوجود فلم يغادر إصبعا

فانظر كيف يمثل الزمان في ركب يبرز في وسطه يوم الميلاد كأنما هو المقصود من الدهر كله، فالأيام قبله تتطلع إليه وتود الرجوع إليه، والأيام المقبلة توشك أن تفلت من نظام الركب لتسرع اليه، وكلها تتنافس لنيل شرف الميلاد النبوي، ومجمع هذه المعاني قوله: (كأن الدهر فيه تجمعا) فهذا التعبير في تفرعه إلى تلك المعاني يشبه مقذوف النور الذي ينبعث في الجو على شكل شرارة مقتضبة، فلا يلبث أن ينبسط متفرعا إلى شجرات أو طائرات أو غير ذلك، وهكذا يكون في المولد النبوي!

فهذه الطبيعة التي تنتج هذا الخيال، هي - ولا شك - صالحة لإنتاج الشعر الذي تتم جودته بمثل ذلك التبيين الذي يزاوله

ومن أبيات القصيدة التي لا تصدر إلا عن طبيعة فنية قوله:

والحق أخفى ما يكون مجردا ... وتراه أوضح ما يكون مدرعا

بعد أن تنظر إلى التركيب من حيث تأديته للمعنى التأدية العادية، قف عند كلمة (أوضح) فهي بعد أن تعبر عن وضوح الحق والانصياع له إذا كانت تلابسه القوة، تومئ إيماءة لطيفة إلى وضوح الحق ملبساً بالدروع الملتمعة

وقوله معبراً عن زوال ملك فارس والروم بالفتح الإسلامي:

من لم تزعزعه العواصف قبلها ... بعثت له بنسيمها فتزعزعا

فقد صور الشاعر روح الشريعة السمحة وما تشمله من لطف ورقة بالنسيم، ولكنه أوضح أن النسيم الإسلامي كان قوياً في لطفه ورقته قوة زعزعت ما تقاصرت عنه عاتية العواصف

والأستاذ الأسمر يسوق المعاني في الألفاظ، فتطربك من ذلك وحدة مركبة، وهذا قوله في مطلع القصيدة:

فجر أطل على الوجود فأطلعا ... شمسين شمس سنا وشمس هدى معا
ظلت مطالع كل شمس لا ترى ... من بعده شيئاً كمكة موضعا
قبس من الرحمن لاح فلم يدع ... لألاؤه فوق البسيطة موضعا
فليس من الميسور الفصل بين جمال هذه المعاني وجمال قوالبها

ومن الغريب أن القصيدة مع تجاوز معظمها أصل الموضوع وهو ميلاد الرسول قد جاءت وحدة منسجمة، فقد تخلص الشاعر - بعد نحو ثلث القصيدة - من القول في ميلاد الرسول إلى الإفاضة في الدعوة الإسلامية ومدح الرسول: فذلك الخير الذي أصاب الناس بميلاده، والسنا الذي أزاح الله به الظلمات قد

وافى وليل الجاهلية مطبق ... فإنجاب عن جنباتها وتقشعا

ومن هنا ينقطع الحديث عن الميلاد الذي هو موضوع القصيدة، ويشغل معظمها مدح الرسول والإشادة بدعوته؛ ولكن ما غاية الميلاد؟ أليست وجود هذا الرسول العظيم، وأثر دعوته للناس إلى الهدى؟ قد يقال هذا، وقد تكون عليه مسحة من الوجاهة، ولكن كان ينبغي أن يكون أكثر القصيدة في أصل الموضوع. ولن يخدعنا الشاعر عن ذلك بصنعته في جمع

الشتات والتأليف بين الأجزاء

وفي القصيدة كثير من المعاني المطروقة التي اعتورها جمهور الشعراء قديماً وحديثاً، حتى أصبحت (منافع عامة) كقوله:

نادى إلى الحسنى فلما أعرضوا ... واستكبروا شرع الرماح فأسمعا
والحق أعزل لا يروع فإن بدا ... مستلئما لاقى الطغاة فروعا

وقوله:

بعض الأنام إذا رأى نور الهدى ... عرف الطريق، ولم يضل المهيعا
ومن البرية معشر لا ينتهي ... عن غيه حتى يخاف ويفزعا

التجديد والتقليد

الأستاذ محمد الهراوي على رأس المحافظين من الشعراء، فهو يسخر من دعوة التجديد، ويعلن هذه السخرية في هذه القصيدة. على أنه يجب أن ينصف نفسه، فما

أظنه يكره التجديد في ذاته، وإن كان يحمل على أدعياء الجديد الذين يسترون سخفهم بدعوى التجديد. ولما كان هؤلاء قد ملأوا الجو بصيحاتهم الجوفاء، فقد أصبح التجديد في نظر الشعراء كلمة مقرونة بذلك السخف، وأصبح السخف من مدلولات التجديد!
والحق أن التجديد مظلوم بين هؤلاء وهؤلاء. ويشير الأستاذ الهراوي إلى ريبته في الجديد بقوله:

يا قادة الرأي الجديد تحية ... لو صح زعمكمو، وألف سلام

فهو يرتاب في زعمهم أنهم مجددون، وأنهم قادة الرأي الجديد. وهو في القصيدة كلها يفند دعاواهم في التجديد، ويردها إلى تقليد الغربيين: فالقصص ليست جديدة، فأسواق الغرب مزدحمة بها، على أن مهد القصة هو الشرق، وهذه قصص ألف ليلة وليلة

والشهنامة قد نشأت فيه، وهذا القرآن زاخر بالقصص السامية
وملاحم اليونان أهي جديدة ... وحديثها من قبل ألفي عام
أتعيد ثرثرة الحديث مجدداً ... ونرده لخرافة الأصنام

ثم جعل الأستاذ الهراوي يتهكم على تعبيرات (المجددين) بقوله:

فتقول: (في اثنين يوم) مثلهم ... لا (في مدى يومين في الأيام)
وتقول: (مثل الثلج غرة وجهه) ... لا (مثل وجه البدر حين تمام)
وتقول: (مثل الأرز مبسم ثغرها) ... لا (الدر في نسق وحسن نظام)
وتقول: (أوكازيون) يا من يشتري ... وتقول: هذا السعر (للركلام)

وفي هذه الأبيات ركاكة مرجعها العبارات التي يحكيها عن (المجددين). فالإسفاف في الأصل، وناقل الإسفاف ليس بمسف، والشاعر يهجو بهذه الأبيات صنيع المجددين؛ ويقولون: (إذا هجوت فأضحك) فهو ينحو فيها منحى الفكاهة، وهذا المنحى يقتضي التبذل في التعبير. واستمع إلى ما قاله بعد ذلك، وقد جد الجد:

أنكرتمو الأعلام في أوطانكم ... في ذكر ما للغرب من أعلام
فكأنما الغربي في آدابه ... هو وحده المختص بالأحكام
ماذا من التجديد في تقليدهم ... غير الرجوع لأظلم الأيام
لم يضربوا مثلاً لنا من صنعهم ... بكراً ولا جاءوا برمية رام
لقطوا فتات الأجنبي وأقبلوا ... يتلمظون لنا بشبه طعام
ورموا بما التقطوا كأنا عندهم ... قطط الموائد تكتفي بعظام
هذا هو (الكلام الجد) يقوله (زعيم المحافظين)

إلى هنا ينتهي شأن الشاعر مع المجددين، ويبتدئ مع النقاد شأناً آخر، فيقول:

مالي وللنقاد أسمع رأيهم ... ما قادني عقلي إلى الأوهام
لي خطة وحدي وملء عقيدتي ... رأيي وعقلي رائدي وإمامي
وطني هو المملي عليّ قصائدي ... جددا وشعري لوحة الرسام

فكيف لا يسمع رأي النقاد؟ وهل خطة الشاعر ورأيه وعقله وإملاء وطنه عليه قصائده - هل هذه الأشياء تمنع من سماع رأي النقاد؟
وطني
قبل أن أسطر هذه الكلمات محوت كلمات وسطوراً، إذ أنني عند ما شرعت أكتب عن هذه القصيدة شككت في كل كلمة كتبتها، فأنا أريد فيما أكتبه عن هذه القصيدة خاصة أن أطبق المفصل، كما يقولون، فليس ينبغي إلا أن يقال عنها مثل ما قيل فيها. . ولعل هذا إيحاء من القصيدة وما صنعه فيها الأستاذ محمد الهيهاوي من الدقة والتجويد، وليس هذا كل ما صنعه، وليس هو فحسب الذي أوحى إلى المهابة، إن الذي أوحى إلى المهابة هو ما أوحىَ
إلى الشاعر من المعاني السامية والروائع الوطنية التي ضمنها القصيدة، والتي ألهمته إياها مصر، كما قال:

أبدا يلج بك الحني ... ن لذات ملهمة الحنين

فجعل يبعث إيحاءه إلى النفوس فتمتلئ بما امتلأت به نفسه وتتأثر بما تأثرت به.
وهاهو ذا يقول فيما تعانيه مصر من سالبي حريتها:

قل للذي بر اليمي ... ن على يديه ردى اليمين
أضنى المئين من الوعو ... د الخلف أو فوق المئين
أنت الذي أفتى السجي ... ن بحسن منقلب السجين

وضع القيود وقال ما ... أشجى رنينك من رنين
فاشرب على شدو الحدي ... د حلاوة الرق الحنون
واغنم رخاء الطوق جا ... ور حبله حبل الوتين
فترى في هذا الشعر آلام مصر مصورة تصويراً دقيقاً، تنتظمه الروح المصرية الصميمة، تكسو كل ذلك أردية عربية متينة. وقوله: (فاشرب على شدو الحديد . الخ) من الشعر المرقِص
وقد ظهر لي مأخذ في الأبيات الآتية، وهو من المآخذ التي لا تظهر إلا في الشعر الجيد، قال يخاطب مصر:
أجريت فيض مدامع ... من نيلك الباكي الحزين
حمراء حيناً كالدم ال ... جاري على الداء الكمين
فإذا تطامن جأشك ان ... هملت كصافية الشؤون
فهو يقول إن المدامع تكون حمراء في حين، ولم يبين هذا الحين، ثم يقول إذا تطامن الجأش انهملت الدموع صافية، فكيف تنهمل الدموع في حالة سكون الجأش؟ إن الدموع لا تكون إلا في حالة الاضطراب وجيشان العاطفة، أما احمرارها وصفاؤها فيكونان على درجتين من درجات الاضطراب؛ على أن الصفاء لا يقابل الاحمرار ولا يقاسمه، فقد يكون الأحمر صافياً والصافي أحمر
أنة شاعر
وهذا شاعر يئن من هجر حبيبته، وهو الأستاذ محمد عزيز رفعت، والقصيدة كلها مبنية من الكلمات والعبارات المبتذلة التي كثر استعمالها في الشكوى من فعل الجوى وتبريح الصبابة، يقول:
أشكو هوى بين الجوانح شفني ... في هجعتي - سقماً - وفي يقظاتي
وتظهر في بعض أجزائها محاولة الإجادة، وتبدو في قليل من أبياتها مخايل الشعر كقوله:
عبثاً شكوت فيا لصب مغرم ... لم يجن غير اليأس من ثمرات
لو أنني ... لما يئست ذهلت عن صبواتي (واليأس إحدى الراحتين)
وفي القصيدة ركاكة في الأسلوب، وتكلف في النظم، وأخطاء في بعض المعاني والألفاظ؛ قال:
واسود وجه الرأي لا لي حيلة ... لنوال عطفك أو لكبت وشاة
النوال: العطاء، وهو يريد النيل مصدر نال ينال، فاستعمال النوال هنا خطأ
وركاكة البيتين الآتيين لا تحتاج إلى بيان، قال:
وصددت عني حين أنت مدينة ... بالعهد عهد سرائر المهجات
وقطعت لأرسل إليك شفيعة ... لي في رضاك ولا صدى هتفاتي
وما معنى قوله: (ولا صدى هتفاتي)! أيعني أن صدى الهتفات لم يشفع في رضاها؛ وكيف يشفع الصدى؟!
ويقول:
والله واليوم الأخير ووقفة=لله أنذرها على عرفات
لو كنت في نزع المنون مخيراً ... ما بين قربك لحظة وحياتي
لاخترت قربك والمنون ولم أشأ ... نعمى الحياة على سرير مماتي
ولو استبنت الدمع يوم منيَتي ... في مقلتيك سعى إليك رفاتي
فلماذا كل تلك الأيمان المغلظة؟ وما معنى هذا النذر؟ أيعني أنه إن اختار الحياة على قربها مع الموت يلزمه أن يقف على عرفات! ثم كيف يستبين الدمع في مقلتيها وهو ميت؟!
ميتة سكير
قصيدة الأستاذ محمود رمزي نظيم، وهي قصيدة عذبة رقيقة، تنساب فيها روح خفيفة ساحرة، وأسلوبها من السهل الممتنع، وإليك الدليل، وما من شيء يبلغ في التدليل على جمالها مبلغها هي في ذلك؛ قال في مطلعها:
سقطت أسنانه في ال ... كأس سنا جَرَّ سنا
وأراق الخمر في هي ... كله دنا فدنا
جن بالكأس وهل ين ... هى الذي بالكأس جنا

يحسب الناس الألى لا ... يشربون الخمر جنا
تخذ الحانة دارا ... واحتساء الراح فنا
عاش للراح حبيبا ... واجف القلب معنى
لو تمنيه بغير ال ... كأس شيئاً ما تمنى
إن مشى تحسبه في ... سكره غصناً تثنى
وشمالاً ويميناً ... مال تيهاً وأرجحنا
ما صحا من سكره إلا ... إلى الحانة حنا
فهذا كلام تتراقص فيه الروح الشعرية تراقص الحباب في الكأس. ونأخذ من بين هذه الأبيات قوله:
يحسب الناس الألى لا ... يشربون الخمر جنا
فما الصلة بين الذين لا يشربون الخمر وبين الجن حتى يحسبهم السكير كذلك؟ اللهم إلا أن يكون قد ضعف تصوره من شدة السكر. .
والأستاذ رمزي نظيم شاعر متفنن، وتراه في هذه القصيدة يفتن في الانتقال من صورة إلى صورة في حذق ومهارة؛ فهو بعد أن يصف السكير ينتقل إلى التعبير عن خواطره فيقول:
طالما أوحى إلى النصا ... ح ردوا النصح عنا
إن من يترك شرب ال ... راح عمداً ليس منا
إن في الحانة للخا ... ئف تشجيعاً وأمنا
نحن للكأس خلقنا ... وبها في الكون عشنا
إلى أن أتى على مصرعه فقال:
أشبه الوهم فما يس ... مع إن ناح وأنا
وقضى بالأمس لم تح ... زن عليه الناس ضنا
وكنا نحب أن يتفادى الشاعر السناد الذي وقع في قوله:
ورق الكرم أكف ... تحمل الكأس إلينا
الشباب والزواج
قصيدة السيدة منيرة توفيق. وهي الشاعرة المصرية البارزة الوحيدة في هذا العصر، إذ أن مصر تكاد الآن تكون مقفرة من الشواعر؛ والمرأة المصرية تستمد صمتها من أبي الهول، ولا أعني إلا الإمساك عن التعبير عن الإحساس والعواطف تعبيراً صادقاً؛ فمن شعرت من بنات مصر فإنما تقول في الأخلاق والنصائح، متجاوزة خوالج النفس ودقائق الحس، لأن طبعها الصموت الحيي يأبى الحديث عنها. وأعتقد أنها لو فعلت، وكانت موهوبة التعبير والأداء، لأتت بالغرائب
وهذه السيدة الفضلى توجه القول إلى الشباب، محذرة إياهم من الزواج بالأجنبيات، ناصحة لهم أن يقبلوا على الزواج من بنات وطنهم فتقول:
وتزوجوا من عرضكم ... تبقوا على العرض السليم
ودعوا زواج الأجنبي ... ة فهو شر مستديم
عجباً! أللدور احتلا ... ل آخر فيها يقيم؟
والقصيدة وإن كانت معنونة بـ (الشباب والزواج) إلا أنها مقصورة على التحذير من الزواج بالأجنبيات، فلا تعرض لأعراض الشبان عن الزواج إلا بهذين البيتين:
فدعوا الغواية إنها ... باب يؤدي للجحيم
وخذوا الزواج فإنه ... باب السعادة والنعيم
وقد أحسنت في قولها:
لا يخدعنكمو جمال ال ... أجنبيات الوسيم
كلا ولا سحر الكلا ... م ورقة الصوت الرخيم
هذا لعمري مظهر ... والله بالخافي عليم
وإن كان فيه ظلم لفتياتنا، فهن في هذه الصفات مجلّيات على ما أرى، والله أعلم.
عباس حسان خضر
أندلسيات
أبو بكر بن العربي
للأستاذ عبد الرحمن البرقوقي

أسلفنا أن المترجم له قدم الأندلس من رحلته بعلم كثير، واتخذ بلده أشبيلية مقاما له، وأخذ يذيع علمه، وجلس للوعظ والتفسير والإفادة، ورُحِل إليه للسماع، وصنف في غير فن تصانيف كثيرة حسنة ضخمة، حتى يروى أنه ألف أربعين مؤلفا في موضوعات شتى فُقِد معظمها، ذكروا منها كتاب العواصم والقواصم، والمحصول في أصول الفقه، وكتاب المسالك في شرح موطأ الإمام مالك، وكتاب الناسخ والمنسوخ، وكتاب أنوار الفجر في تفسير القرآن، قالوا إنه ثمانون ألف ورقة في ثمانين مجلدا، وكتاب عارضة الأحوذي على كتاب الترمذي الخ ولمناسبة كتابه أنوار الفجر في التفسير نورد كلمة له قالها عند تفسير قوله تعالى: (إنْفِرُوا خِفَافا وثِقَالاً)، تدل على أنه كان إماما طليقا واسع آفاق الفكر عصريا كما نعبر اليوم. . . وهي هذه: (ولقد نزل بنا العدو - الأسبانيون - قصمه الله سنة 527، فجاس ديارنا وأسر جيرتنا، وتوسط بلادنا في عدد حدّد الناس عدده، وكان كثيرا وإن لم يبلغ ما حددوه، فقلت للوالي والمولى عليه: هذا عدو الله قد حصل في الشرك والشبكة، فلتكن عندكم بركة، ولتكن منكم إلى نصرة الدين المتعينة عليكم حركة، فليخرج إليه جميع الناس حتى لا يبقى منهم أحد في جميع الأقطار فيحاط بهم فإنه هالك لا محالة إن يسركم الله له، فغلبت الذنوب، ورجفت بالمعاصي القلوب، وصار كل أحد من الناس ثعلبا يأوي إلى وجاره، وإن رأى المكيدة بجاره، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وحسبنا الله ونعم الوكيل. .) وقد أسند إلى المترجم له قضاء بلده. قال تلميذه القاضي عياض: فنفع الله به أهلها لصرامته وشدته ونفوذ أحكامه، وكانت له في الظالمين سورة مرهوبة، وتؤثر عنه في قضائه أحكام غريبة، ثم صرف عن القضاء، وأقبل على نشر العلم وبثه. . .

تلاميذه

وقد تتلمذ للمترجم له عدة ممن تخرجوا عليه وكان لهم شأن يذكر، فمنهم القاضي عياض صاحب الشفاء، وسنترجم له إن شاء الله - ومنهم الإمام الحافظ ابن بشكوال صاحب كتاب

الصلة وخلافه، ومنهم الإمام السهيلي صاحب كتاب الروض الأُنف في شرح سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيره من التواليف، وصاحب هذه الأبيات المشهورة التي أنشدها للإمام الحافظ أبي الخطاب بن دحية وقال له: ما سأل الله تعالى بها حاجة إلا أعطاه إياها، وكذلك من استعمل إنشادها، وهن:

يا من يرى ما في الضمير ويسمع ... أنت المُعَدُّ لكل ما يتوقع
يا من يُرجّى في الشدائد كلها ... يا من إليه المُشْتكى والمفزع
يا من خزائن رزقه في قول كن ... أمْنحْ فإن الخير عندك أجمع
ما لي سوى فقري إليك وسيلة ... فبالافتقار إليك فقريَ أمنع
ما لي سوى قرعي لبابك حيلة ... فلئن رُددتُ فأي باب أقرع
ومن الذي أدعو وأهتف باسمه ... إن كان خيرك عن فقيرك يمنع
حاشا لمجدك أن تقنط عاصياً ... الفضل أجزل والمواهب أوسع

أقوال مؤرخي الأندلس فيه

وإليك نتفاً مقتطفة مما قاله في حق المترجم له مؤرخو الأندلس ممن عاصره وتتلمذ له. قال الحافظ بن بشكوال في كتابه الصلة: هو الحافظ المستبحر، ختام علماء الأندلس وآخر أئمتها وحفاظها. . كان من أهل التفنن في العلوم والاستبحار فيها والجمع لها مقدماً في المعارف كلها، متكلما في أنواعها، نافذاً في جميعها، حريصاً على أدائها ونشرها، ثاقب الذهن في تمييز الصواب منها، يجمع إلى ذلك كله آداب الأخلاق مع حسن المعاشرة ولين الكنف وكثرة الاحتمال وكرم النفس وحسن العهد وثبات الود الخ الخ وقال أبو نصر الفتح بن خاقان صاحب المطمح والقلائد:

الفقيه الحافظ أبو بكر بن العربي علم الأعلام الطاهر الأثواب، الباهر الألباب الذي أنسى ذكاء إياس، وترك التقليد للقياس، وأنتج الفرع من الأصل، وغدا في بدء الإسلام أمضى من النصل، سقى الله به الأندلس بعدما أجدبت من المعارف، ومد عليها منه الظل الوارف، وكساها رونق نبله، وسقاها ريق وبله. وكان أبو محمد باشبيلية بدرا في فلكها، وصدرا في مجلس ملكها، واصطفاه معتمد بني عباس اصطفاء المأمون لابن أبي دؤاد، وولاه الولايات الشريفة، وبوأه المراتب المنيفة؛ فلما أقفرت حمص (يريد أشبيلية) من ملكهم وخلت،

وألْقتهم منها وتخلت، رحل به إلى المشرق، وحل فيه محل الخائف الفرق، فجال في أكنافه، وأجال فيها قداح الرجاء في استقبال العز واستئنافه، فلم يستردّ ذاهباً، ولم يجد كمعتمده باذلاً له وواهباً، فعاد إلى الرواية والسماع، وأبو بكر إذ ذاك في ثرى الذكاء قضيب ما دوّح، وفي روض الشباب زهر ما صوّح، فألزمه مجالس العلم رائحاً وغادياً، ولازمه سائقاً إليه وحادياً، حتى استقرت به مجالسه، واطردت له مقايسه، فجد في طلبه، واستجدبه أبوه متمزق أربه، ثم أدركه حمامه، ووارته هناك رجامه، وبقي أبو بكر منفرد، وللطلب متجرداً، حتى أصبح في العلم وحيداً، ولم تجد عنه رياسته محيداً، فكَرّ إلى الأندلس فحلها والنفوس إليه متطلعة، ولأنبائه متسمعة، فناهيك من حظوة لقى، ومن عزة سقى، ومن رفعة سما إليها ورقى، وحسبك من مفاخر قلدها، ومحاسن أنس أثبتها فيها وخلدها، الخ الخ. . وقد وصفه القاضي عياض بما أوردنا بعضه عن حاله في القضاء، وفي هذا القدْرِ غناء. .

مقتطفات من منظومه ومنثوره

وأظنك لا تجهل أن أكثر علماء الأندلس وفلاسفتها وسائلا مثقفيها يقرضون الشعر، وقلّ أن تظفر بأندلسي لا يقول الشعر، ومن ثم لا تستغرب أن يكون مثل القاضي أبي بكر بن العربي شاعراً وشاعراً ظريفاً. . . فمن شعره وقد ركب مع أحد الأمراء الملثمين، وكان ذلك الأمير صغيراً، فهزّ عليه رمحاً كان في يده مداعباً، فقال:

يهزّ عليّ الرمح ظبي مهفهف ... لعوب بألباب البرية عابث
ولو كان رمحاً واحداً لاتقيته ... ولكنه رمح وثان وثالث

ولعل الرمح الثاني والثالث القد واللحظ. . ومن بديع شعره:

أتتني تؤنبني بالبكا ... فأهلاً بها وبتأنيبه
تقول وفي نفسها حسرة ... أتبكي بعين تراني بها
فقلت إذا استحسنت غيركم ... أمرت جفوني بتعذيبها

وحكى رحمه الله قال: دخل على الأديب بن صارة - وهذا ابن سارة أو صارة شاعر فحل من شعراء الأندلس - وبين يدي نار عليها رماد، فقلت له: قل في هذه، فقال:

شابت نواصي النار بعد سوادها ... وتسترت عنا بثوب رماد

ثم قال لي أجزْ، فقلت:

شابت كما شبنا وزال شبابنا ... فكأنما كنا على ميعاد

ويروى أنه كتب كتاباً فأشار عليه أحد من حضر أن يذرْ عليه نشارة، فقال قف، ثم فكر ساعة، وقال اكتب:

لا تشنه بما تذرّ عليه ... فكفاه هبوب هذا الهواء
فكأن الذي تدرّ عليه ... جُدَري بوجنة حسناء

ومن شعره:

ليت شعري هل دروا ... أي قلب ملكوا
وفؤادي لو درى ... أي شِعب سلكوا
أتراهم سلموا ... أو تراهم هلكوا
حار أرباب الهوى ... في الهوى وارتبكوا

وشعر هذا القاضي الجليل كثير جميل يدل على صفاء نفس وحِسّ مرهف وقريحة خصبة مواتية. ونكتفي بهذا القدر ونورد هنا بعض فوائد هن فرائد لهذا الإمام العظيم ذكرها في رحلته وغيرها وأوردها المقري. فمن هذه الفرائد قوله: سمعت الشيخ فخر الإسلام أبا بكر الشاشي، وهو ينتصر لمذهب أبي حنيفة في مجلس النظر يقول: يقال في اللغة العربية لا تَقْرَبْ كذا بفتح الراء، أي لا تلتبس بالفعل. وإذا كان بضم الراء كان معناه لا تدن من الموضع. . وهذا الذي قاله صحيح مسموع. . . ومنها ما نقله عن ابن عباس رضي الله عنه: لا يقل أحدكم انصرفنا من الصلاة فإن قوما قيل فيهم ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم؛ وقد أخبرنا محمد بن عبد الملك القيسي الواعظ، أخبرنا أبو الفضل الجوهري سماعا منه: كنا في جنازة فقال المنذر بها: انصرفوا رحمكم الله. فقال: لا يقل أحدكم انصرفوا، فإن الله قال في قوم ذمهم، ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم، ولكن قولوا انقلبوا رحمكم الله فإن الله تعالى قال في قوم مدحهم: فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء. . . ومنها قوله في تصريف المحصنات: يقال أحصن الرجل فهو مُحصَن بفتح الصاد في اسم الفاعل وأسهب في الكلام فهو مسهَب

- بفتح الهاء - إذا أطال البحث فيه وألْفَج فهو مُلْفَج إذا كان معدما - فقيراً - فهذه الثلاثة جاءت بالفتح نوادر لا رابع لها. . ومنها قوله: سمعت إمام الحنابلة بمدينة السلام - بغداد - أبا الوفاء علي بن عقيل يقول: إنما تبع الولد الأم في المالية وصار بحكمها في الرق والعبودية لأنه انفصل عن الأب نطفة لا قيمة له ولا مالية فيه ولا منفعة مبثوثة عليه، وإنما اكتسب ما اكتسب بها ومنها فلذلك تبعها، كما لو أكل رجل تمراً في أرض رجل وسقطت منه نواةٌ في الأرض من يد الآكل فصارت نخلة فإنها ملك صاحب الأرض دون الآكل بإجماع من الأمة لأنها انفصلت عن الآكل ولا قيمة لها، وهذا من البدائع. . ومنها قوله: كان بمدينة السلام إمام من الصوفية وأيُّ إمام يعرف بابن عطاء، فتكلم يوما على يوسف وأخباره حتى ذكر تبرئته مما ينسب إليه من مكروه، فقام رجل من آخر مجلسه وهو مشحون بالخليقة من كل طائفة، فقال: يا شيخ، يا سيدنا، إذن يوسف همّ وما تمّ، فقال: نعم لأن العناية من ثم. . . فانظروا إلى حلاوة العالم والمتعلم، وفطنة العامي في سؤاله، والعلم في اختصاره واستيفائه؛ ولذا قال علماؤنا الصوفية إن فائدة قوله تعالى: ولما بلغ اشده آتيناه حكماً وعلماً أن الله أعطاه العلم والحكمة أيام غلبة الشهوة ليكون له سبباً للعصمة. . . ومنها قوله: تذاكرت بالمسجد الأقصى مع شيخنا أبي بكر الفهري الطرطوشي حديث أبي ثعلبة المرفوع: إن من ورائكم أياماً للعامل فيها أجر خمسين منكم. فقال: بل منهم. فقال: بل منكم، لأنكم تجدون على الخير أعواناً وهم لا يجدون عليه أعواناً. . . وتفاوضنا كيف يكون أجر من يأتي من الأمة أضعاف أجر الصحابة مع أنهم أسسوا الإسلام، وعضدوا الدين، أقاموا المنار، وافتتحوا الأمصار، وحموا البيضة، ومهدوا الملة، وقد قال صلى الله عليه وسلم في الصحيح: لو أنفق أحدكم كل يوم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه. . فتراجعنا القول وتحصل ما أوضحناه في شرح الصحيح، وخلاصته: أن الصحابة رضي الله عنهم كانت لهم أعمال كثيرة لا يلحقهم فيها أحد ولا يدانيهم فيها بشر، وأعمال سواها من فروع الدين يساويهم فيها في الأجر من أخلص إخلاصهم، وخلّصها من شوائب البدع والرياء بعدهم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باب عظيم هو ابتداء الدين والإسلام، وهو أيضاً انتهاؤه. وقد كان قليلاً في ابتداء الإسلام صعب المرام لغلبة الكفار على الحق، وفي آخر الزمان يعود كذلك لوعد الصادق صلى الله عليه وسلم بفساد الزمان وظهور الفتن وغلبة الباطل، واستيلاء التبديل والتغيير على الحق من الخلق، وركوب من يأتي سنن من مضى من أهل الكتاب كما قال صلى الله عليه وسلم: لتركَبُنَّ سَنن مَن قبلكم شبرا بشبر وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جُحْر ضب خرب لدخلتموه. . .

وقال صلى الله عليه وسلم: بدا الإسلام غريبا، وسيعود غريباً كما بدا. . . فلابد والله أعلم بحكم هذا الوعد الصادق من أن يرجع الإسلام إلى واحد كما بدأ من واحد، ويضعف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى إذا قام به قائم مع احتواشه بالمخاوف وباع نفسه من الله تعالى في الدعاء إليه كان له من الأجر أضعاف ما كان لمن كان متمكنا منه معاناً عليه بكثرة الدعاة إلى الله تعالى، وذلك قوله: لأنكم تجدون على الخير أعواناً وهم لا يجدون عليه أعوانا حتى ينقطع ذلك انقطاعاً باتا لضعف اليقين وقلة الدين، كما قال صلى الله عليه وسلم: لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله الله. . يروى بفتح الهاء ورفعها، ورفع على معنى لا يبقى موحد يذكر الله عز وجل، والنصب على معنى لا يبقى آمر بمعروف ولا ناه عن منكر يقول أخاف الله، وحينئذ يتمنى العاقل الموت كما قال صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني كنت مكانه. . . .

فهذا هو تاريخ القاضي أبي بكر بن العربي، سردناه لك في أخصر قول ،(وأما بعد) وأجزأ اختصار؛ وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق. ومن هذه الترجمة تتبين منزلة هذا الإمام والمكان الذي يشغله بين علماء الإسلام، وأنه كان إلى فقهه في الدين كأكثر السلف الصالح أديبا كاتبا شاعراً فصيحا كثير الملح مليح المجلس وهكذا كان أكثر علماء الأندلس

وقد كانت وفاة هذا الإمام سنة 543. وقال القاضي عياض: وتوفي منصرفه من مراكش من الوجهة التي توجه فيها مع أهل بلده إلى الحضرة بعد دخول الموحدين

مدينة أشبيلية، فحبسوا بمراكش نحو عام ثم سرحوا، فأدركته منيته ودفن بفاس وقبره هنالك مقصود رحمة الله عليه.

عبد الرحمن البرقوقي
رئيس قلم المراجعة بمجلس النواب

السيرة النبوية وكيف يجب أن تكتب
للأستاذ إبراهيم الواعظ

كنت كلما ظهر كتاب حديث عليه اسم (محمد) (ص) أسارع لاقتنائه؛ ذلك لأنني كنت ولا أزال في رغبة شديدة أن أسمع عن الرسول العربي العظيم، وعن سيرة النبي الكريم شيئاً جديداً. والعامل الوحيد الذي أوجد فيّ هذا الشعور، وحرّك فيّ ذلك الاحساس، هو الاطراد الموجود في السير المكتوبة اطراداً يكاد أن يكون نسخةً مطابقة لأصل واحد، ومحررة على غرار واحد

إنني لم أرسل كلمتي هذه منتقداً بها ما دونه الأقدمون في السيرة، وصاحب السيرة، كلا، وإنما أردت أن أقول للذين تناولوا السيرة وصاحب السيرة، بأن الواجب كان يقضي عليكم أن تأتوا للناس بحديث جديد عن محمد (ص) بحديث يصور للناس محمداً كما هو لا كما أراده كتاب السير

طلعت علينا في الآونة الأخيرة عدة كتب كتبت مؤخراً لتحليل شخصية محمد (ص)، وما انطوت عليه نفسه من العظة والعبقرية، فمنهم من أصاب المرمى ومنهم من قارب؛ فذهب الأستاذ جاد المولى في كتابه (محمد المثل الكامل) إلى ناحية لم يتطرق إليها الأستاذ محمد رضا في كتابه (محمد)؛ وإن هذين الأثرين من حيث الترتيب والتنسيق جديدان، ولكنهما من حيث المادة لا يزيدان ولا ينقصان عن السير القديمة. على أن هناك أستاذا كبيرا يكاد أن يكون فرداً فذاً في تأليفه هو (مولانا شبلي النعماني) فإن هذا العالم الكبير أراد أن يستخرج من السير الموضوعة سيرة مستندة إلى أرجح الأقوال وأصح الروايات، ويبرز الرسول الأمين للناس صورة حقيقية كما هي، فألف كتابه الذي أسماه (تاريخ الإسلام) والذي أفرد منه أربعة مجلدات في السيرة المحمدية. هذا ولا أريد أن أرسل الكلام في وصف هذا الكتاب جزافاً، ولا أريد أن اخرج بالقارئ عن الموضوع والصدد، وإنما قصدي أن أحث كل من يريد أن يتعرف محمداً (ص) كما هو أن يطلع على هذا الكتاب الذي أوضح شخصية محمد (ص) إيضاحاً، وحلل نفسيته الزكية تحليلاً عجز عنه المتقدمون من كتاب السير والمتأخرون منهم

وقد جرى على غرار هذا المؤلف الأستاذ الكبير محمد حسين هيكل بك فإنه كان قد كتب

فصولاً في السياسة الأسبوعية جمعها في كتاب أخرجه للناس، كتابا رد به طعن الطاعنين ودحض به زعم الزاعمين؛ وكأني بالأستاذ وقد كتب مؤلفه هذا لمن لا يؤمن بنبوة محمد مباشرة متوخياً في عمله ذلك الدعاية والتبشير لا نقل ما هو مكتوب في كتب السير من حادثات ووقائع

وإنني لا أتفق ومنتقدي كتاب الأستاذ هيكل من أنه أغفل كثيراً من الأمور المهمة في السيرة بأنه أنكر المعجزات. والتطرق لهذا الموضوع يحتاج إلى إفراد بحث بكامله لهذا فليس من الأصول أن أقول كلمة في ذلك سوى أنني أكتفي بالإشارة إلى ما أورده الأستاذ هيكل في الطبعة الثانية من كتابه وأضيف إلى ذلك تعريف الكتاب لجمهور القراء من الشيخ محمد مصطفى المراغي العلامة الأكبر، فإن هذا التعريف لكتاب مثل هذا الكتاب له أهميته العلمية

هذا وقد سكتت الأقلام وجفت الصحف كأن (حياة محمد) التي دبجتها يراعة هيكل كانت خاتمة ما يكتب في هذا الموضوع، ولكن سرعان ما أتحفنا الأستاذ (الحكيم) بكتابه (محمد) (ص) فقد تفنن في أسلوبه الجديد، وجدد في طريقته الفنية، ولكنه لم يزد ولم ينقص عما ورد في كتب السير، فلم نكبر له الموضوع وإنما أكبرنا له الأسلوب ثم كان بعد ذلك أن خرجت علينا الرسالة في عددها (148) بمقال تحت عنوان (رسالة الأزهر في القرن العشرين) بتوقيع الأستاذ لبيب الرياشي المسيحي وبها دعا الكاتب إلى أن تكون رسالة الأزهر في القرن العشرين المسيحي، والقرن الرابع عشر المحمدي، دورته الأولى لرسالة الأزهر في هذا القرن كالقرن الأول المحمدي فيقابل الدور الأول دور التحنث والتعبد، دور تحقيق ودراسة من ينتخبهم الأزهر من عشاق

التضحية، وعشاق الحق من طلابه، فيثقفون ثقافة عالية، ويتعلمون تعليما سامياً، فيتخصص كل فريق ممن وقع عليهم الاختيار نتيجة الفحص والاختبار باللغات الحية وبكل فرع من فروع العلوم العالمية العالية، علاوة على ما أتقنوه من علوم القرآن والدين والشريعة والسنة والسيرة واللغة العربية؛ وبعد هذا فرسالة الأزهر أن تكتب سيرة محمد (ص) بصورة تتفق وما جاء في القرآن الحكيم وعقلية الرسول البريئة وأعماله الحق

وقد ضرب الأستاذ في مقاله أمثلة مهمة خطيرة حذر الأزهر من أن يقع في مثل ما وقع

فيه غير واحد من متخرجيه

وإذا بهذا الأستاذ قبل أن كتب مقاله هذا في الرسالة أخرج لنا كتاباً من قلم مسيحي يحلل نفسية محمد بن عبد الله (ص)، تحليلا فلسفياً، ويطرح كتابه هذا أطروحة - كمثل أعلى - لمن يريد أن يكتب السيرة. سيرة الرسول الأعظم (ص)

لقد نحا الأستاذ الرياشي ناحية في كتابة السيرة لم ينحها قبله ولا بعده أحد من كتاب السيرة؛ ولقد أظهر للملأ جديداً في حياة محمد بن عبد الله ووجد ضالته حين كان ينقب عن (السبرمن)، فوجده مجسدا في شخصية الرسول الكريم قبل أربعة عشر قرناً

وقد أبدع الأستاذ الكبير الشيخ عبد القادر المغربي في تعريف الكتاب بمقدمته المحمدية، كما أحسن الأديب أمين نخلة في تقديم الكتاب بمقدمته المسيحية

وبعد، فإني قد وجدت ضالتي المنشودة في كتاب الرياشي، وفي مقدمتيه المحمدية والمسيحية، فأدعو الأزهر ورجال الأزهر كما دعاهم الأستاذ الرياشي أن يكوّنوا جماعة تكتب حياة محمد وسيرة محمد كما كتبها الرياشي

فعلى هذا النسق، وعلى ذلك الأسلوب، وعلى تلك الطريقة، يجب أن تكتب السيرة النبوية

(بغداد)

إبراهيم الواعظ

المحامي

الواحة المجهولة

للأستاذ فخري أبو السعود

مأنوسةُ الأفياء والأكناف ... موصولة الحسنات بالألطاف
عبق الشذا فيها وأصبح دوحها ... نُصْباً لكل مباكر وكّاف
وتألقت أزهارها وتمايلت ... أغصانها منضورة الألفاف
وتتابعت فيها الثمار شهية ... فتانة الألوان والأوصاف
وجرى النمير بها ألَذّ مذاقة ... للوارديه من رحيق سلاف
أنى تصرّف مقلة لك تكتحل ... بجداول رقراقة وضُفاف
ما تنتهي من فتنة إلا إلى ... أخرى ومن صوَر إلى أطياف
وتشابهت فيها الفصول فحسنُها ... سيان في مشتى وفي مصطاف
يا حُسنها من واحة لو أنها ... أهلَتْ وفاز بها الفتى بمطاف
لكنها مجهولة ممنوعة ... من دونها حَزن وقفر فيافي
هيهات ما تُنبي صحائفُ عَالم ... عنها ولا تَهدي رُؤَى عرّاف
لم يدْرِ غير سرَّها فأنا الذي ... في أضلُعي حُمِّلْتها وشغافي
هي قلبيَ النائي الذي من دونه ... غُم الطريق على الحبيب الوافي
ولو أهتدى يوماً لباَء إلى حمى ... خصب وفاَء إلى ظليل ضاف
ولقد أبحْثُ صحابةً ليَ حقبةً ... أفياَء تلك الروضة المئناف
فتمردوا في ظلها من بعد ما ... نعموا بأثمار بها ونطاف
فقبضتُها عنهم وصنت جنانها ... عن كل جاس في القلوب وجاف
فهي الغداةَ تميس في فتناتها ... والكون أجمع عن حُلاها غاف
نضرت أزاهرها ولا مَنْ يجتلي ... وزَكَتْ دواليها لغير قطاف
وانساب سلسلها وما من راشف ... وذكت نسائمها للامُستاف
هي جنة الود الخلي من القذى ... جمعت أفانينَ الوداد الصافي

تنْدى وتألق في الأزاهر والسنى ... في مهمه وعر المسالك خاف
وغداً سيذوي حسنها ورواؤها ... ويجف منها يانع الأفواف
لم يفتقد منها المحاسنَ فاقدٌ ... أو يبكها بالمدمع الذراف
وتَغُولها تلك القفار وينثني ... يذرُو معالمها الترابُ السافي

فخري أبو السعود

البحر

للأستاذ عبد الرحمن شكري

ألا ليتني لج كلجك زاخر ... أعبُّ كما تهوى النهى والبصائر
فكم عبت النفس اللّجوج وحاولت ... كبعض سطاك الآبيات النوافر
وأخفت من الدر النفوسُ ومن حُلًى ... كما اختبأت فيك اللهى والذخائر
كأن بها أفقاً كأفقك نائياً ... ومن دونه كل المَدَى يتقاصر
أتطرب من لحن الخرير كأنه ... خواطر تتلوها عليك السرائر
كما طرب النشوان من لحن صوته ... فجاشت لديك الراقصات الزواخر
وإلا فما للموج في اليمِّ راقصاً ... دعاه عذارى البحر شادٍ وشاعر
خريرك يحكي صدحة الدهر صامتاً ... كأنك دهر بالحوادث مائر
هو الدهر لا يخشى المنايا ولا يَهِي ... صِبَاه ولا تقضي عليه المقادر
وأنت شبيه الدهر لا أنت هارم ... ولا أنت منقوص ولا أنت خاسر
ويصطخب الآذيُّ فيك كأنما اص ... طخابك من حكم المنية ساخر
أخَفْقٌ وإعصار ودفع وهبَّة ... كأنك حيٌّ نابض القلب شاعر
فريحك أنفاس وموجك نابض ... كنبض قلوب أعجلته البوادر
خلوتَ من السُّمَّار كالبيد وامَّحت ... معالم لا تُبْقِي عليها الأعاصر
سِوى شِلْو فُلك قد حدرت إلى الردى ... يلوح كما لاحت رسوم غوائر
وكم جُزُرٍ مثل الجِنان مضيئة ... كأنْ جهلتها الصائلات الدوائر
لَخِيلَتْ نجومَ السعدِ والحب والمنى ... فحنَّ إليها الشّحشحان المُخَاطر
كما حنَّ للآل الخلوب قوافل ... تَخُبُّ بها في البيد إبلكٌ ضوامر
لخلَّفتَ في قلب المخاطِرِ همة ... على الدهر لا تبلي وتبلى العمائر
يحن إلى ما خلف أُفْقِكَ ناظر ... كما تنشد الغيبَ النهى والبصائر
كأن مُنًى للنفس من خلف أفقه ... تلوح كما لاح السراب المبادر
أو أن محال السعد دُرٌّ مُنظَّمٌ ... على الأفق ينحوه الطلوب المُغامر
بلى كل نفس للغريب مشوقة ... وإن خَوَّفتها من سطاه المحاذر
ويصغر في مرآك عيش ابن يومه ... ويكْبُرُ رأيٌ ذاهب فيك سائر
خواطر مثل الفلك فيك شوارد ... يضل عليها عازب اللب حائر
تنائت بك الأمواج وهي نوافر ... وجاءت بك الأمواج وهي ثوائر
كأن بها عجز المشيب إذا انثنت ... وعزم الشباب الغر وهي بوادر
فنم نومة الظل البطيء مسيره ... وثِبْ وثبة الغضبان حين يُساور
فيا رُبَّ حلم خامل البطش هادئ ... ضمنت وجهلٍ شره متطاير
كأن لنا من لج مائك واعظاً ... بليغاً له مما أثرت زواجر
رأيتك والأمواج في وثباتها ... عساكر حرب قد تلتها عساكر
فبينا يريق الضوء فوقك ماءه ... وتجري عليك الريح وهي خواطر
ويتلو عليك الصائدون غناءهم ... يرجِّعه لحن من الماء مائر
ويُسمِعك الملاح من شجو قلبه ... أحاديث قد تاقت لهن الحرائر
إذ الجو جهم والرياح كتائب ... وإذ أنت مقبوح السريرة غادر
ورب سفين يقرع النجمَ مجدُه ... تقاذفها مستوفز اللج هامر
يُرَوِّعها في كل هوجاء مُوعِدٌ ... ويسعى لها قبر من الماء سائر
وما ذلك اللج الذي في سمائها ... بأهدأ من لج نمته الزواخر
إذا ذكر المَلاّح زوجاً وصبية ... طغى شجن في مِرْجَلِ الصدر فائر
وتذهل عن مهد الوليد رءومه ... إذا ما رَمتْها بالوعيد الزماجر
وما هي إلا صولة ثُمَّتَ انجلت ... وأكبر غرقاها المساعي البوائر

كما غرقت في لجة الدهر دول ... زهت ما زهت والدهر للناس غامر
عبد الرحمن شكري
فخر المصايف المصرية
رأس البر. . .!
للأستاذ محمد يوسف المحجوب
مهْدَ الهدوءِ وفُرصة الأحباب ... ها قد لقيتكَ بعد طول غياب
أقبلت نحوك ظامئاً، أُلْقى لدى ... عطفيكَ أعبائي، وأنفض ما بي
قد هدَّ سعى العام أوْصالي بما ... عانيتُ من درس ومن أوصاب
فإذا أتيت فحسب قلبي أنني ... لاقٍ بظلك منتهى آرابي. . .!
داويْتُ بالصحو الجميل متاعبي ... ورأيت فيك الشمسَ دون حجاب
وظفرتُ عندك بالسُّكون يلُفُّني ... ويريح من ذهني ومن أعصابي
وغمرتُ روحي قبل جسمي بالمُنى ... لما استنمت لِمَوجك الصخاب
غَطَّى على صخب الحياة ولَفَّهُ ... فمضى وضاع بلُجِّه المُنساب
لا الفكرُ عندك سابح في مؤلم ... حاشا ولا الوجدان عندك خابي!
أصحو مع الصبح الجميل، فتنتشي ... روحي بشمسٍ أشرقت وعباب
شمس أراها، لا يصدُّ شعاعها ... عنا رُبًى، أوْ ناطحات سحاب
وأرى الخضمَّ ولا شعاب تحدُّه ... في ناظري. . . فتضِلُّ فيه شعابي
وأرى ظباء الأنس حول كِناسها ... يطفِرْن في مرَج ووفْدِ شباب. .
ترنو إليهن العيونُ، وترتعي ... حسناً يزلزلُ راسيَ الألباب!
يُقْبلْنَ في ساعِ الأصيل ترائباً ... تختال بينَ مُفَوَّف الأثواب
وَيَسِرْنَ أسْرَاباً، يمايلُ عِطْفَها ... فَرْطُ الصِّبا، ويَعُدْنَ في أسراب!
لا يستطيع الصَّبُّ تكليماً، ولا ... يّقْوّى على شيءٍ. . . سوى الإعجاب!
يَرْنو إلى ذاك الجمالِ كأنما ... يَرْنو إلى المعبود في محرابِ. .!
جَوٌّ عليه من العَفَافِ رِقابةٌ ... صانته عن عبَثٍ يُرادُ وعابِ
جَوٌّ يضُمُّ كرائماً وحَرَائراً ... باتَ الحياءُ لهُنَّ خيرَ نِقَابِ
وشبيبةً لا يرتضون من الهوَى ... دَنَساً يَشينُهُمُ على الأحقاب
الكلُّ فيه (أسْرَةٌ) قد زانَها ... أنْ ليس فيها سَيِّئُو الآداب. .!
سَهروا على الأخلاق واعتصموا بها ... وَرَعَى الحضُورُ أمانةَ الغُيَّابِ
هذا هو العَيْشُ النبيل، وهكذا ... يَسْمُو (المَصيفُ) بإخوَةٍ وصِحَابِ. .
لا ما تَراه من الغَوَاية والخَنَا ... في (الرَّمْلِ) من همَلٍ وَمِنْ أوْشَابِ. . .!
سَلْ شاطِيَء (اسْتَانْلي) وسل أترابه ... كم قد بَرِمْنَ بفاسدي الآداب. . .؟
ظنّوا الحياةَ مجانةَ وخلاعةَ ... فطوَوْا من الأخلاق خير كتابِ
ورَأَوْا لدى نَزق الشبابِ نعيمَهم ... فسَعَوْا له ومضَوْا بغير حساب!
بذرَ (الفِرِنْجةُ) كل مُهْلكةٍ لهم ... وأتَوْهُمُ بالبَهْرَج الخَلاَّبِ
وَجَنَوْا لهم حُرِّيةً مزعومةً ... طاحَتْ بهم في هُوَّةٍ وخرابِ!
يأيها (الرأسُ) الجميلُ: تحيةٍ ... من صادق في الوُدِّ ليس يحابي. . .
لا غَرْوَ أنْ صُغْتُ القَرِيضَ مُخَلَّداً ... ذكراك أنتَ، على مَدَى الأعقابِ:
وَهَبَتكَ دُنْيَاكَ العفيفةُ بيننا ... مَعْنًى سَمَوْتَ به على الأترَاب
محمد يوسف المحجوب
القصص
أعصاب
للقصصي الروسي تشيكوف
بقلم محمود البدوي
عاد المهندس المعماري ديمتري اسيبوفتش فاكسن من المدينة إلى كوخه الذي يقضي فيه عطلته وهو متأثر غاية التأثر مما سمعه في جلسة استحضار الأرواح التي تشرف بحضورها!
وعندما خلع ملابسه، ومشى إلى فراشه المنعزل، ولا أنيس معه فيه - فقد بارحت مدام فاكسن المنزل إلى عمل يستغرق طيلة الليل - لم يستطع أن يطرد عن ذهنه تصور كل ما سمعه ورآه في هذه الليلة التي لم يكن الحديث فيها ممتعاً على الإطلاق!

فلقد مضوا الليل كله في حديث مروع بدأته سيدة في رونق صباها - على ذكر لا شيء - بالكلام عن التفكير عند القراءة، ومن هنا تشقق بهم الحديث دون أدراك إلى الأرواح، ومن الأرواح انتقلوا إلى الأشباح، ومن الأشباح تشعبت بهم سبل الكلام إلى أناس يدفنون أحياء. . .! وقرأ سيد قصة مرعبة عن جثة تسير وهي مدرجة في الكفن. . . وطلب فاكسن نفسه فنجانة وأخذ يشرح للسيدات الصبايا الطريقة المثلى لمخاطبة الأرواح! وأحضر من بين الموتى روح عمه كلافدي ميرونتش وسأله:

(ألم يحن الوقت بعد لنقل ملكية منزلنا إلى زوجي؟)

فأجابته روح عمه: (كل الأشياء حسنة في حينها)

وفكر فاكسن وهو مضطجع على سريره وقال لنفسه:

(في الطبيعة أشياء كثيرة. . . سرية. . . ومفزعة. . . فالمجهولات لا الأموات هي المروعة حقا)

ولما دقت الساعة واحدة انقلب فاكسن على جنبه الآخر، وأخذ يرمق من تحت غطائه نور المصباح الأزرق المحترق أمام الصورة المقدسة، وقد ارتعش لهبه، وألقى نوره الخابي على قاعدة الصورة، وظهرت أمام سريره صورة عمه كلافدي الكبيرة المعلقة على الحائط

وومض هذا الخاطر في ذهنه: (وماذا. . . إذا ظهر في هذه اللحظة شبح عمي كلافدي ولكن بطبيعة الحال. . . هذا محال)

ومع أن الأشباح - كما نعرف جميعاً - خرافات من ذرية الذكاء المحدود. . . فقد ضم فاكسن غطاءه عليه حتى غطى رأسه وأغمض عينيه تماماً! على أن الجثة التي سارت وهي ملفوفة في كفنها عادت إلى ذهنه بعد برهة قليلة، ورفعت أمام مخيلته صور المرحومة حماته، وزميل له شنق نفسه، وفتاة أغرقت نفسها أيضاً. . . وحاول فاكسن أن يطرد عن ذهنه هذه الصور السوداء ولكنه كان كلما أمعن في الطرد أمعنت هذه الصور في الثبات، وأحاطت به خيالات مخوفة، وأخذ يحس بالرعب المتمكن والجزع الشديد

وقال لنفسه:

(إلى المشنقة بهذه الخواطر جميعاً. . . هأنذا خائفاً في هذا الظلام كطفل. . . معتوه.)

وسمع الساعة تدق في الغرفة المجاورة: (تك. . تك. . تك)

ورن ناقوس الكنيسة في فنائها القريب مبيناً الوقت. . دق الناقوس في بطء وانقباض وحزن. . وسرت رعشة شديدة في عنق فاكسن امتدت إلى عموده الفقري، وخيل إليه أنه يسمع إنساناً يتنفس فوق رأسه بثقل! كأن العم كلافدي قد رأى أن يبرح إطار صورته وينحني فوق ابن أخيه. . . وشعر فاكسن بالرعب الذي لا يحتمل، فصرَّ بأسنانه، وعلق أنفاسه في هول

ولما قفزت حشرة من الحشرات الطائرة إلى النافذة المفتوحة وانقلبت تطن فوق فراشه لم يستطع الاحتمال أكثر مما احتمل فجذب زر الجرس بعنف

وسمع بعد هنيهة صوت الحاضنة الألمانية واقفة على بابه تقول بالألمانية:

(ما الذي تريده يا ديمتري اسيبفتش؟)

فصاح فاكسن فرحاً (آه. . أأنت يا. . . روزاليا كارلوفنا لماذا تتعبين نفسك؟. . أين جافريلا؟ لا بد أن. . .)

(بعثت أنت بنفسك جافريلا إلى المدينة. . . وجافريلا مضت تقضي الليل في بعض الجهات. . . وليس في المنزل أحد سواي. . . فما الذي تريده من فضلك؟)

(. . .حسنا. . . الذي أريده. . . هو. . . ولكن من فضلك ادخلي. . . لا داعي للقلق. . أنه ظلام. . .)

ودخلت روزاليا كارلوفنا وهي امرأة بادنة حمراء الخدين!! ووقفت على الباب وقفة المنتظر

(. . .اجلسي من فضلك. . . أنت ترين. . . أن الأمر هكذا)

وعجب وقال لنفسه: أي شيء أسألها فيه وعنه. .؟ وسارق صورة عمه النظر وشعر بروحه تعود تدريجياً إلى الهدوء

(الذي أوده منك في الحقيقة هو. . . آه. . . لما ينطلق الخادم إلى المدينة لا تنسى أن تخبريه بأن أ. . . أ. . . يجيء ببعض أوراق السجاير. . . ولكن من فضلك اجلسي)

(ورق سجاير. . . حسناً. . . وما الذي تريده أيضاً؟؟)
الذي أريده. . . لا شيء أرغب فيه ولكن. . أجلسي. . سأفكر في شيء آخر بعد)
(دقيقة
العذراء. . . تخاف البقاء وحيدة في غرفة رجل يا سيد فاكسن. . . فهمت! إن حاجتك)
(إلى ورق سجاير. . . كانت في الواقع لا تستدعي إيقاظ أحد. . . فهمتك
وانقلبت روزاليا كرلوفنا على عقبيها وغادرت الغرفة، وسكن روع فاكسن لما تحدث معها وخجل من جبنه للغاية، وغطى رأسه، وأغمض عينيه، وشعر مدة عشر دقائق كاملة بالراحة التامة، وبعد هذا زحفت إلى ذهنه نفس الخزعبلات الماضية. . .
فتحسس الثقاب وأشعل شمعة وهو مغمض العينين! وأصبح النور بعد الهلع الذي هيمن على كيانه عديم الجدوى، فقد صور له خياله المضطرب أشباحاً طلعت من الأركان وبدت عيون عمه تتحرك. . .!!
فقرر قاطعاً:
سأدق لها الجرس مرة أخرى. . . لعنة الله على المرأة. . . سأخبرها بأني أشعر)
(بالتعب وفي حاجة إلى بعض أقراص من الحلوى
وشد فاكس الجرس فما جاوبه أحد. ودق ثانية فسمع جرس الكنيسة يدق كأنما يجاوب على دقاته بمثلها. واستولى عليه الرعب وشاع في جسمه البرد فقفز من فوق سريره وغادر مخدعه يعدو راسماً علامة الصليب، وأخذ يلعن نفسه لجبنه وخوره وجرى حافي القدمين في قميصه الليلي حتى بلغ غرفة الحاضنة
وقال راجف الصوت وهو يطرق بابها:
روزاليا كرلوفنا. . . أنمت؟ أشعر. . . باني ر. . . ر. . . تعب. . . أود قليلاً من أقراص)
(الحلوى
فما جاوبه أحد وخيمي الصمت
أرجوك! أفهمت. . . أرجوك. . . لماذا هذا القرف؟. . لا أستطيع أن أفهم. . . خصوصاً)
فقالت (إذا كان الرجل. . . مريضاً. . . أي عبث. . . أنت في الحق. . . وفي مثل سنك له:
سأخبر زوجك. . . أنك لا تدع عذراء شريفة في أمان. . . لما كنت عند البارون انزيج. .)
. جاء إليَّ سعادته يطلب أعواداً من الثقاب. . . ففهمت في الحال معنى هذه الأعواد
فقال لها (من الثقاب.!! وأخبرت البارونة. . . فأنا عذراء شريفة:
إلى المشنقة بشرفك هذا. . . أنا مريض. . . قلت لك هذا. . . واطلب منك بعض)
فأجابته (أقراص من الحلوى. . . أتفهمين. . إني مريض:
زوجك امرأة شريفة وطيبة. . . ومن الواجب عليك حبها. . . أجل. . . إنها نبيلة طيبة. .)
(. ولن أكون لها عدوة
فقال لها: (إنك غبية. . . غبية. . . أتفهمين. . . غبية)
اعتمد فاكسن على سارية الباب، طاوياً ذراعيه، ومنتظراً أن يذهب عنه هلعه الشديدة، فإن رجوعه إلى غرفته حيث يرتعش المصباح ويحملق فيه عمه. . . أمر لا يجرؤ على مواجهته، وأن وقوفه على باب الحاضنة وليس عليه سوى قميص نومه أمر غير لائق من جميع الوجوه!! فما الذي يعمله؟؟
ودقت الساعة الثانية وما بارحه جزعه؛ وكان الممر مظلماً فبدأ له خيال أسود طلع من كل ركن واستدار ليواجه عقب الباب. على أنه تصور في هذه اللحظة إنساناً جذب قميص نومه من الخلف ولمس كتفه
فأعول ثم صاح:
(عذاب الجحيم. . . روزاليا كارلوفنا)
ولما لم يسمع صوتاً فتح فاكسن الباب متردداً ودخل؛ وكانت الألمانية الفاضلة غارقة في
سبات لذيذ، وقد أظهر ضوء المصباح الخافت ما على وجهها من بشاشة، ثم انساب إلى داخل الغرفة ووقف بجانب حقيبة عند الباب، وشعر بارتياح تام وهو في حضرة مخلوق حي، حتى ولو كان هذا المخلوق نائماً
ثم قال في نفسه:
خل الألمانية البلهاء غارقة في نومها. . . سأجلس هنا. . . وحينما يبزغ النور أرجع إلى)

(. . .مكاني. . فالصبح يبكر في هذه الأيام
استلقى فاكسن على الحقيبة ووضع ذراعه تحت رأسه مترقباً طلوع الفجر
!!وتأمل
أي شيء. . . لما يكون المرء عصبياً. . . ورجل متعلم ذكى. . . لنشنق جميعاً. . . إنه)
(عار شنيع
وعندما تسمع إلى تنفس روزاليا كرلوفنا الرقيق عادت إليه نفسه وثاب حسه وهدأ
تماماً
وفي الساعة السادسة عادت زوجه فاكسن من عملها الذي استغرق طول الليل ولما
لم تجد زوجها في مخدعه دلفت إلى الحاضنة تسألها عن (فكة) للحوذي
ولما دخلت الغرفة رأت منظراً غريباً!!! بصرت على السرير بروزاليا كارلوفنا غارقة
في النوم. . . وعلى قيد ذراعين منها ينكمش زوجها على الحقيبة وينام نوم العادل!!
ويغط غطيطاً عالياً
أما الذي قالته لزوجها وكيف كان حاله عند ما استيقظ فسأدع لغيري تصويره فهو فوق
طاقتي
محمود البدوي
هاجر العانس
للسيدة وداد السكاكيني
تسألينني يا صديقتي عن كآبة (هاجر) ووجومها، وتتساءلين ملحة عن تجافيها وإيثارها
العزلة والانفراد. إنك تريدينني على أن أفضي إليك بخبرها، وأصرح بما أعلمه عنها؛
ولاشك أن طلبك هذا يثير في نفسي ذكريات الطفولة ويحملني على أن أنحدر إلى
أغوار الماضي، حين كنت أعرف هاجر في المدرسة تلميذة في صف الشهادة، وكم
كان يشتد فرحي حين تدخل هذه الفتاة بيتنا في البكور لتأخذني معها، فإن عمتي
أوصتها بمرافقتي إلى المدرسة، وكانت رحمها الله صديقة حميمة لأسرة هاجر
كانت تدق باب بيتنا دقات مستعجلة، فأبادر إلى صداري الاسود، وأعلق إلى جانبي
محفظة كتبي بنجاد قصير، فإذا أسرعت هاجر في سيرها عدوت خلفها، فأتعثر
بمحفظة كتبي التي تتدلى على جنبي أو على ظهري، وكنت لا أقف لاصلاحها حتى لا
تتأخر هاجر عن ميعاد المدرسة فتحرمني مرافقتها في الطريق
وكان يعظم سروري حين تغيب معلمتنا العجوز الشمطاء ذات النظارة التي تربطها
بالخيط إلى أذنيها وتحدرها إلى أرنبة أنفها فتطالعنا بنظرها المخيف من فوقها، كنت
أفرح وأمرح حين تغيب هذه المعلمة الغاشمة فترسل إلينا المديرة (هاجر) كبرى
تلميذات المدرسة لتحل محل المعلمة الغائبة، وتعلمنا الدرس فأزهو يومئذ وألهو،
وألمس بأناملي رؤوس رفيقاتي اللاتي أمامي فيتلفتن وراءهن فإذا أنا صنم لا يتحرك
هذه صورة أولى لهاجر ما تزال في ذاكرتي جلية بينة؛ إنها كانت غضة الأهاب، أنيقة
الثياب، ذات وجه أسمر مجدور، وشعر جعد أسود، قسمته ضفيرتين كثيفتين تنوسان
على كتفها؛ وكانت صَناع اليد تغزل من الصوف أردية شتوية لأختيها سعاد ومليحة، وقد
كان أبوها قاسياً جامداً ندم على تعليمها بعد أن حازت الشهادة، لكيلا يفتح العلم بزعمه
قلبها وعينها، فحلف ألا يعلم أختيها
ومرت الأيام فإذا مليحة وسعاد فتاتان ناهدان، تلوح عليهما ملامح الجمال، وتبسم لهما
الحياة والشباب، فراحتا تحلمان بالزواج، وقد خطرت للوالدين هذه الفكرة فتمنيا
تحقيقها قريباً، وكانا يرتاحان لكل من يفاتحهما في خطبة الفتاتين؛ أما هاجر فكانت
تضطرب
أعصابها كلما رأت أبويها يسعيان لتوفير الزينة والدلال لأختيها، ولاسيما بعد أن رأياهما
تستويان على عرش الأنوثة والجمال
ولا تسألي يا عزيزتي عن أحزان هاجر حين كانت تختصها أمها بتدبير المنزل والخياطة
لأختيها، وإعداد ما تستطيع من الجهاز لهما، خشية أن تخطبا معا ويضيق الوقت عن
تهيئة المعدات اللازمة في حياتهما العتيدة
وكانت هاجر تنمو آلامها وتشتد، وتحس الغصة تقطع نياط قلبها، وكثيراً ما خلت إلى
نفسها، وتحدثت عن جدها العاثر عند والديها، فتلعن الجمال الذي بدا على أختيها،
فحرمها الدلال وجعلهما تستأثران بعناية الأم واهتمام الأب

وأخذ شعورها يطغي على نفسها فلا تستطيع إلى كبته سبيلا، ولاح الوجوم في وجهها، وكان تفكيرها في دمامتها يبعث في روحها القلق والعذاب
كانت تناجي ربها حين تلجأ إلى فراشها وتحاول النوم فلا يرنق في عينيها، فتستعرض مظاهر الاهتمام بأختيها وإهمال أمها لها فتطفر الدموع من عينيها حزناً على حياتها الجافة البغيضة. وا رحمتاه لهاجر! كم كانت تتكلف الهناءة والهدوء أمام والديها وأختيها فتتظاهر بالانشراح لخطبتهما!
وكان لسوء مصيرها أن تلألأ حظهما وتكاثر الأخطاب، ففي عصر يوم جاء بيتهن ثلاث نسوة فاستقبلتهم الأم وهاجر بملابس البيت وأوعزت الأولى إلى سعاد ومليحة بأن تتزينا بأحسن ما عندهما من اللباس الجديد وتتضمخا بأزكى العطور، وما استقر المقام بالسيدات حتى أقبلت مليحة وسعاد وكأنهما عروسان ليلة الزفاف، فلما رأينهما بهرتاهن وعلقت بهن أنظارهن، فتجاذبن أطراف الحديث بسهولة وسرعة كأنهن صديقات العمر، وبعد قليل طلبت إحداهن من الفتاتين شربة ماء، ولم يكن بها ظمأ ولا حاجة إلى نقع غلة، بل كان مرامهن جميعاً، أن يرين انقلابهما بالمشي وانتقال أرجلهما على الأرض، وأن ينعمن النظر في طولهما وحركاتهما
كل هذا حدث وهاجر المسكينة جالسة إلى جانب أمها تنظر الحظ يضحك لأختيها ويقهقه، وتفكر في نفسها فترى حظها عابساً مكفهراً، ثم أخذت تطالع في عيون الخاطبات ومضات الافتتان والإعجاب بأختيها، فلم يسعها البقاء في الغرفة فخرجت منها خشية أن تهي إرادتها
وتستحيل كآبة نفسها دموعاً كاوية فتفضح وجومها وآلامها
وآن ذهاب السيدات فقمن يودعن الأم والفتاتين بالسلام والتقبيل، فلثمن ثغري سعاد ومليحة ليشممنها فيعلمن إذا كانت فيهما رائحة تكره، وعانقنهما لينشقن إبطيهما لعلهما تعرقا، وهصرنهما إلى أجسامهن ليحسسن هل هو عظم جاثم أم لحم وهو لطيف، وكانت الأم والبنتان يشيعن الزائرات بمنتهى المجاملة والإغراء
كانت هذه الزورة المأنوسة يوم سعادتهن المشهود، فما أغلق الباب خلف السيدات حتى انثنت الأم إلى ابنتيها الجميلتين تدعو الله لهما بفتح البخت ومجيء النصيب السعيد، وأن يقيض لهما زوجين من أحسن الرجال وأغناهم، ثم سكتت إذ شعرت أنها استرسلت في الدعاء لهما دون هاجر فقالت وهي تشير إلى غرفتها وأنت يا (هاجر) (الله لا ينساك يا حنونتي!
بعد أسبوعين كنت ترين يا صديقتي في إصبعي سعاد ومليحة خاتمي الخطبة، وكنت أتردد على بيتهما لأساعد الأم وهاجر في إعداد الجهاز، أما هاجر الكئيبة فكانت ترنو بعينيها إلى الخاتم الجاثم في يد أختها فيحز في روحها الشعور المؤلم بالحقيقة الراهنة، فتجاهد حسها وتكابد العذاب في مغالبة ما تعانيه من قلق واضطراب لئلا يقال: إن غمامة من الغيرة والحسد تخيم على نفسها فتسيء إلى سمعتها، وبرغم ذلك كله كانت تنتابها من حين لآخر نزوات من السخط، فتدعي بأنها تبرم بأعمال البيت المرهقة واستعجال الأهل في تهيئة الجهاز بوقت حرج قريب
لقد تزوجت الأختان ويعلم الله كيف حضرت هاجر عرسيهما، إنها لم تسمع الغناء بأذن واعية، ولا أبهت للرقص، ولا ذاقت من صفوف موائد الحلوى
لم تحقد هاجر على أختيها وإنما كان في قلبها غضب على الأيام كالنار في الحشا تتمنى لو أن الله خلقها جميلة فاتنة أو خلقها ذكراً
أصبحت هاجر وحدها في البيت مع أمها وأبيها، وقد جاوزت الثلاثين فكانت تعيش في نضال دائم بين الأمل والقنوط، وتتساءل بحرقة وحيرة عما تتوقع من الأيام وهي تمر وشيكة عجلى، أيشفق الحظ عليها وإن تقدمت سنها، أتهيئ الأقدار لها حياة زوجية كأختيها؟ ألا يوجد بين الرجال من يؤثر جمال الخلق والنفس على جمال الجسم والوجه؟ فتزدحم في
مخيلتها صور من الأحلام والآمال تكبح جماح نقمتها وتبعث في نفسها قليلاً من الاطمئنان، ثم تقوم إلى كتبها فتواسيها بحوثها وتسليها وتبحث فيها عن مآسي الحب والحياة، ولبثت ردحاً من الزمن تساورها الأماني برغم ما كان يبعدها من الواقع عن تحقيقها فتلمست في هذه الظاهرة الجديدة لوناً من العزاء والجمام
لقد صبرت هاجر بضع سنين انقلب عزاؤها بمرور الأيام ثورة نفسية أليمة جعلتها غريبة

الأطوار قليلة الكلام، فأهملت العناية بألبستها وتسريح شعرها الذي عدا عليه الشيب كما أنها هجرت الاكتحال والصباغ وغارت عيناها وبرز جبينها المستدير وبدا في وجهها الشاحب ما يبدو للمراهق الطرير

عاشت هاجر البائسة في هذه الحقبة القصيرة يغمرها يأس عاصف وتصدمها الحقيقة الواقعة، ثم عبثت يد السآمة برغبتها في المطالعة فأعرضت عنها ونشدت السلوة في المتنزهات القريبة

كانت أمها تشهد اضطرابها وتديم التأمل والتفكير فيها، وتطالع في عينيها إمارات القلق والنقمة فتحس في نفسها عذاب الضمير لأنها كثيراً ما حالت دون خطبتها بشتى المعاذير، فكانت ترد أخطابها دون علمها؛ وكان هاجر إبان ذلك في ميعة العمر وريق الشباب، فأدركت الأم أن أنانيتها الحمقاء هي التي كانت تسول لها الازدراء بفتاتها الكبرى كلما أسرعت بها الأعوام حتى آثرت أن تبقيها عزبة لخدمة شيخوختها، ولولا أثرتها وإهمالها لكانت هاجر مثل أختيها زوجاً سعيدة وأما حنوناً

وطغى على روح الأم شعور الندم، وران عليها الغم والاكتئاب، فأحبت أن تكفر عن خطيئتها بتوفير الخدمة والمداراة لهاجر، وترغيبها في ممارسة التعليم الخاص في بيتها وزيارة صديقاتها

واستمرت السنون في سيرها فمات أبوها ولم يترك لها ما يؤمن معيشتها، وبقيت أمها عندها، أما أختاها فشغلهما عنهما الزوج والأولاد، وكان لكل منهما حماة غاشمة لئيمة، لا ترتاح لزيارة الأم والأخت لها، فأهملت المتزوجتان أمهما لئلا تعصف في بيتهما عواصف السوء والأحقاد

وفي جو هذا العيش الغائم الخانق كانت هاجر تناقش نفسها في مصيرها فرأت من الحكمة

وفصل الخطاب أن تحترف التعليم فعينت في المدرسة التي نشأت فيها وثقفتها

كان بين هاجر العانس ومديرة المدرسة دالة ومودة، فكانت تستشف في أحاديث هاجر حسرة ومرارة وتبرما بتكاليف الحياة، فتنفس عنها - بعطفها ولطفها - بعض ما يحتدم في نفسها من ضيق وانقباض

وعهد في المدرسة إلى هاجر بتعليم العربية لبعض الصفوف الابتدائية، فكانت شديدة العناية بتعويد التلميذات حسن الإلقاء وتجويده، وكلما آنست منهن تقدما ونجاحاً أوصتهن بالمثابرة على لهجتهن التي أخذنها عنها، إذ كان أملها القديم الذي غدا أوهن من بيت العنكبوت يعاودها الفينة بعد الفينة، ويوقظ فيها ما رقد من رجاء في الزواج، فتقول للتلميذات: حافظن على لهجة الإلقاء فربما لا أعود إليكن في العام القابل

جالت المديرة مساء يوم أرجاء المدرسة وراقبت صفوفها، فوقفت بباب صف سمعت فيه لغطا ولغوا، فاقتحمته وهي تظن أن ليس ثمة معلمة فيه، وشد ما شدهت حين رأت هاجر تحدق بنظرها في الأفق البعيد دون أن تتنبه لوجودها

تقدمت إليها المديرة بلطف وابتسام، وسألتها: فيم تفكرين يا هاجر؟ فأجابت: إنني أتأمل هذه الطفلة الجالسة ههنا، وأشارت إليها ثم أردفت قائلة:

انظري يا سيدتي مآسي الدهر ومهازله؛ إنني أفكر في أم هذه الطفلة، فلقد كانت تلميذتي!.

(دمشق)

وداد سكاكيني

مأساة من سوفوكليس

أنتيجونى - 4

للأستاذ دريني خشبة

تتمة

- 11 -

الخورس: (مولاي! إن تيريزياس لم ينطق عن هوى قط! لقد أشعلت السنون رأسه بشيب التجارب، وإن هذه لنبوءة. . . إنها لنبوءة!!)

الملك وقد بدا عليه الفزع: (أنا أعرف ذلك! وا أسفاه! لشد ما أزعجتني نبوءة تيريزياس! ولكن. . . ماذا أصنع! إن التقهقر يؤلمني!)

- (ما تزال فسحة من الزمن للتبصر يا مولاي!)

- (ماذا أصنع؟ انصحوا لي! سأطيع! سأخضع! انصحوا لي!)
- (انطلق من فورك فاستنقذ الفتاة من قبرها، وابن قبرا للقتيل!)
- (أهذه نصيحتكم؟.. ها... ها ها... لا... لن أستسلم! لن أستخزي!)
- (البدار البدار! أسرع ما استطعت! إن السماء نفسها تتجهم... إنها تنذرك بلسان الكاهن)
- (أواه! أنا مجبر! أنا مغلوب على أمري! أنا ما أستطيع مغالبة القضاء!)
- (هلموا الساعة فاصنع كل شيء! بيدك أنت! لا تشرك يداً أخرى!)
- (هلموا في إثري يا شعبي العزيز! هاتوا عدتكم! سأبني القبر، وسأحل العقدة التي أحكمت رباطها! لشد ما يضطرب الجزع في حنايا ضلوعي! لماذا حدث عن طريق قومي؟ يا للشجو!!)

(يخرج الملك عجلا)

- 12 -

ويردد الخورس عظة الموقف، ثم يدخل رسول فيقول:

- (سلام على جيرة قدموس وأحباء أمفيون! قضي الأمر، فلا سعادة تنفع ولا شقاء يبقى! الجميع سواء! المُلْك! ما الملك! ما هو إن كان موحشاً هكذا! حلَك شديد وظلمة تتدجى!)
- (ما وراءك يا رسول! أي ضِغْث ناء من جديد بكلكله على هذا البيت؟)
- (ماتوا!! وقتلتهم ما يزالون أحياء!)
- (من القاتل ومن القتيل، أفصح يا رسول!)
- (هايمون! قتل هايمون! انتحر المسكين!! قتله يأسه وأودى به قنوطه، وحزنه على الفتاة التي قتلها أبوه!)
- (ويحك يا كاهن طيبة، ما قلت إلا حقا! ويْ! الملكة! إنها قادمة! مسكينة يا أم هايمون! لشد ما تحزنين اليوم)

- 13 -

(تدخل الملكة يوريدس)

- (فيم تناجيكم أيها الأعزاء! أحقاً قتل هايمون نفسه؟ لقد سمعتكم تقولون مثل هذا؟! نبئوني! لا تنزعجوا! ليست هذه أولى مصائبي، أحقاً مات ولدي!؟ تكلموا!!)
- الرسول: (أيتها الملكة! سأقص عليك كل شيء، لقد شهدت المأساة بنفسي! كلنا سواء في الحزن وشركاء في الأسى! لقد ذهبت في إثر الملك إلى بطحاء طيبة حيث جثمان بولينيسيز، وحيث عمل الملك بيديه في حفر مقبرة لبقايا القتيل التي أبقت عليها عقبان الجو وذؤبان الفلاة... ثم انثنينا إلى القبو المظلم الفظيع الذي أمر بأنتيجوني أن تموت فيه... وما كدنا نقترب حتى سمعنا نشيجاً مؤلماً وأنيناً مفزعاً... ثم إذا صرخة داوية تتردد في حنايا القبو... وامرنا الملك أن نتقدم حين أدرك أن الصوت صوت هايمون... تقدمنا أيتها الملكة! وا حزناه! لقد بلغنا أقصى زاوية في القبو! يا للهول؟ أنتيجونى؟! مسكينة! لقد شنقت الفتاة نفسها بغُلالةٍ حريرية في سقف القبو!! وركع هايمون على ركبتيه... بجانبها... وأخذ يعانقها... ويبكي... وينعى حظه... ويبث شكواه! وكان يندب حبه بكلمات مُئنّة تقطّع نياط القلوب!... وكلمه أبوه... ولكن حدجه بنظرات غائرة، ثم انتزع سيفه وجعل زُجه إلى أرض القبو، وسِنَّه في صدره، واتكأ المسكين بكلكله عليه، فبرز الجراز يلمع من ظهره... وسقط قليلاً على الثرى، وظل ذراعه الضعيف الواني ملتفاً حول خصر أنتيجونى.!! وتدفق الدم مختلطاً بتراب القبو... وذهبت روحه البريئة محوطة بأرواح الآلهة إلى هيدز!!)

(تخرج الملكة كالمجنونة لا تلوي على شيء)

- 14 -

- (ماذا تستنتج من هذا؟ لقد انطلقت الملكة دون أن تنبس ببنت شفة؟!)
- عجيب حقاً!! ربما كرثها الخطب، فهي ذاهبة تجمع له وصيفاتها ثم يبكي الجميع شباب هايمون!
- (أ... الملك!... الملك قادم... ماذا يحمل؟... وي؟ إن الحزن كاد يصعقه...!!)

(يدخل كريون حاملا جثمان هايمون)

- (ويل لي من قتيل قاتل! ويل لي مما جنيت على نفسي! يا رحمتا لك يا ولدي! ويح

!. . .لك يا هايمون! أنا قاتلك فاعف عني! اصفح عن والدك يا هايمون! آه!. . . أه
الخورس: (مسكين! يندم الآن ولات حين مندم! انبلج الحق لعينيه. . . ولكن. . . بعد أن
!لم يكن شيء
الملك: (وا أسفاه عليك يا ولدي! الساعة فقط ألمس أخطائي! لكأنما كان القدر
يعصب عيني!!)
(يدخل رسول ثان)
- (مولاي! أنت هنا تبكي ولدك. . . وفي القصر. . . بكاء جديد يا مولاي؟!)
- (بكاء جديد ماذا؟ ماذا تخبأ لي الأقدار بعد هذا؟
- (الملكة يا مولاي. . . الملكة. . .
- (الملكة؟. . .
- (إي. . . ماتت!
- (ماتت! وا حربا لي آه يا برزخ الموت لم يجرف تيارك قطع نفسي؟ وأنت يا رسول
. . .الشؤم! لقد قتلتني مرة أخرى! ألا حدث أيها الرسول! أهي مضرجة بدمائها مثل هذا
.
(ترفع ستار عن جثة الملكة فتبدو للعيان)
- (وا حسرتاه على ما قدمت! بكاء جديد وشجو آخر، أي خطوب أنكى تتربص بي
(!. . .أيضاً؟ آه يا ولدي الحبيب. . . ويح لك. . . ولأمك. . . أمك التاعسة
الرسول: (لقد كانت تصلي للآلهة أمام المذبح، وكانت أيضاً تبكي ولديها ميجاريوس
(وهايمون قبل أن تطعن نفسها بخنجرها
الملك: (ألا من يطعنني أنا الآخر بخنجر ذي شعبتين، فلا يبقي ولا يذر!. . . وا
. . .!حزناه
!الرسول: (لقد طعنت نفسها بعد أن انطلقت من هنا وبعد أن سمعت بانتحار هايمون
!الملك: (أنا القاتل يا رفاق! أعترف! أنا القاتل! لقد قتلتهم جميعاً. . . اقبضوا علي
مرحبا بالموت! مرحبا به من منقذ! لن أعيش ليوم آخر، لن تشرقي على يا ذكاء مرة
أخرى
الخورس: (الزمن كفيل بكل شيء! والقدر يبرم نهايته!)
الملك: (لقد صليت صلاتي وأودعتها كل أماني!)
الخورس: (وماذا تجدي الصلاة؟ إنها لا تدفع حشرجة المحتضر!)
الملك: (هلموا بي! هلموا بالرجل المتجبر الذي قتل ولده. وقضى على. . . زوجه!. . .
(إن الدنيا بأجمعها تَهاوى فوق رأسي حجراً حجراً! يا للمقادير! يا لشجوي!. . .)
الخورس: (العمل الصالح طريق السعادة الممهد! وطاعة السماء فرض قدسي!
(الكبرياء تحطم الكبرياء! والخيلاء تورث الشقاء. . . والسعيد من اتعظ
دريني خشبة
البريد الأدبي
عطف المسلمين على منكوبي فلسطين
كان من أثر ما نشرته (الرسالة) من الوصف الناطق لمآسي فلسطين الدامية أن
دفعت الأريحية العربية إخواننا في (تلمسان) إلى أن يؤلفوا جمعية لإعانة منكوبي
فلسطين، فجمعت في أول اجتماع ألفا وخمسين فرنكا فرنسيا؛ أرسلت بها تحويلا إلى
إدارة الرسالة على بنك الكريدي ليونيه في باريس. وقال الفاضل السيد المختار
الصبان أحد أعضاء هذه الجمعية في كتابه إلينا: (وقد اقتضى نظر اللجنة المكلفة بجمع
الإعانات في (تلمسان) أن يُبعث هذا المبلغ بأسمكم، راجين من فضلكم أن تبلغوه أنتم
من هناك إلى من هو قائم بقبض الإعانات وتلقيها بفلسطين. وهذا مبلغ أول اجتمع
بيننا، وسنوافيكم بعده إن شاء الله بكل ما يجتمع لدينا، لأننا مازلنا فاتحين باب الإعانة
ودائبين في العمل. . .)
و (الرسالة) باسم فلسطين تشكر لأهل تلمسان أريحيتهم، ويسرها أن تكون واسطة
خير بين إحسانهم وبين لجنة الإعانة
مسألة الأجناس
وجهت مجلة (النوفيل لترير) الباريزية إلى طائفة من أكابر الأخصائيين الفرنسيين في
علوم الأجناس البشرية (البيولوجيا والانتروبولوجيا) عدة أسئلة تثيرها اليوم مسألة

الأجناس في أوربا؛ وأخصها ما يأتي: (1) ما هو مبلغ نظرية جوبينو عن مزايا نقاء الأجناس أو تمازجها من الصحة؟ وهل يمكن أن تعتبر من الوجهة العلمية من عوامل التأثير في الحياة العقلية والمادية للأمم؟ (2) هل يمكن أن يعتبر وجود الأجناس النقية المنعزلة في عصرنا حقيقة بيولوجية؟ أم هل تقتصر هذه الحقيقة على بعض الميول العقلية والمصطنعة التي تتأثر بها اليوم بعض الأمم؟

وقد أجاب على أسئلة المجلة الباريزية عدة من أكابر العلماء منهم الأستاذ ريبو أستاذ البيولوجيا في كلية العلوم الباريزية، والمسيو رفيير مدير متحف الأنتروبولوجيا، والدكتور فرنو أستاذ الأنتروبولوجيا في معهد باريس. وتتلخص أجوبة هؤلاء العلماء فيما يأتي:

(1) إن الأجناس أو السلالات النقية نادرة الوجود في عصرنا حتى في أعرق الأمم حضارة، ولا يوجد أي نموذج منها في أوربا. وهي من الوجهة النظرية يجب أن تكون وحدات بيولوجية. ولكن الواقع أن الجماعات التي تزعم أنها قد احتفظت بنقاء الجنس لا تقوم إلا على المصلحة المشتركة، ولا تجمعها سوى ميول عقلية أو مصطنعة، وهذه ليست سوى عواطف يستغلها القادة في الجمهور الساذج

(2) إن امتزاج الأجناس الرفيعة بالأجناس المنحطة لا ينتج دائماً من الآثار السيئة ما يقول بعض العلماء؛ فقد ثبت من المشاهدات البيولوجية الحديثة أن هذا الامتزاج ينتج أحياناً نماذج جنسية بديعة. مثال ذلك امتزاج الأسبان والبرتغاليين بالهنود في البرازيل، فقد أنتج في بعض الأقاليم جنساً خلاسياً هو أذكى وأنشط وحدات الشعب البرازيلي وقد أنتج امتزاج المستعمرين الهولنديين في جنوب أفريقية بالهوتنتوت شعباً ذكياً قوياً من الوجهة الحيوية

ويلاحظ الأطباء الفرنسيون أن امتزاج الفرنسيين بالهند الصينيين ينتج نسلاً بديعاً خصباً وقد لاحظ رحالة إنكليزي كبير أن امتزاج السود بالبيض في الجزر الجنوبية في المحيط الهندي ينتج نسلاً جميل التكوين وافر الذكاء؛ وقد لاحظ بنوع خاص أن النساء الخلاسيات في هذه الجزر يتمتعن بجمال في الوجه والجسم يندر أن يوجد في كثير من الأجناس الأوربية

والخلاصة أن آراء أولئك العلماء تكاد تتفق على نقطة جوهرية هي أن نظرية نقاء الأجناس لا تقوم من الوجهة العلمية على أسس صحيحة

رواية عن مصر الفرعونية

كان أول من أتخذ أساطير مصر الفرعونية وتاريخها موضوعا للقصة العصرية الكاتب والرحالة الألماني الشهير جورج إيبرس، فقد أخرج لنا عن مصر الفرعونية عدة قصص امتازت بحسن السبك والخيال؛ ولم تكن المباحث الأثرية الفرعونية قد تقدمت في عصر ايبرس، أعني منذ نحو قرن تقدماً يذكر، وقد أثارت الاكتشافات الأثرية الأخيرة في تراث مصر القديمة اهتماماً كبيراً، وألفى فيها جماعة من الكتاب من مختلف الأمم مادة حسنة للقصة الممتعة. ومن هذه القصص التي ترجع بنا إلى الماضي الغابر، قصة صدرت أخيراً بقلم الكاتب الإنكليزي جاك لندسي عنوانها (جولات وينامين) وهي قصة تدور حوادثها على أواخر عصر طيبة حينما أشرفت مصر على هاوية الفوضى والحرب الأهلية، وبطلها موظف حكومي يدعى وينامين أوفده الكاهن الأكبر (آمين) إلى لبنان ليشتري خشباً من الصندل ليصنع منه قارب مقدس، ويصف المؤلف أحوال مصر المضطربة خلال الرحلة وما يلاقيه وينامين من الأحداث والمفاجآت الخطرة، ويصف بالأخص ظروف الحياة في طيبة القديمة، ويقارنها بالحياة في مصر الشمالية (الدلتا)، ويبدي مستر لندسي براعة خاصة في تنسيق الحوادث التاريخية وسبكها في قالب القصة المبتكرة دون أن يجني على روحها أو صبغتها التاريخية، وهذه مقدرة تشهد له بالتوفيق في فهم روح مصر الفرعونية كما يجب أن يفهمها قصصي يحاول أن يعرض الحقيقة في ثوب الخيال. ويرى بعض النقدة أن مستر لندسي هو أول قصصي إنكليزي استطاع منذ تشارلس كنجسلي مؤلف (هيباسيا) التي تدور حوادثها على العصر اليوناني في مصر أن يقدم عن مصر القديمة رواية جديرة بالتقدير الأدبي

رحلة في بلاد العرب

الآنسة فريبا ستارك رحالة إنكليزية تجولت كثيرا في الجزء الجنوبي من بلاد العرب.

وقد أصدرت أخيراً كتاباً عن بعض رحلاتها عنوانه (أبواب جزيرة العرب الجنوبية وفيه تصف رحلتها في حضرموت، التي اخترقتها وحيدة في غمر من الصعاب والمشاق الهائلة. وقد كانت حضرموت منذ الأزمان الغابرة أعظم مركز لتجارة (البخور) والعطور الدينية التي لبثت مراكز إنتاجها قروناً في معزل عن العالم ولاسيما أوربا؛ وقد استطاعت الآنسة ستارك أن تنفذ إلى هذه المراكز وأن تتجول فيها؛ وفي كتابها نحو مائة صورة التقطتها بنفسها تمثل كثيراً من المناظر المدهشة عن طبيعة هذه البلاد وسكانها

ذكرى مؤلف المارسييز

احتفل أخيراً في أنحاء فرنسا بذكرى مؤلف النشيد القومي (المارسييز)، روجيه دي ليل لمناسبة مرور مائة عام على وفاته ونظم الاحتفال الرئيسي في مدينة ستراسبورج مسقط رأس المحتفل بذكراه، وألقيت الخطب الرسمية تنويهاً بروعة النشيد القومي وعظمة واضعه. وكان روجيه دي ليل ضابطاً في جيش الثورة، وكان شاعراً بفطرته، فوفق إلى وضع هذا النشيد الذي مازال منذ نحو قرن ونصف قرن يثير ضرام الحماسة القومية في فرنسا كلما هبت عليها الأزمات أو قرع نذير الحرب؛ وقد وضع روجيه دي ليل نشيده لجيش الرين الذي كان ينتمي إليه، ولكن جماعة من المتطوعة المرسيليين (أهل مرسيليا) نقلوا هذا النشيد وأذاعوه في أنحاء فرنسا، فسمي نشيد المارسييز منذ أيام الثورة إلى يومنا، ومازال هذا النشيد القومي الفرنسي يعتبر من أروع الأناشيد القومية؛ وقد وصفه الكاتب الإنكليزي الكبير توماس كارليل بأنه أسعد تركيب موسيقي، وأعظم غذاء للعزة والحماسة

وفاة كاتب ألماني كبير

توفي في باريس أخيراً كاتب سياسي ألماني كبير هو جورج برنهارت محرر جريدة (باريز - تسيتونج) التي تصدر بالألمانية في باريس. وكان برنهارت قبل قيام الحكومة الهتلرية عضواً في مجلس الريخستاج (البرلمان)، وكان ديمقراطياً متطرفاً، فلما قامت حكومة النازي هرع إلى المنفى فيمن هرع من أكابر الكتاب والساسة اتقاء لبطش طغاة ألمانيا الجدد؛ ووقف قلمه على محاربة الدعوة النازية في الخارج؛ وكان يكتب بالفرنسية في بعض المجلات والصحف الباريزية بمثل براعته في اللغة الألمانية ومعظم أقطاب الكتاب الألمان يعيشون اليوم في المنفى وعلى رأسهم توماس مان، وأخوه هنريش مان، وأميل لودفيج، وليونارد فرنك، وغيرهم. ومنهم من غادر ألمانيا بسبب يهوديته مثل لودفيج؛ بيد أن معظمهم غادرها لأسباب سياسية، ولأن الحكومة الجديدة لا تسمح بذرة من الحرية للكتاب أو المفكرين

وهكذا يموت أكابر الكتاب الألماني في المنفى تباعاً لأنهم لا يستطيعون أن يتنفسوا في وطنهم

الكتب

سعد زغلول

سيرة وتحية

تأليف الأستاذ عباس محمود العقاد

بقلم الأديب عبد الرحمن صدقي

آية هذا الكتاب أن اجتمعت له خصال ثلاث تجعله في عداد كتب السيرة المشهود لها لأعلام المترجمين، وتلك الخصال هي: التحقيق التاريخ، والتحليل النفساني، والتأثير العاطفي

يقول العقاد في كلمة التمهيد لترجمته: (إن الصديق والمؤرخ في الكتابة عن رجل كسعد زغلول يستويان أو يتقاربان، لأن الصديق لن يقول فيه ما ينكره المؤرخ، والمؤرخ لن يقول فيه ما ينكره الصديق. ومن النقص في جلاء الحقيقة أن يكتب المؤرخ ترجمة لعظيم ثم لا يكون على مودة لذلك العظيم. ولأن يكون الكاتب مؤرخاً وصديقاً خيرٌ للتاريخ نفسه من أن يكون مؤرخا وكفى، لأن الترجمة فهم حياة، وفهم الحياة لا يتسق لك بغير عطف ومساجلة شعور)

ولما كان الاستقصاء في طبيعة مؤلفنا الكبير، فقد ابتدأ موضوعه من البداية، فتناول (الطبيعة المصرية) بالبحث الضافي، وعرض لمحك النقد أقوال المؤرخين فيها من

أقدم عصور التاريخ، وأخذ باطل المبطلين منهم بالتفنيد المدعم بالأسباب والأسانيد.
ثم أبان في فصل آخر عن وجه الحقيقة فيها بما لا يدع بعده زيادة لمستزيد وانتقل إلى أصل المترجم له، فلم يسكت عن تلميح البعض إلى نسبته إلى غير الأرومة المصرية، ومن هؤلاء من يرد أعراقه إلى المغول والترك، وآخرون إلى البدو أو عرب المغرب، ولقد سرد المؤلف مثار الشبهات عند أولئك المتقولين ليعيد فيها النظر على ضوء علم الأجناس، ثم باستقراء ما هو معروف من طريق القبائل العربية النازحة، فانكشف لمرأى العين ضعفها وصرف عنها الأذهان مقررا أن عراقة سعد في بيئة الفلاح المصري لا تفوقها عراقة زعيم من أبناء الأمم الأخرى
ثم يجيء الكلام عن جيل سعد وطابعه المميز من طلب الإصلاح والدعوة له والغيرة عليه، وبيان الدوافع لهذه الحركة الإصلاحية من الداخل والخارج، وما كان لهذا الجيل من شأن في نشأة سعد واتجاه همته، وصفة أعماله في مستقبل أيامه، ومن هذا الوصيد الكريم، يتطرق القارئ إلى حمى البيت القديم، ويتعرف إلى جد زغلول وأبويه وقرابته وطبائع قومه وأسرته، ومظاهر الحياة في بلدته، وإذا بك بعدها ترى سعداً في مدارج طفولته، وتتوسم مخايل نجابته، وتتتبع خطواته من مكتب القرية، إلى الجامع الدسوقي، إلى حلقات معهد الأزهر الكبير
وفي هذه القاهرة المعزية، اندمج الفتى سعد في حركة دعاة الإصلاح وألقى بسهمه مع سهامهم، وكان يحضر الدرس على الشيخ محمد عبده، ويختلف إلى مجلس السيد جمال الدين الأفغاني؛ وكان الأول أستاذاً له في الدرس وقدوة في الخلق، وأما لقاؤه للثاني بطبيعته الثورية فكان مرآة مجلوة لنفسه الجائشة وحافزاً لملكاته البيانية والخطابية
ومن ذلك الحين يصح الجزم بأن سعداً قد أتجه فعلاً إلى وجهته، واستقام على متن طريقه المقدورة له
ويتسع الأفق فإذا الثورة العرابية ومقاديرها ومعقباتها من نفي وتشريد وحبس. وتشاء العناية لسعد أن تقوم على خدمته ظروف وملابسات، فيفرج عنه على كره من أولياء الأمر. ولا يلبث طويلاً حتى يشق طريقه من المحاماة إلى منصة القضاء، ثم تحمله رغبة الحاكمين في إرضاء القومية المصرية وقتئذ إلى دست الوزارة
هنا تزخر حياة هذا الرجل بالأحداث، ويظهر أنه المدخور لنهضة وطنية عارمة تعم البلاد من أقصاها إلى أقصاها، وتؤلبها في قوة وإيمان على الغاصبين. ويمضي المؤلف في تاريخه الضخم يصورها أروع تصوير، ويدفع عنها المغالطة والنكير، في فصول حافلة طوال: في طريق الوزارة، سنة 1906، وزارة المعارف ووزارة الحقانية، سعد الوزير، الحركة الدستورية، الوزير المصري في المعاش، في ميدان الانتخاب، الجمعية التشريعية في خمسة أشهر، قبيل الحرب، الحرب العظمى، تأليف الوفد المصري، بدء العمل، القارعة، الثورة، من القاهرة إلى مالطة إلى باريس، تأليف الوفد الأول، موقف الوزارة الرشدية، برنامج الوفد والامتيازات، الوفد في أوربا، من سفر الوفد إلى لجنة ملنر،
المفاوضة في لندن، في مصر أثناء المفاوضة، بعد عودة الأعضاء، الوزارة العدلية، العودة، الخلاف على المفاوضة، القطيعة بين سعد والوزارة، فضل المفاوضات الرسمية، النفي، تصريح 28 فبراير، من المنفى إلى الوزارة، في رآسة الوزارة، الملك فؤاد وسعد، من رآسة الوزارة إلى رآسة النواب، في رياسة مجلس النواب
وهذه الفصول الطوال تنتظم التاريخ المعاصر كله لمصر الحديثة في صور حية رائعة تتعاقب على أنظارنا وكأنما كاتبها لا يخط أحرفاً وإنما يرسم تهاويل مجسمة كالتي اشتهر برسمها على جدران المعابد شيخ الرسامين ميشيل انجيلو. على أنه يتخللها هنا وهناك مواقف شتى يقف فيها الفنان موقف المحلل الشارح، كما يلبس أحياناً رداء المدره المنافح
ويختتم المؤلف كتابه كما استهله بفصول دقيقة عميقة لا تتاح لغيره عن زعامة سعد وأثرها، وعن سعد وخصومه، وعن شخصيته وأخلاقه، وعن ثقافته. ويبلغ العقاد منتهى حنو العاطفة في كلامه عن سعد في بيته، ومبلغ حدبه على أهله، وكيف كانت السيدة الجليلة أم المصريين بنفسها المحبة وفطنتها الألمعية وقلبها الكبير، شريكته بحق في حياته ومجده. وكذلك يعرض عليك المؤلف الناحية اللينة إلى جانب الناحية الصلبة في

وصفه للقاء الأول واللقاء الأخير. وأما كلمته عن فاجعة الوفاة فإنها في عبارتها الصادقة المؤثرة يطالعها القارئ فيغلبه التأثر مهما يكن جلده، فإذا هو لا يملك وجده، وإذا الدمع يخنقه والزفرة تكظ صدره ثم لا تبرح ذهنه هذه الصورة آخر العمر:

(ثم ضعف النبض دفعة واحدة، بعد انتظامه في جميع الأدوار الماضية، فغلب اليأس على الرجاء. وعاده الأطباء للمرة الأخيرة في التاسعة والدقيقة الخامسة والأربعين، ونزلوا إلى المكتب لكتابة تقريرهم الأخير. وإنهم لكذلك، إذ دعي فتح الله بركات باشا إلى غرفة خاله وهو يجود بنفسه في غيبوبة لم تنقطع منذ الصباح. فاشرأبت الأعناق وأمسك الناس أنفاسهم يترقبون. وما هي إلا دقائق معدودات حتى عاد فتح الله باشا إلى المكتب يمشي كالشيخ الهائم شاحب الوجه مذهول العينين. ولم يجرؤ أحدٌ على سؤاله مخافة أن يكون الجواب المحذور. ولكنهم علّقوا أنظارهم جميعاً بعينيه ولبثوا شاخصين ينتظرون. دقيقة واحدة أو دقيقتين، ولكنهما كانتا من أزمان الأبد في روع الشاخصين المنتظرين. وفي تلك اللحظة ارتفع صوت ناحب عند الشرفة المطلة على المكتب، فضرب فتح الله باشا يديه

على ركبتيه، وجلس وهو في جمود الأموات. . . . . ومضت ثوانٍ أخرى. مضت والناس في سكون عميق مرهوب، وكان كل ما في بيت الأمة، وكل ما حوله على أعمق ما يكون السكون، لا صدى في المنزل ولا في الطريق طوال اليومين الماضيين، حذراً من إزعاج المريض العظيم المأمول الشفاء. فلما ارتفع الصوت الناحب وجم الحاضرون ثواني قلائل، كأنما كانوا يستطيلون الأمل المدبر، أو كأنما كانوا بين تصديق وتكذيب. ثم انفجروا صيحة واحدة بالنشيج والعجيج، فلم يكن أرهب من ذلك السكون إلا هذا الضجيج الذي اتصل صداه في لحظات معدودات بكل مكان في القاهرة، وكل مكان في أرجاء البلاد. .)

ولو أرخينا العنان لإعجابنا لأوردنا الكتاب كله شاهداً على فضل كاتبه في كل ما سطره فيه، وتبريزه في نواحيه المتعددة، وبلوغه الغاية من الفن والوفاء والصدق ولكننا نقتضب، فنقول إن جملة القول في كتاب سعد زغلول للعقاد إنه أعظم نَصَبٍ أقيم للبطل العظيم الراحل

عبد الرحمن صدقي

العدد 163 - بتاريخ: 17 - 08 - 1936

الأخلاق المحاربة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

وحدثني صاحب سرّ (م) باشا بهذا الحديث قال: كنا في ثورة سنة 1919 سنة الهزَاهِز والفتن، وقد تفاقمت الثورة وأخذ الشباب يعمل ويفكر فيما يستطيع أن يعمل وما يجب أن يعمل؛ وكان السّخط العام هو ميراث الوقت، فكانت قلوب الشعب تلهم واجباتها إلهاماً إذ لم يكن في هذه القلوب كلها إلا لذعة الدم تعين اتجاه أعمالها وتحدّه.

كانت الثورة زلزلةً وقعت في التاريخ فجاءت تحت زمن راكد لا يتغير إلا بأن ينسف، ولا ينسفه إلا مادة إلهية كالحركة الكونية التي تخرج اليوم الجديد من اليوم القديم؛ فكان القدر يعمل بأيدي الإنجليز عملاً مصرياً ويعمل بأيدي المصريين عملاً آخر. وتعلم الشعب من دفن شهدائه كيف يستنبت الدم فينبت الحرية، وكيف يزرع الدمع فيخرج منه العزم، وكيف يستثمر الحزن فيثمر له المجد.

وكان رصاص الإنجليز يصيب هدفين معاً، فيصرع شهداءنا، ويقتل الموت السياسي الذي احتلّ معهم هذه البلاد. وقد أنعموا على الشعب بالصدمة الأولى فنشبت المعركة التي تقاتل فيها الأخلاق القومية لتنتصر؛ وشعرت مصر في جهادها بأنها مصر فالتمس روحها التاريخيّ رمزه العظيم في الأمة ليظهر فيه عاتياً جباراً؛ فكان هذا الرمز الجليل العظيم هو سعد زغلول.

قال صاحب السر: وكان الطلبة قد غدوا من أول النهار يتظاهرون، وقد جعلتهم الثورة كالأرواح تخلّصت من الموت بالموت فلا تخشاه ولا تبالي به، واستقلّت عن العقل بتحولها إلى شعور محص، وخرجت عن القوانين كلها إلا القانون الخفي الذي لا يعلم ما هو.

كانوا في معاني قلوبهم لا في غيرها، فلست تراهم إلا عظماء في عظمة المبدأ الذي

ينتصرون له، أقوياء في قوة الإيمان الذي يعملون به، أجلاء في جلال الوطن الذي يحيون ويموتون في سبيله. وكانوا في الشعب هم خيال الأمة العامل المدرك، وشعورها الحي المتوثب، وقواها البارزة من أعماقها، وأملها الزاحف ليقهر الصّعوبة. يُقَادُون بأنفسهم الغالية، ويؤثرون عليها، وليس في أحدٍ منهم ذاته ولا أغراض شخصه. فما أجلّ وما أعظم! وما أروع وما أسمى! أيتها الحياة! هل فيك أشرف من هذه الحقيقة إلا حقيقة النبوَّة؟

قال: وكان أخي هو زعيم هؤلاء الطلبة في مدنيتنا؛ قويٌّ على الزَّعامة وفيٌّ بها، يحمل قلباً كالجمرة الملتهبة وله صوت بعيد تحسب الرعد يُقَعْقع به. إذا مشى في جهاده كان كل ما على الأرض تراباً تحت قدميه فلا يمشي إلا محتقراً هذه الدنيا وما فيها، غير مقدّس منها إلا دينه ووطنه. وسلاحه أن كل شيء فيه هو سلاح على الظلم وضد الظلم.

وكان في ذلك اليوم يقود (المظاهرة) وحوله جماعة من خالصته وصفوة إخوانه يمشون في الطليعة تحت جو متَّقد كأن فيه غضب الشباب، عنيفٍ كأنما امتزج به السخط الذي يفورون به، رهيب كأنه مُتهيئ لينفجر فلما بلغوا موضعاً من الطريق ينعطفون عنده انصبَّ عليهم المدفع الرشاش. . . .

قال: فإني لجالس بعد ذلك في الديوان إذ دخل علي أخي هذا ينتفض غضباً كأن المعاني تنبعث من جسده لتقاتل، ورأيت له عينين ينظر الناظر فيهما إلى النار التي في قلبه، فخشيت أن يكون القوم أطلقوا عليهم الجنون والرصاص معاً.

واستنبأته خبر أصحابه فقال: إن الذين كانوا حوله وقعوا يتشَحَّطون في دمائهم فوقف هو شاخصاً إليهم كأنه ميت معهم وقد أحسَّ كأنما خلع عن جسمه نواميس الطبيعة فلا يعرف ما هي الحياة ولا ما هو الموت. وكان الرصاص يتطاير من حوله كأن أرواح الشهداء تتلقاه وتبعثره كيلا يناله بسوء. قال: وما أنس لا أنس ما رأيته في تلك الساعة بين الدنيا والآخرة؛ فلقد رأيت بعيني رأسي الدم المصري يسلّم على الدم المصري ويسعى إليه فيعانقه عناق الأحباب.

ثم قال: أين هذا الباشا وما باله لم يصنع شيئاً في الاحتياط لهذه الفَوْرة؟ يكاد الخزي والله يكون في هذه الوظائف على مقدار المرتب. . . .

قال صاحب السرّ: ولم يتم كلمته حتى خرج علينا الباشا متكسر الوجه من الحزن وقد تغرغرت عيناه فأخذ بيد أخي إلى غرفته وتبعتهما قم قال: هَوْناً ما يا بني، إن العلة فيكم أنتم يا شباب الأمة، فكل ما ابتلينا أو نُبتلى به هو مما يستدعيه خمولكم وتستوجبه أخلاقكم المتخاذلة. إننا من غيركم كالمدافع الفارغة من ذخيرتها لا تصلح إلا شكلا، وبهذه العلة كان عندنا شكل الحكومة لا الحكومة.

أتدري يا فتى ما هي الحكومة الصحيحة في مثل حالتنا؟ هي أن تحكموا أنتم في الشعب حكومة أخلاقية نافذة القانون فتضبطوا أخلاق النساء والرجال وتردّوها كلها أخلاقاً محاربةً لا تعرف إلا الجد والكرامة وصرامة الحق، وإلا فكما تكونون يُوَلىَّ عليكم. . . .

هذا وحده هو الذي يعيد الأجانب إلى رشدهم وإلى الحقيقة، فما أراهم يعاملوننا إلا كأننا ثياب معلقة ليس فيها لابسوها. . .

كيف يتصعلك المصري للأجنبي لو أن في المصري حقيقة القوة النفسية؟ أترى بارجة حربية تتصعلك لزورق صيد جاء يرتزق؟

إن في بلادنا المسكينة الأجانب، وأموال الأجانب، وغطرسة الأجانب، لا لأن فيها الاحتلال، كلا، بل لأن فيها ضعف أهلها وغفلة أهلها وكرم أهلها. . . . بعض هذا يا بني شبيه ببعض، وإلا فما هو كرم الشاة الضعيفة إلا لذة لحمها. .؟

نريد لهذا الشعب طبيعة جدية صارمة ينظر من خلالها إلى الحياة فيستشعر ذاته التاريخية المجيدة فيعمل في الحياة بقوانينها. وهذا شعور لا تحدثه إلا طبيعة الأخلاق الاجتماعية القوية التي لا تتساهل من ضعف، ولا تتسمح من كذب، ولا تترخص من غفلة. والحقيقة في الحياة كالحقيقة في المنطق إذا لم يصدق البرهان على كل حالاتها، لم يصدق على حالة من حالاتها. فإذا كنا ضعفاء كرماء، أعزاء، سادة على التاريخ القديم، فنحن ضعفاء فقط. . .

إن الكبراء في الشرق كله لا يصلحون إلا للرأي، فلا تسوموهم غير هذا، فهم قد تلقوا

الدرس من أغلاطهم الكثيرة، وبهذا لن تفلح حكومة سياسية في الشرق الناهض ما لم يكن شبابها حكومة أخلاقية يُمدُّها من نفسه ومن الشعب في كل حادثة بالأخلاق المحاربة.

يا بني إن القوي لو اتفق مع الضعيف على كلمة واحدة لا تتغير لكان معناها للأقوى أكثر مما هو للأضعف. فإن هذا القوي الذي يعمل مع الضعيف يكون فيه دائماً شخص آخر مختف هو القوي الذي يعمل مع نفسه.

هكذا هي السياسة؛ أما في الإنسانية فلا، إذ يكون الحق دائماً بين الاثنين أقوى من الاثنين.

(سيدي بشر. إسكندرية)

مصطفى صادق الرافعي

من ذكريات الحداثة

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

كان ذلك في (العيد الكبير) - كما كنا نسمي (عيد الأضحى) - وكنا يومئذ تلاميذ في مدرسة ثانوية، ومساكننا بعضها قريب من بعض، فنحن لهذا أصدقاء وإخوان. فاقترح أحدنا في صباح يوم أغبر أن نذهب في ليلتنا تلك إلى (دار التمثيل العربي) - أو تياترو الشيخ سلامة حجازي كما كنا ندعوه - لنشهد رواية (روميو وجوليت) فاعترضت على ذلك وقلت: إنه يكلفنا نفقة لا قِبَلَ لنا بها، فقد كان الواحد منا يأخذ في اليوم من أبيه أو ولي أمره قرشاً في اليوم، وكنا كثيراً ما نعجز عن إنفاق القرش كله لأنا لم نكن نجلس على (القهاوي) ولا كنا ندخن أو نشرب خمراً، ولم تكن السينما قد ظهرت في تلك الأيام، فكان يتفق أن يبقى مع كل منا في آخر الأسبوع بضعة قروش - اثنان أو ثلاثة، أو أربعة في بعض الأحيان - فنفرح، ونركب النيل بزورق، بضع ساعات. ولكن هذه القروش القليلة لا تكفي للذهاب إلى مسرح الشيخ سلامة، فما العمل؟؟ وأصر الإخوان على ذلك وقال قائلهم: أمامنا النهار كله، فلنحتل وليدبر كل منا أمره. فخجلت أن أقول إني عاجز عن الاحتيال والتدبير، ومضيت عنهم ببال كاسف وقلب حزين.

ورأتني أمي وكانت هي أبي وأمي - فقالت (مالك؟) ولم أكن أستطيع أن أكذبها أو أكتمها شيئاً إذا سألتني، فقلت: (إن زملائي قد اتفقوا على الذهاب في هذه الليلة إلى تياترو الشيخ سلامة، وليس معي ما يكفي لذلك، فأنا لهذا مهموم مكروب).

قالت: (كم معك؟).

قلت: (ثلاثة قروش ومليمان).

قالت: (وكم تريد؟).

قلت: (ريال).

قالت: (أما ريال فلا. . . اذهب إليهم وأنبئهم أنك لست معهم).

قلت: (ولكنني أريد أن أذهب).

قالت: (لا شك. . . ولو كان معي فضل مال لأعطيتك منه، ولكن كل ما عندي - على قلته - لازم لمطالب البيت إلى آخر الشهر، ولن يستطيع أحد منا صبراً على الجوع، فاذهب وافعل ما أشرت عليك به).

فتركتها وزاد كربي وثقل همي، وفتحت الباب ووقفت على رأس السلم أفكر فيما أقول لأصحابي، وأنا مطرق ويدي على الدرابزين، وكانت عندنا فتاة صغيرة في مثل سني، تخدمنا، فخرجت ورائي ثم قالت لي:

(ما لك يا سيدي؟).

قلت: (لا شيء!). وأشرت لها بيدي أن تدخل.

قالت: (ولكنك مطرق. . . .).

قلت: (ولم لا أطرق إذا شئت؟؟ هل هذا ممنوع؟).

قالت: (لا. . . ولكنك مكتئب!).

قلت: (ربما. . . .).

قالت: (يعز عليَّ أن أراك هكذا. . . .).

قلت: (أشكرك).

قالت: (ألا تخبرني ماذا بك؟).

قلت: (لا شيء!).
وماذا بالله أقول لها؟؟ إنها خادمة، فكيف أطلعها على سري؟؟ وصحيح أنها رُبّيت في بيتنا - معي - وأنا جميعاً ننظر إليها كأنها واحدة منا، ولكني لم أعتد أن أرفع الكلفة بيني وبينها على الرغم من ذلك. فلم يسعني إلا أن انحدر وأتركها.
ولكني لم أقل لإخواني شيئاً، واكتفيت بأن أجلس على كرسي أمام الباب وأنا أقول لنفسي: (من الآن إلى العشاء يفرجها ربك. . . ولست أعرف لي الآن عذراً غير الإفلاس أعتذر به لإخواني، ولكن الله قد يفتح عليَّ ويلهمني العذر المقبول).
ولم أفكر قط في وسيلة لتدبير الريال المطلوب، فقد كنت من ذلك على يأس كبير؛ واقتنعت بما قالت لي أمي، فصار همي أن أهتدي إلى عذر يقتنع به الإخوان، ولا أخجل أنا منه. وإني لكذلك وإذا بالفتاة الخادمة تدنو مني وتهمس في أذني أن تعال، فأسألها فتقول: (كلّم) وتسبقني إلى الفناء فالسلم، وأصعد درجات فتستوقفني فألتفت إليها فتمد يدها بريال تضعه في كفي فأعجب وأنظر إليه وإليها وأسألها:
(ما هذا؟).
فتقول: (ألست تريد ريالاً؟ هذا هو).
فأقول - وقد زاد عجبي -: (ولكن من أين لك هذا الريال؟).
فتقول: (إنه من مرتبي).
فأسألها: (هل طلبته من أمي؟).
فتقول: (نعم).
فأعود أسألها: (وماذا قلت لها؟؟ لأي شيء طلبته منها؟).
فتقول: (طلبته والسلام).
فأقول: (كلا. . . إن أمك هي التي تقبض مرتبك كل بضعة شهور، ولم يحدث قط أن أخذت أنت شيئاً منه، فكيف رضيت أمي أن تعطيك الريال هذه المرة؟ قولي الحق. . كيف أخذته؟).
فأغضت وقد اتقد وجهها - وكانت بيضاء حسناء - وقالت: (سرقته لك!).
فصحت وقد فزعت: (إيه؟).
قالت: (لا تصح هكذا!! أتريد أن يقتلوني؟).
قلت: (ولكن السرقة؟؟ كيف تجرئين؟).
قالت: (وهل هذه سرقة؟ إنه من مرتبي وسأخبر ستي بعد أن تذهب أنت إلى التياترو).
قلت: (ولكن من أين عرفت أني أريد ريالاً؟).
- قالت: (سمعت ستي وستي تتكلمان) - تريد والدتي وجدتي
قلت: (ثم غافلتهما وسرقت؟ أليس كذلك؟).
قالت وهي مطرقة: (نعم).
قلت: (ولماذا ارتكبت هذا الأثم؟).
قالت: (لم أستطع أن أراك هكذا).
قلت: (شكراً لك. . . ولكن هذا الريال يجب أن يرد إلى مكانه. . . حالاً. . . فمن أين أخذته؟).
فوصفت لي المكان الذي كان فيه. فقلت لها: (يجب أن تعلمي أني لا أريد أن أذهب إلى
التياترو، ولو كانت لي رغبة لألححت على أمي، ولأعطتني ما أريد. ثم يجب أن تقسمي ألا تعودي إلى مثل هذا العمل فإنه إثم كبير، وإلا أخبرت ستك، وأنت أدرى بما يكون إذا علمت).
وصعدت قبلي، وعدت أنا والريال معي إلى كرسيّ على الباب أمام البيت، فمر أحد أخواني فناديته وقلت له: إني آسف، وإني لن أكون معهم الليلة، وليس هذا لقلة المال وأخرجت الريال من جيبي وبسطت به كفي له ليراه، ولكن سبباً آخر يحول دون الذهاب).
ولما تركني صعدت إلى غرفة والدتي، وكانت مشغولة بإعداد الطعام في المطبخ ففتحت خزانة الثياب وهممت بأن أدس الريال حيث كان وإذا بوالدتي إلى جانبي تسألني:
(ما هذا الذي بيدك؟).

فمددت يدي إليها بالريال وقلت وأنا مضطرب والعرق يتصبب: (ريال، كما ترين).
قالت: (ريال؟ أخذته؟).
فلم أدر ماذا أقول؟! أأقول الحق فيحل غضبها بالفتاة المسكينة التي دفعها العطف إلى السرقة؟؟ أم أتهم نفسي وأنا بريء؟! ولم يكن أحد الأمرين أخف على نفسي من الآخر، ففكرت بسرعة، فلم أجد أن في مقدوري أن أشي بالفتاة وأعرضها لنقمة أمي، وأجعل جزاءها هذا السوء على ما أرادت من الإحسان إلي وإن كانت قد أخطأت السبيل.
فقلت: (نعم. . . أخذته من هنا. . . ثم راجعت نفسي، فندمت وقد كنت أريد أن أعيده إلى مكانه. . . فهل تصدقينني).
قالت: (نعم: ضعه حيث كان).
وتركتني.
وفي تلك الليلة، قبل أن أنام، خلت بي أمي وقالت:
(أصدقني. . . أنت لم تأخذ الريال. . . هه؟).
قلت: (عديني أن تصفحي وتغفري وتطوي الأمر فلا تذكريه).
قالت: (لك ذلك).
فقصصت عليها الحكاية، فقالت: (الحمد لله! حسبي أن يقيني فيك قد صدق. . .).
قلت: (والفتاة؟).
قالت: (لا تخف أن أخلف وعدي لك. . . ولولا أني أعرفك وأطمئن إليك لما أبقيتها في بيتي ساعة واحدة، وإن كنت لا أطمع أن أظفر بخادمة مثلها في وفائها وحسن قيامها بعملها. . . على كل حال غفرت لها من أجلك. . . قم إلى نومك).
إبراهيم عبد القادر المازني
من (الكتاب الذهبي) قبل أن يطبع
لغة الأحكام والمرافعات
للأستاذ زكي عريبي
- 2 -
خلق الألفاظ والتعبيرات العلمية
وثمة صعوبة أخرى يلقاها المترافع المصري: تلك هي صعوبة العثور على اللفظ اللازم أو التعبير اللازم في المحل اللازم.
قدمنا أن كثيراً من المشتغلين بالقانون في مصر - بل قل غالبيتهم المطلقة - درسوا القانون بلغة أجنبية استجمعت شروط الصلاحية للتعبير عن كل فكرة أنتجها الفقه الحديث. وجميع هؤلاء، محامين كانوا أو وكلاء نيابة أو قضاة، مطلوب منهم أن يصوغوا ما تعلموه بالفرنسية أو الإنكليزية كلاماً عربياً فصيحاً.
دعك من صعوبة التفكير بلغة والكتابة بأخرى، فقد يتغلب عليها من ملك زمام اللغتين كقاضي قضاتنا، يعرض للقاعدة المعروفة أن العقوبة شخصية لا يمكن أن تعدو الجاني إلى غيره فيؤديها بهذا الاقتباس البديع (القاعدة العامة ألا تزر وازرة وزر أخرى). دعك من هذا فقد يثبت المثل المتقدم أن الأمر مما لا يصعب تذليله، وتعال إلى ضرورة إيجاد الألفاظ والتراكيب اللازمة لتأدية معان مشهورة مستقرة في فرنسا وغيرها من بلاد الفقه الحديث.
هنا الصعوبة الكبرى يلقاها المشتغلون بالكتابة القانونية كل يوم. ولا سبيل لقهرها سوى التعريب والاشتقاق.
والأول سهل ميسور على شرط الرضاء بأن تكون لغتنا القضائية شبيهة بالمالطية. ومن ذا الذي يرضى لنفسه الآن أن يقول كما كانوا يقولون في أحكام عثرنا عليها في مجموعة (القضاء) سنة 1887 (ابللو) و (محاكم الريفورمه)؟
لم يتعين إذن سوى طريق الاشتقاق وهو أصعب ما يكون. لا لأن الأمر يتطلب تعمقاً في اللغة وحسن ذوق في الاختيار فحسب، بل لأن اللفظ المشتق كثيراً ما يلتوي معناه على غير ناحيته. هو في حاجة بفرض التوفيق من هذه الناحية إلى مبايعة رجال القانون له
واعترافهم به سيداً غير منازع لمعنى خاص).
خذ مثلاً كلمتي فقد حار صديقنا القاضي مصطفى مرعي وهو الفصيح المفوه في

ترجمتها ولم يوفق بعد طول الجهاد لغير (المسئولية التقصيرية)، وقد يقول سواه (المسئولية الخطئية). وكلا التعبيرين قاصر في نظري عن تأدية كل المعنى المنطوي في العبارة الفرنسية.

وإن أنس لا أنس ما لاقيته وأنا أحاول تأدية معنى في مذكرة قدمتها لمحكمة النقض عن الشروط الواجب توفرها في جريمة شهادة الزور. بماذا أعبر عن هذا الركن من أركان الجريمة؟ إن قلت: (دعوى مربوطة) وهي الترجمة الحرفية للفظ الفرنسي كانت ترجمة سقيمة باردة. وإن قلت: (دعوى معلقة) انصرفت الصيغة إلى معنى آخر. وأخيراً استخرت الله فقلت: (دعوى قائمة) وأنا لا أدري أأديت أم لم أؤد؟

على أن هذا الذي حار فيه عجزي قد استقام لمحكمة النقض برياسة إمام اللغة القضائية العصرية عبد العزيز باشا فهمي، فقد صدر حكمها مقرراً أن لا شهادة زور حتى تؤدى في دعوى (مرددة) بين خصمين، وهو تعبير بارع دقيق، لم يكن في ميسور غير الضليع المتفقه في اللغة العثور عليه.

ولنقف عند هذا الحد من الكلام على مشاق الناطقين بالضاد في عصر اللاسلكي والكهرباء، فقد ساقتنا المناسبة إلى أبعد مما نريد؛ ولنقصد رأساً إلى لغة المرافعات، كيف كانت، وكيف يجب أن تكون، ثم نعقب على ذلك ببحث موجز في لغة الأحكام.

لغة المرافعات

ضرورة البلاغة في إظهار الحق

اتفق الناس من قديم على أن البلاغة صفة لازمة لمن جعل الدفاع عن حقوق الناس مهنته، تواضعوا على وجوب أن يكون المحامي فصيح اللسان، بالغ الأثر بكلامه، متلاعباً بالعقول والقلوب؛ وما يزال الإجماع على لزوم توفر هذه الصفات واقعاً.

ولكن لماذا؟

أليس الحق هو بغية المترافعين عن الحق؟ أوليس الحق حقاً بذاته؟ أيوجد أوضح وأظهر منه؟ فيم حاجة المترافع عن الحق إذن إلى الصنعة وإلى التفنن في أساليب الخطاب؟

أحد أمرين: إما أن المترافع يرمي إلى قلب الحقائق فلا بد له من زخرف القول يموه به ويغرر. وإما أن الحق المجرد بغيته ومطلبه، والحق المجرد ميسور بمجرد الطلب خطأ بالغ!

سل طلاب الحق في كل زمان ومكان ينبئوك بأن الكلام عن نوره الساطع وشمسه المتألقة وسلطانه القاهر خيال في خيال. حدثهم عن كنهه يخبرونك بأنه جوهر نادر ثمين مستقر في أعمق الأعماق، خفي على الباحث، عصي على المستخرج؛ وأن وجوده إذا هو اكتشف وجود نسبي يقتصر في الغالب على المكتشف، فإذا ما أراد هذا أن يثبت اكتشافه للغير وجب أن يعد نفسه لحرب عوان ليس له من سلاح فيها غير بيان حسن، ومنطق واضح، وبلاغة غالبة.

يحكى عن أومرسون أحد جهابذة الفقهاء في عصره، وقاضي القضاة في عهد لويس الخامس عشر، أنه قال: (والله لو اتهمت بسرقة برجي كنيسة نوتردام وجرى الغوغاء في أثري صائحين: (اللص، اللص) لبدأت دفاعي عن نفسي بإطلاق ساقي للريح).

مبالغة ولا شك، ولكنها مبالغة أراد بها من عرك المحاكم دهراً أن ليس في عالم القضايا شيء يزاحم البديهة ويقر له بالصحة حتماً. وإنه يكفي أن توجد تهمة لكي يوجد بجانبها خطر الحكم على المتهم ظلماً، أو تبرئة الجاني خطأ.

على أنه من ذا الذي يستطيع التحدث عن الحقيقة المجردة المطلقة؟ أين الحق الذي لا يمازجه باطل؟ وأين الباطل الذي لا يمازجه حق؟ النسبية قانون متمش في كل شيء في الوجود؛ وليس أسهل من تبين حكمه في عالم الحقوق؛ ورحم الله الإمام الأعظم أبا حنيفة، فقد قال لتلاميذه يوماً: (أراكم تسرفون في الأخذ عني، فو الله إني لأرى اليوم رأياً أعدل عنه غدا إلى عكسه). وسأله سائل مرة: (هذا الذي تفتي به أهو الحق الذي لا شك فيه؟). قال: (والله لا أدري، فقد يكون الباطل الذي لا شك فيه).

في كل دعوى إذن مزاج من الحق هو أشبه شيء بالذهب تخالطه عناصر كثيرة متنوعة على المترافع أن يطهره منها فيخرج بالمعدن النفيس متألقاً وهاجاً. وأنىّ له ذلك إلا أن

يؤدي رسالته على الوجه الأكمل، فيجلو ما غمض، ويبسط ما تعقد، ويسهل ما استعصى، والأمر بعد ذلك ورغم ذلك لا للقضاء وحده، بل للقضاء والقدر.
ورب حجة سائغة قاطعة يحويها كلام سقيم فتضيع قوتها، وتخمد جذوتها، فإذا ناصرها البيان، وقدمها فصيح اللسان انقلبت سحراً حلالاً.

تعريف البلاغة

البلاغة إذن ألزم اللزوميات للمترافع، ولكن ما البلاغة؟ وبعبارة أخرى - حتى لا تظن أننا قد شردنا عن الموضوع الذي نعالجه - كيف يجب أن تكون لغة المترافع.

احترام قواعد اللغة

من العبث أن ينبه منبه على ضرورة احترام قواعد اللسان الذي يستعمله المترافع أداة للإقناع. إنه يخاطب في الغالب هيئات نالت حظاً يذكر من الثقافة العامة، وإنه ليحترم هذه الثقافة إذا هو نزه سمعهم عن لغة السوق والغوغاء فكلمهم بلسان سليم يحترم فيه قواعد النحو والصرف.

محل اللغة العامية في المرافعات

ولكن أمعنى هذا أنه يجب نبذ اللغة العامية وإقصاؤها عن المرافعات حتى ولو طهرت من سفساف القول وخلت من كل ما يؤذي السمع؟

الحال تختلف في مصر عنها في غالب البلاد الأوربية، فهناك تتكلم الطبقة الراقية (ومنها المترافعون عادة) بعين اللغة التي يكتبون بها ويقرأون. صحيح أن المتكلم لا يعني باختيار اللفظ وصقل الكلام عنايته بهذين الأمرين إذا كتب؛ وصحيح أن لغة الارتجال ما تزال تختلف اليوم عن لغة التحرير، فالأولى تسمع والثانية تقرأ، ولكن مجرى اللسان في الحالتين واحد فلا يميز بينهما إلا الضليع في اللغة.

وليس الأمر كذلك في مصر، فنحن - وأعني طبقة المتعلمين - نستعمل إلى اليوم في بيوتنا وفي حديثنا مع أصدقائنا بل وفي تفكيرنا إذا خلونا إلى أنفسنا لغة نعدل بها عدولاً ظاهراً إذا وقفنا للدفاع أو جلسنا للكتابة.

فهل يجب أن نمضي في هذه السبيل إلى نهايتها؟ وهل يجب إقصاء اللغة العامية عن المرافعات؟

المسألة شائكة حقاً. وإنه ليكفيك أن تسمع واحداً من شيوخ مدارهنا المقاويل لكي تأخذك الحيرة ويعصى عليك الحكم.

أينا لم ير الهلباوي في أحد مواقفه الرائعة؟ إنه يتكلم الفصحى فيزري بفقهاء اللغة. ولكن الرجل محام بطبعه وسليقته فهو يعرف أن العربية الصحيحة ما تزال إلى اليوم لغة صنعة، وأنها ما تزال تجهد المتكلم والمخاطب معاً. والإجهاد إذا طال انتهى إلى الملل والسأمة. لهذا تراه وقد فرغ من التحليق في سماء البيان وانتهى من قرع الأسماع في نقطة معينة بخطاب فخم داوي الألفاظ رنان العبارة، تراه بعد هذا وقد هبط بك من جوه الأعلى إلى سهل موطأ من كلام عامي يروي به لطيفة من لطائفه السائغة، أو يسوغ منه ملحة من ملحه العذبة البارعة، أو يبري منه سهماً من السخر الفتاك ينفذ به إلى مقاتل الخصم.

أنودع من غير أسى هذه اللهجة الحلوة التي طبعها الخلق المصري بطابعه الخاص منذ ألف أو يزيد من السنين وأصبحت مظهراً قومياً تتيه به مصر على جاراتها العربيات كلما ذكر موسيقى اللفظ وخفة وقع الكلام على السمع وسرعة نفاذه إلى القلب؟

لا. سوف تبقى العامية إلى جانب العربية الفصحى لغة مرافعة إضافية تصاغ منها النكتة البارعة يخف بها الضجر ويطوي بمعونتها ملل الجلسات الطويلة القاحلة. سوف تبقى لغة كلام متبخر زائل بزوال الجلسة التي يقال فيها. وليس من بقائها ضرر فهي لن تطغي على الفصحى بحال، ولن تقوى على الحلول محلها في موضع الجد وعند المناقشة الحامية تدور حول مسائل علمية أو موضوع خطير.

بل إن تخش شيئاً فاخش زوال العامية بزوال الأمية وانتشار التعليم. بل لقد بدأت هذه النهاية فعلاً. فإن اللغة التي يتفاهم بها عامة أهل المدن هي بالتأكيد غير ما كان يتخاطب بها آباؤهم منذ خمسين عاماً. إنها أقرب إلى الفصحى بفضل ما تذيعه الجرائد السيارة والمجلات المصورة وغيرها من صحيح الألفاظ والعبارات، ولن يمضي طويل حتى تصبح الحال كذلك في الأرياف فتدول دولة العامية ويسود مصر من أقصاها إلى

أقصاها لسان راق أكبر أملنا أن يتجدد به شباب لغة القرآن.
روح الفكاهة في لغة العرب الفصحى
ولسنا نخاف على روح الفكاهة من هذا التجديد، فالبرهان قائم على صلاحية الفصحى العصرية لما ينطوي عليه الخلق المصري من حب للمرح والدعابة. لقد طاوعت فكري أباظة إلى آخر حدود المطاوعة. وإن تأسف لشيء فلأنه لم يقع لنا من كلام الأستاذ شيء قضائي يمكن أن يجد له محلاً في هذا البحث. ولكن إن فاتتنا دعابة فكري أباظة القضائية فلم تفتنا لحسن الحظ دعابة عمر بك عارف. أنظر إليه وقد قام يترافع في قضية قذف مشهورة كان المتهم فيها موظفاً استباح لنفسه أن يتدخل في السياسة وجمح به قلمه مرة فنال من رجل كريم.
ولكن المتهم آثر التعرض للسياسة وما هو لها. وانصرف إلى التشيع فيها ورضي أن يكون موقفه منها موقف الزبانية من جهنم، فهو يطلع على خصومه يشع وجهه ناراً منتفخ الأوداج ينضنض بلسانه على لقم الطريق، إن تعرضوا له يلهث، وإن تركوه يلهث. ثم إذا فرغ من تعذيب الناس مما رماهم به من جارح القول عاد يتصبب عرقاً، وأخذ مجلسه من ديوان الصناعة والتجارة يمد يداً للوظيفة يعدها قرشاً قرشاً ويمسح عرقه بالأخرى كأنه أبلى في عمله الحكومي الذي أؤتمن عليه).
صورة بارعة بلغت فيها الدعابة الساخرة غاية ما يتمناه صاحب (النكتة البلدية) ولكن بلغة هي من أفصح ما يكون.
وليست مطابقة الكلام لقواعد النحو إلا عنصراً واحداً من عناصر لغة المرافعة الجيدة، فما هي عناصرها الأخرى؟
(يتبع)
زكي عربي
المحامي أمام محكمة النقض والإبرام
الثورة الأسبانية
بقلم باحث دبلوماسي كبير
كانت أسبانيا قبل بضعة أعوام تحيا حياة عادية، وتتمتع في ظل الملوكية بنوع من الاستقرار والسكينة، لا يزعجها سوى بعض الأزمات الداخلية والاضطرابات المحلية. ولكن أسبانيا شاءت منذ بضعة أعوام أن تحطم نير الملوكية، وأن تقيم حكومة جمهورية شعبية؛ وكانت الملوكية الأسبانية تحتضر في الواقع قبل ذلك بأعوام، في ظل حكومة الطغيان العسكري التي فرضها الجنرال بريمو دي رفييرا على أسبانيا منذ حوادث مراكش الشهيرة؛ وكانت أسبانيا تعاني مرارة هذا الطغيان المرهق ساخطة متربصة. فلما توفي الجنرال دي رفييرا اضمحل نير العسكرية؛ وحاولت الملوكية أن تستعيد سلطانها القديم، ولكن الشعب الأسباني كان قد سئم حياة الذلة في ظل النظم المطلقة، فانتهز فرصة الانتخابات العامة التي أجريت في ربيع سنة 1931 وأبدى رغبته جلية في مناصرة الجبهة الجمهورية، وشعرت الملوكية أنه لم يبق لها أمل في البقاء، فآثرت أن تنسحب في سكينة، وأن تترك الميدان حراً للشعب الذي لفظها وأباها.
وهكذا قامت الجمهورية الأسبانية نتيجة ثورة سليمة لم يشبها سيل الدماء، ولا ويلات الحرب الأهلية. واعتقد الشعب الأسباني، واعتقد العالم أن أسبانيا سوف تستقبل في ظل الجمهورية حياة جديدة من الحرية والسكينة والرخاء.
ولكن الجمهورية الأسبانية ولدت ضعيفة مفككة العرى، ولم يستطع زعماؤها منذ البداية أن يجمعوا كلمتها أو يوحدوا قيادتها ضد القوى الرجعية التي كانت تتربص بها؛ ومنذ البداية انحدرت الأحزاب والقوى الجمهورية إلى غمر الخصومات والمعارك المحلية. ونمت الحركة الاشتراكية في ظل النظام الجديد بسرعة، واستطاعت ولاية قطلونية مهد الاشتراكية الأسبانية أن تملي إرادتها على حكومة مدريد، وأن تفوز باستقلالها المحلي؛ وتوالت الأزمات الداخلية والاعتصابات المحلية، وزادت الأزمة الاقتصادية في حدة هذه الاضطرابات وخطرها على الجمهورية الفتية؛ وألفت الجمهورية نفسها عاجزة عن ضبط القوى التي أثارتها، وتعاقبت الحكومات بسرعة، وسارت البلاد مسرعة إلى الفوضى؛ ولم تدرك الأحزاب الجمهورية أنها بهذه المعارك المستمرة تمهد لفوز القوى الرجعية التي

تتربص بها.

وكان الجيش مهد هذه القوى الرجعية التي تناصرها فلول الملوكية الذاهبة؛ وقد دبر فلول الملوكية وفلول النظام القديم في الأعوام الأخيرة عدة محاولات ومؤامرات لإسقاط النظام الجمهوري، ولكنها فشلت جميعاً، لأنها كانت محاولات محلية لا تؤيدها قوة عامة. على أن روح التبرم والسخط كانت تضطرم دائماً في معظم وحدات الجيش؛ ولم ينس زعماء العسكرية أنهم تمتعوا بسلطان الحكم في عهد الطغيان العسكري، وأن قيام الحكومة الجمهورية إنما هو قضاء على سلطانهم ونفوذهم؛ ورأوا من جهة أخرى ما يشجع آمالهم ومشاريعهم في عجز الحكومة الشعبية، وتوالي الاضطرابات العامة، وسأم الشعب من هذه الفوضى التي يذكيها تفاقم الأزمة الاقتصادية، وتوالي الاعتصابات.

وقد ألفت العناصر العسكرية الناقمة فرصتها في الاضطرابات والاعتصابات الأخيرة التي دبرها الشيوعيون بالأخص، والتي ما زالت منذ أسابيع تزعج حكومة مدريد وتستنفد اهتمامها وقواها، فأعلنت خروجها على الحكومة، واتخذت (تيطوان) عاصمة مراكش الأسبانية قاعدة لها؛ وقد كانت مراكش الأسبانية وما زالت معقل العسكرية المتمردة؛ بيد أن زعماء الثورة كانوا قد اتخذوا أهبتهم في كثير من القواعد الأسبانية في الشمال والجنوب حيث تحتشد العناصر المعارضة لحكومة مدريد؛ وكان إعلان الثورة في الثامن عشر من يوليه في منطقة الحماية الأسبانية، حيث أعلن زعيم الثورة الجنرال فرانكو ثورة الجيش على حكومة الجمهورية، ووجوب تخليها عن الحكم. وفي الحال اجتازت عدة فرق من جيش مراكش البحر إلى الشاطئ الأسباني من جهة الجزيرة ومالقة. ولم تكن حكومة مدريد جاهلة بالأمر، بيد أنها اضطربت لقيام الثورة في عدة مناطق دفعة واحدة، وزاد في اضطرابها أن الوحدات البحرية والجوية التي سيرتها لمقاتلة الثائرين، وإطلاق قنابلها على تيطوان، انضم معظمها إلى الجيش الثائر.

وفي الحال اتسع نطاق الثورة، وانضمت حاميات الشمال في ولايات ليون وأراجون وجليقية إلى جانب الثورة؛ واخترق الجيش الثائر ولايات الجنوب بسرعة، واستولى على قواعد الأندلس: قادس وغرناطة وأشبيلية؛ واتخذ أشبيلية قاعدة للزحف على مدريد، وأعلنت القيادة الثائرة سقوط حكومة مدريد، وقيام حكومة أسبانية جديدة في الأندلس.

أما حكومة مدريد فلم تر أمامها بعد الذي رأته من تمرد القوى النظامية سوى الاعتماد على التجنيد العام. ولنلاحظ أنه في خلال الأيام الثلاثة أو الأربعة الأولى من قيام الثورة تعاقبت ثلاث وزارات في مدريد ولم تمكث إحداها سوى أربع ساعات، واستقال رئيس الجمهورية السنيور أزانا؛ وفي الحال حشدت حكومة مدريد قوات جديدة من بين العمال والطوائف الموالية لها وهي التي تجتمع حول الجبهة الاشتراكية، وسيرتها لمقاتلة الثوار في الشمال والجنوب مع بعض القوات النظامية التي لبثت موالية لها.

ومنذ أكثر من أسبوعين تضطرم أسبانيا بسلسلة لا نهاية لها من المعارك الدموية، وتقول الحكومة في بلاغاتها دائما إنها تقبض على ناصية الموقف وإنها دحرت الثائرين حيثما دارت رحى الحرب الأهلية. وتذيع القيادة الثائرة من محطات الإذاعة اللاسلكية في أشبيلية أنها دحرت قوى الحكومة، والأنباء المتضاربة تتوالى من الجانبين، بيد أنه يلوح من سير الحوادث والظروف أن جيش الثورة إذا استثنينا منطقة قطلونية الاشتراكية حيث دحرت العناصر الثائرة، يتقدم في معظم المناطق بسرعة؛ وقد أشرفت القوات الثائرة على مقربة من مدريد ونشبت بينها وبين قوات الحكومة معركة هائلة في (وادي راما) يقال إن الخسائر فيها بلغت من الجانبين زهاء عشرين ألفاً؛ والخسائر فادحة في جميع المناطق على وجه العموم، وخصوصاً في القوات غير النظامية التي حشدتها الحكومة من طوائف لا خبرة لها بالقتال. بيد أن قوات الحكومة استطاعت أن تقف زحف الثوار في الشمال. وأما في منطقة مدريد، فلا تزال المعارك دائرة حتى كتابة هذه السطور؛ والظاهر أن قوات الحكومة استطاعت أن تصمد في وجه الثائرين، لأن زعماء الثورة يقولون إنهم يعتمدون في سقوط مدريد على الحصار وقطع مواصلاتها حتى تضطر إلى التسليم جوعاً.

ويقول زعيم الثورة الجنرال فرانكو، إن الثورة ترمي إلى إنقاذ أسبانيا من براثن

الشيوعية وانتشالها من تلك الهوة السحيقة التي تتردى فيها مذ غلبت عليها أحزاب اليسار واستولت على مقاليد الحكم، وإن الروح الثورية قد أضرمت في الشعب واستغلت لجانب الشيوعية، وإن الجيش لا يستطيع صبراً على تلك الحال المخزية التي تبدو بها أسبانيا أمام العالم، وإنهم قد اعتزموا إنقاذ أسبانيا من قبضة أعدائها الذين كادوا أن يقضوا على كيانها الاقتصادي. ويقول في بلاغه الذي أصدره إلى الجيش: (إن الاعتصابات الثورية تشب من
كل جانب وتشل حياة الأمة، وتقضي على رفاهتها، وتدفع بالشعب الأسباني إلى الجوع واليأس، وإن ذخائر أسبانيا الفنية قد أضحت عرضة لهجمات الجموع الثائرة التي تصدع بأمر الأجنبي، وتمقتها السلطات؛ وإن الأمة تدعو الجيش اليوم وتناديه لإنقاذها. . . الخ).

أما برنامج الثورة فيلخصه الجنرال فرانكو فيما يأتي: تحقيق السلام والإخاء بين جميع الأسبانيين، وضمان العمل والعدالة الاجتماعية، والقضاء على الانتخابات المزيفة، والاعتصابات المدبرة، وحماية الحكومة المدنية من كل النزعات الثورية، وحماية أسبانيا من الدسائس الأجنبية التي تعمل لخرابها. . .

على أننا نستطيع أن نتبين من خلال هذه الحوادث والظروف حقيقة أخرى، هي أن الحرب الأهلية تضطرم في أسبانيا من جبهتين من المبادئ، أعني بين الديمقراطية والفاشستية، وهذه هي نفس المعركة التي نشبت وما زالت تنشب في كثير من الأمم الأوربية بين قوى الطغيان والديمقراطية. ولا ريب أن الفوضى التي تعانيها أسبانيا منذ قيام الجمهورية، والأزمات الداخلية المستمرة، هي ذريعة القوى الرجعية في القيام بحركتها، وهي التي أدت بالحكومة الجمهورية إلى هذا الضعف الذي يعرضها إلى السقوط. ونلاحظ أن أسبانيا توجد اليوم في ظروف تماثل ظروف إيطاليا قبل قيام الفاشستية؛ فقد انتهت بها الاضطرابات الاشتراكية المتوالية إلى مثل الحالة التي تعانيها أسبانيا اليوم وألفت الفاشستية، أو بعبارة أخرى قوى الطغيان الفرصة سانحة للقيام بوثبتها، والقبض على ناصية الحكم إلى يومنا هذا.

وليس من ريب في أن العسكرية الأسبانية المتمردة ترمي بوثبتها إلى غايات فاشستية محضة؛ ومهما كان من الصيغ والتصريحات الخلابة التي تستتر وراءها في القيام بحركتها، فإن ظفرها يعتبر خطراً على أسبانيا من الوجهة الدستورية؛ ذلك أن قيام الدكتاتورية العسكرية معناه القضاء على النظام الجمهوري، وما يترتب عليه من الحقوق والحريات العامة، والعودة إلى نظام الطغيان الذي أنشأه الجنرال دي رفييرا قبل ذلك بعشرة أعوام، وربما كان ظفر العسكرية من جهة أخرى مقدمة لعود الملوكية الأسبانية، وقيامها ثانية في كنف العسكرية الطاغية، ورهن نفوذها وإشارتها.

وثمة حقيقة أخرى، هي أن هذه المعركة التي تضطرم اليوم في أسبانيا بين قوى الطغيان
والديموقراطية بصورة مادية مروعة، إنما هي ناحية من المعركة العامة التي تدور رحاها اليوم في أوربا بأسرها، تارة في الجهر وتارة في الخفاء، وربما كان من الصعب اليوم أن نتبين نتائج هذه المعركة الحالية في المستقبل القريب؛ بيد أن الذي لا ريب فيه هو أن الديموقراطية فقدت كثيراً من قوتها القديمة، وأدت بضعفها وتخاذلها وما كشفت عنه في الأعوام الأخيرة من نواحي الفساد، إلى إضعاف العقيدة الديموقراطية وتحول جانب كبير من أنصارها إلى الجبهة الخصيمة؛ وهذا وجه الخطر في مستقبل الديموقراطية. وإذا أسفرت المعركة الحالية في أسبانيا عن فوز العسكرية الطاغية، فإن ذلك يكون ضربة جديدة للديموقراطية بأسرها، وعاملاً جديداً في انتعاش القوى الرجعية، ونذيراً بالمستقبل المظلم الذي يهدد الديموقراطية في جميع البلاد التي لا زالت تصمد فيها.

(* * *)

البداوة في طباع أبي الطيب

للدكتور عبد الوهاب عزام

في خلق أبي الطيب قوة وخشونة تميلان به إلى كل قوي وكل خشن، وتعدلان عن كل ضعيف وكل ليّن؛ وفي خلقه صراحة تحبب إليه كل صريح من القول والفعل والمرأى، وتنفره عن كل مموّه مزخرف.

وقد لاءمت هذه الأخلاق التندّي، وزادها التبدي تمكناً فيه، وظهر أثر هذا في فعله وقوله.
وسأمرّ بسيرة أبي الطيب سريعاً منبّهاً إلى الحادثات والأقوال الدالة على حبه البداوة، والمبينة عن تمكن البداوة في طبعه، وأثرها في نفسه:
- 1 -
عاش الشاعر في البادية حقبة وهو صبي. روى الخطيب البغدادي عن محمد بن يحيى العلوي الكوفي أن أبا الطيب صحب الأعراب في البادية سنين ثم رجع إلى الكوفة بدوياً قحّاً.
وعاش في الشام بين البدو والحضر. وبعض من وحيه هناك من رؤساء البادية مثل سعيد بن عبد الله الكلابي، وشجاع بن محمد الطائي.
وهو يقول في الشام:
أوانا في بيوت البدو رحلي ... وآونة على قتد البعير
أعرّض للرماح الصمّ نحري ... وأنصب حرّ وجهي للهجير
وأسري في ظلام الليل وحدي ... كأني منه في قمر منير
ويقول:
ومُّدقعين بسُبروت صحبتهم ... عارين من حلل كاسين من درن
خرابّ بادية غْرثى بطونهم ... مَكن الضباب لهم زاد بلا ثمن
يستخبرون فلا أعطيهم خبري ... وما يطيش لهم سهم من الظنن
- 2 -
وفي مصر حنّ إلى البادية، وفضّل البداوة على الحضارة، وتغزل بالبدويات في القصيدة
التي مطلعها:
مَن الجآذر في زي الأعاريب ... حمر الحلي والمطايا والجلابيب
يقول فيها:
ما أوجه الحضر المستحسنات به ... كأوجه البدويات الرعابيب
حسن الحضارة مجلوب بتطرية ... وفي البداوة حسن غير مجلوب
أين المعيز من الآرام ناظرة ... وغير ناظرة في الحسن والطيب
أفدي ظباء فلاة ما عرفن بها ... مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب
ولا برزن من الحمام مائلة ... أوراكهن صقيلات العراقيب
ومن هوى كل من ليست مموهة ... تركت لون مشيبي غير مخضوب
ومن هوى الصدق في قولي وعادته ... رغبت عن شعر في الرأس مكذوب
وكانت له في مصر مع بعض رؤساء القبائل مودة. فلما أزمع الرحيل مغاضباً كافور استعان بأحد أصدقائه عبد العزيز ابن يوسف ببلبيس وسأله دليلاً فأنفذه إليه، وقال في هذا:
جزى عرباً أمست ببُلبَيس ربُّها ... بمسعاتها تقرر بذاك عيونها
كراكر من قيس بن عيلان ساهراً ... جفون ظباها للعلى وجفونها
وخصّ به عبد العزيز بنَ يوسف ... فما هو إلا غيثها ومعينها
فتى زان في عينيّ أقصى قبيله ... وكم من فتى في حلة لا يزينها
وكان سيره من الفسطاط إلى الكوفة برهاناً بيناً على ما تمكن في نفسه من أخلاق البادية وعاداتها، ودليلاً على خبرته بالسير في البيادي، فقد سلك طريقاً أنفا لا تسلكه القوافل. ذكر في قصيدته التي وصف بها سفره اثنين وعشرين موضعاً ليس على السبل المطروقة منها إلا اثنان أو ثلاثة، فما سلك طريق الحاج المصري إلى الحجاز، ولا طريق دمشق إلى الكوفة، ولا طريق الفرات، بل سار على أحياء البادية، والمياه الموروده والآجنة حتى بلغ غايته.
وكانت له في مسيرة وقائع تمثله بدوياً قحاً خبيراً بقبائل البادية وعاداتها، مزوداً بجرأة الأعراب وإقدامهم:
لما بلغ نخلاً في سينا ألفى خيلاً صادرة عن الماء، فأشفق أن يكونوا عيوناً عليه أو عدواً له، فقاتلهم وغلبهم. ولما قرب من النقاب رأى رجلين فطردهما وأخذهما فأخبراه أنهما رائدان من بني سليم فخلاهما وسار وهما معه حتى توسط بيوت بني سليم آخر

الليل فضرب له ملاعب بن أبي النجم خيمة بيضاء، وذبح له، وغدا فسار إلى النقع فنزل ببادية من معن وسنبس فذبح له عُفَيف المعنىّ غنما وأكرمه، وغدا من عنده وبين يديه لصان من جذام يدلانه.

ولما بلغ حسمي في شمالي الحجاز وجد بني فزارة شاتين بها، فنزل بقوم من عدي فزارة فيهم أولاد لاحق بن مجلّب، وكان بينه وبين أمير فزارة حسان بن حكمة مودة، وأراد ألا يعلم ما بينه وبينهم من ودّ فنزل بجار لهم من طيء.

واستطاب أبو الطيب حسمي فأقام بها شهراً، وما أحب المقام بالبادية إليه! ثم استراب ببعض عبيده، وظن أنهم يسرقون أمتعته، ويريدون سرقة سيف ثمين كان معه، أغراهم على هذا وردان بن ربيعة، فأرسل إلي فتى من بني مازن اسمه فليتة ابن محمد، وكان قد عرفه من قبل، فلما جاءه المازنيّ تقدم شاعرنا فشد أحماله وعبيده نيام ثم أيقظهم وطرحهم على الإبل وسار والقوم لا يشعرون.

وأخذ بعض العبيد السيف فدفعه وفرسه إلى عبد آخر. وجاء إلى فرس أبي الطيب ليأخذه فانتبه الشاعر البدوي الشجاع فقال العبد مخادعاً: أخذ الغلام فرسي. عدا إلى فرس سيده ليركبه فالتقى هو وأبو الطيب عند الفرس. وسل العبد السيف فضرب الرسن فضرب أبو الطيب وجهه فقتله: وأرسل رجلاً من بني خفاجة وآخر من بني مازن ليدركا العبد الذي أخذ السيف فلم يقدرا عليه.

وفي قتل العبد يقول الشاعر:

أعددت للغادرين أسي ... افاً أجدع منهم بهنّ آنافا
لا يرحم الله أرؤساً لهم ... أطرن عن هامهن أقحافاً
ما ينقم السيف غير قلتهم ... وأن تكون المئون آلافا
يا شر لحم فجعته بدم ... وزار للخامعات أجوافا
قد كنتَ أُغنِيتَ عن سؤالك بي ... من زجر الطير لي ومن عافا
لا يذكر الخير إن ذكرت ولا ... تتبعك المقلتان توكافا
إذا امرؤ راعني بغدرته ... أوردته الغاية التي خافا

وأراد أبو الطيب أن يسلك إلى مكان اسمه البياضي فأرسل فليتة إلى الأعراب الذين في طريقه فعميت عليه أنباؤهم، وخشي أن يكون له على طريق رصد، فعدل إلى دومة الجندل. وواصل سيره حتى بلغ الكوفة في شهر ربيع الأول سنة 352 بعد ثلاثة أشهر من خروجه من الفسطاط.

فهل يستطيع أن يسير هذا المسير، ويفعل هذه الأفعال إلا بدوي جريء خبير بالبوادي؟ أليس في هذا تصديق قوله:

الحيل والليل والبيداء تعرفني ... والسيف والرمح والقرطاس والقلم

لا يحق له أن يفخر به فيقول:

فلما أنخنا ركزنا الرما ... ح بين مكارمنا والعلى
وبتنا نقبّل أسيافنا ... ونمسحها من دماء العدى
لتعلم مصر ومن بالعرا ... ق ومن بالعواصم أيّ الفتى
وأني وفيت وأني أبيت ... وأني عتوت على من عتا
وما كل من قال قولاً وفَى ... ولا كل من سِيم خسفاً أبى
ومن يك قلب كقلبي له ... يشق إلى العزّ قلب النوى
ولا بد للقلب من آلة ... ورأي يصدّع صمّ الصفا

وفي هذه القصيدة روح البداوة وألفاظها. انظر قوله:

وقلنا لها: أين أرض العرا ... ق فقالت: ونحن بتربان ها
واسأل اليوم بدوياً عن مكان قريب يقل لك: ها

وفي قصة هجاء ضبة بن يزيد العيني دليل آخر على تبدّيه. فقد اجتاز بالطفّ فنزل بأصدقاء له. وساروا إلى ضبة وسألوه أن يصحبهم فلم يسعه إلا المسير معهم، كما يقول الشاعر في بعض الروايات:

فسير الشاعر مع أصدقائه إلى قتال ضبة أو إرهابه دليل على ما تمكن في نفسه من عادات البادية.

- 5 -
ولما رحل إلى فارس افتقد الوجه العربي واليد العربية واللسان العربي فقال وهو يصف شعب يوان:
ولكن الفتى العربي فيها ... غريب الوجه واليد واللسان
ملاعب جنة لو سار فيها ... سليمان لسار بترجمان
وافتقد عرب دمشق الذين كانوا يكرمون مثواه فقال:
ولو كانت دمشق ثنى عناني ... لبيق الثرد صيني الجفان
يَلَنجوجيّ ما رُفعت لضيف ... به النيران نَدَّى الدخان
تحل به على قلب شجاع ... وترحل منه عن قلب جبان
منازل لم يزل منها خيال ... يشيّعني إلى النوبند جان
وذكره الثرد والنار يدلنا على أنه يريد بادية دمشق لا حاضرتها.
وقال في أول قصيدة مدح بها عضد الدولة:
أحب حمصاً إلى خناصرة ... وكل نفس تحب محياها
حيث التقى خدها وتفاح لب ... نان وثغري على حُميّاها
وصفت فيها مصيف بادية ... شتوت بالصحصحان مشتاها
إن أعشبت روضة رعيناها ... أو ذكرت حلة غزوناها الخ
ورجع إلى التغزل بالبدويات في شيراز فقال في القصيدة التي مطلعها:
أثلث فأنا أيها الطلل ... نبكي وترزم تحتنا الإبل
إن الذين أقمتَ وارتحلوا ... أيامهم لديارهم دول
الحسن يرحل كلما رحلوا ... معهم وينزل حيثما نزلوا
في مقلتي رشأ تديرهما ... بدوية فتنت بها الحلل
تشكو المطاعم طول هجرتها ... وصدودها ومن الذي تصل
ما أسأرت في القعب من لبن ... تركته وهو المسك والعسل
وقصة قتله برهان آخر على ما ندعي فقد حذره أبو نصر الجيلي وأشار عليه أن يستصحب خفراء فأبى أن يسير في خفارة.
- 6 -
وشعر أبي الطيب تتجلى فيه قوة البداوة وعزتها. ومن آثار البداوة فيه تهاونه في خطاب الممدوحين. وخروجه عن الألف أحياناً. ولذلك أخذ عليه النقاد مآخذ لا يتسع المقام لذكرها.
ومن أثارها كذلك الكلف بالحرب وآلاتها والخيل، والسفر. وشعره مليء بهذا.
ومن ذلك وصفه الحبيبة بالمنعة كقوله:
حبيب كأن الحسن كان يحبه ... فآثره أو جار في الحسن قاسمه
تحول رماح الحظ دون سبائه ... وتُسبي له من كل حيّ كرائمه
ويُضحي غبار الخيل أدنى ستوره ... وآخرها نشر الكباء الملازمه
وما شرقي بالماء إلا تذكراً ... لماء به أهل الحبيب نزول
يحرّمه لمع الأسنة فوقه ... فليس لظمآن إليه وصول
متى تزر قوم من تهوى زيارتها ... لا يتحفوك بغير البيض والأسل
سوائر ربما سارت هوادجها ... منيعة بين مطعون ومضروب
وربما وخدت أيدي المطيّ بها ... على نجيع من الفرسان مصبوب
ومن أثر البداوة استعماله بعض الألفاظ الغريبة أحياناً، بما أَلِف من خطاب الأعراب والأخذ عنهم.
وقد رأيته في كثير من تعليقاته على ديوانه يحتج بما سمع عنهم، واكتفي هنا بمثال واحد:
قال في قصيدة يعزي بها عضد الدولة:
مثلك يُثنى الحزن عن صوبه ... ويستردّ الدمع من غربه
أيما لأبقاء على فضله ... أيما لتسليم إلى ربه
ثم أتى بشواهد على وضع العرب أيما مكان إمّا إلى أن قال:
وقد ظلع فرس لي فقال فلان الأعرابي وكان من أفصح الناس:
أيما نسره مفلوق، وأيما موهوص

ذلكم إجمال الكلام في بداوة أبي الطيب.
ولست أقول إن البداوة أنتجت هذه النتائج في أخلاقه وشعره، ولكني أقول إن بين طباعه وشعره وبين البداوة صلة قوية، غرائز في الشاعر حببت إليه البداوة وما يتصل بها، وبداوة وكّدت هذه الغرائز في نفسه.
وبهذه الأخلاق الحرة، والطباع القوية، والشجاعة والإقدام كان أبو الطيب أقرب إلى الروح العربي من غيره.
ولو أن عمرو بن كلثوم، وعنترة العبسي، والحارث بن حلزة عاشوا في القرن الرابع الهجري حيث عاش أبو الطيب لأشبهوه في كثير من قوله وفعله.
عبد الوهاب عزام
دانتي أليجييري - 4
والكوميدية الإلهية
وأبو العلاء المعري ورسالة الغفران
فردوس دانتي
في آخر المطهر أن دانتي تحسى من فرات (ليث) جرعة نزعت ما في نفسه من أدران هذه الدنيا التي لا يجوز لمن ينطوي عليها أن يجوس خلال الفردوس. . . وهي جرعة إلهية جعلت من جسم دانتي هلاماً شفافاً وهيولى نقية استطاع بعدهما أن يرقى في السماء، ويعرج في الأثير، في إثر بياتريس. (1) وأخذ طيف بياتريس يصَّعَّد في الأديم الأزرق المشرب بنضارة البنفسج، وأخذ طيف دانتي يصَّعَّد في إثرها بقدرة الإله العلي، حتى كانا في السماء الأولى، والفتاة الطاهرة في خلال ذلك تحدثه وتتلطف به، وترفه عنه بعض ما كان يضيق به صدره من وساوس. (2) إلى أن دخلا تلك الجنينة الصغيرة التي أرضها من فضة وأنهارها من لجين. . . جنينة القمر! حيث تشرح بياتريس لحبيبها المشدوه سبب تلك الظلال التي تعلو وجه السيار الصغير، والتي يراها الناس من سكان الأرض في هذه الحياة الدنيا. (3) وفي رحاب القمر، يلقى دانتي الفتاة بيكاردا دوناتي التي تأخذ معه في حديث طويل، فتخبره أن هذا القمر هو جنة المساكين الذين نذروا حياتهم للخير في الدار الأولى، وعاشوا عيشة كلها تقوى وكلها بر وورع، ولكنهم، وا أسفاه، لأمور ما، لم يوفوا بكل ما نذروا من فعل الخيرات، ثم تلفته إلى روح الإمبراطورة كوستانزا، تمرح في بعض جنبات القمر، وتلعب. (4) وتنطلق بياتريس، وفي إثرها دانتي، وكلما عمى أمر عليه جلته له صاحبته، (5) حتى يكونا بعد رحلة سماوية جميلة، في كوكب عطارد الذي يقع في السماء الثانية؛ وثمة، يلقيان ثلة من أرواح البررة الأطهار ويتبرع أحدهم فيبدي استعداده للإجابة عن أي سؤال يلقى عليه من أمور الماضي أو الحاضر أو المستقبل. (6) ثم يعرف دانتي أن الشخص الذي عرض عليه هذا العرض إن هو إلا الإمبراطور العظيم جوستنيان الذي يذكر للشاعر من أمور الحياة الأولى، فيما يتعلق بشخصه الإمبراطوري، الشيء الكثير، ويشرع بعد ذلك يحدثه عن عظمة الرومان القدماء، ويعدد له فتوحهم وخوالد غزواتهم التي
دوخوا بها أقاصي الأرض في ظلال بنودهم التي تحمل رمز رومة الخالد. . . النسر. . .
ويذكر له أن روح روميو فلنيف تمرح في رياض عطارد ذات الزهر والأفواف. (7) وتتفرق الأرواح عن دانتي، وينطلق جوستنيان غير مستأذن، ولكن شكوكاً كثيرة تثيرها كلمات الإمبراطور في نفس الشاعر من أجل الفداء البشري، فتشرع بياتريس تقشعها واحداً فواحداً من نفس خليلها؛ (8) ويعرجان إلى السماء الثالثة حيث الكوكب الجميل المتلألئ فينوس (الزهرة)، وحيث يلقى الشاعر صديقه العزيز الكريم شارل مارتل الذي يحدث دانتي عن مملكته الواسعة المترامية الأطراف التي كان يسيطر عليها في الدار الأولى، ثم يتغير الحديث فجأة إلى الأبناء والأحفاد والسبب في اختلاف فطرتهم وطبائعهم عن طبائع آبائهم (9) ويمضيان فيلقيان روح ابنة الهوى كيونيزا التي طالما فتنت قلوباً وعذبت بحبها أفئدة، والتي كانت تملأ الأرض فسوقاً وتفعم المدائن دعارة، ثم تابت وثابت، وندمت على ما قدمت، وأقبلت على فعل الخيرات؛ وحدث أن ورثت عن أبيها عدداً من الأرقاء فمنحتهم حريتهم، وبذلك غفر لها وتُقُبِّل توبتها، وهي في هذا المكان من فينوس لا تطمع في درجة أعلى؛ ويمضيان فيلقيان فولكو الشاعر المنشد

فيحدثهم عن الزانية، خضراء الدمن، رحاب التي تابت هي الأخرى فغفر لها، وسكنت هذا الكوكب مع كيونيزا. وبعد أن ينتقد الشاعر فولكو بابا روما وينعى عليه تغاضيه عن استرجاع الأراضي المقدسة يعود فيتنبأ عن بعض الكوارث التي تتربص به طي الغيب، والتي ستسحق سلطته. (10) ويعرجان صعداً فيكونان في الشمس (!!) التي يعتبرها دانتي السماء الرابعة، وما يكادان يبلغانها حتى تحدق بهم ثلة من اثني عشر روحاً، ويتقدم أحدهم (توماس أكويناس) فيقدم أصحابه إلى دانتي ويخبره عن درجاتهم (11) ثم يتوسع أكويناس في سرد حياة القديس فرنسيس، الراموز الملائكي للحب، ويلحظ أثارة من الريب تنشب في فؤاد دانتي فيحدثه عنها ويجلو له الحق الذي يمترى فيه. (12) وتقبل ثلة أخرى من اثني عشر تقياً فيتقدم أحدهم (القديس دومينيك) ويسرد أسماء أصحابه لدانتي. والقديس دومينيك هذا هو الراموز الملائكي للحكمة. (13) ويعود توماس أكويناس إلى حديثه مع دانتي، وكلما لمح أثارة من الشك في نفسه نبأه بها وجلاها له، وحذره من الوسواس وحذره من أن يحكم بقلبه أو عقله على شيء دون أن يدرسه ليصل إلى حقيقته. (14) ويبرز سليمان النبي من وسط الجماعة فيحدث دانتي عما يكون من مظهر الصالحين من عباد الله بعد البعث. ثم يعرجان إلى السماء الخامسة التي هي مارس (المريخ) في زعم دانتي، ويريان ثمة أرواح الشهداء الذين حاربوا تحت رايات الصليب الخفاقة، ولم يخشوا في سبيل ربهم أن يجرعوا غصص الموت. . . أولئك قد بدت عليهم سيماء الصليب، وما تفتأ أرواحهم ترسل في الفردوس أناشيد الخلود المرنة تطريباً لعباد الله السعداء. (15) ويبرز من بين الملأ سلف دانتي الصالح كاشيا جيداً، ويأخذ مكانه تحت الصليب، ثم يتعرف إلى دانتي الذي يفرح به ويهش للقائه، ويأخذ في حديث طويل عن ماضي فلورنسا السعيد الحافل وينعى على الخلف ما فرطوا في جانب الوطن وما أوضعوا في الفتنة، ومرجوا في الضلالة (16) ويخبر دانتي عن يوم ميلاده، ويصف له مجد فلورنسا ومدى حدودها في أيامه والأسر العريقة التي كانت تزدان بها تلك المدينة الشيقة التي انحطت أرومتها وفسد طيب محتدها واتضعت أقدار القروم من أهلها الأعلين (17) ويرسل كاشيا جيدا حبل القول فيتنبأ لدانتي عما يتربص به من غدرات الزمان والنفي من حظيرة الوطن حين يعود أدراجه إلى الحياة الدنيا. ثم ينتحي ناحية ويتناول طرساً من أوراق الجنة، وقلما من قصباتها ويشرع في كتابة شعر طويل ريق. (18) ويمضيان فيريان طوائف شتى من أرواح المحاربين الشهداء الذين خاضوا معامع الحروب الصليبية يمرحون في أفياء الجنات الوارفة التي يهتز عنها المريخ؛ ثم ترسل بياتريس عينيها العميقتين في لازورد السماء، وتشير إلى دانتي فيعرجان في الأثير إلى جوبيتر (المشتري) الذي هو السماء السادسة في حساب شاعر الكوميدية وهناك يلقيان جموعاً زاخرة من أرواح الصالحين الذين حكموا بين الناس بالعدل ووزنوا بالقسطاط المستقيم. ويكون هؤلاء أنَّى توجهوا مكونين دائماً شكل نسر (رمز رومة القديمة). ثم ينتهي الفصل بحملة شعواء على رجال الأكليروس وما اشتهروا به من الطمع وحب الذات والتكالب على حطام الدنيا وجمع الأموال بالحق وبغير الحق؛ ويخص دانتي رجال البابا بالقدح الأكبر من هذه الحملة (19) ويتكلم النسر الذي تكوّنه هذه الجماعة بلسان واحد مبين، فيقص على دانتي السبب الذي من أجله اتُّخذ رمزاً لعظمة الرومان. ثم يتكلم دانتي كلام المتشكك عما إذا كان محتملاً أن (يَخْلُصَ) الرجل من الناس من عذاب الجحيم من غير أن يكون مؤمناً بالمسيح مصدقاً به، فينبري النسري للإجابة ويزيل الريب من نفس دانتي ويخاطبه في شأن أصحاب السيطرة والحكام من المسيحيين وما سيؤدونه من الحساب الثقيل يوم القيامة. (20) وكذلك يمتدح النسر عدل بعض الملوك وورعهم، ويكوِّن هؤلاء عين النسر نفسه، وفي إنسان عين النسر يقف النبي داود، وفي الدائرة المحيطة به يقف تراجان وحزقيال وقسطنطين ووليم الثاني ملك صقلية وزفيوس. . . ثم يوضح له كيف وصلت أرواح هؤلاء إلى الفردوس وهم لم يؤمنوا بالمسيح (ولكنهم عملوا بما جاء قبله من لدن الرب فاستأهلوا دار المثابة). (21) ويسموان في السماوات العلى، فيبلغان السماء السابعة التي هي سَاتِرْن (زُحَل) حيث يسمق منه سلم ذاهب في الجو لا تدرك آخره عينا دانتي. وفي زحل يلقيان أمماً من أرواح الصالحين الذين قضوا حياتهم الأولى في اعتزال وصوفية وتأمل. ثم يدنو منهما روح كريم نقي، وهو روح خليل المسيح الورع التقي بييرو داميانو (أحد كرادلة

الكنيسة ومصلحيها العظماء) فيجيب على أسئلة كثيرة يوجهها إليه دانتي، ثم يقدح في ذمم القسس الأخسّاء ورعاة الكنيسة الذين فتنتهم الدنيا بزخرفها وصرفتهم عن وظائفهم الدينية وشغلتهم عن هداية الناس. (22) ويريان جموعاً أخرى من الأتقياء المتفكرين ومن بينهم القديس الأطهر بندكت الذي يذكر لدانتي أسماء أصحابه الراضين في ظلال الرب في فراديس زحل. ثم يستطرد فيذكر أن المسوح والزنارات وسائر ألبسة القساوسة ورجال الكنيسة لا قيمة لها ما لم تزنها مسوح من الخلق الكريم والتقى والنقاء. ويزيد فيقدح في خراب ذمم الرهبان والأحبار وفساد ضمائرهم. وينطلق الألفان فيعرجان إلى السماء الثامنة، سماء الأنجم الثابتة، التي يدخلانها من الهَنْعَة. ومن ثمة يرجع دانتي بصره كرتين إلى الوراء فتبدهه المسافة الهائلة بينه وبين الأرض (23) وهناك، يرى المسيح (صلوات الله عليه) يأخذ بناصر الكنيسة ويشد أزرها، ومن حوله الملائك الأطهار يسبحون لله ويلهجون بحمده. ثم يسمو السيد المسيح فيعرج في السماء العليا وفي أثره أمه البتول مريم، شاخصة إليها أبصار الجميع. (24) ويتقدم القديس بطرس من دانتي فيسأله بضعة أسئلة يعرف بها إخلاصه ونقاء إيمانه، ويجيب دانتي فيقنع القديس بالكلم الطيب والبيان البريء (25) ويتقدم القديس جيمس فيسائل دانتي عن الأمل، ثم يبدو القديس يوحنا فيدهش دانتي لرؤيته، ولكن القديس يمحو دهشه ويذكر له أنه عرج إلى السماء بروحه فقط، ولم يعرج إليها بروحه وجسمه إلا المسيح وأمه مريم. (26) ثم يسائله القديس عن الفضيلة فيجيب دانتي إجابات ناصعة. وينظر الشاعر فيشدهه أن يرى أبانا آدم، فيتأدب ويتقدم إليه، فيخبره أبو البشر عن كيفية خلقه وإقامته في الفردوس ومدى إقامته فيه، ثم ما تلا ذلك من خروجه منه وسببه، ثم عوده إليه، ويتظرف فيذكر له أسم اللسان الذي كان يتكلم به في بدء الخليقة ويعود القديس بطرس فيصل حديثه، ويحمل على خلفه حملة شعواء لما اتصفوا به من جشع ذهب برواء الأبرشية الرسولية، وينسى دانتي فيحدق نظره في بياتريس غافلاً عما أوصته به في أول الرحلة إلى الفردوس فتأمره أن يغضي. . . . فيفعل. . . . ثم يعرجان إلى السماء التاسعة حيث يطلعان على الحق الجلي من أمر هذا الخلق، وحيث يشهدان فطرة الطبيعة في جماع فضائلها، وتسخط بياتريس على الإنسان (ما أكفره. . . يكون أمامه الخير بيّنا والشر بيّنا، ثم يدلف بعلمه في طريق الشر، مضحياً هذا الفردوس من أجل هنات هينات) (28) ويؤذن لدانتي فيطلع إلى الوجود الإلهي، ثم يطلع إلى الخورس الملائكي يرسل ألحانه الكنائسية الرائعة في قبة الفردوس. (29) وتنظر بياتريس في مرآة الحق الإلهي (هكذا) فترى أن بضعة شكوك قد نفذت إلى فؤاد دانتي وظلت ثمة تساوره، فتضاحكه، ثم تفجأه بما يفكر فيه، وتجلو له ما نفذ إلى قلبه من ذلك الوسواس، وتذهب في القول مذاهب شتى، وتنتهي إلى ذم رجال الدين الذين شغلتهم الدنيا عن نصرة الإنجيل. (30) ثم يدخلان سماء المنتهى ذات السناء الساطع والضوء اللامع، ويكاد نظره ينبهر لولا أن تدركه بياتريس. . . ويرى إلى نهر الضوء المتألق فينظر كيف ينتصر الملائك على شرور العالم وكيف ينتصر معهم المؤمنون المباركون. (31) ويتلفت الشاعر فلا يجد فتاته إلى جانبه، بل يجد مكانها رجلاً طاعناً في السن إذا تفرس فيه عرف فيه القديس برنارد الذي يخبره أن بياتريس قد عادت إلى عرشها ثم يريه بركات العذراء مريم عليها السلام (32) ثم يريه كذلك أرواح القديسين الذين وردت أسماؤهم في العهدين (الجديد والقديم) (33) ثم يدلف القديس برنارد نحو البتول الكريمة فيرجوها أن تمنح بركتها لدانتي وتسبغ عليه من نورانيتها حتى يستطيع التأمل في عظمة الله. وتهب له مريم ما سأل، فينكشف الغطاء ويلقى دانتي ربه فيصلي له ويضرع إليه أن يهبه إشراقة يضفيها على كتاباته وأشعاره. ثم يؤذن له فيخطف لمحة من الثالوث المبارك العظيم الذي يتحد فيه الله القدير (جل وتعالى) بالإنسان.

ويفيق دانتي، وتنتهي رؤياه العجيبة. وسنرى من الكلمات التالية كيف اقتبس الشاعر صور القرآن الكريم وأخيلة الإنجيل الجميلة، وطريقة فرجيل في الجزء السادس من الأنييد، فتم له هذا العمل الفريد.

(لها بقية)

د. خ

من الشعر المنثور
فجر القبرة
(مهداة إلى صديقي الأمير عمر الأيوبي)
للأستاذ خليل هنداوي

كثيرون يعرفون القبرة بشكلها الرمادي الأدكن وصوتها الرفيع المرنان، ولكن القبرة من الطيور الغريبة في حياتها وتأملها للحياة. . . . روحانية تبلغ أسمى ما تبلغه الروح، ومادية تنحط كثيراً؛ ففي حالتها الأولى تراها تغزو أطباق الجو عند منبلج الفجر تردد الغناء سكري بالجمال حتى إذا بزغت الشمس فزعت إلى الأرض تفتش عن غذائها، ذاهلة عن غنائها، ومثل هذا المشهد قد يصور أحسن تصوير حالة الذين يرقون إلى شمس المعرفة بأرواحهم ثم لا يقدرون على مقابلتها فيهبطون. . فلا الأرض تذهلهم عن السماء ولا السماء تفصلهم عن الأرض، ولا شوقهم بمنطفئ، ولا أرواحهم بساكنة. .. . هؤلاء هم كهذه القبرة

(خ. هـ)

!أسمعها: أسمعها بعيدة عني، دانية مني
أسمعها يشق غناؤها الفضاء الذي تفتح جفناه
!أسمعها يتسلل شعاع قلبها مع شعاع الفجر
قد انجلت - يا قبرتي - غياهب الليل بعد ما ظننت أن هذا الليل سرمد لا يزول
وانزاحت عن الأفق كتائب الظلمة بعد ما خلت أن هذه الألوان الربداء لا تحول
. . .أراك تمعنين في التحليق
حتى لا أرى أنامل الفجر تجذبك إليها
فماذا تركت في الجو بالأمس؟
أشيئاً تتفقدينه كل مطلع فجر؟
أم أمانة تستلمينها من الفجر؟
!أرى جناحيك يرفان ويخفقان
يربدان طوراً وطوراً يلتهبان
وصوتك الهازج المرن يصعد في السماء
تسمعه الأرض فتهتز قليلاً ثم يتوارى كأن لم يكن شدو ولا شاد
هي سكرة قدسية يا قبرتي ترفعك إلى الأوج السامق
ترفعك على جناحي الشوق وتنطقك بلغة الغناء
!فما أسمى هذه السكرة التي لا يتخللها صحو
وما أبدع هذا الشوق الذي لا يطفئه وصال
أنت من فجرك أيتها القبرة في صعود دائم
أنت من شوقك في وصال قائم
تمجدين الشمس قبل بزوغها وترفعين إليها صلاتك وغناءك قبل شروقها
. .حتى إذا لمعت في الأفق ووقعت عيناك على نورها الخاطف
!فررت إلى أطباق الأرض غاشية العينين، واجفة الفؤاد
ألا تتمهلين قليلاً حتى تراك الشمس
!وأنتِ في الأطباق العالية تغنين لها
ألا تتمهلين حتى تتمتع عيناك بالكوكب الساطع
ويرتاح قلبك إلى من خفق للقائه شوقاً وحنيناً؟
عينك لم تستطع أن تحتمل شعاع (الشمس)
وفؤادك ناء بإفراغ شوقه للمشوق
وفي اللحظة الأخيرة تراخى جناحاك وعشيت عيناك وتدحرجت على الأرض بعد أن
!رقيت معارج السماء
ألم تتذوقي لذة الشروق؟
ألم تطعمي طعام ذلك العالم العلوي؟
ألم يكشف لك عن خزائن ذلك الوجود؟
!الشوق والغناء والويل والعناء كلها تذوب تحت لوائك أيتها الشمس

ما وصلك الذي تتغنين به؟
ما شوقك الذي ملأ الفضاء
ما سكرك الذي لا صحوة له؟ إذا كان نور (المعرفة) لا تحمله عيناك!
أتخافين احتراقاً في الأضواء
أتهابين التطلع إلى نور الشمس؟
أم تصلين كل يوم إلى الشمس. . . وتقفين على بابها فإذا أطلت تواريت من وجهها المهيب، وآثرت أن تنحطي وتتدحرجي صامتة ساكتة
كأنك كلما صعدت مرة ذهب جزء من روحك وراءها في الفضاء
وهكذا حتى تتوزع أجزاؤك كلها وتبلغي المرحلة الأخيرة
وددت يا قبرتي أن أراك تزيدين إمعاناً في التحليق
وددت أن أراك تزيدين في صعودك حتى لا يبقى منك على الأرض شيء!
ووددت أن أغرودتك لا تزال تتردد في الجو مبتعدة عني حتى تصير أغرودة صامتة!
أهلاً بك أيتها العائدة من عالم الشمس! منتصرة أو منكسرة، ففي عينيك ذبول الشوق،
وفي قلبك لهيبه، وفي جناحيك وجيبه!
لم تذوقي بعد تلك السكرة العميقة التي لا يبقيها صحو
ولم يضرم قلبك ذلك الشوق الذي لا يسلمك إلا إلى شوق
لم تحبي بعد شمس (المعرفة) محبة شاملة، ولم تؤثري الفناء فيها.
أتخافين احتراقاً في هذه الشمس؟
ادني واقتربي أيتها القبرة من الشمس وواصلي أغنيتك حتى تحترقي. . .
وتردك الشمس إلى الشمس. . . يا فراشة الطيور المحترقة بغير لهيب.
خليل هنداوي

الحجاب في الإسلام

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

- 1 -

عاد الناس في هذه الأيام إلى الكلام في مسألة الحجاب، وكان سبب عودتهم إليها ما حصل من رغبة طائفة الهنود المنبوذين في الإسلام بعد خروجهم من ديانتهم، وقيل إن وجود الحجاب في الإسلام مما يستعمله بعض أعدائه لصرفهم عن الرغبة فيه؛ وقد حملني هذا على بيان حقيقة هذا الحجاب على صفحات مجلة (الرسالة) الغراء، لانتشارها في الهند وغيره من الأقطار الشرقية، ولعلي بهذا أقضي على هذه الدعاية الخبيثة التي يراد بها صرف تلك الطائفة عن الهداية الإسلامية.

ويجب لأجل أن نعرف حقيقة هذا الحجاب أن نذكر الآية التي نزلت فيه، وهي قوله تعالى في سورة الأحزاب: (يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه، ولكن إذا دعيتم فادخلوا، فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث. إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق. وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب. ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن. وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيما).

وقد عرفت هذه الآية بأية الحجاب، وصار الحجاب في الإسلام اسماً لهذا الحجاب الذي نزل فيها، ولا يوجد شيء آخر مما يتعلق بالنساء يطلق عليه هذا الاسم. وقد نزل هذا الحجاب في نساء النبي صلى الله عليه وسلم، ويراد منه منع اختلاطهن بالرجال بحيث لا يراهن الرجال أبداً ولا يكلمونهن إلا مع هذا الحجاب. والحكمة في فرضه عليهن أنه أريد بعد تحريمهن على غير النبي صلى الله عليه وسلم قطع العلائق بينهن وبين الرجال، ليكون في هذا صونهن، والبعد بهن عمن أريد قطع أطماعهم فيهن. وقد جرى الإسلام في هذا على عادته من إعطاء الوسيلة حكم ما يتوسل بها إليه، سداً للذرائع، ولأن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه. ويؤيد هذا ما في الآية من قرن هذا الحجاب بحكم ما بينهما من هذه العلاقة.

وقد نزل في ذلك أيضاً قوله تعالى في سورة الأحزاب: (يا نساء النبي لستن كأحد من

النساء، إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض، وقلن قولاً معروفاً. وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى. وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله؛ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً. واذكرن (ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً.

ولم يكن المقصود من فرض هذا الحجاب على أمهات المؤمنين إلا حجبهن عن الأنظار بحيث لا يراهن الرجال، فلم يكن عليهن حرج بعد ذلك في أن يخرجن للحج وغيره، ولا في أن يجتمعن بالرجال مع هذا الحجاب للعلم والتعلم، وتبليغ الأحكام التي أخذنها عن النبي صلى الله عليه وسلم لمن يريدها منهن.

وقد خرجت عائشة في هودجها للمطالبة بدم عثمان رضي الله عنه، وقادت الجيش الذي حارب علياً رضي الله عنه في وقعة الجمل بالبصرة.

وقد مات صلى الله عليه وسلم عن تسع نسوة: عائشة بنت أبي بكر، وحفصة بنت عمر، وأم حبيبة بنت أبي سفيان، وأم سلمة بنت أبي أمية، وسودة بنت زمعة، وزينب بنت جحش، وميمونة بنت الحارث بن حزن، وجويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، وصفية بنت حي. وما من واحدة من هؤلاء التسع إلا وكان بيتها مجمعاً لطلاب العلم الذين يقصدونها من سائر النواحي، فيجلسون إليها ويستمعون حديثها، وتناظرهم في العلم ويناظرونها فيه، والحجاب مضروب بينها وبينهم، فيأخذون عنها بدون أن يروها.

وممن روى عن عائشة من الصحابة عمر وابنه عبد الله وأبو هريرة وأبو موسى وغيرهم من الصحابة؛ وممن روى عنها من التابعين سعيد بن المسيب وعمرو بن ميمون وعلقمة بن قيس وغيرهم.

وممن روى عن حفصة من الصحابة فمن بعدهم حارثة بن وهب والمطلب بن أبي وداعة وعبد الرحمن بن الحارث وعبد الله ابن صفوان وغيرهم.

وممن روى عن أم حبيبة أخواها معاوية وعتبة وأبو سفيان ابن سعيد ومولاها سالم بن شوال وابن الجراح وعروة بن الزبير وغيرهم.

وممن روى عن أم سلمة من الصحابة فمن بعدهم أخوها عامر ومولاها عبد الله بن رافع وأبو عثمان النهدي وأبو وائل وسعيد ابن المسيب وغيرهم.

وممن روى عن سودة ابن عباس ويحيى بن عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة.

وممن روى عن زينب ابن أخيها محمد عبد الله بن جحش وأم حبيبة وزينب بنت أبي سلمة.

وممن روى عن جويرية ابن عباس وجابر وابن عمر وعبيد ابن السباق والطفيل ابن أخيها وغيرهم.

وممن روى عن صفية ابن أخيها ومولاها كنانة وزين العابدين علي بن الحسين وإسحاق بن عبد الله ومسلم بن صفوان.

فلم يكن ذلك الحجاب الذي فرض على أمهات المؤمنين إلا لذلك الغرض الخاص دون غيره من أغراض الحياة، ولم يحل بينهن وبين القيام بمطالب دينهن ودنياهن، ولا بينهن وبين مشاركة أولياء الأمور في تدبير شؤون المسلمين. وقد كان الخلفاء يرجعون إليهن في كثير من الامور، ويسمعون إلى نصائحهن ويعملون بها.

ومن هذا أن عثمان لما اضطرب عليه الأمر في آخر خلافته كتبت إليه أم سلمى تنصحه:

يا بني - ما لي أرى رعيتك عنك نافرين، وعن جنبك مزورين؟ لا تعف طريقاً كان النبي صلى الله عليه وسلم ولجها، ولا تقتدح زنداً كان أكباها. توَخَّ حيث توَخَّى صاحباك، فإنهما نَكَما الأمر نَكْما، لم يظلما أحداً فتيلاً ولا نقيراً، ولا يختلف إلا في ظنين - هذه حق بنوتي قضيتها إليك، ولي عليك حق الطاعة.

فكتب إليها عثمان:

يا أمنا - قد قلت ووعيت، ووصيت فاستوصيت، ولي عليك حق النُّصتَةُ، إن هؤلاء القوم رعاع غَثَرَة، تطأطأت لهم تطأطؤ الماتح للدّلاء، وتَلدَّدْت لهم تلدُّد المضطر، فأرانيهم الحق إخوانا، وأراهم الباطل إياي شيطاناً، أجررت المرسون منهم رسنه، وأبلغت الراتع مسقاه، فتفرقوا علي فرقا: صامت صمته أنفذ من قول غيره، ومزين له في ذلك، فأنا منهم بين ألسنة لدَادٍ، وقلوبٍ شداد، وسيوف حداد. عذيري الله! ألا ينهي منهم حليم سفيهاً، وعالم جاهلاً - والله حسبي وحسبهم يوم لا ينطقون، ولا يؤذن لهم فيعتذرون.

(للكلام بقية)
عبد المتعال الصعيدي
للتاريخ السياسي
المعنى السياسي لانتخابات مجلس النواب الفرنسي عام 1936
للدكتور يوسف هيكل
مجالس النواب في البلاد البرلمانية الديمقراطية هي التي ترسم سياسة البلاد، فإن أحسن المجلس العمل كافأه الشعب على ذلك بإعادة الأكثرية التي تسند الحكومة إلى المجلس الجديد؛ وإن أساءه انفضت الأمة من حوله وأرسلت إلى مجلس النواب، حين الانتخابات عناصر جديدة لاتباع سياسة جديدة. ويسهل على الشعب معاضدة الأكثرية الحاكمة، أو الحكم عليها، في البلاد ذات الحزبين أو الثلاثة، كما هي الحال في بريطانيا؛ ويصعب عليه إلقاء التبعة على حزب، في البلاد ذات الأحزاب العديدة والتي لا تستطيع تشكيل حكومة إلا بعد اتفاق عدد منها على الاشتراك في الحكم: كما هي الحال في فرنسا. وعلى كل فإن الشعب يستطيع التمييز بين الأحزاب، وإن كثر عددها، فيقوى أحدها ويضعف الآخر.
والانتخابات الفرنسية الأخيرة التي جرت في 26 أبريل و3 مايو من هذا العام، ترى كيف أن المنتَخب الفرنسي غير فكرته السياسية، فقوى أحزاب اليسار: الشيوعي والاشتراكي وأضعف أحزاب الوسط، بما فيهم الحزب الراديكالي وأحزاب اليمين. ومما لا شك فيه أن لعلمه هذا معنىً سياسياً. فما هي الأسباب التي دعته إلى تغيير فكرته؟ هذا ما نحاول إبانته في هذا المقال. غير أنه يحسن بادئ الأمر أن نعرض بإيجاز موقف مجلس النواب السابق تجاه الحكومة، لنرى كيف كان ذلك عاملاً كبيراً في تغيير الناخب الفرنسي رأيه في الأحزاب. وأخيراً نتساءل فيما إذا كان في إمكان مسيو بلوم تأسيس وزارة قوية ثابتة، أم ستجابهه الصعوبات التي جابهت زميله مسيو هريو؟
- 1 -
جدير بالذكر أن الشعب الفرنسي لم يرسل إلى مجلس نوابه يوم 8 مارس سنة 1932 هيئة في إمكانها تأسيس حكومة ثابتة ومتجانسة. وكل ما هنالك أن حكمه كان سلبيا. لقد أقصى عن الحكم الأكثرية السابقة، غير أنه لم يستعض عنها بأكثرية متجانسة. لقد أظهر عدم رضاه عن سياسة (تارديه ولافال) غير أنه لم يمكن مسيو هريو من الحكم.
ليس بخاف أن الأحزاب في فرنسا عديدة، حتى أن عددها بلغ العشرين في مجلس النواب الأخير؛ غير أنه يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أنواع: فكان حوالي 180 نائباً من النوع المعتدل، و240 من النوع الراديكالي، و180 من النوع الاشتراكي. وبرغم أن الحزب الراديكالي كان متفقاً مع الحزب الاشتراكي حين الانتخابات وكونا (الجبهة الشعبية) ليفوزا على أحزاب اليمين، غير أنهما لم يكونا متفقين على إنشاء حكومة مشتركة بينهما، لأن مبادئهما الاقتصادية مختلفة. ولذا لم يكن في مجلس النواب الأخير أكثرية متجانسة تستطيع تأسيس حكومة قوية وثابتة.
وكان الحزب الراديكالي، وهو أكبر حزب في المجلس، (مفتاح الحكومة) فإن استطاع نيل تأييد الاشتراكيين له فيقال في اللغة البرلمانية، إن الحكومة (حكومة ائتلافية) وإن اشترك في الحكم مع المعتدلين، فيقال إن الحكومة (حكومة الاتحاد القومي).
ولقد رأى مجلس النواب الأخير هذين النوعين من الحكومات: فبعد أن فازت (الجبهة الشعبية) في الانتخابات شكلت (حكومة ائتلافية) كان فيها معظم الوزراء من الراديكاليين؛ لأن حزب مسيو بلوم لم يشترك في الحكم، ولكنه أيد الحكومة. وكان في يد الزعيم الاشتراكي مصير هذا النوع من الحكومة، فإن نزع ثقته منها سقطت فوراً. وقد استعمل مسيو بلوم هذه السلطة مراراً؛ فأدى ذلك إلى أزمات وزارية حادة تلا بعضها بعضاً بفترات قصيرة. وسقوط وزارات بونكور، دالاديه، وسارو السريع عام 1933 سبب (إفلاس) (الائتلاف).
وبعد (الفضيحة الستافسكية) وحوادث 6 فبراير، اضطر الحزب الراديكالي إلى ترك رئاسة الوزارة والاشتراك مع المعتدلين في الحكم. فتأسست وزارة مسيو دومرك، وتلتها وزارتا مسيو فلاندان ومسيو لافال. ودُعيت هذه الوزارات (وزارات الاتحاد القومي). على أن هذا الاتحاد لم يكن عاماً إذ لم يشترك فيه طرفا مجلس النواب أي

الشيوعيين والاشتراكيين من جهة، والمحافظين من جهة ثانية. ولذا يمكن القول بأن هذه الوزارات ما هي إلا وزارات (ائتلاف أحزاب الوسط).

وفي المدة الأخيرة من حياة مجلس النواب الأخير، تخلى الحزب الراديكالي عن وزارة مسيو لافال، وعاد إلى نوع الحكم السابق أي إلى إقامة حكومة ائتلافية بالاتفاق مع الاشتراكيين؛ وعلى رأسها مسيو سارو.

وكل من الحكومات التي رآها المجلس الأخير لم تكن متجانسة، ولم تكن لها قوة حيوية كافية تستطيع بها مجابهة الصعوبات التي وقعت فيها فرنسا طيلة السنين الأربع الأخيرة. لأن الاشتراكيين لم يشتركوا عملياً في حكومات (الائتلاف)، ولم يأخذوا على عاتقهم أية مسؤولية؛ ولهذا كانت الحكومة (مشلولة) إذ وجب عليها مراضاة الحزب الاشتراكي كيما تحتفظ بثقته؛ وذلك لم يمكن الراديكاليين من تطبيق منهاجهم، والسير إلى الأمام غير ناظرين إلى مراضاة الخواطر. . . ولأنه لا يمكن لأي حكومة (اتحاد قومي) أن تضع منهاجاً فعالاً يرضى عنه جميع الأحزاب الذين يعاضدون الحكومة. فالسياسة الخارجية التي يريد تطبيقها أحزاب اليمين لا يرضى عنها الحزب الراديكالي، وسياسة الحزب الراديكالي لا يقبلها أحزاب اليمين. وفي الواقع فإن هذا النوع من الحكومة ما وجد إلا لظروف خاصة، ومتى ذهبت هذه الظروف تصدع الاتحاد، واتفق الراديكاليون مع الاشتراكيين، ودارت المعركة بين أحزاب اليسار وأحزاب اليمين. ولا غرابة في ذلك إذ الذي يبعد الراديكاليين عن الاشتراكيين هو اختلاف في السياسة الاقتصادية، أما الذي يبعدهم عن المعتدلين فهو الاختلاف على المبدأ إذ أن الراديكاليون يدينون بالنظام البرلماني، الذي دونه يصبحون لا شيء وهم متعلقون بجمعية الأمم التي هي تطبيق المبادئ الجمهورية في (الدائرة الدولية). وعلى عكس ذلك فإن كثيراً من المعتدلين يتساهلون في وجود الجمهورية دون أن يحبذوها ويدينوا بمبادئها، وهم يحكمون على مبادئ عصبة الأمم ويعتبرونها أكبر عامل على تعكير صفو السلام. . .

- 2 -

فالأزمات الوزارية الحادة التي حدثت خلال السنين الأربع الأخيرة، والأزمة الاقتصادية العظيمة التي جابهتها فرنسا ابتداء من عام 1932، والتضارب في السياسة الخارجية التي تولدت بين سياسة الحكومات الائتلافية وحكومات الاتحاد القومي. . . أدى إلى عدم رضى الشعب الفرنسي عن مجلس النواب السابق فأرسل في 26 أبريل و3 مارس أكثرية جديدة.

ولنلق بادئ الأمر نظرة عامة على انتخابات الدورة الأولى فنرى أن الذين فازوا فوزاً باهراً فيها هما طرفا مجلس النواب أي الشيوعيين والاتحاد الاشتراكي من جهة، والاتحاد الجمهوري الديمقراطي (حزب اليمين) من جهة ثانية.

والعاملان الإيجابيان اللذان أديا إلى هذه النتيجة هما؛ المعاهدة الروسية الفرنسية، وحزب الصليب الناري.

غيرت حكومات الاتحاد القومي الثلاث الأخيرة مجرى السياسة الخارجية الفرنسية. فبعد أن كانت فرنسا تعتمد في المحافظة على سلامتها على عصبة الأمم ومبدأ (السلام المشترك): أخذ (المعتدلون) يبنون سلامة بلادهم على التحالف؛ أي سياسة ما قبل الحرب. فتقربوا من إيطاليا وعقدوا معها اتفاق روما عام 1934، وأخذوا يتفاهمون مع الروسيا فوصلوا إلى المعاهدة الروسية الفرنسية عام 1935. فهذه المعاهدات أظهرت للرأي العام الفرنسي أن فرنسا في حاجة إلى الروسيا لتدفع عنها الخطر النازي. . . ثم إن الروسيا، في السنين الأخيرة، غيرت مجرى سياستها الخارجية. فبعد أن كانت ثورية هدامة، أصبحت محافظة!. وذلك لأنها شعرت بحاجتها إلى مساعدة الدول الديمقراطية لترد عنها خطر الحكومة الألمانية التي تضمر لها شراً كبيراً وخطر اليابان. . . فوقفت في جنيف موقف المدافع عن السلام والذائد عن مبدأ (السلام المشترك)؛ وكان ممثلها في جنيف وفي لندن السياسي الوحيد الذي هاجم ألمانيا مهاجمة شديدة وتكلم عن خطر سياستها الخارجية بصراحة. ثم أن الشيوعيين الفرنسيين خففوا من حدة ثورتهم فأخذوا يتكلمون عن القومية ووجوب الدفاع عن الوطن. . . كل هذا أبان للرأي العام الفرنسي أن لا خطر من الشيوعية وأن كل ما

قيل عنها مبالغ فيه. . . فكان فوز الشيوعيين فوزاً باهراً لم يتوقعه أحد.
وفي أواخر الثلث الأول من حياة المجلس التشريعي السابق قامت في فرنسا حركة (فاشستية) على رأسها الكولونيل (دي لاروك). فأسس هذا حزباً دعاه (الصليب الناري)، وحركته تماثل حركة (الفاشست) في إيطاليا (والنازي) في ألمانيا. . . وفي الأيام الأخيرة تقوى هذا الحزب، ويدعي الآن أن عدد أعضائه من القادرين على حمل السلاح بلغ ثمانمائة ألف. غير أن هذا الحزب الجديد لم يرشح أعضاء إلى مجلس النواب، بل إنه سند أحد أحزاب اليمين أثناء الانتخابات، فكان فوز (الاتحاد الجمهوري الديمقراطي).

(يتبع)

يوسف هيكل

من مذكراته

للأديب أحمد الطاهر

خفت إليّ مع الصباح، وحيتني بتحيته، وعليها من الثياب سواد، فرددت عليها التحية في تلطف ورعاية ورفق، وجلست صامتة واجمة خائرة النفس منهوكة القوى شاردة الفكر. ثم أخذت تجيل النظر في المكان الذي احتوانا، وأخذتُ أختلس النظر إليها فإذا هي تنظر إلى الأرض، ثم ترفع البصر إلى السماء ثم تتجه إلي بنظرة وادعة حزينة، وفي هذه النظرات الثلاث تعبير صادق عما يختلج في نفسها من المعاني: من تفكير عميق فيما نزل بها من بأساء، إلى توسل إلى الله بالصبر والرضا للقضاء، إلى رجاء فيمن تزور ليدفع عنها بعض هذا البلاء.

ثم قالت: (إني أعلم ما كان بينك وبين زوجي رحمه الله من صداقة ووفاء وإخلاص؛ ولقد ذكر لي فيما كان يذكر من شأنه أنك كنت مثابةً له في الرأي، وعوناً في التدبير، ونصيراً في الشدة، أليس كذلك؟).

قلت: (نعم كنا كذلك، وكنت أجد فيه ما تذكرين لي. رحمه الله، وطيب ثراه).

قالت: (ما أفزعني إليك اليوم وفي هذا الصباح الباكر إلا ما يحز في قلبي حزاً، ويعصر فؤادي عصراً، مما أجد من همي وهم الناس: فأما همي فهو الذي تعرفه والذي إن أخفاه لساني أعلنته ثيابي، وأما هم الناس وما أحمل منه، فذلك فيما أرى فيهم من قلة الوفاء، وخراب الذمم، وتحجر الأكباد، وضيعة الأخلاق: فلقد كنت أسمع من والدي ووالدتي - رحمهما الله - أن الناس في العهد الغابر كان الواحد منهم ينطق بالكلمة فإذا هي بينه وبين صاحبه عهد لا ينقض، وميثاق لا يحل، وإلٌّ لا ينكث به؛ أما اليوم فما أرى الناس إلا عن ذلك صادفين: يقول الواحد منهم ما يقول، وبعد بما يعد: فلا يقام لقوله وزن، ولا يحسب لوعده حساب، ما لم يسجل قوله ووعده في كتاب، بل لقد ينكرون ما خطت أيديهم في الكتب، ولو شهد عليهم شهود، ولهم في ذلك طرائق وحيل. هذا زوجي - رحمه الله - قد أقرض فلاناً مائة جنيه، ولست أدري إن كان قد كتب بها صكاً أم استوثق زوجي من صدق وفائه بلسانه، وقد ألحت عليّ الحاجة والوفاء لهذه البنت اليتيمة فطالبت الذي عليه الحقُّ بالحقّ: فمطلني، ثم ألححت، فردني، ثم رجوته فصدف عني، ثم توسلت إليه فنهرني، وما وجدت منه إلا إنكاراً وجحوداً، وجفاءً وصدوداً. ولما رجعت من عنده بخيبة الرجاء، واليأس من الوفاء، اندفعتُ أهدده وأتوعده برفع الأمر إلى القضاء. فأجابني بقوله: (وهل تحت يدك صك بهذا الدين؟). طار رأسي، وذهبت نفسي شعاعاً، وأحسست كأن الدنيا تضيق بي حتى لا تتسع إلا لعنقي تعصره عصراً، وما وجدت ما أدفع به قحته وإنكاره. لذلك جئت إليك بجملة من أوراق المرحوم لعلك واجد فيها صكاً أو سجلاً بهذا الدين أو ما يغني عن الصك والسجل. أرأيت خراب الذمم؟ أرأيت قلة الوفاء؟ أرأيت نكث العهود؟ أرأيت إلى الناس لا يستوثقون بالسان الحي الذي هو من صنع الله، ويستوثقون بالورقة الخرساء التي هي من صنع الإنسان؟ رحماك اللهم رحماك!!).

قلت: (خلي عنك يا أختاه. فلمثل هذا نزلت حدود الله. أما سمعت قوله تعالى (يأيها الذين آمنوا إذا تَدَايَنْتمْ بدين إلى أجَلٍ مُسَمّى فاكْتُبُوهُ، وليَكْتُبْ بينَكُمْ كاتِبٌ بالعَدْلِ، ولا يَأبَ كاتِبٌ أن يَكتُبَ كما عَلّمهُ الله، فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِل الّذي عليه الحقّ وليَتّق الله رَبَّه ولا يَبْخَس منه شيئاً).

قالت: (سبحان الله العظيم! هذا كلام أزلي قديم وكأنما نزل لأهل هذا العهد الحديث،

(بل لكأنما نزلت هذه الآية لتكون فيصلاً بيني وبين هذا المدين.)
قلت: (وفي هذا وفي مثل هذا تجدين إعجاز القرآن الحكيم)
ودفعت إلي بالأوراق فنشرتها ونظرت فيها ورقة ورقة وهي مطرقة مغرقة في التفكير. وما انتهيت منها إلى ورقة أطلت فيها النظر حتى رفعت رأسها عن يدها ونظرت إلي متلهفة وقالت: (أوجدت الصك؟)
قلت: (لا. ولكني وجدت ورقة لعلها من مذكرات زوجك رحمه الله - وبودي أن أقرأها لك فستجدين في سماعها عزاء وروحاً. وستجدين زوجك فيها يتحدث إلى نفسه بخواطره ولكنه يسوق إليك وإلى ابنتك الحديث)
قالت: (اقرأ). . . . فقرأت:
(ما أسعد الإنسان المطمئن! وما أحلى الطمأنينة في كل شيء، هذه هي السعادة حقاً، وما أشقى الإنسان الحائر المضطرب! وما أمر الحيرة والاضطراب في أي شأن من شؤون الحياة! هذا هو الشقاء بعينه، ولست أدري لم حار الفلاسفة والمفكرون في تعريف السعادة
واختلفوا، وما لهم لا يقولون إن السعادة هي الطمأنينة، وما لهم لا يستقرون إلى أن الطمأنينة والسعادة مترادفان بفهم من أحدهما ما يفهم من الآخر؟. أغلب ظني أن الفلاسفة والمفكرين يتسامون في التفكير ويحلقون في أجواء البحث فتدق عن أبصارهم هذه الحقائق البسيطة. السعادة هي الطمأنينة والشقاء هو الفزع.
هاأنذا أخرج من بيتي صباحاً أعدو إلى عملي ثم أروح وقد أديت العمل على خير ما يؤدى الواجب ويحمد لي الناس أداءه ويرضى ضميري عن أدائه. فأطمئن ولا يفزعني عن هذه الطمأنينة شيء من الأشياء فلم لا أكون سعيداً؟ ألقى الناس: منهم الصديق ومنهم العدو، ومنهم من لا تربطني به صلة وثيقة، ومنهم الكبير ومنهم الصغير، فيلقاني كل واحد من أولئك باسماً مصافحاً لا يسألني عن شأني ولا أسأله عن شأنه إلا بمقدار ما تدعو إليه العلاقة التي بيننا فلا يكون سؤالي وسؤاله إلا في رفق ولين ورغبة في العون إن كان بي أو به حاجة إلى العون. وإن لا نتساءل عن شيء فما يكون بيني وبينه إلا التحية وردها. فأنا بين هؤلاء وهؤلاء مطمئن وادع لا يفزعني عن طمأنينتي شيء من الأشياء. فلم لا أكون سعيداً؟
وتمضي الأيام والأسابيع والأشهر وما شاء الله من أقسام الزمن وأنا أغدو وأروح بين الناس وأختلف إلى ما يختلفون إليه من شؤون الحياة وأنا واجد في جسمي هذا النشاط وهذه القوة، لا يعوقني في سبيلي مرض ولا تقعدني علة، فأنا مطمئن إلى صحتي ما دمت صحيحاً، ولا يفزعني عن هذه الطمأنينة شيء من الأشياء، فلم لا أكون سعيداً؟
وأخْلاف الرزق في الحياة تصل إلى من طريقي كدي وجهدي وما ترك الوالدون من موارد الرزق للأبناء تصل إليهم في سعة أو في ضيق وأنا بذلك راض وإلى ذلك مطمئن: لا يفزعني عن طمأنينتي شيء من الأشياء. فلم لا أكون سعيداً؟
وأنا في كل يوم من أيام حياتي أؤدي إلى الله وإلى الناس ما يجب علي من الشكر والبر بقدر ما أستطيع وكيفما يجب: لا يصدني عن ذلك صاد ولا يصدف بي عنه صادف، فأنا مطمئن إلى علاقتي بالله وبالناس لا يفزعني عن الطمأنينة مفزع. فلم لا أكون سعيداً؟
أما إذا لقيت في عملي نصباً وعناء، أو أحسست من نفسي بنفسي عجزاً عن أدائه، أو قصوراً عن وفائه، فهنا يكون الفزع وهنا الخروج عن الطمأنينة، وهنا الشقاء.
وإن رأيتُ الناس يمدون إليّ يد السوء، أو لسان السوء، أو عين السوء، فما أشد ما ألقى من الفزع والجزع، وهنا الشقاء.
وإن رأيت معاول المرض تعمل في جسمي، وتهد من قواي، وتبعث في هذا الجسم رسالات من الألم شديدة أو غير شديدة، فهنا الفزع وهنا الشقاء.
وإن رأيت. . . وإن رأيت. . . مما يحول بيني وبين السكينة ويوقعني في الفزع والاضطراب، فهنا وهناك الشقاء.
والسعادة والطمأنينة غاية ليس وراءها من شيء، ولا يجد السعيد المطمئن في مهاد السعادة ما يبعثه على التفكير في أسبابها، ومن أين أتت إليه، وأي السبل اتخذت إليه، لأنها اطمئنان واستقرار ورضا، وسبيل لا عوج فيه ولا التواء.

أما الشقاء - أعاذنا الله منه - فلا يكاد ينزل بالمرء حتى يفسد عليه نفسه، ويلقي بالحيرة في ضميره، فلا تهدأ النفس عن الاضطراب بين علله وسبل الخروج من مضائقه. ولا يهدأ العقل عن التفكير في هذه العلل وهذه السبل، ولا يهدأ الضمير عن أن يتخذ لنفسه أشكالاً وأوضاعاً يسميها الناس وخزاً وتأنيباً وندماً وقلقاً وتبرماً وحسرة؛ وما إلى ذلك من الأسماء تختلف باختلاف أنواع الفزع وأسباب الشقاء. وهنا يكون الشقي بين شقي الرحى: شقائه الذي نزل به واضطراب نفسه وعقله وضميره في مبعث الشقاء وسبل الخروج منه. وكثير من الناس يزيد في شقاء نفسه بنفسه حين يخطئ السبيل التي تؤدي إلى الخلاص من الشقاء، أو حين يضل عن هذا الثقب الصغير الذي نفذ إليه منه البلاء، أو حين يلتمس الراحة من العناء فيما لا يزكو بالعاقل التماس الراحة فيه.

وما من سبيل لأن تعدد للناس حصراً أسباب الشقاء. ولا سبل الخلاص من الشقاء، ولكنني وجدت سبلاً ثلاثاً، كلما أفزعت عن طمأنينة السعادة إلى مضطرب الشقاء لجأت إليها فوجدت فيها عزاء وشفاء وهناء.

أخلو إلى نفسي فأصل بينها وبين الله بالتفكير في خلقها، وفي الحدود التي وضعها الله بين العبد وربه، وبين العبد والعبد. وفي تحديد حياتها بأجل تنتهي عنده، وأقيس ضعفها بقوة خالقها، وحقَّها في الحياة بحق من أوجدها في الحياة، وأتبين ما رسم الله لعباده من مناهج وطرائق تؤدي إلى السعادة العاجلة في الدنيا، أو الآجلة في الأخرى، وما فرض على العبد أن يأخذ به نفسه إذا اشتد به الضيق، أو سد في وجهه الطريق، ثم أرجع إلى كتاب الله أقرأ فيه وأتبصر في معانيه، فأجد فيه للنفس شفاءها، وللروح غذاءها، وأجد قوة على احتمال الشقاء، وسبلاً للخلاص من البلاء، ويهون في نفسي كل ما هالها، ويصغر في عيني كل ما تعاظمهما، فما ألبث حتى تستشعر نفسي شيئاً من الصبر والرضا، ويشع في أعطافها وحواشيها نور من الأمل والرجاء، ثم تطمئن إلى ما تجد، ثم تخلو من الهم، وإذا أنا هادئ وسعيد.

أرجع إلى بيتي فتلقاني ابنتي الصغيرة متهللة مستبشرة، فأحملها بين يديّ وأقبلها وتمضي تحدثني بما أفهم ولا أفهم من لغوها، ثم تسعى بيني وبين أمها، ويطول لغوها وسعيها، ثم تنظر إلى كل منا وعلى وجهها الصغير آيات البشر بادية، وتحاول أن تشركنا في هذا المرح الذي تشعر به، وتود لو تفيض علينا منه. فيعز علي أن أعذب هذه الطفلة البريئة بعبوسي، ويكبر عليّ أن أكدر صفوها بوجومي، وأن أحمل إليها وإلى أمها همَّاً لا قبل لهما به ولا يد لهما فيه، ولا حيلة لهما في صرفه عني. فأتناسى ذلك الهم الذي كان مبعث شقائي ثم أنساه، وأمزق عن وجهي غشاوة العبوس التي كانت تغشاه، ثم أمحوها محواً، وإذا علي الوجه ابتسامة تكون قلقة حائرة أولاً، ثم تتصل بالنفس فتستقر وتصدر عن إحساس أخيراً، حتى إذا انصرف عن النفس بعض همها الذي ملكها خلت إليّ هذه النفس تحدثني ببعض ما يجب على الرجل نحو أبنائه وأهله. وتبسط لي كيف يجزى الطفل على بنوته وطهارته وضعف حيلته، وكيف تجزى الزوجة على أنوثتها الضعيفة. وأمومتها السامية الشريفة، ورعايتها لزوجها ووفائها له. فأذكر إذ ذاك العطف والحنان، والرعاية، والوفاء، وعرفان الجميل، وحسن التقدير، ويذهب هذا كله بما بقي في نفسي من همّ. وإذا أنا بعد هذا وبهذا مطمئن وسعيد.

وثالث هذه السبل هو هذا القلم الذي أكتب به: أصل بينه وبين نفسي فإذا ما فيها من الهم والأسى ينساب إلى قناته في سهولة ورفق واطراد، وإذا هو ينثر ما في النفس على الورق ألفاظاً وأسطراً وصحائف. وما أزال أكتب حتى يقف القلم، فأنظر إلى نفسي فإذا القلم قد استنزف كل ما فيها من الهم لم يترك بقية ولا ذُمَامَة. فأقرأ ما كتبت وأقيسه بما كان في نفسي، فإذا هو هو لا يزيد عنه بمقدار ولا ينقص عنه بمقدار. وإذن لقد أفرغت نفسي من الهم واطمأننت وإنني لسعيد.

ولعمري إن هذه السبل الثلاث لهي خير ما اهتديت إليه من سبل التخفيف من همي. وأنا فيما يحزبني من الأمر أتخذ سمتي إليها مجتمعة أو متفرقة، فأجد فيها راحة وشفاء واطمئناناً وسعادة. ولقد اتخذت سمتي الليلة إلى هذه السبيل الأخيرة (سبيل القلم) فكتبت ما كتبت وأحس أن ليس في نفسي أكثر مما كتبت.

(وإذن لقد فرغت نفسي من همها واطمأنت وإنني لسعيد أهـ.
وما انتهيت من القراءة حتى نَظَرَت إليّ باسمة راضية، وتبددت عن وجهها سحابة الحزن والأسى وقالت: (أي والله، لهذا خير عندي من الصك ألف مرة. أكان رحمه الله يجد العزاء في كتاب الله، وفينا، وفي قلمه؟ قل لي بربك بِمَ أجزيه عن فضله وبره؟ وماذا أفعل بهذه الورقة وهي فيما أرى سجل حياته وعهده الكريم بين الله وأهله ونفسه.
قلت: (أكرميها).
قالت: (وكيف؟).
قلت: (تحفظينها عندك ذخرا، وأنشرها لك في (الرسالة) ذكرى).
اليوزباشي أحمد الطاهر
في الأدب الإنكليزي
هل من انتحال في الأدب الإنكليزي؟
للسيد جريس القسوس
أخي ح. ش:
لقد مضى نحو عام على رسالتك التي بعثت بها إلي تطلب فيها أن أشرح لك المشكلة الشكسبيرية التي تثار من حين إلى آخر. واليوم أراك تبادرني بسؤال آخر قلما ألتفت له الباحثون في الأدب الإنكليزي. وقبل الإجابة على سؤالك لابد من لفت نظرك إلى الفصل الممتع الذي عقده الدكتور طه حسين تحت موضوع: (ليس الانتحال مقصوراً على العرب)، في كتابه (الأدب الجاهلي) بين فيه أن الانتحال لم يقتصر على العرب؛ بل كان عند الأمم القديمة، كاليونان والرومان، ولا أعلم هل في الآداب الأوربية الحديثة، خلا الإنكليزية، شيء من هذا؛ وكل أملي أن يتعاون الباحثون في الأدب على بحث موضوع الانتحال في آداب الأمم الحية، لعلهم بذلك يتوصلون إلى نتيجة مرضية، تشفي الغليل، وتنير السبيل أمام الباحثين في موضوع الانتحال عند العرب. أما في الأدب الإنكليزي، فلم يعرف الانتحال، على ما أعلم، إلا في القرن الثامن عشر؛ وقد يكون هناك شيء منه في غير هذا القرن، لكنه ضئيل تافه إذا قيس بما عُزي إلى الشاعرين الكبيرين جيمس مكفرسن، توماس تشاترتن من الانتحال.
- 2 -
من هو مكفرسن؟
وقبل التطرق إلى البحث في الانتحال المنسوب إلى هذين الشاعرين، لا بد من كلمة مقتضبة، نترجم بها لكليهما، ذلك لما للحوادث في حياتهما من علاقة متينة بموضوع هذا البحث. لهذا نشرع بادئ ذي بدء بمكفرسن فنقول:
ولد جيمس مكفرسن قرب كنغوسي في سكوتلندا، في 27 أكتوبر سنة 1736. وكان أبوه مزارعاً وضيع النسب، فقير الحال؛ لكنه برغم ذلك استطاع بحذقه ودهائه أن يدخل ابنه جامعة أبردين وبعدها جامعة أدنبرغ ولقد عرف الشاعر صغيراً بالنبوغ الأدبي فألم
بالشعر الغاليقي إلماماً كبيراً؛ ونظم وهو تلميذ ما ينيف على أربعة آلاف بيت من الشعر، نشر بعضها تحت عنوان (الانجاد) سنة 1750، وأهمل البعض الآخر لأمر ما.
ولقد زاده ولوعاً بالأدب ما لاقاه من تشجيع أصدقائه له على نشر منظوماته. ففي نيوفات مثلاً التقى بجون هوم وأطلعه على بعض قصائده، فأعجب بها، وأشار عليه بنشر بعضها، خاصة ما ادّعى أنها مترجمة عن الشعر السكوتلندي القديم مثل (مقطعات من الشعر القديم جمعت في جبال سكوتلندا، وترجمت عن اللغة الغاليقية) وهي في الأصل الإنكليزي كما يلي:
, , &
760)
ليس هذا فحسب، فقد أمدّه الدكتور هيوج بلاير بإعانة مالية مكّنته من نشر هذه الأشعار، ذلك لظنه بأن أكثر هذه الأشعار مترجمة غير موضوعة.
وفي خريف سنة 1760، زار الشاعر بعض القرى السكوتلندية، وعثر فيها على مخطوطات قديمة فافتتن بها، حتى أنه ما عتم أن ترجم أحدها بمعاونة الأديبين الكابتن موريسن والقس أ. غالي

وفي سنة 1761، أعلن اكتشافه لقصيدة حماسية موضوعها فنغال: نشرها تحت عنوان ضخم هو (فنغال في ستة كتب، مرفقة بقصائد أخرى متفرقة للشاعر أوسيان اسن فنغال، مترجمة عن اللغة الغاليقية).
وعنوانها الأصلي هو: -
, , , ,
أما فهو الاسم الذي وضعه مكفرسن للبطل الايرلندي الخرافي (فن) الذي آزر كثولن حاكم ايرلندا، ووقف معه في وجه خصمه العنيد سواران ملك لوخلين حتى تمكن في النهاية من قهره، وإيقاعه في الأسر.
وفي سنة 1763، نشر قصيدة أخرى حماسية، اسمها (تيمورا) ومجموعة شعرية موضوعها
أما تيمورا هذا فاسم قصر ملوك ألستر وفي هذه القصيدة تتمة الحوادث الواردة في فنغال
أما أوشان فهو ابن فنغال نفسه؛ وقد كان فارساً منواراً، وشاعراً مجيداً؛ عاش على ما جاء في الأساطير الغاليقية في القرن الثالث ق. م.، وإليه يعزو مكفرسن وغيره من الأدباء هذه المنظومات الحماسية الرائعة، التي تدور على بطولة فنغال وقومه.
وجميع هذه الآثار الأدبية التي نشرها مكفرسن، معلناً أنها مترجمة موضوعة بأسلوب أقرب إلى النثر منه إلى الشعر؛ ذلك لما فيه من التسجيع والإيقاع المتكلف.
ويُعدّ أسلوب مكفرسن الأدبي من أروع الأساليب وأجملها وموضوع أدبه من أبعد المواضيع أثراً في تعجيل الحركة الإبتداعية ونشرها قبيل مجيء وردزورث. ولا يقتصر نفوذه على الأدب الإنكليزي فحسب، بل تعداه إلى الأدب الأوربي عامة، والألماني خاصة. فقد ترجمت منتوجاته إلى أغلب اللغات الحية وكان غوته وهردر الشاعر والنقادة الألماني الشهير من هواة أدبه.
ويروى أن ترجمة كيساروتي الإيطالية لقصائد مكفرسن، كانت من أحب الكتب إلى نابليون.
وبعد رجوعه من رحلاته الكشفية في سكوتلندا، تقلب مكفرسن في وظائف شتى، فمن سكرتير للجنرال جونستون في جزيرة فلوريدا، إلى عضو في البرلمان؛ وهو في أثناء ذلك لا ينقطع عن الاشتغال بالأدب، والنشر، وأهم ما نشره، خلاف ما عزاه إلى غيره من الترجمات الشعرية، كتاب (سر تاريخ بريطانيا العظمى)، ولقد ظل هذا دأبه، حتى وافته المنية في 17 فبراير سنة 1796، فدفن في زاوية الشعراء في وستمنستر أبي

مكفرسن والانتحال

كان صموئيل جونسن النقادة الإنكليزي الشهير ودكتاتور الأدب في القرن الثامن عشر، أول من نسب إلى مكفرسن انتحال أشعاره، وادعاءه أنها مترجمة من الغاليقية، فقد نشر جونسن سنة 1775 كتيباً اسمه (رحلة إلى جزر اسكوتلندا الغربية) هاجم فيه مكفرسن هجوماً عنيفاً، مبيناً أن مكفرسن إنما عثر على بعض الأشعار والمقطعات القصصية في الشعر الغاليقي القديم، فحاك من هذه المقطعات تلك القصائد المطولة، التي
ادعى أنها مترجمة، ولقد زاد موقف مكفرسن اضطراباً، ورأى جونسن وغيره من خصوم مكفرسن، تأكيداً، أن الشاعر السكوتلندي ينشر الأشعار الأصلية في صيغتها الأولى، فيكون بذلك قد برر موقفه؛ ورد طعنات خصومه إلى صدورهم؛ وعذروه في ذلك عجزه عن القيام بنفقات النشر، وحين لم يستطع أن يصمد أمام الأدباء المعاصرين الذين انقلبوا جميعاً خصوماً له، لم ير بدّاً من العكوف على نظم بعض القصائد، والادعاء بأنها الآثار الأدبية الأصلية، التي نقل عنها.
ولقد أُثيرتْ بعد وفاته آراء متضاربة، حول صحة هذه القصائد؛ وانقسم الأدباء إلى خصوم وشيعة. ومن أشهر خصومه ملكولم لينغ فقد بيّن في ملحق كتابه (تاريخ اسكوتلندا)، سنة 1800، أن الأشعار الأوشانية ليست مترجمة، بل نظمها مكفرسن، وعزاها إلى غيره.
وطرق هذا الموضوع أدباء فرنسيون وألمان أخصائيون في الأدب الكلتي، ولفتوا أنظار

مؤرخي الأدب إلى نقط مهمة تكشف عن الناحية المهمة من هذا الموضوع الخطير.
ومن خصومه أيضاً الدكتور دوجلاس هايد فقد ألف كتاباً اسمه ذكر فيه أن مكفرسن عرف الاسم الحقيقي لفنغال تمام المعرفة، إنما توخى التحريف والتحويل في هذه الأسماء ليوهم الأدباء أن أسماء أشخاص قصائده، إنما هي مترجمة ليس إلا.
ولقد عرض اسكندر مكبيان في فصل قيم موضوعه: ? في كتابه: قضايا الجمعية الغاليقية في غلاسكو لمختلف الآراء والنظريات المتعلقة بهذا الموضوع، وخاتمة ذلك الكتاب تتضمن خلاصة ما وصل إليه معظم الباحثين في هذه المشكلة؛ وخرج من هذا كله بنتيجة معقولة هي أنه لم يعرف في التاريخ شخصية باسم أو إنما جل ما هنالك بعض مقطعات في الشعر الشعبي الخرافي، فيها بعض الإشارات إلى أبطال ايرلنديين، لم يثبت التاريخ وجودهم في عصر ما. أما انتساب (فِنّ) إلى كورمك أحد ملوك أيرلندا القدماء كما هو ظاهر في القصيدة (فنغال)، فهذا أيضاً عار عن الحقيقة إن هو إلا نتاج زائف لخيال مكفرسن وتصويره الشائق.
وبذهب مكبيان إلى أبعد من هذا، فهو يرى أن اتخاذ الايرلنديين (فِنّ) بطلا قومياً ليس بالعجيب؛ إذ كلّل أمته، عند نشأتها وتكوينها الاجتماعي والأدبي، أبطال خياليون، تنسج حول شخصياتهم الأباطيل والخرافات النتعددة، فما (فِنّ) بالحقيقة إلا بطل شبيه بهرقل،
وتيسيوس، وبرسُيْس. ولا يبعد أن يكون (فِنّ) هذا إلهاً محلياً، قدسه قومه، وجعلوا منه بطلاً قومياً. حتى (أوشان) الشاعر الذي ينسب إليه مكفرسن نظم كثير من القصائد التي تدور حوادثها على شخصية (فِنّ)! أقول، حتى هذا الشاعر، في رأي مكبيان، وليد الخيال! لم يعش قط في عصر ما. أما تفسير كونه ابن فنغال فليس بالأمر العسير، فهو لا يختلف بذلك عن غيره من الآلهة القديمة التي عرفت بالاختلاط مع البشر، والمساهمة معهم في الحروب، ومختلف الأحداث؛ وفي كثير من الأحيان التزاوج مع فئةٍ مختارة منهم.
أما جواب مكبيان الأخير على القول السائد، (أن فنغال عاش وأوشان أنشد) فهو إنهما عاشا وأنشدا في نفوس الشعب الغاليقي، وأخيلتهم الخصبة. لأن الشعب وجد في هاتين الشخصيتين الخياليتين، مثلهم القومية والأدبية العليا مجسمة.
أما أنصار مكفرسن فيكتفون بالتشجيع لصاحبهم، دون الإتيان ببراهين وحجج دامغة، تدحض آراء خصومهم دحضاً، وتدفع بتهجماتهم العنيفة دفعاً؛ وخلاصة ما يرونه أن هذه الأشعار تاريخية، وأنها من نظم شاعر عاش في القرن الثالث ق. م. وشهد جميع الحوادث الحربية، التي ورد وصفها في تلك المنظومات الرائعة.
والحقيقة الراهنة لا تنشد في قول جونسن الخصم اللدود، ولا في أقوال أنصار مكفرسن المتحزبين، إنما تطلب في قول فئة تقف موقف العدل والحق من هذه المسألة.
والمقام يقصر عن التعرض لآراء جميع الذين يقفون هذا الموقف لكنا نكتفي بذكر أعظمهم شأناً وأبعدهم أثراً، وأقربهم من الحقيقة، أعني به الكاتب الكبير، والنقادة الاسكتلندي الشهير كامبل أوف إسْلويْ فقد وضع مؤلفاً في هذا الموضوع اسمه: (قصص شعبية في الجبال الغربية) فنّد فيه زعم جونسن أم مكفرسن نظم آثاره الأدبية نظماً، دون أن يتأثر بأشعار عامية قديمة، أو يقتبس منها أو ينقل عنها، وإن هذه الحوادث والأسماء الواردة في منظومات مكفرسن إنما هي موضوعة مختلقة، وردت ليست مترجمة. فهو يقول أن الأبطال الأوشانين، الذين وردت أسماؤهم في قصائد مكفرسن، عاشوا بحق، وعُرفوا قبل أن يدوّن مكفرسن هذه الأشعار بأعوام.
(البقية في العدد القادم)

جرجيس القسوس

الصديق المنشود

للأستاذ فخري أبو السعود

تحيةً في النوى يا كهف آمالي ... من مُصطفٍ لك دون الصحب والآل
يا مخلصاً ليَ في سر وفي علن ... وراعياً لي في بُعدي وإقبالي
ومن يغالي بودي ليس يبذله ... لزخرف العيش من جاه ومن مال
ومُسدياً فضلَهُ من غير مسألةٍ ... وعارفاً ليَ إفضالي وإجمالي

ومن يُفَرِّحه فوزي بمُطَّلَبي ... وليس يهْنِئُه أن ساء بي حالي
لا شامتاً في وقع الخطوب ولا ... جذلانَ غفلان في كربي وبلبالي
ومن إذا اغتابني المغتاب أصْمَتَهُ ... فليس يُطربه ما قال عذالي
وإن رأى عِوَجاً بي لم يُسَرَّ به ... لكن يُقَوِّمُ آرائي وأفعالي
ومن يُمَحِّضني نصحاً وأقبس من ... ضياء حكمته في كل إشكال
ومن يماثلني نفساً ويشبهني ... هوى ويفقه أفكاري وأقوالي
ومن محادَثتي إياه أعذَبُ لي ... من وقع فاجئة النُّعمى وأشهى لي
ومن إذا زدتُه خُبْراً أزيد له ... حمداً ويَعظُم في عيني وفي بالي
ومن أرى وده نعم العزاء إذا ... تقلّبت بيَ حالٌ أو قلا قال
ودٌّ أنزهه عن كل شائبة ... وأصطفيه بتقديسي وإجلالي
كم تاق قلبي إلى قُدْسٍ أمَجِّدُهُ ... في عالم فائضٍ بالرَّيب مُنْثَال
قد بتُّ أرقب لقيانا وأنشدها ... على تعاقب أيام وأحوال
فهل لها موعد؟ فالعمر مرتحل ... وليس يُرْجى لِعَوْدٍ بعد ترحال
متى تعَارُفُنا؟ أم أين أنشده؟ ... فقد أطلت - وما ألقاك - تجوالي
لكَم توسَّمت من جهل صفاتِكَ في ... فتى فأخلف فيه الخبرُ آمالي
لم يسْخُ لي بمغالٍ في الهوى لَهِجٍ ... دهرٌ سخا بمُلحٍّ في القلي غال
فخري أبو السعود

الشلال

للأستاذ عبد الرحمن شكري

(فلعل الحياة كالماء تجري ... بين هذا الثرى وبين السماء)

(من القصيدة)

يا أخا الصمت في الجلالة والرو ... ع وصنو النكباء والهوجاء
إن في القلب لوعة ما تقضي ... أنت حاكيت همتي ورجائي
أحسب الخلد مثل مائك ينها ... ر ونفسي في مائه كالهباء
أنت فَجَّرْتَ في ضلوعيَ ينبو ... عاً من الشجو مسرعاً في دمائي
ليت أن الحياة مثلك تعدو ... لا تَرَاخَى مثل الجياد البِطَاءِ
إن للعيش كدرة تذر النف ... س ركوداً كآسِنٍ في نِهَاءِ
فأَعِنِّي على الأواسن من نف ... سي بفيض ينهار مثل البناء
يا ابن ماء السماء هل تذكر الرع ... د تحاكي إرزامه في الغناء
قد هددت الصخور تنشد خصبا ... أم لذخر تبغيه في الدقعاء
إنما أنت ناقم ينْصف السه ... ل بفضل الشواهق الشماء
تجعل السهل والحَزُونَ سواَء ... ليس نجد ووهدة بسواء
مَرِحٌ أنت أم كما يسرع الفا ... رس في نجدة إلى الهيجاء
لك بالشم مولد وعلى صد ... ر أبيك المحيط وقع الفناء
غير أن الميلاد في قمم الش ... م حِمام لهاطل الأنواء
فلعل الحياة كالماء تجري ... بين هذا الثرى وبين السماء
لك في النفس نشوة مثلما استش ... رف راءٍ من شاهقات العلاء
ويفيض النفوس مرأى جلال ... لك حتى تطير كالأنداء
فكأني في مائك الغمر أهْوى ... وكأني في كل دان ونائي
أنت أيقظتني وقد كنت وسنا ... ن فخلت الأكوان طرارداني
هاتف في خرير مائك قد أذ ... كرني عزمتي وماضي مضائي
أنت أصفى من الوداد وأنقى ... من حبور النعيم والسراء
أنت أرجوحة لنفسي وصوت ... منك كالظئر هاتف بالغناء
أنت مثل الشباب عزماً وبطشاً ... وَوَضاَءً أحبب به من وضاَء
لك وقع الأقدار حتى لقد خل ... تك رمزاً رُمزتَهُ للقضاء
أنت كالدهر تأخذ الترب والعس ... جد حتى تعيده في الحباء
لم تهَبْ كرَّة الدهور ولم تج ... زع لذكر الشقاء والأرزاء
يا سليل السماء حَدِّث طويلا ... بحديث العلى وصدق السناء
تبعث الصخر من صخورك يزهو ... فوق صدر العشيقة الحسناء

سوف تغدو كالشيخ في أخريات ال ... نهر تسعى بهمَّة شمطاء
فاغتبط بالمضاءِ وامرح طويلاً ... كل شيء لطيَّةٍ وفناء
عبد الرحمن شكري
ضيعة المنى!!
بقلم فريد عين شوكة
بعض الرضى يا شبابي ... عما ذَوى من رغابي
مضت عهود التمني ... عَجْلَى كمرِّ السحاب
فاسلك سبيل التعزي ... ودع حياة التصابي
وانعم ببعض الأماني ... من الزمان المحابي
واركض مع الدهر واهتف ... له بكل ركاب
إن الزمان غبيٌّ ... يلهو به المتغابي
يا حائراً في ضلوعي ... كزورق في عُباب
وباعث الدم يسري ... كالمُهل تحت إهابي
متى تصيب قراراً ... تغفو به أعصابي
متى تعود فترضى ... من رحلتي بالإياب
متى تهون الغوالي ... عليك بعد الذهاب
متى أراك بجنبي ... كراهب المحراب
جفا الحياة ووارى ... آماله في التراب
يا قلب صبرَك أطفئ ... به لواعج ما بي
فأنت وحيُ نزاعي ... وثورتي واضطرابي
شغلتني بأمان ... كواعب أتراب
تركزت في ضميري ... وغلغلت في شعابي
حي جننتُ هياماً ... بها وخف صوابي
ما بالها كذبتني ... وأسفرتْ عن سراب
وخلفتني منها ... في وحشة واغتراب
ظمآن أهفو لديها ... لرشفة من شراب
أسوان أصلي عليها ... نار الأسى والعذاب
يا حسرة المتمنِّي ... على الأماني الكِذاب
(منوف)
فريد عين شوكة
حيرة
للأستاذ محمود شاكر
أشابَ القلبُ أم كَرِهَ الشبابا؟ ... وبان الأُنْسُ أم نسي الإيابا؟
وغالبني الأسى أم غالَبَتْني ... حياةٌ تجعل الفَوْزَ اغتصابا؟
أتَغْصِبُني الدموعُ الصبرَ حتى ... أرَى الدنيا أنيناً وانتحابا!
ويُبْدِلُني الزمانُ من التصابي ... ومن طَرَبي وُجُوماً واكتئابا!
وأسْأَمُ لَذَّةَ الدُّنْيا، ولَمَّا ... أَذُقْ مِنْ لَذَّةٍ إلا حَبابا!
فأِزْجُرُ لَذَّتي زَجْرَ اليتامى ... إذا ما الدهرُ أَمَّ بهم ذئابا
أفي وَهَجِ الشباب أعود هِمّاً ... يذودُ بضعفه النُّوَبَ الصِّعابا؟
وأُطرِقُ للحوادث مستكيناً ... كجاني الشرِّ ينتظر العقابا!
وأصبحُ في يدِ الدنيا أسيراً ... إذا رام الفِكاكَ وَهَي وخابا!
كما عَلِقَ الحِبالةَ ذو جَناح ... ولم يَنْفَعْهُ أن صحِبَ السحابا
فصفَّقَ ثم رَبَّقَ ثم أعْي ... يَحِنُّ لداره جوّاً وغابا
أَمِنْ عَدْلِ الحوادث أن أضَرَّى ... لأطْعَمَ إثْرَ لذَّتِهِنَّ صَابا!
وأن أستقبل الغَدَ مُسْتثيباً ... فيُقْبِلَ، لا أفاد ولا أثابا!
وأحمِلَ من بناتِ الهمِّ قلباً ... إذا نهنهتُهُ زاد اضطرابا!
جزاك الله من دُنْيَا خَتُولٍ . ... غَذَوْتِ القلبَ شكّاً وارتيابا
أنتهانى عن الجزعِ اللَّيالي ... وما تنفكُّ تتركني مصابا!!
فتَسْلُبني الأحبة عن عيان ... وتمتَحُني بذكراهم عذابا

وتسألني اختداعاً: أين بانوا؟ ... ومن يُجْرِم توقَّح أو تغابى
سَلِي ما شِئت، واستمعي شكاتي ... كمثل الدمع تنسكب انسكابا
أَعذْلٌ منكِ أن أَجَّجْت قلبي؟ ... فلولا الصبرُ يمسكه لذابا
فصارعتُ الشجون وصارعتني ... إلى أن فُزْتُ بالبقيا غلابا
فإن الدهر يُنصف من تأبَّى ... ويمنع يائساً من أن يُجابا
ومن يُعط التجلد للرّزايا ... تيقّن أن يصيب وأن يُصابا
وسائلةٍ بِظَهْرِ الغيب عني ... وعن جَلَلٍ من الأحداث نابا
تذكِّرُنِي الأحِبَّة ولَّوْا. . ... فزاد الدمعُ والجَزَعُ انتيابا
أحافظتي، فديتُكِ من صديق ... يسائِلُ من مضى عني وآبا
هي الدنيا تُفَرِّقُ ساكنيها ... وفي الذكرى تزيدهمُ اقترابا
ألا لا تَعْجَبي لِيَ من نحيبي ... فإِن أمامنا العَجَبَ العُجابا
محمود محمد شاكر
بلبلتي. . .
بُلْبُلَتي! ما شِئت طي ... ري حُرَّةً وغَرِّدي
وَسَقْسِقِي في جَنَّةٍ ... من مُهجَتي وكبدي
لا تحْسَبيني جئتُ بالٌّ ... قَيْدِ وذُلِّ المِقْوَدِ //
تفديك روحي وَسَنَا ... عيني وتَفْدِيكِ يدي
لن تدخُلِي في قَفَصٍ ... من جوهر مُنَضَّدٍ
بل تدخُلينَ قَلْبي الْ ... وافي فغنِّي وانْشدي
رَوْضي أنا، لا رَوْضَ له ... ذا العالَم المحدَّدِ
إن تَنْفَدِ الدُّنْيَا وَجَدْ ... تِ رَوْضَنَا لم ينْفَدِ
وأنت فِرْدَوْسي وفي ... ظِلِّكِ شِدْتُ مَعْبدي
لكِنَّني أحمِي ذِما ... ري وأصون مَحْتدي
وَأَدْفَعُ الذُّؤْبَانَ عن ... محَامدي وسُؤْدَدي
شَرْقِيةٌ أنْتِ؛ وَبِي ... بقِيَّة من أحْمَدِ
فباركيهَا بارَكَ اللهُ ... علَيْكِ، واقْصدي
عليَّ مِنْ حَقِّكِ ما ... لَسْتُ عليه أعتدي
يا أملي البَسَّام هَا ... تِي (. . .) وأَسْعِدي
سَهِدْتُ فاشْفِي بعض ما ... في جَفْنِي المُسَهَّدِ
باريسُ ما باريسُ إنْ ... فرَّطْتُ في ذا الْبلد؟
فِرْعَوْنُ جَدِّي، وأبي ... عَدْنَانُ، فَهْو مُخْلدي
وَيَثْرِبُ مَهْوى فُؤَا ... دِي حينَ مِصْرُ مَوْلدي
والمجدُ في شُطئَانِ هـ ... ذا النيلِ فارضيْ واسعدي
(المحلة الكبرى)
(. . .د)
القصص
قصة مصرية
قبلة. . . .
(الحوار في هذه القصة المصرية موضوع في الأصل باللهجة المصرية وقد عرب لانتشار الرسالة في الأقطار العربية)
للأستاذ دريني خشبة
كانت شغله الشاغل!
كانت تملأ أحلامه، وتحتل كل حنيةٍ من قلبه، وكان له قبلها حبيبات كثيرات من حبيبات الضرورة اللائى يعرضن في حياة الشبان، ثم ما يلبثن أن ينطفئ، كما تلتمع الشهب وتتلألأ، ثم ما تلبث أن تنطفئ، ويكون أحدها صاعقة تنقض على أحد فتسحقه. . . فلما عرفها، نسي هواه القديم الموزع، ووهبها حبه وإخلاصه ودموعه ودمه. . . ولو استطاع لوهبها كل حبه الذي ضيعه على الحسان عبثاً من قبل.
وكان لها هي الأخرى أحباء. . . ثلاثة أو أربعة. . . تنتقل بينهم كالفراشة الظامئة تمتص من كل زهرة رحيقها، ثم تلتمس الزهرة الثانية والثالثة. . . والرابعة التي تكون أطيب

شذى، وأنضر منظراً، وأملأ بالعصير الحول. ثم عرفت (جمال) فشعرت كأن حاجزاً ضخماً قوياً يفصلها من الماضي الممتلئ بمتاعب الحب المصطنع، والهوى المزوق، والغرام الكاذب الخداع. وشعرت لأول مرة في حياتها بنسيم عليل يهب في صحرائها المتلظية فيجعلها جنة تصدح فيها البلابل، ويتبسم في أفنانها الورد، وترقص في حنيَّاتها الملائكة. . . وتنشد وتغني!

وكانت تهب من نومها فلا تفكر إلا في (جمال)، وتذهب من هذه الغرفة إلى تلك وشخصه ماثل ملء ناظريها، وحبه يغمر نفسها، وكان يتمثل لها أكثر كلما توجهت إلى الحديقة تقطف الزهر وتأنس إلى الطير، وتجلس عند حافة الغدير، وترسل نظراتها الحائرة المضطربة في الشمس الغاربة خلف النخيل البعيد. . . وطالما كانت تستسلم لوحدتها هذه فترسل عَبرةً صغيرة، صغيرة جداً، تخفيها في منديل حريري صغير، لم تكن حملته قبل أن تعرف (جمال).

وكان (جمال) بدوره يحبها ويفكر فيها، ولكنه كان فتى غيوراً من مصر، وكل فتيان مصر غُيُرٌ أشداء في الغَيرة، وهو كان يعرف أن (سُميّة) لم تكن له قبل أن يلقاها وتلقاه، بل هو كان يعرف اثنين أو ثلاثةً من أحبائها المدنفين بها، بل إن اثنين أو ثلاثة من أحبائها كانوا أصدقاءه، وكانوا يُسرون إليه، كل على حدة، بلاعج الحب الذي يعانون من (سمية)؛ وكانوا يشكون إليه دلالها وقلة اكتراثها بهم، فلم يتحدث إليه أحدهم عن (سمية) حديث سوء أو فحش، ولم يقل له أحدهم إنه نال من (سمية) خلوة فبثها غرامه، أو إنها حفلت به حين لقيها في الطريق فجزته عن ابتسام بابتسام، بل هم جميعاً كانوا في نصب من تمنعها الذي شف قلوبهم، وأضوى أجسامهم، وجعلهم في حيرة من أمرها.

على أن (سمية)، مع ذاك، كان لها أحباء تخلو إليهم قبل أن تعرف (جمال)، وكانت تعاطيهم من بضاعة الحب المُزْجاة قبلاً رخيصةً، غير حارة ولا وفية، ولا معنى فيها من هذه المعاني الرفيعة التي تصون الحب العذري، ويتجمل بسموها الهوى الطهري؛ وكانت تسرف أحياناً فتغشي المراقص والندى، وكانت تتضع فتحسو الخمر وتقبل الكؤوس، وكانت، من النشوة وجنون الشباب، تراقص الفتيان نصف عارية؛ وكان جسمها الجميل الممشوق، ونهدها البارز المتأجج، ووجهها المستدير الحلو، وخداها الموردان الأسيلان، وأنفها الدقيق وفمها الرقيق وذراعاها الناعمان. . . كان كل أولئك يجذب إليها قلوب الشباب المستهتر، وكانت قلوب الشباب المستهتر من حولها كالفراش حول اللهب، تنقذف فيه لتحترق!

وقد عرفها جمال هنا! في نفس المرقص الذي تعودت أن تغشاه أكثر من المراقص الأخرى. وقد قدمها إليه أحد أصدقائه القُنَّع الأغنياء على أنها غانية، ولكن جمالاً عرف فيها الفتاة العذراء بقلبها، النقية بسريرتها، المتبرمة بهذه الحياة التي مظهرها دنس وفجور وفسق، وباطنها ضمير معذب وقلب محترق ونفس شقية، ودموع مُكتَّمة وأمل مفقود. لقد كانت الأضواء المصنوعة البرتقالية والبنفسجية والصفراء والحمراء والبيضاء، تتكسر على ظهرها الأملس وصدرها المرمري، وساقيها الخِدلجين، فتزيد معاني الفسوق فيها في قلوب محبيها الذين لم يكونوا يعرفون منها إلا ما تعرفه شهواتهم وخباثاتهم، في حين كانت هذه الأضواء نفسها تضاعف معاني الطهر والبراءة فيها في نفس جمال. ولذلك ضغط على يدها الصغيرة الحلوة الناعمة ضغطاً هيناً ليناً حينما قدمها إليه صديقه. . . وكان لقاء هو أول الطهر في حياة هذه الغانية، وهو أول الأمل المشرق والرجاء البسام.

لقد ضغط جمال على يد سمية ضغطة نقلت إلى قلبها الواسع ما في قلبه النحيل من حب ناشئ، تذوقته فلم تعرف فيه تلك النجاسة التي عرفتها من أحبائها الآخرين، وحدثت نفسها فوجدتها تنتقل فجأة من هذه الأرض الممتلئة بالأدران، إلى سماء فسيحة أثيرية ممتلئة بالأناشيد والأماني.

وفكر فيها جمال، وكاد عقله يصدفه عنها ولكن قلبه جذبه إليها بشدة وعنف، فاستسلم كالحمل، وألقى بروحه كلها في قبضة سمية.

والتقيا في خلوة، بعد مقدمات غرامية طويلة كلها حيطة وكلها حذر، وجلسا في منزل جمال الخالي من كل مخلوق عداه، وذهبا يتجاذبان أطراف الحديث الحي. . . ثم صمتا

فجأة وتوسطت بينهما نظرات مستطيلة غائرة ممتلئة مغناطيساً عجيباً. . . ولم يقو جمال على هذا السحر المنبعث من عيني سمية، فأطرف برأسه، وأخذ فوديه بين يديه، وانفجر يبكي كالطفل، وسمية تتفرس فيه وتتألم. . . ولا تدري ماذا تصنع!
سمية التي خبرت من ألوان الحب ألفاً وألفاً، لم تر في حياتها مثل هذا المشهد العجيب مرة واحدة، لأن كل الذين اكتووا بنارها كانوا من طلاب جسمها الخصب، وجمالها الفتان، أما جمال، فقد عرف من ابتساماتها الحزينة، ونظراتها المترعة بالمعاني أنها جديرة بغير هذا اللون من الحب الشهوي الدنس، جديرة بحب جديد نقي يوائم هذه الناحية المستورة العميقة من نواحي نفسها الكريمة الرحيمة الناقمة على الحياة، الباحثة عن قلب واحد كريم من ملايين القلوب التي يزدحم بها العالم من حولها.
دهشت سمية، وجلست تلقاءه مسبوهة اللب ذاهلة القلب، لا تدري ماذا تقول، ولا كيف تعالج منه هذا البكاء وذلك النحيب. . . لقد كانت تظن أنه يستطيع أن ينال منها كل ما يشتهي، فإنهما بنجوة من الناس، ولا أحد يستطيع أن ينفذ إليهما ولو بنظرة. . . فلم لم يداعبها جمال؟ ولم لم يداعب كفيها على الأقل؟ لمَ لمْ يجلس إلى جانبها على الكرسي الرحيب فيضع رأسه على صدرها كما يفعل العشاق، أو يأخذ رأسها فيضعه على صدره،
ثم يبحث بفمه في شعرها المجعد الأسود الفاحم! لماذا لم يحاول أن يُقَبِّلها؟ إن القبلة هي عربون الحب كما يقولون! فلم لا ينقض جمال على فمها الحلو فيسقي من سلافته قلبه الظامئ؟ لا! لم يفعل، ولم يحاول أن يفعل. . . بل ظل يبكي كالطفل. . . بكاءً ساكناً هادئاً، لأنه صادر من القلب، بل من أعمق أغوار الروح. . .
(أ. . . أظن بحسبك ما بكيت يا جمال؟)
(. . .؟. . .)
(أهذه أول مرة إذن؟. . .)
(سمية. . .)
(جمال. . .)
(أتعطيني موثقاً يا سمية؟)
(وعلى أي شيء أقاسمك يا جمال؟)
(على أن تكوني لي وحدي يا سمية. . . على أن تقطعي صلتك بكل من عرفتِ قبلي)
(وهل عرفت أحداً قبلك؟ أنت واهم!)
(أنت تهزأين بي يا سمية!)
(لا. لست أهزأ بك، بل. . . أنا. . . أحبك)
(وأنا. . . وأنا يا سمية. . . بل لقد فنيت فيك)
(ثق أنني لم أقلها لأحد قبلك على كثرة من تعرف ممن ظننتهم أحبائي!)
(إذن ستكونين لي وحدي! أليس كذلك؟)
(سأكون لك! وأقسم لك إنني لم أكن لأحد قبلك)
(وعلام تقسمين يا سمية؟)
(أقسم على نفحة السماء التي غمرت قلبي حين ضغطت على يدي ليلة لقيتك. . . بل أقسم على الدموع الغزيرة الغالية التي ذرفتها أنت الآن!)
ودنا منها جمال. . . وصافحها، ولكنه لم يقبلها؟!
ونقل من القاهرة إلى أسيوط، وانتقلت (سمية) معه، ثم تزوجها هنالك، ولكنه كان يعاشرها كما يعاشر الفنان دُميته، يهواها ويتعبدها، على عكس ما يقول الشاعر العربي؛ وكان شديد
الغيرة عليها، وكان يغيظه منها كثرة الخطابات التي ترسلها إلى القاهرة والتي تصل منها، وكانت هي لا تبالي أن تقع هذه الخطابات في يده فيقرؤها، ويمزق منها ما يشاء، ويبقي على ما يشاء ويرد إليها ما يشاء. ولكن خطاباً واحداً أهاجه بما حمل إلى سمية من عبارات ليس يصدر مثلها إلا عن فؤاد العاشق ولا يستطيع أن يكتبها إلا قلم وامق. . . وإن تكن التي كتبته امرأة كما يُظَن من الإمضاء.
(ومن عَلِيّة هذه التي تكتب هذا الأسلوب المتهدج يا سمية؟)
(الأسلوب المتهدج؟)

(آي. . . الأسلوب الذي يخفق بحبك، ويتنزل كالوحي عليك؟)
(جمال! ماذا تريد أن تقول؟)
(!لا شيء! ولكني أعبدك يا سمية! أعبدك! أسمعتِ)
(بل أنت تعذبني بشكوكك!
(فقط أريد أن أعرف من علية هذه؟)
(!أقسم لك بدموعنا إنها فتاة. . . ولكن لا تعرفها)
(. . . . . .؟. . . . . .)
وذهب جمال إلى (المصلحة) وغادر سمية تجتر آلامها وحدها؛ وكان قد أهدى إليها صورته يوم أن تقاسما على أن يكون كل منهما للآخر، وكانت سمية تعتز بهذه الصورة أيما اعتزاز، لأنها كانت تذكرها بالقلب الذي نبض بحبها غير مشوب بغرض دنيء، كما كانت تذكرها بأول نبضة خفق بها قلبها بحب بريء. . . فكانت تدمن النظر إليها وتبكي. . .
وعاد جمال مرة من عمله مغضباً حانقاً، لأن لئيماً من أصدقائه عرف أنه تزوج من سمية فكتب إليه خطاباً بإمضاء مستعار يهيجه به، ويذكر له من تاريخ صاحبته ما يريد أن يفصم به عرى تلك الرابطة التي ربطت قلبيهما، فتعجل جمال موعد انصرافه، ويرجع إلى المنزل ليرى رأيه في سمية، وليضع حداً لافتتانه بها، وليخلص ضميره المعذب من هذا الشقاء الطويل.
وكان يحمل معه مفتاحاً لسكنه، وكان كل مرة يفتح الباب دون أن يسمعه أحد، وكان بذلك يؤلم سمية غاية الإيلام، لأنها كانت تعتقد أنه يتجسس عليها.
ودخل في ميعاد مبكر لم تكن تنتظر مجيئه فيه، وسار بخطى متئدة حتى كان عند باب المخدع، فوجدها بين مصراعي دولابها الكبير تقلب أوراقاً، ثم تتناول من بينها صورة فتحدق فيها نظرها. . . وتلثمها وتبكي. . .
وكان السافل الوغد الذي كتب إليه الخطاب الذي أهاجه قد ذكر له أنه أهدى إليها صورته أكثر من مرة، وأنها أهدت إليه صورتها، فوقر في قلبه أنها تلثم الصورة المجرمة التي تدخرها ككنز لهذا الحيوان.
وفي ثورة جنونية، انقض جمال على سمية، وضغط بكفيه القويتين حول عنقها، فوقعت على البساط الوردي الفخم، بين الموت والحياة!
ولكن. . . وا أسفاه! لقد نظر إلى الصورة التي كانت بيد زوجته فوجدها صورته التي كان أهداها إليها ليلة الموثق، فأفاق من وسواسه، وانحنى يقبل سمية بفم مجنون، وشفتين مرتجفتين، ولكنها لم ترد عليه بكلمة. . . فحسبها قد قضت!
. . .وصاح جمال بالخادمة
. . .ثم هرول إلى الخارج ليحضر طبيباً
ولكنه عاد ليجد الخادمة تقول له:
* (سيدي. . . لقد سافرت!
* (سافرت؟!
* (أجل. . . سافرت إلى القاهرة! هكذا قالت لي، وهاك خطاباً منها. وفض جمال الخطاب فلم يجدها زادت على هذا السطر.
(جمال! اضطررتني اضطراراً أن أعود إلى الذئاب لتغتذي بمرضي وتوغل في دمي، والذي يؤلمني أنني أكاد أضع لك ولداً في طريقي إلى القاهرة!!).
وكاد جمال يختنق!
وهرول إلى المحطة لأنه نظر إلى ساعته فوجد أن القطار لا يتحرك قبل عشر دقائق. . . ولكنه وصل إلى المحطة ولم يجد سمية هناك، فانتحى ناحية وأخذ يفكر. . . ثم ذرف دموعاً سخينة أخفاها في منديله، وأيقن أن سمية قد سافرت في سيارة. وعاد إلى المنزل محطم القلب مهدم الجسم خائر القوى.
ولكنه ما كاد يطرق باب المسكن حتى سمع صوصوة، ثم دخل فرأى طبيبة كأنها ملاك تحمل بين يديها ابنه. . . المولود الصغير. . . ورأى سمية ممدودة على السرير ضعيفة موهونة واهية فانهمرت الدموع من عينيه، وتقدم إلى الطبيبة فاحتمل الطفل وطبع على جبينه ذي الأسارير قبلة باكية، ثم سمع سمية تقول:
* وأنا أيضاً يا جمال!

* (وأنت أيضاً ماذا يا ملاكي؟
* (وأنا أيضاً. . . قبلة مثل هذه. . .
فانحنى على وجهها الحزين وطفق يقبله حتى طبع عليه ألف قبلة، والطبيبة العذراء تنظر وتتعجب!
وكان الفصل شتاء، وكان الموقد يتأجج بجمر شديد ونظرت سمية فرأت جمالاً يخرج من جيبه خطاباً ويحرقه، فتبسمت وهي تقول:
(ضحية جديدة لا بد؟!
ولكن جمالاً لم يرد. . . . بل مضى يساعد الطبيبة في لف الطفل!!
دريني خشبة
ذكرى. . . .!
للقصصي الفرنسي موباسان
بقلم الأديب محمود البدوي
ما أمتع الربيع وغصن الشباب رطيب وماء الحياة يجري! وما أشجاه والشباب يولي والرأس يشتعل والحياة تدبر! لا زلت أذكر أي مخاطرة عظمى كانت الحياة في تلك الأيام الخوالي، وقد اعتدنا أن نجوب معاً خلال باريس رائجين مع الصبا بقلوب نزقة ونفوس مرحة، يملؤنا الرجاء، وتحف بنا النعماء، دون أن نعير الدنيا التفاته أو نحسب لها حساباً.
سأقص عليك إحدى هذه المغامرات التي وقعت لي منذ أمد مديد وعهد بعيد، حتى يصعب علي الإقرار بصحتها والتسليم بما فيها. كنت في الخامسة والعشرين من عمري، ولم يمض علي في باريس غير عهد قصير. كنت أخرج كل أحد مجدا في البحث عن مخاطرة أو مغامرة وأنا ممتلئ شباباً وفتوة. والآن. . . ما الذي تشابهه أيام الآحاد؟ أيام مروعة يضيق فيها المرء ذرعاً بكل فكر يثبته أو يتحدث به وبكل صحب يرافقه.
استيقظت في ذلك الصباح مبكراً وفي نفسي هذا الإحساس بالحرية الذي يعرفه أولئك الذين يعملون طيلة الأسبوع والذين ينظرون إلى يوم الأحد كيوم راحة وحرية. فتحت نافذتي ورمقت الجو البهيج وحرارة الشمس الفائضة والعصافير المغردة.
ارتديت ملابسي على عجل، وخرجت لتمضية يوم في الغابة الحبيبة خارج باريس، وكانت المدينة كلها تلمع في ذلك اليوم المشمس، ووجوه المارين تفيض بالبشر والسعادة لحياتها وسط هذا الجلال الرائع، وانتظرت على شط النهر ذلك القارب الذي سيقلني إلى (سان كلو).
وانتظاري بهذا القارب بدا لي كأنه مخاطرة في نفسه، فقد تصورته آخذاً بي إلى نهاية الدنيا، إلى أمصار عجيبة جديدة. وشد ما ابتهجت عندما لمحته قادماً كقطعة صغيرة من السحاب أخذت تكبر تدريجياً حتى لاحت أمامي، ورست على امتداد الرصيف.
ركبت القارب فألفيت نفسي وسط رهط من المتنزهين الذين ينعمون بلذائذ الأحد ومتعه، ووقفت على سطحه أرقب الأرصفة والمنازل والأشجار وهي تتوارى عن العين، حتى خلفنا باريس وراءنا، وانساب بنا القارب إلى ماء هادئ ساكن، تحفه السهول وتقوم على
جانبيه التلال الشاهقة، وفي أسفلها الغابات والأحراج والمراعي الخضراء الرطبة.
نزلت في (سان كلو) وتخطيت مسرعاً القرية الصغيرة ثم أشرفت على الطريق الذي سيقودني إلى الغاب، وكان معي خريطة لباريس وما يجاورها، ولذا فلن أضل الطريق إذا وليت وجهي شطر إحدى هذه الطرق الصغيرة التي لا تعد والتي تؤدي على اختلاف امتدادها إلى الأحراج. وبعد فحصها رأيت أنه علي أن أتيامن ثم أتياسر ثم أنعطف إلى اليسار ثانية إذا وجب أن أصل فرساي وقت العشاء.
سرت متمهلاً أسحق الأوراق الجافة بقدمي وأنشق الهواء العليل المعطر ناسيا كل ما يتصل بالمكتب والعمل والرئيس، وفكرت فقط في المستقبل المجهول الذي سيزاح لي ستره، والذي فيه كثير من الجمال المحتمل. وذكرتني بساطة الريف عهد الطفولة وجعلتني أشعر حقاً بأنني رجعت إلى الحياة طفلاً. فهناك نفس الزهور التي كنت أرى مثلها يانعة حول باب منزل أمي الصغير والحشرات التي في لون اللهب وهي تنساب متثاقلة على أنصال العشب الذي ينحني تحت ثقلها الضئيل.

أخذتني عيناي، وحملت بكل هذه الأشياء، ولما قمت كنت منعشاً تماماً وواصلت رحلتي. امتدت أمامي طرق جليلة من نبات السرخس وقد خطط بصف من زهر الكاميليا الأبيض الطويل. وهنا تبينت في نهاية الطريق شخصين قادمين نحوي، رجلاً وامرأة، ودار بذهني أنني سمعت من ناداني فحنقت على هذا التطفل الذي عكر علي صفو وحدتي الهادئة. وكانت المرأة تلوح بمظلتها والرجل في قميصه ذي الأكمام حاملاً معطفه على ذراعه ومشيراً لي.

استدرت وانتظرتهما وكانت المرأة تسير بخطوات سريعة قصيرة. أما الرجل فأفسح المجال لقدميه وكان يلوح عليهما الضجر والتعب.

تكلمت المرأة أولاً:

(سيدي. . . هل لك أن تتكرم بإخبارنا أين نحن؟ قال زوجي إنه يعرف كل فتر الريف المحيط ومع هذا فقد ضللنا الطريق!.)

(سيدتي أنت قادمة من فرساي وفي طريقك إلى سان كلو)

والتفتت إلى زوجها بحقارة:

(ماذا! إننا قادمون من نفس المكان الذي نرغب العشاء فيه!!)

وهزت كتفيها معنفة ومزدرية الرجل الذي ارتكب هذا الخطأ.

كانت حسناء في رونق شبابها وربما كان هذا هو الذي حملني على إخبارهما عن رغبتي في العشاء بفرساي. وأخذنا بأطراف الحديث. . . ووبخت زوجها الحائر وهو كأنما أخذته نوبة جنون يعوي عواء غريباً في خفوت كأنما لا تسمعه آذان غير أذني.

(تيـ يـ يـ ـت. . . . تيـ ـيـ يـ يـ يت)

واستطردت زوجه تقول:

(أنت دائماً مخطئ، فأنت الذي قلت إن (لاتورنيه) يسكن في شارع دي مارتز والواقع أنه لا يسكن هناك، وأنت الذي قلت إن (سلست) ليست لصة مع أنها كذلك، وأنت و. . .

وأخذت تلوم زوجها على كل أفكاره الخائبة وأعماله وجهوده الضائعة في مدة حياته الزوجية.

وعبثاً حاول زوجها إسكاتها بقوله:

(ولكن يا عزيزتي. . . أمام هذا السيد. . . ما الذي سيتصوره. . . ليس هذا بسار له).

وختم هذا بصياحه البربري الوحشي الذي بدا لي أنه عارض فجائي لحالة عصيبة مضطربة، وهنا تحولت الزوجة الصبية إلي وغيرت سلوكها بسرعة وقالت:

(إذا كان السيد لا يعارض فسنرافقه وعلى هذا فلا خوف علينا من التيه في الغاب).

فانحنيت. . . وجذبت بذراعي إليها وأخذت تحثني عن آلاف الأشياء، عن نفسها، عن حياتها، عن أسرتها، عن العمل، وزوجها يسير بجانبها ناظراً من مرة لأخرى بلهف يميناً وشمالاً صائحاً.

(تيـ يـ يـ يت)

فقلت له أخيراً:

(ما الذي يجعلك تصيح هكذا؟)

فأجاب بقلق:

(فقدت كلبي الصغير المسكين وما أتم الحول، أخذته معي اليوم لأول مرة ليرى الريف وكاد أن يجن من الفرح، كان يتوثب وينبح ويجري إلى الأحراج، ربما يموت جوعاً إذا ضل السبيل، أواه، الصغير المسكين).

فعنفته زوجه (إنها غلطتك. . . أنت أبله. . أه. . إنك تحملني على الغضب).

غربت الشمس وأخذ الضباب المتكاثف يحجب حوافي الريف، وتأرج الغاب بعبير الزهور الذابلة. . توقف الزوج يبحث في جيوب صديريته باهتمام.

(عزيزتي إني آسف. . . . نسيت. . .).

فرمقته وهي تتميز من الغيظ.

(ما الذي تعمله الآن؟).

(يبدو لي أنني نسيت محفظتي. . . وفيها نقودي).

فامتقع لونها من الغضب.

لقد عيل صبري. . . آه. . أيها الغبي. . حتى النساء ترمي بمثل هذا المأفون. . . اذهب) وابحث عنها حالاً، وحذاراً من العودة بدونها، أما أنا فذاهبة إلى فرساي في حماية هذا السيد فلا أرغب في المبيت في الغاب).
فأجاب بوداعة:
(حسناً. . يا عزيزتي. . . وأين أراك؟).
فحدثته عن مطعم معين أنيق جداً، ووعد بموافاتنا هناك، ثم غادرنا يبحث عن كلبه. . .!
ومن آونة لأخرى كنا نسمع الصياح الحاد:
(تيـ يـ يـ يـ يت) الذي أخذ يتضاءل كلما بعد.
وتكاثف الضباب فحجب أعالي الأشجار وانساب في خلال الفروع واستطعت بعد لأي أن أميز بناء جسم مرافقتي، ونحن نسمع من حين لحين صياح (لامنتابل):
(تيـ يـ يـ يـ يت).
وأسرعت الخطى سعيداً جذلاً بهذه الرياضة الجميلة في الغسق مع امرأة مجهولة تستند على ذراعي وتميل نحوي. وبحثت عن أشياء أقولها عن عبارات سامية، أو نكات مستملحة. . على أني لم أوفق لكلمة واحدة. والحق أقول ما كنت في حاجة لشيء من هذا.
ووصلنا إلى طريق رحب تقع على يمينه مدينة كبيرة في واد خصيب وسالت ماراً عن اسمها فأخبرني أنها بوجيفال فدهشت.
(بوجيفال!. . أمتأكد أنت؟).
(حسن!. . . تصوري بأنني ولدت هنا).
وأخذت المرأة النحيلة تضحك لإضلالنا الطريق بقلب طروب، فعزمت على ركوب عربة إلى فرساي ولكنها رفضت.
أه. . لا. . حقاً. . . إني لا أتعطش إلى ذلك ولا أتلهف عليه، وزوجي في استطاعته أن) يراني في وقت ما، وأضف إلى هذا أني سأكون أمام مخاطرة سارة لم أرها من قبل).
ودخلنا مطعماً على حافة النهر، واجترأت على طلب غرفة خاصة. . . والحق أنها. . . متعت نفسها. . استسلمت. . كنا في حالة نشوة لذيذة. . غنت وشربت الخمر، وفعلت أكثر من هذا. . . فعلت في الواقع كل ما تستطيع عمله. . .

محمود البدوي

البريد الأدبي

مصير الآداب بين مسيو هربو والشاعر بول فاليري

عقدت لجنة التعاون العقلي الملحقة بعصبة الأمم مؤتمرها السنوي في جنيف في أواخر يوليه، برياسة المفكر الإنكليزي الكبير الأستاذ جلبرت موري، ومثلت فيها معظم الأمم المنضمة إلى العصبة؛ وجرت فيها عدة بحوث ومناقشات في المسائل الفكرية والأدبية، وكان مما لفت الأنظار بنوع خاص حوار طريف دار حول مستقبل الآداب بين أديبين كبيرين من ممثلي فرنسا هما المسيو ادوار هريو رئيس الوزارة الأسبق والمسيو بول فاليري الشاعر الكبير.

يرى مسيو بول فاليري أن أولئك المفكرين الذين يتذوقون جمال الشعر وروعة الأدب يختفون في عصرنا شيئاً فشيئاً حتى غدوا قلة محسوسة؛ وربما شهدنا في المستقبل القريب انقراض القارئ المفكر المتمهل؛ ذلك أن السينما والسيارة والأخبار السريعة التي تلقيها الصحف كل ساعة قد شغلت الأفكار، وأحدثت في الأذهان اضطراباً مريعاً، وأودت بقواعد النقد والكتابة السليمة، وأخذت الأذهان تعدل شيئاً فشيئاً عن البحث والتعمق إلى التعميم والبساطة السطحية، ووصلت العدوى إلى أولئك الذين اعتادوا من قبل أن يزنوا آراءهم وأن يمحصوها، فمستقبل الأدب الرفيع اليوم في ميزان، وليس بعيداً أن يطفو الأدب الشفوي على كل أنواع الأدب السليم الهادئ.

على أن مسيو ادوار هريو لا يرى رأي زميله المسيو فاليري، فهو أكثر منه تفاؤلاً بمستقبل الأدب الرفيع، ومن رأيه أن تطور الفكر الغربي يسير في مجراه الطبيعي، وأن الأدب يشغل مركزه الهام في المجتمع الجديد الذي يتكون اليوم. ويقول مسيو هريو إن الأدب سيبقى حياً دائماً، ذلك أن وحدة الذهن والأدب الحقيقي يرتبطان برباط قوي، ولا يتسنى للأدب أن يعيش وحده على هامش الذهن. وما دام هناك أدب رفيع فسيكون هناك قراء، فليخرج الأديب والفنان كل منهما نتائج فكره، فيجد دائماً من

يتذوقها.
ويرى مسيو هريو أنه إذا كانت ثمة في آداب عصرنا بعض نواحي الضعف والسقم، فإن ذلك يرجع إلى آثار الحرب الكبرى. ذلك أنها كما أضرت في الماديات، أضرت في العقليات أيضاً، وأصابت حركة التفكير بويلاتها.
وقد كان هذا الحوار الطريف مثار التعليق الكثير في دوائر الأدب، ونحن أميل إلى الأخذ في ذلك الموضوع برأي الشاعر بول فاليري، ويكفي أن نلاحظ ما أحدثته السينما والراديو ووسائل التسلية الفنية والشفوية من ضعف في الحركة الأدبية، لندرك أن الأدب الرفيع يسير إلى مستقبل غامض مجهول. فما رأي أدبائنا؟

برنارد شو في الثمانين من عمره

احتفل برنارد شو، واحتفلت معه إنكلترا، ببلوغه الثمانين من عمره (في الخامس والعشرين من يوليه) وفي ذلك اليوم قامت جمعية الحفلات بتمثيل روايته الشهيرة (جان دارك) ولبث برنارد شو طوال اليوم عاري الرأس، مشمر الساعدين، يطوف بلحيته البيضاء حول المسرح ليشرف على الاستعدادات، ويدلي بنصائحه للمس وندي هلر التي تقوم بتمثيل الدور الأول. وقد رأى برنارد شو أن يفاجئ أصدقاءه بهذه المناسبة بإحدى طرائفه فذكر لهم جميعاً أنه جمع من المال ما يكفيه، وأنه يستطيع أن يشتري لنفسه كل التحف والهدايا التي يتصورها الذهن، ولذلك فهو يرجو ألا تتعدى أثمان الهدايا التي ترسل إليه ثلاثة سنتات؛ فصدع أصدقاؤه بالرجاء، وجاءت السلال إلى فناء الدار تحمل أقلاماً من الرصاص، وأمشاطاً، ودفاتر للكتابة وأسلحة وأمثالها.
وقد ألقى برنارد شو في ذلك اليوم بتصريحين: أولهما أنه بهذه المناسبة يود أن يتجول قليلاً في جبال بلاد الغال، والثاني أنه لا يرى في الواقع فرقاً بين الاحتفال بعامه الثمانين وبين الاحتفال بعامه التاسع والسبعين.

تكريم الأستاذين أحمد أمين وعبد الرحمن عزام في دار الأيتام ببيروت

لا تترك إدارة دار الأيتام في بيروت فرصة مرور أديب كبير أو رجل خطير إلا وتخف إلى تكريمه والاستفادة من علمه ومعرفته، حتى لقد أصبحت هذه المؤسسة في طليعة المؤسسات العلمية في الحاضرة بعملها على هذه الغاية وسبقها إلى كل مكرمة علمية، يقوم على إدارتها رجل شاب مثقف، دل على همة ونضوج في عمله، تراه لا يألو جهداً في تحسين هذه الدار والتقدم بها تقدماً محسوساً يرفع عنها (دالة اليتم) وإن تكن مصنوعة للأيتام.
كانت حفلة التكريم من الحفلات الرائعة التي تجلت فيها العاطفة العربية التي تربط بين الأقطار العربية على اختلاف مواضعها. بدأت الحفلة بكلمة مدير المؤسسة السيد محمد عبد القادر طبارة، شكر بها الزائرين على تلبيتهم الدعوة، وعلل الأسباب التي يكرمون بها الأستاذ أحمد أمين؛ ثم قدم المحاضر إلى منصة الإلقاء، فعالج موضوع الفقر وأسبابه ومعالجتها، فجعله آفة اجتماعية لا آفة سماوية يمكن التغلب عليها، ثم حلل الفقر وجعل له أسباباً طبيعية يتغلب العلم على كثير منها، وأسباباً غير طبيعية يجد لها المخلصون علاجاً في إخلاصهم، وهنا ذكر ما يجب على الحكومات عمله في طرد الفقر، وما يجب على الأوقاف التي تجمدت في ذهنها معاني الإحسان! وكان الأستاذ محدثاً موفقاً في محاضرته، خالباً ألباب سامعيه، داخلاً في نفوسهم، محللا موضوعه تحليل الطبيب الاجتماعي. وما أن انتهت المحاضرة حتى خف الزائرون إلى الميتم يتفقدون حجراته، فرأوا في هذه المؤسسة من الأناقة والترتيب والتقدم ما يشهد كله للقائمين على هذه المؤسسة الخيرية بالهمة السامية والعمل الكامل. وبعد لأي بدأت حفلة التكريم فما قلت جمالاً عن أختها، فتكلم حضرة مفتش المعارف السيد واصف بارودي كلمة عن أثر اللغة وربطها بين الأقطار، وعن آثار الأستاذ أحمد أمين، ثم ألقى الأستاذ جورج كفوري مدير الدروس العربية في المدرسة العلمانية كلمة بليغة في تحليل أسلوب الأستاذ أحمد أمين، وخصمه بمزايا منها: نزاهة في التحليل، وغوص على أعماق المسائل؛ وأيد قول زميله الدكتور طه حسين فيه: (إنه يعمل كالكيماوي في مختبره). ثم ألقى السيد كاظم الصلح خطاباً قيماً عن جهاد الأستاذ عبد الرحمن عزام، وعن وطنيته الدافقة التي تعلن الحرب في كل ميدان عربي، لأنها مؤمنة جد

الإيمان بعروبتها، وهنا نهض الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام مبلغاً تحيات الأستاذ عبد الرحمن الذي حال بينه وبين قدومه العاجل إلى العراق، وأكد بكلامه أن البلاد العربية ساعية إلى وحدتها التامة ومتلافية فيها لأن كل شيء يسبقها على تقريب ذلك وليس فجرها ببعيد. وختم الحفلة الدكتور سليم إدريس شاكر لليتيم الذي سهل للحشد الكريم اجتماعه وتعارفه، ثم انصرف الناس تلهج ألسنتهم بالشكر والثناء الجميل على ليلة كانت من ليالي الدهر.

خ. هـ

حول نقد

قرأت في العدد 160 من (الرسالة) للأديب عباس خضر نقداً لقصيدة القاياتي. ولكني لم أستطع فهم رأيه في قول الشاعر:

يقولون إن الراح للفكر صيقل ... وربك ما في الراح عقل ولا فكر

فالأديب قد أخذ على الأستاذ المغالطة في هذا البيت وهذا قوله فيه:

فأن خلو الراح من العقل والفكر لا يمنع من أن تصقل الفكر، وهناك كثير من الأشياء (تصقل الفكر وليس لها عقل ولا فكر).

فهو قد فهم أن علاقة الراح بالعقل والفكر علاقة الملك ورأى أن للراح عقلاً وفكراً ولكني أستطيع أن أقول إنه ليس ثم مغالطة فالشاعر لم يقصد إلى ذلك ولم يعنه وإلا لكان جديراً به أن يقول:

وربك ما للراح عقل ولا فكر

ولكان البيت حينئذ سليماً والمعنى مستقيماً مع رأي الأديب.

ولكن الشاعر لم يرد ذلك ولم يعمل له وإنما يعني نفي العقل والفكر عن شارب الراح وكيف تصقل الراح العقل والفكر وهي تذهب بهما فلا وعي ولا تفكير، وذلك نظير قوله تعالى: (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس) فالإثم ليس فيهما وإنما في تعاطيهما.

ولو كان الشاعر يعني رأي الأديب لكان البيت ضعيف المعنى ضعيف السبك لا يجدر بشاعر حدث بله الشاعر عميق الفكرة دقيق الالتفات.

وكيف ينعى الشاعر على القوم قولهم إن الراح تصقل الفكر ثم يقرر ذلك.

محمد جمال الدين محمد

مدرس

النشيد القومي - الغلطة الأولى

يدور بين الأدباء كلام كثير حول اختيار هذا النشيد الذي وضعه الأستاذ محمود صادق، والأمر بتلحينه واتخاذه نشيداً قومياً لمصر؛ ولا يعنينا أن نخوض الآن في شيء من ذلك.

ولكن الذي يعنينا أن أحداً من الأدباء لم ينتبه للأغلاط الموجودة في هذا النشيد، وهي أغلاط فاحشة، ولم تتنبه كذلك وزارة المعارف، ولم يتنبه علماء الدين إلى جملة في النشيد تؤدي بمن يعتقدها من المسلمين إلى الكفر الصريح! وهذا هو موضوع العجب! كأن الجميع اتفقوا على إهمال هذا النشيد وتركه يوم من تلقاء نفسه، وأصرت وزارة المعارف من جهة أخرى على ألا يموت.

ونحن نذكر الغلطة الأولى في هذا النشيد، ونطلب من أنصاره الإجابة عنها، فإن فعلوا استفتيناهم في غيرها، وإلا اعتقدنا أنهم عن غيرها أعجز.

يقول واضع النشيد: (سأهتف باسمك ما قد حييت).

وهذا الشطر يتكرر في النشيد كله من أوله إلى أخره. والمعروف في قوانين العربية أن (قد) في مثل هذا التركيب تكون لتحقيق وقوع الفعل، فهي تمحص الفعل الذي بعدها للماضوية كما تقول قد رأيت، أي رأيت وانتهى زمن الرؤية؛ فإذا كان ذلك فما معنى تعليق فعل وقع وانقطع على فعل سيقع في المستقبل وهو (سأهتف)؟

إن معنى الكلام هو بالضبط كقولك سأهتف باسمك في المدة التي عشتها، وهذا بالضبط كما تقول سأقابلك أمس. وكل ذلك تركيب فاسد لا يمكن أن يستقيم في العربية. ونحن الآن نطلب مثالاً من العربي الفصيح تكون (قد) مستعملةً فيه بين ما المصدرية والفعل الماضي الذي سيؤول معها بمصدر، فإن وجد المثال فليتفضل من يدلنا بذكر الكتاب ورقم الصفحة.

س. ط
كلية الآداب
العدد 164 - بتاريخ: 24 - 08 - 1936
خَضَع يَخْضع. . .
للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

وقال صاحب سر (م) باشا فيما حدثني به: جاء ذات يوم قنصل (الدولة الفلانية) من هذه الدول الصغيرة التي لو علم الذباب في بلادها أن في مصر امتيازات أجنبية لطمعت كل ذبابة أن يكون لها في بلادنا اسم الطيارة الحربية. . . ورأيته قد دخل عليّ شامخاً باذخاً متجبراً كأنه قبل أن يجيء إلى هذا الديوان لمقابلة الحاكم المصري - قد تكلم في (التلفون) مع إسرافيل يأمره أن يكون مستعداً للنفخ في الصور. . .

جنى صعلوك من رعايا دولته على مصري فأخذ كما يؤخذ أمثاله وقضى ساعة أو ساعتين بين أيدي المحققين يسألونه الأسئلة الهينة اللينة التي تحيط بتعريفه من ظاهره ولا يشبهها في سخافة المعنى إلا أن يسألوه عن ثيابه من أي مصنع هي في أوربا. . . فزعم القنصل أنه كان يجب أن يكون حاضراً يشهد التحقيق لأن جناية أجنبي على مصري تقع أجنبية. . . فلها شأن ورعاية وامتياز؛ وادعى أن المحققين ضايقوا المجرم وعاسروه وتجهموه بالكلام؛ ولهذا جاء يحتج.

ورأيته جلس متوقراً كأنما يشعر في نفسه أنه أثقل من مدفع ضخم لأن في نفسه وهم القوة، وخيل إلي أنه يرى موضعه بين السقف والأرض إذ يحمل في رأسه فكرة أنه الأعلى، وكانت له هيئة صريحة في أن الأجنبي المقيم هنا ليس هو كل الأجنبي، بل لا تزال منه بقية تتممها دولته؛ وفي الجملة كان الرجل كلمة واضحة مفسرة تنطق بأن للقانون المصري قانوناً يحكمه في بلاده.

وأنا قد درست القانون الدولي وعرفت ما هي الامتيازات وما أصلها، وهي لا تعدو كرم الأرنب التي زعموا أنها كانت تملك حماراً تركبه وترتفق به فسألتها أرنب أخرى أن تردفها خلفها، فلما اندفع بهما الحمار استوطأته فقالت لصاحبته: يا أختي ما أفره حمارنا. . . حمارك! ثم سكتت مدة وأعجبها الحمار فقالت يا أختي ما أفره حمارنا

وكنا نحن الشرقيين من الضعف والغفلة بحيث لم نبلغ مبلغ الأرنب في حكمتها وتدبيرها فإنها أسرعت ودفعت صاحبتها وقالت لها: انزلي ويلك قبل أن تقولي: ما أفره حماري.

قال: غير أني في تلك الساعة نسيت القانون الدولي وكنت في إلهام مصريتي وحدها، فظهر لي ظهوراً بيناً أن لا شيء اسمه القانون الحق في هذه الدنيا؛ ولكن هناك اتفاقاً بين كل خضوع وكل تسلط هو قانون هاتين الحالتين بخصوصهما.

وأسرعت إلى الباشا فأنبأته، وأسرع الباشا فغير وجهه وتبسط وتهلل وتهيأ بهذا لاستقبال القادم العزيز كأنه أخص محبيه يتطلع إلى مؤانسته وقد جاء يزوره في داره. ثم دخل القنصل ولم أسمع مما دار بينهما إلا الكلمة الأولى وهي قول الباشا: لنبدأ يا سيدي من الآخر. . .

وكانت في الباشا موهبة عجيبة في اختلاب الأجانب خاصة، يديرهم بلباقة كالخاتم في إصبعه حتى قال لي أحدهم: إن لهذا الباشا حاسة زائدة لو سميت حاسة الإرضاء لكان هذا اسمها الطبيعي، وإنه يعمل بها كما يعمل المفكر بتفكيره. فهو يبتكر الأساليب الغريبة التي يصعد ويهبط بها ميزان الحرارة النفسية، وأن جليسه يكاد يشعر من مهارته في التمثيل أن في جو المكان ستاراً يرفع وستاراً يسدل بين الفصول.

فما لبث القنصل أن خرج بغير الوجه الذي دخل به، ولكنه عبس في وجهي أنا وتكرَّه لي كأنه أصغر شأني فازدرتني عينه فوثبت إلى رأسه فكرة الامتيازات. وهذه القوة الظالمة لو أنها كانت قوة قاهرة نافذة وأعين بها طفيلي ليقتحم دور الناس آمنا مطمئناً - لاستحى هذا الطفيلي أن يأكل بها إذ تجمع عليه التطفل والمقت معاً؛ ولو قيل لحسام بتار: إن لك امتيازاً على بعض السيوف ألا تقارعك، وإنك محمي أن تنالك سطوتها إذا قارعتها - لأنف أن يسمى سيفاً بهذا أو بمثل هذا فإن القوة الظالمة التي يعيرونه إياها ليست إلا مهانة لشرف القوة العادلة التي هي فيه.

قال صاحب السر: ووصفت للباشا هيئة القنصل التي انصرف بها وتقطيبه في وجهي وقلت له: إن الذبابة وقعت في صَحْفتي أنا من هذه الوليمة. . . فضحك بملء فيه ثم

قال:
ستبطل هذه الامتيازات وليس بيننا وبين نهايتها إلا أن ينتهي الشعب إلى حقيقته القومية، فما تركها في مكانتها إلا نزول الشعب عن مكانته. وتالله لكأن هؤلاء الأجانب يسألوننا بهذه الامتيازات: أين مكانكم في بلادكم. . .؟
أتدري ما قاله هذا القنصل حين تجاذبنا الحديث فيها بعد أن وضعت نفسي منه في موضع المحامي الذي يخذله الدليل فيحاول أن يستنزل كرم القضاة بعرض بؤس المتهم على
شفقتهم ليخفف القانون الذي في أيديهم بالقانون الذي في أنفسهم؟
إنه قال: لا يلومن الشرقيون إلا أنفسهم، فهم علموا الأجانب أن نتف ريش الطير أول أكله. وهذه الامتيازات إن هي إلا معاملة بيننا وبين طبيعة الخضوع في الشعب. نعم إنها مضرة ومعرة، وظلم وقسوة، ولكنها على ذلك طبيعة في الطبيعة؛ فما دام هذا الشعب لين المأخذ فإن هذا يوجد له من يأخذه، وما دامت الكلمة الأولى في معجم لغته السياسية هي مادة (خضع يخضع)، فهذه الكلمة تحمل في معناها الواحد ألف معنى، منها: ظلم يظلم، وركب يركب، وملك يملك، واستبد يستبد، ودجل يدجل، وخدع يخدع؛ فهل يكثر أن يكون منها للأجانب امتاز يمتاز؟
قال صاحب السر: ثم زم الباشا فمه وسكت، ففهمت الكلمات التي انطبق فمه عليها وإن لم يتكلم بها، ثم غلبه الضحك فقال: والله يا بني لو أن برغوثاً طمر من ثوب صعلوك أجنبي فوقع في ثوب صعلوك وطني فتقاتلا فقبض عليهما فأخذا لما رضي برغوث الأجنبي أن يحاكم إلا في المحاكم المختلطة. . .
ثم سكت الباشا مرة أخرى كأنه يقول كلاماً آخر لا يجوز نشره ثم قال: يا بني إن الأجانب لا يضعون الحمل إلا على من يحمل؛ فإذا نحن توخينا مرادهم أرادوا لأنفسهم لا لنا؛ وإذا وافقنا لهم غرضاً جعلوه كالدينار فيه مائة قرش وأبوا إلا أن نصارفهم عليه بمائة. هم ويحك يمتازون في معاملتنا لا في سطور القوانين والمعاهدات فلنبطل هذه العاملة يبطل هذا الامتياز.
إن الحق يا بني استحقاق لا دعوى؛ وهذا التنازع على الحياة يجعل وسائله الطبيعية الانتزاع والمطالبة والتجرد له والدأب فيه والإصرار عليه. وكل الأقوياء يعلمون أن موضع الاعتدال بين غصب الحق وبين استرداده موضع لا مكان له في الطبيعة؛ والأجنبي يعتمد علينا نحن في جعله أكبر منا وأوفر حرمة. فإذا ألغى الشعب هذه الامتيازات من فكره وروحه وأعصابه وثارت فيه كبرياء الوطنية فاستنكف من الاستخذاء ونفر من الإختضاع وأبى إلا أن يعلن كرامته، وصرف اهتمامه إلى حقوق هذه الكرامة، وأصر ألا يعامل أجنبياً يرى لنفسه امتيازاً على وطني، وقرر ذلك في نفسه ومكنه في روعه وأجمع عليه إجماعه على الدين، إذا جاءت (إذا) هذه بشرطها من الشعب، جاء جواب الشرط من الأجانب
بنزولهم عن الامتيازات وانحلت المشكلة. إننا يا بني لا نملك ضغط السياسة ولكنا نملك ما هو أقوى؛ نملك ضغط الحياة.
لهم الامتياز بأنهم أجانب عنا، فليكن لنا الامتياز الآخر بأننا أجانب عنهم في المعاملة، مثلاً يمثل، وما يفل الحديد إلا الحديد.
يقولون النظام الاقتصادي والمال الأجنبي. ولكن أرأيت المال في يد الأجنبي إلا مالاً وتدبيراً وسلطة وسيادة، من أنه في يد الوطني دَينٌ وإسراف ورق وذل؟
لم يظهر لي إلا الساعة أن من حكمة تحريم الربا في شريعتنا الإسلامية وقاية الأمة كلها في ثروتها وضياعها ومستغلاتها، وحماية الشعب وملوكه من الإسراف والتخرق والكرم الكاذب ورد الاستعمار الاقتصادي وشل النفوذ الأجنبي.
أما لو أننا كتبنا من الأول على أبواب (البنك العقاري) وأبواب ذريته: (يمحق الله الرِّبا) فهل كانت تقرأ هذه الكلمات الثلاث على أبواب تلك البنوك الأجنبية إلا هكذا: (محال خالية للإيجار). . . . .؟
(سيدي بشر. إسكندرية)
مصطفى صادق الرافعي
خطب فلسطين بين الصهيونية والاستعمار
للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

لا يزال العرب في فلسطين ماضين على سنتهم - يقاتلون، وينافحون، ويذودون عن حقيقتهم، بل وجودهم. وقد توسط الأمير عبد الله بينهم وبين الإنجليز غير مرة فما أجدت وساطته، وسمع من زعماء العرب الذين استقدمهم إليه في عمان أنهم ينتظرون منه أن يكف عن كلامهم في ذلك إلا إذا كان يستطيع أن يبلغهم أن مطالبهم أجيبت بلا نقص، وليصنع الإنجليز ما شاءوا، وليبلغوا بقوتهم مجهودها. ولو كان الأمر يحتمل المساومة لجنح العرب إلى السلم، ولكنهم لم يبق لهم اختيار، فأما أن يموتوا الآن مدافعين وإما أن يوطنوا النفس على الجلاء عن وطنهم والخروج من ديارهم إذا ظلت أبواب (الهجرة الصهيونية) مفتوحة. ومن هنا هذه الاستماتة في الثورة الفلسطينية.

ولو كانت هذه الثورة شبت في فلسطين في أعقاب الاحتلال الإنجليزي، لكانت أهول وأروع، فقد كانت البلاد غاصة بالسلاح والذخيرة، ولكن الخطر على العرب من (الهجرة الصهيونية) لم يكن قد تجسد كما تجسد الآن، ولا كان العرب في البلدان الأخرى - فضلاً عن فلسطين - قد أفاقوا من صدمة الغدر الاستعماري بهم. أما الآن فقد صار الخطر على العرب فلسطين حقيقة يحسها كل واحد في نفسه وفيما حوله. وانتسخ الأمل في أن يفيء الإنجليز إلى العدل ويؤثروا القصد بعد أن رآهم العرب يهملون ما أوصت به وحضت عليه ثلاث لجان من لجان التحقيق جاءت من لندن إلى فلسطين وأجمعت على أن الهجرة يجب أن تقف لأن البلاد لا تحتمل استمرارها. وكان ذلك قبل سنوات عديدة، فكيف الآن؟؟

وقد تغيرت الأحوال في البلدان العربية الأخرى، فاستقر الأمر في جزيرة العرب، ووضع الصلح الكريم بين نجد واليمن الحجر الأول في بناء الوحدة العربية، وجاءت المعاهدة التي عقدت في هذا العام بين العراق والدولة العربية السعودية، فكانت خطوة أخرى واسعة في سبيل الحلف العربي؛ وهبت مصر تطلب أن يسوى الأمر بينها وبين بريطانيا فبادرت بريطانيا إلى الدخول في المحادثات التي انتهت منذ أيام إلى الاتفاق؛ وتلتها سوريا فأضربت شهرين أو أكثر، فلا بيع ولا شراء، ولا أخذ ولا عطاء، وتفاقمت الأزمة واستحال علاجها بغير النزول على حكم الواقع، فردت فرنسا نفسها على مكروهها وعدلت

عن غطرسة القوة التي لا تجدي أمام المقاومة السلبية الشاملة، ودعت رجال سوريا إلى المفاوضة اقتداء ببريطانيا في مصر والعراق. ولا تزال هذه المفاوضات دائرة؛ وإذا كانت تتعثر، فما من شك في أن سوريا بالغة سؤلها عاجلاً أو آجلاً، فما بقي من هذا مفر، وإلا قامت القيامة في وقت لا ينقص فرنسا فيه الأزمات والارتباكات والمشاكل العويصة.

فالدنيا تتغير حول فلسطين، والإنجليز هناك جامدون لا يغيرون شيئاً من سياستهم، ولا يبدلونها على ما تقضي به الأحوال الجديدة. وهذا هو وجه العجب منهم، فإن العهد بهم أنهم أهل كياسة ومرونة وحذق، وأنهم أساتذة بارعون في تكييف سياساتهم وفق الأحوال. ولكنا نراهم الآن يجزعون من الاتفاق المنتظر بين فرنسا وسوريا، ويشفقون على فلسطين من عدوى الاستقلال السوري حتى ليقال إنهم سعوا سعيهم عند فرنسا ليحبطوا الاتفاق أو يؤخروه على الأقل حتى يفرغوا من ثورة فلسطين.

ويبدو لنا أن عناد الإنجليز في فلسطين يرجع إلى سببين: أحدهما أنهم يريدون أن يجيء اقتراح وقف الهجرة من الصهيونيين أنفسهم، مصانعة منهم للنفوذ المالي للصهيونية في بلادهم وفي العالم كله. وهم لا ينكرون أن العرب على حق في المطالبة بوقف الهجرة والاكتفاء بما كان إلى الآن؛ ثم إنهم يعرفون أن وقف الهجرة لا يناقض ما وعدوا به من إنشاء الوطن القومي ولا ينافي عهد بلفور، لأن هذا الوعد كان بإنشاء الوطن (في) فلسطين لا بجعل فلسطين كلها وطناً قومياً للصهيونية. وقد تم ذلك وأنشئ الوطن وتحقق الوعد وبرت إنجلترا بالعهد. ثم إن العهد نفسه مقيد بالمحافظة على مصالح أهل فلسطين الأصليين. فإذا وقفت الهجرة فإنها تقف تنفيذاً للعهد، كما أبيحت تنفيذاً للعهد. ولكن الحكومة البريطانية تتلكأ حتى تتقدم اللجنة الصهيونية باقتراح الوقف بعد أن تتبين لها استحالة الاستمرار.

والسبب الثاني أن بريطانيا تروم أن تخضع العرب في فلسطين وتكرههم على إلقاء السلاح قبل أن توفق سوريا في مفاوضة فرنسا، لأن العود إلى الثورة يكون عسيراً

جداً، ولا بد من انقضاء فترة طويلة تستريح فيها الأمة من مجهود الثورة وتستجم. والمعهود في الإنسان أن الحماسة تنبه أعصابه وتشدها فلا يكاد يشعر بعظم الجهد الذي يبذله والمشقة التي يعانيها، ولكنه بعد أن يفرغ من ذلك ويسكن لا تكاد حاجته إلى الراحة تنقضي. وهذا هو الذي تعول
عليه بريطانيا في فلسطين؛ فهي تلج في العناد وتأبى إلا العنف في القمع وتصر على التسليم والسكون قبل أن تعد بشيء أو تظهر استعدادها لإجابة المطالب العربية، لعلمها أن العرب إذا سكنوا فبعيد جداً أن يثوروا كرة أخرى إلا بعد فترة راحة طويلة. وإلا فمتى عهدنا الإنجليز يقاتلون في سبيل غيرهم ويسخون بدمائهم هذا السخاء من أجل شعب آخر، ولا سيما إذا كان هذا الشعب لا يقاتل ولا يدافع عن نفسه بل يلقي عليهم وحدهم عبء الدفاع كله؟؟ فليس حرص الإنجليز على الوطن القومي وإنما هو مركزهم في فلسطين، وهم لا يعبئون شيئاً بوعد بلفور فقد نقضوا ألف وعد ووعد مثله ولم يعدموا مسوغاً، وإنما الذي يخشونه هو أن يترقى العرب في مطالبهم من وقف الهجرة إلى جلاء الإنجليز أنفسهم عن بلادهم. فما يخفى عليهم أن قضية الوحدة العربية أو الحلف العربي تتقدم، وأن الثقة بإمكان ذلك تعظم وتقوى، وأن الإيقان بتحقيق هذا الأمل يعمر الصدور، ولكنا كنا نظن أن الإنجليز أبعد نظراً مما يبدون الآن في فلسطين، فأن العرب أصدقاء طبيعيون لبريطانيا؛ وهم يؤثرون محالفتها على سواها لأنها دولة شبعت واكتظت فحسبها أن تتحفظ بما لديها وأن تستبقي خير ما في يديها. فالعرب لا يتوجسون منها كتوجسهم من دولة كإيطاليا تحدثها آمالها بنشر الدولة الرومانية التي عفى عليها الزمن. ومن مصلحة بريطانيا أن تضمن ود الأمم الواقعة على طريق إمبراطوريتها وأن تثق بمعونتها ووفائها لها عند الحاجة، وبغير ذلك لا ندري كيف ترجو السلامة وتأمن أن تتبعثر أجزاء إمبراطوريتها تبعثر حبات العقد؟؟ ولكن سلوكها في فلسطين ينفر العرب جميعاً في كل رقعة من رقاع الأرض ويسود قلوبهم ويوغر صدورهم، والعرب أمة تكبر العدل كائنة ما كانت الأغراض المحجوبة والغايات المستورة؛ وليس في وسعهم أن يعذروا بريطانيا وهم يرون عرب فلسطين يكتفون بمطالب اعترفت لجان التحقيق الإنجليزية واحدة بعد واحدة بعدلها ووجوب إجابتها. وليس أدل على أن قلوب العرب كلهم يعصرها الألم لمصاب فلسطين من إجماع ملوك العرب على التوسط عند الحكومة البريطانية طالبين الإنصاف لهذا الشعب المسكين. وقد تستطيع بريطانيا بقوتها أن تطفئ الثورة وتخمد الوقدة، ولكنها لا تكسب بذلك بل تخسر: تكسب استقرار الأمر لها على الحد الذي ترومه في فلسطين - إلى حين - وتخسر العرب جميعاً في كل رقعة من رقاع الأرض. ولو فاءت إلى العدل، لما غض ذلك منها عند
العرب، ولا حمل أحداً على الاستخفاف بقوتها كما تتوهم، بل لكان ذلك حقيقاً أن يرفع مقامها ويعلي منزلتها، لأن العرب كما قلنا لا يكبرون شيئاً كما يكبرون العدل، والعادل عندهم أسمى مكاناً وأرفع درجات وأحق بالتوقير من القوى، وتاريخهم الطويل كله - في أمجد عصورهم وأحطها - شاهد بذلك.

إبراهيم عبد القادر المازني

أوربا على المنحدر

معركة المبادئ والنظم

لباحث دبلوماسي كبير

كانت الثورة الأسبانية نذير عاصفة دولية جديدة من نوع خاص؛ فقد سرت ريحها خارج الجزيرة بسرعة، وتكشفت عن نتيجة لم يكن يتوقعها أحد؛ ذلك أنها لم تبق بعد مسألة داخلية تهم أسبانيا وحدها، ولكنها تغدو شيئاً فشيئاً مسألة أوربية عامة تشغل بشأنها الدول العظمى. ومما يلفت النظر بنوع خاص، هو أن ما تثيره الحوادث الأسبانية من الاهتمام لا يقتصر على الناحية السياسية فقط، بل يتعداها إلى ناحية أخرى أهم وأبعد أثراً، هي الناحية الاجتماعية، أو بعبارة أخرى، هي ناحية النظام الاجتماعي الذي تدور حوله رحى الحرب الأهلية في أسبانيا.

وقد تناولنا أسباب الثورة الأسبانية وتطوراتها في مقال سابق، وبينا كيف أنها تقوم على صراع بين المبادئ والنظم ما زالت تضطرم أسبانيا بشرره مذ قامت فيها الجمهورية على أنقاض الملوكية القديمة وطغيان العسكرية المطلق؛ على أن هذه

الناحية الاجتماعية في معارك أسبانيا الأهلية لم تبد من قبل بمثل ما تبدو به اليوم من القوة والوضوح؛ ففي معسكر الحكومة الجمهورية تجتمع جميع الطبقات العاملة من الفلاحين والعمال وجميع القوى الديموقراطية والاشتراكية، وفي معسكر الثورة تحتشد عناصر الطغيان العسكرية التي حكمت أسبانيا من قبل عدة أعوام، ورجال الدين الذين جردتهم الجمهورية من نفوذهم وامتيازاتهم القديمة، وفلول الملوكية القديمة ومن إليهم من النبلاء ورجال المال والصناعة الذين أضرت النظم الاشتراكية بمصالحهم المادية، وهؤلاء يمدون الثورة بالمال؛ وهذه الصورة البارزة التي تقدمها إلينا الحرب الأهلية الأسبانية، يقدمها إلينا زعماء الجبهتين الخصيمتين أنفسهم؛ فزعيم الثورة الجنرال فرانكو يقول لنا إن الثورة الحالية إنما هي حركة قومية يراد بها إنقاذ أسبانيا من قبضة الاشتراكية والشيوعية، ومن الفوضى الاجتماعية التي انحدرت إليها في ظل الأنظمة المتطرفة، وإقامة حكومة قومية تحترم حقوق الفرد والملكية، وتعيد إلى أسبانيا هيبتها الدولية في ظل أنظمة قوية محترمة؛ وحكومة مدريد تقول لنا إنها تدافع عن الحريات الجمهورية إزاء الخطر الفاشستي الذي
يهدد البلاد بعود الحكم المطلق، وتناشد جميع طبقات الأمة، ولا سيما الطبقات العاملة، أن تذود عن حرياتها وحقوقها التي اكتسبتها بدمائها وتمتعت بها في ظل النظام الجمهوري.

وهذه الناحية الاجتماعية البارزة التي تسفر عنها الثورة الأسبانية تغدو اليوم مسألة أوربية شائكة، تكاد أوربا تنحدر إلى غمرها، بل لقد ظهرت بوادرها العملية بالفعل، وبدا خطرها واضحاً على السلم الأوربي، فقد ظهر أن الثورة العسكرية الأسبانية تتمتع منذ الساعة الأولى بتأييد الدولتين الفاشستيتين الكبيرتين: أعني إيطاليا وألمانيا، وهو تأييد يتخذ صورته المادية في إمداد الثورة بالسلاح والمال؛ وقد أمدت إيطاليا الثوار علانية بسرب من الطيارات؛ وبعثت ألمانيا بارجتين من أسطولها إلى مياه سبتة، واتصل ضباطهما بزعماء الثورة في زيارة رسمية؛ وإزاء هذا التأييد تقوم الدولتان الديموقراطيتان الكبيرتان: أعني فرنسا وإنكلترا من جانبهما بتأييد حكومة مدريد؛ وإذا كانت فرنسا تؤثر أن تتظاهر بالحيدة فلا ريب أنها مع ذلك تمد حكومة مدريد بالمال والسلاح؛ أما إنكلترا فلم تتردد في إمدادها بالطيارات، ولكن تحت ستار التجارة الحرة. وفي ميدان السياسة الدولية تعتبر المسألة الأسبانية مسألة اليوم، وقد طرحتها فرنسا على بساط البحث بتوجيه مذكرة إلى إنكلترا وإيطاليا وألمانيا، تقترح فيها أن تجتمع الدول الأربع لبحث المسألة الأسبانية، وإصدار تصريح تتعهد كل منها فيه بالتزام الحيدة وعدم التدخل في حوادث أسبانيا؛ وقد أجابت إنكلترا بتأييد هذا الاقتراح لاتفاق وجهة نظرها مع وجهة النظر الفرنسية؛ أما إيطاليا فقد أبدت عليه تحفظاتها، وأما ألمانيا فقد اشترطت أن تدعي روسيا السوفيتية للاشتراك مع باقي الدول في القيام بهذه الخطوة. ولاقتراح ألمانيا مغزاه، وهو أن روسيا السوفيتية تؤيد حكومة مدريد والجبهة الاشتراكية التي تستند إليها، أو بعبارة أخرى هو أن التدخل البلشفي عامل هام في تطور الحوادث في أسبانيا.

ويجب أن نلاحظ أن العوامل الاجتماعية التي أملت على الدول موقفها ترجع من جانبها إلى عوامل المصلحة المادية. ذلك أن إنكلترا التي تسهر في جبل طارق على أبواب البحر الأبيض المتوسط ومدخل المحيط الأطلنطي، تخشى أن تتأثر سيادتها في هذه المياه بتطور الحوادث الأسبانية تطوراً لا يرغب فيه، وذلك بقيام حكومة فاشستية في مدريد تتأثر بوحي الفاشستية الإيطالية التي غدت منذ المسألة الحبشية شوكة في جانب الإمبراطورية
البريطانية. هذا إلى أن لإنكلترا في أسبانيا مصالح مالية خطيرة، والأموال الإنكليزية تغذي معظم شركات التعدين الأسبانية؛ ومع أن إنكلترا تبغض شبح الفاشستية وتخشاه، فأنها أيضاً تبغض شبح البلشفية والاشتراكية المتطرفة وتخشى أن يؤدي ظفر الجبهة الشعبية الجمهورية في أسبانيا إلى قيام حكومة تخضع لنفوذ موسكو، وتعمل على مناوأة نفوذها ومصالحها في غرب البحر الأبيض المتوسط. فالسياسة الإنكليزية تعمل في هذا الظرف على إيجاد نوع من التوازن القومي في أسبانيا وقيام حكومة ديموقراطية معتدلة تجانب الغلو والتطرف؛ وأما موقف فرنسا فتمليه مصالحها في البحر الأبيض المتوسط، والخوف على سيادتها في مراكش من أن تتأثر بظفر

الفاشستية المتطرفة في أسبانيا.
على أن المسألة الأسبانية في جوهرها قائمة على معركة المبادئ التي تلوح اليوم قوية في أوربا؛ فالفاشستية - في شخص إيطاليا وألمانيا - تحاول بمبادئها الطاغية المغرقة أن تهدم حصناً جديداً للديموقراطية، وأن تضم دولة أوربية جديدة إلى جبهتها بمؤازرة الثورة العسكرية الأسبانية؛ والديموقراطية - في شخص إنكلترا وفرنسا - تحاول أن تقف في وجه الفاشستية؛ وروسيا البلشفية تحاول أن تنتهز الفرص لبث دعايتها لإضرام الثورة العالمية؛ والفاشستية تمثل جبهة الدول الناقمة التي حرمت من مزايا الاستعمار الباذخ؛ والديموقراطية تمثل جبهة الدول الراضية التي تتمتع بالثراء والاستعمار الباذخ؛ ومعركة المبادئ تتحد هنا مع معركة المصالح المادية.
وهذا هو وجه الخطر في الأزمة التي تغيم اليوم في أفق السياسة الأوربية، والتي قد تغدو غير بعيد خطراً يهدد السلم الأوربي، ذلك أم معركة المبادئ والمثل تغذيها هنا مصالح مادية قوية؛ وهذا الصراع الذي تذكيه شهوات المادة والمبدأ معاً هو أخطر أنواع الصراع الدولي. فالبلشفية من ناحية، والفاشستية والنازية من الناحية الأخرى تنزل إلى ميدان الصراع مسلحة بأخطر أنواع الدعاية والقوى المادية؛ والديموقراطية من جانبها تحاول أن تقف موقفاً وسطاً بين المبادئ والمثل المضطرمة، وأن تدفع تيار التطرف من الجانبين صوناً لوحدتها وكيانها. ولنلاحظ أيضاً أن فرنسا الاشتراكية تؤثر ظفر الجبهة الشعبية الأسبانية، ولو أن هذا الظفر قد يدفع أسبانيا إلى أحضان الشيوعية، ذلك أن روسيا البلشفية تقف إلى جانب فرنسا في ميدان الصراع الدولي ضد ألمانيا، وألمانيا تعتبر نفسها حاجزاً للبلشفية
وترى في روسيا ألد أعدائها؛ وإيطاليا ترى في ألمانيا حليفتها في المبادئ والمثل؛ والفاشستية والنازية كالبلشفية تعتبر كلتاهما أنها نظام المستقبل وتحاول أن تدفع مبادئها إلى خارج حدودها بمختلف الوسائل.
هذه هي عناصر المعركة الدولية الخطيرة التي أثارتها الحوادث الأسبانية؛ وهي ما زالت في طور التمهيد والمقدمات؛ ومن الصعب الآن أن نتبين طورها المقبل؛ ذلك أن سيرها يتوقف كثيراً على سير الحوادث في أسبانيا؛ بيد أنا نستطيع أن نتبين بعض وجوه الخطر الذي يهدد السلم الأوربي؛ فإيطاليا التي ما زالت ثملة بفوزها في الحبشة تحاول أن تستغل الظروف، وأن توجه ضربة جديدة إلى الإمبراطورية البريطانية وإلى سيادة بريطانيا في البحر الأبيض؛ وألمانيا التي جردت من مستعمراتها تحاول أن تجد فرصة للتدخل في شؤون البحر الأبيض، وبخاصة في شؤون طنجة ومراكش، وأن تنتهز مخاوف إنكلترا وفرنسا لتثير المسألة الاستعمارية من جديد؛ وإنكلترا التي شعرت منذ المأساة الحبشية بما يهدد سيادتها في البحر الأبيض من الأخطار تتحين الفرص لتوكيد نفوذها وهيبتها؛ وفرنسا لا تطيق لحظة أن يتعرض مركزها في مراكش لأي تدخل أو خطر. ومما يجدر ذكره بهذه المناسبة أن تحرش ألمانيا بمركز فرنسا في مراكش يوم ضربت عليها الحماية الفرنسية كان من أهم العوامل في تسميم جو السياسة الأوربية قبيل الحرب الكبرى، والتمهيد لذلك الجو المضطرب الذي اجتمعت فيه أسباب الحرب.
هذا وهناك ظاهرة تتكشف عنها تلك المعركة الخطيرة بين الديموقراطية والفاشستية، هي أن الفاشستية تعمل بسرعة وعزم دون تردد أو تدبر للعواقب؛ وأما الديموقراطية فما زالت مختلفة متنازعة، وما زالت تجنح إلى التردد والتخاذل. وقد استطاعت الفاشستية غير مرة أن تنتهز فرصة هذا التخبط وأن تضرب ضرباتها في صميم الديموقراطية؛ ومن جهة أخرى فقد أفسدت الروح الاشتراكية المتطرفة عقلية الجماعات، وبثت فيها كثيراً من دواعي التخاذل والغرور، هذا بينما تجد الصفوف الفاشستية منظمة طائعة تعمل لأول إشارة تلقى إليها.
فهل تستحيل تلك المعركة الدولية في القريب العاجل إلى صراع الحياة والموت بين النظم والمثل في أوربا؟ وهل تدفع أوربا إلى طريق حرب جديدة ما زالت عواملها تجتمع في
الأفق منذ حين؟ هذا ما سوف نتبين في المستقبل القريب. بيد أنه مهما كانت ظروف المعركة الحالية، ومهما كانت نتائجها، فلا ريب أنها من عوامل الخطر في مصير السلم ومصير أوربا.
(* * *)

فن القصة في الأدب المصري الحديث

للأستاذ هلال أحمد شتا

طالعتنا (الرسالة) الغراء، في عددها رقم 157، بمقال طلى للكاتب الأديب الأستاذ محمد علي غريب، ألم فيه بدراسة شائقة لنتاج قصصي مصري شاب. . وقد مهد لدراسته هذه بمقدمة تناول فيها فن القصة في الأدب المصري الحديث.

ولقد كانت هذه المقدمة القصيرة - كما دعت الحال - لمحة خاطفة، وإلمامة مقتضبة، جال فيها قلم الكاتب جولة سريعة كما تجري أحداث الدنيا في عصرنا الحاضر. ولكنها ساقت إلى رأسي هذا البحث الذي أطالع القراء به اليوم: وهو بحث في القصة المصرية ترويت فيه بعض التروي، لأتمكن من الدراسة الهادئة غير العاجلة، ولألم فيه بتاريخ القصة في الأدب العربي، وبقيمة هذا الفن الجميل، وبنشأته في الأدب المصري الحديث، وبالمدارس الغربية التي تأثر بها منشئو القصة في مصر؛ ثم بما حظيت به من جهود الأدباء المصريين، وما بلغته هذه الجهود من توفيق وما قطعته في طريقها نحو السداد.

ويجدر بنا - قبل أن نوغل في الحديث - أن نستعرض ما لهذا الفن الجميل من آثار جليلة في تكوين النفوس والعقول على السواء. فالقصة الناجحة القريبة من الكمال الفني، أبلغ تأثيراً في النفس، وأقوى سلطاناً على العقل، من أي عمل فني آخر. . لأن الفنون الجميلة عامة تفعل في النفس فعلاً، ولا تقوى على أن تفعل في العقل شيئاً. . وإذا نظر الإنسان إلى لوحة فنية بالغة نهاية الكمال، أو إلى تمثال أفرغت فيه عبقرية فنان موهوب، أو إذا استمع قطعة موسيقية تضافرت فيها براعة نفر من نوابغ الواضعين والعازفين، فستطغى على نفسه موجة من الشعور بالسرور أو بإحساس يشبه السرور والنشوة، ولكن عقله لن يتأثر بذلك شيئا. . في حين أن القصة الناجحة قد تخلق من قارئها إنساناً جديداً، وقد تسوق إليه رأيا يحتل من عقله موضع العقيدة. . ومن أجل هذا عني الغربيون في نهضاتهم القديمة والحديثة بفن القصة عناية بليغة. فاستطاع قصصيوهم أن يخلقوا بفنهم جماعات قريبة من الكمال. . وكان لهذا الفن في نهضتهم الحديثة أثر جليل ملموس.

وليس مغالياً من يقول: إن فن القصة قد أبرز إلى ميدان الزمن والتاريخ فرنسا الحديثة، وروسيا الحديثة، وإيطاليا الحديثة. . وقد يكون كذلك خالق بريطانيا الجديدة، ودافعها إلى رقيها الفكري والخلقي الذي كادت تتفرد به بين الأمم. على أن الذي لا يقبل الجدل أن القصة قد تقدمت في أوربا وأمريكا في العصر القريب الذي نعيش فيه، فغمرت سوق الأدب، وتمتعت من الأدباء المتأدبين بعناية غلبت كل عناية، وإقبال فاق كل إقبال وجهود بذت كل جهود. . .

وإذا كان الغرب اليوم في أوج عزه وعظمته؛ وإذا كان مع ذلك منكباً على فن القصة أي انكباب، فذلك دليل ساطع على أن هذا الفن جدير بالعناية خليق بالاهتمام. . .

ولقد عرف الغرب كيف يحتفي بفنانيه عامة، وقصصييه خاصة، وكيف يكرمهم ويكبر فيهم فنهم وفضلهم العميم، فأتاح لهم أن يكونوا من قادة العقول في المقدمة، وأن يفرغوا إلى فنهم فيهبونه وقتهم وجهدهم جميعاً، بما ضمن لهم من وسائل المعيشة والرزق الكثير، وبما هيأ لهم من ظروف يخلون فيها لدراساتهم الطويلة، ويلمسون فيها جوانب الحياة في مختلف الجماعات ومتباين الطبقات. . .

ولقد ظل الأدب العربي مفتقراً إلى القصة في جميع عصوره الأولى؛ ويلوح أن الأمية والبداوة في العهد الجاهلي قد ساعدتا على إهمال الفنون الجميلة - ومن بينها القصة - وأن كل ما تمتع به العرب من ضروب الفن الجميل إذ ذاك هو ما حملته ألسنة الرواة من الشعر والنثر، وما ترنم به حداة الإبل من موسيقى بسيطة. .

على أن النهضة الإسلامية التي حمل رايتها محمد صلى الله عليه وسلم، كانت في حاجة إلى القصة أيضاً؛ لذلك كان القصص في القرآن جانباً خطيراً من جوانب الاعجاز، وعاملاً قوياً في تهذيب نفوس أولئك الجاهليين، وقوة رائعة تضافرت مع ما خص الله به محمداً فاستطاعت أن تخلق من أشتات الجاهليين في شبه الجزيرة أمة لم يشهد مثلها التاريخ القديم أو الحديث.

فالقرآن الكريم إذن أول من أدخل القصة على الآداب العربية، ودفع بها إلى مقام

العناية. .
وطبيعي أن يعني القرآن بالقصة، فهو الداعي إلى الكمال العلمي والروحي والخلقي، الجامع لأنواع العلوم والفنون عامة، والدستور الخالد الذي ينظم حياة إنسانية عالية الأركان دائمة على الزمان.
ولقد نال فن القصة بعد ذلك جانباً من عناية الناطقين بالضاد، فكانت السير النبوية ثانية المحاولات الموفقة لخلق فن جديد في اللغة العربية، على أن هذه السير كانت فتحاً لباب واحد من أبواب فن القصة، هو القصص التاريخي، كما كان ما فيها من فن لا يزال فجاً محتاجاً لكثير من العناية والموهبة. . وهي مع ذلك جهود لا يمكن أن يغفل ما لها من فضل عميم على القصة العربية الصميمة. .
وسايرت القصة العربية النهضة الفكرية التي دفع الإسلام العالم العربي إليها فتقدمت خطوات ليست ذات أثر كبير، إذ كانت في عصر الأمويين تكاد تقتصر على الرواية والارتجال، ولم يلتفت إليها - كفن جميل له أثره وفعله - إلا بعض الرواة الذين دبجوا قصص الشعراء المحبين، وأسبغوا عليها بعض الصناعة والحبكة والطرافة. .
ثم كان بعد ذلك العصران العباسيان الأول والثاني، حين بلغ الرقي الفكري ذروته، وحين فرغ العرب - الهادئون، الناعمون، المتمدينون - ينشدون غذاء النفس والروح في الفنون الجميلة، وحين ضربوا في كل جانب من جوانب التفكير الحر والابتكار. فكان طبيعياً أن يبلغ فن القصة أوج عزه وعظمته، وكان طبيعياً أن يتخصص كبار الفنانين العرب لكتابة القصة وابتكارها، كما تفرغ إخوانهم للموسيقى والغناء، والرسم، والكتابة، والشعر، وسائر الفنون العالية. . وكفى دليلاً على رقي القصة في ذلك العصر الحافل بالروائع والبدائع (ألف ليلة وليلة) إذا قصدنا جانب الخيال والابتكار، ثم (المقامات) إذا نشدنا جانب الصياغة والإتقان.
غير أن المحنة التي لحقت بالعرب والعربية، بانحلال الدولة العباسية، كانت كافية لأن تحطم الآثار العقلية والفنية والفكرية، وأن تأتي عليها إتياناً ذريعاً. .
وإذا كان الباحث في تاريخ الأدب العربي - بعد المحنة العباسية - يعثر بين الحين والحين على بعض الآثار الفنية المتصلة بالقصة، فليس ذلك إلا ترديداً لبعض ما خلفته يد الزمن من آثار الفنانين العباسيين. .
والقصة في الأدب المصري، حديثة العهد، قريبة المولد، لأن العصور التي خلفت عصر الفاطميين، قد أفسدت اللسان العربي الذي تكلم به المصريون منذ الفتح الإسلامي، وأدخلت على سلاسته وجذالته لكنة الترك وعجمة الفرنجة. . .
ولسنا نستطيع أن نسمي قصص (أبي زيد) و (السيد البدوي) وأمثالها قصصاً عربياً أو عجمياً، فكلها وليدة خيال مشعوذ وقلم مرضوض. . .
إذن لم يشهد الأدب العربي المصري جهوداً تبذل في سبيل القصة الموفقة إلا بالأمس القريب، منذ عشرات السنين، وبعد أن استطاعت النهضة العلوية أن تقوم اللسان، وتصلح التفكير، وتنمي الخيال. . . حين قامت طائفة من نوابغ الشبان تخلق القصة العربية في معناها الذي نعرفه الآن، وهي طائفة كل أفرادها اليوم من الكتاب الممتازين والأدباء البارزين. . .
وإذا كانت العربية، التي تحدث بها رعاة الإبل والأنعام في شبه الجزيرة، قد وسعت مدنية العباسيين وعلمهم الغزير، فإنها قد وسعت كذلك كل ما جال في خواطر أولئك الشبان، أو هؤلاء الكرام الكاتبين. وقد استطاع ذلك النفر - بما أوتي من فن خالص وموهبة - أن يزجي إلى العربية هدية لم تألفها من قبل أبداً. فلقد كان في محاولاته الموفقة متأثراً بالمدارس الغربية إلى جانب ما خص به من سليقة عربية حلوة الجرس موفقة المرمى، سديدة المعنى.
وإنه لواجب علينا أن نطوف بهذا النفر الجليل، وأن نمضي على نتاجه سريعاً، لنسجل له فضله شاكرين. . ولكننا نرى - قبل ذلك - أن نذكر المدارس التي تخرج فيها بكلمة قصيرة: وهي المدرسة الروسية والمدرسة الإنجليزية، والمدرسة الفرنسية. .
فالمدرسة الروسية قد امتازت بمحاكاة الواقع ومسايرته، والتعلق بالطبيعة ومظاهرها وأجوائها - الملموسة وغير الملموسة - ثم بالصدق، والهدوء، والتهكم. .
والمدرسة الإنكليزية تعشقت الصدق أيضاً؛ وأحبت التحليل النفسي الدقيق، ووفقت في كشف النفس البشرية توفيقاً عظيماً، واستطاعت أن تلمس العواطف وتترجم

الأحاسيس في عمق وسداد عجيبين. .
والمدرسة الفرنسية قد عشقت الخيال، وتطرفت فبالغت بعض المبالغة، غير متقيدة بالواقع أو المألوف، وبرعت في الحبكة المصنوعة براعة تثير العجب والإعجاب معاً، ومالت إلى ترجمة الأسى والحزن البليغ. .
وهؤلاء الناهضون بالقصة فريقان: كان لأحدهما الفضل في أن يحمل إلى العربية القصة
الغربية الموفقة في معناها الحديث الذي دفعتها إليه النهضة الأخيرة، وأن يخلق في العربية أو يكشف في بحرها الزاخر عما يترجم لغة أبناء الغرب أصدق ترجمة، ويزجيها إلى أسمع العالم العربي سائغة المعنى، عربية الرنين موفورة الحظ من بلاغة أبناء العرب وفصاحتهم. .
ولن ينسى قراء العربية فضل هذا الفريق أبداً، فلقد فتح بجهوده وتمكنه وسلامة ذوقه العربي فتحاً في العربية جديداً، وكان له - وهو المترجم - فضل لا يعلو عليه فضل الواضعين أو المتكبرين، لأنه البوتقة التي صهرت جميل فن الغربيين، فاستحال فيها فناً عربياً رائعاً.
ويتزعم هذا النفر ثلاثة من نوابغ الأدباء المصريين، وهم: الزيات، والمنفلوطي، والمازني.
فأما الزيات، فيمنعني عن الإشادة بفضله أنه مدير هذه المجلة، وأنه رجل يعرف فيه قراء العربية التواضع الكثير والنأي عن الضوضاء، وأخشى - وهو صاحب الحق في النشر - أن يحول تواضعه الغزير بين هذا البحث وبين أبصار القراء وأسماعهم. .
على أن كل هذا لا يمنعني من القول بأن جهده في سبيل القصة لن ينساه له تاريخ هذا الفن في الأدب العربي، ولن ينساه له أولئك المتأدبون الشبان الذين عرفوا من معرباته معنى القصة الناجحة ولونها، والذين مضوا بعد ذلك يقفون أثره ويتلمسون الطريق التي مهدها لهم وفتحها أمام تفكيرهم. . حين نقل إلى لغة الضاد (لامرتين) و (جوت) في أبدع ما صورت الشاعرية الفرنسية والألمانية، وأنجب الخيال اللاتيني والجرماني. . وستبقى (رفائيل) (وآلام فرتر) على الأيام مثلاً بديعاً للتعريب الكامل الذي تكاد تغلب فيه قوة المترجم، كما بقيت (كليلة ودمنة) تتحدث إلى يومنا هذا بفضل ابن المقفع.
وأما المنفلوطي، فقد كان جديراً بأن يزجي إلى القصة فضلاً أكثر من فضله، فهو الأديب بفطرته والقصصي بفطرته. . ولو شاء الله وبسط أمامه سبل دراسة هذا الفن، أو قارب بين لسانه وبين لغة من اللغات الحية، لكسبنا فيه قصصياً عظيماً ولكان نتاجه في فننا هذا نتاجاً باقياً خالداً. . على أنه برغم هذا مشكور الأثر باقي الذكر، ممتاز بما خص به من أدب رائع، وذوق فني بديع، وجذالة تفعل في لسان الناشئة فعلاً محموداً.
وأما المازني - المترجم - فبالغ قمة التوفيق، كزميله الزيات، لوفرة علمه بلغة الإنجليز،
ولأنه أديب عربي قويم اللسان، مفطور على الفن. . وقد نرى فيما بعد - أن المازني المؤلف أسدى إلى القصة يداً فوق يده هذه، ولكن الفضل لا يمحو الفضل على حال؛ وسيبقى المازني المترجم خالداً في قصة (ابن الطبيعة) فقد كان فيها عظيماً حقاً، إذ استطاع أن يختار للعربية أروع أمثلة الأدب الروسي، كما استطاع أن ينقل فن أبناء الروس نقل الفنان والأديب الموهوب.
والفريق الثني هو فريق المبتكرين، أو الواضعين، وهو أول من ساق جمهور القارئين والمعنيين بالأدب إلى فهم معنى القصة الذي عرفها به الغربيون؛ ونستطيع القول بأن هذا الفريق أحسن إلى القصة حيناً من الزمن فعرفت له أياديه، ثم أهملها اليوم إهمالاً تأخذه عليه وتشكوه منه. . ولو استمر ذلك النفر فوهب القصة عهد رجولته كما وهبها شبابه، لاستطاعت أن تبلغ شأناً غير شأنها، ومنزلاً فوق منزلتها. .
وهؤلاء الذين يستطيعون أن يشقوا طريقهم ليأخذوا مقام الصدر بين آلاف المؤلفين وأشباه المؤلفين، ليسوا إلا أربعة من كرام الكتاب؛ هم: المازني، وهيكل، وتيمور، وأبو حديد.
ولكل من الأربعة لون خاص يميزه من سواه.
فالمازني. أميز صفاته سلامة أسلوبه العربي وعلوه، ثم جمال تهكمه وفكاهته، وميله

إلى المزاح، مع شدة احتفاظه بالأرستقراطية. وهو إلى جانب هذا فنان من الطبقة الأولى، فقد اجتمعت فيه فطرة الفنان، والدراسة الطويلة المستمرة، فأنجبتا للعالم العربي قوة عزيزة قليلة الوجود.

وهو - على رغم كونه تلميذا مخلصاً للمدرسة الإنجليزية - لا يستطيع أن يخفي على القارئين أنه تتلمذ على المدرسة الروسية أيضاً. وإذا كان دائم الانكباب على الأدب الإنجليزي مولعاً به ولعاً شديداً، فإنه بطبعه وبسليقته الفنية، كان فيما أنتج ميالاً إلى المدرسة الروسية، في هدوئها، وصدقها، وتفكهها، وطبيعتها وإن استطاع - بما كسب من دراسة - أن يترجم الأحاسيس ترجمة صادقة تميز بها منشئو القصة الإنجليزية.

والذي قرأ المازني - المؤلف - في قصته (إبراهيم الكاتب) لا يمكنه بعد ذلك أن يندب حظ القصة في الأدب العربي الصميم؛ لأنه يراها في قصة المازني خلقت قوية لأول عهدها بالحياة، ووجدت من روحه الفنانة، وقلمه الملهم، ودراسته الطويلة، متكأ كان جديراً بأن

يحملها إلى المقام الذي بلغته بين أبناء أوربا وأمريكا، لو قدر له أن يضع على عاتقه هذا الواجب الخطير.

وكان هيكل فيما أنتج - وأول نتاجه قصة زينب - فرنسياً مخلصاً؛ فهو يؤثر الصناعة والحبكة القصصية، ويحب أن يضرب على أوتار تحس، وأن يعالج بمجهوده موضوعاً، غير متقيد بمذهب الفن للفن، بل ذاهباً مذهب استغلال الفن للمصلحة. ولقد أسبغ على فرنسية فنه روحاً عربية جميلة، بما وفق إليه من براعة في الوصف، وقدرة على التصوير الفاتن.

ولا شك أن هيكل فنان بطبعه؛ وقد كان خليقاً بأن يكون من عداد القصصيين الممتازين لو عني بفنه عنايته بأدبه وعلمه، ولو تابع استغلال روحه الفنية التي فطر عليها.

وكان تيمور - ولا يزال - مثالاً للقصصي المصري الخالص، وقد يكون تناول بالدراسة المدارس الغربية. . ثم ترك نفسه بعد ذلك طليقة، وأطلق قلمه حراً، فإذا هو المصري في فنه وأدبه وحياته، وإذا هو عميق في مصريته إلى المكان الذي يجب أن يكون عنده المصري العربي الشعبي.

والذي قرأ تيمور في قصته الطويلة (الأطلال) أو في قصصه القصيرة التي أخرجها قبل ذلك كتباً، يلمس فيه ميلاً إلى هذا الفن شديداً، ويؤمل منه بعد ذلك انقطاعاً للقصة وإيثاراً لها على كل شيء، حتى يسد بذلك فراغاً يجب ألا يترك شاغراً، أو يباح هباء للعابثين المسيئين إلى القصة وتاريخها شر الإساءة. .

وكان فريد أبو حديد مصرياً كذلك دائماً، حين أخرج لنا (ابنة المملوك) و (مذكرات المرحوم محمد) ثم عميقاً في مصريته أيضاً. ويبدو أن دراسته التاريخية الطويلة، قد انحرفت به إلى القصة التاريخية فعشقها عشقاً عظيماً، ولم يرض أن يحيد عنها إلى غيرها من جوانب فن القصة.

وإذا كانت دراسة التاريخ قد غمرت نتاجه وأفرغت عليه من لونها فيضاً، فليس ذلك هو الشيء الذي يتميز به أبو حديد أو يتفرد، وإنما الذي يتميز به على القصصيين المصريين جميعاً هو الخيال الخصب الذي لا يحد، والقدرة الفائقة على تصوير الحياة في غابر العصور أو حاضرها أو مستقبلها.

وهذا الخيال، وهذه الطبيعة، وهذه الدراسة، كانت قادرة على أن تجعل من أبي حديد عوناً للقصة المصرية شديداً، ومناصراً قوياً، وفارساً مبرزاً، لو أقبل يدخل الميدان ويوغل في ثناياه. . وهو القدير على ذلك أي قدرة. .

ولقد كان لنا أن نضع الدكتور طه حسن بك في عداد القصصيين النابغين، حين نقرأ له كتابه (الأيام) الذي بلغ به شأو من الكمال عظيماً، والذي استطاع أن يفرغ في سطوره فناً عريقاً ومقدرة فائقة تطالع القارئ فتأخذ عليه حسه. . غير أن الدكتور - فيما عدا الأيام - لا يستطيع أن يكون قصصياً. . ولو أراد الله ووهب الدكتور نعمة الإبصار، لكسب فن القصة فيه خير نصير وأحسن عون، ولكان لمصر والشرق العربي أن ينتظرا منه خيراً كثيراً، لأنه - على حالته تلك - كان يحس إحساس المبصرين، ويدرك ما يجول بخواطرهم، أو ما يغمر كياناتهم من عوامل نفسية يدفعها إليهم الوسط لذي يحيط بهم - بكل ما فيه.

(البقية في العدد القادم)

هلال أحمد شتا
بسكرتيرية مجلس الشيوخ
دانتي أليجييري - 5
والكوميدية الإلهية
وأبو العلاء المعري ورسالة الغفران
(الجزء السادس من الأنييد ?)

ذكرنا في الكلمة الأولى أن دانتي في كوميدياه كان مقلداً لسلفه الشاعر الروماني العظيم فرجيل، وأنه كان يحفظ الجزء السادس من ملحمة الأنييد عن ظهر قلب، وأنه احتذى في قصيدته مثال فرجيل، والآن نعطي القارئ ملخصاً سريعاً لهذا الجزء السادس ليرى أننا لن نكن مغالين حين جزمنا أنه لم يقلد أبا العلاء ولا أسطورة المعراج التي سنعرض لها في كلمة مستقلة.

بيد أننا نرى أن إعطاء القارئ ملخصاً موجزاً للجزء السادس من الأنييد دون أن نعرض للأجزاء الخمسة السابقة سيشوه هذا الملخص ويجعله مبتوراً، وقد يذهب بجمال الأنييد التي تعتبر أطيب طرفة في الأدب اللاتيني كله، لذلك آثرنا أن نعرض للأجزاء الخمسة الأولى في كلمة خاطفة نخلص منها إلى الجزء السادس إتماماً للفائدة.

سقطت طروادة، وأضرم الإغريق النيران فيها وروِّع الأهلون ولاذوا بالبراري والقفار المحيطة بمدينتهم، وذهب البطل إينياس يبحث عن أبيه وزوجه وولده ليفر بهم من هذا البلد، ولينجو بعزه التالد ومجده المؤثل من ذل الأسار، ولكن أباه كان رجلاً شيخاً خائر القوة، فاحتمله إينياس وانطلق يعدو به في شوارع المدينة المتأججة، حتى إذا وصل إلى شاطئ الهلسبنت (الدردنيل) افتقد زوجه فلم يجدها، ووجد عنده طرواديين كثيرين يعتزمون الهرب من وجوه الهيلانيين فجعلوه رئيسهم وعملوا في بناء أسطول ضخم أبحروا فيه إلى تراقيا حيث نزلوا إلى البر وأخذوا في تأسيس طروادة جديدة بدل طروادة الأسيوية، لولا أن أوحي إليهم أن هذه أرض ملعونة، فركبوا في سفنهم وأبحروا إلى جزيرة ديلوس حيث سمعوا صوت أبوللو يأمرهم (أن يهجروا الجزيرة ويبحثوا عن أرض أمهم الأولى حيث يعيش شعب إينياس ويحكم وتدين له كل الأمم)، ولشد ما طرب الطرواديون لهذا النبأ وأبحروا إلى كريد (إقريطش) كما خمن لهم والد إينياس، ولكنهم لم يجدوا ثمة خيراً بل

كانت محصولاتهم تصفر وتتلف وأصيبوا بسنين عجاف. ثم رأى إينياس في منامه من يأمره بالهجرة من الجزيرة والإبحار غرباً إلى أرض إسبريا التي هي إيطاليا الحديثة حيث ولد مؤسس طروادة (داردانوس). وقد نزلوا في طريقهم في جزيرة السعالي ثم أبحروا منها إلى أرض إبيروس حيث وجدوا أندروماك زوجة هكتور بطل طروادة تحكم المملكة وقد تزوجت أحد الأسرى الطرواديين (هلينوس) فحلوا عندها أهلاً ونزلوا في ضيافتها سهلاً وزودتهم بهدايا قيمة وأبحروا إلى جزيرة صقلية حيث مروا بمملكة السيكلوب ثم اقتحموا عقبات جمة وصعاباً كثيرة حتى وصلوا إلى قرطاجنة على الساحل الأفريقي حيث وجدوا المملكة (ديدو تؤسس هذه المدينة الخالدة التي ستكون أقوى خصم ومنافس لرومة في المستقبل. وقد أكرمت ديدو مثوى المهاجرين وتزوجت من إينياس وجعلته ملكاً للمملكة غير متوج. وكاد إينياس ينسى ما سخرته له السماء لولا أن أرسل إليه جوبيتر (زيوس) ولده مير كيوري (هرمز) يأمر بالرحلة.

وبعد مجازفات هائلة وصلوا إلى شطئان إسبريا (ميناء سيكانيا) حيث مات والد إينياس وحيث سخرت جونو (حيرا) كبيرة الآلهة على أسطوله من أحرقه. وقد حزن البطل على سفائنه غاية الحزن حتى إنه ما فتئ يصلي للسماء أن تدركه فاستجابت دعاءه وأرسلت صيبا من المطر فأطفأ النيران، ورأى إينياس في المنام أباه يأمره أن يجول جولة في إسبريا ليلقي (السيبيل لتقوده إلى الدار الآخرة لأنه يريد أن يكلمه، وهنا يبدأ الجزء السادس من الأنييد.

جولة في العالم الثاني

وذهب إينياس إلى (كيوميه) حيث لقي النبية المباركة (سيبيل) خابتة متخشعة في كهفها السحيق وسط غاب الخلنج والشاهبلوط. وقبل أن يتكلم نهضت إليه وكلمته بكلام فعرف أنها تعلم ما جاء من أجله وأوصته بالصبر والتجلد، ثم ذكرت له أن لا بد، قبل الهبوط إلى العالم الثاني، من أن يذهب في تلك الغابة اللفاء المشتجرة، فيبحث

في أيكها العظيم ودوحها النامي عن (الغصن الذهبي) الذي لابد من حمله هدية لبروزربين (برسفونيه) زوجة بلوتو إله الدار الآخرة.
ووصفت له النبية الطريق الذي ينبغي أن يسلك، ثم أرسلت إليه أمه فينوس حمامتين تطيران أمامه تدلانه في غياهب الغابة، فما لبث يتبعهما حتى حطتا على الشجرة التي تحمل الغصن الذهبي فتسلقها واقتطعه وعاد به إلى سيبيل. ونهضت النبية، وقادته إلى كهف منشق وسط الغابة فوق حيد وحر من أحياد فيزوف (البركان المشهور) حيث أمرته أن يقدم قرابينه إلى الآلهة بلوتو وبروزربين وهيكاتيه وسائر أرباب هيذر. فلما فعل، ارتفعت صيحات عظيمة من أغوار الكهف، ثم نظر فرأى البركان يميد ويزلزل ويكاد يغوص بمن فيه في جوف الأرض، ثم يسمع عواءً ونباحاً ووعوعة فيتلفت فيرى ذؤباناً وكلاباً تهمهم في جنبات الكهف، جائية من الظلمة التي تتدجى في آخره، معلنة قدوم أرباب هيذر. وتوصيه سيبيل بالصبر! وينطلقان حتى إذا كانا لدى وصيد (عتبة) باب جهنم نظرا فرأيا أشباحاً بربرية مظلمة مربدة الوجوه يسأل عنها إينياس ما هي فتجيبه سيبيل إنها الأحزان والهموم والأوصاب والشيخوخة والخوف والجوع والعناء والفقر والموت. . . وسائر ما في الحياة الدنيا من آلام. . . وقد أقامت عندها ربات الذعر فهي تتقلب على فراش خشن من فراش الجحيم ويرى بينها (دسكورديا) ربة الخصام وفوق رأسها - مكان الشعر - حيات وأفاع تتحوى وتنفث سمومها، ويرى أيضاً طائفة مروعة من الوحوش والضواري والتنانين مثل هيدرا وبرياريوس، فينزعج إينياس ويمتشق سيفه ليحمي نفسه، ولكن سيبيل تنهاه وتطمئنه فيلملم أذياله ويقتفي أثرها حتى يكونا عند نهر كوكيتوس المتكون من دموع المعذبين. وهنا يريان (خارون) في زورقه الجبار ينقل أرواح الموتى، كثيرة كأوراق الخريف من عدوة إلى عدوة، والأرواح تتدافع تريد أن تسبق، ولكن خارون ينتخب منها الطائفة بعد الأخرى ويدع الآخرين، فيسأل إينياس فتجيبه سيبيل أن الأرواح التي أديت لها شعائر الدفن الجنائزية هي وحدها التي تعبر النهر. أما التي حرمت فتهيم فوق الشاطئ دون أن تعبر مدى مائة عام أو تزيد حتى يأتيها الفرج (!). ويجزع إينياس حين يرى في هؤلاء كثيرين من أصحابه الذين ذهبوا ضحية العاصفة فكانوا من المغرقين؛ ويشتد حزنه حين يرى فيهم روح ربّانه الشجاع بالينيوروس الذي غرق في الرحلة إلى أسبريا. ويكلمه فيرجوه الربان أن يمد إليه يده فيجتاز به اليم إلى الشاطئ الآخر، ولا يوشك إينياس أن يفعل لولا أن تنهاه سيبيل!! خشية أن يخرق شرائع بلوتو، وتطمئنه فتخبره أن الأمواج ستقذف جثمان صاحبه إلى الشاطئ وسيدفنه الناس حين يرونه. ويتقدمان إلى خارون ليركبا في زورقه ولكنه يغضب حين يرى إينياس ما يزال حياً ببدنه وعليه عدة حربه وعتاده، ويسأله بأي حق جاز إلى هنا، فتتولى سيبيل الإجابة وتخبره أنه لن يأتي محرماً في الدار الآخرة، وغرضه أن يرى أباه فحسب ويكلمه ثم يعود أدراجه؛ وتريه الغصن الذهبي الذي احتمله بيمينه هدية لربة الموتى بروزربين، فيرضى، ويبتسم. ويحملها في زورقه إلى العدوة الآخرة. وما يكادان يطآن الشاطئ حتى يفجأهما الكلب الخبيث سيربيروس، ذو الرؤوس الثلاثة تقذف اللهب، وعليها الأفاعي تنفث السم، فيوشك يفتك بهما، لولا أن تقذف له سيبيل كعكة بها مخدر عجيب فيلتهمها ويستلقي على رمال الشاطئ، ويجوزان قليلاً فيسمعان أصوات أطفال صغار ماتوا قبل أن ينهلوا كوثر الحياة فأقاموا هنا، وعلى مقربة منهم أرواح الذين ماتوا ضحية تهم باطلة وقد قام بينهم القاضي مينوس يفحص قضاياهم ثم يمران بأرواح اليائسين من الحياة الذين ضاقوا بجدها ذرعاً فماتوا منتحرين. وهم الآن يتمنون لو عادوا إلى الدنيا فيعملوا من الصالحات ما يشفع لهم ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار، وينطلقان فيجوزان بدركات الأحزان التي ازينت طرقاتها بأزاهير الآس فيريان أرواح الذين ماتوا دون أن يقضوا مأرباً من حبهم الذي خلعوه على عذارى الدنيا، فباءوا هنا بألم لا ينجيهم منه حتى الموت نفسه: ويشهد إينياس بينهم روح حبيبته ديدو التي ما يزال جرحها دامياً ينفج، ويكلمها ويحزن لها، ثم يبكي بين يديها بكاء مراً (و. . . حبيبتي ديدو!! لا تتهميني بما أنت فيه من ضنى وتعذيب! فقد سخرتني الآلهة لأمر سماوي؛ وكان لزاماً علي أن أطيع؛ فقفي وكلميني، ولا تحرميني حتى كلمة وداع هينة عليك! وتقف ديدو بعيني حزينتين تفحصان جمرات جهنم، وتسير مسافة فيتبعها إينياس، ولكنه يعود بعد إذ لا يقوى على زفير السعير!!). ثم يعبران فيمران بأودية أرواح الشهداء، ويحدق به

أصحابه من محاربي طروادة مشدوهين ذاهلين، يسألونه فيم أقبل، وحين يلمحه أبطال الإغريق مقنعاً في حديده مقرناً في سلاحه تطير قلوبهم ويهربون منه في أودية النار خوفاً وهلعاً! وتستحثه سيبيل فيهرول وراءها حتى يكونا عند مفرق طريقين يؤدي أحدهما إلى الفردوس (إليزيوم والآخر إلى هاوية من هاويات جهنم حيث يقر المجرمون الذين لطخوا حياتهم بالآثام، ويشهد إينياس على أحد جانبي الطريق مدينة منيفة عالية الذرى، ذات سور ضخم وبرج مشيد، تحيط بها أمواه فيليجيتون - أحد أنهار جهنم - وقد وقفت ربة الانتقام المخيفة في عليائها تحرس طبقات من المعذبين الذين راحوا يملئون الرحب بصراخهم وأنينهم. أولئك قد حسبوا ألا يقدر عليهم أحد فاجترحوا من السيئات ما شوهوا به وجه الحياة. . وهاهم، قد وقفت على نواصيهم تيزيفون تحاسبهم وتظهر لهم ما أضمروا من الخبائث، وكلما خلصت من حساب أحدهم قذفته لأخواتها ربات الذعر فتدق عنقه بمقامع من حديد وتشويه بشواظ من نار ونحاس!!

وانفتحت بوابة المدينة فجأة، فلمح إينياس هيدرا هائلة ذات خمسين رأساً تحرس الطريق عندها؛ وهنا تخبره سيبيل أن هذه الطريق تؤدي إلى جحيم طرطاروس وهي في آخر السفل تبعد عنهما بعد السماء من فوقهما، وفي قرارها يرسف التيتان الذين شقوا عصا الطاعة على جوبيتر كبير آلهة الأولمب. ورأى إينياس جماعات جلوساً حول موائد كثيرة وأمامهم آكال وأشربات كلما وضعوا منها شيئاً في أفواههم نزعته منها ربة من ربات العذاب مكفلة بهم. ورأى قوماً آخرين يحملون فوق هاماتهم حجارة ثقيلة تكاد تقصمهم. وعلم من سيبيل أن هؤلاء هم الذين كانوا يشاقون آباءهم ويضارون إخوتهم ويخادعون أصدقاءهم الذين وضعوا ثقتهم فيهم ويكنزون الذهب والفضة ولا يجعلون للفقراء نصيباً منهما. ورأى كذلك الذين فسخوا خطبة زواجهم بغير حق والذين حاربوا وطنهم وخانوا أماناتهم وخرقوا الشرائع. ورأى أكسيون وسسفيوس يعذبان عذاباً أليما. ورأى تنتالوس واقفاً في بركة من الماء العذب ومع ذاك يوشك الظمأ أن يرديه كلما انحنى ليشرب هرب الماء وغاض في الأرض، ومن فوقه أشجار يانعة ذوات أثمار كلما مد يده ليقطف ثمرة ذهبت فروعها في السماء فهو أبداً ظامئ جائع.

وهنا، ينتهيان من الجوس خلال الجحيم، وتذكر له سيبيل أنهما سيبدآن رحلتهما إلى الفردوس (إلزيوم)، فتخب به في طريق دامس شديد الظلمة حتى تصل إلى أحراج نورانية فتكون هي الجنة التي وعد المتقون. وينشقان ثمة نسيماً عليلاً ويريان الصالحين مسربلين بسرابيل من أنوار أرجوانية، وينظران إلى علٍ فيريان للجنة سماء لها نجومها وشمسها وأقمارها غير ما ترى في سماء هذه الدنيا. وهناك، أخذ الفائزون يمرحون ويلعبون، فبعضهم يضطجع على العشب الأخضر يسامر أصدقاءه، والبعض يلعب ألعاب الحياة الدنيا من مصارعة وجري ورماية، وآخرون يرقصون ويتغنون الأغاني. وفي هؤلاء أقام

أرفيوس الموسيقي يشنف آذان أهل الجنة بقيثارته. ثم رأى إينياس في أولئك الأبرار مؤسسي طروادة وأبطالها الأطهار الذين حاربوا الهيلانيين وعليهم حلل الإستبرق والغار، ومعهم أرواح كثيرة مطهرة من القديسين والشهداء والشعراء الذين نظموا قصائدهم في تمجيد أبوللو. وآخرين زانوا الحياة الدنيا بعلومهم وفنونهم وقدموا يداً بيضاء لإخوانهم في الإنسانية. وكان هؤلاء يلبسون طيلسانات بيضاً وقراطق من حرير، وقد سألتهم سيبيل إذا كان أنخيسيز (والد إينياس) بينهم، فأذنوا لها أن تبحث عنه بين جموعهم الزاخرة؛ ثم لقيته في واد نضير ذي فواكه وأثمار فعرفه ابنه، ومد الوالد ذراعيه يعانق ولده والدمع ينهمر على خديه ويروي لحيته: (وأخيراً أتيت يا إينياس! يا ولدي! كم حنت روحي إليك وكنت في خشية عليك مما أعرف من حياتك التي تلطخها دماء الحروب ويغطشها قتار المعامع!) فيجيبه ابنه (أبتاه! ليفرخ روعك فإن صورتك كانت أبداً ماثلة نصب عيني فكانت تقودني إلى الخيرات وترشدني إلى الصالحات!) ثم يحاول أن يعانق أباه، ولكن. . . إنه لم يعانق إلا شبحاً!!

ونظر إينياس فرأى وادياً مخضلاً سامق الشجر بليل النسيم يجري من تحته نهر ليث العظيم، وفي جنباته أمم شتى من أرواح الصالحين كثرت كثرة هائلة حتى لكأنها أسراب النحل في إبان الربيع. ويسأل صاحبته عن هؤلاء فتقول سيبيل: (أولئك أرواح المؤمنين تنتظر يوم البعث فتعود إلى أجسادها فتلبسها وهي تشرب النسيان من ليث ليشغلها عن توافه الحياة الدنيا!).

ويسأل أباه إينياس فيقول: (أبي ألا تكون الحياة الدنيا محببة عند أحد من هؤلاء فيؤثرها على ما هو فيه الآن من طيبات فهو يود لو يعود إليها؟) وهنا يأخذ الأب في شرح طويل عن بدء الخلق وعن العناصر التي صنع الله منها العالم (النار والهواء والأرض والماء) وأن هذه باتحادها ينشأ عنها اللهب الذي صنع الله منه الأرواح العلوية وقد انتثرت بذرة من اللهب المقدس فاختلطت بالأرض فصنع منها الآلهة السفليون الإنسان والحيوان وكلما كبر الإنسان قلت فيه بذرة اللهب المقدس وصغرت وخبثت نفسه لأن كمية الطين تزداد فيه ولذا تجد الأطفال لصغرهم ولقلة كمية الطين فيهم أكثر طهراً وأجم نقاء من الكبار. ولا بد للعبد المؤمن قبل دخول الجنة من إزالة الطين الذي اندس فيه وذلك بترويحه في الهواء، أو غسله في الماء أو تحريقه بالنار ليخلص من الشوائب والدنايا وليستحق أن يكون من أهل الزيوم. أما الصالحون فيرتدون إلى الحياة متقمصين أجساد القطط والذئاب والكلاب والسعالي والقرود فتزداد بهم الدنيا قبحاً على قبح. وقد يعود بعض الصالحين كذلك ليطهروا الدنيا من دنايا هؤلاء.

ثم يحدث أنخيسيز ابنه عما ينتظر أن يتم على يديه من تكون مملكة عظيمة في إسبريا وعن جلائل الأعمال التي ستتم فيها على يديه وأيدي ذراريه. ويحدثه كذلك عن الحروب التي سيخوضون غمارها والمعارك التي سينتصرون فيها والزوجة الجميلة التي سيفوز بها، وطروادة الجديدة التي سيشيدون دعائمها فلا يمضي طويل حتى تكون سيدة العالم.

ثم يسلم الولد على والده، وتعود به سيبيل من طريق مختصر إلى هذه الحياة الدنيا.

(للبحث بقية)

د. خ

أبو الطيب المتنبي

للأستاذ محمد محي الدين عبد المجيد

موضوعات هذا البحث

وبعد فلقد فكرت طويلاً فيما عسى أن يكون موضوع كلمتي التي أتشرف بإلقائها بين يديكم من مناحي المتنبي، وعرضت مسائل البحث على خاطري، فكنت كلما فكرت في أمر وجدت له ما يبرر التوجه إليه، ووجدت مع ذلك من الشبهات ما يذودني عنه ويقطعني عن الاسترسال فيه، ولكني استطعت في آخر الأمر أن أقنع نفسي بأنني وافد الأزهر إليكم، وبأن الأزهر هو المعهد الذي يقوم على حراسة الدين أصوله وفروعه وعلى حياطة العربية وآدابها، وبأن بحث من يمثل الأزهر يجب أن يكون متصلاً بما يؤديه الأزهر للعالم من أمانة وما يضطلع به من أعباء، فاستقام عندي بعد هذه المقدمات أن يدور بحثي حول (دين المتنبي وأخلاقه وتنبئه وموقفه من النحاة)؛ وما كدت أنتهي من ذلك الأمر وأخلص من التفكير بهذه النتيجة حتى عرض لي أمر آخر ألقيت له بالي كله، وذلك الأمر هو المقصود بهذا المهرجان: أهو تقريظ المتنبي والثناء عليه، إما بإطرائه وكيل المديح له إن حقاً وإن باطلاً، وإما بإثارة الجميل من أخباره وشعره والإعراض عما عسى أن يغض من شأنه، أم هو بحث المتنبي من جميع وجوهه لوجه الحق من غير تعنت ولا تحيز؟ ولم أزل أفكر وأقدر للأمر حتى أيقنت أن هذا الحفل الذي يجمع أقطاب الأدباء والعلماء من كل قطر لا يمكن أن يستوي عنده الأمران فإن فرق ما بينهما أوضح من أن يدل عليه. وأي إنسان يستطيع أن ينسى الفرق بين حفل يجتمع لتكريم رجل وبين حفل يجتمع فيه صفوة الأدباء لدراسة رجل من رجال الأدب كان له أشياع وأعداء، وكان أشياعه ينشرون ممادحه ويذيعون فضائله ويتأولون له، وكان أعداؤه يملئون الأرض عجيجاً حوله ويرمونه بكل نقائص الإنسانية وهم لا يتورعون عن الكذب فيما يحدثون به من أخبار. أليس من أول ما يلزم الباحثين أن يعرضوا مقالات أعدائه وشيعته جميعاً على موازين البحث الصحيحة ليخلصوا بنتيجة ترضي العقل وتسد حاجة التفكير غير مبالين أن تكون هذه النتيجة مما يتمدح به أو مما يعده الناس نقصاً؟ فإن أنا عرضت عليكم شيئاً من هذا فهذه معذرتي وهذا رأيي، ولعلي لا أكون قد أبعدت أو جانبت الصواب فيما ذهبت إليه.

دين المتنبي

أيها السادة! لقد مني أبو الطيب المتنبي بصنفين من الناس كان لكل واحد منهما من

الأثر في حياته وفي أخباره التي نتوارثها إلى اليوم أقبح الأثر، ولولاهما لعاش الرجل عيشة هادئة، ولولاهما لكانت صحيفته في تاريخ الشعر والشعراء غير الصحيفة التي نقرؤها اليوم، ولولاهما لما وجد الباحث عنه هذا الغموض وهذا التناقض اللذين يعانيهما الآن. أما أحدهما فجماعة من ذوي المكانة بين الناس وأصحاب الجاه خافوه على أنفسهم ورهبوا أن تمتد مطامعه إلى مكانتهم وجاههم، أو طمعوا منه في أن يتملقهم ويرائيهم فيرد حضرتهم كما كان غيره يردها وكما كان هو يرد حضرة غيرهم من الملوك والأمراء فلم ينالوا ذاك منه، أو دفعت أبا الطيب نوازع نفسية فنال من أعراضهم فكانوا لأحد هذه الأسباب أولها كلها مجتمعة يحنقون عليه ويغضون من شأنه، وكانوا مع ذلك يؤلبون عليه الشعراء والعلماء لينالوا منه ويؤذوه في نفسه وفي شعره. وكان أبو الطيب يخشاهم ويرهب سلطانهم، بل لم يكن يخشاهم على نفسه فحسب، وإنما خشيهم على بعض أصدقائه ومن يشفق عليه، فقد حدث أبو إسحاق الصابئ قال: (راسلت أبا الطيب رحمه الله في أن يمدحني بقصيدتين وأعطيه خمسة آلاف درهم ووسطت بيني وبينه رجلاً من وجوه التجار، فقال: (قل له والله ما رأيت بالعراق من يستحق المدح غيرك، ولا أوجب عليّ في هذه البلاد أحد من الحق ما أوجبت، وإن أنا مدحتك تنكر لك الوزير (يعني أبا محمد المهلبي) وتغير عليك لأنني لم أمدحه، فإن كنت لا تبالي هذه الحال فأنا أجيبك إلى ما التمست وما أريد منك مالاً ولا عن شعري عوضاً)، فتنبهت على موضع الغلط، وعلمت أنه نصح فلم أعاوده اهـ). وأما الصنف الآخر فجماعة ممن كانوا يأملون أن تكون لهم المنزلة التي أدركها من الحظوة عند الملوك، وحرص كل واحد منهم أن يكون أبو الطيب من بطانته وتنافسهم في ذلك، فلما لم يبلغ هؤلاء المؤملون هذه الأمنية أكل الحقد عليه قلوبهم، واشتعلت جذوة الحسد بين جوانحهم، فتفننوا في القول عليه والدس له، ونشروا عنه من المقابح ما لم يكن يعلم من أمر أكثره شيئاً؛ ولم يكتفوا بأن يعملوا على إبعاده عن الملوك الذين كان التقرب إليهم منتهى آمالهم، بل حاولوا التفريق بينه وبين الجمهور، فجاءوه من ناحية الدين ثقة منهم أن للدين في نظر جمهرة الناس وعامتهم المنزلة الأولى، فإذا أتى الرجل من جهته فقد سقط وإن بقي له كل شيء.

رموه بأنه كان رقيق الدين تاركاً لأركان الإسلام، ورموه بأنه كان يستخف بالأنبياء ويستصغر شأنهم، ورموه بأنه ذهب في الفلسفة مذهباً بعيداً عما يعتقده المسلمون؛ وقد نسوا حين رموا أبا الطيب بذلك كله أن دين الإسلام شديد الصرامة في حكم هذه المسألة، وأنه لا يحل لمن يعتنقه أن يرمي أخاه بأمثال هذه التهم لإرضاء حفيظة نفسه حتى يكون بين يديه دليل لا يقبل التأويل.

ولسنا حين نتشكك في أخبار هؤلاء الناس أو ننكر استنتاجهم ندعي لأبي الطيب أنه كان رجلاً صالحاً ورعاً يقوم الليل ويصوم النهار ويطيل العبادة وقراءة القرآن، ولكنا نفعل ذلك لنقرر أن حياة أبي الطيب قد أحاطها أعداؤه بكثير من الغموض وأحاطوها مع هذا الغموض بكثير من الأكاذيب والمفتريات كان من شأنها أن تريك حياته سلسلة من المتناقضات.

حكي على بن حمزة البصري قال: (بلوت من أبي الطيب ثلاث خلال محمودة: وتلك أنه ما كذب ولا زنى ولا لاط، وبلوت منه ثلاث خصال ذميمة: وتلك أنه ما صام ولا صلى ولا قرأ القرآن) وهذا خبر لم يذكر قائله معه وجهاً يقربه من الصدق. وهل يستطيع إنسان في الدنيا أن ينفي عن آخر فعل شيء حتى يزعم أنه لزمه طول حياته فلم يفارقه وأنه ما رآه يفعله قط؟ ثم إن أمر الصوم في حديث علي بن أبي حمزة أهون من أمر الصلاة وقراءة القرآن، فهو يستطيع أن يدعي مرة أخرى أنه رأى أبا الطيب كل عام في شهر رمضان في حلب ومصر والعراق وشيراز وسائر البلاد التي وطئنها قدماً أبي الطيب، وأنه رآه مع ذلك يأكل أو يشرب نهاراً، يستطيع أن يدعي هذا كله وحينئذ يتم له ما أراد من أنه بلا من أبي الطيب خلة ذميمة وهي أنه ما صام، ولكن أنى له أن يدعي ذلك. فأما أمر الصلاة وقراءة القرآن فنحن نسأله: أكان قد لزم أبا الطيب في مغداه ومراحه ومتيقظه ومنامه حتى يستطيع أن يزعم أنه ما صلى؟ وشيء آخر، ذلك أنه بلا منه خلة محمودة وهي أنه ما كذب، فهل سأله عن صلاته وقراءته القرآن فحدثه وصدقه الحديث أنه ما صلى ولا قرأ القرآن؟ والحق أن علي بن حمزة البصري

رجل أراد أن يرمي أبا الطيب بما رمى به أمثاله أمثال أبي الطيب من قبل، وبما لا يزال أمثاله يرمون به أمثال أبي
الطيب إلى اليوم. يريد بذلك أن يرضي خصوم أبي الطيب أو يشبع شهوة الانتقام منه، وأراد أن يعمي على الناس ويحملهم على تصديقه، فذكر في صدر حديثه أنه بلا منه ثلاث خلال محمودة، وهذه العبارة فيما نعلم من أمر الناس إحدى الدلائل على اختلاق الحديث. هذا وقد ذكر أبو العلاء في شأن صلاة أبي الطيب قال: (وحدثت أن أبا الطيب أيام كان اقطاعه بصف رؤى يصلي بموضع بمعرة النعمان يقال له كنيسة الأعراب، وأنه صلى العصر ركعتين، فيجوز أن يكون رأى أنه على سفر وأن القصر له جائز) فهل يمكن أن يكون خبر علي بن حمزة بعد ذلك موثوقاً به؟ فأما تأول المتنبي وأنه رأى أن القصر له جائز فأمر آخر ليس بحثه من شأننا الآن؛ وقراءة القرآن التي زعم علي بن حمزة أن أبا الطيب لم يفعلها أفي الناس من يعقل أن رجلاً نشأ على حفظ اللغة واستظهار غريبها، والتنقل في البوادي ليلقطها من أفواه الأعراب يجد القرآن بين يديه وهو كتاب لغة وأسلوب وفكر، فوق أنه كتاب هداية وخلق وآداب، ثم لا يقرأه ليتأسى به ويتقيل أساليبه ويتخذ من اطراد منطقه وإحكام الحجة فيه منهجاً لنفسه؟ ونحن نذكر لعلي بن حمزة أن أبا الطيب قد قرأ القرآن وفهمه، ونذكر له مما يشير إلى ذلك قوله من قصيدة يمدح بها كافوراً:

كأن كل سؤال في مسامعه ... قميص يوسف في أجفان يعقوب

وقوله من قصيدة يمدح فيها محمد بن زريق الطرسوسي:

لو كان ذو القرنين أعمل رأيه ... لما أتى الظلمات صرن شموسا
أو كان لج البحر مثل يمينه ... ما انشق حتى جاز فيه موسى

فأما ما ذكروه من استخفافه بالأنبياء واستصغاره شأنهم وعدم مبالاته بأصول العقيدة، فقد رأينا فيما جمعناه من كلام أبي الطيب مما هو متصل بهذه المسألة أن بعض ما ذكروه أهون من أن يؤبه له كقوله:

ما مقامي بأرض نخلة إلا ... كمقام المسيح بين اليهود

وكقوله:

إنا في أمة تداركها الله ... غريب كصالح في ثمود

وأي شيء في أن يشبه نفسه وهو يقيم بين قوم يعتقد أنهم أعداؤه بالمسيح عليه السلام حين أقام بين اليهود؟ وأي شيء في أن يدل على أن بقاءه بين قوم لا تجانس بينه وبينهم غربة
تشبه غربة صالح عليه السلام، إذ كان يعيش في وسط لا يرون رأيه؟ وبعض ما أخذوه عليه تجد له محملاً في الكلام لو أنت حملته عليه لم يكن به بأس، وذلك كقوله في قصيدة مدح بها الحسين ابن إسحاق التنوخي:

فما ترزق الأقدار من أنت حارم ... وما تحرم الأقدار من أنت رازق

فإنه يمكن أن يكون قد أراد أن الحسين بن إسحاق رجل موفق إلى السداد وإصابة المقادير فهي تجري دائماً موافقة لما اهتدى إليه ولا شيء في ذلك فيما نظن. وأما بقية ما أخذوه عليه فداخل في باب المبالغة التي تجري على ألسنة الشعراء وهي لم تخالط قلوبهم، وأبو الطيب كثير المبالغة في شعره، ونحن نأخذها عليه من الناحية الأدبية ولا نستدل بها على فساد عقيدته؛ فمن ذلك قوله في مدح محمد بن زريق:

لو كان للنيران ضوء جبينه ... عبدت فصار العالمون مجوسا

ومن ذلك قوله من قصيدة يقولها في صباه:

عمرك الله هل رأيت بدوراً ... طلعت في براقع وعقود
راميات بأسهم ريشها الهد ... ب تشق القلوب قبل الجلود
يترشفن من فمي رشفات ... هن فيه أحلى من التوحيد

وقد اعتذر الناس عن قوله: (هن فيه أحلى من التوحيد) بوجوه: أحدها قاله ابن جني وملخصه إنكار هذه الرواية، والرواية عنده (هن فيه حلاوة التوحيد) وقد سرى إلى ابن جني داء النحاة في تحريف الشواهد وتغييرها على ما يوافقهم. والوجه الثاني: (تفسير التوحيد بأنه ثمر من ثمار العراق حلو المذاق، والوجه الثالث قاله العكبري وملخصه أنه ليس المراد تفضيل حلاوة الرشفات على حلاوة التوحيد، وإنما المراد تقريب حلاوتها من حلاوته لأن حلاوته ثابتة غير مكشوف فيها وحلاوتها غير معروفة، وذانك الوجهان

من باب التمحلات البعيدة كما ترون، وليس لنا إلا أن نعترف بأن هذا غلو أفرط فيه أبو الطيب فتجاوز الحد. ومن ذلك قوله من قصيدة مدح بها أبا شجاع عضد الدولة

الناس كالعابدين آلهة ... وعبده كالموحد الله

وقوله من قصيدة مدح بها بدر بن عمار:

لو كان علمك بالإله مقسما ... في الناس ما بعث الإله رسولاً

لو كان لفظك فيهم ما أنزل ال ... قرآن والتوراة والإنجيلا

وكل هذا من الغلو البعيد كما قدمنا، ونحن نعتب عليه أنه قد أسلس العنان لفكره حتى جال في هذا الميدان، فلا بدع أن يمتلئ من غباره وتصيبه إحدى قذائفه.

فأما ما اتهموه به من الذهاب في فلسفته مذهباً لا يقره الإسلام فأني أبادر بإنكار ذلك عليهم وأعرض عليكم شيئاً مما ذكروه لتتبينوا بأنفسكم أنهم لم يكونوا منصفين حين نسبوه إلى ما نسبوه إليه؛ زعموا أنه أنكر المعاد لقوله:

تمتع من سهاد أو رقاد ... ولا تأمل كرى تحت الرجام

فإن لثالث الحالين معنى ... سوى معنى انتباهك والمنام

وأي دليل في هذا الكلام على إنكار المعاد؟ وأي شيء في أن تقول: (إن للموت معنى غير معنى النوم واليقظة؟ ومن ذا الذي يزعم أن معنى الموت هو معنى النوم واليقظة أو أن حال الإنسان فيه كحاله فيهما) وزعموا أنه يرى رأي السوفسطائية الذين ينكرون ثبوت حقائق الأشياء لقوله:

هون علي بصر ما شق منظره ... فإنما يقظات العين كالحلم

ولو كان ذلك من مذهب السوفسطائية لما جاز لأحد أن يشبه شيئاً بضده إذا اشتركا في أمر من الأمور ونحن ما نزال نسمع الناس يقولون إن نوم فلان ويقظته سواء إذا كان لا يستفاد من يقظته أو كان لا يجد الراحة في نومه كما لا يجدها في يقظته. وما نزال نسمعهم يشبهون الموجود بالمعدوم والمنير بالمظلم. وهكذا يجري على الألسنة من غير أن يلتفت أحد إلى هذا الذي زعموه ونسبوه إلى القول بقدم العالم مستنجين ذلك من قوله في قصيدة رثى فيها أخت سيف الدولة:

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم ... إلا على شجب والخلف في الشجب

فقيل تخلص نفس المرء سالمة ... وقيل تشرك جسم المرء في العطب

وهذا استنتاج لا يقضي العجب منه، بل أنا أصارحكم - ولا ضير علي في ذلك - بأنني لم أعرف وجه هذا الاستنتاج، ولو استنتجوا من هذين البيتين أنه ينكر المعاد لكان لاستنتاجهم وجه. على أنه إذا صح أن يكفر رجل بهذا الكلام وجب أن نحكم على علماء المسلمين عامة بالكفر ونحكم بذلك بادئ الأمر على المشتغلين بعلم الكلام والرد على فرق الملاحدة،

ذلك بأنهم يحكون لنا أقوال الكفار كما حكاها أبو الطيب في هذين البيتين، بل إن علماء المسلمين أولى بهذا الحكم منه لأنهم يذكرون مع ما يحكونه من الآراء شبهة أهل هذه الآراء، وقد يصورون شبهاتهم في صورة الأدلة؛ يجب عند خصوم أبي الطيب أن يكون علماء المسلمين كفاراً وإن لم يعتقدوا ما يحكونه من آراء وإن كان عندهم من الأدلة على بطلانها ما لا يدخل في حساب أحد، وفي الحق أن أعداء أبي الطيب لم يكونوا موفقين فيما رموه به، وأن أبا الطيب نفسه لم يسعفه التوفيق في كل ما جرى على لسانه.

(له بقية)

محمد محي الدين عبد المجيد
المدرس بكلية اللغة العربي

من (الكتاب الذهبي) قبل أن يطبع

لغة الأحكام والمرافعات

للأستاذ زكي عريبي

- 3 -

مطابقة المرافعة لمقتضى الحال

إن أهمها بلا شك هو مطابقتها لمقتضى الحال. فللإسهاب منها مواضع وللإيجاز مواضع. يجب استعمال اللفظ المجلجل مرة والسهل البسيط أخرى. يغلب المنطق هنا والعاطفة هناك حسب الظروف والأحوال.

وليس يستطيع هذا إلا المتكلم المصقع المتصل بالأدب بأوثق صلة، العالم بطبائع الناس العارف لمواقع الكلام، المتصرف في أنواعه المختلفة بما يريد ويشتهي.
كفايات صعبة بل شك، ولكنها لازمة أدرك الأقدمون ضرورة توفرها فيمن اتخذ الكلام صناعة. فكان محامو اليونان أفصح أهل زمانهم وأعلمهم. وسار الرومان في أثرهم فلم يكن لطلاب البلاغة في عهدهم غير ساحة القضاء يقصدونها للأخذ عن أئمتها وحاملي لوائها من المترافعين المبرزين أمثال أنطونيوس وهورتنسنس وشيشرون. ثم تجددت هذه الحال في عصر النهضة فكان على طالب المحاماة بعد الفراغ من دراسة الحقوق أن يتنسك أربع سنوات يقضيها متأملاً باحثاً قبل أن يقدم على المهمة المقدسة الكبرى - مهمة الدفاع.
وقد بلغ من إغراق الأسرة القضائية في ذلك العهد في التأدب أن أصبحت المرافعات والأحكام عبارة عن اقتباسات مكدسة من كتب اليونان والرومان تلوح بينها الألفاظ الفرنسية وتختفي.
بل إنك لتقرأ في أخبار ذلك الزمن أن باسكييه أشهر محامي القرن السادس عشر أورد في إحدى مذكراته بيتاً لاتينياً لم يشر إلى قائله ووقعت المذكرة في يد دنو قاضي القضاة فلم يشأ أن يحكم في الدعوى حتى يعرف مصدر الشعر.
وبقي الاتصال وثيقاً بين الأدب والقانون خلال القرن السابع عشر والذي يليه. فأصبح من تقاليد المجمع اللغوي تخصيص أحد كراسيه لأبرع المحامين أدباً. وكان يشغل هذا الكرسي
في عصرنا الحاضر إلى عهد قريب النقيب الأشهر المرحوم هنري روبير.
وتجد مثل هذه الرابطة بين الأدب والقانون في إنجلترا، فكثير من أشهر أدبائها شغلوا كراسي القضاة أو لبسوا رداء المحاماة.
وقد بقيت لغة الأحكام والمرافعات في مصر سقيمة تافهة حتى دخل الميدان أمثال محمد عبده وحفني ناصف ومحمد صالح وقاسم أمين وسعد زغلول فرقوا بها إلى طبقات لم تكن تحلم بها.
وهذه الصلة ما زالت إلى اليوم معقودة يوثق عراها أعلام من أدباء العصر، فالدكتور هيكل كان محامياً، وفكري أباظة والدكتور مرسي محمود ولطفي جمعة محامون مشتغلون. وكان على رأس محكمة النقض والنيابة العامة أديبان لم تسعد اللغة القضائية حتى الساعة بخير من قلميهما.
لغة المحاكم إذن جزء من أدب كل أمة. ليس لها عنه غنى وله فيها كل الغناء.
لا غنى لها عنه لأنها من دونه ضئيلة عليلة مملة مسئمة.
وله فيها غناء لأنه يجد في ساحتها ميدانً مترامي الأطراف تلقى فيه الحقيقة بالخيال ويسعد قلم الأديب بمواضيع لا حد لكثرتها ولا تباينها. فمنها العظيم الفخم ومنها الصغير الدقيق. فيها الباكي المفجع وفيها الفكه الضاحك. الإنسانية كلها هنا، بأفراحها وأتراحها، بآلامها وأحلامها، بنبلها وضعتها، بخيرها وشرها. فالقلم الذي لا يجري في هذه الحلبة الواسعة خير له أن يكسر.
ولكن للغة المرافعات مع ذلك خصائصها ولها مميزاتها.
لغة المرافعة لغة حديث لا كتابة
إنها قبل كل شيء لغة حديث لا لغة كتابة.
وإن كان للحديث على الكتابة مزايا فإن له متاعبه وله صعابه.
فمن مزاياه أن المحدث يلقى السامع وجهاً لوجه؛ وفي استطاعته إذ يلقاه على هذه الصورة أن يستعين على إقناعه بلسانه وعينه، بصوته وإشارته، بحركته وسكونه، ببديهته ودقة ملاحظته، بل بما فيه من قوة مغناطيسية كامنة.
ولكن يقابل هذه المزايا أن المحدث مضطر بحكم طبيعة الموقف إلى الابتكار السريع والكلام المرتجل ومواصلة الحديث في غير توقف ولا تردد.
فكيف يجب أن تكون لغته؟
إن أولى صفاتها من غير شك بساطة التعبير.
بل قل إن هذا الشرط شرط ضرورة؛ فقد يملك الكاتب أن يستعمل اللفظ المنمق، وأن يحتال على المعاني البعيدة، وأن يطلق العنان للخيال فيواتيه بصور شعرية رائعة. ولكن شيئاً من هذا غير مستطاع ولا ميسور لمتكلم تكتنفه صعاب الارتجال، وتستحثه

الحاجة الملحة إلى إفهام سامع يرمقه بعين تتسع انتظاراً قد ينقلب في لحظة إلى تململ أو سآمة.

صحيح أن الطبيعة لن توات جميع الناس بالبديهة الحاضرة التي تستطيع الكلام عفوا، فهم مضطرون إلى تحبير مرافعتهم ثم إلقائها. ولكن حتى هؤلاء يجب أن يكتبوا بغير اللغة المعدة للقراءة، إن عليهم أن يتصنعوا لغة الارتجال؛ وليس هذا بميسور إلا أن يحتذوا حذو محام نابغة يدعى فارير، تكلم عن طريقته في كتابة الممتع فقال إنه يرى صامتاً مفكراً مدى أيام كلما اعتزم الدفاع في قضية هامة، فإذا ما كان قبل الجلسة بقليل اعتكف في مكتبه ثم جلس للكتابة فأطلق العنان لقلمه لا يلوي على شيء مما يعني به الكاتب من فصل أو وصل، وبعبارة أخرى إن الرجل كان يترافع بقلمه في القضية متمثلاً أنه أمام المحكمة، حتى إذا فرغ طوى صحفه وقام عنها وقد رسمت هذه المرافعة المكتوبة في رأسه معالم واضحة توجه فكره إذا ما وقف للدفاع، وتقيه شر جموح الخاطر دون أن تمنع تدفق بيانه المطابق لمقتضى الحال.

العاطفة في لغة المرافعات

وليس أجمل في لغة المرافعات بل ليس ألزم من غلبة العاطفة فيها.

إن كلام المحامي ليبقى مجرد كلام لا طائل تحته حتى تغشاه عاطفة صادقة فتصبح له قوة السحر. وقديماً قالوا إن القول ينفذ إلى القلب إذا صدر من القلب. ولكن كيف السبيل إلى مثل هذا القول؟ ليس أعصى في موضوعنا من التعبير عما نقصد (بالعاطفة) هي لا شيء. وهي كل شيء.

يقف محاميان يطلبان الرأفة لمتهم، فيفوه أحدهما بكلام لا يعدو السمع. ويقول الآخر قولاً يهز القلوب هزاً.

كلاهما يترافع بالعربية. وكلاهما يستعمل كلمة الرأفة أو الشفقة. فكيف يتفاوت أثر مرافعتهما هذا التفاوت؟

فتش وابحث وسل علماء النفس ينبئوك بأن واحداً من الاثنين حساس يستشعر ما يقول ويتأثر به فتنتقل منه عدوى التأثر إلى الغير.

والتأثر لكي يكون له هذا الأثر يجب أن يكون صادقاً. وهو لا يكون صادقاً إلا أن يصدر عن يقين واقتناع.

وإن تعجب لشيء فاعجب لهذا الاقتناع يبدو لك صادقاً - وهو صادق بالفعل - في قضايا يستحيل على العقل أن يصدق أن كلام المحامي فيها وليد الاقتناع وليس في الأمر مع ذلك معمي.

ذلك أن المحامي القادر إذا ما أخذ على عاتقه المرافعة في قضية صعبة راح يفكر في صعوبتها ورائده الرغبة في التغلب عليها وتلح عليه هذه الرغبة وتلحف بقدر ما يستعصي المخرج ويبعد الحل.

ثم ينتهي الأمر بتذليل المحامي للعقبة أو اعتقاده أنه ذللها. وفي هذه الحالة الثانية تطغى الرغبة على العقل وتستعبده، وقد يكون جباراً قوياً يندفع بقوة الإيمان الصحيح.

جمعني وأستاذي الكبير مرقس فهمي قضية مخدرات كان المتهم الأول فيها رجلاً معروفاً. ولم يكن في القضية منفذ لإبرة لا من حيث أدلتها ولا من حيث أدبياتها. فالمتهم ضبط متلبساً بالجريمة ولم يكن له عذر مقبول من أي نوع. بل بالعكس كانت الأسباب تحتشد وتتضافر لأخذه بالشدة، فقد كان الرجل مثقفاً غنياً لا يشفع له جهل ولا مسيس حاجة. فجئت الجلسة وكلي آذان لسماع مرقس فهمي. ماذا يستطيع الأستاذ العظيم أن يقول في هذه القضية اللعينة؟ أي دفاع يتحسس وأي عذر يتلمس؟ جلست أترقب وأنتظر. وأخيراً وقف مرقس للكلام. فإذا به يهاجم هذا الحصن المنيع من أكثر نواحيه منعة وأقلها توقعاً للهجوم. أجل لقد أخذ مرقس القضية عنوة من ناحيتها الأدبية، متوسلاً بما لاحظه من أن التحقيق كان سرياً فيها وأن المحامين قد منعوا عن حضوره. وانظر إليه كيف يرقى بقضيته التاعسة من أعماق الحضيض إلى سماء الرفعة، يجعلها مثار الكلام على الضمانات التي يشترطها القانون لصحة التحقيق وقدسية مهمة المحامي. أنظر إليه كيف يبدأ هذا الدفاع

المجيد وقل إن في مصر محامين:

(نحن المحامين نعالج آلام الناس ونرافقهم في شقائهم، ولهذا نرتدي الثوب الأسود ونقف في هذا المكان المنخفض. فإذا ما أعيانا التعب جلسنا على هذا الحجر الصلب

فيزيدنا تعباً. فنحن حقيقة بؤساء، رفقاء البؤساء. ولكن برغم هذه المظاهر الخداعة فأن الذي في قلبه إيمان بالحق يرتفع من هذا المركز المتواضع إلى السمو الذي لا حد له. ذلك لأن عماده كله الحق، ولأن مأمورية المحامي تمثل حق الدفاع المقدس. والقداسة لا تحتاج لسلطة ولا تحتاج لمظهر قوة بل هي جميلة، جميلة بنفسها مهما كانت مظاهرها. مظاهر التعس والتواضع، ولأن المحامي مأموريته التي تسمو به إلى أقصى ما يعرف من معاني السمو هي أن يوجه ضمير القاضي وأن يحدثه فيما يصح أن يتجه إليه عدله. فحقيقة لا يوجد سمو آخر يمكن أن يتصور.

قلت هذا لا تفاخراً بموقف المحامي، لأن الذي يدرك واجبه ليس في حاجة - بل عيب عليه - أن يفخر، لكني قلته ليعلم حضرة القاضي أني أعاهد نفسي بألا أعرف لها كرامة إلا إذا تقدمت إلى ضميره بكلمة الحق، وفي هذا السبيل فليقفني في الكلام حضرة وكيل النيابة في الوقت الذي يريده. إلى أن قال:

(إن التحقيق ليس هو ما يكتب لا. لا. التحقيق هو أولاً وبالذات الضمانات، احترام الكفالات التي قررها القانون في حق المتهم. كيف تستجوبه؟ من هو الشخص الذي وضع فيه الشارع ثقته في أن يتلقى هذا المتهم المسكين وديعة في يده ليتصرف في شأنه، لعله يعنفه، لعله يخدعه، لعله يمنيه، لعله يخيفه أو يهدده. فحتى لا تكون قداسة القضاء مستندة إلى تلك الطرق المخجلة المعيبة قال المشرع إن المتهم في حماية النيابة وحدها، والمتهم أول ما تقر به النيابة تستجوبه في ساعات 24 ساعة. والمتهم إذا حبسته له ضمانه معينة. والمتهم يا سيدي القاضي لا يقابله أحد في سجنه حتى إذا أراد المحامي أن يقابله. المحامي ممثل حق الدفاع إن رأى أن يقابله ليأخذ سر هذا المسكين، لا يقابله إلا بإذن.

ولكن ماذا جرى في هذه الدعوى؟ جرى أن المتهمين جميعاً قذف بهم يا حضرة القاضي إلى هوة من النار).

ويذكرني تلمس مواضع الإحساس هنا بما يرويه هنري روبير عن سلفه العظيم لاشو إذ قبل أن يضطلع بمهمة الدفاع عن القائد بازين أمام المجلس الحربي الأعلى في قضية اتهامه بالخيانة العظمى في حرب السبعين. وكان مركز المتهم بالغاً نهاية السوء، والبلاد من أقصاها إلى أقصاها مرجلاً يغلي بالحقد على من سلم إلى العدو مائة ألف مقاتل بمعداتهم وأسلحتهم. فمضى لاشو يترافع ثلاثة أيام، وهو كمن يضرب في حديد بارد حتى أسعفه الحظ وقد أخذ اليأس منه كل مأخذ بسقطة لسان من النائب العام إذ وصفه في رده على مرافعته (بالمدافع عن المزورين وقطاع الطريق). وهنا وثب لاشو وثبة الأسد قد وخز بسكين، وعاودته قوته الهائلة بفعل الكرامة المجروحة، وانطلق بيانه الساحر من عقاله فأتى بما لم يسبقه إليه متكلم. واستطاع بعد دفاع مرتجل ملتهب أن ينقذ رأس موكله.

(يتبع)

زكي عريبي

المحامي أمام محكمة النقض والإبرام

في النقد

بقلم داود حمدان

في الأسابيع الأخيرة كتب في (الرسالة) أساتذة كبار بحوثاً جليلة في النقد، توخوا منها شحذ همم النقاد، وحملهم على النقد المفيد الذي طالما كان عاملاً هاماً في نموّ الأدب وتمحيص العلم. وكان في كلام بعضهم كلام يوهم التعريض بأشخاص انبروا للدفاع عن أنفسهم، فكان لنا معشر القراء من ذلك فائدة ولذة.

وما كنت، وأنا من القراء، لأزج بنفسي بين الكتاب، لولا أن شيئاً مما كتبه الأستاذ إسماعيل مظهر في العدد 161 من (الرسالة) لم أفهمه، فجئت أستأذن (الرسالة) بنشر ما يقوم بنفسي حول هذا الموضوع، لعل الأستاذ يتفضل بتصحيح فهمي، فأكون له من الشاكرين.

يتساءل الأستاذ: (هل وضعنا للنقد قواعد يقوم عليها هيكله وتشيد من فوقها أركانه؟ ألنا في النقد مذاهب مقررة ينتحيها الناقدون؟ وهل لنا في النقد قواعد تحدد للنقد حدوده، وترسم تخومه، وتعين اصطلاحاته، شأن كل الأشياء العلمية والأدبية التي لها أثر في تطور العقليات والمعقولات؟).

ثم ينفي الأستاذ أن لنا في النقد مذاهب (وإنما اتبعنا إلى الآن في النقد طريقة ميزانها الذوق والشعور).
وفهمي الكليل لا يرى محلاً لهذا التساؤل، ولا يتصور كيف يكون للنقد قواعد ومذاهب، لأن النقد - كما أفهم أنا - شيء إضافي ليس له حقيقة مستقلة، ولذا يقال: نقد الدراهم، ونقد العلم، ونقد الأدب، وغير ذلك. وهو كل ذلك معناه التمييز والتمحيص ومعرفة الزائف من الصحيح.
ولما كان لكل علم وفن حدود وقواعد فهي هي حدود وقواعد للنقد، وليس للنقد بعدها حدود ولا قواعد.
وإنما للنقد شروط لابد من توفرها في الناقد قبل الإقدام على النقد: فأولها أن يكون الناقد عالماً بالشيء المنقود علم إحاطة لئلا ينقد شيئاً لا يكون داخلاً في حدود علمه. ولعل هذا ما حمل الأستاذ أحمد أمين على أن يعيب على النقاد أن ينتقدوا ما ليس من اختصاصهم، وذلك لأن عدم الاختصاص لا يتيح للناقد الإحاطة بالشيء المنقود. فناقد الدراهم مثلاً يجب أن
يكون عالماً بماهية الدراهم ليستطيع نقدها، وناقد علم من العلوم يجب أن يكون عالماً بقضايا ذلك العلم واصطلاحاته، وناقد الأدب يجب أن يكون عالماً بأصول الأدب ومقاييسه ليستطيع تميز الصحيح من الفاسد، فمعرفة الصحيح من الفاسد في شيء ما، هي عبارة عن معرفة ذلك الشيء نفسه، ومن هذا يتبين أنه ليس للنقد حقيقة قائمة بذاتها ليوضع لها حدود وقواعد.
وثاني الشروط أن يكون الناقد حسن النية في النقد غير ميال مع الهوى بحيث ينظر إلى العمل من حيث هو عمل لا إلى العامل، فإن ذلك أدعى إلى العدل وأحفظ للسان من الوقوع في الإفراط في المدح أو الذم. وليس معنى هذا أنه لا يجوز مدح المحسن في عمل ما بما يستحق، فإن هذا كفران للجميل وقتل للمواهب التي ينميها التشجيع ويحييها الإطراء، وأما المسيء فيكفي بيان إساءته ووقف الناس على خطئه ما دام المقصود من النقد نفي الباطل وإقرار الحق.
وشرط آخر لناقد الأدب ونحوه من الفنون التي يكون للذوق فيها نصيب. وهو: أن يكون ذوق الناقد وذوق المنقود من بيئة واحدة أو متقاربة، وأن يكون المؤثر فيهما واحداً أو متقارباً ليكونا متقاربين لا متساويين فإن هذا مستحيل، فلا ينقد مشرقي مغربياً مثلاً في شيء تختلف فيه أذواق المشارقة عن أذواق المغاربة.
وشرط التقارب هذا يعتبر ضابطاً لا بأس به في الأدب ويكون الحكم بعد بين الناقد والمنقود الرأي الأدبي العام في تلك البيئة.
وإنما لزم هذا الشرط في الأدب لأن الأدب من ضمن عناصره الذوق والشعور فلا جرم يكون الذوق والشعور من عناصر النقد الأدبي، بيد أنهما لا يكونان كل ما في النقد الأدبي من شيء. وما دام الذوق والشعور غير محددين فمن المستحيل وضع قواعد وضوابط لهما، ولذا يكفي لقبول النقد القائم على الذوق تقارب ذوقي الناقد والمنقود.
وبعد، فقد ظهر - بحسب ما أفهم - أن قواعد النقد هي قواعد العلم والفن والأدب المنقود، وأنه لا يمكن وضع قواعد خاصة للنقد من حيث هو فن خاص، وإنما له شروط - والشروط غير القواعد - وهي لا تكاد تخفى معرفتها على أحد من كثرة ما نوه بها الكاتبون في هذا الموضوع.
أقول قولي هذا وأنا خجل من نفسي ومن الناس أن أناقش أستاذاً كبيراً في رأيه حول موضوع ليس لي من الخبرة به عشر معشار ما له، ولكنني أضع رأيي بين يديه ليدلني على مكان الخطأ منه، وليتفضل ببيان أوسع عن رأيه إذا بقي مصراً عليه ولحضرته مني الشكر الجزيل.
(اللد - فلسطين)
داود حمدان
هيكل عظمي!. . .
للأستاذ علي الطنطاوي
(كنت أمس عند قريب لي يمارس صناعة الطب؛ فخرج لبعض حاجته، حتى أطال الغياب، وتسرب إلي الملل، فقمت إلى خزانة كانت حيالي، فقلت: لعل فيها كتاباً أقرأه فما راعني حين فتحتها إلا هيكل عظمي معلق بسقف الخزانة. . . وإلى جانبه

(. . .هيكل ثان
من أنت أيها الإنسان الذي انتهى به الأمر إلى أن يحبس في خزانة، ويلبث الدهر . . . معلقاً بسلكة، ويعد متاعاً من المتاع؟ أأنت رجل أم امرأة؟ أغنيّ أم فقير؟ أملك أنت أم صعلوك؟. . . . .
هل كان في هاتين الحفرتين البشعتين عيون ساحرات الطرف، يفتن ذا اللب حتى لا حراك به، ويفعلن بالألباب ما تفعل الخمر؟ وهل كان على هذا الثغر المخيف شفاه لعس، تأخذ دنيا البخيل بضمة على شفتيه، ويبذل حياته الجبان في قبلة منها؟ وهل كان على هذا القفص العظمي صدر بلوري، يضيع بين ثدييه عقل العالم، ويذهب فيه لبّ الحليم، وينسى امرؤ أسند إليه رأسه الدنيا. وما فيها؟ هل كانت هذه العظام المستطيلة المرعبة سواعد بضة، وأفخاذاً رجراجة طالما أثارت من هوى وأذكت من خيال وطالما أنطقت بالشعر الشعراء؟ أكنت أيها الإنسان امرأة فاتنة جميلة؟
وهذا الإنسان الآخر؟ هل كان عشيقك أيتها الفتاة؟ اعترفي فلا بأس عليك اليوم؟ هل كان يهيم بك حبا، ويحيا الليالي يحوم حول منزلك، أو يرقب شرفتك فإذا رأى شارة منك أو أبصر على الشرفة ظلك أو لمح طرف ثوبك الأبيض أو الأصفر أو. . . أو (الأرجواني) انصرف وهو أسعد الناس حالاً، وراح يحبر فيك (المقالات)، وطفق يرى صورتك التي نسجها من خيوط حبه، لا صورتك التي هي لك: طفق يراها في السماء التي يرنو إليها ويعد نجومها. وفي صفحة الكتاب الذي يفتحه وينظر فيه، وبين أغصان الأشجار التي تمتد إلى شرفته. وحيثما تلفت أو نظر (تلوح له ليلى بكل سبيل)؟
أم كان هذا الإنسان شاباً غضّ الشباب طري العود، ينظر بعيون الغيد، ويتثنى كأنه قضيب بان، ويتكلم بصوت ليّن المكاسر، كأن ألفظه ورناته غادة أخرى تميل وتتدلل، ولم يكن يحبك أو يفكر فيك، أو يفتش هو الآخر على من يحبه ويفكر فيه. . .
أم كنت أيها لإنسان ملكاً يضيء على مفرقه التاج المحلى بالدر، ويلمع تحته السرير المصنوع من الذهب، إذا أمر تقاتلوا على السبق إلى طاعته، وإذ اشتهى شيئاً أسرعوا إلى تحقيق شهوته، وإذا مرض لم يكن للناس حديث إلا حديث مرضه، وإذا أبلّ لم يكن سرور إلا ببشري إبلاله، وإذا قام أو قعد أو قدم أو ذهب لهجت الألسن بقيامه وقعوده، واشتغلت الصحف بذهابه وقدومه، وإذا مشى في الطريق لم يمش على رجليه كما كان يمشي أبونا آدم عليه السلام، وكما تمشي ذريته، ولكنه يمشي على رءوس الناس الذين يحسون لفرط الإجلال أو لفرط السخط بأنه يمشي على رءوسهم جميعاً؟
أم كنت أيها الإنسان صعلوكاً حقيراً عاش على هامش الحياة، ودفن في حاشية المقبرة، فلم يحس أحد بحياته، ولم يدر أحد بمماته، ولعل حياته أشرف حياة لأنها حافلة بالفضائل، مترعة بالشرف، فكان يكدح طول نهاره. ليحصل خبزه وخبز عياله، فيأكله مأدوماً بعرق جبينه، لا يؤذي أحداً، ولا يسرق مال الدولة، ولا يتخذ وظيفته جسراً إلى تحقيق شهواته، وتحصيل لذاته، ولعل موته أشرف موت، لأنه مات مجاهداً وسط المعمل، وسقط وفي عينيه المعول.
انظر يا صديقي! التفت إلى يمينك. إن الملك لذي طالما خفته وأكبرته وأعظمت زينته وبزته وشارته وحليته، فملت عن طريقه ولم تجرؤ أن يرفع نظرك إلى طلعته الكريمة. إنه معك في هذه الخزانة قد نزع عنه ثوب الملك والبهاء. وعاد مثلك: لا الملك دام له ولا دام الغنى!
هل كنت أيها الإنسان رجلاً عفيفاً مستقيماً، أم كنت لصاً خبيثاً؟ اعترف: إنه لن يضرك اليوم اعتراف، هل كنت لص أعراض تلبس ثوب التاجر، أو ترتدي حلة الموظف أو تتيه بردة الغنى. كم من الأعراض سطوت عليه باسم الوظيفة أو بصلة الصداقة، أو ولجت إليه من باب (السفور المتهتك)؟
أم كنت لصاً رسمياً لا سبيل للقانون عليه، لأنه يسرق من الناس ويسكتون. لأنهم يريدون أن تمشي أعمالهم. ويسرق من الحزينة بأسناد مصدقة!
أم كنت لص أدب، تسرق فكرة الفيلسوف وصورة الشاعر وموضوع الكاتب، فتلبسها ثوباً من أثوابك الخسيسة الممزقة، ثم تخرج بها على الناس على أنها بنت خيالك ووليدة عقلك!
أم كنت مظلوماً ولم تكن لصاً ولم تحترف السرقة، ولكن رأيت صبية مشرفين على الموت من الجوع، وأسرة كادت تودى من أجل رغيف، ورأيت حقك في بيت مال

الأمة، قد سرقه السادة الأكابر فغطيت وجهك حياء، وأخذت رغيفاً ليس لك، فثار بك المجتمع وقامت عليك الصحف، وتعلق بك القانون حتى استاقك إلى السجن، فمت فيه مفجوعاً بشرفك وأولادك!

اقترب أيها المجرم. أدن أيها الشهيد، تعال انتقم، هذا هو القاضي الذي حكم عليك، لأنك سرقت رغيفاً تعيش به أسرة، ثم خرج يخترق الصفوف، صفوف الشعب الذي اجتمع ليشهد انتصار الحق وظفر العدالة، فلما رآه حياه وهتف له حتى بح صوته، وصفق حتى احمرت كفاه، فلما ابتعدوا لم يعد يراه أحد مد يده التي حمل بها (مطرقة العدل) فأخذ ثمن وجدانه الذي باعه، أخذ الرشوة. . . تعال انتقم. إن القاضي والمجرم قد التقيا وزالت من بينهما الفروق!

أم أنت أيها الإنسان جندي صاحوا به: الوطن في خطر! الحضارة مهددة بالزوال! لقد أوشك أن يموت الحق وتذهب الفضيلة! فاشتعلت الحمية في رأسك، والتهب الدم في عروقك، وقدحت عيناك بالشرر، فتركت أمك المسكينة ليس لها بعدك إلا الله، وأسلمتها إلى الحزن الطويل، والثكل القاتل، وأولادك الذين تعلقوا بك يصيحون: بابا. . بابا. . أسلمتهم إلى اليتم والفقر والبؤس، وذهبت تلبي نداء الحق والفضيلة، وتخلص الحضارة، وتنقذ الوطن. . . فنمت على الجثث، وتجلببت باللهب، وتوسدت القنابل، حتى إذا أدركك أجلك سقطت صريعاً، وأقبل رفاقك يدوسون على جثتك، لا يجدون وقتاً لإزاحتها ودفنها، لأنهم يخافون إذا أبطئوا ألا يدركهم الموت في سبيل الإنسانية. . . فلما ماتوا جميعاً ربحت الإنسانية وساماً زين صدر القائد، وصفحة في تاريخ العدوان، وثبت كرسي طاغية من الطغاة. أو استقرت مكانة حزب من الأحزاب، أما الأطفال الأيتام والعجائز الثاكلات، فحسبهم عوضاً من آبائهم، وحسبهن بدلاً من أبنائهن التمتع برؤية موكب القائد الظافر.

أم أنت أيها الإنسان القائد نفسه، قد جرّد صدره من الأوسمة والشارات، وجسمه من الحلة المزدانة بالقصب، ووجهه من الأنف والعينين، وعاد قفصاً من العظام، لا يمتاز من أصغر جندي وأحقر صعلوك، فلم يعد لك تانك العينان اللتان تبرقان، فترتجف لبريقهما أقسى القلوب، وذانك الشاربان القائمان كساريتي مركب، وذلك الصوت القوي، الذي كان يصيح

بالجنود: إلى الأمام! أي إلى الموت. . . إلى الثكل. . . إلى اليتم. . . إلى الحرب. (جحيم الحياة الدنيا)!

وأنت أيها الآخر. أأنت ذلك الجندي، مالك تقف جامداً؟ هذا قائدك، ألا تضم شفتيك، وتثبت بصرك، وتزوي ما بين عينيك، وتأخذ هيئة الجد لتؤدي التحية العسكرية، ويحك! أما أنت جندي؟ امرأة أنت، أأنت عشيقة القائد العظيم، رآك منصرفة من المعركة التي طوّح فيها بالمئات من شباب أمته في سبيل العدوان على بقعة ليست له أو إعطائها إلى غير أصحابها، ومنحها للبعض الطارئين من الشعوب الذليلة المسكينة، فماتوا كلهم ولم يقدروا على شيء، لأن للحق قوة كقوة النار والحديد، أأنت التي اخترقت سهام لحظها هذا القلب الذي طالما هزئ بالقنابل والمدمرات، فجاء يصب جبروته على قدميك، وأصبح هذا الذي يصرف عشرات الألوف من الكماة المستلئمين تصرفينه أنت وتجرينه من زمامه، حتى صار يفكر فيك وهو في ساحة الحرب، يزلزل الأرض تحت أقدام أهلها، ويتأمل صورتك والعدو على أبواب معسكره لا يخاف عليه أن تحيله الأعداء، ما يخاف عليك أن تمص لماك غير شفتيه، أو يضم جسمك غير ذراعيه. . .

اقترب يا سعادة القائد، اقترب منها، فضمها واشرب لماها. إنها هي التي تحب!

أم أنتما رجلان؟ أعدوان أنتما أم صديقان؟ أكان بينكما مسافة على الأرض ومسافة في الزمان، أم أنتما رفيقان متلازمان؟ هل التقيتما في معمل، أو عملتما في منجم، أو اشتغلتما في ديوان، أو اصطحبتما إلى الحرب، أو تجاورتما في السوق؟

أم كنتما مضطجعين في قصريكما المتقابلين، قد مللتما من التسلية، وشبعتما من الحب، فأنتما تدفعان العمر دفعاً، لا تتنازلان أن تنظرا من النافذة إلى هؤلاء البؤساء الذين يشتغلون دائماً وأبداً، كأنهم آلات تدور، تحت الشمس في الصيف، وتحت المطر في الشتاء، وفي الحر وفي الزمهرير، وفي الصحة وفي المرض، ليأخذوا بعد ذلك الواحد وتأخذوا أنتم التسعة والتسعين، مكافأة لكم على غصبكم حريتهم وعسفكم

إياهم، وزرايتك عليهم، فتنفقوها على الموائد الخضر، وفي كؤوس الخمر، وعلى الشقر والسمر. . . ثم إذا خرجتم تمسحوا بأذيالكم، وقبلوا السياط التي تلهبون ظهورهم!
من أنتما أيها الإنسانان! وما شأنكما؟ أأنتما هنا لتقولا: إن الملك والغنى، والمجد والجاه،
والفتنة والجمال، كل أولئك أثواب تلبس وتخلع؟
فأي معنى - إذن - لقصائد ساداتنا الشعراء العاطفين؟
(دمشق)
علي الطنطاوي
الحجاب في الإسلام
للأستاذ عبد المتعال الصعيدي
من علماء الأزهر
- 2 -
أما غير أمهات المؤمنين من نساء المسلمين فلم يفرض عليهن هذا الحجاب الذي فرض عليهن، لأن فرضه كان للغرض السابق الخاص بهن، وقد ترك الإسلام أمر هذا الحجاب للرجل وزوجه، يجريان فيه على ما تقتضيه المصلحة التي تختلف باختلاف النساء، وشأنه في هذا شأن غيره من الأمور التي تركها الإسلام لحكم العرف والعادة وغيرهما.
ولهذا كان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من جرى مع نسائه على ترك تقييدهن بشيء من أمر هذا الحجاب كالزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وعبد الله بن جعفر وغيرهم. وكان منهم من جرى على تقييد نسائه به مثل ما قيدت به أمهات المؤمنين، وقد ورد من هذا أن سلمة بن قيس أرسل رجلاً إلى عمر يخبره بواقعة من الوقائع، فلما قدم له عمر الطعام نادى امرأته أم كلثوم بنت علي: ألا تأكلين معنا؟ فقالت له: لو أردت أن أخرج إلى الرجال لكسوتني كما كسا ابن جعفر والزبير وطلحة نساءهم.
ولعل الزبير كان يفعل هذا مع زوجه أسماء بنت أبي بكر، فقد تزوج بعدها عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل، وكانت امرأة عجزاء بادنة، ولها جمال وكمال وتمام في عقلها ومنظرها وجزالة رأيها، وهي التي يقول فيها عبد الله بن أبي بكر:
أعاتكُ لا أنساك ما ذَرَّ شارقٌ ... وما ناح قُمْريُّ الحمام المطوَّقُ
أعاتِكُ قلبي كلَّ يوم وليلةٍ ... لديك بما تخفي النفوسُ معلَّقُ
لها خُلُقٌ جزْلُ ورأيٌ ومنطقٌ ... وخَلْقٌ مَصُونٌ في حياء ومصدق
فلم أَرَ مثلي طلَّق اليومَ مثلها ... ولا مثلها في غير شيء تطلَّقُ
وكانت عاتكة تحت عبد الله فشغل بها، وغلبته على رأيه، فمر عليه أبو بكر أبوه وهو في علية يناغيها في يوم جمعة، وأبو بكر متوجه إلى الجمعة، ثم رجع وهو يناغيها، فقال يا عبد الله أجمعت؟ قال أوصلى الناس؟ قال نعم، فقال له أبو بكر: قد شغلتك عاتكة عن
المعاش والتجارة، وقد ألهتك عن فرائض الصلاة - طلقها - فطلقها تطليقة ثم ندم على طلاقها وقال هذه الأبيات فيها، فأذن أبوه في مراجعتها؛ وقد مكثت تحته حتى مات فتزوجت بعده عمر، ثم تزوجت بعد عمر الزبير. فلما ملكها الزبير قال لها: يا عاتكة لا تخرجي إلى المسجد، فقالت له: يا ابن العوام - أتريد أن أدع لغيرتك مصلى صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر فيه؟ قال فإني لا أمنعك، فلما سمع النداء لصلاة الصبح توضأ وخرج، فقام لها في سقيفة بني ساعدة. فلما مرت به ضرب بيده على عجزتها، فقالت مالك قطع الله يدك ورجعت. فلما رجع من المسجد قال يا عاتكة مالي لم أرك في مصلاك؟ قالت يرحمك الله أبا عبد الله، فسد الناس بعدك. الصلاة اليوم في القيطون أفضل منها في البيت، وفي البيت أفضل منها في الحجرة.
وهكذا كان بعض الرجال يحاولون أن يفرضوا على نسائهم هذا الحجاب بحكم الغيرة لا بحكم الدين؛ وكانت عائشة رضي الله عنها هي التي حالت بين النساء والمساجد، وكن يصلين فيها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت تقوم صفوفهن خلف صفوف الرجال. فلما فتحت الأمصار وأقبلت الدنيا على المسلمين ظهرت المرأة في زينتها، وأخذت تحضر إلى المسجد بحالة تدعو إلى الفتنة، فرأت عائشة في حضورهن

المساجد هذا الرأي، وقالت في ذلك: لو رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أحدث النساء بعده لمنعهن المسجد كما منعت نساء بني إسرائيل.

ولقد كان في نفسي شيء من هذا المنع إلى أن شفاها منه عالم الأندلس، وإمام أهل الظاهر، أبو محمد علي بن حزم. قال رحمه الله وأرضاه: أما ما حدثت عائشة فلا حجة فيه لوجوه:

أولها أنه عليه السلام لم يدرك ما أحدثن فلم يمنعهن، فإذا لم يمنعهن فمنعهن بدعة وخطأ، وما نعلم احتجاجاً أسخف من احتجاج من يحتج بقول قائل لو كان كذا لكان كذا.

ووجه ثان وهو أن الله تعالى قد علم ما يحدث النساء، ومن أنكر هذا فقد كفر، فلم يوح قط إلى نبيه صلى الله عليه وسلم بمنعهن من أجل ما استحدثنه، ولا أوحى تعالى قط إليه - أخبر الناس إذا أحدث النساء فامنعوهن من المساجد.

ووجه ثالث وهو أننا ما ندري ما أحدث النساء مما لم يحدثن في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا شيء أعظم في إحداثهن من الزنا، فقد كان ذلك على عهد رسول الله صلى

الله عليه وسلم، ورجم فيه وجلد، فما منع النساء من أجل ذلك قط.

ووجه رابع، وهو أن الأحداث إنما هو لبعض النساء بلا شك دون بعض، ومن المحال منع الخير عمن لم يحدث من أجل من أحدث، وقد قال تعالى: (ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى).

ومن يدقق النظر في ذلك يجد أن هذه المحاولات في الحجر على النساء كانت ترجع إلى أسباب اجتماعية لا دينية، وأن الرجال كانوا يلجئون إلى هذا الحجر إذا أسرف النساء في استعمال ما أطلق الشارع لهن في هذا الأمر، وقد بدأ الرجال كما ذكرنا يلجئون إلى ذلك بعد قليل من عهد النبوة، حتى كان ذلك يخرج بهم إلى حد الإثم. قال صاحب الأغاني: قال إسحاق قال المدائني وأخبرني أبو مسكين عن فليح بن سليمان قال: كان الدلال ملازماً لأم سعيد الأسلمية، وبنت ليحي بن الحكم بن أبي العاصي، وكانتا من أمجن النساء، كانتا تخرجان فتركبان الفرسين فتستبقان عليهما حتى تبدو خلاخيلهما، فقال معاوية لمروان: اكفني بنت أخيك، فقال: أفعل، فاستزارها وأمر ببئر فحفرت في طريقها وغطيت بحصير، فلما مشت عليه سقطت في البئر فكانت قبرها.

وقد كانت النساء الحرائر من العربيات وغيرهن يقاومن ما يحاوله الرجال من الحجر عليهن، ولا يفرطن فيما أباحه الشارع لهن، كما سبق من عاتكة بنت زيد مع زوجها الزبير؛ وقد حاول عمر قبله ذلك معها أيضاً. روى عبد الرزاق عن معمر عن الزهري أن عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل كانت تحت عمر بن الخطاب وكانت تشهد الصلاة في المسجد، وكان عمر يقول لها: والله إنك لتعلمين أني ما أحب هذا، فقالت: والله لا أنتهي حتى تنهاني، قال عمر: فأني لا أنهاك، فلقد طعن عمر يوم طعن وإنها لفي المسجد.

فلما أخذ الرجال يفضلون الإماء على الحرائر ضعفن عن هذه المقاومة، وآل الأمر بالرجال إلى أن جعلوا بيوتهم سجناً للنساء، وحرموا عليهن الخروج إلى المساجد وغيرها، ومنعوهن من الاختلاط بالرجال ولو في حضورهم. ثم طال الأمر على ذلك بين المسلمين حتى ظن أنه من دينهم وما هو منه في شيء، وإنما كان مثل هذا مفروضاً على نساء النبي صلى الله عليه وسلم، ولكنه لم يبلغ في الشدة إلى مثل هذا الحد، ثم انتهى ذلك بموت ميمونة رضي الله عنها، وكانت فيما قيل آخرهن موتاً.

(للكلام بقية)

عبد المتعال الصعيدي

للتاريخ السياسي

المعنى السياسي لانتخابات مجلس النواب الفرنسي عام 1936

للدكتور يوسف هيكل

(تتمة ما نشر في العدد الماضي)

وأدت انتخابات الدورة الثانية التي جرت يوم الأحد الموافق 3 مايو إلى فوز (الجبهة الشعبية) فوزاً باهراً لم تكن تنتظره بهذه الصورة، ولم يعتقد خصومها أنهم سيخذلون هذا الخذلان.

وكان الحزب الاشتراكي الفائز الكبير في هذه الانتخابات؛ أما الحزب الراديكالي فتبادل

مركزه مع الحزب الاشتراكي فبلغ عدده 116 نائباً بعد أن كان 159 نائباً في المجلس السابق.

وهذه قائمة تبين عدد الأحزاب في مجلس النواب الفرنسي الجديد، ومقدار ما ربحه أو خسره كل منها من المقاعد:

أسماء الأحزاب
عدد النواب يوم 3 مايو 1936
مقدار الربح
مقدار الخسارة
الشيوعيون والشيوعيون الخارجون
82
62
-
الاشتراكيون
146
45
-
الاتحاد الاشتراكي
26
-
9
الاشتراكيون المستقلون
11
-
26
الراديكاليون الاشتراكيون
116
-
43
الراديكاليون المستقلون
31
-
36
جمهوريو اليسار
84
12
-
الشعبيون الديمقراطيون
23
7
-
الاتحاد الجمهوري الديموقراطي
88
12
-
المحافظون
11
-
24
المجموع

فما هي الأسباب التي أدت إلى تقهقر الحزب الراديكالي؟ وما هي العوامل التي ساعدت على فوز الاشتراكيين حتى إنهم أصبحوا أكبر حزب في مجلس النواب الفرنسي لأول مرة في التاريخ؟

قبل كل شيء يجب القول بأن الحزب الراديكالي الاشتراكي لن يبيد في فرنسا، لأن هذا الحزب يمثل (البورجوازي)، أي الطبقة المتوسطة، وهي أعظم طبقة اجتماعية في فرنسا، وبرغم هذا فأن النجم السياسي للحزب الراديكالي أخذ يأفل لعوامل بعضها ناجم عنه والبعض لآخر طرأ عليه من الخارج.

على رغم الظروف الحرجة التي واجهها الحزب الأكبر في مجلس نواب عام 1932، فإنه لم يظهر وحدة في صفوفه، ولا في سياسته، ولا مقدرة على الحكم.

لم يكن النظام سائداً داخل هذا الحزب، وكثيراً ما انقسم أعضاؤه إلى فرق أثناء التصويت في مجلس النواب، مم أدى إلى خذلان الحكومة لقائمة حينئذ وكانت راديكالية! وكثيراً ما خالف قسم كبير من الأعضاء قرار هيئتهم التنفيذية. وكثيراً ما عمل بعض الراديكاليين خلاف ما قال به رئيسهم. فهو إذن لم يكن كتلة واحدة، بل كان منقسما بعضه على بعض حتى في أحرج الأوقات. . . وإن أزمات الوزارات الراديكالية التي تعاقبت عام 1933، وفضيحة ستافسكي التي أظهرت بأن كثيراً من الراديكاليين قد أفسدتهم أموال (المحتال)، وأن اضطرابات 6 فبراير، وسيلان الدماء في شوارع باريس زمن حكم وزارة راديكالية. .

كل هذا أزال الاحترام الذي كان للحزب الراديكالي الاشتراكي في أعين الشعب.

وتلا ذلك انسحاب مسيو هريو رئيس الحزب الراديكالي حينئذ والوزراء الراديكاليين من حكومة (الرئيس دومرج) ذات الشهرة الشعبية، حينما كادت مجهودات (الشيخ الجليل) تثمر وتعود على فرنسا بالخير، مما أدى إلى سقوط هذه الوزارة الشعبية وعودة مسيو دومرج إلى (تورنفي). فأبغض موقف الراديكاليين كثيراً من أنصارهم؛ كما أن موافقة الراديكاليين على سياسة مسيو لافال الخارجية المنافية لمبادئ أحزاب الشمال كانت سبباً كبيراً في إضاعة شهرة هذا الحزب.

وكانت العوامل الإيجابية التي أدت إلى تفوق الحزب الاشتراكي سبباً سلبياً في خذلان الحزب الراديكالي.

يمكن القول بأن الحزب الاشتراكي الفرنسي هو الحزب السياسي الوحيد الذي يستحق هذا اللقب، إذ هو يحتوي على جميع التشكيلات الأساسية لحزب سياسي. . . موحد الصفوف والنظام سائد فيه، ولا يمكن لعضو ما أن يقوم بعمل يخالف ما اتفق عليه الحزب دون أن ينال جزاءه. ولا تستطيع الهيئة التنفيذية، وعلى رأسها الرئيس، اتباع سياسة لم يقرها المؤتمر العام. . . والاشتراكيون كتلة واحدة في مجلس النواب، يصوتون جميعاً مع الحكومة أو عليها. ولهم تشكيلات اجتماعية مفيدة وتقوم بتهذيب الشباب والنساء تهذيباً مدنياً وسياسياً. . . فالحزم والنظام موجودان فيه وهما ما يحتاجه الشعب الفرنسي، ولا عجب أن تكون هذه الصفات السياسية التي يتصف بها الحزب الاشتراكي قد ساعدت كثيراً على تقدير الشعب له.

وللحزب الاشتراكي رئيس قدير: مسيو بلوم، يعرف كيف يتطور ويضع مبادئ حزبه الاشتراكية في شكل يقبله قسم كبير من الشعب.

إن أكثرية الشعب الفرنسي الساحقة مؤلفة من الفلاحين الصغار الذين يعملون بأيديهم مع أفراد عائلاتهم في الحقول ويعتاشون من عملهم؛ ومن صغار التجار الذين لا يكونون ثروة ذات اعتبار. وقد تيقن مسيو بلوم بأن لا قائمة تقوم لحزبه إن لم يربح عطف هذا القسم من الشعب. ولما كان الفلاح في فرنسا متعلقاً بأرضه تعلقاً يفوق حد التصور ويموت في سبيلها، رأى مسيو بلوم من الواجب عليه تأمين الفلاح على أرضه إن رام نيل صوته؛

فخفف حدة النظرية الاشتراكية، وأعلم الفلاح والتاجر الصغير بأن حزبه لا يريد وضع يده على جميع الأملاك والثروات، بل على رؤوس الأموال الكبيرة؛ وأنه يعتبر المالك والتاجر الصغيرين ضمن طبقة العمال، والاشتراكية تحترم أملاكهم. . . وهكذا تقرب مسيو بلوم وحزبه من هذه الطبقة التي كانت تعاضد الحزب الراديكالي وانتزع قسماً كبيراً منها.

ثم خفف الحزب الاشتراكي حدة ثورته على السياسة القومية، وأخذ يقول بوجوب الدفاع عن الوطن، ولم يردد نغمة الاشتراكية الدولية في خطاباته. . . فجميع هذه العوامل الإيجابية أدت إلى فوز هذا الحزب، كما أنها كانت أسباباً سلبية لإضعاف الحزب الراديكالي.

وكان لتفوق (الجبهة الشعبية) بصورة عامة على أحزاب الوسط واليمين أسباب عدة. كانت الأزمة المالية، ولا سيما أزمة ميزانية الحكومة، شديدة على فرنسا طيلة السنين الأربع الأخيرة، وقد حاولت الحكومات السابقة حلها في تطبيق نظرية (الاقتصاد في كل شيء) فلم توفق. وعملها هذا أرغم الفرنسي على اختلاف مقدرته المالية على الاقتصاد والتقتير على نفسه وعائلته، فقلل ذلك تداول العملة من جهة، وزاد في الأزمة الاقتصادية وفي البطالة من جهة ثانية. وقد سئم الشعب الفرنسي هذه السياسة المالية ولم يرد مجابهة أزمات 1926 و1934 من جديد، وود اتباع تجربة اقتصادية جديدة آملاً أن تكون نتيجتها حل الأزمة وإعادة الرخاء. فعمل على التخلص من النظام البرلماني القديم الذي أفسدته الأكثريات السابقة، فأرسل إلى مجلس النواب أكثرية يسرى مؤلفة من عناصر جديدة شابة، إذ أن ما يقرب من نصف أعضاء المجلس الجديد لم يشتركوا فيه من قبل. وهذه النفسية عملت كثيراً على خذلان الراديكاليين وإضعاف أحزاب الوسط، وضياع شهرة عدد كبير من رجال أحزاب اليمين.

وقد ساعد مسيو لافال كثيراً في فوز هذه الجبهة! فالسياسة التي اتبعها في جنيف، والتي أدت إلى إضعاف مركز العصبة، إن لم يكن زوالها، وإلى إبعاد باريس عن لندن، والتي مهدت للهر هتلر الطريق لاحتلال أراضي الرين، لم ترض الفرنسيين الذين يعتقدون بأن لا سلامة لفرنسا إلا بتقوية مؤسسة جنيف ومبدأ (السلام المشترك)، وهم أكثرية الشعب. ولما أتت الساعة لإبداء رأيهم حكموا على سياسته بإعطاء أخصامه وسيلة الحكم.

وكان لمسيو (دي لاروك) مجهودات عظيمة أدت إلى فوز الشيوعيين والاشتراكيين! فالشعب الفرنسي محب للحرية ولا يبغي بالديمقراطية بديلا. فلما قام الكولونيل دي لاروك بحركته الفاشستية وأخذ فريقه (الصليب الناري) يتسع بين العائلات المثرية، أحس الجمهور الفرنسي بالخطر الذي يهدد حريته وديمقراطيته، فعمل على تلافيه قبل استفحاله، فأرسل إلى (قصر البربون) أكبر عدوين للفاشستية مظهراً بذلك مقته للدكتاتورية وسخطه على (المائتي عائلة). . . وهكذا تحققت كلمة مسيو بوانكاريه: (كلما خافت فرنسا الدكتاتورية رمت بنفسها في أحضان اليسار).

ومما لا شك فيه أن تنظيم صفوف أحزاب اليسار، ووضعهم منهاجاً مشتركاً للإنتخابات، كان عاملاً قوياً في تفوقهم؛ كما أن الفوضى في أحزاب اليمين وتنازعهم أصوات المنتخبين وعدم إيجاد منهاج مشترك لهم أدى إلى خذلانهم وساعد على فوز الجبهة الشعبية. على أن هذا لم يكن كل شيء، بل كانت الأسباب السياسية التي تحدثنا عنها أكبر عوامل للوصول إلى نتيجة الانتخابات الأخيرة.

- 3 -

لقد فاز الحزب الاشتراكي وأصبح أكبر حزب في مجلس النواب، وشكل حكومة ذات منهاج متين تؤيده أكثرية كبرى في مجلس النواب. فهل ستظل هذه الأكثرية الكبيرة معاضدة للحكومة، أم ستجابه مسيو بلوم الصعوبات التي جابهت زميله مسيو هريو من قبل؟

مما لا شك فيه أن مسيو بلوم رجل عمل و (رجل دولة) ولكن هذا وحده لا يكفي لإيجاد حكومة ثابتة، إذ يجب، قبل كل شيء، أن تسند هذه الحكومة أكثرية دائمة. فالحزب الاشتراكي وحده لا يستطيع الحكم وإن اتفق مع الحزب الراديكالي فلا يكونان أكثرية. ولذا فهو في حاجة إلى إشراك الحزبين الجالسين عن يمينه وعن يساره في الحكم. غير أن الحزب الشيوعي رفض الاشتراك في الحكومة، ولكنه أيدها وليس للاشتراك والتأييد نفس المفعول، لأنه عندما يشترك حزب في حكومة يشترك في المسؤولية أيضاً، فخذلان الحكومة معناه خذلانه في تلك الحالة. لذا وجب عليه المدافعة عن الحكومة ومعاضدتها. أما إن أيد الحكومة فحسب، فإنه لا يشترك في المسؤولية ويستطيع سحب ثقته من الحكومة في

أي وقت شاء دون أن يناله أي ضرر؛ فتصبح الحكومة حينئذ تحت رحمته. وقد لعب الاشتراكيون هذا الدور مع الحكومات الراديكالية، ويريد الشيوعيون الآن تمثيله مع الحكومة الاشتراكية. ومسيو بلوم أعرف الناس بالضرر الذي سيلحق حكومته إن اتبع الشيوعيون هذه السياسة.

وهذه الصعوبة حجر عثرة أمام الزعيم الاشتراكي، فإن تمكن من حفظ الائتلاف بين الأحزاب الثلاثة، وإن استطاع الاحتفاظ بثقة الحزب الشيوعي، كانت لوزارته مكانة قوية وثابتة، وإن لم يتمكن من ذلك فستجابه فرنسا سلسلة أزمات وزارية أشد خطراً من التي جابهتها خلال السنين الأخيرة، وستكون عاقبة ذلك جد وخيمة ولربما أدت إلى حرب أهلية. . .

ولحسن حظ مسيو بلوم فإن حزبه قد فاز وتسلم زمام الحكم، والحالة الاقتصادية في فرنسا آخذة في الانتعاش والتحسن، فهو بذلك أسعد حظاً من زميله مسيو هريو الذي فاز وتسلم زمام الحكم والبلاد مجابهة أشد الأزمات الاقتصادية والمالية، عام 1924 و 1932. فالانتعاش الاقتصادي الحالي يساعد مسيو بلوم كثيراً، ويسمح له بصرف جهوده في مكافحة الصعوبات البرلمانية، وفي تعديل اعوجاج السياسة الخارجية وتحسين علاقات فرنسا مع الدول وخصوصاً مع بريطانيا. . فإن تمكن مسيو بلوم من الاحتفاظ بالأكثرية التي تعاضده في مجلس النواب زالت الأزمات الوزارية التي كانت أكبر عامل في إضعاف مركز فرنسا في الدوائر الدولية؛ ويعود للحكومة احترامها وثباتها، وهما ضروريان لنجاح أية حكومة؛ وبالتالي يعود لفرنسا مركزها الدولي السامي الذي كانت تتمتع به أمام المرحوم مسيو بريان. . .

فلوراك (فرنسا)

يوسف هيكل

دكتور في الحقوق

في الأدب الإنكليزي

هل من انتحال في الأدب الإنكليزي؟

للسيد جريس القسوس

- 2 -

وحجة كامبل في ذلك اكتشافه مخطوطات قديمة ورد فيها ذكر (فنّ) و (أوشان) وغيرهما من الأسماء الواردة في منظومات مكفرسن، مما يدل على أن هذه الأسماء كانت، على الأقل، شائعة معروفة في اسكتلندا وايرلندا الشمالية قبل مجيء مكفرسن. فلا يبعد أن يكون مكفرسن قد اطلع على هذه المخطوطات فأغرم بحوادثها التاريخية وافتتن؛ فعلق بذهنه ما علق وتأثر بأسلوبها الشعري واقتبس منها بعض الشيء فظهر أثر ذلك في تلك المنظومات التي ادعى أنها مترجمة.

وكامبل لا يجحد لمكفرسن فضله في جميع هذه الآثار المتفرقة وترتيبها وتدوينها حتى ظهرت بذلك الشكل الفني الرائع، إذ لولاه لعبث الزمان بهذه الآثار الخالدة عبثه بغيرها من القصائد التي تروى على ألسنة العامة، وخاصة أهل الأرياف، وسكان الصحراء.

ولا يقف كامبل عند هذا الحد في الرد على جونسن، بل يرى أنه من النادر أن تلقى واحداً من سكان ايرلندا الشمالية لم يسمع قط بالأسماء التي وردت في قصائد مكفرسن؛ وأن هذه الأسماء هي في الحقيقة محور عدد غير يسير من القصص العامية التي يتلوها الأمهات على أطفالهن حول المواقد في ليالي الشتاء الباردة.

ويصرف كامبل جونسن، ويعود إلى مناقشة الآراء السخيفة التي يتمسك بها أنصار مكفرسن، وخاصة بروفيسور أوكري ' فهذا وغيره من أنصار مكفرسن يرون أن (أوشان) وغيره من الأبطال شخصيات تاريخية حقيقية، وأنهم ايرلنديو النسب؛ نشأوا في القرن الثالث قبل المسيح؛ وأن (فنّ) يرجع في نسبه إلى نحو 110 ق. م. وأن اسم ورد في قصيدة نظمت سنة 1024، وضمنت كتاب باليموت سنة 1391. أقول إن كامبل يرد على ذلك رداً عنيفاً مبيناً تناقض الروايات المختلفة واضطرابها في تحديد نسب هؤلاء الأبطال وتبيان التاريخ الصحيح لنشأتهم. فبعض أنصار مكفرسن - ومعظمهم ايرلنديون -

يرون مثلاً، أن هذه الأشعار الغاليقية صينت في مخطوطات قديمة، وأنها تنسب إلى أوشان وغيره من أبطال أساطير ايرلندا الأولية، وأن جميع هؤلاء الأبطال ايرلنديون لا

اسكتلنديو الجنس، بينما البعض الآخر يرى أن هؤلاء الأبطال نشأوا في عصر متأخر. بل منهم من يجعل (فنّ) اسكتلندي الجنس ومنهم من يجعله إنكليزياً.

وآخرون يرون أن البطل أوسكار الوارد ذكره في الأدب الايرلندي القديم إسكتلندي الجنس والمولد، بل غيرهم موقن أنه دنمركي برغم ورود اسمه في الأدب الأيرلندي.

ويزيد موقف المناصرين وهناً واضطراباً، نسبتهم الأعمال الجسيمة الباهرة التي قام بها أشخاص هذه الآثار الأدبية إلى الكائنات الغيبية كالجن والآلهة المتعددة.

ولا يقتصر كامبل على هذا بل يعود إلى مهاجمة المناصرين من ناحية أخرى؛ فيقول إنه لم يطلع، في حياته، على مخطوطة أو سجل تاريخي فيه ذكر لمملكة (مورفن) أو ملكها فنغال. فمن أين جاء مكفرسن بهذه الأسماء التي تتخلل معظم أشعاره؟ ذلك مما يحمله على الاعتقاد الأكيد بأن هذه المملكة إنما هي من اختلاق جامع هذه القصص الأوشانية ومرتبها، مكفرسن كان أم غيره.

أما أوشان بن فنغال الشاعر الذي عزا إليه مكفرسن نظم الآثار الأدبية المعروفة باسمه، فأمره، كأمر والده غامض مبهم إذ لا يمكن أن يعمر أوشان - مسلمين جدلاً أنه حقاً ابن (فنّ) - إلى حد من الزمن يتمكن معه من الاجتماع بالقديس باترك أو أن يختلط بنساء الجن في بلاد الشباب، ويتحول في شتى أدوار حياته من نبي إلى ساحر ومن ساحر إلى شاعر، وهلم جرّا، كما هو ظاهر في الآثار الأدبية المنسوبة إليه.

والخلاصة أن كل ظاهرة في حياة هذا الشاعر تدل دلالة صريحة واضحة على أنه لم يكن في الحقيقة إلا من بعض آلهة الأساطير الكلتية القديمة.

ولا يقف كامبل عند هذا الحد، بل يهاجم أنصار مكفرسن من ناحية أخرى. فهو يرى، من مقابلة هذه المنظومات التي ادعى أنها مترجمة مع غيرها من الأشعار المتحدرة عن طريق الرواية والنقل الشفهي أن هناك اختلافاً وفرقاً كبيرين وواضحين في الموضوع واللغة. فما (فنّ) كما هو مذكور في القصائد التي تتداولها العامة إلا بطل إنساني الخلق، وديع الطبع سهله، رقيق الإحساس، ولطيف النفس؛ لا يعرف العنف والكبرياء، فهو لذلك ذو نفوذ في
قبيلته، تقوم سلطته على حبهم له وتعلقهم به، بينما الناظر في صفات (فنّ) كما جاء في شعر مكفرسن يرى أنه فارس ساط غشوم، وجهم عنيف، خلو من كل عاطفة رقيقة وإحساس لطيف! لهذا كان نفوذه وسلطانه مبنيين على خشية القوم له ورهبتهم منه.

هذا، عدا أنه لا ذكر في القصائد المنقولة شفاهاً لمملكة (مورفن) التي ورد ذكرها في أشعار مكفرسن.

أما من ناحية اللغة والأسلوب فالباحث في هذا الأدب في كلتا سبيليه: سبيل الرواية والنقل الشفهي، وسبيل مكفرسن، يرى أن لغة أدب مكفرسن مفعمة بالتعابير الحوشية، والاصطلاحات الأجنبية التي تتميزها من اللغة المعروفة في اسكتلندا الشمالية، بينما لغة أدب الرواية والنقل الشفهي محكمة السبك، موحدة التركيب متسقة الأسلوب، لا اضطراب في معانيها ولا ضعف.

وخلاصة رأي كامبل أنه لم يكن في اللغة الغاليقية أشعار كالتي ادعى مكفرسن أنها مترجمة، وأن هذه اللغة التي استعملها في كتاباته لم تكن في الحقيقة إلا لغة القرن الثامن عشر، وجل ما هنالك مجموعة أشعار قديمة وحديثة متنوعة، كانت العامة تتداول معظمها بينها، جمعها مكفرسن ورتبها وسواها بشكلها المعروف، شأن المهندس الذي يخلق من البيت الإغريقي القديم بيتاً حديث الشكل والطراز.

- 4 -

والباحث يخرج من كل ما مر بخمس حقائق مجردة، هي زبدة ما وصل إليه مؤرخو الأدب الإنكليزي في هذا السبيل الوعر الشاق:

1 - أن قصيدة أوسيان أو أوشان التي تنسب إلى مكفرسن لم تكن ترجمة خالصة عن الآثار الأدبية الأصلية.

2 - أن مكفرسن استخلص منظوماته من آثار أدبية قديمة متفرقة، وذلك بالجمع والغربلة والحذف والتعديل، وخلع عليها ثوباً جديداً كفل لها الخلود في عالم الأدب.

3 - أن جميع الظواهر تدل دلالة واضحة على أن مكفرسن لم يضع هذه الآثار الأدبية من عنده، وأنه لم يتعد كونه فناناً حاذقاً عرف كيف يستخرج من أمزجة ومركبات

عتيقة بالية قطعاً فنية رائعة، وأن أوشان نفسه لم يكن المؤلف الحقيقي لهذا القصائد كما ادعى
مكفرسن.
4 - إذا كان أوشان ناظم هذه القصائد، عُدّ بحق في طليعة شعراء العالم على الإطلاق.
5 - إن مكفرسن فتح بذلك فتحاً جديداً في عالم الأدب، فعمت شهرته الأدبية أوربا وبعد أثره في الأدب الأوربي عامة، والإنكليزي والألماني خاصة.
(يتبع)
جريس القسوس
الشعر في مهرجان المتنبي
صوت دمشق
للأستاذ عز الدين التنوخي
عاش فوق الثرى وتحت التربِ ... خالداً في قلوبنا المتنبي
ظل ألفاً من السنين يسمى ... شاعرَ اللفظ والعلى والحربِ
ربّ بيت من شعره يتلظى ... كافلا أن يشبَّ نارَ الشعب
يصف الحرب للجبان فيغدو ... وهو بالطعن هائم والضرب
بالعينِ من شعره العذب فيه ... غمزات الهوى وسحرُ القلب
ذاب من رقة الخدود ومن قس ... وة قلب من عاذل غير صبٍّ
غزلٌ حسن صوغه حمل الظّن (م) ... نَ على أنه صريع الحُب
يذر الغافل الخليَّ شجياً ... ويردُّ الأبيَّ طوعاً يلبي
ساحرُ الشعر فاتناً كهديل الْ ... وُرْقِ في الروض غِبَّ جَودِ السّحب
رائد من مسالك الروح ما بيْ ... ن شغاف من القلوبِ وخِلْبِ
يحتذي في البديع حذو أبي تمْ ... امَ والبحتري بنسج العَصْبِ
إن يعيبوه بالغريب وضعف ال ... طبع حيناً وباقتعادِ الصعب
فهو شِبه الجبار يأخذ ما يل ... قاهُ بالقهر حوله والغصب
شعره فيض طبعه لا كشعر ... قدَّهُ العِيُّ من صخور صلب
لم يُؤوَّل ديوانُ شعر كديوا ... ن أبي الطيب المرير العذب
هو مرٌّ على الأعادي وعذبٌ ... للمحبين في الجفا والقرب
لست أنسى رؤياه وهو مليك ... فوق عرش من القنا والكتب
وحواليه دولة الشعر قامت ... تسلُب اللب بالبيان وتسبي
من رعاياه سيف حمدانَ من كا ... ن إذا ما ذكرته قلت حسبي
والسريُّ الرفّاءُ أنداهم لف ... ظاً وأدناهم لمعنى القلب
وابن جني رأيتُه يشرحُ الدِّي ... وانَ شرحاً له يروق ويُصبي
لو حسبناهم من الطير كان الْ ... متنبي أميرَ ذاك السِّرب
يُنشد الشعر بينهم فتراهم ... كالرحى إذ تدور حول القطب
كسُكارى وما همُ بسكارى ... بل نشاوَى خمر الهوى والعجْب
سمعوا لحنه فهاموا جميعاً ... لا ترى غيرَ هائم أو صب
برخيم يُنسيك مزمار داو ... دَ وألحانَ معبدٍ في الحب
فهو فينا ذاك الطبيبُ المُرجَّى ... من مريضٍ لروحه مستطبٍّ
حفظ الناسُ شعره فهو درس الْ ... دّهرِ فيهم والدهرُ خير مربي
كم وردنا ماءً فلم يروِ منا ... ظماً غيرُ مستقاه العذب
وتلونا من آيه سور المج ... د وشِمْنا برق المنى ليس يُخبي
حكمةٌ يبهر المعري سناها ... فهي صوب النهى وذوب اللبِّ
حالفته منذ الشبيبة حتى ... أن توارى فؤاده في الترب
لم يذرها يوم الصريخ ولا يو ... م نشيدِ الألحان بين الصحب
ينظم البيت غادياً وهو في الشر ... ق فيمسي لسحره في الغرب
حلبٌ قد غدت بأحمد شهبَا ...ءَ لشعب له خلود الشهب
مادح (السيف) كان يدعى فأمسى الس ... (م) يفُ يدعى أمدوحة المتنبي
إن مجداً أوتيه أخلدهُ الدهْ ... رُ خلود الآداب مجدُ الشعب
ضامهُ أن يرى بني العرب في ضيْ ... م علوج بغير عهد ولب

وبنو العرب ليس تفلح إلا ... بملوك منهم أُباةٍ عرب
لا يبالي الشرقُ المضيمُ إذا ما ... اتحد العرب ساعة بالغرب
يثب الليثُ إن أُثيرَ وليث ال ... عُرب في الناس رابضٌ للوثب
أيَّ يوم أرى الطلائع منا ... غائراتٍ على الجياد القُب
يهجر الطُّرسَ واليراعَ فتاناً ... ليراع من القنا والقُضب
لا يرى المجد غيرَ فتكته البكْ ... ر ونَيل استقلاله بالغصب
ذاك يوم محجَّلٌ فيه تحطي ... مُ قيود وفيه تَهتيك حُجب
ذاك يومٌ يقرُّ عينَ أبي الطي (م) ... ب بالعُرب وهو تحت الترب
إنما شعرُه الشعور المروَّي ... بسلافٍ من البلاغة عذب
وقصيد الفحول يهرم إلا ... شعره فهو في شباب رطب
فالمباني مُختارها ملءُ عيني ... والمعاني أبكارُها ملءُ قلبي
ينتمي كل شاعر لحماه ... وهو للعُرب ينتمي والشهب
شعراء الأجيال يمشون فوق ال ... أرض طراً ومشيه في السحب
ملأ الكونَ شعره شغل النا ... س بأحوال جدهم واللعب
سار في الناس جائباً كشعاع ال ... شمس يذكو في كل قطر وشعب
فهو مسعار ثورة وهدى قل ... ب ولحن الهوى وحَدْوُ الركب
شعرهُ صورة الحياة لهذا ... يتمشى مع الحياةِ لجنب
عز الدين التنوخي
كاتب سر المهرجان العام
ومن قصيدة الأستاذ محمد رضا الشبيبي في المتنبي
خلت العصور وما خلت من ناقل ... أو قائل هذا الحكيم الخالد
أو مورد للقول فيمن حيرت ... منه الفحول مصادر وموارد
ما العبقري الفذ إلا فكرة ... إن مات عاش بها الرميم الهامد
وإذا تأملت الخلود أصبته ... في الصالحات وحيث يفنى الفاسد
لابد من نقد الزمان فإنما ... نحن المعادن والزمان الناقد
حسدوا النبوغ وناوأوه فلم يمت ... بل مات بالداء الدفين الحاسد
يا شاعراً قاد القلوب لغاية ... لم يدن منها شاعر أو قائد
قرنوا بكل مفوه شيطانه ... أما قرينك فالعظيم المارد
أمتعتنا بذخائر الشعر الذي ... لولاه ما نبذ المتاع الكاسد
نشرت به في كل فج حكمة ... وتعوطي المثل البليغ الشارد
ومن كلمة الأستاذ محمد البزم:
إله القوافي إن عصتك نبوة ... فذا الشعر تجري في علاك جحافله
ففي كل بيت صاهل ومدجج ... وكل قصيد عسكر وقنابله
فكم وحدة مارستها وهواجر ... ولا ألف إلا أهيف القد ناحله
يراع لأهواء المعالي مسخر ... يكايلها أهواءها وتكايله
يحس دبيب الحزن من قلب ذي الجوى ... ويقلقه في صدر ذي السقم واغله
وتوقظ منه خطرة الشك والمنى ... ومجرى الهوى يسطو بذي اللب خايله
إذا ماج رقراق السراب نسجته ... غلائل شعر لا ترام مغازله
تطيف بك الجنان حتى كأنها ... تلقف عنك السحر ينهل سائله
كأن وفود الجن في كل فدفد ... عفاة تليهم من همام طوائله
ولو كان للأصقاع لب يسوسها ... سعت تجتديك السحر في الشام بابله
ومن قصيدة الأستاذ باقر الشبيبي
يا ناشد الوحدة ما أوضحها ... في وحدة الدم ووحدة النسب
هذا أبو الطيب حي خالد ... ما مات من أسس دولة الأدب
احدث في قلب الزمان هزة ... لولا المقادير تقيه لا تقلب
وفت دمشق حقه معربة ... في حفلها، إن الوفاء للعرب
وليس يكفي مهرجان واحد ... ينشد فيه الشعر أو تلقى الخطب
مغانيَ الكوفة! هذا بَرَدَى ... قد صفقت أمواجه من الطرب

ساهم في الذكرى فكم مهذب ... في الغوطة الغناء يشرب النخب
ما أنجبت هذي البلاد شاعراً ... إلا أبا الطيب شاعر العرب
ومن قصيدة الأستاذ خليل مردوم:
يا مالئ الدنيا وشاغل ناسها ... الدهر رواية لشعرك منشد
ضمن الزمان بقاءه فكأنما ... أنفاسه في صدره تتردد
آياته لا تنقضي وعظاته ... كالبحر زاخر موجه لا ينفد
لله رأيك في السياسة إنه ... سهم إلى كبد الصواب مسدد
العرب ما صلحت على يد أعجم ... حكم الأعاجم للعروبة مفسد
أخذوا عليك قساوة ولو أنهم ... خبروا النفوس كما خبرت لأيدوا
شكواك ما زلنا نعاني مثلها ... كف مضرجة ووجه أسود!
لقصص
قصة مصرية
شباب. . .
للأستاذ دريني خشبه
(الأغاني والحوار موضوعان في الأصل باللهجة المصرية. . .)
* (بل لابد أن أذكر لوالدتها كل شيء!).
* (يا سيدتي مالنا وللناس، حسبنا أن نأكل خبزاً ونشرب لَبناً وعسلاً!).
* (آه. . . لا. . . نأكل خبزاً ونشرب لبناً وعسلاً ونترك هذا الموظف اللاهي يعبث بابنة صاحب المنزل! لا! ليست هذه أمانة يا متولي، لابد أن أنقذ عرض هذه الصغيرة. . . إن ليلى شابة، والشباب لا عقل له، وربما اعتدى. . .).
* (أوه! مالك وللناس! إنهما لابد يحبان بعضهما بعضاً يا بخيتة. ألا تذكرين ما كنا نصنع، أنا وأنت، قبل أن نتزوج.؟!).
وتستحي بخيتة وتسكت قليلاً ثم تتنفس تنفسة عميقة وتقول:
* (الحمد لله يا متولي، لقد كنا نحب بعضنا، هذا صحيح، ولكن، الحمد لله، لم نغضب ربنا!؟).
* (مرحى مرحى! صحيح نحن لم نغضبه قط، وأحسبه قد غفر لنا الألف ألف قبلة التي تبادلناها!).
ويشتد خجلها، وتصمت لحظة ثم تقول:
* (أنت دائماً مبالغ يا متولي! ألف ألف قبلة؟ إن هذا العدد لا يؤخذ في أقل من عشر سنين، ونحن لم نحب بعضنا أكثر من شهر!).
* (ثم انقطع ما بيننا من حب؟ أم ماذا؟).
* (بل تزوجنا!).
* (وليتنا ما تزوجنا!).
* (فأل الله ولا فألك يا متولي! لماذا يا شيخ؟).
* (لأن قبلنا كانت حلوة جداً قبل زواجنا!).
* (والآن؟ هل هي مرة؟ أم ماذا؟).
* (. . .؟. . .).
* (قم بنا).
* (إلى أين؟).
* (إلى السطح!).
* (لماذا يا امرأة؟).
* ((سامي أفندي) الموظف هذا مع تصنع ليلى ماذا لأريك!.
وهرولا فوق الدرج ووقفا خلف (المنور) الزجاجي المطل على غرفة سامي، يريانه ولا يراهما. . .
فتي في الرابعة والعشرين ترف على جبينه سحابة من الحزن، يلونها الحب بأمواه باكية من الحنان والرحمة والهدوء. . له عينان عميقتان كأنما تخرقان حجب الزمان أو تناجيان سكان السماء؛ ينظم الشعر ويهيم بالغناء ويشغف بالموسيقى، ويجمع في مسكنه بالطابق العلوي من هذا المنزل المتوسط طائفة مختارة من التماثيل أهداها إليه أصدقاؤه المولعون به لنفر من فنانين مصريين وعرب. وهو موظف في مصرف

أجنبي يتقاضى مرتباً لا بأس به، يستطيع أن يضمن به صفاءه الذي لابد منه للشعر والغناء والموسيقى. . . والحب الذي يسقي هؤلاء.
كان إذا هدأ الليل، هدأ هو إلى عوده، وطفق يمر أنامله على أوتاره في لين ورفق، كما ترى النسمات النحيلة العليلة على صفحة الغدير الصغير؛ فإذا غنى، أرسل من قلبه ألحاناً هي لا شك روحه ممتزجة بموسيقاه؛ ولم يكن يغني إلا ما ينظم هو، لا ما ينظم الشعراء؛ وكان، إذا سئل في ذلك، يتعلل بأنه يأبى أن يكون كنادبات الجنائز، يرجعن كلاماً محفوظاً ليبكين به النساء. . . فالشعر شعره، والغناء غناؤه، والموسيقى موسيقاه، وجملة أولئك صورة روحه التي تشعر وتغني، وترن وتئن على أوتار العود.
وكانت ليلى ابنة صاحب المنزل الذي يقيم فيه سامي، فتاة في الثامنة عشرة، لها لفتة وفي عينيها سحر، وملء قلبها أماني. . . ما كاد الساكن الجديد يملأ منزلها بصباه العطر،
وغنائه ذي الشذى، وموسيقاه ذات المعاني، حتى رجعت هي أصداءه جميعاً، وأحست كأن الساكن الجديد لم يأت ليشغل الطابق العلوي من بيتها، بل ليحتل السويداء من قلبها؛ فكانت كلما أقبل سامي من عمله في المساء تشعر كأن كهرباء ملأ قلبها، فهو يدق ويدق، ويخفق خفقاناً شديداً، ويسري في جميع أعصابها بكل حاجات الشباب الذي أضر به كبت المحبسين: المنزل الشرقي والتقاليد!
وكانت موجات أثيرية من غناء سامي وموسيقاه تشيع في أرجاء المنزل فتهز أركان ليلى، وتذيب في عينيها دموعاً ليست كهذه الدموع التي يحتلبها البكاء، ولكنها دموع علوية لا يدري المحب من أين تنهمل، لولا ما في أغواره من معاني الهوى. . .
وانسرقت ليلى في أمسية إلى (السطح) ووقفت مختبئة في نفس المكان الذي وقف فيه هذان العجوزان - متولي وبخيتة - يتلصصان على كيوبيد، حين يرشق القلبين الحبيبين بسهامه الذهبية!
وقفت ليلى ثمة، وتلبثت طويلاً تملأ أذنيها وقلبها بغناء سامي وحبه، ثم جعلت بعد ذلك تنسرق كالمرة الأولى، حتى تنبه غافل الشباب، فراح بدوره يرسل إليها أغانيه حاملة قبله، ثم لم يجد بأساً، وقد تأكدت بينهما أواصر الحب، من أن يغافلها وينسرق إلى حيث هي، فلا يكاد يسقط في يديها وترتبك ارتباكة يسيرة حتى يقدم إليها يده المرتجفة، فتصافحه وتنفتل منه فتطوي الدرج إلى. . . حيث تكون بخيتة مصعدةً فتكتشف السر الناشئ الذي لما يكد يشب أو يترعرع. . .
كان سامي يجلس على كرسيه محتضناً عوده، وأمامه ليلى على (كنبة) تحدق فيه، وقد وضعت رجلاً على رجل، وبدا ساقاها الممتلئان طراوة ونعومة وحياة وانسجاماً، واتكأت بظهرها على المسند فنهد جيدها المرمري، وبدت انفلاقة الثديين من فتحة الثوب الوردي الذي كانت ترتديه، فاختلط ورده بوردها المتفتح في كل جزء من جسمها الناضج السوي، وأسندت فَوْدها على يمينها قليلاً، وتهدلت خصلة من شعرها الأسود الفاحم على أصابعها فزادتها فتنة.
وكان سامي يداعب عوده، ولم يكن ينظر إلى ليلى، بل كان مطرقاً برأسه قليلاً، حتى إذا استغرقته الموسيقى أرسل من عينيه عَبْرتين لمحتهما ليلى فنهضت مسرعة وتلقتهما في منديلها الحريري الجميل. . . ثم جلست إلى جانبه، وأرسلت ذراعها البضة فوق كاهله، وأدنت رأسها من رأسه. . . ولم تكلمه!
وصمت سامي لحظة، ثم شرع يتغنى أغنية مطلعها:
إيه يا ليل، وقد طاب الهوى
وصَفَتْ أنفاسُهُ للأنفس
ما لقلبي خَفِقاً؟! هل من جوى
ومُنَى نفسي معي في مجلسي؟
وكان الفتى يرسل غناءه هادئاً يترقرق في أذني ليلى، وكانت نبراته ونبرات العود تأتلف وتسري في الهواء فيرقص من أسرها لهب الشمعة التي كان سامي يؤثرها على لألاء الكهرباء كلما غنّى. . . وكلما زارته ليلى.
وفرغ سامي من غنائه، وسكنت الحجرة قليلاً، ثم نادته فتاته:
* (سامي!).

* (ليلى!).
* (هل أسعد منا حبيبان في هذه الحياة؟).
* (كنت أرجو ذلك يا ليلى. . .).
* (ولم لا نكون يا سامي؟).
* (آه. . . أكثر الناس يحبون على أمل. . . أما نحن. . .).
* (مالنا؟).
لاشيء. . . لا شيء مطلقاً يا ليلى، لنعد إلى أحلامنا وموسيقانا فهي غذاء روحينا.) دعي هذا الحديث فإنه يزعجني. بحسبي أن أكون معك لحظة بعد أخرى فأذوب وأحترق!).
* (بل سنتحدث؛ بل ينبغي أن نفكر في المستقبل، إنني لا أطيق فكرة بعدي عنك يا سامي! إغفر لفتاة عذراء مثلي أن تكلمك هكذا! لقد امتزجت روحانا فليس يضيرني أن أصارحك! لقد اقتنع قلبانا ألا غناء لأحدهما عن الآخر، فلم نجلس صامتين تلقاء المستقبل الذي يروعنا بالفراق ولا نفكر بأن نحسم مشاكله؟).
* (وهل نستطيع ذلك يا ليلى؟ أنسيت. . .).
* (نسيتُ ماذا؟ لا. . . لا تظن ذلك محالاً!).
* (ليلى! ماذا تريدين أن تقولي؟).
* (اطمئن!).
* (أطمئن كيف؟).
* (أجل، يجب أن تطمئن، لقد صممت على أمر عظيم!).
* (ليلى!).
* (بل لن تردني أية قوة في العالم عما اعتزمته يا سامي، أليس كل ما يقوله الأغبياء إنني انهزمت بديني أمام حبي؟).
* (ليلى!).
* (لينهزم هذا الدين فأنا لم أعرفه بنفسي. . . أما الحب. . .).
* (أنت جريئة جداً يا ليلى! لا. . . لا ينبغي. . . هذا كثير!).
* (لا ينبغي ماذا؟ ألست تتفق معي؟).
* (وكيف أتفق معك يا ليلى وديني يريني الله من خلل الحب؟).
* (إذن اتفقنا، إنني لم أر الله إلا يوم أن رأيتك! ويجب أن أصل إلى الله عن طريقك يا سامي. . . اهدني يا سامي. . . لا تردني بعنف هكذا، إنك مسلم رقيق القلب مرهف الحس فياض العاطفة، وإن روحك تتكلم بلسان الموسيقى يا سامي، فلا تحاول أن تكون جباراً عليَّ، لا تحاول أن تردني عما اعتزمته. . . أ. . . ألا تريد أن نأمن غائلة الفراق، والفراق الأبدي يا سامي؟).
* (وكيف لا أريد يا ليلى!).
* (ساعدني إذن، خذ بيدي إلى ناحيتك. . . سامي. . . سامي. . .).
وانفجرت الفتاة تبكي بين يدي حبيبها، وأخذ سامي يلاطفها ويرفه عنها، ولكنها دست رأسها الجميل في صدره، وأغفت إغفاءة هينة لم يوقظها منها إلا شدة خفقان قلب سامي. . . قلبه الكبير جداً، الذي أشرب حب ليلى، وامتزجت كل قطرة من دمه بتقديسها!
* (صحوت يا ليلى؟).
ولكنها أجابته بنظرة فاتنة من طرف عينيها المبللتين بالدموع.
* (كلميني يا حبيبتي. . . ليلى؟).
* (سامي. . . اسكت! إن هذه الفترة الصامتة الباكية أسعد فترات حياتي!).
وطوقها سامي بذراعيه، وأخذ ينزح أسرار عينيها الباكيتين بعينيه العميقتين، ثم أهوى على فمها القرمزي ذي الثنايا المفلجة يقبله. . . ويقبله.
* (أرأيت يا متولي؟ هل صدقت ما قلته لك؟ والله لأخبرن أمها!).
* (بخيتة!! أنت طالق إن فعلت! يا غبية! يا أقبح النساء!).
* (أنا؟ أنا أقبح النساء؟ وأنت؟ أتحسب أنك زين الرجال؟).
* (لا. . . ولكني كنت أطمع في. . . فتاة طيبة. . .).
* (مثل ليلى أظن؟).

* (أجل. . .).
* (اسم الله عليك يا سامي أفندي!).
* (أحببته؟ أم ماذا يا امرأة؟).
* (صوته جميل. . . أما صوتك، فحميري خالص!!).
* (اسكتي يا خنزيره. . . هلمي بنا، كاد شباب الحبيبين يتلف قلبينا العجوزين!).
ونزل الخادمان وفي قلب كل منهما غصة تزلزله.
وبعد أيام همس الناس في هذا الحي من أحياء المدينة أن ليلى ابنة (. . .) اليهودي قد صبأت. . . واعتنقت الإسلام.
وبعد أيام أخريات، تأكد هذا الهمس، لأنها تزوجت سامي أفندي بالفعل، ونقل العروسان إلى الإسكندرية ليعيشا ثمة حياة هانئة ناعمة موفورة.

دريني خشبة

من دروس البادية

محنة الرجولة

للأستاذ أديب عباسي

مرت السنون وتصرمت الأعوام، والأمير الكبير يلتمس رحمة المولى ويرتقب جداه ليهبه وارثاً من صلبه، يرث اسمه ويخلد ذكره، وينتهي إليه ماله وجاهه. بيد أن الأيام كانت كلها سواء في إذهاب الرجاء وتخييب الأمل، وأوشك الأمير أن يصفي ولما يجيء الوارث المرتقب.
غير أن المولى افتقد الأمير في سنة من سني يأسه، وحملت زوجته بعد طول الخيبة، ووضعت طفلة أسمياها (سلافة). ولم ييأس الأمير أو يبتئس إذ كان الوليد أنثى ولم يكن ذكراً. وماذا كان يرجو من الأيام ليبتئس بعد أن خاصمته في آماله وتجهمت له هذه الأعوام الطوال؟
ونشطت عواطف الأبوة قوية جائشة بعد طول الكبت وغياب الحافز، وهب الأب يريق على الصغيرة من عطفه وحبه ما صيرها سلواه وكل أمله في باقي حياته.
وشبت الصغيرة كما تشب بنات البادية غضة نضيرة، بقامة هيفاء وصحة مترعة؛ هذا إلى ما حباها الله وأفردها به إفراداً من جيد أغيد، وثغر أبلج، ووجنتين تفيضان بالحياة وتنضحان البشر نضحاً، إلى جبين مشرق نبيل يكلله ويزينه فرع أثيث وحف، ثم ما يتجمع جميع ذلك النور والسحر في مجتمعين للنور والسحر، ومن ثم كل ذلك الفيض فيهما من الفتنة القاسرة والقوة الآسرة.
هذا، ولم يدع الأمير وسيلة من وسائل التهذيب التي تيسرها البادية إلا اصطنعها في تهذيب (سلافة)، حتى غدت إذ شبت فتنة البادية، وحديث المجالس، ومدار الهواجس، ومطاف الأحلام في صدور الشباب. وذاعت شهرة الأميرة في طول البلاد وعرضها، وتواصفها الأمراء والأشراف، وأخذت تحوم حولها الأنظار، ويهطع إليها الخيال من جميع نواحي الطموح في البادية.
بيد أن الأمير اشترط على الخطاب الطامحين أن يجوزوا امتحاناً يعده لهم، ومن يفز فيه فاز بفتاته وأضحى الوارث الشرعي له في إمارته. وأما من فاته الفوز وخانه التوفيق
فيتلقى عقابه لوعة الحرمان ومرارة الفشل، ومائة جلدة وجز شعر الناصية؛ وأباح الأمير امتحانه هذا كل طامح بلا تفريق في الجاه أو المال أو الشهرة أو خلافها من وسائل التمييز.
وخشيت (سلافة)، مع هذه المساواة التامة بين الخاطبين، أن يجوز الامتحان غير كفء، وغير من تهوى وتحب، وقد يكون الفائز صعلوكاً من صعاليك البادية، أو ذئباً من ذؤبانها؛ وقد يكون أسود بغيضاً مرخي المشافر واللحيين؛ وقد يكون فتى مخنثاً فاتر العزم، باهت الرجولة؛ وثمة فللموت أهون عليها وأعذب.
فاتحت أباها فيما يساورها من مخاوف ويدب إليها من ريب، ولكن أباها الأمير طمأنها وأكد لها أن امتحانه لن يجوزه غير كفء، وأنها سوف تحمد له عاقبة هذا التدبير الذي يدبر.
جاء الخاطب الأول، وكان زعيماً ذائع الشهرة كثير المال، شريف المنتسب، حسن البزَّة والمظهر، وجاء يسوق بين يديه عديد الهدايا وأنواع الطرف، وقدمها وسيلة

للأغراء والزلفى، وحلَّ ضيفاً كريماً على الأمير بعد أن كشف عن غرضه ومبتغاه.
واستقبله الأمير - كعادته مع جميع الأضياف - مرحباً مؤهلاً، ثم عمد إلى خير ناقه وأعزها عليه وعقرها ثم نحرها أمام البيت، ودعا إلى الوليمة أدنى من في الحي؛ وبعد أن نال الجميع من الطعام إلى حد الشبع ثم أديرت القهوة التفت الضيف الخاطب يخاطب الأمير:
أي أميرنا العزيز! لقد جئناك في (سلافة) درة البادية، وفتنة العقول، وغاية السول؛ فماذا ترى أن تضع بيننا من الحواجز، وماذا ترى أن تقيم بيننا من العقبات؟ لقد ملأ نفسي ذكر فتاتك، ولست بعائد ومؤيدي بعد الله همتي إلا بها.
فأجاب الأمير: على رسلك يا ضيفنا العزيز! إن ضيفنا يقيم بيننا أياماً عشرة، ثم يكون الامتحان، وعندها إما (سلافة) له، وإما المائة جلدة والشعر المجزوز.
ولم يسع الخاطب الطامح إلا الإذعان والصبر حتى يحل اليوم الموعود.
وفي صبيحة اليوم التالي عمد الأمير إلى ناقتين من خير ناقه ليجزرهما كاليوم الفائت، وهنا أراد الضيف الخاطب أن يعارض الأمير ويمنعه أن يعقر ناقتيه محتجاً بأن في جزور البارحة الكفاء وان نحرهما إسراف وإتلاف للمال لا مبرر لهما. إلا أن أميرنا لم يجبه بشيء ومضى يعقر الناقتين ويجزرهما وبعد الوليمة، وعند الظهر أقبل المدعوون من أدنى
الحي وأواسطه وتناولوا الطعام مع ضيف الأمير. ومضى الأمير يفعلها كل صباح ويزيد العدد المنحور ناقة ناقة إلى اليوم العاشر؛ ومضى الضيف يزداد لجاجة في الاحتجاج وإلحافاً على الأمير أن يقتصد في ماله فلا يتلفه هذا الإتلاف، ولكن بلا جدوى.
وتقدم الضيف بعد اليوم العاشر بطلب إلى الأمير أن يجري امتحانه، فلقد طال ثواؤه وعيل صبره وافتقده أهله، ولكن كم دهش وكم حلَّ عزمه اليأس والخيبة إذ فاجأه الأمير:
أي ضيفنا! يعز علينا أنك خسرت الرهان وفاتك الفوز، فلتذعن إذاً لجزائي المفروض وتستكن.
عندها أجاب الخاطب المحنق محتجاً بأنه لم يجر عليه امتحان ليعد فاشلاً يستحق العقاب، وطلب إلى الأمير أن يفسر له ما يدعي إن يكن يروم الإقناع بالدليل والبرهان، ولكن الأمير أصر على أنه خسر الرهان وأن ليس حاجة إلى التفسير ثم أشار إلى غلمانه أن يتسلموه. . .
وقام صاحبنا ينكث أذياله وغادر الحي بناصية مجزوزة، ومائة أثر في ظهره لمائة جلدة، وصدر يغلي بالحقد ومرارة الفشل، واعتقاد جازم أن بصاحبه الأمير لما أو لمماً إن لم يكن ذا جنة وخيال.
وذاع أمر المحنة والجزاء ثم ما أصاب أول الخاطبين من جز الشعر والضرب الأليم. إلا أن ذلك لم يوئس الخطاب بادئ الأمر ولم يمنعهم من الوفود على الأمير علهم ينجحون من حيث فشل صاحبهم. على أن نصيبهم لم يكن بخير من نصيب أولهم، فكلهم كان يعود باللمة المجزوزة والظهر المجلود، ولولا أن الأمير كان برجاله وفروسيته عزيز الأبطال لكان لهم معه شأن غير ذلك الشأن، ولنالوا منه بحد السيف ما فاتهم بالامتحان.
وبعد الفشل المتوالي الذي مني به عديد الخطاب تجافى الخاطبون مضارب الأمير وعافوا الوفود عليه خاطبين، إلا فتى شريفاً جاء من أطراف البادية وآلى ألية لينالن سلافة أو يقتلن أباها ويربح البادية من عتوه أو يهلكن على حد السيوف دونهما.
ولم ير فتانا أن يثقل كاهله بنفيس الحلل وغالي الثياب، ولم يسق بين يديه الهدايا والطرف، واكتفى ببزة بسيطة وتخفف من كل ما يحمل المسافر إلا سيفه القاطع وبعض الزاد، وسار يغذ السير أياماً إلى أن وافى الأمير وحل ضيفاً عليه وأبان غايته من الوفود عليه.
وشرع الأمير كدأبه مع جميع الخاطبين، ينحر الجزر يوماً بعد يوم والفتى صامت لا يعترض ولا يجادل، ولا يتكلم إلا حيث يجمل الكلام، ويصمت حيث يجب الصمت.
وقد اجتذب فتانا بحسن سمته وقلة حديثه عن نفسه أنظار القوم وأيقنوا بأنه فتىً يختلف أبين الاختلاف وأشده عن بقية الخطاب، فلا ظهور ولا إدلال بالجاه ولا غرور ولا شيء من ذلك الذي كان يضيفه أولئك الخطاب إلى شخوصهم ليتقربوا به زلفى إلى

الأمير. هذا إلى رجولة صريحة وفكر موزون ونبل ظاهر. وصار همَّ الجميع أن يجوز الفتى الامتحان المقيد ليكون هو وارث أميرهم والمؤمر عليهم بعده.
وبلغت أوصاف لفتى وذكر شمائله خدور النساء، وأضحى اسمه لديهن ملء الأفواه والأسماع. ولم تكتف سلافة بالسماع وكثيراً ما يفتن، وأرادت أن تشاهد هذا الفتى الموصوف وترى هل يصدِّق الخبر عنه الخبر أو لا يصدِّق. وانتحت ناحية خفية من بيت الأمير الواسع وأخذت تتقرى الرجال وتتفرس في الملامح وتصغي إلى الحديث، إلى أن وقع بصرها على الفتى الموصوف. . . .
وفجأة شعرت أن قلبها يخفق أكثر مما اعتاد أن يخفق، وخيل إليها كان رئتيها لا تتسعان لكل ما تريد أن تدفعه إليهما من الهواء، وشعرت كذلك كأن هذا الفتى قليل الكلام يتحدث إليها ويخاطبها أعذب الخطاب. . . وخشيت إن هي بقيت حيث هي أن يشي بها اضطرابها أو تنم عليها أنفاسها المتهدجة، ويعلم القوم أن فتاتهم الرصينة الخفرة قد خفت ورعنت فجاءت تشهد خطابها خلسة من وراء السجوف، فتركت مكانها وفي قلبها كالسهام من العواطف المتباينة المتأججة، فثمة هذا الحب المفاجئ الذي أخذ عليها جميع مسارب الشعور؛ وثم خشيتها أن يفشل الفتى في الامتحان - إن يكن ثمة امتحان - وأخيراً إحساس قوي باللوم لهذا الأب المتعنت الذي لا يرضيه من الفتى ما رأى ورأى الجميع إلا أن يجوز الامتحان. وفي الحق لقد بدأ يخامر سلافته أن أباها إنما يصطنع هذه الأساليب الغريبة لينفر الخطاب وليبقيها عانساً يتأكلها الجوى ويغويها الحرمان. والمحب - كما تعلم - إذا أحب حباً قوياً فقد التمييز واختلطت عليه الأفكار، ولا عجب إذن أن تنتهي في أبيها الذي يعبدها إلى مثل هذا الرأي الغريب.
حل اليوم العاشر وأوشك أن يزول، فقام الأمير يوجه الحديث إلى فتانا وقال: أيها الفتى
النبيل، هل أنت مستعد لامتحاني أن أنت تخشى العاقبة فتعود سالماً لا لك ولا عليك؟
فأجاب الفتى باختصار وحزم: إني لعلى استعداد. وعندها أقبل الأمير على قومه يخاطبهم: أهنئكم يا رجالي بوارثي العتيد وأهنئ نفسي. ثم التفت إلى الفتى وخاطبه: أهنئ بك سلافة وأهنئها بك. فلأنت خير من يستأهلها يا بني وهي خير من يستأهلك.
ووجم الجميع إلا سلافة التي برزت من وراء الخباء (إذ كانت جاءت خفية لتشهد المحنة) وخاطبت أباها عابثة أو كالعابثة:
أي أبت، كيف تتعجل وتسميني لهذا الفتى ولما يجز الامتحان بعد؟ فهلا أبقيت ذلك لنرى مبلغ همته ومقدار رجولته التي سيتكشف لنا عنها في ذاك الامتحان؟
فأجاب الأب، أي بنيتي العزيزة، لقد حاز فتاك الامتحان من حيث لا يعلم ولا تعلمين. جاءنا هذا الفتى الشريف مستبهماً لم يسم نفسه قط ولم ينتسب، ثم هو لم يحاول أن يدهشنا بثروته وجاهه وإن يكن له من ذلك الشيء الكثير (كما دلني على ذلك العيون وعيناي)، لقد جاءنا واثقاً من نفسه واثقاً أنه أهل لك دون أن يضيف إلى شخصه الأسماء الكبيرة والمال الوفير والدعوى العريضة. ثم ألم يبلغك كيف لم يعارض ولم يجادل فيما حاولنا أن نغمره ونحرجه به من وسائل الإكرام، شأن الخطاب الآخرين لنرى ما هو قدر نفسه عند نفسه؟ ولو كان رأيه في نفسه كرأيهم في نفوسهم وإن حاولوا الظهور بخلاف ذلك، لفعل فعلتهم وناله مثل ما نالهم. ولكن هو المحتد الكريم يأبى ألا أن يظهر ويستعلن. ثم أليس في سكوته دون الذي حاولنا من غمره بأسباب الإكرام ما يدل على أن فضيلة الكرم هي طبع فيه وسجية فلا يستهولها في غيره؟ أو لم يكن استهوال الخطاب الآخرين مظاهر الجود والكرم التي رأونا نغمرهم بها دليلاً لا يخطئ على أنهم ليسوا الكرام الذين يدعون؟ أليس المقل من المال أو الشحيح هو الذي يستكثر أعطيات الناس ومظاهر جودهم؟
ولم يبق بعد هذا التفسير من لم يقتنع بخطة الأمير الحكيمة وأسلوبه المبتكر في امتحان الرجال. وفي اليوم التالي عقد للفتى على فتاته بين أشد مظاهر الغبطة والحبور. وقضياها حياة مديدة هي السعادة والهناء.
أديب عباس
البريد الأدبي
المباحث الأثرية الأولمبية
من أنباء ألمانيا الأخيرة أن الهير هتلر، أعلن أن الحكومة الألمانية قررت لمناسبة عيد

الألعاب الأولمبية أن تستأنف المباحث الأثرية في أولمبيا (من أعمال مقاطعة بلوبنيس اليونانية). وقد كانت أولمبيا منذ نحو ألفي عام مستودع التماثيل والذخائر اليونانية المقدسة، وكانت ساحاتها معرضاً للحفلات الرياضية الشائقة. وفي عهد الإمبراطور تيودوسيوس الروماني في القرن الرابع الميلادي منعت الألعاب الأولمبية، وخربت الهياكل الدينية، ونقلت تماثيل الآلهة إلى قسطنطينية بعد ذلك، وفي القرن السادس وقعت زلزلة هدمت كثيراً مما بقي من الهياكل الأولمبية.

وكان أول من لفت النظر إلى البحث في الأطلال الأولمبية العلامة الفرنسي برنار دي مونفو كون في أوائل القرن الثامن عشر. ثم تلاه العلامة الألماني فنكلمان ونظم بعثة للقيام بالحفريات والمباحث الأثرية في أولمبيا، ولكن الموت عاجله وهو في طريقه إلى اليونان. وفي سنة 1829 أوفدت الحكومة الفرنسية حملة إلى اليونان لمعاونتها في حرب التحرير، فقام بعض أفرادها بالحفر في أولمبيا. وفي سنة 1852، قام العلامة الألماني أرنست كورتيوس - وقد كان أستاذاً للتاريخ القديم - بدعوة قوية للبحث في أولمبيا، واستطاع أن يحمل تلميذه القيصر فريدريش الثالث على تنفيذ مشروعه؛ وأقر البرلمان الألماني الاعتمادات اللازمة؛ وقامت بعثة ألمانية بالحفر في أولمبيا بين سنتي 1875 و1881؛ واستطاعت أن تكشف عن ساحة (التس) الشهيرة برمتها، وظهرت أيضاً أطلال معبد زيوس القديم؛ وكان أعظم اكتشاف وفقت إليه لبعثة تمثال (هرميس) الذي صنعه المثال الأشهر (براكستليس) ووصفه الرحالة باوزنيوس في رحلته، ووجدت أيضاً نحو سبعمائة قطعة أثرية مختلفة. وقامت بعد ذلك بعثات مختلفة أخرى بالحفر في أولمبيا؛ وعثرت بآثار كثيرة، ولكن ما يزال هنالك مجال عظيم للبحث والحفر.

وتزمع الحكومة الألمانية أن توفد في القريب العاجل بعثة من علماء الآثار لاستئناف المباحث الأولمبية، وسوف تزوده بجميع الاعتمادات التي تعاونها على القيام بأعمال واسعة النطاق.

في أكاديمية الآثار والآداب

ألقى مسيو كلود شيفر رئيس البعثة الأثرية السورية في أكاديمية الآثار والآداب الفرنسية خطاباً عن النتائج التي انتهت إليها مباحث البعثة في رأس شمرا وخلاصتها أنه قد اكتشف حي جديد من مدينة أوجاريت عاصمة مملكة أوجاريت التي ترجع إلى ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد، ووجدت عدة وثائق مكتوبة وقطع فنية من آثار هذا العهد؛ ووجدت بالأخص إلى جانب أوجاريت أطلال مدينة قديمة يطبعها الطابع الفرعوني وترجع إلى نحو الأسرة الثامنة عشر. كما وجدت عدة ألواح مكتوبة بخط غير معروف يظن أنه قلم أوجاريت في هذه العصور.

مؤتمر نسوي في باريس

عقد في باريس في السادس والعشرين من يوليه مؤتمر دولي للنساء ذوات الأعمال والمهن، واستمرت أعماله أسبوعاً؛ وقد اجتمع فيه نحو مائتي مندوبة يمثلن أربعاً وعشرين دولة؛ ومثلت الولايات المتحدة السيدة فرنسيس بركنس وزيرة العمل؛ وقد استقبلتها الحكومة الفرنسية بصفة رسمية، على يد مدام برونشفيج ممثلة لوزارة الخارجية؛ وأقيم احتفال رسمي لتكريم المندوبات في وزرة الخارجية؛ وكان أهم الموضوعات التي ألقيت في المؤتمر خطاب للسيدة بركنس تحدثت فيه عن (الحكومة والعمل) وتناول المؤتمر كثيراً من المسائل والموضوعات المتعلقة بالمهن والحرف التي تزاولها المرأة وحقوقها في ذلك الميدان، وما تصدره الأمم المختلفة من القوانين في هذا الشأن.

مؤتمر تقدم العلوم

عقد في شهر يوليه في مرسيليا مؤتمر تقدم العلوم، ومثل فيه العلماء الفرنسيون من كل فن، الطب والهندسة والكيمياء والرياضيات وغيرها. وألقيت فيه مباحث مختلفة عن أحدث النظريات العلمية؛ وكان مما لفت الأنظار بنوع خاص الأبحاث التي قامت بها لجنة الهندسة البحرية التي تدور بالأخص حول هندسة المواني الحديثة المدنية والحربية، وألقيت مباحث هامة أخرى في الطب والنبات والحيوان وغيرها.

كتاب عن السحر

صدر أخيراً بالإنكليزية كتاب عن السحر عنوانه (الفن الأسود) ومؤلفه مستر (رولو أحمد). وقد اختار المؤلف لكتابه عنوان: (الفن الأسود) لأن اللون الأسود كالسحر في مختلف العصور، يقترن في أذهان الناس بالخشية والروع؛ ويقول لنا المؤلف: إن السحر معروف عند الإنسان في عصور ما قبل التاريخ، يدل على ذلك طائفة من الرسوم الحجرية التي وجدت في بعض الكهوف؛ وقد كان المصريون القدماء أساتذة في (الفن الأسود) وكان له عندهم المقام الأعلى؛ وكذلك عرف السحر جميع الأمم القديمة مثل الكلدانيين والآشوريين واليونان والرومان وغيرهم.

ويستعرض المؤلف تاريخ السحر منذ العصر القديم إلى عصرنا، ويحاول أن يشرح أساطير السحر ووسائله؛ وأهم قسم في الكتاب هو المتعلق بالسحر في العصور الوسطى، فهنا يجد المؤلف مجالاً كبيراً للتحدث، ويصف لنا كيف ذاعت فكرة الشيطان في تلك العصور إلى حدود مدهشة، وكيف كانت تمثل في كل شيء في الحياة العقلية والدينية.

وقد زين المؤلف كتابه بطائفة كبيرة من الرسوم والنقوش والتعاويذ السحرية.

وفاة راقصة شهيرة

توفيت في أواخر يوليه فنانة كبيرة هي الراقصة والموسيقية الكبيرة (ارجنتينا)، ولم تحرر راقصة في عصرنا من الشهرة الفنية بعد الراقصة الروسية الشهيرة آنا بافلوفا؛ قدر ما أحرزت (ارجنتينا). وكان ظهورها على المسرح في أوائل هذا القرن حيث ظهرت لأول مرة في بروكسل ولفتت الأنظار بروعة فنها وابتكارها. ولم تكن ارجنتينا راقصة فقط، بل كانت موسيقية بارعة؛ ولما ذاعت شهرتها أخذت تطوف مسارح العالم الكبرى، في باريس، ولندن، وأمريكا، وغيرها وهي تثير الإعجاب أينما حلت؛ وكانت في فنها، أي الرقص الأندلسي القديم قرينة بافلوفا، وفي رقصتها الشهيرة (احتضار البجعة). وكانت أبرع راقصة في استعمال الصنج (الصاجات) الأندلسية.

وكانت ارجنتينا مثل زميلتها بافلوفا تحتفظ ببراعتها ورشاقتها حتى أعوامها الأخيرة، أعني وهي في حدود الخمسين. وكانت وفاتها في مدينة بايون على مقربة من بيارتز حيث كانت تمضي معظم أوقاتها في قصر بديع هنالك.

وقد أحرزت ارجنتينا كثيراً من آيات التقدير لفنها وبراعتها ومن ذلك أن الحكومة الفرنسية أنعمت عليها بأرفع وسام من اللجيون دونير.

كتاب عن أرنولد بنيت

لم يمض قليل على وفاة الكاتب الإنجليزي الكبير أرنولد بنيت حتى ظهرت عنه عدة تراجم وكتب نقدية. منها كتاب ظهر أخيراً بقلم النقادة سيمونس بعنوان (أرنولد بنيت وقصصه) وهو عرض نقدي مستفيض لآثار الكاتب الراحل، وتلخيص بديع لقصصه، وتعليق ممتع على خواص تفكيره وأسلوبه؛ ويبدي المستر سيمونس في عرضه مقدرة فنية واضحة، ويتتبع العوامل والمؤثرات التي اشتركت في تكوين أرنولد بنيت، ويقول لنا إنه تأثر بالأدبين الفرنسي والروسي، فكان من أساتذته هوسمان، والأخوان جونكور، وموباسان، وتورجنيف وتولستوي؛ ويرد مستر سيمونس على نقدة بنيت من قبله ولا سيما مستر بريستلي الذي اشتهر بشدته في نقد بنيت، ولكن مما يلاحظ أن مستر سيمونس يميل إلى التنويه بمحاسن بنيت والإشادة بخواصه ومقدرته، وقلما يحس جوانب الضعف فيه، وهو من هذه الناحية يغفل قاعدة النقد الصحيح: ويؤيد هذا التحيز إلى بنيت حملاته على جميع نقدته السابقين؛ وينكر مستر سيمونس بشدة ما يسنده بعض النقدة، ولا سيما الكاتبة الشهيرة فرجينيا وولف، إلى بنيت من الميول المادية في الكتابة والتوجيه، بيد أن الكتاب في مجموعه عرض حسن لآثار بنيت يقدم عن الكاتب وآثاره فكرة واضحة، وقد لخصت فيه كل كتبه الهامة تلخيصاً وافياً، وكتب بأسلوب علمي بليغ، يشهد لمؤلفه بمقدرة نقدية لا شك فيها.

العدد 165 - بتاريخ: 31 - 08 - 1936

فلنتعصب . . . !

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال صاحب سر (م) باشا: جاءني يوماً صحفي إنجليزي من هؤلاء الكتاب المتعصبين الذين تطلقهم إنجلترا كما تطلق مدافعها؛ غير أن هذه للبارود والرصاص والقنابل، وأولئك للكذب والتهم والمغالطات؛ وهو أُذُنٌ وعينٌ ولسانٌ وقلم لجريدة إنجليزية كبيرة

معروفة بثقل وطأتها على الشرق والإسلام؛ تصلح بإفساد، وتداوي الحمى بالطاعون، وتعمل في نهضة الشرقيين واستقلالهم ما يشبه قطع ثدي الأم وهو في شفتي رضيعها المسكين.

ودخل عليّ هذا الكاتب في الساعة التي خرج فيها من غرفتي صاحب جريدة أسبوعية في مدينتنا؛ وكان قد نفخ الضفدع ليجعلها ثوراً فحول صحيفته إلى جريدة يومية وهو لا يجد مادتها ولا يستطيع أسبابها، إلا أنه كدأب الناس عندنا كان يحسب الكذب في العمل سهلاً مهلاً كالكذب في القول، فلم يتعاظم للأمر العظيم، واقترض لعمله كل ألفاظ النجاح من اللغة. . . .

وظن عند نفسه أنه سيخوّف بجريدته الكبراء والأعيان والمياسير حتى يغلب على جميعهم ويشرك أصابعه مع أصابعهم في استخراج ما يحتاج إليه من جيوبهم، فلم تعش جريدته إلا أياماً وأتلف ما جمع، ورهن فيها داره التي لا يملك غيرها. وعلم آخرا أن الذي يكذب فيسمي الخروف جملاً، لا يقبل منه أن يكذب على الكذب نفسه فيزعم أن الناقة هي التي نتجت هذا الخروف. . . . .

ولما انقلبت هذه الجريدة يومية كان الباشا هو ملجأ الرجل ووَزَره، وكان لكل يوم في الجريدة أخبار عن الباشا لا تقع في الدنيا ولا تجمع من الحوادث، ولكن تقع في ذهن الكاتب، وتجمع من صناديق الحروف، حتى قال لي الباشا مرة: إن اسمي قد أصبح موظفاً في هذه الجريدة لجمع الاشتراك. . . .

وتحرَّى هذا الصحفي أن يستأذن يوماً على الباشا وفي مجلسه حشد عظيم من السراة والأعيان والعمد، وكان جمعهم لأمر، فما هو إلا أن دخل الصحفي حتى ابتدره الباشا بهذا السؤال: يا أستاذ. ما هي تلغرافات أوربا عن الحوادث التي ستقع غداً. . . .؟

فضج المجلس بالضحك وفقد المسكين بهذه النكتة أربعين ديناراً كان يؤمل أن يخرج بها،

وأعلن الباشا في أظرف إعلان وأبلغه كذب الرجل ونفاقه وإسفافه وأنه من رجال الصحافة المدَّورة تدوير الرغيف. . .

قال: ونظرت إلى الصحفي الإنجليزي نظرة أكشفه بها فإذا أول الفرق بينه وبين أمثاله عندنا - شعوره أن بلاده قد ربته (للخارج) فهو عند نفسه كأنه إنجليزي مرتين؛ ويأتي من ذلك إحساسه بعزة المالك وقوة المستعمر فلا يكون حيث يكون إلا في صراحة الأمر النافذ أو غموض الحيلة المبهمة؛ ويستحكم بهذا وذاك طبعه العملي، فهو بغريزته مقاتل من مقاتلة الفكر يلتمس ميدانه بين القوى المتضاربة لا يبالي أن يكون فيه الموت ما دام فيه العمل؛ وبهذا كله تراه نافذ البصيرة قائماً على سواء الطريق، لأن الإنجليزي الباطن فيه يوجِّه الإنجليزي الظاهر منه ويسانده؛ وفي أعماق الاثنين تجد إنجلترا وليس غير إنجلترا.

ثم تفرَّست في الرجل أريد كُنهَه وحقيقته فإذا له نفس مفتوحة مقفلة معاً كغرف الدار الواحدة يفتح بعضها لما فيه كيما يرى، ويقفل بعضها على ما فيه كيلا يرى. وله وجه عملي يكاد يحاسبك على نظراتك إليه، تدور في هذا الوجه عينان قد اعتادتا وزن الأشياء والمعاني، يتلألأ في هاتين العينين شعاع النفس القوية الممرَّنة قد نفت الثقة بها نصف هموم الحياة عن صاحبها، تُمِدُّ هذه النفس طبيعة مؤمنة بأن أكبر سرورها في أعمالها، فواجبها في الحياة أن تعمل كل ما يحسن بها وكل ما يحسن منها.

لقد خيل إلي وأنا أنظر إلى نفسية هذا الإنجليزي أن كلمة الخيبة عند هؤلاء الإنجليز غير كلمة الخيبة عندنا نحن الشرقيين، فإن خيبة النفس لا تتم معانيها أبداً في النفس العاملة الدائبة التي يشعرها الواجب أنه شيء إلهي لا يخيب، وأن ما يرفض على هذه الأرض من العمل الطيب لا يرفض في السماء.

وكأن الرجل قد أدرك غرضي بملكته الصحافية الدقيقة فأجابني عن السؤال الذي لم أسأله وقال لي مبتدئاً: إن أساسنا الشخصية وحاسة الواجب؛ وإن فيكم أنتم كل شيء إلا هذين. فأخلاقنا تظهر دائماً في العمل، وأخلاقكم تظهر دائماً في الكلام الفارغ؛ ونحن نطلب الحقيقة وأنتم تطلبون الألفاظ، حتى إنه لو خسر المصري ألف دينار ثم أعلن أنها مائة فقط وصدق الناس أنها مائة، لكان عند نفسه كأنه ربح تسعمائة. . . .

قال صاحب السر: واستأذنت له على الباشا فسهل ورحب؛ ثم هممت بالانصراف عنهما
ولكن الإنجليزي قال: يا باشا! إنه قد تمكن في روعي أن صاحب سرك هذا متعصب ديني، وقد علمت أنه ابن فلان القاضي الشرعي فطربوشه ابن العمامة؛ ولقد كان ينظر إليّ وكأنه يتأمل من أين يذبحني. . .
فضحك الباشا وقال لي: يا فلان! إن هذا الكاتب من تلاميذ برناردشو، فهو كأستاذه يجعل لكل حقيقة ذَنَباً كذيل الهر ثم يمسكها منه فإذا هي تعضّ وتتلوى. . .
والتفت بعد ذلك إلى الإنجليزي ثم قال له: جاءني كتابك فإذا كنت تريد رأيي فيما تسميه التعصب الديني عند المسلمين فعجيب أن تضعوا أنتم الغلطة ثم تسألونا نحن فيها. إنك لتعلم أن هذا التعصب الكذب الذي أكثرتم الكلام فيه إنما هو لفظ من ألفاظ السياسة الأوربية أرسلتموه إلينا ليقاتل لفظ التعصب الحقيقي؛ ومن قبل هذا اخترعتم لفظة (الأقليات) وأجريتموها في لغتكم السياسية لتجعلوا بها لتعصبنا الوطني شكلاً آخر غير شكله فتفسدوه علينا بهذه المادة المفسدة؛ وبذلك تضربون اليد اليمنى من غير أن تلمسوها إذ تضربونها بشل اليد اليسرى.
إن الإسلام في نفسه عدو شديد على التعصب الذي تفهمونه، فهو يقول لأهله في كتابه العزيز: (كونوا قوامين بالقسْط شُهداءَ لله ولو على أنفسكم أو الوالدَيْن والأقربين).
فإذا كان العدل في هذا الدين عدلاً صارماً وحقاً محضا لا يميز بشيء البتة، لا ذات النفس التي فيها اشتهاء الدم، ولا أصلها من الأبوين اللذين جاءت منهما وراثة الدم، ولا أطرافها من الأقربين الذين يلتفون حول نسب الدم - إذا كان هذا فأين في هذا العدل محل الظلم؟
لعلك تشير إلى هذه الرعونة التي تعرفها في الأغمار والأغفال من العامة، فهذه ليست من أثر الدين بل هي أثر الجهل بالدين. إن هذا ليس تعصباً بل هو معنى من معاني الحَمِيَّة النفسية الخرقاء لم تجدوا أنتم له لفظاً، وكان أقرب الألفاظ إليه عندكم هو التعصب فأطلقتموه عليه للمعنى الذي في نفسه والمعنى الذي في أنفسكم. ألا فاعلم أن إسلام العامة اليوم هو كالعدوى المقبولة شكلاً والمرفوضة بعد ذلك.
قال الإنجليزي: ولكن لهؤلاء العامة علماء دينيين يدبرونهم من ورائهم وهم عندكم ورثة النبي (ص) أي منبع الفكرة وقوتها.
قال الباشا: غير أن هؤلاء قد أصبحوا كلهم أو أكثرهم لا يندسُّ فيهم عرق من تلك الوراثة،
وذلك هو الذي بلغ بنا ما ترى. فالقوم إلا قليلاً منهم كالأسلاك الكهربائية المعطلة لا فيها سلب ولا إيجاب؛ ولو أن هؤلاء العلماء كانت فيهم كهرباء النبوة لكهربوا الأمم الإسلامية في أقطارها المختلفة. إذن لقام في وجه الاستعمار الأوربي أربعمائة مليون مسلم جلد صارم شديد متظاهرين متعاونين قد أعدوا كل ما استطاعوا من قوة العلم وقوة النفس، وهو لو قذف كل منهم بحجرين لردموا البحر. . .
أتريد معنى التعصب في الإسلام؟ إنه بعينه كتعصب كل إنجليزي للأسطول، فهو تشابك المسلمين في أرجاء الأرض قاطبة وأخذهم بأسباب القوة إلى آخر الاستطاعة لدفع ظلم القوة بآخر ما في الاستطاعة.
وهو بذلك يعمل عملين: استكمال الوجود الإسلامي والدفاع عن كماله.
وإذا أنت ترجمت هذا إلى معناه السياسي كان معناه إصرار جميع المسلمين على نوع الحياة وكرامتها لا على استمرار الحياة ووجودها فقط. وذلك هو مبدؤكم أنتم أيها الإنجليز لا تقبلون إلا حياة السيادة والحكم والحرية فأنتم مسلمون في هذا المبدأ لو عدلتم.
أليس من البلاء أن المسلمين اليوم لا يدرس بعضهم بلاد بعض إلا على الخريطة. . . مع أن الحج لم يشرع في دينهم إلا لتعويدهم دراسة الأرض في الأرض نفسها لا في الورق، ثم ليكون من مبادئهم العملية أن العالم مفتوح لا مقفل؟
إن التعصب في حقيقته هو إعلان الأمة أنها في طاعة الشريعة الكاملة، وأن لها الروح الحادة لا البليدة، وأن أساسها في السياسة الاحترام الذاتي لا تقبل غيره، وأن أفكارها الاجتماعية حقائق ثابتة لا أشكال نظرية، وأن مبدأها هو الحق ولا شيء غير الحق، ون

قاعدتها (لا يضركم من ضلَّ إذا اهتديتم) فالهداية أولا والهداية أخيراً. الهداية في القوة والهداية في السياسة والهداية في الاجتماع. فقل لي بحياتك وحياة إنجلترا: أيعاب ذلك على المسلمين إلا بالألفاظ التي يعيب اللص بها أهل الدار لأنهم يحكمون في وجهه إقفال الباب. . .؟

قال: فوجم الإنجليزي حتى ذهل عن نفسه وصاح:

إذا كان هذا فلنتعصب فلنتعصب.

(سيدي بشر. إسكندرية)

مصطفى صادق الرافعي

السيارة المسروقة

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

إن من الواضح أن تربيتك ناقصة. . . ناقصة جداً. . . هذا أنا - بجلال قدري - أكلمك منذ عشر ساعات وخمس وعشرين دقيقة وثلاث وأربعين ثانية وأنت لا تجيبين. . .).

فقالت زوجتي أخيراً، وألقت ما بيدها - وكان شيئاً تطرزه - أو لا أدري ماذا تصنع به -: (إني لست اليوم كفئاً لك ولهزلك، فاسكت من فضلك!).

قلت: (هذا بديل جميل من الاعتذار!. . . ألا تستحين يا امرأة؟. . ثم ما هذا الذي تتشاغلين به عن التقاط الحكمة من فم سيدك وتاج رأسك وبعلك؟).

قالت: (أرجوك!. أرجوك يا مسلم!! ثم إن الطباخة خرجت!. . .).

فانتفضت واقفاً وصحت: (نهارها أسود! لماذا؟).

قالت: (استحسن زوجها أن يكون ذهابها إليه يوم الجمعة بدلاً من يوم الأحد).

فانحططت على الكرسي وقلت: (ووافقت أنت بالطبع. .).

قالت: (وماذا أصنع غير ذلك؟ وقد أصرا على يوم الجمعة، فلو رفضت لفارقتنا، ولعدنا إلى حيرتنا القديمة).

قلت: (يا امرأة. . . هل تعرفين أني أتضور في هذا البيت؟. . . يوم الجمعة الذي أستريح فيه، وأظل أحلم طول الليل بما أطمع أن أنعم فيه من الآكال؟؟ أوه! إن هذا لا يطاق! هذه. . . هذه. . . هذه. . . نعم هذه بلشفية صريحة! ومع ذلك تزعم الحكومة أنها تكافحها! ما عيب يوم الأحد بالله؟ لماذا يجب - حتماً - أن تكون بطالتها يوم الجمعة لا غيره؟. . .).

فضجرت زوجتي وبدأت تنفخ، وقالت: (ألا تسكت؟ مالك أنت؟ إن لك أن تأكل والسلام. . . ثم إنها مسلمة، وكذلك زوجها، فيوم الجمعة أوفق لهما).

قلت: (وهل من الضروري أن تتزوج هذه الدميمة وذلك المغفل؟).

قالت - وهي تتمطى -: (إني أشعر بفتور وخدر، فأعفني بالله من وجع الدماغ، وحسبي هم إطعامك في هذا اليوم الثقيل. . . .).

قلت - وقد خطرت لي فكرة -: (اسمعي أقل لك).

قالت - وهي تضحك - وهل تراني اليوم هنا إلا لأسمع. . تفضل يا سيدي ونور عيني. . . وماذا أيضاً؟).

قلت: (وتاج رأسك! اسمعي. . . إن الفتور يغشي جسمك كما تقولين، وأنا رأسي يكاد يطير مذ عرفت أن هذه الطباخة الكريهة الوجه قد تخلت عنا في يومنا هذا، فما قولك في أكلة ناشفة خفيفة نصنعها هنا أو نشتريها؟).

فقالت وقد لمعت عينها: (لماذا؟).

قلت: (وندعو لولو وسيلما - من أقربائنا - ونذهب جميعاً ومعنا الأولاد إلى القناطر الخيرية، فنقضي يوماً هناك بين الخضرة والماء).

قالت: (ولكنه سينقصك الوجه الحسن).

قلت: (يا خبيثة. . . . . هل تظنين أني تزوجتك وأنا مغمض العينين؟).

وحشرتهم جميعاً في السيارة، ودسست السلة التي فيها الطعام والشراب في مكان مجعول لما يحمل المسافر من زاد ومتاع، وكانت الساعة الثانية مساء حين انطلقنا فبلغنا القناطر بعد نصف ساعة، فحملنا أشياءنا وتركنا السيارة في حراسة رجل من الواقفين هناك المستعدين لمثل هذه المهمات، وتخيرنا مكاناً يشرف على الماء وتظلله أشجار باسقة وبسطنا السجادة وألقينا عليها صفحات من جرائد الصباح والمساء ووضعنا عليها الصحون والصواني ثم شرعنا نأكل. ولم يكن الطعام فيما يبدو

لعيوننا الفارغة كثيراً، فجعل بعضنا يخطف من بعض، فكانت ألذ أكلة وأهناها، ثم طرحنا الوسائد على السجادة واستلقينا، فنام من نام. ولما آذنت الشمس بالغروب ركبنا زورقاً في ترعة أشمون، ثم بدا لنا أن نعود لندرك (الشيخ رفعت) وهو يتلو القرآن الكريم - فما نحب أن يفوتنا ذلك منه قط - فرجعنا إلى حيث السيارة. . فإذا بها اختفت!!؟

بهتُّ حين رأيت مكانها خالياً، فوقفت كالصنم وأقبلت علي زوجتي تسألني وتهز ذراعي، فقلت لها وقد أفقت قليلاً (نعم. . هزي ذراعي. . بقوة. . إن بي حاجة إلى الشعور بأني لست أحلم وأن هذا ليس كابوساً. .).

قالت: (أين ذهبت؟).

قلت: (فتشيني!. . لقد كانت هنا. . تركتها في هذا المكان وليس في الأرض ما يدل على أنها انشقت وابتلعتها. . . ولست أعرف أن لها أجنحة فلا يمكن أن تكون طارت. . إن الطريقة الصحيحة للاهتداء إلى الحقيقة هي أن يبدأ المرء بنفي كل الاحتمالات غير المعقولة - كما تريننيِ أصنع الآن).

فصاحت (لولو): (لقد سرقها اللصوص).

فصحت بها: (تالله ما أذكاك يا فتاتي!! كيف لم نفطن إلى هذا بمثل هذه السرعة المدهشة؟).

فقالت لولو: (وماذا تكون مزية العبقرية وفضيلتها إذن؟).

قلت: (صدقت يا فتاتي النابغة. .).

فقالت زوجتي مقاطعة: (أهذا وقت الكلام الفارغ؟. ألا تفكرون في طريقة لاستردادها؟).

فقلت: (آه. . هنا أيضاً عبقرية ولكن من ضرب آخر، ضرب عملي لا يرتاح إلى النظريات. . عبقرية يمكن أن ننعتها بأنها نابليونية؛ ولست أرى أنه ينقصنا - لنوقن من أن السيارة عائدة بإذن الله - إلا ضرب ثالث).

فقالت زوجتي متهكمة (نعم يا سيدي. .؟).

قلت بحدة: (لا تتهكمي يا امرأة. . نعم ينقصنا الضرب الشِّرلُكْمُزِي).

فصاحوا جميعا: (إيه؟).

فقلت: (أعوذ بالله!! ما لكم تصرخون هكذا؟. نعم الشرلكمزي. . يا جهلة. . لو كنتم تعنون بتثقيف عقولكم الفارغة قدر عنايتكم بخلافي والمكابرة معي وإنكار نعمتي عليكم وجحود فضلي. . لعرفتم أن الشرلكمزي نسبة إلى شرلوك هولمز) فقالت زوجتي وهي تضع كفها على فمي: (طيب اسكت بقى!).

فلثمت راحتها وسكت - كما أمرت!

وقال سليم - أخو لولو -: (إن من الواضح أن علينا أن نتفرق).

قلت: (بديهي. . حتى لا يرانا اللصوص فيخافوا. . نعم يحسن ألا نضع شيئاً يزعج اللصوص ويفسد عليهم متعتهم).

فصاح بي: (يا أخي ألا تكف عن هذا العبث؟).

قلت: (كففت بإذن الله. . تفضل. . ولكن اسمح لي أن أسأل هل تعني أن نرسل الأطفال وحدهم في ناحية، وأمهم وأختك في ناحية، وتذهب أنت إلى حيث ألقت، وأعود أنا إلى البيت، وقد تخلصت منكم جميعاً؟؟ إن كان هذا مرادك فأنا من الآن موافق، والسلام عليكم، ولا تكلفوا أنفسكم إرسال عناوينكم).

وبعد أن هدأت الضجة التي أثارتها هذه الكلمات البريئة قال سليم: (تأخذ أنت الأطفال وهاتين أيضاً - وأشار إلى زوجتي وأخته - وتركب تاكسي وتمر أولاً بمركز البوليس ثم لا تتكل عليه بل تذهب تبحث. . وأنا أذهب أبحث من ناحية أخرى).

فقالت زوجتي لسليم: (بل أكون أنا معك فإني لا أكاد أطيق مزحه في هذه الساعات. . إنه لا يفرق بين جد وهزل. . كل وقت عنده صالح للضحك. . شيء فظيع. .).

قلت: (أشكرك. . على أني أستطيع أن أهذب لك خطتك العقيمة. .).

فقالت زوجتي: (بالله اسكت. . . أرجوك. . . أر. . . جووووووك).

قلت: (حالاً. حالاً. كل شيء في وقته يا امرأة. . وهل هذا وقت رجاء؟؟ إنه وقت العمل. . ألا تفهمين؟. اسمع يا هذا. . تذهب أنت إلى البوليس وتعفيني من هذه المهمة التي لا أرتاح إليها، ولا أعتقد أن فيها فائدة، وتأخذ معك هذه الزوجة الجاحدة الناكرة للجميل، وافعل بعد ذلك ما تستطيع، وإلى الملتقى في البيت العامر إن شاء الله).
فقالت زوجتي: (أيوه. . أنا أقول لكم ماذا ينوي أن يصنع. . سيذهب إلى البت مباشرة ولا يكلف نفسه أي عناء في البحث عن سيارته. . وسترون).
فقلت: (وهبيني فعلت ذلك فهل كنت تحسبين أني شرطي أو بوليس سري؟؟ وماذا أصنع إذا كانت السيارة قد سرقت؟ هل أجري في الشوارع كالمجنون؟. . أو أقعد على هذا الرصيف وأبكي؟. . ثم إن معي طفلين صغيرين يريدان أن يناما. . أليس كذلك يا ميدو - اختصار عبد الحميد من فضلك - ومعي أيضاً هذه الفتاة الطويلة البلهاء التي لا رأس في عقلها - أعني لا عقل في رأسها!).
فمضيا عني ولم يجيبا بشيء. وضحكت لولو فقلت: (هذا أحسن. . ما فائدة الحزن واللطم والندب؟؟ ثم إنهما مغفلان - ولا مؤاخذة - فتعالي نسأل أولاً الحارس الذي كان هنا متى رآها آخر مرة فقد خطرت لي فكرة أرجو من ورائها خيراً كثيراً وراحة تامة).
وبحثنا عن الحارس حتى وجدناه نائماً تحت شجرة فأيقظناه فقال لنا: إنها كانت هنا منذ
وقت قصير جداً وقد ركبها رجل وفتاة، وإن الرجل قال حين سألته عن الباقين - منا -: إنه ذاهب ليشتري لهم شيئاً ثم يعود. فسألته عن الاتجاه الذي ذهبا فيه فأشار إلى القناطر وطريق القاهرة.
فطلبت أن يجيئنا بتاكسي بسرعة، وقلت للولو: (إذا حقق الله ظني فسيخيب أمل السارق وفتاته، لأن السيارة ليس فيها من البنزين ما يكفي إلا عشرة كيلو مترات على أكثر تقدير، وأنا أرجو أن يخطئ الخطأ المعقول أي أن يتوهم أن من يجيء إلى القناطر بسيارة لابد أن يكون قد تزود الكفاية من البنزين للذهاب والإياب معاً، فيمضي معولاً على ذلك ومتخوفاً من أن يقف في القناطر لأخذ بنزين آخر فتقف به السيارة في الطريق حيث لا بنزين، ولا يخطر له في أول الأمر أن هذه هي العلة فيدور يبحث عن سبب آخر لوقوفها ويضيع في هذا وقتاً ثميناً ثم ييأس فيتركها في الطريق وينجو بجلده).
وكنت أنا مقتنعاً بهذا الرأي حتى اشتريت (صفيحة بنزين من القناطر وضعناها معنا في التاكسي وقلت للولو: (لهذا فائدة أخرى هي أن يعتقد سائق التاكسي حين نتركه ونركب سيارتنا أنا ما استأجرنا سيارته إلا لهذا السبب، فلا يروح يعجب أو يسأل عن شيء ولا يبدو له شيء غريب في عملنا).
وقد شاء الله أن يحقق ظني فما كدنا نقطع خمسة كيلو مترات من الطريق بعد أن تركنا القناطر وأخذنا في سكة قليوب حتى وجدنا السيارة. وأوجز فأقول إنا ركبناها فرحين وعدنا إلى القناطر عسى أن نجد بقيتنا. فلما لم نجد أحداً تركنا لهما خبراً عند الحارس النائم ثم حملناه معنا إلى مركز البوليس لنسرهم ونعفيهم من البحث فعلمنا أن أصحابنا أبلغوهم خبر السرقة، وأن بعض الشرطة خرج للبحث وأن الخبر طير بالتلفون إلى قليوب والقاهرة ولجهات أخرى أيضاً لضبط السارق في الطريق. فشكرنا لهم هذه الهمة التي لم تكن متوقعة ثم قلت لهم: (إن المهم الآن هو البحث عن زوجتي!).
فصاح الرجل (إيه؟).
قلت: (إنها مع قريبي وقريبها).
قال: (انتهينا).
قلت: (كلا لم تنته. . وما أدراك أن هذه ليست سرقة أخرى أفظع وأشنع؟).
فضحك الرجل وجرتني لولو وهي تحتج.
تركنا السيارة أمام رصيف البيت وجلسنا في الشرفة نأكل لحم الغائبين - أعني ننتظرهما - وإذا بهما عائدان بعد نحو ساعتين في سيارة - هي أخت سيارتنا بلا فرق - فانحدرت إلى الطريق بسرعة فوجدتهما يتأملان هذه المعجزة. فقلت: (تمام. . لقد سرقت هذه السيارة يا صاحبي ولم أكن أعرف أن قريبي ونسيبي لص. . ولكن ماذا أصنع؟. لقد أخفوك عني قبل أن أتزوج. فصار واجبي أن أخفيك أنت عن الناس بعد أن

(تزوجتُ.
فهم بكلام فمنعته ودعوته أن ينظر إلى رقم السيارتين، فاقتنع وقال ما العمل الآن؟
قلت: (تستعد للسجن. . لقد كان هذا واجباً من زمان طويل في الحقيقة، ولكن ما أكثر
من يستحقون السجن وهم طلقاء. . والآن اذهب بالسيارة إلى الجراج - السيارة
المسروقة - ثم أبلغ البوليس بالتلفون وقل له إنك عندي تنتظر حضوره للقبض عليك).
وعرفنا منهما بعد ذلك أنهما ركبا القطار ثم الترام إلى العتبة الخضراء وإذا بهما يريان
السيارة عند رصيف إدارة البريد فذهبا إليها يعدوان فألفياها خالية فركبا، وساقها هو
وانطلقا بها من غير أن يعنيا بالنظر إلى رقمها وانحدرا بها في شارع فاروق وتركا
صاحبها المسكين يجري وراءهما ويصيح ويصرخ ويستنجد وهما يضحكان مسرورين!
بارك الله فيهما من لصين جريئين!
فقلت لهما: (لا عليكما. . ستكون العتبة الخضراء كلها عندنا بعد دقائق ببوليسها
وصبيانها وباعتها. . إلى آخره. . إلى آخره. . وسيشهد الجيران وجيران الجيران، أمتع
رواية رأوها أو يمكن أن يروها في حياتهم أو حياة هذا الشارع الرزين).
وجاء الشرطة والمسروق المسكين في تاكسي. وكان لا بد أن يروا السيارة وأن
ينزلوا، وكنت واقفاً إلى جانبها أنتظر هذا التشريف، فقال الرجل (هذه هي. .) ومسح
العرق المتصبب ودنا منها وهم بأن يفتح بابها فتصديت له وقلت: (عفواً. . هل من
خدمة؟.)
فصاح (خدمة؟؟ يا حرامي يا مجرم!! أين أخفيت شريكتك؟ المرأة التي كانت معك؟).
فنظرت إلى الشرطي وأنا أبتسم - فقد كان الموقف يتطلب الهدوء والكياسة - وقلت:
(هذه سيارتي يا حضرة الشاويش فما خطب هذا الرجل؟).
فصاح الرجل (سيارتك يا حرامي يا صفيق الوجه؟).
قلت: (إني أسمح بأن تتأملها).
فدار حولها ونظر إليها من الأمام ثم من الخلف، ثم وقف أمامي وهو يرعد وينتفض
ويقول: (أما مجرم!!. . بسرعة غيرت أرقامها؟؟ ولكن هل تظن أن هذا ينفعك؟).
فبدا على وجه الشرطي التردد حينما سمع أن الأرقام مختلفة، وإذا كان المفجوع في
سيارته قد طار عقله، فإن الشرطي لا يوجد ما يدعو إلى ذهاب عقله أيضاً. وقلت أنا:
المسألة بسيطة. ومن المعقول أن أغير لوح المرور بسرعة، ولكن ليس من المعقول
أن أغير رقم الشاسية المحفور على محرك السيارة، فتفضل واذكر هذا الرقم بعد
مراجعة رخصتك إذا شئت ثم ارفع غطاء المحرك وانظر).
ففعل فإذا الرقم مختلف جداً وشعر بالهزيمة، وأدرك أنه تجنى علي جداً، فبدأ يعتذر، فسألته
(ولكن كيف يمكن أن تخطئ إلى هذا الحد؟؟ هل يعقل ألا تعرف سيارتك؟)
قال: (إنه لا فرق بينهما على الإطلاق - لا من الداخل ولا من الخارج؟).
فقال الشرطي: وهو يريد أن يفض النزاع الذي تهور فيه صاحبنا: (ما دامت السيارتان
متشابهتين إلى هذا الحد فإنه معذور، فسامحه).
قلت: (وهل كنت تعذرني لو أني أخطأت مثل خطئه، وذهبت أسب الناس وأتهمهم
بالسرقة؟).
قال (طبعاً. . صحيح إنه تهور في الاتهام قبل التثبت، ولكنه معذور في خطئه في
معرفة السيارة).
قلت (وإذا دللتك على سيارتك هل تشكرني؟؟ أم تستأنف اتهامك لي بالسرقة؟).
فعاد إلى الاعتذار، وأكد لي أنه يكون شاكراً جداً، فلم يبق داع للإطالة، فرويت له
وللشرطي القصة من أولها إلى آخرها كما وقعت، وقلت لهما: إننا أبلغنا مركز البوليس
أنا وجدنا السيارة الأخرى التي ظنها قريبي سيارتنا، وأن البوليس لا شك سيحضر بعد
قليل ليتسلمها.
وبهذا انتهى الحادث.
وقلت لزوجتي وأنا دخل بعد الفراغ من ذلك: (هل تعترفين الآن أن الذي كان يضحك
ويمزح كان هو الحكيم السديد الرأي الصحيح النظر؟).
فآثرت المكابرة وقالت إنها مصادفة واتفاق، فشهدت لولو بأني أحسنت التقدير،
فعادت زوجتي تلوم لأني كتمت رأيي الحقيقي وتركتها تذهب وتلف وتدور مع سليم،

وأني آثرت لها التعب ولنفسي الراحة، فقلت (ليكون هذا لك درساً. . ألم أقل لك إن تربيتك ناقصة؟) فهاجوا بي وثاروا ولكن هذا لا يعني القراء لا قليلاً ولا كثيراً.

إبراهيم عبد القادر المازني

أسبوع في سبتمانيا

من ذكريات العرب والإسلام في غاليس

للأستاذ محمد عبد الله عنان

في أحد أبهاء قصر فرساي مجموعة من الصور الرائعة تمثل مناظر من الوقائع الحربية الشهيرة التي انتصر فيها ملوك فرنسا؛ وبين هذه المجموعة صورة لموقعة بلاط الشهداء التي نشبت بين العرب والفرنج على ضفاف اللوار في سنة 732م، يبدو فيها عبد الرحمن الغافقي أمير الأندلس، وقائد الجيش الإسلامي، شيخاً رائعاً ذا لحية طويلة بيضاء، وهو شاهر سيفه، ومن حوله بعض جنوده قتلى، وأمامه جنود الفرنج يكرون على خصومهم بشدة، وتبدو عليهم إمارات التفوق والنصر.

وهذه الصورة إحدى الذكريات القليلة التي تحتفظ بها فرنسا عن عصر يكاد يمحوه النسيان من صحف تاريخها، ونحن نعرف ماذا كان من أمر العرب في بلاط الشهداء، فقد قتل قائدهم عبد الرحمن خلال الموقعة، ثم ارتدوا في ظلام الليل إلى الجنوب؛ وغنم الفرنج الموقعة، واقترنت ذكرى النصر إلى الأبد باسم قائدهم وزعيمهم كارل مارتل، واعتبرته التواريخ النصرانية منقذ أوربا والنصرانية من الإسلام وسلطانه وتعاليمه.

بيد أن ذكرى هذا النصر الفرنجي لا يمكن أن تحجب ذكريات عصر قصير باهر قضاه العرب في جنوب فرنسا، فقد افتتح المسلمون ولايات فرنسا الجنوبية في أوائل القرن الثامن واستقروا في سبتمانيا زهاء نصف قرن؛ ثم عادوا في أوائل القرن العاشر جماعات مغامرة مجاهدة واحتلوا كثيراً من أنحاء بروفانس والرفييرا، واستعمروها زهاء قرن، وتركوا كثيراً من آثارهم وذكرياتهم المعنوية في تلك الأنحاء.

ولكن الأوربي، والفرنسي بنوع خاص، قلما يذكر هذا الفصل من تاريخ العرب والإسلام في أوربا؛ وإذا كان بعض الباحثين والمؤرخين الأخصائيين يعرضون إليه في كتبهم، فإن التواريخ الغربية العامة تمر عليه غالباً بالصمت، أو تذكره عرضاً كحادث طارئ طوى صفحته تعاقب الأحقاب؛ وإذا قصصت على الفرنسي المثقف شيئاً من تفاصيل هذه الغزوات الإسلامية لجنوب فرنسا، وذكرت له أن العرب قد انتهوا في فتوحاتهم إلى أعالي نهر الرون، وأنهم استولوا على بيزانصون مسقط رأس شاعرهم فكتور هوجو، وعلى ليون

وماسون وصانص، وأنهم احتلوا الأنجدول وبروفانس دهراً، وأن قواعد سبتمانيا مثل أربونه وأجده ومجلونه وقرقشونه، ما زالت تسمى بأسمائها العربية محرفة إلى الفرنسية: إذا ذكرت للفرنسي المثقف شيئاً من ذلك أصغى إليك بمنتهى الدهشة وكأنما يصغي إلى قصة خرافية يطبعها الخيال المغرق.

ولقد أتيح لي أن أقضي أسبوعاً في هاتيك الربوع التي خفقت عليها الأعلام العربية حقبة من الدهر. أجل، خطر لي أن أجوز إلى سبتمانيا القديمة، وأن أشاهد قواعدها التي ما زالت أسماؤها تنم عن ذكرياتها العربية. ولقد كانت سبتمانيا - وهو اسمها القديم ومعناه ذات المدن السبعة - أولاً نجدولا الحديثة، أول أرض فرنجية غزاها العرب عقب افتتاح الأندلس، واتخذوها قاعدة لغزواتهم في جنوب فرنسا، وجعلوها ولاية أندلسية سميت بالثغر أو الرباط لوقوعها على ساحل البحر الأحمر؛ وكانت مدن سبتمانيا السبعة: أرله، وأربونه، ونيمه، وقرقشونه، وبيزيه، وأجده، ومجلونه. وكانت أربونه عاصمتها، وكانت أمنع المعاقل العربية في غاليس (جنوب فرنسا). ولما وقعت الحرب الأهلية في الأندلس، عندما أشرفت الخلافة الأموية على نهايتها، كانت أربونة قاعدة المعارضة لحكومة قرطبة، وكانت منزل الحركة التي قام بها حاكمها عبد الرحمن اللخمي (أشجع فرسان الأندلس) لانتزاع إمارة الأندلس؛ ولما اضطربت أحول الأندلس الداخلية، انتهز الفرنج الفرصة لاسترداد سبتمانيا، وكانت أربونه آخر معقل عربي وقف في وجه الفرنج، ولم تسقط إلا بعد دفاع مجيد سجلته الروايات المعاصرة، وكان ذلك في منتصف القرن الثامن الميلادي (سنة 758م).

تلك هي خلاصة المأساة العربية في سبتمانيا. أجل كان العرب سادة في هاتيك الربوع

منذ ألف ومائتي عام؛ ولكن سبتمانيا لا تحمل اليوم أقل أثر مادي من طابعها العربي القديم. بيد أنه مما يلفت نظر السائح المتجول أن اسم (حي العرب) أو (شارع العرب) يطلق على كثير من الأنحاء في مدن الرفييرا وسبتمانيا؛ وهذا يرجع بلا ريب إلى وحي الذكريات العربية؛ وقد توجد أيضاً أطلال دراسة لبعض الحصون العربية، ولكنها مما يصعب تعيينه وتحقيقه.

على أنه توجد ثمة آثار معنوية كثيرة من العهد لعربي في الحياة الاجتماعية في تلك المنطقة، وبخاصة في بروفانس حيث تأثر التفكير والآداب عصراً بالمؤثرات والأساليب العربية، وحيث طبع المستعمرون المسلمون في القرن العاشر حياة هذا الإقليم بطابع من عاداتهم وتقاليدهم. وقد كانت هذه الحقائق التاريخية موضع عناية بعض الباحثين في القرن الماضي فتناولوها بالشرح والاستقصاء، وكانت مباحثهم فتحاً جديداً في هذا الميدان؛ ونستطيع أن نخص بالذكر منهم العلامة المستشرق رينو، فقد كتب عدة فصول بديعة في كتابه (غزوات العرب في فرنسا) عن الآثار الفكرية والاجتماعية في جنوب فرنسا وبخاصة في بروفانس.

ولقد اخترقت سبتمانيا من آرله حتى جبال البرنيه؛ ووقفت مدى حين في دينة أربونه وقد أذكى خيالي حين شهدت عاصمة الرباط الأندلسي القديم، تلك الذكريات العربية البعيدة التي تغيض في عالم القرون والتي لم أجد لها أثراً في المدينة الفرنسية الحديثة. وحينما وقفت في (برنيان) تذكرت أنها كانت مجاز الجيوش الأندلسية إلى غاليس، وأن عرب الأندلس كانوا يفضلون اجتياز جبال البرنيه من الناحية الشرقية من ممر برنيان، مخترقين قطلونية إلى (الثغر) ثم يتجهون بعد ذلك شمالاً إلى أقاليم الرون، أو غرباً نحو (اكوتين)؛ بيد أنه توجد إلى جانب ممر برنيان ممرات أخرى كان يتدفق منها عرب الأندلس إلى جنوب فرنسا، وأشهرها ممر (رونشفال) الشهير الذي يسميه الإدريسي (باب الشزري). ولرونشفال ذكرى خالدة في التاريخ والقصص الفرنسيين، فقد كانت مسرحاً للموقعة الشهيرة التي مزق فيها العرب جيش كارل الأكبر (شارلمان) حين عوده من غزوته لأسبانيا الشمالية، التي نظم فيها رولان وصيف شارلمان أنشودته الشهيرة

وإن السائح المتجول ليتساءل حين يتأمل تلك الوهاد كيف استطاع العرب الذين برزوا من بسيط الصحراء إلى الغزو أن يجتاحوا تلك الهضاب الوعرة، وأن يحرزوا النصر الباهر في هاتيك السهول النائية على حين أن أعداءهم أعرف بطبائعها وجنباتها. ولقد كان اجتياز جبال البرنيه الشامخة أعجوبة في التاريخ القديم، ولكن العرب اجتازوا تلك الربى الهائلة واقتحموها مراراً في سبيل الفتح. ولقد خالجني مثل هذا الشعور حينما اجتزت صحراء العرب منذ بضعة أعوام، وأذكى القفر الشاسع خيالي، فتساءلت كيف استطاعت الجيوش العربية الزاخرة أن تجتاح هذا القفر الرائع في عصر كان التنقل فيه محفوفاً بأعظم المشاق؟ وكيف كانت هذه الجيوش تمون نفسها بالزاد والماء خلال أسابيع طويلة تستقبل

فيها الشمس المحرقة والرياح السافية؟ أجل لقد كان اجتياز الجيوش الإسلامية في مختلف العصور لصحراء العرب وصحارى الشام وشمال إفريقية أعجوبة من أعاجيب العصر، بل إن اجتياز هذه الصحارى في عصرنا يعتبر عملاً من أعظم الأعمال الحربية.

ولقد ذكرت بهذه المناسبة ملاحظة غريبة أبداها المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون عن خواص الفتح العربي، فقد عقد في مقدمته فصلاً ذهب فيه إلى (أن العرب لا يتغلبون إلا على البسائط) وأورد كعادته أمثلة وأسباباً، ولكني أعتقد أن ابن خلدون غير محق في ملاحظته؛ ويكفي أن نذكر أن العرب افتتحوا هضاب فارس وأرمينية والأناضول والغرب، وافتتحوا أسبانيا وتغلبوا على وعرها بأيسر أمر، ثم اقتحموا جبال البرنيه الشامخة إلى فرنسا وافتتحوا ما وراءها من الهضاب والسهول؛ ولم تكن هذه كلها من البسائط التي يعنيها ابن خلدون.

هذه خواطر أثارتها في نفسي زيارتي لسبتمانيا أو الرباط الأندلسي القديم؛ ولقد قضيت في تلك الربوع أياماً؛ وكنت كلما وقفت بأحد هذه المعاهد القديمة ارتد خيالي إلى ما قبل ألف ومائتي عام وتصورت العصر الإسلامي كله ماثلاً أمام عيني بحوادثه ووقائعه الحافلة، ومرت بذاكرتي أسماء عربية رنانة روت بدمائها تلك الأرض: السمح بن مالك بطل موقعة تولوشة، عبد الرحمن الغافقي بطل موقعة بلاط الشهداء. . . .

ولقد كنت في الواقع على سفر إلى الأندلس، وكنت اعتزم أن أتجول في ربوعها التي ما زالت تحمل ذكريات عزيزة للإسلام وآثاره، ولكن الثورة الأسبانية المشئومة حالت دون تحقيق هذا الأمل، فلبثت أياماً في سفح جبال البرنيه أرقب الحوادث وأنتظر سنوح الفرصة، ولكن شاء ربك أن يندلع لهيب الثورة في جميع أنحاء أسبانيا بصورة مروعة تحمل أشد المغامرين على الزهد في زيارتها.

على أن الزمن كفيل بتحقيق الأمل، والصعاب تشحذ العزائم. وسوف أستعين بالله دائماً على المضي في مباحثي الأندلسية إلى ن يحقق أملي كاملاً في إخراج تاريخ العرب والإسلام في أسبانيا.

فينا في 18 أغسطس

محمد عبد الله عنان

لَمَعات

إلى الفيلسوف الشاعر محمد إقبال

جواباً لكتابيه: (أسرار خودي) و (رموز بي خودي)

للدكتور عبد الوهاب عزام

- 1 -

للصوفية فلسفة عالية في العالم والإنسان والخالق، ولهم آراء حكيمة في الأخلاق والاجتماع. وقد صاغوا كثيراً من آرائهم في صور شعرية جميلة تجلى فيها القلب الإنساني في أرقى مداركه، وأصفى منازعه، وصوروا فيها خفايا النفس الإنسانية.

وفي العربية كثير من الشعر الصوفي مفرّق في الكتب. وفيها دواوين خصّت بهذا الضرب من الشعر، أسيرها ذكراً ديوان ابن الفارض، ودواوين ابن العربي، وديوان النابلسي.

ولشعراء الفارسية المقام الأسمى في الشعر الصوفي، وقد حاكاهم فيه شعراء التركية والأردية. وأعظم شعراء الفارسية في هذا مجد الدين سنائي وفريد الدين العطار وجلال الدين الرومي، وهو زعيم شعراء الصوفية وفلاسفتهم جميعاً.

- 2 -

وكأن الله سبحانه أراد أن يبعث مولانا جلال الدين في هذا العصر مزوداً بفلسفته وعلومه، إلى فلسفة الصوفية، وصفاء نفوسهم، فبعثه في صورة شاعر الإسلام وفيلسوفه محمد إقبال الهنديّ.

ولإقبال منظومات كثيرة معظمها بالفارسية، وبعضها بالأردية، وقد ضمنها من الفلسفة والتصوف والأخلاق والاجتماع والسياسة ونقد المدنية ما يملأ القارئ إعجاباً. والرجل حرّ، يكره التقليد ويحذر منه، فعقله وقلبه ظاهران في كل ما يكتب. ومن منظوماته كتابان سماها (أسرر خودي) و (رموز بي خودي) أي أسرار الذاتية، ورموز اللاذاتية. ومدار البحث في الأول بيان أن العالم قائم على (الذاتية) وأن حياة الإنسان بإبراز ما أودع في فطرته من المواهب، وتقوية نفسه. ومدار البحث في الكتاب الثاني بيان ائتلاف الأفراد في الجماعة، وما تقوى به الجماعات. وقد شرح ذلك كله شرحاً مبيناً، وضرب الأمثال، واستشهد

التاريخ، وسما إلى الدرجة العليا في الشعر.

وقد ترجمت في مجلة (الرسالة) صفحات من هذين الكتابين، ومن ديوانه بيام مشرق الذي جعله الشاعر جواباً للشاعر الألماني جوته.

- 3 -

وقد بدا لي أن أنشر في (الرسالة) منظومة أهديها إلى إقبال، وأجعلها صدى لكتابيه المذكورين آنفاً.

وأريد مع هذا أن أنهج بها في العربية نهجاً جديداً، وأجعلها مثالاً للمعاني السامية التي يتناولها الشعر إذا أطلق من عقاله، وحرّر من الموضوعات الضيقة التي اعتادها جمهور الشعراء، ولا سيما المعاني التي تكثر في أشعار الصوفية العظام. ثم أريد أن أجعلها مثالاً للقافية المزدوجة التي قصرها شعراء العربية على الرجز المشطور كما قصروا الرجز على نظم العلوم كالألفية والجوهر المكنون، والتاريخ كمنظومة ابن عبد ربه في أمراء بني أمية، والقصص ككتاب كليلة ودمنة، والصادح والباغم. وينبغي أن يسري هذا الضرب من التقفية إلى أبحر الشعر الأخرى حين تعالج الموضوعات الواسعة. فهذا

الذي سنّى لشعراء الفارسية وغيرهم أن ينظموا عشرات الآلاف من الأبيات في قصة واحدة أو كتاب واحد.

وقد اخترت وزن الرمل ليُسره وخفته واقتداء بجلال الدين في المثنوي ومحمد إقبال في بعض كتبه ولا سيما أسرار خودي ورموز بي خودي.

- 4 -

ثم التفعيلة الثالثة في الرمل تأتي تامة (فاعلاتن) ومقطوعة (فاعلاتْ) ومحذوفة (فاعلا). والقافية المزدوجة تجعل كل شطرين متفقين في الروي منفصلين بعض الانفصال عن غيرهما. فينبغي أن يسوّغ الجمع في المنظومة الواحدة بين أبيات على فاعلاتن وأخرى على فاعلاتْ أو فاعلا تيسيرا للناظم. ولكن الجمع بين فاعلا، وفاعلاتْ حسن لا عيب فيه لأن الحرف الأخير في فاعلاتْ لا يأتي إلا بعد مدّ. وبهذا المدّ يتم الوزن فيأتي الحرف بعد المدّ نهاية للصوت فلا يشعر المنشد باختلاف النغمة بين فاعلا وفاعلاتْ. مثال هذا البيتان الآتيان:

رُبَّ معنى في ضمير يكتُم ... ليس في الناس عليه محرمُ
وقلوب رمسها هذي الصدور ... أتراني مسمعاً من في القبورْ

البيت الأول بني على فاعلا، والثاني على فاعلات لكن الراء في كلمتي الصدور والقبور واقعتان بعد مد فتأتيان في نهاية لصوت كأنهما لا تحسبان في وزن البيت. وليس الأمر كذلك في الجمع بين فاعلاتن وغيرها، ففي البيتين الآتيين:

كان لي الليل مداداً فنفدْ ... وطغى قلبي بمدّ بعد مدّ
جاشت الظلماء موجاً بعد موج ... وغزاني الوجد فوجاً بعد فوج

إذا سكَنت الجيم في موج وفوج يبنى البت على فاعلاتْ فتجده قريباً جداً مما قبله. وإذا حركت الجيم يبنى على فاعلاتن فيبعد عما قبله بعض البعد. فينبغي ن يجتهد الناظم ألا يجمع بين فاعلا أو فاعلاتْ وبين فاعلاتن في منظومة واحدة رعاية لانسجام النغمات.

وإني أدعو أدباء العربية إلى العناية بهذا المثال الذي أقدمه في المعاني والقوافي ليقبلوه على بينة أو يردوه بالحجة. والله ولي التيسير.

أيها الليل إليك المفزعُ ... كم حنت منك علينا أضلع
كم خفينا في غيابات الدجى ... وملأنا الليل هماً وشجى
كم أَلِفتُ الليل أماً حانية ... وكرهت النجم عيناً رانيه
كم ألفت الليل وحشاً راقبا ... في شعاع الصبح سهماً صائبا
كم بثثت الليل سراً كِتما ... فوعاه الليل عني ألما
كانت الظلماء لوحاً للألَمْ ... خطّتْ الآهات فيه كالقلمْ
كان لي الليل مداداً فنفد ... وطغى قلبي بمدّ بعد مدّ
جاشت الظلماء موجاً بعد موجْ ... وغزاني الوجد فوجاً بعد فوجْ
فنيت هذي وهذا زاخرُ ... وانجلت هذي، وهذا غامرُ
خلتني في الليل جمراً سُعّرا ... ونجوم الليل منه شررا
إرَة قد وقدت في أضلعي ... وسحاب هاطل من أدمعي
كنت سطراً لم يفسره أحدْ ... خطَّه في غيبه الله الصمد
في ضميري كل معنى مُنبَهِمْ ... حرت في الأعراب عنه بالكِلم
قد ثوى العالم في قلبي وما ... خُطَّ شيء فيه إلا الحرف (ما)
جلّ قلبي أن أراه جامَ جم ... صُور الأقطار فيه تنتظم
إنما الأقطار في قلبي العميدْ ... أحرف أوحت إلى معنى بعيد
ربّ معنى في ضمير يكتمُ ... ليس في الناس عليه مَحرَمُ
وقلوب رمسها هذي الصدورْ ... أتراني مسمعاً من في القبور
أنا في الناس فصيح أعجمُ ... ناطق فيهم كأني أبكم
صمّت الآذان عن هذا البيان ... ضاع في ضوضائهم هذا الأذان
كيف يجدي القوم هذا النغمُ ... وعلى الآذان رن الصممُ؟
كيف يجدي القدح في هذا الحجر؟ ... قلبه رخو خليّ من شرر
إن خفق القلب قدحُ مُجهِدُ ... بعضه يورى وبعضٌ يصلد
كيف يجدي النفخ في هذا الرمادْ ... طفئ الجمر ولم تور الزناد

(يتبع)
عبد الوهاب عزام
فن القصة في الأدب المصري الحديث
(تتمة ما نشر في العدد الماضي)
للأستاذ هلال أحمد شتا

ويلاحظ المتتبع لتاريخ القصة المصرية أن ثلاثة من كتابها الأفذاذ قد تنحوا عن الجهاد في سبيلها أو كدوا، وبقي واحد فرد يحاول ما يستطيعه الواحد الفرد. . فلقد أقبل هيكل على ميدان آخر يشحذ له قلمه وحسه، هو ميدان الصحافة والبحث العلمي والديني والسياسة، وانهمك أبو حديد في عمله التعليمي ودراساته التاريخية، وذهب تيمور مذاهب أخرى في الدراسة والأدب. . ثم بقي المازني بعد ذلك يسير في طريقه سيراً هادئاً، ويخص القصة ببعض عنايته، بقدر ما تنحت أعماله الصحفية، وما أفسحت لفنه من مجال قصير.

ولقد كان هذا مما أوقف القصة المصرية العربية الناشئة موقفاً نشفق منه عليها، وما زالت في عهد الصبا تنشد الرعاية والعناية؛ ولكن فريقاً آخر من الشبان قد أقبل يمد لها يداً مباركة نرجو أن تدفعها إلى عهد الشباب قوية سريعة الخطوات.

ومن بين هذا الفريق ثلاثة نلمح فيهم استعداداً كثيراً، وفناً غزيراً، وهم: محمود البدوي، وشوكت التوني، وطاهر لاشين.

فمحمود البدوي، الذي عرفناه مترجماً للقصة الروسية القصيرة على صفحات الرسالة الغراء، قد أنس في نفسه قدرة على الكتابة ألهبت شغفه وشحذت عزيمته. فإذا هو يدفع إلى ميدان القصة كتابيه (الرحيل) و (رجل).

والذي يعرف البدوي في هدوئه وصمته، وبعده عن مجالات الأدباء والكتاب، قد يستولي عليه عجب، حين يرى اهتمام الكتاب بأمر كتابيه وتهافتهم على نقدهما وبحثهما. . ولكن الذي يعرف البدوي من ثنايا سطوره، لا يرى عناء كبيراً في أن يعرف الدافع الشريف الذي حمل هؤلاء الكتاب على العناية بفنه وأدبه.

وقد تتلمذ البدوي على المدرستين الروسية والإنجليزية، فكان مزاجاً منهما معاً، ثم أضاف إلى ذلك شخصيته التي استقل بها، فكان قصصياً موفقاً. وأميز صفاته أنه مخلص لفنه إخلاصاً شديداً حتى ليكاد يعجز عن أن يزاول سواه، لأنه استغرق كل تفكيره واستبد بجميع جهوده، وسيكون لنا منه من يسد فراغاً عزيزاً.

وشوكت التوني قصصي موهوب، وكاتب قادر، غير أنه كاد يسيء إلى فنه إساءة بالغة، حين صمت عن الكتابة صمتاً غير محمود، متفرغاً لدراساته القانونية وقضاياه. . ولو لم يغمره - منذ قريب - نشاط أدبي نعرفه، لفقده عالم القصة آسفاً أسفاً شديداً، لأنه يعرف فيه ما يدفعه إلى التشبث به. . وقد يمحو آثار صمته الطويل أنه أقبل اليوم قوياً بدراساته وميله بعد انقطاع عن الفن الذي يحبه ويقدسه. . وسوف لا نغفر له - بعد ذلك - صمتاً أو تحولاً. لأن الفن الذي فقد رجاله أو كاد، في حاجة شديدة إلى الشباب يشد أزره.

وطاهر لاشين قصصي مصري بديع التكوين، قد بلغ بفنه وأدبه منزلة جليلة، ومجهوده في سبيل القصة المصرية كبير، وأسلوبه العربي سليم أنيق، نقي البيان لا يحب الإسفاف، ونأمل فيه خيرً كثيراً. ونشكر له ما أسدى. . وما سوف يسدي إن شاء الله.

أولئك وهؤلاء هم المحسنون إلى القصة المصرية إحساناً محموداً. الجديرون بالذكر والشكر والاعتراف بالجميل. . . ولكن طائفة كبيرة، غير محدودة ولا محصورة، قد أقبلت منذ سنوات ترمي القصة المصرية العربية بالإساءة المرذولة، وتفتح فيها فتحاً قديراً على أن يهلكها ويحطمها تحطيماً. .

وهؤلاء الذين يتخذون من كتابة القصة تجارة ورزقاً، ويسوقون إلى الميدان كل يوم عملاً جديداً، قد فقد نتاجهم كل فن أو طرافة أو توفيق، ولكنه لم يفقد القراء أو الضالين من المتأدبين، وهذه هي الإساءة التي تؤلمنا ألماً مراً وتحز في صدورنا حزاً موجعاً. .

نعم. . فقد استطاع بعض هذا النفر، أن يجعل من نتاجه المشوش مدرسة يسير تلاميذها على طريقته الملتوية التي لا تؤدي إلى فلاح، فأفسد بذلك الذوق الأدبي ونال

منه، وألحق بالفن خسراناً مبينا.
والذي يقرأ اليوم هذه القصص التجارية التي تحفل بها المجلات والكتب، ناشداً منها تسلية أو إتلافاً للوقت، لا شك يخرج من قراءته وقد خسر وقتاً حقيقياً بألا يبعثر ويعبث به، ويتأثر - بعد ذلك - بما قرأ تأثراً قد ينال من تفكيره، وقلمه، وذوقه جميعاً.
ولسنا نقصد بالقصة التجارية القصة المترجمة وحسب، بل إننا نقصد المترجمة والموضوعة على السواء، لا بل ونعني الموضوعة باهتمام خاص. . فلقد سار كتابها اليوم على طريق لا ندري إلى أية هاوية تصل بهم وبقرائهم، حين أدخلوا في قصصهم نوعاً من
الأسلوب نستطيع أن نسميه (أدباً خليعاً)، وهو مزاج من العامة الرخوة، والعربية المهدمة، والفرنسية التي يتحدث بها خليعات النساء.
هذه هي لمحنة التي تهدد اليوم فن القصة في مصر، وأعترف أني عاجز عن أن أصف لها دواء، فلا أفل إذن من أن أدعو الأدباء والكتاب إلى أن يعلنوا عليها حرباً عواناً تقتلها أو تخرجها عن ميدان الأدب خاسرة. . .
ولا يمنعني هذا من أن أضع أمام أعين الشباب مثلاً للقصصي كيف يكون، عسى أن أبلغ بهذا الذي أقول أملاً طالما نشدته وسعيت إليه، وهو أن يقبل الشباب على ما يستأهل العناية، وأن يعرض عما يصل بذوقه الفني والأدبي إلى هاوية ليس لها من قرار. .
وأعتقد أن القصصي يجب أن يكون جامعاً لجوانب خمسة، غير فاقد منها شيئاً.
وأول هذه الجوانب: أن يكون عربي اللفظ والأسلوب، أديباً قوي البيان مشحوذ القلم واللسان، وأن يكون حريصاً على عربيته معتزاً بها عاشقاً لها أميناً عليها.
وثانيها: أن يكون فناناً بطبعه موهوباً، قادراً على تصوير كل ما يحيط به وبأبطال قصصه من أجواء الطبيعة ومشاهدها وكل ما يغمر نفوسهم من شعور، أو ينتابها من أحاسيس، أو يتكون فيها من عواطف. . وكل ما يجول بأذهانهم من خواطر، أو يحتدم في صدورهم من رغبات.
وثالثها: أن يكون على حظ من الثقافة موفور، واسع الاطلاع مجرباً، قد لمس بيديه كثيراً من الحقائق، وأوغل بنفسه في جوانب الحياة وحواشيها.
ورابعها: أن يكون متنبه الحواس يقظاً، مغذياً لميله الفني، سائراً في ذلك على نهج قويم، لأن الميل الطبيعي لا يورق ويؤتي ثماره بغير مران وتنمية، والفن الجميل يقوم على عمادين من الدراسة والميل، ولا يقوم على واحد منهما. .
وخامسها: أن يتميز بشخصية مستقلة، وأن يكون ذا خيال واسع لا يضيق أمام قلمه وبيانه، وما ينشدانه من بلوغ إلى بعض الحقائق. .
والقصة التي يكتبها كاتبها في أسلوب عربي مبين، والتي تحمل إلى قارئها صوراً صادقة - طبيعية ونفسية - والتي تترجم دقائق الحياة وبسائطها فترفع للذهن قطعة من صميم الوجود، والتي يفيض من بين سطورها جمال يهز مشاعر عشاق الجمال، والتي تنتصر
فيها حقائق على حقائق، هي القصة الكاملة التي نريدها. والتي نرجو أن يوفق إلى إخراجها منشئو الجيل الجديد. .
وبعد - فقد بلغت بحمد الله نهاية البحث، بعد أن تراقصت أمام عيني الخواطر والأفكار، وأرجو أن أكون قد ذهبت فيما قلت مذهباً حقاً، لا يخاصم العرف الأدبي الذي كسبه الذوق الحديث من بلاغة أبناء العرب وتراثهم الفكري، ومن دراسات جديدة وفق فيها أبناء الغرب توفيقاً عظيماً. .
وهذا تاريخ موجز للقصة المصرية العربية، وما أثر فيها فأحسن إليها أو أساء إلى يومنا هذا. . فأما مستقبلها فأخشى أن يذهب بها إلى موضع لا يرضاه المصريون أو الشرقيون. وأرجو - من الأعماق - أن تجد القصة من يرفعه وينهض بها، وهو أمر ليس باليسير، وإنما يحتاج رجالاً أشداء عاملين مخلصين. . ولسنا - والحمد لله - فقراء من الرجال. .

هلال أحمد شتا
بسكرتيرية مجلس الشيوخ

الخيال في الأدبين العربي والإنجليزي
للأستاذ فخري أبو السعود

الخيال - وهو القدرة على انتزاع شتى الصور من الواقع المشاهد واستحضارها في الذهن في أي وقت، والتصرف فيها على مختلف الأشكال والأوضاع - عنصر من أهم عناصر الأدب مهما اختلفت أنصبة الأدباء منه، وهو أسس التشبيهات والمجازات، ولولاه لالتزم الفكر الإنساني الواقع المتحجر أيما التزام.

وللخيال في الأدب وظائف شتى: فالخيال الصحيح يعين الأديب على إبراز الحقائق بشتى الوسائل، ويقدره على سبك موضوعه سبكاً فنياً لا شذوذ فيه، وعلى نبذ ما لا حاجة به إليه من تفصيلات قد تشوه ما هو بسبيله، ويساعده على إضفاء ثوب من الجمال على ما ينشئ.

وللخيال يد طولى في الأدب الإنجليزي؛ فالأديب الإنجليزي غزير العاطفة، إذا جاشت أطلق العنان واسترسل مع خياله، وأثار به منظر طبيعي أو غناء طائر أو ذكرى طارئة أو أثر من آثار الغابرين أو أسطورة من أساطيرهم، أو غير هذا وذاك كله، شتى الخيالات والأحلام والأطياف، وتناهت به عاطفته إلى حدود الأماني وآفاق الماضي والمستقبل، وهذا الاسترسال للخيال إذا أثارته فكرة رئيسية هو مرجع وحدة القصيدة في الإنجليزية.

وهناك عدا هذا الخيال المنبث في كل مناحي الأدب أغراض خاصة من الأدب قوامها وهيكلها الخيال، يجمع أطرافها وينهض بكيانها، ويوثق وشائجها، وهذه هي الملاحم الطوال في الشعر والقصص الممثلة أو المقروءة شعراً أو نثراً، ففي هذه لا يلتزم الأديب الواقع المجرد، بل يفترق عنه افتراقاً جسيماً، ويصوغ من شتى أفكاره وتجاريبه وأمانيه عالماً يجيش بالحياة والحركة، ويموج بالعواطف والنوازع، ويفيض بالجمال والإمتاع.

والأدب الإنجليزي حافل بهذه الضروب القائمة على أساس من التخيل المحض؛ فهناك ملاحم ملتون وهاردي، وفيها يستعرض كلٌّ من الشاعرين مشاغل عصره ويبحث آراءه وينفث لواعج نفسه؛ ومن طبيعة أشعار الملاحم أنها تعج بالمردة والجبابرة والآلهة، وتحفل بخوارق الأعمال وجسائم البطولة، وهي على رغم هذا كله لا تخرج عن عالمنا الإنساني ولا تغفل النفس الإنسانية، بل تظل نوازع تلك النفس ومشاغلها هي الهدف الوحيد الذي يرمي إليه ناظموها، إذ فيها يتخذ أولئك الأرباب والجبابرة طبائع الناس وميول الأفراد وإن

فاقو البشر قوة وعظماً، ومن هنا يتأتى للشاعر أن يبسط آراؤه في ميدان متسع وإلى مدى فسيح، فالخيال هنا لا يعدو الحقيقة، وإنما يوضحها أحسن توضيح، فضلاً عما يمتع النفس به من قصص متسق وجمال وجلال.

وفي الأدب الإنجليزي مالا يعد من قصص في الشعر أو النثر ممثلة ومقروءة. وقوام القصة بطبيعتها الخيال، وإن تراوح نصيبها منه؛ فهناك القصص الواقعية التي تلتزم الحقيقة إلى أكبر حد مستطاع وتصور المجتمع الحاضر تصويراً دقيقاً، كقصص هاردي ودرامات جالزورذي؛ وهناك القصص التي ترمي إلى أغوار الماضي وتدور حول عظيم من رجال التاريخ أو الأساطير، من طَموح يبيع نفسه للشيطان ليعينه على مطامحه، إلى دائن يتقاضى دينه من لحم غريمه ودمه، كما في روايات شكسبير ومارلو وغيرهما؛ كما أن هناك القصص التي تتطاول إلى آفاق المستقبل، وفارس هذه الحلبة ولز.

هذه الأغراض والأوضاع التي سداها ولحمتها الخيال غير ظاهرة في الأدب العربي: فلا قصص ولا ملاحم. والمقامات وأشباهها إذا زج بها في هذا المجال بدت هزيلة عجفاء تدعو إلى السخرية، فأولى بها أن تظل حيث أراد كاتبوها وقصدوا بها من غرض بعيد عن القصص. والأثر الوحيد الذي يعتد به - بل يفتخر به - في هذا الباب رسالة الغفران: ففيها من آثار الخيال ومتعاته ما لا نظير له في الأدب كله. على رغم اكتظاظها بأخبار الأدباء ومسائل الأدب والنحو.

وفضلاً عن انعدام هذه الفنون الخاصة فإن نصيب الأدب العربي عامة من الخيال ضئيل إذا قيس بنصيب الأدب الإنجليزي منه، فالأديب العربي كان شديد الحرص على الواقع يلزمه به موضوعه وأفكاره، شديد الاختصار في مقاله وتعبيره عما يحس، يعبر عن تلك

الأفكار أشتاتاً كلما عنَّ له حافز إلى الكتابة، لا يدخر أفكاره ولا يربط منها حاضراً بماض، بل يرسلها على السجية أبياتاً محكمة النسج موجزة البيان. فالفكرة التي تخطر للأديب الإنجليزي فيحوك حولها قصة تربط ما يتصل بها من أفكار، وتنشئ حولها شتى الصور المنتزعة من الحياة، يكتفي الأديب العربي بصوغها في بيت شعر محكم يذهب مثلاً ثم (ينام ملء جفونه).

فكبح عنان الخيال هذا سبب انعدام القصص وكثرة الحكم والأمثال في الأدب العربي. وهو كذلك سبب توسط طول القصائد وعدم تراوحها بين الملاحم الطوال والمقطوعات الصغار، ثم هو سبب اكتظاظها بالأفكار لا يربطها رباط جامع من خيال وثيق.

ولا ترجع ندرة آثار الخيال في الأدب العربي إلى ضعف ملكته بين الشعوب العربية، فإن كثيراً من تلك الآثار تدوولت في العامية دون الفصحى بين الشعوب الناطقة بالضاد، وإنما ترجع تلك الندرة إلى التقاليد الجامدة الشديدة التي تسلطت على الأدب العربي لظروف خاصة سبقت الإشارة إليها في كلمات ماضية: من محاكاة للأدب القديم - وهو نادر آثار الخيال لأنه أدب بدائي - ومجانبه للآداب الأخرى ولا سيما الأدب الإغريقي.

وليس أدل على أثر الثقافة الإغريقية في تربية الخيال من أن إطلاع العرب على جمهورية أفلاطون حدا ببعض فلاسفتهم إلى محاكاته في تخيل الدولة المثلى، فكان من ذلك (المدينة الفاضلة) و (حديث حي بن يقظان) وغيرهما، مما هو داخل في موضوع الفلسفة لا الأدب، فلو درس العرب دب الإغريق دراستهم لفلسفتهم لكان ذلك أثره المحتوم.

فالأدب الإغريقي حافل بالخيال البعيد المرامي، مليء بالعوالم الزاخرة بشتى العظائم والمحاسن، واغتراف الأدب الإنجليزي من مناهله هو الذي أمده بفيض من الخيال لا يفنى: وصَّح أمامه مذاهب التخيل وأشكاله، وأمده بالخرافات والأقاصيص العديدة تحاك حولها أعمال الخيال في الشعر والنثر، وتفعم بصور الجمال وترصع بالآراء النقدية والنظريات الثاقبة في شؤون العالم وأحوال المجتمع، وتلك لعمر الحق مادة الأدب وصميمه.

أما الأدب العربي فظل الواقع قبلته والحاضر ديدنه، وحين ضرب في مرامي الخيال في الغزل الاستهلالي والمكرمات المصطنعة ينسيونها إلى الممدوحين والمرثيين إنما كان يفعل ذلك مطمئناً إنه يحذو حذو المتقدمين ولا يخرج عن الحدود المرسومة للأدب في عهودهم، فجاء ذلك الخيال غثاً ممجوجاً لا يتجاوز جانب الأوهام والتلفيقات إلى جانب التعبير الصادق عن الحقيقة العميقة.

وبينما أساغ الأدب العربي هذا الخيال الغث المتكلف نبذ ضروب الخيال المطبوع الصادق الذي يمت إلى الحياة والذي هو عماد القصة النثرية والشعرية، فترفّع عن ذلك تاركاً إياه للعامة يروون به غلتهم، تلك الغلة التي يشعر بها كل إنسان وتنزع به إلى القصص وإلى الخيال.

فخري أبو السعود

دانتي أليجييري - 6

والكوميدية الإلهية

وأبو العلاء المعري ورسالة لغفران

تتمة البحث

الإسراء والمعرج

اختلف المؤرخون ومفسرو القرآن الكريم في هذه الأساطير الكثيرة التي زخرف بها كل من حادثي الإسراء والمعراج، ولم يشأ الثقات منهم أن يتورطوا في تصديق كل ما عُزي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قاله؛ ورجح بطلان هذه الأحاديث اختلاف روايتها بالزيادة والنقصان في مختلف كتب التفاسير والسِّير. وقد وقف منها الإمامان - البخاري ومسلم - موقفاً حازماً فلم يثبتا في صحيحهما إلا هذا الحديث المشهور القصير الخاص بزيارة جبريل للنبي وركوبه (ص) البراق ثم الإسراء به فمروره ببعض قوافل العرب ثم بلوغه بيت المقدس، فصلاته بالأنبياء ثمة، فعروجه إلى السماء الأولى وفيها فلان النبي وإلى الثانية وفيها فلان، حتى يبلغ سدرة المنتهى.

ولعل أقدم المصادر التي أوردت زيادات على حديث البخاري ومسلم، ويبدو عليها أثر شديد من الصنعة والتكلف، هي سيرة ابن هشام التي نسج على منوالها كتاب السير الآخرون. وقد رفض صاحب الكشاف أن يثبت في تفسيره شيئاً من تلك الزيادات، ولكن مع الأسف الشديد، تورط مفسرون أجلاء مثل الطبري والألوسي وابن كثير وغيرهم فرووا كل ما وضع الوضّاعون وزخرف المبطلون من حواشٍ وتهاويل عن الإسراء والمعراج ثم تركوا كل ما رَوَوْا من غير ما تمحيص ولا تزييف، فكان عملهم تزكية صامتة لهذه الترهات التي لم تنفرج شفتا الرسول عن حرف واحد منها.

ولقد بدا لنا ونحن نقارن ما جاءت به أسطورة المعراج الموضوعة بما جاء في كوميدية دانتي؛ ولا سيما في الجزء الخاص بجهنم في كل منها، أن يكون هؤلاء الوضّاع قد سطوا على خيال دانتي نفسه فانتحلوه لحادث المعراج، ورَوَوْا، وليتبوءوا مقعدهم من النار، عن الرسول الكريم هذا الحديث الطويل عن فئات المجرمين الذين رآهم يتعذبون بمختلف ألوان

العذاب في دركات السعير. . . خيل إلينا أنهم سطوا على دانتي، ولكنا عدنا فوجدنا هؤلاء الوضاع يسبقون دانتي بمئات السنين، فأسقط في أيدينا، وأوشكنا نقر القائلين بأن دانتي تأثر في كوميدياه بأسطورة المعراج الملفقة، بعد إذ نفينا ذلك، وهنا، رأينا المخرج صعباً، وفي فشل البحث الذي أخذناه على عاتقنا هوان علينا؛ ولكنا ما كدنا نلخص الجزء السادس من الأنيد للشاعر اللاتيني الخالد فرجيل حتى حصحصت الحقيقة أمام أعيننا، وحتى أيقنا أن كلا من دانتي ووضاع الأحاديث الملفقة عن حادث المعراج كلٌّ على فرجيل وعيال على خياله الخصب وتصوُّره العميق.

والمحققون من علماء المسلمين والمستشرقين على السواء على أن الترهات الكثيرة والزخارف الباطلة التي نقرؤها في غضون كتب التفسير (كالخازن وغيره) هي إسرائيليات انتقلت إلى الإسلام باعتناق بعض اليهود لهذه الحنيفية الغراء، فهم عندما قرءوا في القرآن أسماء أنبيائهم وبعض الحوادث المشهورة الواردة في كتبهم راحوا من تلقاء أنفسهم يقصون قصصهم الإسرائيلية على أنها إسلاميات يقرها كتاب الله وحديث رسول الله، ومن هنا هذا البهرج الكثير الذي دخل على القصص الإسلامي، ومن هنا أيضاً ضياع الحقيقة بين ما قال الرسول الكريم وما لم يقل.

على أننا لا ندري لماذا يكون كل ما دخل على الرواية الإسلامية إسرائيلياً ولا يكون أشمل من ذلك؟ لم لا يكون هندياً مع من اعتنق الإسلام من الهنود، ومصرياً مع من اعتنق الإسلام من المصريين، وفارسيا مع الفرس وآشوريا مع الآشوريين ويونانيا مع اليونان، ثم لم لا يكون لاتينيا مع من اعتنق الإسلام من أمم البحر الأبيض المتوسط، وفيها أسبانيا وصقلية وجزر كثيرة من جزر هذا البحر؟!

لقد ازدهرت الثقافة الإسلامية في فارس والعراق والشام ومصر وتونس والمغرب والأندلس وصقلية، بل هي كانت تمتد إلى أبعد من ذلك، إذ أثبت المحققون أنها كانت تغزو فرنسا وسويسرا وبعض المدن الإيطالية، ولم تكن ثقافة إسلامية بحتة، بل كانت خليطاً عجيباً من أشتات الثقافات، كانت مزيجاً أقله إسلامي وأكثره محلي بحسب الإقليم الذي تتفشى فيه. ومن الإرهاق أن تفرض الثقافة الإسلامية نفسها على الأمم المغزوة دون أن تتأثر هي بثقافات تلك الأمم، ونحن نعلم أن رومة حينما فتحت أثينا عسكرياً كانت أثينا

تتوثب لفتح عدوتها ثقافيا، وقد تم لها ذلك بأسهل مما تم الفتح العسكري لرومة فأصبح الأثينيون أساتذة للرومان في بضع سنين، ولم يبدأ العصر الروماني الذهبي بالفعل إلا بعد أن تلقحت أذهان الرومان بهذا اللقاح اليوناني العجيب.

والمسلمون أيضاً. فعصرهم الذهبي لم يكن عصر النبي صلى الله عليه وسلم ولا عصر الخليفتين أبي بكر وعمر، ولا عصر معاوية أو عبد الملك بن مروان أو الوليد بن عبد الملك، بل كان ذلك في عصر هارون وابنه المأمون في الشرق، وفي عصر عبد الرحمن الناصر في الغرب. أما العصور الإسلامية قبل ذلك فقد كانت عصور دعوة وجهاد في سبيل الله وتعليم المسلمين الجدد تعاليم الدين الجديد، فلما استقر له الأمر في البلاد المفتوحة جاء دور الحضارة وجاء دور التفكير الهادئ، وجاء دور التلقيح للذهن الإسلامي بثقافات الأمم المختلفة التي دخلت زرافات في دين الله، فأثرت في الآداب الإسلامية كما أثر الإسرائيليون سواء بسواء.

وقد رجعنا إلى عشرات من المصادر علنا نوفق إلى أصل لأحاديث المعراج الملفقة في المائة سنة الهجرية الأولى فلم نهتد إلى شيء منها، وأكبر ظننا أنها لم تكن قد لفقت بعد، وأكبر ظننا أيضاً أن الأمم اللاتينية لم تكن قد تحرشت بالمسلمين في هذه الفترة. . . أما بعد أن عرفت هذه الأمم الإسلام والمسلمين فقد راجت السير عن المسلمين وعن نبي المسلمين وعن الفتوح الإسلامية، وقد ازدحمت هذه السير بالأخيلة الرائعة والقصص الممتع الجميل الذي يستحيل أن يكون إسلامياً بحتاً، لأن نظرية رومة (فتحت أثينا عسكرياً وأثينا فتحت رومة ثقافياً) لابد أن تنطبق على المدينة من جهة، وعلى فارس والشام ومصر والأندلس من جهة أخرى. وما أشبه الرومان بالعرب وما أشبه الأعاجم بالأثنيين في تلك العصور السحيقة المتقادمة!

ولسنا نزعم أن وضاع الأحاديث الملفقة عن حادث المعراج قد انتحلوا ما جاء في الأنيد اعتباطاً، بل هم انتحلوه كما فعل الإسرائيليون حينما انتحلوا كل ما جاء في كتبهم أو أكثره فزوقوا به القصص الإسلامي. وإن مقارنة سريعة بين الجزء السادس من أنيد فرجيل وبين الروايات التي نَسَّقها وجعل منها قصة المعراج العالم المسلم نجم الدين الغيطي (999هـ) لتجعلك تتأكد صدق استنباطنا، وتتفق معنا على أن الأدب اللاتيني، ومنه أدب فرجيل، قد

صبغ ناحية هامة من الأدب الإسلامي لم تكن مزدهرة قبل ذلك. ولولا مخافة الإملال لسقنا لك هذه المقارنة، فارجع أنت إلى الخلاصة التي أعطيناكها في العدد السابق للكتاب السادس من الأنيد، ثم ارجع إلى سيرة ابن هشام أو تفسير الطبري أو قصة المعراج لنجم الدين الغيطي تجد أننا لم نبالغ قط في كلمة مما قلناه.

صور تأثر بها دانتي من القرآن الكريم

كانت هزائم المسيحيين المتوالية في الحروب الصليبية والتي انتهت بفشل هذه الحرب تذكي نيران البغضاء والحنق في قلب دانتي على الإسلام والمسلمين، وقد رأينا كيف بلغ به عَتَهُهُ وضيق عطنه أن زج بالرسول صلى الله عليه وسلم وبابن عمه علي وبالسلطان صلاح الدين في جحيمه، وكيف جعلهم مع الفجار وأهل الفسق والمهرجين في درك واحد. وليس معقولاً أن تنتهي هذه الحرب دون أن تكون لها نتائجها من احتكاك الأذهان بين الشرق والغرب ومن إلمام الغرب بشطر كبير عن الإسلام ونبي المسلمين وكتاب المسلمين، والذي يتلو ما جاء في السور المكية من نذير شديد وأوصاف ممتعة لجهنم ودركاتها لا سيما في سور الأعراف والصافات والواقعة وجزء عم يروعه تأثر دانتي بالقرآن الكريم فيما ذكره في الـ (الجحيم)، فبرغم وثوقنا من أنه سار على درب فرجيل في الجزء السادس من الأنيد في هذا الجزء من كوميدياه إلا أننا ندهش لكثير من وجوه الشبه بين ما جاء في جحيمه وما جاء في القرآن من وصف جهنم وأهلها. ونحن نحيل القارئ هنا أيضاً على السور التي ذكرنا وعلى الملخص الذي عملناه لجحيم دانتي.

ولا ريب أنه تأثر أيضاً بالقرآن الكريم في فردوسه، ولكنه أثر غير عميق، إذ كان ينهج في جنته منهاج فرجيل في الأنيد، وبحسبنا ما قدمنا من خلاصات.

دانتي والأدب اليوناني

المشهور عن دانتي أنه لم يكن يعرف اليونانية، ولكن هذا لم يمنعه من الإطلاع على الأدب اليوناني اطلاعاً وإن يكن أبتر قليل الغناء إلا أنه كان ذا أثر كبير في تكوينه الأدبي. ومما لا شك فيه أن دانتي قرأ ما قرأ من أدب اليونان في التراجم التي قام بها مواطنه الشاعر الكبير أوفيد تلك التراجم الخالدة التي حفظت لنا جانباً كبيراً من أساطير الإغريق وتراثهم

الأدبي. ولعل رحلة هرقل ورحلة أرفيوس الموسيقي إلى الدار الآخرة كانتا ذواتي أثر كبير أو قليل في دانتي حينما كتب كوميدياه، ففيهما وصف بارع للجحيم نسج على منواله فرجيل في الأنيد.

دانتي ورؤيا يوحنا اللاهوتي والأدب المسيحي

وإذا كان دانتي قد تأثر بكل ما ذكرنا من هذه الآداب المتفرقة، فمما لا ريب فيه أنه تأثر بالأدب المسيحي عامة، والعهد الجديد خاصة، ونخص من العهد الجديد آخر أسفاره (رؤيا يرحنا اللاهوتي)، فهي رؤيا جميلة حقاً، وفيها من ألوان الخيال (الخيال الأدبي طبعاً) شيء كثير، ونحسب أن دانتي قد اقتبس الفصل الخاص ببحيرته في جحيمه من

نفس المنظر الخاص بالبحيرة في هذه الرؤيا، بل نحسب أن الوُصّاع الذين لفقوا أحاديث المعراج الموضوعة قد دسوا هذا المنظر في أسطورتهم من رؤيا يوحنا نفسها. بيد أنه ينبغي ألا نغالي في مقدار تأثر دانتي بهذه الرؤيا كما ذهب إليه بعض إخواننا من الأدباء المسيحيين بل ربما كان تأثر دانتي بأخيلة القرآن (نقصد دائما معنى الكلمة الأدبي) أبعد مدى من تأثره بأخيلة الإنجيل، لأن القرآن وصف جنة النعيم وشقاء الجحيم بما لا يسمو إليه خيال شاعر مهما تفنن وأبدع، ولأن دانتي كان يرد بكوميدياه على أعدائه خاصة وأعداء المسيحية من المسلمين في زمانه عامة، ولذا كان يحسب أنه يحارب بسلاح أعدائه.

خاتمة

هذا ما عن لنا أن نقول في دانتي وأبي العلاء، وشتان بينهما! شتان بين أعمى المعرة الساخر الملحد الفيلسوف المتفنن القانع بالعدس والفول والتين والخيار من لذائذ الدنيا الخاتلة، وبين دانتي السني المتدين المتعصب للكنيسة ولو أذلت رومة وطنه ووضعت أنف فلورنسا في التراب، الساخط على مواطنيه لأنهم حرموه المناصب التي تدر عليه العسل واللبن، المتبرم بزوجه، الناقم على أطفاله، المقلد لغيره في كل خطوة من قصيدته.

ليس ضيراً إذن على أبي العلاء ألا يكون دانتي قد قلده ونسج على منواله، بل الضير كل الضير هو في مقارنة قصيدة دانتي برسالة أبي العلاء، فلقد كان دانتي عالة على فرجيل في الكوميدية الإلهية كما شهدنا، ولكن أبا العلاء لم يكن عالة على أحد، بل كان الشاعر ذا

الخيال الخصب والفكر الجبار والقلب المتمرد على الأديان وما تقول به من جنة ونار. هذا ولا ننكر أن أبا العلاء كان خضعاً في رسالته لتداعي المعاني كما ذكرنا في الكلمة الأولى من هذا البحث.

د. خ

توكيد الذات

للأستاذ أديب عباسي

لمحت في ذات صباح، وأنا في الشمس انفض عن نفسي بقية من ليل، هرًّا مهزولا يسير متوجِّسا متسرِّقا على مقربة مني؛ ولم يطل بهذا الهرّ ارتيابه وتوجسه، وتحقق له سوء ظنِّه بكلاب الحي، إذ لم يمض إلا قليلاً حتى أقبل عليه من إحدى الجواد القريبة كلب بطِر شديد الجلب شديد العزم على أذيته، كأن له ترة قديمة عنده وحسابا ينوي وفاءه.

وأدرك هرنا أي شيء لا بد لاحق به، وأدرك كذلك أن الهرب ليس بمنجيه ولا مخلصه من هذا الذي أخذ عليه الطريق وسد المهرب. فاستدار في الحال وازبأر وهرَّ هريراً وأبدى عن أنيابه، وأتأر بالخصم بصره، لا يلتفت يمنة ولا يسرة، وتنفش شعره، وتقوس ظهره، وشال ذنبه، ووقف يتحفز.

ولم يفت كلبنا المعتدي مغزى ذلك جميعاً، ووقف تلقاءه يرمقه ويروزه ببصره ملياً، حتى إذا بدا له أن الهجوم من الناحية الأممية - وقد حصنتها مخالب مرهفة وأنياب حديدة - قد لا يخلو من خطر أكيد، انفتل منسلا كدأب الكلاب، وباغته من الخلف مباغتة استطار لها لبُّه وانخلع قلبه. وأقبلت كلاب الحي تتعاوى من بعيد ومن قريب، وكلها في البغي والاثم سواء، فكأنها وكأنه ما عناه الشاعر حين قال:

تكاثرت (الكلاب) على خراش ... فلا يدري خراش ما (يصدُّ)

وهممت عندها أن أقوم وأنجد هرنا المسكين وأذب عنه هذه العرجلة الباغية من الكلاب، إلا أن هرنا لم يدع لي لأتدخل، وحلَّ الإشكال بطريقة مسددة من إلهام الطبع، وهداية الغريزة، واستعداد الفطرة، إذ عمد إلى هذه الكلاب يستلُّ سخيمتها ويزيل شرَّتها بالاستسلام لها والكف عن قتالها، ولسان حاله يقول:

ولو كان (كلبا) واحدا لاحتملته ... ولكنه (كلب) وثانٍ وثالث

ولم تنتظر الكلاب منه حركة كهذه، فوجمت حياله تفكر ماذا هي صانعة بعد الذي رأت من استسلامه وانقطاعه عن كل مظهر من مظاهر الخصومة والدفاع، وكأن كلابنا فهمت عنه ما أراد وفطنت إلى مغزى حركته تلك، وأدركت دلالتها ومعناها، فابذعرَّت

قانعة بما هيأ لها هرنا المغلوب من معاني الفوز والغلب؛ وقام هرنا وسار لطيَّته يرهف سمعه ويقلِّب
بصره ذات اليمين وذات الشمال، ويُعد نفسه مرة ثانية لتمثيل الدور نفسه إذا أحوجه الأمر.
وفكرت ملياً فيما شهدت وطفقت أسائل نفسي: أنحن هنا أمام ظاهرة خاصة من ظواهر الحياة قاصرة على الكلاب وخلافها من ذوات الظفر والناب، أم نحن أمام ظاهرة عامة شاملة من ظواهر الحياة تشمل الإنسان والحيوان جميعاً ويخضع كافة الأحياء لحكمها وقيودها؟
ولم يطل أمد الهجس والارتياب، وأيقنت بعد القليل من التدبر أنه حالة عامة شاملة كأعم وأشمل ما تكونه حال من أحوال الحياة وظواهرها.
وتسأل: ما تلك الظاهرة، وما طبيعتها؟ ولا نطيل فهي مما وصفنا ورأيت ما يمكن أن ندعوه (توكيد الذات) وإبراز الشخصية. فكلبنا المعتدي الأول لما هاجم الهرّ بلا عداوة سابقة أو حقد قديم، إنما فعلها ليثبت من قدرة نفسه وحدة أنيابه وقوة عضله، وليؤكد لنفسه أنه ذو غلبة وبطش، ومثله في ذلك الكلاب الأخرى، وعليه لما رأت الهر يتخاذل ويتنازل لها جميعاً عن كل حق من حقوق توكيد الذات غادرته ولم تؤذه.
وأنت ترى مما أثبتنا هنا من عمل الكلاب أن هذا الدافع إلى توكيد الذات في الحيوان دافع فطري غريزي لا يخرج بمجمله عن معنى القتال المباشر الذي تمارسه جميع الحيوانات على اختلاف طفيف بينها في أساليبه وطرائقه.
أم في الإنسان فيتخذ هذا الدافع من توكيد الذات وتقريرها شتى المظاهر ومختلف الأشكال والصور، ولن تخطئ مظاهره - في لون من ألوانه - في الطفل واليافع والشاب والشيخ جميعاً.
والطفل يبدأ سلوكه يتأثر بهذا الدافع من العام الأول في عمره، وكلنا يعرف جيداً ما هي الأساليب التي يصطنعها الصغار لينبهوا إليهم الكبار ويستجلبوا رضاهم وتقديرهم، ومن هنا كان الفهم الصحيح للطفولة يوجب على المربين الانتباه الشديد لهذا الدافع والانتفاع به في توجيه الصغار توجيهاً صالحاً وتحريضهم على الإجادة والتبريز في حدود إمكانهم وكفاياتهم. وفي الحق ليس أقتل لروح الطموح في الطفل ولا أدعى لفشله من أن يغفل الآباء والمربون هذا الطور الدقيق في حياة الطفل ويتركوه وشأنه بلا تشجيع ولا استحسان حيث يستحقان، أو يعكسوا الأمر عليه ويملئوا سمعه بالنقد ويقابلوا حماسته بالفتور وثقته
من نفسه بالتشكيك والريبة. ولا نغالي إذا نحسب أن أكثر الفاشلين في الحياة هم ممن كانت طفولتهم نزاعاً بين إهمال الوالدين وقسوة المحيط وبين ما ركِّب في نفوسهم وغرس في طباعهم من ميل جامح قوي لتأييد النفس وتوكيد الذات. وكم من طفل أعجزه أن يحوز رضى البيئة وتقدير الوالدين بأساليب مقبولة ووسائل سليمة، فراح بعدها يصطنع أغرب الوسائل وأخطرها في حاضر حياته وآتيها، كأن يعمد إلى نفسه يؤذيها أذى بليغاً أو يعمد إلى الغير يؤذيه مثل ذلك الأذى، أو كان يعمد إلى الآنية يحطمها والثياب يمزقها ولسان حاله يقول: هو ذا أنا أثبت كياني وأؤكد اقتداري وكفايتي بما ترون إن كان لا يعجبكم ولا ينبهكم إلي إلاّ مثل ما تشهدون.
وليس من المتعذر أن تتصور حال مثل هذا الطفل، إذ يشب، كيف تكون. وليس من الصعب أن تتبين في مثل هذه الأعمال الشاذة أولى بوادر الإجرام والخروج على النظام وأوضاع الاجتماع. يحكى أن أفراد الشرطة في أمريكا ألقوا القبض، بعد لأي، على لص خطير اعتاد أن يتصدى للقطارات ويسلبها، واقتادوه إلى قاعة التحقيق. وبعد استجواب سيكولوجي دقيق دهش المحققون إذ استبان لهم أن هذا اللص كان في طفولته وحداثته كأشد الناس حياءً وخجلاً. ولما سئل فيم إصراره على أعمال العنف والإجرام أجاب بأنه إنما يفعلها ليؤكد لنفسه أنه ليس من الحياء وخور العزيمة كالذي يحس ويشعر.
هذا ويجب ألا يفوتنا أن معظم أنظمة التربية الحديثة مبنية على هذا الميل مستهدية به. فنظام الصفوف والمباريات والجوائز وما إليها من وسائل التحضيض والتشجيع تتهدى هذا الميل وتستغله. وليس من السهل أبداً أن تستبدل بهذا الدافع للعمل والإغراء به دافعاً آخر من ميول النفس وأهوائها.

ويشب الطفل فيجد نفسه بين الأمر الواقع من جد الحياة وبين هذا الميل القوي الذي لا يغفل ولا يهادن، ويجد نفسه بين العدد الذي لا يحصى من مثبِّطات العزم ومفترات السعي وبين ما أجَّج في نفسه وغرس في طبعه من حبِّ الغلب وشهوة الفوز وبروز الشخصية. فإذا أسعدته الهمة ولاءمته الظروف وسار سيرة ناجحة في الحياة نشأ نشأة بعيدة إجمالاً من شذوذ الطبع وغرابة الخلق وما يصاحبها من شذوذ العمل وانحراف السلوك. أما إذا عاندته الظروف وخانته الكفاية فهناك ما تشاء من شذوذ الطبع وغرابة السلوك. ولدينا صنوف
وصنوف ممن ينشئون هذه النشأة الشاذة في الحياة.

فالمتقشفون هم إجمالاً نفر فشلوا في الحياة بعد أن خوَّضوا فيها، أو قدروا الفشل قبل ذلك، فاختصروا على أنفسهم العمل ووقفوا في أول جادة الحياة وبداءة السعي دون أن يحاولوا مضياً في الطريق وزيادة في السعي. لقد أعياهم أن يغلبوا بيئتهم ويتغلبوا على ضعفهم، فانقلبوا على أنفسهم - وهي أهون شيء عليهم - وأحالوا عليها بالخصومة وأضووها بالحرمان وتعوَّضوا بخصومتها عن خصومة المحيط والأضداد من الخارج. ولسنا بالطبع نعزو إلى هذا العكس في ميول الاستعلاء ورغبة البروز وتوكيد الذات جميع نماذج التقشف وإنكار الذات المشهودة، إذ لا ريب أن من حوادث التقشف ما لا يرجع في بواعثه إلى فشل المرء في الحياة كالذي يُرى من تقشف أناس قد تهيأت لهم أسباب النجاح في الحياة وذاقوا لذات الفوز والغلب ولكنهم مع ذلك آثروا حرمان الذات ومطاردة اللذات. على أننا نعود ونقرر أن معظم حوادث التقشف هي في مجملها وسيلة العجز في تقرير الشخصية وتوكيد الذات.

والحسد - كذلك - تعبير صامت واتجاه سلبي معكوس لدافع توكيد الذات. والحسد ينشأ ويتأصل في النفوس كلما تسامت مطالب المرء وبعدت غايته ثم أعجزته القدرة وعاكسه المحيط فلم يسم، عملاً وواقعاً، إلى مستوى مطالبه. ومن هنا يحسب الأخلاقيون وعلماء النفس أن الحسد ظاهرة عامة شاملة بين الناس إذ كان النجاح المطلق الذي يرضى عنده المرء عن كل شيء في الحياة مطلباً صعباً وغاية لا يسمو إليها جهد بشري. ويخيل إلينا أنه لو يسر لامرئ من الناس كل أمانيه ومهدت في سبيله جميع الصعاب ودمثت جميع العقبات وأنيل كافة ما تتشهاه النفوس وتصبو إليه، لفكر بجد وحرقة زائدة في أن ينال كمنزلة الآلهة من خلود مطلق وعلم كامل وقدرة فائقة. ومرجع ذلك أن المرء بطبيعة تكوينه النفسي والفكري مثالي يكره النقص أبداً ويتطلب المزيد والكمال، والكمال لا حد له ولا انتهاء. وهذا لا ريب يفسر لنا لماذا ينسينا نجاحنا الكبير نجاحنا الصغير، ولماذا ينسينا فشلنا الأكبر أبداً فشلنا الأصغر.

والرجل الحساس هو الآخر صنف خاص من الناس فشل في أن يؤكد نفسه ويرغم المحيط على اعتبارها وتقديرها بالقدر القائم له منها في خياله، فغدا - لذلك - سيئ الظن بالناس
كثير الارتياب لهم، وصار لكل حركة من حركاتهم معنى الاجتداء عليه والانتقاص له والزراية به، وغدا - كذلك - قليل الاحتمال دائم النفرة سيئ التقدير.

ومثل الحسَّاس - على اختلاف طفيف - الرجل الحيّ. هذا إذا فشل في توكيد نفسه وتمييز شخصه، قام في وهمه أنه امرؤ لا يصلح للعمل ولا يقوى على الجهاد، فانزوى منطوياً على نفسه عاكفاً على همومه مجترّاً لآلامه. إلا أن بينه وبين الحسَّاس فرق أن الحسَّاس يعالن الناس غالباً بما يقدر من سوء رأيهم فيه ويحتجُّ على ذلك ويدافع عن نفسه، بينما الحيُّ في غالب أمره لا يفعل شيئاً من ذلك بل يتجرع آلامه صابراً متحاشياً، بقدر الامكان، أن يجيء والناس بسبيل واحد. ومرجع الفرق هنا إلى أن الحساس له رأي طيب في نفسه بالإضافة إلى ما يتصور من سوء رأي الغير به، بينما الحيُّ يسيء الظن بذاته ويعتقد أن الناس لهم فيه مثل رأيه في نفسه.

ينضاف إلى هذه المظاهر المعكوسة من توكيد الذات مظهر آخر هو مظهر الإسراف في الغرور وتقدير الذات. وهو ينشأ إذ يشبُّ المرء - لأسباب عدة من إساءة التوجيه - على اعتقاد قوي أنه امرؤ فوق الناس، وأن من سخافة الأقدار وغفلة الزمان وجور البيئة أو يولد بين الناس، يعيش كما يعيشون، فيشقى كما يشقون وينعم كما ينعمون ويكتفي من الأماني والآمال بمثل ما يتمنون ويؤملون، ويخيَّل إليك كأنه عاتب على ربه الذي خلق من الناس غيره!!

هذا وقد يتخذ الغرور مظهراً آخر غير مظهره العام حده التشدُّق بالكمال ونقد الزمان والتبرم بالبيئة، ويسير في اتجاه معاكس أو موارب كالذي يُرى في نفرٍ من الناس لم يستطيعوا أن يفرضوا أنفسهم على المحيط ولم يستطيعوا أن يجاهروا بكمالهم ويعالنوا الناس بكفاياتهم واقتدارهم (كما يقدِّرون لأنفسهم)، فانقلبوا - لذلك - صنفاً متواضعاً من الناس لا يهمهم - ظاهراً فقط - أن يتلبَّسوا حالات زريَّة وينتقدوا أنفسهم على مشهد ومسمع من الناس. وقد تغشُّ غير الفطن مثل هذه المظاهر حتى ليعتقد الملاحظ السطحي الذي لم يسبر غور الأمور أن هذه المظاهر تصدر عن عقيدة صادقة بالنفس وإخلاص في التقدير. إلا أنها مظاهر - على كل حال - لا تخفى على المتبصِّر الذي لا يخدعه ظاهر الإخلاص وجودة التمثيل. يحكى أن سقراط رأى فتى أثينياً موسراً يعتلي منصة الخطابة

في أسمال بالية وثياب مهلهلة، فنظر فيه سقراط متفرِّساً زمناً ثم خاطبه بلهجة صارمة: أيها الأثيني الشاب، إني لأكاد أرى الغرور والكبرياء ينزَّان من اهابك، ويطلاَّن من وراء كل خرق ورقعة من ثيابك!

تلك بعض المظاهر المسرفة لدافع توكيد الذات. وأما مظاهره الطبيعية التي لا إغراب فيها ولا شذوذ فتقع في أشكال وألوان عديدة لا تقل عن مظاهر الشذوذ والغرابة.

من ذلك هذا الميل العام الشامل لدى جميع الأمم والأجناس إلى التقسيم والتدريج وتأليف الطبقات يتميز بعضها من بعض ويعلو بعضها بعضاً، ثم هذا السعي الدائب والاشرئباب الدائم من الناس إلى تغيير الأمكنة وتبديل المنازل حيث يستحب التغيير والتبديل، ثم ذلك الجمود على ذات الحال والحرص على البقاء في ذات المنزلة حيث لا يشتهى التغيير والانتقال، ولعله ما كان يتحوَّل أبناء الطبقة من الطبقات ولا يتزحزحون عن محلهم صعوداً ولا هبوطاً لو خلا الناس من حافز توكيد الذات والاستباق إلى الأمكنة العلية والمنازل البارزة.

وكما يقع التزاحم على المنازل الرفيعة بين الطبقات يقع كذلك بين الأجناس والأمم والممالك والدول. ولعل دافعاً قوياً من دوافع الحروب كان يزول لو زالت من النفوس رغبة الامتياز وهوى الاستعلاء.

وفي الناحية الفردية يظهر الميل إلى توكيد الذات توكيداً طبيعياً مقبولاً في مظاهر عديدة؛ منها رغبة التميز والتبذير في الاكتشاف والاختراع والإبداع الفني والأدبي؛ ومنها رغبة البروز والامتياز في مجال الاقتصاد وجمع الثروة؛ ومنها حب الغلب والانتصار في ميادين الرياضة البدنية من محاضرة ومصارعة وملاكمة وخلافها؛ ومنها - كذلك - حب الانتصار في ميادين الرياضة العقلية والترويح عن النفس بالنكتة البارعة والفكاهة الطليقة والهزل المستجد؛ ومنها حب التبريز والسمو في ميادين القيادة الاجتماعية؛ ومنها شهوة التغلب والقهر في ميادين الحب والغزل، ومنها خلاف هذا شيء كثير.

فرغبة الامتياز وشهرة البروز في ميادين العلم والاكتشاف والاختراع، وفي ميداني الإبداع الفني والأدبي، هي في أول دوافع الإنشاء والإبداع العلمي والفني. وليست الرغبة في الاختراع والاكتشاف، وفي الإبداع الفني ناجمة فقط مما ركب في النفوس من غرائز

الاستغراب وحب الطرافة وما يكون من تسامي دوافع الغريزة الجنسية من مستواها الحسي إلى مستوى أعلى وأجل، إنما هي ناجمة إلى حد كبير مما رُكِّب في الطباع من ميل قوي إلى تقرير الذات والتغلب على الصعاب والعقبات.

وفي مجال جمع الثروة وحشد المال مظهر توكيد الذات ما تراه من عدم وقوف الناس في جمع الثروة عند الحد الذي ييسر جميع مطالب العيش وأسباب الرفاه والدعة. فالمرء يعمل أولاً لرد غائلة الجوع وسد الحاجات الضرورية، فإذا تيسر له مقدار من الثراء يحقق له سد الحاجة وطرد الفاقة انتقل حافز الإنتاج من مجال الحس إلى مجال الشعور، وغدا هدف الإنتاج وتكثيره لذة التميز والانفراد بالشيء. ومن هنا قلما نرى ربّا من أرباب المال يعتريه الفتور والوناء في الجمع والإنتاج، لأن في ذلك وسيلة صامتة يكاثر بها الأعداء ويراغم الخصوم ويدل على الأقران. وهذا الدافع لا ريب يفسر لنا تفسيراً مقبولاً كثيراً من أنواع الاستملاك السخيف، كشهوة جمع الطوابع وتواقيع العظماء ومخطوطات الكتاب، وخلاف هذا مما لا قيمة له في ذاته، وإنما كل قيمته ما يشعر مالكه بلذة الانفراد بالشيء والامتياز عن الناس ولو بالسخيف الذي لا قيمة له

في ذاته ولا وزن.
وفي ميادين الرياضة البدنية من أثر هذا الدافع أن اللاعبين والمتثاقفين والمتحاضرين يقررون أشخاصهم ويؤكدون ذواتهم لدى النظارة والمشاهدين. ولولا ذلك لظلت الألعاب الرياضية ظاهرة فردية أكثر منها ظاهرة اجتماعية. وأنت تلمس أثر ذلك جيداً من الحماس الذي يستولي على قلوب اللاعبين كلما كثر عدد المشاهدين وزاد تحريضهم وتحمسهم للاعبين. ولو كان ترويض الأجسام وحده هو المقصود من الألعاب الرياضية لاكتفى اللاعبون بملاعبة ذواتهم ومثاقفة أنفسهم وحسب.
وفي ميدان الرياضة العقلية والترويح عن النفس بالنكتة والهزل يقع هذا الميل موقعاً أول. وما يؤلف من نكتة ويروج من نادرة ويذيع من فكاهة مرجعه في الأصل ميل النفوس إلى التسرية بالظهور والبروز والاستعلاء على الخصم المشهود أو الغائب. فنحن إذ نضحك من موضوع النادرة أو الفكاهة، إنما نضحك لأنها تضع لنا شخصاً أو أشخاصاً موضعاً غريباً ضعيفاً يثير فينا حس الاستعلاء والبراءة من الغفلة أو الجهل أو البقاء. على أن النادرة - في الأحوال الطبيعية - تعجز العجز كله أن تستثير الضحك فينا إذا بلغ الضعف في
موضوعها حس الاستعلاء، ويثير بديلاً منه حس الإشفاق والخشية أن يصيب هذا الموضوع شرٌّ أو أذى بليغ. ومن هنا قد يصور لك الكاتب صورة هزلية تستثير الضحك والابتسام، ولكنك لا يسعك إلا أن تجم وتكف عن الابتسام والضحك متى بلغ كاتبك بموضوع هزله حداً مخطراً كأن يتعرض لخطر أكيد أو يضحى على حال تدعو إلى الإشفاق والأسى، ولن يعيدك إلى استشعار الغبطة والسرور إلا أن يعيد لك الكاتب موضوع هزله إلى مثل حاله الأولى التي لا تبلغ من القوة إضعاف حس الاستعلاء فيك ولا تبلغ من الضعف توليد حس الإشفاق والأسى في نفسك.
والميل إلى توكيد الذات وما يستتبعه من شهوة البروز ورغبة الاستعلاء تعمل عملها الأكيد في ميدان العمل الاجتماعي وفي مجال القيادة الاجتماعية، إذ كان الانقياد وحب التعاون يستحيلان على الجمهور إذا لم يقم فيه القادة الذين يفرضون ذواتهم فرضاً على الناس ويقودونهم قيادة حازمة قوية إلى حيث يشاءون لهم من رفعة وخير وصلاح.
وقد يستدرك القارئ هنا ويسأل: أيكون الميل إلى توكيد الذات وشهوة البروز في مجال القيادة والزعامة عامل خير ووسيلة صلاح في ميادين العمل الاجتماعي، ونحن نشهد من آثارهما هذا الميل المسرف والتكالب المزري على أسباب البروز والرفعة في ميادين الزعامة المختلفة، وإن يكن ذلك - في كثير الأحيان - على حساب الأماني العامة وإهدار المصالح الكبرى للشعب؟
ونجيب أن الميل إلى توكيد الذات عن طريق السيادة الاجتماعية ككل ميل آخر من ميول النفس يضحي أداة فاسدة ووسيلة هادمة إذا خبثت النفوس وأسفت الغاية، وعلى أن في يد الشعب - في معظم أمره - القدرة على كبح هذا الميل وحصره ضمن حدود الصالح العام، بما يداول من ثقته بين الزعماء والقادة وبما يشهر بالقيادة النفعية المتاجرة وبما يوليها من المقت والمحاسبة الشديدة، مما يقمع في القيادة عواطف الأثرة وحب الانتهاز والاستغلال حيث تهم أن تبرز وتستعلن. ولا مراء في أن الانتهاز والاستغلال عن طريق القيادة الاجتماعية يقلان في شرفنا إجمالاً قلة مطردة بما تحدثه التربية من رفع مستوى التعليم والتنبه الفكري وتعميق غور العواطف الاجتماعية.
وأخيراً أثر هذا الميل في ميدان الحب، فنرى أن دافع توكيد الذات هذا يعمل عمله القوي
في طلب التنويع في الحب وعدم الاكتفاء بحبيب واحد يقصر عليه الهم وينيط به القلب إلى آخر العمر. وذلك أن من الناس من يبلغ حس الاستعلاء وشهوة الغلب ورغبة البروز عندهم مبلغاً يطغى عندهم على عاطفة الحب الصحيح فيغدو لا يهمهم من يحبون بقدر ما يهمهم كم من الخلق وقع في حبائل حبهم، فكأنهم بهذا يقيسون قدرتهم على الغلب والفوز في ميادين الحب بعدد اللواتي يهمُّهن ذكرهم واستحوذت على قلوبهن صورهم.
ونقف عند هذا الحد من التفصيل والتمثيل لهذا الميل في أحواله الطبيعية والشاذة موقنين أن الاستقصاء التام والجلاء الكامل لجميع آثاره إنما هو استقصاء لأعظم حالات

النفس أثراً مطبوعاً في الخلق والسلوك وأشدها دافعاً وحافزاً على العمل، وليس هذا المجال مجال ذلك.

أديب عباسي

من (الكتاب الذهبي) قبل أن يطبع

لغة الأحكام والمرافعات

للأستاذ زكي عريبي

لغة المرافعة لغة التماس

ويجب ألا يغرب عن الذهن أن المترافع ملتمس، فلغته يجب أن تكون لغة التماس يحوطها الاحترام الكلي للهيئة التي يترافع أمامها. قد يكون أغزر من سامعيه علماً وأظهر فضلاً، وقد يكون كلامه لهم تعليماً، ولكن عبارته يجب أن تكون عبارة إكبار وإعظام.

والاحترام والإكبار لا يقتضي التذلل ولا الضعة في توجيه الخطاب. وشد ما أكره عبارة (سيدي البيه) يوجهها بعض الزملاء إلى قاض ليس (بيكا) ولا هو بحاجة إلى رتبة تخلع عليه على سبيل التأدب الزائد وقد يحمله خلعها على أنه زلفى وتقرب.

وفي الوقت عينه لغة جرأة

على أنه إن كانت لغة المرافعة لغة تعظيم وتوقير فهي في الوقت عينه لغة عزة وجرأة. وقد روى التاريخ مواقف للمحامين رقوا فيها إلى درجة البطولة. أنظر إلى ديسيز وقد دعاه لويس السادس عشر إلى الدفاع عنه أمام الجمعية التأسيسية في وقت جمعت فيه هذه الهيئة في يدها جميع السلطات، وأصبح مجرد الإشارة إلى الملوكية جريمة. أنظر إليه وهو يواجه هيئة ضمنها أمثال روبسبيير ودانتون ومارات. أنظر إليه وهو يقرع أسماعهم وقلوبهم بهذا الخطاب الخالد.

(أيها المواطنون! سأخاطبكم بلسان الرجل الحر. إني أبحث بينكم عن قضاة فلا أجد غير متهمين.

أتريدون أن تجعلوا من أنفسكم قضاة (للويس) وأنتم خصومه؟ أتريدون أن تجلسوا للحكم في قضية لويس ولكم فيها رأي يجوب أوربا من أقصاها إلى أقصاها؟

أيكون لويس الفرنسوي الوحيد الذي لا يحميه قانون ولا يتبع في محاكمته إجراء واحد صحيح؟

أيجرد من امتيازاته كملك ومن حقوقه كمواطن؟

أيخذله القانون حاكما ومحكوماً؟

(ياله من مصير عجيب لا يتصور!)

لقد ضربت أعناق كثيرة في عهد الثورة لكلام أقل خطورة من هذا بما لا يقاس. ولكن لأعمال الجرأة روعة تهاب وتحترم، فأن التاريخ الذي حفظ هذه المرافعة الخالدة بين صحفه الذهبية. هذا التاريخ عينه يحدثنا بأن شعرة من رأس ديسيز لم تمس بسبب هذا الكلام الجريء وأنه ترافع بعد ذلك أكثر من مرة في أشد أوقات الثورة حلوكة وسوادا.

الاعتدال في لغة المرافعات

وليس أزرى بالمرافعات ولا أضيع لبهجتها ولا أفل لسلاحها من سفه لغتها. إن عبارة قاذعة واحدة يرمى بها خصم كريم - أو غير كريم - لتكفي في تنفير القاضي.

وليس بعد النفرة تفويت للغرض الأصيل المقصود بالمرافعات.

وأقبح من رمى الخصم بما لا يحب جرح الزميل.

صحيح أن المرافعة دفع وجذب، ونادر هو المترافع الذي يملك زمام أعصابه فلا تجمح به حدة الدفاع؛ ولكن المسألة مسألة مران، وإنك لتدهش وقد عودت نفسك التزام حدود الاعتدال كيف يسمو موقفك، وتعلو حجتك ويمتاز بيانك.

المرافعات في مصر

بقيت كلمة كان يمكن أن تكون موضوع مقال خاص، فلسنا نملك الإطالة فيها هنا، وهي عن المرافعات في مصر.

لقد انقضى على إنشاء المحاكم المختلطة نيف وستون عاماً، وأقل منها قليلاً على قيام المحاكم الأهلية، وقد غلبت على الأولى اللغة الفرنسية، وكانت العربية لغة الثانية منذ الإنشاء وقبله.

وقد زهت اللغة في كلا القضاءين إلى حد يشهد لمصر بالتفوق البعيد.
حضرت الأستاذين كاتسفليس وبادوا (وكلاهما شرقي متمصر) يترافعان في قضية قناة السويس. وكان إلى جانبي الأستاذ جرانمولان الناظر الأسبق لمدرسة الحقوق، فهمس في
أذني والأول مندفع في بيانه الساحر: (لا تطمع أن تسمع خيراً من هذه الفرنسية من خير المترافعين أمام محكمة السين).
وفي المحاكم الأهلية سابقت لغة المرافعات الزمن فسبقته.
لقد وجد مداره مقاويل - على حد تعبير رئيس محكمة النقض - قبل أن تخطو اللغة العربية خطواتها الأخيرة الواسعة.
وجد (حسين صقر)، و (اللقاني)، و (نقولا توما) وغيرهم من بناة المجد في زمن كانت المحاماة فيه مجرد اجتهاد.
وثمة نموذج من هذا المجد الغابر تجده إلى اليوم قائماً بيننا في شخص شيخ الجماعة وإمام الصناعة الأستاذ الأكبر إبراهيم الهلباوي بك.
من ذا يستطيع إلى اليوم تحدي بديهته الوثابة ولغته الفكهة اللاذعة وسخره القتال؟ ومن ذا الذي يستطيع أن ينسى سعد زغلول وأبا شادي من جبابرة ذلك العصر وكلاهما كان إلى الأمس القريب صداحاً بأروع الأدب.
وجاءت بعد هؤلاء طبقة هي فخر المحاماة بمعناها الصحيح وفخر لغة العصر: أحمد لطفي بلغته السهلة الممتعة وعبد العزيز فهمي بقلمه ولسانه الجبارين يتصرفان في المعنى وفي المبنى بما يريد ويشتهي. ووهيب دوس صاحب المنطق الجزل والديباجة الرشيقة والبيات المتدفق في غير متعة ولا تزيد. ومرقس! مرقس الذي لا يلحق ولا يدانى، مرقس الجذاب الأخاذ، المتغلغل بسامعه إلى الأعماق، السامي به إلى السبع الطباق.
كل من هؤلاء يستحق أن يدرس دراسة خاصة، وأن يقدمه إلى الناس قلم غير هذا القلم، وأن تقف عليه جهود لا تستطيعها هذه العجالة.
وفي دراسة هؤلاء الفحول دراسة لناحية مجيدة من أدبنا القومي يجب ألا تهمل.
وحسبك منا هنا الإشارة إلى آثارهم في مختلف ألوان فني الكلام القضائي مما لا يحصيه محص.
مرافعات النيابة
ومن الإجرام أن نغفل في صدد الكلام على المرافعات في مصر جهود القائمين بالدعوى العامة.
لقد ضربوا في فني الكلام القضائي بسهم ورقوا بالمرافعات الجنائية إلى عليين.
من نذكر على سبيل المثال؟
أثروت أم أبو السعود من المغيبين في جوار الله؟ الأبراشي أم لبيب عطية أم عمر عارف من الأحياء النابهين؟
كلهم يصح أن يحتذى.
اسمع ما يقول النائب العام الأسبق في قضية الورداني
(إن الوطنية التي يدعي الدفاع عنها بهذا السلاح المسموم لبراء من مثل هذا المنكر. إن الوطنية الصحيحة لا تحل في قلب ملأته مبادئ تستحل اغتيال النفس. إن مثل هذه المبادئ مقوضة لكل اجتماع.
وماذا يكون حال أمة إذا كانت حياة أولي الأمر فيها رهينة حكم متهوس يبيت ليله فيضطرب نومه وتكثر هواجسه فيصبح صباحه ويحمل سلاحه يغشاهم في دار أعمالهم فيسقيهم كأس المنون؟
ثم إذا سئل في ذلك تبجح وقال إنما أخدم وطني لأني أعتقد أن مثلهم خائنون للبلاد ضارون بها: تباً لتلك المبادئ وسحقاً لها! كيف يقوم لنظام قائمة مع تلك المبادئ الفاسدة؟ إن مبادئ كل اجتماع ألا ينال إنسان جزاء على عمل مهما كان هذا الجزاء صغيراً إلا عن يد قضاة اشترطت فيهم ضمانات قوية وبعد أن يتمكن من الدفاع عن نفسه حتى ينتج الجزاء النتيجة الصالحة التي وضع لها من حماية الاجتماع.
فإذا كان هذا هو الشأن في أقل جزاء يلحق بالنفس أو بالمال فما بالك بجزاء هو إزهاق الروح والحرمان من الحياة؟

تلك مبادئ لا وجود لمجتمع إلا بها ولا سعادة له بدونها، فالطمأنينة على المال والنفس هي أساس العمران ومن الدعائم التي ادعم عليها في كل زمان ومكان، ولكن الورداني له مذهب آخر في الاجتماع، فهو يضع نفسه موضع الحكم على أعمال الرجال فما ارتضاه منها كان هو النافع، وما لم يرتضه كان هو الضار. ويريد أيضاً أن يكون القاضي الذي يقدر الجزاء ثم يقضي به من غير معقب ولا راد.

كل ذلك والأمر لم يتعد إرجاء صدره ولا يعلم ذلك المسكين الذي سينصب عليه هذا القضاء أنه على قيد شبر من الموت جزاء له على جناية لم يسأل عنها ولم يعلم من أمرها شيئاً.

إن مثل هذا الحق لا يمكن أن يكون إلا لله سبحانه وتعالى المطلع على السرائر العليم بالنيات، ومع ذلك فأنه جل شأنه شرع الحساب قبل العقاب؛ ثم إن هذا الحق لم يتطلع إليه أحد من العالمين حتى الأنبياء أنفسهم، وقد أجمعت الشرائع على عصمتهم من الزلل والخطأ، ولكن الورادني يريد أن يضع نفسه فوق كل الدرجات المتصورة لحاكم وحكم وقتل.

إني لترتعد فرائصي إذا تصورت منظر البلاد وقد نشأ فيها البلاء الأكبر بفشو تلك المبادئ القاضية).

واسمع ما يقوله النائب العام السابق خاتماً به مرافعته الرائعة في قضية الفلال.

لقد أبنت مبلغ نذالة الجريمة ومدى شرها إذا هي وقعت على كابر جليل المقام)

أبنت ذلك بقدر ما فسح لي موقف النائب العمومي وأجازته الأمانة التي في عنقي.

ولو أن المجال حر لقائل لسمعتهم كل ما يتطلبه حزمكم وترضاه عدالتكم، ولكنني كما أسلفت مؤمن بفطنتكم ولي فيها كل الغناء.

على أن هناك أمراً أجل شأناً وأعظم خطراً لا أستطيع حمل ضميري على كتمانه، ولا عقد لساني عن بينه. هذا الأمر الخطير هو ما أشرت إليه في صدر مرافعتي وألمحت به عند حديثي عن الباعث الذي دفع المتهم إلى جنايته، ذلك هو ولع التبطل وغواية الاستعظام، وما أجملت في جلسة الإحالة بأنه داء اجتماعي وبيل يهدد الحكومات في كيانها ويشل النظام من أساسه، وأنه إن لم يؤخذ بيد عسراء استفحل ضرره وعز اتقاء شره.

ارسموا لأنفسكم بواسع خبرتكم ونافذ بصيرتكم حال البلاد وقد أصبح كل عظيم فيها هدفاً لرأي شقي تربعت في نفسه الشريرة هذه الأفكار الخطرة! تلك حال أستعيذ بالله منها.

هي مضيعة للطمأنينة ومقتلة للنبوغ ومفسدة لنفس العاملين؛ بل هي حفرة يتردى فيها إخلاص المخلصين ونشاط المجدين وإيمان الصالحين.

أنتم قضاة الحق ولكنكم أيضاً مربو الخلق. وكلمة العدل التي بها تنطقون يتجاوب صداها في نفوس ناشئة ونفوس ثائرة ونفوس فزعة خائرة. فاجعلوا حكمكم رسالة عدل وبلاغ عبرة وبشرى سلام.

وإذا جنحتم إلى الرحمة فاشملوا بها النشء وقد أوشك أن يلتوي، والبلاد وقد دب فيها ذاك الداء الوخيم.

أنتم أطباء النفس كما أنتم قضاة العدل، والطبيب البصير لا يتردد ولا يني عند الضرورة الحاكمة، والقاضي الحازم يهذب بالزجر الحكيم وهو في زجره من الراحمين.

وازلوا بين روعة الرحمة، وقد حلت بالبلاد وبالنشء وبين ضآلتها إن هي حلت بهذا المجرم العتيد، ثم اقضوا قضاءكم والله معكم إنه نعم الهادي ونعم النصير).

تلك وايم الحق بلاغة ليس بعدها بلاغة. معنى حكيم في لفظ سليم، وفصيح عبارة في أوجز إشارة.

وتعال إن أردت تسريح الطرف في خير ما تقع عليه العين من أدب في قضية أدب إلى مرافعة عمر عارف في دعوى القذف التي سبقت الإشارة إليها. اسمع ما يمهد به هذا الأديب المتشح برداء النيابة لمرافعته القيمة:

تعرض اليوم أمام القضاء قضية جنى فيها رجلان ينتسبان إلى الأدب على طهر الأدب) عامة في شخص مصري له مكانه من العلم. ولو لم يكن إلا أنه محام نذر نفسه لنصرة الحق أمام شرف القضاء لكان ذلك من المنزلة في الثقافة العلمية والفضل المشكور حسبه).

(يتبع)
زكي عريبي
المحامي أمام محكمة النقض والإبرام
الحجاب في الإسلام
للأستاذ عبد المتعال الصعيدي
من علماء الأزهر
- 3 -
وقد عرف الإسلام أن إطلاقه الأمر للنساء في ذلك قد يؤدي بهن إلى إساءة استعمال حقهن فيه، فيضيق الرجال بإساءة استعمالهن له، ويعملون على التضييق عليهن وسلبهن إياه، كما حدث ذلك بين المسلمين فآل بهم إلى هذا الحجاب الممقوت الذي يحسب زوراً على الإسلام، وكما يحدث الآن في بعض البلاد الأوربية التي سئمت إسراف النساء في السفور، فأخذت تحد من حريتهن فيه، وتضيق عليهن بعض التضييق.

فلما عرف الإسلام هذا شرع للنساء في الخروج من البيت والاختلاط بالرجال سنناً تصونها عن تلك الإساءة، ولا تجعل للرجال عليهن سبيلاً في سلبهن ما أعطاه لهن من ذلك الحق. وليست تلك السنن من الحجاب في شيء، وإنما هي تنظيم لهذا الحق بين الرجل والمرأة.

ومن تلك السنن ألا تخرج من بيتها إلا بإذن زوجها، لأن له حقوقاً عليها في منزلها، فلا يصح لها أن تخرج منه إلا إذا سمحت بذلك نفسه، وليس له أن يمنعها من الخروج لحاجاتها بعد قيامها بحاجاته.

ومن تلك السنن ألا تسافر مسيرة يوم وليلة إلا ومعها محرم لها. وقد ورد في ذلك عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم وليلة إلا ومعها محرم لها. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم. فقام رجل فقال يا رسول الله: إن امرأتي خرجت حاجة، وإني كتبت في غزوة كذا وكذا، قال: فانطلق فحج مع امرأتك.

ومن تلك السنن تحريم الخلوة، لأن في اختلاء المرأة بالأجنبي مفاسد كثيرة، وهي وسيلة من وسائل إغوائها، ودفعها في طرق لا ترضي الدين ولا الشرف. ولم يحرم الإسلام على المرأة الاختلاط بالأجانب مع وجود زوج أو محرم لها، ليكون هذا الاختلاط بريئاً بعيداً عن الريبة، وينحصر في الأغراض الصحيحة التي تقصد منه، كاستفادة علم أو أدب، أو أنس بحديث ونحوه.

ومن تلك السنن ألا يتبرجن عند خروجهن من بيوتهن، ولا ينظرن إلى الرجال نظرات غير بريئة، ولا يظهرن من أجسامهن ما لا حاجة إلى إظهاره، وما إلى هذا مما جاء في قوله تعالى من سورة النور: (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الأربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون). وكما أمر النساء بالغض من أبصارهن في هذه الآية أمر الرجال بالغض من أبصارهم في الآية التي قبلها: (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم أن الله خبير بما يصنعون).

قال الفخر الرازي في تفسير ذلك: جميع بدن الحرة عورة، ولا يجوز للرجل أن ينظر إلى شيء منه إلا الوجه والكفين، لأنها تحتاج إلى كشفهما لأجل البيع والشراء والأخذ والعطاء. ولهذا لما نهي النساء أن يبدين زينتهن استثني من ذلك ما ظهر منها. وقد قال القفال: إنه الوجه والكفان. وألحق بعض الفقهاء بهما الذراعين والقدمين. ثم إن نظر الرجل إما أن يكون لغرض كنكاح أو معاملة، وهو جائز بلا خلاف، وإما أن يكون خالياً من الغرض، فإن كان بشهوة كان حراماً، وإن لم يكن بشهوة كان جائزاً في

مذهب بعض الفقهاء. وقيل إنه لا يجوز، ولكن هذا لا يلزمه إلا وجوب غض لبصر، ولا يلزمه وجوب ستر المرأة وجهها بنقاب ونحوه، بدليل أن النظر إلى الأمرد بشهوة حرام، ولم يقل أحد أنه يلزمه أن يستر وجهه، لأن هذا حرام عليه لما فيه من التشبه بالنساء. وأظهر من هذا في ذلك أن النظر بشهوة إلى حيوان جميل أو صورة جميلة حرام أيضاً، ولا يعقل أن يكلفا بهذا النقاب، وإنما يحرم النظر بشهوة لما يصحبه من إرادة الفسق. فإذا كان مجرد استحسان

خالياً من هذه الإرادة الذميمة فأني أرى أنه ليس فيه شيء من الحرمة، بشرط ألا يصحبه ما يفعله رجالنا من التعريض القبيح إذا مر بهن النساء، وتلك عادة ذميمة يجب على رجالنا أن يقلعوا عنها، وأن يعنوا بجد الحياة بدل هذا الهزل والمزاح.

فالمرأة المسلمة في حل من هذا النقاب الذي يظن أنه فرض عليها في دينها، إذ شاءت سترت به وجهها، وإذا شاءت تركت وجهها بلا نقاب؛ ولا يطلب منها دينها إلا أن تترك التبرج والتهتك والتزين بما يزيد على الحاجة، أو يدعوا إلى الفتنة. ولا دلالة في قوله تعالى: (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) على وجوب هذا النقاب، لأن سبب نزول هذا أن نساء الجاهلية كن يشددن خمرهن من خلفهن، وكنت جيوبهن من قدام، فكانت نحورهن تنكشف، وكذلك قلائدهن، فأمرن بضربها على الجيوب لتغطي القلائد والنحور. ولا يعقل أن يراد من هذا تغطية الوجه أيضاً بعد استثنائه في قوله: (إلا ما ظهر منها).

ومما يحتج به لهذا النقاب قوله تعالى في سورة الأحزاب: (يأيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيما)، قيل في تفسير ذلك إنه كان رجال من الفساق يتعرضون في الطرق للنساء ويتبعونهن، فإذا لامهم الناس قالوا كنا نحسبهن إماء، فنزلت هذه الآية باتخاذ الجلباب للحرائر ليعرفن من الإماء فلا يؤذين. وقد مر بن الخطاب بجارية ذات نقاب فضربها وقال لها: أتتشبهين بالحرائر يالكاع!

وإني أرى أن مثل هذا لا يصح أن يكون حجة على وجوب هذا النقاب، وأرى أن قوله تعالى (ذلك أدنى أن يعرفن) ليس معناه أن يعرف أنهن حرائر، لأن دفع هذا الأذى عن النساء واجب في الإسلام بلا فرق بين الحرائر والإماء، وإنما معنى هذا عندي أنهن يعرفن بأنهن عفيفات فلا يطمع فيهن الرجال.

أما أن ذلك لا دلالة فيه على وجوب هذا النقاب فلأن هذه الصيغة (يأيها النبي قل) لا تدل على الوجوب، لأن الأمر بالأمر بشيء لا يفيد وجوب هذا الشيء، كما هو مذهب جمهور علماء الأصول، ولأن قوله (ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين) يدل على أن هذا لا يقطع ذلك الأذى، وإنما هو أقرب إلى دفعه، ومثل هذا لا يكون واجباً، بل يكون مندوباً. على أنه قد اختلف في إدناء هذا الجلباب، فقال ابن عباس: أمر نساء المؤمنين بذلك أن يغطين

رؤوسهن ووجوههن بالجلاليب إلا عيناً واحدة يبصرن بها الطريق. وقال الحسن: يكفي أن تغطي المرأة نصف وجهها. وقال قتادة يكفي أن تغطي معظمه.

وإذا كانوا قد صاروا إلى هذا الخلاف فأنا يمكننا أن نحمل إدناء الجلباب على ستر مالا يبدو عند الزينة، لأن هذا قد استثني استثناء صريحاً في آية سورة النور السابقة، وهذا هو الواجب في الجمع بين الآيتين. وقد قيل إن الجلاليب الثياب، لأن الجلباب يطلق لغة على الثوب والملحفة والخمار، وهو في الآية محتمل للثلاثة، فيكون معنى إدناء الجلباب أن يطلن أطرافه حتى لا يظهر منهن شيء غير الوجه والكفين.

وهذا هو حكم الإسلام في الحجاب والنقاب، وخلاصته أن يرى ترك أمرهما لحكم العرف والعادة، وما يرضه كل من الرجل والمرأة على وجه يصونها من الفساد، ويحفظ ما له عليها من حقوق.

(تم البحث)

عبد المتعال الصعيدي

دين المتنبي

أبو الطيب المتنبي - 2

للأستاذ محمد محي الدين عبد المجيد

ومما يتصل بالكلام على دين أبي الطيب أنه لم يشرب الخمر إلا في القليل النادر،

فليس هو من المدمنين الماجنين، ولذلك لا تجد في شعره شيئاً من المجون إلا أن يهجو فيقذع في هجائه. وما لأبي الطيب والخمر، وهي إنما يشربها الغواة وذوو البطالة، ومن لا مطمع لهم في الحياة يسعون لتحقيقه، فأما الرجل الذي يفكر في المجد ويأمل أن يصل إلى ذروته، فليس ممن يفكرون في الخمر. حدثوا أن صديقاً لأبي الطيب كنيته أبو ضبيس سأله يوماً أن يشرب معه فأجابه بقوله:

ألذ من المدام الخندريس ... وأحلى من معاطاة الكؤوس
معاطاة الصفائح والعوالي ... وإقحامي خميساً في خميس
فموتي في الوغى أربى لأني ... رأيت الموت في أرب النفوس
ولو أسقيتها بيدي كريم ... أسر به لكان أبا ضبيس

وهو ينادم إخوانه إذا شربوا الخمر، فيشرب كأساً من الماء فقد قال له بعض بني كلاب: اشرب هذه الكأس سروراً بك، فأجابه بقوله:

إذا ما شربت الخمر صرفا مهنأ ... شربنا الذي من مثله شرب الكرم
ألا حبذا قوم نداماهم القنا ... يُسَقُّونها ريا وساقيهم العزم

ومد إنسان له يده بكأس من الخمر وحلف بالطلاق ليشربنها، فقال:

وأخ لنا بعث الطلاق ألية ... لأعللن بهذه الخرطوم
فجعلت ردي عرسه كفارة ... عن شربها وشربت غير أثيم

وهذه إحدى المرات التي شرب فيها الخمر، ولم يصب حكم الشريعة في قوله: (وشربت غير أثيم) ولكنها إحدى تظرفات الشعراء. ولعلها مع ذلك تدل على أن امتناعه عن الشرب في غير هذه المرة لمخافة الإثم.

أخلاق أبي الطيب

سنتكلم في هذه العجالة على أربع خلال كان لها أثر ظاهر في حياة أبي الطيب وأخباره وشعره، وهي: الشجاعة والكبر والبخل والغدر. فأما شجاعته فهي أظهر من أن تلتمس لها الشواهد، فهو شجاع يحن شوقاً إلى لقاء العدى ويستصغر المخاطر في هذه السبيل، ويستهين بما يكابد فيه من أهوال، ولقد كان مسوقاً إلى اقتحام الردى تدفعه إليه نفسه المتوثبة الطامحة وتغريه به آماله الجسام التي يحرص على إدراكها الحرص كله، والتي يعتقد أن الوسيلة إليها هي التضحية وبذل النفس. وقد كانت فيه مع ذلك عجلة تشبه الرعونة نبتت فيه من تلهفه على بلوغ الغاية التي يصبو إليها حتى كان يخشى أن يعجل إليه الموت قبل بلوغها. أنظر إليه وهو يحدثك عن المجد الذي يتطلع إليه ويشير إلى أن الحياة أضيق من أن تتسع لانتظاره:

ذر النفس تأخذ وسعها قبل بينها ... فمفترق جاران دارهما العمر
ولا تحسبن المجد زقاً وقينة ... فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
وتضريب أعناق الملوك وإن ترى ... لك الهبوات السود والعسكر المجر
وتركك في الدنيا دوياً كأنما ... تداول سمع المرء أنملة العشر

ثم انظر إليه وهو يحدثك عن مطلبه ويصف لك أن إدراكه بعيد ويحضك على ألا تبالي بما تلقاه في حياتك من الشدائد والمحن:

أريد من زمني ذا أن يبلغني ... ما ليس يدركه من نفسه الزمن
لا تلق دهرك إلا غير مكترث ... ما دام يصحب فيه روحك البدن
فما يدوم سرور ما سررت به ... ولا يرد عليك الفائت الحزن

ثم انظر إليه وهو يدلك على أن هناءة العيش وسعته وطيب الحياة وسائر ما في الدنيا من متاع أمور لا تدرك إلا بحد السيف:

وخضرة ثوب العيش في الخضرة التي ... أرتك احمرار الموت في مدرج النمل

ونراه لا يترك الحديث عن آماله وشجاعته حتى في المواقف التي لا يحسن فيها الفخر، ولقد كان مما اشتهر به شعره أنه يتحدث عن نفسه في أثناء المديح والرثاء. استمع إليه وهو يقول لكافور:

فارم بي حيثما أردت فإني ... أسد القلب آدمي الرواء
وفؤادي من الملوك وإن كا ... ن لساني يرى من الشعراء

وهو مفتون بذلك منذ صباه، ولا عجب في ذلك فأن كثيراً من الناس تولد معهم الآمال في طراءة السن وميعة الشباب، وعصر أبي الطيب الصاخب المليء بحوادث الانقلاب خليق بأن يثير في نفسه لواعج الآمال؛ قيل له وهو صبي (ما أحسن وفرتك) فأجاب:

لا تحسن الوفرة حتى ترى ... منشورة الضفرين يوم القتال
على فتى معتقل صعدة ... يعلها من كل وافي السبال
فأما الكبر فقد كان أبو الطيب مستكبراً تياهاً صلفاً يرى أن لا أحد مثله وأن أعلم أهل زمانه فدم وأحزمهم وغد، وأن كل ما خلق الله وما لم يخلق حقير إلى جانب عظمته كشعرة في مفرقه. ولقد كان من آثار كبره أن ترفع عن مدح الوزير المهلبي والصاحب ابن عباد، وحدثته نفسه أن يتأبى على عضد الدولة، ولولا أن ابن العميد زين له الذهاب إليه وأغراه بما سيناله لديه من التكرمة والمال لكان قد امتنع. ولقد جر على نفسه بهذا الترفع عداوة الوزير والصاحب وعداوة أشياعهما من الشعراء والكتاب والعلماء. فأما الوزير فقد أغرى به شعراء العراق يزدرونه وينالون من عرضه ويبالغون في هجائه، وأغرى به جماعة من العلماء منهم أبو الفرج صاحب كتاب الأغاني يتعقبونه ويشهرون به. وأما الصاحب فلم يسكته عنه علمه بمحاسنه وكثرة ما كان ينتفع بمعانيه، بل أخذ يتتبع هفواته ويعد عليه سقطاته ويغري به المترددين عليه الطامعين في عطاياه، وما أكثر هؤلاء!!!

ونحب أن ندل هنا على أمرين: الأول أن آثار كبر أبي الطيب وترفعه لم تظهر جلية واضحة إلا بعد أن اتصل بسيف الدولة ونبه شأنه. فأنت تراه قبل ذلك يمدح قوماً لا نباهة لهم ولا ذكر، وتراه يمدح على أتفه العطايا، وقد تنبه إلى ذلك أبو منصور الثعالبي فهو يقول: (وكان قبل اتصاله بسيف الدولة يمدح القريب والغريب، ويصاد ما بين الكركي والعندليب) اهـ، وأبو الطيب معذور في ذلك فإن سيف الدولة قد غمره بعطاياه حتى درت له أخلاف الدنيا ولقي في جواره من الكرامة ما شجا حاسديه فكان خليقاً أن يقول فيه:

تركت السرى خلفي لمن قل ماله ... وأنعمت أفراسي بنعماك عسجدا
وقيدت نفسي في هواك محبة ... ومن وجد الإحسان قيدا تقيدا

الأمر الثاني: أنه قد اختلط على بعض الناس كثير من مواقف أبي الطيب فاعتبروها كبراً أو تكبراً وليست هي من الكبر في شيء وإنما هي عزة النفس والاحتفاظ بالكرامة، وتقدير المرء نفسه وإكرامه إياها من الكبر بالمكان النائي البعيد؛ فليس لأحد أن يزعم أن من الكبر إنشاد أبي الطيب سيف الدولة وهو جالس واشتراطه عليه ألا يقبل الأرض بين يديه إلا أن يكون ممن تختلط الأخلاق في أنظارهم فيرونها بغير المنظار الذي يراها به الناس؛ وعسيت أن تسأل بعد ذلك أين ذهبت عزة نفسه حين أنشد كافور وهو واقف؛ والجواب على ذلك أن ننبهك إلى أنه فارق سيف الدولة حانقاً متبرماً فلعل وقوفه بين يدي كافور وهو من أعداء سيف الدولة ليثير غيظه، أو لعله أراد به مصانعة كافور لينال منه الذي وفد عليه من أجله. على أنه إن كان قد ترك معه ما جرت به عادته مع سيف الدولة فقد اتخذ لعزته لوناً آخر، فقد كان يقف بين يديه وفي رجليه خفان وفي وسطه سيفه ومنطقته.

فأما البخل فقد رماه الناس به وحكموا في ذلك عنه أنه أحضر مالاً من صلات سيف الدولة وصب بين يديه على حصير قد افترشه ووزن وأعيد في الكيس وإذا قطعة كأصغر ما يكون من ذلك المال قد تخللت الحصيرة فأكب عليها ينقرها ويعالج استنقاذها ويشتغل بذلك عن جلسائه حتى إذا ظهر له بعضها تمثل بقول قيس بن الخطيم:

تبدت لنا كالشمس تحت غمامه ... بدا حاجب منها وضنت بحاجب

ولم يزل كذلك حتى استخرجها وأمر بإعادتها إلى مكانها من الكيس. وعجيب أن يكون بخيلاً ذلك الذي يقول

ومن ينفق الساعات في جمع ماله ... مخافة فقر فالذي صنع الفقر

ولكنهم يروون عنه أنه قال: (إني وجدت الناس لا يكرمون أحداً إكرامهم من يعتقدون أنه يملك مائة ألف دينار فاعتمدت أن يكون عندي مثلها. فأنا أجد في ذلك حتى يقول الناس إن أبا الطيب قد ملك مائة ألف دينار) اهـ. وإن يكن القوم صادقين وكان لأبي الطيب عذر في حرصه على المال وفي ضنه أن تضيع منه قطعة كأصغر ما يكون فليس هو هذا العذر الذي نسبوه إليه، وإنما عذره أن المجد الذي كانت نفسه تحدثه به في حاجة إلى المال وهذه إشارة نجتزئ بها في هذا الموضوع.

فأما الغدر فآيته أنك تراه كل يوم بين يدي ملك أو وزير وتراه كلما وقف بين يدي واحد منهم يمدحه بأنه أكرم الناس وأشجع الناس وخير الناس؛ وقد يتجاوز ذلك إلى التعريض
بمن مدحه من قبل، وقد يتجاوز التعريض والتلويح إلى التصريح، ثم قد يتجاوز ذلك كله إلى الهجاء، اسمع إليه يقول لسيف الدولة:

وحاشى لارتياحك أن يبارى ... وللكرم الذي لك أن يباقى
ولكنا نداعب منك قرما ... تراجعت القروم له حقاقا

فإنه لم يكتف بأن جعل ارتياحه للبذل لا يباريه ارتياح، وكرمه لا يطاوله في البقاء كرم، حتى جعله سيداً فحلا وجعل الناس في موازنته حقاقاً، فلما وفد على كافور كان في أول قصيدة قالها له قوله:

قواصد كافور توارك غيره ... ومن قصد البحر استقل السواقيا

(يتبع)

محمد محي الدين عبد المجيد
المدرس بكلية اللغة العربية

علم المتنبي باللغة والأدب

تصحيحه كتاب المقصور والممدود - تعليقاته على ديوانه

للدكتور عبد الوهاب عزام

يعرف جمهور المتأدبين أبا الطيب شاعراً واسع المعرفة باللغة، ولكنهم لا يعرفونه إماما من أئمة اللغة في القرن الرابع كما يتبين فيما يلي:

قدمت في الكلام على نشأة أبي الطيب أنه درس اللغة والأدب، وأثبت رواية تتضمن أنه لقي جماعة من كبار الأدباء في عصره، ولكن هذه الرواية على ما أظهرته من الوهن في بعض نواحيها لم تبين كم طلب اللغة والأدب على هؤلاء الشيوخ ولا كيف طلب. وقد بينت آنفاً أن رحيل الشاعر إلى الشام كان سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة وهو في سن الثامنة عشرة.

وما روي لنا أنه طلب الأدب على أحد في الشام إلا قول الثعالبي إن أباه رحل به إلى الشام فلم يزل يردده في مكاتبها الخ وجائز أن يكون الشاب المتوقد ذكاء قد درس الأدب واللغة على بعض أدباء الشام أيضاً.

والذي لا ريب فيه أن أبا الطيب بلغ من العلم باللغة وغريبها وشواهدها ولقن عن أهل البادية منها ما لا نعلمه لشاعر آخر من شعرائنا؛ وقد بلغ في هذا أن عدّ في عصره من علماء اللغة، وأن غلب الشعر عليه.

وإثبات هذه الدعوى على النسق الآتي:

1 - رويت لنا حوادث وأقوال متفرقة تبين عن اشتهاره بمعرفة اللغة وتعرب عن رأي معاصريه فيه:

قال ابن الأنباري: (ويحكى أن أبا الطيب اجتمع هو وأبو علي الفارسي، فقال له أبو علي: كم جاء من الجموع على وزن فِعلي؟ فقال: حجلي وظربي، جمع حَجَل وظَربان. قال أبو علي: فسهرت تلك الليلة ألتمس لهما ثالثا فلم أجد. وقال في حقه (ما رأيت رجلاً في معناه مثله.) وهذه الجملة الأخيرة ذكرها ابن جني في مقدمة شرحه الديوان، وقال: (ولو لم يكن له من الفضيلة إلا قول أبي علي هذا فيه لكفاه. لأن أبا علي، على جلالة قدره في العلم ونباهة محله وإقتدائه بسنة ذوي الفضل من قبله، لم يكن ليطلق عليه هذا القول إلا وهو
مستحق له عنده).

فسؤال أبي علي أبا الطيب هذا السؤال دليل على أنه لفت الناس إليه بسعة معرفته باللغة، ثم شهادته له دليل آخر.

ولما وقع الجدل بين أبي الطيب اللغوي وابن خالويه في اللغة بحضرة سيف الدولة، قال الأمير: ألا تتكلم يا أبا الطيب؟ فتكلم ونصر أبا الطيب اللغوي على ابن خالويه. فسؤال سيف الدولة أبا الطيب أن يتكلم في أمر يتجادل فيه اثنان من اللغويين دليل على عده من علماء اللغة.

ولما دخل على الوزير المهلبي في بغداد أنشد بعض الحاضرين وفيهم أبو الفرج الأصفهاني هذا البيت:

سقى الله أمواها عرفت مكانها ... جُراما وملكوما وبدّر فالغمرا
فقال أبو الطيب: هو جرابا، وهذه أمكنة قتلتها علما؛ وإنما الخطأ وقع من النقلة.
وقد حكى الحاتمي أنه ناظر أبا الطيب ببغداد فلم يقتصر على مناظرته في الشعر، بل ناظره في اللغة أيضا. وحكى أن أبا الطيب قال له اللغة مسلّمة لك، فقال: وكيف تسلمها وأنت أبو عذرتها وأولى الناس بها، وأعرفهم باشتقاقها، والكلام على أفانينها، وما أحد أولى بأن يسأل عن غريبها منك.
وفي هذا برهان على اشتهار أبي الطيب بمعرفة اللغة ولو كان كلام الحاتمي تهكما وسخرية أو كانت قصته كذبا.
ولما نزل عند ابن العميد في أرّجان قرأ عليه كتابا جمعه في اللغة. قال في الإيضاح: (وكان أبو الفضل يقرأ عليه ديوان اللغة الذي جمعه ويتعجب من حفظه وغزارة علمه).
وقال الخالديان: (كان أبو الطيب المتنبي كثير الرواية، جيد النقد. . . وكان من المكثرين في نقل اللغة والمطلعين على غريبها، ولا يسأل عن شيء إلا استشهد بكلام العرب من النظم والنثر). وقال صاحب الإيضاح: (وجملة القول فيه أنه من حفاظ اللغة ورواة الشعر).
وقال ابن جني: (ولقد كان من الجد فيما يعانيه، ولزوم أهل العلم فيما يقوله ويحكيه، على أسد وتيرة، وأحسن سيرة).
وقد أثرنا بعض كلامه في اللغة، وذلك قسمان - 2
مجادلته ابن جني في مسائل عرضت أثناء قراءة الديوان عليه، وحسبك بمن يناظر في اللغة والصرف ابن جني أمام أهل العربية في التصريف، ثم يشهد له ابن جني الشهادة السالفة، وعندنا من هذه المجادلات أمثلة.
والثاني ما أملاه أبو الطيب نفسه شرحاً لبعض شعره. وقد عثرت على نسختين من الديوان فيهما كثير من هذه الشرح، وفيه من التبيين وإيراد الشواهد ونسبة الأقوال إلى أصحابها ما يشعر القارئ أنه يقرأ لأحد أئمة اللغة.
وأنقل هنا مثالين من إملائه على بعض أبيات ديوانه تبصرة للقارئ. جاء في شرح البيت:
أحاد أم سُداس في أُحاد ... ليلتنا المنوطة بالتناد:
قال أبو الطيب: يقال أحاد وثناء وثلاث ورباع إلى عشار في المؤنث والمذكر غير) مصروف، والفراء يصرفها إذا جعلها نكرات، وكل ما لا ينصرف من الأسماء يصرف في الشعر، لأن الصرف الأصل. وهذا الذي ينسب إليه في العدد فيقال ثنائي وثلاثي ورباعي وخماسي إلى عشاري. قال أبو النجم:
فوق الخماسي قليلا بفضله ... أدرك عقلاً والرهان عمله
وأنشد:
ضربت خماس ضربة عبشمي ... أدار سداس ألا يستقيما
وللكميت:
فلم يستريثوك حتى رم ... يت فوق الرجال خصالا عُشارا
وللهذلي:
يصيّد أُحدان الرجال وإن يجد ... ثُناءهم يفرج بهم ثم يزدر
وأنشدني:
أحمّ الله ذلك من لقاء ... أُحاد أحاد في شهر حلال
وحكى ابن السكيت عن أبي عمرو: ادخلوا موحد موحد ومثنى مثنى ومثلث مثلث ومربع مربع وكذلك إلى العشرة. وكذلك ادخلوا أحاد أحاد وثناء ثناء وثلاث ثلاث ورباع رباع إلى العشرة. قال علي (يعني ابن حمزة رواية أبي الطيب) وقال أبو الطيب: وكان أبو حاتم تبع
أبا عبيدة في قوله في كتاب المذكر والمؤنث: (ورباع رباع. ولا نعلمهم قالوا فوق ذلك) ثم رجع عنه فقال في كتاب الابل: (ورباع إلى العشرة).
قال أبو الطيب: وأما ليبيتنا فتصغير تعظيم كقول لبيد
وكل أناس سوف تدخل بينهم ... دويهية تصفرّ منها الأنامل
الرواية التي أعرفها خويخته. وكذا أنشده المبرد واليزيدي وثعلب وأنشدنيه المتنبي دويهية (هذا من قول علي ابن حمزة) وقال الأنصاري: أنا جُذَيلها المحكك، وعُذَيقها

المرجب، قال: وتصغير الأسماء على هذا المعنى كقولهم كليب وعمير. قال وما يروى عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه: أنا هوى ومعي سلاحي فصغره والتنادي، أراد التنادي بالرحيل). أهـ
وفي شرح البيت:
إذا عرضت حاج إليه فنفسه ... إلى نفسه فيها شفيع مشفع
قال أبو الطيب: يقال حاجة وحاج وحاجات وحِوَج، وعلى غير القياس حوائج. وتقول العرب: في نفسي منه حوجاء أي حاجة، وأنشد:
ألا ليت شوقا بالكناسة لم يكن ... إليها لحاج المسلمين طريق
وقال آخر:
لعمري لقد لبّثتني عن صحابتي ... وعن حِوَج قضاؤها من شفائيا
وأنشد لامرئ القيس:
لتقضى حاجات الفؤاد المعذب
وأنشد الفراء:
نهار المرء أمثل حين يقضي ... حوائجه من الليل الطويل
وزعم الأصمعي أن حوائج مولدة. قال أبو الطيب: وهي كثيرة على ألسن العرب خرجت عن القياس. قال البصري (علي بن حمزة) وأنشدني أبو الطيب للشماخ:
تقطع بيننا الحاجات إلا ... حوائج يعتسفن مع الجريّ
قال: حوائج جمع حائجة على القياس وهو صحيح. وقد ذكر ذلك ابن دريد قال حاجة وحائجة وحوجاء). أهـ
ذلكم مثال مما أملاه الشاعر على رواة ديوانه. وأني لراج أن ييسر الله لي عما قليل طبع الديوان مجرداً من كل شرح إلا أمالي الشاعر والمقدمات التاريخية التي تصدّر بها بعض القصائد وأحسبها من إملاء الشاعر كذلك.
3 - وقد قرئ على أبي الطيب في مصر كتاب المقصور والممدود لأبي العباس بن ولاد فصححه وأخذ على مؤلفه غلطات، وقد عثرت على رسالة اسمها (التنبيهات على مقصور ابن ولاد النحوي) جاء في مقدمتها:
قال أبو القاسم: وكان هذا الكتاب أعني المقصور والممدود قرئ على أبي الطيب) بمصر سنة سبع وأربعين وثلاثمائة، فردّ فيه على ابن ولاد أغلاطاً وبينها، واستشهد عند بعضها، فجمع رد أبي الطيب وشواهده بعض المصريين وادّعاه لنفسه بعد خروج أبي الطيب من مصر، وأضاف إليها أشياء من عنده غلط فيه هو وأشياء أصاب فيها. وكان هذا المدعي سمع هذا الكتاب وغيره من ابن ولاد وعنه سمعته، وهذا المدعي يعرف بأبي الحسين المهلبي، فإذ مرّ من تلك الأغلاط والشواهد شيء في كتابنا عزوناه إلى مستحقه وبيناه إن شاء الله). . .
وقد قرأت كتاب التنبيهات على مقصور ابن ولاد وهو كتاب صغير فجمعت ما نسبه المؤلف إلى أبي الطيب من الرد على ابن ولاد وأثبته هنا:
وقال ابن ولاد في باب الشين: وذكر عن أبي عمرو ابن العلاء وعيسى بن عمرو أنهما) قالا الشِذو لون المسك، قال الشاعر:
إن لك الفضل على صحبتي ... والمسك قد يستصحب الرامكا
حتى يعود الشذو من لونه ... أسود مضنونا به حالكا
وهذا ما أخذه عليه المتنبي قبلنا فقال هو الشِذو. وقد أصاب المتنبي وغلط ابن ولاد في فتحه.
وقال ابن ولاد في هذا الباب (باب الطاء): والطُرقي في النسب من قولهم الطُرقي والقُعدي فالطُرقي أبعدهما نسباً والقعدي أدناهما نسباً.
وهذا ما أخذه عليه المتنبي قبلنا فقال الصواب الطرفي بالفاء. وقال ابن الأعرابي يقال فلان أقعد من فلان أي أقل آباء وأطرف من فلان أي أكثر آباء. وهو مأخوذ من الطرف وهو
البعد. وقال الأصمعي يقال فلان بين الطرافة إذا كان كثير الآباء إلى الجدّ الأكبر. وهو عندهم مدح كما قال الشاعر:
طرفون لا يرثون سهم القُعدُد
وهذا الذي حكاه المتنبي مشهور معروف من قول ابن الأعرابي والأصمعي (وهو)

الصحيح. وقد ادعى هذا الرد ابن الملتقط (يريد أبا الحسن المهلبي) وكذب في ادعائه وهو من رد المتنبي.
وقال ابن ولاد في هذا الباب (باب الغين) غضبي مائة من الابل معروفة كقولك هنيدة وأنشد:
ومستخلف من بعد غضبي صُريمَة ... فأحربه لطول فقر وأحربا
وهذا ما رواه المتنبي فادعاه ابن المنبوذ (يريد المهلبي أيضاً) فقال الذي راوه أبو العباس (ابن ولاد) غضنى بالنون. وهو خطأ إنما هو غضيى بالياء. وهذا صحيح ذلكم أبو الطيب في علمه باللغة وشواهدها ونحوها وصرفها. . . الخ الخ.
عبد الوهاب عزام
يا ضوء
للأستاذ عبد الرحمن شكري
تضيء ما يستر الظلام من ال ... قبح وتكسوه حُلَّة البِدرِ
وأمسك النار وهي صائلة ... للخير والشر صولة الغِيَرِ
كسوتَ وجهي وخطري حُللاً ... وكنت للعين علة النظر
لولاك لم يرحم الذي حمد ال ... حسن أخاه ذا الآفة الكَدِرِ
تلوح للهالك السقيم فيع ... تدك خير اللذات والذُخُرِ
تلوح للجارم الحبيس كما ... يلوح ماضي النعيم في الصوَر
تغذوه أم في عينها أبدا ... سحر حنان يضيء في البصر
وهو وليد قد أُولِعت يده ... بخطفة الضوء حلية الحجر
وكلنا ذلك الوليد إذا ... لاح سراب الرجاء والوطر
وأنت في المعبد المَشِيدِ كضو ... ء الله في صالح من الخبر
أو مثل ضوء الضمير محتبس ... في النفس أو كالصفاء في السِّيَر
تهبط فوق الغدير في مرح ... مثل هبوط الطيور في الشجر
أم أنت روح الحبور قد برزت ... تنير وجه الحياة في خَفَر
سنابل النبت أنت صغت لها ... من عسجد حُلة من الحَبَر
ترقص رقص الحسناء إن لها ... رقصاً كرقص الضياء في النهَر
يا علماً للحياة ينشره ال ... كون فيقصي القلوب عن خَوَر
ورُب فجر بَثَّقْتَه بَهِج ... كفجر حب في القلب منفجر
أو مثل فجر الآمال إن لها ... فجراً وليلاً يُضَاءُ بالذِّكَرِ
فطرز السحب مثلما حسن ال ... نحس بضوء الرجاء في الكدر
كأنما أنت سُلمٌ لعلا ... ء النفس تسمو لآية العُمُرِ
أم أنت حسن الجِنَانِ نبصره ... منفجراً خارجاً من الثُّغَر
ترمد طرف الحزين إن أخا ... ك الليل بَرٌّ بالخاطر الكَدِرِ
تلِيحُ بالسعد والمنى أبداً ... لذي طموح بالترب منعفر
وأنت كالبحر دره الفلك ال ... دوار أو فاقع من الزهر
ويا بشيراً بما نخال من ال ... آلاء في مقبل من الغيَر
حكيت ذخر الآمال تبعثها ... للوهم يزهو كالتبر في الذخُر
تخال من رقة المراسم مع ... نى لا يراه البصير بالبصر
أشهى ضياء يكسو الحبيب خما ... راً نعم ذاك الكساء في الخمُر
تستبق الطير في أشعتك ال ... غراء فعل الحسان في الغدُر
وضاءة الماس منك قد قبست ... وأنت في الروض خمرة الزهر
والضوء في المنزل الخراب كقل ... ب الندب يشفى بالجسم في الكِبَر
خواطر الخير كالملائك أو ... كالضوء يزهو في قمة الشجر
كل جليلٍ مُشَبَّهٌ بك في ال ... مدح وليس الترب كالدرَرِ
فالحق والحسن والمطامع أش ... باهك في قول ناعت الغُرَر
أَضِئْ إن اسطعت ما يرام من ال ... غيوب والطارقات والقدر
كم ذا رأيت الأنام في عنت ال ... عيش نشاوى من غير ما سُكُر
فلم تقطب على الشقاء ولم ... تَبْدُ كوجه الليل معتكر

كالشيخ شام الخطوب قاطبة ... يذخر غُفْراً لزلة البشر
عبد الرحمن شكري
مأساة فراق
ما البرق لاح لتائه وخبا ... والكون عاد يخب في الظّلَم
أو منية للنفس سُرَّ بها ... قلب ولم يك ذا سوى حُلُم
بأمض وقعاً من نوى قرنت ... بتعارف فتآلف النسم
يا لحظة ما كان أسعدها ... لو لم تدع قلبين في ضرم
لم يكف سرعتها فنغَّصها ... يا للقساوة حقد منتقم
هل في قريضك بعدُ تسلية ... يا صائغ الأشجان في نغم
أم قد يضاعف ذاك من أسف ... وهل القريض يرد من عدم
شلت يد التفريق حين رمت ... متآلفين بسهمها الشيم
متجاوبين بكل عاطفة ... متفاهمين بأعين وفم
يتساقيان على الكؤوس هوى ... أغضى الرقيب له على رغم
كل يحس بقلب صاحبه ... ويرى له كالروح من سجم
تلك السعادة وهي إن قصرت ... حسب المحب لذاذة الألم
(. . .)
الشعب الباسل
للسيد عبد الرحيم محمود
شعب تمرَّس في الصعا ... ب ولم تنل منه الصعابْ
لو همُّه انتابَ الهضا ... ب لدُكدكت منه الهضابْ
متمردٌ لم يرضَ يو ... ما أن يقرَّ على عذب
عرنينه بلغ السما ...ءَ ورأسه نطح السحاب
وعُداته رُغم الأنو ... ف تذللا حانوا الرقاب
مثل حدا حادي الزما ... ن به وناقلت الرّكاب
إن تجهل العجبَ العجا ... بَ فإننا العجبُ العجاب
نحن الأولى هابَ الوجو ... دُ وليس فينا من يهاب
وسل الذي خضع الهوا ... ء له وذلّ له العباب
هل لان عود قناتنا ... أم هل نبت عند الضراب
أو شام عيباً غير أنا (م) ... ليس نرضى أن نُعاب
حييت من شعب تخلّ ... د ليس يعرُوه ذهاب
لفَتَ الورى منك الزئي ... ر مزمجراً من حول غاب
وأرى العدى ما أذهلَ ال ... دنيا وشاب له الغراب
عرف الطريق لحقه ... ومشى له الجدَد الصواب
الحقُّ ليس براجع ... لذويه إلا بالحراب
الصرخة النكراء تج ... دي لا التلطف والعتاب
والنارُ تضمن والحدي ... د لمن تساءل أن يجاب
حكِّمهما فيما تري ... د ففيهما فصل الخطاب
(فلسطين)
عبد الرحيم محمود
الراعي الشيخ
لفكتور هوجو - ترجمة أحمد فتحي مرسي
مالت الشمس للغروب وعاد ال ... ليل في إثرها عبوساً مهيبا
وعلى الصخر قد تطرَّح شيخ ... أوشكت شمس عمره أن تغيبا
غارقاً في السكون والصمت يرعى ال ... شمس في الغرب والفضاء الرحيبا
لحظة أي لحظةٍ قد تولت ... هدأ البحر والجبال لديها
رقد الشيخ والرياح حوالي ... يه وقد رفرف السكون عليها
غابت الشمس وهي ترنو إليه ... وقضى الشيخ وهو يرنو إليها
إلى باكية
للسيد شفيق معلوف

وَيْحِ لو كنتُ عالماً أن شعري ... سوف ينتابُ منكِ غصَّةَ حُزنِ
لرميتُ اليراعَ عني بعيداً ... ونفيتُ العذاب عنكِ وعني
ولو أني لمحتُ دمعتكِ الحرّى ... لَشيَّعتُها بآخر لحن
وبسطتُ ابتسامَ ثغري عليها ... وتلقيتها بأهداب جفني
أيُّ لحن أثار شجو العذارى ... وتمنَّيتُ أنني لم أكُنْهُ
أيُّ دمعٍ أريق من غير جفني ... ورآه جفني فلم يحتضنْهُ
أين ذنبي؟ وفي مدامعك الذنبُ ... وقلبي الذي يكفرُ عنهُ
إنْ يقرِّحْ جفنيكِ شعري - لكِ ... اللهُ - فقلبي تقتصُّ عيناكِ منهُ

القصص

قصة مصرية

صراع مع الشيطان!

للأستاذ دريني خشبه

(. . .الحوار في الأصل باللهجة المصرية)

انبسطت حقول الأرز حول القرية الساكنة الشاحبة، وهدأ الليل الفضي إلا من ضفادع تنق، ونسمة ترف فتحرك أغصان (الجميزة) الكبيرة التي ترسل فروعها فوق شاطئ النيل من جهة، وفوق (الدَّوّآر) الواسع في شرق القرية من جهة أخرى؛ وسفر البدر الجميل الساحر، ففضض عباب النيل، واختلط لجينه بمائه النجاشي، وتدفق فوق (اللسان) الحجري الأبيض الذي أقاموه ليفل من غربه فأحدث خريراً موسيقياً بديعاً.

وجلس (حماده) بن العمدة في منعزل عند ضفة النهر مما يلي الماء ينتظر فاطمة. . . الفلاحة الصغيرة الجميلة، التي رآها ابن العمدة حاسرة عن ساقيها وهي تنقي الأرز مع الفلاحات الأخريات، فجن بها جنوناً، وافتتن بها افتتانا.

لقد رشقت قلبه بنظرةٍ ماكرة حين رأته يكاد يأكلها بعينيه الجائعتين، وحين أحسَّت أنها حلت من فؤاده منزلة لا تعدلها منزلة فتاة أخرى، حتى ولا زوجته الغنية التي بني بها منذ شهر وبعض شهر، فكان لعرسها صدى أي صدى في كل القرى المجاورة، لا سيما وقد غنى فيه المطرب المشهور الشيخ عبد الإله. . والعياذ بالله. . .

ولسيقان الفلاحات جمالها الرائع، وهي دائما محاطة بظل من الفتنة، يزيده الخلخال النائم على العقبين، والملاءة السوداء القصيرة، رونقاً ورواء. وكان لفاطمة جيد بارز وقوام ممشوق، وكان لها عنق طويل أبيض، يزينه عقد كبير من الكارم الأصفر، ينتهي بحلية من النحاس المصفح بالذهب فتقر على الصدر، عند انفراج الثديين، فتزيد اهتزازات النهد خفقاناً في قلب حمادة. . . حمادة المسكين. . . الذي ربط حياته أبوه بحياة هذه الزوجة الغنية التي لم يحبها، والتي ألقاها أبوه على كاهله حملاً ثقيلاً من الهم والشقاء. . . والذهب!! والذهب لا يصلح علاجاً للهم والشقاء مهما كان كثيرا طائلاً.

لقد كان حمادة فتى ذكيا من فتيان الأزهر، فقطعه أبوه عن العلم ليزوجه هذه الزيجة الغنية قبل أن تفلت من يده، لأن أبناء العمد في القرى المجاورة كانوا قد بدءوا يخطبونها إلى والدها، وقد غادر حمادة الأزهر وفي قلبه حسرة، ولكنه خضع لمشيئة والده بعد أن خدعه بالأماني والآمال، وبعد أن زين له مستقبلاً مليئاً بالحور العين والدعة، وبعد أن بغض إليه مستقبل التحصيل الأزهري الشاق بتكرار هذه العبارة المنكرة: (الأزهر ما مستقبله؟ علومه ما قيمتها؟ أتريد أن تفقد بصرك وصحتك لتكون مأذوناً شرعيً آخر الأمر مثل الشيخ عرفه؟).

وتزوج حمادة من نظيرة، فلما كانت ليلة العرس، ودخل إلى عروسه، دارت به الأرض، وشعر كأن هواء الغرفة يخنقه، وانطفأت في عينيه الشموع الكثيرة الموقدة في (الصواني) النحاسية تحملها القرويات الصغيرات، وخيل إليه كأن جهنم بكل ما فيها من سعير تزفر من لهب هذه الشموع فتكاد تحرقه.

لقد نظر إلى عروسه فطاشت أحلامه؛ وذهبت أمانيه في الجمال الذي كان ينشده أباديد. . . حمادة، الذي كان يعبد الله في الجمال يبتليه أبوه بهذه المرأة التي فقدت نصف أذنها اليمنى، وأتلف الجدري أنفها، ونما لها في كل يد إصبع سادس ما ينفك يرقص كأنه الجلجل الصغير في عنق الدابة، ثم هي قصيرة مكلثمة شائهة، وقد زادتها الأساور والقلائد والقرط والخواتم وأرطال الذهب قبحاً على قبحها.

وتذرع حمادة بالصبر، ولم يشأ أن يجرح عزة هذه العروس التاعسة التي ليس ذنبها ألا تكون جميلة، فهي لم تخلق من نفسها شيئاً، بل هو قد رحمها وأشفق عليها رثاء لها؛ وصرف أهله وأهلها، وغلَّق الباب، وخلا إليها، ثم راح يكلمها كلام الذاهل عن تفسه، المستسلم لقضاء الله. . . ولكنها لم ترد عليه، بل تركت دمعة غليظة تنحدر على خدها فجأة، ثم استخرطت بعد ذلك في البكاء.

- (. . .ما الذي يبكيك يا)

- (لا شيء! فقط، كنت ولا زلت أعتقد أنني لم أكن أصلح لك كزوجة، ولكنهم أرغموني كما أرغموك يا حمادة، فليس هذا الذنب ذنبي!).

- (ولكنك مخطئة، فأنت امرأة صالحة وغنية!)

- (وهذا هو موضع أساي وسبب بلواي. . . اسمع يا حمادة، لك مطلق الحرية في أن تُسرِّحني من الغد وأن تكون حراً بعد ذلك، وسأرد لك صداقك، بل سأرده مضاعفاً إن شئت. فإن أردت أن تستبقيني لديك فسأعيش معك عذراء إلى الأبد، ولن أنغص عليك بخلقي الشائه متاع قلبك ونعيم نفسك ولذة شبابك ونضرة صباك. فهذه أشياء لك أن تنعم بها، ومن الظلم أن أفرض عليك هذا القبح الذي رزأتني به المقادير، فأقف به بينك وبين لذات الحياة وهناءتها. . . أرسلني أشكر لك، أو استبقني أحمدك. فإن كانت الأولى تكن قد خلصت من خطأ أوقعك فيه غيرك، ولم تتكلف في سبيل الخلاص منه قليلاً ولا كثيراً؛ وإن تكن الثانية، فثق أنني سأعيش في كنفك كما تعيش الراهبة في دير ساكن هادئ على هامش صحراء، يقنعها أن قد انقطعت عن بهارج الحياة وزخارفه وآمنت ببطلان لذاتها. . . آه! يا إلهي! لم لا نتخذ نحن المسلمين مثل هذه الديور؟ . . .!كفى يا نظيرة كفى! بل تعيشين معي على أحسن ما تعيش فتاة تفرح برجلها)

- وعاشت نظيرة في كنفه، عذراء كما عاهدته، وكان هو يحنو عليها ويعطف كل العطف، وكان يسامرها ويلاطفها ويهش لها ويبش، حتى كلفه أبوه بمراقبة الفلاحات إذ ينقين الأرز من الحشائش الغريبة وسائر الطفيليات، فرأى فاطمة. . . فاطمة الشابة الجميلة التي تتأرج كالزهر بشذاها وعَرْفها، وتتبرج كالدنيا بمفاتنها وظرفها. . . لقد بسمت له عن فم رقيق، وغمزت قلبه بعين خبيثة ماكرة ففجرت فيه أحاسيسه المكبوتة، وأطلقت عواطفه الحبيسة، وأحيت في صميمه مطالب الشباب فثارت كالبركان، وصعد الدم الحار يغلي في رأسه، وتدفقت في أعصابه قوى هائلة من الطبيعة البشرية بغَّضت إليه هذا الزهد المصطنع الذي فرضته عليه نظيرة، وقبحت إليه تلك الرهبانية التي عرفها وهو في ميعة الصبى وشرخ الشباب منذ الليلة الأولى التي رأى فيها زوجته الشائهة المسكينة.

وكان يرسل من يشتري له بلحاً أحمر يأكله بعد الغداء، وكان يوزع على الفلاحات بيده من ذلك البلح إذا فرغن من غدائهن؛ وكان نصيب فاطمة من هذا البلح الأحمر كبيراً منتقى، أثار في قلوب أترابها غيرة شديدة وجعلهن يهمسن بكلام كثير.

ومرت الأيام. . . وتأكد الحب بين حمادة وفاطمة، وإنه لينتظرها الليلة في هذا المنعزل الفريد عند ضفة النيل مما يلي الماء، قريباً من تلك الجميزة الكبيرة الوارفة، وإنها لتتأخر

عن موعدها فيقلق حمادة ويضطرب، ويسمج في عينيه كل شيء من الطبيعة الساحرة التي حوله، حتى بدرها الذي كان للحظة قصيرة يتلو عليه مزامير الحب، يخيل إليه أنه مظلم قاتم، أو أنه جذوة من الشك السادر الحزين تجوب أقطار السماوات.

لم لم تأت يا ترى؟ آه اللعينة! أخشى أن يكون في الطريق إلى قلبها فتى سواي. . .) سأعرف. . . لا بد. . . لابد أن أعرف. . . سأسألها الليلة، لابد أن ألقاها مهما كانت ظروفها، لن تستطيع أن تنكر، ماذا تقول؟ هيه!)

وصعد إلى الجميزة لأنه لم يحتمل مرور الزمن وهو يترقب وينتظر، وجمع قليلاً من الجميز الفلكي الأحمر الكبير، وهبط ليلقى فاطمة تنتظره، فقذف بالثمر الناضج على العشب، وفتح ذراعيه وضم إلى صدره فاطمة، واحتملها كاللعبة، ويمم شطر المنعزل الهادئ القريب من الماء. . . ثم جلسا يتناجيان. . .

- (لماذا أبطأتِ عليّ يا بطة؟)

- (لا شيء، غير أنني كان يخيل إليّ أن الطريق كلها عيون ترقب جميع حركاتي، وكنت

على غير عادتي أشعر بقلبي يخفق خفقاناً شديداً. . . حمادة أليس قلبك يخفق مثل قلبي؟).
- (. . .يخفق؟ يخفق فقط؟ إنه كاد ينخلع هذه الليلة يا طمطم لأنك أبطأت كثيراً).
- (. . .حمادة، أنا خائفة).
- (خائفة؟ من ماذا يا حلوة؟ هل هنا عفاريت؟).
- (. . .لا، ليس من العفاريت، فالليلة مقمرة. . . الحمد لله).
- (إذن مم تخافين؟ هل تعقبك أحد إلى هنا؟).
- (. . .لا. . . لا أظن، ولكن).
- (فاطمة. . . كفى! يجب ألا تفكري في شيء ما دمت معي. . . تعالي يا فاطمة، هاتي فمك الخمري الجميل، الله! ما أشهاه يا فاطمة! قبلة ثانية، لا والله، لابد، لابد، لابد، فاطمة، أنت ترفضين؟ آه! يا قلبي!).
- (حمادة! أنا خائفة قلت لك!).
- (خائفة من أي شيء يا طمطم؟).
- (من. . . من. . . منك. . . أنا خائفة منك يا حمادة؟!).
- (مني؟ مني أنا؟ أنت خائفة مني؟).
- (نعم أنا خائفة منك. . . خائفة جداً!).
- (. . .لماذا؟ هل أنا عفريت؟ القمر طالع والحمد لله؟).
- (حرام عليك يا حمادة!).
- (حرام علي ماذا؟).
- (شيء. . . فقط. . . زوجتك نظيرة. . . إنها لو علمت تقتلني!).
- (امرأتي نظيرة! العياذ بالله؟ نظيرة ليست امرأتي يا فاطمة!).
- (ليست امرأتك؟ امرأة من إذن؟).
- (أجل، نظيرة ليست امرأتي! إنها فريسة أبي).
- (فريسة أبيك كيف يا حمادة!).
- (فريسة أبي، لأنه تجاهل قلبي وشبابي حين اشتراها لي).
- (اشتراها لك؟ وهل العرائس تشترى! ماذا تقول يا حمادة؟).
- (اشتراها، أجل اشتراها، اشترها لأنها تملك خمسين فداناً ومنزلين وعندها نقود كثيرة، ولكنها، كامرأة. . . لا تسوى منك قلامة ظفر يا فاطمة!).
- (لمه؟ أليست جميلة؟).
- (جميلة؟ كلا! إنها شوهاء! أكل الجدري نصف أنفها وذهب الجزار بنصف أذنها، ونبت النصفان، نصف الأنف ونصف لأذن، في يديها، فكانا في كل إصبعاً سادسا؟ . . .).
- (ولكنك تخونها الآن يا حمادة؟ أليس كذلك؟).
- (أخونها، لقد صرحت لي ليلة الدخلة أنها لن تقف في سبيل لذاتي!).
- (ورضيت أن تعاشرها على هذا الشرط؟).
- (. . .؟. . .).
- (وأنا أرفض أن أكون مطية للذتك! هذا كثير! دعني! لابد أن أعود أدراجي!).
- (إلى أين؟).
- (ليس هذا شأنك!).
- (آه! اعترفي إذن! إلى عشيقك الثاني! الذي أخرك هذه الليلة!).
- (حمادة؟ ماذا تقول؟ أنت جبان!).
- (جبان؟ لا. . . أنا لست جباناً. . . ألذلك تخافين مني؟ ولكن لا، لن يتمتع بك أحد غيري، أنت لي وحدي، أفهمت؟ أنتِ لي وحدي! فاطمة! انزعي هذا الثوب. . . وذاك النصيف!).
- (يا حمادة عيب!).
- (عيب؟ لا، ليس في ذلك عيب مطلقاً! قد عرفتك الليلة فقط، ولابد أن أنالك رضيت أو لم ترضي! ستكونين جميلة جداً وأنت عارية!).
- (حمادة! إن لم ترجع (فسأصوّت)).
- (صوّتي ما شئت! لا تفضحين إلا نفسك! أنا رجل على كل حال، ماذا يهمني إذا اجتمع الناس؟. . .

وانقض عليها المسكين ينزع عنها ثيابها ثوباً ثوباً. وما استعصى عليه منها جبذة فمزقه، حتى وقفت أمامه فاطمة دمية من المرمر الناصع. . . تمثالاً! تمثالاً فاتناً خلاباً. . . ولكنه لا يتحرك! لقد ذهلت فاطمة عن نفسها فلم تدر ماذا تصنع؟ أتصوّت كما أنذرته؟ ولكنه قال لها إنها إن فعلت فلا تفضح إلا نفسها. . . جبنت فاطمة فلم تصوت إذن. . . ووقفت مشدوهة حائرة، وصب القمر على بدنها الجميل المذعور أضواءه الفضية فزادها فتنة؛ وهبت نسمات عليلة فداعبت شعرها الأسود فانتثرت على جيدها وظهرها وحول عنقها. . . وجاء دور الشيطان. . . نوبة إبليس الأكبر! فرح يصقل فخذيها ويلون خديها ويثقل ردفها وينفخ ثديها. . . وانطلق يوسوس في قلب حمادة (هلم! أهجم عليها! لماذا تنتظر! ها هي ذي! إنها لك الساعة وإذا فارقتك فلن تراها بعد! أنت شاب، وللشباب مآربه! زوجتك الشائهة! لا تخش شيئاً! اقطف الثمرة قبل أن يلتقطها عشيق غيرك! الجدري! فاطمة جميلة ساحرة؟ الإصبع السادس! هالك متاع الدنيا!. . .) وأزله الشيطان فانقض على الفتاة البائسة. . . وطرحها على (الدريس) اليابس وأعواد البردي المنداة. . . ووقف برهة يملأ ناظريه الفاسقين من جمالها المظلوم. . . وقبل أن يتقدم فيخطو الخطوة الأخيرة، وحين أيقنت فاطمة أنه موشك أن يعتدي عليها. . . اغرورقت عيناها بدموع غليظة، وقالت له:

- (. . . حادة! والقرآن يا حمادة! القرآن الذي حفظته في الأزهر؟ نسيته؟ نسيته يا حمادة. . بهذه السرعة؟ .).

- (. . .!القرآن؟ القرآن!! هه .).

وجمد الفتى في مكانه لحظة. . . ثم ولى الفتاة ظهره، ونظر إلى السماء وقال:

- (ربي! غفرانك اللهم. . . فاطمة!).

- (. . .؟. . .

- (انهضي فالبسي ثيابك!).

ونهضت فاطمة وهي لا تصدق، فارتدت ملابسه، الممزق منها وغير الممزق، ثم قالت لحمادة بصوت خاشع متهدج:

- (حمادة! أنت. . . مالك يا حمادة).

ولكن الفتى ازوَرّ عنها وقال:

- (. . .لا شيء يا فاطمة. . . عودي أدراجك إلى منزل أبيك، وسأحرسك من بعيد).

وانطلقت الفتاة في الطريق المقفر الموحش، وانطلق في إثرها حمادة، وهو لا يكاد ينظر إليها. . .

- (نظيرة! هل يحزنك أن أتزوج؟).

- (يحزنني؟ بل يسرني أن تمتع شبابك كما يحلو لك!).

- (إذن فقد عقدت على فتاة فلاحة. . . فقيرة في غاية الفقر وستكون خادمة لك إذا شئت!)

- (من؟ من هي يا حمادة؟ من هي بالله عليك!).

- (فاطمة بنت عم عبد القادر العتال!).

- (مبارك. . . مبارك يا حمادة)

ولم تحتمل نظيرة الموسرة هذه الرهبانية التي فرضتها على نفسها في منزل العمدة الذي خدع ابنه فرجت حمادة في طلاقها. . . وذهبت بكل ما عليها من ذهب إلى منزلها الرحب الفسيح في إحدى القرى المجاورة للمنصورة!

دريني خشبة

البريد الأدبي

إحياء الموسوعات العربية العامة

رأى صاحب المعالي الأستاذ زكي باشا العرابي وزير المعارف أن تقوم وزارته بإحياء المصادر التاريخية والأدبية للمخلفات العربية العامة، فأمر أن تؤلف لجنة من رجال الأدب لبحث هذا المشروع الخطير.

وقد اجتمعت هذه اللجنة بوزارة المعارف ظهر الاثنين الماضي (24 أغسطس) برياسة الأستاذ محمد العشماوي بك وكيل المعارف، وحضور حضرات أصحاب العزة محمد عوض إبراهيم بك، والأستاذ علي الجارم بك، ومحمد أحمد جاد المولى بك، ومراقبي التعليم ومساعديهم، واختارت لجنة فرعية من شيوخ اللغة العربية بالوزارة لتنفيذ رغبة

معالي الوزير بمراجعة الأصول العربية وإخراجها بإشراف الوزارة ورعايتها، بحيث تمكن هذه المراجع الهامة من إعطاء مادة كافية من وضع كبار مؤلفي العرب لمشروع دائرة معارف عربية كاملة بشكل يتفق مع زعامة مصر للأمم العربية.
وقد شرعت الوزارة في اعتماد المبالغ اللازمة لتنفيذ المشروع. .
ومن المصادر التي رأت اللجنة مراجعتها: ابن الأثير، والطبري، وتاريخ ابن مسكويه، وتاريخ ابن خلدون، وطبقات ابن سعد، ونحو خمسين مؤلفا غيرها لها أهميتها الأدبية كالأمالي والكامل والأغاني والتراجم المختلفة في القرون الثامن والتاسع والعاشر والحادي عشر.
ولا شك في أن وزارة المعارف بهذا المشروع ستسدي خدمة جليلة للناطقين بالضاد في جميع أنحاء العالم العربي.
للحقيقة والتاريخ
ضمنا مجلس مع فخامة حقي بك العظيم، رئيس مجلس الشورى، وكانت لا تزال في خاطري ذكرى القصة الشجية التي قرأتها في مجلة (الرسالة) الغراء في عددها (161) للأستاذ علي الطنطاوي بعنوان (النهاية). . . وما تضمنته من حوادث خاصة عن والي دمشق ناظم باشا والجفاء الذي لقيه عند زيارته لها فيما بعد؛ فذكرت ذلك لحقي بك، وكان يومئذ حاكم دمشق، فاستغربه وقال: إني أربأ بالكاتب أن يصل به خياله لهذه الدرجة برغم
أن كتابته عالية. ثم أخذ يسرد علينا قصة مجيء ناظم باشا إلى دمشق والحفاوة البالغة التي حظي بها قال:
ثم أتى دمشق بعد أن زار ابنتيه في بيروت، وكان ببزة عادية، فبقي فيها عدة . . .) أيام زارني خلالها في (السرايا) فاستقبلته بكل حفاوة وتعظيم تقديراً له وإكراماً لأعماله العمرانية التي أودعها في مدينتا. . . وعند خروجه اصطفت له جنود الحرس وأقامت له التحية الرسمية، وودعته أنا حتى الباب الخارجي، وقد احتفى به معظم وجوه دمشق، وتقدموا إليه بهدايا عديدة رفضها بكل إباء. وكان قد أحس نقيب الأشراف بوجوده فأتاه في اليوم التالي ورجاه أن يطيل بقاءه بضعة أيام أخر لتقوم دمشق بواجبها نحوه، فاعتذر بضرورة مغادرته المدينة إلى بيروت، حتى أن السلطة الفرنسية تقدمت إليه بمنتهى الإكرام. وإني أذكر أن الكولونيل كاترو أدّب له وليمة فاخرة كنت من المدعويين إليها. ولم يُظهر ناظم باشا مدة إقامته بدمشق عجزا أو حاجة مالية قط. وربما شعر بعض أصدقائه بشيء فتقدموا نحوه بعطايا كما ذكرنا فرفضها. ومن ذلك أن رجلاً يدعى (شيخو آغا) كان (ياورا) عند الوالي، جاءه بكل خضوع وبيده كيس صغير فيه (500) دينار، واستعطفه بلطف ورجاه أن يقبله منه كهدية، قلت أو كثرت، فهي من خيراته السالفة التي أنعمها عليه، فأبى بعفة نادرة. . . ثم مات منذ خمس سنوات. . .).
حدثت هذه المقابلة اتفاقاً، فلم أرد أن أهملها أو أخفيها على قراء (الرسالة) الغراء خدمة للحقيقة والتاريخ.
وإنا وإن كنا نستسيغ للأستاذ الطنطاوي الخيال المبدع في القصص، فإننا لا نود أن يتسمح في الحقائق التاريخية. وإن إعجابي الشديد بمتانة أسلوب أخي الأستاذ الطنطاوي، وقوة إنشائه، شجعاني لتصحيح هذه الناحية من قصته إتماماً لفنه القصصي البارع، والسلام.
(دمشق)
علاء الدين الخاني
المسألة الاستعمارية
ظهرت في العهد الأخير نزعة استعمارية جديدة في بعض الدول التي لم تتح لها فرصة امتلاك المستعمرات من قبل أو التي فقدت مستعمراتها لأسباب خاصة؛ وترجع الدول التي تضطرم بهذه النزعة الجديدة مثل إيطاليا واليابان وألمانيا وبولونيا مطالبها إلى حق المشاطرة في امتلاك المستعمرات على قدم المساواة مع الدول الأخرى التي تتمتع بالأملاك الاستعمارية الواسعة مثل فرنسا وإنكلترا وهولندا؛ وتزعم فوق ذلك أن لها حق الفتح والامتلاك بالقوة ما استطاعت سبيلا إلى ذلك، وتدعي أن العوامل الاقتصادية تدفعها إلى ذلك دفعاً؛ فزيادة السكان، والعطلة، وفقد المواد الأولية، وغيرها

مما يرغمها على تلمس السبيل إلى تخفيف متاعبها الاقتصادية بامتلاك المستعمرات واستثمارها.

وقد بحث هذه المسألة كاتب سياسي واقتصادي كبير هو المستر جروفر كلارك، وأصدر عنها أخيراً كتاباً ضافيا بعنوان (مكان تحت الشمس) وألحقه برسالة أخرى عنوانها (قوائم الاستعمار) وفي الكتاب الأول يفند مستر كلارك مزاعم الدول الاستعمارية من الوجهة السياسية والتاريخية، وفي الثانية يفند مزاعمها من الوجهة الاقتصادية بإيراد الإحصاءات التي تدل على أن الغايات الثلاث التي تستتر وراءها: أعني إيجاد منذ للسكان، وافتتاح الأسواق المحلية، والحصول على المواد الأولية، إنما هي غايات مزعومة.

ويلاحظ مستر كلارك أن تحقيق هذه المزايا لا يتوقف على امتلاك المستعمرات فقط، بل يتوقف قبل كل شيء، وخصوصاً أيام الحرب، على القوة البحرية التي تملكها الدولة المستعمرة. ومن جهة أخرى فأن معظم البلاد التي تطمح إليها الدول المستعمرة قد أصبحت تغص بسكانها الأصليين، ومن الصعب أن ينافسهم في استثمار مواردها ومرافقها مهاجرون من الخارج، وينطبق هذا بنوع خاص على البلاد الواقعة في المناطق الحارة.

بيد أن العوامل الاقتصادية ليست كل شيء في الموضوع، فهناك ما يسمى بالعزة القومية، وهي مسألة أثارتها ألمانيا بنوع خاص. وهذا العامل المعنوي يراه المؤلف ضرباً من اللغو ولا يرى أن يقف به طويلاً، إذ أن المبدأ المسلم به هو (أن تحصد أينما بذرت).

وبحوث مستر كلاك وملاحظته جديرة بالاطلاع والتقدير.

من أخبار السفهاء في مصر

قرأنا في أحد أعداد جريدة الجورنال الباريزية ما يأتي:

(في مصر، على مقربة من الأقصر، يبنى الآن قصر فخم، وذلك من أجل سحر عيون ممثلة من أشهر ممثلاتنا السينمائيات. وقد قال لها محبها، وهو فتى ساحر، يملك قرى بأسرها وحقول قطن على ضفاف النيل: (سوف تعيشين هناك كملكة!) فأجابته الممثلة: ولكني إلى أن يتم ذلك سأعود إلى فرنسا وأشتغل بإخراج فلم (الملك). وقد كانت ممثلتنا العظيمة الرشيقة عند قولها. ذلك أن ج. م (جابي مورلي) سوف تأتي (في مدى أيام قلائل لتقوم بإخراج شريطها).

أجل تبنى القصور في مصر وتنفق الألوف من أجل عيون الممثلات والغانيات الأجنبيات! وهذا الفتى المصري (الساحر) الذي تشير إليه الجريدة الباريزية هو أحد أولئك الفتيان الذين ورثوا أموالً مكدسة لم يعرفوا كيف حصلت أو كيف تحصل بعرق آلاف الفلاحين، وإنما يعرفون كيف تنفق على الموائد والغانيات بلا حساب في مصر وفي غير مصر: أولئك السفهاء هم في الواقع عنصر مسموم في المجتمع المصري يجب القضاء عليه بكل الوسائل.

أوراق العظماء

صدر أخيرً في فرنسا قانون جديد يقضي باعتبار المراسلات والمذكرات الصادرة من العظماء سواء في الحكومة أو خارجه من الآثار العامة التي يجب حفظه وحمايتها، وقد كانت أمثال هذه المراسلات والوثائق تعتبر حتى اليوم بطريق العرف والتقليد من الآثار العامة. ولكن الحكومة الفرنسية رأت أن تسبغ على هذا العرف صفة رسمية كي تستطيع في بعض الأحوال أن تضع يدها على الوثائق والمراسلات المخلفة عن العظماء وأن تودعها على ذمة التاريخ في دار المحفوظات العامة على رغم معارضة المعارضين.

العدد 166 - بتاريخ: 07 - 09 - 1936

وَزْنُ الماضي

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

وقال صاحب سر (م) باشا: إني لجالس ذات يوم وفي يدي كتاب لبعض المتفلسفة من مَلاَحدة أوربا الذين يريدون أن يفهموا ما لا يفهم؛ وكان الباشا قد رآني مرّة أنظر فيه وأتدبر مسائله الغامضة، فقال لي: يا بني إن أحد الكلاب كان شاعراً فيلسوفاً، فنظر ليلة في النجوم فراعته وحيّرته؛ فآلى أن يفهمها بعقله وتفرغ لدرسها مدة طويلة، ثم

وضع فيها كتاباً نفيساً ضخماً كان أعظم كتب الفلسفة وأشدها غموضاً عند الكلاب، وكان اسمه: العظام المبعثرة فوقنا. . . .
قال: فأنا جالس أقرأ هذا الكلام الذي لا صحيح فيه إلا أنه غير صحيح. . . إذ دخل عليَّ كاتب متفلسف ملحد من هؤلاء المدخولين في عقولهم المفتونين بأوربا ومذاهبها وعُلويَّاتها وسُفلياتها. . وهو يكتب في الصحف ويؤلف الرسائل، وقد جاء يستصرخ الباشا على فلاَّح شاركه في زراعة أرضه فزرعه الفلاح فيها وحصده، ودهاه بكيده، وابتلاه بغلظته، وتهدَّده بالنقمة.
وكان هذا الفلاح الساذج الغرير قد سبقه إليَّ وعرَّفه لي تعريفاً قاموسياً محيطاً من مادة كَفَر يكْفُر. . . ثم قال بعد ذلك إنه (بيَّاع كلام) يصدق ويكذب حسب الطلب. . . والذمة نفسها ليست عنده إلا (عملية حسابية)؛ وهو في أقوى جهاته لا ينفع الدنيا بما تنفعها به البهيمة من أضعف جهاتها.
أما الكاتب فيقول عن هذا الفلاح: إنه لا يدري أهو يُتمُّ بهائمه أم بهائمه هي التي تُتمه، وإن الذي يرفع القضية على مثل هذا المخلوق إلى المحكمة لا يكون إلا كالذي يُقَعْقعُ بالعصا على جُحْرٍ فيه الحَّيةُ السامة.
ورأى المتفلسف الكتاب على يدي فتهلل واستبشر وقال لي: هذا نسب بيننا. . فأدركت من كلمته هذه جملته وتفصيله، وخيَّل إلي أني أرى فيه نفسه الشرقية كالمرأة المطلقة. . . فقلت له: أنا اشتريت هذا الكتاب من أوربا ولكني لم أشتر منها دماغي. .
وكلَّمته أستخرج ما عنده فإذا هو في قومه وتاريخ قومه كالسائح في بلاد أجنبية يفتح لها عينه ولا يفتح لها قلبه.
وكان جريئاً في كلامه مع الباشا يطرد القول حيث شاء حقاً وباطلاً، ثم لا سِنَاد لرأيه ولا تثبيت لحجته إلا قول فلان ورأى فلان كأن في رأسه عقلاً شحاذا. . . ثم ذكر آخر الأمر ما جاء له فخجَّله الباشا وقال: هذه مسألة ككل مسائلك تحتاج إلى رأي فيلسوف أوربي. . . وأعرض عنه ولم يدخل في شيء من أمره.
ولما انصرف قال الباشا: يحسب هذا نفسه عالماً وهو صعلوك علمي. . . وإنما يكون دماغه وأدمغة أمثاله عند الفلاسفة والعلماء الذين يذكرونهم كما تكون سلة المهملات عند الصحافيين. إن هذا الرجل يتم ضعف عقله في الرأي بقوة عناده فيه ليجعل له ثبات الحقيقة فيُظنَّ حقيقة، كأن خَضْخَضَةَ الماء باليد في وعاء صغير ينقل إلى هذا الوعاء طبيعة الموج. وعند أمثال هذا المفتون من الصعاليك العلميين - أنك إذا تناولت مسألة فأخطأت فيها خطأ جريئاً فقد جعلتها بخطئك الجريء مسألة من العلم. . . وأنك إذا عاندت فثبت الخطأ في وجه الناقدين سنة، كأن حقيقة مدة سنة. . .
هم مفتونون زائغون، ومن فتنتهم أنهم يرون البعد بينهم وبين أهل الفضائل الشرقية كالبعد بين العالم والجاهل؛ ولو حققوا لرأوه بعداً في الغرائز لا في العقل، أي كالبعد بين الفجور وما أشبه الفجور وبين التقوى وما أشبه التقوى.
زعم الأحمق أن خصمه الفلاح رجل راسخ في الماضي كأنه باقٍ في أمسٍ لم ينتقل منه، مع أن أمس قد انقطع من الزمن؛ وخرج من ذلك إلى أن الأمة يجب أن تنبذ ماضيها؛ وادعى أن الإسلام يتعصب للماضي. هذه ثلاث كلمات تخرج منها الرابعة التي سكت عنها. . .
وأنا لو شئت أن أسخر من مثل هذا الصعلوك العامي لما وجدت في أساليب السخرية أبلغ من أن أبعث إليه بقارورة فارغة وأقول له املأها لي من آراء الفلاسفة. . .
يغفل هذا وأمثاله عن أن الدين الإسلامي لا يعرف الماضي بمعنى ما مضى على إطلاقه، بل هو يشترط فيه ألا يخالف العقل ولا العلم وألا يناقض الهداية. (قالوا بل نتبِعُ ما ألفينا عليه آباءنا. أوَلو كان آباءُهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون). وفي الآية الأخرى: (قالوا حَسبُنا ما وجدنا عليه آباءَنا. أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون). وفي الثالثة: (قالوا بل نتَّبعُ ما وجدنا عليه آباءنا. أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير) وفي الرابعة: (إن وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مُقْتَدون. قال أولو جئتكم بأهدى مماوجدتم عليه آباءَكم).
فانظر كيف صور ما نسميه اليوم بالجمود في قوله (حسبُنا) وكيف صور ما نسميه

بالرجعية في قوله (نتَّبع). وتأمل كيف رفض الجمود والرجعية معاً في العلم والعقل والهداية أي في آثارها من العلوم والمخترعات والفضائل الإنسانية، وكيف أبطل في تلك الثلاث الاحتجاج بالماضي بهذا الأسلوب الدقيق العالي وهو قوله في كل آية: أَوَلَوْ، لم يغيرها بل كررها بلفظها أربع مرات.

فالمعجز هنا مجيء الآيات بهذه الصورة المنطقية لإسقاط حجتهم ونفي معنى التقديس عن الماضي فيهن إذا كان العلم دائم التغير، وكان العقل دائم التجديد والإبداع، وكانت الهداية شديدة على الطبيعة الحيوانية التي هي ماضي النفس فكأنها جديدة على النفس عند كل شهوة.

إن الإنسان بماضيه وحاضره كأنه مقسوم إلى قسمين يقول أحدهما: أريد أن أكون، ويقول الآخر: أنا قد كنت. فالإسلام بهذه الآيات قد أوجب وزن الكلمتين في كل زمن بما هو الأصح، وبما هو الأنفع، وبما هو الأهدى؛ وباشتراطه الهداية في جميعها أشار إلى أن الكمال النفسي للفرد يجب أن يكون مرتبطاً بالكمال الإنساني للجنس؛ وهذا معنى عجيب، وأعجب منه ما ترى من أن الإسلام قد أصلح فكرة الماضي فنقلها من معنى الآباء والأجداد للناس إلى المعاني التي هي كالآباء والأجداد لإنسانية الناس. والأخذ (بالأهدى) في اجتماع أمة من الأمم إنما هو بعينه ناموس الترقي والتطور.

ومن أدق الأسرار قوله: (إنا وجدنا آباءنا على أُمَّة). فكلمة (أمَّة) هذه لم يعرفها أحد على حقيقتها، ولم تفسرها إلا علوم هذا الزمن، فهي المشاعر النفسية التي يتكون منها مزاج الشعب وفيها يستقر الماضي؛ كأن الآية قد عبّرت بآخر ما انتهى إليه علماء النفس من أن الإنسان ابن أبويه وابن شعبه أيضاً. فالتعصب في الإسلام هو للعلم النافع وللمجد الصحيح وللهداية الباعثة على الكمال؛ وتعصب الجيل لمثل هذا في ماضيه هو في اسمه تعصب، غير أنه في معناه إنما هو العمل لتسليم مجد الأمة إلى الجيل التالي.

(طنطا)

مصطفى صادق الرافعي

من ذكريات لبنان

بعد نهار جميل

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

(والآن ماذا ينبغي أن نأخذ معنا؟ - حاذروا أن تنسوا شيئاً).

فقالت زوجتي: (لا تنسوا الكاميرا. . فسنحتاج إليها ولا شك).

وقال فكتورين - جارتنا -: (الأفلام. . ما فائدة الكاميرا بلا أفلام؟).

قلت: (صدقت. . وماذا أيضاً؟).

فقالت زوجتي: (والصابون!).

وقال فكتورين: (ورق اللعب. . أليس كذلك؟).

فقلت. (والأطباق والملاعق والفوط والسكاكين!!. إن من يسمعكما يخيل إليه أننا ذاهبون إلى بعض مجاهل الدنيا).

فقالت زوجتي: (الحق أقول لكم إني أخشى علينا. . . إن هذه الجبال لا عهد لنا بها وسنعود بالليل. . وقد كنت أفضل أن يقود السيارة رجل يعرف الطرق. . رجل من أهل البلاد).

قلت: (الحق معك. . فإني أخشى الثلج على الجبال)

فصاحت زوجتي: (ثلج؟؟ هل قلت الثلج؟).

قلت: (نعم. . جبال من الجليد. . وسنحتاج أن نربط السيارتين معاً بحبل واحد. . فإذا سقطت إحداهما في الهاوية جرت الأخرى معها. . . ألا تكفون عن التخريف؟).

فكفوا. . وقمنا إلى مضاجعنا استعداداً للسير في بكرة الصباح.

وكنا ثمانية في سيارتين: زوجتي وأولادي وأنا في سيارتنا، وجيراننا في سيارتهم. فانطلقنا منحدرين في الطريق إلى بيروت وهو طريق وعر كثير التعرج والتلوي، ولكنه أملس كبطن الكف. غير أنه مخيف - يقوم الجبل على جانب منه، والوادي تحته من الجانب الآخر. ولا ترى منه وأنت تقطعه إلا القليل لأن تلويه حول الجبل وانثناءه كالحبل أو كالحية يخفيانه. وكان الضباب في أول الأمر يمنعنا أن نسرع، ولكن الشمس بددته فانكشفت الدنيا لعيوننا فنعمنا بجمال الوادي الأخضر، وجلال الجبل الشامخ، وقد

قام الشجر الثمير على سفحه بين كتل الصخور، واختلطت فيه بهجة النور وزهرته بنضارة الخضرة.

وليس أوقع في النفس من السير في طريق تشرف عليه الجبال وتغيب قننها في السحاب فكأنها عروش للطبيعة!!!

وظللنا ننحدر وندور حول جبل بعد جبل، ونمرق من القرى والضياع واحدة بعد واحدة، وما هو إلا أن نلف مع الطريق حتى تختفي فجأة، ثم إذا هي بعد لفة أخرى تبدو لنا منازلها منتثرة وبعضها فوق بعض؛ ثم ندور مرة أخرى فتحتجب ونحن لا نكف عن الانحدار ولا نزال نهبط حتى استوى الطريق واستقام، فعلمنا أننا دنونا من بيروت. ولم تكن هي غايتنا فملنا عن طريقها وأخذنا في طريق (عالية) ثم شعرت أن السيارة صهدت جداً حتى صارت سخونتها لا تطاق؛ فعجبت، وخفت ووقفت، فسألتني زوجتي عن الخبر، فقلت: إن السيارة سخنة جداً، ولا أعرف لهذا من سبب إلا أن تكون أنابيب الماء قد ثقبت، فهو يسيل منها ولا يبقى فيها. وكنا لحسن الحظ في مدخل إحدى القرى فلم نجد عناء في الحصول على ماء صببناه فيها، وملأنا زجاجتين استعرناهما من بعض القوم. وبعد ذلك صرنا نضطر أن نقف من حين إلى حين لنصب الماء في السيارة ولم يكن ما حملنا منه كافيا، فكنا كلما بلغنا قرية نأخذ منها حاجتنا ونحتفظ بما في الزجاجتين للطريق بين القرى حتى بلغنا (الشاغور) وكان جيراننا قد سبقونا إليه.

وقفت بالسيارة وراء زميلتها وفتحت بابها فشدت زوجتي ذراعي وصاحت بي: (انظر. . انظر. . .)

فنظرت إلى حيث تشير، فرأيت صبياً غريب الثياب. يلبس سروالاً - أو شروالاً كما يسمونه أحياناً في مصر - وقد لف على خصره - إذا جاز أن يسمى هذا خصراً - حزاماً أحمر غليظاً، ومن فوق ذلك - أو من تحته إذ شئت - صدرية من الحرير المخطط تجمع طرفيها سلسلة من الأزرار تنتهي عند العنق. وعلى رأسه لفة كبيرة. وفي كلتا يديه تفاحة عظيمة يهوي عليها بأسنانه.

وقالت زوجتي: (أين الكاميرا؟ دعه يقف حتى أصوره!).

فدنوت من الصبي وأنا أقول لنفسي: (أصيب عصفورين بحجر) أستوقفه حتى ترسمه زوجتي، وأكل إليه حراسة السيارة. ولكن الغلام رآني مقبلاً عليه، فجعل يتراجع، وعينه عليّ، وأسنانه تعمل في التفاحة، ولم يكن ثم شك في أن الصبي الأحمق يخشى أن أخطف التفاحة منه، فهو لهذا يدبر كلما أقبلت، وكنت أطمئنه وأؤكد له أني لا أريد به سوءاً وأن في وسعه أن يأكل تفاحته على مهل، ولكن هذا كان يزيده خوفاً، فقد أسرع في القصم وصار فيما أرى يزدرد ولا يمضغ. ولا أدري لماذا ألححت في دعوته أن يقف ويتمهل فقد كان هناك غيره ولم يكن ثم ما يدعو إلى الخوف على السيارة، ولكن الذي أدريه أنه فرغ من التفاحة ورمى وجهي بما بقي منها فأصاب أنفي.

ولما أفقت، التفت إلى زوجتي، وقلت:

(هذه جنايتك. . . وقد كان أنفك أولى، ولكن الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون)

فضحكت.

وكان جيراننا قد خفوا إلى (مكان الحادثة) وعرفوا ما كان فانطلقوا يقهقهون معها.

وقالت زوجتي:

(لقد استطعت أن ألقط صورتك حين وقعت التفاحة على أنفك).

قلت: (ستكون الصورة ذكرى جميلة. . . أليس كذلك؟ وهذا جزاء الأحمق الذي يتزوج. . . يجيء بامرأة فيطعمها، ويكسوها، ويبرها ويسرها ويعاني من أجلها وفي سبيلها المتاعب والمنغصات، وتضحك منه حين ينبغي أن تعطف عليه وتألم له).

فلم تعبأ بي، ومضت عني مع الجيران، وهي تضحك.

ونعمنا بيوم جميل في الشاغور، ولم يكن أقل ما سرنا نومنا على العشب، والماء إلى جانبنا يخرج من بين الصخور دافقاً راغيا يتحدر من صخرة إلى صخرة كالشلال.

وانقضى النهار، وآن أن نعود من حيث جئنا. وكانت السيارة قد أصلحت في خلال ذلك، فركبنا وانطلقنا راجعين.

وقلت لزوجتي وقد بلغنا البيت (هاتي المفتاح!).

قالت: (أي مفتاح؟ إنه معك. . . لقد كنت أنت الذي أغلقت الباب، وأظنك وضعت

(المفتاح في جيب البنطلون.
وكان مفتاحاً كبيراً عتيقاً لا يعقل ألاّ أشعر به إذا كان في جيبي، ومع ذلك بحثت، وأخرجت الجيوب ونفضتها أمامها، وأوسعت السيارة بحثاً عسى أن يكون قد سقط مني فيها، فلم أجد له أثراً. فقلت وقد تعبت (أسوأ ختام لخير نهار. . . لا بأس. . . والآن لم يبق إلا أن
نجيء بخيمة نقيمها هنا، أو أن يضيفنا الجيران وإن كان بيتهم لا يكاد يسعهم، أو أن ندخل البيت من النافذة. . . ولم لا؟ صحيح أنها مغلقة. . . ولكن ما قيمة هذا؟؟ نفلق خشبها بالفأس، ونحطم زجاجها. . . . وكل ما ينقصنا ليتيسر ذلك. . . . سلم طوله ستة أمتار على الأقل. . . وفأس. . . الأمر سهل جداً كما ترين. . . أم خير من ذلك أن أحملك على أسناني وأنفخك إلى النافذة، فإنك خفيفة كغلالة الورد. . . . ولكني أخشى أن تطيري إلى بيت آخر!).
فقرصتني قرصاً وجيعاً ولم أكن أتوقع ذلك فصرخت من الألم.
ولما قرت الضجة، قالت: (ألا يوجد في هذه البلدة نجار؟).
فاستحسنت الرأي، وأشرت عليها بالصعود مع الجيران إلى بيتهم حتى أجد نجاراً، وكنت أظن أن الأمر لا يكلفني إلا سؤالاً ألقيه إلى واحد من أهل البلدة فإذا النجار حاضر بقدرة ربك، ولكني مشيت بضعة أمتار - لا أقل من خمسة - وأنا أدور وألف، وضيعت أكثر من ثلاث ساعات قبل أن أجد النجار. ولما وجدته أخبرني أنه ليس عنده شيء يستطيع أن يفتح به الأقفال، واستمهلني ريثما يبحث. . . . واستغرق ذلك ساعتين أخريين. فلم ندخل بيتنا إلا بعد منتصف الليل!
ولا أزال أحاول أن أحتفظ بذكرى ذلك النهار - على الرغم من التفاحة التي بططت أنفي - وأن أنسى عناء تلك الليلة ولكن الذكريين في قرن، وكل منهما تثير الأخرى، فما العمل؟؟
إبراهيم عبد القادر المازني
صور سياحة
منشن
مهد الحركة الاشتراكية الوطنية
(بقلم سائح متجول)
كانت العاصمة الألمانية تغص منذ شهر يوليه بمئات الألوف من الزائرين الذين اجتذبهم موسم الألعاب الأولمبية؛ ولهذا السببذاته لم تجذبنا برلين الزاخرة إليها، ولم نر في الألعاب الأولمبية وضجيجها ما يؤذن بالإقامة الهادئة؛ لذلك تركنا برلين وضجيجها، وآثرنا أن نمضي أياماً في بافاريا وعاصمتها مِنشِن (ميونيخ) مهد الاشتراكية الوطنية، ومبعث المبادئ والنظم التي تسود ألمانيا منذ أربعة أعوام.
إن أول ما يلفت نظر الزائر لألمانيا الجديدة طابعها الاشتراكي الوطني أو بعبارة أخرى طابعها الهتلري؛ ففي كل مكان تخفق الأعلام النازية الضخمة بكثرة مدهشة، وفي كل مكان تعلق صورة (الزعيم) (الفيرر)؛ وفي كثير من الأمكنة العامة مثل دور البريد والبنوك تعلق لوحات عليها ما يأتي: (تحيتنا: ليحي هتلر!) ويحمل الأفراد الشارات النازية بكثرة، على صدورهم وأذرعهم، وفي قبعاتهم؛ وهكذا في كل مكان تشهد كثيراً من المظاهر المادية للطابع النازي (الاشتراكي الوطني) العميق الذي يسود ألمانيا الجديدة.
وليس الطابع المعنوي لهذه الظاهرة أقل قوة ووضوحاً؛ ذلك أن الزائر الذي يلاحظ عن كثب يشعر بأنه يعيش في أفق عميق من المبادئ الجديدة، ويخيل إليه أن ألمانيا كلها تتنفس هذا الريح الجديد الذي نفثته فيها الحركة الهتلرية. ولست بحاجة لأن تتحدث مع أحد لتأنس هذا الشعور وإنما تشعر به من تلقاء نفسك شعوراً قوياً تنفثه فيك ألمانيا الجديدة في كل مكان.
ولا ريب أن من الصعب أن نتبين ما وراء هذه المظاهر، وما تختلج به الصدور؛ ذلك أن ألمانيا الجديدة تنطق كلها بلسان واحد، ومن أشد الخطر أن يكون لأحد رأي على رأي أولئك الذين يقودونها؛ وليس في ألمانيا صحيفة واحدة تستطيع أن تلاحظ أو تعلق، والصحافة الألمانية كلها لسان واحد لما يرسمه القادة من الآراء والملاحظات.

هذا أول ما يلاحظ الزائر المتأمل في ألمانيا الجديدة. ولقد كانت منشن مهد الحركة الاشتراكية، وفيها بزغ نجم هتلر وصحبه، وهي لذلك أشد العواصم الألمانية حماسة للزعيم ومبادئه. وما زالت منشن في الواقع قبلة الاشتراكية الوطنية، ومستودع آثارها وذكرياتها؛ وإليها يحج أولئك الذين يعبدون المبادئ والذكريات من كل فج ليقفوا خاشعين أمام الهياكل والآثار التي أسبغت عليها السلطات نوعاً من القدسية المؤثرة: تلك هي بعض الآثار والذكريات المادية لقيام الحركة الاشتراكية الوطنية، البيت الأسمر وهياكل الضحايا، ودار (لزعيم) أو دار الحزب الاشتراكي الوطني، وهي جميعاً تقع في (ميدان الملك) وفي شارع منعزل هادئ يسمى شارع (أرسيس). ولقد شهدنا هذه الآثار السياسية التي عدت رمز التقديس في ألمانيا الجديدة لأنها ترتبط أشد الارتباط بتاريخ (الزعيم) وتاريخ الحركة الاشتراكية الوطنية. فأما (البيت لأسمر) فقد كان من قبل مقهى يجتمع فيه الزعيم وصحبه في بداية الحركة، وفيه وضع هتلر نواة حزبه، وفيه أطلق ذات يوم في الهواء رصاصة من مسدسه إيذاناً ببدء الكفاح والسير إلى الظفر؛ وكان ذلك منذ نحو عشرة أعوام، وهتلر وصحبه جماعة مغمورة لا يكاد يشعر بوجودها أحد. فهذا المقهى القديم يغدو اليوم أثراً يحج إليه، ويحرسه الجند شاهري السلاح. وعلى مقربة من البيت الأسمر يقوم هيكلان متقابلان عليهما مظاهر البساطة والروعة معاً، قد صفت في فناء كل منها ثمانية توابيت متقابلة تحوي رفات أولئك الذين سقطوا من أعضاء الحزب الوطني الاشتراكي في المعارك والمحاولات الأولى؛ وقد كتب على كل تابوت منها: (الإنذار الأخير) ثم اسم صاحب الرفات؛ وإن منظر هذه التوابيت المصفوفة في العراء لما يبعث الخشوع والروعة معاً؛ ولقد رأيت الجموع تدنو منها كما تدنوا من الحرم المقدس، وتلقي التحية النازية ببسط الذراع، والوجوه خاشعة، والرؤوس محنية، والصمت العميق يسود المكان: تلك هي مظاهر القوة السياسية الظافرة يسبغها الظافر على ذكريات ما كانت لتكون شيئاً لولا أن توجها الظفر الباهر.

وعلى مقربة من الهياكل أقيمت دار جديدة ضخمة تسمى بدار الزعيم، لتكون مقراً لإدارة الحزب الاشتراكي واجتماعاته.

فأما عن الحياة الاجتماعية في منشن فيمكن أن يقال إنها صورة حقيقية للحياة الاجتماعية

الألمانية. ومنشن مدينة ضخمة، ولكن يبدو عليها كثير من آثار القديم، في شوارعها وفي مبانيها، وما زالت بها عدة أبواب من آثار العصور الوسطى. وفنادق منشن عديدة، ولكن ينقصها شيء من الأناقة وحسن لتنسيق. على أن أروع ما في منشن مطاعمها وبيرها الضخمة التي لا تضارعها أية أمكنة أخرى في أوربا: (ليفن بروي) (ماتيزن بروي) (توماس بروي) (منشنر بروي) وكثير غيرها؛ وإنك لتدخل أحد هذه الأبهاء الشاسعة فيدهشك منظرها ويسحرك معاً. تصور أبهاء هائلة طول كل منها نحو مائة متر أو يزيد، وعرضه خمسون متراً أو يزيد، وقد عقدت عليها منحنيات رائعة، وصفت فيها مئات الموائد، وغصت بآلاف الشاربين والآكلين؛ وأروع ما في هذه الأمكنة القاعات التي تحت الأرض أو الأقبية الهائلة التي تمتد تحت بناء ضخم أو أكثر. وتصور هذه الجموع البشرية المكتظة وهي تحتسي أقداح البيرة؛ وأي أقداح؟ أقداح هائلة من الخزف أو المعدن يسع القدح منها لتراً أو أكثر من البيرة الصابحة اللذيذة، ولا يتجاوز ثمنه قرشين! ثم تصور أطباقاً ضخمة تغص بمقادير وافرة من الطعام الشهي بأثمان معتدلة جداً. وإنك لتشهد الأقداح المزبدة والأطباق الحافلة تنفث الدخان العطر، والحنايا المعقودة والثريات الساطعة فوق رؤوس الجالسين في هذا الرحب الشاسع، والآنسات يهرولن للخدمة - والآنسات يقمن بالخدمة في مقاهي منشن ومطاعمها - ذلك منظر رائع ساحر معاً لا يستطيع السائح أن يشهده في أية عاصمة أخرى.

وأهل منشن يأكلون ويشربون بكثرة؛ والألماني على وجه العموم نهم يفرط في الأكل وفي الشراب في كل وقت، وهو على خلاف الفرنسي لا يحب الأحجام والمقادير الصغيرة، بل يؤثر الأحجام والمقادير الوفيرة في كل شيء. وللطعام الشهي لديه لذة خاصة يستمرئها؛ والطهي الألماني غني بمادته الوفيرة من مختلف اللحوم والخضر وات، ولكنه قليل التنوع؛ أم الطهي الفرنسي فيلاحظ فيه فقر المادة مع كثرة في التنوع.

ومما يلاحظ أن الشعب البافاري لا يتمتع بكثير من التناسق في الجسم والملبس، فهم يرتدون أغرب الأزياء والألوان دون تناسق ولا ذوق؛ ويمتاز الرجال في الغالب بالتكرش والترهل؛ والشباب لا تبدو عليه آيات النضارة كالشباب السويسري مثلاً. وكثير من الشباب يضعون النظارات على عيونهم، بل يضعها كثير من الضباط والجند. ولا يتمتع النساء بكثير من الرشاقة والأناقة وحسن الهندام؛ وقلما تجد حسناء تلفت النظر برائع قوامها أو زينتها؛ وتغلب لديهن ضخامة الصدور، بيد أنهن لا يسرفن في الزينة والأصباغ كالفرنسيات، وهم أميل إلى الحشمة والتحفظ.

وقد قلنا إن منشن مهد الحركة الاشتراكية الوطنية وإنها أشد العواصم الألمانية تأثراً بالروح والمبادئ الجديدة والاشتراكية الوطنية تقوم في جوهرها على الفكرة العنصرية، وعلى الاعتزاز بالجنس؛ وقد بث الغلو في فهم هذه العنصرية إلى الشعب الألماني روحاً عنصرية قوية تقوم من بعض الوجوه على خصومة الجنس؛ ومن ثم فأن الغرباء، ولا سيما الذين تنم عليهم ألوانهم من الشعوب السامية والشرقية يشعرون بأنهم في جو غير ودي. وقد لا يتخذ هذا الشعور أية مظاهر مادية، ولكن ما يلقاه الغريب من مظاهر الأدب والمجاملة يشوبه غالباً شيء من الخشونة والجفاء؛ وقد سمعت هذه الملاحظة من كثير من الأوربيين والأمريكيين الذين تجولوا في ألمانيا. على أنه يمكن أن يقال إن الأجنبي يشعر رغم هذه الظاهرة التي تمازجها الصراحة بأنه في جو أكثر قبولاً مما يأنسه في فرنسا من مظاهر يمازجها الرياء في كل شيء.

ومنشن غنية بالمتاحف الأثرية؛ وفي متحف قصر (الرزيدانس) وهو قصر ملوك بافاريا السابقين، مجموعات بديعة من الصور والأثاث؛ وفي المتحف الوطني مجموعات زاخرة من الأثاث والأسلحة والأزياء والصور الزيتية؛ وتوجد عدة متاحف هامة أخرى أشهرها المتحف الفني الذي يعتبر أعظم متحف في العالم من نوعه. ولا غرو فقد كانت منشن حتى الحرب الكبرى عاصمة لمملكة بافاريا، وكانت مقر ملوكية عظيمة لبثت مدى قرنين تسيطر على ألمانيا الجنوبية؛ وهي ما زالت تعتبر عاصمة ألمانيا الثانية من الوجهة التاريخية والمعنوية.

وتتمتع منشن بموقع جغرافي بديع في هضاب الألب البافارية، وعلى مقربة من الغابة السوداء؛ وقد جعلها موقعها مركزاً هاماً للسياحة في ألمانيا الجنوبية، ولقد كانت المدينة حين زرناها تموج بجموع غفيرة من السياح من سائر الأنحاء ولا سيما البلدان الشمالية مثل السويد والنرويج والدانمارك وهولندا.

هذه صور أملتها الملاحظة والتأمل؛ بيد أنه يمكن أن يقال رغم كل شيء إن السائح يلقى

في ألمانيا كثيرً من حسن الوفادة. وقد كان لما وضعته الحكومة الألمانية من التسهيلات بالنسبة لمسألة العملة وتخفيض أجور لسفر أكبر الأثر في تقدم السياحة في ألمانيا.

(* * *)

المرأة في الأدبين العربي والإنجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

للمرأة أثرها البين في كل مجتمع وبالتالي في أدب ذلك المجتمع، بل إن مكانتها في المجتمع وأثرها في الأدب أوضح دليل على مدى رقي الأمة. وأول ما نصادف من فرق بين تاريخي المرأة العربية والمرأة الإنجليزية أن مكانة الأولى تبدأ رفيعة وتظل كذلك حيناً ثم تسير في انحلال مستمر، بينما تاريخ الثانية هو تاريخ رقي مطرد إلى الوقت الحاضر.

كانت للمرأة العربية منزلة سامية وأثر بعيد في حياة الجاهليين والمسلمين في صدر الإسلام زادها الإسلام توكيداً، ويتضح ذلك جلياً في عظائم الأعمال التي قامت بها المرأة في ظهور الإسلام وانتشاره والمشادات التي تبعث ذلك؛ فذاك عصر حافل بأسماء فضليات النساء اللاتي تركن أثرهن في سير الحوادث وفي الأدب، وفي ذلك العصر احترفت المرأة شتى الأعمال كالطب والتدريس في الشرق وفي الأندلس. ومما له دلالته على مكانة المرأة إذ ذاك أن كبار الرجال كانوا يفخرون بالانتساب إلى أمهاتهم وعصبيتهن، وكانوا يلقَّبون بابن هند وابن عائشة وابن ذات النطاقين في مجال التبجيل والمدح؛ وكان للزوجة رأي مسموع، يشاورها زوجها قبل الإقدام على عمل،

وآثار ذلك في الأدب عديدة؛ وقد جرت عادة كثير من الشعراء على تسجيل تلك المشاورات في أشعارهم يبدءونها بقولهم: (وقائلة. . .).

ذلك عصر المرأة العربية الذهبي في الأدب، ضربت فيه في الشعر ونقده ومجالسه وفي الخطابة بسهم وافر. وكان في طليعة الأديبات والبليغات بنات الخلفاء والأمراء، ولنقتصر من العديدات اللاتي نبغن في هذا العصر الطويل على ذكر الخنساء وليلى الأخيلية وليلى بنت طريف وعلية بنت المهدي في الشرق، وولادة بنت المستكفي وحمدونة بنت زياد في الأندلس.

فلما اتسعت المملكة الإسلامية واختلطت فيها الأجناس وتكاثرت الجواري واستفحل التسري وفشا الترف واستحل ما حرم من المفاسد، دب دبيب الفساد في المجتمع كله، وأخذت حالة المرأة خاصة في انحطاط شديد مستمر: وهنت رابطة الأسرة، وتنوسيت أوامر الدين التي تعلي مكانة المرأة وحقوقها، وأهمل تعليمها، وشدد عليها الحجاب حتى انفصلت عن عالم الأحياء، فتلاشى أثرها في المجتمع وفي الأدب، فلم يكد يذكر التاريخ اسم امرأة عظيمة ذات أثر في حياة الأمة أو أدبها.

أما مكانة المرأة الإنجليزية في المجتمع فبدأت كما نراها في قصص تشوسر وروايات شكسبير على درجة من الرقي محسوسة: فهي في قصص تشوسر تباري الرجل في الأعمال العامة؛ وفي روايات شكسبير تصوير لنساء على جانب عظيم من القدرة والطموح والسمو. وليس أدل على ارتفاع مكانة النساء في ذلك العهد من قبول الشعب اليزابيث - وهي بعد في حداثتها - ملكة عليه دون تردد، وإيلائه إياها من الولاء ما لم يوله غيرها من الملوك، وإظهارها هي من الحنكة السياسية ما بذت به الفحول. وازِنْ ذلك بما كان من ارتياع الناس في عهد انحطاط المرأة العربية السالف ذكره، حين وليت شجرة الدر عرش مصر، حتى بعث الخليفة العباسي يوبخ أمراء مصر ويتوعدهم بالويل والثبور إن لم ينضحوا ذلك العار، على حين لم يحرّك أسلافه ساكناً يوم ولي نفسَ العرش عبدٌ خصي.

واطرد رقي المرأة الإنجليزية باطراد رقي المجتمع الإنجليزي، وتزايد حظها من التعليم. وفي القرن الثامن عشر زاد التفاتها إلى الأدب وظهرت الصحف فأقبلت على قراءتها، وانصرفت همة بعض كتاب العصر إلى تحسين حالها وتثقيفها وترغيبها في الأدب. وظهرت المنتديات النسائية التي اشتهر به ذلك القرن وكان يجتمع بها رجال الأدب. فلما كان القرن التاسع عشر طفرت حالة المرأة طفرة عظيمة في طريق التقدم الاجتماعي والأدبي بانتشار التعليم العام ومشاركة المرأة الرجل في كثير من الحقوق السياسية والأعمال اليومية، فلا غرو إن تعاظم أثر المرأة في الأدب الإنجليزي، وتدفق إنتاجها في عالمي الشعر والنثر.

ولقد اعترضت هذا الرقي فترة انحطاط في القرن السابع عشر ترجع إلى انتشار الترف والفساد الخلقي اللذين صحبا عودة الملكية الإنجليزية التي كانت لاجئة إلى فرنسا، وهذا شبيهٌ بالترف الذي أدخله الفرس في المجتمع العباسي؛ ولكن بَينما نرى هذا الأخير يستمر ويستفحل حتى يكون فيه القضاء الأخير على الخلق العربي وعلى مكانة المرأة وعلى المجتمع عامة، نرى المجتمع الإنجليزي لا يلبث أن يتحرر من تلك النوبة الطارئة، وينصبُ كبارُ الكتاب - أمثال ستيل وأديسون وجونسون - أنفسهم لتطهير الأدب ورفع مستوى المرأة، وهي حركة عديمة المثيل في الأدب العربي: فبدل أن ينصرف أدباء العصر العباسي المترف إلى إصلاح كهذا الإصلاح الحميد تهالك شطر منهم على مفسد ذلك العصر واعتزل شطر منهم قليل وتوفَر على نظم أشعار الزهد.

وأثر المرأة في أدب مجتمعها مزدوج: فمنه ما يقوله الرجل متأثراً بوحيها، ومنه ما تنتجه هي ذاتها. وتتساوى المرأة العربية والإنجليزية من جهة الإنتاج في تقصيرهما عن الرجل وضآلة أثرهما في الأدب إذا قيس بأثر الرجل في شتى أغراض القول؛ غير أن المرأة الإنجليزية تفوق العربية في كثرة إنتاجها الأدبي، وكذلك في كثرة ما أنشأ الرجل حولها من أدب، لظروف مساعدة أحاطت بتاريخها وحُرِمتْها المرأة العربية في خير عصورها: من انتشار التعليم العام والطباعة والصحف، ووجود فن من فنون الأدب في الإنجليزية دون لغة الضاد هو القصة.

فالقصة المقروءة أو الممثَّلة التي تدرس المجتمع والنفس الإنسانية سبب كبير من أسباب تكاثر الأدب المكتوب حول المرأة: إذ لا غنى ثمة عن درس المرأة بجانب الرجل سواء بسواء ووصف أعمالها وميولها وأثرها في سير الحوادث، ومن ثم زخرت روايات شكسبير ومعاصريه، وقصص سكوت ودكنز ومريدث وهاردي وإضرابهم بشتى الصور لمختلف عناصر النساء، ومتباين طبقاتهن ومتعدد طبائعهن، وقد حرمت المرأة العربية هذه الدراسة الأدبية حرمانا تاماً.

والقصة من جهة أخرى سبب كبير من أسباب تكاثر الأدب الذي تنشئه المرأة ذاتها، لأنها تلائم طبع المرأة أكثر مما يلائم نظم الشعر الذي هو أشبه بالرجل، لأنه يحتاج إلى قوة وفخامة وشمول نظرة لا تتسق لكثير من النساء. أما القصة التي تدرس الحياة الاجتماعية وتصف لحركات والسكنات وتحصي التفاصيل وتتبع الحوادث، فتجد فيها المرأة خير مجال للتعبير عن خلجاتها ومشاهداتها. زد على ذلك أن للمرأة من لطف النفس ودقة الملاحظة ما يمكنها من فهم الآخرين والأخريات والإلمام بنوازعهم ومراميهم، وفضلاً عن هذا وذاك تستطيع المرأة في القصة أن تعبر على لسان غيرها عن نزعات الحب وأطواره تعبيراً لا يُستساغ منها إن أرسلته شعراً.

لذلك كله لم تكد تظهر القصة وينتشر التعليم العام حتى نبغ في القرن الماضي جمهرة من كبريات القصصيات بارين كبار قصصي العصر الحديث، وفي مقدمتهن جين أوستن وشارلوت برونتي ومز جاسكل؛ وفي هذا الفن، فن القصص، أنتجت المرأة الإنجليزية أحسن ما أنتجت من أدب، على حين كان الشعر هو الفن الذي نبغت فيه المرأة العربية.

ومن وجوه الاتفاق بين تاريخي المرأتين أنْ ظهر لكل منهما في الأدب الذي تنتمي إليه عدوٌّ عنيد أنحى عليها بقوارص الكلام: ففي العربية صب المعري جام نقمته على الحياة على المرأة التي خيل إليه أن طباعها هي طباع الحياة الخاتلة، وفي الإنجليزية ندد ملتون بالمرأة في كتاباته وأشعاره، وأنزلها منزلة دون الرجل، ووصمها بالحمق والختل، وجعل شخصية دليلة في قصته الشعرية عن سمسون الجبار مثال تلك المرأة.

على أن مما له دلالته أن ملتون كان فرداً يعبر عن أفكاره الفردية التي اكتسبها من ظروفه التعسة ولا يجد من حوله سميعاً، بينما كان المعري ينعب نعيبه في أوائل عهد انحطاط المرأة العربية واشتداد وطأة الحجاب عليها، فلا ريب أنه كان يجد آذاناً صاغية وأنه مسؤول عن بعض ما حاق بها بعد ذلك من قهر وإهمال.

وقد عرف الأدب العربي عنصراً من النساء لم يعهده الأدب الإنجليزي: هو عنصر الجواري اللائى كن يبرعن في الأدب والموسيقى ويجتمع إليهن الأدباء ويشببون بهن، ولكن الأدب الجزل الصحيح لم يستفد كثيراً من ذلك العنصر المترف المتبذل، في حين أن أثر أولئك الجواري في سقوط منزلة المرأة واضح محقق.

ويمكن حصر الأدب المتعلق بالمرأة في اللغة العربية في أبواب أربعة: النسيب، وحوادث عظيمات النساء، والتمدح بالعفة واحترام المرأة في عصرها الأول، والغض منها في عصرها المظلم.

والتمدح بالعفة وتوقير المرأة والتقرب إليها بمكارم الأعمال من أنبل أغراض الأدب العربي وهو ضرب من القول ينفرد به دون الأدب الإنجليزي؛ وبديهي ألا يكون ذلك إلا في عهد علو مكانتها في النفوس، ومنه قول مسكين الدرامي:

ما ضر جاري إذ أجاروه ... ألا يكون لبيته ستر
أعمى إذا جارتي خرجت ... حتى يواري جارتي الخدر

وقول أبي فراس:

ورحت أجر رمحي عن مجال ... تحدث عنه ربات الجمال

ارتدت هذه الرعاية الكريمة للمرأة تحقيراً وسخرية حين فسد المجتمع، فلم يستحي الشعراء أن يطلقوا فيها ألسنتهم، فمن قائل:

عسر النساء إلى مياسرة ... والشيء يسهل بعد ما جمحا

وقائل:

ومن خبر الغواني فالغواني ... ضياء في بواطنه ظلام

وقائل:

وإن حلفت لا يخلف النأي عهدها ... فليس لمخضوب البنان يمين

وهو هجاء للجنس اللطيف استمرأه ساقطو الهمة من الشعراء وتنزه عنه الأدب الإنجليزي، فاقتصر على النسيب الرقيق والمداعبة الرفيقة والدراسة العلمية البريئة لشتى الطبائع والشخصيات النسوية.

والنسيب هو مجال ظهور المرأة الأول في الشعر، وفيه أي دليل على رقي المجتمع ومكانة المرأة فيه. وفي الأدبين العربي والإنجليزي نسيب على غاية من السمو والنقاء؛ وأكثر ما كن ذلك في الأدب العربي في عهد ارتقاء مكانة النساء الاجتماعية، هناك كان شعر النسيب في جملته عفيف اللفظ نقي الإشارة صادق العاطفة على خشونة وسذاجة في بعضه، فلما كان عصر الترف والفساد هوى النسيب إلى حضيض الشهوات وداخله التكلف في الشعور وفي اللفظ، وخالطه من الفحش والنسيب بالمذكر ما تنزه عنه الشعر الإنجليزي.

ففيما عدا فترة الفساد الخلقي الوجيزة في التاريخ الإنجليزي التي تقدم ذكرها، يمتاز النسيب الإنجليزي بسمو العاطفة وطهارة اللفظ والترفع عن ذكر الشهوات والتسامي عن الأوصاف الجسيمة التي تشغل حيزاً غير ضئيل من النسيب العربي، فالشاعر الإنجليزي يعد جمال محبوبته أمراً مفروغاً منه، فإن أشار إشارة عاجلة إلى محاسنها فإلى نقاء بشرتها أو لمعة شعرها، وإن عمد إلى التشبيه فإنما يشبه عينيها بالسماء صفاء أو صدرها بالدير نقاء وبعداً عن منال الرجال، إلى غير ذلك مما هو أدخل في الأوصاف النفسية وأدل على السمو الروحي.

فخري أبو السعود

عادة الختان أصلها وتاريخها وانتشارها

بمناسبة المنبوذين والإسلام

بقلم الدكتور مأمون عبد السلام

إنه لمن الصعب على المشتغلين بدراسة طبائع الأمم وأحوالها أن يهتدوا إلى تحديد العصر الذي بدأ فيه الإنسان يختتن. وهم لا يزالون في حيرة من الدوافع التي حملته على تلك العادة، فتقول فئة منهم إن بعض القبائل لجأت إلى الختان كعلامة تميز بها نفسها عن سواها كما يلجأ بعض قبائل السودان إلى تشريط خدودهم أو إلى اقتلاع إحدى أسنانهم القاطعة. ويعلله آخرون بأنه وقاية سحرية، ويظن غيرهم بأنه عقيدة دينية يضحي الفرد بمقتضاها جزءاً من جسمه فداء عن نفسه وتقرباً إلى ربه. ويعتقد آخرون بأنه ميزة أرستقراطية.

وعادة الختان عريقة في القدم، يدل على ذلك انتشارها في أنحاء قاصية من المعمور بين أجناس من البشر قد فصلت الطبيعة بعضهم عن بعض منذ أحقاب سحيقة. فلا تكاد تخلو قارة من شعوب تمارس تلك العادة، فتراها بين قبائل السود من سكان أستراليا، كما أنها توجد بين قبائل الجالا والفلاشه، يهود الأحباش، وبين غيرهم من قبائل الحبشة، وعند قبائل البانتو والمساي والكفار والناندي بأفريقيا، وقبائل الأوتاهيت وسكان جزائر التونجا والبولينزيا وجزيرة فيجي وكاليدونيا الجديدة.

ولما اكتشف الأسبانيون أمريكا منذ أكثر من أربعمائة سنة مضت وجدوا عادة الختان منتشرة بين أقوام الناهواطل وبين أمة الأزتيك سكان بلاد المكسيك القدماء كما شاهدوها بين سكان حوض نهر الأمازون بأمريكا الجنوبية.

وكان قدماء المصريين يختتنون من عصور غابرة قبل سنة 1400ق م. فتراهم قد صوروا ولدين يختتنان على جدران معبد خونسو بالكرنك. وقد ذكر التاريخ أن مصر في عهد مربنبتاح قد غزاها قوم من سكان بحر الروم كانوا يختتنون.

والختان من مميزات الشعوب السامية وخاصة اليهود منهم، فقد كان بنو إسرائيل من قديم الزمان يختنون الرجال وقت زفافهم، فإذا أظهر العريس أي خوف أو وجل كن ذلك دليلاً على نقص في رجولته فتهجره عروسه وتلبسه المعرة. وقد علمت من بعض المعمرين أنه كانت العادة في بلدة التلين بمركز منيا القمح أن يختتن الرجل يوم زفافه.

وقد فرض الله سبحانه وتعالى الختان على سيدنا إبراهيم عليه السلام وعلى ذريته وعبيده، وكان قد أمره بأن يغير اسمه من إبرام إلى إبراهيم لأنه سيكون أبا البشر. فقد جاء في سفر التكوين (17 ? 23 - 27): (فأخذ إبراهيم إسماعيل ابنه وجميع ولدان بيته وجميع المبتاعين بفضته كل ذكر من أهل بيت إبراهيم وختن لحم غرلتهم

في ذلك البيت عينه كما كلمه الله، وكان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة حين ختن في لحم غرلته، وكان إسماعيل ابنه ابن ثلاث عشرة سنة حين ختن في لحم غرلته، في ذلك اليوم عينه ختن إبراهيم إسماعيل ابنه وكل رجال بيته ولدان البيت والمبتاعين بالفضة من ابن الغريب ختنوا معه).

ويختن اليهود أولادهم في اليوم الثامن من ولادتهم كما ختن إبراهيم ابنه اسحق فريضة الله عليه. ففي سفر التكوين (17) ابن ثمانية أيام يختن كل ذكر في أجيالكم.

وقد قام اليهود بهذه الفريضة إبان أسرهم في أرض مصر، ولكنهم أقلعوا عنها وهم في برية سينا فلم يختن موسى عليه السلام ابنه إلى أن قطعت زوجته صفورة غرلته استجلاباً لرضى الرب ومنعاً لنقمته؛ فقد جاء في سفر الخروج (4): وحدث في الطريق في المنزل أن الرب التقاه وطلب أن يقتله فأخذت صفورة صوّانه وقطعت غرلة ابنها ومست رجليه.

ولما بلغ بنو إسرائيل كنعان أرض الموعد رجعوا إلى التختن فتختنوا بسكاكين من صوان في مكان جلجال كما ورد في يشوع 5 (2): (في ذلك اليوم قال الرب ليشوع اصنع لنفسك سكاكين من صوان وعد فاختن بني إسرائيل ثانية. فصنع يشوع سكاكين من صوان وختن بني إسرائيل في تل الغلف. وهذا هو ختن يشوع إياهم. إن جميع الشعب الخارجين من مصر الذكور جميع رجال الحرب ماتوا في البرية على الطريق بخروجهم من مصر. لأن جميع الشعب الذين خرجوا كلهم مختونين. وأما جميع الشعب الذين ولدوا في القفر على الطريق بخروجهم من مصر فلم يختتنوا لأن بني إسرائيل ساروا أربعين سنة في القفر حتى فنى جميع الشعب رجال الحرب الخارجين من مصر الذين لم يسمعوا لقول الرب الذين حلف الرب لهم ألا يريهم الأرض التي حلف الرب لآبائهم أن يعطينا إياها، الأرض التي تفيض لبناً وعسلاً. وأما بنوهم فأقامهم مكانهم فإياهم ختن يشوع لأنهم كانوا قلفا إذ لم يختنوهم في الطريق. وكان بعد ما انتهى جميع الشعب من الاختتان أنهم أقاموا في أماكنهم في المحلة حتى برئوا. وقال الرب ليشوع اليوم قد دحرجت عنكم عار مصر فدعى اسم ذلك المكان الجلجال إلى هذا اليوم).

ويختن اليهود أولادهم في منازلهم وفي الكنيس، فيقوم بهذه العملية والد الطفل، أو رجل اختص بذلك يشترط فيه التدين وحسن السيرة وألا يؤجر على عمله، بل يقوم به ابتغاء وجه الله. وكانوا يقطعون القلفة بسكين من الصوان أو من الزجاج أسوة ببني إسرائيل، ولكنهم استعاضوا الآن عنها بمشارط من الصلب. ويجب أن يسيل الدم وقت العملية، فكانوا فيما سلف يمصون الجرح ليكثروا من نزول الدم ثم يوقفونه بعد ذلك بالخمر يرشه المختن بفمه، ولكن ذلك قد بطل. ومن عاداتهم أن يدفنوا القلفة أو يحرقوها.

ويعتبر اليهود الختان طهارة، والطهارة عندهم إما ظاهرية وهي الختان، أو باطنية وهي طهارة القلب كما ورد في الكتاب المقدس - أرميا 9 (25).

ويقول المؤرخون إن هركانوس أجبر الأثيدوميين على الختان، وأن بطليموس أبيفانيس ختن ولديه أنطونيوس والأجيالوس.

ولكن الإمبراطور يوستينيانوس قد حرمه على الرومانيين ومن خالف ذلك يقتل. وقد حذا حذوه انطيوكوس ابيفانيس، وعُذب من أجل ذلك كثير من اليهود وقتلوا. وقد حرمه كذلك الإمبراطور هادريانوس وقسطنطين.

ولما جلا المسلمون عن بلاد الأندلس وقامت محكمة التفتيش بالقضاء على ما بقي من آثاره جرمت الختان في أواخر عهدها.

والعادة ألا يختتن المسيحيون ولو أن الكثير منهم يختتنون كما يفعل الأحباش. وقد ظهر في إيطاليا في القرن الثاني عشر الميلادي طائفة مسيحية اسمها (سركمسيسي) تأمر بالختان كما يدل اسمها على ذلك.

والختان سنة كونية كتربية اللحية عند المسلمين وقد أفتى بذلك جمهور العلماء.

ويتبع عادة الختان عادات أخرى على غاية من الغرابة. ففي بلاد البوسنة مثلاً يمنع الصبي من شرب الماء شهراً كاملاً.

ويختتن الصبيان عند قبائل الكفار في جنوب أفريقيا عند بلوغهم الحلم باحتفال رائع

عظيم. فيضربون حتى تدمى جلودهم، ثم يذر الفلفل الأحمر (الشطة) على جروحهم كي يختبر مقدار صبرهم على الألم وبعد ذلك يختتنون.

ويرتدي شبان قبيلة المساي (وهم من السود بأفريقيا الشرقية) عندما يقرب وقت ختانهم ملابس النساء، ويطلون وجوههم بالأبيض والأحمر ويتخضبون ويظهرون كل علامات الأنوثة اعتقاداً منهم بأن ذلك يبعد الشياطين عنهم فلا يصيبهم منها أذى.

ومن عادة قبائل الناندي بشرق أفريقيا البريطاني أن يزور البنات الفتيان قبيل الختان ويقرضنهم ملابسهن وحليهن ليلبسوها، فإذا تم الختان يرتدي الشبان المختتنون ملابس المتزوجات من النساء ويتبخترون بها بكل دلال النساء عدة أشهر حتى تبرأ جروحهم.

ويختتن الشبان من قبائل السود باستراليا قبل زواجهم فيجبرون على الجري في الأدغال وورائهم القوم يستحثونهم على المثابرة ساعات عدة بالضرب الشديد حتى يسقطوا من الإعياء. فيوقد الرجال بعد ذلك ناراً ويختنون الشبان بقطعتين من الزجاج ويتركونهم في حراسة رجل أو امرأة من القبيلة إلى أن يلتئم الجرح ثم يكون لهم حق التزوج. والغريب في أمرهم أن المختتن يلبس فوق وجهه نقاباً خشبيا (وجهاً من خشب) كيلا يراه أحد مدة أسبوعين.

ومن عادة بعض هذه القبائل أن تلف القلفة في قطعة من جلد الكانجرو. ثم تعطى لزوجته فتحتفظ بها طول حياتها.

ومن عادة أهل أواسط استراليا أن يلعقوا ما يسيل من الدم وقت الختان أو يطلوا به صدورهم وجباههم لاعتقادهم أن ذلك يزيد في قوتهم.

وعندما يختن قوم الأرونطا أولادهم يصرخ الرجال بأعلى صوتهم قائلين: (ببررر) فيسمعهم النسوة في عششهن فيعمدن في التو إلى أخوات المختتنين وإلى خالاتهم ومن يحل لهم التزوج بهن من النسوة فيشرطن جلد بطونهن وأكتافهن اعتقاداً منهن بأن ذلك يمنع الألم عن الصبي. ثم تعطى القلفة لأخي المختتن الصغير فيبتلعها كي ينمو ويترعرع.

وعند قبائل الكوكودون في شمال كوينزلاندا باستراليا تخيط المرأة قلفة ابنها بخيط تضعه حول جيدها لتتقي بذلك شر الشيطان فلا يؤذي ولدها.

وفي بعض بلادنا يربط الولد القلفة في خرقة يلبسها حول عنقه إلى أن يلتئم الجرح فيلقيها في النيل.

ويمسح بعض قبائل استراليا دم الختان بورق من قلف الأشجار ثم يلقون ذلك في البرك

التي ينمو بها نبات الزنبق المائي اعتقاداً منهم بأن ذلك يقوي هذه النباتات لأنهم يتغذون بسوقها وجذورها.

مأمون عبد السلام

نهضة المرأة المصرية وكيف توجه للخير العام

للأستاذ فلكس فارس

لا تستغل نهضة المرأة ما لم توجّه إلى تكوين المرأة الصالحة لتثمر بطبيعتها خيراً، إذ من العبث أن تجني الخير نهضة مضللة.

لا ينهض بالشرق إلا حضارة شرقية تستمد نظمها من المبادئ الأدبية العليا التي أنزلت وحياً على رسله وأنبيائه، وإلهاماً على فلاسفته وشعرائه.

فإذا ما أردنا تحديد موقف المرأة في المجتمع ونحن نستنير بهذه المبادئ يمتنع علينا أن نسلم لها بحالة تكون فيها قوامة على نفسها مستقلة بحياتها، لأن الحضارة الشرقية التي نتجه بحوافزنا إليها لا مقام فيها لامرأة لا مرجع لها ولا قوام عليها؛ وما المرأة المنسلخة عن سيطرة رجل يكفلها المتصلة بالمجتمع اتصالاً مباشراً إلا بدعة في الإنسانية أوجدتها أنانية الرجل في الغرب لشقائه وشقائها على السواء.

إن التشريع الأول الذي أيده جميع الأنبياء والمرسلين قد أورد الوضع الصحيح للأسرة الإنسانية بقوله للرجل:

وبقوله للمرأة: (بعرق جبينك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها) (بالأوجاع تلدين وإلى رجلك يكون اشتياقك، وهو يسود عليك).

فالمرأة إذن موقوفة على حياة الاشتياق بحسب تعبير الكتاب وعلى تأمين النسل الصحيح، فكل استثمار لها في أية دائرة أخرى من دوائر الحياة المادية، إنما هو خرق

للناموس وجناية على العاطفة والأنسال.
إن لم تكن المرأة زوجة وأماً، فهي مرتكبة جناية أو هي ضحية جناية. وأشد شقاء من هذه السائبة، وأوفر ضراً بالمجتمع، الزوجة المسلوبة الخيار، والأم المكرهة على التوليد.
إن في اشتياق المرأة وخضوعها بهذا الاشتياق نفسه لرجلها سر اعتلاء الأمم وانحطاطها، وما جهل شعب في التاريخ أهمية الانتخاب الطبيعي، فتسلط رجاله على نسائه بشهواتهم لا بشوقهن دون أن تصبح المرأة في ذلك الشعب أمَة تورث مذلتها بنيها فيتشربون العبودية في فطرتهم قبل أن يبصروا النور.
إن أولى الخطوات التي تقود الشعوب إلى التدهور إنما هي تجاهل أهمية المرأة، لا من
حيث تربية الطفل فحسب، بل أيضاً وبخاصة من حيث تكوين الجنين، وما ينهض شعب يعتقد بمبدأ الزمخشري القائل:
وإنما أمهات الناس أوعية ... مستودعات وللأبناء آباء
إن الرجل الأناني الجاهل يعتقد أنه هو وحده مستودع للحياة، وإن بقاء النوع يتوقف على ما يحمل من جرثومة حية، فما المرأة في تقديره إلا الأرض يستنبتها خصبة ويتحول عنها مجدبة.
وعلى هذا المبدأ الذي ينافي روح الشرع وحكمته ويناقض ما يؤيده من العلم الحديث، يستولد الرجال النساء أطفالاً كان خيراً لهم لو أنهم لم يلدوا.
إن علم وظائف الأحياء قد اكتشف ذرات مستقرها خلايا الجسم وهي تعرف (بالكروموسوم) وعددها في كل خلية إنسانية 48، نصفها من الأب ونصفها الآخر من الأم، لأن نطفة الحياة في الرجل وفي المرأة لا تحوي سوى 24 ذرة فقط، فيتضح من هذا أن العناية قد أرادت أن يكون المولود منبثقاً من شخصين متحدين على تواز تام بين ما ينفصل عن كل منهما لتكوين الحياة الجديدة.
ويؤكد العلم أن هذه الذرات منظمة في الخلية على شكل سلسلة متصلة الحلقات وهي مزدوجة متقابلة في سمطيها، وأن في هذه الحلقات تستقر العوامل التي تنقل إلى الأبناء طوابع الآباء والأمهات.
وقد عقد المتخصصون لهذه الأبحاث فصولاً بينوا فيها كيف تتغلب عناصر الارتقاء أو الانحطاط في السلالات، فذهبوا إلى أن كل حلقة في العقد المزدوج تكمن فيها صحة عضو معين، فإن كانت هذه الحلقة ضعيفة في الأب وقابلها في الأم حلقة قوية تغلبت الصحة على المرض فيجيء الطفل سليماً وإلا فينشأ معتلاً لأن الحلقة التي يرثه عن أبويه لا مناعة فيها.
إن هذا المظهر المحسوس لاختلاف القوى الكامنة في كل من الرجل والمرأة لمما يفسر لنا علة التنافر والتجاذب بينهما، فأن الطبيعة الطامحة إلى الارتقاء وإصلاح ما تفسده الحياة تعمل بحوافزها الخفية متسلحة بالانتخاب الغريزي للوصول إلى أهدافها.
مما لا ريب فيه، إذن، أن ليس كل رجل يصلح زوجا لأية امرأة، كما أنه ليست كل امرأة
تصلح زوجة لأي رجل كان.
إن الحياة تغالب الموت في هذا الوجود مفتشة عن أصلح المنافذ للنشوء والارتقاء، وهذه الحياة التي خرجت من الأزل متجهة إلى الأبد إنما تهب كالعاصف الجبار على الجنسين فتلويهما لسلطانها معتلية بالنوع فوق رمم أفراده. على أنه في حين أن هذه الحياة تختار سبيلها بالسائق الغريزي في النبات وفي الحيوان عاملة على تحسين مجاليها بالقضاء على الضعف الطارئ والاستبقاء على القوة الصامدة في الجسوم، فأنك لترى هذه الحياة في المملكة الإنسانية وهي أرقى وأشرف مجاليها تتلوى في مسالك الشهوات المضللة والعقليات السخيفة منزلة بالتائهين أوجع الزواجر وأبلغ العبر، وهؤلاء التائهون لا يرجعون عن غيهم فلا يشفقون على أنفسهم ولا يبالون بأنسالهم.
إن الولد المختل العليل إنما هو الضحية البريئة التي تصفع الطبيعة به أوجه الرجال الفاحشين والنسوة الطامعات المضللات، ولكن الطبيعة لا تعنو دائما لتحكم الإنسان ولا تتهيب زجره وإرغامه فتضرب عن الظهور وتمتنع عن إيجاد الضحية، وآخر ما

اكتشفه العلماء في جامعة كولومبيا بالاستقراء بعد أن كان الفكر يفترضه افتراضاً هو التنافر بين عنصري الذكر والأنثى في بعض الأحوال مما يقضي بالعقم التام مع أن كلا من الزوجين ليس عقيما.

وما كان الإنسان ليحتاج إلى الاستقراء العلمي خلال دقائقه وذراته ليعلم أن الطباق والانسجام يؤديان إلى الارتباط المكين، وأن الشذوذ والتنافر ينشأ عنهما التدافع الافتراق، وليس الرجل والمرأة وترين على آلة صماء يشد أحدهما جواباً على قرار الآخر، لأنه إن لم يكن هناك طباق، فإن المرأة أو الرجل المختار أو المختارة للشدّ على طبقة رفيقة ليسمعك صوت انقطاعه بدلاً من الإيقاع المنشود.

ليكن منشأ هذا الانسجام تناسبا بين ذرات الخلايا والعوامل كما يقول العلماء المستقرون، أو فليكن ضعف هذه الذرات أو قرتها مسبباً عن عوامل الكهارب التي تسود الخلايا بتفاعل مجهول، أو فليكن هنالك ما يذهب إليه الروحيون من أن الخلايا والكهارب وكل ما يحوي هذا الجسم من مادة ليس إلا خيالاً لروح كامنة هي الحقيقة المستترة وأن من العبث أن يستقر في العلم منشأ التجاذب والتدافع بتشريح هذا الخيال الماديّ، فأننا تجاه جميع هذه

الافتراضات، نبقى دائما أمام حقيقة لا ريب فيها وهي أن الإنسان سواء أكان رجلاً أو امرأة مدفوع بالفطرة إلى طلب الرقي لنسله بإصلاح ما أفسدت الحياة في أعضائه، وبخاصة إلى إصلاح ما تطرق إلى الصفات الأدبية من عيوب؛ ولعلّ في هذا بعض التفسير لسيادة الانسجام بين رجل وامرأة تخالف أشكالهما وأوضاع أعضائهما ومظاهر القوى الأدبية فيهما، فقد لا تجد مصارعاً يعشق مصارعة ولا فيلسوفاً يغرم بفيلسوفة. ولكم وقف المفكرون مندهشين أمام امرأة فاضلة تحس بانجذاب نحو رجل عاديّ، أو بارعة في الجمال تندفع إلى الالتصاق برجل دميم. إن بعض العشق ينشأ عن حنان خفي في الطبيعة يشبه عطف الطبيب المداوي على العليل المستجدي الشفاء.

نورد هذه النظرية دون أن نتخذها قاعدة بالرغم من تجليها لدينا في عديد الحوادث، فإن النقائص التي تتجه في الازدواج إلى الزوال والعلل التي تطلب الشفاء أبعد مستقراً من أن ينالها استقراء أو تحديد، والضعف الكامن في أحد الناس يبقى مستتراً فيه خفياً حتى عن شعوره، فكيف يتسنى لنا كشفه وتعيينه؟ لذلك ورد في الأمثال وهي حكمة الأمم: أن لا جدال في الذوق، وما أرى المتنبي إلا سابراً أقصى أسرار الحب إذ قال:

إلام طواعية العاذل ... ولا رأي في الحب للعاقل
يراد من القلب نسيانكم ... وتأبى الطباع على الناقل

للحب إذن وهو صلح العيوب والدافع إلى ارتقاء الإنسان ناموسه الجبار، ناموسه الصامت الهامس في أرواح المحبين كلمتين هما دستور السعادة لكل منهما - كلمة العبرة من الماضي للرجل، وكلمة الحذر من المستقبل للمرأة.

يقول الفتى للفتاة: أحبك.

فلا يرد جوابها إلا بصورة الاستفهام:

وهل ستحبني إلى الأبد؟

فالرجل لا يتوجه إلى المستقبل بقلبه بل يلتفت إلى الوراء، إلى الماضي، وهو يقسم بالوفاء والثبات، ماداً بأبصاره إلى أعماق عيني الفتاة سابراً أقصاهما ليتحقق ما إذا كان هذا الهيكل الأبدي الذي يتخذه مقاماً ومصلى لروحه، لم يرتفع فيه صوت غير صوته لم يحرق عليه بخور غير بخوره.

هكذا تصطفي الطبيعة المحبين لاستنبات الطفل الصحيح، وهكذا تقبض الغريزة على القلبين لتسخرهما لبقاء النوع وتسييره على مدارج الارتقاء.

ولماذا خصت الطبيعة الرجل بالعبرة من الماضي والمرأة بالحذر من المستقبل؟ لماذا وضعت الطبيعة دليل الطهر في عين العذراء، ودليل العفاف في جسمها؟ ولماذا غرست فيها هذا الخوف من تقلب الرجل وانحرافه عنها؟

في هذا المجال أيضاً توصل العلم إلى استجلاء حقيقة رائعة نستدل منه على منشأ هذه الغيرة وهذا لحذر، وتلك الحقيقة هي أن الطبيعة تتجه دائماً إلى الوحدة وتأنف من الشرك وتتمرد عليه؛ وقد شوهدت حوادث كان فيها نتاج الزواج الثاني من المرأة أقرب إلى مشابهة أطفال الزواج الأول، وبتعبير أوضح تحقق العلم أن امرأة يستنبت

نتاجها الأول من رجل تبقى معرضة للاستمرار على الإنتاج طابعة أبناءها على غرار ذلك الرجل.

إن هذا الاكتشاف يبرر لدى المفكر هذه الغيرة المقدسة التي تتجلى في الرجل الطبيعي غير الفاسد بمبادئ الإطلاق وضعف الحيوية فيه، وهذه الحقيقة نفسها تفسر لنا هذا الحذر الغريزي في المرأة من تخليّ المحب الأول عنها، لأن الطبيعة تتمرد في نفسها فهي تربأ بشخصيتها أن تصبح مستقراً للشرك، والكون بأسره يتجه إلى التوحيد في ارتقائه.

إن ناموس الحب والزواج في الأصل إنما هو اندماج بين روحين وجسدين اندماجاً حراً تحت سيطرة التجاذب المطلق من كل تضليل، فإذا هو تمّ وفقاً لهذا الناموس، يندر أن تنفصم عراه مدى الحياة.

على أننا في هذا العصر الذي سبقته أدوار عديدة استنبت فيها النسل من التزاوج المكذوب لا يمكننا أن نختم استمرار الاتفاق بين عاشقين ما لم نثق أولاً من أنهما كليهما قد نشأ من زواجين ساد الحب الحقيقي فيهما، إذ أننا كثيراً ما نرى امرأة جن جنونها بمن أصبحت له زوجة حتى إذا انقضت فترة من الزمن نراها مضعضعة تحلم بالشرك والضلال. وكثيراً م نرى رجلاً يهيم بفتاة حتى أصبحت زوجة له عافتها نفسه، فذهب تائها في المواخير يحصد ما جناه أبواه عليه.

من الصعب إن لم نقل من الممتنع أن يعرف حقيقة الحب ووحدته من ولد من زوج لا انسجام فيه، أن أبناء الكره لا يحبون، والطفل المولود من شهوة حيوانية حوالة يمتزج كوثر حبه أبداً بغسلين الفحشاء.

إن استثمار المرأة المصرية والمرأة العربية بوجه عام في سبيل الخير إنما يتوقف على إعدادها منبتاً صالحاً للأطفال، وما نشأت الأمة إلا من منابت أطفالها.

إن النبات ينمو على الأسمدة يمتصها فيحولها نسغاً صافياً، وتلك أزاهر الدمن تنوّر فواحة باسمة فوق أقذارها، أما الحياة الإنسانية فإنها إن نبتت على الأقذار فهي أقذار من منابتها.

(يتبع)

فلكس فارس

من (الكتاب الذهبي) قبل أن يطبع

لغة الأحكام والمرافعات

للأستاذ زكي عريبي

- 5 -

(أما المتهمان على الأدب الزاريان على الفضل في أشخاص المثقفين فهما . . .

وأما المجني عليه فهو . . .

ولو شئنا التوسع لقلنا إن المجني عليهم قوم كانوا في عزلة من القوة فتجرد لهم المتهمان يسطوان عليهم بالقلم المسموم والقول القاذع والعبارة التي تقطر سماً وحقداً وحفيظة.

وما علمنا أن أمة صقلتها الحضارة أو كانت على الفطرة من البداوة جعلت من فضائلها تجنيها على الوادعين الذين هم في أمن وعزلة لا يملكون لأنفسهم أمام الساطين عليهم دفعاً.

إن لهذا الإيجاز إيضاحاً ولهذه الجملة تفصيلاً).

ولغة التفصيل الموعود أروع وأمجد. اقرأ هذا البيان لما وقع من المتهمين وهذا التنويه بشناعة الجريمة.

(أقبل مديرون من ولاة الأقاليم، وما كانوا نكرة فينساهم الناس، وما كان التشيع الحزبي ليميت العواطف الكريمة، بل ما كان للنبل أن يموت، وما فقدت مصر الرجولة فراح قوم يمشون إلى هؤلاء المعزولين بالكلم الطيب ودعوهم إلى وليمة، ورأى من يحسن القول في هذا الحفل أن يتقدم بكلمة طيبة لا ينكرها إلا حقود.

وقديماً كان الناس يمشون إلى الولاة المعزولين يرفهون عنهم ويذكون لهم حميد فعالهم. . . ولكن المتهمين هاجهما أن يرضى الناس عمن غضبا هما عليهم.

ثم هاجهما أن يعيش هؤلاء الولاة وأن يرضى عنهم الناس فراحا يقولان عنهم في جريدة. . . إنهم أسفل المجرمين.

يا شرف اللغة العربية كيف طاوعت هذين الرجلين حتى جعلا من بعض الأكرمين (أسفل المجرمين).
خبروني إذا كان الوالي الذي يعزل لا لنقصية في شرف يعد (أسفل المجرمين). فمن يكون
القاتل الذي يقتل صاحب الفضل عليه عند الثقة به والركون إليه، والسارق الذي يسطو على الآمنين ثم يسلب الأموال والأعراض ولا يبقي على الأطفال والنساء. هذا القاتل السارق بماذا نعرفه ومن يكون؟
لا يعرف حتى تنسب إليه تهمة، وحتى يأخذه بها القضاء العادل بعد (أسفل المجرمين) مدافعة ومطاولة. ومع هذا فأنه من المؤلم أن نصفه بأنه (أسفل المجرمين).
أما في الخصومة الحزبية هوادة ونصفة؟ أما لهذا الفجر الزاخر آخر؟ أما لهذا الظلام (نهاية؟
بل انظر إلى هذا الانفعال الحق يستولي على النائب المترافع وقد قرأ للمحكمة بعض هذا المقال القادح فراح يؤدب العادي على الأدب بعصا الأدب ولا يفل الحديد إلا الحديد.
إني آسف كل الأسف لإيلام المجني عليه بهذا النقل ولكني أنقل هذا الكفر مكرهاً عن) المتهم.
أكل هذا يقوله هذا المسكين المعدم في أدبه الفقير إلى عصا التأديب، ويتقدم صاحبه الشيخ الوقور بالتنويه به والتهليل له ويدعوه في صحيفته بالأستاذ.
المتهم. . . صاحب القلم الجارح ما منشؤه وأين من كوّنه؟
لله أبوه! ألا يكون لي الشرف فأراه لأعرف رأيه فيه وهو يغمس قلمه المسموم في دماء الوادعين كما تنفث الرقطاء الزعاف؟ بل قلمه أسفل وأقتل، فالرقطاء قد تذود عن نفسها بسلاح أعد لها، وهذا يذود عن الرذيلة بسلاح لم يخلق لرجل كريم العنصر (وله ضمير حي).
وهاهو ذا يهدأ بعد هذا العنف اللازم فيعرض لتعريف النقد المشروع في إحكام وحسن تعبير مدهشين فيقول:
أساس النقد أن تعني بدرس الأمر فتتبينه جملة جملة، وترى أي أجزائه خير، وأي) أجزائه لا يتسق مع باقيه في جمال الوضع وتناسق التكوين؛ على أن يكون الناقد نزيهاً لا غرض له إلا الحق. ولا تتم له ملكة النقد إلا بعد أن يكون من القوة على تمييز الأشياء بعضها من بعض في الموضع المسلم له به.
والناقد حكم، والحكم قاض، والقاضي أعلى من أن يتصف بهجر القول وإلا فليس بناقد. .
).
ولنقف عند هذا الحد في الاستعراض وإلا ساقنا هذا الإبداع وأمثاله إلى أبعد مما يريد القائمون على الكتاب الذهبي
لغة الأحكام
تمهيد ومقارنة
الحقيقة مطلب البشر منذ أن قام للبشرمدينة. طلبها في الدين، طلبها في العلم والفلسفة، وطلبها في التشريع وفي توزيع العدالة.
والأحكام هي أداة هذا التوزيع. فهي عنوان الحقيقة.
وعنوان الحقيقة يجب أن يكون جديراً بها من حيث شكله على الأقل وهو الذي يعنينا في هذا البحث.
لقد تحدثنا عما يجب توفره في لغة المرافعات فوجدناه كثيراً بل مرهقاً. يتطلب كفايات عدة ألمعنا إلى بعضها. فهل يصدق على الأحكام ما يصدق على المرافعات؟ لنتدبر طبيعة كل قبل أن نحاول الإجابة على هذا السؤال.
المرافعة نوع من الأدب الخطابي يرمي بالإقناع أو تحريك العواطف إلى خدمة مصلحة معينة.
والحكم تقرير للحقيقة كما استطاع أن يراها القاضي على ضوء عناصر الدعوى ومرافعات الخصوم.
الأولى ثمرة جهاد مقاتل يبتكر الوسائل الكلامية المؤدية إلى الظفر. والثاني عمل

حكيم هادئ يتحسس مكان النصفة فيدل عليه.
يستحيل إذن أن يكون نوع اللغتين واحداً. فإحداهما متغيرة متوثبة أبداً، والأخرى ساكنة مستقرة أبدا.
ولكن أمعنى هذا أن مهمة القاضي إذا ما جلس لكتابة الحكم أيسر من مهمة المحامي إذا وقف للدفاع؟
إياك وهذا الاعتقاد! صحيح أن مهمة القاضي لا تستلزم الابتكار، وهو عمل شاق يرهق المحامي إلى آخر حدود الإرهاق ويتطلب فيه استعداداً خاصاً يرقى بالمران، وقد يصل بالمحامي النابغة إلى سماء كبار المخترعين، ولكن عمل القاضي إذ يجلس لتمييز الحق من الباطل لا يقل عن عمل زميله دقة وصعوبة.
إنه قبل كل شيء ناقد؛ والنقد يتطلب قدرة على فهم الرأي المعروض، ثم قوة على تحليله ورده إلى عناصره الأولية، ثم صحة نظر وسلامة تقدير يستطيع بهما الوقوع على الحقيقة وسط بحر زاخر من الآراء المتناقضة، وقد ينطوي كل منها على بعض الوجاهة.
جلس هنري الرابع ملك فرنسا العظيم يوماً ليفصل في قضية هامة بنفسه. وقام للمرافعة بين يديه اثنان من أعلام المحاماة في عصره، فأبدع كلاهما وأعجز إلى حد أن صاح الملك يائساً: (رباه! إن الخصمين على حق).
والخصمان في كثير من الأحوال على حق إلى حد ما. والصعوبة الكبرى، الصعوبة الهائلة، هي أن يتبين القاضي هذا الحد فيركز عليه حكمه. على أن مهمة القاضي وقد أصاب المحز لا تنتهي بإصابته، إذ عليه بعد ذلك أن يؤيد حكمه بقلمه.
وفي الحق إن الأمر ليس من السهولة بحيث يبدو. دعك من القضايا السهلة التي يزاحم فيها الحق البديهة ولا يتطلب إلا تقريره بكلمة قد يكفي فيها قلم كاتب الجلسة. ودعك من قاض يعتقد أن عبارة (حيث) تتقدم سطوراً جرى بها التقليد الراكد تكفي في إلباس رأيه ثوب الأحكام.
ليس هذه القضايا ولا ذلك القاضي نعني، وإنما نريد القضية العصية يتسابق فيها لسانان أو قلمان لعلمين من أعلام البيان. فيخضع كل منهما لرأيه طائفة من الحجج الدامغة والأدلة القوية. ويقف القاضي بين هذين السيلين فيصلا للملحمة، ثم يقول أخيراً كلمته الحاسمة. كيف يقولها؟ ليس القاضي بمحلف يكفيه أن يجيب بنعم أو لا.
كلا الخصمين - كاسب الدعوى وخاسرها - بل وجمهور الناس يتطلع إلى أسباب حكمه ليحكم له أو عليه. لذا وجب أن تكون هذه الأسباب مقنعة. وليس الإقناع في مكنتها إلا أن يكون كاتبها من المقدرة بحيث يستطيع أن يعالج بقلمه القضية من جميع نواحيها؛ يبين وقائعها بجلاء، ويستعرض مختلف الآراء فيها بدقة وإيجاز؛ يناهض ما يرى مناهضته ويؤيد ما يرى تأييده، ثم يقف عند الرأي الذي يعتقد صحته موقفاً له قوته وله جلاله.
تلك هي مهمة القاضي ككاتب. وليس يستسهلها إلا جاهل بأعباء الكتابة ومشاقها.
خصائص لغة الأحكام
لكل قلم قوته، ولكل كاتب طريقته، فمن العبث أن نضع قواعد مطلقة لصياغة الأحكام. الأمر قبل كل شيء حسن ذوق وحسن تصرف، ولكن للغة الأحكام مع ذلك مميزات يجب التنويه بها.
حسن اختيار اللفظ ودقة الأداء
المفهوم في الأحكام أنها نتيجة أعمال فكرة وتمعن، يصيغها القاضي وهو جالس إلى مكتبه لا تواجهه أنظار شاخصة ولا تتعجله وجوه مستحثة. فليس يغتفر له ما قد يغتفر للمترافع المندفع من تساهل في اختيار اللفظ ودقة الأداء. ليست المسألة مسألة أدب فحسب. فإن الحكم الذي تصدره محكمة ابتدائية هو سفيرها أمام محكمة الدرجة الثانية، وحكم محكمة الاستئناف عنوان جهودها أمام محكمة النقض، وقد ينبني على سوء تعبير أو غموض يعتور أسباب الحكم تشويه الرأي كله أو إضعاف حجته أمام المحكمة العليا.
الابتعاد عن التعمل
على أن الإحسان في التحرير لا يستلزم التعمل ولا التزيد، وليس أبعد عن كرامة القاضي من سعيه وراء الإعلان بأحكام تتبين فيها صنعة الأعداد للنشر والرغبة في استجلاب الثناء.

الوقار في لغة الأحكام
كذلك يكره في لغة الأحكام العنف والشدة وجموح العاطفة. فالقضاء وقور بطبعه وبالمهمة السامية التي يؤديها وبالاسم العالي الذي يتوج به أحكامه. فليس يليق به إذا ما تبين الحق في جانب خصم من الخصمين أن يحمل على الخصم الآخر فيصفه بما لا يجب. صحيح أن مهمة القضاء في بعض الأحايين التأديب والزجر: ولكن للزجر مواضعه في القليل من الأحوال. أما على العموم وفي القضاء المدني على الخصوص فيجب أن يكون الحكم عنوان الاعتدال والحشمة والتهذيب.
ويجب على القاضي أن يذكر إذا ما ناقش دفاعاً لمحام أو رأياً قانونيا أبداه أنه إنما يناقش
زميلا له في السعي وراء الحقيقة فليس جميلاً منه ولا كريماً أن يسفه رأيه بمثل هذه العبارة التي قرأناها في حكم جنائي: (أما ما ذهب إليه الدفاع من أن عقلية المتهم غير ناضجة ويجب أن نصدقه لهذا السبب، فهو من لغو القول ولا تلتفت إليه المحكمة).
وقد يبدو لك ما في هذا القول من إساءة إذا قارنته بتصرف محكمة النقض وقد عرضت لأسباب تقرير مقدم من النيابة، فعركتها عرك الرحا وأطارتها هباء ثم ختمت بحثها بهذه التحية الجميلة (وإن المحكمة لتقدر للنيابة ما قامت به من المجهود الفني العظيم في سبيل تأييد نظريتها).
وقد جرت على هذه السنة عينها مع الدفاع إذا أحسن.
لغة الأحكام قديماً وحديثاً في مصر
وليس يبقى لاختتام هذا البحث إلا إشارة موجزة إلى تاريخ لغة الأحكام في مصر.
من عبث التحدث عما قبل عهد منشئ مصر الحديثة، فالمؤكد أنه لم يكن بمصر إلا قضاء شرعي غير محدود الاختصاص. بل لقد استمرت الحال فوضى قضائية في العهد المسمى بعهد المجالس الملغاة، فلم يكن هناك محاكم بالمعنى الصحيح المفهوم اليوم، بل كان رجال يجلسون للقضاء وليس لهم من مؤهلاته إلا الاسم. يقوم بين أيديهم وكلاء دعاوى يسعون إلى كسب قضاياهم بجميع الوسائل. وكانت اللغة في ذلك الوسط من أحط ما عرف في تاريخ العربية: كانت نوعاً من العامية الجوفاء يعتورها تعقيد متعمل ينطوي في نظر أصحاب ذلك اللسان على أروع الأدب. أنظر إلى رواية الوقائع في هذا الحكم الذي أورده محررو الوقائع الرسمية سنة 1881 نموذجاً للغموض والتعقيد المتمشيين في أحكام ذلك العهد، وفك رموزها إن استطعت وقل ما شئت.
وفي ليلة الجمعة 22 شعبان سنة 294 صار قتل شخص يدعى شعبان نجم من كفر) سعودن غربية بالغيط تعلقه وورثاه حصروا شبهتهم في شخص بلديه يدعا (يدعى) أحمد شوره، وبما أن المذكور لم يقر على ذلك وأنسب سيد أحمد عبد الدايم رئيس المشيخة أغرى الورثة ومن سئلوا في القضية على تهمته وما قيل فيحقه (في حقه) بسبب مطاعنته فيحق (في حق) الرئيس المذكور مما أبداه من المعادات (ة) في ذلك قد أخذت الحكومة في أسباب الفحص والتدقيق في هذه المسألة ولما تبين براءة أحمد الشورة المذكور وعدم صحة
تهمته كونها بأغرى ذلك العمدة وشبهة العمدة المذكور بما حل بشعبان نجم وما اتضح من بعد شخص يدعى أبو السعود إبراهيم من كفر أبو جندي تابع إسماعيل الفار صهر سيد أحمد المذكور ليلة قتل شعبان المذكور وما توري بالتحريات التي جرت عن ذلك من أن فقده بمعرفة إبراهيم الفار لعدم إفشا أم شعبان نجم الذي قتلوه ليلتها مراعاة لخاطر سيد أحمد عبد الدايم بقصد نسبة قتله لأحمد الشورى المحكي عنه بسبب مطاعنته فيحقه قد حكم من الاستئناف ببراءة أحمد المذكور ومجازاة سيد أحمد عبد الدايم بليمان إسكندرية مدة سنة ونصف الخ).
على أن لغة محرر الوقائع الرسمية الذي شهَّر بهذا الحكم وسخر منه وقام يدعو إلى الإصلاح تستحق الإثبات هي أيضاً لطرافتها:
منذ أيام جرى قلم النصيحة بمداد حب المنفعة على قرطاس المقصد الجميل فرقم) كلمات في الإنشاء وبيان مراتبه وتفصيل الممدوح منه وغير الممدوح، وتقسيم أرباب القلم في ديارنا المصرية، وختمها بنداء عمومي صادر عن سليم القلب وصميم الفؤاد. ولقد كانت الآمال ترسل في مخيلتي بأقلام الرجاء أن سيكون لتلك الكلمات عند أهل)

الديار وقع جميل فتنفعل عنها النفوس ويظهر لها أثر يذكر في عالم المحسوسات، فكنت لذلك كالواقف على أقدام الانتظار، لانتهاز الفرصة في لقاء المحبوب يقلقه الضجر ويضنيه الاصطبار، فإذا مضى اليوم الطويل ولم أر فيه من أثر يذكر على نوال المطلوب رددت أنفاس الأسف ومنيت النفس باليوم الثاني عساه يسفر فجره عما يسكن الروع ويدفع الوسواس شأن المحب يتعلل بالأماني ويعتذر بتوارد الأيام؛ ولما طال بي المدى وتطاولت الأزمان. . .).

وقد يطول بنا وبك المدى وتطاول الأزمان قبل أن ننتهي من هذه المقدمة التي لا تحوي فائدة ولا تؤدي غرضاً فلنتركها ونترك عهدها السعيد إلى العهد التالي.

(التتمة في العدد القادم)

زكي عريبي

المحامي أمام محكمة النقض والإبرام

المؤمن المحتضر

للشاعر الفرنسي لامرتين

بقلم محمد طه الحاجري

تفجرت هذه المقطوعات من قلبي، فكتبها أحد أصدقائي، ذات صباح، وهو إلى جانب سريري، ذلك هو السيد مونشلان الذي عني بأمري، عناية أخ، في مرضي الطويل الخطر الذي نزل بي في باريس عام 1819.

ماذا أسمع؟ الناقوس المقدّس يرنّ من حَولَيهْ! وما هذه الثُّلة من رجال الدين تحيط بي باكية؟ ولمن هذه الأغنيَّة الحزينة وهذه الشعلة الخافتة؟ إيه أيتها المنية! أهذا صوتك الذي يقرع أذني للمرة الأخيرة؟ أجل! إني لأستيقظ على حافة القبر!

وأنت أيتها الشرارة العزيزة من الجذوة الإلهية، والقطينة الخالدة في هذه الجثة الفانية، لا تخافي ولا تفزعي: فالموت آتٍ لخلاصِك! طِيري طَيَراتَك يا نفسي، وتجرّدي من أغلالِك! فهل الموت إلا وضع آصار التعاسة البشرية؟

أجل! لقد انتهى الزمن من قياس حياتي. فيا أيتها الملائكة النورانية في مقامها السماوي، إلى أي دار جديدة أنتم آخذون بي؟ الآن! الآنَ أنا أسبح في أمواج من الضياء، وإن الفضاء ليتسع أمامي، وكأن الأرض تفِرُّ من تحت أقدامي!

ولكن ما هذا الذي أسمع؟ في اللحظة التي تستيقظ فيها روحي، أسمع الحسراتِ والتنهداتِ تقرع أذني! ما هذا يا رفاق المنفى! أتبكون مماتي! ولقد شربت منذ قليل من الكأس المقدسة نسيان الآلام، ووَلَجت روحي المنتشية أبواب السماء؟

محمد طه الحاجري

للتاريخ السياسي

معاهدة الصداقة والتحالف بين مصر وإنجلترا

نص المعاهدة

مقدمة

إن حضرة صاحب الجلالة ملك بريطانيا العظمى وأيرلندا والأملاك البريطانية وراء البحار وإمبراطور الهند.

وحضرة صاحب الجلالة ملك مصر.

بما أنهما يرغبان في توطيد الصداقة وعلاقات حسن التفاهم بينهما والتعاون على القيام بالتزاماتهما الدولية لحفظ سلام العالم.

وبما أن هذه الأغراض تتحقق على الوجه الأكمل بعقد معاهدة صداقة وتحالف تنص لمصلحتها المشتركة على التعاون الفعال لحفظ السلام وضمان الدفاع عن أراضيهما وتنظيم علاقاتهما المتبادلة في المستقبل.

قد اتفقا على عقد معاهدة لهذه الغاية وأنابا عنهما المفوضين الآتية أسماؤهم:

حضرة صاحب الجلالة ملك بريطانيا العظمى وأيرلندا والأملاك البريطانية وراء البحار وإمبراطور الهند (الذي سيشار إليه في نصوص هذه المعاهدة بعبارة (صاحب الجلالة الملك والإمبراطور)).

قد أناب عن بريطانيا العظمى وشمال ايرلندا:

. . . . . .

وحضرة صاحب الجلالة ملك مصر.

قد أناب عن مصر:
حضرة صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا رئيس مجلس الوزراء ورئيس الوفد المصري ورئيس الوفد الرسمي.
حضرة صاحب السعادة الدكتور أحمد ماهر رئيس مجلس النواب.
حضرة صاحب الدولة محمد محمود باشا رئيس مجلس الوزراء سابقاً.
حضرة صاحب الدولة إسماعيل صدقي باشا رئيس مجلس الوزراء سابقاً.
حضرة صاحب الدولة عبد الفتاح يحيى باشا رئيس مجلس الوزراء سابقاً.
حضرة صاحب المعالي واصف بطرس غالي باشا وزير الخارجية.
حضرة صاحب المعالي عثمان محرم باشا وزير الأشغال العمومية
حضرة صاحب المعالي مكرم عبيد باشا وزير المالية.
حضرة صاحب المعالي محمود فهمي النقراشي باشا وزير المواصلات.
حضرة صاحب المعالي أحمد حمدي سيف النصر باشا وزير الزراعة.
حضرة صاحب السعادة علي الشمسي باشا الوزير السابق.
حضرة صاحب المعالي محمد حلمي عيسى باشا الوزير السابق.
حضرة صاحب السعادة حافظ عفيفي باشا الوزير السابق.
الذين بعد تبادل وثائق تفويضهم التي تخولهم سلطة كاملة والتي وجدت صالحة مستوفية الشكل قد اتفقوا على ما يأتي:
مواد المعاهدة
المادة الأولى
انتهى احتلال مصر عسكرياً بواسطة قوات صاحب الجلالة الملك والإمبراطور.
المادة الثانية
يقوم من الآن فصاعداً بتمثيل صاحب الجلالة الملك والإمبراطور لدى بلاط جلالة ملك مصر وبتمثيل صاحب الجلالة ملك مصر لدى بلاط سان جيمس سفراء معتمدون بالطرق المرعية.
المادة الثالثة
تنوي مصر أن تطلب الانضمام إلى عضوية عصبة الأمم.
وبما أن حكومة صاحب الجلالة في المملكة المتحدة تعترف بأن مصر دولة مستقلة ذات سيادة فأنها ستؤيد أي طلب تقدمه الحكومة المصرية لدخول عصبة الأمم بالشروط المنصوص عليها في المادة الأولى من عهد العصبة.
المادة الرابعة
تعقد محالفة بين الطرفين المتعاقدين الغرض منها توطيد الصداقة والتفاهم الودي وحسن العلاقات بينهما.
المادة الخامسة
يتعهد كل من الطرفين المتعاقدين بألا يتخذ في علاقاته مع البلاد الأجنبية موقفاً يتعارض مع المحالفة وألا يبرم معاهدات سياسية تتعارض مع أحكام المعاهدة الحالية.
المادة السادسة
إذا أفضى خلاف بين أحد الطرفين المتعاقدين ودولة أخرى إلى حالة تنطوي على خطر قطع العلاقات مع تلك الدولة يتبادل الطرفان المتعاقدان الرأي لحل ذلك الخلاف بالوسائل السلمية طبقاً لأحكام عهد عصبة الأمم أو لأي تعهدات دولية أخرى تكون منطبقة على تلك الحالة.
المادة السابعة
إذا اشتبك أحد الطرفين في حرب بالرغم من أحكام المادة السادسة المتقدم ذكرها فإن الطرف الآخر يقوم في الحال بانجاده بصفته حليفاً، وذلك مع مراعاة أحكام المادة العاشرة الآتي ذكرها.
وتنحصر معاونة صاحب الجلالة ملك مصر في حالة الحرب، أو خطر الحرب الداهم، أو قيام حالة دولية مفاجئة يخشى خطرها، في أن يقدم إلى صاحب الجلالة الملك والإمبراطور داخل حدود الأراضي المصرية مع مراعاة النظام المصري للإدارة والتشريع، جميع التسهيلات والمساعدة التي في وسعه بما في ذلك استخدام موانئه ومطاراته وطرق المواصلات.

وبناء على هذا فالحكومة المصرية هي التي لها أن تتخذ جميع الإجراءات الإدارية والتشريعية بما في ذلك إعلان الأحكام العرفية وإقامة رقابة وافية على الأنباء لجعل هذه التسهيلات والمساعدة فعالة.

المادة الثامنة

بما أن قنال السويس الذي هو جزء لا يتجزأ من مصر هو في نفس الوقت طريق عالمي للمواصلات كما هو أيضاً طريق أساسي للمواصلات بين الأجزاء المختلفة للإمبراطورية البريطانية، فإلى أن يحين الوقت الذي يتفق فيه الطرفان المتعاقدان على أن الجيش المصري أصبح في حالة يستطيع معها أن يكفل بمفرده حرية الملاحة على القنال وسلامتها التامة، يرخص صاحب الجلالة ملك مصر لصاحب الجلالة الملك والإمبراطور بأن يضع في الأراضي المصرية بجوار القنال بالمنطقة المحدودة في ملحق هذه المادة قوات تتعاون مع القوات المصرية لضمان الدفاع عن القنال. ويشمل ملحق هذه المادة تفاصيل الترتيبات بتنفيذها.

ولا يكون لوجود تلك القوات صفة الاحتلال بأي حال من الأحوال. كما أنه لا يخل بأي وجه من الوجوه بحقوق السيادة المصرية.

ومن المتفق عليه أنه إذا اختلف الطرفان المتعاقدان عند نهاية مدة العشرين سنة المحدودة في المادة السادسة عشرة على مسألة ما إذا كان وجود القوات البريطانية لم يعد ضرورياً لأن الجيش المصري أصبح في حالة يستطيع معها أن يكفل بمفرده حرية الملاحة على القنال وسلامتها التامة، فإن هذا الخلاف يجوز عرضه على مجلس عصبة الأمم للفصل فيه طبقاً لأحكام عهد العصبة النافذ وقت توقيع هذه المعاهدة، أو على أي شخص أو هيئة للفصل فيه طبقاً للإجراءات التي يتفق عليها الطرفان المتعاقدان.

المادة التاسعة

يحدد باتفاق خاص يبرم بين الحكومة المصرية وحكومة المملكة المتحدة ما تتمتع به من إعفاء وميزات في المسائل القضائية والمالية قوات صاحب الجلالة الملك والإمبراطور التي تكون موجودة بمصر طبقاً لأحكام هذه المعاهدة.

المادة العاشرة

ليس في أحكام هذه المادة ما يمس أو ما يقصد به أن يمس بأي حال من الأحوال الحقوق الالتزامات المترتبة أو التي تترتب لأحد الطرفين المتعاقدين أو عليه بمقتضى عهد عصبة الأمم أو ميثاق منع الحرب الموقع عليه بباريس في 27 أغسطس سنة 1928.

المادة الحادية عشرة

1 - مع الاحتفاظ بحرية عقد اتفاقات جديدة في المستقبل لتعديل اتفاقيتي 19 يناير و 10 يوليو سنة 1899 قد اتفق الطرفان المتعاقدان على أن إدارة السودان تستمر مستمدة من الاتفاقيتين المذكورتين.

ويواصل الحاكم العام بالنيابة عن كلا الطرفين المتعاقدين مباشرة السلطات المخولة له بمقتضى هاتين الاتفاقيتين.

والطرفان المتعاقدان متفقان على أن الغاية الأولى لإدارتهما في السودان يجب أن تكون رفاهية السودانيين.

وليس في نصوص هذه المادة أي مساس بمسألة السيادة على السودان.

2 - وبناء على ذلك تبقى سلطة تعيين الموظفين في السودان وترقيتهم مخولة للحاكم العام الذي يختار المرشحين الصالحين من بين البريطانيين والمصريين عند التعيين في الوظائف الجديدة التي لا يتوفر لها سودانيون أكفاء.

3 - يكون جنود بريطانيون وجنود مصريون تحت تصرف الحاكم العام للدفاع عن السودان فضلاً عن الجنود السودانيين.

4 - تكون الهجرة المصرية إلى السودان خالية من كل قيد إلا فيما يتعلق بالصحة والنظام العام.

5 - لا يكون هناك تمييز في السودان بين الرعايا البريطانيين وبين الوطنيين المصريين في شؤون التجارة والمهاجرة أو في الملكية.

6 - اتفق الطرفان المتعاقدان على الأحكام الواردة في ملحق المادة فيما يتعلق

بالطريقة التي تصير بها المعاهدات الدولية سارية في السودان.
المادة الثانية عشرة
يعترف صاحب الجلالة الملك والإمبراطور بأن المسئولية عن أرواح الأجانب وأموالهم في مصر هي من خصائص الحكومة المصرية دون سواها، وهي التي تتولى تنفيذ واجباتها في هذا الصدد.
المادة الثالثة عشرة
يعترف صاحب الجلالة الملك والإمبراطور بأن نظام الامتيازات القائم الآن لم يعد يلائم روح العصر ولا حالة مصر الحاضرة.
ويرغب صاحب الجلالة ملك مصر في إلغاء هذا النظام دون إبطاء.
وقد اتفق الطرفان المتعاقدان على الترتيبات الواردة بهذا الخصوص في ملحق هذه المادة.
المادة الرابعة عشرة
تلغي المعاهدة الحالية جميع الاتفاقات أو الوثائق القائمة التي يكون استمرار بقائها منافياً لأحكام هذه المعاهدة، ويجب أن يعد باتفاق الطرفين إذا طلب أحدهما ذلك بيان الاتفاقات والوثائق الملغاة وذلك في مدى ستة أشهر من نفاذ هذه المعاهدة.
المادة الخامسة عشرة
اتفق الطرفان المتعاقدان على أن أي خلاف ينشأ بينهما بصدد تطبيق أحكام المعاهدة الحالية أو تفسيرها ولا يتسنى لهما تسويته بالمفاوضات بينهما مباشرة يعالج بمقتضى أحكام عهد عصبة الأمم.
المادة السادسة عشرة
يدخل الطرفان المتعاقدان في مفاوضات بناء على طلب أي منهما في أي وقت بعد انقضاء مدة عشرين سنة على تنفيذ هذه المعاهدة، وذلك بقصد إعادة النظر بالاتفاق بينهما في نصوص المعاهدة بما يلائم الظروف السائدة حينذاك.
فإذا لم يستطع الطرفان المتعاقدان الاتفاق على نصوص المعاهدة التي أعيد نظرها يحال الخلاف إلى مجلس عصبة الأمم للفصل فيه طبقاً لأحكام عهد العصبة النافذ وقت توقيع هذه المعاهدة، أو إلى أي شخص أو هيئة للفصل فيه طبقاً للإجراءات التي يتفق عليها الطرفان المتعاقدان.
ومن المتفق عليه أن أي تفسير في المعاهدة عند إعادة نظرها يكفل استمرار التحالف بين الطرفين المتعاقدين طبقاً للمبادئ التي تنطوي عليها المواد 4 و5 و6 و7.
ومع ذلك ففي أي وقت يعد انقضاء مدة عشر سنوات على تنفيذ المعاهدة يمكن الدخول في
مفاوضات برضا الطرفين المتعاقدين بقصد إعادة النظر فيها كما سبق بيانه.
المادة السابعة عشرة
يصدق على المعاهدة الحلية ويتبادل التصديق عليها في القاهرة في أقرب وقت ممكن، ويبدأ تنفيذها من تاريخ تبادل التصديق عليها، وعندئذ تسجل لدى السكرتير العم لعصبة الأمم.
وإقراراً بما تقدم وقع المفوضون السابق ذكرهم على هذه المعاهدة ووضعوا أختامهم عليها.
(في العدد القدم (ملحقات المعاهدة))
حَوْلَ النشيد الوطني
للأستاذ محمد إبراهيم المغازي
عندما أعلنت لجنة التحكيم في المباراة الأدبية الرسمية التي أقيمت في عهد الوزارة الماهرية رأيها في الموضوع العاشر من موضوعات المباراة وهو (النشيد القومي)، ومنحت فيه الجائزة الأولى وقدرها مائة جنيه لنشيد الأستاذ محمود صادق، اطلعت على النشيد المحظوظ في الصحف السيارة فلم أجد له في نفسي الوقع الذي يقنعني بأن هذا النشيد يصلح لأن يكون نشيداً قومياً رسمياً لبلد ناهض كمصر فيه من صفوة الأدباء ونوابغ الشعراء عدد لم يتوفر لغيره من لأقطار العربية؛ وعجبت في نفسي (طبعاً) لهذا الاختيار، ولكني عدت فاتهمت ذوقي وفهمي وشرعت آخذ آراء المحيطين بي ممن لهم بصر بالأدب فرأيتهم في الجملة يشاركونني شعوري بالنسبة لهذا النشيد،

فعدت إلى اتهام ذوقي من جديد، واتهمت أيضاً ذوق من استطلعت آراءهم، وحسنت ظني في النشيد حتى أسمع تلحينه، فقد يظهر فيه التلحين محاسن لم تكن تظهر قبله، وكم كانت خيبة أملي عميقة يوم سمعت تلحين هذا النشيد من المذياع! لقد كان ميتاً لا حياة فيه؛ ولست مبالغاً في قولي هذا، فأني أشهد لقد سمعت أناشيد أخرى يلقيها فتيان الكشافة وفرق القمصان الزرقاء وجنود مصر الفتاة، ومع أن الأناشيد التي سمعتها منهم لم يُعط واضعوها عليها مائة جنيه جائزة، ولم تجد لها ملحنين يأخذون في تلحين الواحد منها مائة جنيه أخرى - كما جرى لنشيد الأستاذ محمود صادق - أقول إنه برغم كل هذا فإن الإنسان يحس الحرارة والقوة والوطنية تتدفق في الأناشيد الأخرى، مثل نشيد اسلمي يا مصر للأستاذ صادق الرافعي، ويغلب على ظني أنه لم يتقدم به للمباراة واكتفى بالنشيد الجديد الذي حاز به الجائزة الثانية. ومطلع النشيد الأول للرافعي:

اسلمي يا مصرُ إنني الفدا ... ذي يدي إن مدت الدنيا يدا

ومنه:

للعُلا أبناَء مصرٍ للعُلاَ ... وبمصرٍ شرّفوا المستقبلاَ
وفدىً لمصرنا الدنيا فلا ... تضعوا الأوطانَ إلاَّ أوّلاَ
جانبي الأيسرُ قلْبه الفؤادْ ... وبلادي هي لي قلبي اليمينْ
لك يا مصرُ السلامةْ ... وسلاماً يا بلادِي
إن رمى الدهر سهامهْ ... أتقيها بفؤادِي
واسلمي في كلِّ حينْ

هذا نموذج من النشيد وقد سمعته وأعطيته محفوظات لتلامذتي لأنه وقع مني موقع الرضا واطمأنت إليه نفسي لأول وهلة.

وهناك نشيد آخر لا يقل عن هذا النشيد وهو النشيد الذي وضعه الأستاذ عباس محمود العقاد من سنوات قلائل وأقيمت له من أجله حفلة تكريمية كبرى. ومطلع نشيد العقاد:

قد رفعنا العلمْ ... للعُلا والفِدا=في ضمان السماءْ

وكله على هذا النمط السهل الجميل، وهو يصلح لأن يكون نشيداً شعبياً لسهولته واختصاره ووفائه بكل المعاني التي يطلب توفرها في الأناشيد القومية. ويطول بي المقام لو حاولت استقصاء الأناشيد الأخرى القوية الجميلة التي هي خير ألف مرة من نشيد الأستاذ محمود صادق.

والآن أحب أن يتأمل القارئ الكريم مطلع نشيد صاحب الجائزة الأولى:

بلادي بلادي فداكِ دمي ... وهبتُ حياتي فداً فاسْلمي
غرامُك أول ما في الفؤادْ ... ونجواك آخر ما في فمي

ثم يقارن بينه وبين بيت من الشعر للأستاذ الرافعي كنا نحفظه ضمن قطعة له من الشعر في المدرسة الأولية:

بلادي هواها في لساني وفي دمي ... يمجّدُها قلبي ويدعو لها فمِي

فسيجد أن البلاد والدم والقلب والفم والفداء والهوى أو الغرام تتكرر كلها في مطلع نشيد الأستاذ محمود صادق كما تتكرر في بيت الأستاذ الرافعي تماماً. فهل نسمي هذا توارد خواطر أم ماذا؟ مع أنني أحفظ البيت المذكور من سنة 1926 أي قبل ظهور النشيد الجديد بعشر سنوات، ولا أدري كم من السنين مرت قبل أن أحفظه.

وتأمل هذا المقطع:

غرامك يا مصر لو تعلمين ... قُصارى شعوريَ دنيا ودينْ
فمنك حياتي وفيك مماتي ... وحبك آخرتي واليقين

. . .!ماذا تركت مصر لله في هذا الوجود يا صاحب النشيد؟ أليس هذا كفراً صريحاً؟

الحق إن النشيد الوطني الجدير بهذا الاسم يجب أن يكون خاليا من هذا الشرك وأن يكون بعيداً عن (توارد الخواطر) إلى هذا الحد، وأن تنتقى ألفاظه وقافيته بحيث تكون كلها من حروف المد أو مسبوقة بحروف مد لأنها تكون شجيه الترديد. وإذا كنا نجيز مكافأة مؤلف نشيد كهذا بمائة جنيه فلسنا نفهم كيف يمنح ملحنه مبلغاً مماثلاً لما أخذه المؤلف. اللهم إن هذا إسراف في بلد هو أحوج البلاد إلى الاقتصاد!. . .

(وبعد) فقد أحسنت الوزارة الماهرية في سن تلك السنة الحميدة بإقامتها مباراة ذات جوائز مالية سخية لتشجيع الأدب ورجاله ونرجو أن تحافظ وزارة الشعب المحبوبة

على هذه السنة الجميلة!. . .
وأحسب أن المدى الذي كان محدداً للمباراة لم يكن يصح تطبيقه على موضوع النشيد الوطني - وكان الأولى أن يفسح في أجله ليكون هناك متسع من الزمن أمام الشعراء فيتسع مجال الإجادة فلا تجيء الأناشيد ناقصة ضعيفة من عدم التروي والأناة مما دعا لجنة التحكيم إلى أن تقول في تقريرها - كما ورد في الرسالة الغراء - (إن أجود الأناشيد التي عرضت عليها لم تخل من أبيات أو فقرات ضعيفة إلى جانب أبيات أو فقرات جيدة، ولهذا أخذت كل نشيد بمجموعة، لا ببعض أجزائه).
لقد كانت هذه الخواطر وغيرها تتردد في نفسي، وكلما هممت بالكتابة في الموضوع ثناني عنه أنني لم أر أحداً يقدم على نقد النشيد بعد أن (اعتمدته) وزارة المعارف ولُقن لأفراد البعثة الرياضية التي سافرت إلى برلين، وظللت على ذلك حتى طلع علينا الأديب (س ط) بكلمة قصيرة في العدد 163 من (الرسالة) الزهراء عن الغلطة الأولى في النشيد، ولما وجدت أن (ابن الحلال) قد فتح الباب تقدمت أنا الآخر بكلمتي.
ورجائي أن يعيد أولو الأمر نظرهم في المسألة من جديد ويقيموا مباراة لوضع نشيد قومي كامل يحدد لها نصف سنة على الأقل، ويدعى لها الشعراء المصريون المعروفون للتقدم بما عندهم من الأناشيد أو لوضع غيرها حتى يكون لنا نشيد جدير بالخلود كما للدول الأخرى الراقية.
وأخيراً فأنه من الوفاء لهذا البلد أن يقف العمل بنشيد الأستاذ محمود صادق حتى يوضع
نشيد جديد أو يثبت أنه الأفضل، وهنيئاً لصاحبه ما ناله من مال وشهرة والسلام!. . .
(النحارية)
محمد إبراهيم المغازي
مدرس

دورة الأرض ودورة النفس

للأستاذ خليل هنداوي

كم لهذه المدنية من جنايات منكرة على الإنسان، فلقد شاءت في كل ما تضعه أن تعطيه صور الطبيعة مشاهد ممسوخة وأن تعطيه كتاب الكائنات سطوراً مبهمة.
لقد كان الإنسان في العهد الأول يوم كان يزحف إلى رحلاته على آلات تسعى كالسلحفاة أكثر اتصالاً بالطبيعة، لأنه يقف إزاءها وجهاً لوجه، يتأمل جمالها وجلالها ويتحمل مشاقها ويرى في تحمله لذة الانتصار. فالراحل رحلة قصيرة يتألب حوله من يهتف له ويعجب به ويسأله أن يحدثه عن عجائب رحلته لأنه يراها رحلة حُبلى بالغرائب. وترى صاحبها كلما تحدث عن رحلته تحدث برغبة وحماس، يصور تلك المشاهد ويحبب لسامعه لقيام بمثل رحلته حتى يطلع على جمال لا يغني الكلام عنه.
جمال هذه الرحلات طغى عليه جيل السرعة فلم يُبق لتلك المشاهد روعة، ولم يدع للرحلات البطيئة معنى. . . فالسيارة والقطار والطيارة أعداء هذه الرحلات البطيئة لأنها تجعل من مشاهد الطبيعة الغزيرة المعاني صوراً وأخيلة سينمائية لا ينفذ الناظر إلى دقائقها وائتلاف صورها. فالراحل من بيروت إلى دمشق في العهد السابق على عجلة كان يلبث ثلاثة أيام قد يقاسي فيها بعض الشدائد، ولكنه ينال مقابل هذا من جمال الطبيعة والتأمل في خفاياها ما لا ينسى روعتها أيام عمره، فهو يكاد يعي مصوراً جغرافياً بالطريق وقرى الطريق، وهو لا يكاد ينسى المواطن التي بات فيها لياليه. أما اليوم فهو لا يلبث في رحلته إلا ساعتين يقطعهما كلحظتين في قلب سيارة تحجب عنه كل شيء ولا يحس لذة في السيارة إلا لذة السرعة، وبهذا انطوت عنه آفاق وتوارت عنه مشاهد كثيرة. لقد ظفر إنسان اليوم بالسرعة وأصبح يقلب الأرض قطراً قطراً ولا يعصيه منها شيء، ولكنه يعود من أقطارها كأن لم ينظر شيئاً، لأن هذه السرعة قد محت من ذاكرته أكثر المشاهد، ربح هذه السرعة وخسر هذا الجمال المتغلغل في الأشياء والأكوان، وسرى فوق الأرض كمشاهد غريب عنها لا يتصل بها ولا يعي من مشاهدها شيئاً. وليته خسر من مشاهدها روعتها! ولكنه خسر التأمل الذي يترك أكبر الأثر في النفس. فكم درس كان يتولد من مشهد! وكم قصيدة تنشأ من تأمل في أعماق الطبيعة! أضاعت السرعة كل هذا وزادت في فصل

الإنسان عن الطبيعة الأمر الذي ضج له بعض الفلاسفة وخشوا على الإنسان أن يزداد انجذابه بالمادة، والمادة قاتلة فيه كل روح وضمير. وبهذا تثبت الإنسانية في أجيالها الحاضرة أنها أصبحت طائعة خاضعة للمادة، وأنها لا يستفيق فيها نداء الروح إلا حين تفشل مادتها ويضعف تعلقها بها!

أجد السائح على الآلة البطيئة يحدثني عن جمال مشاهد غاب جمالها في نفسه وأثر في قلبه وربما غير اتصاله بها وجوها كثيرة من حياته، وهذا سر كل رحلة وغايتها. وأجد السائح على الآلة السريعة فأجده سيد رحلته. انتهى منه كما بدأ بها. . . لم يضف إلى خزانة نفسه من هذه الرحلة شيئاً إلا أسماء رآها على المصور كما أراها إذا أردتُ. وما عسى تجديني رحلة طويلة أطوي الأرض من قطبها إلى قطبها وأجمع بيدي كل آفاقها، تدور بي آلة تسير كالجن تريني السماء والأرض طائرتين، أو أرى الأرض من السماء كخيال لا يتبدل ما فيه إلا قليلاً. إني لأوثر على مثل هذه الرحلة التي اختلط رأسها بذنبها رحلة قصيرة بطيئة تتصل نفسي فيها بالأرض وتسمع نداءها وتدرك جمالها وتتأمل جلالها، وإذا انتهيت من رحلتي أحسستُ شيئاً جديداً في نفسي! أليس في تبدل كل مشهد وحي جديد يهبط على نفسي؟ أليس في كل طود شامخ أجاهد النفس في اقتحامه انتصار قوي يشجع نفسي على المثابرة؟ أليس في انتصاري على كل شدة وكل نكبة ومجاهدتي بنفسي في اقتحام المخاطر ما يعينني على اقتحام مخاطر الحياة التي تشبه من وجوه عديدة هذه المخاطر؟ وكيف تريد من الغني الذي ينشأ في النعيم والنعومة أن يقوى على مجابهة الحياة حين تقابله مصاعبها؟

إن في مثل هذه الرحلات نوعاً من المقاومة - كم يفهمه الكشافون - يعين على احتمال المصاعب، وفيه نوع آخر يجب أن نسبق إلى تفهمه هو محادثة الطبيعة فماً لفم، وعناقها صدراً لصدر، والتغلغل في خفايا جمالها الرائع، وفي هذا ما يجعل قلوبنا تطفح رضاً بالحياة ونفوسنا تحبها وتتمتع بها.

حقاً لقد كسبوا كثيراً من السرعة في رحلاتهم، وكثيراً من الراحة في هذه السرعة، وكثيراً من الرحلات في هذا العصر، ولكنهم فقدوا أجمل شيء كانوا يأخذونه من الطبيعة، فقدوا الأساليب التي كانت تدخل بها الطبيعة إلى أنفسهم، والأساليب التي كانوا بها يدخلون إلى نفس الطبيعة. . . وقد أخطئوا إذ حسبوا أن قيمة الرحلة بأبعادها ومسافاتها وتعدد مشاهدها،

وما عسى أن تكون قيمة رحلة مثل هذه إذا أبعدتني عن نفسي ولم تستطع أن تصل ما بيني وبين الطبيعة! على أن دورة النفس هي أكثر التفافات وتعاريج وأبعاداً - على قربها - من دورة الأرض وإن كثرت فيها التعاريج والأبعاد.

سيحوا في الأرض وطيروا في أجوائها واسبقوا الزمان على دورته، ولكن اجعلوا من سياحاتكم سياحات قصيرة تعيدكم إلى الأرض وجبالها ووديانها وجمالها، ففي تأملها حياة في قلب حياة، وفي الاتصال بها انفصال عن متاعب الحياة.

وقد كان الاتصال بالأرض الخالية علاجاً يداوي به سقيم الهوى ومريض الفؤاد والمسلول، لأن نفحاتها النقية تعيد إليه ما نزعته منه الأرض التي سممتها الشهوات وقتلت روحها الملذات.

مشاهد هذه الأرض لا تزال غنية تعطي كل قاصد مهما كانت غايته لأنها غنية. . . فما أغناك أيتها الأرض حتى عندما يظنونك فقيرة!

خليل هنداوي

في الأدب الإنكليزي

هل من انتحال في الأدب الإنكليزي؟ - 3

للسيد جريس القسوس

- 6 -

من هو طوماس تشاترتن؟

وُلد هذا الشاعر في برستل، في 20 نوفمبر سنة 1752، بعد وفاة أبيه بثلاثة أشهر. وكان أبوه كاتباً بسيطاً في كاتدرائية برستل، يتقاضى منها راتباً زهيداً؛ فمات ولم يخلف لابنه تراثاً مادياً يُذكر.

دخل الشاعر مدرسة كولستُنْ الابتدائية حيث قضى ثماني سنين متتالية، نظم في خلالها بعض قصائد، منها واحدة نظمها سنة 1764 بعنوان (وصية الكافر)

ثم عنّ له أن يقصد عمه حارس كنيسة القديسة ماري في (ردكلف) لعله يجد في كنفه طمأنينة وعزا. كانت تلك الكنيسة على جمال فني بديع، فتن الشاعر وأذهله، فعاش بالخيال في العصور التي أبدعت ذلك الفن الرائع. ليس هذا فحسب، بل عثر في خزانة الكنيسة على مخطوطات أدبية قديمة، وسجلات دينية تعود في تاريخها إلى العصور الوسطى، فكان الشاعر الصبي في خياله وشعوره نهباً بين هذين التراثين الخالدين: التراث الفني البديع، والأدبي الرائع. فلم يعش في الحقيقة في عصره إلا بالجسد؛ أما روحه فقد كانت بكليتها في العصور الوسطى.

وانزوى تشاترتن لنفسه في تلك البيئة الروحية الهادئة عاكفاً على بحث تلك الآثار الأدبية ومطالعتها. وبقي هذا شأنه لا يعرف من أمره شيء، حتى سنة 1769 حين فاجأ العالم الأدبي بنشر قصيدة (لينور ويوغا) & في مجلة & ولقد نظم تلك القصيدة في حين لم يتجاوز فيه عمره الثانية عشرة؛ وأطلع عليها رئيس مستشفى (كلتُن)، مدّعياً أنها من آثار شاعر من شعراء القرن الخامس عشر. أما اسم ذلك الشاعر الخيالي فالكاهن طوماس رولي عاش في مدينة برستل، في عهد الملك إدوارد الرابع وكان - على ما ادعى تشاترتن - صديقاً لوليم كاننغ.

ووليم كاننغ هذا شخصية تاريخية؛ كان تاجراً مثرياً، يتعاطى هذه المهنة في برستل - بلد تشاترتن نفسه -؛ وكان من غواة الأدب وأعوانه. وادعى تشاترتن أن الكاهن رولي كان يؤمّه ليتلو في حضرته أشعاره، فيلقى منه كل حدب والتفات. وتقوم بطولة كاننغ على الفضل والتقوى، ومتانة الخلق، وقوة العزيمة، والمحافظة على المبدأ؛ لهذا لما أرغمه الملك إدوارد على تزوج إحدى الغانيات لغاية في نفسه، رأى كاننغ نجاته في الهرب من وجه ذلك الملك العسوف؛ فقصد كلية وستبري في مقاطعة جلوسترشاير مفضلاً الحياة بجانب الكاهن الشاعر على التقرب من الملك العاتي الجبار.

درس تشاترتن هذه الحوادث دَرْس الولوع المفتنّ؛ وألمّ بها إلماماً عجيباً، واختلق قسماً كبيراً منها. ومعظم قصائده تدور حول هذه الحوادث، الصحيح منها والمختلق. ويتخلل اسم كاننغ كثيراً من أشعاره التي نظمها، وعزاها إلى الشاعر رولي مثل مأساة ' برستو أو قصيدة

ادعى تشاترتن أن يراع ذلك الكاهن الخيالي دبجت هذه القصائد وغيره؛ وأنه خلّفها في مخطوطات أودعت خزانة كنيسة ردكلفْ. هذا كل ما يقوله تشاترتن عن رولي: ولم يذكر عنه أكثر من ذلك، فيعزز بذلك ادعاءه، ويقوي حجته.

وفي سنة 1767، عين الشاعر كاتباً في بعض دوائر العدل لكنه رغم ذلك كان له متسع ' كاف من الوقت للمطالعة والإنتاج والنشر خاصة في مجلة

وأشهر ما ظهر له في ذلك الحين قصيدة اسمها (أنشودة إلاَّ) وهي مأساة تمثيلية فيها ابتكار، وغنائية ساحرة، وروعة فنية سامية. (ومأساة برستو) وهي من أجلّ مآسيه الشعرية القصصية وأروعها موضوعاً وأسلوباً، وتنتهي بإعدام البطل بودون إذ اشتمّ منه الملك إدوارد معاندة وعصياناً. وفيها وصف بديع للبطل بودونْ إذ آثر الموت على مصانعة الملك إدوارد والتلطف له والتحبّب إليه. وفيها وصف بارع رقيق للوداع الحارّ بين ذلك البطل وزوجه البار.

ومن هذه أيضاً قصة شعرية تمثيلية اسمها (الرّهان) وأُخر مثل (جودونْ) و (أنشودة الجمال) و (البرلمان) و (معركة هيستنج) و (أغنيّة الصَّدقة) وغيرها من المقطّعات المتفرقة، وهي كلها شبيهة بأشعار كيتس الخالدة، من حيث جمال الفن وقوة العاطفة ودقّة التصوير. وجميع هذه القصائد تؤلّف مجلداً كبيراً من الشعر، جُمِعَ ونُشِر سنة 1804؛ وتشاترتن كان ينسب أهم ما فيه إلى الشاعر رولي.

لهذا بينما كان العالم الأدبي ينهج في خطى بوب وجونسن الأدبية الكلاسيكية، كان هذا الشاعر الشاب يمهّد السبل القومية للإبتداعية ذلك بأنه كان يعود إلى ينابيع قديمة فيستقي منها نتاجه الأدبي أو يستوحي منها عبقريته الخالدة؛ فيعمل بذلك على نشر الميزات التي يختصّ بها أدب الإبتداعية.

ولقد وجد شعراء القرن التاسع عشر في أدب تشاترتن وحياته الرومانتيكية مرتعاً خصباً للخيال والروح، فقد تأثر الشاعر كولردج بأدبه إلى حد بعيد؛ وهذا يظهر جلياً واضحاً في قصيدته المشهورة ولكولردج هذا قصيدة بديعة، اختصها برثاء تشاترتن اسمها وقلْ مثل ذلك عن كيتس؛ إذ يستدلّ من إهدائه قصيدته الخالدة إلى تشاترتن

أنه كان يستوحي عبقريته، ويستمد نشاطه الأدبي من روح الشاعر الشاب. ليس هذا فحسب، بل أقر غيرهما من الشعراء الابتداعيين بنبوغ تشاترتن؛ فذكره شلي مثلاً في قصيدته (أدونيس) التي رثى بها كيتس في عداد الشعراء الذين قضوا في ميعة الصبا، ووردزورث لم يشأ إلا أن يقول فيه، في قصيدته (الانحلال والاستقلال) & تلك الكلمات الرائعة، التي أصبحت مثلاً سائراً بين الشعراء وهي:

ومعنى ذلك:

لقد فكرت طويلاً في ذلك الصبي العجيب بل في تلك الروح اليقظة التي قضت آن (شموخها وعزها).

والشاعر الشهير دانتي روزيتي يذكره مع أعاظم شعراء الإنكليز في

ولقد لاقى تشاترتن في خريف سنة 1770 من ضنك العيش وسوء الحال ما دفعه مراراً إلى الانتحار، حتى إنه كتب مرة وصية ينبئ فيها بعزمه الأكيد على الانتحار في أقرب الفرص، شارحاً الأسباب الحافزة له على التخلص من الحياة، لكنه عدل عن ذلك لسبب ما؛ فاستقال من وظيفته، وقصد لندن حيث قضى نحو تسعة أسابيع؛ ومن ثمَّ توجه إلى هولبرن حيث صرف مدة انعزل في خلالها عن العالم وعاش عيشة تصوف وهدوء عميقين؛ فتمكن

بذلك من استعادة خيالاته، وتصوراته الروحية الشائقة؛ فانتعشت روحه واطمأنت نفسه، ورضى عن حاله تلك بعض الرضى؛ فسولت له النفس الاستزادة من العيش، لكنه ما عتم أن اصطدمت الروح والمادة في ميدان نفسه، فاحتدم النزاع بينهما احتداما؛ إذ أن فقره المدقع وعدم إقبال الصحف على نشر آثاره، وشعوره بفضيحة أمره، جميعها ملأت حياته كآبة وألماً، وزادت عيشه ضنكاً ومضضاً؛ فاستسلم لليأس والقنوط، وعاودته فكرة الانتحار؛ لكنه عزّ عليه الموت في ريعان الشباب، فقاوم فكرة الموت، وعقد النية على دراسة الطب مؤملاً من وراء ذلك سعادة وغبطة دنيوية دائمة، فراسل أصدقاءه يطلب المؤازرة، لكنه باء بالفشل، فكانت تلك آخر خفقة في سراج حياته، إذ عاد على أثر ذلك إلى صومعته عازماً على الموت المحتم، فتجرّع الزرنيخ، بعد أن مزق كل ما عثر عليه من آثاره الأدبية غير المنشورة.

وهكذا كانت حياته صراعاً بين البؤس والهناء، واليأس والأمل، والقناعة والطموح، والموت والحياة؛ حتى غلب البؤس في النهاية على الهناء، وانتصر اليأس على الأمل، فانهار ذلك البنيان الروحي الرخيص تحت كاهل المادة ولما يبلغ بعد من العمر عتياً، فكانت وفاته في 24 أغسطس سنة 1770 عن 17 سنة ونحو 9 أشهر.

لو أتيح له أن يعمر طويلاً لربما بذّ الكثيرين من أعاظم الشعراء، وتبوأ مكاناً ليس بعيداً من شكسبير وغوته ودانتي.

وتقديراً لنبوغه أقام هواة أدبه نصباً تذكارياً لاسمه في ساحة كنيسة ردكلف في برستل، نقشوا عليه كلمات مقتبسة من وصيته الأخيرة، وهي:

ذكرى طوماس تشاترتن، لا تحكم عليّ أيها القارئ إن كنت تقيّاً؛ إذ الحكم لقوةٍ عليا؛ (ولهذه القوة وحدها سأجيب. . . .).

(يتبع)

جريس القسوس

دين المتنبي

أبو الطيب المتنبي - 3

للأستاذ محمد محي الدين عبد المجيد

ثم يقول بعد ذلك في شأن سيف الدولة:

رأيتكم لا يصون العرض جاركم ... ولا يدر على مرعاكم اللبن

جزاء كل قريب منكم ملل ... وحظ كل محب منكم ضغن

وتغضبون على من نال رفدكم ... حتى يعاقبه التنغيص والمنن

فغادر الهجر ما بيني وبينكم ... بهماء تكذب فيها العين والأذن

وكان كلما نازعته نفسه إلى سيف الدولة واستشعر شيئاً من الأسف على فراقه يعلل نفسه بأنه لقي أهلا بأهل فيقول:

وأخلاق كافور إذا شئت مدحه ... وإن لم أشأ تملي علي فأكتب

إذا ترك الإنسان أهلا وراءه ... ويمم كفوراً فما يتغرب
ولكنه ما عتم أن اجتوى كافوراً وتبرم به ويئس مما كن أمله فيه، فلما اعتزم أن يتركه أسف على غدره ونازعته نفسه إلى ممدوحه الأول وهو يهجو كافورا:

وفارقت خير الناس قاصد شرهم ... وأكرمهم طرا لآلامهم طرا
فعاقبني المخصي بالغدر جازيا ... لأن رحيلي كان عن حلب غدرا
وما كنت إلا فائل الرأي لم أعن ... بحزم ولا استصحبت في وجهتي حجرا

ومع أنه يعترف بالغدر فقد حانت له فرصة ليعود إلى الوفاء فلم يهتبلها، تلك أن سيف الدولة حين علم رجوعه من مصر أرسل إليه ابنه بهدية فاكتفى بأن يرسل إليه قصيدة يقول فيها:

كلما رحبت بنا الروض قلنا ... حلب قصدنا وأنت السبيل
فيك مرعى جيادنا والمطايا ... وإليها وجيفنا والذميل
والمسمون بالأمير كثير ... والأمير الذي بها المأمول
الذي زلت عنه شرقاً وغرباً ... ونداه مقابلي ما يزول
ومعي أينما سلكت كأني ... كل وجه له بوجهي كفيل

ويمر بعد ذلك عامان وبضعة أشهر فيرسل إليه سيف الدولة كتاباً بخطه يسأله فيه المسير إليه فيعتذر له بقوله:

وما عاقني غير خوف الوشاة ... وإن الوشايات طرق الكذب
وتكثير قوم وتقليلهم ... وتقريبهم بيننا والخبب

وقد عاوده طبعه الذي دللنا عليه حين ورد على عضد الدولة فقد قال له في أول لقاء:

قد رأيت الملوك قاطبة ... وسرت حتى رأيت مولاها

ثم يقول له بعد ذلك:

يقول بشعب بوان حصاني ... أعن هذا يسار إلى الطعان
أبوكم آدم سن المعاصي ... وعلمكم مفارقة الجنان
فقلت: إذا رأيت أبا شجاع ... سلوت عن العباد وذا المكان
فإن الناس والدنيا طريق ... إلى من ماله في الناس ثن
لقد علمت نفسي القول فيهم ... كتعليم الطراد بلا سنان

وانظر إلى هذا البيت الأخير فإنه يعتذر فيه عن كل مدائحه التي قالها من قبل عضد الدولة بأنه كن يقولها ليروض نفسه ويعلمها حتى إذا اعتادت لم يحسن منه القول إلا فيه.

تنبؤه

ليس في حياة أبي الطيب مسألة أشد غموضاً من سر هذا اللقب الذي نبزوه به، ومهما يكن في حياته من الدقة والغموض فإنا نعترف بقوة الدقة والغموض اللذين أحاطا بهذا اللقب. وآية ذينكم أن الكتاب ما زالوا يكتبون عن أبي الطيب منذ كان إلى يوم الناس هذا وهم يختلفون في الإبانة عن حقيقة هذا اللقب. وكتاب عصرنا هذا مختلفون أيضاً في الاستنتاج والتعليل. ولقد حاولت أن أقف على الوضع الحقيقي لهذه المسألة متخذاً من شعره وأخباره نبراساً أستفيء به فأعياني تطلابه ووقعت في حيرة ولبس وإبهام هي شر من الإعراض عنه، ذلك أنه لم يعن أحد ممن عاصر المتنبي أو قرب من عصره بالبحث عما يشوقنا اليوم أن نعرفه بحثاً يثلج صدر الحقيقة ويملأ قلب الناس بصحة أسبابه ونتائجه؛ فكل ما بين أيدينا كلمات منثورة في بطون الكتب جرى بعضها على ألسنة قوم عرفوا بالهوى فيه والتعصب له إلى حد التغاضي عن القبح، وجرى بعضها الآخر على لسان قوم لم يعرف الناس عنهم شيئاً أو عرفوا عنهم الكراهية له إلى حد تشويه محاسنه؛ فمهمة الباحث اليوم من أشق المهام؛ وكل ما يمكن أن يصل إليه باحث ظنون قد لا يطول به الأمد حتى تتكشف له عن نفسها كخدعة من خدع الغرور.

حكى أبو الفتح عثمان بن جني قال:

سمعت المتنبي يقول: (إنما لقبت بالمتنبي لقولي):

أنا ترب الندى ورب القوافي ... وسمام العدى وغيظ الحسود
أنا في أمة تداركها الله (م) ... غريب كصالح في ثمود

وفي هذه القصيدة يقول:

ما مقامي بأرض نخلة إلا ... كمقام المسيح بين اليهود
وليس هذا الذي ذكره أبو الفتح إلا كالتمحلات التي يرتكبها بعض الناس بإخراج الألفاظ عن أوضاعها ومعانيها. ذلك بأن أبا الطيب نفسه كان يتألم إذ نبزوه بهذا اللقب، فهو يعلم أن الناس لا يطلقون عليه ذلك تشبيها له بالأنبياء وإن كانت هذه الصيغة قد تستعمل في العربية لإفادة معنى التشبيه. وذكر أبو العلاء في رسالة الغفران ما كان أعداء أبي الطيب يتحدثون به عنه فقال: (وحدثني الثقة عنه حديثاً معناه أنه لما حصل في بني عدي وحاول أن يخرج فيهم قالوا له وقد تبينوا دعواه: (هاهنا ناقة صعبة فإن قدرت على ركوبها أقررنا أنك مرسل) وأنه مضى إلى تلك الناقة وهي رائحة في الإبل فتحيل حتى وثب على ظهرها فنفرت ساعة وتنكرت برهة ثم سكن نفارها ومشت مشي المسمحة، وأنه ورد بها المحلة وهو راكب عليها، فعجبوا له كل العجب، وصار ذلك من دلائله عندهم. وحدث أيضاً أنه كان في ديوان اللاذقية وأن بعض الكتاب انقلبت على يده سكين فجرحته جرحاً مفرطاً، وأن أبا الطيب تفل عليها من ريقه وشد عليها غير منتظر، وقال للمجروح لا تحلها في يومك وعد له أياماً وليالي، وأن ذلك الكاتب قبل منه فبرئ الجرح فصاروا يعتقدون في أبي الطيب أكبر اعتقاد ويقولون هو كمحي الأموات. وحدث رجل كان أبو الطيب قد استخفى عنده في اللاذقية أو في غيرها من السواحل أنه أراد الانتقال من موضع إلى موضع فخرج بالليل ومعه ذلك الرجل، ولقيهما كلب ألح عليهما في النباح ثم انصرف، فقال أبو الطيب لذلك الرجل وهو عائد: (إنك ستجد ذلك الكلب قد مات. فلما عاد الرجل ألفى الأمر على ما ذكر. ولا يمتنع أن يكون أعد له شيئاً من المطاعم مسموماً وألقاه له وهو يخفي عن صاحبه ما فعل) اهـ. وقل أبو العلاء في رسالة الغفران مرة أخرى:
وحدثت أنه كان إذا سئل عن حقيقة هذا اللقب قال: هو من النبوة بمعنى المرتفع من) الأرض. وكان قد طمع في شيء قد طمع فيه من هو دونه وإنما هي مقادير يديرها في العلو مدير يظفر بها من وفق ولا يراع بالمجتهد أن يخفق، وقد دلت أشياء في ديوانه أنه كن متألهاً، ومثل غيره من الناس متدلهاً، فمن ذلك قوله:
ولا قابلا إلا لخالقه حكما ... .
وقوله:
ما أقدر الله أن يخزي بريته ... ولا يصدق قوماً في الذي زعموا
وإذا رجع إلى الحقائق فنطق اللسان، لا ينبئ عن اعتقاد الجنان لأن العالم مجبول على الكذب والنفاق، ويحتمل أن يظهر الرجل تدنيا وإنما يجعل ذلك تزيناً يريد أن يصل إلى الثناء، أو غرض من أغراض الخالبة أم الفناء) اهـ وأبو العلاء في هذه العبارات مضطرب كل الاضطراب، فبينا هو يقص عليك معجزات أبي الطيب التي مخرق بها على بني عدي إذا هو يذكر لك أنه إنما طمع فيما طمع فيه من هو دونه بعد همة وعلو نفس، ولا يمكن أن يكون مقصوده بذلك النبوة، ثم هو بعد ذلك يعود فيذكر لك أن أبا الطيب كان يعترف بالله تعالى ويرشدك إلى دلائل هذه العقيدة من شعره، ويعود إلى التشكك في دلالة هذه الأقوال على ما في نفسه لأن نطق اللسان لا ينبئ عن اعتقاد الجنان؛ وكأن أبا العلاء كان يعاني ما نعانيه اليوم من غموض حال المتنبي وشدة خفائها.
والذي نستطيع أن نعقله أن هذا اللقب قد نبزه به أعداؤه وليس له حقيقة برزت في الوجود، وأن أبا الطيب كان يقوم بدعوى سياسية: كان يطلب الملك ويمني نفسه به ويعد له عدته التي ظن أنها تصل به إليه من المران على الحرب وجمع المال والاستكثار من الأعوان وتدبير المؤمرات، ولم يكن يجسر على الجهر بذلك في عواصم الملك التي عاش فيها فكان يخرج إلى البوادي يتحين الفرصة ويستجمع للوثوب وتحقيق ما في نفسه من آمال؛ وهذا سر من أسرر انتقاله من ملك إلى ملك، وقد ساعده على هذا الحلم اللذيذ ما كان يقع تحت نظره كل يوم من ثورات وفتن وانقلاب، وقوة إيمانه بأنه أفضل من سعت به قدم؛ وكان ربما قنع بأقل من الملك فرغب في ولاية من الولايات يخلعها عليه كافور، ولعل هذه القناعة لم تكن إلا لأنه فهم أن الولاية سبب يصل من طريقه إلى الملك كالذي يراه في جماعة من ملوك عصره. ولعل كافوراً لم تخف عليه سريرته فحرمه الولاية التي كان وعده إياها. ولعله هو نفسه قد شعر بأن كافوراً فطن لدخيلة نفسه ففر من مصر

تحت جنح الليل. أفلست تراه يقول لكافور أول وروده عليه:
وغير كثير أن يزورك راجل ... فيرجع ملكا للعرافين واليا
حتى إذا تأخر جواب كافور وخشي أن يفوته المأمول أو أن يظن به عدم الكفاية للاضطلاع بأعباء الولاية عاوده بقوله:
فارم بي حيثما أردت فإني ... أسد القلب آدمي الرواء
وفؤادي من الملوك وإن كا ... ن لساني يرى من الشعراء
ولم يزل يظهر لكافور تلهفه على إنجاز موعوده بالتعريض مرة وبالتصريح مرة أخرى حتى أدركه اليأس وعلم أن في الأمر شيئاً. أنظر إلى قوله:
إذا لم تنط بي ضيعة أو ولاية ... فجودك يكسوني وشغلك يسلب
ثم انظر إلى قوله:
وهل نافعي أن ترفع الحجب بيننا ... ودون الذي أملت منك حجاب
وفي النفس حاجات وفيك فطانة ... سكوتي بيان عندها وخطاب
قال أبو منصور الثعالبي: (وما زال في برد صباه إلى أن أخلق برد شبابه وتضاعفت عقود عمره بدور حب الولاية والرياسة في رأسه ويظهر ما يضمر من كامن وسواسه في الخروج على السلطان والاستظهار بالشجعان والاستيلاء على بعض الأطراف ويستكثر من التصريح بذلك في مثل قوله:
لقد تصبرت حتى لات مصطبر ... فالآن أقحم حتى لات مقتحم
لأتركن وجوه الخيل ساهمة ... والحرب أقوم من ساق على قدم
وكقوله:
سأطلب حقي بالقنا ومشايخ ... كأنهم من طول ما التثموا مرد
ثقال إذا لاقوا خفاف إذا دُعوا ... كثير إذا شدوا قليل إذا عُدوا
وطعن كأن الطعن لاطعن عنده ... وضرب كأن النار من حره برد
إذا شئت خفت بي على كل سابح ... رجال كأن الموت في فمها شهد
وكان كثيراً ما يتجشم أسفاراً بعيدة أبعد من آماله ويمشي في مناكب الأرض ويطوي المناهل والمراحل ولا زاد إلا من ضرب الحراب على صفحة المحراب) اهـ.
هذه فيما نعتقد حقيقة حاله؛ فأما ادعاء النبوة فلا نستطيع أن نتقبله مهما زعم الناس أن العصر الذي عاش فيه ورغبته في أن يكون أبعد أهل عصره أملاً، وكثرة الدعوات الدينية والسياسية، كل أولئك تقرب إلى العقل أنه ادعى النبوة. نقول ذلك بعد علمنا تقدير الناس لمقام النبوة ورسوخ عقيدة الإسلام في أذهانهم، ومنها أن محمداً (ص) ختام الأنبياء حتى أن الدعوات الدينية التي ادعاها المدعون بعد ذلك لم تكن إلا في نواحي الإمامة وما يتصل بها. ونحن نرى كل هذه الدعوات كانت تستند إلى نصوص يزعم الراوون لها أنها صدرت عن رسول الله أو أفهام في نصوص أخرى ثابتة. ولو أن أبا الطيب كان قد ادعى النبوة لما وجد من الناس من ينتظر عليه حتى يتم دعواه. ولعله لم يكن من الحكمة في دعواه التي ارتضينا أمرها بحيث يخفي شأنه، فكان لذلك لا يأمن جانب أحد، وكان لا يدخل بلداً إلا ليقذف به إلى بلد، ثم كانت بعد ذلك نهايته المحتومة.

أبو الطيب والنحاة

ليس يسوغ لي في مستهل هذا البحث أن أغفل أن أبا الطيب كان قد أخذ من العربية بأوفر حظ؛ فهو حافظ لغريبها حفظ الباحث المستقصي حتى ليسأله أبو علي الفارسي: (كم لنا من الجموع على وزن فِعْلَى)؟ فيبادره بقوله (حِجْلى وظِرْبى) ويبحث أبو علي ليلته في كتب اللغة لعله يعثر لهما على ثالث فلا يجد. ويقول أبو علي في شأنه: (ما رأيت رجلاً في معناه مثله) وهذه الشهادة من أبي علي الذي كان يناصبه العداوة ويتحامل عليه كافية للدلالة على قدره؛ وكان مع اطلاعه على مفردات اللغة وغريبها عالماً بمواطن استعمالها متمكناً من قواعدها خبيراً بلغات القبائل. وله شعر جزل لا نظير له في شعر أحد من شعراء العربية. وقد خلا كثير من شعره من كل مأخذ وتجانب كل انتقاد، ولكن له مع ذلك شعراً قد جانب الطرق المشهورة في العربية إلى طرق لا يقرها النحاة الذين جعلوا مهمتهم تتبع المعروف الجاري على الألسنة ورسموه قواعد أرادوا أن تكون هي لسان الناس عامة؛ وإن

يكن أحد قد نال من أبي الطيب في حياته وبعد موته منالاً له وجه صحيح وقد بقى أثره والدليل عليه فأولئك هم النحاة، ولسنا نعني بالنحاة علماء الأعراب فحسب، وإنما نريد بهم كل من كان يتكلم في فرع من فروع العربية؛ فهؤلاء هم الذين جرحوا عزة المتنبي وطامنوا من كبريائه؛ وهؤلاء هم الذين كان أبو الطيب يضيق بهم ذرعاً وتتألم نفسه إذا وجه واحد منهم خطابه إليه. وكيف لا يضيق صدره وشعره هو وسيلته التي يكتسب بها رضاء الناس وهم يعمدون إلى هذه الوسيلة فيضعفون من شأنها ويحاولون أن يقللوا من قيمتها. ولم يكن النحاة فيما نعتقد قد أكثروا من تعقبه والحملة عليه لوجه العلم ولا انتصاراً للحق، وإنما كان ذلك منهم سلاحاً من أسلحة السياسة التي وجهت إلى الرجل؛ وليس يعنينا بحث ذلك الآن ولكنا نذكر أنه - مع عدم توفر حسن النية - قد أمكن للنحاة أن يجدوا في شعر أبي الطيب ما يستمسكون به عليه ويتخذونه ذريعة للتشفي منه ولإرضاء سادتهم. وكانوا يجابهونه بذلك أحياناً؛ وكانت تأخذه العزة فيسب ويقذع في سبابه أحياناً شأن المغيظ المحنق الذي يداخله الشك في أمرهم؛ وكان ربما ضن عليهم بالإجابة فأحالهم على بعض أصدقائه من النحاة. حدثوا أن ابن خالويه وجه إلى أبي الطيب نقداً في حضرة سيف الدولة فقال له أبو الطيب: (أسكت ويحك فإنك أعجمي! فما لك وللعربية؟) وكان مع ابن خالويه مفتاح فضربه به فشج رأسه. وحدثوا أن سائلاً سأله عن قوله في مطلع قصيدة مدح بها أبا الفضل ابن العميد:

باد هواك صبرت أم لم تصبرا ... وبكاك إن لم يجر دمعك أو جرى

فقال له: كيف قلت لم تصبرا فقال: لو كان أبو الفتح حاضراً لأجاب، يريد أبا الفتح عثمان بن جني وكان صديقاً حميماً له. وبعض المآخذ التي أخذها عليه النحاة تافه أو لا وجه له كالذي حدثوا أن ابن خالويه سمعه ينشد سيف الدولة:

وفاؤكما كالربيع أشجاه طاسمه ... بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمه

فقال له: يا أبا الطيب إنما يقال شجاه بتوهمه فعلاً ماضياً. فقال له أبو الطيب: أسكت فما وصل الأمر إليك. يعني أنه أفعل تفضيل.

وبعض المآخذ التي أخذوها عليه صحيح لا شبهة في أنه أخطأ فيه الجادة كالتعقيد اللفظي والمعنوي، واستعمال الغريب الوحشي، والعدول عن سنن القياس، وقبح بعض المطالع، وبعض المقاطع، واستعمال اللغات المهجورة. وأمثلة ذلك كله ميسورة قريبة التناول. وفي كتب علماء البلاغة أمثلة وشواهد كثيرة من شعر المتنبي يعدون بعضها في عيون الشعر ومحاسنه، ويعدون بعضها الآخر في رذيل الشعر ومستكرهه.

أما علماء الأعراب فقد جروا على قاعدتهم في عدم الاحتجاج بشعر المولدين مع أبي الطيب، ولكن كثيراً منهم يذكر أبياتاً من شعره في موطن من ثلاثة مواطن: موطن التمثيل لا الاستشهاد، وموطن مخالفة القياس، وموطن التطبيق، وذلك في المعقد من شعره. وقد ذكر العلامة رضي الدين في شرح الكافية بعض أبيات للمتنبي على أنها مخالفة للقياس. وللعلامة المحقق جمال الدين ابن هشام صاحب مغنى اللبيب، ولأبي السعادات ابن الشجري في أماليه شروح وتخريجات لأبيات كثيرة من معقد أبيات أبي الطيب. وقد كان لأبي الفتح عثمان بن جني صديق المتنبي اليد الطولى في توجيه أنظارهما إلى هذه الناحية بما بذله من جهد في تخريج شعر المتنبي حتى كان أبو الطيب نفسه يقول له: إني لم أقل هذا الشعر لهؤلاء النحاة وإنما أقوله لك.

أيها السادة؛ هذه كلمتي التي كتبتها على عجل، وإني لسعيد بأن أتشرف بإلقائها بين أيديكم، وأشكر لجنة المهرجان التي أتاحت لي هذه الفرصة النادرة للتعرف إليكم، والسلام عليكم ورحمة الله.

محمد محي الدين عبد المجيد
المدرس بكلية اللغة العربية

لمَعات

إلى شاعر الإسلام وفيلسوفه محمد إقبال
جواباً لكتابيه أسرار خودي ورموزبي خودي
للدكتور عبد الوهاب عزام

يخرق الليل شعاع يخفق ... ثم يلتف عليه الغسَق
كمنار البحر يخفى ويلوح ... فيه بين الغيب والومض وضوح
أو يراع الليل يخفى وينير ... فهو سطر من غياب وحضور
تارة يبدو طريقاً لحَبا ... قامت الظلماء فيه نُصَبا
أو بياناً من بياض وسوادْ ... كبياض الطرس يعلوه المداد
كل لون فيه حرف مفصِحُ ... أُلّفت منه سطور وُضِّح
وأراه تارة خطاً أحمّ ... وكأن الضوء تفصيل الظَّلَم
فهو سطر من ظلام أرقطُ ... أعجمت معناه تلك النقط
كل لون فيه حرف أعجم ... وحوى الأحرف سطر مظلم
يا لُبَيْنَى أوقدي، طال المدى ... أوقدي علّ على النار هدى
أوقدي يا لُبنَ قد حار الدليل ... أوقدي النار لأبناء السبيل
ارفعي النار وأذكي جمرها ... عل هذا الركب يعشو شطرها
شرّدي هذا الظلام الجاثما ... أرشدي هذا الفراش الهائما
حبذا النار بليل توقد ... حبذا المؤنس هذا الموقد
حبذا عندكِ هذا المنزل ... لوحدانا في سِفار منزل
ما لذا المنزل قد سار الفريقْ ... إنما النيران أعلام الطريق
قد ترحّلنا من الفج العميقْ ... لا نبالي بقريب أو سحيق
رنّ في آفاقنا هذا النداء ... فأممنا البيت يحدونا الرجاء
قد غنينا عن مبيت ومقيلْ ... وعن الأمواه والظل الظليل
وعن الرغبة والخوف سُوى ... خُلع النعلان في وادي طوى
نحن لا نرضى بنار الغسق ... نحن لا نرضى بنور الشفَق
نحن لا نرضى بنجم الصبح لاحْ ... لا ولا نرضى تباشير الصباح
نحن لا نرضى نجوماً لامعة ... إنما نبغي ذُكاء طالعه
قد رحلنا بالجوى والحُرَقِ ... وغنينا عن رسيم الأينُق
أين منا طائرات سُبَّق ... جُمع الغرب لها والمشرق
نحن ركب في جواه مُوضِعُ ... لم يسعه في جواه مَوضع
كل حُرّ ضاق عنه الموطنُ ... وانطوى دون مناه الزمن
كل طيار على متن الفِكر ... وعلى متن هيام لا يقرّ
طائر منه يغار الملَك ... طائر من تحته ذا الفلك
بارق في اللُوح لا ينطفئ ... كل غايات لديه مبدأ
زوّدينا بهيام ووجيبْ ... زوّدي يا لُبنَ من هذا اللهيب
(يتبع)
عبد الوهاب عزام

زهر وثمر

1 - الإسراف سَرِقَة المالك.
2 - الحظ الصاعد كرة يحذفها الدهر، فيلقَفُها المتخلِّف.
3 - الأدب وحدَه صِفْر وحدَه، فما يقوم حسابه إلا أن ياسَرَهُ رَقم من فضل مال، أو رِفْعة منصِب.
4 - تستوي وثبة العقاب الكاسر، وهزة الفرخ الدارج؛ إذا استويا في حدود قَفَص.
5 - ما أظلَم من يُمايزُ بين اثنين بما تاح لكلٍّ منهما من مكانة، لا بما بذل كلٌّ منهما من جهد.
6 - ليس دهاءً أن تكتم السر، وإنما الدهاء أن تكتم أن لديك سرّاً تكتمه.

محمد شوقي أمين

جهاد فلسطين

للأستاذ بشاره الخوري

سائل العلياء عنَّا والزمانا ... هل خفرنا ذمةً مذ عرفانا
المروءاتُ التي عاشت بنا ... لم تزل تجري سعيراً في دمانا
قل (لجون بول) إذا عاتبته ... سوف تدعونا ولكن لا ترانا
قد شفينا غلةً في صدره ... وعطشنا، فانظروا ماذا سقانا

يوم نادانا فلبينا الندا ... وتركنا نهية الدين ورانا
ضجت الصحراء تشكوُ عريها ... فكسوناها زئيراً ودخانا
مذ سقيناها العلى من دمنا ... أيقنت أنَّ مَعَدّاً قد نمانا
ضحك المجدُ لنا لما رآنا ... بدم الأبطال مصبوغاً لوانا
عرس الأحرار أن تسقي العدى ... أكؤساً حمراً وأنغاماً حزانى
نركب الموت إلى (العهد) الذي ... نحرته دون ذنب حُلَفانا
أمن العدل لديهم أننا ... نزرع النصر ويجنيه سوانا
كلما لوّحتَ بالذكرى لهم ... أوسعوا القول طلاءً ودهانا
ذنبنا والدهر في صرعتِه ... أن وفينا لأخي الود وخانا
يا جهاداً صفق المجدُ لهُ ... لبس الغارُ عليه الأرجوانا
شرفٌ باهت فلسطين بهِ ... وبناءٌ للمعالي لا يدانى
إنَّ جرحاً سال من جبهتها ... لثمته بخشوعٍ شفتانا
وأنيناً باحت النجوى به ... عربياً رشفته مقلتانا
في فم العلياءِ عنها نبأ ... خضب الآفاق واسترعى الزمانا
فإذ (المهد) غسيلٌ بالدما ... ويسوعٌ يذرف الدمع حنانا
أيذود العرب عن حرمته ... ونصارى الغرب ترضى أن يهانا
يا فلسطين التي كدنا لما ... كابدته من أسى ننسى أسانا
نحن يا أخت على العهد الذي ... قد رضعناه من المهد كلانا
يثرب والقدس منذ احتلما ... كعبتانا وهوى العرب هوانا
من لِعدنان وغسان بأن ... يزهوا تيهاً بنا إذ نسلانا
شرف للموت أن نطعمه ... أنفساً جبارة تأبى الهوانا
وردةٌ من دمنا في يده ... لو أتى النار بها حالت جِنانا
قل لمن يبني على أشلائنا ... وطناً هلا حذرت البُرُكانا
ضلَّ من دك كيانا قائم ... ومضى يبني لمهووسٍ كيانا
انشروا الهول وصبوا ناركم ... كيفما شئتم فلن تلقوا جبانا
غذت الأحداث منا أنفساً ... لم يزدها العنف إلا عنفوانا
قرع الدوتشي لكم ظهر العصا ... وتحداكم حساماً ولسانا
إنه كفء لكم فانتقموا ... ودعونا نسأل الله الأمانا
قم إلى الأبطال نلمس جرحهم ... لمسةً تسبحُ بالطِّيب يدانا
قم نجع يوماً من العمر لهم ... هبه صوم الفصح، هبه رمضانا
إنما الحق الذي ماتوا له ... حقنا، نمشي إليه أين كانا
دمعةُ للشعر في جفن العلى ... كفكفتها أكرم الخلق بنانا
حمصُ. . . والجنة من أسمائها ... آنةً والمعقل الجبارُ آنا
لو مشى (خالد) في فتيانها ... بهرج الخلد وزاد الفتح شانا
هم سياج الحق من أمتهم ... جعلتهم في يد المجد ضمانا
بشارة الخوري
بقية من حلم
للسيد محي الدين الدرويش
الوردُ في ناديك غضُّ الجنى ... يختال نشوانَ فأين الشربْ؟
وطيرك الهَيْمانُ في كرمتي ... ينشد ألحان الهوى والشباب
والكأس في يمناك يا فاتني... قد رقصت فيها الأماني العِذاب
وقلبيَ الخفَّاق مُسْتَطْرَبٌ ... يكاد أن يطفر فوق الإهاب
يهفو به الشوق إلى قبلةٍ ... حالمةٍ تكفيه مرّ العَذاب
والليل يقظان سريع الخُطا ... قد تشر البهجة فوق الشعاب
أودع في جفنيك هذا الدُّجى ... بقية من حُلُمٍ مستطاب
(حمص)
محي الدين الدرويش
القصص
قصة مصرية

. . .حب اللحم
للأستاذ دريني خشبه
(. . .الحوار في الأصل باللهجة المصرية)
- (لا، بل يخيل إلي أنه مجرد من كل عواطف الحنان والمحبة، وهو بالفعل عاطل من كل ما يسمو بالإنسانية عن حضيض البهيمية الخرساء التي يرسف فيها ويجعل بها حياتي معه ضرباً من الشقاء والتعاسة لا مثيل له).
- (لا أفهم! بل الذي سمعته هو أنه يحبك حباً لا حد له، إنه يكاد يعبدك!).
- (يعبدني! هه. . . إنه يعبد جسمي فقط يا أختاه! إنه وثني شرير!).
- (يعبد جسمك فقط؟ ماذا تقولين يا روحية؟).
- (آه يا أمينة! كم يخجلني هذا الحديث الذي يدور أكثره عن اللحم والجنس، ولا يدور شيء منه عن القلب والروح؟. . . يا لتعاستي!).
- (يبدو لي أنك وجدانية أكثر مما يجب يا صديقتي!).
- (وجدانية؟ إن النبع الوحيد الذي تصدر عنه الفضائل هو الوجدان يا أمينة؛ إن الأنبياء والشعراء والفنانين لا يفهمون الحياة إلا عن طريق الوجدان؛ بل الله جل وعلا حين خاطب الناس في كتبه المنزّلة لم يخاطبهم إلا عن طريق بصائرهم، والمؤمن الحق هو كل صاحب بصيرة نيرة ووجدان سليم وقلب نابض رقيق. . . والحب، الذي ينبغي أن يكون أساس كل حياة زوجية، أليس هو أصدق صورة لل. . .).
- (صار حديثنا فلسفة! يا روحية احمدي الله على أن رزقك زوجاً لا يقصر في شيء من طلباتك. . . زوجاً غنياً ذا سمعة طيبة. . . له مركزه في الحياة).
- (هذا حق. . . ولكن الحياة ليست قصراً منيفاً وأكلة سمينة وخزاً وديباجا. . . إن هذه الأشياء أحقر ما تصبوا إليه نفس عالية يا صديقتي، ألا تفهمينني؟).
- (بل أفهمك جيداً؟ أنت شاعرة، وكنت تحلمين بزوج شاعر! أفيقي يا أختاه إلى حقيقة هذه
الحياة الدنيا! الدنيا جد فلا تجعليها حلماً طارئاً وخيالاً مغرقاً في خيال. ماذا كنت تريدين بيومي أفندي أن يكون؟).
- (يا أمينة أنت تقسين علي قسوة شديدة. يا أمينة أنت فتاة متعلمة مثلي، وقد طالما حلمنا بزواج هنيء يتصل بالروح أكثر مما يتصل بالجسم. . . أنت على حق، لا ريب في ذلك، فيما يتعلق ببيومي من الوجهة المادية. هو رجل غني، ولكنه فقير جداً في ثقافته، فقير جداً في حساسيته، فقير جداً في فهما الدنيا الجديدة والحياة الجديدة. . إنه يأكل جيداً ويلبس بأناقة ويشتري لي الجواهر والحلي بسخاء. . ولكنه يمزق كتبي ويخرق رواياتي ويعنفني كلما رآني أقرأ مجلة، وإذا أحببت أن ألعب على بياني برم وتسخط وتكلم بصوت عال ليفسد موسيقاي، والويل لي كل الويل إذا استأذنته في رياضة إلى الريف أو في متنزه عام. . . إنه يحنق، وسرعان ما يتهم، وهو إذا اتهم كان كالبركان يقذف بما فيه دون وعي. . . إنه لا يطاق. . . إنه بهيم يا أمينة. . . إنه بهيم، وأستحي أن أزيد!!).
- (. . .وما هذا الذي تستحين من ذكره؟ أيستعمل ال. . .).
- (يستعملها؟. . . إنه يحب أن تكون لياليه كليالي ألف ليلة. . . وهو يتقنن في ذلك، وهو بذلك يرهقني ويضاعف بلواي، وهو يجعل لياليّ جحيماً مستمراً وشقاء مستديما. . . تشممي بخيالك فمه القذر الملوث الكريه، الذي تتصاعد منه مع رائحة الخمر ألف رائحة، يعبث بفمي وخدي ووجهي عبثاً وحشياً لا حنان فيه ولا تلطف، عبث الذئب الجائع الحمل البريء. . . أمينة. . . ارحميني. . . بحسبنا هذا الحديث الطويل. . . وإلى الملتقى. . .!).
ولم تدر هذه الزوجة التعسة أنها كانت تشكو بثها إلى غريمتها الشقية التي كانت تحاول جهدها أن تصيد هذا الزوج الغنيّ الشهوانيّ! المتلاف وأن تقسر خيره كله: مالاً ودماً على نفسها! لم تدر الزوجة التعسة أنها كانت تفعل ذلك، وأنها كانت تعد السم لنفسها وتضعه بيدها الساذجة البريئة في كأسها!
لقد حاولت روحية بكل الوسائل أن تصلح من حال بيومي أفندي؛ كانت تعظه مترفقة به، وكانت لا تغلظ عليه إما خوفاً من بطشه بها، وإما إبعاداً في محاولة التأثير عليه

بالأسلوب الرقيق والبيان الرشيق والروح الطيبة والقلب البار، وكانت تنيله منها للذة الوحش، ثم
تنتزع منه الوعد بعد الوعد بالتوبة عن الخمر وهجر المخدرات، وكان يخبث ويمكر فيصغي إليها حين تنهض إلى بيانها فتوقع لحناً أو نصف لحن، ولكن البهيم الثاوي بين أضلاعه كان يهيج به فينهض فجأة ويحتملها بينذراعيه الجبارتين ويمضي إلى المخدع.
لقد كان يعبد جسمها عبادة! ولكنه لم يكن بؤمن بجسم واحد! بل كانت له آلهة كثيرة وأرباب متعددة، يخلو إلى أي منها كلما أمره شيطانه أو هاجه هواه. . . وكانت أمينة الفاجرة إحدى هذه الآلهة، وقد عبدها أول ما عبدها في منزله. . . حينما كانت تزور زوجته اليائسة التعسة، فسمع صوته المخنث وضحكها الفاسق يرن أرجاء المنزل، فزلزل قلبه، ومادت نفسه، وسال لعاب شيطانه المجرم إلى قطف الثمرة المحرمة. . التفاحة المشئومة التي ما زالت تينع وتتأرج، وتملأ الدنيا باللذات الوضيعة والفسوق والخباثات.
ولم يكن من العسير على بيومي أن يصيد هذا الصيد، فلقد غافل زوجه وشك قلب أمينة بغمزة قوية قاتلة من عينه الصنّاع فحمست إليه أولى رسائل الغي، وأول وحي الضلال؛ وسهل عليهما بعد ذلك التلاقي في أقاصي لمدينة، هذا في غفلة من زوجه، وهذه في غفلة من أعين الرقباء.
لكن أمينة كانت فتاة تعمل على أن تصيد لا أن تصاد، لذلك كانت تمني بيومي ولا تقع في شراكه، وكانت تشتري منه ولا تبيع له، وكانت موقنة أنه لها يوماً من الأيام، وكان لا يهمها أن يشتغل قلبه بالعصبة القوية من الساقطات اللائى يتجرن بأعرضهن، فهي تعرف، إذا خلص لها أمره، كيف تعالج هؤلاء بالنعْل، لا بالأسلوب الرشيق والبيان الرقيق كما تعودت روحية أن تصنع! وكان لأمينة من جسمها الممتلئ وقوتها الخرافية كنز مدخر ليوم الفصل بينها وبين غريماتها.
وضاقت روحية ببيومي وبأمينة، ولاحظت ما رابها من سلوكها الأخير، وأفلحت في ضبطهما يتناجيان، فراحت غير مبقية على شيء. . . راحت تفرج عن جمالها الحزين، وانطلقت في المتنزهات ودور السينما تمثل فصولاً من درامة الشباب وتستعيد ذكريات سعيدة وأحلاماً أثيرية محببة. . . ذكريات الحب الذي كانت تعذب به قلوباً غضة وأنفساً رطبة، وأحلام الماضي القريب الذي أفلت بالهناءة كلها من يديها. . . راحت ترسل من عينيها الساجيتين سهاماً تعرف كيف تحيي بها آمالاً قضى عليها هذا الزواج التعس النكد،
ومطامح هدمها السيد بيومي بذهبه الكثير الجم، وجاهه الطويل العتيد.
- (روحية!. . . أوْه! عفواً!).
ولم تكلم صاحب الصوت المتلجلج، وهو شاب طِوَالٌ تبدو عليه مظاهر الفتوة ومخايل القوة، ولكنها لم ترفض أن تبتسم ابتسامة خمرية ساحرة، ومضت نحو شباك التذاكر تبتاع واحدة؛ وارتبك الفتى قليلاً، ثم أصلح من هندامه (ربطة الرقبة فقط) وابتلع ريقه، وانطلق يزاحم الجمهور حتى أخذ مكانه خلفها، وانتظر حتى كانت عند الشباك، ومدت يدها بالنقود، فصاح هو من خلفها:
- (. . .!من فضلك يا آنسة! التذكرتان متجاورتان. لا تأخذي نقوداً! هاتي بقية جنيه).
والتفتت روحية فوجدته الشاب نفسه! صلاح! صلاح الذي كان يوماً من الأيام أجمل ابتسامة في حياتها، والنور الإلهي الذي يضيء ظلمات نفسها. . . لقد أوشكت أول الأمر أن ترده وتقسو عليه كزوجة أبية وفية، ولكنها لم تستطع، بل التفتت إليه. . . وشكرته باسمة. . . ودخلا إلى الصالة وجلسا على كرسيين متجاورين، ولم يسعهما ن يتكلما كلمة واحدة!. . . وكان بيد كل منهما منهاج للحفلة، فظلاً يقلبانهما ألف مرة، وأكبر الظن أنهما لم يقرآ حرفاً واحداً مما فيها. . . وكان صلاح، كل دقيقتين أو ثلاث دقائق، يخالس روحية نظرة فائضة بالحزن، مبللة بالدمع، صادرة من أبعد غور في روحه المعذبة الشقية. . . ثم يقول لها (سلامات يا روحية!!) وتجيبه روحية، بلسان خجول متلعثم، عارف بما يعنيه صلاح: (أهلاً. . . و. . . سهلاً!) ثم قال لها صلاح فجأة: (روحية، أليس خيراً لنا أن نؤجل هذه الحفلة إلى غد، ونمضي من هنا فنستنشق الهواء الطلق في سفح الأهرام. . . الليلة مقمرة. . . أليست هذه فكرة؟!).
ووافقت روحية، ثم حملتهما السيارة في طريق الأهرام. . . ومع ذلك لم يتكلما أيضاً!!

أليسا هما الآن في طريق خوفو؟ وهل تكلم خوفو من يوم أن دفن في حصنه المشيد!!).
وانتحيا من الناس ناحية، وصعدا فوق الصف الرابع أو الخامس من حجارة الهرم الأكبر. . . مما يواجه الضوء الفضي المنبعث من القمر
يا لياليك الساحرة المقمرة يا مصر! الصحراء الأبدية تتواثب في اللانهاية، تتسمع شكوى الفتاة المعذبة التي فقدت حبها وشقيت بزوجها؛ وأبو الهول الرهيب الصامت يرهف سمعيه
هو الآخر؛ ومائة فرعون عظيم سيسمعون قضية الحب والشباب والزواج، والنسيم الشمالي سيمهد للعتاب البريء. . . والقبل! وحب اللحم سيغدو شبحاً بعيداً قاصياً، ويحل محله حب مأواه الروح ومصدره القلب ومطهره العين وموسيقاه الكلمة الطيبة، والتمتمة الحلوة، والعبارة التي تخنقها العبرة، والآهة العميقة الحارة يرسلها الفؤاد الملتاع الحزين! وستكون القبلة ترجمان هذا الحب القديم الذي أتاحت له المصادفة أن يحيا حياة ثانية موفورة، وسيغار القمر المطل من لازورد السماء المصرية من كل قبلة يطبعها صلاح على جبين روحية. . . ذلك لأن القمر يحب؛ ألست تراه ممتقعاً مسهداً ولهاناً؟!
- (روحية!. . .).
- (. . .؟. . .).
- (لعلك سعدت بهذا الزواج الغني الموفق؟).
- (. . .سعادة لا نهائية يا صلاح. . . مثل هذه الصحراء. . . هه)
- (والسعادة اللانهائية التي تكون كالصحراء، تكون كيف!).
- (تكون غامضة مشحونة بالأسرار. . . ألغاز! ألغاز يا صلاح! أتعرف الألغاز؟).
- (إذن، أنت سعيدة، لأن السعادة الغامضة أروع ألوان السعادات!).
- (هه! متى صرت فيلسوفاً يا صلاح أفندي؟).
- (. . .منذ افترقنا هذا الفراق الذي حطم).
- (حطم. . . حطم ماذا؟).
- (. . .حطم أماني، وهدم قلبي).
- (خير لي ولك ألا نفتح كتاب الماضي!).
- (بل سنقرأه صفحة فصفحة!).
- (صلاح!).
- (ماذا؟).
- (أتحب أن نزور معبد أبي الهول الساعة؟).
- (لماذا؟ ماذا نصنع هناك؟).
- (نتحدَّث! نتعلم الصمت فلا نتكلم في هذه المسألة!).
- (إذن لن نذهب، بل سنبقى هنا! وسأكلمك في زوجك؟ هل أنت سعيدة به حقاً؟).
- (قلت لك سعيدة! سعيدة جداً، إنه يحبني. . بل يعبدني! لقد كان يأكلني منذ أسبوعين!!).
- (يأكلك؟).
- (أي والله! ألست حلوة جداً؟).
- (الوحش!).
- (لا، لا تسب زوجي!).
- (بل أنت شقية به. . . قلبي يحدثني! أنت تكرهينه؟).
- (صلاح!).
- (أنت تكرهينه جداً!).
- (إذن من عسى أن أحب؟).
- (تحبين. . .! تحبين فتى غيره! الحب لا يشترى بذهب الأغنياء! الحب لا يشترى بذهب الأغنياء! الحب تصنعه الأعين وتزرعه في القلوب، بذرة من الطهارة يرويها نبع من الإخلاص!).
- (ومن يا ترى يكون هذا الفتى إذا كان؟).
- (من يكون! يكون الفتى الذي عرفك وتغلغل في كل جوانحك).

- (الفتى الذي عرفني وتغلغل في كل جوانحي لم يخلق بعد!. . .).
- (روحية!).
- (أؤكد لك!).
- (روحية؟ أنت تقتلينني!).
- (آه! أهو أنت هذا الفتى إذن؟).
- (روحية! أنا هو. . . أنا صلاح. . . هل نسيت؟).
- (. . .؟. . .).
- (إلى متى تفترق أجسامنا وقلوبنا متحدة متآلفة يا روحية؟).
- (. . .؟. . .).
- (تكلمي! غير معقول أن تكوني نسيتِ! يجب أن نلتمس مخرجاً. . .).
- (كفى!. . . صلاح! أسكت!).
- (لا! بل أتكلم! لن يخدعني لسانك! إني مطمئن إلى قلبك، إنه ينبض لي كما كان ينبض قبل زواجك. . . بل هو الآن يخفق خفقاناً شديداً، إنه يدعوني ويعطف علي. . . إنه يُفصّلني. . . ولكنك تعاندين. . . ارحميني يا روحية. . . لن أدعك تفلتين هذه المرة ولو ربطتك السماء نفسها بسلاسل ذهبية! أنت لي، أنت لي دون هذا الحيوان الذي انتزعك مني، أنا أعرف هذا أنا أعرف ما بينكما من بغضاء! أعرفه كله! ثقي أنه لن ينتهي عما نهيته عنه! البهيم! الوحش الذي يعذبك ويضنيك! سيصير فقيراً معوزاً عما قريب! لقد بدأ يبيع (أطيانه) ويرهن ما لم يبع! وجسمه سيتهدم، وقد يجرفك سيل خرابه؟ روحية! كبرياؤك تذيب قلبي وتصهره! صديقتك أمينة! لقد ذكرت لي كل شيء. أ. . .. . .
- (أمينة!
- (أجل. . . أمينة أعز صديقاتك. . . الأفعى! اتركيه لها! سيقصم ظهرها أو تقصم ظهره قريبا. . . لقد سقطا يا روحية فاطمئني.
- (حسبك يا صلاح. . . كفى. . كفى. .
- (لا. . . ليس حسبي. . . ينبغي أن ننتهي!
- (ننتهي كيف!
- بأن تكوني لي. . .
أكون لك. . . وهل تقبل! أنا؟)
- (أقبل؟ أنا أرجوك وأضرع إليك. . . لا حياة لي بدونك يا روحية!)
وصمتا ساعةً، وكانت دموع نحيلة تسقي حبهما الذي انتعش بكل ما كان له من قوة وحياة، وكان الليل المصري الجميل يرثى لهما فيهب نسيمه عليلاً رخياً كأنفاس العذارى، وكان صلاح قد حمل رأس حبيبته على صدره الرحيب وراح يقبله ويربت عليه بأصابعه المرتجفة. . . وكانت أصابعه المرتجفة تنسى فتمر بكل ما فيها من حب وبراءة على الذقن وفوق الخدين. . . ثم. . . ثم انحنى صلاح يتشمم بفمه المرتعش فم ملاكه الغارّ في أحلامه فوق صدره. فاضطربت روحية، وانتفضت انتفاضة هائلة، وهبت من آلامها مذعورة، وتمتمت: (صلاح! لا يصح! أنا زوجة. . . لا أخونه حتى أرى!).
وكانت الساعة الواحدة! وقد سافرت آخر قاطرة من قاطرات الترام إلى القاهرة منذ بعيد! ولم يبق في الجهة سيارة تحملهما إلى هناك! فهل يقطعان الطريق على الأقدام؟ هذا أمر شاق. . .
- (لا تنزعجا! سأوصلكما في سيارتي!!
من هذا؟ من صاحب هذا الصوت! يا للهول؟ إنه بيومي، خرج الساعة فقط من فندق ميناهاوس!! إنه يترنح من السكر وهو لا يكاد يعي! وأمينة! أمينة معه أيضاً في تلك الساعة المتأخرة من الليل! ماذا كنا يصنعان هنالك؟
أوه؟ أنت روحية؟ ومن هذا؟ آه! أحد عشاقك! ترى! أين كان يتمتع بك الليلة؟ هه؟) هناك! في حرم الفراعنة ولكن، اركبا، اركب، ليس الآن!. . .).
وصعد الدم يغلي في رأس صلاح، وأوشك أن ينقض على غريمه الوقح فيضغط على عنقه ليذيقه وبال أمره لولا أن نحته روحية وأشارت عليه بركوب السيارة. . . وحينئذ، فكر قليلاً وتقدم إلى مكان السائق. وجلست روحية إلى جانبه، وجلس بيومي وأمينة في الخلف، وانطلق صلاح ينهب الطريق الهادئ، وبرزت الأجيال القديمة كلها من تحت

الرمال تنظر إلى أبطال القمة المؤلمة. . . الزوج الخائن. . . ولصديقة الخائنة. . . والزوجة الثائرة. . . والمحب الهائج. . .
وجعل صلاح يفكر. . . وأيقن أن الخمر قد سيطرت على دماغ خصمه. . . فهل يستطيع أن يجعلها من جنوده ضده؟! سيرى. . .
واقتربت السيارة من الجيزة. . . وبدا النيل يصطخب من بعد. . . وأزبد عبابه وجرجرت أواذيه. . . وأوقف صلاح السيارة على بعد مائة متر نحوها من النهر العظيم، ثم نزل منها وأشار إلى روحية فأطاعته ونزلت هي الأخرى. . . وهي لا تدري لماذا نزلا، وحملق صلاح في غريمه فوجده يخاصر أمينة وقد غلبهما النعاس والسكر فناما نوماً عميقاً. . .
- (بيومي أفندي! بيومي أفندي! استيقظ! هلم أنت فسق سيارتك، أنا ماض إلى بعض شؤوني في الجيزة!).
وشخر بيومي شخيراً مفزعاً بأنفه الغليظ، ونهض من مكانه متثائباً ليجلس مكان السائق وهو لا يعي من أمره ولا من أمر سيارته شيئاً. . . ثم أدار العجلة دورة آلية فانطلقت
السيارة تطوي الطريق في خط مستقيم إلى. . . النيل. . . النيل الزاخر الأبدي!).
- (. . .حرام عليك يا صلاح).
- (أسكتي! لقد أنقذتك!).
- (وَيْ! اسمع! لقد انقذفت السيارة في الماء).
- (. . .بمن فيها طبعاً).
- (يا للقوة!).
- (روحية، هلمي من هنا. . . من هذا الطريق).
دريني خشبة
إن الحل في هذه الأقصوصة الجميلة لا يرضي (الرسالة)
الخلق الجميل
البريد الأدَبيّ
الخطر على تراث الإسلام في أسبانيا
قرأنا في أخبار الحرب الأهلية الأسبانية غير مرة أن القنابل ألقيت على غرناطة وقرطبة ومالقة. ونحن نعرف أن الأندلس تقع منذ بدء الحرب الأهلية في يد القوات الثائرة وأن حكومة مدريد تحاول تطويقها من البر والبحر، وترسل قواتها الجوية لضرب قواعدها بالقنابل من آن لآخر؛ وقد كانت غرناطة وقرطبة في الآونة الأخيرة هدفاً لتلك الهجمات الجوية؛ وقد قرأنا في روعة وجزع أن القنابل أصابت قصر الحمراء وأتلفت بعض نواحيه؛ فإذا صح هذا الخبر كنا أمام حادث بربري، وأمام كارثة حقيقية تنزل بتراث العرب والإسلام في أسبانيا. إن قوانين الحرب في كل عصر ودولة تنص على احترام الذخائر الأثرية، مهما كان في خطورة المعارك الأهلية الدائرة في أسبانيا وروعتها فإن الإقدام على تخريب المعاهد الأثرية سواء من هذا الفريق أو ذاك يعتبر عملاً بربرياً لا تبرره أية غاية. وقد منيت الآثار الإسلامية في أسبانيا بسبب التعصب والإهمال خلال القرون بكثير من التلف، فتركت كنوز المحفوظات العربية في الأسكوريال لتلتهمها النيران، وأضحت لا تجاوز ألفاً وثمانمائة بعد أن كانت حتى القرن السابع عشر تربي على عشرة آلاف؛ وحولت معظم المساجد الإسلامية الجامعة وفي مقدمتها مسجد قرطبة إلى كنائس وشوهت بذلك معالمها وخواصها الفنية؛ وهدم قسم من قصر الحمراء ليبنى مكانه قصر صيفي للإمبراطور شارلكان؛ ولم تبق يد التعصب والجهل إلا على بقية ضئيلة من النقوش واللوحات الأثرية. وهذه البقية الباقية من تراث الإسلام والعرب في مدريد وغرناطة وقرطبة ومالقة تعرض اليوم للتخريب والفناء الأخير. وليس بعيداً أن نقرأ اليوم أو غداً أن قنابل الثوار سقطت على قصر الأسكوريال وأحرقته بما فيه من المخطوطات العربية، أو أن قنابل القوات الحكومية ألقيت من جديد على قرطبة فهدمت مسجدها الجامع، أو على غرناطة فهدمت قصر الحمراء؛ ذلك أن الحرب الأهلية الأسبانية تدور بلا شفقة ولا رحمة لا بالناس ولا بالأشياء. وإنه ليحسن في مثل هذه الظروف الدقيقة أن ترفع الحكومات والهيئات الإسلامية صوتها للمطالبة باحترام التراث الإسلامي في أسبانيا وحمايته من الغارات الخطرة؛ فحق الأمم الإسلامية كلها متعلق بهذا التراث، وفي اعتقادنا

أن مثل هذه الخطوة إذا اتخذت يكون لها أثرها.

مدام جوليت آدم

توفيت مدام جوليت آدم الكاتبة الفرنسية الشهيرة وعميدة كتّاب فرنسا من حيث السن. وكانت وفاتها في قصرها في كانيول من أعمال مقاطعة الفار حيث اعتكفت منذ أعوام طويلة تعيش في عزلة مطلقة. وقد بلغت مدام آدم المائة عام تقريباً، وكان مولدها في فريري من أعمال (الواز) في أكتوبر سنة 1836؛ وكان زوجها أدمون آدم مديراً لشرطة باريس، ثم استقال من منصبه على أثر حادثة فرار هنري روشفور من سجنه في كاليدونيا الجديدة؛ ثم انتخب عضواً في مجلس الشيوخ في سنة 1875 وتوفي بعد ذلك بعامين، وكان من رجالات الإمبراطور ومن شخصيات القرن الماضي.

وتبوأت مدام آدم منصة التحرير والكتابة منذ أكثر من ستين عاماً، وتولت تحرير (المجلة الجديدة) في أواخر القرن الماضي، وبرزت بين كتّاب هذا العصر بذلاقتها وروعة أسلوبها، وكتبت عدة كتب وروايات قيمة منها كتاب (حصار باريس) وهو من أشهر الكتب في هذا الموضوع، وفيه تصف مدام آدم ذلك الحصار الشهير الذي شهدته بعينيها؛ ومنها (مذكرات باريزية) وهي مذكرات طريفة تقدم إلينا صوراً شائقة من الحياة الفرنسية في القرن الماضي. ولمدام آدم عشرات أخرى من الروايات والكتب. وكانت مدام آدم تستقبل في بهوها الأدبي أشهر كتاب العصر ورجالاته، وكان من أشهر الأبهاء الأدبية في أواخر القرن الماضي.

ومن مآثر مدام آدم التي يذكرها المصريون بنوع خاص صلتها الروحية بمصطفى كامل زعيم الوطنية المصرية ومراسلتها معه. وكانت مدام آدم من أشد أنصار القضية لمصرية، وكانت تشجع مصطفى كامل بمراسلاته ونصائحها، وتنشر عن القضية المصرية مقالات كثيرة تدعو فيها إلى تأييد مصر في جهادها وإلى إنصافها وتحقيق أمانيها.

وكان ذلك منذ أكثر من ثلاثين عاماً. وهاهو ذا الزمن يحقق بعد ثلث قرن من صيحة الكاتبة الشهيرة لمصر بعض أمانيها، وتجني مصر بعض ثمار جهاد زعمائها وأبنائها البررة. فليذكر المصريون مدام آدم وأمثالها ممن نادوا بحق مصر في الحياة والحرية، وليقرءوا كتبها ورسائلها القيمة.

معهد (الجتيانوم)

هذا معهد من نوع فريد لا يعرف عنه سوى القليل، ومع ذلك فهو جدير بالتعريف لطرافته. يقوم في وسط الأحراج على رابية عالية، في إحدى القرى السويسرية الجميلة: ذلك هو معهد (الجتيانوم) القائم في ضاحية درناخ على مقربة من مدينة بازل. وقد أتيح لي أن أزور درناخ ومعهدها الفريد في وسط الأحراج والربى العالية، وأن أحيط بشيء من تاريخه وغاياته؛ فهو معهد دولي للعلوم العقلية كان أول عامل لتأسيسه الدكتور رودلف شتينر العلامة النمساوي. وشتينر من أقطاب التربية الحديثة، ولد سنة 1861، ودرس في النمسا وألمانيا، واشتغل منذ حداثته بشؤون التربية، وأبدى براعة خاصة في فهم الوسائل التربوية وتنظيمها، وبذل جهوداً جمة لتحقيق نظرياته الجديدة في التربية، وعمل لإنشاء مدارس جديدة من طراز خاص في بعض المدن الألمانية والنمساوية، واشتهر بمحاضراته في التربية في أوربا وأمريكا. وللدكتور شتينر عدة مؤلفات شهيرة منها: (نظر جيته إلى العالم) وكتاب (الحقيقة والعلم) و (فلسفة الحرية) وكتب أيضاً قصة حياته في كتاب مؤثر. وفي سنة 1923، بدئ تأسيس (الجتيانوم) تحت رعايته وبإرشاده في قرية درناخ، وبني على طراز الملاعب اليونانية القديمة؛ ثم قام بوضع أسسه ونظمه العلمية، وأريدَ به أن يكون معهداً دولياً لترقية العلوم العقلية يجري على نظم الثقافة الحرة دون قيد ولا شرط؛ وأنشئت فيه أقسام للتربية والفنون الموسيقية والطب والعلوم والفلسفة، وغدت درناخ منذ عدة أعوام مركزاً لحركة عقلية دولية يساهم فيها كثيرون من مختلف أنحاء الأرض. وفي الصيف تلقى في (الجتيانوم) محاضرات دورية من أشهر الأساتذة في مختلف العلوم والفنون التي يعمل المعهد لترقيتها، وقد كانت قرية دورناخ حين زرتها غاصة بالنزلاء الوافدين على المعهد، ومنهم كثير من الإنكليز والأمريكيين.

(ع)

كتابان عن روبسبيير

صدر أخيراً كتابان جديدان عن روبسبيير زعيم المرحلة الأخيرة من الثورة الفرنسية، أحدهما بالألمانية ومؤلفه الأستاذ فريدريش زيبرج، والثاني بالإنكليزية ومؤلفه المؤرخ الأمريكي جيرارد والتر.

وقد صدرت في مختلف اللغات كتب كثيرة عن الثورة الفرنسية وعن روبسبيير، ولكن شخصية روبسبيير ما فتئت لغزاً على التاريخ؛ فبعض الباحثين يرى أن روبسبيير كانت شخصيته ضعيفة تستتر بمظاهر الورع والتصوف، وتسيرها مثل متواضعة؛ ويرى البعض الآخر أن روبسبيير كان في الواقع شخصية عظيمة، ولكن الظروف والشهوات التي أحاطت بها حالت دون ظهورها بمظهرها الحقيقي.

ويقدم لنا المؤلفان في هذين الكتابين الجديدين صورتين جديدتين لروبسبيير، تختلف إحداهما عن الأخرى من حيث التقدير والتصوير؛ ولكن المؤلفين يتفقان في الأخذ برأي واحد فيما يتعلق بوثائق الثورة الفرنسية عن روبسبيير وحياته، فهما يرفضان الأخذ بما في هذه الوثائق، ويعتقدان أن كثيراً منها قد زيف لأغراض خاصة. ويرى الأستاذ زيبرج بنوع خاص أن المؤرخ لا يستطيع أن يحلل شخصية ما دون أن يشعر نحوها بشيء من العطف؛ ولكنه لا يجد في شخصية روبسبيير ولا في صفاته ما يجذب أو يروق. وفي رأيه أن روبسبيير كان مع ذلك شخصية عظيمة تتمتع بمواهب ممتازة، وأنه من الخطأ مع استبعاد الوثائق الثورية أن نعتبر روبسبيير زعيماً صغيراً من زعماء الطبقة الوسطى لا يمثل سوى أماني طبقته كما يصوره بعض المؤرخين.

وينحو الأستاذ زيبرج في عرض حياة روبسبيير نحواً جديداً معتمداً في آرائه على الوقائع الثابتة والأعمال الشخصية، ويميل إلى الناحية العلمية أكثر مما يميل إلى الناحية الروائية.

أما الأستاذ والتر فيميل نوعاً إلى الناحية الروائية، ويقص علينا حياة روبسبيير الأولى في باريس حيث كان يسكن في غرفة حقيرة مع صديق له في بناء عتيق في شارع سانتونج ما يزال قائماً إلى يومنا؛ ثم يقص علينا قصة اتصاله بأسرة دوبلاي بعد أن غدا زعيماً يشار إليه، وكيف أحب الفتاة إلينور ابنة دوبلاي حباً لم يزهر، بل انتهى في غمرات الحزن والشجن، بعد أن سقطت رأس الزعيم على النطع؛ وكيف أنه يوم حمل على عربة المحكوم عليهم، مرت عربته بمنزل أسرة دوبلاي - أقصداً أو عرضاً؟ - وما كان لذلك من وقع أليم في نفسه.

وفي الكتابين من الجديد ما يغري بقراءتهما.

الأحجار السماوية

ألقى العلامة لاكروا الأخصائي في مباحث الأحجار السماوية أمام أكاديمية العلوم بيانات طريفة عن الأحجار السماوية التي اكتشفها في المدة الأخيرة؛ فقال إنه قد شهد في الصحراء الكبرى أحجاراً كبيرة سوداء تتميز بلونها، وإنه قد وجدت منها قطع تزن نحو خمسة كيلو جرامات. ولاحظ مسيو لاكروا أن مظاهر القطع الساقطة تدل على أنها سقطت حديثاً.

وتحدث مسيو لاكروا عن الحجر السماوي الشهير الذي اكتشف في المغرب الأقصى فقال إنه يقدر طوله بمائة متر، ووزنه بنحو مليون طن، وأنه استطاع أن يعثر منه على شظية صغيرة، وأنه يقدر أن هذا الحجر سيسقط على بعد نحو خمسين كيلومتراً من جنوب غربي شاجوتي على أنه لم توجد حتى اليوم علامات تدل علىسقوطه.

إلى إخواننا في المغرب

يتفضل إخواننا في المغرب على (الرسالة) بمقالات وقصائد لا شك في أنها قيمة؛ ولكن يعسر علينا في الغالب قراءة الخط المغربي فنضطر إلى تأخيرها آسفين. فنرجو أن يكتبوها بالخط المعروف أو بالآلة الكاتبة حتى لا يحرم إخوانهم في سائر الأقطار العربية الاستفادة مما ينتجون.

التنبيهات على أغلاط الرواة

اطلعت (في العدد165 من الرسالة الغراء) على المقالة التي نشرها الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام من كتابه (ذكرى أبي الطيب) وذكر فيها أنه وقف على رسالة اسمها (التنبيهات على مقصور ابن ولاد النحوي). ولم يذكر لنا الأستاذ الدكتور اسم مؤلف هذه الرسالة مما يدل على أنها عنده غفل من ذلك. ولما كان مؤلفها من كبار اللغويين من علماء الأدب، رأيت من الواجب الاستدراك ببيان اسمه وهو (أبو القاسم علي بن

حمزة البصري) ترجم له ياقوت والسيوطي وغيرهما.
والرسالة هذه قسم من كتابه الممتع (التنبيهات على أغلاط الرواة) الذي جمع فيه التنبيه على ما في نوادر أبي زياد الكلابي، والتنبيه على ما في نوادر أبي عمرو الشيباني، والتنبيه على ما في كتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري، والتنبيه على ما في الكامل للمبرد،
والتنبيه على ما في الفصيح لثعلب، والتنبيه على ما في الغريب المصنف لأبي عبيد القاسم بن سلام، والتنبيه على ما في إصلاح المنطق لابن السكيت، والتنبيه على ما في المقصور والممدود لابن ولاد.
من قراء الرسالة
للحقيقة والتاريخ
قال دولة حقي بك العظيم (رئيس مجلس الوزراء الأسبق في سورية) في الرسالة (165) أن في قصتي (النهاية) غلطاً تاريخياً لأني قلت أن ناظم باشا (والي دمشق) زارها فقيراً محتاجاً، وخرج منها يائساً منكراً؛ وناظم باشا قد زار دمشق مكرماً، وخرج منها مودعاً معظماً. وكان ذلك في عهد حاكمية دولة الرئيس.
وقد كان دولة حاكم دمشق في بدء عهد الاحتلال، فلا تكون الزيارة التي يتحدث عنها دولته هي التي تحدثت عنها في قصتي، وإنما هي زيارة أخرى، لأن حوادث القصة وقعت سنة 1929 كما قلت في أول سطر منها، وكان هو حاكم دمشق قبل ذلك بسنين طويلة؛ وعلى ذلك لا يكون في قصتي خطأ، لأن ناظم باشا جاء دمشق آخر مرة في سنة 1929، وكانت حاله قريباً بما قلت في القصة، ولا يكون في كلام دولة الرئيس تصحيح للقصة. هذا ولدولته ولحضرة الكاتب شكري واحترامي.
علي الطنطاوي
العدد 167 - بتاريخ: 14 - 09 - 1936
بعد المعاهدة
من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر
للدكتور عبد الوهاب عزام
يروي بعض الصوفية أن الرسول صلوات الله عليه وسلامه كان إذا قفل من غزاة قال: (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر)؛ ويقولون إن الجهاد الأصغر قتال الأعداء وخوض المعامع وقراع المنايا، والجهاد الأكبر تقويم النفس وتطهيرها وإعدادها للرقابة على أعمالها والقيام بالعدل فيما بينها وبين الناس، ثم مجاهدة الأنفس الأخرى بالحكمة والموعظة الحسنة، وبالرغبة والرهبة واللين والشدة، حتى تستقيم على السنن القويم، وتحتمل كل ما يحمّلها الواجب، وتأخذ كل ما يعطيها الحق؛ وحتى يجتمع الناس على شَرع لا تفرّقهم الأهواء، ولا تثور بينهم البغضاء؛ ثم النظر بعد هذا فيما يصلح الجماعة ويسعدها في معايشها.
صدق هؤلاء القائلون، فحرب العدوّ جهاد بّين لا تقعد عنه الأنفس العزيزة ولا تختلف فيه الكلمة؛ تدعو إليه العزة والكبرياء، والذود عن الأنفس والحرمات، ويصمد فيه المجاهد إلى عدو مرئي في معترك محدود. ولكن جهاد النفس، وإصلاح الجماعة وإسعادها، خفّي المسالك غامض الجوانب، تعترك به في النفس الواحدة منازع مختلفة، وتفترق بالجماعة أهواء متشاكسة، ويطول فيه المدى، وتمتحن العقول والعزائم.
فإن تكن الأمة المصرية قد مشت في عزتها إلى غايتها أو أشرفت على الغاية، إن تكن قد بلغت بالإباء والكبرياء والدأب والصبر ما أمّلت أو بعض ما أمّلت، إن تكن فرغت من الثورة والعداء إلى السلم والمودة، فإنما قفلت من جهادها الأصغر إلى جهادها الأكبر - الجهاد الذي ينظر في أحوال الأمة ما بطن منها وما ظهر، ليربّيها على الخير والحق، وينشئها على الخلق القويم، ويردّها جماعة صالحة متآخية، تجمعها المودّة ويعدل بينها الإنصاف، تلقى الخير والشر بقلوب موحدة وعزائم مجتمعة وآراء متناصرة - الجهاد الذي يعني بالجهلاء فيعلمهم، وبالمرضى فيأسوهم، وبالبائسين من الزراع والصناع فيأخذ بأيديهم إلى العيشة الراضية، ويقارب بين طبقات الأمة حتى يجمع شملها الخيرُ العام والمصلحة الشاملة - الجهاد الذي يهيئ للأمة وُلاة ينشرون السلام والأمان، ويقومون بين الناس

بالقسط في كل كبيرة وصغيرة، حتى تعمّ النصَفةُ القويَّ والضعيف، والنصير والمخالف، والمحبّ والمبغض؛ وتقوم للأمة حكومة يحمل كل واحد فيها قانوناً في الخلق، يكفل ألا يحيد قيد شعرة عن القانون الذي في الورق؛ ويتنزّل فيها المثل الصالح من الرؤساء إلى من دونهم حتى يشعر كل عامل أنه يتلقى العدل من فوقه يوحيه إلى من دونه، وأنه حين يعدل لا يتبرع ولا يمن على أحد، وإنما هو الحق والواجب لا محيد عنهما ولا مفر منهما، ولا يسع الأمر غيرهما؛ وحتى لا يُقضي في أمر إلا بما يقضي به عمر بن الخطاب لو عرض هذا الأمر عليه، لا محاباة ولا حيف ولا هوادة؛ القويّ ضعيف حتى يؤخذ الحق منه، والضعيف قوي حتى يؤخذ الحق له؛ وحتى يكون العامل الصغير في أقصى الأرض نائلاً آمناً عليه، كالحاكم الكبير في دواوين القاهرة؛ وحتى ييأس أكبر الموظفين وأقرب المقرّبين من المحاباة يأس أصغرهم وأبعدهم. لكلٍّ حقه، وعلى كل واجبه، وفوق الناس جميعاً قانون الأمة وعدل الله - الجهاد الأكبر الذي يذهب بهذه المساوئ البادية في أنفسنا وأجسامنا وأزيائنا وطرقنا وأنديتنا ودواوينا ودورنا، والذي يأخذ الأمة بيد رحيمة حازمة لتوفي به على النجاة غير مبالية بصيحات المرضى الذين يكرهون الدواء، والمفسدين الذين ينفرون من الإصلاح الخ الخ.

لست أقول إن أمتنا ابتليت بالشر والفساد من بين الأمم، ولكنني أريد لها أن تكون (خير أمة أخرجت للناس) وأن تصير مضرب المثل بين الأمم في أخلاق أفرادها، ونظم جماعاتها، وسعادة أولادها.

سيقول الضعفاء: هذا مطلب عسير! وأنا أقول إنما تَطمح عزائمنا إلى المطالب العسيرة، وإنما يكافئ هممنا لمقاصد البعيدة. وسيقول الذين في قلوبهم زيغ: هذا هذيان! وينسون أن هذا الهذيان تنطق به القوانين كلها. فإن لم يكن عملنا مصدقا قوانيننا فما جدوى هذه القوانين؟ ليس في الأمر عسر، وليس في الأمر هذيان، ولكنه حق يسير إذا برئت النفوس من يأسها، وخرست الألسن عن هذيانها؛ وحسبنا أن يقوم على رأس الأمة (عُمر) واحد يضرب المثل ولا يتهاون في إنفاذه فإذا الناس كلهم رغبةً ورهبة يقتدون به، ويحاول كل منهم أن يجعل نفسه عُمَر آخر. إن نفوس هذه الأمة معمورة بالخير، وإنما أضرّ بنا أن رفعت في كنف العدو رايات للشر انحاز إليها كل شرير، وأشفق منها كل خير فازداد المسيئون إساءة، وضعفت نوازع الإحسان في نفوس المحسنين. فاليوم نريد أن تُرفع في هذا البلد للخير رايات، ويُهاب بما في الأمة من أخلاق ليزداد المحسن إحساناً، ويكف المسيء عن إساءته، فإذا الناس أعوان على الخير أنصار له، فرحون به مغتبطون سعداء.

ذلكم الجهاد الأكبر تضطلع به هذه الأمة الكريمة، وتقودها إليه حكومتها الرشيدة مؤيدة موفقة مسددة إن شاء الله.

عبد الوهاب عزام

القطط

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

القط حيوان مغرور؛ وله العذر يا أخي والله. . ولو أن أمة من الأمم بدا لها في عصر من العصور أن تعبد أجدادي أو أن تعتقد أن روح الله حالة في أجسادهم لكنت حقيقاً أن أزهي وأتكبر وأتغطرس وأرفع رأسي حين أكلم الناس، وأزم بأنفي وأتبجح عليهم بما ليس عندي، وأتمدح بما ليس في، وأكون على العموم - وباختصار - نفاجاً فياشاً إذا كنت تفهم ما أعني.

ولست أتخذ القطط ولا أحبها أو أطيقها، لأن آبائي لم يكونوا ممن عبدوها أو آمنوا بحلول روح الله فيها وإن كانوا قد عبدوا في جاهليتهم ما هو أحط منها في مراتب الحياة - الأصنام والحجارة - ولكنك تكفر بالحجر فتكسره وتفرغ من أمره. أما القطط فتفيء في أمرها إلى الرشد ولكنها هي لا ترشد أبداً ولا يفارقها الغرور العظيم الذي داخلها مذ رأت نفسها معززة مكرمة - بل معبودة - بلا موجب، فالبلاء لهذا مقيم والمصيبة خالدة والعياذ بالله.

ومن غرور القط أنه لا يستأنس أبداً - يسكن بيتك ويأكل طعامك برضاك أو على الرغم منك، ومع ذلك لا يكون معك إلا على حرف. . . تمسح له شعره فيثني أرجله تحته

ويرخي جفنيه ويروح يزوم أو (يقرأ) كما يقول العوام فكأنك تستلم حجراً مقدساً من فرط ما يكون من انصراف هذا الحيوان المتكبر عنك، وتدغدغه فلا يعني بأن ينظر إليك ليرى من أنت - أغريب أم صاحبه الذي يطعمه ويؤويه - بل ينحي عليك بأظافر يده وبفمه في آن معاً. وتقدم له اللقمة من الخبز فينظر إليها شزراً ويعرض عنها محتقراً لها ويحول رأسه عنك بكبر دونه كل كبر وترفع لا يطاق حتى لكأنك تلغو في حضرة البابا. . فإذا كان ما تعرضه عليه لحماً أو سمكاً أهوى عليه بأسنانه وهو معبس متجهم وانتزعه منك كأنما أنت تدنسه بلمسه أو حمله. ولا يكون معك أبداً إلا متحرزاً متوثباً متوقعاً منك الغدر ومتهيئاً لمباغتتك بالخيانة، وليس أطغى منه ولا أغلظ كبدا. وما أظن بالقارئ إلا أنه رأى ما يصنع القط بالفأر وكيف يمسكه بين يديه حتى يكاد يميته من الفزع ثم يطلقه عنه فيقف الفأر المسكين جامداً لا يتحرك ولا يكاد يصدق أنه حر وأن في وسعه أن يذهب ويجري. والقط ساكت لا يمد إليه يداً ولا يبرز مخلباً فيطمئن الفأر ويشرع في الهرب وهو يتلفت حتى إذا وثق أنه آمن وثب عليه القط وهو يضحك في سره وغرس في جنبيه مخالبه وراح يشكه بها شكاً يكون خفيفاً تارة وثقيلاً أخرى ثم يكف عنه مرة أخرى - وعينه عليه - ويكتفي بأن يربض ويتربص له وأن يلاحظه وهو يتلوى من الألم. ويدرك الفأر أن الشك قد انقطع وإن كن حر ما لقي منه لا يزال شديداً فيتشهد ويقول (يا حفيظ. . أعوذ بالله. . على وجه من أصبحت في يومي المنحوس هذا يا ترى. . . على كل حال الحمد لله. . قدر ولطف. . وترى أين ذهب هذا الوحش الضاري. . يا حفيظ. . يا حفيظ. . اللهم استرنا. . . المهم الآن أن أذهب إلى جحري فإنه على ضيقه خير ألف مرة من ميدان هذه الغرفة التي لا آمن أن يثب علي فيها قط آخر. . والعياذ بالله) ويتوكل المسكين على الله ويقول (هيه. . يا معين ويروح يجر رجلاً بعد رجل؛ وذيله مسحوب وراءه على الأرض؛ ولا تبقى له قدرة على التلفت من فرط الإعياء ومن كثرة ما نزف منه من الدم القاني فيمضي إلى الجحر وهو لا ينظر لا إلى اليمين ولا إلى الشمال ولا قدامه ولا خلفه؛ حتى إذا قارب الجحر وانتعشت نفسه قليلاً وعظم أمله في النجاة والسلامة وطول العمر وهم بوثبة أخيرة إلى حيث لا تدركه القطط ولا تستطيع أن تتبعه، إذا بالقط المتربص على ظهره، ومخالبه في لحمه الطري، فيدرك الفأر اليأس ويستسلم ويقول في سره وهو يؤكل عسى الله أن يعوضني يوم النشور داراً أخرى لا قطط فيها. . ويلفظ أنفاسه الأخيرة وهو يحلم بجنة الفئران.

والقطط تولد عمياء مطبقة الأجفان فيدركنا العطف عليها وترق قلوبنا لها فنعني بها ونتعهدها ونسقيها اللبن الذي هو لطعامنا، ونبرها ونسرها سنة بعد سنة، ونفرح بها ونعجب بمنظرها ونباهي الجيران، ثم يتفق أن نخرج يوماً وأن نوصد الأبواب ونحن لا ندري أن القط في إحدى الغرف ونغيب شيئاً ثم نعود إلى البيت ويدخل أحدنا حجرة النوم ليخلع ثيابه فيغلق الباب وراءه كعادته وإذا بالقط على السرير يتحفز للوثوب عليه وتمزيق لحمه - ما في ذلك شك - فكأنه ليس أمام قط صغير وإنما هو أمام نمر مفترس فيضطرب الرجل وتتخلخل ركبتاه ولا يعود يعرف أين الباب، والقط يموء بل يعوي ويتوثب كالمجنون وقد نسى كل ما كان من سابق النعمة ولم يبق له هم إلا الخروج من الغرفة أو افتراس هذا الذي دخلها عليه وإن كان سيده وصاحب الفضل عليه.

وقد لقيت من قطط الجيران الأمرين فما أحب القطط كما أسلفت. وما أكثر ما يحدث أن أنسى نافذة مفتوحة أو باباً مواربا فيدخل القط ويمضي إلى أواني الطعام ويكشف عنها الغطاء - أي والله ولو كانت من النحاس الثقيل - ويلتهم كل ما بقى. . . وقد كان لي جيران ما رأيتهم قط ينامون إلا بعد أن يغلقوا الأبواب والنوافذ جميعاً. وكنت أضحك إذ أسمع رب بيتهم يصيح في الليل - والصوت في الليل يسري - (يا حنيفة. . هل أغلقت باب المطبخ؟) فتصيح حنيفة من مرقدها والنوم يغالبها: (أيوه يا سيدي. . .) فلا يقتنع ويخشى أن يكون الكسل قد أغراها بالكذب فيقول (يحسن أن تقومي وتستوثقي) وبعد قليل أسمعه يؤنبها ويقول لها (ألم أقل لك. . هذه النافذة لم تكن محكمة الإيصاد. . . وهذا الباب. . . انظري. . . لو دفعه إنسان بيده لانفتح) فتحلف أنها أوصدت كل الأبواب والنوافذ فيقول (لا يا بنتي. . . دوري قبل النوم على كل الأبواب وكل نافذة وامتحني كل منفذ بيدك لتتحققي) وكنت أعجب لهذا المتفزع وأسأل نفسي

عما يخيفه وهو في عمارة لها بواب لا ينام إلا بعد أن يدخل كل السكان ثم يغلق بابها بالمفتاح ويضعه - أعني المفتاح لا الباب - في جيبه. فإذا تأخر أحد السكان احتاج أن يدق ويقرع الباب. . ثم زال عجبي لما بلوت قطط الجيران. . وأيقنت أنه لا يخاف اللصوص وإنما يخاف القطط. . وله العذر.

والعامة تعتقد أن للقط سبع أرواح وما أظنهم إلا صدقوا، ومن كان يشك في ذلك فليتأمل كيف يسقط القط من فوق السطح العالي فلا يزيد على أن ينظر يمنة ويسرة - فأن في القطط تحرزاً شديداً - ثم ينهض ويمضي كأنما كان قد انحدر على بساط كهربائي. وتضربه بالحجر فلا يهيضه بل يرتد عنه. وهو مثال الفردية الصارخة والأثرة المجسدة. وما رأيت قطتين اتفقتا قط، وما اجتمع قطان في مكان إلا تحفزاً للقتال فترى كلا منهما قد رفع ذيله وقوس ظهره وراح يجس الآخر بعينه وهو يزوم ويقول: (واوووووووو) ويدور حوله ليغافله وينشب فيه أظفاره. والقطة هي الدابة الوحيدة التي تأكل صغارها فتأمل ذلك. ومن كان يعرف أن حيواناً مستأنساً آخر يفعل ذلك فليخبرني فإن العلم بهذا ينقصني.

ومن غرور القط أنه يعتقد أن ريقه تريق، فتراه يضطجع على جنبه ويلوي عنقه ويقبل على شعره بلسانه يلحسه ولا يخجل أن يستحم على هذا النحو أمام الناس، بل لعله يباهي

بذلك ويفخر قبحه الله؛ وهو مفطور على الغدر والخيانة فلا أمان له ولا اطمئنان منه لأحد من الخلق ولا لشيء من الأشياء فهو لهذا سيئ الظن، حتى إنك لتراه إذا صار على رف أو لوح من الخشب يخطو كأنما هو يمشي على الجمر فيضع كفاً وينتظر ويخيل إليك من وقفته أنه يختبر المواطئ بكفه ويقدر مبلغ ثباتها وقدرتها على احتمال ثقله. ثم يمد يده الأخرى وينتظر شيئاً زيادة في الاستيثاق ومبالغة في الحذر ولا يجد ما يبعثه على الشك، ومع ذلك يظل يتريث حتى تزهق روحي وأنا أنظر إليه. وإذا رابه شيء رد يده وسحبها من موضعها بسرعة وخفة؛ ولو كان الإنجليز قد خلقوا قبل القطط وسبقوها إلى الدنيا والحياة لقلت إن القطط أخذت ذلك عنهم وقلدتهم فيه فإنهم مثلها يقدمون على الشيء متحرزين، ويخطون خطوة ثم يقفون ينظرون ما يكون، فإذا جرت الأمور على غير ما يحبون أو يتوقعون ارتدوا بخفة وبسرعة وإلا نقلوا رجلاً أخرى وهكذا، فيظهر أنهم هم الذين يتقيلون القطط ويحاكونهم في هذا والله أعلم.

ولم يسرني قط وجود قطة في بيتي إلا مرة واحدة، وكان قطاً ملعوناً لا يزال كلما أوينا إلى مضاجعنا يتسلل - لا أدري من أين - إلى المطبخ ويرفع كل غطاء عن كل وعاء ويقلب كل صحن ويروح يعبث بما في المكان. وليست نقمتي عليه من أجل ما يسرق فقلما يجد شيئاً في المطبخ لأن عادتنا أن نأكل كل شيء ولا نبقي شيئاً قبل أن ننام، فلا تبيت الأوعية والصحون إلا فارغة نظيفة، والحمد لله الذي لا يحمد على المكروه سواه. وإنما نقمتي عليه من أجل الضجة المزعجة التي يحدثها والصحون والأطباق التي يكسرها فنهب مذعورين من فرط الضوضاء ونذهب نعدو إلى المطبخ عسى أن ندرك شيئاً قبل أن يتحطم، وإذا بالقط اللعين يثب من الرف حين يرانا إلى النافذة دفعة واحدة. وأقسم أن كنت أغلقت النافذة واستوثقت منها قبل أن أنام كما رأيت جاري يفعل ولكن من يصدق. . وتروح زوجتي تكذبني وتزعم أني لا شك أهملت كعادتي أو أني اكتفيت بأن ألمس النافذة بيدي وباركتها ثم قفلت راجعاً وأنا واثق أنها ستغلق نفسها بقدرة الله ومن غير حاجة إلى معونتي. ونظل في هذا الخلاف السخيف الذي سببه لنا القط إلى الصياح. واتفق يوماً أن دخل علينا قط ضخم بلا استئذان فهممت بطرده إذ حسبنا ما يصيبنا من القطط بالليل، ولكني لمحت قطاً آخر واقفاً بالباب يشاور نفسه، ولم أكد أراه حتى كانت المعركة ناشبة بين القطين، وكانا يدوران وذيلاهما مرفوعان وكل منهما يتحين الفرصة للوقوع في خصمه، وكانت أصواتهما المنكرة كأنها المسامير في آذاننا ولكنها كانت لهما كموسيقى الحرب على ما يظهر، ثم اشتبكا بعد أو وزن كل منهما صاحبه وأخذت المخالب تطول وتنغرز في أجسامهما والأسنان تساعدها، وكانا يتقلبان على الأرض - أعني على البساط - وهما يتصايحان بصيحات الحرب وأنا واقف من فرط السرور أشجعهما وأستحثهما وأقول للذي أراه يفتر منهما: (عليك به! اغرز مخلبك في عينه. . افقأها له ليعمى ولا يعود يرى النافذة. .

برافو. . برافو. . أحسنت! هكذا تكون البطولة وإلا فلا. . أيوه. . أعد. . أعد. . بارك الله فيك. . مزق جلده. . أسلخه. . تمام. . مضبوط. . عضه. . عضه يا أبله. . لا لا لا. . لا تبعد. . عد إليه. . تذكر الدجاجة التي خطفها وحرمني وحرمك لذتها. . . تذكر - إذا كنت لا تعبأ بالدجاج - الفئران الطرية السمينة التي يصيدها كل ليلة ويأكل لحمها الغريض ويشرب دمها القاني. . . أقدم يا شيخ. . . أقدم. . . أو لم تسمع بقول الشاعر الحكيم: (وفاز بالطيبات الفاتك اللهج). . .) وهكذا صرت أهيجهما حتى أوسع كل منهما صاحبه عضاً ونهشاً ولاذ أحدهما بالفرار. . . ووقف الآخر برهة يلحس جراحه، ولكن الغريب أني لم أر دماً يسيل أو يقطر، ولم تأخذ عيني تمزيقاً في جلد أحد القطين على الرغم من عنف القتال. . . فهل كان مزاحاً. . . أو ريقه ترياق كما يدعى؟ ومهما يكن من ذلك فقد استرحت من القطط المتلصصة بعد هذه المعركة ولله الحمد. . . وبقيت الفئران قوانا الله عليها إنه سميع مجيب.

إبراهيم عبد القادر المازني

صور سياحة

ليلة في براتر

بقلم (سائح متجول)

للمدن العظيمة كما للأفراد روح وخواص معنوية تحدث أثرها في النفس؛ وللمدن العظيمة أيضاً ذكريات وتقاليد تنم عن هذه الروح والخواص، ومن خواص مدينة فينا أنها تتمتع بجاذبية مدهشة تنبعث من جميع مظاهرها وحياتها العامة؛ وللعاصمة النمساوية ماض باهر حافل بالذكريات العظيمة، وإذا كانت صروف الحرب والسياسة قد أسبلت على هذا الماضي الباهر سحابة من النسيان فإن المدينة التالدة ما زالت تحتفظ بهذا الروح المرح الجذاب الذي عرفته أيام المجد، في ظل إمبراطورية عظيمة، وفي ظل دولة الفن والموسيقى الزاهرة أيام أن كان يطربها ويشجيها ويبكيها آنا بعد آخر آلهة الفن الرائع: موتسارت وشوبرت ويوهان شتراوس.

وما زالت فينا برغم جميع الأحداث والمحن تفيض بالذكريات الحافلة، وما زال الروح النمساوي يرقرق نحو الماضي ويستوحيه ويستمد من تراثه كثيراً من آيات الظرف والأناقة والسحر؛ والخلق النمساوي يجنح بطبعه إلى الأدب الجم والرقة المتناهية؛ وإنك لن تشعر في أية عاصمة أوربية أخرى بما تشعر به في العاصمة النمساوية من آيات الترحيب وحسن الوفادة ورقة الشمائل والخلال.

ومن ربوع فينا وذكرياتها العزيزة حي (براتر)؛ ومن ذا الذي لم يسمع باسم براتر من زوار العاصمة النمساوية، بل من ذا الذي لم يجذبه ذلك الحي المرح الضاحك الذي كان أيام الإمبراطور مرتع الأمراء والنبلاء، والذي ما زال مرتع الشباب والحداثة من كل الطبقات؟ إن حي براتر يمثل ناحية خاصة من حياة العاصمة النمساوية؛ ومع أنه حدث في روحه ومظاهره، فإنه ما زال من أشد الربوع والمعاهد إعراباً عن روح فينا الحقيقية. وإن أولئك الذين يعرفون كم تعبر أحياء مونمارتر وميجال ومونبارناس عن الحياة الباريسية الشعبية يستطيعون أن يفهموا كم يعبر حي براتر عن ذلك الجانب من حياة العاصمة النمساوية.

وليس حي براتر في الواقع أكثر من مجموعة كبيرة من الألعاب والملاهي الغريبة؛ ولقد عرفت القاهرة في بعض المناسبات شيئاً من هذه الملاهي باسم (لونابرك)، وكان آخرها ما نظم في الشتاء الماضي أيام المعرض الزراعي؛ ولكن ما نشهده نحن في القاهرة من هذه الألعاب والملاهي ليس إلا جزءاً يسيراً مما يضمه حي براتر من الأندية والمسارح المختلفة التي تعرض فيها أحدث وأغرب الألعاب والمناظر البهلوانية المدهشة التي يطبعها جميعاً طابع المرح والحداثة والدعابة.

وفي براتر يجتمع أخلاط المجتمع من جميع الطبقات؛ ذلك أنه يضم فضلاً عن الملاهي والألعاب الكثيرة، طائفة من المقاهي والمطاعم الأنيقة التي يرتادها زوار الطبقات الرفيعة، ويقصدها المحبون ليعتكفوا في أركانها ومخادعها، ولينهلوا كؤوس الحب بعيداً عن صخب الأندية الحافلة؛ وقد كانت براتر وما تزال مهبط الحب. ولكم كانت في الماضي مسرحاً للحوادث الغرامية الأنيقة بين أبناء الطبقات الرفيعة؛ بل إن اسم براتر ليمثل في مأساة غرامية من أشهر وأروع ما عرف تاريخ الحب: ففي دروب براتر

التقى الأرشيدوق رودلف وماري فتشرا في أواخر القرن الماضي؛ وكان الأرشيدوق رودلف ولد الإمبراطور فرنز يوسف وولى عهده يومئذ؛ وكان فتى مضطرم الأهواء يثور على الرسوم والتقاليد الملوكية، ويشغف بالتجوال في أحياء فينا والاغتراف من مسراتها الشعبية، وكان كثيراً ما يرتاد معاهد براتر ويمرح فيها. وكانت ماري فتشرا فتاة رائعة الحسن من أسرة نبيلة، فلمحها الأرشيدوق ذات يوم في براتر وهام بها حباً، وهنالك تفتحت في قلبيهما زهرة الحب. وكان العاشقان يتنزهان أحياناً في طريق براتر السلطانية المعروفة (بالدرب الكبير) وأحياناً يلتقين في مقهى هنالك يعرف (بدار الأنس) وهو ما يزال قائماً في براتر إلى يومنا. ونحن نعرف كيف كانت خاتمة العاشقين المؤسية في قصر مايرلنج في ضواحي فينا، حيث وجد الأمير وماري فتشرا في صباح ذات يوم من سنة 1889 قتيلين برصاص المسدس ولم تعرف أسباب المأساة وظروفها قط، وكل ما قيل يومئذ إن الأمير في نزعة من نزعاته قتل حبيبته ثم انتحر؛ وذاعت يعد ذلك روايات أخرى، بيد أن سر المأساة لم يعرف قط.

وفي هذه الحادثة التاريخية التي اقترنت باسم براتر ما يفسر منزلة براتر ومعاهدة في قلوب المجتمع النمساوي؛ وما زالت ذكريات هذه المأساة الغرامية تغشي أفق براتو، وما زالت ذكريات شهيرة أخرى تمتزج بمعاهد براتر وأنديته ومغانيه؛ وقد كانت هذه الحوادث والذكريات، وما زالت مستقى لأقلام كثيرة، ومبعثاً لطائفة من القصص الشائق الشجي.

ومن الصعب أن نصف هنا كل ما ينتظم في براتر من المناظر والألعاب المدهشة؛ بيد أنن نعرض هنا بعض ما رأيناه وخبرناه منها، وإن منها لما يترك في النفس أثراً لا يمحى؛ وإذا كان معظم الألعاب والنزه مما قد أعد للأحداث، فإن منها ما تقتضي ممارسته إقداماً وجلداً، ولقد شهدنا ذات مساء لعبة أو نزهة مروعة خطرة معاً. وكنا أربعة من الأخوان، فاقترح علينا صديقنا الدكتور (ق) أن نركب القطار الطائر وصديقنا الدكتور أعرف الناس بفينا وبراتر، وكان منظر هذه القطر الطائرة بريئاً متواضعاً، فهي عبارة عن سيارات صغيرة أعدت لشخص واحد، وركبت على خطوط مكهربة، فركبنا جميعاً، وكان كل ما نصح به (ق) أن نمسك أنفسنا جيداً، وانطلقت القطر الطائرة بسرعة حتى جزنا نفقاً كبيراً مظلماً قد رتب على هيئة الجو والسماء، ونظمت في أفقه نجوم كهربائية، وهنا أخذت القطر الطائرة تسير الهوينا منعطفة حتى لقد تصورنا وشعرنا حقاً أننا نركب طيارة تعالج الرياح في الأفق، ولكن حدثت بعد ذلك مفاجأة مروعة؛ ذلك أن هذه الطيارات الخيالية اندفعت فجأة إلى الضوء بسرعة هائلة لتمثل حالة سقوط الطائرة، وأخذت ترتفع وتهبط في منحدرات متعاقبة بعنف مروع مدى دقيقة أو اثنتين، حتى لقد خيل إلينا غير مرة أن الطائرة ستقذف بنا من حالق، وكانت دورة عنيفة خطرة اقتضت منا أعظم جهد وجلد؛ ثم انطلقنا بعده إلى الضوء، وتمت التجربة الهائلة، ونهضنا بأقدام وأعصاب مزلزلة، وصديقنا الدكتور في القاطرة الأخيرة يحدجنا بخبث ويبسم لما ارتسم على وجوهنا من بوادر الانزعاج والشحوب.

وثمة مشهد آخر في براتر يستحق الوصف هو (دار الأشباح) وهو اسم يطابق المسمى، وهي عبارة عن دار كبيرة تخترقها أروقة مظلمة، ويجوبها المشاهد في عربة صغيرة تنطلق به في ظلام الأروقة، ثم تعترضه خلال التجوال هياكل عظيمة وأشباح مروعة، وأحياناً تلطمه يد رقيقة خفية، أو يرى في الظلام شبحاً يخرج من قبره فجأة ثم يعود بسرعة، أو يمر فوق هيكل عظمي فيرسل صيحة مزعجة، وهكذا يرى عدة من صور الفناء والعالم الأخير خلال وميض النور في الظلماء.

وربما كانت أشهر نُزه براتر وملاهيها نزهة العجلة الكبرى وعجلة براتر تشرف على فينا منذ نصف قرن أو أكثر، وهي عبارة عن عجلة ضخمة يبلغ قطرها نحو سبعين متراً أو أكثر، وقد ركبت حولها مخادع كبيرة يركبها الرواد، ثم تدور بهم ببطء فترتفع بهم شيئاً فشيئاً، حتى تبلغ المخادع الذروة واحداً بعد الآخر، وعندئذ يشهد الراكب فينا بأنواره الساطعة وأبراجها الشاهقة، ثم تهبط العجلة بعد ذلك حتى يبلغ الراكب مكان النزول، وتستغرق الدورة نحو ربع ساعة. ولهذه العجلة الكبيرة شهرة خاصة بين الشباب، ولها في الحب ذكريات أيضاً، ذلك أن كثيراً من المحبين الذين تضيق بهم سبل اللقيا، يلتمسون مخادع منفردة في العجلة، ثم يقضون هذه الدقائق القليلة في

بث لواعج الهوى، وتبادل القبلات الحارة.
وفي براتر يوجد معرض هو أغرب معرض من نوعه يسمى معرض المخلوقات العجيبة وفيه تعرض حقاً طائفة من أغرب المخلوقات البشرية مثل أضخم امرأة في العالم يبلغ وزنها ثلاثمائة كيلو، وأطول وأضخم رجل في العالم هو عملاق يبلغ طوله نحو ثلاثة أمتار، وأصغر مخلوقات بشرية، ونحو ذلك من غرائب المخلوقات والطبيعة.
وهنالك أيضاً في دروب براتر ومناظره والعاب عديدة أخرى يضيق المقام عن وصفها، وقد أعدت جميعاً للأحداث والشباب.
ويهرع لشباب كل مساء إلى براتر، يتفرقون في دروبها وأنديتها وملاهيها، وهي تغص بهم دائماً، وهناك يقضون ساعات في الحبور والمرح، وينسون هموم الحياة الثقيلة، وبؤس العيش والعطلة، لقاء دريهمات قليلة.
لقد كانت براتر وما تزال مرتعاً ومتنفساً للشباب؛ وهنالك بين هذه الدروب المتشعبة والمسارح الساطعة الصافية يجب أن ينسى المرء نفسه برهة، ويرجع إلى عهد الحداثة، ليشهد ويمارس هذه الألعاب الصبيانية التي تنفث رغم طابعها الصبياني كثيراً من روح المرح والدعابة، وهذا ما يفعله أهل فينا جميعاً، وهذا ما يفعله كل أولئك الذين يزورون العاصمة النمساوية، ذلك أن سحر براتر لا يقف عند مسارحها ومناظرها وألعابها، بل إن لبراتر سحراً معنوياً عميقاً يرتبط بماضيها وذكرياتها، وهذا السحر المعنوي يسبغ على اسم براتر نوعاً من الجلل لا تتمتع به عادة أمثال هذه الربوع المرحة الضاحكة؛ وإنما تتمتع به براتر، لأنها استطاعت خلال الأحداث والعواصف أن تحتفظ بماضيها وذكرياتها، وأن تبقى
كما كانت في الماضي مرتع الأنس والمرح والهوى.
وإذا كانت العاصمة النمساوية تفخر وتزهي بمتاحفها ومعاهدها الأثرية، وقصورها ومتنزهاتها البديعة، فإنها تحل براتر بين ربوعها محلاً عزيزاً؛ ذلك لأنها أيضاً أثر الماضي المجيد، ولأنها رمز العهد الضاحك؛ وللمدن العظيمة، كما للأشخاص، شعور يتجه نحو الماضي ويخفق للذكرى.
فلا تنس إن زرت العاصمة النمساوية يوماً أن تزور براتر، ولا تنس بالأخص أن تركب القطار الطائر رغم هوله وروعته، وأن تصعد في العجلة الكبيرة التي تجثم دائماً في قلب براتر زاهية بأنوارها الحمراء والخضراء، ولا تنس أن تزور دار الأشباح ومنزل الأنس، وكل هذه المعاهد والمغاني.
(? ? ?)
مهداة إلى الأستاذ دريني خشبة
من ذكريات زواجي
لأستاذ كبير
فوجئ قراء الرسالة منذ أيام بخبر زواج الأديب لكبير الأستاذ (د). عندما طلع عليهم بأغرودته التي جعل عنوانها (بلبلتي). فوجب على المعجبين بأدبه أن يتقدموا إليه بهدايا العرس، وكاتب هذه الكلمة واحد من هؤلاء المعجبين شعر بهذا الواجب فنهض لتنفيذه على الطريقة التي تتفق مع جهده. فهو يتقدم - على استحياء - بهذه الكلمات. وليسعد النطق إن لم تسعد الحال. . .
أذكر أني بعد أن خطبت زوجتي جلست إلى نفسي وقلت:
(اسمع يا فتى. . . ما أكثر أن تسمع الأزواج يشكون من زوجاتهم، وما أقل أن تجد من هو راض عن حالة زواجه! فهذا يشكو شدة غيرة زوجته عليه حتى إنها لتفتش جيوبه سراً كلما عاد من محل عمله لعلها تجد فيها رسالة تكشف عن سر مستور، أو ورقة تنم عن علاقة غير مشكورة. . .
وهذا يشكو شدة رقابة زوجته عليه حتى أنه لا يكاد يصل إلى مكتبه في محل عمله ساعة الصباح، وتعلم زوجته أن قد انقضت الدقائق العشر التي بين البيت والمكتب حتى تنهض إلى (تلفونها) تطلبه لتتمم عليه خشية أن يكون قد انصرف مبكراً إلى غير عمله. . .
وذلك يشكو من استعداد زوجته المدهش في إثارة الشكوك حول كل ما يعمل حتى ما ينقطع بينهما الجدال والشجار بسبب (سوء التفاهم) الذي تثيره دواما بارتيابها وعدم وثوقها فيه. . .

وذلك يشكو من أنه لا يكاد يقضي ساعة أو بعض ساعة مع إخوانه في جلسة مسائية هنيئة ثم يعود إلى بيته من بعدها راضياً منشرح الصدر حتى يلقى من عنت زوجته وعتابها له على أنه تأخر في هذا المساء عن موعده المعتاد ما يطارد من رأسه كل أثر من نشوة السرور التي أفادها في تلك الجلسة فما تلبث أن تنقلب نشوته إلى ثورة، وانشراحه إلى انقباض. ويبيت مهموماً كئيباً بعد أن كان يمني النفس بليلة سعيدة كلها بشر واغتباط).

استعرضت تلك الصور جميعها أمام عيني وعدت أقول لنفسي:

(هذه يا فتى حال إخوانك ممن سبقوك إلى ما أنت مقبل عليه من هذا الزواج! فماذا أنت صانع؟ وفتاتك ليست إلا واحدة من نساء الله اللائى طبعن على غرار واحد، وصببن في قوالب متشابهة!؟ فأنت وفتاتك بين أن تندمجا في زمرة أولئك التعساء الساخطين الشاكين إذا أنت سرت معها على نهج بقية الأزواج، وبين أن تعيشا عيش السعادة والهناء إذا أنت أغضيت عما هو عيب (جنسها) في الواقع قبل أن يكون عيب شخصها).

وعاهدت نفسي في ذلك اليوم على ألا تثيرني من زوجتي نزعة من تلك النزعات التي رأيتها تعمل على تعكير صفو الأزواج من إخواني ومعارفي، وقضيت قضاء سابقاً لأوانه بأنها حماقة ما بعدها حماقة أن يغضب الإنسان من أمر هو يعرف أنه لا شك حاصل ثم هو يتوقع حدوثه قبل أن يحدث!

. . . . . وتزوجت.

ورأيت أن نقضي شهرنا الأول في رمل الإسكندرية، فسافرنا على أجنحة الطائر الميمون الذي يقول الشعراء إن السعداء من الناس يسافرون عليه، وكنت في زيارتي السابقة القصيرة لثغر الإسكندرية قد عرفت أن بجهة الشاطئ توجد سلسلة من الحدائق البديعة التي تليق بعروسين أن يقضيا بين خمائلها بعض سويعاتهما الوردية اللون، ولكني لم أكن أعلم أين تقع بالضبط تلك الحدائق من محطة الشاطئ، ولم أشأ أن أتأبط ذراع فتاتي وأذهب أتخبط بها وأتسكع حتى أهتدي إلى موقع تلك الحدائق.

وكان من عادتي أن أصحبها كل مساء لقضاء الوقت في مغنى من مغاني الثغر وملاهيه، ورأيت في ذلك المساء أن أفاجئها بارتياد تلك الحدائق دون أن أخبرها بوجهتي حين أخرج بها في نزهة المساء لكي تكون الزيارة أمتع لها وأوقع في نفسها. فانتهزت فرصة القيلولة وأنها غلبها النعاس وتسللت أنا من الفراش فوضعت ملابسي في عجلة وتلصص وخرجت من المنزل في هدوء وحذر أطير إلى جهة الشاطئ لأرى كيف يكون وصولنا إلى تلك الحدائق، وأي مواقف الترام أقرب إليها، وأي مداخلها أمتع منظراً، وأي طرقاتها أشهى مسلكاً، وأي أركانها أهنأ جلسة وأنعم مقاماً.

ووفقني الله في مهمتي فلم أغب عن منزلي أكثر من ساعة عدت بعدها وأنا أكاد أطير بجناحين لألقى عروسي فأحتملها إلى هذه المفاجأة السارة التي خبأتها لها. . . . . ودخلت الغرفة عليها، فوجدت وجهاً مربداً، ونظرات شزراء، وعينين حمراوين فيهما أثر الدموع ووقدة الشر. وأشهد لقد كانت مفاجأتها التي أعدتها هي لي أقوى ألف مرة من تلك المفاجأة الفاترة التي كنت جهدت في أن أعدها لها. . . . . .

- كفى الله الشر! مالك؟

-؟!

- خير إن شاء الله؟

-؟!

- هل حضر أحد بعد خروجي أو حدث حادث؟

-؟!

- تكلمي يا (ستي!).

-؟!

وأخيراً وبعد مناورات أعفي القارئ من سردها تبينت جلية الأمر فإذا هي غضبى لأني خرجت: أولاً - بغير علمها. . . . وثانياً - إلى مكان لا تعرفه هي. . . . وثالثاً - لأن هذا الخروج حدث في وقت لم يخلقه الله لخروج الرجل البريء. . . ورابعاً - لأني تغفلتها وهي نائمة وأتيت كل هذه الآثام؛ كل ذلك ولما ينقض على زواجنا أسبوع! أفلم يكن من الأليق تصفية هذه (الرنديفوهات) قبل الزواج؟ أم هي مقابلة عارضة حصلت في

الصباح فتم ترتيب الموعد ليكون في هذا الوقت من المساء؟ وهل يليق. . .؟ وهل يجوز. . .؟ وهل يصح. . .؟ وما إلى ذلك من طوفان الأسئلة التي ليس أسهل من توجيهها بصرامة مدهشة عند النساء وليس أسهل من الغرق فيها باستسلام غريب عند الرجال!

يا سبحان الله! أبهذه البساطة تنعكس الآمال؟ وهل يمكن أن يغمر الإنسان كل هذا الخير فلا يلقى إلا كل هذا الشر؟! وماذا يكون من أمر زوجتي إذا أنا هفوت حقيقة كما قد يهفو الإنسان ما دام أنه ليس بمبرأ ولا معصوم!؟ وما فضل الحب إذا لم تكن دولة الحلم فيه غالبة على دولة الجهل، وساحة الغفران فيه أرحب من ساحة القصاص!؟

منذ ذلك اليوم بدأت أشعر بصعوبة قيامي بتعهداتي التي كنت عاهدت نفسي عليها من الاحتفاظ بهدوء الجو في بيتي وبصفاء العلاقات التي تقوم فيه. وأدركت أن الزوج مهما سعى لرفع مستوى حياته الزوجية إلى درجة مناسبة من السعادة فإنه لن يوفق إلى شيء من ذلك ما دام مبدأ الزوجة هو أن تتهم زوجها قبل أن تستمع إليه، وتحكم عليه قبل أن تحاكمه! وعرفت أن الزواج الموفق هو الذي يجمع بين (صديقين) يتحابان في الله ويدخل كلاهما هذه الشركة العاطفية بذخيرة صالحة من التسامح وبعقيدة ثابتة في أن الهفوة الزوجية ينميها العقاب ويؤكدها الانتقام - وتقتلها المغفرة ويمحو أثرها الصفح الجميل، وأن (المثل الأعلى) سواء للزوج أو للزوجة لم يتم خلقه بعد فلا ينبغي لأحد الزوجين أن يطالب زوجه بأن يكونه!

(زوج سعيد)

القول المكشوف

في الأدبين العربي والإنجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

لعل الأدب الإنجليزي أشد الآداب تحفظاً في المقال والتزاماً للوقار وعزوفاً عن المجون، فبينه وبين الأدبين الفرنسي والروسي، مثلاً، بون كبير في هذا المجال. وبعكس ذلك كان الأدب العربي الذي وسع من صريح العبارة عن ماجن القول وسفسافه ما لا يسيغه العصر الحالي؛ بل لم يكن يسيغه فضلاء العصر الذي قيل فيه، وذلك راجع للظروف المحيطة بالأدبيين.

فسيماء الوقار والتسامي التي تعلو الأدب الإنجليزي راجعة إلى ثلاثة عوامل رئيسية متشابكة هي: طبيعة الإنجليزي الهادئة، والتربية الإنجليزية التي تجعل غرضها الأول كبح نزعات الناشئ الجامحة وإلزامه ضغط النفس، وثالث العوامل هو الرأي العام القوي. والرأي العام نتيجة للعاملين الأولين، ونتيجة أيضاً للنظام السياسي الديمقراطي الذي يجعل الأمر للشعب في كل مناحي الحياة، وهذا الرأي العام محافظ حريص على تقاليد الفضيلة يشهر الحرب على من يهم بخدشها، وهو من القوة بحيث لا يجسر كاتب أو شاعر أو ناشر على تحديه وإلا كان عليه الغرم المادي والأدبي. وقد ثار بالمستهترتين المتجاسرين على الدين والتقاليد أمثال بيرون وشلي فاضطرهم إلى مغادرة البلاد ولم يشفع لهم عنده نبوغهم ولا ما نالوه في غير إنجلترا من الصيت البعيد.

أما الأدب العربي فخالطته عوامل اجتماعية وسياسية جعلت اجتثاث جريء القول وبذيئه منه متعذراً: فهو قد ورث جفوة بداوته الأولى، وسرى إليه الفساد الذي تبع الفتوح واختلاط الأعاجم والموالي، وشجعت الحكومة الفردية المطلقة سريان هُجر القول بدل أن تدرأه، فكان من الخلفاء والأمراء من حرضوا على المهاجاة بين الشعراء، وأغضوا عن مجونهم ما داموا مشغولين به عن مناوأة سلطانهم، وأجازوا من وقعوا في خصومهم بقبيح الهجاء.

فالحكومة الفردية المستبدة قد حالت دون قيام رأي عام يقف للخارجين على تقاليده بالمرصاد، أو هي لم تَدَعْ لذلك الرأي العام السلطة أو الهيبة الكافية لأن ينضح عن تقاليده، بل كثيراً ما حَمَتْ الشعراء الماجنين من غضبه. وهكذا الحكومة القائمة على أساس فاسد لا يسعها - لشعورها بضعف مركزها - إلا مناصرة عوامل الفساد التي ترى مصلحة لها في بقائها، أو خَلْقُ تلك العوامل.

ولقد كان في الدولة الإسلامية عامل جليل الأهمية لو بقي تأثيره فاشياً لكان الأدب

العربي أرقى الآداب على الإطلاق لفظاً وأعفها قصداً، وأعظمها تساميا: ألا وهو الدين الإسلامي الذي يحض على مكارم الأخلاق والذي كانت الدولة تقوم على أساس منه، ويتضح أثره في عصر الخلفاء الراشدين، وما كان من تأديب الحطيئة وردعه عن أعراض الناس.

ولكن هذا العامل السامي الجليل تُنُوسِيَ في غمار السياسة، وجرفه تيار التكالب على الملك والسلطة، فلم يَعُدْ الخليفة أو الأمير يغضب إلا أن يناله الشاعر ببذائه، فبشار بن برد الذي ضج عليهُ القوم ودهماؤهم عهداً طويلاً من فجوره وإقذاعه ظل مُعافَىَ ولم يمس بسوء حتى تمادت به جسارته إلى عرض الخليفة ذاته. أما ما دام الشاعر متقياً غضب الحاكم أو مجتلبا رضاه فلا ضير عليه أن يرمي باللؤم أنصار الرسول أو يفضل إبليس على آدم، أو يتهكم بيوم الحشر، أو يتفاخر بشرب الخمر، أو يتلهى بسب الرجال وقذف المحصنات، أو يتباهى بالتسلل إلى الخدور في غلس الظلام.

هكذا ضم الأدب العربي بجانب سامي الأغراض وشريف الأقوال وكريم الحكم والأمثال سقطاً من القول قوامه الإباحية والاستهتار، وقام من الأدباء من صدموا الناس في عقيدتهم وتقاليدهم ونالوا من أعراضهم وسمعتهم، وأودعوا الأدب من خسيس الأقوال ووضيع الأغراض ما ينافي مقاصد الأدب وسمو الفن بالنفس الإنسانية. ولما لم يكن للناس عاصم من شرهم من رأي عام أو حكومة ساهرة عَمَدَ من استطاع منهم بِحَولٍ أو مكيدة إلى الذب عن نفسه بنفسه، وهكذا لقي المتنبي وابن الرومي حفيهما على أيدي مهجويهما.

وهناك عامل اجتماعي لابد أنه كان من عوامل ذيوع هُجر القول في الأدب العربي، بل في المجتمع العربي ذاته: ألا وهو انسحاب المرأة من المجتمع شيئاً فشيئاً، ففقَدَ الأدب باحتجازها وراء الحجاب عاملَ تجمُّلٍ وتَوَقُّرٍ وتعفُّفٍ في اللفظ والغرض، وصار الافحاش من الذيوع بحيث لم يتردد كاتبان فحلان يمثلان مجتمعيهما تمثيلاً كبيراً: وهما البديع والحريري، في حشد مقاماتهما بمقذع السباب؛ بل خَصَّصَا لذاك مقامات بذاتها.

وأظهر ما يكون المجون والفحش في الشعر في أبواب الهجاء والخمريات والنسيب الخليع

والتشبيب بالغلمان. وقد أوغل بعض الشعراء في هذه لأبواب إيغالاً لا يكاد يصدقه العقل. ومن العجيب أن الطريقة التقليدية التي يجري عليها تاريخ الأدب العربي لا تزال تعد من فحول العربية شعراء ولم يكد يؤثر عنهم مقال في سوى هذه الأغراض الحيوانية. ومن البديهي أنه مهما تفنن الناظم وابتدع في وصف الخمر وتصوير الشهوات فلن يرفعه ذلك إلى مصاف الشعراء العظام، إذ الشعر الرفيع لا يقاس بحسن الديباجة وبراعة المعنى فحسب بل بشرف الغرض أيضاً.

فدواوين ابن أبي وبيعة وبشار وابن هانئ إن هي إلا استهتار واستسلام للشهوات وتمدح بالمخازي محكمة الديباجة بارعة النظم متنوعة الأوزان والقوافي، تتخللها حكمة شاردة أو مثل سائر ليس للناظم فيه إلا فضل التأنق في إعادة صوغه، فإذا كان هؤلاء وأشباههم من فحول الأدب والعربي فما أقصره عن بلوغ المثل الأعلى للأدب الراقي!

ومما يفترق الأدبان العربي والإنجليزي في استجازته من أبواب القول - وإن كان بمنجي من الفحش - الفخر، الذي لا يسيغه الأدب الإنجليزي بحال، على حين قد زخر الأدب العربي بما قيل فيه وعدّ باباً من أبواب الشعر التي تظهر فيها براعة الشاعر وتكمل بها منزلته. فالذوق الإنجليزي لا يسيغ أن يُزْهَى إنسان بما يتخيله في نفسه من مكارم وعظائم، بل من أول ما تطمح إليه التربية الإنجليزية - كما سبق الالماع - أن تكبح في الناشئ نزعة الزهو والعجب، وليس أَمْقَت في المجتمع الإنجليزي ممن يدل بنفسه. ولم يكن الشعر العربي في أول مره يعرف الفخر بالنفس، وإنما كان فيه فخر بالقبيلة والعصبية ولا بأس بهذا، ثم استباح بعض الشعراء فيما استباحوا لأنفسهم التمدح بالنفس صدقاً وادعاء، وغلوا في مدح أنفسهم غلوهم في مدح أصحاب النوال، بل أغربوا في المفارقة فجمعوا بين المدحين في القصيدة الواحدة، ونسبوا لأنفسهم الحكمة والشجاعة والمجد وشرف المحتد، وأجلسوا أنفسهم بجانب الشموس والبدور، وأوسعوا الدهر والحظ والناس ذماً بقدر ما أوسعوا أنفسهم مدحاً، وتلك جميعاً لعمر الحق بضائع النوكي!

فحرية القول - أو قل إباحته - فاشية في الأدب العربي القديم، بينما التحفظ ميزة

الأدب الإنجليزي، وربما تغالي الرأي العام الإنجليزي في تحفظه وتشبثه بما يليق وحَجْرِهِ على ما لا يليق الخوض فيه من حديث، فناهض مفكرين كان الخير الإنساني أو النفع العلمي كل
مقصدهم، كما كان موقفه من أوائل الداعين إلى ضبط النسل مثلاً، إلا أنه لا يلبث أن يخفف من غلوائه حين يتبين له شرف المقصد وفائدة الدعوة.
ولئن حمدت الحرية الفكرية الواسعة التي تمتع بها الفلاسفة والعلماء في الدول الإسلامية فما كذلك الحرية التي استباحها المجان من الأدباء، فالأولى حرية تساعد تقدم الفكر وترقي العلم، والثانية تؤدي إلى انحطاط الخلق وتضرب في دعائم المجتمع؛ الأولى حرية فكرية نافعة، والثانية إباحية خلقية ضارة. والأدب يرسم للأمة مثلاً عليا تتوخاها، فإذا تمادى في تصوير دنيء النوازع فإنه يهبط بالنفوس إلى مستوى منحط لا تريد عنه ارتفاعاً.
وللأدب المكشوف في العصر الحديث دعاته الذين يحضون على اطراح النفاق الذي تفرضه التقاليد وتصوير الطباع على حقائقها، على أن هناك فرقاً بين المذهب الحديث وبين ما كان فاشيا في الأدب العربي القديم: فأنصار هذا المذهب ذوو مبدأ هم مقتنعون برجاحته يرون أن الأدب يؤدي مهمته ويرقي الأخلاق الإنسانية بوصف دخائلها ومظاهرها دون تمويه، أما الآخرون فلم يكن لهم مبدأ ولا غاية سوى إرضاء الشهوات والنزوات وعلى الخلق الكريم العفاء.
وهيهات أن يخلو المجتمع الإنجليزي أو غيره من آثار المفاسد التي أفصح الأدباء المتقدمون في التعبير عنها، ولكن ما لا يقبله ذلك المجتمع هو المجاهرة بذلك والمفاخرة والتجاسر على تقاليد المجتمع التي ارتضاها لنفسه وقامت عليها أسسه، وإيغال ذلك في عالم الأدب الذي تحويه بطون الكتب وترويه الأجيال ويُقصد منه إلى السمو بالإنسانية.

فخري أبو السعود

نبوّة المتنّبي

للأستاذ محمود محمد شاكر

كتب الأخ سعيد الأفغاني كلمة عن (دين المتنبّي) في العددين من الرسالة (161و 162) سنة 1936، وقد عرض فيها لنبوّة أبي الطيّب التي يزعمونها وقعت وكانت منه، ولم يجد مندوحةً عن القول (أو كما قال): (بأن تنبؤه في الأعراب أمر وقع حقيقة ولا سبيل إلى الشكّ فيه، تضافرت على ذلك كل المصادر الموثوقة حتى التي كانت تميل إليه كل الميل، فأنها لم تنف الأمر وإنما التمست له المعاذير) ثم علق على هذا فقال: قرأتُ أخيراً عدد المقتطف الذي كتبه الأستاذ شاكر عن المتنبيّ خاصّةً، فإذا به يذهبُ) إلى نفي تنبؤ أبي الطيب الذي اتفقت عليه كل المصادر تقريباً. وقد أنعمت في تدبُّر الأسباب الحادية على النَّفْي فلم أجد فيها مقنعا به من القوة ما يقف لهذه الروايات الصحيحة!!
والتاريخ لا يثبت خبراً أو ينفيه تبعاً لميل مؤلّف أو رأيه، ولا بد فيه حال النفي من التعرض لجميع الأخبار المثبتة خبراً خبرا وهذا لم يصنعه الأستاذ شاكر!!
وأمر ادعاء المتنبي العلوية ليس فيه ما يهيج عليه الناس كل هذا، على رغم ذلك الخيال الجميل الذي لبس ادعاءه إياه في الكتاب المذكور!!
وإذا كان ما ذهب إليه الأستاذ صحيحاً، ففيم خجَلُ أبي الطيب وحياؤه كلما سئل عن أمر لقبه المتنبي؟ ولم كان يعمدُ إلى اشتقاقه من النبوة تارةً، ويعتذر بأنه شيء كان في الحداثة تارة، ويقول إنه يكره التلقّب به، وأنه (يناديه) به من يريد الغضّ منه؟ وعلى أي شيءٍ تقع كلمة كافور: (من ادعى النبوة بعد محمد أما يدّعي الملك مع كافور)؟ وكافور ليسَ من الذين يختلقون على شاعر، ولا ممن يروّج الاختلاق!!
وقد روى المعرّي - وهو الحجّة الثبت - أمر التنبُّؤ، وما حفّ به من حادث ومعجزات في رسالة الغفران. وأبو العلاء كان أحرى أن يشكَّ أو يكذب الخبر، لو أن في الأمر مجالاً للشكّ واحتمالاً للتكذيب، لأنه أشدُّ حبا للمتنبي، وعصبيّة له، وهو أنفذ بصيرة فيما يقال وأحكم نقداً للأخبار، مع قرب زمان، وصفاء ذهن، وقوة حجة، ومواتاة وسائل التحقيق إذ ذاك!!). انتهى. . . الرسالة سنة 1936 (العدد161 - ص1255).

وأنا قد قرأت هذا الكلام في موعده حين صدرت الرسالة وأدرتُ أن أردّه، ثم بدا لي أن
أدَعه حيث هو، فإن الذي قرأ ما كتبت يعلمُ مقدار ما في هذا الكلام من الجودة وحسن الأداء وقوة الحجة وجلاء البيان وسعة الاضطلاع وبلاغة الفهم، ولكن بعض أصحابنا لم يزل بي حتى أخذ مني موثقاً أن أقول كلمتي فيه.

وهذا النقد الذي رماني به أخي الأستاذ سعيد ليس مما يثيرني ويغريني بحمل السلاح والاستعداد للمعركة. ولست أقول هذا استصغاراً لما يقول أخي أو استكباراً لما قلت، بل هو حكمي عليه مجرداً من كل ما يجعل الحكم قاصراً أو باغياً.

وهذا الذي كتبه الأخ سعيد ليس مما أعده عندي نقداً، وإنما هو اعتراض، والاعتراض شبهة، والشبهة يزيلها البيان. أما النقد فأمر آخر لم يسوّغ للأخ أن يظفَر بالقدرة عليه فيما كتب.

وقد أُتي الأخ سعيد في كلامه من قِبل أنه عدَّ الأخبار المروية عن نبوة المتنبيّ وغيرها أخباراً صحيحة ابتداء، وهذا أوّل الزلل في نقد الناقد. ولا بد لمن يريد أن ينقد ناقداً أو يكتب فيما يتناول الروايات والأخبار أن يتحقق بدءاً بمعرفة الأصول في علم الرواية، وأن يستيقن من قدرته على ضبط الفكرة حتى لا تنتشر عليه وتتفرق، ويقع فيها الاختلاف والتضارب والمناقضة. فلا بُدَّ لي هنا من أن أدل الأخ على الأصل في الأخبار حتى يعرف فرقَ ما بين الذي انتهينا إليه، والذي وقف عنده غيرنا، ثمّ نكشف له عن الشبهة التي جعلته يعترض الذي كتبناه بالذي رفضناه ورددناه وأسقطنا الثقة به والاعتماد عليه.

فالأخبار جميعاً تحتمل الصدق والكذب كما يقولون، ومعنى ذلك أنها على حالة من البراءة الأولى لا توصف بصِدقٍ ولا بكذبٍ. ولا يستحق الخبر صفة الصدق إلا بالدليل الذي يدلّ على صدقه، فإذا لم تجد الدليل على صدقه ذهبت عنه صفة الصدق وبقي موقوفا. فإذا اعترضتْه الشبهات من قِبَل روايته أو من قِبَل درايته مالت به الشبهة إلى ترجيح الكذب فيه، فلا يؤخذ به ولا يعتمد عليه، ويكون عمل الناقد بعد ذلك أن ينظر في هذا الخبر نظرة التدبر ليستخرج الحقيقة التي من أجلها تكذَّبه راويه، وبذلك يقع على حقائق مدفونة قد سترها الراوي بما كَذَب. وقد أشرنا إلى ذلك في كتابنا (المقتطف يناير سنة 1936 ص111) وإليك ما قلناه:

(اعلم أن أكثر ما يُروى في ترجمة هذا الرجل وغيره من الرجال، إنما كان من الأحاديث
التي تتناقلها مجالس الأدباء، ولا يراد بها التحقيق، ولا ينظر فيها إلى صدق الرواية وسياق التاريخ وما إلى ذلك؛ بل إن كثيراً مما يروى في تراجم رجالنا كان مما يُراد به مضغُ الكلام في مجالس الأمراء أو في سامر الأدباء - هذا على أنها ربما حملت فيما تحمل أشياء لولا ورودها في هذه النصوص لافتقدنا من حلقات التاريخ حلقات لا ينتظم أمره إلا بها، ولا يستمر إلا عليها. فلمثل هذا كان لا بُدَّ لنا من النظر في النصوص وتمييزها، وردّ بعضها والأخذ ببعض، حتى لا تنقطع بنا السبل في الترجمة لهؤلاء الأعلام. فلا يفوتنك هذا إذا قرأت ما نكتب، أو أردت أن تقرأ أو تكتب).

وأنا حين أردت أن أكتب عن المتنبي نظرت في هذه الأخبار خبراً خبراً، فلم أجد دليلاً واحداً يجعلها تستحق عندي صفة الصدق فأبقيتها موقوفة، ثم عدت فنظرت فتناوشتها الشبهات واعتورتها الطعون، فلم أجد بداً من وسمها بالكذب، ثم عدت إليها فعارضتها بالعقل وشعر الرجل وحوادث التاريخ لأستخرج منها الحقائق التي يسترها الرواة والمتكذِّبون فوقعت لي أشياء هي التي جعلتها أصلاً فيما كتبت، وأنا على يقين من أن الأستاذ سعيد لم يتنبه إلى هذا الذي فعلناه، مع أنه هو الأصل في الكتابة والتحقيق، أما التسليم فليس يجدي شيئاً إلا التكرار والمتابعة، ثم الزلل والتورط فيما أراد الكذابون أن يحملوا الناس عليه ويوقعوهم فيه.

ويقيني أن الأخ سعيد لا يجد دليلاً على صحة هذه الروايات فيما يزعم إلا أنه قد رواها فلانٌ وفلانٌ، ورواها المعري - وهو الحجة الثبت - (وهو أشد منا حباً للمتنبي، وعصبية له، وهو أنفذ بصيرة وأحكم نقداً للأخبار مع قرب زمان وصفاء ذهن وقوة حجة ومواتاة وسائل التحقيق إذ ذاك)، ونحن لا ننكر على المعرّي شيئاً من ذلك، ولكن الذي ننكره أن الذي كتبناه كان عصبيةً لأبي الطيب، أو حُباً له أو فيه. ليكن المعري صاحب عصبية،

فذلك لا يجعلنا نحن من أهل العصبية حتى نبعث بالحقيقة، ونلعب بفن النقد من أجل أبي الطيب أو غيره من الرجال.

أما أن رواية المعري - وهو صاحب عصبية لأبي الطيب - مما يصحح هذه الأخبار أو يرجح الصدق فيها، فهو حكم خطأ لا يصح لأحد أن يتابع عليه، فإن أبا العلاء لم يُشهِد كتبه أنه لا يروي إلا الصحيح من الأخبار؛ وترك المعرّي الشك فيها أو تكذيبها ليس يقوم أيضاً دليلاً على صحتها، وليس المعري بمنزهٍ عن الخطأ والغفلة، وهو من هو، فذهاب وجه النقد عن المعري ليس يكون طعناً فيه، ولا يوجب نسبة الكذب إليه، ولا نفي صفة الصدق عنه.

وأحبُّ أن أقرب إلى الأخ حقيقة هذه الروايات. . . فهو يعلم أن الرواة قد رووا للرسول صلى الله عليه وسلم معجزاتٍ كثيرة؛ وكثير من الذي رووه لم يثبته أهل العلم بالحديث على طريقتهم؛ وقد رواها قومٌ على عهد الصحابة والتابعين، وهي كذبٌ مخترعٌ بشهادة أئمة هذا العلم، وقد بقيت هذه الآثار مروية إلى يوم الناس هذا، وهي عند المتأخرين شائعة معروفة متداولة مصدقة، وقد وردت في كتب كثير من الأئمة العلماء. أفيكون تداولها وذيوعها وتصديق العامة لها، وورودها في بعض كتب العلماء هو الدليل الذي لا دليل غيره على صحة هذه الأخبار؟! وأكثر من ذلك، أيكون ظهورها على عهد الصحابة والتابعين - على قرب زمن كما يقول الأستاذ - وتصديق بعض العامة لها في ذلك العصر، وسكوت بعض العلماء عن الكلام فيها مما يدل على صدقها؟!

ونحن قد أتينا في الذي كتبناه عن المتنبي بالشبهات التي ترجح الكذب في هذه الروايات التي يراد بها الوضع من قدر الرجل والتحقير له، والطعن في نسبه أو عقله أو خلقه أو أدبه. لا. . بل بينا أن ألفاظ هذه الروايات وحدها تحمل أكبر شبهة، كالذي روي عن هذا اللاذقي المسمى معاذ بن إسماعيل، وقد روي الخبر بطوله في كتب كثيرة، وأوردناه بتمامه في كتابنا ص 45 - 47 واختصره الأخ سعيد في كلامه في العدد (161) من الرسالة، ولا أدري لم اختصره، فإن الذي يقرؤه يجد فيه سمة الوضع والكذب مستعلنة كما لم تستعلن في حديث غيره. وقد بينا بعض وجوه نقده في كتابنا من ص 49 - 52. فكانت حجة الأستاذ سعيد في رد قولنا وإسقاطه أنه (لم يجد فيه مقنعاً به من القوة ما يقف لهذه الروايات الصحيحة)، وكان حقاً على الأستاذ أن يعلمني وجوه الضعف في قولي حتى أستبرئ منه، أما هذه الكلمة المجرّدة فليست بالتي تسقط كلامنا جملة واحدة حتى ولو كان هذا الكلام سقطاً محضاً.

أما ما اعترض به علينا فنحن نبين له وجه بُطلانِه. يقول: (وإذا كان ما ذهب إليه الأستاذ صحيحاً، ففيم كان خجل أبي الطيب كلما سئل عن أمر لقبه المتنبي. . .؟) إلى آخر قوله:

فإن هذا الخجل الذي يزعمونه إنما هو من أباطيل الرواية، وقد أتى به القوم ليعضدوا قولهم في خرافة النبوة. وإذا كان أمر نبوته مشهوراً متعالماً أو كما يقول اللاذقي إن دعوته (قد عمت كل مدينة بالشام)، وقد بلغ من شهرتها أنه قبض عليه من أجلها بالشام أيضاً وحبس (دهراً طويلاً)، وأن له قرآناً أنزل عليه. . يزعم أبو علي بن حامد أن أهل الشام كانوا يحكون له سوراً منه كثيرة وأبو الطيب إذ ذاك بحلب، فكيف يُعقَل بعد هذه الشهرة أن يبتدر إليه هؤلاء فيسألونه عن حقيقة هذا اللَّقَب؟ إن السؤال عن (حقيقة اللقب) بعد هذه الشهرة التي يزعمونها ليدل دلالة قاطعة على وضع هذه الأحاديث المروية والأخبار المتداولة التي تهور كثير من الأدباء في التسليم بصحتها كما فعل الأخ سعيد. ولقد كان هؤلاء الذين يزعمون أنهم سألوا أبا الطيب عن حقيقة اللقب (المتنبي) يسألونه وهو بالشام، وفي الشام أظهر نبوته وفي الشام اشتهر أمره، وأكبر من ذلك أنهم يزعمون أنهم كتبوا عليه وثيقة أشهدوا عليه فيها ببطلان ما ادعاه ورجوعه إلى الإسلام وأنه تائب منه ولا يعاود مثله. فهلا كان الأولى بهم أن يظهروا على هذه الوثيقة ولما يمض عليها كثير دهر، وقد أخذها وال من الولاة فهي - ولا بد - محظوظة في ولايته. وكان أبو الطيب شجا في حلوق الأدباء والشعراء وكثير من أصحاب السلطان وهو في جوار سيف الدولة. وقد أوقعوا بينه وبين أميره بكل ما ملكوا من أسباب للوقيعة، أفتظن أنهم كانوا يحجمون عن إظهار هذه الوثيقة، وإحراجه بها، والعمل بها على تحقيره، ثم على المنافرة بينه وبين سيف الدولة!! كانت كل هذه النقائض بالشام، ومع ذلك لم يكن من أثرها إلا هذه الروايات الضعيفة التي تحمل

ألفاظها الشكوك والريب.
وأسخف من هذه الرواية رواية من يروي أنه كان يعمد إلى التمويه على الناس بقوله: إن هذا اللقب (المتنبيّ) مشتقٌّ من النبوة، فليس يعقل أن أبا الطيب - وهو يعلم أن نبوته كانت مشهورة كما ذكر الرواة - يعمد إلى هذا التوجيه الضعيف الميت، وهو يعلم أنه كاذب، وأن الناس مكذبوه لأنهم يعلمون حقيقة الأمر.
واعتذاره بأنه يكره التلقب به، وأنه يدعوه به من يريد الغض منه فهو بسبيلٍ من ذلك في الضعف والسخف. على أنه مع ذلك لا يدلُّ دلالة ما على حدوث النبوة التي يزعمونها، بل على العكس من ذلك. . . إنه ليَدلُّ على أن هذا اللقب مفتعل موضوع للكيد لَهُ والغض منه،
وأنهم كانوا قد وضعوه له ليغيظوه به. ومثل ذلك كثير في كل عصر ومكان. ولعل الأخ سعيد لا يعدم رجلاً في بلده قد نبزه الناس بنبزٍ يغيظونه به، ولا نشك أن هذا الرجل (يكره التلقب به، وإنما يدعوه به من يريد الغض منه).
وأما كلمة كافور فهي كلمة مفتعلة موضوعة، وإلاّ تكن كذلك، فليس فيها ما يدلّ على شيءٍ محققٍ كان قد حدث من أبي الطيب. وكافور كان قد سمع هذه الدعوى التي يزعمونها عن نبوة أبي الطيب وسلم بها، ثم تكلم، وليس تسليم كافور بها سنداً لها يحقق تاريخها، ويثبت وقوعها بعد الذي ذكرنا لك من ضعف الروايات.
هذا وقد أراد الأستاذ سعيد أن يعلمنا سبل التحقيق في التاريخ فقال: (والتاريخ لا يثبت خيراً أو ينفيه تبعاً لميل مؤلف أو رأيه. . . إلى آخر قوله) وهو قد فعل أكثر من ذلك وأكبر، وذلك أنه بعد اعتراضه قال: (وكافور ليس من الذين يختلقون على شاعر، ولا ممن يروج الاختلاق)، ولم يرد في كلامنا ذكر كافور واختلافه حتى يعقب الأستاذ هذا التعقيب. هذه واحدة، والأخرى أن الأستاذ قد حكم على كافور حكماً لم يرد له ذكر في كتاب، فهل يستطيع أن يؤيد هذا الحكم بالدليل التاريخي والبرهان العقلي أن كافوراً لم يكن يختلق على الناس، ولا يروج الاختلاق. .؟! لقد أتينا نحن بالروايات ونقضناها بالدليل - ضعيفاً كان أو قوياً - أما أستاذنا فقد حكم على رجل بغير دليل ولا بينة من التاريخ أو غيره.
ثم بقي اعتراض الأستاذ الذي يقول فيه: (وأمر ادعاء المتنبي العلوية ليس فيه ما يهيج عليه الناس كل هذا). وأنا لا أعلم ماذا يريد الأستاذ سعيد بقوله (كل هذا)، وإذا أرادني على أن أجيبه على ذلك فليبين لي صورة المبالغة في قوله (كل هذا)، فأنا لا أعلم من أمر هذه المسألة أكثر من أن الرجل قبض عليه بالشام وحبس. أما هياج الناس فلم يرد له ذكر في كلامنا ولا في كلام الرُّواة. وأما حبسه أو قتاله من أجل العلوية فليس ببدع في التاريخ، وكان لزاماً على الأستاذ قبل أن يكتب هذه الجملة ويصوغ هذا الاعتراض أن يرجع إلى كتب التاريخ ليعلم أن الذين قاتلوا أبا الطيب وحبسوه، كانوا قد قاتلوا من قبله قوماً أو حبسوهم من أجل ادعاء العلوية، وكذلك فعلوا مع العلويين الذين خرجوا عليهم في أرضهم وديارهم. فقتاله وحبسه ليسا يثبتان أن هذا الذي كان من أبي الطيب إنما كان إظهاره النبوة لا ادعاءه العلوية.
وبعد، فلو حمل الأخ سعيد نفسه على تدبر الذي كتبناه في المقتطف عن المتنبي لما وقع هذا الاعتراض الذي حاك في صدره، وقد أشرنا مرات في كتابنا إلى وجوب ذلك، فقد كنا نترجم للرجل ترجمة صحيحة يقرؤها القارئ ليتمثل صورة هذا الشاعر العبقري وفاء له وتقديراً بعد مرور ألف سنة على وفاته، فلم يكن سبيلنا أن نتعرض لأصول النقد وشرحها وتفصيلها، ولم نأخذ الروايات جميعها بالنقد مرة واحدة، فأن ذلك كان يقتضي منا وقتاً كثيراً وكتاباً كبيراً، ولكن من يطلع على الذي كتبناه منصفاً متدبراً عارفاً بطرف من أصول نقد الرواية يعلم يقيناً أننا لم نكتب حرفاً واحداً إلا بعد أن استوفينا عندنا نقد الأخبار (خبراً خبراً) كما يريد الأستاذ سعيد، وليس عسيراً على المتدبر أن يستخرج من الذي كتبناه الأصول التي نقدنا بها هذه الأخبار. ولعل الأستاذ قد قرأ كثيراً مما فاضت به الصحف والمجلات عن المتنبي، وقرأ في خلال ذلك كثيراً من نقد الأخبار التي رويت، ولعله رأى أيضاً أن هؤلاء قد اتخذوا كتابنا مصدراً استنبطوا منه أصول النقد التي وضعناها، وقاسوا عليها فأخطئوا وأصابوا، وليس هو بأقل منهم حتى يفوته ما أصاب غيره.
محمود محمد شاكر

الحنين. . .
للأستاذ محمد شوكت التوني
أخي الصديق. . .
تناولت منذ يومين رسالتك التي أثمرها صمت سنين خمس لم أتلق طوالها كلمة منك، ولا نبأ عنك - بمزيج مبهم من العواطف والأحاسيس. وأدركت - كما تدرك بعض الحقائق الخفية - أو المنكورة في بعض المناسبات - أن كثيراً مما نعتبره مبالغة قد يقع ويظهر لكل عين مجردة كحقيقة عارية، كما يصبح كثير من الوهم أو الخيال مخترعات تحس وتلمس، إذ أن محيط الحياة خفي الأمواج، وخفاء الأمواج يلد العجائب!
لقد كنت أحسبه مبالغة قول من يقول: (إن وصول خطابك قد أعاد إليّ بصري كما أعاد قميص يوسف الضوء إلى بصر يعقوب الحزين الكظيم).
فعرفت بعد ورود خطابك إليّ أن في هذا القول كثيراً من الحقيقة، وأن البصر قد يكون حاسة من الحواس الخمس وقد يكون نوراً ينبعث وهاجاً في القلب، والخاطر، والنفس، وأن بعض الانفعالات قد تسمو وترتقي فتمسى عند صاحبها أقوى من البصر، وأعظم من نفس الحياة. . .
لم ترد يا صديقي أن تكتب إليّ بالتحية، ومحوتها سلفاً من جبين كتابك مدركاً أن التحية إذا ألقيت مجاملة كانت نافلة وعملاً بين الصحاب غير نافع، وإن قصد بها التعبير عن الشوق فتحصيل حاصل. فليس بمنكر أن سنين خمساً لجديرة بأن تلهب قلبي صديقين مخلصين لم يتساقيا من كؤوس الود إلا أصفاها عنصراً وأحلاها مذاقاً وأبقاها أثراً.
ولكم كنت لبقاً وأريباً. وكانت كلماتك مؤثرة حين ذكرتني بعهدي الأدبي الخالي، وأيامه ولياليه الصافية المورد، والساعات التي كنا نمضيها باحثين في فنون الأدب، منتجين أبطال قصصنا، نراهم تحت أسماعنا وفي محيط أبصارنا يعيشون قطعاً من أكبادنا وخفقات من قلوبنا، ودمي تملؤها عواطفنا دماً وروحاً، فينبعث فينا شعور بالرضا والغبطة إن لم يصل إلى غبطة الإله بمن خلق - سبحانه - فهي تسمو وتعلو عن غبطة الوالد عند مرأى أبنائه ونماء فلذات كبده. . . لأن نظرة الأدب إلى أبنائه، وإرهاف أذنيه إلى أحاديثهم يغمرها الحنان الأبوي الغريزي فيعطل فيهما نواحي التفكير ويفسد عليهما حسن التقدير. أما أبناؤنا
نحن فكانوا دائماً محاطين منا بالعاطفة والفكر. . .!
ولعلك يا صديقي حين تذكرني بهذا العهد السعيد الفائت لا تبغي أن تقطع نفسي . . . ونفسك حسرات وتلهب سعير الحزن وتشعل جمرة الأسى، وإنما تقصد الهتاف للخفي المغيب في أعماقي كي تثيره للحركة بعد الخمود، فأنت تقول: (لقد انصرفت عن ميدان الأدب كي تؤدي واجباً وجب، وتقف في الصف الأمين تجاهد في سبيل بلادك وحريتها، وتناضل عن حرية الأفراد المرهقين بعسف المستبدين. والآن وقد انجلى الفجر البديع عن حياة جديدة لمصر بدأت تسفر عن وجهها وترفع النقاب عن جمالها، أما يراجعك الحنين إلى الأدب تغذي عالمه بقلمك. .؟).
أما الحنين يا صديقي فأقسم ما فارقني طوال ذلك العهد، وإنما كان معذبي ومسعدي. فإن هوى النفس - كما تعلم - غلاب لا يقهر، نفاذ إلى مقصده لا يتقهقر، وهو أقوى من الرغبات وأشد منها عناداً، وأسبقها في النفس وجوداً، وهو - بعد - مرآتها العاكسة لعنصرها، فإذا كانت أمارة بالخير، فهواها هو الرشد، يبرز مقنعاً في صورة رأي صائب، أو حركة نافعة.
وكل من في هذا الوجود مسير بالنفس - الأمارة بالخير أو بالشر. ولكل هوى صورة كائنة حية هي ظاهرة في أعمال صاحبه تبدو لأعين الرائين من الناس. كما أن لها ناحيتها الخفية التي لا تظهر ولا تنم ولا تبين. وتلك أرق الصور وألطفها. تولد في الأعماق، وتعيش وتنمو إذا راقها المهد، ولذتها الحضانة، فتطول حتى تصاحب العمر إلى نهاية الأجل. . . تلك الصورة يا صديقي هي (الحنين). . . أثر قوي من هوى النفس وصورته الخفية، يعيش في جوانب العالم الإنساني الخفي ويسبح مع الأمل في الخيال، ويرف مع الرجاء في مسابح الروح، ولكنه أبداً لطيف لا يشف ولا يكتشف ولا يحاول غدر صاحبه فيبدو غصباً.
لا يعاند صاحبه ولا يجادله أو يخاصمه ولكنه أبداً متفق معه متسق وخياله وتفكيره، يقرب له جامحات الأماني ويهون عنده بالغات المصائب، ويذلل له شامسات

المصاعب.
يناجيه ويناغيه ويغذيه في أوقات تأملاته وحين البأس، ويسعده ويبث في نفسه الترسل في العزاء في لحظات الأسى واليأس.
وصاحبك يا صديقي - كما تعرف ولا يعرف الكثيرون - فنان اتقدت شعلة الفن بين جوانحه منذ الصبى فأدرك معناها مبهمة كأنها الغريزة، واندفع في سيال مجراها يقرأ وينتج لا لمال أو شهرة، واستطاع أن يوفق بين حياة الدرس وحياة الفن، غير أن العمر قد تقدم بصاحبك إلى ميدان المسئوليات، وتوزع الجهد بين مختلف ما يطلبه الجهاد في سبيل بلاده، والجهاد في سبيل مهنته، ما يستغرق يومه كله إلا ساعات للنوم ما عرف النوم فيها إلا اسماً ورؤى! فألقى لذلك قلمه لا يكتب في الأدب ولا في الفن، وإنما يكتفي باختلاس بعض الوقت يغذي فيه بعض نهمته للقراءة والإطلاع.
وشقي صاحبك بهذا الجرمان، فقد تزاحمت عليه في حياته الجديدة موجبات للفن من حوادث ذاك الجهاد ومن ألوان ذلك العيش العتيد.
ولكم جلس إلى فكره وخياله ونفسه والشعلة متقدة والنفس راغبة، وقلمه في يده ملتهب الشوق، ويود بقطع الوتين أن يعيش في حياة الدنيا التي يرسمها ويصورها - بل يخلقها - ساعات هي من العمر إن كان بعض العمر حياة وبعضه عدم، فلا يلبث أن يناديه واجبه ولا يسعه إلا رد النداء.
ولعلك تعرف يا صديقي أن صاحبك المحامي يحيا - في مهنته - في محيط من آلام الناس وعذاب بني البشر، يعيش للمظلوم ويجاهد في سبيل الباكي الأسير.
والفنان كما تعرف أيضاً لا يعيش لنفسه وإنما يعيش للإنسانية مختزلة - في زمن حياته - في جيل معين وقوم معينين لا يستريح أو تسعده حياته إذا ظلت خواطره وأفانين إنتاجه وثمار فنه رهن محبسها - في قرارة النفس أو في مستقر الخيال والفكر - وإنما هو شقي بفنه إن لم يؤده إلى مستحقيه، فالشمعة وهي غير مضاءة فيها عناصر الضوء ولكن قيمتها عدم، فإذا أشعلت واتقد لهبها وبدأت تحترق وأعطت نفعها وهي تبذل حياتها طبقة طبقة حتى تخبو وتفنى، وحياة صاحبك - في عمله تعطي له في كل لحظة وحياً وإلهاماً. . . أولئك المظلومون يستصرخ لهم القضاء، والقضاء ظل الله في الأرض ولسان كلمته ويد قضائه وقدره، ولكنما فيه من قدسيته وتنزهه القليل اليسير، فقد ينصف المظلوم وقد ينخدع في حيلة الظالم، وكم تموت حقوق في يد قضاة الحقوق، وأولئك الأبرياء يقفون بين شاطئ الموت وشاطئ النجاة فوق موجة قلقة غير مستقرة، كلمة واحدة تقذف بالموجة إما إلى
اليمين حيث الحرية والحياة، وإما إلى اليسار حيث الفناء وملاقاة رب عادل منتقم كريم. حولهم - في هول موقفهم - أهل وصحب يبكي بعضهم بدموع من قلب حزين، ويتباكى بعضهم بدموع خادعة كاذبة. تتنازع الحياة بآلامها وحسراتها - نفوسهم أضعاف ما تنازع من يبكون عليه. . .
وذلك الأب قتل في سبيل دفع عار عن آله وأبنائه وأحفاده أو في سبيل الحصول على طعام يرد عن أولاده شر المسغبة، تقسو عليه الحياة فيقف في القفص الحديدي ينصت إلى شهادة ولده الصغير وهو يقص على القضاة ما رأى من جريمة أبيه. . .
وتلك الأم الحانية الرؤوم حاول ولدها قتلها عن غواية وطيش، فتدلف محطمة إلى ساحة القضاء تطلب البراءة له وتسترحم في مصيره من بيدهم المصير.
وذلك الزوج أعز زوجه ودللها ومهد لها نعيم الحياة فبادلته بالحب غواية وبالإخلاص خيانة، فأرداها وفقد نعيمها وهو يسير في أغلاله إلى جحيمه، وبذلك فقد النعيمين في الدنيا وفي الآخرة. . .!
ثم أولئك المجرمون - الباغون السفاكون فعلوا فعلتهم - في غاشية، ثم ردت إليهم إنسانيتهم فوقفوا أمام القضاء في ساعة الهول يوقنون بالنهاية المحتومة ويفزعون بالوهم إلى الأمل ويمدون - بأيديهم - حبل أعمارهم. . . بنظرة باسمة من محاميهم!
هؤلاء وغيرهم، وحياتهم تلك اللحظات هي مختصر لكل محيط الحياة يعيش . . .
صاحبك في وسطهم ويحيا لهم ومن أجلهم يوحون إليه الرثاء للإنسانية والبكاء على أطلال الفانين وأشباح المعذبين. . . ويحاول فنه أن يقوم بواجبه كفنان، ولكن واجباً آخر أقوى جذباً وأشد فعلاً يطغى ولا يرضى إلا أن يكون وحده صاحب الحق على شؤون صاحبك الذي يعمل ويعمل، والحنين ماثل في عالمه الخفي يسعده ويعذبه. . .

ذلك الحنين الذي ولدته العواطف المحبوسة والآلام الطائفة كل يوم - بل كل لحظة - بالنفس والقلب، ثم كبر ونما وطال واستطال على كل منزع، وركب كل منفذ، وصعد مع الروح إلى أعلى سبحاتها، وجرى مع الدم إلى أقصى شوط من شرايينه، وغاص إلى أعمق أعماق النفس وسبح في ظلماتها وتراوح في أمواج ضوئها وجاب أنحاء القلب وارتقى صخوره واتأد فوق لينه وامتطى متون غيومه. . حتى أصبحت أحسه كياناً في جوار كياني، أراه في بعض الأحيان ممثلاً
إلى جانبي في صورة طيف أو خيال، وقد أسمعه يناديني ويناجيني، وقد أضطر إلى أن أجيبه فأحدثه وأقارضه نداء بجواب ومناجاة بنجوى. . يسير معي - كالصديق الوفي - في النهار فيكاد يعزلني عن سائر الناس، وفي الليل. . . في الليل الأخير حيث تنام الناس وترقد الأعمال فأبقى في الوحدة والسكون. . . أنا وهو. . . والله ثالثنا. . .
ولكم حاولت أن أفلت من زمامه وأنجو من إساره وأفك عقالي من يديه فما زدت إلا تعلقاً به وتشبثاً بأردانه وأطرافه. . .
لقد غلبني على أمري ونزع شأني من إرادتي فرضيت أسره ولذت لي غلبته. . . وبات مسعدي ومعذبي كما كان. . .
أما اليوم يا صديقي وقد انجلت الغمرة وهدأ ميدان المعركة، وبسم الشهداء في عليين وترنحت النفوس طرباً، ورقصت القلوب فرحاً، وآن للمجاهد في سبيل لحرية أن يغمد سيف جهاده، ويولي وجهه شطر إصلاح بلاده، فقد توفر لي من الوقت نصفه أو يزيد. وسأراجع عهدي القديم وأحاول أن أفك إسار الحنين وأشفي داءه وأروي صداه وأتحرر أنا من أغلاله. . . لعله لا يبقى معذبي ويظل مسعدي وحسب.
سأمسك قلمي وأكتب للأدب والفن. لا أريد مالاً ولا شهرة، فحسبي من الثانية ما نلت، وحسبي من غنى شبع وري. . . وإنما لوجه الحق في صوره السامية: الله والوطن. نجاهد في ميدان الأدب والفن، وعذاب الجهاد في سبيل الحق أسمى مراتب اللذات.
محمد شوكت التوني
للتاريخ السياسي
معاهدة الصداقة والتحالف بين مصر وإنجلترا
- 2 -
ملحقات المعاهدة
ملحق للمادة الثامنة
1 - من غير إخلال بأحكام المادة السابعة يجب ألا يزيد عدد قوات صاحب الجلالة الملك والإمبراطور التي توجد بقرب القنال على عشرة آلاف من القوات البرية وأربعمائة طيار من القوات الجوية ومعهم العدد الضروري من المستخدمين الملحقين للإدارة والأعمال الفنية، ولا يشمل هذا العدد الموظفين المدنيين كالكتبة والصناع والعمال.
2 - توزع القوات البريطانية التي توجد بقرب القنال كما يأتي:
(أ) فيما يتعلق بالقوات البرية في المعسكر ومنطقة جنيفة على الجانب الجنوبي الغربي للبحيرة المرة الكبرى.
(ب) وفيما يتعلق بالقوات الجوية على مسافة خمسة أميال من سكة حديد بور سعيد - السويس، من القنطرة شمالاً إلى ملتقى سكة حديد السويس - القاهرة والسويس الإسماعيلية جنوباً مع امتداد على خط سكة حديد الإسماعيلية - القاهرة بحيث يشمل محطة القوات الملكية للطيران بأبي صوير وما يتبعها من الأراضي المعدة لنزول الطائرات والميادين الصالحة التي قد تنشأ شرقي القنال لإطلاق النار وإلقاء القنابل من الطائرات.
3 - يعد في الأماكن المحددة آنفاً للقوات البريطانية البرية التي حدد عددها في الفقرة الأولى سالفة الذكر بما في ذلك أربعة آلاف من الموظفين المدنيين (مع خصم ألفين من رجال القوات البرية وسبعمائة من رجال القوات الجوية وأربعمائة وخمسين موظفاً مدنياً وهم الذين توجد لهم الآن معدات السكن) ما تحتاج إليه من الأراضي والثكنات الثابتة والمستلزمات الفنية بما فيها توفير الماء الذي قد تستلزمه الطوارئ، وتكون الأراضي والمساكن وموارد المياه مطابقة للنظم الحديثة، وفضلاً عن ذلك تقدم

للجنود وسائل الراحة المعقولة مع مراعاة طبيعة هذه الجهات وذلك بغرس الأشجار وإنشاء الحدائق وميادين
الألعاب الخ. ويعد موقع لإقامة مصحة للنقاهة على ساحل البحر الأبيض المتوسط.
4 - تقدم الحكومة المصرية الأراضي وتنشئ المساكن وموارد المياه ووسائل الراحة ومصحة النقاهة المشار إليها في الفقرة السابقة باعتبارها ضرورية علاوة على ما هو موجود منها الآن في تلك الجهات وذلك على نفقتها الخاصة على ن تساهم حكومة جلالة الملك في المملكة المتحدة بدفع ما يأتي:
1 - المبلغ الذي أنفقته الحكومة المصرية فعلاً قبل سنة 1914 في إقامة ثكنات جديدة أنشئت لتحل محل ثكنات قصر النيل في القاهرة.
2 - تكاليف ربع الثكنات والمستلزمات الفنية للقوات البرية على أن يدفع أول هذين المبلغين في الوقت المحدد بالفقرة الثامنة الآتي ذكرها لانسحاب القوات لبريطانية من القاهرة. ويدفع المبلغ الآخر في الوقت المعين لانسحاب القوات البريطانية من الإسكندرية طبقاً للفقرة الثامنة عشرة الآتي ذكرها؛ وللحكومة المصرية أن تتقاضى إيجاراً مناسباً نظير استعمال المساكن المعدة لإقامة المستخدمين المدنيين ويتفق على قيمة الإيجار بين حكومة صاحب الجلالة والحكومة المصرية.
5 - بمجرد نفاذ هذه المعاهدة تعين كل من الحكومتين فوراً شخصين أو أكثر تتألف منهم لجنة يعهد إليها بجميع المسائل المرتبطة بتنفيذ هذه الأعمال من وقت البدء فيها إلى حين تمامها. وتقبل مشروعات التصميمات ورسومها التخطيطية (الكروكية) والمواصفات التي يقدمها ممثلو حكومة صاحب الجلالة في المملكة المتحدة بشرط أن تكون معقولة وألا تتجاوز مدى التزامات الحكومة المصرية الواردة في الفقرة الرابعة.
ويجب أن يقر ممثلو كل من الحكومتين في هذه اللجنة التصميمات والمواصفات الخاصة بكل عمل تقوم به الحكومة المصرية قبل البدء فيه. ويكون لكل عضو في هذه اللجنة وكذلك لقواد القوات البريطانية أو ممثلهم حق فحص الأعمال في جميع أدوار إنشائها كما يجوز لممثلي المملكة المتحدة من أعضاء اللجنة تقديم مقترحات بشأن طريقة تنفيذ العمل. ولهم أيضاً حق اقتراح تعديل التصميمات والمواصفات أو تغييرها في أي وقت أثناء سير العمل، وتنفذ المقترحات والمشروعات التي يقدمها ممثلو المملكة المتحدة في اللجنة بشرط أن تكون معقولة وأن لا تتجاوز مدى التزامات الحكومة المصرية الواردة في الفقرة الرابعة. وفيما يتعلق بالآلات
وغيرها من المهمات حيث تكون لوحدة الطراز أهميتها قد اتفق على أن تكون المهمات التي تشترى وتركب من الطراز المقرر والمستعمل عامة في الجيش البريطاني.
ومن المفهوم طبعاً أنه يجوز لحكومة صاحب الجلالة في المملكة المتحدة أن تقوم على نفقتها الخاصة بعد استعمال القوات البريطانية هذه الثكنات والمساكن بإدخال التحسينات والتغييرات وإنشاء مبان جديدة في المنطقة المحددة في الفقرة الثانية السالف ذكرها.
6 - تحقيقاً لبرنامج الحكومة المصرية في تحسين الطرق ومواصلات السكك الحديدية في القطر المصري ولإبلاغ وسائل المواصلات فيها إلى مستوى حاجات الفنون الحربية الحديثة - تتولى الحكومة - المصرية إنشاء الطرق والكباري والسكك الحديدية المبينة بعد وصيانتها.
1 - الطرق
1 - بين الإسماعيلية والإسكندرية عن طريق التل الكبير والزقازيق وزفتي وطنطا وكفر الزيات ودمنهور.
2 - بين الإسماعيلية والقاهرة عن طريق التل الكبير ومن يستمر على ترعة المياه الحلوة إلى هليوبوليس.
3 - بين بور سعيد والإسماعيلية فالسويس.
4 - مواصلة بين الطرف الجنوبي للبحيرة المرة الكبرى والطريق الممتد من القاهرة إلى السويس على مسافة خمسة عشر ميلاً تقريباً غربي السويس.
ولإبلاغ هذه الطرق إلى المستوى العام للطرق الجيدة الصالحة لحركة المرور العامة سيكون عرضها عشرين قدماً ويكون لها تحويلات حول القرى الخ وتنشأ من مواد من

شأنها أن تجعلها صالحة دائماً للانتفاع بها في الأغراض الحربية، وأن تنشأ بحسب ترتيب أهميتها سالف الذكر، وأن تطابق المواصفات الفنية المبينة بعد وهي المواصفات العادية للطرق الجيدة الصالحة لحركة المرور العام.

وتكون الكباري والطرق صالحة لتحمل صفين كاملين من سيارات النقل الميكانيكي الثقيلة ذات الأربع عجلات أو من ذوات الست عجلات أو من الدبابات المتوسطة الحجم. ففيما يتعلق بالسيارات ذات العجلات الأربع يكون البعد بين الدنجل الأمامي لأية سيارة وبين الدنجل الخلفي للسيارة التي أمامها عشرين قدماً ويكون الثقل على كل دنجل خلفي أربعة عشر طناً وعلى كل دنجل أمامي ستة أطنان، وتكون المسافة بين الدنجلين ثماني عشرة قدماً. وفيما يتعلق بالسيارات ذات العجلات الست تكون المسافة بين الدنجل الأمامي لكل سيارة منها وبين الدنجل الخلفي للسيارة التي أمامها عشرين قدماً، والمسافة بين الدنجل الخلفي والدنجل الأوسط أربع أقدام، وبين الدنجل الأوسط والدنجل الأمامي ثلاث عشرة قدماً، ويكون الثقل على كل من الدنجلين الخلفي والأوسط 8 , 1 طناً وعلى كل دنجل أمامي أربعة أطنان. أما الدبابات فتقدر باعتبار أن وزنها 19 , 25 طناً وطولها الكلي خمساً وعشرين قدماً والبعد بين مقدم إحداها ومؤخر التالية لها رأساً ثلاثة أقدام، ويكون ثقل الـ19 , 25 طناً محملاً على شريطين يرتكزان على مسطح قدره ثلاث عشرة قدماً من الطريق أو الكوبري.

السكك الحديدية

1 - تزداد تسهيلات السكك الحديدية في منطقة القنال وتحسن لسد حاجة القوات بعد زيادتها في تلك المنطقة ولتسهيل سرعة نقل الرجال والمدافع والعجلات والمهمات بالقطارات وفقاً لما تقتضيه حاجة الجيوش الحديثة.

ويرخص بموجب هذا لحكومة صاحب الجلالة في المملكة المتحدة بأن تنشئ على نفقتها الخاصة ما قد تقتضيه حاجات القوات البريطانية في المستقبل من الإضافات والتعديلات على السكك الحديدية. فإذا مست هذه الإضافات أو التعديلات الخطوط الحديدية المستعملة للنقل العام وجب الحصول على إذن بذلك من الحكومة المصرية.

2 - يجعل الخط بين الزقازيق وطنطا مزدوجاً.

3 - يحسن الخط بين الإسكندرية ومرسى مطروح ويجعل دائماً.

7 - فضلاً عن الطرق المبينة في الفقرة السادسة 1 السالف ذكرها وللأغراض ذاتها ستنشئ الحكومة المصرية الطرق المبينة بعد وتقوم بصيانتها.

1 - الطريق من القاهرة بمحاذاة النيل جنوباً إلى قنا وقوص.

2 - من قوص إلى القصير.

3 - من قنا إلى الغردقة.

وستنشأ هذه الطرق والكباري التي تقام عليها وفق نفس المستوى المبين في الفقرة السادسة ذكرها.

وقد لا يتيسر إنشاء الطرق المشار إليها في هذه الفقرة والطرق المشار إليها في الفقرة السادسة في وقت واحد ولكنها ستنجز بقدر المستطاع.

8 - وحينما تتم الأماكن المشار إليها في الفقرة الرابعة على ما يرضي الطرفين المتعاقدين (ولا تدخل في ذلك المساكن الخاصة بالقوات التي ستبقى مؤقتاً بالإسكندرية طبقاً للفقرة الثامنة عشرة الآتي ذكرها) وتتم الأعمال المشار إليها في الفقرة السادسة السالف ذكرها (عدا السكك الحديدية المبينة في الشطرين 2و3 من الجزء ب من تلك الفقرة) تنسحب القوات البريطانية الموجودة في أنحاء القطر المصري غير الجهات الواقعة في منطقة القنال والمبينة في الفقرة الثانية السالف ذكرها مع استثناء القوات الباقية مؤقتاً بالإسكندرية، وتخلي الأراضي والثكنات ومنازل الطائرات البرية ومراسي الطائرات البحرية والأبنية التي تشغلها القوات وتسلم إلى الحكومة المصرية إلا ما قد يكون منها ملكاً للأفراد.

9 - أي خلاف في الرأي بين الحكومتين في تنفيذ الفقرات 3 و4 و5 و6 و7 و8 السالف ذكرها يعرض للفصل فيه على لجنة تحكيم مؤلفة من ثلاثة أعضاء تعين كل من الحكومتين عضواً منهم ويعين الثالث بالاتفاق بين الحكومتين ويكون قرار اللجنة نهائياً.

10 - تحقيقاً لحسن تدريب الجنود البريطانية قد اتفق على إعداد المناطق المحددة بعد لتدريبها. ويجري التدريب في المنطقتين أوب طول السنة. وتكون المنطقة ج للمناورات السنوية خلال شهري فبراير ومارس.

أ - غربي القنال من القنطرة شمالاً إلى خط سكة حديد السويس القاهرة جنوباً (بما في ذلك الخط المذكور) وإلى خط طول 31 , 30 شرقاً بحيث تستمد كل الأراضي المنزرعة.

ب - شرقي القنال. حسب الحاجة.

ج - امتداد المنطقة (1) جنوباً إلى خط العرض الشمالي 29 , 52 ومن ثم في الجنوب الشرقي إلى ملتقى خط العرض الشمالي 29 , 30 بخط الطول الشرقي 31 , 44 ومن هذه المنطقة شرقاً على امتداد خط العرض الشمالي 29 , 30 ومساحات المناطق المشار إليها فيما سبق مبينة على الخريطة الملحقة بالمعاهدة (مقاييس رسم 1 - 500 , 000).

11 - تمنع الحكومة المصرية الطيران فوق الأراضي الواقعة على جانبي قنال السويس وعلى مسافة عشرين كيلو مترا منها إلا ما كان بقصد العبور من الشرق إلى الغرب أو بالعكس في ممر عرضه عشرة كيلو مترات عند القنطرة ما لم تتفق الحكومتان على غير ذلك. على أن هذا المنع لا يسري على قوات الطرفين المتعاقدين ولا على هيئات الطيران المصرية الصميمة ولا على هيئات الطيران التي تتبع حقيقة أي جزء من أجزاء مجموعة الأمم التي تتكون منها الدولة البريطانية وتعمل تحت سلطة الحكومة المصرية.

12 - تضم الحكومة المصرية عند الضرورة وسائل المواصلات المعقولة للوصول من وإلى الجهات لتي ترابط فيها القوات البريطانية كما أنها تقدم ببور سعيد والسويس التسهيلات الضرورية لتفريغ المهمات الحربية والمؤن اللازمة للقوات البريطانية وخزنها، ومن هذه التسهيلات إبقاء فصيلة صغيرة بريطانية في هاتين الميناءين لتسلم وحراسة هذه المهمات والمؤن عند مرورها.

13 - نظراً لأن سرعة الطيران الحديث وسعة مداه تقتضيان استخدام مساحات واسعة لحسن تدريب القوات الجوية فإن الحكومة المصرية تأذن للقوت الجوية البريطانية في الطيران حينما ترى ضرورة لذلك من أجل التدريب. ويكون لقوات الطيران المصرية مثل هذه المعاملة في الأراضي البريطانية.

14 - نظراً لأن سلامة الطيران تتوقف على إعداد كثير من الأماكن لنزول الطائرات فإن لحكومة المصرية ستهيئ وتيسر على الدوام المنازل والمراسي الصالحة لنزول الطائرات البرية والبحرية في الأراضي والمياه المصرية. وستحقق الحكومة المصرية أي طلب يقدم من القوات البريطانية لإعداد المنازل والمراسي الإضافية التي تدل التجربة على ضرورتها لجعل العدد كافياً لحاجة المحالفة.

15 - تأذن الحكومة المصرية للقوات الجوية البريطانية في استخدام منازل الطائرات البرية ومراسي الطائرات البحرية السالفة الذكر وفي إرسال مقادير من الوقود والمهمات إلى القوة منها لخزنها في مكان تقام عليها لهذا الغرض وفي القيام في أحوال الاستعجال بأي عمل قد تقتضيه سلامة الطائرات.

16 - تمنح الحكومة المصرية جميع التسهيلات اللازمة لمرور مستخدمي القوات البريطانية والطائرات والمهمات من والي منازل الطائرات البرية ومراسي الطائرات البحرية السالفة الذكر وتمنح مثل هذه التسهيلات لموظفي القوات المصرية وطائراتها ومماتها في القواعد الجوية للقوات البريطانية.

17 - تكون للسلطات الحربية البريطانية حرية استئذان الحكومة المصرية في إرسال جماعات من الضباط يرتدون الملابس الملكية إلى الصحراء الغربية لدراسة الأرض ورسم الخطط الحربية ولا يرفض هذا الإذن دون مبرر معقول.

18 - يرخص صاحب الجلالة ملك مصر لصاحب الجلالة الملك والإمبراطور في إبقاء وحدات من قواته في الإسكندرية أو على مقربة منها لمدة لا تتجاوز ثماني سنوات من تاريخ نفاذ هذه المعاهدة وهي المدة التقريبية التي اعتبرها الطرفان ضرورية لما يأتي:

أ - لإتمام بناء الثكنات في منطقة القنال نهائياً.

ب - لتحسين الطرق الآتية:

1 - الطريق بين القاهرة والسويس.
2 - بين القاهرة والإسكندرية عن طريق الجيزة والصحراء.
3 - بين الإسكندرية ومرسى مطروح، وذلك للوصول بها إلى المستوى المبين في جزء أمن الفقرة السادسة.
ج - تحسين السكك الحديدية بين الإسماعيلية والإسكندرية وبين الإسكندرية ومرسى مطروح كما أشير إلى ذلك في الشطرين 2و3 من الجزء ب من الفقرة السادسة.
وتتم الحكومة المصرية العمل المبين في الشطرات أوب وج السالفة الذكر قبل انقضاء مدة الثماني سنوات المذكورة آنفاً، وستتولى الحكومة المصرية طبعاً صيانة الطرق ووسائل المواصلات المذكورة فيما تقدم.
19 - تظل القوات البريطانية الموجودة بالقاهرة أو بجوارها إلى وقت انسحابها طبقاً لنص الفقرة الثامنة السالف ذكرها كما تظل القوات البريطانية الموجودة بالإسكندرية أو بجوارها إلى نهاية الوقت المحدد في الفقرة الثامنة عشرة السالف ذكرها متمتعة بالتسهيلات التي لها الآن.

في العدد القادم (تتمة الملحقات)

الفلسفة والإلهيات

اتفقت كلمة الشعوب الإسلامية على أن العصر الذهبي للخلافة قد ازدهرت فيه مذاهب في الفلسفة، كانت عربية إسلامية ذاعت في العالم ذيوعاً واسع المدى، وأن المعاهد الإسلامية قد مهدت لظهور الجامعات الأوربية، وكانت المثال الذي به تقتدي وعلى هداه تسير.

وهذه النظرة المنطوية على اعتبار الإسلام مصدر الحضارة الأوربية، نشأت في رحابه، ودرجت في ظلاله، واستقت من معينه، لا نراها منبثة في الكتب الأدبية التي أريد بها مجرد الدعاية فحسب، بل نراها شائعة - بحق أو غير حق - في أكثر البحوث القيمة التي ساهم فيها العلماء من المسلمين المحدثين وتناولت تقدم الأنظمة الإسلامية وتاريخها في العصر الوسيط.

وإنا لنرى في الأدب الغربي بين الحين والحين إشارة إلى ما يطلقون عليه اسم (الفلسفة العربية)، كما نرى طائفة من كتاب الغرب تذهب إلى أن الفلسفة المسماة بهذا الاسم ليست إلا خليطاً من آراء القدماء لا تجانس بين مواده المتنوعة، قد ترك ليتفاعل وينضج، فهم منتهون إلى أن ليس هناك شيء اسمه (فلسفة عربية) وإلى أن الشعوب الناطقة بالضاد لم تفعل شيئاً أكثر من أنها استولت على الفلسفة اليونانية التي كنت شائعة بين المسيحيين من أهل سوريا، والمثقفين من أهل حران الوثنيين، ثم أضافت إليها بعض عناصر استمدتها من فارس والهند.

ومهما يكن من شي فإن من الحق أن نرد الفلسفة العربية في مادتها وصورتها وغايتها إلى حضارة البلاد التي غزاها العرب، وأن نعتبر الفلسفة اليونانية المعين الذي استقوا منه مذاهبهم.

ومهما قيل عن هذا الأمر في العصور الحديثة فإن العلماء المسلمين في العصور المتقدمة لم يخطئوا السبيل إلى فهم هذه الحقيقة. فالجاحظ البصري المتوفى سنة تسع وستين وثمانمائة بعد الميلاد - وهو كاتب قدير متبحر كان تأثيره في أسبانيا الإسلامية على جانب عظيم من الأهمية - يعترف اعترافاً واضحاً بفضل الفكر اليوناني على أهل ملته فيقول: ألم تبلغنا كتب القدماء التي خلدوا فيها حكمتهم الرائعة، وعالجوا بين صفحاتها دروس التاريخ المتشعبة، حتى بدا الماضي حياً أمام أبصارنا؟ ألم تصل إلى أيدينا نفائس تجاربهم التي ما كنا بغير هذه الكتب لنعرفها أو لنصيب في الحكمة حظاً يذكر، أو نسلك للتحصيل سبلاً معقولة؟

وفوق ذلك فإن الفلاسفة وعلماء الكلام لم يحاولوا في أكثر أبحاثهم أن يخفوا عن الناس النبع الذي نهلوا منه.

وما كان التعلل بالعلم ليخدع المسرفين في التعصب للقرآن وسنة النبي. فكانت الأبحاث العقلية المجهولة للعرب في عصر الرسول تلقى استنكاراً شديداً كما كان الذين يدخلون في الإسلام بدعة يستمدونها من مصدر أجنبي معرضين لهذا النوع من الاستنكار، وكانوا يقولون إن الفلسفة (حكمة مشوبة بالكفر) - وإذا استعرضت أسماء

المؤلفات ككتاب: عرض لمخازي الإغريق ومنها للحكم الدينية - وكتاب البرهان الحسي على تفنيد الفلسفة في القرآن عرفت ما تتضمنه الكتب مما يؤيد ما نقول - وثمة حكاية متداولة عن فيلسوف معروف عدل عن آرائه وهو على فراش الموت، وكانت آخر عبارة قالها: صدق الله العظيم وكذب ابن سينا.

ومن الحق كذلك أن نذهب إلى القول بأن ما أضافه العرب من الثقافة الإنسانية إلى تراث من سبقهم من المفكرين لم يكن كبير الشأن ملموس الأثر. وبالرغم من هذا، ومع أننا على يقين من أن ما خلفته الحضارة الإسلامية لا خطر له، أوليس أكثر مما ورثته عن غيرها من الحضارات، فليس من العدل في شيء أن ننكر عليها توصلها إلى الجمع بين الأفكار الفلسفية على نمط مميز لها، تلك الأفكار التي عزاها علماء المسلمين إلى أنفسهم.

وإنه لمن الظلم البين أن نحقر من شأن الشغف في طلب العلم من أجل العلم، ذلك الحماس الذي كان يتقد في صدور جموع غفيرة من الناس في رحاب الدولة الإسلامية المترامية الأطراف.

وفي الحق أن لعبارة (الفلسفة العربية) معنى معيناً عند المستشرقين، فهم يعرفون أن بين العرب الخلص الدم واحداً فذا هو (الكندي) قد امتاز بطول باعه في المسائل الفلسفية، ولكنهم يعرفون - إلى جانب هذا - أن ذلك الخليط الغريب الذي يغلب عليه التنافر - والذي ائتلف من الأرسطاطالية والأفلاطونية الحديثة، وسلم به أكبر الفلاسفة المسلمين كتفسير معقول للكون - يعتبر عربياً قبل كل شيء وإن لم يكن إسلامياً، لأن أكبر زعمائه كثيراً ما كانوا مسلمين بالاسم أو زنادقة جهروا بذلك جهراً أدى إلى ضياع حياتهم أو فقدان
حرياتهم.

ولو أن العرب كانوا برابرة كالمغول الذين أطفئوا جذوة العلم في الشرق إطفاء لم ينبعث من بعدهم البتة - وقد لا ينبعث أبداً بسبب ضياع دور الكتب وفقدان الآثار الأدبية - لو أنهم كانوا كذلك، لتأخر عصر الأحياء عن موعده في أوربا أكثر من قرن.

وليس من شك في أن حياة طالب العلم قبل عهد الطباعة كانت تفيض دائماً بالضجر واليأس، وكان مألوفاً عند الكثيرين من طلاب العلم أن يقوموا في طلبه برحلة يقطعون فيها ألف ميل أو يزيد في سبيل البحث عن معلم يتلقون عنه العلم. ولبثوا يقاسون هذه المشقة حتى العصر الذي قامت فيه الجامعات الإسلامية - بل إلى ما بعد هذا العصر - وقد قام الشبان برحلات طويلة من الأندلس إلى مكة أو من مراكش إلى بغداد، تاركين دورهم وهم خالو الوفاض أملاً في التتلمذ لأستاذ يصادف اختيارهم.

ولعل في وسعنا الآن أن نقول كلمة في نشأة الجامعات الإسلامية: فأولاها هي المدرسة النظامية المعروفة ببغداد، وقد قام بتأسيسها نظام الملك صديق عمر الخيام ووزير السلطان السلجوقي (ألب أرسلان) سنة سبع وخمسين وأربعمائة للهجرة، أي في العام السابق للفتح النورماندي لإنجلترا. ثم قامت بعد ذلك بقليل جامعات أخرى في نيسابور ودمشق وبيت المقدس والقاهرة والإسكندرية وغيرها من البلدان، وكثيراً ما قامت في مدن اشتهرت بالعلم قبل قيام الإسلام كما سيأتي ذكر ذلك بعد.

من (الكتاب الذهبي) قبل أن يطبع
لغة الأحكام والمرافعات
تتمة
للأستاذ زكي عريبي

- 6 -

أنشئت المحاكم الأهلية سنة 1883 فلم يَزُل عهد الركاكة دفعة واحدة. صحيح أنك لم تعد تطالع (هذا المرأة) و (تلك الرجل) و (هؤلاء الشخص) و (منه ينفهم) و (لذا وكون ما ذكر) و (من حيث ليس) و (ما توري) و (سبوق المخاطبة) و (تحت الأهمية) و (كون من سابقة التحقيق) و (كون من ذا يتضح) و (كان جاري المشاجرة)، لم تعد تطالع هذا وأمثاله، ولكنك تقع على لغة ما زالت سقيمة معتلة كلغة هذا الحكم الصادر من محكمة الجنايات الاستئنافية سنة 1887، قال يروي وقائع الجريمة:

وكان عند القتيل قبلاً واصف أغا متبنيه وجاعلاً له نصيب في بعض ملكه، ثم كرهه) وطرده واستبعده من المنزل قبل الواقعة بشهر وكان فيروز أغا مدخراً في منزله

أمتعة ذات قيمة، فواصف وعبد الله وخديجة المذكورة عملوا على قتله باتفاق بينهم، وفي الليلة المعهودة توجه واصف أغا إلى المنزل وكان فيروز أغا خارجا عنه وكمن في السطح بواسطة خديجة حتى حضر فيروز أغا وكانت خديجة في صالة معتاد نومها فيها وعبد الله معد له محل بالحوش وفي آخر الليل اجتمع الثلاثة على بعضهم ودخلوا على فيروز أغا وأعدموه الحياة).

إلى أن قال يورد الأدلة على سبق الإصرار ويشير إلى النصوص:

ومنها اعترافه (أي القاتل) أن خديجة كانت تشتري له ملابس وتناوله نقود من) مصروف الأغا على أمل الأغا سيزوجها وهذا يفيد سبوق سعيه في إعدام الأغا.

وحيث أن هذه الأدلة قد أثبتت على عبد الله السوداني التعمد وسبق الإصرار والتربص على قتل فيروز أغا بالأسباب المذكورة صار عبد الله يستحق العقاب بالقتل عملاً بالمادة 208.

وحيث أن من يحكم عليه بالإعدام يشنق.

وحيث أن باقي المتهمين مثبوت اشتراكهم في السرقة باعتراف اثنتيهم).

وهاك ما يقوله حكم مدني ابتدائي صدر في السنة عينها (صحيفة 250 حقوق) يردد ما جاء في صحيفة الدعوى.

وحيث أن حالة المرض الذي اعترى المدعي لا يمكن شفاه قطعياً وأن بعينه اليمنى) غطاطة وأن علته من الجسيمة ولا يمكن أن يؤدي أشغاله بالميري، ولما كان قضى حياته في خدمة الحكومة وأفقد بصره في أثناء تأدية خدماته كان من باب العدالة أن يربط له معاش).

على أن المحكمة لم تكن أفصح عبارة فيما رأته من (أن المدعي يمكن معالجته واستحصاله بعدها على كمية من النظر).

بل انظر ماذا تقوله محكمة الاستئناف (في الأودة المدنية والتجارية):

من حيث أن الأعمال المدعى بأجرائها سلامة بك (المدعي) في المدة المذكورة هذه) ليست أعمال مستجدة صار تكليفه بها بل إنها استعلامات واستفهامات ويجب عليه في كل الأحوال استبقا تلك المأمورية في يوم أخلاه منها.

وأن سلامة بك أجرى مناظرة المهمات المذكورة).

ولهذا توضح للبيك الموما إليه بتلك الإفادة بأنه يعلم مسألة تلك الرسوم وأنه يلزم) إعطاء أفكاره فيما تطلبه مصلحة السكة الحديد.

وهذا لا يعد عمل جديد.

وحيث أنه لما علم للحربية بناء على طلب سلامة بك قررت اللجنة بتعيين واحد كاتب) بماهية شهري 1200 قرش.

وحيث بناء على هذه الأسباب يتعين لغو الحكم الابتدائي).

وفي السنة عينها نشرت مجلة الحقوق بحثاً في (الاقتصاد المدني)؛ ولكن بوادر لغة سليمة بدأت تظهر وسط هذا الضعف كتلك التي يشرح بها هذا الحكم الصادر من إحدى المحاكم الابتدائية عدم قابلية بعض الالتزامات للانقسام.

فلنبحث الآن عن ماهية التعهد غير القابل للانقسام فنجد أنهم عرفوه بقولهم هو ما) كان

موضوعه شيئاً أو عملاً لا يمكن الوفاء به مقسماً وقت تكوين العقد. وقد قسم العلامة ديمولان الشهير التعهدات غير القابلة للانقسام إلى ثلاثة أنواع: النوع الأول عدم الانقسام الناشئ عن العقد وهو المعبر عنه بعدم الانقسام الطبيعي أو المطلق أو الضروري. . .

فيظهر جلياً أن عدم الانقسام هذا هو اضطراري وخارج عن إرادة المتعاقدين لأنه ليس في وسعهم وقدرتهم تغيير ماهية وطبيعة الأشياء).

ثم طفرت لغة المحاكم طفرة سعيدة وظهر التحسن واضحاً ملموساً في العشر سنوات التالية على يد فحول غذى بهم القضاء الأهلي بعد سنة 1890. أنظر إلى هذه الدائرة بمحكمة الاستئناف كيف أصبحت تكتب برياسة حامد محمود وعضوية قاسم أمين ودوهلتس (حقوق سنة 1896).

وحيث أن القاضي بتخطيه هذه الحدود (أي حين يتخطى القيود الموضوعة في قانون) تشكيل المحكمة) صار عديم الصفة في الفصل وأصبح كأنه في بلد أجنبي. ومتى

انعدمت صفة المحكمة في الفصل لا تكون أحكامها أحكاماً ولا قضاتها قضاة، وإنما يكونون كأفراد فصلوا فيما رفع إليهم وصاغوا فصلهم في قالب الأحكام. وإن كان ذلك في استطاعتهم فليس في وسعهم أن يمنحوها من عندياتهم ما حرمه الشارع من القوة).

وما أجمل هذا الإيجاز في بيان موضوع النزاع المطروح على دائرة أخرى (دائرة أحمد عفيفي وسعد زغلول وكوريت):

وحيث أن نقطة النزاع في هذه الدعوى هي من هو ملزم بدفع مبلغ المائة وثمانين) جنيهاً إلى الخواجة سكوبو، هل تكون الست نفيسة ملزمة أو الشيخ أحمد الحكيم أو الاثنان معاً؟ وفي الحالة لأخيرة: هل تلك الملزومية بالتضامن أم لا؟).

ومضى الرقي في طريقه بعد ذلك غير وان ولا متردد، فساير سمو الأسلوب نضوج الفكر، واكتشفت أو نحتت ألفاظ عربية كثيرة لتؤدي معاني فقهية حديثة، وغمر سيل هذه النهضة المباركة دور المحاكم كلها لا فرق بين جزئية وابتدائية واستئنافية. ثم جاءت محكمة النقض في العهد الأخير فطبعت لغة الأحكام بطابع جليل ممتاز جمع إلى دقة الأداء برشاقة اللفظ وجمال الأسلوب.

لسنا نبالغ ولا نلقى القول بغير دليل. (وعلى من مارى - كما يقول رئيس محكمة النقض
الجليل في خطبته الخالدة - أن يقرأ فأنه لا رأي لغير مطلع عليم).

وإن المطلع العليم ليحار أي زهر يقتطف وسط هذه الجنة الفيحاء. لقد طغى تيار الإجادة فاكتسح بقايا العجمة وضآلة التعبير وأصبحنا حتى في القضايا البسيطة أمام أحكام حبك نسجها وأشرقت ديباجتها. اقرأ هذا الحكم لقاض جزئي فاضل (إسكندر حنا) يقرر فيه القواعد التي يجب على سائقي السيارات مراعاتها إذا ما اقتربوا من تقاطع شارعين، ويتحدث عن ماهية هذه القواعد قانوناً:

وحيث أن المدعي المدني يقول إنه كان سائراً في شارع رئيسي ومن حقه أن يأمن) السير فيه ولا يعكر عليه أمنه السيارات الخارجة من الشوارع المتقاطعة فواجبها ألا تخرج إلى الشارع الرئيسي إلا بعد الاستيثاق من خلوه.

وحيث أنه ليس في اللوائح أو الأوامر الإدارية تقسيم الشوارع بين رئيسية وفرعية وما هي إلا قواعد أوحى بها العقل، فتواضع الناس على العمل بها اتباعاً لما تقضي به مصالحهم وما يستوجبه ضمان أرواحهم أثناء سيرهم في الطرق العمومية وتنظيمها لمرورهم. . . والواجب يقضي على من يقود سيارة في شارع متقاطع مع شارع رئيسي أن يتحقق قبل محاولة اجتيازه من خلوه أو من إمكانه المرور فيه قبل أن تدركه السيارات السائرة فيه، ولكن ليس معنى ذلك أن السائق الذي يسير في شارع رئيسي يتهاون في قيادته إلى حد الخطأ أو الإهمال، فأنه يتعين عليه أن يكون شديد الحذر كلما اقترب من نقطة التقاطع وأن يخفف من سرعة سيارته اجتناباً للمفاجآت التي قد تحصل على غرة).

بيان كامل لما احتواه رأس الكاتب من قهم صحيح لقواعد السير، خطته يراعة مالكة لناصية الألفاظ تضعها حيث يجب أن توضع في أسلوب سهل وشيق.

واقرأ هذا الحكم للقاضي (حسن جاد) في قضية رفعها رجل على شريكه في الجريمة بطلب استرداد ما دفعه إليه ثمناً لاشتراكه، ووجد القاضي نفسه أمام رأيين فقهيين لكل منهما أنصاره ومخالفوه. أنظر كيف يؤيد الرأي الذي اختاره لنفسه تأييد أديب بارع:

وحيث أن المدعي عليه دفع بعدم قبول الدعوى قولاً منه بأن استرداد المبلغ على) فرض حصول دفعه أمر غير جائز لأن الدفع إنما حصل تنفيذاً لارتكاب جريمة يعاقب عليها القانون.

وحيث أن هذه المسألة وإن اشتد الجدل وكثر التحاور واختلفت الآراء وتناقضت الأحكام بشأنها، إلا أن المحكمة ترى رجحان المذهب القائل بجواز الاسترداد. لا لأنه هو المذهب السائد المتغلب بين الشارحين والمحاكم فقط، بل لما فيه من مزايا وما في عكسه من آفات.

وتعليل ذلك ظاهر لأن في اعتماد الدفع إفراراً للمحظور وتشجيعاً للفاجر على فجره. دع أن القانون نفسه لا يرتب أثراً للعقد القائم على سبب غير مشروع، ولا يمكن أن

تفهم هذه القاعدة وتدرك حكمتها إلا إذا محوت أثر التعاقد وعاد ما كان إلى ما كان. ذلك خير من الرأي القائل بأنه لا ينبغي مساعدة أي من طرفي التعاقد لأنه ليس لمن خالف القانون أن يستعين بالقانون ليحميه. ذلك بأن أصحاب هذا الرأي وهذه حجتهم لم يعبئوا بما يترتب على المنع من معاملة القابض على السحت معاملة أخف وأصلح من معاملة القابض على الحلال. بل إن هذه الحجة قد تلتوي على أصحابها في بعض الأحوال ويكون من نتائجها أن تتفاوت المعاملة بين العاقدين فيحل لأحدهما ما يحرم على الآخر.

وهذا من الوجهة القانونية. وأدب النفس يقضي بأن ما خرج عن النظام العام يجب إرجاعه إليه؛ ولما كان تنفيذ العقد الباطل خروجاً عن النظام وجب إلغاء التنفيذ ورد الحالة إلى ما كانت عليه قبله. ومن مصلحة المجموع أن يعلم سلفاً كل مقدم على مباشرة عقد باطل أنه لا يملك تنفيذ العقد بل ولا يملك الاحتفاظ بما تم لمصلحته تنفيذاً للتعاقد).

لغة ممشوقة تحبب إليك لو كنت من قضاة الدرجة الثانية البحث في الدعوى وتصور لك قاضي الدرجة الأولى رجلاً له قيمته فلا تقبل على هدم حكمه إن أردت الإلغاء إلا بحذر واحتراس.

وهذا قاض ثالث - مصطفى مرعي - يجيد كتابة الأحكام على حداثة عهده بالقضاء. أنظر كيف انقلب قلم المذكرات الجامح يراعة متزنة هادئة تتخير لكل لفظ موضعه ولا تتزيد في الأسباب حرفاً. أنظر إليه يطبق قاعدة أن العبرة في العقود بمعانيها لا بمبانيها:

(وحيث أن الطعن الثاني الذي وجهه المدعي للعقد يتطلب البحث فيما إذا كان العقد المذكور قد استوفى شروط البيع فيكون ملزماً للبائع أو هو لم يستوف هذه الشروط خلافاً لظاهره فيكون هبة أو وصية يسترها بيع.

وحيث أن المحكمة عند إجراء هذا البحث لا تستطيع أن تنظر إلى العقد في ظاهره دون

أن ترجع إلى الظروف التي أحاطت بالمتعاقدين، لأن العبرة في وصف العقود بالحقيقة التي قصدها المتعاقدون لا بالصورة التي تدل عليها الألفاظ والنصوص. كما أن المحكمة لا تستطيع أن تنظر إلى العقد المذكور مستقلاً عن الورقة الأخرى التي استصدرها الوالد من ابنه على طول المدة التي تقرب من سنة بين تاريخ العقد وتاريخ الورقة سابقة الذكر لأن تحرير هذه الورقة معناه أن المتعاقدين أرادا أن يكملا بها العقد بحيث يصبح منه جزءاً لا ينفصل، أو تكون معه كلا لا يقبل التجزئة).

تلك نماذج للغة الأحكام في يومنا الحاضر أتينا بها على سبيل التمثيل لا الحصر، فإن مجموعات الأحكام زاخرة بثمار قرائح خصبة وأقلام مواتية.

(وعلى من مارى أن يقرأ فإنه لا رأي لغير مطلع عليم).

وحدث ولا حرج عن أحكام محكمة النقض والإبرام في عهدها الحاضر. ارجع إلى أي حكم تقع عليه يدك من أحكام دائرتيها. اقرأ ما شئت بلا تمييز تقرأ أدباً عالياً قد أسبغ على قضاء المحكمة العليا ما كان يجب له من روعة وجلال.

لسنا نحاول هنا تحليلاً لهذه الناحية من أدب العصر، ولكن من ذا يملك أن يمر دون أن يقف وقفة إعجاب وطرب على مثل هذا القول لمحكمة النقض ترسم به حدود حرية النقد:

(وبما أن ما ذهب إليه الحكم المطعون فيه من أن العرف جرى على المساجلة بالعبارات الحماسية والأساليب التخيلية وألفاظ التهويل والمبالغة والتحذير والترهيب لمجرد التأثير على النفس وحملها على التصديق في الشؤون التي ليس من المستطاع حمل الناظر على تصديقها بالطرق البرهانية الهادئة. هذا الرأي لا تجيزه محكمة النقض والإبرام، بل إنها تصرح بأن فيه خطراً على كرامة الناس وطمأنينتهم وتشجيعاً للبذاءة ودنس الشتائم. والحقيقة ليست بنت التهويل والتشهير والمبالغة والترهيب بل بنت البحث الهادئ والجدل الكريم. وإذا كان لحسن النية مظهر ناطق فإنه الأدب في المناظرة، والصدق في المساجلة).

بل انظر إلى لغة هذه العاطفة الجياشة تجلجل بحق الإنسان إذا عذبه إنسان لا فرق لدى حارسة القانون بين رجل ورجل:

وبما أن هذه المعاملة التي أثبتت المحكمة أن المجني عليه كان يعامل الطاعنين بها)
هي إجرام في إجرام، ومن وقائعها ما هو جناية هتك عرض يعاقب عليها القانون بالأشغال
الشاقة. وكلها من أشد المخازي إثارة للنفس واهتياجاً لها ودفعاً بها إلى الانتقام. ولو
صح أن المأمور كان يطلب نوم الطاعنين بمركز البوليس كما يقول الشاهد الذي
اعتمدت المحكمة شهادته، وكان هذان الطاعنان يتخوفان من تكرار ارتكاب مثل هذه
المنكرات في حقهما كما يقول وكيل أحدهما في تقرير الأسباب وفي المرافعة
الشفهية، فلا شك أن مثلهما الذي أوذي واهتيج ظلماً وطغياناً والذي ينتظر أن يتجدد
إيقاع هذا الأذى به - لا شك أنه إذا اتجهت نفسه إلى قتل معذبه فإنها تتجه إلى هذا
الجرم موتورة مما كان، منزعجة واجمة مما سيكون؛ والنفس الموتورة المنزعجة هي
هائجة أبداً لا يدع انزعاجها سبيلاً إلى التبصر والسكون حتى يحكم العقل هادئاً متزناً
فيما تتجه إليه الإرادة من الأغراض الإجرامية التي تتخيلها قاطعة لشقائها. ولا شك بناء
على هذا أن لا محل للقول بسبق الإصرار، إذ هذا الظرف يستلزم ألا يكون لدى
الجاني من الفرصة ما يسمح له بالتروي والتفكير المطمئن فيما هو مقدم عليه).
نظرة إلى الأمام
والآن وقد استدبرنا حياة اللغة القضائية كما كانت، واستعرضنا بعض الأدلة القائمة على
نهضة حالية لا تنكر، نود لو استطعنا أن نزيح طرفاً من سجف المستقبل فنطل على ما
يعده الزمن لهذه اللغة الكريمة العزيزة.
كأني بها وقد راق لها الجو وانبسط أمامها ميدان العمل فسيحاً غير محدود، كأني بها
وقد استولت على مشاعر جيل جديد ممعن في الأدب وثقافة العصر، فراح يفكر فيها
ويكتب ويؤلف، وكأني بهذا الجيل وقد ضرب بسهم في جهود البشرية نحو الكمال،
وكأني بمصر وقفت على قدميها في طليعة العالم العربي تبادل الغرب ثقافة بثقافة
وتبيعه علماً بعلم.
لست بحالم. إني أرى هذا اليوم رأي العين.
(تم البحث)
زكي عريبي
نهضة المرأة المصرية - 2
وكيف توجه للخير العام
للأستاذ فلكس فارس
نحن في الشرق، وما أعني سوى الشرق العربي، مجلي ثقافتنا وقوميتنا، لا يهمنا سوى
إيجاد الطفل، ولم نزل مسيرين بعقلية القبائل الغازية فنطمح إلى إيجاد الأطفال دون
مبالاة بما تؤثر منابتهم عليهم.
إن خير ما تستثمر به المرأة للخير العام إنما هو استثمارها أطفالاً يصلحون لتكوين
الأمة القوية أجساماً والسليمة عقولاً، وما النهضة المتجلية بين العدد القليل من بنات
الشرق بالنهضة التي يصح أن نراها نهضة عامة متغلغلة في قلب الشعب نفسه؛
فالمجتمع لم يزل في الشرق العربي بأسره يتبع الإفراط والتفريط في تكوين الأسرة،
فالمرأة عندنا اثنتان: ضحية استبداد الرجل، وضحية الضلال والغرور بنفسها لضعف
الرجل إزاءها.
ليس لنا إلا إلقاء نظرة على ما حولنا ليأخذ بصرنا مشهدين هما مقتل الأمة وعلة
دمارها.
المشهد الأول: شاب يفتش عن فتاة لتكون أماً لبنيه، قيل له إن في إحدى الأسر
الشريفة فتاة بيضاء اللون أو سمراء، واسعة الأحداق طويلة القامة فاتنة ساحرة
فسعى في أثرها متوسلاً إلى أهلها بكفاءته، فأصبح زوجاً للمجهولة، نكرة ضمت إلى
نكرة. . . . فلا يطول الزمن حتى يظهر التنافر الخفي الكامن في الفطرتين فتبدأ
المآسي التي تختتم على الأغلب بإهداء المجتمع أطفالاً تيتموا وآباؤهم وأمهاتهم لا
يزالون على قيد الحياة. وهنالك الأسر المتعددة لرجل واحد امتنع عليه العدل
المشروط فأهدى المجتمع الأخوة الأعداء، وما يبر بأبيه من كان لأخيه عدواً. . .
المشهد الثاني: فتاة في ربيع الحياة، مقصومة الشعر، غلامية تصادر وتباطن أي رجل
كان، مهتوكة الستر، محولة هيكل الإنسانية إلى مهبط غواية وطيش، إن لم يتجاوز عدد

مراقصيها المئات، عدت مقصرة في ميدان الثقافة، متأخرة في حلبة الحضارة والارتقاء، لا يصل قلبها إلى من تقف عنده وتختاره زوجاً لماله أو لجاهه إلا بعد أن يكون هذا القلب قد تقطعت أعشاره خفوقاً، فهي إذ ذاك كالنعجة التائهة راجعة إلى حظيرتها بعد أن تركت قطعاً من صوفها، وقد تكون تركت قطرات من دمها على أشواك الطريق. . .

هي في بيت الزوج لنفسها أولاً، وكل غيرة تبدو منه إنما تتجلى لديها كفراً بالتمدن وتقهقراً معيباً، تعودت أوتار قلبها أن تشد جواباً لكل قرار، فهي تدفع بالإيقاع الموقت مرافقة رنين أي وتر وتستعذب نغماته، روحها شاردة مضللة، فهي منبت أطفال يأتون الحياة مروعين، في أعصابهم تشوش، وفي أدمغتهم اختلال. . .

هذه خطوط كبرى لرسوم تمر مشاهدها أمامنا كل يوم في هذه البلاد الشرقية، وهذه المشاهد هي مركز العلة فينا ومصدر كل ما نشكو من تأخر وانحطاط.

إن سيادة الرجل على المرأة لا تعني قتل الحوافز الطبيعية لتضليل الانتخاب الخفي وفيه سر تحسين الأنسال، كما أنه لا يعني استضعاف الرجل أمامها لتجعل نفسها ملهاة وألعوبة بين أيدي الفاحشين من الرجال.

لقد أدخلت مدنية الفرس على الحضارة العربية بدعاً لابد من التحرر منها، وجاءت المدنية الغربية تستهوي مجتمعنا بما اتضح زيفه لدى مفكري الغرب أنفسهم لخروجه عن المحور الطبيعي للحياة، وهذا الذي يراه أنصار الطفرة خليقاً بالإعجاب من حرية المرأة، المتطرفة، إن هو في نظرنا إلا عنوان عبوديتها وذل الرجل المتساهل فيها.

إن آدم وحواء أخرجا من الجنة وكل منهما حامل ناموس حياته، وسواء أكان ما جاء في التوراة تاريخاً حقيقاً للمؤمنين أم كان أسطورة خيالية لغيرهم، فإن المفكر ليجد فيه النظام الذي لا تستقر الإنسانية على سواه.

لقد تمردت المرأة في العالم الحديث على وظيفتها الطبيعية وصاح كثيرات من الكاتبات في وجه الدنيا قائلات: لا نريد أن يحسبنا الرجل آلة للاستيلاد، نحن مساويات له في مجال التفكير والعمل. وكهربت هذه الكلمات أعصاب العدد الأوفر من النساء فتمردن على الأمومة واندفعن مطالبات بالعمل الحر استناداً إلى مبدأ الشخصية قبل النوع؛ وهكذا نشأ العراك بين الرجل والمرأة في ميدان الأعمال وفي مجال الحقوق والواجبات.

إن الطبيعة نفسها قد قسمت العمل بين الرجل والمرأة فألصقت كفه بالمحراث وألصقت صدرها بالمهد. فحسبت المرأة أن في موضعها كل العبودية، وخيل لها أن في مركض جهود الرجل كل الحرية، فسلخت صدرها عن مستقر الطفل واندفعت إلى المحراث، فتعطل الحرث العميق في الأرض منابت القوت، وساد الظلام على البيت منابت الأطفال.

إننا نسمع المعترضات يصرخن قائلات: إننا لا ننازع الفلاح محراثه، بل ننازع الرجل حقنا في الاشتراك في الأعمال التي تقوم المدنية عليها؛ نريد التغلغل في دوائر الحكم والإدارات والمصالح فإن الله لم يحرمنا القوة الفكرية التي جاد بمثلها على الرجل. ونحن نجيب السيدات بحقيقة إن أنكرها العاملات منهن كنّ كاذبات مكابرات، فنقول وهل هذه الأعمال على اختلاف مظاهرها سوى محراث يحتك بالأرض القاسية وهو يرتوي بعرق العبودية والشقاء؟ أليس الرجل في الحكم والإدارة والتجارة والصناعة مرتبطاً بمحراث العبودية لهذا التراب يعالجه لاستخراج الخبز بعرق الجبين؟ وهل الأم تملأ البيت نوراً وحكمة وشعراً مستندة إلى ذراع زوجها ومنحنية على سرير طفلها أقل مجداً أمام الحياة من أكبر رئيس لأعظم مصلحة من مصالح الشعوب؟

ليس في العالم رجل عامل، أيا كان عمله لا يخضع إرادته لمن فوقه ولمن حوله، بل ولمن دونه في مراتب الهيئات العاملة، فليس ما تتوهمه المرأة حرية في أعمال الرجال إلا عبودية لهم. على أنه إذا تسنى للرجل أن يحتفظ بشيء من الكرامة لنفسه في هذه العبودية، فإنه ليمتنع على المرأة ألا تصطدم في مواقفه بإهانات أخف منها أثقل ما يمكن أن يلحقها من القيمين عليها، آباء أو أخوة أو أزواج.

لقد كان حق المرأة في جميع العصور تابعاً لحق الرجل وهو يسود عليها، إلى أن طرأ على أوربا انقلابها المعروف في بداية القرن التاسع عشر، فنشأ في المجتمع حق جديد غريب في عناصره، هو حق المرأة منفصلاً عن حق الأسرة التي يرأسها الرجل، وهكذا

شاهدت الشمس ما لم تشهد مثله في أي عصر من العصور الغابرة: شاهدت النوع البشري منشقاً إلى فريقين متناظرين يتناطحان في الميادين العامة، بعد أن كان هذا النوع لبشري إنساناً واحداً من جسدين مندغمين ينبثق من اندغامهما فجر الحياة.
أما منشأ هذا التطور فانقلاب خطير لم يصور فجائعه أحد كما صوره الشاعر الخالد الفرد دي ميسيه، فإذا ما اقتطفنا بعض عباراته لا نخرج عن دائرة الموضوع الذي نحاول الإلمام بأطرافه.
قال: (في إبان الحروب الإمبراطورية، بينما كان الآباء والأخوة في بلاد الألمان قذفت الأمهات المضطربات بسلالة شاحبة جاءت الوجود عنيفة مستعرة الأحشاء.
تلك سلالة تمخضت بها الحياة بين حربين، وربيت في المدارس على دوي الطبول، فكان إذ ذاك ألوف من الأولاد يحدج بعضهم البعض الآخر شزراً وهم يمرنون على القوة عضلاتهم الضعيفة، وكان الآباء الملطخون بالدم يلوحون للأبناء من حين إلى حين فيرفعونهم لحظة إلى صدورهم المحلاة بالذهب ثم يتركونهم إلى الأرض ويعودون ممتطين صهوات الجياد).
وبعد أن وصف ميسيه سقوط نابليون مدفوعاً بجناحي القدر إلى أغوار الأوقيانوس البعيد، قال:
(وجرت في مجتمعات باريس أمور مروّعة، إذ انشق الرجال عن النساء، فلبس النساء البياض كالعرائس، واتشح الرجال السواد كالأيتام، ووقفت الفئتان تحدج إحداهما الأخرى بنظرات العداء. انفصل الرجال عن النساء فتولد عن هذه الانفصال شيء أشبه بالنصل القاطع لا شفاء لجرحه، وما ذلك النصل إلا عاطفة الاحتقار.
فقد الرجل حبّ المرأة، فاندفع إلى الخمر ليستعيض عما فقد، ونظر الناس إلى الحب نظرهم إلى الدين كأن كليهما توهم واغترار، وغصت المواخير بالرجال فأصبحت الفتاة مهملة بعد أن كانت تغذي الشبيبة بحبها الطاهر السامي، وعندما احتاجت هذه الفتاة إلى غذاء ورداء باعت نفسها وبذلت عرضها لتعيش. إن الشاب الذي ترك الفتات وكان يمكنه أن يستنير وإياها بأنوار شمس الله، ذلك الشاب الذي كان في وسعه أن يقتسم مع حبيبته لقمة الخبز مبللة بعرق جبينه ويتمتع بحبها في فقره، أصبح مستفرشاً لدمن الإنسانية في مواخير الفسق حيث يتلاقى بالفتاة التي تركها وهي مثقلة بالأوصاب، شاحبة مضعضعة، يجول على فمها الجوع ويرعى قلبها التبذل والفساد. .).
(يتبع)
فلكس فارس
في الأدب الإنكليزي
هل من انتحال في الأدب الإنكليزي؟ - 4
للسيد جريس القسوس
- 7 -
تشاترتن والانتحال
لم يكن أحد من معاصري تشاترتن يشك في صحة ادعائه أن هذه الأشعار منسوبة إلى الكاهن رولي، بل كلهم يوقنون أن تشاترتن إنما عثر على هذه المنظومات في مخطوطات الكنيسة وسجلاتها، فنقحها ونشرها في مختلف الصحف، معلناً أنها اكتشافات أدبية جديدة.
لهذا كان في برستل أدبيان كبيران من هواة الأدب الرولي، هما جورج كتكوت وهنري برْجمْ هذان حفزهما الولع بهذا النوع من الأدب إلى جمع كلّ ما يعزى إلى ذلك الكاهن الخيالي؛ من ذلك مخطوطة أدبية وضعها تشاترتن، ونسبها إلى رولي، فابتاعها برْجمْ منه بخمسة شلنات، ظاناً أنها بقلم الكاهن رولي.
ولقد بلغ بتشاترتن طموحه الأدبي إلى مراسلة الصحف، سنة 1761، حين بلغ السابعة عشر من العمر، أن أعلن اكتشافه لقصائد شهيرة (من نظم كاهن من كهنة برستل، اسمه رولي، عاصر هنري السادس، وإدوارد السابع)، لكنه لم يتلقّ جواباً مرضياً شافياً؛ لهذا بعث إلى الأديب النبيل هوراس ولبول مؤلف قصة (قلعة أوترانتو) ينبئه باكتشافاته الأبية. فردّ عليه الأديب ولبول رداً حسناً، يستزيد فيه معرفة عن ناظم هذه الأشعار، وعن مقدارها، واعداً أن ينشرها على نفقته الخاصة.
وما كان من تشاترتن إلا أن عاد فبعث إليه بكتاب رقيق، يشرح فيه بؤسه وفقره،

ويتوسّل إليه في إيجاد عمل له، يستطيع به أن يسد عوزه؛ وأرفق ذلك الكتاب ببعض الأشعار الرولية الممتعة. غير أنه ما كاد ولبول يتسلم هذه الأشعار، حتى سرّ بها سروراً دفعه إلى إطلاع أصدقائه عليها؛ من هؤلاء الشاعران الكبيران طوماس جري وميسن فأدهشهما الأسلوب الرائع، والفن البديع، والنفَس الشعري العالي إدهاشاً خالطت معه أفكارهما الريبة في أمر انتسابها إلى كاهن قديم العهد. فكن ذلك بدء المشكلة الرولية في عالم الأدب
الإنكليزي.

لكن المشكلة لم تتطور وتتعقد إلا بعد وفاة تشاترتن، فقد جمعت هذه الأشعار ونشرت في مجلد خاص، كما بينا، سنة 1803؛ فأحدث نشرها ضجة صاخبة في عالم الأدب لم تخمد حتى يومنا الحاضر.

عندئذ بادر علماء اللغة إلى دراسة لغة هذه الأشعار دراسة وافية دقيقة، استطاعوا بها أن يكشفوا بعض الكشف عن حقيقة الأمر. فقد توصلوا في بحثهم إلى الاعتقاد الجازم بأن لغة هذه الأشعار لا يمكن أن تنسب إلى الشاعر رولي، إذ كيف يصح ذلك وكثير من مفرداتها لم تتسرب إلى اللغة الإنكليزية إلا بعد القرن الذي عاش فيها الكاهن رولي؟ وأخيراً استدلوا من بحثهم العميق على أن تشاترتن كان يعتمد في كتابة أشعاره على قاموسين في الاشتقاق للعالمين اللغويين بيلي وكَرْسي فقد كان دأبه في بدء الأمر جمع كل ما تقع عليه يده من المعاني والمفردات القديمة البالية؛ ثم كان ينحت ما يستطيع نحته منها، إذا رأى أن الوزن والقافية لا يستقيمان بغير ذلك.

ولقد أدرك علماء اللغة، وخاصة العلامة اللغوي الشهير ولتر سكيت أنه كان يكتب أولاً بلغة عصره، وبعد ذلك يحوله بمضاعفة حروف المفردات وغير ذلك من السبل الحاذقة إلى أسلوبه ولهجته الخاصة، بطريقة يحافظ فيها على جمال الأسلوب الشعري وروعته الفنية.

ولقد عثر علماء اللغة في شعر تشاترتن المنسوب إلى رولي على اقتباسات من شعر سبنسر وشكسبير، ودرايدن وبوب، وقري، لكنها موضوعة بطريقة لا يشتم منها سرقة أدبية، وإنما تدل على ذاكرة حادة، وعثْ هذه الأشعار، وأرسلتها في شتى المناسبات، بطريقة يتعذر معها على القارئ التمييز بين ما هو لتشاترتن، وما هو لغيره. وذلك مما يدل كل الدلالة على أن هذه الأشعار من نظم تشاترتن، لا الشاعر الخيالي رولي. إذ كيف يصح ذلك، ورولي - في رأي تشاترتن - عاش في عصر متقدم على هؤلاء الشعراء جميعاً؟

ومما زادهم ريبة وشكاً في أمر هذه الأشعار الرولية، إدراكهم - على ممر الأيام - حذق تشاترتن ومهارته في تقليد أساليب الكتاب والشعراء المعاصرين تقليداً يتعذر معه على القارئ التمييز بين أدب تشاترتن وأدب غيره. فكان مثلاً ينشر في مجلة & ومجلة مقالات رائعة، حاكى فيها أسلوب جونيس محاكاة مدهشة؛ ليس هذا فحسب، بل دفعه حذقه في فنون الكتابة وأساليبها الشعرية والنثرية إلى تقليد صمُلِتْ وتشارتشل ومكْفرسن في أوشان وبوب في أسلوبه الكلاسيكي، وقري وكولنز

وقد طرق - فرق ذلك - معظم أبواب الأدب فخلّف آثاراً قيّمة في الرسائل السياسية، وأناشيد الرعاة والشعر الغنائي والهجائي، والرواية الملحّنة ومن أشهر آثاره في هذا الباب أوبرا (الثأر)

والحاصل أن دراسة تطور اللغة، واشتقاق مفرداتها؛ وعثور العلماء على معان في شعر تشاترتن مقتبسة من شعراء متأخرين، وإدراكهم حذقه في محاكاة الأساليب والفنون النثرية والشعرية، ونفي المؤرخين زعم تشاترتن بوجود كاهن اسمه رولي عاش في القرن الخامس عشر وعرفه الناس واستمعوا إليه - جميع هذه أظهرت بجلاء واضح بطلان زعم تشاترتن، ودلّت دلالة صريحة أن هذه الأشعار لم تكن في الحقيقة إلا من نفثات براعة ذلك الشاعر الشاب، وأنه إنما اخترع الكاهن رولي اختراعاً لتمثيل فكرة أو نحو خاص في حياته، أو ليلهي به الناس، وليُرضي به حاجة أدبية أو خلقية في نفسه.

عندئذ سما تشاترتن في أعين الأدباء وكبر، وأصبح ديوانه خير ما يمثل عبقرية الشباب في ميدان هذا الفنّ الجميل.

الكرك - شرق الأردن
جريس القسوس
الشاعر وسريره
للشاعر الحضرمي علي أحمد باكثير
- في عزلتي - والصمت في أفقها ... وفي ثراها الوحشة القاتلة
أُديرِ عينيّ فما إن ترى ... عيناي إلا ظلمة شاملة!
تقطّعت فيها خيوط المنى ... يا ويلتا. . حتى المنى الباطلة!!
كنت بها أمرح في جنَّةٍ ... تسخرِ منها النُّوَب الهازلة
وحين غابَتْ فتلمستها ... دوَّتْ بسمعي ضحكة هائلة!
عدتُ بها أحمل جَنْبي إلى ... سريريَ المضطرب الحائرِ
كبائس أضناه فرط الطوى ... مرّ بقصرٍ شامخٍ عامرِ
خارت به أركانه فارتمى ... وا رحمتا للحَدَثِ الخائرِ!
يرنو إلى النور. . ويُذكي الأسى ... في قلبه قهقهةُ السّامر!
مثل أغاني الموت طنانة ... في أذن المحتضَرِ البائرِ!
ويح سريري! هو بي مشفق ... يوسعني عطفاً وتحنانا
يحضنني جذلان. . . حتى إذا ... أدرك ما بي ارتدّ أسوانا!
كم وَدّ أن يسلس جنبي له ... فما ارتضى جنبي ولا لانا!
لا. . يا سريري، خلّني والأسى! =نَمْ. لا تُبَلْ فوقك سهرانا!
ما كان أحراك بتنفيس ما ... يبهظني لو كنتَ إنسانا!
أقسُ على جنبي ترفّه به ... عنّي، ففي لينك آلامي!
يُذْكِرُني لينَ الرضى والهوى ... ولين آمالي وأحلامي
ولن أُعافَى ما تذكّرتُها ... ناكئةً في قلبي الدامي!
أعدُّ ساعاتيَ. . . يا ليتني ... أسهو فلا أحسب أعوامي!
يا ليت لليأس سبيلا إلى ... قلبي فَأوقَى سُحْر أيامي!
يا ليت لليأس سبيلا إلى ... قلبي فأحيا بفؤاد خلي
واعجبا منّيَ أستَنْجِد الْ ... يأس كأنّي لم يمتْ مأملي!
ما أنا فيه اليأسُ! لو لم أكن ... عن راحة اليائس في معزل!!
مصيبتي هذا الشعور الّذي ... يربط ماضيَّ بمستقبلي
مَنْ لي بإنسائيَ نفسي، فلا ... أذكر ما اسمي: خالد أم علي؟!
نجمة المساء
'
لألفريد دي موسيه
ترجمة أحمد فتحي مرسي
يا رسولَ السماءِ في ذلك الليْ ... لِ ويا بهجة الظلام المهيبِ
من سُجوفِ المساء جبهتكِ الغرّ (م) ... اء لاحت تنيرُ بعد الغروبِ
ما الذي ترقبين - من قصركِ الأز ... رق - في ذلك الفضاءِ الرحيبِ
هدأت ثورةُ الرياح وقرَّت ... وبدا الكونُ غارقاً في السكونِ
وغصون الرياض في الليل تبكي ... فيهُز الربى بكاءُ الغصون
والفراش الجميلُ في هدأةِ الليْ ... لِ يجوب الحُزونَ إثْر الحُزونِ
هو ذا ضوؤُك البهيج تجلى ... وبدا زاهياً على الآكامِ
أنت في الليل دمعة من لجينٍ ... تتلألأ على رداءِ الظلامِ
ترقبين المروجَ والراعيَ الشي ... خَ يجوب الربى مع الأغنامِ
ما الذي تنشدين يا نجمتي الزه ... راء في ذلك الوجود الغافي
فوق هذي التلال قد بثُّ أرعى ... وجهك الضاحك الجميل الصافي
أظلم الليلُ غير نظرتك الحيْ ... رى تجلّى وضوئك الرجَّافِ
فلسطين
للسيد جورج سلستي
إيْ فلسطين، قطعةً من سماءِ ... كنتِ قبلاً، وجنَّةً من رُوَاءِ
تملأُ العينَ ساحراتُ مغاني ... ك وتسبي الفؤاد منكِ المرائي

فالجمالُ المئنافُ ما شعَّ إلاَّ ... تحت أَجوائِكِ الحِسانِ الوِضاءِ!
يطفحُ السهلُ منكِ بالرونق الضح ... يان، والسفحُ بالسنى والسناءِ
وترفُّ الأمجادُ فوقكِ يا أرضَ الن ... بوءاتِ، رفَّةَ الأَضواءِ
وجلالُ الماضي المضمَّخ بالسؤ ... ددِ والعزِّ والعلى والإِباءِ!
كم تهاديتِ فوقَ هام التواري ... خ، دنيا سحريَّةَ الأَنحاءِ
يلعبُ النور فوق ضاحي صياصي ... ها ويلهو على ثرى الأَوْداءِ!
كم تجلَّيتِ في الوجود سماءً ... رصَّعتْها كواكبُ لأنبياءِ!
تنفحُ الناسَ بالعدالة والسل ... م وبالحلم والتقى والإِخاءِ!
إِيْ فلسطينُ، مهبطَ لوحي والإل ... هامِ والدينِ والهدى والحياءِ
جنةً كنتِ فاستحلتِ جحيماً ... بوجود اليهودِ والأوصياءِ!
كنتِ بالأمسِ ملْءُ باحاتكِ السلمُ ... فأصبحتِ ساحة الهيجاءِ!
قَثراكِ الفسيحُ قد غصَّ (بالتَنْك) ... وبالطائراتِ رحبُ الفضاءِ
وتبارى بأهلك العُرْب تمشي ... لاً وفتكاً، جندُ الوصيِّ المرائي!
فاستحلوا قتلَ البريء، فما يُبْ ... صَرُ إلاَّ مضرَّجٌ بالدماءِ
وأديمٌ مخضَّبٌ وصعيدٌ ... قد علتْهُ نثارةُ الأشلاءِ
إن تحت الدم المرقرقِ أفوا ... هاً وطئ الأشلاءِ رجْعَ نداءِ
تستفزّ النفوس للأَخْذ بالثأ ... رِ وللانتقام للشهداءِ!
والميامينُ لا تنامُ على الضي ... م ولا تستكينُ للأعداءِ
ودماءُ الأحرارِ مَهْرُ المعالي ... وصَداقُ الحريَّةِ الحمراءِ!!
اصعدي، اصعدي، فأنَّ الضحايا ... يا فلسطينُ سُلَّمُ العلياءِ

القصص

قصة مصرية

قبلت زواجها

للأستاذ دريني خشبة

(الحوار في الأصل باللهجة المصرية)

جلس (عم حامد) على حفافي الماء يغسل آثاراً من الدم الأحمر القاني في ملابسه، ثم توضأ وولى وجهه شطر القبلة وطفق يصلي. . .

ولكنه كان يصلي صلوات غير منتظمة ولا متساوقة. . . فتارة كان يطيل الركوع جداً، وتارة كان يخطفه خطفاً. . . ومرة كان يطيل السجود حتى يظن أنه نائم، ومرة أخرى كان لا يكاد يمس الأرض جبينه حتى يستوي جالساً؛ وكان مرة يصلي ركعة واحدة ويسلم، ثم يصلي ركعتين أو ثلاثاً أو أربعاً. . . ومرة كان يستمر في صلاة طويلة لا تكاد تنتهي!. . . عشر ركعات أو خمس عشرة ركعة. . . وهكذا!!

وكان يعود إلى الترعة فيتوضأ ويتوضأ، ثم يعود فيصلي ويصلي. . . وكان يرفع كفيه إلى السماء، ويعلق عينيه المغرورقتين بزرقتها، ثم يلهج بذكر الله، ويصلي على نبيه، ويكثر من قول: (لا حول ولا قوة إلا بالله!!) ولكنه كان يكثر كذلك من قول: (عمر، عمر، عمر!) ثم يبكي بكاء مرا!

وكان كلبه الأمين يُقعي بعيداً عنه، وينظر إليه ويتعجب!

- (من عمر يا عم حامد؟ السلام عليكم!).

- (أوه! عبد الله! تعال يا عبد الله نصلي ركعتين لله!).

- (أي صلاةٍ الآن؟ باق على الظهر ساعة يا عم حامد!).

- (ساعة على الظهر! والله يا بني أنا فاكر أن لشمس لم تطلع بعد!).

- (لا يا عم حامد! نحن في الشتاء والغيوم تحجب السماء، ولكن من عمر الذي تناديه يا عم حامد؟).

- (عمر؟ عمر من؟ عمر بن الخطاب!).

- (وماذا تريد من عمر بن الخطاب في هذا البرد القارس؟).

- (لا شيء. . . فقط. . . ذكرته في جاهليته وقد خرج الفجرَ ليدس ابنته في التراب وكانت الطفلة تعبث بشعر ذقنه فينظر إليها ويبكي. . مسكين سيدنا عمر! كان له حق! كان له حق.

- (كان له حق حين ذهب يدفن ابنته حية؟! يا للقسوة؟).

- (والله كان له حق يا عبد الله! البنات! آه من البنات يا بني!).
- (استغفر الله يا شيخ! مالك مضطربٌ هكذا يا عم حامد؟).
- (أستغفر الله!؟ صحيح! أستغفر الله، أستغفر الله).
- (الله أكبر. . . ما هذا الدم يا عم حامد!).
- (دم! أيّ دم؟ آه! هذا من جرح بسيط في ذراعي يا عبد الله).
- (وماذا جرح ذراعك؟).
- (وقعت على هذا الحجر وأنا أتوضأ، وكانت عنده زجاجة. . . هل بذرتم البرسيم؟).
- (بذرنا البرسيم؟ نحن (نعلف) بهائمنا منه وأنت تسأل عن بذره؟ ماذا بك يا عم حامد؟).
- (لا شيء! اتركني يا عبد الله! أود أن أنام قليلاً، أنا متعب يا بني، لم أنم طول الليل . . .).
- (السلام عليكم يا عم حامد، كان الله في عونك! كان الله في عونك يا شيخ).

وانصرف الشاب الفلاح وفي قلبه وسواس يشغله؛ فهو لم يعهد عم حامد، الرجل الطيب، كما عهده اليوم شديد الحيرة بادي الارتباك مغبر الوجه؛ وعهده به الشيخ الهادئ الدمث المشرق الجبين الضاحك المُحَيَّا؛ ولكن الشاب مع ذلك لم ير أن يلحف حتى يقف على سر الفلاح الشيخ، الذي لا يوجد في القرية بأكملها من يصلي أكثر منه، أو يعطف على الضعفاء والمحتاجين كما يعطف هو على الضعفاء والمحتاجين . . .

ثم تعب عم حامد من كثرة ما صلى وناجى ربه، فنام على الحشيش اليابس المنتثر في المصلى، وطرح فوقه ذلك (البشْت) الذي صنعه بيديه من الصوف الغليظ الذي لا يُرى الشيخ إلا وهو يغزله، واسترسل في سبات عميق ممتلئ بالأحلام المخيفة والرُّؤى الدامية.

وأقبلت فتاة جريحة. . . فلاحة ساذجة، تضع فوق رأسها (طرحةً) من الشاش الأسود مسبلة على العنق الطويل المربوط برباط كبير من الشاش الأبيض انتفخ القطن من تحته ليدل على جرح كبير في مكان خطر؛ وربطت كذلك ذراعها اليسرى كما ربطت عنقها.

أقبلت هذه الفتاة نحو المصَلى، ووقفت عند رأس عم حامد تنظر إليه في ذلة و؟ انكسار، وترسل من عينيها الدعجاوين دموعاً كالمطر حارَّة سخينة كأنها تفور من قِدْر تغلي. . . وكانت ثيابها البسيطة تزيد في جمالها الهادئ الحزين. وتبرز من الصدر ثديين ناضجين ينحدر عليهما الجلباب الفضفاض فيجعلهما كتماثيل مختار، وتبدي من أسفل قدمين صغيرتين بَلّوريتين هدأ على كعبيهما خلخال كبير فضي تمتاز به أقدام الغيد الأماليد من قرويات مصر، وهو دائماً فتنة الأنظار في الريف المصري. على أن وجهها الشاحب المنزعج كان هو الآخر فتنة المفاتن! حاجبان رفيعان مقوسان تحت جبين ناصع فوق عينين كبيرتين حوراويْن، تضاعف سحرهما أهداب طويلة كحيلة، تلقي ظلالاً من الجمال المصري على الخدين البارزين المثمرين. . . كأنما خلقها الله محوراً لأمور جسَام تقع في ذلك البيت الصغير من تلك القرية الكبيرة البارزة في ريف المنوفية، توكيداً لخلق الفلاح المصري الذي يقدس العفاف في الفتاة، ولا يسمح أن يُفتَحَ قلبها إلا عن طريق أبويها.

وكان عم حامد يتقلب على شوك أحلامه، ثم استيقظ فجأة ليرى فوق رأسه (ثُريّا) ابنته. . . ثريا. . . التي حسب أنه قتلها وعشيقها بمحشّته الكبيرة . . .

وفرك عينيه مرتين أو ثلاث مرات، ولكنه تأكد أنها هي. . . هي ثريا من غير شك.

- (بنت؟. . .).
- (. . .؟. . .).
- (ثريا؟!).
- (أبي. . .).
- (وكيف تركت محمود؟).
- (حالته خطرة جداً. . . قد يموت بعد ساعات).
- (آه. . . يا رب. . . يا رب. . . يا لطيف! غفرانك يا لطيف!).

وصمت لحظة، ثم نادى ابنته. . .

- (ثريا. . . سامحيني يا ثريا. . . سامحيني يا ابنتي. . . سامحيني. . . قولي الله

يسامحك يا أبي. . . قولي. . . الله! لماذا تبكين؟ الجروح تؤلمك؟ لا، لا. . . ستشفى هذه الجروح إن شاء الله. . . تعالي يا ثريا، تعالي، اجلسي إلى جانبي؛ تعالي، أنت خائفة! اطمئني يا بُنَية! اطمئني. . . لقد غسل دمك ودم محمود كل ما كان في قلبي من غيظ. . . الله يشفيه محمود ابن خالي، هل كنت تحبينه يا ثريا؟).
- (والله يا أبي لقد كان يبشرني بأنه سيخطبني إليك اليوم!).
- (لا حول ولا قوة إلا بالله! ولكن! على كل حل كان يجب ألا تسمحي له بتقبيلك. . .
أنا ظننت، لا سمح الله، أن بينكما. . . (شيئاً حراماً!).
- (لا والله يا أبي، ما كان بيننا إلا كل طهارة).
- (لا عليك يا ثريا إذن. . . الله يشفيه يا بنية ويتزوجك وتتمتعان بشبابكما. . . لا حول ولا قوة إلا بالله، أنا (أخطأت) لا ريب في ذلك. . . صحيح، أنا تسرعت. . . ولكن الحمد لله. . . لا بد أن أصلي ركعتين شكراً لله على سلامتك يا بنتي!).
وذهب عم حامد إلى الماء وتوضأ ثم راح يصلي صلاة خاشعة هادئة منظمة.
لقد كانت خلية من النحل تطن في رأس ثريا من أجل محمود، فلقد كانت تحبه، بل تعبده؛ ولقد كان يحاول أن يحملها بين ذراعيه الواهيتين الضعيفتين بعد أن فاجأهما عم حامد يتناجيان في منزله الخالي، فضربهما بمحشته تلك الضربات التي حسبها قضت عليهما، وغسلت عن عرضه عار الفضيحة التي زعمها تلحقه في ابنته. . . ولكن محموداً، القوي الجبار ذا العضل، عجز حتى عن حمل نفسه، لأن جروحه كانت أكبر، ولأن الدماء ظلت تتفجر منها وتنهمر، فسارت ثريا إلى جنبه تسنده على رغم ضعفها وإعيائها حتى بلغا دار حلاق الصحة القريبة، حيث وجداه يطبب فلاحين كثيرين ثمة، وحيث كان ابنه يضع (العَلَقَ) على أورام العجائز، أو يعالج الحمص في مرضى مساكين.
- (. . .عم أبا طالب. . وحياة أبيك تلحق، اربط جروح ثريا، و. . . جروحي بعد ذلك).
- (لا. . . لا يا عم أبا طالب. . . الحمد لله. . . عليك بمحمود أولاً!).
ولم يكن أحد من المرضى الكثيرين في دار عم أبي طالب من أهل القرية لحسن حظ الجريحين، فكانا يتكلمان بجرأة وصراحة، وأراد عم أبو طالب أن يصيد سمك الجنة من دماء الفتى والفتاة، فقال: (الله أكبر، ما هذه الجروح؟ هذه جناية بالتأكيد! لا بد أن أُبلِّغ!
سأبلغ الشرطة لضبط الحادثة. .) وترك ما يشغله من عمل بالفعل، ثم لبس معطفه الكحلي الكبير ويمم شطر الباب يوهم الجريحين أنه منصرف إلى مركز الشرطة للتبليغ عن الحادث.
- (يا عم أبا طالب! يا عم أبا طالب! خذ من فضلك!).
وكان صوت محمود وهو ينادي حلاق الصحة ضعيفاً وانياً.
- (. . .مالك يا سيد محمود؟ هذه جنية ولا بد أن أبلغ. . .
ثم اقترب الحلاق من الجريح البائس الذي لم يكن يمتلك أكثر من عشرة قروش، ومد يده.
- (. . .هاك (بريزة) يا عم أبا طالب، ولما (أخف وتخف) ثريا).
- (. . .بريزة! م شاء الله، والله إنها مسألة لا يكفيني فيها جنيه وغرارتان من الأرز).
- (لك ذلك يا عم أبا طالب. . . أسرع وحياة أبيك).
ورفضت ثريا أن تضمد جروحها قبل محمود، وحاول محمود أن يؤثرها على نفسه ولكن الحلاق الذي لا يعرف هذه العواطف تقدم بقطع القطن والشاش القذر وصبغة اليود والمرهم، فضمد جروح الفتى، ثم جروح الفتاة).
- (كيف حال محمود يا عم أبا طالب؟).
- (. . .اسكتي، حالتك أحسن منه بكثير، مسكين، ربما لا يأتي عليه ثاني يوم يا على كل حال الجنيه وغرارتا الأرز لا آخذهما إلا منك. . . وإلا. . . فالفضيحة إن شاء الله!!).
- (ربنا يستر يا عم أبا طالب. . . إن شاء الله ربنا يشفي محمود، ويرى خاطرك).
وتركت ثريا حبيبها في منزل الحلاق وتهالكت على نفسها إلى الحقل لتلقى أباها، لأنها أعرف به، ولأنها واثقة أن ثورة الغضب التي سيطرت عليه لابد أن تكون قد هدأت وسكنت ريحها. . . ثم هي عارفة بورعه وتقاه وقلبه المؤمن الذي لا يحب لصاحبه أن

يكون سافك دماء زكيه بغير جرم غير الظن، وكم من الظن ما هو إثم لو تدبر صاحبه. . . ذهبت إليه إذن. . . وكانت ألف فكرة تزدحم في رأسها طيلة الطريق. . . (تُرى؟ كيف أكلمه؟ وكيف أبدأ حديثي معه؟ هل سكن روعه؟ أم هو حين يراني ما أزال على قيد الحياة يثور ثائره ويتمم المأساة؟ آه يا ربي! أنحلم بالزواج وتأبى المقادير التعسة إلا الفضيحة؟. .
).
واختتم الشيخ المحطم صلاته، ونظر إلى ابنته بعينين رجراجتين تفيضان بدمع غزير، ثم دعاها لتجلس إلى جانبه فامتثلت ثريا، ودنت منه وقلبها يخفق وجسمها يرتجف، ثم جلست معه في المصلى، وبدلاً من أن يضغط بذراعيه على عنقها فيخنقها كما كان يخيل إليها، تناول رأسها لجميل فطبع على جبينها قبلة هادئة صامتة، وتحدرت دموعه على خديها، ثم جعل يرجو منها أن تسامحه!
وصمت الوالد وابنته لحظة، ولكن صراخاً مرعباً ارتفع فجأة من جهة القرية، فنظرت ثريا، وهالها أن ترى نسوة متشحات بالسواد يجتمعن قرب الحارة التي فيها دكان الحلاق!
- (. .!أبي!. . أبي!. . محمود).
- (. . .محمود؟ ما له يا ثريا؟).
- (!مات).
- (!مات! لا حول ولا قوة إلا بالله. . . مسكين محمود).
ومرّ غلام بهما مقبلاً من جهة القرية فسألاه: من مات؟ فأجابهما: (إنه محمود ابن عم حنفي. . مات عند حلاق الصحة من جروح في عنقه. . قتلوه! الله ينتقم منهم! قتلوه من أجل قفة ذرة!).
واسودت الدنيا في عيني عم حامد، وأيقن أنه ممض بقية حياته في غيابة السجن، وما كان أحوجه إلى نهاية مريحة ناعمة. . .
أما ثريا، فقد انهدت قواها، وطار لونها، وامتلأت عيناها الجميلتان الحزينتان بأشباح الوحشة، وفكرت في أحلامها التي طاشت، فكانت تتراءى لها طيوراً سودا كالخفافيش تملأ الغرب الذهبي الذي أوشكت شمسه أن تغيب!
- (!أبتاه).
- (!نعم يا ثريا).
- (!لازم نروح).
- (إلى أين يا بنتي؟).
- ((عزا) . . . أل. . . عند. . . هناك!).
- (طبعاً يا بنتي. . . هي. . . لا عليّ أن يضعوا الحديد في يديّ! هذا أمر الله وقضاؤه! وإذا سألوك فيجب أن تعترفي بالحقيقة يا ثريا. . . لا حول ولا قوة إلا بالله. . .
وسار الشيخ المسكين وسارت في إثره ابنته، حتى إذا بلغا القرية ويمما شطر منزل حلاق الصحة لم يجدا أثراً لجنازة أو نحوها، فظن عم حامد أنهم ذهبوا بالميت إلى مسجد لقرية للصلاة عليه، ولذلك انثنى ليأخذ طريقه إلى المسجد، ولكن رأسا برز من نافذة في باب الحلاق أخذ يناديه فجأة: (يا عم حامد. . . يا عم حامد. . . هات ثريا وتعال. . .).
ونظر الشيخ، فرأى الحلاق نفسه هو الذي يناديه، فذهب إليه وصمت لحظة وهو يرمقه، ثم قال له:
- (أبا طالب! استرني يسترك الله! أنا ما صنعت ذلك إلا دفاعاً عن عرضي! هل بلّغت لشرطة؟).
- (اطمئن يا عم حامد، اطمئن، ولكن قبل كل شيء كم جنيهاً ستعطيني؟).
- (!كل ما تطلب يا أبا طالب).
- (خمسة جنيهات على الأقل يا عم حامد؟).
- (. . .لك ذلك يا ولدي).
- (. . .تعال إذن. . . شرّف منزلي).
ودخل الرجل. . . ودخلت في إثره ابنته، يحملان هموم الدنيا والآخرة!
يا للعجب! ماذا يرى؟ هاهو ذا محمود. . محمود حي لم يمت! وهو يدخن لفافةً بشغف

ولذة. . . وإلى جانبه مأذون القرية، ورجلان من أكرم رجالها.
- (قبلت زواجها!).
- (قبلت زواجها!).
- (قولي يا ثريا. . . وأنا قبلته بعلاً لي!).
وتقدم الغلام الخبيث الذي كان أخبرهما أن محموداً قد مات، فسقاهم شراب الليمون المعطر بماء الورد. . .

دريني خشبة

البريد الأدبي

نظريات في الحرب

الجنرال لودندورف من أعظم قواد ألمانيا في الحرب الكبرى وأعظم الخبراء العسكريين المعاصرين، وله في الحرب ووسائلها وغاياتها نظريات خاصة بسطه في كتاب وضعه بعنوان: (الأمة أثناء الحرب)، وقد ظهرت أخيراً ترجمة إنكليزية لهذا الكتاب بنفس لعنوان وفي هذا الكتاب يحمل الجنرال لودندورف على نظريات كلاوزافتش في الحرب، وخلاصتها أن السياسة يجب أن تكون أداة للمشرعات العسكرية، وأن هذه المشروعات يجب أن تكون طريقاً مباشراً للحرب؛ ومع أن نظريات كلاوزافتش تعتبر في كثير من الأمم ولا سيما إنكلترا نظريات متطرفة خطرة، فإنها تعتبر في رأي لودندورف لينة قاصرة؛ ذلك لأنها في نظره تفسح للسياسة مجالاً أكثر مما يجب، ولأنها لم تدرك أهمية السيطرة العسكرية المطلقة. وكل ما يسلم به الجنرال لودندورف من نظريات سلفه هو أن الحقيقة الخالدة في الحرب (هي حصر الأغراض العسكرية في سحق جيوش العدو خلال الحرب). أم ما تبقى من نظريات كلاوزافتش فيرجع إلى ماض انقضى وحل محله عهد جديد. ويرى لودندورف أن الحرب الحديثة لم تبق حرب جيوش وقوى عسكرية فقط هـ وإنما هي حرب مطلقة تقوم على حرب الأمم ضد الأمم. ويجب بناء على ذلك أن تضع الأمة كل قواها العقلية والأدبية والمادية في خدمة الحرب، وأن تكون هذه القوة أثناء السلام مخصصة للحرب التالية. ذلك لأن الحرب في نظر لودندورف هي أعظم تعبير عن إرادة الأمة في الحياة، ولهذا يجب أن تكون السياسة عبداً مطلقاً للحرب وأداة مطيعة لها.

ويرى لودندورف أن الحرب وسيلة لا غاية لها؛ ولهذا يجب أن تعد الأمة للحرب، وأن تكون دائماً على قدم الاستعداد له. ويرجع لودندورف هزيمة ألمانيا في الحرب الكبرى إلى الدعاية النصرانية والدعاية اليهودية، ويقول إن العقيدة النصرانية، والحياة التي تترتب عليها، لها أهم أسباب الانحلال القومي في الحرب المطلقة؛ ولهذا يجب أن تستبدل بهذه العقيدة أخرى تقوم على العقائد الجنسية، أو بعبارة أخرى تقوم على الإيمان (بألمانيا) وألمانيا وحدها؛ ومن ذلك تتفجر الوطنية الصحيحة. وتؤمن المرأة بأن أعظم واجباتها ينحصر في إنتاج أبناء أقوياء للأمة يحملون أعباء الحرب المطلقة، ويخصص الرجال كل قواهم لهذه الغاية. والخلاصة أن لودندورف يرى أن الغاية القومية المثلى هي أن يربى الشعب ويعد لغاية هي الحرب.

كتاب عن لوبية

نظمت في العام الماضي بعثة إنكليزية لتكتشف مجاهل صحراء لوبية بالسيارة، وأسندت رياستها للمستر كندي شو. وقد قطعت البعثة في جولاتها في الصحراء أكثر من ستة آلاف ميل؛ وأصدر أخيراً مستر ماسون هودر أحد أعضاء البعثة كتاباً عن هذه الرحلة الصحراوية عنوانه: (جنة الجهلاء وفيه يصف رحلة البعثة منذ قيامها بالسيارات من القاهرة واختراقها لصحراء لوبية جنوباً حتى الفاشر من أعمال السودان على خط 14 شمال خط الاستواء، ثم عودها إلى سواحل البحر الأبيض من طريق آخر، واختراقها (بحر الرمال الأعظم) الذي يغمر واحة سيوه. وقد كانت البعثة تجري في جولتها مباحث جيولوجية وجغرافية ونباتية وحيوانية لحساب الجمعية الجغرافية البريطانية التي جهزتها. وقد لقي أعضاء البعثة حتفه أثناء السير، وهو الكولونيل ستروث.

ويغرق مستر ماسون في وصف أهوال الصحراء ويقول لنا: إن الإنسان في الصحراء يفقد حواسه الحقيقية، ويرى في السهل الشاسع، وفي ضوء الشمس الساطع، الأرض

المنبسطة تغلي وتترنح في السراب، وتملأ العين هواجس متعبة؛ وتُرى أشياء لا توجد، على حين لا تُرى أشياء خطرة، وقد لا ترى حتى يقع المكروه.

ويقول مستر ماسون: إن أغرب ما يلفت النظر وجود الحيوانات في هذا القفر الشاسع الذي لا توجد فيه قطرة من الماء؛ وكذلك مما يدهش الإنسان أن يرى في قلب الصحراء وادياً عجيباً تظله الأشجار الباسقة هو (وادي حوار) وهو واد لا يصل الماء إليه من أي النواحي.

معلومات عن بلاد التتار

وقعت في بلاد التركستان الصينية منذ ثلاثة أعوام حوادث عسكرية وسياسية خطيرة لن تتضح حقائقها لبعد الشقة وانقطاع المواصلات، ولكن جريدة (التيمس) الإنكليزية أوفدت إلى الصين مراسلاً خاصاً لها هو المستر بتر فلمنج ليقف على سير الحوادث بنفسه ويعلنها للعالم، فسافر مستر فلمنج إلى الصين، وانقطعت أخباره شهوراً عدة حتى ظن أنه قتل أو ضل؛ ولكن ظهر فيما بعد أنه اضطر أن يخترق الصين كلها من بكين إلى الغرب ليصل إلى مدينة كشغر عاصمة بلاد التتار (التركستان الصينية)، وأنه نجح في مهمته، ودرس الحوادث والشئون في تلك الأنحاء درساً حسناً.

وقد أصدر مستر فلمنج أخيراً كتاباً جامعاً عن رحلته بعنوان (أنباء من بلاد التتار ويستخلص من رويته أن حكومة سنكيانج (التركستان الصينية) التي يرأسها الجنرال شنج واجهت ثورة خطيرة قام بها التتار والتونجان، وكادت الثورة تكتسح كل شيء لولا تدخل السوفييت العسكري ومعاونتهم للجنرال على تثبيت أقدامه؛ وكان الجنرال شنج قد قبض على زمام الحكومة منذ سنة 1933، وأرغم حكومة نانكين الصينية على الاعتراف بمركزه. والآن يسود حكم الجنرال شنج في معظم بلاد التتار، ولكن السلطان الحقيقي في يد السوفييت الذين يحتلون مراكز السلطة في البلاد كلها، ويحاذر السوفييت الآن من بث الدعوة الشيوعية في بلاد التتار، ولكنهم يبعثون أبناء الكبراء والموظفين في كل عام مجاناً إلى طشقند ليتعلموا في مدارسها، ويعدون بذور دعوتهم من طريق النشء.

وكتاب مستر فلمنج جدير بالقراءة، لأنه يتحدث عن بلاد شرقية لا نعلم الكثير من شؤونها. وقد كتب بأسلوب شائق.

النشيد القومي - (الغلطة الثانية)

نبهنا إلى الغلطة الأولى في هذا النشيد الذي يراد فرضه على مصر، وطلبنا الرد عليها وانتظرنا ثلاثة أسابيع فلم يرد أحد، وعلى ذلك فقد سلموا بها تسليماً تاماً بلا قيد ولا شرط، وأصبح قول ناظم النشيد: (سأهتف باسمك ما قد حييت) كاملاً معكوساً فاسداً يخالف العربية والعامية.

والآن نذكر الغلطة الثانية، ونحن على يقين أن صاحب المعالي وزير المعارف الرجل العالم والأديب سيكتفي بالغلطتين. أما القراء فلابد أن ينتظروا إلى نهاية العدد.

يقول ناظم النشيد:

غرامك يا مصر لو تعلمين ... قصارى شعوري (دنيا ودين)

قصارى شعوري معناها غاية شعوري ونهاية شعوري. ومن الطريف أن بعض قراء الصحف قرأ هذه الكلمة (قَصَارِى) بفتح القاف وكسر الراء!

ولكن ما هو إعراب (دنيا ودين)؟

أهي مرفوعة؟ لا. أهي مجرورة؟ لا. إذن هي منصوبة ولا وجه لنصبها إلا على التمييز، فهل تصلح تمييزاً أولاً؟

يشترط في التمييز أن يكون رافعاً لإبهام. والشعور هنا جنس مبهم يحتاج إلى تمام يفسر معناه، كالحب أو الكره أو الغضب وغير ذلك من أنواع الشعور. ولكن (الدنيا) ليست من أنواع الشعور فلا تصلح لرفع الإبهام عنه وتفسيره إلا إذا صح أن يقال: غرامك ي مصر غاية شعوري قمحاً وبناً وسكراً، أو نهاراً وجبالاً وحيواناً وسماء وأرضاً. وهذا كلام فاسد لا معنى له.

ثم أن الدين ليس شعوراً، بل هو عقيدة وعمل، فهو كذلك لا يصلح للتمييز هنا؛ وإذ صلح فأي مسلم يتجرأ على أن يعتقد أن غاية الشعور ونهايته من الدين الإسلامي غرام مصر؟ إذا اعتقد المسلم هذا ونادى به فهو زائغ العقيدة، ويكون النشيد القومي ضلالة

يجب محوها، ويحرم على جميع المسلمين أن يقبلوه.
وإذا أريد من (دنيا ودين) الحياة الدنيا والحياة الأخرى كان هذا أقبح وأسخف. وأي مسلم يتجرأ على أن يقول: إن غرام مصر غاية شعوره من الحياة الآخرة؟
س. ط
بكلية الآداب
أقصوصة حب اللحم
علقت الرسالة على أقصوصتي (حب اللحم) تعليقاً فهمت منه أنها لم تفطن للسبب الذي من أجله آثرت هذا الحل الذي لم يرقها والذي (لا يرضي الخلق الجميل) على حد تعبيرها - ولعل الأستاذ المحترم صاحب التعليق فاته أن (روحية) هي بطلة القصة، وأنها لم تكن موافقة على تلك الجريمة التي دبرها صلاح. ولذلك قالت له: (حرم عليك يا صلاح. . .) ثم راعها أن تسمع السيارة تنقذف في النيل، فقالت: (وَيْ. . . اسمع! لقد انقذفت السيارة في الماء!!) فلما قال لها صلاح: (بمن فيه طبعاً!) لم تزد على أن قالت: (يا للقسوة!!) وقد أخطأ الصفاف، فجعلها (يا للقوة) مُسْقِطاً السين.
وأحسب الأستاذ صاحب التعليق يعلم أن بطل القصة عادة يحمل رأي الكاتب وإن لم يكن هذا شرطاً غاماً، فقد تكون القصة كلاًّ لا يتجزأ، وقد تكون - بل ينبغي أن تكون عادةً - درساً يرمي إلى غرض ما. ومن سياق القصة تحس الكراهية الشديدة لقصر العلاقة بين الزوجين على الجنس دون القلب، وكان بيومي أفندي رمز الجنس في القصة، وكان صلاح رمز الروح فيها. فأي شيء لا يرضي الخلق الجميل في أن ينتصر الروح على الجنس ويقذف به في النيل؟
واحسبني أهيج زعماء ثقافة اليسار إذا قلت إن القانون لجنائي في الشريعة الإسلامية معطل في مصر، فكيف يكون القصاص من زوج زان وسكير ومبذر تضبطه زوجته غير مرة زانياً وسكيراً ومبذراً؟ هل تملك تطليقه؟
هذا ولا يفوتني أن أعتب على صاحب التعليق أسلوبه، فأنني لا أنشد بقصصي الكثيرة إلا خُلُقاً جميلاً.
دريني
نوافق الأستاذ الدريني على أنه ينشد بقصصه الخلق (الرسالة) الجميل، وهو ولا شك يوافقنا على أن الدين والقانون هما جوهر الخلق الجميل، والدين يأذن للزوجة المضرورة أن تطلب الطلاق وتثبت الضرار فيحكم القاضي بالتفريق، والقانون لا يجيز لحبيب الزوجة ولا لغيره أن يقتل الزوج وعشيقته على هذه الصورة.
الكتب
الحياة الجديدة
تأليف الأستاذ نقولا يوسف
للأستاذ دريني خشبة
للأستاذ سلامة موسى في مصر مدرسة عرف تلاميذها بالدؤوب والنشاط الذهني، وهم جميعاً من الشباب المثقف المتشوّف دائماً لمستقبل حافل مليء بالأماني والآمال والأحلام. وهم دائما يفخرون بأنهم يمثلون ثقافة اليسار في مصر خاصة والشرق عامة، ومن هنا نزوعهم إلى الثورة في تفكيرهم، ومن هنا أيضاً تبرمهم بثقافة اليمين وتحرشهم بزعماء مدارسها. ونحن لا يسعنا إلا أن نمتدح تلاميذ هذه المدرسة بالرغم مما يتورط فيه بعضهم من البذاء والتطاول، وبالرغم من أن الأستاذ سلامة نفسه يفسح في مجلته لهذا البعض من السفهاء مجالاً واسعاً يهرجون فيه تهريجاً لا يتفق ومقام الأستاذ ومكانته الرفيعة في نهضة هذا البلد.
بيد أن للأستاذ تلاميذ بارزين، استطاعوا بعد كفاح عظيم وجهد متصل أن يفسحوا لأسمائهم أماكن ظاهرة في محيط التفكير المصري. ولعل من أفضل هؤلاء التلاميذ لأستاذ المفكر المطلع صديقنا (نقولا يوسف) الذي أخذ نجمه يتألق في السياسة الأسبوعية، ثم في عشرات من المجلات والصحف والأندية، عُرف فيها جميعاً بسمو الغاية في تفكيره وحرارته الوطنية في حبه لمصر، ومحاولته دائماً الاندماج في

الأوساط المختلفة ليترك فيها خمائر من ذهنه الخصب وثقافته الواسعة واطلاعه الشامل.

ولقد بدا للأستاذ الصديق أن يجمع كل ما كتب، ويصدره في مجلد حافل غني (عن دار المجلة الجديدة) وكتب إلي يسألني عن رأيي في كتابه هذا. . . ولا أحسب في ذلك توريطاً لي من قلمه البارع يجعلني أثني على عمله الثناء كله من دون أن أعرض لبعض نواحي الكتاب بنقد شديد يكاد يشبه الذم.

جمع الأستاذ فصوله القيمة وجعلها في ثلاثة أبواب، أولها (بحوث عالمية) من مثل (فن الحياة، الإنسانية بين الحرب والسلم، في الوحدة العالمية، في الأدب الجديد. . . الخ).

وثانيها (شئون مصرية) من مثل: (في الأدب المصري. الكاتب المصري بين البيئة والوصف، تجديد الموسيقى المصرية، احتضار الحجاب، الفلاح، وتجديد القرية. . الخ).

وثالثها (دراسات أدبية وفنية) من مثل: (في الفن الإغريقي، شعراء الأرستقراطية، في الأدب الهندي، ساعات مع بوذا وطاغور وملتون وشالي، ولز والعصر الجديد. . . الخ).

ولست أدري لماذا حشد الأستاذ كل هذه الفصول في كتاب واحد؟ ولم لم يصدرها في ثلاثة كتب حتى يكون من الممكن أن يستقل كل منها بفكرة متحدة وغاية واحدة؟ إن الكتاب كبير ضخم، وهو بضخامته غير المتناسبة يتخم القارئ ويصده عن متابعة القراءة، خصوصاً وأكثر القراء كسالى، وأكثر بحوث الكتاب دسمة غزيرة الفكر، والكتاب ليس قصة يغري أولها بآخرها، ولكنه حشد من الآراء التي لا يربطها في الظاهر أي رابط، وإن رَمَت في النهاية إلى التثقيف العام.

إن القسم الثالث من الكتاب، وهو أمتع أقسامه الثلاثة، كان يمكن أن يكون كتاباً مستقلاً يكاد لا يكون له نظير في المكتبات العامة. وإن أي بحث من بحوثه ليشهد للكاتب بسعة الاطلاع وعظم الجهد الذي عانى في كتابه بعد تحضير مواده الكثيرة. . .

فالبحث الأخير مثلاً (ولز والعصر الجديد) هو عصارة شهية لهذا الكاتب الإنجليزي المأسوف عليه، لقي في إعدادها حضرة الكاتب كل عناء ومشقة؛ ويكفي أن تعرف أنه تناول أكثر كتب ولز، فلخصها وشرح لك طريقته في كتابة كل منها؛ لتعلم أي جهد جبار كان يبذل أديبنا عندما اعتزم كتابة فصوله في هذا القسم الثالث من الكتاب. ومثل هذا الفصل لا يمكن أن ينتهي منه الكاتب في أقل من شهر تقريباً. أفليس من الحرام إذن أن يجتمع ذلك البحث الكلي و (شؤون مصرية) أو (تأملات على شاطئ البحر) في كتاب واحد؟! ما لولز وما لهذه الموضوعات (وليست المواضيع يا أستاذ نقولا!) الإنشائية يا صديقي؟ ما لولز وتنيسون وطاغور وبوذا وأندريه شينيه وهوراس. . . وما لخواطر في مقبرة وخواطر في حديقة وخواطر في الطريق وفي العمل؟! أفلم يكن أخلق بهذه التراجم العالمية أن تستقل في كتاب واحد يكون له خطره وفائدته؟! وقل مثل ذلك في القسمين الآخرين.

هذا من حيث شكل الكتاب، وإن يكن إغفال الصور - خصوصاً للمترجم لهم - قد شوه بعض جمال هذا العمل. أما من حيث موضوعه، فأكاد أمدحه (على طول الخط) لولا هذا الغلو في الدعوة إلى العالمية في زمن تقوم فيه دكتاتوريات تريد أن تلتهم العالم وتذل الحريات. أجل، إن الإخاء الإنساني الذي يراد أن يشمل قارات الأرض جميعاً حلم جميل، ولكنه في زمننا هذا يعتبر حلم الضعفاء والنَّوْكي والمهزومين؛ ونحن في عصر تنشد فيه مصر من أبنائها وطنيةً حادةً متأججة، وطنية الدبابات والطائرات والغازات السامة التي هي أسلحة هذا الزمان الظالم المقاحم. . . الزمان الذي شهد بعينيه الكليلتين سقوط عرش أسد يهوذا تحت سنابك نيرون!

أنا أعرف أن الأستاذ نقولا رجل الأحلام والشعر والموسيقى، ولن أنسى مطلقاً رنين كلماته في أذني في ليالي أسيوط المقمرة. . . ولكني أوقظه في غير رحمة ولا عطف، ليقرأ بعينيه النفاذتين بنود المعاهدة المصرية الإنجليزية، والبرقيات المخيفة المزعجة عن تسلح الدول.

لنعطف ولتسِلْ نفوسنا رقة ورحمة، ولكن على المصريين. . على أنفسنا. . . أما على الثعابين والعقارب، فلا!

وليثق الصديق نقولا أن ولز الذي مات فلم يشعر به أحد، كما مات توماس مور فلم يشعر به أحد كذلك، لا بد أنه ندم على جميع طوبوياته التي كتبها. وليفكر الصديق نقولا أيضاً في مصر اليوم فقط، أو إلى ما بعد عشرين سنة فحسب. . . أما في العالم بعد

. . .ألفين سنة، فهذه أضغاث أحلام
عمل جليل لا شك يستحق من أجله نقولا يوسف ألف تهنئة، وهدية سنية من المجلة الجديدة.
دريني خشبة
العدد 168 - بتاريخ: 21 - 09 - 1936
مصر والبلاد العربية
للدكتور عبد الوهاب عزام
بين مصر والبلاد العربية كل ما يؤلف بين الأقوام من وشائج القربى والتاريخ، وكل ما يُحكم القرابة من عقائد وعواطف وآلام وآمال، وكل ما يؤكد الأخوة من حقائق ومنافع. والكلام في هذا تبيين ما لا يعوزه البيان.
يذهب المصري إلى أحد الأقطار العربية فكأنما برح بقعة في مصر إلى أخرى؛ يرى وجوهاً يعرفها ولا تنكره، ويسمع من أحاديث الماضي والحاضر ما يسمعه في بلاده، ويحدَّث عن الهموم والمطامح التي تنطوي عليها نفسه ويخفق بها قلبه. حيثما توجه وجد أهلاً بأهل وأخواناً بإخوان، وأبصر من ذكَر التاريخ، ومشاهد الحاضر، وخطط المستقبل، ما يوحي إليه أنه في وطنه وبين قومه. وكأنه لا يذهب إلى هذه البلاد إلا ليرى بعينيه ما حدثه به التاريخ وأحكمته في نفسه النشأة والتعلم.
ذهبت مرات إلى فلسطين والشام والعراق، فكان يخيّل إلي أينما سرت لا أخطو إلا على صفحات من التاريخ المجيد، ولا أرفع بصري إلا إلى عنوان من عناوينه في صورة مسجد، أو مدرسة، أو قبة حنت على عظيم من أسلافنا أبطال الإسلام والعربية. وطوفت في العراق مدنه وقراه، وحضره وباديته؛ فكانت بغداد عندي القاهرة، بل أجل ذكراً؛ وكانت الكوفة والبصرة والموصل أعظم أثراً في نفسي من طنطا والمنصورة وأسيوط؛ وكانت مضارب شمر وبني تميم أذهب بي في التاريخ من مضارب القبائل المصرية. وأما دمشق الجميلة الجليلة فما دخلتها على أحداث التاريخ ورفعتني مواكبه فسارعت إلى الجامع الأموي أنشد قول شوقي:
هذا الأديم كتاب لا كفاء له ... رثّ الصحائف باق منه عنوان
ولست بدعاً في هذا فما أحسب مصرياً ذهب إلى هذه البلاد إلا شعر بما أشعر به وليس الأمر بيننا تشابك أقوام واتصال أوطان فحسب ولكنه الحب المؤكد، والود الصريح، ينطق على ألسنة القوم، ويتجلى في أساريرهم، ويبين في أعمالهم، ويشهد به اهتمام القوم بكل صغيرة وكبيرة في مصر، وتحدثهم عن علمائها وأدبائها وأحزابها وقادتها حديث المحب العارف الخبير، وحرصهم على قراءة ما تخرجه مصر من كتب ومجلات وجرائد.
وكثيراً ما نرى في الشام والعراق من يعلم عن مصر أكثر من أبنائها. وإذا تحدث هؤلاء الاخوة الكرام عن مصر أشادوا بذكرها، وأكبروا حضارتها، واعظموا مآثرها على العربية والإسلام، معترفين مغتبطين لا جاحدين ولا كارهين، وعدوا مجدها مجدهم، وعزها عزهم، وفخروا بها كما يفخرون ببلادهم.
وتطلع البلاد العربية إلى مصر، وإنزالها هذه المنزلة أجدى الوسائل إلى التقريب بينها، وتوحيد سننها في التربية والتعليم، والتأليف بين أبنائها. ولم يأل إخواننا جهداً في التودد والتقرب. فماذا يجب على مصر؟ ليست مصر أقل شعوراً بإسلامها وعربيتها، ولا أضعف تقديراً للوشائج التي تحكم بهذه البلاد أواصرها، والمصالح التي توثق بها علائقها، ولكن التاريخ السياسي في العصر الأخير فرق بين هموم مصر وهموم أخواتها، وشغلها بغير الذي شغلوا به؛ فلما أفاقت قليلاً إلى نفسها وموقفها بين الأقطار والأمم لم يلحقها شك فيما بينها وبين أخواتها من أواصر وعرى لا تقوى الحادثات على فصمها. وكلما خف عنها عبء المصائب ازدادت شعوراً وبصراً بمكانتها بين أخواتها وما يجب عليها.
إن على مصر أن ترعى القرابة وتجزي الود بالود؛ وعليها أن تضطلع بالتبعات التي تحملها إياها ثقة البلاد العربية بها، وإقامتها منها الأخ الأكبر. أسمع أحياناً بعض المتحدثين بهذا يقولون إن على مصر أن تستغل هذه الثقة؛ وحاشا لله أن يكون الأمر استغلالاً أو اتجاراً، إنما هو أخوة ومودة، وتبعات وواجبات، وتعاون على الوقوف في معترك الحياة، وتآزر على بلوغ الغاية التي تلتقي عندها مقاصدنا جميعاً. يجب على

مصر أن تصلح نفسها وتكمل حضارتها، وتعمل ما يوافق مكانتها، وتسن السنن الصالحة لنفسها وغيرها. يجب عليها أن تشارك في السراء والضراء، ولا تقف بمعزل عن مصائب البلاد العربية ومسراتها، بل تشارك جهد اليد واللسان والقلب. وعليها ألا تألو جهدا في إمداد من يستمدها، وبذل ما تُسأل من معونة في العلم والأدب وغيرهما موحية إلى كل مصري يذهب إلى البلاد العربية أنه يذهب ليؤدي واجباً ويعاون أخا، وأن واجبه حيثما كان من هذه البلاد كواجبه في مصر، وأن مقصده الأول أن يبذل من قواه على قدر طاقته، لا يبغي جزاء ولا شكورا، وإن لم يقصر إخواننا في الجزاء والشكر.
ثم على مصر ألا تتردد في الاستفادة بما في هذه البلاد من مزايا، فلا ريب أن فيها من الآداب والأخلاق والصناعات ما يجدي علينا أن نتلقاه عنها ونحتذيها فيه.
بالمودة والتآخي والتعاون وشعور كل جماعة بمكانها من الجماعات الأخرى، وإدراكها مالها وما عليها في الجماعة الكبيرة الشاملة، يتهيأ للبلاد العربية ما بين بحر الظلمات ونهر دجلة ما تطمح إليه من مجد وسعادة، وما يكافئ تاريخها من حضارة، حتى تؤدي نصيبها من الخير للجماعة البشرية كلها. وما أعظم ما ينتظر المجد من العرب! وما أعظم ما تؤمل الإنسانية فيهم!

عبد الوهاب عزام

مصرع هرة

للأستاذ عبد الحميد العبادي

كانت لنا هرة لطيفة، ظريفة، خفيفة الجسم، مرهفة الحس، طوافة بالليل، جوالة بالنهار؛ وكان أولادي يحبونها هي وصغارها الثلاث، ويَحْبونها بالفضل من طعامهم، والكثير من عبثهم؛ وعلى مر الأيام نشأت بين صغار الأنس وصغار الحيوان ألفة جعلت كلا يحتمل عبث كل، ويجد في ذلك لذة ومتاعاً.
وشاء حر القاهرة الذي اتقدت جذوته في أوائل الشهر المنصرم أن ينتجع أولادي بعض السواحل فراراً من وقدة الحر، وابتراداً بهواء البحر ومائه؛ وشاءت ظروفي الخاصة أن أبقى في القاهرة وحيداً إلا من خادم يرعى شؤوني إذا حضرت، ويحرس المنزل إذا غبت. ففقدت الهرة وصغارها بتبدل الحال ما اعتدنه من الطعام إلا قليلاً يمسك الرمق ويستبقي الحياة.
وكأن الهرة استشعرت شيئاً من الأنفة والأباء، فلن ترض بالدون، ولم تصبر على الهون، وانطلقت تضرب في الأرض تبتغي سعة الرزق لنفسها ولصغارها، فكانت تعود من حين لأخر مطبقة فمها على مسلاخ أرنب، أو مشاش عظم، أو عصفور اقتنصته في بعض الحدائق، فتجمع صغارها على ما وفقت له من الرزق، فيكون لهن منه عوض عما فقدن من الزاد.
وأحبت الهرة أن تعود صغارها السعي معها في كسب القوت، فكانت تبرز خارج الدار وتناديهن فيتسارعن إليها، متواثبات، سائلات الأذناب، مؤللات الآذان، محدقات العيون، فيجسن جميعاً خلال الحديقة، فلا يعدمن صرصارا أو جرادة يتبلغن بها بعد أن يلعبن بها طويلاً.
ودرجت الأيام على تلك الحال، وكأن القطط استطبن حياة السعي، وذقن حلاوة الرزق المجلوب بالجد، فعدن لا يأبهن لما كنت أرفدهن به من وقت لآخر من كسرة خبز، أو نغبة لبن، أو عرق لحم ينهسنه، أو عظمة يتعرقنها
غير أن صروف الأيام لا ينجو من كيدها إنسان ولا حيوان، ولا يسلم من آفاتها من يمشي على اثنتين، وما يدب على أربع. فقد كنت ذات يوم جالساً في منزلي وقت الظهيرة، وكنت
ضيق الصدر، لَقِس النفس، كأنما أتوقع حدثاً يحدث، أو خطباً يلم، وإذا بي أبصر الهرة تلج من باب الدار بهيئة أنكرتها: أبصرتها تمشي متحلجة، متخلعة، تخالف بين يديها ورجليها، وتقوم وتقع، وتصطدم بما يلقاها في طريقها، فأثبتها النظر، فرأيت، وما أفضع ما رأيت! رأيتها مشجوجة شجاً قبيحاً، فأدركت من فوري أن فظاً غليظ القلب، محمقاً من طباخي الحي قد أعنتته الهرة في طلاب العيش، فأهوى إلى رأسها بسكينه، فشتر إحدى عينيها، وكاد يشطر الرأس شطراً.
وأدركت أن المسكينة تحاول الوصول، على ما بها، إلى صغارها، فطفقت أجمعهن لها من هنا وهنا، وما هي إلا أن أحستهن حتى تحوَّت عليهن، ترضعهن وتمسحهن بلسانها

على عادتها. فلما جن الليل جعلت أريد الهرة على الخروج من المنزل، لعل برد هواء العشى ونسيم السحر ينفعها، ولكنها رفعت إلي رأسها وكأنها تستعفيني من الخروج ليلتها تلك، ولأقض بعد ذلك ما أنا قاض. فنزلت على وحي حالها ودلالة منظرها، وانصرفت إلى مضجعي. فلما كان الصباح إذا بي أصحو على مواء موجع صادر من الهرة، فأسرعت إليها فوجدتها تعالج سكرات الموت؛ وما هي إلا لحظة حتى غدت جثة هامدة لا حراك بها. كل ذلك والقطيطات حيال ذلك المنظر الذي لم يعرفنه بعد، مبهوتات صامتات مأخوذات. وكأنهن وقد سكنت حركة أمهن يتمثلن بالشعر الذي وضعه الشاعر الإنكليزي، بيرون، على لسان (قابيل) عندما رأى أخاه (هابيل) ميتاً، ولم يكن رأى الموت قط:

أخي! ما عراك؟ وكنت الغداة ... ذكي الفؤاد، قوي البدن
على العشب ملقى، فماذا دهاك؟ ... أنوم، وما الوقت وقت الوسن؟
سكنت، وأمسك منك اللسان ... وهل مات حي إذا ما سكن؟
ألا ما هلكت! وإن كان في ... شحوبك معنى بهيج الحزن

نعم! لقد كان في حال تغير الهرة الميتة معنى هاج حزن القطط، فقد لذن بأركان المكان واجمات، ولو ألهمن النطق لتمثلن بقول النابغة:

من يطلب الدهر تدركه مخالبه ... والدهر بالوتر ناج غير مطلوب
ما من أناس ذوي مجد ومكرمة ... ألا يشد عليهم شدة الذيب
حتى يبيد على عمد سراتهم ... بالنافذات من النبل المصابيب
إني وجدت سهام الموت معرضة ... بكل حتم من الآجال مكتوب

وثارت نفسي لهذا المنظر الأليم، وذكرت قسوة الإنسان على العجماوات مع أنه مستأمن عليها، مستحفظ لها، مسؤول عنها. وذكرت ما جاء في صحيح الأثر من أن امرأة دخلت النار في هرة حبستها، فلا هي أطعمتها، ولا هي أسقتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض. وذكرت قول الرسول العربي: (إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور): ونهيه عليه السلام أصحابه عن اقتعاد الرحال في المجالس حتى لا يعلق بها شوك يؤذي الإبل عندما توضع على ظهورها، وقول عمر لرجل رآه يعنف بماشية يسير ليذبحها: (يا هذا سقها إلى الموت سوقاً رفيقاً)، وذكرت رسالة (الحيوان والإنسان) التي ختم بها إخوان الصفاء رسائلهم، وكيف ذهبوا فيها مذهباً لطيفاً في التدليل على أن الإنسان في حقيقة الأمر حيوان من الحيوان، لا يفضل غيره من الأنواع إلا بالعمل الصالح المنجي له في الدنيا والآخرة. ذكرت كل ذلك فعلمت أن البون لا يزال عندنا شاسعاً بين القول والعمل، وأن المبادئ الجميلة لا تزال إلى حد بعيد مجرد حبر على ورق، وذلك من سوء حظ الإنسانية الصحيحة.

أما بعد! فلا تبعدي أيتها الهرة المظلومة! فكأس المنية لا تبرح دائرة على الخلائق، يشرب بها الرفيع والوضيع؛ وسيان في حكمها من يمشي سوياً وما يمشي مكباً على وجهه. إن الموت لعمري واحد، ولكن الموتات تختلف؛ وموتتك أيتها الهرة؛ من أشرف الموتات. لم تموتي حتف أنفك، ولم تموتي في مسعى باطل. لقد قضيت جاهدة، مجاهدة، وذهبت في ريعان عمرك ضحية الواجب، والسعي الصالح. إذا طالت الأعمار بأقوام رضوا بالهوان والمسكنة، وآثروا العافية المذلة على الجهاد المشرف. نعم، إنك لم تجدي في هذا العالم من ينصفك، ويطلب بثأرك، ولكنك واجدة عند القوة الممسكة لهذا الكون خير الجزاء. ألم تدخل امرأة في هرة أماتتها ظماً وجوعاً؟ أليس معنى أن الإنسان إذا تجرد من الرحمة فهو عند الله لا يستحي أن يقصها منه إذا طغى عليها وتجبر؟ ألا كفى بذلك للنفس، لو تعلمين، تأساء وتعزية.

891936

عبد الحميد العبادي

الجانب الصوفي في الفلسفة الإسلامية

للدكتور إبراهيم بيومي مدكور

عنى الفارابي كل العناية بموضوع السعادة علما وعملا، فخصه بكتابين من كتبه شرح فيهما مختلف آرائه الصوفية، وبين الوسائل الموصلة إلى السعادة؛ وهذان الكتابان هما: تحصيل السعادة، والتنبيه على السعادة، اللذان طبعا في حيدر آباد سنة 1345 و

1346هـ، وقد امتازا - مقرونين إلى الرسائل الفارابية الأخرى التي وصلت إلينا - بغزارة مادتهما ووضوح أسلوبهما؛ وحبذا لو فكرنا في إعادة طبعهما بمصر. ولم يكتف الفارابي بهذه الدراسة النظرية، بل جد في أن يتذوق السعادة بنفسه، وأن يصل بتفكيره وتأمله إلى مرتبة الفيض والإلهام كما صنع أفلوطين من قبل. ويقال إنه حظي بذلك مرة أو مرتين.

وواضح أنه ليس في مكنة الناس جميعاً الصعود إلى مرتبة هذه السعادة، ولا يبلغها إلا النفوس الطاهرة المقدسة التي تستطيع أن تخترق حجب الغيب وتصعد إلى عالم النور والبهجة. يقول الفارابي: (الروح القدسية لا تشغلها جهة تحت عن جهة فوق، ولا يستغرق الحس الظاهر حسها الباطن، وقد يتعدى تأثيرها من بدنها إلى أجسام العالم وما فيه، وتَقْبَل المعلومات من الروح والملائكة بلا تعليم من الناس، والأرواح العامية الضعيفة إذا مالت إلى الباطن غابت عن الظاهر، وإذا مالت إلى الظاهر غابت عن الباطن. . . وإذا اجتمعت من الحس الباطن غابت إلى قوة غابت عن أخرى مثل البصر يُخَبَّل بالسمع، والخوف يشغل عن الشهوة، والشهوة تشغل عن الغضب، والفكرة تصد عن الذكر، والتذكر يصير عن التفكر، أما الروح القدسية فلا يشغلها شأن عن شأن).

فالروح القدسية إذن واصلة، ترى المغيب، وتسمع الخفي، وتجاوز عالم الحس إلى عالم المشاهدة الحقيقية والبهجة الدائمة. هذه هي نظرية الاتصال التي قال بها الفارابي واعتنقها الفلاسفة اللاحقون، وقد لعبت دوراً هاما بوجه خاص لدى فلاسفة الأندلس. وهي كما ترى ضرب من التصوف النظري القائم على البحث والدراسة يقربنا إلى الله ونعيمه المقيم. والتصوف في جملته ساد العالم الإسلامي منذ زمن بعيد تحت مؤثرات كثيرة بين فارسية

وهندية ومسيحية وإغريقية. وفي رأي كل متصوف أن الغرض الرئيسي من العمل والتأمل هو الاتصال أو الفناء في الله. يقول رينان: (لم يعرف الشرق أن يقف في العبادة عند حد المبالغة والإسراف، بل كان الاتحاد مع العقل الكلي بوسائل خارجية حلم الطوائف الصوفية في الهند والفرس. وهناك سبع درجات - كما يقول المتصوفة - تقود المرء إلى الغاية النهائية التي هي الفناء المطلق أو النرفانا البوذية، حيث يصل الإنسان أن يقول: أنا الله) ومشكلة أنا وأنت من المشاكل الهامة في تاريخ التصوف الإسلامي، فأنا وهو الشخص الإنساني يعمل على أن ينمحي في أنت وهو الله، وما الحلول الذي قال به الحلاج والذي درسه الأستاذ ماسنيون دراسة عظيمة إلا أوضح مظهر لهذه المشكلة في الإسلام، فهو يتلخص في اختفاء الإنسان في الله، وبذا يتحد أنا وأنت اتحاداً كاملاً.

كان الفارابي صوفياً في قرارة نفسه، يعيش عيشة الزهد والتقشف ويميل إلى الوحدة والخلوة. وقد أفاض مؤرخو العرب في وصف تقشفه وإعراضه عن الدنيا. وابن خلكان خاصة يضعه في مصاف الزهاد والنساك. وبالرغم من أنه عاش في بلاط سيف الدولة بن حمدان وجالس العظماء لم يغير شيئاً من عوائده ولم يخرج عن زهده وتقشفه. فجليس الملوك هذا وصفي الأمراء كان يرى في أغلب الأحيان بالقرب من الطبيعة يناجيها ويستكشفها أسرارها ويستمليها ما حوت من عظات. وقد رووا أنه كتب الكثير من كتبه على شواطئ المجاري المائية وبين الثمار والأزهار. فهذا الاستعداد الفطري الذي نشأ عليه، وهذه النزعة الصوفية التي تمكنت منه، أثرت من غير شك في آرائه وأفكاره، وكانت عاملاً في تكوين نظرية السعادة الفارابية. وأسلوب الفارابي نفسه يتفق مع هذا الاستعداد ويتلاءم مع هذه النزعة؛ فهو إلى الغموض أميل، وفي باب التعمق والتركيز أدخل. وهذا شأن الصوفية جميعاً يرسلون الجمل المختصرة المعماة. وكثيراً ما عانى المستشرقون صعوبات في تفهم عبارات الفارابي وإدراك كنهها، وشكوا من غموضها وتعقدها.

ويجب أن نضم إلى هذا المؤثر الداخلي عاملاً آخر خارجياً، ألا وهو الوسط الذي عاش فيه أبو نصر، فقد تفشت في العالم الإسلامي لعهده أفكار صوفية كثيرة صادرة عن أصل هندي أو فارسي أو إغريقي أو مسيحي. ولا يستطيع أحد أن ينكر تأثره بهذه الأفكار، وفي كتاباته

ما ينهض دليلاً على ذلك. فقد جارى المتصوفة وشرح لنا المراتب التي يمر بها من يرغب في السعادة. والمرتبة الأولى في رأيه هي مرتبة الإرادة، وتتلخص في شوق

زائد ورغبة أكيدة في تنمية المعلومات واكتساب الحقائق الخالدة. فإن كانت هذه الرغبة مؤسسة على دوافع حسية أو خيالية فهي مجرد إرادة، وإن قامت على التفكير والتأمل فهي اختيار حقيقي. وبعد الاختيار تجيء السعادة التي تحدثنا عنها من قبل. فهذا التدرج في جملته يشبه من بعض الوجوه منازل الصوفية.

وفوق هذا فقد عاصر الفارابي كبار الصوفية الذين يقولون بالحلول، وعلى رأسهم الجنيد المتوفى سنة 911 ميلادية وناشر نظرية الاتحاد الصوفية ومردد الجملة المأثورة: اللهم مهما عذبتني بشيء فلا تعذبني بذل الحجاب). ويروى أن الشبلي دخل عليه يوماً وبحضرته زوجه، فأرادت أن تحتجب، ولكنه أبى عليها ذلك قائلاً: لا خير للشبلي عندك. ولم يكد الأخير يسمع هذه الكلمة حتى بكى. فقال الجنيد لزوجه على الأثر: استتري فقد أفاق الشبلي من غيبته. والحلاج تلميذ الجنيد من معاصري الفارابي كذلك، فقد توفى سنة 922 للميلاد. وهو صاحب الجملة المشهورة: (أنا الحق) التي لاقى من جرائها حتفه. وعلى يديه سما مذهب الحلول إلى أوجه وبدا في أوضح صوره، وتم الاتحاد الكامل بين أنا وأنت. وأشعار هذا العصر الصوفية مملوءة بالغيبة والحضور، والوجد والوجود، والنسيان والذكر. يقول بعضهم:

وجودي أن أغيب عن الوجود ... بما يبدو علي من الشهود

ويقول الآخر:

عجبت لمن يقول ذكرت ربي ... فهل أنسى فأذكر ما نسيت

شربت الحب كأساً بعد كأس ... فما نفد الشراب ولا رويت

ربما يبدو بعد الذي تقدم أنا ميالون إلى أن نعقد صلة بين تصوف الحلاج وتصوف الفارابي، وأن نثبت أن آراء أوائل المتصوفة قد أثرت تأثيراً مباشراً في أفكار فلاسفة الإسلام الصوفية، ولكنا نسلم بذلك من ناحية النزعة والتوجيه العام فقط، أما من جهة النظريات في تكوينها وتفاصيلها فأنا نرفضه للأسباب الآتية:

أولاً: تصوف الفارابي نظري مبني على الدراسة والبحث قبل كل شيء. فبالعلم، والعلم وحده، تقريباً نصل إلى السعادة. أما العمل ففي المرتبة الثانية ومهمته ثانوية للغاية. على عكس هذا يقرر الصوفية أن التقشف والحرمان من الملذات الجسمية وتعذيب الجسم هو الوسيلة الناجعة للاتحاد بالله. يقول الجنيد: (ما أخذنا التصوف عن القيل والقال، لكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات).

ثانياً: - وهذا فرق جوهري - الاتصال الذي يقول به الفارابي مجرد سمو إلى العالم العلوي وارتباط بين الإنسان والعقل الفعال دون أن يمتزج أحدهما بالآخر. أما المتصوفة فينظمون من العبد والرب وحدة غير منفصلة، ويقولون بحلول اللاهوت في الناسوت. وعلى هذا يتلاشى أنا في أنت تماماً ولا يتميز الخلق من الخالق. وهذا هو سر حملة أهل السنة على هذا الخلط غير المقبول والغلو المفرط. حقاً أن الفارابي يذهب في فقرة واحدة غريبة إلى أن الإنسان حين يصل إلى درجة السعادة يحل فيه العقل الفعال. غير أنه لا يمكن أن يقبل هذا التعبير على علاته ويجب أن يحمل حملاً مجازياً. فأن صاحبه يلاحظ غير مرة أن العقل المستفاد وهو أسمى درجات الكمال الإنساني يختلف في طبيعته ووظيفته ومرتبته عن العقل الفعال. ويرى الفارابي فوق هذا أن الموجودات في تدرجها مكونة من طبقات بعضها فوق بعض؛ والله مثال الكمال المطلق، وبينه وبين الإنسان والعالم الأرضي كله فواصل متعددة. فنظريات الفارابي الميتافيزيقية والفلكية المختلفة لا تسمح بأن يتحد الخلق مع الخالق أو أن يمتزج العقل الإنساني بالعقل الفعال.

وأخيراً على كلمة اتحاد واتصال فتؤذنان بالفرق الواضح بين نظرية الحلول الحلاجية ونظرية السعادة الفارابية؛ فأن الكلمة الأولى التي تنصرف عادة إلى نظرية المتصوفة تدل على الاندماج التام بين المخلوق والخالق، في حين أن الكلمة الثانية التي تطلق على نظرية الفلاسفة تشعر فقط بمجرد علاقة بين الإنسان والعالم الروحي.

فالواجب علينا إذن أن نبحث عن منبع آخر يمكن أن تكون نظرية السعادة الفارابية في جملتها قد استقيت منه. وإذا شئنا تعرف هذا المنبع وجب علينا أن نصعد إلى أرسطو وإلى كتابه الأخلاق النيقوماخية بوجه خاص. يقول جلسون: (ليس ثمة فكرة ولا عبارة لدى أرسطو لم تنظر ولم ينتفع بها شراحه. وهذه الملاحظة صادقة على العموم في

كل المشاكل التي درسها وخاصة في مشكلة العقل). ونظرية الاتصال التي نحن بصددها تؤيد هذه
الملاحظة تمام التأييد، فإنها مأخوذة نصاً عن أصل أرسطي؛ وذلك أن أرسطو في شرحه للخير يقول في الكتاب العاشر من الأخلاق النيقوماخية إنه فضيلة تتكون في الوحدة وبالتأمل العقلي وتخالف الفضائل الإنسانية الأخرى المتعلقة بالجسم. هو قوة تأملية تكتفي بنفسها وتدرك الحق المطلق، وفضيلة عليا لأنه يتصل بأسمى شيء في الإنسان وهو العقل. وباختصار هو فضيلة الفضائل لأنه يصدق على الجانب القدسي حقيقة في الإنسان. ليس هناك شك في أن هذه الفقرات أساس لنظرية الفارابي في السعادة والاتصال. ففي رأيه، كما في رأي أرسطو، الحياة العقلية غاية في نفسها. ومتى جد الإنسان في الدراسة والنظر والبحث والتفكير تشبه بالله والعقول المفارقة التي هي إدراك مستمر وتأمل دائم. ومتى انقطع الإنسان إلى هذا المجهود النظري أقترب من الكائنات العلوية، وفاز بسعادة ليست وراءها سعادة. فأرسطو الواقعي مصدر الجانب الصوفي في الفلسفة الإسلامية، و (الأديمونيا) الأرسطية عماد لنظرية السعادة الفارابية. وإذا تتبعنا كل ما وصل إلينا من كتب أرسطو لم نجد فيه إلا نصين اثنين يشعران بروح خفية وينزعان نزعة صوفية. وهما ما أشرنا إليه آنفاً في كتاب الأخلاق النيقوماخية وما جاء في كتاب النفس خاصاً بوظيفة العقل الفعال وأثره في تكوين المعلومات العامة. وكلا النصين أثر تأثيراً عميقاً في فلاسفة الإسلام وآرائهم الصوفية والنفسية. حقاً إن الفارابي ضنين بأسراره ولا يجب أن يقف قراءه على مصادر أفكاره؛ بيد أن عباراته تكفي للبرهنة على ما ذهبنا إليه. وأبن رشد الذي يعتنق نظرية الفارابي في الاتصال يقول لنا إن هذه النظرية جواب على سؤال أرسطو ولم يجب عليه. فبعد أن وضح كيف يدرك (النوس) أو العقل الحقائق المجردة قال: (سنرى فيما بعد إذا كان في مقدور العقل الإنساني - ولو أنه غير مفارق - أن يدرك أشياء مفارقة بذاتها). ولما لم يف أرسطو بوعده أخذ فلاسفة الإسلام على عاتقهم أن يتلافوا هذا النقص ويجيبوا على هذا السؤال.
غير أن أرسطو وحده لا يكفي في توضيح نظريات الفارابي التصوفية؛ ذلك لأن بينه وبين الفيلسوف العربي مدرسة الإسكندرية التي أثرت كذلك في فلاسفة الإسلام عامة وعلى رأسهم الفارابي. والاتصال الذي يقول به الفارابي لا يختلف كثيراً عن (الاكْستَاسيس) أو الجذب الذي قالت به مدرسة الإسكندرية. فالاثنان يعتمدان على التأمل والنظر وينتجان
هياما وغبطه تخرج بنا من عالم الحس والمادة إلى نور الحقيقة واليقين. نعم انه يصعب علينا أن نحلل هاتين الظاهرتين تحليل نفسياً دقيقاً، ولكنا نستطيع أن نلاحظ انهما يمثلان أسمى أعمال العقل الإنساني التي ترمي إلى الخير الأعلى. ومتى وصل المرء إلى مرتبتهما أحس بسعادة تجل عن الوصف وغبطة لانهاية لها. وفي عبارات الفارابي ما يعلن عن الأصل الإسكندري الذي أعتمد عليه والذي لا يمكن أن يكون شيئاً آخر سوى كتاب الربوبية. ولنكتف بتقديم نص واحد من كل طرف يشهد بذلك. يقول الفارابي: (إن لك منك غطاء فضلاً عن لباسك من البدن، فاجتهد أن ترفع الحجاب وتتجرد، وحينئذ تلحق. فلا تسل عما تباشره، فإن ألمت فويل لك، وإن سلمت فطوبى لك. وأنت في بدنك تكون كأنك لست في بدنك، وكأنك في صقع الملكوت، فترى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. فاتخذ لك عند الحق عهداً، إلى أن تأتيه فرداً). ويقول صاحب كتاب الربوبية أو أثولوجيا: (ربما خلوت أحياناً بنفسي وخلعت بدني فصرت كأني جوهر مجرد بلا جسم. فأكون داخلاً في ذاتي وراجعاً إليها وخارجاً من سائر الأشياء سواي، وأكون العلم والعالم والعلوم جميعاً. وأرى في ذاتي من الحسن والبهاء ما أبقى معه متعجباً، وأعلم عند ذلك أني من العالم الشريف جزء صغير. وحين أوقن بذلك أرقى بذهني إلى العالم الإلهي، ويخيل إلي كأني قطعة منه. فعند ذلك يلمع لي من النور والبهاء ما تكل الألسن عن وصفه والآذان عن سمعه. ومن الغريب أني أشعر بأن روحي مملوءة بالنور مع أنها لم تفارق البدن). هذان النصان من غير تعليق ناطقان بالقرابة القربى والعلاقة الوثيقة بين الجذب الذي دعا إليه رجال مدرسة الإسكندرية، والاتصال الذي جد في طلبه الفارابي. وكتاب الربوبية هو المرآة التي عكست كثيراً من آراء أفلوطين وأتباعه على العالم الإسلامي.

(يتبع)
إبراهيم بيومي مدكور
العودة
للأستاذ محمد عبد الله عنان
هانحن أولاء نعود إلى الوطن بعد طول الغيبة والتجوال؛ نعود إليه بقلوب تخفق ابتهاجاً بالعود، وكما غادرناه بقلوب تخفق ابتهاجاً للسفر واستقبال أسابيع تخالها دائماً تفيض متاعاً للنفس واستجماماً للجسم وانتعاشاً للروح المضني.
ولكن السفر لا يحقق دائماً الأمل؛ ففي كثير من الأحيان يغدو التجوال مشقة وضنى؛ ذلك أن الذهن المضطرم يذكيه الجديد في كل لحظة فلا يفتأ يطلب المزيد من المناظر والصور، والمشاعر الحساسة تجد دائماً ما يثيرها في تلك الآفاق الاجتماعية الجديدة التي تلامسها في كل خطوة؛ وشغف الملاحظة يحفز دائماً إلى المعرفة والبحث؛ وإذا كان في ذلك متاع للعقل والروح، ففيه دائماً للجسم والقوي.
على أن السياحة نزهة العصر؛ ولقد كانت السياحة فيما مضى مشقة ومخاطرة؛ وإنه ليحضرنا ونحن نكتب هذه السطور، ونخترق العباب المتلاطم، في بهو أنيق وثير من أبهاء (الكوثر) وصف المقري مؤرخ الأندلس لرحلته من المغرب إلى الإسكندرية في نفس المياه، وما يصوره لنا من روعة البحر وأهواله، فنذكر كيف استطاعت العبقرية البشرية أن تذلل الموج المروع، وأن تسير فوقه المدن الأنيقة السابحة آمنة مطمئنة، وأن تجعل من اختراق العباب المضطرم آية النزه والمسرات.
ولقد شاد الشعراء والكتاب من قبل بمزايا السياحة ومتاعها على ما كان يحفها في تلك العصور من المشاق والمخاطر؛ ذلك أن للجديد دائماً سحراً لا يقاوم، والنفس البشرية مفطورة على حب الاطلاع واكتشاف المجهول؛ وقد كانت بلاد العالم يومئذ مجاهل بعضها بالنسبة لبعض، فكان السفر اكتشافاً لآفاق ومجتمعات مجهولة؛ أما اليوم فقد اختفى المجهول من العالم المتمدن، ولكن بقى الجديد يجذبنا سحره دائماً إلى عوالم ومجتمعات مختلفة نأنس في اكتشافها ودراستها لذة ومتاعاً للعين والنفس والروح.
وقد يستغرق التجوال في تلك العوالم والمجتمعات الجديدة كل حواسك وأفكارك؛ ولكنه مهما أفاض عليك من البهجة والسحر، لا يستطيع أن يخمد في نفسك نزعة الحنين إلى الوطن وما تزال ذكرى الوطن تمثل في ذهنك في كل خطوة، أحياناً مقرونة بالزهو، وأحياناً
بالأسف، وفقاً لمختلف الظروف والأحوال؛ وما يزال شبح العود الذي لا يفارقك منذ اليوم الذي تغادر فيه الوطن يلوح لك، ويقوى كلما ضعف سحر التجوال، حتى يحل دور السأم؛ وعندئذ يجذبك الوطن إليه بكل ما فيه من تأثير وسحر، ويغدو العود سعادة تسارع إلى اجتنائها.
وهانحن نعود إلى الوطن سعداء بالعود.
ولقد غادرنا الوطن في ظروف دقيقة تبحث فيها قضيته، وتعالج مصايره على يد زعمائه الأوفياء، فكنا خلال المرحلة نتطلع إلى أنباء المفاوضات المصرية الإنكليزية ونتلقفها حيث كنا وأنى استطعنا؛ وكانت الصحف والأنباء الأوربية ضنينة بها كل الضن فلا تنشر عنها إلا كلمات يسيرة؛ وكانت الصحف الإنكليزية بالطبع أكثر تحدثاً عنها؛ وكنا كلما شعرنا خلال السطور بأن أزمة تعترض المفاوضات زدنا لهفة وقلقاً؛ فلما جاءت الأنباء بأن الأزمات كلها قد ذللت، وبأن المعاهدة قد وقعت بالحروف الأولى، وبأن وفد مصر سيمثل إلى لندن، هللنا وكبرنا، وفاضت نفوسنا أملاً واستبشاراً؛ ولما جاء يوم الأربعاء السادس والعشرين من أغسطس، وهو اليوم الذي حدد لتوقيع المعاهدة لبثنا - ونحن في فينا - ننتظر النبأ الخطير بفارغ الصبر، وكان الراديو أسبق المصادر إلى إذاعته في مساء نفس اليوم؛ وفي صباح اليوم التالي ظهرت الصحف النمساوية وفي صدرها نبأ توقيع المعاهدة، ووصف موجز للعبارات التي تبادلها زعيم الأمة المصرية ومستر إيدن وزير الخارجية الإنكليزية؛ ثم توالت الأنباء بعد ذلك عن استقبال مصر للحادث المشهود، واحتفائها به احتفاء يتفق مع عظمته وخطورته، فكان أكبر أسفنا أننا لم نكن بمصر في تلك الأيام التاريخية لنشهد بأعيننا ذلك المنظر الرائع: منظر أمة تستقبل وثيقة تحريرها وتعلن ابتهاجاً بما جنت من ثمار جهاد طويل وشاق.

ومن غرائب الاتفاق أن تكون نفس الفترة التي تمت فيها المفاوضات بين مصر وإنكلترا ووقعت معاهدة الصداقة المصرية الإنكليزية، أعني ما بين يوليه وأغسطس هي نفس الفترة التي شهدت فيها مصر ضياع استقلالها وحرياتها منذ أربعة وخمسين عاماً.

الله أكبر! لقد دخلت مصر في عهد جديد وافتتحت صفحة جديدة من تاريخها. فرعى الله مصر في عهدها الجديد، ووفقها على يد زعمائها وقادتها الأوفياء إلى تحقيق ما تطمح إليه من عظمة وسعود.

وحان وقت الرحيل بعد أيام، واستحكم حنين العود، فكان التردد على مكاتب السفر والتحري عن المواعيد وعن مختلف الطرق، وكانت أزمنة الأمكنة في البواخر من أي الثغور دليلاً على اضطرام حمى العود؛ وإنك لتأنس في هذه الفترة التي تهيأ فيها إجراءات العود، والتي تقوم فيها بآخر جولة في المدينة وفي منتدياتها شعوراً غريباً من الأسف والارتياح معاً. أما الأسف فلاختتام فترة من الرياضة النفسية والعقلية قلما نظفر بها في مصر. وأما الارتياح فلاختتام فترة من التجوال المبهظ والوحشة؛ ذلك لأن السياحة ما زالت ترفاً غالياً برغم ما تقدمه بعض الدول لتذليلها من التسهيلات في مسائل العملة والسكك الحديدية؛ وقد ذهبت ألمانيا وإيطاليا في ذلك إلى حدود مغرية حقاً، ولكنك ما تكاد تزور ألمانيا أو إيطاليا حتى تشعر بأن هذه التسهيلات لا تعد شيئاً مذكوراً بالنسبة لما تعانيه من غلاء فادح في كل شيء؛ وليس من المبالغة أن نقول إن نفقات المعيشة في أوربا وبخاصة في فرنسا وسويسرا، تبلغ على الأقل مثليها في مصر؛ ولقد قيل مراراً إن مصر لا تقدم شيئاً لتسهيل السياحة، وإنها يجب أن تجاري الدول الأخرى في تنظيم بعض تسهيلات مغرية للسياح؛ ولكن من المحقق أن تكاليف السياحة في مصر هي أرخص منها في أي بلد من بلاد العالم، ويكفي أن تتقدم مصر بهذه الميزة للسائحين.

هذا وليس من ريب في أنه مهما كانت مسرات السياحة ومغرياتها فإن السائح يشعر في بلاد الغربة بنوع من الوحشة يعروه من آن لآخر، فإذا حان أوان العود شعر بنوع من الارتياح للتخلص من هذه الوحشة واستعادة الإيناس في الوطن والأهل.

ودعنا العاصمة النمساوية في صمت، وتزودنا بالنظرات الأخيرة من هاتيك الربوع والمعاهد الضاحكة، وازدلفنا إلى محطة الجنوب لنستقل القطار إلى (جنوة) حيث نستطيع اللحاق (بالكوثر) وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب حين مررنا بجبال الألب قبالة (زيمرنج)، وهناك تأخذك الطبيعة بجمالها الرائع، وتمتد الأشجار والأزهار على الربى إلى مالا تدرك العين.

وفي ضحى اليوم التالي كنا في البندقية نتجول في ساحة سان ماركو، ونطوف بكنيسة سان ماركو وقصر الدوجات ونقطع (قنطرة الزفرات) ما بين القصر والسجن، ونتأمل هاتيك المعاهد والآثار التي تذكرنا بصفحة من أروع صحف العصور الوسطى.

ولقد شعرنا حين هبطنا البندقية أن يد التجديد قد صقلتها وأسبغت عليها مسحة من البهاء لم تكن لها من قبل، ووصلت كثيراً من أحيائها وطرقاتها المائية باليابسة، وكان عهدنا بها أنك لا تستطيع التنقل فيها إلا (بالجندولا)، فإذا بك اليوم تستطيع أن تقطعها سيراً من المحطة إلى الميدان - ثم إلى أنحاء كثيرة منها؛ وإنك لتشهد اليوم هذا التجديد أينما حللت في إيطاليا؛ وتلك آثار الفاشستية بلا ريب، وآثار تلك الروح الإنشائية التي تنفث إلى إيطاليا حياة جديدة في كل شيء.

وأخيراً انتهينا مساء إلى جنوة؛ وفي ضحى اليوم التالي ازدلفنا إلى الميناء فرحين باستقبال أول قطعة من أرض مصر؛ أجل هاهي ذي الكوثر تقف باسمة في ركن من خليج جنوة الكبير، وهاهو ذا العلم المصري الأخضر يخفق على ساريتها؛ وإنه لمنظر يبعث إلى الفخر والزهو أن ترى سفناً مصرية صميمة تشق عباب هذه المياه؛ ولقد كان لمصر مدى العصور الوسطى بحرية عظيمة تجوس خلال هذا البحر، وكانت سفنها التجارية كثيراً ما تمثل إلى البندقية وسرقوسة وجنوه، وكان للربابنة والبحارة السكندريين في تلك العصور شهرة خاصة؛ وكان لمصر أسطولها الحربي والتجاري إلى ما قبل زهاء قرن فقط، ولكن صروف الزمن حرمت مصر مدى قرن من امتطاء

صهوة المياه؛ والآن يستأنف سيره، وتعود مصر فتسير سفنها في هذا العباب، وتعيد لنا النيل والكوثر سيرة غمرها النسيان دهراً؛ فعسى أن تكون النيل والكوثر نواة بحرية مصرية تجارية عظيمة تملأ جوانب هذا البحر نشاطاً، وتملأ نفوسنا غبطة وفخراً.

تلك الخواطر وعواطف تثيرها في النفس تلك السويعات الفريدة في حياتنا: سويعات يغمرها متاع التجوال وبهجة الجديد دائماً، ويملأها شجن البعاد أحياناً؛ على أنها ذكريات عزيزة في حياتنا نتطلع دائماً إلى تجديدها. وإن العود إلى الوطن ليملأ اليوم نفوسنا غبطة وسعادة خصوصاً وأننا نعود إليه في مستهل عهد جديد يجيش بآمال وأماني جديدة؛ ولكن أمل العود إلى التجوال يهتف بنا في نفس الوقت لنجوز نفس المشاعر والظروف مرة أخرى.

(الباخرة كوثر في 13 سبتمبر)

محمد عبد الله عنان

بين عالمين

. . .مصر

شهد الخلائق إنها لنجية=بدليل من ولدت من النجباء

لفقيه الشيعة الأكبر

الأستاذ محمد الحسين آل كاشف الغطاء

غير مجازف كثيراً - لو قال قائل - ليست مصر وليدة الأزمان وبنت الدهر، ونسلية الأحقاب، بل هي أم الزمان ووالدة الدهر، وجدة الليالي والأيام؛ كما أن ما نرى لها اليوم من الحضارة الزاهرة، والثقافة الباهرة، ليس بالأمر الحديث، ولا الشيء المستطرف؛ وتقدمها في العلوم والصنائع والمعارف والفنون يكاد يتصل تاريخه دورة الأفلاك، ونشأة الكون.

ولكن لا شيء من هذا أريد، ولا إياه أعني بالبيان؛ وإنما أريد بهذه الكلمة التمهيدية أن أقول: إن الفقه الإسلامي وأحكام الشريعة الإسلامية قد تحورت عن وضعها القديم ونشأتها الأولى فأصبحت (ولاسيما في القرون المتوسطة) كعقد الجمان المتلألئ، ولكن قد طمرته الأتربة وغمرته الأقذاء والأقذار حتى حجبت جماله، ولم يستبن منه سوى بصيص من اللمعان ينبئ العارف عن كنز دفين، وجوهر ثمين؛ وما كانت صحاح أحكام هذه الشريعة المقدسة توجد إلا عند رجالات من فرق المسلمين أو عند بعض طوائف منهم، ولكن لا صوت لهم ولا صيت، ولا تعرفهم أمم العالم من شرق أو غرب، وإنما كان مراجع الإسلام الذين تؤخذ منهم الأحكام هم أولئك الخشب المسندة والهياكل المفخمة التي لها بزتها الخاصة وشاراتها المعينة، الذين تنصبهم السلطات الزمنية لسياستهم حسب تلك الظروف بأسماء مصطلحة كما يقال (شيخ الإسلام) و (أمين الفتوى) و (مفتي الحنفية) و (مفتي الشافعية) وهكذا وهلم جرا إلى ما شاء الله. وكانت الشريعة الإسلامية تضج إلى الله وإلى العلماء الأصحاء في تطهيرها من تلك الأوضار وفكها من تلك القيود والأغلال.

وبقى الحال على هذه الكوارث لا يزداد الأمر على تمادي الأيام ومرور القرون إلاَّ شدة العمى ورسوخاً في الجهل، وضياعاً للحقائق، وتكاثفاً في الحجب على محيا الشريعة الغراء، مثل تكاثف الغيوم السوداء على جبين الشمس. ويعرف كل ذي لبّ: أن (مصر) قد سبقت الأقطار العربية في كثير من أسباب الحضارة، فدخلت قبلها في أكثر أبواب الثقافة، ولها فضيلة السبق إلى التطور الحديث والأنظمة الجديدة - إن في الأدب أو في العلم والتعليم، أو التأليف والنشر، أو غير ذلك من أبواب المعارف.

ولكني أتنسم أن العناية قضت أن يكون لها السبق أيضاً حتى في نشر ما قبرته قرون الجهل والعصور المظلمة من الفقه الإسلامي وأحكامه الصحيحة وكشف ما تراكم على محياه من غيوم الأوهام وتحطيم تلك القيود والأغلال وطرحها عنه، وأحد شواهدي على ذلك - الكتيب الصغير، وأقول: الصغير على حد قوله:

إن الكواكب في علو محلها ... لترى صغاراً وهي غير صغار

ذاك كتاب (نظام الطلاق في الإسلام)، وكان مؤلفه الأستاذ العلاَّمة أهدى إلي نسخة منه. وبعد أن طالعته مرة أو مرتين راقني وأعجبني؛ ولا أقول: أعجبني دقة بحثه، وبراعة تحقيقه، ولطف أسلوبه، واعتدال سليقته، وأن كان حائزاً على أوفر نصيب من كل ذلك، وإنما الأمر الذي يوشك أن يكون قد تفّرد به وامتاز - هو صراحته وبسالته

ومشيه على ضوء دلالة الكتاب والسنة، وعدم مبالاته بما اصطلحوا عليه من الإجماع الذي جعلوه آلة تخويف ومهماز تهويل، وإن قام على خلافه الدليل. يعرف هذه البسالة أهل هذا الفن ومن خاض لجج تلك الغمرات.

كان بعض أساتيذي العظم وقد انحصرت به في أواخر عمره مرجعية تقليد الأمامية في سائر الأقطار، وحاز من النفوذ والإكبار - ما قلما كان يتفق من السلف - وفي الوقت نفسه كان يقول:

وددت لو أعرف سنة وفاتي حتى أعلن وأجاهر بفتاوى في نفسي يساعد عليها الدليل، وتخفف عن المسلمين العبء الثقيل. فكأنه رضوان الله عليه - كان يخشى من إفشاء تلك الفتاوى حدوث الضوضاء من جهل العامة وجمود الخاصة المتسلحة بدعوى تلك الاجماعات. وكم لتلك الكلمة من الأكابر من نظائر!

فمثل - طلاق الثلاث، وطلاق الحائض، والحلف بالطلاق والعتاق وأمثالها من القضايا التي لم تزل من عهد قديم من المسلمات الرائجة عند جمهرة المسلمين، ويُدعى اتفاق المذاهب الأربعة عليها، فإذا نهض رجل في هذا العصر يهدم تلك المباني الراسخة بمعول الحجة البالغة والبرهان القاطع، أفلا يكون شجاعاً باسلاً وعالماً تحريراً؟

نعم طالعت الكتاب فما سنح لي موضع للملاحظة والتعليق عليه إلا في اختياره وجوب الإشهاد في الرجعة كوجوبه الطلاق، واستغرابه من علماء الإمامية الفرق بينهما، فكتبت إليه كتاباً في بيان الفارق بينهما من ناحية الدليل تارة ومن ناحية الاعتبار أخرى، فكنت أحسبه كتاباً خصوصياً لا يتجاوز حظيرة ما بيني وبينه؛ ولكن كأن مروءته، وكأن شهامته، وكأن حبه للخير وتعميم الفائدة دفعته إلى نشره والتعليق عليه؛ فما أنا ذات يوم إلا وبعض شباب النجف من تلامذة المدارس يقول لي: إن مجلة (الرسالة الغراء) نشرت كتاباً لكم مع الجواب عليه. . . وحيث أن صديقنا الأستاذ الزيات حفظه الله منذ حمل الرسالة، وأنشأ مجلتها الزاهرة، لم يتكرم بإتحافنا بها كما يصنعه جملة من الصحافيين الكرام، لذلك استعلمنا من ذلك الشاب مظانها، فذكر المكتبة العامة الحكومية في النجف الأشرف، فأوعزنا إلى إدارتها فأرسلت إلينا عددي 157 و159 فقط؛ نظرت فيهما المقالين نظرة خفيفة ثم استرجعتهما الإدارة عملاً بقانونها، ولكن بعض أبناء أعيان النجفيين الذين في بغداد أرسل إلي عفواً من غير طلب الأعداد الثلاثة، فوجدت بع إعادة النظر فيها أن الأستاذ السابق الذكر قد أسهب في الجواب عما قدمنا إليه في الكتاب. وفي الحق أنه قد استفرغ وسعه وبذل جهده وأحاط بالموضوع من جميع أطرافه شأن المجتهد الفقيه الذي يلزمه في سبيل استنباط الحكم الشرعي استفراغ الوسع، واستقصاء النظر، وبذل أقصى الجهد في تحصيل الدليل على الفتوى من الكتاب والسنة وكلمات العلماء. وهكذا صنع الأستاذ سدده الله فيما ذهب إليه من وجوب الإشهاد على الرجعة والتقصي عما أبديناه من الفرق، فقد حشد زمرة من كلمات الأساطين وجملة من الروايات والأحاديث التي يراها تشهد بصحة دعواه. . . وحيث أن من سجيتي التجافي عن إطالة المناظرة وتسلسلها خوفاً من أن يؤدي ذلك الجدل والمراء وحب الغلب بحق أو باطل، وإذا أبديت رأيي في موضوع فلست بملتزم أن يقبله كل أحد، ولا يلزمني أن أدفع كل ما يقال عليه، وإنما علي أن أحتج وأقول، ولغيري حرية الاختيار في الرد أو القبول. ولذلك لا أريد هنا أن أتعقب كل جملة مما ذكره الأستاذ

بالمناقشة والمناوشة فيكون ذلك تطويلاً ولعله من غير طائل، ولكني أيضاً - شغفاً بنشد العلم وتعميم الفائدة أريد أن أؤسس قاعدة أصولية فقهية ينتفع بها الفقيه والمتفقه في مقام الاستنباط، ويرجع كل منهما إليها عند الحيرة والارتباك، مستفادة أيضاً من ذات الكتاب والسنة، وهي أنه إذا قام الدليل الشرعي من كتاب أو سنة احتمالان متكافئان لا يترجح أحدهما على الآخر بمرجح داخلي أو خارجي، هنالك ينظر الفقيه إي الاحتمالين أسهل على العباد وأيسر في مقام العمل، فيلزم الأخذ به والفتوى على طبقه، لما ورد في الأدلة العامة من أن الشريعة الإسلامية مبنية على الرفق والتسهيل، مثل قوله تعالى: (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وقوله عز شأنه: (ما جعل عليكم في الدين من حرج) وقوله صاحب الشريعة: (جئتكم بالشريعة السمحاء) وقوله: (يسروا ولا تعسروا) وكثير من أمثال ذلك.

ونضرب لذلك مثلاً فنقول: قوله تعالى: (وأشهدوا ذوي عدل منكم) قام فيه احتمالان: احتمال العود إلى الطلاق فقط، واحتمال العود إليه وإلى الرجعة المشار إليها بقوله تعالى (فإمساك بمعروف). فلزوم الإشهاد في الطلاق متيقن على كلا التقديرين، أما في الرجعة فمحتمل لزومه ومحتمل عدمه. ولو تنازلنا مع الخصم وقلنا بتكافؤ الاحتمالين من حيث نفس الآية، وأغمضنا عما قلناه من دلالة السياق على اختصاصه بالطلاق فقط، وإن الرجعة والإشهاد كليهما من أحكام الطلاق وهما في رتبة واحدة، فلو كان الإشهاد واجباً في الرجعة للزم أن يكون ما هو في رتبة الشيء متأخراً عن ذلك الشيء ضرورة تأخر الحكم عن الموضوع، فيكون الشيء متقدماً ومتأخراً - حكماً وموضوعاً - وهذا خلف وإحالة، وتناقض في الدلالة. ولكن أغمضنا عن ذلك كله وقلنا بتكافؤ الاحتمالين، فاللازم بحكم تلك القاعدة الأخذ بأسهلهما وأقلهما كلفة وهو عدم لزوم الإشهاد. وقد تقرر في فن الأصول أيضاً أنه إذا تعارضت الأدلة أو تزاحمت الاحتمالات فالمرجع الذي يستراح إليه هو الأصل المقرر في ذلك المورد. ولا ريب أن الأصل في المورد هو عدم الوجوب وعدم اللزوم، ويعضد ذلك ما يزيح العلة ويقطع دابر الشكوك والأوهام. ذاك ما ورد في أخبار أهل البيت سلام الله عليهم مثل ما في صحيحه محمد بن مسلم قال: سئل أبو جعفر الباقر (ع) عن رجل طلق امرأته واحدة ثم راجعها قبل أن تنقضي عدتها ولم يشهد على رجعتها، قال: هي امرأته ما لم تنقض العدة. وقد كان ينبغي له أن يشهد على رجعتها. وإن كان جهل ذلك فليشهد حين علم. ولا أرى بالذي صنع بأساً، وإن يشهد فهو أحسن. وفي أخرى: يشهد رجلين إذا طلق وإذا رجع. فإن جهل فغشيها فليشهد الآن على ما صنع وهي امرأته؛ وإن كان لم يشهد حين طلق فليس طلاقه بشيء. وفي ثالثة: الطلاق لا يكون بغير شهود، والرجعة بغير شهود رجعة، ولكن ليشهد بعد فهو أفضل، وعلى هذا النمط أخبار أخرى كثيرة صريحة في الفرق بين الطلاق والرجعة، وأن الأول لا يصح وليس بشيء بدون الإشهاد بخلاف الثاني غايته أنه يستحب في الرجعة الأشهاد، وهو استحباب إرشادي معلوم المصلحة وهي الحذر من الجحود وإنكار الزوج أو الزوجة مشياً مع الأغراض والأهواء التي قد تتفق لأحدهما. مثل هذا لا يصلح أن يكون علة للوجوب، فأن الإلزامات الشرعية وجوباً أو تحريماً إنما هي لأحداث الدواعي إلى فعل الواجب واجتناب الحرام. فإذا كانت الدواعي في الغالب حاصلة في النفوس فلا مقتضى للإلزام. ألا ترى أن الله سبحانه قال في كتابه الكريم: (وأشهدوا إذا تبايعتم) ولكن الفقهاء من الفريقين اتفقوا على الظاهر، على أن الأمر هنا للاستحباب وأنه إرشادي محض، لأن الدواعي للإشهاد ولاسيما في الأموال الخطيرة كالعقار والضياع وأمثالها متوفرة عتيدة، فلا حاجة إلى إلزام الشارع به بعد أن كانت الناس مندفعة إليه بأنفسها حرصاً على الضبط واستعداداً للطوارئ من جحود وإنكار. فأمر الشارع بالإشهاد إرشاد إلى أمر واقع، وتحفظ لازم، وليس معناه أن البيع باطل بدون الإشهاد، بل معناه أنك إذا تبايعت بغير إشهاد فقد غررت بنفسك، وخاطرت بمالك فلا لوم إلا عليك. وهكذا الأمر بالإشهاد في الرجعة إذا خشي كل منهما إنكار الآخر فأنه يندفع إليه طبعاً، وينساق له قسراً.

والإشهاد في الطلاق ليس لهذه الغاية فقط، وإلا لكان حاله كحال سائر العقود والإيقاعات كالبيع والإجارة والصلح والعتق والوقف، فلا شيء من هذه وغيرها يجب فيه الإشهاد سوى الطلاق لحكمة هي أدق وأعمق، وهي ما أشرنا إليه في كتابنا السابق. وكذا النكاح لا يجب الإشهاد فيه عندنا بحيث لا يصح بدونه، ولكن النفوس منساقة ومجبولة على الإشهاد فيه للضبط والاستعداد للطوارئ من ميراث وغيره. وأحسب أن هذا البيان سيكون كافياً عما أفاده الأستاذ في ملاحظته الأخيرة إذ يقول صفحة 1319 من المقال المنشور في (الرسالة): وما اشترط في صحة الرجعة إنما اشترط ضماناً لبقاء الحياة الزوجية صحيحة سالمة من إرادة العبث بها وبعداً عن مواطن الشبهات وعن الإضرار بالمرأة إلى آخر ما أفاد حفظه الله. فأن هذا كله (عن إرادة النكول والجحد لإضاعة حقها صحيح ومتين، ولكن لا يصح بل لا يصلح أن يكون علة تبعث الشارع على الحكم بالوجوب بعد أن كانت الدواعي والبواعث متمكنة من النفوس بالإشهاد عند ملابسة الشك والخوف كما يشهدون في النكاح والبيع مع عدم وجوبه شرعاً. . . ومصاص

الحقيقة وزبدة المخض أن الكلام تارة في صحة العمل في حد نفسه مجرداً عن كل الملابسات والعوارض فنقول مثلاً: إن العتق يصح بقول السيد لعبده (أنت حرّ) فيصير العبد حراً بمجرد إنشاء المولى هذه الصيغة، ولا حاجة إلى شهادة ولا كتابة ولا غيرهما. . . والكلام تارة أخرى من حيث الطوارئ كعروض خصومة أو نزاع بين السيد والعبد واحتمال الجحود والإنكار، فلا إشكال في أن الحاجة من هذه الناحية ماسة إلى الإشهاد وهو ضروري. وكذا الكلام في سائر الإيقاعات والعقود كالبيع مع الكتاب المجيد أمر فيه بالإشهاد (وأشهدوا إذا تبايعتم) ولكن لم ينسب القول بوجوبه إلا إلى بعض أهل الظاهر، وهو شاذ نادر. والخلاصة أن مقام الثبوت شيء، ومقام الإثبات شيء آخر؛ ونحن حيث قلنا بعدم وجوب الإشهاد في الرجعة أردنا مقام الثبوت على حدة في الطلاق الذي يتوقف ثبوته على الإشهاد. أما مقام الإثبات فالرجعة وغيرها سواء في أنها محتاجة ومتوقفة على الشهادة في الجملة (وإنما أقضي بينكم بالبينات والإيمان).

وأرجو أن تكون هذه النبذة كافية في سد باب هذه المساجلة، وأخشى لو زاد البحث على هذا أن تدخل في نوع المجادلة. نعم بقيت في الطلاق قضايا مهمة كثيراً ما يقع بها الابتلاء ولم يتعرض الأستاذ أيده الله لها في كتابه.

(منها) طلاق المفقود زوجها الغائب غيبة منقطعة كما وقع الابتلاء بهذا في الحرب العامة بكثرة. ولفقهاء الأمامية طريقة خاصة حسب الوارد عندهم من أحاديث من أحاديث أهل البيت (ع) في التحري أربع سنوات، ومع اليأس وعدم النفقة يطلقها حاكم الشرع.

(ومنها) ولي الصغير فأنهم جوزوا أن يعقد له ولم يجوزوا الطلاق عنه، وإطلاق كلماتهم يشمل حتى صورة المصلحة.

(ومنها) طلاق الممتنع زوجها عن القيام بنفقتها تمرداً وعصياناً ومشاقة وإضراراً، حاضراً كان أو مسافراً، فانهم لم يجوزا لحاكم الشرع طلاقها عنه تمسكا في هذه القضايا بساق الحديث المشهور (الطلاق بيد من أخذ بالساق) وأنها ابتليت فلتصبر، وهو عندنا محل نظر، والجواز أقرب، والأدلة عليه متوفرة وقد طال المقال وضاق المقام عن ذكرها.

وفي الختام - أرد على أخي وخليلي في الله - تحيته الطيبة المباركة - بمثلها بل بأحسن منها، داعياً له بطول العمر ومزيد التوفيق، وأن يؤلف بين قلوبنا، ويجمع كلمتنا على الهدى والحق في خدمة الإسلام، ومناصرة هذا الدين الحنيف إن شاء الله.

(النجف الأشرف)

محمد الحسين آل كاشف الغطاء

في الأدب المقارن

الأثر الأجنبي في الأدبين العربي والإنجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

تتفق اللغتان العربية والإنجليزية في خروجهما من جزيرة منعزلة، وانتشارهما في إمبراطوريتين مترامیتين، وفي تأثر أدبيهما بهذا التوسع العظيم وبالاختلاط بالأمم الأخرى وآدابها، ولكنهما يختلفان في كيفية هذا التأثر ونواحيه ومداه، لاختلاف الظروف التي اكتنفت قيام الإمبراطوريتين.

فقد صحبت قيام الدولة الإسلامية ظروف أربعة كان لها أبعد الأثر في تاريخها السياسي وفي تاريخ أدبها: فهي أولاً قد قامت على أساس دعوة دينية تنتظم الأمم، وتسوي بين الناس، وتعد المؤمنين بها من مختلف الأجناس إخواناً. وهي ثانياً جاءت مبكرة غاية التبكير، ولم تنقض على تأسيس الدولة العربية الأصلية في الوطن الأصلي - جزيرة العرب - غير سنوات قلائل. وثالثاً تم تأسيسها بسرعة نادرة المثال في التاريخ نتيجة نجاح العرب الحربي الباهر، وأخيراً انبسط سلطانها على أمم تفوق العرب الفاتحين غنى وحضارة وثقافة.

هذه العوامل الأربعة - بما انطوت عليه من خير وشر - كانت حاسمة في مستقبل الدولة العربية. فمساواة الإسلام بين الناس - مساواته بين العرب الفاتحين وبين الأعاجم المغلوبين - هيأت لهؤلاء أن ينافسوا العرب في الحكم والرياسة وكافة أسباب الحياة. وقيام الإمبراطورية مبكرة قبل أن تتوطد الدولة في وطنها الأصلي من جهة جعل قبضة الوطن الأول على ممتلكاته واهية سرعان ما انحلت، وانفصلت جزيرة

العرب أو كادت عن بقية الإمبراطورية وعادت إلى ركودها الأول، وخرجت منها عاصمة الحكم؛ ومن جهة أخرى الحكم الفردي المطلق هو النظام الوحيد القادر على إدارة تلك الأصقاع المترامية، فأهملت الشورى التي حض عليها الإسلام، والتي كانت مرعية قبل أن تمتد أطراف الدولة وتخرج العاصمة من الجزيرة. وسرعة تأسيس الإمبراطورية غمر الفاتحين بطوفان من الثروة نشر الترف والفساد نشراً يزري بكل ما عرفته رومة عقب فتوحها شرقاً وغرباً. وامتداد سلطان العرب على أمم تفوقهم حضارة وثقافة جعل من الحتم استعانتهم بأبناء تلك الأمم في الإدارات والصناعات التي لم يكن لهم بها عهد من قبل.

وقد استفاد العرب من سياسة المساواة والتسامح والعدل التي جروا عليها في إدارة إمبراطوريتهم أن انتشر دينهم ولغتهم فمحقاً الأديان واللغات السابقة في معظم أملاكهم وحلاًّ محلها. ولكن دولتهم جاءت - من جراء أربعة العوامل آنفة الذكر - شعوبية لا عربية صميمة، مستبدة الحكومة، مترفة المجتمع، متنافرة العناصر، منطوية على عناصر كثيرة من عناصر الانحلال.

كانت الظروف التي لابست قيام الإمبراطورية الإنجليزية وانتشار اللغة والأدب الإنجليزيين عكس هذه تماماً: فقد توطدت الدولة الإنجليزية في وطنها الأول توطداً تاماً مدى قرون قبل أن تتجه إلى التوسع الخارجي؛ واقتبس الإنجليز حضارة جيرانهم وثقافتهم حتى صاروا في مقدمة الأمم. فلما راحوا ينشرون سلطانهم لم يخضعوا أمماً تفوقهم مدنية كما كانت حالة العرب مع الفرس، أو حالة الرومان مع الإغريق؛ وتكامل بناء إمبراطوريتهم تدريجياً مع سير الزمن وتطور الحوادث، فلم يُبتلَوْا بسيل مفاجئ من الثروة والترف يزعزع دعائم مجتمعهم ويوهن متانة أخلاقهم، ولم يكونوا بسبيل دعوة دينية أو إنسانية تسوّى بين القاهر والمقهور، بل كانوا وما يزالون يعتبرون رسالتهم إخضاع الآخرين وحكمهم لا مساواتهم بأنفسهم؛ ومن ثم ظلوا متعالين عن الأمم المغلوبة مستأثرين بالكلمة العليا دونها متحاجزين عن أفرادها في المجتمع لا يخالطونهم ولا يزاوجونهم إلا في النَّدر.

لذلك كله قامت دولتهم إنجليزية صميمة، واتسق للنظام الديمقراطي أن يزداد تمكناً مع ازدياد اتساع الدولة، بعكس ما كان في حالتي العرب والرومان؛ وظل للوطن الأول في الإمبراطورية الإنجليزية المقام الأول، وبقيت به حاضرة الحكم التي تجمع سلطتها الأطراف وتؤثر في غيرها من أجزاء الإمبراطورية أضعاف ما تتأثر بالغير.

تلك الظروف التي صاحبت امتداد الإمبراطوريتين واختلاط الأمتين بالعناصر الأجنبية كان لها جميعاً أعظم أثر في تاريخ أدبيهما كما كان لها أثر في تاريخها السياسي، وهو أثر مزدوج يشمل معالجة أبناء الأمم المفتوحة لأدب الأمة الغالبة، كما يشمل اطلاع أبناء هذه الأخيرة على آداب الأمم المقهورة؛ وهنا أيضاً يتباين الأدبان العربي والإنجليزي.

فالعرب قد سمحوا للمسلم من أية أمة أن يباريهم في معاناة أدبهم كما باراهم في شؤون الحرب والحكم، فما لبث الأجانب الداخلون في العربية أن بذوا العرب في هذا الباب بحكم قديم ثقافتهم وتليد حضارتهم كما بذوهم في غيره، وما لبثوا أن صار منهم أئمة الأدب العربي، واستأثروا أو كادوا بكتابة الدواوين ووزارة الخلفاء وصلات الأمراء.

ولم يكن من الخير في شيء للأدب العربي أن يتسلط عليه أولئك الغرباء الواغلون، وكانت لهم فيه آثار سيئة: فهم مهما تكن ثقافتهم ومهما بلغ انكبابهم على دراسة العربية غرباء بطبعهم عن الأدب واللغة والذوق الأدبي العربي وتقاليده ومراميه، فلم يكتبوا أو ينظموا على السجية بل كانوا دائماً مقلدين متعلمين: قلدوا متقدمي العرب باندماجهم في العربية، فكانوا عنصر تقليد ومحافظة، لا عنصر ابتداع وتجديد في الأدب؛ وتعملوا في اللفظ تظاهراً بتفقههم في اللغة، فأدخلوا الصنعة والبهرج والزيغ في الأدب بدل أن يوسعوا أغراضه ويسموا بمعانيه.

فَسَرَيَانُ العنصر الأجنبي الأعجمي في الأدب هو مرجع تغلب الصنعة على الطبع في كثير منه، ومرجع تغلب نزعة التقليد على نزعة التجديد في كل عصوره. وكفى بهذين داعياً إلى جمود الأدب ثم تدهوره. ولا شك أنه لو بقى الأدب وقفاً على العرب الصميمين، وظلت الكلمة العليا للعرب في الدولة، وظلت هذه الدولة محدودة المساحة لا تتجاوز كثيراً حدودها الطبيعية، لجاء الأدب أقرب إلى الطبع وأحفل بمظاهر

الفن وأوسع مدى وأسمى أفقاً وأطول عمراً، ولكان له تاريخ غير الذي كان.
أما الأدب الإنكليز - وسنن الإنجليز التي جروا عليها في توسعهم واتصالهم بالأمم الأخرى هي ما قدمنا - فكان أقطابه بعد قيام الإمبراطورية - كما كانوا قبلها - إنجليزاً أقحاحاً يعبرون عن الطبع الإنجليزي والبيئة الإنجليزية، ويفقهون روح لغتهم وتراث أدبهم، ويصدرون عن تقاليدهم المجيدة؛ فلا غرو جاء الأدب الإنجليزي طبيعياً فنياً صادق التعبير سامي المقصد بعيداً عن التكلف ثواراً على الجمود.
فهذا فرق ما بين الأمتين في الاتصال بالأجانب؛ وهناك فرق بينهما في الاتصال بآداب أولئك الأجانب لا يقل خطورة عن سابقه. فالعرب الذين قبلوا الأعاجم أنداداً في دينهم ولغتهم وأدبهم ترفعوا عن آداب تلك الأمم، ولم يروا بأنفسهم - وهم معادن البلاغة وفحول
الخطابة، ولغتهم لغة الدين والدولة والقرآن - حاجة إلى الاطلاع على آداب غيرهم، فنظروا إلى الأدبين الفارسي واليوناني وغيرهما شزراً، وخسروا بذلك كثيراً وضاق أفق أدبهم كثيراً لاعتزاله غيره.
على حين أن الإنجليز الذين ضنوا بقوميتهم وترفعوا عن سواهم من الأمم في الحكم وفي المجتمع لم يترفعوا عن آداب تلك الأمم الجديرة بالدرس، فانتفعوا قبل توسعهم وبعده بالآداب الإيطالية والفرنسية والألمانية، بله آداب الأمم البائدة من إغريق ورومان، أوسعوا كل ذلك درساً واطلاعاً ونقلاً، فأخصبوا أدبهم أي إخصاب، ووسعوا أطراف لغتهم ذاتها. وعلى هذا النحو استفاد الإنجليز بخير ما في الآداب الأجنبية دون أن يفقدوا شخصيتهم في غمار تلك الآداب، أو يسمحوا للأثر الأجنبي أن يفسد ملكتهم الأصلية وطبعهم الخاص.
فالظروف التي أحاطت باتصال العرب بغيرهم، وتأثر أدبهم بالآداب الأجنبية، والسنن التي استنها العرب في معاملة الأجانب، لم تكن خير ما يساعد الأدب العربي على النمو الصحيح والازدهار الطويل؛ واللغة العربية المحكمة البناء، البارعة التعبير، الغنية الجوانب، التي أينعت أحسن إيناع تحت سماء البادية لم يتح لها في أرض الحضارة من يوجهون بليغ أساليبها أحسن التوجيه إلى دراسة النفس الإنسانية ووصف المجتمع البشري، وكان رقيها العلمي في ظل الإمبراطورية الإسلامية أعظم بكثير من رقيها الأدبي.

فخري أبو السعود

عمر بن الخطاب

للأستاذ علي الطنطاوي

أهدي هذا الفصل إلى. . . . . صاحب (الرسالة)، اعترافاً بفضله وفضل رسالته علي،) فأنه لولا التشجيع الذي تفضل علي به يوم صدر كتابي (أبو بكر الصديق) لم يؤلف هذا الكتاب)
(علي).

- 1 -

في يوم وَهِج من أيام الصيف، قد حَدِر واشتدّ حرّه، في الهاجرة الملتهبة، كان . . . يسير على رَمْضاء مكة - وقد تسعَّرت الأرض وتوقدت، واستحالت جمرة مشتعلة - رجل ضخم الجثة مفرط الطول، شديد الأسر، قد توشح سيفه، وأقبل مسرعاً يطأ الأرض وطأ عنيفاً، فتحس كأن قد تقلقلت تحت أقدامه، ويرمي كل شيء حوله بنظرات حادة ينبعث منها الغضب، ويتطاير منها الشرر، لا يبالي بالشمس المتقدة، ولا الحصى المتسعّرة، ولا يحفل السموم الذي هب سخناً يلفح الوجوه، كأنه فيح جهنم. . . لأن له غاية فهو يسعى إليها، إنه يريد أن يقتل (سيّد العالم)!
ذاك هو (عمر) الجاهليّةِ. . . رجل يعيش في الظلام، وراء سور التاريخ، لم يَدْنُ منه، ولم يلجْ حماه، ولم يُلْقَ عليه نوره؛ رجل يمشي في هذه القافلة الجاهلية، التي تبدأ من وسط الرمال، في قلب الصحراء، ثم تسير على الرمال، رمال الصحراء، ثم تنتهي في الرمال، في الصحراء. . . تبدأ من العدم، وتنتهي إلى العدم، قبل أن تبلغ أرض المدنية، أو تصل إلى حدود العمران، أو تدنو من مهاد العلم والحضارة والحياة. . .
رجل يعيش بغير أسم، ويموت بلا ذكر!

- 2 -

قف أيها الرّجل! تودع من جاهليتك، إن عرشك في التاريخ قد أُعِد لك لتستوي عليه، إن محمداً (صلى الله عليه وسلم) سيضع في يدك المفتاح الذي يفتح لك أبواب (التاريخ) الذي جهلك وأنكرك، ولم يَدْرِ بك. . . لتدخل حرمه، ثم تعلوا في مراقيه، ثم توغل في ساحاته
وأبهائه، حتى تصل إلى السدّة العليا، فتجلس عليها، دون الأنبياء وفوق العظماء!
قف أيها الرجل! ألقِ عنك هذا السلاح الذي جئت تحارب به دين الله: إن دين الله لا يحارب!
ارم هذا السيف الذي توشحته لتقتل محمداً، وتقضي على بدعته الجديدة، وتبيد أصحابه التسعة والثلاثين! إن محمداً رسول الله وسيد كل من قال: أنا إنسان، لن يقتل! إن هذه البدعة التي كتب لها أن تغلب على العالم، وتبقى ما بقى الزمان ظافرة منصورة لن يقضى عليها. إن هؤلاء التسعة والثلاثين رجلاً سيملكون الدنيا؛ سيصيرون أربعين ألفاً، أربعين ألف ألف، أربعمائة ألف ألف، سيصيرون هم سكان هذه الكرة. . . إنهم لن يبيدهم سيفُك يا عمر!
بل سيعزّهم الله بك، ويستجيب فيك دعاء نبيّه ومصطفاه، صلى الله عليه وسلم. . . فتعال! اغمد هذا السيف. اقبض هذه اليد التي رفعتها لتضرب بها امرأة. تعال اغتسل من شركك وجهالتك وجفائك وقسوتك. إنك ستمشي إلى مشرق النور، إلى دار الأرقم في أصل الصفا، فتشهد فيها أنه لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله!
يا لسرّ الكلمة السماوية: لا إله إلا الله محمد رسول الله! لقد نقلت عمر من ظلمة الجاهلية إلى نور الإسلام، ومن حضيض الخمول إلى قُنّة المجد، ومن مهامِهِ النسيان إلى صدر التاريخ. . لقد ذهب عمر الفظّ القاسي الذي كان مطية لقريش في ظلمها وشركها وجبَروتها الزائف، فينصر الباطل على الحق، والشرك على التوحيد، وجاء الفاروق العادل الرؤوف الرحيم، البطل الخالد العظيم، العبقريّ الذي أدار أربع ممالك، لقد جاء أمير المؤمنين، سيف الإسلام وعزّ الدين!
يا للعجب العجاب! إن الرجل الذي خرج في الهاجرة المحرقة، في هذا اليوم العصيب، منتضياً سيفه، لا يلوى على شيء حتى يقتل محمداً، قد رجع وهو يحب محمداً (صلى الله عليه وسلم) أكثر من أمّه وأبيه والناس أجمعين!
إنها قد تعرض للمرء لحظات تبدل مجرى حياته، ولكنا لا نعرف - ولا يكاد يعرف أحد - مثل هذه اللحظة المباركة، التي قلبت هذا الرجل قلباً، فارتقى مرّة واحدة من بدويّ منكر لا يعرفه إلا قومه، إلى عبقريّ سيعرفه التاريخ بأنه قاهر كسرى وقيصر وباني الكوفة
والبصرة، وأنه أقوى وأرق وأعقل وأعدل ملوك الزمان - هذه اللحظة التي أثرت في حياة العالم فأزاحت دولاً وأقامت دولاً، وثلت عروشاً، وبَنت حضارات.
أسلم الفاروق، فليفرق بين الحق والباطل، ولينتقل الإسلام من دين مستتر يفرّ من قريش العاتية الظالمة المستكبرة، مختبئ في حاشية من حواشي مكة التي يصول في بطاحها الشرك ويجول، وتقوم حول كعبتها الأصنام، إلى دين ظاهر مجاهد، يجابه الخصوم، ويصمد للأعداء. لقد كان الإسلام ساكناً تحت الصفا يعمل بهدوء ويتكامل في الخفاء، كما تتكامل البذرة في باطن الأرض؛ فليخرج الغصن ولينمُ في الهواء، وليسمُ إلى العلاء، ليكون منه بعد ثلاثين سنة الدوحة التي تمتد فروعها من صحراء أفريقيا إلى سهول خُراسان، ومن جبال الأناضول، إلى ساحل عُمان. . .
ليعلن الإسلام (بمظاهرة) تسير في شوارع مكة على رأسها (حمزة) أسد الله و (عمر) الفاروق حتى تنتهي إلى المسجد الحرام، فيصلي المسلمون عند الكعبة أول صلاة بجماعة، وإمامهم إمام الأنبياء وسيد المرسلين (صلى الله عليه وسلم)، ولتتقطع أفئدة قريش من الحنق، وليموتوا بغيظهم. انهم لا يستطيعون أن يصنعوا شيئاً. لقد أسلم الفاروق، وفرق الله به بين الحق والباطل! إنها (مظاهرة) صغيرة، لم يسر فيها إلا أربعون رجلاً، ولكنّ هؤلاء الأربعين هم الذين صنعوا الأربعمائة مليون مسلمي اليوم، ولا يعلم إلا الله ماذا يصنعون غداً. . . ولكن فيهم حمزة، فيهم عمر العظيم، فيهم خلاصة الإنسانية، وأفضل الأنس والجن والملائكة، محمد رسول الله!
إن هذه (المظاهرة) التي سار فيها أربعون شخصاً مائتي خطوة، من الصفا إلى الكعبة، لهي أعظم (مظاهرة) عرفها التاريخ لأعظم مبدأ قام لتقرير التوحيد، وتأييد الحق

ونصرة الفضيلة، وتحقيق المثل العليا في الحق والخير والجمال.
إنها تسير أبداً، تسير في الأدمغة والقلوب، ما بقيت أدمغة وقلوب يحفّ بها الإجلال والإكبار.

- 3 -

ولكن ماذا كان عمر لولا الإسلام؟ هل كانت هذه العبقرية النادرة، وهذه النفس العجيبة التي تظهر لو لم يلمسها (محمد) بيده الكريمة ويهزها ويُفِضْ عليها من نوره؟
هل كان لعمر هذه المكانة في التاريخ وهذه المنزلة في النفوس؟ هل كان يعيش إلى هذا العصر ويؤلف فيه عشرون كتاباً، ويبقى إلى العصر الآتي ويكتب فيه ألف كتاب؟
إن من يدقق في سيرة عمر، ويقابل بين عمر الجاهلية - على قلّة ما لدينا من أخباره - وعمر الإسلام، ويرى كيف استحال عمر من شخص إلى شخص، وتبدلت طبائعه وأفكاره في اللحظة التي وقف فيها أمام النبي صلى الله عليه وسلم ونطق بكلمة الشهادة وكيف ولد في تلك اللحظة ولادة جديدة وبدأ يصعد في مدارج العلاء. . . إلى ذروة المجد. . . إلى الجنّة، علم أن عمر مدين للإسلام بكل شيء.
نعم، قد تظهر هذه العبقرية ولو لم يتداركها الإسلام، وتبدو آثارها، ويصبح عمر زعيماً من زعماء مكة، يبرز ويعظم أثره في قريش، ثم لا يتجاوز اسمه هذا الوادي الذي يمتد ستة أكيال من جرول إلى الحجون، بعرض كيلين أثنين - أما أن يتخطى أثره الأخشبين إلى البادية، ويقطع البادية إلى الشام والعراق، وينفذ إلى الأجيال الآتية فشيء لم يكن ليناله عمر لولا الإسلام.
وماذا كانت تصنع هذه العبقرية وهي محصورة في هذا الأفق الضيق؟ وما كان يصنع وهو يعيش في بلدة منقطعة عن العالم تائهة في لجٍّ من الرمال ما له آخر لا صلة لها بالبلدان العامرة إلا صلة التجارة الضعيفة، ولا تأتيها أخبار العالم إلا رثة بالية، ولا نبأ عندها من فلسفة يونان، أو حكمة الهند، أو أخبار السياسة الدَّوْلية بين فارس والروم؟
هل يغير مصباح محبوس في صندوق مغلق؟ أم يشتعل وحده لا يدرى به أحد، ثم يفنى زيته، فينطفئ وحده لا يعلم به إنسان؟
أما كانت تمضي عبقرية عمر كما مضت ألوف من العبقريات دفنت حية في بقعة معتزلة من بقاع الأرض، في قوم متأخرين، ولم تتصل بسمع التاريخ؟
أما إن عمر شعاعة من نور الإسلام، ومعجزة من معجزات رسول الله صلى الله عليه وسلم!

- 4 -

لما استفاق بنو قريش من الغشية التي أصابتهم عند ما أسلم عمر عادوا يكيدون للدين، ويؤذون النبي والمسلمين، والنبي (صلى الله عليه وسلم) ماضٍ في دعوتهم، صابر على أذاهم، ينذرهم بطش الله، ويعدهم إذا أسلموا ملك فارس والروم، ويعدهم جنة عرضها السماوات والأرض، وهم ماضون في إعراضهم، لا يتدبرون القرآن، ولا تخشع له قلوبهم التي هي أشد قسوة من الحجارة (وَإِنَّ مِنَ الحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأنهارُ، وإِنَّ منها لمَا يشَّقَّقُ فيَخرُجُ مِنْهُ المَاءُ، وَإِنَّ مِنْهاَ لمَا يَهبطُ مِنْ خَشْيَةِ الله) يا لهذه القلوب التي هي أغلظ من الجبال! (لَوْ أَنْزَلْنَاَ هذا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ). وهذه القلوب التي أنزل عليها القرآن لا تخشع ولا تلين!
طلعت الشمس على وادي مكة أربعة آلاف وأربعمائة وأربعا وعشرين مرّة والمشهد واحد لم يتغير.
نبي الله يدعو الناس إلى الله، سراً وعلناً، فرادى وجمعاً، ليلاً ونهاراً؛ وبنو قريش يناوئونه ويحاربونه ويؤذونه، يلقون الشوك في طريقه وهو ماشٍ، ويرمون سلى الجزور على رأسه وهو ساجد، ويُغرون به سفهاءهم وأحداثهم، ويفتنونَ في تعذيب المسلمين، وتخرق لهم أدمغتهم الشيطانية طرقاً في التعذيب تقشعر لهولها الأبدان، ويقاطعون المسلمين لا يكلمونهم ولا يبايعونهم ولا يزوجونهم، ويحصرونهم في الشِّعب سنتين، ثم يعدون عدد الجريمة الكبرى، يأتمرون بالنبي ليقتلوه، ويضيّعوا دمه في القبائل، فلا يقدر عليه بنو عبد مناف.
فختام الصبر على هذا؟ أيقف هؤلاء المشركون الجاهلون من رؤوس قريش وزعماء مكة في وجه الإسلام، الذي ما جاء لقريش ولا للعرب، ولا للقرن السابع الميلادي،

ولكن جاء رحمة للعالمين، وهدى للناس أجمعين، في كل عصر وفي كل بادية ومصر؟
أهؤلاء يمحون الإسلام من الأرض محواً؟ يا للسخفاء المغرورين! (يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبى اللهُ إلاّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ) وينصر نبيه، ويظهر دينه (عَلَى الدِّينِ كُلِّه).
لم يعد في قوس الصبر مَنزَع، فليس الإسلام في طريقه - نحو أرض الشام - نحو الظلال والأعناب، فليستقر في الطريق، (في المدينة) حيناً، ثم ليخرج من يثرب، ليعم العالمين.
أيها المسلمون. . . هاجروا إلى المدينة!
أذن النبي صلى الله عليه وسلم للمسلمين بالهجرة إلى المدينة، فخرجوا إرسالاً مستخفين مستترين، ينسلّون من مكة انسلالاً، فلا تدري بهم قريش، إلا وهم في المدينة على رأس الجيش الذي يسحق رؤوس الكفر في (بدر)، ثم يمضي إلى (فتح مكة).
لكن عمر؟ عمر القويّ الذي ما لان للمشركين؛ عمر الذي أعلن إسلامه وذهب يضرب المشركين ويضربونه، ويجد في ذلك لذة وراحة؛ عمر الذي حماه خاله أبو جهل، وأجاره من أذى قريش، فضرب وجهه بجواره وأباه، وعاد إلى قريش يَضرب ويُضرب، ثم لا يكون إلا غالباً، يدفع عن نفسه، وعن المستضعفين من المسلمين.
عمر يذهب من مكة مستخفياً؟ معاذ الله يا عمر!
تهيأ عمر للهجرة، فتقلد سيفه، وتنكب قوسه، وانتضى بيده أسهماً، واختصر عنزته وذهب إلى المسجد، فاستقبل قريشاً بالسلاح الكامل، فطاف بالبيت سبعاً، ثم أتى المقام فصلى، ثم وقف على الملأ من قريش، فأعلن وحده الحرب عليهم جميعا. . . . فقال:
شاهت الوجوه! لا يرغم الله إلا هذه المعاطس! من أراد أن يُثكل أمّه؛ أو يوتِم ولده، (أو يُرمل زوجتَه، فليلقني وراء هذا الوادي!).
قال علي رضي الله عنه: فما تبعه إلا قوم من المستضعفين، علمهم ما أرشدهم، ثم مضى لوجهه.
- 5 -
سيقول قائل: ما لعمر يعلن هجرته، ويمشي على رؤوس الأشهاد من صناديد قريش، والنبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبو بكر رضي الله عنه يهاجران مستخفيين؟
أيكون عمر أشجع من النبي ومن أبي بكر؟
لا والله، ما هو بأشجع منهما، ولقد وقف عمر بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم وهو بعد لم يسلم، ولم يجيء إلا ليقتله، فلما أمسك بتلابيبه ونتره، سقط على الأرض، على قدم النبي، وهو يرتعد من هيبته صلى الله عليه وسلم. وكان الصحابة - وفيهم عمر - إذا جد الجد، وحمى الوطيس، ودارت رحى الحرب، استتروا بالنبي صلى الله عليه وسلم واحتموا به. ولما كانت الردة ورمت العرب عن قوس واحدة، وخاف الصحابة وخاف عمر، وأرادوا المسالمة والملاينة، قام أبو بكر وحده في وجه العالم وصارعه حتى صرعه. فكان عمر يعرفها له أبداً. . . فعلام إذن هاجر عمر جهاراً نهاراً! وهاجرا مستخفيين؟
إن في الأمر لسراً، هو غير الشجاعة والجبن، ذلك أن القائد العام عندما ينتقل من جبهة من جبهات الحرب إلى جبهة أخرى، لا يقف في الطريق على عدو، ولا يلقى حرباً، وإذا رأى
نفراً من الأعداء، يستتر منهم، وينأى عنهم، لأنه إذا سلك سبيل الشجاعة الساذجة، وأقبل عليهم يقاتلهم، ضيع الجيش الذي ينتظره، ولا يعمل إلا به، وخسر المعركة الكبرى لينتصر على نفر من الأعداء في معركة على الهامش، ثم إن فراره لا يعد جبناً ولا عجزاً، وإقدامه لا يعد شجاعة ولا استبسالاً.
ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم القائد الأكبر، لا في حرب قريش أو هوازن - فما قريش؟ وما هوازن؟ ولكن في حرب الشرك والجهل والظلم، في الحروب التي تمتد أبداً بين الحق والباطل، فلا يدافع عن الحق قوم إلا كانوا تحت راية محمد، فهل يدع مهمته الكبرى، لينتشر على نفر من قريش؟
ذلك هو سرّ الهجرة.

(لم ينته الفصل)
علي الطنطاوي
جامعة الإسكندرية - 2
بقلم الأديب إبراهيم جمعة
علماء الجامعة في عصرها الأول - فليتاس القوصي - زنودوتس - زيارة ميناندر الأثيني وافتتاح مسرح الإسكندرية - اكتشاف فيلون للبحر الأبيض الجنوبي - دراسة مانيتو وتيموثيوس وهيكتاتس للعقائد المصرية القديمة - اقليدس وهيروفيلوس - سوتر يكلف بالدراسة والتصنيف آخر الأمر - قيمة كتاباته - الفن - أخذ الإيطاليين عن الإسكندريين.
يميل الباحثون الألمان إلى نسبة هذه الجمهرة من العلماء إلى بطليموس الأول المعروف باسم بطليموس سوتر، وهو الذي يعتبره (سسميل) صاحب الفضل الأوفى في خلق حركة فكرية أدبية علمية في الإسكندرية قام هو بحمايتها، وترأس مجالسها، وأصغى إلى المناقشات الشديدة الاحتدام التي خلت في بعض الأحايين من الفائدة العلمية، فأصبح جدلاً شخصياً لا طائل تحته.
عهد بطليموس سوتر بتربية ابنه (فيلادلف) إلى عالم ذاع صيته في ذلك العصر هو فليتاس القوصي، وهو شاعر ينسب إليه أول مجهود أدبي عرفته الإسكندرية في الشعر الرثائي، بل أول مجهود عرفه العالم أجمع من هذا النوع من الشعر، وهو إلى هذا من أشهر علماء اللغة الإغريقية الذين صنفوا فيها، ووضعوا لها موسوعة كبرى حوت كل مصطلحاتها.
هذا وقد تابع زنودوتس البيزنطي التأليف والتصنيف في قواعد الإغريقية، وقام بجهد يشكر في مراجعة مخلفات (هوميروس).
ويحتمل أن يكون بطليموس سوتر هو المؤسس لمسرح الإسكندرية، وأن تكون دعوته (لميناندر الأثيني) بقصد حضور حفلة افتتاح المسرح الكبير وشهود بعض رواياته التي وضعها في أثينا تمثل في الإسكندرية؛ وقد كانت زيارة ميناندر للإسكندرية تطويقاً لجيد الجامعة بأثمن درر العصر، واعترافاً بالمكانة الناشئة والنجاح الظاهر الذي صحب جهود البطالسة الأوائل في توفير جو علمي من الطراز الأول لمدينتهم الجديدة.
ووكل سوتر إلى أمير البحر (فيلون) أمر التجوال في البحر الأحمر قصد الوصول إلى أطرافه الجنوبية؛ وقد وفق هذا إلى اكتشاف البحر الأحمر الجنوبي، وكان لهذا الاكتشاف أثره في عصر بطليموس فيلادلف ومن خلفه في التجارة وفي تزويد الجامعة بأبحاث
عظيمة القيمة سنأتي على ذكرها في موضعها - كما عهد سوتر أيضاً إلى هيكتاتيس الأبديري، ومانيثو، وتيموثيوس أمر دراسة (الميثولوجيا) المصرية القديمة، ابتغاء تزويد الإمبراطورية البطليموسية الناشئة بما يحتاج إليه كيانها من العقائد.
والحقيقة أن كل هذه الجهود هي دون ما بلغته جامعة الإسكندرية في هذا العصر من التفوق في الهندسة على يد أستاذها الأكبر (اقليدس الإسكندري) وفي التشريح على يد أستاذه الفذ (هيروفيلوس).
وإقليدس أشهر معلمي هذا العصر إطلاقاً، وهو أبو الهندسة كما يقولون، مؤسس مذهب البحث العلمي؛ وكتابه (الأصول) أنماط في صميم المنطق أكثر منها موضوعات في الرياضة، وإليه يرجع الفضل في جعل عصر سيده بطليموس سوتر عصر تفوق رياضي عظيم الشأن، كان ولا يزال له أثره في تقدم العلم والعقل البشري.
وكان (هيروفيلوس) أبا للتشريح، كما كان (أبقراط) اليوناني أبا للطب من قبل، وبفضل هيروفيلوس سجل التاريخ لمصر السبق في دراسة (الأمعاء) دراسة دقيقة، وكانت الحكومة تمده بالمجرمين المقضي عليهم بعقوبة الإعدام ليجري فيهم تجاربه - كما أمدته حظيرة الحيوان الملحقة بالمتحف بأنواع من الحيوان شرحها ودرسها واستنبط من كل ذلك طريقة علمية للتشريح ساعدت بدورها على رفع شأن الإسكندرية في العلوم الطبية.
وتآزرت جهود هذا العالم وجهود إقليدس على خلق مكانة للإسكندرية ظلت مقترنة باسم المتحف الإسكندري حتى وقتنا هذا.
ويجدر بنا أن نذكر أنه بينما كان الإسكندريون مشغوفين بمباحث العلم البحت في الرياضة والطب وما شاكلهما، كان الأثينيون مشغولين بدراسة الفلسفة من رواقية

وأبيقورية، أما اشتغال الإسكندرية بالفلسفة فقد جاء متأخراً حين أسس فلاسفتها مذاهبها الخاصة التي أشهرها الأفلاطونية الحديثة وسنعرض لها في بحثنا هذا بكثير من التفصيل.

كانت لبطليموس سوتر شواغل سياسية إلى جانب انهماكه في رفع شأن الإسكندرية، وأهم تلك الشواغل منافسته لديمتريوس ملك مقدونية، لانتزاع السلطة البحرية على البحر الأبيض الشرقي من يده، وما لبث حتى انتزع قبرص من الملك المقدوني وجعلها مركزاً لأسطوله، وغدت له بهذا سيطرة غير منازعة على المياه الشرقية من البحر الأبيض. وكان

من شواغله أيضاً رغبته الملحة في نقل جثمان سيده (الإسكندر) إلى مصر، ابتغاء الفخر بحيازة جثمان العاهل العظيم، ولم يهدأ لسوتر بال حتى تم له ذلك، وبهذا خلا نهائياً من مشاغله الخارجية، وخصص كل عنايته بعد ذلك للمكتبة والمتحف اللذين نالا من ماله وانتباهه الشيء الكبير. ومن أمره أنه شغف مع المشغوفين بالدراسة والتصنيف؛ ومن المعروف عنه أنه وضع مصنفاً في حروب الإسكندر الأكبر التي ساهم فيها كأحد قوادها. ويصف (أريان) مؤلَّف سوتر بأنه من أدق المراجع وأوفاها في هذا الشأن، ويضعه في رأس كتب المراجع التي صدر عنها تاريخه، وقد يكون هذا حقاً، كما قد يكون ملقاً للملك المؤلف.

والمذكرات الخاصة التي يضعها القواد عن أعمالهم في الحروب يغلب عليها المبالغة، وحسن تقدير تلك الأعمال وتعظيم نتائجها مما قد يكون إغراقاً وتورطاً في الباطل، وهي لهذا لا يصح أن تتخذ سنداً من أسانيد التاريخ إلا بكثير من الحيطة والحذر. وينسب إلى نابليون الأول شيء من هذا في مذكراته التي كتبها عن نفسه، ولم يتحرر يوليوس قيصر من مثل ما ينسب إلى نابليون في مذكراته عن (الحرب الغالية).

ويذكرون أن سوتر كتب أيضاً عدة رسائل عن الشؤون العامة في عصره نشرها (ديونيسودورس) أحد تلاميذ (أرستاكاس) العالم الإسكندري، يؤسفنا أننا لم نعثر على شيء منها حتى الآن.

وفي أواخر أيام سوتر كان لا بد له من تسوية مسألة وراثة العرش، إذ كان له أكثر من وريث، وكان أكثر هؤلاء الوراث خطراً على العرش البطليموسي (بطليموس) ابن له من يونانية، أخذ ديمتريوس ملك مقدونية الموتور يشد أزره ويناصره على بطليموس (فيلادلف). وكان النزاع بين هذين الوريثين نزاعاً بين روحين مختلفتين: روح مصرية، وروح يونانية؛ وكان انتصار إحداهما على الأخرى انتصاراً لإحدى الروحين، وتحديداً لمستقبل البلاد. وكان ميل الملك الأب مع أبنه فيلادلف، وكان هوى الشعب مع الأخير إذكاء للروح القومية الجديدة التي بدأها وارث ملك الإسكندر في مصر سوتر العظيم، وإنهاضاً لمدينة هلينية الأصل حقاً، ولكنها من حق الإسكندرية، ومن جهدها وإحيائها. كان الملك الأول يأنس في الملك الابن فيلادلف سياسة مشابهة لسياسته، أساسها المحافظة على

الصبغة المشتركة التي جمعت بين اليونانية الهلينية والمصرية الفرعونية، والتي حرص البطالسة على التمسك بها كأساس لملكهم الجديد، لا مناص منه، إبقاء على دولتهم من أن تبيد.

والذي يتأمل كيف عنى سوتر بتربية ابنه فيلادلف على أيدي خير الأساتذة، يرى كيف كان يحرص على أن ينتهي ملكه إلى هذا الوريث دون سواه، وقد كان أن نزل سوتر لابنه فيلادلف عن العرش، ولكنه ظل يظهر في بلاط ابنه مدة عامين كأحد الرعايا، ومات عام 283 ق. م مخلفاً على الزمن سجلاً حافلاً بالحوادث الجسام قَلَّ أن تتوفر لحاكم.

استطاع سوتر أن يركز دراسة العلوم والآداب والفلسفة والطب في عاصمة ملكه، ولكن هل استطاع أن يجعل الإسكندرية كعبة الفنون في هذا العصر؟

إذا كان لنا أن نحكم بالشواهد التي بين أيدينا وهي تلك النقوش البديعة التي ترى فوق العملة المتخلفة عن هذا العصر في دور العاديات، لما تأخرنا عن الحكم قطعاً بتقدم الفن في ذلك العصر؛ غير أنه لا يجب أن يغيب عن بالنا ونحن في هذا الصدد أن الفن الإغريقي كان عليه أن يغالب فناً من أقوى الفنون التي عرفها تاريخ العمارة هو الفن الفرعوني. والمشاهد بوجه عام أن المباني التي أقامها البطالسة خارج الإسكندرية

روعي فيها أن تكون فرعونية الصبغة، ولكنها لم تخل من التأثر بالفن الإغريقي؛ ولم يكن للبطالسة من ذلك مناص، تشبهاً بالفراعنة وإرضاء لذوق الشعب المصري الذي لم تنسه الأحداث السياسية قوميته، ولم يمجد على مرور الزمن أبطالاً غير أبطاله، ولم يعرف عنه أنه أسلم القياد كله للمدنية الدخيلة، ولاسيما للجانب الديني منها، بل بقي محافظاً على دين أجداده محافظة تامة. لهذا ظلت المباني ذات الصبغة الدينية على النمط الفرعوني.

تأثر البطالسة بالديانة المصرية أكثر مما تأثر المصريون بالفن الإغريقي، ولذلك بقيت الصبغة المصرية كما أسلفنا ظاهرة في الفن الذي عرف عن العصر البطليموسي، إلا في الإسكندرية ذاتها، حيث كان كل شيء يونانياً صرفاً؛ فأقيم في الإسكندرية في هذا العصر المتحف والملعب والمسرح والسينما حيث دفن الإسكندر، وكانت كلها من غير جدال آية في إبداع الصنعة الإغريقية، رغم ما يحاول البعض إشاعته من تأخر الفن في هذه الفترة من الزمن.

والأدلة المادية على تقدم الفن الإغريقي في مصر في هذا الزمن ما أبدعته يد نحات لتابوت من الرخام البديع الصنع ما يزال محفوظاً في متحف القسطنطينية لملك مجهول الاسم من ملوك صيدا، هو تحفة من تحف الحفر وحذق الألوان، وتلك المشاهد التاريخية التي ترى محفورة على الأحجار تمثل المعارك بين الفرس والإغريق، إلى تلك الصور الرمزية التي قصد بها الإشارة إلى امتزاج الشرق والغرب عن طريق الحضارة الإغريقية، إلى مناظر الصيد وغير ذلك مما لا يفوقه سوى (البارثنون) في أثينا.

وأغلب الظن أن الإسكندرية بما توفر لها من سمو المكانة لا بد أن تكون قد استهوت أمهر البناءين، ورجال الفنون حيث بلاط سوتر وفيلادلف وعطاؤهما المغدق لكل من برز في ناحية من النواحي؛ ولا شك أن الإسكندرية عروس البحر الأبيض المتوسط لم تكن إلا من خلق هؤلاء الفنانين وإبداعهم.

وقد كتب م. شريبر مقالاً ممتعاً عن فن نشأ بالإسكندرية وتقدم فيها، وانفردت به، هو صناعة الأواني الذهبية والفضية التي تتخذ عادة مقياساً لتقدم الحرف اليدوية، والتي لا تزال شاهدة على قولنا بين محتويات دور الآثار. ويحاول هو أن يثبت أن الإسكندريين كانوا الأساتذة في هذا المضمار وفي غيره. ففي رأيه أن أسلاف (بنفنتو سليني) الإيطالي، والمدرسة الإيطالية التي زعيمها هذا الأخير حاكت فن الإسكندرية في الشعر والفن. وهو يدلل بقوة على حب الإسكندريين للطبيعة وتقديرهم لروائعها، وعلى أن الإسكندرية كانت حلقة الاتصال بين العلم والفن، وبين القديم والحديث، وبين الشرق والغرب. . . الخ.

ليس الفن في ذاته ناحية من نواحي نشاط جامعة الإسكندرية، ولا هو عادة يتصل بالدراسة الجامعية اتصالاً مباشراً، ولكنا سقنا هذه الكلمة القصيرة عن الفن الإغريقي الإسكندري، لأنه جانب من جوانب المدنية، كان يستلزم من الإسكندريين ولا شك إلماماً بالأصول الهندسية التي لا غنى لفن العمارة عنها. ونحن وإن كنا لم نحصل على ما نقطع الرأي به من أن الهندسة التي اشتهرت بها الإسكندرية منذ عهد اقليدس كانت تطبق ويستفاد منها عملياً في فن العمارة، إلا أننا نرجح إمكان استفادة الفن من هندسة إقليدس استفادة كبرى.

ولنا في بعض مقالاتنا التالية عود إلى نقل إيطاليا وخاصة جامعة (بدوا) في العصور الوسطى عن جامعة الإسكندرية نظامها والكثير من تراثها الفكري حيث شاع منها إلى أوربا من قطر إلى قطر ومن عصر إلى عصر.

(حقوق النقل محفوظة لصاحب المقال)

إبراهيم جمعة

للتاريخ السياسي

معاهدة الصداقة والتحالف بين مصر وإنجلترا

- 3 -

محضر متفق عليه

رغب الوفد المصري ووفد المملكة المتحدة أن يسجلا في محضر المفاوضات ما اتفقا عليه من تفسير لبعض نصوص معاهدة التحالف، وفيما يلي بيان هذه التفسيرات:

1 - من المفهوم طبعاً أن التسهيلات المنصوص عليها في المادة السابعة التي تقدم

إلى صاحب الجلالة الملك والإمبراطور تشمل إرسال قوات أو إمدادات بريطانية في الحالات المعينة بتلك المادة.
2 - من المفهوم أنه كنتيجة لأحكام المادة السادسة تتبادل الحكومتان المشورة في حالة خطر قطع العلاقات.
وعليه ففي حالة قيام ضرورة دولية مفاجئة يخشى خطرها يعمل بمبدأ التشاور المتبادل نفسه.
3 - تشمل (طرق المواصلات) المشار إليها في الجملة الثانية من المادة السابعة المواصلات الإخبارية (الأسلاك البحرية والتلغرافات والتليفونات واللاسلكي).
4 - تشمل الإجراءات الحربية والإدارية والتشريعية الوارد ذكرها في الجملة الثالثة من المادة السابعة الإجراءات التي بموجبها تراعي الحكومة المصرية في استعمال حقها بالنسبة لمواصلات الراديو الكهربائية مستلزمات محطات التلغراف اللاسلكي التابعة للقوات البريطانية في مصر، وتواصل العمل مع السلطات البريطانية لمنع أي تدخل بين موجات محطات التلغراف اللاسلكي البريطانية والمصرية، كما تشمل الإجراءات التي تكفل الرقابة الفعالة على جميع وسائل المواصلات المشار إليها في تلك المادة.
5 - يراد بكلمتي (منطقة جنيفة) الواردتين في الفقرة الثانية (أ) من ملحق المادة الثامنة امتداد شاطئ البحيرة المرة الكبرى من نقطة تبعد ثلاثة كيلومترات شمالي محطة جنيفة إلى نقطة تبعد ثلاثة كيلومترات جنوب شرقي محطة قايد بعرض ثلاثة كيلومترات من شاطئ
البحيرة.
6 - من المتفق عليه بالنسبة إلى (ب) من الفقرة الثانية من ملحق المادة الثامنة أن تحدد بالضبط وفي أقرب وقت مستطاع الأماكن التي ستحل بها القوات الجوية بالمنطقة المشار إليها هناك.
وينقل كذلك إلى هذه المنطقة مستودع قوات الطيران الملكية الموجودة الآن بأبي قير، على ألا يتأخر ذلك عن تاريخ انسحاب القوات البريطانية من القاهرة طبقاً للفقرة الثامنة.
7 - من المتفق عليه بالنسبة للفقرة الثالثة من ملحق المادة الثامنة (أ) أن تشمل أبنية الثكنات البريطانية أماكن للمتزوجين من الضباط، ولنسبة معينة من الرتب الأخرى.
(ب) إنه وإن كان يمكن الآن تحديد موضع مصحة النقاهة تحديداً نهائياً إلا أن العريش قد تصلح لهذا الغرض. (ج) إن الحكومة المصرية جرياً على الخطة التي سلكتها فعلاً لمصلحة سكان تلك المناطق ستتخذ جميع التدابير الصحية الممكنة لمكافحة الملاريا في الجهات المجاورة للمناطق التي توجد بها القوات البريطانية.
8 - من المتفق عليه بالنسبة للفقرة السادسة من ملحق المادة الثامنة أنه فيما يتعلق بالطريق رقم (2) إذا لم تستطع الحكومة المصرية الاتفاق مع شركة قنال السويس على استخدام القوات البريطانية والمصرية لهذا الطريق وإصلاح الأجزاء التي لم تصل بعد إلى مستوى الأجزاء الأخرى إلى أن تفي بالشروط المبينة في الفقرة السادسة فأن الحكومة المصرية ستنشئ طريقاً جديداً يصل ما بين هذه الأماكن.
9 - من المتفق عليه بالنسبة للفقرة الثانية عشرة من ملحق المادة الثامنة أن يقتصر عدد أفراد الفصيلة المشار إليها على الحد الأدنى اللازم بالضبط لاستلام هذه الأدوات وحراستها.
10 - من المتفق عليه بالنسبة للفقرة الثالثة عشرة من ملحق المادة الثامنة أن الطيران سيكون لأغراض التدريب؛ على أن يكون في الغالب فوق المناطق الصحراوية، ولا يكون فوق المناطق المسكونة إلا حين تقتضي الضرورة ذلك.
11 - من المتفق عليه طبعاً فيما يتعلق بالفقرة الثانية من المذكرة المصرية الثانية أن الحكومة المصرية هي التي تدفع نفقات البعثة العسكرية، وأن كلمتي (التدريب الصحيح)
الواردتين في هذه الفقرة يشملان التدريب في الكليات والمعاهد الحربية والبريطانية.
12 - لا تنطبق الفقرة الثانية من المذكرة الثانية إلا على الأشخاص الذين يكونون بالفعل في ذلك الوقت من أفراد القوات المصرية المسلحة.
13 - يراد بكلمة (المعدات) الواردة بالفقرة الثالثة من المذكرة المصرية الثانية كل

المهمات التي يحسن بالقوات التي تعمل معاً أن تتخذها من صنف واحد فلا تشمل الملابس ولا المنتجات المحلية.

ملحق للمادة الحادية عشرة

إلى أن يتفق الطرفان على غير ما يأتي تطبيقاً للفقرة الأولى من هذه المادة يتعين أن تكون المبادئ العامة التي يراعيانها في المستقبل بالنسبة للاتفاقات الدولية هي أنها لا تطبق على السودان إلا بعمل مشترك تقوم به حكومة المملكة المتحدة وحكومة مصر وأن مثل هذا العمل المشترك يكون لازماً تماماً كذلك إذا أريد إنهاء اشتراك السودان في اتفاق دولي كان ينطبق عليه.

والاتفاقات التي يراد سريانها على السودان تكون على العموم اتفاقات ذات صفة فنية أو إنسانية، وتشمل مثل هذه الاتفاقات في الغالب على الدوام حكماً خاصاً بالانضمام اللاحق إليها، وفي مثل هذه الأحوال تتبع هذه الطريقة لجعل الاتفاق سارياً على السودان.

ويجري الانضمام بوثيقة مشتركة يوقعها عن مصر وعن المملكة المتحدة كل فيما يخصه شخصان مفوضان في ذلك تفويضاً صحيحاً.

وتكون طريقة إيداع وثيقة الانضمام في كل حالة موضع اتفاق بين الحكومتين.

وفي حالة ما إذا أريد أن يطبق على السودان اتفاق لا يحتوي على نص بالانضمام تكون طريقة تحقيق ذلك موضع تشاور واتفاق بين الحكومتين.

وإذا كان السودان بالفعل طرفاً في اتفاق وأريد إنهاء اشتراكه فيه تشترك المملكة المتحدة ومصر في إصدار الإعلان اللازم لهذا الإنهاء.

ومن المتفق عليه أن اشتراك السودان في اتفاق ما وإنهاء ذلك الاشتراك لا يكونان إلا بعمل مشترك يجري خصيصاً بالنسبة للسودان ولا يستنتجان من مجرد كون المملكة المتحدة ومصر طرفين في الاتفاق أو من نقضهما لهذا الاتفاق.

وفي المؤتمرات الدولية التي تجري فيها المفاوضات في مثل هذه الاتفاقات يكون المندوبان البريطاني والمصري بطبيعة الحال على اتصال دائم بالنسبة لأي إجراء قد يتفقان على أنه مرغوب فيه لصالح السودان.

محضر متفق عليه

1 - من المتفق عليه بالإشارة إلى الفقرة الأولى من المادة الحادية عشرة أن يقدم الحاكم العام إلى حكومة صاحب الجلالة في المملكة المتحدة وإلى الحكومة المصرية تقريراً سنوياً عن إدارة السودان، وأن يبلغ التشريع السوداني إلى رئيس مجلس الوزراء المصري مباشرة.

2 - من المتفق عليه بالإشارة إلى الفقرة الثانية من المادة الحادية عشرة أنه بينما يكون تعيين الوطنيين المصريين في الوظائف الرسمية بالسودان خاضعاً بالضرورة لعدد الوظائف المناسبة الخالية ووقت خلوها ومؤهلات المرشحين المتقدمين لها فإن أحكام تلك الفقرة تسري فوراً بمجرد نفاذ المعاهدة؛ وتكون ترقية الموظفين في حكومة السودان بدون اعتبار للجنسية إلى أية درجة كانت وذلك بالاختيار تبعاً للجدارة الشخصية.

3 - ومن المفهوم أيضاً أن هذه النصوص لا تمنع الحاكم العام من أن يعين أحياناً في بعض الوظائف الخاصة أشخاصاً من جنسيات أخرى إذا لم يتيسر وجود ذوي المؤهلات من الرعايا البريطانيين والوطنيين المصريين أو من السودانيين.

4 - من المتفق عليه فيما يتعلق بالفقرة الثالثة من المادة الحادية عشر أنه نظراً لأن الحكومة المصرية ترغب في إرسال الجنود إلى السودان فإن الحاكم العام سيبادر بالنظر في أمر عدد الجنود المصرية اللازمة للخدمة في السودان والأماكن التي يقيمون فيها والثكنات اللازمة لهم؛ وسترسل الحكومة المصرية فوراً بمجرد نفاذ المعاهدة ضابطاً مصرياً عظيماً يستطيع الحاكم العام استشارته في هذه الأمور.

5 - بما أنه قد تم الاتفاق بين الحكومة المصرية وحكومة صاحب الجلالة في المملكة المتحدة على أن مسألة الدين المستحق لمصر على السودان والمسائل المالية الأخرى المتعلقة بهما تبحث بين وزارة المالية المصرية ووزارة المالية بالمملكة المتحدة، وبما أن هذا البحث قد ابتدأ بالفعل فقد رؤى أنه ليس من الضروري أن تتضمن المعاهدة أي نص

خاص بهذه المسالة.
خطاب من فخامة المندوب السامي
خطاب للمندوب السامي
إلى دولة مصطفى النحاس باشا رئيس مجلس الوزراء
سيدي:
في خلال مناقشتنا في المسائل التفصيلية المتصلة بالفقرة الثانية من المادة الحادية عشرة أقترح ندب خبير اقتصادي مصري للخدمة في الخرطوم وأبدى الحاكم العام رغبته في تعيين ضابط مصري سكرتيراً حربياً له، وقد سجل الاقتراح والرغبة المشار إليهما واعتبرا مقبولين من جهة المبدأ؛ كما إنه قد اعتبر من المرغوب فيه ومن المقبول أن يدعى مفتش عام الري المصري بالسودان إلى الاشتراك في مجلس الحاكم العام كلما نظر المجلس في مسائل متصلة بأعمال مصلحته.
وتفضلوا. . . . الخ
إمضاء
ملحق للمادة الثالثة عشرة
إن الأغراض التي ترمي إليه التدابير الواردة في هذا الملحق هي:
1 - الوصول على وجه السرعة إلى إلغاء الامتيازات في مصر وما يتبع ذلك حتماً من إلغاء القيود الحالية التي تقيد السيادة المصرية في مسألة سريان التشريع المصري (بما في ذلك التشريع المالي) على الأجانب.
2 - إقامة نظام انتقال لمدة معقولة تحدد، ولا تطول بغير مبرر. وفي حدود تلك المدة تبقى المحاكم المختلطة وتباشر الاختصاصات المخولة الآن للمحاكم القنصلية فضلاً عن اختصاصها القضائي الحالي.
وفي نهاية فترة الانتقال هذه تكون الحكومة المصرية حرة في الاستغناء عن المحاكم المختلطة.
2 - تتصل الحكومة المصرية كخطوة أولى في أقرب وقت مستطاع بالدول ذوات الامتيازات بقصد (أ) إلغاء كل قيد يقيد التشريع المصري على الأجانب، و (ب) إقامة نظام انتقال للمحاكم المختلطة كما هو وارد في الشطرة الثانية من الفقرة الأولى سالفة الذكر.
3 - إن حكومة صاحب الجلالة في المملكة المتحدة بصفتها دولة من ذوات الامتيازات وبصفتها حليفة لمصر لا تعارض بتاتاً في التدابير المشار إليها في الفقرة السابقة، وستتعاون تعاوناً فعلياً مع الحكومة المصرية في تحقيق هذه التدابير باستعمال كامل نفوذها لدى الدول ذوات الامتيازات في مصر.
4 - من المتفق عليه أنه في حالة ما إذا وجد من المستحيل تحقيق التدابير المشار إليها في الفقرة الثانية فإن الحكومة المصرية تحتفظ بحقوقها كاملة غير منقوصة إزاء نظام الامتيازات بما فيه المحاكم المختلطة.
5 - من المتفق عليه أن الشطرة (أ) من الفقرة الثانية لا تعني فقط أن موافقة الدول ذوات الامتيازات لن تكون ضرورية لسريان التشريع المصري على رعاياها، ولكنها تعني أيضاً انتهاء الاختصاص التشريعي الحالي الذي تباشره المحاكم المختلطة بالنسبة لتطبيق التشريع المصري على الأجانب، ويتبع ذلك ألا يكون للمحاكم المختلطة في سلطاتها القضائية أن تقضي في صلاحية سريان قانون أو مرسوم مصري طبقه البرلمان المصري أو الحكومة المصرية على الأجانب.
6 - يصرح صاحب الجلالة ملك مصر بمقتضى هذا أن أي تشريع مصري يطبق على الأجانب لن يتنافى مع المبادئ المعمول بها على وجه العموم في التشريع الحديث، وأنه فيما يتعلق بالتشريع المالي على الخصوص فأن هذا التشريع لن يتضمن تمييزاً مجحفاً بالأجانب بما في ذلك الشركات الأجنبية.
7 - لما كان من المعمول به في أكثر البلاد أن يطبق على الأجانب قانون جنسيتهم في مسائل الأحوال الشخصية فسينظر بعين الاعتبار إلى أنه من المرغوب فيه أن تستثنى من نقل الاختصاص - على الأقل في البداية - مسائل الأحوال الشخصية الخاصة برعايا الدول الممتازة التي ترغب في أن تستمر محاكمها القنصلية في مباشرة هذا الاختصاص.

سيقتضي نظام الانتقال الذي يوضع للمحاكم المختلطة ونقل الاختصاص الحالي للمحاكم القنصلية إليها (الأمر الذي سيكون بطبيعة الحال خاضعاً لأحكام الاتفاق الخاص المشار إليه
في المادة التاسعة) إعادة النظر في القوانين الحالية الخاصة بتكوين المحاكم المختلطة واختصاصها بما في ذلك إعداد وإصدار قانون جديد لتحقيق الجنايات.
ومن المفهوم أن إعادة النظر هذه ستتضمن فيما تتضمنه المسائل الآتية:
1 - تعريف كلمة أجنبي بصدد الاختصاص المقبل للمحاكم المختلطة.
2 - زيادة عدد موظفي المحاكم والنيابات المختلطة بما يقتضيه التوسيع المقترح لاختصاصها.
3 - الإجراءات المتعلقة بمسائل العفو أو تخفيف عقوبة الأحكام الصادرة على الأجانب والإجراءات المتعلقة بتنفيذ عقوبة الإعدام الصادرة عليهم.
محضر متفق عليه
من المتفق عليه بالنسبة للفقرة السادسة من ملحق المادة الثالثة عشرة أن المسائل التي ينطوي عليها هذا التصريح لا تخضع لقضاء أي محكمة في مصر.
المذكرة المصرية الأولى
سيدي:
بالإشارة إلى المادة الثانية من المعاهدة التي وقعناها اليوم أتشرف بإخباركم أنه نظراً لأن حضرة صاحب الجلالة ملك بريطانيا العظمى وايرلندا والأملاك البريطانية وراء البحار وإمبراطور الهند سيكون أول ملك أجنبي يمثله في مصر سفير فإن السفراء البريطانيين سيعتبرون ذوي أقدمية على باقي الممثلين السياسيين المعتمدين لدى بلاط صاحب الجلالة ملك مصر. وتكون محتويات هذه المذكرة خاضعة لإعادة النظر في الوقت وبالشروط المنصوص عنها في المادة السادسة عشرة من المعاهدة.
المذكرة المصرية الثانية
سيدي:
أريد أن أسجل هنا مسائل معينة أخرى تم التفاهم عليها وتتصل بالشؤون العسكرية في معاهدة التحالف التي وقعناها اليوم
1 - يسحب الموظفون البريطانيون من الجيش المصري وتلغى وظائف المفتش العام والموظفين التابعين له.
2 - نظراً لأن الحكومة المصرية ترغب في استكمال تدريب الجيش المصري بما فيه سلاح الطيران وتنوي لمصلحة المحالفة التي تم عقدها أن تختار المدربين الأجانب الذين قد ترى حاجة إليهم من بين الرعايا البريطانيين وحدهم فإنها قد اعتزمت أن تنتفع بمشورة بعثة عسكرية بريطانية للمدة التي تراها ضرورية للغرض المذكور، وتتعهد حكومة صاحب الجلالة في المملكة المتحدة بأن تقدم البعثة العسكرية التي تطلبها الحكومة المصرية كما تتعهد بأن تقبل من ترى الحكومة المصرية إيفاده من رجال جيشها للتعلم بالمملكة المتحدة وأن تكفل لهم التدريب الملائم. ونظراً للظروف التي هيأتها هذه المعاهدة سوف لا ترغب الحكومة المصرية بطبيعة الحال في إيفاد أحد من أفراد قواتها المسلحة ليتلقى دراسته في أي معهد أو وحدة من معاهد التدريب أو وحداته في غير المملكة المتحدة، على ألا يمنع ذلك الحكومة المصرية من أن توفد إلى أي بلد آخر رجال الجيش الذين لا يتيسر قبولهم في معاهد المملكة المتحدة ووحداتها.
3 - يتعين لصالح المحالفة ونظراً لاحتمال ضرورة التعاون في العمل بين القوات البريطانية والمصرية ألا يختلف طراز أسلحة القوات المصرية من برية وجوية ومعداتها عن الطراز الذي تستعمله القوات البريطانية. وتتعهد حكومة صاحب الجلالة في المملكة المتحدة بأن تبذل وساطتها لتسهيل توريد تلك الأسلحة والمعدات من المملكة المتحدة بمثل الأثمان التي تدفعها حكومة صاحب الجلالة كلما رغبت الحكومة المصرية في ذلك.
المذكرة المصرية الثالثة
سيدي:
بالإشارة إلى المادة الرابعة عشرة من المعاهدة التي وقعناها اليوم أتشرف بإبلاغكم

أن الحكومة المصرية تنوي إلغاء إدارة الأمن العام الأوربية فوراً، ولكنها ستستبقي لمدة خمس سنوات من نفاذ المعاهدة عنصراً أوربياً معيناً من بوليس المدن، ويبقى هذا البوليس في المدة المذكورة تحت إمرة ضباط بريطانيين.
وتسهيلاً لإحلال موظفين مصريين بالتدريج محل العنصر الأوربي المذكور مما يضمن تجانس العمل في نظام البوليس تنوي الحكومة المصرية أن تستغني كل عام عن خدمة
خمس موظفي البوليس الأوربي.
وستفضل الحكومة المصرية على العموم بالنظر لمعاهدة الصداقة والتحالف التي وقعناها اليوم الرعايا البريطانيين الحائزين للمؤهلات المطلوبة عندما تستخدم خبراء من الأجانب.
(تمت ملحقات المعاهدة)
3 - نهضة المرأة المصرية
وكيف توجه للخير العام
للأستاذ فليكس فارس
من هذا الموقف دفعت الإنسانية في الغرب أوائل خطواتها على سبيل المدنية الحديثة، فكان التمرد على النظم القديمة البالية، وكانت الثورات التي خضبت الأرض بدماء الأسياد والعبيد، بدماء الظالمين والمظلومين، بدماء الأبرياء والمجرمين، نجيعاً واحداً رقص الشعب فوقه صاخباً باكياً ضاحكاً في سكرة الأماني المحطمة والآلام المخدرة.
من مثل موقف الرومان ومن مثل موقف العرب حين سادت الخرافات بين الشعوب خرجت أوربا إلى عهدها الجديد، ولكن عيسى لم يكن هاديها، ولا كان محمد ماشياً في طليعتها. كان إنجيل الغرب حقوق الإنسان التي كتبها الثائرون بالدم المتمرد، وكان قرآنها القوانين التي سنها نابليون لإقامة الموازنة بين الحقوق، ولكن هذا الإنجيل الحديث الذي استمد من إنجيل عيسى المساواة والإنصاف لم يتناول سواهما من مبادئ الإحسان والعطف والمغفرة والرحمة، وهذا القرآن الجديد: قوانين نابليون المستمدة من مذاهب الأئمة في الشرع الإسلامي وقف عند حد التنظيم المادي لحقوق الناس، فقصر عن الأخذ بما في قرآن النبي الهادي من الدعوة إلى المعروف والبر بالأدنين والأبعدين من بني الإنسان.
رأت بلاد الغرب أن الدين قد أصبح سلطة تواطأت طويلاً مع السلطان المدني المطلق وما حوله من سادات الإقطاع، وامتنع عليها أن نسلخ إنجيل عيسى عن هذه السلطة فأنكرتها وأنكرت عيسى وتعاليمه معها. وسارت المدنية الحديثة في طريقها مستنيرة بالعلم الوضعي منكرة كل ما لا تقع الحواس عليه، فأصبحت القوة وحدها المسيطر الأعلى تنبسط قاعدة رهيبة للعجل الذهبي فتمده باعتلائها ويمدها بلمعانه وصولته.
وبقيت المسيحية دين الغرب، ولكنها حصرت في كنائسه وانكمشت مبادئها عن الحياة نفسها، وبينما كانت تتلى في المعابد كل يوم الآيات التي هبطت على جبل فلسطين فهزت الدنيا وقلبت المدنيات القديمة، وتتلى بعدها رسائل الحواريين التي كتبت في السجون لتحرير الإنسان، كانت مدنية روما الوثنية تنبعث من كل جانب لتدور حول الكنائس مقهقهة ساخرة.
كان العذارى يخرجن من الكنائس بعد سماعهن قول بولس الرسول بالتستر وحجب الشعور والاحتشام والطاعة للقيمين، فيذهبن إلى المراقص نصف عاريات كأنهن الدمى الرومانية نفخ إبليس فيهن نسمة الحياة.
إن غريزة المرأة في الأصل لا تطمح إلا إلى الطريق الذي اختطه لها الناموس الطبيعي في تكوينها، وما أحبت امرأة رجلا إلا وكانت محبتها خيالاً سابقاً لمحبة الطفل الكامنة فيها.
وإذا كانت الفتاة قد لجأت إلى المواخير كما يقول الفريد دي ميسيه لتأكل بثدييها، وتلتقي هناك بمن منع على نفسه أن يكون قيماً عليها فأصبح مستثمراً لشقائها، فأنها لم تلبث أن تعودت إذلاله لها في عرضها فلجأت إلى العمل لتأكل بعرق جبينها احتفاظاً على الأقل بحق اختيارها للرفيق الموقت أو بحق التمرد على أنوثتها الكاسرة من عزتها، وهكذا بعد أن كان الفتى يلقى الفتاة التي تحول عنها المواخير ليذلها، أصبحت

هي تلاقيه في ميادين الأعمال لتزاحمه متملصة من إذلاله.
سوف يأتي يوم وهو غير بعيد تنتبه المدنية فيه إلى أن الرجل الكامل الذي ينشده العلماء في الغرب لن يخلق لهم من التمرين لقوى العقل وقوى الجسد ولا من فحص الخلايا بالمجهر حتى ولا من التلقيح بالمواد الكيميائية أو غدد القرود، فيتحققون أن الرجل المتفوق إنما هو أبن الحب الصحيح؛ فالمحبة وحدها هي السبيل إلى إدراك الحق والقوة والجمال.
لندع العالم المتمدن يفتش بعلومه ونهضته على هذا الحب الذي تخيله كارل ماركس متجلياً في الحرية التامة للناس في أهوائهم فجاءت روسيا البلشفية تثبت انخداعه في نظرياته، ليقتنعوا أنهم لن يتوصلوا في تجاربهم إلا إلى العبر الزاجرة المؤلمة.
أما نحن أبناء هذا الشرق العربي الذي انبثق الحق فيه انصباباً من الداخل بالإلهام لا تلمساً من الخارج، فلنا المسك المفتوح منفرجاً أمامنا للاعتلاء والخروج إلى النور بعد هذا الليل الطويل، إذا نحن أخذنا بروح ما أوحاه الحق إلينا.
لا بترقية الزراعة والصناعة، ولا بنشر التعليم والتهذيب، ولا بجعل البلاد جنة في أرضها غنى وتنظيماً، تنشأ الأمة ويخلق الشعب الحر السعيد.
إن الجنين الذي يحمل أسباب شقائه وهو في بطن أمه لا يمكنه أن يصير رجلاً حراً قوياً يفهم حقيقة الحياة ويتمتع بالعظمة الكامنة فيها.
إن الاهتمام بإيجاد الطفل الصالح أولى من العمل لإعداد العلم والتهذيب لطفل نصقل مظاهره صقلاً وتتحطم كل محاولة نصرفها للنفوذ إلى علته المستقرة فيه منذ تكوينه.
ليس الفقير المتسول، ولا العليل المتألم، ولا الشيخ الهرم يتمشى بلا عزاء إلى قبره؛ ليست المرأة المستعبدة بلقمة، ولا الفتاة المخدوعة المنطرحة على أقذار المواخير؛ ليس كل هؤلاء الناس الأشقياء في الحياة بأشقى من الأطفال يجور عليهم الآباء والأمهات قبل أن يقذفوا بهم إلى الوجود ثم يرهقوهم بالقطيعة والإهمال حين يدرجون على الأرض بأقدامهم الناحلة المرتجفة.
الرجل الذي يمسخ حبه شهوة، والمرأة المتقصفة المتهتكة التي تجعل هيكل نسمات الله مركعاً لنفايات البشر من عباد الخيانة والطيش، إنما هما آدم وحواء مطرودين من الجنان إلى أرض الجهود المضيعة والآلام المحتمة. ومن يدري أن حديث معصية الأبوين الأولين ليس رمزاً لخيانة الحب، تلك الخيانة التي تنزل اللعنة بمرتكبيها وبأبنائهم من بعدهم.
إن هذه الحقائق التي استجليناها من قلب الحياة لتملي علينا المبادئ التي يجب أن نأخذ بها لتوجيه المرأة للخير العام.
إننا، ولا ريب، تجاه نهضة نسائية تبشر بارتقاء قريب، ولكن هذه النهضة مقصورة على عدد قليل من السيدات اللواتي لم ينخدعن بمظاهر المدنية الغرارة فأدركن أن المرأة المترجلة الضلول ليست هي من نرجو لإحياء الأسرة وخلق الأمة الحية.
الظلمات كثيفة، والمشاعل قليلة، ولكن هذه المشاعل كفيلة إذا رفعت بإنارة نساء اليوم ونساء الغد وإرشادهن إلى ما ثوى فيهن من فطرة شرقية سامية.
ليس كالمرأة من يصلح المرأة أو يفسدها. فليذهب صوت المرشدات متغلغلاً في كل طبقات الأمة مهيباً بنسائها إلى النهوض. وليست النهضة التي نرجوها للخير العام بين النساء مما يستلزم الوقت الطويل، لأنه إذا كانت نهضة الرجال في أمة تقتضي تحصيل العلوم بأنواعها وفروعها سياسية وإدارية وصناعية وزراعية وفلسفية، وتستلزم لبلوغ هذا الغرض امرار السنين الطوال درساً وتفكيراً، فليس الحال على هذا المنوال في إنهاض المرأة.
نهضة الرجل فكرية عملية، أما نهضة المرأة فإحياء إيمان وإشعال عاطفة. وقد لا تحتاج
نساء بلدة لأكثر من خطب معدودة تلقيها امرأة ملهمة يملي عليها الحق الأعلى ما تقول، فتخلق من كل فتاة زوجة صالحة، ومن كل زوجة أما رؤوما.
إن الشريعة في هذا الشرق العربي إنما هي وحي من السماء لخير المجتمع في مختلف الأحوال والعصور؛ ولشرعة الزواج بخاصة في هذه البلاد ما ليس لأي قانون ابتدعه الناس في سائر المعمور من حكمة ومرونة، فهي عقد فيه للجاهلية المنحطة روادع وقيود، وللمستنيرة الراقية الفاضلة بحال رحب يمتد فيه حقها قدر استحقاقها.

الحق استحقاق وليس هبة؛ وما ظلمت نساء الشرق في أدوار انحطاطه إلا لقصورهن عن نيل هذا الحق.

أما وقد آذنت الساعة بالنهوض، وقيض الله لمصر والشرق العربي من يرى إصلاح المجتمع بتساوي أهمية وإصلاح الهيئات الحاكمة فيه، فقد حق على النابهين رجالاً ونساء أن يؤدوا رسالة الإصلاح لإحياء الأمة واستعادة مجدها.

فلنستثمر إذن نهضة الناهضات في سبيل الخير العام لإقالة الأسر من كبواتها على الأس الآتية:

1 - إحياء شعور المرأة بقداسة رسالتها، فتحس بأن لها شخصية مستقلة يسودها الانتخاب الطبيعي للرفيق مترفعاً عن كل استهواء للمطامع والشهوات المضللة. إن أشقى الناس من ضعفت شخصيته إلى درجة التردد في اختياره، وأذل فتاة في الحياة من تقف حائرة بين طلابها فتنصب ميزان الترجيح ذاهبة مع الاعتبارات الفانية للتحكم بالحوافز الخفية العالقة بأهداب الخلود.

2 - تمكين عقيدة المرأة في أن حريتها كامنة في عبوديتها (لاشتياقها) كزوجة وكأم، وإن انعتاقها من هذه العبودية إنما هو كفر بربها وبذاتها.

3 - تفهّم سيادة الرجل القوام على المرأة على ما قصده الشرع من تأمين الحاجة والرعاية والصيانة، فلا تؤول كما يحلو لبعض الرجال تأويلها بأنها تحكم وإرهاق واستبداد بالشخصية التي خلقها الله فأودعها إرادته. إن من يفهم السيادة تحكماً بالذات لا خدمة لها إنما ينصب نفسه قواماً على فضل الله وقدره.

4 - إقصاء المرأة عن كل عمل يقصيها عن واجباتها، إذ لا بد لكل مجتمع تترجل نساؤه أن تتأنث رجاله، وليس برجل من لا غيرة فيه.

5 - أن تتيقن المرأة أن قسطها أوفر من قسط الرجل في تكوين رجال الأمة، لأنه وإن تساوت وإياه بتكوين جسم الجنين من ذرات متساوية قيمة وعدداً، فإن أثر شخصيتها فيه ليفوق أثر شخصية الرجل، فهي المستودع والمرضع والمربي الأول.

6 - أن تعلم المرأة ويعلم الرجل قبلها أن إقامة أسرة على أنقاض أسرة إنما هو من قبيل البناء على الرماد، وما يصلح الرماد أساساً يثبت عليه أي بناء.

7 - أن تثق الفتاة من أن طهارة روحها وعفاف جسمها إنما هما الركن الذي يبني الرجل سعادته عليه، فتحرص على هذا العفاف لأن عثرته حتى في زواج خاطئ عثرة لا تقال؛ وقلما نرى امرأة خرجت ظالمة أو مظلومة من بيت مهدّم وتمكنت من بناء بيت جديد لا تساوره الأشباح ولا تدور في زواياه الخفية الوساوس والشكوك.

8 - أن ينتبه رجال الشرع إلى ظاهرة خطيرة في أحوال الأسرة المصرية وهي ظاهرة الطلاق بنسبة مروعة تدل على ضعف العقيدة الدينية وعلى انحطاط في الأخلاق، وكلاهما نذير الدمار.

9 - أن تعمل المصلحات النابهات بخاصة على إيجاد حضارة واحدة تتبعها نساء مختلف العناصر المكوّنة للوطن، إذ لا معنى لهذا الاختلاف في حياة الأسر التي تتفق كتبها السماوية على تنظيم الحياة بالمبادئ الأدبية العليا.

إن لم يقم المجتمع على عادات وتقاليد وأزياء واحدة، فإن إقامة الوطن على مثل هذا المجتمع المختلط لمن أصعب الأمور. وما تجتمع النساء في بلادنا من عديد الطوائف إلا بين طبقة معلومة اقتبست من المدنية الغربية ما يضج منه عقلاؤها، وليس الاتحاد الذي ننشده بين الأسر ما نرى فيه نساءنا الشرقيات من كل طائفة عاريات على الشواطئ أو نصف عاريات في المقاصف والمراقص.

إن وحدة العادات والأخلاق التي نصبو إليها إنما تقوم على الحرية المصونة التي تبيح للمرأة المباهاة بفكرها ومزاياها الشريفة وتصدها عن المباراة بجمالها وعواطفها وهما نور بيتها الذي يجب ألا يوقد إلا بين جدرانه.

على هذه المبادئ تعم النهضة نساء البلاد فتنشأ الحضارة الخاصة الملائمة لهذا الشعب؛ وما

تسعد أمة تقتبس أساليب حياتها مما يتنافر وحوافز دمها وصوت القبور في روحها.

كل إنسان يجبن أمام الحوادث في حياته فيلين لها حوافزه وفطرته إنما هو الشخصية المفقودة التائهة والشبح الباكي والحيّ المستحجر؛ وقد تلمع أحداق مثل هذا الإنسان بالمجد والظفر، ولكن أنوار السعادة تبقى منطفئة في عينيه.

ونحن كأمة لا يمكننا الانفلات من هذا الناموس الثابت. إن فطرتنا مقدورة علينا كامنة فينا؛ وكل أمة تحيا على غير فطرتها فهي أمة باكية بدموع صامتة، هي أمة مستضعفة مستعبدة لا معنى لحياتها ولا سعادة فيها.

نحن بحاجة إلى نهضة روحية أدبية تصلح منابت أطفالنا بعقيدة يحييها النابهون في الشعب تحت جنح إيمانه الشرقي المكين، وليس كالعقائد في شعب ما يكفل كرامته ويضمن اعتلاءه.

بين بعض قبائل الصحراء عقيدة أصبحت فطرة في أفرادها، وهي اعتبار الكذب عاراً دونه أي عار، فإذا ما ارتكب الكذب أحد أفراد القبيلة اضطر رئيس أسرته إلى قلع إطنابه والهرب بنسائه وأطفاله إلى بعيد حيث يواري في النفي الأبدي ما التصق به من عار.

إلى خلق مثل هذه العقائد يجب أن تتوجه جهود الناهضات من النساء فيصبح الرأي العام سياجاً حرابه الزراية والاحتقار، يصد كل امرأة تقصر عن المحافظة على حقها أو تطمح إلى تجاوزه، وتصد كل رجل يقصر في واجباته كقوام على المرأة أو يسيء استعمال هذه الواجبات. وهكذا يساق الرجل إلى معاملة زوجته كما يريد أن تعامل ابنته في زواجها.

إن عقائد الأمم الاجتماعية إنما تحفظها صدور النساء قبل صدور الرجال، وتنبيه مثل هذه العقائد والتقاليد في فطرة بنات الشرق لعمل يسهل على رسولات الحق إذا عضدتهن السلطات الزمنية والروحية في هذا السبيل.

(تم البحث)

فليكس فارس

الجاحظ

في مقالة (الفلسفة والإلهيات)

للأديب محمد طه الحاجري

جاء في المقالة التي نشرتها (الرسالة) عن (الفلسفة والإلهيات) مترجمة عن الأستاذ الفرد جيوم، بقلم الأديب الفاضل توفيق الطويل عبارة مروية عن شيخ الكتاب أبي عثمان الجاحظ في صدد الدعوى بأن مرد الفلسفة العربية في مادتها وصورتها وغايتها إلى حضارة البلاد التي غزاها العرب، وأن المعين الذي استقوا منه مذاهبهم هو الفلسفة اليونانية.

والذي يجب التنبيه إليه أولاً هو أن هذه العبارة مروية بالمعنى، بل بأصل المعنى، لا بالنص الذي كتبه الجاحظ، والذي لا ينبغي أن يعدل عنه أو يتسامح في إيراده، إذا كنا نلتزم الأسلوب العلمي (الجامعي) في البحث والاستشهاد، ولا سيما حين يكون النص المروي من ميراثنا الأدبي، ردّ إلينا، وورد في سياق عربي وموضوع عربي، ثم كان بعد ذلك لإمام من أئمة الأدب العربي. أما أن يترجم النص إلى الإنجليزية، مع ما تستلزمه طبيعة الترجمة من إضعاف المعنى وإخفاء بعض خصائصه، ثم ترجمة هذه الترجمة إلى اللغة العربية، فصنيع غريب من شأنه أن يهلهل المعنى وينهكه، حتى لا يبقى منه في العبارة المنقولة إلا ظل خفيف ناصل. ولقد عرض الجاحظ نفسه لهذا المعنى في كتابه (الحيوان) في سياق كلامه عن الترجمة وخصائصها.

ولكن وزر هذه المخالفة للأسلوب العلمي لا يرجع، فيما نحسب، إلى المترجم الفاضل بقدر ما يرجع إلى ضعف الروح الأدبية العربية التي تركت الجاحظ - وهو شيخ الكتاب وأمير البيان العربي بلا منازع - مغمور القدر مجهول المكان، وتركت ما أبقت عليه أحداث الزمن من ذخائر كتبه - وهي طرف فنية لا تكاد تظفر المكتبة العربية بما يناظرها - وكأنما هي كتب ألغاز وطلسمات من كثرة ما منيت به في نشرها من تحريف وتصحيف وخرم وتشويه وسوء طبع وفساد كبير.

أما أصل هذه العبارة المترجمة فهو - فيما نرى - ما يلي: (مأخوذاً من كتاب الحيوان، الجزء الأول، صفحة 42، 43 في أثناء الفصل القيم المستفيض الذي كتبه الجاحظ في فضل الكتب والترغيب في اصطناعها).

ولولا ما أودعت لنا الأوائل في كتبها، وخلّدت من عجيب حكمتها، ودونت من أنواع) سيَرها؛ حتى شاهدنا بها ما غاب عنا، وفتحنا بها كل مستغلق كان علينا، فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم، وأدركنا ما لم نكن ندركه إلا بهم، لما حسن حظنا من الحكمة، ولضعف

سببنا إلى المعرفة).
أما الاستشهاد بهذه العبارة التي سيقت في فضل الكتب على تلك الدعوى العريضة التي يلج الكاتب فيها، والتي يزجيها الهوى وتصوغها العصبية، فاستشهاد ضعيف متهافت كما ترى، فليس فيها إلا ما بقوله كل ناظر في تاريخ العلم من أنه حلقات متصلة مترادفة، يكمل لاحقها سابقها، وينبني آخرها على أولها إنبناء الحاضر على الماضي، في جميع مجالات الحياة وفروع المعرفة، وإن كتب الأوائل هي التي أوجدت هذه الصلة، ومهدت للفكر العربي سبيله.
على أن هذا الاستشهاد غريب من ناحية شخصية الجاحظ، فإنه من المثل القوية التي تبين إلى حد كبير بروز الشخصية العربية في عالم المعرفة، واصطباغها صبغة مستقلة. ويلاحظ قارئ كتابه الحيوان أنه كثيراً ما ينقل عن صاحب المنطق بصيغة التمريض: (وزعم صاحب المنطق) ويعقب عليه أحياناً بعبارات يتبين فيها اعتداده بنفسه، إذ يقول مثلاً: (وقد سمعنا ما قال صاحب المنطق من قبل، وما يليق بمثله أن يخلّد على نفسه في الكتب شهادات لا يحققها الامتحان، ولا يعرف صدقها أشباهه من العلماء).
أمثل صاحب هذا الأسلوب الشامخ بنفسه يزج في معرض الاستشهاد على أن الفلسفة العربية ليست إلا صورة من الفلسفة اليونانية، مشوبة ببعض الفلسفات الفارسية والهندية؟!
وبعد، فنرجو ألا يحسب أحد أننا نغض بهذه الكلمة العاجلة، وبهذا التعقيب على صورة من صور الاستدلال من القيمة العلمية لكتاب (تراث الإسلام) الذي نرجو أن نرى فيه صورة من صور البحث الدقيق إن شاء الله.
محمد طه الحاجري
ترجمة وتلخيص
خطاب أندريه جيد في تأبين مكسيم جوركي
للسيد ماجد شيخ الأرض
ألقى كاتب فرنسا العظيم خطابه التأبيني في ساحة موسكو الحمراء حيث شيع جثمان كاتب روسيا العالمي مكسيم جوركي إلى مقره الأخير قال:
ليست المصيبة بموت الكاتب الكبير مكسيم جوركي بمصيبة الاتحاد السوفييتي وحده، إنما رزء العالم كله، مادت لهوله الأرض من أقصاها لأقصاها. ولقد كان يسمع هذا الصوت الجبار الناطق بلسان الشعب الروسي العظيم في كل قطر، وينفذ صداه إلى كل قلب. ولست أعبر في هذا الموقف عن شعوري وحدي، فهو شعور الآداب الفرنسية، بل هو شعور الأدب في أوربا، بل هو شعور الثقافة في العالم كله.
بقيت الثقافة زمناً طويلاً وقفاً على الطبقات الرفيعة، فلا يرد منهلها إلا فئة من الناس توفرت لهم أسباب الفراغ، وما أخالكم تجهلون كيف تتوفر أسباب هذا الفراغ الذي تكدح من أجله الأغلبية الساحقة من البشر، لتدع وقتاً تتلهى فيه تلك الطبقة الرفيعة القليلة بالثقافة والفنون الجميلة. وما أظنكم تجهلون أيضاً أن ورود منهل الثقافة ليس بمستطاع لكل من آنس في نفسه ميلا أو ذكاء أو مقدرة. لقد ظهر في ميدان الثقافة رجال كبار من عامة الشعب أمثال موليير وديدرو وروسو، لكنهم كتبوا لغير طبقتهم وما قرأهم إلا الذين توفر لهم الفراغ.
تشاءم الناس لثورة أكتوبر العظمى التي حررت الأغلبية الساحقة من النير المستحكم على رقابها، فقالوا وكرروا القول بأن الثقافة أساس مدنية الإنسان مهددة بالتأخر والانقراض، لكن الأمور برهنت على عكس ما توهموه، فأن النظام الجديد رحب بالثقافة وعمل على ازدهارها.
ودلت التجارب على أن الخطر آتٍ من نظام الرجعة الذي ارتأته الطبقة السائدة. وقد اجتمع الكتاب لحفظ الثقافة في مؤتمر وجدوا فيه أن الخطر عليها كان في العناصر الفاشستية التي تبغي الهيمنة على الفكر وجعله أداة تسخره في سبيل أغراضها، وفي العناصر الوطنية المتطرفة البعيدة عن محبة الوطن الصحيحة، وأخيراً وجدوه في الحرب التي تسعى إليها
تلك العناصر القائمة على البغضاء وحب الذات.
لقد كان عليّ أن أرأس مؤتمر الكتاب المنوي عقده في لندن، لكن النبأ باشتداد مرض

جوركي اضطرني أن أشخص مسرعاً إلى موسكو. ففي هذه الساحة الحمراء التي شهدت أحداثا كثيرة سجل بها التاريخ صحائف بعضها في الشرف والمجد، وبعضها في الخزي والعار، وإلى جانب ضريح لينين العظيم الذي تصوب إليه أعين لا يحصى لها عد، أعلن بالنيابة عن الكتاب المجتمعين في لندن وبالأصالة عن نفسي أن حفظ الثقافة وتقدمها معلق بأهداب الرجال القائمين بالحركات الثورية التقدمية، ومصيرها منوط بمصير الاتحاد السوفيتي الذي نحميه نحن الثوريين بكل ما أوتينا من قوة.

إن فوق كل مصلحة لأي شعب على هذه البسيطة مصلحة تجمع بين الطبقات العاملة المشتغلة الموزعة بين هذه الشعوب، وإن فوق كل أدب ناطق بلسان من الألسن، أدبا إنسانياً يعمل على نشر ما في كل أدب خاص من الفضائل؛ وقد وصفها ستالين بقوله: (وطنية في الشكل، اشتراكية في الأصل).

لقد قلت مراراً بأن الكاتب بقدر ما يكون ذاتياً مخلصاً لذاتيته، تكون غاياته سامية وعامة. وليس من كاتب روسي شديد الميل لروسيته مثل مكسيم جوركي، لذلك فأنا لا نجد كاتباً روسياً ذاع صيته وكثر قراؤه مثل مكسيم جوركي.

شاهدت أمس الجماهير الغفيرة التي جاءت تلقي التحية الأخيرة على جثمان جوركي المسجى على فراش الموت، واسمحوا لي إذا صارحتكم، بأني ظللت أسرح النظر في هذا الموج المتدفق من الأطفال والنساء والعمال الذين كان جوركي صديقهم وترجمانهم، بنشوة وإعجاب؛ لكن نشوتي لا تلبث أن تنقلب إلى ألم يحز في قلبي كلما تذكرت بأن كل هؤلاء في غير الاتحاد السوفيتي، من الذين لا يسمح لهم بالدخول إلى مثل هذه القاعة، وهم من الطبقة التي كتب لها الشقاء، وحرمت عليها لذة العلم والتثقيف، كأنما ألصق على باب حديقة العلوم (ممنوع الدخول، هنا حديقة خاصة) ولكن إعجابي لا يلبث أيضاً أن يصبح كمداً يقطع في أحشائي كلما شعرت بأن ما يبدو لهم طبيعياً ما زال عندي شيئاً خارقاً يدهش له حسي وبصري، فلا أتمالك كلما ذكرت أو شعرت بذلك عن إرسال عبرة.

ماجد شيخ الأرض

فلسطين

بقلم أبو سلمى

هذي الدماء من وراء الأبدِ ... تصيح: أين العالَم المحمدي
لا روحه تلهب آفاق الورى ... أو نفسه تغفو على المهنّدِ
تحرر العبيد في أوطانهم ... ولا أرى فيه سوى مستعبد
هذي فلسطين استحالت هَرَماً ... مقدّساً فقبلوا الترب النّدي
من كل قطر عربيٍّ فتيةٌ ... ثائرة ترعى أصول المحتد
هبَّت على الوادي وأجرت دمها ... متّحداً، يا للدم المتّحد!
فيه من الخلود أزكى طيبة ... وهو يَدُ الثورة بل أسمى يدِ
أخت صلاح الدين عشت حرَّةً ... تأبى لك العلياء أن تهوّدي
دعي (عصابة اللصوص) جانباً ... واعتمدي على بنيك اعتمدي
كم وعدوا؟! إن الرصاص وحده ... هو الذي يُنجز كل موعد
معركة اليرموك هذا نقعها ... يروح فوق هامنا ويغتدي
يُطلّ من بين العصور عاطراً ... فيه من الماضي عبير السؤدد
كل شعوب الأرض في جهادها ... تمشي على آثارنا وتقتدي
أيامنا تطوي دهوراً جمة ... النار فيها تنتهي وتبتدي
يا قائد الثورة سعّر نارها ... وزجّ - في قاع السعير - المعتدي
وأخضب لياليها دماً واسمع صدى ... قول الزمان: يا كواكب شهدي
وأطلع على الأيام وأنشر وهجاً ... فيه سني الجهاد والتمرّد
واخلع على الجبال أبراد العلى ... حق لها يوم اللقا أن ترتدي
وقدْ فلسطين إلى تاريخها ... وقل لها سودي وإلاّ استشهدي
أمّ العروبة اضحكي يا أُمَّنا ... فكُلُّنا اليوم أبرّ وَلد
يهفو إلى بيض الصفاح باسما ... الخود قبل الشيخ قبل الأمرد
تنثر ما فوق الثرى قلوبنا ... لينبت استقلالنا بعد غد
فيا قلوب الثائرين أنشدي ... على المدى ويا سفوح ردّدي

(فلسطين)
أبو سلمى
المجنونة
بقلم عثمان أبو حلمي
في غابة مجهولَةِ السرِّ ... مملوءة بالشوك والزهْرِ
أبصرتها في ظلمةٍ تجري ... من خلفها ولدانُها تجري
إنسيّةٌ هي أو لسرعتها ... جنيِّةٌ فالعين لا تدري!
تبكي وتضحكُ في تقلبها ... بمدامعٍ تجري على النحر
وبكاؤها سخرٌ فإنَّ لها ... قلباً يضمُّ صلابَة الصخر
تقسو وتعطف فهي غاضبةٌ ... في حين تُبدي باسمَ الثغر
وتكاد تذهل من تلونها ... فكأنَّها الحرباءُ في قفر!
سحرتْ بنيها فهي ساحرةٌ ... بالطبع لم تعكف على سحر
فتّانةٌ تغري مظاهرها ... أمّا الحقيقة فهي كالقبر!
فتنتْ بنيها فهي غانيةٌ ... في العين منهم بل وفي الفكر
وهي العجوزُ، هي العجوزُ إذا ... ذكرتْ تبوءُ بأشنع الذكر
لكنّها معبودةٌ أبداً ... منهم، لعل لذاك من سرِّ!
كم بُلِّغوا عن غدرها قصصاً ... وأقلها المملوءُ بالغدر!
وهمو سكارى في محبتها ... من غير ما كأس ولا خمر
وهمو حيارى في وجودهمو ... ووجودهم كسحابةٍ تجري
أبصرتها في الغالب جاريةً ... صخّابة مسدولة الشعر
وتكادُ تغضبُ حيث لا تدري ... وتكادُ تبسم حيث لا تدري
تغذو بنيها حين تفجعهم ... في أنفسٍ صيغت من الشرِّ
ورأيتها في الغاب تأكلهم ... أكلاً ولكن أكل مضطر
ولقد أراها جدّ ساكنة ... من بعد طول الضحك والبِشْرِ
ظلّتْ طويل الدهر عابثةً ... بهمو وهم في غمرة الدهرِ
حتى توارى الكلُّ عن نظري ... بين النجود وشامخ الصخرِ
مجنونة دنياكمو، وكفى ... بيَ ما أبنتُ لها من السِّرِ!
(الإسكندرية)
عثمان حلمي
في ربى لبنان
بقلم عبد الوهاب أدهم
قف حيِّ لبنان وانظر حسن لبنانا ... إن كنت مثلي كئيب النفس أسوانا
في كل بقعة أرض أيكة برزت ... توحي إلى النفس أحلاماً وسلوانا
يعانق الأرْزُ فيها الأرزَ مغتبطا ... ويسحب الدّوح أذيالا وأردانا
ترقرق الماء في أنحائها فغدت ... خمائلا، وغدا لبنان بستانا
والطير يرقص من لهوٍ ومن طربٍ ... فيملأ الأرض أنغاماً وألحانا
تبارك الله! ما أسمى بدائعه ... فكيف أضمر بهتاناً وكفرانا؟
لبنان! يا جنّة الدنيا وزينتها ... خلّفت قلبي غداة البين ولهانا
مازلت أذكر (فالوغا) و (عاليةً) ... و (بَحْمَدونَ) و (شاغورا) و (حمّانا)
حتى امتطيتُ إلى (الفيحاء) هادية ... تطوي بيَ الأرضَ أنجاداً ووهدانا
يا أهل لبنان! إنا أمة قبضت ... نواصي الأرض أحقاباً وأزمانا
لا تأنفوا أن تقولوا: إننا عرَبٌ ... كم أبقت العرب للأقوام إحسانا
والحرّ يفخر بالأنساب فافتخروا ... بعبد شمسٍ وقحطان وعدنانا
إن دال سلطانهم فالدهر ذو عجب ... يهوي الأبيُّ ويسمو النذلُ أحيانا
أشبالَ (غسان) هبّوا من ضلالتكم ... ألهاكُم الغيُّ عن رُشدٍ وألهانا!
باقٍ على الأيام مفخرة ... فهل سعيتم لِتُحيوا مجد (غسانا)؟ (غَسّانُ)!
(دمشق)
عبد الوهاب أدهم

القصص
قصص مختارة من الأدب التركي
النارُ المُوقَدَة. . .
لمحمود يساري بك
أثبتت مرفقيها فوق المنضدة، وأسندت رأسها بكفيها وعيناها السوداوان شاخصتان نحو نقطة مجهولة وهي تفكر، وكان نظرها الحاد يرسل شعاعاً زاد لمعانه سواد المقلتين ولون الكحل والحالك.
وها قد مضت بضع دقائق بدون أن تمس شفتاها هذا القدح البلوري وتذوق هذا الشراب السائغ.
لمَ كانت غارقة في بحر عميق من التفكير؟ وما الذي كانت تفكر فيه؟ وما عسى أن يدور في هذا الرأس المتوج بالشعر الأصفر المقصوص على آخر (مودة)؟ وهل هي كاذبة حتى تفكرها العميق يا ترى؟ وهل يحاول هذا الرأس أن يخدع نفسه أيضاً؟
نظرت إليها نظرة الفاحص المدقق، فوجدتها قد غيرت شكل حاجبيها بالنقوش والتخطيط الأسود فحرمته تلك الصورة الطبيعية التي صورها الخالق فيها. أما الحمرة التي تبدو على وجنتيها فلم تكن ذلكم اللون القرمزي الذي ابتدعته يد القدرة فيها، بل كانت مفعول الأصباغ، وأضاع هذا أيضاً شكله الطبيعي. ونظرت إلى شفتيها فإذا لونهما ليس ذلك اللون القاني الذي أودعته يد القدرة في شفتي حواء!. . ثم استمعت إلى حديثها فإذا صورتها ليس ذلك الصوت الملائكي الذي كانت تناجي به أمها وهي في المهد صبية، بل يكاد يكون خشناً من تأثير الخمر والسهر.
- فيم تفكرين؟
ظلت جالسة في مكانها لا تتحرك ولا تتململ ولم تجب على سؤالي هذا بغير أنة طويلة.
- أوه. . .
ولو كان بين ذرات الهواء بارود لأشعله هذا الشهيق الذي خرج من صدرها كما يشتعل الغاز إذ تمسه نار.
- إنك تتألمين هذه الليلة.
- إني أحب. . .
- أوَ تحبين أنت؟
وكانت لا تزال محافظة على هيئتها. .
- إنك لا تصدق ذلك، أليس كذلك؟
كانت جالسة معي كي أنعم عليها بثمن شرابها، وكنت أعرفها منذ أمدٍ بعيد. . . منذ صباها، ولم تنس أن تفاتحني ساعة أن اقتعدت مقعدها بجانبي بعزمها على الشرب بقولها:
- أريد أن أشرب اليوم.
ولم أرفض رجاءها هذا فأمرت لها بقدح من الشراب لا إكراماً لسواد عينيها ولا حباً بجمالها، بل شفقة عليها ورحمة بها، فلقد كنت أراها كئيبة حزينة هذه الأيام.
- ومن تحبين؟
فرفعت رأسها من بين يديها كمن أفاق من ذهول عميق وأجابت:
- إن من أحبه (نكرة).
وكأن سؤالي هذا قد أثار منها سراً دفيناً وهاج لها ذكرى أليمة حتى راحت تحرق الأرم وتهدد الهواء بقبضتها كمن يتوعد أحداً. . . فتفرست في وجهها ملياً.
فدمدمت بكلمات غامضة. . .
- لِمَ تتفرس في وجهي هكذا كأنك تعرفه؟ أو كأنك تقول لي بأنه (معلوم) لديك! إنه (أحد النكرات)!. فلا تتعب نفسك في معرفته سدى!
قالت ذلك وأنشبت أظافرها الحادة في خديها من فرط تأثرها وابتسمت ابتسامة الحزين طفح كأس اصطباره:
(هو أحد (النكرات) أما إنه لم يكن كذلك؟ فلأن هؤلاء (النكرات) يفهمون أقوالنا ويتكلمون مثلنا ويشعرون كما نشعر. ويرون كما نرى! أما أنتم! فإن تكلمنا معكم اضطررنا إلى أن نزن كلامنا كلمة كلمة وقلوبنا تخفق رعباً، خوفاً من أن تعثر ألسنتنا

وتلفظ كلمة سهواً فنصبح أضحوكة في نظركم! وإذا تكلمتم أنتم أصغينا إليكم بكل حواسنا حتى نفهم ما تقولونه. . . وترانا نعمل المستحيل حتى لا نظهر أمامكم بمظهر الجاهل الغر والأحمق
البليد! ولا أقول أنتم معشر (المهذبين) المثقفين - لا تحبوننا نحن معشر النساء، كلا فأنكم تحبوننا ولكنكم تريدون من (المرأة) أن يكون شعورها وعواطفها جميلة، مصبوغة، مزينة، رقيقة كوجهها وشفتيها وأظافرها! ولا تكلفون أنفسكم مشقة فهم المرأة، وإنما تريدون من المرأة أن تفهمكم!
- أو تحبين؟!
وكان صوتها اضطراباً كلما ازدادت حزناً
- (لقد أصبت في سؤالك هذا!
- وكيف أصبتُ في سؤالي؟
- لأنك عنيت به الحقيقة. . أيمكن أن أحبّ أنا، أو نحب نحن؟ حقاً أنحب نحن؟ أو تصدق أنت ذلك؟ لقد سألت نفسي مراراً. . فلقد تمرّ من أدمغتنا أفكار عوجاء وهوجاء، وترينا الأيام حوادث عصيبة رهيبة تدك أعصابنا دكا فتجعلها واهنة القوى ضعيفة التفكير معدومة المقاومة تفقد معها خاصة التفريق بين الشعور الذي نشعر به من صميم القلب، وبين الإحساس الذي نحس به لمجرد اللهو والعبث، وفي أيهما نحن صادقون. . ومن ثم أنتم!. . . آه منكم!! قالت ذلك وصرت أسنانها وضربت الأرض بقدميها كمن يحاول أن يسحق شيئاً سحقاً، أو يقطعه إرباً إرباً. نحن نخدعكم ما دمتم على وجه البسيطة ونسيء إليكم دواماً. أليس كذلك؟ ولكن ماذا تقولون في الإساءة التي تسيئون إلينا بها أنتم معشر الرجال؟
أكبر الإساءة التي تُرتكب نحونا هي إساءتكم. . نصدُق لكم قولاً وفعلاً فلا تثقون فينا! وإذا ما أحببناكم فلا تصدقوننا! نقسم لكم الأيمان المغلظة فلا تؤمنون بنا!! وتشتبهون حتى في طعامنا وشرابنا! والشبهة مرض يسري أيضاً وينشب أظفاره فينا، ونأخذ نشتبه حتى في أنفسنا فنحب، فتأتي الشبهة على بالنا فتحملنا على الشك في حبنا هذا! وتنغص منا العيش. . وتتسع دائرة الشبهة هذه فلا نثق حتى في أنفسنا! تحسبون أننا نحب من أجل المال. أو يظهر أننا نحب من أجل المال! وأضرب لك مثلاً. . أنا ذلك المثال. فأنا أيضاً امرأة أحب من أجل المال، أليس كذلك؟
قالت ذلك وتوقفت عن الكلام ومدت يدها إلى القدح الذي كان أمامها فشربته إلى الثمالة.
لم يصدقوا أنني أحب حقاً. . . وهذا الرجل الذي أحبه أيضاً يعطيني كل ما يربحه من عمله وأرد له عطاءه. فيصرّ هو أيضاً. . . يظن أنني ما أحببته إلا من أجل المال! هو أيضاً. . . هو أيضاً. . .
وكانت أكتافها تهتز من شدة انفعالها.
حيث أننا لا نحب. . وأن قلوبنا قدت من صخر. . أو أنها لا تعرف للصدق معنى وحبنا كاذب. . وأن أساسنا كاذب. . .).
وكانت عيناها تنظران نحو الباب. . وما كادت تلفظ الكلمة الأخيرة من كلامها حتى هبت مذعورة تطلب مني السماح لها بالذهاب.
- أستميحك عذراً، هاهو قد جاء. قالت ذلك ومدت يدها تصافحني وعيناها شاخصتان نحوه، فودعتها وأنا أنظر إلى القادم أتفحصه. . نظرت ملياً فرأيت (الخطاط) الأسود قد كسا حاجبيها لوناً غير اللون الطبيعي، ولعب (المنقاش) فيه فأضاع بلعبه ذلك الشكل الطبيعي الإلهي. . .
وهذا اللون القرمزي الذي يعلو خديها ليس ذلك اللون الذي أودعه الله في الوجنات. . .
ونظرت إلى شفتيها فما رأيت فيهما تلك الحمرة الطبيعية التي تحاكي الدم القاني. . واستمعت إلى صوتها فإذا به قد فقد حلاوته، وليس بذلك الصوت الملائكي الساحر الذي كانت تنادي به أمها وهي في المهد.
وشيء واحد لم يتغير فيها، ذلك هو عيناها!. . .
لقد كانت عيناها تشتعلان بنار الحرص كما اشتعلت عينا حواء حينما نظرت إلى آدم

. .لأول مرة
محمود يساري
. .!!بيت الحظ
بقلم عبد المعطي المسيري
كان الشيخ مرسي غانم - أو الشيخ النزهي كما يسمونه في القرية - جالساً مع نفر من القرويين ينصتون بانتباه للعمدة وهو يحدثهم نفس الحديث الذي يقصه كل ليلة منذ انتهى إليه أن سعادة المدير ونجله سيشرفان القرية ليقيم بها الابن بضعة أيام إراحة لأعصابه كما أشار الطبيب. وكان العمدة يتحدث في هذه الليلة بحماس، ويلقي التعليمات والأوامر بوجه متجهم وصوت أجش كعادته في بعض الأحيان، وذلك لأن المأمور أنبأه في الصباح أن سعادة الباشا ستكون زيارته بعد الغد وأنه - أي المأمور - يهمه أن يهتف الأهالي بحياة الباشا وأن يكون بأيديهم سعف النخل وأغصان وأن تستقبله النساء بالزغاريد. . .
وانصرف شيخنا النزهي بعد أن عرف نصيبه في هذا الاحتفال وهو أن يبعث زوجته وابنته زينب لتنظيف غرف المنزل المعد لنجل المدير وأن يكون مع المستقبلين الهاتفين. . .
سار الشيخ صوب النهر إلى أن أتى الشاطئ فخلع نعليه وشمر عن ساعديه وجلس يتوضأ، وبعد أن انتهى من صلاة العشاء أخذ طريقه إلى المنزل وهو يكثر من الحوقلة التي اعتادها عقب كل صلاة، ولكنه كان في هذه المرة يرددها بنغمة الأسف على تأخره هذا وتوقعه ضجر الزوجة والأولاد. . .
دفع الباب واحتوته الغرفة فعاود الحوقلة بصوت عال، وأحزنه أن يرى الطعام على المائدة الخشبية وحوله عائلته، وقد غلب النعاس جميع أفرادها، فبدأ بإيقاظ الزوجة، وهذه أخذت تهز الأولاد من أكتافهم معلنة إليهم في ابتهاج وفرح عودة أبيهم؛ ثم أخذ الجميع يتناولون الطعام حتى أتوا عليه فقامت زينب - الفتاة الكبرى - وأتت بالماء فغسلوا أيديهم ومدت أختها يدها وتناولت أرغول والدها من شباك الحجرة وقدمته إليه، بينما تدحرج أحمد الصغير خارج الغرفة وعاد وهو يدفع أمامه آنية نحاسية وضعها أمام أمه.
تناول الشيخ أرغوله وبعد أن تثاءب وتمطى قربه من فمه، فسرى الصوت في فضاء الحجرة وتبعته نقرات الأم على الآنية النحاسية، وأخذ الأولاد في التصفيق متبعين نفس النغمة حتى حمى الوطيس، وأخذت زينب تغني أغنية ريفية مطلعها:
يَلْحِنَّا، يَلْحِنَّا، يا قَطر الندى ... يا شباك حبيبي يا عيني جلاب الهوى
وقامت فاطمة الصغيرة وتأهبت للرقص كعادتها حتى إذا أدركها التعب ارتمت على الأرض ليأخذ أحمد دوره. . . خفت صوت الأرغول وسكنت النقرات والأصوات، وساد في جو الغرفة الهدوء إلى أن عاود أحمد النشاط فنطق بأغنيته المحبوبة يا لليل يا ليل. . . ثم عاد الشيخ لأرغوله مشجعاً ولده وطاب لهم أن يغنوا ثانية أغانيهم البلدية، وعاد المرح وارتفع صوت زينب وتبعها الجميع مرددين مصفقين، وقامت فاطمة للرقص ونافسها أحمد بحركات ساذجة تبعث على الضحك والسرور، وبين آونة وأخرى يتعثر أحمد فيسقط على الأرض وأحياناً تسقط معه فاطمة فتتزايد القهقهة من الجميع إلى أن أدركهم الكلال فنهضت زينب وقادت أمامها اخوتها إلى الغرفة الثانية المعدة لنومهم.
على هذه الوتيرة كانت تعيش عائلة الشيخ مرسي، وعلى هذا الضرب كانوا يقضون لياليهم. أما في النهار فكانوا يعملون في الحقل بكل نشاط وابتهاج، لكل منهم عمله حتى أحمد الصغير كان يتدرب على مراقبة البقرة التي تدور حول الساقية. . .
حياة بسيطة لا تعقيد فيها، كلها سعادة وكلها أمن واطمئنان: الشيخ يرى أن سعادته في ابتسامة زوجته وفي نماء المحصول وصحة أولاده، والأولاد يرونها في هذا الحب المتبادل الذي يربط بين قلوب الجميع، والزوجة تراها في رضاء الزوج ومرح الأولاد.
وفي هذه الليالي الضاحكة حيث يرقصون وينشدون وكثيراً ما التمس سكان . . . القرية السرور والفرح والترويح عن النفس في بيت هذه الفرقة الموسيقية التي لم تعرف الشقاوة الطريق إلى أفرادها حتى أطلق سكان القرية على بيت الشيخ (بيت الحظ).

قبيل الفجر كانت زينب توقظ أمها واخوتها لقضاء ما يلزم للمنزل وتهيئة الماشية وإعداد الفطور استعداداً للذهاب إلى بيت العمدة المعد لسكن (ألبك الصغير) وتم كل شيء وأخذت هي وأمها طريقهما إلى بيت العمدة.

قامتا بما يجب عليهما من غسل أرضية الغرف وتنظيف ما علق بها من الغبار وغير ذلك، وما وافت الظهيرة حتى كل شيء على ما يرام، وحضر العمدة وجاءت على أثره سيارة كبيرة تحمل الأشياء التي يتألف منها الأثاث، وأخذ الرجال في الترتيب وأصدر العمدة أمره إلى الأم وأبنتها بتهيئة الطعام للرجال.

بينما كانت زينب تعمل مع أمها سمعت صوت موسيقى رائعة ينبعث من إحدى الغرف فتركت ما بيدها وانطلقت إلى مصدر الصوت يدفعها حب الاستطلاع: نغمة جديدة تطرق أذنيها لأول مرة، وعلى باب الغرفة وقفت تنصت للصوت المنبعث من جهاز الراديو مأخوذة لا تستطيع ضبط عواطفها ولا امتلاك نفسها.

لم يكن يخطر ببالها قبل الآن أن في العالم غير أرغول أبيها وآنية أمها، ولم تسمع أن هناك أغاني سوى تلك التي تغنيها؛ نعم إنها شاهدت وسمعت فرقة الشيخ راشد التي تزور القرية من حين إلى آخر لتقيم الأفراح لعائلاتها، ولكن زينب كانت تفضل دائماً حفلات منزلها، وأين موسيقى الشيخ راشد من الموسيقى التي تسمعها الآن؟؟ وعقب اسطوانة الموسيقى سمعت زينب صوتاً رائعاً حنوناً:

(اللي حَبِّك يا هناه)

ثم موالاً بلدياً فرأت اختلافاً بيناً بين ما سمعت الآن وبين ما تسمع وتقول كل ليلة فأنكرت موسيقى منزلها، بل أنكرت نفسها وصغرت أمامها الألاعيب التي يقومون بها كل ليلة وأيقنت أن في العالم لذة وسعادة أشهى وأمتع من لذتهم وسعادتهم.

في مساء تلك الليلة كانت زينب تسمع أرغول والدها بملل وضجر كأن أذنيها لم تتعوداه، وودت لو ينتهي الوالد لتذهب إلى حجرتها حيث تتمثل في هدوء ذلك الصوت الشجي الساحر، وانتظر الوالد طويلاً أن يسمع صوتها ولكن دون جدوى، وظن أن لعملها الشاق في بيت العمدة أثراً في ذلك فأذن لها في الذهاب إلى النوم وهو لا يخفي كدره، وأخذ يلعن الباشا والبك والعمدة لأنهم كانوا سبباً في حرمان زينب من قسطها في الغناء والسرور، وحاول أن يشرك معه فاطمة وأحمد في الزمر والرقص ولكنهما آثرا أن يذهبا مع زينب، ومضت تلك الليلة صامتة فاترة على غير المألوف.

وفي الصباح كان البشر يلوح على محيا زينب عندما علمت أن زوجة العمدة أرسلت في طلبها لإعادة نظافة غرف ألبك الصغير).

بعد أن أتمت ما أشارت به زوجة العمدة انسلت حيث غرفة الراديو وجلست القرفصاء بجوار الباب تنصت بنشوة غريبة ولذة قوية، ودهشت إذ رأت فاطمة وأحمد يبلغانها غضب أمها لغيابها وقلقها، ولكنهما لم يلحا عليها في الإياب واطمأنا لصوت الراديو، وقفز

أحمد على كتفيها يحاول رؤية مصدر الصوت من فرجة الباب، وارتسم الذهول على وجه فاطمة واستولى على ثلاثتهم الصمت، ولم ينتبهوا إلا على صوت العمدة وهو يحدث (ألبك) عندما هما بمغادرة الغرفة لتناول الغداء، والتفت العمدة إلى زينب فنهرها وأمرها بأخذ أخويها والرجوع إلى المنزل حتى لا تقلق أمهم.

في هذا المساء لم تنهض فاطمة لمناولة والدها الأرغول، ولم يتأهب أحمد للرقص وارتسم الوجوم على وجوه الجميع، وفقدت تلك الفرقة الساذجة الانسجام والتجانس، فرفع الشيخ يده وتناول الأرغول، ولكن الأولاد نفروا واستنكروا هذا الصوت، وفزعت زينب من نقرات أمها على الآنية النحاسية وملكها الحياء فلم تعد تغني، وكيف تغني بعد أن سمعت (اللي حبِّك يا هناه!).

لم يعرف الرجل حلاً لهذه المشكلة ولم يقو على فهم الدافع الذي ألح على زينب فحال بينها وبين مشاركته في الغناء فتحول عنها إلى أخويها وأومأ إليهما أن يأخذا بنصيبهما، ولكن فاطمة فأفأت لتعبر عن تأففها وتأتأ أحمد ففهم الشيخ السر. . .!! قرأ لغتهما المضطربة ذلك اللغز الذي أفسد حياته وذهب بسعادته.

وحار الشيخ في الأمر. لقد سمع هو أيضاً وسمعت أمهم ولكنهما لم يتأثرا، وأدرك بفطرته أن الصغار على استعداد للتمرد والثورة. . . أدرك الشيخ أنه ناضل نفسه لأنه آمن بأنه المغلوب إذا التمس السبيل إلى حياة الترف فآثر أن يكبح جماح نفسه

ويعيش بأحلامه، وأدرك أن صغاره قد بهرهم النور وأن بريقه الساطع قد ألهب في قلوبهم ناراً فثاروا على حياتهم المظلمة. . . فلم يملك إلا التنهد العميق. . . وأراد أن يلعن ذلك اليوم الذي جاء فيه (ألبك) إلى القرية، ولكن الكلام مات على شفتيه. . .
ولأول مرة تراقصت الدموع في عيني الشيخ وعز على الأم أن ترى هذا المشهد الذي لم تدرك سببه، فهزت الأولاد وحاولت أن تدفعهم إلى المرح، ولكن ذلك كان عبثاً، فرمى الشيخ أرغوله وتمدد على فراشه يبكي سعادته الهاربة. . .
ونهضت زينب فغادرت أخويها وهي تقلب بصرها فيما حولها من القذارة وتقارن بين ما ترى وبين الأثاث الثمين والصور الجميلة والموسيقى الرائعة الحنون، وكانت تود لو أن حياتها كلها نهار حتى لا تقع عينها على منزلها هذا الذي صار كل ما فيه يجلب إلى نفسها الحزن والأسف.
وانتقل الرقص والمرح من بيت الحظ الريفي إلى بيت العمدة حيث المنية يجذب ظلها هؤلاء السذج ويفرض عليهم سلطانه، وبينما كان الأول للوجوم والامتعاض في الليل كان الثاني للفرح والسرور بالنهار.
وانقضت أيام ألبك في القرية ورحل بأثاثه وجهازه وترك وراءه أسرة سلبها سعادتها وأحلامها. . . وبينما كانت سيارته تنهب الأرض في طريقها إلى المدنية كان الشيخ النزهي ينظر إليها والأسى يملك عليه نفسه، حتى إذا غابت عن بصره حطم أرغوله وألقى ببقاياه في النهر. . .

عبد المعطي المسيري

البريد الأدبيّ

هـ. ج. ولز. لمناسبة عيده السبعيني

يبلغ الكاتب الإنكليزي الكبير هربرت جورج ولز اليوم، أعني في الحادي والعشرين من سبتمبر، السبعين من عمره، وبهذه المناسبة تستعد دوائر الأدب الإنكليزي لتكريم الكاتب الكبير والاحتفاء بذكراه السبعينية. ففي مساء الثالث عشر من أكتوبر يقيم نادي القلم الإنكليزي مأدبة كبرى يدعو إليها أقطاب الكتاب من جميع أنحاء العالم، ويتولى الكلام عن شخصية ولز ومواهبه الأدبية عدة من أكابر الكتاب مثل جورج برناردشو، وأندريه موروا، وجوليان هكسلي، وأرثر بليس وغيرهم.

ونذكر بهذه المناسبة كلمة عن ولز وعن آثاره؛ فهو اليوم في طليعة كتاب إنكلترا وكتاب العالم، وهو كاتب اجتماعي من النوع الشامل (أنسيكلوبيدي) فله في القصة، وفي التاريخ، وفي النقد، وفي الاجتماع وغيرها. وكان مولده في سبتمبر سنة 1866 في بروملي؛ وكان أبوه رياضياً محترماً؛ وقد وصفه ولز في كتابه (لاعب الكركيت القديم) ولم يتلق ولز أولاً تربية جامعية، ولكنه انصرف منذ حداثته إلى القراءة وتأثر أيما تأثر بكتب أفلاطون وفولتير؛ واشتغل أولاً صانعاً بمعمل أحد الكيميائيين، وعكف على الدراسة في نفس الوقت؛ ورأى فيه ناظر مدرسته نجابته فعينه مدرساً معه فاستمر في هذا المنصب حتى سنة 1884، ثم رحل إلى لندن، والتحق بمدرسة العلوم في كنسنجتون؛ وقد وصف هذه المرحلة من حياته في قصته التي يؤيد فيها قضية المرأة تأييداً قوياً. ودرس ولز البيولوجيا والجيولوجيا والطبيعيات والفلك؛ وفي أواخر ذلك العهد فكر في أن يضع تاريخاً جامعاً للعالم. وحصل ولز أخيراً على إجازة العلوم بتفوق؛ وعاد إلى الاشتغال بالتدريس، مع الاستمرار في الدرس حتى حصل على إجازة جديدة للعلوم من جامعة لندن في سنة 1890. وفي ذلك الحين التقى بكاثرين روبنس التي غدت زوجته فيما بعد. وفي سنة 1893 أصيب ولز بصدع في الأوعية الدموية أرغمه على ترك التدريس والانقطاع إلى التأليف. وكان أول ظفر أدبي حقيقي ناله ولز مقالاته في مجلة (فورتنتيلي) بعنوان ثم كتب بعد ذلك عدة مقالات ورسائل علمية في بعض المجلات الكبرى. ومنذ سنة 1894 يعالج ولز كتابة القصة وقد بدأها بكتابة (جزيرة الدكتور مورو) ثم أتمها بقصة الزيارة العجيبة وكان الصحفي الكبير ستيد أكبر عون لولز على إظهار مواهبه القصصية؛ وكانت الصبغة العلمية تطبع قصصه الأولى مع خيال فائق متزن؛ ونستطيع أن نذكر من هذه المجموعة ما يأتي: ووغيرها.

وعالج ولز بعد ذلك القصة الاجتماعية، وعرض في قصصه إلى مشكلة الحب والزواج

والعلائق الجنسية؛ ومن هذه المجموعة قصصه الآتية:
ولمستر ولز ميول اشتراكية معتدلة تبدو في كتاباته. بيد أنه ليس اشتراكياً بالمعنى السياسي، وكل ما هنالك أنه يرى أن الاشتراكية يجب أن تطبق في حدود اقتصادية معقولة بعيداً عن المؤثرات والعوامل السياسية.
وأشهر كتب ولز تلك التي يعرض فيها تنظيم المجتمع؛ وفي هذه المجموعة يصل ولز ذروة قوته وافتنانه، ونستطيع أن نذكر من هذه المجموعة ما يأتي: وهي قصة؛ , وهو عرض فلسفي.
وأما في التاريخ فقد كتب ولز بطريقة جديدة موجزة ولكن قوية؛ وأشهر كتبه في التاريخ: (سنة 1920) (سنة 1920) و (سنة 1925).
ويعرض ولز نظرياته الاجتماعية عن طريق الأدب بجميع صنوفه، ويمتاز في ذلك بقوة لا نظير لها اليوم في الأدب الإنكليزي. وإليك طائفة أخرى من كتب ولز التي اشتهرت بتأثيرها الاجتماعي:
وولمستر ولز كتب كثيرة أخرى يضيق المقام عن ذكرها.
جوستاف كان
توفى أخيراً كاتب وشاعر فرنسي كبير هو جوستاف كان زعيم النزعة الرمزية في الشعر؛ ومن الغريب أنه توفى في ختام الحفلات التي نظمت هذا الصيف في باريس احتفاء بهذا الضرب من الأدب. وقد ولد كان في متز سنة 1859 وتلقى تربية جامعية حسنة ودرس اللغات الشرقية واشتغل منذ فتوته بالصحافة. وفي سنة 1887 ظهر ديوانه الأول بعنوان القصور الريفية فكان فتحاً جديداً في عالم الشعر؛ ذلك لأن (كان) نزع فيه نزعة جديدة حرة كانت قدوة لجيل جديد من الشعراء؛ وأتبع كان ديوانه الأول عدة مجموعات شعرية أخرى نذكر منها: (أغاني المحب) ' (والقصائد الأولى) وعالم الأشباح والمطر
والربيع وغيرها.
وكتب كان أيضاً في القصة، وله في ذلك عدة آثار حسنة نذكر منها: (الملك المجنون) و (زهرات الهوى) و (الزانية الحساسة) ' وله مجموعة قصص صغيرة عنوانها: (قصص هولندية)
وقد اشتهر جوستاف كان بمقدرته النقدية؛ وكانت جولاته النقدية الأولى في الشعر والأدب في مجلاته التي أنشأها تباعاً مثل وكانت آراؤه النقدية نماذج حسنة للنقد القوى المتزن.
ولجوستاف كان أثر ظاهر في تطور الشعر الفرنسي في العصر الأخير.
العلاقة بين الطلاق والجنون
من أنباء أمريكا الأخيرة أن إحصاءات اجتماعية دقيقة قد عملت في أقسام الأمراض العقلية في ولاية (مساشاست) لتعرف العلاقات الزوجية والأمراض العقلية، وقد دلت هذه الإحصاءات دلالة واضحة على أن للزواج أثراً محسوساً في ضبط الأعصاب وتحسن الميول العقلية. مثلا ذلك أنه وجد أن معظم سكان المصحات العقلية أناس مطلقون بين رجال ونساء، ثم يأتي بعد ذلك في الترتيب العددي الأرامل رجالاً ثم الأرامل نساء، ثم الأعزبون من الجنسين؛ كذلك دلت الإحصاءات على أن نسبة المجانين من المتزوجين هي أقل النسب العددية بالنسبة لجميع الطوائف الأخرى.
وهذه الملاحظات تقوم على دراسة عدد كبير من المصابين بأمراض عقلية يبلغ عددهم زهاء 62 إلفاً في ملاجئ نيويورك ومساشاست، خلال خمسة الأعوام الأخيرة.
حول قصيدة البلبلة
بعثت إليَّ (الرسالة) بهدايا الشعراء والشاعرات والكتاب والأدباء المشكورين الذين ثارت فيهم نخوة الشرق العزيز فناصروني بأغاريدهم العذبة الحلوة التي يضيق عنها نطاق هذه المجلة المحبوبة، والتي سأحتفظ بها إلى الأبد تحية وذكرى. ولست افضل أحداً من أصدقائي حين أراني مضطراً إلى التنويه بشاعرة الزقازيق الحزينة (السيدة م. أبو السعود) التي نرجو لها ـأنا وفتاتيـ توفيقاً من الله العليّ، وبان يهدي لها رجلها الغويّ.
أما أستاذنا العظيم (حسن جلال بك) فله منا اجزل الثناء وسنتخذ من كلمته العالية، بعد

كتاب الله، نبراساً وحكمة.
(. . .د)
أثر إسلامي هام
علمنا أن الجمعية الأسيوية البنجالية بكلكته في الهند اقتنت أخيراً أثراً هاماً من اندر الآثار الإسلامية وهو كتاب (خريدة القصر) لعماد الدين الأصفهاني المتوفى في القرن السابع الهجري. والكتاب في ترجم الشعراء في عصر المصنف في جميع البلاد الإسلامية العربية وهو كبير ولا يوجد كاملاً فيما نعرف في مكاتب العالم. وهذه النسخة أيضاً جزء من الكتاب ويحتوي على تراجم شعراء حلب وغيرها، ولكن الذي يزيد في قيمة هذه النسخة وندرتها أنها مكتوبة بخط المصنف.
مخطوطة نادر في مكتبة الأزهر
في أثناء نقل مكتبة رواق المغاربة إلى مكتبة الأزهر العامة عثروا على مخطوط نادر هو نسخة من كتاب الذخيرة في أصول مذهب الإمام مالك، للإمام القرافي، ولا يوجد من هذا الكتاب إلا جزء واحد في مكتبة الجامع الأحمدي بطنطا وقسم صغير في دار الكتب المصرية.
النشيد القومي - غلطة الكفر
المصيبة الكبرى في هذا النشيد أنه موضوع على مبادئ (أنقره) من نقل ألفاظ الألوهية والشريعة وصرفها عن الله ودين الله إلى الوطن. وهذا إلحاد فظيع إن جاز في غير مصر لم يجز أن يكون في مصر.
يعين الدين الإسلامي معنى الآخرة ومعنى اليقين بالحساب والبعث، فيجيء صاحب هذا النشيد فيقول: غرامك يا مصر. . قصارى شعوري دنيا ودين، وحبك آخرتي واليقين إذن فلا آخرة ولا يقين بالآخرة.
!!وكما يقال: تعالى اله، سبحانه وتعالى، يقول صاحب النشيد: تعاليت يا مصر ويقول الله في كتابه العزيز عن جنة الآخرة: (تلك الجنةُ التي وُعِدَ المتقون)، فينقلها صاحب النشيد إلى مصر ويقول: ألستِ الكنانةَ في أرضِه= (وموعود جنته والنعيم) إذن فالجنة التي وعد المتقون هي مصر، وإلا فما معنى قوله (وموعود جنته)؟ والطامة الكبرى قوله: وصوتك يا مصر وحي الإله.
فمتى أضيف الوحي إلى الله فقد تعين معناه وخرج من كل المعاني اللغوية التي تفيدها لفظة الوحي كالإشارة والرمز ووسوسة الشيطان، ولا يفهم أي مسلم على وجه الأرض من قولك: وحي الله، أو وحي الإله، أو الوحي الإلهي إلا معنى واحداً. فكأن هذا النشيد موضوع عمداً لإفساد عقيدة المسلمين وتشكيكهم فيها وحملهم على اعتقاد خلافها والنزول بألفاظ الألوهية والشريعة وتجرئ الناس عليها.
ونحن لا نصدق أبداً أن وزارة المعارف تعمل لهذا الغرض بإذاعة هذا النشيد. فإن لم تعلن تبرؤها منه وتأمر بإبطال إذاعته وتنشر ذلك في الصحف كلها، فقد وجب على الأزهر أن يتقدم إلى المعركة ويفهم وزارة المعارف أن الإله الذي يعبده المسلمون ليس هو الإله رع!!
وسنرى ويرى الشباب الإسلامي
س. ط
بكلية الآداب
حول النشيد القومي
راقني ما كتبه الأديب (س ط) عن النشيد القومي وأرى تعقيباً على ذكر الغلطة الثانية (قصارى شعوري دنيا ودين) أن (دين) معطوفة على التمييز المنصوب فمن حقها أن تكون منصوبة منونة (ديناً) فإذا أريد الوقوف عليها انقلب تنوينها ألفاً فتصير (دينا) لا غير. ولا وجه لحذف الألف منها اعتذاراً بضرورة الشعر فليست هذه من ضرورات الشعر المباحة فتكون هذه غلطة مزدوجة.
متولي أحمد كيوان
ديوانان جديدان للدكتور إقبال
علمنا أن الدكتور محمد إقبال الشاعر الفيلسوف الهندي الكبير صنف ديوانين جديدين في الشعر أحدهما باللغة الأردية، وسماه (صور إسرافيل) وهو تحت الطبع، والآخر باللغة

الفارسية وقد صنفه متأثراً من مرضه الأخير ومن الحادثة الفاجعة الشرقية وهي سقوط الحبشة أمام القوة الإيطالية الغاشمة وقد سماه بشطر من البيت وهو (بس جيه بايد كرد أي أقوام شرق) معناه (وماذا يجب أن نعمل أيتها الأمم الشرقية؟) وفي آخر هذا الديوان قصيدة طويلة خاطب فيها روح النبي عليه الصلاة والسلام للشؤون الإسلامية والشرقية الحاضرة وهو أيضاً تحت الطبع. ونحن نهنئ الدكتور على شفائه وإصداره هذين الديوانين، وندعو الله أن يوفقه للكتاب الذي ينوي تصنيفه من زمن بعيد باللغة الإنجليزية وهو (مقدمة لدراسة الإسلام).

السيد أبو النصر الحسيني الهندي

العدد 169 - بتاريخ: 28 - 09 - 1936

المُعْجَم السياسي

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

وحدثني صاحب سر (م) باشا قال: كنا في سنة 1920 وهي بنت سنة 1919؛ وقد اجتمعت الأمة على مقاطعة لجنة (ملنر) لا تكلِّمها فجعلت السكوت ثورة. وأعلن الشعب أن كلمته في لسان الوفد ينطق الوفد بها نطق النبي بما يوحى إليه، فما يكون لأحد غيره أن يقولها ولا أن يقول أُوحي بها إليّ. وأبى اللورد ملنر أن يصدق أن للمصريين إجماعاً يُعتد به، وأنهم دخلوا في السياسة دخولاً ثابتاً فرسخوا فيها، وأنهم أصبحوا مع الإنكليز كالإنجليز الذين يقولون عن أنفسهم في مثلهم السائر: ينبغي أن نكون أحراراً مثل أعمالنا.

وزعم اللورد لنفسه أن هذه الأحزاب المصرية لا يتفق منها اثنان أبداً إلا كان بينهما ثالث يختلفان عليه وهو الطمع في مناصب الحكم، واستخرج من ذلك أن المصري والمصري كشِقَّي المِقراض لا يتحركان في عمل إلا على تمزيق شيء بينهما؛ فإن لم يكن بينهما (الشيء) لم يكن منهما شيء.

وذهب الرجل يتظنى ويحدس على ما يخيل له الظن، وقد حسب أن إنكلترا يحق لها أن تقول في المصريين ما يقول الله في خلقه كما ورد في الأثر: إنما يتقلبون في قبضتي؛ وكما تقول اليوم لأهل فلسطين من العرب: (إن يَشَأ يُذْهِبْكم ويَأتِ بخَلْقٍ جديد). . . . وكان اللورد هذا رجلاً ممارساً لمشاكل السياسة، دخالاً فيها، داهية من دهاة القوم، له في قلبه عينان وأذنان غير ما في وجهه كحذاق السياسيين؛ وهو يعرف أن سياسة قومه لا تدخل في شيء إلا دخول الإبرة بخيطها في الثوب، إن خرجت هي تركت الخيط وقد جَمَعَ وشد. . . . فأراد أن يمتحن مذهب المصريين في إجماعهم على الاستقلال، وقدر أنه واجد من الفلاحين عوناً ومادة لمكرِه السياسي، وحسب الوفد صورة جديدة من طبقة (الباشاوات) القديمة، ينزلون من الشعب منزلة اليد التي تمسك القيد من الرِّجْل التي فيها القيد، ويضعون معنى كلمة الحاجة في كلمة السياسة، ويقولون الوطن وهم يريدون الجاه، ويقيمون الشعب كالسُّلم ينتصب قائماً بأيديهم ليحمل أرجلهم الصاعدة عليه.

فجاء اللورد إلى مصر، فوجد الأمة كلها قد حَذِرت منه وتيقظت له، حتى نصحه رشدي باشا بأنه لن يجد في مصر هرَّة تفاوضه؛ ولكنه كان مستيقنا أن أذُن السياسة الإنكليزية

لصوتين: صوت الدنانير وصوت الجماهير، فمر في البلاد يرسم على الهواء (كالراديو) علامات استفهام، وانْصَفَقَ عنه الناس وأهملوه، وكان يسير في دائرة الصمت التي مركزها أبو الهول، فبدأ وظل يبدأ حتى انتهى وما زال يبدأ. . . وساح في البلاد سياحة طويلة وكأنه لم يسافر إلا من شفَة (أبو الهول) السُّفلى إلى شفته العُليا.

قال صاحب السر: وجاء اللورد لمقابلة الباشا، فمرَّ عليَّ مرور كتاب مقفل لا أعرف منه إلا العنوان؛ غير أنه رجل بمقدار الرجل الذي يخالف أمة كاملة تكاد تحسبه مطوياً على زوبعة، وترى له قوتين تحسُّ من أثرهما الرهبة والإعجاب، وإذا تأملته قلت إن اللطف والظرف أضعف شمائله، وإن الدهاء والحيلة أقوى مواهبه.

فلما لقيت الباشا من الغد سألني كيف رأيت اللورد ملنر؟ فقلت: والله يا باشا إنه كالضرورة ما يتمناها أحد ولكنها تجيء.

فضحك الباشا وقال: يا ليت لنا نحن الشرقيين ضرورة تصنع ما صنع اللورد؛ إنه كشف لنا في ذات أنفسنا عن حقيقة من أسمى الحقائق السياسية، وهي أن الشعب الذي

يصر ولا يزال يصر، يجعل الإغراء لا يغري والخوف لا يخيف.
ويا ليت الأمم الشرقية تتعلم هذا الصمت السياسي عن مجاوبة الكلمة الاستعمارية أحياناً، فإن صمتَ الأمة المصرية عن جواب (ملنر) كان معناه أن قدرة الأمة هي المتكلمة كلامها بهذا الصمت، تعلن للعالم أن الواجب الشعبي قد وضع قفله على كل فم.
ولقد فسر اللورد هذا السكوت بتفسيره السياسي فأدرك منه أن في الشعب أنفة وحمية وقوة، وأن حساب الضمير الوطني أصبح لهذه الأفئدة كالحساب الإلهي للنفوس المؤمنة، كلاهما مستعلِنٌ يُخافُ ويُتقى، وكلاهما له كلمة محرمة.
أية معجزة هذه التي جعلت كلمة الأجنبي تتخذ في أذهان أمة كاملة شكل قائلها، فاجتمعت لها الجلود على معنى الرفض، وأصبح كلُّ فرد يعرف محله من الكل، وخضعت الطبائع بجملتها لقانون العزة القومية الذي يلزمها ألا تخضع للأجنبي؟
إن الأمم بعض مسائل نفسية كهذه المسألة؛ فلو أن لنا خمسة دروس سياسية مختلفة كدرس (ملنر) لكانت لنا في الإيمان الوطني كالصلوات الخمس.
والآن تعلمت الأمة أن الشعب العزيز هو الذي ينظر في فض مشاكله إلى الحل وإلى طريقة الحل أيضاً، وقد كان (ملنر) هو أول أساتذتنا في تعليمنا الطريقة.
وهذا الدرس يجب أن يكون درساً للشرق كله، فإن السياسة الاستعمارية قائمة فيه على خداع الطريقة في حل مشاكله، فيحلونها ويعقدونها في نص واحد؛ ويثبت الكلام الذي يتفقون عليه أن المراد منه زوال الخلاف، ويثبت العمل بعد ذلك أن المراد كان زوال المقاومة.
وفي السياسة الأوربية موافقات دميمة كالنساء المشوهات، فإذا عرضوا واحدة منها على من يريدون أن يزوّجوه. . . . فأباها وفتح لها عينيه بكل ما فيهما من قوة الأبصار، أعفوه منها وقالوا له سنأتيك بالجميلة. ثم يذهبون بها إلى معهد التجميل اللغوي فيصقلونها ويصبغونها ويضعون لها أحمر السياسة وأبيضها ثم يعرضونها جديدة على صاحبهم ذاك، وما صنعوا ما به صارت الدميمة غير دميمة، ولكن ما به رجع غيرُ الأعمى كالأعمى ولهم عقول عجيبة في اختراع الألفاظ حتى لتكون شدة الوضوح في عبارة هي بعينها الطريقة لإخفاء الغموض في عبارة أخرى. وكثيراً ما يأتون بألفاظ منتفخة تحسب جزلة بادنة قد ملأها معناها وهي في السياسة ألفاظ حبالى تستكمل حملها مدة ثم تلد.
ولهم من بعض الكلمات كما لهم من بعض الرجال السياسيين، فيكون الرجل من دهاتهم رجلاً كالناس وهو عندهم مسمار دقوه في أرض كذا أو مملكة كذا، ويكون اللفظ لفظاً كاللغة وهو مسمار دقوه في وثيقة أو معاهدة.
ثم ضحك الباشا وقال: إن أرضنا تخرج القطن وسياستنا تخرج ألفاظاً كالقطن لا توضع في المغزل إلا مدت وتحولت. وإذا ذهبنا نخالفهم في التأويل والتفسير لم نجد عندنا المعجم السياسي الذي يملي النص. أتدري يا بني ما هو المعجم السياسي؟
أما إنه لو كان كتاباً يتألف من مليون كلمة لذهبت كلها عبثاً وباطلاً وهراء، ولكنه ذلك المعجم الحي، ذلك المعجم الذي يتألف من مليون جندي. . . . . .
(طنطا)
مصطفى صادق الرافعي
وجع القلب
للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني
وجدت بالتجربة أني لا أستطيع أن أحب كما تريد المرأة من الرجل - ولست أعني أني عاجز عن الحب، فما أعرف لي في هذه الدنيا عملاً غير ذلك. فأنا أحب الطعام الجيد والشراب اللذيذ والنوم الهنيء والراحة التامة؛ وأحب الكتب والصديق الموافق الذي لا ينغص الحياة على صاحبه بطول المخالفة وكثرة المكابرة ودوام الشذوذ؛ وأحب أشياء كثيرة لا أستطيع أن أحصيها. ولكني أحب نفسي وهذا هو البلاء الأكبر. وليس هو ببلاء، إذا أردت الحق، ولكن المرأة تراه كذلك. وعندها أنك تبيع نفسك حين تحبها. ولا بأس بأن يبيع المرء نفسه أحياناً، ولكن بيعها لا يستلزم أن تترك حبها وتكف عنه. وهل يعقل أن تفيض حبك على الناس والأشياء ولا تختص نفسك ببعض هذا (الفيضان؟) غير أن غير المعقول عندك هو المعقول عندها والذي لا يجوز خلافه ولا صبر لها على سواه،

فهي من أجل ذلك تسود عيشك وتريك النجوم في الظهر الأحمر. على أن الرجل يستطيع أن يخفي حبه لنفسه أو يموهه ويستره بما يحجبه، ولا أظن أن في هذا عسراً فأنه يفعل هذا كل ساعة ولا يزال يعزو أعماله إلى بواعث أخرى يظنها أشرف وأسمى من حب النفس، فهو مثلاً يأكل لا لأنه يشتهي الطعام بل لأن من واجبه أن يحرص على أن يظل قوياً قادراً على خدمة النوع الإنساني، وعلى نفس هذا فقس! غير أن هناك ما لا سبيل إلى ستره وكتمانه وتمويهه، إذ من الواضح مثلاً أن من العبث أن تنظر إلى اليمين وأن تروح تزعم أنك إنما كنت تنظر إلى الشمال، فإن اتجاه العين لا يخفى ولفتة الوجه لا مغالطة فيها. فإذا كانت النظرة إلى امرأة وأنت مع أخرى فالويل لك ولستُ مسئولاً عنك. . . . قالت لي مرة إحداهن وأنا معها وقد رأت عيني تدور: (بص هنا) وجذبتني من ذراعي، فقلت وأنا مستغرب: (ولماذا لا أبص هناك؟) قالت: (كده) بهذا الإيجاز الذي لا يفيد شيئاً؛ فقلت: (كده يعني ماذا؟ قالت: (كده) ولم تزد. فضاق صدري فقد عجزت أن أفهم سر هذا الأمر المتعب أو حكمته وقلت: (يا ستي. . إن الله خلق عيني متحركة غير ثابتة فكيف ألزمها الثبات؟ ثم هبيني استطعت ذلك فلماذا أتكلفه؟).

فقالت: (عيب!).

فصحت (عيب؟؟ يا خبر اسود!!).

فقالت: (لا يليق أن تنظر إلى الفتيات في الطريق).

ففهمت ولكني لم أقتنع وقلت: (إن لي على هذا رداً طويلاً فهل تسمحين بأن تسمعيه؟).

قالت بتهكم: (نعم يا سيدي. . .).

فتجاوزت عن لهجة السخرية إذ حسبي موضوع واحد للخلاف وقلت: (أولاً - لماذا تظهر الفتيات لنا معاشر الرجال في الطريق إذا كن لا يردن أن ينظر إليهن أحد؟ ثانياً - وهذا أهم - لماذا يظهرن في حفل من الزينة إذا كان لا يرضيهن أن يدير الرجال فيهن عيونهم؟ ثالثا - وهذا هو الأهم - بأي وجه ألقى الله يوم القيامة إذا كنت أغمض عيني وأتكلف العمى ولا أنظر إلى مخلوقاته التي أبدعها؟؟ وقد خلق لي عينين فلا عذر لي، ورزقني غير ذلك وسائل القدرة على إدراك معاني الجمال في خلقه سبحانه. . أليس من الواضح أن مما يخجلني يوم القيامة أنه تعالى خلقني بصيراً فآثرت العمى، ومحساً مدركاً ففضلت الجهل والبلادة؟؟ وأخيراً - لا آخراً - ما الضرر على كل حال من النظر إلى الناس؟؟ ماذا خسرت الفتاة التي نظرت إليها؟. . هل أنا أكلتها بعيني؟؟ هل نقصت شيئاً؟؟ إني أراها على العكس قد زادت. . . نعم زادت. . . لماذا تنظرين إلي هكذا؟؟ هل نطقت كفراً؟؟ أقول لك زادت لأنها استفادت إحساساً جديداً مؤيداً لإحساسها بجمالها، ولو كنت لم أنظر إليها لكانت خليقة أن يساورها الشك فيما تحس من نفسها أو تعتقد، فأنا قد أفدتها راحة البال واطمئنان الخاطر، وإني لجدير بالشكر على هذا لا اللوم).

فصاحت بي بعد طول الصمت: (طيب اسكت بقى).

فقلت وأنا ضجر: (هكذا أنتن يا نساء!! إذا أعوزتكن الحجة قلتن: طيب أسكت بقى. . ولكني لا أنوي أن أسكت (بقى) فقد مرن لساني على الدوران وأنا أحس اليوم أني أوشك أن أقول كلاماً بديعاً).

فصاحت بي: (أنا معك فكيف تنظر إلى غيري؟).

فقلت: - وقد فهمت - (آه. . . . هذه هي المسألة. . . قولي هذا من الصبح يا ستي. . . نعم أنت معي. . . وإنك لحسبي من عالم الجمال والفتنة، ولو وسعني غير هذا لما كنت حسبي. . . ولكني قانع غير متذمر. . . غير أنك مع الأسف لست كل النساء. . وأنت تغنين عن جنسك أحياناً ولكنك لا تستطيعين أن تغني عن هذا الجنس في كل حين؛ وليس ذنبي أنك قاصرة).

فقاطعتني صائحة: (قاصرة؟؟ أشكرك).

قلت: (نعم قاصرة عن اختزال جنسك كله في شخصك الواحد).

فأبت أن تسمع مني بعد ذلك فقلت: لا حول ولا قوة إلا بالله. . الأمر لله. . . سكتنا يا ستي. . فلعلك تكونين مسرورة).

ولكنها لم تكن مسرورة ولم تغفرها لي قط. . . وأنا أقول تغفرها بغير تعيين أو تبيين لأني والله لا أدري إلى هذه الساعة أي شيء أغضبها وأثار نقمتها علي.
وحدث مرة أخرى أن كلفتني أن أشتري لها فاكهة وكنت أعرفها تحب الجوافة حباً جماً فانتقيت حبات طيبة الرائحة ذكية العبق واشتريت لها فاكهة أخرى، ولكن الجوافة كانت هي المهمة والتي عليها الكلام؛ وذهبت بحملي إليها، ودخلت به حجرة الانتظار، وقلت لخادمتها: (قولي لسيدتك صباح الخير يا نور العين. لقد حضر سيدك، ونور عينك اليمنى - واليسرى أيضاً في الحقيقة - ومعه حمل بعير من الجوافة بل من أبدع أنواعها).
فذهبت الخادمة وأبلغتها الرسالة فأطلت تلك من باب غرفتها - بوجهها فقط - وصاحت وهي فرحة - صحيح؟؟ جوافة؟؟ حلوة؟؟).
ففتحت الكيس وأخرجت واحدة ورفعتها لها بين أصابعي وأدرتها أمام عينها فابتسمت ابتسامة السرور وقالت: (حالاً. حالاً. . . دقيقة واحدة) ودخلت.
وبقيت أنا أتمشى في الحجرة، ولم يكن فيها ما يسلي المرء، ولم يكن معي كتاب أقرأه وأزجي به الفراغ فجعلت أقوم وأقعد، وأنظر تارة في المرآة، وأمسح الطربوش تارة أخرى، وأنفض عنه ما علق به من التراب. . ومسحت الحذاء أيضاً. . مسحته مرتين حتى صار جلده كالمرآة، وحتى حدثتني نفسي أن أخلعه أنظر إلى وجهي فيه، ولكني خفت أن تدخل علي وأنا أفعل ذلك. . وتأملت الحرير الذي كسيت به الكراسي، ورفعت طرف السجادة وجسستها وفركت وبرها بأصابعي، ثم لم أجد شيئاً آخر أصنعه في هذه الغرفة، فانحططت على كرسي كبير وثير واضطجعت وفي مأمولي إذا نمت ألا توقظني حين تدخل، ولكني لم أنم لأن رائحة الجوافة الذكية كانت قوية، فقد نسيت الكيس الذي هي فيه
مفتوحاً، فتسور إلى أنفي أريجها وملأ صدري وأدار رأسي، فأحسست بالجوع ولكني ضبطت نفسي وشددت على اللجام وقلت: (اللهم أخزك يا شيطان!) غير أن الشيطان شديد الغواية قوي الفتنة فجعل يقول لي: (وما حبة واحدة تأكلها فتنيم بها هذه الثعالب التي تمزق أحشاءك؟) فقلت: (والله لقد صدق اللعين. . فلآكل حبة واحدة من الجوافة اللذيذة. . ثم إن هذا عدل. . أفأحملها وأحرمها؟؟ وأكون كالعير التي يقولون إنها يقتلها الظمأ وهي تحمل الماء على ظهورها في القرب؟ أو كالحمار الذي يحمل أسفاراً؟؟.).
ومددت يدي إلى الكيس وأنا يقظان كنائم، وتناولت منه من غير أن أنظر إليه: وطابت الجوافة في فمي، فأقبلت عليها آكل وآكل - ولكن بغير احتفال والله - وإذا بصاحبتنا تدخل مؤهلة مرحبة باسطة يديها للسلام، ثم إذا بها تقف في وسط الغرفة الفسيحة وعينها مفتوحة جداً عليّ، فلم أستغرب، فقد كان فمي محشواً وأسناني تعمل دائبة كالليل والنهار. وتنبهت إلى واجني حين رأيتها تحملق على هذا النحو، فبلعت ما بقي في فمي بسرعة، ومططت عنقي ليسهل الانزلاق - أعني البلع - وانحنيت على الكيس لأتناوله وأقدمه إليها وأسرها به - أعني بالجوافة التي فيه - وإذا به ينطبق بين يدي لأنه فارغ!!
الحق أقول إني بهت، فما كان يخطر لي في بال أن آكل كل هذه الجوافة. ولو أن إنساناً راهنني أن أفعل لفزعت وأشفقت على نفسي، ولكن هذا الذي لم أكن أحسب أن لي قدرة عليه وقع اتفاقاً. . وقد سرني هذا في الحقيقة لأنه كان من بواعث الاطمئنان لي على صحتي، وكان جديراً بها أن تهنئني وتقرح لي، فإن الجوافة كثيرة وهي في السوق أكوام عظيمة، والجيد الطيب ليس بالقليل، وثمنه تافه لا يستحق الذكر. . . ولكنها وجمت يا أخي لا أدري لماذا؟ ووقفت جامدة لا تتحرك كأنما سمرت إلى الأرض، فأزعجني ذلك وخفت أن يكون قد أصابها شيء لا قدر الله، وأقبلت عليها أسألها عما جرى لها؛ فلما أفاقت أشارت بيدها - دون أن تتكلم - أن اذهب. . اذهب ولا ترني وجهك! فاستغربت أن تلقاني بهذه الجفوة بعد ذاك الترحيب والتأهيل والبشر الذي كان يفيض به وجهها وهي مطلة به من بين مصراعي الباب، وتمنيت لو أنها تبقى أبداً ووجهها بين المصراعين ليبقى لي بشرها وحلاوة ابتسامتها!!
الحق أني لا أفهم النساء. . . وهل تستطيع أنت أن تفهم كيف يفسد الحال وتقع النبوة

بين رجل وامرأة من أجل أقة من الجوافة ثمنها قرش ونصف قرش؟ إن كنت تفهم هذا فإني أحسدك وأدعو لك بالتوفيق إن شاء الله.

إبراهيم عبد القادر المازني

صور سياحية

1 - فرنسا وباريس

بقلم سائح متجول

تأثرت مصر بالثقافة الفرنسية طوال القرن الماضي؛ ولم يكن ذلك لأن مصر أمة من أمم البحر الأبيض تميل بخواصها وموقعها إلى الأخذ بالثقافة اللاتينية، ولكن لأن ظروفاً خاصة اجتمعت منذ الغزوة البونابارتية لتحمل مصر فيما بعد على الاستعانة بالفرنسيين في مشروعات الإصلاح والتجديد وإرسال بعوثها العلمية الأولى إلى فرنسا. هذا هو الأصل في تأثر مصر بالثقافة الفرنسية، وهو عارض تاريخي محض، لا دخل فيه للعوامل الجغرافية أو الميول والخواص الجنسية؛ ومن ثم فأنا نرى أثر الثقافة الفرنسية في مصر يضمحل اليوم، لأن مصر تختار اليوم لنفسها من مختلف الثقافات، لتبني ثقافتها القومية، ولا تقف عند ثقافة دون أخرى.

ومع ذلك فما تزال الثقافة والآداب الفرنسية تحظى منا بأكبر عناية؛ وما تزال فرنسا تجذب منا أكبر عدد من الزائرين؛ وما يزال اسم باريس يثير في نفوسنا سحراً لا يقاوم؛ بل إن كثيراً من أولئك الذين لم يروا باريس يعرفونها معرفة عقلية وروحية شاملة: يعرفونها من الكتب والصحف والسينما، وتربطهم بها روابط فكرية قوية؛ وما تزال أول أمنية للسائح المبتدئ أن يرى باريس.

وقد حظيت باريس من العربية بكتب ورسائل عديدة، وحظيت في العهد الأخير بكتابين لاثنين من كتابنا المعروفين، وصفت فيهما معاهدها ومغانيها وجوانب كثيرة من حياتها الاجتماعية، وانك لتقرأ في الكتابين فصولاً وشذوراً تفيض إعجاباً بفرنسا وباريس وكل ما هو فرنسي، بل إنك لتشعر من خلال تلك الفصول الحارة المنمقة أن فرنسا هي أمة الأمم، وأن باريس هي مدينة المدن وإلهة الجمال والعلوم والفنون؛ وما زالت هذه الألوان الوردية المغرقة تطبع كل ما نكتب عن فرنسا وباريس.

على أنه يلوح لنا أن هذه الفتنة التي قد تجد مبرراتها في بعض المؤثرات والظروف الخاصة، والتي تثيرها في معظم الأحيان أهواء وميول خاصة، ويذكيها الجهل بأحوال الأمم والعواصم الأخرى، وانعدام روح المقارنة الذي تتضاءل أمامه الصور والألوان الخلابة؛ يلوح لنا أنها فتنة مبالغ فيها، وأن شيئاً من الملاحظة البريئة، وقليلاً من الاتزان في الوصف والرواية، وطرح المؤثرات والاعتبارات الخاصة مما يعاون على عرض صور أصدق وأدق من تلك الصور الوردية التي عرفناها وألفناها.

ومهما يكن في هذه الصور القديمة من صدق؛ ومهما يكن لهذه الفتنة القديمة من مبررات، فأنا نقول لأولئك الذين يرون العالم كله في فرنسا وفي باريس: إن الأمور قد تغيرت أعظم تغير في فرنسا وفي باريس.

وكاتب هذه السطور سائح متجول يرى ويلاحظ، ولكنه لا يدعي الوصول إلى المجهول والخارق، وإنما يلاحظ ويقدر ما تهدي إليه المشاهدة والتجارب بعيداً عن كل اعتبار وهوى.

لم تقدم فرنسا أية تسهيلات للسياحة سواء في مسألة النقد أو السكك الحديدية أو الفنادق أو غيرها كما فعلت ألمانيا وإيطاليا، وما زالت تعتمد على جاذبيتها القديمة؛ غير أن فرنسا تخدع اليوم في قيمة هذه الجاذبية؛ وقد انحط موسم السياحة في فرنسا انحطاطاً عظيماً، ولم تعد باريس كما كانت في الماضي تعج بعشرات الألوف من الأجانب ولا سيما الأمريكيين والإنكليز؛ وأهم عامل في هذا التحول هو ارتفاع قيمة الفرنك الفرنسي بالنسبة لنقد البلاد التي خرجت عن معيار الذهب. فالأمريكي أو الإنكليزي أو المصري الذي يزور فرنسا يفقد نحو أربعين في المائة من قيمة نقده؛ أضف إلى ذلك الغلاء الفاحش الذي يغمر كل شيء في فرنسا؛ ففي الفندق والمطعم والمقهى، وفي الملاهي والتنقل وكل ما يتصل بالحياة اليومية، نشعر بوطأة هذا الغلاء المرهق، وتشعر كأن النقد يذوب بين يديك سراعاً.

ولنضرب أمثلة مادية؛ فالغرفة البسيطة في فندق متوسط تكلف في اليوم من 25 إلى 40 فرنكاً (من 33 إلى 52 قرشاً) ووجبة الطعام في مطعم متوسط تكلف من 15 -

25 فرنكاً (20 - 33 قرشاً) هذا عدا الخدمة وهي من 10 إلى 15 في المائة؛ وثمن البيضة الواحدة في المقهى أو حيث تتناول إفطارك فرنكان ونصف (3 , 5 قروش) وثمن الواحدة من الموز أو التفاح أو الخوخ شراء يتراوح بين فرنك ونصف وثلاثة حسب النوع والحجم؛ وأما في المقهى فما خلا القهوة والنبيذ والكونياك والبيرة، فإن أثمان المشروبات الأجنبية تبلغ حدوداً تزهدك دائماً في طلبها؛ والسجائر الفرنسية رخيصة ولكنها سخيفة لا يقبلها
الذوق، والسجائر الأجنبية تكلف ضعف ثمنها وأحياناً ثلاثة أمثال؛ وأما التنقل في مدينة عظيمة كباريس فلست أحدثك عن (التاكسي) لأنه ترف لا يطيقه سوى الأغنياء، ولكني أقول إن أجور الأمنيبوس والترام الذي بقيت منه خطوط قليلة هي الضعف وأحياناً ثلاثة أمثال أجورها التي نعرفها هنا؛ ولولا شبكة الترام الأرضي (المتروبولتان) التي تربط أحياء باريس وأطرافها ربطاً عجيباً بأجر زهيد (سبعين سنتيما أو نحو قرش صاغ) لكانت باريس أتعس العواصم من حيث المواصلات.

هذه أمثلة وملاحظات نعني بها السائح المتوسط ولا نعني بها طبقة الطلبة أو أولئك الذين يلجئون إلى بعض الفنادق الشعبية الرخيصة حول الحي الجامعي في سان ميشيل وفوجيرار، ويتناولون طعامهم في مطاعم العمال، فهؤلاء حقاً يستطيعون أن يستمرئوا نوعاً من العيش الرخيص لا يستسيغه السائح المتجول مهما كان من تواضعه وقناعته.

ولا تنس إلى جانب ذلك الغلاء المرهق تلك الضريبة التعسفية التي أصبحت رذيلة اجتماعية شنيعة في فرنسا (وفي غيرها أيضاً) ونعني (البقشيش)، ففي كل مكان وفي كل مناسبة، في التاكسي وفي المطعم والمقهى والمسرح وأينما حللت، يمثل شبح البقشيش، ويطلب بإلحاح خشن؛ وكل شيء يتطلب عطية حتى ولو لم تقدم أية خدمة؛ والشره خلة بارزة لتلك الطبقة التي تحتك بها في كل لحظة ونعني طبقة الخدم والسقاة؛ وروح الجشع تبدو في كل مكان؛ وقد تدخل المسرح أو الملهى الواحد فيطلب إليك البقشيش أربعة أو خمسة متعاقبون من الخدم قبل أن تجلس في موضعك، وإذا ترددت قيل لك إنا هنا لا نتناول أجراً ونعتمد على البقشيش، وإذا لم تتذرع بشيء من الحزم والبرود كانت الخسارة فادحة؛ هذا إلى المفاجآت السيئة في الحساب؛ ففي معظم الأحيان تدفع أكثر مما تتوقع لأسباب وأبواب غير معقولة ولكن لا مفر من إجابتها.

ولقد قيل في يونيه الماضي إن البرلمان الفرنسي قد أقر قانونا بإلغاء (البقشيش)، وقد صدر القانون فعلاً، ولكنا أسأنا فهمه وإدراك مقصده، فلم يكن قصد الحكومة الاشتراكية أن تحرم الخدمة ومن إليهم من نعم هذه الضريبة المرذولة، بل كان قصدها أن تجعل (البقشيش) حقاً وضريبة مشروعة لا عطية فقط، وأن تحفظ كرامة هذا الخادم أو العامل فلا ينتظر البقشيش كعطية أو نفحة وإنما يرى فيه حقاً مكتسباً ينظم دفعه حسب الظروف والأحوال؛
ولهذا كان أول ما قرأنا في تعليمات الفندق في مرسيليا ما يأتي: (بما أن البقشيش قد ألغي، فقد قررت إدارة الفندق أن تحتسب بدل خدمة قدره عشرة في المائة!).

ومما يلاحظه السائح في فرنسا، وفي باريس بنوع خاص، أن الأمانة في المعاملات ليست متوفرة دائماً؛ وربما كان أول وأشهر التجارب التي يلاقيها السائح في ذلك هي مسألة التاكسي؛ فإذا لم تكن تعرف الطريق أو لك فكرة عنه فويل لك من السائق؛ وقلما تجد سائقاً يقودك إلى المكان المقصود مباشرة، ولا بد أن يطوف بك حيناً قبل أن يقودك إغليه، وعبثاً تلاحظ أو تعترض، وعند الحساب تضاف إلى الأجر ملحقات زائفة يؤيدها السائق بالصخب والوعيد؛ والويل لك إذا ترددت في الدفع؛ وهذه تجربة أعتقد أن كل سائح مستجد يلقاها في فرنسا؛ وقد بلوتها ير مرة وسمعت في شأنها روايات مدهشة مضحكة معاً عن تفنن السائقين في ابتزاز الملحقات غير المشروعة.

وإنك لتلقى مثل هذا الغش أحياناً في المطعم والمقهى إذا لم تحسن مراجعة الحساب؛ ومن الحق أن نقول إنك تلقى مثل هذه التجارب في غير فرنسا، وإنك تلقاها في إيطاليا وباقي أمم البحر الأبيض، ولكن يندر أن تلقاها في أمة من الأمم الشمالية.

وحب المال خلة مشهورة في فرنسا، وهي تذهب إلى حد الجشع المثير، وإنك لتلمس هذا الشره في كل المعاملات، وتشعر بأن روح المادة والاستغلال تطغى على كل

شيء وكل اعتبار، ومن ثم كان شغف الكسب بأي الوسائل، وكان تجلي الأثرة وانعدام روح المعاونة والمروءة في معظم الطبقات التي تحتك بها. ومن النادر أن تجد في باريس من يتقدم لمعاونتك أو إرشادك لمعرفة مكان أو غيره بشيء من التطوع أو الرقة التي تأنسها في بلاد أوربية أخرى؛ وإذا قدم إليك مثل هذا العون شعرت أنه مقرون بالسرعة والمن، وأحياناً بالتكلف والجفاء، كأن وقت الفرنسي كله وكلماته كلها من ذهب؛ وكثيراً ما تجاب بهز الأكتاف و (ليس عندي وقت) وأمثالها.

هذا وقد أفسدت الروح الاشتراكية أخلاق الطبقات الدنيا وآدابها، فالعامل والصانع والبائع والخادم والموظف الصغير، هؤلاء جميعاً يتصورون أنهم سادة الموقف في فرنسا، وأن المستقبل لهم. وإنك لتلاحظ هذا الأثر السيئ بنوع خاص في طبقة العمال والخدم، فهم يؤدون أعمالهم بتكلف ولا يحفلون بشيء؛ وهم يشعرونك دائماً عند الحديث أنهم سادة

مثلك، ولهم في ذلك إشارات وألفاظ وقحة. وقد كان لحوادث أسبانيا في هذه الطبقات أثر عميق ملموس؛ وكم سمعنا في الفندق والمطعم وفي الشارع والمترو من بعض أفراد هذه الطبقات أن الحكومة الاشتراكية إذا لم تجب مطالب الطبقات العاملة، وإذ لم تسع إلى تحسين الأجور وتخفيض مستوى المعيشة، فإن ما وقع في أسبانيا سوف يقع قريباً في فرنسا.

وقد عرفت فرنسا أنها بلد الجدل السياسي؛ ولكن هذا الجدل يحتدم اليوم في فرنسا بشدة ظاهرة ويغمر كل الطبقات؛ وقد تشهد هذا الجدل في الشارع وفي المقهى وفي الترام، وتسمع أغرب الآراء وأشدها تطرفاً. وتلقى الصحف على اختلاف نزعاتها رواجاً عظيماً بين كل الطبقات، وتلقى الصحف والنشرات الاشتراكية رواجاً خاصاً بين الطبقات العاملة. وقد لفت نظري كتابان يعرضان للبيع بكثرة ويقبل الناس على شرائهما، أولهما رسالة عن حياة مسيو (ليون بلوم) رئيس الوزارة الفرنسية الحاضرة، والثاني كتاب عنوانه (دوريو رجل الغد)، ودوريو هو النائب الشيوعي الذي خرج على الحزب الشيوعي وعلى أوامر موسكو وكون لنفسه شعبة خاصة تتقدم كل يوم في الأهمية والعدد؛ ويرى كثيرون أن دوريو هذا سيكون من قادة الغد، وأنه ربما اضطلع بدور عظيم في التطورات السياسية المقبلة.

ومما يلفت النظر بنوع خاص حالة القلق السياسي التي تسود فرنسا اليوم، وتبدو ظاهرة في كتابات الصحف وفي تعليقات الأفراد، ويشمل هذا القلق الشؤون الداخلية والخارجية معاً؛ ففي ميدان الشؤون الداخلية يشعر الكثيرون بأن فرنسا مقبلة على تطورات سياسة هامة، وأنه ربما اقترنت هذه التطورات بشيء من العنف. وفي ميدان الشؤون الخارجية يرى الكثيرون أن احتمالات الحرب الأوربية تتقدم بسرعة، وأن نشوبها ربما كان أقرب مما يتصور الناس، وأن فرنسا ستدعي في القريب العاجل إلى خوضها.

(يتلى)

(? ? ?)

الجانب الصوفي في الفلسفة الإسلامية

للدكتور إبراهيم بيومي مدكور

- 3 -

تمتاز فلسفة الفارابي بظاهرتين رئيسيتين: نزعة روحية نامية، واتجاه صوفي واضح. والمذهب الروحي والتصوف يقتربان في الواقع ويتلاقيان في نواح كثيرة. وهاتان الظاهرتان تبدوان لدى فلاسفة الإسلام بدرجات مختلفة. وقد نفذ التصوف الفارابي على الخصوص إلى أعماق المدرسة الفلسفية العربية وأثر في صوفية المسلمين بوجه عام. ولم يقف أثره عند القرون الوسطى، بل تعداها إلى التاريخ الحديث. وبما أنا أسلفنا القول في شرح نظرية السعادة الفارابية وبيان مصادرها الأرسطية والأفلوطينية فأنه يجدر بنا الآن أن نلقي نظرة على الأثر الذي أحدثته فيمن جاء بعد الفارابي من فلاسفة ومفكرين؛ وكي تكون هذه النظرة مستوفاة يحسن أن نبين من جانب إلى أي حد تأثر كبار فلاسفة الإسلام بآراء الفارابي التصوفية، كما تأثروا بأبحاثه الأخرى؛ ومن جانب آخر ينبغي أن نحدد العلاقة بين هذا التصوف الفلسفي وما ذهب إليه صوفية المسلمين المتأخرون. وحبذا لو استطعنا أخيراً أن نوازن بين نظرية

السعادة الفارابية وبعض الأفكار الصوفية التي اعتنقتها طائفة من الفلاسفة المحدثين. وبالجملة سنتابع هذه النظرية في خطواتها المتتالية إلى أن نسلمها إلى العصور الحديثة، وسنحاول عرض صورة مختصرة لتاريخها العام.

إذا كان في فلاسفة الإسلام من يصح أن نسميه تلميذ الفارابي وخليفته الأعظم فهو بلا جدال ابن سينا. حقا إن التلميذ عدا على الأستاذ وأخفى اسمه وانتزع مكانته وقضى على شهرته، وأصبحنا ونحن نعزو إلى ابن سينا آراء وأفكاراً هي في الحقيقة من صنع الفارابي وابتكاره؛ بيد أن الأول يعترف للثاني بأياديه عليه، ويقر له بالسبق والأولوية، ويدين له بالخضوع والأستاذية. ولقد بلغ من تعلق ابن سينا بنظريات أستاذه أن بذل كل مجهود في تفهمها وأفاض في شرحها وتوضيحها بحيث منحها نفوذا وسلطاناً لم تنله على يدي صاحبها ومبتكرها. ورب فكرة فارابية غامضة مبهمة تبدو لدى ابن سينا، وهو صناع اليدين، في ثوب قشيب ومظهر خلاب. وإذا كان ابن رشد هو شارح أرسطو غير منازع في الفلسفة المدرسية، فإن ابن سينا هو شارح الفارابي الماهر في الفلسفة الإسلامية. وقد يؤخذ علينا أحياناً أنا نحاول تحليل أفكار الفارابي على ضوء ما كتب ابن سينا، إلا أن الرجلين في رأينا متضافران ومتكاملان، يوضح كل واحد منهما صاحبه ويتممه. ولئن كان للفارابي فضل السبق، فلابن سينا فضل البيان والإيضاح. ومن ذا الذي يدعي أن في مقدوره دراسة أرسطو دراسة كاملة دون الرجوع إلى شراحه من المشائين وغيرهم؟ ولو احتفظ لنا الدهر بكل ما كتب الفارابي فلعلنا لم نستعن دائماً على تفهمه بمؤلفات أتباعه؛ فأما وما وصل إلينا من كتبه نزر يسير، فنحن مضطرون إلى توضيح غامضه بمختلف الوسائل. على أن المؤرخ الذي يعنيه أن يبين كيف نشأت فكرة ما، يلزمه كذلك أن يوضح كيف نمت وتطورت.

اعتنق ابن سينا مختلف آراء الفارابي التصوفية وتولاها بالشرح والدرس في رسائل متعددة نخص بالذكر منها كتاب الإشارات والتنبيهات، وهذا الكتاب بين المؤلفات السينوية (نسبة إلى ابن سينا) يتيمة العقد وجوهرة التاج الثمينة وثمرة النضوج الكامل. يمتاز بسمو أسلوبه وعمق أفكاره وتعبيره عن آراء ابن سينا الخالصة التي لا تشوبها نظريات المدارس الأخرى. وقد وقف صاحبه الجزء الأخير منه على الأبحاث التصوفية، ويقع في نحو خمسين صفحة تعد من أحسن ما خلفته المدرسة الفلسفية الإسلامية في هذا الباب. فقد أخذ ابن سينا على حسب عادته أفكار الفارابي وفصل القول فيها وعرضها عرضاً مسهباً مرتباً. فهو يحدثنا عن (التجريد) و (البهجة والسعادة) و (مقامات العارفين) و (أسرار الآيات) ويشرح نظرية الاتصال شرحاً مستفيضاً. وهذا هو القدر لذي جمعه وترجمه مهرن إلى الفرنسية ونشره تحت عنوان: ' وهاكم نموذجاً من حديث ابن سينا العذب ولغته السامية التي تترجم عن معان سبقه بها الفارابي يقول: (إن للعارفين مقامات ودرجات يخصون بها في حياتهم الدنيا دون غيرهم. فكأنهم في جلاليب من أبدانهم قد نضوها وتجردوا عنها إلى عالم القدس. ولهم أمور خفية فيهم، وأمور ظاهرة عنهم، يستنكرها من ينكرها، ويستكبرها من يعرفها، ونحن نقصها عليك. . . العارف يريد الحق الأول لا لشيء غيره ولا يؤثر شيئاً على عرفانه، وتعبده له فقط؛ لأنه مستحق للعبادة ولأنها نسبة شريفة إليه، لا لرغبة أو رهبة. . . العارف هشّ بشّ بسّام يبجل الصغير من تواضعه مثل ما يبجل الكبير، وينبسط من الخامل ما ينبسط من النبيه. وكيف لا يهش وهو فرحان بالحق وبكل شيء فأنه يرى فيه الحق. وكيف لا يسوي والجميع عنده سواسية؟. . العارف لا يعنيه التجسس والتحسس، ولا يستهويه الغضب عند مشاهدة المنكر كما تعتريه الرحمة فإنه مستبصر بسر الله في القدر. وإذا أمر بالمعروف أمر برفق ناصح لا بعنف مُعَير. وإذا جسم المعروف فربما غار عليه من غير أهله. العارف شجاع، وكيف لا وهو بمعزل عن تقية الموت؟ وجواد، وكيف لا وهو بمعزل عن محبة الباطل؟ وصفَّاح، وكيف لا ونفسه أهون من أن تحرجها زلة بشر؟ ونساء للأحقاد، وكيف لا وذكره مشغول بالحق).

يصف ابن سينا كأستاذه المراحل التي تقود المرء إلى السعادة ويتكلم عن الزهد والعبادة، ثم عن العرفان الذي هو السعادة الحق. (فالمعرض عن متاع الدنيا وطيباتها يخص باسم الزاهد، والمواظب على نفل العبادات من القيام والصيام ونحوهما يخص

باسم العابد، والمنصرف بفكره إلى قدس الجبروت مستديما لشروق نور الحق في سره يخص باسم العارف). وليست السعادة مجرد لذة جسيمة، بل هي غبطة روحية وسمو معنوي واتصال بالعالم العلوي؛ هي عشق وشوق مستمران، وما العشق الحقيقي إلا الابتهاج بتصور حضرة الحق؛ وما الشوق إلا الرغبة الدائمة في كمال هذا الابتهاج. (والنفوس البشرية إذا نالت الغبطة العليا في حياتها الدنيا كان أجل أحوالها أن تبقى عاشقة مشتاقة لا تخلص من علاقة الشوق، اللهم إلا في الحياة الأخرى. وتتلو هذه النفوس نفوس بشرية مترددة بين جهتي الربوبية والسفالة على درجاتها، ثم تتلوها النفوس المغموسة في عالم الطبيعة المنحوسة، التي لا مفاصل لرقابها المنكوسة). والوسيلة الأولى والرئيسية لإدراك السعادة هي الدراسة والبحث والنظر والتأمل. وأما الأعمال البدنية والحركات الجسمية ففي المرتبة الثانية، ولا يمكن أن تحل محل التهذيب الفكري والرقي العقلي بحال.

قد يخيل للقارئ بعد هذا التحليل أن ابن سينا أميل من أستاذه إلى متصوفة القرن العاشر أمثال الجنيد والحلاج. ولا سيما وكتاباته مملوءة بمصطلحات الصوفية وألفاظهم الفنية. فهو يردد كلمة الزهد والوجد والقوت، ويبين حقيقة المريد والعارف والعابد، ويحلل بعض العواطف النفسية كالعشق والشوق التي شغلت كبار متصوفي المسلمين. غير أنه على الرغم من كل هذا لا يزال ابن سينا وفياً لأستاذه في نظرياته التصوفية كما وفي له في كل مذهبه الفلسفي، ولا أدل على هذا من إعراضه عن فكرة الاتحاد التي زعمها الجنيد والحلاج ونقده نقداً فيه دقة وتعمق. فهو يرى أن غاية السعادة ليست إلا مجرد اتصال بين العبد وربه يحظى فيه الإنسان بضرب من الإشراق لا يصدران عن الله مباشرة، بل بواسطة العقل الفعال. وأما الاتحاد المزعوم الذي يقضي بأن يندمج الخلق في الخالق فغير مقبول عقلاً، لأنه يستلزم أن يكون الشيء واحداً ومتعدداً في آن واحد. ذلك لأنا لا نقبل أن نعد العقل الفعال فرداً واحداً في الوقت الذي نقرر فيه أنه محتو على كل النفوس الواصلة، كما لا نستطيع أن نسلم بفردية العارف في حين أنا نعترف باشتماله على حقيقة أخرى خارجة عنه. وانظر كيف يصوغ ابن سينا هذا الدليل. (قد يقولون إن النفس الناطقة إذا عقلت شيئاً فإنما تعقل ذلك الشيء باتصالها بالعقل الفعال وهذا حق. قالوا واتصالها بالعقل الفعال هو أن تصير هي نفس العقل الفعال، لأنها تصير العقل المستفاد، والعقل الفعال هو نفسه يتصل بالنفس فيكون العقل المستفاد، وهؤلاء بين أن يجعلوا العقل الفعال متجزئاً قد يتصل منه شيء دون شيء، أو يجعلوه متصلاً بكليته بحيث يصير النفس كاملة واصلة إلى كل معقول (وكلا الغرضين باطل)، على أن الإحالة في قولهم إن النفس الناطقة هي العقل المستفاد حينما يتصورونه قائمة). ويضيف ابن سينا إلى هذا: (إن قول القائل إن شيئاً ما يصير شيئاً آخر لا على سبيل الاستحالة من حال إلى حال ولا على سبيل التركيب مع شيء آخر ليحدث شيء ثالث بل على أنه كان شيئاً واحداً فصار واحداً آخر، قول شعري غير معقول، فإنه إن كان كل واحد من الأمرين موجوداً فهما اثنان متميزان، وإن كان أحدهما غير موجود فقد بطل الذي كان موجوداً).

فتصوف ابن سينا لا يختلف إذن عن تصوف الفارابي في شيء، وسيلتهما وغايتهما متحدتان. يقول البارون كارادي فو: (لا يبدو التصوف عند ابن سينا إلا في آخر المذهب كتاج له، وهو متميز تماماً من الأجزاء الأخرى؛ وابن سينا يدرسه دراسة فنية كأنه فصل من الفلسفة يشرحه شرحاً موضوعياً، وبالعكس ينفذ تصوف الفارابي إلى كل شيء، والألفاظ الصوفية منتشرة في كل ناحية من مؤلفاته؛ ونشعر جيداً أن التصوف ليس مجرد نظرية اعتنقها، بل حالاً نفسية). ونحن نسلم مع البارون أن تصوف الفارابي - على عكس ابن سينا - يعبر عن عاطفة صادرة من القلب، وحياة الرجلين تشهد بذلك، ولكنا نرفض من الناحية النظرية أن يكون ثمة فرق بين تصوف التلميذ وتصوف الأستاذ، كلاهما يعتمد على أساس واحد، ويشغل مكاناً متعادلاً في مذهبيهما؛ وكل ما هنالك من تباين هو وضوح ابن سينا وطريقته التعليمية المنظمة التي يدرس بها المسائل على اختلافها. وأما الألفاظ الصوفية فقد لاحظنا آنفاً أنها أكثر لدى ابن سينا منها عند أستاذه.

إذا كان الفارابي وابن سينا بطلي الدراسة الفلسفية في الشرق، فابن باجة وابن

طفيل وابن رشد هم أعلامها في الغرب. وبما أن البحث العلمي في الشرق أسبق منه في الغرب فإن أهل الأندلس مدينون لإخوانهم المشارقة بكثير من آرائهم ونظرياتهم. لذلك لم يكن بدعاً أن تقتفي المدرسة الفلسفية الأسبانية أثر المدرسة الشرقية، وأن نرى ابن باجة وابن طفيل مثلاً يتبعان خطى الفارابي وابن سينا. وكم يسوءنا أنا لا نعرف حتى الآن عن ابن باجة الشيء الكثير، فإن معظم كتبه قد باد، وما بقي منها لا يزال مخطوطاً وموزعاً بين المكاتب الأوربية. وكتابه الرئيسي وهو تدبير المتوحد لم يصلنا عن طريق عربي، ولو لم تحتفظ لنا المترجمات العبرية بأجزائه الهامة ما وقفنا على خبره. ويرجع الفضل في استكشافه إلى مستشرق إسرائيلي من رجال القرن التاسع عشر هو سلمون منك صاحب الفلسفة اليهودية والعربية ومترجم دلالة الحائرين إلى الفرنسية. وإذا اعتمدنا على ما نقله (منك) أمكننا أن نقرر أن نظرية الاتصال الفارابية قد نالت حظوة كبيرة لدى ابن باجة. وكتابه تدبير المتوحد قائم على إثبات أن الإنسان يستطيع الاتصال بالعقل الفعال بواسطة العلم وتنمية القوى الإنسانية. والفضائل والأعمال الخلقية جميعاً ترمي إلى سيادة النفس العاملة واستيلائها على النفس الحيوانية. وبالجملة يجب على المرء أن يسعى جهده إلى الاتصال بالعالم العلوي مشتركاً مع الجمعية أو منعزلاً عنها، فإن كانت الجمعية صالحة قاسمها في مختلف شؤونها، وإن كانت طالحة لازم الخلوة والانفراد. وهنا يبدو ابن باجة متأثراً بالصوفية المسلمين فوق تأثره بالفارابي، فإن الأخير لم يدع إلى الوحدة قط؛ ومن شرائط المدينة الفاضلة في رأيه أن تقود الأفراد إلى السعادة إن لم تصل بهم إليها. وكتاب تدبير المتوحد في جملته مستقى من مؤلفات الفارابي وابن سينا، اللهم إلا الجزء الخاص بنظام العزلة والانفراد فهذا تغلب عليه نزعة صوفية بحتة.

ومهما يكن فقد وضع ابن باجة الحجر الأساسي في بناء المدرسة الفلسفية الأسبانية وسار على نهجه ابن طفيل. وحياة ابن طفيل غامضة غموض حياة ابن باجة، ومؤلفاته ليست أعظم حظاً من مؤلفات سابقه فقد باد معظمها ولم يبق منها إلا شذرات متفرقة. بيد أن روايته الفلسفية المشهورة (حي بن يقظان) التي وصلت إلينا تشتمل على مذهبه عامة في أسلوب جذاب وخيال بديع، وتعد هذه الرواية من أطرف ما خلف فلاسفة الإسلام، وقد ترجمت إلى لغات عدة، وكانت في غالب الظن نموذجاً نسج على منواله روبنسون كروزو. وابن طفيل يحاول أن يثبت فيها أن القوى الإنسانية تستطيع وحدها الاتصال بالله. فقد تصور شخصاً نشأ منعزلاً عن الناس ولم يتأثر بالجمعية قط ومع هذا تمكن بعقله الفردي إدراك الحقائق الكونية والتدرج منها إلى حقيقة الحقائق التي أفاضت عليه بالنور والمعرفة، وهذا الشخص هو (حي بن يقظان) الذي ولد في جزيرة قرب خط الاستواء ولم ير أباً ولا أماً، وإنما منحته الطبيعة غزالة تولت إرضاعه وتغذيته. ولم يكد يشب ويترعرع حتى اتجه نظره إلى ما حوله، فبحث في الظواهر الكونية وسر تغيرها، وانتهى إلى أن وراءها أسباباً خفية تتصرف فيها وصوراً تشكلها، وهذه الصور صادرة عن كائن قديم يسميه الفلاسفة العقل الفعال. ولم يزل يبحث ويعلل حتى أدرك أن سعادة الإنسان وشقاءه راجعان إلى قربه من ربه وبعده عنه. ووسيلة القرب والصعود إلى عالم النور والملائكة هي النظر والتأمل. سواء أكان هذا الفرض مقبولاً أم مرفوضاً لدى علماء الاجتماع المحدثين فإنه يبين لنا أولاً كيف تأثر ابن طفيل بفيلسوف الأندلس الأول ابن باجة، فأن (حي بن يقظان) يحمل في ثناياه كثيراً من خصائص (التوحيد) الذي أشرنا إليه من قبل. وثانياً في لغة (حي) الخيالية وصوره المجازية ما يعبر تعبيراً صادقاً عن نظريات الفارابي في السعادة والاتصال.

أما ابن رشد فلم ينح هذا النحو الخيالي الفرضي، بل درس مشكلة الاتصال بالعقل الفعال دراسة علمية منظمة، مبيناً أن هذا الاتصال في ذاته لا يتنافى مع أصول علم النفس المعروفة. وقد وضع في هذا الموضوع ثلاث رسائل مستقلة احتفظت لنا المصادر العبرية باثنتين منها. وهو يرى أن الطفل يولد وفيه استعداد لتقبل المعلومات العامة، فإذا ما أخذ في الدراسة والتعلم تحول هذا الاستعداد إلى عقل بالفعل، ولا يزال هذا العقل ينمو ويرقى حتى يتصل بالعقول المفارقة ويستمد منها الفيض والإلهام، وهذا هو الكمال الأسمى الذي نطمح إليه جميعاً؛ والطريق الموصلة إليه هي تنمية المعلومات وترقية المدارك الإنسانية، فالعلم

وحده سبيل السعادة والاتصال بعالم العقول والأرواح. أما ما يذهب إليه المتصوفة من أن الإنسان يستطيع الصعود إلى هذه المرتبة دون علم ولا بحث فادعاء باطل وقول هراء. وعلى في هذا الذي قدمنا ما يكفي لإثبات أن ابن رشد اعتنق كزملائه فلاسفة الأندلس الآخرين - وإن يكن أقلهم تصوفاً - نظرية السعادة الفارابية. ومن الغريب أنه لم يدخر وسعاً في نقد الفارابي وابن سينا وتجريحهما، ولا سيما إذا أحس منهما انحرافاً عن سنة أرسطو، ومع ذلك لم ينج من أثرهما، ولم يستطع أن يكوِّن لنفسه مذهباً مستقلاً يخالف مذهبهما، وهو أشد ما يكون تأثراً بهما في المسائل التصوفية. فهو يعلن مثلهما أن العلم سبيل الوصول والسعادة الروحية، وأن أسمى درجات الكمال أن يخترق المرء الحجب ويرى نفسه وجهاً لوجه أمام الحقائق العلوية، ويرفض رفضاً باتاً أن يكون تقشف الصوفية وزهدهم وسيلة التجرد والاتصال؛ فمن الفارابي إلى ابن رشد اعتنق فلاسفة الإسلام بلا استثناء نظرية السعادة. والفارابي وابن سينا يدعمان هذه السعادة رأساً على الدراسة والنظر، مع الاحتفاظ بمكان للعقل العملي والحركات الجسمية؛ وابن باجة وابن طفيل يوسعان الجانب العملي؛ وابن رشد يعود أخيراً فيقرر مع أرسطو أن الخير الأسمى لا يتم إلا بالعلم والتأمل.

(يتبع)

إبراهيم بيومي مدكور
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

في الأدب المقارن

طور الثقافة في الأدبين العربي والإنكليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

يمر أدب كل أمة بثلاثة أطوار كبرى تتبع عهود رقي الجماعة: فطور الهمجية يليه طور البداوة ويلي هذا طور الحضارة؛ وفي الطور الأول لا يكون للأدب وجود مستقل بنفسه، بل يكون الشعر تعبيراً ساذجاً عن بسيط العواطف ممتزجاً بالغناء والرقص، ويكون النثر شذوراً من الخرافات والمعتقدات المتوارثة عن الآلهة والجان وقوى الطبيعة؛ ويأتي الطور الثاني بارتقاء عقلية الجماعة بممارستها أعمالاً أرقى وأدق واختلاطها بالأمم الراقية؛ وفي هذا الطور يتميز الشعر ويستقل عن غيره من الفنون وتتسع جوانب النثر، ولكن يظل الشعب على رغم ارتقائه العقلي فطرياً متبدِّيا، حتى إذا عبر هذا الطور إلى طور الحضارة ازداد ترفاً في الحياة ومارس العلوم المنظمة وعرف الكتابة، فظهر في أدبه أثر الثقافة والفن والصناعة.

وقد مر الأدب العربي بالطور الثاني من هذه الأطوار في عهد الجاهلية وصدر من الإسلام: ففي ذلك العهد كان العرب على جانب يعتد به من الرقي العقلي لمزاولتهم التجارة ووقوفهم على حضارة الفرس والروم، وفي ذلك العهد نضجت اللغة العربية نضجاً عظيماً وبلغ الشعر من الرقي شأواً بعيداً، بيد أن الأدب ظل فطرياً بعيداً عن أثر لثقافة والدراسة والتدوين والصنعة، ثم نهض العرب نهضتين علميتين في مدى قرنين: أولاهما بظهور الإسلام ونزول القرآن وفتح الأقطار، والثانية بترجمة علوم الأقدمين، وبذلك انتقل الأدب العربي إلى الطور الثالث من أطوار رقيه: وطور الحضارة والثقافة.

وقد انتقل الأدب الإنكليزي إلى هذا الطور أيضاً بنهضتين متواليتين: الأولى في القرن السادس عشر بوصول حركة إحياء علوم الأقدمين - اليونان والرومان - من أوربا إلى إنكلترا، والثانية في القرن التاسع عشر عقب التقدم الصناعي العلمي الذي كانت إنجلترا رائدته وكان من أبنائها كثير من أئمة النهضة العلمية الحديثة في علوم الفلك والحياة والطب والنفس وغيرها.

ويلاحظ أن هناك اختلافاً في توالي النهضتين في الأمتين: فقد كانت نهضة العرب العلمية الأولى داخلية وليدة الدين الذي نشأ بين أظهرهم، وكانت الثانية خارجية آتية من نقل علوم الأمم الأخرى، بينما في إنجلترا جاء هذا النقل عن الأقدمين أولاً ثم كانت النهضة التالية داخلية نتيجة لتحسين أبناء البلاد لما نقلوه من علوم غيرهم.

وقد أوفى العرب على الغاية في الشغف بالعلوم والجد في تحصيلها، وأظهر أمراؤهم من التقدير للعلم وأهله والرغبة في خدمته والبذل في سبيله ما لم يظهره ملوك دولة

في التاريخ، وكانت رعايتهم للعلماء - بعكس ما كان تقريبهم للشعراء - جليل النفع بعيد الأثر.

وكان للعرب من اللغة العربية الرحبة الجوانب، الطيّعة الأسلوب، الغنية بطرائق الاشتقاق، خير معوان في جِدهم في درس العلوم، وامتلأت جوانب اللغة بضروب الدراسات والثقافات، وكان رقيها العلمي في عهد الدول الإسلامية يفوق كثيراً رقيها الأدبي. فبينما ظل أدباء الجاهلية دائماً أساتذة للمتأخرين يحتذونهم في الأدب، أمعن علماء الإسلام وفلاسفته في مذاهب من التفكير والبحث لم يسمع بها الجاهليون ولا خطرت لهم على بال.

ولم يقصر أدباء العربية عن غيرهم في تلك الحلبة العلمية المحتدمة، ولم يكونوا دون سواهم غفاً بالعلم وطلباً لشوارده، بل كان أكثرهم مثقفين ثقافة علمية وأدبية عالية، وقد تلقوا علومهم على طريقة عهدهم: فمن نشأ في يسار أُحضر له المؤدبون، ومن ترعرع في بيت علم وفضل قام أبوه بتأديبه. ومن قصر به جده عن هذا وذاك بين الأدباء واختلف إلى العلماء حيث كانوا يجلسون للدرس؛ أما المدارس والجامعات فلم تنشأ إلا متأخرة، قبيل بدء عهد الركود الفكري، ولم يكد يتخرج فيها عَلم من أعلام الأدب.

وكان من خصائص الثقافة الإسلامية ترامي أطرافها واختلاف أجناس الخائضين غمارها وشمولها شتى العلوم والمذاهب والعقائد من متفرق الأمم وامتزاج العلم بالأدب والدين بالفلسفة فيها، وقد ظهر أثر كل هذا في المؤلفين وفي مؤلفاتهم: كانوا طموحين في طلبهم العلم يبغون تمثّل كل ما في عصرهم من مناحي التفكير، وكانوا كذلك طموحين في مؤلفاتهم يحبون أن يودعوها كل فن. ولو أردنا أن نشير إلى الأدباء الذين نالوا حظاً عظيما من الثقافة لأحصينا أكثر أدباء العصر العباسي الزاهي بين القرنين الثاني والخامس الهجري. ويكفي أن نذكر من الشعراء المعري الحكيم المعنى بشؤون الكون والفلك والحياة

الاجتماعية، ومن الكتاب الجاحظ العالم الكلف بدراسة الحيوان وتذوق كل قديم وجديد وقريب وبعيد في الحياة والكتب، والذي كان - كما قيل - يستأجر المكاتب ليلاً ليبيت فيها يستوعب محتوياتها.

تماثَلَ الكتاب والشعراء في الأخذ من الثقافة بنصيب، ولكن كان لكتاب على العموم أوفر حظاً من الثقافة عامة ومن العلوم خاصة، واقتصر بعض الشعراء على الدراسة الأدبية. لأن الكتاب كانوا يترشحون للوزارة وكتابة الدواوين والولاية وتأديب أبناء الأمراء، ولا بد لتلك المناصب من دراية واسعة وإلمام شامل، ولأن كثيراً من الشعراء لم يكن للشعر عندهم غاية وراء استدرار الصلات والجوائز، ولم تكن وظيفته عندهم تسجيل الآراء والخوالج النفسية، فلم يكن بهم كبير حاجة إلى دراسة العلوم التي تهذب الفكر، بل كن حسبهم أن يقفوا على مذاهب القول التي سلكها المتقدمون من الشعراء المداحين، والبحتري أبرز أولئك الشعراء الذين عاشوا في صميم عهد الثقافة بنجوة عنها، فقد كان حريصاً على استبقاء السذاجة البدوية، وجاء أكثر ديوانه الضخم مدحاً لمن يرجو عندهم العطاء، وهجواً لمن خيبوا منه ذلك الرجاء.

كان أعلام الأدب الإنجليزي كذلك على جانب عظيم من الثقافة، وقد حصلوا - عدا من قعدت بهم ظروف غير مواتية كشكسبير وجونسون - علومهم في الجامعات التي أخذ نظامها عن العرب وأصبحت مواطن العلم والدرس، ونَبُهَ صيت بعضهم وهم ما يزالون طلاباً بها، وتشترك ثقافتهم مع ثقافة أدباء العربية في الاشتمال على الفلسفة اليونانية؛ ولكن بينما كانت دراسة الأدب العربي القديم تتم الباقي من ثقافة الأديب العربي، كانت دراسة الأدب اليوناني تكمل ذلك الجانب من ثقافة الأديب الإنجليزي. ومن ثم كان معظم الأدباء الإنجليز ملمين باللغتين اليونانية واللاتينية؛ ولمعرفة اللغات أثرها العظيم في تكوين الأديب وتوسيع أغراض القول؛ ويكثر الالماع إلى اليونان والرومان: تاريخهم وأساطيرهم ومشهوري رجالهم في الأدب الإنجليزي، كما تكثر الإشارة إلى الجاهلية والجاهليين في الأدب العربي.

ويتشابه رجال الأدبين في الرحلة عن الوطن في نشدان العلم: فقد كان أدباء العربية يطوفون في البلاد في طلب أئمة العلوم يلزمونهم، وفي طلب نوادر الكتب يستنسخونها،

وربما أضافوا إلى ذلك حج البيت الحرام. وكذلك جرت سنة الأدباء والمتعلمين عامة من ذوي اليسار الإنجليز على الارتحال بعد نيل درجاتهم العلمية إلى أوربا وخاصة إلى إيطاليا مبعث النهضة الأوربية، وربما أضافوا إلى ذلك الحج إلى آثار بلاد الإغريق مهد العلوم والآداب والفنون القديمة؛ ولهذه الرحلة عن الوطن - فضلاً عن كسب العلم ومصاحبة العلماء - أعظم الأثر في تكوين نفس الأديب وتوسيع أفق خياله.

وكان لانتشار الثقافة في الأمتين آثاره المتشابهة في الأدبين: فارتقيا خيالاً وأسلوباً وأغراضاً ومعاني، واتسعت جوانبهما، وظهر فيهما التفنن والصنعة المقصودة، وظهرت لغة علمية دقيقة التعبير بجانب لغة أدبية أنيقة التحبير، وظهرت روح النقد وتجلت نزعة الشك من جراء اصطدام العلوم المستحدثة بالعقائد الموروثة، واشتدت المنازعات الأدبية، واحتدمت المشادات بين أنصار القديم وأتباع الجديد، وظهرت آثار المذاهب الفلسفية واصطلاحات النظريات العلمية في رسائل الكتاب وقصائد الشعراء، ونبغ من المثقفين من يجمعون بين صناعتي العلم والأدب.

ولا ريب أن هذا الطور الثالث من أطوار رقي الأدب التي أشير إليها في صدر هذه الكلمة - طور الحضارة والثقافة - هو أرقى ما يصل إليه الأدب وفيه ينال ما قدر له من أسباب الكمال، وفيه أنتج الأدب العربي خير نتاجه، فالأدب لا يبلغ غايته إلا في حضارة تحيط به، وثقافة تغذيه، وروح نقد تستحثه. وقد دام هذا الطور الأدبي في العربية زهاء ثلاثة قرون حافلة، تخلف لنا منها تراث زاخر يشهد بشغف العرب بالعلم وولوعهم بالأدب، ثم عملت عوامل الفساد السياسية والاجتماعية عملها، فاضطرب المجتمع، وجمدت الأفكار، ودخل الأدب في طور تدهوره الطويل.

فخري أبو السعود

قصة المكروب كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكي

مدير مصلحة الكيمياء

صلة الحديث

أراد متشنيكوف أن يفسر حصانة الإنسان من الأمراض فنسبها إلى كريات دمه البيضاء، وأسمى هذه الكريات بالفاجوسات ومعناها (الملتهمة) لأنها تلتهم المكروب الداخل في الدم فتهضمه وتعدمه. فالحصين من الناس من قويت فاجوساته على المكروب الغازي، والقابل للعدوى منهم هو الذي تضعف فاجوساته من المكروب فتنهزم أمامه. وقاد متشنيكوف الدفاع عن النظرية الفاجوسية في باريس، وقاد الألمان مدفوعين بالعداء السياسي للفرنسيين حركة منظمة ضد هذه النظرية. وعزوا حصانة الناس إلى بعض خصال في مصل دمائهم. وبالغ متشنيكوف في كراهة الألمان فلم يطق أن يسمع من أحد أن لمصل الدم شأناً في حصانه الإنسان أصلا.

الحَصانة واليهودي الأفَّاق

ولم يكن المعمل الذي استقله متشنيكوف في معهد بستور مملا فحسب، فقد كان فيه من الألوان ومقتضيات الفن ما في مَشغَل رسام وكان فيه من أسباب التفريج والتسلي ما في مِهرجان لهو منصوب بقرية، وكان فيه من الحمية والحرارة واللذة القوية ما يجده المشاهد في سِرْك كثير الشِّعاب رحب الجناب، فلا تعجب بعد ذلك إذا علمت أن الشباب من أطباء أوربا قصدوه من كل ركن فيها يطلبون صيادة المكروب عنده؛ أما عقولهم فانطاعت عفوا لهذا الباحث الكبير، وقد كان كذلك منوّماً مغناطيسياً خطيراً، وأم أصابعهم فقد سبقتهم إلى إجراء عشرات الألوف من التجارب التي انطلقت من رأس أستاذهم حثيثة كما تنطلق الصواريخ في الألعاب النارية من أصولها المتفرقعة.

كأني بك تسمعه ينادي: (يا سيد سَلْتيكوف! هذا تلميذ للأستاذ بفيفار الألماني يقول إن مصل الخنزير الغيني يستطيع أن يحيي خنازير أخرى غينية من الموت بكوليرا الخنازير. فهل لك أن تتفضل بإجراء تجربة تمتحن بها هذه الدعوى؟) فلا يكاد يتلقى هذا العابد لسيّده

مشيئة متشنيكوف حتى يهرع إلى تحقيقها، وهو يعلم حق العلم أي تحقيق يُراد - تحقيق أن هذا الأستاذ الألماني إنما ادعى باطلاً وقال خَرَفا. وكانت تعرض لمتشنيكوف مئات من تجارب دقيقة لا تصبر عليها أصابعه الملولة فيدفع بها إلى بلاجو فستشنسكي

أو إلى هوجنشمت أو إلى فجنر أو إلى غرجيفسكي أو إلى سفتشنكو الذي نسيه الناس الآن، أو إذا كان هؤلاء مشغولين إذن فإلى زوجته ألجا فقد كان يغريها بترك ما هي فيه من رسم الزيت أو تشكيل الصلصال لتقوم ببعض هذه التجارب؛ وكانت جديرة بحل أعقد العُقد. ففي هذا المعمل كان مائة قلب ولكنها دقت معا؛ وكان به مائة رأس ولكن بها فكرة واحدة ولها غاية واحدة: أن تكتب أنشودة شعرية حماسية كبرى عن تلك لكرات الصغيرة المكوّرة الشفّافة الأفاقة التي تدور في دمائنا تتشمم عن مكروبة عادية قاتلة، فإذا وجدتها سبحت نحوها واخترقت جدران الأوعية الدموية إليها حيثما كانت؛ فإذا لقيتها فالحرب العوان بينهما حتى يذهب السوء المنذر عن الجسم أو هي تموت دونه.

وكانت المؤتمرات الطبية الكبرى في تلك الأيام مؤتمرات صاخبة ثائرة ملؤها الحجاج في أمر المكروب وأمر الحصانة؛ وكان متشنيكوف يحضرها دائماً؛ فقُبيل اجتماع أحدها بأسابيع كنت ترى معمله لا يهدأ أبداً من كثرة ما تروح الأقدام وتجيء فيه؛ وكنت تسمع متشنيكوف يصيح برجاله: (هيّا، هيّا، فلا مندوحة عن الإسراع حتى تتم كل التجارب التي نريدها لإثبات حجتي). فيقوم الأعوان المخلصون العابدون باقتصاد ساعتين فساعتين من نومهم كل ليلة في سبيل العمل؛ ويشمّر متشنيكوف نفسه عن ساعديه، ويرفع محقنة بيمينه ويضربه في شتيت الحيوانات وعديدها، يحْضرها له مساعدوه حتى يتصبب العرق من جباههم. فمن صغار أنواع كبيرة من الخنافس إلى الضفادع الخضراء إلى التماسيح، إلى سميدرات مكسيكية عجيبة حتى لجرُّوا الشباك في قيعان البرك يطلبون سمك الفرخ والجدجون نعم يقوم بحّاثنا الفيلسوف المجنون على كل هذه الخلائق الهادئة المتطامنة التي لا تشكو ولا تتضرر فيطلق فيها المكروب من محاقنه وقد لمعت عيناه واحمر وجهه العريض فبات كاللهب المتأجج من خلف لحيته، وقد تلوث شاربه بما تناثر عليه من المكروبات بسبب انفعالاته النفسية وتلويحاته الشعرية. وكان يقول: (أنا إنما أكثر تجاربي هذا التكثير لأزيد نظريتي إثباتاً).

كان عقل متشنيكوف لا يفتأ يتخيل الخيالات عن الطبيعة، ويبتدع القصص عن الكون، ولكن من العجيب المدهش أن هذه الخيالات كثيراً ما تحققت عند التجربة، وهذه القصص كثيراً ما ثبتت عند البحث والاستقصاء. صاح ألماني يقول: (ليس في نظرية الفاجوسات التي خلقها متشنيكوف شيء ذو بال أو خطرٌ كبير، فكل الناس يعلم أن المكروبات قد تُرى داخل الفاجوسات، ولكن هذه الفاجوسات الأفّاقة لا تَخْفُر لجسم ولا تدفع عنه سوءا، وإنما هي قَشّاشة تأكل من الفضلات ما تلقَى، فهي إذا أكلت المكروبات فلا تأكل لا الميّت منها). وكان المؤتمر اللندني لعام 1891 يزداد موعده اقتراباً، فصاح متشنيكوف يطلب خنازير غينية، فلما جاءته حقنها فحصّنها ببشلات تشبه بشلات الكوليرا كان اكتشفها صديقه القديم المنكود الدكتور (جماليّه)؛ وبعد أسبوع أو نحو أسبوع قام هذا الفيلسوف اللحيانيّ فحقن زريعة حية شريرة مُخطِرة من هذه البشلات في بطون الحيوانات الحصينة، وأخذ في الساعات التي تلت يمتص من هذه البطون في فترات قصيرة قطرات من سائلها بواسطة أنبوبة دقيقة من الزجاج، ثم يضع هذه القطرات تحت عدسة مجهره القذرة، قَذَرَ قلةٍ أو قذر كثرة، ليرى ما تصنع فاجوسات الحيوانات الحصينة ببشلات الدكتور جماليّه. حدّق في المجهر ليرى، فرأى غاية مُناه! رأى هذه الفاجوسات المكوّرة الزاحفة المتثاقلة قد أكلت من هذه البشلات حتى امتلأت!

قال متشنيكوف: (والآن علي أن أثبت أن هذه المكروبات التي بداخل هذه الفاجوسات مكروبات لا تزال حيّة تُرزق). وقتل الخنزير الغيني وشق بطنه فانفتح، فمصّ منه شيئاً من هلامه الرمادي؛ وما كان هذا الهلام إلا خلاياه الأفاقة اجتمعت في البطن لحرب المكروب الداخل والتهامه. وبعد زمن قليل ماتت تلك الخلايا الأفاقة، تلك الفاجوسات التي لا تحتمل الحياة خارج الجسم طويلاً؛ ماتت فانشقَّت فخرجت منها تلك البشلات الحية التي كانت ابتلعتها وهي في بطن الخنزير. فلم يُلبّث متشنيكوف طويلاً حتى حقن هذه البشلات في خنازير غير حصينة فما أسرع ما قتلتها.

وبهذه التجربة، وبعشرات من تجارب بارعة من أمثالها، أرغم متشنيكوف خصومه فاعترفوا له بأن الفاجوسات تلتقم المكروبات الخبيثة أحياناً. ولكن الذي يؤسف له أن

متشنيكوف أضاع حياته وأنفق طاقة عقله الجبار في عمل تجارب قصد بها الدفاع عن فكرة
حِواريّةٍ لا كشف أسرار الطبيعة. نعم لقد كنت تجاربه بديعة مألوفة، وكثيراً ما كانت تلذّ الفكر وتُمتع الخيال، ولكنها كانت مصطنعة اصطناعا، وكانت ترمى بعيداً عن الغرض الأهم الأخطر وهو كشف السر في أننا حصينون. كان له رأس يقدر على احتواء الكثير الشتيت من المعارف، فما كان أجدرها أن تتجه بكل حولها وذخيرتها إلى حل عقدة الحصانة، فتفسر لنا كيف أن الطفل قد ينشأ في مباءة من السل ثم هو لا يجيئه، بينما طفلة أخرى تُنَشَّأ على قواعد الصحة في عناية وحذر فلا تبلغ سن العشرين حتى تموت من السل. هذه هي أُحْجية الحصانة المستغلة، وهي إلى اليوم أحجية مستغلة. فانظر ما كان يصنع تجاهها متشنيكوف؟ كان يقول: لا شك أن الفاجوسات في هذه الحالة لا تعمل عملها، فهي لا شك لأمر ما تعطلت)، ثم هو يهرع إلى المعمل ليُدهش خصيمه بإثبات أن فاجوسات التماسيح تأكل بشلات حمى التيفود. وما للتماسيح وللتيفود وهو لا يصيبها أبداً!
وأخلص له مساعدوه في المعمل إخلاصاً نادراً عجيباً، فأذنوا له فأطعمهم بشلاّت حيّة خبيئة من بشلات الكوليرا ليثبت أن الدم لا دخل له في حصانتنا منها. وبلعَ البشلاتِ فيمن بلع شابةٌ من تلك الأوانس الجميلات اللاتي يسترشد بوجوههن ويستوحى من فتنتهن، ومضت سنوات أُغرم فيها باللعب بأرواح أعوانه البُحّاث وهم عبّاده الطائعون، وأقرّ بأنه إنما كان جنوناً ذلك الاغرام. وليس شيءٌ يعذره من هذا الاغرام ويصفح عنه هذا الإجرام إلا أنه هو نفسه لم يتأخر خطوة عن مسايرتهم بالمخاطرة بحياته، بل لقد بلع هو نفسه من أنابيب البشلات أكثر مما بلعه أيهم منها؛ وفي أثناء هذا التلاعب بالنار مرض أحد أعوانه مرضاً شديداً وظهرت عليه أعراض الكوليرا الأسيوية الصميمة، فندم متشنيكوف ندامة كبرى، وكان يقول في وجيعته وأساه: (أي جوبي! ليس لي بعد موتك حياة)، فلما سمعت أُلجا ذلك منه اتخذت حيطتها فلزمت زوجها الشهير ليل نهار خشية أن يعاوده خاطر انتحاره القديم؛ وكثيراً ما كان جاءه ولكنه لم يثمر ثماره أبداً. وفي ختام هذه التجارب الغريبة، أخذ من دم الناجين من أعوانه فحقنه في دم خنازير غينية، ثم حقن هذه الخنازير بزريعات من بشلات كوليرا حادة، فماتت هذه الخنازير ولم تنفعها دماء هؤلاء الرجال شيئاً. فاغتبط بهذا الفلاح، وكان يكره أشد الكره أن يكون للدم خطر في هذا أبداً، وكتب: (إن كوليرا الإنسان مَثَل آخر من أمثلة الأمراض التي لا يمكن أن يُعزى سبب لشفاء منها لمناعة الدم أصلاً).
وقد يكون من تلاميذه تلميذ وهبه الله مقداراً غير عادي من استقلال الرأي وحرية الفكر، فيقع في أبحاثه على خاصة عجيبة من خواص الدم، فيأتي إلى أستاذه يهمس في أذنه بالذي اكتشف، فإذا بالأستاذ تطول قامته، وترتفع هامته، وينتفخ صدره زهواً وكبراً كأنه موسى الكليم يهبط جبل الطور إلى الوادي؛ وإذا به يأمر بهذا الخارج الثائر الزنديق الذي لا يؤمن بنظريته أن تُحرق جثته، ثم هو يقوم على الجثة يفرغ ماء عينيه بكاء وقد عزّه العزاء وافتقد فيه الصبر والسلوان. لم يكن معمله بالمكان الهانئ الوادع السعيد للبحّاث الذين يطلبون الحقيقة الصرف. ومع هذا فإلى متشنيكوف يعزى بعض الفضل في اكتشاف طائفة من أعجب خواص الدم، ذلك لكثرة التجارب التي أجريت في معمله ولاختلاف عدد كبير من بحّاث متحمسين عليه فيه. مثال ذلك الباحث الشهير برديه جاء يعمل مع الأستاذ، والأستاذ في أكبر مجده وأذيع صيته. وكان برديه ابن معلم قرية صوني ببلجيكا؛ وكان حيياً لا يُؤبه لمظهره؛ وكانت به عادات من إهمال وقلة مبالاة؛ وكانت له عينان زرقاوان كالماء ذاهلتان لا تبصران شيئاً مما تقعان عليه، ولكنهما أبصرتا ما لم يبصره غيره من البحاث. بدأ عمله في معمل متشنيكوف، وأخذ يبحث في الدم يستجلي خفاياه، فاستجلى أموراً جليلة منه، وذلك في ظل لحية متشنيكوف وعلى صدى صيحته الصارخة بالفاجوسات وللفاجوسات. ووضع هذا البلجيكي أسس تلك الاختبارات العجيبة الدقيقة التي يختبر بها الدم اليوم في جنايات القتل ليُعرَف أهو من إنسان أو حيوان. وفي هذا المعمل قام بأبحاث أدّت بعد سنوات إلى اختبار الدم الشهير الذي به يُكشَف عن وجود الزُّهري في دم الإنسان، ذلك الاختبار المعروف اليوم باختبار فَسَرْمَنْ
على أن برْديه لم يَسلم من غضبات متشنيكوف أحياناً كثيرة، ولكن الأستاذ كان كثير

العُجْب بتلميذه، وكان كلما وجد برديه في الدم شيئاً يضر بسمعة المكروبات - ومع هذا قد ينفع في تحصين الناس منها - أغمض متشنيكوف عينه على القذى كارهاً وقام يغري نفسه بإجراء تجارب لا بأس بها تثبت أن هذا الشيء الذي وجده برديه في الدم . . . .إنما جاء أصلاً من الفاجوسات. ولم يُقم برديه في معمل منتشنيكوف طويلاً واقترب ختام القرن التاسع عشر، وتحوّل بحث المكروبات، فبعد أن كان يَنْفُر إليه كل مخاطر مغامر، أخذت تعالجه طائفة من شباب الأطباء انصرفوا إليه في هدوء وسلام وتؤدة
وتبصر واحترفوه احترافاً، فلم يجمحوا فيه بالخيال، ولم يتنبئوا فيه بالغيب. عندئذ تحوّل متشنيكوف كذلك بعض التحوّل عن غضباته المرة وإساءاته المنكرة إلى كل من لم يكن يرى الأمور بعينه. ونال الشارات وحظِيَ بالمكافآت المالية. ودخل يوماً مؤتمراً دخول الملك المستعظم فحظي فيه حتى بتصفيق الألمان واحترامهم. وكان عندئذ آلاف من البحّاث قد لمحوا آلافاً من الفاجوسات تبتلع آلافاً من المكروبات. ولو أن هذه لم تفسر لنا سبب الحصانة - لم تفسر لنا كيف أن رجلاً تصيب صدره النيومونيا فتقتله، بينما رجل آخر تصيبه فتعتريه نوبة من عرق صبيب يشفى عقبها - إلا أنه مع ذلك ثبت يقيناً أن الفاجوسات تأكل مكروب النيومنيا أحياناً وتذهب به وبشره. وهذا الثبوت لا شك يرجع فضله إلى متشنيكوف بصرف النظر عن فساد حججه وضيق صدره وقلة تسامحه وعناده. ولا شك كذلك في أن هذا ثبوت لحقيقة علمية كبرى ليس بمستغرب أن تؤدي إلى تخفيف آلام البشرية لو أن القدر ساق إلى هذا العالم البائس عبقرياً حلاّما حذّاقاً للتجربة يفضح لنا السر في أن الفاجوسات تأكل المكروبات أحياناً ثم هي تَعَفّ عنها أحياناً، أو لعله فوق ذلك يغريها بأكلها دائماً أبداً.

(يتبع)

أحمد زكي

ميلاد. . .!

للأديب محمد طه الحاجري

لم يكد الفجر يستفيض من وراء الأفق، كما يستفيض الأمل الباسم من وراء الضلوع، حتى استيقظ أهل ذلك البيت الصغير من إغفاءتهم، ونفضوا عنهم بقايا أحلامهم، واستقبلوا نور الفجر الساحر فأشرقت به قلوبهم، وانبسطت له وجوههم، ثم لم يلبثوا حتى كانوا يحفون بفتاة لم تتجاوز السادسة عشرة من عمرها، تئن أنيناً خافتاً لا يكاد يتجاوز نطاق صدرها، وقد نطقت حركاتها وأسارير وجهها بما يعتلج في أحشائها من ألم، وما تبذله لقاءه من جهد؛ فكانت تنحني إلى أمامها - من ذلك الألم الممض - فتعتمد على يديها، ثم ترفع كفها لتخفي دموعاً تترقرق في عينيها، والسيدتان الجالستان إلى سريرها تحاولان التسرية عنها، وتخفيفَ همّها، وطردَ الأشباح المفزعة التي كانت تساور خيالها، وتضاعف من آلامها؛ ولم يمنعهما وقار السنّ من أن يصطنعا في الحديث شيئاً من الفكاهة والمرح، يبدد وجوم الموقف. . . ويبعد شياطين الوساوس.

أما ذلك الرجل الفاضل الذي كان ينظر إليها، وإن وجهه ليعبر عن شتى العواطف من الألم والعطف والإشفاق والرجاء، فإنه لم يلبث أن غلبته عواطفه، فقام من مكانه، وذهب إلى غرفة أخرى، وأخذ يدعو الله ويضرع إليه أن يكون في عون هذه المسكينة التي تعاني - للمرة الأولى في حياتها - ما تعانيه كل امرأة مثلها خلقت لتكون وسيلة امتداد النوع الإنساني.

ترى ماذا كان يجول في خاطر ذلك الرجل الذي لبث زماناً لا يحس بعاطفة الأبوة إلاّ حنيناً إليها، ورغبة قوية حافزة في الاشتمال عليها، وهاهو ذا الآن يوشك أن يكون أباً كما صار أنداده من قبل، وهاهي ذي رجولته توشك أن تستوي وتأخذ كمالها بهذا القادم المنتظر؟؟

سبحانك اللهم! جعلت في الإيثار كمال الرجولة، فاتسمت الأثرة بالطفولة، ثم جعلت الرجولة درجات بعضها فوق بعض: هذا زوج يكد لنفسه ولغيره، وهذا أب يرى خير بنيه فوق خيره، وهذا عميد أسرة يتولى أمرها ويكدح لمجدها وينافح من دونها، وهذا زعيم أمة قد اضطلع بشؤونها، وسهر على شجونها، وباع ماله ونفسه في سبيلها، فبل الذروة في الرجولة، وأشرف على أقصى غايات الكمال الإنساني.

أيقولون إن الإنسان أنانيّ بطبعه؟ فما الذي يدفع بالرجل الكامل لأن يكون زوجاً يشرك امرأته في أسباب حياته، وأبا يخلط بين غيره وذاته، وقائداً يضحي بنفسه في سبيل أمته، ومصلحاً ينير لغيره فيطفئ من ذبالته؟ إنما هي غريزة التكمل، فإذا ضعفت تلك الغريزة، فرغب الشبان عن الزيجة، وانصرفوا عن بناء الجماعة، واحتفلوا بخيرهم الذاتي وحده، فقد رجعوا على أعقابهم، ونكسوا على رؤوسهم، وانعكست سنة الخليقة فيهم، فعادوا أطفالاً، وكان من الطبيعي أن يكونوا رجالاً.

تُرى ماذا كان يجول في نفس ذلك الشاب الذي نيّف على الثلاثين، وقد جلس يتمتم بالدعاء، ويرفع يديه إلى السماء، في زي شرقي أنيق، ومحيا مشرق وضئ، لولا ما يرتسم عليه من خطوط فيها من معنى الألم قسط موفور؟

إنما هي مشاعر مبهمة لا تكاد تبين أو تتعين، مترادفة ينسخ لاحقها سابقها، مختلطة بين الماضي والحاضر والمستقبل، لا تكاد تستقر على عهد من العهود الماضية، حتى تحط على آخر في حدود الغيب المحجوب؛ ولا يكاد يألم لما تعانيه زوجه من ألم المخاض، حتى تنسخ هذه الغاشية موجة من النور البهي الساطع المنتشر من عالم الغيب على نفسه الحائرة بين عالم الغيب وعالم الشهود.

أما تلك المرأة الصغيرة فلعل خواطرها كانت حزينة مبتئسة، أكثر منها فرحة مستبشرة، ملتفتة إلى الوراء أكثر من اتجاهها إلى الأمام؛ تنظر إلى الماضي الماثل أمام قلبها، فتغرورق عيناها بالدموع، فتحاول إخفاءها عمن جلس حولها؛ ثم يعروها الألم فتئن وتتوجع وتنحني انحناءة تستل كل ما في النفس من معاني الإشفاق والعطف والرحمة، وتبعث في القلب كل مشاعر الأسى والوجيعة؛ ثم تنظر حولها فتعود بها الذاكرة إلى الفقيدة العزيزة التي فقدتها منذ بضعة من الشهور قليلة، فلا تزال صورتها تلقاءها، متألقة بنور الحب، محفوفة بمعاني الدموع. . . أمها التي لم تكن تشعر بعطف غير عطفها، ولم يكن لها من القلوب غير قلبها، ولم تكن تدري من صور الحب غير صورة حبها. كانت تلك الفتاة وحيدتها، فكانت تستأثر بعطفها وحنانها. ثم ضرب القدر ضربته الصارمة القاضية، وانتزعها انتزاعة عنيفة قاسية، حين كانت ترجو وترقب أن تستمع بحفيدها وامتداد وجودها.

إيه يا روح الأم المرفرفة على سرير فتاتها! امسحي على قلب هذه المسكينة بيدك الروحية الطاهرة، وانشري عليها من ذلك الضوء الذي يغمر ذاتك المجردة، وابعثي في قلبها الطمأنينة التي تسود عالم الروح الأسمى، وانقليه في شفقة الأم الرحيمة، ورقة الروح الكريمة، من الماضي القريب الزاخر بمعاني الأحزان والآلام، إلى المستقبل الزاهر بورود الآمال والأحلام. .!

مضى الزوج إلى مصلاه، يلتمس الروح والطمأنينة في جوار ربه، ويعوذ به من القلق الذي جعل يعبث بقلبه، ويستروح نفحات الملأ الأعلى التي تتأرج فيه. ثم عاد إلى بيته فإذا هو يتلألأ بمعاني الفرح الطروب، كأن الحياة قد أفرغت في هذه البقعة الصغيرة كل ما تدخره من السرور والبهجة. لشتان ما بين هذه الساعة والتي قبلها في رأي قلبه! فقد امتلأ الفراغ الذي كان يشعر به بين جنبيه، والذي كان يشعره أن حياته فارغة لا قيمة لها، والذي كان لا يملؤه إلا الهم والابتئاس حين يرى رجلاً يداعب طفله ويدلله، فتثور غريزته المحرومة، وتضطرب في صدره أيما اضطراب. . . لقد ابتدأ منذ اليوم حياة الأبوة المجيدة والرجولة الصحيحة، وأصبح يشعر لوجوده بكيانين: أما أحدهما فقد بلغ الذروة، وأما الثاني فلا يزال في سفح الحياة يحبو ويتشبث. . . فأي سعادة تغمر قلبه! وأي صورة من الفرح والغبطة ترتسم على وجهه! لقد ظفر اليوم لنفسه بالحياة في أنضر صورها، فما كهذا اليوم في حياته كلها.

وأما الأم فقد تنزلت عليها رحمة ربها، فنسخت تلك المعاني الحزينة من قلبها، وأقبلت عليها الحياة الجديدة المنبعثة من وليدها، فمسحت كل ما أبقى الموت من أثر في نفسها، وقد استغرقت كل عواطفها في تلك الفلذة المشتقة منها.

إيه أيها الوليد الملقى في مهده في جو من الغموض والإبهام وفي هالة من الحب والرعاية والإعظام! ما هو ذلك الشأن الذي جعلك مناط الأمل ومعقد الرجاء، وقد تكون سبب الشقوة ومستقر العناء؟ وما هي تلك الخطورة التي جعلت مقدمك بين التهليل والتكبير، وجعلت استهلالك مقروناً بهتاف الفرح وصوت البشير؟ وما أنت في ذلك الوجود الزاخر إلا ذرة أو أقل من ذرة في عباب المحيط الواسع! ألأنك تمثل

الحياة في شتى أشكالها؟ ألأنك تحمل بين جنبيك ميراث الإنسانية جميعها؟ ألأنك الوحدة التي يقوم عليها بناء الكون بما يضم من أشتات ويجمع من مفارقات؟ قد يكون كل ذلك صحيحاً لا ريب فيه. ولكن سنن الوجود ونواميس الخليقة قد طبعت على التحتيم الذي لا مفر منه، والجبر الذي لا اختيار فيه، حتى ليعد من العبث الذي يهيم به العقل أحياناً أن يحول تعليلها، أو يجتهد في تأويلها. فأنت أنت كما أراد الله أن تكون؛ وهذا الاحتفال الذي يحف موكبك العظيم هو جزء من النواميس التي قدرها الله لنظام الوجود، ولا مبدل لكلمات الله.

محمد طه الحاجري

الفخر في شعر أبي الطيب

للأستاذ طه الراوي

عضو المجمع العلمي العربي

نريد أن نتحدث عن أبي الطيب، ولكن هل غادر المتحدثون عنه من متردم؟ ماذا نقول في شاعر ملأ الدنيا وشغل الناس من متقدمين ومتأخرين، بله المعاصرين، من بين مادح وقادح، ونقد وشارح، حتى كان من ازدحام أولئك الأعلام حول هذا المنهل أن ازدهرت خزانة الأدب بعشرات الأسفار، فهل من جديد نقوله؟ هذا ما جال في خاطري عندما تلقيت دعوة لجنة المهرجان المحترمة.

على أنه لابد من القول، فلابد من اختيار ناحية من نواحي شاعرنا والتحدث عنها، فإن وفقت إلى جديد فهو الهدف، وإلا فقد أبلغت عذراً. لا خلاف في أن أبرز نواحي أبي الطيب وأبرعها جمالاً وأروعها جلالاً هي العظمة؛ وقد صورها لنا بشعره أبرع تصوير وأروعه، وقد فخر في ذلك ما شاء وشاءت عبقريته، فليكن موضوعنا إذن: (الفخر في شعر أبي الطيب).

والفخر في شعر هذا الناقم الثائر جذوة من نفه ونفحة من روحه، بل هو ترجمان طموحه، أو قل هو ذوب نفسه الكبيرة، تارة يتألف قولاً وطوراً يتمثل فعلاً.

ومن ثم جاء هذا الضرب من شعر شاعرنا مطبوعاً بطابعه الخاص، بعيداً من التكلف والتعسف، بريئاً من كثير من العاهات التي علقت بغيره من شعر أبي الطيب، ولا يدانيه في ذلك إلا الوصف، ووصف المعارك خاصة، وكل ما يتصل بالرجولة والبطولة.

ويرى المخلفون الرعاديد أن الفخر ضرب من ضروب العجرفة الفارغة والجبروت الكاذب، وتلك خديعة طباعهم الخاملة، وسجية نفوسهم الخانعة المستخذية التي تستمرئ الهون، وتقنع بالدون. أما النفوس المجبولة من طينة الشرف فتأبى إلا مساماة النجوم ومغالبة الخصوم، ذلك لأن الله برأها حرة فلا تلين للذلة، ولا تدين بالقلة، والعربي مجبول على الأباء والأنفة، مفطور على العزة وسمو الهمة والطموح إلى معالي الأمور.

وبهذه السجايا أحرز ما أحرز في ماضي الزمان من عظمة الشأن وبسطة السلطان. وقد افتخر سيد ولد آدم عليه السلام في غير ما موقف، وهو القائل في بعض مواقفه الحربية:

أنا النبي لا كذب ... أنا ابن عبد المطلب

وهذا داهية بني حرب يقول: وضعت رجلي في الركاب يوم صفين للهرب، فتذكرت قول ابن الاطنابة:

أبت لي همتي وأبى بلائي ... وأخذي الحمد بالثمن الربيح

وقولي كلما جشأت وجاشت ... مكانك تحمدي أو تستريحي

فانثنيت عما أنا في سبيله.

ولعمري ما أُخذنا في عصورنا المتأخرة إلا من ناحية تلك الفلسفة السقيمة العقيمة، فلسفة الاستكانة والتماوت التي تسربت إلينا من بثوق المغلوبين على أمرهم، المفجوعين بحريتهم، المصابين بعزتهم وأنفتهم؛ ثم جاء الطامعون بنا فنفخوا في نارها، وضاعفوا من أضرارها، إلى أن أصبحنا نخاف من كل شيء حتى من أنفسنا، ونرى يومنا أسوأ من أمسنا.

فإذا أردنا أن نعيد سيرة أولينا جذعة، فعلينا أن نغذي نفوس ناشئتنا بكل ما من شأنه أن يغرس فيها الشمم والطموح إلى معالي الأمور والترفع عن دناياها، وإرخاص الحياة في سبيل العز، والاعتقاد بأن الحياة بغير الحرية ضري من ضروب الموت الخفي؛

والشعر الفاخر أو الفخر الشاعر من أجدى الأغذية النفسية وأنجع الأدوية الروحية.
ودوحة الفخر في شعر أبي الطيب كثيرة الأفنان، باسقة الأغصان؛ وموقفنا هذا المحدود بالدقائق أضيق من أن يتسع للإحاطة بجميع أطراف هذا الموضوع فلا بد من الاقتصار والاختصار. وليكن اقتصارنا على غصنين هما أكثر تلك الأغصان أزهاراً وأينعها ثماراً، وهما إمامته الأدبية، وأمنيته السياسية.
نشأ أبو الطيب صباً بالمعالي متيماً بها، لا يفارقه طيفها سُرىً أمامه وتأويباً على أثره. وتمثلت له أمنيته بالسيادة والملك فكان يبغي أن يقهر العتاة من جبابرة عصره، ويديل للعرب من أولئك الموالي الذين تسنموا العروش من طريق الختل والغدر.
وإنما الناس بالملوك ولا ... تُفلح عرب ملوكها عجم
بكل منصلت ما زال منتظري ... حتى أدلت له من دولة الخدم
أيملك الملك والأسياف ظامئة ... والطير جائعة لحم على وضم
نبتت هذه الأمنية في رأس أبي الطيب من يوم عرف نفسه، وملكت عليه مشاعره واستبدت براحته، ولم تزل تطوح به من بلد إلى بلد حتى لفظ نفسه وسكن رمسه.
وكان لها فاتحة شعره وخاتمته. قيل له وهو في المكتب ما أحسن هذه الوفرة! فقال:
لا تحسن الوفرة حتى ترى ... منشورة الضفرين يوم القتال
على فتى معتقل صعدة ... يَعُلها من كل وافي السبال
وقال من قصيدة هي آخر ما نظم، وقد وجدت في رحله بعد قتله:
سدِكت بصرف الدهر طفلاً ويافعاً ... فأفنيته عزماً ولم يُفني صبراً
أريد من الأيام ما لا يريده ... سواي ولا يجري بخاطره فكرا
وأسألها ما استحق قضاءه ... وما أنا ممن رام حاجته قسرا
انظر كيف تبادرت هذه الأمنية في نفسه حتى أصبح يراها من حقه الذي لا ينبغي أن يغالب عليه.
ولي همة من رأى همتها النوى ... فتركبني في عزمها المركب الوعرا
تروق بنى الدنيا عجائبها ولي ... فؤاد ببيض الهند لا بيضها مغرى
ومن كان عزمي بين جنبيه حثه ... وخيّلَ طول الأرض في عينه شبرا
صبحت ملوك الأرض مغتبطا بهم ... وفارقتهم ملآن من حنق صدرا
ولما رأيت العبد للحر مالكا ... أبيت إباء الحر مسترزقاً حرا
إلى أن قال:
فإن بلغت نفسي المنى فبعزمها ... وإلا فقد أُبلغت في حرصها عذرا
الملك هدف أبي الطيب، ولكن المسالك اشتبهت عليه؛ فتارة يسلك طريق البراعة في اليراعة، وطوراً يرى طريق السيف أهدى وأجدى، وحيناً يرى أن المال هو الذي يجمع عليه الرجال، وآناً يرى السبيل أن يتولى عملاً لبعض الملوك، ثم يجعله مركزاً لحركته ونواة لمملكته.
فهو في هذه السبل إلى أن لقي مصرعه.
وقد جرب الثورة الحمراء في مقتبل عمره فأخفق، وعاد ممتطياً صهوة البيان، يغالب الأقران ويصارع أحداث الزمان، وتغزوه الرزايا من كل مكان، وهو معتصم بالصبر ثابت العزم.
كان شاعرنا قوي الثقة بمكانته البيانية منذ حداثته. يقول في صباه:
إن أكن مُعْجباً فعُجْب عجيب ... لم يجد فوق نفسه من مزيد
أنا ترب الندى ورب القوافي ... وسِمام العدا وغيظ الحسود
وقال:
أنا صخرة الوادي إذا ما زوحمت ... وإذا نطقت فأنني الجوزاء
وإذا خفيت علي الغبى فعاذر ... ألاّ تراني مقلة عمياء
ولما تكاثر حساده واحتشدوا له وأسمعوه مر الهجاء قال:
أرى المتشاعرين غروا بذمي ... ومن ذا يحمل الداء العضالا
ومن يك ذا فم مر مريض ... يجد مرا به الماء الزلالا
وقل لعلي بن أحمد الأنطاكي:
دعاني إليك العلم والحلم والحجا ... وهذا الكلام النظم والنائل النثر
وما قلت من شعر تكاد بيوته ... إذا كتبت يبيض من نورها الحبر

كأن المعاني في فصاحة لفظها ... نجوم الثريا أو خلائقك الغر
ويقول للقاضي أبي الفضل الأنطاكي:
لا تجسر الفصحاء تنشد ههنا ... بيتاً ولكني الهزبر الباسل
ما نال أهل الجاهلية كلهم ... شعري ولا سمعت بسحري بابل
ويقول لأبي العشائر:
شاعر المجد خدنه شاعر اللف ... ظ كلانا رب المعاني الدقاق
ونظر إلى من حوله من شعراء سيف الدولة وفيهم الصفوة من سحرة ذلك العصر فلم يعتبرهم شيئاً مذكوراً:
خليلي إني لا أرى غير شاعر ... فَلِمْ منهم الدعوى ومني القصائد
ويقول عن سيف الدولة:
إذا شاء أن يلهو بلحية أحمق ... أراه غبارى ثم قال له الحق
وقد لحظ في شعره عناصر الخلود فقال:
وما الدهر إلا من رواة قصائدي ... إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا
على أن اعتداد شاعرنا بإمامته في البيان لم يشغل باله كثيراً، إذ كان يقينه بهذه الإمامة أقوى من أن يحتاج إلى الجدال والنضال إلا حين يبخسه حقه بعض الشعراء، أو يغفل عنه بعض الأمراء، فينبه هذا ويجيب ذاك؛ وإنما الشغل الشاغل لذهنه تلك الأمنية التي عقد بها فكره وحبس عليها جهده، ومارس منها معشوقة خلابة جذابة، ولكنها لا تلين بحال، ولا تدين بوصال؛ فأكثر من التغني بها وهي لاهية عنه بالسود التنابيل:
سيصحب النصل مني مثل مضربه ... وينجلي خبري عن صِمَّة الصِّم
لقد تصبرت حتى لات مصطبر ... فالآن أقحم حتى لات مقتحم
إلى أي حين أنت في زي محرم ... وحتى متى في شقوة والي كم
وإلا تمت تحت السيوف مكرماً ... تمت وتلاق الذل غير مكرم
فثب واثقاً بالله وثبة ماجد ... يرى القتل في الهيجا جني النحل في الفم
أعجب الأدباء بامرئ القيس حيث يقرن في شعره بين معاطاة الكؤوس ومشهد الحرب الضروس؛ قالوا: وهذا غاية في الشجاعة. أما شاعرنا فقد خلف امرأ القيس وراءه، وقصر كل لذته على اصطدام الصفوف بالصفوف ومقارعة الحتوف بالحتوف.
طلب إليه بعض أصحابه أن يشرب معه فقال:
ألذ من المدام الخندريس ... وأحلى من معاطاة الكؤوس
معاطاة الصفائح والعوالي ... وإقحامي خميساً في خميس
فموتي في الوغى عيشي لأني ... رأيت العيش في أرب النفوس
وقال في مثلها:
لأحبتي أن يملأوا ... بالصافيات الأكْؤُبا
وعليهم أن يبذلوا ... وعلي ألا أشربا
حتى تكون الباترا ... ت المسمعاتِ فأشربا
وقال:
ألا حبذا قوم نداماهم القنا ... يُسَقونها رياً وساقيهم العزم
وكثيراً ما كان يفسح لهذا المطمح مجالاً في صدور قصائده التي يمدح به أمراء زمانه، وبذلك يتنكب نهج لشعراء في تصدير قصائدهم بالغزل ويتغزل هو بقدود الرماح وبيض الصفاح، ويتغنى بالجلاد والكفاح، فكأنه يقول لهم: لكم ليلاكم ولي ليلاي ولكل أن يتغزل بحبيبته. قال في صدر قصيدة يمدح بها علي بن أحمد الأنطاكي:
أطاعن خيلا من فوارسها الدهر ... وحيداً وما قولي كذا ومعي لصبر
وأشجع مني كل يوم سلامتي ... وما ثبتتْ إلا وفي نفسها أمر
تمرست بالآفات حتى تركتها ... تقول أمات الموت أم ذعر الذعر
ولا تحسبن المجد زقاً وقينة ... فما المجد لا السيف والفتكة البكر
وتضريب أعناق الملوك وأن ترى ... لك الهبوات السود والعسكر المجر
وفي صدر أخرى يمدح بها علي بن أحمد المري:
ل افتخار إلا لمن لا يضام ... مدرك أو محارب لا ينام
أقراراً ألذ فوق شرار ... ومراماً أبغي وظلمي يرام
دون أن يشرق الحجاز ونجد ... والعراقان بالقنا والشام

ولم يفارقه هواه في ليلاه بعد أن حل بكنف سيف الدولة ووجد فيه ذلك الملك الهمام، ملء العين والسمع والفؤاد، فهو ذا يقول:

ولقد ذخرت لكل أرض ساعة ... تستجفل الضرغام عن أشباله
تلقى الوجوه بها الوجوه وبينها ... ضرب يجول الموت في أجواله

أما في مصر فقد صانع الأسود أولاً ثم لما أعياه أمره نفث من سمه ما شاء، وفارقه على تلك الحال المعلومة، حتى ضمته الكوفة إلى صدرها، وهناك أملى قصيدته المشهورتين المقصورة والميمية، وأودعهما ذلك اللهيب المتأجج، فمن قوله في الثانية:

ما زلت أضحك إبلى كلما نظرت ... إلى من اختضبت أخفافها بدم
أسيرها بين أصنام أشاهدها ... ولا أشاهد فيها عفة الصنم
حتى رجعت وأقلامي قوائل لي ... المجد للسيف ليس المجد للقلم
أكتب بنا أبداً بعد الكتاب به ... فإنما نحن للأسياف كالخدم

وهنا كرر إيمانه بهذه الحقيقة:

أسمعتني ودوائي ما أمرت به ... فإن غفلت فدائي قلة الفهم

وهذا الإيمان لم يمنع شاعرنا من ارتياد عضد الدولة وامتداحه؛ فهل نتهمه بقلة الفهم على حد تعبيره هو؟ لا. والذي يلوح لنا من منطق الحوادث أن شاعرنا رأى يده فارغة وأن الإقدام على الثورة يتطلب رجالاً، ولا رجال في مثل ظروف شاعرنا إلا بالمال، فانطلق يلتمسه في مواطنه؛ ويظهر أنه جاء بما فيه البلغة، ولكن المنية حالت دون الأمنية، ولنا على هذا كلام يضيق الوقت عن بسطه.

والمال في نظر أبي الطيب إنما هو وسيلة إلى غيره، وقد اتهمه بعض حساده بالشح وفي طليعتهم أبو بكر الخوارزمي ذلك الشتامة الذي لم يسلم من أوضار لسانه إلا القليل.

وحالة شاعرنا تنطق ببراءته من هذه التهمة. أما أقواله فبرهان آخر:

وما حاجتي في عسجد أستفيده ... ولكنها في مفخر استجده
غَثاثة عيشي أن تغث كرامتي ... وليس بغث أن تغث المآكل
ومن ينفق الساعات في جمع ماله ... مخافة فقر فالذي فعل الفقر

بقى علينا أن نسأل من أين تسربت هذه الفكرة إلى رأس أبي الطيب؟ والجواب أن لنفسه المجبولة على التعالي أقوى نصيب في تكوين هذه الفكرة وتغذيتها وتنميتها، فقد خلق شاعرنا شجاع لقلب، أبي النفس، حمي الأنف، خصيب العقل، ملتهب الفطنة، فياض العاطفة، صباً بمعالي الأمور زاهداً في سفسافها.

والعامل الآخر في هذه الفكرة الأوضاع السياسية في البلاد الإسلامية يومئذ، فقد كانت هذه البلاد مسرحاً للفتن والدسائس، ونهباً مقسماً بين رجال الثورات وأرباب الدعوات وأهل الختل والغدر، وقد ساهم في ذلك حتى العبيد، وحسبك بكفور على ذلك مثالاً فقد صار:

يدبر لأمر من مصر إلى عدن ... إلى العراق فأرض الروم فالنوب
فما بالك بفتى يعربي توفرت فيه كل أسباب السيادة ومزايا الرياسة؟

ولكن ما الحيلة وقد كبا به جده دون الغاية، وحالت المنية دون الأمنية؟ ولا ضير فقد سعى وليس عليه إدراك النجاح.

على أن الجد الذي خانه في ميدان السياسة، حلق به في سماء المجد الأدبي فأطلعه فيها شمساً تفيض بالنور على مر الدهور؛ وإن أخطأته إمارته السياسية فقد اعتزت به إمارته الأدبية، وتلك فانية لأنها تدور حول الحطام، أما هذه فباقية على مر الأيام.

طه الراوي

المرأة المسلمة

في القرن التاسع للهجرة (الخامس عشر للميلاد)

بقلم الآنسة نعيمة المغربي

- تطلع علينا مكتبة الأديب السيد حسام الدين القدسي بالقاهرة من حين إلى آخر بطائفة صالحة من الكتب العربية القديمة، فينبش كنوزها الدفينة، ويعرض جوهرها على أنظار عشاق الأدب، وهواة لغة العرب، وهي خدمة موفقة يضطلع بها الأديب

المذكور، ويقصد من ورائها خدمة ثقافتنا العربية القديمة وأبنائها الذين يقدرون حسن اختياره وحميد مجهوده. من ذلك أنه باشر طبع كتاب (الضوء اللامع) في تراجم رجال القرن التاسع تأليف المحدث الكبير والمؤرخ النقادة شمس الدين السخاوي؛ وهذا الأثر من أعظم آثار السخاوي وأكثرها شهرة، يقع في عدة مجلدات ضخمة، ظهر منها إلى اليوم اثنا عشر جزءاً. وقد خص المؤلف الجزء الثاني عشر من كتابه بتراجم نساء القرن التاسع. وكثيراً م اقتصر على اسم المترجمة وتاريخ ولادتها ووفاتها والإجازة التي تلقتها من شيوخها إن كن ثمة إجازة. ومع هذا فالباحث يستطيع أن يستخرج من (الضوء) فوائد جمة ذات قيمة تزداد وضوحاً كلما أوغل المطالع في مطالعته وازداد للمؤلف صحبة في تتبع أخبار من ترجم من نساء عصره، فهو يقع من وقت إلى آخر على حوادث طريفة وفوائد ممتعة من أحوال نساء ذلك العهد.

والكتاب يشتمل على ترجمة ألف امرأة ونيف؛ وهو عدد كبير لا يسعه كتاب واحد لو أن المؤلف توخى الإسهاب والإطالة، ولكنه لجأ إلى الإيجاز وإهمال التفاصيل كما مر. ولا أعرف السبب الذي حدا بالمؤلف رحمه الله إلى ذكر بعض نساء عصره م دام أنه لم يظفر من أخبار حياتهن بما يستحق الذكر والتدوين. وكنت أرجع أحياناً إلى كتاب (شذرات الذهب) بغية زيادة الاستيثاق من ترجمة بعض من ترجم المؤلف لهن، فأجد صاحب (الشذرات) أيضاً قد نحا منحى (صاحب الضوء) في الاختصار والاقتصار على الاسم والوفاة. ولعل عذر المؤلفين في ذلك أن نساء عصرهم كن ذوات حياة مختصرة فتبع ذلك اختصار في الترجمة، وقد يكون السبب في ترجمة هؤلاء في (الضوء اللامع) أنهن يمتتن إلى مؤلفه بقرابة أو تلمذة أو جوار أو صداقة والد؛ كما لمحنا ذلك في تراجم كثيرات منهن.

وما يدرينا أن بعضهن كن يكلفنه ترجمتهن حباً لتخليد ذكرهن ولو بالاقتصار على اسمهن، وهذا كما يفعل بعض نساء زماننا؛ (بل وبعض رجاله) إذ يرغبن إلى رجال الصحافة أن يذكروهن في صحفهن مباهاة بين أترابهن.

وعلى كل فأن هذا الجزء روض نسائي حافل بشتى أنواع الأزهار والرياحين؛ تقرؤه بلذة وشغف، إذ تتوفر لديك فيه النماذج المتنوعة عن المرأة المسلمة في ذلك العهد الذي ساد أو بدأ يسود فيه الانحطاط. ولعل أبرز طابع في (الضوء) هي الصراحة التي امتاز بها المؤلف في معظم ما كتب وخلد من أثر، وفي هذه الصراحة ما يشوق القارئ ويُغريه بالمطالعة ومرافقة المؤلف إلى النهاية.

أتى المؤلف على طائفة كبيرة من نساء عصره وعرض علينا من أحوالهن وجوهاً مختلفة وأشكالاً متعددة ونفسيات متباينة وعقليات متغايرة. فمنهن المحدثة العالمة، والحافظة البارعة؛ ومنهن التقية الورعة والمحتسبة الصابرة؛ ومنهن الحبشية السوداء والجركسية الحسناء، ومنهن سليلة الملوك والسلاطين؛ ومن أثر فيها كيد الحاسدين وسحر الساحرين. يذكرهن لنا كما عرفهن ووصلته أخبارهن. وكثيرات منهن عاصرن المؤلف وكن من المعجبات به المعتقدات بسعة فضله وغزارة علمه.

ففي القرن التاسع للهجرة كانت المرأة المسلمة في مصر والشام برغم ما يعزى إليها من تأخر تتلقى عن الأئمة ويتلقون عنها. يجيزها العلماء وتجيزهن؛ يناظرها الأدباء وتناظرهن؛ تحفظ دواوين الشعر وتروي عن الشعراء؛ ذات فكر ثاقب وقريحة نيرة ورغبة ملحة في التحصيل، لا يعتريها سأم ولا ملل في طلب العلم والأخذ عن أساطينه، وحفظ كتب الفقه والأدب، ودواوين الشعر والمذاكرة فيها.

ومما يلحظه المطالع أن معظم نجوم (الضوء) لمعن في سماء مصر وتفيأن ظلال نخيلها وارتوين من ماء نيلها؛ واغترفن من بحار علومها. وقد أحببت أن أحصي الشواعر فلم أظفر بسوى واحدة نظمت الشعر وكان بينها وبين المؤلف وسواه من العلماء مساجلة ومناظرة، فهي تشبه من هذه الجهة شاعرة الشام في القرن العاشر للهجرة لسيدة عائشة الباعونية المدفونة في صالحية دمشق. ومن هنا يتبين أن إقبال النساء على قرض الشعر في ذلك العصر أعني القرن التاسع كان قليلاً، وكانت جل رغبتهن يومئذ في تلقي علوم الحديث وروايته. وللبيئة - ولا ريب - أثر في خلق هذا الميل فيهن وطبعهن بهذا الطابع.

والشاعرة الوحيدة التي ذكرها (السخاوي) وترجمها ترجمة مفصلة هي (فاطمة) المشهورة بلقب (ستيتة) ابنة القاضي كمال الدين محمود بن شيرين الحنفي. قال

المؤلف ما نصه:
ولدت كما كتبته لي بخطها في سادس المحرم سنة خمس وخمسين وثمانمائة) بالقاهرة ونشأت فتعلمت الكتابة وتزوجت الناصري محمد بن الطلبغا ثم مات عنها فتزوجها العلاء علي بن محمد ابن بيبرس حفيد ابن أخت الظاهر برقوق فاستولدها بيبرس، ولاحظ لها في ذلك مع براعتها في النظم وحسن فهمها وقوة جنانها حتى كانت فريدة فيما اشتملت عليه. وقد حجت وجاورت وسكنت بجوارنا. ومما كتبت به إلي بعد مجيء الخبر بموت أخويَّ من نظمها:

قفا واسمعا مني حديث أحبتي ... فأوصاف معناهم عن الحسن جلت
أناس أطاعوا الله نارت قلوبهم ... وأبصرت الأشياء من غير نبأة
وقد كوشفوا عن كل ما أضمر الفتى ... ونارت قلوب منهم ببصيرة

ومنها:

أثابكم ربي وعظم أجركم ... على فقد أحباب وأحسن جيرة
كرام سموا علماً وحلماً وسؤددا ... وكنتم بهم في غبطة ومسرة
قطعتم لذيذ العيش وصلاً بقربهم ... فوا أسفا عند الفراق وحسرة

ومم كتبه إليها المؤلف مجاوباً: (يا بديعة المعاني، ورفيعة المباني، ومن فاقت الكثير من الرجال فضلاً عن النساء، وراقت أبياتاً فحاكت الخنساء؛ حفظ الله تعالى دينك ودنياك الخ).

ولها أشعار كثيرة وقصائد مطولة تدل على مبلغ اجتهادها في تحصيل العلم والأدب. ولها أيضاً مطارحات شعرية مع بعض الأدباء رجحوها بها عليهم.

ومما يستحسن ذكره ومرت الإشارة إليه أن المؤلف ذكر ترجمة موجزة لبعض قريباته: منهن جدته وعمته وابنة شقيقه وأخته بالرضاع ووالدة امرأته التي أصيبت بالفالج وماتت عقب ذلك لدى سماعها خبراً مكذوباً عن وفاة المؤلف وابنتها زوجته وهما في الحج. وكذلك جاريته (أبرك) الحبشية (التي كانت ضابطة لبيتهم قانعة صافية).

ومن يتأمل الكتاب وتراجم نسائه يلمح وقوع أمور في ذلك العصر لا يزال يقع مثلها في عصرنا الحاضر مع تقادم العهد وتطاول الزمن: فمن هذا القبيل:

ابنة الشيخ نور الدين البوشي. تزوجها البقاعي بعد موت والدها ونالها منه (سعادات) من الذل ما لم يكن لها في حساب، بل نال طلبة أبيها من أجل مساعدتها ما شاء الله، وكذا مس أخاها منه كل سوء فلم تحتمل وسألته الطلاق بعد ولادتها منه وأشهدت عليها أنها متى رامت نظر الولد أو أخذه كانت ملتزمة بخمسمائة دينار، وسمحت بمفارقة ولدها ومهجتها مع مزيد حبها له). وكذلك (فاطمة) ابنة الحنبلي تزوجها سبط العز الحنبلي عز الدين محمد بن الشهاب الجوجري فلم يحصل التئام ففارقهما بعد بذل له وإبراء).

وما كان المؤلف ليحجم عن انتقاد ما يجب انتقاده من أحوال مترجمات كتابه:

ابنة القاضي علم الدين البلقيني، تزوجها عبد القادر ابن الأحمدي، ثم عبد القادر (إلف) بن الرسام الحموي، ثم أمير المؤمنين المستنجد بالله يوسف، ثم فارقها واتصلت بابن عمها البدر أبي السعادات بعد موت زوجته أختها وأقبلت حينئذ على الخير وقررت في مدرسة جدها عند قبره قرّاء في كل يوم، وقامت بأمر المدرسة وبتفقد الفقراء والأرامل، وتزايد ذلك بعد موت ولدها حتى صارت فريدة في أقربائها وأمثالها، ورتبت قرّاء يقرءون عندها الحديث والتفسير)، إلى أن يقول: (ولا أحمد كثيراً من تصرفاتها خصوصاً فيما يتعلق بالأيتام).

وكنا نرغب لو أن المؤلف كان أكثر إيضاحاً فيذكر لنا ما لم يعجبه من تصرفاتها وهي التقية الصالحة التي زخرت حياتها بعمل البر والإحسان.

وقد قص علينا حادثة لعب فيها السحر دوره، وذهب ضحيته نفسان بريئتان لا نعلم مبلغ التهمة المنسوبة إليهما من الصحة.

(شيرين) الرومية، هي أم الملك الناصر فرج بن برقوق، ولما تسلطن ابنها صارت (خوند ازد) (خوند الكبرى) وسكنت قاعة العواميد بقلعة الجبل بعد أن تحولت منها زوجة سيدها، ولم تلبث إلا يسيراً حتى تعللت ولزمت الفراش، وكثرت القالة بسببه،

واتهم جماعة بسحرها، وظن ابنها أن ذلك من بعض الخوندات زوجت أبيه وبغضاً، لأنها مع كونها بارعة الجمال سارت سيرة جميلة من الحشمة والرياسة والكرم مع الاتضاع الزائد والخير والدين. ولها معروف ومآثر حسنة، جدّدت بمكة رباط الخوزي ووقفت عليه وقفاً وأصلحت

ما كان تهدم منه. ماتت في ذي الحجة سنة اثنتين وثمانمائة ودفنت بالمدرسة البرقوقية رحمها الله. ذكرها شيخنا في (إنبائه) باختصار وقال: (كانت كثيرة المعروف والبر). زاد العيني: (واتهمت جارية بسحرها فضربت حتى اتهمت نصرانياً كاتباً فعوقب فلم يقرّ فحبس حتى مات هو والجارية).

وما زال هذا الضعف الخُلقي في الخوف من السحر والاعتقاد به سائداً إلى اليوم في الأقطار العربية على اختلاف بينها في درجة ذلك، وحوادث ملوك الجان، ما زالت ترن في الآذان.

والكتاب مفيد لا تمل قراءته ولا تسأم صحبته. فهو كالبستان فيه من كل فاكهة زوجان، وما أحوجنا إلى مطالعة أمثال هذه الكتب التي ترينا صورة واضحة جلية عن حياة نساء تلك العصور وتطلعنا على درجة ثقافتهن، وطريقة تعلمهن. والكتب في تراجم النساء مما تركه لنا السلف قليلة جداً وهذا منها، ولا تنس الجزء الثامن من طبقات ابن سعد الخاص بالصحابيات رضوان الله عليهن.

(دمشق)

نعيمة المغربي

نزهات في الخريف

للكاتب الفرنسي جوستاف دروز

ترجمة السيد حسين رفعت

اطَّلعت على الخريف في حقوله الوسيعة، وعواصفه المريعة وتنهداته الذاهبة في الفضاء، وأوراقه الذابلة الصفراء، وهي تترنح بين أنفاس الجو ونسمات الريح؟؟ أعرفت مخارفه المبتلة، وشمسه المعتلة، وأشعتها الواهنة، الواهنة في مثل بسمة العليل وضحكة المضني؟

أبصرت بضحضاحه الراكد ومائه الراقد في جنبات الطريق؟ أعرفت كل هذا؟ إن كنت علمته فأنت غير خال من التعصب له، أو التحامل عليه، كما أحبه بعضهم فجنوا به، وكرهه آخرون فتطوعوا لسبه. أما أنا - علم الله - فهو أثير عندي، حبيب إليْ. ولخريف واحد أثمن عندي من صيفين وأجمل. فأنا أهيم بقطع اللهب الكبيرة، وأستريح بمقربة المدفأة المتواضعة، وكلبي ممدد ساكن بين دزلكي المبلل الرطب، ومقعدي الدافئ الوثير.

وكم يحلو لك التأمل في سعير اللهب المضطرب، يلعق بأنيابه الدقيقة قطع الحديد العتيقة، ويضيء الظلمات النائية البعيدة.

وتسمع زفيف الريح في أهراء القمح، ويطرق أذنك صرير الأبواب ونباح الكلاب، وقد تمردت على سلاسلها الحديدية ومقاودها المعدنية. وتميز برغم دوي الغابة الملاصقة وهي تزمجر بظهرها المقصوف صراخ الأغربة القاتم، وهي تصارع العاصفة وتنازل الرياح القاصفة.

وتشهد الوسمي يقرع ألواح الزجاج الصغيرة، فتفكر في هؤلاء الذين هم في الخارج وأنت تمدد رجليك نحو المصطلى.

أجل أنا جد مفتون بالخريف، وصغيري العزيز يهواه كما أهواه. وليس مظهر جماله ومبعث جلاله في اجتماع العائلة حول الموقد، ينعمون بدفئه المثير، ولآلائه الكثير، وإنما له أيضاً من عواصفه الهوج، ورياحه الداوية، وأورقه الذاوية ما يحبب إلى النفس المجازفة بين هذه الأنواء الصاخبة، وتلك الرياح الغاضبة.

وكم من المرات ذهبنا كلانا نرود الحقول والمزارع، بين سفعات القر، وتلبدات السحب، وقد أحسنا الكساء، وأثقلنا الرداء، ولبسنا أحذيتنا الضخمة المتينة، فكنت أرتفق سعده وآخذ عضده، ثم نسير دون اتجاه معين ولا غرض مقصود.

وكان حينئذ لم يتجاوز الخامسة من عمره، ولكنه يخب في مشيته خبب الرجال؛ فكنا نأخذ الطريق الضيقة المفروشة بالأعشاب النضرة السوداء، خلال أشجار الحور الرمادية التي كانت تسمح للعين بأن تخلص إلى ما وراءها من الأفق، وتخترق ما دونها

إلى بسمات البرق، فتلمح في قرارة البعد تحت السماء البنفسجية صفحة من العصائب الصفر الباردة، وتشاهد سقوف الأكواخ المتهدمة، ورؤوس المداخن المتداعية، تتصاعد منها سحب رهوة في زرقة لطيفة كأن الريح تطاردها بعنف وتصاعدها بقسوة.

وكان طفلي الصغير يطفر من المرح وقد أمسك بيده قبعته حذراً من أن تطير، وكان يحدجني بعينيه الرجراجتين تحت فيض المدامع وقد ضرج البرد وجنته، وفي مؤخر أنفه لؤلؤة صافية قد أشرفت على السقوط، وكان على ما به فرحاً مسروراً. وكنا نقطع السهل الرطب وقد حفت جوانبه بنمير النهر العذب، وزينت شواطئه بالقصب المتشابك، وعرائس النيل المتلاحمة وزهور النهر المتنوعة.

وكنا نشاهد قطعاناً من البقر وقد غاصت حتى أعالي سوقها بين الأعشاب السامقة، وهي ترعى في سكون واطمئنان، وفي حفرة صغيرة عند جذور شجرة من الحور تجثم طفلتان متناظرتان في جلستهما في ظل معطف كبير، وقد لفهما إليه وجذبهما عليه؛ وهما ترعيان رعيلهما والرجلان نصف عاريتين في الحذاء الممزق، والوجهان المرتجفان قد برزا من واقية المطر.

وكان يقتطع علينا سيرنا المجد - في الفينة بعد الفينة - غدران واسعة قد عكست عليهما صفحة السماء الخافتة، فكنا نتريث برهة على ضفاف هذه البحيرات، وقد داعبت صفحتها ريح الشمال ونشاهد الأوراق الطافية وهي تساقط من أعالي الأشجار، وتسبح في مهاوي الريح، وتثوي على وجه المستنقع، فأحمل طفلي الحبيب بين ذراعي ونجوز العدوة الأخرى فنشاهد في أطراف الحقول السمراء الخاوية المحراث المقلوب، والوتد المنصوب، وعسالج الكرم المعراة قد امتدت على الأرض، والحمائل الصلبة الرطبة قد تجمعت أكواماً،
وتكدست أقساماً.

(حلب)

حسين رفعت

المجاهد

للأستاذ عبد الحليم عباس

هات لي عتادي.

فقد انتهت المعركة بيني وبين نفسي. هي تريدني أن أقرّ، وأريدها تحيا ساعةً من نهار في جحيم المعركة؛ وهي تريدني أن أعيش في الحياة، وأريدها أن تسعد مع الموت.

هاهو ذا الظلم مستعلياً أبداً، كشأنه في كل عصر؛ لا أزعم أني سأمحقه، فقصارى الجهد أن أضع من جمجمتي حجراً في الزاوية.

هات لي عتادي.

فما قيمة العمر يمضي، وصليل القيد يصك سمعي، ورؤية الظلم تُعشي نواظري وما الحياة إن خلت من جمال الحق وعظمة الحرية، إلا جبُ منتن أكبرنا فيه حشرة.

هات لي عتادي.

فلو عرف الناس لذة الحياة لقدَّسوا الموت، ولو ذاقوا حلاوة الإيمان بالحق لدلفوا طُعمةً للنار. . . وما خير عيشٍ يرين عليه الظلم، وما لذةُ حياةٍ كل ما فيها متعة للظالمين؟

هات لي عتادي.

فلست أرهب موتاً يتساوى فيه الشقيُّ مع السعيد، والراسف بالقيد مع الذي قيَّده، فرب جفنٍ ما رقأت دموعه، ورب قلبٍ ما التأمت كلومه، وجد له في الموت وفي ظل القبر برد الراحة وهناوة العزاء.

هات لي عتادي.

وتعالي انظري عزة الحق الأعزل، واستخذاء الباطل المسلح. . . هاهما يتلاحمان. . . فلمن الغلبة؟ أللباطل فقديماً غَلَب، أم للحق فتلك ومضات في حلوكة التاريخ؟

منذ ساعة فتحَّ الحق عيني، وأنار الإيمان قلبي، فرأيت مواكب الأحياء على حقيقتها سائرة تتململ ولا تشكو، وتجرع الغصة ولا تئن، ورأيت الحقَّ فيما بينها مهيض الجناح، مشنوءا حامله، فعلمت أن من يعرف الحق ويؤمن به كل عمره، مهما طال - ساعةً من نهار.

منذ ساعة فتحَّ الحق عيني، فرأيت الإنسانية، ترجع إلى الوراء فعلمت أنه إن لم يصدها الإيمان، وتلتقي بها القوة المؤمنة، فغير بعيدٍ ذلك اليوم الذي تحتفل به لأكل لحم البشر!

وسار المجاهد، رافع الرأس، منتصب القامة، يتلألأ على وجهه نور اليقين، ويرف عليه روح من الحق، قال وكأنه يخاطب نفسه:

ليست حقيقة الحياة في الحياة، وإنما هي فيما وراءها؛ وليس الموت في سبيل الحق غير اتحاد بهذه الحقيقة التي هي (الله).

للفضيلة دربٌ مختصر، وهو أن تضع بدل كلمة (أنا) (نحن)، والحجة القاطعة على أنك وضعت هذه بدل تلك أن تكتبها بدمك، لتقيمها على حجارة رمسك.

ليس العمر مجموعة أيام، وإنما هو سجل أعمال؛ فرب كهل لم يعش غير أيام، ورب فتىً لا تحصر عمره الأعوام؛ فإذا لم يك من الموت بد، فلم لا تزد بعمرك ساعة جهاد، لتطاول الحقب ولتدرج مع الأجيال؟

يقولون إن الجهاد بابٌ من أبواب الجنة، أتدري لماذا؟ لأن من يستعلي على الظلم ساعة في ساحة الموت، يشارك الحكمة الأزلية في عملها، وهي الجهاد لتثبيت الحق، في هذه الأرض. فمحالٌ أن ترضى الحكمة الخالدة في غير نزوله في كنفها. . . . . في الجنة.

وطويت الأرض تحت قدمي المجاهد، فسار يلفُّ السهل بالحزن، ويطوي البيد، حتى شارف المعركة، فوقف يتأملها برهة، وقد فاضت عليه قدسية الجهاد، والتمعت عيناه ببريق جميل، هو بريق عظمة الموت، فأخذ يتمتم:

إيه يا وطني! سماؤك وأرضك، جبالك الشم ووهادك الفيح، كلٌّ لها في القلب موطن حرمةٍ وجلال. تمنيت أن لي ألف نفسٍ أفديك بها، ولكنها نفسٌ واحدة، فدونكها جهد المُقل.

إيه يا وطني! مهبط الذكريات، ومغدى الأمل، غذتني تربتك، وبعثت فيَّ الحياة نسماتك؛ ليس الظلم المخيم على ربوعك إلا جزءاً من الظلم المنيخ على العالم بكلكله، وفي هذا بعض العزاء.

إيه يا وطني! هانحن أولاء تسارعنا لنجدتك، لا نطلب خلوداً، فإننا نعرف التاريخ لا يتسع صدره لذكر أمثالنا. ليس التاريخ إلا سير العظماء، وهيهات أن تعرف الدنيا إلا ضرباً واحداً منهم، أقواهم وأقدرهم على الفتك والظلم الذي زحفنا لصدامه، ولسنا نطلب جاهاً أو متاعاً من متاع الفانية فإننا نعرف أن التكالب على الجاه في ظل العبودية، قتالٌ على الجيفة، تقوم به طائفة نسميها الكلاب.

ولكننا آثرنا الموت على الحياة، لتزهو الحياة في يوم، وليسعد فيها هذا البشر اللاغب المتعب. . وثرنا لأننا علمنا أن الموت في سبيل الحق حياةٌ رائعةٌ مديدة. . . ودوت قنبلة أعقبتها طلقات، فانتفض المجاهد وانحدر يهدر كالسيل الأتيّ. . . إلى المعركة، إلى الموت! وما هي إلا ساعة حتى استشهد، فقد كن يقاتل كالمجنون!

أين المجاهد؟!

أما جسمه (فكم مقلةٍ في منقار طائر، وكم خد عتيق، وجبين رقيق، قد فلق بعمد الحديد).

أم روحه فقد مشت كالنسيم، توقظ الرمم، وتدفع الأمم إلى الموت في سبيل الحرية. . .

(شرق الأردن)

عبد الحليم عباس

لمعات - 3

مهداة إلى شاعر الإسلام وفيلسوفه محمد إقبال جواباً لكتابيه

و (رموز بي خودي) (أسرار خودي)

للدكتور عبد الوهاب عزام

جال في الظلماء صوت هاتف ... فظلام الليل منه راجف

مدّ في الظلماء نوراً من نغَمْ ... مُزّقَتْ منه دياجير الظُلم

أشُعاعٌ فيه صوت صائح ... أم كلام منه نورٌ لائح؟

أذِن الركب لهذا المنشد ... أطرب الناشدَ صوت المنشد

سال في القلب مسيل المطر ... ينبت الروح بسهب مُقفر
أو خرير الماء من نبع زلال ... بشّر الغارق في بحر الرمال
رنّ في نفسي رنين الجرس ... صاح في أذني فقيد مُبلِس
طوت البيداءُ عنه السابلة ... وهداه الصوت شطر القافلة
سبق القلبُ إليه الأذنا ... كبلال لصلاة أذّنا
دار قلبي شطر هذا المطربِ ... دورة الإبرة شطر القطُب
غنّني يا مُنيتي لحن النشور ... ابركي يا ناقتي. تم السرور)
(عُدت يا عيدي إلينا. مرحباً ... نعمَ ما روّحتِ يا ريح الصبا
حبذا الصوت فمن هذا البشير؟ ... ومن الهاتف بالقلب الكسير؟
ومَن المسعد في هذي الهموم؟ ... ومن البارق في هذي الغيوم؟
ومن الهابط في نور السما ... هادياً في الأرض جيلاً مظلما؟
ومن الهادي إلى أرض الحبيب ... يعرف النهج وقد حار اللبيب؟
ومن السائق شطر الحرَمِ ... وإلى الأصنام سير الأممِ؟
ومن القارئ في بيت الصنم ... سورة الإخلاص في هذا النغمَ؟
ومن الحرّ الذي قد حطما ... في قيود الأسر هذا الأدهما؟
ومن الآبي على كل القيود ... ومن القاطع أغلال العبيد؟
ومن الباعث في ميْت الأمم ... ثورة العزة من هذي الهمم؟
لاح كالغُرة في هذا السواد ... بصّ كالجمرة في هذا الرماد
جرف الناس أَتِيٌّ مزبد ... ضل فيه المقتدي والمرشد
وطغى اللج عليه والتطم ... فرسا كالصخر في هذا الخضمّ
عارض الموج على أغماره ... وطوى اللج على تياره
سبح اللج وبالشط استقر ... داعياً والناس غرقى في النهَرِ
يجرف التيار جسما جامدا ... تقذف اللجة قلباً خامداً
إن عزم الحر بحر مزبد ... جائش في الدهر لا يتئد
هذه الأقدار في تسيارها ... همم الأحرارِ في أسفارها
ومَن الشاعر يذكي القافية ... فهي نور وهي نار حامية؟
تقشعر الأرض من أوزانه ... ويهيم النجم من ألحانه
وكأن الدهر صوت كُتبا ... قد حكاه الشعر صوتاً مطربا
هو بالأشعار بحر فائض ... وهو للأزمان قلب نابض
حدّثته الأرض عن أخبارها ... وحبته الزهر من أسرارها
هو بالأمس خبير بغدِ ... وهو اليوم نجيُّ الأبد
كشف الله عن الغيب له ... فلسان الغيب يُملي قوله
عرف الشرق وراد المغربا ... فانجلى السرّ له. ما كُذِبا
فرأى العلم سبيلاً للردى ... إذ رأى القلب خلياً من هدى
صوت (إقبال) على شط المزار ... أسمع اليقظان في هذي الديار
(يتبع)
عبد الوهاب عزام
على الشاطئ
يا شراع. . .!
بقلم أحمد فتحي مرسي
اتئد واجرِ في لعباب رُوَيداً ... واسرِ في اليمِّ آمناً يا شراع
يلثم الماءُ صفحتيْكَ، ويمضي ... ويحييكَ في الشروق الشعاع
قد مضيتَ الغداةَ تنسابُ في الما ... ءِ كما انساب في السطورِ اليراع
وكأنَّ المياهَ شِقَّا مِقَصٍّ. . ... صاغَهُ ماهرُ البنانِ صنَاع
فإذا جئت مُقْبِلاً فافتراقٌ ... وإذا رُحت مُدبِراً فاجتماع
لهف نفسِي عليكَ في لُجّةِ اليمِّ (م) ... ولليمِّ ثورةٌ ونزاع
حارَ ربانُكَ القديرُ لَديْهِ ... أخفقت حِيلةٌ، وأقصر باع
وادلهمَّ الفضاءُ واشتدت الري ... يح فُصُمَّتْ لهولِها الأسماع
وكأن المجدافَ إذ يضربُ الما ...ءَ وللماءِ رجّةٌ واندفاع

طائرٌ في شراكِهِ يتلوَّى ... ولرجليهِ في الشباك صراع
أيهذا الذي تولى بعيدا ... لك منى تحيةٌ ووداع
يا عروسَ العباب قد زفّها الطيْ ... رُ وراقت من حولها الأسجاع
وبناتُ الهديل في البرِّ تشدو ... ردَّدَ السهل شدَوَها واليفَاع
ومياهُ العباب ترقُصُ نشوى ... فانخفاض على المدى وارتفاع
يا غريباً عن الحمى ووحيداً ... أترى أنت في النوى ملتاع
أنت في لجة الحياة مضاعٌ ... وكذا كلّنا لديها مُضَاع
وخداعٌ هذي لحياة. فهل يُعْ ... ريك من جانب الحياةِ الخداع
حولك اليمُّ في جلال وصمت ... سيِّد آمر، ومَلْك مطاع
ثابت في الخطى يروقك لينٌ ... في خطاهُ وهدأةٌ واتداع
فاتئد واجر في العبابِ رُويداً ... واسر في اليمِّ آمناً يا شراع
أحمد فتحي مرسي
أغنية
في سكون الليل في صمت الهدوءْ ... في شعاع القمر المنسكب
زورق ضمَّ ملاكين سرَى ... يتهادى فوق شطِّ العرب
فوق غصن البان ... رفرف القُمْري
يُنْشِدُ الألحان ... بالهوى العُذْري
أنتِ عطر مجنّحٌ شفقي ... طاف يذكو على الفضاء ويعبق
أنتِ معنى مقدس علويّ ... شعَّ نوراً في مهجتي يتألق
أنتِ حلم منور ذهبَّي ... هلَّلَ القلب مذ رآه وصفق
علمي الغيد التثني ... كيف بالله يكون
غرد الطيرُ فغنَّى ... حبذا منكِ اللحون
(البصرة)
ع. خ. طه
قبل النوى
للسيد إلياس قنصل
كفكفي هذه الدموع الغوالي ... إنها بين أضلعي جمرات
أمر الدهر أن نلوّع بالبع ... د، وليست تردُّه العبرات
واحفظيها لمن يعيش خليا ... وأمانيُّ نفسِه ذاويات
قد يكون الشقاء في الحب لكن ... حيث لا حبّ لا تكون حياة!
كفكفي هذه الدموعَ فلن يُدْ ... رِك منا البعاد ما يتمنى
إن يكن حب غيرنا ثمراتٍ ... تشتهي في ابتدائه، ثم تُجْني
فهوانا عواطف عاليات ... نفث الطهرُ بينها ألف معنى
والشعور الذي تغلغل في القل ... ب وأمسى من نبضه ليس يفنى
كفكفي هذه الدموع الغوالي ... إن لله مأرباً يخفيه
وليحلْ شوقنا الملح سروراً ... بكؤوس من الرجا نسقيه
وليكن صبرُنا على البعد قربا ... ناً إلى معبد الهوى نهديه
ليس يبغي عنادنا الدهر لكن ... جوهر الحب أن نعذَّبَ فيه!
(عاصمة الأرجنتين)
إلياس قنصل
القصص
قصة مصرية
القبلة الأولى و. . . الأخيرة!
للأستاذ دريني خشبة
(الحوار في الأصل باللهجة المصرية)
. . . .كان ذلك في مصحة
وكانت فتاة شاحبة ذات عينين كبيرتين شاعريتين، تطل منهما نفس حزينة متألمة، تارة تحلق في السماء تدعو الله اللطيف وتصلي له، وتارة تنظر إلى المصحة التي اجتمعت فيها أمراض وأحزان وأماني؛ وكانت تجلس فوق مقعد منفرد في زاوية منعزلة في

الحديقة الصينية التي تكسيها التماثيل البوذية والظُّلات والرابية الكبيرة ومساقط المياه ذات الخرير جلالاً ورونقاً وهدوءاً يشبه موسيقى الأرواح الباكية التي ترفرف أبداً في سماء تلك المصحة الرحيمة.

وكانت الفتاة تسبل فوق رأسها شُفوفاً من الحرير البنفسجي تداعبه نسمات الحديقة كلما هبت رُخاءً في ناحيتها. . . ولكنها تركت السماء كلها، بما تفيض به من رحمة ولطف، واتجهت بكل روحها إلى نافذة بعينها في المصحة، وراحت تحدق فيها تحديقاً شديداً، ثم أخرجت من (شنطته) منديلاً صغيراً وضعت فيه لآلئ غالية كانت أوشكت تنهمر من عينيها.

وكانت الشمس قد آذنت بغروب، وكانت تصب ذهب أشعتها على نوصي التماثيل الرائعة، ولكنها كانت تصب أكثر هذا الذهب على ناصية بوذا الأكبر كأنها تستهزئ به، لأنه إله من حجر! وكانت ألف فكرة تزدحم في رأس (سِهام) كلما تقَشَّعت الشمس قليلاً قليلاً عن رأس لتمثال، فتبتسم ابتسامة ساخرة. . . وتخفي دمعة كبيرة في منديلها الصغير.

وأقبلت جارية (حبشية) فحّيت لفتاة، وأشارت إليها سهام فجلست عند طرف المقعد المنفرد المصنوع من جريد النخل. . .

- (سيدتي!).
- (. . .؟. . .).
- (أرسلني ألبك الكبير أناديك).
- (ولماذا عاد مبكراً هذا المساء؟).
- (لا أدري، وهو يقول إنه يود أن يشرب الشاي مع سهام هانم).
- (وإذا لم تكن لسهام رغبة في الشاي ولا في القيام من هنا فـ. . .).
- (سيدتي! ألا ترحمين شبابك؟).
- (أرحم شبابي كيف يا مسعدة؟).
- (مِن هذا الذي أنت فيه!).
- (وماذا أنا فيه يا مسعدة؟).
- (الكر المتصل والحزن الذي لا حد له. . .).
- (أشكرك يا مسعدة. اذهبي فاعتذري عني للبك - أنا لم أعد أحب الشاي في هذه الساعة).
- (ولم في هذه الساعة؟).
- (لأنها كنت أول شكواه من هذا المرض الخبيث، ومن يدري، فربما كانت أول شكواي. . . أنا أيضاً).
- (يا سيدتي ارحمي شبابك قلت لك. إنها أيام ويغادر المصحة سليماً معافى، ألست تثقين في تأكيدات الدكتور؟).
- (الدكتور؟. . . أنت طيبة القلب يا مسعدة! أنت طيبة القلب جداً).
- (الدكتور يؤكد أن سيدي نادر بك يتعافى يومياً، وسيتماثل للشفاء قريباً، وأن أرى أنك تتلفين صحتك بهذا اليأس الذي يدمي قلبك ويجرح نفسك ويقرح عينيك؛ سيدتي سهام هانم: ألا تسمعين نصيحتي؟).
- (وأي نصيحة يا مسعدة؟).
- أنت شبة جميلة، والمستقبل أمامك مشرق بسام، والدنيا مقبلة تكاد تتمرغ تحت قدميك و. . . أوه. . . لا أجرؤ أن أقول. . .).
- بل قولي يا مسعدة، قولي. . . أنا شابة جميلة. . . والمستقبل أمامي مشرق بسام. . .
(والدنيا مقبلة تكاد تتمرغ تحت قدمي. . . . . الله الله يا مسعدة. . . ثم ماذا؟).
- (سيدتي سهام. . . إني أعتذر!!).
- (تعتذرين! تعتذرين من أي شيء! بل لابد أن تقولي ألستِ (داده) يا مسعدة).
- (لا. . . لا أجرؤ. . .).
- (لا تجرئين على أي شيء يا مسعدة. . . إن لم تقولي فإنك تحزنينني).
- (ولكن على شرط. . . إن لم ترقك الفكرة فلا تضمريها لي).
- (لك هذا يا مسعدة).

- (. .ألا تستطيعين أن تصرفي قلبك عن نادر بك).
- (أهذه نصيحتك أيتها العجوز! اذهبي فلن أشرب شاياً قلت لك).
- (. . .أ. . . أ).
- (اذهبي. . . اذهبي).
- (يا مسعدة قلت لك لا شأن لك بسهام ونادر، لقد كان يعبدها قبل مرضه. وكان يوشك أن يخطبها لولا وفاة والدته. . . وهي أيضاً تحبه حباً يمتزج بكل قطرة من دمائها، إنها تكاد تجن من أجله. . . إنها لا تنام أبداً، و. . .).
- (وماذا يا عثمان. . .).
- (وهي تنسرق كل ليلة إلى المصحة وتزوره، وأخشى أن تكون أصيبت بمرضه، لأني أسمعها تسعل كالمسلولين. . . مسكينة. . .).
- (لا قدر الله يا شيخ. . . إنها حزينة فقط، وأنا لا أدري لحزنها سبباً، فألف شاب جميل غني يتمنون أن تصبح لأحدهم زوجة. . ولكنها تأبى إلا أن تسمع لقلبها. . قُتل الحب، إنه لا عقل له! لقد كلمني اليوم عصام بك وألح علي في محاولة التأثير عليها، وهو يضع كل ما يملك رهن تصرفها، فماله هذا الشاب الوجيه؟! صحة وثروة وأسرة. . . وشباب!).
- (يا ابنتي رفقاً بنفسك، أقسم لك بالله وبشرفي أن الدكتور أكد لي اليوم أن لنادر أياماً قليلة جداً ويغادر المتشفى سليماً معافى. . .).
- (سليماً معافى. . . متمتعاً. . . بكامل صحته.، هيه. . . يا رب، سيغادر المتشفى إلى الأبد. . . هذه هي الحقيقة!).
- (أجل، سيغادره لتعيشا معاً في نعيم إلى الأبد! سهام!).
- (بابا. . .).
- (. . .هلمي نجلس قليلاً في الحديقة، هلمي يا ابنتي، القمر جميل، والنسيم رَخِيّ، و).
- (بابا. . .).
- (سهام!).
- (أنا لا أحب الحديقة ولا أحب القمر. . . لنبق هنا. . . الدنيا برد!).
- (. . .يا ابنتي لا تعبسي للدنيا هكذا).
- (الدنيا؟ آه يا بابا. . . سأعبس لها إلى أن يشاء الله!).
- (لا حول ولا قوة إلا بالله. . . سهام، أنت تحرقين نفسك وتتلفين روحك في نار عاطفية كان ينبغي ألا تجعلي لها وزناً في رجاحة عقلك وسلامة تفكيرك. . . لقد كنت أحاول أن أصارحك بحقيقة نادر ولكني كنت أخشى على قلبك الغض وشبابك الرطب أن تعصف بهما كلماتي، مع أنه لخيرك. . . سهام! استيقظي يا ابنتي! حقاً لقد أحبك نادر كما تحبينه، وكنت أنا نفسي ألمس محبته لك وهو يكلمني من أجلك، وعندما سلّمني (السوار الماسي الجميل) الذي جعله تقدمةً لزواجه منك، كنت أشهد في عينيه دموعاً محبوسة تريد أن تنهمر، عرفت منها أثر تحقيق الأحلام في نفوس الشباب - ولقد كنت أوشك أن أرفض هذا الزواج أول الأمر، لما كنت ألحظه في صحة نادر من التدهور والتهدم، لكني قرأت حبه في عينيك، وشهدت حرارة روحه تتورد في خديك، فتألمت، وفرحت، وذكرت (المرحومة) والدتك وما كانت تتمناه لك من السعادة الأبدية ورخاء البال، فوافقت، وضاعف ألمي وفرحي أن رأيتك سعيدة به بقدر ما هو سعيد بك، وهنا فقط. . . غلطتي. . . غلطتي التي لا يغفرها لي إلا أني لم أكن أعرف أن تدهور صحة هذا الشاب النبيل هو أول هذا المرض الخبيث العضال. . . سهام! استجمعي قواك! لا تجزعي هكذا. . . إن ألف شاب جميل رقيق القلب وافر الغنى في انتظارك. . . وقد خاطبني الكثيرون فعلاً قبل أن يعترض طريق حظك ولدي نادر. . . سهام. . تشجعي! أنت صغيرة يافعة يا بنيَّة! نحن كلنا نرثي لشباب نادر، وكنا نضرع إلى الله أن يشفيه!. . . و. . .).
- (بابا. . .).
- (سهام!).
- (ماذا تقول؟ كنا نضرع إلى الله!. . . ماذا قال لك الدكتور اليوم؟).
- (هذا هو الذي كنت أخشى أن يكون! ليهدأ قلبك يا بُنيَّتي، وليستيقظ عقلك الساهي. . أريد ألا أفقد ابنتي الوحيدة كما فقدت زوجتي ارحمي أباك الشيخ المحطم الذي لم .

يعد له أمل في الحياة غيرك. . . أنت شمسه المشرقة فلا تحرميه من دفئها إلى الأبد. . إن ثلج لمشيب يطفئ روحي قليلاً قليلاً. . . وكلما رأيتك يا سهام ارتد إليَّ شبابي، وانهزمت آلامي، وتفرجت كروبي. . . فلولاك للحقت بأمك، ولولاك لأغطش ظلام المنون حياتي. . . سهام! انظري إليَّ! أرهفي أذنيك! تحملي الصدمة معي. . . نادر في الطور الأخير من المرض. . .).
- (بابا. . .).
سو. . .! سهام! هي صدمة كبيرة لا شك، وأشد منها أنني أرجوك. . . أرجوك يا) - ابنتي. . . أرجوك. . . يا. . . سهام!).
وساد بين الرجل وابنته صمت عميق، تخللته دموع أَسْوَانة. . . ثم وصل الأب حديثه قائلاً:
أرجوك يا ابنتي أن تقطعي علائقك بنادر. . . دعي ما في القلب للقلب، ولكن لا) - تذهبي إليه. . . لا تزوريه في المصحة. . . لقد أنذرني الدكتور مرتين، وقد فصل الممرضة المسكينة التي كانت ترحم دموعك وترثي لحبك فتوصلك إليه في ظلام الليل خلسة! العدوى يا سهام! أنت غالية عندي جداً، وعزيزة عليَّ جدً، وإذا فقدتك فقدت كل شيء. . . سهام! سهام! تكلمي يا ابنتي! ردي عليَّ! ماذا؟ تبكين!؟ أنت طفلة. . . لا، لا. . . ألم يخلق الله غير نادر. . .).
بلى. . . بلى يا أبي! لم يخلق الله غير نادر لي. . . لي أنا على الأقل! ولذلك. . . لا) - أعدك! لا يمكن أن أعِدَك يا بابا. . . و. . . أنا متعبة جداً. . . أريد أن أنام. . . عن إذنك).
مسكينة سهام! لقد جاءت نصيحة والدها متأخرة جداً! لقد كانت تنتظر حتى تنام أعين الرقباء، وتغفى جفون الليل، ثم تنسل في جنح الظلام إلى المصحة، غير حفلة ببرد الشتاء،
ولا قر الصحراء؛ وهناك كانت ترشو البواب الفقير، وتجزل له العطاء، ثم تعرج إلى الطابق العلوي، فإذا لقيها بعض الخدم حفوا بها واحتفوا، فتنفح هذا قرشاً وذاك قرشين، حتى تلقى الممرضة الصغيرة الجميلة التي كانت تعرف سر قلبها وعلالةَ نفسها، فتنسى هذه كل قوانين المصحة في سبيل قوانين الحب، وتمضي بين يديها إلى غرفة نادر. . . المسلول المدنف البائس. . . فتقف لحظة خاطفة، وتستأذن. . . لتخلي الطريق المكهرب بين القلبين الحبيبين.
وكان نادر يقدر لسهام تجشمها الصعاب من أجله، وكان يلقاها دائماً بابتسامة عذبة محزونة، وعينين سادرتين مغرورقتين، وروح تكاد تثب لتلقها بذراعين من سرور!
يا لله. . . ويا للحب!!
لم يكن نادر يجهل خباثة مرضه، ولم يكن يجهل أن عدواه شديدة الفتك، وكانت سهام كنزه الروحي الذي يضمن له السعادة والأحلام، ولذلك كان يحرسها دائماً بإبعاد فمه عن ناحيتها، وكان يزوي وجهه عنها أو يدسه في منديل كلما كلمها. وكانت هي لا تبالي أن تدنوا منه لتدلل له على أنه حياتها، وأنها لا تبالي أن تصاب بمثل ما يشكو منه، وذلك من عمى الحب وجهله؛ بيد أنه كان يرجوها في حرارة أن تبتعد، فإذ لم تُصِخْ، دس رأسه بين الوسادتين، وراح ينتحب. فتشفق عليه وتبتعد.
وفُصلت الممرضة التي كانت تُسهل لها زيارة نادر لفتنةٍ شبت بين الخدم من أجل قروش سهام. . . والحق أن الرحمة بالمحبين في هذه الأماكن الخطيرة حماقة من الرحماء المشفقين!
على أن سهاماً لم تَعيَ بزيارة نادر، بل استطاعت بقروشها أيضا أن تنفذ إليه مرات ومرات!
ولم تكن سهام تجهل أن فتاها في الطور الأخير من مرضه، ولم تكن في حاجة لأن يخبرها أبوها بذلك، ولكن تلّقي الأخبار السيئة يكون جديداً كلما امتلأت به الأذن مرة بعد أخرى، وضاعف وقع الخبر في نفس سهام أن الدكتور أكّده. فلما ذهبت إلى مخدعها لتنام طفقت تتقلب في أشواك من الهموم، وفوق إبر من الأفكار السوداء التي تشبه الخفافيش.
وذهب أبوها إلى مخدعه كذلك، ولكنه ما كاد يستقر فيه حتى سمع ابنته تسعل. . . ثم تسعل. . . وهنا هاجت خلية من اليعاسيب في رأسه، فنهض من فوره وتوجه إلى غرفتها؛ ولكنه وقف عند الباب يَتسمَّع ويتسمّع. . .

(. . .أه يا نادر. . . يا حبيبي يا نادر. . . كيف أعيش بعدك يا نادر؟)
وكان الصوت ضعيفاً عميقاً يتشقق عن صدر ممزق ونفس محروبة؟
ودخل الوالد الذاهل عن نفسه فجلس بجانب ابنته على سريرها ومر بأصابعه على رأسها فأحس كأنه يحترق.
وكانت سهام ما تنفك تسعل. . . وتسعل.
ونهض أبوها فتكلم مع أحد أصدقائه الأطباء في (التليفون) فجاء على عجل. . . وزار سهاما. . . وبكل أسف كان هو نفس الدكتور الذي تسبب في فصل الممرضة من المصحة.
وداعبها الطبيب بكلمات حلوة منمقة معسولة، وخرج ولم يكلم أباها. . ولكنها سمعته يقول وهو يطوي الدرج (أنا قلت، أنا قلت. . .) فكانت حماقة أدهى من حماقة الممرضة!
(وتبسمت سهام تبسماً حزيناً، وجعلت تتمتم (نادر؟ سويا يا نادر!!).
ولما أحضرت قوارير الدواء وزجاجاته حدجتها الفتاة بنظرات الاشمئزاز ولم تذق منها جرعة!
واشتدت وطأة المرض على سهام، ولم تكن هناك وسيلة خير من انتقالها إلى المصحة، المصحة نفسها. . . ولم تشعر بغضاضة وهي تلم شعثها لتنتقل إليها، بل كانت تحس كأنها ذاهبة إلى الجنة لتلقى ثمة حبيبها الذي خيل لها كأنه دخلها منذ بعيد. . ومن العجيب أن صحتها تقدمت تقدما محسوساً في الأيام لأولى، لأن شعور الفرح والرضى لمجاورة نادر كان يغمر قلبها ويفعمه بالمسرة.
وجاءت ساعة الهول والفزع الأكبر.
أقضت سهام ليلة مقرورة ممتلئة بالوساوس؛ ولم تكن عينها تغفل قليلاً إلا لتصحوا فزعة من أحلام سوداء تتعلق بنادر. . . فلقد رأته مسجى فوق سريره، وقد تناثر الورد من حوله، ولف في ثوب حريري أبيض كبير هفهاف، ووقف عند رأسه عصفوران أبيضان يغردان تغريداً مشيجاً حزيناً. . ثم ما هي إلا لحظة حتى أغمض النائم عينيه. . . وطار العصفوران إلى السماء. . .!
وهبت سهام مذعورة. . . وآلت ن تذهب إلى نادر، وعبثاً حاولت الممرضة الطيبة الموكلة بها أن تطمئنها. . . وعبثاً حاول الخدم معاونة الممرضة في تسكين روح سهام. . . التي راحت تصرخ بملء صوتها الضعيف المحشرج. . . وهبت تناضل الجميع لتمضي إلى حيث فتاها المريض.
وجاء الطبيب. . . وفشلت كل مساعيه في إقناعها بالنوم والراحة. . . وأخيراً سمح لها. كانت تمشي ضعيفةً موهونة متثاقلة، وطوت الدرج في مشقة. . . وكانت تسعل سعالاً مؤلماً. ولما دنت من غرفة حبيبها المسكين وقفت تسترق السمع.
ثم سعال يعقبه (سهام! يا سهام! أنائمة أنت! شفاك الله ي حبيبتي! ألا (آه. . . . آه) أراك! وداعاً إذن!) وكان الصوت خشناً كأنه يخرج من بين شقي رحا!
- (نادر! ملك يا نادر!).
- (سهام!).
- (أجل! أنا سهام، مالك! أمتعب أنت؟).
- (لا، ولكني أعتب عليك، أ. . . أتنزلين. . . آه).
- (مالك يا نادر؟).
- (اذهبي إلى غرفتك فاستريحي. . . الدنيا برد. . . ارحمي نفسك. . . أنا شاكر لك. . . آه. . .).
- (بل أجلس معك يا نادر. . . مالك!).
- (لا شيء لا تنزعجي؟).
وكان الطبيب الرحيم البار ينظر إليهما ويبكي؟
- (خبرني يا حبيبي. . . أتشكو شيئاً!).
- (اطمئني يا سهام. . . يجب أن تعيشي لوالدك ولشبابك).
- (أنت تزعجني!).
- (لا تنزعجي أبداً!. . . فأنا. . .).

وضعف الصوت قليلاً. . . ثم قليلاً
- (مالك. . . مالك. . . يا دكتور، تعال. . . اكشف عليه!).
- (لا فائدة يا سهام! يجب أن تعيشي! سهام!).
- (نعم يا حبيبي!).
- (أل. . . آه. . . كم أستحي أن أقول لك؟).
- (بل قل. . . قل يا نادر!).
- (كنت حلم أن فوز منك بقبلة تنير لي طريقي إلى الدار الآخرة!).
ودنت منه، وقبل أن تهوي على فمه تقبله، انقض الدكتور فحال بينهما!؟
يا للسخف!
ولان قلب الدكتور فوضع منديله على وجه نادر، وأشار إلى الفتاة، فدنت منه. . . وطبعت عليه قبلة باكية. . . ولكنها أحست بشفتيه الباردتين المثلوجتين. . . وبحركة خاطفة رفعت المنديل وحدقت في وجه الفتى. . . ولكن. . . وا أسفاه. . . لقد فارق الحياة.
وتوجهت سهام إلى الله بنفس حزينة راضية. . . وغادرت المصحة بعد أيام، ولكن لا إلى قصر أبيها وحدائقه. . . ولا إلى أحلامها وأمانيها.
دريني خشبة
البريد الأدبي
رد وبيان - حول أغلاط مزعومة
نشرت (الرسالة) في عددها الصادر في 31 أغسطس (العدد رقم 165) مقالاً بعثت به إليها أثناء غيبتي في أوربا عنوانه (أسبوع في سبتمانيا: من ذكريات العرب والإسلام في غاليس)، عرضت فيه بعض حقائق وملاحظات أثارتها في نفسي زيارتي لسبتمانيا وقواعدها في أواخر شهر يوليه الماضي.
وقد لُفت نظري عقب عودتي بأيام قلائل إلى كلمة نشرتها إحدى الصحف السورية لكاتب يزعم أنه اكتشف في مقالي أغلاطاً شنيعة في التاريخ والجغرافيا، وينتهز الفرصة فيوجه إليَّ وإلى (الرسالة) وصاحبها فيضاً من الغمز البذيء الذي ينم في كل كلمة منه عن حقد مضطرم وسوء نية يعلم الله وحده مصدرهما والباعث عليهما.
وأنا أربأ بقلمي و (بالرسالة) عن التورط في هذا المعترك الوضيع، معترك السباب والقذف، وأكتفي بالرد على ما جاء في الكلمة خاصاً بالأغلاط المزعومة.
نقل الكاتب عبارتين من مقالي هما موضوع المناقشة، وهذه أولهما:
(ولقد كانت سبتمانيا - وهو سمها القديم، ومعناه ذات المدن السبعة - أو لانجدوك الحديثة، أول أرض إفرنجية غزها العرب عقب افتتاح الأندلس، واتخذوها قاعدة لغزواتهم في جنوب فرنسا، وجعلوها ولاية أندلسية سميت بالثغر أو الرباط لوقوعها على ساحل البحر الأحمر. . .).
وأظن أنه لا يخفى على فطنة أي قارئ أن كلمة (الأحمر) هنا إنما هي خطأ مطبعي أو سهو قلمي لا شك فيه، جاءت مكان (البحر الأبيض)؛ ولا يمكن بداهة - والمقال كله على سبتمانيا وجنوب فرنسا والأندلس - أن يخطر ببال قارئ أن كاتب هذا المقال يقع في مثل هذا الخطأ الساذج. وإذن فالجهل المقرون بسوء النية هو وحده الذي يملي على الكاتب ملاحظته الخرقاء، وقوله إني أجهل الجغرافيا، وأنتقل بالقاري من شواطئ البحر الأبيض إلى شواطئ البحر لأحمر.
وكيف يتصور إنسان سوى هذا الحاقد المصدور أن الخطأ هنا حقيقي وقد كتبتُ مسودة المقال وأنا أتجول في سبتمانيا ذاتها وعلى شواطئ البحر الأبيض نفسه؟
ومن الأسف أنه قد تسربت إلى المقال بعض أغلاط وتحريفات مطبعية أخرى، خصوصاً وأني لم أتول تصحيحه بنفسي كما عادتي نظراً لتغيبي في أوربا، وكان ثمة تحريف آخر هول في شأنه الكاتب تهويلاً سخيفاً؛ فقد نقل العبارة الآتية التي وردت أثناء حديثي عن موقعة رونشفال:
(ولرونشفل ذكرى خالدة في التاريخ والقصص الفرنسيين، فقد كانت مسرحاً للموقعة الشهيرة التي مزق فيها العرب جيش كارل الأكبر (شارلمان)، حين عوده من غزوته لأسبانيا الشمالية، التي نظم فيها رولان وصيف شارلمان أنشودته الشهيرة
والكاتب يظن أنه يقول جديداً حين ينقل إلينا من (لاروس) أن رولان ليس هو ناظم

الأنشودة، وأن ناظمها لم يعرف.
ونعود فنقول هنا إن سوء النية الذي يملي على الكاتب كل عباراته أعماه عن أن يرى في العبارة كلها ثغرة ونقصاً يقطعان بأن هناك تحريفاً؛ فقد سقطت في الواقع منها كلمات غيرت كل مبناها ومعناها؛ وقد كان النص، على ما أذكر: (وفي تلك الموقعة، وفي أبطالها الإفرنج ولا سيما هرودلاند أو رولان وصيف شارلمان نظمت الأنشودة الشهيرة) أو ما في معناه.
ومع ذلك فالحديث عن موقعة رونشفال ومصرع رولان وأنشودته يكوّن فصلاً من كتابنا (تاريخ العرب والموريسكيين في أسبانيا)؛ وقد نشر هذا الفصل فعلاً في مجلة (الهلال) الغراء في عددها الصادر في أول فبراير سنة 1934 (ص 453 وما بعدها)؛ وهذا ما ورد فيه خاصاً بهذه النقطة:
وتضع الرواية الإفرنجية تاريخ الموقعة في 18 أغسطس سنة 778 (ذي القعدة سنة 161)؛ وبينما تقنع الرواية العربية بالإشارة إليها في عبارات موجزة إذا بالرواية الإفرنجية والكنسية تفيض في تفاصيلها إفاضة ظاهرة. وأوثق وأدق الروايات الإفرنجية عنها هي رواية اينهارت مؤرخ شارلمان ومعاصره، فهو يفصل حوادثها ويذكر من هلك فيها من الأمراء والسادة، ومنهم اجهارد رئيس الخاصة، وانسلم محافظ القصر، وهرودلاند حاكم القصر البريتاني. وهرودلاند هو رولان بطل الأنشودة الشهيرة التي نظمت عن هذه الموقعة، والتي ما زالت أثراً خالداً لقريض الفروسية في العصور الوسطى؛ ذلك أن
الأسطورة اتخذت من حوادث هذه الموقعة موضوعاً لقصة حربية حماسية حرفت فيها الوقائع الأصلية أيما تحريف، ولكنها تستبقى مكان الموقعة وبعض أشخاص التاريخ.
وهي نورمانية الأصل ظهرت لأول مرة في القرن الحادي عشر أعني بعد الموقعة) بثلاثة قرون، ودونت أولاً في بعض القصص اللاتينية، ثم دونت بالنظم في قصيدة طويلة بعنوان (أنشودة رولان).
هذا ما كتبناه ونشرناه منذ أعوام عن أنشودة رولان، نكرره هنا ليعرف الكاتب أننا لسنا في حاجة إلى تصحيحاته المستقاة من معجم الأحداث.
أما كون رولان كان وصيفاً لشارلمان أم لا، فهذه نقطة لا أهمية لها، وقد كان رولان أو هرودلاند أحد البارونات الإقطاعيين؛ وكان من الشرف الملوكي يومئذ أن يلتحق البارونات بمناصب الوصفاء في البلاط، وكان هرودلاند من هؤلاء.
وبعد، فهذا ما يزعم الكاتب أنه أخطاء شنيعة اكتشفها في مقالنا، وهذا ما يريد أن يتخذه تكأة للتعريض بنا وبالكتاب المصريين والأدب المصري.
وهذه نغمة نعرفها؛ وقد نعرف الباعث عليها.
بيد أن الكاتب يوهم إذ يحسب أنه يستطيع أن ينال منا بمثل هذا الإسفاف.
أما إشارته إلى كتابنا (ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى) فنكتفي بأن نرد عليه بأن المراجع التي ذيلنا بها كل فصل من فصوله تكفي لأن تخرس ألسنة السفهاء والمتحاملين.
محمد عبد الله عنان
الجاحظ في كتاب (تراث الإسلام)
نشرت (الرسالة) الغراء منذ عددين استهلال فصل الفلسفة والإلهيات في كتاب (تراث الإسلام) ورد فيه كلام للجاحظ يتضمن الاعتراف بفضل الفكر اليوناني على أهل الملة الإسلامية؛ ثم نشرت في العدد المضي مقالاً للأديب الكريم محمد طه الحاجري أثبت فيه نص الجاحظ وذكر الكتاب الذي ورد فيه هذا النص.
والذي سيطلعون على فصل الفلسفة والإلهيات في هذا الكتاب سيعرفون من تعليقاتي الجهد الشاق الذي تحملته في البحث عن النصوص التي وردت فيه، ولا سيما أن المؤلف كان في
أكثر هذه النصوص لا يشير إلى المراجع التي استقاها منها.
والقراء يعرفون أن الجاحظ قد ألف العديد من الكتب والرسائل وأنه كان يتناول في الكتاب الواحد موضوعات شتى واتجاهات متباينة قد لا يربطها عنوان الكتاب. فمعرفة نص له في كتاب مجهول الاسم أمر عسير كل العسر. ومع ذلك فقد حاولت جهد الطاقة أن أعرف الكتاب الذي ورد فيه هذا النص فلم أوفق؛ فاتصلت بالأستاذ جيوم

مؤلف الفصل - في إنجلترا - لعله يهديني إلى الكتاب الذي ورد فيه النص، فرد معتذراً بنسيان المصدر. . . ولما كنت أعلم أن لهذا النص خطره من حيث إنه يحمل اعترافاً له قيمته العلمية فقد تعمدت أن أثبت في ذيل الصفحة التي ورد فيها كلام الجاحظ تعليقاً أوردت فيه نصوصاً لعلماء المسلمين وفلاسفتهم (كالشهر ستاني، وابن خلدون، وابن سبعين) وكلها تؤيد هذه النظرة التي ذهب إليها الجاحظ.

ويستنكر الأديب الكريم من المؤلف استشهاده بهذا النص على أن الفلسفة العربية ليست إلا صورة من الفلسفة اليونانية مشوبة ببعض الفلسفات الفارسية والهندية.

وهذه ملحوظة لم أهمل الالتفات إليها والرد عليها في تعليق آخر قد نشرته الرسالة مع المقال وذكرت فيه آراء بعض مؤرخي الفلسفة الإسلامية من علماء الغرب وانتهيت إلى تقرير الرأي بأن للفلسفة الإسلامية كياناً خاصاً يميزها من غيرها من سائر الفلسفات لأن ثمرات من عبقرية أهلها.

على أن هذا الرأي لا ينفي القول بأن الجاحظ وغير الجاحظ من علماء المسلمين وفلاسفتهم قد اعترفوا بما كان لليونان من فضل على أهل الملة الإسلامية؛ بل أسرف أكثرهم فعزا إليهم الفلسفة الإسلامية في شتى آفاقها.

وإني لأشكر للأديب الكريم اهتمامه بالأمر ومسارعته بالرد؛ فلو تأخر رده أسبوعاً واحداً لكان الكتاب في أيدي قرائه. وتعذر علينا تبليغ النص إليهم.

توفيق الطويل

عضو لجنة الجامعيين لنشر العلم

هل للشاعرة ما للشاعر من الحرية في التعبير الشعري؟

حول رسالة آنسة

قلت في إحدى مقالات (شعراء الموسم في الميزان) أثناء نقد قصيدة السيدة منيرة توفيق: (والمرأة المصرية تستمد صمتها من أبي الهول، ولا أعني إلا الإمساك عن التعبير عن الإحساس والعواطف تعبيراً صادقاً؛ فمن شعرت من بنات مصر فإنما تقول في الأخلاق والنصائح، متجاوزة خوالج النفس ودقائق الحس، لأن طبعها الصموت الحي يأبى الحديث عنها، وأعتقد أنها لو فعلت، وكانت موهوبة التعبير والأداء لأتت بالغرائب).

ومنذ أيام وردت إلي هذه الرسالة في بريد (الرسالة)، وهي بعد الديباجة:

طالعتني الرسالة في عددها - 162 - بكلمتكم الغراء عن المرأة المصرية وتنحيها عن التعبير الشعري في ميادين الأدب بإحساس النفس وخوالجها.

أقول الشعر بالسليقة ثم أخذته دراسة لميلي الفطري، ولدي الكثير في الغزل والوصف والرثاء والحماسة إلى غيره من أبواب الشعر ولكني لا أجرؤ على نشره؛ وقد دفعتني كلمتكم إلى إرفاق مقطوعات من بعض ما لدي دفاعاً عن المرأة المصرية. فإن استشعر أستاذي فيها خيراً أقبلت على النشر وواليت الإنتاج.

أنتظر رأيكم على صفحات (الرسالة) وكم في (الكنانة) من مثيلاتي؛ وتنازل بقبول أسمى تحياتي.

ف. ع. ح آنسة

فهذه الآنسة، وإن كانت تعبر عن إحساسها لا تجرؤ على نشر ما تقول، كما تقول، وتدفع عن المرأة المصرية تهمة القصور باطلاعنا على قطع من شعرها أكثرها في الغزل. . . ونسوق إلى القارئ منه شيئاً:

تقول في أبيات عنوانها (سهام):

كان الفؤاد يقول لو ذقت الهوى ... ونعمت حيناً مثل من ناجى اللوى
ظن الغرام عادة لم يدر ما ... يخفيه من ليل المحب وما طوى
ذكر اللقاء وما به من لذة ... لكنه جهل الصبابة والنوى
فنصحت مهلاً يا فؤادي واتئد ... ليس الغرام كما ظننت بما احتوى
لكنه ما يرعوى عن غيه ... ومضى به شوق الغرام إلى الهوى
والآن من سهم اللحاظ معذب ... قد ذاب من وله يود لو ارعوى

وهذه جرأة نجرؤ على أن نقول إن فيها كسباً جديداً للأدب، فإذا كان الشعر يستمد أكثر ما يستمد من العاطفة، فالمرأة هي العاطفة، وهي تلهم الرجل الشعر، فإذ تشعر هي فإنما تنفق عن سعة وتتدفق من معين.

والحق أن المرأة إنما تحجم عن هذا الميدان لأنها تخشى إنكار لرجل عليها، فهي لا

تقول الشعر المعبر عن حقائق نفسها لأنها ترى أنها ستقوله لنفسها، فتؤثر الصمت؛ ولعل رسائل الحب الخاصة أفسح مجال لها، فهي تحسن فيها وتبدع، فلو أتيح لها أن تظهر في حلبة الشعر مطلقة الحرية في التعبير لبذت وفاقت.

وبعد، فإلى الآنسة (ف. ع. ح) يساق الحديث:

أشكرك على خطابك الرقيق، وأحيي فيك هبة الشعر التي تبدو فيما بعثت به، وإن كان يعوزه الشيء الكثير من سلامة الأسلوب ومتانة النسج وصحة المعاني، وترتيب الأفكار. ولعل ما قرأته في نقدنا للشعراء يهون عليك وقع هذا الكلام، فقد عاهدنا الحق أن نسلك سبيله لا نحيد عنه. وإن كان هذا بدء معالجتك لقرض الشعر فهو يبشر بالإجادة؛ فأحب لك الآن أن تقبلي على المطالعة والدراسة أكثر مما تقبلين على الإنتاج والنشر.

عباس حسان خضر

عيد جوسلين وذكرى لامارتين

في أوائل شهر سبتمبر أقيم في مدينة ماكون بفرنسا عيد أدبي مؤثر؛ وماكون هي مسقط رأس الفونس دي لامارتين ومرتع طفولته وحداثته؛ ولكن العيد الأدبي الذي أقيم بها لم يكن خاصاً بشخص لامرتين، بل بإحدى منظوماته الشعرية الشهيرة، ونعني (جوسلين) التي مضى على صدورها مائة عام.

احتفل إذن بالعيد المئوي (لجوسلين) في ماكون، وأثيرت ذكرى الشاعر الكبير، ورأس هذه لحفلات المؤثرة مسيو هنري بوردو عضو الأكاديمية الفرنسية، وكان من ضمنها حج أصدقاء الشاعر إلى ضيعته (ميلي) التي قضى فيها أعذب أعوامه وشاد بذكرها في (مذكراته)، وإلى قصر سان بوان حيث قضى أعوام مجده، ثم إلى قصر مونصو حيث قضى أعوامه الأخيرة في غمر من البؤس والنسيان.

ما منظومته (جوسلين) التي عرفت أيام صدورها منذ مائة عام أعظم ظفر أدبي يمكن تصوره فتكاد تنسى اليوم إلى جانب منظومات وروايات أخرى للامارتين؛ ذلك أنها لم تكن خير ما نظم من حيث الصناعة والصقل، ولكنها كانت من أبدع ما نظم من حيث الروح، والقوة، والطابع الغنائي.

وجوسلين قصة شعرية كبيرة في أكثر من ثمانية آلاف بيت، وكانت حسبما يريد ناظمها أول قسم من ديوان شعري ضخم يسمى (الرؤى) وبطلها جوسلين وهوفتي يتيم وولد قروية فقيرة، حملته ظروف الأسرة على الالتحاق بمدرسة الكهنة على رغم إرادته؛ وكان ذلك أيام الثورة، فلم يلبث أن طرد من المعهد قبل إتمام دروسه؛ وعندئذ فر إلى الجبال ليتقي المطاردة التي كان يعرض إليها رجال الدين يومئذ، وعاش في كهف في الجبال، وعطف عليه راع كان يمده خفية بالطعام والشراب.

وفي ذات يوم رأى جوسلين شيخاً وفتى يطاردهما القتلة فتقدم لعونهما، وأسلمه الشيخ فتاه، ولكن لم ينج من رصاص لقتلة فخر قتيلاً، بينما التجأ ولده ناجياً إلى كهف جوسلين.

وعاش جوسلين مع هذا الفتى الحدث في وئام وحب أخوي؛ ولكن حدث ذات يوم أثناء هبوب العاصفة أن جرح الفتى، ولاحظ جوسلين دهشاً مرتاعاً، أثناء العناية به، أن يعني بفتاة لا بفتى، فعندئذ هام جوسلين بالفتاة (لورانس)، وأخذ يحلم بالاقتران به.

ولكن الدهر لم يلبث أن فرق بينهما. ذلك أن جوسلين دعاه أسقفه ومربيه وهو على أهبة الموت ليقوم له بالواجبات الأخيرة، ولم ير جوسلين بداً من قبول التضحية، فهرول إلى الأسقف، وقام بواجبه. وفي أثناء ذلك تركت لورانس العنان لأهوائها وغدت فتاة خاطئة، ودارت الأيام دورتها، فالتقى جوسلين ثانية بلورانس يطلب إليها الصفح ويحمل إليها الغفران.

تلك هي خلاصة (جوسلين) والمعروف أنها صورة لقصة واقعة بطلها راهب من أصدقاء الشاعر يدعى الأب (دومون)، كان من رجال الدين أيام الثورة، فعهد إليه ذات يوم أحد أصدقائه الأشراف بصغرى بناته لكي ينقذها من خطر السجن والإعدام فهام كل منهما بالآخر، وأثمر الحب ابنة سميت الآنسة ميلي؛ وعاش القس محترماً مبجلاً يزاول مهنته بعطف ورقة حتى توفي؛ ونظم لامارتين فيه قصيدة مؤثرة؛ وما زال قبره في تلك الأنحاء يعرف بقبر (جوسلين) بطل منظومة لامارتين.

من أرض البكم

صدر أخيراً بالألمانية كتاب عنوانه (من أرض البكم) بقلم الكسندرا آنسروفا: وأرض البكم هي سجون روسيا السوفيتية ومعاقلها التي خصصت لنفي الأحياء وإخراس الألسن؛ والكسندرا آنسروفا هي نبيلة من نبيلات روسيا القيصرية، كانت أيام الثورة فتاة في السادسة عشرة، فقبض عليها البلاشفة وزجوها إلى السجن بين من زج من النبلاء والنبيلات؛ وما زالت الكسندرا تتقلب من سجن إلى سجن ومن منفى إلى منفى بلا تهمة ولا ذنب معين إلا أنها من النبيلات، وتعاني أروع الآلام المادية والمعنوية، تارة في جزر البحر الأبيض الشمالي، وتارة في سيبيريا حتى سنة 1932؛ وعندئذ أفرج عنها بعد اعتقال دام نحو خمسة عشر عاماً، وبعد أن ظهرت براءتها ناصعة؛ فلبثت في موسكو مدى عامين تدون مذكراتها عن (أرض البكم) ثم غادرت بعد ذلك موسكو إلى ألمانيا، وهنالك نشرت كتابها المذكور.

والكتاب يصف السجون والمعاقل الروسية في عهد البلاشفة وصفاً دقيقاً مروعاً، ومنه يتبين أنها ليست في العهد الحالي أقل شناعة وروعة منها أيام القياصرة؛ وفي الكتاب ملاحظات وحقائق غريبة عن الحياة الجديدة في روسي البلشفية.

الثقافة الألمانية في عصر النازي

نشرت الكاتبة الأمريكية دوروثي تومبسون في مجلة (الشؤون الخارجية) الأمريكية مقالاً عن (الثقافة في عصر النازي) استعرضت فيه خواص الحركة الأدبية والثقافية في ألمانيا الحاضرة، ومما قالته إن العالم الخارجي يدهش اليوم لأن أصوات الكتاب الألمان لا تسمع، ولأنهم رضوا طائعين أن يكونوا آلة صماء للسياسة والوحي السياسي، ولكن الحقيقة أن هنالك مبررات قوية لهذا الخضوع المطبق؛ ذلك أن الحركة الفكرية والثقافة كلها قد وضعت في ألمانيا الحاضرة تحت نظام حديدي مطلق، ومن المستحيل اليوم أن يصدر في ألمانيا كتاب أو نشرة ديموقراطية أو اشتراكية، أو أدب يصطبغ بالصبغة الدولية مخالفاً للنزعة القومية الداخلية. وقانون الصحافة الجديد قوامه عصبة من الكتاب المتعصبين لنظريات الجنس هم أعضاء جمعية الصحافة القومية، ولهم وحدهم الحق في الكتابة تحت الرقابة الحزبية، ويعاقب من يخرج منهم على قانون الجمعية أو على مبادئها بالحبس سنة؛ وكل ناشر يشجع كاتباً ليس ملتحقاً بجمعية الصحافة وينشر له شيئاً يعاقب بالحبس والغرامة وكل ما يكتب تفرض عليه رقابة صارمة؛ وتخضع الحركة الفنية لمثل هذا النظام الحديدي؛ وترى مس تومبسون أن ما يسود الحركة الثقافية اليوم من تلون ونفاق أساسه الاضطهاد والخوف يجعلها في نظر العالم المتمدن مأساة مروعة تفوق تلك المأساة التي يعرضها الكتاب المنفيون أنفسهم؛ فبين أولئك المنفيين اليوم أعظم كتاب ألمانيا المعاصرة مثل توماس مان، وأخيه هينريش، وأرنولد زفايغ، وأريك ريمارك، وطائفة أخرى من أقطاب الكتاب اليهود.

والأدب الألماني يصدر اليوم في ظل النازي بكثرة، ولكنه أدب محتضر تنقصه روح الابتكار، وينتظر زعماء النازي عبثاً ظهور العبقريات الأدبية الممتازة. ذلك أن حرية الفكر هي روح كل أدب وفن؛ وما دام التفكير مصفداً والآراء مملاة، فسوف يكون ثمة أدب وثمة كتب ومجلات، ولكن لن يكون ثمة أدب جميل أو رفيع؛ وسيكون ثمة كتاب، ولكن كتاب محترفون أرقاء.

دائرة معارف للجنس الأسود

سيكون للسود في القريب العاجل دائرة معارف خاصة تتحدث عن كل ما يتعلق بهم من الخواص الجنسية والشؤون السياسية والاجتماعية، والتاريخ والمدنية؛ وتعد هذه الموسوعة الجديدة الآن في أمريكا؛ وقد وضع المشروع منذ سنة 1932، وانتخب لرآسة اللجنة المشرفة على تنفيذه زعيم السود الدكتور دي بوا أستاذ علم الاجتماع في جامعة اتلانتا؛ وتشمل اللجنة ممثلين لجمعية تقدم العلوم الأفريقية، ومجلس الجمعيات العلمية الأمريكية ولجنة التعاون الدولي؛ وستعنى الموسوعة بالتحدث عن جميع أطوار حياة الجنس الأسود وتاريخه ومدنيته، سواء في إفريقية أو أمريكا؛ وسيكون لهذه الموسوعة الطريفة شأن عظيم في دوائر الأدب والسياسة والاجتماع؛ وسيعطى لها اسم (موسوعة الرجل الأسود)

مذكرات ملوكية

صدرت أخيراً ترجمة إنكليزية لمذكرات الأميرة أولاليا الأسبانية، وهي ابنة الملكة إيزابيلا وعمة الفونسو ملك أسبانيا السابق؛ وتشغل هذه المذكرات زهاء سبعين عاماً تنتهي بقيام الجمهورية في أسبانيا سنة 1931؛ وتتضمن أخباراً وقصصاً ونبذاً كثيرة عن معظم الحوادث التي تمس أسبانيا، وعن جميع القصور الأوربية التي تتصل الأميرة أولاليا بمعظمها بصلة القرابة؛ وتبسط الأميرة بنوع خاص الأسباب والعوامل التي أدت إلى سقوط الملكية الأسبانية، والتي شرحتها غير مرة للأسرة المالكة، ولم يحفل بنذيرها إنسان. كذلك تتضمن المذكرات نبذاً كثيرة عن عظماء هذا العصر الذين اتصلوا بالبلاط الأسباني.

الكتب

رسائل الأهالي

على طريق الهند

للأستاذ عبد الفتاح السرنجاوي

رسالة قيمة أخرجتها إلى شباب الشرق جريدة الأهالي التي كانت تصدر في بغداد وعُطلت وا أسفاه منذ طويل، وهي بحث علمي قوي رجع كاتبه الفاضل فيه إلى أكثر من تسعين مرجعاً من السجلات والمحفوظات الرسمية والأوراق البرلمانية وتقارير الخبراء العسكريين والدبلوماسيين ونصوص المعاهدات، وكتب المؤلفين المهتمين بدراسة شؤون الشرق أمثال أندريو وبوشام وتشرشل وكرزون وفوكس ومون وإسكويث والسير وليم ولكوكس والسير ارنولد ولسون وغيرهم.

وقد تبدأ هذه الرسالة بمقدمة جغرافية عن أهمية الخليج الفارسي وسواحله العربية والفارسية والشمالية، ثم يجاوز الكاتب هذا إلى كلام في تاريخ الخليج، ثم يثبت أن المصالح المادية وتجارة أوربا مع الشرق كانت سابقة للأطماع السياسية، وينتهي إلى أن الإنجليز إنما سيطروا على الخليج الفارسي في سبيل الهند موضحاً أهمية الهند للرأسمالية الإنجليزية وكاشفاً في قوة وجرأة عن سياسة هذه الرأسمالية واستخدامها الهنود لمصلحة الاستعمار وارتكابها الأخطاء الوحشية في سبيل تحقيق ذلك كله. ويرى الكاتب الفاضل أن وادي الفرات أقرب الطرق إلى الهند؛ ويشرح موقف إنجلترا إزاء المسألة الشرقية، واهتمامها بطريق السويس والفرات؛ ويبين ما نشأ من نزاع بين الرأسمالية الدولية من أجل سكة حديد بغداد حتى قيام الحرب العالمية.

ويرى كاتب الرسالة فوق ما تقدم أن الثورة الصناعية جعلت الإنجليز في حاجة إلى كثير من المواد الغفل، وقد يكون اهتمامهم بالعرق لأنها طريق الهند أولاً ولأنها أيضاً حقلٌ يستطيعون أن يحصلوا منه على القطن والحبوب، وتفسير ذلك اهتمام الإنجليز بمشروعات الري العراقية التي أسفرت عن فشل مروّع. ثم يشير إلى مرحلة أخرى كشف فيها النفط ودعي الجنرال فيشر إلى الاستعاضة به عن الفحم وما بذلته إنجلترا في سبيل تأسيس الشركات وعقد الصفقات والمقاولات حتى سنة 1931.

وينتقل إلى أن الحالة السياسية كان لها أثرها في علاقات الإنجليز بالشرق، فقد قامت النهضة التركية وسيقت تركيا لإعلان الحرب وتقاسم الاستعماريون أملاكها، ثم كان أخيراً انتصار مصطفى كمال والقضاء على الأطماع البريطانية في تركيا ذاتها.

كذلك ظهر السيد جمال الدين الأفغاني ونشر آراءه الحرة في إيران فقامت حركات دستورية واضطرابات عنيفة سنة 1905 و 1908. ثم قامت الحركة الوطنية بعد 1917. فخذلت الاستعمار البريطاني ونصَّبت رضا شاه بهلوي ملكاً على إيران الجديدة.

كذلك قاتل الأفغان ضد الاستعمار تحت راية أمان الله حتى الحرب العامة التي أعلن أمان الله بعدها الاستقلال وأسس العلاقات السياسية مع روسيا. ثم جاوز هذا حرب الإنجليز وعقد معهم صلح (راوال بندي)، وسار في سبيل الإصلاح الداخلي والنهوض بالأفغان حتى قامت عليه الثورة المدبرة التي أنزلته عن عرشه وأجلست مكانه نادر شاه.

وتشير الرسالة إلى بوادر ليقظة في الهند بعد فظائع الاستعمار البريطاني مما أدّى إلى عقد المؤتمر الوطني الهندي ونجاحه في الدعوة إلى الثورة في وجه الإنجليز حتى سنة 1912، ثم اقتربت الحرب العظمى فاستملت إنجلترا الهنود لتضمهم إلى صفوفها. وبعد انتهاء الحرب عمد الإنجليز إلى إصلاحات سنة 1919 ثم قامت الحركة

الوطنية بزعامة غاندي فحكم عليه وانقسمت الجبهة الوطنية ودارت مفاوضات مؤتمر الطاولة المستديرة وانتهى الأمر بتخاذل غاندي وانصرافه عن قضية الوطن الهندي إلى قضية المنبوذين.

كذلك مصر قامت فيها حركة وطنية بدأها محمد علي الكبير ورعاها إسماعيل والطبقة الأرستقراطية؛ وهنا يناقش الكاتب الوضع الاقتصادي للبلاد، ويتتبع أدوار الوطنية التقليدية على يد عرابي ومصطفى كامل وسعد زغلول، ويبين كيف أن اتحاد الجهات العليا مع الإنجليز، وتآمر الأرستقراطيين مع السياسة الاستعمارية جعل الوطنية التقليدية على وشك الزوال. ذلك ختام الفصل الذي تعرضت فيه الرسالة لمصر. على أن ما شهده العالم من تضحيات الشباب المصري، وتكوين الجبهة الوطنية ممثلة جميع الأحزاب، وعقد معاهدة 1936، لا شك يجعل الوطنية التقليدية التي شار إليها الكاتب الفاضل تدخل في دور جديد يُقضى فيه على مساومة المستعمرين وخذلان قضية الوطن برعاية مصالح الطبقة الخاصة.

ثم يناقش الكاتب الفاضل بعد هذا تعاون روسيا السوفيتية مع الشرقين الأوسط والأدنى، وإلغاء الامتيازات، وعقد المعاهدات مع تركيا وإيران وأفغانستان، وتكوين الجبهة الشرقية ضد الاستعمار، وما كان فوق ذلك من أثر النظام السوفيتي في حكومة تركيا الجمهورية مستدلاً بمشروع السنوات الخمس التركي.

ويبحث الفصل الأخير من فصول هذه الرسالة القيمة في النزاع الاستعماري في الشرق الأدنى وكيف أن الإنجليز يستعينون بأمراء العرب ضد الوحدة الإسلامية، وكيف أن سياستهم قد انخذلت في الشرق بعد الانقلاب الروسي، فعمدت إنجلترا إلى سياسة جديدة هي مفاوضة فرنسا وعقد المؤتمرات لتوزيع العروش والتيجان، وبذلك حكمت جبهة الدفاع في البلاد العربية واتخذت العرق مقراً لها. وأخيراً يشير إلى المعاهدة العراقية الإنجليزية ويرى أن الخلاص لا يكون إلا بالانتباه إلى مكائد الاستعمار للعراقيين ولشعوب الشرق على حد سواء، وبالاستفادة من موقع العراق الخطير على إنقاذ أنفسهم من ويلات المستعمرين، وأن يتذكروا دائماً أن خلاصهم من الاستعمار منوط بتعاون شعوب الشرق كافة وبزوال الاستعمار من جميع البلاد الشرقية.

ذلك نموذج سام للكتابة القومية الشرقية التي لا يختص بها قطر دون آخر من بلاد الشرق، والتي تريد أن تجعل من الشرق بأسره جبهة قوية في وجه الاستعمار. والواقع أن الشعوب المغلوبة على أمرها في أشد الحاجة إلى مثل هذه الكتابة الشعبية التي تنير لها سبل الحياة الحرة وتشعرها بما ينصب فوق رأسها من إرهاق وعسف؛ ذلك هو الأدب الحي الذي يقلب أوضاع الجماعات ويهدم الفاسد من أنظمة الحكم ليقيم محلها أنظمة صالحة تنفذها حكومات صالحة تعمل لصالح المحكومين وتستمد منهم وجودها وقوتها، والشرق العربي والطوراني ظلاً طويلاً مسخرين لصالح الحاكمين والمستعمرين الذين أذلوا الجماعات، ووقفوا في سبيل إظهار مواهب الفرد وقوته، وحالوا دون أن يعمل لصالح الجماعة التي يعيش فيها. ورسائل الأهالي التي نحن بصددها كتابة شعبية صريحة كتبتها أقلام جريئة قوية لا تخشى في الحق لومة لائم ووجهتها إلى شباب الشرق تثير فيه الحماسة وتذكي جذوة القومية الشرقية العزيزة وتجلي عن ويلات الاستعمار ومساوئه وتفتح عين الشرق على خير وسائل الخلاص، وهذه الأقلام المخلصة لا ريب حقيقة بالتعظيم والتقدير.

عبد الفتاح السرنجاوي

مدرس التاريخ بمعهد القاهرة

العدد 170 - بتاريخ: 05 - 10 - 1936

سعد زغلول

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

وقال صاحب سرّ (م) باشا: ألقى إليّ الباشا ذات يوم أن (سعداً) مصَبِّحُنا زائراً، وكانت بين الرجُلين خاصة وأسباب وطيدة. وللباشا موقع أعرفه من نفس سعد كما أعرف الشعلة في بركانها؛ أما سعد فكان قد انتهى إلى النهاية التي جعلته رجلاً في إحدى يديه السّحر وفي الأخرى المعجزة، فهو من عظماء هذه البلاد كقاموس اللغة من كلمات اللغة يردُّ كلَّ مفردٍ إليه في تعريفه، ولا تصح الكلمة عند أحدٍ إلا إذا كانت فيه الشهادة على صحتها.

وجاءنا سعدُ غُدْوَةً فأسرعتُ إلى تقبيل يده قبلةً لا تشبهها القبلات، إذ مُثلت لي من فرحها كأنها كانت منفية ورجعت إلى وطنها العزيز حين وُضعت على تلك اليد. إن ابن الرجل العظيم إذا كان باراً بأبيه عارفاً قدره مدركاً عظمته، يشعر حين يقبِّل يده كأنه يسجد بروحه سجدة لله على تلك اليد التي يقبلها، ويجد في نفسه اتصالاً كهربائيا بين قلبه وبين سرّ وجوده، ويَخُصُّه العالم بلمسة كأن قُبلتَه نبضت في الكون؛ وكل هذا قد أحسسته أنا في تقبيلي يد سعد، وزدت عليه شعوري بمثل المعنى الذي يكون في نفس البطل حين يقبل سيفه المنتصر.

وضحك لي سعد باشا ضحكته المعروفة التي يبدأها فمه، وتتممها عيناه، ويشرحها وجهه كلُّه، فتجد جوابها في روحك كأنه في روحك ألقاها.

والرجل من الناس إذا نظر إلى سعد وهو يتبسم، رأى له ابتسامةً كأنها كمال يتواضع، فيُحس كأن شيئاً غير طبيعي يتصل منه بشيء طبيعي، فينتعش ويثب في وجوده الروحي وثبةً عالية تكون فرحاً أو طرباً أو إعجاباً أو خشوعاً أو كلَّها معاً. غير أن الرجل من الحكماء إذا تأمل وجه سعد وهو يضحك ضحكته المطمئنة المتمكنة من معناها المقِر أو المنكِر أو الساخر أو أيِّ المعاني - حسب نفسَه يرى شكلاً من القول لا من الضحك، وظهرت له تلك الابتسامة الفلسفية متكلمة كأنها مرة تقول هذا حقيقي، ومرة تقول هذا غير حقيقي.

إن سعداً العظيم كان رجلاً ما نظر إليه وطنيٌّ إلا بعين فيها دلائل أحلامها، كأنما هو شخص فكرة لا شخص إنسان؛ فإذا أنت رأيته كان في فكرك قبل أن يكون في نظرك، فأنت تَشهده بنظرين: أحدهما هذا الذي تُبصِر به والآخر ذاك الذي تؤمن به.

عبقريٌّ كالجمرة الملتهبة لا تحسبه يعيش بل يحترق ويُحرق؛ ثائرٌ كالزلزلة فهو أبداً يرتجُّ وهو أبداً يَرُجُّ ما حوله؛ صريح كصراحة الرسُل، تلك التي معناها أن الأخلاق تقول كلمتها.

رجلُ الشعب الذي يُحس كلُّ مصري أنه يملك فيه مِلكا من المجد. وقد بلغ في بعض مواقفه مبلغ الشريعة فاستطاع أن يقول للناس: ضعوا هذا المعنى في الحياة، وانزعوا هذا المعنى من الحياة.

قال صاحب السر: وانقضت الزيارة وخرج سعد والباشا إلى يساره، فلما رجع من وداعه قال لي: والله يا بني لكأنما زاد هذا الرجل في ألقاب الدولة لقباً جديداً؛ ثم ضحك وقال: أتدري ما هو هذا اللقب؟ قلت: فما هو يا باشا؟

قال: والله يا بني ما من (باشا) في هذه الدولة يكون إلى جانب سعد إلا وهو يشعر أن رتبته (نصف باشا) . . .

هذا رجل قد بلغ من العظمة مبلغاً تصاغر معه الكبير، وتضاءل العظيم، وتقاصر الشامخ؛ نعم وحتى ترك أقواماً من خصومه العظماء كفلان وفلان وإن الواحد منهم ليلوح للشعب من فراغه وضعفِه وتَطَرُّحه كأنه ظلٌّ رجلٍ لا رجل.

وقد أصبح قوةً عاملة لا بد من فعلها في كل حيّ تحت هذا الأفق حتى كأنَّ معاني نفسه الكبيرة تنتشر في الهواء على الناس فهو قوة مرسلة لا تُمسك، ماضية لا تُرد، مقدورة لا يحتال لها بحيلة.

هذا وضع إلهي خاص لا يشبه أحد في هذه الأمة كميدان الحرب لا تشبهه الأمكنة الأخرى؛ فقد غامر سعد في الثورة العرابية وخرج منها ولكنها هي لم تخرج منه بل بقيت فيه. بقيت فيه تتعلم القانون والسياسة وتُصلح أغلاطها ثم ظهرت منه في شكلها القانوني الدقيق. وبهذا تراه يغمُر الرجال مهما كانوا أذكياء لأن فيه ما ليس فيهم؛ وتراهم يظهرون إلى جانبه أشياء ثابتة في معانيها، أما هو فتراه من جميع نواحيه يتلاطم كالأمواج العاتية.

وتلك الثورة هي التي تتكلم في فمه أحياناً فتجعل لبعض كلماته قوة كقوة النصر وشهرة كشهرة موقعة حربية مذكورة.

ولما كان هو المختار ليكون أباً للثورة - حرمته القدرة الإلهية النسل وصرفت نزعة الأبوة فيه إلى أعماله التاريخية، ففيها عنايته وقلبُه وهمومُه، وهي نسل حيٌّ من روحه، ويكاد معها يكون أسداً يزأرُ حول أشباله.

ولن يُذكَر السياسيون المصريون مع سعد، ولن يذكر سعد نفسُه إذا انقلب سياسياً، فإن المكانَ الخالي في الطبيعة الآن هو مكان رجل المقاومة لا رجل السياسة. وهذا

هو السبب في أن سعدا يُشْعِر الأمة بوجوده لذةً كلذة الفوز والانتصار وإن لم يفز بشيء ولم ينتصر على شيء؛ فاطمئنان الشعب إلى زعيم المقاومة هو بطبيعته كاطمئنان حامل السلاح إلى سلاحه.

وسعد وحده هو الذي أفلح في ن يكون أستاذ المقاومة لهذه الأمة، فنسخ قوانين وأوجد قوانين، وحمل الشعب على الإعجاب بأعماله العظيمة، فنبَّه فيه قوةَ الإحساس بالعظمة فجعله عظيماً، وصرفه بالمعاني الكبيرة عن الصغائر، فدفعه إلى طريق مستقبله يُبدع إبداعه فيه.

إن هذا الشرق لا يحيا بالسياسة، ولكن بالمقاومة مادام ذلك الغربُ بازائه؛ والفريسة لا تتخلص من الحلق الوحشيّ إلا باعتراض عظامها الصُّلبة القوية.

وكم في الشرق من سياسي كبير يجعلونه وزيراً فتكون الوظيفة هي الوزير لا نفس الوزير، حتى لو خلعوا ثيابه على خشبة ونصَّبوها في كرسيه لكانت أكثر نفعاً منه للأمة بأنها أقل شراً منه. . . .

يا بني كل الناس يرضون أن يتمتعوا بالمال والجاه والسيادة والحكم، فليست هذه هي مسألة الشرق، ولكن المسألة: من هو النبي السياسيُّ الذي يرضى أن يُصْلَب. . . .؟

(طنطا)

مصطفى صادق الرافعي

صور سياحة

صروح باريس وطرف من معالمها وآثارها - 2

بقلم سائح متجول

دار الحديث على ظهر السفينة بيني وبين صديق ممن درسوا في باريس وعرفوا كثيراً من معالمها وأحوالها، فقال لي حين أعربت له عن آرائي في باريس ومجتمعاتها وخواص حياتها الاجتماعية: (خذ باريس وحده، واترك من فيها).

وهي تفرقة في موضعها؛ ففرق بين باريس العاصمة التالدة التي تزخر بالربوع والمعاهد الأثرية والعلمية الجليلة، وبين المجتمع الباريزي وخلاله ومظاهر حياته.

وسنخص باريس بالحديث في هذا الفصل، ونحاول أن نعرض لمحة من معالمها ومعاهدها وآثارها العظيمة.

باريس عاصمة القرون والأجيال المتعاقبة؛ وإنك لتلمح في ربوعها ومعاهدها هذا التعاقب في القرون والأجيال، فمن آثار رومانية وقوطية، إلى آثار العصور الوسطى، ثم عصور الملكية الزاهرة وآثار الثورة ثم الإمبراطورية والعصر الحديث؛ وهذه الأجيال المتعاقبة هي فخر العاصمة الفرنسية، وتراثها من أجل ما عرفت الأمم والعواصم التالدة.

وهذا التعاقب في العصور ظاهر الأثر في باريس وفي أحيائها، فباريس مدينة عظيمة شاسعة الأرجاء ولكنها تبدو كأنها عدة مدن متباينة شيدت في عصور وظروف مختلفة؛ فمن أحياء قديمة تغص بالشوارع الضيقة والمباني العتيقة وتحمل أسماء تاريخية لا شك في قدمها، ومن أحياء جديدة تلمح أثر التجديد في شوارعها وميادينها الشاسعة، ومن أحياء مزجت بين القديم والجديد؛ وهذا التباين في تخطيط العاصمة الفرنسية وفي أحيائها يجعل منها مدينة قليلة التجانس والتناسق، بيد أن مسحة من الجلال والعظمة تطبع هذه المجموعة الضخمة المتباينة من المعالم والربوع.

وفي باريس من المشاهد التاريخية الجليلة ومن المواطن والأحياء العظيمة ما يقتضي وصفه فصولاً بأسرها؛ ولقد خصت هذه المواطن ببعض الكتب الساحرة من قلم المؤرخ لينوتر وغيره؛ وسنحاول أن نمر مسرعين بطائفة من هذه المشاهد والمواطن التي كتب عنها الكثيرون من قبل.

ن أروع المشاهد التاريخية الباريزية في نظرنا هو قصر اللوفر وذخائره الفنية الجليلة؛ فهذا القصر القديم الذي يجثم كالخلود على ضفاف السين، يمثل أجيالاً من عظمة فرنسا وعظمة الملوكية الفرنسية، وفي أبهاء اللوفر وقاعاته الرائعة تذكر عصور آل فالوا وآل بوربون: عصور فرانسوا الأول وكاترين دي مديتشي، وهنري الرابع، ولويس الرابع عشر، بكل ما فيها من روعة ودسائس ومنافسات، ومآس دموية، وأيام زاهرة.

وتضم أجنحة اللوفر اليوم عدة من المجموعات الفنية الجليلة، ولا ريب أن متحف التصوير الذي يشغل عدة أبهاء شاسعة من اللوفر هو أعظم هذه المجموعات وأغناها؛

فهنالك تمثل أقدم مدارس التصوير منذ بدء عهد الأحياء إلى أحدثها، وهنالك مجموعات حافلة لأعظم أساتذة التصوير الإيطاليين مثل ليوناردو دافنشي، ولي تسيان، ورافائيل سانزيو، وبورجينو وغيرهم، وأعظم الأساتذة الأسبانيين مثل موريليو وفيلاسكيز، وهنالك أيضاً مجموعات حافلة لأعظم المصورين المحدثين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر؛ وربما كانت مجموعات عصر الأحياء التي يحتويها اللوفر أعظم وأغنى مجموعات من نوعها بعد مجموعات قصر الفاتيكان، بل يلوح لنا أن في اللوفر مجموعات لبعض الأساتذة أغنى من نظائرها في الفاتيكان: وفي اللوفر أيضاً مجموعات فاخرة من التحف والحلي الملوكية التي تبهر الأبصار بجمالها وروعتها؛ وبه أجنحة ومجموعات فنية أخرى تقتضي عدة زيارات لاستعراضها وتأملها.

وما زال قصر اللوفر يحتفظ بروعته الملوكية سواء في أبهائه وغرفه الداخلية أو في واجهاته الخارجية، وما زالت ساحاته الشاسعة وأبراجه القاتمة تحتفظ بجلالها القديم؛ ومما يبعث إلى الأسف أن ساحة اللوفر الكبرى مفتوحة من جانبيها لمرور السيارات الضخمة (الأومنبوس) ذهاباً وإياباً، وفي ذلك تشويه للساحة وللقصر ذاته، وإن كان فيه تسهيل للمرور، واختصار للطريق.

وفي قلب باريس عدة قصور تاريخية شهيرة أخرى نذكر منها قصر اللكسمبور الذي يقع في حديقة اللكسمبور الشهيرة، ويشغله الآن مجلس الشيوخ (السينا)، وقصر بوربون الذي يشغله الآن مجلس النواب؛ والقصر الملكي (الباليه رويال) الذي بناه الكردينال ريشليو لإقامته، وتركه بعد وفاته للملك، وسمي الباليه رويال؛ وقصر التويلري الذي بدأته كاترين

دي مديتشي، وأتمه هنري الرابع؛ ولهذه القصور التاريخية كلها سير وذكريات شهيرة تملأ صحفاً حافلة من الأدب الفرنسي؛ وهنالك أيضاً قصر (الأليزيه) الذي يرجع إلى القرن الثامن عشر، والذي جعل مقراً لرآسة الجمهورية في العصر الأخير.

وثمة أثران يحوطهما جلال مؤثر، ويبثان إلى المتأمل شجناً خاصاً، هما (دار الانفاليد) و (البانتيون)؛ وتحتوي (دار الانفاليد) أو دار العجزة، التي تقع في شمال غربي باريس في ميدان شاسع جداً، فضلاً عن المستشفى الذي يخلد اسمها وصفتها، على (قبر الإمبراطور) أو قبر نابليون. ويقع القبر في طرفها الشمالي، وهو عبارة عن حظيرة مستديرة تغطيها قبة عظيمة، وقد نصبت في وسطها منصة رخامية عالية، ووضع فوقها تابوت فاخر من المرمر الأحمر القاتم يحوي رفات الإمبراطور؛ ونصبت حول المنصة مجموعة من الأعلام التاريخية التي غنمها الإمبراطور في مختلف المواقع الشهيرة؛ مارنجو، فاجرام، أوسترلتز، إيلو، يينا وغيرها؛ ومن بين هذه الأعلام علم كتب عليه (موقعة الأهرام)، ولكن ليست عليه كتابة عربية تدل على أصله؛ والحق ن منظر قبر الإمبراطور يبعث إليك كثيراً من الروع والإجلال لذكرى ذلك الذي ملأت حياته وأعماله العسكرية الباهرة مرحلة كاملة من تاريخ أوربا بأسرها.

وأما البانتيون، فهو كما تعلم مقبرة الخالدين؛ وقد كان في الأصل كنيسة تسمى (سانت جنفياف)، حولت أيام الثورة إلى مقبرة قومية للعظماء؛ ويقع البانتيون في شارع سوفلو في الحي الجامعي على مقربة من الكليات؛ وما زال البانتيون على وضعه الأول كنيسة فخمة تزين جدرانها طائفة من الصور الدينية البديعة؛ ولكن جلال البانتيون في أقبيته السفلى؛ ففي تلك الأقبية التي قسمت إلى أروقة وحظائر مختلفة يرقد عدة من أبناء فرنسا الخالدين من القواد والكتاب والمفكرين؛ وربما كانت أسماء فولتير، وروسو، وديدرو، وزولا، وجوريس، هي أعظم الأسماء رنيناً في أقبية البانتيون؛ بيد أن هنالك أسماء كثيرة من القادة والزعماء السياسيين أيام الإمبراطور الأولى والإمبراطور الثانية: هذا تابوت المارشال ناي، وهذا إناء يحتوي قلب ليون جامبتا. . . وهذا تابوت جان جوريس الذي اعتبر يوم مقتله في سنة 1914 خائناً للوطن، واعتبر بعد ذلك بعشرة أعوام من أبطال الوطن ونقلت رفاته إلى البانتيون؛ وهذا تابوت فولتير؛ ولكن هل عثر الخلف حقاً برفات فولتير؟ لقد ثار

حول ذلك جدل منذ أعوام، وقرأنا في بعض الصحف الفرنسية الكبرى أنه قد عثر على هيكل عظمى في بعض أقبية كنيسة في روان، يظن من شكل جمجمته وفكيه أنه هيكل فولتير، خصوصاً وأنه يروي أن الذي تولى دفنه هو عمه راعي هذه الكنيسة، وأنه دفنه في بعض أقبيتها، ولكن دليل البانتيون يرفض أن يستمع إلى هذه الرواية ويؤكد

بكل قواه أن رفات فولتير ترقد في التابوت المرقوم باسمه!
وكما أن باريس غنية بالقصور الملوكية القديمة، فهي غنية أيضاً بالكنائس الأثرية؛ ومن أقدم وأشهر كنائس باريس كنيسة (نوتردام) التي يرجع بناؤها إلى القرن الثاني عشر، والتي يقترن اسمها وسيرتها بكثير من الحوادث التاريخية؛ وكنيسة (سانت شابيل) التي تقع في (الباليه دي جستيس) (دار العدل)، والتي بناها لويس التاسع في القرن الثالث عشر؛ وهذه الكنيسة الصغيرة هي حلية ساطعة بين الآثار الباريزية، وقد بنيت على الطراز القوطي بافتنان بارع، وزينت بنقوش ذهبية رائعة، وجعلت من طبقتين؛ وكنيسة المادلين الفخمة التي تقع في الميدان الشهير المسمى باسمها، والتي ترجع إلى القرن الثامن عشر؛ وكنيسة سان سلبيس التي تقع في نهاية حي سان جرمان على مقربة من الوكسمبور، وقد أقيمت أمامها في الميدان المسمى باسمها نافورة أثرية تحوطها تماثيل أربعة لبوسويه وفنيلون وفلشييه وماسيون؛ وهنالك غير ذلك من الكنائس الأثرية مما يضيق المقام عن ذكره.
وهنالك، على مقربة من (سانت شابيل)، في الناحية الأخرى من دار العدل يوجد صرح يثير اسمه وذكرياته في النفس شجناً وأسى: ذلك هو سجن (الكونسير جيري) الشهير الذي كان أيام الثورة مسرحاً لطائفة من المآسي المؤثرة. كم شهدت تلك الأبراج والغرف الحجرية الضيقة من محن وآلام، وكم سكبت بين تلك الجدران القاتمة من دموع؟ أجل هذا هو سجن (الكونسير جيري) الرائع الذي نقلت إليه ماري انتوانيت لتمضي أيامها الأخيرة قبل المحاكمة؛ لقد كانت هذه الكهوف المظلمة تغص أيام الثورة بالمحكوم عليهم، ومنها ينقلون إلى العالم الآخر. هذه غرفة ماري انتوانيت، وهذا هو الأثاث الحقير الذي استعملته ملكة فرنسا زهاء شهرين، وهذا هو مخدع الزينة الأخيرة الذي قص فيه شعرها وأعدت لتنفيذ حكم الإعدام: وهذه هي بعض مراسلات ووثائق رسمية تتعلق بالمحاكمة. . . أجل
هذه هي الآثار المادية لمأساة من أروع وأشنع مآسي التاريخ! وإن القلب لينكمش أسى حينما يتأمل هذه الآثار المحزنة ويذكر ذلك العهد الدموي - عهد الإرهاب - بكل محنه وجرائمه وفظائعه.
وماذا نذكر أيضاً من صروح باريس العظيمة؟ هنالك الأوتيل دي فيل، أو (دار البلدية) بماضيها الحافل؛ ولقد كانت (الأوتيل دي فيل) في مستهل الثورة مستودعاً للسلاح، فاقتحمها الثوار يوم 14 يوليه، وأخذوا منها السلاح الذي هاجموا به الباستيل: غير أن الدار التي تقوم اليوم ليست هي الدار القديمة، وإنما هي دار جديدة أنشئت في مكانها وباسمها؛ وهنالك دار الأوبرا، وهي محدثة ترجع إلى نحو سبعين عاماً فقط؛ ولكن توجد ثمة طائفة أخرى من المسارح القديمة أشهرها مسرح (الاوديون) الذي أنشئ في أواخر القرن الثامن عشر، والذي ما زال يحتفظ بطابعه القديم، ويشرف بحناياه وأعمدته القصيرة القاتمة على الميدان الذي سمي باسمه من ناحية، وعلى اللوكسمبور من الناحية الأخرى.
وأما ميادين باريس فهي من أعظم وأروع ما تزدان به العواصم الجليلة:؛ وربما كان أعظمها وأبدعها ميدان (الشانزليزيه) الذي لا تكاد تلم العين بجنباته الشاسعة، والذي تنساب من إحدى ضفتيه حدائق الشانزليزيه الرائعة؛ وميدان (الأتوال) المستدير الشاسع الذي يقوم في وسطه قوس النصر، وتنساب من أطرافه عدة شوارع هامة سميت بأسماء قادة فرنسا، مثل لازار هوش، وكليبر، وفوش؛ وقوس النصر من أعلام الآثار الباريزية يثوي تحت ظلاله (الجندي المجهول)، ويحج إليه الزائرون أفراداً وجماعات في خشوع وإجلال؛ وميدان الشان دي مارس حيث يقوم برج إيفل الشهير، وميدان الكونكورد حيث تقوم مسلتنا المصرية، وميدان فندوم الذي يقع بجواره ويزينه عمود من أعمدة الحرية، وميدان المادلين الذي تتفرع منه أهم الشوارع التجارية؛ وميدان الباستيل الذي كان يشغله سجن الباستيل قبل الثورة، ويدل الآن عليه عمود الحرية القائم مكانه.
وتزدان باريس بعدة من الحدائق والبساتين الشهيرة، وفي مقدمتها حديقة اللوكسمبور الشاسعة، التي تزينها بعض البحيرات الصغيرة وتماثيل لملوك فرنسا وملكاتها؛ وبستان مونصو؛ وحدائق الاليزيه وغيرها؛ وأروع من ذلك كله غابة بولونيا التي تقع في غربي

باريس، وهي بسيط شاسع من الأحراج النضرة تتخللها طرق نظمت أبدع تنظيم، بعضها
للسيارات، وبعضها للفرسان، وبعضها للسائرين؛ وتقدم هذه الغابة الشهيرة بطرقها ومتنزهاتها منظراً يأخذ باللب، ويذكي الخيال، وينعش المشاعر؛ ولقد كانت غابة بولونيا وما زالت متنزه الأرستوقراطية، وملتقى المحبين، يؤمون طرقاتها وأحراجها الساكنة في أمن وطمأنينة؛ ولم نر فيما رأينا من متنزهات أوربا وأحراجها النضرة، أبدع منظراً من هذه الغابة الساحرة التي تحمل طابع العناية الشاملة في سائر أنحائها.
هذه لمحة سريعة عن صروح باريس ومواطنها الأثرية العظيمة، ولسنا ندعي أنها لمحة شاملة، وكل ما هنالك أننا ذكرنا أهم ما يسترعي عناية السائح المتجول؛ أما الحديث عن الصروح والمعاهد العلمية فقد رأينا أن نستبقيه إلى فصل خاص.
(يتلى)
(? ? ?)
الجانب الصوفي في الفلسفة الإسلامية
للدكتور إبراهيم بيومي مدكور
مدرس الفلسفة الإسلامية بكلية الآداب
- 4 -
لم يقف تصوف الفارابي عند المدرسة الفلسفية، بل تعداها إلى مدارس أخرى صوفية في الإسلام. وعلى رأس هذه المدارس يجب أن نضع مدرسة الإشراقيين التي عاشت في بلاد الفرس إلى القرن السابع عشر. ومؤسس هذه المدرسة هو السهروردي أو الشيخ المقتول المتوفى سنة 1191م. وكان ذا اطلاع واسع وخبرة تامة بالفرق الفلسفية التي تأثر بها عامة وبرجال مدرسة الإسكندرية وفلاسفة الإسلام السابقين بوجه خاص. ويظهر ن سعة اطلاعه ولدت فيه رغبة التوفيق بين الفلسفات والفلاسفة المختلفين. فالفلاسفة عنده رجال أسرة واحدة وفروع شجرة مباركة تمد الإنسانية بما فيها من ثمار وخيرات. أميدوقل وفيثاغورس وأفلاطون وأرسطو طاليس وبوذا وهرمس ومزدك وماني، وإن انتسبوا إلى شعوب مختلفة، هم أبناء الإنسانية أولاً وبالذات ورسل السلام والإصلاح. وعلى الجملة زهاد الهند وفلاسفة الإغريق وحكماء العراق يسعون وراء غاية واحدة، ويعملون على نشر نظرية ثابتة، وينطوون تحت لواء فلسفة واحدة، هي الفلسفة الإشراقية. ومبدأ هذه الفلسفة وأساسها الأول أن الله نور الأنوار ومصدر جميع الكائنات. فمن نوره خرجت أنوار أخرى هي عماد العالم المادي والوحي. والعقول المفارقة ليست إلا وحدات من هذه الأنوار تحرك الأفلاك وتشرف على نظامها. فالفلسفة الإشراقية تعتمد إذن على نظرية العقول العشرة الفارابية مختلطة بعناصر مزدكية ومانوية.
وإذا كان العالم في جملته قد برز من إشراق الله وفيضه، فالنفس تصل كذلك إلى بهجتها بواسطة الفيض والإشراق. فإذا ما تجردنا عن الملذات الجسمية تجلى علينا نور إلهي لا ينقطع مدده عنا. وهذا النور صادر عن كائن منزلته منا كمنزلة الأب والسيد الأعظم للنوع الإنساني؛ وهو الواهب لجميع الصور ومصدر النفوس على اختلافها. ويسمى الروح المقدسة أو على لغة الفلاسفة العقل الفعال. ومتى ارتبطنا به أدركنا المعلومات المختلفة
واتصلت أرواحنا بالنفوس السماوية التي تعيننا على كشف الغيب في حال اليقظة والنوم. وليس للتصوف من غاية إلا هذا الارتباط؛ والإشراقيون يسعون إليه ما استطاعوا وكثيراً ما ينعمون به. أما لأنبياء فهم في اتصال دائم وسعادة مستمرة. يقول السهروردي: (إن النفوس الناطقة من جوهر الملكوت، وإنما يشغلها عن عالمها هذا القوي البدنية ومشاغلها، فإذا قويت النفس بالفضائل الروحانية وضعف سلطان القوي البدنية بتقليل الطعام وتكثير السهر تتخلص أحياناً إلى عالم القدس، وتتصل بأبيها المقدس وتتلقى منه المعارف، وتتصل بالنفوس الفلكية العالمة بحركاتها وبلوازم حركاتها، وتتلقى منها المغيبات في نومها ويقظتها كمرآة تنتقش بمقابلة ذي نفس).
فالفلسفة الإشراقية التي دعا إليها السهروردي متأثرة في بدئها ونهايتها بتعاليم الفارابي، ذلك لأنها مؤسسة على نظرية الفيض الفارابية ونزَّاعة إلى العالم العلوي؛ غير أن هذه الفلسفة صوفية كلها أو التصوف هو كل شيء فيها، في حين أنه لدى

الفارابي ليس إلا قطعة من مذهب متنوع الأجزاء. هذا إلى أن الإشراقي لا يقنع بالاتصال بالعقل الفعال وحده، بل يطمع في الاتحاد بالله مباشرة والامتزاج بنور الأنوار؛ فكأن السهروردي حين دعي للاختيار بين تصوف الحلاج وتصوف الفارابي رأى أن يجمع بينهما، وأن يقول بالاتصال والاتحاد معاً؛ وهذه نزعة توفيق أخرى تتفق مع روحه العامة.

هذا التصوف العقلي المبني على فكرة الفيض يبدو كذلك عند صوفي وفيلسوف آخر من رجال القرن الثالث عشر. ونعني به ابن سبعين المفكر النقادة الذي لم يُدرس بعد دراسة كافية، ولا ثقة به على الرغم مما في آرائه من حصافة وفي أفكاره من عمق ودقة. وعل أكبر مصدر نعتمد عليه في تعرف نظرياته هو المراسلات التي دارت بينه وبين فردريك الثاني ملك ألمانيا وإمبراطورها المتوفى سنة 1250. وقد بقيت هذه المراسلات مجهولة إلى أن اهتدى إليها المستشرق الإيطالي أمري سنة 1853 في مخطوطة من مخطوطات أكسفورد تحت عنوان: الرسائل الصقلية. وبعده بنحو عشرين سنة قام بتحليلها في الصحيفة الأسيوية الفرنسية المستشرق الدنمركي المشهور مهرن. وقد وقفنا بأنفسنا على هذه المخطوطة فوجدناها مملوءة بالعلامات والملاحظات الدقيقة، وما أجدرها بأن تطبع وتنشر. وكلنا يعلم ما كان عليه فردريك الثاني من رغبة في العلم وحب للأدب والفلسفة العربية. لهذا وجه إلى ابن سبعين عالم صقلية وفيلسوفها في ذلك العهد أربعة أسئلة متعلقة بقدم العالم، والمقولات العشر وما وراء الطبيعة في غايته ومبادئه، وطبيعة النفس. وهذه الأسئلة تلخص تماماً المشاكل الهامة التي كانت تشغل المفكرين عامة وتلاميذ أرسطو على الخصوص في ذلك العصر. وقد أجاب عليها ابن سبعين إجابة موسعة مستفيضة بحيث ضمنها كل مذهبه وآرائه الخاصة؛ وفي مقدور من يرجع إليها معتمداً على بعض المصادر الأخرى أن يكوِّن فكرة كاملة عن نظرياته الصوفية والفلسفية. ولسنا هنا بصدد هذا العرض المطول؛ وسنكتفي بأن نشير إلى ما يتصل منه بموضوعنا. فالله في رأي ابن سبعين أصل العقول المنصرفة في الكون، صدرت عنه بمحض الفيض والأنعام، والعقل الفعال وهو أحدها يدير شؤون الأرض ويمد الكائنات بصورها النباتية، فهو مصدر النفوس البشرية على الإطلاق؛ وإذا كانت النفوس صادرة عنه فهي ميالة دائماً إلى الاتصال به؛ ولا يحول دونها وذلك إلا أدران الجسم وشهواته. فإذا ما تفرغ الإنسان للدراسة والنظر فاز بالمعرفة الكاملة والحقيقة المجردة، وسما إلى درجة العقل الفعال.

هذه النظرية، كما نرى، تكرار حرفي لما قاله الفارابي وابن سينا، وصاحبها نفسه يصرح بأنه أرسطي كسابقيه من فلاسفة الإسلام وإن كان ينقدهم نقداً مراً. وقد بنى تصوفاً عقلياً على أساس فلسفي فهو على طريقة الفلاسفة؛ وفيما يتعلق بمشكلة الجذب والإلهام يخيل إلينا أنه أميل إلى الفلاسفة منه إلى الصوفية؛ فهو يرفض الحلول والاتحاد اللذين ذهب إليهما الحلاج ويقصر السعادة على مجرد اتصالنا بالعقل الفعال وارتباطنا به ارتباطاً روحيا معنوياً.

فتصوف السهروردي وابن سبعين مؤسس على دعائم فلسفية. وفي رأيهما أن الكائن الممكن يستلزم كائناً آخر واجب الوجود بذاته ليمنحه الوجود ويفيض عليه بالخلق والإبداع. وهذا الكائن الواجب الوجود هو لله جل شأنه؛ فهو موجود أزلاً بنفسه ودون حاجة إلى أي موجد آخر وإلا امتدت السلسلة إلى ما لا نهاية. والكائنات الأخرى جميعها مظاهر لعلمه وإرادته، ومنه تستمد الحياة والوجود؛ فوجودها إذن عرضي وبالتبع. وعلى هذا ليس ثمة إلا كائن واحد موجود حقيقة وضرورة، بل هو الوجود كله، والكائنات الأخرى لا تسمى موجودات إلا بضرب من التوسع والمجاز. هذه هي نظرية وحدة الوجود التي اعتنقها جماعة من الصوفية بعد انحطاط الدراسات الفلسفية في الإسلام. وقد تكونت في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي، وانتشرت بعد ذلك في بلاد الأندلس والمشرق. ومن أكبر أنصارها محي الدين بن العربي المتوفى سنة 1240 ميلادية، وجلال الدين الرومي المتوفى سنة 1273، وشعراء آخرون من متصوفة الفرس. ويصعد مذهب الوحدة هذا كما لاحظ ابن تيمية إلى ابن سينا، أو كما نلاحظ نحن إلى الفارابي. وإذا كان الله هو الموجود الحق وجب أن تتلاشى فيه سائر الموجودات الأخرى. وهنا يختلط التصوف

بالفلسفة اختلاطاً كبيراً. فكأن مذهب المشائين من العرب لما حورب في شخص الفلسفة وجد ملجأ لدى الصوفية. وكثير من الأفكار الفلسفية الممقوتة تبناه الصوفية وأبرزوه في صور أخرى مقبولة ولو إلى حين. وفي رأينا أنه لا يمكن ن يدرس تاريخ التفكير الفلسفي الإسلامي في العصور الأخيرة دراسة كاملة منعزلاً عما كتبه المتصوفة وعلماء الكلام.

بيد أن الصوفية بدورهم لم يسلموا من شرور الفلسفة وويلاتها، وما أن تفلسفوا حتى أضحوا عرضة للمحاربة والانتقام. فالسهروردي قتل بأمر صلاح الدين؛ وابن سبعين انتحر في مكة بسبب مهاجمات وجهت إليه في الغالب؛ واتهم معاصره ابن العربي بالإلحاد والزندقة من كثير من أهل السنة.

(يتبع)

إبراهيم مدكور

في الأدب المقارن

الفكاهة في الأدبين العربي والإنجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

إذا انطوت الفكاهة على صادق حكمة أو نافذ نظرة، وأُودعت العبارة المحكمة اللائقة بها، كانت في الفرد دليل صفاء الذهن ولطافة الحس، وفي الأدب مظهر الرقي والحيوية، وفي الأمة عنوان التحضر ورقة الطبع. والفكاهة عند ذلك لا تقل مكانة عن أرزن الجد، بل ربما بذته وكانت مرآة لميول الفرد والمجتمع أصدق تصويراً من مرآة الجد المحض؛ والأدبان العربي والإنجليزي حافلان بضروب الفكاهة وأوضاعها، يتفقان في بعضها ويفترقان في بعض آخر، تبعاً للأحوال الاجتماعية.

وإذ كانت الفكاهة كما تقدم دليل التحضر ورقة الحاشية قلّت آثارها في الأدب العربي حين كان أقرب إلى البداوة زمن الجاهلية ومستهل الإسلام. ففي أدب ذلك العهد نرى آثار اللَّسَن وحضور البديهة وقوة العارضة، ونخطئ مظاهر الدعابة الدمثة والعبث الرقيق. وما نحسب إلا أن الرسول (ص) الذي كان يمزح ولا يقول إلا حقاً كان يمتاز من معاصريه - في جملة ما امتاز - بلطف الروح وعذوبة الدعابة، فقد أَثِرَتْ عن صحابته المقربين وخلفائه الراشدين أخبار تنبئ عن متانة الخلق وحرارة الإيمان وقوة الجلد والكفاح، ولم يُؤْثَرْ عن كثير منهم براعة الدعابة ولا الميل إلى الفكاهة.

فلما استوطن العرب الأمصار، واصطنعوا حياة الدعة والاستقرار، وتذوقوا الحضارة والترف، ظهرت نتائج كل ذلك في أدبهم، وكثرت الفكاهة في الشعر والنثر، بل ظهرت طوائف من المجان المتظرفين الذين يصطنعون خفة الروح ويتهكمون بالجد والجادّين من رجال العلم والدين، جاعلين شعارهم قول حدهم ابن هانئ:

دع عنك ما جدوا به وتبطل ... وإذا لقيت أخا الحقيقة فاهزل

ومن أظهر مواضيع الفكاهة في العربية التبرم بالثقلاء، والنيل من البخلاء، ووصف الأكولين والمطفلين، والتهكم بمدّعي العربية من الموالي، وعبث المجان بالمتخشعين المتورعين، والسخرية بالمنهزمين من القواد والمقاتلين؛ وكل هذه أبواب من القول منتزعة من حياة العرب في ذلك العهد، وكلها صفات مضادة لما كان الرجل ذو المروءة الحريص على حسن الأحدوثة يتحلى به أو يحب أن يعرف عنه.

وتفنن المتهكمون بالبخلاء، فتحدثوا عن وعودهم الممطولة، وحجابهم الغلاظ، وهباتهم الضئيلة: كالطيالس التي تتجنى الذنوب على الرياح، وتعرف الطريق إلى الرفاء، من كثرة ترددها عليه صباح مساء.

ومن بارع التهكم بأدعياء النسبة العربية قول بشار:

أرفق بعمرو إذ حركت نِسْبَتَهُ ... فإنه عربي من قوارير

ما زال في كير حداد يردده ... حتى غدا عربياً مظلم النور

ويشترك الأدبان العربي والإنجليزي في أبواب من الفكاهة خاصة، لعلها تستثير روح العبث في النفس الإنسانية على اختلاف الأجيال والأمم، كالمتحذلقين من أهل الفنون من شعراء وممثلين ومغنين والمدعين لتلك الفنون وأشباهها. فالتحذلق والادعاء سببان خالدان من أسباب ولوع الناس بالمتصفين بهما، وما يزال المرء بخير حتى يدَّعي ما ليس له ويتكلف الأغراب؛ والنفس الإنسانية بطيئة متثاقلة إلى الاعتراف

بفضل الأغيار، دع عنك الاعتراف بالفضل لمن يدعيه وليس من ذويه؛ هناك تثور النفوس وتلجأ إلى أقسى أسلحتها وهو التهكم.

فشكسبير يسخر على لسان هملت من متحذلقي الممثلين في عصره، ويجعل الثائرين المطالبين بدم قيصر ينصرفون هنيهة عن وجهتهم إلى مهاجمة شاعر لغثاثة شعره؛ والجاحظ يقول في صاحب له متحذلق متعالم: (يعد أسماء الكتب ولا يفهم معانيها، ويحسد العلماء من غير أن يتعلق منهم بسبب، وليس في يده من جميع الآداب إلا الانتحال لاسم الأدب)، وابن الرومي أوْسَعَ من لم يَحمَدْ من المغنين والمغنيات تهكما، وصوّر أحدهم أقبح صورة في قوله:

وتحسب العينُ فكّيه إذا اختلفا ... عند التنغُّم فكَّيْ بغل طحان

وفي الأدب الإنجليزي ضروب من الفكاهة منتزعة من مجتمعِهِ الخاصة: كالتهكم بالمدعين النبل الاجتماعي، والمحْدَثي النعمة، والمتشدقين بضخم الكلمات لا يفقهون معانيها؛ ذلك أن المجتمع الإنجليزي - على كون نظامه الحكومي ديموقراطياً - هو أرستقراطي شديد التفريق بين الطبقات، يتعالى النبلاء فيه عن الدهماء تعالياً لا يقل عن ترفعهم عن أبناء

الشعوب الأخرى، ويكاد يجعلهم أمة داخل أمة؛ وبعض العصاميين الذين يؤثّلون ثرواتهم في ميادين الأعمال أو في المستعمرات يتطلعون إلى الانغمار فيهم، ويتشبهون بهم تشبهاً يتعلق بالظواهر ويستثير السخرية. أما التشدق بضخم الكلمات فمرجعه إلى تكوُّن اللغة الإنجليزية من أصول كثيرة أبرزها اللاتينية الوعرة الألفاظ الكبيرة المشتقات.

ففي كثير من القصص والروايات الإنجليزية يظهر الأشخاص المتصنعون السمو الاجتماعي المتكلفون رقة المظهر ودماثة الحديث، والآخرون المكاثرون باطلاعهم على اللغات الكلاسية المقحِمون لجافي الألفاظ في أحاديثهم، خالطين صحيحها بخطئها، حتى ليقولون عكس الذي يقصدون أحياناً.

وللفكاهة مجال رحب في القصة، حيث يتحرك الأشخاص ويعملون أعمالهم ويتبادلون الأحاديث؛ ومن ثم تحفل القصص والروايات الإنجليزية ببارع النكات، وفكه اللفتات، ومضحك المواقف والشخصيات؛ ونجد الكثير من ذلك فيما قارب القصة من أوضاع في الأدب العربي: ففي مقامات بديع الزمان ورسالة الغفران للمعري فكاهات وسخريات هي غاية في الإمتاع والبراعة.

والفكاهة من أمضى أسلحة الإصلاح الاجتماعي؛ وقد استخدمها لهذا الغرض بعض فرسانها من الأدباء الإنجليز. والمجال لها متسع في الأدب الإنجليزي، حيث التمثيل والقصص يصوّران المجتمع وينقدانه، وفي المجتمع الانجليزي، حيث النقد النزيه مباح وحيث للرأي العام القول الفصل في الحكم على الأنظمة والتقاليد. أما في الأدب العربي فقلما اتجهت الفكاهة اتجاهاً اجتماعياً، بل ظلت فردية كغيرها من أغراض الأدب، إذا لم يكن الحكم المطلق الذي خضعت له الدولة العربية بمساعد على نمو النقد واشتداد ساعد الرأي العام.

وهناك لون من الفكاهة يرمي به المتفكه إلى ضد ما يقول: فيتقنّع بالجِد وهو يبغي الهزل، ويبدي الوقار ويخفي العبث، ويتظاهر بالمدح والقدحَ يريد، ويغالي في التفخيم قاصداً التهوين. ويُدعى هذا الضرب من الفكاهة بالإنجليزية وربما أمكن تسميته (التَّنَدُّر)، والأدب الإنجليزي حافل به، ولعله يناسب الطبع الإنجليزي، وهو شديد المضاء في أيدي الناقدين لأحوال المجتمع. ومن فرسانه المجلين (سويفت). أما في العربية فهذا النوع من الفكاهة نادر؛ ولعل أصلح مثال له مقطوعة المتنبي التي نظمها حين رأى أعرابيين

يتفاخران بقتل جرذ، ومنها يقول:

وأيكما كان من خلفه؟ ... فإن به عضة في الذنَب

وقول بشار وقد تفاخر أمامه رجل بأنه شاعر من نسل شعراء: (إذن أنت من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً).

ويشترك الأدبان في ضرب من الفكاهة هو هجاء المرء نفسه وضحكه من عيوبه. على أنه في كلا الأدبين غرض من القول متكلف، يُطلب به التظرف ويعوزه الصدق والعمق. فالانحناء على النفس بالتثريب ليس خلقاً في الإنسان بله الأديب، والذي يتصنع نقد

نفسه لا يضع يده على مغامزه وعوراته الصحيحة، ولا يسطر لنفسه إلا مدحاً بما يشبه الذم، ولو رماه غيره بما يرمي به نفسه طلباً للظرف لثار به وأنكر مزاعمه أشد إنكار.

ولما كانت المرأة الإنجليزية أكثر بروزاً في المجتمع والأدب من المرأة العربية، فقد نالت دونها حظاً عظيماً من مداعبة الأدباء الذين أوسعوا غرائزها ومتناقضات أفعالها درساً وتصويراً. ومن أبرع من كتبوا في ذلك (بوب) الذي نظم قصيدة طويلة على طراز الملاحم الكلاسية أودعها وصفاً دقيقاً لأحوال فتاة جعلها نموذج المرأة في مجتمعِه، من احتفالها بالأزياء وتذبذبها بين المعجبين بها، إلى كل صغيرة وكبيرة في حياتها المنزلية والخارجية في أسلوب متهكم شائق.

ومن الفكاهات ما قوامه التلاعب بالألفاظ المتشابهة في النطق أو الكتابة؛ وقد كان هذا العبث اللفظي شائعاً على عهد شكسبير الذي ضرب فيه بسهم، ثم أهمل بعد ذلك في الإنجليزية واستثقل. مّا في العربية - حيث كانت للألفاظ عند الأدباء دائماً مكانة عالية - فظل هذا الضرب من التفكه مألوفاً. فأبو نواس يوافق مدعياً للنسبة العربية على انتمائه إلى طي، ولكن مع إضافة نون وباء في أول الكلمة. ويقول في بخيل:

وما خبزه إلا كآوى يُرَى ابنه ... ولم يُرَ آوى في حزون ولا سهل

وقد ازدهرت الفكاهة في الشعر العربي في صدر العصر العباسي، وبرز في مضمارها في أجيال متتالية طبقاتٌ على رأسها بشار فأبو نواس فدعبل فابن الرومي؛ وتمتاز في شعر الأوَّلَيْن بالاستهتار، وفي شعر الثاني بالصرامة ولذع السخرية، وفي شعر الأخير ببراعة التصوير. وازدهرت الفكاهة في الشعر الإنجليزي في العهد الكلاسي في أواخر القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر، وهو العهد الذي اشتد فيه الأثر الفرنسي في الأدب والمجتمع الإنجليزيين، وكان من فحول الفكاهة فيه سويفت وبوب ودريدن.

والحق أن ذلك العهد هو أشبه عهود الأدب الإنجليزي بالأدب العربي؛ ففيه انضوى الأدب حيناً تحت جناح الملكية وسار في ركاب الحاكمين، واختلط بالسياسة وخاض غمارها، وانغمر في جو المدينة وأهمل جانب الطبيعة، وتأنق في اللفظ وأغرب في المعنى، واحتدمت الخصومات الأدبية السياسية بين رجاله مماثلة لما كان بين جرير والفرزدق، وبشار وحماد، والبديع والخوارزمي، من مصاولات ومقارعات؛ وولِعَ الأدباء بالوزراء والقواد، وفشت الفكاهة واتخذها فريق سبيلا للمجون، وفريق ذريعة للنقد الاجتماعي والإصلاح.

وقد نظم دريدن أحد فحول ذلك العهد قصيدة هجاء لشاعر مزاحم له أفعمها بالتهكم المكسو بثوب الجد، وبوّأ غريمه (عرش الغباوة) في جو من الجلبة والمراسيم والمواكب والشارات مماثل لتتويج الملوك، وجعله يلي ذلك العرش معهوداً إليه من شاعر غبي من شعراء الجيل السابق لجيلهما. ولهذا القصيد الساخر مماثل في النثر العربي شديد الشبه به، وإن يكن قد كُتب قبله بنحو ثمانية قرون، أعني العهد الذي كتبه الصابي على غرار عهود الخلفاء والأمراء إلى عمالهم، على لسان مطفل أكول إلى آخر هو المقصود بالدعابة، وقد بدأه بقوله: (هذا ما عهد به علي بن أحمد المعروف بعليكا، إلى علي بن عرس الموصلي حين استخلفه على إحياء سننه، واستنابه في حفظ رسومه، من التطفل على أهل مدينة السلام وما يتصل بها من أرباضها وأكنافها، ويجري معها في سوادها وأطرافها، لما توسمه فيه من قلة الحياء، وشدة اللقاء، وكثرة اللَّقم، وجودة الهضم).

وتتسم الفكاهة في الأدب الإنجليزي على العموم بالعفة التي هي سمة الأدب كله كما سبق ذكره في كلمة سالفة؛ أما في الأدب العربي فتهوي أحياناً في يد الهجائين إلى حضيض السباب، وفي يد المجان المستهترين إلى وهدة الأفحاش. وتتعلق الفكاهة الإنجليزية بالصفات والأخلاق والأعمال وتكشف المتناقضات من آراء الناس وأقوالهم؛ وفي العربية يتناول العبث الخَلْقَ بجانب الخُلُق. فدعابات ابن الرومي ملأى بذكر أعضاءِ الجسم من أنوف وأقفية ولحى، وعيوبه من حدب وصلع وعور. ويُشَبَّهُ المعبوثُ بهم بالحيوان، فيقول

حماد وقد زعم بشار أن له جنّياً يُوحي إليه:

إذا خاطب الجني قرداً مشنَّفاً ... فقل لخنازير الجزيرة ابشري

وفي كلا الأدبين فحول من الأدباء نأى بهم طبعهم عن الفكاهة، وسما بهم قصدهم في

الحياة عن العبث واتسمت آثارهم وحياتهم بالجد والعبوس، منهم في الإنجليزية ملتون ووردزورث وتنيسون، وفي العربية المتنبي والشريف الرضي وأمثال أولئك عادة ذوو مطامع بعيدة يستغرق نشدانُها أنفسهم. ورسالات لا ينفكون عن النظر إليها، أو مُثُلٌ عليا يُحسون أن التفكه يهبط بهم من عنانها.

فخري أبو السعود

نابليون وخطواته الأولى في سبيل المجد

للأستاذ عبد المجيد نافع

لا يعرف التاريخ رجلاً اختلف الناس في تقديره والحكم عليه، مثل نابليون بونابرت. كان ولا يزال له أنصار ومعجبون يضعونه في طليعة العظماء الذين أنجبهم العالم، ويسبغون عليه أثواب الفضائل الإنسانية التي ينبغي أن يتحلى بها الرجل العظيم. وكان ولا يزال له خصوم وحاقدون يجردونه من جميع الفضائل، أستغفر الله بل يخرجونه من صفوف الإنسانية ويسلكونه في عداد الوحوش. فإذا كان (تين) يعترف له بالعبقرية الحربية، والقدرة الإدارية، وينادي بأنه صب في قالب لم يصب فيه أحد من قبل في التاريخ الحديث، وأن لا سبيل إلى وجود ضريب له إلا بأن نعود بالذاكرة إلى شخصيات الاسكندر وهانيبال ويوليوس قيصر - بعد أن يعطيك (تين) هذه الصورة الرائعة عن نابليون تراه يسارع إلى إدراجه في عداد الوحوش الخارجة عن دائرة الإنسانية. وإذا كان بعض مؤرخي الإنجليز ينادي بأعلى الصوت وملء الفم أن نابليون كان أعظم قائد حربي، وأعظم رجل إداري عرفه التاريخ، فإن بعض المرضى بمخالفة الإجماع، والمولعين بالآراء الغريبة، يجحدون عبقرية نابليون الحربية، ويجترئون على الدعوى بأن جميع المعارك الحربية التي عقد له فيها لواء النصر، إنما يرجع الفضل فيها إلى قواده، بل إلى رجال مغمورين كانوا يعملون تحت رايته، وأن التاريخ هو الذي أضفى عليه ذلك المجد الحربي، حتى جعله أشبه الناس بالشخصيات الخيالية، بل أقرب إلى الأساطير منه إلى الشخصيات التاريخية؛ بل ترى نفراً يمعنون في الأغراب فيزعمون أن نابليون لم يوجد، وأن الأساطير هي التي خلقت تلك الشخصية الخيالية، وصاغت تلك الخرافة النابليونية، وأن شيئاً من التحقيق التاريخي لا يلبث أن يمزق الأستار عن تلك الأوهام العالقة بالأذهان!

ومهما يكن من شيء، فليس في التاريخ شخصية شغلت أذهان الكتاب والباحثين مثل شخصية نابليون. وعلى الرغم من وفرة ما كتب عنه، فإن البحث في تاريخه لم تخلق جدته؛ ذلك بأن حياته العاصفة الحافلة بالعظائم تجمع بين روعة القصص وجلال الحقائق التاريخية.

على أن ذلك الرجل العظيم لم يجد طريق المجد أمامه معبدة، بل اجتاز الصعاب، وتخطى العقبات، وخاض غمرات الأهوال. ولقد تجهمت له الأقدار في أول مرحلة من مراحل حياته، ولم تبتسم له إلا بعد أن كاد يهوي في غمرة اليأس، ولم يفرض وجوده وكفايته على خصومه إلا بعد أن لقي منهم شتى ضروب العنت والمناهضة.

ولا يتورع خصومه عن اتهامه بمجافاة وسائل الشرف في سبيل بلوغ غاياته، وتحقيق لباناته؛ بل لا يتعفف الوالغون في عرضه عن الجهر بأنه توسل بزواج جوزفين لتسلم قيادة الحملة الإيطالية.

هل وصل نابليون بكفايته وحدها أم نه كان يدين بمبدأ: الغاية تبرر الوسائل؟ وزواجه بجوزفين. هل أملته المصلحة، أم كان مبعثه الحب؟

مهما يزعم الذين يشوهون نابليون ويهدرون آدميته، فقد كان إنساناً بأوفى معاني الكلمة، له قلب يصبو للنساء، وعواطف تهوي إليهن؛ وإذ كان في ربيع العمر، فقد ترجم عن هذه العاطفة بإعلان رغبته في الزواج؛ وكان يغبط أخاه جوزيف على توفيقه في الزواج، وطلب يد أخت زوجته فلم تبادله حبا بحب، فتولاه اليأس منها؛ على أنه لبث يحمل لها في صدره أصدق عواطف الحب، فلما بات رب التاج والصولجان، وصاحب الهيل والهيلمان، زوجها ببرنادوت، وبوأ ديزريه كليري التي أخفق في حبها، عرش هولندا.

واستطاع نابليون أن يندمج في الأعمال الحربية، ويعمل في قسم الطبوغرافيا بلحنه السلام العام؛ فكيف كان سبيله إلى الوصول؟

لا نكتم الحق، ولا نكذب التاريخ، فقد دفع ثمناً غالياً في سبيل ما وصل إليه، وتوسل بذوي النفوذ وأصحاب السلطان وأقوياء الساعة لبلوغ ما بلغ؛ ولعله بذل من عزة نفسه، وطامن من كبريائه، وأراق من ماء وجهه، رجاء أن يطفئ شهوة الطموح التي كنت تضطرم نيرانها بين جوانحه.

ومهما حاول في رسائله أن يكتم آلام نفسه ويخفي جروح قلبه، فقد كان بائساً من الوجهتين الأدبية والمادية. ولقد طالما رآه الراءون يضرب على غير هدى في طرقات باريس، يسير بخطى هوجاء مضطربة، يحمل فوق رأسه قبعة تكاد تحجب عينيه، ويرتدي سترة رمادية أخذت فيما بعد مكانها في التاريخ. وإذ رأيت ثم رأيت ذراعين طويلتين تجنحان إلى الطول، وتضربان إلى السمرة، وقد جردهما صاحبهما من القفاز زعماً منه بأن تلك نفقة لا غناء فيها ولا طائل تحتها، ورأيت في قدميه حذاء قد أسرع إليه البلى، وما كان يروعك منه إلا النظرة الهائلة، والابتسامة الخلابة اللتان تشرقان على مظهر ينم على مرض في الجسم والنفس معاً.

وكذلك كان نابليون يتهادى ببؤسه وحزنه في الطرقات. ولقد قالت مدام بورين إنه شهد معهم رواية في مسرح، وكان النظارة جميعاً ينفجرون بالضحك، فما راعها من نابليون إلا أن تراه وحده في مثل صمت القبور.

نعم، فلقد كان في ذلك الحين يحلق بخياله في جو غير جو المسرح، ويجهد قريحته في ابتكار وسيلة للعيش، ذ كان يرقب من ساعة لأخرى فصله من عمله. ولقد خيل إليه أنه شق طريقاً جديدة بالاتجار بتصدير أدوات المكاتب؛ على أن تصدير صندوق كتب إلى مدينة (بال) ما لبث أن أيقظه من حلمه اللذيذ إيقاظاً خشناً! ثم داعب الأمل بأن يأذنوا له في الشخوص إلى تركيا لتدريب جيش السلطان.

وما كان يلمح في الأفق بارقة أمل، وذهبت جهوده في تولون وإيطاليا أدراج الرياح، لأنه مني بوزير للحربية اسمه (أوبري) لا يقوى على فهمه، ولا يدري من الأمور الحربية كثيراً أو قليلاً. فأما الذين كنوا يظللونه بحمايتهم وهم (باراس) و (فربرون) و (مارييت)، وقد حارب تحت لواء الأولين، وانتشل الأخير من بين مخالب الدهماء في مدينة تولون، فقد كانوا يغذونه بالوعود.

على أن بارقة النجاح كانت تبدو في الأفق الذي لا يرقبه نابليون؛ وكان (بواسي دنجلاس) هو الذي أخذ بيده فرضعه في الموضع الذي تتجلى فيه مواهبه لتولي القيادة العامة.

وفي شهر يونيه من عام 1795 ضاق (بونتيكولان) ذرعاً باضطراب إدارة الحرب في لجنة السلام العام، فأشار عليه (بواسي دنجلاس) أن يستعين بخبرة جنرال عائد من إيطاليا وهو كفيل بأن يبذل له أثمن النصائح وأغلاها.

فلما كان الغد قصد إليه نابليون، فما هاله إلا أن يرى الضعف والهزال ماثلين في شخصه. ولقد وعي التاريخ قوله: (رأيت شاباً أصفر اللون، مكفهر الوجه، مقوس الظهر، تبدو عليه مظاهر الضعف والمرض). على أن (بونتيكولان) قد استرعى نظره أن ذلك المخلوق الضعيف المهزول بصير بشؤون الحرب، فطلب إليه أن يدون كتابة ما ألقاه أمامه شفهياً،

وأن يرفع إليه تقريراً. وكرت أيام، والتقى (بونتيكولان) (ببوسي دنجلاس) فقال له: (لقد رأيت رجلك الذي بعثت به إلي، ويلوح لي أنه مجنون، إذ لم تحدثه نفسه بالعودة إلي، وأكبر الظن عندي أنه وقع في روعه أنك تسخر منه. كلفه بالحضور إلي غداً).

وتحت ضغط (بواسي دنجلاس) وإلحاحه قدم نابليون تقريره عن الحملة الإيطالية، فما راع (بونتيكولان) إلا علو كعبه في الفنون الحربية، فطلب إليه أن يعمل معه؛ ولما سأله عن مطلبه أبدى رغبته في العودة إلى جيش المدفعية برتبة قائد فرقة، فأنكروا عليه الطموح إلى تلك القيادة وما يزال في الخامسة والعشرين من عمره.

وقد كان (ليتورنير) هو الذي وقف عقبة في سبيل تولي نابليون ذلك المركز، ومع ذلك لم يحمل له حفيظة في قلبه؛ فما لبث أن أصبح إمبراطوراً حتى عينه مديراً ثم مستشاراً.

وإن شئت أن ترى آية حية على وفاء نابليون فاذكر أنه ما كاد يصير قنصلاً حتى استقدم (بونتيكولان)، فلما قدم إليه قال له: إنك اليوم المستشار، فاعتذر بعدم بلوغه الأربعين،

فقال إذن فأنت مدير في بروكسل أو في أي بلد تختاره، ذلك بأني حريص على ألا أنسى خدمة قدمت إليّ.

وكان (بونتيكولان) ضامناً كفيلاً لأحد أصدقائه، فلما أفلس تحمل بدين يبلغ ثلاثمائة ألف فرنك؛ فلما بلغ سمع نابليون ضيقه استقدمه إلى قصر التويلري ولامه في رفق على كتم ضيقه عنه، ثم ما لبث أن وفي له دينه.

ولا نملك أن نترك تلك الصورة الرائعة للوفاء دون أن نضع إلى جانبها صورة للجحود والكنود والعقوق الأسود؛ أجل ففي جلسة 22 يونيو من عام 1815 كان (بونتيكولان) الذي أغدق عليه نابليون، بل الغارق إلى أذنيه في نعيم نابليون، أول من خذل نابليون، وعارض في بقاء الإمبراطورية!!!

وبينا كان بونابرت يرقب بفارغ الصبر أن تعينه لجنة السلام العام على رأس البعثة الحربية المزمع إرسالها إلى تركيا، إذا به يتلقى والدهشة ملء نفسه، والأسى ملء فؤاده، خبر تجريده من رتبته العسكرية، تحت ستار الدعوى بأنه رفض قبول المركز المعين له في جيش الغرب.

وكذلك تكون سخرية الأقدار!

وآمن نابليون بأن من المستطاع إلغاء قرار التجريد، لكن لا مندوحة له عن التماس المعونة من أقوياء اليوم، المسموعي الكلمة والإشارة، فجد في طلبهم، وتلمس العون من جانبهم.

والتمس نابليون العون عند مدام تليان فحملته كتاب توصية إلى المسيو لوفوف، فأجاب سؤلها وأذن لنابليون بالقماش الذي يصنع منه سترته التي أخذ منها البلى كل مأخذ.

وطوع لنابليون ضميره أن يتوسل بمدام تليان لينتفع بجاه (باراس) ونفوذه. وإن تنس فلا ينبغي أن تنسى أن تلك لسيدة كنت متبوئة عرش الجمال في باريس، وأن صالونها كان الكعبة التي يحج إليها العظماء والكبراء، وأن نابليون كان زري الهيئة تكاد تقتحمه العيون؛ ولذلك لم يكن يسترعي نظر أحد، أو يلقي إليه المجتمعون بالاً، وما كان يخوض معهم في الحديث إلا نادراً؛ على أنه إذا تكلم تكشف عن بديهة حاضرة وذكاء متوقد.

وفي ذات مساء اشتغل نابليون في صالون مدام تليان عرافاً! أي والله عرافاً (يشوف البخت) ويجري على سبيل العرافين ولهجتهم! نعم لقد أخذ نابليون بيد مدام تليان يقلب النظر في كفها وينبئها بالمستقبل، ويفيض عليها بطائفة كبيرة من الخيالات.

وكم كانت صورة رائعة تحتاج إلى ريشة المصور! فهذا عاهل فرنسا في المستقبل، والرجل الذي دانت له أوربا وثل عروشها عرشً فعرشاً، ودك حصونها حصناً فحصناً، وقوض ممالكها واحدة بعد أخرى؛ هذا الضعيف المهزول، الأنكد الأغبر، الزري الهيئة، الخلق الثياب، يقرأ المستقبل في كف ملكة الجمال في ذلك العصر! فما أبعد الفارق وأعمق الهوة بين تلك المرأة المشرقة التي تخطر في مطارف النعيم، وبين ذلك البائس الذي لا يكاد يخفى بؤسه، ولا يستطيع أن يكتم حزنه وبثه من سخرية الأقدار!

وأية فكرة كانت تجول في ذلك الرأس المتعطش للمجد وصاحبها (يشوف البخت) التماساً لوجوه المعونة! وإذا رأيت ثم رأيت جمعاً من السيدات يشهدن هذا المنظر وهن يضحكن ملء أفواههن من النبوءات التي يرتجلها نابليون ارتجالاً ومظهره الذي يدعو إلى الرحمة ويبعث على الرثاء! نظر إلى تلك السمراء الجميلة إنها جوزفين بوهارنيه. . ولن تمضي خمسة شهور حتى تصبح قرينة للعراف الذي (يشوف البخت). ولن تمر ثلاث سنين حتى تمسي شبه ملكة لفرنسا، وما تلبث غير بعيد حتى يهرع البابا إلى باريس ليضع على رأسها تاج الإمبراطورة على الفرنسيين! تلك هي جوزفين التي ارتسمت صورتها في أفق المستقبل

النابليوني من الليلة التي كان القائد الصغير يشتغل فيها عرافاً (ويشوف البخت).

كل أولئك لم ينفذ إليه نظر نابليون، وهو يقلب كف مدام تاليان، على رغم بعده ونفوذه، ولو استطاع أن يشق حجب المستقبل، وينبئ حقاً بم سيكون، لملأ قلوب الحاضرات سروراً وأفواههن ابتسامات.

لكن المستقبل علمه عند ربي، والغد لله لا لنابليون ولا لغير نابليون.

(البقية في العدد القادم)
عبد المجيد نافع المحامي
قصة المكروب كيف كشفه رجاله
ترجمة الدكتور أحمد زكي
مدير مصلحة الكيمياء
- 7 -
وأخيراً بدأت السعادة تدخل إلى قلب متشنيكوف، فخصماؤه كانوا اقتنعوا بنظريته ولو بعض اقتناع، والبعض كفّ عن مخاصمته لقلة جدواها؛ ذلك أنه كان أصبر على التجربة منهم وأبعد عن الملل فيها، وأنه كان أقدر على الكلام وأطول نَفَسا فيه؛ ثم هو في حجاجه أعلى صوتاً وأبعد صدى. فلما طلع عليه القرن العشرون استطاع أن يجلس في سلام ويقعد إلى مكتبه في اطمئنان فيكتب كتاباً كبيراً ضمنه كل الذي وجده في أمر الحصانة. فكان رسالة ضخمة تحسبه قضى عمره في إنجازها. وكتبها بأسلوب رائع يحسده عليه فلوبير وجاء فيه بآلاف الحقائق، وصوّر كل حقيقة منها تصويراً واضحاً جذّاباً؛ ولوي تلك الحقائق لية جميلة ظريفة لتجتمع كلها عند قصد واحد هو تدعيم نظريته وتعزيز آرائه فيها. كانت رسالته أشبه بقصة أبطالها الألوف المؤلفة من تلك الخلايا الأفّاقة التوّاهة - فاجوساتِ حيواناتِ الأرض جميعاً.
وحبّبه صيته الذي كسبه في الحياة، فصار يلتذّ لذة عميقة بكونه حيّاً، وقد كان قبل ذلك بعشرين عاماً يعاف الدنيا ويبغض العيش، ويكره لناس أجداداً وأحفاداً، ويرثي لنفسه أنه كائن، حتى كان من ذلك أن قال لزوجته ألّجا: (إن من الإجرام طلب النسل، وأن آدمياً يَمُدّ في حبل الوجود بما يخلّفه من آدميّين لا يفعل ذلك وهو خالص الذمّة بريئها). أما الآن وقد ابتسمت له الحياة فقد عطف على أطفال القرية: قرية سفر عاش بها، وربّت على رؤوسهم وفرق فيهم الحلوى فأسموه (بابا نوئيل). قال: (ما ألطف العيش وما أجمل الوجود!) ولكن ما السبيل إلى استبقائه، ما السبيل إلى التشبّث به وهو يُفلت من يديه هكذا سريعاً؟ سبيل ذلك واحدة وحيدة - سبيل ذلك لا ريب العلم. كتب يقول: (ما المرض إلا حادث عارض من أحداث الحياة). وقال: (إن العلاج لا يكفي (وهو لم يكتشف قط علاجاً). . . فلا بد من تفهّم هذا المآل الذي يؤول إليه الناس تلك الغاية التي ينتهون إليها جميعاً. لا بد من تفهّم ذلك الدافع القاهر الذي يدفع بالإنسان إلى الشيخوخة فالموت على حين هو أحب ما يكون للعيش وأكثر تشبثاً بالحياة). عندئذ نفض متشنيكوف يده من الفاجوسات وأخذ يبتدع علوماً جديدة يكون من غرضها فهم غاية الحياة وتفسير الموت، وإن أمكن فالإفلات منه؛ وكان أحد هذه العلوم يبحث في الشيخوخة فطلب له اسماً طنّاناً فكان جيرنتولوجيا وأسمى علم الموت تانتولوجيا وما كان أفظعها من علوم. ولكن الآراء التي تضمنتها كانت مما تتفتح به الآمال ويزدهر عليها الرجاء في الأيام. وأجرى متشنيكوف فيها تجاريب، وسجل فيه أموراً كانت بعيدة عن الصحة، قليلة الحظ من الدقة، بحيث يتحرك لها لوفن هوك قَلقَا في مضجعه، ويرغي بستور منها ويزبد في قبره أسفاً على أن كان أَذنَ لهذا الروسي المتبجّح أن يخطو خطوة واحدة في معمله. ومع هذا، ومع كل هذا، فإن طريقة استئصال داء أقبح الأدواء المكروبّية إنما اهتُدي إليها من هذه التجارب غير الدقيقة.
خشي متشنيكوف الموت خشية شديدة، ولكنه استيقن كارها أن الموت حتم لا مفر منه، فانصرف يبحث عن أمل في موت سهل يسير. وكان واسع القراءة شديد النهم فيها، فذكر أنه جاء في قراءاته على تقرير عن سيدتين عجوزين بلغت بهما الشيخوخة حداً رغبتا فيه عن الحياة وتمنتا الموت كما يتمنى أحدنا ويطلب السرير بعد يوم مجهود مكدود. فصاح متشنيكوف: (هذا يدل على أن الإنسان في غريزته ميل إلى الموت كما فيها ميل إلى النوم. فالمرجو الآن أن نبحث عن طريقة تطيل الحياة في صحة وقوة حتى تنكشف فينا هذه الغريزة فنطلب القبر طوعاً).
وأخذ يَذْرع الأرض ويَشْبُرها بحثاً عن أمثال أخرى لهاتين السيدتين المبخوتتين، فزار عجائز في بيوتهن، وجرى وراء شيخات درداوات صمّاوات يمتحنهن تسآلا وهن لا يكدن يسمعن ما يقول. وذهب مرة كل المسافة من باريس إلى روان من أجل شائعة أشاعتها الجرائد ليلقَى سيدة قيل إنها بلغت الستة بعد المائة من عمرها. ولكن للأسف لم يلق فيمن لقي إلا كل امرأة تقوى على الحياة وتعتزّ بها، ولم يجد أحداً يشتهي

الموت اشتهاءَه النوم كما اشتهته السيدتان في الأقاصيص التي قرأها، وبرغم هذا صاح قائلاً: (إن في غريزة الخلْق حبَّ الموت واشتهاءَه)، أما الوقائع التي تنقض دعواه فما كانت تقلق باله أبداً.

ودرس الشيخوخة في الحيوانات، وأرسل له الناس كلاباً شيباً وقططا هدّها الكِبَر، ودأبوا على إرسالها إليه، ونشر بحثاً جِدّيا في بَبّغاء خرق العادةَ فعاش سبعين عاماً.

وكان يملك سلحفاة ذكرا من سلاحف البحر أسكنه حديقة داره، وكان له من العمر ستة وثمانون عاماً، فألّف بينه وبين سلحفاتين أنثيين في مقتبل شبابهما فنتج عن هذا التأليف نسل عديد من سلاحف صغيرة، ففرح متشنيكوف بذلك وامتلأ سروراً حتى فاض، فقد كان دائم الخوف أن تذهب الشيخوخة بلذائذ الحب. وقد ذكر ما وقع من السلاحف: (إن الشيخوخة لا تتضمن هذا الضعف البالغ الذي يتصوره الناس).

ولكن لا بد من مدافعة الشيخوخة على كل حال فكيف السبيل إلى صدّها؟ وكان عالمٌ اسكندنافيّ يُدعى إدجِرن درس تصلّب الشرايين، فاقترح أن هذا التصلب هو علة الشيخوخة، وارتأى أن من أسبابه شربَ الكحول وداءَ الزّهري وطائفة أخرى من الأدواء.

وحدّث متشنيكوف نفسه: (إن تصلب الشرايين علّة الشيخوخة، وما عمر المرء إلا عمر شرايينه! هذا حق لا مرية فيه). اعتزم أن يدرس كيف أن داء الزهري يصلب الشرايين وكان ذلك عام 1903. وكان متشنيكوف قبض جائزة مقدارها 5000 فرنك. وكان رو نال جائزة أوزيرس الكبرى ومقدارها 100 , 000 فرنك. وكان الفرق كبيراً بين الرجلين، والبون واسعاً بين طرائقهما في البحث، وكان رو أقوم الرجلين طريقة، ولكنه لزم متشنيكوف دائماً وربط حبله بحبله واطمأن إليه رغم جموحه. اختلف الرجلان اختلافاً كبيراً، ولكنهم كانا سيَّين في قلة حرصهما على المال، فاتفقا على أن يضمّا كل هذه الفرنكات، وثلاثين ألفاً أخرى ابترّها متشنيكوف تملّقاً وملاطفة من بعض أثريا الروس، وأن ينفقاها جميعاً في بحث هذا البلاء التناسليّ المسمَى بالزُّهريّ ذلك بأن يصيبا به بعض القردة ثم يبحثا فيها بعد ذلك عن جرثومته ثم يتدرّجان من هذا إلى طريقة لمنعه فعلاجه إن وجدا إلى ذلك سبيلاً. وفوق كل هذا أراد متشنيكوف أن يدرس فيه كيف تتصلب منه الشرايين.

واشتريا بالمال قردة، وأعانهما الحكام الفرنسيون بالكنغو الأفريقي على صيد القردة فبعثوا أولاداً من أهل السواد يجوبون الغاب ويمشطون الأحراج في طلبها، ولم يمض طويل من الزمان حتى امتلأت حجرات واسعة في معهد بستور بأصوات الشمبانزي والأوران أوتان،

وامتزج صراخ هذه بصريخ قردة الهندوس المقدسة ومواء الماكاكس المضحك الصغير ولم يلبثا أن وقعا على أمر خطير. وكانت تجاربهما لبقة بارعة، وكان بها حسن نظام ووضوح لم يعهدا في تجارب متشنيكوف. وأخذ يتردد على معملهما طائفة من مناكيد الناس أصابها الزهري حديثاً، ومن أحد هؤلاء لقّحا قرداً فنجحت فيه التلقيحة الأولى وسرى فيه الداء. ثم قضيا بعد ذلك أكثر من أربع سنين في عمل شاق ينقلان الداء من قرد إلى قرد، ويبحثان عن مكروبه الصغير الدقيق الخدّاع فلا يجدانه. ثم أخذا يُضْعفان سمّ الداء الذي استخرجاه وفشلا في رؤية المكروب فيه، وأخذا يضعفانه بالأسلوب الذي اتبعه بستور في إضعاف جرثومة الكلب رجاء أن يَخْرجا من ذلك على لقاح يقي منه. وماتت القردة من النيومونيا وبالسل موتة شنيعة، ووجد بعضها الفرصة إلى الهرب فهرب. وبينا متشنيكوف يجرح القردة لينقل سم الزهري إليها في غير خفة يد كبيرة انقضت عليه تعضّه وتجرحه. ثم قام متشنيكوف بتجربة غريبة إلا أنها تَنُمّ عن ذكاء كثير: خدش أذن قرد وسقاه في هذا الخدش من سمّ الزهري، وتركه أربعاً وعشرين ساعة، ثم عاد إليه فقطع أذنه، ثم امتحن جسمه فلم يجد بأي عضو منه أثراً من داء الزهري.

عندئذ صاح متشنيكوف: (إن معنى هذا أن جرثومة الداء تتريّث ساعات في الموضع الذي تدخل منه إلى الجسم، وفي الإنسان نعلم من أي عضو من أعضائه يدخل الجرثوم، ونعلم فوق ذلك متى يدخل فيه، إذن فلعلنا نستطيع أن نقتل الجرثوم، عند مدخله من جسم الإنسان قبل أن ينتشر فيه).

ثم قام فأجرى تلك التجربة الكبرى ذات الأثر العمليّ الواسع في أبحاث المكروب،

أجراها بعد كل هذا الكلام الطويل العريض الذي قضى السنين يقوله ويكتبه في تعليل حصانة الإنسان، وأجراها وإلى جانبه رو يؤازره ويلح عليه بإعادة كل اختبار يأتيانه للتأكد منه. وفي هذه التجربة اخترع متشنيكوف مرهم كلورور الزئبق الذي به اليوم يطارد داء الزهري في جيوش البر وجيوش البحر في كل قطر من أقطار الأرض. أخذ قردين وجرحهما، ثم أعداهما حيث الجرح بمادة للزهريّ جاء بها صبيحةً من إنسان، وبعد ساعة دلك جرح أحد القردين بالمَرهم وترك الآخر، وأخذ بقية زمنه يرقبهما، فسَلم المرهوم وظهرت أعراض الداء فظيعةً بشعة على الآخر المتروك.

ثم عاود متشنيكوف جنونه الغريب القديم، فلما تملكه نسي نَذْره الذي كان وأغرى طالب طبّ شاب يُدعَى مازونيف بأن يتطوع له، فلما رضي جاء به في مجتمع محكّم من أكابر رجال الطب وعلمائه في فرنسا، وفي وسط هذا الجمع الموقّر وقف هذا الطالب المقدام ونظر إلى جلده وهو يجرح ست جراحات طويلة، ونظر إلى هذه الجراحات الخطيرة وجرثوم الزهريّ الخطير يُحَكُّ فيها. وكان مقداراً من الجرثوم أكثر كثيراً من المقدار الذي يدخل جسم الرجل الذي يصاب بالداء بالطريقة المألوفة في الحياة. واحتمل الطالب بقوة مصيره المخوف: رجلاً بشعاً مبثوراً منغّظ الجسم مأكوله، ثم يجيئه الجنون، ثم يجيئه الموت.

وجَرح متشنيكوف في الوقت نفسه وأعدى بالداء قرداً وشمبانزي، واصطبر ساعة يملؤه إيمان قوي، فلما انتهت قام يحكّ المرهم في جراح الشاب، ولم يفعل ذلك لا في الشمبانزي ولا في القرد. فأما الشاب فنجا فلم تظهر عليه بثرة واحدة من بثور الداء، وأما القردان فجاءتهما العاقبة المحتومة بعد ثلاثين يوماً: نتيجةٌ لا ريبة فيها ونصر مبين.

وقامت قيامة الأخلاقيين ومنهم بعض الأطباء يَلْحَون متشنيكوف فيما صنع. قالوا: (إن داء لزهريّ عقوبة ينالها الآثم تكفيراً عن إثمه، وخشيتها تردع المتردّدين. فهذا العلاج الهيِّن السهل لهذا الداء يُزيل العقوبة ويذهب بالخشية فلا يكون منه إلا إشاعة الخطيئة في الناس). فأجابهم متشنيكوف: (إني حاولت فوجدت السبيل إلى منع هذا الداء أن يمتدّ، فقيل إني أسأت إلى الأخلاق، ولكن الأخلاق والأخلاقيِّين عجزت رُقاهم عن منع الداء أن ينتشر، وأن يصاب به بطريق العدوى البريئة أبرياء منه لم يَجنوه، فصار من الإساءة إلى الخُلُق الكريم أن نجد السبيل فلا نمنع انتشار هذا الداء الوبيل. .).

وبنا هو في هذا كان يتلمّس الطرق ويختط الخطط ويحلم الأحلام عسى أن يجد سبباً آخر لتصلّب الشرايين، وإذا به يخترع هذا السبب الآخر - ولا أظن أن أحداً يود أن يقول اكتشفه. قال إن هذا السبب هو: (تسمم الجسم من ذات نفسه بانحلالات تعفّنية تحدثها بشلات وحشية في أمعائنا الغلاظ. هذا هو سبب لا شك فيه لتصلب شرايينا ولشيخوختنا قبل الأوان). ودبر اختبارات كيميائية يستدل بها على التسمم الذاتي للأجسام، وكانت اختبارت فظيعة. قال: (إن أعمارنا تطول كثيراً لو لم يكن لنا هذه المعي الغليظ، بل إن سجل الطب يخبرنا أن رجلين قطعت منهما هذه الأمعاء فعاشا أطيب العيش بدونها). والغريب بعد هذا أنه لم ينصح بقطعها للناس، وإنما أخذ يفكر كيف السبيل إلى تعكير الصفو وتنغيص العيش على البشلات الوحشية التي تسكن هذه الأمعاء.

وجاء بنظرية غريبة أثارت الضحك منه والسِّخرية به، وأخذت توقعه في المتاعب من جديد. وكتب إليه بعض الناس يذكّره كأنما نسي بأن الفيلة لها أمعاء غليظة هائلة، وهي مع هذا تعيش مائة عام. وكتب آخرون يقولون إن الجنس الإنساني من أطول الأجناس أعماراً برغم هذا المُصران. ثم دخل في حوار واسع بذيء عن الحكمة في أن سنة النشوء أَذِنت للحيوانات أن تحتفظ بالمصارين الغليظة، وبغتةً وقع على دوائه الكبير للتسمم الذاتي: تحدّث بعضهم قال إن في بلاد البلغار قُرى يعيش أهلها أكثر من مائة عام. ولم يكن متشنيكوف ذهب إليها ورأى هذه الأعمار الطويلة بعينه، ولكنه برغم ذلك صدّق ما سمع، وعلم أن هؤلاء المعمّرين يعيشون على اللبن الرائب، فأسرّ لنفسه: (أي والله! هذا هو السرّ في طول هذه الأعمار)، ولم يلبث ن كلّف بعض الشبان البحّاث في معمله دراسةَ المكروبة التي تُرِيب اللبن، ولم تلبث هذه المكروبة الشهيرة - البشلة البلغاريّة - أن اتخذت مكانها رفيعاً بين المستحضرات الطبية.

وفسّر متشنيكوف عملها فقال: (ن هذه الجرثومة تصنع حامض اللبن الرائب وهي بذلك تطرد البشلات الوحشيّة من الأمعاء). وبدأ بأن شرب هو نفسه مقادير هائلة من اللبن الرائب ثم عقّب بأكل زريعات من البشلة البلغارية ويظل يأكل منها سنوات. وألّف كتباً كبيرة في هذه النظرية الجديدة، وأشادت بهذه المؤلفات صحيفة إنجليزية لا يُعرَف الهزل منها فقالت إنها أخطر الكتب الطبية منذ ظهور كتاب (أصول الأجناس) لداروِنْ. وشاع أكل هذه البشلات السخيفة في الناس، وتألفت شركات لصناعتها أَثْرَى أصحابُها إثراء كبيراً من بيعها، وأذن لهم متشنيكوف أن يكتبوا اسمه عليها ولو أن زوجته تؤكد أن لم يُفِدْ من ذلك قرشاً.

وعاش عشرين عاماً عيشة صارمة على الأسلوب التي تقضي به هذه النظرية. وجانب الطبّاق ولم يذق كحولاً في شراب ولم يأذن لنفسه أن تستمتع بشهوةٍ داعرة، وامتحنه أشهر أطباء العصر وأداموا امتحانه، وجاءه الخبز في أكياس معقمّة من الورق حتى لا تَعْلَق به هذه البشلات المعوية التي يتسمم الجسم من فعلها. واختبر دائماً عصارات جسمه وإفرازاته. وشرب في هذه السنوات الأخيرة جالونات لا عدّ لها من اللبن الرئب وبلع الملايين من البشلات البلغارية النفّاعة. . .

ثم مات في عامه الواحد والسبعين.

(انتهى متشنيكوف)

أحمد زكي

خواطر سياسية يثيرها يوم 14 سبتمبر

للأستاذ محمد محمود جلال

نزلنا (برتشاخ) في أوائل أغسطس المنصرم نستجم بعد الاستشفاء في (بادجاستين)، وبرتشاخ محلة تمتاز بالهدوء وتوسط الارتفاع عن سطح البحر فلا تكاد تصل إلى خمسمائة متر، وهي واقعة على بحيرة (فرتر) التي تعد من أجمل البحيرات في أوربا. وهناك تقوم البواخر والزوارق من بخارية وشراعية مقام الترام والعربة والسيارة من وسائل النقل.

ففي أصيل أحد الأيام نهم لنستقل أحد تلك الزوارق التي تسير (بالبنزين) لمحنا في الأفق وعلى بعد نحو ميلين أو ثلاثة قوساً يعلو البحيرة ويبدأ من الشاطئ الأيمن، فصاح ولدي وهو بجانبي: (هذا ماء وكأنه يخرج من مضخة) قلت كلا، وكيف ذلك وليس فيما نرى مساكن وهذا موضع بحذاء الطريق المعد للسيارات، ولولا أن القوس لا تظهر معها ألوان لقلنا إنه قوس قزح الذي نسميه في ريفنا المبارك (قصعة الرخاء) ونعده فألاً حسناً للعام.

طلبنا إلى السائق أن يتجه إلى هذا المكان المنبهم علينا وهناك سألناه الإيضاح، قال: إن إلى يميننا بحيرة صغيرة تعلونا بكثير، ويزداد ماؤها بين وقت وآخر بحيث يخشى طغيانه، فأقامت له الحكومة محطة كهربائية تنقل منه جانباً في يوم معين من الأسبوع وقد يتكرر ذلك في أيام أخرى غير معينة.

قلت: ولم تعملون على أن يتخذ في تصريفه هذا الوضع وفي الإمكان صرفه دون أن يرى وعلى وضع مستقيم.

قال: (إن أسماك بحيرتنا تموت من قوة الاندفاع، فحرصاً عليها لجأ المهندسون إلى هذه الطريقة).

قلت: (أهكذا دائماً قوانين الطبيعة لا تتغير؟ فالغريب من الماء كالغريب من الناس حين ينزل على غير بلاده مغيراً أو محتلاً غاصباً يخرب ويدمر ويعصف بالأوضاع كما يعصف بالأرواح، ولو رد جميع الناس إلى آدم وحواء كما يرد أصل هذه الأنهار والبحيرات إلى المطر!!

ذكرت على التو بلادي وما عانت منذ أكثر من خمسين عاماً في نظمها وأوضاعها وأخلاقها وأموالها، ومضت برغمي فترة طويلة منصرفاً إلى ما اكتنفني من هم مسخ النزهة وكاد يعفي أثر العلاج وأنا مطرق. مستعبر.

قبع جنود الاحتلال في قصر النيل ووصل أثرهم إلى أقصى الوجه السوداني جنوباً والبحر الأبيض شمالاً. وجلس عميده الأول بقصر الدوبارة ونغص عيشنا في ريفنا

وصعيدنا، وانساب كالأفعى إلى عقل الطالب بما قدم من كتب ممسوخة وإلى الزراع بامتصاص دمه وإلى الدوائر العليا يخضد من شوكتها ويعلن أوامره فأفسد الأخلاق، وإلى الجيش فجعله لا يشعر بوجود ولا يتقدم خطوة ولو في الدراسة النظرية.

ولقد أراد الله أن تصل بنا الباخرة في العودة إلى الوطن في السادسة من صباح 2 سبتمبر، وما كدنا نفرغ من الاستعداد حتى قاربت الثامنة، وإذا بأحد الخدم يطرق الباب، وكم كان سروري عظيماً حين سلمني جوازات السفر فأراحني بذلك من المشهد المؤلم الذي كان علي كالضربة الثقيلة، إذ شاء الاحتلال أن تكون الأمرة في بوليس الموانئ للإنجليز! فلكم كنت أشعر بالتنغيص المفاجئ في الذهاب والعودة حين أرى المسيطر الباحث في جواز مصري ولمسافر مصري غير مصري.

فتحت الخادم وتناولت الجوازات مغتبطاً، وطرت مع الفأل فرحاً وقلت في نفسي يحقق الله للبلاد بجهودها ما حققت لي المصادفة اليوم.

وهكذا يشاء الله أن يمر 14 سبتمبر وأنا بعيد عن القاهرة، كما تمنيت من قديم، وكما أنالني الله وقد عودني جميله.

عدنا إلى الوطن ونزلنا منازلنا والموسم الزراعي في أحفل مراحله، إذ تموج الحقول في جميع أرجاء البلاد بالعديد من أبنائها يجمعون بأيديهم ثروتها، وإنهم بذلك يتظاهرون للجهاد لا في سبيل العيش فقط، ولكن في سبيل سمعة الوطن في جانب غنائه؛ وليس أقوى من مظهرهم حفزاً للهمم بين وهج الشمس وأثر الرطوبة المتخلفة عن الفيضان. فلا يحسون سوءاً من الأولى ولا من الثانية، لأن وهج الهمة أقوى، وسورة الجهاد أطغى وأعم.

ويتفق أن يحفل الموسم مبكراً فيتفق واليوم المنكود الذي طلعت على رحى الاحتلال شمسه، وخيمت على عاصمة سحب الشر فيه مختلطة بغبار الخيل قادمة في غير حرب، وشامخة كأنما انتهت من فتح، وهو الغصب الصارخ يؤيده العذر الذي لا يعدو خيوط
العنكبوت في قوته، ثم تدرج عليه سنون فوق الخمسين.

انظر واعتبر! ثم انظر وأمل في الله الخير، فأن العب الذي تعركه المحن وتنغصه الذكريات يكون أقوى الشعوب حينما يستفيد من ماضيه، وأقدرها على السير ناضجاً بفعل الأيام وهي خير مرب.

وإذا كان الزمان استدار فظهرت العزائم متجهة والقوى متراصة جهاداً في سبيل العيش، فعما قريب هذه العزائم في العمل في كل ميدان للتخلص مما أصاب البلاد.

وكان أول كتاب للمرحوم مصطفى كامل إلى مدام جوليت آدم في 12 سبتمبر وكان كتاباً له ما بعده. وكان ما تلاه بادرة ظهور القائد الشاب وبادرة الأمل، وأول العمل المستمر الذي أفنى فيه حياته.

ولئن كانت الصحف اليومية وأكثر الهيئات لم تعر هذا اليوم ما يناسبه من عناية، فقد يكفل الأدب للأمم استخراج العبرة البالغة من المأساة، والمفخرة الغالية من الحادث الصغير. وقديماً قام الأدب أميناً على تراث الماضي وتأثراً للفضل والفضائل. ولقد صدق المرحوم شوقي بك حين رأى كسرى وإيوانه في سفينة النجوى أبقى على الزمن من الإيوان في فخامته وبنيانه. فكيف به أمام يوم غير من حال أمة ورزأها أكبر الرزء؟

كنت إلى أمس أقرأ تعليقاً قيما للكاتب الكبير أناطول فرانس على بحث فني بصدد أحد القصور التاريخية في فرنسا وهو قصر الوزير (فوكيه) وزير المالية في عهد لويس الرابع عشر، فحين عرض لمحنته ثم لمصرعه ذكر تنكر الأيام للوزير وتغير صحبه وخلانه، وحتى ذلك الجمع الذي لا يحصى ممن له عليهم أيد وآلاء ولم يقم بالواجب نحوه ويذكره في محنته، ويفصل بين السيئة والحسنة، ويمنع طغيان الشهوات على قديم مآثره، إلا الأدباء، فتسابقوا دفاعاً عنه نظماً ونثراً ومن بينهم كورنيل والرئيس هينو

وهل أقرب إلى الحق من الأدب؟ ومن يحمل عبء الإيقاظ للخير غيره؟ وهل يصرع الظلم سواه؟

والحقِ عرض الله، كل أبية ... بين النفوس حمى له ووقاء

محمد محمود جلال

حول (نبوة المتنبي)
للأستاذ سعيد الأفغاني

كنت عائداً من جولةٍ في قرى (البقاع) حين قرأت كلمة الأستاذ الفاضل محمود محمد شاكر في العدد (167) من الرسالة الغراء، التي كتبها رداً على حاشية بحثنا في دين المتنبي المنشور في العددين (161، 162) من المجلة المذكورة.

وكانت قراءتي لرده، بعد عشرة أيام من صدوره. فإذا تأخرت في التعليق عليه فهذا عذري أبسطه للقراء الكرام؛ وأنا عوذ بالله من الغرور والذهاب بالنفس ومن الجهل بمقدارها والمكابرة في العلم والعصبية للرأي والهوى، فما يزال الناس - ولله الحمد - يقيسون فضل المرء بخضوعه للحق وإتقانه لعمله لا بدعواه وتبجحه؛ وقد ولى زمن كان فيه الولوع بالأغراب والإتيان بالجديد - ولو تافهاً - سبيلاً إلى الشهرة وذيوع الصيت وأقبل زمان فيه للتفكير حرمة وللعقل وزن، وكفى فيه المؤلفون مؤونة الثناء على النفس والتحدث إلى القراء بمزايا آثارهم وما تفردت به من معجزات.

وهؤلاء ذوو البصيرة من القراء يقلّبون ما يطالعون كل مُقلّب؛ يقع إليهم الكتاب فيمحصونه ويفلونه ويتدبرون ما فيه حتى تنكشف لهم منه مواطن الحسن والقبح، ويلمسون فيه آثار العجلة كما يلمسون مواضع التؤدة والروية.

وفي هذا ما كاد يصرفني عن الرد، سيراً على قاعدتي في ألا أحفل نقداً ولا رداً إذا كان حقاً؛ وسبيلي حينئذ أن آخذ نفسي به وأشكر لصاحبه، وإلا فإن الزبد يذهب جفاء وما ينفع الناس فيمكث في الأرض. وخروجي اليوم على قاعدتي إنما كن لمنزلة الكاتب الفاضل لا لما في الرد نفسه. وليس في الأمر كل ما ظنه الأستاذ شاكر: فلا إثارة ولا إغراء ولا سلاح ولا استعداد لمعارك؛ إنما هي حاشية على كلام له المحل الثاني من بحثي، لم أرد بها نقد كتاب ولا التعرض لمؤلف؛ وشتان بين أسطر علقت عرضاً في حاشية وبين كلام مطول أنشئ للنقد خاصة.

أنا أدري - والإنصاف شريعة - أن الكلام على كتاب الأستاذ شاكر لا يكفيه فصل كبير، ففي الكتاب إحسان، وفيه إصابة واجتهاد، وفيه أماكن جديرة بالثناء حظيت بجهود حالفها التوفيق مرة وأخطئها مرة.

وبعد، فإني أشكر الأستاذ على نقله كلامي بحروفه، لأن عمله هذا سمح للقراء أن ينظروا: هل بلغ الأستاذ في الجواب على أسئلتي ما يريد من إزالة الشبهات الواردة عليه أم قصر دون هذه الغاية؟ أما أنا فقد عدت إلى كتاب الأستاذ كما طلب إليّ (وأنعمت - ثانية - في تدبر الأسباب الحادية على نفي تنبؤ أبي الطيب فلم أجد فيها مقنعاً) كما لم أعثر في رده الذي تفضل به علي شيء من الحجة؛ وإليك البيان:

وهّن الأستاذ رواية التنوخي لأنه صاحب الوزير المهلبي، ولأن المهلبي عدو (1) المتنبي، فلا يبعد أن يكون التنوخي تحامل على أبي الطيب إرضاء للمهلبي. فنحن نسأله: هل يكفي هذا الاحتمال في تبرير رد رواية التنوخي وهي كما يراها المنصف تحمل في مطاويها دليل الصدق والأمانة في نقل الحديث، لا دليل الوضع والكذب؟ سأل التنوخي أبا الطيب عن معنى (المتنبي) فأجابه: (إن هذا شيء كان في الحداثة). وظاهر أنه يعني التلقيب لا التنبؤ، فجوابه غير صريح، وهو كما قال الراوي جواب مغالط، وكان في وسع التنوخي أن يحمّل المتنبي - لو أراد وضعاً وتحاملاً - جواباً صريحاً في ادعائه النبوة، ولو استقام هذا الأصل الذي بنى عليه الأستاذ رواية التنوخي لجاز لكل من أراد نفي خبر أن يورد عليه مثل هذه الاحتمالات الخيالية فيسقطه. وما أحسب أن خبراً - مهما كان صحيحاً - يستعصي إسقاطه على هذا الأصل!

إنما السبيل ن ينقّب الأستاذ عن نص صحيح صريح في تجريح الراوي التنوخي وأنه عهد منه وضع الأخبار ودسّ الروايات، أو أن يلجأ إلى حجةٍ - لا إلى احتمال - قوية يرضاها العقل والمنطق السليم.

(2) استهل الأستاذ كتابه بفرض فرضه، وخلاصته أن المتنبي علوي صحيح النسب، وأنه أخذ بكتمان هذا النسب لعداوة بينه وبين العلويين زعمها الأستاذ ولم يعرفها التاريخ. ثم ذهل حضرته عن أن هذا كان منه فرضاً ودعوى فراح يعده بعد صفحات حقيقية واقعة يبني عليها ويشرح بموجبها أبيات الديوان ويكذب مستنداً إليها الروايات، ويتهم الراوين. وهو بذلك يخرج على أصول سنها هو لنفسه وأخبر عنها في رده علينا حين قال: (ولا بد

لمن يريد أن ينقد ناقداً أو يكتب فيما يتناول الروايات والأخبار أن يتحقق بدءاً بمعرفة الأصول في علم الرواية، وأن يستيقن من قدرته على ضبط الفكرة حتى لا تنتشر عليه وتتفرق ويقع فيها الاختلاف والتضارب والمناقضة.) ونحن ننقل للقارئ أدلة على هذا الذهول من مواضع متفرقة من كتابه ليستبين أن الكاتب لم يتمكن من ضبط فكرته فانتشرت عليه وتفرقت. قال في ص48: (بينا لك فيما مر ما بين أبي الطيب وبين العلويين، وأن صاحبنا كان له عندهم ثأر قديم. . .) يقصد بما مر احتماله الذي لخصناه آنفاً. وقال في ص52: (وبينٌ على مذهبنا في نسب المتنبي أن الرجل حبس من أجل دعوى العلوية) وقال في ص58: (وكأني بالمتنبي في طريقه يظهر في القبائل والمدن أمر نسبه ويذيع بينهم أنه علوي الأصل شريف النسب محتالاً لذلك بالدهاء. .!) فأنت ترى أن هذا النسب العلوي وعداء العلويين كانا فرضاً أول الكتاب ثم صارا حقيقة مقررة في وسطه.

وماذا في أن يكون المتنبي علوياً حتى يهتم به العلويين هذا الاهتمام، وحتى يحتال هو لإذاعته في القبائل والمدن بالدهاء والبلاد تعج عجيجاً بالعلويين والأشراف؟ والغريب أن يتخذ الأستاذ من نظريته هذه التي افترضها برهاناً يضرب به كل الروايات والأخبار التي تحمل أمر تنبئه ويشغل الأمراء والناس والعلويين ودعاتهم بأمر فتى دون العشرين يدعي العلوية فقط، فيقول في رد رواية اللاذقي ص48: (أما اللاذقي فمجهول ولا يتيسر نقد سنده، ولكن مما لاشك فيه أن اللاذقية التي نسب إليها كانت لوقت أبي الطيب موطناً لفئة من العلويين ومحطاً لكثير من كبار الدعاة العلويين الذين حدثوا أحداثاً عظيمة في التاريخ العربي كله) هل اهتمامهم بفتى دون العشرين من عمره من الأحداث العظيمة التي أحدثوها في التاريخ العربي كله أيها الأستاذ؟! ولم لا يغتالونه مرة واحدة ويريحون أنفسهم من وضع الأخبار والدس عند الحكام؟ إن في الأمر مطامح لنفس هذا الفتى جعل سلمه إليها شيئاً آخر مع العلوية هو أكبر منها وأخطر.

وقد رددت أنا قسماً كبيراً من رواية اللاذقي هذا، ولكن لشيء غير ما ذهب إليه الأستاذ الكريم وسأبينه قريباً. وما أكثر ما يبين الإنسان لنفسه الخطة في البحث ثم (تنتشر عليه الفكرة) فيبنى على ير أساس. ولست أجد كلاماً في تصوير عمل الأستاذ وأصوله في بحوثه أصدق من قول الجاحظ في إبراهيم النظام وهو هذا: (وكان عيبه الذي لا يفارقه سوء ظنه وجودة قياسه على العارض والخاطر السابق الذي لا يوثق بمثله، فلو كان بدل

تصحيحه القياس التمس تصحيح الأصل الذي قاس عليه لكان أمره على الخلاص، ولكنه يظن الظن ثم يقيس عليه وينسى أن بدء أمره كان ظناً).

(3) يورد الأستاذ على حديث أبي علي بن أبي حامد شبهة واحدة بعد أن يقر بأحكامه، ويقول عنه ص49: (فهو حديث محكم لا يأتيه التوهين إلا من قبل غرابته عما جرت عليه الأحكام في شأن من يدعون النبوة. . . الخ) وقد أطال في بيان وجه الغرابة بما لا فائدة بنقله هنا. والذي في كلام أبي علي هو هذا: (فاستتابه وكتب عليه وثيقة وأشهد عليه فيها ببطلان ما ادعاه ورجوعه إلى الإسلام) وجلي أنهم استتابوه من دعوى النبوة فرجع بذلك إلى الإسلام. أما الوثيقة فهي ببطلان علويته وبهذا تزول شبهة الأستاذ، فأن من المألوف أن تكتب الوثائق في إثبات الأنساب ونفيها.

(4) عرض الأستاذ لرواية الهاشمي التي فيها: (كان أبو الطيب لما خرج إلى كلب وأقام فيهم ادعى أنه علوي، ثم ادعى النبوة، ثم عاد يدعي أنه علوي إلى أن أشهد عليه في الشام بالتوبة وأطلق) وهذه الرواية تعني أنه ما تخلى عن دعوى العلوية، وحين ترك ادعاء النبوة بقي على دعواه الأولى. ومنها ومن الرواية التي قبلها نفهم أنه لما أطلق ترك الدعويين معاً، فتاب من تنبئه، وكتب وثيقة ببطلان انتسابه للعلويين. وليس في الأمر مشكلة ولا تناقض ولا داع لأن يرجح الأستاذ ص49 إقحام لفظ النبوة بين العلويتين في حديث الهاشمي، وليقول: (إن المراد بالنبوة في حديث أبي علي بن أبي حامد العلوية) فعلوية أبي الطيب التي أراد أن يفسر بها النبوة الواردة في الروايات على اختلاف مصادرها لم تسلم له من الأصل وبقي المتنبي جعفياً يمنياً. وإذا كان لا بد من إيراد احتمال فالأولى أن تجعل العلوية الثانية من زيادات النساخ وإقحامهم. على أن الرواية في غنى عن هذا الفرض أيضاً وليس فيها داع إلى الشك أو

تأويل. فمن الغريب جداً أن ينكر أبو الطيب دعوى النبوة من ساعة القبض عليه وأن يظل على العلوية طول أيام سجنه حتى كتابة الوثيقة.

بقيت رواية الناشئ القائلة: (كنت بالكوفة سنة 325 وأنا أملي شعري في (5) المسجد الجامع بها والناس يكتبونه عني، وكان المتنبي إذ ذاك يحضر معهم وهو بعد لم يعرف ولم يلقب بالمتنبي). هذا الخبر هو مظنة أن يكون فيه بعض الحجة فلنفرضه صحيحاً ولننظر

ماذا تحته: إن فيه نصاً على أن أبا الطيب لم يلقب بعد بالمتنبي ولم يعرف في الكوفة، وإذا شئنا الدقة في التعبير قلنا إنه لم يبلغ أهل الكوفة أمر هذا اللقب، فيجوز أن يكون لقب به في الشام ويجوز ألا يكون. وليس في خبر الناشئ شيء آخر غير هذا. وبيان ذلك أن أبا الطيب ادعى النبوة للأعراب ثم سجن ثم أطلق وانتهى أمره ونسيه الناس، ثم حصل في الكوفة سنة 325 وحضر مجلس الناشئ فتى في الثانية والعشرين؛ ولما عاد إلى الشعر واتصل بالأمراء وبسيف الدولة وناوش الناس وناوشوه، وصاول الشعراء وصاولوه، وتفاقم الشر بينه وبين الناس نبشوا تاريخه - وهو هناك معروف - فأذاعوا منه هذه الزلة التي كانت في حداثته وتعلقوا بها وسار له في الناس هذا اللقب: (المتنبي).

لهذه الأسباب - وهي للقارئ معروضة - لم أجد في كلام الأستاذ شاكر (مقنعاً به من القوة ما يقف لهذه الروايات الصحيحة) وأظن أني أبنت له - كما أحب هو - وجود الضعف في قوله، وسواء علي وعلى الحق: أستبرأ الأستاذ من قوله أم لا. ولا بد أن يكون القارئ شعر بحرصي على وزن كلامي حرفاً حرفاً، وأني لم أسرف ولم أرسل القول على عواهنه. وقد عجبت كل العجب من الأستاذ - وهو الناقد الأصولي الفنان - حين لم يدر لم اختصرت حديث اللاذقي؟ إذ أن الأمر ظاهر، فإن الزيادات التي أهملتها يرفضها العقل ويكذبها الواقع، ولم تكن ثمة حاجة لأدل القراء على سبب إهمالها لأن تهافتها بين. وكثير أن تجرد عليها حملة كالتي نزل بها الأستاذ الميدان فخصص لها صفحتين من كتابه القيم. وهو يعلم - حفظه الله - أن من أدلة الوضع عند المحدثين مخالفة الواقع والمعقول كما هو مستوفي بكتب مصطلح الحديث. وأنا أستحيي من شرح هذا في مجلة (الرسالة) على رغم أن الأستاذ لم يجد بأساً في أن يعرفنا أن الخبر ما يحتمل الصدق والكذب، وأن وأن. . . الخ الخ مما يدرسه الطلاب المبتدئون. وأنا قد عملت بما أعرف من أصول البحث والتمحيص من دون أن أمن على قرائي. أما أستاذنا الفاضل فقد ملأ رده من مثل هذه الألفاظ: رواية، دراية، أصول نقد. . الخ وكلامي وكلامه أمام القارئ، وله وحده أن يحكم أين الرواية والدراية والأصول حقيقة لا ادعاء، وما التهويل بمغن عن أحدنا فتيلاً.

كنت أتوقع أن يتحفنا الأستاذ بالبراهين التي سوغت له رد الروايات فلم يفعل. أقول لم يفعل لأن أقواله: (رفضناه ورددناه وأسقطنا الثقة به والاعتماد عليه)، (إن هذا الخجل الذي

يزعمونه إنما هو من أباطيل الرواة)، (أخبار متداولة تهور كثير من الأدباء في التسليم بصحتها)، (أما كلمة كافور فمفتعلة) (وأسخف من هذه الرواية رواية من يروي. .) إن أقواله هذه ولو اتبع كل كلمة منها بجميع مرادفاتها ومؤكداتها اللفظية والمعنوية. . هي أليق بمظاهرها هتافية ينادي فيها بسقوط فلان وفلان منها ببحث علمي العمدة فيه الحجة والبرهان. وأي شيء في أن ينبز كاتب روايات التاريخ بالبطلان والكذب، ثم لا يكون دليله عليها إلا أنها كذب وبطلان!!

هذا وقد حمل الأستاذ أقوالي ما ليس تحمل: فأنا لم أدع للمعري تنزهاً عن الخطأ، ولم أقل بأن (ورود خبر في كتب العلماء هو الدليل الذي لا دليل غيره)، وما جعلت قرب الزمن دليلاً على الصحة بل هو مما ييسر للمحقق وسائله. كما أني لم أسلم بكل الروايات ولم أعدها صحيحة ابتداء، فقد رددت منها ما وجدت فيه إلى الرد سبيلاً، ونقدت حكماً أدرج في مصدر من أمهات المصادر وأجلها وهو خزانة الأدب حين وجدت للنقد مجالاً؛ ولكل من النقد والرد والتسليم مواطن. وكيف تريدني أن أقنع قرائي بأمر لم أقتنع به، وإلى أشياء أخرى يتحقق من رجع إلى مقالي أني لم أذهب إليها؟ ونحن لم نتهم الأستاذ بالعصبية للمتنبي ولكنه هو هو قدم لنا في رده دليلاً على عصبيته لرأيه، وليس لنا في هذا الأمر يدان. ولما قلت عن كافور: (وكافور ليس من الذين

يختلقون على شاعر، ولا ممن يروّج الاختلاق) خُيِّل للأستاذ أن ثمة نصراً مؤزراً فقال: (إن الأستاذ قد حكم على كافور حكماً لم يرد له ذكر في كتاب، فهل يستطيع أن يؤيد هذا الحكم بالدليل التاريخي والبرهان العقلي أن كافوراً لم يكن يختلق على الناس ولا يروج الاختلاق؟ لقد أتينا نحن (بارك الله) بالروايات ونقضناها بالدليل - ضعيفاً أو قوياً - أم أستاذنا فقد حكم على رجل بغير دليل ولا بينة من التاريخ أو غيره) اهـ. وعلى رغم أن الدليل على المثبت لا النافي - كما لا يخفى على الأستاذ الأصولي - وأن على من يدعي على كافور الاختلاق وترويجه أن يقيم البينة، على رغم هذا نحيل الأستاذ على الذهبي الذي وصف دينه وتواضعه فقال: (وكان يداوم الجلوس غدوة وعشية لقضاء حوائج الناس، وكان يتهجد ويمرغ وجهه ساجداً ويقول: اللهم لا تسلط علي مخلوقاً)، و (كان يرسل كل ليلة عيد وقر بغل دراهم في صرر بأسماء من أرسلت إليهم من العلماء والزهاد والفقراء. .) ونحيله أيضاً على الذهبي وغيره من المؤرخين الذين أجمعوا على وفور عقله وحسن تدبيره وصلاحه. . ويرى الأستاذ معنا أن فقه هذه الروايات - وهو الخبير بالرواية والدراية - يجعل كافوراً بمنجاة من النزول إلى هذا الدرك، وإن في أمور ملكه وبعد غوره ما يشغله عن الاختلاق على شاعر تكفي إشارة منه لتذهب برأسه. إن ما يسبغه المؤرخون على كافور من الصفات يكفي ليقول ببعده عن جميع السفاسف جملة وحدة. ففي التاريخ بينة وفيه دليل ولكن للعجلة في الحكم آفات.

هذا وفي نفسي مما أورده الأستاذ المحقق شيئ؛ فهل يسمح لي أن أطالبه بالدليل العلمي على قوله الجازم: (أعلم أن أكثر ما يروى في ترجمة هذا الرجل (المتنبي) وغيره من الرجال، إنما كان من الأحاديث التي تتناقلها مجالس الأدباء ولا يراد بها التحقيق، ولا ينظر فيها إلى صدق الرواية وسياق التاريخ وما إلى ذلك، بل إن كثيراً مما يروى في تراجم رجالنا كان مما يراد به مضغ الكلام في مجالس الأمراء أو في سامر الأدباء. . الخ) وهل يتفضل فيبين لنا البرهان القاطع في قوله جواباً على سؤالي: (إن هذا الخجل الذي يزعمونه إنما هو من أباطيل الرواة الخ) فمن هم هؤلاء الرواة الذين لفقوا الأباطيل؟ إني متى أعرفهم يسهل علي من دون شك أن أسأل عن الأسباب الحادية لهم على التلفيق.

وأنا غير مطمئن إلى قول ابن جني في سبب تلقيب أبي الطيب بالمتنبي، فإن جني مفرط في حبه لصاحبه والدفاع عنه وهو متهم فيه. فهل لأستاذنا أن يعزز قوله بروايات أخرى سبيلها على غير ابن جني وعلى غير ما حوله؟ فإن تعذر هذا فلا عليه أن يؤيدها بأدلة لا اعتراض للفكر السليم عليها. ولا بأس أن نقول له وقد قرأنا ختام رده الذي أثنى فيه على نفسه وعلى كتابه بما هو له أهل: أنت كما أثنيت على نفسك، ولكن إذا كان كتابك قد اتخذه - كما زعمت - بعض الكتاب (مصدراً استنبطوا به أصول النقد) فلسنا بالذين نسمي الطعن المجرد للروايات أصولاً في النقد، وما لهذا أيضاً علاقة بالبحث. وهلا إذ ذكرت ذلك دللتنا على أسماء هؤلاء الكتاب والمجلات التي نشورا بها والمواطن التي قلدوك فيها لنهنئك على شيوع مذهبك وكثرة المؤمنين به؟ ولعلك فاعل عن قريب إن شاء الله.

أما أنا فما كنت أظن قط أن أسطراً تذكر عرضاً في رد فكرة، تثير مثل هذا الفاضل فيحمل منها هماً يجد وقره وعنته اثنين وأربعين يوماً ثم ينفثه في رده الذي تكرم به على مثل هذا
الشكل.

لقد وددت والله لو أن الأستاذ شاكراً نقّب عن الحجة وتحرى الحق لأعترف له به وأرجع إلى قوله. وصحف (الرسالة) أحوج إلى أن تملأ بالحقائق والبرهان منها إلى الدعوى والانتقاض. وأتمنى للأستاذ أن يهجر هذا الأسلوب في الجدال، فما هو بمغنيه عن الحق شيئاً كما لم يغن طنين الأستاذ صروف بالإشادة بمزايا الكتاب في مقدمته. والمأمول من الله أن يأخذ بيد الأستاذ شاكر فيتمم لنا كتابه الضخم عن المتنبي الذي قُدِّرَ بأربعة مجلدات؛ وأتمنى أن أراه قريباً، وأن أرى فيه حقائق الرواية والدراية وأصول النقد لا ألفاظها فقط. وليس يمهم بعد ذلك أن تكون هذه الأصول حديثة يخترعها الأستاذ أو قديمة على غرار ما تألف عقول هذا الناس، إنما المهم أن تكون صحيحة سوية.

وسأكون سعيداً حقاً يوم ينقد الأستاذ الأخبار خبراً خبراً، فيعارض بينها ويقابل، ويمحصها تمحيصاً يرضيه هو ويستفيد منه القراء الذين لا يخفى عليهم وجه الحق في كلام اثنين، ولا يصرفهم عنه نيلٌ من صاحبه ومراوغة في الحط منه؛ فإن هذا هو الأشكل بالأستاذ الكريم والأليق بفضله والأولى بسجاياه، وله - في الختام - شكري وخالص تقديري والسلام عليه ورحمة الله وبركاته.

(دمشق)

سعيد الأفغاني

وحي الدم المتحد

للأستاذ عبد المنعم محمد خلاف

لم تعد الوحدة العربية خيالاً تغازله الأحلام في أفق بعيد، ولا فكرة سطحية تطفو على عقل ضحْلٍ كما تطفو الفقاقيع. . . وإنما صارت كوناً موجوداً وأمراً مجسداً له ذرية وأنسال يتوادون ويتظاهرون في المأساة وفي فرح الحياة. . . وله دماء قرب منها مزيجاً مزجته الأقطار العربية وقدمته لحماية فلسطين من عابدي الذهب. . . فللعروبة من ذلك قرة عين لأنها رأت على صفحة الدم المتحد صورة المجد القديم الذي أوشك الزمان أن يستدير بجدته ويقبل بدولته.

أجل! سلوا أشجاراً يابسة وجذوعاً جافة بشعاب فلسطين وبطون وديانها، وقد حالت إلى الإيراق والحياة: ما الذي نضَّرَ عودك ورد عهودك وأطال عمودك؟ وستجيب: إنها الدماء التي لم أُسْقَها من عهد صلاح الدين. . . الدماء التي مزجت أمشاجها فكرة إلهية فجعلت فيها إكسير الحياة حتى للأحجار والأشجار والمدر والوبر. . الدماء التي تسيل من الأسود والأبيض والأصفر والأحمر فتجمع خلاصة ما في الإنسانية من إخاء، وسر ما في المسلمين من توحيد. . . الدماء التي تطفئ ما للظالمين من نار، وتجرف مالهم من آلات الهول والدمار. . . الدماء التي تدخرها الحياة ثم تطلقها سيّالاً طهوراً هدّاراً رجافاً يغسل الأرض ويحدث الانقلاب وينقل الإنسانية إلى الأمام. . . الدماء التي تحمل عناصر إخصاب الإنسانية بالفكرة الإلهية والحرية والإخاء والمساواة والعدالة والرحمة والسلام والبر والتعاون حتى تلد الأمهات أمثال ابن الخطاب وابن عبد العزيز والرشيد وصلاح الدين. . .

يا فلسطين يا أرض النبوات! تلك رسالة جديدة تهبط من شعاب جبالك ومن بين (التين والزيتون) مرة أخرى على قلوب العرب والمسلمين، وقد كتبت بالدم الممزوج من نفوس تمثل أربعة أقطار من ميراث محمد بن عبد لله. . . تحدث أهل الأرض الذين استحالت حياتهم إلى نوع من حياة الأوابد والفواتك لقبح الثقة وسوء الظن، وشر المعاملة، أن لأخوة الإنسانية لا زال لها تحت جناح تعاليم محمد مكان تأرِزُ إليه وتلوذ به، وأن الأسرة التي كان يبغيها أبو البشر آدم على وداد وترابط وتضامّ حتى يكون له من ذلك معنى السمو على

الأفق الحيواني. . . لا زالت هي الأمة العربية المطبوعة على إجابة الصريخ وتلبية الدعاء ونصرة اللهيف واحترام الجامعة ومعنى الدم. . .

يا أهل فلسطين! إنكم عرفتم كيف تموتون عند الاقتضاء، ولذلك لم تموتوا! بل ضوعف فيكم سر الحياة لأنكم أمددتموه بالدم وفعال المجد وحسن البلاء. . بل لقد ضوعف بعملكم سر الحياة في العرب والمسلمين جميعاً، وصار منكم مثل جديد يضربونه مفتخرين بين يدي هذا الزمان على مسمع الأمم وبصر التاريخ. . وقد غدوتم في فم الزمان مثلاً شروداً وحديثاً مُرَدَّداً أنسى التاريخ خبر الإسبرطيين وأجناد الرومان والجرمان وغير أولئك من العصبة أولي القوة! وقد أضفتم إلى مكتبة البطولة كتاباً ضافي الصفحات واضح الغرات فرح به عشاق الأبطال وعارفو أقدار الرجال.

ومهما يكن عدد مستشهديكم الذين ساقوا إلى المعالي مهرها من صبيب الدم ومسفوك النجيع. . . ومهما يكن من سطوة القوة، وعنف الظلم، ووقاحة الطاغوت. . فأن الدرس الذي تلقونه على المتآمرين على كسر شوكتكم وازدرادكم وهضمكم، درس هائل مزق أعصابهم، وأطار صوابهم، ومحا خططهم، وأفهمهم أنكم أعظم بأساً وأشد مراساً وأطول أنفاساً.

(ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين. إن يمسسكم قَرح فقد مس القوم قرح مثله).

يا صهيونيون! كذبٌ من الأحلام وخُدعة من الأماني أن تملكوا أرضاً تنكركم وتلفظكم. لقد سخرتم إلهكم الذهب في شراء سطوة أمة مخدوعة بكم أو خادعة لكم تتخذون منها آلة تهدم وطناً على أهله لتبنوا لكم على أنقاضه وطناً في عالم الأحلام. . . وسنبصر وتبصرون: أينا المحروب المغلوب. فارتقبوا إنا مرتقبون، (هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر، ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتُهم حصونهم من الله، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، وقذف في قلوبهم الرعب، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار)، ففروا من مجزرة أنتم شاؤها وأرانبها. وكونوا أكيس من أن تبنوا لكم عشاً في طريق الفيل. . .أو تناموا بين فكي الأسد!.

ثم هبوا أنكم غصبتم فلسطين من العرب، فما هي ضمانات دوامها لكم وسط هذا البحر العربي الذي يكنفها ويلفها ويقذفها بموجه من الشمال والجنوب والشمال واليمين؟ هي الحراب الحليفة لا شك. ولكن الحماة مواطنهم في شمال الأرض، وهم أمة لا مناص من أن يلحقها داء الأمم وتدركها عقابيل الشيخوخة، وحينذاك أو قبله بكثير يستيقظ الثأر الراقد، وينهض الوتر الرابض، ويتنادى أبناء الشرق عليكم، فلو نفخوكم لأطاروكم. . . فأيما أمانٍ وقرارٍ وقيمةٍ لبلد فقد أهم عناصر الاستيطان وهو الدوام؟!

ألا إنها خدعة عبقرية، أو قل هي عصا القدر تسوقهم إلى شبكة محبوكة فاغرة لتصديق نبوءة النبي العربي الكريم. (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين).

أيها المؤتمرون بتراث العروبة! كلمة من شباب العرب والإسلام: إننا اعتزمنا أن نحيا أعز حياة وأمجدها، مدفوعين إلى ذلك بوحي أرضنا أرض التاريخ والرسالات، والميراث الروحي، وبهتاف أبطالنا وأعلام تاريخنا، تحيط بنا أفواج مجندة من أرواح الشرق التي نعيش معها ونلقَن عنها؛ ولن يعوق اندفاعنا عائق، لأن عجلة الفلك تدفعها يد القدر، وهي التي تدفعنا لنأخذ دورنا الثاني في تنمية الميراث الإنساني وغسل الأرض. . .

ألا فأفسحوا الطريق ولكم حسنة، قبل أن تفسحوه وعليكم كلمة السوء! فأننا عما قليل سيلٌ يتحدر من صبَب، ونار تشتعل في حطب! (ومنذا يرد على الله القدر)!

عبد المنعم محمد خلاف

جولة ريفية

صحبة النهر المقدس

في الطريق الريفي الملوّن بالأضواء والظلال لا تجد أجمل من رؤية النهر المقدس، يشق الوادي الجميل، فيُنَضرُ بالخضرة طلعته، ويزين بالعشب والشجر حافته، وينفث من روحه في الطير الحياة، ويطيف من حوله أرواحاً تغني بجماله وتبتسم في عذوبته!

ولقد مرَّت قرون وقرون، ومياه النهر تغني للوجود أغنية الخلود، وتفني المخلوقات في كر السنين، ويبقى وجه الماء العذب الطهور تصافحه أضواءُ الشمس الذهبية، وتباركه أنفاس الهواء، فيملأ هذا الثالوث الطبيعي القلوب والعقول بشراً وصفاء وذكاء وحياة!

ويا لها من قوى سحرية تُقوي الإيمان بالخلود، وتزيد الحب للوجود، وتبعث الزهد في الحياة، وتعلن في الدنيا مجد الله!

ومن ذا الذي يمكنه أن يصف سحر النهر؟ وكيف لأديب أو مفتنّ أن يصور روحاً من الأرواح عاشت من جودها الحقول، وطفرت في براءتها الطيور، ورقصت في دلالها الهوام رقصات الجنون!

ومن الغريب أن آلاف الأناسيَّ تسير إلى جوار هذا الروح الهائل، كظل من الظلال العابرة، لا تهتز لجوده، ولا تنحني لبره، ولا تهتف بجماله، كأنما نضبت فيهم عاطفة الاعتراف بالجميل، على حين كان الآباء الأولون يقْدرُون للنهر أياديه، فيقدمون له الهدايا، ويحملون لصدره أعز الأرواح!

فلماذا لا نُزجي لهذا الماء الغني هدايا الفن الحديث، وقرابين القلب العارف النبيل؟ وهاهي ذي روح النهر تشدو بأنفاس الحنان، وهاهي ذي أمواجه تتنفس البهجة والفرحة في الحياة!

(ميت غمر)

مصطفى عبد اللطيف السحرني المحامي

مشرقيات
في الأدب العربي الحديث
للأستاذ أغناطيوس كراتشقويفسكي
الأستاذ بجامعة لينينجراد

تمهيد: امتاز الأستاذ أغناطيوس كراتشقويفسكي صاحب هذا البحث بدقته وسعة مداركه، وتساميه عن المواضيع المطروقة؛ وهو لا يفرق مطلقاً بين الآداب العربية وبين الأمة التي أنتجت هذه الآداب.

وقد لا أعرف بين علماء المشرقيات في أوربا من توفر على دراسة الأدب العربي الحديث غيره وغير البروفيسور جب صاحب الدراسات الوافية في القصة المصرية والأدباء المعاصرين، والأستاذ كامفماير الألماني مؤلف كتاب (قادة الأدب العربي الحديث)، والمستشرق السويسري الدكتور ويدمار الذي يذيع دراسات مستقلة عن الأدباء والشعراء المعاصرين، كمحمود تيمور والزهاوي، والمستشرق نيفل باربور الذي كتب دراسة وافية عن المنفلوطي وعن تاريخ المسرح المصري، وكذلك المرحوم مارتين هارتمان المتوفى لأعوام قلائل، فإليه يعود الفضل في تنبيه علماء أوربا إلى الأدب العربي الحديث.

وقد زار العلامة كراتشقويفسكي مصر وسوريا وفلسطين عام 1908، وانكب في خلال إقامته بهذه الأقطار على دراسة آدابها الحديثة، ومكث بها فترة طويلة بمدرسة اليسوعيين في بيروت. وظهرت نتيجة زيارته ودراسته في بحث ممتع قرأته له منذ أعوام ناشد فيه الأدباء المعاصرين أن يدونوا تراجمهم ويدرسوا آثارهم.

وللأستاذ أيضاً يعود الفضل في تعريفنا بالعالم المصري المرحوم الشيخ محمد عياد الطنطاوي المدفون في مدينة بطرسبرج (لينجراد)، فقد نزح هذا العالم الأزهري منذ نحو قرن تقريباً إلى روسيا ليدرس الأدب العربي في جامعاتها، ووافاه الأجل وهو هناك فدفن في الأراضي الروسية، ويوجد رسم فوتوغرافي لقبره في الخزانة التيمورية، وقد نقشت بعض عبارات بالعربية على شاهد القبر هذا المعنى.

وقد ظهر أول بحث علمي للأستاذ كراتشقويفسكي عن (شاعرية أبي العتاهية) وضعه عام 1906، فرسالة (خلافة المهتدي) التي تقدم بها إلى الجامعة للحصول على درجة علمية، فكتاب (المتنبي وأبو العلاء المعري) وهو بحث ممتع دقيق فيما كان للمتنبي من التأثير في فلسفة أبي العلاء وشعره وبالأخص فلسفة التشاؤم الغالبة في شعر فيلسوف المعرة وفي آرائه الدينية، ودراسة عن شعر الشاعر الدمشقي (أبي الفرج الوأواء)، وترجمة ديوانه، وكتاب (البديع لابن المعتز)، ودراسة عن (الرواية التاريخية في الآداب العربية العصرية)، ثم هذا البحث الممتع الذي نشره في الملحق الأول من دائرة المعارف الإسلامية.

ومما يجدر بنا ذكره أن العلامة كراتشقويفسكي أشرف على ترجمة كتاب (الأيام) لطه حسين، و (عودة الروح) لتوفيق الحكيم إلى الروسية، وهو يشغل الآن كرسي أستاذ الأدب العربي بجامعة لينجراد، تعاونه في مهمته سيدة فلسطينية هي كلثوم فاسيلفا التي وقفت جهودها على نقل الآثار النفسية في الأدب العربي إلى الروسية. (المترجم)

1 - لمحة عامة - عوامل التقدم - العصور

ليس من اليسير على الباحث المحقق أن يعثر على بعض آثار النهضة الأدبية في العصور السابقة للقرن التاسع عشر. فإنها كانت مجرد مظاهر فردية الغرض منها إحياء الفنون اللغوية القديمة، دون محاولة التجديد في الأدب؛ وكان من جراء الروابط المتينة التي نشأت بين الأقليات المسيحية في سوريا ودوائر روما واستامبول أن بزغت مدرسة أدبية خاصة، يتصدرها مطران حلب الماروني السيد جرمانوس فرحات (1670 - 1732)؛ إلا أن العرب لم يتأثروا بالتيارات الفكرية في أوربا إلا بعد الحملة الفرنسية (1798 - 1801). فإذا أردنا أن نبين مظاهر الثقافة الأوربية التي تركت أثراً أعمق من غيرها في التفكير العربي، ألفيناها في الوصف الذي أورده الجبرتي لأول مطبعة حروف، ورأيناه في أول مكتبة نظمت على النمط الأوربي في دار الشيخ حسن العطار (1766 - 1834) الذي أصبح فيما بعد شيخ الجامع الأزهر. وإن في هذين

المثلين فكرة عن بعض العوامل التي قامت بدور هام في تكوين الأدب العربي الحديث، وقد أنشئت في ذلك الحين دور جديدة للعلم على الطراز الأوربي، فأنشأ محمد علي الكبير مدارس لتعليم الطب والعلوم الفنية بنوع خاص، لكنها خصصت أيضاً لتدريس فن الترجمة. أما في سوريا فقد عملت الرسالات الأوربية والأمريكية العديدة عملاً مجدياً في هذا السبيل، فأسست مدارس منوعة، وراح الأهلون ينسجون على منوالها في إنشاء دور العلم، فكانت مدرسة بطرس البستاني (1819 - 1883) أولى المدارس الوطنية. وفي خلال القرن التاسع عشر أدخلت على تلك المدارس تعديلات عدة، فأصبح للبلاد العربية الآن مجموعة رائعة من المعاهد العلمية الكبرى التي أحدثت أثراً مباشراً أو غير مباشر في تقدم الأدب الحديث. وإنا نذكر منها الجامعة الأمريكية، وجامعة القديس يوسف ببيروت، والجامعة المصرية بالقاهرة. ثم انتعشت حركة البعثات العلمية فأكملت ما قامت به المدارس من الخدمات. وهناك وصف طريف لأولى البعثات التي أرسلها محمد علي الكبير، وهذا الوصف الشائق بقلم أحد المبعوثين، رفاعة بك الطهطاوي (1800 - 1873) الذي أصبح فيما بعد مترجماً مجتهداً، واحتل مكانته الأدبية كزعيم من زعماء الاتجاه الجديد. وقد اتخذت تلك البعثات صبغة منظمة ابتداء من مستهل القرن العشرين. ومن السهل استجلاء أهميتها في تكوين الثقافة العربية إذا اطلعنا على الرسائل التي قدمها شباب العلماء العرب في جل السنوات (خصوصاً إلى الجامعات الفرنسية). وفيما عدا الطباعة التي كانت معروفة في سوريا منذ فجر القرن الثامن عشر، دون أن يكون لها أثر كبير، فقد أدخلت الحملة الفرنسية إلى مصر عنصراً جديداً وهو الصحافة الدورية. لكن أثرها ظل في حيز ضيق إلى أن كانت سنة 1828 حين أعاد تنظيمها محمد علي الكبير. وكان لها الفضل العميم في تقدم الأدب الحديث، إذ وجهت بعض الأنواع الأدبية وجهات جديدة كما ساعدت على ظهور أنواع أخرى. وكان الإقبال المتواصل على الترجمة مرتبطاً تمام الارتباط بالطباعة. واستهلت الحركة بترجمة الكتب العلمية ثم شرع في نقل الكتب الأدبية البحتة. وكما أن بعض الكتب القديمة كمؤلفات ابن المقفع والجاحظ كان من الصعب نقلها إلى اللغات الأخرى لولا مترجمو العصر العباسي، فإن الأدب العربي الحديث كان مستحيل النشوء لولا مترجمو القرن التاسع عشر. وللمرة الأولى في التاريخ أصبح الأدب القديم في متناول القراء بفضل الطباعة. وقد شرع في خلال العشرين أو الثلاثين سنة الأخيرة في دراسة هذا الأدب دراسة صحيحة مؤسسة على القواعد الحديثة. وقد قامت هذه الحركة على أساس أنه لا يجوز نبذ الأدب القديم كله لتشييد أدب عربي حديث، بل يتعين الاحتفاظ بجزء كبير من الأدب القديم وإعادة تنظيمه. وقد تأسست دور كتب على النمط الأوربي فسهلت تلك الدراسات المنظمة وساعدت على نشر الكتب القديمة. وإلى جانب الصحافة الدورية، قامت المنتديات والجماعات العلمية والسياسية والأدبية تدريجياً منذ منتصف القرن الماضي فأحدثت أثراً عميقاً في الجو الأدبي. بل إن النثر الخطابي نشأ وتدرج في تلك المنتديات. أما المسرح فلم يكن له حظ يذكر، فقد ظهرت بواكيره في النصف الأخير من القرن التاسع عشر بفضل جهود بعض الهواة، لكنه لم يعتبر مظهراً جدياً من مظاهر الفن إلا في القرن العشرين إذ برزت طائفة من الممثلين الأكفاء يرشدهم فريق من النقدة المسرحيين.

وللهجرة أهمية خاصة ترجع إلى تقلبات مصير العرب في القرنين التاسع عشر والعشرين، وذلك لاعتبارات متنوعة من سياسية واقتصادية. ولقد سارت الهجرة جنباً لجنب مع الأدب العربي الحديث منذ فجره حتى اليوم، سارت منذ غداة الحملة الفرنسية إذ نزحت بعض الأسر عن مصر وأقامت في فرنسا، كميخائيل صباغ (1784 - 1816) والياس بقطر (1784 - 1821). وكثير من أولئك المهاجرين كانوا أساتذة الآداب العربية في جامعات أوربا كالشيخ الطنطاوي المدفون ببطرسبرج (1810 - 1861) وكان جل اهتمامهم موجهاً إلى إحياء الأدب القديم، إذ أن الأدب العربي الحديث كان في مستهل نهضته فلم يثير اهتمام المستعمرين وعلماء المشرقيات. لكن الحالة تطورت بعد سنة 1870 إذ تدفق سيل المهاجرين تدفقاً كبيراً (خصوصاً النازحين من سوريا) لا إلى أوربا فحسب، بل إلى أمريكا الشمالية والجنوبية. وكان لهجرة هذه

العناصر أهمية عظمى في تكوين الأدب العربي الحديث، إذ ظهر جيل من الكتاب بدءوا دورهم على مسرح الأدب وإن لم يتموه إلى الآن.

استناداً إلى هذه العوامل يمكن القول بأن تاريخ الأدب العربي الحديث ليس إلا تاريخ النفوذ الأوربي، فقد اتجه هذا الأدب اتجاهين رئيسيين: النضال بين الأفكار القديمة وبين الأفكار الحديثة، والمشكلات التي نشأت من طابع الفن الأدبي الحديث. وقد اتخذ هذا النضال أشكالاً متباينة في المضمار الأدبي، فشوهدت في كل مرحلة تقلبات تختلف عن الأخرى. وأهم الميول التي ظهرت بجلاء هي أولاً: الاحتجاج على كل جديد ومحاولة البقاء في دائرة القديم، وإحياء الأساليب القديمة. ثانياً: السير سيراً سطحياً على منوال الأوربيين وتقليد أفكارهم، واحتقار الماضي العربي بأسره. ثالثاً: محاولة صبغ الأصول الصحيحة للأدب العربي بأشكال جديدة مبتكرة من أساسها، مع اتخاذ الطرق الأوربية والثقافة الغربية وسيلة للوصول إلى هذا الغرض. ولا تزال هذه الميول قائمة حتى الآن جنباً لجنب.

ويلاحظ أن الفريق الأخير هو الذي فاز بأوفى عدد من الأنصار. وبديهي أن مصير العرب السياسي في القرن التاسع عشر والقرن العشرين أثر تأثيراً كبيراً في التيار الأدبي. فتاريخ هذا العصر هو تاريخ الانفصال تدريجياً عن تركيا (سواء من الوجهة السياسية أو الأدبية) ونشأة الروح القومية العربية التي اجتازت مراحل نموها بخطوات تختلف سرعتها باختلاف البلاد. وقد شاهدنا في الأيام الأخيرة أن تقدم الروح القومية أدى إلى نزعة فردية عند بعض الأمم العربية. أما في ميدان الأدب فإن تلك النزعة تنمو وتقوى في مصر حيث يدعو بعض المفكرين إلى تمصير اللغة وإحياء الأدب القومي.

إن من الصعب تقسيم الأدب العربي في القرن التاسع عشر إلى عصور تميزه تمييزاً واضحاً، فقد كان الإنتاج الأدبي في حد ذاته إلى عام 1880 تافهاً نوعاً، بل إن العرب أنفسهم كانوا لا يذكرون أسماء كتابهم، ذلك لأن مؤلفات هؤلاء الكتاب لا قيمة لها إلا في نظر معاصريهم، فهي مرآة لأفكار عصرهم ومشكلاته، وأهميتها اليوم لا تعدو أن تكون تاريخية بحتة. بل هو عصر بحث واستطلاع أكثر منه عصر إنشاء أدبي.

ويمكن تحديد هذا العصر بخمس قرن، أي من سنة 1880 إلى 1890، ثم من سنة 1890 إلى سنة 1900، وهي الفترة التي اختفى فيها من المضمار الجيل الأول لناشري النور الجديد ودعاة الأدب الغربي، وكانت كل من سورية ومصر تعملان وقتئذ مستقلتين، فالتفتت مصر إلى المضمار بنوع خاص، أما سوريا فوجهت اهتمامها إلى ميدان اللغة والأدب، وبرز في كل من البلدين رجال عظماء كبطرس البستاني في سوريا، ورفاعة الطهطاوي، وعلي مبارك (1824 - 1863)، وعبد الله فكري (1834 - 1890) بمصر، وفي البلاد غير العربية امتاز العصر بظهور بعض الكتاب النوابغ كأحمد فارس الشدياق (1804 - 1887).

في هذه الفترة أنشئت الصحافة الدورية وتكون الأسلوب الصحفي، وشهدت السنوات العشر المتخللة بين سنة 1860 و 1870 تغيرات خطيرة في مركز الأدب العربي الحديث،

فحوادث دمشق في سنة 1860، واستقلال لبنان استقلالاً داخلياً من جهة، وافتتاح قنال السويس (1869)، ثم نشوب الثورة العرابية (1882) أدت إلى احتلال القطر المصري من جهة أخرى؛ كل هذه العوامل ساهمت في تعديل الطرق التي سار عليها الأدب. ولقد اتسع نطاق الهجرة السورية إلى مصر اتساعاً كبيراً في الفترة من سنة 1890 إلى سنة 1900، فانتقلت إلى أيدي السوريين جميع الصحف الإصلاحية القوية النفوذ.

(يتبع)

ترجمة محمد أمين حسونة

الطيف. . .

للأستاذ فليكس فارس

يا جيرةَ الحيّ هل في الحيّ من آسٍ ... يردُّ ذكري وآلامي ووسواسي؟

سلختُها عن شغَافِ القلب فاقتلعتْ ... جُذورُها من صَميم القلبِ إحساسي

أعلو المنابرَ طلاَّباً بنشوتها ... بعثَ القديمِ بأفكاري وأنفاسي

فتنجلي بيَ نفسي وهيَ خافيةٌ ... عني لتبدو لَمنْ حولي من الناسِ
أُنيرِ نبراسَ شعري أستبيحُ به ... ما يَهتكُ السترَ للمُستَذكرِ الناسي
فيجتلي شاهدي روحي بروعتِها ... ويحجبُ الشعرُ عني نورَ نبراسي
نشدتُ نفسيَ في الإعصار أقحمها ... نشدتُها في ظِلالِ الوردِ والآسِ
نشدتُها في عيونِ الغيدِ طامِعَةً ... مني بإحياءِ تدليهي وإيناسي
فروَّعتني شَرارات الحياةِ بها ... ورَاعِها في عيوني أربدُ الياسِ
يخَالني الناسُ أمشي في ربوعهم ... ولم أكن غيرَ طيفٍ بين أرماسِ
فإن جلستُ إلى الإخوانِ مؤتنِساً ... لمحتُ ذاتيَ وهماً بين جُلاَّسي
أُراود الكأسَ عن سكرٍ تجودُ بهِ ... فلا أرى غيرَ وهمِ السكرِ في الكأسِ
يا جيرةَ الحيّ هل في الحيّ من آسٍ ... يردُّ ذكري وآلامي ووسواسي؟
سلختُها عن شغَافِ القلب فاقتلعتْ ... جُذورُها من صَميم القلبِ إحساسي
(إسكندرية)
فليكس فارس
الشاعر وسريره
للشاعر الحضرمي علي أحمد باكثير
- 2 -
في غرفة واجمةٍ قفرةٍ ... ليست بها بارقة للمُنى
هادئة لا عن طمأنينة ... ساكنة مثل سكون الفنا؟
النور في أرجائها حائر ... يصيح من يأسٍ: أقبري هنا؟!
ولا جواب غير همسٍ بها: ... ويْبَكَ يا ابن الشمسِ أين السنا؟
لا ذنب للنور ولا غيره ... في غرفة خالية مِن (أنا)!
ثاقبة السمع، تكاد الرؤى ... تُسمَعُ فيها وخُطا الأزمنة!
كأنما كل جدار بها ... أبدل آذاناً عن الألسنة
ضلّت بها الأشياء ناموسها ... فما لها من صِفَةٍ أوزِنة!
يمتدّ فيها الزمن المنقضي ... حتى كأن اليوم فيها سَنة
كأنما الدهر بها مُتعب ... أوغل في غيبوبة من سِنة!
ثَمَّ (سرير) مُفرد، لاغِب ... ممتَقَعِ الوجه، كليم الفؤاد
ينتحل البشر إذا جئتُه ... وهمُّه ما بين خافٍ وباد
يرثي لقلبٍ في ضجيج الدُّنَى ... يشكو من الوحشة والانفراد
واضيعةَ الجمرِ بلا مُصطلٍ! ... وليس بعد الجمرِ إلا الرماد!!
ينشد قلباً واحداً عاطفاً ... من ضعضعت شكواه هذا الجماد!
رَق لحالي، وهو أحرى بأن ... يبكيني العطف على حاله!
كأنه في شعثِه راهب ... لا تخطرِ الدنيا على باله
يحمل مني جسداً مائراً ... طول الدُّجى يمطَى بسرباله
يقوم عنه وهو مستنفدٌ ... قواه، ملْعوبٌ بأوصاله
يكفيه بؤساً صاحبٌ فوقه ... يطرقه الليل بأهواله
من لسريري بيدٍ عَذبةٍ ... تنفخ فيه الرَّوح والعافية؟
تجولُ فيه إذا جَهُمه ... أريكة منضودة زاهية!
ينتشرِ الريحان في جوها ... وتنتشي في ظلها الفاغية!
آوي بها من غرفتي جنةً ... يمر فيها الدهر كالثانية
رُبَّ سرير حسُنت حاله ... يعود بالحسنى على حالية!!
عي أحمد باكثير
وداع صديقين
للأستاذ أمجد الطرابلسي
عِندي التهاني عذبة لكما ... فرْحي، فما لي اليومَ عندكما؟
ومعي التهاني الطيباتِ أسىً ... وار يجوبُ الصدْر مُضطرما
إمّا انْتَشي قلبي لمجدِكما ... ذكر النوى فهفا لبُعدكما
فرح وتحنان، فأيُّهما ... أُخْلي له الخفّاق، أيهما؟
قد حارَ قلْبي قبلَ بينكما ... ما يفعل المِسكين بعدكما!

أخَويَّ سِيرا واتركا كبدي ... تَلْهو بها الأشواقُ إثْركما
تَبّاً لها مكلومة أبداً ... ما إن تُسيغ الأعْذب الشما
أو تُنكران أساي في عُرسٍ ... رن السرور بساحِهِ نغما
إن الوفاء يهزُّ بي شجناً ... جمَّ اللهيبِ ويَنْظم الكلما
ويهيجني قسراً فمعذرةً ... تَسَع الوفاء البرَّ، أو كرما
أخويَّ سيرا للفخار معاً ... إن القلوبَ تحوط ركْبكما
لا تأسيا لملاعبٍ كرُمت ... نبت الصِّبا في قدْسها ونما
أو ترْهبا الصحراء قاحلة ... لجُّ الرِّمال طغى بها وطما
فالمجد والذكْرُ الجميل لمن ... يجري على الأرماح مبتسِما
كم أطْلعت صحراؤنا قمراً ... حول النبي، وعلمتَ أمما
وعلامَ ظعنكما يُروّعني ... ومرابضُ الأحرار قصدكما!
إن العراق على الجِوارِ أخٌ ... بَرٌّ كريم يكلأ الرَّحِما
في رأسه من هاشمٍ أسدٌ ... يرعى العرينَ ويحرس الأجما
غازي بن فيصل جَلَّ مَحْتِدُ ... شرفاً، وطابَ أبُوَّةً وحمى
ملكٌ به تزْهو العروش، جرى ... نحو العلاءِ بِشعبه وسما
فخر الشباب، وحسن طلعتِه ... وضياءه إذ يكشفُ الظّلما
للهِ هَمكماء ودركما ... من كوكبين توهَّجا هِمما
قلبا كما قد أتْرعا أملاً ... وعزائِماً، وتوقَّداً شمما
أصبحتُما مثلاً فَمِثلكما ... من سارَ في طلبِ العلى قُدُما
نِضْوانِ، والقلبُ الكبير لظىً ... تضوي به الأجسام ما اضطرما
خاضا عُباب الجد مُضطرباً ... صخباً: ودرب المجد مزدحما
ملآ الصحائفُ كلَّ مفخرةٍ ... وتشاطرا الأمجاد واقتسما
فإذا سألت المجدَ، أي فتى ... نزهو به في الشام؟ قال: هما!
ثملان بالعزِّ التليد فكم=بعثا محاسِنه، وما كرُما
طَربان لم ذا مجّداً ظفراً ... أو ردَّدا نغما، وما سئما
أوَ يسأمانِ، ومجُدنا زهرٌ ... في مَفرِق التاريخ قد نظما
مجد العروبة ساطعٌ أبداً ... لا يرْهبُ الأحقَابَ والقدما
تعنو له الأجيالُ خاشعةً ... وتخُصُّه التبجيلَ والعِظما
يا مَجْدَنا الماضي تحيَّتنَا ... اليومَ ثُرْنا نبعَثُ الرِّممَا
سنُعيد صوتك داوياً غرداً ... في الخافقَيْن وننشُر العلما
نحنَ الشِّبالُ فداءُ رايتنا ... سنُحَطمُ الأصفادَ واللُّجما
آمالُنا وخيالُنا وطنٌ ... سُقِيت دُموعاً أرضُه ودما
جُبلت من الشُّهداءِ طينَتُه ... فغدا لقُدْس تُرابه حرما
وطني تخِذْتُكَ في الصبا أملاً ... حُلْواً يرفُّ، وفي الكرى حلُما
وطني عبدْتُ ثراك مِن وَلْهي ... لو كنت مِمَّن يعبدُ الصنما
يا صاحبيَّ ستنزلانِ حِمىً ... شَب الفخارُ لديهِ واحتلما
بغدادَ أم المجدِ من ولدتْ ... للمجد مأموناً ومُعتصما
إن تأتياها، فاذكرا زمناً ... كلُّ العصور غَدت له خدَما
ثم اسقِيَا العَبراتِ تُربتها ... قد حلَّ دمعٌ للوفاءِ همى
البصرتَان هناك كم ولدا ... حبْراً وكم ذا أطْلعا علما
والرّافدان هُنَاك كم حملا ... عرشاً، أظلَّ العُرْب والعجما
أيُّ العروشِ يظلُّ منبسطَا ... أي الجديد من البِلى سلِما
هذي دمشقُ، فكم بها أثر ... من عبدِ شمسٍ شارف العدما
كم جرَّ ذيلاً في حدائِقِها ... مروانُ أو كم نقّل القدما
جبّارة في الخطبِ باسمة ... لا تشتكي لجراحِها ألما
سخِرت من الطُّغيانِ فاغرةً ... قبراً لكلِّ مدجَّج ظلما
دامٍ حشاها، وهي عابثة ... كالغيدِ، تضحكُ مُقْلةً وفما
لا تنسياها صاحِبيَّ غدا ... أو تنسيا شملاً بها التأما
أو تنسيا بردّى وواديَهُ ... والغُوطَة الغنَاء والنَّسما

مالي أُذكرُ! أين مثلكما ... من يحفظ التذكار والذّمما؟
(دمشق)
أمجد الطرابلسي
من وراء القرون
هذه الأحداث تتوالى، والمصائب تتعاقب، والأمم الإسلامية
تخوض كل يوم بحراً من اللهيب، فأين الأدب الذي يصف
الأحداث، ويصور آثارها؟ وأين الشعر الذي يشحذ الهمم،
ويستثير العزائم؟ وأين الأدباء والشعراء الذين يشعرون بشعور
الأمة ويألمون لآلامها. ويشاركون في بناء مستقبلها؟ . . .
أما حركتكم أيها الشعراء نكبة فلسطين؟ أما هزت قرائحكم؟ أما هاجت عواطفكم؟
اقرءوا الآن هذه الأبيات من قصيدة الأبيوردي في استيلاء الإفرنج على بيت المقدس
في سنة اثنين وتسعين وأربعمائة. ثم افتتحوا (ديوان فلسطين) الذي ستؤلفونه من
قصائدكم في فلسطين بمعارضة هذه القصيدة، عل قصائدكم تهز الأمة الغافلة فيخرج
منها صلاح الدين جديد.
(ع)
قال الأبيوردي المتوفى سنة . . .
مزجنا دماءً بالدموع السواجم ... فلم يبق منها عرضة للمزاحم
وشرّ سلاح المرء دمع يفيضه ... إذا الحرب شبت نارها بالصوارم
فإيها بني الإسلام! إن وراءكم ... وقائع يلحقن الذُّرى بالمناسم
أتهويمة في ظلّ أمن وغبطة ... وعيش كنوّار الخميلة ناعم
وكيف تنام العين ملء جفونها ... على هبوات أيقظت كل نائم
وإخوانكم بالشام يضحي مقيلهم ... ظهورَ المذاكي أو بطون القشاعم
يسومهم الروم الهوان وأنتم ... تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
وكم من دماء قد أبيحت ومن دُمىً ... تواري حياء حسنها بالمعاصم
بحيث السيوف البيض محمرة الظبى ... وسحر العوالي داميات اللهاذم
وبين اختلاس الطعن والضرب وقفة ... تظل لها الولدان شيب القوادم
وتلك حروب من يغيب عن غمارها ... ليسلم يقرع بعدها سن نادم
سلَلن بأيدي المسلمين قواضباً ... ستغمد منهم في الطّلى والجماجم
يكاد بهنّ المستجنّ بطيبةٍ ... ينادي بأعلى الصوت: يا آل هاشم!
أرى أمتي لا يشرعون إلى العدا ... رماحهم والدين واهي الدعائم
ويجتنبون النار خوفاً من العدا ... ولا يحسبون العار ضربة لازم
أترضى صناديد الأعاريب بالأذى ... وتغضي على ذلّ كماة الأعاجم
فليتهم إذ لم يذودوا حمّية ... عن الدين ضنّوا غيرة بالمحارم
وإن زهدوا في الأجر إذ جمّش الوغى ... فهلاّ أتوه رغبة في المغانم
لئن أذعنت تلك الخياشيم للثرى ... فلا عطسوا إلا بأجدع راغم
دعوناكم والحرب ترنو ملحّة ... إلينا بألحاظ النسور القشاعم
تراقب فينا غارةً عربيّة ... تطيل عليها الروم عضّ الأباهم
فإن أنتم لم تغضبوا عند (هذه. . .) ... رمتنا إلى أعدائنا بالجرائم
القصص
ليلة. . . من عمر فتاة!
للأستاذ محمد شوكت التوني
منذ الساعة الثالثة بعد الظهر وأمينة في عراك بينها وبين نفسها. فمرة تقوم لترتدي
ثيابها وتعد نفسها لملاقاة (صادق). ولكنها لا تلبث حتى تلقي الملابس وترمي أدوات
الزينة مهتاجة الأعصاب ثائرة النفس. فإنها لا تريد لقاءه ولا تبغي أن تشاهد وجهه ولا
أن تستمع إلى حديثه، ولا أن تبادله ذياك الحديث. فقد أصبح بغيضاً لديها، كريهاً في
عينها، منبوذاً من كل عواطفها إلا عاطفة الحقد. لقد عرفته أول ما عرفته شاباً وادعاً
رقيقاً ملأ أذنيها بأحاديث الهوى، وصور لها دنياها زهوراً ورياحين، وأضاء في قلبها نور
الأمل، وأشعل في نفسها جمرة الحياة الحلوة الهنيئة، وحسبته صادقاً في قوله مخلصاً
في حبه، وفياً بعواطفه، يريدها شريكة له تقاسمه نعماء الحياة وبأساءها، يبنيان معاً

كالعصفورين عشاً يتذوقان فيه جمال الدنيا وينعمان فيه بسقسقه صغارهما زينة الحياة وذخر الباقية.

وكانت قد اطمأنت إليه وأنست لحبه، وبادلته النجوى كما بادلته رسائل تفيض سطورها بأشد العواطف، وتسجل في كلماتها خفقات قلبها.

وكان لقاؤهما أول العهد نادراً لا يستطيعانه، فكانت الرسائل عزاءهما وسلوتهما، ورسول قلبيهما؛ وكان والدها رجلاً شهماً قوي الشكيمة، يحيط منزله بعنايته ويتعهده برعايته، فكان الإفلات من حضانته عسيراً. ولكن الشباب لا يُغلب والعاطفة في زمنه لا تقهر، تستطيع أن تنفذ ولو في الصخر الصلد. وعلى ذلك فقد تقابل العاشقان بعد طول البعد. وبعد أن ربط بين قلبيهما مجرد النظر والميل الغريزي والخيال البارع، ووثقت الروابط والعلاقات الرسائل التي كانا يتبادلانها، والتي كانت ألفاظها تحمل من المعاني ما هو أبعد ما يكون عن الحقيقة لأنه نضح الخيال وثمرة الأمل الواسع والرجاء الفسيح.

ولكن المقابلة وتكرارها مرة أخرى باعدت بين العاشقين، فقد عرفت من أمره ما غاب عنها بين سطور الرسائل، فهو يريدها كما يريد الرجل المرأة، تدفعه شهوة الشباب الغلابة التي تتشكل في صورة العاطفة وقد تسمو وترقى، وتأخذ هيكل المثل الأعلى ولكنها لا تلبث عند اللقاء واللمس وتذوق القبلة والعناق أن تنكشف وتتساقط جافة صفراء من فوقها ومن حولها

الأوراق التي كانت تسترها مخضرة منداة، عليها طلاوة الغضارة ورونق النضارة. ويصفق في ذلك الكيان البشري كفّا الرغبة فيزلزل الجسم ويخون اللسان صاحبه، وتكشف النظرات خديعة الخيال.

أدركت (أمينة) كل هذا، وكشفت من أمر صاحبها ما رابها أول الأمر، فتعللت بالآمال واستنجدت بخداع نفسها، ولكنها لم تستطع الثبات وأيقنت في آخر الأمر أنه باطل ما أملت، وخيبة ما رجت، ووهم ما تخيلت، وأن العش الذي بنته في سبحات الروح إنما هو في الحقيقة كهف مظلم ينتظرها فيه إنسان في صورته الوحشية الأولى، أو بالحري حيوان على أديمه طيف إنسان! فجفلت ونفرت وارتاعت، وكان عنصر نفسها قوياً فلم تستسلم أو ترتمي حطاماً وتتكسر هشيماً، فأعرضت وصدت عن (صادق) وأرسلت إليه تعلنه بالقطيعة وتحول بينه وبين قلبها وبين جسمها، وتحذره أن يعاود أمره معها أو يحاول الاتصال من جديد بها.

ولكن الوحش الذي كان ينظر فريسته في الكهف المظلم هاجه أن تفلت في لحظة قد أعد فيها الوقود، وتلهب سعير ذلك الوقود في كل قطعة من كيانه، ونادته غريزته أن لا بد من الفوز ولو بارتكاب الجريمة، فعمد إلى تهديدها وسطر لها الخطاب الآتي:

(أمينة)!

(لا تحسبي أمري من الهون بحيث تنقضين وتبرمين في حياتي بمجرد رغبتك وحسب إرادتك. أنت لي، قلباً وجسماً، ولو اصطف أهلك جيشاً، وأعدوا من السلاح أشده وأقتله. فارجعي إليّ وعودي إلى أحضاني، وإلا فليس في يدي غير الانتقام، وعدته جاهزة، وسلاحه مرهف، وخطاباتك أمامي الآن بخط يدك، أرسل بعضها إلى أبيك، وأضعها في يد زملاء أخيك بالمدرسة، وأذيعها على صفحات الجرائد، وفي كل صالون من جيرتك، فتنهال فوق جسمك الذي تضنين به على قبلاتي ومتعتي، العصي والسياط، وينتشر العار حول اسمك، فينالك من رفيقاتك الخزي ومن الراغبين في زواجك الصد والبعد.

إني أنتظرك في الساعة الخامسة من مساء ليوم في مكان لقائنا المعروف. فإن لم تحضري ففي الساعة الثامنة غداً صباحاً سأبدأ انتقامي وتكون في يد أبيك رسائلك، ولقد أنذرتك فأعذرت)

(صادق)

لم تكن أمينة تترقب وقوع هذه الكارثة، وكانت تحسب أنه يكفي أن تعلنه بالقطيعة حتى ينقطع، وأنه حسبها ما تعاني من ألم الخيبة وصدمة الفشل.

لقد كن أول حب نما في قلبها، وكانت فجيعتها فيه لا تقل عن فجيعة الأم الشابة في وليدها الأول الذي لم تكن تصدق أنه يموت من بين يديها، فأعدت الآمال وحاطته برجاء نفسها المطمئنة.

ولقد كان صادق في نظرها شاباً وادعاً هادئاً، ثم رأت منه جنوحاً إلى تكييف العلاقة التي بينهما بصورة لا تريدها. ولم يكن يخطر ببالها أنه سوف ينحط عن هذا درجة بله درجات فيهبط من السماء التي كان يتيه فيها ملكاً فيصبح مجرماً كملايين المجرمين الذين يملئون فجاج الأرض!

إنها نادمة على ما فرط منها من التسرع في مبادلتها الحب لشاب عرفته بالنظر ولم تعرفه بالفكر ولا التجربة، ورأت في نفسها مجرمة في حق نفسها، فهي تريده عاشقاً روحياً عذرياً، ينظر إليها كزوجة المستقبل، مع أن حبهما كان وليد النظرة، ولم يكن ثمرة التعاطف الروحي. . .

إذن هي لم تحبه؛ لم تعشق هذا الإنسان المدعو (صادقاً)، ولكنها أحبت (محبوباً)، رجلاً، لأن (سالبها) الروحي كان معداً (لموجب)، بصرف النظر عن شخصية من يمثله، فأي شاب كان قد حل محله جديراً بأن ينال مركزه في قلبها.

وهذه هي الخفقة الأولى للحب، تتكون عناصرها بسرعة البرق، وتعيش في قلب صاحبها بلهاء! والسعيد من فارقته وشيكاً، والشقي من أطالت رفقتها معه وأثمرت له زواجاً، أو عشرة محرمة، كلاهما يفضي بحياة صاحبه إلى التعاسة.

مرّ كل هذا بخاطر أمينة، ولكنها تذكرت أن هذا الشاب الذي يكتب مثل هذا الكتاب ويتقلب مثل هذا التقلب، لا يحجم عن تنفيذ تهديده، فهو لابد فاعل ما انتوى؛ وغداً في الصباح ستقع في يد أبيها رزمة من الأوراق بخط ابنته التي يعتقد أنها قديسة، والتي يعيش من أجل رفاهتها وسعادتها، ويحوطها بحنانه وشدته كي يبعد عنها عناصر الشر والسوء.

إن التفكير في هول السعير كان ألطف وقعاً عندها من التفكير فيما عسى أن يفعل أبوها،

وهو ذلك الرجل القوي الذي يبعث الرعب في نفس كل من حوله من نظرته، والذي إذا قدم البيت شاع فيه السكون وعقد الصمت ألسنة سكانه، والذي يضرب المثل بالمصلحة الحكومية التي يديرها من حيث إنجاز العمل فيها والهدوء الذي يهيمن على نواحيها، والذي يخافه أهل العزبة خوفاً لعلهم - بينهم وبين أنفسهم - لا يخافون الله مثله.

العزبة! لقد مرت على رأسها ذكريات ذلك الشاب القروي الذي يسكن العزبة، والذي اتهمه شيخها بأنه يتصل بفتاة قروية مثله، فأحضره أبوها وجلده بالسوط حتى كاد أن يموت، وأجبره على الزواج منها والرحيل عن العزبة!

ترى إذا كان هذا فعله بالقروي الحقير، الغريب عنه، فماذا هو فاعل بابنته، عرضه، دمه ولحمه؟!

أتراه إذا قرأ خطاباتها إلى صادق، وهي تدعوه فيها (حبيبها) و (أملها)، والتي تسهب فيها في شرح عواطفها وما يخالج فؤادها من عشق مبرح وهوى جائح، والتي تصف فيها سهرها الليل ومناجاتها إياه، وتفكيرها في السعي إليه وهجران الدار إلى لقائه، لولا ما وضع أمامها من موانع، والتي تذكر في بعضها كيف حطمت هذه الموانع ولاقته؟!. . .

وكانت كلما تذكرت أباها عندما يدرك أن ابنته الصغيرة كانت تخدعه وتسخر من قواعده المقررة في الدار، وتعصي أوامره، وتتستر بالأعذار الكاذبة لتلاقي. . . عشيقاً لها! ينتصب شعر رأسها فزعاً وترتعش كمن مسه تيار كهربائي، وتتساءل: يا ترى إذا رحم شبابها، وذكر أنها كبده وثمرة حشاه، هل يكتفي بقتلها برصاصة تودي بحياتها دون أن يطيل عذابها؟!

عند هذا الخاطر كانت تضعف أمينة، فتقوم من نورها إلى ثيابها ترتديها تنوي الذهاب لملاقاته والتوسل إليه كي يقلع عما قطع فيه بعزمه، لعله يلين ويرفق بحالها، ولكنها سرعان ما ترجع عما نوت، وتظهر لها خسة هذا الشاب وحقارته، وكيف أنه لجأ إلى التهديد بدل أن يلجأ إلى الرجاء، (وهذا الخلق من شأنه) أن يجعل صاحبه يتمادى لا يرق للرجاء والتوسل! ثم. . كيف ترجو وكيف تتوسل؟ وترجو من؟ هذا الوضيع؟ إن الموت أحب إليها من أن تفعل، وملاقاة حتفها أيسر من تحطيم كبريائها وعيشها ذليلة يتصرف في شأنها رجل تكرهه، بل ذئب يشتهيها، وهي كالأمة، لا تملك إلا الرضاء والتسليم.

ترجع فتخلع ما لبست وترتمي محطمة على الأريكة وحياتها أمامها مظلمة لا ينبثق منها نور ولو من بعيد.

ثم تتذكر تهديد صادق لها بأن يعرض رسائلها على زملاء أخيها في المدرسة، وتتصور أخاها الشاب الكامل، البسام، المرح، المعتز بقوة عقله وقوة جسمه، فهو الأول بين أقرانه، وهو بطل المدرسة في الملاكمة، وهو يعد نفسه ليدخل مدرسة البوليس ليصبح ضابطاً. كيف يكون حاله لو شاع هذا الأمر بين زملائه وأصبح عرضة للازدراء والتحقير والتعيير؟ ستتحطم كبرياؤه ويمشي بينهم منكس الرأس عاني الجبين. . .

يا ترى هل ينتقم منها هو الآخر، أم يكفيه ما يحل به هو نفسه؟ إذن جنايتها مزدوجة.

لقد حطمت نفسها وقتلت أخاها! ما أكره هذا الحب. ما أبعده عما يصور الكتاب والشعراء وينطق الممثلون ويرسم المصورون! إنه خداع وكذب ووهم يعيش في ظلمات الرؤوس والنفوس، حتى إذا ما برز إلى ضوء الحياة ظهر كالمسيخ المجذوم المهزول!

وكان الليل يهبط، وظلامه ينبث في الكون، ونافذتها المطلة على الخلاء البعيد تسرق لها كثيراً من جمال الليل وجلاله، ولكنها كانت ترى كل جمال مشوهاً وكل جلال حقيراً.

لم تتناول طعاماً، ولم تخرج من غرفتها. فهي تروح فيها وتجيء، وترتمي على الأرائك والحشايا، ثم تهب مذعورة كأن في هذه المقاعد جمرات تتوقد ثم لا تلبث أن تسرع فتجلس مرة أخرى وتستسلم للتفكير. . . والليل يوغل في المسير، وكأنه يسير على صدرها بكلكله، والأفكار تتوالى على رأسها سوداء فتاكة. . .

إنه قد ينفذ تهديده الأخير وينشر أمره وأمرها في الصحف، والصحف أصبحت ميداناً لنشر فضائح الناس حقيقها ومكذوبها، ويعرف هؤلاء الناس عندئذ أن هذا (البك) الجبار الذي يشمخ بأنفه ويعتز بكرامته إنما هو أب فاسد عربيد لم يستطع أن يحتفظ بعرضه، فما باله يريد أن يملي إرادته على الناس أجمعين؟! ياله من أبله ذي غفلة!!

وأهلها وأصدقاؤها الذين يتوددون إليها ويبدون لها الزلفى، ويسعون لها بالحب سيزدرونها ويتنكرون لها ويصبحون ألسنة تذيع ما قد يستطيع أن ينشئه الخيال من قصتها.

لقد فقدت الأب والأخ والأهل والأصدقاء، وفقدت الكرامة، وفقدت آمالها وسوف تعيش منعزلة منبوذة - إن عاشت - وسوف تموت ذليلة مزدراة إن عالجها الموت فأراحها، وسوف تتقلى ذكراها على جمر القول السيئ ما دام في الزمن أيام تمر وليالي تعقبها. . .

لا مفر إذن من الموت. فلتعجل به لنفسها لعل موتها يدفن كل هذه المصائب، وتفتدي به حياة أبيها وأخيها، ولعل الذئب عندئذ تأخذ روعة الموت وجلاله بسفالته عن أن يستمرئ السير في انتقامه إلى النهاية. وقامت عندئذ إلى (صيدليتها) الصغيرة فانتقت منها (اليزول) (واليود). ولكنها تراجعت تفكر. وهل من الصواب أن تثير فتنة نائمة؟ وهلا يتساءل الناس عما حدا بها إلى الانتحار ودفعها إلى معالجة شبابها الغض بهذا الدواء النكد المشئوم؟ وهلا يقول الناس أكثر من الحقيقة؟ وهل تضمن هي أن يكون لدى صادق ضمير يوقظه موتها فيستحي عن الاستمرار في سفالته؟

الأوفق إذن أن تسعي إلى قتله. . . هل تقتله حقيقة؟ هل تستطيع؟ إن سلاح أبيها في متناول يدها. ولكن هل تقوى على ارتكاب هذه الجريمة؟ أتحتمل أعصاب ساقيها السير إلى داره وارتقاء درجات مسكنه؟ وهل تقوى أعصاب يدها على حمل السلاح وإطلاق الرصاص؟ وهل تستطيع مواجهة ما يعقب الحادث؟؟

لا، إن هذا فوق الطاقة!

إذن أين المفر؟ وأين المهرب؟ لا منقذ اليوم!

اندفعت إلى النافذة، وكان الليل قد انتصف ودلف بنصفه الثاني إلى الفجر، وسكن الكون وسجا الليل، وكان يخيل للإنسان البائس الشقي أن الله مستمع إليه.

وقفت أمينة في النافذة وساءلت ربها: (يا ترى يا إلهي كم فتاة وقفت موقفي وسقطت من تأثير هذا الهول، ولم تعرف الناس أمرها، فراحوا يستعدون عليها انتقامك، ولو دروا لرحموها كرحمتك).

يا ترى يا رب أنت منقذي أم يشاء قضاؤك وقدرك أن أنحدر كالحصاة الضئيلة عندما تراوحها الريح، ثم تقذفها إلى المجرى ويلمها الخضم في أحشائه؟

إنك يا رب أنزلت المعجزات في زمن الطغيان والعصيان، وكم أريت الإنسان عجزه أمام قدرتك، من حيث لم يكن يتصور وجودك ولا يخشى بطشك. فهل تتركني يا إلهي فريسة أمام إنسان عاجز وأنت القوي الجبار؟
إنني أريد أن أعيش. وأنت يا رب قدرت لي العيش. أريد أن أسعد، ولا أريد أن أشقي أبي
وأخي. وأحب أن أقضي عمري شريفة لزوج كريم وأولاد أحباء. . عاوني يا إلهي واشملني برحمتك، إنني أمد لك يد الضراعة وقلبي يسبقني إلى ملكوتك باكياً مسترحماً.
أنت يا إله الضعفاء، يا نصير البائسين، يا رب هذه المخلوقات جميعها أدركني برحمتك فقد شملت رحمتك كل كائن حتى هوام الأرض وحشراتها تقدر لها الرزق وتعد لها الحماية والحصانة).
ومرت نسمة رطبة باردة على وجهها المحتقن المتوقد فبعثت الراحة إلى أعصابها . . . وأفسحت مكاناً للإيمان بالله والاطمئنان إلى قدرته تسري إلى قلبها الخافق المعذب ونفسها الممزقة حسرات. .
وكان الفجر بدأ يشرق بضوئه الشعري الرقيق يحمل في جبينه ابتسامة، ويخفي في يده وراء ظهره الشمس المضيئة وهي قادمة تحمل الحياة، وتحمل الأمل الجديد لكل يائس حزين.
اغرورقت عينا الساهرة المسهدة المضناة وغسلت دموع اضطرابها. وارتاحت أعصابها ولمعت في رأسها فكرة كادت أن تثب بقلبها من صدرها.
إنها سترمي آخر سهم، فأما فازت وإما يئست - واليأس إحدى الراحتين - فبقيت تنتظر مصيرها الذي يحمله له الغيب المحجب.
قامت تحمل هذه الفكرة مندفعة إلى غرفة أخيها الشاب فأيقظته ورجته أن يستعد لسماع حديث لها هام. فقام مرحاً كعادته واغتسل وجاءها طلقاً ضاحكاً. فجلست إلى جواره وأخذت تسرد عليه كل أمرها، صريحة واضحة، فعرفته كيف ابتدأت علاقتها بصادق، وكيف استمرت، وكيف كشفت حقيقة نواياه وكيف هددها، وكيف قضت ليلتها. . . وسألته أن يقوم بواجبه كأخ وكصديق ومنقذ فوضت إليه أن يفعل شيئاً. ولو أن. . . يقتلها!
وكأن الموضوع قد أحال هذا الشاب المرح رجلاً قوياً يستمع في جد ورزانة، ووجهه ينم على أن قراره يتكون في نفسه وفي رأسه.
وما إن أتمت حديثها حتى قام يربت على كتفها بيده وكأنه يعدها بإنجاز ما سألته. وارتدى ثيابه في صمت وخرج من الدار ولم تكن الشمس قد برزت في السماء.
وانتظرت أمينة المصير مستسلمة لحكم الله أعدل الحاكمين. .
وبعد نصف ساعة رجع أخوها إلى غرفتها وسألها.
- (كم عدد رسائلك؟)
- (. . .عشرون)
- (هاك العشرين رسالة)
وألقى بين يديها عشرين رسالة أخذت تقلبها باكية مضطربة فرحة. حتى إذا ما اطمأنت إلى أن رسالة منها لم تغب أخذت تمزقها وترميها وقوداً لنار أشعلتها لتدفن فيها ماضيها الصغير!
وبعد ساعة كانت العربات تنقل أثاث منزل صادق وهو يسير وراءها مذعوراً لا يكاد يستطيع أن يرفع جبينه إلى منزل أمينة، فقد هاجمه أخوها بقوته وبسالته وأرغمه على تسليم الرسائل وإخلاء سكنه والابتعاد عن الحي بأكمله وإلا فهو قاتله، وارتاع الجبان وخضع وفنيت قوته الكاذبة أمام قوة الرجل الباسل. وأدرك أن الرجل الذي لا يستطيع أن يواجه رجلاً مثله أحرى به ألا يقف في وجه امرأة!
محمد شوكت التوني
السعادة
لا أراك إلا مكباً على كتب الدراسة فلهذه وقت وللراحة أويقات، وهذا انهماك قد (يودي بصحتك وأنت ما تزال طفلاً، هلا تذهب معي إلى الشيخ، إني أعتزم زيارته الآن).
هكذا فاجأني أخي الأكبر، ولم تكد شفتاه تنفرجان عن آخر كلمة حتى ألقيت ما بيدي

جانباً، وسارعت للحاق به نطوي سهولاً واسعة نغذّ السير على الأقدام، بينما ترسل الشمس علينا شواظها لهيباً لافحاً، وقدماي تغوصان برمال محرقة تجعل مشيتي بخطوات لا اتزان بها.

وما إن تراءت لنا تلك البناية، وهي تقوم على أكمة جرداء تشرف على جانب من سهول قفراء حتى عاودني نشاطي، بيد أن أخي استحثني أيضاً فلوح إليّ بالشجرة التي تبدو إلى جانب الدار وإلى اللجوء إليها من شعاع الهاجرة اللاذع.

وبرز إلينا رجل استفزه هرير الكلب الملح، وإذ عرفنا أومأ إلى كلبه فتنحى إلى ركن أقعى خافتاً عواءه، كأنه يتلمس عذراً.

رحب بنا مضيفنا العجوز واحتوانا مجلس وثير، وثير بفراش يتألف من حصير تعلوه وسادة ومخدتان، فتراخت أعصابي بهدوء حيث الاستمتاع بفيء عميق، تلاشى معه عنت السفر.

وانطلقت عيناي كأنهما تبحثان عن شارد في نواحي هذا المنزل الظليل وفيما احتواه من أثاث بسيط، وإلى هدوء هذا الشيخ ووقاره. إنه منزل رحيب ولو أنه مكون من غرفة واحدة تحيط بها أكوام الأحجرة الدائرة من آثار القرون الأولى، لا يتصل بها من عمران سوى هذا المغار المعد لمأوى عنيزاته، وهي تبلغ العشر عداً.

وفي نشوة هذا الاستمتاع أدركت مغزى إطلاق البدو اسم القصر على أي كوخ يقوم في عرض الصحراء، وأقرر أنهم على حق.

فأية فخامة تحلم بها في غبراء يابسة تعدل هناءك حين تحضنك جدران أربعة تغدق عليك فيئها وتطمئن إلى سلامتك فيها. إذن هو قصر باذخ. ويزيده رواء هذه الشجرة التي لا ثانية لها فهي تخلع على هذا الكوخ ترفاً يتضاءل معه ترف القصور. هي مخضرة الأوراق وارفة الظلال وهي أبداً باسمة مادام كل ما يكتنفها قاتماً، ويرحب بنا المضيف في جلال الشيوخ مخاطباً إيانا في حكمة من وقرت ظهره السنون فتخرج كلماته متزنة في حين تلمع أسنانه البيضاء التي لم يسقط منها سن واحدة على ما أظن.

وقلما يتزحزح من متكئه، فإلى جانبه إناء الماء البارد وأمامه معدّات القهوة العربية ويرتفع قريباً منه رف مصنوع من أعواد غير متناسقة يحمل أكواماً من المخطوطات عبث البلى بأكثرها. فهذه كتب يدعوها أسفار الحكمة، وتلك وريقات يزعم أنها تضاهي صحف موسى، ولماذا؟ فهي اتصلت به من جامع قرطبة بواسطة المغاربة الجوّابين.

وذلك كتيب يقول إنه توارثه عن آبائه الأقدمين وهو يقسم أن القلم الذي بين أصابعه مضي عليه زهاء ثلاثين عاماً لم يبره مرة ثانية بل زامله في عزلته طيلة هذه السنين في حالته الراهنة. وهو يجري عليه رزقاً متواصلاً، إنه رائد الخير، به يكتب الرقي للبدو ويحبر الرسائل الخاصة ويثبت به كل ما اختُزن في المغار، وهو لم ير سبباً لتجهيز هذا المغار بباب يحول دون سرقة ما احتواه من سمن وحبوب وصوف ائتمنه عليها البدو مقابل جعل خاص.

وهؤلاء البدو تغمرهم الطهارة. هكذا يوجه كلامه إلى أخي لأنهم لا يسألونه عن زيادة أو نقصان في أماناتهم ولا يأخذون بها مستنداً منه. وهم إذ ينسابون مع مواشيهم في عرض الصحراء طلباً للكلأ والماء ويمنعون في توغّلهم بأطرافها المترامية يرسلون قوافل تمدهم بالمؤونة مما ادّخروه واختزنوه عنده.

وما يدرّه عليه القلم إذا أضيف إلى هذا الجعل عن الخزين هي الثروة التي يقنع بها ويحرص على الشكران عليها.

واندفع يسرد علينا اطمئنانه إلى عيشه ووجهه يطفح إيناساً وملامحه تفيض بشراً وهناء واعتدل في متكّئه كمن يحاول أن يحاضر في موضوع فكرر الشكر لله إذ هيّأ له حياة وادعة ويقول: لم لا أكون مرتاحاً وهذا رزقي يأتيني رغداً، وهذه عنيزاتي تدر علينا حليبها، ولنا دجاجات تغذينا ببيضها، ونستقي ماءنا عذباً بارداً من البئر القريبة لمنزلنا؟ أما زوجي فهي تشاطرني هذا العناء وهي وأنا عجوزان طال بنا انتظار الموت وهو إذ يغشانا أحدنا أو كلينا ألفانا على أهبة للقاء الله

يا ولدي (يخاطب أخي) إذا حان وقت الصلاة انزوي إلى محرابي هذا، وإذا شعرت بالسأم فها هي ذي كتبي. إنها تحوي كل شيء. إنها عندي بمثابة عالم كامل وأزيدك اطمئناناً عليّ بأنني لم أشك مرضاً ولم ألقى ولم أتعرف قط إلى رجل السراي في

كرسيه وزهوه حتى ولا أدري شيئاً عن أحوال ما يطلقون عليها من أسماء، حكومة أو دولة أو حكومات وعساكر فأنا بعيد عن الناس قريب إلى الله سعيد بلقائه وفي عودتنا رأيت أخي يهز رأسه غير مرة يردد كلمتي: إنه سعيد! إنه سعيد!

(عمان)

(جار الصحراء)

البريد الأدبي

المؤرخ الألماني كونراد بورداخ

من أنباء ألمانيا الأخيرة أن المؤرخ الكبير كونراد بورداخ قد توفي في السابعة والسبعين من عمره. وبورداخ من أعظم مؤرخي ألمانيا المعاصرين، وقد اشتهر بالأخص بمباحثه وآرائه في تاريخ العصور الوسطى ونظمها وخواصها الفكرية والاجتماعية، وكان مولده بمدينة كونجزبرج في سنة 1859، ودرس دراسة حسنة في جامعتها ونال إجازة الفلسفة؛ وفي سنة 1884، انتدب للدراسة في جامعة هاله واستمر بها حتى عين أستاذا لتاريخ الأدب الألماني في سنة 1892. وفي سنة 1893 ظهر أول جزء من كتابه الشهير في تاريخ العصور الوسطى المسمى (من العصور الوسطى إلى عهد الإصلاح) فأثار ظهوره اهتماماً عظيماً في دوائر البحث؛ واستمر في إصداره أعواماً عديدة وترجم إلى عدة لغات أوربية؛ وتوفر بورداخ على دراسة هذا العصر دراسة مستفيضة. وكتب عن (لوثر) بطل الإصلاح الديني مباحث عديدة؛ وقام بعدة سياحات ومباحث مختلفة في دور المحفوظات الألمانية لحساب أكاديمية العلوم البرلينية، وأصدر لحسابها أيضاً مؤلفات همبولد، وله في الأدب والحياة الفكرية عدة مؤلفات هامة نذكر منها كتابه عن (فالتر فوجلفايدة) وكتاب (علم الحياة الألمانية) وغيرها.

وفي سنة 1927 أخرج بورداخ أعظم كتبه وأهمها وهو كتاب (الإصلاح والأحياء والحركة الإنسانية) , , ولبورداخ رأي جديد في نشأة حركة الأحياء فهو يرى أنها ثورة عقلية ترجع إلى بواعث روحية عامة، وأن هذه البواعث ترجع إلى الاعتقاد الديني في السمو الإلهي للعالم والحياة، وترجع أيضاً إلى نفوذ الكنيسة وإلى مؤثراتها؛ وفي رأيه أن الكنيسة قد لعبت دوراً عظيماً في تهيئة أسباب الإحياء الفكري؛ وقد تناول بورداخ في كتابه بالبحث المستفيض خواص الحياة العقلية في القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر، وألقى ببحثه كبير ضوء على سير حركة الإحياء الأوربي.

كتاب جديد عن مصر

المسيو كلود آفلين من كتاب فرنسا الشبان، وهو السكرتير المساعد لنادي القلم الفرنسي؛ وقد زار مصر منذ نحو عامين، ورأى أن يكتب عما شاهده في هذه البلاد، فوضع عن مشاهداته كتاباً صدر أخيراً في باريس وعنوانه: (النزهة المصرية) ومسيو آفلين كاتب ذلق خفيف الروح، ولكن الوقار يطبع أسلوبه؛ فهو قد كتب عن مشاهداته في مصر مجلداً يبلغ نحو ثلاثمائة وخمسين صفحة، وضمنه كثيراً من الملاحظات والنكت الظريفة، ولكنه لم يدع في كتابه أنه أصبح بهذه الزيارة أعرف الناس بمصر والمصريين، بل هو يصارحنا في مقدمته بأنه يكتب متهيباً لأنه لم يحسن معرفة مصر، وأن مصر لا تعرف في زيارة أو زيارات، وإنما لا بد لمعرفتها من وقت ودراسات كثيرة.

ومما يجدر ذكره أن مسيو آفلين لم ينحدر إلى شيء من ذلك الإسفاف الذي رأيناه في كتابات بعض الفرنسيين الذين زاروا مصر في العهد الأخير، ولا سيما فرانسيس كاركو الذي يصور مصر في كتاباته أقبح تصوير، ويزعم أنها من أكبر مراكز البغاء في العالم، ولا يجد لأحاديثه سوى المواخير والمنازل السرية والمقابلات الغرامية المزعومة مع بنات الباشوات. . . الخ؛ هذا الإسفاف الذي ينحدر إليه فرانسيس كاركو وأمثله يتعفف عنه مسيو آفلين غاية التعفف، ولا يطالعنا إلا بأحاديث شائقة ظريفة تفيض عطفاً وحباً.

سفينة جوية هائلة

يظهر أن عجائب الاختراع البشري لن تقف عند حد، وأننا قد نشهد في المستقبل القريب سفناً جوية جبارة تشق جو المحيط، كما نشهد اليوم السفن المائية الجبارة تشق عباب المحيط؛ ففي أنباء أمريكا الأخيرة أن المستر شولر كلنهانز مهندس

الشركة الجوية الكبرى التي أنشأت أهم وحدات الأسطول الجوي التجاري الأمريكي، قد وضع تصميماً جديداً لسفينة هوائية جبارة لا تقل في حجمها عن سفينة بحرية حقيقية.

وقد شرح المستر كلنهانز تصميمه أمام مجمع العلوم الجوية في سان فرنسيسكو، وقال إن تكاليف السفينة الجديدة تبلغ نحو أربعة ملايين جنيه، وأنها تستطيع أن تخترق المحيط من نيويورك إلى ليفربول في إحدى عشرة ساعة فقط، ويستغرق صنعها على الأقل أربعة أعوام من العمل المتواصل.

ويقول المستر كلنهانز إن الأمر ليس خيالاً وإنما هو مشروع علمي قتل بحثاً ودرساً من الوجهة الفنية، وتأكدت صلاحيته وإمكان تحقيقه بالتجارب العلمية، وسيكون وزن السفينة

الجديدة نحو 1500 طن، وطولها نحو 375 قدما، ومحيطها نحو 550 قدماً، وسيجهز محركها بقوة مائتي ألف حصان، ويمكن أن تحمل مائة عامل ومهندس، وخمسمائة راكب، وخمسمائة طن من الوقود لتكفي اختراق المحيط، وخمسة وعشرين طناً من العفش.

وتطير هذه السفينة الجبارة بسرعة ثلاثمائة ميل في الساعة، وعلى ارتفاع اثني عشر ألف قدم.

ويقول مستر كلنهانز في ختام تقريره إنه يكفي وجود المال اللازم ليخرج مشروعه في الحال إلى التحقيق العملي.

وفاة كاتب روسي كبير

توفي أخيراً في براج عاصمة تشيكوسلوفاكيا الكاتب والقصصي الروسي الكبير فاسيلي نميروفتش دانشنكو بعد حياة طويلة حافلة؛ وكان مولد هذا الكاتب الذي يمثل العهد القديم بكل ما فيه منذ ثلاثة وتسعين عاماً؛ وكان بدء ظهوره في عالم الأدب منذ خمسة وستين عاماً أيام الحرب الروسية التركية، إذ كان جندياً ملتحياً، وكان يكتب في الصحف الروسية فصولاً شائقة عن الحوادث العسكرية التي شهدها؛ واستمر دانشنكو أعواماً طويلة على وصف الأحداث والمغامرات العسكرية حتى أصبحت له في هذا النوع من الكتابة براعة خاصة؛ وكان له في النظم جولات حسنة؛ حتى كان يلفت الأنظار بقصائده الحربية، وكان مثله الأعلى في الشعر الشاعر الإنجليزي الكبير (بيرون) حتى سمي فيما بعد (بيرون روسيا) وذاعت شهرة دانشنكو بنوع خاص حينما أخرج قصته (نسر الجبل)

وكان لدانشنكو في بلاد البلقان شهرة خاصة لأنه حارب من أجل حرياتها ضد الترك؛ وفي سنة 1923، ذهب إلى بلغاريا لمناسبة احتفالها بعيد استقلالها الخمسيني، فاحتفت به احتفاء عظيماً، وكان يومئذ في الثمانين من عمره، ولكنه كان شيخاً وافر النشاط والإنتاج.

وكان دانشنكو يعيش في أيامه الأخيرة في تشيكوسلوفاكيا متريضاً متشفياً حتى وافاه الأجل المحتوم.

أسبوع المؤلفين

قام نادي القلم في زيلندة الجديدة بمشروع طريف لترويج الكتب، سماه (أسبوع المؤلفين)

وخلاصة المشروع أن تعرض مؤلفات الكتاب وصورهم مدى أسبوع في المدن الهامة مثل ولنتون العاصمة وكريستشرشي ودندين وغيرها. وقد افتتح الحاكم العام هذا المعرض الأدبي وألقى خطاباً رسمياً؛ وألقى آخرون من أكابر الكتاب خطباً أخرى؛ وكانت النتائج باهرة، إذ كانت المعارض في جميع المدن تغص بالزائرين والمشترين؛ وقد بيعت كميات كبيرة من الكتب في مختلف الفنون.

وتلاحظ جريدة التيمس الأدبية التي ننقل عنها هذا الخبر، أن لهذا المشروع فوائد معنوية عظيمة فوق فوائده المادية؛ ذلك أنه يبث إلى الجمهور روح التشجيع للحركة الفكرية، ويعاونه على الاطلاع على مداها وعلى حسن تقديرها. فهل لكتابنا أن يفكروا في تنظيم أسبوع (للمؤلفين المصريين)؟

معركة العقائد في ألمانيا

تضطرم في ألمانيا منذ قيام الحكم الهتلري معركة دينية خفية بين النظم الجديد وبين

الكنيسة البروتستانتية؛ ذلك أن شعائر النظام الألماني الجديد تميل إلى الوثنية والجرمانية القديمة، ويرى قادة ألمانيا الجدد أن يسحقوا كل نفوذ للكنيسة في حياة ألمانيا العامة. وترى الكنيسة من جانبها أن هذه السياسة خطر على نفوذها وعلى العقائد التي يرتكز إليها هذا النفوذ، وتحاول أن تقف في وجه النظام الجديد. وفي أنباء ألمانيا الأخيرة أن السلطات الكنسية في بروسيا وبافاريا وبعض أقاليم أخرى أذاعت من منابرها خطاباً على المؤمنين تطلب فيه إليهم ألا ينزلوا عن تعاليم النظام الهتلري وأن يحرصوا على عقائدهم من الفساد والدنس. وقد وقع هذا الخطاب الأسقف كوخ أسقف أومينهاوزن والأب مولر رئيس كنيسة دالهم. ويقول الخطاب إن التعاليم الهتلرية تنافي تعاليم الإنجيل والمسيح. وقد اهتمت الحكومة لهذه الحركة الجديدة من جانب الأساقفة وذاع أنها تنوي دعوة البرلمان إلى الانعقاد في مدينة ورمس حيث ظهر لوثر أيام اتهامه بالكفر، وحيث أحرق الأوامر البابوية. وهكذا نرى أن المبادئ الهتلرية ما زالت تصطدم من بعض نواحيها بالمبادئ والعقائد القديمة.

دور العذاب

تعتبر ملاجئ الأحداث والعجزة في الأمم المتمدنة من مظاهر الرقي الإنساني. وفي فرنسا كثير من هذه الملاجئ. ولكن كاتباً كبيراً هو مسيو الكسي دنان نشر أخيراً كتاباً عن هذه الملاجئ. سماه (دور العذاب) ذلك لأن الملاجئ تعتبر في نظره جحيماً للأحداث، ولا تشرف السلطات التي تقوم على إدارتها، وهو يصف لنا النظم العسكرية الشائنة التي تفرض على الصغار في هذه الدور، ويقول إنها أشنع ما يمكن ما تصوره، وأسوأ ما يمكن أن يؤثر في هذه النفوس الناشئة؛ ويقارن المؤلف هذه الحالة السيئة بما تتخذه بعض الأمم الأخرى ولا سيما بلجيكا لتقويم الأحداث وإصلاحهم. وقد كان لنشر هذا الكتاب وقع عميق لدى السلطات ذات الشأن.

جبل الأهرام

تكاد لا تجد في مصر مثقفاً يجهل قرية من قرى لبنان، ولا خميلة من خمائله، ولكنك تجد في إخواننا أدباء لبنان مَن لا يعرف إلى اليوم أن كانت الأهرام جبالاً أو قبوراً! فقد قرأنا للسيد فاضل سليم عقل مقالاً يتهم فيه أديبين مصريين بأنهما سرقا في مقدمتهما لرحلة ابن بطوطة مقدمة كتبها الأستاذ فؤاد البستاني لهذه الرحلة. ويقول في آخر مقاله: (وقد كنت أرغب شخصياً من كل قلبي أن أنقل نص المقدمتين إلى هذه الصفحة، حتى يطلع القراء كلهم على هذه الجناية. . . ويحكموا بأنفسهم، بعد التفكير والاختبار، لا بعد الهوس والتطبيل، في المستوى الأدبي، والزعامة لأدبية، التي لا تزال حائرة بين جبل الأهرام الخجول وقمم لبنان الشامخة. . . .)

وحسبنا من التعليق على هذا الكلام أن نعتب على السيد الكاتب أنه لم يقرأ تاريخ مصر، ومصر على (ضعفها في الأدب) لا تزال أقوى جزء من أجزاء الوطن العربي الأكبر!!

الكتب

التربيب

تأليف الأستاذ حسن نبيه المصري بك

وكيل مجلس الشيوخ

بقلم الأستاذ عبد الفتاح السرنجاوي

يصرح الأستاذ الفاضل مؤلف هذا السفر أن كتابه مجرد ملاحظات استنتجها من التجارب الشخصية وخبرة من يعول على رأيهم وصحة حكمهم؛ ويبدي صراحة أنه لا يبرز للناس قواعد جديدة في التربية. وكنا نود أن لو كفانا تصريحه هذا مؤونة التعليق الفني على الكتاب لولا مقام المؤلف الفاضل في المجتمع المصري، ذلك المقام الذي يحملنا - كمربين قبل كل شيء - على أن نتفهم الكتاب ونقول فيه كلمة نقر بها الحق ونرضي بها الضمير.

إن مجمل ما يقوله الناقد في ذلك الكتاب أنه يشمل عدة مقالات كتبت في ظروف مختلفة عنونها كاتبها بعنوانات وثيقة الاتصال بالتربية، بينما المقالات نفسها لم تعالج علاجاً فنياً دقيقاً أي ناحية من نواحي التربيب؛ وأرى فوق ذلك أن هذه المقالات مجتمعة لا تكوّن وحدة علمية جديرة بالعنوان الذي جعله المؤلف لكتابه، وأقصد بذلك

أنها تفقد أسباب الاتصال بعضها ببعض على نحو يجعلها بحثاً جديداً يهم المشتغلين بشئون التربية. ولقد لفتَ نظري أن يفرد الكاتب فصلاً عن التربية والتعليم يقول فيه أن المعلومات التي يتلقاها التلاميذ في المدارس لا تؤثر في سلوكهم، فهي في نظرة تعليم بعيد عن التربية. ويقول كذلك إنه قد استفاض خلط التعليم بالتربية، وكأنه بكلامه هذا يريد أن يقيم سداً منيعاً بين التعليم والتربية.

والحقيقة أنه لا يوجد حد جلي بين التعليم والتربية، وأن ما يقول به البعض من أن التربية تشمل التعليم كما يشمل الكل الجزء، إنما يحتاج إلى تدليل وتدعيم. أما الواقع والمعقول فهو أن كل من يعلم غيره فهو يربيه في نفس الوقت؛ ونحن لا نستطيع بأي حال أن نعلم دون أن نكون مربين إلى حد معين، ولكننا نستطيع أن نربي دون أن نباشر عملية التدريس مباشرة فعلية. والآراء الحديثة أميل إلى تحديد التربية بغاياتها لا بوسائلها التي منها

التدريس. والواقع أنني وأنا أعلم تلاميذي إنما أترك بطريقة غير مباشرة آثاراً خطيرة في خلقهم، وطرق تفكيرهم ومثلهم العليا دون أن أقول لهم أني أربيكم وأعدكم إعداداً خاصاً. ذلك أن سلوكي معهم وموقعي إزاء سلوك بعضهم مع بعض، وتعليقي على بعض الدروس الوجدانية كالتاريخ والتربية الوطنية لا شك تؤثر في المتعلمين بحيث تكون وسائل لإعدادهم لغايات بعيدة هي السلوك الطيب القويم في الحياة المستقبلية.

لنترك ذلك الخلاف ولنعرض لأمر آخر هو أن المؤلف لم يعالج الموضوعات علاجاً فنياً دقيقاً، ولست أجد في التدليل على ذلك أبلغ من تلخيص فصلين من الكتاب تلخيصاً أميناً دقيقاً؛ الأول عنوانه (كيفية التغذية) يقول في أوله إن غذاء الطفل يبتدئ وهو جنين في رحم أمه بالسُّحد والحولاء والغرس. وبعد الوضع يكون الغذاء بالرضاع سنتين، (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة)، والتغذية بعد الفطام يشترك فيها الوالدان حتى يبلغ الطفل أربع عشرة سنة. وسنة الكون لا تكلف الإنسان اختيار المأكولات، فنظامها الدقيق ينتج الأشياء في وقت حاجة الناس إليها. ويختلف بعض الأطباء والفلاسفة في نوع غذاء الطفل، فمنهم من يحرم عليه الحلواء والفطير والفاكهة ومنهم من يحض عليها، وإني لا أرى مجالاً لهذا الاختلاف الذي ينحسم باتباع الاعتدال والقسط ومراعاة الظروف والأحوال. وأما من أشار منهم بإعطاء القليل من الأنبذة فإني لا أرى رأيه، وأما المشروبات الروحية الأخرى فإنها تهدم الجسم وتسلب العقل. وهنا يقول المؤلف كلاماً طويلاً في مضار الخمر ويستشهد بالآية الكريمة: (إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه) وبعد هذا يقول ما يأتي: (حسنوا تقويم الولد جنيناً، وأنشزوا عظامه وأنبتوا لحمه رضيعاً، وعللوا بالغذاء ليجزأ عن اللبن فطيماً، وناولوه الأكل أدنى تناول فصيلا، وأحسنوا غذاءه اللّذ صبياً، وأترفوه يافعاً، وأعظموه مراهقاً، ثم ألقوا حبله على غاربه)

وبعد أن فصلنا للناس نختم المقال بهذه اللآلئ القرآنية:

(يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين).

(قل من محرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق الخ).

(والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون).

(وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً).

هكذا يعالج الأستاذ الفاضل موضوعاً خطيراً كهذا، فيقول كلاماً هو بعينه ما يعرفه المتعلمون وغير المتعلمين والمتربون وغير المتربين، مع أن البحث العلمي يستلزم الإجلاء عن الوسائل المؤدية إلى هذه الغايات التي ذكرها المؤلف، فيبين لنا بطريقة عملية كيف ننشز عظام الولد وننبت لحمه رضيعاً إلى آخر ما ساقته هذه الوصايا الذهبية والحكم البالغة في ذلك اللفظ الخالب والسحر الغالب. عفواً سيدي الفاضل، فالتربيب شيء عملي يضعه أهله بعيداً عن استمراء الألفاظ وإضاعة الوقت في صناعة العبارات، الأمر يا سيدي أخطر من هذا وأدق، والتخصص وحده هو الذي يخرج للناس الكتابة الفنية التي يحتاجون إليها في الحياة حاجة عملية.

وثَمَّ فصل آخر عنوانه (الغريزة)، يعالجها الكاتب الفاضل في صحيفة واحدة من ذلك السفر الضخم، فلا يعدو أن يحددها بأنها الأعمال غير الإرادية، ثم يفرق بين العقل

والغريزة في هذا الكلام المنمق الجميل:
العقل حر والغريزة عبد، العقل علم والغريزة حدس، العقل بصير وهي شعور، العقل) نور يتدرج والغريزة برق يخطف، العقل ضوء النفس وهي سنا الحس، وإذا العقل وقف للتدبير فهي تقفز للوثب والمسير).
فهل يكفي ذلك القصيد المنثور لبحث الغريزة في كتاب عنوانه (التربيب)، وأين يا سيدي علاقة الغرائز بالتربية وأثر التربية في تعديلها وعلاقة ذلك كله بحياة الأطفال؟؟ وأخيراً لا بد من الإشارة هنا إلى أن الكاتب الفاضل يهتم اهتماماً شديداً بحشر الكلمات اللغوية في كتابه كما يصنع كتاب المقامات، ثم يجاوز هذا إلى شرح هذه الألفاظ والتعليق عليها، وهذه المحاولات لا شك تجعل الموضوع مفككاً وتصرف الكاتب عن المعاني، ولا سيما إذا عرفنا أن الأسلوب العلمي يتميز عن الأساليب الأدبية الأخرى بالسهولة وعدم التكلف في البحث عن الألفاظ.
هذا ما نقوله عن الكتاب، أما شخصية المؤلف ذاته فإنها تبدو من خلال كتابه رزينة وقورة رائدها الخير وغايتها إسعاد المجتمع.
عبد الفتاح السرنجاوي
العدد 171 - بتاريخ: 12 - 10 - 1936
في العهد الجديد
يومان. . . .
قطعني منذ طويل عن مواصلة الكتابة قواطع الأسى والمرض. وفي هذه الفترة الفاترة تقلبت على العين مشاهد، وتعاقبت على الأذن أحاديث، وتواردت على الذهن خواطر؛ فكان المصري الذي في دمي، والكاتب الذي في طبعي، والصحفي الذي في همي، يحاولون أن ينفعلوا على القلم كلما نجم في الوطن حادثة، أو جرى في الشعور عاطفة، أو بدا على (الرسالة) حاجة؛ ولكن الجسد الموهون لا يستجيب لنشاط، والفؤاد المحزون لا يهتز لأثر. وهل الدنيا إلا دنياك أنت؟ تدوم فيها ما دامت فيك، فإذا ما انعدمت في نفسك انعدمت في حسك؛ وإذن لا يكون سرورها سرورك، ولا حزنها حزنك، ولا متاعها متاعك؛ ماذا يفيدك الترياق بعد أن مات حبيبك مسموماً، وماذا تردُّ عليك مباهج الناس إذا بات قلبك مهموماً؟
كنت وأنا في الإسكندرية أقف على سياج الكرنيش، أو أسير على رمال الساحل، فأرى فيض الحياة يتدافع في أمواج البحر وفي أفواج الناس، وروعة الجمال تتجلى في رواء الشباب في الشارع وألوان الأصيل في السحب ومغرب الشمس في الماء، وإشراق الغبطة يلمع في العيون القريرة وعلى الشفاه المفترَّة، وصفاء الوجود يشيع في زمر المصطافين فيكون في أَهُب الأطفال مرحا وفي قلوب الرجال فرحاً وعلى مضاحك الغيد فتنة، وأسمع لغة الفردوس المفقود من فمي آدم وحواء وقد اضطجعا عاريين على رمال الشاطئ بين وسوسة الشيطان وفحيح الأفعى، وهديرَ الأمواج المتعاقبة منذ يومها الأول على سيف البحر، وقد خلطه الخيال الشاعر بهتفات القيصر وضحكات كليوبطرة، وغماغَم الهوى والشباب تَطَّاير إلى الآذان الخلية فتقع منها موقع النغم الساحر في جوف الليل الساجي البعيد، وأحاديث المفاوضة والمعاهدة والمعارضة تتشقق بين الجماعات فتكون في الغالب حماسة من دلائل الصحة، وفي النادر هذياناً من أعراض المرض. كنت أرى وأسمع كل أولئك وأنا في وحشة الغريب وبلادة الذاهل، كأنما انقطع التيار الروحي بيني وبين الناس، فأنا مظلم وهم في نور، وساكن وهم في حركة، ونافر وهم وحدات متسقة في نظام المجتمع، وناشز وهم نغمات منسجمة في نشيد الكون.
يوم واحد من أيام الإسكندرية استطاع أن ينقلني من عدمي إلى الوجود، ويخرجني من نفسي إلى الناس: ذلك يوم سفر المفاوضين المعاهدين إلى إنجلترا! فقد ازدهاني أن يتفاهم الحق والقوة، ويتفق منطق القلم ومنطق السيف، ويقتنع (المبرنطون) بأن وطننا لنا وحدنا، وأن أصحاب (الامتياز) أصبحوا بشراً مثلنا، فدخلت في غمار الشعب الهاتف، وأثرت زحمة الدهماء ووقدة الشمس على مخالطة الأقدار الكبيرة والأحلام الرصينة في ظلال السرادق، وركبت زورقاً من زوارق الميناء في جمهرة من الشباب الفقراء الذين يجهلون معاني (النيابة) والوظيفة والجاه، فيشاركون في المظاهرات لأنها صرخة الوطن، ويهتفون للزعيم لأنه ممثل الأمة، ويصفقون للمعاهدة لأنها صك

التحرر.
سار بنا الزورق الراقص الشادي بين عشرات من الزوارق المزدانة المهللة حتى حاذينا (النيل)؛ والنيل قطعة من الوطن المحبوب تجمَّع فيها أمله المنتشر، وبدأ عليها تاريخه الجديد، ستقطع هذا الخضم المزبد إلى الشاطئ البعيد عليها صداقة مصر لإنجلترا، يقدمها وفدها الأمين إلى الذين عرفوه بعد إنكار وسالموه بعد حرب؛ وما كانت سياسته في الأول إلا سياسته في الآخر لولا سوء الفهم وسوء الظن وسوء الضمير. فلما انحسر لثام الرياء عن الأوجه المغشوشة فينا وفيهم، خلص منطق النحاس إلى عقل إيدن، واقتحمت النيل الوداعة مرابض الأسطول.
تحركت الباخرة المزهوة الفخور بعد حفلة الوداع بين عزف الموسيقى وقصف المدافع وصفير البواخر وتصفيق المودعين وهتاف المتفرجين وزغردة النساء؛ فكان من ذلك كله نشيد وطني عجيب التأليف بديع التلحين سحري الإيقاع عبر بهذه القوّة عن الشكر لقادته، والخير لحليفته، والاطمئنان إلى مستقبله.
كان اعتماد الجمهور في التنفيس عن حماسته المضطرمة على الضرب بالأرجل، والتصدية بالأيدي، والتلويح بالأذرع، وما يلازم هذا من اضطراب الحركة وفقدان الاتزان وشيوع الفوضى، وانتقال أثر ذلك كله إلى الزورق! فلو كان للشعب شعراء وموسيقيون، كما كان له زعماء وصحفيون، فوضعوا له الأناشيد التي تعبر عن عواطفه في وحدة، وتهيمن على مواقفه في نظام، لما تعرضنا مراراً للغرق!!!
على أن الغرق لم يقع في حسابي وأظنه لم يقع في حساب أحد، فقد كان فُلكنا المتواضع يجري تحت (النيل) الباذخة كأنه الفرخ الوليد تحت جناح النسر؛ عيوننا ترمق الزعيم
الجليل وصحبه فلا تكاد تطرف، وقلوبنا تنتشر دعاء ورجاء فلا تكاد تتماسك، وألسنتنا تضطرب في سيل من الهتاف فلا تكاد تسكن، وفلكنا المجنون في يد القدر، يميل ويعتدل، ويجور ويهتدي، وقد نسينا من روعة الموقف أننا فيه.
يومئذ شعرت بأني جزء من كل وفرد من مجموع، وأدركت أن المشاعر المشتركة كالدين والوطنية هي أوثق روابط الألفة، وأن المشاعر المختصة كنوازي الهوى ونوازع (البلاج) هي أقرب السبل إلى الغرفة.
هذا يوم؛ أما الآخر فله مقال آخر! ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود!
أحمد حسن الزيات

سر القُبَّعةَ

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

وحدثني صاحب سر (م) باشا، نَجَمَتْ في مصر حركة بعقِب أيام البدعة التركية حين لم تبق لشيء هناك قاعدة إلا القاعدة الواحدة التي تقررها المشانق. . . . فمن أبى أن يخلع العمامة عن رأسه خلعوا رأسه، ومن قال (لا) انقلبت (لا) هذه مشنقة فعُلِّق فيها.
وكانت فكرة اتخاذ القبَّعة في تركيا غطاءً للرأس قد جاءت بعد نَزَعات من مثلها كما يجيء الحِذاء في آخر ما يلبس للابس، فلم يشك أحد أنها ليست قبعة على الرأس أكثر مما هي طريقة لتربية الرأس المسلم تربية جديدة ليس فيها ركعة ولا سجدة؛ وإلا فنحن نرى هذه القبعة على رأس الزَّنجي والهمجي، وعلى رأس الأبله والمجنون، فما رأيناها جعلت الأسود أبيض، ولا عرفناها نقلت همجياً عن طبعه، ولا زعم أحدٌ أنها أكملت العقل الناقص أو ردَّت العقل الذاهب، أو انقلبت آلة لحل مشكلات الرأس البليد، أو غَصَبَت الطبيعة شيئاً وقالت هذا لحاملي دون الطربوش والعمامة.
وقد احتجُّوا يومئذ لصاحب تلك البدعة أنه لا يرى الوجه إلا المدنية، ولا يعرف المدنية إلا مدنية أوربا، فهو يمتثلها كما هي في حسناتها وسيئاتها، وما يَحِلُّ وما يَحْرُم، وما يكون في حاجة إليه وما يكون في غنى عنه؛ حتى لو أن الأوربيين كانوا عُوراً بالطبيعة لجعل هو قومه عوراً بالصناعة ليشبهوا الأوربيين. . نعم إنها حجة تامة لولا نقص قليل في البرهان يمكن تلافيه بإخراج طبعة جديدة من كتب الفُتوح العثمانية يظهر فيها الخلفاء العظام والأبطال المغاوير الذين قهروا الأوربيين لابسين قبَّعات ليشبهوا الأوربيين. . . .
قال صاحب السر: وتهوَّر في هذه الضلالة رَهطٌ من قومنا، وأخذوا يدعون إلى التقبُّع

في مصر احتذاء لتركيا، وذهب بعضهم إلى سعد باشا رحمه الله يطلب رأيه، فكان رأيه (لا) بمدِّ الألِف. . . وعهد إليّ بعضهم أن أسأل الباشا فقال:
ويحهم! ألا يخجلون أن نكون نحن المصريين مقلدين للتقليد نفسه؟ إن هذه بدعة تنحطُّ عندنا درجة عن الأصل فكأنها بدعتان. ثم ضحك الباشا وقال: كان في القديم رجل سمع أن البصل بالخل نافع للصفراء، فذهب إلى بستان يملكه وقال لوكيله: ازرع لي بصلاً بخل. . . . هكذا يريدون من القبعات أن تخرج لهم تُركا بأوربيين.
ليست هذه القبعة في تركيا هي القبعة، بل هي كلمة سبٍّ للعرب وردٍّ على الإسلام، ضاقت بها كلُّ الأساليب أن تظهرها واضحة بينة فلم يفِ بها إلا هذا الأسلوب وحده، وهي إعلان سياسي بالمناوأة والمخالفة والانحراف عنا واطِّراحِنا، فإن الذي يخرج من أمته لا يخرج منها وهو في ثيابها وشعارها؛ فبهذا انفتح لهم باب الخروج في القبعة دون غيرها مما يجري فيه التقليد أو يُبدعه الابتكار؛ وإلا فأي سر في هذه القبعات، ومتى كانت الأمم تقاس بمقاييس الخياطين. . . .؟
ههنا سيفٌ أراد أن يكون مِقَصاً، فعمل ما يعمل الحسام البتار فأجاد وأبدع وأكبره الناس وأعظموه، ثم صنع ما يصنع المقصُّ فماذا عساه يأتي به إلا ما ينكره الأبطال والخياطون جميعاً.
أكُتِبَ علينا أن نظلَّ دهرنا نبحث في التقليد الأعمى وألا يحيا الشرقي لا مستعبَداً ينتظر في كل أموره من يقول له: أشْرَعْ لي. . . إن بحثنا فلنبحث في زيّ جديد نتميَّز به فتكون القوى الكامنة فينا وفي طبيعة أرضنا وجوّنا هي التي اخترعت لظاهرها ما يجعله ظاهرَها، كما يُخرج زَوْرُ الأسد لِبْدةَ الأسد غايةً في المنفعة والجمال والملاءمة.
أنا ألبس ما شئت ولكني عند القبَّعة أجد حداً تقف إليه ذاتيتي الفردية فلا أرى ثَمَّةَ موضعَ انفراد ولكن موضع مشاكلة، ولا أعرف صفة منفعة لي بل صفة حقيقة مني، ويعترضني من هناك المعنى الذي يصير به النوع إلى الجنس والواحد إلى الجماعة. وما دمت مسلماً أصلي وأركع وأسجد فالقبعة نفسها تقول لي دعني فلست لك.
وهؤلاء الرجال الذين لبسوها في مصر إنما اشتقُّوها من المصدر نفس المصدر الذي يخرج منها التهتك في النساء، وكلاهما منزع من المخالفة، وكلاهما ضِدٌّ من صفة اجتماعية تقوم بها فضيلةٌ شرقية عمة. وليس يعدم قائل وجهاً من القول في تزيين القبعة ولا مذهباً من الرأي في الاحتجاج لها، غير أن المذاهب الفلسفية لا يُعجزها أن تقيم لك البرهان جَدَلاً محضاً على أن حياء المرأة وعفتها إن هما إلا رذيلتان في الفن. . . وإن هما إلا مرض وضعف؟، وإن هما إلا كيت وكيت، ثم تنتهي الفلسفة إلى عدّهما من البلاهة والغفلة، وما الغفلة والبلاهة لا أن تريد فلسفة من فلسفات الدنيا أن تقحم في كتاب الصلاة مثلاً فصلاً في. . . في. . . في الدعارة.
لا يهولنك ما أقرر لك من أن القبعة الأوربية على رأس المسلم المصري تهتك أخلاقي أو سياسي أو ديني أو من هذه كلها معاً، فإنك لتعلم أن الذين لبسوها لم يلبسوها إلا منذ قريب بعد أن تهتكت الأخلاق الشرقية الكريمة وتحلل أكثر عقدها، وبعد ن قاربت الحرية العصرية بين النقائض حتى كادت تختلط الحدود اللغوية، فحرية المنفعة مثلاً تجعل الصادق والكاذب بمعنى واحد، فلا يقال إلا أنه وجد منفعته فصدق، ووجد منفعته فكذب؛ وعند الحرية العصرية أنه ما فرَّق بين اللفظين وجعل لكل منهما حدوداً إلا جهل القدماء وفضيلة القدماء ودين القدماء. وهذه الثلاثة: الجهل والفضيلة والدين هي أيضاً في المعجم اللغوي والفلسفي الجديد مترادفات لمعنى واحد هو الاستعباد أو الوهم أو الخرافة.
ومتى أزيلت الحدود بين المعاني كان طبيعياً أن يلتبس شيء بشيء وأن يحلَّ معنى في موضع معنى غيره، وأصبح الباطل باطلا بسبب وحقاً بسبب آخر، فلا يحكم لناس إلا مجموعة من الأخلاق المتنافرة تجعل كلَّ حقيقة في الأرض شبهة مزورة عند من لا تكون من أهوائه ونزعاته، فيحتاج الناس بالضرورة إلى قوة تفصل بينهم فصلاً مسلحاً، فيكسبون القانون بمدنيتهم قوة همجية تضطره أن يعد للوحشية الإنسانية، وتدفع هذه الوحشية أن تعد له.
ومن اختلاط الحدود تجيء القبعة على رأس المسلم، وما هي إلا حد يطمس حداً، وفكرة تهزم فكرة، ورذيلة تقول لفضيلة: هأنذي قد جئت فاذهبي.
ما هو الأكبر من شيئين لا حد بينهما لتعيين الصِّغر، وما هو الأصغر من شيئين لا حدَّ

بينهما لتعيين الكبر؟ إنها الفوضى كما ترى ما دام الحدُّ لا موضع له في التمييز ولا مقرَّ له في العُرف ولا فصل به في العادة؛ ومن هنا كان الدين عند أقوام أكبر كلمات الإنسانية في عامة لغاتها وأملها بالمعنى، وكان عند آخرين أصغرها وأفرغها من المعنى؛ وما كبر عند أولئك إلا من أنه يسع الاجتماع الإنساني وهو محدود بغاياته العليا، وما صغر عند هؤلاء إلا بأن الاجتماع لا يسعه فلا حدَّ له، وكأنه معنى متوهَّم لا وجود له إلا في أحرف كلمته.

فجماعة القبعة لا يرون لأنفسهم حداً يحدونها به من أخلاقنا أو ديننا أو شرقيتنا، وقد مرقوا من كل ذلك وأصبحوا لا يرون في زيّنا الوطني ما فيه من قوة السر الخفي الذي يُلهمنا ما أودعه التاريخ من قوميتنا ومعاني أسلافنا.

وأنا أعرف أن منا قوماً يرى أحدُهم في ظن نفسه أنه قانون من قوانين التطور؛ فهو فيما يُلابسه لا ينظر إلى أنه واحد من الناس بل واحدٌ من النواميس. . . ومن هنا الثقلُ والدعوى الفارغة وما هو أكبر من الثقل وفراغ الدعوى. وإنه لحقٌ أن يكون بعض الناس أنبياء، ولكن أقبح ما في الباطل أن يظن كل إنسان نفسه نبيّا.

واعلم أن كثيراً مما يزينونه للشرقي من رذائل المدنية الأوربية إن هو إلا منطق شهوات في جملته، ولقد تسمع الجائع يتكلم عن الطعام فترى كلاماً تحته معانٍ ومعانٍ لا يعدها غير الجائع إلا حماقةً ساعتها.

(طنطا)

مصطفى صادق الرافعي

كل شيء بخير سيدتي المركيزة!

للأستاذ عبد الحليم الجندي

في فاتحة الصيف جلسنا عند سفح الهرم نستمع إلى آخر أناشيد باريس عاصمة فرنسا، التي يقول عنها أبناؤها إن كل شيء فيها ينتهي بأغنية، والتي يُزلفها (كوت) إلى الهاوية في سرعة الطائرات التي يبعث بها إلى مدريد، والتي يسوقها (توريز دجوهر) إلى جهنم الحمراء: أي إلى الشيوعية، فأدار لنا (الأستاذ) تلك الأنشودة البديعة الواردة أخيراً:

كل شيء بخير: سيدتي المركيزة: المتاع سرق
وكل شيء بخير: سيدتي المركيزة: والقصر يحترق
وكل شيء بخير: سيدتي المركيزة

استمعنا، واستمعنا! ثم نسينا - طبعاً - ورجعنا؛ حتى إذا كنت في أوائل الشهر الماضي برأس البر طفرت تلك الأغنية إلى ذهني وإلى فمي فطفقت أرددها، في المساء وفي الصباح، وعلى الشط وفي السامر.

نحن الآن في مجلس خاص، في الكازينو، على قيد أمتار من اللسان، حيث العذب الفرات والملح الأجاج يلتقيان؛ وهؤلاء أكبر الأساتذة في أقدم جامعة في العالم، وفي أحدث جامعة في العالم، أخذوا في خلوتهم البديعة بأطراف الأحاديث، وسالت تلك القرائح السامية بخواطر عالية في الحضارة والاجتماع.

الأستاذ الكبير - في جامعتنا المصرية - يعالج ترجمة فصحى لكلمة (المودة) ويعرض على الفقيهين الكبيرين كلمة بديعة بارعة، فتأخذهما النشوة ويطربان؛ والأستاذ يقص علينا حديث رحلته الأخيرة إلى الشام، تلك الأمة المجاهدة في الحرية، المجاهدة في الأدب، المجاهدة في الاقتصاد. . . وبنوها الذين ضربوا لنا الأمثال في كل ضرب! الذين حدثوه عن مصر بما لا يعرفه أبناء مصر!. . . لقد كان أروع ما راعه في ذلك القطر الشقيق أنه لم يجد فوارق بين الطبقات؛ وعلة ذلك عنده أن العروبة أعمق أصولاً عند إخواننا، وأن العروبة معناها النخوة والمساواة؛ وعلته أيضاً أن التفاوت في المرتبات ليس هائلاً؛ وأخيراً أن ليس ثمة أسرات تضرب في مظاهر الأبهة كأنها تضرب برَوقين في السماء. . .

أما هنا - وانحدر الحديث إلى من هنا. قال قائل: هنا تجد ستة عشر مليوناً ولا تجد ستة عشر رجلاً ممن ينفذون إلى الأعماق! قلت: إني أطلق على حضارتنا الحالية: (حضارة السندوتش)؛ فالناس يمرون بمحال (السندوتش) ليطعموا طعامهم على وجه الاستعجال، كما يعبر رجال القانون، ولا يضيرهم بعد ذلك أن تتأذى معداتهم وأعصابهم ما داموا قد تناولوا وجبتهم بحال من الأحوال. . .! ولقد طغت تلك المحال على

المطعم الأصيل فكادت تجليه عن مكانه. أنظر حيثما شئت تجد أنوارا لامعة في الأرض تكاد تباهي كواكب السماء! إنها ليست أنوار معهد ولا مستشفى، ولكنها أنوار السينما والسندوتش. وكلما ذهبت الفتاة إلى الطبيب أو شكا الطالب إلى أستاذه رجاهما . . .الطبيب أو الأستاذ أن يقلعا، أو يقللا، من ارتياد السينما ومن ازدراد السندوتش وكما قضى السندوتش على المطعم تكاد تقضي المذكرات في الجامعة على المراجع، والخليلات على الحليلات، والمسكنات السياسية على الصلاح العميق، وشهوات الساعة على واجب التاريخ. . . والأدب الرخيص على الأدب العالي. . . والمجلات الخفيفة على الكتب. . . ولنفس الأسباب. . وفي عبارة موجزة: لكأن هذا الجيل ليس . . . .من مصر! وكأنما هو يقضى منها وطراً، أو كأنه فيها عابر سبيل وتطرق الحديث - حتما - إلى البلاج، إلى الماء، وإلى فنون الماء، وما أدراك ما فنون الماء: العزاء، والإغراء، واستهتار الرجال وتبذل النساء! وخرج كل منا من الحديث غضبان أسفاً.

. . .ومع ذلك فالدولاب يسير. . . وظواهر الأشياء لا تنبئ إلا عن خير الأشياء

وكل شيء بخير: سيدتي المركيزة: المتاع سرق

وكل شيء بخير: سيدتي المركيزة: والقصر يحترق

وكل شيء بخير: سيدتي المركيزة

وانفرط العقد، وانصرم الليل، وأرسلت الشمس شعاعها في الصباح أصفر وهاجاً نافذاً في أعماق اليمِّ كأنه سهم ذهبي بديع يتوهج في طبقات الأفق، والتقى الصديقان بعد عشرة أعوام وبعد رحلة طويلة في أوربا، وبعد أن (كانا يظنان كل الظن أنْ لا تلاقيا). . وانطلقا على الشاطئ..

قال الذي رجع من أوربا: أرأيت أني وجدت في مصر ما لم أجد في أوربا؟ قال له صاحبه: أنسيت أن إسماعيل قد جعلها قطعة من أوربا؟ ومنذ ستين عاماً! قال إنها كلمة تعدل كل ديون إسماعيل، فهو كما أفقر الأمة في أموالها أفقرها بهذا الذي ظن أنه صيّرها إليه. . . إنك لا ترى على هذا الشاطئ إلا أقبح القبيح الذي تنكره أوربا. . . . .لكأن الناس يا صديقي قد جاءوا إليه ليتعروا فيه لا ليصطافوا عنده

وانطلقا حتى بلغا مجمع البحرين قال: نظر إلى النيل يقذف بنفسه في صميم البحر لأبيض؛ إنه ينطلق كالقذيفة في البحر. . وترى ماءه الأحمر أو الأسمر، بل تستطيع أن تشربه عذباً على بعد أميال من الشاطئ؛ ولكنك بعد أميال أخرى لا تراه؛ ويفنى اللون الأسمر في اللون الأزرق، والماء العذب في الماء الملح؛ وهكذا نحن نقذف بأنفسنا في ذلك الخضم الأوربي ولكن مع فارق ضخم هو أن الماء يسع الماء، أما الحضارة الأخرى فإنها تلفظنا. . .

وانطلقنا. . . . فهما الآن عند الكازينو: حيث الفتيات يواعدن الفتيان جهرة. . .! لكأنه يوم الزينة، وكأن الناس قد حُشروا ضحى. .! لا ليشهدوا سحرة فرعون ولا آية موسى، ولكن ليشهدوا السحر الحرام. . فيرى الإناث الرجال المتأنثين، ويرى الرجال النساء المسترجلات. . . . وإلا فلماذا لا يحتشد ذلك الجمع على الشاطئ الذي يبدأ من بور سعيد وينتهي عند البرلس بمصيف آخر؟ لماذا لا يحتشد ذلك الجمع إلا أمام الكازينو؟

ارجع البصر يا صديقي إلى ذلك الحوت المستلقي على الشاطئ! ثم ارجع البصر كرتين، هنالك، تلك الفتاة التي وصفها النقيب (سانت أوبان) في مرافعته عن فكتور مرجريت عندما قدموه للمحاكمة من جراء (لا جارسون) - تلك الرواية التي صارت بعد خمسة عشر عاماً من أعف الروايات!! - قال سنت أوبان (. . أين تلك البطة المسربلة بالبياض وهي تقسم يمين الطاعة لزوجها في المعبد من هذه الفتاة العارية المتمددة على رمال الشاطئ تعرض جسدها على الطبيعة تستقبل أشعة الشمس حقاً ولكنها تستقبل أيضاً تلك الأشعة النارية المسلطة عليها من عيون الناظرين. . .)

وانطلقا نحو علم أخضر يتراءى على البعد. قال أحدهما إنك ترهقني عسرا إذا سرت بي إلى حيث هذا العلم؛ إنني أراه فوق الشاطئ الذي نحن عليه كطربوش الميت على الآلة الحدباء التي تحمله؛ وهو من مجد هذا الشعب المنتشر على هذا الشاطئ كالنشيد الذي أجازوه مائة جنيه لأنه خالٍ من المعنى، خالٍ من الإحساس، ومع ذلك جعلوه نشيدنا

القومي!!. . . إنني سمعت الأنشودة التي غنيتها لك في المرقص، ولكن المرقص يحمارُّ خجلاً، ويتفصد جبينه عرقاً، إذا وقف أزواجه أمام هذا الشاطئ. . . إن الشاب يتعلم ليتعطل، والعامل يعمل ليجوع، والاقتصاد المصري يزخر كتيار النيل ليصب في البحر الذي يجمعنا بأوربا. . . أفهذا الشباب الناهض، بل الرابض، هو الذي سيبني الأسطول البحري، والأسطول الجوي، ويقطع الصحراء راجلاً إلى الحدود. . .!! ومع هذا فقد شرع له أساتذة الجيل أسوأ شرعة عندما أعطوا جائزة لذلك الباحث الذي شرط على رجل القرن العشرين أن يكون (وصوليا) لكي ينجح. . .!! فإذا سألت عن هؤلاء الأساتذة، فاعلم أن منهم صاحب (حياة محمد)، وأن منهم أيضاً تلميذ محمد عبده!! ومع ذلك أيضاً. . . فكل شيء بخير.

. . .كل شيء بخير: سيدتي المركيزة، المتاع سرق، والقصر يحترق، وكل شيء بخير

وكنا كلما بعدنا عن الكازينو هدأ الموج وسكن البحر؛ قلت: ما للموج لا يرغي ولا يزبد إلا حيث هؤلاء الناس يجتمعون؟ فأجاب صديقي: (إنني سمعت إحداهن تقول لأختها: إن الموج يتدافع نحوها كما يتدافع الهوى أو الهواء، تارة في عنف، وتارة على استحياء.

فردت عليها الفاجرة تقول: اسمعي! إنني سأذيع لك السر الذي بيني وبينه: (إنه يتظاهر أمام الناس بأنه يلاطم الشط ولكنه في الحقيقة يقبل قدمي. . وهأنذي أركض بهما في ذلك المغتسل البارد. . وأسلمهما للقبل).

وكنا قد دنونا من السارية، ثم وقفنا تحت العلم، فيا لتوفيق الله سبحانه! إنه علم فرق الجوالة من شباب الجامعة الأشداء جاءوا يضربون خيامهم على هذا الشاطئ ويضربون لفتيانه المثل العالي. . وجاءوا ليبعثوا فينا الأمل الذي قضى أو كاد.

ورجعنا في العاشرة صباحاً، وكان الراديو يجلجل في الآفاق جميعها بآيات الله العلي!

قلت يا صديقي بل هنا الأمل.

فلنراجع البرنامج!

عبد الحليم الجندي المحامي

رواية ورواية

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

قال محدثي:

كنت في ذلك الوقت غارقاً في دروسي، فقد رسبت، كما تعلم، في الامتحان وأبيح) التقدم له مرة أخرى، فعدت من البلد، ونزلت على أقربائي هؤلاء، وشرعت أستعد لأداء الامتحان في المواد التي أخفقت فيها، وكانت أربعاً، تضاف إليها ثلاث أخرى اخترتها طمعاً في (المجموع) فعكفت على دروسي وأقبلت على تحصيلها. وما أكثر ما كنت أفني ليلي بالسهر في مراجعتها فكانت (سميحة) تزجرني عن ذلك وتقول: إن سهر الليل يهدّ القوي ويكثف العقل، وإن عمل النهار أوفر فائدة وأرفق بالجسم والعقل. وكانت هي قد فازت (بالبكالوريا) ولم تتلكأ عندها مثلي ووثبت منها إلى كلية الطب. ولم تكن قد قضت فيها غير عام واحد ولكنها - مذ التحقت بها - أصبحت تتحدث عن الصحة والعلل وطبابها كأنها جالينوس. وكنت أحبها غير أن دروسي شغلتني عنها، وكانت معي في البيت فلا داعي للشعور بالوحشة وفراغ الدنيا حول المرء. وكنت إذا تعبت أقوم فأتمشى في البيت وأدور بالغرف - فما ثم غيرها - وقد أتلبث شيئاً عند سميحة وهي مستلقية على سريرها - أو على الأصح نائمة كقاعدة فوقه - وفي يدها قصة تزجي بها الفراغ وكانت تحب الروايات البوليسية مثلي فلا يفوتها شيء مما ينقل إلى العربية في هذا الباب. وأنا مثلها وعسى أن يكون هذا هو الذي دهورني، ولكنه لم يدهورها فلا أدري ما علة إخفاقي وسر نجاحها؟. لا تعترض!! إني أعرف ما تريد أن تقول، ولهذا أقول لك إنها ليست أذكى مني وإن كان لا يسعني إلا أن أعترف أنها أمضى عزماً وأقوى إرادة وأقوم طريقاً إلى غايتها حين تكون لها غاية. وما أظن بها إلا أنها أرادت أن أعشقها فعشقتها، ولكن الذي يحيرني أنها تأبى على راحة القلب واطمئنان البال، ولا تنفك تظهر لي النفور من هذا الحب والكراهة له والزهد فيه. وأحسب أن هذه هي طباع المرأة، فهي تعني (أريد) حين تقول (لا أريد). . ما علينا. . انتهى الامتحان واستطعت أن أنام مرتاحاً ووسعني أن أدير عيني فيما حولي وأن أجعل لقلبي حظاً بعد طول الحرمان، ولكن سميحة كانت تنفيني عن البيت وتقول لي إني

أتلفت صحتي فهي في حاجة إلى الهواء الطلق؛ وكان هذا صحيحاً لا شك فيه، ولكن هذه
التي كانت تتكلفها معي كانت تثقل على نفسي. وكانت تخرج معي أحياناً (الأستاذية) ولكن كما يخرج المعلم مع تلاميذه الصغار إلى حدائق الحيوانات أو مرصد حلوان، فلا أشعر أني مع الفتاة التي أحبها، ولا أجد متعة أستفيدها من هذه الرحلات التي يطيب فيها الغزل عادة والتي كنت أمني بها نفسي وأحلم. وقد قلت لها مرة ونحن في (حديقة الأورمان):
(يا ستي ما هذا الحال المقلوب؟).
قالت: (أي حال؟. مالك؟.).
قلت: (لكأني أسير مع شرطي!).
فلم تضحك - وكنت أظنها ستفعل - فغاظني ذلك فقلت: (أليس حالاً مقلوباً أن نضحك في المطبخ ونعبس في الحديقة الحالية؟؟).
فسألتني مستغربة: (المطبخ؟؟ متى ضحكنا في المطبخ؟).
فقلت لها بضجر: (لا تكوني حرفية!! إنما أعني البيت وأنت تعرفين ما أعني فلا تغالطي).
قالت: (إن البيت ليس من مرادفاته المطبخ).
فسكت ولم أقل شيئاً - وماذا عسى أن أقول؟ -).
وحدث مرة أخرى وكنا معاً - على ما يبدو للناس، أما في الحقيقة فقد كان كل منا وحده - فضاق صدري، فقلت أرقّه عن نفسي بالغناء، فرفعت صوتي وانطلقت أغني:
(يا بت أنا بدّي أبوسك ... بس أبوسك!
وأطرب وأحظى بكؤوسك ... رقي شوية!)
فلم يرعني إلا قولها: (ليس أضر من الخمر ولا أقتل).
فقلت: (يا ستي إن المراد بالكؤوس هنا الشفاه الرقيقة، وبالخمر الريق العذب).
فقالت: (إخص!. . .).
فقلت مندهشاً: (إخص؟؟).
قالت: (إخص!. . .).
قلت: (طيب!. . .).
وهذا يريك من أي معدن صيغت سميحة، ولكني على هذا كنت أحبها حباً عظيماً لأني كنت واثقاً أن هذه قشرة نشرتها كلية الطب على صفحة معدنها الصافي، وستزول ولا شك مع
الأيام.
وصح ظني، فقد كانت كما قلت لك تحب الروايات البوليسية حباً جماً، وكان قد صدر منها أخيراً رواية طويلة في مجلدين اسمها (السم في الدسم)، فاشتريتهما وغرقت فيهما - أعني في المجلد الأول - واستغنيت بهما عن هذه النزهات والرحلات التي لم أكن أفيد منها أي متعة، بل كنت أفيد منها التنغيص.
وكنت أخفيهما عن عينها مخافة أن تسطو عليهما، وكانت الرواية قد نفدت بسرعة، فلا سبيل إلى نسخة أخرى غير التي كانت معي إذا هي ضاعت، فلا عجب إذا كنت قد حرصت عليها وضننت بها. ولا أكتمك أن نفسي حدثتني أن أعذبها - أعني سميحة - بعد أن أفرغ من الرواية وأعرف سر الجريمة، وذلك بأن أخايلها بها وأحرك نفسها لها ولا أمكنها منها، ولماذا لا أعذبها كما عذبتني؟ ثم إن تعذيب المرأة أحياناً لا يكون من القسوة، فقد وجدت على ضآلة تجربتي وقلة خبرتي أنها تستحلي هذا - أعني المكايدة إذا لم تخرج إلى الإيلام ولم تجاوز الحدود المعقولة. . . ومع ذلك من يدري؟ فلعلها تستعذب العذاب بلا قيد أو شرط. . . لا أدري!
وفي إحدى الليالي عدت من مأدبة كنت مدعواً إليها مع لفيف من إخواني وأندادي، أقيمت لتوديع واحد منا مسافر إلى إنكلترا لإتمام تعليمه هناك، فلما رجعت إلى البيت دخلت غرفتي وأنا أمني النفس بساعةٍ جميلة أقضيها مع الروائي البارع الذي أبدع ذهنه صوغ هذه القصة الممتعة، وإذا بها قد اختفت. . وكنت قد دسستها بين المرتبتين المطروحتين على السرير، فإن أقاربي هؤلاء يخافون الفئران والصراصير، فيكدسون المراتب على السرير فتعلو جداً ويحتاج المرء إلى كرسي يصعد عليه. ولم أشك في

أن سميحة سرقت روايتي، وأنها الآن تنعم بها في سريرها على عادتها حين تريد القراءة. وكانت الساعة الحادية عشرة فقدرت أن تكون قد قطعت مرحلة طويلة وبلغت العقدة التي لا يمكن أن يستريح القلب إذا لم يقف على حلها، فمضيت إلى غرفتها ونقرت ودخلت، فقالت: (خير إن شاء الله!)، فقلت وأنا أرفع نفسي لأجلس - على حرف السرير - فإنه عال كما قلت لك
(أوه لا شيء. . . إنما جئت لأتحدث معك قليلاً).
قالت بجفوة: (ليس هذا وقت الحديث فقم من فضلك).
قلت: (بل قولي إنك تقرئين رواية (السم في الدسم). . أليست بديعة؟).
فاطمأنت لظنها أني فرغت منها، ففي وسعها الآن أن تمضي في قراءتها من غير أن تخاف أن أقطع عليها - بالسرقة أو الخطف - حلاوة المتعة، ورأيت إمارات هذا الاطمئنان في وجهها ففرحت فإن الانتقام يكون أوقع إذا خيب أملاً قوياً، وأطلتُ الحديث فسئمَت واشتهت أن تعود إلى روايتها، وقالت: (هل تنوي أن تنام هنا الليلة؟ إذا كنت تنوي هذا فقل لي لأنتقل إلى غرفة أخرى!).
ونهضت عن السرير ومضت إلى الشرفة ففتحتها وأطلت منها، فلمحت الرواية تحت الوسادة فما أسرع ما دسستها في جيبي، ثم قلت وأنا أمضي إلى الباب: (إذا كنت تكرهين وجودي إلى هذا الحد، فإني ذاهب إلى حيث. . .).
فقالت من الشرفة: (ألقت) وضحكت.
فلم يسؤني ذلك، فأن الذي يضحك أخيراً يضحك كثيراً كما يقول الإنجليز على ما حدثنا معلمنا؛ وأوصدت باب غرفتي بالمفتاح، واستوثقت منه بهزه مراراً وبقوة لأرى هل يستطيع محنق مغيظ أن يكسره، ثم قعدت على كرسي وراء الباب، ورحت أنتظر.
ولم يطل انتظاري، فقد اهتز الباب فصحت وأنا أتكلف الفزع: (من؟).
قالت: (افتح من فضلك!).
قلت: (إذا كنت تنوين أن تقضي الليل في هذه الغرفة فقولي لي لأنتقل إلى سواها).
قالت: (لا تكن فظاً. . . لماذا سرقت الرواية؟).
قلت: (بضاعتنا ردت إلينا. . هل عرفت من القاتل. . لعلك تظنين أنه (رودلف). كما كان المحققون يتوهمون؟؟ كلا يا فتاتي!. . . إن السر أعمق وأخفى من ذلك وإن الروائي لبارع حقاً. . والآن أرجو أن تذهبي فقد بلغت الفصل الذي يشقي صبر المرء إذا لم يتمه في مثل لمح البصر. . اذهبي ونامي يا حبيبتي واحلمي (بالصيني) فإن له لدخلاً في الأمر وعلاقة بالسر).
قالت: (صحيح؟.).
قلت: (طبعاً. . لقد عرفت ذلك منذ دقيقة واحدة).
قالت: (ألا تخبرني من القاتل؟؟ إني أكاد أجن ولا أستطيع أن أنام حتى أعرف هذا، فكن
لطيفاً وأخبرني).
قلت: (حتى تكوني أنت لطيفة).
قالت: (ماذا تطلب قل وخذ وهات الرواية).
قلت: (الرواية كلها؟؟ لا!. إن ثمنها غال جداً. . . على أني بعد التفكير العميق أرى أن المساومة لا تليق ولهذا أرفض كل ما تعرضينه كائناً ما كان).
قالت برقة: (ترفض أن تعلم أني. . . أني. . . أني. . . أحبك؟) (بصوت خافت).
فانتفضت واقفاً وصحت (إيه؟).
قالت: (لا تصح هكذا. .).
ووضعت فمها في ثقب المفتاح وهمست: (يا عبيط. . إني أحبك. . هل تفهم؟. وأنوي أن أتزوجك على رغم أنفك؟. . فنضع لهذه المنافسة السخيفة حداً ونستطيع حينئذ أن نقرأ الروايات البوليسية كلها معاً. . تقرأ لي فأسمع. . وأقرأ لك فتسمع).
فاعترضت وقلت: (ولكني قد أحب أن أسرع وأقلب بضع صفحات ليطمئن قلبي، ولا تحبين أنت ذلك فيقع الخلاف).
قالت: (كلا. . على كل حال. . سأكون واثقة أن الرواية باقية في البيت فأنا أتعهد لك أن أقدمك على نفسي وأتركك تسرع أو تبطئ كما تحب. . وحسبي أن تترك لي فتات المائدة).

فأثر في نفسي هذا الإخلاص والإيثار. . وأي إيثار أعظم، وأي تضحية أكبر، من أن تتركني أقرأ - أو أتم - رواية بوليسية قبلها؟؟ هذا إخلاص وإيثار لم يسمع - أو على الأقل لم أسمع أنا - بمثلها. فلا عجب إذا كنت قد فتحت الباب بسرعة وفتحت مع الباب ذراعيّ لها فدخلت في ذراعي قبل أن تدخل من الباب.

وكان لا بد أن أجزيها إخلاصاً بإخلاص، وإيثاراً بإيثار، فدفعت إليها الرواية وقلت: (إقرئيها قبلي يا نور العين).

إبراهيم عبد القادر المازني

صور سياحة

معاهد باريس - 3

الحي الجامعي والمدينة الجامعية ومسجد باريس

بقلم سائح متجول

لا ريب أن ما تتمتع به فرنسا وباريس في مصر من حب وتقدير يرجع قبل كل شيء إلى غرسها العلمي والثقافي؛ وإذا كان هذا الغرس يذبل اليوم ويتضاءل لأن عوامل كثيرة جديدة دخلت في الثقافة المصرية المحدثة، فأن الثقافة والآداب الفرنسية ما زالت تحتفظ في مصر بكثير من جاذبيتها وسحرها.

لقد تلقى كثير من المصريين علومهم بفرنسا، وما زالوا لثقافتها رسلاً مخلصين. بيد أنه من حسن الطالع أن هذا الجيل المتعصب لثقافته الأجنبية يضمحل اليوم؛ ذلك أن مصر يجب ألا تكون ميداناً بعد لنضال الثقافات الغربية التي تبغي دائماً من بسط نفوذها العلمي والثقافي أغراضاً خاصة، ويجب أن تسير مصر في تكوين ثقافتها القومية على مبدأ الاختيار الحر بعيداً عن دعاية أولئك الرسل المتعصبين.

إن فرنسا تتمتع منذ الأحقاب بسمعة جامعية وعلمية راسخة، وما زالت باريس بجامعتها الشهيرة كعبة الطلاب من سائر الأنحاء والأمم، وما زال حيها الجامعي أو الحي اللاتيني على تقشف مظهره من أشهر أحيائها وأجدرها بالحب والعطف، وأغناها بالذكريات.

ففي الحي اللاتيني يتفتح الذكاء الفرنسي، وفيه تشع العبقرية الفرنسية، وفيه ينهل ألوف من الشباب الأجنبي مورد الثقافة الرفيعة، ويلمسون كثيراً من نعم النظم الديموقراطية التي تسود أفق الحياة العامة في فرنسا.

وفدنا على باريس في صميم الصيف والحياة الجامعية معطلة، فلم يتح لنا أن نرى شيئاً من مظاهر نشاطها، ولكنا مع ذلك طفنا بأرجاء الحي الجامعي مراراً ولمحنا آثار الصبغة الجامعية تطبع الحي في معالمه، وفي فنادقه ومقاهيه، ومظاهر حياته المتواضعة.

يشغل الحي الجامعي ركناً من أقدم أركان باريس وأكثرها تواضعاً، كما يشغل حينا الأزهري أقدم أركان القاهرة وأكثرها تواضعاً؛ وقوام الحي الجامعي شارع سان ميشيل:

ففي ضفته اليسرى يقع ميدان السوربون. وشارع سوفلو، وفيما بينهما وبين شارع سان جاك تقع السوربون والكليات المختلفة الملحقة بها فيما بين دروب وشعاب ضيقة قاتمة؛ وفيما بينهما أيضاً تقع عدة من المعاهد العلمية القديمة مثل كلية (لوي الأكبر)؛

ومن الحق أن يقال إن هذه المجموعة القديمة من المباني القاتمة لا تتفق في مظاهرها المادية المتواضعة مع ما لها من سمعة جامعية مؤثلة؛ بيد أن هذا الحرص على القديم ربما كان في ذاته مثاراً للإجلال والإعجاب بهذه المعاهد التالدة التي يرجع بعضها إلى نحو سبعمائة عام، فنحن نعرف أن معهد السوربون أسس في منتصف القرن الثالث عشر، في عهد لويس التاسع، وكان في الأصل معهداً لتدريس العلوم الدينية، وأن تنظيم الكليات الجديدة في السوربون يرجع إلى عصر نابليون، أي إلى نحو قرن وربع.

وحي سان ميشيل الذي يضم هذا الحشد الجامعي، كما قلنا حي متواضع بيد أنه حي عامر ضخم، ويمتد بولفارسان ميشيل من أحد طرفيه إلى مونبارناس، وشارع (البور رويال) وما زال يخترقه إلى اليوم خط الترام بعد أن ألغيت خطوطه من معظم الشوارع الكبرى؛ ويتصل من الناحية الأخرى بشارع فوجيرار على مقربة من الأوديون وحديقة اللوكسومبور التي تبث نسيمها الصبوح إلى الأحياء المجاورة، والتي يهرع إليها

جمهور الطلبة والشعب يتفيأون ظلالها ورياضها؛ وفي سان ميشيل والشوارع المتفرعة منه عدة من الفنادق الرخيصة التي تنم عن تواضع روادها؛ وهنالك أيضاً طائفة من المكتبات التي تتاجر في الكتب المستعملة؛ وإنك لتلمس على الجملة في كل ناحية من أنحاء سان ميشيل وما إليه ما يدل على صفة الحي المتواضعة النبيلة معاً.

ولا بد لنا بهذه المناسبة أن نذكر كلمة عن المدينة الجامعية التي تربطها بالحي اللاتيني أوثق الروابط؛ والتي لا يعرفها كثيرون من المصريين الذين درسوا في فرنسا لأنها أنشئت منذ أعوام قلائل فقط.

تقع المدينة الجامعية في ظاهر باريس من جهة الشمال الشرقي في شارع جوردان في بسيط أخضر من الحدائق والحقول النضرة؛ وقد كان من حظي أن زرت المدينة الجامعية وطفت بأنحائها برفقة مدموازيل ليجران، وهي آنسة رفيعة الثقافة تتولى منصباً في إدارة المدينة الجامعية نفسها، وهي التي تفضلت بالشرح والتعريف لكل ما سألت وشاهدت.

كان أول من فكر في هذا المشروع الجليل عضو من أعضاء مجلس الشيوخ غاب عني اسمه، فدعا إليه في المجلس وفي الصحافة، ولم يلبث أن صادف نجاح التحقيق؛ وكان المثري الأمريكي روكفلر أول من اهتم بأمره ونفحه بهبة مالية حسنة ساعدت على تحقيقه.

وتنقسم المدينة الجامعية إلى قسمين: القسم العام ويشمل الأبهاء والمرافق العامة وإدارة المدينة الجامعية نفسها، وهذا القسم هو روح المدينة وهيكلها الحقيقي؛ والقسم الخاص، وهو الذي يضم دور الطلبة لمختلف البلدان، وهو خاص بسكنى الطلبة؛ وفي القسم الأول حديقة بديعة وعدة أبهاء كبيرة للمطالعة والكتابة والجلوس قد أثثت جميعها ببساطة وإتقان معاً؛ وهنالك مطعمان كبيران قد صفت فيهما موائد بسيطة نظيفة، وكذلك مقهيان كبيران؛ وفي وسع الطلبة أن يجلسوا للمذاكرة أو الكتابة أو السمر في هذه الأبهاء الشاسعة المنيرة، وأن يتناولوا الطعام أو القهوة أو الشاي أو غيرهما في تلك المطاعم أو المقاهي النظيفة بأثمان زهيدة جداً تناسب أحوالهم وماليتهم؛ ووجبة الطعام الحسنة تكلف الطالب من 3 إلى 5 فرنكات، وثمن المشروب فرنك أو نصفه، وهذه أثمان لا تحلم بها في مطاعم المدينة ومقاهيها؛ وهناك حمامات وملاعب ومسرح يقوم الطلبة بالتمثيل فيه أو تمثل فيه الفرق التي تدعوها إدارة المدينة لتسلية الطلبة، وهنالك في الطابق الأرضي مكتبة بدئ بتأثيثها وإعدادها لتغذي الطلبة وتعاونهم على المذاكرة والبحث: هذه هي محتويات القسم العام للمدينة الجامعية شرحناها بإيجاز؛ وإنك لتشعر أثناء الطواف بهذه الأبهاء والغرف الشاسعة التي تشرف على الحدائق والحقول النضرة، إنها لأبدع ملاذ يمكن أن يأوي إليه الطالب في أوقات المذاكرة والفراغ معاً، بعيداً عن صخب المدينة وضجيجها، وإنك لتأنس شعوراً من الغبطة والإعجاب بما هيئ للشباب من وسائل الراحة والمتاع البريء.

وأما القسم الخاص من المدينة الجامعية فيحتوي على عدة دور كبيرة أنشئت إلى جانبي القسم العام عن يمينه وعن يساره على طول شارع جوردان؛ لكل دولة دارها؛ فهنالك دور لإنكلترا وأمريكا واليابان وفرنسا وهولندا وبلجيكا وكندا وغيرها؛ وتخصص هذه الدور القومية التي تتولى الدول المختلفة تشييدها على أرض تمنح لها، لسكنى طلبة هذه الدول، فدار إنكلترا خاصة بالطلبة الإنكليز، ودار أمريكا بالطلبة الأمريكيين، وهولندا بالهولنديين، وهكذا؛ وأبدع الدور وأعظمها هي دار الولايات المتحدة؛ وهنالك دار صغيرة ولكن أنيقة

لليابان؛ وقد أعدت هذه الدور لتكون فنادق للطلبة وجهزت بوسائل الراحة والنظافة، وأثثت ببساطة واتقان؛ ويستطيع الطالب أن يجد سكناً في دار البلد الذي ينتمي إليه بأجر شهري قدره مائة فرنك؛ ويستطيع أن يجد غرفة خاصة حسنة الأثاث بأجر شهري قدره مائتا فرنك، وتغص هذه الدور بالطلبة لما لها من مواقع جذابة تغمرها الشمس والضوء والهواء، ولما للسكن فيها من المزايا المريحة.

ولقد وددنا أن نرى في المدينة الجامعية بين هذه الدور الأنيقة الضاحكة، دارا مصرية! ففي باريس يدرس دائماً عدد كبير من الطلبة المصريين، وإنها لدعاية حسنة لمصر المستقلة الفتية أن يكون لها دار جامعية في العاصمة الفرنسية إلى جانب دور الأمم

الأخرى، وإنها لنعمة سابغة لطلبتنا أن يكون لهم في باريس دار مصرية يأوون إليها بعيداً عن صخب المدينة ومغرياتها؛ قهل تفكر وزارة المعارف في هذه المسألة الهامة، وهل توليها شيئاً من عنايتها وعطفها؟ إنا لنرجو مخلصين داعين بالتوفيق والتحقيق.

هذا ولا تنس وأنت في باريس أن تزور (المكتبة الوطنية) في شارع ريشليو، ففي هذا المعهد الثقافي الضخم كنور زاخرة من الكتب في مختلف العلوم والفنون؛ وفي المكتبة الوطنية قسم شرقي ضخم، وقسم خاص بالمخطوطات العربية، ولكل قسم فهارسه المنظمة، ومرشدون يفهمون أعمالهم حق الفهم، وقد لفت نظرنا عند مراجعة فهارس المخطوطات العربية عدة أسماء مخطوطات نادرة مثل: أحاديث الإمامة والسياسة (رقم 1566)، وحسن المسالك لأخبار البرامك (2107) وعيون المعارف للقضاعي (1490)، وتراجم الصواعق في وقعة الصناجق (1853)، وتاريخ المهديين والحفصيين (1874)، وتاريخ مصر لابن زولاق (4727). بيد أننا لم نجد متسعاً من الوقت لبحث هذه المخطوطات لمعرفة حقيقتها ومبلغ أهميتها.

وهنالك في باريس صرح لابد لكل مسلم أن يزوره، هو مسجد باريس؛ ويقع المسجد في قاصية باريس، وفي حي من الأحياء القديمة المتواضعة على شوارع جوفري سانت هيلير، وجورج دوبلا وديبانتون، وقد بني على الطراز المغربي، ويشرف بابه العمومي ومئذنته على شارع ديبانتون، وفي فنائه حديقة صغيرة حولها أروقة أربعة تفضي إلى أبهاء وأجنحة ومرافق مختلفة، وفي الجهة اليمنى من الفناء يقع المصلى، وهو بهو شاسع أنيق،

قد فرش بالبسط النفسية، وبه عند القبلة منبر مكسو بالديباج الأخضر من إهداء مليكنا المغفور له فؤاد الأول؛ ولقد يممننا في عصر ذات يوم إلى هذا الحرم الإسلامي المقدس الذي يحفه الصمت العميق من سائر نواحيه، ولم نتمالك أن نجثو خاشعين لله عز وجل، وان نؤدي ما تيسر من الصلاة مغتبطين لذكر الله ورسوله في هذا الحرم النائي عن أرض الإسلام.

وبالمسجد مكتبة صغيرة ومعهد قيل لنا إنه تلقى به محاضرات إسلامية مختلفة، ومستشفى صغير لبعض الأمراض الخطيرة؛ وبه أيضاً حمام عربي، ومقهى ومطعم عربي، قد صفت موائده في حديقة داخلية صغيرة تقع في الجهة الشرقية، وتعزف فيها الموسيقى العربية أحياناً، ويقوم بهذا العزف بعض الموسيقيين المغاربة. وقد تنولنا القهوة العربية لأول مرة في باريس في هذا المنتدى الأنيق وسمعنا الموسيقى العربية في مجتمع قوامه مسلمون من مختلف الأمم.

بيد أن شعور الغبطة الذي قد يأنسه المسلم مدى لحظة لقيام هذا الصرح الإسلامي في باريس لا يلبث أن يمازجه شعور بالمرارة والأسف حين يستعرض المعاني والظروف لتي أقيم فيها. إن فرنسا لم تعمل لإقامة هذا المسجد حباً بالمسلمين أو احتراماً لشعائرهم ومشاعرهم، وإنما أقامته أداة من أدوات التأثير الاستعماري، وهو في الواقع رمز لسيادتها على الأمم الإسلامية التي تسودها أكثر منه رمزاً للعطف والتقدير.

وإلى هنا نقف اليوم؛ وسنحدثك في الفصل القادم عن الحياة الليلية في باريس، وعن بعض مظاهر المجتمع الباريزي.

(? ? ?)

الجانب الصوفي في الفلسفة الإسلامية

للدكتور إبراهيم بيومي مدكور

مدرس الفلسفة الإسلامية بكلية الآداب

- 5 -

إلى هنا انتهينا من بيان أثر نظرية السعادة الفارابية في رجال المدرسة الفلسفية الإسلامية وفي طائفة من المتصوفة الذين تشوبهم روح فلسفية. والآن يجدر بنا أن نبين ما إذا كانت هذه النظرية قد أثرت في الصوفية الآخرين المعتدلين أو المحافظين إن صح هذا التعبير. وإن مهمتنا في هذه المرحلة أشق منها في سابقتها، لأنه ليس بغريب أن تُفترض صلة بين فلاسفة وصوفية متفلسفين. أما محاولة إثبات علاقة بين الفلسفة والتصوف البحت الذي يرى من واجباته الأولى محاربة الفلاسفة والمتفلسفين فهذا أمر عسير، ومهما يكن فسندرس هذه النقطة بنفس الطريقة والمنهج اللذين

درسنا بهما النقط السابقة مبينين أولاً السر فيما ذهبنا إليه من تقسيم الصوفية إلى معتدلين ومتطرفين.

لم يكن الإسلام فسيح الصدر للرهبنة المسيحية والتقشف الهندي، وكثيراً ما دعا إلى العمل للدنيا والتمتع المباح بلذائذ الحياة: (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة) فهو بعيد إلى حد كبير عن طريقة القسس والرهبان في بيعهم وصوامعهم وسنة فقراء الهند وعبادهم في ألمهم وعذابهم المستطاب. ومع هذا فكل دين كائناً ما كان يشتمل بعباداته ونصائحه على قدر من التصوف لا يحتمل الشك. وسبق أن أشرنا إلى أن هناك عوامل كثيرة وتعاليم مختلفة: هندية وفارسية وإغريقية ومسيحية أثرت في تكوين التصوف الإسلامي، ولكن يجب أن نضم إلى هذه المؤثرات الخارجية عاملاً آخر داخلياً وجوهرياً، ألا وهو الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وبعض الأعمال الدينية. ولو لم يكن في طبيعة الإسلام ما يسمح بشيء من التصوف ما وجد التقشف الهندي والرهبنة المسيحية إلى المسلمين سبيلاً. وقد دار نقاش طويل بين المستشرقين متعلق بأثر القرآن في تكوين نظريات الإسلام التصوفية، وهم في هذا فريقان: فريق ينكر هذا الأثر وآخر يثبته. وفي مقدمة الفريق الأول يجب أن يذكر البارون كارادي فو الذي يزعم (أن القرآن لم يكن مطلقاً الكتاب الذي استطاع مبدئياً أن يجتذب الصوفية نحوه كثيراً، لأنه متعلق جداً بالأمور الخارجية وليس فيه الحنو الداخلي والروحي حقيقة). وعلى عكس هذا يقرر أستاذنا ماسنيون، وبجانبه الأستاذ مرجليوث، (إن في القرآن البذور الحقيقية للتصوف. وهذه البذور كفيلة بتنميته في استقلال عن أي غذاء أجنبي). ونحن نعتقد أن القرآن أعان الصوفية كما أعان المتكلمين والفقهاء على نصرة آرائهم. فإن كتاب الله في العالم الإسلامي قاموس للنحاة واللغويين، ومذهب فلسفي للباحثين والمفكرين، وذكر يتقرب به المبتهلون والمتضرعون، ولائحة يرجع إليها المشرعون، وعقيدة يحتج بها المتكلمون. وكثيراً ما حاول أصحاب الآراء الجديدة والنظريات الحديثة الاحتجاج به والاعتماد عليه، بل إن هؤلاء أحوج إلى نصرته من غيرهم فأن آية منه قد تقرِّب آراءهم إلى من حولهم وتكسب نظرياتهم سلطاناً دينياً وصفات شرعية. فالصوفية إذن لا فرق بين متطرفيهم ومعتدليهم أفادوا من القرآن بقدر ما أفاد غيرهم من الباحثين. وأما ما في هذا الكتاب الكريم من حنو ورقة وعطف وشفقة فأمر لا يقبل الشك. ويدهشنا أن البارون كارادي فو لم ينتبه إليه؛ ذلك لأن القرآن لا يخاطب العقل وحده بل يناجي كذلك القلب؛ ولا يعني بالظاهر أكثر من عنايته بالباطن. وكم فيه من تحاليل شائقة وأساليب جذابة تصف أحوال النفس وأحاديثها الداخلية. وكيف يتصور أن يخلو كتاب سماوي من مناجاة القلوب والأرواح وهو إنما أعد أولاً وبالذات للجماهير التي تحس قبل أن تفكر وتسير غالباً وراء العاطفة والوجدان. وإنه لجهل بطبيعة الأديان أن يقال إن تعاليمها مصوغة في قوالب منطقية ولغة عقلية بحتة. ويطول بنا البحث لو حاولنا أن نسرد هنا كل الآيات القرآنية المتصلة بالقلب والروح والتي استطاع الصوفية استغلالها في نواح كثيرة، ونكتفي بأن نشير إلى دراسة تحليلية عميقة أبان فيها الأستاذ ماسنيون الألفاظ الصوفية المقتبسة من القرآن الكريم. فمصطلحات المتصوفة فضلاً عن نظرياتهم ترجع إلى أصل في كتاب الله. وغني عن البيان أن حديث المعراج وقصة يوسف كانا أساساً لنظريتين هامتين من النظريات الصوفية وهما الجذب والحب. والعلم اللدني الذي يتباهى به أهل الكشف والواصلون صورة مأخوذة عن الخضر عليه السلام الذي قال الله في شأنه: (فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً). وعلى هذا يجب أن نبحث عن أصول التصوف الإسلامي في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية كما نبحث عنها في الصوامع الهندية والبيع اليهودية والكنائس المسيحية وتعاليم مدرسة الإسكندرية. غير أنه لا يفوتنا، وهذا أمر ينبغي التنبه إليه، أن الألفاظ والآيات القرآنية مرت بأدوار مختلفة من حيث مدلولها وتفهم الناس لها. فقد يفهم صحابي من لفظة قرآنية ما لا يفهمه تابعي أو رجل من رجال القرن الثالث الهجري. ولسنا في حاجة إلى أن نشير إلى مرونة الألفاظ القرآنية ومسايرتها للزمن والتقدم العلمي. ولو جارينا متصوفي العصور الأخيرة لرددنا كل بحث صوفي إلى آية قرآنية أو حديث نبوي، وهذا

إسراف من غير شك. فلا يصح إذن أن نبحث عن أساس التصوف الإسلامي في القرآن وحده أو فيه كما فهمه الصوفية المتأخرون، بل يلزمنا أن ننشد هذا الأساس في الألفاظ والآيات القرآنية كما بدت للمتصوفين الأول. يقول الأستاذ نكلسون: (صواب أن نعد المتصوفة بين خواص دارسي القرآن، ولكن لا يصح، فيما أظن، أن نعتبر التصوف مجرد نتيجة للدراسات القرآنية).

وفي هذه الجملة القول الفصل والحكم السديد في تلك الخصومة الآنفة الذكر التي شجرت بين المستشرقين. فأنا لا نسلم بأبعاد القرآن رأساً عن النظريات الصوفية، كما لا نوافق على عده وحده كفيلاً بخلق تصوف كامل. ولا يفوتنا أن نشير أخيراً إلى أن هذه المعركة فقدت اليوم كثيراً من أهميتها.

بدأ التصوف فعلاً على صورته الفطرية البسيطة منذ الصدر الأول للإسلام، فلوحظ على كثير من الصحابة ميلهم إلى الزهد والتقشف وإعراضهم عن الدنيا، بل لقد خطا بعضهم في هذه السبيل خطوات فسيحة وبالغ فيها مبالغة واضحة. بيد أن هؤلاء الزهاد والمتقشفين لم يتسموا باسم خاص ولم ينتسبوا إلى طائفة معينة، ولم تطلق كلمة (صوفية) على جماعة محددة إلا في أواخر القرن الثاني للهجرة. وما زال هذا النوع من السلوك ينمو ويزيد أنصاره إلى أن ولد بعض الأبحاث والنظريات، والعلم نتيجة العمل، والنظرية في الغالب وليدة التطبيق. لهذا رأينا رجالاً من مفكري القرن الثالث الهجري، وعلى رأسهم المحاسبي وذو النون المصري، يبدءون بوصف بعض الأحوال النفسية والظواهر الصوفية، ومخلفاتهم من أقدم ما كتب في هذا الباب. ونظرية الاتحاد بوجه خاص ترجع إلى عهد

متأخر، فإن البسطامي هو أول من قال بها. ثم جاء الجنيد والحلاج فرفعاها إلى عنان السماء. وهذه النظرية أدق شيء في التصوف الإسلامي، وقد قسمت إلى طائفتين: طائفة تقبلها وأخرى ترفضها. والقرآن لا يشير إليها مطلقاً بعبارة صريحة، بيد أن أنصارها لم يعدموا الحيلة في دعمها ببعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي نستطيع أن نذكر منها قوله تعالى: (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) (وهو معكم أينما كنتم) (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سدسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم) وقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي: (ما تقرب إلى المتقربين بمثل أداء ما افترضت عليهم، ولا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى يحبني وأحبه. فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به).

بيد أن الاتحاد الصوفي يؤدي إلى الاشتراك في ذات البارئ جل شأنه وحلول اللاهوت في الناسوت. وقبول شيء إلهي في داخل العبد معناه الوحدة الربانية. وكل الخلاف بين الأشاعرة والمتصوفة يتلخص في هذه النقطة. فالأشاعرة لا يقبلون أن ينزل الإلهي في الإنسان ولا ن يصعد الإنساني إلى الإلهي، ويرفضون ضرورة مذهب الحلول وإن كانوا يسلمون بالتصوف في جملته. إلا ن التصوف عندهم مقصور على وصف بعض الأحوال النفسية ودراسة الأخلاق العملية التي تسمو بالمرء إلى درجة الكمال دون أن تدعي الوصول إلى حلول الحلاج المزعوم. ومن هنا خرجت الصوفية المحافظة وانقسم المتصوفون إلى معتدلين ومتطرفين، وليس هذا التقسيم بالجديد في العالم الإسلامي ولا في كل المدارس التي تسودها نزعة دينية. وإنا نلاحظ في مختلف الدراسات الإسلامية - لا فرق بين التوحيد والفقه والتصوف - أن هناك شعبتين متميزتين: شعبة السنيين وشعبه المبتدعين، أو شعبة المحافظين وشعبة الأحرار. وإذا كان الغزالي هو أكبر خليفة لأبي موسى الأشعري في نصرة مذهب أهل السنة الكلامي هو بحق مؤسس التصوف السني. وكأنما أخذ على عاتقه نصرة أهل السنة على طول الخط ومحاربة أهل البدعة كيفما كانت فرقهم ونحلهم، فلاسفة كانوا أو باطنية، متصوفة كانوا أو متكلمين، حلاجيين كانوا أو معتزلة، وقد آذت حملته الفلاسفة والمتفلسفين بقدر ما أخذت بيد أهل السنة من الكلاميين. أما التصوف السني فهو تقريباً واضع أصوله وقواعده ومبين طرقه ووسائله في إحياء

علوم الدين الذي أضحى عمدة المتصوفين المتأخرين بلا استثناء. نعم إن الغزالي يجهر هنا بنظريات متناقضة تنقض آراءه الكلامية والفلسفية، فتراه مثلاً يحارب محاربة عنيفة ويرفض رفضاً باتاً نظرية الاتحاد الحلاجية في كتاب الإحياء على حين أنه يميل إليها ويقول شيئاً يشابهها تمام المشابهة في كتاب مشكاة الأنوار. وهذه نقطة ضعف

لاحظناها عليه من قبل، وعل تطوراً حدث في آراء الرجل هو السر في هذه النظريات المتناقضة، ومهما يكن فكتاب الأحياء هو مصدر التصوف السني من غير جدال، وعليه نعتمد أولاً هنا أولاً وبالذات، وهو الذي أثر وحده تقريباً من بين كتب الغزالي الصوفية في المتصوفين المتأخرين. وما كان الغزالي لينكر التصوف وقد ركن إليه بعد أن خبر الدراسات الأخرى ولم يطمئن إليها ووجد فيه حصنه الحصين. فهو يرى أن علم القلوب لازم لزوم علم المرئيات والملموسات، لأن هناك عالمين عالم الباطن وعالم الظاهر.

فإذا كان بعض العلوم يتولى عالم الظاهر بالدراسة والشرح فلا بد من علم خاص لتوضيح عالم الباطن. والمعلومات نفسها ضربان: حسية وصوفية أو ظاهرية وباطنية؛ وفي هذا التقسيم ما يقابل أنواع العلوم التي أشرنا إليها من قبل. ولكن قد يقال إن وسلتنا في تعرف المعلومات الظاهرية هي الحواس فبأي طريق نستطيع الوصول إلى المعلومات الباطنية؟ والأمر في هذا يسير إذا ما رجعنا إلى الصوفية فإنهم يقولون إن التقشف والزهد والفضائل العملية جميعها سبيل إدراك الحقائق الخفية والإلهامات التي تجاوز عالم السمع والبصر. فالمعرفة إذن هي غاية التصوف السامية. أما اتحاد العبد مع الرب فهذه قضية منقوضة عقلاً وغير مقبولة نقلاً. وإذا شئنا أن نقارن بين تصوف الغزالي وتصوف الفارابي وجدناهما متفقين على رفض مذهب الحلول الذي ذهب إليه الحلاج والإلهام الذي يعمل له الغزالي يشبه من وجوه كثيرة الاتصال الذي جد في طلبة الفارابي. وكلا الرجلين يؤمن بوجود معارف باطنية وراء الحقائق الحسية، وهذه غاية الحياة العملية والنظرية ومقصد الصوفية والأنبياء. ولقائل أن يقول إن الغزالي يستمد إلهاماته من الله مبشرة على حين أن الفارابي يقنع بالاتصال بالعقل الفعال. ولكن هذا الفرق في الواقع سطحي فأن العقل الفعال في رأي فلاسفة الإسلام جميعاً ليس إلا فاصلاً معنوياً ومرحلة تدرج بين العبد وربه، وكل فيض مصدره الأخير والحقيقي هو الله جل شأنه. وعلى هذا يمكننا أن نستنتج من كل ما سبق أن نظرية السعادة الفارابية أثرت في جميع المتصوفة المسلمين المتطرفين منهم والمعتدلين أو الأحرار والمحافظين.

(يتبع)

إبراهيم بيومي مدكور

في الأدب المقارن

أسباب النباهة والخمول

في الأدبين العربي والإنجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

الممارسون للآداب نثراً ونظماً في كل أمة وفي كل جيل أكثر من أن بعدوا، لأن الإفصاح عن خوالج النفس وتأثراتها بما تحس وما ترى طبعي في الإنسان، وإنما يَنْبُهُ من أولئك الممارسين للآداب القليلون ويخلد الأقل؛ يميزهم من غيرهم سداد الفكر ولطف الشعور وروعة الأسلوب، ومن أولئك يكون أعلام كل أدب، ترفعهم عبقريتهم فوق رؤوس معاصريهم وتمشي بهم على عواتق الأجيال.

غير أن للمصادفات والحظوظ والظروف دخلاً كبيراً وصغيراً في صعود الأدباء وهبوطهم، فتَعدِل أحياناً وأحياناً تجور. والأرجح أنها كانت كثيرة الجور والإجحاف في الأدب العربي، وكانت أشبه بالعدل والإنصاف في الأدب الإنجليزي، فقد صاحبت الأدب الإنجليزي ظروف طبيعية مساعدة تسمح للعبقرية الفردية أن تسلك سبيلها غير معتاقة، وأحاطت بالأدب العربي عوامل عارضة أدت إلى رفع بعض من لا يستحقون الرفعة بجوار من يستحقونها، وإلى خفض من هم أولى بالرفعة والنباهة.

فقد ترعرع الأدب العربي ونضج وقومه أميون لا يقيدون في القرطاس آثار أدبائهم وأخبارهم، وإنما يروونها رواية ويتوارثونها تواتراً جيلاً بعد جيل؛ والرواية أقل من الكتابة نصيباً من الدقة وحفظ الآثار والتمييز بين الغث والسمين والبصر بما يستحق البقاء، فكان من جراء ذلك أن ضاع شعر كثير ونثر أكثر، واندثرت أخبار أدباء لعل منهم من كان أجدر بالخلود وأجدر بإعجاب الأجيال التالية ممن خلد؛ ولم يصلنا من أخبار قرون طويلة قبل الإسلام وبعده إلا كل مبتور غير مستوثَق.

فلما صارت الرواية صناعة يطلب بها علو الذكر ودرُّ الرزق وتقريب الأمراء، كان ذلك

ضغثاً على إبالة، إذ اشتد عبث الرواة بما بين أيديهم من الأدب العربي، وشوهوه بالبتر والوصل والاختراع والنحل، وحملهم تنافسهم وتكاثرهم بسعة العلم على تخليد أسماء أنصاف الأدباء وأشباه الشعراء، وخلقوا شعراء وفصحاء لم يخلقوا من قبل، وعزَوْا إلى غيرهم من الآثار ما هم براء منه؛ وهكذا خمل من رجال الأدب من عاشوا في عالم الأحياء، وعاش في عالم الأدب من لم يشهدوا نور الحياة.

ولما استُعملت الكتابة الخطية وقل الاعتماد على الرواية، ظلت الكتب نادرة والاستنساخ أمراً غير يسير، ولم تكن الكتب في شيء من الكثرة التي صارت إليها بعد انتشار الطباعة. ثم تعاورت الدولة العربية الغزوات البربرية المدمرة، فأباد الوثنيون في الشرق، والنصارى في الأندلس، كرائم المؤلفات ونفائس الكتب العربية، فذهبت بذهاب ذلك آثار أعلام من الأدباء واندثر ذكر آخرين.

وكان للمشادات والمقارعات الدينية والمذهبية والعصبية والسياسية والجنسية التي صحبت قيام الدولة الإسلامية ولازمتها في حياتها يد طولي في العبث بالتراث الأدبي، فأخمل ذكر أدباء انهزم حزبهم أو انخذل مبدؤهم، ونُشر عمدا ذكر من ناصروا الغالبين في كل تلك الحلبات، وتبارى الغالبون والمغلوبون في العبث بتراث أسلافهم الأدبي ونسبة الروايات الملفقة إليهم، ولهم من انتشار الرواية وندرة الكتابة خير معوان.

ويتصل بهذا تقريب الخلفاء والأمراء لرجال الأدب، لا برّاً بالأدب ولكن طلباً للأبهة وبعد الصيت، فقد أصبح اتصال الشاعر أو الأديب بالخليفة أو الأمير ضمان النباهة وسيرورة آثاره في البلاد، كما كان الإخفاق في التقريب إلى أولئك الحاكمين داعياً في كثير من الأحيان إلى خمول الأديب، فنَدَرَ من أعلام العربية النابهين من لم يتصل بالخلفاء والوزراء. ولا يسع المرء إلا أن يتصور أن عصور أبي نواس ومسلم بن الوليد وأبي تمام والبحتري كانت حافلة بأندادهم، وإنما خلصت بهؤلاء لطافة حيلتهم إلى حضرة الأمراء فاشتهروا، وعثر بغيرهم مسعاهم فخملوا. ولقد خمل ذكر ابن الرومي طويلاً وإنه لأشْعَرُ ممن ذكروا جميعاً؛ ولعل من أسباب خمول ذكره فشله في الاتصال بالخلفاء والوزراء.

ولما استرقَّت جوائز الملوك أعناق الشعراء، وأعمل هؤلاء الحيل، وأذالوا الشعر في استرضاء الممدوحين واستجداء الأثرياء، ترفع كثير من ذوي الشرف والأدباء عن الهبوط إلى ذلك المجال، وأحجموا عن نظم الشعر أو التوفر عليه أو الاشتهار به، ولسان حالهم قول الشافعي:

ولولا الشعر بالعلماء يزري ... لكنت اليوم أشعر من لبيد

وإن يكن أبو تمام يقول:

ولولا خلال سنها الشعر ما درى ... بغاة العلا من أين تؤتى المكارم

فإنما كان يعني شعر المتقدمين من جاهليين ومخضرمين ممن تغنوا في شعورهم بالنجدة والمروءة والعزة، وما نخاله كان يعني الشعر الذي كان ينظمه هو وأضرابه واستجداء للرؤساء.

وبذلك حُرمت العربية طائفة من الشعراء لعلهم أسمى طباعاً وأشرف أغراضاً وأصدق شاعرية وأشد حباً للفن من مرتزقة المداحين الذين استأثروا بالجوائز ونباهة الذكر.

ولما فسدت الفصحى تدريجاً باختلاط العرب بالأعاجم العرب بالأعاجم، اشتد الحرص على آثار المتقدمين وتعاظم الإعجاب بهم والرفع من شأنهم، لا لشيء سوى صحة لغتهم واستقامة أساليبهم، وإن كانت أفكار كثيرين منهم على جانب من السذاجة، وأغراض شعرهم على حظ من البساطة، كالحطيئة وابن أبي ربيعة وكثير من الجاهليين.

فهذه عوامل شتى فعلت فعلها البعيد المدى في التراث الأدبي العربي، وساعدت على إعلاء ذكر رجال وخفض آخرين، وهي: ندرة الكتب والاعتماد على الرواية، والأغراض المذهبية، وتسخير الأمراء للشعر، وتكسب الشعراء به، وفساد لغة الكلام، وكوارث الغارات. تحكمت كل هاتيك في أقدار الأدباء وحظوظهم من النباهة، ولم يكن مردّ أمرهم دائماً إلى النبوغ الشخصي والذوق الناقد، فلا نبعد عن الصدق إذا قلنا إن الأدب العربي لم يحتو على خير عناصر المجتمع العربي أو يمثله أصح تمثيل، وإن سجل تاريخ الأدب العربي لا يحتوي على جميع أفذاذ الموهوبين من أصحاب البيان الذين أنجبهم المجتمع العربي.

ومن ثم احتل مكان الصدارة من تاريخ الأدب العربي بعض من لا يستحقون ذلك المكان، ومن لا يعبرون خير تعبير عن أفكار عصورهم وشعورها؛ ومنهم من نال من رفيع الذكر ما هو أهله، ولكنه لم ينله لمزاياه الصحيحة وأسرار نبوغه الحق بل لمساعدة بعض تلك العوامل السالفة الذكر له؛ فقد كان وما يزال من النقاد من يعظم المتنبي لا لأشعاره الصادقة التي أودعها عصارة روحه الكبير، بل لاختراعاته الكاذبة في مدح سيف الدولة وتهنئته
وتعزيته، مِن مثل قوله:

إذا نحن سميناك خلنا سيوفنا ... من التيه في أغمادها تتبسم

وبجانب تلك النباهة غير المستأهلة أو المبنية على غير أساسها الصحيح، خمولٌ ما كان أحق أصحابه بالذكر والتمجيد، ولقد قال البحتري:

إذا أرت الدنيا نباهة خامل ... فلا ترتقب إلا خمول نبيه

ولعله هو خير من يعلم كم أخملت الدنيا بنباهته من شعراء، حين وفقه الحظ دونهم إلى الاتصال بالولاة والخلفاء.

فمن أفذاذ الخوارج أمثال قطري بن الفجاءة وشبيب بن يزيد من كانوا أسمى غرضاً وأشرف شعراً ونثراً من معاصريهم المداحين ولكنهم أخمل منهم ذكراً. ومن الأبيات السائرة المجهولة القائلين ما تشمل حكمة يقصر دون مداها أشباه بشار وأبي نواس، أو تحوي نسيباً تزري روعته بكل ما لُفق في صدور المدائح من نسيب مصطنع، أو تعبر عن شاعرية صحيحة ما كان أحرى صاحبها أن يتوفر على إثراء اللغة بفيض قريحته، ولكن طوفان تلك العوامل القاسية غمره ورفع غيره، فمن تلك الآثار الشاردة قول القائل:

أهابك إجلالاً وما بك قدرة ... علي ولكن ملء عين حبيبها
وما هجرتك النفس أنك عندها ... قليل ولكن قل منك نصيبها

وقول الآخر:

إذا زرت أرضاً بعد طول اجتنابها ... فقدت صديقي والبلاد كما هيا
فأكرم أخاك الدهر ما دمتما معاً ... كفى بالممات فرقة وثنائيا

ولم يخلُ الأدب الإنجليزي من آثار الإجحاف وتقلّب الظروف: فأمام شعرائه شكسبير لم ينل في حياته مثل ما له اليوم من مكانة، وخمل ذكره بعد مماته أجيالاً، وعلا شأنه خارج إنجلترا قبل أن يعلو فيها. وقريعه في سماء الشعر الإنجليزي ملتون قضى أواخر حياته في غمرة من النسيان لإنخذال مذهب المطهرين الذي كان هو لسانه الناطق، وباع ملحمته الذائعة الصيت لورّاق بدراهم معدودة، وظل حقبة مهملاً. وكبير النهضة الرومانسية وردزورث قضى زهرة عمره منبوذاً مُعرَضاً عنه. وبعكس ذلك سما تنيسون في حياته إلى أوج الشهرة والإعجاب، ولم يكد يقضي نحبه حتى هبط ذكره وانصرف الجيل التالي عن
شعره.

على أن تلك كلها أمثلة لتقلب الأذواق بتعاقب الأجيال، وهو أمر طبيعي لا محيد عنه. وقد خلا الأدب الإنجليزي أو كاد من تلك الظروف العاتية التي لابست الأدب العربي وتحكمت في مصاير رجاله: فقد شب الأدب الإنجليزي من عهد اليزابيث وقد اخترعت الطباعة، واطرد رقي الطباعة وانتشار الكتب والصحافة والتعليم مع اطراد رقي الأدب، ولم يخضع الأدب طويلاً لسيطرة الحكم، وظل مرد الأمر في تقدير الأدباء إلى الرأي العام المتعلم الذي يقوّم الأديب لفنه الخالص؛ فإن رانت على بصيرته غشاوة من تقليد موروث أو مذهب سائد أو مشادة محتدمة في السياسة لم يلبث بعد أن ينجلي ذلك أن يعود إلى إنصاف من أجحف بهم وإسقاط من لم يستحقوا سالف تقديره.

فإلى أمرين اثنين يدين أعلام الأدب الإنجليزي في مراحله المتتالية بنباهتهم وخلودهم: نبوغهم الشخصي، والذوق العام. وليس بين أقطابه الذين يعتد بهم من لا تؤهله عبقريته لما أوليه في تاريخ الأدب من مكانة، أو من هو مدين بخلود ذكره إلى أهواء السياسة أو أغراض الحاكمين أو دسائس الأحزاب أو تحريف الرواة أو عبث النقاد.

فالنابهون في الأدب الإنجليزي أكثر استحقاقاً لمكانتهم من النابهين في الأدب العربي، والخاملون المغبونون في هذا الأخير أكثر منهم في الأول؛ والأدب الإنجليزي بما أحاط

به من ظروف مواتية أسهل تأريخاً ودرساً من الأدب العربي. وهذا الأخير محتاج إلى مراجعة ودرس طويل وتأريخ جديد غير التأريخ الذي جرى عليه العرف حتى الآن ليمنح كل أديب حقه من التقدم أو التأخير، ويُزَحْزَحَ عن الصدر من تؤهلهم له آدابهم ونظراتهم في الحياة، ويستنقذ من يستطاع استنقاذهم من غمرة الخمول.

فخري أبو السعود

نابليون وخطواته الأولى في سبيل المجد

للأستاذ عبد المجيد نافع

تتمة

وشبت نيران الثورة في باريس، ودعت الحاجة إلى قمعها، فأشاروا على باراس أن يعهد بإخمادها إلى نابليون، فعرض أن يوليه قيادة مجلس الأمة وأمهله ثلاث دقائق ليفكر في الأمر ملياً.

فيا عجباً للأقدار! ثلاث دقائق، ثم يتقرر مصير نابليون، ومستقبل فرنسا، لا بل مستقبل أوربا بأسرها.

واستعرض نابليون الموقف، فلم يتردد في القبول حين رأى خمسين ألف جندي من جنود النمسا يظهرون على أسوار ستراسبورج، والإنجليز يحاصرون ببوارجهم ثغر برست، وحينذاك نسي خصومة الخصوم، وعياءهم وعجزهم، واستلهم الوطنية الحق فألهمته أن الوطن إذا أحدق به الأعداء وجب دفن الخصومات، ودرس الحزازات، ووضع اليد في أيدي القائمين بالحكم مهما كانت صبغتهم وألوانهم ونزعات نفوسهم.

فقال نابليون لباراس: إني أقبل ولكني أنذرك بأني لن أرد السيف إلى غمده إلا بعد أن أعيد النظام إلى نصابه.

وكذلك تجلى نابليون في ثوب الوطني الصادق والمحارب الصحيح الذي لا يطيق بحال أن تعرقل مساعيه أعمال السياسيين.

وكان القبول في الساعة الواحدة صباحاً. فلما أقبل المساء إذا بباراس يعلن في المجلس انتصار جنوده. فإذا جاء الغد رقي نابليون إلى رتبة قائد قسم، وسمع الناس اسمه يتردد في جوانب المجلس، ثم يجتاز اسمه منبر الخطابة لينقش على صفحات الصحف فينفض عنه غبار الخمول الذي حجب اسمه عن الأسماع والأنظار ردحا من الزمن.

وتقلد بونابرت قيادة الجيش في الداخل، واتخذ (فان) سكرتيراً له، فكان هو الذي كتب أوامره حين بات قنصلاً وهو هو الذي، بعد أربعة عشر عاماً، كتب وثيقة تخليه عن عرش فرنسا.

وكان نابليون يختلف إلى صالون مدام تليان فرأى جوزفين فشغفته حباً، وملكت عواطفه؛

وكان في السابعة والعشرين، وكانت في الثانية والثلاثين، ولكنها كانت على جانب من الجمال والروعة فأضرمت نيران الغرام في صدره.

على أن الذين يحاولون تشويه شخصية نابليون بخلق البواعث غير الشريفة لأعماله، وابتداع الحوافز لمشاعره، تراهم يسارعون إلى القول بأن حبه لجوزفين إنما كان حباً مسرحياً، وإن أكبر همه، وغاية الغايات عنده أن يتذرع بذلك الزواج لتولي قيادة الحملة الإيطالية.

ولكنك قد رأيت كيف كان يتهالك وجداً على الزواج، وكيف داعب الأمل بالاقتران بكليري. وبعد فما هي العلالي والقصور التي كان يبنيها على الاقتران ببنت تاجر صابون!

ولو أنه لم يصادف هوى في قلب مدام دي بوهارنيه، إلا أنه وجد منها عند الزواج سميعاً ومجيباً؛ فقد كانت، على رغم موت زوجها، ووجود ولد وبنت لها، تحيا حياة خليعة، وتتردد على مدام تليان، وتغشى صالون باراس؛ ومن كانت في مثل حالتها كانت خليقة أن تستند إلى ذراع رجل قوي كنابليون الذي أصبح في طليعة القواد وأنقذ فرنسا من الأخطار التي تتهددها.

ولكن هل كانت جوزفين خليلة لباراس؟ إن بعض الكتاب المعاصرين يتبرعون بهذا التأكيد. على أن الذي يسترعي النظر أن جوزفين لم تظهر في بيت باراس إلا باعتبارها صديقة لمدام تليان. والمنطق والبداهة يتضافران على أن الأخيرة لم تكن لتسمح

لكائنة من كانت أن تنازعها هوى الرجل القابض بكلتا يديه على مصاير فرنسا.
وإذا كانت جوزفين، قبل الزواج، شاءت أن تستوثق من باراس، سواء بنفسها أم بواسطة مدام تليان، أن زوجها المقبل سوف يكون موضع رعاية حكومة الدير كتوار، بل إذا كانت لمحت إلي أن مكانة الحق أن يكون على رأس الحملة الإيطالية، فكل أولئك لا ينبغي أن يكون مثاراً للدهشة ما دامت جوزفين قد أرادت بهذا الزواج وجه المصلحة لا وجه نابليون.
ولما كاشفت جوزفين نابليون بحديث باراس وعزمه على تقليده قيادة الحملة الإيطالية قال لها لا تحسبي أني ألتمس حمايتهم بل على العكس من ذلك هم الذين سوف يشعرون بالسعادة حين أظلهم بحمايتي. إن سيفي إلى جانبي، وبه سأصل إلى أبعد الغايات.
ولو أتيح لك أن تطالع الرسائل التي خطها نابليون إلى جوزفين لقرأت فيها آيات الحب مسطورة، ذلك الحب المضطرم الذي ظلت حرارته متأججة من يوم أن عرفها وهو يحبو في طريق المجد إلى يوم بات في ذروة القوة وقمة السلطان.
على أن وضع الخطة لاجتياز جبال الألب والانحدار إلى سهول لومبارديا والانقضاض على الجيوش النمساوية وسحقها سحقاً، كل أولئك قد استغرق وقت نابليون واستنفد جهوده حتى قلت زيارته لجوزفين. ولم تكن إلا تكن إلا في شهر يناير من عام 1796 حيث تقدم لها بطلب الزواج ولقي ذلك الطلب قبولاً.
وكانت جوزفين لا تزال مترددة، فأحبت أن تفزع إلى نصيحة موثق العقود الأستاذ راجيدو، فلما أقبلت على مكتبه توسلت إلى نابليون أن ينتظرها في غرفة الاستقبال، ولم يكن من شأن نصيحة كاتب العقود أن تنتشل جوزفين من غمرة التردد إذ قال لها: (إيه لك! أو تتزوجين بجنرال لا يملك غير الكبود والسيف؟ فإذا صح أنه يملك شيئاً فإنما يملك كوخاً حقيرا! إنه لجنرال صغير، لا اسم له، ولا مستقبل! تجيء مرتبته وراء مراتب جميع قواد الجمهورية! إنه لخير لك أن تقترني بمورد للجيش!).
ولم يكن نابليون يسترق السمع؛ على أن الباب كان نصف مغلق، وبذلك تطاير إلى سمعه حديث موثق العقود، فملك عواطفه ولم ينبس ببنت شفة؛ ثم استطاع أن يثأر لكرامته الجريح بعد ثماني سنين. ففي غداة حفلة التتويج، استدعى الرجل الطيب راجيدو إلى قصر التويلري وأعطاه مكاناً في الصف الأول بكنيسة نوتردام حيث تقام حفلة تتويجه إمبراطوراً لفرنسا، وبذلك يتاح له أن يرى بعينيه التي في رأسه إلى أية ذروة من ذرى المجد يستطيع الجنرال الصغير الذي لا مستقبل له أن يسمو بموكلة موثق العقود الأستاذ راجيدو!
وفي 23 فبراير نودي ببونابرت قائداً عاماً للحملة الإيطالية، وحدد للزواج يوم 9 مارس سنة 1796. وفي أوراق الزواج أنقصت جوزفين من عمرها أربع سنين سوياً، وزاد نابليون في عمره سنة كاملة! فالتقى الزوجان في العمر وإن لم يتلاقيا في الحب!
على أن حملة المتهجمين على نابليون لا تقف عند حد. لذلك نرى جمهرة المؤرخين يملئون أفواههم بأن قيادة الحملة الإيطالية كانت هي البائنة (الدوطة) التي أعطاها باراس إلى جوزفين.
ومهما يكن هذا القول جارحاً لذاعاً فإنه يتجافى مع الحقيقة. فليس يجوز في عقل عاقل أن رجلاً مثل باراس يجازف بتسليم القيادة إلى قائد لا يقوى على الاضطلاع بأعبائها فيغامر بأقدس المصالح، لا بل يقامر بمستقبل فرنسا.
على أن الوقائع تهدم هذه الدعوى من أساسها، وتضع قصة زواج نابليون بجوزفين في نصابها الحق؛ فلم يكن باراس يملك التصرف وحده في مصير قيادة الحملة الإيطالية بل كان لابد من موافقة الأغلبية في حكومة الدير كتوار، وقد كانت مؤلفة من كارنو وباراس وليبو وريبل ولوتورنور.
وإذا جاز لنا أن نستصرخ ضمير رجل، أو نفزع إلى عدالة شاهد، فأولى لنا ثم أولى أن نفزع إلى ريفيير لوبو وقد كان لنابليون من ألد الخصوم؛ وهو في ذلك يقول: (لقد قيل إن زواجه بأرملة بوهارنية كان شرطاً لا يستطيع بدونه أن يحصل على القيادة التي جعلها مناط آماله. إن ذلك لم يكن! والذي أستطيع أن أؤكده هو أن الاختيار الذي تم من حكومة الدير كتوار لم يكن تحت تأثير باراس ولا شخص غيره).
كيف إذن سبيل بونابرت إلى تولي القيادة؟ ينبغي لنا أن نذكر أن الجنرال الصغير قد

وضع خطة لغزو بيمون في 19 يناير وأن تلك الخطة قد أرسلت إلى القائد العام شيرير، فتلاها ثم بعث بها في الحال إلى حكومة الدير كتوار معلنا أنها من عمل مجنون، وأنه لابد من استدعاء هذا المجنون وتكليفه بتنفيذها.

فاختلط الأمر على حكومة الدير كتوار، واحتدم وطيس الجدل بين أعضائها، وما لبثت الغالبية وقوامها ليبو وكارنو وباراس أن جنحت إلى جانب نابليون، وانحازت إليه لترجيح كفته، فعهدت إليه بإنفاذ الخطة التي وضعها.

وفي الحق، فما كان نابليون مدينا بتلك القيادة لا إلى زواجه، ولا إلى باراس، وإنما كان مدينا بها إلى كفاية كارنو الحربية التي أمكنته من التعمق في درس الخطة التي وضعها نابليون، وتفهم روحها، فأتيح له أن يصل إلى مكان الإقناع من نفوس زملائه.

وما لبث نابليون أن انتزع نفسه من بين أحضان المرأة التي أحبها من أعماق قلبه ليبدأ سلسلة المعارك الدموية التي خاض غمراتها عشرين عاماً.

ومضى في طريق المجد صعدا، لا يلوي على شيء، ولا يقف في وجهه سهل ولا جبل، حتى تألبت عليه أوربا بأسرها، وظاهرتها في تألبها شر أنواع الخيانات.

والآن نسأل: ماذا كان أثر ذلك المجد في نفس نابليون؟ لقد كان يمكن أن ينسى نشأته، ويتنكر لعائلته، ولا يأبه لعوز المعوزين، ولا يحفل ببؤس البائسين. على أن شيئاً من ذلك لم يكن، وظل نابليون في حاضر مجده، كما كان في ماضي بؤسه، ينطوي على أصدق الود لذوي قرباه؛ لا ينسى يد الصنيعة لمن اصطنعها، ولا تفتر حرارة إخلاصه لأصدقائه؛ يشعر قلبه حب الواجب، ولا يتطرق إلى إرادته الوهن أو تصيب عزيمته الكلال.

ما كان نابليون في مصاف الملائكة كما تخيله أنصاره، ولا كان في عداد الوحوش الضارية كما تصوره خصومه، وإنما كان رجلاً عظيماً خالداً في التاريخ، وإنساناً له عواطفه وأهواؤه، ورذائله وفضائله.

عبد المجيد نافع المحامي

من دمشق. . . إلى بغداد

للأستاذ علي الطنطاوي

لما جاوزنا (أبا الشامات) وأصحَرنا، ونظرت بين يديّ وعن يميني وعن شمالي، فلم أجد إلا الصحراء الصامتة لرهيبة الموحشة، ووجدت دمشق التي أحببتها ولقيت فيها من يحبّني، وألفتها وتركت في كل بقعة منها قطعة من حياتي وطائفة من ذكرياتي قد اختفت وراء الأفق، وتضاءل (قاسِيُونها) وصغر حتى ما يبدو منه إلا خيال علويّ يلوح في السماء له وميض ولمعان، أحسست بلوعة الفراق فخفق قلبي خفقاناً شديداً:

كأن القلب ليلة قيل يُغدي ... بليلي العامريّة أو يُراح

قطاة غرّها شرك فباتت ... تعالجه وقد علق الجناح

وخالطني حزن عميق وشعور مبهم، أعرفه من نفسي كلما سافرت سفراً بعيداً - على كثرة ما أسافر وأبتعد - شعور من يجد الموت ويبصره بعينه! ولم لا؟ وهل لحياة إلا أن تقيم في المكان الذي تألفه، وترى الناس الذين تحبّهم، وتصل ماضيك بحاضرك بصورة تراها، أو نغمة تسمعها، أو بقعة تحلّها؟ وهل يحيا المرء إلا في الأمكنة والوجوه، وبالذكريات والآمال؟ وهل الموت إلا أن ينبتر مما يحيط به، وينقطع عن كل ما يعرف، ويقدم على بلد مجهول وحياة غريبة عنه لا عهد له بها ولا نبأ عنده منها؟ أو ليس للإنسان حياة ظاهرة في قيامه وقعوده وطعامه وشرابه وجيئته وذهابه، وحياة باطنة في أفكاره وذكرياته وآماله وآلامه وميوله وعواطفه؟ أو ليست حياته الباطنة هي الأصل وهي الأساس، فلا يحيا إلا بها ولا يقوم إلا عليها، كما أن الشجرة لا تحيا إلا بجذورها الممتدة في جوف الأرض المختفية في بطن الثرى، فإذا انقطع المرء عن عادته، وابتعد عن أهله وصحابته، لم ينفعه أنه لا يزال يقوم ويقعد ويأكل ويشرب، كما أن الشجرة لا تنفعها أغصانها وفروعها، إذ هي بُتّت من أرضها، وقطعت من أصلها، وفصلت عن جذرها. وأحسب أن الله جلّ وعزّ ما قرن الموت بالإخراج من الديار، وأجزل ثواب المهاجرين في سبيل الله، التاركين أوطانهم ابتغاء مرضاة الله، إلا لأن الهجرة ضرب من ضروب الموت ولون من ألوانه. . . فإن (تعدّدت الألوان فالموت واحد)!

وازدحمت في نفسي صور حياتي في دمشق، وحبّبت إليّ أضعاف ما كنت أحبّها، ومرّت
أمامي صور أخوتي وأهلي وإخواني، وذكرت سهراتنا البيتية، ومجالسنا الأدبية، وهذه
الحفلات الوداعية الكثيرة التي تفضلت فأقامتها أسرة التعليم، وجمعية التمدن
الإسلامي، والمدرسة التجارية، تكريماً لي قبل أن أعمل شيئاً أستحق عليه التكريم، وأفيض فيها عليّ من النعوت ما ليس فيّ ولا أستحق الأقل منه. . . وذكرت من دمشق
كلّ حبيب إليّ جميل في عيني، فازددت بها تعلقاً، ووددت لو أني أبيت فلم أذهب ولم أتغرّب.
وكانت الصحراء قد امتدت من حولنا، وأحدقت بنا، وصرنا في قبضتها لا شأن لنا ولا
خطر، وآضت هذه السيارات الفخمة التي كانت تمل الشارع بطوله وعرضه، وكانت
تعد وهي في دمشق شيئاً عظيماً، أهون على الصحراء من حبة رمل! وضاعت في
أرجائها فلم تعدْ تعدّ شيئاً. وكان قد بلغ مني الحزن، وحزّت في نفسي لوعة الفراق،
فأغمضت عينيّ ورجعت إلى نفسي، حتى إذا استروحت فتحتهما وجعلت أحدّق في
هذه البادية، فأرى السيارة تعدو فيها تسرع حتى نحسّ كأنها تطوي الأرض طياً؛ وأراها
تلهث من التعب، والبادية باقية على حالها، كأننا لم نقطع منها شبراً، وكأننا بعد في أماكننا. ولست غريباً عن البوادي، فقد عرفتها في رحلتنا تلك. . . إلى مكة. وبقيت فيها
سبعة عشر يوماً. ما من ساعة منها إلا وهي أشد من عشرة أسفار إلى بغداد؛ ولكن
هذه البادية (بادية الشام)، تختلف عن جزيرة العرب؛ ففي الجزيرة مناظر متباينة،
وأراض مختلفة، فيها الجبل وفيها السهل، وفيها الوعر وفيها الرمل، وما في هذه إلا
شيء واحد لا يكاد يختلف أو يتغير، أرض منبسطة ترابية قاحلة، تمتد إلى الأفق، كأنها
بحر ليس فيه ماء! فكنا نقرأ ونتحدث لنقطع الصحراء بحديثنا، فتقطع الصحراء بصمتها
وجلالها حديثنا، وكنا ننام ونفيق والصحراء هي هي. . . حتى قطعنا يوماً كاملاً، وكان
صباح اليوم التالي، (وللصباح في البادية جمال وروعة، لا يكون مثلهما في المدن)
وبدّدت الشمس ظلمة الليل، فتبدَّدت من نفسي ظلمة الكآبة والحزن، وانزاحت عني
نوبة المرض، (وما العاطفة الرقيقة المؤنّثة إلا مرض في الرجال. . .) فصحوت،
ونظرت في أمري فإذا أنا لم أغترب ولم أفارق بلدي. وهل بغداد إلا داري وبلدي وفيها
أهلي وأخوتي، إن لم تقرر هذه الأخوّة الأنظمةُ ولم تسجّل في الدساتير، فلقد قررها
الله من فوق سبع سمواته وسجّلها في القرآن: (إنما المؤمِنون إخْوَة). وليس ينقض ما
أبرم الله، وإن فرقت بيننا شارات على الأرض، وألوان على المصوّر،
فلقد جمع بيننا الدين واللغة والعادات، وألّف بيننا تاريخ الماضي، وأمل المستقبل وألم
الحاضر، ووحّد بيننا الدم الذي جاء من نبعة واحدة. فأنى ننكر هذه الأخوّة وشاهدها
فينا، ودمها في عروقنا؟
وكيف أجهل بغداد ولها في نفسي مائة صورة، وفي ذاكرتي عنها مالا أحصي من
الأخبار والتواريخ والأشعار.
وبغداد عاصمة الإسلام، ومشرق شمس الحضارة، وحاملة راية العصر الذهبي
الإسلامي، وأم الدنيا، ومنزل المنصور والرشيد والمأمون. . .
فدى لك يا بغداد كل قبيلة ... من الأرض (إلا) خطتي ودياريا
فقد طفت في شرق البلاد وغربها ... وسيّرت رحلي بينها وركابيا
فلم أر فيها مثل بغداد منزلاً ... ولم أر فيها مثل دجلة واديا
ولا مثل أهليها أرقّ شمائلاً ... وأعذب ألفاظاً وأحلى معانيا
وكنت أرانا نخاف هذه البادية ونحن على طريق مسلوكة، في سيارة متينة، ونمل من
طولها نقطع منها ثمانين أو تسعين كيلاً في الساعة، ونشكو ومعنا اللحم والفاكهة
والماء المثلج، ونتعب ونحن مضطجعين على المقاعد الوثيرة، ثم إذا وصلنا إلى الفندق
نمنا أربع عشرة ساعة، لنستريح ونسترد الروح فأفكر في أجدادنا أي ناس كانوا؟. . .
وكيف قطعوا هذه البادية وهم على ظهور الإبل، يخوضون لجة الرمل الملتهب،
يلتحفون أشعة الشمس المحرقة، يتبلّغون من الطعام بتمرة، ويكتفون من الماء
بجرعة، ثم إذا وصلوا قابلوا جيوشاً أوفر منهم عَدداً وعُدداً، فحاربوها وانتصروا عليها،
وفتحوا بلادها. . . فأقول: هذا هو فرق ما بيننا وبين أجدادنا؛ هو الفرق بين الشاب منهم
تصيبه ضربة في المعركة، فتقطع يده من كتفه وتلبث متعلقة به، فتؤذيه وتعيقه عن

القتال، فيعمد إلى أصابع يده المقطوعة، فيدوس عليها، ثم يتمطى حتى يبترها، ثم يلقيها ويعود إلى جهاده، والشاب منا يزاحم المرأة على كل شيء هولها، فيخطر في الشارع كالعروس ليلة الزفاف، وإذا شاكته شوكة أو لفحته الشمس أوى إلى الفراش!
ولما كان ضحى الغد بدا لنا نخيل العراق، وأشرفنا منه على مثل الليل، فعرقت لماذا سمى العرب السواد سواداً، وذهبت أتذكر الفتوح وعهدي بمطالعتها قريب - فأحسّ بأني أسمو
عن زماني وأعيش في أيام الصدر الأول - وأقدر بعد نظر المستعمرين وصحة رأيهم في تعطيلهم التاريخ الإسلامي في مدارسنا، وتنشئة أبنائنا على الجهل به والبعد عنه، لما لهذا التاريخ من العمل السحري على بث روح الشرف والنبل والقوة والعزة والفضيلة في نفوس شباب العرب، ولأنه شمس إذا طلعت كسفت هذه الأنوار الكهربائية التي أضاء بها الغربيون أرجاء تاريخهم فبدت تواريخهم سوداء مظلمة. . . وبدا وحده المشرق المنير.
وجعلت أتشوّق إلى بغداد - وأعرض في ذاكرتي صوراً منها حلوة، وأنتظر أن أرى مدينة المنصور بأسوارها المستديرة وأبوابها الفخمة - وألمح قبّتها الخضراء العالية المشمخرة، الذاهبة في السماء ثمانين ذراعاً طالعة علينا من عرض الفلاة، تضطرب صورتها في دجلة، ثم أذكر ليلة الثلاثاء لسبع خلون من جمادي الآخرة سنة 329 وقد كانت ليلة مطر ورعد هائل وسيل شديد، فهوت هذه القبة التي كانت تاج بغداد - وعَلَم البلد، ومأثرة من مآثر بني العباس عظيمة، بنيت أول ملكهم وبقيت إلى آخر أيام الواثق، فكان بين بنائها وسقوطها مائة وثمانون سنة.
وأرى دار الخلافة - وقد قدم رسل ملك الروم على المقتدر، فرسم أن يطاف بهم في الدار، وليس فيها من العسكر أحد ألبتة، وإنما فيها الخدم والحجاب والغلمان، سبعة آلاف خادم، وسبعمائة حاجب، وأربعة آلاف غلام - قد جعلوا على السطوح والعلالي وفتحت الخزائن والآلات فيها مرتبة كما يفعل لخزائن العرائس، وقد علقت الستور، ونظم الجوهر وصف على درج غشيت بالديباج الأسود، وكان عدد ما علق في قصور المقتدر من الستور الديباج المذهبة المصوّرة بالجامات والفيلة والخيل والجمال والسباع. . ثمانية وثلاثين ألف متر، وعدد البسط في الممرات والصحون التي وطئ عليها القواد ورسل صاحب الروم سوى ما في المقاصير والمجالس من الأنماط وعشرون ألف قطعة. وأدخل الرسل من دهليز باب العامة الأعظم إلى الدار المعروفة بخان الخليل، وهي دار أكثرها أروقة بأساطين رخام، وكان فيها من الجانب الأيمن خمسمائة فرس عليها خمسمائة مركب ذهباً وفضّة بغير أغشية، ومن الجانب الأيسر خمسمائة فرس عليها الجلال الديباج بالبراقع الطوال، وكل فرس في يدي شاكري بالبزّة الجميلة؛ ثم أدخلوا من هذه الدار إلى الممرّات والدهاليز المتصلة بحير الوحش، وكان في هذه الدار من أصناف الوحش التي أخرجت من الحير
قطعان تقرب من الناس، وتتشمم وتأكل من أيديهم؛ ثم أخرجوا إلى دار فيها أربعة فيلة مزينة بالديباج والوشى، على كل فيل ثمانية نفر من السند والزراقين بالنار، فهال الرسل أمرها؛ ثم أخرجوا إلى دار فيها مائة سبع، خمسون يمنة وخمسون يسرة، كل سبع في يد سبّاع وفي رؤوسها وأعناقها السلاسل والحديد؛ ثم أخرجوا إلى الجوسق المحدث، وهي دار بين بساتين في وسطه بركة رصاص، حواليها نهر رصاص أحسن من الفضّة المجلوّة، طول البركة ثلاثون ذراعاً، فيها أربع طيارات لطاف بمجالس مزيّنة بالديبقى المطرّز، وأغشيتها ديبقى مذهب، وحوالي هذه البركة بستان بميادين فيه نخل، عددها أربعمائة نخلة، طول كل واحد خمسة أذرع، قد لبّس جميعها ساجاً منقوشاً من أصلها إلى حد الجمارة بحلق من شبه مذهبة. . . ثم أخرجوا من هذه الدار إلى دار الشجرة، وفيها شجرة في وسط بركة كبيرة مدوّرة، فيها ماء صاف، والشجرة ثمانية عشرة غصناً، عليها الطيور والعصافير من كل نوع، مذهبة ومفضضة، وأكثر قضبان الشجرة فضة، وبعضها مذهب، وهي تتمايل في أوقات، ولها ورق مختلف الألوان، يتحرك كما تحرك الريح ورق الشجر، وكل من هذه الطيور يصفر ويهدر. . . إلى أن دخلوا إلى الخليفة.
وملأ نفسي الشعور بعظمة بغداد، المدينة التي كانت وحدها دنيا، كان فيها ستّون ألف حمّام، فلو أن في كل حمّام خمسة نفر حمامي وقيم وزبّال ووقّاد وسقاء وذلك أقل ما

يكون، لكان أصحاب الحمامات ثلاثمائة ألف رجل، وكان حيال كلّ حمام خمسة مساجد، فلو أن في كل مسجد خمسة أشخاص، لكان ذلك ألف ألف وخمسمائة ألف إنسان. وأحصيت الزوارق التي في دجلة أيام الناصر فكانت ثلاثين ألفاً.

قال الخطيب: (لم يكن لبغداد في الدنيا نظير، في جلال قدرها، وفخامة أمرها، وكثرة علمائها وأعلامها، وتميّز خواصها وعوامها، وعظم أقطارها، وسعة أطرارها، وكثرة دورها ومنازلها، ودروبها وشعوبها، ومحالها وأسواقها، وسككها وأزقتها، ومساجدها وحماماتها، وطرزها وخاناتها، وطيب هوائها، وعذوبة مائها، وبرد ظلالها وأفيائها، واعتدال صيفها وشتائها، وصحة ربيعها وخريفها، وزيادة ما حصر من عدّة سكانها).

وبعد فهاأنذا على (جسر بغداد) في نشوة من خمرة الذكرى أذكر ما لا سبيل إلى تلخيصه، وأحس ما لا طاقة على وصفه، وقد قال أبو الوليد: قال لي شعبة: أرأيت بغداد؟ قلت: لا.

قال: فكأنك لم تر الدنيا. أما أنا فقد رأيت جسر بغداد، ورأيت الدنيا؛ لا أقول إنه أعظم من جسر إسماعيل، أو أجمل من جسر الزمالك، ولكن لجسر بغداد سراً آخر، يعرفه كل من نظر في كتب الأدب والتاريخ وقرأ عن جسر بغداد. . . هذا الذي جازه القواد الفاتحون، والفقهاء والمحدثون، والشعراء والماجنون؛ هذا الذي وقف عليه الرشيد والمأمون، وأبو حنيفة والشافعي، والفضل وابن دينار، ومطيع وأبو نواس، وعبد الله بن طاهر ويزيد بن مزيد، وشهد جلال الخلافة، وعظمة العلم، وروعة الزهد، وضحك المجون، وقوة الجيش. . . . وجرى عليه نهر التاريخ. . . وتداعت على جوانبه القرون. . . هذا الذي كان سرة الأرض!.

أيا حبّذا جسر على متن دجلة ... بإتقان تأسيس وحسن ورونق
جمال وفخر للعراق ونزهة ... وسلوة من أضناه فرط التشوق
تراه إذا ما جئته متأملاً ... كسطر عبير خط في وسط مهرق
أو العاج فيه الآبنوس مرقش ... مثال فيول تحتها أرض زئبق

أما إنني إن أحببت مصر لأن منها أصلي، وأحببت الشام لأن فيها مولدي، فإني أحب العراق لأن فيها أجمل ذكر الماضي، وأحب الحجاز لأن إليها قبلتي، وأحب كل بلد يقول أهله: لا إله إلا الله محمد رسول الله. لأنه بلدي، وأهله أهلي.

(بغداد)

علي الطنطاوي

نبوة المتنبي أيضاً

للأستاذ محمود محمد شاكر

(أخي سعيد الأفغاني:)

وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، وبعد، فأني أشكر لأخي حُسن ظنِّه بي في بعض كلامه، ومسارعته في الرد على كلمتي التي نشرتها الرسالة (العدد 167). هذا على أنه ليس يجمُلُ بالأستاذ أن يحمّل نفسه تكاليف الرد على مثلي، فأن الذي بيننا من التخالُفِ في الطبيعة، والتباين في الجِبّلة ليقوم في هذا الأمر مقامَ الرد. وأيضاً، فليس مما يحسُنُ به أن يبسط عذره للقراء عن تأخر الرد بجولته في قرى (البقاع)، وأن قراءته للذي أتيت به من الكلام كانت بعد عشرة أيام من صدوره. وليعلم الأستاذ الجليل أني أحب أن يحملني على طبيعتي، وأن يتقبلني على علتي، وأن يعرفني رجلاً شيمته العجزُ ودأبهُ التخلّف، فلا قبل له بمثل قدرة الأستاذ وقوته على مد الشوط؛ هذا على ما ركِّب في أصل خلقتي من الحدة والثورة وضيق الصدر. وليس أدلّ على ما بيننا من تباين الجبلة - من الذي استيقنه الأستاذ وأثبته فيَّ من التخلُّفِ والعجز، والذي رأيته فيه من القدرة والمسارعة، فهو لم يضق ذرعاً بكل الذي كتبناه، ولا تخلّف في رد كلامنا وإسقاطه بالحجة والبيان والبرهان، في أوجز لفظ، وأوزن فكر، وأدق فهم. . . ثم في أقل وقت. وأنا - على نقيضه، فأنا كما وصفني الأستاذ حين يقول. (أما أنا فما كنت أظنُّ!! أسطراً تذكر عرضاً في رد فكرة تثير (مثل هذا) الفاضل، فيحمل هماً بجد وقره وعنته اثنين وأربعين يوماً، ثم ينفثه في رده الذي تكرم به على مثل هذا الشكل)، ولا أدري لم لا يظنُّ الأستاذ ذلك؟ ألا فليعلم أخي سعيد أن اثنين وأربعين يوماً ليس كثير دهر على عاجزٍ وجل هيَّابٍ متخلِّف، وأن كلمته الصغيرة - التي أثارتني فحملت همها أجد وقره وعنته اثنين وأربعين يوماً - كانت مما يقتضيني عامين على الأقلِّ في

تقليبها وفهمها ودراستها أواصل ليلهما بالنهار، ثم في الاستعداد للردّ، ثم في جمع شتات الذهن، ثم في نفض الذهول عن العقل والفكر، ثم في كتابة ما يُسوِّل لي قليل علمي وتحريره والنظر في صدوره وأعقابه.

وبعدُ أيضاً، فأن أخي سعيد قد رماني بقارصاتٍ، وهو الذي يقول عن كلمتي في الرسالة: (وصحف الرسالة أحوجُ إلى أن تملأ بالحقائق والبرهان منها إلى الدعوى والانتقاض؛

وأتمنى للأستاذ أن يهجُر هذا الأسلوب في الجدال، فما هو بمغنيه عن الحق شيئاً، كما لم يغن (طنينُ) الأستاذ صروف بالإشادة بمزايا الكتاب في مقدمته) أهـ، ولست أدري!

فلعل صُحف الرسالة قد غنيت بأساليب البيان العبقري، والسخرية النابغة من مثل قوله عن كلمات فؤاد صروف (طنين الأستاذ صروف)، فالطنين في هذه العبارة كلمة بيانية مبتدعة فيها من الفن والموسيقى ما يتضاءل معه إبداع جلّة الكُتّاب والشعراء والموسيقيين. ومثلُ الذي يقول: (وأنا أعوذُ بالله من الغرور، والذهاب بالنفس، ومن الجهل بمقدارها، والمكابرة في العلم، والعصبية للرأي والهوى؛ فما يزال الناس - ولله الحمد - يقيسون فضل المرء بخضوعه للحق، وإتقانه لعمله، لا بدعواه و (تبجُّحه)) إلى آخر هذا الكلام البليغ الذي لو أراده الجاحظ وجهد فيه، واحتفل له، لما تعلّق بذيلهِ، ولا جرى في غباره. وأنا أعوذ بالأخ أن يعودَ إلى مثل هذا القولِ، فإني أكره أن أجزي أخاً أي بالذي أعلمُ أنَّه يؤذيه ويرمضُه، فيذهله عن منازل الصّبر، ويستفزّهُ عن مواطن الحلم.

وليس أحب إلى نفسي من أن أهتديَ إلى الحق على علم وبصيرة، وأن أخضَعَ له على الرضى والغضب، وأن أعمل على افراره ما استطعت إلى ذلك سبيلا. فلا يتبعنّ - أخي الأستاذ سعيد - ظنّه أنا من أهل الغرور، والذهاب بالنفس، والجهل بمقدارها، والمكابرة في العلم، والجدال فيما لا جدوى منه ولا منفعة. وسأنتهي - إن شاء الله - مع الأخ إلى النهاية التي يرضاها غير باغ ولا ظالم. فأول ما أبدأ به بيان ما ورد في كلمته (الرسالة 170) من التهافُت في بعض القولِ، ثم أعقّبُ على ذلك بذكر نبوّة أبي الطيب، وتقرير القول في نفيها على وجه يبلغ بنا رضاه، ثم أجيبه عن كل ما سألنيه من شيء، فإن اعترض في خلال ذلك، نظرت في الذي يأتي به، فإن غلبنا على الحق أسلمنا وبذلنا له الطاعة، وإن رضي قولنا فهو عند قاعدته التي ذكرها (ألا يحفِلَ نقْداً أو رداً إلا إذا كان حقاً، وسبيله أن يأخذ نفسه به، ويشكر لصاحبه).

1 - قال الأستاذ سعيد حين ذكر خبر التنوخي ورأينا في رده: (سأل التنوخي أبا الطيب عن معنى (المتنبي) فأجابه: (إن هذا شيء كان في الحداثة) وظاهر أنه يعني التلقيب لا التنبؤ، فجوابه غير صريح، وهو كما قال الراوي جواب مغالط) اهـ. والأصل الذي اعتمد عليه الأستاذ فيما ينقل هو (طبقات الأدباء) لابن الأنباري، ونص الخبر: ثم (قال التنوخي:

قال لي أبي، فأما أنا فسألته بالأهواز عن معنى المتنبي، لأني أردت أن أسمع منه هل تنبأ أولاً، فجاوبني بجواب مغالط، وقال: إن هذا شيء كان في الحداثة، فاستحييت أن أستقصي عليه وأمسكت) وهذا نَصٌّ قد اختصره ابن الأنباري على عادته. وجاء الأستاذ سعيد فأراد أن يبين وجه المغالطة في الجواب، فزعم أن أبا الطيب يعني التلقيب لا التنبؤ في جوابه. وكان أولى بالأستاذ قبل أن يؤول الكلام على هذا الوجه أن يتدبر القول وينظر فيه على الصورة التي يؤوله بها، ثم يبين وجه المغالطة بياناً لا يسقطه العقل. . . يقول التنوخي إنه سأل أبا الطيب عن معنى (المتنبي) ليسمعَ منه هل تنبأ أولاً - أي هل كان اللقب لحادث نبوة كانت منه أم هو نَبْزٌ به ولُقِّب - فيجيبه أبو الطيب: (إن هذا التلقيب كان في الحداثة) فأي المغالطة في هذا الجواب! وفي المسألة وجهان: إما أن يكون التنوخي قد سأل أبا الطيب مصرحاً بالذي أراده فقال له: هل ادعيت فسميت المتنبي فيقول أبو الطيب (هذا شيء كان في الحداثة) فيكون المراد (النبوّة) ولا شك، وإما أن يكون قد سأله عن علة تلقيبه بالمتنبي، فيقول: (هذا شيء كان في الحداثة) فيكون جواب رجل لا يحب أن يمتد في الحديث فهو يقطعه على سائله، فهو يقول له: إن هذا اللقب وسببه كانا في الحداثة ولست براض عن سؤالك؛ فليس في هذا مغالطة. ثم إن امتناعه عن ذكر علة غير النبوة في سبب التسمية دليل على أن النبوة هي العلة في التلقيب، لأن اللفظ صريح في الدلالة على المعنى. وليس

يغفُلُ أبو الطيب عن معنى هذا اللقب، ولا يظن أن الناس غافلون عنه، فيكون امتناعه عن ذكر العلة مما يوقعهم في حيرة من تأويل معناه. ثم ما الذي يضر أبا الطيب لو كان هذا التلقيب في الكبر ولم يكن في الحداثة؟ فحرصه على تخصيص ما أراد من المعنى بالحداثة ينفي إرادة (التلقيب) البتة. وأولى حين يكون التخصيص بالحداثة أن يراد بذلك النبوة، فإن قوة التدفع، وسمو الطموح، وإشراف النفس، وتهاويل الأمل، هي بالحداثة ألزم، وهي التي تورث نيران الشباب فتدفعه إلى المغامرة والتهدر والمخاطرة على غير هدى ولا بصيرة، حتى يركب بها صاحبها الحدَثُ الغرُ مركب من الحماقة، ويرد بها كل مورد من الغرور، فلا يرعوي عن أن يدعي مالا مطمَع له ولو كانَ النبوّة. وقول التنوخي بعد جواب أبي الطيب: (فاستحييت أن أستعصي عليه فأمسكت) دليل على أن الرجل اكتفى بإشارة أبي الطيب إلى حادث النبوة، وأمسك عن الذي كان يريده أولاً من
التصريح في إثبات ما كان من أمره في ادعاء النبوة.

واختصار ابن الأنباري خبر التنوخي هو الذي دفع الأستاذ إلى هذا التأويل. وأصل خبر التنوخي أنه قال: حدثني أبي قال: أما أنا فإني سألته بالأهواز سنة أربع وخمسين وثلاثمائة - عند اجتيازه بها إلى فارس في حديث طويل جرى بيننا - عن معنى المتنبي، لأني أردت أن أسمع منه هل تنبأ أم لا، فأجابني بجواب مغالط لي، وهو أن قال: هذا شيء كان في الحداثة أوجبته الصورة! فاستحييت أن أستقصي عليه وأمسكت) فالمغالطة في قوله (أوجبته الصورة) والصورة ههنا الصفة على اصطلاح أهل الكلام، وصفة الحداثة لا توجب ادعاء النبوّة، فهذا هو وجه المغالطة. فلما رأى التنوخي - وهو شابٌ لم يعدُ السابعة والعشرين من عمره، وأبو الطيب إذ ذاك شيخٌ قد نيَّف على الخمسين - ما أصاب هذا الشيخ من الحرج وضيق الصدر حتى لجأ إلى المغالطة في التعليل، وتبرير فعلته على السفسطة، استحيا أن يستقصي على هذا الشيخ فأمسك عن الذي يؤلمه ويغيظه ويضع من كبريائه ويحط من شيخوخته، ويلجئُه إلى ركوب الإحالة في المنطق، والفساد في التعليل.

2 - ويقول الأستاذ سعيد: (يورد الأستاذ على حديث أبي عليّ بن أبي حامد شبهة واحدة بعد أن يقرّ بأحكامه، ويقول عنه في ص 49: (فهو حديث محكم لا يأتيه التوهين إلا من قبل غرابته عما جرت عليه الأحكام في شأن من يدعون النبوة. . . الخ).

وقد أطال في بيان وجه الغرابة بما لا فائدة بنقله هنا. (سبحان الله يا سعيد!!) والذي في كلام أبي عليّ هو هذا: (فاستتابه وكتب عليه وثيقة وأشهد عليه فيها ببطلان ما ادعاهُ ورجوعه إلى الإسلام)، وجليٌّ أنهم استتابوه من دعوى النبوّة فرجع بذلك إلى الإسلام، أما الوثيقة فهي ببطلان علويته، وبهذا تزول شبهة الأستاذ (!!) فأن من المألوف أن تكتب الوثائق في إثبات الأنساب ونفيها) اهـ.

وعجبٌ أمر الأستاذ سعيد في حرصه على تأويل الكلام بما لا وجه له ولا أصل؛ وهو في نقله هذا النص قد اعتمد على كتاب ابن الأنباري، وهو مولعٌ باختصار الأخبار (واختزالها) وهذا تمام خبر أبي علي بن أبي حامد:

أخبرنا التنوخي، حدثني أبي، قال حدثني أبو عليّ بن أبي حامد، قال: سمعت خلقاً) بحلب يحكون - وأبو الطيب بها إذ ذاك - أنه تنبأ ببادية السماوة ونواحيها، إلى أن خرج إليه
لؤلؤ أمير حمص من قبل الأخشيدية، فقاتله وأنفره وشرد من كان اجتمع إليه من كلب وكلاب وغيرهما من قبائل العرب. وحبسه في السجن حبساً طويلاً، فاعتَلّ وكاد أن يتلفَ حتى سُئِل في أمره فاستتابه. وكتب عليه وثيقة أشهد عليه فيها ببطلان ما ادعاهُ، ورجوعه إلى الإسلام، وأنه تائبٌ منه، ولا يعاودُ مثلَهُ، وأطلقه). فأنت ترى أن لا ذكر للعلوية في هذا الخبر، ولا في غيره مما رُوِي عن أبي عليّ بن أبي حامد هذا، فكيف يتأتى لكَ أن تقحم العلوية فيه، وهو لم يذكرها فيه ولم ترد عنه في خبر غيره، ثم تعمد إلى الكلام فتؤوّلَ بعضهُ على النبوَّة وبعضهُ على العلوية فتجعل التوبة للأولى والوثيقة للآخرة؟ ورحم الله أبا عثمان الجاحظ، فلو أنه أدركَ عصرنا هذا لقال في ذلك أمثل مما قال في إبراهيم النظام، فنصُّ الخبر مبينٌ عن أن أمير حمص كتب عليه وثيقة أشهد عليه فيها (1) بأن ما ادعاه باطلٌ - وهو النبوة - (2) وأنه رجع إلى الإسلام (3) وأنه تائبٌ منه (4) وأنه لا يعاودُ مثله. فهذه أربعةٌ في قَرَن كانت في هذه الوثيقة،

فكيف تسوِّغ عربية الكلام للأستاذ سعيد تأويله وبيانه؟ فلو سلمنا للأستاذ سعيد بالذي ذهب إليه لكان سياقُ الكلام هكذا: (حتى سئل في أمره فاستتابه، وكتب عليه وثيقة أشهد عليه فيها ببطلان ادعائه العلوية، وأنه رجع إلى الإسلام، وأنه تائبٌ (منه)، وأنه لا يعاود مثله) فعلى أي الكلام عطفت جملة قوله (وأنه رجع إلى الإسلام) وإلى أي مذكور يرجع الضمير في قوله (وأنه تائب (منه))؟ وكيف ترد أوائل هذا الكلام على أواخره ليستقيم على عربيته؟!

إن أخي الأستاذ سعيداً ليأخذ من الكلام ما يشاء ويدع ما يشاء، وبذلك (تزول شبهة الأستاذ) أو كما قال.

3 - ثم يقول: (عرض الأستاذ لرواية الهاشمي التي فيها: (كان أبو الطيب لما خرج إلى كلب وأقام فيها ادعى النبوة، ثم عاد يدعي أنه علوي إلى أن أشهد عليه في الشام بالتوبة وأطلق) وهذه الرواية تعني أنه ما تخلى عن دعوى العلوية، وحين ترك ادعاء النبوة بقي على دعواه الأولى. ومنها ومن الرواية التي قبلها نفهم أنه لما أطلق ترك الدعويين معاً، فتاب من تنبئه، وكتب وثيقة ببطلان انتسابه للعلويين وليس في الأمر مشكلة ولا تناقض. . .) أهـ.

يقول الأستاذ سعيد إن هذا الخبر الذي رواه يعني (أنه ما تخلى عن دعوى العلوية، وحين ترك ادعاء النبوّةِ بقي على دعواه الأولى) والخبر يقول إنه (ادعىّ العلوية، ثم ادعىّ النبوّة، ثم عاد يدعي أنه علوي)، والعربية تقول إن هذا النص لا يمكن تأويله على الوجه الذي أراده الأستاذ فإن لها ألفاظاً، وإن لألفاظها معاني، وإن لمعانيها حدوداً؛ فإخراج المعنى عن حده إخراج للفظ عن معناه، وإخراج اللفظ عن معناه إخراج له عن العربية. يقول الخبر: (ثم عاد يدّعي أنه علويّ) فيقول الأستاذ مؤوّله، ومعنى ذلك (ثم بقي على دعوى العلوية)!! ثم يقول الأستاذ: (ومنها ومن الرواية التي قبلها نفهم (أولاً نفهم، فالأمر بعد هذا سواء) أنه لما أطلق ترك الدعويين معاً، فتاب من تنبئه؛ وكتب وثيقة ببطلان انتسابه للعلويين). ففي الخبر الذي قبل هذا أقحم الأستاذ العلوية ولا ذكر لها فيه وجعل الوثيقة المذكورة فيه يراد بها دعوى العلوية، وفي هذا الخبر الذي رواه ولا ذكر للوثيقة فيه أقحم الوثيقة التي يراد بها الإشهاد عليه فيها ببطلان انتسابه للعلوية التي ادعاها، وذكرها الخبر مرتين. فهذا أروعُ ما وقع لي من القدرة على الجمع بين الروايات (كما هو مستوفي يكتب مصطلح الحديث، وأنا أستحي أن أشرح هذا في مجلة (الرسالة). . . مما يدرسهُ الطلاب المبتدئون).

وهذا الخبر أيضاً اعتمد الأستاذ في نقله على (اختزال) أبي البركات (ابن الأنباري) في طبقات الأدباء. وسياقُ الرواية هكذا: (وقد كان المتنبي لما خرج إلى كلب وأقامَ فيهم ادَّعى أنه علويٌّ حسنيٌّ، ثم ادعى بعد ذلك النبوة، ثم عاد يدعي أنه علويٌّ، إلى أن أشهد عليه بالشام بالكذب في الدعويين، وحبس دهراً طويلاً وأشرف على القتل، ثم استتيب وأشهد عليه بالتوبة وأطلق). وقد كان هذا النصُّ أمثل من (مختزل) ابن الأنباريّ للذي يعتمده الأستاذ من التأويل، وهو أحفل له في استخراج مادة الجدل في التفسير والتوجيه. على أن هذا الخبر هو كما وصفناهُ في كتابنا ص 48 (عجيبٌ لا يفرغ من العجب من اختصاره وتداخله). فمن ذلك أنه صريحٌ بينٌ في الدلالة على أنه قد أشهد على أبي الطيب مرتين: (الأولى) إشهادٌ عليه بأنه قد كذب في (الدعويين) و (الآخرة) استتابةٌ وإشهادٌ عليه بالتوبة.

ففي المرة الأولى ذكر ابن شيبان الهاشمي (دعويين) أشهد أبو الطيب على نفسه بالكذب فيهما، فإن أراد (بالدعويين) دعوى العلوية ودعوى النبوّة جميعاً كان كلامُهُ كلّهُ خَلطاً متداخلاً، فأنه ليس يكفي فيمن ادعى النبوّة أن يشهد على نفسِه بالكذب، بل لا بُدّ مَعهُ من الاستتابة والرجوع إلى الإسلام والإقرار به، فإن لم يُعط ذلك قُتِل، فإن كان فُعِل معهُ ذلك

وتاب وأقرّ فما قوله بعد ذلك (وحُبس دهراً طويلاً (سنتين) وأشرف على القتل (ثم) استتيب، وأشهد عليه بالتوبة وأطلق) ولم أعيدت استتابته؟ أيكون هذا كله لغواً باطلاً من القول!!

فإن أراد (بالدعويين) ادعاء العلوية في المرة الأولى والمرة الآخرة فالأمر في ذلك على خلاف المعقول. أيقدم الوالي الإشهاد بالكذب في دعوى العلوية، وهي لا تخرج

من الإسلام، ولا يكفر بها مدعيها، ولا يقتل من أجلها إن أصر عليها، ويدع ادعاءه النبوة فلا يقتله أو يستتيبه إلا بعد أن يحبسه دهراً طويلاً حتى يشرف على القتل، فيومئذ يستتيبه ويشهد عليه بالتوبة!!

ولفساد هذا الخبر وجوهٌ أخرى، ولكنه على أي وجهيه أدرته، لا يسوغ للأستاذ أن يقول فيه (وهذه الرواية تعني أنه ما تخلى عن دعوى العلوية، وحين ترك النبوة بقي على ادعائه العلوية) إلا أن يلغي معاني الكلمات التي وردت فيه، أو يحيلها عن وجهها؛ فتكون ثم، وعاد، كلمات مغسولة من المعاني، ثم يزيد على ذلك أن يزيد في الكلام معاني ألفاظ لم تكن فيه كقوله (وحين ترك النبوة بقي على ادعائه العلوية) ولو أراد الأستاذ أن يتأول هذا الخبر على وجه مقارب خرج له إلا أن يقول فيه (إن أبا الطيب تخلى عن دعوى العلوية، وحين تركها بقي على ادعاء النبوة حتى استتيب فأطلق) وهذا محال.

وليعلم الأستاذ أني تركت له أبواباً من القول توطئ له أن ينفذ إلى الاعتراض، فليعترض قولي بما شاء. ولكني أسأله أن ينظر في اعتراضه أولاً ثم في الخبر بعد، ثم في كلامي آخراً، فلعله يجد في ذلك ما يمنعه من الاعتراض ويقنعه بالصواب. وأسأله أيضاً أن يتحرى في فهم الأخبار ما تقتضيه عربية الكلام حتى تستقيم له المعاني، وتتجه به الآراء إلى الحق والهدى إنشاء الله.

(للكلام بقية)

محمود محمد شاكر

مشرقيات

في الأدب العربي الحديث

للأستاذ أغناطيوس كراتشقويفسكي

للأستاذ بجامعة لينينجراد

- 2 -

ويعد كل من الشيخ محمد عبده (1843 - 1905) وجورجي زيدان (1861 - 1914) في مقدمة الكتاب الذين امتاز بهم هذا العصر. نعم إن أولهما لم ينتج شيئاً من المؤلفات الأدبية، لكن ذلك لا يدعو إلى إنكار الدور الهام الذي لعبه، فبفضل جهوده استقر رأي المسلمين في طريق التجديد، وازداد نفوذ الحركة الأدبية شيئاً فشيئاً، بحيث أثر الشطر الأكبر من المصريين. وظهرت في خلال ذلك أنواع أدبية جديدة كالرواية التاريخية. واصطبغت هذه الأنواع بصبغة خاصة تختلف كل الاختلاف عن نظيراتها، فكان الكاتب يوجه جل اهتمامه إلى تنسيق الألفاظ، إلى أن جاء المنفلوطي (1876 - 1924) فاتجه بهذا النوع إلى طريقه الكمالي.

أما المدرسة السورية المتأمركة فقد برزت إلى الميدان في خلال السنوات العشر الأولى من القرن العشرين، وهي على ما نظن كانت أقوى المدارس الأدبية العربية الحديثة من حيث استقلال شخصيتها. وزعماؤها: أمين الريحاني (1879) وجبران خليل جبران (1883 - 1931) الذي يمثل طابع جهودها. فقد رأس بمدينة نيويورك جماعة (الرابطة القلمية)، وكانت تلك الجماعة الأدبية تنشر دعوتها على صفحات مجلة (الصائح) التي تولى إدارتها عبد المسيح حداد. ومن أهم الصفات المميزة لهذه المدرسة، أنها قطعت كل صلة بأساليب الأدب القديم وبطريقة الكتابة العادية، واصطفت الأساليب القلمية المتطورة، أساليب الرسائل النثرية، والشعر المنثور المنمق إلى حد التكلف. وقد نال كثيرون من أنصار هذه المدرسة شهرة ذائعة في العالم العربي (حتى تونس والحجاز) فتأثر الكتاب بأسلوبهم. ومنهم أيضاً الشاعر الروائي ميخائيل نعيمة (1889) والشاعر رشيد أيوب (1862) وإيليا أبو ماضي (1889) ونسيب عريضة. . . الخ. وللمدرسة السورية الأمريكية بالبرازيل مركز خاص وأهمية محلية لا تأثير لها في البلاد العربية. والشعر هو المفضل المختار عند أنصار هذه المدرسة التي قوامها: الياس فرحات (1891)، ورشيد سليم خوري (1887)؛ وفوزي المعلوف (1899 - 1930). وقد شرع شكري الخوري (1871) في محاولة طريفة، هي استعمال اللهجة السورية الدارجة في الكتابة الأدبية، ولكن أحداً لم ينسج على منواله.

وقد انتهت سيطرة المدرسة السورية المتأمركة بانتهاء الحرب العظمى، فانقطعت

الصلة بين روادها وبين الحياة الراهنة في العالم العربي، ورجع بعض زعمائها (كالريحاني ونعيمه) إلى وطنهم الأول. وقد عادت الآن زعامة الأدب إلى مصر وتركزت في المدرسة الموسومة بمدرسة العصريين. وترجع بوادر هذه الزعامة إلى عام 1907 حين تألف حزب الأمة وأنشأ (الجريدة) وتولى رياسة تحريرها أحمد لطفي السيد مترجم (الأخلاق) لأرسطو ومدير الجامعة المصرية الآن. وفي عام 1922 التف الكتاب المجددون حول جريدة (السياسة) التي يتولى إدارتها أحد الكتاب العصريين الذائعي الشهرة: محمد حسين هيكل بك (1888)، وأهم ما تمتاز به هذه المدرسة التعمق في فكرة الأدب وفي حاجات رجاله المتزايدة يوماً بعد يوم، وهي تختلف عن المدرسة السورية المتأمركة في أنها توجه جل جهودها إلى الأدب العربي القديم، وتبدي شغفاً خاصاً بالنقد وبتاريخ الأدب. وفي مؤلفات أنصار هذه المدرسة، نلاحظ للمرة الأولى أن روح الوطنية المصرية الخالصة تحل - عن عمد وإدراك - محل القومية العربية. وقد وجهت هذه المدرسة عناية خاصة إلى (الأقصوصة المصرية)، كما استطاعت شهرة ذائعة وأنصارا مخلصين متحمسين في سائر الأقطار العربية، بفضل اتساع نطاق الصحافة وانتشارها. وهكذا عادت مصر فتولت الزعامة للمرة الثانية في تاريخ الأدب العربي الجديد، وستظل محتفظة بهذه الزعامة، مرتكزة على دعائمها بثبات أعظم مما كانت عليه في نهاية القرن الماضي.

2 - أنواع خاصة

أ - الشعر:

لا يزال الشعر أكثر الأنواع انتشارا وأدقها محافظة، شأنه في عصور الأدب العربي القديم.

ففي جميع الأقطار العربية نجد شعراء لا عداد لهم. لكن تاريخ الشعر في القرن التاسع عشر والقرن العشرين ليس إلا تاريخ تجديد شباب الشعر القديم بطرق معدلة كل التعديل. فبينما كان الشعراء في الماضي يقلدون شعر عصور الانحطاط نراهم الآن ينسجون على منوال المتنبي والشعراء العباسيين وأحياناً شعراء الجاهلية. وقد لعب ناصيف اليازجي (1800 - 1876) دوراً هاماً في سوريا، إذ ظل محافظاً دقيقاً، لكنه كان مالكاً لناصية اللغة. وظهرت بوادر الأثر الأوربي في دوائر أخرى ظهوراً واضحاً، فرأينا فرنسيس مراش (1836 - 1873) الشاعر الحلبي، يحاول التعبير عن أفكار فلسفية اجتماعية في قصائد يسودها روح التشاؤم. أما في مصر فقد جاء تجديد شباب الشعر العربي متأخراً نوعاً، فاستهل الحركة محمود سامي البارودي (1839 - 1904) وإسماعيل صبري (1854 - 1923)، وقصائد كل منهما تطابق كل المطابقة أسلوب الشعر العباسي أو القديم، بل إنهما كانا يشيران أحياناً بوضوح إلى القصائد الأصلية المعارضة، ونلاحظ أن الحياة تدب بقوة في مؤلفات الشعراء المصريين المتعاقبين أمثال شوقي (1868 - 1932)، ومحمد حافظ إبراهيم (1871 - 1932).

قبل الحرب العظمى كان شوقي شاعراً بالمعية (شاعر الأمير)، وكان من نوع ممتاز، قديراً في صناعة اللغة وصياغة الألفاظ، لكنه حصر شعره في دائرة الأسلوب التقليدي. وبعد الهدنة أخذت شهرته تتطاير في أنحاء العالم العربي وأطلق عليه لقب (أمير الشعراء). وقد حاول شوقي في السنوات الأخيرة أن يخلق المأساة (التراجيدي) في الأدب العربي. أما حافظ إبراهيم فهو من أبناء الشعب ولذا انحصر ميله في المواضيع السياسية والاجتماعية مع النسج على منوال المتقدمين من وجهة الأسلوب. وثالث الشعراء المصريين المعروفين هو خليل مطران، وقد ولد ببعلبك بسوريا حوالي سنة 1871 وأبدى نبوغاً ممتازاً في المصنفات الغنائية والروائية ذات الأسلوب الطليق الحر والمنوع (خصوصاً في القافية والوزن). وهنالك كتاب من الجيل الجديد نشر دواوين طلية كعباس محمود العقاد المولود في سنة 1889، وإبراهيم عبد القادر المازني المولود في سنة 1877، وأحمد محرم المولود في سنة 1877، وأحمد رامي المولود في سنة 1892. ومصطفى صادق الرافعي المولود في سنة 1880، وأحمد نسيم المولود في سنة 1878. وفي الأيام الأخيرة أظهر الجمهور ميلاً إلى تذوق شعر أحمد زكي أبي شادي. ومن الصعب أن نتكهن بالشاعر الذي سوف يحمل زعامة الشعر العربي بعد شوقي وحافظ.

وفي العراق جمع الشعر في القرن التاسع عشر والقرن العشرين أغرب الصفات على

اختلافها وتباينها. فقد ازدهرت التقاليد الأدبية القديمة في المدن الكبرى كبغداد والموصل. وقاد حركتها شعراء أفذاذ أمثال عبد الغفار الأخرس (1873 - 1805) وعبد الباقي العمري الفاروقي (1789 - 1861) كما أن أسرة الألوسي لعبت دوراً هاماً في هذا الميدان. وفي النجف الأشرف وكربلاء، مدينتي الشيعة المقدستين، ازدهر الشعر العباسي وشعر البادية الصحيح في الأوساط الأدبية الشيعية. ولم نصل إلى معرفة أصول هذه المدرسة إلا بفضل ما نشره أحمد عارف الزين زعيم الطائفة الشيعية يصيدا (سوريا). وكان أبرز زعمائها إبراهيم الطباطبائي (1832 - 1901). وفي العراق كما في مصر - حاول المجددون إعادة الشباب إلى الشعر العربي القديم. وأتيح لنا أن نقتبس هذه الظاهرة بوضوح في شعر عبد المحسن الكاظمي (1865 - 1934). وبالنظر إلى أنه يقيم في مصر منذ نهاية القرن الماضي فقد خصص بعض قصائده لسرد الحوادث المصرية. وهنالك شاعران آخران جديران بالذكر وهما يمثلان الاتجاه الجديد خير تمثيل، أولهما جميل صدقي الزهاوي (1869 - 1936) ومعروف الرصافي (1875). وقد كان الزهاوي مشرباً إلى أقصى حد بالروح الفلسفية، وكان يطلق لنفسه الحرية التامة فيما يتعلق بالأسلوب. ولم يتردد مطلقاً في ابتكار الأوزان والقوافي المختلطة. وكثيراً ما نظم الشعر المرسل حيث يسير على الوزن دون القافية. بعكس الرصافي إذ حصر شعره في دائرة الأسلوب التقليدي، لكنه يمتاز بعبقرية الشاعر الواقعي، سواء في شعره الغنائي والوصفي، أو السياسي والاجتماعي؛ وقد جاوزت شهرة هذين الشاعرين حدود بلادهما. أما في سائر الأقطار العربية، فالشعر رغم وفرته وكثرة إنتاجه، لا تتعدى أهميته الحدود المحلية.

ومن شعراء سوريا عنحوري (1855) وهو شيخ مسن على اتصال دائم بمصر ومتشبع بالآراء العصرية إلى حد بعيد، وعيسى اسكندر المعلوف (1869) شاعر وعالم من نوع وحيد، وهنالك طبقة من كتاب الجيل الحديث اشتهروا الآن في الأوساط الأدبية، نخص بالذكر منهم: شفيق جبري (1895) وخليل مردم (1895) وحليم دموس (1888) وأحمد

عبيد، ومحمد البزم (1887)، ومحمد الشريقي (1896) وسليمان الأحمد المعروف باسم (بدوي الجبل) الخ.

وفي المهجر كثير من الشعراء الذين تطبع مؤلفاتهم وتذاع في بلاد أخرى، بخلاف الأمر في سائر الأقطار العربية حيث لا تتعدى شهرة الشعراء النطاق المحلي ولا يقدر مؤلفاتهم سوى مواطنيهم (مثال ذلك محمد الشاذلي خازندار بتونس). أجل، إن الشعر الغنائي العصري منوع المقاصد، مشبع بروح الفن الناضج الدقيق، ولكن المجال لا يزال متسعاً لابتكار أساليب أرحب مدى. وقد ظهرت ترجمة (الإلياذة) للبستاني في عام 1904 لكنها لم تسفر إلا عن بعض محاولات تقليدية، أما الشعر الشعبي (الزجل) الذي تستعمل فيه العامية بدلاً من الفصحى، فالواقع أنه لم ينتج سوى مؤلفات فكاهية انتقادية، شأنه كما كان في الأزمنة السالفة (أسعد رستم بأمريكا)، وأكثرها يرمي إلى أغراض سياسية (عمر الزعني بسوريا).

ب - القصة والأقصوصة:

لم تنشأ القصة أو الأقصوصة من أصل عربي كالمقامات والقصص الحماسية بل ترعرعا بتأثير الأدب الأوربي المباشر. وقد ظهرت أولاً القصة التاريخية التي لم تصل إلى شأو الكمال من الوجهة الأدبية. كان أول بزوغ هذا النوع في محيط البستاني بسوريا، وعني به ابنه سليم (1848 - 1884) بقصد اتخاذه وسيلة في التربية والتعليم. وفي عام 1884 وضع جميل المدور (1862 - 1907) أخبار أيام هارون الرشيد (؟) فارتفع بهذا النوع إلى مكانة أسمى، وإن كانت تلك (الأخبار) أقرب إلى الآثار منها إلى الأدب، وقد بلغت القصة التاريخية ذروتها في مؤلفات جورجي زيدان، حيث كان يطالع القراء بقصة في كل سنة تقريباً، قصة جديدة من سلسلة تاريخية طويلة الحلقات.

ولقد ولد زيدان مؤرخاً بطبعه، فأراد أن يتخذ من قصصه وسيلة لجعل التاريخ في متناول العامة، وأن يهيئ للجمهور مطالعات طريفة سهلة، فالغرض الذي كان يرمي إليه هو التعليم والتثقيف، ولذا تراه لا يعلق أهمية تذكر على المسائل الأدبية البحتة. وقد نالت مؤلفاته إقبالاً منقطع النظير، بل إنها كانت فاتحة عهد جديد في الأدب

العربي الحديث.
(يتبع)
ترجمة محمد أمين حسونة
على أطلال الماضي
للسيد إبراهيم أدهم الزهاوي
ما بكائي لزينب وانتحابي ... وسؤالي ربوعها وجوابي
ووقوفي بها وقوف حجيج ال ... بيت لولا تفردي واكتئابي
وملامي النوّى على ما أحالت ... من رسوم وقوضت من قباب
سنة تلك سنها شعراء ... ما بهم من زمانهم غيرُ ما بي
إن أولى الربوع بالدمع سحّاً ... أربع المجد والعلا والغلاب
سفهت نفسَها الليالي اللواتي ... سحبت فوقها ذيول الخراب
أربعٌ لا تزال منها بقايا ... أفلتت من حبائل الأحقاب
شوهتها يد البلى ككتاب ... رث إلا عنوان ذاك الكتاب
أنا صَبٌّ بها وكل محب ... تتصباه أربع الأحباب
كلما طاف طائف من هواها ... في فؤادي وجدته في خطابي
لا قرضت القريض إن لم أذدْ في ... هـ ذياداً يغني عن القرضاب
عن عُلا معشري وأي عَلاء ... كعلا معشري الرفيع الجناب
كيف لا يعتلي وبانيه بانٍ ... كلَّ نجم في الكائنات الرحاب
يا أبا القاسم حار عقلي ... في مدى عقله وتاه حسابي
كيف لا تنحني الأكابر إكبا ... راً لأسمى طبيعة في إهاب
أي باب فتحته لأولي الأل ... باب مستغلق من الأبواب
ومنار نصبتها في طريق ... طالما ضلّلت مسير الركاب
إن مَحْياك في الحقيقة محيا ... كل حي يسير فوق التراب
فأعاديك في الورى كموالي ... ك يدورون حول ذاك الشهاب
أين دنياهمُ التي هي دنيا ... أشبهت ذات جِنَّةٍ في يباب
طال أظفارها التي لم تَعَهَّدْ ... ها يمين ورث حسن الثياب
فتعهدتها بيمينك حتى ... عاودتها شوارد الألباب
فعليها طلاسم تقتنيها ... فتقيها رجعاً على الأعقاب
ها مراقي فانظر أكانت ... تترقى لو لم تزل في احتجاب
تلبث الصخرة العظيمة آبا ... داً إذا لم تدفع بأيد صلاب
أم يقولون كان ينبع منهم ... من يعيد الحياة بعد ذهاب
والذي تشهد البرية طرّاً ... أن مسعاك فوقي قدر الطّلاب
قد ترحلت عن مغاوير أدوا ... كل دَين مؤجل في الرقاب
ضربوا الأرض إذ أصرت على البغ ... ي وهبت إلى رؤوس الحراب
فشفوها من دائها بدواها ... قد يكون الدواء ضرب الرقاب
ذاك دور لن تشهد الأرض دوراً ... مثله والقشور غير اللباب
وبدت لي أمية فبدت لي ... دولة المكرمات والأحساب
وسألت الدهياء كيف ترقت ... للثريا فلم يكن من جواب
أين مُلْكٌ أبو سليمان يرعا ... هـ فيرعى صيَّابة الأنساب
عبقري، زمانه عبقري ... كل شيء يجري به بنصاب
ما حسام الحجاج لو كنت تدري ... غير تعويذة من الأوشاب
لم يكن مثله بقبضة مروا ... ن فمرت أيامه في تباب
واجتبى الله للأعاريب أملا ... كاً حراصاً على اتباع الصواب
واجتباهم من هاشم من بني ال ... عباس من خير دوحة في انتساب
جل هارون أن تكون كهرو ... ن ملوك تسربلت بالسراب
عجم يعجمون عود الرزايا ... ثم لا يهتدون للأسباب
ذاك نجم يدور في الفلك السا ... بع لا في مهابط التَّوْراب
سجدت للذي يريد ليالي ... هـ سجود العبدان للأرباب
واتقته الآباء في كل أرض ... واقتفتها الأبناء في الأصلاب

مالك الملك قائماً بالذي يط ... لب عدلاً عقابه كالثواب
تحسن الرحمة الوثيرة إلا ... لجنوب تقلبت في الكذاب
فأَنِمْها على الظُّبي لا توثق ... من ذئاب تريك صدق الكلاب
إنما تُعصم البلاد بسيف ... نائم قائم مجيب مجاب
خطة في سنى الضحى ضيعوها ... فأضاعوا مِلاك مُلك رُحاب
اشتراك في الموبقات وخوف ... من شراراتها على الأثواب
وهي الريح زعزع تحمل النا ... ر فمن ذا ينجو من الالْتهاب
واستفاقت بغداد بعد دهور ... أنقضت ظهرها من الأوصاب
استفاقت فلم تجد لا فتى الصم ... صام فيها ولا فتى المحراب
واستجارت جاراتها فإذا الجا ... رات يرزحن مثلها بالعذاب
فدعت دعوة أبى الله إلا ... أن يكون الجواب فصل الخطاب
نحن إبان نهضة بسوى الوح ... دة لا ترتضي من الأحزاب
ضاع كل الطلاب إن لم تكن أوّ ... لَ شيء نريده في الطلاب
لا تصح الأعضاء في الجسم ما لم ... تك فيه مشدودة الأعصاب
تمرع الأرض بالربيع على مقدا ... ر ما التمَّ فوقها من سحاب
وتضيع الأنهار في لجج البح ... ر ويكفي العباب شر العباب
وأحق الشعوب بالوحدة الك ... برى شعوب ذاقت وبال انشعاب
(بغداد)

إبراهيم أدهم الزهاوي

بعد هجر طويل

بقلم العوضي الوكيل

أثرتِ في نفسي ماضي الذِّكَرْ ... وهجت فيها ما انطوى واندثر
وهجتِ أحلاما عِذاب المنى ... كالنور، أو كالظل، أو كالزهَر
إن لم أنل منها، فحسب النهى ... مرآك، من ريٍّ لهذا النظر!
عودي إلى النفس، وكوني بها ... لهفة شوق ساعر ذي شررْ
عودي إلى النفس، وأحيي بها ... ما كان من نجوى بها أو سَمَر
يا طالما عاد إلى داره ... مسافر من بعد طول السفر!
وأمتعيني بحياة الهوى ... إمتاعك العين بوجه أغر
بل جديني. . . أنت محفوفة ... بِجِدَّةٍ ليست لحسن القمر
في كل يوم فيك معنى هوى ... يخالف المعنى الذي قد غبر
وفي كل يوم صورة فذة ... غير الذي شاهدته من صور
أأنت من شاهدتها أمس؟ أم ... أنت سواها؟ اصدقيني الخبر
عودي، فقد عدت إلى جنتي ... وعادني الهم وطول السهر
عودي، فما أحراك أن ترجعي ... أمس إلينا، عبقري الغُرر
أمس الذي نُيِّحَ في قبره ... بمهجتينا، لابثاً في الحفر
أحييتُه عندي بتذكاره ... وربما تحي الفقيد الذِّكر
فلتنسخي لذاته في غدِ ... وعشت للقلب الوفي الأبرْ

العوضي الوكيل

نكبة فلسطين

بقلم عبد الوهاب أدهم

البلد المقدسُ الطاهرُ ... عاث به ذو حنقٍ غادرُ
ومهبط الوحي غدا بلقعا ... يجول في أرجائه الكافر
والجنة المئناف قد صوّحت ... لم يشدُ فيها البلبلُ الساحرُ
فمن لها؟ قد أجدبتْ أرضها ... ولم يُغثها العارض الماطرُ
هذي فلسطينُ على شجوها ... ليس لها، من أهلها، ناصرُ
أعداؤها قد استباحوا الحمى ... لله ذياك الحمى الزاهر!
كم قتلوا من نسوة زانها ... عفافُها وذيلها الطاهر
كم صرعوا من فتيةٍ ذنبها ... إيمانها ودينها الغافر
كم روّعوا الأطفال في مهدها ... وغادروها جفنها قاطر

العُرْب في أوطانهم عصبة ... يغمزها العاجمُ والكاسرُ
يقذفها الغربيّ في مهمه ... فمن لها؟ لقد طغى الماكر؟
الله يا غافل عن دهره ... دهرك لا يغلبه السادر
والحق لا يناله ضارع ... كفاه لم يصحبهما الباتر
فكن جسوراً فاتكاً قادراً ... ما فاز إلا الفاتك القادر!
هذي فلسطينُ اشتكت ضيْمها ... وسمعكم عن صوتها واقرُ
فمن لها؟ قد أجدبت أرضها ... ولم يغثها العارض الماطر
(دمشق)
عبد الوهاب أدهم
القصص
الكذب
للقصصي الروسي نيكولا يفتش اندريف
ترجمة الأديب محمود البدوي
(أنت كاذبة! أنا أعرف أنك كاذبة!).
(لماذا تصيح هكذا. .؟ أمن الضروري أن يسمعنا كل إنسان؟).
وكذبت مرة أخرى فما كنت أصيح كما ادعت، وإنما كنت أتكلم على أتم هدوء ورقة. أمسكت بيدها وأخذت أحدثها في لين هادئ، والكلمة السامة: (كذب) تفح حولي فحيح الحية الصغيرة.
واستطردت تقول: (أحبك. . . ويجب عليك أن تكون على ثقة تامة بي. . ألا يقنعك هذا؟) وقبلتني. . ولكني لما أردت أن أطوقها بذراعي وأضمها إلى صدري لم أجدها: كانت قد أفلتت مني وبارحت الممر المظلم، فتبعتها إلى الغرفة التي أخذ الحفل البهيج فيها يقوض خيامه، ومن أين لي أن أعرف - في مكان كهذا - أين أنا! لقد طلبت مني المجيء إليه فجئت، ورأيت القوم يدورون حولي مثنى مثنى طول الليل. وما تقدم إلى أحد ولا خاطبني إنسان. كنت هناك غريباً عن كل الناس، جلست في ركن يقرب من العازفين على الآلات الموسيقية وفم البوق النحاسي الضخم يوجه في خط مستقيم إلي. . . وسمعت في ناحية شخصاً سجيناً يزمجر ويضحك بعد كل دقيقة في هزة وخشونة ويصيح:
(. . .هو. . . هو. . . هو).
وكانت تقرب مني من حين إلى حين سحابة بيضاء عطرة. كانت هي. . ولم أكن أدري كيف دبرت بمهارة فائقة ملاطفتي وهي متقية أعين الناس، ففي ثانية خاطفة ضغط كتفها على كتفي، وفي لحظة قصيرة خفضت بصري فاستطعت أن أرى الجيد الأتلع والدثار الأبيض الضيق العروة. . ولما رفعت طرفي رأيت جانب الوجه الأبيض الصارم الهادئ كوجه الملاك المفكر فوق مقابر الموتى، فوق مقابر المنسيين من الموتى، رأيت عينيها. . . كانتا نجلاوين ساكنتين حبيبتين تتعطشان للنور. . تحف بهما دائرتهما الزرقاء، وقد برق
فيهما إنساناها في قتامة. وكنت كلما نظرت إلى هاتين العينين أراهما على حال واحدة لا تتغير: سوداوان عميقتان لا يدرك كنههما، وإذا ما نظرت إليهما ولو نظرة قصيرة اشتد وجيب قلبي، ولكني لم أشعر قط بمعنى اللانهاية بمثل هذا العمق وهذا الخوف الذي شعرت به الآن؛ ولم أعرف مطلقاً قوتها كهذا الحد القوي الجارف. شعرت خائفاً متألماً أن حياتي كلها غدت كشعاع ضئيل من النور ابتلعته عيناها، حتى أصبحت غريباً عن نفسي فارغاً أجوف غالباً في عداد الموتى. . . ثم بارحتني وخلفتني وحيداً وأخذت معها حياتي. . حياتي كلها، ورقصت ثانية مع رجل وضيء الوجه طويل متعجرف، أخذت في انقباض وحزن أنعم فيه البصر وأدرس أجزاء جسمه، وشكل نعليه، وعرض كتفيه المرتفعتين، وخصل شعره المتموج المنتظم. والرجل بنظرته غير العابئة ولا المكترثة ولا الباصرة يلصقني بالحائط، أصبحت في نظره مخلوقاً تافها كالحائط نفسه.
ولما أطفأت الشموع تقدمت نحوها وقلت:
(حان وقت العودة. . سآخذك إلى المنزل).
فاستغربت وقالت: (ولكني. . . ذاهبة معه!).
وأشارت إلى الرجل الطويل الجميل الذي لم ينظر إلينا مطلقاً ثم جرتني إلى غرفة

خالية من الناس وقبلتني. فقلت بهدوء ورقة:
(إنك كاذبة).
فأجابت: (سنتقابل اليوم. . . لا بد أن تجيء. . .)
ولما ركبت العربة إلى المنزل، كان الصباح الضبابي الأخضر قد لاح فوق السطوح العالية، ولم يكن في الشارع كله إلا أنا وسائقي؛ وجلس الرجل متجمعاً يخبئ وجهه من الريح، وأنا جالس خلفه منكمشاً في معطفي ومغطياً وجهي حتى عيني. وكان للسائق أفكاره ولي أفكاري، وخلف الجدران الكثيفة المحيطة ألوف من الناس يغطون في النوم سابحين في أحلامهم وأفكارهم. . . فكرت فيها، وفي أكاذيبها، وفي الموت الرهيب، وبدا لي أن هذه الجدران المحيطة بعد أن أضاءتها تباشير الصباح، كانت تنظر إلي كمخلوق ميت، وهذا هو السبب الذي جعلها جامدة معتدلة هكذا. ولم أكن أعرف في أي شيء يفكر السائق، ولم أكن أدري ما الذي يحلم به أولئك المختفون وراء الجدران، ولا كانوا هم يعرفون ما أفكر
. . .فيه وأحلم به
وعلى هذا المنوال من التفكير والسكون والتأمل زحفنا في الشوارع الطويلة المستقيمة، بينما يفضض نور الصباح أعالي السقوف، وكل ما حولنا كان أبيض ساكناً. وقربت مني سحابة بيضاء عطرة. . . وأخذ إنسان سجين يضحك عند أذني ويصيح:
(. . .هو. . . هو. . . هو).
لقد كذبت. لم تبر بوعدها ولم تجيء، وكان انتظاري قدومها عبثاً، كان وهماً باطلاً وأملاً خائباً. . . وأخذ الغبش يهبط من السماء القاتمة أشهب بارداً متجمداً. . . ولم أعد أعرف متى يتحول الغبش إلى مساء، أو متى ينقلب المساء ليلاً أسود. فكرت فيه كله كليل طويل حالك فوقه ليل، وأخذت دائماً، بخُطى الانتظار المنتظمة الرتيبة، أروح وأجيء في الطريق، ولم أشأ أن أقرب من منزل حبيبتي الشاهق، ولا من الباب الزجاجي الأمامي الذي بدا لي شاحباً في ظل سقفه الحديدي، ولكني رحت بنفس الخطى المنتظمة أذرع الجانب الآخر من الشارع. رائحاً غادياً. . . رائحاً غادياً. . . وعندما كنت أواجه المنزل لا أستطيع أن أنزع عيني من الباب الزجاجي، فإذا ما بعدت عنه كنت غالباً أقف وأدير رأسي وأسارقه الطرف، وهنا يخز الثلج الساقط وجهي بوخزاته الحادة. . . كانت هاته الإبر الثلجية طويلة نافذة، حتى إنها نفذت إلى قلبي ومزقته وهو المعني بالشوق المضني والانفعال الشديد للانتظار الخائب! وهبت الريح الباردة من الضوء في الشمال إلى الظلام في الجنوب، وصفرت وعوت، ولعبت على السقوف المتجمدة وخلصت نفسها منها وضربت وجهي بسفعات حادة من الندف الثلجية، وخشخشت كما يخشخش الرمل على مصابيح الشوارع الفارغة حيث يرتجف اللهب الأصفر ويقضقض من البرد وينحني أمامها. كم أسفت على هذا اللهب المنفرد الذي يعيش في الليل فقط، وفكرت في الحياة التي ستقف حركتها في الشارع بعد لحظات، وفيّ بعد أن أغادر المكان وتبقى الندف الثلجية تهطل وتضربه بضرباتها، واللهب الأصفر يستمر راجفاً منحنياً في كنف الوحدة والبرودة المحيطة به.
انتظرتها فلم تجيء. وبدا لي أني وهذا اللهب المنفرد متشابهان، وكل ما بيننا من خلاف أن مصباحي لم يكن فارغاً كمصباحه، وأخذ الناس يظهرون من وقت لآخر في المكان الذي
ذرعته بخطواتي يكبرون في صمت وسكون، ويتضخمون ورائي، ويبدون سوداً ضخاماً حذائي، ثم يختفون فجأة كالأشباح السنجابية حول ركن بيت أبيض قائم هناك، ثم يقدمون ثانية نحوي من حول الركن ويذوبون في المسافة الرمادية المفعمة بالثلج الصامت المتحرك مدثرين في معاطفهم الضخمة حتى انعدمت أشكالهم واختفت أجسامهم، سائرين صامتين على غرار واحد يشابهوني، وفكرت في أن رهطاً من هؤلاء الناس كانوا يمشون مثلي رائحين غادين منتظرين مترقبين راجفين في صمت. . . . ويفكرون تفكيرهم المبهم الحزين.
انتظرتها فلم تجيء. . . ولم أدر لم أعول وأذرف الدمع السخين وأرسل العبرات الغزار؟ لم أدر لم لم أبك في ألم وحزن؟ لم أدر لم ضحكت وكنت سعيداً جذلاً طروباً؟ قبضت أصابعي إلى راحتي بقوة كأنها المخالب، وتخيلت أني أقبض بشدة على المخلوق السام. . . . الحية. . . . الكذب. . . . فالتفت علي ذراعي وعضت قلبي

وأصابني من سمها الزعاف الدوار الشديد. بدا كل ما حولي أكاذيب مجسمة، وانمحى الحد الفاصل بين الحاضر والمستقبل، بين الحاضر والماضي، انمحى الحد بين الوقت الذي كنت فيه في غيابات العدم، والوقت الذي بعثت فيه في هذه الحياة الدنيا. . . . . وفكرت في نفسي - سواء وجدت أو لم أوجد - كانت أبداً قبل أن أوجد وبعد أن وجدت متسلطة على كياني وجثماني. ومن الغريب علي أن أفكر في أن لها اسماً وجسماً وأن لكيانها ووجودها نهاية وبداية. . . ليس لها اسم مطلقاً، وإنما كانت دائماً المخلوقة الكاذبة، والتي تعد ولا تفي بوعدها أبداً. . . لم أدر لماذا هكذا. ولكنني ضحكت، وغاصت الإبر الحادة في قلبي، وضحك عند أذني إنسان سجين:
(. . .هو. . . هو. . . هو).
وفتحت عيني ورأيت نوافذ المنزل الشاهق المضيئة، وأخذت النوافذ تحدثني بألسنتها الزرقاء الحمراء بكل هدوء:
(إنها تخونك في هذه اللحظة، فبينما أنت تتجول ذارعاً الأرصفة مترقباً حضورها معذباً كئيباً، إذا بها وكلها جمال ونور وإشراق. . . وخيانة، جالسة هنا تسمع همسات الرجل الصبوح الطويل الذي احتقرك وازدراك. إنك إذا اندفعت إلى داخل المنزل وقتلتها ستعمل
عملاً عظيماً. لأنك ستقتل الكذب).
وقبضت يدي بشدة وقد أمسكت بسكين وأجبت ضاحكاً:
(. . .أجل. . . سأقتلها).
ولكن النوافذ نظرت إلي بوجوم وقالت في حزن:
(إنك لن تقتلها أبداً. . لأن الآلة التي في يدك هي الكذب بعينه، كقبلاتها تماماً).
واختفت الظلال المترقبة الصامتة وبقيت وحيداً في هذه البقعة الباردة، أنا وألسنة اللهب المنعزلة التي ترجف من البرد والخيبة. . وأخذت الساعة في قبة الكنيسة القريبة تدق، وكان صوتها المعدني الحزين يرتجف وينتحب ويتمدد ويفقد نفسه في الثلج المدوم المجنون الهاطل؛ وأحصيت الدقات وضحكت، دقت الساعة الخامسة عشرة. كانت قبة جرس الكنيسة قديمة بالية كساعتها. ومع أن الساعة كانت سائرة على منوال حسن، فإنها كانت تدق غالباً أكثر من اللازم، حتى إن الرجل العجوز الذي كان يحركها صعد إلى القبة ليقف بيديه اللسان الضارب. علام كانت تكذب هذه الأصوات الراجفة الحزينة التي يخنقها الظلام الضبابي؟
وانفتح الباب الزجاجي مع آخر دقة كاذبة للساعة، وهبط الرجل الطويل نفسه الدرجات. وعلى الرغم من أني رأيت ظهره عرفته لأني كنت قد شاهدته أمس بوقاحته وغطرسته. . . عرفت مشيته وكانت اليوم أخف حركة وأكثر ثباتاً منها بالأمس. . لقد غادرت من قبل هذا المنزل كما غادره هذا الرجل الآن. إنها الطريقة التي يمشي بها الرجال الذين لا تزال على شفاههم قبلات المرأة الكاذبة.
. . .هددت. . . رجوت. . . قضقضت بأسناني
(. . .قولي الحقيقة).
فسألتني، ووجهها جامد كالثلج، وحاجباها مرتفعان في استغراب، ومن عينيها يطل إنسانان سوداوان سريّان هادئان، لا يسبر غورهما:
(ولكن. . . هل كذبت عليك؟).
وكانت تعرف أني لا أستطيع البرهان على كذبها، وأن كل أبحاثي وأوهامي وجهودي في معرفة الحقيقة ستذهب هباء بعد كلمة واحدة منها. . . كلمة كذب واحدة. . . ولقد ترقبت
هذه الكلمة وندت عن فمها أخيراً، وظاهرها يتلألأ بالصدق على أن باطنها كان مظلماً قاتماً. . . (أحبك. . . ألست كلي لك؟).
وكنا بعيدين عن المدينة، والحقول المغطاة بالثلج ترنو إلى النوافذ المظلمة، وفوقها الظلام مخيم، وحولها الظلام جاثم، الظلام الكثيف الجلد الصامت الساكن، ولكن الحقول كانت تلمع بضوئها المكتنز كوجه جثة في الظلام. . . وأضاءت شمعة واحدة في الغرفة الرحبة الشديدة الحرارة، وعلى ضوئها الأحمر انعكست الحقول الميتة. . .
(أود أن أعرف الصدق، بغضّ النظر عما يسببه لي من حزن؛ ربما مت بعد سماعه. . . ولكن خير للمرء أن يموت من ألا يعرفه. أرى الكذب يطل من عينيك. قولي الصدق،

(وسأذهب بعد ذلك بعيداً عنك إلى الأبد).
ولكنها كانت صامتة، والنظرة التي في عينيها، النظرة الجامدة المتفرسة نفذت إلى سويداء قلبي وأخرجت أعماق نفسي وأبدتها للعيان. . . وأخذت بفضول غريب أمتحنها وأنعم النظر فيها، ثم صحت بها:
(أجيبي. . . وإلا قتلتك!).
فأجابت بهدوء: (اقتلني. . . بعض الأحيان يضيق المرء ذرعاً بالحياة. . . هل تستطيع الوقوف على الحقيقة بالتهديد؟!).
فجثوت على ركبتي وضغطت على يدها، وأخذت أتوسل إليها وأرجوها أن ترحمني وتقول الصدق.
فقالت، وقد وضعت يدها على شعري: (مسكين. . . مسكين. . .).
فرجوتها: (ارحميني. . . أود الصدق. . . أتلهف عليه. . .).
ونظرت إلى جبينها الناعم، وفكرت في أن الصدق الصراح هنالك. . وراء هذا الفاصل الرقيق، فوددت بجنون لو هشمت جمجمتها لأراه، وهنا تحت هذا الصدر المرمري الأبيض كان قلبها ينبض، فوددت لو مزقت هذا الصدر بمخالبي لأرى ولو مرة القلب البشري العاري. . . وكان لهب الشمعة المحدد كالسنان يشتعل بعيداً ساكناً لا يتحرك، والجدران المظلمة قد غابت في القتامة المحيطة، كان كل شيء يبعث على الأسى والوحشة والرعب.
وقالت: (مسكين. . . . مسكين).
وارتعش اللهب الأصفر وتشنج، وضرب لونه إلى الزرقة، ثم تمايل واحتضر. . . وطوانا الظلام في جوفه، ولم أعد أستطيع أن أرى وجهها ولا عينيها؛ وكانت ذراعاها تطوقان رأسي. . . لم أعد أحس بالكذب، وأغمضت عيني وغدوت لا أفكر. . . ولا أعيش في هذه الدنيا. . . وإنما فنيت بكليتي في لمسات يديها، في الإحساس اللذيذ، في النشوة العجيبة التي هيمنت على حواسي ومشاعري، وبدا الصدق في عملها هذا ووضح وبان. . وجاء من أعماق الظلام همسها وانياً غريباً مخوفاً:
(ضمني إليك. . أنا خائفة. . .).
وخيم الصمت ثانية. . . ثم همست مرة أخرى في صوت خافت جازع:
(إنك تود الصدق. . . وهل أنا أعرفه؟ حتى أنا. . . أود أن أعرفه. . . احمني. . . أوه. . . أي رعب!!).
وفتحت عيني وقد أخذ الظلام الشاحب يهرب من النوافذ العالية، ويتجمع على الجدران، ويختبئ في الأركان، ولاح من النوافذ شيء ضخم في بياض الموتى. . . كأن عين إنسان ميت تبحث عنا. . . كأن شخصاً ضمنا في قبضته الباردة. . . فالتصق كلانا بالآخر ونحن نرتجف، وهمست:
(أوه. . . . . ما أفظع هذا!).
لقد قتلتها. . . !
قتلتها. . . ولما تمددت كتلة بشرية لا حس ولا حركة على النافذة ووراءها الحقول البيضاء تمتد وتتشعب وضعت قدمي على جسمها وانطلقت أضحك، وأقهقه. . . ولم يكن ضحكي ضحك المجنون، لا. . . لقد ضحكت لأن أنفاسي خلصت وصدري استراح، ولأن في أعماق نفسي السعادة والسلام والفراغ. . .
لقد انمحت من قلبي الدودة التي كانت تنخره، وانحنيت وأخذت أتطلع إلى العينين الميتتين، عينان نجلاوان تتعطشان للنور، بقيتا مفتوحتين شبيهتين بعيني تمثال من الشمع، العيون المستديرة القاتمة التي تبدو مغطاة (بالميكا) أستطيع الآن أن ألمسها بأصابعي، وأفتحهما وأسبهما ولا أرهب شيئاً ما، لأن شيطان الكذب والشك مات من هذين الإنسانين السوداوين المبهمين إلى الأبد، مات من هذين الإنسانين اللذين كثيراً ما ارتويا من دمي.
ولما قبضوا عليّ انطلقت أضحك جذلاً، وكل من رآني عد فعلتي عملاً وحشياً مرعباً؛ كانوا يديرون ظهورهم نافرين متراجعين، وأخذ بعضهم وقد روع يوجه إلي ضروب اللوم والتعنيف الشديد، على أنهم لما بصروا بحالي المرح الطروب، شحبت وجوههم، وسمرت أقدامهم، وقالوا: (مجنون).
ويبدو لي أن هذه الكلمة هدأت ثائرتهم وأقرت هائجهم، لأنها أعانتهم على حل اللغز.

كيف وأنا المحب الوامق أقتل عشيقتي، وفي الوقت نفسه أضحك؟ على أن رجلاً بادنا أحمر الوجه طروباً سماني اسماً آخر. ولشد ما ساء ني منه هذا حتى اسود في عيني النور، النور الذي كان أمامي.
قالها في عطف لا تشوبه المرارة، لأنه كان بادناً طروباً (. . .مسكين):
(مسكين).
فصحت في وجهه: (لا تقل هذا. . . . . لا تسمني بهذا الاسم).
ولم أدر لم صحت في وجه الرجل، ما كنت بالطبع أرغب في قتله، ولا حتى في لمسه، ولكن القوم الذين أذهلهم الحادث وأخذوني كمجنون ومجرم، انقلبوا أكثر رعباً وفزعاً، وصاحوا بطريقة جعلتني أضحك مرة أخرى.
ولما قادونيبعيداً عن الغرفة التي تمددت فيها الجثة قلت ثانية في صوت عال ملتفتاً إلى الرجل البادن الطروب:
(أنا سعيد. . . أنا سعيد).
وكان هذا حقاً.
رأيت مرة في صباي نمراً أرقط في حديقة الحيوانات، لفت نظري وشغل تفكيري، لم يكن كالحيوانات الأخرى التي نامت في حماقة وأخذت ترمي الزوار بالنظر الشزر. وإنما مشى في قفصه في خط مستقيم من ركن في دقة حسابية عجيبة! كان في كل مرة يرجع إلى المكان الذي بدأ منه، وفي كل مرة يحك فروته الذهبية في حاجز القفص ورأسه الحاد المفترس مطأطئ، وعيناه تتطلعان إلى الأمام، ولم يتجه قط ينظره إلى الناس. . . والناس يتجمعون حول قفصه طول اليوم، متحدثين صاخبين، وهو يواصل تجولاته ولا ينظر إليهم مطلقاً. وقليل من الوجوه في هذا الحشد كنت باسمة، وكثرتها كانت عابسة بل حزينة وهي
ترقب هذه الصورة البشعة وتتحول عنها بزفرة حارة. وعندما كانوا يبارحونه كانوا يلقون عليه نظرة فضولية أخيرة وهم عاجزون عن الفهم، ثم يصعدون الزفرات! كأن هناك شيئاً مشتركاً بين هؤلاء الرجال الأحرار وهذا الوحش السجين. وأخذت بعد ذلك كلما ذكر الناس الخلود وتحدثت الكتب عن الأبدية، أفكر في هذا النمر الأرقط، وأتصور أني أعرف الخلود وعذابه.
لقد غدوت في محبسي الحجري نمراً أرقط. . . سرت في المكان مفكراً على خط واحد في عرض محبسي من ركن إلى ركن، وفكري يتجول معي في خط قصير أيضاً. أفكار ثقيلة وطأتها علي، خيل إليّ بأني لا أحمل رأساً على كاهلي، وإنما أحمل الدنيا كلها على عاتقي. . وكانت هذه الأفكار تحوي كلمة واحدة ولكن ما أكبرها وأهولها كلمة. وما أعلقها بغيابات الأقدار!
هذه هي الكلمة (. . .أكاذيب).
وأخذت هذه الكلمة تفح مرة أرخى من كل ركن، ثم التفت حولي. . ولكنها لم تعد حية صغيرة كما كانت، وإنما انقلبت ثعباناً ضخماً مفترساً تلمع عيناه. أخذ يلسعني بلسعاته. ولما صحت متألماً خرج من فمي صفير كريه. . . كصفير الثعابين، كأنما احتشد صدري بضروب الزواحف.
(أكاذيب).
مشيت غارقاً في أفكاري والأرض المقيّرة الناعمة الخضراء. . . غدت في عيني هاوية شفافة سحيقة مالها من قرار، وأصبحت قدماي لا تحسان ببرودة الحجر تحتهما، وتصورت نفسي أسبح في علو شاهق فوق الضباب والظلام، ولما خلص صدري من الزفرة السامة. . . من هناك. . . من القاع. . . من هذا الحجاب الرقيق الذي مع رقته لا تنفذ إليه العين، دوي يبطئ صدى مروع. . . كان الصدى بطيئاً جداً كأنه يعبر آلاف السنين، وهو في كل دقيقة وزفرة يفقد بعض قوته. أدركت بأن هناك في باطن القاع كانت الرياح الهوج التي تعصف بالأشجار تصفر. . . ولكن صفيرها وصل إلى أذني كأعقاب الأخبار السيئة تحمل في طياتها كلمة واحدة قصيرة:
(أكاذيب).
هذا الهمس الوضيع أخذ بمخنقي وحبس أنفاسي، فألصقت قدمي بالأحجار وصحت بأعلى صوتي:
(لم تعد هناك أكاذيب. . . بعد. . . لقد قتلت الأكاذيب).

وتحولت عامداً بوجهي لأني كنت أعرف أن الجواب سيجيء من أعماق الهاوية السحيقة. وكان الجواب:
(أكاذيب. . .).
أنت ترى أن الأمر هكذا. . . لقد ارتكبت خطأ جسيماً.
قتلت المرأة. . . ولكني خلدت الكذب. لا تقتل المرأة إلا بعد أن تنتزع - بكل وسائل التعذيب والنار والوعيد - الصدق من أعماق نفسها. فكرت في هذا وأنا أسير في محبسي من ركن إلى ركن.
لقد حملت معها الصدق والكذب إلى مكان مظلم مرعب. . . وهل أذهب إليه. . .؟ هل أذهب إلى هناك. . . وعند عرش إبليس سأقبض عليها وأجثو على ركبتي وأبكي وأقول: (أريني الصدق).
رباه. . . رباه. . . هذا أيضاً كذب. . . الظلام هناك. . . وفراغ القرون. . . والخلود أيضاً. . . ولكنها ليست هناك. . . ليست في كل مكان. . . بقي الكذب. . . إنه خالد أزلي سرمدي. . . أحسست به في كل ذرة في الهواء. . . وعندما أنشقه أنشق معه في صدري الضعيف فحيح الثعابين فيمزقه. . . فيمزقه. . .
أواه. . . أي جنون عندما يطلب الرجل الصدق. . . وأي عذاب وألم؟
رباه. . . أنقذني. . . . . أنقذني!!
محمود البدوي
البريد الأدبي
كتاب جديد عن الشاه
يعتبر جلالة رضا خان عاهل إيران من أعظم قادة العصر وملوكه؛ ومن أعظم زعماء الإصلاح في الشرق؛ وقد استرعت شخصيته وأعماله الباهرة اهتمام كثير من الكتاب والمؤرخين المعاصرين، فصدرت عنه عدة كتب بمختلف اللغات؛ ومن ذلك كتاب صدر أخيراً بالألمانية عنوانه: رضا شاه بقلم الكاتب الألماني (هوبرت ملتسج ويستعرض المؤلف في كتابه منذ مولده في سنة 1878 في قرية علشت من أعمال مزنداران، ووفاة والده وهو طفل في نحو الخامسة، وتربيته على يد أخيه الجنرال نصر الله خان. ومما يذكر عن الشاه أنه تلقى تربيته العسكرية في فرقة القوازق الروسية الشهيرة حيث اشتهر بالفروسية والبراعة في الأعمال العسكرية؛ وفي سنة 1921 حينما اضطربت شؤون فارس وتجاذبها النفوذان الروسي والإنكليزي زحف رضا خان على رأس كتيبة من الجند الوطنيين على طهران، وعاون على تأليف وزارة وطنية برآسة السيد ضياء الدين، ودخلها هو وزيراً للحربية؛ ومن ذلك الحين يقوى نفوذ رضا خان في الحكومة وفي توجيه السياسة الإيرانية، وكان معظم من ورائه يشد أزره، وما زال يتحين الفرص حتى قام بضربته الأخيرة، وتولى العرش سنة 1925، وأقصى عنه أسرة قاجار الملوكية التي سقطت إيران في ظلها إلى الحضيض.
ويصف المؤلف شخصية الشاه ووسائله في الحكم، ويقول إنه يؤثر سياسة الروية والتريث على سياسة الاندفاع والتسرع التي يأخذ بها الكماليون في تركيا؛ وهو قد استطاع أن يحرر بلاده من النفوذ الأجنبي، وأن يلغي المعاهدات الأجنبية المجحفة، وكذلك الامتيازات الأجنبية والمحاكم القنصلية، وكل ما يعترض السيادة القومية، ولكنه قطع هذه الخطوات في روية وتمهل، ونجح إلى أبعد حدود النجاح، وأبدى براعة سياسية تخلق بأعظم الزعماء والساسة، ثم عمد رضا خان بعد ذلك إلى الإصلاحات الداخلية فأصلح الدستور والقوانين، وأدخل النظم والعادات العصرية في المجتمع الإيراني، ومع ذلك فلم يعمد إلى العنف أو الاندفاع وإنما سار في كل ذلك بطريقته الرفيقة المستنيرة معاً.
ويكتب المؤلف بأسلوب قوي واضح معاً؛ ويعتبر مؤلفه خير ما أخرج في موضوعه في العهد الأخير.
ترجمة ضحى الإسلام إلى الفارسية
وصل إلينا بالبريد ترجمة الجزء الأول من (ضحى الإسلام) تأليف الأستاذ الجليل أحمد أمين مترجماً إلى اللغة الفارسية، وقد قام بترجمته الأستاذ عباس خليلي صاحب جريدة (اقدام)، وطبع بطهران طبعة أنيقة على ورق مصقول جيد، وهو يقع في نحو 450 صفحة، وسنعود إلى الكلام عن الترجمة في مقام آخر.

الطب والحركة الهتلرية

عقد أخيراً في مدينة درسدن مؤتمر للطب والطب الطبيعي، وقد ألقى خلاله الجراح الألماني الكبير الدكتور فرديناند زاور بروخ خطاباً استرعى الأنظار بقوته وجرأته؛ ذلك أنه حمل فيه على سياسة النظام الجديد (أعني النظام الهتلري) في محاربة الجامعة الطبية القديمة، وأطرى المدرسة القديمة التي كانت قائمة قبل حكم النازي؛ وقال إنه يحب ألا ننسى أن هذه المدرسة هي التي اشتركت في تكوين أعظم الأساتذة، وفي معتركها سقط كثير من الأساتذة والطلبة.

ودعا الدكتور زاور بروخ إلى وقف المناقشات العقيمة ورد الهدوء إلى الجامعة، لأن الهدوء ضرورة لابد منها لمتابعة المباحث العلمية؛ وحمل على الجهود الجديدة التي تبذل لإحلال الطب الطبيعي مكان الطب الفني، وقال إنها جهود زائفة من الوجهة العلمية، وأنه لا يوجد طب دون درس ودون تقاليد، وأن العلم لا يمكن أن يفنى في فكرة قومية، بل إن مملكة العالم لا تقف عند هذا العالم، ويجب أن يبقى العلم مخلصاً لغايته الأبدية، وهي البحث عن الحقيقة بإخلاص.

وقال أيضاً إن أسلحة الذهن ضرورية لمستقبل الأمة كضرورة الأسلحة المادية، وإن الفلسفة هي امتياز للرجال الناضجين، وليست ميدان الأحداث الناشئين.

وقد أحدثت خطبة العلامة الكبير امتعاضاً في الدوائر النازية، وصدرت الأوامر للصحف النازية بعدم إذاعتها؛ ولكنها أذيعت مع ذلك في جميع الصحف الأجنبية.

فرنسا وثقافة البحر الأبيض المتوسط

تهتم فرنسا دائماً بأن تساهم في توجيه الثقافة في حوض البحر الأبيض المتوسط مساهمة قوية، ففي روما وفي أثينا، وفي مصر وسوريا، وفي تركيا، تقوم معاهد فرنسية كبيرة لنشر الثقافة الفرنسية؛ وفي موناكو (جنوب فرنسا) تقوم أكاديمية خاصة تسمى أكاديمية البحر الأبيض المتوسط، مهمتها أن تساهم في تأدية هذا الدور الذي تضطلع به فرنسا، وقد أذيع أخيراً أن هذه الأكاديمية أنشأت معهداً عالياً للتربية يسمى (كلية البحر الأبيض المتوسط) تعقد فيه محاضرات ودراسات عالية في الحضارات والثقافات الخاصة بأمم البحر الأبيض المتوسط منذ العصور الغابرة إلى يومنا، ويقوم على توجيه هذه الدراسات عدة من علماء فرنسا ومفكريها الأعلام، وفي مقدمتهم المسيو بول فاليري الشاعر الكبير ورئيس مركز هذه الدراسات، ومسيو شارل فيلاي، وأندريه بونيه العالم الأثري، وجان دستيه المتخصص في آداب البحر الأبيض، وغيرهم من كبار الأساتذة والمفكرين.

ويرجع اهتمام فرنسا بتوجيه الثقافة في أمم البحر الأبيض المتوسط إلى عهد الصليبيين؛ وقد بدأت فرنسا بهذه المهمة فعلا في بلاد لبنان منذ القرن الرابع عشر الميلادي، ولعبت المعاهد الفرنسية في تثقيف الشعب اللبناني دوراً كبيراً.

وفاة ملك النوَر

توفي أخيراً في سانت بلتن من أعمال النمسا ملك النوَر بطرس فادوس وقد يبدو غريباً أن نتحدث عن ملك النوَر ولكن الواقع أن النوَر (أو الغجر) وهم في أواسط أوربا ولا سيما في بولونيا والمجر ورومانيا كثرة تبلغ نحو المليون لهم ملك يختارونه بالانتخاب، وقد كان فادوس آخر ملوكهم، وهو من النوَر النمسويين؛ وعند وفاته ازدحمت سانت بلتن بالوافدين عليها من زعماء النور وأعيانهم من جميع أنحاء النمسا والمجر، وغمر منزل الملك المتوفى بالزهر، وتولى السهر على جثته طبقاً للعادات النوَرية اثنا عشر من خاصة أسرته؛ واقتيد نعشه إلى القبر في موكب حافل، وكان المشيعون رجالاً ونساء يرتدون الثياب الرسمية، وهم زهاء ألف من مختلف الطبقات والأعمار. ولما ووري التراب أخذ النساء ينشدن الأغنية المحزنة وفي تقطيع شعورهن طبقاً للعادة؛ ثم طاف الجميع بالقبر حفاة الأقدام. ولما كان قانون النوَر يقضي بانتخاب الملك الجديد في مدى ثلاثة أيام من وفاته سلفه، وكانت السلطات النمساوية قد منحت المشيعين أربعاً وعشرين ساعة فقط، فقد سهر الجميع طول الليل وأتموا انتخاب ملكهم الجديد.

الكتب

الشيخ عفا الله

تأليف الأستاذ محمود تيمور

صفحة - قطع متوسط - طبع المطبعة السلفية - غلاف 175
أنيق فاخر - خمسة قروش
بقلم محمود البدوي
يكتب محمود تيمور لقصة منذ أكثر من عشر سنوات، ويوجه إليها كل عنايته وجهده وفنه. والذي قرأ مجموعة تيمور القصصية الأولى ثم يقرأ (الشيخ عفا الله) الكتاب الذي بين أيدينا الآن يرى مبلغ ما وصل إليه المؤلف من توفيق، ويرى أيضاً أنه يتطور ويخطو نحو الكمال الفني خطوات سريعة، وأنه كلما تقدم في السن أكسبته الحياة تجارب، وصقلت فنه وهذبت أسلوبه، ووسعت دائرة فكره، وفتقت ذهنه، وعمقت إحساسه، وجعلته دقيق الملاحظة بعيد النظر، حتى أصبح من نوابغ كتاب القصة القصيرة في مصر ومن الآخذين بيدها القابضين على زمامها الذين يوجهونها خير توجيه وأحسنه.
والذي يعرف تيمورا، وهو يقف من أبطال قصصه موقف الملاحظ المشاهد دائماً ولا ينزل إلى ميدان أبداً، قد يدهش عندما يراه يصور الطبقات الدنيا من الشعب، ويتغلغل في حياتها، وينفذ إلى أعماق نفوسهم ويتكلم بلسانهم ويصور أحلامهم وأمانيهم تصويراً دقيقاً فيه الكثير من الصدق. . على أن هذه الدهشة لا تلبث أن تنقلب إلى إعجاب وتقدير متى أدرك القارئ أن تيموراً وإن كان ينظر إلى هذه الطبقة من بعيد ولكنه يراها بعيني قلبه، ويحس بالعطف والشفقة والحنان على هؤلاء التعساء المساكين الذين يعيشون أبداً في الظلام مستسلمين صاغرين.
وتيمور قصصي واقعي يصور الحياة المصرية على بساطتها وسذاجتها أبدع تصوير، وقد يحيد بعض الأحيان عن الواقع ويميل إلى المغالاة في بسط الحوادث ليخلق المفاجأة ويرهف حس القارئ ويأسر لبه، على أن ذلك لا يكون إلا في سبيل فكرة سامية جليلة.
وأول ما يسرك في هذا الكتاب أن صاحبه تمشى فيه مع كتاب القصة الحديثة في أوربا الذين خضعوا راغبين لعلم النفس، فبسطوا النظريات النفسية وحللوا الإنسان تحليلاً دقيقاً على ضوء هذا العلم الجليل الشأن العظيم الأثر، وعنوا عناية فائقة بالغرائز وخفايا اللاشعور، ووفقوا وبرعوا في سبر أغوار النفس البشرية والوصول إلى أعماقها. وتصوير أدق خلجات الفؤاد، ورد كل ما يجيش في صدر الإنسان وعقله من عواطف وخواطر وانفعالات إلى أسبابه وبواعثه الحقيقية. لقد كشف هؤلاء العلماء الأفذاذ الإنسان البشري - بعد جهل طويل - وجردوه من لباسه المستعار وأبرزوه في ضوء النهار أمام هؤلاء المتزمتين العاجزين الذين يشوهون بنفاقهم حقائق الوجود.
والشيخ عفا الله أولى قصص الكتاب الإحدى عشرة هي أوضح صورة قوية على ما قدمنا، فيها الكثير من التحليل النفسي العميق. فهذا الرجل الذي يحب ويكبت الغريزة فيضطرب ويكاد يجن ثم يضعف أمامها ويتركها تسير في طريقها ويقوم منها على صوت ضميره القوي الملح عليه. . الذي يأخذ عليه دائماً السبيل ويبرز أمامه جرمه مجسماً على أبشع صورة هي قطعة حية من صميم الحياة وصميم النفس وصميم الواقع.
و (قصيدة غرام) هي وصف رائع لحياة طبيب شاعر عاشق فيها الكثير من الصدق والحرارة والإخلاص، وتعرف من خلال سطورها أن المؤلف كتبها بعناية وحرارة، وأنه أفرغ فيها كل فنه، ولولا أنه أقحم فيها مسألة الزواج إقحاماً وجرى في ذلك مع العرف والتفكير المصري الساذج ليوافق هوى القراء فحاد بذلك عن الفن وانحرف عن السبيل لكانت من أروع ما كتب تيمور عن الحب وصور. وفيها إحساس صادق يعرفه المسافرون الراحلون عن أوطانهم. . وليس ذلك لأن المؤلف قام بدور البطل نفسه، بل لأن المؤلف قام بهذه الرحلة - كما يبدو لي - ومن هنا يدرك القراء مبلغ الصدق في التصوير عندما يكون المؤلف جزءاً من البطل فكيف به إذا كان البطل كله؟
ثم قصة (الشيخ علوان) هذا الرجل الذي يضرب بتقاليد المجتمع وأوضاع الناس عرض الحائط ويعيش على هامش الحياة لا يتقيد بعرف ولا يخضع لنظام ولا يتورع عن التزوج بزوجات أخيه الثلاث. . . ولا يأنف من أن يفرض على الموسرين من الشبان ضريبة ليطعم وينعم ويعيش، كما يعيشون وينعمون ويلتذون!. . . لو رأيت الشيخ علواناً هذا في

الطريق لصافحته بحرارة!
ومحمد عوف مجلد الكتب في (الكسيح) هذا الرجل القوي الشخصية الجبار الجسم الذي بسط سلطانه على صبيه، فأسره وأحاطه بالأغلال والقيود، فما استطاع الغلام التملص أو الفكاك من الأسر حتى بعد أن بتر الترام ساقي معلمه وغدا عاجزاً كسيحاً يصب لعنته على الناس أجمعين.
وعادل الدرديري في (إفلاس) هذا الشاب الطموح الجامح القلق، الذي ضاق ذرعاً بالمدينة وتقاليدها وسخفها ومفاسدها ونفاقها، وحن إلى الريف في هدوئه وبساطته وطهره. . فلما اختبره اجتواه وارتد عنه حائراً لا يدري كيف يعيش ولا كيف يعيش هؤلاء السعداء على نسق ونظام وقانون!
وعلى هذا المنوال الحسن باقي قصص الكتاب، وكلها من أقوى القصص المصرية الرائعة.
وأبطال تيمور على العموم مرضى يحيون في دائرة ضيقة خانقة، ويحسون بثقل الحياة عليهم، ومع هذا لا يتحركون ولا يفكرون في التحرك. . لتغيير مآلهم. . أبداً خاضعين مستسلمين لمن هو أقوى منهم، ولهذا لا تأسف على فراقهم ولا ترسل الدمع وراءهم، وهم يخرون صرعى في ميدان الحياة، لأنك تشعر في أعماق نفسك بأنهم لا يصلحون لغير الموت.
وتيمور مغرم بهذا النفر المريض من الناس غراماً كبيراً، وهذا ما كان يعيبه النقاد على تشيكوف، وهو أنه ضيع عمره وقضى حياته في وصف قوم مرضى لا خير فيهم، ولكن هؤلاء المرضى هم غالبية الطبقة العامة التي يصورها المؤلف. وتشيكوف كان يصف روسيا المريضة، وتيمور يصف مصر المريضة أيضاً. . والقصصي الواقعي ينتزع أبطاله من صميم الواقع. . . فإلى أن ينشأ جيل قوي جديد بدل هذا الجيل المريض العاجز سيستمر تيمور يعالج حياة هؤلاء المرضى ويسخر منهم ويتركهم صرعى عاجزين.
وبعد فهذه كلمة قصيرة عن كتاب جديد يستحق عليه صاحبه التهنئة والإعجاب والتقدير.
محمود البدوي
قصص مختارة من الأدب التركي
تعريف خلف شوقي أمين الداودي
صفحة - قطع متوسط - طبع مطبعة عيسى البابي 181
الحلبي
في هذا الكتاب أكثر من خمس وعشرين قصة قصيرة اختارها المعرب لطائفة من أدباء الأتراك الذين تغني شهرتهم عن التقريظ كما يقول! ومن بينها قصص (محاكمة الحاجة فطومة) و (النار الموقدة) - نشرت في الرسالة - و (اعترافات سيدة) و (الكلب بوبي). وهذه الأخيرة فيها القليل من الفن القصصي، أما الثلاث الأولى فكل ما يمكن أن يقال عنها أنها تقرأ.
هذا ونرجو أن يوفق المترجم في كتابه المقبل إلى ما وهو أحسن من هذا وأفضل وإن كنا نرجو لكتابه هذا ما يستحق من تشجيع وتعضيد.
البدوي
العدد 172 - بتاريخ: 19 - 10 - 1936
اليوم المشهود. . .
ذلك يوم الأوبة! وأوبة الزعيم العظيم عنوان من النور على فصل جليل الخطر بارز الأثر من تاريخنا الجديد: تجمعت في هذه الأوبة أشتات من المعاني والمنى، فكان يومها الأغر مظاهرة شعبية هاتفة، جلجل فيها صوت الحق، واستعلى بها شأن الأمة، واستعلن فيها مجد الوطن؛ وكأنما انبثقت في النفوس لأول مرة مشاعر المصرية والحمية والعزة، فكل امرئ يحس بوجوده المستقل، ويُزْهَى بسلطانه القادر، ويفخر بإرادته الحاكمة.
احتفل حَشْدُ الناس يوم الثلاثاء على حواشي الميناء وفوق متون الماء لاستقبال الرئيس الجليل على (كوثر)، وقد عاد إلى وطنه الشاكر الذاكر بتحقيق المسعى وتصديق الأمل؛ فكان هذا الاستقبال النادر مشرق الدلالة على معناه: نَمَّ بهزة السرور عن لذة النصر، وبهشاشة الوجوه عن جمال الشكر، وبحماسة الهتاف عن وجهة الرأي.

وكانت الإسكندرية في ذلك اليوم صورة منسقة الألوان مهذبة الأطراف منمنمة الخطوط للقطر كله؛ تمثلت فيها من أعلى الجنوب إلى أسفل الشمال وجوه البلد، وأنماط الزي، ونوازع الهوى، ومرامي النظر؛ فالأندية والمقاهي والمطاعم والفنادق والطرقات والمركبات سيول متدافعة من فنون القول، ولكنها لا تخرج في عنصرها وجوهرها عن تفنيد المعارضة وتأييد المعاهدة وتمجيد الزعيم.

لا أكذِبُ الله، كانت الحجج كثيراً ما تسقط إعياء في حَلْبة الجدل، ولكن تهافتها كان يرجع إلى ضعف المدافع لا إلى ضعف القضية؛ وكان الغالب على منطق السواد من وفود البلاد الإيمان الثابت برأي الوفد، أو الإذعان المريح لحكم الواقع. فهم يقولون مالنا ولجدال المحامين بمواد القوانين وآراء العلماء ونصوص الكتب؟ إن الوفد لم نجرب عليه تدليسا في رأي، ولا تفريطاً في حق، ولا توريطاً في باطل، وقد مضى في ضمان الوحدة والخبرة ففاوض، واطمأن على سلامة الحق والعدالة فعاهد؛ فإذا قال لنا هذا هو الاستقلال الذي استنفدتم إليه الجهود والوسائل، وأرخصتم فيه الأموال والمهج، كنا أحرياء أن نقبل عليه بالسمع، ونخلد إليه بالثقة. ثم تبلغ الثقة الراجحة حد اليقين المحض إذا عارض هذا القول من نستريب بسياسته ونستوحش من ناحيته. كذلك يقولون إذا أخرجهم نشاط الحديث. من التسليم الأعمى إلى التدليل البصير: لا جدال في أن المعاهدة محت الاحتلال وأثبتت الاستقلال وفتحت السودان، وحطت عن كاهلك امتياز الأجنبي، وأذهبت عن ضميرك رجس الهون، وجعلتك مطلق السيادة حر الإرادة تحت سمائك وفوق أرضك؛ فإذا توخينا وجوه الإصلاح الداخلي ونحن على هذه الحال الجديدة من حرية الرأي والعزيمة والعمل، وبذلنا في سبيله ما كنا نبذل في سبيل الاستقلال من نقود وجهود وتضحية وزمن، جرينا من سُبل التقدم إلى أبعد الغايات في أيسر كلفة وأقصر مدة.

كان اسم النحاس ولفظ المعاهدة هتاف المظاهرات وموضوع الخطب وحديث الأندية في الاسكندرية، ذلك لأنهما كلمتان استوعبتا أحفل وأنبل العواطف وأجمل الذكريات من جهادنا المجيد. فالنحاس اسم يشمل الزعامة والوطنية والوفد، ويتضمن أسماء عرابي ومصطفى وسعد، ثم يستغرق كذلك أسماء مكرم والنقراشي وماهر؛ والمعاهدة لفظ يتناول مدلوله أهوال الثورة التي بذرتها، ودماء الشباب التي أسقتها، وأشلاء الضحايا التي غذتها، وجهود الإبطال التي تعهدتها ثم جنتها؛ ثم يشمل كذلك ما قر في أذهاننا من معاني الحرية، وشاع في نفوسنا من مشاعر المجد، وحصل في أيدينا من وسائل السيادة، وامتد في خيالنا من حدود الأمل.

ما أجمل الإسكندرية اليوم! لقد أصبحت خالصة المصرية حتى في الطبيعة والمظهر! الجو راكد الريح زاهق الأنفاس كأنه طلعة المختنق، والبحر راقد الموج مصقول الأديم كأنه صفحة المرآة؛ فلا العباب زاخر يبعث الروعة في القلب الشاعر، ولا النسيم نديٌّ ينضح بالنعيم الجسد المحرور؛ ومع ذلك نراها أقرب ما كانت إلى القلب، وأروع ما تكون في

النفس! لقد ذوب هذا اليوم عنصرها الدخيل كما تذوب حبات الملح في لجج الفرات العذب. لم يبق إلا مواكب الأهلين تشدو بأهازيج النصر، ووفود الأعيان تناقل أحاديث الوطنية، وكتائب الوفدين تنشد أغاني الحماسة، وخطباء المحتفلين يرسلون على أمواج الأثير عواطف مصر الشابة إلى الجهات الأربع.

تجددت مظاهر النصر والشكر والتأييد والفرح في سُوح القاهرة، فكان يوم السبت في مدينة المعز أبهر جلالاً وأروع استقبالاً من يوم الثلاثاء في مدينة الإسكندر! ذكرنا به أيام سعد! وأيام سعد خوالد يتحدين النسيان ويعاجزن البلى، وقد كن لهذه الأيام السعيدة شروقاً وبكرة.

سننعم بأصائل هذه الأيام حيناً من الدهر يقصر أو يطول، ولكن شمسها ستدخل في ملكوت الخيال وعالم الذكرى، ثم لا يبقى في أيدينا من ثمارها غير المعاهدة. والمعاهدة وثيقة الاستقلال في القانون، ولكنها ورقة الامتحان في العمل. ولا ريب أن الذين عرفوا كيف يحررونها، سيعرفون كيف ينفذونها. ومن عمل واليد شلاء، وبلغ

والطريق غفلاء، فهل تخشى عليه والسبيل واضحة، والغاية لائحة، والساعد حر والساق طليق؟

أحمد حسن الزيات

الجمهور

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

وقال صاحب سر (م) باشا: كان من بعض عملي في الحكومة سنة 1922 أن أُراقبَ الحركات والسكنات، وأبث العيون والأرصاد، وأعرف المضطرب والمنقلب في أيام الفتن ونوازل المحنة، محافظة على الأمن ومبادرة لما يُتوقع؛ فكنت كالمرصد المهيَّأ بآلاته لتدوين حركات الزلازل.

وانتهى إلينا يوماً أن راجفة من هذه الزلازل سترجُفُ بفلان من أهل الرأي الحر الذي يستقلُّ ولا يُتابع، وينتقد ولا يحابي، ويصرِّح ولا يجَمْجمُ، وأن قوماً ثوَّروا عليه الغبارَ الأدميَّ من العامة وأشباه العامة، وأنهم يتحيَّنون الوقت لتوجيه المكيدة له في شكلها المفترس من هذا الجمهور الناقم.

أما فلان هذا فرجلٌ سياسي عنيد أضاع الحقَّ كلَّه لأنه لا يرضى بنصف الحق. . . وكلمته في السياسة كأنما تلقى على لسانه من الغيب فلا يتحول عنها ولا يملك أن يتكلم بما يتكلم؛ وقد ذهب بصوته أنه في قوم لا يسمعون إلا ما أرادوا، فهو بينهم كالحق المغلوب لا يموت لأنه غير باطل، ولا يحيا لأنه لا ينتصر. وقد كان رجلاً كالمصباح الوهَّاج فألقوا عليه الغطاء فإذا هو في طبيعته ويبدو للناس بغير طبيعته، وتركه رأيه الحرُّ الصريح كالنبي المكذَّب يُردُّ عليه صدقُه لا لأنه غير صادق ولكن لأنه غير مستطاع أو غير ملائم.

ومن آفاتنا نحن الشرقيين أننا نستمرئُ العداوة وننقاد لأسبابها ونتطاوع لها تطاوع الصغار بأنفسهم لما في أنفسهم، كأن المستبدين الذين كانوا في تاريخنا قد انتقلوا إلى طبائعنا؛ فردُّ الفكر على الفكر في مناقشة تجري بيننا - لا يكون من دفع الحقيقة للحقيقة، ولكن من رد الاستبداد على الاستبداد ومن توثُّب الطغيان على الطغيان؛ فهو الثَّلبُ والطعنُ والتجريح، وهو الجفوة والخصومةُ واللَّدَد، وهو المنازعة والعنف والتحامل؛ وهو بهذه وتلك شرّ وفسادٌ وسقوط. والجدال بين العقلاء يبعث الفكر فينتهي إلى الحق، ولكنه فينا نحن يهيج الخلق فينتهي إلى الشر، والردُّ على عظيم منا كأنه يردُّ على منزلته في الناس لا على منزلته في الرأي، وكشف الخطأ عندنا تعبيرٌ بالخطأ لا تبصير بالصواب، واستلاب الحجة من صاحبها وإفسادها عليه كاستلاب المِلك من مالكه وطرده منه. .

ومن ثمَّ كان الدفاع بالمكابرة أصلاً من أصول الطبيعة فينا، وكان الاضطهاد حجةً للحجة العاجزة، وكان الإعنات دليلاً للدليل الذي لا ينهض بنفسه، ومتى اعتبر كلُّ إنسانٍ نفسه إمبراطوراً على الحق. . . فلا جرَمَ لا تردُّ كلمةٌ على كلمة إلا بحرب.

قال صاحبُ السر: وكبر الأمر على الباشا فجمع رؤوسَ المؤتمِرين بذلك الرجل الحر، وأخذ يقلّبهم تقليبَه بين التودد والملاطفة، وقال لهم فيما قال: إن فضيلة الجمهور هي التي تضمن تربية الفضيلة وحفظها وغلبتَها على الرذائل، وإن كل صحيح يكون فاسداً إذا لم يكن الجمهور صحيحاً، وإن غير العقلاء هم الذين يقبلون الحقيقة في يوم ثم يرفضونها هي ذاتها في يوم آخر، فإن ذهبتَ تجادلهم وتحتجُّ عليهم بأنهم قبلوها - قالوا: هذا كان أمس. . . فكأنما الفاصل بين زمنين يجعل الشيء الواحد ضدين ثم سألهم: ما هو ذنب الرجل؟ فقال منهم قائل: إنه خارج علينا في الرأي. فقال الباشا: إن المعنى في أنه يخالفكم هو أنكم أنتم تخالفونه؛ فقد تكافأت الناحيتان، وخلافٌ بخلاف؛ فما الذي جعل لكم حقَّ رده عن الرأي دون أن يكون له مثل هذا الحق في ردكم أنتم؟ قالوا: إننا الكثرة. قال الباشا: يا أصدقائي إن خوف الكثرة من رأي فرد أو أفراد هو أسوأ المعنَيَين في تفسير رأيها هي؛ وعشرة جنيهات لا تعبأ بالجنيه الواحد فإنها تستغرقه، بيد أن هذه ليست حالَ عشرة قروش يا أصدقائي. . نعم إن قطعَ الخلاف ضرورة من ضروريات الوطنية، ولكن إذا كان الأمر في ظاهره وباطنه كالخلاف في أيهما أطول: العصا أو المئذنة. .؟ فذلك جدال محسومٌ من نفسه بلا جدال.

إن أساس انخذالنا نحن الشرقيين في قلوبنا إذ لا نعتبر المعانيَ العامة إلا من جهة أنها قائمة بالرجال، ثم لا نعتبر الرجال إلا من ناحية ما في أنفسنا منهم، ثم لا نعتبر أنفسنا

إلا من جهة ما يرضينا أو يغضبنا، وقد لا يغضبنا إلا الحق والجد، وقد لا يرضينا إلا الباطل والتهاون، ولكنا لا نبالي إلا ما نرضى وما نغضب.

لستم أحراراً في أن تجعلوا غيركم غير حر، فإن يكن الرأي الذي يعارضكم رأياً حقاً وتركتم منابذتَه فقد نصرتم الحق؛ وإن يكن باطلاً فإظهاره باطلاً هو برهان الحق الذي أنتم عليه؛ ولن تجرّدوا أحداً من اختيار الرأي إلا إذا تجردتم أنتم من اختيار العدل، فإن فعلتم فهذه كبرياء ظالمة، تدَّعي أنها الحق ثم تدَّعي لنفسها حكمه، فقد كذبتْ مرتين.

اسمعوا أيها السادة: قامت بين اثنين من فلاسفة الرأي مناظرة في صحيفة من الصحف وتساجَلا في مقالات عدّة، فلما عجز أضعفُهما حجةً وكعَمه الجدال، كتب مقالته الأخيرة فجاءت سقيمة، فلم ترضِه فبيَّتها ونام عنها على أن يرسلها من الغداة بعد أن يردد نظره فيها ويصحح أراءه بالحجج التي يفتح بها عليه. قالوا: فلما نام تمثَّلت له المقالةُ في أحلامه جسما حياً موهوناً مترضضاً، مخلوعاً من هنا مكسوراً من هناك، مجروحاً مما بينهما؛ ثم كلمته فقالت له: ويحك أيها الأبله. إن أردت أن تغلب صاحبك وتُسكتَه عنك فاحمل مقالتك إلى رأسه في العصا لا في الجريدة. . .

قال صاحب السر: وضحك القوم جميعاً وأذعنوا وانصرفوا مقتنعين قد خَلُصتْ دِخْلتُهم لذلك الرجل الحر وتفصَّلوا من جريمة كانت في أيديهم، وما جاء الباشا بمعجز من القول ولكن تصويره للمسألة كان حلاً لها في نفوسهم. فلما أدبروا تنفَّس الباشا كأنما خرج من البحر وكان يتعاطى إنقاذ غريق ويعاني فيه حتى نجا؛ ثم قال لي: إن هذا كان جواباً عن شيء في أنفسهم ولكنه هو سؤال عن شيء في أنفسنا: ما الذي يجعل الناس عندنا يخشون المعارضة في الرأي الوطني حتى إنهم ليجازُون عليها بهذه العقوبة الشعبية المنكرة، وما بالهم لا يعطون الرأي حكمه وحقيقته بل يعطونه من حكم أنفسهم وحقائقها وشهواتها المتقلبة حتى لترجع الفروقُ الضعيفة المتجانسة في أبناء الوطن الواحد - وكأنها من الخلاف والمباينة فروقٌ جنسية كالتي تكون بين إنسان من أمة وإنسان من أمة أخرى تعاديها به.

قلت: إن رأى الكثرة قانون باشا.

قال: هذا صحيح ولكن بشرطين لا بشرط واحد: الأول ألاَّ يخرج الرأي على القانون، والثاني ألاَّ تكون الحقيقة في الرأي الذي يناقضه؛ ومحاولة إكراه المعارضة تفضٌ للشرطين معاً. ثم إن أساس الوطنية سلامة القلوب وصفاء النيات واستواء الموافق والمخالف في هذا الحكم؛ ومتى وقع الخلاف بين اثنين وكانت النية صادقة مخلَصَة لم يكن اختلافها إلا من تنوع الرأي، وانتهيا إلى الاتفاق بغلبة أقوى الرأيين ما من ذلك بد.

الحقيقة يا بني أن الجماهير ليست في تربيتها من الجماهير السياسية التي يُعتدُّ بها إذ لا تزال في أول عمرها السياسي وبهذا السبب وحده كان اختلاف الكبراء في السياسة لا يشبه

إلا نزاع الخصمين بغير شهود ولا قاض نافذ الحكم، فهو نزاع قوة تفوز بوسائلها لا نزاع حق يستعلي بأدلته.

وهذه المجالس النيابية الشرقية كلها صور ممثَّلة جافة منقطعة النماء من أسبابها كالفرع المقطوع من الشجرة، وإنما يتنفَّر الفرعُ ويُثمر أثماره إذا قام بشجرته لا بنفسه، وما شجرة الفرع السياسي إلا الجمهور السياسي.

فسبيل الإصلاح في كل مملكة شرقية أن ينهض أهل الرأي من كل مدينة فيها بين عالم وأديب ومحام وسّريّ ومن كان بسبيلٍ من هؤلاء، فيجعلوا لمدينتهم دار ندوة للاجتماع والبحث والمشورة وقول (نعم) بالحجة وقول (لا) بالحجة. ثم يعلنون ذلك في جمهورهم وينزلون منه منزلة الأستاذ والأب والصديق في تعليمه وهدايته وإرشاده؛ وتتصل هذه الدورُ في كل مملكة بعضها ببعض وتنتهي بالمجالس النيابية. وبغير ذلك لا يُملأ الفراغ الذي نراه خاوياً بين الشعب والحكومة وبين الكبراء والجماهير، وإنما أكثر مصائبنا من هذا الفراغ فهو الذي يضيع فيه ما يضيع فيه ويختفي ما يختفي.

منا قومٌ موظفون في الحكومة؛ ولكن أين القوم الذين تكون الحكومة نفسها موظفةً عندهم؟

(طنطا)

مصطفى صادق الرافعي

أنقذوا تراث الأندلس
واجب الأمم العربية والإسلامية
للأستاذ محمد عبد الله عنان

قرأنا في الأنباء الأخيرة أن مندوب بوليفيا (من جمهوريات أمريكا الجنوبية) لدى عصبة الأمم قد أثار أمام إحدى لجان العصبة مسألة الآثار الفنية في أسبانيا وما يهددها من الأخطار من جراء الحرب الأهلية الطاحنة التي تجتاح أسبانيا من أقصاها إلى أقصاها، وطلب أن تعمل العصبة لحماية هذه الذخائر الفنية ولا سيما في الأماكن التي تهددها ويلات الحرب.

ونحن نعرف أن عصبة الأمم لا تملك وسيلة للتدخل الفعلي في المأساة الأسبانية، ولا تستطيع مع الأسف أن تعمل شيئاً لحماية الآثار الفنية في أسبانيا.

بيد أن لهذه الصيحة الكريمة التي يرسلها مندوب بوليفيا قيمتها وأهميتها في تذكير العالم المتمدن بأن في أسبانيا تراثاً فنياً بديعاً هو اليوم رهين القدر، ووشيك التبدد والفناء، إذا لم تتداركه يد الحماية والغوث.

وهذه صيحة يجدر بنا أن نرددها. ذلك أن بين هذا التراث الذي تحدق به الأخطار من كل صوب بقية نفيسة من تراث الإسلام في أسبانيا: هنالك في غرناطة الحمراء وجنة العريف وأبهاؤهما ونقوشهما الرائعة، وهنالك في أشبيلية قصر بني عباد، وبرج (الجيرالدا)، وهنالك في قرطبة مسجدها الأموي الجامع الذي ما زال رغم تحويله إلى كنيسة من أروع الآثار الإسلامية، وهنالك تراث الإسلام الفكري في قصر الأسكوريال؛ وهنالك آثار ونقوش إسلامية كثيرة في معظم المتاحف والمدن الأسبانية؛ وكلها مما يلقي أعظم ضياء على تاريخ أسبانيا المسلمة وحضارتها في أزهر وأمجد عصورها.

ولقد كنا أول من أرسل هذه الصيحة منذ بدء الحرب الأهلية الأسبانية، إذ كنا يومئذ على مقربة من أسبانيا مسرح المأساة، وقرأنا فيما قرأنا من أنبائها أن طيارات حكومة مدريد قد ضربت مدينة غرناطة بالقنابل (وغرناطة ومعظم قواعد الأندلس الأخرى ما زالت بيد الثوار)، وأن قنابل قد سقطت على قصر الحمراء فأتلفت بعض جدرانه، فأثار هذا النبأ في نفوسنا شجناً وأسى، وكتبنا يومئذ نلفت نظر العالم المتمدن، ونظر العالم الإسلامي خاصة
إلى ذلك الخطر الداهم الذي يهدد تراث الإسلام في أسبانيا.

وهذه مأساة القصر (الكاثار) المروعة بجوار طليطلة، وقد خرب فيها حصن القصر القديم الذي يرجع معظم بنائه إلى العصر الإسلامي.

وفي الأنباء الأخيرة أيضاً أن زعماء الثورة رأوا أن يجتذبوا ولاء الجنود المغاربة وأن يثيروا حماستهم بأن يسمحوا لهم بإقامة الصلاة في جامع قرطبة الكبير الذي هو اليوم كنيسة جامعة؛ ونحن نغتبط إذ يستطيع المسلمون أن يؤدوا شعائرهم في ذلك المسجد الجامع القديم الذي هو أبدع آثار الدولة الأموية في الأندلس؛ ولكنا نخشى أن تؤدي الفوضى العسكرية في مثل هذه الظروف إلى تشويه هذا الأثر الإسلامي الخالد أو تخريبه.

والآن يزحف الثوار على مدريد ويطوقونها من الشمال والجنوب والغرب؛ وتضطرم حول العاصمة الأسبانية وفي سمائها حرب طاحنة لا يقف المتحاربون فيها عند شيء ولا يفرون شيئاً؛ وفي مدريد متحف يضم كثيراً من الآثار والنقوش الإسلامية؛ وعلى مقربة من مدريد تقع ضاحية الأسكوريال، وفيها الدير المسمى بهذا الاسم والقصر الملحق به الذي يضم المكتبة العربية الشهيرة؛ فالآن وهذه المعارك الطاحنة تدور حول مدريد بين جيوش الحكومة وجيوش الثورة، ماذا يكون مصير الأسكوريال ومصير الآثار والكتب العربية؟ هذا سؤال نردده جزعين خصوصاً بعد الذي رأينا من روعة هذه الحرب التي تجتاح في طريقها كل شيء ولا تقف عند أي اعتبار إنساني.

لقد عملت أسبانيا النصرانية في إبان غلوائها وتعصبها على تبديد معظم تراث الإسلام، وكانت يوم مصرع الأندلس، ويوم كانت لا تزال تضطرم بروح العصور الوسطى، تعتبر هذا التراث رجساً يجب أن يمحى من أرضها ومن تاريخها القومي؛ فلم تمض أعوام قلائل على سقوط غرناطة حتى أمر الكردينال كمنيس بالكتب العربية فجمعت من سائر الأنحاء وأحرقت أكداساً في أكبر ميادين غرناطة، وكان منها ألوف مؤلفة من كتب الدين والفقه والتاريخ والأدب وغيرها، ولم يستثن منها سوى ثلاثمائة من كتب

الطب والرياضة وهبت لجامعة الكالا (القلعة) التي أنشأها كمنيس، وأبيد بتلك الجريمة البربرية التي ارتكبت عام 1499 معظم تراث الأندلس الفكري.

ومع ذلك فقد بقيت من الكتب العربية في أسبانيا مجموعة كبيرة أودعت في أقبية الأسكوريال، وأخفيت بعناية عن نظر كل باحث ومتطلع؛ وكان عددها حتى أواسط القرن السابع عشر يبلغ نحو عشرة آلاف مجلد؛ ولكن محنة جديدة أصابت هذه البقية الباقية من تراث الأندلس، ففي سنة 1671 شبت النار في الأسكوريال والتهمت معظم هذا الكنز الفريد، ولم ينقذ منه سوى ألفين، هي التي عهدت الحكومة الأسبانية في منتصف القرن الثامن عشر إلى العلامة اللبناني ميشيل الغزيري ببحثها وتصنيفها في فهرسة الجامع، وهي التي بقيت إلى يومنا من تراث الأندلس.

هذا عن تراث الأندلس الفكري. أما عن الآثار المادية، فقد حولت جميع المساجد الجامعة إلى كنائس، وتناولتها يد التدمير بالهدم والتحوير، وضحيت جميع الذخائر والاعتبارات الفنية في سبيل تحقيق الشهوات الدينية؛ ولم يأت القرن الثامن عشر حتى كادت آثار الإسلام كلها أن تمحى من أسبانيا؛ ولم يبق منها سوى حمراء غرناطة ومسجد قرطبة والقصر في أشبيلية ومجموعة من اللوحات والتحف والنقوش الأثرية في متاحف مدريد وقرطبة وبنبلونة وأشبيلية وغيرها.

هذه البقية الباقية من تراث الإسلام في أسبانيا يحدق الآن بها خطر داهم، ويخشى بحق أن تمتد إليها يد التدمير التي تحطم الآن كل شيء في طريقها؛ فهل تبقى الأمم الإسلامية على صمتها وجمودها حتى تقع الفاجعة ويمحى ذلك التراث العزيز تحت وابل النار والقنابل، أم يجدر بالأمم الإسلامية أن تحذو حذو مندوب بوليفيا لدى عصبة الأمم فترفع صوتها مطالبة بالعمل لإنقاذه وحمايته؟ نعتقد أن الأمم الإسلامية المختلفة تستطيع أن تبذل على يد حكوماتها من المساعي في هذا السبيل ما يكفل لفت نظر الفريقين المتحاربين في أسبانيا إلى احترام هذا التراث المقدس الذي لا يعني أمره أسبانيا وحدها، بل يعني أمره العالم العربي والإسلامي أيضاً، ويعني أمره العالم المتمدن بأسره.

ولسنا نعرف أي سبيل ستتخذ عصبة الأمم إذا استجابت لدعوة مندوب بوليفيا، وهي بلا شك سوف تحلها مكانها من الأهمية والعناية؛ وليست الوسيلة مما يهم في الواقع، وكل ما يهم هو أن يصل هذا النداء إلى حماية الآثار والذخائر الفنية إلى الفريقين المتحاربين في أسبانيا؛ وإذ لم يكن في وسع الأمم والحكومات ذات الشأن أن تساهم في هذه الدعوة بطريق مباشر، وأن تتصل في ذلك بطريق الثوار، وهم يسيطرون على أشبيلية وقرطبة وغرناطة،

فلا بأس من أن تساهم فيها على يد عصبة الأمم ذاتها.

ونحن نعرف أن حوادث الحرب الأسبانية، ووسائلها المخربة، ومناظرها المؤسية، كانت مثار الروع والأسى في جميع الأمم المتمدنة، ونعرف أن حكومات بعض الدول العظمى قد فكرت في أن تقوم بالسعي في سبيل تخفيف ويلات هذه الحرب الأهلية الطاحنة، وحمل الفريقين المتحاربين على اتباع القواعد الإنسانية، وربما بذلت بعض النصح في هذا السبيل؛ ولا ريب أن تحطم الآثار والذخائر الفنية لا يقل شناعة عن سفك الدماء ذاته، ومن أقدس واجبات الجيوش المتمدنة أن تحرص على قدسية هذا التراث الفني وصونه من كل اعتداء.

هذا ويجدر بالهيئات العلمية والثقافية في الأمم العربية والإسلامية أن تتخذ الخطوة الأولى في هذا السبيل، فتبث إلى حكوماتها المختلفة ما يساورها على مصير الآثار الأندلسية من جزع، وترجوها أن ترفع صوتها الرسمي بالدعوة إلى حمايته، وأن تبذل في ذلك السبيل ما استطاعت من السعي الودي؛ وفي وسع هذه الهيئات العلمية والثقافية أيضاً أن تذيع دعوتها في الصحافة الدولية، فللصحافة الدولية صوت مسموع، وفي وسعها أن تقوم بدور في هذا الشأن، وهي ما زالت تنوه بشناعة الإجراءات والوسائل المخربة التي ترتكب خلال الحرب الأسبانية؛ وقد لفتت نظرها فظائع موقعة القصر الأخيرة، وما أصاب القصر من حرق وتخريب، فأخذت تنوه بهذه الخسارة الأثرية وبالخطر الداهم الذي يهدد تراث أسبانيا الأثري والفني من جراء هذه الحوادث؛ وعلى أثر ذلك ارتفع صوت مندوب بوليفيا في أرجاء عصبة الأمم بمثل هذا النذير.

وهانحن أولاء نردد هذا النذير بدورنا؛ ونحن على يقين من أنه سيحدث صداه وأثره في

جميع الهيئات العلمية والثقافية في الأمم العربية والإسلامية؛ وإذا كانت بوليفيا، تلك الجمهورية النائية في أعماق أمريكا الجنوبية قد حفزتها البواعث التاريخية والإنسانية على أن توحي لمندوبها أن يلقي نداءه أمام عصبة الأمم، فأولى وأجدر بالأمم الإسلامية أن تلبي داعي الواجب والمساهمة في هذا المسعى الكريم الذي يبذل صوناً لتراث الإسلام في أسبانيا.

محمد عبد الله عنان

الجانب الصوفي في الفلسفة الإسلامية

للدكتور إبراهيم بيومي مدكور

مدرس الفلسفة الإسلامية بكلية الآداب

تتمة

- 6 -

وقبل أن نختم بحثنا هذا نقول كلمة مختصرة في أثر هذه النظرية في الفلسفة المدرسية اليهودية والمسيحية، وفي بعض فلاسفة العصور الحديثة، وفلسفة اليهود في القرون الوسطى، أو بعبارة أدق الدراسة اليهودية الفلسفية في ذلك العهد هي في الواقع صدى للفلسفة الإسلامية، واليهود هم خلفاء العرب على تراث أرسطو والفلاسفة الآخرين، وقد فازت الفلسفة على أيديهم منذ القرن الثالث عشر الميلادي فوزاً عظيماً، وأضحوا أنصارها طوال القرون الثلاثة التالية حين خذلتها الشعوب الأخرى، فأخذوا الأفكار العربية أو المعرَّبة ونقلوها إلى لغتهم وتدارسوها فيما بينهم، وتتلمذوا لفلاسفة الإسلام تلمذة صادقة مخلصة، ودون أن نستقصي هنا كل مفكريهم نكتفي بأن نشير إلى شيخهم الأعظم وأستاذهم الأكبر موسى بن ميمون الذي يعد بحق الممثل الأول للفلسفة اليهودية المدرسية، وإذا ما ذكر ابن ميمون ذكرت الفلسفة الإسلامية على الفور، فقد اعتنق كل نظرياتها تقريباً، وصادفت نظرية السعادة بوجه خاص من نفسه هوى، ووجد فيها مجالاً فسيحاً للتوفيق بين الفلسفة والدين، فهو يعتقد أن البحث والثقافة سبيل الكمال الإنساني، وأن العلم هو العبادة الحق التي يستطيع العبد التقرب بها إلى ربه وكشف الحقائق الغامضة؛ وكلما أمعن الإنسان في الدراسة والنظر كلما ازداد قرباً من ربه، ويشبه ابن ميمون الخالق والخلق في رتبتهم المختلفة بملك عظيم يسكن قصر منيفاً في مدينة كبيرة، وسكان هذه المدينة بين المعجب بهذا القصر المصوب النظر إليه، والغافل عنه المعرض عن جماله وجلاله، ومن فتنوا به قد يدفعهم الشوق إلى السعي نحوه والطواف حول جدرانه الفخمة، وربما اقتحموا عتبته وانسابوا إلى حدائقه وأفنيته الملأى بالأزهار والرياحين والمناظر البهجة، ومنهم من يقنع بهذه الغاية ولا يطلب وراءها مزيداً، وذوو النفوس السامية والهمم العالية يأبون إلا التشرف

بالمليك في حضرته والإصغاء إلى حديثه والتمتع برؤيته، وحينذاك يحظون بالغبطة الدائمة والنعيم المقيم، وواضح أن هؤلاء الماثلين في الحضرة الملكية هم من فازوا بالسعادة الفارابية، والمليك الذي يرمز إليه ابن ميمون ليس شيئاً آخر سوى العالم الروحاني الذي نسعى إلى الاتصال به.

تأثر فلاسفة القرون الوسطى المسيحيون كذلك بكثير من الآراء الفلسفية الإسلامية، ولم يكن التصوف الفارابي بوجه خاص بالغريب عليهم، ذلك لأن المسيحية نفسها تشايع الأفكار الصوفية في جملتها وتدعو إلى قدر منها غير قليل، وإذا كانت الأشياء كلها صادرة من الله وعائدة إليه فخطيئة عظمى أن ينسى المخلوق خالقه أو أن يتراخى في السعي نحوه والقرب منه. على أن الوصول إلى الذات الأقدس ليس بالعسير في رأي المتصوفين المسيحيين، فإنا ندنو من الله كلما خففنا أحمالنا وعرضنا عن شواغل الحياة، وقد كتب المسيو جلسون أستاذ الفلسفة المدرسية المسيحية الآن في (كلويج دي فرنس)؛ وهو الحجة في هذا الباب فصلاً ممتعاً في نظرية الحب المسيحية وأبان ما انطوت عليه من مدلولات خفية ونزعات صوفية، ومحبة الله هي السبيل الذي يقربنا منه ويقودنا إلى السعادة الفارابية، ويجب أن نضيف إلى هذا أن السعادة التي تعشقها الفارابي تعتمد على قوة أخرى وتستمد نفوذاً آخر من سلطان عظيم، ألا وهو سلطان أرسطو الذي استولى على القرون الوسطى المسيحية استيلاء تاماً منذ القرن الثالث عشر للميلاد. فإن هذه السعادة أشبه ما يكون (بالأديمونيا)

الأرسطية؛ وقد أسلفنا القول فيما بينهما من صلة. لذلك لم يتردد كثير من أنصار أرسطو المسيحيين في اعتناق هذه النظرية وإن حاربوا في عنف غيرها من آراء الفلاسفة المسلمين. فألبير لجراند وسان توماس يتحدثان عن عقل مقدس هو في الغالب ابن (للروح القدسية) التي أشاد بذكرها الفارابي من قبل. وسان توماس يقرر في وضوح أن سرور النفس وغبطتها تنحصر في تأمل الحقائق الأزلية. فالسعادة الفارابية أثرت إذن في يهود القرون الوسطى ومسيحييها على السواء، وليس بعزيز علينا أن نبين المصدر الذي أخذ عنه المسيحيون هذه النظرية، فقد قرءوا عنها شيئاً فيما ترجم من رسائل الفارابي إلى اللاتينية ووقفوا عليها مفصلة في مؤلفات ابن سينا وابن رشد وفي كتاب موسى بن ميمون المشهور (دلالة الحائرين) الذي استقى منه الغرب كثيراً من الأفكار
الشرقية.

لم يقف أثر هذا الكتاب في نشر الأفكار الإسلامية عند القرون الوسطى، بل جاوزها إلى العصور الحديثة، وذلك أنا نجد لدى واحد كاسينوزا أو لَيْبنتز آراء كثيرة الشبه بآراء فلاسفة الإسلام: فنظرية النبوة عند الأول تشبه شبهاً عظيماً النظرية التي أخذ بها الفارابي؛ ومشكلة العناية عند الثاني لا تختلف كثيراً عما قال به ابن سينا من قبل. ربما يبدو غريباً أن نحاول إثبات علاقة بين مفكري الإسلام وهؤلاء الفلاسفة المحدثين، خصوصاً وقد جرت عادة مؤرخي الفلسفة الإسلامية أن يقفوا بها عند القرون الوسطى. وما فكر واحد منهم، فيما أعلم، أن يدرس الصلة بينها وبين فلسفة العصور الحديثة دراسة منظمة. غير أنا نرى أن هذه الصلة جديرة بالبحث والدرس ومعتمدة على أسس تعززها؛ فقد عرف اسبينوزا كتاب دلالة الحائرين وعني به عناية كبيرة، كما عرفه ليبنتز وأثنى عليه ثناء مستطاباً فعلى ضوء هذا الكتاب نستطيع أن نحدد إلى أي مدى تأثر رجال العصور الحديثة بالأفكار الإسلامية. ويخيل إلينا أنا أول من تنبه إلى هذه العلاقات التاريخية، وقد حققناها فيما يتعلق بنظرية النبوة.

ويمكننا أن نلاحظ كذلك وجوه شبه بين نظرية السعادة الفارابية وبعض الأفكار الصوفية الحديثة، وخاصة لدى اسبينوزا الذي تربطه بالفارابي أكثر من علاقة واحدة. فكلاهما يعد السعادة غاية لمذهبه الفلسفي؛ ويعملان على تحقيقها بوسائل متماثلة. وكلاهما صوفي النزعة في سلوكه وآرائه، وتصوفهما عقلي نظري مبني على العلم والدراسة. ونظرياتهما الكلامية متقاربة ومتشابهة؛ فصفات البارئ عند الفارابي لا تختلف كثيراً عنها لدى اسبينوزا. الله في رأيهما علم ومعلوم وعالم في آن واحد، وهوية وماهية معاً؛ هو مسبب الأسباب والجوهر المطلق أو الجوهر الوحيد. فهو موجود بنفسه وجوداً أزلياً قديماً، وكل الكائنات تستمد جودها منه. وعلى هذا نرى أن الفيلسوف العربي والفيلسوف الإسرائيلي يقولان بمذهب وحدة الوجود. وإذا كانت النفوس البشرية قد استمدت وجودها من الله فهي دائماً في نزوع إليه؛ وكمالها في أن تتجه نحوه وتقترب منه وتحبه حباً صادقاً. وهذا هو الحب الفلسفي الذي يتغنى به اسبينوزا، ويرى فيه لذة لا تنقطع وغبطة تجل عن الوصف.

الآن وقد تتبعنا نظرية السعادة الفارابية منذ نشأتها إلى أن أسلمناها إلى العصور الحديثة
نستطيع أن نقرر أن المشائين من العرب أثروا فيمن جاء بعدهم تأثيراً واضحاً. فأفاد منهم مفكرو الإسلام لا فرق بين متطرفيهم ومعتدليهم في نواح كثيرة، وإن تحاملوا عليهم وحاربوا معظم نظرياتهم. وأخذ عنهم رجال الفلسفة المدرسية من يهود ومسيحيين كثيراً من آرائهم وأفكارهم. ولم يقف أثرهم عند القرون الوسطى بل تعداها إلى العصور الحديثة، وقد أوضحنا فيما سلف وجوه الشبه بين بعض النظريات الفارابية والآراء الأسبينوزية، نحن لا ندعي طبعاً أن الفلسفة الإسلامية أثرت تأثيراً مباشراً في رجال العصر الحديث وجماعة الديكارتيين بوجه خاص؛ فأن أحداً منهم لم يعرف العربية. ولكن الأفكار الإسلامية نفذت إليهم، فيما نعتقد، عن طريقين: طريق اليهود وطريق المسيحيين، ففيما كتب موسى بن ميمون مثلاً أو سان توماس ما يحكي بعض الأبحاث الإسلامية. وإذا كانت الفلسفة الإسلامية نفسها لا تزال غامضة ومجهولة، فبديهي أن يبقى أثرها في طي الخفاء، ولا سيما إذا كان هذا الأثر متعلقاً بناحية يزعم الناس أنها بمنأى عن التأثير. فقد شاع خطأ أن ديكارت يفصل فصلاً تاماً بين عهدين،

وأنه أب لفلسفة لا تحمل في ثناياها شيئاً من آثار الفلسفات السابقة، غير أن هذه الفواصل المزعومة بين العصور قد انمحت، وهذه السدود المقامة باطلاً بين مراحل التفكير الإنساني قد انهارت. وقد ثبت فعلاً أن ديكارت سبق إلى كثير من أفكاره في القرون الوسطى المسيحية، كما أن مذهب ليبنتز مثلاً يقترب من الفلسفية المدرسية والإغريقية بقدر قربه من النظريات الديكارتية. فلم لا نحاول بدورنا أن نوازن بين شك ديكارت وشك الغزالي؟ ولم لا نبحث عن أصل للتفرقة الأسبينوزية بين الذات والوجود عند الفارابي كما بحثنا عنه لدى كثير من الفلاسفة المتقدمين، إنا إن فعلنا خدمنا القرون الوسطى والتاريخ الحديث، وألقينا جزءاً من الضوء على طائفة كبيرة من النقط الغامضة، وقمنا بقسطنا في ربط الفلسفة الإسلامية بسلسلة التفكير الإنساني.

ولنا رجاء آخر، وهو أن تتجه الجهود نحو العصور المتأخرة من تاريخ الثقافة الإسلامية؛ فإن ما كتب عنها لا يكاد يذكر ومعلوماتنا عنها محدودة للغاية. وقد حاول هورتن في أبحاث متفرقة أن يوضح جانبها الفلسفي؛ إلا أن أبحاثه غير ناضجة، وهي أشبه ما يكون بمقدمات لدراسة كاملة لم تبدأ بعد. وأما اللغة والتشريع والتوحيد والتصوف فلا تزال في طي الكتمان تماماً. ومن غريب المصادفات أن أحد قراء (الرسالة) بعث إلينا، ونحن نكتب هذه الكلمة، مستفسراً عن بعض أبيات للصوفية المتأخرين. فالجمهور المثقف يشعر إذن بهذا النقص ويشاركنا في الشكوى منه، وعل أغمض شيء في هذا الدور حقيقة هو تاريخ التصوف على الرغم مما فيه من طرافة، وما له من أهمية اجتماعية وفلسفية. نحن لا ننكر أن عصور الظلام ثقيلة على النفس وليس فيها شيء كثير يجتذب الباحث أو القارئ، هذا إلى قلة مصادرها وتعذر السير فيها والاهتداء إلى معالمها. بيد أن ربط حاضرنا بماضينا يستلزم أن نجلي غامضها وندرسها دراسة كافية.

إبراهيم بيومي مدكور

في الأدب المقارن

الطبيعة

في الأدبين العربي والإنجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

الطبيعة إلف الشاعر الحميم، وتوأم روحه، ومرتع فكره ومتاع بصره، ومهبط وحيه، ومعاهد متاعه وذكرياته، إلى ظلالها يسكن، وبين محاسنها يهيم، وعندها ينفض أوشاب العيش ويطرح أعباءه، ويستريح فكره الذي أنضاه التعب، ونفسه التي أضجرتها معاشرة الناس، وتتهادى إليه عذارى الشعر طائعة، وتسلس إليه شوارد الأفكار مقادها، ويظل يلتفت إلى ماضي أوقاته بين مباهجها بحنين عذب، ويأمل معاودتها بقلب شيق؛ فلا غرو يكون للطبيعة في نفس الشاعر المطبوع مكان أثير، وفي أدب الأمة الراقية منزلة رفيعة.

وقد نالت الطبيعة لدى أدباء الإنجليزية في أغلب عصورها هذه المكانة التي هي بها جديرة: فعكفوا جيلاً بعد جيل وأديباً إثر أديب على وصف مظاهرها وعبادة مفاتنها، وملئوا جانباً كبيراً من نظمهم ونثرهم بأوصاف الوديان اليانعة، والربى الحالية والأمواه الجارية، والأطيار الصادحة والأفلاك الدائبة والغيوث الساجمة، ووصفوا الطبيعة في حالي رضاها وغضبها، وابترادها ودفئها، واكتسائها وعريها.

وتوسلوا للتعبير عن فرط هيامهم بمحاسنها المتجددة بشتى الوسائل: فبثوا أوصافها في رواياتهم الشعرية وقصصهم النثرية، كما فعل شكسبير وهاردي، وطاروا على أجنحة الخيال إلى الوديان السحرية، والغابات المجهولة، والشواطئ النائية، يرصعون كل أولئك ببدائع الأوصاف ونقثات العواطف، وعبادة الجمال الطبيعي، متخذين مسرحاً لكل ذلك خرافات الأقدمين كما كان يفعل سبنسر وكولردج وتنيسون وبروننج، أو جنات الفردوس كما فعل ملتون.

ومن أولئك الشعراء من يدينون بخلودهم لأوصافهم الطبيعية الرائعة، وقلما يهتم أحد اليوم لما نظموه في النسيب أو الاجتماع أو السياسة، مثل تنيسون، بل منهم من لم يكد يؤثر عنه قول في غير الطبيعة، أو تخلو قصيدة له من أثرٍ لها، مثل وردزورث. ولا غرو فالطبيعة

مادة الشعر وصميمه، ولربما عَرَضَ في القصيدة قد نُظمَتْ في أي غرض كان بيتٌ أو بيتان يحويان وصفاً طبيعياً بديعاً، فإذا هما يرفعان من قدرها ويحببانها إلى النفوس ويكونان سبب اشتهارها وسيرورتها.

ولا ندحة عن القول بأن الطبيعة لم تنل هذه الرعاية ولم تحتل هذه المكانة في الأدب العربي، ففي العربية لا ريب أوصاف طبيعية بالغة غاية الجودة، ولكنها قليلة إذا قيست بنظائرها في الإنجليزية، قليلة إذا قيست بما نظم أو نثر في العربية ذاتها في غير الطبيعة من أغراض، فليس ما قيل في وصف جمال الطبيعة ببالغ عشر معشار ما قيل في التشبيب بالجمال الإنساني، ولم يُعرف من شعراء العربية من قَصرَ شعره على التغني بمباهج الطبيعة، وإن منهم لَمنْ قَصرَ قوله على النسيب بهند وليلى وأترابهما.

وقلما جاءت أوصاف محاسن الطبيعة مقصودة لذاتها مستقلة بنفسها في قصيدة أو رسالة، بل كان ذكرها غالباً يأتي عرضاً كأنها غير جديرة وحدها بالتفات الشاعر وتكلّفه عناء النظم، وكانت تستعار مظاهرها وأحوالها لبيان أغراض أخرى عن طريق التشبيه تُرصَّعُ القصيدة بفنونه، وجاء أصحاب المجموعات الشعرية الذين اختاروا صفوة أشعار العرب في أقوى عصور الأدب، كأبي تمام والمفضل الضبي، فما أفردوا للطبيعة باباً من أبواب مختاراتهم، وإنها لأجدر بالصدر.

وكان فحول الشعراء ينصرفون عن وصف محاسن الطبيعة التي تكتنفهم، ومفاتن الجنات الزاهية التي كانت مهاد الدولة الإسلامية، بمروجها وأنهارها وجبالها وأجوائها، إلى وصف قصور الأمراء وحدائقها ونافوراتها وبركها الصناعية، فالبحتري يعرض ببصره عن جبال لبنان الفاتنة متجهاً إلى مقاصير ابن خاقان:

تلفتُّ من عليا دمشق ودوننا ... للبنان هضب كالغمام المعلق
إلى الحيرة البيضاء فالكرخ بعدما ... ذممت مقامي بين بصرى وجلق
رباع من الفتح بن خاقان لم تزل ... غنى لعديم أو فكاكا لمرهق

ولابن المعتز وابن حمديس وابن خفاجة شهرة بوصف الطبيعة، ولكن كثيراً من أشعارهم يتسم بالفتور ويصطبغ بالصنعة وترين عليه مسحة التكلف والتظرف، وتنقصه حرارة الهيام بالطبيعة والامتزاج بروحها والنفاذ إلى خفي معانيها وأسرارها، وتجري في أشعارهم

تشبيهات تكررت حتى مُلَّت: فالأصيل ذهب والحصباء در والنسيم ينسج من الماء درعاً، ويُفسد الكثير من تلك الأشعار الحرصُ على حسن التعليل كقول ابن حمديس في نهر:

جريح بأطراف الحصى كلما جرى ... عليها شكا أوجاعه بخريره

فشتان بين خرير النهر الحي المتدفع وبين الجراح والشكوى والأوجاع، وأمثال هذا القول تدل على شعور زائف وملاحظة سطحية.

وبعض أولئك الشعراء إذا استهزتهم فتنة الطبيعة وصفاء الأوان، نظموا في ذاك أبياتاً شفعوها للتو بدعوة لصديق أو عشيق أو نديم يناشدونه أن يتحفهم برفقته ويعجل لهم بالراح والأوتار، فالبحتري بعد أن تأنق في وصف الربيع قال:

فما يحبس الراح التي أنت خلها؟ ... وما يمنع الأوتار أن تترنما؟

وغيره يقول:

ولما حللنا منزلاً طله الندى ... أنيقاً وبستاناً من النور حاليا
أجد لنا طيب المقام وحسنه ... مني فتمنينا فكنت الأمانيا

ولا يدل هذا على كبير شغف بالطبيعة أو حسن فهم لجمالها، وليس بمشغوف بالطبيعة ولا فاهم لأسرارها من لا تكفيه مفاتنها السافرة حتى يستعين لإكمال سروره بالسَّمَر والغزل والغناء والسكر، وإن أحب ما تكون الطبيعة إلى عاشقها الصادق لحينَ يصحبها وحيداً، فهو يرى مفاتنها خير رفقة له وخير مؤانس لمهجته.

وقد حظي الربيع دون غيره من الفصول بالتفات شعراء العربية، كأن الربيع وحده هو فصل الجمال والصفاء والحبور، وبقية الفصول أوانٌ لكسب الرزق واحتمال قبح الحياة، كما قال الطائي:

دنيا معاش للورى حتى إذا ... جاء الربيع فإنما هي منظر

ولو درى لعلم أن هذه الدنيا منظر لمن شاء أن يرى ويشعر في كل الفصول وفي جميع حالاتها ومظاهرها، وإن للشتاء لروائعه وجاذبيته كما للربيع، وإن جميع مجالي الطبيعة وأشكالها لمسارح للب الشاعر ومجالات لفنه وتصويره، وقد تغنى شعراء

الإنجليزية بفتنة الخريف كما ترنموا بسحر الربيع، واستجاشهم غضب اليم وتجهُّم الأفق كما استهواهم صفاؤهما ووداعتهما.

ومن شعراء العربية من يضيق باعهم في وصف الطبيعة قبل أن يقولوا في المنظر المجلو أمامهم أبياتاً، ويدركهم العجز والإحالة فيسبحون بقدرة البارئ ووحدانيته، كما قال النواسي:

على قضب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

وقول أبي تمام:

صبغُ الذي لولا بدائع لطفه ... ما عاد أخضر بعد إذ هو أصفر

فقدرة الخالق أمر لا شك فيه، والإشارة إليها في هذه المواقف سذاجة في القول والتواء في استرسال الفكر، وهرب من مواصلة التأمل والوصف، والموقف موقف استمتاع بالجمال وتصوير له، لا موقف وعظ وخشوع. وأزن هذين البيتين بقول تنيسون في زهرة ضئيلة: (أيتها الزهرة النامية بين شقوق الجدار، ها قد انتزعتْك أناملي، وهاأنت كلك محمولة في كفي، بيد أني لو استطعت استكناه سرك لعرفتُ سر الله والإنسان جميعاً) فهذا شاعر يفكر ويتأمل ويتوق إلى المعرفة، وذانك شاعران يسلمان تسليم العجز، فلا أجادا التصوير ولا استرسلا في التفكير.

فأغلب شعر الطبيعة في العربية - على قلته - تنقصه حرارة الشغف بها وطول مصاحبتها وممازجتها روحاً بروح، وإدمان التأمل في محاسنها ومحاولة النفاذ إلى معانيها، وصدق التعبير عن وحيها ودقة الوصف لمجاليها المتعددة، وظلَّ الالتفاتُ إليها دائماً ثانويا، والانتباه إليها عرضياً، والأنس بها وقتيا وشيك الزوال.

بل كان من فحول العربية من كان بينهم وبين الطبيعة حجاباً كثيفاً، فندر أن أعاروها بالاً، ولم يقع ذكرها في شعرهم ونثرهم، إلا وقوع الغلط، كالمتنبي والشريف الرضي، برغم كثرة أسفار الأول بين العواصم والفلوات، وقد صرف الكُتَّاب صناعتهم إلى كثير من وجوه البيان، فلم يختصوا الطبيعة بكبير عناية، وتوخى بديع الزمان في مقاماته أن يضرب في كل ناحية من نواحي القول بسهم، ليبدي براعته للقارئين، إلا الطبيعة فأنها لم تفز منه بالتفات.

فالعربية تكاد تقفز من الوصف الطبيعي السامي لذاته، لولا شاعر فرد هو ابن الرومي الذي تنطق أشعاره بحبٍّ للطبيعة عميق، وانجذاب لسحرها لا يدافع، ونظر في محاسنها وأغوارها نافذ، وقد أنشأ لوصف مختلف مظاهرها قصائد كثيرة، أودعها خير ما في

العربية من وصف الجنان والفلوات، والأصائل والأسحار، والغيم والمطر، والطير والوحش، وشعره في كل هذا يضارع أسمى ما في الشعر الإنجليزي.

وضآلة حظ الطبيعة في الأدب العربي راجعة إلى عوامل متتابعة توالت على الأدب في مختلف عصوره، فحالت دون أن يكون ترجمانا صادقاً مبيناً لشعور أصحابه في هذا الباب، وهي أولاً بداوة العرب في أول تاريخهم، وثانياً تكسب الشعراء بشعرهم في عهد الحضارة والدولة، وثالثاً شدة محافظتهم وتقليدهم للمتقدمين، وأخيراً تغلب الصنعة اللفظية في عهد تدهور الأدب.

فوصف محاسن الطبيعة وآثارها في النفس وصفاً مسهباً محكماً مقصوداً لذاته عمل فني لا يتأتى إلا بأعمال الفكر ورياضة النظم، وهو مالا يتيسر في عهد البداوة، فضلاً عن أن المناظر الصحراوية واحدة متكررة صارمة لا تحفز إلى التصوير الشعري المسهب كما تحفز إلى التأمل في الخالق ورهبته وحكمه صنعه، وقد ظلت هذه النزعة الدينية التي بثتها البادية في نفوس العرب، وكانت التنشئة الدينية في العصور التالية تنميها فيهم منذ الصغر، مصاحبة لهم فيما بعد، تغْلبُهم على الاستمتاع بروائع الجمال الطبيعي وآيات الفن الإنساني، فنرى شاعرهم إذا وقف بمنظر فتان أو أثر خلَّفه القدماء فسرعان ما ينصرف عما ثمت من معاني الجمال أو القوة إلى التسليم بعظمة الخالق وضعف المخلوق وفناء الأفلاك وسقوط الجبابرة، وقد سبق التمثيل لشيء من ذلك، والبحتري يقول:

أناة أيها الفلك المدار ... أنهب ما تصرف أم جُبار؟

ستَفنى مثل ما تُفنى وتَبلى ... كما تُبلى فيدرَك منك ثار

ولما تحضر العرب وشاهدوا الأقطار الواسعة ونعموا في الجنات اليانعة، ودخل أدبهم

في طور الثقافة والصناعة الفنية، ظهرت آثار الوصف الطبيعي في بعض أشعارهم، ولكنها كانت قليلة كما تقدم، وعمهت عيون أكثر الشعراء عن محاسن الطبيعة وأسرارها في غمار المدينة، حيث تكأكأوا متزاحمين على عطايا الأمراء، وزهدهم في وصف المناظر الطبيعية قلّة ما ورد منها في شعر المتقدمين الذين كانوا يترسمون خطاهم، حتى إذا كان عهد الاضمحلال الأدبي غلب التظرُّف واصطناع الرقة والنكتة اللفظية على الشعر ففقد كل روح وحرارة.

أما الأدب الإنجليزي فلم يخنقه جو المدينة أو يرهقه تقليد القدماء إلا في عصر محدود ما لبث أن بددته النهضة الرومانسية التي كانت في جوهرها عودةً إلى الطبيعة أي إلى الشعر الصحيح وبين النقاد المحدثين من يأبى قبول ما نظمه أقطاب العهد الكلاسي في عداد الشعر الصحيح، وفيما عدا ذلك العهد كانت الطبيعة دائماً قبلة الشعراء شَغَفَهم بها حبّاً أمران: تعدُّدُ مجاليها وتتابع تقلباتها واختلاف صورها في بلادهم، ودراستهم للشعر الإغريقي الحافل بالصور الطبيعية. ويتجلى أثر هذا العامل الأخير في المقطوعة التي نظمها كيتس معبراً عن شديد حبوره وبالغ متعته عقب قراءة ترجمة الإلياذة.

بيد أن اللغة العربية ذاتها حافلة بالأسماء والأوصاف لشتى مظاهر الطبيعة وآثارها، وحالاتها وأوقاتها، غنية بكل ما يحتاج إليه الأديب القدير لينقل على القرطاس أيّ المناظر الطبيعية شاء، نقل المصور الصناع، وهنا أيضاً يبدو لنا التفاوت بين مقدرة اللغة واستعدادها، وتقصير أدباء العربية في عهد ازدهار الحضارة دون كثير من غايات الأدب.

فخري أبو السعود

في الخطابة

للأستاذ عبد المجيد نافع

كانت الخطابة ولا تزال من أقوى وسائل الإقناع، وهي أفعل في النفوس من الكتابة؛ وشتان بين الكلام الحي والكلمات الجامدة؛ وإذا كان الكاتب يعرض عقله ومنطقه فأن الخطيب يبلغ موضع الإقناع من نفوس السامعين بروحه، ويطبعهم بطابع شخصيته. ولا شك أن لروح الإجتامع أثرها في النفوس، فقد فرغ علماء النفس من تقرير أن الفرد في الجماعة أشد قابلية للتأثر، وأعظم اندفاعاً في طريق الحماسة، ولذلك ترى بعض الناس إذ خلوا إلى أنفسهم، وتخلصوا من حماسة الجماعة فقرءوا في هدوء الخطب التي سبق لهم سماعها عجبوا كيف كان لهذا الكلام العادي المبتذل كل هذا الأثر البليغ في نفوسهم. ولا تنس أن للبيئة والظروف المحيطة والذكريات المثارة أثرها الفعال في النفوس. وليس من يماري في أن المرحوم سعد باشا كان في طليعة الخطباء؛ شخصية بارزة، وذهنية خصبة، وعقلية جبارة، وبديهة حاضرة، ولفظ مختار، وقدرة على الارتجال لا تجارى ولا تبارى، ولكن لا تعتقد أن هذه المواهب مجتمعة كانت هي وحدها العناصر المؤلفة لشخصية (سعد الخطيب). وإنما كان سعد إذا نهض يخطب نهضت معه الذكريات، وتراءت حوله المثل الوطنية العليا. كان سعد إذا خطب ثارت أمام الخواطر ذكريات مالطة، وسيشيل، وجبل طارق؛ والحرية المسلوبة، والاستقلال المغصوب، والضحايا والشهداء الذين بذلوا أرواحهم وأراقوا دماءهم في سبيل الحرية والاستقلال. والخطب الخالدة في التاريخ التي ألقاها عظماء الرجال تستمد قوتها وخلودها من عظمة شخصياتهم ورهبة المواقف التي كانوا يقفونها، أكثر مما تستمد هذه القوة وذلك الخلود من قيمتها الذاتية. ولو أنك عرضتها على محك النقد الصادق، وحللتها في ضوء المنطق والمعقول، لوجدت أنها لا تكاد تجاوز دائرة غيرها من الخطب المألوفة. وإنما أثار طارق بن زياد الحمية في نفوس جنوده حين أهاب بهم: (العدو أمامكم والبحر وراءكم. . .) لا بجمال الصورة وروعة التمثيل وحدها، وإنما أثارها بشخصيته العظيمة، والموقف التاريخي الذي كان يقفه. وإذ هتف نابليون في جنود حملة إيطاليا غداة المعركة التي اشتبك فيها مع جنود النمسا فسحقهم في سهول لومبارديا: (إن الحكومة مدينة لكم بالشيء الكثير، ولكنها لا تستطيع أن توفيكم حقوقكم، واليوم ترون أمامك الثراء والمجد). نقول إن روح نابليون وموقف الجند هما اللذان أضرما في نفوسهم جذوة الحماسة أكثر مما أججتها كلمات نابليون. والزعيم الشاب مصطفى

كامل حين أرسل الصيحة الخالدة: (بلادي! بلادي! لك حبي وفؤادي) تغلغلت في نفوس المصريين، لأنها خرجت من أعماق نفس وطنية مخلصة، ونفذت إلى أعماق قلوب تؤمن بالحرية وتدين بالاستقلال. وإن نظريتنا لتصبح بمأمن من كل معارضة، وبنجوة من أي نقد، إذا ذكرت أن الخطيب العظيم يُسمع ولا يقرأ، وأن الخطب الخالدة في التاريخ لا تكاد ترتفع فوق المستوى العادي.

كان للخطابة في الماضي شأن أي شأن، فقد ثلت عروشاً ودكت دعائم ممالك، وأقامت عروشاً وممالك مكانها، ونصرت أقواماً وخذلت آخرين، وقبرت دعوات وبعثت أخرى، ودفنت مبادئ وأحيت غيرها. وإنما تبلغ الخطابة شأوها وتصل إلى أوج مجدها إبان الثورات والفورات والهبات والانقلابات والفتن السياسية والاجتماعية وأطوار التحول والانتقال. ذلك بأن غليان النفوس وثورة الأفكار يجعل الناس كالهشيم اليابس الذي تكفي شرارة واحدة لإضرام النار فيه، وإذا كان هذا هو شأن الخطابة في الماضي فلا شك أن شأنها قد ارتفع، وأثرها قد تضاعف في عصر الديمقراطية الحديث.

وفي الواقع أن الخطابة أقوى أداة من أدوات النضال السياسي والتطاحن الحزبي، وكل حزب بحاجة إلى بث دعوته وترويج سياسته، والهتاف بمبادئه، وكسب الأنصال واجتذاب الأشياع. وهو يتوجه إلى جمهور متباين العقليات مختلف المشارب والمشاعر، جم المنازع والأهواء، فلا مندوحة للخطيب عن قوة الشخصية وسحر البلاغة، والإلمام بنفسية الجماعات لبلوغ مكان الإقناع من نفوسهم. ولابد للدعوة، سواء أكانت سياسية أم اجتماعية أن تبلغ الكوخ والقصر، وتصل إلى أدنى الطبقات وأسماها. والديمقراطية الحديثة أتاحت لكل رجل مهما كانت الطبقة التي نبت فيها، والبيئة التي نشأ بين أحضانها أن يصل بمواهبه وكفايته وملكاته وجهوده إلى أسمى مناصب الدولة، وهو إنما يتخذ من أكتاف الجماهير سلماً يصعد عليه إلى قمة السلطة وذروة المجد. أرأيت إلى لويد جورج وهتلر ومصطفى كمال وموسوليني كيف بلغوا مكان الزعامة من أقوامهم، ومركز السلطان من شعوبهم؟ ليس من ينكر أن الخطابة كانت أحد العناصر البارزة في تكوين نجاحهم. ولقد

بات الكلام في الجماهير فناً يحرص الزعماء والقادة على إتقانه وتجويده، وأضحى التعبير عن إجادة الكلام يدل دلالة صريحة على مبلغ القوة والسحر الكامنة في ثنايا الكلام الخلاب، أولا تذكر قول الرسول عليه صلوات لله وسلامه: (إن من البيان لسحراً)؟ ثم ألا يسترعي نظرك تحولهم هذا من ملوك الكلام وذاك من أمراء البيان؟ ولو أنك رحت تفتش في تاريخ معظم القابضين على زمام الشعوب والآخذين بأعنة السلطة القائمين على مصاير الأمم لوجدتهم من الخطباء المصاقع والمداره المقاويل. فالوزراء في إنجلترا وألمانيا وفرنسا وإيطاليا وغيرها من دول الغرب جلهم إن لم يكن كلهم من الخطباء المفوهين.

بل لقد أصبحت الخطابة هي الوسيلة لتي تسمو بصاحبها إلى أسمى مناصب الدولة، وتبوئه مكان الزعامة من أمته، حتى ضاق خصوم الخطباء بنفوذهم صدراً وتبرموا بتضخم سلطانهم، فتراهم ينعون على الديمقراطية الحديثة طغيان حكومات المحامين عليهم.

طغت موجة الخطابة على الأمم في العصر الحاضر حتى لترى بعضهم بنسب مصدر المشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية الحاضرة إلى نقص في كفاية المتولين لزعامة الأمم الذين لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه إلا بتزويق الكلام، وتنميق العبارات. ولا يرى هذا البعض دواء لداء المدنية الغربية إلا بالعدول عن الاسترسال بالثقة إلى تجار الكلام، وتفويض الأمور العامة إلى الفنيين من ذوي الكفايات.

والمعارك الانتخابية هي الميدان الفسيح لتجلي المواهب الكلامية، والملكات الخطابية. ولا بد من تعمق في درس نفسية الجماعات وتفهم ميول الجماهير لكفالة النجاح في ميدان النضال الانتخابي. ولذلك ترى بعض الخطباء لا يتورعون عن بذل الوعود والإسراف في العهود. بل إنك لترى بعض زعماء الأحزاب وقادة الهيئات لا تتراجع ضمائهم أمام تصوير الخيالات حقائق والمستحيل ممكناً مستطاعاً. والنظام البرلماني الحديث يتطلب نجاح أكبر عدد ممكن من مرشحي الحزب الذي يخوض غمار المعركة الانتخابية لإنجاح فرد أو أفراد. فقد تعددت الأحزاب والهيئات في أمم الأرض جميعاً.

وإذا كانت تختلف في البرامج والميول الشخصية، فنجاح حزب من الأحزاب بالأغلبية في الانتخابات له أهميته وخطره. فإذا كانت التقاليد البرلمانية تقضي بأن الأغلبية هي التي تتسلم مقاليد السلطة، وتتولى زمام الحكم، وتوجه السياسة العامة، فنجاح هذا الحزب أو ذاك في الانتخابات له أهميته لأنه يدل على طريقة الحكم، وأسلوب دارة شؤون الأمة، والطابع الذي تطبع به سياسة الدولة.

وليس يستوي أن يكون على رأس الأحكام في إنجلترا حزب المحافظين، أو حزب الأحرار، أو حزب العمال، فلكل حزب أسلوبه في الحكم ومبدؤه في السياسة العامة. كذلك ليس من الظواهر التي لا تسترعي النظر أن يكون على رأس الحكومة الفرنسية المسيو ليون بلوم أو المسيو بيير لافال.

ودور النيابة هي ميدان يتبارى فيه الخطباء السياسيون كل يحاول كسب الأصوات وجذب الأنصار إلى جانبه، وإذ كان أحد البارزين في مجلس العموم البريطاني قد قال: (إن الخطب البرلمانية تغير رأيي ولكنها لا تغير صوتي)، فلا يمنع أن للخطابة شأناً أي شأن في مجلس النواب، أو لم يكن كليمنصو يسقط وزارة بخطبة حتى لقبه مواطنوه الفرنسيون بالنمر وأسموه (هدام الوزارات)؟ أوليس ينقذ سفينة الوزارة من الغرق خطبة من تلكم الخطب الخالدة الموفقة؟ أرأيت كيف أن بريان يوم ضيق عليه خصومه الخناق واستجوبوه في مجلس النواب عن تصرفه إزاء العمال المضربين حين أنذرهم بالتجنيد إن لم يكفوا عن الإضراب، نقول أرأيت كيف أن بريان انتزع تصفيق المجلس وحصل على قرار الثقة بوزارته حين لوح بيده صائحاً من أعماق نفسه: (هذه يدي فانظروا إن كانت تلطخها قطرة من الدماء!) وهل من يجادل في أن القادة في المجالس النيابية يتجاذبون الأغلبية، ويبذلون الجهود الجبارة لانحياز الأنصار إلى صفوفهم؟ بل إن غزو السلطة والتنازع على الحكم وشهوة السلطان، لتهدد في بعض الأمم بالتقلقل الوزاري، والخطابة بلا ريب، سلاح من أسلحة النضال.

ولا تستطيع المعارضة أن تؤدي واجبها في النقد البريء النزيه حيال الأغلبية القابضة على زمام السلطة إلا بالكلام. بل لا يستطيع أي مجلس نيابي أن يقوم بواجبه المقدس في الإشراف والهيمنة على السلطة التنفيذية بغير الخطب الداوية. صحيح أن خطباء المجالس لا ينبغي لهم أن يحرصوا في خطبهم البرلمانية على إرضاء الجماهير وتملق شعور الجماعات، وإنما لابد لهم من الكلام المستمد من الشعور ومن الدرس العميق ومن مصلحة البلد ليؤدوا أمانة النيابة عن الأمة. لقد كان خصوم لامرتين يتهمونه ظلماً بأنه (يتكلم من النافذة): أي يرمي بخطبه البرلمانية إلى إسماع صوته للجماهير خارج المجلس. ولكن الرجل كان بريئاً مما افتروا عليه، وإنما كان حراً في عقيدته، مستقلاً في رأيه، غير فان في شخصيته أحد، ولا واقع تحت سلطان حزب من الأحزاب؛ ولذلك كنت تراه تارة يؤيد بيتر، وطوراً يؤيد جيزو على بعد الشقة بين السياستين، ولم يكن يأخذ عليه المنصفون شيئاً لأن الرجل جعل قبلته الحق ومصلحة الوطن.

وإذا كانت الخطابة سلاح المعارضة في الهجوم، فهي كذلك سلاح الأغلبية في الدفاع؛ وليس أمتع من قراءة الخطب التي يلقيها مصاقع الخطباء البرلمانيين في الغرب كرّاً وفرّا وهجوماً ودفاعاً، ناهيك بسماعها! وهل أروع وأبدع من قراءة خطب بت وفوكس ودزرائيلي وجلادستون ولويد جورج وبريان وفيفياني وجوريس؟ كان عام 1906 أول عهد كليمنصو بالدخول في الوزارة؛ ولطالما مزق النمر الفرنسي وهو في المعارضة خصومه تمزيقاً؛ وأصبح وزيراً للداخلية وأمست سياسته حيال العمال المضربين هدفاً يصوب إليه الحملات جماعة الاشتراكيين، وعلى رأسهم جوريس، وجوريس مدره مفوه؛ بل لقد ذهب بعض المؤرخين إلى اعتباره أعظم خطيب في القرن التاسع عشر في أوربا بأسرها. ووقف كليمنصو في وجه العاصفة الاشتراكية لا يجد الروع سبيلاً إلى قلبه. ثم صاح صيحته: (لقد لمست في الحال أن الحملة تنطوي على الرغبة في ذبحي على مذبح الاشتراكية، لكن وا أسفاه! فأني لست من تلك الضحايا المستسلمة، المستعدة لتقديم أعناقها البريئة طائعة إلى سكين القصاب. إني لأقاوم وأقاتل. إني لأصيح وأتمرد، وما حفزني إلى اعتلاء المنبر إلا الرغبة في إرسال صيحة الاحتجاج).

والمؤتمرات السياسية وغيرها هي الأخرى مجال فسيح لظهور المواهب الخطابية.

على أني أحب ألا يفهم أن قولي ينصب على الخطابة السياسية، والخطابة السياسية

وحدها، ففي دور القضاء تتجلى الخطابة القضائية؛ وترى بين المحامين وأصحاب الدعوى العمومية والجالسين في كراسي الاتهام الخطباء المصاقع وأمراء الكلام، لكن لا ينبغي أن ننسى أن لون البلاغة السياسية يفترق عن لون البلاغة القضائية وإن كانا يتفقان في الغاية وهي الوصول إلى مكان الإقناع من النفوس. ومن الطبيعي أن تختلف هذه عن تلك، فالجمهور غير الجمهور والبيئة ليست هذه البيئة. وفارق بعيد بين أن تخاطب قضاة مرنوا على سماع مختلف الكلام حتى لا يخدعوا بالمزوق المنمق منه وبين جمهور محدود المواهب والملكات. وشتان بين موقف محام درس ملف قضيته وتأهب للرد على كافة حجج الخصوم، واستعد تمام الاستعداد لدفع اعتراضاتهم، وبين خطيب برلماني أمامه خصوم ومنافسون، وتنهال عليه الاعتراضات والمقاطعات من كل جانب. ومهما يكن من شيء فالبلاغة هي البلاغة، وسحر البيان هو سحر البيان، ولابد من التدرع بالبديهة الحاضرة والتذرع بالدرس العميق وعدم الاعتماد على شقشقة الكلام.

ولا نرى مندوحة عن أن ندرج المحاضرات العامة تحت كلمة الخطابة فالمراد هو الكلام في الجماهير.

ولم يخل عصر من العصور من الخطباء المصاقع الذين يملكون أعنة البلاغة. فلقد عرفت جزيرة العرب خطباء مفوهين من أمثال قس بن ساعدة الأيادي، وعلي بن أبي طالب، وزياد بن أبيه، والحجاج الثقفي، وسحبان وائل، وغيرهم وغيرهم. وديموستين اليوناني أبقى على الأيام من الأيام، وشيشرون الروماني أبقى على الزمن الباقي من الزمن. ثم ألا تزال صيحة ميرابو داوية يوم صاح في وجه رسول الملك: (اذهب وقل لمولاك: إننا مجتمعون هنا بإرادة الشعب ولا نخرج إلا بقوة السيوف!). ثم ألا يزال التاريخ يذكر صيحة نابليون وجنوده: (إن أربعين قرناً تشرف عليكم من سماء هذه الأهرام). وأخيراً أو ليست خطبة طارق بن زياد خالدة على وجه الزمان حين جلجل بكلمة الحق وأهاب بجنوده: (العدو أمامكم والبحر وراءكم. . .) فأقسموا أن يقاتلوا حتى تدين لهم بلاد الأندلس أو يموتوا دون الغاية.

والآن نسأل: هل الخطابة ملكة أم اكتساب، وموهبة أم مران؟

ولكنا نرى أن قد امتد بنا نفس الكلام إلى حد نخشى معه الملل فموعدنا معك الأسبوع القادم إن شاء الله.

عبد المجيد نافع المحامي

الثمرة الأولى لثورة فلسطين

للأستاذ قدري حافظ طوقان

لم تعد قضية فلسطين خافية على أحد.

فلقد امتلأت الأجواء بضجيج الأمواج اللاسلكية حاملة على أجنحتها أخبار فلسطين وأنباءها، وأصبحت ثورتها حديث الناس في مجتمعاتهم وأنديتهم ومجالسهم، حازت إعجابهم إعجاباً أحاطه عطف وشعور وإشفاق. وقال الناس للناس: ألم تروْا كيف عرف عرب فلسطين طريق الحياة فشقوها، وقاموا بالمعجزات في نهضتهم، وضربوا المثل الأعلى في التضحية، ودقوا باب الحرية باليد المضرجة، فأعلنوا سخطهم على سياسة الانتداب بالإضراب العام الشامل والاضطراب؛ وقد مر عليهما ما يقرب من ستة أشهر، وهم معطلون أشغالهم ومصالحهم، ثائرون في سبيل قضية إنسانية عادلة - قضية الدفاع عن الكيان - ناقمون على من يريد إذلالهم وإخضاعهم، عازمون على مواصلة الكفاح، إلى أن يحق الله الحق، وإلى أن ترجع بريطانيا عن نواياها نحو بلادهم.

لفتت قضية فلسطين أنظار العالم، وتطلع إليها، فشملها المسلمون بعطفهم والعرب بتأييدهم، وامتلأت نفوسهم آلاماً لما أصاب عرب الأرض المقدسة.

وقاموا متضافرين غاضبين من أجلهم يناصرونهم ويدعون إلى إنصافهم ومساعدتهم، وعقدوا الخناصر على صيانة فلسطين وحفظها، فقويت الأواصر بينها وبين البلاد المحيطة بها، وتوثقت العُرى واشتبكت الوشائج، وتعهد ملوك العرب وأمراؤهم ورجالات الإسلام بقضية فلسطين تعهداً يرفع عنها الظلم النازل بها ويضمن لها كيانها العربي ويدفع عنها أي اعتداء على مقدساتها، تعهداً أخرج فلسطين من حيزها الضيق إلى حيز العالم العربي، فأصبحت بذلك جزءاً من القضية العربية الكبرى وعاملاً من عوامل السلام في الشرق العربي.

هذه هي الثمرة الأولى التي جنتها فلسطين من ثورتها وغضبتها وما كان لهذه الثورة أن تثمر هذه الأثمار لولا خاصيتان امتازت بهما على غيرها من الثورات:
الأولى أنها امتازت بالشمول، إذ اشترك فيها جميع الطبقات كل بحسب دائرة اختصاصه، ولم يحن الوقت لتفصيل ذلك، ولولا هذه الخاصية لما كانت حركة فلسطين على ما هي
عليه من القوة والعزيمة والمضاء.
والثانية أنها امتازت بالسموّ، وهذه الخاصية هي التي أكسبت الثورة روعتها وجلالها وقدسيتها وجعلتها محل إكبار الشعوب وموضع دهشتهم. فقد سمت النفوس وبعدت عن الأهواء والغايات الشخصية واعتنقت مبادئ الثورة المقدسة، فإذا العربي في فلسطين يسمو بنفسه ويرتفع بها إلى العلاء، وإذا هو في جوّ من الروحانية نزع الأحقاد من الصدور وأحل الوئام محل الخصام ونشر ألوية المودة والمحبة والرغبة في التعاون بين الناس.
وإذا هو لا يرى في سماء بلاده إلاّ أرواح الصحابة والصديقين والشهداء، ولا يرى في أرض بلاده إلاّ دماء هؤلاء مبثوثة بين ذرات التراب، وإذا العرب في فلسطين اليوم غيرهم بالأمس، شغلهم الإخلاص وشغلهم حب الوطن فشغلوا العالم بما شغلهم وقالوا قولاً صريحاً إلى الأجيال لا غموض فيه ولا التواء:
لن تكون فلسطين وطناً قومياً لليهود
ولن يكون في فلسطين وطنٌ قوميّ لليهود
(نابلس)
قدري حافظ طوقان
نهضة المرأة المصرية
رسالة وجوابها
رسالة الآنسة أمينة
سيدي الأستاذ فليكس فارس: -
دفعني إعجابي الشديد بمقالتكم في (الرسالة) إلى الإقدام على الكتابة لأقدم لكم خالص شكري وشكر زميلاتي على ما تفضلتم به (على الجنس الضعيف) من نصائح ثمينة، ودرس عميق في سبيل رفع مستوى المرأة المصرية.
ومع أنني يا سيدي أؤمن بكل كلمة كتبتها تحت عنوان: (نهضة المرأة المصرية) وواثقة بأنكم درستم الموضوع من جميع نواحيه، فأني أرجو أن تتفضلوا بالسماح لي أن أضيف مشهدين آخرين (هما مقتل الأمة، وعلة دمارها):
الفتاة المصرية الحديثة ضحية استبداد أهلها وضحية ضلال الرجل وغروره.
المشهد الأول: أسرة مؤلفة من أب وأم وبنين وبنات، ثقفت الفتاة منهن أحسن ثقافة، وتحلت بأجمل ما في الأخلاق الغربية والشرقية، وبعد ذلك تقبر في بيت ذويها حيث تبقى مسلوبة الحرية، إلى أن يمن الله عليها بمن يخطبها من أهلها فتصبح زوجة لمجهول (نكرة ضمت إلى نكرة، فتبدأ المآسي. . . .) فهي فاقدة حرية التصرف في مسألة اختيار زوجها، كما أنها مضطرة إلى التسليم بمن يختار لها بعلاً كي تتخلص مما هي فيه من . . .
سيدي: إنني أشفق على نفسي وعليكم من ذكر بعض ما تتحمله الفتاة المصرية من آلام نفسية ومادية وهي بين أهلها. فهي دائماً في خلاف مستمر لما بينها وبينهم من تفاوت في العلم والتفكير والرقي، وتعسة مع زوجها النكرة لما بينها وبينه من تنافر الأخلاق والطباع. إن الأمة المصرية اليوم في دور انتقال من القديم إلى الجديد، ومن الاستعباد إلى الحرية في حياتها السياسية والعلمية والأخلاقية والنفسية؛ ومن الصعب جداً التوفيق بين القديم والجديد، ولابد لكل دور انتقال في حياة الشعوب من ضحية - والفتاة المصرية اليوم هي ضحية هذا التطور.
المشهد الثاني: ينقسم الشباب المصري إلى قسمين: قسم لا يفكر في الزواج مطلقاً بل يفضل أن (يتلاقى بالفتاة التي تركها وهي مثقلة بالأوصاب من أن يعيش وإياها مستنيراً
بأنوار شمس الله). وقسم يتطلب في الفتاة المستحيل من الكمال والجمال والمال، وأهمها المال، فيجعل نصب عينه الزواج كصفقة مالية فيبحث عنها أين كانت؛ وزواج

أساسه المال هو بالطبع بدء حياة الشقاء للزوجين.
أراك يا سيدي بالرغم من دفاعك عن المرأة ومعالجة مسألتها معالجة صحيحة قويمة تلومها لنزولها إلى ميدان العمل. اسمح لي يا سيدي أن أقول إن المرأة المصرية الحديثة لم تتمرد مطلقاً على وظيفتها الطبيعية. فأنها بالرغم عن ثورة نساء العالم الربي المتمدين ومطالبتهن بالمساواة فإن المرأة المصرية ما زالت هادئة وادعة لا تهمها إلا شؤون بيتها وأولادها أو علمها وثقافتها - قانعة بكل ما يأتيها الزمان من سعادة أو شقاء. تقول يا سيدي (إن المرأة المترجلة الضلول ليست هي من نرجو لإحياء الأسرة وخلق الأمة الحية) وأظنك تقصد بالمترجلة المرأة العاملة. إن المرأة يا سيدي لا تنزل إلى ميدان العمل إلا إذا ألزمتها الحاجة القصوى إلى ذلك. أؤكد ذلك باختبار شخصي كما أنني شاهدت حالات كثيرة كان الدافع فيها لخروج الفتاة إلى العمل الاضطرار.
إن الفتاة المصرية هي الوحيدة التي لم تفقد أنوثتها ورقتها بالعمل؛ فهي وإن اضطرت إلى العمل تحن دائماً إلى تكوين بيتها والاهتمام بزوج مخلص يعولها وإيجاد أطفال يصلحون لتكوين الأمة القوية أجساماً السليمة عقولاً.
إنك يا سيدي تنكر على المرأة العمل ولكنك إذا بحثت في سبب ذلك تجد أن الرجل هو الذي دفعها إليه. فهو يهملها، أي يضرب عن الزواج، فتضطر إلى العمل لتمضية وقتها الطويل الممل، أو لكسب عيشها، وربما كانت تعول أسرة بأسرها. كل امرأة متهتكة أو عاملة هي صنيعة الرجل لأنه هو الذي حرمها العيش ومرّر حياتها فدفعها إلى ما هي فيه من بؤس.
وأخيراً تقول يا سيدي: (ليس كالمرأة من يصلح المرأة أو يفسدها. . .) ونقول: (ليس كالرجل من يصلح المرأة أو يفسدها. فهو بيده كل شيء. هو القادر أن يصونها في بيته فتصير له زوجة صالحة شريكة حياته وأم أولاده. كما لو كان أباً أو أخاً يمكنه أن يعول ابنته أو أخته فيعاملها بحنو ومحبة حتى لا يضطرها إلى السعي وراء عيشها. الفتاة المصرية الحديثة وديعة وضعيفة جداً، فهي تهاب العمل وتأباه ولا تلجأ إليه إلا مرغمة.
تجد يا سيدي اليوم ألوفاً من الفتيات المصريات المتعلمات الراقيات قعيدات البيوت؛ فماذا يفعلن وكيف يضعن ساعاتهن التي تبدو لهن أبدية؟؟ لذا تجدهن حيارى لا يعرفن كيف يتصرفن ليكسبن قلب الرجل. فإن هن اشتغلن قيل عنهن مسترجلات غير صالحات للزواج، وإن هن مكثن في منازلهن ذقن من أهلهن كل أنواع التقريع والهوان (لأنهن بائرات. فكيف الحل وأين المصير؟).
عفواً يا سيدي ومعذرة، فما دعاني إلى كتابة هذا إلا يقيني من إخلاصكم في سبيل الخير العام لخدمة المرأة المصرية الحديثة. وما هذه إلا نفثة من نفثات حارة مكتومة.
(قصر الدوبارة)
أمينة
جواب الأستاذ فارس
سيدتي الآنسة الناهضة:
أشكر لك شكرك لما أدليت به من آراء في مبحث المرأة، وأعجب فيك بعاطفة تنير وفكر يحلل ما يراه ظلماً وإرهاقاً. وقد حقَّ على كل عربي يتوق إلى إحياء حضارته أن ينحني إجلالاً أمام الرجولة في خُلق فتاة قومه، كما حقَّ له أن يرد جموح الترجّل في حياتها الاجتماعية.
إن ما فاتني ذكره في مقالي (نهضة المرأة) من محن الفتاة المصرية خاصة والعربية عامة لم يفته إيلامي وإيلام كل مفكر وطني لا تفتح الحياة جرحاً في كيان قومه دون أن يشعر بذلك الجرح في صميم فؤاده. وما اصطدام الفتاة بمن وبما حولها، وتعارضُ حياتها وما استقرّ فيها من الحوافز شعوراً وتفكيراً إلا من أعمق هذه الجراح وأخطرها عاقبة وأصدقها إنذاراً.
إن ما تلفتينني إليه، أيتها الآنسة الفاضلة، يتناول جزءاً من بحث كامل في حالة المرأة أوردته في فصل (منابت الأطفال) في كتاب رسالة العنبر إلى الشرق العربي، ولكنتُ أكتفي بهذه الإشارة لولا أنني أعلم أن كل معضلة اجتماعية لها منافذها العديدة يتطلع إليها المفكرون كلٌ من موقفه الخاص، فلا يمكن للحلول التي يوردها أي كاتب إجمالاً في أية

قضية اجتماعية أن تشمل جميع دقائقها وأنواعها، لذلك رأيت من واجبي الوقوف معك أمام ما تبين لك من أعراض الداء لأحاول معالجته جهدي.

إنك ترين أولاً أن الفتاة المصرية ضحيةُ استبداد أهلها.

فعلاَمَ يمكن أن يقع الخلافُ بين فتاةٍ وأهلها؟

إنه إن وقع على طُرق المعيشة في البيت، من حيث المأكل والملبس والرياش، فلا أحسب الأهل معارضين ابنتهم في كل تحسين تريد إدخاله، إذا هي لم تتجاوز حدود طاقة العائل، وليست المسألة في هذا الأمر من قبيل اصطدام الجديد بالقديم، بل هي مسألة تقدير بين ما يمكن الحصول عليه والطاقة المتوفرة. وللفتاة الرأي وليس لها الحكم في هذا، ولا أعتقد أن في العالم آباء وأمهات يضنون على فلذة أكبادهم بما يرونه ضرورياً. فإذا كان هنالك أبٌ يجود على نفسه ويحرم رعيته، وهي وديعة الله بين يديه، فمثل هذا الأب مسخٌ لا يصح أن يتُخذ أساساً لبحثٍ اجتماعي.

لقد لاح لك، يا سيدتي، أن سوء التفاهم ناشئ من التطور، وأن الفتاة هي الضحية بين رقيها وجمود أهلها، أما أنا فيلوح لي أن في وصف كل قديم بالجمود، ووصف كل جديد بالرقي على الإطلاق خطأ قد يكون هو السبب في ازورار الأبناء عن الآباء في هذا العصر وفي كل عصر، فالحقيقة التي بقع الخلاف عليها إنما هي حقيقة لا دخل للقديم والجديد فيها، لأن الحقيقة قد تكون في أحدهما دون الآخر أو في كليهما، ولا يمكن للباحث أن يقف في جنب الأبناء على كل حال آخذاً برقيهم كبرهان على جمود آبائهم.

وكثيراً ما تغتر الشبيبة بتطورها، فإذا ما تحسبه رقياً نوعٌ من الهوس وضربٌ من الغرور. ويقيني أن ليس للفتاة من يعطف عليها عطف أمها وأبيها مهما بعدت بينها وبينهما شقة الثقافة والعلم. ومهما بلغ حب الفتاة لأبويها فأنه يبقى دون حبهما لها، ولكن قد يتلبس حب الأبوين بعقيدة لهما في الحياة تختلف وعقيدة الفتاة فيبدو لها هذا الحب بغضاً وتحكماً واستبداداً. فإذا كان العلم والتهذيب لم يرفعا بروح هذه الفتاة إلى مرتبة الرقي الحقيقي ولم ينيلاها من النور ما تكشف به الظلام عن بصيرتها وبصائر من حولها أخذت بالظواهر فانقلبت ثائرة تطمح إلى إقناع أهلها بالعنف معتقدة أن من حقها وقد تعلّمت وجهلوا أن تصبح أماً لأبويها فلها الأمر وعليهم الطاعةُ العمياء.

إن الفتاة التي لا يوصلها علمها وثقافتها إلى إقصاء الأوهام عن كل قديم وعن كل جديد، وإلى الوقوف تجاه أهلها موقف من يحمل نوراً لا من يحمل ناراً، لا تكون قد قطعت شوطاً بعيداً في مجال الثقافة الحق.

إن في العالم اتجاهاً إلى التكامل بارتقاء الأنسال المتتالية، وفي طبيعة الأبوين ما يجاري هذا الاتجاه بشعورهم الخفي بتفوّق أبنائهما، وليس من كائن في الأرض لا يقف في نصف طريق حياته مدركاً أنه ضيَّع الكثير من عمره، فهو يؤمل أن يفوز أبناؤه بما فاته من الحياة. فإذا ما عرفت الفتاة هذا واستعانت على أبويها بحبهما لها، فلا بد لها من استجلابهما إلى ما ترى إذا هي اتجهت إلى الصواب ولم تؤخذ من بهارج التجديد بما يقودها ويقود أهلها معها إلى الدمار.

أما إذا كان الخلاف واقعاً من طموح الأهل إلى إرغام الفتاة في اختيار الزوج، فما أراه، هو أن الآباء في كل زمان يغالون في حرصهم على مستقبل بناتهن فيتجاوزن بحق الاختيار الحدَّ الذي يتحصّن وراءه الاختيار الطبيعي الكامن في فطرة الفتاة، وعلى حرية هذا الاختيار تُبنى السعادة في الزواج ويضمن إيجاد النسل الصحيح.

وظاهرة هذا التحكم تصطدم اليوم بما تنبّه في الفتاة من شعور وقد أصبحت تدرك مميزاتها الشخصية وتستجلي سريرتها. وما أخالني قصّرت في مقالي عن نهضة المرأة عندما حملتُ فيه على هذا التحكم الذي وصفتُه تحكماً في قضاء الله وقدره.

إنني وأنا أدرك الأسباب التي تحدو بالآباء إلى الاهتمام بمستقبل بناتهنّ، مقدراً هذا العطف وهذا الحنان قدرهما، لا يسعني إلا لفت هؤلاء الآباء إلى خطورة موقفهم في هذا الأمر فأدعوهم إلى احترام الأمانة الضعيفة ولها رجاحتها في الذمم، كما أدعوهم أيضاً إلى التبصر في عاقبة الزواج المبني على الإكراه.

أي أب يقدم على إكراه ابنته على الزواج بمن تنفر فطرتها منه، إذا هو عرف أن حفيده من هذا الزواج سيجيء الحياة معتّلاً بجسمه أو مختلاً بعقله. . .

وهل في الشرق العربي اليوم من لا يزال يقول:

بنونا بنو أبنائِنا وبناتُنا ... بنوهنَّ أبناءُ الرجالِ الأباعد؟
أبيننا من لا يزال يعتقد وهو في القرن العشرين أن الرجل هو مصدر الحياة وأن المرأة ليست إلا مستودعاً للجنين.
لو يعلم القيمون المُكرهون أية جناية يأتون بتحكّمهم في الفطرة التي لا يسع الفتاة نفسها أن تتحكم فيها لكانوا يرعوون عن غيهم، إذ يتضح لهم أن وأد البنت في الجاهلية كان أقل فظاعةً من وأدها في زواج تموت فيه حيةً لتقذف إلى الدنيا بأطفالٍ تتعثر الإنسانية بهم في سيرها نحو الرقي.
غير أنني لا أعتقد أن في هذه الأيام من هؤلاء القيمين الأغرار عدداً كبيراً، وإذا كان هنالك بقية منهم، فأنني لا أعتقد أن من فتيات اليوم من تستنيم لهذا الضيم، فأن الفتاة المهذبة التي تشعر بشخصيتها لا يسهل على وليها أن يرغمها على الزواج بمن تكره، وهي تعلم أن الشرع السامي لا يأخذ بالإيجاب دون قبولها الصريح، ولكن إذا كان الإكراه غير مباشر وكانت الفتاة تلجأ إلى القبول بأي زوج للتخلّص من أهلها، فإنها في هذا الموقف مشاركة لهم في جرمهم إذا هي تصنّعت الحب، وتكفلت الإغواء تكلفاً لرجل يريد إدخال الحياة إلى مسكنه فلا تدخل إليه إلا مبدأ الشقاء والموت.
على الفتاة المثقفة في مثل هذه الحال أن تجاري فطرتها وتتحصن بحوافزها فلا تستسلم للتمثيل الدنيء، لأنها إذا كانت مُرغَمة على عدم النفور فلا شيء يرغمها على التظاهر بالحب والقبول لتسقط أبرياء في شركٍ تكون هي الضحية الأولى فيه.
ولكن هنالك من الرجال من غلظت رقابهم، وانطمس شعورهم إلى درجة لا يميزون فيها بين فتاة تميل إليهم وفتاة تنفر وتشمئز منهم. فويلٌ للمجتمع من مثل هؤلاء الرجال الذين تطفح فطرتهم بالشهوة وليس في قلبهم من الحب إلا خياله الأسود. أولئك الذين طغت عليهم الأنانية حتى خيّل لهم أن كل فتاة يطلعون عليها بمناكبهم العريضة وفي يدهم بعض المال وبعض الحليّ تخر ساجدة أمام بهائهم وعظمة أقدارهم، ويلٌ لبنات الأولياء المتغطرسين من رجل يحسب نفور الضحية حياء وازورارها دلالاً.
إن مثل هذا المخلوق لأشبه بالقابل الكهربائي لا بطّارية فيه ليحس باتصال الجهاز المقابل به أو انصرافه عنه. وكم من رجلٍ في القرن العشرين يذكّرنا برجل الكهف . . . يترصد الأنثى على الطريق فيبدأ بقرع رأسها بحجرٍ ليفقدها رشدها أولاً
ولو عرف هؤلاء المغرورون عواقب اعتدائهم لابتعدوا عمن تجول شهوتهم حولها لا رحمة بها، وهم لا رحمة فيهم، بل إشفاقاً على أنفسهم التي اتخذوها من دون الحق معبوداً.
لابدّ لنا ونحن في موقف الباحث يشفق على المعتدي في جهله كإشفاقه على الضحية في ضعفها، من أن نشير ولو تلميحاً إلى حقيقة أدى الجهل بها إلى معظم هذه المصائب التي تقضي على الأسر وتهدّ من بنيان المجتمع.
إن المرأة المُكرَهة في زواجها لا تُضار في جسمها ونفسها بقدر ما يُضار زوجها الباغي عليها، لأن في تكوين المرأة ما يساعدها على عزل قسطها من الإيجاب في وضعها السلبي، فتقي خلاياها من أن ينفذ إليها ما هو ترياق لها في حالة شوقها وما يصبح سماً زعافاً في حالة نفورها كما لها أن تقي أعصابها أيضاً من الهزّة الشاذّة عن طبقتها فينزلق الإكراه عليها انزلاقاً، وعندئذ تعمل الطبيعة عملها بردّ الفعل في جسم الرجل ونفسه وهو لا يدري، فكأنه لا حس المبرد يحس بالارتواء الكاذب وهو يشرب من دمه.
ما أكثر من عرفت من هؤلاء الرجال الذين تزوجوا بالإغراء، فقامت شهوتهم وأطماع الفتاة نفسها أو أطماع أهلها مقام الحب المتبادل، فرأيتهم يباهون بزوجاتهم كأنهن تكملة للرياش الفاخر في مساكنهم، ثم تمرّ الشهور فإذا هم يجرّون أرجلهم جراً بعد أن كانوا يسيرون في الأرض مرحاً، وإذا النور ينطفئ في أحداقهم وحق الطبيعة يكتب على جباههم آية الفاشلين.
ويلٌ لمن يخدع نفسه بمظاهر القبول ولا يبالي بإيجاب ما يشعر به كاملاً في سريرة من يريدها شريكة لحياته وأماً لأطفاله، إن هذا الرجل لأشبهُ بالتائه في الصحراء يتوقّع في كل مرحلة إرواء غليله من السراب يتوهج ماؤه، يتباعد إلى الآفاق كلما توهّم الوصول إليه.
هذا ما نراه في معضلة الإكراه الذي تشكو منه بعض فتيات البلاد، وما نشأت هذه

المعضلة إلا من أطماع المزوّجين وضعف المروءات في المتزوجين.
أما علاج هذا الداء فميسور بعد بيان ما تقدم بيانه إذا نفذت أشعة الحقيقة إلى قلوب الغواة والطامعين، إذ لا يمكن أن يبصر عبيدُ الشهوات ما تفتح ضلالاتُهم من مهاوٍ تحت أرجلهم دون أن يرتدعوا عن الانتحار والقضاء على أنسالهم، ولكنَّ في الحياة كثيرين ممن اتسعت أحداقهم ولكنهم عميٌ لا يبصرون.
تتمة البحث عن شباننا وسبب إضرابهم عن الزواج وعن)
العلة في بوار الفتيات في مقال آخر)
(الإسكندرية)
فليكس فارس
نبوّة المتنبي أيضا
للأستاذ محمود محمد شاكر
- 2 -
اللهمّ إنا نعوذ بك من فتنة الرأي والهوى، كما نعوذُ بك من سوء الاقتداء والتقليد.
يقول الأستاذ سعيد الأفغاني في العدد (171) من (الرسالة) بعقب حديثه عن رأينا - 4 في ردّ رواية اللاذقي - الذي كان قد آمنَ بنبوّة المتنبي أبي الطيب، وأسلمَ له، وبايعه بيعة الإقرار بصدق نبوّته، وزاد أن أخذ البيعة لأهله كذلك: (وقد رددتُ أنا قسماً كبيراً من رواية اللاذقيّ هذا لشيءٍ غير ما ذهب إليه الأستاذ الكريم، وسأبينه قريباً). وقد وفى الأستاذ بعدَته فأبان خيرَ الإبانة عن (الشيء) الذي من أجله (ردّ قسماً كبيراً) من رواية (اللاذقيّ هذا). وهذا بيانه بعد كلامٍ كثير، يقول: (وقد عجبتُ كل العجب من الأستاذ - وهو الناقد الأصوليّ الفنّان (أستغفرُ الله يا سعيد) - حين لم يدر لم اختصرتُ حديث اللاذقيّ؟ إذ أن الأمر ظاهر، فأن الزيادات التي أهملتها يرفضها العقل ويكذبها الواقع، ولم تكن ثمة حاجة لأدُلّ القراء على سبب إهمالها لأن تهافُتها بيّنٌ. وكثيرٌ أن تجردَ عليها حملةٌ كالتي نزل بها الأستاذ الميدان!! فخصَّص لها صفحتين من كتابه القيم، وهو يعلمُ حفظه الله أن من أدلة الوضع عند المحدّثين مخالفة الواقع والمعقول كما هو مستوفي بكتب مصطلح الحديث) اهـ.
عونكَ اللهمّ! فلستُ أدري من أين أبدأ في بيانِ تهافتِ هذا القول وتناقضه! هذا رجُلٌ سماهُ أبوهُ معاذاً فكان عند الذين قرءوا حديثه (أبا عبد الله معاذ بن إسماعيل اللاذقيّ)، وهو في الرواة مجهول غيرُ معروف بصدق ولا بكذبٍ؛ وقد جاءَنا هذا الرَّجُل ينبئنا عن أبي الطيب خبر قدومه اللاذقية سنة نيفٍ وعشرين وثلاثمائة، فيأتى بحديث طويل ممتدٍّ،
يذكر فيه حلية أبي الطيب وصفته وسمته وحسن أدبه، (2) ثم يذكر حديثاً جرى (1) بينه وبين أبي الطيب، فيقول له اللاذقي: (والله إنك لشابٌ خطير، تصلح لمنادمة ملكٍ كبير!) فيكون جواب أبي الطيب: (ويحك! أتدري ما تقول؟ أنا نبيٌ مرسل) (3) ثم يذكر رسالة أبي الطيب إلى أمته الضالة المُضِلة! وغرض رسالته؛ (4) ثم ما سمع من قرآن أبي الطيب الذي وصفه بقوله: (فأتاني بكلامٍ ما مرّ بمسمعيّ أحسنُ منه) (5) ثم يذكُرُ عدد آيات
هذا القرآن، (6) ثم يخرجُ إلى ذكر معجزة هذا المتنبي في حبس المدرار (المطر)، لقطع أرزاق العصاةِ والفجار، (7) ثم يقول إنه خرج مع غلام أبي الطيب ليرى المعجزة، فلمّا استيقنها واطمأن بها قلبُهُ انفلت إلى أبي الطيب وهو يقول: (أبسُط يدك. . . أشهدُ أنك رسولُ الله) فبسط يدهُ فبايعه بيعة الإقرار بنبوّته، (8) ثم لم يَنِ هذا اللاذقيّ حتى أخذ بيعته لأهله، (9) ثم يقول بعد: (ثم (صَحَّ) أن البيعة عمّت كل مدينة بالشام) (يا سبحان الله)، (10) ثم يعقِّبُ على ذلك أن معجزةَ أبي الطيب كانت (بأصغر حيلةٍ تعلمها من بعض العرب وهي (صدحة المطر)، (11) ثم يزعُم أبو عبد الله معاذ بن إسماعيل اللاذقي رضي الله عنه! (أنه رأي أهل السُّكون وحضرموت والسكاسك من اليمن يفعلون ذلك ولا يتعاظمونه، حتى إن أحدهم ليصدح عن غنمه وإبله وعن القرية التي هو فيها فلا يصيبها شيء من المطر، (12) ثم يقول إنه سأل أبا الطيب هل دخلت السكون، فيقول له: نعم! أما سمعت قولي:
مُلِثَّ القطرِ، أَعْطِشْها ربوعا ... وإلاَّ فاسقِها السَّمَّ النقيعا
أَمنْسِيَّ السَّكونَ وحضرموتاً ... ووالدتي وكندةَ والسَّبيعَا

ثم يقول هذا اللاذقي بعقب ذلك: (فمن ثمَّ استفادَ (أبو الطيب) ما جوّزه على طغام أهل الشام)، (13) ثم يختم حديثه بما كان يُمَخرقُ به أبو الطيب على أهل البادية بإيهامهم أن الأرض تُطْوى له وكيف كان ذلك؛ (14) ثم يزعمُ أن أبا الطيب سئلَ في تلك الأيام عن النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: (أخبر بنبوَّتي حيث قال: (لا نبيّ بعدي)، وأنا أسمى في السماء (لا)).

هذا مختصر حديث هذا اللاذقيّ، وأنت إذا قرأته بتمامه رأيته أحمق قولٍ يعجزُ عن الإتيان بمثله أحمق معتوهٍ لما فيه من الاضطراب والسخف والتلفيق والكذب، وقلة مبالاة هذا الرجل بنسبة الكفر إلى نفسه حين زعم أنه قال لأبي الطيب: (ابسط يدك، أشهد أنك رسول الله) ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فهذه أغراضٌ في كلام اللاذقي قد بينا لك عددها (14) تناول منها الأخ سعيد ثلاثة أغراض هي الثلاثة المتتابعة في تعدادنا، وقذف بالباقيات وردها وأهملها لأنها مما (يرفضه العقل، ويكذبه الواقع) كما قال في كلمته الأخيرة، ومن قبل ما قال في كلمته التي نشرها في

وسأعفي نفسي من أشياء كثيرة، وردت في (الصبح المنبي)) :(الرسالة - العدد 161) ويعني هذه الرواية عن اللاذقيّ (لا يقبلها عقلٌ ولا تؤيدها قرائن.

وأنا أسأل الأستاذ سعيد أن ينصف نفسه وينصفنا، وأن يعفينا من التأويل وطلب الحجة فيما لا تأتي منه الحجة إلا متكلفة على أبعد وجه وأضل سبيل. فانظر أيها الأستاذ سعيد إما جاءك رجل بحديث قد استيقنت أن نصفه كذب قد مزج بقول غير معقول، أفأنت مصدقه في سائر الذي جاءك به من الحديث؟ فإن قلت: لا أصدقه في سائر حديثه فقد بطل ما جاء به هذا اللاذقي كله، لأن أربعة أخماس من حديثه مما (يرفضها العقل ويكذبها الواقع) كما قلت أخيراً. ومما لا يقبلها عقل؛ ولا تؤيدها قرائن كما قلت أولاً. وإن شئت أن تتطلب الجدل فقلت أصدق بعضه، وأكذب بعضه، فأنت غير قادر على أن تنشئ لهذا الرأي حجة يلجأ إليها أو دعامة يعتمد عليها، فإن هذا اللاذقي رجُلٌ مجهول في الرواة لا يعلم حاله في صدق أو كذب، ومن كان كذلك نُظر في قوله، فإن كان الذي يأتي به من الرواية صدقاً كان ذلك مانعاً من اتهامه بالكذب إلا ببينة أخرى، وإن كان كذباً لم تجد بُدّاً من وسمِه بالكذبِ وإسقاط روايته كلها، وجملةً واحدةً؛ ويصبحُ ما أتى به كله كأن لم يُرْوَ ولم يعرفْ، فلا ينظرُ إليه في رواية أو تاريخ؛ فإن قلت أقبل المعقول وأردُّ غير المعقول، فلا بُدّ من أن نقول لك إنك قد اعتمدت في بعض قولك على مذهب أهل الحديث في علم الرواية، فقلت: (إن من أدلة الوضع عند المحدثين مخالفة الواقع والمعقول)، ونعم، فإن رواية ما يستحيل أن يقع، وما لا يأتي على وجهٍ يرتضيه العقل، ساقط عند المحدثين، وهم يتهمون صاحبه بالكذب لوضع فلا تقبل له روايةٌ أبداً، ولو كانت صادقة، ولو كان في قول غيره من الصادقين ما يقع عليها حرفاً حرفاً وكلمة كلمة. فهذا مذهب القوم بتمامه، ومذهب عقلاءِ الناس في أمر دينهم ودنياهم. واعلم أيها الأستاذ سعيد أن القول يُردّ ويُرفض ويكذب صاحبه لأنه غير معقول ويستحيل وقوعه، ولا يمكن في العقل أن يطرد عكسُ هذه القضية: فليس يقبل القولُ ويرتضي صاحبه لأنه معقول وجائزٌ وقوعه وحدوثه، ولست أشكُّ في موافقتك لي على هذا؛ إذن فليس من الحكمة ولا من الصواب ولا من العدل ولا من العلم أن تختصر حديث اللاذقيّ فتأخذ منه المعقول الجائز الحدوث، وأنت تردّ سائر حديثه بل أكثره، ثم تقول عنه في عدد الرسالة (161): (وقد حفظ لنا (التاريخُ) مشهداً من مشاهد هذه الدعوة (النبوّة) في اللاذقية). فليس شيء من كلام الوضاعين والكذابين مما يصحُّ أن يعتمد عليه في تاريخ أو غيره.

ثم لو نظر الأستاذ سعيد إلى هذا الحديث الذي عدّه (مما حفظ التاريخ من مشاهد دعوة أبي الطيب إلى نبوته) لوجدَ يقيناً أن هذا المختصر من حديث اللاذقيّ هو أيضاً (مما يرفضُه العقل، ويكذبه الواقع) و (مما لا يقبله عقل، ولا تؤيده قرائن)، فأن فيه من الوهن والضعف والتخالف والتناقض ما لو تدبره الأستاذ - وهو يدرس شعر أبي الطيب، ويصوِّر منه نفسه وطبائعها وغرائزها - لعلم أنه موضوعٌ متكلفٌ ليس فيه من الصدق شيء؛ ولم أردك بسوءٍ أيها الأخ إذ قلت في كلمتي السابقة إنك تأخذ من الكلام ما تشاءُ، وتدع ما تشاء، فتزول بذلك شبهاتك.

إن للرواية أصولاً لا يأتي لأحد أن يخرج عنها إلا بحجة لا تسقط عند النقد والنفض؛ ومن

أصول الرواية ألا تُقبل رواية من كذَب في أحاديث أو وضعها، وإن كان سائر الذي يرويه مما يعضده فيه رواية غيره من الصادقين، فكيف بمن يكون أمرهُ في الحديث الواحد: أربعة أخماس كذبٌ غير معقول، والخمس الباقي تختلفُ عليه الآراء في وصفه بأنه صدق أو كذبٌ، أو معقول وغير معقول، أو تؤيده قرينة أو لا تؤيده قرينة؟ ألا إن هذا أولى بالإسقاط والرفض والنبذ حيثما تُقِف، وكذلك هو حديث هذا اللاذقيّ المجهول.

5 - وقد أراد أستاذنا سعيد أن يوهم قارئ كلامه أننا اتخذنا رأينا - في نسبة أبي الطيب إلى الشجرة العلوية المباركة - (برهاناً) على رد رواية هذا اللاذقيّ المجهول لقولنا في ص 48 (أما اللاذقي فمجهولٌ ولا يتيسر لنا نقد سنده، ولكن مما شك فيه أن اللاذقية التي نسب إليها، كانت لوقت أبي الطيب موطناً لفئة من العلويين ومحطاً لكثير من كبار الدعاة العلويين الذين أحدثوا أحداثاً عظيمة في التاريخ العربي كلّه). فلذلك لم يتورع عن بتر بقية كلامنا، فقد قلنا بعقب هذا وبغير فصل (فلا بأس من أن تجعل هذا ذكراً مذكوراً وأنت تتبّصر في أصل الرواية على وهنها وتضاربها، وتهالك معانيها التي يفسدُ بعضها بعضاً كما سترى). فلو كنا قد اتخذنا هذا (برهاناً) لقلنا مكان (فلا بأس) (فلابد) ليستقيم المعنى الذي أراده لنا الأستاذ الجليل. ويخيل إليّ أن الأستاذ سعيد سيحاول أن يقع في هذا الكلام بالتأويل. فأنا أضرب له المثل على الفرق بين هذا وذاك، ليدع هذا الذي يعمد إليه من أفانين الكلام. فإنك لو أردت أن تعلم جاهلاً دين الإسلام بعد إيمانه بصدق القرآن وأنه وحيٌ من العزيز الحكيم، ثم أخذت تفهمه أن الصلاة عمود الدين وأن الله أمرَ بها عباده، والبرهان والدليل على ذلك قوله تعالى: (وأقيموا الصلاة)، فلست تقول له بعقب ذلك (فلا بأس) من الصلاة، وإنما تقول: (فلا بد من الصلاة).

ولو تدبر الأستاذ قليلاً كما سألناه في كلمتنا الأولى (عدد الرسالة 167) لعلم أن الإشارة في هذا الموضع هي إلى الذي قلناهُ في كتابنا ص17 - 19 من أنه كان بينه وبين العلويين عداءٌ وحفيظة بلغ من أمرهما أنهم ارصدوا له قوماً من السودان عبيدهم في طريقه بكفر عاقب ليقتلوه - وذلك مُنصرفَه من طبرية سنة 336 - حتى إن أبا الطيب لم يُحجم عن التعريض بهم، وهو يمدح كبيراً من أولاد عليّ رضي الله عنه بالرمْلة هو أبو القاسم طاهر بن الحسن بن طاهر العلوي فقال في مديحه:

أتاني وعيدُ (الأدعياءِ) وأنهم ... أعدُّوا لي السودان في كفر عاقب
ولو صدقوا في جدِّهم لحذرتهم ... فهل فيّ وحدي قولهم غير كاذب

وقال في مدح الأمير ابن طغج، وقد صحبه أبو القاسم العلوي وأقام معه في الرملة يحضر مجالسه.

وفارقت شرَّ الأرض أهلاً وتربة ... بها (علويٌّ) جدُّه غير هاشم

فلهذا ولغيره من آثار العداوة والبغضاء بين أبي الطيب والعلويين (مذهباً أو نسباً) قلنا في ص17 (إن عندنا في أقوال العلويين المعاصرين عن أبي الطيب سبباً للتوقف دون التسليم).

هذا على أن عندنا من الأسباب ما يحملنا على رد رواية العلويين في أخبار أبي الطيب، وقد ذكرنا بعضها متفرِّقاً في كتابنا، وبعضٌ آخر لم نذكره لضيق الوقتِ، ورغبة في اختصار القول، واعتماداً على فطنة القارئ إذ كان في وضع كلامنا ما يُشيرُ إلى أطرافه.

6 - قلت في كلمتي التي نشرتها الرسالة (العدد 167) إن الأخ سعيد قد لا يجد دليلاً على صحة هذه الروايات التي رويتْ في نبوّة أبي الطيب، فيما يزعم، إلا أنه قد رواها فلانٌ وفلانٌ ورواها المعري - وهو الحجة الثبتُ - وقلنا إن الحكم - بأن رواية المعري أو غيره من العلماء - هذه الأخبارَ مما يصححها أو يرجّح الصدق فيها - حكم خطأ لا يصح لأحد أن يتابع عليه، ولم أقل ذلك إلا لقول الأستاذ في عدد الرسالة (161)، (وسأعتمد في قص الحادث (يعني النبوّة) على أبي العلاء خاصة، لفضله وتحريه وقرب زمانه)، وهذه الكلمة الأخيرة وحدها تدل على أن الأستاذ يَعُد ما يرويه أبو العلاءِ عن أبي الطيب مما ترجحُ فيه كفة الصدق على كفة الكذب، ولكن الأستاذ لم يرض قولنا هذا، فعادَ يقولُ في كلمته الأخيرة: (هذا وقد حمل الأستاذ أقوالي ما ليس تحمل: فأنا لم أدّع للمعرّي تنزُّها عن الخطأ، ولم أقل بأن (ورود خبر في كتب العلماء هو الدليل الذي

لا دليل غيره، وما جعلت قرب الزمن دليلاً على الصحة بل هو مما ييسر للمحقق وسائله) اهـ. وأنا لا أحبّ أن أكثر القول على أستاذنا في نقد كلامه هذا بل أقول: إن كان في يدك دليل على صحة هذه الروايات والأخبار فأظهرهُ ولا تكتمهُ، فمن قبلُ ما قلنا لك في مقالنا بعدد الرسالة (167) إن (الخبر لا يستحقّ صفة الصدق إلا بالدليل الذي يدُل على صدقه، فإذا لم تجد الدليل على صدقه ذهبت عنه صفة الصدق وبقي موقوفاً. فإذا اعترضت الشبهات من قبل روايته أو درايته مالت به الشبهة إلى ترجيح الكذب فيه. . .). ولكن أستاذنا لم يرد أن يقف عند هذا القول، وزعمه من (التهويل) ويقول: (وما التهويل بمغن عن أحدنا فتيلاً)، وزعم أني (لم أجد بأساً في أن أعرفه أنّ الخبر ما يحتمل الصدق والكذب، وانّ وأن. . . الخ الخ مما يدرسه الطلاب المبتدئون). وظنّ أن في هذا القول مذهباً لهُ عن الإتيان بدليله على صدق الروايات التي يزعمُ أنها من التاريخ وأنها صحيحة. ويخرجُ من هذا ويدعه لقول: (إننا نبزنا روايات التاريخ بالبطلان والكذب، ثم لا يكون دليلنا عليها إلا أنها كذب وبطلان). وليس الأستاذ ببالغ من كلامنا مبلغاً يسقطه أو يحزّ فيه إلا أن يثبت لنا أوّلاً صحة هذه الروايات، ومن أين لأحد أن يسلم بصحتها ويقتنع بأنها خالية من الكذب والوضع وسوء القصد في الإساءة والتشهير والتسميع بأبي الطيب؟ فإذا فعل ذلك فقد بلغ أوّل الحق، وكان لهُ أن يجابهنا بما شاء من القول مصرّحاً ومعرّضاً. فالدليل أيها الأستاذ سعيد.

7 - ومن أعجب أمر الأستاذ سعيد أنه ينشئ من الكلمة الواحدة تردُ في الكلام جملة لها معنى يوجهه هو كيف أراد على ما خيّلتْ، ويضَعها حيث شاء من الحديث غير متهيب ولا متلفت عن يمين وشمال، ولو خرج بالكلام الذي أمامه من العربية. . . كما مرّ بك في كلمتنا السابقة. فمن ذلك أنه وقف عند قولنا في الكلمة الأولى (الرسالة عدد 167): (وتركُ المعرّي الشكّ (في تلك الأخبار) أو تكذيبها ليس يقومُ أيضاً دليلاً على صحتها، وليس المعرّي بمنزه عن الخطأ والغفلة، وهو من هو، فذهاب وجه النقد عن المعرّي ليس يكون طعناً فيه، ولا يوجب نسبة الكذب إليه، ولا ينفي صفة الصدق عنه). وليس يذهب عن أحد من القراء أننا أردنا بهذا الكلام أن ندفع ظنَّ من يظنَّ - أي الناس كان - أن توقفنا دون التسليم بما رواه المعري في خبر نبوة أبي الطيب، أو نقدنا له، أو تكذيبنا أو إسقاطنا لما روي - يكون طعناً فيه، أو يعد مما يوجب نسبة الكذب إلى أبي العلاء. ولكن الأستاذ سعيداً ترك هذا، وأراد أن يبالغ وينشئ حول كلامه (خطا من النار)، فأخذ كلمتنا: (وليس المعري بمنزّه عن الخطأ والغفلة) وردّها بقوله: (وأنا لم أدّع للمعري تنزهاً عن الخطأ)، فكيف - أيهذا الأستاذ سعيد - تزعم أننا قلنا إنك ادعيت للمعرّي تنزهاً عن الخطأ وكيف تخرّج هذا الذي ذهبت إليه من كلامنا؟

ليعلم الأستاذ أني لا أحفلُ بمثل هذا، ولا أنظر إليه، ولا أقف عنده، ولكني أبينه له ولغيره، ليعلم أن كل أحد يستطيع أن يقول ما يشاء فيما يشاء على أي وجه يشاء. . . ولكن ذلك لا يجوز على أحد، ولا يغفل عنه من قرأ الأول والآخر، ونظر وفهم وجمع وعرف معاني الكلام، وكيف خرج وإلى أين ينتهي؛ وليعلم أيضاً أن كل أحد يستطيع أن يفهم من الكلام ما يشاء على غير قاعدة من منطق أو عربية، ولكن فهمه لا يكون حجة يأتي بها الناس ويظهر بها عليهم، ويحاول أن يسقط أقوالهم بها. لابد للكلام من منطق عقل وفقه عربية حتى يفهم، وإلا أصبحت المعاني فوضى لا ضابط لها ولا وكيل عليها ولا حفيظ.

وللقارئ أن ينظر إلى فعلات الأخ سعيد هذه فقد قلنا في كلمتنا الأولى (الرسالة عدد 167) عند رد اعتراضه: (إن هذا الخجل الذي يزعمونه إنما هو من أباطيل (الرواية)، وقد أتى به القوم ليعضدوا قولهم في خرافة النبوة. . . الخ) فجاء ينقل هذا في كلامه مرتين هكذا (إن هذا الخجل الذي يزعمونه إنما هو من أباطيل (الرواة)) فنحن نقول: (الرواية)، وهو يقول على لساننا (الرواة) وبين اللفظين فرق (كبير) في عربيتهما وفي موقعهما من الكلام. ولو أردنا الذي أراده الأخ سعيد لكلامنا لقلنا (من أكاذيب الرواة). ولو رجع الأخ إلى كلامنا الذي أعقب هذه الكلمة لعلم لم قلنا (أباطيل الرواية) ولم نقل (أكاذيب الرواة). هذا على أني أقول أيضاً إن الذي زعموه من خجل أبي الطيب - حين كان يسأل عن أمر لقب المتنبي

هو من أكاذيب الرواة. فإذا أراد الأستاذ أن يعرف من هم هؤلاء الرواة، فليرجع إلى الكتاب الذي نقل عنه هذا الكلام، فينظرَ من هم؛ ومع ذلك فليسَ تغني معرفة الرواة شيئاً في هذا الأمر. وتعب أن أمضي على هذا الوجه في تعريف الأستاذ سعيد بوجوه بطلان كلام هؤلاء الناس الذين نقل كلامهم، فعليه أن يريحنا قليلاً بتدبره في كلام هؤلاء الناس، والنظر في معاني رواياتهم بالذي توجبه العربية، مع المقارنة بين هذه المعاني المختلفة المتباينة فعند ذلك يعرفُ كيف كان التناقُضُ في الرواية، وكيف هدَمتْ الرواياتُ بعضها بعضاً في خبر نبوة أبي الطيب.

وبعد. . . فأن في كلام الأستاذ من وجوه التهافت ما لا تطيعني (الرسالة) على الإفاضة فيه، ولا يواتيني الزمنُ على إزهاقه من أجله، ولكني أنصح للأخ ألا يلجأ إلى ضروب القول التي يخرج بها الكلامُ عن حده إلى مجاهل من المغالطة والاعتراض، وإرادة الغلبة، واتباع الظن، وفتنة الرأي، والإصرار على خطرات النفس. وليعلم الأستاذ أني لست ممن يغفل عن مواضع التحريف في القول، أو الإحالة في الحجة، أو الفساد في التأويل، فإن أراد أن يعود إلى الحديث والكتابة، فليعد على مذهب مرضيٍّ متبع معروف غير منكر. فإن فعل فما أنا بالذي يسوءه أو يغضبه، وما أريد من شيء إلا أن أهتدي إلى الحق على يديّ من كان له فضلُ السبق، وحسنُ الحديث، وكمالُ الغلبة بالحق. . . هذا وقد أعفينا الأستاذ من كثير قولٍ في الذي جاء في مقاله الأخير - لو أردنا أن نكيل له من جرّائه بمثل كيله لفعلنا فأشوينا. . . ولكن عبَأت لهُ حِلمي لأكرمَ غيره ... وأعرضت عنه، وهو باد مقاتله.

محمود محمد شاكر

النظرية العامة للالتزامات

في الشريعة الإسلامية

للدكتور شفيق شحاتة

إن صرح القانون مشيد على فكرة الالتزام. وقد ارتدت هذه الفكرة في القانون الخاص رداء خاصاً، حيث ظهرت في صورة الحق الشخصي، المقابل للحق العيني. ثم هي فيه، تخضع لقواعد عامة، تحكم مختلف المسائل التي تعرض للالتزام. وقد استخلص هذه القواعد فقهاء الرومان، ونقلت عنهم في القوانين المستمدة من التشريع الروماني. وجمعت هذه القواعد، النظرية المعروفة بالنظرية العامة للالتزامات، وهي نظرية أجمعت الآراء على أنها من خير ما أنتجت قريحة الرومان القانونية.

أما في الشريعة الإسلامية، فقد وجه الفقهاء جهودهم نحو الحلول الفرعية، ولم يحاولوا وضع قواعد عامة تحكم الالتزام في مصادره، وفي آثاره، وفي طرق انقضائه. على أن بالشريعة الإسلامية كنوزاً من الأفكار والآراء والتصويرات القانونية، فإذا نحن أردنا الانتفاع بها يتحتم علينا أولاً الوصول إلى القواعد العامة التي تحكمها جميعاً، إذ لا يقوم العلم إلا على أساس من القواعد العامة.

ثم إن الفقه الإسلامي، قام وترعرع في مدى أجيال عديدة، وساد في مختلف الأقطار التي جمعتها المدنية العربية، تلك المدنية التي تركت آثاراً خالدة في جميع مناحي العلوم والفنون. فليس من الغريب أن يكون أثرها كذلك في ناحية التفكير القانوني. وفي الواقع قد ظهر هذا التفكير في صورة من أبهى صوره، ولا تزال آثار هذا التفكير من أنفس ما يدخر الشرق من التراث العلمي.

فمن العقوق إذن أن يهمل هذا التراث؛ ومن العناية به أن يعمد إلى التأليف بين فروعه. ففي جميع الأمم وفي مختلف العلوم عمد العلماء إلى التركيب بعد التحليل؛ وقد قام الفقهاء بقسطهم الوافر من التحليل، فيتعين البدء من حيث انتهوا، وبهذا العمل نكون قد وصلنا ما كان قد انقطع. فعسى أن يكون الاهتمام بالآثار القانونية لفقهاء المسلمين على هذا الوجه فاتحة عصر إحياء لتشريع لا يمكن أن يكون ملائماً مثله في بلاد كانت مهداً له ومرتعاً.

وإن في هذا العمل تحقيقاً كذلك لغرض من أغراض التشريع المقارن، وقد أعلن المؤتمر الدولي المنعقد بلاهاي في سنة 1932، ما يعلقه من الأهمية على التشريع الإسلامي، كمصدر من مصادر التشريع المقارن.

1 - طريقة البحث
1 - الطريقة الموضوعية
لا يخفى أن القيام بهذا العمل يقتضي من الباحث اعتماد خطة معينة، فقد لوحظ أن الخطة التي اتبعت للآن لم تكن مما ترتضيه دائماً القواعد العلمية.
فإنا نجد من جهة أن من تصدى من العلماء الغربيين لمعالجة هذه المسائل لم يصل أبداً إلى تفهم روح النصوص، وهم في الغالب، يجهلون أيضاً اللغة التي وردت بها هذه النصوص. أما المستشرقون، فلا نجد بينهم القانوني الفقيه الذي سرعان ما يلحظ ما للنص من خطر.
ومن جهة أخرى، نرى المؤلفين الشرقيين تنقصهم الروح العلمية، ومؤلف (سافاس باشا) على شهرته مثل ناطق لهذا النقص.
وكذلك الأمر في الرسائل والمؤلفات التي حاول فيها مؤلفوها التقريب بين الفقه الإسلامي وبين آخر ما وصلت إليه اتجاهات المحاكم في عصورنا هذه، فما كان من تأثير حماسهم الصبياني إلا مسخ الشريعة الإسلامية.
فمن المتعين إذن أن نضع في مواجهة هؤلاء وهؤلاء الطريقة التي نرى وجوب اتباعها، وقد سميناها الطريقة الموضوعية التاريخية لأنها تتناول موضوعات البحث وتقررها كما وردت في النصوص مراعية في ذلك منتهى الأمانة، ثم هي تتتبع هذه النصوص على مدى الأجيال لتتلمس تطورها التاريخي. فهي قائمة على فكرة أساسية، ألا وهي أن التشريع كائن حي وليد الهيئة الاجتماعية، ينمو بها ولها، ويتطور معها، ويجمد عند جمودها.
وهذه الطريقة تعمد لذلك إلى المسائل. فقد رأينا أن التشريع الإسلامي لم يعن إلا بالمسائل، فإذا أردنا تفهمه على حقيقته، وجب أن نتقصى المسائل ونستوعب ما ورد عليها من الحلول، فتكون هي الحجارة التي بها يتم بناء هيكل النظريات بصرف النظر عما حشر في الكتب حشراً لتفسير هذه الحلول إذا كانت هذه التفسيرات لا تتفق والواقع.
فمن يتصفح كتب الفقه يتبين أن التفسير الذي يرد على الحلول لا يكون صادراً دائماً عن
مبادئ عامة، متمشية في جميع أجزاء الجسم الواحد، بل هو يرمي إلى تبرير الحل الذي ورد بشأنه فقط، تبريراً يستند سواء إلى فكرة مقبولة عقلاً، أو إلى أن حلولاً مشابهة قد جاءت في مناسبات أخرى.
ولكن هذا التبرير المباشر لا يمكن اعتباره كافياً، إذ قد تكون هناك مسائل أخرى مماثلة أيضاً ولم تحل على نفس الشكل. فالتفسير الصحيح يكون بإيراد التعليل الذي ينطبق على أكثر المسائل المتشابهة، مع ذكر ما دعا إلى الأخذ بغير ما يقضي به في مسائل معينة أخرى.
وهذه الطريقة تصل بنا إلى العلل الرئيسية والأخيرة للحلول، وهذه العلل وحدها هي التي يقبلها العلم، ويجب اعتبارها دون غيرها وإحلالها محل ما استبعد من التعليلات.
وقد تتعدد في كتب الفقه الطرق لتبرير الحل الواحد. أما تعدد الأدلة فأمر لا شائبة فيه لو كانت الأدلة جميعها تتضافر لتكوين مبدأ واحد يقضي بالحل موضوع النظر.
ولكنا نجد في الغالب الطرق لا الأدلة تتعدد، وكل طريق منها صادر عن فكرة قد تكون متنافرة مع الفكرة التي أوحت بالطريق الآخر.
ففي الخطة التي نقول بها تلزم الاستعانة بالروح العامة للتشريع، لاستبعاد ما يتبين فضوله من الطرق. فإذا ما اكتفى بأحدها وجب الاحتفاظ به في جميع المناسبات، حتى إذا ما اضطر الباحث اضطراراً إلى الرجوع إلى الطريق الآخر في حالات أخرى معينة وجب اعتبار هذه الحالات استثناءات لما سبق تقريره كمبدأ عام، وقد تنم هذه الحالات عن اتجاه التطور في التفكير.
وكذلك التكييف القانوني النظري لا يخضع دائماً عند الفقهاء لفكرة واحدة. صحيح أن تعقد الظاهرة القانونية قد يحول في بعض الأحوال دون تصويرها على أساس الفكرة الواحدة. ولكن في هذه الأحوال يقتضي منا المنطق أن نغلب العنصر المسيطر على هذه الظاهرة؛ وعند تصويرنا لها نلاحظ ما شذ على تكييفنا القانوني من الحلول؛ ولا يلجأ إلى ذلك إلا إذا لم يعثر في التشريع الإسلامي نفسه على تصوير ينتظم النظرية

بما حوته من الحلول جميعاً.
يتضح مما تقدم أنه إذا كان تقيدنا بالحلول وثيق العرى فالأمر بخلاف ذلك بالنسبة للشروح؛
ولا يخشى من هذا التحرر على صحة تفهم روح التشريع، فقد قلنا إن التشريع الإسلامي قائم على هذه الحلول، وروحه فيها وحدها.
على أن هناك محظوراً آخر. فأنا إذا نحن فرضنا على التشريع الإسلامي أفكاراً غريبة، اقتضتها أساليب التشريعات التي نشأت فيها نكون قد مسخنا هذا التشريع بالفعل.
فيلزمنا إذن التجرد من أساليب هذه التشريعات، وإذا نحن حاولنا الوصول إلى المبادئ الأولية، فلن تكون إلا تلك التي يتطلبها كل تشريع لمجرد كونه وليد العقل البشري، وهو واحد مهما اختلفت الأمكنة والأزمنة.
وذلك كله لا يحول دون الاستعانة في عرض المسائل بما جربنا عليه في بحث قوانيننا الحديثة على أن يكون هذا إطاراً خارجياً، وعرضة للتحوير وفقاً لمقتضيات التشريع الإسلامي.
لذلك لن نعير كثيراً من الاهتمام ما حوته الكتب الفقهية من الأمثال والأصول، فهي في الغالب عبارة عن مبادئ يقضي بها المنطق أو العدل، لا نفس النصوص التي وردت بمناسبتها. ونذكر هنا أن مما استنفد نصيباً من نشاط الفقهاء مقارنة الحلول بعضها ببعض لإظهار الفروق والأشباه، على أنهم في هذا كله قلما يرتقون إلى المبادئ الأولية العامة.
أما علم أصول الفقه فهو شديد الاتصال بعلم الكلام، ولا يفيد في دراسة موضوعية للنصوص، فهو أشبه بفلسفة القانون منه بالقانون.
وقد قرب فقهاء الحنفية بينه وبين الفروع، ومع ذلك يقول (الحموي) (أنظر (الغمز) ج 1، ص245) إنه: (لا عبرة بما في كتب الأصول إذا خالف ما ذكر في كتب الفروع كما صرحوا به).
وكذلك لا يلتفت في دراستنا الموضوعية إلى مصادر التشريع، ذلك أن (القرآن الكريم)، لم يأت إلا بقليل من الآيات في موضوع الالتزامات، وهي في الغالب من قبيل القواعد الأخلاقية.
أما (الأحاديث النبوية)، فهي أيضاً قليلة العدد، وسيؤخذ بها على أنها نصوص إذا جاءت بحلول معينة لبعض المسائل. ولن نتعرض لما وجه من الطعون إلى بعض هذه الأحاديث، فهي لمجرد ورودها تنم عن اتجاه خاص في التفكير.
فالعبرة إذن دائماً بالمسائل وأحكامها. ومما يؤيد وجهة النظر هذه أن في عقد البيع قد وردت أحاديث متعددة في صيغة النهي، وقد فرع الفقهاء عليها البطلان في بعض الأحوال، ومجرد الكراهية في البعض الآخر بالرغم من اتحاد الصيغة في جميع الأحوال.
يتضح من ذلك أن التشريع الإسلامي في موضوع الالتزامات يفقد صبغته الدينية.
ونذكر هنا أن هذا التشريع لا يمنع مصدره الديني من اعتباره تشريعاً بالمعنى الصحيح، ذلك أنا إذا نظرنا إلى ماهية القاعدة القانونية في هذا التشريع ألفيناها تتضمن جميع العناصر التي تلاحظ في القواعد القانونية.
من ذلك ابتناؤها على المظّان، وابتعادها عن التوغل في الدوافع النفسية؛ ومن ذلك أيضاً الجزاء المترتب على مخالفتها، فقد فرق الفقهاء بجلاء بين ما هو واجب قضاء، وما هو واجب ديانة.
أما (القياس) وقد اعتبروه مصدراً من مصادر التشريع، فهو، في الواقع، عملية من عمليات الاستدلال يقوم بها العقل، إذا أراد الوصول إلى حكم عن طريق الاستنتاج.
وهذه العمليات العقلية تؤدي إلى وضع حدود وتقسيمات، وشأن علم الفقه منها شأن سائر العلوم الأخرى.
وإذا استعمل العقل في مهمة استنباط الأحكام، فقد يؤدي به منطقه الجامد إلى حلول قد تتعارض مع فكرة العدالة المطلقة أو مع بعض الأحاديث الصريحة فيلجأ الفقهاء عندئذ إلى ما يسمونه (الاستحسان).
فالحكم الذي يقضي به الاستحسان ليس في الواقع إلا استثناء اقتضته قواعد العدل والإنصاف أو أسباب أخرى.
وقد يستعمل الاستحسان لإدخال ما استقر عليه (الإجماع) في التشريع.

وقد يتعين اعتباره كالعادة والعرف، عاملاً من عوامل التطور، إذا تبين أن التشريع الإسلامي قد تأثر بالفعل بواسطته. وهذا هو موضوع الطريقة التاريخية.

(يتبع)

شفيق شحاتة

الجوائز الأدبية ومغزاها

بقلم إبراهيم إبراهيم يوسف

ستصبح الجوائز الأدبية يوماً ما، وإن بعد، موضوع رسالة أحد طلاب العلم يتقدم بها إلى إحدى الجامعات لينال إجازة (الدكتوراه) في الآداب. ولا ريب في أن مثل هذا الموضوع سيكون في نظر أدباء ذياك الجيل المقبل طريفاً غاية الطرافة، كما يجد أدباء هذا العصر متعة وأي متعة في حديث التقدير الأدبي الذي لقيه أدباء القرن التاسع عشر في أوربا وأمريكا. فقد كان تقدير الأدباء لذلك الجيل يجري على منوال خاص. ففي إنكلترا مثلاً منح الشاعر (لوريت) الذي نشأ راعياً مرعى خصيباً. ومنح الكثير من الأدباء ألقاباً بمناسبة إحياء أيام مولدهم أو نحوها من المناسبات. أما تقدير الأدباء في أمريكا فكان يجري على منوال آخر أساسه الانتفاع الضمني بالناحية المادية لمظهر الهبة أو المكافاة، إذ يذكر عن (ناتانيل هوثورن) أنه عين قنصلاً لأمريكا في ليفربول لمجرد الاعتراف بقدره الأدبي. وكذلك قلد (هرمن ملفيل) مثل هذه الوظيفة ليتمكن من التغلب على ضائقته المالية. وتابعت أمريكا السير في ذلك حتى عام 1904 حين عين الرئيس روزفلت (ادوين أرلنجتون روبنصن) في إدارة المكوس تشجيعاً له على النهوض بالشعر. جرى مثل ذلك على البعض في حين أن فطاحل الأدباء للعصر الفيكتوري مثلاً لم يصيبوا شيئاً من هذه الهبات، إلا أنهم استعاضوا عن ذلك بإدراك الحقيقة الراهنة التي كانت تتجلى لهم يوماً بعد يوم في زيادة طبقات القراء، فأوحت لهم ثقتهم بأنفسهم ألا يضعوا أمانيهم في غير المستقبل. وسرعان ما اطمأنت نفوسهم عندما صدر عام 1880 قرار يجعل حق الطبع والنشر ملكاً للمؤلف. وقضى هذا القرار على قرصنة الناشرين وسطو المغتصبين على أعمال الأدباء. وبطبيعة الحال كان تكرار نشر عمل أدبي يدر على صاحبه رزقاً جديداً. ولهذا لم يأبهوا للهبات والجوائز.

وأول الجوائز الأدبية التي ظهرت خلال القرن العشرين ولم تكن لها سمة التجارة هي (جوائز نوبل) في بلاد السويد و (جائزة جونكور) و (جائزة فمينا) في فرنسا، والجائزة (الهوثورنية) في إنكلترا، و (جائزة بولتزر) في أمريكا. وظهرت بعد ذلك جوائز أخرى في هذه البلاد وغيرها. ومهما تكن هذه الجوائز صادقة في التعبير عن عصر بذاته، أو عن أثرة الروح القومية، أو هي مسألة قاصرة على المؤلف دون غيره، فهي على أي حال جوائز اعتراف بالتفوق الأدبي.

وليس من شك في أن جوائز نوبل خلدت ذكر الفرد برنهارد نوبل ذلك المخترع السويدي الذي تمكن من اكتشاف الديناميت فيما بين سنة 1865 وسنة 1866. وكأنما أراد أن يوازن بين خطر ما اخترعه بعمل آخر فأثبت في وصيته عدداً من الهبات ظنها مؤدية إلى القضاء على استعمال الديناميت. ولعل ذكرى السنين العجاف من حياته، التي أضناه فيها الكفاح بعدما زار الولايات المتحدة عام 1850 ليعمل في خدمة المخترع الاسكندنافي الأسبق جون إريكسون أوحت إليه بوجوب تخصيص إعانات للعلماء كي يتيسر لهم متابعة أبحاثهم ووجوب مساعدتهم حين الإخفاق. فلما واتاه الحظ حقق ذلك في وصيته إذ أثبت فيها قبل وفاته أن فوائد ما يتركه من رأس مال يجب أن تقسم سنوياً إلى خمس جوائز، تبقى إحداها وقفاً على علم الطبيعة، وأخرى وقفاً على الكيمياء، وواحدة للطب أو علم التحليل النفساني، ورابعة تخص مشكلة السلام، وخامسة ترصد للأدب. وتمنح جائزة الأدب سنوياً كما هو نص الوصية، (إلى الشخص الذي أنتج في عالم الأدب أحسن كتاب حوى نزعات مثالية). ووكل أمر اختيار ذلك إلى المجمع السويدي. والحق أن هذه الجائزة التي تتراوح بين اثني عشر ألفاً وخمسة عشر ألف جنيه تهيئ لأي أديب حياة راضية مرضية.

أما جائزة جونكور فلا زالت على عهدها منذ نشأتها في سنة 1903 أشهى ثمرة يتهافت عليها الأدباء في فرنسا. وهذه تمنح دون استثناء للأدباء الناشئين. وهي أرفع

منزلة من مقعد ثابت في المجمع الفرنسي. وتعد جائزة جونكور الدرجة الأولى من سلم العلياء الأدبي. وهنالك جائزة فرنسية أخرى لها صداها في خارج البلاد الفرنسية هي جائزة فمينا. وكانت (مجلة فمينا) قد تآزرت عام 1904 مع (مجلة لافي أوروز) على منح جائزة قدرها خمسة آلاف فرنك لأحسن رواية توضع باللغة الفرنسية في نظر لجنة الكاتبات الفرنسيات. وأنشأت هذه اللجنة النسائية عام 1919 جائزة شبيهة بتلك وقفتها على المؤلفين الإنكليز لما بين البلدين من صداقة. ثم أنشأن عام 1932 (جائزة فمينا الأمريكية) لتكون قاصرة على الأدباء الأمريكيين.

وأهم الجوائز الأدبية التي تمنح في بريطانيا العظمى هي أولاً: الجوائز التذكارية لجيمس تيب بلاك التي تمنح في ربيع كل عام من أجل تاريخ حياة شخص عظيم أو من أجل رواية طابعها بريطاني. وعلى أستاذ آداب اللغة الإنكليزية في جامعة أدنبرج أن يختار أحسن الأعمال. وثانية الجوائز (جائزة هوثرن) التي تمنح لأحسن قصة يضعها كاتب إنكليزي دون الحادية والأربعين من عمره. أما جوائز بولتزر فقاصرة على الكتاب الأمريكيين من ذوي المواهب الفذة، على أن تظهر هذه المواهب في أعمالهم الأدبية.

ولا ريب في أن جائزة نوبل اليوم هي أعظم الجوائز في عالم الأدب إطلاقاً، إذ هي لا تؤثر قومية على أخرى. ثم إنه لا يحكم بها من أجل كتاب مفرد، بل يجري الحكم بها بعد التثبيت من صلاحية شطر من مؤلفات أديب بذاته، وهي لهذا السبب غالباً ما تمنح في خريف حياة الكاتب الأدبية وبعد أن يستكمل نضوجه الأدبي. وتشبه جائزة نوبل في ذلك اعتراف الشهود على ميت بطيبته وحسن عمله في الحياة، ولعل مستر سنكلر لويس أحد الشواذ الذين يثبتون صحة هذه القاعدة، فقد أنتج كثيراً بعد ما أحرز جائزة نوبل.

أما الجوائز الأخرى التي تقل عن جائزة نوبل شأناً، وقد ذكرت من قبل، فهي كثيراً ما كانت متحزبة في قصدها متأثرة بروح العصر في اختيارها. ثم إن الضيق المالي الذي شمل العالم في السنين الأخيرة لم يدع لواحدة من هذه الجوائز أن تصل إلى جزء من أربعين جزءاً من جائزة نوبل، وإن كانت تطبع صاحبها بطابع الجودة وتدمغه بخاتم الذهب الإبريز في نظر القارئ والناشر على السواء. ومن ثم يحرز المؤلف مكانة بعد أن يكون مهملاً الإهمال كله. والحق أن الجائزة أياً كانت تدق الطبول لصاحبها فيتنبه الناس إلى أن لهذا الرجل كتاباً لا يمكن التغاضي عن قراءته. وهذا مثلاً هنري وليمصن لم يكن معروفاً إلا لنفر قليل، فما هو إلا أن منح جائزة هوثورين من أجل كتابه (تاركا، كلبة الصيد) حتى تهافت الناس على قراءة كتابه وذاع اسمه في كل محيط. وعندما قضى المحكمون بمنح جائزة جونكور لأندريه مارلو لكتابة حظ شخص ' لفتوا العالم إلى واحد من أدباء الشباب في فرنسا الذين يعملون ويجاهدون للمثل العليا. وكانت جوزفينا جونصن قد باعت من كتابها (الآن في نوفمبر) مدى أحد عشر شهراً من بدء ظهوره 10 آلاف نسخة. وما إن منحت جائزة بولتزر من أجله حتى وصلها بين عشية وضحاها 9 آلاف

طلب ممن يريدون الاستمتاع بهذا الكتاب. وخلاصة القول إن هذه الجوائز القومية تحرض الناس على القراءة وتدفع الأدباء إلى تحسين الإنتاج.

ثم هنالك معركة حامية أبداً مستعرة دائماً في الخفاء بين الكتب، وليس لدى الذين لم يندمجوا بعد في تجارة الكتب أي فكرة عنها، فالتنافس بين المؤلفين بلغ شدته القصوى، وهو في هذه الشدة قاس عظيم القسوة صلف قوي، وليس للتسامح أو اللين أو الهوادة إليه سبيل؛ ولعل هذه الحرب اليوم أشد استعاراً مما كانت عليه في سابق الأيام.

ومهما تكن الحال فستبقى الديموقراطية عرجاء حتى يكون من واجبات الدولة تمرين الجماهير على كيفية القراءة المنتجة. وأول الخطوات في ذلك أن تبين للناس أحسن وأثمن وأنفع الكتب، ولكن إلى أن نصل إلى مثل هذا العهد ستبقى أسواق الكتب مملوءة بما يظهره الناشرون في كل يوم، أولئك الناشرون المنتشرون في كل بلاد الشرق والغرب، وستبقى جمهرة القراء في حيرة عندما يعمدون إلى انتخاب كتب للقراءة، ويكفي دليلاً على هذا حال الولايات المتحدة، فقد أصدر الناشرون فيها برغم كساد سوق الكتب منذ عام 1930 قدراً لا يقل عن 5000 كتاب جديد في كل سنة من سني الأزمة، ومع ذلك فالكتب التي تقرأ محدودة العدد.

ولهذا فالحاجة ماسة إلى حسن الانتخابات وصحة التأكيد. وليس أجدر بحل هذا المشكل من الجوائز الأدبية. وليتنا نحن الناطقين بلغة الضاد نأخذ بهذه السنة.

إبراهيم إبراهيم يوسف

ملخص عن:

تعزية باطلة

للأستاذ خليل هنداوي

(إن في العمر مرحلة تتفق الحقيقة والذكرى فيها على بث الألم)

سمرنا إلى أن غفا السامر ... وأَعيا من السهر الساهر
تعالي إليَّ لنطوي الزمان ... وننشر ما لفَّه الغابر
فليس لنا من غد حاضر ... وليس لنا أمل سافر
تعالي نفر إلى عزلة ... يفر إلى مثلها الشاعر
تعالي نعود إلى نجوَياتٍ ... تقر بها النفس والناظر
تعالي نعود إلى الذكريات ال ... عتاق، فقد يشتفي الذاكر
تعالي إلي حيث لذاتنا ... خفقن كما يخفق الطائر
ففي كل صوب لنا مشهد ... نضير بآمالنا زاهر
وفي كل وادٍ لنا نشوة ... يعربد شيطانها الفاجر
تعالي إلى حيث فاح القديم ... بأحلامنا، وانتشى الحاضر
دنا ودنت، والشفاه التقت ... فما باح من سرها خاطر
ولم تتوثب عليها أمانٍ ... ولم يمش فيها هوى ساعر
فأدركه وجل خائف ... وأدركها وجل حائر
أيرجع عهد الشباب النضير ... ويسطع منه الشذا العاطر؟
. . .هو العمر غاضت بشاشاته ... يعذبنا طيفه الزائر

(دير الزور)

خليل هنداوي

وحي الريف

زهرة القطن أو ذات الثوب الذهبي

بقلم أحمد فتحي مرسي

أشرقت في البلادِ سهلاً فسهلاً ... زهرة في الحقولِ ياما أَحَيْلَى
تنثني في الغصون إن هبت الري ... حُ وجرِ النسيمُ في الحقل ذيلا
الندى سائلٌ على وجنتيها ... رطَّب الخد والجبين وحلَّى
تلثِمُ الريحُ ثغرَها ثم تمضي ... وتجوب الحقول حقلاً فحقلا
وتُسِرُّ الغداةَ في مسمعيها ... عن مدى حبِّها حديثاً وقولا
قمتُ بين الرياض ذات صباحٍ ... أقتل الوقت والفراغ المُمِلا
وتخيَّرتُ في الفضاءِ مكاناً ... راقَ في ناظري مياها وظِلا
ووقفتُ الغداةَ أرعى الحقول ال ... خضر مستعرضاً بهاَها مُطلاَّ
شدَّ ما راقني جمالُ رياضٍ ... أشرقت في الضحى شعاعًا وطَلاَّ
وزهورُ القطن البهيجة في الحق ... ل تَهاوى على الرُّبى وتَجَلى
يرقصُ اللوْزُ في سنا الصبح رقصاً ... وتميل الزهورُ في الغصن ميلا
والحقول الوضاءُ تبدو سماءً ... أطلعت زاهر الكواكب ليلا
وكأنَّ الحقول مائدة خض ... راءُ والريح لاعبٌ يتسلى
وكأن الزهور أوراق لعب ... نُثرت فوقها وحلت محلا
قد أنرت الربوع يا زهرة القط ... ن فهلا أنرت قلبيَ هلا
أنت حسن الحقول في ذلك الري ... ف ومصباحها الجميلُ المحلى
أنت دنيا الفلاح والعقل والما ... ل ولولاك ضاع مالاً وعقلا
أنت ليلاهُ في الغدوِّ وفي الرو ... ح وقد جُنَّ في الحياة بليلى
أنت سؤل البلاد والأمل المنشو ... د والمطمح العزيز المُجلَّى

أحمد فتحي مرسي

القصص
صديقة الطلبة
للشاعر الفرنسي الفريد ديمسيه
ترجمة السيد مظفر البقاعي
- 1 -
كان بين طلاب معهد الطب في جامعة باريس فتى لم يتجاوز التاسعة عشرة من العمر يدعي (أوجين أوبرت)، وهو من أسرة طيبة أقام أبواه في الريف وخصصا له نفقات ضئيلة كانت تقوم بأوده، وكان الشاب محبباً إلى رفاقه لطيب عنصره ودماثته وسخائه، وإنما كانوا يأخذون عليه انصرافه إلى الوحدة ورغبته عن الملاهي حتى لقبوه (بالطفلة) فكان يبتسم لدن سماع اللقب يقيناً منه أنه دعابة نزيهة.
وكان أوجين يمقت الغانيات ويعدهن من جنس خطر غادر، فيسرد بين سمع صحبه وبصرهم أدلته الوفيرة على رأيه، إلا أن هؤلاء كانوا يسخرون من مزاعمه، وبذهم في ذلك فتىً من خلانه مرح ماجن يدعى مارسيل كان لا يفتأ يحاوره ويجادله:
- أتزعم أن خطأ أو عارضاً حدث اتفاقاً يجيز لك وضع قاعدة مطردة!. . .
- بل إني أرى وجوب اجتناب أمثال هذه الأخطاء خيفة تكررها.
- هذه سفسطة. . .
ويطول الحوار في المقهى، والرفاق شهود، ويحرص مارسيل خلاله أن يثبت لأوجين أن النساء وخصوصاً العاملات منهن طاهرات وفيات، ثم يتخلص من ذلك إلى وصف جارة لأوجين اسمها ميمي بنسون بأوصاف مغرية يمل منها هذا فيتناول قبعته وينسل بلطف تاركاً مارسيل والمواعظ تتدفق من بين شفتيه. . .
- 2 -
لم تكن ميمي بنسون جميلة بالمعنى المعروف لدى الباريسيين، ولكنها كانت عاملة فتانة، وهناك فرق بين الغادة الوسيمة والعاملة الوضيئة، فتلك إذا ما ارتدت ثوباً بسيطاً وصداراً من حرير وخماراً صارت عاملة رشيقة، وأما هذه فأنها لو لبست رداء زاهياً ومعطفاً مخملياً فوقه وغطت رأسها بقبعة، فربما بدت حسناء، وقد تترآى للعيان كمشجب علقت عليه الثياب المذكورة.
وقد كانت الآنسة بنسون ذات أنف أخنس وفم أشدق وأسنان جميلة ووجه مستدير وعينين براقتين فيهما حور، وشعر أسود؛ وليست هذه أوصاف حسن باهر، ومع ذلك فقد قرر مارسيل إغواء أوجين وإغراءه بحب هذه الفتاة؛ ولعل هذا لأنه كان هو نفسه مغرماً بالآنسة زليا صديقة الآنسة بنسون الحميمة، راجياً أن يكون التحبب داعية الحب.
ولئن كان ذلك ممكناً، بل لو كانت المصادفة أقوى الفتن والغوايات، فكم من أناس عجز الاتفاق عن التغلب عليهم وباءت المصادفة بالفشل إزاءهم. . . ومن تلكم النفوس كانت نفس أوجين.
لم يكن مارسل يجهل سجايا خدينه، فرسم خطة سهلة أيقن أنها رائعة فعالة في التغلب على ثبات صاحبه ومقاومته، ذلك أنه أولم احتفاء بعيد مولده وليمة كان قد هيأ لها بضع زجاجات من الجعة، وقطعة لحم قديد، وشيئاً من السلطة، وقرص حلوى كبير، وزجاجة من خمر شمبانيا. ودعا طالبين من رفاقه، وطلب إلى صديقته زليا أن تأتيه مساء يومئذ وبصحبتها الآنسة بنسون. وفي الموعد المضروب عندما كانت الساعة تدق السابعة طرقت العاملتان الباب ودخلتا: زليا مرتدية ثوباً قصيراً مشطباً، وبنسون رداء أسود لم يكن يفارقها. وبعد أن جلستا واحتستا الكأسين الأوليين استأذنهما رب المنزل في التغيب قليلاً، وقصد تواً إلى منزل أوجين فوجده كعادته محاطاً بكتبه مكباً عليها، فبعد كلمات منمقة غير ذات معنى، بدأ يلومه برقة وينعى عليه إجهاده نفسه، وبنصحه بوجوب الاستراحة والتلهي، ثم اقترح عليه القيام بنزهة قصيرة، فقبل أوجين الاقتراح لأنه كان متعباً بعد إذ قضى يومه في الدرس والمطالعة. وبعد جولة لم يعد صعباً على مارسيل أن يستزير صديقه، وكان الفتاتان قد أطلقتا لنفسيهما العنان إذ داخلهما السأم من الانتظار، فخلعتا وشاحيهما وحسرتا، ثم أخذتا ترقصان وتتذوقان ما على الخوان على سبيل التسلية. فلما دخل الشابان وقفتا في ذهول وقد توردت وجنتاهما، ثم حيتا أوجين في استحياء وحيرة ودهشة لعرفانهما سلوكه واعتزاله، وبعد أن أجالتا

فيه النظر عادتا إلى الرقص والغناء؛ أما أوجين فقد تقهقر ليولي الأدبار لولا أن أقفل مارسيل الباب وألقى المفتاح على المائدة وصاح:
- لقد امتلكنا هذا النافر المعتكف. . أقدم لكما يا آنستيّ أفضل شاب في فرنسا، وهو راغب في التشرف بمعرفتكما منذ زمن طويل، وإنه جد معجب بالآنسة بنسون.
فكفت الصبيتان عن الرقص، وحيتا أوجين كرة أخرى، وقال له مارسيل:
- إني قدتك بالرغم منك لتشاركني في عيدي الخاص، فهلا فعلت؟
وبإشارة من مارسيل قالت له بنسون بصوت عذب: ذلك رجاؤنا يا سيدي.
ووافى القوم آنئذ الطالبان المدعوان، فلم يعد لأوجين سبيل إلى الخلاص فجلس على مضض.

- 3 -

دام العشاء إلى ساعة متأخرة أكثر خلاله الفتية من تدخين اللفائف واحتساء العقار. أما العاملتان فكانتا فكاهة المجلس وتعلة السامر بأحاديثهما الشائقة وفيها المعقول والمبالغ فيه: فمنها أن كاتبين ربحا في القمار عشرين ألف فرنك وبدداها مع عاملتين خلال ستة أسابيع؛ وأن ابن أحد أعاظم أغنياء باريس قدم لغسالة معروفة (لوجا) في الأوبرا وداراً في الضاحية فرفضتهما وآثرت أن تظل بارة بأبويها العجوزين، وأن وجيهاً زار عاملة فنفاها أولو الأمر إلى أمريكا وأعطوها محفظة مفعمة بالأوراق المالية. . .
فقاطعهما مارسيل أخيراً قائلاً: إن زليا تبتكر وتغرق، أما الآنسة ميمي فقد فاتها أن الكاتبين ما ربحا شيئاً، وما قدم الغنى غير برتقالة، والعاملة في المستشفى في أشد حاجة إلى القوت. . .
نهضت عندئذ بنسون - وقد لاح لأوجين أنها اصفرت عند سماعها الجملة الأخيرة - فقالت:
- إن كان مارسيل لا يصدق القصص فليسمع هذه الحادثة وقد كنت أحد أبطالها:
ذهبت في الأسبوع الفائت مع اثنتين من صديقاتي وهما بلانشت وروجيت إلى مسرح (الأديون) لمشاهدة رواية، فاستأجرنا لوجاً ودفعت روجيت الثمن - إذ كانت قد ورثت مالاً، فرآنا ثلاثة طلاب ودعونا للعشاء، فقمنا إلى مطعم المسرح مع الأبطال وأخذنا نطلب أفخر الأطعمة وأغلاها وأسرفنا في الطلب؛ وكنا كلما قدمت صفحة تناولنا منها لقمة أو لقمتين ثم نستبدلها من غيرها، والشبان الثلاثة يحرقون الأرم على أن لو استطاعوا ازدراد شيء من الصحون المرفوضة أو المعادة؛ وجعلوا أخيراً يفكرون في أمر الدفع فقد كان مع أحدهم
ستة فرنكات ومع الثاني دون ذلك ومع الأخير ساعته. ثم قاموا متثاقلين يجرون أرجلهم نحو المحاسب الذي ابتدرهم بقوله: الثمن مدفوع، لأن روجيت دفعت الثمن سلفاً. ثم عرضنا على السادة المذكورين إبلاغهم إلى دورهم ولكنهم مانعوا ورفضوا جهدهم فأصررنا وقد تظاهرنا بأننا ثريات نبيلات، وكانت روجيت تقول لي:
- يجدر بنا أيتها المركيزة أن نقود السادة إلى منازلهم.
فأجيبها: حباً وكرامة يا كونتس!
لم ترق هذه القصة للتلميذين صديقي مارسيل، فوجما وقد اغبر وجهاهما، ولعلهما كانا يعرفان تفاصيل الحديث أكثر من الآنسة بنسون التي طلب منها مارسيل أن تسميهم له فرفضت، فسر أوجين من إبائها وأثنى عليها قائلاً:
- أنت محقة أيتها الآنسة، إذ ليس بين الشبان الذين يملئون الجامعات والمدارس من خلا من خطيئة ارتكبها، أو طيش فعله، ومع ذلك فكل رجال فرنسا البارزين من سياسيين وقضاة وأطباء إنما يخرجون من هناك. . .
وقال مارسيل: هذا حق، فكم من عين قضى طفولته يتناول الطعام في أحقر المطاعم، بل ربما لم يكن لديه ثمن القوت ثم سألها وهو يغمز بعينه: ألم تري بعدئذٍ العشاق المجهولين؟ فأجابته غضبى نافرة: من تحسبنا؟ أولا تعرف بلانشت وروجيت. . . فقاطعها قائلاً: حسناً لا تغضبي، ولكنها قصة ثلاث طائشات بددن مالهن وأضعنه جزافاً كي يسخرن بثلاثة مساكين لا يد لهم في الأمر!
فأجابته: ولم إذن دعونا؟

- 4 -

طلب مارسل إلى ميمي أن تغني، فأنشدت مديحاً قيل فيها يتلخص فيما يلي:
(ليس لميمي غير ثوب واحد وقبعة. رداؤها لا يرتهن مدى الزمن مهما اعتراها من محن).
وكانت الجمل الثلاث الأخيرة لازمة الأغنية، جعل السامعون يرددونها، ويضربون الطاولة بمقابض السكاكين أو بالغلايين فيحدث من ذلك دوي شديد أزعج الآنسة المغنية فقالت: كفى، ليت عندنا آلة موسيقية نرقص شوطاً على إيقاعها.
قال مارسل: لدي قيثارة لكن أوتارها ناقصة.
وقالت زليا: هو ذا بيانو وسيعزف عليه مارسل. فحدجها هذا بنظرة غضب قاسية وقال: إنك تعلمين أنني لا أكاد أعرف عزفاً، وأن ليس سواك من يستطيع أن يلاعب أصابع العاج؛ ولو كنت طلبت ذلك من أوجين لسقطت على الخبير ولكني لا أريد إزعاجه.
فاحمر وجه أوجين وانسل بكياسة فجلس إلى البيانو وأخذ يعزف فابتدأ الرقص، ولكنه لم ينته إلا بعد أمد طويل إذ جعل القوم ينتقلون من رقص إلى رقص دون كلال أو ملال، وأنهك السهر والصياح أعصاب أوجين فاستولى عليه النعاس ولكنه استمر يعزف بصورة آلية كالفارس النائم على فرسه، وكانت الراقصات تمررن من أمامه كأشباح في الحلم. ولا مرية في أن الحزن يستولي على من يرى غيره يضحك بمعزل عنه، وكذلك عاودت أوجين بلابله ووساوسه فجعل يناجي نفسه:
هذا لعمري سرور من حزن واغتباط من بؤس، وإنها لحظات يخيل إلى أنها اختلست من أوقات الشقاء. ومن يدري أي واحد من هؤلاء الخمسة لديه ما يسد به رمقه غداً؟!
وبينا هو غارق في لجة أفكاره وهواجسه مرت بقربه الآنسة بنسون وخيل إليه أنها اختلست قطعة الحلوى من الخوان ودستها في جيبها.

- 5 -

وانبلج الصباح فانفض السامر وتفرق السمار، ومضى أوجين يدلف في الدروب والسكك يستنشق نسيم الصباح العليل وهو ممعن في خوض عيلم من أفكاره السوداء وصار يردد على رغمه:
(ليس لميمي غير ثوب واحد وقبعة).
ويتساءل: - هل تدفع التعاسة الإنسان إلى التظاهر بالجذل والسخر من البؤس؟ وهل يفتر ثغر جائع عن ابتسامة!. . .
وكان يعتاده الأسى إذا ما ذكر أمر اختلاس الحلوى فيهتز حنواً ورحمة ويقلب الأمر ظهراً لبطن ويقول:
- ترى لم سرقت الحلوى ولم تسرق الخبز!. . . ثم لا يلبث أن يلتمس لها عذراً.
لم ينتبه أوجين ليرى أين طاحت به قدماه، فدخل اتفاقاً بعض المنعطفات التي أدت به إلى أزقة ضيقة، فلما تبين ذلك عاد أدراجه فرأى امرأة هزيلة صفراء الوجه شعثاء الشعر أطمارها بالية خرجت من دار قديمة، وقد بدا عليها السقام واصطكت ركبتاها حتى لم تكد تستطيع مشياً فجعلت تعتمد على الجدران.
وبدا لأوجين أنها تقصد صندوق البريد القريب فابتدرها مضطرباً وسألها عن أمرها وهدفها، ثم مد لها ذراعيه لتستند عليهما وقد شارفت على السقوط فازورت في كبرياء ووجل وألقت إليه بالبطاقة التي تحملها، وأشارت إليه أن يضعها في الصندوق وعادت تجر ساقيها مشية النزيف أمضه الونى حتى دخلت دارها، فتحرك لها فؤاده ورقت لها حناياه وأشاطه الحنو بعد رزانة ففض غلاف الرقعة دون ما روية أو تريث إذ أدرك أن هذه السقيمة قد تقضي قبل أن تتلقى جواباً، وكان عنوان الغلاف: (إلى حضرة البارون. . .) وفحواه ما يأتي:
(اتل يا سيدي كتابي ولا تهمله، فأنا أموت جوعاً إذ لم أحصل على بلغة منذ أيام، وأمس بت على الطوى وما أزال، وقد لا يصل كتابي إليك إلا وأصبح شريدة بلا مأوى، فقد أقعدني المرض عن العمل لأكسب قوتي وأدفع أجرة المسكن. أرسل لي بربك ديناراً بلا تأخر، ولا تدعني في شك يلتهم ما أبقت الآلام مني، إني منتظرة حتى نهار الخميس (روجيت) (في داري: شارع المهماز، واسمي الجديد الآنسة برنان).
دهش أوجين أشد دهشة لما رأى التوقيع وتمتم قائلاً:
- إنها الفتاة التي بددت دراهمها نفسها. . . لقد ألقى بها الداء إلى هذه الهاوية من الذل!. . . وأردف يتابع نجواه:

ليت شعري ألم تعلم صديقاتها بأمرها؟ أم ترى تركنها تتضور جوعاً وفي العراء من - غير ملجأ!. . .
وأفاق من ذهوله كأنما كان في حلم مريع فسارع إلى طاه كان يفتح حانوته فاتباع طعاماً ثم سار يقود أجير الطاهي إلى دار روجيت، فلما وصلها أوعز للغلام أن يطرق الباب ويعطيها الطعام فإن سألته عن مرسله فليقل إنه (البارون. . .) ثم سار متثاقلاً فأصلح من شأن الرسالة وألقاها في صندوق البريد وهمس يحدث نفسه:
(أما إذا رأت روجيت أن جواب بطاقتها كان سريعاً فستفهم السر من البارون).
- 6 -
كان أوجين يرى من الواجب أن يرفق المائدة المرسلة بالدينار المطلوب ولكنه كان خالي
الوفاض صفر اليدين. فإن الطلاب كالعاملات فقراء، وليست الدراهم بضاعة رائجة في الحي اللاتيني؛ لذا قصد فتانا حلاقاً مرابياً في ساحة البانطيون ليرهن بعض حاجاته وهناك ألفى خليله مارسل يحلق لحيته ويقترض مالاً يفي به ثمن عشاء الأمس، فلما أبصره هذا سأله عن جلية أمره فأطلعه بإيجاز على قصده، فسخر منه مارسل وصار يعنفه وأوجين لا يزداد إلا متانة وعزماً، وأخذ يلوم ميمي بنسون وإضرابها من الصديقات اللواتي يتناسين عشيراتهن بالأمس ويوجه إليهن سهاماً صائبة من الانتقاد والاحتقار الشديد إلى أن قال:
- إن فتاتك بنسون غول فظيع عدا كونها متهللة خليعة ماجنة. أما صداقتها فمادية ممقوتة.
فقال الحلاق المرابي واسمه الأب كاديديس:
- إنك قاس وحكمك جائر لأني أعرف الآنسة بنسون وأعتقد أنها نبيلة سامية وهي عظيمة.
فأجاب أوجين: - نعم هي عظيمة في شراهتها وكثرة تدخينها.
فقال المرابي: - ذلك ممكن وأكثر الشبان ما بين آكل وضاحك ومغن ومدخن، على أن منهم من له قلب يحس ويتألم فسأله مارسل: - ماذا تقصد؟
فأجاب الحلاق: - هناك في مؤخرة الحانوت ثوب حريري تعرفانه يا سيدي لأنكما تعلمان أن صاحبته لا تملك سواه، وهي الآنسة ميمي التي رهنتنيه فجر اليوم لكي تسعف روجيت أولاً فإنها في أشد عوز.
ودخل مارسل إلى أقصى الحانوت ليشاهد الثوب العتيد وتبعه أوجين فقال الأول:
- إن أنشودة ميمي كاذبة إذ رهنت ردائها!. . . كم أعطيتها أيها الأب كاديديس على هذه الرهينة الثمينة.
- أقرضتها أربعة فرنكات وكنت لها محسناً لأن الثوب بال قديم. فصاح مارسل:
- مسكينة ميمي! أراهن على أنها رهنت الرداء لتساعد روجيت؟
فقال أوجين: - أو لتدفع ديناً ممطولاً.
وأردف المرابي قائلاً: وإني لأذكر أن بعض دائنيها حجزوا على أثاث دارها ولم يتركوا لها سوى سريرها وكانت نائمة عليه وقد ارتدت أربعة أثواب فوق بعضها كيلا يأخذ الغرماء واحداً منها، وقد كانت يومئذ في حال خير من حالها اليوم، فلم ترهن ثوبها إذن لتفي ديناً، ويدهشني أن يكون ذلك لمعونة بائسة مثلها.
واسترد مارسل الثوب بعد أن دفع قيمة الرهن، وخرج مع صديقه - الذي أصر على أن الرهن ليس من أجل روجيت - فقصد دار ميمي تنفيذاً لرهان عقداه.
- 7 -
- ذهبت الآنسة إلى الصلاة.
هذا ما قاله البواب للطالبين عندما سألاه عن ميمي.
فصاح أوجين في عجب: إلى الصلاة!
وردد مارسل: إلى الصلاة! هذا مستحيل لأنها لم تبرح الدار. دعنا ندخل فنحن أصدقاء قدماء.
ولكن البواب أكد لهم أنها خرجت مذ هنيهة إلى الكنيسة المجاورة دأبها كل صباح.
وفيما هم كذلك إذ ظهرت تجتاز الشارع فأسرع مارسل ينعم النظر في أثوابها فرآها ترتدي غلالة عتيقة مؤتزرة بستارة نافذة من الصوف الأخضر، وقد سترت رأسها

بنصيف أبيض فبدت بهذه الأطمار خلابة وأزاحت الستر قليلاً فبانت قامتها الهيفاء.
وقالت للفتيين: - هذا ثوب تفضل.
فقال مارسل - لعمري إنك فاتنة. قالت: إني غدوت كحزمة. قال: بل طاقة ورد، وإني نادم إذا رددت لك ثوبك. قالت: وأين وجدته؟!
قال: فككت أسره، وأطلقت رقه، ودفعت فديته. فهل تغفرين جرأتي؟
قالت: نعم وسأنتقم.
وأخذت ترقى الدرج إلى غرفتها وخلفها الصديقان حتى وصلت إليها، فدخلوا جميعاً.
وقال مارسيل: - لا أعيد لك الرداء إلا على شرط.
قالت: ويحك! أشروط! إنها حماقة لا أريدها.
قال: لقد تراهنا! فقولي بصراحة لم رهنت ثوبك؟
قالت: دعني أرتديه ثم أخبركما عن السبب. استرا وجهيكما كي لا أضطر إلى لبسه في الخزانة أو على السطح. فأجاب مارسل: - اطمئني فلن نختلس نظرات.
- إني أثق بكما ولكن قيل: أحذر الأمين.
وخلعت الستارة وألقتها على وجهي الشابين، وأمرتهما بالصمت والخضوع، فقال مارسيل:
إحذري أن يكون في الستر خرق نراك منه، فقد جعلنا فعلك في حل من كلامنا.
فهتكت الستار ضاحكة فقالا:
- سرك يا آنسة هلا بحت لنا به وأنجزت وعدك؟
فترددت هنيهة ثم دفعتهما نحو الباب وقالت:
- تعاليا معي فتريا.
- 8 -
بعد مسير غير قصير في طرق ملتوية ودروب ضيقة سار فيها أوجين من قبل وصل الثلاثة إلى دار روجيت فدخلوها، وقد ربح مارسل الرهان لأن الأربعة فرنكات وقطعة الحلوى التي سرقتها الآنسة بنسون أمس كانت على المائدة مع فضلات الدجاجة التي أرسلها أوجين.
وكان حال المريضة خيراً من قبل، وكان شكرها للمحسن المجهول عظيماً. وقد اعتذرت بواسطة صديقتها بأنها غير قادرة أن تستقبل الشابين فانصرفا متعجبين من هذه الكبرياء وهذه العفة.
وبعد أن حضرا دروسهما في المعهد تغديا معاً، وفي المساء خطرا يتنزهان في الشارع الإيطالي. وأخذ مارسل يحاور عشيره ويحاول إقناعه قائلاً:
- طالما لمتني على حبي هؤلاء العاملات، وقد رأيت من طيب أنفسهن ونبلهن البرهان القاطع. من هو ذلك المحسن الذي قام بما قامت به ميمي من أجل صديقتها؟ إن فتاة ترهن ثوبها الوحيد وتسرق قطعة حلوى لتساعد رفيقتها لجديرة بالتقديس وخلود الذكر. أما تلك العليلة فإنها لا تقل عن خدينتها شرفاً وطهراً؛ ولو أن فيها أدنى شائبة لما طلبت كسائلة صدقة من أحد. وكادت تقضي منتظرة لولاك، فلم تخش موتاً محققاً، وهي التي عرفت حلاوة العيش عندما ألقت بنفسها في النهر مرة من قبل.
فقال أوجين: حسبك يا مارسل! أتظن أن أيامي كهؤلاء بلا عائل ولا سند هن ذوات حنكة أو دراية كافية؟ وهل يا ترى نذرن أنفسهن البائسة للشقاء والتعاسة؟ ليت شعري متى يعدن إلى جادة الخير والصلاح؟ ألا قل لي أولا تعاملونهن يا معاشر الشباب بطيشكم ومجونكم المعهودين؟! هيا بنا إلى دار روجيت المريضة علنا نحملها على أن تسلك الصراط
المستقيم، ولن أطلب منها قسماً بل لا أؤنبها ولا أوبخها، ولكني سأقترب من سريرها فآخذ بيديها ويدي صاحبتها وأقول لهما. . .
ومرّ آنئذ أمام مقهى لاح لهما فيه على ضوء المصباح وجها فتاتين تأكلان حليباً مجمداً، فلما رأتا الشابين لوحت لهما الأولى بمنديلها وقهقهت الأخرى ضاحكة. فقال مارسل مقاطعاً أوجين:
- واهاً! إن كنت ترغب أن تحدثهما فهم هنا في مرح ولهو، ويظهر أن البارون قام بالمطلوب.
فأجابه:

أولا يخيفك جنون كهذا؟
نعم! لكني أرجو أن لا تطعن في العاملات وخصوصاً اللواتي على شاكلة بنسون.
(دمشق)
مظفر البقاعي
البريد الأدبي
كتاب عن الحبشة للجنرال فرجين
صدر أخيراً في السويد كتاب جديد عن المسألة الحبشية بقلم شخصية كانت تشغل في الحبشة حتى الغزوة الإيطالية المكانة الأولى، تلك هي شخصية الجنرال فرجين السويدي مستشار إمبراطور الحبشة السياسي والعسكري من مايو سنة 934 إلى ديسمبر سنة 935، وقد ذاع اسم الجنرال فرجين أثناء الحرب الحبشية، وكاد وجوده إلى جانب الإمبراطور في بدء الهجوم الإيطالي يؤدي إلى اضطراب العلائق السياسية بين إيطاليا والسويد؛ ذلك أن الجنرال فرجين عين مستشاراً للإمبراطور بواسطة حكومته، وكان تعيينه حلقة اتصال قوي بين الحبشة والسويد، وكان يوجد في الحبشة في بدء الهجوم الإيطالي عدة ضباط من السويد يعملون لتنظيم جيش النجاشي، وكانت المعامل السويدية تصدر الأسلحة والذخائر إلى الحبشة، ولكن السويد رأت في النهاية أن تبتعد عن التدخل في هذه المغامرة فأمرت الجنرال فرجين وزملاءه بالانسحاب من الحبشة.
والكتاب الذي ألفه الجنرال فرجين بالسويدية، وترجم أخيراً إلى الإنكليزية عنوانه الحبشة كما عرفتها وفيه يعرض الجنرال إلى الظروف والحوادث التي انتهت بهجوم إيطاليا على الحبشة، ويفصل حوادث الغزو حتى ديسمبر الماضي أي إلى انسحابه من ميدان الحوادث، وربما كان هذا القسم الأخير هو أهم أقسام الكتاب، ففيه يسرد الجنرال كل المقدمات والوسائل التي تذرعت بها إيطاليا لتنفيذ اعتدائها، ويقول إنه لم يكن جافياً أن إيطاليا تدبر هذا الاعتداء منذ زمن طويل، وأنها أرسلت قبل وقوع الاعتداء بعامين عدة من الرسل والمندوبين بصفة قناصل في طول الحبشة وعرضها؛ واشتغل هؤلاء ببث الدعاية لإيطاليا وكسب ولاء القبائل والزعماء بالرشوة والوعود، واشتغلوا أيضاً بتدبير المشاكل والمشاغبات مع السلطات المحلية لإثارة الخواطر وتحدي الإمبراطور.
ومن جهة أخرى، فقد عملت إيطاليا من جانبها على إذاعة دعوى قوية في أنحاء أوربا والعالم كله ضد الحبشة وصورتها بصورة أمة همجية تهدد باستعداداتها الحربية مركز البيض في أفريقية، وتدبر الاعتداء على مستعمراتها، وأنه يجب على أوربا أن تشد أزر إيطاليا في موقفها وفي محاولتها أن تحمي مركز البيض في أفريقية، وأن تحمل رسالة الحضارة الأوربية إلى تلك البلاد الهمجية الوعرة.
ويعتبر كتاب الجنرال فرجين بما فيه من حقائق وبيانات وثيقة عن هذه الحوادث الخطيرة أهم الوثائق التي صدرت عن الحبشة قبيل محنتها وسقوطها في يد الاستعمار الغربي.
حول مقالات الأستاذ كراتشقوفسكي
وردت في (ترجمة) الفصول التي تنشرها الرسالة للأستاذ المستشرق أغناتيوس كراتشكوفسكي عدة وقائع ونقط تحتاج إلى الضبط والتصحيح وهذا بيان ما لفت نظرنا منها.
(1) إن الأستاذ كراتشوفسكي يشغل منصبه العلمي (بأكاديمية العلوم بلننجراد) وليس بجامعة لننجراد كما ورد في تعريف المترجم، وأنه ليس هو مترجم قصة (عودة الروح) لتوفيق الحكيم ولكن الذي ترجمها هو كاتب روسي آخر يدعى مسيو ساليير.
(2) وأن كتاب (زعماء الأدب العربي المعاصر) ليس من تصنيف الدكتور كمبفماير وحده ولكنه اشترك في وضعه مع الدكتور طاهر خميري الأديب التونسي الذي يشغل الآن منصب محاضر في المعهد الشرقي بهامبورج.
هذا عن المقال الأول.
(3) وأما عن المقال الثاني فقد ورد في آخره ما يأتي: (وفي عام سنة 1884) وضع جميل المدور (أخبار أيام هارون الرشيد)؟

ونحن نجيب المترجم عن استفهامه وهو أن الكتاب المشار إليه يسمى (حضارة الإسلام في دار السلام) بقلم جميل بن نخلة المدور؛ وقد طبع بالقاهرة سنة 1888.

ذكرى الموسيقي بروكنر

من أنباء فينا أنه قد احتفل فيها في الأسبوع الماضي بذكرى الموسيقي النمساوي الشهير أنتون بروكنر وذلك لمناسبة مرور أربعين عاماً على وفاته؛ فأقيمت عدة احتفالات موسيقية كبيرة في بهو جمعية الموسيقى النمساوية وفي بهو الكونسر فتوار وفي معظم أبهاء العاصمة النمساوية الأخرى، واتخذت هذه الاحتفالات صفة رسمية. وأنتون بروكنر أحد أقطاب هذه الموسيقية الزاهرة التي غمرت النمسا وأوربا بفنها الرائع في أواخر القرن الماضي، وكان مولده في سنة 1824؛ وتوفي في سنة 1896؛ وتخصص في الموسيقى الكنسية؛ واشتغل أولاً موسيقياً لكنيسة لنز، ثم انتخب موسيقياً لكنيسة البلاط؛ وعين بعدئذ أستاذاً للكونسر فتوار؛ وطاف بروكنر أنحاء العواصم الأوربية وعرض فيها (سيمفونياته) الشهيرة وهي من أبدع ما وضع من مقطوعات الموسيقى الكنسية. ومما يؤثر عنه أنه كان ورعاً جداً حتى إنه أهدى مقطوعته الأخيرة المعروفة (بالمقطوعة التاسعة) إلى (الله سبحانه وتعالى) ولكن الموت عاجله ولم يتمها؛ وكان القيصر فرانز يوسف يغدق عليه حبه وعطفه حتى إنه أهدى إليه مسكناً فخماً في قصر البلفدير) الشهير.

هرمان فندل

نعت إلينا أنباء باريس الأخيرة الكاتب الألماني المعروف هرمان فندل فقد توفي فيها في الثانية والخمسين من عمره؛ وقد ولد هرمان فندل ألمانياً في مدينة متزمن من أعمال اللورين، ولكن اللورين ضمت بعد الحرب إلى فرنسا، فغدا فرنسياً، وتلقى فندل دراسته في ميونيخ ودرس الفلسفة والتاريخ؛ وخاض منذ الحداثة غمار السياسة، وانضم إلى الحزب الديموقراطي، واشتغل بالصحافة، واشتهر بمقالاته القوية اللاذعة، ثم اعتزل السياسة واشتغل بالتاريخ، وتوفر على دراسة تاريخ يوجوسلافيا السياسي والاجتماعي، وقام فيها برحلات ومباحث عديدة حتى غدا مؤرخها الأخصائي. وأهم كتبه عنها كتابه المسمى: (نضال السلافيين في سبيل الحرية والوحدة)

وله كتاب آخر في دراسات مختلفة عن يوجوسلافيا عنوانه: (في أرجاء يوجوسلافيا الجنوبية)

وفي سنة 1920، طلبت إليه الحكومة الألمانية أن يكون سفيراً لها في بلغراد فأبى؛ وفي سنة 1929، أنعمت عليه جامعة بلغراد بلقب الدكتوراه الفخرية لخدماته الجليلة لقضية السلافيين.

تبادل المؤلفات بين البلاد العربية

قررت الحكومة المصرية أن تتبادل إدارة الصحافة والثقافة والنشر مع حكومات البلدان العربية العراق والحجاز وسوريا وفلسطين واليمن وغيرها المؤلفات والمطبوعات التي تطبع في مصر وفي تلك البلاد فترسل هذه الإدارة إلى هذه الحكومات نسخة من كل ما يطبع أو يصدر في مصر وترسل هذه البلاد إلى الإدارة نسخة من كل ما يطبع أو يصدر بها من المؤلفات. وهذا القرار جزء من الخطة التي رسمتها الحكومة المصرية لتوحيد الثقافة العربية في جميع هذه الأقطار.

تاريخ العرب الأدبي للأستاذ نيكلسون

تبدأ (الرسالة) من العدد القادم في نشر كتاب (تاريخ العرب الأدبي) للمستشرق الإنجليزي الكبير الأستاذ رينولد نيكلسون صاحب التآليف المعروفة لكل مشتغل بالدراسات الإسلامية والتاريخ العربي. والأستاذ نيكلسون من المستشرقين الذين درسوا الأدب العربي دراسة دقيقة ووقفوا على أسرار العربية، وله معرفة تامة بكثير من اللغات الغربية كالفرنسية والألمانية واليونانية واللاتينية والإيطالية وبعض اللغات الشرقية كالسريانية والعبرية والفارسية والعربية. وقد ولد في 19 أغسطس سنة 1868 وتعلم في جامعة أبردين التي صار فيها - فيما بعد - أستاذاً للعربية والفارسية، وكذلك في جامعة ترينتي كولدج بكمبردج. وله كثير من المؤلفات والمترجمات التي تتعلق بالآداب الشرقية وعلى الأخص العربية والفارسية ومن أهمها: (1) مختارات من ديوان شمس تبريزي (1898) وتذكرة الأولياء لفريد الدين العطار (جزءان 1900)

ومبادئ العربية (3 مجلدات) 1907، 1909، 1911، وتاريخ العرب الأدبي (طبع لأول مرة سنة 1907 ولآخر مرة سنة 1931) وترجمان الأشواق لابن العربي مع ترجمته الإنكليزي وتعليقات بقلمه (1911) وكتاب (في التصوف الإسلامي) وصوفيو الإسلام (1914) ونظرات في التصوف، وأسرار الروح (عن محمد إقبال) 1920، ودراسات في الشعر الإسلامي، وكتاب كشف المحجوب مع ترجمة وتعليق بقلمه (1911) وأشعار عمر الخيام ترجمة وتعليق 1909 والمسعودي وغير هذه من الكتب القيمة. وهو يعيش اليوم في هدوء الشيخوخة بين أسفار الأدبين العربي والفارسي. ولكتابه في الأدب العربي قيمة ممتازة بين كتب المستشرقين

تتجلى في سداد بحثه ووضوح أسلوبه واستقامة منهجه وقوة إدراكه لمختلف الآثار والعوامل التي طبعت أدب العرب في كل عصر وفي كل بيئة.

الكتب

تاريخ الفلسفة اليونانية

تأليف الأستاذ يوسف كرم

المدرس بكلية الآداب

بقلم الدكتور إبراهيم بيومي مدكور

منذ عام تقريباً ندبنا على صفحات (الرسالة) حظ الفلسفة في بلدنا؛ وأخذنا على العامة ازدراءهم لها وإعراضهم عنها وجهلهم بها، وساءنا من الخاصة أنهم لا يأخذون بيدها ولا يقومون على نشرها ولا يحببون الناس فيها، وربما كان قسط الخاصة من شكوانا أعظم من غيرهم؛ فإنهم إن قاموا بواجبهم وكتبوا لنا فلسفة بلغة العصر وروح العصر اجتذبوا القراء إليهم ورغبوهم في أبحاثهم. وكم شكا عشاق الفلسفة - وحق لهم أن يشكوا - من أنهم لا يجدون منها في العربية الغذاء الكافي لأرواحهم وعقولهم، وكأنى بهذه الشكوى جاءت إرهاصاً لما بعدها وإعلاناً عن نقص اتفقت عليه الآراء. ولا أدل على هذا من أن لجنة التأليف والترجمة والنشر، وهي أعرف ما يكون بحوائج البلد العلمية ووسائل مدها، قد وجهت عناية خاصة في هذا العام إلى الدراسات الفلسفية وأخرجت لنا خمسة كتب في نواحيها المختلفة.

ومن بين هذه الكتب تاريخ الفلسفة اليونانية الذي وضعه زميلنا الأستاذ كرم بعد خبرة طويلة وتجارب عديدة، فقد وكل إليه تدريس الفلسفة بكلية الآداب بالجامعة المصرية منذ عشر سنوات أو يزيد استطاع فيها أن يعرف فلاسفة الإغريق عن قرب وأن ينفذ إلى صميم أفكارهم. ويقع مؤلَّفه في ثلاثمائة وخمسين صفحة تقريباً من القطع الكبير درست فيها المدارس الفلسفية اليونانية منذ عهد الشعراء إلى أواخر أيام مدرسة الإسكندرية؛ وذيلت ببيان عن المراجع الهامة وقاموس مفيد في الأعلام والألفاظ الفلسفية. وينقسم هذا الكتاب إلى خمسة أقسام: مقدمة وأربعة أبواب. ففي المقدمة يعرض المؤلِّف للفكر اليوناني قبل الفلسفة ويتحدث عن عصر الشعراء والحكماء السبعة، وفي الباب الأول يدرس الطبيعيين الأول والمتأخرين والفيثاغوريين، والأيلبين، والسفسطائيين، وسقراط الذي يفصل بين مرحلتين متحيزتين من مراحل تاريخ الفلسفة؛ ويقف الباب الثاني على أفلاطون، والثالث على أرسطو. أما الباب الرابع والأخير فيتكلم فيه عن صغار السقراطيين والأبيقوريين وأصحاب الرواق والشكاك ورجال مدرسة الإسكندرية. وإنا لنلحظ في هذا التقسيم أنه عني عناية خاصة وجديرة بالتقدير بالشخصيتين العظيمتين في تاريخ الفلسفة اليونانية وهما أفلاطون وأرسطو؛ فقد درس كل واحد منهم في باب مستقل، وليس هذان البابان من الأبواب الصغيرة، فحديثه عن أفلاطون يقع في ست وستين (134ص) صفحة، وترجمته لأرسطو تشغل ما يزيد على ثلث الكتاب جميعه.

وفي الواقع لقد وزن المؤلف المدارس الفلسفية الإغريقية بميزان صحيح وقسم بحثه بينها قسمة عادلة ومتناسبة دون أن يفوته منها شيء هام، اللهم إلا أصحاب مذهب الاختبار الذين أهملهم رأساً وبعض شراح أرسطو في الدور الأخير وفي مدرسة الإسكندرية بوجه خاص مثال الإسكندر الأفروديسي، وسميلسيوس، وثامسبتوس، الذين لم يشر إليهم إشارة كافية. وبالرغم من تشعب هذه المدارس وتعددها فقد عرضها في صورة مرتبة مهذبة، وقسم أبحاثه إلى أبواب وفصول وفقرات هي غاية في الدقة والوضوح. وليس بغريب أن يعنى مدرس بوسائل العرض والإيضاح! فهذه

سنته كل يوم في دروسه ومحاضراته. وهي سنة صالحة من غير شك ومعينة على تذليل بعض الصعاب التي يلاقيها القارئ في أبحاث دقيقة كهذه. وقد ضم المؤلف إلى هذا حسنة أخرى، فختم كثيراً من مباحثه بنظرة عامة وربط تاريخي شائق.

ليس صعباً على من يدرس الفلسفة اليونانية أن يجد المصادر التي يستقي منها، فهي كثيرة ومتنوعة؛ إنما الصعب أن يختار من بين هذه المصادر أصلحها. وقد وفق المؤلف في هذه كما وفق في غيرها؛ فقد اعتمد فيما وراء أفلاطون وأرسطو على أوثق مصادر الفلسفة اليونانية. وكنا نفضل أن يحيل على هذه المصادر في صلب الموضوع بدل أن يكتفي بسردها في الفهرست. وفيما يتعلق بأفلاطون وأرسطو سلك سبيلاً يحمد عليها؛ فقد درسهما دراسة مباشرة وقدم لنا صورة ناصعة عن مؤلفاتهما وحكم عليهما بناء على ما قالا لا اعتماداً على ما قال الناس عنهما. وهذه الطريقة علمية قطعاً ومعينة على تفهم الفيلسوفين على ضوء ما كتبنا. غير أنها مدعاة التكرار والاستطراد أحياناً، كما قد تسوق إلى سرد تفاصيل جزئية قليلة الفائدة وفي حذفها ما يفسح المجال للمشاكل الهامة. ذلك لأن الملخِّص قد يؤخذ أحياناً بما هو أمامه وينسى بحثه الرئيسي. وعلى كل فلئن فات المؤلف إبراز بعض المشاكل الأفلاطونية والأرسطية في ثوبها الكامل لقد نجح نجاحاً كبيراً في إعطاء فكرة صحيحة عن مؤلفات أفلاطون وأرسطو وتلخيصها على وجه حسن. وكنا نود أن تستخدم المصادر العربية في بحث كهذا؛ وفي استخدامها ما يسمح بتحقيقات ومقارنات علمية وتاريخية جديدة فاتت مؤلفي الغرب ومؤرخيه، وقد تنبه زميلنا إلى هذه النقطة في بعض الفصول، إلا أنه لم يلتزمها في كل بحثه.

الأستاذ كرم هادئ في كل شيء؛ هادئ في أسلوبه، فلا يحفل بالتراكيب الضخمة والعبارات الطنانة، وما أحوج اللغة العلمية إلى هذا الهدوء. فهو يكتب كتابة موضوعية كل همه فيها أداء المعاني العلمية في عبارة مقبولة. بدأ كلامه وختمه بالتحدث عن الفلسفة وتاريخها دون أن ترى في أسلوبه حشواً أو فضولاً. إلا أنه قد يصل به حبه للإيضاح أحياناً إلى استعمال بعض الألفاظ والتراكيب الدارجة بالرغم من ابتذالها أو ضعفها. ومع هذا ينبغي أن نشير إلى المجهود الصادق الذي بذله في اختيار الألفاظ العربية الملائمة لأداء الأفكار الأجنبية. وقد كلَّلَ هذا المجهود بذلك القاموس اللغوي الاصطلاحي الذي ختم به كتابه. وفي اختصار لقد استطاع أن يقدم لنا تاريخ الفلسفة اليونانية في قالب علمي لا بأس به. وهذه ناحية يجب أن يتنبه لها الباحثون إن كنا نريد لأنفسنا لغة علمية محترمة. وهاكم قطعة من قلم المؤلف يلخص فيها الفلسفة الأفلاطونية ويبين أصولها ومميزاتها يقول: (أما أسلوبه (يعني أفلاطون ولو قال أما مذهبه أو طريقته لكان أولى) في الفلسفة فهو التوفيق والتنسيق: لم ير في تعارض المذاهب سبباً للشك مثل السوفسطائيين، وإنما وجد أنها حقائق جزئية، وأن الحقيقة الكاملة تقوم بالجمع بينها وتنسيقها في كلٍّ مؤتلف الأجزاء. وطريقة التوفيق حصرُ كل وجهة في دائرة، وإخضاع المحسوس للمعقول، والحادث للضروري، فنحن نجد عنده تغير هرقليطس، ووجود بارمنيدس، ورياضيات الفيثاغوريين وعقيدتهم في النفس، وجواهر ديموقريطس، وعناصر أنبادوقليس، وعقل أنكساغورس فضلاً عن مذهب سقراط، وسندل على هذه الظاهرة كلما صادفناها، وثمة ظاهرة أخرى هي محاولته تحويل العقائد الأرفية آراء فلسفية، أي وضعها في صيغة عقلية ودعمها بالدليل. فهو لم يزدر شيئاً من تراث الماضي، وأراد أن ينتفع بكل شيء، ثم طبع هذا التراث بطابعه الخاص، وزاد فيه فتوسع وتعمق إلى حد لم يُسبَق إليه).

والأستاذ كرم هادئ كذلك في مناقشاته وأحكامه، فهو يناقش النظريات الفلسفية في هدوء وسكون، ويحكم على مختلف الآراء أحكاماً بعيدة في جملتها عن الشطط والمغالاة. بيد أن هدوءه هذا قد يؤخذ عليه، وكم كنا نوده عنيفاً نوعاً في بعض المواقف. فأن هدوءه دفعه إلى تبسيط المسائل إلى درجة ربما ضاع معها لبها، ولم يمكنِّه من استيفاء بعض المشاكل التاريخية. فلم يثر مثلاً أسئلة كهذه: هل سقراط أو ميتافزيقي؟ وكيف تفسر الرموز في أسلوب أفلاطون؟ وعلام يحمل التذكر عنده؟ ولم يفصِّل القول في مشكلة الإله عند أفلاطون ونظرية العقل عند أرسطو تفصيلاً مقنعاً ومرضياً، وكأنه تناسى ما كتبه الباحثون السابقون هذه في المسائل واكتفى بعرضها

كما يرى هو دون أن يبين آراء الآخرين. وقد حال هدوء المؤلف أيضاً دونه والاسترسال في النقد بعض الشيء. نحن لا ننكر أنه نقد طائفة من الآراء والنظريات التي عرضها في حكمة ودقة؛ ولكنا كنا نتمنى أن يعنى بالنقد أكثر من هذا وخاصة في دراسة الفلسفة الأرسطية، ويظهر أن الخلاف بيننا وبينه ي هذه النقطة راجع إلى المبدأ ووجهة النظر؛ فإنه فيما يبدو لنا، يرى في أرسطو الكمال والتبرؤ من كل نقص وخطأ، وهذا رأي قد لا يقره عليه كثيرون الآن.

وكيفما كانت الاعتراضات التي يصح أن توجه إلى تاريخ الفلسفة اليونانية فأنه يحوي أكبر وأنفس مصدر عربي عرف حتى اليوم في هذه الناحية، ولم يدع مؤلّفه أنه جاءنا بنظرية جديدة أو طريقة مبتكرة في دراسة تاريخ الفلسفة؛ وكل ما صنع أنه قرأ ودرس ومثّل في تأن وتؤدة، ثم استخلص من قراءته ودراسته تلك الثمرة الطيبة. وهو لم يمنّنا مطلقاً بأمان ولم يعدنا بوعود حتى نحاسبه على إنجازها؛ بل ترك تاريخ الفلسفة يتحدث عن نفسه، ولم يزل هذا التاريخ في حديثه حتى انتهى إلى مرحلة نرجو أن تكون أخيرة لا آخرة. ويقيننا أن من بدأ تاريخ الفلسفة على هذا النحو وبهذا التوفيق لابد واصل إلى نهايته.

إبراهيم مدكور

العدد 173 - بتاريخ: 26 - 10 - 1936

رغبات الأدب في العهد الجديد

ورغبات الأدب هي الخوالج القدسية العليا للشعب الكريم؛ تتمثل في عقله نزوعا إلى الحق، وفي نفسه طموحا إلى الخير، وفي ذوقه صبوّاً إلى الجمال. فإذا أتيح لها نفس من الديمقراطية وفرج من الحرية وروح من العدل، سطعت في أرجائه وأجوائه سطوع الأرج المنعش، فنضّرت الحياة وعطرت الأرواح وطهرت الأنفس، وإلا ذوت في مناشئها ذويّ النبات المكروب والأمل المخيب. وفي هذا العهد الجديد الذي انتعشت فيه عواثر المنى، وانفسحت به مناحي الجد، يحاول كل عامل من عوامل الرقي أن يستعيد قوته ويستفيد كماله. والأدب المصري ظل إلى اليوم فريسة الإهمال والفوضى؛ يكابد طغيان السياسة في استسلام، ويجاهد سطوة الجهالة في يأس، ويقاسي مضض الحرمان في ضراعة؛ وأولو الأمر يقابلون جهده بالاستهانة، ويكافئون بره بالعقوق، ويستغلون سلطانه في الصحف وعلى المنابر، ثم لا يدخلونه في الحساب يوم الغنيمة.

هاهم أولاء رجاله الصابرون البواسل، يؤدون رسالة الروح المضنية وقرائحهم المجهودة تنضح بالمداد كما تنضح الجباه الناصبة بالعرق، والصدور المحاربة بالدم، ثم لا يلقون ممن يحملون لهم الشعلة إلا ما لقي أصحاب الرسالات من الكفران الغادر والخذلان المهين. وما حال الأدب في الأمة الأمية، إلا كحال النبوة في الأمة المشركة، إذا لم يكن له سند من الله وعون من الحكومة ذهب ذهاب المصباح في عواصف البيد المظلمة. فالأديب المضطر إنما يشقى للقوت لا للفن، ويسعى للشهوة لا للمجد، وينتج للحاضر لا للمستقبل؛ وإذن لا يكون الأدب إلا كما نرى: بخس في الكيف، ونقص في الكم، وشعوذة في الوسيلة، وإسفاف في الغاية

يرغب الأدب إلى أولياء العهد الجديد أن يبسطوا عليه ظل الحماية، فما يستطيع اليوم لضعف دولته وجهل رعيته أن يستقل. يرغب إليهم أن يقوه تضييق الحرية ليتسع فكره، ويكفوه تمليق الجمهور ليسمو إنتاجه؛ فان العبث بحرية الرأيتعطيل لموهبة العقل وإفساد لفطرة الله وصد عن سبيل التقدم. ومزية الإنسان الحر في الحكومة الحرة أن يقول ما يعتقده صوابا، ويفعل ما يراه حسناً، ما دام هنالك دين يردع غواية النفس، وقانون يحبس عنان الإرادة. وان إذلال الأدب لشهوات الناس وضرورات العيش إضعاف لملكة الذوق وتدنيس لنقاء الضمير وتشويه لجمال الإلهام؛ ورقي الأدب قائم على استقلال رأيه ونبل

غرضه وتأمين حياته؛ ولا تجد أنهض به وأعود عليه من الجوائز والمكافآت، فإنهاتحفز القرائح للعمل، وتضمن الإجادة بالتنافس، وترفع المستوى بانتخاب الأجود؛ وبضعة آلاف جنيه من الخزانة العامة ينفق أضعافها في تمهيد طريق أو تجميل بناء تخلق في الأمة أدباء موهوبين عالميين، وتجمع لها من الأدب الصحيح ثروة

ويرغب الأدب إلى أولياء العهد الجديد أن يضيفوا إلى غذائه ثمار العقول الخصيبة لنوابغ

الأمم الأخرى، فان لكل أمة مزايا ولكل بيئة خصائص؛ ولن يكون أدبنا عالميا ما لم يلقح بآداب العالم؛ والتقليد والاحتذاء من أقوى العوامل أثراً في الأدب. ولو شاء الله لأدبنا الكمال من نقصه لألهم المترجمين في عصر المأمون أن ينقلوا روائع الأدبين الإغريقي واللاتيني من الشعر والقصص والروايات والملاحم كما نقلوا العلم والحكمة، إذن لقلدهم أدباء العرب في ذلك، ولسدوا في الأدب العربي خللا ما برئ منه حتى اليوم.

ذلك ميسور بإنشاء دار للترجمة في دار للكتب تنقل أدب الأمم الكبرى نقلا صحيحا، ثم تُنشر عن الدار على نحو ما تفعل اليوم في نشر الكتب العربية القديمة، فيجتمع للأدب الحديث رافدان زاخران يرفده أحدهما بعصارة المدنيات الغابرة، ويرفده الآخر بخلاصة المدنية الحاضرة. والواقع الأليم أنك تستطيع أن تقرأ أي نابغة في أي لغة محترمة إلا في اللغة العربية!!

كذلك يرغب الأدب إلى أولياء العهد الجديد أن تكون له مراجع عليا تقوم عليه، فتتعرف أطواره وتتعقب آثاره، وترتاد له سبل الكمال، فتسد ما فيه من خلل، وتعالج ما به من جمود، وتدفع ما عثا فيه من فوضى؛ ثم تكون لقرائح الشباب وهي في أول الشوط مناراً وحمى، ولعبقريات الشيوخ وهي في آخره أمناً ومثابة.

والمفروض اليوم أن مراجعه التي تقوم بطبيعة إنشائها على تسديده وتعضيده هي مجمع اللغة العربية الملكي بالمعارف، وإدارة الصحافة والنشر والثقافة بالداخلية، وجمعية كبار العلماء بالأزهر؛ ولكنها على هذا الوضع المقلوب والعزم المتخاذل والحركة الوانية لا تنفعه بنافعة؛ فإن العضوية في بعضها تشريف، وفي بعضها الآخر طعمة؛ أما العمل ففضل من العامل، فإذا تفضل به كان له في نهضة الأدب شأن ضئيل وأثر حائل.

على أن إدارة الصحافة والنشر والثقافة حديثة النشأة، والمظهر البادي عليها مظهر الطموح
والفتوة، ومن الممكن أن نعقد بها أسباب الأمل لأنها وليدة هذا العهد، ولكن الأدب لا يزال يرغب إلى زعماء العهد الجديد، أن يساعدوه على أن يكون خليقا بهذا العصر السعيد.

أحمد حسن الزيات

القلب المسكين

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

أقبل عليَّ صاحبي الأديب وقال: أنظر هذه هي، وقد حلت بهذا البلد وما لي عهد بها منذ سنة. ومد إلي يده فنظرت إلى صورة امرأة كأحسن النساء وجهاً وجسماً، تتأود في غلالة من اللاذ.

وكأن شعاع الضحى في وجهها، وكأنها القمر طالعاً من غيمه، ويكاد صدرها يتنهد وهي صورة، وتبدو هيئة فمها كأنها وعد بقبلة، وفي عينيها نظرة كالسكوت بعد الكلمة التي قيلت همساً بينها وبين محبها. . .

فقلت: هذه صورة ما أراها قد رسمها إلا اثنان: المصور وإبليس. فمن هي؟

قال: سلها، أما تراها تكاد تثب من الورقة؟ إنها إلاّ تخبرك بشيء أخبرك عنها وجهها أنها أجمل النساء وأظرفهن وأحسن من شاهدت وجهاً وأعيناً، وثغراً وجيداً، والذي بعد ذلك. . .

قلت: ويحك، لقد شعرتَ بعدي، إن هذا شعرٌ موزون
وأحسن من شاهدتَ وجهاً وأعيناً ... وثغراً وجيداً والذي بعد ذلكا. . .

قال: إن شيطان هذه لا يكون إلا شاعراً؛ ألستَ تراه ناظماً من فنونها على الرسم شعراً معجزاً كل شاعر؟

قلت: وهذا أيضاً شعر موزون:
ألستَ تراه ناظماً من فنونها ... على الرسم شعراً معجزاً كل شاعر

قال: بلى والله إنه الشيطان، إنه شيطانها يريك لهذا الجسم روحاً رشيقة، تلين كلين الجسم بل هي أرشق

قلت: وهذا أيضاً، والقافية التي بعد هذا البيت: وبها شقوا. . .

فضحك صاحبنا وقال: حرك الصورة في يدك، فإنها ستراها وما تشك أنها ترقص.

. . .قلت: الآن انقطع شيطانك، فهذا ليس شعراً ولا يجيء منه وزن
. . .وتضاحكنا وضحك الشيطان، وظهر الوجه الجميل في الرسم كأنه يضحك
قال صاحب القلب المسكين: أنظر إلى هاتين العينين، إنهما من العيون التي تفتن الرجل وتسحره متى نظرت إليه، وتعذبه وتضنيه متى غابت عنه. إن في شعاعهما قدرةً على
وضع النور في القلب السعيد، كما أن في سوادهما القدرة على وضع الظلمة في القلب المهجور. . .
وانظر إلى هذا الفم، إلى هذا الفم الذي تعجز كل حدائق الأرض أن تخرج وردةً حمراء تشبهه.
وانظر إلى هذا الجيد تحته ذلك الصدر العاري، فوقه ذلك الوجه المشرق؛ تلك ثلاثة أنواع من الضوء: أما الوجه ففيه روح الشمس، وأما الجيد ففيه روح النجم، وأما الصدر ففيه روحُ القمر الضاحي.
انظر إلى هذه المسافة البيضاء من أعلى جبينها إلى أسفل نهديها، تلك منطقة القُبُلات في جغرافيا هذا الجمال. . .
وانظر إلى الصدر يحمل ذينك الثديين الناهدين؛ إنه المعرض الذي اختارته الطبيعة من جسم المرأة الجميلة للإعلان عن ثمار البستان. . .
انظر إلى النهدين لِمَ برزا في صدر المرأة إلا إذا كانا يتحديان الصدر الآخر. . . .؟
وانظر لهذا الخصر الدقيق وما فوقه وما تحته، ألا تراه فتنةً متواضعةً بين فتنتين متكبرتين. . . .؟
انظر إليها كلها، انظر إلى كل هذا الجمال، وهذا السحر، وهذا الإغراء؛ ألا ترى الكنز الذي يحول القلب إلى لص. . .؟
هذه مخلوقة مرتين، إحداهما من الله في العالم، والأخرى من حبي أنا في نفسي أنا، فكلمة (جميلة) التي تصف المرأة التامة، لا تصفها هي إلا بعض الوصف؛ ورسمها هذا الذي تراه إنما هو حدود لتلك الروح التي فيها قوة التسلط، وهيهات يُظهر من تلك الروح إلا ما يُظهر من الجمرة المشتعلة رسم هذه الجمرة في ورقة.
أشهد ما نظرت مرة إلى هذا الرسم ثم نظرت إليها إلا وجدت الفرق بينها في نفسها وبينها في الصورة، كأنه اعتذار ناطق من آلة التصوير بأنها ليست إلا أداة. . .
قلت: اللهمَّ غفراً؛ ثم ماذا يا صديقي المجنون؟
فأطرق الأديب مهموماً، وكانت أفكاره تنفجر في دماغه انفجاراً هنا وانفجاراً هناك؛ ثم رفع إليَّ رأسه وقال:
هذه الغانية قد حبست أفكاري كلها في فكرة واحدة منها هي؛ وأغلقت أبواب نفسي ومنافذها إلى الدنيا، وألهبت في دمي جمرة من جهنم فيها عذاب الإحراق وليس فيها الإحراق نفسه كيلا ينتهي منها العذاب.
وبيننا حبٌّ بغير طريقة الحب، فإن طبيعتي الروحانية الكاملة تهوى فيها طبيعتها البشرية الناقصة، فأنا أمازجها بروحي فأتألم لها، وأتجنبها بجسمي فأتألم بها
حبٌّ عقيم مهما يكن من شيء فيه لا يكن فيه شيء من الواقع
حب عجيب لا تنتفي منه آلامه ولا تكون فيه لذاته
حبٌّ معقد لا يزال يلقى المسألة بعد المسألة، ثم يرفض الحل الذي لا تحل المسألة إلا به
حب أحمق يعشق المرأة المبذولة للناس، ولا يراها لنفسه ألا قديسة لا مطمع فيها
حب ابله لا يزال في حقائق الدنيا كالمنتظر أن تقع على شفتيه قبلة من الفم الذي في الصورة
حب مجنون كالذي يرى الحسناء أمام مرآتها فيقول لها: اذهبي أنت وستبقى لي هذه التي في المرآة. . .
قلت: اللهم رحمة؛ ثم ماذا يا صاحبي المسكين؟
قال: ثم هذه التي أحبها هي التي لا أريد الاستمتاع بها، ولا أطيقه ولا أجد في طبيعتي جرأة عليه، فكأنها الذهب وكأنني الفقير الذي لا يريد أن يكون لصاً. يقول له شيطان المال: تستطيع أن تطمع؛ ويقول له شيطان الحاجة: وتستطيع أن تفعل؛ ويقول هو لنفسه: لا أستطيع إلا الفضيلة

إن عذاب هذا بشيطانين لا بشيطان واحد، غير أن لذته في انتصاره كلذة من يقهر بطلين كلاهما أقوى منه وأشد.
قلت: اللهم عفواً؛ ثم ماذا يا قاهر الشيطانين؟
فأطرق ملياً كالذي ينظر في أمر قد حيره لا يتوجه له في أمره وجه، ثم تنهد وقال: يا طول علة قلبي. من أين أجيء لأحلامي بغير ما تجيء الأحلام به، وإنما هي تحت النوم ووراء وإنما هي تحت النوم ووراء العقل وفوق الإرادة؟ لقد بلغ بي هواها أن كل كلمة من كلام الحب في كتاب أو رواية أو شعر أو حديث - أراها موجهة إلي أنا.
ثم قال: انطلقْ بنا فتراها حتى تعلم منها علماً فهي في ذلك المسرح، هي في ذلك الشر، هي في تلك الظلمات، هي كاللؤلؤة لا تتربى لؤلؤةً إلا في أعماق بحر.
وذهبنا إلى مسرح يقوم في حديقة غنَّاءَ مترامية الجهات بعيدة الأطراف تظهر تحت الليل من ظلماتها وأنوارها كأنها مثقلةٌ بمعاني الهجر والعشق.
وتقدَّمَنا نسير في الغبش، فقال صاحبنا المحب: إني لأشعر أن الظلام هنا حيٌّ كأن فيه غوامض قلب كبير فما أرى فرقاً بين أن أجلس فيه وبين الجلوس إلى فيلسوف عظيم مهموم بهمِّ اللانهاية. فتعال نبرز إلى ذلك النور حول المسرح لنراها وهي مقبلة فأن رؤيتها سيدةً غير رؤيتها راقصة، ولهذه جمالُ فن ولتلك فنُّ جمال.
ولم نلبث إلا يسيرا حتى وافتْ، ورأيتها تمشي مشية الخفرات كأنها تحترم أفكار الناس، يزهوها على ذلك إحساسٌ نبيل كإحساس الملكة الشاعرة بمحبة شعبها.
وانتفض مجنوننا وأغمض عينيه كأنها تمر بين ذراعيه لا في طريقها، وكأن لذة قربها منه هي الممكن الذي لا يمكن غيره.
وكان عجيباً من العجب أن تحرك الهواء في الحديقة واضطربت أشجارها فقال: أنت ترى. فهذا احتجاج من راقصات الطبيعة على دخول هذه الراقصة. قلت: آه يا صديقي؛ إن المرأة لا تكون امرأة بمعانيها إلا إذا وجدت في جو قلب يعشقها.
ونفذنا إلى المسرح وتحرَّى صاحبنا موضعاً يكون فيه منظر العين من صاحبته ويكون مستخفياً منها. ثم رُفع الستار عنها بين اثنتين يكتنفانها، وقد لبسن ثلاثتهن أثواب الريفيات وظهرن كهيئتهن حين يجنين القطن.
وبرزت (تلك) في ثوب من الحرير الأسود وهي بيضاء بياض القمر حين يتم، وقد شدَّت وسطها بمشيدة من الحرير الأحمر فتحبكت بها وظهرت شيئين: أعلى وأسفل، ثم ألقت على شعرها الذهبي قلنسوة حمراء من ذلك الحرير أمالتها جانباً فحبست شيئاً منه وأظهرت سائره. وأخذت بيدها صفَّاقتين وأقبل الثلاث يرقصن ويغنين نشيد الفلاحة.
لم أنظر إلى غيرها فقد كانت صاحبتاها دليلين على جمالها لا أكثر ولا أقل. وما أحسب الحرير الأحمر كان معها أحمر ولا الأسود كان عليها أسود، ولا لون الذهب في معصمها كان لون الذهب. كلاَّ كلاَّ هذه ألوان فوق الطبيعة لأن ذلك الوجه يشرق عليها بالجمال والحياة، وذلك الجسم يفيض لها بالخفة والطرب، وتلك الروح تبعث فيها المرح والنشوة؛ هذا مزيج من خمر الألوان لا من الألوان نفسها.
وقال مجنوننا: إن أجمل الجمال في المرأة الفاتنة هو ذاك الذي يجعل لكل إنسان نوع شعوره بها، وأنا أشعر الساعة أن قلبي نصف قلب فقط وأن نصفه الآخر في هذه وحدها، فما شعورك أنت؟
قلت، يا صديقي إن الله رحيم، ومن رحمته أنه أخفى القلب وأخفى بواعثه ليظل كل إنسان مخبوءاً عن كل إنسان، فدعني مخبوءاً عنك.
قال: لابد
قلت: إن المصباح في الموضع النجس لا يبعث النور نجسا، وما أشعر إلا أن النور الذي في قلبي قد امتزج بالنور الذي في عينيها.
ثم كأنها أحست بأن إنساناً قد امتلأ بها فأدارت وجهها وهي ترقص فتلمحت صاحبنا وجعلت تُقطّع الطرف بينها وبينه كأنها تعرفه وتجهله، ثم تبيَّنت إلحاح نظره فضحكت لأنها تعرفه ولا تجهله.
أما هو، أما المجنون، أما صاحب القلب المسكين؟
(لها بقية)

طنطا
مصطفى صادق الرافعي
تبسَّم!!
للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني
(تبسم!!)
(إيه!!)
(تبسم!!)
(أتبسم؟؟)
(نعم. .)
(هل تريد مني أن أتبسم؟.)
(نعم. . هذا ما أعني)
(ولكن كيف؟. أعني أني لا أريد. . . لا أشعر بحاجة إلى الابتسام؟)
(ألا تستطيع أن تتبسم؟.)
(ربما أمكن أن أتبسم بفمي فقط ولكن هذا ليس ابتساماً)
(بفمك. . . . برجلك. . . تبسم والسلام)
فقلت: (طيب هه) وتكلفت الابتسام كما أراد فقال: (حسنا. . والآن. . جرب مرة أخرى)
فنظرت إليه - حدقت في وجهه فقد خامرني الشك في عقله ولكنه كان ساكناً لا يبدو عليه غير ما ألفت منه. ولما طال نظري إليه قال: (هل فرغت؟؟ إني منتظر)
فسألته (ماذا تنتظر؟.)
قال: (أن تتبسم. . تفضل)
فلم يسعني إلا أن أضحك وأن أضرب كفاً بكف فقال: (هذا أحسن. . . ولا بد أنك تشعر أنك أحسن حالاً بعد هذه الضحكة العالية)
فأمسكت من القهقهة - أعني حبست ما كنت أريد أن أنفجر به من ذلك - وقلت له: (ما هي الحكاية. . . لست أكتمك أني مستغرب سلوكك في هذه الليلة)
فقال: (استغرب ما بدا لك أن تستغرب. . . إنما المهم أن تتبسم)
قلت: (شيء جميل ولكن ألا ترى أن الأمر يحتاج إلى شيء من الإيضاح. . الواقع أني لست فاهماً شيئاً)
قال: (لا بأس. إسمع. إنك رجل كاد ينسى الابتسام وهذا هو مرضك لا ما تتوهم أن معدتك وأمعاءك مصابة به. ليس بك شيء. كن من هذا على يقين جازم. وإنما الذي بك أنك لم تعد تعرف سرور الحياة. والذنب في هذا لك لا للحياة. لا تقل لي إن الحياة لم تعرض عليك إلا صفحاتها الدميمة التي تثير الاشمئزاز والتقزز وتغري النفس بالكآبة والجهامة فإن هذا الكلام فارغ. وأنت الذي أغريت عينك بهذه الصور القبيحة ولولا ذلك لاستطعت أن ترى الصفحات الأخرى المشرقة الوضيئة التي تنعش النفس وتحييها وتجددها. بل إن الذي تتعلق به عينك من صور القبح والدمامة لا يخلو من جمال يشرح الصدر ويفرح القلب. وليست هذه فلسفة ولكنما هي وصف للواقع من أمرك وأمر المتفلسفين الذين يقرءون ولا يفهمون. نعم لا يفهمون. . تقول إنك قرأت الأدب الإنجليزي وتوفرت عليه وأنا أعرف ذلك ولا أجهله، وأعرف أنك قرأت أديسون فلماذا لم تفهم صورته الوصفية لجبل الهموم أو تله أو ما شئت فسمه. الواقع أنك قرأت ولم تعن إلا بالجانب الذي يوافق مزاجك النفسي الذي أسمح لنفسي أن أسميه الأعور - أي الذي لا يرى إلا بعين واحدة ولا يتأثر إلا من جانب واحد. أتقول إن الأمر أمر خلقة وطباع. . لا يا سيدي. . . إننا نتعلم كيف نضبط غرائزنا وطباعنا الحيوانية، وكذلك نستطيع أن نهذب ما نظنه طباعا فطرية في نفوسنا لا تقبل التهذيب والتنقيح والصقل. على أن المسألة ليست مسألة طباع وإنما هي مسألة نظر، فلماذا تنظر إلى جانب السوء وحده ولا تنظر أيضاً إلى جانب الخير والحسن والجمال والفكاهة. . . باختصار - أنظر واضحك يا سيدي. . . ولن تعدم ما يضحك في أي أمر وأي حال، واعلم أنك حين تضحك يتأثر جسمك كله وأعصابك أيضاً. وثق أن ضحكة واحدة تطلقها كافية لتغيير حالتك النفسية. . . هذا علاجك. . فاذهب عني ولا تعد إلي فأن شفاءك في يديك).
وخرجت أقول إن هذه فلسفة جديدة لا تستحق ما غرمت في سبيلها، ومشيت أفكر

في هذا ومضيت أبدي وأعيد فيه بيني وبين نفسي فاصطدمت برجل كان مقبلاً علي فصاح بي بعد أن حك أنفه كما حككت أنا أنفي (اللي واخد عقلك يتهنا به. . . مالك كده زي المسطول) فغلا دمي حين سمعت ذلك ثم ذكرت نصيحة الطبيب فضحكت فقال الرجل (وبتضحك كمان) فقلت له (يا أخي إذا كنت أنا مسطولاً فأنت مثلي، وإذا كان شيء قد أخذ عقلي فإن
عقلك لم يكن على ما يظهر في مكانه. ثم إن منظرنا حين اصطدمنا لا شك يبعث على الضحك. وقد ضحك الأطفال والرجال والنساء وكادت الحيوانات تضحك حين وقعت المصادمة والتقى الأنف بالأنف فلماذا تضحك الدنيا كلها ولا يعبس فيها ويتشاجر ويتشاتم إلا أنا وأنت (فقال صدقت. . معك الحق) وصافحني ومضى عني راضياً.
ودخلت (قهوة) أو (مقهى) فألفيت إخواناً لي يلعبون (الورق) وهو شيء لا أحسنه ولا استعداد عندي لفهمه. وكان مع أصحابي اثنان لا أعرفهم فقدموني إليهم وسموهم لي بأسمائهم فقعدت على كرسي بعيداً عنهم، ثم ضجرت فوقفت أنظر إلى اللعب وإن كنت لا أفهم شيئاً، ولكني رأيت هذا خيراً من الوحدة. ولم أشأ أن أظهر جهلي فجعلت أتظاهر بالفهم. ولم أكن أقول شيئاً ولكني كنت أبتسم كأني فاهم. واتفق أن أحد الغريبين كان أكثرهم كسباً فنظر إلي فألفاني أتبسم فقلب الورق وأشار إلي وقال: (كلمة من فضلك) وتراجع عن الكرسي فدرت إليه ووقفنا بجانب مرآة كانت خلفه فقال - أو همس على الأصح -: (إنك تعرف بالطبع أن هذا اللعب مزاح لا جد فيه) قلت: وأنا أستغرب هذا الكلام الذي لا أرى له داعياً (لم أكن أظن هذا) وابتسمت، فقد بدا لي أن من المستغرب بل من المضحك أن يكلف نفسه عناء التأكيد لي أن اللعب لا يراد به أكثر من تزجية الفراغ. ومالي أنا. . ما شأني بهم. . . أتراه توهمني من الشرطة. . أم ترى هذا المحل من المحلات التي لا يباح فيها لعب الورق.
كان هذا يدور في نفسي وهو يقول لي: (بالطبع مزاح. . وسيرد كل منا ما كسبه إلى إخوانه. . وقد أردنا أن يظهر كل منا براعته في. . . في. . . فاهم. . . أليس كذلك. . . . هذا لا يسمى غشاً. . . لا لا. . أستغفر الله. . . لو كنا نلعب جادين لكان غشاً ولا شك، ولكن في المزاح يجوز ما لا يجوز عند ما يجد المرء. . أليس كذلك. . . هه هه. .)
ومضت أيام فلقيت واحداً أعرفه ومعه فتاة في بعض الطريق ولم أنظر إليهما ولكني كنت أنظر إلى الناحية التي أقبلا منها، وكنت أبتسم لخاطر في نفسي فوقعت عيني في عين صاحبي هذا والابتسامة على فمي فأقبل يعدو ورائي حتى أدركني ثم تنحنح وقال: (مممممم أظنك. . . يظهر. . . أريد أن أقول. . . الحقيقة إنها بنت عرفتها أمس. . ولكن. . أعتقد أنك. . أعني أني. . الواقع أنه لاشيء هناك بيننا. . معرفة جديدة. . . بنت
حلال. . .)
وقد سقت عباراته بعضها وراء بعض ولكنه كان يتنحنح كثيراً ويمسح العرق المتصبب بمنديل كبير فلم يسعني إلا أن أضحك فما استطعت أن أفهم لماذا رأى من واجبه أن يجشم نفسه هذا البيان أو الاعتذار. . . لست أباه ولا أخاه ولا أنا وصي عليه ولا لي عليه أي سبيل. . .
وقد حال الضحك دون الكلام - أعني دون الجواب - فصافحته وتركته يمسح عرقه.
وركبت الترام مرة وكان الجالس أمامي في يده جريدة يتأمل صفحتها المصورة وكنت أنا أتسلى بالنظر إلى الطريق من النافذة التي وراءه فرأيت فتى علق ثوبه الفضفاض بدراجة ولم يستطع تخليصه منها فجعل يجري معها وراكبها لا يعني بالوقوف فابتسمت وكانت الدراجة تساير الترام فظللت أتبسم ولولا الحياء لقهقهت وإذا بجليسي يتكلف الابتسام ويتحركفي مقعده ويقول فجأة - فما كان بالي إليه بل إلى المنظر الذي وراءه - (الحقيقة أن الفن الصحفي تقدم جداً)
فتنبهت وقلت: (جداً. . صحيح) وجازيته ابتساماً بابتسام
فسعل وقال: (الإنسان معذور إذا بدأ بصفحة الصور وما فيها من المناظر الجميلة)
فاستغربت كلمة (المناظر) وسألته (المناظر)
قال: (أعني صور الفتيات الجميلات. . . ولكني لا أشتري الجريدة لهذا وحده. . . . لا لا لا أعوذ بالله. . أرجو ألا تكون جعلتني من هذا الفريق الذي لا يعنيه من الصحف إلا صور النساء لا لا لا. . . . أؤكد لك أني أقرأ. . . . أقرأ. . . . أقرأ كل شيء

قلت: (طبعاً. طبعاً. . . ظاهر يا سيدي ظاهر)
قال: (ثم إني موظف ورب عائلة. . لي زوجة وأولاد. .)
فهممت بأن أقول له إن كونه رب أسرة وذا زوجة وأولاد لا يبدو أنه منعه أن يعترف لي - وأنا غريب بما أراد أن ينفيه ولكني لم أقل شيئاً واكتفيت بالابتسام ونزلت عند أول محطة وقفنا عندها.
الحقيقة التي أعترف بها أن طبيبي هذا لم يكن مخرفاً فقد أفادني الابتسام صحة وعافية وانشراحاً وزاد فعلمني ما لم أكن أعلم، وإذا كان القارئ في شك مما أقول فما عليه إلا أن
يجرب فعل الابتسام لأمر أو خاطر لا علاقة له بجليسه مقترناً بسقوط النظرة في عينه عفواً. وليخبرني بعد ذلك بالنتيجة إذا شاء، فما أشك أنا في أنها ستدهشه وتكشف له عن كثير من أسرار النفوس لم يكن يخطر له على بال.
إبراهيم عبد القادر المازني
صور سياحة
ليالي باريس - 4
مونمارتر ومونبارناس
المسارح والمنتديات الليلية
بقلم سائح متجول
للمدن العظيمة في الليل حياة أخرى غير حياة النهار، ولهذه الحياة الليلية متاعها وسحرها، ولها أحياناً خطرها وألوانها القاتمة؛ ففي تلك المقاهي والمنتديات الساطعة، وفي تلك المسارح الأنيقة، وفي تلك الأبهاء والحانات الليلية التي تزينها أسراب من الحسان ينفثن السحر من عيونهن ومن عطرهن، وفي تلك الأحياء الشهيرة التي غدت أسماؤها أعلاماً في القصة والأدب؛ هنالك في تلك الربوع والمنتديات ينسى الإنسان مدى لحظة متاعب الحياة الدنيا، ويستطيع أن يتذوق شيئاً من متاع الحياة الليلية الضاحكة واللهو المريء.
وباريس مدينة عظيمة، وفيها حياة ليلية مضطرمة، قوامها تلك المنتديات والمسارح والحانات الشهيرة التي كثيراً ما تقرأ عنها في القصص وتشاهدها في السينما، فيخيل إليك أنها عالم بأسره من الفتنة والجمال والسحر.
وسنعرض في هذا الفصل صوراً من تلك الحياة الليلية الباريزية الشهيرة مما رأينا وشهدنا.
تقع مراكز الحياة الليلية الباريزية في أحياء معينة اشتهرت بأسمائها كما اشتهرت بماضيها وتقاليدها، وأضحت علماً على حياة الليل في باريس.
وأشهر هذه الأحياء وأهمها من هذه الناحية هي بلا ريب أحياء: مونمارتر ومونبارناس وبيجال وكليشي وما إليها من مسالك ودروب.
ولقد كان حي مونمارتر يستأثر فيما مضى بأكبر قسط من الشهرة الليلية، بيد أنه على ما يظهر يفقد اليوم شيئاً من هذه الشهرة التي غدا ينافسه في أسبابها وبواعثها حي مونبارناس؛ وكان مونمارتر وما زال أعظم الأحياء الباريزية الشعبية شهرة، وأكثرها جاذبية لشباب الطبقات المتوسطة والدنيا، ومازال رغم تقلبات الزمن وفقدان الكثير من سحره السابق، يجذب إليه طوائف الشباب المثقف والناشئين من الكتاب والأدباء وذوي المهن، يجدون
ملاذاً سهلاً في فنادقه ومطاعمه ومقاهيه الرخيصة؛ ويستمرئون فيه ما استطاعوا من مسرات الحياة الليلية، حيثما يتفتح الحب السهل بين شباب كثير التواضع والطموح.
ويقع حي مونمارتر في قلب باريس، ومازال يحتفظ بكثير من معالمه القديمة؛ دروب ضيقة ملتوية، وأبنية عتيقة لم تنلها يد التجديد، وفنادق ومطاعم ومقاه لم تعرف شيئاً من الأناقة الحديثة؛ ومع ذلك فربما كانت هذه المطاعم والمقاهي المتواضعة في مظاهرها أفضل من كثير من المحال الأنيقة المحدثة، لأنها مازالت تحتفظ بشيء من التقاليد الحسنة من حيث تقديم الألوان والمشروبات الجيدة بأثمان معتدلة، وعدم التورط في تلك المظاهر الخلابة التي تؤذي الجيب دون مبرر.
هذا إلى أن مونمارتر مازالت تزخر بالمسارح والأبهاء والأندية الليلية، من حانات ومراقص شهيرة؛ وقد كانت مونمارتر ومازالت تستمد شهرتها من تلك الأندية الليلية

ومما يعرض فيها من أصناف اللهو والمرح التي تقوم في معظمها على السحر النسوي؛ وأشهر تلك المنتديات بلا ريب هو مسرح (الفولي برجير) يقع في منعطف من شارع (فوبور مونمارتر)؛ ومسرح (الكازار) الذي يقع في هذا الشارع نفسه على مقربة من اتصاله (ببولفار الإيطاليين)، والذي تقوم بالتمثيل فيه سيبيل سوريل العجوز الحسناء وفرقتها الشهيرة؛ ومسرح (معرض العراء) الذي يقع أيضاً في نفس الشارع؛ هذا في (فوبور مونمارتر)، وأما في حي مونمارتر ذاته، وهو على مقربة من (الفوبور) فتقع حانات ومراقص لا حصر لها.

وتغص دروب بيجال وكليشي وهما على مقربة من مونمارتر بالحانات والمقاهي المريبة التي تؤمها الغانيات من طبقات متواضعة، ويؤمها طلاب اللهو من جميع الطبقات والجنسيات. ويمتاز شارع بيجال بالأخص بما يعرض فيه من الألعاب الصبيانية المختلفة مما يعرض عادة في (لونبارك)

وفيما بين بيجال وكليشي توجد عدة من المسارح والمراقص الممتازة؛ وهنالك يقع (كازينو دي باري) الشهير الذي تعرض فيه مناظر العراء المطلق من الممثلة الأمريكية الحسناء (جوان وارنر) وفرقتها؛ ويقع مرقص (الكليزيوم) في شارع روشوار، وهو من أشهر مراقص باريس، وفيه سرب من الفتيات الحسان لأجيرات أو كما يسمون، يرتدين أثواباً مشقوقة من أحد الجانبين تسفر عن ساق عارية؛ وهؤلاء يرقصن مع الطالبين بتذاكر خاصة يصرفها المحل للراغبين وقيمة التذكرة التي تعطى عن رقصة واحدة فرنكان؛ هذا إلى عدة حانات ليلية للرقص والغناء تفتح أبوابها حتى الصباح.

وقد ذاعت مناظر الرقص العاري في باريس وأصبحت أشهر دعاية تذيعها المسارح والمراقص الأنيقة؛ ففي الفولي بريجر، والكازينو دي باري، والكازار، تعرض المناظر والرقصات العارية بانتظام؛ ويمتاز الكازينو دي باري بعرض أشهر هذه المناظر وأجملها، ويشترك في المنظر الواحد نحو عشرين فتاة عارية لا يسترن سوى ملمس العفة بغلالة صغيرة على شكل (فينوس) ويسدلن على ظهورهن شعوراً طويلة مستعارة لتستر الألية بعض الشيء؛ وبطلة الرقص العاري أو ملكته هي مس جوان وارنر التي ترأس فرقة العراء في (الكازينو)؛ وقد كان لها منذ عامين أو ثلاثة قصة مع القضاء، حيث عرضت بعض رقصاتها العارية الأولى، فاعتبرها البوليس عملاً فاضحاً، وحُقق معها، وقدمت إلى محكمة الجنح، ولكنها دافعت عن نفسها بأنها تقوم بمناظر فنية محضة، وأخذ القضاء بنظريتها وقضى ببراءتها. ومن ذلك الحين ذاع الرقص العاري في باريس، ونظم في أشهر المسارح، وسميت مس وارنر (ملكة العراء المطلق) والواقع أن مس وارنر تتمتع بجسم باهر التكوين والتقاسيم كأنه تمثال روماني رائع.

وقد شهدنا هذه المناظر الباريزية العارية في (الفولي برجير) وفي (الكازينو) وفي (الكازار)، وشهدنا عدة أخرى من المنتديات والحانات الليلية في مونمارتر وكليشي ومونبارناس، فماذا رأينا وماذا شعرنا؟ رأينا مناظر كثيرة الألوان والضوء، ولكن قليلة السحر حقاً. وإن منظر هذه الأجسام العارية قد يثير الغرائز الوضيعة، ولكنه قلما يثير السحر الرفيع، وأي سحر في مناظر تسودها مسحة البغاء أكثر مما تسودها مسحة الفن والجمال؟ والظاهر أن هذه المسارح الباريزية الليلية إنما تعتمد على الأجسام النسوية العارية كعامل أساسي في اجتذاب النظارة، وإنك لتقرأ الإعلانات الخلابة في الصحف عن مناظر العراء فيخيل إليك أنك سترى مناظر من الجنة ; ; ; ; 24 وأمثالها من العبارات الرنانة تقرأها دائماً في برامج هذه المسارح؛ ولقد كانت أسماء (الفولي برجير) و (الكازينو دي باري) و (الكازار) تثير فينا قبل رؤيتها سحراً لا يقاوم، فلما أتيح لنا أن نراها آنسنا خيبة أمل مرة، لأننا لم نر فيها من المناظر الرفيعة الرائعة ما يتفق مع تلك الدعاية الرنانة التي تثار حول أسمائها في الصحف وفي السينما؛ وهي دعاية يفهمها الفرنسي، ولذلك فهو قليل الاقبال على هذه المسارح والمنائر التي ترتب لاجتذاب الأجانب وتقتضي من روادها أجوراً فاحشة حتى إن الكرسي المتواضع (في نهاية البارتير أو في الجاليري) في الفولي بريجير أو الكازينو لا يكلف أقل من ثلاثين أو أربعين فرنكاً (40 - 52 قرشاً).

ومونبارناس؟ إن اسم مونبارناس كمونمارتر يغمر الأدب الباريسي، ولكن مونبارناس

أحدث عهداً في الأخذ بناصية الحياة الليلية الباريزية؛ ومونبارناس شارع مديد شاسع في جنوب باريس على مقربة من اللكسمبور وسان ميشيل، وهو أكثر رحابة وأقل صخباً من مونمارتر، وبه على مقربة من محطة (مونبارناس) عدة مقاه حسنة أشهرها وأجملها (لاكوبول) وهو مقهى أنيق وبه مرقص ليلي؛ وهنالك في الجانب الآخر أشهر حانة ليلية في الحي وهي حانة (جوكي)، وهي غنائية راقصة وينحصر الجانب الساهر المنير من مونبارناس بين (لاكوبول) والمحطة؛ وهنالك تلمح تحت أنوار الشارع والمقاهي كثيراً من الغواني وأنصاف الحرائر.

وقد اشتهرت مونبارناس بأنها مهبط الأدباء والفنانين الناشئين؛ والواقع أنك حين تتجول في مقاهي الحي ومطاعمه ترى كثيراً من الفنانين الذين أطلقوا لحاهم والذين تدل عليهم مظاهرهم يؤمون أندية الحي ويتجولون في دروبه؛ والمعروف أن رواد مونبارناس هم غالباً من الطبقة المثقفة، وهي بذلك تمتاز عن مونمارتر التي عرفت بأنها مهبط الطبقات الدنيا أيضاً؛ وقد أخذت مونبارناس في العهد الأخير تنافس مونمارتر في الأخذ بزمام الحياة الليلية، ونجحت في ذلك إلى حد ما؛ بيد أنها مازالت تضيق بأنديتها القليلة عن أن تضم كثيراً من تلك الجماهير الغفيرة التي تهرع إلى مونمارتر بالليل، هذا إلى أنها لا تحتوي كثيراً من تلك المنتديات الشعبية التي تغص بها مونمارتر والتي تموج بروادها دائماً.

والظاهر أن مونبارناس تقف في منافستها لمونمارتر عند ناحية خاصة، فهي بموقعها وشوارعها الشاسعة الفخمة أقدر على اجتذاب الخاصة من مونمارتر؛ وقد سمعت من بعض الباريزيين الخبيرين بشؤون الحياة الاجتماعية أن المستقبل لمونبارناس في تحول تيار الحياة الليلية إليها؛ وأن مدى هذا التحول يتوقف على مدى قيام المقاهي والمنتديات الجديدة في حي مونبارناس.

هذه صورة موجزة مما استطعنا أن نقف عليه من نواحي الحياة الليلية في باريس؛ ولا ريب أن توجد ثمة نواح أخرى يعرفها أولئك الذين أقاموا في العاصمة الفرنسية أكثر مما أقمنا وعرفوها أكثر مما عرفنا. بيد أنا نعتقد أن ما أتيح لنا أن نشهده من المنتديات والمناظر المختلفة التي وصفناها هو عنوان الحياة الليلية الباريزية يعبر عنها تعبيراً حقيقياً؛ وقد حرصنا على تعرف هذه الحياة ما استطعنا، ولم نبخل بأنفاق ليال عديدة برمتها في التجوال والمشاهدة، ولم نضن بما اقتضاه التجوال من نفقات فاحشة في غالب الأحيان؛ ولم نر في كل ما شهدنا، في تلك الأحياء الشهيرة، وفي تلك المنتديات والمسارح الليلية ذات المظاهر الأنيقة والأنوار الساطعة والبرامج الخلابة، من المتاع والفتنة ما يتفق مع تلك الدعاية المغرقة التي يبثها في مصر عن باريس وعن منتدياتها ولياليها أولئك الذين لم يعرفوا غير باريس، والذين يقدمون إلينا عنها في كتبهم ومقالاتهم أجمل الصور وأروعها.

(يتلى)

نظرية النبوة عند الفارابي

للدكتور إبراهيم بيومي مدكور

يستمد كل دين سماوي أولاً وبالذات على الوحي والإلهام، فمنهما صدر، وبما لهما من إعجاز فاز، وعلى تعاليمهما تأسست قواعده وأركانه. وما النبي إلا بشر منح القدرة على الاتصال بالله والتعبير عن إرادته؛ وهذا هو كل ما له من امتياز، فلا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح، ولا يروي خبراً إلا وهو تنزيل من حكيم حميد، ولا يقضي بقضاء إلا وهو ينفذ إرادة الله. والإسلام ككل الديانات السامية يستمد قوته من السماء، فعقائده وقوانينه مأخوذة من الكتاب والسنة اللذين هما وحي مباشر أو غير مباشر: (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى)، فمن ينكر الوحي يرفض الإسلام في جملته، أو يهاجمه على الأقل في أساسه ويهدم دعائمه الأولى والرئيسية. وتلك جريمة شنعاء قل أن يجرؤ عليها أشخاص عاشوا فوق أرض الإسلام وتحت سمائه.

وليس شيء ألزم لفيلسوف مسلم من أن يحتفظ في مذهبه بمكان للنبوة والوحي إذا شاء أن تقبل فلسفته وتقابل بالتسامح من جانب إخوانه المسلمين. وقد كان فلاسفة الإسلام حريصين كل الحرص على أن يوفقوا بين الفلسفة والدين، بينا العقل والنقل، بين لغة الأرض ولغة السماء، لهذا لم يفتهم أن يشرحوا لغة السماء ويوضحوا كيفية

وصولها إلى سكان العالم الأرضي وبينوا الدين في اختصار على أساس عقلي، فكونوا نظرية النبوة التي هي أهم محاولة قاموا بها للتوفيق بين الفلسفة والدين. والفارابي هو أول من ذهب إلى هذه النظرية وفصل القول فيها بحيث لم يدع فيها زيادة لخلفائه فلاسفة الإسلام الآخرين. وهذه النظرية هي أسمى جزء في مذهبه الفلسفي، تقوم على دعائم من علم النفس وما وراء الطبيعة، وتتصل اتصالاً وثيقاً بالسياسة والأخلاق، ذلك لأن الفارابي يفسر النبوة تفسيراً سيكلوجياً نفسياً، ويعدها وسيلة من وسائل الاتصال بين عالم الأرض وعالم السماء، ويرى فوق هذا أن النبي لازم لحياة المدينة الفاضلة من الناحية السياسية والأخلاقية، فمنزلته لا ترجع إلى سموه الشخصي فحسب، بل لما له من أثر في الوسط الاجتماعي.

قد يكون الفارابي أكثر فلاسفة الإسلام اشتغالاً بالمسائل الاجتماعية، فهو يتعرض لها في كثير من مؤلفاته، ويعنى بها عناية تدل على الرغبة والاهتمام. وبين رسائله القليلة التي

وصلت إلينا رسالتان رئيسيتان موقوفتان على السياسة والاجتماع، وهما: السياسة المدنية، وآراء أهل المدينة الفاضلة. وله شرح مختصر على نواميس أفلاطون لا يزال مخطوطاً حتى اليوم ومحتفظاً به في مكتبة ليدن، وقد رأيناه هذا الصيف فيما رأينا من مخطوطات عربية أخرى بالمكاتب الأوربية؛ وكتاب آراء أهل المدينة الفاضلة يكفي وحده في أن نعد الفارابي بين من فكروا تفكيراً منظماً في النظريات السياسية، وعله أشهر كتبه وألصقها به؛ وقد عرف المتأخرون له هذه المنزلة، فلقبوا مؤلفه به وسموه (صاحب المدينة الفاضلة)، وهذا الكتاب يحاكي جمهورية أفلاطون إلى حد بعيد، ويحوي كثيراً من الآراء الأفلاطونية. والواقع أن شيخ الأكاديمية انفرد تقريباً، بين مفكري الإغريق، بالتأثير في دراسة العرب الاجتماعية، وبرز في هذا المضمار على أرسطو الذي ساد الفلسفة الإسلامية في نواحيها الأخرى.

فعلى طريقة أفلاطون يرى الفارابي أن المدينة كل مرتبط الأجزاء ومتضامها؛ هي كالبدن إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر. فالألم الذي يحس به أحد أفراد الجمعية لا بد أن يعدوه إلى الآخرين، والسرور الفردي لا يصح أن يعرف في جمعية صالحة. فلا يألم شخص وحده، ولا يُسر وحده، بل يجب أن تسري في الجميع روح واحدة تحس بإحساس مشترك. وإذا كانت أعضاء الجسم ذات وظائف متميزة فواجب أن يكون لكل فرد من أفراد المجتمع عمل خاص، ولن تتم للجمعية سعادتها إلا إذا قسم العمل بين أفرادها تقسيماً متناسباً مع كفايتهم ومشوباً بروح التضامن والتعاون، وبديهي أن الأعمال الاجتماعية متفاوتة بتفاوت غاياتها؛ وأسماها وأشرفها ما اتصل برئيس الجمعية ومهمته، لأنه من المدينة كالقلب من الجسم، فهو مصدر الحياة وأصل التناسق والنظام؛ وليست وظيفته سياسية فقط، بل هي أخلاقية كذلك؛ فإنه مثال يحتذى وسعادة الأفراد تتلخص في التشبه به.

يبني الفارابي كل آماله على رئيس المدينة ويعلق عليه كل الأهمية، كما علق شيخ أثينا أهمية كبيرة على رئيس الجمهورية، ويشترط فيه شروطاً كثيرة تشبه تمام الشبه الشروط التي قال بها أفلاطون من قبل، بل هي مأخوذة عنها نصاً. ويعقد لها في كتابه (آراء أهل المدينة الفاضلة) فصلاً مستقلاً عنوانه: (في خصال رئيس المدينة الفاضلة)، وفي هذا

الفصل يقرر أنه لابد أن يكون رئيس المدينة سليم البنية قوي الأعضاء تامها، جيد الفهم والتصور، قوي الذاكرة، كبير الفطنة، سريع البديهية، حسن العبارة، محباً للعلم والاستفادة، متحلياً بالصدق والأمانة، نصيراً للعدالة، عظيم الإرادة، ماضي العزيمة، قانعاً متجنباً للملذات الجسمية. شرائط صعبة التحقيق ونادرة الوجود مجتمعة في شخص واحد كما يلاحظ الفارابي نفسه، ومع هذا لا يتردد في أن يزيدها تعقيداً؛ فيضيف إليها شرطاً آخر أملاه عليه مذهبه العام واستعداده الصوفي، أو بعبارة أخرى يضيف إليها الشرط الذي يبعده عن أفلاطون بقدر ما يقربه من التعاليم الإسلامية، وذلك الشرط هو أنه لابد لرئيس المدينة من أن يسمه إلى درجة العقل الفعال الذي يستمد منه الوحي والإلهام، والعقل الفعال، كما نعلم، أحد العقول العشرة المتصرفة في الكون، ونقطة الاتصال بين العبد وربه، ومصدر الشرائع والقوانين الضرورية للحياة الخلقية والاجتماعية، وعلنا تلحظ من هذا أن خيال الفارابي - ولو في هذه النقطة على

الأقل - أخصب من خيال أفلاطون. ففي حين أن مؤلف الجمهورية يريد أن يرغم الفيلسوف على النزول من سماء التأملات إلى عالم الشؤون السياسية، يطلب الفارابي من رئيس مدينته أن يندمج في العالم الروحي وأن يحيا بروحه أكثر من حياته بجسمه، ويشترط فيه أن يكون قادراً باستمرار على الاتصال بالعقل الفعال. فالحاكم الفيلسوف الذي قال به أفلاطون يتحول إلى حكيم واصل عند الفارابي. يقول دي بور في حق: (يُبْرز الفارابي رئيسه في كل الصفات الإنسانية والفلسفية؛ فهو أفلاطون في ثوب محمد النبوي). وواجب على رئيس كهذا قد حظي بالسعادة الحقة ونعم بالاتصال بالكائنات الروحية أن يجتذب مرءوسيه نحوه، ويقوم على تهذيب أرواحهم أولا وبالذات، ويصعد بهم إلى مستوى النور والإشراق. فنحن إذن أمام مدينة سكانها قديسون ورئيسها نبي، وهي مدينة لا وجود لها إلا في مخيلة الفارابي.

بيد أن الفيلسوف العربي يأبى إلا أن يصور لنا من هذا الخيال حقيقة ويحملنا على التسليم بإمكان المدينة الفاضلة التي ينشدها، ذلك لأن الاتصال بالعقل الفعال، وإن يكن نادر الوجود وخاصاً بعظماء الرجال، ميسور من طريقين: طريق العقل وطريق الخيالة، أو طريق التأمل وطريق الإلهام؛ فبالنظر والتأمل يستطيع الإنسان أن يصعد إلى درجة العقل المستفاد حيث تتقبل الأنوار الإلهية، وليست النفوس كلها قادرة طبعاً على هذا الاتصال، وإنما تسمو

إليه الأرواح القدسية التي تستطيع أن تخترق حجب الغيب وتدرك عالم النور. يقول الفارابي: (الروح القدسية لا تشغلها جهة تحت عن جهة فوق؛ ولا يستغرق الحس الظاهر حسها الباطن؛ وقد يتعدى تأثيرها من بدنها إلى أجسام العالم وما فيه؛ وتقبل المعلومات من الروح والملائكة بلا تعليم من الناس). فبفضل الدراسات النظرية الطويلة والتأملات العقلية الكثيرة يستطيع الحكيم الاتصال بالعقل الفعال، وهذا الحكيم الواصل هو الذي يسمح الفارابي بأن يكل إليه مقاليد أمور مدينته، وبهذا يحل (صاحب المدينة الفاضلة)، على طريقته طبعاً مشكلة الرئيس السياسي والاجتماعي، وهو حل صوفي كما ترى؛ وليس غريباً أن يصدر عن فيلسوف يقول بنظرية السعادة والاتصال. فآراء الفارابي السياسية، وإن اعتمدت على دعائم أفلاطونية مشوبة بنزعة صوفية واضحة.

على أن الاتصال بالعقل الفعال ممكن أيضاً عن طريق الخيالة، وهذه هي حال الأنبياء؛ فكل إلهاماتهم وما ينقلون إلينا من وحي منزل أثر من آثار الخيالة ونتيجة من نتائجها، وإذا ما رجعنا إلى علم النفس عند الفارابي وجدنا أن المخيلة تلعب فيه دوراً هاماً وتنفذ إلى نواحي الظواهر النفسية المختلفة. فهي منبتة الصلة بالميول والعواطف وذات دخل في الأعمال العقلية والحركات الإرادية. تمد القوى النزوعية بما يستثيرها ويوجهها نحو غرض ما؛ وتغذي الرغبة والشوق بما يؤججهما ويدفعهما إلى السير في الطريق حتى النهاية. هذا إلى أنها تحتفظ بالآثار الحسية وصور العالم الخارجي المنقولة إلى الذهن عن طريق الحواس، وقد لا يقف عملها عند ادخار الصور الذهنية والاحتفاظ بها، بل تخلق منها قدراً مبتكراً لا تحاكى فيه الأشياء الحسية، وبهذا يشير الفارابي إلى الخيالة المبدعة التي تنبه إليها علماء النفس المحدثون بجانب الخيالة الحافظة ومن الصور الجديدة التي تخترعها الخيالة تنتج الأحلام والرؤى. ويعنينا هنا قبل كل شيء أن نبين أثر الخيالة في الأحلام وتكوينها. فإنا إن فسرنا الأحلام تفسيراً علمياً استطعنا أن نفسر النبوة وآثارها. ذلك لأن الإلهامات النبوية إما أن تتم في حال النوم أو في حال اليقظة؛ وبعبارة أخرى إما أن تبدو على صورة الرؤيا الصادقة أو الوحي. والفرق بين هذين الطريقين نسبي، والاختلاف بينهما في الرتبة لا في الحقيقة. وما الرؤيا الصادقة إلا شعبة من شعب النبوة تمت إلى الوحي بصلة وتتحد معه في الغاية وإن اختلفت عنه في الوسيلة. فإذا فسرنا أحدهما أمكن

تفسير الآخر. وقد عقد الفارابي في كتابه: آراء أهل المدينة الفاضلة فصلين متتاليين (في سبب المنامات، وفي الوحي ورؤية الملك)؛ وفي هذا ما يبين الصلة بين هذين المبحثين.

فهو يبدأ أولا بالأحلام فيوضحها توضيحاً يقرب كثيراً من بعض الآراء العلمية الحديثة، ويرى أن المخيلة متى تخلصت من أعمال اليقظة تفرغت أثناء النوم لبعض الظواهر النفسية، فتخلق صوراً جديدة أو تجمع صوراً ذهنية قديمة على أشكال مختلفة محاكية

ومتأثرة في ذلك ببعض الاحساسات والمشاعر الجسمية أو العواطف النفسية والمدركات العقلية، فهي قوة مخترعة قادرة على الخلق والإيجاد والتصوير والتشكيل، ولها أيضاً قدرة عظيمة على المحاكاة والتقليد، وفيها استعداد كبير للانفعال والتأثر فأحوال النائم العضوية والنفسية واحساساته ذات أثر واضح في مخيلته، وبالتالي في تكوين أحلامه، وما اختلفت الأحلام فيما بينها إلا لاختلاف العوامل المؤثرة فيها، فنحلم بالماء أو السباحة مثلاً في لحظة يكون مزاجنا فيها رطبا، وكثيرا ما مثلت الأحلام تحقيق رغبة أو الفرار من فكرة بغيضة؛ فقد يتحرك الإنسان أثناء نومه تلبية لنداء عاطفة خاصة، أو يجاوز مرقده ويضرب شخصاً لا يعرفه أو يجري وراءه، وعلى الجملة الميول الكامنة والاحساسات السابقة أو المصاحبة لحلم ما ذات دخل عظيم في تكوينه وتشكيله. ولسنا في حاجة لأن نشير إلى أن هذه الملاحظات على بساطتها تشبه التجارب العلمية التي قام بها فرويد وهرفي وموري من علماء النفس المحدثين الذين اشتغلوا بالأحلام وتحليلها. وقد أبان فرويد في جلاء أثر الميول الكامنة في تشكيل الرؤى والأحلام، وخاصة لدى الكهول والشبان؛ واستطاع هرفي وموري أن يبرهنا على أن الحلم غالباً ما يكون امتداداً لإحساس سابق أو نتيجة لإحساس مقارن، فقد يحلم الإنسان بحريق في حجرته في الوقت الذي يقع فيه بصيص من الضوء على حدقته أثناء نومه، أو بأنه يضرب على أثر ألم في ظهره. وقد حدث مرة أن رأى شخص أن داره تنهار به في الوقت الذي انكسرت فيه إحدى قوائم سريره. ولقد وصل الأمر بهرفي أن ظن - بناء على ما سبق - أنه يمكن أن يتصرف في أحلامه ويشكلها كما يشاء، فمتى ربط صلة بين بعض الاحساسات وذكريات معينة استطاع في نومه استعادة هذه الذكريات بإثارة الاحساسات المتصلة بها. وقديماً حاول الإغريق أن يحتفظوا بأحلامهم أو يثيروها بواسطة بعض الطقوس الدينية.

وإذا كان في مقدور الخيالة أن تحدث كل هذه الصور فهي تستطيع أن تشكلها بشكل العالم الروحاني، فيرى النائم السموات ومن فيها، ويشعر بما فيها من لذة وبهجة. وفوق هذه فقد تصعد المخيلة إلى هذا العالم وتتصل بالعقل الفعال الذي تتقبل منه الأحكام المتعلقة بالأعمال الجزئية والحوادث الفردية، وبذا يكون التنبؤ؛ وهذا الاتصال يحدث ليلاً ونهاراً، وبه نفسر النبوة، فهو مصدر الرؤيا الصادقة والوحي. يقول الفارابي: (إن النبوة المتخيلة إذا كانت في إنسان ما قوية كاملة جداً، وكانت المحسوسات الواردة عليها من خارج لا تستولي عليها استيلاءً يستغرقها بأسرها، ولا يستخدمها للقوة الناطقة، بل كان فيها مع اشتغالها بهذين فضل كثير تفعل به أيضاً أفعالها التي تخصها، وكانت حالها عند اشتغالها بهذين في وقت اليقظة مثل حالها عند تحللها منها في وقت النوم. . . اتصلت بالعقل الفعال وانعكست عليها منه صور في نهاية الجمال والكمال، وقال الذي يرى ذلك إن لله عظمة جليلة عجيبة، ورأى أشياء عجيبة لا يمكن وجود واحد منها في سائر الموجودات أصلاً، ولا يمتنع إذا بلغت قوة الإنسان المتخيلة نهاية الكمال أن يقبل في يقظته عن العقل الفعال الجزئيات الحاضرة والمستقبلة أو محاكياتها من المحسوسات، ويقبل محاكيات المعقولات المفارقة وسائر الموجودات الشريفة ويراها، فيكون له بما قبله من المعقولات نبوة بالأشياء الإلهية، وهذا هو أكمل المراتب التي تنتهي إليها القوة المتخيلة والتي يبلغها الإنسان بهذه القوة فميزة النبي الأولى في رأي الفارابي أن تكون له خيالة قوية تمكنه من الاتصال بالعقل الفعال أثناء اليقظة وفي حال النوم، وبهذه الخيالة يصل إلى ما يصل إليه من إدراكات وحقائق تظهر على صورة الوحي أو الرؤيا الصادقة، وليس الوحي شيئاً آخر سوى فيض من الله عن طريق العقل الفعال، وهناك أشخاص قويو الخيالة، ولكنهم دون الأنبياء فلا يتصلون بالعقل الفعال إلا في حال النوم، وقد يعز عليهم أن يعربوا عما وقفوا عليه، أما العامة والدهماء فمخيلتهم ضعيفة هزيلة لا تسمو إلى درجة الاتصال هذه لا في الليل ولا في النهار. يقول الفارابي: (ودون الأنبياء من يرى بعض الصور الشريفة في يقظته وبعضها في نومه، ومن يتخيل في نفسه هذه الأشياء كلها ولكن لا يراها ببصره، ودون هذا من يرى جميع هذه في نومه فقط؛ وهؤلاء تكون أقاويلهم التي يبرون بها أقاويل محاكية ورموزاً وألغازاً وتشبيهات، ثم يتفاوت هؤلاء تفاوتاً كثيراً). وهنا يشير الفارابي

إلى جماعة الأولياء والواصلين الذي يتفقون مع الأنبياء في بعض النواحي ويختلفون عنهم في نواحي أخرى.

هذه هي نظرية النبوة التي انتهى إليها الفارابي بعد أبحاثه الاجتماعية والنفسية. فالنبي والحكيم في رأيه هما الشخصان الصالحان لرياسة المدينة الفاضلة؛ وكلاهما يحظى في الواقع بالاتصال بالعقل الفعال الذي هو مصدر الشرائع والقوانين الضرورية لنظام الجمعية، وكل ما بينهما من فارق أن الأول يحظى بهذا الاتصال عن طريق الخيالة والثاني عن طريق البحث والنظر. وسندع الحكيم وطريق اتصاله جانباً فقد تعرضنا له من قبل على صفحات الرسالة حين تكلمنا عن نظرية السعادة، وسنوجه عنايتنا فيما يلي إلى بيان أصول نظرية النبوة وأثرها فيمن جاء بعد الفارابي من فلاسفة ومفكرين.

(يتبع)

إبراهيم بيومي مدكور

في الأدب المقارن

أثر الدين في الأدبين العربي والإنجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

للدين في أدب كل أمة أثر عميق متشعب، بل هو أخل الآداب والفنون والعلوم، تنشأ كلها في الجماعات البدائية لخدمته، ويستأثر بالتبحر فيها رجاله، ثم تذيع عنهم في بقية الشعب وتنفصل تدريجياً عن الدين، ويستقل كل منا بنفسه، ويظل للدين مع ذلك أثر فيها قل أو كثر، يؤثر فيها من جراء تأثيره في المجتمع الذي تستقي منه العلوم والفنون؛ هكذا كان الدين عند قدماء المصريين واليونان والرومان واليهود وغيرهم من الأمم.

ولا يشد الأدبان العربي والإنجليزي عن هذه القاعدة: فقد تأثر كل منهما بالوثنية أولاً ثم بدين سماوي وكتاب منزل، وشهد نهضة دينية كبرى كان لها أثر عظيم في مجتمعه، واختلط الدين بالسياسة في كلتا الأمتين وتأثر الأدب بهذا الاختلاط، وكان من رجال الدين في الأمتين بلغاء ذوو أذواق أدبية أتحفوا أدب اللغة بآثار جليلة في الحض على الفضيلة والكمال الروحي، وكان من أدباء كلتا الأمتين متشيعون للطوائف الدينية دافعو عنها في نظمهم ونثرهم.

شهد الأدب العربي أعظم النهضات الدينية طراً بظهور الإسلام، الذي غير وجه المجتمع العري وأغنى الأدب بخير ما فيه من الخطب الدينية والسياسية، وإن يكن الأدب الإنجليزي لم يشهد نشأة النصرانية فلم تفته نهضة دينية عظيمة الشأن هي الإصلاح الديني الذي شمل أوربا في عهد الحياء وامتد في إنجلترا إلى القرن السابع عشر، وانتهى بانتصار طائفة المطهرين، وأنجب هذا العهد رهطاً من الكتاب والشعراء المبرزين أمثال ملتون وبنيان ودَن وهريك وهربرت وكراشو، الذي خلفوا أحسن ما في اللغة من أشعار الورع والطهر والسمو الروحي.

وحبت تلك النهضة الدينية الأدب العربي بكتاب سماوي لن يزال مثلاً أعلى في البلاغة ومعيناً لا ينضب للبلغاء، ومنذ ترجم الإنجيل إلى الإنجليزية ترجمة بليغة، كان له فضل عظيم على اللغة وعلى أدبها، فقد أقام قواعدها ووضح أساليبها، ولم يزل مثلاً للسلاسة والإمتاع.

واختلط الدين بالسياسة في الدولة العربية، وكان محور التقائهما مشكلة الخلاف التي اصطرعت حولها الأحزاب وقامت باسمها الدولات، وامتزج الدين السياسة في إنجلترا عهداً، وكان مدار امتزاجهما سلطة الملك وحقوق الشعب، فالملكية تدعي الحق الإلهي والسلطان المطلق في شؤون الدين والدنيا، والشعب يريد الحرية في كلا الأمرين ويحد سلطة الملك في الناحيتين، وتأثر الأدبان بهذا التداخل بين الدين والسياسة.

ويدين الأدب الإنجليزي للديانة بثلاث أياد: الأولى وضع من أوضاع الأدب هو الرواية التمثيلية، التي نشأت في العصور الوسطى في الكنيسة حيث كان يمثل عذاب المسيح والآم الشهداء وخبائث إبليس، وتمثل الفضائل والرذائل شخوصاً متحاورة، فمن هذا البدء الساذج نمت الرواية التمثيلية التي ازدهرت في عهد شكسبير، والتفتت إلى دراسة الإنسان والمجتمع، واليد الثانية أثر أدبي خطير من نفائس الأدب الإنجليزي، هو ملحمة ملتون الفردوس المفقود، التي أوحى إليه بها الروح الديني الذي ساد عصره، والعراك الديني الذي خاض غماره، واستعار مشاهدها ومعالمها من الإنجيل الذي كان

به في عهده أسمى مكانة، وأخيراً للكنيسة فضل على الأدب الإنجليزي إذ كان من رجالها من ساعدهم الفراغ الذي ينعمون به على الانصراف إلى الأدب، بل كان منهم من ألحقوا بالكنيسة عمداً ليحظوا بذلك الفراغ وذلك الانصراف، ومن مشهوريهم سويفت ودَن وكنجزلي.

وليس في الأدب العربي ما يقابل هذه الأيادي التي أسدتها الديانة والكنيسة إلى الأدب الإنجليزي. فقد أكبر المسلمون شخص نبيهم عن كل تمثيل وتشخيص، وانتهت حياته بالظفر الأكبر لا بمأساة كمأساة المسيح. وإن يكن في تاريخ الإسلام ما يشابه تلك المأساة فهو مصارع أبناء الإمام علي التي خلدتها الأشعار الباكية، وإذا كانت رسالة الغفران تشابه الفردوس المفقود في امتداد مشاهدها في العالم الآخر فهي تخالفها في كل شيء آخر لاختلاف المؤلفَين؛ ثم إنه لم تكن في الإسلام هيئة دينية رسمية تكاد تقصر على أبناء العلية ومن يلوذ بهم كالكنيسة الإنجليزية.

وفي الأدبين العربي والإنجليزي آثار طريفة للنزعة الصوفية، التي هي من أسمى مظاهر الروح الديني، وإن خرجت عن مألوف المتدينين في أشياء، وأنكر منها رجال الدين أحياناً أموراً، واتخذت لها رموزها وطرقها الخاصة التي تستغلق على غير أربابها، وأظهر أصحاب هذه الطريقة الرمزية في الأدب الإنجليزي بليك، وأجزلهم في العربية شعراً وأسيرهم ذكراً ابن الفارض.

وجاءت النهضة العلمية والفلسفية بعد النهضة الدينية في كلتا الأمتين. تمثل ذلك عند العرب في ذيوع الفلسفة اليونانية، وعند الإنجليز في ارتقاء العلوم المادية كعلوم الحياة وطبقات الأرض والكيمياء والطب، وتطبيق نظرية النشوء والارتقاء عليها وعلى العلوم الاجتماعية، فقام الصدام بين الدين والعلم والفلسفة، وانعكس ظله في الأدب، وأوضح مثال للشك العلمي في العربية شعر المعري، وفي الإنجليزية شعر تنيسون وهاردي.

كان انتصار المطهرين الذين وضعوا أساس حرية الشعب الدينية والسياسية أوج احتفال الإنجليز بالمسائل الدينية وظهور آثارها في أدبهم، وبعدها هبط إلى المحل الثاني من تفكيرهم، ولم تقم له إلا حركات قليلة الشأن في القرن الماضي، إذ كان يحاول كل من فريقي البروتستانت والكاثوليك جمع الأنصار حوله، وظهر في ذلك المعترك من الأدباء المتحمسين للدين جملة، أشهرهم نيومان ثم تشسترتون المتوفى حديثاً، وكانت آراء داروين في منتصف القرن الماضي ضربة شديدة وجهت إلى روايات الإنجيل في شأن الخلق، فانصرف جمهور الناس نهائياً عن التحمس للدين ورجاله، وهكذا بعد الأدب الإنجليزي عن الدين وتأثيره في العصور الحديثة بعداً كبيراً.

أما تأثر الأدب العربي بالإسلام فكان أشمل وأبعد مدى وأطول أمداً من تأثر الأدب الإنجليزي بالمسيحية لأسباب عديدة: أولاً إن الإسلام نشأ بين أظهر العرب فشهدوا مبعثه وجهاده وظفره على الوثنية؛ وثانياً أنه كان أساس دولتهم وقطب سياستهم الداخلية؛ وثالثاً أنه ظل دائماً مجاهداً أعداءه مغيراً تارة ومدافعاً أخرى، فكان قطب السياسة الخارجية أيضاً في أحوال كثيرة؛ ورابعاً أنه كان بعد انتشاره محور العلوم والآداب وكان القران أساس الثقافة التي يؤخذ بها الناشئون؛ وخامساً أنه سوَّى بين الداخلين فيه فقام منهم مقام الوطنية في الأمم الأخرى؛ وأخيراً أنه بأحكامه يشمل أمور الدنيا شموله شؤون الآخرة، ويحيط بقواعد المجتمع الذي هو مبعث الأدب، فلا غرو إن تأثر الأدب العربي في كل عصوره بالدين روحاً ومظهراً وغرضاً وأسلوباً.

فظهور الإسلام بين العرب ترك أثره في شعر الشعراء، بين مهاجم له ومدافع عنه ومادح للرسول (ص)، وظلت مدحة الرسول في كل العصور غرضاً من أغراض الشعر؛ وجهاد الإسلام أعداءه فاتحاً أو منافحاً مدى القرون الطويلة، تجلى أثره في خطب الخلفاء والقواد وأشعار المادحين للأمراء المنتصرين على الروم أو الوثنيين أو الأسبان أو الصليبيين، لاسيما وقد كان ذلك دائماً مصطبغاً بصبغة القومية، فقد كان الإسلام يجمع شعوبه في عصبة أمم واحدة ذات شعور مشترك وأعداء مشتركين، ومن أشهر آثار ذلك كله في الأدب يائية أبي تمام في فتح عمورية، ومدائح المتنبي لسيف الدولة، وقصائد الأبيوردي، والبهاء زهير، وابن مطروح في الحروب الصليبية، ومدائحهم

للأيوبيين، ومراثي الأندلس وصقلية، كل هاتيك يخفق فيها الروح الديني، ممتزجاً بالوطنية والسياسة وتمجيد الدولة القائمة.

وفي داخل الدولة كان الدين - متمثلاً في مسألة الخلافة - محور السياسة ومصطرع الفرق ومشتجر الآراء ولثام المطامع ولواء الثورات وشغل الشعوب، فلم يكن هناك صراع بين ملكية مستبدة وشعب متشبث بحرياته، ولم يكن هناك محافظون وأحرار، ولا اشتراكيون ورأسماليون، ولكن كان هناك خوارج غلاة في الدين يحبذون الشورى ويقرون الخلافة في الأصلح لها، وأمويون وعباسيون وعلويون، كل منهم يدعي الإمامة، ومرجئة ومعتزلة يحظون حينا بتقريب البلاط، ويستهدفون حينا لمقته، وعامة الشعب في أغلب العصور مع شيعة عليّ لمكانة سلفهم العظيم من النبي وقدمه في الإسلام، ولما حاق بالغطاريف من ذريته من تنكيل جَمَعَ بينهم وبين الشعب المقهور بعطف متبادل.

ومرآة كل ذلك جلية في أشعار أقطاب الخوارج، ومتشيعي الشعراء من عهد الكميت وكُثيّر والفرزدق، إلى زمن ابن الرومي إلى عصر عمارة اليمني الذي رثى دولة الفاطميين رثاء موجعاً، وفي أشعار طالبي الدنيا المناصرين للدولة القائمة المؤيدين لدعواها، كمروان بن أبي حفصة، وفي نثر زعماء المذاهب ونظمهم في بيان آرائهم والنضح عن مبادئهم، كخطب واصل بن عطاء وشعر صاحب المرجئة الذي يقول منه:

نرجي الأمور إذا كانت مشابهة ... ولا نحاور فيمن جار أو عندا

ولا نرى أن ذنبنا بالغ أحدا ... ما الناس شركا إذا ما وحدوا الصمدا

وشمول روح الدين أو مظهره لكل مرافق المجتمع وقواعده الدولة على هذا النحو ترك في

الأدب عامة: إذ صبغ أكثره بصبغة الجد والرزانة والقصد في القول واجتناب الإيغال في الخيال، والولع بالحكم والعبر والأمثال، ورغّب الأدباء في الأخبار الصادقة عن السلف من جاهليين وإسلاميين، وزهدهم في الأساطير ومختلق الأحاديث، والى رهبة الدين الذي كان عماد الدنيا والآخرة ترجع أشعار الزهد والوعظ التي يحفل بها الأدب كأشعار أبي العتاهية وابن عبد القدوس، والى جلالته وجلالة الانتماء إليه ترجع مسحة التسامي والعفة التي تزين على شعر الشريف الرضى.

كان الدين دائماً منبث الروح، وإلا فمتجسم المظهر في شؤون الحياتين، وإن صدمته الأهواء السياسية كثيراً، وغلبته الأهواء الفردية، وتغافل عنه حماته فلم ينشطوا للذود عن حرمانه إلا أن يكون في ذاك قضاء لمآربهم أو شفاء لسخائمهم، حتى كان من المتناقضات حقاً أن الأدب العربي الذي ازدهر في ظل دول إسلامية حوى من جريء القول ما لم يحو غيره.

وخلاصة القول أن كلا الأدبين العربي والإنجليزي تأثر بدين قومه تأثرا بينا، ولكن بينما كان تأثر الأخير بالمسيحية مقصوراً على عهود بذاتها وأمور بعينها، ثم ركد أمر الدين، وأحس الأدب أنه قد استفاد منه كل ما يمكنه أن يستفيد، فانصرف عنه، ظل للدين في الأدب العربي دائما مكانة عالية وأثر بعيد، وسيظل له مثل هذه المكانة ومثل هذا الأثر، في كل أدب يدين مجتمعه بالإسلام وينطق بالضاد.

فخري أبو السعود

بين شوقي وابن زيدون

بقلم الدكتور زكي مبارك

- 1 -

عرفنا ابن زيدون العاشق الذي يحسن التحدث عن مآسي القلوب، ويكاد يعرف أسرار النفوس، فماذا نقول عن شوقي؟ لقد طال الحديث عن هذا الشاعر في فصول هذا الكتاب، ونخشى أن يتحيَّف حقوق من عرضنا لهم من الشعراء، ولكن كيف نستكثر القول في شوقي، وقد بذَّ ابن زيدون؟ إن نونية شوقي أعجوبة من الأعاجيب، وقد أرسلها من الأندلس في أعقاب الحرب العالمية فضجّ لها شعراء مصر، وأجابه إسماعيل صبري، وحافظ إبراهيم، وعبد الحليم المصري؛ ولكنهم عجزوا جميعاً عن الجري في ميدانه، ولم يُؤَثَّرْ لهم في معارضته شيء ذو بال بالقياس إلى أمير الشعراء.

ابتدأ ابن زيدون نونيته بشكوى البين والأعداء والزمان، وكانت الأبيات السبعة التي

تحدث بها عن جواه زفرة محرقة لم يعيها ما وشيت به من الزخرف، ولكن أين هي من بداية شوقي حين خاطب الطائر الحزين في وادي الطلح بضاحية إشبيلية؟ لقد تمثل الطائر شبيهاً به في لوعته وجواه فاندفع يقول:

يا نائح الطَّلحِ أشباهٌ عوادينا ... نشْجى لواديكَ أم نأسى لوادينا
ماذا تَقُصُّ علينَا غير أنَّ يداً ... قصت جناحيك جالت في حواشينا
رَمى بنا البينُ أيكا غير سامِرنا ... أخا الغَريب وَظِلاً غير نادينا
كلٌّ رَمَتهُ النَّوى، ريشَ الفِراقُ لنا ... سَهما، وسُلَّ عَليكَ البَينُ سِكِّينا
إذا دعا الشوقُ لم نبرَحِ بمُنصَدِعٍ ... من الجناحين عَيٍّ لا يُلَبِّينا
فإن يكُ الجنسُ يا ابن الطلح فرَّقنا ... إن المصائب يَجمعن المصابينا
لم تألُ ماءكَ تحناناً ولا ظَمأ ... ولا ادِّكاراً ولا شجوَاً أفانينا
تَجُرُّ من فَنَنٍ ذيلاً إلى فننِ ... وتسحب الذيلَ ترتادُ المؤاسينا
أساةُ جسمك شتى حين تطلبهم ... فمن لروحك بالنُّطس المداوينا

والشاعر في هذه الأبيات حيران، يجعل الطائر في حالتين: حال المغترب، وحال المقيم، فما تدري أيبكي من الغربة أم ينوح من فقد الأليف؛ ومع حيرة الشاعر وضلاله عن تحديد ما يريد نراه بلغ غاية الرفق حين قال:

تَجُرُّ من فَنَنٍ ذيلاً إلى فننِ ... وتسحب الذيلَ ترتادُ المؤاسينا

وهي حال نشهدها في الطائر المحزون، فقد نرى الطائر يتنقل على غير هدى من أيك إلى أيك، فنعرف أنه يبحث عمن يواسيه، ولكن أين من يواسي الطائر الحزين؟ إن شوقي نفسه أخطأ حين قال:

أساةُ جسمك شتى حين تطلبهم ... فمن لروحك بالنُّطس المداوينا

فإن الطائر لا يجد من يأسو جسمه، وإنما يجد من يذبحه ويشويه، والناس ألأم من أن يطِبُّوا لطائر جريح!

وانتقل ابن زيدون من شكوى البين والأعداء والزمان إلى معاتبة حبيبته، فذكر أنه لم يستمع وشاية ولم يعتقد إلا الوفاء، أما شوقي فقد انتقل من خطاب الطائر إلى بكاء الأندلس والحنين إلى مصر، فقال:

واهاً لنا نازحي أيكٍ بأندلسٍ ... حللنا رَفيفاً من رَوابينا
رسمٌ وقفنا على رسمِ الوفاءِ لهُ ... نجيشُ بالدمع والإجلالُ يثنينا
لفتيةٍ لا تنالُ الأرضُ أدمعهم ... ولا مفارقُهم إلاَّ مصلينا
لو لم يسودُوا بدينٍ فيه منبهةٌ ... للناس كانت لهم أخلاقهم دينا
لم نسر من حرمٍ إلاَّ إلى حرمٍ ... كالخمرِ من بابل سارت لدارينا
لما نبا الخلْدُ نابت عنهُ نُسختهُ ... تماثُلَ الوردِ خيرياً ونسرينا
نسقي ثراهمْ ثناءً، كلما نُثِرَتْ ... دموعُنا نُظمت منها مراثينا
كادت عيونُ قوافينا تحرِّكهُ ... وكدنَ يوقظن في الترب السلاطينا

وللقارئ أن يتأمل الحسن في هذه الأبيات، فالشاعر يغلبه الدمع، وهو يتذكر ملوك الأندلس، ولكن الإجلال يثنيه عن البكاء، لأنه في ديار قوم لم تنل الأرض أدمعهم ومفارقهم إلا عند السجود، فهم لم يعرفوا الخشوع لغير الله، وذلك من أبعد الغايات في الثناء.

ويأبى شوقي غلا أن يحرص على المعاني الشعرية، فهو في الأندلس لا يسري من حرم ألا إلى حرم، ولكن كيف؟ كالخمرِ سارت من بابل إلى دارين! وقديسة الخمر لا تجوز في غير مذاهب الشعراء.

ثم قال في الحنين إلى وطن النيل:

لكن مصر وإن أغضت على مقةٍ ... عينٌ من الخلدِ بالكافور تسقينا
على جوانبها رفَّت تمائمُنا ... وحول حافاتها قامت رواقينا

وهذا معنى قديم سبقه إليه من قال:

أحبُّ بلاد اللهِ ما بين منعِجٍ ... إلي وسلمى لو يصوبُ سحابها
بلادٌ بها نِيطتْ عليَّ تمائمي ... وأول أرض مسَّ جسمي ترابُها

والبكر هو قول شوقي:

ملاعبُ مَرحَت فيها مآرُبنا ... وأربُعٌ أنِسَتْ فيها أمانينا

وإنما كان هذا معنى بكراً لما فيه من طرافة الخيال، أرأيتم كيف تمرح المآرب، وكيف تأنس الأماني؟

لقد رأيت شوقي أول ما رأيته سنة 1921، وكان دعاني للغداء عنده بالمطرية مع الأصدقاء الأكرمين مصطفى القشاشي، وسعيد عبدة، وأحمد علام، فعجبت يومئذ لذلك المبسم الساحر وسألت نفسي: كيف كان ذلك الملاك في صباه!

إن حنين شوقي إلى مصر حنينٌ عميق، وإنما كان كذلك لأن الشاعر شهد في مصر دنيا من الحب والمجد لم يظفر بها إلا الأفلون؛ ودنيا شوقي لم تكن مثل دنيا الناس في هذا الزمان، كانت الدنيا في شباب شوقي تفيض بالبشر والإيناس، وكان الشاعر يعيش فيها عيشة مضمخة بالسحر والفتون، وكان للجمال قدسية، وكان للصبا سلطان، وكانت خطوب الزمن لا تهد النفوس كما تفعل في هذه الأيام.

ومن البكر أيضاً قول شوقي:

بنَّا فلم نخلُ من رَوحٍ يُراوحنا ... من برِّ مصرَ وريحان يُغادينا
كأُمِّ موسى على اسم اللهِ تكفلنا ... وباسمه ذهبت في اليمِّ تلقينا

يريد ان يقول إن مصر لم تلقهِ في النفي غلا خوفاً عليه من كيد فرعون، فرعون القرن العشرين المستر جون بول!

- 2 -

تذكرون قول ابن زيدون:

يا ساريَ البرقِ غادِ القصرَ فاسق به ... من كان صِرفَ الهوى والودِّ يسقينا
واسألْ هنالك هل عنى تذَكُّرُنا ... إلفاً تذكرهُ أمسى يُعَنِّينا

وهذا شعر جميل، ولكن انظر كيف عارضه شوقي فقال:

ياساريَ البرقِ يرمي عن جوانحنا ... بعد الهدوءِ ويهمي عن مآقينا
لما ترقرقَ في دمعِ السماءِ دماً ... هاجَ البكا فخضبنا الأرضَ باكينا
الليلُ يشهدُ لم نهتك دياجيَهُ ... على نِيامٍ ولم نهتفْ بسالينا
والنَّجمُ لم يرَنا إلاَّ على قدمٍ ... قيامَ ليلِ الهوى للعهدِ راعينا
كزفرةٍ في سماءِ الليلِ حائَرَةٍ ... مِمَّا نُردِّدُ فيهِ حينَ يضوينا
باللهِ إن جُبتَ ظلماَء العبابِ على ... نجائبِ النور مَحْدواً (بجرِّينا)
ترُدُّ عنكَ يداهُ كلَّ عاديةٍ ... إنْساً يعِثنَ فساداً أو شياطينا
حتى حوتْكَ سماءُ النيل عاليةً ... على الغيوثِ وإن كانت ميامينا
وأحرزتك شفوفِ اللاَّزَوْرد على ... وشى الزبرْ جدِ من أفوافِ وادينا
وحازكَ الريفُ أرجاءً مؤرَّجة ... ربت خمائلَ واهتزَّت بساتينا
فقفْ إلى النيل واهتفْ في خمائِله ... وانزل كما نزلَ الطَّلُّ الرَّياحينا
وآسِ ما باتَ يذْوي من منازلنا ... بالحادثاتِ ويضوي منْ مغانينا

انظروا ابن زيدون يسأل البرق أن يسقي القصر، وشوقي يسأل البرق أن يأسو المنازل الذاوية، والمغاني الضاوية، والمعنيان مقتربان، ولكن شوقي أعطانا صورة شعرية لتنقل البرق من أفق إلى أفق، وانحداره من أرض إلى أرض، وأعطى صوراً من ريف مصر وخمائل النيل لا تشوقُ غلا شاعراً ودَّع دنياه حين ودَّع النيل.

وقال ابن زيدون:

ويا نسيمَ الصِّبا بلِّغ تحيتنا ... من لوْ على البعد حيَّاً كان يحيينا

عارضه شوقي فقال:

ويا معطّرة الوادي سَرت سحراً ... فطاب كلُّ طروحٍ من مرامينا
ذكيَّةَ الذَّيل لو خِلنا غلالتها ... قميصَ يوسف لم نُحسب مُغالينا
جَشِمتِ شوك السرى حتى أتيت لنا ... بالورد كُثْباً وبالرَّيا عناوينا
فَلوْ جزيناكِ بالأرواحِ غاليةً ... عن طيبِ مسراكِ لم تنهَضْ جوازينا
هل من ذيولك مِسكيٌّ نحمِّلُه ... غرائبَ الشوقِ وشياً من أمالينا
إلى الذين وجدنا وُدَّ غيرهمو ... دُنيا ووُدَّهمُ الصافي هو الدِّينا

إن ابن زيدون لم يزد على أن قال: (يا نسيمَ الصِّبا)، وهو تعبير ورد في مئات القصائد، أما شوقي فراح يَفتنُّ افتناناً يدل على قوة الشاعرية، وبراعة الخيال، فوصف النسمة بأنها معطرة الوادي، وأنها سارت في السحَر فطاب بمسراها كلُّ مرمىً سحيق، وأنها ذكيةُ الذيل كأنها قميص يوسف، وأنها جشِمت شوك السرى حتى أتت بالورد مجسماً

في رسائل، وأتت بالريَّا مُمثَّلةً في عناوين، وشكر لها النُّعمى فقال:
فَلَوْ جَزَيناكِ بالأرْوَاحِ غَالِيَةً ... عن طيبِ مسراكِ لم تنهض جَوَازِينا
وابن زيدون يقول: (بلِّغ تحياتنا) وهي عبارة جافيةٌ، لأنها وردت في صورة الأمر، أما شوقي فيترفق، ويقول:
هل من ذيولك مِسكيٌّ نحمِّلُه ... غرائبَ الشوقِ وشياً من أمالينا
وابن زيدون يصف أحبابه بالقدرة على إحيائه لو أسعفوه بتحية، وشوقي يجعل كل هوى غير هوى أحبابه بمصر صورة من الدنيا، أما هوى أحبابه الذين يتشوق إليهم فهو في صفاء الدِّين
ولا ننكر أن أخيلة شوقي مقتبس من ابن زيدون، فقول شوقي:
ياساريَ البرقِ يرمي عن جوانحنا ... بعد الهدوءِ ويهمي عن مآقينا
اختلس برفق وحذق من قول ابن زيدون:
بنتم وبنَّا فما ابتلَّت جوانحُنا ... شوقاً إليكم ولا جفَّت مآقينا
والمعنى الذي عرضه ابن زيدون في ثلاثة أبيات بسطه شوقي في ثمانية عشر بيتاً، وإنما اتفق له ذلك لأنه كان يعارض ابن زيدون، فكان لابدَّ له من توشيةٍ بارعة تُعَفِّ على النظرة الفطرية في أبيات ابن زيدون، ولابن زيدون فضل السبق، ولشوقي فضل البراعة في تلوين الصور الشعرية، وهو فضل ليس بالقليل.
وأراد ابن زيدون أن يتذكر أيام الأنس فقال:
حالت لفَقْدِكُمو أيامُنا فغدت ... سُوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا
إذ جانِبُ العيش طلق من تألُّفنا ... ومربع اللهو صافٍ من تصافينا
وإذ هصرنا فُنون الوصل دانية ... قُطُوفُهُ فجنينا منه ما شِينا
ليُسق عهدُكُمُ عهد السرور فما ... كُنتم لأرواحنا إلا رَياحِينا
وهذا شعرٌ صافي الديباجة، رائع المعاني، ولكن انظروا كيف عارضه شوقي فجمع بين الأسى والفخر حين قال:
سقياً لِعَهدٍ كأكنافِ الرُّبا رِفَةً ... أنَّى ذَهبنا وأعْطَافِ الصِّبا لينا
إذ الزَّمانُ بِنا غَيْناءُ زاهيةٌ ... ترِفُّ أوقاتُنا فيها رَياحينا
الوصلُ صافيةٌ والعيشُ نافيةٌ ... والسعدُ حاشيةٌ والدهر ماشينا
والشمسُ تختالُ في العِقْيانِ تحسَبُها ... بَلْقيسَ تَرْفُلُ في وشي اليمانينا
والنيل يُقبلُ كالدنيا إذا احتفلت ... لو كان فيها وفاءٌ للمصافينا
والسعد لو دام والدنيا لو اطردت ... والسيل لو عفَّ والمقدار لو دِينا
ألقى على الأرض حتى ردّها ذهباً ... ماءً لَمسنا به الإكسير أو طينا
أعداءُ من يُمنِهِ (التَابُوتُ) وارْتسمتْ ... على جَوانبهِ الأنوَارُ مِنْ سينا
له مبالغُ ما في الخُلقِ من كرم ... عهدُ الكِرام وميثاق الوفيِّينا
لم يجر للدهرِ إعذارٌ ولا عُرُسٌ ... إلاَّ بأيامنا أوْ في ليالينا
ولا حوى السعدُ أطغى في أعنته ... منَّا جياداً ولا أرخى ميادينا
نحنُ اليواقيتُ خاضَ النارَ جَوهَرُنا ... وَلم يَهنْ بيدِ التشتيت غالينا
ولا يَحولُ لنا صبغ ولا خلق ... إذا تلوَّن كالحرباءِ شانينا
والقارئ حين يوازن بين هاتين القطعتين لا يدري أيهما أجود، لأن ابن زيدون على قصر نفسه في هذا الشوط بلغ غاية الرشاقة حين قال:
وإذا هصرنا فنون الأنس دانية ... قطفه فجنينا منه ما شينا
وبلغ غاية الدقة حين قال:
إذ جانب العيش طلق من تألفنا ... مورد اللهو صاف من تصافينا
والدقة في هذا البيت تؤخذ من صدق التعليل، فالعيش لم تتسع جوانبه إلا بفضل التألف، تألف القلبين، واللهو لم يصف مورده إلا بفضل التصافي، تصافي الحبيبين، والدنيا لا كدر
فيها ولا صفاء، وإنما تصفو حين تصفو النفوس، وتقسو حين تقسو القلوب، فالزهر الذي يبسم لك لا يبسم لك وحدك، وإنما تراه يخصك بالرفق لأن الدنيا صفت لك، وقد يراه غيرك في ابتسامه صورة من صور العبوس، والنهر الذي تنظر إليه في الليالي المقمرة فتراه عاشقاً يغازل القمر ويتلقى دعابته في حنان، هذا النهر لا يتمثل لك كذلك إلا لأنك تشاهد أمواجه الفضية بقلب مرح وحس طروب، وهو نفسه قد يبدو

للمحزون صورة من صور الاكتئاب.
ويروقنا قول شوقي:
سقياً لِعَهدٍ كأكنافِ الرُّبا رِفَةً ... أنَّى ذَهبنا وأعْطَافِ الصِّبا لينا
إذ الزَّمانُ بِنا غَيْناءُ زاهيةٌ ... ترِفُّ أوقاتُنَا فيها رَياحينا
الوصلُ صافيةٌ والعيشُ نافيةٌ ... والسعدُ حاشيةٌ والدهر ماشينا
والنيل يُقبلُ كالدنيا إذا احتفلت ... لو كان فيها وفاءٌ للمصافينا
يروقنا هذا الشعر، لأن الشاعر جعل عهده في نضرة الزهر الذي يتفتح في أكناف الربوات، ولأنه رأى اللِّين في أيام الأنس شبيهاً باللين في أعطاف الصبا، وأعطاف الصبا جوهرٌ نبيل لا يعرف طيب لينها إلا شاعر أمكنته من أعطاف الصبا سَورَةُ الصبوات، ويروقنا أيضاً لطرافة هذا الخيال:
(ترف أوقاتنا فيها رياحينا)
ورفيف الأوقات معنى يعرفه العشاق الذين دار بهم الزمن في أرجوحة اللهو الجموح.
ويروقنا هذا الشعر مرة ثالثة لأن الشاعر يرى إقبال النيل كالدنيا حين تحتفل، وانظروا كيف تكون الدنيا حين تحتفل، ثم تأملوا روعة هذا الاستدراك:
(لو كان فيها وفاء للمصافينا)
ولكن هذه الطرافة في أخيلة شوقي لا تنسينا براعة ابن زيدون حين جعل محبوبته كل شيء حين قال:
يا روضة طالما أجنت لواحظنا ... ورداً جلاء الصبا غضاً ونسرينا
ويا حياة تملينا بزهرتها ... منىً ضروباً ولذاتٍ أفانينا
ويا نعيماً خطرنا من نضارته ... في وشي نعمى سحبنا ذيله حينا
إن لم يكن هذا هو الشعر فما عسى الشعر أن يكون؟ أترون العذوبة في الهتاف بالروضة التي (طالما أجنت لواحظنا ورداً جلاه الصبا)، تأملوا عبارة (أجنت لواحظنا)، وانظروا كيف تغزونا الروضة فتقهرنا على تذوق جناها المرموق، والشاعر لا ينتظر حتى تهفو نفسه إلى مناعم الروضة، وإنما تهجم الروضة عليه فتعلمه كيف يهصر الأفنان، وكيف يجني القطوف، وعبارة (جلاه الصبا) ما رأيكم فيما تحويه من سحر أخاذ؟ ثم ما هذا التعبير الطريف:
(منىً ضروباً ولذات أفانينا)
أتعرفون كيف يكون للمعنى ألوان وللذات أفانين؟ إن هذا خيال شاعر غرق مرة في كوثر الوصال.
وانظروا هذا البيت:
ويا نعيماً خطرنا من نضارته ... في وشي نعمى سحبنا ذيله حينا
أتحسون قوة هذا المعنى؟ ألا يُريكم الخيال صورة فتىً منعم يسحب ذيل النعيم؟ إن ابن زيدون في هذه الأبيات أقوى من شوقي في التحسر على ما ضاع من دنيا الهوى المفقود
(البقية في العدد القادم)
زكي مبارك
في الأدب التحليلي
صورة. . .!
(مهداه إلى أخي الأستاذ أنور العطار)
للأستاذ علي الطنطاوي
كان معروفاً بالشذوذ والخروج عن المألوف، لا يبالي إذا اتجه له الرأي ما يقول . . . فيه الناس، ولا يحفل إذا أزمع الأمر نهى ناهٍ ولا نصيحة ناصح، وكان يعرف ذلك من نفسه ولا يغضبه أن يوصف به، بل كثيراً ما سمعناه يتحدث به ويطيل الحديث، يجد في كشف دخيلته للناس لذة وارتياحاً، كأنما هو يلقي عن عاتقه حملاً ثقيلاً. . .
يجمع في نفسه المتناقضات: فبينما هو منغمس في لج الحياة المضطربة المائجة يفزع من الوحدة، ويكره الهدوء، ويركب متن المغامرات في الأدب وفي السياسة، يحطب في المجامع، ويناقش في الصحف، وبينما هو مطمئن إلى هذه الحياة، مقبل عليها، إذا به قد استولت على نفسه (فكرة صوفية. . .)، فغمرت الكآبة روحه، وفاض اليأس على قلبه، وأحس الحاجة إلى الفرار من الناس، والرغبة في العزلة المنقطعة، وأصبح

يكره أن يرى أمس أصحابه به، وأدناهم إلى قلبه، ويحب الحياة الساكنة الهادئة، ويجد الأنس في حديث قلبه ومناجاة ربه. . .
وهو أسرع الناس إلى المزاح والفكاهة، وأضيقهم بمجالس الجد، وأبعدهم عن تكلف الوقار، واتباع (الرسميات)، فلا يكون في مجلس إلا حركه بحديثه وإشاراته ونكاته، وأفاض عليه روح المرح، والود الخالص، ولكن موجة من الحزن المفاجئ، قد تطغى على قلبه في أشد الساعات سروراً، وأكثر المجالس طرباً فإذا هو حزين كئيب. قد ضاق بالناس وتبرم بمزاحهم وهزلهم، وغدا راغباً في الجد محباً للوقار، متلبساً بالصرامة والحزم، منصرفاً عما كان فيه منذ لحظة واحدة، لا يعرف الناس ولا يعرف هو، ماذا أصابه، فنقله من حال إلى حال.
تغلب عليه العاطفة حيناً فيمسي ارق الناس شعوراً، وأرهفهم حساً؛ يرى المشهد الجميل من مشاهد الكون، أو يسمع النغمة العذبة الشجية، أو يقرأ البيت الغزلي الرقيق، أو القصة
العاطفية المحزنة، فتوقظ في نفسه عالماً من الذكريات، فيخفق لها قلبه، ويهفو لها فؤاده، ويحس بها تلذعه لذعاً، وتفيض على نفسه شعوراً طاغياً، بحب مبهم غامض، لا يجد طريقاً ينبعث منه، فيزلزل كيانه زلزلة، كما يزلزل البركان الأرض، إن لم يجد فوهة يندفع منها. . . ويدعه شخصاً متهافتاً، لا يقوم إلا على أعواد من العواطف الرقيقة المتداعية. . . ويسيطر عليه العقل أحياناً فيحتقر العاطفة، ويدعو إلى أدب قوي نافذ، ويسخر من الحب ويهزأ بالعاشقين، ويزدري هذه القصص وهذه الأشعار التي كان يرقص لها قلبه وتفيض لها مدامعه. . .
ويقبل على العمل بهمة عجيبة ورغبة قوية، فيطالع ويكتب، ويعمل كآلة دائبة الحركة، لا يأخذه ضعف ولا خور، ثم يشعر فجأة بكراهية العمل والنفور من المطالعة الجدية والعزوف عن الكتابة والتأليف ويستولي عليه كسل عقلي عجيب، لا يطيق معه عملاً من الأعمال. . .
عرفته في دمشق، وقد كان يعمل في مدرسة ابتدائية، نزلوا به إليها، فلا يكلفه العمل فيها جهداً ولا مشقة، ولا يشغل من تفكيره شيئاً، فكان يستمتع بوقته ونفسه كما يشاء، ويشتغل بالأدب للذة والمتعة الفنية. فيقرأ ما طابت له القراءة، ويكتب ما رغب في الكتابة، ويؤلف ما مال إلى التأليف. . . فكرة هذه الحياة وهوى الحياة العقلية المنظمة التي تضطره إلى نوع من الدرس بعينه، وتجبره على نوع من الكتابة بذاتها -
وكان يعيش في أسرة رفرف عليها الحب، وسادها الإخلاص وأسبغ عليها ثوب السعادة، بين اخوة له ما رأى الراءون مثلهم في ذكائهم واستقامتهم وطاعتهم إياه، وحبهم له، وحرصهم على رضاه، وصحابة له ما فيهم إلا أريب طيب النفس، صادق الود صافي السريرة حسن السيرة، وكان له في بلده منزلة يحسده عليها من هو أكبر منه سناً وجاهاً، وأكثر علماً ومالاً، فمل هذه الحياة ومال إلى الهجرة وانتجاع أفق جديد. . .
وأزمع السفر إلى بغداد، تاركاً عمله في وزارة معارف الشام، عاصياً الناصحين والناهين من الأهل والأصحاب. . . وجاء معنا إلى بغداد، فلم يكد يلقي فيها رحله حتى عراه اكتئاب وملل لا يعرف له سبباً، وأحس الحنين يحز في قلبه والشوق يدمي فؤاده، وانتابته إحدى نوباته العاطفية، فلم تدع في رأسه إلا فكرة واحدة، هي الرغبة في العودة، لا يبالي معها ماذا قيل عنه، وماذا ضاع من عقله، فصحا من نوبته، وتخلص من عاطفته، فآثر البقاء وأقبل على العمل، فلم يمض عليه يوم حتى سمع من ينشد:
فيم الإقامة بالزوراء؟ لا شكني ... بها ولا ناقتي فيها ولا جملي!
فنشطت عاطفته المكبوتة من عقالها، تصرخ في وجه العقل، أن: فيم الإقامة بالزوراء؟ فغلب العقل واستحذى وذهب يستعد لمعركة أخرى. . .
ولقد وجد في بغداد من الإكبار فوق ما كان يرجو ونرجو له، ووجد اسمه قد سبقه إليها، وحف به قراؤه والمعجبون به، وأسرعوا للسلام عليه والاجتماع به، فلم يكن أبغض إليه وأشد عليه من هذه الاجتماعات، فكان يعرض عنهم ويرتكب في هذا الباب أشد الحماقات، حتى إنه ليدع الجماعة من علية القوم في ردهة الفندق ويفر منهم، وما جاءوا إلا من أجله، فيقوم من غير استئذان ولا اعتذار، ويذهب إلى غرفته فيعتصم بها. . وإنه ليعلم ما في عمله من الجفاء، ولكنه يضطر إليه اضطراراً، فهو يشعر أن جو

هذه المجالس ثقيل عليه حتى ليوشك أن يخنقه ويغدو فيه كمن سد أنفه وفمه، وإنا لنلومه ونثقل عليه الملام، فلا يدفع عن نفسه لوماً ولا يحاول إنكاراً، ويعترف بالضعف، ويقر بالعجز، فنرحمه ونكف عنه.

إنه لا يستطيع أن يحمل اسمه، لا يقدر أن يتلقى بوجهه وجسمه هذا الإعجاب الذي يزعمون أنهم يوجهونه إلى الشخص الآخر الذي ينشر في (الرسالة) كأن له شخصيتين، فهذه التي يأكل بها ويشرب ويمشي ويضحك ويمزح غير تلك التي يفكر بها ويكتب ويؤلف وليس بينهما من صلة ولا يربطهما سبب من الأسباب. والعجيب من أمره أنه يضيق بالكلام في مثل هذه المجالس ويتهيبه، وتظنه أول ما تلقاه حيياً عيياً لا يفصح ولا يبين، فإذا أنت اتصلت به وعلقت حبالك بحباله، رأيته مفوهاً طلق اللسان شديد البيان. وإن أنت خالطته وعرفت دخيلته أبصرته لا يتهيب موقفاً خطابياً مهما كان شأنه، ولا يخشاه ما يخشى الرد على ألفاظ المجاملة ويتهيب مجلس تعارف وانتساب.

كان يأمل أن يجد لذة في تدريس الأدب، ولكنه لم يكد يمارسه حتى اجتواه ومله، وعلم أن الاشتغال بالأدب للذة لا يستقيم مع هذا العمل النظامي المستمر، إنه يصبح وفي رأسه فكرة يريد أن يكتب فيها فصلاً، فيدركه وقت المدرسة، فيذهب وتذهب الفكرة في طريقها، أو

يصبح وهو يكره الكلام ويميل إلى الصمت، يحب أن يفكر فيطيل التفكير، ويحلم فيغرق في الأحلام، فيراه ملزماً بالكلام خمس ساعات أو ستاً، وهو يحب الشاعر أو الكاتب ويميل إليه فيكرهه المنهج على درس شاعر آخر لا يحبه ولا يفهم أدبه، ويضطره الطلاب إلى إطالة الحديث حيث ينبغي له الإيجاز، أو إيجازه حيث تطلب الإطالة، أو لا يفهمونه ولا يسايرونه فيهبط من سماء متعته الأدبية، ليمشي مع أفهامهم وعقولهم. . .

إنه رجل شاذ الطباع متناقض العواطف، يشتاق إلى بلده فإن عاد ندم على العودة، وإن أقام هاجه الشوق، وإن لجأ إلى عقله ثارت عاطفته، وإن اتبع عاطفته أبى عقله. .

.

لا يفهمه أحد، ولا يفهم هو نفسه. . مسكين! إنه أديب!

(بغداد)

علي الطنطاوي

تاريخ العرب الأدبي

للأستاذ رينولد نيكلسون

المستشرق الإنجليزي

ذلك هو كتاب تاريخ الأدب العربي للأستاذ رينولد نيكلسون ننشره ابتداء من هذا العدد تباعاً كما وعدنا في العدد الماضي

المدخل لتاريخ العرب

العرب أمة من الأمم العظيمة التي تناسلت كما يقال من سام ابن نوح، ومن ثم يعرفون عادة بالساميين ذلك اللفظ الذي يدخل فيه البابليون والآشوريون والعبرانيون والكنعانيون والسبئيون والأحباش والآراميون والعرب، وبالرغم من أن هذا مبني على تقسيم غير مضبوط اجتماعياً (لأنه ورد في الإصحاح العاشر من سفر التكوين، أن الكنعانيين والسبئيين من ذرية حام) بالرغم من هذا فقد أحسن الاختيار المتوفى سنة 1828م في فهمه للشعوب الشديدة الارتباط ببعضها التي ذكرناها. وسواء أكان الموطن الأصلي للجنس السامي المتماسك جزءاً من آسيا (كبلاد العرب أو أرمينية أو أدنى الفرات) أم أنه دخل آسيا من أفريقية فهذا شيء لم يثبت بعد، فهم (منذ زمن بعيد قبل بدء العصر الذي ظهروا إبانه على مسرح التاريخ) قد تشعبوا وكونوا أقواماً منفصلة، ولا يمكن في هذا المجال شرح علاقات اللغات السامية ببعضها البعض. ولكن قد يستطاع ترتيبها ترتيباً زمنياً حسب انتشار الأدب كما يلي:

1 - البابلية أو الآشورية (من 3000 - 500 ق. م)

2 - العبرية (من 1500 ق. م)

3 - العربية الجنوبية أو كما تسمى أحياناً السبئية أو الحميرية (نقوش منذ 800 ق. م)

4 - الأرامية (نقوش منذ 800 ق. م)

5 - الفينيقية (نقوش منذ 700 ق. م)

6 - الحبشية (نقوش منذ 350 ق. م)
7 - العربية (من 500 م)

وبالرغم من أن العربية على هذا الاعتبار أحدث اللغات السامية إلا أنها تعتبر عادة أقرب صلة من أية واحدة أخرى إلى النموذج الأصلي السامي الذي اشتقت جميعها منه، كما هو الحال في العرب - تبعاً لمركزهم الجغرافي وحياتهم الصحراوية المطردة التناسق - فقد حافظوا على الطبع السامي وظل فيهم - لاعتبارات خاصة - أنقى وأبرز مما هو عند بقية الأمم المتفرعة من هذا الجنس. ومنذ عصر الفتوح الإسلامية الكبرى (700 م) حتى اليوم نشر العرب لغتهم ودينهم وثقافتهم في مساحة كبيرة من المعمورة تفوق كل ما كانت تشمله الإمبراطوريات السامية القديمة. حقاً إن العرب لم يلبثوا طويلاً على الحال التي كانوا عليها خلال العصور الوسطى، فلم يعودوا الأمة المسيطرة على العالم، إلا أنهم قد استعاضوا عن ضياع السلطة الزمنية بالجد في نشر سلطانهم الديني. ولا يزال الإسلام حتى اليوم الحاكم الأعظم لآسيا الغربية؛ أما في أفريقيا فهو في تقدم مستمر، حتى في أوربا، فقد وجد في تركيا عوضاً له عن طرده من إسبانيا وصقلية. وبينما نرى أن معظم الشعوب السامية قد امحت غير مخلفة وراءها سوى ثبت طفيف غامض لا نأمل من ورائه أن نلم بتاريخها تماماً نرى في دراستنا للعرب مادة وفيرة تساعدنا على دراسة معظم أطوار تقدمهم منذ القرن السادس للميلاد، تساعدنا على كتابة التاريخ العام للحياة والتفكير عندهم. ولست في حاجة لأن أقول إن هذا الكتاب لا يحاول أداء هذه المهمة حتى ولو زاد حجمه مراراً؛ إذ لا بد من انقضاء زمن طويل قبل أن يقتحم الباحث ميدان الأدب العربي الواسع المناحي المختلفة، وقبل أن تكون النتائج مقبولة لدى المؤرخ

لم يكن (الربع الخالي) فحسب - الذي يخترق شبه الجزيرة ويقوم فاصلا طبيعيا دون الاتصال بالداخل - هو الذي يقسم بلاد العرب منذ القديم إلى قسمين: شمالي وجنوبي، بل كان هناك أيضاً العداء الناشب بين جنسين بينهما بون شاسع من ناحية الطبع وأسلوب العيش. فبينما كان سكان القسم الشمالي (الحجاز وهضبة نجد الوسطى) بدوا غلاظاً يسكنون بيوتاً من الوبر وينتقلون من مكان إلى آخر انتجاعا للعشب والكلأ لأبلهم كان أهل اليمن معروفين لدى التاريخ - قبل كل شيء - كورثة لحضارة تالدة وأصحاب ثروة ضخمة خيالية من الطيب والذهب والأحجار الكريمة تحت إمرة الملك سليمان. وقد تكلم بدو الشمال اللغة العربية - أي لغة قصائد العصر السابق للإسلام والقرآن - على حين

كان أهل الجنوب يستعملون لهجة يسميها المسلمون (الحميرية) التي عثر حديثاً على نموذج من خطوطها وفُسّر. وسنهب في الكلام حالاً عن هؤلاء السبئيين الذين أطلق عليهم هذا الاسم جغرافيو اليونان والرومان. وقد أخذ نجمهم في الأفول في القرون الأولى للمسيحية حتى تلاشوا نهائياً من صفحة التاريخ قبل سنة 600م حينما أخذ جيرانهم أهل الشمال في الظهور والقوة.

وليس من شك في أن ما نشر بين علماء الأنساب المسلمين الفكرة القائلة بأن العرب يرجعون في أصلهم إلى رهطين منفصلين تسلسلاً من جدهم المشترك سام بن نوح هو الفارق الجنسي العظيم من الذكاء. أما فيما يختص بأهل الشمال فإن تسلسلهم من عدنان (من ذرية إسماعيل) أمر معترف به من الجميع. أما أهل الجنوب فيرجعون إلى قحطان الذي يزعم النسابون

كان أهل الجنوب يستعملون لهجة يسميها المسلمون (الحميرية) التي عثر حديثاً على نموذج من خطوطها وفُسّر. وسنهب في الكلام حالاً عن هؤلاء السبئيين الذين أطلق عليهم هذا الاسم جغرافيو اليونان والرومان. وقد أخذ نجمهم في الأفول في القرون الأولى للمسيحية حتى تلاشوا نهائياً من صفحة التاريخ قبل سنة 600م حينما أخذ جيرانهم أهل الشمال في الظهور والقوة.

وليس من شك في أن ما نشر بين علماء الأنساب المسلمين الفكرة القائلة بأن العرب يرجعون في أصلهم إلى رهطين منفصلين تسلسلاً من جدهم المشترك سام بن نوح هو الفارق الجنسي العظيم من الذكاء. أما فيما يختص بأهل الشمال فإن تسلسلهم من عدنان (من ذرية إسماعيل) أمر معترف به من الجميع. أما أهل الجنوب فيرجعون إلى قحطان الذي يزعم النسابون أنه نفس يقطان بن عابر؛ وتحت

اليقطانيين الذين هم الأصل القديم نجد مدرجاً مع السبئيين كثيراً من القبائل القوية كطيء وتنوخ وكندة وغيرها من التي استوطنت بلاد العرب الوسطى قبل ظهور الإسلام بوقت طويل، ولم يكن هناك ما يميزهم من البدو الذين يرجع أصلهم إلى إسماعيل. أما فيما يتعلق بعدنان فإن سلسلة نسبه لا تزال موضع جدال وحجاج وإن اتفق الجميع على أنه من ذرية إسماعيل بن إبراهيم من هاجر. وتذكر القصة أنه عند ميلاد إسماعيل أمر الله إبراهيم أن يرحل إلى مكة بزوجه هاجر وابنها ويتركهما هناك، فامتثل لأمره وتركهما، وجاءت رفقة من جرهم (وهم من ولد يقطان) فنزلوا شعاب مكة فنشأ إسماعيل مع أولاد الغرباء، وتعلم الرمي، ونطق بلسانهم ثم خطب إليهم فزوجوه امرأة منهم.

ولا جدال في أن هذه الأنساب خيالية إلى حد ما، إذ لم يكن علم النسب موجوداً في العصر السابق للإسلام، حتى لم يكن لدى المحققين المسلمين سوى أخبار طفيفة محيرة اعتمدوا عليها. أضف إلى هذا أنهم راعوا الظروف السياسية والدينية وغيرها، ومن ثم فإن دراستهم للقرآن والتاريخ الديني قادتهم لدراسة رءوس القبائل الذين يوضعون في المقدمة. أما سلسلة النسب التي تبدأ بعدنان فلسنا نستطيع قبولها كمسألة تاريخية خالصة، ولن أن أغلبها قد تراكم في ذاكرة العرب قبل ظهور الإسلام، يؤيد هذا شهادات شعراء الجاهلية؛ ومن ناحية أخرى أن نسبة كل قبيلة إلى جدها الأول تخالف الحقائق التي أثبتها البحاث

المحدثون، من أن كثيراً من الأسماء تشير إلى اتحاد محلي، فمعد مثلاً تشير في الأصل إلى جماعات كبيرة أو محالفات قبلية. وقد يكون الخلاف الاجتماعي بين عرب الشمال وعرب الجنوب (كالعداء الحاد الذي فرق بينهم منذ صدر عهد الإسلام) قد يكون هذا الخلاف مقبولاً إذا قصرنا لفظ اليمنية (أهل الجنوب) على أهل سبأ وحمير وغيرهم من المتحضرين الذين سكنوا اليمن وتكلموا لهجتهم الخاصة، ولكن يصعب أن يقصد به البدو اليمنيون المتكلمون بالعربية الذين انتشروا في جميع رحاب شبه الجزيرة. وإن مثل هذا النقد لا يؤثر في قيمة وثائق النسب باعتبارها صورة للعقلية العامة، ومن وجهة النظر هذه تكون الخرافة أحياناً أهم من الحقيقة. وينبغي علينا أن يكون هدفنا في الفصول التالية إيضاح معتقدات العرب غاضين النظر عن نقدها وبيان حظها من الخطأ والصواب.

إن للعربية بأوسع معانيها لهجتين رئيسيتين هما:

أ - العربية الجنوبية وهي لسان اليمن، وتشمل السبئية والحميرية والمعينية واللهجات القريبة منها كلهجة مهرة والشحر.

ب - العربية الفصحى التي ينطق بها في بلاد العرب عامة ماعدا اليمن. أما عن اللغة الأولى - دون التعرض لمهرى وسكنزى وغيرهما من اللهجات الحية - فليس لدينا سوى هذه المخطوطات العدة التي جمعها الرواد الأوربيون، وستكون موضوع بحثنا في الفصل التالي الذي سأقدم فيه بحثاً موجزاً يتناول تاريخ السبئيين والحميريين القديم. والعربية الجنوبية تماثل العربية في تراكيبها القوية من الجمع الشاذ وعلامة التثنية، وإشارة الجمع بإضافة م (وتستعيض العربية عنها بحرف ن) وكذلك في كلماتها. أما حروفها الهجائية التي تشمل تسعة وعشرين حرفاً فهي أقرب إلى الحبشية؛ وقد استولى الأحباش على الإمبراطورية الحميرية في القرن السادس الميلادي، حتى إذا كان حوالي سنة 600م أصبحت العربية الجنوبية لغة ميتة، ومنذ ذلك الحين صار للهجة عرب الشمال السيطرة العظمى واتخذت لنفسها كلمة (العربية).

إن أقدم الآثار المكتوبة للعربية جديدة إذا قورنت بالنقوش السبئية التي يرجع بنا بعضها إلى 2500 سنة أو ما يقرب من ذلك إلى الوراء، وباستثناء نقوش الحجر في شمال الحجاز ونقوش الصفا المجاورة لدمشق (التي بالرغم من أنها قد كتبت بالعربية الشمالية قبل العهد

المسيحي فهي أقرب إلى السبئية ولا يستطاع تسميتها بالعربية بالمعنى المفهوم من هذا اللفظ) باستثناء ذلك فان معظم أقدم أمثلة الخط العربي التي اكتشفت قد كتبت بخطوط لهجات زبد الثلاثية، وهي السريانية والإغريقية والعربية وترجع إلى سنة 512 أو 513، ولغتي حران اليونانية والعربية التي ترجع إلى سنة 568م. ولسنا نريد أن نشغل أنفسنا كثيرا بهذه الوثائق خاصة؛ وإن ترجمتها تتطلب مشقات عظمى، وكان

القليلون من عرب العصر السابق للإسلام ملمين بالقراء أو الكتابة، ويرجع الفضل في قدرة هذا النفر إلى المعلمين اليهود والنصارى، أو إلى الثقافة الأجنبية التي انبثقت أضواؤها من الحيرة وغسان، ولكن بالرغم من أن القرآن (وقد جمع لأول مرة بعد واقعة اليمامة سنة 633م) هو أول كتاب عربي، إلا أنه يمكن إرجاع بداءة الكتابة بلغة الضاد إلى عصر متقدم. ومن الأرجح أن كل قصائد عصر قبل الإسلام التي وصلت إلينا إنما ترجع إلى القرن السابق لظهور الإسلام (أي من 500 - 622) ولكن يد التفنن الصناع وإبداعها الفني اللذين غيرا من شكلها الأول يقفان حائلا دون الأمل بأن نعثر خلالها على الصورة الأولى للقصيدة العربية. وقد يمكن القول بشأن هذه القصائد الفخمة - كما هو الحال في الإلياذة والأوديسة - إنها (نتيجة فن بالغ حد الإتقان، يستحيل أن يكون قد صار إلى ما صار إليه إلا بعد مرور عهد طويل على ممارسته) وقد ظلت هذه القصائد محفوظة طوال مئات السنين بالحديث الشفهي كما سنوضح ذلك في مكان آخر. وفي صدر عهد بني العباس أي بين عامي 570 و 900م شرع الأدباء المسلمون في تدوين معظمها. ومن الحقائق الثابتة أن اللغة واحدة في القصائد التي يمثل أصحابها قبائل عدة مختلفة ونواحي متعددة من شبه الجزيرة. كما أن الفروق اللسانية طفيفة جداً إلى درجة لا يؤبه بها، ومن ذلك نستنبط أن الشعراء كانوا يتخذون لهجة صناعية تخالف لغنة المحادثة وهي أشبه ما تكون باللهجة الأيونية التي استعارها الشعراء الدوريون والأيوليون.

(يتبع)

ترجمة محمد حسن حبشي

النظرية العامة للالتزامات في الشريعة الإسلامية

للدكتور شفيق شحاته

- 2 -

2 - الطريقة التاريخية

أما عن منشأ التشريع الإسلامي، فإنا نرى الإعراض عن البحوث التي حاول بها العلماء تأييد رأي دون آخر. أما حججنا فسنتلمسها من دراستنا الموضوعية نفسها، ذلك أنه من العبث الاستناد إلى التشابه بين بعض الأفكار للقول باتحاد المصدر أو بالاستمداد. فإن أهمية هذا التشابه لا يصلح تقديرها إلا إذا وضعت الأفكار في الجسم الذي انتزعت منه. لذلك لن يوجد أبداً دليل أقطع على التشابه أو عدمه من استعراض نظرية الالتزامات في التشريع الإسلامي بعد بناء هيكلها. فعندئذ فقط سيظهر لنا إن كانت ثمة استعارات ومن أين أتت، وما هي؛ وإن لم تكن، فكيف كان التشريع متماسك الأطراف ظاهر الإبداع.

ونلاحظ هنا فقط فشل المحاولات التي ظهرت قديماً وحديثاً لإثبات استمداد التشريع الإسلامي من القانون الروماني. أما محاولة (كاروزي) فقد هدمها المستشرق (نالينو). وحديثاً ظهرت رمالة في الشفعة (طبعت في ميلانو سنة 1933) رمى بها مؤلفها إلى إثبات هذا الاستمداد. على أن استنتاجاته لم تقنع أحداً كما يظهر من تعليق الأستاذ (روسييه) على هذا الكتاب في (مجلة تاريخ القانون ص 323 لسنة 1934).

على أنه ليس بين أيدينا في الواقع من الآثار القانونية شيء يرجع إلى ما قبل العصر العباسي. أما عن الجاهلية فإن هناك بعض الإشارات البعيدة مبعثرة في آثار متأخرة عن هذا العهد؛ وكذلك يقال عن عصر الخلفاء الراشدين والخلفاء الأمويين، فإن جل ما نجد هو بعض الحلول لمسائل عرضت على بعض الحكام ولكن لا يظهر أنه في مدى هذه العصور الطوال قد كانت هناك مجموعة من القواعد أوحت بهذه الحلول الطفيفة. ويبدو لنا أن التشريع في هذا العهد لم يكن شيئاً آخر سوى العادات المحلية السائدة سواء في جزيرة العرب أو في الأقطار المفتوحة، وإن ما ورد من الأحكام يعبر تماماً عن هذه العادات مع اتجاه خاص أملاه الدين الجديد.

ثم يضعنا العصر العباسي فجأة في أول عهده أمام مجموعة كاملة من الأحكام؛ ففي نظر التاريخ لا يظهر التشريع الإسلامي كتشريع بالمعنى الصحيح إلا مع (أبي حنيفة) الذي وردت آراؤه في جميع المسائل كما وردت آراء صاحبه (أبي يوسف) بمجموعات الكتب التي وضعها (محمد) صاحبه الآخر المتوفى سنة 189هـ.

فأول أثر من الآثار القانونية هو إذن اثر كامل الأجزاء. وإذا كانت هذه الكتب قد ذكرت

في بعض الأحوال آراء لبعض الفقهاء ممن سبقوا (أبا حنيفة) فإن هذه الآراء لا تكون في مجموعها تشريعاً يعتد به.
فهذه الكتب تعطينا صورة كاملة للتشريع الإسلامي كما ارتأاها (أبو حنيفة)، وفي نفس هذا الكتب نلحظ اتجاها خاصاً يمثله (أبو يوسف) وهو اتجاه ظاهر الميل نحو الأخذ بقواعد العدل والإنصاف.
وقد انتقل هذا التشريع كما هو مع اتجاهاته المختلفة إلى الأجيال المتعاقبة من الفقهاء - بواسطة كتب (محمد) وإذا كان الفقهاء في زمن (السمرقندي) (حوالي سنة 573هـ) قد وضعوا حلولاً لبعض المسائل التي استجدت والتي أسموها (النوازل) فلم يكن عملهم هذا إلا بمثابة الملحق من الكتاب.
ولم يكن للفقهاء حتى في عصور الاجتهاد سوى تطبيق الأحكام الموضوعة على مسائل يقيسونها قياساً على ما سبقها، أو الترجيح بين حلين قام بشأنهما الجدل؛ ويلاحظ أن الفقهاء لم يترددوا في الواقع عن القياس والترجيح حتى في العصور التي تلت ما أسموه (إقفال باب الاجتهاد).
ولذلك نلاحظ أن القرون التي مرت على هذه الكتب لم تضف إليها الشيء الكثير. وما قد جاء من الحلول عن طريق الإجماع أو العادة موجود في الغالب بتلك الكتب. ومع ذلك فمما لا شك فيه أن (العرف والعادات) قد ساعدت على جعل بعض القواعد أكثر مرونة أو على تحديد مدى تطبيقها، إلا أن الأسس بقية ثابتة كما كانت من (المبسوط) إلى (رد المحتار) (2521هـ).
ويلاحظ أخيراً أن بعض المسائل أتتنا لا عن طريق كتب (محمد) الستة، بل عن طريق كتب أخرى له أو لغيره، وهي معتبرة أضعف سنداً من الكتب الستة؛ ولذلك عبر عنها على أن المفهوم أن هذه المسائل كذلك قد عرضت (لأبي حنيفة) (بغير ظاهر الرواية) أو لأصحابه.
أما مؤلفات (ابن سماعة) و (ابن رستم) التي وردت بها هذه الرواية فلم تصلنا، وعلى ذلك تكون ثقتنا بصحة هذه الرواية بقدر ثقتنا فيمن رواها من المؤلفين وهم يوردون هذه الرواية كغيرها أثناء عرضهم للموضوع.
وفي بحثنا هذا قد رجعنا أولاً وبادئ ذي بدء إلى كتب (محمد) وبذلك انتهجنا نهجاً كان الباحثون بعيدين عنه، فهم في الغالب يرجعون إلى أحد الكتب المتداولة للمتأخرين.
ولما كان (مبسوط) (محمد) هو (الأصل) كما يسمونه كان من المتعين الرجوع إليه أولاً. والواقع أن الرجوع إليه ليس من الميسور فهو لم يطبع بعد، والمخطوطات الموجودة منه بمصر أكثرها ناقص، على أنا قد وفقنا إلى العثور على نسخة وردت حديثاً على دار الكتب وهي من محتويات مكتبة المغفور له (محمد على الكبير).
أما ثاني الكتب الستة وهو (الجامع الصغير) فهو مطبوع، على أنه لا يروي غلة لاختصاره.
و (الجامع الكبير) هو ثالثها وقد عثرنا على جزء صغير منه بدار الكتب وتمكنا من تتبع بقية النصوص خلال ما ورد عليه من الشروح الكثيرة، وهو يختلف كثيراً في أسلوبه عن (المبسوط)، ذلك أن المسائل ترد به موجهة، بينما (المبسوط) خلو تماماً من التفسير والتوجيه.
أما رابع الكتب الستة وهو (الزيادات) فقد تقصينا نصوصه من خلال شروح (العتابي) و (قاضي خان).
والخامس والسادس من الكتل الستة موضوعان في السير، أي في قوانين الحرب فلم يدخلا في نطاق بحثنا.
وبعد أن تمكنا من هذا الأساس، سرنا في بحثنا متتبعين المؤلفين، على حسب الترتيب الزمني، ابتداء من (الخصاف) (261هـ)، لغاية (السندي) (1257هـ).
ولم نتراجع أمام المخطوطات القديمة فتيسر لنا بذلك الانتفاع ببعض المؤلفات العظيمة التي لم تتداولها الأيدي بعد. ومن ذلك (مختصر) (الطحاوي) (المتوفى سنة 321هـ). و
المتوفى سنة (544هـ)، وقد ذكر هذا المؤلف (رضي الدين السرخسي) (محيط) الأخير، المسائل مرتبة، وهو يورد دائماً مسائل غير ظاهر الرواية ومسائل النوازل في فصول مستقلة. ونذكر من ذلك أيضاً (الذخيرة البرهانية)، و (خلاصة) (افتخار الدين).

أما مؤلفات (العصر الذهبي) للفقه الإسلامي، وهو الذي يمتد من مجموعات (محمد) لغاية (قاضي خان)، فنذكر منها (مبسوط) (السرخسي)، وهو شرح لما اختصره (الحاكم الشهيد) من الكتب الستة. و (جامع الفقه) (للعتابي) وهو مجموعة مسائل، تمتاز بشيء من الطرافة وبدائع (الكاساني) وهي بلا ريب أروع ما ألف في الفقه الإسلامي، وهي تمتاز بحسن ترتيبها، ووضوح أسلوبها. وهذا المؤلف هو في الواقع فريد في تقسيماته، وطريقة عرضه للمسائل. وقدجعلناه عمدتنا في جميع بحوثنا.

أما في العصر الذي يلي العصر الذهبي، وقد سميناه (عصر الشرح والتحشية)، فأول ما يقابلنا من المؤلفات العظيمة، (الهداية) وقد كتب في شرحها ما تقوم به مكتبة واسعة الأرجاء. ونذكر أيضاً مجموعة الشروح التي وردت على (الكنز)، وكذلك مجموعة الشروح التي وردت على (الدر المختار).

وعند الحلقة الأخيرة نجد (رد المحتار) (لابن عابدين) وهو عبارة عن دائرة معارف فقهية، على أنها تفتقر إلى التنسيق، وقد تبعه (السندي) (7521هـ) في شرح (الدر المختار)، ومؤلفه يقع في ستة عشر مجلداً ولا يزال مخطوطاً، وهو من محفوظات مكتبة الأزهر.

وهناك بعض المؤلفات اكتفى أصحابها بسرد المسائل، دون إيراد وجوهها، وقد سميت (بالفتاوى). وليس معنى ذلك أنها، في الواقع، أجوبة عن أسئلة عرضت، ونذكر منها (الظهيرية) و (التتارخانية) و (الهندية).

ومما يستحق التنويه، تلك المؤلفات، التي حاول مؤلفوها الارتقاء بها عن مجرد الحلول والعلل المباشرة، متقصين أسباب الفروق والنظائر؛ ونذكر منها (فروق) (الكرابيسي) ولا يزال مخطوطا، وأشباه (ابن نجيم) وشهرتها تغني عن وصفها، وشرح (التاجي) عن هذه (الأشباه) ولا يزال مخطوطا.

وأخيراً، نجد فريقا من المؤلفين، قد وجه عنايته إلى الناحية القضائية للمسائل. وأهم ما وضع في ذلك (جامع الفصولين) (لابن قاضى سماوه) وتنقيحه (نور العين).

ولا يسعنا هنا إلا أن نشير إلى ما كابدناه من الصعاب عند البحث في هذه المؤلفات، وقد اقتضى ذلك منا مجهودا مضاعفاً يعرفه فقط من عالج هذه البحوث. فمن ذلك أنه لا يكفي الباحث التطلع إلى العنوان ليتعرف ما سيتناوله الباب من الموضوعات. فالمسائل في الواقع مبعثرة في مختلف الأبواب لغير ما سبب ظاهر.

ولا يستطيع الباحث الجزم بأن مسألة بعينها ليست موجودة في كتاب معين إلا إذا طالع جميع صفحات هذا الكتاب بإمعان تام. ولذلك نجد المؤلفين في إشاراتهم إلى المراجع ينقل بعضهم عن بعض. فإذا ذكر أحدهم عن مسألة أنها وردت (بالمبسوط) فلا يفيد ذلك أنه تحقق بنفسه من صحة ورودها.

لهذه الأسباب اضطررنا إلى دراسة بعض الكتب من الغلاف إلى الغلاف، وراجعنا جميع أبوابها باباً باباً لتقصي ما يهم موضوعنا من المسائل.

ويلاحظ أيضاً أن هذه المؤلفات لا تتبع ترتيباً واحداً في تسلسل الأبواب، ولو أن هذه الأبواب أو الكتب واحدة لم تتغير في الغالب منذ وضع (المبسوط).

على أن (المبسوط) جاء خليطاً من الأبواب ولا يراعي ترتيباً ما. أما الترتيب الذي نجد عليه (الجامع الصغير) فهو ليس (لمحمد) وقد اتبع هذا الترتيب غالب المؤلفين.

ومهما يكن الأمر فلا أهمية في الواقع لهذا الترتيب، فهو لم تقض به أسباب مقبولة، أما ما يذكره أحياناً المؤلفون من الأسباب فهو مجرد أسباب لفظية أو شكلية لا قيمة لها.

وأنا نجد مثلاً أن كتاب الإجارة جاء في (بدائع الصنائع) قبل كتاب البيع، مع أن (الكاساني) نفسه قد أحال في كتاب الإجارة على كتاب البيع في كثير من المسائل.

(يتبع)

شفيق شحاته

دمشق

لشاعر الشباب السوري أنور العطار

زنبقَةَ الصحراءِ ... يا فِتْنَةَ الوجودِ
نَشرتِ في الفضاء ... روائح الخلودِ
وشوشْتَ في الأسماع ... قصائِدَ البقاءِ
من أطيبِ الأسجاع ... وأسلسِ الغِناءِ

سرِبْتَ في الأفكار ... روحاً يفيضُ عطفا
وغِبت في الأنظار ... طيفاً يذوب لُطفا
يا مُنْحَفَ الدُّهور ... ومعرِض الألباب
خبأتِ لِلعصورِ ... سُلافَةَ الأحقاب
لم تأسَنِ الدِّنانُ ... ولا ذَوى العُنقودُ
كأنها الزَّمانُ ... قديمُهُ جديد
غوطتكِ المِفتَانُ ... ما إن لها مثيل
سماؤُها الألحانُ ... وأرضها الحقول
وبرَداكِ الطُّهر ... ينسابُ في الوِهادِ
ناىٌ براهُ السكْر ... يفتنُّ في الإنشاد
خطٌّ من البقاءِ ... في مصحفِ الوجود
وسِلسِلُ الشِّفاءِ ... فرَّ من الخلودِ
وقاسيونُ لاحا ... وأنت بين سوحِهِ
مُترَعَةٌ مِراحا ... تلعبُ في سُفوحِهِ
كملك ينامُ ... وسفحُه وسادَه
عاش له السلامُ ... وما اشتهاهُ عاده
رباعُك الجميلة ... تطفحُ بالمنائِر
ألحانُها الجليلة ... أصداؤُها سوائر
تموج في الفضاء ... كما يموجُ النورُ
تسري إلى السماءِ ... يحفزُها السرورُ
والرَّبوةُ الفتانة ... عرسٌ على الأيامِ
أنهارُها طنانة ... تحفِلُ بالأنغامَ
والنيربانِ فتْنهْ ... وعبقٌ وعطرُ
ومسرب للجنه ... وبهجةٌ وسِحر
دِمَشقُ أنتِ مأوى ... للحسنِ والفنونِ
عِشتِ الدَّهُورَ نجوَى ... للشاعِرِ المفتون
زَنَّرَتِ الرِّياضُ ... أنحاءها البعيدة
ولَفَّتِ الغياض ... أفياءها السعيدة
فيالها مطافاً ... للحُبِّ والرساله
تزيَّنَت أعطافاً ... وائتَلَقَتْ غلاله
أنَّى التَفَتَّ عُرْسٌ ... وحُلُمٌ مديدُ
وفرَحٌ وأُنْسُ ... وعالم جديد
وهاتف يُغنِّي ... يذيبه الغرامُ
يعيشُ بالتَّمني ... وقوتُهُ الأنغام
وبلبلٌ صداح ... يهيمُ بالوِرادِ
تهدُّه الجراح ... وهو على الوِداد
وهاهنا الآباد ... لم يطوها الفناءُ
تكلَّم الجماد ... واختلج العفاءُ
وهاهنا الليالي ... كأنها الأعياد
تناجتِ الدوالي ... وانتشتِ الأعواد
ظلّتْ على الأحقاب ... ندية الأفياءِ
زاهيةَ الشباب ... ضاحكة الرُّواءِ
وهاهنا حسانُ ... ينشدُ آل جفنه
فيزدهي الزمانُ ... وترقص الأسِنه
أين هو أُميَّة ... وأين عبد الملِك
والراية البهيّة ... على جبين الفلك
وأين ملك زاهر ... تجري الفتوح باسمه
طاحت به الدائِرُ ... لم يبق غيرُ رسمه
ودالتِ الأيام ... من جِلِّقَ البهيه

فانطوتِ الأعلام ... وحاقتِ الأذِيه
وغاضت البشائر ... وضاعت الأفراح
وناحت المنائرُ ... وعمت الأتراح
أخيلة تمُرُّ ... أرواحُنا فداها
وصورٌ تكرُّ ... ما تنتهي رُؤاها
(بغداد)
أنور العطار
مساء القرية
بقلم محي الدين الدرويش
جثم الصمت على هام الطُّلول ... وأقام الهمُّ فيها مأتما
فهي من حيرتها سكرى ملول ... تتنزَّى من عناء الما
تجمد العينُ لدى رؤيتها ... ويطير القلب منها هلعا
تلمح الوحشةَ في نظرتها ... وترى البؤس عليها رتعا
وإذا ما الليل أرخى السُّجفا ... واستسرَّ الناس في سُدفته
خِلتُ جنّاً في عراء هُتَّفا ... فيلجُّ القلب في رعدته
ضمت الأطلالُ قوما حُرموا ... لذَّة العيش وعدل القدر
شظف العيش لديهم مغنمُ ... وصفير الريح صوت الوتر
رب غيداء كما شاء الهوى ... تأسر القلب بلحظ أصيد
هي من شقوتها رهن الجوى ... تتلظى في بلاء أنكد
حملت يا ويحها أكوابها ... والى (العاصي) تولت مسرعة
قد نفت من حرقة جلبابها ... وتعايت من وناها جازعة
قد سئمت العيش في هذي الربوع ... حيث لا عيش بها يحتمل
ذكريات تتوالى ودموع ... كلما ترتادها تنهمل
أين مني زمن طالعني ... من ثنايا العمر رفّافٌ أنيق؟
ما عهدت الهمَّ يوماً ضافني ... أحتسي اللذات فيه لا أفيق
آه لو ترجع هاتيك العهود ... ويسود الصفوُ أيام الحياة
فنعيم العيش في لثم الخدود ... وانتعاش الروح من (ماء الحياة)
إنما الدنيا بلا قصف جمود ... موحش يغمره يأس عميق
فاغنم اللذات في هذا الوجود ... فحياة المرءِ إيماض بروق
غاية العلم ضلال باطل ... وجهالات بها تضطرب
هل درى والموت فينا نازل ... ما مصير الروح أنى يذهب؟
ينشد المرءُ نبوغاً سامياً ... وهو لا يعقل ما رام النبوغ
سيريه الكون شراً طامياً ... هو عنه يتجافى ويروغ
يجتني الناس أفانين الهناء ... وهو في عزلته مكتئب
ما جنى من عيشه غير العناء ... هو يشقى والليالي تلعب
(حمص)
محي الدين الدرويش
القصص
من الحياة الواقعية
مليم العظماء. .؟!
بقلم السيد محمد زيادة
وقف هذا العظيم وقفة ناطقة بعظمته أمام دكان حلاق، ثم جاز بابه متهادياً منتفخاً كما يجوز باب داره التي لا تحوي إلا ما هو مالكه؛ وكان الحلاق جالساً كالنائم، لا يصل بصره وذهنه إلى أبعد من مجلسه، فهب واقفاً تدق على قلبه هيبة الداخل عليه.
وجلس الرجل على الكرسي جلسة أمير متواضع، ووقف الحلاق من خلفه كما يقف المتهم في ساحة العدل. . . وكان دهشاً يزدهيه ويربكه أنه على فقره وخموله يحظى بشرف التصرف في نبات ذلك الرأس العظيم وتزيينه وريه بأغلى ما عنده من العطور؛ ولكنه استجمع نفسه وذهب يجلب من نواحي دكانه أجود مقصاته وأحد أمواسه، وبدأ يعمل بفكره وعينيه ويديه، حتى يخرج من مهارته تحفة فنية رائعة ترضي عظمة

. . .(الزبون) وتفتح للدكان باباً في الشهرة ومن ورائه باباً في السعادة
وتواردت على رأس الحلاق أحلام خلابة تنبئه بحياة هنيئة ناعمة، وصيت ذائع منتشر. . .
فتصور أن بعد ذلك الرأس الرفيع رؤوساً رفيعة أخرى ستظهر عليها بدائع يديه. . .
. . .وأيقن أن قد حان الوقت لينال حقه المهضوم وينصف فنه المظلوم
وتصور أنه إذ يتعب في تزيين ذلك الشعر وتجميله إنما يتعب في تزيين دنياه الجميلة
التي الجميلة التي في خياله. . . ثم اعتقد أنه ولا شك بالغ بعد ذلك غاية الأمل ما دام
قد حلق لهذا العظيم، وما دام العظيم يرضى عنه، فجعل يبذل ما في وسعه من حذق
لتجيء الصنعة فاتنة لا عيب فيها فتجيء الدنيا كاملة لا نقص فيها.
وراح الزبون الكريم المتواضع يطلب موسى غير الموسى لتكون أمضى، ويطلب
فرشاة غير الفرشاة لتكون أطهر؛ ثم أخذ ينبسط مع الحلاق ويؤنسه من نفسه
العظيمة ويحاضره في تواضع العظمة وعظمائها. ويقص عليه نوادر تبين له أن الكبير
من لا يتكبر، وأن الحلال حلو ولو مرَّ، والحرام مرٌّ ولو حلا، وأن الدنيا والآخرة للأمين،
والدنيا والآخرة
على الخائن؛ ثم كان يفصل قصصه بأحكم الحكم وأصدق الأمثال. والحلاق غارق
بسمعه في لذة الحديث، مستغرق بعينه في لذة الصنعة، سابح بفكره في لذة
. . .الأحلام
قال الزبون فيما قال: كل شيء يقع في هذه الحياة بقضاء، فما من شر يصيب وما من
خير يصاب إلا وهو مكتوب من قبل في لوح القدر.
قال الحلاق: صدقت والله يا أفندينا. . . فقد يكون الإنسان غافلاً فتنساق إليه الأسباب
من تلقاء نفسها، وقد يكون خاملاً فينصب عليه الرزق من حيث لا يدري. والمثل فيّ
أنا. . . أنا جالس يا أفندينا في غفلتي وخمول شأني ضعة مكاني - فإذا بك تشرفني
بالدخول علي؛ فهل هذه إلا مفاجأة؟ (وفي السماء رزقكم وما توعدون).
قال الزبون: وفي حقيقة الأمر أنها لم تكن مني عن تدبير ولا نيّة، ولم تكن في
حسباني ولا ألقيت لها بالاً، ولا كنت في حاجة ماسة للحلاقة اليوم. . . فما هي إلا
خطرة مالت بي إليك ولا أدري سببها، وكأنما كان للإلهام فيها عمل.
فأحس الحلاق أن في حديث زبونه ما في حديث نفسه، فانتشى ظاهره بما في باطنه
وقال: إي والله إنه لإلهام وإنه لحظ سعيد وإنه لشرف عظيم؛. . وأرجو ببركة تواضعك
الميمون أن أصبح في القريب حلاق إخوانك العظماء من هامات الناس وكبرائهم.
وبذلك أكون صنيعة فضلك وخادم إحسانك.
قال الزبون: لا ريب في أنك ستكون حلاقي الخاص وحلاق إخواني الدائم إذا ما أعجبتُ
أنا بحلاقتك وصنعتك.
وانتهى الحلاق من جهاده في سبيل المجد، ووقف مضموم اليدين ينتظر الرضى
والثناء! وأعجب العظيم بحلاقته أيما إعجاب ووقف يعرض نفسه على هذه المرآة وتلك
المرآة وهو ينثر كلمات الإعجاب في كرم وسخاء. والحلاق لا يدري أهو كالناس على
. . .الأرض أم طائر مع ملائكة الحظ والسعادة
وأخرج الزبون من جيبه دخينة ضخمة فخمة كأنها من نوع ممتاز لخلق ممتاز - وأشعلها
ثم قال: ألا تدري أن هذه الدخينة من صنع بلادنا؟.
قال الحلاق: يا عجيباً!! وهل تقدمت بلادنا إلى هذا الحد؟
قال الزبون: أنت تعجب فكيف عجبك لو علمت أن ثمن العلبة من هذه عشرون
قرشاً؟
وكيف بك لو علمت أن هناك نوعاً آخر ثمن العلبة منه مائة قرش؟. وكل الذين
يتشرفون بزيارة السراي الملكية يقدم لهم من هذا النوع. . وأنا أكاد لا أصدق أن في
(السجائر) ما هو رخيص، فكم هو ثمن أرخص (سيجارة) عند الناس؟
قال الحلاق: يا مولاي أن معظم السجائر من هذا النوع الرخيص الدون، وثمن الواحدة
. .منه مليم واحد وهو ثمن نصف رغيف للفقير المسكين
قال الزبون: إذن فالمليم له معنى كبير!!؟ ياله بؤساً وشقاء للإنسانية. أمعك واحدة
من هذا النوع الرخيص؟. لا ريب انها ستكون لذة جديدة مشتهاة لغرابتها.
قال الحلاق: أنا يا أفندينا لا أدخن فمليم ومليم ثمن رغيف.
قال: آه. . . أضن أن معي مليماً فريداً حائراً في جيبي. خذه فاشتر لي به واحدة لأرى.

وذهب الحلاق يتكفأ ومعه المليم، وغاب دقائق ثم عاد يتوثب ومعه (السيجارة) الرخيصة. . . ونظر فلم ير أحداً في الدكان؛ ثم نظر فلم يجد آلاته لا في موضعها ولا في غير موضعها، وحينئذ. . . حينئذ فقط أدرك الحلاق أن الزبون العظيم ما هو ألا محتال عظيم، وأن الأحلام التي ألقاها في خياله إنما ألقاها غشاءً على بصيرته؛ فلطم وصرخ واستغاث؛ واجتمع الناس يتناولون الحادث كما حدث ويتبادلون الرأي فيه. . . ومال بعضهم إلى الأرض يقلب شعر اللص الجريء لعله يعثر فيه على سر.

وقال بعضهم: ما أغلى التضحية! لقد طمع الحلاق المسكين في العظيم والعظماء فضيع آلاته وأسباب رزقه ليعلم من كل ذلك أن العظمة قد لا تساوي في بعض أهلها غير مليم.

(طنطا)

السيد محمد زيادة

. . .دون جوان لبنان يفكر

بقلم الآنسة فلك طرزي

جلس (موفق) على حافة البركة التي تتوسط حديقة منزله الصغير وأخذ يداعب المياه الصافية التي تتساقط في الحوض وتتسابق بأصابعه، ويرسم على صفحتها خطوطاً وحلقات سرعان مت كان سير الماء يبددها ويمحوها لتتعود صفحته جلية ملساء تتراكض في

وسطها الحبات اللؤلؤية، وكأنها قطع صغيرة من الماس تتقاطر من ثقوب النافورة وتتساقط على صفحة الماء رذاذاً فتبعث نغمة خافتة ووسوسة شجية. لم يصغ موفق إلى الموسيقى العذبة التي كانت تنبعث من لحنها لأن نفسه كانت بعيدة، بعيدة جداً عن هذا الحوض الصغير الذي كانت أنامله تعبث بمائه وتلهو به.

لقد ذكر موفق في هذه اللحظة أياماً ولّت وليالي انقضت كان خلالها يتمتع بأهنأ اللذات والمسرات، إذ كان النعيم يكسو ساعاتها ولحظاتها بأثواب السعادة الزاهية الألوان المختلفة الأشكال، ويبسط عليها ظلال الهناء والمرح والسرور، فكان كل من هذه الظلال الثلاثة يرشده إلى جنات وفراديس تجري من تحتها الأنهار، وتغرد على أفنانها الأطيار. . . فكان موفق يتمتع ويتلذذ، وكان يرشف كؤوس اللذة صافية حتى الثمالة، وكان يقطف ما حلا له من الزهر وما طاب من الثمر، ثم يعرض عن هذه وتلك حينما يتضح له أن ذبولاً قد ذهب بنضرة الزهر، أو أن مرارة قد مازجت حلاوة الثمرة، حتى شاع أمره بين الناس وذاع بين جميع البيئات، فدعوه (دون جوان لبنان) لما عرف عنه من حبه للنساء وإغرائه إياهن بشتى الوسائل، وإيقاعهن في حبائله بمختلف الطرق والأساليب.

وكان موفق يسر بهذا اللقب أما سرور؛ وهل من شيء يعتز به كل دون جوان في الحياة أكثر من اعتزازه بالحظوة الرفيعة التي يلاقيها عند النساء؟ فكان يذيع هذا النبأ الجديد هنا وهناك ويطلع الذين لم يعلموا بأمره أنه كان يحلم بهذا اللقب منذ حداثته، بل منذ كان صبياً يلعب والصبية الصغار من أبناء الحي. وكان كثيراً ما يقص عليهم حوادث وحكايات جرت له وهو مازال في الثامنة عشرة من عمره، وكم من مغامرات غامرها، وكم من نسوة ساذجات كان يغريهن بالكلمات المعسولة والمجاملات اللطيفة ليجذبهن إليه ويوقعهن في شباكه؛ ثم ليعرض عنهن ويوليهن ظهره بعد أن ينال منهن بغيته ويتركهن وشأنهن ويذهب ليبحث عن اللذة عند غيرهن.

ولما كبر وصار رجلاً جعله أبوه مديراً للمتجر الكبير الذي كان يعد من أشهر المحال التجارية في بيروت، وقسم الأعمال الأخرى على اخوته الثلاثة الذين يصغرونه ببضع سنين، وترك له حرية التصرف في الدخل الذي كان ينهال على هذا المحل كأنه النهر المتدفق يجرف في طريقه كل الأشياء ولا يبقي منها شيئاً واحداً. . . أخذ موفق ينفق بسخاء وإسراف ويبدد الأموال هنا وهناك وفي كل مكان دون أن يفطن للآخرة ودون أن يحسب لها حساباً، وكم كلفته شخصية دون جوان، هذه الشخصية التي تقمصته وامتزجت به واختلطت بنفسه فصارتا نفساً واحدة.

أجل! كم كلفته أموالاً وإسرافاً، بل كلفته جهوداً في العدو وراء كل امرأة يستهويه جمالها وتجذبه حمرة شفتيها.

وما لبث موفق أن أخذ يستعرض في ذاكرته أشكال النسوة اللاتي تولى زمامهن في

الحياة إلى حين. وأخذ يذكر النعيم والهناء اللذين تذوق حلاوتهما في عشرتهن ومصاحبتهن، ويذكر هذه النشوة التي كانت تعتريه حينما كان يظفر بفريسة يشبع نهمه بلحمها ودمها. . .

فهذه التي تمثل الآن شبحها وتجسم في مخيلته، كانت هيفاء القد نحيلة الخصر، وتلك التي عقبت أختها الآن وتصورها خياله كانت، ويا شد ما كانت! كانت ناعسة الجفون، حالمة العينين، تزيد نظراتهما رقة وعذوبة أهداب كثيفة سوداء كثيراً ما كانت تسدل فوقهما لتخفي بين الجفون معاني تلوح في حدقتيهما. وأما هذه الأخرى فيا لشفتيها! كم كانتا رقيقتين كأنهما وردتان نضرتان متفتحتان في روض وجهها الذي تتلألأ فيه فتنيره عينان وضاءتان كحيلتان تريقان عليه نوراً مشرقاً ساطعاً يزيد في إشراق سمائه وجماله، وهؤلاء الفتيات الخمس اللائي وضعهن يوماً في السيارة وسار بهن من بيروت إلى أحد مصايف لبنان حيث قضى معهن سهرة أحياها إلى الصباح. . . لقد جلس بينهن أمام مائدة قد صف عليها جميع أنواع الكحول، وتكدست فوقها أصناف النقل المتنوعة والأثمار المشكلة. . . وما أسعدها ليلة قضاها موفق بين نزعات الهوى الباسم ونغمات الهواء البليل الناعم، يتمتع بمغازلة خمس حسان من أجمل الفتيات وأرشقهن قدوداً وأعذبهن صوتاً وأحلاهن حديثاً. . . وما أهنأها ليلة وما أجملها، تنشق موفق النسمات اللطيفة التي ينفحها جو لبنان الصافي العليل.

غير أن الأوراق المالية كانت في هذه الليلة تسيل من جيبه كما كانت الشمبانيا تسيل من القوارير.

كان موفق يفعل هذا كله لإرضاء نفس لا يستطيع كبحها، وأهواء ليس في وسعه ردها؛ ولم يذكر موفق أن الحب، الذي يدعونه بالحب الخالص الصافي، قد خالط نفسه يوماً من الأيام.

كلا؛ فهو ما شعر قط بلذة الروح - هذه اللذة العالية التي ترفع بصر الإنسان إلى ما فوق المادة وتجعل القلب يخفق بأنبل العواطف وأشرفها - تعتور نفسه، وتشعرها برعشة تهتز لها أضالعه وتختلج جوانحه. كلا! إنه لم يعرف من الحب سوى المعنى الوضيع الذي تولده حيوانيته، وجهل ومازال يجهل المعنى الرفيع الذي تولده نورانيته، والذي يضئ الروح بنور الفضيلة والهدى والحق. . .

لقد كانت أهواؤه شغل حياته الشاغل، إذ هو لا يجيد من فنون الحياة إلا فن الإغراء والإغواء والمخادعة. . . وما فكر قط أن آخرة مؤلمة ستنتج عن حياة الطيش والفوضى؛ لقد انتهى موفق إنفاق ما في خزائن المتجر وتجاوزها إلى رأس المال، فأفلست التجارة. . ولم يجد الدائنون بداً من عرض جميع ما يملك موفق وأسرته في المزاد العلني، فبيع المنزل وجميع مفروشاته الفاخرة، وبيعت الحديقة الغناء الواسعة الجوانب التي تحيط به من جميع أطرافه، ونزحت الأسرة المنكودة عن البيت بعد أن نعموا باجتماع الشمل حقبة، وراح موفق ينشد العمل في كل مكان فلم يعثر عليه إلاَّ بعد جهد جهيد مقابل أجر زهيد يكاد لا يكفي نفقته ونفقة أخته التي تقاسمه الحياة وتشاطره البؤس. . .

أحس موفق حين رجع بذكرياته إلى هذه الذكرى المؤلمة، كأن هزة عنيفة تعتري جسمه فانتفض واختلج، وشعر كأن شيئاً أخذ يحز في نفسه حزاً مؤلماً، فانتصب واقفاً وغادر حافة البركة التي كان جالساً عليها يداعب مياهها، وأخذ يجول بنظره في أطراف الحديقة، ويتلفت يمنة ويسرة، يحدق بكل ما يبصر، ويصغي إلى كل ما يسمع، فإذا به يشاهد براعيم الأزاهر ترنو إليه وترفع نحوه أكمامها المتضوعة العبير تشكو ظمأها، فاقترب من البركة وأخذ إبريقاً من المعدن الأبيض وملأه وسقى الأزاهر وبلل أغصانها بقطرات الماء النمير، ثم بعد ما فرغ من سقيها أخذ وعاء صغيراً ووضع فيه دقيقاً خلطه بماء، ثم أخذ يعجنه حتى إذا تماسك قدمه إلى حمامة سمعها تنوح شاكية له جوعها. . .

وهكذا تعزى دون جوان المنهزم عن عزه الغابر المفقود بإطعام الحمام وسقى الأزهار!

فلك طرزي

البريد الأدبي

وفاة الأبيوردي - رد على الأستاذ علي الطنطاوي

أخي الأستاذ صاحب الرسالة

كتب إليَّ الأديب الفارسي المحقق عباس إقبال نزيل باريس أثناء رسالة فارسية يقول ما ترجمته:

قرأت في العدد 158 من مجلة الرسالة مقالاً بقلم الأستاذ علي الطنطاوي تحت عنوان (الأبيوردي المتوفى في مثل هذا اليوم سنة 557 بمناسبة مرور 798 سنة على وفاته) والظاهر أن الكاتب الفاضل خدع برأي ناشر الديوان قليل الاطلاع الذي أخطأ فجعل وفاة هذا الشاعر سنة 557، وهذا غلط صريح. والصواب أن وفاته سنة 507 كما روى ابن خلكان وياقوت في معجم الأدباء (ج 4 ص 341) وسائر المؤرخين، ويؤيد هذا ما رواه ياقوت في المعجم (4 ص 343) نقلاً عن خريدة القصر للعماد الكاتب من أن الأبيوردي تولى في آخر عمره عملاً للسلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي، وأنه سُمَّ وهو يتولى هذا العمل، وبينما كان واقفاً عند سرير السلطان محمد ضعفت رجلاه وسقط على الأرض وقال:

وقفنا بحيث العدل مدّ رواقه ... وخيّم في أرجائه الجود والبأس

وفوق السرير ابن الملوك محمد ... تخر له من فرك هيبته الناس

وغياث الدين أبو شجاع بن ملكشاه مات سنة 511، فمحال أن يكون الأبيوردي الذي وقع في مرض موته أمام سرير السلطان قد مات سنة 557. وبهذا يبطل اجتهاد الأستاذ الطنطاوي ودعوته إلى الاحتفال بعد سنتين بمرور ثمانية قرون على وفاة الأبيوردي، إلا أن يحتفل بعد سنتين بمرور 850 سنة على وفاة الشاعر أو يمد الله في عمر الكاتب اثنتين وخمسين سنة أخرى ليحيي ذكرى الشاعر بعد تسعة قرون.

وناشر ديوان الأبيوردي قليل الاطلاع جدا، فقد نشر في الديوان قصائد من شعر أبي اسحق إبراهيم بن عثمان بن محمد الكلبي الغزي (441 - 524) ولا شك أنها من شعر الغزي ومنها اللامية المطبوعة في الصفحات 274 - 279 من ديوان الأبيوردي والتي يقول فيها الشاعر صراحة:

قصدتك لا بالشعر من أرض غزة ... ولكن بقولي أنني لك آمل

(ومثل هذا الغلط في مواضع أخرى لا يتسع المجال لبيانها الآن.)

ولم يطلب إلي الأديب الفاضل نشر كلمته، ولكنني آثرت نشرها إفادة للقراء، وإذاعة لتحقيقات هذا الأديب البحاثة الذي يطرفنا بين الحين بأبحاثه في الأدب العربي وكتبه.

عبد الوهاب عزام

مهرجان أدبي عظيم تمثل فيه مصر

أشرنا من قبل إلى أن مهرجانا أدبياً كبيرا سيقام في لندن في الثالث عشر من شهر أكتوبر الجاري لتكريم الكاتب الإنجليزي الكبير المستر هربرت جورج ولز (هـ. ج. ولز)، لمناسبة بلوغه السبعين من عمره، وأتينا بهذه المناسبة على ترجمة وجيزة لمستر ولز، ونزيد الآن أن هذا المهرجان الأدبي العظيم قد أقيم في الموعد المحدد له بفندق سافوي بلندن، واتخذ صورة مأدبة عشاء كبرى شهدها أربعمائة كاتب وأديب يمثلون معظم دول العالم. ولما كان مستر ولز رئيس نادي القلم الدولي، ورئيس نادي القلم الإنجليزي، فان معظم المندوبين الذين شهدوا المأدبة كانوا يمثلون نوادي القلم في أنحاء العالم وعددها نحو خمسين ناديا. وكانت مصر ممثلة في هذا الاحتفال بواسطة نادي القلم المصري على يد الأستاذ حسين محمد قنصل مصر في لندن الذي شهد الاحتفال بالنيابة عن نادي القلم المصري، ورأس الاحتفال الكاتب الإنجليزي الشهير مستر جون بريستلي؛ وبعد تناول العشاء تعاقب على الخطابة كل من مستر برناردشو الكاتب الأشهر ووكيل نادي القلم الإنجليزي، ومسيو اندريه موروا الكاتب الفرنسي، ومسيو كاريل شابيك الكاتب البولوني، وجوليان هكسلي الكاتب الإنجليزي، والكاتبة الإنجليزية مس ج. سترن؛ وقد تبارى الخطباء في تحية مستر ولز والإشادة بمواهبه وعبقريته الأدبية، فرد عليهم بخطاب طويل يفيض شكراً وعرفاناً. وقد ناب الأستاذ حسين محمد في إبلاغ مستر ولز تهنئة نادي القلم المصري وتحياته، فرجاه أن يحمل شكره وتحياته للنادي المصري.

وقد أفاضت الصحف الإنجليزية في ذكر هذا المهرجان الأدبي العظيم، وقالت إن لندن لم تشهد منذ بعيد احتفالاً أدبياً في عظمته وروعته.

ترجمة للسير جرنفيل
من أهم كتب الموسم التي صدرت أخيراً بإنكلترا كتاب عن السير رتشارد جرنفيل أمير البحر المشهور في القرن السادس عشر، ومؤلفه مستر جورج هربرت بوشنل؛ وقد كان العصر الذي ظهر فيه السير جرنفيل، وهو عصر الملكة اليزابيث، أشهر عصور البحرية الإنجليزية، وفيه ظهر مع جرنفيل عدة من أمراء البحر المشهورين مثل السير فرنسيس دريك، والسير رالي، وجون هوكنس وغيرهم. وكانت البحرية الإسبانية يومئذ في أوج قوتها، وكانت المعارك الهائلة تنشب بين الإنجليز والأسبان باستمرار في المياه الأوربية والمياه الأمريكية، وتملأ سير هذه المعارك وتراجم أبطالها من الإنجليز والأسبان أسفاراً بديعة تفيض بأغرب الحوادث حتى يخيل لقارئها أنه يتلو صحفاً من الخيال المغرق. وكتاب مستر بوشنلي عن السير جرنفيل وعنوانه: أحد هذه الأسفار العجيبة التي تذكرنا بكل ما يحتويه القرن السادس عشر من الحوادث والمعارك البحرية المدهشة ومن أعمال البطولة الرائعة.
وقد كان السير جرنفيل من أبناء كورنوال، وظهر في البحر منذ حداثته، وقاد أول حملة بحرية إلى مياه فرجينيا (أمريكا) في سنة 1586، واشترك في كثير من المعارك البحرية التي وقعت يومئذ بين الإنكليز والأسبان، وحارب أيضاً ضد الترك في البحر الأبيض، واشترك في موقعة (الأرمادا) الشهيرة ضد الأسطول الأسباني؛ بيد أن أعظم موقعة خلدت اسم جرانفيل هي موقعة (آزورس) التي قتل فيها؛ وكان يومئذ قائد سفينة (رفنج) الشهيرة في الحملة التي سارت بقيادة الأميرال توماس هوارد لضبط السفن الأسبانية القافلة من أمريكا محملة بالذهب والفضة؛ وفي مياه (آزورس) نشبت المعركة، وكان الأسطول الأسباني يفوق السفن الإنكليزية ضعفين. ولما رأى الإنكليز ضعف مركزهم قرروا الانسحاب، وكانت سفينة جرنفيل في المؤخرة فاشتد عليها الضغط، ولكنها لبثت تقاتل حتى آخر لحظة وجرنفيل يرفض التسليم حتى جرح جرحاً عميقاً، وعندئذ سلمت برغم إرادته، بيد أنها لم تسلم إلا بعد أن أغرقت عدة سفن أسبانية؛ وتوفي جرنفيل بعد ذلك بساعات قلائل.
هذه الحياة المضطربة الحافلة يعرضها مستر بوشنل عرضاً قوياً ممتعاً يخيل إليك عند تلاوته أنك تقرأ قصة رائعة الخيال.
كتاب جديد لجون كنتل
مستر جون كنتل من أكابر الكتاب السويسريين المعاصرين، وهو من ضيوفنا الأجانب، يستقر بمصر كل شتاء ويمتزج بالمجتمع المصري، ونعرف الكثير عن مصر وشؤونها؛ وقد ساح كثيراً في شمال أفريقيا، وأقام حيناً في مراكش وتونس، وله خبرة واسعة بشؤون البلاد العربية وأحوالها السياسية والاجتماعية.
وقد كان لهذا الاتصال بالأمم الشرقية وهذه المعرفة بأحوالها تأثير كبير في توجيه كنتل الأدبي في الأعوام الأخيرة، وظهر هذا الأثر واضحاً في روايته الدكتور إبراهيم التي صدرت في العام الماضين وصدرت في نفس الوقت بالألمانية بعنوان ففي هذه القصة التي اختار كنتل أبطالها من المصريين واختار مصر مسرحاً لحوادثها يدلل كنتل على خبرته بشؤون القرية المصرية والمجتمع المصري الريفي، وأحوال المستشفيات المصرية، وما هنالك في ذلك المجتمع من مثالب وعيوب يجب إصلاحها.
على أن جون كنتل لم ينس وطنه الأصلي حيث نشأ وترعرع فهو من أبناء مقاطعة (تسين) السويسرية، وقد كتب عنها روايته الشهيرة (فيامالا) وهو يصدر الآن بالألمانية روايته الجديدة عن سويسرا، (تريز اتيين) وصدرت أخيراً ببرلين عن مطبعة (كتر بحر) ومسرح هذه الرواية الجديدة هضاب ولاية (برن) وبطلتها فتاة من سويسرا الفرنسية من مقاطعة (فاليه) أو (فاليش) هي (تريز) وهي فتاة بائسة شريدة، تجوب البلاد والطرقات باحثة مستجدية لقوتها، ولكنها كانت فتية حسناء، نحيلة القوام جذابة المحيا؛ وفي ذات يوم بينما كانت تستجدي في إحدى ضياع برن لمحها قروي شيخ من أعيان الناحية فأشفق عليها وألحقها بخدمته وكان يحبوها بعطفه، ولكن الخدم كانوا يكرهونها لحسنها وتأثيرها على السيد؛ وأخيراً أحبها الشيخ وتزوجها؛ ولكن الشيخ كان له ولد فتي يدرس في المدينة، فلما عاد إلى المنزل وألفى تريز هنالك شغف بها حباً، وشغفت به حباً؛ وذهب الهيام بتريز إلى أن فكرت في التخلص من الوالد الشيخ، فلم تجد سبيلاً غير الجريمة، فقتلته؛ ولكنها وقعت بين براثين القضاء، واختتمت بذلك

حياتها.
هذا هو مجمل القصة الجديدة التي يخرجها جون كنتل؛ وقد لوحظ أنها ضعيفة الخاتمة كما
لوحظ ذلك في روايته الدكتور إبراهيم؛ بيد أن كنتل يبدي فيها كما يبدي في معظم رواياته براعة فنية في العرض والوصف، ولا سيما في عرض مجتمع القرية، وسيدها الذي يتمتع بالحول والنفوذ.
ولجون كنتل بالإنكليزية عدة قصص شهيرة أخرى نذكر منها: , , , , وغيرها.
الحرف
أشارت هذه المجلة في أحد أعدادها الفائتة إلى ما وافق عليه المجمع اللغوي من الاصطلاحات في كتابة الأعلام الأعجمية، وكان من ذلك الاصطلاح على كتابة الحرف واواً بثلاث نقط فوقها عوضاً عن كتابته فاء بثلاث نقط، وذلك لأن أهل المغرب يستعملون هذا الحرف للإشارة إلى حرف الخلاف بين أهل اللغة الواحدة، فلا معنى لمراعاة ما يستعمله أهل المغرب ولا أهل المشرق، لأن الاصطلاح على شيء مع إبقاء خلافه ينافي المقصود من المهمة التي يعمل لها المجمع، فيجب إذا حصل الاتفاق على شيء - مع مراعاة انه لابد من أخذ رأي جميع ممثلي الأقطار العربية - وجب نبذ خلافه وعدم اعتباره بعد ذلك أصلاً.
على أن العلة المذكورة في عدول المجمع عن كتابة الحرف بفاء منقوطة ثلاثاً غير صحيحة، لأننا في المغرب نكتب الكاف بفاء منقوطة ثلاثاً، بل الغالب عندنا كتابته بكاف ذات ثلاث نقط على ما اصطلح عليه المجمع، وسبق إلى قريب من ذلك العلامة ابن خلدون. وبعض الناس عندنا يكتبه بقاف منقوطة كذلك بثلاث؛ ولعل هذا ما اشتبه على أعضاء المجمع الكرام، فظنوا القاف فاء، مع أن الاشتباه بعيد، إذ أن أهل المغرب ينقطون الفاء من تحت لا من فوق فلا اشتباه بينها وبين القاف.
وعلى كل حال فإن العدول عن كتابة بالفاء لا موجب له إلا هذا التوهم الخاطئ، ولا سيما والواو حرف غير معجم، وقد اصطلح الناس قبل المجمع بكثير على كتابته بالفاء، فعسى أن يتفضل المجمع بتعديل قراره بالنسبة إلى هذا الحرف، وينظر في إدخال عضو جديد إلى هيئته من علماء المغرب.
(المغرب)
ع. ك
رباعيات عمر الخيام تعرض للبيع في لندن
ستباع في قاعة سونبي في التاسع من نوفمبر أقدم نسخة خطية من رباعيا عمر الخيام وهي مكتوبة على خمس وعشرين ورقة مذهبة وعمرها أكثر من خمسة قرون.
وكان يملكها رجل يدعى (محمد سالم) وجيء بها من لاهور منذ خمس سنوات إلى معرض الفن الفارسي، والأرجح أن تبقى في إنكلترا. وقد درس العلماء - من الشرق والغرب - الأوراق وقرروا أنها تلي في القدم نسخة أوزلي المكتوبة في سنة 1460 وهي المكتبة البودلية وعنها ترجم فتزجرالد الرباعيات.
ولا تزال هذه النسخة الأخرى كأزهى ما كانت عندما كتبها (حافظ فرج الله) في بغداد سنة 1473.
وقد صينت نسخة (لاهور) على القرون؛ وبعد كتابتها بمائتي عام أهداها (محمد شافني) (كذا) إلى محمد مهدي بن موسى دهلمي.
الكتب
صدى أحلامي
للآنسة الشاعرة جميلة العلايلي
بقلم الأديب محمود البدوي
ديوان صغير الحجم أنيق الشكل جيد الشعر عذبه، فيه روح الفنانة الملهمة والشاعرة المطبوعة على قول الشعر دون تكلف ولا صنعة ولا محاكاة. . ولا يعييه كثرة ما فيه من نواح وشكوى وأنين فهذا كله لا بأس به إذا جاء من المرأة، ومن فتاة كجميلة العلايلي فنانة بطبعها تعشق الحرية وتتعلق بالمثل العليا - التي لا تتحقق - وتحس بثقل البيئة الخانقة التي تكتم أنفاسها وتهيض جناحيها وتبدد أحلامها الذهبية وتذيب في صدرها أمانيها العذاب. . وفي الديوان قطع شعرية جزلة تحسد عليها، وقصيدة تديرها

الشاعرة دوران القصة القصيرة، وهذا توجيه منها حسن ومقبول يحبب الشعر إلى نفوس القراء الذين انصرفوا عنه - مع الأسف - إلى القصة!

والقارئ لهذا الديوان سيشعر بعواطف المرأة الخالصة الصادقة الصريحة، وهذا ما نطلبه من كل فتاة تحاول المحاولات الأدبية مثلها وتجاري الرجل في الفن. . فليست البراعة في تقليد الرجل في عواطفه ومشاعره وتفكيره وحبه، وإنما البراعة في أن تبرز خصائص المرأة وتبدو أنوثتها قوية من خلال السطور؛ والدنيا بأسرها تصفق اليوم (لفيكي باوم) لأنها تمتاز بالحنان. . الحنان الذي لا يعرفه الرجل. والذي يقرأ لكثير من فتياتنا المتأدبات يرى أن أقلام الرجال تجول في أعمالهن الأدبية وتصول، وهذا عيب فاضح تضيع معه شخصية المرأة، ولكن المرأة عندنا تحس بضعفها وعجزها وتستسلم للرجل حتى وإن ضيع شخصيتها وهي أسمى ما يمكن أن تعتز به.

والدراسة القوية المتواصلة لبعض شعراء العرب العباسيين كالبحتري وابن الرومي والنواسي، ولطائفة من شعراء الإنجليز الخالدين كشيلي وبيرون وهاردي ووردثورث - وهذا عاشق للطبيعة كجميلة - سيصقل فنها وأسلوبها، ويكسب شعرها الرنين الموسيقي الذي لا حياة للشعر بدونه، ويوجهها التوجيه الذي نرجوه لها، ويدفعها على توالي السنين
إلى القمة.

هذا ونحب أن تسقط الشاعرة من ديوانها - في طبعته الثانية - القصيدتين اللتين سمتهما الشعر المنثور فما نعرف لهذا الشعر الغث المرذول لوناً ولا طعماً حتى ولو كان قائله ابن الرومي.

الواقع أن ديوان (صدى أحلامي) هو خير الجهود الأدبية الموفقة التي بذلتها فتاة في السنين الأخيرة وصاحبته تستحق عليه التهنئة القلبية الخالصة. . . من بنات جنسها!!.

الحياة الجديدة
تأليف الأستاذ نقولا يوسف
للآنسة أمينة شاكر فهمي

لقد دفعني مقال الأستاذ دريني خشبة المنشور (بالرسالة) عن كتاب (الحياة الجديدة) للأستاذ نقولا يوسف إلى مطالعة الكتاب ودرسه درساً دقيقاً، فدهشت جداً لما ذكر الأستاذ من محاسن الموضوعات وما أنكر عليه من طوبيات وتوحيد وعالمية، دون أن يذكر شيئاً عما حاول المؤلف إثباته بقوة وبلاغة عن عدم صلاحية اللغة العربية للتمشي وأدب القرن العشرين.

يخيل إلي أن الأستاذ دريني خشبة مرّ سهواً بقول المؤلف الفاضل في موضوعه (الأدب الجديد) صفحة 91: (لم نعد اليوم في عصر الفراغ والعبث بالوقت نقتله فيخرج لنا الكتاب دواوين مطولة في السجع والتورية والكنايات والمجازات والاستعارات مما اكتظ به الأدب التقليدي الجامد القديم). فلا يسعني إلا أن أنكر على المؤلف انتقاده المر للغتنا العربية وما بها من مجازات واستعارات وهي أجمل ما في لغتنا وأرقها.

فهلا قرأت أجمل من فن العرب في قول أحدهم:

ولما برزنا لتوديعهم ... بكوا لؤلؤاً وبكينا عقيقا
أداروا علينا كؤوس الفراق ... وهيهات من سكرها أن نفيقا
تولوا فاتبعتهم أدمعي ... فصاحوا الغريق وصحت الحريقا

أو قول بعضهم:

سألتها عن فؤادي أين موضعه ... فإنه ضل عني عند مسراها
قالت لدينا قلوب جمة جمعت ... فأيها أنت تعني؟ قلت أشقاها

لقد قرأت الكثير من دواوين الشعر الإنجليزي والفرنسي فلم أجد أجمل ولا أدق تعبيراً من الشعر العربي القديم الذي تقول عنه يا سيدي في كتابكم صفحة 193: (إنه يشبه القبر المزين بالنقوش وفي جوفه الرمم)

إن التجديد يا سيدي الأستاذ لا يكون في تغيير اللغة وتشويهها، بل في تغيير الأفكار والنزعات والأخلاق. إنه ليؤلمني جداً أن أقرأ لأحد كتابنا النابغين المجدين العصريين قوله: (إن الأدب العربي القديم محتاج إلى زركشة اللفظ وزخرف الكنايات ليسترا عيبه وقبحه)، فهل تعد جمال اللفظ والمعنى زخرفاً؟ وطرافة التورية وبساطتها

زركشة؟
فما قولك في قول ابن الفارض:
شربنا على ذكر الحبيب مدامة ... سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم
. . . . لها كالبدر كأس وهي شمس يديرها
وما قولك في الأدب العصري الحديث، كقول الأستاذ عبد الرحمن شكري في قصيدته (البحر):
ألا ليتني لج كلجك زاخر ... أعب كما تهوى النهى والبصائر
خيرك يحكي صدحة الدهر صامتاً ... كأنك دهر بالحوادث مائر
وقوله:
فلعل الحياة كالماء تجري ... بين هذا الثرى وبين السماء
وقول الأستاذ محمود محمد شاكر في قصيدته (حيرة):
أتنهاني عن الجزع الليالي ... وما تنفك تتركني مصابا؟!
فتسلبني الأحبة عن عيان ... وتمنحني بذكرهم عذابا
لذا تجد يا سيدي أن اللغة العربية ليست بقاصرة عن التعبير ووصف حياتنا العصرية. إنني يا أستاذي لست ممن يدين بالرجعية والتمسك بالقديم ولكني في كل ما قرأت من لغات أجنبية لم أجد أجمل ولا أقوى من لغتنا العربية القديمة. وأراك يا سيدي تعيب على العرب وضعهم مائة اسم للأسد ومائتين للجمل كأن لم يكتب العرب شيئاً إلا أسماء الأسد والجمل.
لقد دهشت لقولك في (الحياة الجديدة) صفحة 135: (ولسنا نجهل مركز الأدب العربي بين تلك الآداب وهو الأدب الذي تتخذه مصر لها أدباً قومياً حتى اليوم، وهو لا يمت إلينا بصلة ولا بنسب، فنحن لا نتحادث في حياتنا اليومية بلغته الفصحى. .) إنني والحق يا سيدي عاجزة عن الرد على هذا القول، وإنني أترك الرد لأدبائنا الأفاضل. فهل نفهم من ذلك أن اللغة العربية الفصحى ليست بلغتنا وأننا يجب أن نتكلم بلغة أخرى؟ وأي لغة يا ترى تشير بها علينا: الهيروغليفية أم الإنكليزية أم العربية العامية؟ عفواً يا سيدي ومعذرة، فإنني لا أقصد التهكم أو الانتقاد، ولكن آلمني جداً احتقاركم للغتنا العربية بكل ما فيها من جمال وقوة. وبالرغم من كل هذا فإنه لا يسعني إلا أن أبدي إعجابي الوافر بكل ما حوى الكتاب من بحوث علمية وعالمية، ودفاعكم الحار عن الفلاح المصري، وقولكم: (إذا أنصفنا أخانا الفلاح فإنما ننصف البلاد المصرية كلها) وكم كنت أود لو أذكر كل فصل على حدة لما جمع كل منها من أبحاث قيمة ودرس عميق وتحليل سيكولوجي دقيق وإحصائية مدهشة عن تاريخ تقدم العلم في سبيل الوقاية من الأوبئة الفتاكة التي اجتاحت في القرن الماضي عدداً عظيماً من سكان العالم. أما بحث (عدة النجاح في العصر الجديد) فهو فصل ممتع وأبحاث قيمة دقيقة عن تاريخ أجناس الشعوب المختلفة وتطور الأديان والعلوم والفنون ونشأتها في كل الأمم، ويختم مقاله بقوله: (كذا الفن كالعلم والأدب لا وطن له ولا لغة لأنه ينبثق من النفس البشرية ويعود إليها).
وهو - على طول الخط - يدل على ثقافة والمؤلف الواسعة ودرسه التحليلي العميق. ولقد أعجبت جداً بفصول المؤلف الخيالية، وخصوصاً فصل (مصر بعد خمسة قرون) إذ جمع بين الخيال الواسع والحقيقة والنبوءة. كما أبدع في التحدث عن فلسفة الجمال والحياة في فصل (فن الحياة) و (البشرية). أما تأملاتكم يا سيدي (على شاطئ البحر) فهي من أجمل وأرق ما قرأت في الخيال، وأخص بالذكر منها قولكم (وما تلك الفترات التي يسعد فيها بنو البشر إلا لحظات مختلسة في غفلة الزمن لا بد أن ندفع لها ثمناً غالياً).
أما فصول الساعات مع نوابغ الأدب الشعري والفلسفي والعلمي مثل تاجور وشللي وملتون وويلز وغيرهم فهي مجموعة ثمينة جداً عن تاريخهم وكتاباتهم وفلسفاتهم. ولكن فات حضرة الأستاذ أن يذكرنا بساعة مع شوقي أو حافظ إبراهيم.
وأخيراً أضم صوتي إلى حضرة الأستاذ د. خ. وأقول إن بحوث (الحياة الجديدة) دسمة غزيرة الفكر. فهي مجموعة ثمينة جامعة بين جمال الخيال ودرس التاريخ وتحليل للعصر الجديد دقيق، وتراجم متقنة للأدب القدم والحديث، وهو حقيقة يكاد لا يكون له

نظير في مكتباتنا العربية.
أمينة
العالم المسرحي والسّينمائي
موسم الفرقة القومية الجديد
من حديث للأستاذ طاهر حقي لمحرر (الرسالة) الفني
في مجلس يضم بعض كبار المشتغلين بالمسرح جرت أحاديث الموسم المقبل على الألسنة، فمن قائل إنه مزدهر، وأصحاب الرأي الأخير يستندون إلى قيام أكثر من فرقة واحدة تعمل إلى جانب الفرقة القومية وما سيجره قيام الفرق من منافسة قوية.
فإلى جانب الفرقة القومية تقوم فرقة رمسيس وقد بدأت عملها هذا الأسبوع برحلة إلى الأقاليم؛ وتتكون في هذه الأيام فرقة فاطمة رشدي للسفر إلى العراق وسوف تستأنف العمل في القاهرة بعد عودتها. وهنالك فرقة استعراضية ألفتها السيدة بديعة مصابني، ثم فرقة مختار عثمان، هذا إلى جانب فرقة الريحاني التي تبدأ متأخرة كعادتها.
وقد خطر لي أثناء الحديث أن أوجه بعض الأسئلة عن الفرقة القومية ومبلغ استعدادها للموسم الجديد إلى سكرتيرها الأستاذ طاهر حقي وهو كما يعرف القراء من الأدباء الذين اشتغلوا بالمسرح من زمن بعيد، وقد أخرجت له أكبر الفرق المصرية فيما مضى أكثر من رواية تمثيلية نالت نصيباً كبيراً من التوفيق والنجاح، فآراؤه في المسرح لها قيمتها.
قلت: (ما هو مدى النجاح الذي تتوقعه للفرقة القومية في الموسم الجديد؟ والى أي شيء يعزى؟) فأجاب قائلاً: (إني أتوقع للفرقة نجاحاً هائلاً في الموسم الجديد، لأن استعدادنا تام من جميع النواحي؛ فالنظام يسود أعمال الفرقة من انتقاء للروايات، إلى توزيع الأدوار على الممثلين توزيعاً عادلاً بحيث ينال كل ممثل الدور الذي يليق به ويصلح له، إلى حفظ الممثلين لأدوارهم. ولا أظنك تجهل قرار اللجنة بأن تسير الفرقة في التمثيل على القاعدة الإنجليزية التي تقضي على الممثلين بأن يستظهروا أدوارهم ويشتغلوا دون ملقن، وفي رأيي أن هذه الطريقة ستخطو بالمسرح خطوات واسعة إذ تجعل الممثل يعتمد على نفسه ويدرس دوره دراسة كافية، فلا إهمال بعد اليوم اعتماداً على الملقن.
قلت: (ما رأيك في المنافسة بين الفرقة والفرق الأخرى؟)
قال: أعفني من هذا السؤال. إن بضاعتنا غير بضاعة الفرق الأخرى، فالفرقة القومية قامت للنهوض بالمسرح، ونحن ننشد الفن الخالص والأدب الرفيع لا نهتم بكسب مادي أو
نجاح اسمي؛ ولكني أقول إن الفرقة القومية ترحب بكل منافسة وهي على استعداد لمساعدة الهيئات والنوادي والجمعيات بكل ما يتيحه لها قانونها.
قلت: (هل لك أن تبدي رأياً في الروايات التي وقع عليها الاختيار للموسم الجديد، وفي قيمة هذه الروايات الأدبية والفنية)
فأجاب قائلاً: (إن الموسم سيكون حافلاً بروايات منتقاة بعناية زائدة وهي بين مصرية مؤلفة وأجنبية ممصرة أو مترجمة.
فأما الروايات المؤلفة فهي من قلم أدباء معروفين، وقد حازت رضاء أعضاء اللجنة وهم كما تعرف من زعماء الأدب العربي، ولا أظن الجمهور إلا معجباً بهذه الروايات.
ويسرني أن أقول إن الفرقة القومية قد فتحت الطريق أمام ذوي العقول الخالقة المنتجة ليخرجوا إلى عالم الأدب والفن روايات هادئة لا تحوي طعاناً ولا تقتيلاً ولا أحاديث ثائرة عنيفة تصدم الأعصاب وتلهب الحواس، بل تحوي أحاديث هادئة فيها من الجمال ما يصدم الأعصاب ويبعثها على التأمل والاعتبار، وتعالج الشؤون الاجتماعية التي تشغل الرأي العام وتوجه تيار المدنية إلى الناحية التي تجدي على البيت والأسرة.
والروايات الممصرة مأخوذة عن روايات أجنبية لأكبر الكتاب نالت في بلادها من النجاح ما جعل شركات السينما تتهافت على اقتباسها. وقد بذل الكتاب المصريون مجهوداً كبيراً في تمصيرها حتى أصبحت وكأنها مصرية الفكرة والموضوع والحوادث. ولا شك أن هذه الروايات ستنال رضا رواد المسرح كما تنال رضا الأدباء. أما الروايات المترجمة، فهي من روائع الأدب الأوربي الحديث، وقد أخرجت على أكبر مسارح أوربا.

ولم نوجه أنظارنا عند الاختيار إلى ناحية المسرح الفرنسي وحده كما كانت الحال فيما مضى، بل كان الاختيار موزعاً بين الأدب الروسي والإنجليزي والألماني والفرنسي.
وليس بين الروايات واحدة لكاتب مغمور، بل جميع الروايات لكتاب معروفين في بلادهم والبلاد الأخرى، فالموسم كما ترى حافل، حافل.
قلت: ومتى تبدأ الفرقة عملها، ومتى ينتظر إنشاء المعهد؟
قال: ليس لدي قرار أستند إليه، فلجنة المسرح التي يرأسها صاحب المعالي حافظ عفيفي باشا هي التي تقرر ذلك، وينتظر أن تجتمع بعد عودة معاليه من أثينا قريباً. على أني
أعتقد أن الافتتاح سيكون في النصف الثاني من شهر نوفمبر، وذلك ريثما تتم الإصلاحات القائمة في دار الأوبرا. ومن المنتظر أن يشرف حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول حفظه الله دار الأوبرا ويشهد أكثر من رواية. أما المعهد وإرسال البعوث إلى أوربا فقد أرجئ البت فيهما لحين مجيء المخرج الفرنسي الذي استدعته اللجنة ليعاونها في تنظيم المسرح المصري.
قلت: على ذكر هذا المخرج أو الخبير الفرنسي، هل تعتقد أن في مجيئه فائدة كبيرة، وفي أي ناحية يفيدنا، والى أي مدى؟
فأجاب: (ليس من شك في أن آراء الخبرات ذات قيمة كبيرة، فإن لهؤلاء الرجال من الخبرة ما يجعلهم جديرين بإبداء الآراء التي تؤدي إلى الإصلاح السريع. وقد يرى بعض الناس أن مسرحنا مصري، فكيف يستطيع هذا المخرج، وهو أجنبي عنا لم يدرس أدبنا العربي ولم يعرف خلقنا المصري، أن يساهم في رقي المسرح وتنظيمه، ولكن الواقع يا صديقي أن المسرح لم يكن يوماً مصرياً أو عربياً، وهو ليس من أدبنا بل منقول عن الغرب ورجال الغرب أجدر بإرشادنا إلى الإصلاح.
وقد عانى المسرح في فرنسا بعض ما يعانيه مسرحنا المصري، وقد بذلت جهود عديدة لإقالته من عثرته وقد وفق القوم هناك. فمجيء هذا المخرج سيفيدنا دون ريب، وأعتقد أنه سوف يشير بإجراء إصلاحات كبيرة في مسرح دار الأوبرا سيكون لها شأن غير قليل في تسهيل مهمة المخرج المصري).
(يوسف)
السينما
اليد السوداء
إخراج ابنكمان الصغير
دار العرض، سينما النهضة
لست أدري لم اختار المؤلف للفلم هذا الاسم المخيف الذي يبعث الرعب في نفوس رواد
السينما ويمنعهم من الإقبال على مشاهدته في حين أن التسمية لا تتفق مع غرض القصة وموضوعها وروحها ولا تتصل بها كبير اتصال. فالناقد يرى بجلاء أن الحوادث العنيفة والمؤامرات بالشكل الذي عرضت به تجعل الجزء المضحك غير مرتبط بالجزء الآخر حتى ليبدو العنف دخيلاً على قصة الفلم، وفي رأيي أن نجاح الفلم يكون مضاعفاً لو أن المؤلف عالج قصته على أنها كوميدية فقط.
وليس للقارئ من فائدة في تلخيص هذا الفلم إلا أن يأخذ عنه فكرة سيئة، مع أن الواقع أن الفلم ظريف ومضحك وهو من نوع روايات الجزائرلي ولكنه أرقى موضوعاً.
قام عبد النبي بالدور الأول، وعبد النبي محمد من الممثلين المسرحيين المعروفين، وقد أدى دوره بنجاح كبير؛ وأعتقد أن الشركة التي عهدت إليه بهذا الدور سوف تستغله في أدوار أخرى. وقامت السيدة عقيلة راتب بدور البطلة فكانت موفقة هي الأخرى. وأبدى مختار حسين مجهوداً كبيراً ولكن طبيعة جسمه تجعله لا يصلح لتمثيل دور رجل الشرطة السري لاسيما وأنه كان يبدو دون تخف. ونصيحتي للمخرج ألا يختار الأسماء وحدها، بل الشخصية التي تصلح للدور، وما أقوله في مختار أقوله في حامد مرسي فلم يكن هو الآخر ناجحاً في دوره النجاح المنتظر.
العدد 174 - بتاريخ: 02 - 11 - 1936
حماسة الشعب
للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

وحدثني صاحب سر (م) باشا قال: لما رجع سعد باشا من أوربا في سنة 1921 كانت الأمة في استقباله كأنها طائر مد جناحيه لا خلاف لشيء منه على شيء منه، بل كله هو كله؛ وكانت المعارضة في الاستحالة يومئذ كاستحالة وجود رقعة في ريش الطائر.

على أن ثوب السياسة المصرية كثير الرقع دائما بالجديد والخلق. فرقعة من المعارضين، وأخرى من المتعنتين، وثالثة من المتخاذلين، ورابعة من المعادين، وخامسة وسادسة وسابعة من الحاسدين والمنافسين والمختلفين لشهوة الخلاف، ورقاع بعد ذلك مما نعلم وما لا نعلم، فإن من العجيب أن هذا الجو الذي لا يتقلب إلا بطيئاً يتقلب أهله بسرعة، وهذه الطبيعة التي لا تكاد تختلف لا يكاد أهلها يتفقون.

ولكن سعدا رحمه الله رجع من أوربا رجعة الكرامة لأمة كاملة، ففاز بأنه لم يخسر شيئاً من الحق، وانتصر بأنه لم يهزم، ودل على ثباته بأنه لم يتزعزع، وذهب صولة ورجع صولة وعزيمة؛ فكان إيمان الشعب هو الذي يتلقاه، وكانت الثورة هي التي تحتفل به، وبطلت العلل كلها فلم يجد الاعتراض ما يعترض عليه، واتفقت الأسباب فأجمعت الكلمة، وظهر سعد كأنه روح الأمة متمثلا في قدرة، حاكماً بقوة، متسلطاً بيقين. . . .

نعم لم ينتصر البطل ولكن الأمة احتفت به لأنه يمثل فيها كمالا من نوع آخر هو سر الانتصار، فكانت حماسة الشعب في ذلك اليوم حماسة المبدأ المتمكن يُظهر شجاعة الحياة وفورة العزائم وفضيلة الإخلاص وشدة الصولة وعناد التصميم، ويثبت بقوة ظاهره قوة باطنة، وكان فرح الأمة عناداً سياسياً يفرح بأنه لا يزال قوياً لم يضعف، وكان ابتهاجها مجداً يشعر بأنه لا يزال وافراً لم يُنتقص، وكان الإجماع رداً على اليأس، وكانت الحماسة رداً على الضعف.

انبعثت صولة الحياة في الشعب كله وابتدأ المستقبل من يومئذ، فلو نزلت الملائكة من السماء في سحابة مجلجلة يُسمع تسبيحهم ليؤيدوا سعداً - لما زادوه شيئاً؛ فقد كان محله من القلوب كأنه العقيدة، وكان التصديق مبذولاً له كأنه الكلمة الأخيرة، وكانت الطاعة موقوفة عليه كأنه الباعث الطبيعي، وكان البطل في كل ذلك يشبه نبياً من قِبل أن كلاً منهما صورة كاملة للسمو في أفكار أمة.

قال صاحب السر: ورجع الباشا من القاهرة وقد رأى ما رأى من مسامحة النفوس وصحة العهد واجتماع الكلمة وإعداد الشعب للمراس والمعاناة فقال:

تالله لقد أثبت (سعد) للدنيا كلها أن مصر الجبارة متى شاءت بنت الرجال على طريقة الهرم الأكبر في العظمة والشهرة والمنزلة والقوة. ولقد صنع هذا الرجل العظيم ما تصنع حربٌ كبيرة فجمع الأمة كلها على معنى واحد لا يتناقض، ودفعها بروح قومية واحدة لا تختلف، وجعل عرق السياسة يفور كما يفور العرق المجروح بالدم.

إن هذه الأمة بين شيئين لا ثالث لهما: إما الحزم إلى الآخر وإما الإضاعة. ولا حزم إلا أن يبقى الشعب كما ظهر اليوم طوفاناً حياً مستوي الطبيعة مندفع الحركة غامراً كل ما يعترضه إلى أن يُقضى الأمر ويقول أعداؤنا يا سماء أقلعي.

هكذا يعمل الوطن مع أهله كأنه شخص حي بينهم حين يستوي الجميع في الثقة، ويتآزر الجميع في الأمل، ويشترك الجميع في العطف الروحي، ولا يبقى لجماعة منهم حظ في رغبة غير الرغبة الواحدة للجميع؛ وهكذا يعمل الوطن بأهله حين يعمل مع أهله.

كان أعداؤنا يحسبوننا ذباباً سياسياً لا شأن له إلا بفضلات السياسة ولا عمل له في أزهارها وأثمارها وعطرها وحلواها؛ فأسمعهم الشعب اليوم طنين النحل وأراهم إبر النحل، ليعلموا أن الأزهار والأثمار والعطر والحلوى هي له بالطبيعة.

وكانوا يتخرّصون أن مذهبنا في الحياة لمصلحة المعاش فقط، وأن المصري حاكما أو محكوماً لا يمدُّ آماله الوطنية إلى أبعد من مدة عمره سبعين أو ثمانين سنة، فإذا أطلقوا أيدينا في حاضر الأمة أطلقنا أيديهم في مستقبلها. ومن ثم طمعوا أن يكون الحق الناقص في نفسه حقاً تاماً في أنفسنا لهذه العلة؛ وحسبوا أن السياسي المصري لا يتجرأ أن يقول ما يقوله السياسي الأوربي من أنه لا يخشى الموت ولكنه يخشى العار، فانه إذا مات مات وحده، وإذا جلب العار جلبه على نفسه وعلى أمته وعلى تاريخ أمته بيد أن سعداً قالها؛ وفي مثل هذا قد يكون قول (لا) معركة.

وهاهي ذي معركة اليوم التاريخية، فان الذرات الحية التي تخلق من دمائنا نحن

المصريين قد ثارت في هذه الدماء في هذا النهار تعلن أنها لا ترضى أن تولد مقيدة بقيود.

أتدري ماذا عرضوا على سعد؟ إنهم عرضوا عليه ما يشبه في السخرية طاحونة تامة الأدوات والآلات من آخر طراز، ثم لا تقدم لها إلا حبة قمح واحدة لتطحنها. . . . نتيجة تسخر من أسبابها وأسباب تهزأ بالنتيجة.

إن أوربا لا تحترم إلا من يحملها على احترامه، فما أدرى السياسيين في هذا الشرق عملا أفضل ولا أقوى ولا أرد بالفائدة من إحياء الحماسة في كل شعب شرقي، ثم حياطتها وحسن توجيهها؛ فهذه الحماسة الشعبية الدائمة القوية البصيرة هي قوة الرفض لما يجب أن يرفض، وقوة التأييد لما يجب أن يقبل وهي تعد ذلك وسيلة جمع الأمر وإحكام الشأن وإقرار العزيمة في الأخلاق وتربية الثقة بالنفس، وبها يكون إذكاء الحس وتعويده إدراك الأعمال العظيمة والتحمس لها والبذل فيها.

وما علة العلل فينا إلا ضعف الحماسة الشعبية في الشرق وسوء تدبيرها وقبح سياستها، وإنا لنأخذ عن الأوربيين من نظامهم وأساليبهم وسياستهم وعلومهم وفنونهم فنأخذ كل ذلك بروحنا الفاترة في خمول وإهمال وتواكل وتفرد بالمصلحة واستبداد بالرأي، فإذا دينارهم في أيدينا درهم، وإذا نحن وإياهم في الشيء الواحد كالنحلة والذبابة على زهرة.

ليست لنا حماسة الحياة وبهذا تختلف أعمالنا وأعمالهم، وذلك هو السر أيضاً في أن أكثر حماستنا كلامية محضة إذ يكون الصراخ والصياح والتشدّق ونحوها من هذه المظاهر الفارغة - تنقيحاً للطبيعة الساكنة فينا وتنويعاً منها بغير أن نجهد في التنقيح والتنويع. ومن هذا كانت لنا أنواع من الكلام ينطلق اللسان فيها للخروج من الصمت لا غير. . . ومنه كثير من هذا الهراء السياسي الذي يدور في المجالس والأحزاب والصحف.

إن حماسة الشعب لا تكون على أعدائه فقط بل على معايبه أيضاً وعلى ضعفه بخاصة. والشعب الفاتر في حماسته لو نال حقين مغصوبين لعاد فخسر أحدهما أو كليهما؛ أما الشعب المتحمس القوي في حماسته، فلو غُصبَ حقين ونال أحدهما لعاد فابتزَّ الآخر.

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

نظرية النبوة عند الفارابي

للدكتور إبراهيم بيومي مدكور

- 2 -

أثيرت مشكلة الوحي في العالم العربي منذ بدأ النبي صلى الله عليه وسلم دعوته. فكفار قريش ما كانوا يريدون أن يقبلوا أن محمد بن عبد الله ينزل عليه وحي سماوي، وكثيراً ما رددوا جملتهم التهكمية المشهورة: هذا ابن أبي كبشة يكلم من السماء. واستبعدوا عليه كل البعد أن يتصل بالعالم الإلهي وهو بشر مثلهم يأكل ويشرب ويتردد إلى الحوانيت والأسواق: (وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق؛ لولا أنزل عليه ملك فيكون معه نذيراً، أو يلقى إليه كنز، أو تكون له جنة يأكل منها) بيد أن معجزاته بهرتهم وفصاحته أفحمتهم وهم أهل القول واللسن، وزعماء البلاغة والبيان. فأخذوا يتهمونه تارة بالسحر والشعوذة، وأخرى بالكهانة والتنجيم؛ وعزوا إليه قوى خفية لا حصر لها. ولم يكن له من جواب على هذه الدعاوى الباطلة والاتهامات القاسية إلا أن يقول: (ما أنا إلا بشر مثلكم يوحى إلي). فهو لا يجيء بشيء من عنده، ولا يفتري عليهم الكذب، وإنما يبلغ رسالة الله: (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته، والله يعصمك من الناس، إن الله لا يهدي القوم الكافرين). ونظرية الإسلام في الوحي وطرائقه سهلة واضحة. فهناك ملك خاص هو جبريل عليه السلام، قادر على التشكل بأشكال مختلفة شان الملائكة الآخرين؛ وكل وظيفته تتلخص في أنه واسطة بين الله وأنبيائه. وعنه تلقى محمد صلى الله عليه وسلم كل الأوامر الدينية، اللهم إلا في ليلة المعراج فقد اتصل بربه مباشرة واستمع ما فرض عليه وعلى أمته. ويجب أن نشير كذلك إلى أن الأحلام وسيلة من وسائل الكشف والإلهام، فإن النفوس الطاهرة تصعد أثناء النوم إلى عالم

الملكوت حيث تقف على الأمور الخفية والحقائق الغامضة. وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يبدأ دعوته أحلاماً آذنت بمهمته، وكانت إرهاصا لنبوته وبشيراً برسالته: والرؤيا الصادقة جزء من أربعين جزءاً من جزاء النبوة. وفي القران الكريم سورة كاملة تشرح الأحلام وأثرها في التنبؤ بالغيب، ونعنى بها سورة يوسف.

لم يتردد رجال الإسلام في الصدر الأول مطلقاً في التسليم بهذه الوسائل الخاصة بالوحي

والإلهام. ولم يحاول واحد منهم أن يسأل عن النبوة في سرها وأساسها، ولا عن المعجزات في عللها وأسبابها. وآمنوا إيماناً صادقاً بكل ما جاء من عند الله دون بحث أو تعليل. وقد عنوا من الفجر الأول للإسلام بالرؤيا وتعبيرها ووضعوا في ذلك أبحاثا مستقلة لم تلبث أن كونت علماً خاصاً. وإنا لنجد بين التابعين تلك الشخصية الجليلة المعروفة بين رواة الحديث، وهي شخصية ابن سيرين التي كانت تعد حجة في تأويل الأحلام وتفسيرها. وعل هذا في الغالب هو السر في أن المتأخرين نسبوا إليها في هذا الباب كتباً ليست من صنعها.

بيد أن هذا التسليم الهادئ لم يطل أمده، وهذا الإذعان الفطري لم يبق في مأمن من الشكوك والأوهام. فقد اختلط المسلمون بعناصر أجنبية مختلفة نفثت فيهم كثيراً من سمومها، لم ترع أصلاً من أصول دينهم إلا وضعته موضع النقد والتشكيك والتضليل. ولا غرو فقد كانت هذه العناصر موتورة من الدين الذي ألغى أديانها ومن الحضارة الجديدة التي سلبتها مجدها وعزها. لذا تألبت في كل جموعها، وأخذت تحارب الإسلام بشتى الوسائل لتثأر لنفسها ودينها وتسترد نفوذها وسلطانها، ولكنها عبثاً حاولت وباءت بالخيبة والفشل: (إنا نحن نزَّ لنا الذكر وإنا له لحافظون). فالمزدكية والمانوية من الفرس، وأنصارهم من زنادقة سادة العرب، بدأوا في القرن الثاني للهجرة ينشرون دعوة التثنية ويهدمون فكرة التوحيد التي قام عليها الإسلام. وكلنا يعلم خبر بشار بن برد وصالح بن عبد القدوس الثنويين اللذين كانت لهم مجالس خاصة تذاع فيها الآراء المزدكية والمانوية السمنية وغيرهم من براهمة الهند أخذوا في ذلك العهد نفسه ينادون بتناسخ الأرواح، وينكرون النبوة والأنبياء، ولا يرون حاجة البشر إليهم. وصاحب الأغاني يقص علينا حديث جرير بن حازم الأزدي السمني وما كان بينه وبين عمر بن عبيد في البصرة من حوار ونقاش. وملأ اليهود كتب الحديث والتفسير باسرائيلياتهم، وقالوا بالرجعة والتشبيه وخلق القران كما قالوا بخلق التوراة من قبل. وأرسل آباء الكنيسة على المسلمين شواظاً من أسئلتهم واعتراضاتهم المتعلقة بمشكلة الجبر والاختيار فزادوها تعقيداً، وشغلوا الناس بها فوق عرفهم ومألوفهم، وذهبوا إلى إنكار أبدية عذاب النار فقال الجهم بن صفوان معهم إن الجنة والنار يفنيان ويفنى أهلهما واجترأ الدهرية على أن ينكروا البارئ جل شأنه والعقاب والمسؤولية، وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر.

وقد سل المعتزلة وغيرهم من مفكري الإسلام لهؤلاء وهؤلاء سيف الحجة والرهان وجادلوهم جدالاً قد لا نجد له نظيراً في تاريخ الأديان الأخرى. فأبلى واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد بلاء حسناً في معارضة بشار بن برد وصالح بن عبد القدوس. وناظر أبو الهذيل العلاف الثنوية في البصرة وهدى بعضهم إلى الإسلام. وكان للنظام، وهو أحذق الجدليين في الشرق، قدم صادقة في مناقشة الزنادقة والدهرية والديصانية. ثم جاء من بعده تلميذه الجاحظ فسار على سنته، وبذل في هذا النضال همة طائلة ومهارة فائقة، واستعان عليه باطلاعه الواسع وأسلوبه العذب وقلمه السيال. وفي كتاب الانتصار لأبي الحسين الخياط المعتزلي الذي طبع في مصر أخيراً تفاصيل كثيرة عن هذه الملاحم الكلامية والمعارك الجدلية. وكثر الحوار بين المسلمين والنصارى من جانب وبين المسلمين واليهود من جانب آخر. وأخذت طائفة من الإسماعيلية على عاتقها رد شبه مفكري النبوة والأنبياء ومعجزاتهم. وفي اختصار كان القرنان الثالث والرابع للهجرة - أو التاسع والعاشر للميلاد - ميداناً فسيحاً لجدال عنيف شمل معظم أصول الإسلام ومبادئه.

وليس هناك شك في أن التسليم بالوحي والمعجزة ألزم هذه الأصول وأوجبها؛ فإن منكري النبوة ينقضون الدين من أساسه ويهدمون الحضارة الإسلامية كلها. وعلى الرغم مما في هذه الدعوى من جرأة وفي هذا الموقف من تهجم، فإنا نجد بين

المسلمين من وقفوه. ودون أن نعرض لكل من خاضوا غمار هذا الموضوع في القرنين الثالث والرابع للهجرة نشير إلى رجلين: هما أحمد بن اسحق الراوندي ومحمد بن زكريا الرازي الطبيب. فأما الأول فشخصية غريبة للغاية، ولا يعرف بالدقة تاريخ مولده ولا وفاته، ويغلب على الظن أنه مات في أخريات القرن الثالث. وهو من أصل يهودي نشأ في راوند قرب أصبهان، ثم سكن بغداد واتصل بالمعتزلة، وكان من حذاقهم، وعده المرتضى بين طبقتهم الثامنة. إلا أنه لم يلبث أن خرج عليهم لأسباب لم يجلها التاريخ بعد، وحمل عليهم، بل وعلى الإسلام وتعاليمه المختلفة، حملة عنيفة. ولازم الملحدين واتصل بهم اتصالاً وثيقاً. ويظهر أنه أضحى دسيسة ضد المسلمين يدبر لهم المكائد ويُستأجر للطعن عليهم وينشر فيهم عناصر الزيغ والإلحاد. ولم يخف أمره على بعض اليهود المخلصين الذين حذروا المسلمين منه وقالوا لهم: ليفسدن عليكم هذا كتابكم كما أفسد أبوه التوراة علينا. وقد كتب كتباً كثيرة كلها انتقاص للإسلام ورجاله؛ منها كتاب فضيحة المعتزلة في الرد على كتاب فضيلة المعتزلة، الذي وضعه الجاحظ من قبل، وكتاب الدامغ يعارض به القران، وكتاب الفرند في الطعن على النبي صلى الله عليه وسلم، وكتاب الزمردة في إنكار الرسل وإبطال رسالتهم. والكتاب الأخير يعنينا بوجه خاص فإنه يعطينا فكرة عن مسألة النبوة، وكيف كانت تثار في ذلك العهد. وقد بقي هذا الكتاب مجهولاً إلى زمن قريب؛ ويرجع الفضل في التعريف عنه إلى صديقنا المسيو كراوس الذي اهتدى إليه في مخطوطة من المخطوطات الإسماعيلية الموجودة في الهند، وهذه المخطوطة ليست إلا جزءاً من المجالس المؤيدية المنسوبة إلى المؤيد في الدين هبة الله بن أبي عمران الشيرازي داعي الدعاة الإسماعيلي أيام الخليفة الفاطمي المنتصر بالله وتشتمل المجالس المؤيدية في جملتها على 800 محاضرة ألقيت في (دار العلم) بالقاهرة في منتصف القرن الخامس الهجري، ودرست فيها المشاكل الإسلامية على اختلافها. وفي المجلس السابع عشر من المائة الخامسة إلى المجلس الثاني والعشرين يعرض المحاضر لأقوال الراوندي في الطعن على النبوة ويعقب عليها بالنقض والرد. وهذه المجالس الستة هي التي نشرها المسيو كراوس وترجمها إلى الألمانية وعلق عليها تعليقاً ضافياً يدل على اطلاعه الواسع وبحثه العميق في مجلة الرفستا الإيطالية سنة 1934. فهي لا تحوي كتاب الزمردة في مجموعه، بل فقرات منه تولى الإسماعيلية مناقشتها وإظهار ما فيها من خطأ ومغالطة. وقد صيغت هذه المناقشة في قالب مشوق جذاب، وإن تكن مسجعة سجعاً ثقيلاً أحياناً، وفيها دفاع وردود عقلية هي أثر من آثار الثقافة الإسماعيلية المترامية الأطراف. ولا يتسع المقام لعرض هذه المناقشة في تفصيلها؛ وسنكتفي بأن نستخلص دعاوى ابن الراوندي واعتراضاته.

قد يكون أول شيء يلحظه المطلع على هذا الحوار هو ما في ابن الراوندي من حذق ومهارة ومكر ودهاء. يقف موقفاً بعيداً عن التحيز - ولو في الظاهر على الأقل - كي يجتذب إليه كل القراء، فهو لا يتعرض للنبوة بالنفي والإنكار فقط، بل يناقش موضوعها مناقشة حرة طليقة يأتي فيها على أقوال المثبتين والمنكرين. وكم نأسف لأن صاحب المجالس المؤيدية أهمل جانب الإثبات في هذه القضية. ولو وافانا به لاستطعنا أن نحكم في وضوح ما إذا كان واضع كتاب الزمردة يكيل بكيلين. على أن هناك ظاهرة أخرى تؤيد أن ابن الراوندي يمعن في الدهاء والمكر؛ فهو يعلن في أول بحثه أنه لا يعمل شيئاً سوى أنه يردد أقوالاً جرت على ألسنة البراهمة. في رد النبوات. وسواء أكانت هذه الأقوال من آثار الفكر الهندي أم من اختراع ابن الراوندي فهي تتلخص فيما يلي: إنكار للنبوات عامة ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم خاصة، نقد لبعض تعاليم الإسلام وعباداته، ثم رفض في شيء من التهكم للمعجزات في جملتها. فأما الرسل فلا حاجة إليهم لأن الله قد منح خلقه عقولاً يميزون بها الخير من الشر ويفصلون الحق عن الباطل، وفي هدي العقل ما يغني عن كل رسالة. يقول ابن الراوندي: (إن البراهمة يقولون إنه قد ثبت عندنا وعد خصومنا أن العقل أعظم نعم الله سبحانه على خلقه، وأنه هو الذي يعرف به الرب ونعمه، ومن أجله صح الأمر والنهي والترغيب والترهيب. فإن كان الرسول يأتي مؤكداً لما فيه من التحسين والتقبيح والإيجاب والحظر، فساقط عنا النظر في حجته وإجابة دعوته؛ إذ قد غنينا بما في العقل عنه، والإرسال على هذا الوجه خطأ.

وإن كان بخلاف ما في العقل من التحسين والتقبيح والإطلاق والحظر فحينئذ يسقط عنا الإقرار بنبوته). وسيراً في هذا الطريق العقلي المزعوم يرى ابن الراوندي أن بعض تعاليم الدين منافٍ لمبادئ العقل، كالصلاة والغسل والطواف ورمي الحجارة والسعي بين الصفا والمروة اللذين هما حجران لا ينفعان ولا يضران. على أنهما لا يختلفان عن أبي قبيس وحراء في شيء، فلم امتازا على غيرهما؟ وزيادة على هذا أليس الطواف بالكعبة كالطواف بغيرها من البيوت؟ والمعجزات أخيراً غير مقبولة في جملتها ولا في تفاصيلها؛ ومن الجائز أن يكون رواتها، وهم شرذمة قليلة، قد تواطأوا على الكذب فيها. فمن ذا الذي يسلم أن الحصى يسبح أو أن الذئب يتكلم؛ ومن هم هؤلاء الملائكة الذي أنزلهم الله يوم بدر لنصرة نبيه؟ يظهر أنهم كانوا مفلولي الشوكة قليلي البطش، فانهم على كثرتهم واجتماع أيديهم وأيدي المسلمين معهم لم يقتلوا أكثر من سبعين رجلاً. وأين كانت الملائكة يوم أحد حين توارى النبي صلى الله عليه وسلم بين القتلى ولم ينصره أحد؟ وبلاغة القران على تسليمها ليست بالأمر الخارق للعادة، فإنه لا يمتنع أن تكون قبيلة من العرب أفصح من القبائل كلها، ويكون في هذه القبيلة طائفة أفصح من البقية، ويكون في هذه الطائفة واحد هو أفصحها. وهب أن محمداً صلى الله عليه وسلم غالب العرب في فصاحتهم وغلبهم، فما حكمه على العجم الذي لا يعرفون هذا
اللسان وما حجته عليهم؟

لسنا في حاجة مطلقاً لأن نرد على هذه الشبه الواهية والدعاوى الباطلة، وسيدرك القارئ بنفسه ما فيها من تضليل ومغالطة. ولا نظننا في حاجة كذلك إلى سرد الدفاع المجيد الذي دبجه يراع الإسماعيلية ضدها، وفي مقدور كل باحث أن يرد عليها بآرائه الخاصة وأفكاره المستقلة؛ وكل ما نريد أن نلاحظه هو أن ابن الراوندي يردد نغمة ألفناها لدى المعتزلة من قبل. فهو ينادي بالحسن والقبح العلقيين، ويذكرنا بذلك السؤال الذي وضعته مدرسة المعتزلة لأول مرة وهو: هل الإيمان واجب بالشرع أو بالعقل؟ بيد أن المعتزلة المخلصين لم يستخدموا العقل هذا الاستخدام السيئ، وبذلوا جهدهم في أن يوفقوا بينه وبين الدين، وأن يردوا على شبه الزنادقة والملحدين بكل ما أوتوا من حجة بينة وبرهان قاطع. ومسألة العقل والنقل هي عقدة العقد ومشكلة المشاكل في ذلك العهد! وسنعرف فيما يلي كيف استطاع الباحثون الآخرون حلها.

(يتبع)

إبراهيم مدكور

صور سياحة

فرنسا وباريس - 5

الحريات المتطرفة وبعض مظاهر الحياة الاجتماعية

بقلم سائح متجول

ليس بين أمم العالم أكثر ترديداً لكلمات الحرية والإخاء والمساواة من فرنسا.

ولا غرو فقد كانت الثورة الفرنسية مهد الحريات الديمقراطية في أوربا، ومنها انبثق فجر الديمقراطية الأوربية الحديثة، وفيها تقررت حقوق الإنسان، وكانت صيحة الحرية والإخاء والمساواة أقدس شعائرها.

وقد خاضت الأمة الفرنسية كثيراً من الحوادث والخطوب وبذلت كثيراً من دمائها للاحتفاظ بذلك التراث المقدس: تراث الثورة الفرنسية، وتراث الحريات الديمقراطية؛ وما زالت فرنسا على رغم الحوادث والخطوب حصن الديمقراطية في أوربا، ومازال شعارها المقدس: (الإخاء والحرية والمساواة) ترقمه على نقدها، وعلى جميع دورها العامة، وتقرؤه في كل مكان وكل مناسبة.

ولا ريب أن الحريات العاملة والحريات الشخصية أكثر توفراً في فرنسا منها في أي بلد أوربي آخر؛ حرية القول والكتابة، وحرية التصرف، في حدود القوانين طبعاً؛ وفي فرنسا يعقد أي اجتماع، ويلقى أي خطاب، وينشر أي كتاب أو مقال سياسي أو اجتماعي، دون أن تتدخل السلطات أو تعترض إلا ما كان واقعاً تحت طائلة القانون، أو ما كان ينذر فعلاً بتكدير الأمن العام.

هذا في فرنسا فقط؛ ولكن فرنسا تفهم الحريات خارج فرنسا فهماً آخر؛ والسياسة الفرنسية لا تطيق أن تسمع لفظ الحرية في شمال أفريقية مثلاً أو في غيرها من

الأملاك والمستعمرات، ولها وسائلها الخاصة في إخماد كل نزعة أو حركة حرة، وفي سحق كل رأي حر.

ولكن ذلك لا يمنع أن تكون فرنسا ذاتها بلد الحريات المتطرفة، بل إن أولئك الذي يسلبون حرية الرأي والتصرف في بلادهم يجدون في فرنسا ملاذاً لهذه الحريات.

والحرية أسمى ما يتمتع به الإنسان، وأثمن ما تزدان به الكرامة الإنسانية، ولكن التطرف في فهمها وتطبيقها يخرجها أحياناً عن دائرة المعاني الرفيعة التي قصدت إليها، وعندئذ تغدو ابتذالاً وخروجاً على النظم والقوانين، وأحياناً على الحشمة والحياء.

وقد وصلت الحريات السياسية في فرنسا إلى حدود التطرف والإغراق، ووصلت الحريات الاجتماعية إلى حدود الإباحة والابتذال.

وإنه ليكفي أن نتتبع ما يقع في فرنسا كل يوم من مظاهرات واعتصابات عنيفة، وما يحيط المعارك والمناقشات الحزبية فيها من مناظر الاضطراب والفوضى، وما تتكشف عنه حياتها ونظمها العامة من ألوان الفساد والضعف في تكرار الفضائح المالية والسياسية المثيرة، لنحكم بأن هذه الصورة من النظم الديمقراطية التي تقدمها إلينا فرنسا ليست من افضل صور الديمقراطية وأحبها.

وفي وسع السائح المتجول أن يلمح كثيراً من ألوان الفوضى السياسية في فرنسا، في أقوال الصحف وفي مناقشات الأفراد، وفيما يعرض للبيع من النشرات السياسية والشيوعية التي تسمم الآراء وتذكي الشهوات والأحقاد. ولقد حدث ونحن في باريس في الأيام الأولى لاضطرام الثورة الإسبانية أن هب فريق كبير من الصحافة الباريزية يتهم الحكومة الفرنسية بأنها ترسل الذخائر والطيارات سراً إلى حكومة مدريد، وأنها بذلك تزيد نار الثورة ضراماً وتعرض السلام للخطر، فاضطرت الحكومة أن تصدر بلاغاً رسمياً تنكر فيه هذه الوقائع، واضطرت بعد ذلك أن تثير مسألة عدم التدخل في الحوادث الإسبانية، هذا بينما انتهزت الدول الفاشستية (إيطاليا وألمانيا) كل فرصة لإمداد الثوار بكل صنوف المعاونة في الوقت الذي لبثت تتظاهر فيه بقبول فكرة عدم التدخل؛ وهكذا أفسدت الصحافة برعونتها على الحكومة موقفها وسياستها.

وفي فرنسا اليوم حزب شيوعي قوي يحتل أربعة وسبعين كرسياً من كراسي البرلمان، ويبث دعايته في عدة صحف ونشرات قوية في مقدمتها جريدة (الأومانتيه) التي أسسها جان جوريس، ويكتب فيها اليوم أشهر الكتاب والنواب الشيوعيين مثل مارسل كاشان، وبول لوي، وفايان كوتريه، وموريس توريز وغيرهم.

وكثيراً ما سمعنا، عندما نشبت الثورة في إسبانيا، أن فرنسا قد تضطرم عما قريب بمثل

تلك الثورة، إذا لم تعمل الحكومة لتحسين الأجور وتأمين العمال على حقوقهم ورفاهتهم، كنا نسمع ذلك في مقاهي باريس ومطاعمها وشوارعها.

وكما أن الحريات السياسية تتخذ ألواناً من التطرف والإفراط فكذلك الحريات الاجتماعية في فرنسا.

ولا ريب أن معظم المجتمعات الأوربية تتمتع بحريات اجتماعية واسعة، ترجع إلى نظام المجتمع ذاته، والى ما تتمتع به المرأة من حريات مطلقة، كما ترجع إلى روح القوانين، والى فهم المبادئ الأخلاقية ومعيار الحياء بطرق وأساليب خاصة.

ولكن لا ريب أيضاً أن فهم الحريات الاجتماعية يتخذ في فرنسا ألواناً من التطرف قد لا يسيغها كثير من المجتمعات الأوربية، كما يتخذ التساهل في فهم معيار الحياء ألواناً تستهجنها المجتمعات الأخرى.

مثال ذلك منائر العري التي حدثناك عنها في مقال سابق؛ ففي باريس تنتشر مسارح العرى؛ وتعرض المناظر والرقصات العارية في أفخم مسارح باريس مثل الفولي برجير والكازينو دي باري، ويعلن عنها في أكبر الصحف مثل الطان والفيجارو والجورنال والماتان وغيرها، وتعرض أسراب الراقصات العاريات بلا حرج، ويعتقد القضاء أن هذا الضرب من التمثيل العاري عمل فني لا اعتراض عليه، ويتحدث النقدة الفنيون في الصحف المحترمة عن نجاح مس جوان وارنر (ملكة العراء المطلق) وعن رقصاتها العارية.

وفي باريس تصدر مجلات جنسية كثيرة، ويكتب بعضها بأساليب مثيرة، وينشر صوراً عارية، وإعلانات غرامية هي اتجار مكشوف بالحب، ولنمثل لذلك بمجلة (فروفرو) التي

ربما كانت أكثر تحفظاً من غيرها، كذلك تعرض الكتب الجنسية بكثرة في المكاتب ومع الباعة وتلقى رواجاً مدهشاً.

وفي باريس ترى مناظر الحب في النهار وفي الليل، في الشارع وفي الحديقة، وفي المقهى، وفي المترو؛ ومن المناظر العادية أن ترى فتى وفتاة يتبادلان القبلات الحارة وقد أمسك الفتى بخصر الفتاة، أو يتبادلان العناق المضطرم؛ ترى ذلك في أي وقت وأي مكان، وتراه بنوع خاص في أقبية المترو، وفي المترو ذاته، ولا يمنع ذلك أن يكون وسط

الجمهور الحاشد، والأعين ترمقهما من كل صوب؛ بل ترى في أقبية المترو، في المنعطفات المستترة أو حين ينسدل الظلام كثيراً من المناظر الغرامية المريبة.

وتكثر مثل هذه المناظر المثيرة أو المريبة مساء في منعطفات مونمارتر وبيجال وكليشي وفي المراقص والحانات الليلية.

ولا تختص باريس وحدها بهذه المناظر الإباحية، فقد رأيت في الجنوب أثناء انتظاري بمحطة ناربون جماعة رياضية من طلبة الجامعات شباناً وفتيات وقد ارتدى الجميع الثياب الرياضية واشترك الفتيات في ارتداء السراويل القصيرة التي تترك الساقين عاريين؛ وفي أثناء انتظار القطار جاءت الفتيات فجلست كل واحدة منهن في حجر فتى، وساقاها العاريتان على ساقيه العاريتين وأخذ الجميع ينشدون النشيد الجمهوري، وقد طوق كل فتى فتاته بلا حرج.

ولكن من الإنصاف أن نقول إن الطبقات الدنيا هي التي تذهب في فهم الحب والحريات الاجتماعية إلى هذا الابتذال المثير.

على أننا نعرف كما يعرف الذين زاروا العواصم الأوربية الأخرى أن رقص العراء المطلق لا يسمح به إلا في باريس، وأنه يندر أن ترى في غيرها من العواصم مثل هذا الابتذال العلني في مناظر الحب والغرام، أو مثل هذه المجلات والكتب الجنسية التي تغمر باريس.

وإذا كانت الحريات الاجتماعية في برلين وفينا مثلاً لا تقل إطلاقاً وتسامحاً عنها في باريس، فإن معيار الحياء يرتفع فيهما كثيراً عنه في باريس؛ ومن النادر أن ترى في الشارع أو الحديقة أو الترام أمثال هذه المناظر الغرامية المكشوفة التي تراها في باريس.

وإذا كانت باريس قد اشتهرت دائماً باللهو الخليع، فتلك شهرة في محلها، وباريس تموج بالملاهي الخليعة من كل ضرب، وتغمرها بالليل ريح شاملة من المرح الخليع، ومن الغريب أن هذه الملاهي يعلن عنها بمنتهى البراعة، وتصور في إعلاناتها وبرامجها كأنها أروع ما انتهى إليه الفن؛ فإذا ازدلفت إليها منيت بخيبة الأمل، ورأيت الابتذال بعينه، وأدركت ما في هذه الدعاية الخلابة من ختل وتضليل.

ولقد تحدثوا كثيراً عن سحر الباريزية وأناقتها ورشاقتها؛ ونحن نستميح عشاق العاصمة الفرنسية عذراً، إذا قلنا إننا لم نستطع أن نكتشف في الباريزية كثيراً من هذا السحر وهاته الأناقة؛ فالمرأة الباريزية تعتمد في جمالها وسحرها على المظاهر والصناعة أكثر مما تعتمد على الحقيقة؛ وهي تكثر من صباغة الشعر والأظافر وتفرط في استعمال المساحيق؛ والشقرة هي لون الشعر المحبوب في باريس، ولكنها شقرة صناعية في الغالب؛ والواقع أن الباريزية لا تتمتع بذلك اللون الوردي الباهر الذي تتمتع به الإنكليزية أو النمسوية مثلاً، بل يغلب عليها اللون الثلجي أو اللون الباهت، فتعمد في تجميله إلى الصناعة؛ ويبدو عناء التجمل وفي وجهها دائماً؛ وأما عن الأناقة فإن الباريزية لا تتمتع منها بقسط كبير، فهي تميل إلى الأزياء المعقدة أو الغريبة، وتكثر من الألوان بلا تناسق؛ والخلاصة أن الباريزية تعشق المظاهر، وتفرط في التجمل، وتعتمد على الصناعة؛ بيد أنها تتمتع مع ذلك بخفة روح لا شك فيها.

وإن أولئك الذين عرفوا فينا وباريس معاً، يعرفون كم تحوي فينا من الجمال النسوي الرائع، وأي صباحة ورشاقة وأناقة طبيعية تتمتع بها الفتاة النمسوية، وأي فرق شاسع بين هذا السحر الطبيعي وبين ذلك السحر الصناعي الذي تلجأ إليه الباريزية في تكلف وعناء.

ويصح أن نشير هنا إلى مسألة الصحة العامة والنظافة الشعبية، فقد لاحظنا أن الصحة العامة ليست في أوجها، وأن الشباب لا يتمتع بكثير من النضرة ومظاهر القوة

والفتوة؛ وتبدو مظاهر السقم والعناء على وجوه الطبقات العاملة من رجال ونساء؛ وقد لاحظنا فوق ذلك أن هذه الطبقات وربما بعض الطبقات الوسطى أيضاً لا تعنى كثيراً بمسألة النظافة؛ وإنه ليكفي أن تركب المترو ظهراً أو مساء حين يكتظ بالعمال والمستخدمين لتدرك هذه الحقيقة، ولا تشذ عن ذلك أسراب الفتيات الحسان؛ وربما كان في ظروف حياة هذه الطبقات ما يفسر هذه الظاهرة، فالنظافة تحتاج إلى كثير من النفقة، والاستحمام في باريس ترف يصعب على الفقراء الإكثار منه؛ وفي الفنادق المتوسطة قد يكتفي بغرفة حمام واحدة في طبقات الفندق كلها؛ والغرفة ذات الحمام الخاص ترف رفيع لا يسمع به إلا في الفنادق الأرستقراطية؛ وهذه حقائق لا يصعب على السائح اكتشافها.

والى هنا نقف في حديثنا عن باريس وعن الحياة الباريزية والمجتمع الباريزي؛ ولقد قلنا في بدء هذه الفصول إننا لا ندعي الوصول إلى أعماق المسائل والشؤون، وإننا إنما ندون

حقائق وملاحظات انتهينا إليها بالتجوال والمشاهدة، وأحياناً بالتجارب والدرس؛ وقد حفزنا إلى كتابة هذه الفصول ما سبق أن نوهنا به في البداية وهو أننا مازلنا نقرأ بالعربية عن فرنسا وعن باريس كتباً وفصولاً يطبعها الإغراق والمبالغة في التغني بمحاسن العاصمة الفرنسية وكل ما في الحياة الفرنسية؛ وهانحن أولاء قد حاولنا بهذه الفصول المتواضعة أن نقدم بعض الحقائق والصور حسبما رأينا وشعرنا بعيداً عن كل إغراق ومبالغة؛ وربما كانت باريس بالأمس أعظم فتنة وأشد سحراً منها اليوم، وربما فقدت العاصمة الفرنسية كثيراً من هذا السحر بفعل الظروف والتقلبات الاقتصادية والاجتماعية، ولكنا نصرح مخلصين أننا لم نشعر أن لباريس هذا السحر الفياض الذي ينسب لها، أو أن لها تلك الفتنة التي أملت على كثير من كتابنا تلك الفصول الوردية الرنانة. هذا ومما يبعث إلى الغبطة أن كثيراً من الأصدقاء البارزين الذين عرفوا باريس وعرفوا حياتها ومجتمعاتها أكثر مما عرفنا، يقرون كثيراً من هذه الصور التي قدمناها والملاحظات التي أبديناها.

(يتلى)

(* * *)

في الأدب المقارن

الخرافة في الأدبين العربي والإنجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

تفشو الخرافة - وهي الاعتقاد بالمستحيل عقلاً - بين الجماعات الأولية، حتى تشمل ديانتهم وعلومهم وفنونهم القليلة، وعرفهم وتقاليدهم، لأن تلك الجماعات في نشأتها كالطفل في صغره، قليلة الإدراك للأسباب والمسببات، سريعة الانقياد للعواطف والأوهام والمخاوف، فلا تلبث أن تنمو بينها شتى الأساطير، تفسر بها قوى الطبيعة ومظاهرها، وتمجد بها أسلافها، وتدعم كيان مجتمعها. هكذا كان لقدماء المصريين خرافاتهم المتعلقة بواديهم ونهرهم، وآلهتهم وفراعنتهم؛ وكانت لليونان والرومان أساطيرهم التي تدور حول أعمال آلهتهم وحروبها، وحبها وغضبها.

وكانت للعرب خرافات شتى، انتزعت من حياتهم البادية، وما توحي إلى النفس من رهبة وبأس، بفلواتها وحزونها، وسباعها وأنوائها، وحيكت حول الآلهة والجن والغيلان، وحول أبطالهم وملوكهم وغابر دولهم، وتناولتها الأجيال المتعاقبة بالزيادة والتهويل، والتغيير والتبديل، في حوادثها ومشاهدها.

وكانت للإنجليز في عهود همجيتهم أساطير متشعبة، مشتقة من حياة أهل الشمال، المضطربة بين ظلمات الأحراج ومتون البحار، حافلة بأخبار هجراتهم وغزواتهم، ممتلئة بأوصاف شياطين البر والبحر، ممجدة لبلاء ملوكهم أمثال الملك آرثر، والفرد الأكبر، في دفع هجمات المغيرين الذين تعاوروا الجزيرة على كر العصور، من رومان وسكسون ونرمانديين؛ وتمازجت أساطير كل هؤلاء، واختلط مسيحيها بوثنيها، وجنوبيها بشماليها.

والخرافة على ما بها من مجاوزة للمنطق وتهويل وتحريف واستحالة - لا تقل عن حوادث التاريخ صدقاً في وصف أحوال المجتمع الذي هي وليدته، والبيئة التي هي نتاجها؛ فالخرافة العربية التي نمت في البادية، مثلاً، ملأى بذكر الغيلان والسعالي

والعنقاء، وبأسماء العدائين الذين يسبقون الظباء، والحديدي النظر الذين يرون القادم والمغير من رأس أميال، كزرقاء اليمامة. والخرافة الإنجليزية التي ترعرعت في الغابة ودرجت على أثباج اليم حافلة بحكايات عرائس الغاب وآلهة البحار، ومناظر الغسق والضباب.

على أن الخرافتين تلتقيان، والمخيلتين تتقابلان في نواح، حتى لتخال إحداهما صدى للأخرى أو محاكاة له، لولا بعد الأمتين في تاريخيهما بعداً يحول دون كل محاكاة أو اقتباس؛ فأخبار تأبط شراً، وسليك بن السلكة وأشباههما من شذاذ العرب وطريدي العرف والمجتمع، مماثلة لحكايات روبن هود وأصحابه الذين كانوا يعيشون على اقتناص الظباء في غابات ملك إنجلترا؛ وقصة مقتل أحد أقيال اليمن على يد أخيه الطامع في عرشه، التي وردت في كتب الأدب العربي وروى فيها شعر لشاعر يدعى ذا رُعَين، منه قوله:

فأما حِمْيَرٌ غدرت وخانت ... فمعذرة الإله لذي رعين

واستشارة الخائن للعرّافين قبل اقتراف جريمته، والخدعة الحربية التي لجأ إليها جيش ابن الملك القتيل من استتار كل مقاتل بشجرة اقتلعها في طريقه وحملها أمامه، حتى بدا الجيش كأنه غابة تسير؛ كل ذلك مشابه للحوادث التي اتخذها شكسبير موضوعاً لروايته ماكبث، والتي تدور حول مصرع بعض ملوك اسكتلندا، وهي بلاد تشبه بوعورتها واستقلالها وبأسها وتأثيرها في عقول أهل إنجلترا، حالة اليمن في جزيرة العرب؛ وقد عبثت الخرافة بكلتا القصتين ونمقتهما بمظاهر السحر والتنبؤ بالغيب.

حتى إذا ما ارتقت الجماعة البشرية، وأخذت بأسباب العلم الصحيح، وعرفت الفلسفة المنطقي، واعتنقت ديناً راقياً، فترت حماستها لخرافاتها القديمة، وقل تصديقها لها، وسخر منها العلماء والفلاسفة الأتقياء، وهبطت إلى طبقة العامة، فوجدت فيهم وحدهم أمناءها الأوفياء، يتوارثونها كما توارثها آباؤهم من قبل، وتروي من نفوسهم ما لا تروي العلوم الجافة، فهم يؤثرونها على تلك العلوم، ويمزجون رواياتها بحقائق العلم تارة، ويخلطون عقائدها بعقائد دينهم الجديد الراقي تارة أخرى.

على أن أكثر الأمم، كاليونان والرومان وأمم أوربا الحديثة، حين بلغت طور نضجها العلمي والديني، لم تنبذ خرافات طفولتها ظهرياً، وإن بطل تصديقها برواياتها، وذهب إيمانها بخوارقها ومعجزاتها، ولكنها اتخذتها غذاء دسماً للعلم والفن؛ فجعلها العلم موضع فحصه وبحثه وتنقيبه، وأقامها مقام الشك حتى تثبت البينة على ما فيها من بذور الصدق؛ واستمد منها النحت والتصوير والشعر والنثر مادة لا تفنى للتفنن في الوصف والتأمل والتجوال في مشاهد الحياة ومرامي التاريخ ومنازع النفس الإنسانية.

ذاك أن أكثر تلك الخرافات - على ما بها من وهم ومغالات - تحوي ما لا يحصر من صفات الجمال ومظاهر الروعة، ودلائل العظمة، وأحاديث البطولة والمخاطرة التي يغرم بها الطبع الإنساني، وصور الفضائل والرذائل، التي يرتاح الإنسان إلى رؤيتها مصورة معروضة، كما أن تلك الخرافات، بما تقص من وقائع بعيدة العهد وتعرض من مشاهد نازحة المزار، تروي في النفس حب البعيد والشغف بالماضي القديم والولوع بالمثل الأعلى، وهي النزعة التي تعرف في الإنجليزية بالرومانس؛ زد على ذلك أن استعارة مشاهد تلك الخرافات ووقائعها وأسماءها في الوصف، يكسب التشبيه قوة ووضوحاً. فما أجود قول امرئ القيس، وليت الشعراء أكثروا الضرب على وتيرته:

أيقتلني والمشرفيُّ مضاجعي ... ومسنونة زرق كأنياب أغوال؟

لذلك حفل الأدب الإنجليزي بالخرافات الإنجليزية، وما تحني من جسائم الأعمال وبدائع الصور، كحروب الملك أرثر ومغامرات فرسان المائدة المستديرة، تلك التي كانت وحياً لسبنسر وتنيسون في أجود قصيدهما. ولم يكتف الأدباء بخرافاتهم الوطنية، فاصطنعوا خرافات اليونان والرومان، وتحدثوا طويلاً عن آلهتهم واقتبسوا كثيراً من الإلياذة والأوديسة؛ وزاد غيرهم فاستعاروا خرافات كل من عرفوا أو سمعوا عنهم من أمم الغرب والشرق: فاتخذ ملتون لقصيدته الكبيرة سمسون الجبار موضوعاً عبرانياً، وتحدث تنيسون عن هارون الرشيد، وطار كولردج على جناح الخيال إلى قصر قبلاي خان عاهل الصين. أما شكسبير فاستعار مواضيع رواياته من كل ما أصاب من تراث الأمم لا فرق بين تاريخيّها وخرافيّها، ورصعها بما كان لا يزال يساور أهل جيله من اعتقاد في عجائب السحر والمعجزات.

ومن الأدباء من لم يكفه كل هذا المدد الزاخر من غرائب الأساطير وأفانين خيال الأقدمين، فأطلق لخياله هو نفسه العنان، وابتكر مواضيع لقصائده من صنعة الوهم، وحلاها بروائع الصور وممتع الخطرات، كما فعل كولردج في خريدته الملاح القديم، وبروننج في فريدته تشايلد رولاند، وتوماس هود في أنشودته أينس الحسناء، وكما صنع سويفت في كتابه العالمي الصيت (رحلات جليفر).

ألفى أدباء الإنجليزية في أرجاء تلك الخرافات، مجالاً رحباً لفنهم وخيالاً، وتحريراً لأفكارهم من عقال الحقائق المتحجرة، وغذاء لقولهم الجوالة في مظاهر الكون وشؤون الخلق، المستطلعة إلى المجهول، ووسيلة لتصوير المناظر الطبيعية، بين جبال ووهاد، وغياض ومياه، ورصعوا أشعارهم في كل ذلك وكتاباتهم بأشتات الآراء في المسائل التي كانت تشغل أذهان معاصريهم، ولونوا خرافات الأجيال المتقادمة بألوان أجيالهم ومجتمعهم الذي عاشوا في مضطربه.

أما موقف العرب من خرافات أسلافهم - حين اعتنقوا دينهم الحنيف وتحضروا وتثقفوا - فكان غير هذا: فقد أعرضوا عنها ترفعاً وازدراء، ولم يحفظوا منها إلا ما كان شبه بالصدق، وما دار حول يوم عظيم من أيامهم، أو شاد بمجد بعض قبائلهم. وفي تلك الحال كانت الروايات تختلق اختلاقاً، ويبذل الجهد لوسمها بميسم الصدق. ولما اطلع العرب على ثقافات الأمم الأخرى من يونان وفرس وهند، لم يهتموا إلا بما صدقوه من تواريخهم، وما استملحوه من حكمهم وأمثالهم، ولم يعنَّ لأحد من الأدباء أن يستخدم الخرافة مادة لفنه، أو يستعير ما فيها من جمال وروعة ليفيد بهما أدبه.

وغاية ما يذكر في هذا الباب، أن بعض الأدباء - كابن دريد أطلق لخياله شيئاً قليلاً من الحرية، ومضى يخترع الروايات والنوادر، يفسر بها بعض الأمثال السائرة المنحدرة من عهود الجاهلية، كقولهم (عند جهينة الخبر اليقين)، و (الصيف ضيعت اللبن)، و (جزاء سنمار)؛ وقد أخرج من صنعوا ذلك أحاديثهم مخرج الحق، وأسندوا بعضها، كي يضمنوا لها الرواج بين المتأدبين، كما أن أصحاب المقامات الذين أسلسوا لخيالهم العنان قليلاً حرصوا على ألا يبعدوا كثيراً عن حيز الإمكان، لئلا يعرض عنهم أولو الألباب.

ذلك بأن العرب كانوا شديدي الحرص على العلم الصحيح حيث ثقفوه، موكلين بالصدق التاريخي، زاهدين جداً في الأساطير وجمحات الخيال، وهو خلق أورثهم إياه دينهم منذ اعتنقوه، فإنه وإن أثبت وجود الجان وائتمارهم بأمر سليمان، واستماع نفر منهم إلى القران، قد أوسع أساطير الأولين سخراً واستخفافاً؛ وكثيراً ما جمع بينها وبين الشرك، وهو قد جب ما قبله مما هو شبيه بالكفر والزيغ، ودعا المؤمنين إلى التفكير في خلق السموات والأرض، وطلب العلم الصحيح، فلا غرو أن زهد المسلمون في تخريف الجاهليين وأوهامهم؛ وقد زادهم نفرة من الأساطير ومختلق الأقاصيص ما تنبهوا إليه من جرأة بعض الدخلاء والمغرضين على الأحاديث النبوية، يخترعونها ويفسرونها بما تمليه أهواؤهم.

زد على ذلك أن الإسلام قد حرم الخمر، وهو تحريم راعته أغلبية الأمة، وإن تجوزه بعض الشعراء، بل الخلفاء والكبراء. وهذا الإمساك عن المسكر قد كسب الأمة عامة صفات التؤدة والصحو والتوقر والإحجام عن مجاراة الخيال، والتحليق في فضاء الأوهام؛ وطبيعة بلادهم ذاتها تبث هذا الصحو في طبائعهم، فإنها في الغالب مصحية سريعة التحول من وضح النهار إلى حلك الظلام، لا تطول بها كما تطول في البلاد الشمالية فترات ذلك التحول، من غلس وغسق، ولا يكثر بها انتشار الضباب الذي يحجب الأشياء إلا أشباحها ويوقع في النفس التوجس والوهم، والخرافة الإنجليزية حافلة بتلك المشاهد بين غلس وغسق وضباب.

كل ذلك جعل مثقفي المسلمين سريعين إلى إنكار الخوارق ونبذ الأغراب والسخرية من المغربين، فدعبل الخزاعي مثلاً يهزأ ملياً بنفر من قبيلته ذاتها زعموا أن أحد أجدادهم حادث ذئباً، فهو يقول:

تِهتُم علينا بأن الذئب كلمكم ... فقد لعمري أبوكم كلم الذيبا

فكيف لو كلم الليث الهصور؟ إذن ... أفنيتم الناس مأكولاً ومشروباً

ومن جهة أخرى لم يحس أدباء العربية كبير حاجة إلى ذلك الضرب من الأدب، تحفزهم إلى التأول في الدين وتمييز ما نهى عنه مما لم ينه، فهم لم يكونوا شديدي الولع بتقصي مناظر الطبيعة وتصويرها، فيتوسلوا للتفنن في ذلك بالطيران على أجنحة

الخيال إلى شتى المنائر والأودية والشطآن؛ ولا كانوا شديدي التوفر على نقد أحوال عصورهم السياسية والاجتماعية، فينتزعوا لذلك الصور من خرافات الأقدمين مماثلة لصور مجتمعهم؛ أضف إلى ذلك ما لازم الأدب العربي دائماً من نزعة محافظة وولع بمحاكاة بدائع المتقدمين، ولعاً لا طموح معه إلى تجديد شديد المباينة لمناهجهم في الأدب.

تلك هي العوامل التي صرفت أدباء العربية عن الاحتفال بالأساطير، وجعلتهم جميعاً يسلكون الطريق (المباشر) للإفصاح عن خواطرهم، طريقة القصائد المتوسطة الطول، والأبيات المحكمة الموجزة، ورائدهم قول قائلهم:

وإنَّ أشعر بيت أنت قائله ... بيت يقال إذا أنشدته: صدقا

وقد رُوي أن سهل بن أبي غالب صنف كتاباً في سير الجن وأحوالهم ورفعه إلى الرشيد، فقال له الخليفة: إن كنت رأيت ما ذكرت فقد رأيت عجباً، وإن كنت اخترعت ما رأيته فقد وضعت أدباً. ولكن أحداً من معاصري ذلك المؤلف أو من جاءوا بعده لم يحفل بهذا الضرب من الأدب، وأهمل الكتاب حتى ضاع.

أقصيت الخرافة عن حظيرة الأدب العربي، وتركت للعامة يخففون بالاستماع إليها أعباء عيشهم، ويُسرُّون بالإنصات إلى مغامراتها ومصاولاتها هموم حياتهم المتشابهة الرتيبة، ويلونها لهم القُصاص بألوان الدول المتعاقبة والأحوال المتوالية، وتنفث فيها السياسة أحياناً أغراضها، حتى أتيح لها مَن دونها فكان منها أقاصيص ألف ليلة وليلة، وعنترة ومهلهل، وسيف بن ذي يزن، وقد اطلع عليها بعض أدباء العربية في العصر الذي دونت فيه فاستخفوا بها ونبذوها.

بيد أن تلك الأقاصيص على عاميتها وركاكة أسلوبها، وفحش بعض مواقفها، تحوي من روائع الوقائع، وجميل المناظر، وآثار الخيال، ما يعوز الأدب العربي كله؛ وبفضل ما فيها من روعة وجمال وخيال قد نالت الخلود وحظيت بالشهرة والترجمة إلى شتى اللغات، وأعجب بها من الغربيين من لم يسمعوا بحِكَمِ المتنبي، وأمثال الطائي، وبديع ابن المعتز.

فخري أبو السعود

الدكتور ألفرد بتلر

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

نعت لنا الأخبار منذ قليل المغفور له الدكتور ألفرد بتلر المؤرخ الإنجليزي الكبير والعالم بالآثار المصرية.

وقد كان ذل الرجل العظيم إنجليزي الجنس واللغة، ولكنه كان مصري العقلية عربي الثقافة؛ قضى الشطر الأكبر من حياته منصرفاً إلى دراسة الحياة في وادي النيل وتاريخ حضاراتها الغابرة، حتى لقد قيل إن عاطفته كانت في قرارتها مصرية، فكانت آخر أنفاسه متجهة إلى النيل، وآخر أمنياته منصرفة إلى التملي به وتنسم نسماته.

وقد كان ارتباطه الروحي والعقلي بمصر وواديها داعياً إلى أن تكون كل آثاره العلمية مرتبطة بها، فليس له مؤلف لا يتصل بمصر وتاريخها وآثارها، وكان همه الأكبر منصرفاً إلى تلك الفترة التي تتعسر دراستها على الأكثرين، وهي فترة الحكم الروماني الأخير وأول العصر الإسلامي، فألف كتاباً في الأديرة والكنائس المصرية، وكتاباً آخر في تاريخ الفتح العربي لمصر؛ ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن تاريخ مصر في هذه الفترة مدين أكبر الدين لهذا المؤلف الكبير، إذ لولا دراسته العميقة وعقله الكبير وعلمه الواسع لظلت هذه الفترة من أظلم فترات تاريخ هذه البلاد.

لقد فقدت مصر استقلالها على يد الرومان بعد أن استولى عليها قيصر وذهبت دولة البطالسة عنها، ودخلت منذ ذلك العهد في دائرة الدولة الرومانية الكبرى، واختفى تاريخها في غمار تاريخ الدولة المتبوعة، ومازالت بعد ذلك تنحدر على جوانب الحوادث من هوة إلى هوة كما تنحدر البلاد التابعة المغلوبة في كل عصور التاريخ، وغطت على صورتها ركام من آثار المظالم والمهانة والاضطراب.

فإذا كان الدكتور بتلر قد استطاع أن يستخرج صورة مصر في تلك الحقبة من طبقات تلك الركام، فقد أدى أكبر خدمة لأبنائها، فليس من الهين أن يستطيع باحث الوصول إلى مثل هذا الكشف، ولاسيما إن كان يحيط بعلمه الظلام والإبهام وتقادم العصور.

على أن ظلام تلك العصور التي جلاها الدكتور بتلر لم يقتصر أثره على إخفاء معالم

تاريخ البلاد، بل لقد أدى إلى نتيجة أشد ضرراً وأقسى وقعاً؛ وذلك أنه قد نشأت في هذه الأثناء
قصص لا أساس لها وخرافات من خلق الخيال والجهل وجهت الباحثين إلى وجهة مضلة جعلت التاريخ يظلم أهل مصر في تلك العصور، فيصمهم بأقسى الوصمات والتهم، وكان للدكتور بتلر فضل إظهار الحق وإعادة الكرامة المصرية إلى ذكرى أهلها.
ولما فتح العرب مصر كانوا لا يعبأون بغير الفتح في أول فورة التوسع والنضال، وما كانوا يخرجون من حرب إلا ليدخلوا في غمار حرب جديدة، ولم يكن لهم سجلات عند ذلك يقيد بها تسلسل الحوادث ولا يثبت فيها وصفها، فلم يكن بد من أن يلجأ المؤرخون في القرون التالية إلى روايات المحدثين وقصاص الأخبار؛ وكان المؤرخون يبذلون في التحري عن أخبارهم جهد المستطاع، ولكنهم مع ذلك كانوا لا يجدون مناصاً من تلقفها من أصحابها وإسنادها إلى أصحابها تخلصاً من عبء الأمانة، ولهذا صار تاريخ الفتوح العربية خليطاً من الأخبار والقصص والروايات؛ فإذا أراد باحث أن يتتبع سلسلة من الحوادث وجد نفسه حيال إبهام شديد وغموض يسد عليه السبل؛ ثم تتابعت العصور على هذه الأخبار فتناولها الباحثون وتصرفوا فيها واستخدموها في تأليفهم بالزيادة والنقص والتصرف، حتى صارت الأخبار الصحيحة مختفية تحت طبقات أخرى من الركام المتخلفة من العصور المتعاقبة.
فإذا نظرنا إلى عمل الدكتور بتلر نظرة عادلة عرفنا مقدار خدمته لتاريخ مصر، إذ استطاع أن يستخرج تاريخ العصر الروماني في مصر أولاً، وأن يصفي أخبار العصر العربي الأول مما شابه من القذى والصدأ. ولقد كان عمله عظيماً في نواح متعددة لا نستطيع هنا حصرها. على أننا نضرب مثلاً أو مثلين منها:
نشأت خرافة سخيفة في العصور المتأخرة من التاريخ الإسلامي وهي خرافة إحراق العرب لمكتبة الإسكندرية عندما تم لهم فتحها، ولسنا ندري على سبيل التحقيق ما هي الخطوات الأولى التي أدت إلى خلق تلك الخرافة، ولكن أحد المؤرخين أوردها في بعض مؤلفاته فرددها من جاء بعده، ومازال صداها يتردد بعد ذلك حتى صار الناس يتلقونها بغير تمحيص ويوردونها موارد الحقائق الثابتة التي لا يرون ضرورة لمناقشتها؛ واتخذ أهل الأغراض تلك الخرافة وسيلة يتوصلون بها إلى الحط من شان المدنية العربية والغض من الذكاء العربي. وأي وسيلة أنجع في الدعاية على العرب والإسلام من أن يذكر اسم مكتبة
الإسكندرية العظمى ويقال إن العرب قد أحرقوا تلك الثروة الفكرية النادرة وأبادوا بذلك ما خلفته أذهان النوابغ في كل العصور القديمة؟
ولقد كان للدكتور بتلر الفضل الأكبر في أنه تتبع أثر تلك المكتبة كما يتبع الرائد آثار الأقدام وهو هادئ النفس مطمئن العين حتى أظهر لأهل القرن العشرين تقلب القرون الماضية على تلك المكتبة وبين لهم ما آل إليه أمرها على يد قيصر ثم على يد أحزاب المسيحية الأولى المتحمسة التي دفعتها حماسة الدين أو سورة العصبية إلى القضاء على ذلك الأثر العلمي النفيس.
ولقد حمد المنصفون للدكتور بتلر ذلك المجهود العظيم في إظهار الحق والإبانة في نصرته، وكان من بين هؤلاء المنصفين اللورد كرومر إذ كتب إلى ذلك المؤلف خطاباً خاصاً جاء فيه: (لقد قضيت القضاء الأخير على تلك الخرافة السخيفة، خرافة إحراق العرب لكتبة الإسكندرية).
ولعل الدكتور بتلر أول من حاول محاولة منتجة أن يكشف القناع عن شخصية لم تزل منذ بدء الإسلام مثار التساؤل والإبهام ألا وهي شخصية (المقوقس) فإنه استطاع بعد جهد عظيم وبحث علمي يكاد يكون معجزاً أن يبين للناس من هو ذلك الرجل أو من هم هؤلاء الذين أطلق عليهم ذلك الاسم. ولم يكن في بحثه يدع ثغرة للإبهام ولا للشك، بل كان ينخل الحقائق ويصفيها حتى لا يتسرب إليها في أثناء البحث ما يشوبها.
ولقد كان من أكبر آماله أن يرى كتابه منقولاً إلى لغة العرب، ولكن ذلك الأمل قد طال العهد به حتى بلغ نيفاً وعشرين عاماً، ثم توقفت لجنة التأليف والترجمة والنشر إلى ترجمته، فلما بلغه نبأ ذلك الحدث كان اغتباطه أشد اغتباط حتى أنه لم يتمالك أن لام المصريين في خطاب بعث به إلى بعض أصدقائه على أنهم لم يعنوا بنقل ذلك الكتاب من قبل مع أنه كتاب يخدم تاريخهم ويسد فيه فراغاً عظيماً.

وكان الدكتور بتلر فوق خدمته لتاريخ مصر كثير العناية بما يهمها. ولقد أرسل إليه صديق كتاباً مرة يشير فيه إلى ما جاء في كتابه (فتح العرب لمصر) من أن قبر سيدنا عمرو بن العاص غير معروف، وأن ذلك الصديق ذكر له أن ذكر قبر ذلك الرجل العظيم وارد في بعض المؤلفات العربية وأنه بجوار مدفن سيدنا عقبة بن عامر بالقرافة الصغرى.

فأثار ذلك النبأ حماسة الشيخ الإنجليزي فأرسل إلى صديقه يقول: (لئن صح أنك استطعت معرفة مكان قبر عمرو بن العاص واستطعت التثبت من ذلك بالوسائل العلمية التي لا تدع مجالاً للشك، فما أحراك أن تثير في الناس دعوة لإقامة أثر عظيم على ذلك القبر جدير بعظمة فاتح مصر الكبير).

ولا أجد لهذه الكلمة خاتمة خيراً من أن أقتطف قطعة من الخطاب الذي أرسله إلى صديقه يذكر له فيه ثناء اللورد كرومر عليه، وقد جاءت في تلك الكلمة حكمة بالغة أحب أن أسوقها لأهل البحث والعلم. قال: (ولكن أهل البحث الذي يجيدون في أعمالهم قلما ينتظرون ثواباً على عملهم، اللهم إلا ما يجدون فيه من لذة البحث ونشوة الكشف عن الحقائق).

وهذه صورة تلك القطعة من خطابه بخطه أقدمها لقراء الرسالة أثراً من ذلك الصديق الكبير عليه رحمة الله.

محمد فريد أبو حديد

الخطابة مَلَكَةٌ وفن

للأستاذ عبد المجيد نافع

يولد الإنسان خطيباً كما يولد شاعراً أو فناناً، أو عسكرياً أو سياسياً؛ وتلك الملكة، وهي وليدة الفطرة، لا تنمو وتؤتي ثمارها إلا بالمران والصقل؛ فالخطابة إذن موهبة وفن معاً، فلا يسيغ العقل أن يكون المرء عاطلاً من الموهبة الخطابية ثم يصبح بين عشية وضحاها من الخطباء الخالدين في التاريخ، كما لا يهضم الفكر أن يكون الإنسان خطيباً موهوباً ثم يصبح بين بياض يوم وسواد ليلة من الخطباء المعدودين دون درس وتحصيل ومران. ولقد يحلو لبعض المؤرخين أن يرسم صورة لخطيب مفوه كان في حداثته خلواً من ملكة الخطابة، بل يصورونه في طفولته مثال الفهاهة والعي، ثم يصيرونه في رجولته الخطيب المصقع، والمفوه المنطيق! فقد زعموا أن (ديموستين) خطيب اليونان العظيم كان في حداثته به عي وفهاهة، فطمح إلى الخطابة وصحت عزيمته على مغالبة ذلك النقص والتغلب عليه، فكان في كل يوم يذهب إلى البحر فيملأ فمه بالحصى، ثم يقف أمام الموج المضطرب المصطخب، فيصيح الصيحات العالة، وما لبث أن تغلب على الفهاهة والعي وبات في طليعة الخطباء القادرين! تلك صورة أدنى إلى خيال الشعراء منها إلى تحقيق الثقات من المؤرخين، بل لعلها أسطورة من الأساطير التي تحيط بحياة عظماء الرجال عادة، أو التاج الذي يضعونه على رأس البطل، أو إكليل الغار الذي يضعونه على هامته، أو هالة المجد التي يحيطون بها تاريخه. فقد يكون صحيحاً أن الخطيب اليوناني كان يقف حيال الموج المصطخب فيرسل الصيحة عالية؛ على أن العقل لا يسلم بأنه كان عييّاً، وكل ما يستطاع التسليم به أنه يروض نفسه على الكلام بنجوة من الناس.

وقد تبقى ملكة الخطابة دفينة إذا لم تتح الظروف لبعثها؛ وقد يظل الخطيب الموهوب خاملاً مغموراً إذا لم يوجد أمامه الميدان الذي تتجلى فيه مواهبه، ولولا الثورة الفرنسية ورغبة الفرنسيين في ثل عرش الاستعباد، وكسر قيود الاستبداد، وتقويض دعائم الماضي وتشييد صروح المستقبل وهدم النظم العتيقة البالية، وبناء النظم الدستورية الحديثة، وغرس مبادئ الحرية والمساواة والإخاء - لولا ذلك الغليان الفكري لما ارتفع (ميرابو) من غمرة الخمول إلى ذروة الشهرة والمجد. وما كان الزعيم الشاب مصطفى كامل لتتجلى مواهبه الخطابية،

فيلقي بالإسكندرية في عام 1907 خطابه الذي يعد برنامجاً وطنياً، لولا رغبة المصريين في الجلاء وتشييد صروح الاستقلال؛ بل لولا فورة عام 1919 ورغبة الشعب المصري في تقرير مصيره بنفسه، ما بات سعد زغلول الخطيب الخالد في التاريخ.

ولا مندوحة لمن ينشد الكلام أن يدرع بالعلم، فالخطيب ينبغي له أن يعلم ما يقول، وأن يعلم جمهور سامعيه منه جديداً، وإلا عد من تجار الكلام لا من الخطباء، وكان قوله

ثرثرة لا طائل تحتها ولا غناء فيها، لا خطابة تحق حقد وتبطل باطلاً، وتنصر دعوة وتخذل أخرى، وتبث مبدأ قويماً وتكافح غيره فاسداً.

إن الخطيب الذي يقرأ شعر الشعراء ونثر الناثرين وخطب الخطباء، ويكون على اتصال روحي بالحركة العلمية والأدبية، لهو الخطيب الذي يعرف كيف يضفي على فكرته الثوب الذي يلائمها ويأتي بالصور الأخاذة والعبارات الخلابة والآراء الناضجة ويملك شعور سامعيه.

والخطيب الذي لا يعني دائماً بتجديد ثروته العلمية واللفظية خليق ألا يسمع الناس منه إلا الرأي المبتذل، والفكرة الغثة التافهة، والعبارات الممجوجة المملولة.

على أن الإسراف في المطالعة يوشك أن يصيب المرء بنوع من الشلل العقلي، وإن شئت فإنه يصيب الذهنية الخصبة بضرب من الأجداب والأمحال، فمن يفكر برأس غيره دائماً، وينظر بغير عينه، ينتهي أن تشل حركة تفكيره فلا يفكر ولا يرى. ومن ير العالم من ثنايا الكتب يمش رجلاً خيالياً لا يدرك من شؤون العالم شيئاً. ومن لا يقتصد في المطالعة خليق أن يداخله اليأس فيهتف: ليس في الإمكان أبدع مما كان! وينادي: لا جديد تحت الشمس، ويصيح صيحة اليأس: ما ترك الأوائل للأواخر شيئاً!

والحق أن الأوائل خاضوا في كل شيء، على أنهم تركوا للأواخر كثيراً، ومن يذهب غير هذا المذهب فإنما ينكر حركة التطور العقلي والفكري في العالم.

ومن الناس من يلتهم الكتب التهاماً دون تفهمها والتغلغل في روحها، وخير من هذا للخطيب الطامح أن يطيل النظر في خطب الخطباء فيتذوق الأثواب التي يسبغونها على آرائهم، بغير أن يتعسف في محاكاة طرائقهم فلكل خطيب شخصيته وأسلوبه في عرض أفكاره.

ويجمل بمن يأنس في نفسه الاستعداد الخطابي أن يستمع إلى كبار الخطباء ليشهد وسائلهم
في بسط آرائهم وإقناع جمهور السامعين.

ومن نافلة القول أن يلفت الخطيب إلى وجوب تفهم نفسية الجماعة التي يوجه إليها الخطاب ليتولى إقناعها، فالخطب البرلمانية تفترق عن المرافعة في مجلس القضاء، والكلام في اجتماع انتخابي يختلف عن التحدث إلى مجمع علمي، على أن الخطيب الموهوب مطبوع على فهم روح الجماعة التي يخاطبها.

وفي كل حال ينبغي أن يتوفر في كل خطاب عناصر وضوح الفكرة وترتيب المنطق وروعة الأسلوب، ولكن التأنق في العبارة لا ضرورة له على الإطلاق، بل قد يأتي التزويق والتنميق هادماً لدعوى الارتجال الخطابي، والجمهور لا يتعنت فيطالب الخطيب بما يطالب به الكاتب، والأسلوب الذي يخلو من الكلفة والصنعة يكون أفعل في النفوس من الأسلوب الذي تغلب عليه البهرجة والتأنق. والخطيب الذي يتراءى أمام السامعين وقد ضاق صدراً بالعبارة التي يبرز فيها فكرته ثم يرفق إليها يكون شأنه في التأثير شأن من يلقي قنبلة، أو من يشهد بركاناً ينفجر. وإني لأذكر فيما أذكر قول أحد كتاب الفرنسيين إنه يؤثر بربرية (جمبتا) في الخطابة على أناقة (جوريس) فيها؛ فالغابة الطبيعية أحب إلى القلب، وأشهى إلى النفس، وأمتع للنظر من الغابة التي نسقتها يد الإنسان.

ولقد أَلِفَ الكتاب تقسيم الخطباء إلى: قارئ، وحافظ، ومرتجل؛ فأما القارئ فهو الذي يتلو من ورقة يحملها بيده؛ وأما الحافظ فهو الذي يلقي خطابه عن ظهر غيب كما يلقي الطلبة محفوظاتهم في المدارس؛ وأما المرتجل فهو الذي يلقي من وحي الخاطر وحاضر البديهة.

ولقد دلت التجارب على أن السامعين يتبرمون بالخطيب القارئ، ويشيع السأم في نفوسهم، وبخاصة حين يلمحون أكداس الورق أمامه، وإذا لم يُجد الإلقاء جاءت عباراته بمثابة قطع الثلج تتساقط فوق رؤوسهم، وهم يؤثرون أن يتلوها حين يخلون إلى ضمائرهم ليتذوقوا جمال الأسلوب ونضوج الفكرة فيها. والخطب المكتوبة تدعو للإطالة والإسهاب فتبعث على الملل، ولذلك جرت التقاليد البرلمانية على تحريمها. ثم إن ما يغتفر للخطيب المرتجل الذي يلقي من حاضر البديهة لا يغتفر للخطيب القارئ الذي أمعن في التحضير وأطال في الكتابة. فالأول، خلال فورة الخطابة وغليانها، إذا

جرح أحداً، أو فاه بعبارة نابية، افترض فيه حين النية، وسقط عنه ركن العمد. فأما الثاني وقد قال عبارته في دم بارد، وضمير
جامد، فإنه يتحمل الظروف المشددة المترتبة على العمد وسبق الإصرار.
على أنه لا مندوحة عن تلاوة الخطب الرسمية؛ فخطورة الموقف، ودقة المسئولية، تحتمان وزن العبارات، ولا تسمحان بمغامرات الارتجال الخطابي. وهنا تحضرني رواية (فون بيلوف) مستشار الإمبراطورية الألمانية قبل الحرب العالمية إذ قال في مذكراته أنه كان يعد لغليوم الثاني إمبراطور ألمانيا السابق الخطب التي يزمع إلقاءها في المواقف الرسمية الخطيرة، مخافة أن يتورط، وقت الاندفاع الخطابي، في عبارات تمس مسئولية الدولة الألمانية. على أن الإمبراطور كان كلفاً بالخطابة، وكان يزعم لنفسه قدرة على الارتجال لا تجارى ولا تبارى. وتحدد يوم ليلتقي بقيصر الروسيا على ظهر بارجة حربية، وأعدَّ له (فون بيلوف) الخطاب الذي سيلقيه، فما أن نهض غليوم للخطابة حتى ضرب صفحاً عن الخطبة الرسمية، وفاه بعبارات أقامت الدوائر السياسية البريطانية وأقعدتها؛ ففطنت الدبلوماسية الألمانية للمر، ونشطت لإنقاذ الموفق، وإصلاح ما أفسده زهو الطاووس.
والخطيب القادر على الارتجال لا يلبث أن يشعر بثقل قيود التلاوة حتى في أدق المواطن الرسمية وأخطرها. وسعد زغلول، وهو المثل الأعلى للخطيب المرتجل، كان يضيق بالتلاوة صدراً، فيلقي الأوراق من يده ويعمد إلى الارتجال، فيحلق في سماء البلاغة.
ولابد للخطيب الحافظ من ذاكرة جبارة لأنه إذا خانته الذاكرة بات في أدق المواقف وأحرجها؛ فقد يروى أن نائباً من نواب الإمبراطورية الفرنسية ألقى خطاباً شهد الجميع بأنه رائع فما لبث محرر صحيفة (الفيجارو) أن أماط اللثام عن أن الخطاب منتحل. فأقر النائب بمصدر الخطاب، وقال إن له ذاكرة قوية فيحفظ عن ظهر قلب أغلب ما يقرأ. وأنه قرأ ذاك الخطاب فوعته ذاكرته. فلما حمي وطيس الجدل في المجلس ألقاه وهو يؤمن بينه وبين نفسه (أنه له)! ودارت الأيام دورتها وأصبح عضواً بمجلس الشيوخ، فقام للخطابة وظل يهدر ويتدفق حتى اصطدم بكلمة فما يدري ما بعدها؛ ولبث يحاول ثم يحاول فلا يجد ما يقوله كأن ما بذهنه قد تبخر. فأنقذ رئيس المجلس الموقف بأن رفع الجلسة، فلما أعيدت نهض صاحبنا وعالج الكلام فلما بلغ تلك الكلمة ارتج عليه، وما كان يغني عنه أن يبدأ الجملة من أولها إذ كان عندما يبلغ تلك الكلمة يرتج عليه ثانية، فبادر الرئيس إلى إنقاذ الموقف برفع الجلسة نهائياً، وما ارتقى صاحبنا المنبر بعد ذلك أبداً.
والخطيب الحافظ إن لم يكن حسن الإلقاء، لطيف الإيماءة، كان ضعيف التأثير في سامعيه؛ وشعور الجمهور يهديه إلى اكتشاف الخطب المحفوظة عن ظهر قلب. فالألفاظ البراقة، والصور الخلابة، والعبارات المصقولة، والجمل المسجوعة، مضافة إلى الاندفاع الخطابي؛ كل أولئك يمزق القناع عن وجه الخطب المحفوظة ويهدم دعوى الارتجال من أساسها.
استغفر الله أن يفهم من قولي أن الخطيب لا ينبغي له أن يلبس فكرته ثوباً جميلاً، وإنما أريد أن أقول إن الخطيب الجدير بحمل هذا اللقب لا يجمل به أن يكون أسيراً لألفاظ رصها وعبارات رصفها. فليس العيب في العناية بإعداد الخطاب، وإنما العيب أن يكون الخطيب عبداً للاستعارات والمجازات والتشبيهات والكنايات، وعلى الجملة عبداً لكافة المحسنات اللفظية وعبارات البديع والبيان.
كان (جان جوريس) الخطيب الاشتراكي العظيم يعترف صراحة بأنه يعد خطبه ولا يرى في ذلك عيباً على الإطلاق. ففي 21 نوفمبر من عام 1893 كان يستجوب الوزارة الفرنسية عن سياستها العامة، فلما فرغ من خطابه نهض المسيو شارل ديبوي رئيس مجلس الوزراء ووزير الداخلية للرد عليه فقال: (أعتقد أنكم بعد أن سمعتم خطاب مسيو جوريس تجدون بعض العناء في تصديق دعواه بأني لم أدع له الوقت الكافي لإعداد خطابه) فنهض جوريس وجهر بتلك العبارة: (إني لأشعر قلبي الاحترام لمنبر الخطابة ولزملائي فأعد ما ألقيه).
وكان (بربو) المحامي الفرنسي المدره يترافع يوماً فدفعت الصفاقة خصمه لأن يداعبه مداعبة ثقيلة، فقال: إن رائحة الزيت تنبعث من ثنايا مرافعته؛ كناية عن أنه أفنى الليل

في إعدادها على ضوء المصباح. فأجاب (بربو): (ليس يضيرني أن يسجل علي أني أعد مرافعاتي بدقة، وإن إجلالي للقضاء يحول بيني وبين التورط في العبارات الجوفاء والصيحات الفارغة التي تجد لها موطناً في ساحة أخرى غير ساحة العدل)، وكان المحامي الخصم عضواً بمجلس النواب فأفحمته عبارة شيخ المحاماة.

ومن الأوهام الشائعة أن الارتجال في الخطابة يعني أن الخطيب ينهض ولم يعد خطبته، بل إن ذهنه خلو من كل ما يتعلق بالحديث الذي سيخوض فيه، ولسنا نتردد في الجهر بأن مثل هذا الخطيب عاجز إلا عن الثرثرة والكلام الأجوف الفارغ، وكل بضاعته ألفاظ طنانة

وعبارات رنانة لشد ما لاكها حتى حفظها عن ظهر غيب، فأصبح يتجر بها في كل موقف خطابي. وصدقوني أن الخطيب لا يستطيع أن يرتجل الكلام عن موضوع إلا إذا درسه دراسة عميقة، ولا يقوى على الارتجال في كل المواقف إلا إذا كانت له ثقافة عالية ومعلومات عامة واطلاع واسع في العلم والفلسفة والأدب والتاريخ؛ وفي كلمة، أن يكون عبارة عن (دائرة معارف). ولابد له من إعداد فكرته، أستغفر الله، بل لابد له من إعداد ألفاظه وعباراته قبل إلقاء خطابه، إنما لا ينبغي له أن يكون أسيراً لألفاظ بعينها أو عبداً لعبارات بذاتها وإلا انحدر إلى طبقة الخطباء الحافظين. وليست تهم طريقة إعداد الخطبة وإنما تهم إجادتها، فمن الخطباء من يفكر وهو يكتب، ومنهم من يفكر وهو يمشي، ومنهم من يفكر وهو يتحدث إلى صحبه، ومنهم من يفكر وهو في مضجعه، ومنهم من يفكر في الفترة بين دعوته للخطابة ووقوفه على المنبر؛ وإنما يلتقي الخطباء المرتجلون عند أمرين: سعة الاطلاع، وهبوط وحي الفكرة وسط حرارة الاندفاع الخطابي.

وما أخالك بعد هذا الشرح الموجز إلا قد فهمت مغزى عبارة (بربيه) الخطيب الفرنسي العظيم: (إن سر الخطباء المرتجلين هو أنهم لا يرتجلون على الإطلاق).

عبد المجيد نافع المحامي

بين شوقي وابن زيدون

بقلم الدكتور زكي مبارك

تتمة

- 4 -

واشترك شوقي وابن زيدون في التفجع والحنين، أما ابن زيدون فيقول:

يا جنة الخلد أُبدِلْنا بسَلْسلها ... والكوثر العذب زقوماً وغسْلينا

كأننا لم نبتْ والوَصلُ ثالثُنا ... والدهر قد غض من أجفان واشينا

سِرَّان في خاطر الظلماء يكتُمنا ... حتى يكادَ لسانُ الصبح يُفشينا

لا غَرْوَ أنَّا ذكرنا الحبَّ حينَ نهتْ ... عنهُ النُّهى وَتركنا الصبرَ ناسينا

إنا قرأنا الأسى يوم النوى سوراً ... مكتوبةً وأخذنا الصبرَ تلْقِينا

أما هَواكِ فلم نعدِلْ بِمَنهَلِهِ ... شِرباً وإن كان يُروينا فيُظمينا

لم نجفُ أُفقَ جمالٍ أنتِ كوكبهُ ... سالينَ عنه ولم نهْجُرْهُ قالينا

ولا اختياراً تجنبناكِ عن كثب ... لكن عَدتنا على كرهٍ عوَادينا

والشاعر في هذه الأبيات يصف أيام الوصل أجمل وصف، ويرى نفسه انتقل من كوثر الخلد إلى الزَّقوم والغسلين، ويرى ورد الهوى القديم شرباً لا بعد له شرب، وإن كان يرويه فيظميه، ونعيم الوصل يرهف الحس فيزيد القلب ظمأ إلى ظمأ والتياعاً إلى التياع، وتحدث الشاعر عن البين فذكر أنه لم يقع عن سلوة ولا صدود، وإنما أكرهته العوادي.

ويروقنا هذا التعبير المؤنق:

(لم نجفُ أُفقَ جمالٍ أنتِ كَوكبُه)

فكأن الدنيا كانت لعهده أفقاً من المفاتن، وكانت محبوبته كوكب ذلك الأفق المطلول بأنداء الفتون.

هذا جزع من صنع الدهر صرخ به ابن زيدون، وعارضه شوقي فقال يصف قسوة الليل وقسوة الفراق:

ونابغيٍ كأنَّ الحشرَ آخِرُهُ ... تُميتُنا فيهِ ذِكراكم وتحيينا

نطوي دُجاهُ بجُرحٍ من فِرَاقِكُمو ... يكاد في غَلَسِ الأسحارِ يطوينا
إذا رسا النَّجمُ لم ترقأ محاجرُنا ... حتى يزولَ وَلم تهْدَأ ترَاقينا
بتنا نُقَاسي الدَّوَاهِي مِنْ كَوَاكِبِه ... حتى قَعَدْنا بها حَسرَى تُقاسينا
يبدُو النهارُ فيُخفِيه تجلدُنا ... للشَّامِتِينَ ويأسُوه تأسِّينا
وهذا من الشعر الرفيع، ومن العجز ألا نجد غير هذا الوصف، وإلا فكيف نصل إلى بيان الفتنة في هذا البيت:
يطوي دُجاهُ بجرح من فراقكمو ... يكادُ في غلس الأسحار يطوينا
أترون كيف يطوى الدجى بالجرح؟ أترون كيف تكون الجراح أعظم من ظلمات الليل؟ ثم ما هذه الوثبة الشعرية حين يقاسي الشاعر بطء الكواكب، ثم ينظر فيراها ابتليت به فباتت تقاسيه، وهي حسرى لواغب؟ والشاعر قد يعظم سلطانه على الوجود فيرى الدنيا تجزع لجزعه وتأسى لأساه.
وكان الشعراء الأقدمون يرون النهار يبدد الأشجان يفضل ما فيه من الشواغل، أما شوقي فيرى أشجانه لا تهدأ نهاراً إلا بفضل التأسي والتجلد للشامتين.
- 5 -
بقي النظر فيما تفرد به الشاعران
ونحن نرى ابن زيدون تفرد بهذين البيتين في خطاب حبيبته التي أقصاه عنها الزمان
نأسى عليك إذا حثت مشعشعة ... فينا الشَّمُول وغنَّانا مُغنِّينا
لا أكؤس الرَّاح تبدي من شمائلنا ... سِيما ارتياحٍ ولا الأوتارُ تلهينا
وهذا من أدق المعاني النفسية، فالشراب والغناء يهيجان العواطف الغافية، ويبعثان الوجد الدفين؛ وللشوق في أمثال هذه اللحظات لذعات أعنف من الجمر المشبوب. وأين الجمر بجانب ما يثور في القلب عند الشراب والسماع؟ إن هذه لحظات تكشف المقنع من سرائر النفوس، وتصنع ما تصنع الحمى العاتية حين تنطق المحموم بأسماء لم يهذ بها لسانه ولا وجدانه منذ سنين.
وقول ابن زيدون:
ولو صبا نحونا من علو مطلعه ... بدر الدجى لم يكن حاشاك يصبينا
هو أصل المعنى الذي ساقه شوقي في السينية:
وطني لو شغلت بالخلد عنه ... نازعتني إليه في الخلد نفسي
وهو أخذ رفيق لا يحاسب على مثله الشعراء
وتفرد شوقي بالفخر، الفخر بنفسه وبأمجاد النيل، فقال:
لم يجر للدهر إعذارٌ ولا عُرس ... إلا بأيامنا أو في ليالينا
ولا حوى السعدُ أطغى في أعنَّته ... منَّا جياداً ولا أرخى ميادينا
نحن اليواقيتُ خاض النارَ جوهرُنا ... ولم يَهُن بيدِ التشتيت غالينا
ولا يحول لنا صِبغ ولا خُلقٌ ... إذا تلوَّن كالحِرباء شانينا
لم تنزل الشمس ميداناً ولا صعِدت ... في ملكها الضخم عرشاً مثل وادينا
ألم تُؤلّهْ على حافاته ورأت ... عليه أبناءها الغُرَّ الميامينا
إن غازلت شاطئيه في الضحى لبسا ... خمائل السندس الموشية الغينا
وبات كل مجاج الواد من شجر ... لوافظَ القزِّ بالخيطان ترمينا
وبهذا دافع الشاعر عن الوثنية المصرية أجمل دفاع، وهل عبد المصريون الشمس إلا لأنهم عرفوا فضل الشمس؟ وما الدنيا بدون الشمس إلا وجود تافه سخيف!
وشوقي لم يعن إلا نفسه حين قال:
نحن اليواقيت خاض النار جوهرنا ... ولم يَهُن بِيدَ التَّشتيت غالينا
وقد صدق، فقد قامت في وجه الرجل أحداث تهد الجبال، وانتاشه الخصوم أشد انتياش، ولكن من كان يملك مثل قلبه وإحساسه وشاعريته يصعب هدمه، وإن تكاثرت المعاول، واستحصدت سواعد الهادمين
وتفرد شوقي بالحديث عن الأهرام فقال:
وهذه الأرض من سهل ومن جبل ... قبل القياصر دِنّاها فراعينا
ولم يضع حجراً بان على حجر ... في الأرض إلا على آثار بانينا
كأن أهرام مصرَ حائط نهضت ... به يدُ الدهر لا بنيانِ بانينا

إيوانه الفخم من عُليا مقاصره ... يُفنى الملوك ولا يُبقي الأواوينا
كأنها ورمالاً حولها التطمت ... سفينة غرقتْ إلا أساطينا
كأنها تحت لألاء الضحى ذهباً ... كنوز فرعون غطين الموازينا
وللقارئ أن يتأمل هذه الأبيات، له أن يتأمل قوة الفخر في هذا البيت:
ولم يضع حجراً بان على حجر ... في الأرض إلا على آثار بانينا
وله أن يعجب من روعة الخيال في هذا البيت:
كأن أهرام مصر حائط نهضت ... به يد الدهر لا بنيان بانينا
وله أن يتأمل دقة التشبيه في هذا البيت:
كأنها ورمالاً حولها التطمت ... سفينةٌ غرقت إلا أساطينا
ذلك شوقي وتلك آياته البينات.

- 6 -

وتفرد ابن زيدون بوصف الجمال الإنساني، وتفرد شوقي بوصف الجمال الطبيعي. أعطى ابن زيدون محبوبته صورة هي تحفة في الصور الإنسانية، وأعطى شوقي مفاتن النيل صورة هي غرة في الصور الطبيعية؛ أما صورة النيل فقد رآها القارئ من قبل. وأما محبوبة ابن زيدون فقد صورها بهذه الأبيات:

ربيبُ ملكٍ كأن الله أنشأهُ ... مسكاً وقدَّر إنشاءَ الورى طينا
أو صاغه وَرقاً محضاً وتوَّجه ... من ناصع التبر إبداعاً وتحسينا
إذا تأوَّدَ آدتهُ رَفاهيةً ... تومُ العقودِ وآدته البرى لينا
كانت له الشمسِ ظئراً في أكلَّته ... بل ما تجلى لها إلا أحايينا
كأنما أُثبتت في صحن وجْنتهِ ... زُهر الكواكب تعويذاً وتزيينا
ما ضرَّ أن لم نكن أكفاءه شرفاً ... وفي المودة كافٍ من تكافينا

وهذه نظرة شاعر يعرف جواهر الصَّباحة. وفي الحسن ألوف من الأفانين يعرفها الراسخون في علم الجمال، فالجمال المنعم غير الجمال المحروم، والزهر النضير الذي يضاحك الشمس في حديقة غناء بقصر من قصور الملك، غير الزهر الظمآن المنسي الذي يتفتح وهو مهجور في ربوة قاصية لا يعرفها غير الذئاب. إن جواهر الجمال تختلف أشد الاختلاف، ولكل لون من ألوان الجمال وحي خاص. وجوهر الشعر يتبع جوهر الجمال، وهل يمكن أن يكون ما يوحيه الجمال المحجب شبيهاً بما يوحيه الجمال المباح؟ إن الطبيعة

قد يبدو لها أحياناً أن تكايد الناس فتنشئ من الحسن في حي بولاق ما تغيظ به الناعمين في حي القصر العالي، ولكنها لا تفلح، فالجمال الذي ينبت في البيئات السوقية يظل سوقي الشمائل والنوازع، أما الجمال الذي يفتح في البيئات المنعمة فيظل ملحوظ المشارب والميول.

فمعشوقة ابن زيدون ربيبة ملك، وربيبة الملك تألف السيطرة منذ أيام المهد، ويظل دلالها طول الحياة دلالاً سماوياً يأخذ فيضه من قوة الطبع، لا من لؤم التمنع، وينزل رضاها على القلب نزول الطل على الريحان. وابن زيدون يتمثل محبوبته خلقت من المسك، ويرى الناس ما عداها خلقوا من طين، وكلمة (طين) وقعت قبيحة في شعر ابن زيدون، إلا أن يكون أراد الإشارة إلى بعض الناس؛ والمرء حين يغضب يرى الناس خلقوا من طين، وإن كان الطين أشرف من بعض من نرى من المخلوقات؛ والطين تربة يحيا بها الزهر ويتغذى منها الشوك، وفوقه تتخطر الظباء، وعليه تزحف الأفاعي والصلال.

وبلغ ابن زيدون نهاية الترفق حين قال:

إذا تأوَّد آدته رفاهية ... توم العقود وأدمته البرى لينا

والجمال الذي تؤذيه العقود والدمالج والأساور والخلاخيل جمال غض رقيق يشبه في رقته نواظر العيون، ولفائف القلوب، وهذا الجمال منثور في المدائن نثر الزهر واللؤلؤ، ولولا وجوده في هذه الدنيا لما عرف شاعر قيمة النعمة العظيمة، نعمة البصر والحس والذوق، لولا الجمال المنعم المصون الذي لا يطمع في تفيء ظلاله غبي ولا لئيم لأقفرت الدنيا من الشعر وخلت من الأنفاس العطرة، أنفاس الشعراء؛ لولا الجمال المنعم المصون الذي لا يطمع في تفئ ظلاله غبي ولا لئيم لما استطاب شاعر سهر الليل، وألم الجفون. وهل يعني القلب في سبيل الجمال المبتذل الذي ترنو إليه جميع

العيون؟ إن الجمال المبتذل شبيه بالكوكب المتهالك الذي لا تألم من النظر إليه عين رمداء، أما الجمال المنعم المصون فشبيه بالشمس لا يقوى على النظر إليه إلا الفحول من الشعراء، والأقطاب من الكتاب، هو الجمال الفرد؛ ولا يصاوله إلا الرجل الفرد، وإن كان يتواضع فيقول:

ما ضرَّ أن لم نكن أكفاءه شرفاً ... وفي المودة كافٍ من تكافينا

هذا تواضع، فإن جوهر الحب في قلب الشاعر أنفس من جوهر الحسن في وجه الجميل.

وهل تعربد معاني الصباحة في الوجه المليح كما تعربد عرائس الشعر في قلب الشاعر الذي يقلى الأنوار والظلمات وحوله جيش من الهوى المتمرد والوجد المشبوب؟

إن قلب الشاعر جوهر نفيس، ولولا فضله على الدنيا ما عرف أحد جمال الصبح المشرق، ولا تنبه مخلوق إلى لمح الكواكب ولألاء النجوم، ولا تلفت باحث إلى شعر ابن زيدون وقد طمره الزمن بتسعة أحجار تسمى تسعة قرون.

- 7 -

ثم ماذا! بقي أن نشرب صبابة الكأس من نونية شوقي، وكل صبابة في الكأس صاب، بقي أن نتوجع لبلواه وهو يتشوق إلى مصر فيقول:

أرض الأبوّة والميلاد طيبها ... مر الصبا في ذيول من تصابينا

كانت محجَّلة فيها مواقفُنا ... غرّاً مسلسلة المجْرى قوافينا

فآب من كُرة الأيام لاعبُنا ... وثاب من سِنة الأحلام لاهينا

ولم ندع للّيالي صافياً فدَعتْ ... (بأن نغص فقال الدهر آمينا)

لو استطعنا لخضنا الجو صاعقة ... والبر نار وغى والبحر غسلينا

سعياً إلى مصر نقضي حق ذاكرنا ... فيها إذا نسي الوافي وباكينا

أرأيتم هذا الشعر؟ أرأيتم الخيال في هذا البيت:

فآب من كرة الأيام لاعبنا ... وثاب من سنة الأحلام لاهينا

أرأيتم صورة الهول المقتحم في هذا البيت:

لو استطعنا لخضنا الجو صاعقة ... والبر نار وغى والبحر غسلينا

ثم ماذا؟ بقي ختام القصيدة، وهي أبيات ما قرأتها إلا بكيت على أمي يرحمها الله. وانظروا كيف هفا قلب الشاعر إلى أمه في حلوان:

كنز بحلوان عند الله نطلبه ... خير الودائع من خير المؤدينا

لو غاب كل عزيز عنه غيبتنا ... لم يأته الشوق إلا من نواحينا

إذا حملنا لمصر أو له شجناً ... لم ندر أي هوى الأمين شاجينا

طيب الله ثراك أيها الشاعر، ورحم والدي ووالديك، فالدعاء في أعقاب شعرك كالدعاء في أعقاب الصلوات.

زكي مبارك

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

مقدمة لابد منها

نشر نيتشه كتابه هذا في أربعة أجزاء بين سنتي 1883 و1885، فأشعل ثورة فكرية لا في ألمانيا فحسب، بل في سائر الأقطار الأوربية والعالم الجديد. ولم يكن العالم العربي في ذلك العهد على اتصال وثيق بالحركة الفكرية الغربية، فلم يسمع بنيتشه وفلسفته حتى مر زهاء ثلث قرن، فورد اسمه على بعض الأقلام عرضاً، وكل ما عرف عنه حينذاك في هذه البلاد هو أنه يدعو إلى مذهب تمجيد القوة والعمل على إيجاد الإنسان الأعلى بالقضاء على كل اعتقاد يشل الإرادة ويثبط الهمم في معترك الحياة.

وفي الواقع أن نيتشه الفيلسوف الألماني الأشهر قد دعا إلى هذا المذهب ليعارض الفلسفة الدينية التي أخذ بها الغرب عن المسيحية فأغرق في احتقار الحياة باسمها، وضل ضلالاً بعيداً في تفهمها، إذ اعتبرها دعوة عن الإعراض عن الزائلة إعراضاً تاماً، ورأى الكمال للإنسان في التقشف والزهد والترفع حتى عن العاطفة الجنسية التي يقوم الكون عليها.

ولاح لنيتشه أن هذه النظريات الاجتماعية منحدرة من الإيمان بالخالق وخلود الروح ما وراء المنظور فثار بعقله الجبار عليها وأنكرها جاحداً معها كل إيمان بغير الإنسان نفسه والحياة نفسها

ولو كان تسنى لنيتشة أن ينفذ إلى حقيقة الإيمان الذي دعا عيسى إليه لكان تجلى له إيماناً بالقوة التي ترفع الضعفاء، لا بالضعف الذي يسلط الأقوياء عليهم. ولو كان تسنى لنيتشه أن يستنير بما في الإسلام من مبادئ اجتماعية عليا لأدرك أنه باتباع مثل هذه المبادئ ينشأ الإنسان الأعلى لا بالالتصاق بالأرض دون الالتجاء إلى السماء.

ولقد يلوح للبعض أن لا فائدة من ترجمة نيتشه إلى العربية لأن فلسفته راسية على الجحود؛ أما نحن فنرى أن خلو المكتبة من هذا المؤلف الذي أثر التأثير الكبير في تطور الحركة الفكرية في أواخر القرن الثامن عشر في العالم الغربي يعد نقصاً فيها وقصوراً

علينا؛ إذ لم يتردد أي شعب في نقله إلى لغته. وفوق ذلك فإن ما يتجلى في فلسفة نيتشه من جحود لا نراه يتجه إلى الله الواحد الأحد الذي نعبده وبوحيه ندين، بل هو يتجه إلى الألوهية المزيفة التي ارتسمت في ذهنه من إدراكه الناقص لحقيقة الوحي كما يفهمه المؤمنون

فلنمر، إذن، بجحود نيتشه باسمين، ولنقف عند نظراته في الحياة مفكرين

إن في كتاب زرادشت من المبادئ الاجتماعية ما يجدر بنا الوقوف عنده، لأنه يتفق والقاعدة التي وضعها الإسلام للحياة بحديث للنبي (صلعم) على قول، أو بكلمة لأمير المؤمنين عمر على قول آخر وهي:

(اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً.)

لقد أدرك نيتشه الشق الأول من هذه الحكمة، وفاته الشق الأخير فلم يأمن الضلال والعثار؛ أما نحن أبناء هذا الشرق العربي فآخر هذه الحكمة راسخ في أعماق نفوسنا مما يجعل الشق الأول منها هداية لا ضلالاً

هذا وإننا سنورد في آخر الترجمة بعد بسط فلسفة نيتشه التحليل الذي تقتضيه لإظهار فاسدها وصحيحها، فنقف في وجه المادية التي تطغى موجتها على المدنية، ونثبت أن لا خير في حضارة يعمل الإنسان فيها لدنياه كأنه يعيش أبداً دون أن يعمل لآخرته كأنه يموت غداً.

فليكس فارس

وسنوالي نشر الكتاب كاملاً ابتداء من العدد القادم

كلمة أخيرة

حول (نبوة المتنبي أيضاً)

للأستاذ سعيد الأفغاني

قرأت للأخ شاكر مقاليه الأخيرين المطولين جداً في الرسالة (171، 172) فإذا ما أريد أن أقوله قد قلته سابقاً في الرسالة (170) فليرجع إليه فهو رد على مقاليه هذين أيضاً

لما عرف الأستاذ شاكر أنا (لا نحفر رداً ولا نقداً إلا إذا كان حقاً، وسبيلنا حينئذ أن نأخذ به أنفسنا ونشكر لصاحبه.) عاذ بذلك فراغ روغة عدل فيها بالكلام عن وجهه الذي يجب أن يكون فيه، فلم تظفر اعتراضاتنا - لسوء حظها - منه بجواب. وقد كنا طلبنا اليه التعرض لهذه الأخبار التي رماها جملة بالكذب فيبين وجوه بطلانها والسبب الحادي لرواتها على وضعها ببيان يزيل اللبس ويرضي الأمانة والعقل، فأبى وطفق يتعلق بتوافه الأمور: فهذا كلام شغل أربعة أعمدة من (الرسالة) في تزييف رواية اللاذقي وقد عرف القراء قيمتها عندنا، وذاك كلام يعرض لبسطي عذري في التأخر بالرد، وذلك كلام آخر طويل يدور حول ياء سقطت من كلام له نقلناه. . . الخ

استوفى الأخ ستة عشر عموداً زوى عنا فيهن حججه المزعومة ونافع بيانه وأطلق قلمه فسطر من القول النبيل ما نمر به مر الكرام؛ ولما أشرف على الختام قال: (وتعب أن أمضي على هذا الوجه في تعريف الأستاذ سعيد بوجوه بطلان كلام هؤلاء الناس الذي نقل كلامهم.) وقد علم أصلحه الله وعلم القراء أن البحث والحوار كله يدور حول هذا فقط، ففيم الهرب منه والاشتغال بغيره؟ ولست أنا الذي ادعي بطلان الروايات فأحتاج لمعرفة وجوه البطلان، وإنما نفع ذلك وغناؤه - إن تم - عائدان عليه

وحده، فهو الذي ألف واستهدف، وهو الذي ادعى وأعوزه البرهان.
وقد كنت ظننت أني مع أستاذ يعينني في إزالة ما حول هذا البحث من شبه بالعلم الواسع والحجة البالغة ولطف التأني وحسن القصد، فإذا بي أمام امرئ يريدها جدلاً ومراء أو استطالة قول وحب غلبة مع معرفته من نفسه الحدة وضيق الصدر.
فما أنا - وقد عرض الأستاذ لنا أدبه عرضاً صحيحاً - بالذي يجاريه في أسلوبه. وكل ما تفضل به من غمز احتل من كلامه محل الحجة لا يحدوني على مقابلته أو مشاكلته، ولا على الخروج على قاعدتي التي أطمعته فورطته وكانت خليقة منه بغير ما فعل.
ليت الأستاذ شاكراً كان تريث قليلاً فلم يحرص على صدور رده عقب كلمتي بلا تأخر، ولم يخرج عما أخبرنا من طبعه في الإبطاء والتخلف، فإن الناس لا يقدرون الكلام بسرعة صدوره، وإنما يقدرونه بما يحمل من الحق والصواب.
ليته تريث وتدبر وأنعم في كلامه وكلام غيره، إذن لما أعجله حب الرد للرد فجعله ينقض فكرة هي له على أنها لغيره، ويستنجد لدفعها بالعربية والمنطق والأصول؛ وبيان ذلك باختصار أنه:
كان أشكل عليه في كلام أبي علي بن أبي حامد أمر الوثيقة التي كتبوها على المتنبي بعد أن استتابوه من دعوى النبوة؛ فذهبنا نحن إلى أنها في إبطال علويته لا تنبئه، وأمر علويته ورد في روايات ثانية، فكان من الأستاذ أن أورد رواية أبي علي ثم علق على كلامنا فيها بقوله: (الرسالة ص1665)
فأنت ترى أن لا ذكر للعلوية في هذا الخبر ولا في غيره مما روي عن علي بن أبي) حامد هذا، فكيف يتأتى لك أن تقحم العلوية فيه وهو لم يذكرها فيه ولم ترد عنه في خبر غيره، ثم تعمد إلى الكلام فتؤول بعضه على النبوة وبعضه على العلوية فتجعل (التوبة للأولى والوثيقة للآخرة؟
والذي قلناه نحن هو هذا (الرسالة 170): (وليس في الأمر مشكلة ولا تناقض ولا داع لأن يرجح الأستاذ (ص 49) من كتابه إقحام لفظ النبوة بين العلويتين في حديث الهاشمي، وليقول: (إن المراد بالنبوة (تأمل) في حديث أبي علي بن أبي حامد العلوية) فمن المقحم ومن المؤول أيها البحاثة المحقق الذي لا ينسى اليوم ما قاله أمس؟! ثم قلنا: (فعلوية أبي الطيب التي أراد أن يفسر بها النبوة الواردة في الروايات على اختلاف مصادرها لم تسلم له من الأصل، وبقي المتنبي جعفياً يمنياً، وإذا كان لابد (تدبر) من إيراد احتمال فالأولى أن تجعل العلوية الثانية من زيادات النساخ وإقحامهم.
على أن الروايات في غنى عن هذا الفرض أيضاً (تأمل وتدبر) وليس فيها داع إلى شكل أو تأويل. فمن الغريب جداً أن ينكر أبو الطيب دعوى النبوة من ساعة القبض عليه وأن يظل على العلوية طول أيام سجنه حتى كتابة الوثيقة)
فنظرية الإقحام أنت قلت بها أيها الأستاذ الجليل لا نحن، وكلمتنا بدئت بقولنا (إذا كان لابد من احتمال) أما كلمتك فبدئت: (إن المراد بالنبوة في حديث أبي علي. . العلوية ص 49 من كتابك القيم) وأياً كان صاحب اكتشاف الإقحام ومؤول النبوة بالعلوية فهو ونظريته خليقان بما تفضل به الأستاذ من استنكار واستبشاع.
لقد رماني الأستاذ بدائه: عدم التدبر والتحريف، وأراد أن يتناول فكرة لي كيفما اتفق له لينقدها، فوقعت يده على فكرته هو منقولة في كلامي! وقاتلك الله العجلة، فقديماً ذكروا أن تاجراً أضمر أخذ عدل من أعدال شريكه فوضع رداءه عليه ليعرفه في الظلمة؛ ثم ذهب وجاء رفيقه ليصلح أعداله فوجد رداء رفيقه على عدله وظن أنه نسيه فرفعه ووضعه على عدل شريكه. ولما كان الليل أتى الشريك بحمال واطأه ففتح الحانوت واحتمل العدل الذي عليه الرداء وأخرجه هو والرجل، وجعلا يتراوحان على حمله حتى أتى منزله ورمى نفسه تعباً، فلما أصبح افتقده فإذا هو بعض أعداله!!
فعلى القارئ المتتبع أن يرجع حيثما وجد نقلاً لكلامي إلى الأصل المنقول عنه فلست أفرغ دائماً لبيان ما حرف ولا أحتمل إلا تبعة ما قلت على ما قلته بحروفه، غير مروي بكلام من غيري. ومن أول كلامي بجمل من عنده ثم شرع في ردها فإنما رده على تأويله فحسب
كان رغب إلينا الأخ شاكر ألا نتبع ظننا في أنه من أهل الغرور والذهاب بالنفس والجهل بمقدارها، والمكابرة في العلم والجدال فيما لا جدوى منه ولا منفعة. وقبل كلمته هذه كان ادعى لنفسه تدبراً وإمعاناً وأصولاً ودراية، ثم في الأخير حلماً عند المقاتل البادية

حين لمزنا بالحاجة إلى هذه الصفات، وكلام كلينا معروض لمن أراد تثبتاً، وسبحان الذي قال: (كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون).
فهل أجد حرجاً في أن أقول ثانية (صحف الرسالة أحوج إلى أن تملأ بالحقائق والبرهان منها إلى الدعوى والانتقاص) وإن القراء (لا يخفى عليهم وجه الحق في كلام اثنين، ولا يصرفهم عنه نيل من صاحبه ومراوغة في الحط منه)، وحرام أن أقتل الوقت في تتبع المزالق التي زل فيها صاحبنا في مقاليه هذين، فما هي بنافعتنا فيما ظهر لتباين أسلوبينا في البحث و (اختلاف في الجبلة) على ما قال الأخ شاكر.
وما أنا بعائد إليه لأن الحقيقة لم تفد شيئاً بخوض هذا البحث معه، ولن أجاري أخي في طريقه التي سلكها فما هي لي بطريق، ولا أرب لي بتعسف المتاهات، ولولا أن يظن العجول من القراء أن نظرية الإقحام وتأويل النبوة بالعلوية التي رماني بها الأستاذ على عجلة وخطأ هي نظريتي وفكرتي لما خططت حرفاً من كلمتي هذه.
وبعد، فليس عندي لأخي الأستاذ على أقواله في غير السلام.
سعيد الأفغاني

الفصل في نبوة المتنبي من شعره
للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

- 1 -

يعتمد الباحثون في نبوة المتنبي على تلك الأخبار المتناقضة في أمر نبوته، فيذهبون فيها مذهبين متناقضين: فريق يجزم بوقوع هذه الدعوى منه، وفريق يجزم بأنها من اختراع أعدائه؛ وكل فريق يتعصب للأخبار التي تؤيد مذهبه، ويجزم بصحتها كل الجزم، ويطعن في صحة الأخبار التي لا توافق مذهبه، وتؤيد مذهب الفريق الآخر، وقد ضاع الحق في ذلك بين التعصب للمتنبي والتعصب عليه، ولم تنهض فيه حجة واضحة تقطع بالحق من ذينك المذهبين، وتقضي على هذا الخلاف الذي لم ينته إلى الآن.
ولا خلاف بين الفريقين في إطلاق لقب المتنبي على أبي الطيب، وإنما الخلاف في أنه أطلق عليه لادعائه النبوة في حداثته، أو لقوله:

أنا تِرب الندى وربّ القوافي ... وسِمام العدى وغيظ الحسُود
أنا في أمةٍ تداركها الل ... هـ غريب كصالح في ثمود
ما مُقامي بأرض نخْلة إلا ... كمقام المسيح بين اليهود

هذا هو ما حكاه أبو الفتح عثمان بن جني عن أبي الطيب نفسه؛ وأما الأول فحكاه أبو عبد الله معاذ بن إسماعيل اللاذقي قال: قدم أبو الطيب المتنبي اللاذقية في سنة نيف وعشرين وثلثمائة وهو لا عذار به، وله وفرة إلى شحمتي أذنيه فأكرمته وعظمته لما رأيت من فصاحته وحسن سمته، فلما تمكن الأنس بيني وبينه وخلوت معه في المنزل اغتناماً لمشاهدته، واقتباساً من أدبه، قلت: والله إنك لشاب خطير تصلح لمنادمة ملك كبير، فقال: ويحك أتدري ما تقول؟ أنا نبي مرسل، فظننت أنه يهزل، ثم تذكرت أني لم أسمع منه كلمة هزل قط منذ عرفته فقلت له ما تقول؟ فقال أنا نبي مرسل، فقلت له: إلى من مرسل؟ فقال إلى هذه الأمة الضالة المضلة. قلت تفعل ماذا؟ قال: أملأ الدنيا عدلاً كما ملئت جوراً. قلت بماذا؟ قال: بإدرار الأرزاق، والثواب العاجل لمن أطاع وأتى، وضرب الرقاب لمن عصى وأبى. فقلت له: إن هذا أمر عظيم أخاف عليك منه، وعذلته على ذلك، فقال بديهة:

أبا عبد الإله مُعَاذ إني ... خفيٌّ عنك في الهيجا مقامي
ذكرتَ جسيم مطّلبي وأني ... أخاطر فيه بالمُهج الجسام
أمثلي تأخذ النكباتُ منه ... ويجزع من ملاقاة الحمام
ولو برز الزمان إلي شخصاً ... لخضَّب شعر مفرقه حُسام
وما بلغت مشيئتها الليالي ... ولا سارتْ وفي يدها زمامي
إذا امتلأت عيون الخيل من ... فويل في التيقظ والمنام

ثم ذكر بعد هذا أنه لم يزل معه حتى قال له: أبسط يدك اشهد أنك رسول الله، قال: فبسط يده فبايعته بيعة الإقرار بنبوته، ثم قال:

أيَّ محلٍّ أرتقي ... أيَّ عظيم أتقي
وكلُّ ما قد خلق الل ... هـ وما لم يخلق
محتقر في همتي ... كشعرة في مفرقي

وقد يكون هذا الذي ذكره أبو عبد الله معاذ بن إسماعيل اللاذقي صحيحاً، ولم يكن المتنبي إذا صح أنه ادعى النبوة أول من ادعاها في الإسلام، فقد ادعاها قبله وبعده خلق كثير، وقد يكون هذا غير صحيح؛ وربما يؤيد هذا أن الأبيات الأولى رويت في ديوانه على أنه قالها وقد عزله معاذ في إقدامه في الحرب، وأن الأبيات الثانية لا تتفق مع دعواه النبوة، وكثير من الناس يتخذها دليلاً على إلحاده.

وقد يكون ما رواه ابن جني هو الصحيح، وله شواهد كثيرة في الأدب العربي، ومن هذا أن شاس بن نهار من شعراء الجاهلية لقب بالممزق لقوله:

فإن كنت مأكولاً فكن أنت آكلاً ... وإلا فأدركني ولما أُمزَّق

وأن محصن بن ثعلبة وهو شاعر جاهلي أيضاً لقب بالمثقب لقوله:

ردْن تحية وكَنَنَّ أخرى ... وثقبن الوَصاوِصَ للعيون

وأن خداش بن بشر المجاشمي وهو شاعر إسلامي لقب بالبعيث لقوله:

تبعث نمي ما تبعثُ بعد ما ... (م) استمر فؤادي واستمر عزيمي

ومن ذلك أن جران العود العبدي سمي بهذا لقوله:

خذا حذراً يا جارتي فانني ... رأيت جرانَ العود قد كاد يصلح

فخوفهما بسير قدَّ من صدر جمل مسن

ومن ذلك أن المرقش الأكبر لقب بهذا لقوله:

الدار قفر والرسومُ كما ... رقَّش في ظهر الأديم قلم

واسم المرقش ربيعة بن سعد بن ملك

ومن ذلك أن مدرج الريح لقب بهذا لقوله:

ولها بأعلى الجزع رسمٌ دارس ... درجت عليه الريح بعدك فاستوى

فإذا نظرنا إلى هذه الأخبار المتناقضة في ذاتها لم تشف غليلنا في هذه النبوة المزعومة؛ وليس أمامنا فيها إلا اللجوء إلى ما سموه علم الجرح والتعديل، وإني لا أثق كثيراً بهذا العلم، لأنه مختلف أيضاً في أمر رواة الأخبار، ولأنه يعتمد على ظاهر أمرهم وهو لا يدل حقيقة عليهم.

فلا بد من اللجوء إلى أمر آخر يشفي غليلنا في أمر هذه النبوة، وذلك الأمر هو الشعر الذي قيل في العهد الذي يقال إن المتنبي ادعى فيه هذه الدعوى، وسنبدأ بهذا في المقال الآتي

(يتبع)

عبد المتعال الصعيدي

تاريخ العرب الأدبي

للأستاذ رينولد نيكلسون المستشرق الإنجليزي

المدخل لتاريخ العرب

- 2 -

وإذا وجدنا أن اللغة لا تجري فحسب على ألسنة الشعراء الجوالين (الذي كانوا عادة على جانب من الثقافة) أو عرب الحيرة المسيحيين، بل تتداولها ألسن الرعاة واللصوص والبدو الغلاظ في كل البقاع، إذا وجدنا هذا فليس ثمت داع للشك في أننا نسمع من خلال شعر القرن السادس اللغة العربية التي كانت مستعملة في طول بلاد العرب وعرضها. وقد زاد انتصار محمد والفتوح الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين من شأن هذه اللغة وأصبحت العربية لساناً مقدساً في جميع الأمصار الإسلامية. ولا مراء أن الفضل في هذا يرجع إلى القرآن، ولكن من ناحية أخرى أمر اعتبار لهجة مكة (التي نزل بها القران) الأصل للعربية، وتسمية العربية (لغة قريش) كافٍ لدحض كل حقيقة حول هذا الموضوع. وقد اتخذ محمد (ص) - كما لاحظ نلدكه - الشعر القديم مثالاً. وفي صدر الإسلام كانت سلطة الشعراء الجاهليين (وقليل منهم كان من قريش) هي التي ثبتت قدم اللغة الفصحى وعممت استعمال الأسلوب الفصيح. وطبيعي أنن يكون المسلمون - وهم الذي عدوا القران كلمة الله والمعجزة البالغة في أسلوبها - قد قدموا لهجة قبيلة النبي على كل لهجة أخرى، كما أنكروا القول بأن كل قبيلة أبعد من مكة أقل فصاحة، ولكن هذه النظرة لا تلقى قبولاً لدى الباحث المحايد. ولو أنه كان للقران تأثير عظيم في تاريخ اللغة العربية وآدابها، وسنرى في فصل خاص أن ضرورة حفظ أصل الكتاب الكريم سليماً، وشرح غوامضه بعثت المسلمين على

استنباط علم النحو واللغة، ودعت إلى جمع شعر الجاهلية والأخبار التي لابد قد تطرق إليها الضياع. ولما استقر العرب - كفاتحين - في سورية وفارس واختلطوا بالشعوب الغريبة عنهم، لم تلبث لغتهم محافظة على فصاحتها الأولى، أما في بلاد العرب نفسها وخاصة بين بدو الصحراء فلم يكن الفارق محسوساً، وكذلك في البلدان المجاورة ومراكز التجارة الكبرى كالبصرة والكوفة حيث كان معظم السكان من الأجانب الذين اعتنقوا

الإسلام وسرعان ما استعربوا؛ وظل الباب مفتوحاً على مصراعيه لجميع ضروب الفساد. وقد أعلن علماء اللغة حرباً ضروساً على هذه العربية التي شابتها العجمة، وإن الفضل في انتصار العربية الفصحى وتغلبها على الأخطار الجسام التي هددتها ليرجع إلى ما بذله هؤلاء من جهود، وبالرغم من أن لغة البدو الوثنيين لم تبق كما هي - أو ظلت على أي حال حية على ألسنة المتحذلقين والشعراء فحسب - إلا أنها أصبحت بعد تحوير قليل الوسيط العالمي للحديث بين الطبقات العليا في المجتمع الإسلامي، وفي مستهل العصور الوسطى كانت لغة الحديث والكتابة لجميع مثقفي المسلمين من أي جنسية كانوا: من بلاد الهند حتى المحيط الأطلسي، فكانت لغة البلاط والدين، ولغة الشرع والتجارة، ولغة السياسة والأدب والعلم، وفي القرن العاشر حينما ثل الغزو المغولي عرش الخلافة العباسية وانفرط عقد الوحدة الإسلامية السياسية لم تعد العربية أو اللغة العامة للعالم المحمدي، بل حلت مكانها لهجة سوقية في بلاد العرب وسورية ومصر وبعض الأقطار الناطقة بالضاد، ولو أنها ظلت في هذه الأمصار لغة الأعمال والأدب والتعليم. ونسمع اليوم من مصدر ثقة (أنها آخذة في النهوض، وأنها على وشك أن تسترد ثانية مكانتها الأدبية العظمى) وهي إذا كانت تشغل - بالنسبة إلى هؤلاء المسلمين من غير العرب - نفس المكانة التي تشغلها اللاتينية والإغريقية في الثقافة الأوربية الحديثة، فينبغي ألا يغرب عن ذهننا أن القرآن (وهو أروع آثارها) يحفظه كل مسلم لأول ذهابه إلى المدرسة، وهو يتلوه في صلواته اليومية، ويسيطر على مجرى حياته كلها إلى درجة يكاد لا يصدقها المسيحي العادي.

وآمل أن يغفر لي القارئ تجاهلي - في كتاب كهذا - ما يتعلق بالتاريخ العربي القديم الذي يمكن الإلمام به من الآثار الآشورية والبابلية، كما أن أي كتابة يحاول من ورائها دراسة العرب من سنة 2500 ق. م. حتى بداية العصر المسيحي لأشبه بخريطة رسمتها يد سير جون ماندفيل؛ بيد أن شعباً (غير سبأ أو حمير) من بين شعوب الجزيرة استطاع أن يترك أثراً أبقى من غيره، ذلك هو شعب النبط الذين سكنوا المدن واحترفوا التجارة قبل ميلاد المسيح بزمن طويل، وأسسوا مملكة (بترا) التي كانت رخية متقدمة في الزراعة حتى كان عام 105م. حين ضربها ودمرها تراجان، وكان هؤلاء الأنباط يتكلمون العربية بالرغم من أنه قد ورد خطأ في أحد نقوشهم أنهم كانوا يستعملون الآرامية في الكتابة؛ ويخلط المؤلفون

المسلمون بينهم وبين الآراميين إلا أن الدراسة العميقة لنقوشهم أثبتت خطأ هذه الفكرة التي أقرها كاترمير، وإن كتاب (الفلاحة النبطية) الذي ألفه عام 904م للكاتب المسلم ابن وحشية الذي اعترف بأنه ترجمه من الكلدانية، فقد ظهر الآن أنه مختلق، وما أشرت إليه في هذا المجال إلا كمثال للوسيلة التي يستعمل فيها المسلمون لفظ (نبطي)، لأن العنوان المشار إليه حالاً لا يرجع بالطبع إلى بترا ولكن إلى بابل من كل ما قيل يستطيع القارئ أن يلاحظ أن تاريخ العرب - وجل معلوماتنا عنه مقتبسة من مصادر عربية - يمكن تقسيمه إلى ثلاثة عصور

(1) العصر السبأي والحميري من 800ق. م. وهو تاريخ أقدم نقوش العربية الجنوبية حتى سنة 500م.

(2) العصر السابق للإسلام (أي من 500م - 622م)

(3) العصر الإسلامي ويبدأ من هجرة الرسول من مكة إلى المدينة أي من سنة 622 حتى الوقت الحاضر

أما عن العصر الأول الذي يتعلق بتاريخ اليمن أو بلاد العرب الجنوبية فليس لدينا مراجع عربية معاصرة له سوى النقوش؛ كما أن المورد القيم الذي تمدنا به هذه النقوش على نقصه هو الأحاديث الواردة في قصائد الجاهلية والقران وخاصة في الدب المحمدي المتأخر؛ ولا مراء في أن معظم هذه الأخبار أساطير، ومن الأجدر أن يتجاهلها الباحث

المشتغل بالبحث التاريخي، ولكني سأخصص جزءاً وافياً لدراستها، خاصة وأن غرضي الأول هو التعريف بمعتقدات العرب أنفسهم وآرائهم.

أما العصر الثاني فيسميه المسلمون عصر الجاهلية أو عهد البربرية وتنطبع مميزات هذه الفترة في دقة وأمانة فيما وصلنا من أغاني وقصائد الشعراء الوثنيين، إذ لم يكن هناك إبان هذا الوقت أدب نثري فكان من مهمة الشاعر التغني بتاريخ قومه والافتخار بنسبهم، وتمجيد استعمالهم للسلاح، وتبجيل فضائلهم، ورغماً من أن مقداراً عظيماً من شعر الجاهلية قد فقد إلى الأبد، إلا أنه لا تزال لدينا بقية كبيرة (بإضافتها إلى ما وضعه علماء اللغة والآثار المسلمون من قصص تترى) تساعدنا على تصوير حياة هذه الأيام الغابرة تصويراً دقيقاً.

أما أهم العصور الثلاثة وآخرها فهو تاريخ العرب تحت ظل الإسلام، وينقسم طبيعياً الأقسام التالية التي ألممت بها في هذا المكان حتى إذا ألقى القارئ عليها نظرة تبين من خلالها مجمل المظاهر السياسية المتعددة لهذا العهد المضطرب الدقيق الذي يقوم تجاهه؛ وهذه الأقسام هي:

أ - حياة محمد

حوالي مستهل القرن السابع المسيحي ظهر في مكة رجل من قريش هو محمد بن عبد الله بكتاب سماوي هو القرآن، دعا قومه لنبذ الأوثان ولعبادة (الله الواحد)، وقد ظل مثابراً عدة أعوام على الدعوة لدين الإسلام في مكة على رغم ما لاقاه من سخرية القوم منه واضطهادهم إياه، ولما وجد أن تقدم دعوته ضئيل هاجر عام 622م إلى بلدة مجاورة تلك هي المدينة، ومنذ ذلك التاريخ كان النصر المؤزر حليفه، وفي خلال السنوات العشر التالية دانت بلاد العرب جميعها لديانته، ودعت بلسانها للإيمان الجديد

ب - خلافة الراشدين (632 - 661)

بعد أن قبض الرسول (ص) تعاور حكم المسلمين بالتتابع أربعة من أعظم صحابته، هم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وسمي كل منهم خليفة، ويعرفون عادة بالخلفاء الراشدين، وفي ظلهم وبإرشادهم ثبتت دعائم الإسلام في شبه الجزيرة وخفق لواؤه بعيداً وراء الحدود، أما أعداؤه من البدو فقد استقروا كمستعمرين حربيين في السهول الخصبة من سورية وفارس، وسرعان ما وقعت الإمبراطورية الحديثة النشأة في حرب أهلية، وكان مقتل عثمان إيذاناً باشتعال النضال بين طلاب الخلافة المتنافسين، وتمسك علي - صهر الرسول - بلقبه، ولكن حاكم سورية القوي معاوية بن أبي سفيان أنكر خلافته ونافسه

ج - الدولة الأموية (661 - 750)

لما سقط علي صريعاً بضربة خنجر اعتلى معاوية عرش الخلافة الذي ظل وفقاً على أسرته تسعين عاماً، وكان الفارق الوحيد في الأمويين أنهم كانوا عرباً قبل أن يكونوا مسلمين، وكان أثر الدين فيهم ضئيلاً، ولكن ظهر منهم بعض حكام أكفاء مهرة، جديرين بأن يكونوا قادة جنس آمر. وقد بلغت الفتوح الإسلامية أقصى اتساعها عام 732م، وكان للخليفة القائم في دمشق قواده فيما وراء أكسوس والبرانس وعلى شواطئ بحر قزوين

ووادي النيل؛ وفي غضون ذلك كان بأس الدولة آخذاً في التدهور والانحطاط من جراء المنازعات السياسية والدينية القائمة فيها؛ أما الشيعة الذين تمسكوا بحصر الخلافة في علي وأبنائه بأمر مقدس، فقد ثاروا مراراً عدة، وانضم إليهم المسلمون الفرس الذين كانوا يمقتون العرب والحكومة الأموية الظالمة، كما كان العباسيون - وهم ذوو وشيجة قربى قوية بالرسول - قادة الاضطراب الذي انتهى بخلع البيت الحاكم نهائياً واستئصال شأفته.

د - الدولة العباسية (750 - 1258)

كان العرب حتى ذلك الوقت أصحاب السلطان في المجتمع الإسلامي، وقد شمخوا بأنفهم تيهاً على المسلمين من غير العرب وازدروهم، ولكن انعكست الآية بعد ذلك، إذ نجد أنفسنا قد انتقلنا من عصر العصبية العربية إلى عصر النفوذ الفارسي والثقافة الجامعة، وكان صفوة القوات العباسية من فرس خراسان، وشاد العباسيون (بغداد) عاصمتهم الزهراء على أرض فارسية، ونال أشراف الفرس أسمى مناصب الدولة

أرفعها في بلاط بني العباس، وإن لم تكن الدولة الجديدة دينية، إلا أنها كانت على الأقل حدية على الدين مجتهدة في أن تحيط نفسها بمظاهر الورع، ونسي العرب والفرس حيناً ما بينهم من خلاف وفروق، وتعاونوا جميعاً كما ينبغي على المسلمين الأتقياء، ولقي التعليم تشجيعاً عظيماً، وكان هذا العصر العصر الذهبي للإسلام، وقد بلغ أوجه أيام هرون الرشيد الزاهرة (786 - 809). ولما مات تداعت عمد السلام مرة ثانية، وابتدأ نجم الإمبراطورية القوية البأس في المغيب، وأخذت المقاطعات تنسلخ واحدة بعد أخرى عن الخلافة، وتقتطع نفسها منها، ومن ثم ظهرت دول مستلقة كثيرة، بينما صار الخلفاء دمى في أيدي الجند الأتراك، وظلت معظم الأقطار الإسلامية معترفة بسيادتها اسمياً، ولكن منذ أواسط القرن التاسع لم يعد لهم إلا القليل منها، أو لم يعد لهم شان مطلقاً.

(يتبع)

ترجمة محمد حسن حبشي

مشرقيات

في الأدب العربي الحديث

للأستاذ أغناطيوس كراتشقويفسكي

الأستاذ بجامعة لينينجراد

- 3 -

وهنالك محولات فردية بذلت في سبيل كتالة القصة الأخلاقية (سعيد البستاني ويعقوب صروف). والقصة النفسية (فرح أنطون 1874 - 1922)، وإن كانت لم تضارع قصص زيدان في مضمار النجاح

لكن معين القصة التاريخية عند العرب لم ينضب بعد كما يتضح من قصة (ابنة المملوك) التي وضعها في عام 1926 القصصي المصري محمد فريد أبو حديد. وهي من نوع يختلف كل الاختلاف عن قصص زيدان، بل إنها وصلت من بقض الوجوه إلى مستوى أعلى. أما الأقصوصة فقد رأت النور في مصر بخلاف القصة التاريخية، ولا بأس من ذكر المحاولات التي بذلت في سوريا، ولكن ما كتب هناك من الأقاصيص كان قاصراً على طبقة من المبتدئين. فقد شرع جبران خليل جبران وهو في شرخ الشباب في كتابة الأقصوصة على سبيل التمرن، لكنه لم يعد إلى ممارسة هذا النوع من الكتابة. أضف إلى ذلك أن المجال لم يفسح لهذا النوع الجديد في مصر إلا ببطء كبير. ولقد حاول الجيل القديم أن يستعمل أسلوب المقامات في النقد الاجتماعي، كحديث عيسى بن هشام لمحمد المويلحي المتوفى في عام 1930، وهو ابن الصحفي النابه إبراهيم المويلحي (1846 - 1906). أما المحاولات الأخرى (عائشة التيمورية ومحمد حافظ إبراهيم) فقد كانت أقل توفيقاً. وهناك مؤلف معروف جرب حظه في الأقصوصة، هو المنفلوطي، وكانت أقصوصته تارة موضوعة، وتارة أخرى منقولة بتصرف، لكن كتابته امتازت بجمال التنسيق وسلامة الأسلوب دون دقة الموضوع أو البراعة القصصية. أما محمد تيمور الذي توفي في شرخ الشباب (1892 - 1921) فيمكننا أن نعده منشئ الأقصوصة المصرية ومبتكر التصوير الواقعي للحياة الاجتماعية الحديثة. فقد كان ملماً كل الإلمام بالآداب الأوربية، قوي الملاحظة، دقيقاً. فوضع أقاصيص صغيرة مأخوذة من صميم الحياة المصرية، بأسلوب يحاكي أسلوب موباسان أو تشيكوف تحت هذا العنوان (ما تراه العيون).

وتقدمت الأقصوصة خطوات إلى الأمام في مؤلفات شقيقه محمود تيمور (المولود في سنة 1894) وهي مجموعة في ستة مجلدات. وأقاصيص محمود تيمور واقعية كأقاصيص شقيقه محمد، لكنها أكثر تنوعاً، وأعمق تحليلاً، وأفصح لغة، وأسهل أسلوباً.

وقد اثر فن التيموريين القصصي تأثيراً كبيراً في جيل الكتاب المعاصرين، ولنذكر منهم: أخوي عبيد، المرحوم عيسى عبيد المتوفى عام 1924، الذي وضع مجموعتي (إحسان هانم وثريا)، وشحاته عبيد الذي كتب (درس مؤلم)، وطاهر لاشين مؤلف (سخرية الناي، ويحكى أن. . . وحواء بلا آدم). وهي مجموعة قصصية امتازت بالطلاوة والفكاهة، ومحمد أمين حسونه مؤلف (الورد الأبيض).

ومن المميزات الجديرة بالملاحظة أن هذا النوع من الأدب وجد أنصاراً مخلصين في البلاد العربية، وجلها تأثرت بمصر إلى مدى بعيد.

وفي العراق كاتبان ذاعت شهرتهما إلى ما وراء وطنهما هما: محمود أحمد (المولود في سنة 1901)، وقد وضع قصة طويلة بعنوان (خالد)، ومجموعة باسم (الطلائع) وأخرى موسومة (في ساع من الزمن)، والقصصي العراقي الثاني هو أنو شاؤول الذي كتب مجموعة (الحصاد الأول).

ولقد ظهرت الأقصوصة العربية في أمريكا (المهجر) في الوقت الذي ظهرت فيه في مصر، وربما قبل ذلك، ولنذكر أولاً عبد المسيح حداد الذي كتب أقاصيص صغيرة كلها فكاهة بعنوان (حكايات المهجر) وهي تكاد تكون صوراً سريعة للحياة العربية في أمريكا، وقد أخذ المؤلف كثيراً من روح أقصوصات جبران، وهناك أيضاً ميخائيل نعيمه الذي خصص في أقصوصته النفسية مجالاً واسعاً لتحليل الروح تحليلاً عميقاً، متأثراً بالأدب الروسي في القرن التاسع عشر.

إذا استطعنا القول بأن الأقصوصة العربية الجديدة وجدت أمامها الطريق اللائق بتقدمها وازدهارها حتى بلغت المكانة الجديرة بها، فإن القصة لم تصل إلى هذا المدى من النشاط، وكل ما رأيناه في هذا المضمار هو بعض محاولات طفيفة.

وقد استهل هذا النشاط بقصة (زينب)، وهي قصة طويلة وضعها في عام 1914 محمد حسين هيكل بك الذي أصبح فيما بعد صحفياً وأديباً نابهاً، وموضوعها منقول عن الحياة الريفية في مصر. أما من حيث اللغة والأسلوب وطريقة الكتابة فقد فتحت فتحاً جديداً، إذ امتازت القصة بأسلوبها الطبيعي الخالي من الصناعة والتكلف، لكنها رغم ذلك لم تلفت الأنظار في بدء ظهورها.

ووضع الدكتور طه حسين (المولود في سنة 1889) قصة دعاها (الأيام) في عام 1927، وسار فيها على أسلوب الأخبار العائلية، وهي تصف طفولة صبي مصري يافع، عاش في قرية صغيرة على ضفاف النيل، والقصة جديرة حقاً بالتقدير، لا من حيث الوصف الحي للحياة الواقعة فحسب، بل كمؤلف أدبي من الطراز الأول في اللغة والأسلوب وطريقة الرواية.

أما مجموعة القصص الثلاث لتوفيق الحكيم فقد رسمت لها خطة واسعة النطاق، ولم ينشر منها حتى الآن سوى القسم الأوسط (عودة الروح) في جزءين (كتبا في سنة 1927 ونشرا في سنة 1933)، وقد خصص هذا القسم للحوادث التي توالت على مصر ابتداء من عام 1920.

وكان لظهور توفيق الحكيم في سماء الأدب أحسن وقع لما امتاز به من التعمق في الفن الروائي، وبراعة الوضع، وسلاسة اللغة؛ وهذه الأمثلة تحملنا على أجنحة الأمل وتدفعنا إلى الاعتقاد الجازم بأن القصة ستحل قريباً المحل اللائق بها في الأدب العربي الحديث.

ج المسرحية (الدرامة)

لم تنبت المسرحية العربية الجديدة من أصول محلية، شأنها في ذلك شأن القصة (فهي لم تأخذ شيئاً من المقامة أو القراقوز أو أسرار الدين الشيعي). وقد شاع فن التمثيل بين الطلبة بفضل الحفلات السنوية التي كانت تقيمها المدارس الأوربية، واعتاد المدرسون أن يضعوا بأنفسهم المسرحيات التي يقوم الطلبة بتمثيلها إذ كانوا يختارون موضوعاتها من التوراة أو من التاريخ اليوناني والروماني القديم (الكلاسيك)، وأخيراً من ماضي العرب.

لم يقتص المسيحيون وحدهم على توجيه عبقريتهم نحو هذا النوع، بل اشترك معهم المسلمون. ففي سوريا، كتب إبراهيم الأحدب مسرحيتي (إسكندر المقدوني) و (ابن زيدون الأندلسي)، ووصل فن المسرحيات الهزلية الأخلاقية إلى نتائج جديرة بالثناء منذ أوائل عهد النهضة الأدبية، بفضل التأثير الأوربي، فقد زار الكاتب السوري مارون نقاش (1817 - 1855) إيطاليا عدة مرات، واطلع على مؤلفات موليير ودرس حالة المسرح الإيطالي الجديد. وما إن عاد إلى وطنه حتى شرع في كتابة ثلاث مسرحيات هزلية على أسلوب موليير، وعهد بتمثيلها إلى فرقة من الهواة، وفي اثنتين منهما صور المؤلف الحياة السورية الحالية. أما الثالثة فهي مقتبسة عن (ألف ليلة وليلة)، وقد نالت تلك المسرحيات بعض النجاح، لكن بعد وفاة المؤلف وهو في ريعان الشباب، لم يحاول أحد أن يسير على خطته، اللهم إلا في بعض المسرحيات الهزلية الصغيرة التي

وضعها طنوس الحر (عام 1860) فإنها لم تصاف من النجاح إلا القليل.
وبعد مضي عشرين سنة ألف الكاتب السوري أديب إسحاق (1856 - 1885) فرقة تمثيلية صغيرة بمدينة الإسكندرية، وهو شقيق سليم النقاش المتوفى عام 1884، واتجهت الميول وقتئذ شيئاً فشيئاً إلى المأساة شبه الكلاسيكية. وكان أغلب أنصار هذه النزعة من رجال حلقة اليازجي والبستاني.
وأول ما ظهر من المآسي (المروءة والوفاء، لخليل اليازجي (1856 - 1889)، وهي قطعة شعرية مستقاة من حادث معروف في أساطير الأدب الجاهلي. ويعد نجيب حداد (1867 - 1899) من أغزر الكتاب المسرحيين في هذا العهد إنتاجاً، فقد ترك ست عشرة رواية مسرحية، أغلبها منقول بتصرف عن مؤلفات كورني وفيكتور هيجو واسكندر دوماس وشكسبير، لكنه ليس من السهل غالباً العثور على الأصل. وكتب أيضاً بعض تراجيديات من وضعه، وهي لا تختلف عن سابقتها في النوع، نذكر منها (صلاح الدين) و (ثارات العرب). ونالت مسرحيات حداد إعجاب الجمهور إذ ظل يتذوقها ويفضلها على سائر المسرحيات العربية حتى نشوب الحرب العظمى، وإن كان الأوربيون يعتبرونها فطرية وغير متناسقة مع حاجات المسرح.
وحاول الكاتب المصري محمد عثمان جلال (1829 - 1898) أن ينفث روحاً جديدة في المسرحية الهزلية الأخلاقية، وفيما عدا ترجمته لمسرحيات راسين وكورني إلى اللغة العربية الفصحى، عزم هذا الكاتب على تنفيذ فكرة جريئة، هي نقل مؤلفات موليير إلى
اللهجة المصرية العامية مع مراعاة الأحوال الأخلاقية المصرية.
لسنا ننكر أن محاولته تدل على مهارة فائقة وعبقرية ناضجة، ولكن اللهجة العامية كانت غريبة على المسرح الذي لم يألفها، ولذا لم تمثل مسرحياته إلا في سنة 1912. تلك هي أهم البواعث التي يعزى إليها قصور التأليف المسرحي العربي على النوع شبه الكلاسيكي.
لما جاءت سنة 1920 كانت بعض الروايات مترجمة وبعضها موضوعة على طريقة نجيب حداد، الذي كان قد أفسح المجال لعدة مؤلفين قديرين نسجوا على منواله. أما بعد سنة 1920 فقد بدأ عهد جديد للأدب المسرحي في مصر بفضل جهود محمد تيمور الذي تحدثنا عنه في صدر هذا المقال.
كان الفن المسرحي موضع عنايته الخاصة، وطالما كتب عن المسائل الخاصة بنظريات الفن المسرحي وتاريخه، كما أنه وضع عدة منولوجات لإلقائها على المسرح، وقد ترك أربع روايات مسرحية: روايتين هزليتين، ودرامة وأوبريت. أما حوادثها فتجري كلها في مصر الحديثة، عدا الأخيرة فهي مقتبسة عن مصر في عهد المماليك.
ومسرحيات تيمور تمتاز بالروح القوي، وتراه يدب فيها بفضل استعماله اللغة المصرية الدارجة، كما أن صفاتها المسرحية العظيمة جديرة بالتسجيل، ولا شك أنها في مقدمة المسرحيات المعبرة عن الحياة العصرية، وهذا من أقوى البواعث التي يعزى إليها نجاحها.
وفيما عدا هذه المسرحيات، فقد نجح ميخائيل نعيمه في المهجر، وفي وضع مسرحية هزلية أخلاقية، امتازت بما فيها من التحليلات النفسية الأخلاقية الرائعة؛ هي رواية (آباء وأبناء) - 1917 - ووقائعها مأخوذة عن الحياة السورية العصرية، وخصصت المقدمة لمسائل مبدئية، مما يدل على اهتمام المؤلف اهتماماً جدياً بالمشاكل التي يثيرها التأليف المسرحي، ولا ريب في أن هذه الجهود تعد فاتحة خير للفن المسرحي العربي.
والمسرحيات المصرية التي وضعها أنطون يزبك (خصوصاً الذبائح) المكتوبة باللهجة العامية، تدل على تقدم مطرد بالنسبة لسابقاتها. وقبيل عام 1930 حاول الشاعر الكبير احمد شوقي بك أن يعيد إلى التراجيدية شبه الكلاسيكية رونقها وبهاءها، فخلف بعد وفاته عدداً من المسرحيات الشعرية المنقولة عن التاريخ المصري القديم أو تاريخ العرب
ونجحت هذه المسرحيات نجاحاً باهراً بفضل تناسق روحها الشعرية الجميلة المكتوبة بأسلوب عربي قديم صحيح (كلاسيك) فجاءت مطابقة لذوق الجيل الحالي، وإن كانت لا تعد تقدماً في تاريخ المسرح العربي.

(يتبع)
ترجمة محمد أمين حسونة
إلى الوفد السوري
أيها الظافر المتوج بالنور!
للشاعر (أبو غسان)

أقبل الفجر يا هزار ومَنْ من ... ك ومني بمتعة الفجر أحرى
ما ترى الورد قد تفتح للنو ... ر وقد أوشك الندى أن يفرا
والشحارير قد تيقظن للشد ... ووأيقظن في الخمائل عطرا
والفراشات قد جرين إلى الحق ... ل يفيض النثير عنهن تبرا
وسرت رعشة الحياة إلى الكو ... ن تهز الوجود أنساً وبشرا
موكب من مفاتن وجلال ... هب يستقبل الصباح الأغرا
موكب للجمال، للحق، للحب ... ترف المنى حواليه سكرى
طِرْ بنا يا هزار نلتمس الرو ... ض فقد آن للأسى أن يُسَرَّى
ننفض الصبر والأسار فقد كد ... نا، رعاك الإله، نهلك صبرا
نحن في هدنة الكفاح مع الليل ... وقد يعقب الكفاح الأمَرَّا
فتعجل شذا الصباح فما تد ... ري لعل المسآء يحدث أمرا
كم ترقبت ذا الضياء وقد جن ... (م) عليك الدجى أذىً واكفهرا
وشكوت الظلام يصهر جنبي ... ك عذاباً ويفعم الأرض ذعرا
فاستمع للبشير يا لدة النف ... س يساقط عليك أسعد بشرى
ويضح الأفق بالسناء فتفتر ... (م) الروابي ويرقص الدوح سكرا
ويغني الرواح بالأمل العذ ... ب فتهفو الأرواح لله شكرا
هو فجر الخلود إثر دياج ... غمرت بالفناء عشك دهرا
هو فجر الأحلام منَّ به الله ... (م) على أنفس إلى الفجر حَرَّى
أي بشير السماءِ: ألأرضُ قد ضا ... قت لك آلله بالتنظُّر صدرا
هاتها نفحة من النغم العل ... ويّ ترجعْ ذوابل الحلم نضرا
هات ما شئت عن وفادة باريس ... وأحدث مما هنالك ذكرا
هل عنا الخصم بعد كبرٍ وهل آ ... من بالحق بعد كفر وبرا
وصراخ الضعيف هل لقي السم ... ع وقد طالما نأى عنه وقرا
وهل القوم أيقنوا أن في الشا ... م أباة لا ترتضي العيش أسرا
قد نماها إلى العلاء أماجي ... د لهم في الزمان أمجد ذكرى
لقنوا الكون برهة مثل العد ... ل وفاقوا الأنام عزماً وفكرا
وأفاضوا على دُنى الغرب بالنو ... ر وكانت، إلا من الجهل قفرا
والأماني يا بشير أحقًّا ... شوهت حسنها الثعالب مكرا
أم أراجيف ذو الضلالة قد دس ... (م) لظاها على الحقيقة كفرا
فأزل باليقين من يدك الري ... ب وأدرك به النفوس فتبرا
قد شرى الشعب بالدماء أماني ... هـ فلا غرو إن غلا الشعب حذرا
ولأنت الحكيم يا قائد الشعب ... وحاشاك أن تُزَلّ وتغرى
إن في وجهك النبيل من العز ... لآيا على جبينك تُقرا
وبكفيك من جراح العوالي ... لخضاب الكمى أحرز نصرا
أو لست الصفيَّ من حرس المجد ... عركت الأيام مداً وجزرا
فيك من قلب (هاشم) حكمة الده ... ر ودنيا من رأس (فارس) أخرى
وبك العبقري من دوحة الصل ... ح يروع النهى جلالاً وسحرا
ومن (السعد) عزمة الليث قد سي ... م اعتسافاً فطبق الجو زأرا
ودهاء ابن (مردم) في السياسا ... تِ ومن ثمَّ كابن (مردم) خبرا
همم تصدع الجبال وتنهد ... لديها معاقل الدهر حسرى
ليس بدعاً أن تسترد إلى الر ... بع سليب الرجاء والحق قسرا
أي بشير انظر الخلائق يكتظ ... (م) بها الرحب كالخضمات زخرا
زحفت من جوانب الأرض تجتا ... ز إليك الدروب سهلاً ووعرا
ترهف السمع ترقب النبأ الأعلى ... وترنو إليك تسأل بشرى

ملت العيش في القيود فما تأ ... لو كفاحاً أو تنزع العيش حرا
راعها الأفك من حضارة أورو ... با تجني على الحضارة وزرا
تحجب المخلب المحدد بالصب ... غ خداعاً وتزعم الخير شرا
وستراق الشعوب أمناً وتحر ... يراً وقتل الأرواح بالرق نشرا
فمشت تنشد الحياة لتمحو ... وصمةَ الغرب بالحضارة غرا
تستمد اليقين من شرف الأم ... س وتنضو إلى الغد العزم بكرا
فتوقل بها ذرى المجد تطلع ... في سماء التاريخ ما شئت فخرا
جادلتك الخصوم فيها وما كن ... ت لتعيى وأنت أكرم عذرا
فأقم للخصوم في مقبل العه ... د على قدرها الدليل الأغرا
وأدر دفة السفينة تجنبْ ... عاصفاً يرمق السفينة شزرا
لأرى الأفق قد تلبد بالسح ... ب وقرن الخلاف في الركب ذرا
شرر يستطير في الوطن الباكي ... وخطب يكاد أن يستحرا
فتدارك بالمبضع الداء في المه ... د وإلا فيا له الله أمرا
واصطلمها فوضى يسعرها الطي ... ش على الحي ذو الحماقة غرا
قد ختمت اليوم الجهاد صغيراً ... وبدأت الجهاد أكبر حرا
إن يك العهد في النضال عسيراً ... إن عهد البناءِ أوفر عسرا
ولأنت المرجو إن حزب الده ... ر وأعظِم (بكتلة) الحزم ذخرا
أيها الظافر المتوج بالنو ... ر تباركت للهداية بدرا
قد مَهَدْتَ السبيل للهدف الأس ... مى ووفيت جهدك العهد برا
فتقبل تحية الساحل الشا ... كر عصماَء صغتها لك شعرا
حرة لم تهم بغيرك عرساً ... وَهْيَ تأبى إلا رضاءك مهرا
حفها بالحياة والروح غرا ... ن بهم أنت والمكارم أدرى
من بقايا سيوف (فيصل) في الشط ... رعى الله عهد (فيصل) ذكرى
المشبين ثورة الجبل السا ... مي دجى الأمس والشدائد تترى
جبناء اللسان في زمن القول ... وأسد الوغى إذا الهول كرا
وعظيم تحية الوطن المفجوع ... يمناه في مدى الروع تُغرى
يتملى بمقلة فرح الشا ... م وتبكي منه فلسطين أخرى
غرقت بالدماء في الحرم الأ ... قصى وعاثت بها يد اللص غدرا
تتلظى حمراء في (جبل النا ... ر) وتهوى بجانب (المهد) كسرى
تسأل الغوث أهلها فإذا الغو ... ثُ من الأهل كالقطيعة نزرا
لكأني بالقوم قد حسبوا لحق ... عطاء والواجب المحض برا
وكأن لم تكن فلسطين للإسلا ... م قلباً وللجزيرة طرا
أيبيت الأحرار في حُفر الأر ... ض ونأوى إلى القصور مقرا!
وتعاني الطوى ويُتخمنا الشب ... ع، ونختال في الحرير وتعرى!
ونصبُّ الأموال في سُبل اللهـ ... وونشكو إذا دعا الجد فقرا!
نوَّر الله يا دمشق محيا ... كِ ولا زلت للعروبة ظئرا
قد شفيت الأخاء نحو فلسطين ... وقاسمتها الأسى مستمرا
فأعدى، وَقد فرغت، لها الجه ... د جديداً وَالعون أعظم قدرا
(اللاذقية)
(أبو غسان)
القصص
نومان. . .
- مكانكم!
لويت عنان فرسي نحو مصدر الصوت الآمر، ولكن العثير الذي أثارته حوافر الشياه حال دون أن أرى شيئاً، وصبرت قليلاً فلاح لي خلال ذرات التراب الحائرة أربعة أشباح قد اعترضت سبيل الماشية فحالت دون سيرها، ولما همد الغبار تبينت في الأربعة الأشباح أربعة رجال قد ضرب كل منهم لثامه على وجهه فلم يبن منه إلا عينان كعيني الصقر، وتمنطق كل منهم بحزام من الرصاص لمعت ظروفه النحاسية

تحت أشعة الشمس المائلة للمغيب، وسدد كل منهم فوهة بندقيته الكامدة نحونا، لا يتحرك ولا تطرف عينه.
وانطلق الصوت الآمر مرة أخرى أجش:
- مكانكم قبل الهلاك!. . .
وأدرت رأسي ببطء نحو رفاقي في رحلتي، وكانوا ربعة نفر من جنود الشرطة السورية، فتبينت وجوهاً علاها الاضطراب، ورؤوساً منكسة الأذقان؛ ورأيتهم وكل قد خفض بصره فزعاً، يخالسون الأنظار ويسترقون الرؤية؛ فكدت، أنا موظف الحجز في محكمة (الرقة) أقهقه في الموقف العصيب من أمر هؤلاء النفر، يرتعدون هلعاً وفي كتف كل منهم بندقية كأنما علقت بإشارة ناطقة على الجبن والخور.
وساد صمت قصير لم يقطعه إلا حوافر الخيل تضرب الأرض، وارتفع بعدها الصوت الأجش:
- هذا الطريق إلى (الحان) فدونكموه. . . هيا!
سكت أصحابي ولكني قلت مستفهماً:
- وهذه الماشية المحجوزة؟
- الماشية لنا. . . هيا. . .
كان جواباً حاسماً، ولكن رئيس الجنود جمع شتات شجاعته وصاح معترضاً:
- وكيف نتركها لكم؟ هذا لن يكون. . .
وقبل أن يلفظ الحرف الأخير دوى صوت الطلقة التي أطاحت قبعته
- هاه! هيا سيروا، ولا يلتفتن أحد وراءه. . .
وكان أول من لكز حصانه رئيس الجنود وقد ملكه الذعر فأرسل العنان لفرسه لا يلوي على شيء، وأرسلنا الأعنة لخيلنا، نريد أن نبلغ (الحان) قبل المغيب.
لاحت لنا بيوت الشعر من قرية الحان وبين الشمس وبين أن تغيب قليل، وكانت خيولنا تسير ببطء وتثاقل، كأنما تحس بما عليها من عار وخزي، وكان الجنود ساهمين لا ينبس أحدهم ببنت شفة، فكأن الخوف والخجل تكاتفا على إظهارهم بمظهرهم هذا الذليل؛ وسرت خلفهم منعزلاً عنهم أفكر في هذه المهزلة التي أكرهنا على تمثيلها. فلما لاحت لي أطلال (الحان) العتيق تحيط بها بيوت الشعر عنت لي فكرة، فعزمت على أمر.
تلقانا مختار القرية، الذي كنت به وبأهل قريته عارفاً، بخير ما يتلقى المرء، ولما ترجلت انتحيت به ناحية وقلت له:
- أريد نومان
فرفع إلى رأسه ثم ألقى على أصحابه الجنود نظرة أعادها إلي في دهشة وتساؤل، فتبسمت وقلت:
- لا تخش شيئاً، لست أجهل أن نومان طريد الحكومة ولكني أطلبه
فحرك كتفيه باستسلام وقال:
- كما تشاء
ومضى، ولم تكن إلا برهة حتى عاد وأسر إلي: (هو سينتظرك عند الجدار الغربي من الحان)، فيممت المكان الذي ذكر، فلاح لعيني فتى طويل القامة متين البناء، ملق عباءته على رأسه، ومرخ لثامه على وجهه، وفوق منكبيه تنوس ضفيرتان بلون الليل على ثيابه البيضاء، قد اقترن حاجباه فوق اللثام، ولمع مقبض خنجره خلف الحزام؛ ومذ رآني خف إلي مصافحاً فتعانقنا، وبادرته:
- هيه يا نومان!
فأجابني صوت صافي النبرات رنان:
- يا لبيك! ما وراءك؟
فأخبرته الخبر وما سينجم عنه، ثم قلت له:
- أنت وما ترى، فلقد طرحت الأمر عن عاتقي
فلمعت الابتسامة خلف اللثام الكثيف، وقال بلهجة الحازم الواثق:
- لعينيك أبا خالد، فسيبلغك خبري. . .
وابتعد عني يتخطى الأطناب متغلغلاً بين البيوت، وعاد بعد يسير معتلياً صهوة فرسه وقد تمنطق بحزامين من الرصاص وبندقيته في يده، فلما بلغ موقفي لكز الجواد وجال

على ظهره جولة ثم قذف بالبندقية في الهواء وتلقفها بأصابعه والجواد يعدو، ثم هتف بي:
- إلى اللقاء، فانتظرني
وأتبعته نظري وقد سار في الطريق الذي جئنا منه حتى حجبه عن عيني الغبار الثائر تعددت الطلقات تمزق سكون الليل البهيم، فانتبه رفاقي بعد أن أخذ الكرى بمعاقد أجفانهم فهوموا، وأرجف من في مضيف المختار من رجال القرية أسماعهم إلى الأصوات برهة، ثم انصرفوا إلى ما هم فيه من حديث؛ أما المختار فقد نظر إلي نظرة المستفهم، فأجبته بابتسامة الخبث وقد فهمت ما يريد؛ فهز رأسه وتمتم بكلمات غير مفهومة. وكانت أصوات البنادق لا تزال تلعلع حيناً بعد حين، آناً متفرقة وطوراً متوالية متقاطعة؛ وبعد هنيهة سكت كل شيء، فوجب قلبي وتوجست خوفاً من هذا السكون، وقد حدثتني النفس بمصاب نومان، غير أني طردت أفكار السوء وخرجت من المضيف.
كان ليل البادية زاهياً، نجومه الوضيئة المنتثرة في نواحي السماء الزرقاء، ونسيم أول الربيع البليل يعبث بأروقة البيوت وكواسرها، وعواء الكلاب يتردد في أطراف المنازل تارة وينقطع أخرى، ولاح لي (الحان) كشبح جبار أسود حاثم في الفلاة المترامية الأطراف، فوضعته نصب عيني وأصخت بسمعي إلى الطبيعة الساكنة.
كم هي رهيبة هذه القناطر المعقودة والأقواس المتتالية في ردهات (الحان) العتيق! كم هي مهيبة هذه الأعمدة المتوازية التي تملأ أبهاءه مشققة السطوح مهشمة الرؤوس! وهذه الجدران التي لم يذهب من حجارتها، على كر القرون والعصور، إلا ما أخذ أثافي للقدور وأركاناً للمواقد! لقد جلت في قاعات هذا القصر القديم ونظرت خلال خروق السقوف من غرفة إلى الكواكب الزاهرة، ثم رقيت الجدار وأرسلت بصري يجوب أنحاء البادية، ولكن عيني لم تقع إلا على فلاة موحشة سوداء ونجوم تليها نجوم لا يبلغها حصر، ويعيا عن عدها الفكر.
وانتابتني الهواجس مرة أخرى، ولكن الغبار القاتم الذي ثار عند مد البصر قشع غيومها؛ فقد ميز سمعي في هدأة الليل وقع حوافر الشياه على رمال الطريق فانجابت عني الشكوك وملأ قلبي الفرح وقد تبينت صوت نومان يحث الشياه على المسير.
ونبحت الكلاب هذا الفوج من الطارقين فأوقدت النيران وحمل كل قبساً ليتبين هذه الغبرة الغريبة، قلما اقترب القادمون رأيت على ضوء المشاعل منظراً يملأ الصدور حبوراً ويثير العواطف والشعور: قطيع من الغنم يتلوه أربعة رجال مشمرو المآزر ملثمو الوجوه، قد كتفت أيديهم مكن خلاف وعلقت بنادقهم في الأعناق، يسوقهم سوق الماشية فتى متين الهيكل، شديد الأسر، ملطخ الثياب بالدماء القانية، قد اعتلى صهوة جوادٍ أشقر، تنوس على كتفيه ذؤابتان طويلتان كلما حرك رأسه ليرد تحية محي.
فقزت عن الجدار وعدوت أشق الجموع إلى نومان هاتفاً
- المذبَّة المذبَّة أبا صخر!
- أبشر أتاك الخير. . .
ومد ذراعيه فاعتنقته.
كان لهيب النار الموقدة في ساحة (الحانة الكبرى) يتلوى كرؤوس الثعابين فترقص له الظلال على الأقواس الرهيبة والأعمدة المرمرية الهائلة، وكان نومان قائماً في وسط الساحة معتمداً على بندقيته ينظر إلى أسراه نظر الصقر إلى الفريسة، كرمز للبطولة والنبل.
رفع البطل رأسه ثم أداره ببطء على الحاضرين ثم قال:
لقد اجترأ هؤلاء فقطعوا الطريق على فلان وصحبته، فأشهدكن أنه حر في حكمه عليهم. . . أعندك ما تقول يا أبا خالد؟
- لا، غير الشكر الذي أعجز عن وصفه.
فأطرق قليلاً ثم قال:
- لقد وفيت بما وعدت، وحكمتك فحكمني
فقلت له:

- إنما أنا رهن إشارتك، وحكمك نافذ. فمر تطع
- أسراي أطلقهم
وبين زغاريد النساء وهتاف الرجال فك نومان وثاق الأسرى، وسار إلى الباب رافع . . . الرأس، بقدم ثابتة وخطى جبارة.
(حلب)
(ع)
البريد الأدبي
نقل تراث الأندلس من الاسكوريال
في الأنباء الأخيرة عن الحرب الأهلية الأسبانية أن حكومة مدريد قد نقلت على جناح السرعة جميع التحف الفنية والكتب الخطية من دير الاسكوريال إلى مدريد خوفاً عليها من التلف الذي تتعرض إليه من جراء الحرائق والقنابل، ونحن نعرف أن قوات الثوار تحدق الآن بمدريد وأنها على قيد مسافة قليلة من ضاحية الاسكوريال، وقد وقعت أخيراً حول الاسكوريال عدة معارك طاحنة. وفي تصرف حكومة مدريد ما يعدو إلى الثناء خصوصاً إذا علمنا أن بين هذه التحف الفنية التي نقلت إلى مدريد مجموعة الكتب الأندلسية التي كانت محفوظة بالاسكوريال؛ ويبلغ عدد هذه المخطوطات النفيسة التي هي آخر بقية من تراث الأندلس الفكري نحو ألف وتسعمائة مجلد؛ بيد أن نقلها إلى مدريد لا يبعد عنها كل الأخطار المحتملة، ذلك لأن مدريد أصبحت محصورة بالقوات الثائرة من كل ناحية، وقد لا تمضي أيام قلائل حتى تسقط في يد الثوار، وعندئذ يعلم الله وحده ما يصيب المدينة وكل ما فيها من ألوان التخريب، غير أن هنالك من جهة أخرى ما يحمل على الاعتقاد بأن حكومة مدريد تغنى بنقل جميع هذه التحف الفنية إلى مكان أمين بعيد عن العاصمة، وربما نقلت إلى برشلونة حصن الحكومة الديموقراطية وملاذها بعد مدريد، وهي أبعد ما يكون عن الخطر. فإذا صح ذلك كان باعثاً إلى نوع من الاطمئنان على هذا التراث النفيس الذي يزعجنا اليوم مصيره، والذي نوهت (الرسالة) غير مرة بما يتهدده من الأخطار، وما يجب على الأمم الإسلامية والعربية في شأن الدعوة إلى حمايته وصونه.
ترجمة للفيلسوف مندلسون
صدرت ترجمة جديدة جامعة للفيلسوف الألماني اليهودي الأشهر موسى مندلسون بقلم الكاتب الألماني أوتو تسارك وقد ظهر الكتاب في امستردام (هولانده) لأن الكتب المتعلقة بالتاريخ اليهودي أو الفلسفة اليهودية لا يسمح الآن بنشرها في ألمانيا، وعنوانه (ترجمة مندلسون) وفيه يستعرض الكاتب حياة هذا الفيلسوف منذ مولده في سنة 1729 في دساو، وهي نفس السنة التي ولد فيها الشاعر لسنج صديقه الحميم فيما بعد. وقد اشتغل مندلسون بادئ بدء كاتباً في محل تجاري، كما اشتغل الفيلسوف موسى بن ميمون بتجارة
السمك، والفيلسوف اسبينوزا بصقل الزجاج؛ وفي سنة 1754 تعرف بالشاعر لسنج وتوثقت بينهما أواصر صداقة أدبية متينة، وأصدرا معاً كتاباً عنوانه (بوب المشتغل بما وراء الطبيعة)، ونشر له لسنج بعد ذلك (محادثاته الفلسفية) غفلاً من اسمه، لأن العصر لم يكن يسمح بالتوسع في المسائل الفلسفية العميقة؛ وأصدر لسنج بعد ذلك كتابه (ناتان الحكيم) واتخذ مندلسون بطلاً لقصته. ولكن مندلسون بلغ ذروة القوة والابتكار حين أصدر كتابه (فيدون) في سنة 1767؛ ويعتبر كتاب مندلسون بداية عصر جديد في الأدب الألماني الصحيح لأنه يحمل فيه على الحركة الأدبية المتأثرة بنفوذ الأدب الفرنسي ونفوذ فولتير، ويحمل كذلك على فردريك الأكبر لأنه شجع هذه الحركة؛ ولم يغضب فردريك الأكبر لهذه الحملة بل بالعكس سر لها وطلب مندلسون لرؤيته؛ ولمندلسون نظرية في الجنسية اليهودية خلاصتها أن يندمج يهود كل أمة في جنسية هذه الأمة اندماجاً تاماً، وإلا يجعلوا لأنفسهم من اليهودية نفسها جنسية خاصة، ولكن المتعصبين لم يقبلوا نظريته، وأصروا دائماً على اتخاذ اليهودية ذاتها جنساً وديناً؛ وقد كان لمندلسون تأثير عظيم في توجيه الأدب الألماني الحديث.
وموسى مندلسون هو جد الموسيقي العظيم فيلكس مندلسون الذي ولد في سنة 1809 وتوفي في سنة 1847
وتعتبر هذه الترجمة الجديدة من أقوى التراجم التي صدرت عن مندلسون، وقد اشتهر

مؤلفها اوتو سارك من قبل بترجمته لكوسوت بطل المجر القومي.

الوطنية واستعباد الفكر

خطب الدكتور جبلز وزير الدعاية الألمانية في معرض الكتب في مدينة فيمار، فأشار إلى مركز الكاتب بالأمس ومركزه اليوم في ألمانيا النازية، وشبه الكاتب بالجندي الذي لا يصح له أن يطلق الرصاص إلا متى أمر وحيث أمر، فكذلك الكاتب يجب أن يكون جندياً من جنود الوطن لا يكتب إلا فيما اتفق مع مثل الوطن وغاياته؛ ويجب أن تحد حرية القلم بالحدود التي يتطلبها الوطن وألا يتخذ الكاتب من (فرديته) وحريته الفكرية سبيلاً إلى التصريح بما يخرج عن المثل القومية. والدكتور جبلز هو أوفر العصبة النازية ثقافة، وربما كان أشدهم شعوراً بما انتهت إليه الحركة الفكرية والثقافية في ألمانيا النازية من

التدهور، ولذا نراه ينتهز كل فرصة للدفاع عن السياسة النازية في تصفية الذهن والقلم؛ بيد أن الدكتور جبلز يدافع عن قضية لا يمكن الدفاع عنها؛ فالفردية وحرية الفكر هما أساس المدنية؛ والفردية معناها الكرامة الإنسانية، وحرية الرأي هي أسمى ما يتمتع به الفرد في أمة متمدنة، ويكفي أن تعرف أن الصحافة الألمانية انتهت في عهد النازي، وبفضل القوانين الحديدية التي يسهر على تنفيذها الدكتور جبلز إلى حالة تدعو إلى الرثاء، وقد اختفت الصحف الكبرى الصحافة الألمانية، وأضحى الألماني يرغب عن قراءة الصحف الألمانية، ويؤثر قراءة الصحف الأجنبية، ولم تظهر في الأعوام الثلاثة الأخيرة عبقرية فنية ذات شأن أو أي إنتاج أدبي يلفت النظر، ولا يمكن أن تظهر في ظل هذا النظام الحديدي الذي يجعل من القلم أداة مصفدة توجهها السلطات حيث شاءت. ومما يدعو إلى التأمل أن الدكتور جبلز يلقي خطابه في استعباد حرية الذهن في فيمار حيثما سطعت أعظم عبقرية أدبية ألمانية في ظل الحرية ونعني جيته.

كتاب عن روبرت والبول

روبرت والبول من أعظم ساسة إنكلترا وساسة العصر الحديث؛ ويعتبر هو الواضع للأساليب السياسية المحافظة التي مازالت إلى اليوم توجه السياسة الإنكليزية.

وقد صدرت أخيراً ترجمة مطولة لهذا السياسي الكبير في ثلاثة أجزاء بقلم الكاتب الإنكليزي ف. س. أوليفر الذي توفي قبل تمام ظهر كتابه، بعنوان (المغامرة اللانهائية) ومستر أوليفر ليس من الكتاب المحترفين، ولكنه كاتب هاو، وقد كان تاجراً كبيراً، ولكنه اشتهر حينما أصدر كتابه عن (اللورد هاملتون) السياسي الكبير، وظهرت مقدرته في الوصف والتحليل في كتابة التراجم.

ويعرض مستر اوليفر حياة روبرت والبول في إفاضة، ويصف الأساليب السياسية في القرن الثامن عشر في العصر الذي ملك فيه والبول زمامها (أوائل القرن الثامن عشر)؛ ويدلل على أن هذه الأساليب كانت تقوم على نوع من الطغيان السياسي الذي يسود اليوم بعض الدول العظمى؛ ويقص علينا خلال ذلك حوادث هذا العصر السياسية.

ويرى مستر أوليفر أن أعظم فارق بين السياسة في ذلك العصر وبين السياسة في عصرنا هو في مقدار القوى التي يجب على السياسي العظيم أن يسيرها؛ ففي القرن الثامن عشر

كان عليه أن يقود زمام جماعة من الملاك، وملك، وملكة، وبعض الحظايا؛ ولكن عليه اليوم أن يقود زمام ملايين الناخبين، وزمام صحافة غدت في عصرنا قوة هائلة تختلف نزعاتها ومصالحها.

مدرسة للفن المسرحي

أنشأت الحكومة النمسوية أخيراً مدرسة فنية من نوع خاص هي (مدرسة أساتذة الفن المسرحي)؛ وتعنى هذه المدرسة الجديدة التي ألحقت بأكاديمية الفنون الجميلة، بتعليم كل ما يتعلق بتنظيم المناظر المسرحية وزخرفة المسرح والإخراج المسرحي، وانتدب للتعليم فيها أشهر أساتذة هذا الفن من الأخصائيين في الزخارف وتنظيم الثياب والإخراج وغيرها. ومدة التعليم فيها سنتان؛ ويدخلها الطلبة بعد جواز امتحان فني يثبت أهليتهم لتلقي الشؤون المسرحية؛ والتعليم علمي وعملي بحيث يقضي الطلبة نصف اليوم في تلقي الدروس النظرية، ثم يقضون باقي اليوم في نفس المسارح لتلقي التجارب العملية. وتمنح للطلبة الفائزين بعد عامين (دبلوم فنية)

للعمل في المسارح كأساتذة للإخراج الفني.

ذكريات صحفي شهير

صدر أخيراً بالفرنسية كتاب للصحفي الشهير لوسيان كوربشيه عنوانه (ذكريات صحفي) ` في مجلدين كبيرين؛ وقد كان كوربشيه من أعظم صحافيي ما قبل الحرب، يكتب في أشهر الصحف الباريزية، وكانت له علائق أدبية وثيقة بأعاظم كتاب العصر ولا سيما الكاتب اللوريني الأشهر موريس باريس. ويتناول الجزء الأول منه ذكريات كوربشيه أحوال باريس ومجتمعاتها قبل الحرب، وهو بهذه الصفة وثيقة تاريخية ثقافية لها قيمتها؛ ويتناول الجزء الثاني حياة كاتبين عظيمين هما موريس باريس وبول بورجيه، وقد كان باريس يتولى زعامة فرنسا الأدبية في بعض المناحي ولاسيما الكتابة السياسية الوطنية، وكان بورجيه يتولى الزعامة الأدبية في عالم النقد والتحليل النفسي؛ وقد استطاع كوربشيه أن يقدم لنا صوراً حية قوية من هذين الكاتبين، ومن الآثار العميقة التي أحدثاها في جيل عصرهما الأدبي والثقافي؛ ويبدي كوربشيه فوق ذلك حبه وإعجابه العميق لهما. ويعتبر كتاب كوربشيه نداء للشباب والجيل الجديد يذكره بالقديم وما كان فيه من عظمة تفي التفكير، وارتفاع عن مناحي الأدب المنحل الذي يغمر كل شيء في عصرنا.

ذكرى الموسيقي لست

احتفل أخيراً في فينا بذكرى الموسيقي الشهير فرانز لست لمناسبة مرور خمسين عاماً على وفاته؛ وهذا الاحتفال هو صدى احتفالات قومية عديدة أقيمت في بودابست احتفاء بهذه الذكرى لأن لست مجري المولد والجنس، ولكنه درس في فينا، وفيها بزغ مجده، وكان مولده في سنة 1811 ووفاته سنة 1886؛ وبرع لست في العزف على البيانو وفي التصنيف الموسيقي، وله بالأخص قطع كنسية رائعة؛ وطاف بباريس ولندن ومعظم عواصم القارة وخلب الألباب بافتنانه وسحره، وكتب عن رحلته كتاباً سماه (أعوام الحج)، وله مصنفات موسيقية في المقام الأول.

وقد أهدت الحكومة المجرية بهذه المناسبة إلى مدينة فينا لوحة تذكارية عن لست؛ واحتفلت الحكومة بوضعها في دير (شوتنهوف) في احتفال رسمي فخم شهده وفد عن الحكومة المجرية، وشهده جمع كبير من الوزراء وأقطاب الفن؛ وألقيت خطب عديدة عن حياة لست وعن عبقريته الفنية؛ وعزفت قطع من تصنيفه ونوه الفريقان بالدور العظيم التي تقوم به ذكرى لست في توثيق الروابط الثقافية والفنية بين الشعبين المجري والنمسوي

دوهامل ومستقبل الكتب

يكتب الآن مسيو جورج دوهامل عضو الأكاديمية الفرنسية في مجلة (مركير) الشهيرة عدة مقالات عن مستقبل الكتب، وما يهددها من أخطار عظيمة من جراء السينما والراديو وغيرهما من الوسائل المصطنعة لنشر الثقافة السطحية؛ وقد كان مسيو الفريد فاليت يكتب في مجلة (مركير) في نفس الموضوع قبل جورج دوهامل؛ ويلاحظ مسيو دوهامل في مقالاته القوية الممتعة أن هذا العصر الذي يهدد فيه مصير الكتب بأشد الأخطار، هو العصر الذي اشتدت فيه حاجة الإنسان إلى (الكتاب) الجيد، وينعى على الحركة الأدبية المعاصرة ما تبديه من الميل إلى جعل الأدب سلعة تجارية وجعله آلياً وتجريده من كل عناصره المعنوية، وذلك طبقاً لأساليب تجعل من الذهن سلعة تجارية منحطة. ويزمع مسيو دوهامل أن يجمع هذه المقالات في كتاب خاص تنتظره الدوائر الأدبية بفارغ الصبر.

وفاة علامة أثري

نعت أنباء فينا الأخيرة العلامة الأثري الدكتور ولهلم كوبتشك توفي في التاسعة والسبعين من عمره، وكان مولده بمدينة برسبورج؛ ودرس التاريخ القديم واللغات القديمة في فينا وبرلين، واشتغل منذ شبابه بالتدريس في جامعة فينا، ثم عين بعد ذلك أميناً لمتحف النقود والمداليات القديمة، وأستاذاً للتاريخ الروماني في جامعة فينا.

وقد اشتهر الأستاذ كوبتشك بمباحثه في مسائل التاريخ، القديم ولاسيما التاريخ الروماني وقراءة النصوص والآثار القديمة وفحص النقود والمداليات القديمة واستقراء التواريخ والحوادث فيه؛ واشتهر أيضاً بمباحثه في الجغرافيا الرومانية القديمة خريدة القصر للأصبهاني والذخيرة للإمام القرافي

ذكرنا في العدد 168 من (الرسالة) أن الجمعية الآسيوية البنجالية عثرت على جزء من كتاب (خريدة القصر) للأصبهاني، وأنه عثر على نسخة من كتاب الذخيرة للإمام القرافي في مكتبة الأزهر. وقد جاءنا من أمين مكتبة كلية القرويين بفاس ما يأتي:

يوجد بخزانة كلية القرويين العامة بمدينة فاس تحت نمرة (البرنامج الجديد) ل 576 جزءان من كتاب خريدة القصر وجريدة العصر للإمام أبي عبد الله محمد بن محمد الكاتب عماد الدين الاصبهاني المتوفى سنة 597هـ موافق 1200م وهما الجزء الخامس والسادس من النسخة. أول الخامس (قافية العين من شعر القاضي أبي بكر الأرجاني في مدح الوزير جمال الدين أبي علي وزير المسترشد بالله، وفي آخره آخر القسم الثاني من كتاب خريدة القصر وجريدة العصر يتلوه القسم الثالث في ذكر محاسن شعراء الشام في الجزء السادس، وينتهي هذا الجزء السادس بقوله: تم الجزء السادس ويتلوه الجزء السابع وهو الثاني من القسم الثالث الأمراء الكنانيون من شيراز، وهما جزءان ضخمان كتبا بخط جميل أندلسي في كاغد متين خاليين من كل طرة فاقدين اسم الناسخ وتاريخ النسخ إلا أن إمارات القدم تلوح عليهما، وقد كانا مملوكين لجناب أمير المؤمنين المنصور الذهبي السعدي المتوفى سنة 1012هـ موافق 1785م بآخر أحدهما ما نصه: برسم خزانة مولانا أمير المؤمنين الخليفة المجاهد أبي العباس المنصور بن مولاه أمير المؤمنين الخليفة المجاهد أبي عبد الله محمد الشيخ. وعلى الجزءين معاً وقف هذين الجزءين على خزانة كلية القرويين العامرة، على التحبيس خط يد السلطان المنصور الذهبي السعدي سنة 1012هـ موافق 1782م.

ويوجد أيضاً منه قطعة أخرى مبتورة الأول والآخر كانت مجهولة فأعملت المجهود لكشف عنها فوجدتها من جريدة القصر ونظمت تحت عدد ل 604.

كذلك توجد الذخيرة على مذهب إمام دار الهجرة للعلامة الشهير الإمام القرافي شهاب الدين أبي العباس أحمد بن إدريس المالكي مذهباً المتوفى سنة 684هـ 1282م تحت نمرة ل 354 غير تامة. الموجود منه الآن تحت النظام ثلاثة أجزاء ضخام جداً، وأصل هاته النسخة من ثمانية أجزاء بدليل ما رقم على الجزء الثامن منها ونصه: (السفر الثامن من كتاب الذخيرة على مذهب إمام دار الهجرة النبوية وفيه من الأبواب الفقهية كتاب أمهات الأولاد، كتاب الجنايات، كتاب موجبات الضمان، كتاب الفرايض والمواريث، كتاب الجامع. فلا شك أن هذا هو الجزء الأخير، وعندنا الجزء السادس وفيه من الأبواب الفقهية كتاب الحبس والوصية والشفعة والشركة. وبآخره: كمل الجزء السادس من الذخيرة بحمد الله وحسن عونه يتلوه في السابع إن شاء الله كتاب الرهون.

وعندنا جزء آخر كتب عليه أنه الخامس من كتاب الذخيرة وعند الفحص لوضع البرنامج الجديد تبين أنه جزء مختلط إذ أوله في الجنايات والمواريث وآخره في العتق والكتابة، وبآخره: تم السفر الخامس من كتاب الذخيرة على يد عبد الملك بن محمد بن عبد الملك الحضرمي سنة 727هـ ويظهر أن هذا غلط من الناسخ حيث ضم أول الثامن مع آخر الخامس وجعلهما سفراً واحداً. أما الأولان أعني السادس والثامن فسالمان. أجزاء ثلاثة ضخام جداً في أوراق متينة مكتوبة بالسواك بخط أندلسي جميل خاليين من اسم الواقف.

محمد العربي

الكتب

كتاب البلاغة العالية

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

صفحة من القطع الكبير، طبع المطبعة السلفية، ثمنه 130

خمسة قروش

يمتاز الأستاذ الشيخ عبد المتعال الصعيدي المدرس في كلية اللغة العربية، بحرية الرأي وحب التجديد، والمثابرة على البحث والتأليف، فهو لا يفتأ الفينة بعد الفينة يدبج الرسائل الضافية، والكتب العالية التي تنم عن علم غزير، وأدب وفير، وفكر دقيق لاقف، وهن رهيف خاطف

وقد أخرج للناس في هذه الأيام الجزء الأول من كتابه البلاغة العالية، وهو خاص بعلم

المعاني. وأهم ميزة لهذا الكتاب أنه خالف الترتيب المعهود من عهد السكاكي والخطيب، إلى ترتيب آخر جديد، فزاد في علم المعاني فصولاً وحذف منه فصولاً، واجتهد في مسائله برأيه الذي يحرص الحرص كله على إظهاره في كل ما تخطه براعته.

وهناك ميزة ثانية لا تقل عن هذه الميزة أهمية، وهي أنه أزاح طائفة كبيرة من المسائل النحوية التي أقحمها الأقدمون في البلاغة إقحاماً عابثاً، كما ذكروا في أحوال التعريف بالإضمار أنه يكون لأن المقام للتكلم أو للخطاب أو للغيبة، وكإرغائهم وإزبادهم في تقسيم القصر باعتبار المقصور إلى قصر موصوف على صفة وقصر صفة على موصوف، وباعتبار حال المخاطب به إلى قصر أفراد وقصر قلب وقصر تعيين، إلى غير ذلك من المباحث النحوية التي طفحت بها كتب البلاغة وهي أبعد ما تكون عنها. وقد صنع الأستاذ المؤلف خيراً بإزاحته تلك الأعباء النحوية عن كاهل البلاغة، وجعلها خالصة لمعانيها الخاصة بها.

وإنا نشكر للأستاذ إتحافه طلاب البلاغة بهذا الكتاب الذي جرد فيه العناية وأظهر الكفاية حتى استحصفت وثائقه، واستحصدت علائقه، وغدا حريا - من أجله - بأن يوشح حلل المجد والثناء، حجياً بأن يطوق قلائد الشكر والدعاء.

س. ص

ديوان السري الرفاء

طبعته مكتبة القدسي بباب الخلق

السري شاعر من شعراء سيف الدولة كان في صباه يرفو الثياب ويطرزها ثم تولع بالأدب ونظم الشعر وتفنن في التشبيهات والأوصاف فأحسن في كثير منها، وشعره نمط سهل يتحدر عن طبع صاف كما يجري الماء من الينبوع وليس وراءه العلم والفلسفة ولكن وراءه النفس والطبيعة.

وقد قال فيه الإمام أبو هلال العسكري صاحب كتاب الصناعتين: ليس فيمن تأخر من الشاميين أصفى ألفاظاً مع الجزالة والسهولة وألزم لعمود الشعر منه. ويريد أبو هلال بلزوم عمود الشعر تجنب الغموض في تركيب النظم والبعد من تدقيق المعاني تدقيقاً فلسفياً، وذلك رأي كان قديماً في النقد يفرقون بين الشاعر الذي يصنع شعره صناعة عقلية دقيقة وبين المطبوع الذي يرسل شعره في جمال سبكه وصفاء لغته وإشراق معانيه كما يرسل الطائر المتغرد لحنه في التغريد.

وشعر الطبع من أحسن ما يفيد الناشئين في نهضتنا هذه فإنه صقل وجلاء وتصحيح للطريقة وتهيئته للسمو في هذه الصناعة، وديوان السري قوي الأثر في ذلك؛ وهل في الغزل أصفى وأرق وأجمل من مثل قوله:

بنفسي من أجود له بنفسي ... ويبخل بالتحية السلام

ويلقاني بعزة مستطيل ... وألقاه بذلة مستهام

وحتفي كامن في مقلتيه ... كمون الموت في حد الحسام

وله في شكوى الدهر:

يرتد عنه جريحاً من يُسالمه ... فكيف يسلم منه من يحاربه؟

ولو أمنت الذي تجنى أراقمه ... علي، هان الذي تجنى عقاربه

الإسلام في بولونيا

تأليف علي فورونوفتش ومحمد سيد الحموي

بلقم الأديب محمود البدوي

رسالة صغير في أربع وستين صفحة من القطع المتوسط طبعت بمطبعة الاعتماد على ورق جيد ومحلاة بكثير من اللوحات والخرائط وصور كبار رجال الإسلام في بولونيا وبعض الفرق الإسلامية والأندية والمساجد هناك. . . وتقرأ فيها كيف نشأ الإسلام في بولونيا وامتد وتشعب واضطهد من الروس وثار عليهم وتحرر وثبتت دعائمه بعد أن استقلت بولونيا حتى غدا الآن عصره الذهبي.

والرسالة في إيجازها تشبه المختصرات التي تلقى على تلاميذ المدارس وأسلوبها سهل بسيط يفهمه كل قارئ، يود أن يقف على حال المسلمين في تلك البلاد.

وليقرأ معنا القارئ الكريم:

يبلغ عدد المسلمين في بولونيا 12000 نفس وليس هذا العدد بالقليل إذا نحن وازنا)

بينه وبين عدد المسلمين في دول غرب وشمال أوربا، وحالتهم المعيشية على جانب عظيم من التحسن، وهذا التحسن آخذ في الزيادة لاهتمام الدولة بهم ومحافظتها على مصالحهم الدينية؛ وهم يعترفون بفضل الحكومة القائمة وكرمها، ويعتبرون هذه الأيام العصر الذهبي للإسلام في تلك البلاد، وهم ينعمون في بحبوحة من العيش وقد توطدت صلاتهم بالخارج وزادت معارفهم الدينية والاجتماعية والاقتصادية وسافر بعضهم لطلب العلم في الخارج وخصوصاً العلوم الدينية وحج بيت الله الحرام وزيارة الأماكن المقدسة.

وحيد

تأليف الأستاذ حسين عفيف المحامي

قصة تمثيلية طريفة في 191 صفحة من القطع الصغير طبعت بمطبعة حجازي بالقاهرة على ورق جيد. وهي في أربعة فصول طوال وحوارها شائق وأسلوبها متماسك وخيال مؤلفها فياض يروق القارئ المصري. وبطلها وحيد شاعر موسيقي فنان يعيش في كوخ في الجبل، مرت عليه سميرة إحدى بنات الباشوات فأحبها الشاعر وأحبته من أول نظرة. . . وجاءته في اليوم الثاني يدفعها وجدها وحبها ودار بينهما حديث غرامي طويل انتهى إلى عناق أطول. . وافترقا على وعد بلقاء قريب. . . ومرضت سميرة في اليوم التالي

وأرسلت أختها (ألفت) ومعها رسالة رقيقة إلى وحيد فأعجب الشاعر بجمالها وأحبها وأحبته وضمهما عناق. . . وعلمت سميرة بخيانة ألفت وحب وحيد الجديد فكسر قلبها، ومرضت وماتت. . .!! ولحقت بها ألفت ومات بعدهما وحيد وهو يقول:

(هأنذا الآن أقضي ومن قبل قضت سميرة، غداً يلتقي الخلان ويعودون كما كانوا إلى الصفاء بعد أن لم يبق ثمت للعداوة موجب.

والقصة كما قلت خيالية ممتعة وسيعجب بها القارئ كثيراً.

العدد 175 - بتاريخ: 09 - 11 - 1936

من ذكريات بغداد

الحلقة. . .

ذلك اسم كان يطلقه الزعيم (ياسين) على ستة من الإخوان جمعهم تشابه الذوق، وألف بينهم تجانس الهوى، فتساهموا الصفاء، وتقاسموا المودة، وخلطوا حياتهم بحياة بعض، فما كانوا يفترقون الصائل الأيام ولا عشايا الليالي. كانوا يتخذون سامرهم كل ليلة في دار أحدهم، فيتحلقون على مائدة الشاي السخية، أو يتقابلون أمام المدفأة الواهجة، ثم يديرون بينهم سقاط الحديث على أروع ما تشققه الأذهان الخصيبة من براعة الفكرة وملاحة النكتة وطلاوة الخبر وسلامة النقد وصحة الحكم، فلا يدعون شأناً من شؤون الحياة، ولا وجهاً من وجوه السياسة، ولا أمراً من أمور البلد، إلا تناولوه باللسان المرهف والفؤاد اليقظ والنظر المستقل؛ فهم معارضون ولا لسان لهم في حزب، ومصلحون ولا يد لهم في زعامة.

كانوا يمثلون نواحي النشاط الفكري في العراق أصل التمثيل؛ ففيهم رجل الجيش، ورجل التعليم، ورجل القانون، ورجل الطب، ورجل الشعب؛ ذلك إلى امتياز كل منهم بسمة من سمات الطبع وصفة من صفات الخلق، فطه الهاشمي عذب الروح، سرى الأخلاق، وقور النفس، مصروف الهم إلى القراءة المنتجة والتأليف المحكم فيما يتصل بالتاريخ والحرب، ولو ترك إلى نفسه لما خرج من مكتبته ولا قام عن مكتبه؛ وناجي الأصيل نبيل العاطفة، حلو الفكاهة، سمح المقادة، أفلاطوني النزعة، يعيش في السماء ويحلم دائماً بالمدينة الفاضلة؛ ويوسف عز الدين متئد اللسان، حصين الصدر، سريع الفطنة، يتبسط في هزل الكلام ويتحوط في جده، وهو لا ينفك لإخوانه موضع السر ومرجع المشورة؛ وكامل الجاردجي متوقد الذكاء، متمرد الطبع، متوثب العزيمة، دائب الحركة، صليب الرأي، يدين بالديمقراطية، ويميل إلى الاشتراكية، ويرفرف بجناحيه على الفلاح والعامل والعاطل؛ وموفق الآلوسي طموح القلب، سريع البادرة، بارز الشخصية، يعتد برأيه إلى حد العناد، ويعتز بنفسه إلى حد المخاطرة؛ وشوكت الزهاوي واسع البال، ضيق الأفق، قد قصر جهده على عمله فلا يكاد يطمح في شيء، ولا يشارك في رأي، ولا يحفل بحادث؛ وأولئك كانوا لما اجتمع لهم من ضروب الثقافة

وشتى الخلال صورة مصغرة للأمة، يعيشون منعزلين وهم فيها، ويفكرون مستقلين وهم منها، كأنهم كانوا لآمالها رموزا تتميز تميز العنوان،
وتنفرد انفراد العلم. كانوا جميعاً في ربقة الحكومة إلا كاملاً، فكان للجماعة الكلمة الحرة والفكرة الطليقة. وقف على السياسة الصريحة قواه، وأيقظ لأطوارها المختلفة رأيه، فكان يناصر الحزب ما دام معارضا، فإذا قبل الحكم تركه إلى غيره، حتى انفرد ذات يوم بالمعارضة. كان اليد اليمنى لياسين في حزب الإخاء الوطني، وياسين أمل البلاد المرجو وزعيمها المنتظر، فلما رآه يقصد الحكم عن طريق الملاينة والمسايرة خالفه ومعه مقاعد البرلمان ووظائف الديون ومزايا السلطة، وخرج مغاضباً إلى الجهاد بالنفس والمال، فزاول المحاماة، وعالج الصحافة، ولقي في سبيل الله ما يلقى المعارضون المتزمتون من الضيق والعنت.
كان لي في هذه (الحلقة) كرسي وثير دائم، يحيطه الإخوان بالعطف ويخصونه بالكرامة؛ وكنت أجد في نفسي من الأنس بهم والطمأنينة إليهم ما لا أجده لجماعة أخرى، فكنت أناقلهم شجون الحديث فأعلم منهم ما لا أقرأ في الصحف ولا أسمع من الناس ولا أرى في الحكومة. كانوا يحملون في نفوسهم آمال العراق الناشئ، وفي رؤوسهم ثورة الشباب الجديد: سياستهم الجماعة قبل الفرد، والعامة قبل الخاصة، والعراق قبل العروبة. ولكن آراءهم كانت في رأيي أشبه بأحلام الفلاسفة تحت رواق المعبد؛ لأنك إذا استثنيت كاملا لا تجد فيهم من يفكر في انقلاب أو يجهر بمعارضة.
تركت العراق وفيصل ونوري وجعفر قد مكنوا لدولته بالمرونة اللبقة والسياسة التجارية التي تعطى لتأخذ؛ وكان شباب البلاد قد سئموا سياسة الأمر الواقع وبرموا بالإدارة المطلقة، فتمنوا حكومة زعيمهم المحبوب ياسين؛ وتسلم ياسين مقاليد الأمور، وانضوى إليه رفيقاه، وآل إليهم سلطان البلاط بالفعل، ونفوذ (دار الاعتماد) بالقانون؛ وسارت السفينة آمنة - كما يرى البعيد - من الألغام والصخور، ثم تفرقت السبل بعدئذ برجال الحلقة.
طخ! طخ! طخ! ثلاث قنابل ألقتها ثلاث طوائر على سراي الحكومة! فروعت الموظفين وأفزعت الآهلين، فأخلوا السراي وأغلقوا المدينة! ماذا؟ الجيش الثائر يحاصر بغداد ويطلب إلى المليك إقالة الوزارة! وبكر صدقي الفاتك الطماح يقترح للوزارة الجديدة حكمت سليمان! وحكمت سليمان يدخل في وزارته الحلقة ما عدا طرفيها. لقد كان صديق الحلقة، وكان في معارضته من طراز (كامل) لا يحفل الثراء ولا يبالي المنصب، حتى رووا أنه
ضاق يوماً براتب سائقه فذهب به إلى قائد الشرطة يرجو منه أن يجد له عملا يعيش عليه!
أحمد حسن الزيات
القلب المسكين - 2
للأستاذ مصطفى صادق الرافعي
أما صاحب القلب المسكين فرأى الضحكة التي ألقت بها صاحبته وهي ترقص حين عرفته - غير ما رأيتها أنا غير ما رأى الناس. كانت لنا نحن ابتساما عذاب من فم جميل يتم جماله بهذه الصورة، وكانت له هو لغة من هذا الفم الجميل يتم بها حديثاً قديماً كان بينهما. واعترانا منها الطرب واعتراه منها الفكر، ووصفت لنا نوعاً من الحسن ووصفت له نوعاً من الشوق، ومرت علينا شعاعاً في الضوء ووقعت في يده هو كبطاقة الزيارة عليها اسم مكتوب. . .
وقوى إحساس الراقصة الجميلة بعد ذلك فانبعث يدل على نفسه ضروبا من الدلالة الخفية، ورجعت بهذا الإحساس كالحقيقة الشعرية الغامضة المملوءة بفنون الرمز والإيماء وكأنها زادت بهذا الغموض زيادة ظاهرة، وللمرأة لحظات تكون فيها بفكرين حينما يكون أحد الفكرين ماثلاً أمامها في رجل تهواه؛ ففي هذه الساعة تتحدث المرأة بكلام فيه صمت يشرح ويفسر، وتضطرب بحركة فيها استرخاء يميل ويعتنق، وتنظر بألحاظ فيها انكسار يأمر ويتوسل، وكانت هي في هذه الساعة. . . فغلبت والله على صاحبها المسكين وتركت نفسه كأنها تتقطع فيه من أسف وحسرة؛ ثم كانت له كالزهرة العبقة بينه وبينها جمالها وعطرها وهواؤها والحاسة التي فيه.
وجعل يستشفها من خلال أعضائها وهي ترقص، ثم قال لي: انظر ويحك! لكأن ثيابها

تضمها وتلتصق بها ضم ذي الهوى لمن يهوى.
قلت: ما هي إلا كهاتين اللتين ترقصان معها: امرأة بين امرأتين وإن كانت أحسن الثلاث.
قال: كلا، هذه وحدها قصيدة من أروع الشعر تتحرك بدلا من أن تقرأ، وترى بدلا من أن تسمع؛ قصيدة بلا ألفاظ ولكن من شاء وضع لها ألفاظاً من دمه إذا هو فهمها بحواسه وفكره وشعوره.
قلت: والأخريان؟
قال: كلا كلا، هذا فن آخر، فالواحدة من هؤلاء المسكينات إنما ترقص بمعدتها. . . ترقص للخبز لا غير. أما (تلك) فرقصها الطرب مصنوعاً على جسمها ومصنوعاً من جسمها؛ إنها
كالطاووس يتبختر في أصباغه، في ريشه، في خيلائه، بخترةً يضاعفها الحسن ثلاث مرات. ولو خلق الله جسمين أحدهما من الجواهر أحمرها وأخضرها وأصفرها وأزرقها، والآخر من الأزهار في ألوانها ووشيها، ثم اختال الطاووس بينهما ناشر ذيله في كبرياء روحه الملونة - لظهر فيه وحده اللون الملك بين ألوان هي رعيته الخاضعة.
وانتهى رقص الحسناء الفاتنة وغابت وراء الستارة بعد أن أرسلت قبلةً في الهواء. . . فقال صاحبنا: آه لو أن هذه الحسناء تصدقت بدرهم على فقير، لجعلته لمسة يدها درهماً وقبلة. . .
قلت: يا عدو نفسه؛ هذه قبلة محررة مسددة وقد رأيتها وقعت هنا. . . ولكنك دائماً في خصام بين نفسك وبين حقائق الحياة. تعشق القبلة وتخاصم الفم الذي يلقيها، وتبني العش وتتركه فارغاً من طيره. إن المرأة التي تحبك لا بد أن تنتهي إلى الجنون ما دامت معك في غير المفهوم وغير المعقول وغير الممكن.
ثم بدأ فصل آخر على المسرح وظهر رجال ونساء وقصة؛ وكان من هؤلاء الرجال شيخ يمثل فقيها وآخر يمثل شرطياً، فقال صاحبنا الفيلسوف: لقد جاءت هذه الثياب فارغة وكأنها الآن تنطق أن صحة أكثر الأشياء في هذه الحياة صحة الظاهر فقد ما دام الظاهر يخلع ويلبس بهذه السهولة؛ فكم في هذه الدنيا من شرفاء لو حققت أمرهم وبلوت الباطن منهم لرأيتهم إنما يشرفون الرذائل لأنهم يرتكبونها بشرف ظاهر. . . وكم من أغنياء ليس بينهم وبين اللصوص إلا أنهم يسرقون بقانون. . . وكم من فقهاء ليس بينهم وبين الفجرة إلا أنهم يفجرون بمنطق وحجة. . . ليست الإنسانية بهذه السهولة التي يظنها من يظن وإلا ففيم كان تعب الأنبياء وشقاء الحكماء وجهاد أهل النفوس؟
العقدة السماوية في هذه الأرض أن الله سبحانه وتعالى لم يخلق الإنسان إلا حيوانا متلطفا تلطيفاً إنسانياً؛ ثم أراه الخير والشر وقال له اجعل نفسك بنفسك إنسانا وجئني.
قلت: يا عدو نفسك، فما تقول في حبك هذه الراقصة وأنت حيوان ملطف تلطيفاً إنسانياً؟
قال: ويحك! وهل العقدة إلا هنا؟ فهذه مبذولة ممكنة، ثم هي لي كالضرورة القاهرة، فلا يكون حبها إلا أغراء بنيلها، ولا تكون سهولة نيلها إلا إغراءً لذلك الإغراء؛ فأنا منها في امرأة وحب، ولكني في امتحان شديد عسر أغالب ناموسا من نواميس الكون، وأدافع قانونا
من قوانين الغريزة، وأظهر قوتي على قوة الضرورة الميسرة بأسبابها، وهي أشد الضرورات عنفاً وإلحاحاً وقهراً للنفس من قبل أنها ضرورة لازمة، وأنها مهيأة سهلة. فلو أن هذه المرأة المحبوبة كانت ممتنعة بعيدة المنال لما كانت لي فضيلة في هذا الحب العفيف، ولكنها دانية ميسرة على الشغف والهوى؛ فهذا هو الامتحان لأصنع أنا بنفسي فضيلة نفسي.
ومر الفصل الذي مثلوه وما نشعر منه بتمثيل فقد كان كالصورة العقلية المعترضة للعقل وهو يفكر في غيرها، وكانت (الحقيقة) في شيء آخر غير هذا. ومتى لم يتعلق الشعور بالفن لم يكن فيه فن؛ وهذا هو سر كل امرأة محبوبة، فهي وحدها التي تثير شعور المحب في نفسه فيشعر من حسنها بحقيقة الحسن المطلق، ويجد في معانيها جواب معانيه، وتأتيه كأنها صنعت له وحده، وتجعل له في الزمان زمناً قلبياً يحصر

وجوده في وجودها وليس فن الحب شيئاً إلا استطاعة الحبيب أن يجعل شهوات المحب شاعرة به ممتلئة منه متعلقة عليه، كأن به وحده ظهور جسدية هذا الجسد وروحانية هذه الروح. وكل ما يتزين به المحبوب للمحب، فإنما هو وسائل من المبالغة لإظهار تلك المعاني التي فيه كيما تكبر فيدركها المحب بدقة، وتثور فيحسها العاشق بعنف، وتستبد فيخضع لها المسكين بقوة

والشهوات كالطبيعة الواحدة في أعصاب الإنسان، وهي تتبع فكره وخياله؛ ولا تفاوت بينها إلا بالقوة والضعف، أو التنبه والخمود، أو الحدة والسكون؛ غير أنها في الحب تجد لها فكراً وخيالاً من المحبوب، فتكون كأنها قد غيرت طبيعتها بسرٍ مجهول من أسرار الألوهية. ومن هنا يتأله الحبيب، وهو لم يزد ولم ينقص ولم يتغير ولم يتبدل؛ وتراه في وهم محبه يفرض فروضاً، ويشرع شريعة من حيث لا قيمة لفروضه وشريعته إلا في الشهوة المؤمنة به وحدها.

ومن ثم لا عصمة على المحب إلا إذا وجد بين إيمانين أقواهما الإيمان بالحلال والحرام، وبين خوفين أشدهما الخوف من الله، وبين رغبتين أعظمهما الرغبة في السمو.

فان لم يكن الفاسق ذا دين وفضيلة فلا عصمة على الحب إلا أن يكون أقوى الإيمانين الحرص على مكانة المحبوب في الناس، وأشد الخوفين الخوف من القانون. . . وأعظم الرغبتين الرغبة في نتيجة مشروعة كالزواج.

فان لم يكن شيء من هذا أو ذاك فقلما تجد الحب إلا وهو في جراءة كفرين، وحماقة جنونين، وانحطاط سفالتين. وبهذا لا يكون في الإنسانين إلا دون ما هو في بهيمتين.

ثم جاء الفصل الثالث وظهرت هي على المسرح. ظهرت هذه المرة في ثوب مركيزة أوربية تخاصر عشيقاً لها فيرقصان في أدب أوربي متمدن. . . متمدن بنصف وقاحة؛ متأدب. . . متأدب بنصف تسفل، مشروع. . . مشروع بنصف كفر؛ هو على النصف في كل شيء حتى ليجعل العذراء نصف عذراء؛ والزوجة نصف زوجة. . .

وكان الذي يمثل دور العشيق فتاة أخرى غلامية مجممة الشعر ممسوخةً بين المرأة والرجل. فلما رآها صاحبنا قال: هذا أفضل. . . .

وهشت الحسناء وتبسمت وأخذت في رقصها البديع فانفصل عني الصديق وأهملني وأقبل عليها بالنظرة بعد النظرة بعد نظرة، كأنه يكرر غير المفهوم ليفهمه، ورجع وإياها كأنه في عالم من غير زمننا تقدمه عن عالمنا ساعة أو تؤخره ساعة. وكانت جملة حاله كأنها تقول لي: إن الدنيا الآن امرأة! وكان من السرور كأنما نقله الحب إلى رتبة آدم ونقل صاحبته إلى رتبة حواء، ونقل المسرح إلى رتبة الجنة.

والعجيب أن القمر طلع في هذه الساعة وأفاض نوراً جديداً على المسرح المكشوف في الحديقة فكأنه فعل هذا ليتم الحسن والحب. وأخذ شعاع القمر السماوي يرقص حول هذا القمر الأرضي فكانت الصلة تامة وثيقة بين نفس صاحبنا وبين الأرض والسماء والقمرين.

ما هذا الوجه لهذه المرأة؟ إنه بين اللحظة واللحظة يعبر تعبيراً جديداً بقسماته وملامحه الفتانة. كل البياض الخاطف في نجوم السماء يجول في أديمه المشرق؛ وكل السواد الذي في عيون المها يجتمع في عينيه؛ وكل الحمرة التي في الورد هي في حمرة هاتين الشفتين.

ما هذا الجسم المتزن المتموج المفرغ كأنه يندفق هنا وهنا؟ إنه جسم كامل الأنوثة؛ إنه صارخ صارخ؛ إنه عالم جمال فيه كما تقول الفلسفة حين تصف العالم: فيه (جهة فوق) و (جهة تحت). لو امتدت له يد عاشقه لجعل في خمس أصابعها خمس حواس. . .

ما هذا؟ ما هذا؟ لقد ختم الرقص بقبلة ألقاها الخليل على شفتي الخليلة، وكانت تركت خصرها في يديه وانفلتت تميل بأعلاها راجعة برأسها إلى خلف، نازلةً به رويداً رويداً إلى الأرض، هاربة بشفتيها من الفم المطل عليها. وكان هذا الفم ينزل رويدا رويدا ليدرك الهارب. . .

وقبل أن تقع القبلة التفتت لفتة إلى. . . ثم تلقت القبلة أما هو؛ أما مجنونا؛ أما صاحب القلب المسكين؟

(طنطا)

(لها بقية)
مصطفى صادق الرافعي
الأدب والخلود
للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني
عشت سنين عديدة - أكثر عمري - بالخيال والهم. وكانت دنياي تحد من كل ناحية بجدران مكتبتي ومنظاري المكبر الذي أتدبر به الحياة وأستعين على درسها بقوته وقدرته على الجلاء والكشف والتوضيح، الكتب الكثيرة المرصوصة على رفوفها. وكانت رياضتي حين أكل وأتعب ويبلغ مني الجهد أن أدير عيني في صفوف هذه الكتب التي كنت أنتقي أنفس الطبعات منها وأحسنها ورقا وأجودها جلداً وأحلاها منظراً. فلما صدمتني الحياة - مرة وأخرى - ورأيت أزهار آمالي وورق آرائي التي كنت أحسبها خالدة النضرة دائمة البهجة ولا أظن بها إلا أنها ستظل رفافة أبداً - أقول لما رأيتها تصفر وتتساقط وتذوى وتجف وتتكسر وتنفرك في يدي وتحت قدمي راعني عظم جهلي، وهالني الشعور بالوحدة والوحشة والغربة في هذا العالم الزاخر الذي احتجت برغمي أن أخوض بحره وأرمي بنفسي في عبابه وأنا لا أدري كيف أسبح فيه وأتقي الغرق.
وأنصف الكتب فأقول إنها لم تغشني ولم تخدعني ولم تتعمد أن تزيف صور الحياة، ولكني اقتصرت عليها واستغنيت بها، فصرت لا أرى الحياة إلا بعيون أصحابها، ولا أحسها بغير أعصابهم، حتى ليخيل إلي الآن - من حيث معرفتي يومئذ بالحياة وإحساسي بوقعها وفهمي لها وتجربتي لأحوالها - أني كنت أشبه بكتاب مختارات من جملة ما قرأت وحصلت، ولست بإنسان له وجود وشخصية وكيان مستقل. ومن متناقضات ذلك العهد أني كنت من أعظم الكتاب تحمساً للدعوة إلى تحرير الأدب العربي من رق التقليد وأن كنت أنا لا أعدو أن أكون نسخة مختصرة لكل قديم من الآراء والمذاهب والاحساسات والخوالج. وليس هذا ذنب الكتب وإنما هو ذنبي. على أني لو كنت وجدت من يرشدني لرشدت ولانتفعت بما ضاع من عمري، ولكني لم أجد هذا المرشد والناصح الأمين والقدوة الحسنة لا في المدرسة ولا في البيت ولا في الإخوان، فقد كان شأنهم كشأني، سوى أنهم كانوا أحكم مني وأرشد بطبيعتهم وأهدى سبيلاً، فلم يقعوا فيما وقعت فيه ولم يضيعوا مثل ما ضيعت من عمري.
وأحسست بخيبة الأمل والضيعة في كل ناحية، فاسودت الدنيا في عيني وخامرني اليأس، وظهر ذلك في كل ما عالجت من فنون الأدب وألوانه، وهجرت العمار إلى الخراب،
وانتقلت من المدينة الحية التي تعج بالناس وتزخر بالحياة إلى الصحراء المنقطعة ورمالها الصفراء وجدبها الرائع وفضائها الرحيب وسعتها العقيمة، لأني رأيت أنها أولى بي، وأن المقام في خرابها العظيم أرفق بنفسي المتهدمة وآمالي التي درست وهماتي التي فترت.
وتعاقبت السنون - أربعة عشر عاماً كاملاً - وأنا أجد الأنس بالصحراء والروح فيها والراحة بها. نعم كنت أنحدر إلى المدينة كل يوم وأرى الناس وأعمل معهم وأكد وأسعى، ولكني كنت لا أشاطرهم شعورهم بالحياة وإن كنت لا أثقل عليهم بما أحس. وكنت أكون معهم، ولكني بقلبي وعقلي مع الصحراء. فلا أكاد أعود إليها حتى أحس أن حجراً قد انحط عن صدري وأنه صار في وسعي أن أتنفس وأن أنضو ما أتكلفه مع الناس وأواجه حقيقة نفسي التي أضمرها وأخفيها عن العيون واسترها حتى لا أوذي الناس بها.
ولكن الصحراء معدنها خصب وإن كانت ظاهرة الجدب حتى لتبدو كأن لا أمل فيها، وإن قلبها العامر وإن كانت في رأى العين خواء قواء. وإن الاحتمالات التي تنطوي عليها لأكثر من أن يأخذها حصر، وما ينقصها إلا أن تساعفها الأحوال. وهل مصر كلها إلا صحراء جرى فيها نهر واحد فانقلبت من جنات الدنيا؟ فهذه الصحراء أيضا جنة مضمرة وفردوس مكنون.
وصار مجرى هذا الخاطر في نفسي عميقاً على الأيام، فقلت لنفسي في خلواتي الكثيرة بها: إن هذه الصحراء فيها قوى مستورة مقيدة تنتظر الانطلاق، وخصباً محجوباً لو وجد ما يظهره لربا فيها النبات واهتز ورف وزكا. وأنا أيضاً مثلها. ولم لا؟ أأكون

أعقم وأجدب من التراب والحصى والرمال الصفراء؟. . . وقد انتشرت على سطح نفسي طبقة كثيفة من القنوط غطت ما انطوى عليه من الزكاء والطيب والريع الكثير الوفير، وما أظن بها إلا أن فيها خمائل أمل مدفونة ورياض خير أحسبها على الرغم من كل شيء لا تزال مخضلة يترشش نداها. وإن النفس لأقدر - أو هي ينبغي أن تكون أقدر من التراب على تربيت الندى وحفظه وادخاره. وإذا كانت تربة بعض النفوس مبكاراً فليس بضائري أن تكون تربة نفسي مئخاراً. وما يمنعها التأخر بعد أن تبشر ويخرج نباتها أن يسرع ويطول ويقوى. وإذا كانت هذه الصحراء تنتظر أن يجيئها الغوث من الخارج فان النفس غياثها فيها. وللصحراء السحب التي تجري الماء على وجهها، وللنفس مدد كاف من حيويتها التي

هي في أعمق أعماقها. وأحسب أني لو حفرت في هذه الأرض لبلغت الماء ولو بعد عمق كبير. كذلك أحسب أني لو مهت نفسي وحفرت فيها لوقعت في بعض أعماقها على ماء غير قليل؛ وسأحتاج أن أرمي التراب وأخرج الطين والحجارة وأن أنكشها من حين إلى حين حتى لا تعود جميعها فتتجمع وتسدها مرة أخرى.

واقتنعت بذلك وصح عزمي على إن من الواجب تنقية نفسي - أو بئرها - مما سد منابع الماء في أعماقها المجهولة، فأعددت العدة لذلك وجئت بالعتلات والمعاول والمجارف والحبال والمقاطف والدلاء إلى آخر ذلك مما يحتاج إليه المرء في الحفر. وقلت لنفسي: (اسمع يا هذا. . . إنك لا تستطيع أن تحتفر إلا إذا وسعت، فما تدري أقريبة المنزع بئر نفسك هذه أم بعيدته؛ والأرجح أن تكون بعيدة وأن تكون قد تكدست فوقها أكوام شتى وطبقات متراكبة من أوحال السخافات المختلفة المتعددة التي عشت بها هذا العمر كله. فيجب من الآن - وقبل الشروع في الحفر - أن توسع صدرك وتوطن نفسك على الشك في كل ما أخذت به من الآراء والمذاهب، أي على اعتبار أن كل ما كان عندك بمنزلة العقائد التي لا تقبل الجدل يجب أن يعاد بحثه بغير هوى، وإلا كان ما يوشك أن تحاوله الآن من الحفر عملا لا خير فيه ولا جدوى منه، وأولى بك حينئذ أن تنصرف عنه. وكما أن الذي يحتفر بئراً لا يستطيع ذلك إذا هو اجتزأ بثقب ضيق إشفاقاً على الأرض أن يفسد منظرها بتوسيع الفوهة وأن يشوه استواءها، كذلك أنت لا تستطيع أن تصل إلى شيء إذا كنت ستصر على آرائك القديمة، فاضرب فيها كلها بمعولك وانظر كيف ثباتها، وهل تحتمل ذلك أم تتناثر وتتبعثر ذراتها وتنقلب ترابا يطير كالهباء، وهذا أول ما ينبغي أن تروض وتوطن نفسك عليه وإلا فتعبك ضائع مع الرياح الأربع.

ولم أجد لي معدي عن الرضى بمراجعة النفس وإعادة النظر بغير هوى في كل ما كنت أعده من الحقائق المفروغ منها. فقلت لنفسي: (يجب أن أبدأ من البداية. والبداية هي أني خلقت لأعيش وأعطيت الحياة لأحيا. وهذا من البدائه، إذ لا يعقل أن أكون أعطيت الحياة لأرميها للكلاب، وإلا فلماذا أعطيتها إذن؟ وما دام الأمر كذلك فأن واجبي الأول هو أن أعيش وأحيا، وأن أحرص على الحياة وأضن بالعيش أن يفسده شيء بقدر ما يدخل هذا في الوسع. ثم إني لم أعط حياة الأبد، وإنما أعطيت حياة محدودة لها آخر كما لها أول، وهذا

يضاعف وجوب الحرص عليها والضن بها على المفسدات، لأنها فضلاً عن القصر يسهل زوالها ويضيع معناها بسوء الرأي. وعلى إذن أن أنفي من جوها كل ما ينغص هذه الحياة أو يقصر عمرها أو يفسد فترتها. وأول ما ينغص هذه الحياة ويضيع معناها ويفسد الغاية منها ويعكس الآية فيها ويقلبها عذابا وجحيما، هذا الأدب الذي جننت به وضيعت خير شطر من عمري فيه. وما هو الأدب على كل حال. .؟ هو شيء - أعني كلاما - يحاول صاحبه به أن يوهم الناس أنه خير منهم وأرقى وأذكى وأفطن وأحس وأعلم، وأن خطوهم وراءه بأجيال إذ يخطو هو على مهل. ثم يرتقي المرء من إيهام الناس إلى إدخال الوهم على نفسه هو فيزعمها خالدة باقية على الزمن بآثاره - أي بالكلام الذي يصوغه - على حين تفني كل هذه الملايين من معاصريه وممن جاءوا قبله ومن سيجيئون بعده. فلماذا بالله يخلد كلامه وحده دون كلام هذه المئات العديدة من الملايين في كل أمة وكل زمن؟. . . ثم كيف يتاح هذا الخلود في حياة قائمة على الفناء المحقق؟. . . وليس الخلود ألف سنة ولا ألفين ولا ثلاثة ولا أربعة أو أكثر. . . وانظر من ذا الذي خلد إلى الآن. . . وفكر في أمل الذين نذكرهم إلى اليوم في دوام

الذكر على الزمن. . . وإذا كنت الآن أعجب لشيء فإني أتعجب لذلك الذي يستطيع أن يفهم الخلود ويقنع بما فهم من معناه نفسه.

وأعترف بأني كنت أومن بالخلود في هذه الدنيا الفانية، ولكني أعترف أيضا أنها كانت عندي كلمة حلوة أرتاح إليها وأحس لها ندى على النفس وبردا على القلب من غير أن أدرك لها معنى محدوداً جلياً. وإذا كان هناك من يؤمن بهذا الخلود فيخيل إلى أنه إما أن يكون شاباً لم يعان الحياة ولم يواجه حقائقها، أو هو رجل لا يزال قادراً على مغالطة نفسه أو على الإيحاء إليها، أو فيه لوثة تمنع أن يجيء تفكيره مستقيماً؛ وقد يكون هناك غير هؤلاء فما أدعى الإحاطة ولا ما هو قريب منها. وبدا لي وأنا أفكر في هذا أن من السخف أن يتصور المرء أنه سيخلد بآثاره لا لسبب إلا أنه نشر كتاباً وأن الصحف أثنت عليه ومدحته. كأن الأجيال المقبلة ستعقم صحفا وكتابا هم أقرب إلى نفسها ومزاجها وأساليب تفكيرها وإلى احساساتها واتجاهاتها ونزعاتها من كتاب الجيل الذي مضى أو الأجيال التي اندثرت. وغريب أن يعتقد إنسان إن آراءه وأساليب تفكيره وكتابته الخ تظل هي الحبيبة الأثيرة إلى كل عصر على الأزمان كلها!

كانت فكرة الخلود أول ما أخرجته وألقيته من الأوحال التي تراكمت على نفسي وحرمتني نعمة الشعور بالحياة - كما ينبغي أن يكون الشعور بها - والارتياح إليها. فقد كنت أستسخف الناس وأستحمقهم وأستقل عقولهم وأحتقر عواطفهم وأراهم دوني في كل شيء، ولا أكاد أطيق منها معارضة أو مخالفة يسيرة أو ملاحظة بريئة يحسن فيها القصد ولا تسوء النية؛ وكنت أترفع عنهم وأحس أني متواضع جداً حين أجالس أحدهم؛ وكان يزيد شعوري بالتواضع ويضاعفه أن أراني أكلمهم كما يتكلمون وأجاريهم في أحاديثهم الفارغة وثرثرتهم الجوفاء فأرضى عن نفسي كل الرضى وأقول لها في تسويغ هذا التواضع: (وماذا عسى أن يصنع المبصر بين العميان؟) وما أكثر الأعمال التي تركتها وفقدت رزقي منها لأني لم أطق من صاحبها الذي كنت أعمل معه أن يكلم رجلاً خالداً مثلي كأنه من أندادي - أو أن أسمع كلاماً يشعرني أنه لا يفطن إلى قيمة من هو معه ولا يدرك أنه خالد وأنه حقيق بالتقديس وجدير بأن يركع أمامه على ركبتيه. ولقد خاصمت مرة رجلاً لأنه لم يأخذ برأيي ولم يصدر عن مشورتي، فعددت منه هذا تطاولاً على مقامي؛ وغضبت على آخر لأنه نظر إلي نظرة تبينت فيها الحسد كان ما وهبنيه الله يمكن أن يطمع في مثله طامع. والويل لمن كان يحدثني ولا يحرص على أن تكون عينه في عيني. . . إذن هو يتعمد أن يفهمني أنه يستخف بي وأنا الذي يعي الزمان مكان نده.

وبعد أن أخرجت الخلود وأفرغت القفة من طينه أحسست أني حططت عن صدري جبلاً فقلت: (يا سلام. . . أما إنها لراحة كنت محروماً منها. . . والله لقد كنت مغفلاً. . . وما الذي أغراني بوضع هذا الجبل كله على صدري. . . وكيف بالله كنت أرجو أن أتنفس. . . أعوذ بالله. . . والحمد لله).

وبعد أن أخذت حظي من الراحة قلت لنفسي: (إذن ما الرأي في هذا الأدب الذي نكبني بفكرة الخلود وزين لي هذه المصيبة التي رزأت بها نفسي؟ (وفكرت ثم قلت) ما دمنا قد خلصنا من مصيبة الخلود، فالأدب أولا يكون وسيلة للتنفيس عن النفس والتخفيف عنها وإراحتها من ثقل العواطف والخوالج، وهذا هو الذي يسميه غيري فناً ذاتياً - وقد كنت مثلهم أفعل ذلك - وأسميه أنا سلوى شخصية، والمسألة ميل واستعداد. . فهذا يجد ما يسليه ويرفه عن في الألعاب الرياضية، وذاك يلتمس الترفيه في القمار، وثالث يجد التسرية في الرقص، ورابع يفوز بها من الأدب - أي من رص الكلام الفارغ. وليس الكلام الفارغ هو الذي يسري عن النفس، وإنما هو المجهود الذي يبذله المرء في رصف هذا الكلام. ومجهود رصف الكلام هو مجهود بدني ككل مجهود آخر، والمرء يحس بالإعياء والتعب بعده كما يحس بعد لعب الكرة أو غيرها. ولعل الإعياء فيه أشد لقلة الحركة الجسمية، وكثرة ما ينهك من الأعصاب.

ثم ينقلب الأدب صناعة مع طول المزاولة والتدريب، كما يمكن أن ينقلب أي فن آخر؛ ويصبح كما هو الحال والواقع عندي. ومن الناس في الأدب الهاوي أي الأديب الذي لم يتحول على الأيام وبالمزاولة صانعا، فهذا لا يزال يتخذه سلوى وملهاة يزجى بها الفراغ ويريح بها النفس ويرفه عن الأعصاب وإن كان يتعبها من ناحية أخرى كما يتعب المرء

نفسه بالتنس والسباحة وغير ذلك: أما من صار مثلي فالأدب عنده صناعة وإن شق عليه أن يعترف بذلك ورأى في الاعتراف به غضاضة أو توهمها على الأصح لطول ما راض نفسه على النظر إلى الأدب كأنه فن سماوي يغري به الذي تميزه الطبيعة وتكتب له عندها الخلود كأن الطبيعة تحابي الناس على نحو ما يحابي الخلق بعضهم بعضاً.

وخرجت من هذا التفكير بأني في الواقع فتحت دكان أدب إذا أحسنت الإعلان عنها ولفت النظر إليها وأجدت عرض ما فيها من البضاعة فأني خليق أن أفوز بالإقبال عليها والطلب لما فيها فيكثر كسبي ويعظم ربحي كما هو الحال في كل تجارة أخرى. ولا فرق بين غيري من الأدباء وبيني إلا على قدر اعتمادهم في رزقهم على الأدب؛ فمن كان معوله مثلي عليه فالأدب عنده صناعة لا شك في ذلك، وإلا فهو رجل يسر الله له رزقه ففي وسعه أن يتسلى بالأدب كما يمكن أن يتسلى باقتناء الديكة أو الثعابين أو السجاجيد أو بالكرة أو التنس أو السباحة أو التوغل في مجاهل الأرض لصيد الأسود والفهود والفيلة إلى آخر ما يمكن أن يلهو به إنسان إذا رزق الوسيلة.

ولما انتهيت من هذا كله سهل علي أن أتلقى الحياة كما يتفق أن تجيء وأن أتقبلها بلا تذمر أو تسخط. وهان علي ما كان يبدو لي عسيراً فيما مضى قبل أن يرتد إلي عقلي الذي ذهب به جنون الأدب، فان لكل فن ضرباً من الجنون، وليس الأديب الذي يتوهم أنه خالد ويطلب أن يعامله الناس على هذا الاعتبار بأقل جنوناً من بائع الفول المدمس الذي يأبى أن يبيعك منه شيئاً ولو بذلت له مال قارون إلا إذا تقدمت إليه في تواضع ظاهر وقلت له إني أريد (لوزاً) بقرش. ولا فرق عندي - الآن - بين اعتداد الأديب بأدبه إلى ذلك الحد المبالغ فيه وبين تجبر بائع الفول وتحتيمه عليك أن تسمى فوله لوزاً لظنه أن تسميته لوزاً أبلغ في التبجيل وأدل على التوقير. وما يطلب بائع الفول في الحقيقة أن توقر الفول وإنما يطلب أن توقره هو، ولكنه يشعر أن طلب التوقير لشخصه مباشرة قد لا يلقى الارتياح، فهو يجعل من الفول أداة لما يشتهي ويروم ولا يفطن إلى أن الناس يجارونه ويضحكون منه ويتفكهون فيما بينهم بالتنكيت عليه لأنه لا يرى الضحك ولا يسمع النكت، وإنما يرى مظاهر الاحترام المتكلف ويسمع فوله يدعى لوزاً. وليست النعامة وحدها هي التي تستطيع أن تغالط نفسها وتتجاهل ما تغمض عينها عنه فأننا جميعاً مثلها وان كنا لغرورنا نضرب بها المثل في الحماقة. وكذلك الأديب الذي يطلب منك الاحترام والتوقير لخلوده إنما يطلب هذا لشخصه لا لأدبه؛ ولو أمكن أن يهتدي إلى وسيلة أخرى له ما يشتهى وما تتعلق به نفسه من الإجلال والإكبار غير الأدب لما قصر في اتخاذها، ولكان الأرجح - إذا وجدها أجدى عليها - أن يتساهل فيما يجب للأدب من الإكبار، بل لرأيته يدعي أنه إنما يكتب أو ينظم أحياناً للتسلية لا لمنافسة الأدباء المحترفين. وكل إنسان يشتهي المجد أو التمجيد من الطريق الذي يراه أوفق له ويرى نفسه أقدر على انتهاجه ولا فرق من هذه الناحية بين الأدب وبين رفع الأثقال والحرب والموسيقى والسياسة وغير ذلك، فإنها جميعاً وسائل يستعين بها الإنسان على ما يريد من الفوز بالتمجيد الذي تصبو إليه نفسه.

وقد وجدت وأنا أنقب وأحتفر حجارة كثيرة تفتتت من صخرة الخلود الضخمة زحزحتها وأخرجتها ورميتها مثل النبوغ والعبقرية وما أشبه ذلك فألقيتها جميعاً، فشعرت بالراحة وأحسست أن ما كان يسد متنفسات روحي قد زال والحمد لله على التوفيق؛ ورأيتني قد رجعت إنساناً بعد أن كنت دفتراً أو كتاباً كالكتب التي عندي، وكل ما كان ينقصني هو أن أجد من يغللني أو يجلدني ليتسنى أن أوضع على رف كبقية الكتب وعلى ظهري كما على ظهورها (كشكول المازني). والواقع أني لم أكن إلا كشكولاً فيه خليط مضطرب غير متسق من الآراء المستمدة أو المولدة من هنا وههنا فصرت بعد التنقية الدقيقة التي أجريتها في نفسي إنساناً يشعر بالحياة التي وهبها ويلتذها وينعم بها ويحرص عليها كما ينبغي أن يفعل ويوفر لها الأسباب التي تعين على زيادة الإمتاع المستفاد منها.

وكنت كالذي وقف وفي يديه ما يشبه المنظار فإذا رفعه إلى عينيه لم ير إلا الصورة المطبوعة أو المنقوشة على زجاجة وهو يحسب انه يكبر له الأشياء ويجسم له المناظر. أما بعد التنقية فقد رميت هذا الذي كنت أحسبه منظاراً مكبراً ونظرت بعيني

لا بعيون الغير فبدت لي الدنيا بما فيها من جمال وقبح ومن خير وشر ومن عرف ونكر، وأنا الآن أخوض العباب وأغالب التيار وأصارع الموج، وأطفو تارة وأرسب أخرى، ولا أعدم ما أتعلق به فأنجو وأستريح وأستجم إذا أدركنا التعب لاكما كنت - واقفاً على الساحل أصف ما لم أجرب وأتحدث عما لم أختبر تقليداً لإحساس غيري ومجاراة لنظراته وأنا لا أدري أني لست سوى مقلد وإن كنت أزعمني مبتكراً.

وخطرت لي حكاية، فقد زعموا أن صانعاً بارعاً منقطع النظير خاف المعجبون بحذقه وأستاذيته أن يدركه الأجل فيموت معه فنه ويلف عليه وعلى براعته كفن واحد، فتقدموا إليه يرجون منه أن يتخذ له تلاميذ يعلمهم فأبى، فألحوا فلم يلن، فشكوه إلى الحاكم فأمره أن يفعل فلم يطع فسجنه، ولبث في السجن أياماً، فتشاور محبوه وإخوانه في الأمر فقال أحدهم: (أنا أحل لكم هذا المشكل) ودعا إليه واحداً من أتباعه وقال له أنّا سنسجنك مع هذا الصانع في حجرة واحدة فكن معه الرفيق المخالف، فإذا ضحك فاعبس أنت، وإذا رأيته يعبس فاضحك أنت وقهقه، وهكذا في كل شيء. (ففعل الرجل كما أمره فكاد الصانع يجن وطلب أن يأخذوه إلى الحاكم، فلما صار عنده قال له إنه مستعد أن يعلم ألف تلميذ ولا يبقى ساعة واحدة مع هذا الرفيق المخالف في غرفة واحدة.

بمثل هذا يجب - في رأيي - أن يعالج الذين يصرون على الحكم لنفسهم بالخلود قبل أن تحكم لهم الأيام فما أعرف طريقة أجدى وأكفل بشفائهم من طريقة الرفيق المخالف.

إبراهيم عبد القادر المازني

نظرية النبوة عند الفارابي

للدكتور إبراهيم بيومي مدكور

مدرس الفلسفة بكلية الآداب

- 3 -

أسلفنا القول عن إحدى الشخصيتين اللتين أثارتا مشكلة النبوة أثناء القرن الثالث والرابع للهجرة في شكل حاد، ونعني بها ابن الراوندي. واليوم نريد أن نتحدث عن الشخصية الأخرى التي ليست أقل من الأولى خطراً في هذا المضمار والتي ربما كانت أعرف لدى جمهور القراء، وهي شخصية أبي بكر محمد بن زكريا الرازي الذي ولد سنة 250 هجرية بالري حيث تعلم الرياضيات والفلك والأدب والكيمياء. ويظهر أنه لم يتقدم للدراسات الطبية إلا بعد أن بلغ سنا خاصة، ولكنه لم يلبث أن برز فيها على جميع معاصريه وأحرز شهرة كبيرة. فصار يتنقل من بلاط إلى بلاط، ومن مدينة إلى مدينة، يشرف على مستشفاها ويأخذ بيد العلاج والطب فيها. وكان في كل هذا يحن إلى الري ويعود إليها من حين لآخر إلى أن توفى بها في العقد الثاني في القرن الرابع. وليس هناك شك في أن الرازي هو أكبر طبيب في الإسلام، بل وفي القرون الوسطى على الإطلاق. فقد أحاط بكل النظريات الطبية القديمة وأدخل عليها عناصر جديدة هدته إليها تجاربه الكثيرة، ومنح الكيمياء كذلك قسطاً كبيراً من عنايته، ودرسها دراسة واقعية تجريبية قضت على كثير من الخرافات والأباطيل التي لصقت بها في ذلك العهد. ولم يكن الرازي طبيباً وكيميائياً فحسب، بل اتجه نحو الفلسفة وكتب فيها عدة أبحاث. ولقد كان حريصاً كل الحرص على أن يلقب بالفيلسوف؛ ولذلك لما أحس أن بعض معاصريه ينكرون عليه هذا اللقب سارع إلى الرد عليهم، وبين في رسالة خاصة مميزات الفيلسوف العلمية والعملية محاولاً أن يطبقها على نفسه. وهو في طبه وفلسفته واثق من نفسه كل الوثوق وإلى درجة لا نكاد نجدها لدي أي شخص من مفكري الإسلام. فهو ينتقد جالينوس في بعض آرائه، ولا يتردد في أن يرفض فريقاً من النظريات الأرسطية، ويضع نفسه في مصف أبقراط وسقراط من الأطباء والفلاسفة السابقين. وفوق هذا فهو لا يسلم بتلك الجملة المشهورة: (ما ترك الأول للآخر شيئاً) ويعتقد على العكس منها أن السابقين تركوا للاحقين أشياء كثيرة. وقد استدرك هو نفسه على القدامى جزءاً من نقصهم وأصلح بعض أخطائهم. ولا نظنه ينكر علينا إذا حاولنا اليوم أن نثبت ما في آرائه من ضعف أو خطأ، وما أشبهه في هذا ببيكون بين الطبيعيين والفلاسفة المحدثين. وليس بغريب أن يقف هذا الموقف أشخاص ينادون بالتجربة ويؤمنون بنظرية التقدم العلمي المستمر. فالرازي إذن مجدد وذو آراء

مستقلة يجدر بنا أن نعرفها بصرف النظر عن خطئها أو صوابها، شذوذها أو اعتدالها.
لم تستبق لنا الأيام، ويا للأسف، كثيراً من مؤلفات الرازي الطبية والكيميائية والفلسفية، إلا أنا ربما كنا أعرف بطبه وكيميائه منا بفلسفته. والسبب في ذلك أن الباحثين من المحدثين عنوا بالرازي الطبيب والكيميائي أكثر من عنايتهم بالرازي الفيلسوف. ونحن لا ننكر أن جانبه العلمي أوضح وأقوى من جانبه الفلسفي، وأن ما وصل إلينا من كتبه الطبية والكيميائية يزيد نسبياً على مخلفاته الفلسفية. بيد أن في فلسفته جرأة وغرابة تدفع الباحث إلى دراستها وتفهمها. وإذا كان شذوذها وخروجها على المألوف هما من دواعي الإعراض عنها والتنفير منها فأنهما في الوقت نفسه من وسائل الترغيب فيها والتشويق إليها. ونعتقد أنا نستطيع الآن أن نكون عنها فكرة كاملة على ضوء ما نقله أبو حاتم الرازي والبيروني والكرماني ونصيري خسرو، وبعض الرسائل القليلة التي وصلت إلينا والتي كتبها الرازي نفسه.
لئن كان الرازي قد اشتغل بالفلسفة فإنه يفترق عن فلاسفة الإسلام المعروفين في نواحٍ كثيرة. فهو يهاجم أولا أستاذهم وزعيمهم أرسطو ويخرج على كثير من نظرياته الطبيعية والميتافيزيقية.
ويبالغ ثانيا على العكس منهم في التعليق بأهداب الآراء المزدكية والمانوية والمعتقدات الهندية. وينكر أخيراً كل الإنكار محاولتهم التوفيق بين الفلسفة والدين. ويرى أن الفلسفة هي السبيل الوحيد لإصلاح الفرد والمجتمع، وأن الأديان مدعاة التنافس والتطاحن والحروب المتتالية. وقد كتب كتابين عدهما البيروني بين الكفريات، وهما: مخاريق الأنبياء أو حيل المتنبئين، ونقض الأديان أو في النبوات. وقد صادف الكتاب الأول نجاحا لدى بعض الطوائف التي انتشر فيها الزندقة والإلحاد وخاصة لدى القرامطة. ويذهب
الأستاذ ماسنيون إلى أن أثره تعدى إلى الغرب وكان منبع تلك الاعتراضات التي وجهها عقليو أوربا إلى الدين والنبوة في عهد فرديك الثاني. وحتى اليوم لم يوقف له على أثر بين المطبوعات والمخطوطات العربية. وأما الكتاب الثاني فقد وصلنا منه فقرات عن طريق غير مباشر في كتاب أعلام النبوة لأبي حاتم الرازي المتوفى سنة 330 هجرية.
وأبو حاتم هذا من أكبر دعاة الإسماعيلية الذين أبلوا بلاء حسنا في طبرستان وأذربيجان في أوائل القرن الرابع للهجرة. وقد كان معاصراً ومواطناً للرازي الطبيب، ودارت بينهما مناقشات حادة ومتعددة حضرها بعض العلماء والرؤساء السياسيين وقد شاء أبو حاتم أن يدون هذه المناقشات في كتابه أعلام النبوة. حقا إنه لا يصرح في هذا الكتاب باسم الرازي ويكتفي بأنه يوجه نقده إلى من سماه الملحد؛ غير أن هناك أدلة قاطعة على أن هذا الملحد ليس شخصاً آخر سوى الرازي. فان حميد الدين الكرماني المتوفى سنة 412هـ وزعيم الدعاة الإسماعيليين في عصر الحاكم بأمر الله يصرح في كتابه الأقوال الذهبية بأن مناقشات في النبوة والمناسك الشرعية دارت بين الرازي والشيخ أبي حاتم بجزيرة الري أيام مرداد وفي حضرته. والكرماني حجة في هذا الباب فإنه أعرف ما يكون بأخبار الإسماعيليين زملائه وبمواقف الرازي وآرائه التي أخذ على عاتقه أن ينقض بعضها في كتابه الآنف الذكر. ومما يؤسف له أن مخطوطة أعلام النبوة الوحيدة، التي وصلت إلينا، بدون مقدمة؛ ويغلب على الظن أن هذه المقدمة المفقودة كانت تشتمل على غرض الكتاب والدافع إلى تأليفه. فكتاب أعلام النبوة يقفنا على الاعتراضات الرئيسية التي وجهها الرازي إلى النبوة وأثرها الاجتماعي؛ وعليه نعتمد هنا أولاً وبالذات.
وهذه الاعتراضات في جملتها تقترب بعض الشيء من الاعتراضات التي أثارها ابن الراوندي من قبل. وكأن الرجلين يرددان نغمة واحدة ويصدران عن أصل معين، أو كأن تعاليم هندية وآراء مانوية اختفت وراء حملتهما. ونحن نعلم من جهة أخرى أن الرازي يقول بالتناسخ الذي عرفت به السمنية من الهنود، ويتشيع للمانوية الذين كانوا يدسون في غير ملل للإسلام ومبادئه؛ ولا يبعد أن يكون قد وقف على نقد الإغريق للديانات على اختلافها. وسواء أكان الرازي متأثراً بعوامل أجنبية أم معبراً عن آرائه الشخصية فإنه يصرح بأن الأنبياء لا حق لهم في أن يدعوا لأنفسهم ميزة خاصة، عقلية كانت أو روحية،

فان الناس كلهم سواسية، وعدل الله وحكمته تقضي بالامتياز واحد على الآخر. أما المعجزات النبوية فهي ضرب من الأقاصيص الدينية أو اللباقة والمهارة التي يراد بها التغرير والتضليل. والتعاليم الدينية متناقضة يهدم بعضها بعضا ولا تتفق مع المبدأ القائل إن هناك حقيقة ثابتة؛ ذلك لأن كل نبي يلغي رسالة سابقه وينادي بأن ما جاء به هو الحق ولا الحق سواه؛ والناس في حيرة في أمر الأمام والمأموم والتابع والمتبوع.

والأديان في جملتها هي أصل الحروب التي وقعت فيها الإنسانية من قديم، وعدو الفلسفة والعلم. وربما كانت مؤلفات القدامى أمثال أبقراط وأقليدس وأفلاطون وأرسطو أنفع من الكتب المقدسة. يقول الرازي: (الأولى بحكمة الحكيم ورحمة الرحيم أن يلهم عبادة أجمعين معرفة منافعهم ومضارهم في عاجلهم وأجلهم ولا يفضل بعضهم على بعض، فلا يكون بينهم تنازع ولا اختلاف فيهلكوا. وذلك أحوط لهم من أن يجعل بعضهم أئمةً لبعض فتصدق كل فرقة أمامها وتكذب غيره، ويضرب بعضهم بالسيف ويعم البلاء ويهلكوا بالتعادي والمجاذبات، وقد هلك بذلك كثير من الناس كما نرى).

نظننا في غنى عن أن نشير إلى أن أقوال الرازي هذه تمثل أعنف حملة وجهت إلى الدين والنبوة طوال القرون الوسطى. بيد أن الشيخ أبا حاتم استطاع أن يقابل هذه الحملة وجهاً لوجه ويخذلها، وأن يهدم هذه الفتنة من أساسها. وفي كتابه أعلام النبوة صفحات تفيض إفحاماً وإعجازاً، ومناقشات تسد على المكابرين والمعاندين سبل التخلص والفرار. وحبذا لو نشر هذا الكتاب في جملته فضم آية إلى آيات الإسماعيلية الكثيرة وأثراً من آثارهم العلمية النفيسة. وأبو حاتم ممن أحسنوا الجدل والمناقشة والأخذ والرد. وكيف لا وهو داع مهمته أن ينتصر لدعوته، ويرد عنها شبه الخصوم والمعارضين؟ فهو لا يرد على الرازي بقضايا مسلمة وأدلة مشهورة، وإنما يحمله على أن يرفض نفسه بنفسه، ويبين له أن أقواله وآراءه متهافتة ومتناقضة. وهو فوق هذا لا يتكلم باسم الإسماعيلية وحدهم، بل باسم الإسلام والعقل والإنسانية جمعاء. ذلك لأن مشكلة النبوة لا تتصل برفقة دون فرقة، ولا تعني طائفة منفردة من طوائف الإسلام.

وقارئ كتاب أعلام النبوة لا يشعر مطلقاً أنه يحمل شارة خاصة على عكس كتب الفرق المختلفة. وهنا نقطة نحب أن نلفت النظر إليها، وهي أن حملة الرازي وابن الراوندي من

قبله على الأديان والنبوات أثارت الأوساط الإسلامية على اختلافها، وحفزتها إلى الدفاع عن معتقداتها. فأبو علي الجبائي الكبير (المتوفى سنة 303هـ) وابنه أبو هاشم (المتوفى سنة 324هـ) المعتزليان، وأبو الحسن الأشعري (المتوفى سنة 324هـ) زعيم أهل السنة رأوا من واجبهم أن يردوا على ابن الراوندي؛ ومحمد بن الهيثم الفلكي والرياضي (المتوفى سنة 430هـ) أخذ على عاتقه أن ينقض رأي الرازي في الإلهيات والنبوات.

إلا أن الإسماعيلية بوجه خاص قد بذلوا في هذا المضمار همة عالية ومجهوداً صادقاً؛ ومعظم الردود على منكري النبوة إنما وصلتنا عن طريقهم. وليس هذا بغريب، فأن الإسماعيلية في تعاليمها الدينية ومبادئها السياسية تقوم على النبوة وتعتمد عليها.

في هذا الجو المملوء بالحوار والمناقشة في موضوع النبوة الخطير نشأ الفارابي، وكان لا بد له أن يقاسم في هذه المعركة بنصيب. لاسيما وهو معاصر لابن الراوندي والرازي معا؛ فقد ولد سنة 259 هجرية وتوفى سنة 339. ويروى المؤرخون أنه كتب ردين، أحدهما على بن الراوندي والآخر على الرازي؛ ونأسف جد الأسف لأن هذين الردين لم يصلا إلينا. وقد نستطيع أن نتكهن بموضعهما على ضوء الملاحظات السابقة. فإنه لا يتوقع أن يرد الفارابي المنطقي الفيلسوف على ابن الراوندي إلا في شيء يتصل بالمنطق والجدل اللذين أخل الأخير بقواعدهما، أو في مبدأ من مبادئ الفلسفة والإلهيات التي خرج عليها.

ولابد أن يكون الفارابي، وهو الأرسطي المخلص والمعنى بالسياسة والاجتماع، قد أخذ على الرازي كذلك أشياء كثيرة، في مقدمتها التهجم على أرسطو وإنكار مهمة الرسول السياسية والاجتماعية. على أن الفارابي لم يكتف بهذا الموقف السلبي وهذا الدفع الذي إن رد عن النبوة بعض خصومها الحاضرين فهو لا يمنحها أسلحة تستعين بها على هجمات المستقبل. وعلى هذا أجهد نفسه في أن يقيم النبوة على دعائم عقلية

ويفسرها تفسيرا علمياً، وبذا استطاع أن يبطل كلمة أنصار العقل الموهومين، ويدحض دعوى المتفلسفين الذين يزعمون أن الدين لا يمكنه التآخي مع الفلسفة، ولا القرب منها. ومن غريب المصادفات أن هذه الدعائم الجديدة ترجع إلى أصل أرسطي؛ فكأن الفارابي قد تمكن في نظرية النبوة أن يصوب إلى هدفين ويحظى بغايتين، فأسس الأديان تأسيسا عقلياً فلسفياً وأبان للناس أن أرسطو الذي تهجم عليه الرازي وأنكره آخرون جدير بحظ كبير من الإجلال والتقدير.

(يتبع)

إبراهيم بيومي مدكور

الحرب الأهلية الإسبانية

صراع بين الطغيان والحرية

خطر الفاشستية على السلم الأوربي

بقلم باحث دبلوماسي كبير

انتهت المأساة الإسبانية إلى موقف شديد الحرج، فمنذ أسابيع تطوق القوات الثائرة مدريد، وتشدد عليها الحصار والضغط، وتصلى المدافعين عنها والمسالمين من أهلها ناراً تحصد الأرواح بلا رأفة؛ ومنذ أسابيع تضطرب الجمهورية الإسبانية في يد القدر، وتبذل جهود المستميت للدفاع عن حياتها وكيانها؛ وقد لاح مدى لحظة حينما زحف الجيش الثائر على مدريد، وطوقها من معظم النواحي أن مدريد ستسقط تواً، وأن الجمهورية الإسبانية قد تلفظ أنفاسها الأخيرة في أيام قلائل؛ ولكن الجيش الثائر لقي مقاومة شديدة لم يكن يتوقعها؛ وتدل الأنباء الأخيرة التي وردت ونحن نكتب هذه السطور أن القوى الجمهورية التي تدافع عن مدريد قد عادت إلى الهجوم، واستردت بعض المواقع التي تشرف على العاصمة، وأن الأمل قد يتجدد بإنقاذ مدريد وإنقاذ الحكومة الجمهورية؛ بيد أن مصا ير الحرب قد تتغير فجأة، وقد تقسط مدريد في يد الثوار قبل أن تطلع (الرسالة) على القارئ بهذا المقال.

على أنه يجب أن نلاحظ أولاً أن سقوط مدريد لا يعني ختام الحرب الأهلية الإسبانية؛ ولا يعتبر نصراً حاسماً للثورة العسكرية؛ ذلك أن سقوط العاصمة قد قدر منذ بعيد وبحثت الحكومة الجمهورية كل ما يترتب عليه من الاحتمالات؛ ولن يترتب عليه من الوجهة المادية سوى كسب الثوار لمدينة جديدة، وإن كان يعتبر من الوجهة المعنوية فوزاً له قيمته؛ وما زالت الجمهورية مسيطرة على شرق إسبانيا كله من قطلونية حتى مالقة، وكذلك على قسم كبير من الأقاليم الوسطى والشمالية؛ فإذا سقطت مدريد؛ قامت الحكومة الجمهورية في برشلونة أو في قاعدة أخرى، واستمر النضال مضطرماً بين الفريقين.

ولكن هزيمة الثوار أمام مدريد قد تكون بالعكس موقعة الفصل في هذه الحرب البربرية المخربة؛ ذلك أن قوى الثوار ومواردهم محدودة، وقد دفعوا إلى المعارك الأخيرة بكل قواهم ومواردهم الاحتياطية. فإذا هزموا أمام العاصمة بعد أن لاح لهم أمل الظفر، تفككت قواهم

وخبت روحهم المعنوية، وربما اضطروا إلى الانسحاب عن جزء كبير من الأقاليم التي يحتلونها؛ وعندئذ تتطور مصا ير الحرب في صالح الجمهورية.

ولقد عالجنا موضوع الحرب الأهلية الإسبانية منذ نشوبها في أواخر يوليه الماضي، وقلنا يومئذ والحوادث في بدايتها إن هذه الحرب الأهلية الداخلية ليست إلا طوراً من أطوار الصراع الأوربي العام بين الديمقراطية والفاشستية، أو بعبارة أخرى بين النظم الحرة والطغيان العسكري؛ وقد أيدت الحوادث رأينا وما زال كل يوم تكشف لنا عن هذه الحقيقة بأدلة مادية لا شك فيها؛ وإذا كان مما يدعو إلى الأسف أن حكومة مدريد الشعبية قد اضطرت إزاء الظروف القاهرة أن تعتمد في نضالها على بعض العناصر غير المرغوب فيها من شيوعية وفوضوية؛ فليس معنى ذلك أنها حكومة شيوعية كما تصورها لنا الدعاية الفاشستية، بل هي في الواقع حكومة جمهورية شعبية من ورائها العمال والفلاحون والطبقات الوسطى أو بعبارة أخرى من ورائها الشعب الإسباني. أما الثورة التي يرفع لواءها الجنرال فرانكو وزملاؤه من القواد والضباط الخوارج فهي ثورة النظم الطاغية التي حطمتها الجمهورية في سنة 1931، ومن ورائها الملوكية الذاهبة والكنيسة وأحبارها وكبار الملاك وأصحاب الأموال، والقواد والضباط الخوارج،

وهي العناصر التي كانت تتمتع بالنفوذ والسلطان في ظل الملكية الذاهبة، وترهق الشعب الإسباني بطغيانها وامتيازاتها وجشعها؛ فلما ظفر الشعب الإسباني بالقضاء على الملوكية في سنة 1931 لبث أنصارها من الأحبار والملاك يترقبون الفرص للانتقاض على النظام الذي قضى على نفوذهم؛ وقامت الوزارة الجمهورية الأولى التي يرأسها السنيور أزانا ببعض الإصلاحات السياسية والاجتماعية كنزع ملكية بعض الضياع الكبيرة وتوزيعها على الفلاحين، وفصل جماعة من الضباط الذين يشك في ولائهم، والحد من سلطات الكنيسة وأحبارها، فزادت هذه الإجراءات في غضب العناصر الرجعية؛ وفرت رؤوس الأموال الكبيرة إلى الخارج، وزادت العطلة والبأساء وأخذت الجمهورية الجديدة تتخبط في غمار من الصعاب السياسية والاقتصادية؛ وجاءت بعد وزارة أزانا في أواخر سنة 1933 وزارة محافظة فألغت هذه الإصلاحات، ولكنها فشلت في معالجة الأزمة الاقتصادية؛ وأسفرت هذه الأزمة غير بعيد عن قيام بعض الحركات الثورية الخطرية، ولا سيما في منطقة الاستورياس وفي قطلونية حيث يشتد الاحتشاد الصناعية؛ وعملت العناصر الرجعة على إذكاء الثورة، ولكنها أخفقت وسحقت في سيل من الدماء؛ وقامت وزارة اشتراكية جديدة برآسة السنيور أزانا في فبراير الماضي، وعاد الفلاحون إلى المطالبة بنصيبهم من الأرض، واستولوا على كثير من الضياع واضطرت الحكومة أمام الضغط العام أن تقر هذه الحركة، واشتدت في محاسبة الكنيسة ونزع أملاكها وفي مطاردة أحبارها وتجريدهم من كل حول ونفوذ؛ ولكنها لم تفعل شيئاً لإصلاح الجيش وتطهيره من العناصر الناقمة، مع أن الجيش كان مصدر الخطر على الجمهورية، ولو فعلت لتغير سير الحوادث؛ ورأت العناصر الرجعية أن تلتف حول العناصر الناقمة في الجيش من قادة وضباط، وأن يتحد الجميع على مقاومة هذه الحركة الخطيرة التي ستنتهي بالقضاء عليهم وعلى أملاكهم وامتيازاتهم، وكانوا يضعون آمالهم في الجيش والحرس المدني، ويعولون على إسقاط الجمهورية بثورة عسكرية محلية، لأن الشعب لا يحبهم ولا يمكن أن يصغي إليهم؛ ولكن الحكومة الجمهورية كانت على شيء من التحوط والحذر، فاضطروا أن يولوا شطرهم إلى مراكش حيث تكثر العناصر الناقمة في الجيش، وحيث يستطيعون الاعتماد على الجند المغاربة، وعلى المعاونة الخارجية.

هكذا اجتمعت أسباب الثورة الإسبانية التي انفجرت في 17 يوليه الماضي، وتولى قيادتها الجنرال فرانكو حاكم جزر الكناري، وأحد زعماء الجيش الناقمين؛ على أن هذه الثورة لم تنشأ مستقلة، ولم تكن داخلية محضة، فقد كانت تعتمد منذ الساعة الأولى على المعاونة الأجنبية، ولم يك ثمة شك في المصدر أو المصادر التي قدمت هذه المعاونة؛ فقد رأت الفاشستية الإيطالية وهي عماد النظم العسكرية الطاغية في أوربا الجنوبية لأسباب سياسية وعسكرية أن تشد أزر الجنرال فرانكو، وأن تعاونه بكل الوسائل؛ ورأت ألمانيا النازية من جانبها أن تشترك في هذه المعاونة لأسباب وبواعث مشابهة، ذلك أن قيام حكومة عسكرية رجعية في مدريد تقوم على وسائل الطغيان والعنف التي تقوم عليها الفاشستية الإيطالية والنازية الألمانية، مما يقوي هذه النظم من الوجهة المعنوية، ومما يضعف جبهة الديموقراطية الأوربية التي تقف في وجه الفاشستية والنازية؛ وحصن الديموقراطية الأوربية إنكلترا خصيمة إيطاليا منذ الحرب الحبشية، وفرنسا خصيمة ألمانيا التاريخية؛ وإيطاليا ترى في قيام حكومة فاشستية في إسبانيا تقع تحت نفوذها وتأثيرها وسيلة لتقوية نفوذها في غرب البحر الأبيض وتهديد مركز إنكلترا في هذه المياه؛ ولذلك لم تدخر إيطاليا وألمانيا وسعاً في إمداد الثورة الإسبانية بالسلاح والذخائر والرجال؛ ولم يبق سرا أن أسطول الثوار الجوي كله يتكون من طيارات إيطالية وألمانية، وأن ضباطه جميعاً من الإيطاليين والألمانيين؛ وأن إيطاليا قد اتخذت من جزيرة ميورقة مركزاً لإمداد الثور الإسبانية وتموينها، وإن الإمدادات الألمانية تصل إلى الثوار من الشمال، ومن الغرب بواسطة البرتغال التي تعمل أيضاً في معاونة الثورة وإمدادها تحقيقاً لأطماع ومصالح خاصة؛ وقد ترددت فوق ذلك إشاعة قوية بأن هنالك اتفاقاً سرياً بين الثوار وبين إيطاليا وألمانيا والبرتغال، يقضي بأن تأخذ إيطاليا جزر البليار ثمناً لمعاونتها، وتأخذ ألمانيا جزر الكناري، وتأخذ البرتغال بعض الأراضي المجاورة لحدودها الشرقية؛ وهو اتفاق لا يبعد صدوره من زعماء عسكريين يعملون بمال الأجنبي

وسلاحه لسحق الحريات الشعبية في بلادهم وإراقة دماء مواطنيهم على هذا النحو الذريع الذي تطالعنا به الأنباء كل يوم؛ وهذا الاحتمال مما يثير اليوم في فرنسا وإنكلترا أشد الجزع، لأن جزائر البليار على مقربة من المياه الفرنسية وهي واقعة في طريق الجزائر، ولأن حلول إيطاليا بها يعرض سيادة إنكلترا في غرب البحر الأبيض ومواصلاتها الإمبراطورية من طريق جبل طارق إلى أشد الأخطار على أن الدولة الفاشستية في الحوادث الإسبانية على هذا النحو كان له رد فعل مماثل؛ فقد رأت روسيا السوفيتية من جانبها أن تقاوم نفوذ الفاشستية في إسبانيا بمعاونة الحكومة الجمهورية، وقد قابلت المثل بإرسال السلاح والذخائر والطائرات إلى حكومة مدريد، وقد ظهر أثر هذه المعاونة أخيراً بثبات الجنود الجمهوريين وانقلابهم إلى الهجوم في كثير من المواقع حول مدريد؛ ولهذا التدخل الثنائي في الحوادث الإسبانية قصة دولية مضحكة، فقد اقترحت فرنسا في بدء نشوب الحرب الأهلية الإسبانية على الدول أن تتبع إزاءها سياسة الحياد المطلق، ووافقت على هذا الرأي إنكلترا وألمانيا وإيطاليا وروسيا والبرتغال، وأنشئت لجنة عدم التدخل لتراقب تنفيذ هذه السياسة المشتركة ولكن الدول الفاشستية كانت تعبث منذ الساعة الأولى بمبدأ الحياد، وكانت روسيا تقابلها بالمثل، وقد اشتركت فرنسا أيضا في معاونة حكومة مدريد ولكن بشكل مستتر؛ فلما ظهر أن الدولة الفاشستية تتمادى في معاونة الثورة، رفعت روسيا القناع أيضاً وأنذرت أنها تستأنف كل
حريتها في العمل إذا لم تقم الدول الأخرى، أعني ألمانيا وإيطاليا، بالكف عن مساعدة الثوار؛ والآن تبدو مساعدة روسيا لحكومة مدريد بشكل واضح وتتقاطر السفن الروسية من البحر الأسود إلى مياه برشلونة وبلنسية واليقنت مشحونة بالذخائر والمؤن، وقد يتطور الموقف إلى أشد من ذلك، وقد يفضي هذا التدخل المزدوج غير بعيد إلى مصادمات وحوادث لا تؤمن عواقبها على السلام الأوربي.

لقد غدت الفاشستية مصدر الخطر على سلام أوربا، وكانت البلشفية قبل عامين مصدر هذا الخطر العام، ولكن روسيا السوفيتية رأت في النهاية أنها لا تستطيع أن تبقى في عزلتها الخطرة خصوصاً بعد أن استعادت ألمانيا جيشها وتسليحاتها في ظل الفاشستية الهتلرية، فانضمت إلى جبهة الدول الغربية، وعقدت مع فرنسا الميثاق الشهير الذي اتخذته ألمانيا ذريعة لنقض جميع تعهداتها العسكرية في معاهدة الصلح؛ وقد حل الخطر الفاشستي الآن في تهديد سلام أوربا محل الخطر البلشفي؛ وقوام هذا الخطر مطامع ألمانيا وإيطاليا العسكرية والاستعمارية؛ وقد رأت روسيا أن قيام دولة فاشستية جديدة في إسبانيا مما يقوي جبهة الدول الفاشستية ضدها، فرأت أن تخوض المعركة في إسبانيا ضد التدخل الفاشستي، وأن تعاون حكومة مدريد ما استطاعت لأن في فوزها فوزا للجبهة الديموقراطية التي اندمجت فيها روسيا.

فالمعركة التي تضطرم الآن في إسبانيا هي معركة مبادئ تذكيها المصالح والمطامع السياسية والعسكرية؛ وهي مظهر محلى لتلك المعركة العامة التي تضطرم في أوربا بين الجبهتين الخصيمتين؛ ومن الخطر على سلام أوربا وعلى حريات الأمم الضعيفة أن تنتصر هذه الثورة الفاشستية؛ وربما كان انتصارها نذير حرب أوربية إذا لم تنجح أوربا في حصر هذه الشعلة المضطرمة داخل إسبانيا؛ بيد أن المعركة ستستمر حينا آخر، وقد تتغير مصاير الحرب بين آونة وأخرى، فتحرز الجمهورية الإسبانية نصرها الحاسم، وتتحطم مشاريع الدول الفاشستية، وينجو السلام الأوربي مما يتهدده من الأخطار.

(* * *)

من النيل. . . إلى الرافدين

للأستاذ عبد المنعم محمد خلاف

حينما قيل لي في وزارة المعارف: إنك ممن اختيروا لانتدابهم للتدريس في مدارس العراق، أحسست أن واجباً يناديني ويطلب التلبية مهما كانت فجأة النقلة ووعثاء السفر ولوعة الفرقة للأهل والوطن. . . تحقيقاً للثقة العراقية في السمعة المصرية التي رفع الله ذكرها في الشرق العربي الإسلامي، ووفاء لناشئة العراق ببعض ما لأجدادهم على العقلية العربية العامة من دين المجد والدين والعلم. . . وإيغالا بالجسم في صميم الشرق. . . وملأ للنفس من روحه الذي أومن بسره وسحره. . . وتوثيقا للعلائق بين البلدان العربية التي ما يبزغ فجر يوم جديد إلا وفيه أمل مشرق بوحدتها

التي يرسم القلم الأعلى حدودها، وينسج الزمان بنودها، ويصنع جنودها.
وانطلق الجسم من حدود الأرض التي له فيها تاريخ وأطوار. . . إلى الأرض التي للروح والعقل فيها أشواق وأوطار! فقد عاشا في ميراثها، وقبسا من هداها للجنان واللسان، واعتز بفتوح أقلامها وسيوفها، فهما منها على غير نكرٍ.
واستدبرت السفينة شاطئ الوطن الذي في ترابه أبي، وعلى ترابه أمي، فأحسست شعور الانفصال له وقدة على كبدي! وصارت الفلك واحتواها الماء الذي قامت على عبريه بواكير الحضارات، وذابت في عبابه دولات، فقرأناه ككلمة خالدة في التاريخ، وعبرناه كقطرة في محيط الطبيعة.
وأقبل الليل ونحن على موج نرى جهاد السفينة فيه، والتقاء الظلام به، وإشراق النجوم عليه، فإذا القلب خافق صريع بسحر هذه الأكوان الثلاثة التي في كل منها محراب لعبادة الجمال الأعلى.
وتنفس الصبح على صفحة البحر فإذا لون من بهجة الحياة يشيع في النفس فتود لو أن الفلك والفلك وقفا فلا يريمان! ولاح حاجب الشمس من صوب فلسطين الثائرة ضد البطش والدس، فإذا بالعيون تشخص والخيال يطوف في بطون الوديان وقنن الجبال، فلا يرى إلا ثائراً رابضاً وراء صخرة، أو طائراً يقذف (بالبيض) مصارع، أو شلوا في فم ذئب، أو عيناً في منقار طير، أو طراداً عنيفاً بين قوة جبارة تعتمد على حذق للجديد من أساليب
الحرب، وبين مقاومة صلبة فدائية تعتمد على الحق وإمداد الايمان؛ فسألنا الشمس أم الحياة أن تشرق بالأمل على قلوب أبناء عمومتنا، وأن تنضح مضاجع الشهداء بالشعاع المسكوب!
ثم أوفت بنا السفينة إلى بيروت وقد مال ميزان النهار إلى الغروب، فلاحت (الحمراء) في سفح لبنان كغادة نائمة في حضن جبار. فودعنا البحر واستجممنا قليلاً، ثم اجتزنا لبنان في طريق كسير الأفعي فلم نر منه غي جماله النائم، وعهدي به منذ ثلاث سنين في ضحوة النهار، أرض الفتنة والسحر.
لبنان والخلد اختراع الله لم ... يوسم بأجمل منهما ملكوته
ونزلنا دمشق عرش أمية الفاتحة الماهدة لدولات العرب طريق الحضارة والاستقرار في الوطن الكبير، فما رأينا منها إلا كما يرى النظر الطائر من مدينة تتثاءب لهجعة الليل. وما هي إلا بقية من سواد قضيناها في فندق أمية حتى غدونا مصبحين مسرعين إلى سيارات الصحراء. . وهكذا خرجنا من الفيحاء من غير أن نرى أفراحها ومباهجها لاسترداد حريتها واستقبال وفدها، ومن غير أن نحج إلى مناسك جهادها وأعلام تاريخها.
فلما جاوزنا أرباض المدينة، وابتدأت صفرة الصحراء تطغى على خضرة الزرع، أخذت أجمع نفسي وأرهف حسي لأستقبل المجهول الذي طالما تاقت الروح إلى اختراق غيوبه وهتك حجابه حتى ترى ما فيه من صور الصمت والهول والوحشة، ونستلهم سماءه بعض المعاني التي فتقت ألسنة آبائنا بهذه الألفاظ البدوية الواعية لما أتت به الحضارات والمترجمة عن خلجات النفسي ودقائق الأحاسيس.
وهنا ابتدأ شعور مفاجئ لا تاريخ له في قلبي، فحملق البصر وتفرس في ذلك الرحب ليرى ظلال الأجناد والأحداث التي قلب بها القدر أوضاع الأرض بأيدي محمد وأبي بكر وعمر، وطغيان الموجات العربية في فترات التاريخ، وولادة الجزيرة، واحتضان العراق والشام ومصر لما تلد؛ ثم انحسرت هذه النظرة الأولى وارتدت تستنشد اللسان قول لبيد:
بلينا وما تبلى النجوم الطوالع ... وتبقى الديار بعدنا والمصانع!
ثم احتدمت الهاجرة، والتهب الهواء، والمع السراب، وبرزت الصحراء الحمراء عارية تحت عين الشمس، ونحن فيها (كركْبٍ م الجَنّ في ِزي ناسٍ) فوق مركب (يملأ الآفاق صوتاً وصدى) فتصطف له أرواح الصحراء ترى، في عجب، سحر الحياة الجديدة!
وفي خطفة من خطفات الروح تلفت القلب صوب الجنوب فرأي المدينتين الغريقتين في أمواج الرمال تتحديان بصمتهما وعزلتهما ضجة الدنيا بالشهوات، وسعارها بالآفات، فحييتهما تحية القدوم على أقرب الحدود لهما، وأخذت الطمأنينة والسلام لنفسي منهما. . .
وفي مغرب الشمس وافينا (الرطبة) أول محطة عراقية، فكان أول صوت رن في

آذاننا صوت الحاكي يغني أغاني من (دموع الحب) في مقهى هناك وقد التف حوله السمار في إنصات وطرب. فقلنا ها هي ذي مصر تسبقنا إلى العراق، فلا وحشة ولا اغتراب. ثم وجدنا من البشاشة لنا والأنس بنا ما إنسانا أننا في صحراء تبعد عن مصر بأربعين ساعة بالوسائل السريعة!

وما غشى الليل وحبك الظلام حتى واصلنا السير فكنا في الصحراء كسر في ضمير حليم! وجعلنا نسرح الطرف من خلال زجاج السيارة وقد غشيه الغبار فلا نرى غير نجوم وهنانة وأمانة من طول الوقوف على هذا الديموم.

وجاءت سكرة النوم فهمدت الأجساد ونام كل (على نفسه) في مجلسه، واستراحت المقل من التصويب والتصعيد في الأفق البعيد، وهكذا نمنا على دوي الرحى. . . ولم يوقظنا إلا وقوفها في (الرمادي) في الهزيع الأخير. . . فألممنا بها للتأشير على جوازات السفر. . . ثم وصل ما انقطع. . . اطراد السير والنوم حتى نرد بغداد مع الصباح. . .

هكذا قال الصبح الوليد. . . فمسحت جفوني، وجعلت (هذه هي بغداد أيها الركب؟) أتلفت عن شمالي ويمني لأرى مدخل دار السلام. . . المدينة التي احتضنت نتاج مكة ويثرب ودمشق وأثينا وروما والمدائن والإسكندرية، وزاوجت بين ألوانه، ومزجت ثقافاته حتى رأت الدنيا من تفاعلها عالماً جديداً غريباً!. . .

المدينة التي اضطلعت بالوصاية على ميراث الدين والعلم في زمن الجهل فربا في أيدي بنيها الممثلين لأجناس الناس وأديانهم وألوانهم، فجمعوا خلاصة ما في الإنسانية من تسامح وتلاقٍ على المعنى الموحد والرأي المجتمع.

المدينة التي كان الحج إليها واجباً على من كان يريد أن يتملى من دنيا القرون الوسطى في عظمة ملوكها وبطولة قوادها وفحولة علمائها وبلاغة صناع الكلام بها وضجة سوامرها بالإنشاد، ورنين الكؤوس، وضحك المجان، وعزف القيان. . .

ومهما يكن من عبث الزمان بها وتقلب الأحداث عليها، وتبدل المشاهد فيها، فان أطياف الماضي لا تزال تخايل أمام العيون التي تعرفت إليها في دنيا الكتب وصحائف الآثار. والذين يجدون في أنفسهم قدرة على ذكرى الأضواء والألوان لا يستطيعون أن يمروا على تراب كتراب بغداد، وقد ضم بين معادنه أشعة سقطت من أمجاد تاريخهم وعرش دينهم وعلمهم. . . دون أن يتفرسوا بين طياته، وتحن قلوبهم إلى الالتصاق بذراته!

وبعد. فإن ما رأيناه من حفاوة إخواننا العراقيين حكومة وشعبا بنا، وتقديرهم الجميل لجهود المصريين في المعاونة على تنفيذ سياسة الإنشاء والتعمير، وثقتهم فيهم حتى لقد أسلموا إليهم أعز شيء في الدولة وهو نفوس الناشئين، ووقوفهم على الدقيق والجليل من شؤون مصر. . . وامتلاء دورهم ونواديهم بأغاني مصر في المذياع والحاكي. . . كل أولئك مما يجعل الأمل يوشك أن يكون يقيناً بأن الشرق العربي قادم على عهد من وحدة المنزع ومجابهة الحياة في صفوف يجمعها نظام موحد وإن اختلفت أوضاعها في الميدان العام.

وإنه ليسرني إلى ما يقارب الفخر. . . أن تكون مهمتي في مصر والعراق من أمس المهمات بإعداد العقلية العامة في الناشئين لهذه الحال المموقة والتوسيد لها. . . وأنعم بها من رسالة لمعلم!

(كوت العمارة)

عبد المنعم محمد خلاف

في الأدب المقارن

أثر الفنون في الأدبين العربي والإنجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

تختلف الفنون في مجالاتها وبعض وسائلها: فللشعر من القدرة على وصف الحركة وتناول الأشياء المتباعدة في الزمان والمكان ما ليس للتصوير، ولهذا من المقدرة على بيان دقائق الموصوف وتحديد ماهيته ما يعوز الشعر؛ ولكن الفنون تتفق جميعاً في غايتها التي هي التعبير عن تأثر الإنسان بروائع الحياة وشغفه بجمالها، وفي كثير من وسائلها التي تتصل بطبائع الإنسان وميوله: كالتناسب والتماثل والتكرار في

الشكل أو في النغمة أو في الروي، والتقابل والتضاد في كل أولئك.
فالفنون على تعددها مظاهر شتى لصفة إنسانية واحدة، هي ترهف الشعور وحب الجمال. ولا يخلو المبرز في أحد الفنون من بصرٍ بسائر وإن قل، وحب لها يعلو على حب الفرد العادي. وكثيراً ما جمع الفنان الموهوب بين فنون عديدة يبرع فيها جميعاً؛ وقد نبتت الموسيقى والشعر والرقص بين الجماعات الأولية من أصل واحد ونمت حتى استقل كل منها. وكان الشعر في بدئه موسيقى عجماء وصيحات غنائية غير ذات معنى، ثم داخلها المعنى تافهاً في أول أمره، وما زال يتعاظم شأنه حتى احتل المكانة الأولى في الشعر، وإن لم تفقد الموسيقى أهميتها في رصانة القصيد، فأي شعر خلا منها قصر عن أوج الكمال مهما سما معناه.
وقد مارس العرب والإنجليز تلك الفنون الثلاثة: الموسيقى والرقص والشعر، منذ عهودهم الأولى، وارتقت موسيقاهم بمخالطة الأمم الأخرى: فأخذ العرب عن الفرس، والإنجليز عن الإيطاليين خاصة والفرنسيين ما لم يكونوا يعرفون من أصوات الموسيقى وآلاتها ومصطلحاتها وبان أثر ذلك في أدبهم. وأبدع أمثلة لشعر الغناء والرقص في الإنجليزية قصائد ملتون التي نظمها قبل انغماره في حركة المطهرين. وممن تغنى من شعراء الإنجليزية بتأثير الموسيقى والغناء دريدن في قصيدته (مأدبة الاسكندر)، وكولنز في قصيدته (العواطف).
وبذلك تغنى أيضاً شعراء العربية، بل بلغ انكبابهم على غشيان مجالس الغناء والرقص حداً بعيداً، بعد أن انتشر الترف عقب الفتوح، حتى كاد شعر كثير منهم، كبشار وأبي نواس، ينقسم إلى بابين رئيسيين: المدح الذي يطلب من ورائه المال الوفير، والتغني بمجالس اللهو والطرب التي ينفق فيها ذلك المال. ومن جيد ما قيل في وصف المغنيات وآلات الموسيقى قول ابن الرومي:

وقيان كأنها أمهات ... عاطفات على بنيها حوان
كل طفل يدعى بأسماء شتى ... بين عود ومِزْهَرٍ وكران
أمه دهرَها تترجم عنه ... وهو بادي الغنى عن الترجمان
ذات صوت تهزه كيف شاءت ... مثلما هزت الصَّبا غصنَ بان

وقوله في راقصة:

إذا هي قامت في الشفوف أضاءها ... سناها فشقَّتْ عن سبيكة سابكِ

وارتقى بين الأمتين حين تحضرنا فن العمارة، وقامت في بلادهما بيوت الملك والعبادة، والحصون والمعاقل، وتأثر فن العمارة في كلتيهما تأثيراً كبيراً بالطراز القوطي، واسترعت الأدباء تلك المباني الضخمة والحصون المشيدة، تروع الناظر فخامتها، ويعجب اللب من مغالبتها كر السنين ومصاحبتها جيلا من الناس بعد جيل؛ وشغل شعراء العربية خاصة بوصف قصور الملوك، وما حوت من ضروب الزخرف. ولفتت أذهان شعراء الإنجليزية وكتابها القصور والبروج المتخلفة من عصور الإقطاع تلك التي تجيش بذكريات الماضي والتي شهدت مصارعات الأمراء ومحنهم في غياباتها. وكانت لكثير من الأدباء مواقف بالكنائس والكتدرائيات، ولا سيما وستمنستر أبي التي تعج رحابها بآثار الماضي.
ووصلت يد كل من الأمتين إلى تراث اليونان، فاختلف موقفاهما: فأما الإنجليز فلم يتركوا شاردة ولا واردة من آثار ثقافة اليونان وفنونهم إلا تزودوا منها، فأحدث اطلاعهم على روايات سوفوكليس وأوربيدس انقلاباً في (رواية المعجزات) التي ترعرعت في الكنيسة في العصور الوسطى، فالتفتت إلى تصوير طبائع النفس الإنسانية، أي صارت فناً؛ وأخذ الإنجليز عن اليونان وتلامذتهم الطليان النحت والتصوير. وكانت بلاد اليونان وإيطاليا وما تزالان محج رجال الفنون الإنجليز من شعراء ومصورين ونحاتين وموسيقيين، وكانت صورهم وتماثيلهم وما تزال وحياً ونماذج لفناني الإنجليز؛ وأنجبت إنجلترا عدداً عديداً من نوابغ المصورين والمثالين جاروا أساتذتهم من أهل القارة في مجالات النحت والتصوير، كما جاورهم في مضمار الأدب.
وظهرت آثار تلك الفنون في الأدب الإنجليزي: فالتمثيل صار باباً من أبواب الأدب له خطره، وتوفر عليه أكثر نوابغ العصر الاليزابثي وكثير ممن تلاهم. والصور والتماثيل

التي أبدعها رجال الفن الإنجليز أمثال رينولدز وكنستبل وترنر، والأجانب أمثال رافائيل ودورر وفان ديك، وسير أولئك النوابغ، صار كل ذلك مجالاً لتأمل الشعراء والكتاب، ومهبطا لآثار أخرى في عالم الأدب لا تقل مكانة عن تلك الآثار في عالم النحت والتصوير؛ وصرف بعض الأدباء همهم إلى نقد أعمال المصورين والنحاتين والممثلين، ومن أولئك هازلت ورسكن، وإلى الأخير يرجع الفضل في إظهار المصور ترنر.

وقد قضى كيتس وشلي وبيرون وبروننج وهاردي ردحاً طويلاً أو قصيراً من أعمارهم في إيطاليا، حيث استطابوا مناظر الطبيعة وتفيأوا ظلال آثار الرومان واستلهموا بدائع المصورين والمثالين الطليان، بين رومة وفلونسة والبندقية، وقضى الشاعران الأولان نحبيهما هناك، ودفنا في أرباض تلك المعاهد التي ألفاها حيين. وبين أطلال رومة نبتت فكرة عمل من أكبر أعمال النثر الفني في الإنجليزية، ألا وهو تاريخ جيبون عن انحطاط الدولة الرومانية وسقوطها، فهو يحدثنا في مذكراته أن الرغبة في وضع مؤلفه عنت له أثناء تجواله هناك بين آثار الوثنية ومعالم النصرانية.

ولم تقتصر الصلة بين الأدب وغيره من الفنون على اقتباسه منها واستلهامه إياها، بل حدث العكس: إذ عمد أعلام تلك الفنون إلى الأدب يطلبون الوحي وينشدون النماذج، فوجودا في روايات شكسبير العديدة، ومناظرها الكثيرة، وشخصياتها الحية، ومواقفها الحافلة بشتى العواطف، وفي خرائد ملتون المملؤة بالأوصاف والصور والحالات النفسية، وفي روائع تنيسون وبروننج المنسوجة من أشتات الخرافات البديعة، منادح لفنهم ومسرى لخيالهم. والمتاحف الإنجليزية ملأى بتلك الآثار المنتزعة من قصائد الشعراء. كصور ليدي شيلوت، وأوفيليا، والحسناء القاسية.

وكان من شعراء الإنجليزية المعدودين من ضربوا بسهم في الفنون الأخرى، واشتهروا بها اشتهارهم بصناعة القلم: فشكسبير كان ممثلاً كما كان شاعراً ومؤلفاً للمسرح، ووليم موريس كان مصوراً وشاعراً، وروزيتي ألف جماعة (ما قبل الرافائيليين) التي كانت لها مبادئها في التصوير، كما كان لها مذهبها في الأدب؛ وأكثر من هؤلاء من لم تدركهم الشهرة في غير الأدب من الفنون، وإن كانوا شديدي الولع بها، شديدي الشغف بممارستها والتثقف فيها.

وهكذا أصبح من غير النادر في الإنجليزية أن ترى الأسطورة أو القصة التاريخية، كوقائع يوليسيز ومخاطرات فرسان المائدة المستديرة. وقد تناولها الشاعر والممثل والمصور والنحات كل من ناحيته مستقلاً بنظرته، أو معتمداً على الآخرين، مستلهماً محاسنها ومغازيها، مبرزاً من صورها وأفكارها ما يلائم فنه ويجري في مجال صنعته، نافثاً فيها من خلاصة تفكيره وعصارة شعوره واتجاهات عصره ما يزيدها جدة وروعة.

هذا التواصل والتجاوب والتعاون المستمر بين الفنون زاد الأدب الإنجليزي خصباً على خصب أفسح أمامه أغراض القول، وزاد رجاله بصراً بحقائق الفن وغاياته ووسائله، واعتقاداً بوحدة الفنون جميعاً وتلاقيها في الوسائل والغايات؛ فحرصوا في نثرهم ونظمهم على صدق النظرة وصحة الشعور ونشدان الجمال، واستعاروا وسائل الموسيقار والمصور والممثل والنحات، فاهتموا بالأوصاف الجميلة للطبيعة والإنسان، واعتنوا بتوضيحها وإبرازها، متوسلين لتصوير المعنى بجرس اللفظ ومناسبة التعبير واختيار القوافي. وتصرفوا في الوزن والروي بما يلائم الحالة الموصوفة من سكون أو حركة، وفرح أو حزن، وقسوة أو لطف: وتأنقوا في صوغ الحوار بين أبطال قصائدهم، معبراً حوارهم عن منازعهم؛ فإذا قرأت القصيدة القصيرة أو الطويلة لأحدهم، لم تجدك حيال معان ذهنية متزاحمة، بل رأيت صوراً محكمة التصوير، وموسيقى مطربة النغمات، وأشخاصاً ممتلئين حياة وقوة وألواناً وظلالاً.

ولم يغفل الشعراء الذين مجدوا الفنون الأخرى ذلك التمجيد عن فنهم الخاص، فنظم بوب وكيتس وتنيسون وغيرهم من الأعلام قصائد غراء في الشعر والشعراء. ولملتون وماثيو أرنولد أشعار في شكبير تفيض إعجاباً وتقديساً، ولوردزورث وتنيسون وأبركرومبي الشاعر المعاصر في ذكرى ملتون أشعار كهذه. وكان هاردي لا يمل ذكر شلي وتعظيمه في قصيده؛ وكانت لشعراء الأمم الأخرى لدى شعراء الإنجليز منزلة كهذه، فأشعارهم ملأى

بمحاكاة الشعراء الأقدمين كهوميروس وفرجيل ودانتي والخيام، والمحدثين كشيلر وجيته وهيجو، وترجمتهم والتحدث عنهم، لأن الفن يجمعهم طراً في صعيد واحد، ويمحو بينهم فوارق الزمان والمكان.

وما أعظم الفرق بين هذا الإعجاب النبيل بمتقدمي الشعراء، وبين ما نراه في العربية من وثوب بعض الشعراء ببعض، ووقوع حماد في بشار، وحملة ابن الرومي على البحتري، وحقد دعبل على الطائي؛ أذهلهم التناحر على متاع الدنيا عن الصلة السامية التي يصلهم بها الفن؛ وقد نعلم أن البحتري كان يقدم أبا تمام، وأن المعري كان يعظم أبا الطيب، ولكن ذلك التقدير لم يتخذ شكلا فنياً، ولم يبرز في عالم الشعر قصيداً رائعاً يفيض بتقديس الفن وتبجيل رجاله. وبينما كان ذاك التحاقد ديدن شعراء العربية فيما بينهم كان جهلهم بشعراء الأمم الأخرى مطبقا.

لقد حجب العرب عن تلك العوالم الفنية إعراضهم عن تراث اليونان الفني، ودعاهم إلى ذلك الأعراض تمكن الملكة البيانية منهم؛ تمكنت من نفوسهم في البادية، حيث لا تتوفر أدوات فن من الفنون سوى فن البيان الذي لا يحتاج إلى أدوات غير صفاء الذهن وطلاقة اللسان، وقوى اعتداد العرب بتلك الملكة وتوفرهم عليها نزول القرآن الكريم الذي زادهم كلفا بالفصاحة، وكان دائماً أساس ثقافتهم التي يؤخذون بها من الصغر. فالإنجليز اتصلوا بتراث اليونان وهم بعد مقصرون دون جميع غايات الثقافة، فاغترفوا من جميع مناهله؛ ولم يتصل العرب به وبغيره من تراث الأمم إلا بعد أن توطد أدبهم وتمكن سلطانه من نفوسهم، فشمخوا به على سائر الآداب، واستغنوا به عن كل الفنون.

لذلك لم يحفل العرب بالتمثيل، ولم يزدهر بينهم التصوير والنحت، ولم يتعديا حدود الصناعة ذات الغرض المادي إلى حدود الفن السامي الذي هو غاية نفسه، واقتصروا من التصوير والزخرفة والنحت على ما كان يزين قصور كبرائهم من تهاويل ودمي قليلة الحظ من الفن، لا تحمل وراءها من المعاني السامية ما تحمله الصور والتماثيل الفنية؛ واستبد الأدب بالتعبير عن أسمى مشاعر العرب وأرقى أفكارهم. وإذا تذكرنا أن الفنين الآخرين سالفي الذكر - الموسيقى والرقص - لم يتخلصا من ربقة المادية وشبهة الشهوات إلى عوالم الفن المتسامي بالنفوس، وظلا دائماً مقرونين بالشراب والقصف وخلع العذار، تبين

لنا أن الأدب كان فن العرب الفرد، وأن الشعر ظل ديوانهم في مختلف عصورهم، أودعوه حوارهم فاستغنوا عن التمثيل، وأوصافهم فاستغنوا عن التصوير، وأمداحهم فقام مقام التماثيل.

ومن ثم نرى أثر فنون التمثيل والتصوير والنحت في الأدب العربي ضئيلاً: فلم يكن بين العرب ممارسون لتلك الفنون ينعكس ظل فنونهم في الأدب؛ ولم يكن لدى أدباء العربية كبير اهتمام بمخلفات الأمم السالفة في مشارق دولتهم ومغاربها. ومن القليل الجيد الذي نظموه في تلك المناحي سينية البحتري التي يصف فيها نقوش إيوان كسرى، ورائية ابن احمد يس التي يصف فيها تماثيل الأسود في بعض القصور، وسينية أبي نواس التي يصف عرضاً في أثنائها تصاوير كأسه في قوله:

قرارتها كسرى وفي جنباتها ... مهاً تدَّربها بالقسي الفوارس
فللخمر ما زُرت عليه جيوبها ... وللماء ما دارت عليه القلانس

وقول بعض شعراء الأندلس في تمثال امرأة وولدها:

ودمية مرمر تزهو بجيد ... تناهي في التورد والبياض
لها ولد ولم تعرض خليلا ... ولا ألمتْ بأوجاع المخاض
ونعلم أنها حَجَرٌ ولكن ... تتيمّنا بألحاظٍ مِراَض

ولا تخلوا كل هذه الشواهد من آيات البراعة وحسن الملاحظة والوصف، حتى ليأسى المرء على أن لم يول العرب هذه المناحي من القول اهتماماً أكثر مما أولوها. وسينية البحتري مثل شرود من أمثلة الشعور الصادق والعاطفة الإنسانية والروح الفنية في الأدب العربي؛ وأعجب من تفردها في الأدب العربي صدورها عن البحتري الذي سخر بيانه للمدح والهجاء. وقد كان نقاد العرب يطربون لهذه الأشعار الفنية الجميلة، البعيدة عن آثار المدح والهجاء والنسيب المتكلف، فقد أعجب الجاحظ وغيره بسينيتي البحتري وأبي نواس سالفتي الذكر، وعدوهما من ذخائر الشعر العربي، ولكن دواعي مثل هذا

النظم كانت نادرة، وتيار محاكاة السابقين كان يدفع الأدباء في غير هذا الاتجاه.
فالأمتان العربية والإنجليزية تتفقان في ظهور الأدب فيهما على سائر الفنون واجتذابه أغلب نوابغهما، واشتهارهما بالسبق فيه بين الأمم، فان الإنجليز وإن جاروا الأوربيين في
مجالات النحت والتصوير لم يبلغوا شأوهم كما بلغوا الشأو والغاية في صناعتي الشعر والنثر، ولم ينجبوا من أعلام النحت والتصوير من توازي مكانته العالمية مكانة شكسبير وملتون وبيرون؛ ولكن تفترق الأمتان في أنه بينما مارس الإنجليز الفنون الأخرى وهاموا بها ومجدوا آثار الأمم الأخرى فيها أهمل العرب الفنون الأخرى إهمالاً يكاد يكون تاما، فلم تجتذب اهتمام نوابغهم ومثقفيهم، وظل ما عرفوه منها أدنى إلى الصناعات منه إلى الفنون، وظل الأدب - ولا سيما الشعر - يشغل في عالم الفن والوجدان مكاناً عالياً وسلطة مطلقة فردية بين العرب، كسلطة الخلفاء والأمراء المستبدة في عالم السياسة، متوحداً بالإفصاح عن أفكارهم مستأثراً برعايتهم وإجلالهم.
وقد خسر الأدب العربية بتفرده هذا الشيء الكثير، لأن الفن الواحد لا ينمو خير نموه بعزلته، بل بمواصلته الفنون الأخرى؛ خسر ما كان ينتظر أن تمده به تلك الفنون من إلهامات ومنادح للقول، وما كان ينتظر أن تبثه في رجاله من فهم دقيق للفن وسمو غايته وتعاليه عن المادة وبعد مراميه، وما توحيه إليهم من وسائل للتعبير والتصوير والملاءمة بين المعنى واللفظ، وجعل الأخير دائماً خادما للأول. وبالجملة خسر الأدب معاونة الفنون التي استأثر بالمكانة دونها، كما خسر مساعدة الآداب الأجنبية التي ترفع عنها.

فخري أبو السعود

صديق!

للأستاذ علي الطنطاوي

أستأذن أستاذنا المازني فأستعير منه تلك الكليشيه المعهودة التي كان يصدر بها مقالات ذات الثوب الأرجواني، لأقول: إن المقالة خيالية لا حقيقة، وأؤكد هذا للقراء!

(علي)

قال:

لا أدري كيف عرفته، ولا أعلم السبيل التي دخل منها إلى قلبي؛ فاحتل فيه هذه المنزلة، ولم أنتبه له إلا وهو ملء سمعي وبصري وعقلي. . . .
وإنني لأعرفه منذ عشرين يوماً، ولكني أحاول عبثاً حين أحاول ادكار بدايتي معه، لأنه عماد حياتي؛ لا أستطيع أن أتصور لصلتي به بداية؛ عرفته يوم عرفت الدنيا؛ لم أجهله قط ولم أنفرد عنه ساعة؛ وهو دنياي، إن لقيته لقيت الحياة، وإن نأى عني وجدت كل شيء في الحياة ميتا.
ولست أدري أي صلة هذه، ولا أعرف لها تحديداً مضبوطاً، ولكن الذي أدريه وأعرفه أنه ليس له في أعماق قلبي إلا الصداقة. إنني لم أنظر إلا إلى روحه، بل أنا لا أقدر أبداً أن أتخيله بشراً من لحم ودم. إنني أراه فكرة سامية، صورة شعرية بارعة، معنى من المعاني العبقرية. . . إنني أراه وحده معنى كلمة الوجود. . . لقد ضاعت معه حدود شخصيتي، ومحيت معالمها، فلم أعد أعرف أين أنتهي (أنا)، وأين يبدأ (هو)، وامتزجت نفسي بنفسه، فكأني (أنا من أهوى ومن أهوى أنا. . .)، وكدت أقول بالحلول، وأرتكب هذه الحماقة الكبرى، التي لا يقول بها ذو عقل. . . حين رأيتني أضحك إذا سر (هو)، وأحزن إذا تألم، وأشبع إذا أكل، وإذا أصابه الصداع وجعني رأسه، وإذا رأى (هو) حلماً هنيئاً تبسمت وأنا غارق في منامي، أجد اللذة الكبرى في رفاهيته وراحته، وآلم لشقائه أكثر مما آلم لشقائي، وأريد أن أمنحه صحتي وحياتي وكل ما أملك؛ أريد أن أفني فيه ولا أجد في شيء من ذلك عملاً كبيراً، ولا أحس أني مقدم على تضحية، لأنه اندمج في أعمق عاطفة من عواطفي، ونزل إلى أبعد غور من نفسي، وسيطر على قواي كلها، فلم يبق لي عاطفة مستقلة أو حاسة حرة أفكر بها فيه، وأزن صلتي به. . .
اختلف نظري إلى الحياة، وتبدلت المشاهد في عيني، فكأن الدنيا كانت في ظلام، حتى طلع في سمائه بدراً منيراً فأصبحت أرى كل شيء جميلاً في بصري: هذا السطح المشرف على الفضاء الرحيب، سطح دارنا في (الأعظمية)، وهذا النخيل الممتد إلى غير ما نهاية، وبغداد التي تلوح منائرها وقبابها كأنها معلقة في السماء حيال الأفق،

ودجلة التي تبدو من خلال الأغصان لامعة كصفحة المرآة المجلوة تشق عبابها الزوارق، تتمايل شرعها البيض مع نسيم المساء الناعش الخفيف، والبدر الذي طلع من الشرق يبدو منه حاجب ويختفي حاجب وراء نقاب من الغيوم. . . وهذا الطريق الذي لم تمتد إليه يد الحكومة بالتعبيد فبقى على فطرته وجماله لم تشوهه كف الإنسان، يظهر تارة، ويلتوي تارات، ويضيع بين النخيل ويضل الطريق. . . والفلاحين الذي يرجعون إلى دورهم حين تعود الشمس إلى خدرها، ويزدحمون على هذا الطريق الشعري الضيق، هم ودوابهم ومواشيهم تطنطن الأجراس في أعناقها والقطعان يسوقها الرعاة الذين تنكبوا عصيهم ثم ساروا وراءها يزمرون أو يغنون، وهؤلاء الأطفال من تلاميذ المدارس الذين يلعبون في هذه الرحبة، يتقاذفون الكرة يتصايحون ويتراكضون، فإذا أمسك أحدهم بها ضربها برجله فانطلقت تشق الفضاء كأنها القنبلة، ووقف الصبية صامتين قد علقوا أنفاسهم وتبعتها عيونهم، تبصر مسيرها، فإذا هبطت واستقرت على الأرض عادوا يركضون ويصيحون.

أصبحت أرى كل شيء جميلاً في عيني حبيباً إلي: الفلاحين الآوين إلى بيوتهم، والأطفال العاكفين على كرتهم، والدواب والمواشي. . . وأسمع في كل صوت أغنية عذبة، أسمعها في حفيف الأوراق، وزقزقة العصافير، ونباح الكلاب، ودوي الرعد. . . وأرى الجمال في ظلام الليل الدامس، كما أراه في صفحة البدر المنير، وأبصره في الصحراء المقفرة، كما أبصره في الروضة المزهرة، وأسمعه في صفير الرياح الرعب، كما أسمعه في تغريد البلبل المطرب، وألمسه في الخريف كما ألمسه في الربيع؛ بل إني لأعجب من هؤلاء النظامين المتشاعرين الذين يسميهم الناس شعراء، كيف يعمون عن صفحة الكون، ثم يذهبون فيحدقون في صفحات الكتب، وينظرون فيها بالمجهر: هؤلاء المقلدين الذين يظنون أن الخريف معناه الوحشة أبداً والموت والكآبة، وأن معنى الربيع الأنس دائماً والبهجة والسرور، كأن العواطف البشرية تسير على التقويم الفلكي، وتدور مع الأيام. . . فليس على الشاعر إلا أن ينظر في التقويم حتى يرى أيوم حزن هو، أم يوم سرور؟! وكأن في وجه الأديب زجاجتي فوتوغراف لا تريان إلا ما في الوجود، لا عيني إنسان يحس ويشعر.

أين إذن عاطفة الشاعر؟ وهل يرى الشاعر الحزين اليائس ربيعاً مشرقاً جميلاً؟ ألا يرى في الربيع الوحشة والكآبة والحزن؟ وهل يشعر المسلول القانط بجمال الزهر؟ والشاعر الفرح؟ ألا يرى في الشتاء وفي الخريف جمالاً وبهجة، ويبصر فيهما ورداً وزهراً؟

إن في شعر هؤلاء المتشاعرين المقلدين كل شيء إلا الحياة، إلا العاطفة، إلا الروح. هو شعر ميت، تمثال حسناء، ولكنه من الشمع!

لقد ظهر هذا الصديق فجأة في طريقي، فملك علي أمري، وأخذ بيدي فسلك بي طريقاً جديدة، حتى نأى به عن الناس فأصبحت لا أرى في الدنيا غيره، ولا أبصره سواه، وصب في نفسي عزيمة وقوة، فأحسست بالنشاط في جسمي وروحي، ودفعني إلى أداء الواجب علي، فوفيته على وجهه، وساقني في سبيل الاستقامة والشرف، وسما بي عن (الأنانية) والاستئثار فأضحيت أشفق حتى على أعدائي المخاصمين، وأعطف حتى على المجرمين والساقطين؛ وفتح لي مغاليق هذا الكون، فإذا وراء هذه المظاهر دنيا من الجمال والجلال والسحر والفتون، وإذا حيال هذه الدنيا دنيا أكبر، وأحفل بالكائنات، هي في نفسي، فرأيت وأبصرت ونعمت وانتفعت. . .

لقد دفعتني هذه الصداقة إلى الصلة بربي، والقيام بواجبي، والتعلق بأهلي، فلست أريد بعدها شيئاً، فخذوا الدنيا كلها، حسبي أني أخذت منها صديقاً.

(بغداد)

علي الطنطاوي

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فرديك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

الجزء الأول

مستهل زرادشت

- 1 -
لما بلغ زارا الثلاثين من عمره، هجر وطنه وبحيرته وسار إلى الجبل حيث أقام عشر سنوات يتمتع بعزلته وتفكيره إلى أن تبدلت سريرته، فنهض يوماً من زقادة مع انبثاق الفجر وانتصب أمام الشمس يناجيها قائلا:
- لو لم يكن لشعاعك من ينير، أكان لك غبطة، أيها الكوكب العظيم؟ منذ عشر سنوات ما برحت تشرق على كهفي، فلولاي ولولا نسري وأفعاي، لكنت مللت أنوارك وسئمت ذرع هذا السبيل، ولكننا كنا نترقب بزوغك كل صباح لنتمتع بفيضك ونرسل بركتنا إليك. أصغ ألي، لقد كرهت نفسي حكمتي كالنحلة أتخمها ما جمعت، فمن لي بالأكف تنبسط أمامي لأهب وأغدق إلى أن يغتبط الحكماء من الناس بجنونهم ويسعد الفقراء منهم بثروتهم.
تلك هي الأمنية التي تهيب بي للجنوح إلى الأعناق، كما تجنح أنت كل مساء منحدراً وراء البحار حاملا إشعاعك إلى الشقة السفلي من العالم، أيها الكوكب الطافح بالكنوز.
لقد وجب علي أن أتوارى أسوة بك، وجب علي أن أرقد على حد تعبير الأناسي الذين أهفو إليهم.
باركني، إذن، أيها الكوكب، فأنت المقلة المطمئنة التي يسعها أن تشهد ما لا يحد من السعادة دون أن تختلج كمقلة الحاسدين بارك الكأس الدهاق تسكب سلسبيلاً مذهباً ينثر على الآفاق وهجاً من مسراتك.
أنظر! إن هذه الكأس تريد أن تندفق ثانية، ويريد زارا أن يعود إنساناً.
وهكذا بدأ جنوح زارا إلى المغيب.
- 2 -
وانحدر زارا من الجبال فما لقي أحداً حتى بلغ الغاب حيث انتصب أمامه شيخ خرج من كوخه بغتةً ليفتش عن بعض الجذور والأعشاب، فقال الشيخ:
- ليس هذا الرحالة غريباً عن ذاكرتي، لقد اجتاز هذا المكان منذ عشر سنوات، ولكنه اليوم غيره بالأمس.
لقد كنت تحمل رمادك في ذلك الحين إلى الجبل، يا زارا، فهل أنت تحمل الآن نارك إلى الوادي؟ أفما تحاذر يا هذا أن ينزل بك عقاب من يضرم النار؟
لقد عرفت زارا، هذه عينه الصافية، وليس على شفتيه للاشمئزاز أثر؛ أفما تراه يتقدم بخطوات الراقصين؟
لقد تبدلت هيئة زارا، إذ رجع بنفسه إلى طفولته. لقد استيقظت يا زارا فماذا أنت فاعل قرب النائمين.
كنت تعيش في العزلة كمن يعوم في بحر والبحر يحمل أثقاله، وأراك الآن تتجه إلى اليابسة، أفتريد الاستغناء عمن حملك لتسحب هامتك على الأرض بنفسك؟
فأجاب زارا: إنني أحب الناس
فقال الشيخ الحكيم: أنني ما طلبت العزلة واتجهت إلى الغاب إلا لاستغراقي في حبهم، أما الآن فقد حولت حبي إلى الله، وما الإنسان في نظري إلا كائن ناقص، فإذا ما أحببته قتلني حبه.
فأجاب زارا: ومن يصف لك الحب الآن! إنني لا أقصد الناس إلا لأنفحهم بالهدايا.
فقال الحكيم القديس: إياك أن تعطيهم شيئاً، والأجدر بك أن تأخذ منهم ما تساعدهم على حمله، ذلك أجدى لهم على أن تغنم سهمك من هذا الخير، وإذا كان لا بد لك من العطاء فلا تمنح الناس إلا صدقة على أن يتقدموا إليك مستجدين أولاً.
فأجاب زارا: أنا لا أتصدق، إذ لم أبلغ من الفقر ما يجيز لي أن أكون من المتصدقين.
فضحك القديس مستهزئاً وقال: حاول جهدك إذن إقناعهم بقبول كنوزك، إنهم يحاذرون المنعزلين عن العالم، ولا يصدقون بأننا نأتيهم بالهبات؛ إن لخطوات الناسك في الشارع وقعاً مستغرباً في آذان الناس. إنهم ليجفلون على مراقدهم إذ يسمعونها فيتساءلون: إلى أين يزحف هذا اللص؟! لا تقترب من هؤلاء الناس. لا تبارح مقامك في الغاب، فالأجدر بك أن
تعود إلى مراتع الحيوان، أفلا يرضيك أن تكون مثلي دبا بين الدببة وطيرا بين الأطيار؟
فسأل زارا: وما هو عمل القديس في هذا الغاب؟
فأجاب القديس: إنني أنظم الأناشيد لأترنم بها، فأراني حمدت الله إذ أسر نجواي فيها

بين الضحك والبكاء، لأنني بالإنشاد والبكاء والضحك والمناجاة أسبح الله ربي، ومع هذا فما هي الهدية التي تحملها إلينا؟
فانحنى زارا مسلماً وقال للقديس: أي شيء أعطيك؟ دعني أذهب عنك مسرعا كيلا آخذ منك شيئاً.
وهكذا افترقا وهما يضحكان كأنهما طفلان.
وعندما انفرد زارا قال في نفسه:
- إن لأمر جد مستغرب، ألما يسمع هذا الشيخ في غابة أن الإله قد مات.
- 3 -
وإذ وصل زارا إلى المدينة المجاورة، وهي أقرب المدن إلى الغاب، رأى الساحة مكتظة بخلق كثير أعلنوا من قبل أن بهلواناً سيقوم هنالك بالألعاب، فوق زارا في الحشد يخطبه قائلاً:
- إنني آت إليكم بنبأ الإنسان المتفوق، فما الإنسان العادي إلا كائن يجب أن نفوقه، فماذا أعددتم للتفوق عليه؟
إن كلا من الكائنات أوجد من نفسه شيئاً يفوقه، وأنتم تريدون أن تكونوا جزراً يصد الموجة الكبرى في مدها؛ بل إنكم تؤثرون التقهقر إلى حالة الحيوان بدل اندفاعكم للتفوق على الإنسان. وهل القرد من الإنسان إلا سخريته وعاره؟ لقد اتجهتم على طريق مبدؤها الدودة ومنتهاها الإنسان، غير أنكم أبقيتم على جل ما تتصف ديدان الأرض به. لقد كنتم من جنس القرود فيما مضى؛ على أن الإنسان لم يفتأ حتى اليوم أعرق من القرود في قرديته.
ليس أوفركم حكمة إلا كائن مشوش لا يمت بنسبه إلى أصل صريح، فهو مزيج من النبات والأشباح، وما أدعو الإنسان ليتحول إلى شبح أو إلى نبات.
لقد أتيتكم بنبأ الإنسان المتفوق.
إنه من الأرض كالمعنى من المبنى، فلتتجه أراداكم إلى جعل الإنسان المتفوق معنى لهذه
الأرض وروحًا لها.
أتوسل إليكم، أيها الأخوة بأن تحتفظوا للأرض بإخلاصكم فلا تصدقوا من يمنونكم بآمال تتعالى فوقها؛ إنهم يعللونكم بالمحال فيدسون لكم السم، سواء اجهلوا أم عرفوا ما يعملون، أولئك هم المزدرون للحياة، لقد رعى السم أحشاءهم فهم يحتضرون؛ لقد تعبت الأرض منهم فليقلعوا عنها.
لقد كانت الروح تنظر فيما مضى إلى الجسد نظرة الاحتقار فلم يكن حينذاك من مجد يطاول عظمة هذا الاحتقار. لقد كانت الروح تتمنى الجسد ناحلاً قبيحاً جائعاً متوهمة أنها تتمكن بذلك من الإنعتاق منه ومن الأرض التي يدب عليها. وما كانت تلك الروح إلا على مثال ما تشتهي لجسدها ناحلةً قبيحة جائعة، تتوهم أن أقصى لذتها إنما يكمن في قسوتها وإرغامها.
أفليست روحكم، أيها الأخوة، مثل هذه الروح؟ أفما تعلن لكم أجسادكم عنها أنها مسكنة وقذارة وأنها غرور يسترعي الإشفاق؟
والحق ما الإنسان إلا غدير دنس، وليس إلا لمن أصبح محيطاً أن يقتبل انصباب مثل هذا الغدير في عبابه دون أن يتدنس
تعلموا من هو الإنسان المتفوق.
إن هو إلا ذلك المحيط تغرقون احتقاركم في أغواره.
وهل تتوقعون بلوغ معجزة أعظم من هذه المعجزة؟
لقد آن للاحتقار أن يبلغ أشده فيكم، بعد أن استحال شرفكم ذاته كما استحالت عقولكم وفضائلكم إلى كرهٍ واشمئزاز لقد آن لكم أن تقولوا: ما يهمني شرفي، وما هو إلا مسكنة وقذارة وغرور، في حين أن على الشرف أن يبرر الحياة نفسها لقد آن لكم أن تقولوا: ما تهمني القوى العاقلة في، إذا لم تطلب الحكمة بجوع الأسد، وما هي الآن إلا مسكنة وقذارة وغرور.
لقد آن لكم أن تقولوا: ما تهمني فضيلتي فإنها لم تصل بي إلى الاستغراق، وقد أتعبني خيري وشري، وما هي إلا مسكنة وقذارة وغرور.
لقد آن لكم أن تقولوا: ما يهمني عدلي، إن العادل يقدح شرراً ولما أشتعل.

لقد آن لكم أن تقولوا: ما تهمني رحمتي، أفليست الرحمة صليباً يسمر عليه من يحب البشر. ورحمتي لما ترفعني على الصليب أقلتم مثل هذا وناديتم به؟ ليتني سمعتكم تهتفون بمثله!

إن ما يرفع عقيرته على السماء إن هو إلا غروركم لا خطاياكم، إن هو إلا حرصكم حتى في خطاياكم.

أين هو اللهب الذي يمتد إليكم ليطهركم؟ أين هو الجنون الذي يجب أن يستولي عليكم؟

هاأنذا أنبئكم عن الإنسان المتفوق.

إن هو إلا ذاك اللهب وذلك الجنون.

(يتبع)

فليكس فارس

تاريخ العرب الأدبي

للأستاذ رينولد نيكلسون المستشرق الإنجليزي

المدخل لتاريخ العرب

- 3 -

هـ - من الفتح المغولي إلى اليوم (من 1258 -)

انتهى عصر الخلافة بسقوط بغداد عام 1258 في يد المغول الرحل الذين كانوا تحت زعامة هولاكو. وما كادوا يتقدمون إلى الأمام حتى صدهم المماليك المصريون وردوهم على أعقابهم إلى فارس التي اعتنقوا فيها الإسلام بعد زهاء خمسين عاماً، أما الخانات خلفاء هولاكو فقد حكموا في فارس.

ثم أغار على آسيا الغربية فريق من البرابرة بقيادة تيمور واندفعوا كالأتي المزبد، ونشروا الفساد والفوضى في ربوعها (1380 - 1405 م) وإذ ذاك تفككت رابطة الإسلام من الناحية السياسية. وفي هذه الفوضى الضاربة بأجرانها نشأت ثلاث إمبراطوريات إسلامية. ففي سنة 1358 عبر الأتراك العثمانيون البسفور ودخلوا القسطنطينية عام 1453، حتى إذا كان عام 1517 دخلت في حوزتهم سورية ومصر وبلاد العرب وأصبحت فارس مملكة مستقلة تحت حكم الصفويين (1502 - 1736) بينما أسس بابر وهو من ولد تيمور - إمبراطورية التتار العظمة والهند، وظلت قوية الشوكة تحت خلفائه وخاصة أكبر وأورنجزيت (1525 - 1707).

أما الحوادث السياسية التي أجملناها آنفاً فسنعالجها بالتفصيل في صلب هذا الكتاب؛ على حين أن غيرها لن يكون نصيبه منا سوى الإشارة الموجزة والنظرة العابرة. ولما كانت الآراء التي انتشرت في الأدب العربي شديدة الارتباط بتاريخ الناس ولا سبيل إلى فهمها بعيدا عن الحوادث الخارجية التي نشأت فيها، فقد وجدت نفسي مضطراً إلى الإسهاب في بعض النواحي التاريخية حتى يتبين القارئ الحقائق المهمة من وجهة نظرنا الخاصة. كما سيرى أن ليس من إطناب في الكلام عن العصور المتقدمة السابقة (500 - 750م) خاصة إذا علم أن هذه تعد محور التاريخ العربي ومركزه. وقد بلغت الحضارة الإسلامية أقصى شأوها خلال القرنين التاليين لهذا التاريخ وإن أخذ العرب يتراجعون إلى الوراء سريعاً. وقد طمس الهجوم التتاري - في الغالب - معالم حياتهم الأهلية وإن ظلوا متمسكين في سورية ومصر تحت الحكم التركي بأهداب ثقافتهم كما نراهم يستميتون في الكفاح بإسبانيا ضد النصرانية. وفي أيام ازدهار الدولة العباسية كان أثر العرب الخلص في الأدب الذي حمل اسمهم ضئيلاً قياسياً؛ ولم ألتزم جادة القياس الوطني وإلا استثنيت جميع الأجانب والمولدين الذين كتبوا بالعربية. أما الفرس الذين ألفوا حتى يومنا هذا استعمال الضاد في كتاباتهم الدينية أو الفلسفية فيمكن القول بأن عملهم لا يصور تاريخ الفكر العربي؛ ومن ثم كان من الضروري دراستها معاً كي نصل إلى الغاية المقصودة. ولكن ماذا يكون موقفنا إزاء هؤلاء المؤلفين الكثيرين الذائعي الصيت الذين ليسوا عرباً أقحاحاً ولا فرساً خالصين، بل هم مزيج من الجنسين. أترانا نسترجع أنسابهم ونحاول أن نزن أي دم الجنسين أرجح كفة؟ إن مثل هذه المحاولة يطول أمدها، وليس من ورائها جدوى. والمؤكد أنه بعد العصر الأموي لا يستطاع وضع حد فاصل صحيح بين العناصر الأهلية والأجنبية الموجودة في الأدب العربي، فقد امتزج كل

منها بالآخر امتزاجاً قوياً. وإذا كان لا بد من التمييز بينهما إلى أبعد حد مستطاع، فلابد لنا من اتباع طريقة ضيقة واهية في عرض التاريخ الأدبي إذا أصررنا على اعتبار كل منهما منفصلا عن الآخر.

الفصل الأول

سبأ وحمير

قد يمكن القول بأن تاريخ العرب يبدأ بما نعرفه عن أهل سبأ، ولكن كخطوة تمهيدية ينبغي لنا أن نلم ببعض الأجناس التي تعرض علينا صورها في الأساطير والقصص، والتي يعتبرها المؤرخون المسلمون السكان الأصليين للبلاد. ومن بين هؤلاء قوم عاد وثمود، أولئك الذين طالما ورد ذكرهم في القرآن مثلاً للكبرياء والجبروت اللذين أديا بهم إلى التهلكة. وكان موطن (عاد) أرض حضر موت التي تتاخم بلاد اليمن على حدود الصحراء المسماة بالأحقاف. ولا يستطاع الجزم أهم من الجنس السامي من سلالة الآراميين الذين أخضعهم وأبادهم الغزاة المغيرون على بلادهم من الشمال أم أنهم - - كما يقرر هومل

ممثلو ثقافة غير سامية خلفت إرم ذات العماد، تلك الجنة الأرضية التي بناها (شداد) أحد ملوكهم. وإن قصة هلاكهم لتروى على النمط التالي: ذلك أنهم كانوا جبارين ضخام الأجسام، يعبدون الأصنام ويقترفون شتى الموبقات، فلما بعث الله فيهم نبيه (هودا) نصح لهم أن يتوبوا عما اقترفوه من الأثام فقالوا له: (يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين، إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء). ثم نزل قحط شديد بأرض عاد فأرسلوا بعض رءوسهم إلى مكة ليصلوا عسى أن ينزل القطر ويستقوا، وإذ بلغت رسلهم مكة لقيهم أمير العمالقة (معاوية بن بكر) بالبشر والترحاب، ومد لهم الموائد، فشربوا الخمر ودارت بالدفوف جاريتان ذواتا غناء شجي تسميان بالجرادتين، فألهاهم ذلك عما جاءوا من أجله شهراً كاملاً، فلما حان وقت أوبتهم قام أحدهم ليصلي، فلم يكد ينتهي من صلاته حتى حلقت في السماء ثلاث سحابات مختلفة الألوان إحداها حمراء والثانية بيضاء والثالثة دكناء، ثم رن صوت من خلف السموات يقول (يا قيل: اختر لنفسك وقومك من هذا السحاب) فاختار الرسل السوداء ظنا منهم أنها تعج بالماء، وأنها أكثر السحاب فيضا، وحينذاك أنشد الصوت:

خذها رماداً رمددا ... لا تدع من عاد أحدا

لا والداً تترك ولا ولدا ... إلا جعلته همدا

ثم ساق الإله السحابة السوداء حتى حومت فوق أرض عاد فانبعث منها إذ ذاك ريح صر صر عاتية أفنت الناس جميعاً إلا فئة قليلة لبت نداء هود وأجابته إلى دعوته ونبذت عبادة الأوثان. وإذ ذاك ظهر بطبيعة الحال وعلى ممر الزمن شعب آخر يدعى بقوم عاد الثانية وكان مقره اليمن في مملكة سبأ؛ وإن السد العظيم سد مأرب لينسب إلى ملكهم لقمان بن عاد الذي تحاك حوله طائفة من الخرافات، وكان يكنى بذي النسور إذ أوحى إليه أنه سيعمر ويفنى سبعة أنسر كلما مات واحد خلا إلى آخر

وفي شمال بلاد العرب بين الحجاز وسورية سكن قوم ثمود الذين ورد ذكرهم في القرآن بأنهم كانوا يسكنون مغارات نحتوها في الجبال. ولا شك أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان يجهل طبيعة هذه البيوت المنحوتة في الصخور، والتي لا تزال آثارها قائمة في الحجر (مدائن صالح) على مسيرة أسبوع من شمال المدينة، والتي تدل عليها النقوش

النبطية التي عثر عليها في القبور. وقد أخطأت ثمود كما أخطأت عاد من قبل. وتشابهت النهايتان، فهزأت ثمود من نبيها صالح وأبت أن تطيعه أو يأتي بمعجزة خارقة، فأطلع لهم صالح من الصخر ناقة ضخمة وفصيلها، وأمر ثمود ألا تمس بسوء؛ بيد أن أحد الآثمة الأشرار واسمه (قدار الأحمر) عقرها وذبحها (فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دراهم جاثمين) وصارت العرب تقول لكل من باء بجرم كبير، وحظ أغبر (أنكد حظاً من عاقر الناقة أو أحمر ثمود) وينبغي أن نشير إلى أن ديودور الصقلي وبطليموس قد أشار إلى وجود آل ثمود، أما قوم عاد فلا نجد لهم أثراً يذكر في العصور التاريخية، على حين أن ثمود عاشوا حتى القرن الخامس الميلادي، وكان أباطرة الدولة البيزنطية يستخدمونهم كفرسان ثموديين في جيوشهم.

وبجانب عاد وثمود نرى العمالقة مدرجين بين أهل الفترة، وقد جاء في علم الآثار

العربية الإسلامية ما ينبئ عن وجود عدة أقوام سلفوا في عصر بعيد، كالكنعانيين والفلسطينيين. وأنّا لنسمع أن مقر العمالقة كان في تهامة مكة، وفي بعض أنحاء أخرى من شبه الجزيرة. ويجب أن نشير أخيراً إلى قبيلتي طسم وجديس اللتين لم يدون عنهما شيء إلا حقيقة هلكهما، والدواعي التي أدت إلى ذلك. وإن القصص الخرافية التي أشارت إليهما لا تخلو من لذة بالنسبة لوجودهم في المجتمع العربي القديم.

أما تاريخ القحطانيين - أو عرب الجنوب - قبل الإسلام فهو تاريخ شعبين: السبأي والحميري اللذين خلفا زعماء الإمبراطورية العربية الجنوبية التي امتدت من البحر الأحمر حتى الخليج الفارسي. وسبأ (أو شبا كما هي في العهد القديم) تستعمل خطأ إذا قصد بها كل بلاد اليمن على حين لم تكن سوى إقليم منها وإن كانت بلا جدال أقوى شكيمة وأعظم أهمية من كل الممالك والأقاليم التي ورد ذكرها في كتابات الإغريق والرومان القدامى؛ ومهما بولغ في عظمتها وثراها فمن المحقق أن سبأ هذه كانت ذات مركز تجاري ممتاز قبل ظهور المسيح بعدة قرون. (ولقد قامت السفن منذ زمن بعيد تمخر عباب المياه بين مواني بلاد العرب الشرقية وبين الهند محملة بالبضائع، وكانت منتجات الأخيرة وخاصة الطيب والبخور والحيوانات النادرة (كالقردة والطواويس) تنقل إلى ساحل عمان؛ ومنذ القرن العاشر قبل الميلاد كانت لهم دراية بالخليج الفارسي حيث كانوا ييممون شطر مصر يبيعون لفراعنتها وأمرائها بضائعهم، وقد كانت صعوبة الملاحة في البحر الأحمر سبباً في تفضيل الطريق البري للتجارة بين اليمن وسورية، وكانت القوافل تقوم من (شبوت) في حضر موت وتذهب إلى مأرب عاصمة سبأ، ثم تتجه شمالاً إلى مكربة (مكة فيما بعد) وتظل في طريقها من بترا حتى غزة المطلة على البحر الأبيض المتوسط).

وظل رخاء السبئيين قائماً حتى أخذت التجارة الهندية تهجر البر وتسلك عبر البحار على طول شواطئ حضر موت وخلال مضيق باب المندب، وكانت نتيجة هذا التغير - الذي يظهر أنه حدث في القرن الأول للميلاد - أن أخذت قوتهم تتضعضع شيئاً فشيئاً، كما أن جزءا كبيراً من السكان اضطر للبحث عن مساكن جديدة في الشمال، ومن ثم أقفرت مدنهم ونضبت العيون المائية، وسنرى حالاً، كيف بلورت القصة العربية نتيجة انحطاطهم الهائل في حقيقة واحدة تلك هي انفجار سد مأرب.

وأن إمحاء السبئيين قد أخلى الطريق لظهور جماعة من نفس الجنس يسمون بالحميريين أو كما يسميهم المؤلفون القدامى وتقع بلادهم بين سبأ والبحر، وتحت حكم ملوكهم المعروفين بالتبابعة أصبحوا قوة يرهب جانبها من الجنوب في بلاد العرب. وظل عظم نفوذهم - ولو ظاهرياً - على القبائل الشمالية حتى القرن الخامس بعد الميلاد حينما ثار الأخيرون تحت زعامة كليب ابن ربيعة، وأزالوا قوة اليمن المسيطرة عليهم في واقعة تعرف بواقعة (خزازة). ولم يفلح الحميريون كما أفلح السبئيون فان موقعهم البحري جعلهم عرضة للغارات كما كان جدب البلاد من السكان مضعفاً لقوتهم الحربية. وقد قام الأحباش - وأصلهم من مستعمري اليمن - بمحاولات عدة لتثبيت أقدامهم، وكانوا يتخذون عادة حكاماً قد نفاهم أمراء وطنيون، ومن أشهر الولاة الأحباش (ابرهة) الذي سنقص خبر مهاجمته الفاشلة لمكة في موضعها الخاص، وانتهى الأمر بأن وقعت إمبراطورية حمير أخيراً تحت حكم فارس ولم تقم لها قومة سياسية مدة قرن من الزمان قبل ظهور الإسلام.

ترجمة حسن حبشي

الفصل في نبوة المتنبي من شعره

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

- 2 -

وتوجد قصيدتان تنسبان إلى المتنبي في هذا العهد، إحداهما قالها وهو بأرض نخلة، وهي ديار بني كلب الذين يقال إنه تنبأ فيهم وهي هذه القصيدة:

كم قتيلٍ كما قُتِلْتُ شهيدِ ... ببياضِ الطُّلى ووَرد الخدودِ

وعيونِ المهَا ولا كعيونٍ ... فَتكتْ بالمُتيَّم المعمود

دَرَّ دَرُّ الصِّبا أَأيامَ تجْرِ ... يرِ ذيولي بدار أثلة عودي

عمْرَكَ الله هل رأيتَ بدورا ... طلعتْ في براقعٍ وعقود
راميات بأسهم رِيشُها الهُدْ ... بُ تشق القلوبَ قبل الجلود
يَتَرَشَّفْنَ من فمي رشفات ... هُنَّ فيه أحلى من التوحيد
كلَّ خَمصَانَةٍ أَرَقَّ من الخم ... ر بقلبٍ أقسى من الجلمود
ذَات فرعٍ كأنما ضرب العن ... بر فيه بماء ورد وعود
حالكٍ كَالْغُدَافِ جَثْلٍ دَجُوجٍ ... يٍ أَثِيثٍ جَعْدٍ بلا تجعيد
تحمل المسْكَ عن غدائرها الرِّ ... يحُ وَتفْتَرُّ عن شتِيتٍ برود
جمعتْ بين جسم أحمدَ والسُّقْ ... م وبين الجفون والتسهيد
هذه مهجتي لديك لَحِيْنى ... فانقصى من عذابها أو فزيدي
أهل ما بي من الضنا بطلٌ صي ... د بتصفيف طُرَّةٍ وبجيد
كلَّ شيء من الدماء حرام ... شربُه ما خلا دم العنقود
فاسقنيها فدًى لعينيك نفسي ... من غزال وطارفى وتليدي
شيبُ رأسي وذلتي ونحولي ... ودموعي على هواك شهودي
أيّ يوم سررتني بوصالٍ ... لم تَرْعُني ثلاثةً بصدود
ما مُقامي بأرض نخلةَ إلا ... كمُقام المسيح بين اليهود
مفرشي صهوة الحصان ولك (م) ... ن قميصي مسرودة من حديد
لأمةٌ فاضةٌ أضاةٌ دِلاصٌ ... أحكمت نسجها يدا داود
أين فضلي إذا قنعتُ من الده ... ر بعيش مُعجَّل التنكيد
ضاق صدري وطال في طلب الرِّز ... ق قيامي وقلَّ عنه قعودي
أبداً أقطع البلاد ونجمي ... في نحوس وهمتي في سعُود
فلعلي مؤمِّلُ بعض ما أب ... لغ باللُّطف من عزيز حميد
لِسريٍّ لباسُهُ خشنُ القط ... ن ومرُويٌّ مرْ وَليس القرود
عش عزيزاً أو مت وأنت كريمٌ ... بين طعن القنا وخفق البنود
فرؤوسُ الرِّماح أذهبُ للغي ... ظ وأشفى لغلِّ صدر الحقود
لاكما قد حييتَ غير حميد ... وإذا متَّ متَّ غير فقيد
فاطلب العِزَّ في لظىً وذر الذُّ ... لَّ ولو كان في جنان الخلود
يقتلُ العاجز الجبان وقد يع ... جز عن قطع بخنق المولود
ويُوَقى الفتى المخسُّ وقد خوَّ ... ض في ماء لبَّة الصنديد
لا بقومي شرفت بل شرفوا بي ... وبنفسي فخرتُ لا بجدودي
وبهم فخر كل من نطق الضا ... د وعوذُ الجاني وغوث الطريد
إن أكن معجباً فعُجبُ عجيب ... لم يجد فوق نفسه من مزيد
أنا تربُ الندى وربّ القوافي ... وسمامُ العدى وغيظ الحسود
أنا في أمة تداركها الل ... هـ غريبٌ كصالح في ثمود

ويجب قبل أن ننظر في هذه القصيدة من جهة اتفاقها مع دعوى النبوة التي تنسب إلى المتنبي، أن ننبه إلى أن النبوة لا تتفق مع صناعة الشعر، لأن الشعر العربي إلى ذلك الوقت كان صناعة أوزان وكلام، ووظيفة النبوة أسمى من أن تتقي بقيود الشعر، أو تعني عنايته بزخرف اللفظ، أو تعتمد اعتماد على الخيال، وقد أشار إلى هذا قوله تعالى في سورة يس: (وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين -) كما يشير إلى ذلك وإلى بعد النبوة مما كان يلابس الشعر من اللهو والعبث قوله صلى الله عليه وسلم: لما نشأت بغضت إلى الأوثان، وبغض إلى الشعر، ولم أهم بشيء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين، كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك، ثم ما هممت بسوء بعدهما حتى أكرمني الله برسالته. قلت ليلة لغلام كان يرعى معه لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر كما يسمر الشباب، فخرجت لذلك حتى جئت أول دار من مكة أسمع عزفاً بالدفوف والمزامير لعرس بعضهم، فجلست لذلك فضرب الله على أذني فنمت، فما أيقظني إلا مس الشمس، ولم أقض شيئاً. عراني مرة أخرى مثل ذلك.

وهذا كله لم يكن المتنبي ليجهله، وما كان له أن يقدم على دعوى النبوة معه. ولعل الذين نسبوا إليه هذه الدعوى قد شعروا شيء من هذا حينما جعلوا له قرآنا يعارض به

القرآن الكريم، لأنهم رأوا أن الشعر وحده لا يصح أن يستقل بأمر النبوة، أو لا يلتئم معها. ومن ذلك الذي نسبوه إليه وذكروا أنه زعم أنه قرآن أنزل عليه: والنجم السيار، والفلك الدوار، والليل والنهار، إن الكافر لفي أخطار، امض على سنتك، واقف أثر من كان قبلك من المرسلين، فان الله قامع بك زيغ من ألحد في الدين، وضل عن السبيل.

وكم يكون الشعر أبعد من وظيفة النبوة إذا كان صاحبه يتكسب به كصاحبنا المتنبي، فإنه نشأ شاعراً مداحاً يتكسب بشعره، ويسأل به، ومن هذا قصيدته في مدح محمد بن عبيد الله العلوي، ومطلعها:

أهلاً بدارٍ سباك أغيدُها ... أبعدُ ما بان عنكَ خردَّها

وقد ذكر فيها أن ناقته حملته إلى هذا الممدوح:

إلى فَتَى يُصدر الرماحَ وقد ... أنهلها في القلوب مُوردُها
له أياد إليَّ سالفةٌ ... أعُدُ منها ولا أُعَدِّدُها

ثم طفق يمدحه إلى أن قال:

وكم وكم نعمة مُجَلَّلةٍ ... ربيتها كان منك مولدُها
وكم وكم حاجةٍ سمحت بها ... أقرب مني إليّ موعدُها
ومكرمات مشت على قدم ال ... بر إلى منزلي تَردُّدُها
أقرّ جلدي بها عليّ فلا ... أقدرُ حتى الممات أجحدُها
فعد بها لا عدمتُها أبداً ... خير صلات الكريم أعودُها

وقد عذله أبو سعيد المجيمري في ذلك العهد على تركه لقاء الملوك وامتداحهم، فقال له:

أبا سعيدٍ جَنِّب العتابا ... فرُبَّ رأى أخطأ الصوابا
فانهم قد أكثروا الحجَّابا ... واستوقفوا لردَّنا البوابا
وإن حَدَّ الصارِم القرضابا ... والذَّابلات السُّمر والعرابا
ترَفعُ فيما بيننا الحجابا

ولاشك أن طبقة الشعراء المتكسبين أدنى طبقات الشعراء نفوساً، وأبعدها عن الصلاح والتقوى، وهي طائفة تتخذ الشعر وسيلة لجمع المال، ولا يهمها في دنياه غيره، ولا تطمح نفوسها إلى وظيفة كوظيفة النبوة تكليفاً من الكمال الروحي ما ليس في طبيعتها.

وإن هذه الحادثة لتدل على مقدار ما بلغ إليه المتنبي في ذلك قال: أذكر وقد وردت في صباي من الكوفة إلى بغداد، فأخذت بجانب منديلي خمسة دراهم، وخرجت أمشي في أسواق بغداد، فمررت بصاحب دكان يبيع الفاكهة فاستحسنتها ونويت أن أشتريها بالدراهم التي معي، فتقدمت إليه وقلت: بكم تبيع هذه الخمسة بطاطيخ! فقال بغير اكتراث: أذهب فليس هذا من أكلك، فتماسكت معه وقلت: يا هذا دع ما يغيظ واقصد الثمن، فقال ثمنها عشرة دراهم، فلشدة ما جبهني ما استطعت أن أخاطبه في المساومة، فوقفت حائراً، ودفعت له خمسة دراهم فلم يقبل، وإذا بشيخ من التجار قد خرج من الخان ذاهبا إلى داره، فوثب إليه صاحب البطيخ من الدكان ودعا إليه وقال: يا مولاي بطيخ باكور، بإجازتك أحمله إلى البيت فقال الشيخ: ويحك بكم هذا؟ قال بخمسة دراهم، قال بل بدرهمين، فباعة الخمسة بدرهمين وحمله إلى داره، وعاد إلى دكانه مسروراً بما فعل، فقلت له: يا هذا ما رأيت أعجب من جهلك! استمت على في هذا البطيخ، وفعلت فعلتك التي فعلت، وكنت أعطيتك في ثمنه خمسة دراهم فبعته بدرهمين محمولاً! فقال: أسكت. هذا يملك مائة ألف دينار، قال المتنبي: فعلمت أن الناس لا يكرمون أحدا إكرامهم من يعتقدون أنه يملك مائة ألف دينار، وأنا لا أزال على ما تراه حتى أسمع الناس يقولوا إن أبا الطيب قد ملك مائة ألف دينار.

(يتبع)

عبد المتعال الصعيدي

من ديوان البغضاء

عقوق. . .

للأستاذ محمود محمد شاكر

ملْ بنا، يا فؤادُ! ننسى المودَّا ... ت، ونُلقى إلى العدواة حَبَّا
وتعالَىْ! يا ربة الأرقش الخدّا ... ع، وارعى ما بين جنبيَّ خصبا

وجناحيك، فانشري وظلِّي ... بقعةً من مقابر الحب حربا
وامنعي نفثةَ الوفَا واحجبيها ... رُبّ ذكرى أحيتْ مواتاً أجبَّا
وانظري نظرةَ العُقاب إذا ... أبصر صيداً، فرامه فاشرأبَّا
وانفضي الناس نفضةَ الأسد المج ... روح أشلاَء صيده والأرْبا
وتعالَىْ! أنا الصديق، ويا أع ... جب من يجعل العداوة صحبا!
ولئن كان ما رعيت من الأض ... لاع جدباً، فلن أسومكِ جدبا
واعلمي أنني تركتُ وفاَء ال ... حُب زُهداً، ورمتُ فيك الحبا
هذه كفُّ خائضٍ غمراتِ ال ... حب أبلى فيها بلاءً صعبا
مستميتاً قد غالب الموت والح ... ب ونال الحياة كسباً وغصبا
تيك أُنثى! ودونها الآبُد الطُّ ... اوى إذا ساور الفريسةَ وثْبا
يا لعينيك. . . شبتا في دمي النا ... رَ شُواظا، يعبُّ في الدم عبَّا
وبنانٍ أقسى من القِدِّ في النف ... س، وإن خلتُه بناناً رطبا
آهٍ من غفلة. . . إذا خطرت لي ... ملأتْني غيظاً وحقداً وحربا
قد رمتني في جاحمٍ يتلظّى ... فإذا مات أرَّثتْه فشبَّا
أَوَفَاءً. . . لغادرٍ يتسلى ... بعذابي! تبًّا - لذا الحب - تبَّا
الْمَحَبَّات تقُتلُ القلَب قتلاً ... والعداوات تُردف القلب قلبا
فتعالي! يكن كمكْركِ مكري ... وأكن في الحروب روعاً ورُعبا
لا توليْ، وتتركيني وحيداً؛ ... لست أبغي بغير قُربك قربا
وانفثي فيَّ السِّحر حتى ... أقهر الناسَ والأسودَ الغُلْبَا
فألَذُّ الأعداءِ من علّمتْهُ ... مِحَنُ الحب أن يعُق الحُبَّا. . .
محمود محمد شاكر
الشاعر وسريره
للشاعر الحضرمي علي أحمد باكثير
- 3 -
تهللٌ يعلو محياكا ... وبسمةٌ لاثمة فاكا!
وفرحة خجلى عروسية ... تطلقها كالفجر عيناكا
وأي عطر منعش، مؤسف ... هذا الذي يحمل رُدناكا
قل يا سريري، أي شيء جرى ... أنساك شكواي وشكواكا؟
أتاركي أنت بلا رحمة ... قد عوّدتنيها سجاياكا؟
أشامتٌ بي أنت في محنتي؟ ... معاذ إخلاصك لي في هوايْ
بالله حدثني عما جرى ... لعل فيه ما يسرّي أساي
ها هو ذا يهمس - رؤيا محت ... بلواه؛ ويلي! أين ضلت رؤاي؟
جاءته طيفاً في الكرى ماسحاً ... شكواه؛ ويلي! أين ولى كراي؟
رأى، وعى، لامس - يا ليته ... يداي، أو أذناني أو مقلتاي!
رق سريري لي، ورقت له ... حسناءُ مما قلته فيه!
مرَّت بيمناها على صدره ... فانتعشت بيض أمانيه!
لكن قلبي الحي. . . قلبي الذي ... يستنزف الرحمة داميه!
قلبي الذي يصرخ في سره ... من ألم مّر يقاسيه
يلم يُلف قلباً من بني آدم. . . ... يحنو عليه أو يسليه!
إهنأ سريري بالذي ناله ... جدُّك إذ أخطأني الجدُّ
لست بغيرانٍ ولا حاسدٍ ... يمنعني - أن أحسد - الودُّ
ولي نصيبي بعد في كل ما ... حلّتك من أطيافها (هند)
لكن كفَّا أنت قبَّلتها ... أشتاق أن الثمها بعد!
لعل أن يُطعمني بعدها: ... الثغر والعينان والخد!
ويلي عليها. .! لكأني بها ... مقبلة نحوك في لطف
حاملة في ثغرها بسمة ... حائرة تبدو وتستخفي
كعائش في جنةٍ وحده. . . ... نازعه شوق إلى ألْفِ!!
يا ليت شعري: أنت مقصودها ... أم ربك البائس - بالعطف؟

فابنة حوّاء متى أظهرت ... فربُّها يعلم ما تخفي!
علي أحمد باكثير
على النيل
بقلم العوضي الوكيل
وقفت على النيل الوديع عشية ... أطالع في أمواجه ما أُطالِعُ
وأسمع من أمواجه لحن فتنةٍ ... ومعنى يُغشّيني، وذكرى تتابع
كأني إليها من قديم مُوَجَّهٌ ... وكلّيَ إصغاءٌ، وكلي مسامع
كأني قبل الآن أسمعت مرة ... صداها، له دفق وفيه تدافُع
وما ذاك إلا رمز ما أنا حالم ... به قبل أن تهتزّ مني الأضالع
وناجيت ماءَ النيل في صمت راهب ... بأسطورة الحب الذي لا يخادع
أيا نيل حدثْني فإني عالم ... ولكن لساني شامسٌ أو ممانع
علمت وكم معنى يدور بخاطري ... أضلته في نفسي فيافٍ قواطع
لكم مرت الأجيال عجلى مُخِبة ... عليك وإذ تبدو كأنك هاجع
وأنت الطهور الفرد في هذه الدنى ... وفي قُدسك الأسمى معان تطالع
عليك هدوء الهازئين، وربما ... يلوح لنفس في الهدوء تواضع
أتلحظني هيمان في العيش سادراً ... قد انعدمت مني إليه الدوافع
وصرت أعيش اليوم للأهل وحدهم ... فما أنا في دنياي - ما عشت - طامع
أتلحظ دمعي وهو ينهلُّ مسبلا ... وأيْنُ شيءٍ فيَّ هذى المدامع
أسير فلا أدري لأية غاية ... أسير وتدعوني إليَّ المواجع
خلقنا لندري العيش وهو يضلنا ... كمن بت تثنيه وبات يُقاطع
أيا نيلُ قُصَّا السرَّ إنك عالمٌ ... به من شباب الكون والكون يافِع
وحدِّثْ عن المجهولِ واكشف دفينَه ... فإنك نور في الأحاسيس ساطعُ
وبُلَّ بنفسي غُلّةً بعد غُلّةٍ ... ولا تنس أني عابد لك خاشع
تمل فؤادي في غلاف من الشجى ... وفيه جراحات، وفيه مصادع
أيا شاهد الأدهار مرَّت بناسها ... كمسبحة مرت عليها الأصابع
فأُفْنِيَ منها الناسُ، والزمن الذي ... حواهم تبقى لم تَضِرْهُ الفواجع
كمسبحة يُستلُّ معدود حبِّها ... ويبقى بها الخيط الذي هو جامع
العوضي الوكيل
القصص
من صور الحياة
قصة مجرم
للآنسة نعيمة المغربي
انعقدت محكمة الجنايات للنظر في قضايا مختلفة ومنها جناية قتل اتهم فيها فتى طيب الأحدوثة لم يسبق له الإجرام. وظهر من التحقيق أن الجناية لم تقع بقصد السرقة، إذ أن خاتم القتيل الماسي وساعته الذهبية - وهو كهل غني - وأشياء أخر ذات قيمة لم يمسها القاتل، مع أن المجال كان فسيحاً أمامه لسرقتها والاختفاء بها، وإنما اكتفى القاتل بما فعل واللجوء إلى مسكنه الذي كان قريباً من محل الحادثة والذي كان يأوي إليه مع أمه المقعدة، وقد قضت المسكينة نحبها حينما قبض الجند على ابنها من غلبة الخوف والرعب عليها.
ذلك ملخص خبر الجناية التي شغلت أهل المدينة وخاصة سكان الحي الذي وقعت فيه الحادثة وكانت موضع سمرهم لا أسفاً على القتيل الذي عرف بعتوه وصلفه وشحه، بل شفقة على القاتل الذي عرفوا فيه الفتى الحسن الخلق، يكد ويشتغل لينفق على أمه البائسة التي لم يك لها من عائل سواه. لذلك كله امتازت هذه الجلسة بوفرة عدد المستمعين فيها، وكلهم مشفقون على القاتل راثون له.
ظهر في قفص المتهمين شاب لا يتجاوز العشرين من عمره، نحيل الجسم غائر العينين لا تظهر عليه علامة من تلك العلامات التي يمتاز بها المجرمون، بل كان بادي الانكسار هادئ النظرات مستسلما لخواطر تجول في رأسه وأحاديث تهجس في نفسه. وبعد سماع شهادة الشهود ومرافعة النيابة ومحامي الدفاع سأله الرئيس الأسئلة المعتادة التي تلقى على المتهمين وطلب منه إذا كان عنده ما يدافع به عن

نفسه. وهنا أرهف المستمعون آذانهم وتطاولوا بأعناقهم حتى لا تفوتهم كلمة من قصة ذلك المجرم البائس قال:

إنني إذا سردت قصتي فأنني لا أسردها بغية الدفاع عن نفسي أو حباً في الحياة فقد سئمت العيش واستولت علي النفرة من الناس، بل لتعلموا أنني فرد من أفراد المجتمع البشري قدر عليه أن يعيش عيشة ضنك وشقاء ويحيا حياة مليئة بضروب الألم والعذاب، وكنت في ربيعي الثاني عشر حينما فتحت عيناني على صورة من صور الحياة المؤلمة التي تركتني أرزح تحت كلكلها وأصبحت حياتي بعدها جافة قاسية خالية من المباهج التي تساعد المرء على اجتياز ما قد يتخلل طريقه من حصى وأشواك

مات أبي وأنا صغير، ولم يترك لنا أنا وأمي من حطام الدنيا سوى أساس عتيق بال في مسكن صغير تداعت أركانه، وتشققت سقوفه وجدرانه، وكان ذلك المسكن لجار لنا غني كنا نؤدي إليه أجرته من دون مطل أو تسويف. وكان أبي بنّاء يتناول في يومه بضعة قروش يأتي بها إلينا وهو فرح مغتبط مع ما يحيط به من فاقة وبلاء. فيملأ البيت بهجة ورواء، ويحوله إلى قصر من أوفر القصور سعادة وأعظمها هناء.

وبالرغم من قدم العهد فأنا أذكر ذلك اليوم الرهيب يوم أن عرفت أن ذلك الإنسان الذي يستنزف قواه ليدفع عنا غائلة السغب والعرى قد أخرسه الموت ونام نومه الأبدي.

ففي أمسية من أمسيات الشتاء الباردة، وفي ليلة دجوجية الجناح غدافية الأديم، كانت الريح صر صرا عاتية، وكرات الجليد تتساقط على جوانب بيتنا المتداعي فيسمع لسقوطها صوت كأصوات الأرواح الهائمة. طرق الباب فدخل رجلان يماثلاننا في الفاقة والبؤس يحملان جثة أبي مهشمة أو كتلة من لحم ودم. ولقد نسيت كيف مرت علينا تلك الليلة المشؤومة، غير أنني أذكر أن جثمانه ظل مسجى طول اليوم التالي حتى شعر بذلك من لم تخل قلوبهم من عناصر الرحمة والشفقة فأمدونا بقليل من المال جهزنا به فقيدنا وأودعناه مرقده الأخير. ومما زاد لوعتنا أن الطبيب الذي قام بفحص الجثة قرر أنه كان مريضاً بعلة القلب فلم يستطع احتمال العمل المجهد تحت حر الشمس في أعلى البناء فأصابه دوار عرضه للسقوط والموت السريع. وكأن ذلك الأب الشفيق كان يخفي علته هذه عن أمي خشية قلقها أو محاولتها منعه من متابعة عمله المضني، وقد أصيبت تلك التاعسة على أثر هذه الصدمة التي بلينا بها بمرض عضال أقعدها عن مواصلة السعي لكسب القوت ودفع أجرة المسكن، ومع هذا فقد كانت تتحمل الفقر والشقاء والمرض والإعياء بصبر واستسلام.

لقد ألقت الأقدار بي من حيث لا أشعر في بيداء هذه الحياة وضربتني ضربة قاسية لا رفق فيها ولا هوادة، وأرادتني أحداث الزمان على أن أحمل حملاً أعجز عنه وأنا صبي صغير

فتلاشت ابتسامتي واربد وجهي، وعادت الحياة في نظري هماً ناصباً. أمي مقعدة لا تستطيع حراكا وهي تحتاج إلى قوت ودواء، وصاحب المسكن يطالبنا بأجرته في نهاية كل شهر، وعلينا أن نؤديها إليه صاغرين وإلا كان الشارع لنا مأوى، وقد أشار عليّ بعضهم بإيداع المريضة في إحدى المستشفيات، فقبلت ذلك على مضض، ولكن إدارة المستشفى أبت قبولها بحجة أن مرضها عضال لا يرجى منه شفاء. على أنني مع ذلك لم أيأس ولم أحزن رغبة في أن أظل بجانبها أخدمها وأروح عنها ما تجده من آلام محرقة تحاول جهد طاقتها أن تخفيها عني فتتكلف لي الابتسام. ابتسام المريضة الصبور المستسلمة. لقد ذاق أطفال قبلي مرارة اليتم، وذاق الكثيرون مثلي مرارة الحرمان والعدم، ولكن آلامهم لم تك تشبه آلامي: إذ كانت آلامي آلام صبي في أول مرحلة من مراحل حياته يرى تحت نظره أعز الناس لديه يدنو من الموت أو يدنو الموت منه بخطى سريعة فلا يستطيع التخفيف عنه أو إسعافه بجرعة دواء.

أجل كنت أذرع البلدة وأجوس خلال شوارعها باحثاً بحث اليائس عن لقمة أتبلغ بها أو عن عمل يكفل العيش لي ولتلك المريضة المدنفة، وكنت إذا حصلت على بضع دريهمات أضن بها على نفسي فأعود وأنا أطفر فرحاً فأشتري لها ما تحتاج إليه من غذاء ودواء وأوفر الباقي أجرة لمسكننا الحقير.

وقد كنت أستطيع أن ألجأ إلى تلك الطريقة التي يلجأ إليها الكثيرون من أمثالي - أعني

السرقة - وكانت أحياناً تتجسم هذه الفكرة في مخيلتي حينما أصاب بتلك الآفة الغشوم - آفة الجوع - ولكنني لا ألبث أن أرجع عن هذا العزم إذ أربأ بنفسي أن تنحط إلى هذه المنزلة مفضلاً كل شقاء على الوقوع في هذا المنحدر الرهيب.

وكنت أعرف أيضاً أن هناك سبيلاً أفضل من هذا كله أقصر مدى وأقل تعباً وجهداً. سبيلاً ينتهي بي إلى تخفيف متاعبي وآلامي وينقطع به همومي وأحزاني. فقد كان في استطاعتي أن أقصر ساعات عذابي بالانتحار، ولكن ذكرى المريضة المقعدة كانت تبعد عني هذا الخاطر، وتجعلني أبتسم لليأس المميت في ظل الحياة التعيسة التي أحياها.

سدت في وجهي أبواب الرزق، وأمي تزداد مرضاً على مرض فلجأت إلى بيع أثاثنا البالي، فبدأت بالفراش الذي أنام عليه والكرسي الذي أجلس فوقه وجميع الأمتعة الحقيرة التي يضمها مسكننا، فنفذ ذلك كله وهو مبلغ تافه لا تأثير له في دفع الشقاء. ومما زاد في بليتنا أن صاحب المسكن أخذ يطالبنا بتأدية ما تأخر له عندنا من الأجرة التي لا نملك منها شيئاً، وأمهلنا بذلك ثلاثة أيام وإلا طردنا دون شفقة أو ورحمة.

طوفت في هذه الأيام الثلاثة في الشوارع ضاوياً متعباً مريض النفس والجسم والفكر، صفر الكف، فلم يفتح علي بشيء حتى أعياني التجوال، وأرهقني اليأس، فرجعت إلى البيت أبكي بدموع غزار.

انقضت المهلة المعينة لتنفيذ وعيد ذلك الظالم، ولم يبق منها سوى ليلة واحدة لم يغمض لي فيها جفن ولم يرقأ لي دمع. وشعرت آنئذ بجميع ضروب اليأس، وذقت من الألم أشكالا، ثم اعتراني بحران عميق، أصبحت فيه أشبه بالصنم. وعندما انبلج الصبح ولاح لي وجه ذكاء بدا وجه أمي النحيل الشاحب، وهي تتنفس تنفساً خافتاً، فانبثق في لبي خاطر استجبت له: هو لقاء صاحب المسكن واستعطافه علني أجد بذلك من الضيق مخرجاً. فنهضت متثاقلاً، وأنا ضائع الفكر مضطرب البال، أقرب إلى اليأس من ذلك الغريق الذي يرتجف وسط الخضم وقد تعلق بأوهى الأسباب أملاً في النجاة.

وعندما وصلت قصر صاحب الدار تجلدت وطرقت الباب ففتح لي خادم كنت أجد عنده بعض العطف، فسهل لي لقاء سيده فدخلت عليه وأنا أرتجف كريشة في مهب الريح.

تذللت بين يديه واستعطفته وشرحت له ما أقاسيه من بؤس وهم، واستلهمته ريثما تقضي تلك البائسة فهي على أبواب الأبدية، وكنت أحدثه وهو صامت ساكن لا تطرف عينه ولا يرفع نظره إلي، حتى إذا فرغت من شكواي صرخ في وجهي صرخة جافة قاسية ملؤها العنف والقسوة وختمها بأبشع الشتائم وأقبح النعوت.

يصبر عزيز النفس على الموت والخطر والعذاب والجوع، ولكنه لا يصبر على الإهانة والطرد. يهون على أبي النفس كبيرها أن يرمي في أتون ملتهب يشوي جسمه شياً دون أن تلقى عليه نظرة ازدراء أو كلمة اشمئزاز. ومع هذا لم أحرك ساكناً بادئ ذي بدء بل تصاممت عن سماع كلماته المرة عسى أن تهدأ ثورة غضبه ويثوب إلى رشده ويرفق بي. ولكنه أعاد الكرة وأمعن في طردي وتحقيري بلهجة تفوق الأولى عظماً وهولا، فكانت كلماته هذه كسهم أصاب مركز الصبر من فؤادي فمزقه، فأحسست أن الدم يتصاعد إلى رأسي، وأن الأرض تدور بي، ولاح لي طيف أمي وهو ملقى في العراء فلم أشعر إلا وأنا ممسك بخناقه أضغط عليه بين يدي حتى سقط جثة هامدة.

يقولون عني إنني مجرم خطر، وإني أستحق الموت عبرة لأمثالي، وما أنا إلا إنسان حكمت عليه الظروف القاسية بأقسى أحكامها، وأراد له أخوه الإنسان أن يصبح مجرماً بعدما تعب واجتهد اجتهاد الأبي ليعيش عيشة الكفاف فلم ير قلباً يعطف عليه وينتشله مما هو فيه.

هذه قصتي المكتومة أعلنتها. وأحزاني الحبيسة أطلقتها، فلتحكم علي محكمتكم الموقرة بما يمليه ضميرها ويرضاه عدلها

وأخيراً خلت المحكمة للمداولة، فأجلت البت في هذه القضية إلى أسبوع آخر.

نعيمة المغربي

البريد الأدبي

كتاب عن تاريخ الحبشة وبلاد العرب

أصدرت الجمعية الجغرافية الملكية مجلداً جديداً من كتاب (البحر الأحمر والحبشة

وبلاد العرب منذ العصر الغابر) ' ' ' بقلم المسيو (كامرر)؛ وفي هذا المجلد الجديد مباحث شائقة عن (حرب الفلفل) وعن اكتشافات البرتغاليين البحرية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر؛ ومن المعروف أن هذه الاكتشافات كانت ذات أثر فعال في تطور مركز مصر التجاري؛ لأنها لبثت عصوراً طريق الهند، ولبثت ثغورها مهبط هذه التجارة، فلما اكتشف البرتغاليون طريق الهند تحول قسم عظيم من تجارة الغرب إلى هذه الطريق الجديدة، وهجرت الطريق القديمة التي كانت تمر بمصر أو الشام، ودخل البحارة البرتغاليون الميدان وأنشئوا مراكز تجارية وحربية في موزنبيق وقاليقوط وجوا ومسقط وغيرها، وغزوا جزائر الهند الشرقية ووصلوا إلى شواطئ الصين؛ وانتبه سلاطين مصر لهذا الخطر المحدق بموارد بلادهم فتحالفوا مع البندقية على محاربة هذا الخطر لأنه يمس تجارتها أيضاً؛ ولبثت مصر مدى حين قابضة على مفتاح البحر الأحمر، ولكن البرتغاليين قبضوا على طريق الهند، ورأوا من جهة أخرى أن يغزوا البحر الأحمر فتحالفوا مع الحبشة، وكانت تخشى مصر؛ وأرسلت بعثة برتغالية إلى بلاط النجاشي؛ ولكن الحبشة لبثت حذرة من أولئك الأصدقاء الجدد ومن نيا تهم.

واستمرت المعركة مدى حين على سيادة البحر الأحمر والمحيط الهندي، وفي المشرق للاستئثار بغنم السيادة التجارية، ولعبت منتجات الشرق مثل الفلفل والبهار دوراً في هذه المعركة؛ وتخللتها معارك وأحداث بحرية عظيمة ما زالت مضرب الأمثال في الروعة والشجاعة.

ولكتاب مسيو كامرر مزية أخرى، هي أنه يتتبع تاريخ الآراء والتطورات الجغرافية في كتابه خلال هذه العصور؛ وهذه التطورات مشروحة بالخرائط والوثائق الوافية، وفيها خرائط قديمة كانت سرية لم تعرف في عصرها، لأن الخرائط التي كانت توضع عن الطرق البحرية في ذلك العصر، كانت كالخرائط الحربية يحرص أصحابها على سرها. وقد زين الكتاب فوق ذلك بعشرات من الصور التاريخية الهامة.

الكاتب الألماني رودلف شتراتس

نعت إلينا أنباء ألمانيا الأخيرة الكاتب القصصي الألماني الكبير رودلف شتراتس , توفي في الثالثة والسبعين من عمره في ضيعته في (كيم زي) على مقربة من ميونيخ؛ وبوفاته اختفى كاتب من أخصب وأعظم الكتاب الألمان في عصر الإمبراطورية، وكان شتراتس مدى الحرب ومن بعدها أيضاً في طليعة الكتاب الذين يدهشون الجمهور بوفرة إنتاجهم وبراعة ابتكارهم؛ وقد نشأ شتراتس ضابطاً، وقضى أعواماً عديدة في خدمة الجيش، وكتب أولى قصصه عن حياة الجندية، وشرح فيها حالة الضباط وأحوال معيشتهم. وكان يدعو دائماً إلى ابتعاد الجيش عن الأحزاب والسياسة؛ وكان شتراتس يتمتع بمواهب القصصي البارع، ووفرة في الخيال، وهو يصف لنا في رواياته، مدينة برلين وحياتها قبل الحرب وصفاً بديعاً مدهشاً، وكان يختار دائماً لأبطال قصصه النبلاء وكبار الأغنياء فيصف حياتهم وأحوالهم بدقة مدهشة، ولم يتخذ قط من بين الطبقات الدنيا أبطالاً لقصصه، ولم يعن بمعالجة المسائل الاجتماعية ولا يتوخى الغايات الاجتماعية، وإنما كان يكتب قصصاً شائقاً مشجياً مؤثراً فحسب؛ ولكن ذلك لم يمنع من انتشار كتبه انتشاراً هائلاً حتى إن بعضها طبع مائة مرة. ومن أشهر كتاباته بعد الحرب قصص يصف فيها حالة برلين أيام التضخم النقدي؛ وقد ساح شتراتس كثيراً، وظهر أثر سياحاته في كتبه، ولكنه كان دائماً في أعماق نفسه (وطنياً) ألمانياً، يتجه بالوصف إلى إذكاء الوطنية الألمانية؛ وأشهر رواياته على الإطلاق هي رواية (هيدلبرج القديمة) ومن رواياته الشهيرة الأخرى: (مكان في الشمس) (المعجزة الألمانية) (سفينة بلادفة) (لو كان العالم مليئاً بالعفاريت ? وغيرها وقد بلغت كتبه زهاء ثلاثمائة مجلد.

لجنة تفسير معاني القرآن الكريم

أصدرت مشيخة الأزهر قراراً بتأليف لجنة لتفسير القرآن الكريم توطئة لترجمته من حضرات أصحاب الفضيلة الأساتذة: الشيخ عبد المجيد سليم مفتي الديار المصرية رئيساً، والأستاذ محمد أحمد جاد المولى بك مفتش أول اللغة العربية بوزارة المعارف، والأستاذ علي الجارم مفتش أول اللغة العربية بوزارة المعارف، والشيخ مصطفى عبد الرازق

والأستاذ أحمد أمين من الجامعة المصرية، والشيخ إبراهيم حمروش شيخ كلية اللغة العربية، والشيخ أمين الخولي من الجامعة المصرية، والشيخ علي سرور الزنكلوني من كلية أصول الدين، والشيخ إبراهيم الجبالي من كلية أصول الدين، والشيخ محمود الغمراوي من كلية اللغة العربية، والشيخ محمود شلتوت من كلية الشريعة، والشيخ محمد أحمد العدوى من كلية أصول الدين أعضاء.

استكشاف جبال هملايا

استطاعت البعثة الألمانية التي أوفدت لتسلق جبال هملايا الهندية أن تصل إلى أكمة سمفو الواقعة في شرق كانشن جونجا على ارتفاع أكثر من 22ألف قدم، وهي أول مرة يستطيع الإنسان أن يصعد إليها، والبعثة المذكورة مكونة من الدكتور باور البافاري وهو من الأخصائيين في صعود الجبال، والهر فين والهر هاب، والهر جتنر؛ وقد وصلت البعثة إلى قلب أراضي نبال منذ أشهر؛ ووصلت منطقة زيمو الثلجية في سبتمبر، ثم انقسمت إلى فريقين؛ فسار الهر فين مع بعض الحمالين إلى وادي تالونج، ونفذ منه الطعام بعد أيام، وقضوا نحو يومين بلا طعام قبل أن يصلوا إلى المساكن؛ وكان تقدمهم بطيئاً حتى كانوا يقطعون في هذه الهضاب ميلاً واحداً فقط في اليوم، ثم تلاقى الفريقان بعد ذلك وسارت البعثة كلها إلى سنجيك، وصعدت إلى قمة سيمفو.

وقد اقتنعت الفرقة أن طريق سيمفو هو أفضل الطرق للصعود إلى الآكام العالية التي لم يتوصل المكتشفون بعد إلى ارتيادها؛ ويزمعون العودة إلى الهند في العام القادم، وقد سبق أن استطاع الدكتور باور مع بعض زملائه الصعود إلى ما دون ثلاثة آلاف قدم من هذه الأكمة الشهيرة، ولكنه رد بعاصفة من الثلج، فعاود الكرة في هذا العام ونجح في محاولته.

وثيقة مصرية قديمة

اكتشفت أخيراً في إحدى قرى الفيوم المسماة ارسيم أو مدينة التماسيح وثيقة غريبة تدل على أن العقود الخاصة بأعمال الصبيان موجودة من أقدم العصور؛ وقد استطاع الأستاذ فولزن العلامة الدانمركي أن يقف على محتويات هذه الوثيقة فإذا فيها ما يأتي: -

يشهد تريفون بأن ولده القاصر تيونيس قد عين صبيا لمدة سنة من تاريخه عند (تولوماتوس النساج).

وسوف يتعلم الصبي طول مدة العقد من أستاذه كل أصول حرفة النسج، ويتقاضى فوق ذلك كل شهر خمسة دراهم مقابل الكسوة، وفي آخر العام يتقاضى 12 درهما.

وفي مقابل ذلك يدفع والد تيونيس إلى الحكومة ضريبة الأحداث عن ولده، ويجب عليه أن يدفع عن كل يوم يتغيب فيه الغلام درهما بصفة غرامة، وفي حالة فسخ العهد يجب عليه أن يدفع مائة لخزينة الدولة؛ وإذا لم يقم المعلم تولوماتوس بتعليم الغلام كما يجب، فإنه يدفع مثل هذا القدر للخزينة.

جواهر الطيب المفردة ليوحنا بن ماسويه

احتفل المجمع العلمي المصري بافتتاح جلساته لعامي 1936 و1937 فألقى القس بولس سباط محاضرة عن كتاب (جواهر الطيب المفردة) ليوحنا بن ماسويه العالم النصراني الكبير، والطبيب الشهير الذي عاش في القرن التاسع، وكان رئيس دار الحكمة التي أنشأها الخليفة المأمون ببغداد سنة 830.

وفي هذا الكتاب النفيس وصف ابن ماسويه جواهر الطيب المفردة وذكر أسماءها ومعادنها وأنواعها وخواصها وفوائدها بالنظر إلى الطب والعطارة وقسمها قسمين: الأصول، والأفاويه، وقال: إن الأصول خمسة: المسك والعنبر والعود والكافور والزعفران، وأن الأفاويه أربعة وعشرون: السنبل والقرنفل والصندل والجوزبوا والبسباس والورد والفلنجة والزرنب والقرفة والهرنوة والقاقلة والكبابة والهال بوا وحب الميسم والفاغرة والمحلب والورس والقسط والأظفار والبنك والضرو واللاذن والميعة والقنبيل.

ولهذا الكتاب مخطوطان: أحدهما محفوظ في دار الكتب بمدينة ليبسيك بألمانيا، والآخر عثر عليه القس بوليس سباط في مدينة حلب سنة 1933 نسخة الأرخيد ياكون يوحنا بن عبد المسيح الانطاكي بمدينة حلب سنة 1563.

وقد اهتم القس بولس سباط بتنقيح هذا السفر الجليل والتعليق عليه، وإضافة فهارس

علمية له وسينشره المجمع العلمي المصري في مجلته لهذا العام.

الحركة الفكرية العنصرية في ألمانيا

تمضى ألمانيا الجديدة في سياستها العنصرية إلى النهاية؛ وآخر ما قررته في هذا السبيل القضاء على الآثار والمؤلفات الفقهية اليهودية. ومن المعروف أن أعظم الآثار القانونية الألمانية كتبها اليهود الألمان ولا زالت إلى اليوم مرجع البحث في ألمانيا، ولكن الدكتور فرنك رئيس الجمعية القانونية الألمانية أصدر أمره إلى جميع المكاتب العامة ودور البحث أن تستبعد جميع المؤلفات اليهودية في القوانين الألمانية، كما أصدر أمره إلى جميع الناشرين بالا يعيدوا طبع شيء من هذه المؤلفات أسوة بالامتناع عن نشر المؤلفات الجديدة التي يضعها اليهود، وبذلك لا يمضي طويل حتى تختفي هذه الآثار اليهودية من الأدب القانوني الألماني.

ويرى الدكتور فرنك أنه يجب على العنصر الألماني أن يبدأ عصراً جديداً في التأليف القانوني، وأن الذهن الآري يجب عليه أن يعرب عن عبقريته ونقائه في هذه المؤلفات.

الكتب

موسى بن ميمون

حياته ومصنفاته

تأليف الدكتور إسرائيل ولفنسون

بقلم الدكتور إبراهيم بيومي مدكور

هنالك كتب تقرأ لموضوعها وأخرى لأصحابها! وكأن منظمي المكتبات العامة أدركوا هذا المعنى تماماً فأعدوا طائفتين متميزتين من الفهارس: إحداهما للمادة والأخرى للمؤلفين؛ والكتاب الذي نحن بصدده يجذب القراء بموضوعه وبما يبذله مؤلفه من وسائل في سبيل نشره. فهو يدرس أولاً أعظم شخصية بين مفكري اليهود في القرون الوسطى، ومن ذا الذي لا يرغب في أن يعرف شيئاً عن ابن ميمون بعد ذلك الحفل العظيم الذي أقيم في العام الماضي تخليداً لذكراه المئوية الثامنة؟ وأعتقد أن هذا الحفل نجح نجاحاً كبيراً؛ فقد وجه الباحثين إلى دراسته وتعريف الناس به، وأضحت شخصيته بعده شعبية إلى حد ما، ولو لم يكن من آثاره إلا كتاب اليوم لكفى. وعلنا نحتذي هذه السنة الصالحة ونخلد ذكرى فلاسفة الشرق وعلمائه الآخرين كي نبعثهم من مرقدهم وننشر تراثهم ونلفت الأنظار إليهم ونحلهم في المحل اللائق بهم. وفوق هذا ففي الدكتور ولفنسون نشاط يغبط عليه؛ وليس نشاطه في التحدث عن كتبه بأقل من نشاطه في جمعها وتأليفها، ولا تكاد تلقاه إلا ويحدثك عن أبحاثه الماضية ومؤلفاته الحاضرة ومشروعاته المستقبلية؛ وإذا ما ظهر له في عالم التأليف كتاب خيل إليك أنك تلمح باستمرار على وجهه السؤال الآتي: هل قرأت كتابي؟ ولسنا ندري ماذا كان يصنع لو قدر له أن يشتغل بالأعمال المالية والشؤون الاقتصادية! يغلب على ظننا أنه ما كان يباري في هذا المضمار!

ولسنا في حاجة لأن نؤكد للدكتور ولفنسون أنا قرأنا كتابه الأخير؛ فهو يعلم أنّا عنينا به وهو لا يزال في مهده، وقمنا بعض الشيء على تنشئته وتكوينه، وقد ناقشناه غير مرة في طريقته وأسلوبه وموضوعه ومصادره؛ وها نحن أولاء مسرورون بظهوره في ثوبه الحاضر سروراً مزدوجاً، فيسرنا منه ما فيه من أبحاث قيمة أضافت إلى اللغة العربية ثروة طائلة، ونغتبط بأن نرى فيه زهرة يانعة شهدنا من قبل ساعة تفتحها وتابعنا أدوار نموها وكمالها. وإذا كنا قد أسررنا بالأمس إلى الدكتور ولفنسون بما لاحظنا على مخطوطته، فنحن اليوم في حل من أن نعلن إلى قرائه ما خلفه كتابه في نفسنا من أثر؛ والأبحاث العقلية وقف على أصحابها ما لم ينشروها؛ فان نشرت أصبحت ملكاً للإنسانية جمعاء.

يشتمل كتاب موسى بن ميمون على تصدير، وأربعة أبواب وفهرس بأسماء المصادر العربية والعبرية والإفرنجية. ففي التصدير يبين المؤلف الأسباب التي دفعته إلى وضع كتابه، والطريق الذي سلكه، والصعوبات التي صادفته، ويلخص النتائج التي انتهى إليها؛ وفي الباب الأول يدرس حياة ابن ميمون ويأتي على الظروف المختلفة التي أثرت في نشأته وتكوين آرائه، ويعرض في إسهاب لمشكلة إسلامه مدلياً فيها بأقوال المؤرخين السابقين ومناقشاً لها مناقشة طويلة. وهذا الباب حافل بالمعلومات يدل على اطلاع

واسع بحث مستفيض، إلا أنه لم يرتب ترتيباً كافياً. وقد عنى فيه بجمع الحقائق وسردها أكثر مما عنى بطريقة عرضها وربط بعضها ببعض. وكنا نود أن يرجع المؤلف العوامل التي أثرت في حياة ابن ميمون إلى نقط رئيسية يأتي عليها الواحدة بعد الأخرى. نحن لا ننكر أن ملخصه الجامع الذي صدر به كل باب من أبوابه حدد بحثه بعض الشيء؛ ولكن كنا نفضل أن يقسم هذه الأبواب إلى فقرات يعنون لكل واحدة منها بعنوان خاص، كما صنع في مشكلة إسلام ابن ميمون مثلاً وهذه الفقرات في جملتها لا تخرج عن الملخصات الآنفة الذكر. وقد وقف المؤلف على إسلام أسرة ابن ميمون 14 صفحة كاملة؛ وهذا الموضوع هام حقاً وجدير بهذه العناية. غير أنا لا نكاد نجد فيه جديداً؛ ذلك لأن المؤلف شغل بجمع ونقل آراء الباحثين السابقين دون أن يرجح واحداً منها على آخر ترجيحاً واضحاً. والواقع أن هذه المسألة درست من قبل دراسة موسعة، فلم ير صاحب كتاب موسى بن ميمون بداً من أن ينقل آراء من سبقوه ويعول عليها التعويل كله حتى في مناقشة النصوص التي عرض لها. ولا يفوتنا أن نشير إلى أنه قد يسهب أحياناً في سرد هذه النصوص وينقل منها ما يجاوز بحثه ويناقشها مناقشة سطحية. ونعتقد أنه كان في مقدوره، وهو ذو خبرة لغوية واسعة أن يشرح النصوص العربية شرحاً أضبط، ويستكمل ما فات المستشرقين السابقين.

وفي الباب الثاني الذي هو أصغر أبواب الكتاب درست مؤلفات ابن ميمون الدينية. وهذا الباب واضح في جملته ومحتو على ملاحظات ونقد لا بأس به، وما اتصل فيه بتثنية التوراة والتلمود جيد للغاية. ولا غرو فالمؤلف حين يدرس الفقه والتشريع الإسرائيلي إنما يتكلم عن خبرة تامة ومعرفة حق؛ فهنا يبدو بجلاء اختصاصه وتمكنه من مادته. هذا إلى أنه أحسن اختيار ما قدمه؛ فلم يشغل القارئ العربي بتفاصيل جزئية عن الديانة اليهودية قد لا تعنيه كثيراً معرفتها.

والآن ننتقل إلى الباب الثالث الذي هو عمدة الكتاب وأكبر أبوابه، وقد عنون له المؤلف كالآتي: - (فلسفة موسى بن ميمون ومصنفه دلالة الحائرين). ويخيل إلينا أنه كان الأولى أن يكون عنوانه كما يلي: (دلالة الحائرين وما يحوي من آراء فلسفية ودينية). فان المؤلف لم يشرح في هذا الباب فلسفة ابن ميمون شرحاً نظرياً وتاريخياً منظماً؛ وإنما جعل كل همه أن يلخص كتاب دلالة الحائرين وينقل أهم ما جاء فيه من آراء وأفكار، ويعطي فكرة عامة عن تاريخ تأليفه والأدوار التي مر بها منذ ابن ميمون إلى اليوم، ويبين أثره في العالم الغربي والشرقي. ولئن فاته أن يدرس فلسفه ابن ميمون الدرس اللائق بها لقد وفق توفيقاً كبيراً في تلخيص كتابه دلالة الحائرين، ونستطيع أن نقرر أن هذا الملخص الذي يقع في نحو خمسين صفحة قد يغني عن قراءة أجزاء دلالة الحائرين الثلاثة. ولم يلخص المؤلف هذا الكتاب بالمعنى، بل ترك ابن ميمون يعبر في أغلب الأحايين عن آرائه بنفسه. وفي هذا ما يسمح للقارئ أن يتصل اتصالاً مباشراً بالفيلسوف المترجم له. ويجدر بنا أن نلاحظ أنا في حاجة ماسة إلى طبع دلالة الحائرين بحروف عربية. ففي انتظار هذه الطبعة المنشودة قدم لنا الدكتور ولفنسون فصولا ممتعة من كتاب عربي هام كتب بالعربية دون أن يعرفه كثير من أبنائها. وكل ما يؤخذ على هذا الملخص نقص في الترتيب وربط المسائل بعضها ببعض أحياناً، أو قصور في عرض بعض النقط أحياناً أخرى. ففي صفحة 58 يحكم المؤلف مثلا على المترجمات العربية حكماً غير مبني على أساس صحيح، ويشير إشارة ناقصة إلى أثر الفلسفة الإسلامية في الفلسفة اليهودية. وكنا نتوقع أن يعير هذه المسألة ما تستحق من أهمية، ولا سيما وهو يدرس شخصية يبدو فيها الأثر الإسلامي بشكل واضح. والتاريخ والواقع يشهدان بأن الفلسفة اليهودية في جملتها ليست إلا امتداداً للفلسفة الإسلامية. وفي صفحة 121 يتكلم عن أسلوب ابن ميمون؛ وفي رأينا أنه كان ينبغي أن يقدم هذه النقطة ويبدأ بها قبل الدخول في تفاصيل كتاب دلالة الحائرين؛ على أن المؤلف فاته أن يشير إلى جلاء ابن ميمون، ووضوح لغته، وعنايته بتوصيل المعنى إلى القارئ، وطريقته المنطقية البرهانية في المناقشة والتعليل.

وفي الباب الرابع والأخير يدرس المؤلف كتب ابن ميمون الطبية. وهذه تكملة لا بد منها؛ فان ابن ميمون فوق تشريعه وفلسفته كان طبيباً يشار إليه بالبنان في علمه وعمله، وقد خلف كتباً طبية عديدة استفاد منها الشرق والغرب أثناء القرون الوسطى.

وقد نجح المؤلف في التعريف عنها، وعرض نماذج من موضوعاتها؛ وإن كان قد فاته أن يبين في وضوح الصلة بينها وبين المؤلفات الطبية العربية الأخرى المعاصرة لها أو السابقة عليها. وعلى هذه الدراسة ألصق بكتاب طبي منها ببحث تاريخي.

وفي الفهرس نرى مجموعة طبية من المراجع القديمة والحديثة العربية والعبرية والإفرنجية التي تتصل بحياة ابن ميمون وآرائه ومؤلفاته. ويا ليت المؤلف أضاف إليها بعض الملاحظات النقدية التي تبين قيمتها العلمية وما احتوت من أبحاث مفيدة. وعلى كل فهذا الفهرس ثمرة من ثمرات اطلاعه الواسع، وأداة صالحة من أدوات البحث والدراسة. وسيجد فيه القراء والمطلعون نبراساً يستضيئون به في ظلمات القرون الوسطى، وهادياً يرشدهم إن أرادوا التوسع في بعض النقط التاريخية والفلسفية.

هذا هو كتاب موسى بن ميمون في محتوياته. وأما أسلوبه فمقبول في جملته، وإن أعوزه شيء من العناية والدقة. وأما مصادره - على الرغم من تعددها وحسن اختيارها - فلم تستخدم استخداماً كافياً. ونعتقد أنه لو كان المؤلف قد تريث أكثر في دراستها، ودقق أطول في قراءتها، لأخرج لنا عن ابن ميمون بحثاً أشمل وأوسع.

ومهما يكن من اعتراض يمكن أن يوجه إلى كتابه فأنا لا نتردد مطلقاً في أن نقرر أنه ضم إلى سلسلة أعماله المتواصلة حلقة ذهبية ناصعة. وهو من غير شك، كما قرر فضيلة الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرزاق في المقدمة التي قدم له بها (ثمرة جهد كبير في الاطلاع على مراجع مختلفة في لغات شتى) وإذا لاحظنا أنه يدرس شخصية جليلة من كبار المفكرين الذين تربوا فوق أرض الإسلام وتحت سمائه أكبر ما له من قيمة؛ وسيستعين به أصدقاء الفلسفة الإسلامية وطلابها على تفهم كثير من الآراء والأفكار

العربية. وأملنا كبير في أن ينحفنا الدكتور ولفنسون وهو مؤرخ استكمل وسائل البحث التاريخي، بمؤلفات أخرى تكشف الغطاء عن فلسفة القرون الوسطى اليهودية.

إبراهيم مدكور

العالم المسرحي والسينمائي

أدب السيناريو

صورة جديدة من الأدب أوجدها الفيلم الناطق

لناقد (الرسالة) الفني

ظل الأدباء حتى السنين الأخيرة لا يعرفون الفنون والآداب إلا في صورها القديمة من الشعر والنثر الفني والقصص التمثيلي وغير التمثيلي. وظهرت صورة جديدة من الأدب في القصة القصيرة، وهي على رغم انتشارها وذيوعها ليست جديدة وإنما هي صورة مصغرة من القصة الطويلة، أو هي قصة ملخصة تلخيصاً حكيماً.

واخترعت السينما الناطقة فرأينا القصص تعرض على اللوحات ولم يؤثر هذا الاختراع أي تأثير في العالم الأدبي حتى ظهرت السينما الناطقة فسمعنا الممثلين ينطقون بحوار فني وضعه المؤلفون من أكبر رجال الأدب والفن في العالم.

بعض هذه القصص بما تحوي من حوار مقتبس عن قصص معروفة، ولكنه يظهر في صورة خاصة وترتيب فني جديد لم يألفه الناس وعرف بالسيناريو.

والسيناريو كلمة أطلقها رجال السينما على القصة السينمائية في وضعها الخاص الذي يعاون المصور والمدير الفني ومساعديه على القيام بمهمتهم في سبيل إخراج فيلم من الأفلام.

ظلت هذه الصورة الجديدة لا يعرفها الناس وكأنها سر من الأسرار، وكان المتلهفون على المجلات السينمائية وكتب السينما يعرفون القليل عنها من أمثال بسيطة يضربها المؤلفون والكتاب في بعض ما يكتبون، حتى جازفت إحدى دور النشر في أوربا وقامت بطبع أكثر من سيناريو فكان هذا العمل الجريء هو الباعث على ظهور هذه الصورة الجديدة من الأدب.

أقبل الناس على قراءة هذه الكتب للتسلية والدرس، وهناك من المؤلفين والكتاب من كانت لديهم الموضوعات التي تصلح وتليق بأكبر الأفلام، ولكن جهلهم بشؤون السينما وعدم تمكنهم من التفصيلات كثيراً ما صرفهم عن السير في هذا السبيل، فظهور هذه المطبوعات

أفادهم فائدة كبيرة، فهي في الحقيقة شرح تفصيلي عملي يمكنهم من فهم السيناريو وطريقة وضعه.

وليست فائدة هذه المطبوعات قاصرة على هذا وحده، فقارئ السيناريو يجد لذة كبيرة في تلاوة قصة سبق له أن شاهدها على ستار السينما.

قرأت أكثر من كتاب واحد مما أخرج، وأقرر أنني وجدت تسلية كبيرة فيما قرأت، وخرجت بفائدة لم أكن أحلم بها، فقد جعلتني أفهم السينما على حقيقتها وأعرف دقائقها تمام المعرفة إذ وجدت تطبيقاً عملياً على كل ما قرأت من الكتب الخاصة بالسينما وأحوالها.

فهذه الصورة الجديدة من الأدب تدين بخلقها إلى الفلم الناطق، وأنا زعيم بأن الأدباء سوف يجدون في هذه الصورة ما يرضي ميولهم ويدفعهم إلى تأليف السيناريو. ولقد كتب المؤلفون قصصاً تمثيلية وقاموا بطبعها قبل أن يعرضوها على الفرق التمثيلية ووجدت من الرواج والإقبال ما يعوض على الكاتب مجهوده؛ وأعتقد أننا سوف نرى في القريب من المؤلفين من يقوم بطبع (سيناريو) قبل أن تقوم شركة من الشركات بإخراجه، وسوف يقبل الناس على تلاوته بدافع اللذة والتسلية وهكذا يضيف الفلم الناطق صورة جديدة إلى الآداب والفنون.

يوسف

في الفرقة القومية

تأكدت لدينا استقالة الأستاذ زكي طليمات من الفرقة القومية المصرية فهو قد قدم فعلاً استقالة إلى الأستاذ خليل بك مطران مدير الفرقة، وسوف تعرض على لجنة ترقية المسرح المصري في أول اجتماع لها، وقد كان من المنتظر أن تعقد اللجنة اجتماعاً في تمام الخامسة بعد ظهر يوم الأربعاء الماضي ولكنه أجل لتغيب معالي رئيس اللجنة حافظ عفيفي باشا في الإسكندرية.

وقد رفع الأستاذ طليمات أيضاً إلى معالي وزير المعارض التماساً يرجو فيه إلغاء انتدابه في الفرقة القومية المصرية.

ولسنا ندري حقيقة الأسباب التي دفعت الأستاذ طليمات إلى تطليق المسرح والفرقة القومية

التي طالما تمنى قيامها وعمل كثيراً في سبيل إنشائها، فالإشاعات كثيرة: منها أن هنالك من يضع في طريقه العقبات وأن بين رجال الفرقة من يعمل على الحد من السلطة التي كانت له في الموسم الماضي ويذكرون مسائل معينة للتدليل على صحة ما يقولون.

والسبب المباشر في استقالته أنه تقرر سحب رواية الجريمة والعقاب التي نقلها إلى العربية الدكتور الشاعر إبراهيم ناجي والممثل فتوح نشاطي بعد أن استعد لها وأتم دراستها واختار لنفسه أحد أدوارها، وقد عهد بإخراج هذه الرواية إلى الأستاذ عزيز عيد، وكان الدور الذي اختاره الأستاذ طليمات لنفسه من نصيب الأستاذ حسين رياض.

وقد يرى القارئ الملم بالوسط المسرحي المصري أن هذا التصرف عادي في الفرق ولهذا فإن دهشتهم لتقديم الاستقالة كانت كبيرة، ولكن المتصلين بالأستاذ طليمات يقولون إن هذه الحادث هو القشة التي قصمت ظهر البعير.

ونحن يسوؤنا جداً أن تنتهي المسألة بهذه النتيجة المؤلمة، ونحن نأسف جد الأسف على خروجه من الوسط المسرحي ونعد اعتزاله خسارة كبيرة فهو المخرج الوحيد في مصر الذي درس فن الإخراج والتمثيل في أوربا دراسة تهيئه لأن يتولى هذه المهمة في مصر، وهو إلى جانب هذا أديب مطلع لا نجد بين الممثلين أكثر من اثنين في مثل اطلاعه وإخلاصه للفن.

والمسرح المصري في هذه الفترة في حاجة إلى توحيد الجهود لإقالته من عثرته. وخروج الأستاذ طليمات يضعف من الجهود التي تبذلها اللجنة ورجالها المحترمون. ونحن نرجو مخلصين أن يعدل الأستاذ طليمات عن هذه الاستقالة، وأن تمهد له اللجنة الطريق إلى سحبها بأن تزيل ما في النفوس من الصغائر التي تفسد الجو المسرحي، كما نرجو ألا يوافق معالي وزير المعارف وسعادة وكيل الوزارة الأستاذ العشماوي بك على إلغاء انتدابه.

يوسف

العدد 176 - بتاريخ: 16 - 11 - 1936

مشروع خطير

تطعيم الأدب العربي

كانت اللغة العربية في عصر من عصورها مجمع الثقافات، وملتقى المدنيات، ومنتهى الألسن؛ وكان الأدب العربي في حدود مراميه التعبير العام عن خوالج الإنسانية في أكثر بقاع الأرض، لأن الإسلام الذي جمع قلوب الأمم على قرانه، جمع ألسنتهم على لسانه، فلم تكن هناك فكرة تجول في ذهن كاتب، ولا صورة تتمثل في خاطر شاعر، إلا وجدت في هذا الخضم المحيط صدفة تستقر فيها. فلما تحولت عن مذاهبه الأنهار، وجفت على جوانبه الروافد، عاد كالبحيرة المحدودة الراكدة، لا يمدها إلا قطرات المطر ودفعات السيل في الحين بعد الحين. فإذا أردنا لأدبنا أن يتسع في حاضره كما اتسع في ماضيه، فليس لنا اليوم غير سبيل الأمس: نرفده بآداب الأمم الأجنبية، ونطعمه بأنواع الفنون الأدبية، ونصله بتيار الأفكار الحديثة، ونخلي بينه وبين الحرية ليزدهر وينتشر ويساهم الآداب العالمية في تبليغ رسالة الجمال والخير والحق.

ذلك كلام يدخل في بدائه العقل لوضوحه، ويجري في قوانين الطبع لضرورته؛ فإذا عدنا إليه فإنما نعود لنحتال في تنفيذه لا لنلح في تعزيزه. وقد رغبنا إلى الحكومة في عدد مضى أن تنشئ دارا للترجمة تنقل آداب الأمم الكبرى نقلاً صحيحاً، ثم تنشرها كما تنشر دار الكتب الأسفار العربية القديمة؛ والأمر في ذاته قريب المنال قليل المؤونة، ولكن رغبة الفرد إلى الحكومة تكون في الغالب أملاً يتنفس به الصدر ولا يتعلق به صدق ولا ظفر. رغبنا إلى الحكومة هذه الرغبة اليائسة وما كنا نعلم أن ترجمة الآداب الغربية على خطة مرسومة هي مشروع في لجنة التأليف والترجمة والنشر قد أنضجت له الرأي ووجَّهت إليه العزيمة. ولجنة التأليف والترجمة والنشر فرقة من فرق الجنود المجهولة، تجاهد في صمت، وتكابد في صبر، وتبذل في إيثار. وقد طوت في جهاد الجهالة اثنتين وعشرين سنة فلم تنخزل عن صعوبة، ولم تنهزم عن تضحية، ولا تزال تضطلع وحدها بحماية الكتاب وقد غلبه على مكانه الطفيليات العابثة من المجلات الهازلة والنشرات الهزيلة.

تريد لجنة التأليف والترجمة والنشر أن تنقل إلى العربية آداب اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية، كل أدب منها في عام. وستنتقي لكل أدب عشرة أو أكثر من أعلام المترجمين الذين حذقوا أدب اللسانين المترجِم والمترجَم في دقة فهم وجمال صياغة. ثم تجعل مع هؤلاء أديباً من أهل اللسان الأوربي يتولى اختيار الكتب الخالدة لكل كاتب أو شاعر، ثم يكون مرجعاً للمترجمين فيما عسى أن يغمض عليهم من خفايا الكنايات وأسرار الجُمل؛ فإذا خرج الكتاب من الترجمة والمراجعة انتهى إلى أستاذين من أساتذة البيان العربية فيصقلان أسلوبه ويهذبان لفظه؛ ثم تنشر مطبعة اللجنة هذه الكتب تباعاً على غرار واحد وشكل رائق وتصحيح دقيق. واللجنة تهيئ الأسباب لتبدأ عما قريب في إخراج الأدب الإنجليزي، حتى إذا فرغت منه اشتغلت بغيره. والتعليق على مثل هذا المجهود الخطير المعجز لا يكون بغير الدعاء إلى الله أن يقرن العمل بالتوفيق ويقطع الأمل بالفوز. وليس بعد الله من يعين على هذا الجهد إلا الحكومة. فإن الجمهور القارئ في مصر وفي غير مصر قليل، وأكثر هذا القليل يكاد لا يعرف طريق المكتبة ولا يألف صحبة الكتاب. فترك اللجنة إلى أهواء القراء معناه حبس أموالها القليلة في المخازن والمكاتب فلا تقلبها في تأليف ولا نشر؛ والحكومة التي تساعد المدارس والمجامع والصحف، وتعول المجمع اللغوي ودار التمثيل ودار الكتب، لا تستطيع أن تضن بالمساعدة السخية على هذا المشروع الضخم تقوم به صفوة من أقطاب الثقافة في هذا البلد وقد كان من واجباتها الأولى أن تفكر فيه وتنهض به.

ولقد كان من فضل الله على (الرسالة) أن تحمل عبئها من هذا العمل الجليل المثمر، فقد أمضت النية على أن تصدر بجانبها أختها (الرواية) وهي مجلة أسبوعية تعتمد على نقل ما راع وخلد من بدائع الأدب الغربي في القصص على أوسع معانيه من الأقاصيص والروايات والمذكرات والاعترافات والرحلات والسِير. وسيكون شعار (الرواية) الجمال في الأسلوب، والحسن في الاختيار، والنبل في الغرض؛ فترضي الذوق كما ترضي (الرسالة) العقل، وترفع القصة كما ترفع (الرسالة) المقالة، وتسجل أدب الغرب كما

تسجل (الرسالة) أدب العرب.
ولا جرم أن الأدب العربي سيكون له في كل عام مما تنتجه (اللجنة) وتترجمه (الرواية) وتنقله الصحف الأخرى، مورد ثَرُّ الينابيع، فياض الجوانب، من العبقريات الممتازة والقرائح السمحة، يحيي مواته، ويزكي نباته، ويجعل من سهوبه الفيح جناناً ناضرة، فيها
متاع الأذن بالتغريد والشدو، ولذة العين بالرواء والبهجة، وشهوة النفس بالزكاء والعطر، وسعادة العالم بالسلام والوئام والمحبة.
احمد حسن الزيات
القلب المسكين - 3
للأستاذ مصطفى صادق الرافعي
أما صاحب القلب المسكين فرمقها وهي تلفت إليه التفات الظبية بسواد عينيها بجعل سوادهما الجميل في النظرة الواحدة نظرتين لعاشق الجمال، تقول إحداهما: أنت، وتقول الأخرى: أنا؛ ثم أراها وقد كسرت أجفانها وتفترت في يدي الممثل العشيق وأفصح منظرها ببلاغة. . . ببلاغة جسم المرأة المحبوبة بين ذراعي من تحبه؛ ثم اختلجت وصوبت وجهها، وأهدفت شفتيها؛ وتلقت القبلة.
وكان به منها ما الله عليم به، فانبعثت من صدره آهة مُعولة تئن أنيناً، غير أنها كلمته بعينيها أنها تقبله هو؛ فلا ريب قد حملت إليه إحدى النسمات شيئاً جميلاً عن ذلك الفم . . .لمست به النفس النفس، والقبلة هي هي ولكن وقع خطأ في طريقة إرسالها ليس تحت الخيال شيء موجود، ولكن الخيال المتسرح بين الحبيبين تكون فيه أشياء كثيرة واجبة الوجود، إذ هو بطبيعته مجرى أحلام من فكر إلى فكر، ومسرحُ شعور يصدر ويرد بين القلبين في حياة كاملة الإحساس متجاوبة المعاني. وبهذا الخيال يكون مع القلبين المتحابين روح طبيعي كأنه قلب ثالث ينقل للواحد عن الآخر، ويصل السر بالسر، ويزيد في الأشياء وينقص منها، ويدخل في غير الحقيقي فيجعله أكثر من الحقيقي. ومن هنا لم يكن فرح ولا حزن، ولا أمل ولا يأس، ولا سعادة ولا شقاء، إلا وكل ذلك مضاعف للمحب الصادق الحب بقدر قلبين؛ والذين يعرفون قبلة الشغف والهوى يعرفون أن العاشق يقبل بلذة أربع شفاه.
وانسدلت بعد هذه القبلة ستارة المسرح، وغابت الجميلة المعشوقة غيبة التمثيل فقلت لصاحب القلب المسكين: إن روحيكما متزوجتان. . . قال: آه، ومدَّها من قلبه كأنه دنف سقيم.
قلت: وماذا بعد آه؟
قال: وماذا كان قبلها؟ إنه الحب فيه مثل ما في (عملية جراحية) من تنهدات الألم ولذعاته، غير أنها مفرقة على الأوقات والأسباب مبعثرة غير مجموعة. (آه)؛ هذه هي الكلمة التي لا تفرغ منها القلوب الإنسانية، وهي تقال بلهفة واحدة في المصيبة الداهمة، والألم البالغ،
والمرض المدنف، والحب الشديد. فحينما توشك النفس أن تختنق تتنفس (بآه).
قلت: أما رأيتها مرة وقد أوشكت نفسها أن تختنق. . .؟
قال: لقد هجت لي داءً قديماً؛ إن لهذه الحبيبة ساعات مغروسة في زمن غرس الشجر، فبين الحين والحين تثمر هذه الساعات مرها وحلوها في نفسي كما يثمر الشجر المختلف؛ ولقد رأيتها ذات مرة في ساعة همها؛ ثم ضحك وسكت.
قلت: يا عدوَّ نفسه! ماذا رأيت منها؟ وكيف أراك الوجد ما رأيت منها؟
قال: أتصدقيني؟ قلت: نعم.
قال: رأيت الهمَّ على وجه هذه الجميلة كأنه همَّ مؤنث يعشقه همَّ مذكر. . . فله جمال ودلال وفتنة وجاذبية، وكأن وجهها يصنع من حزنها حزنين: أحدهما بمعنى الهم لقلبها والآخر بمعنى الثورة لقلبي.
قلت: يا عدو نفسه هذا كلام آخر؛ فهذه امرأة ناعمة بضّة مطوي بعضها على بعضها، لفّاء من جهة هيفاء من جهة، ثقيلة شيء وخفيفة شيء، جمعت الحسن والجسم وفناً بارعاً في هذا وفناً مفردا في ذاك، وهي جميلة كل ما تتأمل منها، ساحرة كل ما تتخيل فيها، وهي مزاحة دحداحة وهي تطالعك وتطمعك، وأنت امرؤ عاشق ورجل قوي الرجولة؛ فالجميلة والمرأة هما لك في هذا الجسم الواحد، إن ذهبت تفصلهما في

خيالك امتزجتا في دمك؛ ولو أمسكت آلة التصوير نظراتك إليها لبانت فيها أطراف اللهب الأحمر مما في نفسك منها. ولعمري لو مرت عربة تدرج في الطريق ونظرت إليها نظرتك لهذه المرأة بهذه الغريزة المحتبسة المكفوفة لظننتك سترى العجلة الخلفية عاشقاً مهتاجاً يطارد العجلة الأمامية وهي تفر منه فرار العذراء. . .

فضحك وقال: لا، لا. إن نوع التصوير لإنسان هو نوع المعرفة لهذا الإنسان، ومن كل حبيب وحبيبة تجتمع مقدمة ونتيجة بينهما تلازم في المعنى؛ والمقدمة عندي أن إبليس هنا في غير إبليسيته، فلا يمكن أن تكون النتيجة وضعه في إبليسيته. وما أتصور في هذه الجميلة إلا الفن الذي أسبغه الجمال عليها، فهي في معرفتي وخيالي كالتمثال المبدع بداعة لا يستطيع أن يعمل عملاً إلا إظهار شكله الجميل التام حافلاً بمعانيه.

ليست هذه المرأة هي الأولى ولا الثانية ولا الثالثة فيمن أحببت؛ إنها تكرار وإيضاح وتكملة لشيء لا يكمل أبداً، هو هذه المعاني النسوية الجميلة التي يزيد الشيطان فيها من عشق كل عاشق. إن بطن المرأة يلد، ووجه المرأة يلد.

قلت: هذا إن كل وجهها كوجه صاحبتك، ولكن ما بال الدميمة؟

قال: لا هذا وجه عاقر. . .

قلت: ولكن الخطأ في فلسفتك هذه أنك تنظر إلى المرأة نظرة عملية تريد أن تعمل في تمنعها أن تعمل؛ فتأتي فلسفتك بعيدة من الفلسفة، وكأنك تغذو المعدة الجائعة برائحة الخبز فقط.

قال: نعم هذا خطأ، ولكنه الخطأ الذي يخرج الحقائق الخيالية من هذا الجمال؛ فإذا سخرت من الحقيقة المادية بأسلوب فبهذا الأسلوب عينه تثبت الحقيقة نفسها في شكل آخر قد يكون أجمل من شكلها الأول.

أتعلم كيف كانت نظرتي إلى نور القمر على هذه والى حسن هذه على القمر؟ إن القمر كان ينسيني بشربتها فأراها متممة له كأنه ينظر وجهه في مرآة، فهي خيال ووجهه؛ وكانت هي تنسيني مادية القمر فأراه لها كأنه خيال وجهها.

أتدري ما نظرة الحب؟ إن في هذا القلب الإنساني شرارة كهربائية متى انقدحت زادت في العين ألحاظاً كشافة وزادت في الحواس أضواءً مدركة، فينفذ العاشق بنظره وحواسه جميعا في حقائق الأشياء فتكون له على الناس زيادة في الرؤية وزيادة في الإدراك يعمل بها عملا فيما يراه وما يدركه. وبهذه الزيادة الحدية على النفس تكون للدنيا حالة جديدة في هذه النفس؛ ويأتي السرور جديدا ويأتي الحزن جديدا أيضاً. فألف قبلة يتناولها ألف عاشق من ألف حبيب؛ هي ألف نوع من اللذة ولو كانت كلها في صورة واحدة. ولو بكى ألف عاشق من هجر ألف معشوق لكان في كل دمع نوع من الحزن ليس في الآخر.

قلت: فنوع تصورك لهذه الراقصة التي تحبها، أن إبليس هنا في غير إبليسيته. . .

قال: هكذا هي عندي، وبهذا أسخر من الحقيقة الإبليسية.

قلت: أو تسخر الحقيقة الإبليسية منك وهو الأصح وعليه الفتوى. . .

فضحك طويلاً وقال: سأحدثك بغريبة. أنت تعرف أن هذه الغادة لا تظهر أبداً إلا في الحرير الأسود؛ وهي رقيقة البشرة ناصعة اللون فيكون لها من سواد الحرير بياض البياض وجمال الجمال. فلقد كنت أمس بعد العشاء في طريقي إلى هذا المكان لأراها، وكان الليل مظلما يتدجَّى، وقد لبس وتلبس وغلب على مصابيح الطريق فحصر أنوارها حتى بين كل مصباحين ظلمة قائمة كالرقيب بين الحبيبين يمنعهما أن يلتقيا؛ فبينا أقلب عيني في النور والغسق وأنا في مثل الحالة التي تكون فيها الأفكار المحزنة أشدَّ حزناً - إذ رفع لي من بعيد شبح أسود يمشي مشيته متقّترا قصير الخطو يهتز ويتبختر؛ فتبصرته في هيئته فما شككت أنها هي، وفتحت الجنة التي في خيالي وبرزت الحقائق الكثيرة تلتمس معانيها من لذة الحب، وكان الطريق خاليا فأحسست به لنا وحدنا كالمسافة المحصورة بين ثغرين متعاشقين يدنو أحدهما من الآخر، وأسرعت إسراع القلب إلى الفرصة حين تمكن، فلما صرت بحيث أتبين ذلك الشبح إذا هو. . . إذا هو قسيس. . .

فقلت: يا عجباً، ما أظرف ما داعبك إبليس هذه المرة وكأنه يقول لك: إيه يا صاحب الفضيلة. . .

وكان الممثلون يتناوبون المسرح ونحن عنهم في شغل إذ لم تكن نوبتها قد جاءت بعد؛

وألقى الشيطان على لساني فقلت لصاحبنا: ما يمنعك أن تبعث إليها فلانا يستفتح كلامها ثم يدعوها فليس بينك وبينها كلمة تعالي أو تفضلي.
قال: كلا، يجب أن تنفصل عني لأرها في نفسي أشكالا وأشكالا؛ ويجب أن تبتعد لألمسها لمسات روحية؛ ويجب أن أجهل منها أشياء لأحمق فيها علم قلبي؛ ويجب أن تدع جسمها وأدع جسمي وهناك نلتقي رجلاً وامرأة ولكن على فهم جديد وطبيعة جديدة. بهذا الفهم أنا أكتب وبهذه الطبيعة أنا أحب ما هو الجزء الذي يفتنني منها؟ هو هذا الكل بجميع أجزائه.
وما هو هذا الكل؟ هو الذي يفسر نفسه في قلبي بهذا الحب.
وما هو هذا الحب؟ هو أنا وهي على هذه الحالة من اليأس نعم. أنا بائس ولكن شعور البؤس هو نوع من الغنى في الفن لا يكون هذا الغنى إلا من هذا الشعور المؤلم. والحبيب الذي لا تناله هو وحده القادر قدرة الجمال والسحر؛ يجعلك لا تدري أين يختبئ منه جماله فيدعك تبحث عنه بلذة؛ ولا تدري أين يسفر منه جماله فيدعك تراه بلذة أخرى. أنا أنضج هذه الحلوى على نار مشبوبة؛ على نار مشبوبة في قلبي.
قلت: يا صديقي المسكين هذه مشكلة عرضت بها المصادفة وستحلها المصادفة أيضاً. وما
. . .كان أشد عجبي إذ لم أفرغ من الكلمة حتى رأينا (المشكلة) مقبلة علينا
أما هو: أما صاحب القلب المسكين؟
(طنطا)
(لها بقية)
مصطفى صادق الرافعي
المشيرة عايدة
للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني
قلما يستطيع الإنسان أن يضع نفسه موضع إنسان آخر في أمر يعنيه، ولو كان هذا يسعه في كل حال لكان الأرجح أن يضحكه الذي يمضه ويثقل عليه أو يبكيه. - في هذا كنت أفكر وأنا أسمع قصة صديقي وكان قد دخل على وهو ينفخ ويسمح العرق المتصبب - عرف الخجل لا التعب والنصب، فانه صاحب سيارة فخمة ضخمة لا تتعب الراكب ولا تكلفه جهدا غير النظر إلى الطريق وسكون الأعصاب واتزانها وهو يمرق بها بين المارة الذين لا يحلو لهم السير إلا وسط الشارع كأنما كان الشارع متنزها عاما وكأنما ينبغي على سائق السيارة أن يسير بها فوق الرصيف ليفسح لهم.
وكان يحاول أن يقص عليَّ القصة وهو يمسح وجهه بالمنديل فكان نصف ما يقول يخرج مخنوقا في مطاوي المنديل فقلت له: (هلا انتظرت حتى ينشف هذا العرق).
فغضب وقال: بلهجة المعاتب (وأنت أيضاً. . .؟؟)
فقلت: له وأنا أحاول أن أفئ به إلى الرضى (إنما أردت أن أقول إن المنديل يغيب فيه بعض الكلام فيجيء ما أسمع غير مفهوم. . . على كل حال يحسن أن تبدأ من البداية).
قال: (البداية؟. يا خبر!)
قلت: (عمن تتحدث؟. . يخيل إلى أنك ذكرت اسماً. . .)
. . .قال: نعم. . . عايدة)
قلت: (آه. . . عايدة؟؟ ومن عسى أن تكون هذه المجرمة؟؟)
(قال: ألا تعرفها؟. هذا مدهش. . . كيف يمكن.؟
قلت: (يا أخي لا تغضب. . . إنك تعرف أن ذاكرتي خوانة. . . وليس من النادر أن أنسى أسماء من أعرف من الناس. . . فإذا سمحت بأن تذكرني بها فأنى أعدك أن. . .)
فقال: (أوه. . . إنك تمزح ولا شك. . . لا يمكن أن تجهلها)
قلت: أشكر لك هذه الثقة بسعة معارفي. . . ولكني أؤكد لك أن الاسم لا يحرك في نفسي أي ذكرى. . . لا يثير أي اختلاج. . . وليس هذا لأنها لا تستحق الذكر بل لأن الأسماء تقع من رأسي في غربال واسع الخروق)
فاقتنع وشرع يصفها لي فهززت له رأسي وقلت: (خير من هذا الوصف الذي لا يصف شيئاً أن تقول لي: أين تسكن أو أن تذكر لي بقية اسمها. . . شيء من هذا القبيل. . . أما أن تظن أنه يكفي أن تقول: (بنت جميلة هيفاء ممشوقة القوام. . . فاسمح لي أن أؤكد لك أنك. . .)

فرماني بنظرة وأومأ إلى أن أقصر، فأمسكن إشفاقا عليه. وبلع ريقه ثم أخذ يصف لي بيتها فضقت ذرعا بهذا الحال وقلت له: (يا أخي ما حاجتي إلى كل هذا؟؟ وكيف تظن أن في وسعي أن أعرف إنسانا من قولك إن لبيته شرفتين وأربع نوافذ أو عشرا وأن فيه خمس غرف أو ستا.؟ إنما أسالك عن الموقع. . . عن الشارع أو الحارة أو الدرب. . . ماذا جرى لعقلك اليوم)

وبعد لأي ما استطعت أن أعرف الشارع الذي فيه بيتها فتذكرت.

وكانت عايدة هذه - كما قال - جميلة، ولكن في قولي (جميلة) اقتصاداً - أو إن شئت فقل إيجازا مخلا - وما أكثر الجميلات ولكن ما أقلهن أيضاً. والجميلات التي تقع العين عليهن أكثر من أن يأخذهن إحصاء، ولكن اللواتي يقعن من نفس المرء وتثبت على صفحة القلب صورهن - هؤلاء هن القليلات وعايدة هذه إحداهن. وإنه لسر ولغز لا يحل أنها بقيت إلى الآن بلا زواج، فما تنقصها لا الرشاقة ولا الظرف، ولا أنس الحديث وعذوبته، ولا دماثة الطباع وحلاوتها، ولا وفاء الثقافة ولا حسن التدبير وكياسة التصرف. وكانت - ولعلها لا تزال - تلازم شرفتها ولا تكاد تغادر بينها إلا لضرورة ملحة أو حاجة ملجئة، ولا تخرج حين تخرج إلا ومعها أبوها أو أمها أو واحد غير هؤلاء من أهلها. ولعل هذا الذي زهد فيها ونفر منها فما أدري. على أني أعرف أن هذا الحبس قد أغراها بضروب من العبث، فهي لا تزال في شرفتها في حفل من الزينة أو في قميص نوم هفهاف يتركها عارية النحر إلى الثديين، مكشوفة الذراعين إلى ما فوق الكتف، أو في منامة - بيجامة - من الحرير الرقيق محبوكة التفصيل على قدها الممشوق وجسمها الرخص، وإذا كانت لا تخرج وكان في البيت من يغنيها عن العمل ويعفيها من مشقاته، وكانت الشقة على اتساعها أضيق من أن تكفي فتاة متعلمة حديثة الآراء فإنها لا تكاد تفارق الشرفة - فيها تقعد لتروح عن نفسها ولتقرأ إذا شاءت، ولتنظر إلى الرائحين والغادين وتتسلى بالمناظر التي تأخذها عينها، وقد ألفت ذلك فهي لا تستطيع أن تفطم نفسها عنه؛ وأحسب أنها لو صرفها أهلها عن الشرفة لجنت، فما لها عزاء غيرها ولا سلوى سواها، وإذ كانت ترى كل ما يرى من الشرفة ولا يفوت عينها المفتوحة ما يقع أحيانا بين بعض الرجال والنساء في حيها المكتظ بالناس وكانت لا تخالط إلا أهلها، فليس من المستغرب - بل هذا لا غيره هو المتوقع - أن يغلبها صباها أحياناً فيصدر عنها ما قد يعده المتشددون - وما أقلهم في هذا الزمان - مخالفا لمقتضيات الحشمة، وما هو كذلك؛ ولو قضى على شاب أن يحبس في بيت ولم يؤذن له في أكثر من النظر من الشرفة على حين يرى أنداده جميعا يخرجون متى شاءوا إلى حيث يشاءون لكان من المحقق أن ينتحر، ولكن عايدة لم تنتحر لأن نشأتها جعلتها تألف هذه الحياة، وان كانت لا تعزيها عن الحرمان مما ترى أترابها ينعمن به، وأقله أن تزور أترابها كما يزرنها، وحدهن، وفي غير حاشية من الأهل والآباء والأمهات.

ولكني استطردت عن حكاية صديقي فلأعد إليه، قال: (لعلك تذكر أني كنت جارا لهذه الفتاة - أعني كنت أسكن بيتا يقابل بيتها، وكان لابد أن أراها وأن أعجب بها فأنها كما يقول الشاعر: (بيرنز) - (يكفي أن تراها لتعشقها). . .)

فقاطعته عامدا وقلت: (عفوا!! لو كان بيرنز قد قال هذا لما كان في قوله ما يستحق الذكر، ومن الصعب ترجمة هذا البيت من شعره، ولكني أظن أن الذي أراده هو أن معنى أن تراها أن تحبها. . . أي أنه لا حيلة لمن يراها إلا أن يحبها. . . على كل حال تفضل)

فنفخ وتأفف وقام وتمشى ثم عاد إلى مجلسه فما له صديق غيري يستطيع أن يبيحه دخلته.

وقال بعد هنيهة: (طيب. . . قل ما بدا لك. . . المهم أني أعجبت بها. . . شغلت بها زمنا حتى لكدت أهمل عملي وأسئ إلى نفسي. . . ويجب أن أعترف لك بالفضل في رد ما ذهب من عقلي. . .)

فهممت بأن أقول شيئاً مثل (العفو) أو ما هو من هذا بسبيل، ولكنه أشار إلى فرددت الكلمة التي كانت على لساني ومضى هو في كلامه فقال: (وتعلم أني تركت البيت إلى سواه فراراً منها)

قلت: (أعلم ذلك وأظن أني أشرت به فأن البعيد عن العين بعيد عن القلب)
قال: ولكني أمس مررت من هناك ووقفت أتحدث إلى البواب زمناً وأنا أرجو أن تلتفت إلي، فلما لم تفعل شرعت أنفخ في البوق وعيني على الشرفة، فرمت إلي نظرة وضيئة وابتسمت، فكدت أطير من الفرح، وكان البواب يحادثني وأنا لا أصغي إليه ولا أدري ماذا يقول ولعله كان يرد على كلام لي نسيته، فما كان لي غاية إلا أن أجعل لوقوفي مسوغا في نظر البواب. ولما كان البواب لا يكف عن الكلام وكان ينتظر مني أن أقول شيئاً فقد طلبت منه أن يجيئني بقليل من الماء أفرغه في جوف السيارة وما كانت بها حاجة إلى ذلك، ولكن هذا ما خطر لي أن أصرفه عني به فمضى عني فرفعت عيني إليها فألفيتها لا تزال تبتسم فتظاهرت بأني أصلح البوق ولكن عيني كانت عليها، فأشارت إلي بيدها أن أمضي إلى آخر الشارع وأن أنتظرها هناك فأسرعت إلى مقعد القيادة ولم أنتظر البواب المسكين الذي أرسلته ليجيئني بالماء وذهبت في الطريق الذي أشارت إليه ووقفت أنتظر)
فقلت: (على أحر من الجمر؟)
قال: (لا تتهكم. . . إن المسألة ليست مزاحاً. . . نعم كنت على أحر من الجمر. . . فماذا تريد؟)
قلت: (لا شيء. . . إنما أنتظر أن تذكر بيتاً لشاعر. . . ألا يحضرك شيء من محفوظك.؟)
قال بلهجة جادة لم أكن أنتظرها: (أنا أقول لك ماذا كان يجول في خاطري. . . لقد كنت أمني النفس بوشك اللقاء الذي ظللت أرجوه عاماً كاملاً ولم يصرفني عنه سواك. . . وكان لك حق. . . الآن فقط أدركت أن الشباب يحتاج إلى التجربة التي تغري بالتؤدة وتقص أجنحة الخيال. . . كنت أحلم بأن أراها إلى جانبي في السيارة وأحدث نفسي بقربها؛ ولا أكتمك أني ذهبت أنشئ أحاديث بيني وبينها. . . أحاديث كانت تبدأ بالعتاب وتنتهي بالقبلات والعناق. . . وكنت أتصورها تدني ساقها مني - عفوا بالطبع - فأغتنم الفرصة وأدني أنا أيضاً ساقي من ساقها فتنأى بها فأرد ساقي على مهل كأن الأمر كله جاء عفواً، ثم نعود إلى هذا التداني ولا تبعد عني هذه المرة بل تبقي ساقها ملاصقة لساقي فأنعم بهذا القرب الذي لم أكن أطمع فيه بل الذي قطعت الأمل من إمكانه في هذه الدنيا. . . ونذهب إلى مكان خلوي. . . وكان خيالي يتشبث بأن يكون المكان خلويا لا يخلوا من أنس ولكنه لا يبلغ من ضجة الناس وزحامهم فيه أن يعكر وجودهم الصفو وينغصه، فإذا بلغناه وقفنا
وطلبنا شيئاً نبل به ريقنا ويدور الحديث بغير انقطاع، كما لابد أن ينقطع والسيارة تخطف في الطريق، وتلتقي العين بالعين ويحن القلب إلى القلب وتتصل الأيدي وتتداخل الأصابع وتسري الوقدة منها إلي، ومني إليها، فتتلامس الشفاه ويستريح الصدر إلى الصدر ويحف ذراعي بخصرها ويحيط ذراعها بعنقي، ثم نتباعد ونتنهد وقد شفى كل منا بعض ما يجد وأوحي بشيء مما يجن في تلك القبلة الطويلة التي يفرغ فيها روحه ويفضي بشوقه وصبوته. . . وكنت على استغراق هذا الحلم اللذيذ لمشاعري وحواسي أنظر إلى الطريق ولا يفوتني أحد ممن يمشون فيه. . . ولم يكن حلمي يمنعني أن أنظر في الساعة كل بضع ثوان. . . وليس أشق من الانتظار ولكني استطعت أن أنتظر نصف ساعة. . . وما أقلها لو فكرت. . . وما نصف ساعة يقضيه شاب في انتظار الفوز بلقاء ظل عاما كاملا يطمع فيه ثم انتهى به الأمر إلى اليأس منه؟؟ ولكني على هذا مللت وحدثتني النفس أن شيئاً لابد أن يكون قد عاقها. . . ذلك أني أعلم أنها لا يسهل الخروج عليها وحدها؛ فقلت لنفسي إنه لا ضرر على كل حال من الرجوع والمرور ببيتها لعلي أرى ما يهديني إلى سبب هذه الغيبة الطويلة على الرغم من إشارتها الملحة أن أسير بسرعة وأنتظرها في آخر الطريق. . . وأوجز فأقول إني رجعت من حيث جئت وتظاهرت بأن شيئاً في السيارة يحوجني إلى الوقوف وترجلت وفتحت غطاء المحرك ولكني لم أنظر إليه وإنما رفعت عيني إلى الشرفة، وكانت عائدة واقفة فيها ومستندة كعادتها على حافتها وكأنما لا شيء هنالك. . . لا أحد ينتظرها في آخر الشارع منذ نصف ساعة. . . كأنها لم ترسلني إلى آخر هذا الشارع. . . أدهى من هذا يا صاحبي أنها لم تكد تراني حتى كادت تسقط على الأرض من الضحك. . . نعم الضحك. . . كانت تضحك لأنها ضحكت علي وكلفتني أن

أنتظرها وهي لا تنوي أن تجيء. . . ماذا يضرها أن أنفلق نصف ساعة؟؟ ماذا خسرت هي إذا كنت أنا مغفلا؟؟ ماذا عليها إذا كنت صدقتها وتوهمت أنها تجن لي مثل الذي أجنه لها وأني لبثت نصف ساعة أحلم وأمني النفس بقربها وحديثها وابتسامها وقبلاتها وضماتها وعناقها؟؟ لا يضيرها شيء بل يسرها أنها ضحكت علي وخدعتني واستغفلتني واستحمقتني وتركتني أرتفع بخيالي إلى حيث شاءت لي السخافة ثم رمت بي إلى الأرض الصلبة. . . هل يعنيها أن عظامي رضت أو أنها تحطمت؟؟ هل تبالي أن آمالي خابت؟؟ هل تحفل الصدمة التي

(لابد أن أحسها حين أعرف أنها كانت تعابثني وتستغفلني. .؟؟

فقلت له (خذ) ومددت لي يدي بسيجارة فتناولها وهو ذاهل، وأضرمت له عود الثقاب وأنا أرد الضحك الذي أحس أني سأنفجر به. . . ونفخ الدخان مرة وأخرى، وأحسست أنه صار أهدأ أعصابا، فقلت (الحقيقة أنه) فصل (بارد. . . لا شك في ذلك)

وكان لابد أن أتألفه بكلام كهذا ليهدأ ثائره، ثم قلت له وقد آنست منه إقبالا (هي فتاة تعد محرومة من متع الحياة. . . كل ما تعرفه من متع الدنيا أن تجلس في الشرفة وتنظر. . . أظن أن هذا لا يجوز أن يحسب في المتع. . . أولى به أن يزيد شعورها بالحرمان الذي تقاسيه. . . بالحجر المضروب عليها. . . أهلها ليسوا مخطئين لأنهم لا يعرفون إلا هذا الأسلوب. . . وهي ليست مسرفة في إحساسها بالحرمان لأنها تعلمت ما لم يتعلمه أبوها وأمها، وعرفت ما لم يعرفا. . . والمجتمع المصري عرف السفور، ولكنه لا يزال بعيدا عن الحياة الاجتماعية التي تجعل السفور ذا معنى وفائدة. . . والبنت المصرية سافرة ولكنها لا تحيا الحياة الاجتماعية التي يستدعيها السفور. . . فكأنها تسفر لترى بعينها ما هي محرومة منه. . . والنتيجة أن الفتاة صارت كالحجلة في حكايات كليلة ودمنة. لا هي بقيت محبوسة في البيت، ولا هي فازت بالمتع البريئة التي يقتضيها السفور. . . ليست أريد أن ألقي عليك محاضرة، وإنما أريد أن ألفت نظرك إلى أن هذه الفتاة معذورة إذا هي التمست التسلية والضحك. . . وليس من العدل والإنصاف أن نأبى عليها أن تضحك، وأن نحرم عليها أن تتسلى. . . وليس من حقك أن تدعي أن لك عليها حقا فما هي بزوجة لك ولا صاحبة. . . ولقد عرفت اسمها من أفواه الناس لا من أبيها ولا من أحد من أهلها. . . والمغازلة يا صاحبي مقامرة. . . والمقامر يجب أن يحتمل الخسارة كما ينتظر من ملاعبيه أن يحتملوا الخسارة حين يربح هو. . . وقد قامرت وخسرت. . . ومن واجبك أن تتلقى حظك بابتسامة. . . ضع نفسك في مكانها. . . فأنك خليق أن تضحك مما حدث كما أضحك أنا الآن)

وانفجرت بالضحك المكتوم فنهض كالمغضب وقال: (أو تضحك؟)

قلت: (سبحان الله. . . وهل كنت تنتظر مني أن أبكي؟؟ والله إني لأراها قد عاملتك كما تستحق. . . برافو عليها. . . ويا سخيف. . . ألا تعرف أنها لا تخرج قط فكيف صدقت

(. . .أنها لاحقة بك

قال: (يا أخي ألم أقل لك إنها أشارت إلى أن أسبقها)

قلت: (أنا أيضاً أشارت إلى مرات حين كنت أزورك. . . وكنت أرى يدها تشير إلى أن أسبق فأتريث حتى أرى ما يؤيد ما فهمته من هذه الإشارة فكان تريثي يريها أني لست بالخفيف الطياش. . . ويخيل إلي الآن أن أساليبها لا تعدد فيها ولا ابتكار. . . مسكينة لا تعرف إلا أن تشير إلى الرجل أن يسبقها فإذا فعل ضحكت. . . هذا كل ما عندها على ما يظهر)

قال: (أو تعذرها؟. . . تلتمس الأعذار لها؟)

قلت: (المرة الآتية. . . حين تستغفلك مرة أخرى. . . اضربها علقة. . . قم يا أبله. . . واجبك الآن أن تقلب الصورة لترى وجهها الآخر. . . صورتك أنت وأنت تنتظر وتحلم ولا تعرف ما أعدت لك. . . اقلب الصورة واضحك. . .)

فسرني أن وقف هنيهة كالمفكر ثم انطلق يقهقه

إبراهيم عبد القادر المازني

نظرية النبوة عند الفارابي

للدكتور إبراهيم بيومي مدكور

مدرس الفلسفة بكلية الآداب

لم يكن عبثا أن يسمى فلاسفة الإسلام أرسطو عظيم حكماء اليونان والرجل الإلهي، وأن يرفعوه إلى منزلة لم يسم إليها واحد من الفلاسفة السابقين أو اللاحقين. ذلك لأنهم وجدوا لديه حلولا لكل مشكلة اعترضتهم، ووقفوا في كتبه على مختلف المعلومات التي تاقت إليها نفوسهم. ودائرة المعارف الأرسطية واسعة وشاملة حقيقة بحيث يصادف الإنسان فيها كل المسائل الفلسفية مدروسة دراسة مفصلة أو مشارا إليها على الأقل. ولا تكاد توجد مشكلة من المشاكل الحديثة إلا وفي عبارات أرسطو ما يتصل بها تصريحا أو تلويحا. ويمكننا أن نقول إن هناك كتبا دبجها يراع أرسطو على أن تخدم فلاسفة الإسلام أولاً وبالذات. وحظ كتابٍ ما لا يقاس في الواقع فقط بمقدار ما يحوي من أفكار، بل يرجع أيضاً إلى ما يحيط به من ظروف ومناسبات. فقد يكون ثانويا في نظر مؤلفه، ولكن الخلف يقدره تقديرا كبيرا لأنه اهتدى فيه إلى أجوبة على أسئلة العصر وحلول لمشاكل الجيل. ومن هذا الباب تماما رسالتان صغيرتان لأرسطو لا يذكران في شيء قطعا إذا ما نسبا إلى مجموعة مؤلفاته، ومع هذا صادفا نجاحا عظما في الفلسفة المدرسية الإسلامية ونعني بهما رسالة الأحلام أو ورسالة التنبؤ بواسطة النوم ونحن لا ننكر أن هاتين الرسالتين تحتويان على ملاحظات دقيقة في علم النفس فاقت كل النتائج التي انتهت إليها المدارس القديمة، وإن تلاميذ أرسطو وأتباعه من المشائين اليونانيين عنوا بهما عناية خاصة. ولا سيما الأحلام وتعبيرها كانت من المسائل التي شغلت العامة والمفكرين في القرنين السابقين للميلاد والقرون الخمسة التي تليه، وبعبارة أخرى في ذلك العصر الذي سادت فيه العرافة والتنجيم. غير أنا نلاحظ إن الرسالتين الآنفتي الذكر أحرزتا في العالم العربي منزلة لا نظير لها، ولا نظن أن أرسطو نفسه كان يحلم بها. ويكفي لتعرف هذه المنزلة أن نشير إلى أنهما الدعامة الأولى التي قامت عليها نظرية الأحلام والنبوة عند الفارابي.

لا نظننا في حاجة إلى أن نثبت أن هاتين الرسالتين أرسطيتان، فأسلوبهما وطريقتهما دليل واضح على ذلك، وأرسطو يشير إليهما في بعض رسائله الأخرى الثابتة. وقد تولى زلر من قبل توضيح هذه النقطة بما لا يدع زيادة لمستزيد. والذي يعنينا هنا أن نبين ما إذا كانت هاتان الرسالتان ترجمتا إلى العربية أولا. وهذه مسألة غامضة بعض الشيء، وليس من السهل البت فيها برأي جازم. فأن المؤرخين، وخاصة ابن النديم والقفطي، حين يتحدثون عن كتب أرسطو التي ترجمت إلى العربية لا يشيرون إليهما؛ وكأن ما ترجم من كتبه السيكلوجية ليس إلا كتاب النفس المعروف، ورسالة الحس والمحسوس.

والفارابي نفسه في رسالته المسماة: (ما ينبغي أن يقدم قبل تعلم الفلسفة) يقسم الكتب الأرسطية من حيث موضوعها إلى ثلاثة أقسام: تعليمية وطبيعية وإلهية. وبين الكتب الطبيعية لا يذكر رسالتي الأحلام والتنبؤ بواسطة النوم اللتين اعتاد المشاءون السابقون عدهما فيما بينهما. وكل ما يحظى به الباحث إنما هو إشارة غامضة إليهما في ثبت الكتب المنسوبة إلى أرسطو، والذي أخذه العرب عن بطليموس الغريب. بيد أنا على الرغم من كل هذا نميل إلى الاعتقاد بأن هاتين الرسالتين إن لم تكونا قد ترجمتا إلى العربية رأسا، فقد وصلتا إليها عن طريق غير مباشر. وابن النديم يحدثنا عن كتاب في تعبير الرؤيا لأرطا ميدورس نقله حنين بن اسحق إلى العربية؛ ولا يبعد أن يكون العرب قد استقوا من هذا الكتاب أو من أي مصدر تاريخي آخر أبحاث أرسطو المتعلقة بالأحلام وتأويلها. ذلك لأن فلاسفة الإسلام يدلون في هذا الصدد بآراء تشبه تمام الشبه الآراء الأرسطية. فحديث الفارابي عن النوم وظواهره والأحلام وأسبابها لا يدع مجالا للشك في أنه متأثر بأرسطو وآخذ عنه. وقد كتب الكندي من قبل رسالة في ماهية النوم والرؤيا وصل الأمر ببعضهم أن عدها ترجمة لبعض الرسائل الأرسطية. وربما كان أقطع شيء في هذه المسألة أن نلخص آراء أرسطو، وفيها وحدها ما يكفي لإثبات أن فلاسفة الإسلام تتلمذوا له هنا كما أخلصوا له التلمذة في مواقف أخرى.

يذهب فيلسوف اليونان إلى أن النوم هو فقد الإحساس، وأن الحلم صورة ناتجة عن المخيلة التي تعظم قوتها أثناء النوم على أثر تخلصها من أعمال اليقظة. وبيان ذلك أن

الحواس تحدث فينا آثارا تبقى بعد زوال الأشياء المحسة. فإذا ما جاوزنا الشمس إلى الظل قضينا لحظة ونحن لا نرى شيئاً، لأن أثر ضوء الشمس على العينين لا يزال باقياً. وإذا ما حدقنا النظر إلى لون واحد طويلا خيل إلينا بعد مفارقته أن الأجسام كلها ملونة بهذا اللون. وقد
نصم بعد سماع قصف الرعد، ولا نميز بين الروائح المختلفة إذا شممنا رائحة قوية. كل ذلك يؤيد أن الاحساسات تترك فينا آثارا واضحة. وهذه الآثار الخارجية تعطينا فكرة مقربة عن آثارها الداخلية التي تحتفظ بها المخيلة وتبرزها عند الظروف المناسبة. فالأحلام إذن احساسات سابقة، أو بعبارة أدق، صور ذهنية لهذه الاحساسات تشكلها الخيالة بأشكال مختلفة. على أن الاحساسات العضوية أثناء النوم قد تؤثر في الأحلام كذلك، فيحلم الإنسان بالرعد مثلا إذا صاح صائح أو ديك بالقرب منه، أو أنه يأكل عسلاً أو طعاماً لذيذاً لأن نقطة غير محسوسة من المزاج جرت على لسانه. وقد يرى النائم أنه يحترق في اللحظة التي يقترب فيها من جسمه لهب ضئيل. وليست الاحساسات وحدها هي التي تؤثر في الأحلام، فأن الميول والعواطف ذات دخل كبير فيها. فالمحب يحلم بما يتفق وحبه، والخائف يرى في نومه عوامل خوفه ويعمل على اتقائها. وكثيرا ما نحلم بأشياء رغبت فيها نفوسنا أو فكرنا فيها طويلا. هذه هي الأحلام في حقيقتها وأسبابها. وعل في هذه الأسباب ما يسمح لنا بتأويلها أحيانا. وقد يستعين الأطباء على معالجة مرضاهم وتشخيص دائهم بسؤالهم عن بعض أحلامهم. وإذا عرفت الاحساسات والظواهر النفسية المحيطة بحلم ما أمكن تعبيره. ومهارة مفسري الأحلام قائمة على أنهم يتلمسون وجوه الشبه الموجودة بين الأحلام بعضها وبعض، والعلاقات التي بينها وبين ظروف أصحابها الخاصة. بيد أن كل هذا لا يبيح لنا أن نتقبل الرأي الشائع القائل بأن الأحلام وحي من الله، فأن العامة والدهماء يحملون كثيرا بل العصبيون والثرثارون أكثر أحلاما من غيرهم؛ ولا يستطيع العقل أن يسلم بأن الله خص هؤلاء أو أغدق عليهم فيضه.

لابد أن تكون هذه الأفكار الأرسطية قد وجدت السبيل إلى العالم العربي حيث شغل موضوع الأحلام المفكرين على اختلافهم. فأهل الحديث، معتمدين على بعض الآثار، يفرقون بين الرؤيا الصادقة وأضغاث الأحلام. وهناك أحاديث كثيرة متصلة بالأحلام وأنواعها نكتفي بأن نشير إلى بعضها. روى ابن ماجة عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الرؤيا ثلاث: فبشرى من الله، وحديث من النفس، وتخويف الشيطان. وفي الصحيحين: (الرؤيا ثلاث: رؤيا من الله ورؤيا من الملك ورؤيا من الشيطان. والمعتزلة يرون في الأحلام آراء مختلفة: فيرجعها بعضهم إلى الله، ويذهب بعض آخر إلى أنها من
فعل الطبائع ومنهم من يجع بين هذين ويقول إنها على ثلاثة أنحاء: نحو يحذر الله به الإنسان في منامه من الشر ويرغبه في الخير، ونحو من قبل الإنسان، ثم نحو أخير من قبل حديث النفس والفكر. ويقول النظام إن الرؤيا خواطر مثل ما يخطر البصر. وهذا التفسير على اختصاره يحمل في ثناياه بعض الأفكار الأرسطية.

إلا أن رأي أرسطو في الأحلام يبدو بشكل واضح لدى الفلاسفة. وقد خلف الكندي رسالة في ماهية النوم والرؤيا سبق أن أشرنا إليها. وهذه الرسالة لا تزال حتى اليوم بين مخطوطات استامبول، ونرجو أن نوفق إلى نشرها قريبا وقد وقفنا عليها من طريق آخر، فان المستشرق الإيطالي البينو ناجي نشر في أخريات القرن الماضي بضع رسائل للكندي مترجمة إلى اللاتينية وبين هذه الرسائل واحدة عنوانها (النوم والرؤيا)، ويكاد يكون من المحقق أن هذه الرسالة اللاتينية ليست إلا ترجمة للرسالة العربية المتقدمة. ونظرة إلى هذه الترجمة اللاتينية تكفي لإثبات أن الكندي تأثر تمام التأثر بأبحاث أرسطو السابقة المتعلقة بالنوم والرؤيا. وقد قارن البينو ناجي بعض التعريفات الكندية بما يقابلها من التعريفات الأرسطية وأظهر في جلاء ما بينهما من قرابة. وبهذا وضع الفيلسوف العربي أساس نظرية الأحلام الفلسفية في السلام.

(يتبع)

إبراهيم مدكور

صور سياحة

يوم في فرساي - 6

بقلم سائح متجول

في باريس جمهرة من الصروح والمشاهد التاريخية العظيمة التي تجذب الزائرين بماضيها وروعتها؛ ولكن فرساي تتمتع بشهرة خاصة في التاريخ والسياسة؛ وقد كانت مسرح بعض الأحداث العالمية الكبرى التي غيرت مصاير التاريخ والأمم؛ وبستان فرساي آية في العظمة والروعة والجمال.

فمتى كنت في باريس، فيجب ألا تفوتك زيارة فرساي وقصرها العظيم.

وفرساي في الواقع من ضواحي باريس، ولا تبعد عنها أكثر من ثمانية عشر كيلو مترا؛ وفي وسعك أن تصل إليها بواسطة قطر خاصة من المترو تيسر إليها يوم الآحاد، وفي وسعك أن تقصد إليها بواسطة القطار العادي من محطة مونبارنارس

وفرساي مع ذلك مدينة كبيرة يبلغ سكانها زهاء ستين ألفا تخترقها شوارع كبيرة، وبها كثير من الفنادق والمطاعم التي أعدت على ما يظهر خصيصا للوافدين عليها؛ وفي يوم الآحاد تبدو فرساي كأنها في عيد، وتكثر فيها الحركة بما يتقاطر عليها من وفود الزائرين من أهالي باريس، ومن الأجانب من مختلف الأمم.

قصدنا إلى فرساي في صباح يوم أحد بالقطار العادي، وكان غاصا بالقاصدين إليها من فرنسيين وأجانب؛ وكان يوما بديعا سطعت شمسه بعد أن أزعجنا المطر في باريس أياما متوالية؛ فوصلنا إلى فرساي في نحو نصف ساعة؛ وقصدنا إلى القصر توا، وهو قريب من المحطة، يشرف على ساحة واسعة؛ ولفت نظرنا لأول وهلة كثرة الجند الذين يتجولون في المدينة، وفي فرساي كما علمنا حامية كبيرة.

ومن الغريب أن واجهة القصر الخارجية لا تتمتع بكثير من الجمال والروعة، ومنها يبدو البناء كأنه معسكر ضخم؛ ولقد ذكرنا ذلك بواجهة قصر الفاتيكان الخارجية التي لا تدلي بشيء من عظمته الداخلية؛ بيد أننا ما كدنا نجوز إلى ساحة القصر الداخلية، ونشرف منها على بستانه العظيم حتى وقعنا على منظر من أروع ما شهدنا.

يشرف قصر فرساي من الوجهة الخلفية على بستان شاسع، قد نظم أبدع تنظيم، ونمت به

الأشجار الباسقة من أنواع لا نظائر لها في حدائقنا. وفي مقدمة البستان مما يلي القصر مباشرة بحيرة صغيرة ساحرة؛ وأرض البستان مدرجة، تمتد منحدرة في حظائر بديعة من الأحراج الصغيرة، وحظائر من الزهر تأخذ اللب بمناظرها وألوانها الرائعة، ويطبع مناظر البستان كلها طابع ساحر من الرشاقة والأناقة والتنسيق.

وقد حول قصر فرساي كما حول قصر اللوفر إلى متحف، ولكن القصر في ذاته تحفة فنية رائعة؛ وأعتقد أنه يفوق قصر اللوفر من حيث الجمال والخواص الفنية، وإن كان اللوفر يفوقه من حيث الجلال والهيبة الملوكية؛ ذلك أن قصر اللوفر كان مقر العرش، ومقر الملوكية الفرنسية في أوج عظمتها وازدهارها، ولم يكن قصر فرساي إلا مصيفا ومقاما مؤقتا، ولم يغد مقر البلاط الدائم إلا في فترات قليلة في أواخر عصر لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر.

وقصر فرساي أحدث عهدا من قصر اللوفر؛ وقد بدأ قصرا متواضعا أنشأه لويس الثالث عشر؛ ولكن ولده لويس الرابع عشر فكر في أوائل حكمه في توسيع البناء وتحويله إلى قصر ملوكي عظيم الشأن، فعهد بذلك إلى المهندس (لي فان) أشهر مهندسي العصر، وخلفه في تلك المهمة المهندس مانسار، ثم دي كوتيه؛ وقام بتنظيم البستان وإنشائه (لي لوتر) وأشرف على زخرفة القصر الفنان (لي بران) وكلهم من أعلام هذا العصر الزاهر، فجاء القصر وبستانه آية من آيات الفخامة الملوكية والفن الرائع.

وقد كان القصر في المبدأ مصيفا ومقاما مؤقتا للملك وخاصته، ولكنه غدا في عصر لويس الخامس عشر مقرا للملك والبلاط، وكان لويس الخامس عشر يؤثر الإقامة فيه ويمضي فيه معظم أوقاته تحيط به خاصته، وتقيم فيه خليلاته إلى جانب زوجه الملكة الشرعية كما سنرى.

ويتألف قصر فرساي من طبقتين غير الطبقة الأرضية؛ والطبقة الثانية والوسطى هي أبدع ما فيه، وهي التي تضم تحفه وذخائره؛ وتتكون هذا الطبقة من عدة أجنحة وأبهاء ملوكية شاسعة، وتضم مجموعة ثمينة من الصور التاريخية التي تمثل كثيرا من المناظر الشهيرة والشخصيات الملوكية في عصر لويس الرابع عشر، ولويس الخامس

عشر؛ ويشغل جناح الملك لويس الخامس عشر الطرف الأيمن من القصر، وقد عرضت في غرفه الأنيقة
مجموعة من الأثاث الملوكي النفيس، ومنها أثاث غرفة الاستقبال، وغرفة المكتبة وغرفة النوم، والمتزين وكلها مما لا يزال يعتبر في عصرنا من أجمل وأبدع النماذج الفنية؛ وقد زينت الجدران ببعض المناظر الملوكية من حفلات الاستقبال والصيد وغيرها، وزينت السقف بأبدع النقوش؛ وتوجد في هذا الجناح مجموعة من الصور للملك لويس الخامس عشر وزوجه الملكة ماري لكزنزكا، وبعض أفراد الأسرة المالكة ورجال الدولة من صنع أعظم مصوري العصر؛ وفي هذا الطرف أيضاً، وإلى جانب جناح الملك يوجد الجناح الذي كان مخصصا لسكني خليلته المركيزة دي بومبادور، ومن بعدها لسكين خليلته الدوقة دوباري، ومن الغريب أنه لا يبعد كثيرا عن الجناح الذي كان مخصصا لسكني الملكة الشرعية ماري لكزنزكا.

ويلي هذا الجناح، في وسط القصر، جناح لويس الرابع عشر، وهو أفخم وأروع، وبه غرفة نوم ملوكية مازالت تحتفظ بأثاثها، وإلى جوارها ترى متزين الملك، وخزائن الثياب؛ وقد زين هذا الجناح بصور عديدة للويس الرابع عشر، في أوضاع ومناسبات مختلفة؛ والملك يبدو فيها جميعا قصير القامة، محدودب الأنف، وقد انسدل على كتفيه شعره الغزير، وبدت على وجه ملامح الكبر والخيلاء.

ويوجد في الطرف الآخر من القصر بهو شاسع تزينه مجموعة كبيرة من الصور التاريخية الضخمة التي تمثل أعظم المواقع الحربية التي انتصرت فيها فرنسا منذ فجر العصور الوسطى حتى عصر نابوليون، وقد صورت معظم هذه المناظر في عصر نابوليون واشترك في تصويرها أعظم مصوري العصر مثل لوي دافيد، وايزابي، وفرنيه؛ وتبدأ المجموعة بمنظر يمثل انتصار الملك كلوفيس على الرومان الغاليين (سنة 486م)، ويليه منظر استوقفنا طويلا لروعته وطرافته، هو منظر انتصار الفرنج على العرب في سهول ثوروبواتييه سنة (732م)، وهي الموقعة الشهيرة التي تعرف في التاريخ الإسلامي بموقعة البلاط أو بلاط الشهداء، وفيها يبدو عبد الرحمن الغافقي قائد العرب شيخا مهيب الطلعة تتدلى لحيته البيضاء الطويلة حتى صدره، وقد وثبت بجواده المضطرم إلى الطليعة وهو شاهر سيفه، ولكن جنده يتساقطون من حوله أمام ضربات الفرنج؛ وأذكر أنني رأيت هذه الصورة منذ أعوام في طبعة إنكليزية لكاتب المستشرق دوزي عن الأندلس، وكنت أتوق
إلى معرفة الأصل الذي نقلت عنه، فإذا بي في بهو فرساي أمام المنظر الرائع وجها لوجه.

ويلي ذلك في صفين متقابلين مناظر لأعظم المعارك التي انتصرت فيها فرنسا مرتبة حسب العصور والتواريخ؛ مواقع شارلمان، ولويس الحادي عشر، ولويس الرابع عشر، وموقعة فالمي أشهر معارك الثورة الفرنسية ضد أوربا، ثم طائفة كبيرة من مواقع نابوليون مثل مارنجو، فاجرام، أوسترلتز، وغيرها.

بيد أن أعظم ما يثير الخيال في أرجاء هذا القصر الشاسع، هو الذكريات التاريخية العظيمة التي كان مسرحا لها، والتي أسبغت عليه طابعا خاصا من الروعة والخلود؛ ففي قصر فرساي عقدت مؤتمرات ووقعت معاهدات كان لها أكبر الأثر في تاريخ فرنسا وتاريخ العالم بأسره؛ نذكر منها عهد استقلال الولايات المتحدة (أمريكا) الذي وقعته إنكلترا في سنة 1783 على أثر هزيمتها في حرب الاستقلال الأمريكية، وقد وقع هذا العهد في قصر فرساي ترضية لفرنسا وتكريما لها لما بذلته من كبير عون للأمريكيين في هذه الحرب التحريرية؛ وكانت نتيجة هذا العهد الخالد أن قامت في العالم الجديد أمة حديثة مستقلة من أعظم الدول الديموقراطية؛ وفي سنة 1871، على أثر محنة فرنسا وهزيمتها أمام ألمانيا في الحرب السبعينية (سنة 1870) أرغمت فرنسا على أن توقع وثيقة هزيمتها وذلتها في قصر فرساي نفسه، في بهو المرايا الشهير وهو البهو الشاسع الذي يتوسط القصر فيطل على البستان من ناحيتيه، وأرغمت على أن تتنازل لألمانيا عن الألزاس واللورين؛ وفي بهو المرايا أيضاً أعلنت الإمبراطورية الألمانية، وتوج أول إمبراطور ألماني، وهو فلهلم الأول (جيوم)، وأجريت مراسيم التتويج في نفس البهو بحضور ملوك الولايات الألمانية المتحدة، وهذه ذكريات من أسود الذكريات وأتعسها في تاريخ فرنسا القومي.

على أن فرنسا اعتزمت غداة ظفرها في الحرب الكبرى أن تمحو هذه الصفحة المشجية وهذه الذكريات الأليمة من تاريخها وأن تثأر لشرفها القومي من ألمانيا، وأن ترغمها على أن توقع وثيقة انكسارها وذلتها في نفس المكان الذي اختارته ألمانيا من قبل لإرغامها وإذلالها؛ ففي هذا البهو الشهير ذاته - بهو المرايا - وقعت ألمانيا معاهدة الصلح - أو معاهدة فرساي - التي فرضها عليها الحلفاء الظافرون في يونيه سنة 1919، والتي تثقلها بمختلف الفروض والمغارم الهائلة، وتقضي عليها برد الالزاس واللورين إلى فرنسا.

وليس في بهو المرايا اليوم ما يذكرنا بأعظم معاهدة عرفها التاريخ سوى لوحة بسيطة مؤثرة كتب عليها. (في 28 يناير سنة 1919، ردت الألزاس واللورين إلى فرنسا) وفي نهاية البستان الشاسع من الناحية الأخرى صرحان آخران منعزلان هما قصر تريانون الكبير، وقصر تريانون الصغير؛ وقد أنشأ أحدهما لويس الرابع عشر، وأنشأ الآخر لويس الخامس عشر؛ وكلاهما حافل بالذكريات العذبة، وكلاهما كان مسرحاً لليالي والحفلات الباهرة؛ وكان تريانون ملاذا محبوبا للملكة ماري أنتوانيت، والإمبراطورة جوزفين بوهارنيه زوج نابوليون.

قضينا عدة ساعات في التجوال في هذه المعاهد والمشاهد التي تذكى الخيال إلى الذروة وتحملنا إلى عصور وعوالم أخرى؛ وكانت الساعة الثانية بعد الظهر حينما انتهينا من هذا التجوال الممتع، وغادرنا القصر المنيف والبستان الشاسع إلى قلب المدينة حيث طفنا بطرقاتها برهة، ثم عطفنا على مطعم نتناول فيه الغداء، وقد رأينا أن الأثمان في فرساي ليست أقل ارتفاعا منها في باريس، وأن موجة الغلاء المرهق التي قدمنا لك منها فيما تقدم أمثلة عديدة تعم فرنسا بأسرها.

ولقد كان يوم فرساي خاتمة التجوال في رحلتنا الباريزية؛ وكانت الإقامة في باريس بما فيها من تكاليف وأثقال مرهقة، وبما استوعبناه من مشاهدها ولياليها المتماثلة، قد أخذت تثقل على النفس، فأزمعنا مغادرة العاصمة الفرنسية إلى عواصم ومجتمعات أكثر ترحابا وأقل إعناتا وإرهاقا، وأرفع خلالا ومثلا وقد يكون فيما اتخذته فرنسا أخيرا من الخروج عن معيار الذهب وتخفيض قيمة الفرنك بالنسبة للعملات الأجنبية شيء من التخفيف على السائحين وإغراء لهم بزيارة فرنسا بعد ما انصرفوا عنها في الأعوام الأخيرة، ولكن الظاهر أن التخفيض الجديد لم يحدث أثرا يذكر إذ صحبه ارتفاع مماثل في الأثمان، فإذا صح ذلك، وإذا لم توفق الحكومة الفرنسية إلى تخفيض معيار العيش وإخماد تلك النزعة الجشعة التي تبدو في كل صنوف التعامل فأن أولئك الذين زاروا فرنسا أيام ارتفاع الفرنك واكتووا بنار هذا الغلاء، يترددون كثيرا في العودة إليها.

(* * *)

في الأدب المقارن

شخصيات الأدباء في الأدبين العربي والإنجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

يكثر التشابه بين أفراد الجنس الواحد في عالم الطبيعة في الطبقات الدنيا من الأحياء، وكلما ارتقى الجنس في سلم الحياة ازداد الاختلاف في المظهر والصفات بين أفراد الجنس؛ وكذلك الحال في المجتمعات البشرية: يتشابه الناس ويتقاربون في المشارب والأغراض في عصور الانحطاط، ويختلفون خلقا وعبقرية في عصور النهضات، ويتفرقون في شعاب الحياة ودروب المطامح فلا يتفقون إلا في تدفع الحياة في نفوسهم وعلو هممهم وولوعهم ببعيدات الأمور، فالتشابه والاتفاق من إمارات الانحطاط. والاختلاف والتميز من دلائل الرقي.

وذلك الشأن في آداب الأمم: فان أظهر ميزات عصور النهضات فيها اختلاف مشارب الأدباء وتباين شخصياتهم واستقلال نظراتهم إلى الحياة ووجهاتهم في الفن، فهم وإن اتفقوا على مبدأ أو مذهب في الأدب، لا يتشاكلون ولا يكرر بعضهم بعضا ولا يغني أحدهم عن سائرهم، بل ينتحي كل منهم ناحية من الحياة يوكل بها، ويرى الحياة جمعاء بمنظار نفسه لا بمنظار غيره، وينفث في أدبه خلاصة عبقريته الفردية؛ أما في عصور إدبار الأدب فيتماثل الأدباء حذوك النعل بالنعل، ويتهافتون جميعا على نموذج الأدب أو الإنشاء الأدبي، لا ينفكون يقلدونه ويعارضونه ويغفلون بمحاكاته عن حقائق الحياة ولباب الفن، فيخرج أدبهم جميعا صورا مكرر من أنفسهم وأشكالا ممسوخة من ذلك

النموذج المحتذى أو القالب المصبوب.
ويمتاز فحول الأدب الإنجليزي، ولاسيما في عصور نهضاته ببروز شخصياتهم واستقلالها واختلاف بعضها عن بعض اختلافا تاما، إلا في اقتباسها جميعا من نور الصدق، وإصدارها جميعا عن معدن الشعور: فالنهضة الرومانسية في مستهل القرن التاسع عشر مثلا، كانت ذات أغراض معينة مشتركة بين جميع أعلامها: كانت ثورة على قيود الفكر وصناعة اللفظ وتقاليد النظم وعودة إلى الطبيعة والبساطة، ونزوعا إلى جمال الحياة، ومع ذلك يتباين فحول شعرائها وتبدو شخصياتهم بارزة واضحة الاختلاف في الأخلاق والمشارب والأساليب:
فوردزورث كان موكلا بالطبيعة ومجاليها وأسرارها، مؤمنا بضرورة استخدام لغة النثر السهلة في الشعر؛ وشلي كان معينا بالإصلاح الاجتماعي وعدوا لدودا للملكية والكنيسة والتقاليد الحمقاء؛ وكولردج كان هائماً في عوالم المجهول وأغوار الماضي السحيق؛ وسكوت كان مغرما بالعصور الوسطى وتاريخها في بلاده اسكتلندا، متغنيا بمجدها وفروسيتها، محييا لأغانيها الشعبية؛ وبيرون كان بوهيمي النزعة جريء الفكرة مشغولا بقصص الأبطال، جزل الأسلوب رائعه دون تدبيج ولا ترو
ولنضرب مثلا آخر مؤرخي الإنجليزية الثلاثة، الذين توخوا الفن والأسلوب الأدبي في تواريخهم: جبيون وماكولي وكارليل، فأولئك شخصيات ثلاث متميزة: فالأول رصين الأسلوب واللفظ، محكم البنيات ميال إلى الموازنة في المعاني والازدواج في التراكيب، والثاني يراوح بين طويل الجمل وقصيرها، مولع بتصوير المناظر التي يمر بها تصويرا يقف بك أمامها وجها لوجه، كلف بتأريخ مآثر وطنه وعظائم أبنائه ومواقف فخاره، أشد تشبعا بالوطنية وأقل نصيبا من النظرة الإنسانية الشاملة من صاحبيه، والأخير قصير الجمل فجائي الأفكار، معني بعظماء الرجال أخلاقهم وسحناتهم وآثارهم في عصورهم.
وقل مثل ذلك في سائر مشهوري الأدباء الإنجليز: كلهم مختلفو الشخصيات مستقلوها، واضحو النفسيات، متميزة شخصياتهم ونفسياتهم إحداها عن الأخرى، تقاربوا في العصور أو تباعدوا، اتفقوا في المذهب الأدبي أو اختلفوا، وذلك أول دليل على حيوية الأدب، وأصدق شاهد باستمداده من ينابيع الحياة الجارية، لا من بطون الكتب الجافة، فالحياة لا تفنى صورها تعددا، وهي تبدو لكل أديب صادق النظر والشعور في صورة جديدة.
وإنما تشابهت شخصيات الأدباء وتماثلت آثار الشعراء في عصور تدهور الشعر في أواسط القرن الثامن عشر، حين بعد الشعراء عن الطبيعة وانغمروا في المدينة، وهجروا الحياة وغرقوا في صفحات الكتب، وأعرضوا عن وحي شعورهم وقلدوا من سبقوهم، فعدوا بوب ودريدن المثل الأعلى الذي يحتذى، والمطلب الأسمى الذي لا يطلب سواه، واحتذوهما في الغرض والأسلوب والعروض، وتعاوروا أشعارهما معارضة واقتباسا واختلاسا، فخرجت آثارهم جميعا متشابهة متشاكلة بعيدة عن الفن لا تصور شخصيات قائليها، وخملوا جميعا
من دون ذينك الشاعرين اللذين احتذوهما. فلا يهتم بآثارهم اليوم إلا مؤرخ الأدب المدقق المستقصي.
وفي تاريخ الأدب العربي شخصيات مستقلة واضحة متميزة، مخالفة كل منها للأخريات قولا وخلقا وأسلوبا، كالمعري الحكيم المشفق على أمة الطير والحيوان، المعنى بتنازع البقاء وبغي الأحياء، والمتنبي الطموح (المتعاطي للكبر وعلو الهمة) كما قال بعض معاصريه؛ وابن الرومي المشغوف بالجمال الطبيعي والإنساني، المنهوم بنعيم الحياة ولذاتها، الدقيق النظرة، الرائع التصوير؛ وأبي نواس الماجن المستهتر؛ والجاحظ الموكل بفنون الثقافة؛ وبديع الزمان المعتد بنفسه، الحريص على المادة المكاثر بثروته اللغوية ومهارته الصناعية، السهل الديباجة، الرائق الفكاهة. كل هاتيك شخصيات بارزة متميزة.
ولكن بجانب أمثال أولئك حفل كبير من مشهوري الأدباء الذين آتتنا آثارهم وانحدرت إلينا بعض أخبارهم، ولكن شخصياتهم مبهمة مطموسة، يكتنفها الضباب ولا يستجليها الخيال، وتتشابه كثيرا حتى لنضيف آثار بعضها الأدبية إلى آثار الأخرى فلا ترى فارقا، ولا تحس مانعا يحول دون ذلك من تباين الأساليب أو اختلاف النفسيات أو تضاد

النزعات؛ بل إن شخصيات بعض من تقدم ذكرهم من فحول العربية، على كثر ما وصل إلينا من كتاباتهم وأخبارهم، مبهمة في كثير من نواحيها.

ولا ريب أن لطول العهد وكر الزمن أثرا كبيرا في تبديد الآثار، وتغيير الأفكار والمشارب والأذواق، وإحاطة شخصيات المتقدمين بغمام من الغموض والغرابة مهما تحدث الشعراء بذكر الخلود؛ ولكن هناك عدا هذا عوامل لابست الأدب العربي فأدت إلى غموض كثير من شخصيات كثير من أعلامه، وتشابهها واختلاطها، أولها شيوع الأمية في الجاهلية وصدر الإسلام، مما أدى إلى تبدد أخبار كثير من الشعراء وضياع أشعارهم واختلاطها، ودخول الزيف والتمويه عليها، مع أن شعر ذينك العصرين كان أصدق حديثا وأكثر إفصاحا عن شخصيات قائليه من شعر العصور التالية، لو لم تعبث به يد الأمية والنسيان.

ولما انتشرت الكتابة لم تكن الطريقة التي جرى عليها المؤرخون في ترجمة الأدباء هي المثلى: فقد اقتصروا على تواريخ ووقائع - كوفود الأديب على ممدوح أو اتصاله بديوان أمير - لا أهمية لها في شرح نفسياتهم، ولا غناء وراءها في توضيح شخصياتهم، وجاء

كثير من التراجم مختزلا مجتزأ، وناقض بعض الروايات بعضا، وصعب تصديق بعضها، فظلت جوانب من تلك الشخصيات مغلقة؛ فما أقل ما يعرف عن عبد الحميد وابن المقفع والطائي والبحتري وابن الرومي والمتنبي، فهم لا يكادون يظهرون في ضوء التاريخ إلا في جناح أمير أو ركاب عظيم؛ أما نشأتهم فمهملة، وهي التي لها أكبر الأثر في آدابهم؛ وأما حياتهم اليومية فمغفلة، كأن ليس لها خطر ولا شأن.

وما قصر فيه المؤرخون لم يعوضه الأدباء أنفسهم: فكثير منهم لم يصوروا أنفسهم في أشعارهم ورسائلهم صورا واضحة، ولم يودعوها خلجات أفئدتهم ونظراتهم في الحياة، بل ما أكثر الكتاب الذين قصروا بيانهم على إنشاء رسائل الأمراء، والشعراء الذين توفروا بأشعارهم على مديح أرباب النوال، فامتلأت آثارهم الأدبية بذكر أناس كثيرين ووصف أحوالهم وأفكارهم، فيما عدا منشئي تلك الآثار الأدبية أنفسهم وأحوالهم وأفكارهم، فلا غرو جاءت آثارهم متشابهة، لا توضح شخصياتهم ولا تنهض ببعض ترجمتهم، ومن العجيب أن أكثر الشعراء إفصاحا عن أفكارهم الخاصة وحاجاتهم وشعورهم، كانوا هم المجان والخلعاء الذين لم يكن لهم شعور ولا تفكير في سوى اللذة والعبث كبشار وحماد.

فالناظر في ديواني الطائي والبحتري، وفي رسائل ابن العميد والصاحب، لا يعثر إلا نادرا على فقرة أو أبيات مصدرة عن شعور شخصي للأديب هو ببيانه محتفل، أو فكر جليل هو في إذاعته جاد، ولا يرى في الشعر إلا مديحا وهجاء وشكوى للزمان وافتخارا بعلو الشأن، أو ما كان يجب للشاعر من علو الشأن، وضربا للأمثال واصطناعا للحكمة؛ ولا يرى في النثر إلا تنميقا وتدبيجا واقتباسا وتكاثرا بسعة الاطلاع، فلا غرو يتشابه أولئك الشعراء إلا تفاوتا قليلا في الصياغة، وأولئك الكتاب إلا اختلافا بسيطا في الأسلوب؛ فإذا أنت نزعت جانبا كبيرا من نظم أولئك الشعراء، أو نثر أولئك الكتاب، لم تشوه آثارهم بانتزاع ما لا غنى عنه لبيان نفسياتهم؛ وإذا أضفت بعض آثارهم إلى بعض لم يعقك عائق من تميز شخصية عن شخصية أو اختلاف منحى عن منحى.

وهناك عامل خطير لا يقل عن هذا أهمية في تشابه شخصيات الأدباء وتماثل آثارهم: ألا وهو نزعة المحافظة والتقاليد التي صاحبت الأدب العربي منذ قامت الدولة العربية وانتشرت اللغة في الأقطار، فقد اتخذ الأقدمون مثلاً عُلياً في البلاغة والشاعرية، وألح المتأخرون على آثارهم وأغراضهم في القول ومعانيهم محاكاة وتوليدا وتخريجا، وجالوا جولان المتقدمين في ميادين المدح والهجاء، والفخر، وشكوى الدهر، وضرب المثل واستخراج الحكمة، واحتذوهم في النسيب بليلى وهند والوقوف بالأطلال واستحثاث المطي وذرع الفلوات، فكان للأدباء في توالي العصور تراث أدبي واحد يتكرر ولا يكاد يتغير، ويتشكل ولا يكاد يتحول، ويأخذ منه كل أديب ويكاد يفنى فيه، وينهل منه وتكاد شخصيته تغرق في عبابه.

فتقليد المتقدمين دون الطبيعة، واتخاذهم مثلاً عليا يصدر عنها القول، بدل أن يصدر عن الشعور الفردي المستقل، من أكبر أسباب ركود الأدب وتشابه آثار الأدباء وتقارب شخصياتهم؛ ومن ثم جاءت آثار كثيرا من الأدباء المتأخرين متشاكلة مشابهة جميعها

لآثار المتقدمين، على تباعد الزمان واختلاف المواطن؛ وظلت شخصياتهم غامضة لأنهم لم يجلوها في كتاباتهم جلاء صادقا.

ولما استفحلت الصناعة اللفظية، واشتد الحرص على المحسنات البديعية، غرقت معاني الشعر وأغراضه وشخصيات الأدباء جميعا في سيل من الألفاظ المرصوفة والعبارات المقتنصة من آثار المتقدمين، وأصبحت دواوين الشعراء جميعا ديوانا واحدا مملوءا بالنكات اللفظية، لا فرق بين أوله وآخره. وما أشبه ما قاله البهاء زهير بما قاله ابن نباتة بما قاله صفي الدين من نسيب متناه في ادعاء الرقة والظرف، ووصف لمجالي الطبيعة تخلط فيه محاسن الطبيعة وصورها ببهارج الألفاظ وزخارفها مزجا عجيبا، وتتطلب البراعة بإقحام مصطلحات العلوم كالنحو والمنطق والنجوم.

ولا ريب أن أمتع الأدب للنفس، وأعلقه باللب، ما أبان عن شخصية قوية، ونفسية مستقلة؛ ومن ثم نرى أن ذوي الشخصيات الأصيلة والنظرات الصادقة في حقائق الحياة، كالمتنبي وأبي العلاء وابن الرومي والجاحظ، هم الذين حظوا، دون غيرهم من أدباء العربية الأقدمين، بالدرس الطويل والترجمة المفصلة من كتاب عصرنا الحالي، لأن آثارهم تشوق الدارس وتحفزه إلى الكتابة والتعليق والنقد، وتحوي صورا من أنفسهم يطيب للمطلع التأمل فيها والنظر إلى الحياة في ضوء أفكارها. ولو حاول ناقد أن يترجم لمروان بن أبي حفصة، أو مسلم بن الوليد، أو مهيار، أو البحتري، أو الصاحب، أو الحرير، ترجمة

مفصلة تشرح نفسية المترجم وتميط عن نزعاته وميوله وعوامل ذلك، مستمدا شرحه وتحليه من آثار الكاتب أو الشاعر الأدبية التي اشتهر بها، لكلف نفسه شططا.

فالناظر في الأدبين العربي والإنجليزي، لا يسعه إلا أن يلاحظ أن يجد في تاريخ الأخير شخصيات قوية مستقلة ظاهرة التباين والاختلاف، مصورة في أعمالها الأدبية حتى لتكاد تغني بها عن ترجمة المترجمين، وتحوي كتاباتها صورها النفسية الداخلية فلا تكاد تترك للمؤرخ أكثر من سرد التواريخ وبعض الوقائع وهي لذلك ممتعة جذابة يحس القارئ أن بينه وبينها على اختلاف اللغة والزمن والوطن تجاوبا وصلة شاملة هي صلة الإنسانية، ويطربه أن يراها تعالج نفس المشاكل وتخامرها نفس الخواطر والخوالج التي تساوره، وأمثال تلك الشخصيات الواضحة أقل عددا في تاريخ الأدب العربي.

فخري أبو السعود

تشاؤم المتنبي وما أعد لهذا التشاؤم

(كلمة أعدت لتلقى في مهرجان دمشق فجاءت متأخرة)

للأستاذ خليل هنداوي

التشاؤم طبيعة العقل المتيقظ الذي فتح عينيه فرأى نفسه في القافلة البشرية فأخذ يسأل نفسه: لِمَ يمشي؟ ومن أين إلى أين؟ ولكنه لبث يمشي. . . وكيف لا يتشاءم العقل حين ينظر إلى الكون ويحاول أن يحكم على أشيائه بميزانه، فيجد قاعدا ما كان يجب أن يكون قائما، وقائما ما كان ينبغي له أن يكون قاعدا. هذه النظرة الأولى التي تبدأ في العقل حين يتيقظ وعلى مقدار سعة دوائر العقل تتسع هذه الآماد وتتباعد هذه الدوائر. وهنا يعود العقل في كل مراحله خاسئا يحمل غلى النفس خيبته في رحلته، فتلقاه حاملا الشقاء دون عزاء والحيرة دون إيمان، والنفس إزاء هذا القلق العميق إما أن تعود إلى نفسها ويلتف بعضها على بعضها التفاف الأفعى، تخلق من نفسها العزاء في هذه الحياة؛ وسواء عندها أن تخلقه من إيمان تفرضه أو تفاؤل تؤمن به، فترى في الحياة إشراقا ولا إشراق وبهجة ولا بهجة، فتتغنى مغتبطة بهذا التفاؤل الذي هو وليد ذلك التشاؤم المبطن به، وإما أن تعود ولا تكسب من التشاؤم إلا التشاؤم.

وقد يكون هذا التشاؤم عاما يمثل رسالة الإنسانية المتألمة، وقد يكون خاصا يمثل رسالة الشاعر نفسه، يضع فيها آلامه ولا يتصل بالإنسانية إلا بقدر ما تريد نفسه أن تتصل بها. وآفاق التشاؤم أوسع مدى، وأصحابه أكثر نبلا لأنهم أفنوا ذواتهم في الذات الإنسانية، وأصبحت تتمل فيهم كل آلامها وأوجاعها، لأن الإنسانية ذاتها تجهل ما تريد من الكون وما يراد منها. وآفاق التشاؤم الخاص ضيقة محدودة تدل على أنانية أصحابه، إذ لو أن حظا من حظوظ الحياة الضائعة أتاهم لبدل نظراتهم في الكون ولون لهم شمسا جديدة بألوان غير ألوانهم

ولكن التشاؤم لا تتحد نتائجه؛ فمن التشاؤم ما يذهب بصاحبه إلى الاستسلام حين

يؤمن بعجزه، وإلى الزهد حين يؤمن بفناء الحياة، وهذا أقبح التشاؤم وان يكن أصدقه عند العقل. ومن التشاؤم ما يثير في النفس قوى المقاومة فيها بالعنف والشدة، وبهذا التشاؤم تعتز الحياة وتشرق ألوانها القاتمة؛ فشوبنهاور ونيتشه رجلا تشاؤم حالك اللون، ولكن تشاؤم شوبنهاور
قاده إلى الاعتقاد بأن العدم وحده هو الذي ينقذ الإنسانية من آلامها التي تتذوقها بين الموت والحياة. وتشاؤم نيتشه كان موقظا لنفسه وحافزا قويا له لعبادة الحياة لأنها الحياة مهما كانت ألوانها ومهما طغت آلامها.

لست أعرف في الأدب العربي أبلغ تشاؤما من اثنين: المعري وابن الرومي وثالثهما المتنبي. . أما الأولان فقد سلكا في تشاؤمهما مسلكا عدمياً يدعو إلى احتقار الحياة، والمعري هو القائل بأن الولادة جناية، وهو الي غلبت عليه فكرة صوفية غير مؤمنة؛ وابن الرومي هو الذي جعل من حياة الإنسان مأساة يبدأ أولها بعويل الطفل حين يولد وتنتهي بمثله حين يموت. أما المتنبي فقد كان جهازه العصبي عنيفا، وكان تشاؤمه مضطربا متوثبا لم يدفعه إلا إلى مقاومة الحياة؛ لا يصدفه عنها صادف لأنه مؤمن بها ومستهام بها ولو أنها عجوز دردبيس! وقد كان تشاؤمه، اجتماعيا - وهو ما اصطلح أدباؤنا على تسميته بالحكمة المتنبية - وتشاؤمه الاجتماعي كان وليد حظه في هذا الوجود الذي جعل من حياته المبهمة والمعلومة مرحلة آلام وجهاد. تشاؤمه في نظراته الاجتماعية ولا يرى منها إلا ما يتصل بنفسه؛ ولقد يطغى هذا التشاؤم على بقية نظراته في مسائل الحياة والكون لأنه كان مريضا بحب معالي الأمور، مريضا بعظمة نفسه، كأنما يرى - بعد أن حرمه المجتمع حقه - يرى واجبه أن يضع نفسه - وهو حر بها - موضعا عاليا، وذا أقل ما يفعل؟ ولا أستطيع إلا أن أتصور تلك الحدة في جهازه العصبي الذي كان عنيفا في احتداده متوترا في هدوئه. وهنا كان سر اختلاف التشاؤم بين المعري والمتنبي. فالمعري كان أوسع أفقا في دائرته ومغازيه، وكان نظره أعم في مسائل الكون والحياة لأنه وف درسه وشعره عليها، وكان له في زهده وعماه ما يصرفه عن الاشتغال بدنياه. فمال به تشاؤمه إلى الزهد والعدمية كما مال بشوبنهاور. مع أن المعري أحد محبي المتنبي والمتأثرين به، أخذ منه تشاؤمه وأغفل ما كان عنده من أسباب المقاومة. وإذا فكر الإنسان قليلا في حاله بدا له أن الكآبة تنتظره، وأن كل فكرة هنا تقوده إلى الحزن. وما حياة الإنسان على الأرض إلا مأساة تنتهي دائما بالدموع والشقاء والموت. يعلم المفكرون هذا المغزى ولكن بعضهم لا يقول به. بل إن منهم من يدعو إلي الإيمان القوي بالحياة. ولكن هل كان الناس كلهم يملكون هذه القوة الروحية؟ وهما أمران مختلفان؛ أن يتغلب المرء على تشاؤمه وهمومه في سبيل إتمام دورة الحياة، أو
أن يجتنب الحياة تطغى عليه أنانية حاقدة. وهل كان هذا الإيمان القوي بالحياة إلا نتيجة تشاؤم عميق ونفور عميق من الحياة وولع عنيف بها يولده هذا النفور؟

في فلسفة المعري تشاؤم ليس بإيجابي صرف، ولكنه تشاؤم سلبي. فيها انطلاق من الذاتية وتعلق بالذاتية: لا تطلق (أم دفر) لمجرد نتنها ولكنها تدانت من (أم دفر) فلم تبؤ إلا بالخيبة. فلسفة وجدت ذاتها ضائعة بين الذوات؛ ومثل ذات المعري لم تأت لتكون ضائعة، فشنت الغارة على الدنيا وعلى أهلها وانتقمت لذاتها منها ومنهم، وبهذا استغنت عن ذاتها في ناحية وتمسكت بذاتها من ناحية ثانية. ولهذه الذات خطرها لأنها أنانية حاقدة نصبت نفسها فوق غيرها وطفقت تعطى أحكامها القاسية على الناس وقيمهم وعقائدهم، وتسخر منهم وتفشي معايبهم وتكشف عن مخازيهم، وهي في كل هذا فرحة مختالة، ترى في كل خطوة تخطوها ظفرا لها لامعا. ولهذه العلة وحدها كان يأنس بالمعري كل متشائم لأنه يحسن له الانتقام من الحياة وأبناء الحياة ولكنه ظفر موهوم لا يكلف صاحبه إلا النقمة. أما من لا يزالون يتلمسون في أنفسهم بقية من الحياة النشيطة فهم لا يرضون عن هذا التشاؤم. فالمتنبي متشائم يهاجم فساد الناس والمجتمع ولكنه لا يهرب من الحياة ولا ييأس منها يأسا قاتما، في يأسه انطلاق وفي نغمته رضا، وحياته وأدبه شيئان متصلان لا يمكن أن ينفصلا لأنهم يعبران أصدق التعبير عما يريد أن يقوله عن الحياة، ولأن حقائقه العامة كانت مستخلصة من حقائق الحياة الخاصة.

ادخل في كل باب ولجه المتنبي: في اجتماعياته وفي إحساسه بذاته وفي نظراته إلى الحياة والموت وما وراء الموت تجد في ثنايا هذه النظرات تشاؤما عميقا ينفذ إليه النظر الثاقب، وتجد أن هذه المقاومة التي تمثل الرجولة الكبيرة قد كلفت صاحبها كثيرا، وجعلت حياته مسرحا للاضطراب والشقاء. أما المجتمع عنده، فهو غاب تتصارع فيه سباع الأنس، ينال واحدها الشيء غلابا واغتصابا. وقد تنقلب هذه السباع غربانا ورخما، فويل للجريح الذي يشكو إليها، وويل للذي يأمن لهم، ويثق بهم، ويغره منهم الثغر المبتسم. ولا عجب إذا تناحرت السباع فالحياء لا يسد لها جوعا والسلام لا يحفظ لها بقاء. والشاعر - خلال ذلك - يريد أن يكون أسدا - ولكن حييا - (وهل ينفع الأسد الحياء من الطوى؟) يريد أن

!يكسب ما لا يصمه وما لا يشركه فيه وغد. وإذا لم ينل ذلك فالذنب ذنب الزمان الهرم

كيف يريد أن يقابل مثل هذا المجتمع؟ أيشكو ويتعتب، وهو في كل قصيدة يشكو ويتعتب. أيسكن ويرضى؟

وللواجد المكروب من زفراته ... سكون عزاء أو سكون لغوب

أيرضى عن الحياة وما وصفت إلا لجاهل متعاقل وما شقي فيها إلا عاقل؟ أيطمئن إلى سرورها وقد رأى انتقاله؟ أيسعى في مناكبها ومسعاه منها في شدوق الأراقم؟ أيتعلل بشيء منها ولا أهل يتعلل بهم ولا وطن ولا نديم ولا كأس ولا سكن؟

اتخذ الشاعر مواقف متعددة إزاء المجتمع، فهو طوراً يسعى إلى مدارة أصحابه، وقلما يفعل فيصادق العدو ومن نكد الدنيا مصادقته، وهو طورا - وقد مل من المبالاة بالأرزاء - يسعى إلى أن تهون عليه الأرزاء، وأن يخدر إحساسه بها، لأنه ما انتفع بالمبالاة. وطورا ينظر إلى الأيام نظرة عميقة فلا ينكر عليها تقبلها، ولا يمدحها ولا يذمها، لأنها تبطن لا عن جهل، وتكشف لاعن حلم، ولأنها لا تشبع إلا إذا جاع، ولا تروي إلا إذا ظمئ! وفي هذه النظرة يدنو من مذهب القائلين باللا شعور في الطبيعة. وقد يضطرب هذا الرأي في نفسه فيتصور أن الناس هم الجانون لا الأيام وحدها، فيزيد نقمته على المجتمع، ويصبح لا يميل إلى مجازاة الابتسام بالابتسام، ولا الشك في كل إنسان، لأنه واحد من الأنام، وإنما يريد أن ينتقم من الناس وأن يطأ قلوبهم وآمالهم كما يطأون قلبه وآماله.

ومن عرف الأيام معرفتي بها ... وبالناس روى رمحه غير راحم

وكيف يكون الذنب كله ذنب الزمان؟ وربما تحسن الصنيع لياليه وإن كدرته أحيانا. ولكن هو الإنسان الذي يركب في قناة الزمان سنانا. وقد يسأم الشاعر من هذه المقاومة العنيفة فيعود إلى عدم الاكتراث بدهره، ويرى أن هذا المراد الذي تتفانى عليه نفوس البشر أحقر من أن نتعادى فيه ونتفانى. ولكنه ينظر إلى نفسه فيرى أن هذا المراد الكبير، المراد الذي جل أن يسمى - هو سبب شقائه. فلو مال عنه لوجد في الحياة رغدا كثيرا وراحة كبيرة، ولكن ما هي قيمة الحياة بدون مراد كبير؟ والمتنبي ليس ممن يرضون بميسور عيشهم! فيتعلل وهو أبلغ تعليل يراه بأن لا عذاب في العذاب، وأن كل بعيد الهم فيها معذب.

وإذا كانت النفوس كبارا ... تعبت في مرادها الأجسام

!فليحمل العذاب في سبيل ما جل أن يسمى

هذه مراحل كان يأوي إليها الشاعر في نضاله، أقربها تجثم فوقه غيوم سوداء من التشاؤم، ولقد زاد في تشاؤمه إحساسه بعظمته التي لا يقنعها مظهر من المظاهر، وهو الذي كان في محفل من الناس واليوم أصبح في محفل من قرود! ولكن المتنبي إزاء هذه النوازع هل راح يبغض الحياة؟ ظل إحساس المتنبي برغم هذه العوارض التي ألمت به إحساسا قويا فنيا، يحب الحياة ولا ينكر ابتغاء كل نفس للحياة وحرصها عليها وهيامها بها. ومن الذي لم يعشق الدنيا والحياة؟ ولكنه لا ينسى أنها لا تنيل أربا ولا تعطى غاية ولا تسمح بوصال. وقد كان هذا وحده كافيا في خلق النفور منها ولكن:

من لذيذ الحياة أنفس في النف ... س وأشهى من أن يمل وأحلى

وإذا الشيخ قال أفٍ فما ملّ ... حياة وإنما الضعف ملا

وإذا كان الشيخ وحده يمل الحياة بسب ضعفه فليبادر وهو فتى - إلى الحياة - يستخلص منها ملذاتها قبل أن تستخلص منه نفسه، ويجنح إلى اللهو فأوقات اللهو تمر سراعاً كأنها كما قال قبل يزودها حبيب راحل! والزمان لا لذيذ خالص فيه ولا سرور

كامل. . . وليت شاعرنا يقنع بهذا التعليل، فقد تطغى عليه في بعض مواطنه موجة من التشاؤم لا نجد لها مثيلا إلا عند المعري. . . ينظر إلى الدنيا وقد أعياه أمرها فيراها خائنة:

أخون من مومس ... وأخدع من كفة الحابل . . .
تفانى الرجال على حبها ... وما يحصلون على طائل
يراها خائنة معشوقة
ومن لم يعشق الدنيا قليل ... ولكن لا سبيل إلى الوصال

وقد نظر المتنبي فيما نظر إلى الموت وما بعد الموت، فكان نظره قصيرا فيما وراء الطبيعة وخياله محدودا؛ ليس له رأي ذاتي فيه وإنما يسمع ما قيل ويشك فيما قيل؟ ولعله سما في قصيدته التي رثى بها عمة عضد الدولة سموا يذكرنا بما سما إليه المعري في الرثاء. فقد مزج نظرته بشيء من الفلسفة الوثنية التي تعيد الأرواح إلى جوها والأجساد إلى تربها وترى كل شيء معلقا بالزمان

نحن بنو الموتى، فما بالنا ... نعاف ما لابد من شربه
تبخل أيدينا بأرواحنا ... على زمان هن من كسبه
فهذه الأرواح من جوه ... وهذه الأجساد من تربه
يموت راعي الضأن في جهله ... ميتة جالينوس في طبه
وربما زاد على عمره ... وزاد في الأمن على سربه
وغاية المفرط في سلمه ... كغاية المفرط في حربه
لو فكر العاشق في منتهى ... حسن الذي يسبيه لم يسبه

فكم في هذه الصورة الأخيرة من ورعة وتشاؤم! وقد تكون روعتها في انطلاقها وإطلاقها الخيال للسامع، فيصور ويمثل منتهى هذا الحسن الذي يسببه، وقد وددت لو أنقل صورة لمثل هذا المنتهى للشاعر الفرنسي (بودلير) في قصيدته (جيفة) وهل يريد المتنبي من هذا المنتهى إلا هذه الجيفة؟ وليته رسم لنا خطوطها وأتم صورتها، ولكن الموت قد يعكر على المتنبي هناءه، ولكنه لا يمنعه منه وقد يستغل اسمه وهوله - أمام محبوبته، وجيفته - فيطلب إليها أن تزوده من حسن وجهها قبل أن يحول، وأن تصله في هذه الدنيا لأن المقام فيها قليل، أما رعشة الموت فهو يحسها ويلمسها ويراها ويدرك كما أدرك المعري بنظره الشامل أننا:

يدفن بعضنا بعضا وتمشي ... أواخرنا على هام الأولي

وهل في هذه النظرات العميقة إلا تشاؤم عميق؟ ولكنه لم يسلم صاحبه إلى الاستسلام؛ تشاؤم يرى كل ما يشق منظره فيحسب يقظات العين حلما! ويعفو عن الزمن لأنه لا يعقل أن يبلغه ما ليس يبلغه الزمن من نفسه. وهكذا خلق هذا التشاؤم فيه قوة يعود تعليلها إلى أمور كثيرة، منها إلى مزاجه ومنها إلى بيئته؛ وحقا إذا كان مزاجه العصبي قد أضربه في موطن فقد عاد عليه بفوائد كثيرة في مواطن كثيرة. منها هذه المقاومة العنيفة والمجابهة التي يطفح بها شعره، وقد كان أولى بهذا التشاؤم أن يقوده إلى ما قاد المعري إليه برغم أن المعري لم يبل في الحياة والأصحاب بمثل ما ابتلى به المتنبي.

هذا الجانب من جوانب المتنبي أعجب به وأعتز به لأنه علامة من علامات الرجولة الممسوخة في هذا الجيل، تصون عزتها ولا تنسى أن تبرز بذاتها إزاء كل ذات مهما تناهت عظمتها، وهل تستطيع أن تجد قصيدة لم يطبعها المتنبي بذاته؟ بل هل كان المتنبي قادرا على التجرد من ذاته؟ ألا نراه يتغنى في كل مقطوعة بذاته؟ ويحن إلى غايته ويطأ هام الملوك والخلائق وينقض على الزمان يراغمه وعلى الحظ يصاوله، ولعل المتنبي أول شاعر قام يحاول إخضاع الحظ والناس لموازين العقل والذكاء.

ولعل أصحابنا النقاد يرون مغامز في المتنبي، فيأخذون عليه رياءه ومبالغته وتقلبه، ويتخذون موقفه مع كافور حجة على غدره وتقلبه. ومثل هذا النقد صدق يشهد به المتنبي وأشعاره، ولكي أعتقد أن هذا الرياء الذي تنقم عليه الأخلاق لم يكن إلا رياء فنيا - والرياء الفني يغمر كل شعرنا وأدبنا ولا يزال. . . ولو كان من نوع ذلك الرياء اللين لكان لصاحبه شأن مع رجال الأحكام. وإن شخصيته المتجردة من شعره كانت شخصية عنيفة قاسية لا تهاود في عزتها. الأمر الذي يدل على أن رياءه هو الرياء الذي

تواضع عليه شعراء ذلك العصر وأدباؤه وتقبلوه ولم يستقبحوه.
حياة زاهرة بالأهوال والآمال كلما صدع لها الدهر أملا زادت حزما وعزما، غير مستعظمة إلا نفسها ولا قابلة إلا لخالقها حكما؛ حياة تود أن تنفصل عن الناس لتتصل بالناس، وذات لم يترك لها الدهر مجالا للنظر في غير ذاتها، في شعرها أثر عصرها وبيئتها، وفي شعرها أثر العصور. ولعمري إن هذا لهو الأدب الحي الذي تتوق إليه الآداب العالمية اليوم، أدب ترتسم فيه الرسالة القومية والرسالة الإنسانية. . .
ما أفقر أدبنا الحاضر على غناه إلى متنبي جديد يفيض قوة وعزيمة على رغم تشاؤمه! ولعله إذا عاد يغير شيئاً في رسالته ويجعلها رسالة قوية يفرضها فرضا بقوة البيان شاعر ذو كبرياء وسلطان، على شعب مريض أصبح السائر لا يسير بينه إلا بألف ترجمان.
(دير الزور)
خليل هنداوي
تاريخ العرب الأدبي
للأستاذ رينولد نيكلسون
الفصل الأول
- 4 -
مصادر الأخبار:
وإن المصادر الرئيسية الهامة التي تدور حول سبأ وحمير لهي (أولا) تلك المسماة بالنقوش الحميرية، و (ثانيا) الأحاديث المنقولة في الغالب عن الأساطير والتي أبقاها لنا الأدب الإسلامي. وبالرغم من أن اللغة العربية الجنوبية قد ثبتت أقدامها في بعض الأماكن الجنوبية القاصية حتى عهد النبي أو بعده بقليل، إلا أنها أخذت تضمحل من أمد بعيد بتقوى لغة الشمال الجزلة الرائعة ثم أخذت منذ ذلك الحين تبسط سلطانها دون أن تجد لها منافسا في رحاب شبه الجزيرة، ولكن يجب أن نذكر أن اللغة السابقة لم تتلاش نهائيا. وقد حدث في القرن السادس الميلادي أن أناخ راكب بدوي بعيره وأخذ يتفرس في دهشة في بعض نقوش غريبة على حائط صخري، وقارن بين هذه النقوش العجيبة التي كاد الدهر أن يطمس معالمها وبين البقايا غير الواضحة تماما للأراضي المجاورة، التي كانت تفيض بالذكريات الجميلة. ويسمى المؤلفون المسلمون هذه الخطوط بالمسند، وإن قليلا من المسلمين كانوا يستطيعون قراءة حروف هجاء العربية الجنوبية، بل كانوا ذوي دراية بمبادئ وقواعد علم الإملاء أيضاً، وهذا يظهر لنا بجلاء من عبارة وردت في الكتاب الثامن من الإكليل للهمداني، ومع أنهم قد استطاعوا تفسير أسماء الأعلام والتعرف إلى مدلول الكلمات، إلا أنه لم تكن لديهم معلومات ثابتة عن اللغة نفسها، وسأشرح فيما بعد كيف كشفت هذه النقوش مرة ثانية بفضل بعض الرحالة الأوربيين، وكيف فسرت وأولت حتى غدوا على بينة منها قادرين على اتخاذها أساسا للبحث التاريخي، وما هي النتائج التي جنوها من دراستهم لهذه الناحية؛ ولكن قبل أن نأخذ في شرح ذلك أرى من الضروري أن أقول لماذا استعملت لفظ (العربية الجنوبية) أو (السبئية) القليل التداول بدلا من (الخطوط الحميرية) و (اللغة الحميرية): ذلك أن كلمة (حمير) ليست دقيقة إذا أردنا بها لغة هذه النقوش أم النقوش ذاتها؛ أما من ناحية اللغة فلم تكن خاصة بأهل حمير، بل كان يتكلمها كل قبائل اليمن المختلفة وأهل سبأ ومعين أيضاً، وإن اختلفت اللهجات في كل جهة عن الأخرى. وقد أطلق المسلمون على لغة اليمن القديمة اسم (الحميرية) لسبب بسيط، ذلك أن الحميريين كانوا أقوى جنس سكن هذه البلاد خلال القرون الأخيرة السابقة لظهور الإسلام. ولو كانت جميع الآثار المكتشفة ترجع إلى عصر السيادة الحميرية لسمعنا عنها في شيء من اليقين فيمن خلفهم، ولكن الحقيقة هي أنها ترجع إلى عهد سحيق أيام العصور الأولى التي يرجع بعضها إلى القرن الثامن قبل الميلاد، وربما كان بل تأسيس الإمبراطورية الحميرية بألف عام، كما أن لفظ (سبئ) لا يوضح المقصود تماما لأنه يغلب استعماله لاسم شعب أكثر من أن يكون لقبا سياسيا، وعلى كل فأني أفضل لفظ (عرب الجنوب) على كل ما عداه.
ومن أول رواد البحث والتنقيب في بلاد اليمن العالم كارستن نيبوهر الذي قام بدافع نفسه وللذته الخاصة بإماطة اللثام عن النقوش. وقد طبع عام 1772م كتابه المسمى

وقد رن صدى اكتشافاته في مجامع أوروبا العلمية ورجح الظن بأن حمير وجدت في بقايا مدينة شهيرة باسم ظفار وفي ذات مرة لقيه أحد الهولنديين الذين اعتنقوا الدين الإسلامي وأطلعه على نسخة من النقوش جمعت كل الحروف الهجائية التي لم تكن معروفة من قبل، ولكن - كما يقول - (أصابتني حمى عنيفة في تلك الآونة، وكنت أستعد بين كل لحظة وأخرى للموت أكثر مما أعد نفسي لجمع النقوش القديمة) وبهذا ضاعت فرصة عظيمة، ولكن الدهشة عادت ثانية إذا اكتشف البحاثة عام 1810 عدة خطوط في جوار ظفار ونسخها بيده، ولكن ما يؤسف له أن السرعة التي لازمت المكتشف جعلت المنسوخ غير متقن الضبط تماما. وقد اشترى أيضاً رسما أخذه معه وانكب عليه في أوقات فراغه ناسخا أياه، غير أن جهله للروح الأصلية أوقعه في عدة أخطاء في الحروف، وبذلك لم تكن النتائج التي توصل إليها ذات قيمة تذكر. وإن أول منسوخات قيمة للنقوش العربية الجنوبية وصلت إلى أوربا على أيدي الضباط الإنكليزي المشتغلين بحراسة الشواطئ الجنوبية والغربية لبلاد العربي وفي سنة 1838 طبع الليفتنانت ج. ر. وللستد نقوش حصن الغراب ونقب الحجر في كتابه المسمى

وإذا ذاك خطأ أميل روديجر أستاذ اللغات الشرقية بجامعة هل (اعتمادا على مخطوطين في مكتبة برلين الملكية جمعت فيهما كل حروف الهجاء الحميرية) خطأ أول خطوة في سبيل الكشف الصحيح، فدحض الفكرة القائلة بأن خط العربية الجنوبية يجري من اليسار إلى اليمين، تلك الفكرة التي أقرها (دي ساسي) وصادفت قبولا عاما، كما أظهر روديجر أكثر من ذلك ان آخر كل كلمة كان ينتهي بخط عمودي، وإن نقوش وِلِّسِتدْ قد ألقت بصيصا من النور على صنعاء، وفسر رموزها وروديجر كل منها مستقلا عن الآخر عام 1841م.

وتقاسمت إنجلترا وألمانيا فخر الكشف عن هذه النقوش، ولكن لم تكد تمضي بضع سنين حتى كانت فرنسا ثالثتهما، وسرعان ما مضت قدما في هذا السبيل وتكللت بحوثها بالفوز العظيم ونالت قصب السبق. وفي عام 1843 بدأ توماس أرنود التنقيب والبحث بادئا من صنعاء، ونجح في الكشف عن بقايا مأرب مدينة سبأ القديمة الشهيرة، ولم يعبأ بتقهقر صحته، بل نسخ ما يقرب من خمسين أو ستين مخطوطا نشرت بعد ذلك في الجريدة الأسيوية وقد عثر في أسيندر على مترجم ماهر، وفي سنة 1870 تنكر العالم اليهودي واخترق (الجوف) شرق صنعاء التي لم يخترقها أوربي قبله منذ سنة 24 ق. م حينما قاد ? جيشا رومانيا من نفس الطريق، وقد توصل هذا المكتشف إلى نتائج أكثر أهمية بعد أن لاقى كثيرا من المتاعب والأهوال الخطرة، ثم تمكن هاليفي أن يعود بعد أن نسخ قرابة سبعمائة مخطوط، وفي أثناء ربع القرن الأخير جمع أشياء أكثر أهمية بينما انكباب براتوريوس وهاليفي وميللر وموردتمان وغيرهم على البحث أزاد معلوماتنا عن لغة وتاريخ وديانة عرب الجنوب في العصر السابق للإسلام.

ولا يمكن القول بأن هناك دقة ما سواء في أسماء الحكام الحميريين - كما يظهر ذلك مما كتبه المؤرخون المسلمون - أم في الترتيب الذي جرت عليه في وضعها، ولو كان هؤلاء أشخاصا تاريخيين لكان لهم ذكر فيما بعد، والأرجح أنهم كانوا أمراء غير ذوي أهمية أرجعتهم القصص إلى العصر القديم وخلعت عليهم نعوت العظمة، وعلى من يعتوره الشك في هذا أن يقارن الصحف الحديثة بتلك التي استنبطت من النقوش وقد جمع د. هـ. موللير أسماء ثلاثة وثلاثين ملكا من ملوك سبأ، كما تكرر كثيرا ورود بعض الأسماء - وهذا دليل على قيام الأسر الحاكمة - وكانت تخلع عليهم الألقاب للأبهة، وقد نجد كثيرا من

هذا في ذَمَرْ عَلِى ذِرِّيحْ (الفخم) ويَنْعَمَرْ بَيِّن (السامي) وكَرِيَبِعيلْ وَتَارِيُهَنْعِمْ (أي العظيم المنّاح) وسمهعلي ينوف. أضف إلى هذا أن الملوك كانوا يحملون ألقابا عدة في المراسلات تنبئ عن عصور ثلاثة في تاريخ البلاد العربية كمكرب سبأ أو ملك سبأ وملك سبأ وريدان، وبهذه الطريقة يمكننا أن نحدد على وجه التقريب عصر المباني والنقوش المختلفة، وأن نظهر أنها لا تنتمي إلى العصر المسيحي، ولكنها تسبقه أحيانا بثمانية قرون على الأقل.

وإن البون الشاسع الذي يفصل بين قوم سبأ وحمير المحبين للتجارة والسلام وبين

العرب الهمج الذين بعث فيهم محمد (صلعم) ليظهر على أشده في خضوع الأولين لآلهتهم التي تعد أساس الآثار الجنوبية العربية كما ذكر ذلك جولد زيهر.
فكان الأمير يشيد معبدا للآلهة شكرا لنصرها إياه على أعدائه ويبارك الكاهن أبناءه وممتلكاته؛ أما المحارب الذي فاز بقتل أعدائه أو بالأسلاب أو بنجاته من المنية فيقدم فروض الشكر ويتوسل في ضراعة أن يكون على الدوام متقلبا في أعطاف رعايتها.
وكانوا يعتقدون أن الموتى يعيشون سعداء تحت رحمة إلهية كما كانوا يوقرونهم بل ويعيدونهم أحيانا، وإن العبارة التالية التي ترجمها الكولونيل لهي أوضح مثال على هذا وهي: (لقد تقدم سعد الله وبنوه بنو مرثد بهذه اللوحة إلى مقه هران (سيد الأوَّام ذو عِران أَلِى) الذي تفضل بسماع الرجاء المرفوع إليه حينما أهدى إليه بنو مرثد أول ثمار أرض أرهقم وان مقه هران قد تعهد بحماية سهول ومراعي هذه القبيلة في مساكنهم لقاء ما يقدمونه إليه من الهدايا الكثيرة طول العام، والحق أن أبناء سعد الله سينزلون أرض أرهقهم وسيقربون الضحايا في حرمي عشتر وشمس وسيكون هناك قربان آخر في هران (وكلا العملين بغية أن يتكفل حروت بحماية حقول بني مرثد، والتفضل بسماع شكواهم) وكذلك تقرب القرابين في معبد مقه حروت، وبمقتضى ذلك يتهيأ له المحافظة عليهم بناء على السنة التي ابتع نهجها سعد الله والتي شاهدها في معبد مقه النعمان، أما مقه هران فقد وقى أرض أرهقم الخصبة من الصقيع والطوارئ أو بعبارة أخرى من البرد القارس والحر اللافح)
وقبل أن أختم هذا البحث القائم على البيان الناص عن نقوش العربية الجنوبية لابد لي من أناشد فطنة قرائي الذين يعلمون كم يكون من الصعب أن يكتب المرء بوضوح ودقة عن موضوع ليست مصادره الأولى في متناول يده، خاصة إذا كانت نتائج البحث السابق
تنقض على الدوام بيد العاملين الحديثين في نفس الميدان.
ومن حسن الطالع أن يكون تحت يدنا مرجع دقيق واف لتلك البقايا القليلة الناقصة؛ فمعلوماتنا عن جغرافية بلاد العرب الجنوبية وعن الآثار والتاريخ القصصي مستقى جلها من كتابات شخصين من أهل اليمن تفيض كتاباتهما بالحماسة للمجد القديم والفخر به، وتعتبر أقوالهما - المتضاربة بين الحق والخرافة - من وجهة النظر الحاضرة - عملا له قيمته، وهذا الكاتبان هما حسن بن أحمد الهمداني ونشوان بن سعيد الحمير، وفضلا عن كتاب جغرافية العرب القيم المسمى (صفة جزيرة العرب) الذي طبعه د. هـ. موللير، فقد ترك لنا الهمداني كتابا عظيما آخر في تاريخ اليمن وآثارها، ذلك هو (الإكليل) وينقسم إلى عشرة كتب هذا بيانها.
الكتاب الأول: موجز تاريخ أصل الإنسان ونشأته
الكتاب الثاني: تاريخ نسب الهميسع بن حمير
الكتاب الثالث: بخصوص صفات قحطان الممتازة
الكتاب الرابع: بخصوص العصر الأول من التاريخ إلى حكم تبع أبي بكر
الكتاب الخامس: بخصوص العصر المتوسط من عهد أسعد تبع إلى عهد ذي نواس
الكتاب السادس: بخصوص العهد الأخير حتى ظهور الإسلام
الكتاب السابع: نقد البدع الفاسدة والروايات الكاذبة
الكتاب الثامن: القلاع والمدن والقبور التي شيدها الحميريون وشعر علقمة والمراثي والنقوش وغيرها
الكتاب التاسع: ويتضمن حكم الحميرين وأمثالهم في اللغة الحميرية وأحرف هجاء النقوش
الكتاب العاشر: بخصوص نسب قبيلتي حاشد وبقيل (كبيرتي قبائل همدان)
(يتبع)
ترجمة حسن حبشي
هكذا قال زرادشت
للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه
ترجمة الأستاذ فليكس فارس

وما فرغ زارا من كلامه حتى ارتفع صوت من الحشد قائلا (لقد كفانا ما سمعنا عن

البهلوان، فليبرز لنا الآن لنراه)
فضحك الجميع مستهزئين بزارا، وتقدم البهلوان ليقوم بألعابه وهو يعتقد أنه كان موضوع الحديث.

- 4 -

وبهت زارا مجيلا أنظاره في القوم، ثم قال:
ما الإنسان إلا حبل منصوب بين الحيوان والإنسان الكامل فهو الحبل المشدود فوق الهاوية
إن في العبور للجهة المقابلة مخاطرة، وفي البقاء وسط الطريق خطرا، وفي الالتفات إلى الوراء وفي كل تردد وفي كل توقف خطر في خطر
إن عظمة الإنسان قائمة على أنه معبر وليس هدفا، وما يستحب فيه هو أنه سبيل وأفق غروب
إنني أحب من لا غاية لهم في الحياة إلا الزوال، فهم يمرون ما وراء الحياة، أحب من عظم احتقارهم لأنهم عظماء، المتعبدين يدفعهم الشوق إلى المروق كالسهام إلى الضفة الثانية
أحب من لا يتطلبون وراء الكوكب معرفة ما يدعو إلى زوارهم أو ما يهيب بهم إلى التضحية، لأنهم يقدمون ذاتهم قربانا للأرض، لتصبح هذه الأرض يوما ميراثا للإنسان الكامل
أحب من يعيش ليتعلم، ومن يتوق إلى المعرفة ليحيا الرجل الكامل بعده، فأن هذا ما يقصد طالب المعرفة من زواله
أحب من يعمل ويخترع ليبني مسكنا للإنسان الكامل فيهيئ ما في الأرض من حيوان ونبات لاستقباله. فان هذا ما يقصد طالب المعرفة من زواله
أحب من يحب فضيلته، فما الفضيلة إلا الطموح إلى الزوال وإن هي إلا السهم تنشبه أشواقه
أحب من لا يحتفظ لنفسه بشرارة واحدة من روحه، فيتجه إلى أن يكون بكليته روحا لفضيلته لأنه بهذا يجعل روحه تجتاز الصراط
أحب من يكون من فضيلته ميوله ومطمحه، لأنه بمثل هذه الفضيلة يتوق إلى إطالة حياته كما يتوق إلى قصرها
أحب من لا يريد الاتصاف بعديد الفضائل، إذ في الفضيلة الواحدة من الفضائل أكثر مما في فضيلتين، والفضيلة الواحدة حلقة ترتبط فيها الحياة
أحب من يجود بروحه فلا يطلب جزاء ولا شكورا، ولا يسترد، فهو يهب دائما ولا يفكر في الاستبقاء على ذاته
أحب من يخجل من سقوط زهر النرد لحظه فيرتاب بغش يده، إن أمثاله التائقون إلى الزوال
أحب من يبذل الوعود وهاجة ثم يتجاوز عملة وعده، إن أمثاله هم التائقون إلى الزوال
أحب من يبرر أعمال الخلف ويدافع عن السلف لأنه بذلك يسلم نفسه إلى نقمة معاصريه، فهو ممن يتوقون إلى الزوال
أحب من يعلن حبه لربه بتوجيه اللوم إليه، إذ يجب أن يهلك بغضب ربه
أحب من يبلغ التأثر أعماق روحه في جراحها فيعرضه أتفه حدث للفناء، إن أمثاله يعبرون الصراط دون أن يترددوا
أحب من تفيض نفسه حتى يسهى عن ذاته، إذ تحتله جميع الأشياء فيضمحل فيها ويفني بها
أحب من تحرر قلبه وتحرر عقله حتى يصبح دماغه بمثابة أحشاء لقلبه، غير أن قلبه يدفع به إلى الزوال
أحب جميع من يشبهون القطرات الثقيلة التي تتساقط متتالية من الغيوم السوداء المنتشرة فوق الناس، فهي التي تنبئ بالبرق وتتوارى
ما أنا إلا منبئ بالصاعقة، أنا القطرة الساقطة من الفضاء، وما الصاعقة التي أبشر بها إلا
الإنسان الكامل.

- 5 -

وبعد أن ألقى زارا هذه الكلمات أجال أنظاره في الحشد وسكت ثم قال في قلبه: لقد تملكهم الضحك، فهم لا يفهمون ما أقول، وما أنا بالصوت الذي يلائم هذه الأسماع أعلي أن أسد آذانهم ليتمرنوا على الإصغاء بعيونهم؟ أم يجب أن أضرب الصنج أسوة بوعاظ الصيام؟ لعل هؤلاء القوم لا يثقون إلا بالألكن من المتكلمين

إن لهؤلاء الناس ما يباهون به فما عساه أن يكون؟

إنهم يسمونه مدنية ليميزوا بها أنفسهم من الرعاة. فهم لذلك ينفرون من لفظة الاحتقار إذا ما ذكرت في معرض الكلام عنهم، فلسوف أخاطبهم إذن عن غرورهم سأخاطبهم عن أحقر الكائنات، عن الإنسان الأخير، وتوجه إلى الحشد قائلا:

لقد آن للإنسان أن يضع هدفا نصب عينيه، لقد آن له أن يزرع ما ينبت أسمى رغباته، ما دام للأرض بقية من ذخرها؛ إذ سيأتي يوم ينفذ هذا الذخر منها فتجدب ويمتنع على أية دوحة أن تنمو فوقها.

ويل لنا! لقد اقتربت الأزمنة التي لن يفوق الإنسان فيها سهام شوقه محلقة فوق البشرية إذ تخونه قوسه وتتراخى أوتارها

الحق ما أقوله: لن يخرج من الإنسان كوكب وهاج للعالم حين تزول بقية السديم من نفسه، وهذا السديم لم يزل فيكم

ويل لنا! لقد اقتربت الأزمنة التي لن يدفع الإنسان فيها بالكواكب للعالم. ويل لنا؟ لقد اقترب زمان الإنسان الحقير الذي يمتنع عليه أن يحتقر نفسه

اسمعوا! هأنذا منبئكم عن الرجل الأخير

إنه من يقف متسائلا عن نفسه فلا يعلم أمحبة هي أم إبداع أم تشوق، أم توهج كوكب وستصغر الأرض في ذلك الزمان فيصطفر على سطحها الرجل الأخير الذي يحول إلى حضارة كل ما يدور به، إن سلالة هذا الرجل لا تباد، فهي أشبه بالبراغيث، والإنسان الأخير أطول البشر عمرا

ويقول أناسي الزمن الأخير متغامزين: لقد اخترعنا السعادة اخترعا

لقد هجر هؤلاء البقاع التي تقسو عليها الحياة، لأنهم شعروا بحاجتهم إلى الحرارة فأصبح كل واحد يحتك بجاره وقد احتاجوا إلى الدفء جميعا

إنهم يقتحمون الحياة باحتراس لأن الوجل والمرض في عينهم خطأ، وما سلم من الجنون من يتعثر منهم بالجارة وبالناس

إنهم يأخذون قليلا من السموم حيث يجدونها طلبا لملاذ الأحلام ويكرعون منها ما يكفي دفعة واحدة طلبا للذة الموت

وإذا هم عملوا فإنما يعملون للتسلية محاذرين أن تذهب هذه التسلية بهم إلى حدود الإنهاك

ليس بينهم من يصبح غنيا أو يمسي فقيرا، وكلا الفقر والغني يجلب الضنى، وما منهم من يطمح إلى الحكم أو يرضى بالخضوع وكلاهما محرج مرهق

ليس هنالك راع وليس هنالك إلا قطيع واحد. إن كلاً من الناس يتجه إلى رغبة واحدة، فالمساواة سائدة بين الجميع. ومن اختلف شعوره عن شعور المجموع يسير بنفسه مختارا إلى مأوى المجانين

ويغمز أمكر هؤلاء الناس بعينهم ويقولون: لقد كان الجميع مجانين فيما مضى

لقد ساد الاحتراس بين هؤلاء القوم لأنهم أخذوا بالعبر، فهم يتلقون المحادثات متهمكين، وإذا نشأ بينهم خلاف بادروا إلى حسمه صلحا، لأنهم يحاذرون أن تصاب معدهم بالعلل والأدواء

لهؤلاء الناس لذات للنهار ولذات أخرى لليل، غير أنهم يراعون صحتهم أولا

ذلك ما يقوله أناسي الزمن الأخير وهم يغمزون (لقد اخترعنا السعادة اختراعا)

عند هذا أنهى زارا خطابه أو بالحري تمهيد خطابه فتعالت أصوات التهليل من الحشد وهو يقول: (إلينا بهذا الرجل الأخير يا زارا، اجعلنا على مثال أناسي الزمن الأخير فقد تخلينا لك عن الإنسان الكامل

ولكن زارا وجم أمام هذا الحشد يسوده مثل هذا الروح فاستولى الحزن عليه وقال في نفسه:

إنهم لا يفهمون كلامي، فلست بالصوت الذي تتطلبه هذه الأسماع

لقد عشت طويلا في هذه الجبال وأنصت طويلا إلى هدير الغدران وحفيف الأشجار فأنا أكلم هؤلاء الناس الآن كأنني أخاطب رعاة الماعز
إن روحي صافية تغمرها الأنوار كما تغمر القمم تباشير الصباح، ولكنه يحسون بالصقيع في قلبي ويحسبونني مهرجا يأتيهم بالمفجع من النكات
ها هم أولاء يحدجونني بأنظارهم ويتضاحكون، ففي قلبهم ثورة البغضاء وعلى شفاههم بسمة الثلوج
- 6 -
وطرأ حادث كم الأفواه واسترعى الأبصار، وكان البهلوان بدأ بألعابه فاندفع من النافذة وأخذ يتمشى على الجبل الممدود بين برجين فوق الساحة وما عليها من المتفرجين وما وصل إلى وسط الجبل حتى فتحت النافذة مرة ثانية واندفع منها فتى مخطط بالألوان كالمهرجين وسار متبعا خطوات البهلوان صارخا:
- إلى الأمام أيها الأعرج! إلى الأمام أيها الكسلان، أيها المرائي ذو الوجه الشاحب! اذهب لئلا تداعبك نعلي، ما هو عملك بين هذين البرجين؟ أفليس في البرج مكان سجنك؟ إنك تسد الطريق في وجه من هو أفضل منك)
وكان الفتى يتقدم خطوة كلما قال كلمة حتى أصبح قاب قوس من البهلوان، وعندئذ وقع الحادث الذي كمَّ الأفواه واسترعى الأبصار. فان الفتى لم يلبث أن صرخ صرخة الجن وقفز فوق العقبة القائمة في سبيله. ولما رأى البهلوان انتصار خصمه عليه أخذه الدوار وخلت رجله عن الحبل فرمى عارضة التوازن من يديه وسقط في الفضاء حيث لاحت رجلاه ويداه كعجلة تدور في الهواء.
وماج الحشد على الساحة كالبحر اجتاحته العاصفة الهوجاء وانفرط الناس مولين الأدبار وانفرط المكان حيث كان يتجه الجسم بانحداره
ولكن زارا لم يتحرك فوقع الجسم على مقربة منه حيث تقطعت أوصاله وتهشم غير أنه كان لم يزل حيا، وما عتم أن عاد روع الجريح إليه فرأى زارا جاثيا قربه فرفع رأسه وقال له:
- ماذا تفعل هنا؟ ما كنت أجهل أن الشيطان سيضل خطواتي يوما وها هو ذا الآن يجرني إلى جحيمه، أفتريد أن تمنعه؟
فقال زارا:
- وشرفي يا صديقي إن ما تذكره لا وجود له، فليس من شيطان وليس من جحيم، إن روحك ستموت بأسرع من جسدك فلا تخش بعد الآن شيئاً
فرفع الرجل بصره مشككا وقال:
إذا كان ما تقوله صحيحا فأني لا أفقد شيئاً بفقد الحياة. فلست أنا إذن إلا حيوانا رقصت بالضرب وغذيت بأفخر غذاء
فقال زارا: لا، ليس الأمر كما تقول فأنك اتخذت المخاطرة مهنة لك ولم يكن فيها ما يشين. أما الآن فمهنتك هي أن تفنى، من أجل هذا سأدفنك بيدي
ولم يحر المدنف جوابا بل حرك يده باحثا عن يد زارا ليصافحها دلالة على شكره
(يتبع)
فليكس فارس
نظرية العامة للالتزامات في الشريعة الإسلامية
للدكتور شفيق شحاته
3
ملاحظات موضوعية على المؤلفات - أول ما يلاحظ على الفقهاء أن نظرهم لم يتجه أثناء وضعهم للحلول إلى طريقة تطبيق أحكامهم. فتلك الناحية العملية لا تكاد تظهر خلال جدلهم وأبحاثهم
على أن هذا ليس معناه كما ادعاه بعض المستشرقين أن التشريع الإسلامي لم يوضع إلا على أنه مثل أعلى، يوصى باتباعه، وأنه في الواقع ونفس الأمر، لم تتبع أحكامه في الدول الإسلامية فإنا، وقد رجعنا في بحثنا إلى كثير من الأوراق البردية المثبتة للوثائق القانونية مما كان يجري به التعامل في العصور الأولى للإسلام، وإلى أحكام محكمة مصر الشرعية القديمة، ويرجع بعضها إلى أكثر من خمسمائة سنة خلت، نستطيع أن نؤكد فيما يتعلق بموضوع الالتزامات أنه لم يكن هناك تشريع أو قواعد أخرى متبعة في

المعاملات سوى قواعد الشريعة الإسلامية.
وإذا كانت هذه القواعد قد خولفت بالفعل في بعض الأحايين، فقد كان ذلك خضوعاً لظاهرة معروفة، وهي أن الاحتياجات العملية تخلق دائما بجانب التشريع قواعد أكثر مرونة تلطف من حدته.
من ذلك - وهذا في نظرنا، دليل على حيوية التشريع الإسلامي - ما وضعه الفقهاء من (الحيل) لتلافي بعض ما وضعوه من القواعد التشريعية الجامدة
على أن هذه الحيل تندمج تماماً في الهيكل التشريعي، لأنها لا تصدم قاعدة من قواعده، فهي عبارة عن عقود أو إقرارات صورية، تنطبق عليها الأحكام التي وضعت للصورة التي اتخذتها لا لحقيقتها، وقد ساعد على نجاح هذه الوسائل قواعد الإثبات وأحكام الصورية في التشريع الإسلامي
فالحيل إذن ستكون محل دراستنا، على أنها الجانب الحي للتشريع الإسلامي، وهي قد كانت موضعاً لعناية (محمد) نفسه وهو أحد واضعي المذهب
وتظهر أيضاً الناحية العملية للفقه الإسلامي من خلال كتب (الشروط)، وقد عنيت هذه الكتب بوضع صيغ لكتابة العقود والإقرارات. وقد اهتم بهذه الناحية أيضاً (محمد) في (المبسوط)؛ على أن لهذه الناحية من الفقه فقهاءها الاخصائيين، نذكر منهم (أبا زيد الشروطي) و (الطحاوي) ويتضح لمن يتصفح كتب الشروط هذه أنها لم توضع لمجرد النظر: فهي تراعي دائما الاحتياجات العملية، وتحيط العاقد علماً بما يجب أن يتخذ لنفسه من الحيطة في اشتراطاته مع اختلاف المذاهب
وهذه الصيغ لا تخلو من (الرطانة) القضائية كتكرار الألفاظ والمبالغة في الاحتياطات، ومن الغريب أنها على قدم عهدها يرد بها عبارات تشبه كثيراً ما نقرؤه في العقود التي تحرر في أيامنا هذه
وتظهر أخيرا الناحية العملية من خلال (الفتاوي)، وهي مؤلفات جمعت ما أجاب به المفتون عما عرض عليهم من الأسئلة في حوادث واقعية، ولدينا من هذه المجموعات ما يرجع عهده إلى سنة 1100هـ، وهي جميعها تتبع آثار الكتب الفقهية، ولا تحيد عن الأحكام التي وردت بها قيد أنملة
ومما يؤخذ أيضاً على المؤلفين اهتمامهم الزائد بدقيق التفصيلات وتفننهم في افتراض المسائل البعيدة الوقوع
وإن كان هذا التطرف في التصورات، وهذا التوغل في الدقائق قد أفاد التشريع بعدد وفير من الأفكار والآراء، فانهما مع ذلك قد أساءا إلى الروح القانونية. ذلك أن هذه الروح تمج التدني إلى صغائر المسائل كما تمج الدقة التي تتطلبها الرياضيات. فمما يثقل على القانوني، أن يرى المؤلفين يسترسلون في عمليات حسابية معقدة
ويلاحظ أن المتأخرين قد وقعوا في محظور آخر، وهو التراشق بالأدلة اللفظية البحتة، والاعتماد في الاستدلال على المنطق المجرد
الروح العامة للفقه الإسلامي - يظهر لنا أن هناك نزعات ثلاثا تسيطر على التشريع الإسلامي
(1) أما الأولى فهي النزعة الفردية. وقد يذهب البعض إلى أن هناك نصوصا كثيرة ترمي إلى حماية مصالح الجماعة. على أن هذه النصوص لا تنهض دليلا على أن النزعة الفردية ليست متغلبة ذلك أن التشريع الإسلامي اصطبغ في الأصل بصبغة دينية.
فهو يرمي بطبيعته إلى توفير السعادة على الفرد. والفرد - مهما حاول أنصار الاشتراكية في عهدنا هذا - سيبقى دائما أبداً هو الغاية التي يسعى إليها كل تشريع، وإذا غلبنا في بعض الأحيان مصلحة الجماعة فليس ذلك في الواقع إلا لكونها تتضمن في نفس الوقت مصلحة الفرد.
(2) أما النزعة الثانية فهي السعي وراء العدالة المطلقة عن المساواة. وقد ظهرت هذه النزعة في نظرية الالتزامات في صورة المساواة بين المتعاقدين. على أن الفقهاء قد توغلوا في هذا الاتجاه إلى أقصى حدوده، ومن آثار هذه النزعة نظرية الربا
(3) والنزعة الثالثة ترمي إلى الابتعاد عن كل ما من شأنه خلق القلق أو المنازعات في المعاملات. لذلك هم ينفرون من الغرر على كافة صوره. وقد توسعوا في بيان أحكام الجهالة الفاحشة واليسيرة. وذلك كله اتقاء للمنازعات. وسنرى أن هذه النزعة أيضاً قد ذهبت بهم بعيدا.

وأخيرا نقول كلمة عما وضع في القرن التاسع عشر الميلادي من التقنينات في التشريع الإسلامي
أما (المجلة العدلية) فقد قام بوضعها في آخر عهد الدولة العثمانية فريق من الفقهاء. وقد جعلوا منها مجموعة نصوص أوردها تحت أرقام متسلسلة. على أنهم لم يحاولوا قط إخضاع المسائل لقواعد عامة تكون هي موضوع المواد. فالمواد جاءت بالمسائل على أنها مسائل. وإن قليلا من المواد جاءت بتعاريف، منقولة هي كذلك عن الكتب الفقهية
وقام بعد ذلك في مصر (قدري باشا)، فوضع كتاباً سماه (مرشد الحيران) ذكر به مجموعة من الأحكام الشرعية على نسق القوانين المصرية. على أن محاولته وضع نظرية للالتزامات لم تفلح، فاكتفى بذكر طرق انقضاء الالتزامات وبعض أوصافها، وإن المواد التي وردت بها هذه الأحكام لا تخلو مع ذلك من الأغلاط. أما نظرية العقد كما أوردها فهي في الواقع نظرية عقد البيع
القانون المقارن - أما وقد بينا منهاج بحثنا في التشريع الإسلامي، نتساءل هنا هل يجدر بنا بعد الوصول إلى تعرف حقيقة هذا التشريع الرجوع إلى غيره من التشريعات لمقارنته بها
قد يبدو هذا ضروريا في زمن يكاد لا يخلو مؤلف فيه من مقارنة الشرائع. ولكنا رأينا الإعراض عن هذا الاتجاه، لنتمكن من توجيه جميع جهودنا نحو بناء هيكل التشريع الإسلامي في موضوع الالتزامات، حتى إذا ما تم هذا البناء، نكون قد مهدنا لمن يهمه ذلك، أن يقوم بدراسته المقارنة على أسس متينة
وهذا كله لا ينفي أننا في الواقع قد رجعنا إلى أكثر من تشريع واحد في موضوع دراستنا هذه. فأنا لم نخط سطرا واحدا إلا بعد إعمال الفكر في مختلف التشريعات، ليصح فهمنا، ووضعنا للمسألة على وجهها المطلق. فالمقارنة قد تمت بالفعل، ولو أن القارئ لا يقرؤها في الغالب قراءة العين
ونلاحظ هنا أنه من السخف محاولة الوصول عن طريق مقارنة الشرائع إلى إصدار الأحكام التقويمية على هذه الشرائع. فان التشريع كما قلنا ظاهرة من الظواهر الاجتماعية مقيد ككل ظاهرة بظروف الزمان والمكان، ويخضع كذلك لمنطقه هو نفسه، وإذا كان يجوز للغريب عن العلوم القانونية أن يدهش لغرابة بعض الأحكام، ففقيه النفس يرى فيها على العكس دليلاً جديداً على أن العقل البشري قد جاهد وناضل في مختلف البيئات في سبيل الوصول إلى (الحقيقة القانونية)
مقارنة المذاهب - وقد استبعدنا كذلك مقارنة المذاهب واكتفينا مؤقتا بدراسة مذهب (أبي حنيفة)
ذلك أنه قد تبين لنا أن الفقه الحنفي يمثل التشريع الإسلامي في أولى صوره وأنقاها، ولا نرى مجاراة ما هو شائع من أن المذهب الحنفي هو أقرب المذاهب إلى التشريعات الحديثة. فهو أبعدها عنها وإن كان في مسائل العبادات يبدو أكثرهم تسامحا من غيره
أما التقسيم المشهور للمذاهب، ما بين أهل الرأي وأهل الحديث، فهو أيضاً تقسيم لا نرى له معنى. فان جميع المذاهب في الواقع تلجأ إلى الاستدلال العقلي. سواء منها المالكية والشافعية والحنبلية. فمن المعروف أن نظرية (المصالح المرسلة) عند المالكية، و (الاستصحاب) عند الشافعية، تؤديان ما يؤدي إليه (الاستحسان) عند الحنفية. وهذا التقسيم لا يفيد سوى أن الفقه الإسلامي قد انتابه ما انتاب غيره من التشريعات. ففيها جميعها يتجاذب المفسرين دائما تياران، تيار التوسع، وتيار التضييق في التفسير.
ونلاحظ أن في موضوع الالتزامات قد راعى فقهاء المذاهب غير الحنفية احتياجات الحياة العملية أكثر مما صنعه فقهاء الحنفية. وذلك على رغم أن الأولين يتمسكون بالأحاديث في أكثر المسائل خلافا للأخيرين. ويبدو لنا أن فقهاء الحنفية قد اجتهدوا في جعل بنائهم التشريعي محكما، ففاتهم شيء من المرونة. أما الفقه المالكي فهو ظاهر الأخذ بما يتطلبه العمل من القواعد المعقولة. أما الفقه الشافعي فقد بقى مترددا بين النزعتين. بينما الفقه الحنبلي قد اكتفى بتخير الآراء من مختلف المذاهب، ولم يظهر عليه أي طابع خاص. وفقه الشيعة يقرب كثيرا من فقه الشافعية

يتضح مما تقدم أنه من المفيد إن لم يكن من الضروري إفراد الفقه الحنفي بدراسة خاصة. وفي الواقع أن الصناعة مختلفة فيه عنها في المذاهب الأخرى. وقد لا نبالغ إذا قلنا إن هناك تشريعا مالكيا، وتشريعا شافعيا، وتشريعا حنبليا كذلك

ونذكر هنا أنه قد حاول بعض الفقهاء في هذه المذاهب الارتقاء إلى المبادئ العامة، ومنهم (القرافي) في الفقه المالكي، و (العز بن عبد السلام) في الفقه الشافعي، و (ابن رجب) في الفقه الحنبلي، وفي الفقه المالكي نوع من المؤلفات وردت بها أحكام المحاكم، وقد سميت (بالعمليات)

ونذكر أخيرا أنه قد اكتشف المستشرق (جريفيني) كتابًا في فقه الشيعة الزيدية، قال عنه إنه أقدم ما وجد من كتب الفقه الإسلامي

وقد اهتم بعض الفقهاء منذ العصور الأولى، بإيراد أحكام المذاهب المختلفة مجتمعة، وهو ما يسمونه بعلم (الخلافيات). نذكر منهم (الطبري) و (الشعراني)؛ على أن هذا العلم لا يفيد في دراسة موضوعية للنصوص، ذلك أنهم يوردون الأحكام، كلاً منها بجانب الآخر، منتزعة من مذاهبها، والمسألة إذا انتزعت هكذا فقدت الكثير من قيمتها، وقد حاول (الشعراني) التقريب بين مختلف المذاهب، على أساس من الصوفية لا يهمنا

ومما تقضي به الطريقة التي نقول بها الاستعانة بكتب الطبقات، وتاريخ القضاة، والتاريخ العام لتتبع التطور التاريخي للتشريع، وتقضي كذلك بالرجوع إلى ما وصلنا إليه من الوثائق عما جرى عليه العمل بالفعل، من قواعد التشريع الإسلامي، كالأوراق البردية، وما قد يرد في كتب الآداب العامة من النصوص القانونية

(انتهى)

شفيق شحاتة

من زوايا الشباب

لَمْياءُ إن سالت يراعةُ شاعرٍ ... يشكو الغرام تسيل فيكِ جروحي //
شرحُ الصبابة في الوجوه فطالعي ... في ناظريَّ ووجنتيَّ شروحي
لم يبقَ لي فكر لنظم قصيدةٍ ... إلاَّ موشّح دمعيَ المسفوح
أفقدتني عقلي فقلتُ أردّه ... بالبعدِ عنكِ فكدتُ أفقدُ روحي

الشاعر القروي

عيني عليك

يا نجمةً في سماء الحسن طالعة ... عيني عليكِ ولكن أين منكِ يدي؟!
إحدى يديَّ إلى علياكِ أرفعها ... مستعطفاً ويدي الأخرى على كبدي
أليس تشجيكِ شكوى شاعرٍ ملأت ... آهاته الأرض وامتدَّت إلى الجَلَد
أما تهيجكِ أنَّاتٌ يرجّعها ... مستوحشاً وبشير الصلح لم يفدِ
هذا المحبُّ وهذا وصف حالته ... يُجْنَى عليه ولا يجني على أحد
لم تُبقِ منه عيون الغانيات سوى ... شيء من الروح في شيء من الجسدِ

فرحات

من طرائف الشعر المهاجر

كبد من تراب

تمر الليالي كمرَّ السحابْ
وتمضي الأماني كومض البروقْ
فحتَّامَ يغمر هدا الضبابْ
حواشي نفسي فلا تبصرْ
وتبحث عنك فلا تعثرُ
تراها أضاعت إليكِ الطريقْ
وكل جمالٍ عيوني تراه
ولحنٍ شجيٍّ بسمعي استقرْ
وكلَّ عبيرٍ يفوحُ شِذاهْ
وكل نسيم عليل بليلْ
يحدث عنك وما من سبيلْ
إليكِ وقد طال هذا السفَرْ

حنينٌ وشوقٌ وحبٌّ دفين
تُكابُده كبدٌ من ترابْ
فإِن يكُ في الأرض ماءٌ وطين
يحولُ ويفصلُ ما بيننا
وكنت اتخذتِ السُّهى موطناً
فيا ربِّ عّجل بيوم الذهابْ
م. معلوف
هي الدنيا
عادت إلى الأشجار أوراقها ... وعادت الدنيا تثير الشجون
تذكّر المسكين وادي الحمى ... ونام بالأحلام تحت الغصون
مرّي عليه اليوم ريح الصبا ... وأيقظيه من سبات الجنون
تحرشي بالورق ... وأسمعيه الحفيف
ردي إليه الرمق ... من قبل يأتي الخريف
يوم تمرّين على نائم ... أحلامه قد بددتها المنون
قالوا ربيع قلت أين الصبا ... أين الفراشات وأين الطيور؟
أيام أعدو خلفها حافياً ... وكيفهما في الحقل دارت أدور
طائرة لكنني مثلها ... من فرحي ما بين تلك الزهور
وكل ما في الوجود ... لنا حلال مباح
لا عاذل لا حسود ... لا غُرْبةٌ لا انتزاح
هذا ربيع أعطني مثله ... وخذ إذا ما شئت كل الدهور
(الولايات المتحدة)
رشيد أيوب
القصص
من الأدب الإيطالي
الوسيط
للقصصي الإيطالي (بوكاشيو)
بقلم محمد عبد اللطيف حسن
كان في فلورنسا منذ قريب سيدة إيطالية حسناء تدعى بريتولا، وقد اشتهرت هذه السيدة بين أهل بلدتها بمكرها ودهائها وسعة حيلتها، وكان ذكاؤها وفطنتها مثار دهشتهم، وموضع إعجابهم. ومما يؤسف له أنها كانت متزوجة من تاجر غني لا يفهم الحياة إلا من ناحيتها المادية، ولا يهتم بشيء قدر اهتمامه بما يجنيه من ربح ومنفعة من وراء تجارته! أما حاله مع زوجته فلم تكن حال الزوج الموافق المهتم! وهذا ما دعاها إلى النفور منه والميل غلى غيره
وقد أسعدها الحظ حينئذ برؤية شاب جميل كان دائم المرور أمام منزلها فأحبته حباً جماً وأصبح لا يهنأ لها بال أو يسعد لها حال ما لم تره مرة في كل يوم على الأقل!! وكان هذا الشاب - واسمه تنكريد - يجهل في مبدأ الأمر تعقلها به، وعنايتها بأمره، فلم يلتفت إليها ولم يهتم بها
وبالرغم من أن تجاهله لها كان يضايقها ويكدر عليها صفوها، فإنها كانت حريصة فلم تحاول الاتصال به عن طريق الاستفسار عنه أو إرساله الرسائل إليه خشية أن يلحظ أحد علاقتها به أو يكتشف سر حبها له؛ وهداها تفكيرها آخر الأمر إلى أن تلفت نظره إليها وتجتذب قلبه نحوها عن طريق قسيس ورع كان من أخلص رفقائه وأكثرهم له وفاء ومحبة
وبعد أن اختمرت هذه الفكرة في رأسها ذهبت إلى الكنيسة التي يقيم بها هذا القسيس وابتدرته بقولها:
- لقد جئت إليك يا سيدي أطلب معونتك في أمر مهم سأشرحه لك. ولعلك تذكر أنني أخبرتك في مرة سابقة عن أقاربي وزوجي الذي يحبني أكثر من حبه لحياته، والذي لم يتأخر في يوم من الأيام عن تحقيق ما أطلبه منه!! ولهذا أحببته أنا الأخرى حبا شديدا وأصبحت لا أطيق الفراق عنه أو أستطيع الحياة بدونه!! أما ما جئت إليك اليوم من أجله فهو أن هنالك شابا يدعى تنكريد، وهو كما علمت من بعض الناس صديق حميم

لك، اعتاد أن يمر من أمام منزلي كل يوم، وفي كل مرة يمر فيها أراه يرمقني بنظراته التي تدل على شدة حبه لي، وكثرة هيامه بي. وقلما يحول بصره عني طيلة الوقت الذي أكون فيه مطلة من نافذة غرفتي. فاضطر إلى مغادرة النافذة أو إغلاقها في وجهه خشية أن يتقول علي الناس بما يشين سمعتي أو يسيء إلى شرفي. وليس ببعيد يا سيدي أن يكون تنكريد هذا قد تعقب خطاي ورآني وأنا أدخل هذه الكنيسة، أو من المحتمل أن يكون الآن في انتظاري خارجها! وأصدقك القول يا سيدي أن هذا الأمر قد أصبح يضايقني أكبر المضايقة، ويؤلمني أشد الألم. بل لقد بلغ الأمر بي إلى حد أنني أصبحت أفضل الموت على أن أكون مضغة في أفواه الناس!

وبعد أن استرحت برهة قصيرة تابعت حديثها فقالت:

- وكثيرا ما فكرت يا سيدي في أن أحيط أخوتي أو زوجي علما بهذا الموضوع الشائن، ولكني لا ألبث في كل مرة أن أحجم عن ذلك حينما أتذكر أن الرجال غالبا ما ينهون مثل هذه الأمور بالضرب المؤلم الذي قد يفضي إلى الموت في كثير من الأحيان! وأخيرا استقر رأيي، حقنا للدماء وحسما للنزاع، على أن أطلب مساعدتك لسببين: الأول أن هذا الشخص صديقك فتستطيع من هذه الناحية أن تردعه بنفسك؛ والثاني أن من أهم واجبات القسيس الورع التقي إصلاح سيئات الناس وخطاياهم سواء أكانوا أصدقاء أم غرباء. وأنا أتوسل إليك يا سيدي أن تنصح صديقك هذا بالكف عن مغازلتي والامتناع عن النظر إلي. وإذا كان لابد له من هذه المغازلة فهناك كما أعلم سيدات كثيرات غيري يتمنين من صميم أفئدتهن أن يكن عشيقات وفيات له!!

ولما انتهت بريتولا من بث شكواها نكست رأسها كما لو كانت توشك أن تبكي من شدة الحزن والتأثر!!

ولم يشك القسيس الساذج في شيء مما قالته، بل أخذ عليه العكس يمتدح خصالها الطيبة ويثني على حسن تصرفها ورجاحة عقلها!! ووعدها أخيرا بتحقيق رجائها وإجابة ملتمسها.

وقبل أن تغادر بريتولا الكنيسة قالت للقسيس الطيب القلب:

- ولا تنس يا سيدي أن تخبر تنكريد إذا دفعته الجرأة إلى إنكار شيء مما قلته لك، بأنني قد أتيت إليك بنفسي واعترفت أمامك بكل شيء. . .

وفي اليوم التالي أرسل القسيس في طلب صديقه تنكريد. ثم انتحى به جانبا وأخذ يلومه بلهجة هادئة، وعبارة متزنة، على تصرفه الشائن مع بريتولا. . .

ودهش تنكريد بطبيعة الحال لهذا الاتهام الذي لم يخطر على باله، لأنه، كما قلنا، لم يرفع بصره إلى بريتولا في مرة من المرار التي كان يمر فيها أمام منزلها؛ وبالرغم من أنه نفى عن نفسه هذه التهمة بشدة، فان صديقه القسيس لم يصدق ذلك وقال:

- لا تتظاهر بالدهشة يا عزيزي من هذا الأمر، ولا تحاول أن تنكر هذه التهمة لأنني سمعتها من شفتي بريتولا نفسها. . .

وبعد أن سكت برهة قال:

- ولعلك تعلم يا تنكريد أن هذا السلوك الشائن وذلك التصرف السيئ لا يليقان برجل فاضل مثلك، وإني أنصحك نصح الصديق المخلص أن تدع هذه السيدة الفاضلة تعيش في هدوء وسلام مع زوجها الذي تحبه إلى حد العبادة! ولا تحاول أن تقلق راحتها أو تفسد حياتها مرة أخرى. . .

ولم يغب عن بال تنكريد غرض بريتولا من هذا الاتهام الكاذب. وقبل أن يغادر الكنيسة وعد صديقه ألا يعرض لبريتولا ولا أن يضايقها بعد ذلك. فاستراح القسيس لهذا الوعد وشكره على شهامته ونبل أخلاقه

وقصد تنكريد من فوره إلى منزل بريتولا. ولحسن حظه وجدها في انتظاره كالمعتاد في نافذة غرفتها

وما كادت بريتولا تراه وهو مقبل على منزلها حتى ابتسمت له ابتسامة خبيثة ماكرة، وتجلى البشر والسرور في قسمات وجهها، وحيته بهزة خفيفة من رأسها الجميل وتأكد تنكريد الآن أنه لم يكن مخطئا في زعمه، فابتسم لها ابتسامة رقيقة عذبة ورد تحيتها بأحسن منها. . .

ومنذ هذا اليوم أخذ يصوب نظره إليها في كل مرة يمر فيها من أمام منزلها، فكان ذلك سببا في سرورها وغبطتها. . .

والظاهر أن بريتولا لم تكتف بهذا الفوز الباهر بل أرادت أن تتقدم في سبيل حبها خطوة أخرى. فذهبت إلى القسيس وألقت بنفسها بين قدميه، وأخذت تبكي بكاء مرا. فدهش القسيس وسألها عن سبب بكائها! فأجابته بريتولا دون أن تكف عيناها عن البكاء.

- إنني أبك يا سيدي صديقك الملعون الذي شكوته إليك من قبل

فقطب القسيس ما بين حاجبيه وسألها قائلا:

- ألا يزال هذا الرجل يضايقك؟

فأجابته بريتولا وهي تبكي:

- نعم. فمنذ أن شكوته إليك وهو لا يفتأ يضايقني بنظراته الوقحة، ويؤلمني بابتساماته السخيفة. وليس هذا فقط. بل أنه بعد أن كان يمر من منزلي مرة واحدة أو مرتين في اليوم أصبح يمر الآن ما لا يقل عن سبع مرات!!

وبعد أن نهنهت دموعها الجارية تابعت حديثها فقالت:

- وليت الأمر قد انتهى عند هذا الحد، فبالأمس أرسل إلى من قبله عجوزا لا أعرفها. وبعد أن عرفتها بنفسي أعطتني حقيبة جلدية نفيسة ومنديلا حريرا غالي الثمن، وقالت لي وهي تبتسم ابتسامة ذات معنى إنها مهداتان إليَّ من تنكريد! ولا أكتمك يا سيدي أنني غضبت لذلك غضبا شديدا وكنت على وشك أن أطردها هي وهدية تنكريد خارج منزلي، لولا أنني خشيت أن تحتفظ بالحقيبة والمنديل لنفسها دون أن تخبره برفض هديته! ففضلت ان آخذهما منها! وقد رأيت من الواجب أن أحضر معي هذه الهدية لكي تردها إليه وتخبره بأنني لست في حاجة إلى شيء منه. وأرجو أخيرا أن تحذر صديقك هذا بأنه إذا لم يكف عن مضايقتي، فأنني سأضطر حتما إلى إخبار زوجي أو أخوتي بكل شيء مهما كانت النتائج التي تترتب على ذلك قالت ذلك وقدمت الحقيبة والمنديل للقسيس وهي تتظاهر بالحزن والغضب لإهانة تنكريد إياها!!

وظن القسيس لسذاجته وسلامة صدره أن ما قالته بريتولا قد حدث بالفعل، فغضب لذلك غضبا شديدا، وقال لها بعد أن فكر برهة:

إنني لا أستغرب يا سيدتي شدة حزنك لهذا الأمر، ولست ألومك بالطبع على شيء مما حدث. بل إنني على العكس أشكرك على اتباعك نصيحتي، وعملك بمشورتي. ومع أنني لمت تنكريد عندما زارني لأول مرة، فانه على ما يظهر لم يرعو عن غيه، ولم يرتدع عن ضلاله، ولهذا عولت على أن أوبخه توبيخا شديدا على هذا السلوك المعيب. وأرجو يا سيدتي ألا تنقادي لعاطفتك فتخبري زوجك أو أخوتك بهذا الأمر، فان نتائجه السيئة لا تخفى بالطبع على سيدة عاقلة مثلك، بل اتركي كل شيء وأنا أتصرف فيه بعقلي وحكمتي.

وما كادت بريتولا تبرح الكنيسة حتى أرسل القسيس في طلب صديقه تنكريد مرة أخرى. فلما جاء قابله بوجه عابس وجبين مقطب. واستنتج تنكريد من ذلك أنه لابد وأن تحادث مع بريتولا فانتظر بفارغ صبر ما سيقوله له. ولم يطل انتظاره طويلا إذ انهال عليه القسيس بوابل من الشتائم واللعنات بعد أن أعاد على مسامعه كل ما ذكرته بريتولا له.

وبالرغم من أن تنكريد أنكر بشدة إرساله الحقيبة والمنديل إلى بريتولا، إلا أن القسيس لم يصدق قوله، بل اشتدت حدته وازداد غضبه عن ذي قبل ثم قال:

- كيف تنكر ذلك أيها الشرير المنافق مع وجود دليل المادي على ارتكاب فعلتك؟

ثم نهض من مقعده، وأحضر الحقيبة والمنديل وناولهما إياه ثم قال:

- أليس في هذا الكفاية؟ فشعر تنكريد - مع براءته - بالخجل لوجود ذلك الدليل القاطع ولما لم يجد بدا من الاعتراف بهذه التهمة المنسوبة إليه قال:

- نعم. لقد أرسلت إلى بريتولا هذه الهدية لأنني كنت أحبها كغيرها من النساء، ولكني بعد أن تأكدت الآن أنها تختلف عنهن كل الاختلاف، فإني أعدك بشرفي ألا أرتكب ما يسيء سمعتها أو يجرح شعورها. وثق يا سيدي أنك لن تسمع منها بعد اليوم شكوى

ولم ينس تنكريد أن يأخذ معه الحقيبة والمنديل قبل أن يغادر الكنيسة بعد أن اقتنع تماما من أن بريتولا تحبه حبا جما، وتهيم به هياما شديدا، وأنها ما فعلت ذلك إلا بدافع هذا الحب والهيام. . .

وقصد تنكريد من فوره إلى منزل بريتولا حيث كانت لحسن الحظ في انتظاره

كالمعتاد، وما كاد صاحبنا يلمحها من بعيد حتى أخرج من تحت إبطه الحقيبة والمنديل وأراهما إياها. فسرت بريتولا سرورا شديدا لأنها عرفت حينئذ أن خطتها المرسومة سائرة في طريق
التقدم.
ولم يبق إلا غياب الزوج عن منزله لتكلل خيانة بريتولا بالنجاح التام. ولم يطل انتظارها طويلا إذ اضطر الزوج بعد بضعة أيام من وقوع الحادث السابق إلى السفر إلى جنوا، للقيام بإحدى المشاغل الضرورية التي تتطلبها طبيعة عمله
وذهبت بريتولا إلى القسيس مرة ثالثة عقب سفر زوجها مباشرة وقالت له وهي تبكي:
- لقد سبق أن قلت لك يا سيدي بصراحة أنه لا يمكنني أن أحتمل مضايقة تنكريد أكثر من ذلك. ولما كنت قد وعدتك بالا أقدم على عمل شيء قبل مشورتك، فقد جئت إليك اليوم لأشكو لك من صديقك تنكريد. . .
فذهل القسيس حينما سمع منها ذلك وسألها قائلا:
- ألا يزال هذا الملعون يضايقك؟؟ فقال له: بريتولا وهي تتظاهر بالحدة والغضب:
- نعم. ففي مساء الليلة الماضية دخل حديقة منزلي بعد أن علم بسفر زوجي إلى جنوا - ولست أدري كيف - وتسلق إحدى الأشجار إلى نافذة غرفتي، والتي كانت لسوء حظي مفتوحة في ذلك الوقت. وكنت على وشك أن أصرخ عندما رأيته في غرفتي لولا أنه توسل إلي ألا أفعل ذلك، ورجاني بأن أكون رحيمة به فلا أرتكب ما يلفت أنظار الناس إليه. وأقول لك الحق يا سيدي إنني خضعت لتوسلاته ولم أفعل شيئاً أكثر من أنني طردته من نفس النافذة التي جاء منها ثم أغلقتها وراءه بشدة. . .
وبعد أن سكتت برهة تابعت حديثها فقالت:
- والآن أرجو أن تحكم يا سيدي بنفسك في هذا الأمر وتخبرني هل في إمكاني أن أحتمل مضايقة تنكريد أكثر من ذلك؟؟ أو ليس من الواجب أن أخبر أخوتي بما فعله حتى يردوه إلى صوابه، ويعيدوا إليه ما عزب من عقله؟؟
واحمر وجه القسيس حينما سمع ذلك وفار دم الحنق والغضب حارا في عروقه وقال:
- وهل أنت متأكدة من أن الذي دخل غرفتك إنما هو تنكريد دون غيره؟؟
فأجابته بريتولا وهي لا تزال تبكي:
- وهل يمكنني يا سيدي أن أخطئ في معرفته بعد كل ذلك؟؟ فأنا واثقة تمام الثقة من أن الشخص الذي دخل غرفتي إنما هو تنكريد نفسه. وإذا تجاسر وأنكر ذلك أمامك - وهذا ما سيفعله بالطبع - فأرجو منك ألا تصدقه. . .
وبعد أن مرت بين الاثنين فترة سكوت قصيرة قطعها القسيس بقوله:
- إن ما فعلته يا سيدتي إنما هو الصواب بعينه؛ وقد قمت بواجبك خير قيام. ولست أنكر أن عمل تنكريد في منتهى الخسة والدناءة، ولكني مع ذلك استحلفك بالله أن تتركي هذا الأمر لي مرة أخرى دون أن تخبري أخوتك بشيء مما حدث؛ وسترين بعد ذلك إذا كان في إمكاني أن أقوم اعوجاج تنكريد. فإذا أفلحت كان بها، وإذا فشلت فسأترك لك الخيار في أن تتصرفي في هذا الأمر كما تشتهين. . .
وقبل أن تغادر بريتولا الكنيسة قالت للقسيس وهو يودعها:
- تأكد يا سيدي بأنني لن أضايقك بهذه المسألة بعد الآن. وقد استقرر رأيي على ألا أخبرك بشيء في هذا الموضوع مطلقا
وما كادت بريتولا تبرح الكنيسة حتى استدعى القسيس صديه تنكريد بعد أن استقر رأيه على أن يزجره زجرا شديدا وأن يعنفه تعنيفا قاسيا. ولما حضر قابله بوجه مقطب، ومظهر قاس، ثم انتحى به ناحية من الكنيسة وأخذ ينهال عليه بالشتائم واللعنات التي كانت تزداد حدتها شيئاً فشيئاً، بينما جلس الآخر في مكانه هادئا ساكنا كما لو كانت هذه الشتائم واللعنات موجهة إلى غيره! وأخيرا تضايق تنكريد من تأنيب القسيس وقال:
- ما الذي فعلته يا صحابي حتى استحق منك كل هذه الشتائم؟
فازداد غضب القسيس لهذا الإنكار وضحك ضحكة ساخرة ثم قال:
- ألا تدري ماذا فعلت أيها الأحمق؟ إنك تتكلم كما لو كان هذا الأمر لا يعنيك. . .
فتظاهر تنكريد بالدهشة وقاطعه بقوله:

- عن أي أمر تتحدث يا مولاي؟؟
فحملق القسيس في وجهه بشدة وقال:
- أين كنت في مساء الليلة الماضية؟؟
فأجابه تنكريد بهدوئه وسكونه المعتاد:
- لست أدري بالضبط يا سيدي!!
فازدادت ثورة القسيس ثم قال:
- سأخبرك أين كنت أيها المخادع الشرير!!
وبعد أن استجمع شتات تفكيره تابع حديثه فقال:
- لقد دخلت حديقة بريتولا في مساء الليلة الماضية ثم تسلقت إحدى الأشجار إلى غرفتها، وكاد أمرك يفتضح لولا أنها أشفقت عليك ورأفت بك ولم تفعل شيئاً أكثر من أنها طردتك من نفس الطريق الذي جئت منه!!
ولم يغب عن بال تنكريد ماذا تقصده بريتولا من هذا الكلام الذي قالته للقسيس، وأخذ يفكر فيما يجب عليه أن يفعله في مساء تلك الليلة، ولكن القسيس ما لبث أن قطع عليه حبل تأملاته فقال:
- إنك تظن أيها المنافق أن في إمكانك أن تحمل هذه السيدة الفاضلة على حبك. . . ولكن لا! ولست أغالي إذا قلت لك انك أصبحت الآن أبغض الناس إليها، وأثقلهم على قلبها! وليس هذا فقط، بل أنك أمسيت في نظرها كالطاعون الذي لا يترك إنسانا إلا بعد أن يفتك به! حقا إنك لم تستمع لنصحي ولم تأبه لإرشادي، ولكني أؤكد لك بأن الأمر قد خرج الآن من يدي. فإذا لم ترتدع، فستضطر بريتولا إلى إخبار اخوتها أو زوجها بكل ما فعلته معها، وفي هذا كما تعلم ويل وعذاب لك. . .
وبعد أن هدأ تنكريد ثورة القسيس بوعوده وتوسلاته غادر الكنيسة وهو على أشد ما يكون من الفرح والسرور وفي المساء ذهب إلى منزل بريتولا ثم دخل الحديقة وتسلق الشجرة التي تؤدي إلى نافذة غرفتها، والتي تركتها مفتوحة لهذا الغرض. ولما دخل الغرفة قابلته حبيبته يشغف ظاهر وسرور عظيم، وتعانق الاثنان عناقا حارا وهما يشكران هذا القسيس الذي كان واسطة التعارف بينهما!
ومن بعد هذا اليوم أصبح العاشقان الفاسقان يتقابلان دون أن يحتاجا إلى وساطة هذا القسيس الطيب القلب!!

محمد عبد اللطيف حسن

البريد الأدبي

كتاب عن البحر الأبيض

أضحى البحر الأبيض مسرحا للمنافسات الدولية المزعجة، وأضحت مشاكله من أعقد المشاكل الدولية وأخطرها؛ وقد ظهر أخيرا بالإنكليزية كتاب عن هذا البحر ومشاكله السياسة والعسكرية الكبرى بعنوان (البحر الخطر) بقلم الكاتب والصحفي الإنكليزي الكبير جورج سلوكومب؛ ويقسم الكاتب كتابه إلى خمسة أقسام يتحدث فيها عن المسائل السياسية والدولية والبحرية والعسكرية، ثم عن المشاكل والاحتمالات الغامضة التي تثيرها ظروف هذا البحر الجغرافية من جبل طارق إلى جزائر الدوديكانيز؛ ويمهد لمضوعه بنبذة تاريخية عن هذا البحر، والأمم التي قامت على ضفافه منذ غابر العصور، ثم يتحدث عن مركز إنكلترا في جبل طارق، وكونها تفيض على مفتاح البحر من غربه، ويقول إن سلامة جبل طارق وسلامة السيادة البريطانية هنالك تتوقفان على علاقة إنكلترا بالدولة التي تسيطر على قلعة سبتة المراكشية، وعلى استمرار حالة الحياد القائمة في ثغر طنجة.
وينوه المؤلف بموقف إيطاليا الحالي، ويقول: إنه أول موقف من نوعه تنازع فيه دولة عظمى سيادة بريطانية في هذا البحر منذ عصر نابوليون، ولأول مرة قد افتتحت قناة السويس، وتحولت تجارة الغرب إلى الشرق عن طريقها، وغدا البحر الأبيض شريانا حيويا للإمبراطورية البريطانية، تنهض دولة واقعة في منتصف الطريق، وتلقى إشارات لا ريب فيها بأنها تستطيع أن تقطع المواصلة بين جبل طارق وقناة السويس؛ ويقرن المؤلف ذلك بإحصاءات دقيقة عن القوات البحرية والعسكرية التي تملكها دول البحر الأبيض: فرنسا وإيطاليا ويوجوسلافيا وبلاد البلقان وتركيا.
ويعطف المؤلف بعد ذلك على مركز إيطاليا في ألبانيا وعلى مسألة العلائق المصرية

الإنكليزية، وعلى مركز الدردنيل وموقف روسيا، ثم على نهضة البلاد العربية التي أخذت تبدو بكل شكل واضح؛ ثم يتحدث عن الحرب الأهلية الإسبانية، ويبين مكامن الخطر فيها على السلام الأوربي، سواء نجحت الثورة القائمة فيها أم أخفقت ويشعر القارئ عند قراءة هذه الفصول القوية الواضحة التي يستعرض فيها المستر سلوكوب مشاكل البحر الأبيض، أن الخطر يجتم هنالك في كل ناحية من نواحيه، وإن هذا
العامل الذي لم يحسب حسابه من قبل في السياسة الأوربية قبل أن تستكمل إيطاليا تسلحها وأهباتها العسكرية يغدو اليوم من أخطر وأهم العوامل التي يتوقف عليها سير السلام الأوربي وتتوقف عليها سلامة الإمبراطورية البرطانية.

عبقرية فنان مسلم

نوهت الصحف الفرنسية أخيرا بعبقرية فنان جزائري مسلم يدعى السيد محمد راسم، يعرض رسومه الآن في معرضه الخاص بباريس في شارع فوبور سانت أورنوريه. ومما قالته جريدة الايكودي باري في ذلك: إن المرء ليشعر بعاطفة من الهدوء والنبل والغبطة حينما يتأمل رسوم محمد راسم؛ وإن أولئك الذين يزعمون أن الزخرفة الإسلامية متماثلة يرون ما يبهرهم في تنوع النماذج التي يقدمها وفي طرافتها، وفي ذلك المزيج المدهش الذي يتجلى فيها سواء من حيث التناسق أو اللون أو الأسلوب؛ ومنه نماذج فارسية ومغربية ومصرية تنم كلها عما يحتوه الفن الإسلامي من فن التوازن والتناسق وقوة الإعراب والتأثير

ويعرض محمد راسم أيضاً صورا صغيرة بعضها يمثل مناظر تاريخية مشتقة من التاريخ الإسلامي، وبعضها يمثل مناظر عربية؛ كما أنه يعرض قطعا فنية من الخزف البديع تمثل مناظر مدهشة من وقائع القرصان الجزائريين في القرن السابع عشر، ومناظر الفرسان المسلمين

والواقع أن الفن العربي لم يفقد شيئاً من طرافته ولا أوضاعه التقليدية، وفي وسعه أن يعبر بكل قوة وبراعة عن مناظر عصرنا، وفي وسعه بنوع خاص أن يعبر دائما من تلك الأفكار والمناظر التي خلدها الشعر العربي وأذاعها في العالم بأسره

هذا قول الكاتب الفنان في الصحيفة الفرنسية، فما قول سادتنا المتفرنجين الذين ينكرون على الفن الإسلامي كل فضائله ومزاياه؟

جائزة نوبل للطب

من أنباء استكهلم (السويد) أن جائزة نوبل للطب والفسلجة لسنة 1936 قد تقرر منحها للأستاذ السير هنري هالت ديل عضو المجمع الوطني للمباحث الطبية بلندن، والأستاذ
أوثوليفي النمسوي الأستاذ بكلية حراتس، وذلك لمباحثهما المتعلقة بالتأثيرات الكيماوية للمؤثرات العصبية.

والمعروف عن الأستاذ ليفي أنه أول من اكتشف أثر التفاعل الكيماوي في الاهتزاز العصبي، فإذا انطلقت الهزة إلى الأنسجة العصبية واستقرت في العضل نشأت عنها مادة كيمياوية في العصب النهائي، واستطاع العصب أن ينقل هزاته بواسطة هذه المادة.

وقد توسع السير هنري ديل في تطبيق هذه النظرية؛ وهو يقسم حسب مباحثه أعصاب الجسم إلى مجموعتين؛ فالمجموعة الأولى تفرز مادة كيماوية تسمى (الأدرينالين)، والمجموعة الثانية تفرز مادة تسمى (اكتلكولين)، وأهمية هذا التقسيم في أن هنالك مؤثرات معينة يمكن إحداثها في الأعضاء وفي هيكل الجسم بالحقن بمثل هذه الموارد وبمواد معينة تحدث أثرا يقلد في هزاته هزات الأعصاب الطبيعية

وجائزة نوبل للطب تبلغ نحو عشرة آلاف جنيه إنكليزي وستوزع مناصفة بين العالمين الكبيرين

شارل موراس محرر لاكسيون فرانسيز

قرأنا في الصحف الفرنسية الأخيرة نبأ اعتقال شارل موراس الزعيم والكاتب الملكي الشهير وزجه في سجن (سانتيه) ليقضي فيه عقوبتين حكم بهما عليه من جراء مقالات عنيفة كتبها في جريدة (لاكسيون فرانسيز) ضد بعض رجال الحكم؛ وشارل موراس كاتب وروائي من أعظم كُتاب فرنسا المعاصرين وصحفي من الطراز الأول،

وقد اشتهر بنوع خاص بمقالاته في لاكسيون فرانسيز وما تمتاز به من تصوير عنيف وقوة نقدية لاذعة، وبلاغة ساحرة في نفس الوقت
وقد نشرت الصحف الفرنسية بهذه المناسبة بعض تفاصيل عن النظم المتبعة في تنفيذ أحكام الحبس التي يقضى بها في جرائم الرأي أو الجرائم السياسية، والتي عومل بها شارل موراس؛ وهي في الواقع نظم مريحة عادلة؛ فالكاتب المحكوم عليه يحجز في غرفة خاصة بها الأثاث الكافي، وله أن يستلم بريده الخاص من رسائل وكتب وصحف وغيرها كما أن له أن يستقبل زواره طبقا لقائمة يقدمها بذلك ويصادق عليها مدير البوليس؛ وله أن يطلب على نفقته ما شاء من ألوان الطعام إذا لم يوافقه طعام السجن، وأن يستبقي ملابسه العادية،
وأن يستحضر منها ما شاء، كما أن له أن يتريض داخل السجن طبقاً لنظام معين. وهكذا يستطيع الكاتب المعتقل أن يزاول داخل السجن عمله العادي من قراءة وكتابة.
ومن ثم فان شارل موراس سيكتب مقاله كل يوم وتنشره لاكسيون فرانسيز كالمعتاد. وتتحدث الصحف على اختلاف نزعاتها عن الكاتب السجين بعطف، ويشير البعض إلى أن شارل موراس قد يرشح خلال اعتقاله لعضوية الأكاديمية الفرنسية.
الكتب
في سنن الله الكونية - 1
تأليف الأستاذ محمد أحمد الغمراوي
النتائج السياسية للحرب العظمى - 1
ترجمة الأستاذ محمد بدران
للأستاذ محمود الخفيف
- 1 -
تفضل الأستاذ الغمراوي فأهدى إلي كتابه (في سنن الله الكونية) فرأيت وقد فرغت من قراءته أن أقدمه إلى قراء الرساله، ولكنني أحس أني كي أصف موضوع هذا الكتاب، وصفا صادقا، ولكي أقدره حق قدره في مثل هاتيك العجالة، ينبغي أن أتجاوزه إلى كلمة عن مؤلفه، وإن كنت أشعر أن ذلك سوف لا يرضيه.
يجمع الأستاذ بين خلتين قليل اجتماعهما لشخص: فهو من ناحية شديد الإخلاص لدينه مع التفقه فيه، ومداومة البحث في مسائله، حتى لكأنك منه حيال رجل يقصر على الأمور الدينية همه؛ وهو من ناحية أخرى رجل من رجال العلم المعروفين بالفطنة وسعة الاطلاع مع الدقة وحب البحث، ثم هو من الناحيتين يكاد يعطيك نموذجا صحيحا لتلك (الحلقة المفقودة) التي نتوق إلى وجودها لنصل بها ما بين الثقافتين العلمية والدينية
فإذا قلت لك بعد هذا أن الكتاب صورة من صاحبه فقد قربت موضوعه إلى ذهنك، واستطعت بعد أن أزيدك معرفة به
كان من حسن التوفيق أن انتدبت الجامعة ألازهرية الأستاذ الغمراوي فيمن انتدبت من الأساتذة، فهذا الكتاب (ثمرة تدريس علم سنن الله الكونية في السنة الأولى من قسم الوعظ والإرشاد بكلية أصول الدين. وعلم سنن الله الكونية هو العلوم الطبيعية مطبقة على الدين)
بدأ الأستاذ هذا الكتاب بفصل ممتع بين فيه بيان خبرة ووثوق أن ليس ثمة أي تناقض بين حقائق العلم وحقائق الدين، وهو يؤيد دعواه بالحجة مستشهدا بآي الذكر الحكيم، فلا يسعك
إلا أن تسلم معه بأن (العلم قرآني بموضوعه) وأنه (قرآني بطريقته)، فقرآنية العلوم الطبيعية واضحة ملموسة فيما ورد في الكتاب الكريم من آيات التدبر والتفكر فيما خلق الله في السموات والأرض؛ وسبل العلم في طلب أسرار الفطرة أو في تفهم سنن الله في كونه هي السبل التي أمرَ القرآن باتباعها من حيث تمحيص الحقائق والاستناد إلى البراهين وتحكيم العقل. والاعتماد إلى جانب ذلك على المشاهدة.
راح الأستاذ بعد هذا يعرض المسائل العلمية التي يشتمل عليها كتابه، وهو فيها مقيد بمنهج دراسي خاص؛ وأحب أن أشير هنا إلى أني كنت احسبني قبل قراءتها حيال مسائل لا تهم كثيرا من يشتغل بالأدب، ولكني قرأتها في يسر واستمتاع وخرجت منها وقد كسبت من المعارف ما صرت أعتقد أنه لا غنى عنه لمن يطلب الثقافة. فالكتاب

إذاً يستطيع أن يقرأه الإنسان على أنه كتاب عام لا كتاب مدرسي؛ وبهذه المناسبة يجدر بي أن أقرر أن الأستاذ قد توخى فيه سهولة العبارة وبساطة توجيه المسائل، وفي مثل هذا العمل لا ريب من العناء ما يعرفه كل من حاول أن يقرب إلى الأذهان موضوعات يعلم أنه يطرقها لأول مرة

هذا ولم يقف جهد الأستاذ المؤلف عند تبسيط المعلومات وحسن توجيهها، بل إنه تمشيا مع طريقة كتابه يقف عند المناسبات المختلفة ويشير إلى الآيات القرآنية التي تتصل بالموضوع فيعرضها في لباقة ووضوح مبينا لك مراميها وإعجازها في غير تكلف أو التواء، وتلك هي في الحقيقة حسنة الكتاب. وإذا كان لي أن آخذ على الأستاذ شيئاً، فذلك أنه مع مثل هذا الاستعداد وهذه المزايا، لا يخرج لنا كتابا واسعا يبسط فيه موضوع العلاقة بين العلم والدين، ذلك لأنه (إذا تم للإنسان هذا الجمع بين العلم والدين ثم ما يصح أن يسمى بعلم سنن الله الكونية، واستطاع الإنسان أن يدرس العلم بروح العبادة من غير أن يضحي بشيء من دقة العلم، وأن يدرس الدين ويطبقه بروح العلم من غير أن يضحي بشيء من عبادة الدين، وهنالك يتم للإنسان الاتحاد بين عقله وقلبه، وبين علمه ودينه، وهذا شيء ممكن تماما في الإسلام

يأتي بعد ذلك الكلام على الكتاب الثاني (النتائج السياسية للحرب العظمى). وهو كتاب ألفه بالإنجليزية الأستاذ رمزي ميور أستاذ التاريخ الحديث بجامعة منشستر سابقا، وترجمه إلى

العربية الأستاذ محمد بدران، وقدمته لجنة التأليف والترجمة والنشر إلى الجمهور كحلقة من سلسلة معارفها العامة، تلك السلسلة المباركة التي أخرجت اللجنة عدة حلقات منها في نواحي المعرفة المختلفة من فلسفة وتربية وأدب وتاريخ وغيرها، والتي ستوالي اللجنة بعون الله إصدار بقية حلقاتها حتى تشمل جوانب النهضة العملية في مصر والعالم العربي.

أثرت الحرب العظمى تأثيراً عظيماً في مجرى تاريخ العالم وخلف ذلك الحادث من النتائج مالا تزال أوروبا حتى اليوم تخضع لمؤثراته. ولقد شمل أثر الحرب جميع نواحي الحياة من فكرية وفنية واقتصادية، ولكن أثرها في الناحية السياسية كان أبعد منه في غيرها، وعلى نوع هذا الأثر يتوقف مصير العالم بلا ريب في المستقبل القريب.

ولا نزاع في أن تتبع الأثر الذي أنتجته الحرب في العالم من أهم نواحي الثقافة العامة، ونحن من الوجهة السياسية على الخصوص لا نستطيع أن نفهم منشأ الحركات الدولية الحديثة، ولا أن نتبين مبادئها ومراميها دون أن نرجع في هذا كله إلى ما تمخضت عنه الحرب الكبرى. والكتاب الذي اضطلع بتعريبه الأستاذ بدران فأنجز مهمته على خير ما يرجى، كفيل بأن يعطيك فكرة واضحة قوية عما خلفته تلك الحرب (فهو خلاصة تاريخ العالم في دور من أدوار الانتقال لا يكاد يختلف عن الفوضى في شيء)، ومؤلفه أستاذ متضلع في التاريخ الحديث، ملم بتياراته واتجاهاتها، ولذا كان شديد التنبؤ لما أحدثته فيها الحرب، واضح الفكرة في تتبع الحوادث، حسن الأداء في عرضها، مما يجعلك تقرأ الكتاب في يسر ولذة، ومما يجعلك تغتبط أشد الاغتباط أن ترى مثل هذا الكتاب في متناول قراء العربية.

أما عن الترجمة، فلقد تجلت شخصية الأستاذ بدران فيها قوية متينة، فما تكاد تشع إلا كأنك تقرأ الأصل، فليس هناك غموض أو التواء في التعبير أو أية صعوبة في الأداء مما يصادفه المرء عادة في الكتب المترجمة؛ هذا إلى انتقاء دقيق للفظ العربي المطلوب مع الحرص على الإيجاز وإيراد المعنى في صورة واضحة. والحق أشهد أن الأستاذ بدران قد وفق في تعريبه إلى خير ما يطمع فيه المعرب المخلص النابه.

هنا ولقد ختم الأستاذ المعرب الكتاب بفصل من عنده هو (العالم بين يونيه سنة 1930 ويونيه سنة 1936، تكلم فيه عن النزاع بين الصين واليابان والمسألة الحبشية والحركة

النازية وحوادث البلقان والشرق الأدنى، وهو فصل ممتع حقا رأينا فيه الأستاذ بدران كمؤلف حريصاً على الإتقان والتفوق حرصه على دقته فيما عرب مع صعوبة تناول مثل هذا الموضوع المتشعب في مثل هذا الحيز الصغير، وإنك لتقرأ هذا الفصل الأخير من الكتاب فتحس كأنك قرأت كتاباً كاملاً وتعجب كيف استطاع الأستاذ أن يلم بأطراف

موضوعه في مثل هذا الإتقان.
الخفيف
العالم المسرحي والسينمائي
الحروب الصليبية على ستار سينما رويال
لناقد (الرسالة) الفني
أنصف سيسل دي ميل الشرق في فلمه الأخير (الحروب الصليبية) في شخص صلاح الدين الأيوبي سلطان مصر، فدل بذلك على أن روحه روح فنان لم يتملكها التعصب ويحيد بها عن طريق الحق والواجب في تسجيل التاريخ على شريط السينما فهو قد صور بطلنا الشرقي في الصورة المعروفة عنه من الشجاعة والنبل، صوره رجلا يأبى الوصول إلى أغراضه عن طريق الخسة والدناءة، ويترفع عن وسائل الغدر والخيانة، في حين أن الكثيرين من كتاب الغرب إذا ما عرضوا لشخصية شرقية مهما أيد التاريخ والحوادث عظمتها لم يتركوها دون مغمز، بل منهم من يخلق لها الحوادث المخزية ويروح يبذل جهده لإلصاقها بها، ويصور الشرق والجو الذي يحيط بالقصة في أشنع الصور وأشدها إلى النفس.
فإنصاف سيسيل دي ميل لصلاح الدين والشرق عمل جدير بالتقدير لاسيما وأنه صور الشرق في أوج عظمته عندما كانت الإمبراطورية المصرية في أقوى أيامها وبلاد الغرب في همجيتها ليس القراء في حاجة إلى أن نقدم لهم هذا المدير الفني العظيم، فهو أحد أركان النهضة السينمائية في أمريكا وأحد دعائمها، وله ماض حافل بالأفلام الهائلة الرائعة، ولكني إذا تحدث عنه لا يسعني إلا أن أشرح رأيه في السينما؛ فهو يرى أن السينما فن المجموعات وأنها لم تخلق لتعالج الموضوعات البسيطة أو الموضوعات الاجتماعية التي تعرض للإنسان في حياته الخاصة، وإنما خلقت لتعالج الموضوعات التي تشغل شعوب العالم والتي تتمثل فيها قوى الجماعة. فهي أليق ما تكون للروايات الاستعراضية أو الروايات التاريخية التي تتجلى فيها العظمة والقوة.
ولهذا كان دي ميل يعمد دائما إلى التاريخ يستلهمه مادة لقصصه السينمائية، ولا يختار من الوقائع والحوادث إلا ما يتلاءم مع العظمة والأبهة الكاملة وما يحتاج إلى مصروفات باهظة وأنت إذا تشهد أي فلم من أفلامه تعجب كيف استطاع هذا الإنسان أن يدير الفلم على هذه الصورة من الدقة وأن يخلق حول القصة الجو الصادق.
وهذا الرجل إذ يعمد إلى التاريخ لا يتقيد بالحوادث التاريخية إلا أنه يتصرف تصرفا معقولا ويحافظ أشد المحافظة على الجو التاريخي. ومهارته لا تقف عند حد خلق الجو التاريخي الصادق وإظهار العظمة والأبهة، بل تتعداه إلى اختيار القصة التي تساير التاريخ وتلازمه، كما تحوي كثيرا من المواقف التمثيلية البديعة.
وأفلام دي ميل تدل على أنه رجل يميل إلى ما له علاقة بحوادث المسيحية فهو أدار (بن هور)، (علامة الصليب) ثم (الحروب الصليبية) فهل لهذه النزعة علاقة بأنه يقلب إحدى حقائق التاريخ الثابتة، وهي أن الصليبيين لم يأخذوا عكا عنوة وإنما سلمت بعد اتفاق عقد بينهم وبين صلاح الدين؟ لا أظن. وإنما الموقف التمثيلي بعد حرب الدبابات التي أظهرها اقتضى ذلك فلم يحجم عن تجاهل هذه الحقيقة كعادته.
قلت إن موضوع الفلم بديع وقد أمكن أن يساير التاريخ إلى حد معقول، ولكن ذلك لم يمنع دي ميل من أن يخالف بعض الحقائق التاريخية، وستكون قصة الفلم موضع حديثنا في العدد القادم، وسوف نقارنها بالتاريخ كما نقارنها بقصة ايفانهو للكاتب الإنجليزي المعروف والتر سكوت التي تحدث فيها عن صلاح الدين وريكاردس والتي اقتبس منها دي ميل الموقف الذي يقطع فيه ريكاردس قطعة الحديد بسيفه ويقطع صلاح الدين كذلك قطعة الحرير بسيفه أيضاً
أما المجهود الفني الذي بذله دي ميل فهو هائل، فالمناظر في غاية الروعة ومعدات الجيش كاملة مما أكسب الفلم قسطا من الحقيقة. وهو قد أعطى صورة صادقة لهجمات الصليبيين على عكا ودفاع المسلمين عنها. فلقد جاء في كتاب (صلاح الدين الأيوبي وعصره) تأليف الأستاذ الكبير محمد فريد أو حديد وهو حجة في تاريخ المماليك في حديثه عن حصار عكا:
وقد أبلى في ذلك الشأن بلاء حسنا شاب من صناع دمشق فانه أدخل من التحسين) على صناعة النار ما جعلها تحرق آلات الحصار المنيعة التي كان الفرنج يطلونها بطلاء

يمنع تعلق النار بها. وكان أشد الآلات على المدينة الدبابات، وهي أبراج عالية ذات طبقات يركبها الجنود وتسير على عجل وفي مقدمتها حديد قوي فتصطدم بالأسوار فتصدعها، ثم يعمل الجنود المجتمعون بها في الأسوار فيهدمونها.

وقد تمكن ذلك الشاب المجتهد من إحراقها باختراع سائل يرميه أولا في قدور على هذه

الدبابات ثم يقذف بعد ذلك النار فيلتهب ذلك السائل ولا يقاوم ناره شيء) أهـ

ورواد السينما يشهدون لسيسل دي ميل أنه أعطى صورة صادقة لكل ما ذكره الأستاذ فريد وأنا أعجب من دقة هذا المدير الفني في تصوير الحصار والهجوم هذا التصوير الصادق.

كذلك لا أنسى الموقعة التي قامت بين جيش ريكاردس وبين جيش صلاح الدين بعد أن دخل الصليبين عكا فقد كانت صورة جميلة لحرب الفروسية والشجاعة والأقدام، وقد تضاءلت أمام أعيننا الحروب الحديثة التي بدت قذرة أثيمة في وسائلها وأغراضها.

والتصوير دقيق والزوايا التي أخذت منها المناظر تدل على مهارة كبيرة، والشخصيات التي اختارها تطابق في كثير الشخصيات التاريخية، وما عرف عنها ولاسيما شخصية ريكادوس وصلاح الدين والراهب. ومن المواقف التمثيلية الرائعة موقف صلاح الدين أمام جميع الملوك المسيحيين وهم يقولون له (نحن ملوك عديدون) فيجيب بعظمة (وأنا ملك واحد).

أما ملابس صلاح الدين ففيها كثير من الأخطاء مما يدل على أن واضع النماذج لم يدرس الملابس الإسلامية، فقد ألبس صلاح الدين عباءة ملكية من القطيفة تشبه في كثير عباءة ملك فرنسا وهذا اللباس غريب عن مصر والشرق ولباس الرأس غريب كذلك، فصلاح الدين كان يلبس في غير الحرب العمامة دائما وهو لم يلبس العقال لأنه كردي لا عربي.

وعندما ظهر صلاح الدين في خيمته ومعه أسيرته أميرة نافار وزوجة ريكاردس شاهدنا فتاة تعزف على القيثارة وهذه القطعة الموسيقية رومانية وليست عربية والعرب والمصريون استعملوا من القطع الموسيقية العود والناي والمزهر (نوع من العود) وربما القانون، أما القيثارة فلم تكن أبداً بين القطع التي استعملوها.

ولقد اتخذ المسيحيون الصليب شعارا لهم فلم يقلدهم المسلمون في اتخاذ الهلال شعارا، فاتخاذ الهلال شعار إنما شاع في أيام الإمبراطورية التركية. وليس هنالك ما يمنع أن يضع صلاح الدين الهلال على رأسه ودرعه، ولكن ذلك ليس معناه أن الهلال كان شعارا كالصليب كما يفهم من الفلم.

إن دقة تصوير الفلم لريكاردس طبقا لما جاء في التاريخ على أنه ملك شجاع لا يعبأ بمظاهر الملك، مندفع لا يفكر في النتائج البعيدة، ولم يكن بالقديس الذي يعبأ بأمر الدين

كثيرا، لم ترق في أعين الإنجليز، ولذلك منعوا عرض هذا الفلم في بلادهم والفلم العظيم وهو أقوى من فلم (كليوباترا) وأقل من فلم (علامة الصليب)، ولكن يجدر بالمصريين أن يشهدوه ليروا عظمة صلاح الدين الذي كان يستمد قوته من مصر.

يوسف تادرس

العدد 177 - بتاريخ: 23 - 11 - 1936

زهرات على القبر

محمد فريد

بمناسبة ذكراه السابعة عشرة

ما كان أحقَّنا ونحن نجني ثمرات الجهاد، ونعقد أقواس النصر، ونحيي بطولة الزعماء ونحيي ذكرى الشهداء، أن نضع إكليلاً من الزهر الندى على قبر الشهيد الأول محمد فريد!

لقد أستشهد في مثل هذا الأسبوع الذي وقع فيه موافقة البرلمان على المعاهدة، واحتفال الشعب بذكرى الضحايا، فكيف غفل اللسان الذاكر وذهل الفؤاد العروف عن تحية المجاهد الصابر والمضطهد المهاجر والصريع المحتسب؟ وما أقلَّ التحية للذين نفروا لخلاص الوطن لا يبتغون ثراء ولا دعة، وهاجروا في سبيل الحرية لا يجدون مراغماً ولا سعة، ولفظوا أنفسهم في منازح الغربة ومضاجع البؤس حسرة فحسرة!

هذه دورهم، كان للعزة في أفيائها مَرَاد، وللنعمة في أفنائها ربيع، فتقوض فيها المجلس وانصرف عنها اللاجئ وتعاقب عليها مالك بعد مالك! وهذه قبورهم، تناوحت عليها سوافي الرياح فطمست الشاهد وأبهمت الأثر وتناهبها هالك بعد هالك! وهذه ذكرياتهم، ملأت المسامع وعمرت القلوب حيناً من الدهر، ثم أوشكت اليوم لكنود الناس أن تغوص في لجج النسيان والعدم! وهذه أرواحهم، كانت في المحن السود تباكرنا بالعزاء وتراوحنا بالأمل وتغادينا بالمعونة، ثم أقبلت ساعة النصر تخفق فخورة مع العلم، وتصفق مؤيدة مع البرلمان، وتهتف مبتهجة مع الأمة، ولكنها لم تسمع وا أسفاه من بادلها تحية برحمة، وجازاها وفاء بدعاء!

إن الشريعة تنسخ الشريعة، والفكرة تطرد الفكرة، والجديد يخلف القديم، ولكن الجهاد في سبيل الوطن غاية لكل جيل في طريقها خطوة، وبناية لكل عامل في إقامتها حجر؛ والخطوط اللاحقة لا ترد الخطوة السابقة، والحجر الأعلى لا ينقض الحجر الأسفل. والمثل العليا من الرجال قليلة في عهدنا الحديث؛ فما أولانا أن نضن بهم على الفناء، فننصب تماثيلهم في كل ميدان، وندرس تاريخهم في كل معهد، ونرفع ذكرهم في كل مناسبة.

وا حسرتاه على حظ فريد من أمته! حبس عليها ثروته ورضى بالجوع، ورصد لها قوَّته وصبر على المرض، وضحى لها أسرته وعاش على التشريد، ثم كان نصيبه منها بِرّاً لا يسعف، وتقديراً لا يدوم، وذكراً لا يتصل، وقبراً لا يعرف!

كان فريد - برد الله ثراه وخلد ذكراه - سليل مجد وربيب نعمة وحليف جاه؛ وكان سبيله في الحياة سبيل كل أمير وكل كبير: يغتصب ثروته من عرق العامل، وقوته من دم الفقير، ومسرته من دمع البائس، وجبروته من ظلم الضعيف؛ ولكنه تنكب طريق المترفين واتبع هادي الفطرة، فدخل به في سواد الشعب وقرّنه في أغلاله وشركه في ذله، فدفعته الجِبِلَّة الحرة إلى أن يتطوع لإنهاضه بجهده. ويتبرع لإنقاذه بماله؛ ثم أتصل برسول الوطنية يومئذ مصطفى كامل، فكان منه مكان أبي بكر من محمد، ومصطفى النحاس من سعد؛ رفع معه ألوية الجهاد على سواعد الشباب الفتيه، ثم خلفه على تكاليف الدعوة من جهد وبذل وتضحية، فاستمر ينفخ فيما يشبه الرماد، ويصيح فيما يقارب الجماد، حتى أشتد عليه أذى المحتلين وكيد المنافقين فهاجر ناجياً بحريته وفكرته؛ ولاذ بالأستانة يبتغي بها متنفساً لآمال مصر، ومضطرباً لعزائم الشباب، فكان في هذه المدينة ذات الأستار والأسرار والحفر قبساً من الحق الساطع الصادع يبعث في قلوب المصريين المهاجرين والطلاب بالضوء والحرارة.

كان يدعو شبابنا الوديع إلى الثقافة الحربية في المعاهد العسكرية التركية استعداداً لليوم الموعود والحدث المنتظر؛ وكانت الحرب الكبرى قد انفجرت دواهيها على العالم يومئذ، فحاول أن يكون لمصر من أعقابها المجهولة مغنم. وكأنما دس عليه أهل الأفك، أو عارضت أطماعه أطماع الترك، فأتمروا به ليحاكموه، ففر خفية إلى برلين؛ وهناك أراده الألمان على أن يكون وسيلة من وسائل الحرب السرية في الشرق، فأبى عليه خلقه الصريح وجوهره الحر أن يكون أداة ليعيش. وتفرق عنه الرفاق إلى موارد الرزق الممكنة، وأنقطع عنه المدد من مصر ومن غير مصر، فعمل عمل الأجير، وعاش عيش الفقير، يتبلغ بما يمسك الرمق، ويكتسي بما يستر الجسم، ويأوي إلى غرفة في بعض السطوح يكايد فيها المرض والفقر والوحدة والغربة، حتى أدركه الموت البائس الخامل وهو في غيابة برلين المقهورة الباكية، ليس فيه إلا فم يهتف للحرية، وقلب يخفق لمصر!

إن فريداً كان مثال الفكرة السليمة والوطنية القويمة والرجولة الكاملة والتضحية المؤمنة. بذل في سبيل الوطن، ما بذل عثمان في سبيل الدين، ثم كانت عاقبة أمره أن مات كما مات

عثمان شهيداً غير مفهوم؛ ولكن الله جازى فريداً كما جازى عثمان: جعل أسمه للخلود وروحه للخلود!

أحمد حسن الزيات

القلب المسكين - 4

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

أما صاحب القلب المسكين فما كاد يرى الحبيبة وهي مقبلة تَتيمَّمنا حتى بغته ذلك

فساوره القلق، واعتراه ما يعتري المحب المهجور إذا فاجأه في الطريق هاجره.
أرأيت مرة عاشقاً جفاه الحبيب وأمتنع عليه دهراً لا يراه، وصارمه مدة لا يكلمه؛ فنزع نومه من ليله، وراحته من نهاره، ودنياه من يده؛ وبلغ به ما بلغ من السقم والضنى؛ ثم بينا هو يمشي إذ باغته ذلك الحبيب منحدراً في الطريق.
إنك لو أبصرت حينئذ قلب هذا المسكين لرأيته على زلزلة من شدة الخفقان، وكأنه في ضرباته متعلم يكرر كلمة واحدة: هي هي هي.
ولو نفذت إلى حس هذا البائس لرأيته يشعر مثل شعور المحتضر أن هذه الدنيا قد نفته منها.
ولو أطلعت على دمه في عروقه لأبصرته مخذولاً يتراجع كأن الدم الآخر يطرده.
إنها لحظة يرى فيها المهجور بعينيه أن كل شهواته في خيبة، فيردُّ عليه الحب مع كل شهوة نوعاً من الذل، فيكون بازاء الحبيب كالمنهزم مائة مرة أمام الذي هزمه مائة مرة.
لحظة لا يشعر المسكين فيها من البغتة والتخاذل والاضطراب والخوف إلا أن روحه وثبت إلى رأسه ثم هوت فجأة إلى قدميه.
غير أن صاحبنا لم يكن مهجوراً من صاحبته؛ ولكن من عجائب الحب أنه يعمل أحياناً عملاً واحداً بالعاطفتين المختلفتين، إذ كان دائماً على حدود الإسراف ما دام حباً، فكل شئ فيه قريب من ضده. والصدق فيه من ناحية مهيأ دائماً لأن يقابل بتهمة الكذب من الناحية الأخرى، واليقين مُعدٌّ له الشك بالطبيعة، والحب نفسه قضاء على العدل، فأنه لا يخضع لقانون من القوانين، والحبيب - مع أنه حبيب - يخافه عاشقه مع أنه حبيب.
وقد يصفرّ العاشق لمباغته اللقاء كما يصفرّ لمباغته الهجر، وهذه كانت حال صاحبنا عندما رآها مقبلة عليه؛ وكان مع ذلك يخشى إلمامتها به توقياً على نفسه من ظنون الناس، وأكثر ما يحسنه الناس هو أن يسيئوا الظن؛ وهو رجل ذو شأن ضخم ومقالة السوء إلى مثله سريعة إذا رُؤى مع مثلها. وكأنما هي ألمت بكل هذا أو طالعها به وجهه المتوقر المتزمت؛
فعدلت عن طريقها إلينا ووقفت على رئيس فرقة الموسيقى وما بيننا وبينها إلا خطوات. ورأيتها قد هيأت في عينيها نظرة غاضبتنا بها ثم لم تلبث أن صالحتنا بأخرى.
وكأنها ألقت لرئيس الموسيقى أمراً ليتأهب أهبته لدورها ثم همت أن ترجع، ثم عادت إليه فجعلت تكلمه وعيناها إلينا، فقال صاحبنا وأعجبه ذلك من فعلها: أنها نبيلة حتى في سقوطها.
ولا أدري ماذا كانت تقول لرئيس الموسيقى، ولكن هذا الرجل لم يظهر لي وقتئذ إلا كأنه تليفون معلق.
كانت عيناها إلى صاحبها لا تنزلان عنه ولا تتحولان إلى غيره، ولا تُسارقه النظر بل تغالبه عليه مغالبة؛ ورأيته كذلك قد ثبتت عيناه عليها فخيل إلى أن هذا الوجود قد أنحصر جماله بين أربعة أعين عاشقة؛ وكانت تطارحه ويطارحها كلاماً مخبوءاً تحت هذه النظرات وقد نسيا ما حولهما وشعرا بما يشعر به كل حبيبين إذا التقيا في بعض لحظات الروح السامية: أن هذا العالم العظيم لا يعمل إلا لأثنين فقط: هو وهي.
وكان فمها الجميل لا يزال يساقط ألفاظه لرئيس الموسيقى، وكأنها تسرد له حكاية مروية أو تعارض بحافظته كلاماً تحفظه من كلام التمثيل أو الغناء؛ فهي تتحدث وعيناها مفكرتان شاخصتان، فلم ينكر الرجل هيئتها هذه؛ ولكن كيف كانت عيناها؟
لقد أرادت في البدء أن تجعل قوة نظراتها كلاماً، حتى لحسبت أن هذه النظرات الأولى تهتف من بعيد: أنت يا أنت.
ثم بدأ في عينيها فتور الظمأ: ظمأ الحب المتكبر المتمرد، لأنه حب المرأة المعشوقة، وأن له لذتين: إحداهما في أن يبقى ظمأ إلى حين. . .
ثم أرسلت الألحاظ التي تتوهج أحياناً فوق كلام المرأة الجميلة في بعض حالاتها النفسية، فتضرم في كلامها شرارة من الروح تظهر الكلام كأنه يحرق ويحترق. . .
ثم توجعت النظرات لأنها تصلها بالرجل الذي لا يشبه الرجال فلا يستوهب خضوعها ولا يشتريه؛ والرجل كل الرجل عند مثل هذه المرأة هو الذي لا يشبه الباقين ممن تعرفهم، فإذا أحبها فكأنما أحبها عذراء خَفِرةً لم تُمس، وكأنه من ذلك يصلها بماضيها وطهارتها وحيائها وما لا يمكن أن تتمثله إلا في مثل حبه.

ثم ذبلت عيناها الجميلتان، وما هو ذبول عيني امرأة تنظر إلى محبها؛ إنه هو استسلام فكرها لفكره، أو عناد معنى فيها لمعنى فيه، أو توكيد خاطرة تحتاج إلى التوكيد؛ ومرةً هو كقولها: لماذا؟ وتارةً هو كقولها: أفهمت؟ وأحياناً، وأحياناً هو انتهاء مقاومة.
وتمت الحكاية المروية التي كانت تلقيها للتليفون. . . فكرَّت راجعة إلى المسرح بعد أن صاحت نظراتها مرة أخرى كما بدأت: أنت يا أنت. . .
فقلت لصاحبنا: ويحك يا عدو نفسه! لو اختار الشيطان عينين ساحرتين ينظر بهما إليك نظر الفتنة لما أختار إلا عينيها في وجهها، في هيئتها، في موقفها؛ وأراك مع هذا كمنتظر ما لا يوجد ولا يمكن أن يوجد؛ وأراها معك في حبها كالحيوان الأليف إذا طمع في المستحيل.
قال: وما هو المستحيل الذي يطمع فيه الحيوان الأليف؟
قلت: ذلك حين يطمع في أن تكون له حقوق على صاحبه فوق الألفة والمنعة.
قال: لقد أغمضت في العبارة فبين لي شيئاً من البيان.
قلت: هب كلبةً تألف صاحبها وتحبه فهي له ذليلة مطواع، ثم يبلغ بها الحب أن تطمع في أن يكون لها تمام الشرف، فلا يقول صاحبها عنها هذه كلبتي، بل يقول هذه زوجتي. . .
قال: وي منك، وي منك؛ لقد ضربت على رأس المسمار كما يقولون. هذا هو المستحيل الذي بيني وبينها، هذا هو المثل. يا لفظ الحلوى، يا لفظ الحلوى! لو كررتك بلساني ألف مرة، فهل تضع في لساني طعمها. . .؟
قلت: خفض عليك يا صاحب القلب المسكين فلست أكثر من عاشق.
قال: بل أنا مع هذه أكثر من عاشق، لأن في العاشق راغباً وفيَّ أنا راهب، وفيه الجريء وفيَّ المنكمش، ويغترف الغرفة من الشلال المتحدِّر فيحسوها فيرتوي، وأغترف أنا الغرفة بيدي، وأبقيها في يدي، وأطمع أن تهدر في يدي كالشلال. . . أنا أكثر من عاشق، فإنه يعشق لينتهي من ألم الجمال، وأعشق أنا لأستمر في هذا الألم.
هذه هذه. العجيب يا صديقي أن خيال الإنسان يلتقط صوراً كثيرة من صور الجمال تجئ كما يتفق، ولكنه يلتقط صورة واحدة بإتقان عجيب هي صورة الحب؛ فهذه هذه.
ألم أقل لك أن إبليس هنا في غير حقيقته الإبليسية ولم تفهم عني؟ فأفهم الآن أننا إن كنا لا نرى الملائكة فأنه ليخيل إلينا أننا نراها فيمن نحبهم؛ وما دام سر الحب يبدل الزمن والنفس ويأتي بأشياء من خارج الحياة، فكل حقائق هذا الحب في غير حقيقتها.
هذه هذه. لا أطلب في غيرها امرأةً أجمل منها، فهذا كالمستحيل، ولكن التمسن فيها هي امرأةً أطهر منها، وهذا كالمستحيل أيضاً. أنها أجمل جسم، ولكن وا أسفاه! إنها أجمل جسم للمعاني التي يجب أن أبتعد عنها.
وسكت صاحبنا إذ رفعت ستارة المسرح وظهرت هي مرة أخرى. ظهرت في زينة لا غاية بعدها تمثل العروس ليلة جلوتها. ألا ما أمرَّها سخرية منك أيتها المسكينة! عروس ولكن لمن؟
كانت تبرق على المسرح كأنها كوكب درى نوره نور وجمال وعواطف شعر.
وأقبلت تتمايل بجسم رخصٍ لين مسترسل الأعطاف يتدفق الجمال والشباب فيه من أعلاه إلى أسفله.
وأظهر وجهها حسناً وأبدى جسمها حسناً آخر فتم الحسن بالحسن.
واقفة كالنائمة، فالجو جو الأحلام، وكان الحب يحلم، وكان السرور يحلم.
مهتزة كالموج في الموج. هل خلقت روح البحر في جسمها المترجرج فشئ يعلو وشئ يهبط وشئ يثور ويضطرب؟
ثم دقت الموسيقى بألحانها المتحركة، وأحسسنا كأن روح الحديقة جالسة بيننا تنظر إليها وتتعجب. تتعجب من قوامها للغصن الحي، ومن بدنها للزهر الحي، ومن عطرها للنسيم الحي.
أما صاحب القلب المسكين؟
(يتبع)
مصطفى صادق الرافعي

الوهم
للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

أكثر ما يقعد الإنسان عن الطلب، أو يصده عن السعي أو يصرفه عن الإقدام، وهي لا حقيقة؛ وقل أن يقدم الذي يطول تفكيره ومشاورته لنفسه؛ ويندر أن يفوز بالطيبات في هذه الدنيا إلا الجسور أو (الفاتك اللهج) كما يقول بشار، أي الذي لا يتردد ولا يضيع الوقت والفرص في الموازنات والمعادلات وحساب العواقب والمغبات.

تكون مع المرأة التي تحبها، فتحدثك نفسها أن تبثها ما تجد، أو على الأقل أن تثني على جمالها أو ذوقها في اختيار ثيابها. فتتردد مخافة أن يسوء وقع ما تقول في نفسها وان تعد ذلك منك تسحباً واجتراء عليها، فتحجم، وتمتعض هي، لأنك خيبت أملها فيك ورجاءها عندك. وقد لا تحب المرأة الرجل، ولكنه لا يسوئها منه أن تعترف أن يحبها، ولا يثقل عليها أن يثنى بما يعلم وما يتخيل أيضاً؛ والمرأة تنتظر من الرجل أن يشعر بجمالها وأنوثتها قبل أن يشعر بعقلها أو علمها أو أدبها أو غير ذلك مما يجرى هذا المجرى. وكثيراً ما تقرأ لي الفتيات ما يكتبن أو ينشدنني ما ينظمن، حتى إذا فرغن من التلاوة تعمدت أن أهمل ما سمعت منهن وذهبت أصف لهن ما وقع في نفسي من صوتهن وهيئتهن وهن يقرأن، وكيف كان النسيم يعبث بذلاذل الثوب ويكشف عن سيقانهن البضة، وكيف أن خصورهن كن يغرين بالتطويق، وشفاههن وهي تتحرك وتلتقي وتفترق، وتختلط من فرط الأثر بالمعاني المصورة في الكلام، تحمل على اشتهاء القبلات الطويلة، ولا أراهن يغضبن لذلك أو يتجهمن، أو حتى يتكلفن العبوس والقطوب، بل تشرق وجوههن ويشيع فيها البشر، وتومض عيونهن وميض الجذل والاغتباط والرضى، وأنا أفعل ذلك لأسرهن وأشرح صدورهن لأهرب من إبداء الرأي في كلام لا أرى فيه قيمة أو وزناً فننتقل بسهولة إلى حديث آخر نخوض فيه، وتطوى الورقات وتدس في الحقائب، ونحن نسح بالكلام، ثم ينصرفن راضيات مسرورات شاكرات، وأبقى أنا أو أذهب، ولا أكون قد رددت نفسي على مكروهها.

وقد جربت الناس فلم أجد ما يريح مثل الاجتراء عليهم. كنت في بعض ما مر بي مضطراً إلى الاتصال في عملي برجل سريع البادرة عظيم الغرور متقلب الرأي فلا راحة لإنسان

معه، وآثرت الملاينة في أول الأمر وقلت: أسايره خطوة أو خطوات لأجره باللباقة والكياسة إلى حيث أريد من حيث لا يشعر هو. فكان يفطن إلى حيلتي في بعض الطريق فينبو في الزمام، فخطر لي أن المنطق والحجة لعلهما أجدى، فصرت أجادله بالتي هي أحسن ولكن بالبرهان والبينة، فكان يتململ ويتأفف ولا يكتم ضجره مني وكراهته للجاجتي، فضاق صدري يوماً وخرجت معه عن طوري - على ندرة ذلك جداً - ولم أستطع أن أملك زمام نفسي، فأسمعته من رأيي فيه ما أعتقد أنه أوجع ما سمع في حياته، فما راعني إلا استخذاؤه وإلا أنه أذعن، وراح بعد ذلك يتقي أن يثير غضبي ويخشى بادرتي أشد الخوف. فاسترحت.

وقد يظن القارئ أني أشير بالتوقح على الناس وسوء الأدب معهم، وما أريد شيئاً من هذا، وإنما أقول أن احترامك لغيرك لا ينفي أو يمنع أن تحترم نفسك؛ ومن احترام النفس أن تكون صريحاً وحازماً، والصراحة والجرأة ليس معناها قلة الأدب، فأنك تستطيع أن تذهب في الصراحة إلى أبعد مدى وأن تتحفظ مع ذلك بالأدب. ومتى عرف الناس فيك الصراحة ألفوا منك الشجاعة، اقتنعوا بذلك ووطنوا أنفسهم عليه وأعفوك من كثير مما تكره.

وقد قص عليّ بعضهم حكاية شاب اتخذت منه زوجته دابة، فهو لا يفعل إلا ما تأمر، ولا يخرج أو يدخل أو يقوم أو يقعد أو يأكل أو يشرب إلا إذ أذنت له، وقيل لي إنها هي التي تنتقي له ثيابه وتختار له ما يوائمها من قميص وربطة وحذاء إلى آخر ذلك. وتأمره فيصادق هذا ويخاصم أو يعادي ذاك، ويصل فلاناً ويقاطع فلاناً، فعجبت! وسألت محدثي: وماذا يخيفها منها؟ أهو يخشى أن تأكله إذا أعترض أو أبى أو تمرد على هذا السلطان؟ فهز محدثي رأسه ولم يستطع أن يذكر لي سبباً معقولاً. وما أزال إلى هذه الساعة عاجزاً عن تصور ما تستطيع هذه المرأة أن تصنع إذا أنتفض زوجها على هذا الاستبعاد؟ هي وقفة واحدة يقفها الرجل فلا يسع امرأته إلا أن تلزم حدها وتترك له حقه في نفسه. وهذه الوقفة لا تحتاج إلى ثورة، ولا تطلب أن تقوم قيامة البيت، بل

لعل الهدوء أحجى وضبط الأعصاب أجدى. وما أظن امرأة تكبر رجلاً يكون عنانه في كفها الرخص، ولا شك أنها لا تنفك تحتال لتخضعه من حيث لا يشعر ولا يدري، والرجل الرشيد يدرك ذلك ولا يخفى عليه أنها تدور من ورائه لتحمله على ما تريد فيلين لها ليرضيها ويسعدها بالشعور بالنجاح

ويجعلها بذلك ألين في يده من ناحية أخرى. وحياة الرجل والمرأة مناوشات مستمرة، ولعلها أشبه شئ بالحرب التي تشنها العصابات المتحصنة في رؤوس الجبال على الجيوش المنظمة. وقدرة الرجل وسطوته معترف بهما، ولكن المرأة لا تقر لهما الإقرار التام ولا تزال تختبئ وتطلق قذيفتها. وخير للرجل وأجلب لراحته أن يدع لها فرصة كافية لإصابة الهدف، فتسكن نفسها وترضى عن حالها، وإلا دفعها إلى التمرد الصريح. ولكنه ينبغي أن يكون له وجود وكرامة، وإلا خسر احترامها له. واحتفاظه بكرامته واستقلاله وحريته لا يكلفه إلا أن توقن هي أنه لا خير في محاولة إخضاعه لها.

وقد زاولت التعليم عشر سنين فما أذكر أني احتجت يوماً أن أعاقب تلميذاً، ولو تمردوا علي لما وسعني شئ فإني واحد وهم كثر، ولو انتفضوا على نظام المدرسة لما استطاعت أن تكرههم عليه، ولكن التلميذ يتوهم البأس والشوكة والسطوة والقوة، ويرهب ما يتوهم، ويطول عهده بذلك فيتقرر في نفسه. وقد كنت وأنت معلم لا أحجم عن مصارحة تلاميذي بأن سلطان المدرس خيالي ولا حقيقة له، وأنهم لو شاءوا لتناولوني وقذفوا بي من النافذة، وقذفوا بالمدرسين جميعاً وبالناظر أيضاً ورائي، وكنت أراهم يبتسمون لما يسمعون مني، ثم يعودون إلى ما ألفت منهم من حسن الإصغاء وشدة الحرص على النظام.

وكبر أبني وصار أطول مني قامة، وأنا الآن كهل وهو شاب، وقد توخيت في تربيته أن أدعه حراً، وأن أجعله يشعر باستقلاله، ومع ذلك لا أراه يجترئ الاجتراء الذي أتوقعه وأريده ويسرني أن أراه منه، لأنه يهاب ذلك السلطان الذي درج على إكباري والإقرار له منذ الصغر. فهو لا يزال طفلاً بالقياس إلي فيما أرى، وأنه لكذلك إذا اعتبرنا التجربة والعلم وما إلى هذا ولكن وهم الأبوة، أو سلطانها، أو لا أدري ماذا، يصده حتى عما لا بأس منه ولا ضير، ولا عيب فيه، ولا خوف من الزجر عليه. وأنا أيضاً كنت طفلاً - كما لا احتاج أن أقول - وكان هذا شأني، لأن للعادة سلطانها.

ولو جرب الناس الشجاعة والأقدام لأدهشتهم أن ما كان يخافونه أو يتقونه أو يتوقعونه، لا وجود له، وأنه لم يكن سوى وهم ليس إلا. وأكرر أني لا أحض على تجاوز الحدود، فليس من حسن الأدب أن يكون المرء جباناً أو ذليلاً، ولا من سوئه أن يكون عارفاً بحقوقه حريصاً عليها وجريئاً في سعيه وصريحاً في قوله، أي مخلصاً في نفسه.

إبراهيم عبد القادر المازني

في الأدب المقارن

أثر البيئة في الأدبين العربي والإنجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

طبائع الإنسان ومواهبه متماثلة حيثما حل من بقاع الأرض، ومجتمعاته متشابهة الظواهر أينما قامت. تتشعب بين أفراد كل مجتمع إنساني عوامل التعاون والتنافس والتحاب والتباغض والمطامع والمخاوف، غير أن للبيئة أثرها في تشكيل المجتمع الإنساني الذي تحيط به، بما تعرض أمام أبصاره وأذهانه من مناظر ومسائل تحجب عنه غيرها، وما تفرض عليه من أعمال يمارسها دون سواها، ويكون لهذا وذاك أثره البين في لغة المجتمع وأدبه، مقروناً إلى أثر الطبائع والمواهب التي تشترك فيها الأمم جمعاء.

فللبيئة في أدب كل لغة ثلاثة آثار بعيدة المدى: فهي أولاً تؤثر في مبنى اللغة وأصواتها وألفاظها وتعابيرها وتشبيهاتها ومجازاتها وأمثالها السائرة وحكمها المتواترة، فكل ذلك منتزع من طبيعة الإقليم؛ وهي ثانياً تؤثر في مهن المجتمع وعلومه وفنونه وعمرانه وينعكس كل ذلك في مرآة الأدب؛ وهي أخيراً تعرض دائماً أبداً أمام أنظار الأدباء وحواسهم مناظر طبيعية بذاتها، تسترعي انتباههم وتستجيش نفوسهم وتلهمهم كل ما تجود به قرائحهم في باب عظيم الخطر من أبواب الأدب هو باب الوصف الطبيعي.

وأثر البيئة في الأدبين العربي والإنجليزي واضح وضوحاً شديداً يكاد لروعته يخفي أثر الطبيعة الإنسانية التي تشترك فيها الأمتان ويتفق عندها الأدبان، فإن تباين البيئتين

تبايناً شديداً أدى إلى اختلاف اللغة والمهن والعمران والمناظر في المجتمعين، وأدى بالتالي إلى اختلاف أشكال الأدبين وصورهما ومواضيعهما وأساليبهما؛ ويمكن إيجاز التعبير عن الفرق بين الأدبين بالقول بأن أحدهما شب في بيئة صحراوية والآخر ترعرع في بيئة بحرية.

نشأ العرب في البادية فجاءت لغتهم مشرقة الديباجة متينة البناء قوية التعبير غنية الاشتقاق منتظمة أوزان الشعر متعددتها وحفلت بأسماء ظواهر الطبيعة البرية وحالاتها، وأسماء حيوان البادية وأطوار حياته، واشتقت تشبيهاتها ومجازاتها وأمثالها من القمر والنجوم والكثيب والقطا، والمُنبتّ الذي لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى، وورود الماء بماء أكيس، وإلقاء الحبل على الغارب. ولعدم ملاءمة البادية لغير الأدب من الفنون عظمت مكانته
بينهم.

واشتغل العرب في البادية بالتجارة ينقلونها بين الشرق والغرب، فامتلأت لغتهم بمصطلحات التجارة بعضها عربي وبعضها منقول عن الأمم التي بادلوها التجارة، وامتلأ أدبهمبالتشبيهات المنتزعة من أحوال التجارة: فالقرآن الكريم يكرر في غير موضع تشبيه الخير والشر بالنجدين، وذكر الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم؛ وعنترة يقول:

حصاني كان دلال المنايا ... فخاض غمارها وشرى وباعا

وبثت حياة البادية في العرب صفات الحمية والشجاعة والحرية والأنفة أن يدينوا لملك، وظهر أثر كل ذلك جلياً في أدبهم؛ وأشهر أمثلة ذلك معلقة عمرو بن كلثوم، فهي ديوان العرب في الحماسة؛ وأدى إباؤهم ودوام انتجاعهم الكلأ إلى استمرار المناوشات والوقائع بين قبائلهم، وانعكس ذلك في مفاخراتهم ومنافراتهم نثراً وشعراً.

وهذه الصفات الشماء التي تلزم حياة التبدي جعلت العرب ينظرون شزراً إلى الزراعة والصناعة اللتين لم يكن لهما مجال في البادية، ويحتقرون الزراع والصناع الذين تسترقهم الأرض وتستعبدهم المادة، ولا يرون الشرف والعزة إلى في رعي الإبل والتجارة والقتال. فالأخطل يعيّر بني النجار بمساحيهم، وآخر يفاخر غريمه فيقول:

لحا الله ألأمَنَا نسبا - وأجدرنا أن ينفخ الكيرَ خاله - يصوغ الشنوف والقروط بيثربا

والحق أن الشعر الجاهلي مهما يكن قد داخله من تزييف يمثل الجانب الاجتماعي من حياة العرب في الجاهلية تمثيلاً رائعاً؛ ولا يمكن تصور حالة العرب في ذلك العهد إلا على ما وصِفت في أشعار طرفة ومهلهل وأمثالهما.

أما مناظر البادية الطبيعية المتشابهة الشديدة الوطأة، فيبدو أنها لم تُشرب العرب من حب الطبيعة مقدار ما بثت في نفوسهم من رهبتها والحرص على اتقائها، ولم تلهمهم من أشعارٍ في وصف محاسنها قدر ما أوحت إليهم من أشعار في التأمل في أحوالها والاستعبار والخشوع، فلا غرو لم تخرج الصحراء شعراء طبيعيين يصفون محاسن المناظر، كتلك التي تحفل بها الإلياذة والأوديسة، وإنما أخرجت أنبياء وحكماء في شتى عصورها.

وتحضّر الشعب الإنجليزي في جزيرة تحيط بها البحار، وتجري فيها الأنهار، وتتخللها البحيرات، وتتوالى عليها الأمطار والثلوج والسحاب والضباب، ويتعاقب فيها الصحو والدجن، وتنتشر في أرجائها الغابات والآجام، وتتتابع فيها الربى والقيعان، فامتلأت لغتهم بأوصاف البحر والغاب، وأسماء ما أسكنوهما من جان، واشتُقت منهما تشبيهاتهم وأمثالهم، فاستُعير الضباب لحالة الشك والإبهام، والسحاب للحزن والقلق، وقالوا في أمثالهم إن الوقت والمدَّ لا ينتظرون إنسانا، وحلت السفينة من مخيلتهم ما كان للجمل لدى العرب من منزلة: فبينما ترى حسان يشبه تراقص الخمر في إنائها بتهادي الناقة المسرعة فيقول:

بزجاجة رقصت بما في قعرها ... رقص القلوص براكب مستعجل

يُشّبَه ملتون (دليلة) وهي شاخصة في عظم جرمها وتمام زينتها وعتادها إلى (سمسون الجبار) لاختداعه عن سر قوته بالسفينة المنشورة الشراع.

وامتلأت قلوب الإنجليز بحب البحر، وظهر أثر ذلك في أدبهم في كل العصور: في روايات شكسبير كالعاصفة وتاجر البندقية، وفي تواريخ أمراء البحر الإنجليز ككتاب (وستوْرَدهو!) الذي سماه مؤلفه كنجزلي بأسم البلدة التي أنجبت معظم أولئك

البحارين الذين يسمون بأفذاذ ديفون، وككتاب سَوْذي عن نلسون، والروايات الخرافية عن البحارة الذين لاقوا الأهوال وطوفوا في مسالك البحار، أمثال روبنسون كروزو، واسكندر سلكرك، وجليفر؛ واوصاف البحر وقصصه تكون جانباً كبيراً مما يعرف بأدب الأطفال.

ولم يشغف الإنجليز بالبحر وحده، بل بالماء حيث حل من البقاع، وأياً اتخذ من الأشكال، فهاموا حباً بالأنهار والبحيرات، ونال إقليم البحيرات في غرب إنجلترا مكانة سامية في قلوب شعراء الإنجليز، واتخذه شعراء النهضة الرومانسية مستراداً ومقاماً، وحفلت دواوينهم بأوصافه ومحاسنه، فحل في إنجلترا محل جبال برناس التي كانت ترتادها آلهة الشعر في بلاد اليونان.

وحفل الأدب الإنجليزي كذلك بذكر الغاب ووصفه في مختلف أوقات العام، واتخذ مسرحاً لروايتي (كما تشاء) و (حلم ليلة في منتصف الصيف) لشكسبير، وفي الأخيرة تمتزج الحقيقة بالخيال، وتختلط الأناسي بعرائس الغاب وعفاريته، وفي تلك العرائس المتخيلة نظمت أشعار كثيرة، وفي تلك الغابات كان يعيش روبن هود وجماعته ذات الوقائع الممتعة، وبالجملة بثت طبيعة بلاد الإنجليز المتعددة المنظر والحالات ألفة الطبيعة والشغف بها في نفوس الإنجليز، فاحتلت من أدبهم موضعاً مكيناً.

ولموقع الجزيرة وإحاطة البحار بها اشتغل الإنجليز بالتجارة، ينقلونها بين العالمين القديم والجديد، وقد مارسوها بحراً على حين مارسها العرب براً، فدخلت تعبيراتها وأوصافها في أدبهم؛ واشتغلوا بالزراعة لملاءمة الإقليم وحفل جانب من أدبهم بوصف سكان القرى والبلدان الريفية، وحياتهم ومجتمعاتهم، وكثر ذلك خاصة في العصور الحديثة حين تقدم فن القصص وأزداد التفات الأدباء إلى الحياة اليومية والطبقات الوسطى والدنيا. ومن خير أمثلة ذلك روايات جين أوستن وتوماس هاردي؛ واشتغل الإنجليز كذلك بالصناعة الكبيرة لوفرة المعادن في بيئتهم، فقام نوع من الأدب يدرس مشاكل الصناعة ويصور مجتمع الصناع، وانصرف بعض الروائيين، كأرنولد بنيت، إلى وصف حياة الرأسماليين، وبعضهم، كتشارلز دكنز، إلى درس أحوال العمال والمناداة بتحسينها.

هكذا تأثر كلا الأدبين بالبيئة التي قام فيها، فاختلفا لذلك مناحي ومواضيع وأشكالاً؛ بيد أن البيئة التي تقدم ذكرها إن هي إلا البيئة المحلية المحض، وهي على عظيم تثيرها في المجتمع والأدب قلما تنفرد بالتأثير فيهما، بل تشاركها في ذلك بيئة أوسع أطرافاً هي البيئة العالمية، أي العالم كله بما فيه من ظواهر طبيعية وما يسكنه من أقوام، فهيهات أن يعيش مجتمع في بيئته المحلية غير متأثر بالعالم الخارجي تأثراً قل أو كثر، عن طريق التجارة والغارة والرحلة، وذلك الأثر العالمي يعرض أمام أفراد المجتمع من الظواهر والمشاكل ما كانوا عنه بنجوة، ويُدخل في لغتهم وأدبهم ما كانوا به جاهلين.

تأثر الشعبان العربي والإنجليزيبأحوال العالم الخارجي، أي البيئة الكبرى، ولكنهما اختلفا في هذه البيئة كما اختلفا في البيئة المحلية، إذ تأثر كل منهما بما يليه مباشرة من أجزاء تلك البيئة العالمية: وما يلي بلاد العرب هو الأمم الشرقية من فرس وهند وروم شرقيين ومصريين، ذات الحضارة الشرقية العتيدة والملكيات القديمة؛ وما يلي الإنجليز هو الأمم الغربية الوراثة لحضارة الإغريق والرومان ذوي التاريخ الحافل بالنظم الحكومية والآراء الحرة في السياسة والاجتماع، وبذلك ازدادت صبغتا الأدب تبياناً.

تأثر العرب بحضارة الأمم التي كانوا ينقلون متاجرها. ولا سيما الفرس والروم، وكانت لهم بهؤلاء علاقات سياسية لأكابرهم إلى ملوكهم سفرات، والى اشتغال قريش بتلك التجارة

ومخالطتها تلك الأمم يرجع ذلك الرقي الأدبي والمادي الذي بلغته قبيل الإسلام، وظهورها على القبائل في الثروة والجاه والشرف واللغة، وإنجابها عظماء الرجال الذين على أيديهم توطدت دولة الإسلام في حال من التمدن وسط بين همجية البداوة ونعومة الحضارة.

ولو استمر العرب بالبيئة الخارجية طبيعياً محدوداً هكذا لازدادوا رقياً وازدادت لغتهم بهاء وأدبهم ازدهاراً؛ ولكن التوسع الخارجي الذي أعقب نجاح المسلمين الحربي المفاجئ أوقف ذلك التأثر البطيء، وأحدث انقلاباً تاماً في مجرى الأمور، فلم يعد تأثر

الأدب العربي بالعالم الخارجي مقصوراً على النقل التدريجي، بل انتقل الأدب ذاته جملة من وطنه الأصلي وهجر بيئته الأولى إلى بيئة أو بيئات جديدة في الشام والعراق ومصر والأندلس وغيرها، والأدب العربي في انتقاله هذا ومهاجرته هذه من وطن إلى وطن نسيج وحدة بين آداب الأمم.

وجد الأدب العربي نفسه في بيئة جديدة، في أراض مزروعة مثمرة، وأمم مترفة مستقرة، وبلدان عامرة متحضرة، ذات علوم وصناعات، فتأثر بهذه البيئة الجديدة في ثلاث النواحي سالفة الذكر: في مفردات اللغة وتعبيراتها التي ازدادت بالنقل والتعريب، وفي المهن ومظاهر العمران، وفي وصف مناظر الطبيعة الجديدة، فكثر في الأدب ذكر الرياض والأزهار.

على أن تأثر الأدب في الناحيتين الأولى والثالثة كان قليلاً نسبياً لفني اللغة في الاشتقاق الذي أغناها عن الإمعان في التعريب، ومحافظة العرب التي نفَّرتهم من استعمال ألفاظ اللغات الأخرى وأخيلتها إلا ما جاء عفواً أو ضرورة، وحرصهم على احتذاء أسلافهم حتى ظلوا يقلدونهم في وصف البيد والخيام والنؤى والعيس، وهم يعيشون بين الأرياف والعواصم، فقامت هذه التقليدات للمتقدمين في الأدب العربي كالمتحجرات في عالم الجيولوجيا: قد فقدت كل حياة ولم تعد إلا رموزاً للماضي.

ولم يشغف العرب شغفاً حاراً بمظاهر الطبيعة التي صادفوها في بيئتهم الجديدة، وكأن نفرتهم القديمة من قسر الطبيعة لم تفارق نفوسهم، وكأن كل ما كانوا يطمحون إليه بعد أن طووا الأميال ضرباً في فلوات الجزيرة وهواجرها، ظلّ ظليل وماء سبيل وهواء بليل، تريح الجسوم وترويها وترفه عنها بعد طول الكد، فغص أدبهم الطبيعي بذكر راحة الجسم

ولذات الحواس، دون طويل تأمل في محاسن الطبيعة واجتلاء لأسرارها وتقصٍّ للذكريات والآمال عندها، وأجمع الأمثلة لذلك قول الشاعرة الأندلسية:

وقانا لفحة الرمضاء واد ... سقاه مضاعف الغيث العميم

نزلنا دوحه فحنا علينا ... حنوَّ المرضعات على الفطيم

وأرشفنا على ظمأ زلالاً ... ألذ من المدامة للنديم

يصد الشمس أنى واجهتنا ... فيحجبها، ويأذن للنسيم

إنما كان أشد تأثر الأدب العربي في بيئته الجديدة بالناحية الثانية، ناحية العمران، ناحية الحياة المستقرة في البلدان، المعتمدة على الزراعة والصناعة، الخاضعة للملكية، وهي عكس حياتهم في البادية تماماً، فانغمر الأدباء في جو المدن، واعتزلوا الطبيعة وتكأكأوا على بيت الأمراء، وتزاحموا على مجالس الطرب والشراب، واستفرغوا جهدهم في انتهاب فرص الحياة من جاه ومال ورفاهية ولهو، وتأثر الأدب بذلك: فلم يعد يتغنى بالنجدة والبأس والقناعة، بل طاب له الاستظلال بسلطان الحاكمين، يترنم بمدحهم بعد أن كان أمثال عمر بن كلثوم يثورون على نيرهم، وتفنن في وصف مظاهر التحضر وضروب الترف واللهو في المدن.

أما الأدب الإنجليزي، فتأثر بالبيئة العالمية في النواحي الثلاث - نواحي مبنى اللغة ومظاهر العمران ومنظر الطبيعة - تأثراً كبيراً: فاللغة الإنجليزية تدين للغات الأجنبية ولا سيما اللاتينية بأكثر مفرداتها وطرق اشتقاقها وكثير من تعابيرها ومجازاتها؛ والمجتمع الإنجليزي تأثر بالمجتمع الإيطالي في عصر الإحياء، وبالمجتمع الفرنسي في عصر لويس الرابع عشر؛ ولم يخلُ في عصر من التأثر بحالة العمران في أوربا، إذ كانت الحضارة الأوربية الحديثة مشتركة بين شتى الأمم؛ وباطلاع الإنجليز على أوصاف الطبيعة في الآداب الكلاسيكية ازدادوا شغفاً بمفاتن بلادهم، وزادوا فوصفوا محاسن الطبيعة في إيطاليا وبلاد اليونان وغيرهما.

تأثر الأدب الإنجليزي بالبيئة العالمية في شتى النواحي، ولكنه لاستقراره في وطنه الأول وبيئته المحلية جاء تأثره بالأولى بطيئاً محدوداً لم يطغ على خواصه المحلية، بل ظلت للبيئة المحلية المكانة الأولى والآثار الواضحة في الأدب، ولم يزد الأثر الخارجي على أن

أضاف إلى العناصر المحلية ما يناسبها ويخصبها من العناصر الأجنبية، وكلما احتجن الأدب جانباً من تلك العناصر مثَّلها ومزجها بنفسه وصبغها بصبغته الخاصة.

فالأدبان العربي والإنجليزي قد نشأ في بيئتين طبيعيتين مختلفتين وترعرعا في

مجتمعين متباينين، وتأثرا بعوامل عالمية مختلفة، وهاجر أحدهما من بيئته الأولى إلى بيئة جديدة بينما ظل الآخر في وطنه الأول، فلا غرو أن يختلف الأدبان في الصبغة والمناحي والأوضاع والأغراض والأخيلة، اختلافاً يروع الناظر فيهما فيخيل إليه أن ليس هناك تشابه بينهما فقط، ولا وجه للموازنة والمقابلة، ويكاد يخفي ما فيهما من تعبير مشترك عن شتى النوازع النفسية والظواهر الاجتماعية، التي تتفق فيها الطباع الإنسانية، في شتى المجتمعات، ومختلف البيئات.

فخري أبو السعود

خطر الفاشستية على سلام العالم ومشكلة البحر الأبيض المتوسط

بقلم باحث دبلوماسي كبير

لم يبد خطر الفاشستية على سلام أوربا وسلام العالم كما يبدو اليوم؛ ولقد كان رأينا دائماً أن الفاشستية وما تقوم عليه من مبادئ العنف، وما يحدوها من الأطماع المضطرمة، وما تؤكده بأعمالها وتصريحاتها من احتقار لمبادئ الحق والعدالة الدولية، إنما هي مصدر دائم للشر والخطر على السلام، وبخاصة على الأمم الضعيفة التي تدين بوجودها واستقلالها لمبدأ الحق الطبيعي لا للقوة الغاشمة؛ بيد أن الفاشستية لم تبد من قبل بمثل هذه الجرأة المكشوفة، وهذا التحدي الواضح، وهذا التوثب لارتكاب العدوان والشر، وهذا الاستخفاف بحقوق الشعوب ومصايرها كما تبدو اليوم.

منذ أكثر من عام نظمت إيطاليا اعتداءها المثير على الحبشة، واستطاعت لا بحرب شريفة مشروعة، ولكن بوسائل همجية ممقوتة أن تقهر هذه الأمة المنكودة وأن تضمها لأملاكها، وان تقيم على أنقاض الحريات المغصوبة إمبراطورية استعمارية تصول بها اليوم؛ وفي الصيف الماضي استطاعت الفاشستية الإيطالية وحليفتها النازية الألمانية أن تضرما في أسبانيا نار ثورة مضطرمة، وما زالتا إلى اليوم تمدان العسكرية الثائرة بالسلاح وكل صنوف المعونة، وما زالت أسبانيا تتلظى في جحيم الحرب الأهلية، لأن الفاشستية والنازية تود كل منهما أن تحقق لنفسها ظفراً معنوياً يكون مظهره قيام حكومة طغيان فاشستية في أسبانيا على أنقاض الجمهورية، وظفراً مادياً يقوم بتحقيق بعض المصالح السياسية والعسكرية التي تطمح كل منهما إلى تحقيقها.

وكما أن مسألة البحر الأبيض المتوسط كانت أثناء الاعتداء الإيطالي على الحبشة مثار الخطر والاحتكار المستمر بين إيطاليا وبريطانيا العظمى، فكذلك تثير الحرب الأهلية الأسبانية مسألة البحر الأبيض المتوسط مرة أخرى، وتثيرها بصورة أدق وأوسع نطاقاً وأشد خطراً؛ وقد كانت الأزمة التي أثارت الحرب الحبشية في هذا البحر محلية في نوع ما لأنها كانت تتعلق بشرقية فقط، وتتعلق بالنزاع بين إيطاليا وبريطانيا على السيادة في هذه المياه، ولكن الأزمة التي تثيرها أسبانيا اليوم أزمة عامة شاملة، تتعلق بالتوازن في البحر الأبيض المتوسط كله، وتدخل فيها فضلاً عن إيطاليا وبريطانيا العظمى، فرنسا وألمانيا.

وقد خطب السنيور موسوليني في ميلان أخيراً في سياسة إيطاليا العامة نحو المشاكل الأوربية المختلفة وكرر دعاوى إيطاليا القديمة على البحر الأبيض المتوسط، ووصفه بأنه بحيرة رومانية، وأنه يجب أن يكون في الواقع كذلك لولا أن بريطانيا تدعي فيه سيادة لا يحق أن تكون لها، ووجه الدعوة في خطاب إلى بريطانيا أن تتفاهم مع إيطاليا على قاعدة المساواة في الحقوق والمصالح؛ لأن كون بريطانيا تتخذ من هذا البحر طريقاً لأملاكها فيما وراء البحار، لا يجيز لها أن تدعي السيادة فيه والسيطرة على مياهه؛ وقرن السنيور موسوليني خطابه السياسي كالعادة ببعض التلميحات والتهديدات المسرحية، فأشار إلى عصبة الأمم بأنها حلم سخيف، وسخر من مشروع نزع السلاح ونظرية السلامة الإجماعية، وما إليها من مثل تأيد السلام؛ ولكن الحكومة البريطانية لم تلبث أن أجابت (الدوتشي) على مزاعمه ودعاويه؛ فذكرت أولاً في خطاب العرش الذي افتتح به البرلمان البريطاني، أن سياستها الدولية تقوم على تأييد عصبة الأمم وتدعيمها وإصلاحها لتتمكن من تأدية مهمتها، وأنها ما زالت تؤمن بالسلامة الإجماعية كوسيلة لتأيد السلام والتفاهم بين الأمم؛ وأما فيما يتعلق بالبحر الأبيض المتوسط، فقد ذكرت الحكومة البريطانية على لسان وزير خارجيتها مستر أيدن في مجلس العموم، أن بريطانيا العظمى تعتبر هذا البحر شرياناً من شرايين الإمبراطورية،

وطريقاً حيوياً لتجارتها تدافع عنه بكل ما وسعت.

ألقى السنيور موسوليني خطابه الرنان غداة الاتفاق الذي عقد أخيراً بين إيطاليا وألمانيا، وكان من أهم نتائجه اعتراف ألمانيا بالإمبراطورية الإيطالية وسيادة إيطاليا على الحبشة، واتفاق الدولتين على اتخاذ خطة سياسية مشتركة في أواسط أوربا وشرقيها، وتحالفهما على مقاومة الخطر البلشفي الذي يزعج ألمانيا الهتلرية في كل لحظة؛ واتفاقهما على احترام استقلال النمسا إلى حين؛ ولم يكن هذا الاتفاق بين الدولتين الفاشستيتين مفاجأة في السياسة الدولية؛ فمن المعروف أن إيطاليا وألمانيا تجمع بينهما روابط خاصة أهمها اتفاق الوسائل والخطط، والاتحاد في كثير من المطامع والغايات، ولا سيما المطامع الاستعمارية؛ وقد كانت ألمانيا أول الدول المؤيدة لإيطاليا يوم اعتدائها على الحبشة، لأنها تجيش بمثل الأماني الإمبراطورية التي تجيش بها إيطاليا؛ هذا فضلاً عن اتحاد الدولتين في مناوأة عصبة الأمم، وسياسة نزع السلاح، وفي النزعة العسكرية، والخطط السياسية العنيفة.

والواقع أن المسألة الاستعمارية تلعب دوراً كبيراً في الأزمة الدولية الحاضرة، وفي أزمة البحر الأبيض بنوع خاص؛ فقد رأينا كيف بدأت هذه الأزمة وتفاقمت من جراء اعتداء إيطاليا على الحبشة ووقوف إنكلترا في وجه السياسة الإيطالية، وحشدها الدول بواسطة عصبة الأمم لتوقيع العقوبات الاقتصادية ضد إيطاليا؛ والآن وقد كلل اعتداء إيطاليا بالنجاح وفازت بامتلاك الحبشة، فأنها تتطلع إلى تحطيم المركز الممتاز الذي تستأثر به إنكلترا في البحر الأبيض المتوسط لكي تأمن على مواصلاتها مع إمبراطوريتها الأفريقية؛ ومن المحقق أن معونة إيطاليا للجنرال فرانكو زعيم الثورة الأسبانية لها صلة كبيرة بهذا المشروع الذي تحلم به إيطاليا؛ ذلك لأن قيام حكومة عسكرية فاشستية في أسبانيا موالية للسياسة الإيطالية، يهدد مركز إنكلترا في جبل طارق وفي غرب البحر الأبيض المتوسط، كما انه يعزز مركز إيطاليا ونفوذها في هذه المياه خصوصاً إذا ثبتت الأنباء القائلة بأن القوات الإيطالية تحتل الآن جزيرة ميورقة كبرى جزر البليار. وألمانيا تؤيد إيطاليا في هذا الموقف، وتعاون ثوار أسبانيا أيضاً، لأنها ترى في قيام الفاشستية في أسبانيا تقوية للجبهة الفاشستية التي تمثلها مع إيطاليا وإضعافاً للدول الديموقراطية: أعني فرنسا وإنكلترا في أوربا، كما أنها ترى في ظفر الفاشستية هزيمة لعدوتها روسيا السوفيتية التي تعاون الجبهة الجمهورية في أسبانيا وربما كانت ألمانيا إلى جانب ذلك ترى في التدخل في شؤون أسبانيا وغرب البحر الأبيض وسيلة لإثارة المسألة الاستعمارية التي تعلق عليها أهمية كبيرة.

وقد امتازت خطط الدولتين الفاشستيتين في العام المنصرم بالاندفاع والتحدي؛ وما زال السنيور موسوليني بالأخص يبرق ويتوعد في كل خطبه وتصريحاته، وينوه بقوة جيوشه واستعداداته وينذر أوربا بالويل إذا لم تنزل عند أطماعه ومطالبه؛ وما زالت إنكلترا وهي التي يخصها (الدوتشي) بأكبر قسط من الوعيد والتحدي تقابل الموقف بالرزانة والإغضاء، ماضيه في تقوية تسليحاتها في نفس الوقت في كل ما وسعت؛ كذلك نرى ألمانيا الهتلرية تنحو في خططها السياسية هذا النحو فتنقض المواثيق والعهود متى شاءت، وتلوح في كل فرصة باستعداداتها العسكرية؛ وفرنسا التي هي محور هذه الضربات تتلقاها في هدوء وتحاول مع حليفتها القديمة إنكلترا أن تذلل الصعاب والأزمات بالأساليب السياسية، وهي ماضية أيضاً في مضاعفة استعداداتها العسكرية العظيمة.

ومن المحقق أن الدول الغربية وعلى رأسها فرنسا وإنكلترا ترغب في السلام كل الرغبة، وتعمل على اتقاء خطر الحرب بكل ما وسعت؛ وكذلك لا ريب أن الفاشستية لا تبدي مثل هذا الحرص في المحافظة على السلام اجتناب أخطار الحرب؛ ولقد اندفعت إيطاليا وألمانيا خلال هذا العام إلى إثارة عدة أزمات دولية كانت كل منها تكفي لإضرام نار الحرب، فنقض ألمانيا لميثاق لوكارنو ومعاهدة الصلح، وغزو إيطاليا للحبشة وحملاتها العنيفة على إنكلترا، وعلى عصبة الأمم، وعملهما معاً على إضرام نار الحرب الأهلية في أسبانيا، كل هذه كانت وما تزال تثير كدراً في أفق السلام، وقد كادت في أكثر من فرصة أن تغدو خطراً حقيقياً على السلام.

وهذه النزعة الخطرة التي تندفع الفاشستية فيها دون تدبر للعواقب ترجع إلى حالة نفسية تستغلها الفاشستية؛ فالدول الغربية التي خرجت من الحرب بأكبر قسط من

الغنيمة، والتي تبسط سلطانها على إمبراطوريات استعمارية شاسعة، وتستأثر بوفرة هائلة في المواد الأولية، تتمتع بمستوى مرتفع من الرخاء الاقتصادي، ولها صناعات مزدهرة، وتجارة خارجية عظيمة، وهي تحرص على ذلك كله، وتجانب الحرب ما استطاعت، لأن الحرب نذير الخراب البؤس الاقتصادي؛ وهذا مثل إنكلترا وفرنسا وبلجيكا؛ فهي دول (راضية) لا تود بحالتها بديلاً، أما الدول الفاشستية، أو بعبارة أخرى إيطاليا وألمانيا، فهما من الدول (غير راضية) لأنهما تعانيان حالة من البؤس الاقتصادي ولا تحتكمان على مقادير كافية من المواد الأولية، ولا تتمتعان بمقدار مرضي من الرخاء، فهما لذلك ساخطتان، تحقدان على الدول (الراضية)، وتودان تغيير هذا الحال والاستيلاء على بعض المستعمرات الغنية التي تكفل لهما الحصول على المواد الأولية؛ وإذا كانت الفاشستية تقوم في الداخل على العنف، فهي لا ترى أيضاً سوى العنف وسيلة لسياستها الخارجية، وهي تندفع بلا تدبر للعواقب، لأنها تعرف جيداً أن الدول (الراضية) أشد ما يكون زهداً في مقابلة العنف بالعنف، وأنها تعمل جهدها لاتقاء خطر الحرب؛ ولقد نجحت الفاشستية في استغلال هذه الحالة، وحققت لنفسها بالعنف ألواناً من الظفر، في ميدان السياسة والحرب، كغزو الحبشة؛ ولا تزال تسرف في الوعيد كلما لاح لها أمل في التهويل والاستغلال.

على أن الذي لا ريب فيه هو أن ألمانيا وإيطاليا مهما بلغتا اليوم من القوة لا تستطيعان الاضطلاع بحرب أوربية كبيرة، فكلتاهما تفتقد إلى المال والمواد الأولية، وأن كانت غنية بالرجال والأساليب الفنية؛ والحرب المعاصرة تقوم على المال والمادة كما تقوم على الفن والسواعد؛ ومن ثم كان تلهف ألمانيا على استرداد مستعمراتها وهي أمنية تبدو مستحيلة التحقيق على الأقل في الوقت الحاضر؛ ثم أنتيار الحوادث لا يستقر على حال، فها هي ذي الحرب الأسبانية تتطور في مصلحة الجمهوريين، والثورة تدنو إلبالفشل؛ وسيكون فشل الثورة الأسبانية ضربة أليمة ولكن عادلة للفاشستية التي أثارتها؛ والأحوال السياسية تتطور في أوربا الوسطى تطوراً سريعاً، ودول الاتفاق الصغير تنظر بعد خطبة الدوتشي في ميلان وما ورد فيها من إشارة إلى تعديل المعاهدات، إلى السياسة الإيطالية وغاياتها بمنتهى الريب، بل أن الاتفاق الذي عقد أخيراً بين ألمانيا وإيطاليا يبدو ضئيلاً مزعزع الأسس أمام التطورات الأخيرة في أوربا الوسطى؛ وها هي ذي إيطاليا رغم صياحها ووعيدها تؤثر أن تمد يدها إلى إنكلترا التي تمضي في تسليحاتها البحرية والجوية بخطى الجبابرة.

والخلاصة أن الفاشستية هي منبع الخطر على سلام أوربا، ففي إيطاليا وألمانيا تضطرم النار الخفية التي قد تثير ضرام الحرب في أي أزمة من الأزمات التي ما زالت الفاشستية تعمل على إثارتها بلا تدبر للعواقب؛ فإذا لم تنجح أوربا في كبح هذه النزعة الخطرة، فالويل للسلام الأوربي والحضارة الأوربية؛ بيد أن كل ما هنالك يدل على أن أوربا حريصة على سلامها وتراثها، وأنها لن تنحني أمام وعيد هتلر وموسوليني

نظرية النبوة عند الفارابي

للدكتور إبراهيم بيومي مدكور
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

اعتنق الفارابي، بعد الكندي، نظرية أرسطو في الأحلام وقال معه إنها أثر من آثار المخيلة ونتيجة من نتائجها. ولا بد أن يكون القارئ قد لاحظ في التفاصيل والجزئيات تشابهاً واتصالاً أكثر من هذا بين رأي الفيلسوف العربي والفيلسوف اليوناني؛ فإن الفارابي يعتد بالميول والعواطف ويثبت مالها من أثر في تكوين الأحلام وتشكيلها. ويرى كذلك أن للطبائع والأمزجة دخلاً كبيراً فيها. وكل تلك أفكار رددها أرسطو من قبل.

بيد أن مؤسس الليسيه يجهد نفسه دائماً في أن يبعد عن مذهبه التفسيرات الدينية والتعليلات القائمة على قوى خفية وأسرار غامضة. ونزعته الواقعية تغلب عليه في دراساته النفسية كما استولت عليه في أبحاثه الطبيعية والأخلاقية. لهذا نراه يرفض أن تكون الرؤى وحياً من عند الله، ولا يقبل مطلقاً التنبؤ بواسطة النوم. لأن الأحلام ليست مقصورة على طائفة دون أخرى، وفي مقدور العامة والدهماء أن يدعوا التنبؤ بالغيب عن هذا الطريق، وهذا ما لا يسلم به أحد. وهنا يفارق الفارابي أستاذه ويقرر

أن الإنسان يستطيع بواسطة مخيلته الاتصال بالعالم العلوي واختراق حجب الغيب والوقوف على المكنون والخفي. ولكن يجدر بنا أن نعقب على هذا مسرعين بأن الفارابي وإن خالف أرسطو فأنه يخالفه في نقطة محدودة؛ ذلك لأن الاتصال بالعقل الفعال عن طريق المخيلة لا يتم في رأيه إلا لطائفة ممتازة وجمع مختار، وإذا كان الفارابي وفق لحل موضوع المقامات والرؤى فلم يبقى أمامه إلا خطوة واحدة لحل مشكلة النبوة. فإن المخيلة متنحررت من أعمال اليقظة المختلفة استطاعت أثناء النوم أن تصعد إلى سماء النور والمعرفة. وإذن متى توفر لدى شخص مخيلة ممتازة تمت له نبوءات في النهار مثل نبوءات الليل، وأمكنه في حال اليقظة أن يتصل بالعقل الفعال مثل اتصاله به أثناء النوم، بل ربما كان ذلك على شكل أوضح وصورة أكمل.

فالنبي في رأي الفارابي بشر منح مخيلة عظيمة تمكنه من الوقوف على الإلهامات السماوية في مختلف الظروف والأوقات.

هذه هي نظرية النبوة في حقيقتها العلمية والفلسفية، وظروفها وأسبابها الاجتماعية، ومصادرها وأصولها التاريخية، ونعتقد أن الجزء الطريف والمبتكر في فلسفة الفارابي. حقاً إنها تعتمد على أساس من علم النفس الأرسطي، إلا أنها في مظهرها الكامل أثر من آثار تصوف الفارابي ومعتقداته الدينية. فأن الاتصال بالعقل الفعال سواء أكان بواسطة لتأمل والنظر أم بواسطة التمثيل هو قمة الصوفية الفارابية. ومن جهة أخرى يجب أن نلاحظ أن الفارابي متمش هنا مع مبدئه في التوفيق بين الفلسفة والدين ومتأثر بتعاليم الإسلام تأثره بأفكار أرسطو. فأن العقل الفعال الذي هو مصدر الشرائع والإلهامات السماوية في رأيه أشبه ما يكون بالملك الموكل بالوحي الذي جاءت به نظرية الإسلام: كل منهما واسطة بين العبد وربه وصلة بين الله ونبيه. والمشرع الأول والملهم والموحي الحقيقي هو الله وحده. وبهذا استطاع الفارابي أن يمنح الوحي والإلهام دعامة فلسفية، ويثبت لمنكريهما أنهما يتفقان مع مبادئ العقل ويكونان شعبة من شعب علم النفس.

غير أنه قد يعترض عليه بأنه يضع النبي في منزلة دون منزلة الفيلسوف. فأن وصول الأول عن طريق المخيلة في حين أن الثاني يدرك الحقائق الثابتة بواسطة العقل والتأمل، وليس هناك شك في أن المعلومات العقلية أفضل وأسمى من المعلومات المتخيلة؛ ولكن الفارابي فيما يظهر لا يأبه بهذه التفرقة ولا يعيرها أية أهمية. وسواء لديه أن تكون المعلومات مكتسبة بواسطة الفكر أم بواسطة الخيالة، ما دام العقل الفعال مصدرها جميعاً، فقيمة الحقيقة لا ترتبط بالطريق الذي وصلت إلينا منه، بل بالأصل الذي أخذت عنه؛ والنبي والفيلسوف يرتشفان من معين واحد ويستمدان علمهما من مصدر رفيع؛ والحقيقة النبوية والحقيقة الفلسفية هما على السواء نتيجة من نتائج الوحي وأثر من آثار الفيض الإلهي على الإنسان عن طريق التمثيل أو التأمل.

على أن الفارابي بعد أن فرق في كتابه: آراء أهل المدينة الفاضلة بين النبي والفيلسوف من ناحية الوسائل التي يصلان بها إلى المعرفة عاد فقرر في مكان آخر أن الأول، مثل الثاني، يمكنه أن يعرج إلى مستوى الكائنات العلوية بواسطة العقل. فأن فيه قوة فكرية مقدسة تمكّنه من الصعود إلى عالم النور حيث يتقبل الأوامر الإلهية فلا يصل النبي إلى

الوحي عن طريق المخيلة فحسب، بل فيه من قوى عقلية عظيمة. يقول الفارابي: (النبوة مختصة في روحها بقوة قدسية تذعن لها غريزة عالم الخلق الأكبر كما تذعن لروحك غريزة عالم الخلق الأصغر فتأتي بمعجزات خارجة عن الجبلة والعادات؛ ولا تصدأ مرآتها ولا يمنعها شئ عن انتقاش ما في اللوح المحفوظ من الكتاب الذي لا يبطل، وذوات الملائكة التي هي الرسل، فستبلغ مما عند الله إلى عامة الخلق).

وإذا كان في مقدور النبي أن يتصل بالعقل الفعال بواسطة النظر والتأمل فأن النبوة تصبح ضرباً من المعرفة يستطيع الناس على السواء الوصول إليه. فبتأثير العقل الفعال نبحث ونفكر وندرك الحقائق العامة، وبتفاوت أثره فينا تختلف درجاتنا ويفضل بعضنا بعضاً، وإذا ما عظم إشراقه على واحد منا سما بنا إلى مرتبة الإلهام والنبوة. وعلى هذا هو الذي دفع علماء الكلام إلى أن يأخذوا على الفارابي ومن جاء بعده من فلاسفة الإسلام ميلهم إلى عد النبوة أمراً مكتسباً. مع أن أهل الحق، فيما يصرح الشهرستاني، يقولون (إن النبوة ليست صفة راجعة إلى النبي، ولا درجة يبلغ إليها أحد

بعلمه وكسبه، ولا استعداد نفسه، يستحق به اتصالاً بالروحانيات، بل رحمة يمن الله بها على من يشاء من عباده). ونحن لا ننكر أن موازنة الفارابي بين النبي والفيلسوف تدع باب النبوة مفتوحاً للجميع، كما أن الفلسفة ليست مقصورة على طائفة دون أخرى. إلا أنه يخيل إلينا أن الفلسفة في رأي الفارابي ليست سهلة المنال بالدرجة التي تبدو لأول وهلة، فلكل أن يتفلسف، ولن يحظى بالفلسفة الحق إلا أفراد قليلون؛ وفوق هذا فالفارابي يقرر أن النبي ينعم بمخيلة ممتازة أو قوى قدسية خاصة، ويغلب على ضننا أن هذه القوة القدسية وتلك المخيلة فطريتان في رأيه لا مكتسبتان وإن كان هو نفسه لم يصرح بذلك. ونحن نسلم جميعاً بأن في نفس النبي ومزاجه كمالاً فطرياً استحق به النبوة، وسما بسببه إلى الاتصال بالملائكة وقبول الوحي. والأنبياء هم صفوة الناس وخيرة الله في خلقه: (الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس) يقول الشهرستاني: (فكما يصطفيهم من الخلق قولاً بالرسالة والنبوة يصطفيهم من الخلق فعلاً بكمال الفطرة ونقاء الجوهر، وصفاء العنصر، وطيب الأخلاق وكرم الأعراق. فيرفعهم مرتبة مرتبة، حتى إذا بلغ أشده، وبلغ أربعين سنة وكملت قوته النفسانية وتهيأت لقبول الأسرار الإلهية بعث إليهم ملكاً وأنزل عليهم كتاباً).

وأخيراً إذا كان الفارابي قد استطاع التخلص من الاعتراضين السابقين فهناك اعتراض ثالث تعز الإجابة عليه، وهو أن تفسير الوحي والإلهام على النحو السيكلوجي السابق يتعارض مع كثير من النصوص الثابتة. فقد ورد أن جبريل عليه السلام كان ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم في صورة بعض الأعراب أو أنه كانت تسمع له صلصة كصلصلة الجرس، إلى غير ذلك من آثار متصلة بالوحي وطرائفه. ولا نظن أن هذه الآثار غابت عن الفارابي، إلا أنه، فيما نعتقد، شغل بمسألة أخرى، وعني بأن يثبت أولاً وبالذات أن الوحي أمر ممكن ولا يخرج على المبادئ العلمية المقررة، وبذا أصبح اتصال الروحاني بالجسماني الذي كان يستبعده الصابئة وغيرهم مقبولاً، وينبغي أن نلاحظ أن جُلّ جهد الفارابي في نظرية النبوة لم يكن موجهاً نحو أهل السنة الذين يؤمنون بكل ما جاء في القرآن والحديث متصلاً بالوحي وكيفياته، وإنما كان مصوباً إلى تلك الطائفة التي أنكرت النبوة من أساسها، وهذه الطائفة لم تحارب الإسلام فحسب، بل حاربت الأديان على اختلافها. فلم ير الفارابي بداً من أن ينتصر لمبدأ النبوة من حيث هو وان يوضحه بمعزل عن أية بينة أو وسط خاص، وليس بعزيز عليه بعد هذا أن يتأول ما ورد من نصوص دينية تخالف آراءه أو تبعد عنها، وقد سلك سبيل التأويل غير مرة، فسلم بوجود اللوح والقلم مثلاً، ولكنه فسرهما تفسيراً يتفق مع نظرياته الفلكية والميتافيزيقية، ونحن لا ننكر أن الاسترسال في التأويل قد يغير كثيراً من معالم الدين، إلا أنه وسيلة لازمة لمن يحاولون التوفيق بين العقل والنقل. والحقيقة أن الفارابي وقف هنا، شأنه في نظرياته الأخرى، موقفاً وسطاً، فأثبت النبوة إثباتاً عقلياً علمياً غاضاً الطرف عن بعض النصوص والآثار المتصلة بها. وكأنه في الوقت الذي منحها فيه أسلحة جديدة جردها من بعض ما كانت تعتمد عليه من أحاديث وأسانيد. والموفق مضطر دائماً لأن يستخلص من الرأيين المتقابلين مذهباً جديداً يمت إلى كل واحد منهما بصلة.

ومهما يكن من شئ فلو لم يصنع الفارابي إلا أنه أظهر في جلاء منزلة النبي السياسية والاجتماعية لكُفي. وقد استطاع بهذا أن يرد على أباطيل أبن الراوندي واعتراضات الرازي. وعلى ضوئه سار فلاسفة الإسلام الآخرون وفسروا كثيراً من التعاليم الدينية بهذه الروح وتلك النزعة. وبوضع النبوة هذا الموضع الإنساني الاجتماعي يمكن أن تحل مشكلة

الرياسة الدينية والسياسية التي شغلت المسلمين منذ القرن الأول للهجرة. وفي رأي الفارابي أن النبي والإمام والملك والحاكم والفيلسوف الذي نادى به أفلاطون لجمهوريته يجب أن يقوموا بمهمة سياسية واحدة. فهم واضعو النواميس والمشرفون على النظم الاجتماعية مسترشدين في كل هذا بالأوامر الإلهية. وميزتهم المشتركة أنهم يستطيعون الاتصال بالعالم الروحاني في حال اليقظة وأثناء النوم بواسطة المخيلة أو الفكرة. وفي هذا التفسير ما فيه من انتصار للإسماعيلية والشيعة بوجه عام سنرى أثره فيما بعد.

(يتبع)
إبراهيم مدكور
شخصية ناقدة يهملها النقد العربي
نقد أبن أبي عتيق
للأستاذ خليل هنداوي
ما زدت خوضاً في آثار الأقدمين إلا زدت إعجاباً بها وبهذا الجد الذي ولدها؛ وإنك لتقلب في كتبهم فيبهرك هذا التلون في المادة وهذا التفنن، وهب أنك خرجت منزعجاً لاضطراب في الاتساق واختلاف في الاتفاق، فإن هذا لم يكن ليذهب ببعض عجبك من هذا الجد ومن هذا الدأب اللذين يدلانك على عقلية حاولت أن تتأمل وتعلل!
في كتب الأقدمين ذلك الاضطراب الذي كان لا يحسه أصحابه. لأنهم لم يعملوا أعمالهم على حساب الأجيال الآتية، ولو فعلوا لهوَّنوا على مؤرخينا كثيراً من عناء الافتراض وقياس ما لا يقاس، ولكن أصحابنا - عفا الله عنهم - لم يريدوا أن يعطونا الثمرة ناضجة بل أرادوا أن نعمل على إنضاجها وصونها. وفي كتبهم ثمرات كثيرة تنادي الأيدي وهي دانية القطوف؛ وأذكر أني ما جلست يوماً إلى كتاب من هذه الكتب إلا خرجت بحديث ممتع أو فائدة جميلة تدفعني نفسي إلى التقاطها وأنى لي أن أقسم أعضاء جسدي أقلاماً تسطر!
جلست في هذا الصيف إلى أغاني أبي الفرج التي كلما ضربها الأدباء تفجرت منها عيون جديدة. ووقفت على أسم (أبن أبي عتيق) الذي عاش في الحجاز في العصر الأموي ورافق تطور المدرسة الغزلية أتأمل تكرر أسمه في كثير من المواقف مع كثير من الشعراء، طوراً يبدو لي كناقد وطوراً كسامر، فحصرت مواقفه في هذه المواضع على التقريب، فإذا بي أراني أمام شخصية عنيدة في النقد هي - إذا صح ضني - أول شخصية في الأدب العربي (اليقيني) عالجت الأدب وعملت على نقده مستلهمة إلا ذوقها. . . ولكن أبا الفرج عفا الله عنه ترك هذه الشخصية مجهولة لأنها - في زعمه - لم تبتكر ولم تنتج شعراً ولا لحناً، ولكن هذه الشخصية تتردد كثيراً على الأفواه وتغشى كثيراً مجامع اللهو والأدب، وتصبغ كثيراً هذه المجاميع بألوانها الخاصة. ومما يجعل هذه الشخصية بارزة ترددها الكثير إلى هذه المجامع المختلفة، وتردد أصحابها إليها معتبرين رأيها في النقد والأدب. ولا اعلم - بحسب روايات الأغاني - نقداً تحليلياً عميقاً كهذا النقد. ولقد أردت أن أوضح هذه
الشخصية وأستوضح عنها في بطون الكتب والأخبار، وليس عندي ما يسعفني على ذلك؛ ولو كان ذلك سهلاً لما سهل على عقلي الذي لم أتعود إرغامه على الدخول في هذه المنعرجات الطويلة التي تحتاج إلى تأمل طويل وأناة في الإمعان. ولكن ذلك غير مانعي في من أن أغامر في رسم ناحية من نواحي شخصية هذا الرجل العجيب المنتج في النقد، وأظنها الناحية الأكثر بروزاً في الرجل.
والآن من هو ابن عتيق؟
يبدو لنا أن أبي عتيق رجلاً يخالط المغنين والشعراء ولا بد أنه كان يتذوقهم، وأنه كان صاحب ثقافة واسعة في الشعر والغناء تخول له الحكم فيهما، وإن كان بعد هذا كله صاحب ذوق خاص يفهم الشعر والغناء به. ومنذ كان كما يبدو يقصده الملحنون والشعراء أنفسهم يحتكمون إليه في لحن أو بيت أو ملحن أو شاعر فلا يتباطأ في حكمه، ولا يفل رأي في ذلك. حديد اللسان والجنان والبيان! ولولا هذه الثقافة وهذه الشهرة لما كان له مقام في ذلك. ولقد كان عمر بن أبي ربيعة أحسن المقربين إليه، وكان له معه عشرة حسنة ومجالس طيبة، وكان له مع شعراء الحب والغزل أمور كثيرة، ولا بد أن حادثة من حوادث غرامه جعلته يحدب على المحبين، ويمثل دور الرسول بينهم وبين أحبتهم.
ويمتاز نقده بأنه كان نقد روح ومعان لا نقد قشور ومبان؛ ويعود سر ذلك إلى أن اللغة العربية كانت لا تزال بعيدة عن الفساد، وأن لسان العرب كان لا يزال لساناً فصيحاً، وكان نقده أقرب إلى أحاديث النوادي، لأنه نقد بيت أو فكرة، ولأنه نقد يلم بجانب واحد من المعنى ويهمل بقية الجوانب. ونقده ليس فيه صرامة ولا خشونة ولا صلف، وإنما هو نقد تهيمن عليه رقة حجازية ومجون برئ يأبى إلا أن يظهر. ومن وراء ذلك تهكم بعيد ويصيب المفصل! ولهذا التهكم جعل الشعراء يتقدمون إليه ويطمعون في

اكتساب مرضاته. وهو يذهب تارة في نقده يكشف عن المعنى غطاء ثقيلاً، وطوراً يستجلي المعنى البعيد في البيت ويكشف عن قصده، وتارة يفسد على الشاعر ما ذهب إليه ولم يفطن له! ومثل هذا النقد أقرب إلى الروح الأدبية في ذلك العصر وهو - بعد هذا - بعيد عن مثل ذلك الاختلاق الذي وضع على لسان الخنساء يوم نقدت حسان بن ثابت وأضعفت بنقدها اللغوي مواضع فخره! لأن الوثبات الأدبية الأولى في الأمم لا ترنو إلى مثل هذه الفروق اللغوية

الدقيقة التي لا تنشأ إلا عند رجال انصرفوا إلى اللغة وتدقيقها والتفريق بين فروقها، ولو أن هذه الوثبات تلتفت إلى هذه الفروق لقتلت كثيراً من روح نشاطها وأخمدت كثيراً من نار إبداعها. ويمتاز أبن أبي عتيق بثقافته الغنائية، ومثل هذه ترقق الذهن وتلطف الحواس وتجعل للبيت المنظوم قدراً خاصاً. وقد كانت هذه الثقافة الغنائية عنده سليقة طبيعية. ولقد مر ذات يوم بمعبد وهو يغني - وكان طفلاً - فقال: (إن عاش معبد كان مغني بلاده) وعاش حتى رأى صدق نبوءته. ويمتاز بهذه الروح الخفيفة التي لا يستغني النقد ولا الناقد عنها. ويدل على ذلك مواقف كثيرة.

منها أن عمر بن أبي ربيعة شبب بزينب بنت موسى الجمحية بقصيدته:

يا خليلي من ملام دعاني ... وألما الغداة بالأظعان

وكان سبب ذكره لها إن أبن أبي عتيق ذكرها عنده ووصف من عقلها وأدبها وجمالها ما شغل قلب عمر. فبلغ ذلك أبن أبي عتيق فلامه فيها وقال له: أتنطق الشعر في ابنة عمي؟ فقال عمر

لا تلمني، عتيق! حسي الذي بي ... إن بي يا عتيق ما قد كفاني

لا تلمني، وأنت زينتها لي ... أنت مثل الشيطان للإنسان

قال أبو وداعة السلمي منكراً على عمر التشبب بها (لا أقر لأبن أبي ربيعة أن يذكر امرأة من بني هصيص في شعره) فأجاب أبن أبي عتيق (لا تلوموا أبا وداعة أن. . . من سمرقند على أهل عدن) ومن خفة روحه أن سمع عمر ينشد قصيدته.

ومن لسقيم يكتم الناس ما به ... لزينب نجوى صدره والوساوس

ولستُ بناسٍ ليلة الدار مجلساً ... لزينب حتى يعلو الرأس رامس

خلاء بدت قمراؤه وتكشفت ... دجنته، وغاب من هو حارس

وما نلتُ منها محرماً غير أننا ... كلانا من الثوب المورد لابس

قال عتيق: أَمنا يسخر أبن أبي ربيعة، فأي محرم بقى؟ فاعتذر عمر، فقال له عتيق: يا عاهر! هذا البيت يحتاج إلى حاضنة. فأنظر ما كان أبعد هذه الروح في كشف المستور، وما أخف روحها في التعبير عنه.

ولقد يثبت في تهكمه من الأدب إلى السياسة ويضربهما ويصيبهما بحجر واحد ويكون تهكمه في هذا الموقف الدقيق بليغاً ما بعده أبلغ! سمع عمر ينشده قوله

فأتتها طبة عالمة ... تخلط الجد مراراً باللعب

إن كفى لك رهن بالرضا ... فاقبلي يا هند! قالت: قد وجب

فقال له عتيق: إن الناس يطلبون خليفة مذ قتل عثمان في صفة قوادتك هذه يدير أمورهم فما يجدونه. فماذا يستطيع المحلل أن يزيد على هذا التهكم؟ ويسمع عمر ينشده قوله

حبذا أنت يا بغوم وأسما ... ء وعيص يكننا وخلاء

فقال له: ما أبقيت شيئاً يُتمنى يا أبا الخطاب إلا مِرجلاً يُسخن لكم فيه الماء للغسل. ولا أدري كيف يوفق بين محرم وطاعة إلا التهكم وحده؟

ويسمع عمر ينشده قوله:

ليت ذا الدهر كان حتماً علينا ... كل يومين حجة واعتماراً

فأجابه عتيق: الله أرحم بعباده أن يجعل عليهم ما سألته ليتم لك فسقك! وهكذا تجد أنه يتصدى لعمر لا لأنه يضمر لعمر مقتاً أو كرهاً، ولقد كان لعمر في نفسه منزلة لم ينزلها غيره من شعراء عصره وهو الذي تنبأ بنصف بيت كان في خاطر عمر.

قال عمر: لا تلمها وأنت زينتها لي

فأجاب عتيق: أنت مثل الشيطان للإنسان

فقال عمر: هو والله!

فقال عتيق: إن شيطانك ورب القبر ربما ألم بي فيجد عندي من عصيانه خلاف ما

يجده عندك من طاعة، فيصيب مني وأصيب منه.
ولعمر كما ذكرت في نفسه منزلة خاصة إذ يرى فيه المثل الأعلى للشعر، إليه يسمو الشعراء، وبشعره يقتدي الشعر. ولقد كان يعرف شعراء عصره منزلة عمر عند أبن أبي عتيق. فكان يأتيه من يحاول مناقضته أو مجادلته فيه، وكان الشاعر يأتي بأبيات يتحدى شعر عمر، ولا أعلم شاعراً انثنى سالماً من نقد أبن أبي عتيق، ولا أعلم واحداً استطاع أن يجرح له حكماً أو نقداً.
(دير الزور)
البقية في العدد القادم
خليل هنداوي
في الحياة
للأستاذ السيد محمد زيادة
لست أكتب هذا لأكتب؛ وإنما هي شكوى أطرحها هنا. . . أما طرفها الأول فهو أنا، وأما طرفها الثاني فلا أدري أهو شعوري المرهف لكل كبيرة وكل صغيرة تمر به، أم هو وجداني المستوعب دائماً كل ما فيَّ وكل ما أنا فيه، أم هو نفسي المتفتحة لكل ما ينتهي إليها من أمرها ومن أمر غيرها!!. فأني في هذا الشعور بهذا الوجدان مع هذه النفس أعيش في الدنيا كسفينة المستكشف عملها في اليم أن تظل حائرة على الوجه اليم فلا تكاد ترسو إلى شاطئ إلا لتنشد غيره؛ ويتملك رأسي خيال يقظ لا يهجع. ويقظة الخيال شقاء من الفن فهي شقاء في كل مواقع الحس لكل نواحي الحس.
وأراني منكوباً بهذا الخيال مرزوءاً بهمه، ثم أراني أحبه ولا أحيا بغيره. . . فكأنما أنا بين بليّتين فيهما مشكلتان لا حل لهما فلا نجاة منهما. . .
وأحس أنني قد قدر علي أن أعيش هكذا حتى أموت هكذا؛ فما استريح يوماً من سعي الخيال وراء ما يعني وما لا يعني، ولا اقصر يوماً عن التفكير في صوره التي يستخرجها من صور الحياة. أتُراني مقطوعاً من قمة جبل محطوطاً عند سفحه، وأريد أن أرى وأنا عند السفح ما أراه وأنا في القمة؟. . أم تراني أخطأت إذ خلقت لتحتويني الدنيا فظننت أني خلقت لأحتويها؟. .
أمشي في الطريق فأرى قصاباً يمر بسكينه مرتين على رقبة ديك كبير، ثم يقذف به بعيداً؛ فيقف صامتاً تتدفق الدماء من عنقه، وتزوغ عيناه فتارة تشخص إلى القصاب، وتارة تتطلع إلى الصبية الملتفين حوله يشهدون مصرعه، وتارة تنظر إليّ وكأنها تقول كلاماً، ثم يرقص الديك رقصة الموت إذ ترنِّحه المنية، ثم يرتمي على الأرض. . . فألقي عليه نظرة ساكنة ثم ألتفت عنه وآخذ سبيلي فإذا هي على غير ما كانت عليه، وكأن الشارع بما فيه من سابلة وما يحفه من مبانٍ خلوة هادئة في وهدة غارقة بين نجدين. فأستعيد صورة الديك مضطرباً ثم مذبوحاً ثم هامداً فيخيل إلي أنه كان وقت ذبحه يقول: الآن قد أمنت بأنني ما خلقت إلا ليأكلني من كان يطعمني. .
ثم أغيب عن الوجود غيبة، وأظل أفكر ويشغل بالي التفكير. وقد يستنفذ هذا من وقتي ومن ذهني ما أنا في حاجة إليه لشؤوني.
وانطلق مع صديق لي إلى ناحية المروج في نزهة خلوية فتقابلنا على الأرض نملة تسعى، فيدوسها الصديق بقدمه عامداً إلى قتلها؛ ولكنه يتركها تتلوى فلا هي بالحية ولا هي بالميتة، فيشجر بيني وبينه شقاق في الرأي حول فعلته. . . أريد أن اثبت له أنه مخطئ وأن الله لم يجعله على الأرض مبيداً للحشرات، ويريد هو أن يثبت لي أنه مصيب وان الله لم يجعلني على الأرض مرشداً للناس. ويطول الخلاف بيني وبينه، فلا هو مقتنع بأن عمله هذا قسوة ولا هو مقنعي بأن عمله هذا رقة؛ فأضطر إلى السكوت على مضض وأمشي مشفقاً على النملة المتوجعة، متألماً لطغيان القوة على الضعف، متعجباً لاعوجاج معنى الحياة، حاملاً من إشفاقي وتألمي وتعجبي ثورة على صديقي. . . لقد ديست النملة وتحطمت وبقيت تتعذب حتى تموت فماذا جرى منها حتى نستحل ما جرى عليها؟. . وأين الرحمة؟ أين الرحمة؟
وأظل أتغيظ ويملأ الغيظ نفسي، وقد يذهب هذا من سروري ما أنا في حاجة إليه في نفسي.

ويصادفني في الطريق رجل كسير مسكين يترقرق الدمع في عينيه ويكاد يطفر، وتجول الحسرة الصامتة في جبينه وتكاد تتكلم؛ فتلتقي عيناي بعينيه في موقع الفاقة من هيكله، ثم يلتقي شعوري بشعوره في موضع الألم في نفسه. . . وأراه يتلفت عن يمينه وعن شماله متفرساً في وجوه المارين به مر الزوارق اللاهية بالصخرة الحزينة، فأذهب أتصور نفسي بائساً بؤسه حائراً حيرته واقفاً، وأمكث أتحرى في مسارح شعوري ما كنت أقوله لنفسي وما كانت نفسي تقوله لي. . . حتى أسمع في وجداني هذا الحديث: كنت أقول لنفسي: أنا جائع فهل من هؤلاء الناس السعداء من يعرف الجوع؟ وهل منهم من يرده؟. . . وتقول لي نفسي: أمسك على الطوى فليس بين الناس من يرجى، وليس غير الله من يسأل. . . فأقول لها وهل المحسن من الناس إلا يد من الله تمد بالحسنة؟. . . فتقول لي: يد الله لا تنتظر السؤال لتعطي. . .

ويتمطط حديث الوجدان ويطول، وأظل أتحسر ولا أستطيع إلا أن أتحسر؛ وقد يستغرق هذا من وجداني ومن خاطري ما أنا في حاجة إليه لعملي.

وأجلس في غرفتي مسهداً في هدأة الليل تشرف بي جلستي على دور ومن ورائها حقول ومن ورائها ما لا يرى. . . فتذهب عيني إلى مسارب الفكر، ويغوص فكري إلى أعماق الكيان. فماذا أجد هناك، وما تحمل نفسي من هناك؟!

أجد هناك إرادة الحياة تغالب إرادة الموت فتتجاذبان روح الإنسان، والإنسان بينهما عاجز لا حيلة له، ضعيف لا قوة فيه، مسخر لا رأي عنده. . . وما تزالان تصطرعان حتى تهتديان إلى حل تصطلحان عليه، هو أن يموت الإنسان جزءاً من اليوم على قدر استعداده للخمود والموت، ويحيا بقية اليوم على قدر استعداده للعمل والحياة؛ وتتفقان على أن تسمى تلك الموتة اليومية الصغيرة بالنوم، فيقال نام. . . حتى تعافه الحياة فتنزل عنه للموت فيقال مات. . .

وتحمل نفسي من هناك كلمة الفناء ومعها كلمة الألم؛ وأقول لنفسي: حقاً إن هذا الذي نسميه النوم ما هو إلا راحة أصغر من راحة، فهو موت أصغر من موت. . . يا عجباً!! أهكذا جُعل الموت على رقابنا حتى لم تخل منه الحياة نفسها؟! أهكذا خُلقنا لنموت ونحيا كل يوم ثم نموت في يوم فلا نحيا؟! ثم أقول: يا ويلتاه. . . لن ألبث إلا قليلاً حتى أكون في عداد هؤلاء الأموات الذين تركوا الدنيا وما يزالون فيها. . فمنهم من يبعث ليأرق ثم يموت، ومنهم من يبعث ليشرب ثم يموت، ومنهم من تدخله موتته الصغرى في موتته الكبرى فلا يبعث إلا يوم الحشر. . .

وأظل أتأمل وأتوزع بين التأملات؛ وقد يشغل هذا من بصيرتي ومن إدراكي ما أنا في حاجة إليه لقلبي.

وآوى إلى مضجعي قبيل الفجر مهدماً كالقادم من سفر طويل، مكدوداً كالفارغ من عمل شاق؛ وألقي برأسي على الوسادة ثقيلاً كالحجر، ساخناً كالأتون، ممتلئاً بما أفرغت فيه المشاهد والمشاعر من صور طول النهار ومعظم الليل. . . وفيما أنا أستشعر الخلو، وأتلمس الاستقرار، واستكفي مخي عناء التفكير، وأقنعه بضرورة الرقاد. . . يطرق مسمعيصوت بوم ينعب، وأنا لا أمقت كما أمقت البوم طائراً نافعاً أو ضاراً؛ فأنهض من فراشي لا لأغلق النافذة دون ذلك الصوت الكريه البعيد فأزيد بعده أو أصده؛ وإنما لأطل من النافذة فأقترب من ذلك الصوت الكريه البعيد فأسمعه جيداً لعلني أفهم غموضه فأفسره.

وتمر من الليل فترة وما تكاد تنقضي حتى أجدني قد انقلبت عاطفاً على البوم واجداً في نعيبه جمالاً ولذة؛ وما تغير هو حتى صار محبوباً، وما تغيرت أنا حتى صرت أحبه. . . ولكني إذا افتح لسماعه آذان نفسي أسمعه كالمغني، وإذا أفتح لعنائه آذان عقلي أتسمع فيه نداء المحب المشتاق للحبيب الغائب. . .

وأظل ألقي على نفسي في أنر البوم ونعيبه وشؤمه السؤال بعد السؤال؛ وقد يأخذ هذا من راحتي ما أنا في حاجة إليه لجسمي.

وهكذا أراني منكوباً بهذا الخيال مرزوءاً بهمه، حتى ليقودني إلى جنون شعري ثائر يفقدني لذة التمتع بمظاهر الكون وجماله في البحث عن حقيقة الكيان وأسراره.

والعزيز على هو أني لا أملك الخلاص من الخيال، فأنا لا أملك الخلاص من هذا التعب - اللهم إن كان هذا من فطرة الشعر فلبئست الفطرة، ولخير منها فطرة الجمود والبلادة.

إن من الناس أناساً يعيشون في هذه الحياة ليعيشوا فقط؛ لا فكر في أدمغتهم، ولا حرب في عقولهم، ولا نصب في أفئدتهم. . . كأنما خلقوا جسوماً بغير قلوب، ولكنهم سعداء أنهم يشعرون بأنهم سعداء!!

أريد أن أجرب هذه السعادة فأطرح هموم الخيال، وأنسى خيال الهموم، وأعيش بظاهر ما أرى. . أريد أن أفهم ولو يوماً واحداً أنني سعيد وإن فهم الناس في ذلك اليوم أنني شقي.

(طنطا)

السيد زيادة

. . .بغير عنوان

إن وجدتم في هذه الكلمة صراحة في الوصف، فلا تلوموا الطبيب فأنه يصف المرض، (ليعين الدواء)

للأستاذ علي الطنطاوي

كان شاباً عُرَانِقاً جميلاً، صبوح الوجه، متأنثاً، قد أصيب بمرض التَّجمل. . . فلم يكن يجئ إلى المدرسة إلا متزيناً مستعداً استعداد عروس تزف إلى بعلها، قد صفف شعره ودهنه وعطره ولبده وعقربه على صدغيه، وحلى وجهه وصقله، وصنع به ما لست أدري. . . فبدا أبيض أحمر مشرقاً مجلواً صقيلاً، كأنه صفحة مرآة. . . وكشف عن أعالي صدره، وأحاط عنقه بهذه العقدة التي يفتن في عقدها واختيار لونها واتساقها مع الحُلة التي يلبسها افتناناً. . . ولا يزال أبداً يمد يده إليها يتلمّسها، ويصلحها ويطمئن عليها، ثم يحرك رأسه حركة غنجة يردّ بها عقارب صدغيه إلى مكانها!

وكان واضح الجبين، أزجّ الحاجبين حتى كأنهما قد خطا بقلم، أنجل العينين أشهلهما كأن لهما لون السماء وعمق البحر، وكأنهما تستجديان الحب. . . إذا نظر غض الطرف من الحياء، ودانى بين جفونه، وبرقت عيناه الناعستان فقالتا كلمة فلم تتم، فأنمها فمه القاني الصغير وشفتاه المضمومتان. . . وإذا تكلم تكلم بصوت لين حالم سكران، كأن ألفاظه تقول شيئاً، ولهجته ونبراته تقول شيئاً آخر، تقول: إن رجولة صاحبي رجولة مزورة! وإذا مشى تثنى وتخلع وتكسر، وماج جسمه موجاً، وذهب كل عضو منه في ناحية، كأن جسمه متفكك، قد تقطعت أوصاله وفصمت عراه وانحلت لوالبه. . . وإذا دعوته أقبل إلي يتهادى ويميل، فإذا وصل إلى حيث أكون، وجد أقرب متكأ فأستند عليه، كأنه بناء لا يقوم إلا إذا أسندته بدعامة، وإذا كلمته خجل كأنه فتاة في الخدر، وأجاب بصوت خافت يكاد يبتلعه الخجل، فكنت أزعق في وجهه من الغيض، ثم أطرده طرداً. . .

ولم يكن ينصرف إلى علم أو يقبل على درس، لأن عقله قد سال على جوانب جسمه خرقاً وثياباً، ولم يبق منه في داخل ما ينفع لعلم أو درس، فهو دائماً ينظر في عطفيه، ويتأمل ثيابه ويخرج من جيبه مشطه ومرآته، ولولا بقية من حياء لأخرج أبيضه وأحمره وقلم شفتيه. . .

وكنت أراه في باحة المدرسة فأراه غريباً عن هؤلاء الشباب لا يطيق حراكاً، ولا يحسن لعباً، ولا يدفع عن نفسه اعتداء، وما فيه من الرجولة إلا اسمه وبدلته.

وحاولت إصلاحه، وتعهدته بالنصح والإرشاد، فكنت كمن ينفخ في غير ضرم، فأيست من إصلاحه وكرهته وأبغضته، وجعلت أزوي بصري عنه، وأتناساه وأهمله، ثم افتقدته فلم أجده، ثم علمت أنه قد فارق المدرسة.

ومرت أسابيع، ثم رأيت في مكانه طالباً جديداً من الطلاب الذين يتدربون على الجندية، يلبس الثوب العسكري، وعلى وجهه طابع الرجولة: له شاربان كاملان، وأثر اللحية ظاهر على خديه، والقوة والصرامة بادية في عينيه وملامحه؛ وكان قوي النظرات، صعاقاً جهير الصوت، ذكياً مقبلاً على الدرس، فطناً ألمعياً؛ وكان سريع الحركة، جم النشاط، إذا دعوته أقبل يسير بخطى موزونة، يطأ الأرض وطأ شديداً، وقد نصب قامته ورفع رأسه، فإذا قام بين يدي قرع رجلاً برجل ثم رفع يده بالسلام لا كما يرفعها مثلي أو مثلك، بل كما يرفع يده الجند بالسيف يستله من قرابه، وإذا كلمته أجاب بجرأة وأدب؛ وكنت أراه في ساحة المدرسة، فأراه على اجتهاده وإقباله على العلم، قوياً نشيطاً يصارع الطلاب ويباطحهم، فإذا تمكن من منهم وعلا عليهم عفا عنهم وأبقى عليهم، فكنت أعجب من قوته ونبله، وعلمه وفضله، وأكبر فيه هذه

الصفات.
ثم أنني أحببت أن أشجعه وأضرب منه للطلاب مثلاً، فتكلمت وأثنيت، وقلت: كم بين هذا وبين ذاك من فرق. . .!!
فصاح الطلاب: ومن هذا ومن ذاك؟ أنهما شخص واحد!
قلت: ويحكم! فأي معجزة هذه التي بدلته شخص آخر، وأنشأته إنشاء جديداً؟
قالوا: يا أستاذ. . . إنه تدرب أسابيع على الجندية. . . . . .
(بغداد)
علي الطنطاوي
في الموسيقى
إلى الأستاذ محمد عبد الوهاب
للأستاذ محمد زروقي
سيدي الأستاذ:
لا أدري إذا كانت أعمالك الكثيرة تسمح لك بتوجيه بعض اهتمامك إلى ملاحظاتي الآتية، كذلك لا أدري إذا كانت وجهة نظري تبدو لك على صواب. وبالرغم من ذلك فأني أحسن الظن بك، وأسجل هنا أني آمل منك أن تتنازل لسماع صوت متواضع من بعيد لشخص من أكثر المعجبين بك والمتحمسين لك.
واسمح لي بادئ ذي بدء أن أوضح لك نقطة هامة راجياً منك العفو وحسن القبول.
وليس لي أن أوجه خطابي الجريء إلى الأستاذ محمد عبد الوهاب الذي ليس لي شرف معرفته المعرفة الكافية، ولكني أوجهه إلى فناني المفضل، إلى ذلك الذي كثيراً ما استمع إليه، إلى ذلك الذي يستطيع - كصديق حميم - أن يفتح لي قلبه بكرم فأرى وأميز قلبي منعكساً عليه.
وهنا يخيل إلى أن معرفتي الدقيقة بالفنان - وهي ترجع إلى مدة بعيدة - تحتم علي ألا أخفي عنه شيئاً، وإلا كانت بمثابة خيانة له. كما يخيل إلي أن تبادل الشعور يجعل لي الحق، وربما يتطلب مني البحث عن شئ من أخطائه والاحتجاج على بعض وسائله.
بعد ذلك أبداً - إذا سمحت لي - بأن أعبر عن الأسف الذي يعتورني عندما اسمع بعض مقطوعاتك المشهورة مثل (في الليل) و (اللي انكتب) باللهجة المصرية، في حين أن لغة امرئ القيس والمتنبي هي التي كان يجب استعمالها إذا كنا نود أن نهدي إلى أحفادنا مثل هذه الأعمال الخالدة. فذلك الذي أودع (يا جارة الوادي) في أسطوانة يجب ألا يتقيد بحدود البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط، وأن يظل ضمن الحدود التي اختطها الفراعنة (فماذا تهم الزجاجة نفسها ما دامت تسكرنا؟) وإني أشارك (نيتشه) رأيه الذي يقول بأن العاطفة يجب أن يعبر عنها الصوت دون غيره، وألا نعطي للكلام أكثر مما يستحق من الأهمية، ولذلك فأنني أعطي للموسيقى نفس المرتبة التي يضعها فيها المفكرون: تلك المرتبة التي تحلها محل الكلمات العاجزة عندما تكون هذه الأخيرة فقيرة وقاصرة أمام
مطالب الحساسية القوية.
الآن أنتقل إلى الغرض الأساسي من خطابي:
حاولت في بحث قصير كان موضوع إحدى المناقشات أن أوجه مقارنة بين الحساسية في الغرب وبينها في الوسط الذي أعيش فيه، وذلك عن طريق دراسة أقوى وسائل التعبير عنها - ألا وهي الموسيقى - ولكي أعزز مناقشتي لجأت إلى الأدب وتاريخه وشخصياته البارزة. وحينئذ أصبحت مدفوعاً إلى أن أقرر بأن الغرب قد تأخر إلى القرن التاسع عشر ليشهد ازدهار (المذهب الرومانتيكي) أي تلك الحركة الفكرية والفنية التي تشبه أدبنا إلى حد بعيد. ولذلك فان أوربا لم تخلق إلا حديثاً، وحديثاً جداً من يكمل ما بدأه عمر الخيام والمعري والفردوسي. فالنفثة الحزينة المؤلمة التي بعثها الفيلسوف شبنهور (1788 - 1860) هي التي ألهمت كل الموسيقيين الرومانتيكيين، هؤلاء الموسيقيين الذين عالجوا مسائل القدر المعقدة، وآلام الإنسانية المحكوم عليها بالعذاب. وإن أشهر زعماء المتشائمين الغربيين ليس لهم أن يعلمونا شيئاً، كما أن شوبان الذي قيل إن (توقيعاته ما هي إلا دموع متساقطة على أصابع البيانو) لم يصل مطلقاً إلى ما وصلت إليه أغانينا الحزينة حسب رأيي على الأقل.
ولا شك في أن الموسيقى ليست عالمية. فلن تستطيع أن تفهم (سيزار فرنك) كما

يفهم نفسه أو كرجل مسيحي، ولا (بتهوفن) بدون دراسة عميقة للفلسفة الألمانية. وأني أحاول في حكمي أن أتناسى الآراء التي انتقلت إلي بالوراثة، وأن أتحاشى التحيز والتعصب في نقدي، وأنا لا أنكر إن هذا العمل يتطلب مني جهداً عظيماً، وتسامحاً كبيراً. ولكن دراستي المتواصلة والبعيدة عن المحاباة لشلر ومدام دستايل وشاتوبريان وبيرون وبودلير، الذين أذكرهم هنا كقادة المدرسة الرومانتيكية، لا ترسم لنا صورة جديدة أو أثر يكون أجنبياً عنا حقيقة.

بقى علينا أن تساءل في صراحة: أليس الموسيقى الغربية التي لا تسير إلا في المحيط النظري (الميتافيزيقي) أكثر تأخيراً من موسيقانا؟

إن أوروبا بمؤلفيها الموسيقيين في القرن التاسع عشر والقرن العشرين - برغم أعمال سترافنسكي - تُظهر تخبطاً لا نهاية له في محاولتها دراسة القضاء والقدر التي تتحكم في رقاب الناس. فاعتبار هذه الحالة درجة من الكمال تستحق أن تُحتذى كما يُحتذى التقدم العلمي ونظرياته تكون غلطة ما أقبحها من ذلك الشخص الموهوب الذي يصدح على ضفاف النيل. فالبحث كذلك عن مناح جديدة في الألحان الغربية واستخدام وسائل تعبيرها يعد منا رجعة إلى الوراء.

وقد ظهر لي أن محاولاتك نتجه يوماً بعد يوم نحو توافق الأصوات وإخراج مجموعة متنافرة منها في لحظة واحدة وبالتبعية محاولة التعبير عما يضطرم في نفسك بما تستخلصه من ذلك.

كانت النغمة الفردية الأوربية دائماً أبداً ضعيفة، فلا عجب أن نراها تلجأ إلى تلك الأصوات المتجمعة؛ هذه الأصوات تعبر عن أشياء متباينة، ولكنها تصدر في وقت واحد لتنتج من ذلك تآلفاً فيما بينها. ولا أدل على ضعف السلم الموسيقي الغربي من اقتصاره على استعمال النغمتين فقط (ويلاحظ أن النغمة المنخفضة ترجع إلى عرب أسبانيا) في حين أن الفرس في العصور الوسطى قد استعملوا ستاً وثلاثين نغمة وأن الأندلسيين استعملوا أربعين منها، وأن الشرقيين بعكس المؤلفين الموسيقيين الحديثين لم يجعلوا ألحانهم تعتمد على قدرة آلاتهم وعلى الأخص على وضع علامات لها.

وليست الرغبة في استعارة آلات موسيقية عجمية (كموسيقى اليد) إلا وقوعاً منا في نفس الخطأ الشنيع الذي وقعوا هم فيه وتجنباً منا على الموسيقى الشرقية.

ومهما كانت محاولاتك جريئة وتستحق الإعجاب فيجب أن تعرف - في رأيي المتواضع - كيفية الرجوع إلى مصادر الأشياء، وأن تتساءل عن ماهية العوامل التي تهيئ الخلود لفكرة ما، وأن تفكر في النتائج التي يصح أن تنتظرها من وراء هذا الاقتباس. وهنا يجب أن تعترف بأن قوانين الوراثة تلعب دور الهام: فأن (بولدييه) و (برليو) لا ينسبان فضل أعمالهما إلى نفسيهما فقط. . . . لأنهما رضعا ألحانهما من ثدي أميهما اللتين حصلتا عليها بدورهما ممن سبقوهما، وهما ليستا إلا حلقتين من سلسلة طويلة.

وليس من الغريب أن نرى وجوه الغربيين عندما يستمعون إلى موسيقانا وقد ارتسمت عليها تلك الابتسامة التي ترتسم على وجوهنا نحن عندما نستمع إلى الموسيقى الأولية. وهناك حقيقة أخرى أكثر خطراً، وهي أن الأوربيين لا يكادون يفهمون من أنغامنا الموسيقية إلا ما

استعرناه منهم، وحيث أننا لم نوفق في استعارتنا فهم لا يحجمون عن الحكم على الجزء العربي منه بأنه رديء.

وهذا ما يدفعني إلى سرد أمثلة من خطواتك المحيرة غير الموفقة: (فبحارة الفلجا) أغنية روسية واقعية تعبر عن العذاب العقلي والجثماني الذي كان يعانيه سكان قلب روسيا، وقد أخذتها أنت بنفسك في فلم (الوردة البيضاء) وهو فلم شعري خالص: فالشقة بينهما بعيدة بعداً شاسعاً.

و (يا شراعاً) وهي قصيدة مقدمة إلى الملك فيصل عبارة عن نشيد يراد به مدح بلاد الرافدين، فهل يصح أن نقبل هذه النغمات التي تحرك العاطفة بدون شك، ولكنها خالية من الحمية والملاطفة التي يجب أن تكون عند مَن يريد أن يمدح ملكاً محبوباً يعجب به؟ ففي هذا النشيد نبحث عبثاً عن الحمية التي نراها في نشيد لمير بيير الذي فيه يعبر عن الكثير من العظمة والنبل.

وعندما ننعم النظر في مقطوعاتك الأخيرة نلاحظ في حسرة شديدة بأن (الحركة) قد زادت فيها كثيراً بحيث أن الأذن تتساءل في حيرة عما إذا كنت حقيقة الذي ملأت اسطوانة (أيها العلم الخفاق) رقم 99. 104.

فهل يجب علينا إذن ألا نستوحي شيئاً عن الموسيقى الغربية؟

لا بكل تأكيد. وليكن ذلك لمجرد الإطلاع فقط. فمن الضروري أن ندرس هوجو ولامرتين وشكسبير ورابندانا تاجور وإبسن وكبلنج وتولستوي وسرفنتس لكي نفهم الآداب العالمية، وهذه الدراسة ليست أقل لزوماً من إرسال أبنائنا إلى الخارج لتمضية بعض الوقت في (مدرسة الفنادق في جرينوبل) أو في معامل الاختبار للمراكز الصناعية في (بربي) و (برمنجهام) وفي الأحواض البحرية في (نانت) و (كيل).

ولكيي أعزز رأيي هذا أذكر الحقيقة التاريخية الآتية: عندما انتصر هارون الرشيد على الإمبراطورية نيقفور البيزنطي عام 806 ميلادية نص في معاهدة الصلح بينهما على شرط يلزم المغلوبين بتسليم العرب جميع المؤلفات التي خلفها القدماء والمحفوظات الموجودة في دور الكتب بالقسطنطينية القديمة. وقد برهن العاهل العربي مرة أخرى على ذكائه الفائق وفهمه للحقائق، فقدر أن شعبه يجب أن يتفهم ويستوعب سريعاً كل المعارف التي وقف السابقون على أسرارها، وأن العرب بدون مساعدة غيرهم لا يمكنهم تأسيس حضارة ثابتة؛ ولذا يجب عليهم أن يستعينوا بمن تقدموهم من مصريين وكلدانيين ويهود وفرس وهنود ويونانيين ورومانيين وقرطاجيين، وأن يتوفروا على دراسة أوراق البردي واللوحات وتماثيل الآلهة. فبعد أن درس العرب العصور السابقة أمكنهم أن يضيفوا معارف من سبقوهم إلى معارفهم الخاصة التي ستبقى على مدى الأيام.

وكذلك اليابان: فما الذي فعله حزب التجديد عندما تربع في دست الحكم عام 1868؟ لقد بدأ بدراسة مبادئ الأحزاب الأخرى في الدول المتمدينة.

فإذا تحدثنا عن القلب ونشاطه والحساسية وطرق التعبير عنها وجدنا الأمر هنا مختلفاً عن ذلك، وهذه النقطة الهامة هي محور بحثي: فالإحساس المتناهي ورد الفعل وتجسيم التأثيرات النفسانية لا يمكن أن تقارن بالمعارف التي يمكن اكتسابها.

وهناك نقوش فرعونية تذكر بعض النصائح الموجهة من أم إلى ولدها يوم أن عهدت به إلى أستاذه. وهناك نقوش أخرى تعبر عن مثال خالد: ذلك هو ألم الأشخاص المحكوم عليهم بالعمل اليومي الشاق المضني. فعليك أيها الأستاذ أن تبحث في زوايا التاريخ عن ألحان أكثر إنسانية! بل من السهل عليك أن تتخيل الأمهات في هذه العصور البعيدة وهن يهززن مهود أطفالهن بنفس المحبة والعناية والحنان التي تبديها أمهات العصر الحالي. أليس من الخطل والنفاق أن نعتبر وقع الألم النفساني الذي عاناه أسلافنا أخف على نفوسهم من وقعه علينا؟ وأني لا أجد صعوبة في أن أتخيل الألحان الجميلة التي كانوا يعبرون بها ويصورون عواطفهم التي تتوثب من الألم.

وللرجوع إلى الحديث عن محاولات التجديد أو فرنجة موسيقانا يمكنني أن أضرب مثلاً بأحد موسيقيينا الذي حاول منذ سنوات أن يعبر عن بعض مقطوعاتنا الشعرية بأوزان أوربية، فكان سبب نجاحه أنه قد استحدث شيئاً جديداً ولكنه كان نجاحاً قصير الأجل، وسرعان ما أسدل النسيان ستاره على هذه المحاولة وحسناً فعل. وقد بدأ مغنى الجزائر الحالي أو (كاروزو شمال أفريقية) كما أطلق على نفسه بإلقاء مقطوعات تحترم موسيقانا القديمة، ويجب علي أن أشير أثناء حديثي إلى أن طرق التلحين الأندلسية الأثنتي عشرة التي لا زالت مستعملة في المدن الرئيسة بشمال أفريقية ليست إلا مخلفات وبقايا بالية في حاجة إلى عيون عالم الآثار - وأقصد أذان رجل موسيقي - لنكشف في هذه البقايا عن عظمة المقطوعات التي كانت تردد تحت أبواب الحمراء المرمرية، أو تحت ظلال الأشجار الوارفة في أشبيلية وقرطبة.

ومهما يكن من شئ فإن استعمال هذه المخلفات القديمة لا يدخل كثيراً من التغير على قواعد الموسيقى، إذ أن في ذلك محافظة على تراثنا القديم.

ولكن للغرب سحره الأخاذ ما في ذلك من شك، لأن مغنينا الجزائري خضع لتأثير الأوبرا. واستمع بسرور إلى الألحان القصيرة من الأوبريت والصالات؛ تلك الألحان التي طغت شيئاً فشيئاً على مقطوعاته حتى أصبحنا الآن نلمس فيها أكبر فشل فني معيب.

وقد سارت المرحومة أنيسة يامنة الجزائرية في طريق مخالف لذلك كل المخالفة. فهذه الموسيقية انتهجت نهج الغناء القديم الذي يمكن تقدير أهميته، واستندت إلى شعورها النسوي القوي وخبرتها الموسيقية الطويلة. وكانت تذهب للإقامة بين أفراد الطبقة الفقيرة وبين العرب الرحل لتغترف من شعورهم البسيط الخالي من كل زخرف ثم تعود بمحصول غني متنوع وفير، وبعد ذلك تستسلم لتفكيرها ولأبحاثها وتستمع إلى نفسها وتستوحي صوت أجدادها ثم تترك قلبها يعبر عما في خلدها بألحان تخلب الألباب.

وأني أعرف الكثير عن الطريقة المخالفة لتلك التي يتبعها الأستاذ، وبمعنى آخر ترجمة الغربيين واقتباسهم لموضوعاتنا؛ وأسواق إليك هنا مثلاً مشهوراً لأوضح وجهة نظري: أقام المؤلف الموسيقي سان سانس حقبة طويلة في الجزائر، ولذلك يقوم مؤلفه المشهور (شمشون ودليلة) على طريقة التلحين الأندلسية (زيدان). ولا أتردد أن أضيف إلى هذا المثل مثلاً آخر فيما فعله ف. دافيد الذي أمكنه بعد رحلة طويلة إلى الشرق أن يخرج مؤلفيه: (الصحراء، ولالاروك). وكذلك فعلوا الأسبانيون وكذلك (بيزت) في (كارمن) (1870) وغير هؤلاء من الذين يدينون بالشيء الكثير إلى الأندلس في القرون الوسطى. ومثل هؤلاء أيضاً موسيقيي وسط أوربا مثل لست وشوبر وموزار وبعض موسيقيي أمريكا الجنوبية أيضاً الذين وجدوا في ألحاننا مورداً فياضاً لا ينضب.

والآن أعود متسائلاً إذا كان العكس ممكناً: فتقدم الموسيقى الغربية - في رأيي - قد بدأ يصل إلى درجة التشاؤم التي تكلمت عنها من قبل. وأني لا أفكر في لحظة في أن أحط من

شأن (الأرلزين وفيدليو ولوهنجرين) ولا أريد إلا أن أضع كل موسيقي في الوضع المناسب له. وأني لا أذكر هنا ما قاله المسيو (أندريه كوردي) في مؤلفه (مشاهد الموسيقى العصرية): صراع دائم. . الموسيقى العربية تحتضر كل يوم باتصالها بالموسيقى الغربية؛ وستموت الموسيقى الشرقية إن عاجلاً وإن آجلاً إذا لم تثابر على مقاومة الموسيقى الأوربية الزاحفة عليها بموسيقى شرقية بحتة.

قد أكون فيما كتبته أعبر عن أمنية لي. فالفنان الكبير الذي لمصر فخر الاحتفاظ به، والذي له تلك المهارة الفائقة التي استطاع أن يهضم بها بعض القطع الخالدة في الموسيقى الرومانتيكية، لن يعجز بفضل ما وهبه الله من حسن اختيار أن يوفق في أعماله القادمة في مزج الموسيقى العربية بالإفرنجية بدلاً من المجهود الضائع في إخراج ثمرة غير ناضجة لا يهضمها الذوق العربي. وأني أتمنى له التوفيق المطرد والفوز العظيم.

(تلمسان)

محمد زروقي

الفصل في نبوة المتنبي من شعره

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

- 3 -

ولنعد إلى النظر في قصيدة المتنبي:

كم قَتيلٍ كما قُتِلْتُ شهيدِ ... بياضِ الطُّلى ووَرْدِ الخدود

فقد ابتدأها المتنبي بالنسيب على عادة الشعراء، وتدله في ذلكَ النسيب كل التدله، وقتل نفسه فيه من فرط الصبابة والوجد، ثم ذكر أيام الصبا والجهل وحنَّ إليها، وتفنن في وصف الحسان اللاتي نسب بهن أيما تفنن.

ولم يكفه ذلك التدله في النسيب، والتفنن في وصف النساء، بل عمد إلى الخمر ينسب بها أيضاً، ويتدله فيها بأكثر مما تدله في نسيبه.

ولا شك أن هذا الأسلوب في النسيب ووصف الخمر، لا يتفق مع ذلك الأسلوب الذي ينسب إليه في دعوى النبوة، ولا يمكن أن يحصل هذا وذاك من شخص واحد، لاختلاف نزعتهما، وتباين المشارب فيهما، واتجاه كل منهما إلى غاية تخالف الأخرى، فهو فيما ينسب إليه في دعوى النبوة رجل جد وصلاح، مبعوث إلى هذه الأمة الضالة المضلة، ويريد أن يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً؛ وهو في قرآنه يدعو إلى الأيمان ويحارب الإلحاد، ولكنه في شعره هازل خليع، يدعو إلى الفسق والفجور، وينغمس في حمأة

الضلال، ويبلغ من أمره أن يستهتر بالأيمان والتوحيد إلى هذا الحد قي قوله:
يترشفن من فَمي رَشَفاتٍ ... هُنَّ فيه أحلى من التوحيد
وهذا البيت يذكر فيما يؤخذ على المتنبي من الإلحاد في الدين فكيف يتفق أن يأتي في شعره وهو في عهد يدعو فيه إلى التوحيد ويحارب الإلحاد ويزعم فيه أنه نبي مرسل؟
ثم يبلغ أيضاً من أمره عندما أخذ في وصف الخمر أن يقول فيها هذا القول:
كلُّ شيء من الدماءِ حرامٌ ... شُرْبهُ ما خلا دم العنقود
فأي نبي هذا الذي يحلل الحرام ويحرم الحلال؟ وأي ضلال يحاربه وهو يدعو إلى هذا الضلال؟
وقد جاء البيت الأول في بعض الروايات:
يترشَّفن من فَمي رَشفاتٍ ... هُن فيه حلاوةُ التوحيد
وهو في هذه الرواية أخف في الاستهتار من روايته الأولى وهي الرواية المشهورة.
فلما جاوز في قصيدته هذا كله، ووصل إلى مقصوده من الفخر بنفسه وشكوى حاله، وحمل نفسه على تحمل الصعاب في سبيل آماله، كانت آماله أشياء أخرى دنيوية، ولم تكن هي الآمال التي تنسب إليه في دعوى النبوة؛ فليس لهذه الآمال ذكر هنا، ولا تشتم لها فيه رائحة، وإنما هو هنا رجل يسعى في اكتساب المجد، ويكد في طلب الغنى والمال، ويشكو من إخفاقه في هذا الطلب مع كثرة سعيه فيه:
ضاق صدري وطال في طلب الرَّزْ ... قِ قيامي وقَلَّ عنه قعودي
أبداً أقطع البلاد ونجمي ... في نحوس وهمتي في سُعُود
وهو أبداً مولع بذلك الاستهتار حتى في مقام الجد، فإذا أمر بطلب العز لا يفوته أن يقول إنه خير من الذل ولو كان في جنة الخلد، وأن يفضله ولو كان في لظى على الذل.
فاطلب العزَّ في لَظى وذَر الذ ... لَّ ولو كانَ في جنان الخلود
فمثل هذا لا يصح أن يكون من شخص يدعي النبوة، ويدعو الناس إلى العمل الذي يوصلهم إلى نعيم الله في الجنة. ولا فرق بينه في هذا وبين ذلك الشاعر الجاهلي الذي سبقه إلى ذلك المعنى، وكان له من جاهليته ما يهون من أمره فيه، وهو ذلك الشاعر الذي يقول:
حكم سيوفك في رقاب العذل ... وإذا بليتَ بدار ذلٍّ فارحل
دار النعيم بذلةٍ كجهَنم ... وجهنم بالعز أكرم منزلِ
وكذلك هذا الفخر لا يليق ممن يدعي النبوة:
إن أكن معجباً فَعُجبُ عجيب ... لم يجد فوق نفسه من مزيد
أنا تِرْب النَّدى ورَبُّ القوافي ... وسمامُ العدى وغيظ الحسود
وهكذا نخرج من دراسة هذه القصيدة بيقين لا شك فيه، أنها لا تتفق مع تلك النبوة المزعومة للمتنبي، فأما أن تكون هذه القصيدة مختلقة عليه، وأما أن تكون تلك النبوة مكذوبة. وإذا كانت هذه القصيدة للمتنبي باتفاق الفريقين المختلفين في أمر نبوته، فأن تلك النبوة تكون هي المكذوبة قطعاً.
وهذه قصيدة ثانية للمتنبي، قالها في ذلك العهد الذي ينسب إليه إدعاء النبوة:
ضيفٌ ألم برأسي غير محتشم ... والسيفُ أحسن فعلاً منه باللمم
ابعِدْ بعدت بياضاً لا بياض له ... لأنت أسودُ في عيني من الظلم
بحبِّ قاتلي والشيبِ تغذيتي ... هواي طفلاً وشيبي بالغ الحلم
فما أمرُّ برسم لا أسائله ... ولا بذات خمار لا تُريق دمي
تنفَّست عن وفاءٍ غير منصدع ... يوم الرَحيل وشعب غير ملتئم
قبلتها ودموعي مزجُ أدمعها ... وقبلتني على خوف فماً لفمِ
فذقت ماء حياةٍ من مُقبَّلِها ... لو صاب تربا لأحيا سالف الأممَ
ترنو إليَّ بعين الظبي مُجهِشةً ... وتمسح الطَّلَّ فوق الورد بالعنم
رُويدَ حكمك فينا غير منصفةٍ ... بالناس كلِّهم أفديك من حكم
أبديتِ مثل الذي أديتُ من جزعٍ ... ولم تجني الذي أجننتُ من ألم
إذن لبزَّكِ ثوبَ أصغرهُ ... وصرتِ مثلي في ثوبين من سقم
ليس التعلُّلُ بالآمال من أربي ... ولا القناعةُ بالأقلال من شيمي
ولا أظن بناتِ الدهر تتركني ... حتى تسدُّ عليها طُرقها هممي

لم الليالي التي أخنت على جدَتي ... برقة الحال واعذرني ولا تلم
أرى أناساً ومحصولي على غنم ... وذكر جودٍ ومحصولي على الكلم
ورَبَّ مال فقيراً من مُروَّته ... لم يُثر منها كما أثرى من العدم
سيصحب النصلُ مني مثل مضربهِ ... وينجلي خبري عن صمَّة الصِّمم
لقد تصبرتُ حتى لاتَ مصطبر ... فالآن أقحم حتى لات مقتحم
لأتركنَّ وجوهَ الخيل ساهمةً ... والحربُ أقومُ من ساقٍ على قدم
والطعنُ يحرقُها والزجر يقلقها ... حتى كأنَّ بها ضرباً من اللمم
قد كلمَّتها العوالي فهي كالحةٌ ... كأنما الصَّابُ معصوب على اللجم
بكل مُنصلتٍ ما زالُ منتظري ... حتى أدلت له من دولة الخدم
شيخ يرى الصلواتِ الخمس نافلةً ... ويستحل دمَ الحجاج في الحرم
تنسى البلادَ بروق الجوَّ بارقتي ... وتكتفي بالدم الجاري عن الدِّيم
رِدِي حياضَ الرَّدى يا نفس واتركي ... حياض خوف الردى للشاء والنَّعم
إن لم أذَرْكِ على الأرماح سائلةً ... فلا دعيت أبن أمِّ المجد والكرم
أيملك الملكَ والأسياف ظامئةٌ ... والطير جائعة لحم على وضم
من لو رآني ماءً مات من ظمأٍ ... ولو مثُلْتُ له في النوم لم ينم
ميعادُ كلِّ رقيق الشفرتين غداً ... ومن عصا من ملوك العرب والعجم
فإن أجابوا فما قصدي بها لهم ... وإن تولَّوْا فما أرضى لها بهم

وقد افتتح المتنبي هذه القصيدة بذم الشيب الذي ظهر فيه قبل أوانه، فحل في رأسه ضيفاً ثقيلاً غير محتشم، وبدا بياضه في عينه أسود من الظلم، وقد اجتمع عليه بذلك أمران صارا له كالغذاء: حب مبكر في عهد الطفولة، وشيب مبكر في بلوغه الحلم. ولا شك أن من يتبرم بالشيب هذا التبرم لا تحدثه نفسه بادعاء النبوة وما يلزم لها من إظهار الصلاح والتقوى، والفرح بالشيب إذا أقبل، لأنه كما قال بعض الحكماء: زهرة الحنكة، وثمرة الهدى، ومقدمة العفة، ولباس التقوى. وأين قول المتنبي في هذا من قول دعبل بن علي

أهلاً وسهلاً بالمشيب فأنه ... سمة العفيف وحلية المتحرّج
ضيف ألمَّ بمفرقي فقربته ... رفض الغواية واقتصاد المنهج

فمثل هذا هو الذي كان يقوله المتنبي في الشيب لو صح ما ينسب إليه في دعوى النبوة، وهو الذي يتفق مع الغاية التي تنسب إليه فيها.

ثم مضى المتنبي يتغزل على أسلوبه في قصيدته الأولى، يسأل كل رسم، ويجري في حب متنقل وراء كل ذات خمار، وهو حب شهوي كحب أبن أبي ربيعة وغيره من الشعراء الذين تستهويهم كل ذات جمال، ولا يعرفون في حبهم شيئاً من الوفاء، بل يتحدثون عن وفاء النساء لهن ولا يفون، كما تحدث المتنبي عن ذلك في قوله:

تنفست عن وفاء غير منصدع ... يوم الرحيل وشعب غير ملتئم

وقد يتفق لنبي أن يسمع هذا النوع من الغزل إذا كان بريئاً كما حصل للنبي صلى الله عليه وسلم في سماعه قصيدة كعب بن زهير

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ... متيم إثرها لم يُفْد مكْبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا ... إلا أغن غضيض الطرف مكحول
هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة ... لا يشتكي قصر منها ولا طول
تجلو عوارض ذي ظلم إذا ابتسمت ... كأنه منهل بالراح معلول
إخالها خلة لو أنها صدقت ... موعودها أو لو أن الوعد مقبول
لكنها خلة قد سيط من دمها ... فجع وولع وإخلاف وتبديل

ولكن فرقاً كبيراً بين سماع هذا النوع من الغزل وإنشائه، ورب شيء يقبل من شخص ولا يقبل من شخص أعلى منه، ورب حسنات في ذلك تعد سيئات، ورب سيئات تعد حسنات. ولا شك أن مثل هذا الغزل لا حرج فيه على كعب رضي الله عنه، وقد سمعه النبي صلى الله عليه وسلم على هذا الاعتبار، وإن لم يكن من شأنه هو أن ينشئه.

ثم اقتضب المتنبي نسيبه اقتضابا، وابتدأ مقصوده من قصيدته بقوله:

ليس التعلل بالآمال من أرَبي ... ولا القناعة بالإقلال من شيمي

فإذا هو فيه طالب دنيا لا أكثر ولا أقل، وإذا به لا يرضى في ذلك بالقليل، وينفر من صفة القناعة التي حث عليها جميع الأنبياء قبله.

وهو في ذلك أيضاً ثائر على دهره الذي يفقر مثله على مروءته وشجاعته، ويغنى سواه على فقره من المروءة والشجاعة؛ ثائر على تلك الدول التي أقامها في عصره خدم العباسين الذين كانوا يجلبونهم أرقاء فيصبحون ملوكاً على الناس، فهو يقيم الدنيا ويقعدها من أجل تلك المهازل في نظره، ويرى نفسه أعلى شأناً من هؤلاء الخدم، وأحق منهم بهذا الملك الذي استأثروا به لأنفسهم.

وهو هنا لا يتحدث عن عدل وجور كما يتحدث فيما ينسب في دعوى نبوته، بل يتعطش إلى الحرب والقتال كما يتعطش كل فارس جبار يعشق سفك الدماء ونشر الفساد في الأرض.

ولا يتحدث كذلك عن أيمان وكفر، بل يتحدث عن خدم أقاموا لهم ملكاً هو أحق به منهم لما امتاز به من المروءة والشجاعة عليهم.

ثم تراه لا يقلع في هذه القصيدة عن استهتاره، وأخذه فيما بدل على ضعف دينه، فيقول

بكل مُنصلتٍ ما زالُ مُنتظري ... حتى أدلت له من دولة الخدم

شيخ يرى الصلوت الخمس نافلة ... ويستحل دم الحجاج في الحرم

فالذي يقول هذا لا يمكن أن يأخذ وسيلته إلى الناس دعوى النبوة، لأنها تقتضي منه شيئاً آخر غير هذا الاستهتار، وتواضعاً في القول غير هذا التجبر، واقتصاداً في الحديث عن النفس غير هذا الإسراف في الفخر.

وسبيل هذه القصيدة بعد هذا سبيل القصيدة السابقة في القطع بكذب هذه الدعوى على المتنبي، لأنها تظهره في ذلك العهد بخلاف المظهر الذي يظهر به فيما ينسب إليه في دعوى النبوة وادعاء مثل هذه الدعوى من المتنبي في علمه وذكائه تقتضي منه الحيطة في أمره، وتوجب عليه ألا يظهر بين الناس بهذا المظهر في شعره، حتى يصدقه الناس في دعواه، ويلتئم حاله فيها التئاماً يخدعهم فيه. ويجب علينا بعد هذا أن نأخذ في هذا اللقب بما نقله أبن جني عن المتنبي نفسه، وقد ذكرنا فيما سبق، فلا نعيده هنا، ولكنا نذكر في ذلك مذهباً للأستاذ (محمود شاكر) رأى أنه أقرب إلى الصدق، وأولى بالاعتبار، وهو أن المتنبي نبز هذا النبز من أجل أنه كان في أول أمره متورعاً في خلقه لا يخرج عن حدود الوقار، متزمتاً لا يلين إلى الشهوات ولا يلقى إليها مقاده مترفعاً عن سفساف الأخلاق متمسكاً بمعاليها، آخذاً نفسه بالجد الذي لا يفتر؛ وكان لا يقرب التهم ولا يدانيها، فما كذب ولا زنا ولا لاط، ولا أتى أمراً منكراً يؤخذ عليه، أو يُزَنُّ به. واستمر على ذلك حياته كلها، وخالف الأدباء والشعراء من أهل عصره فما شرب الخمر ولا حمل وزرها، ولولا اضطراره فيما نرى لما حضر مجلسها. وكان الأدباء والشعراء في ذلك الوقت أهل شراب ومعاقرة ولهو وهزل وباطل، فلما وجدوا ما هو فيه من التعفف والتورع، ووقعوا على كثرة دوران أسماء الأنبياء في شعره، وتشبيهه نفسه بهم، نبزوه هذا النبز، ولقبوه المتنبي يريدون المتشبه بالأنبياء.

ولا شك أن هذا غلو من الأستاذ في أمر المتنبي، وقد روى عن بعضهم أنه عاشره فما رآه كذب ولا زنا ولا لاط، ولكن هذا لا يكفي لأن يجعل منه الرجل الصالح الزاهد المتورع الذي يصفه الأستاذ محمود. على أن هذا الاشتقاق لا يدل على التشبه وإنما يدل على الادعاء، وقد جاء في القاموس (وتنبأ ادعى النبوة ومن المتنبئ أحمد بن الحسين) وإنما يقال في ذلك تأله، لأن التأله التنسك والتعبد، ولم يلصق هذا اللقب بالمتنبي إلا لأجل الكيد به، وإيهام أنه ادعى النبوة، ولهذا كان يكرهه المتنبي. ولو كان لهذه الأغراض المذكورة

لفرح به وهش له، والخطب في هذا سهل بيني وبين صديقي الأستاذ محمود شاكر، بعد اتفاقنا على أن هذه النبوة مختلقة على المتنبي؛ وأني لا أحب أن أثير في هذا جدالاً بيني وبينه؛ ولعله يتغاضى عن هذا الخلاف القليل بيننا، ليكون ما ذكرناه هو القول الفصل في هذا الموضوع حقاً.

عبد المتعال الصعيدي

تأريخ العرب الأدبي

للأستاذ ينولد نيكلسون

الفصل الأول

وإن نفس العاطفة الوطنية المتأججة في صدر الهمداني والتي بعثته على أن يخصص نفسه للبحث العلمي قد أوحت إلى نشوان أبن سعيد - الذي ينتمي من ناحية الأب إلى أسرة قديمة من أشراف اليمن - أن يتذكر الماضي الخرافي ويتعلق بإحياء مجد إمبراطورية زالت معالمها ودرست آثارها. وأنه ليتغنى في (القصيدة الحميرية) بعظمة وقوة أولئك الحكام الذين تبوأوا عرش أمته، ويؤول في روح إسلامية حقة حقيقية الغناء والحياة، وحقارة المطامع البشرية، ومع أن هذه القصيدة في ذاتها قليلة القيمة فأنها تعتبر وثيقة قيمة - نوعاً ما - لاشتمالها على أسماء الملوك، ومعها شرح تاريخي واف إما أن يكون كاتبه نشوان نفسه - وهذا ما يرجحه فون كريمر - أو أحد معاصريه.

والذين لا يرون التاريخ إلا مجمل حقائق لن يجدوا مأربهم في هذا التعليق، إذ نرى خيوط الحقيقة معقدة متشابكة مع أساطير خرافية مكذوبة، وقد وضع القصّاصون في فجر الإسلام صورة حرفية لمثل هذه الأساطير، من ذلك أن أحد عرب الجنوب وأسمه (عبيد بن شرْية) زار دمشق تلبية لدعوة الخليفة معاوية بن أبي سفيان الذي سأله (عن الأخبار المتقدمة، وملوك العرب والعجم، وسبب تبلبل الألسنة وأمر افتراق الناس في البلاد) وطلب إليه أن يكتب وأمر أن تجمع وتكتب إجاباته كلها ثم تنشر باسمه، وهذا العمل الذي لم تصلنا أية نسخة للأسف كان يسمى (كتاب الملوك وأخبار الماضين) وقد تكلم عنه المسعودي (956م) ككتاب معروف متداول في محيط كبير، كما اعتمد عليه فيما بعد شارح (القصيدة الحميرية) إما مباشرة أو بواسطة الإكليل للهمداني. وقد نعتبره - كما اعتبره الشارح نفسه - كقصة تاريخية لكثير من شخصياتها وحوادثها أساس من الحقيقة والواقع قد مُوِّهت بكثير من القصص الخيالية والقصائد المكذوبة، مما يجد فيها السامر خير عون له على أداء مهمته. ومن بين المؤلفين المسلمين القلائل الذين اهتموا بدراسة تأريخ عرب الجنوب في العصر السابق للإسلام حمزة الأصفهاني، ويمدنا الكتاب الثامن من تاريخه (الذي انتهى منه عام 961م) بتفاصيل تاريخية دقيقة موجزة على التبابعة أو ملوك اليمن الحميريين.

خلف قحطان - جدَّ أعراب الجنوب - ابنه يعرب الذي يقال إنه أول من أتخذ العربية لساناً، وأول من أخذت له التحايا التي اعتاد العرب أن يحيوا بها ملوكهم كقولهم (أنعم صباحاً) و (أبيت اللعن) وقد اشتهر حفيده عبد شمس سبأ باسم مؤسس مأرب وباني سدها المشهور، وإن كان هناك آخرون يقولون إن مؤسسه هو لقمان بن عاد، وكان لسبأ ولدان حمير وكهلان، وقبل موته عهد إلى حمير بالجلوس على العرش والى كهلان بحراسة التخوم، وشنّ الغارات على الأعداء؛ ومن ثم كانت لحمير السيادة واتخذ اسم (أبو أيمن) وأقام في عاصمة المملكة بينما تعهّد كهلان بالدفاع عنها وتدبير الحروب وبالإغضاء عن سرد سلسلة نسب الملوك السبئيين الخرافيين الذين لا تذكر القصة عنهم إلا قليلاً جداً، فإنما نمضي إلى ذكر حادثة رسخت في أذهان العرب رسوخاً لا يمكن استئصاله منها، ألا وهي الحادثة المعروفة عندهم بسيل العرم أو فيضان السد.

على بضعة أميال قلائل من الجنوب الغربي لمأرب تمتد الجبال متلاحمة تاركة فيما بينها أخدوداً يشقه نهر (أدنة) الذي يجف غالباً مجراه خلال فصل الصيف؛ أما في الشتاء فتسقط الأمطار الغزيرة وتتدفق المياه بقوة هائلة تكاد لا تحتمل، فلكي تكون المدينة بمنجاة من الفيضان ولأجل تنظيم الري وزرع الأرض وفلحها بني الأهالي سداً من الحجر الصلد استرعى خيال محمد بعد أن دمر تماماً، واعده المسلمون إحدى عجائب الدنيا. وليس بغريب أن ألبس مؤرخوهم تلك الحقيقة المجردة (انفجار السد) ثوب حادثة فضفاضة طريفة وإذ آذنت شمس القرن الثالث للميلاد بالمغيب أو قبل ذلك بقليل كان يتربع على عرش مأرب عمرو بن عامر ماء السماء المزيقيا، وكانت زوجته (ظريفة) ماهرة في علم الكهانة خبيرة بفنونها، وقد رأت أحلاماً ورؤى تنبئ عن شر جسيم يتهددهم، وفي ذات يوم قالت لزوجها الذي لم يكن يثق في عرافتها: (إمضِ إلى السد فأن أبصرت فأراً ينبش السد بمخالبه ويقذف قطعاً كبيرة من الصخور بقدميه الخلفيتين فتيقَّن بأن العذاب قد حل بنا) فمضى عمرو إلى السد وأنعم النظر فشاهد جرذاً يحرك حجراً كبيراً يعجز خمسون رجلاً جلداً عن ثقله من مكانه فأيقن عمرو أن السد منهار، وأن الأرض لا بد هالكة بمن عليها،

فعزم على بيع أملاكه والرحيل بعائلته، لكنه خشي أن يبعث الاضطراب إلى قلوب السكان، فدبر حيلة ناجعة، ذلك أنه دعا أشراف المدينة ورؤوسها إلى وليمة فاخرة مدها لهم، واتفق مع ابنه أن يثيرا الخلاف بينهما (أو بينه وبين اليتيم الذي درج في بيته كما يقول آخرون) وتبودلت بينهما الضربات فصاح عمرو: (وا فضيحتاه!! أفي يوم مجدي وفخري يسبني ويلطمني غلام عاق؟) ثم أقسم أن يقتل الفتى، فتوسل إليه ضيوفه أن يرحمه ويرأف به فأجابهم، بيد أنه أقسم قائلاً: (لا أقيم ببلد لطم وجهي فيه أصغر ولدي وسأبيع أرضي ومتاعي) وإذ نجح في الخلاص من أعبائه - إذ لم يعدم مشترين لبوا دعوته واغتنموا غضبته - لم يتردد في أن يخبر الناس بما يتهددهم من بلاء ثم بارح مأرب على رأس جمع حشيد، ثم أخذت المياه تثقب السد شيئاً فشيئاً وتغمر الأرض، مرسلة في لجتها الدمار طولاً وعرضاً، ومن هنا نشأ المثل القائل (تفرقوا أيدي سبأ) أي تشتتوا كما تشتت قوم سبأ.

وإن ذلك الطوفان ليؤرخ فترة من تأريخ بلاد العرب الجنوبية ثم غابت المياه واخضرت الأرض بعد إمحال وعادت إلى الإيناع والزرع، بيد أن مأرب ظلت مهجورة، واختفى السبئيون إلى الأبد إلا ما يذكره الأعشى في قصيدة له من قوله:

وفي ذَاكَ للمُؤتسى أُسْوةٌ ... ومَأرَبُ عَضَّ عليها العرِمُ
رَخامٌ بَنَتْهُ لهم حِمْيرٌ ... إذا جاء مَوَّارُه لم يَرِم
فأرْوَى الزَّروع وأعنابَها ... على سِعَة مَاؤهَا إذْ قَسَم
فَصَارُوا أيادِيَ ما يَقْدِرون ... مِنهُ على شُرْبِ طفل فُطِم

وليست في كلام الشاعر عن حمير دقة تاريخية، أما الحميريون وعاصمتهم ظفار (صنعاء فيما بعد) فقد صاروا حكام اليمن بعد انفجار سد مأرب وتلاشى السبئيين الذين أقاموه.

أما تبع الأول - الذي أطلق لقبه مؤرخو المسلمين على من خلفه من ملوك حمير فيسمى (حارث الرائش) لأنه زين بيوت قومه بالغنائم والأسلاب مما جلبه معه - كفاتح - من الهند وأزربيجان، أما عن التبابعة الذين ولوا الحكم بعده فان بعضهم يدين بدرجة في سلسلة حمير إلى النسّابين الذين كان احترامهم للقرآن يفوق دقتهم النقدية كما حدث مثل هذا بشأن المخلوق الخرافي صعب ذي القرنين، وأن الأبيات التالية لتخلط بينه وبين ذي القرنين العجيب الوارد نبؤه في القرآن والذي يعتبره معظم المفسرين نفس الاسكندر الأكبر.

لنا مُلك ذي القرْنينِ هلْ نالَ مُلكهُ ... مِن البشرِ المخلوقِ خلقٌ مُصورَ؟
نوى ثمَّ يتلو الشمسَ عِند غرُوبها ... لينظُرها في عينِها حينَ تُدْحرُ
ويسمُو إليها حين تطلعُ غدْوَةً ... ليلمحها في بُرجها حينَ تظهرُ
دليلاً بأسبابِ السماءِ نهارُهُ ... وليلاً رقيباً دائماً ليسَ يفترُ
وأرْصدَ سدّاً من حديدٍ إذا بدا ... ومن عينِ قطرٍ مترعاً ليسَ يَظهرُ
رَمى فيهُ يأجوجاً ومأجوجَ عُنْوةً ... إلى يوْمَ تُدْعَى للحساب وتُنشرُ

(يتبع)

ترجمة حسن حبشي

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس الشبلي

- 3 -

- 7 -

وأمسى المساء مرخياً سدوله على الساحة فتفرق عنها المتفرجون وقد أرهقهم الفضول والرعب، وبقى زارا جالساً على الأرض قرب الميت فاستغرق في تفكيره ناسياً مرور الزمان حتى هبت نفحات الليل عليه منفرداً، فناجى نفسه قائلاً:

لقد كان صيدك موفقاً اليوم يا زارا! لقد أفلت الناس منك فاصطدت جثة هامدة.

إن حياة الإنسان محفوفة بالأخطار، وهي فوق ذلك لا معنى لها. . . فأن مهرجاً يمكن أن يقضي عليها.

أريد أن أُعلم الناس معنى وجودهم ليدركوا أن الإنسان الكامل إنما هو البرق الساطع من الغيوم السوداء من الإنسان.

ولكنني لم أزل بعيداً عن هؤلاء الناس وفكرتي بعيدة عن مداركهم، فأنا لم أزل متوسطاً المدى بين مجنون وجثة هامدة.
إن الليل مظلم ومسالك زارا مظلمة أيضاً. تعال أيها الرفيق المتيبس في حقيبته! إنني ذاهب بك إلى حيث أواريك التراب بيدي.
- 8 -
ورفع زارا الجثة على كاهله ومشى، ولكنه ما قطع مائة خطوة حتى زحمه رجل؛ وما كان هذا الرجل إلا مهرج البرج، فأسرّ إليه في أذنه:
- أذهب من هذه المدينة يا زارا فأن مبغضيك فيها كثيرون. هنا يكرهك أهل الصلاح والعدل، فيصفونك بالعدو والمزدري، ويكرهك المؤمنون بالدين الحق فيرون بك خطراً على عامة الناس، وقد كان من حظك أن هزأ الحشد بك لأنك كنت تتكلم كالمهرجين، وكان من حظك أيضاً أن اشتركت والكلب الميت، فقد كان خلاصك هذه المرة في إسفافك إلى المهاوي، ولكنك لم تسلم في الثانية فأذهب من هذه المدينة وإلا فأنني قافز غداً فوق جثة أخرى.
قال الرجل هذا وتوارى وتابع زارا سيره في الشوارع المظلمة. ولما بلغ باب المدينة التقى حُفّار القبور فوجهوا إلى رأسه أشعة مصابيحهم وإذ عرفوا فيه زارا أشبعوه سخرية وهزءاً وقالوا:
- مرحى يا زارا! لقد صرت الآن حفاراً للقبور؛ إنك تحمل الكلب الميت. لقد أحسنت، فأن أيدينا أطهر من أن تدنس بجثته. أتريد يا زارا أن تختلس من الشيطان طعامه؟ كل هنيئاً! ولكن الشيطان أمهر منك، ولعله يسرقكما كليكما فيلتهمكما التهاماً.
ودار حفار القبور بزارا يتفرسون فيه. أما هو فلزم الصمت وسار في طريقه. وبعد أن مشى ساعتين يقطع الأحراج والمستنقعات، شعر بالجوع لكثرة ما عوت حوله الذئاب الجائعة، فوقف أمام بيت منفرد لاحت له الأنوار من نوافذه. وقال: لقد عضني الجوع وداهمني كاللص بين الأحراج في الليل البهيم.
إن لجوعي نزوات مستغربة وقد يداهمني حتى بعد الطعام، ولكنه اليوم ندّ عني منذ الصباح حتى المساء فأين كان هذا الجوع؟
وطرق زارا باب البيت فظهر له منه شيخ يحمل مشعلاً، وقال له: من الآتي إلي وإلى رقادي المضطرب؟
فأجاب زارا: أتيناك أثنين حي وميت، أعطني مأكلاً ومشرباً فقد نسيت الغذاء النهار بطوله، إن من يشبع الجياع يولي نفسه قوة، هكذا قالت الحكمة.
فغاب الشيخ وعاد بخبز وخمر وقال:
- إنها لأماكن موحشة للجياع، ذلك ما دعاني إلى السكن هنا حيث يهرع إلي البشر والحيوان في وحدتي. أفلا تدعو رفيقك ليأكل ويشرب معك فهو أشد تعباً منك.
فقال زارا: إن رفيقي ميت ولا يسهل علي إقناعه بتناول الطعام.
فتمتم الشيخ: ذلك لا يهمني؛ إن من يطرق بابي عليه أن يأخذ ما أقدمه له. كلوا هنيئاً.
وعاد زارا إلى السير فمشى ساعتين أيضاً وهو يهتدي إلى رسوم الطريق بنور النجوم، وقد كان معتاداً السري ويجب أن يتفرس في كل شيء راقه. وعندما لا ح الصباح كان زارا
وصل إلى غابة كثيفة حيث انقطع كل طريق أمامه، فتوقف ووضع الجثة في فراغ شجرة حواها حتى رأسها ليقيها هجمات الذئاب، ورقد بعد ذلك متوسداً نبات الأرض وما عتم حتى استغرق في نومه منهوك الجسم مرتاح الضمير.
- 9 -
وطال نوم زارا حتى غمرت وجهه أنوار الضحى بعد أن داعبته تباشير الفجر ففتح عينيه مبهوتاً وسرح أبصاره على الغاب ثم حولها يستكشف نفسه ساكناً مستغرباً.
وهب من مجلسه فجأة كما يهب الملاح تبدو لعينه الأرض، فهتف وقد هزه المرح لأنه اكتشف حقيقة جديدة فخاطب قلبه قائلاً
لقد انفتحت عيناي. إنني بحاجة إلى رفاق أحياء لا إلى رفاق أموات وجثثٍ أحملهم إلى حيث أريد.
إنني أطلب رفاقاً أحياء ليتبعوني لأنهم يريدون أن يتبعوا أنفسهم أيان توجهت.

لقد انفتحت عيناي، ليس على زارا أن يخاطب جماعات بل عليه أن يخاطب رفاقاً، يجب ألا يكون زارا راعياً للقطيع وكلباً له.
إنني ما جئت إلا لأخلص خرافاً عديدة من القطيع، وسوف يتمرد الشعب والقطيع عليّ. إن زارا يريد أن يعامله الرعاة معاملتهم للصوص.
قلت رعاة غير أنهم يدعون بالصالحين والعادلين. قلت رعاة غير أنهم يدعون بالمؤمنين بالدين الحق.
انظروا إلى أهل الصلاح والعدل لتعلموا من هو ألدّ أعدائهم، أنه من يحطم الألواح التي حفروا عليها سننهم ذلك هو الهدام ذلك هو المجرم - غير أنه هو المبدع.
انظروا إلى المؤمنين بجميع المعتقدات تعلموا من هو ألدّ أعدائهم إنه من يحطم الألواح التي حفروا عليها سننهم، ذلك هو الهدام، ذلك هو الجرم غير أنه هو المبدع.
إليّ بالرفاق. أنني أطلبهم مبدعين ولا أطلبهم جثثاً وقطعاناً ومؤمنين.
إن البدع لا يتخذ له رفاقاً إلا من كانوا مثله مبدعين، إنه يتخذهم ممن يحفرون سنناً جديدة على ألواح جديدة.
إن من يطلب المبدع إنما هم الحصّاد يعاونونه في الحصاد لأن كل شيء قد أصبح في عينه
ناضجاً للحصاد، ولكن المائة منجل ليست بين يديه فهو يتميز غضباً ويقتلع السنابل من أصولها.
إن المبدع يطلب رفاقاً له بين من يعرفون أن يشحذوا مناجلهم، وسوف يدعوهم الناس هدّامين ومستهزئين بالخير والشر، غير أنهم يكونون هم الحاصدين والمحتفلين بالعيد.
إن زارا يطلب من كانوا مثله مبدعين يشاركونه في الحصاد وفي الراحة فلا حاجة له بالقطعان والرعاة وأشلاء الأموات.
وأنت يا رفيقي الأول، أرقد بسلام لقد أحسنت دفنك في فراغ الشجرة ووقيتك افتراس الذئاب.
غير أنني سأفترق عنك لأن الزمان قد مر سريعاً، وقد انبثقت حقيقة جديدة في أفق نفسي ما بين فجرين.
لن أكون راعياً، ولن أكون حفار قبور، ولسوف لا أقف بعد الآن في الجماعات خطيباً فقد وجهت آخر حظي إلى ميت.
أريد أن أنظم إلى المبدعين، إلى أولئك الذين يحصدون ويرتاحون فأريهم قوس قزح والمراتب التي يرقاها الواصلون إلى الإنسانية الكاملة.
سأهتف بنشيدي للمعتزلين ولمن يشعر بمثنويته في انفراده أنني سأملأ بغبطتي قلب كل من له أذاناً تصغيان إلى ما لم تسمعه أذن بعد.
أنني أسير إلى هدفي وأتبع طريقي فأقفز فوق المترددين والمتأخرين، وهكذا سيكون سيرى جنوحاً إلى الغروب.
- 10 -
وكان زارا يناجي نفسه بهذا القول والشمس في الهاجرة وإذا به يسمع صوتاً جارحاً في الفضاء ولاح له نسر يعقد حلقات في طيرانه وقد تعلقت به أفعى وما كان يقبض عليها بمخلبيه كفريسة، بل كانت ملتفة حول عنقه التفاف المحب.
فهتف زارا والحبور يملأ فؤاده: هذان نسري وأفعاي، فهو أشد الحيوانات افتخاراً، وهي أشدها مكراً تحت الشمس؛ وكلاهما ذاهبان مستكشفين في الفضاء ليعلما ما إذا كان زارا لم يزل في الحياة، فهل أنا لم أزل حياً بعد؟
لقد اعترضني من المخاطر بين الناس ما لم أجد مثله بين الحيوانات؛ إنني أتبع السبل المخطرة فلأقتدين بنسري وأفعاي.
وتذكر زارا حينئذ القديس المنعزل في الغاب فتنهد وقال:
لأكونن أوفر؛ حكمة لأكونن ماكراً كأفعاي؛ غير أنني أطلب المستحيل لذلك أتوسل إلى افتخاري أن يلازم حكمتي ولا ينفصل عنها.
وإذا ما تخلت حكمتي عني يوماً وهي تتوق إلى الطيران وا أسفاه فأنني أرجو أن يطير افتخاري مستصحباً جنوني.
وهكذا بدا جنوح زارا إلى المغيب.

(يتبع)
فليكس فارس
على شواطئ البسفور
للأستاذ محمد بهجة الأثري
هنا الدنيا هنا الدنيا ... ألا ما أحسن المَحْيا
رُواء كفم الصّبح ... إذا افترّ عن الفجر
على الأفق، على الروض ... على البرّ، على البحر
كأن الأرض قد قامت ... على الرقصة والزّمر
سرور أينما سرت ... وعرسٌ لم يزل يجري
فيا عاشق دنياه. . . ... هنا الدنيا، هنا الدنيا
صفاء الأفْق كالبحر ... ولون البحر كالأفْق
فمن يرنو إلى تحتٍ ... كمن يرنو إلى فوق
يشم الأفق مطبوعاً ... على البحر بلا فرق
كأن البحر دون الأفق ... أمسى مطلق الزرق
فيا عاشق دنياه. . . ... هنا الدنيا، هنا الدنيا
رباع كجنان الخلد ... لا حرٌّ ولا برد
حباها في ضحى آب ... كما ينفحه الورد
فروْض أرج العطر ... وجوّ غَنِجٌ سعد
أنيق الوشى كالجيد ... إذا زيّنه العقد
فيا عاشق دنياه. . . ... هنا الدنيا، هنا الدنيا
يحار الفكر إن جال ... بما يشهد من حسن
فما يؤثر أو يهوى ... وما يبعد أو يدنى!
إذا أعجبه مرأى ... رأى أعجب في الشأن
فلا ينفك مسحوراً ... كمأخوذ ابنة الدنّ
فيا عاشق دنياه. . . ... هنا الدنيا، هنا الدنيا
شهدت الحسن مطبوعا ... كما أبصرت مصنوعا
ورمت الحب مبذولاً ... فما صادفت ممنوعا
وشِمْت الخلد مرئيا ... وكان الخلد مسموعا
وألفيت شتات الحس ... ن في (البسفور) مجموعا
فيا عاشق دنياه. . . ... هنا الدنيا، هنا الدنيا
حسان كعذارى الخل ... د يمرحن زُرافات
كأنْ آذار أبداهن ... في الآفاق باقات
فهن الزهر في الروض ... نشرن الحسن طاقات
وهن الزُّهر في الأفق ... نزلن الأرض غادات
فيا عاشق دنياه. . . ... هنا الدنيا، هنا الدنيا
كأن الدهر بالغادا ... ت كالأزهار نيسان
فهل غاب عن الخلد ... رقيب الخلد رضوان
نشاوى مثل رائيه ... ن بالإعجاب نشوان
ييمِّمن ربوع الأن ... س حيث الحب ألحان
فيا عاشق دنياه. . . ... هنا الدنيا، هنا الدنيا
أغان وأغاريد ... لها يطرب محزون
بلحن الطير في الأيكِ ... يناغيهن قانون
تثير الروح بالشدو ... كما ينشر مدفون
تغنّيها الرياحين ... كما استضحك مفتون
فيا عاشق دنياه. . . ... هنا الدنيا، هنا الدنيا
لديها متعة السمع ... وفيها شهوة العين
تعالى الله ما أقد ... ر أن يجمع حسنين
وما أحسن أن تلتذ (م) ... باثنين شهيين
بريئين بلا إثم ... جميلين بلا شين

فيا عاشق دنياه. . . ... هنا الدنيا، هنا الدنيا
حياة لم ينغصها ... سوى ذكرى لأوطاني
أرى البسفور بساماً ... فأبكي ثغر (بغدان)
نبا من أفقها الحسن ... ولم تنعم بعمران
كأن لم تك في الدهر ... جمال العالم الفاني
فيا شقوة (بغداد) ... إذا لم تشبه الدنيا!
(بغداد)
محمد بهجة الأثري
في شعاع الفجر
مناجاة زهرة
بقلم أحمد فتحي مرسي
إيه يا زهرتي! لأقد أقبل الفج ... رُ يفيض الضياءُ من بسماته
والشعاع الحبيب قد فاض في القل ... ب فأحيا الدفين من أمنياته
والنسيم الرخيُّ يعبث بالغص ... ن ويثني الندى من زهراته
قد مضى يوقظ الزهور ويسري ... طابعاً فوق ثغرها قبلاته
رق حتى كأنه لمسة الطف ... ل ومسُّ الرقيق من أنملاته
والفَراش الوديع يرتشف الضو ...َء ويروي صداه من لمحاته
يلتوي كالقطاة أخطأها الرا ... مي فراحت تحيد عن رمياته
والرياحين همسات إلى المر ... ج كهمس الضميرَ في خلواته
قائمات على الربي ساجدات ... كسجود التقي في صلواته
كلْ ما في الوجود يا ملكة الرو ... ض يشعُّ الجمال من قسماته
إيه يا زهرتي! لقد أشرق الرو ... ض وسال الندى على وجناته
فارشفي النور من سنا الصبح رفا ... فا تلذ النفوس من رشفاته
وابسمي فالحياة حلم ويمضي ... ويفيق الفؤاد من سكراته
إيه يا زهرتي! لقد صدح الطي ... ر فهز الوجود من صدحاته
فآض في النفس لحنه فشجاها ... وأذاب الفؤاد من نغماته
فهبيه من وجهك الطلق وحيا ... يتملى من سحره أغنياته
إيه يا زهرتي! لقد أسفر الكو ... ن وراق الجمال في جنباته
لم تبكين؟ جفِّفي ذلك الدم ... ع وصوني عن البكا قطراته
لا يرُعك الزمان إن نثر الزه ... ر وأفنى النظير من ورقاته
لا يرعك العذابُ إن ملأ الكو ... ن فكلٌّ معذب في حياته
(القاهرة)
أحمد فتحي مرسي
القصص
تذكرة سفر من طنطا إلى سقر
للأستاذ إبراهيم جلال بك وكيل محكمة الزقازيق الأهلية
كان بإحدى ضواحي مدينة طنطا قروي له فتيان أحدهما جميل المحيا، مفتول العضل، تام الرجولة، كأبيه في الاستقامة والدأب على حرث الحقل ورعاية الماشية واسمه حسن. أما الآخر واسمه يونس فكان على نقيض أخيه، خامل الذكر، دائم التلهي بمعاكسة جيرانه، يسد مسيل الماء عنهم، ويسرق أمطار الذرة، ويسلبهم دجاجهم وسائر ما يكنزون.
وكان أبوهما مصطفى كهلاً أرمل، ولكنه عرف بالنجدة وصلابة العود، قد أخرجته الجندية متين البدن، وأكسبته سكنى المروج الخضر حدة في البصر.
وماتت زوجته والغلامان في الطفولة الأولى، وكان قد أدخر بقية من نقود الجندية فابتاع بها حقلاً زرعه نصف فدان وأحسن القيام عليه حرثاً وإنباتاً، وأقام تحت ظلال صفصافه عالية كوخاً صغيراً وسد به الحشائش الجافة وأضجع فيه طفليه واتخذ حوله سياجاً من قصب الذرة، ومهّد في ناحية من السياج مناخاً للدواب أسكن به شاة ذات أحمال وعنزات صغار. وكان الشيخ قد عرف بحسن الرماية وإحكامها من عهد أن كان في مصاف الجيش، ولديه قلائد الشرف حازها بحسن بلائه وبسالته في فتوح

السودان. وقد رآه أهل القرية غداة العيد يحمل تلك القلائد ويخطر في الدرب عند باب العمدة كما شهد له العمدة بحسن السمت حين حياه مسلماً في أدب الجند وسكينتهم، وحين تناول قدح القهوة ثم أنقلب إلى كوخه الصغير بين غلاميه وماشيته.

وكان مصطفى قد اتخذ لنفسه محراباً للعبادة في ظل تلك الشجرة، فإذا أنشق الغسق عن غرة الفجر قام إلى قناة الماء فاغتسل ثم جثا في المحراب بقلب سليم، وكان هذا حاله في المواقيت الخمسة.

فكان الله في عونه حتى ترعرع الغلامان، وجاوز حسن سن الخامسة عشر ولحق به أخوه يونس، وزكا الزرع ودر الضرع وسال النضار بكف الشيخ مسيل الماء في حقله، فلم تطغه إخلاف الرزق وسعة العيش، وعكف على تثقيف ولديه في مكتب القرية، فحذق حسن فن الكتابة والحساب؛ أما أخوه فكان غافل اللب، ينسل من المكتب مع رفقة له فيتسكعون في

دروب القرية حتى خرج غراً جاهلاً لا يحسن شيئاً، ولم تجد فيه نصائح أبيه الشيخ، ولا نالت منه سياط التأديب ولا وجيفة القيد؛ فكان يفر من الكوخ ويبيت ليله بالعراء. وكان حسن يتميز رحمة وحناناً بيونس؛ وكم كان يتقي بساعديه سياط أبيه ويقاسم أخاه بلاء التأديب.

وطرقهم طارق بليل، وكانت ليلة قرها زمهرير وريحها عاصف، فهرت كلابهم بباب الكوخ ونهض الشيخ إلى غدارة له بالجدار عامرة بأسباب الموت. وكان حسن قد نما عوده، واستقام كاهلاه كأحسن ما تقوم أبدان الرجال، فتصدى لأبيه وتناول منه آلة الموت، وخرج إلى الفناء وأبوه يرقبه بعيني صقر وبيده هراوة.

ورأى حسن شبحاً قد التقط حملين من الخراف، وتجاوز السياج بهما فانطلق في أثره حتى حازاه، وسدد إليه القذيفة، ولكنه تعرف السارق في عدوه، ولمح من وميض الأفق تصاوير بدنه، فالقى الغدارة ولحق به؛ وصحت فراسته فقد كان أخاه يونس. وقال له حسن خل الخراف لئلا يلحق بنا أبوك فأن بيده الهراوة. ورفض يونس صاخباً؛ وتعاقد الأخوان بالأيدي، وطعن قابيل هابيل وفر بالخراف. وجاء الشيخ يشتد وبيده آلة الموت التي رماها حسن، وجثا بجانب الجريح وقال له: عجيب أمرك والله! كيف تلقي عنك سلاحك ثم تذهب إلى اللص أعزل؟ ومسح الشيخ مقلتيه وحدق في شبح السارق، ثم بسط الغدارة على تلك السواعد الخالدة وهم بإطلاق القذيفة لولا أن قام إليه حسن وانكفأ على صدره، فطاشت القذيفة ونجا يونس وخلف الخراف. وشفى الله الجريح ورده إلى أبيه فلاحاً كادحاً زينة الغلمان حماة الفؤوس.

واستبان الشيخ أن سارق الليل كان يونس.

وجاء عيد الأضحى فنحر مصطفى كبشاً، وجاد بأكثره على الأيامى من عجائز القرية وضعاف أهل السبيل، ثم جلس مع ابنه حسن يأكلان شواء وثريداً.

وقال الغلام لأبيه: يا أبت أني راحل إلى مصر غداً إن شاء الله، فقد أنقصوا أجرة السفر كرامة لهذا العيد. فقال الشيخ يا بني أني لأجد في سفرك هذا خفوقاً بين أضالعي لا أدري والله له علة ولا سبباً.

وانطوى النهار وجاء الغد، فخرج الشيخ يشيع غلامه إلى المدينة، ودخلا المسجد الأحمدي،

وطافا حرمه مع الطائفين من أهل القرية، وصلى الناس الظهيرة مهللين مكبرين، ثم قاموا إلى المحطة، أما مصطفى فأنه تناول جبين ابنه لثماً وزفر أنفاساً محزونة ثم توارى.

ورأى حسن في غمار الناس أخاه يونس يرفس في أطماره ويزوي مسكنه وفاقة، وقد غارت عيناه بين غضون الشقاء والاغتراب.

وتعانق الأخوان، وناح يونس من كبد نادمة موجعة، ونسى حسن جراحه السالفة وما فعل قابيل به وقال: (لا عليك يا أخي! وابتاع تذكرتين وحمل إلى أخيه قرصين من خبز السميذ).

واستقر الناس في العربات في حلل العيد وحولهم قدورهم وحلواهم، وأخليت مساند القرية للشيوخ، أما الولدان والرضع فركبوا كواهل الآباء وحجور الأمهات.

وتوالى ولوج هذا الركب المنكود بأفنية العربات، وامتد مصافهم إلى السقف، حتى لقد أسبلوا من أبدانهم ستراً كثيفاً على النوافذ. وكرت العربات في إثر القاطرة تهب

الأرض وركبها لاه يرى انطواء الحقول والضياع والقرى كالصحف المصورة بيد الطفل ينشرها ويطويها.
وكان ذلك قدراً محتوماً وإن كان مكتوماً، فنزل بالركب المسافر موت فات الذين نوعوا أسباب الموت، وغاب بهم الحساب عن الذين يعدون على الأيام أنواع البلاء وألوان العذاب.
ذلك أن سعيراً من وقود جهنم فار من موطئ الأقدام وجوف العربات كما فار الطوفان من أغوار مدينة نوح.
وما كان الركب إلا أهل الفاقة والمسكنة عبيد الضائقة المالية قد ذهب رب الحقل بما أنبتوا من قطن وبر، ومشت الحكومة بماشيتهم في الخراج. ولو كانت العربات مفضية إلى بعضها لسارع الناس بالنجاة من باب إلى باب وخلفوا النار تأكل بعضها، ولكنها يا للحسرة الفاجعة، كانت عليهم موصدة في عمد ممددة.
وكشفت نوافذ العربة لمن يرجوا النجاة وثباً، فتقاطر كل مقبل على موت ليختار أحد السبيلين أيهما أهون عذاباً. أغمرة الإحراق، أم دق الأعناق؟ ورأى أهل القرى والحقول ضرام النار في أتونها المستعر، وها لهم ضجيج الوقود البشري، وجن جنونهم لغفلة السائق
واندفاعه بقاطرته كعجلات الرومان الأولى نيط بها الأسرى في أغلالهم، وحمل الموتى إلى مدينة بنها، وعرضوا في فناء المستشفى وأسعف الذين بهم رمق.
وصاح النعاة بأهل القرى فأقبل الشيخ الفاني مصطفى مخذول الساقين، زائغ البصر، لا يدري ما كتب لولده حسن؛ ودخل فناء المستشفى في مشيخة من قريته، فعرف الناس موتاهم وعلا النحيب من اليتيم والأرمل والثكلى. أما مصطفى فقد دلف إلى الأشلاء حبواً وكف بصره بدمع يحرق الأديم، وأراد أن يرى بعينه مبلغ الكارثة من فؤاده.
فلمح ولده العائق يونس قائماً يبكي وحول ساعديه العصائب وعلى صدره اللفائف، وقد نشر رداءه على جسد أخيه حسن يحاول أن يخفيه عن بصر الشيخ المفجوع، ولكن الشيخ رأى بالبصيرة ما لم يره البصر!!
إبراهيم جلال
البريد الأدبي
أوجين أونيل الفائز بجائزة نوبل للآداب
ذكرنا في العدد الماضي أن الأكاديمية السويدية قد منحت جائزة نوبل للطب والفسيولوجيا هذا العام إلى العلامة النمسوي الدكتور أوتو ليفي والعلامة الإنكليزي السير هنري هالت ديل.
والآن نذكر أنها منحت جائزة نوبل للآداب إلى الكاتب الأمريكي الشهير أوجين أونيل ؟ وأوجين أنيل هم أعظم كاتب مسرحي أمريكي في عصرنا، اشتهرت قطعه التمثيلية في أمريكا وفي العالم القديم معاً؛ وكان مولده في سنة 1888 بمدينة نيويورك من أب ممثل شهير، ودرس أوجين في هارفارد وقضى شباباً مضطرباً يعالج مختلف الأعمال، وينتقل من بلد إلى بلد، فاشتغل بحاثاً عن الذهب، واشتغل بحاراً، وصحفياً مخبراً، وممثلاً، وأحرز خبرة كبيرة في مختلف الأعمال؛ وأصابه السل وهو في بدء شبابه، فأودعه أبوه أحد المستشفيات، وهنالك كتب عدة قطع تمثيلية من فصل واحد؛ ولما شفى عاد إلى كلية هارفارد وتلقى دروس الكتابة المسرحية على الأستاذ باكر؛ ومثلت بعض قطعه المسرحية في الأقاليم فأصابت نجاحاً. وفي سنة 1919 ظهرت أولى قطعه الكبيرة بعنوان (ما وراء الأفق) فنالت شهرة كبيرة؛ وفي سنة 1921 ظهرت (الإمبراطور جونس) فزادت في شهرته؛ وفي سنة 1922 ظهرت (أنا كرستي) ومن أشهر قطعه رواية (القرد الغزير الشعر) وقد مثلت بنجاح عظيم في نيويورك ولندن. وظهرت بعد ذلك عدة قطع اشتهرت كلها في العالمين الجديد والقديم ومثلت في جميع العواصم الكبرى، ومنها: (1927) و (1928). وقد امتازت روايات أونيل بأنها تعرض المحادثات النفسية للأشخاص على المسرح في ثوب جديد ساحر، واشتهر بعضها بالتطويل حتى إنها لتبلغ تسعة فصول، وتستغرق في تمثيلها خمس ساعات، ومع ذلك فقد اشتهرت بقوتها وعميق تأثيرها. وقد تقلب أونيل في الكتابة بين عدة مذاهب (الحقيقي) و (التعبيري) والرمزي والنفسي؛ وهو لا يعنى بشيء من الآراء والمذاهب والسياسة والاقتصادية، وكل ما يعنيه هو الفكرة الإنسانية، وما تعرضه في

الحياة الواقعة؛ ومعظم الخواتم في قطعه تعرض الخيبة والفشل، ويهزم الأشخاص لا بخطئهم أو تقصيرهم ولكن بفعل الحظ والمصادفة،
وهي مؤثرات يبغضها أونيل ويرى أنه لا حق لها أن تؤثر في حياة الفرد.

جائزة نوبل للعلوم الطبيعية والكيمياء

ومنحت جائزة نوبل للعلوم الطبيعية للعلامة النمسوي الدكتور هيس والعلامة الأمريكي الدكتور هندرسون مناصفة بينهما، ومنحت جائزة نوبللكيمياء للعلامة الألماني الدكتور هيلاندى دربي من معهد برلين.

وفاة شاعر مجري كبير

نعت إلينا بودابست الأخيرة الكاتب والشاعر المجري الكبير ديشو كوشتولاني توفي في الثالث من نوفمبر بمنزله في بودابست بشارع تابور بعد مرض طويل. وكان مولده بقرية زباتكا من أعمال جنوب المجر؛ وتلقى دراسته بجامعة بودابست؛ واشتغل بادئ ذي بدء بالصحافة؛ ثم كتب بعض القصص ونظم الشعر؛ وترجم إلى المجرية عدة قطع خالدة من شكسبير، وموليير، وموباسان، وفلده، وغيرهم من الشعراء المحدثين من كل قطر وكل لغة. ومن أشهر مؤلفاته (الشاعر الدموي) وهي قصة رائعة عن عنصر نيرون، وقد ترجمت إلى الإنكليزية وهو شاعر مجدد بمعنى الكلمة وقد استطاع أن يصوغ أعقد المسائل المعقدة المحدثة في أجمل الأساليب وأرقها، ومن منظمة المجموعات الآتية: (بين جدران أربعة) (1907) (أنين طفل) (1910) (السحر) (1912) (أخي) (1915) (بوبي) (1916) (الخبز والنبيذ) (1920) (أنين رجل محزون) (1921) العارية (1927) وغيرها، وقد ترجمت معظمها إلى الإنكليزية.

في الأكاديمية الفرنسية

في الأنباء الأخيرة أن ثلاثة أعضاء جدد قد انتخبوا للجلوس في الأكاديمية الفرنسية والانتظام في سلك الخالدين، وهم الأميرال لاكاز وقد انتخب مكان السياسي الكبير جول كامبون، والمونسنيور جرانت وقد انتخب مكان المؤرخ الكبير بييردي نولهاك، والمسيو جاك دي لاكرايتل وقد انتخب مكان الشاعر والقصصي الكبير هنري دي رينيه. وينتمي كل من الأعضاء الجدد إلى طراز خاص من التفكير، فالأميرال لاكاز من رجال الحرب، ولكنه كاتب وخطيب كبير؛ وهو اليوم في الخامسة والسبعين من عمره، وكان وزيراً للبحرية، وقائداً لأسطول الغواصات أيام الحرب الكبرى؛ ومن تقاليد الأكاديمية أن يمثل فيها دائماً إلى جانب أبطال الأدب، أبطال العسكرية البارزين في التفكير والثقافة مثل الماريشال فوش الذي كان من أعضائها.

وأما المونسنيور جرانت، فهو على رغم كونه من رجال الدين، كاتب ومؤرخ كبير؛ وهو دكتور في الآداب، وقد انتخب منذ سنة 1928 لمنصب الأسقف، وكان من قبل مديراً للمعهد الكاثوليكي في ليل؛ وله ثبت حافل من الكتب والمصنفات المختلفة نذكر منها: (عيوب التربية المنزلية الحالية) (بوسويه في متز) (تطور الشعائر والعبادات في باريس منذ الثورة إلى عصر الكونكوردا) (شهداء سبتمبر سنة 1792) (رسالة إلى المشرق) وكثير غيرها، وهو خطيب مفوه ومحاضر بارع، وقد اشتهر بمحاضراته الدينية والاجتماعية التي يلقيها من آن لآخر في العواصم الأوربية المختلفة.

وأما جاك دي لاكرانيل فهو كاتب وقصصي كبير، وقد ولد بمصر ونشأ بها؛ وكان بمصر في العام الماضي وألقى بعض محاضراته في القاهرة والإسكندرية؛ وهو من أساتذة الشباب في القصة المعاصرة، بيد أنه يميل إلى النزعة القديمة، وينتمي بنوع خاص إلى مدرسة الأب (بريفوست)؛ ويؤثر الاستعراض الهادئ للأحداث والفواجع، وأسلوبه حاد ولكنه واضح. ومن أشهر قصصه (الحب الزوجي) و (الأسقف العالية).

أنباء الزمن في أخبار اليمن

أصدرت (مجلة الإسلام) الألمانية فيما تصدره من دراسات لتاريخ الشرق الإسلامي وحضارته القسم الأول من مؤلف هام عن تأريخ اليمن، هو (أنباء الزمن في أخبار اليمن) ليحيى بن الحسين بن المؤيد اليمني. وقد وقف على طبعه وتصحيحه والتعليق عليه ومهد له في مقدمة طويلة بالألمانية الدكتور محمد عبد الله ماضي عضو بعثة الإمام محمد عبده، ونال بتقديمه إجازة الدكتوراه في مايو الماضي. وهو يطبع لأول مرة عن مخطوط قديم، ويتناول تأريخ اليمن في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع من الهجرة من سنة 280 إلى سنة322 هـ. وقد أهدى الناشر ثمرة مجهوده إلى

روح المرحوم الإمام محمد عبده اعترافاً بفضله ومآثره؛ وسنعود إلى دراسة هذا السفر في فرصة أخرى.

فكرة العصبية عند أبن خلدون

أصدرت مجلة (الإسلام) الألمانية كذلك في مطبوع خاص رسالة بالألمانية عن (فكرة العصبية في مقدمة أبن خلدون)

وهي الرسالة التي تقدم بها صديقنا الدكتور طاهر خميري مدرس اللغة العربية بكلية همبورج إلى نيل إجازة الدكتوراه. ويشرح المؤلف نظرية الفيلسوف أبن خلدون في (العصبية)، وأثرها في القبيلة وتكوين الملك بطريقة نقدية مقارنة، وسنعود أيضاً إلى استعراضها ودراستها في فرصة أخرى.

العالم المسرحي والسينمائي

التأليف والترجمة للمسرح

حديث للأستاذ زكي طليمات لناقد (الرسالة) الفني

قبلت الفرقة القومية استقالة الأستاذ طليمات، كما ألغت وزارة المعارف انتدابه للعمل في هذه الفرقة، فحرم المسرح في مصر من جهود شاب نشط مثقف أرسلته الحكومة إلى فرنسا ليدرس التمثيل والإخراج كي تنتفع به النهوض بهذا الفن.

ولسنا ندري حقيقة الدوافع التي حدت بالأستاذ طليمات إلى تقديم استقالته، ولكننا علمنا أنه ضمنها كتابة الذي رفعه إلى الأستاذ الكبير محمد العشماوي بك وكيل وزارة المعارف، ولذلك قصدت إلى الأستاذ طليمات وسألته أن يطلعني على صورة من هذا الكتاب، فأبى ورفض أن يدلي بأية تفاصيل، ولكنه أمام الإلحاح صرح بما يلي:

(لم استقل لا من أجل زيادة مرتبي أو طلب مركز أو خلافة، وإنما استقلت لأنني غير قادر على تقوية ضعف أرى الفرقة تنساق إليه يوماً بعد يوم.

كنت مغلول اليدين مشدوداً إلى خشبة تعذيب، أرى وأتألم وأصيح ولا يستمع لي أحد، وهذا عذاب لا يطاق

فاستقالتي إنما هي لأراحة ضميري).

ولم يرض الأستاذ طليمات أن يزيد كلمة على هذا التصريح بل جعل ينتقل بالحديث من موضوع إلى آخر حتى عرض لنا موضوع التأليف والترجمة للمسرح فوجهت إليه السؤال التالي:

ما رأيك في الروايات المصرية التي أخرجتها أو طلعت عليها؟

فأجاب (رأيي أن المسرحية المصرية لم تستكمل بعد مقومات نضوجها، وما برحت تفتقر إلى الطابع الأصيل الذي يميزها عن الرواية الغربية، إذ لا يخفى عليك أن الجمهور المصري لم يتعرف إلى المسرحية في اللسان العربي إلا منذ سبعين عاماً، والأدب القديم خلو منها على الرغم مما يذخر به من المخلفات الممتعة في مختلف العلوم والفنون.

أدبنا العربي والحديث يفتقر إلى الوراثة المهذبة في فن صياغة القطعة المسرحية. وليست له تقاليد فيها، فنحن ما برحنا في دور النقل والتقليد والاستساغة، نأخذ عن المسرح الغربي

في صياغة مسرحياتنا وننحو نحوه، ولا بد لنا أن نجتاز هذه المرحلة قبل أن يستقر وضع أصيل للمسرحية المصرية. غير أن هذا لا يحجزني عن التصريح بأن بيننا نفراً من المؤلفين المصرين قد وفقوا كثيراً في تأليف روايات متينة البناء قوية الحبكة جاء حوارها قوياً في سلاسة وسهولة. فهنالك أمثال: (إبراهيم رمزي)، (عباس علام)، (المرحوم محمد تيمور)، يأتون في مقدمة هذا النفر. وجاء أخيراً (توفيق الحكيم) فأضاف ذخيرة جديدة إلى محصولنا في آداب المسرحية المصرية.

واهم ما آخذه على أكثرية المؤلفين المصريين أنهم لا يحسنون العدة للتأليف، فتحصيلهم سطحي هزيل، ولذلك لم يكن غريباً يكون نتاجهم فجاً. وأعرف ممن يكتبون للمسرح من لم يقرأ رواية أجنبية واحدة، فإذا سألته عن شغفه بالتأليف أجابك في زهو أنه مواظب على حضور التمثيل في فرقة فلان أو فلانة.

وأبين مواطن الضعف في المسرحية المصرية جهل بصياغة الرواية وحبكة حوادثها في منطق سليم يستشير اهتمام الجمهور في غير افتعال أو خروج عن المعقول، كذلك ميل إلى معالجة الموضوع بطريقة سطحية يُهدر فيها جانب الشخصيات في الرواية

فيبدون نحفاء مهازيل من حيث التحليل النفسي. أما الأسلوب الذي يكتبون به فتعلوه مسحة من التكلف والنزوع إلى الإتيان بمهجور اللفظ والمبالغة في سرد المترادفات والجود بالألفاظ في إسراف معيب. فإذا خلا من هذه العيوب في بعض الأحايين، فلكي يقع في قص الحديث والسرد، وإذا قلت إن قليلاً، وقليلاً جداً من مؤلفينا يحسنون جدل الحوار لما قررت غير الواقع.

وأعتقد أنه يجب أن يمر زمن طويل حتى نحسن صناعة تأليف الرواية المسرحية. والعلة في هذا ترجع إلى أننا نعمل من جديد دخيل في آدابنا.

فقلت له: (وما رأيك في الروايات التي تترجم للمسرح المصري. ومن هو أحب المؤلفين إليك؟) وقد أجابني قائلاً (أكثر هذه المترجمات من هزيل الروايات الغربية ذات الصبغة القاتمة أو ذات المواقف العنيفة المفتعلة. وقد تهافت أصحاب الفرق التمثيلية على نقل هذا النوع من الروايات لسهولة إخراجه على المسرح، ولأن نقله إلى العربية لا يحتاج إلى كثير من العناء الذي يتطلب زيادة الأجر في نفقات الترجمة. هذا فضلاً على أن هذه

الروايات تستهوي الأكثرية الغالبة من الجمهور، وهي أكثرية ساذجة التفكير لا تميل إلى أعمال الروية فيما يقدم إليها على المسرح. ولا يخفى عليك أن الجمهور المصري لم يتعود أشغال الفكر فيما يراه في دور اللهو، ولم يطالعه فن التمثيل باللسان العربي إلا منذ سبعين عاماً، وفن التمثيل ظاهره له وباطنه تهذيب وتثقيف.

ومن العجيب أن كثيراً من روايات (موليير) وبعض روايات كورني وراسين، وهم من عباقرة المؤلفين المسرحيين قد نقلت إلى العربية في أوائل عهد مصر بالتمثيل ولكنه كان نقلاً مشوهاً مسخت فيه معالم تلك الروائع الفنية فخرج بعضها يتعثر في أسلوب من العامية والبعض الآخر يتنكر في أسلوب ركيك محشو بالسجع مطبوع بالتعابير (الكليشية) التي مج استعمالها وأنكرتها الآذان.

وتقدمت عملية النقل في السنوات الأخيرة، وتنبهت وزارة المعارف أخيراً إلى ضرورة تغذية المسرح المصري ببعض من نفائس الأدب المسرحي فترجمت عدداً منها ترجمة أنموذجية، وقامت بطبعها متوخية في عملها هذا أن يطلع المتأدبون على أنفس الذخائر الفنية في المسرح الغربي، وأن يتأثر بطابعها من يعالجون التأليف المسرحي في مصر. ولا غنى لنا عن المسرح الغربي في هذه المرحلة، مرحلة الاستساغة، ولكن هذا يجب ألا يصرفنا بأي حال من العناية بالرواية المصرية وتشجيع مؤلفيها. ويجب ألا يكونقياسنا في الحكم عليها ما يعمر رؤوسنا من آثار نوابغ المسرح الغربي، فنحن ما برحنا في دور المحاولة، محاولة جعل الرواية المسرحية شعبة من أدبنا المصري الحديث.

وألاحظ أن أكثر مترجماتنا مأخوذ من الأدب الفرنسي، بل يكاد مسرحنا (لاتينياً) في نزعته، وما هذا بعجيب فثقافتنا لاتينية منذ القدم كما أن مزاجنا يكاد يتشابه بالمزاج اللاتيني، وذلك بحكم أننا من أبناء شواطئ البحر الأبيض المتوسط ومصر هي الضفة المقابلة لإيطاليا.

ولكن ما أحوجنا إلى أن يتعرف الجمهور والمتأدبون إلى آثار الأدب الجرماني وأدب الشمال والأدب الأمريكي الشاب الذي هو خلاصة آداب مجتمعة، فمسرحنا لم يتعرف بعد إلى (أبسن) النرويجي و (استرنبرج) السويدي و (هوبتمان) الألماني و (أوجين أونيل) الأمريكي.

وأحب المؤلفين المسرحيين إلي هم (موليير) الفرنسي، و (أبسن) النرويجي، و (شاكسبير) الإنجليزي. ولي ولع خاص بمطالعة أعمال موليير لأنها علمتني الاعتدال وهي صفة أقر بافتقاري إليها، وطالما كان حظي الصغير منها سبباً في أخطاء أتيتها في حياتي، ولأن موليير تجتمع كاملة شخصيات الشاعر الإنساني، والكاتب المسرحي والممثل، فهو رجل مسرح بحق.

وتهزني مآسي شاكسبير بروعتها، وفيض عواطفها، وهي مآس عاطفية تركزت فيها الإنسانية بأسرها.

أما (إبسن) فهو أبو المسرح الحديث وأستاذ أساتذة نوابغ المسرح الغربي، وهو الطود الشامخ وغيره الكثبان الرملية والتلال. وفي ضباب مآسيه غموض الحياة وظمأ المعرفة الذي لا تنقع علته، وفي نضال شخصياته أروع مآسي الحياة الفكرية).

قلت له ما رأيك في استقدام الخبير الفني الذي تنوي وزارة المعارف استقدامه من الخارج؟ فأجاب (سبق أني صرحت برأيي في ذلك، وهاأنذا أكرر ما قلته: وهو أن في استقدامه ما قد يبصرنا بما خفي علينا الأخذ به من وسائل ترقية المسرح المصري وإذاعة آثاره؛ وأرجو أن توفق الوزارة في اختيار أحد الرجال البارزين في المسرح الأوربي؛ ولعل في استقدامه واضطلاعه بشؤون الفرقة القومية ما يقضي على أسباب الفوضى المنتشرة في هذه المنشأة الجديدة، وهو الأمر الذي عجزت عنه وأعياني أمره).

يوسف تادرس

العدد 178 - بتاريخ: 30 - 11 - 1936

بعد المعاهدة

بعد ليل غاشي الجوانب تراكمت على (الوادي) همومه، وطريق دامي المسالك تشابهت على الدليل رسومه، انجلى الغيهب الكثيف عن وضح الفجر، وانتهى الطريق المخيف إلى أمان الغاية؛ فحمدنا السُّرَى عند الصباح، ورضينا الغنيمة بعد المعركة، وهدهدنا الأمانيَّ على نشيد الفوز.

كنا مقيدين لا نملك مع القيد مجال العمل، ومحجورين لا نجد مع الحجر سبيل التصرف، ومستذلين لا ندرك مع (الامتيازات) معنى الكرامة، ومستقادين لا نعرف مع (الاحتلال) عبء التبعة؛ فإذا كانت مصر الأمس قد مشت عرجاء في طريق التقدم، وجاهدت عزلاء في ميدان العيش، فإنما كان وِزْر ذلك على الغاصب الذي سلط قوته على الحق، ومنفعته على العدل، فحجز البلاد عن وجهتها الحرة حقبة من الدهر أوْفت على نصف قرن. أما اليوم وقد انكسر القيد، وانتفى الحَجْر، وتصاغر الامتياز، وقال لك القوى الغالب: لقد رشدت فتصرف في أمرك، وشببت فدافع عن حَوزتك، واستقلت فاحكم في بلدك، فلا يسعك في تقصير عذر، ولا يسعفك في دفاع حجة.

هذه ثروة النيل التليدةُ والطريفة، عبثت بها أهواء القيم المفروض بالباطل، فَنقص النامي، وبلُد الحساس، وفسد الصالح، واعوج المستقيم، وتنافر المنسجم؛ فكل شيء فيها معتل يفتقر إلى علاج، أو منتشر يحتاج إلى ضبط. فإذا قصرنا الجهد أو أكثره على تنفيذ المعاهدة، من إنشاء الجيش وبناء الثكنات وشق الطرق، ظل حالنا على ما كان من بؤس العيش، ونقص الكفاية، وعجز القدرة. وهل يكون الأمر حينئذ إلا حبس قوى الأمة على الاستقلال في السعي إليه أو في المحافظة عليه؟ وهل يزيد الاستقلال على أن يكون استرداداً للحرية المسلوبة؟ تنعم الأمة في ظله وهي آمنة، وتعمل في حماه وهي حرة، وتحكم على مقتضاه وهي سيدة؟

أن إعداد الأمة لحمل نصيبها من أمانة الحياة ورسالة الحضارة وعهد المحالفة، يقتضي أن تتظاهر ملكاتها الموجودة، وكفاياتها المدبرة، وقواها المنفذة، على طرد الجهل منها، ودفع الفقر عنها، ومعالجة المرض فيها؛ وهذه العلل الثلاث هي جمَّاع العلل، لا تجد عاهة من عاهات الجسم، ولا آفة من آفات الروح في الفرد أو في الجماعة إلا ضاربةً فيها بعرق. أو واصلة إليها بسبب. والأمة كلها خَلْق سَوِيٌّ كامل لا تستطيع أن تقويه وترقيه إذا عُنيت بعضو دون عضو، وشُغلت بملكة دون مَلكة.

كل ما فينا عاطل يبغي العمل، وباطل يريد التغيير، وَرثٌّ يطلب التجدد؛ وتلك مخلفات العهود السود وتركات الأجيال المريضة، نمت فينا نمو الجراثيم يزرعها ويغذيها المحتل الذي لا يرحم، والحاكم الذي لا يعدل، والواغل الذي لا يعف.

كان من جرائر فقد الاستقلال في الحكم أن فقدناه من كل شيء حتى في الذات؛ فنحن نفكر تابعين، ونعمل مقلدين، ونعيش متواكلين، ونسعى على غير اطمئنان ولا ثقة. وقد ظهرت هذه التبعية واضحة في الآداب والعادات، وهي أدخل الأشياء في بناء الشخصية وأبعدها عن التراث المشترك بين الأمم كالعلم والحضارة.

ولعل أقبح آثاره ما نجد في الشباب من رخاوة العود وطراوة الخلق، وفي الكهول من ضراعة النفس وضعف الإرادة؛ فإن ترك الدفاع عن أنفسنا لغيرنا كَسَبَنا طباع العيش الأبله من الوداعة والإغضاء والرضى، فلا ترى في الجملة من يغضب للإهانة، ويثور للعدوان، ويتحمس للخصومة. وأن استبداد الأجنبي بأمرنا من دوننا قتل فينا التفكير، وأنام فينا الضمير، ودهانا بطائفة من طبائع الاستبداد كالملق والنفاق والتواضع والأثرة؛

فالأمة مستنيمة لهوى الحكومة، والحكومة مستكينة لإرادة المحتل؛ وبين طبقات الشعب ودواوين الحكم منافع مسعورة لا ترتوي، ومحاباة مهتوكة لا تستحي، وتواكل غفلان لا يفيق.

نعم كل ذلك كان نتيجة لفقد الاستقلال ما في ذلك ريب؛ ومن الممكن أن يكون وجوده علة في عدم هذه النقائص على التدريج مسايرة لفعل الزمن؛ ولكن الوقت ضيق والفرصة عجلى والضرورة حافزة، فلا بد لأولياء العهد الجديد أن يغسلوا أدران العهد القديم بالسموم، ويحسموا أدواء الماضي بالكي، ويجعلوا بين العهدين سدا من النار والحديد لا ينفذ منه إلا مصهور أو مطهَّر.

نريد أن ندخل العهد الجديد في لباس الإحرام: صدورنا نقية من أحقاد الحزبية، ونفوسنا بريئة من شهوات العصبية، وميولنا نزيهة عن خسيس المطامع.

كنا نعيش كما يعيش السَّوَام في البر أو السمك في البحر، لا تجمعنا وحدة شاملة، ولا توجهنا غاية معينة؛ وكان ذلك أثراً محتوماً للسلطات التي كانت تتنازع الحكْم، والتيارات التي كانت تتوزع الثقافة، والامتيازات التي كانت تمزق المجتمع.

أما اليوم فنريد أن نعيش كما يعيش الناس في كل أمة: وطن صريح الاستقلال قوى الشوكَة، لا سلطان لقوة خارجية عليه، ولا سيادة للغة أجنبية فيه، ولا استبداد لشركة أوروبية به؛ وَحرية مهذبة الأطراف مأمونة السفه، ينعم الفرد فيها بنفسه، ويأمن بها على رأيه؛ ومجتمع راقي الطبقات مثقف النواحي، يؤلف نافرَه الخلق، ويجمع شتيته الحب، ويرقِّه حياته التعاون، ويؤويه إلى كنفه إله وعلم وملك. ذلك ما نرتجيه في الحياة الجديدة، وذلك ما نبتغيه من الحكومة الرشيدة.

أحمد حسن الزيات

كل امرئ وما خلق له

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

عرفت شاباً حفيت قدماه من السعي حتى فاز (بوعد) بأن يستخدم (ساعياً) أو نحو ذلك بعد أن يقر البرلمان ميزانية الدولة. ووافق البرلمان عليها وأصبحت معمولاً بها وراح صاحبنا يستنجز الوعد ويستعجل التعيين فلم يجد إلا مطاولة وإخلافاً، فمل ذلك وجاءني يوماً وذكر لي جيرة أهله لنا في بعض ما مضى ورجا أن أدله على وسيلة تبلغه ما يريد. فقلت له يا أخي: أما الحكومة فلا صلة لي بها، وأنا أراك لا تستنكف أن تعمل فيها عمل الخدم وإن كنت شاباً متعلماً، فإذا كان هذا هكذا فما أظن أن الدنيا تضيق بك في غير الحكومة ولن تعدم عملاً في شركة أو متجر أو ما شابه ذلك. ولم أزل به حتى صرفته عن الحكومة، فمضى عني وفي نيته أن يلتمس الرزق من العمل الحر. ولم يكد يفعل حتى ساورتني الوساوس، فقد رأيته شاباً حيياً طيب القلب سليم النية مستقيم الفطرة لا يكاد يعرف عن الدنيا شيئاً؛ ومثل هذا خليق أن يغرق في محيطها الطاغي، ولكني لم أكن أستطيع أن أصلح ما اعتقدت أني أفسدت، لأني لا أعرف أين يسكن حتى كنت ألحق به وأمحو ما وقر في نفسه من كلامي. ولم يعد هو إلى بعد ذلك فذهب كل أمل، فجعلت ألوم نفسي وأوسعها تقريعاً وتأنيباً، ثم شغلتني الحياة فنسيته.

ومضت شهور لا أراه ولا أسمع به - وأعترف فأقول: ولا يرد له ذكر على بالي. وجاء الصيف واحتجت أن أقضي بضعة أيام في الإسكندرية فنزلت في فندق جديد على البحر عند شاطئ (ستانلي)، فأتفق يوماً أني خرجت أتمشى فعدت متعباً فقلت أستلقي على السرير ففعلت وأخرجت سيجارة احتجت لإشعالها أن انهض قليلاً لأمد يدي إلى الكبريت، وكان على منضدة صغيرة قريبة من السرير، فما راعني إلا حذاءان ضخمان لا حق لمخلوق في أن يكون له مثيل ما فيهما من القدمين، ففزعت ثم تذكرت أن الذي يختبأ تحت السرير يكون هو الخائف الفزع، ففي وسعي أن أطمئن قليلاً، فقمت فقعدت على كرسي ودعوت صاحب القدمين الكبيرتين أن يخرج بالعفو عنه، فخرج القهقري - أعني أن الساقين ظهرتا أولاً ثم الجزع ثم الكتفان ثم الدماغ.

وبعد أن خرج هذا كله رفع صاحبه وجهه إلي فإذا هو الشاب الذي غاب وانقطعت أخباره

عني فصحت به: (حامد! ماذا جاء بك إلى هنا؟)

وكان الواجب أن ينهض وينفض التراب ويشرح لي الأمر ويفسر لي كيف دس نفسه

تحت سريري، ولكنه لم يفعل شيئاً من هذا كله بل بقي قائماً على ركبتيه وراحتيه
فضحكت وقلت له: (أظن أن على أنفك شيئاً من التراب)
فقال: (صحيح؟) وشرع يمسحه بكفه.
فقلت وقد سرني المنظر: (وهل تظن أني أكذب عليك في أمر مهم كهذا؟. ولكنك حين مسحت انفك وضعت على وجهك نحو طن من التراب لأن يدك كما لا أحتاج أن أنبهك غير نظيفة)
فاتكأ على كف ورفع كفه الأخرى إلى عينه لينظر وقال: (صحيح)
فقلت: (أظن أن هنا حوض وماء ففي وسعك أن تغتسل وتعود نظيفاً كما كنت. . . وبعد ذلك نستطيع أن نتفاهم).
فغسل وجهه ورأسه وسرح شعره، ونفض التراب عن ثيابه ثم ألتفت إلي وقال: (الحقيقة أن الرقاد تحت السرير حماقة).
فقلت: (هذا يردنا إلى الموضوع، فلماذا كنت راقداً تحتسريري؟؟ وماذا جاء بك إلى هنا على كل حال؟)
فقال: (تحت السرير؟ أنا؟. . . آه)
فقلت: (نعم. تحت السرير. . . . . هذا سرير؟ أليس كذلك؟ اتفقنا أذن! وأنت كنت تحته. . فماذا كنت تصنع تحته. . أعني تحت هذا السرير؟ سريري أنا. .؟)
فقال: (أهي غرفتك؟)
قلت: (ليس أسمي مكتوب عليها لا بأحرف من نور ولا بالطباشير ولا بالدهان، ولكن أظن صاحب الفندق يشهد بأنها غرفتي إذا شئت أن تسأله. . . . على كل حال يمكنك أن تصدقني وتكتفي بما أقول)
فقال: (طبعاً. . . طبعاً. . . لا شك. . . لا شك)
فراقني هذا جداً، وأدركني العطف على هذا الشاب الذي قذفت به نصيحتي في عباب حياة لا قبل له به، وقلت (الآن نعود - إذا سمحت - إلى السؤال) فقال: (لقد كنت أظنها خالية.
(وخطر لي أن خير ما أفعل هو أن أرقد تحت السرير
فقلت: (الأمزجة تختلف، ولكن ألا تقول لي لماذا رأيت هذا خير ما يمكن أن تصنع؟ أو فلنبدأ من البداية. . . . ماذا جاء بك إلى الإسكندرية؟)
قال: (هذه قصة طويلة. . .)
قلت: (إني رجل واسع الصدر. . ومع ذلك، في وسعك أن تحذف قصة ميلادك وطفولتك، وأن تقفز إلى ما بعد اليوم الذي زرتني فيه)
قال: (لقد عملت بنصيحتك)
قلت: (ظاهر. . . . ولكني - على قدر ما أذكر، فأن ذاكرتي ضعيفة كما تعلم أو لا تعلم، - لم أوصك بالتسلل إلى الغرف التي تظنها خالية وأن كانت فيها حقيبة كبيرة وثياب معلقة، ولا بالنوم تحت أسرة الناس)
قال: (لا لا لا. لست أعني هذا. إني آسف لإزعاجك)
قلت: (استغفر الله. . . بل آنستني. . . البيت بيتك. . . أعني الفندق. . نعم؟)
قال: (خطر لي أن اهرب من مصر)
قلت: (هل ارتكبت جريمة؟)
قال: (لا لا. . . أعوذ بالله! إنما أعني أن الناس يعرفونني في مصر وقد اخجل أن يروني أزاول عملاً غير لائق. . .)
قلت: (صحيح. . . مصر صغيرة جداً. . . ليس فيها إلا مليون وربع مليون من الناس. . . ومثلك لا يمكن إلا أن يبرز جداً في مثل هذا العدد الضئيل. . . . معك حق. . . والى أين ذهبت؟)
قال: (جئت إلى الإسكندرية. . . لا يعرفني فيها أحد. . . وبدأت بأن صرت أبيع أوراق (اليانصيب) ولكن الناس كانوا يستريبون بي لأني ألبس بذلة، ويشترون من الصعيدي لابس الجلابية. . . لا أدري لماذا؟ فتركت هذا وعملت خادماً في مطعم. . . لم أبقى فيه سوى أسبوع واحد. . . الحقيقة أني لا أدري كيف يستطيع أن يحمل المرء كل هذه الصحون والملاعق ولا يكسر منها شيئاً. . .)
قلت: (هل كسرت الصحون، وحطمت الأواني؟)

قال: (لم أكسرها، إنما كانت هي تسقط مني)
قلت: (هذه مسألة دقيقة جداً. فلنقف عندها قليلاً. . . أنها تذكرني بابني. . . كان معي يوم زرتني، فلا شك أنك تعرفه)
فقال وقد أضاء السرور والإعجاب وجهه: (أكان هذا أبنك؟)
قلت: (لا يزال أبني على الرغم من كل شيء)
قال: (ما شاء الله. . .)
قلت: (أشكرك. . . وأعود فأقول إن بائع تين مر ببيتنا يوماً فوزن لنا أقة، فأخذها منه الصبي - اعني أبني فقد كان صبياً صغيراً كما لا بد أن تعرف - واكل منها تينات في طريقه ألينا. . . بلعها بلا مضغ على ما أظن، فقد كانت المسافة أقصر من أن تسمح بالأكل الصحيح - أعني الصحي. . . المضغ اثنتين وثلاثين مرة إلى آخره - فلم يعجبنا التين فأعدناه إلى صاحبه، ولا أدري كيف عرف، ولكنه تبين أن التين أنقص مما كان، فسألنا الغلام، فقال أنه لم يأخذ شيئاً، ولكن التين كان يثب من الطبق إلى فمه. . . فهذا من ذاك يا صاحبي! ثم ماذا أيضاً بعد أن طردت من المطعم. . . لا بد أن تكون طردت. . . أم تراك قدمت استقالة مسببة ذكرت فيها أنك لا تستطيع أن تعمل مع هذه الصحون والأطباق اللعينة التي تأبى إلا أن تعاكسك وتحاورك وتغافلك وتسقط من يدك؟)
فتمتم قليلاً ثم قال إنه أشتغل بائع للبن الزبادي - اليغورت كما يسمى في أحياء الرمل - فضحكت وقلت: (لابد أن تكون قد عانيت من سلاطين اللبن مثل ما عانيت من صحون المطعم. . . الطبيعة واحدة، ولست أحتاج منك إلى بيان ما حدث، فأني أعرف روح هذه المادة التي تصنع من الصحون والسلاطين)
فقال بلهجة الجد المضحك: (الحقيقة أنه أمر غريب. . لقد كان يخيل إلي أن شيئاً فوق رأسي يحرك الطبلية ويميلها فتتسابق السلاطين إلى الأرض)
قلت: (معقول. . . . معقول. . . . شيطنة معهودة من كل ما يصنع من هذه المادة المكهربة)
ولا أطيل، فما أردت من إثبات هذا الحوار إلا أن يرى القارئ مبلغ سذاجة هذا الشاب وبراءة نفسه وطيب خيمها، وقد علمت منه انه يشتغل، خادماً أو (ساعياً) عند قصاب، وأنه
جاء إلى الفندق - كما يفعل اليوم - بمقدار اللحم المطلوب فوضعه قرب باب المطبخ قبل أن يسلمه إلى رجال الفندق، ووقف يحادث اللبان، فجاء كلبان ضخمان وأعملا أسنانهما في اللحم، وأقبلت القطط - لا يدري من أين - فاختطفت ما بقي؛ وظهر صاحب الفندق، وذهب صاحبنا يعدو، بلا عقل، فإذا به يرى نفسه بين الغرف، وكان اليوم يوم أحد، وليس عليه بعد ذلك عمل، وقد قبض أجره الأسبوعي، فرأى أن يرتدي بذلته، ليتسنى له بعد أن يسلم الرسالة أن يخرج للرياضة والتنزه من غير أن يحتاج أن يعود إلى غرفته في (المكس).
والتقى في طريقه بين الغرف بأحد النازلين في الفندق خارجاً من غرفته، فخاف . . .ودخل غرفتي فألفاها خالية، فدس نفسه تحت السرير، بلا تفكير، حتى أخرجته فسألته: (ألا يمكن أن يكون هناك عمل تصلح له، ويصلح لك. . . كالحلاقة مثلاً؟)
فحدق في وجهي مستغرباً وقال (إيه. . أعني. . معذرة. .)
قلت: (لا بأس. . . أردت أن أقول ألا يمكن أن تكون شيخ طريقة مثلاً؟؟، ولكن هذا يحتاج إلى ذكاء وحذق وبراعة وجرأة. . . ولا شك أنك ذكي حاذق، وشجاع وبارع، ولكن الأمر يحتاج إلى ضرب آخر من هذه المزايا، فقل لي. . لا بد أن يكون هناك شيء تتقنه. . . فماذا هو؟ فكر. . . أقدح زناد هذا الفكر. . . أرنا همتك. . .)
فأطرق ملياً ثم قال: (لو كان عندي رأس مال لاقتنيت غيّة. . . ولكن. . .)
فقلت: (هل سمعتك تقول (غيّة)؟)
قال: (نعم. . . غيّة. . .)
قلت: (مفهوم، ولكن ألا يمكن أن تجعلها أسهل. . . . أعني أن تفسرها؟. .) قال: (غيّة. . . ألا تعرفها؟)
قلت: (لا بد أن أكون أعرفها. . . ولكن ينقصني أن أعرف ماذا هي؟ فماذا هي؟) قال: (الغيّة هي. . . هي الغيّة)

قلت: (هذا أحسن. . .)
قال: (تعرف ما أعني. . . الحمام. . . تبني له بيتاً من الخشب فوق السطح، وتعنى به)
ففهمت وسألته (ولكن هل هذا عمل يربح منه الإنسان، أم هو تسلية فقط؟)
قال: (لست أثني على نفسي، ولكني لو وجدت المال اللازم أستطيع أن أستولده. . .)
قلت: (تستولد المال؟)
قال: (لا لا. . . الحمام. . . أربيه وأستولده. . . وأبيع منه. . . عمل رابح جداً) فخطر لي أن لعله صادق، وأن هذا شيء يحسنه فسألته عما يحتاج إليه من المال فقال: أنه ادخر نحو جنيهين، وانه يستطيع أن يقترض من أهله نحو عشرة لكنه ينقصه مثل هذا القدر للبناء وشراء الحمام اللازم، فاقترحت عليه أن نجعلها شركة مساهمة فانطلق يحدثني عن الحمام وطباعه ومزاياه، ويصف لي أنواعه ويذكر لي أسماء لم أسمع بها من قبل، فاطمأن قلبي وأيقنت انه اهتدى إلى ما يحسن، وعدت به إلى القاهرة وجمعت له من أخوان لي ما يكفي (لمشروعه).
ولم أكن أظن أن الحمام تجارة رابح، ولكنه بعد عام واحد استطاع أن يرد ما أقترض من أهله ومنا، وان يخبرني أنه موفق، وانه يعيش عيشة راضية، لا ترف فيها ولا بذخ، ولكنها - على كونها عيشة كفاف - هي التي كان يصبو إليها، لفرط حبه لهذا الطير. . . .
فلا يزال صحيحاً أن المرء ميسر لما خلق له.
إبراهيم عبد القادر المازني
في الأدب المقارن
النقد في الأدبين العربي والإنجليزي
للأستاذ فخري أبو السعود
ليس النقد إلا ميلاً طبيعياً في الإنسان إلى الحكم على ما يحس وما يرى، واختيار الأحسن من ذلك. ونشاط النقد دليل على نشاط الفكر، وهو مصاحب لارتقاء الأدب وانتشار الثقافة في كل أمة؛ بل هو ضروري لتقدم الأدب: يقفه على مواضع إحسانه ويظهره على مواقع تقصيره، ويجلو أمامه غاياته وطرائقه، ويستحثه على دوام الترقي والتزيد. فالأدب صدى الحياة، والنقد صدى لذلك الصدى، يُظهر للأدباء والمتأدبين مدى نجاح الأدب في تأدية رسالة الحياة ومواقع أعمالهم في النفوس.
فالناقد النزيه خير صديق للأديب: يضع إصبعه على عيوبه فيتلافاها، ويستحسن إجاداته فيزيده ثقة بنفسه وإقبالا على ممارسة أدبه. ولعل أروع أمثلة ذلك ما كان ملازمة كولردج لوردزورث: فقد وجد الأخير في صاحبه - حين أعراض الجمهور عنه وغمْط الجميع حقه - خير عارف بقدره معجب بأدبه، وكان لإعجاب كولردج وتشجيعه أبعد المدى في أدب وردزورث، وكان الشعر الذي كتبه في عهد صداقتهما خير ما كتبه على الإطلاق.
بيد أن الأحقاد الشخصية سريعة إلى نفوس الأدباء والنقاد، والأهواء السياسية والمذهبية كثيرة الوغول على الأدب والنقد. وقد شهد الأدبان العربي والإنجليزي ما لا يحصى من أمثلة النقد المغرض، وقاسى الأدباء حملات الخصوم الشخصيين أو السياسيين باسم الفن والنقد. ومن أمثلة ذلك في العربية حملة الصاحب على المتنبي وأشلاؤه عليه أذنابه. وفي الإنجليزية عانى أعلام الأدب أمثال وردزورث وتنيسون وكيتس حملات الرجعيين والحاسدين، وبلغ الكمد من الأخير حين هاجمه بعض ناقديه فأقذع أن مات محتضراً في عنفوانه.
وقد كتب الكتاب في العربية والإنجليزية وغيرهما من اللغات في النقد كثيراً، وحاول كل من عالجه أن يستخلص من شتى الشواهد المنتزعة من آثار فحول الأدب قواعد عامة للأدب توضح غثه من سمينه وتعين القارئ والناقد على استحسان الحسن واستهجان الهجين مما يكتب الكاتبون، ولكن النقاد لم يتفقوا بعد جهودهم تلك على شيء ذي بال، بل
ناقض بعضهم بعضاً، واستجاد هذا ما استرذل ذاك، وظل المرجع الأول في نقد الأثر الأدبي إلى ذوق النقد وتكوينه الفكري، وظل كل أثر أدبي من شعر أو نثر يحمل في طياته المبادئ التي يجب أن ينقد على حسبها، بل رأى وردزورث - وأصاب - أن الناقد الذي يُقبل على نقد أثر أدبي، وقد كون لنفسه مبادئ ثابتة غير أهل للحكم على ذلك

الأثر أو غيره.
وللنقد صور شتى: فالأديب هو أول ناقد لأدبه، وإنشاء الأثر الأدبي عملية مكونة من الخلق والنقد معاً؛ ومن الأدباء من يعرض ما ينشئ على رفاقه، ويستمع إلى ملاحظاتهم عليه؛ وكان ذلك معروفاً بين العرب قبل أن تذيع الكتابة، كما كانوا يعرضون أشعارهم على النقاد في الأسواق الأدبية، ولتمكن الملكة البيانية من العرب كان كثير من أمرائهم نقادة حفصاء للأدب. ويروى لعبد الملك والحجاج وسيف الدولة مع مداحهم: كثير وليلى الأخيلية والمتنبي نوادر في ذلك، فكثيراً ما كان الأمير أبصر بالأدب ونقده من مادحه؛ فلما ذاعت الكتابة وانتشرت الثقافة ظهرت كتب النقد.
وكتب النقد أنواع: فمنها ما يدرس مبادئ الأدب وغاياته ووسائله ويدخل في هذا الباب كتب البيان والبلاغة والعروض والقافية، وهي كل ما يمكن أن يتفق عليه النقاد من مسائل النقد. ويشترك الأدبان العربي والإنجليزي في وفرة هذا الضرب من كتب النقد الأدبي فيهما؛ ومن كتب النقد ما يدرس أديباً واحداً أو جملة أدباء على منهج خاص من الدراسة، كالكتب الكثيرة المؤلفة في دراسة شكسبير وملتون ووردزورث وتنيسون وهاردي؛ ومنها ما يدرس نوعاً خاصاً من الأدب كالقصة أو الشعر الغنائي، ومن ذلك كتاب ابن كرومي عن الملحمة؛ ومنها ما يدرس عصراً يوضح عوامل الأدب ومظاهره فيه وآثار فحوله، كالعصر الاليزابيثي والعصر الفيكتوري؛ ومنها ما يدرس من عصور أدب اللغة جملة: وتلك هي كتب تأريخ الأدب، وليست في صميمها إلا نقداً، وهي حديثة العهد.
وكل هذه الأنواع نادرة في الأدب العربي وبعضها لا يوجد به، وإنما الضرب السائد فيه هو ذاك الذي توخاه مؤلفو البيان التبيين والكامل ويتيمة الدهر: من تناول الأدباء بغير نظام وسرد بعض آثارهم والتعليق المقتضب عليها؛ وتلك هي كتب الأدب التي لم يكن الغرض منها درس أولئك الأدباء والإماطة عن جوانب نفسياتهم وأسرار نبوغهم، بل كان الغرض
اقتطاف أطايب آثار المتقدمين وتقديمها للمتأدبين السالكين سبيل الأدب الطالبين أسرار بلاغة العرب، فلم تكن الغاية درس الأديب المتقدم، بل إخراج الأديب المقبل.
وقد استفاد النقد في الإنكليزية كثيراً بتقدم العلوم الحديثة حتى فاق النقد العربي في نواحي شتى: فتقدُّم علم التأريخ علّم النقاد أن يهتموا بحالة العصر الذي يدرسون من حيث السياسة والاقتصاد والمذاهب السائدة؛ وتقدُّم علوم الاجتماع علمهم أن يهتموا بالبيئة التي نشأ فيها الأديب الذي يدرسون والصفات التي ورثها عن أسرته، ومزاجه النفسي وتكوينه الجسمي، وأثر كل ذلك في أدبه، فجاء النقد الإنجليزي الحديث واضح المناهج بين الأسباب والنتائج، وأبرزَ للعصور والأعلام صوراً جلية وشخصيات متميزة.
أما نقاد العرب فكانوا أكثر اهتماماً بدرس فنون الأدب وأساليب الصناعة منهم بدرس الأشخاص والعصور؛ وقد أسهبوا في درس الفنون التي فشت في أدبهم واستأثرت بمعظم نثرهم وشعرهم: كرسائل الأمراء والنسيب الاستهلالي والمدح والهجاء والرثاء، وهي المناحي التي لم تظفر من أدباء الإنجليزية ونقادها بالتفات، فقسَّم قدامة بن جعفر مثلاً الممدوحين إلى ضروب: فملوك ووزراء وكتاب وقواد وسوقة، وحصر صفات المدح في أربع: الشجاعة والعدل والعقل والعفة، يجمعها قول زهير:
أخي ثقة لا تُهلك الخمر مالَه ... ولكنه قد يهلك المال نائله
فمن مثل حصن في الحروب ومثله ... لإنكار ضيم أو الخصم يجادله
والناظر في كتب النقد في الأدبين العربي والإنجليزي، يرى - عدا ما تقدم - فروقاً واضحة بين نقدي الأمتين كالفروق التي يرى بين أدبيهما، بل يرى مواضع الاختلاف واحدة في الحالتين؛ ولا غرو فالنقد كما تقدم صدى الأدب، بل إن النقد والأدب يتجاوبان فيما بينهما صدى مستمراً طوال العصور؛ والخصائص التي تغلِب على أحدهما لا بد أن تغلب على الآخر، ومن ثم نجد بين النقد في العربية والنقد في الإنجليزية ما تجد بين أدبي اللغتين من فروق في نواحي المحافظة والتجديد، والتأثر بالأثر الأجنبي، والمعنى واللفظ، والفنون وهلم جرا.
فنزعة المحافظة هي الغالبة على نقاد العربية، وقل منهم من دعا إلى تجديد صحيح، وذلك ابن الأثير مثلاً يزعم أنه مجدد بذ الأوائل ثم يأتي بأمثلة من تجديده فإذا هي محافظة مغرقة

وتقليد مفرط؛ وأغلب نقاد العربية يقدسون المتقدمين دون تأمل، ولا يرون عن مناهجهم حولاً ويضعونهم فوق متناول النقد. وذلك أبو علي الحاتمي يحسبه أتى بجديد حين مثل القصيدة بالإنسان في تناسب خلقه، فلا ينشب أن يقول: (وتأتي القصيدة في تناسب صدورها وأعجازها، وانتظام نسيبها بمديحها، كالرسالة البليغة)، فهو لا يتصور القصيدة إلا نسيباً ومديحاً كما فعل الأوائل.

وتتجلى نزعة المحافظة في النقد العربي في أمرين: غرضه، وممارسيه، وهما أمران متصلان أحدهما بالآخر، فقد كان غرض كتب الأدب والنقد في العربية كما تقدم وقف الناشئ المتأدب على بلاغة المتقدمين، وتفهيمه أسرار إعجاز القرآن، لينحو منحى أولئك المتقدمين ويضرب على وتيرتهم، فكان غرض النقد الأول تعليم المتأخرين كيف يقلدون الأولين.

ولم يمارس النقد فحول الكتاب والشعراء، ولم يؤثر عن فحول العربية مما يدرج تحت عنوان النقد إلا شذرات مقتضبة بعيدة عن التنظيم، كوصية عبد الحميد لمعشر الكتاب ونصيحة أبي تمام للبحتري؛ وربما ثار بعض الشعراء بما درج عليه زملائهم من تقاليد، كثورة أبي نواس بالوقوف على الديار في مثل قوله:

لا جفَّ دمع الذي يبكي على حجر ... ولا صفا قلب من يصبو إلى وتد

وتمرُّد المتنبي على النسيب الاستهلالي في قوله:

إذا كان شعرٌ فالنسيب المقدَّمُ ... أكلُّ أديبٍ قال شعراً متيم؟

ولكنها كانت خطرات عابرة لم تُكوِّن مذهباً ولم تغير سنة، بل لم يتبعها قائلوها أنفسهم وجاروا التقاليد الجارفة فيما نظموه، وإنما مارس النقد في العربية المقلون في النثر والشعر كالجرجاني وأبي هلال العسكري، أو من يؤثر عنهم شيء، وهكذا كان الأدباء فريقاً والنقاد فريقاً آخر.

أما في الإنجليزية فاختلط الفريقان، وكان أفذاذ الأدب عادة هم أفذاذ النقد أيضاً، وكان زعيم كل نهضة أدبية هو أيضاً زعيم النقد فيها: فكل من بن جونسون ودريدون وبوب وصمويل جونسون ووردزورث وكولردج وديكونسي وماكولي وماثيو أرنولد ورسكن، كان كاتباً أو شاعراً كما كان ناقداً، وذاك لعمر الحق ودليل حيوية الأدب وروح التجديد فيه: فلن يكون

الأديب أديباً حتى يكون له رأي في الأدب والحياة تنضح عنه في كتاباته النقدية، كما يصدر عنه في آثاره الأدبية، وكلُّ من دريدن وبوب ووردزورث قد استجد مدرسة في الأدب لا بأشعاره فقط، بل بنظرياته في النقد. فبينما كان غرض النقد في العربية المحافظة على مناهج المتقدمين، وكان في الإنجليزية ابتداء حركات جديدة.

ولا ريب أن الأدباء الذين يمارسون النظم والنثر هم أدرى الناس بنقدهما، لأنه لا يعرف الشوق إلا من يكابده؛ والأديب الذي يعلن للناس نظرياته النقدية مشفوعة بآثاره الأدبية أمثلةً مؤيِّدةً لتلك النظريات، كما فعل وردزورث في أغانيه الشعبية ومقدمته النثرية لها، أحرى أن يُتَّبَعَ من الناقد الذي لا يمارس الأدب، وإنما يملي على الأدباء آراءه وهو بنجوة عن محيطهم، فمن أعجب ظواهر الأدب العربي تنحي فحوله عن مضمار النقد، وتركهم مجاله لعباد القديم ومقدسي السلف.

ولتقديس النقاد للقديم وقفوا موقفاً متناقضاً: فكانوا ينكرون على الأديب أن يحيد عن مناهج القدماء، ثم ينكرون عليه أن يتداول معانيهم التي سبقوه إليها، وصرفوا جانباً عظيما من اهتمامهم إلى تتبع سرقات الشعراء، فكتاب الوساطة للجرجاني أغلبه جهد ضائع في تقصي المعاني إلى مواطنها الأولى في أشعار الأجيال السالفة، وتمزيق القصائد بيتاً بيتاً؛ والحكم على الشعراء بالاختلاس لأوهى الشبهات اللفظية.

وكان نقاد العربية أكثر التفاتاً إلى الألفاظ منهم إلى المعاني، وعد أكثرهم إحكام اللفظ ميزة الأديب الفحل، وعدوا المعاني مشاعاً بين الجميع، قال أبو هلال العسكري: (وليس الشأن في إيراد المعاني، لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي، وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه)، وقال ابن الأثير (ولقد رأيت كثيراً من الجهال الذين هم من السوقة أرباب الحرف والصنائع، وما منهم إلا من يقع له المعنى الشريف، ويظهر من خاطره المعنى الدقيق، ولكنه لا يحسن أن يزوِّج بين لفظتين؛ فالعبارة عن المعاني هي التي تخلب بها العقول، وعلى هذا فالناس كلهم مشتركون في استخراج المعاني).

ولهذا صرف أكثر النقاد همهم إلى خصائص الألفاظ وضروب الأساليب، وأسهبوا القول فيما سموه علم البديع، واستقصوا أقسام الجناس والطباق والسجع، وطُرُق تضمين الآيات وحَلِّ الأشعار؛ ووجود علم البديع في العربية دون الإنجليزية برهان ناطق على شديد
اهتمام نقاد العرب باللفظ؛ وكان للناقد والأدباء معاً إيمان وطيد بمقدرة اللغة على أداء أي معنى، وثقة لا تتزعزع في تفوق اللغة العربية في الفصاحة على غيرها من اللغات، وكانوا يرون ذلك ميزة العرب على غيرهم من الأمم التي بذتهم في شتى العلوم.

أما موقف جمهور الأدباء الإنجليز من اللغة فكان غير هذا: فهم وإن لم يغفلوا أهمية الصياغة اللفظية وضرورة تمكن الأديب من اللغة ووقوفه على أسرارها، ظلوا يعدون اللغة وسيلة لا غاية، وسيلة للتعبير عن خوالج النفس، بل عدَّها كثير منهم وسيلة ناقصة عاجزة عن التأدية إلى تلك الغاية، يجب على الأديب أن يستفرغ جهده ليجعلها تؤدي غرضه؛ فلم يهتم أدباء الإنجليزية ونقادها برنين الألفاظ الأجوف وزخرفها المموه، بل استعانوا بمعانيها المصطلح عليها، وجرس حروفها ودقة اختيارها والملاءمة بينها، واشتقاقها وخلقها حيث لا توجد لتأدية الحالة النفسية المتخيلة على ما يجب، وتصوير الجو العاطفي أو المنظر المرئي: من رهبة أو جذل أو سكون أو سرعة، ويفاضل النقاد الإنجليز بين الأدباء حسب مقدرتهم على استخدام اللغة هذا الاستخدام وتطويعها لأغراضهم على هذا النحو، لا حسب حظوظهم من المحسنات البديعة، ويقولون إن الفرق بين لغة العلم ولغة الأدب أن الأولى تعتمد على المعنى المجرد للفظ، والثانية على ما توحيه الألفاظ من أجواء معنوية.

ولما كان إيمان العرب بتفوقهم البياني كما تقدم، لم يهتموا بالآداب الأجنبية أو النقد الأجنبي كثيراً، فهم واضعو علوم البلاغة في لغتهم، وهم نهجوا بكتب الأدب والنقد نهجهم الخاص بهم، وجدهم في هذا السبيل جسيم جليل؛ أما الإنجليز فجعلوا النقد الأدبي الأجنبي دائماً نصب أعينهم، قديماً كان أو حديثاً، فما كتبته أرسطو ومما نظمه هوراس في النقد نشأ النقد الدبي في الإنجليزية، وغُذِّى بعد ذلك بكتابات دانتي وبوالو ولسنج وجيته وسنت بيف وتين؛ فالناقد الإنجليزي يستعرض آراء هؤلاء أثناء استعراض آراء مواطنيه بلا تفريق ولا ريب أن اشتمال النقد الإنجليزي على آراء أمثال أولئك ربح للأدب لا يقدر: فاطلاع الأدباء والنقاد على خير ما تنتجه القرائح في العالم أجمع يوسع آفاق تفكيرهم ويفسح حدود أدبهم، ويربأ بالأدب أن تثقله القيود وتفسده التقاليد، ومن ثم قال ماثيو أرنولد بضرورة إتقان الناقد في أدب ما أدباً أجنبياً واحداً على الأقل، تزداد فائدته له كلما ازداد التباين بينه وبين أدب الناقد الأصلي.

فاكثر النقاد الإنجليز كانوا كما تقدم من أعلام النظم والنثر، وكانوا مطلعين على الآداب الأجنبية، وما كُتب فيها في النقد، ثم هم كانوا - ولا سيما متأخروهم - مهتمين بالفنون الأخرى بجانب الأدب، واقفين على ما كتب في نقدها، بل كان منهم من جَمعَ بين نقدها والنقد الأدبي: فدريدن واضع أساس النثر الإنجليزي الحديث كتب رسالته في (الموازنة بين الشعر والتصوير) وكذلك جمع لام وثكري وركسن بين نقد الأدب ونقد التصوير أو النحت؛ ولا ريب أن تفقه الناقد في تلك الفنون أكبر معوان له على حسن النظر في الأدب وصدق النقد له، لتشابه الفنون في وسائلها وغاياتها.

فالناقد الإنجليزي كان اكثر أهلية للنقد وقدرة على النجاح فيه: لأنه كان يمارس الأدب بنفسه نظماً ونثراً فهو أدرى بدخائله ولأنه مطلع على الأدب الأجنبي، فهو أدرى بمحاسن أدبه ومثالبه، ولأنه متبصر في الفنون فهو أعلم بمناحي فنه الخاص - الأدب - ومن ثم حفل الأدب الإنجليزي بالدراسات القوية لعصور الأدب وفحوله وفنونه، وجاء تاريخه أوضح منهاجاً وأبين معالم من تأريخ الأدب العربي.

فخري أبو السعود

صور سياحة

أيام في سويسرا

بقلم سائح متجول

غادرنا باريس في منتصف الليل قاصدين إلى سويسرا؛ وإذا كنا قد هبطنا باريس فرحين مغتبطين بزيارتها والتمتع برؤية معالمها ومعاهدها التاريخية، فقد غادرناها أيضاً دون أسف، بعد أن تركت في نفوسنا صوراً أخرى غير تلك الصور الخلابة التي ألفناها

في كتب الأدب وفي المقالات والفصول الرنانة؛ وسار بنا القطار ينهب الأرض ليلاً متجهاً نحو الالزاس. فلما أسفر الصبح كنا نخترق أراضي الالزاس. مارين بتلك المواقع الشهيرة في تأريخ الحرب والسياسة مثل بلفور وميلهوز وغيرهما؛ وقد لاحظنا مذ بدأنا نجوز الالزاس أننا نكاد نخترق أرضاً غير فرنسية، فالناس يتحدثون بالألمانية المحرفة (أو الألزاسية) في كل مكان حتى موظفي القطار يخاطبون الركاب بالألمانية، وكل ما هنالك من طبيعة ومناظر وأشخاص يكاد ينطق بأن الالزاس ليست فرنسية في طابعها وفي روحها، وإن كانت السياسة ومصاير الحرب قضت بأن ترد الالزاس واللورين إلى فرنسا عقب انتصارها في الحرب الكبرى.

ووصلنا إلى الحدود السويسرية في الصباح الباكر، ودخلنا محطة بازل (أوبال) حيث أجريت الإجراءات الجمركية في أدب وظرف؛ وشعرنا في اللحظات القليلة التي مرت حتى وصولنا إلى الفندق أننا نجوز إلى محيط آخر أرقى خلالاً ومدنية من محيط فرنسا والشعوب اللاتينية كلها؛ وإنك لتأنس نفس الشعور عندما تخترق الحدود الإيطالية مثلاً إلى النمسا، فتشعر في الحال أنك غادرت في إيطاليا محيطاً أقل مدنية وخلالاً وسويسرا موطن السياحة بحق، والسياحة أهم مواردها القومية، ولهذا تعني ولايات الاتحاد السويسري ومدنه المختلفة بتنظيم شؤون السياحة أحسن تنظيم وتذيع عن سويسرا ومصايفها ومشاتيها ومناظرها ونزهها نشرات بديعة جذابة، وتعني بتنظيم كل ما يتعلق براحة السياح ورفاهتهم مثل الفنادق والمطاعم وطرق المواصلات والألعاب والنزه ولاسيما النزه واللعاب الشتوية الجبلية والثلجية التي اشتهرت بها سويسرا؛ والفنادق السويسرية حسبما رأيناها في بازل وتسيريخ (زيوريخ) فنادق من الطراز الأول من حيث النظام والنظافة وما يتجلى فيها من الأناقة وحسن التنسيق، وكذلك المطاعم والمقاهي يبدو عليها طابع الأناقة والبهجة والذوق الحسن؛ ونستطيع أن نقول إن مدينة صغيرة مثل بازل أو تسيريخ تتمتع بمجموعة من الفنادق والمطاعم الأنيقة لا توجد في مدينة عظيمة كباريس، التي ما زالت فنادقها متأخرة من حيث الفخامة والتنسيق والرفاهة نحو نصف قرن عن فنادق العواصم الأخرى.

غير انه لا بد أن نقولهنا أن السائح يدفع لهذه الأناقة والرفاهة في سويسرا ثمناً غالياً، ذلك أن موجة من الغلاء المرهق تعم سويسرا؛ وقد كانت سويسرا وقت زيارتنا لها في أغسطس من أشد الدول تمسكاً بقاعدة الذهب، وقد كان الجنيه الإنكليزي يساوي 15 فرنكا سويسرياً فقط؛ ولم يمض علينا في بازل يوم واحد حتى أدركنا فداحة هذا الغلاء الذي ينغص على السائح كل شيء خصوصاً إذا كان يحمل نقداً خارجا عن عيار الذهب كالجنيه الإنكليزي أو المصري؛ فالسائح المتوسط لا يستطيع أن يعيش في سويسرا عيشة لائقة مريحة بأقل من 25 إلى 30 فرنكا في اليوم (160 إلى 200 قرش)، واليك بعض الأمثلة العملية؛ فأجرة الغرفة في فندق متوسط تساوي من 6 إلى 8 فرنكات يومياً (والفرنك ستة قروش ونصف) وأجرة الحمام فرنك ونصف ووجبة الطعام في مطعم لائق تساوي 3 - 4 فرنكات، والقهوة أو قدح البيرة يساوي فرنكا، وهكذا؛ وأذكر أنني دفعت حين وصولي إلى محطة بازل نحو ثلاثة فرنكات (عشرين قرشاً) أجرة لحمل حقيبتيّ من المحطة إلى الفندق الذي لا يبعد عنها أكثر من مائة متر ودفعت مثلها حين سفري من بازل، ووقع مثل ذلك كرة أخرى حين وصولي إلى تسريخ وسفري منها؛ وهذا من أشنع ما لقيت من صور الغلاء، وتقضي تعريفه الحمالين الرسمية بأن يدفع المسافر نصف فرنك (خمسين سنتاً) عن كل قطعة، وأن يضاعف هذا الأجر ما بين الساعة العاشرة مساء والساعة السادسة صباحاً، ولا يتعدى عمال المحطة باب الخروج حيث تقف عربات التاكسي، وعندئذ يتسلمك حمال الفندق أو تركب التاكسي، وكذلك لا يسمح لحمال الفندق أن يتعدى باب المحطة؛ ومن ذكريات هذا الغلاء الشنيع أيضاً أنني دفعت فرنكين ونصف (17 قرشاً) أجرة لقص الشعر! وهكذا قضينا بضعة أيام نكتوي في بازل وفي تسيريخ بنار هذا الغلاء الشنيع الذي لا يكاد يلطف من وقعه شيء.

ولقد اشتهرت سويسرا بأنها بلد السياحة، وقد حبتها الطبيعة فعلاً وحبت مجتمعاتها بكل ما

يجذب السائح؛ ولكن الظاهر أن سويسرا تعول قبل كل شيء على السياحة الغالية أو السياحة المترفة؛ ولما كانت السياحة مورداً قومياً أساسياً في سويسرا، فالظاهر أنها تعمل كل ما وسعت لاستغلاله في جميع نواحيه. وحالة الرخاء المستمر التي تتمتع بها سويسرا تساعد في ارتفاع معيار العيش، وتحمل الشعب السويسري على طلب المزيد من ثمار هذا الاستغلال؛ ولكن الظاهر أن سويسرا شعرت أخيراً كما شعرت فرنسا أن هذا المورد قد أصابه النقص وأن دولاً أخرى مثل ألمانيا وإيطاليا والمجر قد أخذت تجذب أنظار السياح وتستغل مورد السياحة بما قدمته من تسهيلات في النقد والسكك الحديد، وأن الخروج عن معيار الذهب في مسالة النقد وسيلة لاستدراك هذا النقص. وقد خرجت سويسرا فعلاً كما خرجت فرنسا عن معيار الذهب، وخفضت قيمة الفرنك السويسري نحو 30 ? بحيث أصبح الجنيه الإنكليزي يعادل 21 فرنكا؛ وربما كان في ذلك تخفيف على السائح وتخفيض معقول في مستوى المعيشة، ولكن ذلك يتوقف دائماً على المحافظة على مستوى الأثمان القائم، فإذا ارتفعت الأثمان تبعاً لنزول النقد، فأن السائح لا يستفيد شيئاً ويبقى الغلاء المرهق حيث هو.

ولنعد الآن إلى بازل؛ فهي مدينة أنيقة سكانها نحو مائة وخمسين ألفا، وتتمتع بموقع بديع على منعطف نهر الراين، والراين يخترق بازل، ولكنه يبدو متواضعاً هادئاً كأنه نهير صغير؛ وفي ظاهر بازل من الغرب تجتمع حدود أمم ثلاثة ترى على قيد البصر سويسرا وألمانيا وفرنسا؛ وفي بازل أقدم الجامعات السويسرية يرجع إنشاؤها إلى نحو خمسمائة عام، وبها مكتبة كبيرة تضم نحو نصف مليون مجلد، وعدة كنائس قديمة أشهرها وأفخمها كنيسة سانت مارتن. وشوارع بازل وطرقها حسنة التخطيط، ومبانيها منسقة متوسطة الارتفاع؛ وأهم ميادينها ميدان المحطة ' وعليه يشرف معظم الفنادق الكبيرة، ومنه يتفرع بحذاء المحطة أهم شوارعها، وهو (الشارع الحر) وهو الممتد في وسطها حتى النهر؛ ولبازل ضواح بديعة يمتد إليها خط ترام خاص من المدينة، يمر خلال مجموعة ساحرة من الوديان النضرة والقرى النظيفة الساحرة؛ ولقد ذهبنا ذات صباح نجوس خلال هذه المناظر الممتعة، وقصدنا إلى قرية دورناخ حيث يقوم معهد (الجتيانوم) فوق أكمة عالية تصل إليها من طرق صاعدة تقوم على ضفافها المنازل والحدائق الأنيقة؛ ولما وصلنا إلى (الجتيانوم) بعد رياضة مجهدة ألفينا بناء ضخما أبلق، قد بني على الطراز الإغريقي والقوطي؛ فجزنا إلى داخل المعهد وقابلنا سكرتيره ووقفنا منه على تأريخ المعهد ونظمه وغاياته؛ وخلاصة ما علمناه أن (الجتيانوم) أو (معهد جيته) معهد دولي للعلوم العقلية، سعى إلى تأسيسه الدكتور رودلف شتينر العلامة النمساوي في عام 1923، وبني على طراز الملاعب اليونانية القديمة؛ وأريد به أن يكون معهداً دولياً حراً لترقية العلوم العقلية يجري على مبدأ الثقافة الحرة المطلقة من كل قيد؛ وأنشئت فيه أقسام للتربية والفنون الموسيقية والطب والعلوم والفلسفة. وفي الصيف تلقى في المعهد دروس ومحاضرات دورية من أشهر الأساتذة في مختلف العلوم والفنون فيقبل على سماعها جمهور كبير من الزائرين، ومعظمهم من الإنكليز والأمريكيين والألمان، وقد شهدنا كثيرين منهم حول المعهد وداخله؛ وهنالك على مقربة من المعهد عدة فنادق منزلية تأوي زوار دورناخ، وإلى جانبه فوق الأكمة العالية مقهى أنيق يقصده الرواد والمتنزهون.

وبعد بازل قصدنا إلى تسيريخ (زيوريخ)، وهي اكبر المدن السويسرية وسكانها نحو ثلاثمائة ألف. وتقع تسيريخ على نهر ليمات أحد أفرع الراين عند مصبه في بحيرة (تسيريخ)، ويخترقها نهر ليتام وقد أنشئت عليه قناطر مدرجة لحبس المياه ودفعها بقوة لتوليد الكهرباء؛ وتقع بحيرة تسيريخ في نهاية المدينة شرقا، وهي من أبدع المناظر البحرية التي يمكن تصورها، وتكثر فيها القوارب البخارية المعدة للنزه القصيرة، وكذلك السفن المعدة للحفلات الراقصة؛ ويمتد أكبر شوارع تسيريخ، وهو شارع ' ما بين المحطة والبحيرة، وهو شارع طويل فخم وبه معظم البنوك والمحلات التجارية وإدارات الصحف الكبرى وقد رأينا منها إدارة (جريدة تسيريخ الجديدة) وفي تسيريخ أيضاً جامعة، ومتحف تاريخي كبير، والمدينة على وجه العموم كثيرة النظافة والأناقة تفيض حركة وحياة، غير أننا عانينا بها نفس الغلاء المرهق الذي أشرنا إليه. وقد رأينا في الأيام القليلة التي قضينا في هذه الربوع السويسرية الجميلة من خواص

المجتمع السويسري كل ما يحمل على التقدير والإعجاب، فسويسرا الألمانية بلا ريب من أرقى بقع أوروبا وأعظمها حضارة، والشعب السويسري (الألماني) من أذكى الشعوب الأوربية، وأرفعها ثقافة وخلاقاً؛ فحيثما سرت رأيت أرقى مظاهر النظافة والصحة والعافية، وألفيت الشباب
النضر يتدفق حياة وبهجة؛ وتمتاز الفتاة السويسرية برشاقتها ومظهرها الرياضي ولونها النضر، وجمالها الطبيعي الذي لا تكلف فيه ولا صناعة؛ وفي جميع طبقات المجتمع تسود الرقة والأدب الجم وحسن المعاملة والأمانة؛ ويلقى الغريب كل معاونة وتقدير واحترام؛ واللغة الألمانية هي اللغة السائدة في هذه المنطقة من سويسرا، وهم يتحدثونها بظرف ورشاقة، ولكنك تستطيع التفاهم أيضاً بالإنكليزية والفرنسية والإيطالية في معظم الأحوال
ولقد أنستنا هذه الأيام القليلة الممتعة، وما لقيناه خلالها من شمائل هذا الشعب الرفيع الدمث، ومظاهر حياته وذكائه ونشاطه التي تحمل على الإعجاب، ما لقيناه من متاعب الغلاء المرهق الذي يرجع بالأخص إلى تفاوت سعر النقد، وأنستنا بالأخص كثيرا مما لقيناه في فرنسا وباريس من مظاهر التكلف والخشونة والرياء والجشع، وكل ما هنالك من مظاهر حضارة تؤذن بالانحلال.
. . .!إلى من يسمع
:مقصورة: غلالة
للأستاذ كرم ملحم كرم
عقدنا الأمل الأكبر على المجمع اللغوي المنعقد في مصر، وتوسمنا فيه حافزاً للخروج باللغة العربية عن جمودها وهي البعيدة عن روح العصر، الضيقة المسالكبمستنبطات العلم الحديث، والفسيحة الفجاج بما لنهضة اليوم غُنية عنه. فكان من المجمع الكريم أن خيبنا خيبة فاضحة. فما جاد علينا رجاله الميامين - دفع الله عنهم الخيبة!ـ . . - بكلمة واحدة من الكلمات التي خلقوها أو اشتقوها يجوز الركون إليها. فأتحفونا بالوحشيّ الغريب النافر منه حتى ابن البادية الجاثم بين كثبانه ونخيله، ورمونا بمئات (المستشزرات) ونحن نضيق بواحدة منها.
ألا عفا الله عن الأرزيز والجماز وأخواتهما. فمن يحفظها ويجهد قلمه في إثباتها والذوق نفسه يمجها. أنعتمدها نكاية بالذوق؟
ليعلم المجمع اللغوي السامي المقام أنه كفر بالرسالة المفوض أمرها إليه، فزلت به القدم في الخطوة الأولى. وإذا أبى إلا الصراحة قلنا أن ثقتنا به ذهبت عنا، خصوصاً والمفروض في إنشاء المجامع العلمية اللغوية رفع اللغة إلى مستوى روح العصر، لا التقهقر بها إلى ما بعد عشرات الأجيال، فيتخاطب بها جيل اليوم كما كان يتخاطب بها الأعراب في البادية.
والأعراب أنفسهم نفروا من كل لفظ غريب، فهل يجوز لمن يفاخر أسلافه بكونه ابتدع الطيارة والموّاج والمذياع أن يتكلم بلغة راعي الشويهة والبعير، وضارب خيام الوبر، ومفترش البلس؟
إنها لأضحوكة ـ والمجمع اللغوي في مصر وفر لنا هذه الأضحوكة، وربما شاء بها أن ينفي عنا جهامة الأيام السود. فالشكر له كل الشكر. على أنه كان في وسعه أن يثير فينا روح الإعجاب بدل أن يجرنا إلى الضحك في موقف الجد. فما يدعو رجاله إلى التمسك بالكلام العويص ومجالس الشنفري والملك الضليل والهمذاني وصاحبنا الفرزدق وإمامهم زهير والحطيئة وعمر بن أبي ربيعة ولا غضاضة بجرير؟. . . فهؤلاء ما حشوا أشعارهم بما لا يُفهم من وحشي غليظ، بل جاؤونا بكلام يقال اليوم وغداً وسميعه طروب له راض عنه، لا
يحتاج أبداً إلى القاموس كي يدرك ما يقرأ ويقع في أذنيه. فكأنه وهو يصغي إلى هذا النفر من الشعراء في حضرة خطيب من أبناء القرن العشرين!
وعندنا أن السادة أعضاء المجمع اللغوي الزاهر لو استشاروا أذواقهم لوقعوا على غير هذه المتكأكآت المفرنقعات. ولكنهم حرصوا على الشاذ فرموا أنفسهم بكل شذوذ. وما ضرّهم لو نهجوا نهج الأقدمين في إثبات الكلمات الدخيلة الشائعة علىالألسن والأقلام. وإذا أبوا إثباتها كما هي فليدوروا حولها بما لا تبعد بينهم وبينها الآفاق. فان يروا من الحيف أن نقول (تلفون) و (فونوغراف) و (بيجاما) فما عليهم إلا أن يقاربوا

بين هذه الكلمات وكلمات عربية مشتقة أو أن يخلقوا كلمات جديدة غير وحشية تدل عليها.

أنا لا أرى اللغة تضيق بكلمة (تلفون) وقد فتحت صدرها لمئات الكلمات الدخيلة من فارسية وعبرية وسريانية ويونانية. فكما أثبتت الإسطرلاب والشمعدان والقنديل والورد والدستور والخردق والمنجنيق وما أشبه، في استطاعتها إثبات (تلفون) لاسيما والكلمة شاعت وباتت ملء الأفواه والأسماع. وإذا طاب لأفراد المجمع المحترمين العدول عنها فهناك كلمتا (هاتف) و (ندى) وكلتاهما أفضل من الأرزيز. وليس للمجمع إلا أن يقر إحداهما لتجري عليها الألسن والأقلام في البلاد العربية جمعاء، وهي ترى في المجمع صاحب الكلمة الفاصلة في الموضوع إن يكن ثمة تقدير للصواب والمألوف.

أجل، لم يثبت المجمع اللغوي المصري وجوده. فكان أشبه بإخوانه المجامع التي قامت في سائر البلاد العربية وحاولت أن تخدم لغتها فسقط في يدها وخفت صوتها؛ وهذا من سوء الحظ. فانه ليؤسفنا أن يجول في الخواطر أن المجمع المصري لا يملك الكفاية في القيام بالواجب المفروض عليه، مع أن رجاله متضلعون من علم اللغة، ولكن ما ينفع العلم إذا ندّ عن الذوق؟ . . .

هذه كلمات تجرح - ولا نكير - غير أني أجرؤ على التفوُّه بها فالموقف يقضي بإعلانها، خصوصاً ونحن إزاء حقائق لا تجوز فيها المصانعة ولا المحاباة.

لقد طلبنا من المجمع أن يلجأ إلى قاموس (لاروس) الفرنسي يترجمه إلى اللغة العربية، وكفى الله المؤمنين القتال؛ على أن يترجمه بكلمات غير ثقيلة على السمع ولا مهجورة، فلم ينزل المجمع على هذا الطلب الحق، وكان أن نفحنا بألفاظ مستغربة من مخترعاته يؤلمنا

أن يتوكأ عليها في تشييد مكانته، وهي ألفاظ واهية كالدعامة الوشيكة الانهيار.

ولو أنصفت الحكومة المصرية في اختيار رجال المجمع لنظمت عقدة من فئة مختارة لا من علماء اللغة فحسب؛ بل من أساتذة كل فن. فاللغة مجموعة شاملة لا تقف عند سيبويه ولا عند الكسائي. لا تدين بصلف علماء الكوفة، ولا بعناد أئمة البصرة. فالعصر يدعوها إلى جمع العلوم كافة. ومجمعها اللغوي يجب أن يضم العلماء من أبناء الفنون دون ما استثناء. فيحشد في حلقته المهندسون والاشتراعيون والأطباء والصحفيون والتجار وأرباب الصناعات، ليتفق الجميع على الكلمات المطلوبة لكل فن ومهنة. وهذا ما غاب عن الحكومة المصرية وهي تنشئ صرح المجمع، فشاءت إصلاح اللغة وتهذيبها فكان أن قضت عليها بتقهقر آخر لسنا بحاجة إليه. فالمصيبة الأولى أهون من مصيبة اليوم في (نفثات) المجمع العاطرة.

ولكن المجال لا يزال رحيباً، والمجمع قائم البنيان، ومن السهل التبديل أو الإضافة؛ فيعمد المجمع إلى محو ما رسم، أو إلى خلق ألفاظ جديدة لا تعقد فيها. وبهذه الوسيلة وحدها تتعادل الكفتان، ويثق أبناء اللغة العربية بما يعلن رجال المجمع ويؤيدونه فيما قرّ رأيه عليه؛ وإلا إذا بقيت الحال كما نرى فما على المجمع إلا أن ينسج بيده كفنه، وليس فيما اخترع واشتق كلمة تتداولها الأقلام.

لي على المجمع الكريم اقتراح بسيط، فما َيضرُه لو أقرّ لفظه (مقصورة) لكلمة الفرنجية؟. . . فالكلمة تحوي معنى القصر وفخم لطيف يشبه القصر بعض الشبه. ثم إن كلمة (مقصورة) معناها حجرة، واللغة العربية أجازت تسمية الكل باسم الجزء، عدا أن الكلمة معروفة خفيفة الوقع على السمع، قريبة المتناول، مدعاة إلى التفاخر، غير مهجورة. فمن يقول: (هذه مقصورتي!. . .) كمن يقول: (هذا قصري. . .!) وفي ذلك ما يرضي ذوي المطامع وعشاق الأبهة

ولقد تفضل المجمع فأطلق كلمة (ظظر) على الفرنجية فما معنى (ظظر) أيها المجمع المحترم؟. . . وهب كان لها معنى فمن يتلفظ بها وهي ثقيلة كالرصاص، على حين أن كلمة (مقصورة) لطيفة شائعة، تسرع إلى اقتباسها الألسن والأقلام؟

وهناك كلمة فماذا يحول دون تسميتها بالغلالة، والغلالة شعار يلبس تحت الثوب، فهل ما يمنع أن تكون الغلالة

اقترح على المجمع إثبات هاتين الكلمتين في قاموسه، وإذا استزادنا زدناه، وإن أبى العمل باقتراحنا طلبنا إلى حملة الأقلام أن يتناولوا اللفظين فيما يكتبوه ويتحدثون به

وليس فيهما شائبة
ولا يغضب المجمع أن يتصدى لانتقاده كاتب يغار على لغته ويريد لها النهوض والسير في ميدان العصر الفسيح والخروج من فقرها اللغوي في عهد المنطاد والسيارة والصاروخ. فهي لا تزال تعيش بذهن عتيق مثلها يوم كان البعير لديها أشبه بالطيارة، والسهم كالمدفع، والنار في رؤوس الجبال كالمذياع والمواج.
لقد عرف الشيخ إبراهيم البازجي كيف يحضر اللغة بما وفر لها من كلمات مستحدثة تماشي الذوق والعصر، أيخلو المجمع من مثيل للرجل العلامة وكلٌّ ينادي نفسه نعم الفتى؟. . .
نحن نخاطب من له أذنان وعينان. فليسمع المجمع اللغوي المصري الرفيع العماد!
بيروت
كرم ملحم كرم
قصة المكروب كيف كشفه رجاله
ترجمة الدكتور أحمد زكي
مدير مصلحة الكيمياء
وسطاء شرّ أبرياء
هذه قصة ثِيُوبُلْد اسميث. قصة الرجل الذي قاد الإنسانية فمالت معه حيث مال إلى طريق جديد طلع عليها بأمل جديد. كان أولَ أمريكي سبق إلى كشف المكروب، ولم يلحق بغباره إلى الآن منهم لاحق. أخذ يتشمّم الأرض يطلب غاية، ويستتبع أثراً يقود إلى عين، وأفاد في تتبعه هذا من رأى رآه الفلاحون، وظِنّة قال بها بسطاء المزارعين، فلم يلبث بواسطتها أن أطّلع من بحوثه على كل عجيبة غريبة. فهذه القصة ستنبئك بالذي اطّلع عليه اسميث، وبالذي وجده من بعده من تعقّبوا آثاره.
هكذا قال (أن في استطاعة الإنسان أن يمحو كل داء وبئ من على وجه الأرض). بستور وبهذا تنبّأ وهو مفلوج بعد نُصْرته المعهودة على داء دودة القزّ التي أكسبته ذكراً وأنالته مجداً. ولعلك تذكر بأية قوة وأية حرارة ألقى هذا الأمل في الناس، حتى لحسبوا أن الداءات المعْديات لا يهلّ عليها العام القابل أو على الأكثر الذي يليه حتى تكون خبراً يُرَوى. واطمأن الناس لقوله واستبشروا وأخذوا يرقبون ما تأتي به الأيام. . .
وأخترع بستور الألقحة فهتفوا له عالياً، وكانت هذه الألقحة لا شك بدائع عجيبةً رائعة، ولكنك لا تستطيع القول أنها كانت لاستئصال المكروب من على ظهر البسيطة. وجاء من بعد بستور كوخُ فأدهش الناس وأفزع عندما لعب بجرثومة السل المخُوفة حتى وجدها. ولم يكن كوخ أسرف في وعوده، ولكن وعود بستور كان صداها يرن في الآذان، فرفع الناس أبصارهم إلى كوخ ينتظرون امّحاء السلّ على يديه. وجاء رو، وجاء بارنج، واشتبكا والدفتريا في معركة حامية دامية دامت سنين، هَدْهدت أثناءها الأمهات أطفالهن المناكيد، وغنّتهم أغاني آملةً، راجيةً تَعِلّةً ومصابرةً عسى يسبق العلمُ بالشفاء أيامَهم الباقية المعدودة. وجاء متشنيكوف، ومن الناس مَن ضحك منه، ولكن حتى هؤلاء أضمروا في الخلفاء أملاً قليلاً علّ الأقدار تُتيح له برغم ثرثرته أن يُعلّم فاجوساته أكل جراثيم الأرض جميعاً
نعم أخذت وطأة الأمراض لسبب مجهول تخف على ما أحسِب، ولكن لم يظهر عليها أنها تنوي الرحيل وتستعجل الفراق الذي أمّله الناس، فخاب ظنهم وظلّوا على أملهم يرتقبون
ولم يطل ترقّبهم، فالزمان الذي يجود بالرجال الفينة بعد الفينة جاد لهم وهم في أزمتهم هذه برجل جديد شاب، اسمه ليوبلد إسميث ظهر في أمريكا في أوائل عشر السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر؛ وحكاية ذلك أن الأبقار في شمال أمريكا الشمالية كانت تُرسل جنوباً فلا تلبث أن تستقر هناك حتى تأتيها حُمىّ تعرف بالتّكساسية فتمرض وتموت. وكذلك كانت تُرسَل الأبقار من الجنوب إلى الشمال وهي صحيحة سليمة فكانت كأنما تبذر على أرضه حيثما وطئت بذوراً للموت تفتك بالأبقار الشمالية فتكاً ذريعاً. فجاء اسميث وفسر هذا وهذا، وكتب في عام 1893 تقريراً بيّناً كشف للناس فيه سر هذه الظاهرة الغامضة، وسلك به أقوم الطرق وأخصرها، ولم يكن فيه طنطنة ونفخ أبواق، وهو لا يُشتري الآن لنفاد طبعته. فهذا التقرير أوحى إلى قُنّاص المكروب الذين أتوا من بعده بالشيء الكثير. فأوحى بفكرة بديعة إلى الفخور

الصخاب دافيد بروس وبلمحات من اقتراحات نافعة إلى باتريك منسون ومسَّ بقبَسه رأس العبقري الطلياني الغضوب جراسي فجرت النار في أفكاره اشتعالاً. والأمريكي ولتر ريد ملأه هذا التقرير ثقة، وملأ كذلك رجاله الأبطال من عساكر وضباط، فقاموا بمغامراتهم الخطيرة في اطمئنان كبير، ورفضوا زيادة في الرواتب وآثروا عليها الشهادة والتضحية في سبيل العلم.

فأي رجل كان إسميث هذا الذي يجهله الأمريكيون إلا آلافا قليلة؟ وكيف أن كشفا له عن مرض في بقرة استطاع أن يحرّك في البشر كل هذه الآمال والأحلام؟ وما منطق الريفيين هذا الذي ابتدأ به اسميث فحققه وأثبته، والذي من جرّائه استطاع أن ينير للبحاث من بعده الطريق التي يسلكونها ليحققوا بها أمل البشرية المنشود، ووعدها الأكبر الخلوب الذي وعدها إياه بستور؟

في عام 1884 كان إسميث في نحو الخامسة والعشرين من عمره، وكان نال درجة بكالوريوس في الفلسفة من جامعة كُرنيل وكان نال درجة دكتور في الطب من كلية أَلْبَنِي ولكنه كره أن يقضي حياته في تشخيص أمراض يلبس لها وجهَ الجادّ العابس وهو يعلم أن لا رجاء في شفائها، وأن يُذبل زهرة أيامه في بذل الطمأنينة والسلوى والكلام الحلو الراجي لمرضى بني الناس عوضاً عن بذل العلاج الناجح الذي لا يعرف له وجودا. واختصاراً تراءى له الطب والطِّبابة أنهما عمل مهوّش لا يستقيم مع العقل السليم. وأحب أن يضرب في المجهول قليلاً ليعلم من خفاياه قدراً يستطيع حمله فلا ينوء به ظهره، أو يُتخَم به عقله. كان طبيباً ولكنه شاء برغم هذا أن يكون باحثاً، ورغب بخاصة إلى دراسة المكروب. وكان قد عُنِي وهو في كُرنيل باللعب على الأرغون، لَعِبَ عليه المزامير وقطعاً من بيتهوفن (ولم يكن جاء زمن الجازباند). وفي كرنيل في جامعتها عبّ عبّة طيبة من الرياضيات ومن علم الفيزياء ومن اللغة الألمانية، وبخاصة أشتد ميله إلى النظر في المكرسكوبات، ولعله عندئذ نظر أول مكروبة رآها.

ولكنه لما جاء مدرسة الطب في ألْبَني لم يجد في أساتذتها اهتمامابالمكروبات، فلم يكن هذا العهد يَعْمدون في شفاء الأمراض إلى قتل الجراثيم. ولم يكن في المدرسة برنامج لدراستها، بل لم يكن في أي مدرسة طبية بأمريكا شيء من هذا، وأراد أن يتعلم علم الجرثوم برغم كل هذا، وكان لا يأبه لألوان العرفان التي كانت تتعاطاها الجمهرة من طلاب الطب، وكان يحتقر التخرّصات والأكاذيب التي يسبلون عليها رداء العلم. وأشبع هَوِيَّته يبحث أحشاء القطط بحثاً مكرسكوبياً، ونشر أول رسالة له في ذلك، وفيها أبان اختلافاً للطبيعة خرجت بها في أعماق بطون القطط عن المألوف الذي درجت عليه في سائر الأحياء، وعلق عليها حواشي دلّت على الفطنة وحدة في الذهن شديدة، وكانت أول عمل دخل بفضله في زمرة البحّاث.

ونال درجته الجامعية، وأراد أن يتخذ التجريب العلمي صناعته، ولكن تحتّم عليه قبل ذلك وفوق ذلك أن يرتزق ليعيش. وكان في هذا الوقت كثير من أطباء أمريكا الأحداث يتسابقون إلى أوروبا، إلى الأستاذ الكبير كوخ يودون أن تتاح لهم الفرصة ليقفوا وراء ظهره، ويتعلموا من فوق كتفه كيف يصنع البِشلاّت وكيف يُربيها صريحة، وكيف يضربها بالمحاقن تحت جلود الحيوانات، وكيف يستطيعون من بعد ذلك أن يتحدثوا عن المكروبات حديث الخبير الضليع. ورغب إسميث أن يتبعهم، ولكن تحتم عليه أن يبحث عن وظيفة ليعيش. ورحل هؤلاء الأطباء الشبان الأثرياء إلى أوروبا، وبينما هم يأخذون من العلم الجديد بمبادئه الأولى، وبينما هم يوشكون من أجل ذلك أن يقعوا على مناصب أستاذيات في العلم هامة، وقع إسميث على وظيفته التي طلب. وكان منصباً وضيعاً هذا الذي ناله؛ ومن وجهة العلم لم يكن منصباً محترماً، فقد تعين في مكتب إصلاح الماشية والحيوان بواشنطن ولم يكن عندئذ إلا مكتباً صغيرا حقيرا فقيرا لا يكاد يأبه له أحد. وكان في المكتب من المستخدمين ثلاثة غير اسميث، وكان على رأسهم رجل طيب يُدْعى سلمون كان كثير الاهتمام بما عسى أن تصنعه الجراثيم من السوء للأبقار، مؤمناً شديد الأيمان بخطر البشِلاّت على الخنازير، ولكنه جهل كل الجهل كيف يتصيد المكروبات التي تعيث في هذه الماشية الثمينة. وكان في المكتب السيد كلبورن وكان يحمل درجة بكالوريوس في الزراعة ويغتبط بها، وكان يعرف بعض الشيء في

البيطرة، وهو الآن يتاجر في الصيني وما إليه بمكان قريب من نيويورك. وكان ثالثَ الثلاثة في المكتب رجلٌ جسيم مَهيب عتيق أسود كان عبداً فأُعتق، وكان أسمه اسكندر، وكان يجلس حيثما جلس رزينا وقورا ساكنا حتى يُحرَّك، فيقوم إلى القّنينات القذرة فيغسلها، أو إلى الخنازير الغينية فيُعنى بها.

وبدأ اسميث في صيادة المكروب في حجرة في ذروة بيت حكوميّ أضاءها شباك واحد مفتوح في سقف البيت. بدأ في صيادة المكروب، فبدأ عمله الأوفق الذي هيأته الطبيعة له. وجاءته هذه الصيادة سلسلة منقادة فكأنما ولدته أمه وبيمينه مِحقَن وبفمه عود من البلاتين. وعلى الرغم من أنه خريج جامعة فقد كان يقرأ اللغة الألمانية قراءة جيدة، فكان في الليل يعتكف إلى دراسة ما صنع كوخ من المكروبات وصار يعبّ من مآثره العلمية المجيدة عباً. وكان كالبُطَيطة نزلت في الماء لأول مرة. فأخذ يفعل بالتفصيل كل ما فعله كوخ من قبله ويقلده تقليداً ويتبع طرائقه اللبقة في تربية الجرثوم واقتناص البشلات وتلك الخلائق العجيبة الأخرى التي تسبح في الماء انفتالا كأنما هي بَريمة الفلين جرت فيها الحياة. قال: (إن كل ما صنعت مرجعه إلى كوخ)، وتصور كوخ في بعده وعبقريته شيئاً سماويا قدسيا.

وعَمِل في حجرته السقفيّة بلا هوادة ولا حسبان لضعف جسمه، وقام على صيادة المكروب كل يومه وطرفا من ليله. وكانت له أنامل دقيقة متّزنة كأنامل الموسيقى فساعدته على غَلْي الأحسية فندر انكبابها في يديه. وكانت إلى جانب حجرته حجرة أخرى يُختزن فيها المتاع الخسيس، وكان يخرج منها إليه قُطُر من الصراصير لا تنقطع فيتلهى في أوقات فراغه

بدقّها. وفي وقت قصير بالغ القصر علّم نفسه كل ما يتطلبه البحث، ثم بدأ يكتشف الكشوفات على حذر، فاكتشف لقاحا غريباً مأموناً، لا يحتوي على البشلات نفسها، ولكن على عصاراتها الزلالية التي تُبتزّ منها اعتصارا وترشيحا. واشتد الحر في غرفته فزاد على حر المدينة وهي جهنم الحمراء، ولكنه احتمل هذا ومسح العرق المتقطّر من أنفه، وظل يعمل على أسلوب كوخ الأدقّ الأحذر، ونبا به طبعه عن أسلوب بستور الأخشن وطرائقه الفضفاضة.

(يتبع)

أحمد زكي

شخصية ناقدة يهملها النقد العربي

نقد ابن أبي عتيق

(تتمة ما نشر في العدد الماضي)

للأستاذ خليل هنداوي

ذكر شعر الحارث بن خالد وشعر عمر عند ابن أبي عتيق في مجلس رجل ففضل الرجل شعر الحارث. فقال ابن أبي عتيق: بعض قولك يا ابن أخي! لشعر عمر نوطة في القلب، وعلوق بالنفس، ودرك للحاجة ليست لشعر. وما عصى الله بشعر أكثر مما عصى بشعر عمر أشعر قريش، من دق معناه، ولطف مدخله وسهل مخرجه، ومتنحشوه، وتلطفت حواشيه، وأنارت معانيه، وأعرب عن حاجته. وذكر الرجل المفضل أبياتا للحارث ينعت بها الطلل:

إني وما سخروا غداة مني ... عند الجمار يؤودها العقل

لو بدلت أعلى مساكنها ... سفلاً، وأصبح سفلها يعلو

فيكاد يعرفها الخبير بها ... فيرده الأقواء والمحل

لعرفت مغناها بما احتملت ... مني الضلوع لأهلها قبل

فقال له ابن أبي عتيق: (استر على نفسك واكتم على صاحبك، ولا تشاهد المحافل بمثل هذا! أما تطير الحارث عليها حين قلب ربعها فجعل عاليه سافله. ما بقي إلا أن يسأل الله تبارك وتعالى لها حجارة من سجيل) فتأمل ما ألطف هذا المأخذ، وصاحب هذه الأبيات - في الحقيقة - قد سار إلى غاية شريفة من معناه. ولكن المبالغة أفسدت عليه غايته؛ وإن معرفة الدار وإظهاره الشوق لأهل الدار لا يحتاجان إلى قلب العالي أسفل والسافل أعلى؛ وإن في هذا نذيراً أدنى إلى الشؤم منه إلى إظهار الشوق. ولعن الله شوقاً لا يثبت نفسه إلا على الركام والخراب!

ولقد كان يقحم شعر عمر بنقده - على رغم الصداقة - ويضربه في الصميم. ألم يسمع

عمر يقول:
بينما ينعتني أبصرنني ... دون قيد الرمح يعدو بي الأغر
قالت الكبرى أتعرفن الفتى ... قالت الوسطى: نعم هذا عمر
قالت الصغرى تيمتها ... قد عرفناه! وهل يخفى القمر؟
وعمر في هذه البيات قد شغل الثلاثة به ودلههن بحبه.
فقال له ابن أبي عتيق: أنت لم تتشبب بها، وإنما تشببت بنفسك، وإنما كان ينبغي أن تقول: قلت لها فقالت لي فوضعت خدي فوطئت عليه.
وأنشد نصيب الأسود قوله:
وكدت، ولم أخلق من الطير إن بدا ... لها بارق نحو الحجاز أطير
فسمعه ابنأبي عتيق فقال له: يا أبن أم: قل (غاق) فانك تطير، وأراد بذلك أنه لا يكون إلا غراباً أسود، ولا يكون الغراب إلا نذيراً بالويل. وهكذا تنبه الناقد بعقله إلى شيء لم يتنبه إليه الشاعر بفنه.
وأنشد ابن جندب قول العرجى لأبن أبي عتيق في جاريته:
وما أنس م الأشياء لا أنس قولها ... لخادمها، قولي اسألي لي عن الوتر
فقالت: يقول الناس في ست عشرة ... فلا تعجلي منه فانك في أجر
فما ليلة عندي وإن قيل جمعة ... ولا ليلة الأضحى ولا ليلة الفطر
بعادلة الاثنين عندي، وبالحرى ... يكون سواء منهما ليلة القدر
فقال ابن أبي عتيق - وقد راعه هذا التكلف - أشهدكم أنها حرة من مالي إن جاز ذلك أهلها. هذه والله أفقه من ابن شهاب! وليتنا نعلم شيئاً عن ابن شهاب الذي حشره الناقد حيث لا يحشر!
وقد يتأمل ابن أبي عتيق في مواقع الألفاظ ويتبين مواضعها، فيقول مثلاً عندما يسمع قول قيس بن الحطيم:
بين شكول النساء خلفتها ... حذواً، فلا جبلةٌ ولا قضف
لولا أن أبا يزيد قال (حذواً) ما درى الناس كيف يحشون هذا الموضع.
ويسمع عتيق ابن قيس يقول: (سواء عليها ليلها ونهارها) فيقول له: كانت هذه يا ابن أمٍّ فيما أرى عمياء، فما يستوي الليل والنهار إلا على عمياء. فقال ابن قيس: إنما عنيتُ التعب.
قال: فبيتك هذا يحتاج إلى ترجمان يترجم عنه، وما عسى يكون قدر البيت إذا كان لا يُفسر إلا بترجمان!
وأنشد كثير ابن أبي قوله:
ولست براضٍ من خليل بنائل ... قليل ولا أرضى له بقليل
فقال ابن أبي عتيق: هذا كلام مكافئ ليسٍ بعاشق، القرشيان أقنع وأصدق منك: عمر حيث يقول:
ليت حظي كلحظة العين منها ... وكثير منها القليل المهنا
وحيث يقول:
فَعِدِى نائلاً وإن لم تنيلي ... إنه يقنع المحب الرجاء
وابن قيس الرقيات حيث يقول:
رُقيَّ! بعيشكم لا تهجرينا ... ومنينا المنى ثم امطلينا
عدينا في غد ما شئت إنا ... نحب - وإن مطلت الواعدينا
فأما تنجزي عدتي وإما ... نعيش بما نؤمل عنك حينا
وهكذا أفسد على كثير فكرته بنظرة نفسية عميقة لأن المحب الحقيقي الذي يتلهب ويتقلب على جمر من حبه لا يقول لمحبوبته إذا عرضت له: إليك عني فأني لا أرضى بالقليل، وإنما يتمنى قول عمر: (ليت حظي كلحظة العين منها) ويخلق الله بعد هذه اللحظة لحظات.
قال كثير لأحدهم - وكان مديوناً - اذهب بنا إلى ابن أبي عتيق نتحدث عنه فذهب إليه معه، فاستنشده ابن أبي عتيق قوله:
أبائنة سعدى؟ نعم ستبين
حتى بلغ قوله:
وأخلفن ميعادي وخُن أمانتي ... وليس لمن خان الأمانة دين

فقال ابن أبي عتيق: ويلك هذا أملح لهن وادعى للقلوب إليهن. سيدك ابن قيس الرقيات كان اعلم منك وأوضع للصواب موضعه فيهن. ألم تسمع قوله:

حبذاك الدل والغنج ... والتي في عينها دعج
والتي إن حدثت كذبت ... والتي في وعدها خلج
وترى في البيت صورتها ... مثلما في البيعة السرج
خبروني هل على رجل ... عاشق في قبلة حرج؟

وهكذا أدرك ابن أبي عتيق من نفس المرأة ما لم يدركه كثير، وأدرك أن مثل حب كثير العذري لا يستطيع أن يدخل إلى أعماق نفوس النساء لأنه حب مقتول بالإعجاب لا يرى حيث حل إلا نفسه! ومثل عمر وابن قيس وأمثالهما ممن يقعون كل يوم على امرأة يدركون ما يعجب المرأة وما تزدريه، ويفهمون تقلبها وقيمة وعودها، ولكن عتيقاً أهمل هذه المرة النظر إلى البيت الأخير في هذه القطعة حيث أخذ الشاعر يستفتي الناس في قبلة، وقد علم أن مثل هذه الفتوى باردة وأبرد منها هذا الاستفتاء الذي هو أدنى إلى الفضيحة والتهتك منه إلى العفة والتستر. وما على صاحبه إلا أن يردده في أحد المساجد ويناقش فيه أصحاب الفتاوى

وأنشد أبو أذينة مرثيته لأخيه بكر:

سرى همي وهم المرء يسرى ... وغار النجم إلا قيد شبر
أراقب في المجرة كل نجم ... تعرض في المجرة كيف يجري
بحزن ما أزال له مديما ... كأن القلب أسعر حر جمر
على بكر أخي ولى حميداً ... وأي العيش يحسن بعد بكر

فضحك ابن أبي عتيق وقال: كل العيش يحسن حتى الخبز والزيت. فآلم تهكمه أبا أُذينة وحلف لا يكلمه أبداً. وهذا هو الموقف الوحيد الذي خرج فيه شاعر متأذيا من ابن أبي عتيق.

وهناك مواقف متعددة تبدى لنا عطفه على رجال الفن؛ فلقد كان يمتزج بهم ويحس إحساسهم.

سمع عمر يقول:

كان ذا في مسيرنا إذ حججنا ... علم الله فيه ما قد نوينا

فقال له ابن أبي عتيق: إن ظاهر أمرك ليدل على باطنه فأورد التفسير، ولئن مت لأموتن معك. أف الدنيا بعدك يا ابن الخطاب! فقال عمر: بل عليها بعدك العفاء يا أبا محمد!

ولقد كان فيه حدب خاص على المحبين. وإن له مواقف كثيرة كان يقوم فيها بوصل المنقطع من حبال المودة كما فعل مع عمر، وكان رسوله إلى الثريا. وكما فعل مع نصيب، وقد توسط بينه وبين سعدى محبوبته. ولعل هذا الموقف يبدي لك غيرة ابن أبي عتيق على رجال الشعر والغناء والعمل على نصرهم. وهذا الموقف يبديه لنا رجلاً قوياً حاد الطبع قوي الشكيمة مفتول العضل. رأى ابن أبي عتيق حلق ابن عائشة مخدشاً فقال: من فعل بك هذا؟ قال فلان. فمضى فنزع ثيابه وجلس للرجل على بابه، فلما خرج اخذ بتلبيبه وجعل يضربه ضرباً شديداً والرجل يقول له: مالك تضربني؟ أي شيء صنعت؟ وهو لا يجيبه حتى بلغ منه ثم خلاه وأقبل على من حضر فقال: هذا أراد أن يكسر مزامير داود! شد على ابن عائشة فخنقه وخدش حلقه.

والآن أرجو أنني وفقت في الكشف عن شخصية جديدة في تأريخ النقد العربي، وأرجو زملائي كتاب (الرسالة) أن يعملوا على جمع شوارد هذا الرجل، وأرجو أن تتولى (الرسالة) نشر ما يأتيها عنه وما تقع عليه. فربما استطعنا أن نؤلف من هذه الشوارد حياة الرجل وحياة الناقد، لأن لنقده تأثيرا أكبر مما ذكرنا في توجيه أدب عصره. وإنما أدبنا لا يزال فقيراً إلى رجلين: المؤرخ والأديب. فليعمل المؤرخ عمله يعمل الأديب عمله أيضاً

(دير الزور)

خليل هنداوي

الكلب والديك

في كتاب (الحيوان) للجاحظ

بقلم محمد طه الحاجري

يعرف كل قراء الجاحظ تلك الخصومة الحادة العنيفة التي أثارها أبو عثمان، في أول كتابه الحيوان، بين الكلب والديك، وتلك المناظرة الطويلة المسترسلة المفتنة شتى الأفانين، والذاهبة في شتى مذاهب الكلام بين صاحب هذا وصاحب ذاك؛ دون أن يكون بينهما - في حقيقة الأمر - خصومة، أو سبب يدعو إلى المناظرة، وإنما هي عبقرية الجاحظ التي لا تفتأ تبدع وتبتكر، وأسلوبه المتدفق الذي لا يألو يشقق الكلام ويولد المعاني والصور. ذلك الظن السائد نلجأ إليه كثيراً في تفسير مثل تلك المناظرة الغريبة. ولكني أحسب أن الأمر بين الكلب والديك أعجب من أن يكتفي في تفسيره بتلك الصفة الغالبة، والنظرة العاجلة المقاربة.

فلقد أطنب الجاحظ في تلك المفاضلة إطناباً غريباً، حتى كسر عليها جزءين كبيرين من كتابه، لعلهما يقربان من ثلثه؛ ثم كأنه لم يكتف بذلك، فترى حديث صاحبه الكلب وحديث مناظره صاحب الديك يتخللان الأجزاء الأخرى.

ثم إن هذه المفاضلة غريبة أيضاً في كتاب الحيوان، فقد سار الجاحظ في أبواب الكتاب التي تلي ذلك الباب على منهج غير ذلك المنهج، فليس إلا وصف الحيوان، وبيان عاداته وطبائعه، ومزاياه ومساوئه، ورواية النوادر عنه، والآثار الأدبية التي تدور حوله، وحكاية كلام بعض علماء الحيوان والمعنيين بأمره، مثل أرسططاليس وأقليدون، دون أن يعرض للمفاضلة بين هذا الحيوان وذاك، إلا قليلاً لا نكاد نلحظه. فالأمر بين الكلب والديك إذن ليس متمشياً مع طريقة الجاحظ في الكتاب عامة، فما الذي جعله يميزه من غيره، ويسلك فيه أسلوباً على حدة

وأخرى لا سبيل إلى الإغضاء عنها، وهي وجه اختيار هذين الحيوانين بالذات ليكونا موضعاً للمقارنة والموازنة والمفاضلة وما من سبب، فينا يبدو، يجمع بينهما، أو يدع سبيلاً للتنظير والتفضيل. ولعل السبيل بين الضب والنون أو بين الملاح والحادي كما يقول البلاغيون أكثر استقامة مما هو بين الكلب والديك. ولو أن الجاحظ يريد المقارنة وحدها،

والمقابلة بين خلقيهما، لكان ذلك مستساغا؛ أما أن يجعلهما خصمين، وينصب لكل منهما صاحباً يهاجم باسمه، ويدافع عنه، ويناضل دونه، دون أن يكون بينهما جامعة طبيعية إلا جامعة الحيوانية، فأمر لا نستطيع أن نصفه إلا بالغرابة. فهلا ناظر بين الفيل والبعير، أو بين الثعلب والذيب!!

ورابعة تلفت نظرنا، وتثير دهشتنا، وهي ما أشار إليه في أول كلامه من أن هذه المناظرة كانت تثور بين شيخين من علية المتكلمين، ومن الجلة المتقدمين، فما للمتكلمين ولهذا؟ وما شأن الكلب والديك في الكلام على الصفات والقدر، أو المناظرة بين النار والمدر؟! لسنا ننكر أن من أول ما كان يعنى به المتكلمون، وخاصة المعتزلة، بيان دقائق صنع الله في الكون، وحكمة الله في الخلق، على نحو ما في رسالة (الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير) لإمامنا الجاحظ. فهل نستطيع أن نفهم أن تلك المناظرة إنما كانت تأخذ هذه السبيل وتتجه إلى تلك الغاية؟ إن من العسير أن نقنع أنفسنا بهذا في مثل ذلك الذي صوره الجاحظ بين الكلب والديك. وإذا أجزنا ذلك بوجه من الوجوه فأنا نتساءل مرة أخرى: ما بالهم لم يختاروا من جميع الحيوان موضوعا لهذه المناظرة إلا ذينك الحيوانين - على ما في المفاضلة بينهما - فاقتصروا عليهما، ولم يعدوهما؟

فالمسألة كما يرى القارئ الكريم غامضة، لا يكفي في بيانها ذلك التفسير العام المبهم الذي يفسر به أسلوب الجاحظ جملة واحدة.

إن ذهناً دقيقاً كذهن الجاحظ مارس الفلسفة وأساليب المتكلمين، حتى صار رأساً لطائفة من المعتزلة تدعى باسمه، ليس من القريب احتماله أن يأخذ في الكلام اعتباطاً، فيناظر بين الكلب والديك وليس بينهما وشيجة أو سبب. فإذا كنا لا نرى بينهما صل ذاتية، فلا بد أن تكون بينهما صلة أخرى خارجية، هي التي مهدت السبيل للمناظرة، فما هي هذه الصلة وأين نلتمسها؟

هل هناك صفات أضيفت إلى الكلب تقابل صفات أخرى أضيفت إلى الديك بحيث يكونان متناظرين؟ أما أننا يجب أن نتلمس ذلك تلمساً في روح العصر الذي كتب فيه الحيوان، وفي التيارات الاجتماعية التي كانت سائرة فيه، وفي الآثار الأدبية التي بقيت لنا حول هذين الحيوانين.

وإذن فأنا أزعم أن هذه المناظرة بين الكلب والديك كانت صدى من أصداء تلك الحالة الاجتماعية الشديدة السلطان في العصر العباسي، والتي أخذت تتغلغل في المجتمع الإسلامي منذ أوائل القرن الثاني، وبلغت عنفوانها في عصر الجاحظ وأعني بها تدافع العنصرين العربي والأجنبي على التأثير في الحياة مما أنتج تلك الخصومة العنيفة بين العرب والشعوبية، تلك الخصومة التي جعلت تمتد وتنتشر وتغمر الجو هنا وهنا حتى لم يخلص من سطوتها ذانك الحيوانان المسكينان، لأن إحداهما كان يضاف إلى العرب والآخر كان يضاف إلى العجم. فالعرب كانوا في نظر الفرس قوماً جفاة غلاظاً رعاة إبل وغنم؛ الكلب أصدق أصدقائهم، وألصقصاحب بهم، وأعز رفيق لديهم، وهو ما هو ضعة شأن وهوان منزلة وخبثاً ولؤماً وقذراً ودناءة. والفرس في نظر العرب كانوا قوماً أنباطاً أصحاب قرية، قد أخذتهم طبيعة حياتهم بالاستكانة والذلة، فلا كرم ولا نجدة ولا أريحية، كل ما لهم الدجاج والديكة، تمثل ضعفهم، وتبرز بخلهم وضيق حياتهم. وهكذا أخذت الخصومة بين العرب والشعوبية مظهراً طريفاً من الخصومة بين الكلب والديك والتنابذ بينهما.

وهنا يجئ دور المتكلمين الذين أشار إليهم الجاحظ، ونحن نعرف عنهم أنهم لم يساهموا في هذه العصبية، وإن نسب المسعودي إلى طائفة منهم شيئاً منها، فرد عليه الأستاذ الكبير أحمد أمين في الفصل الذي كتبه عن الشعوبية في كتابه (ضحى الإسلام)، فأرادوا أن يحولوا تيار هذه الخصومة العصبية إلى ناحيتهم، وأن يصبغوها بصبغتهم، وأن يجعلوا من هذه المناظرة سبيلاً من سبلهم إلى بيان حكمة الله في المخلوقات، ودقائق صنعه في الكائنات. ثم جاء الجاحظ فأخذ هذه المناظرة وجعلها باباً في كتابه، فأفاض فيها وتدفق، وجمع فيها بين الكلام والحكمة والأدب على طريقته.

هذه صورة المسألة كما ثبتت لدينا، ولا تكلف فيها ولا تعسف، وإن بدت في أول الأمر غريبة. فأما أن الشعوبية كانت تعيّر العرب باتخاذ الكلاب فأحسبه مما لا نزاع فيه، فقد كانت لا تفتأ تتجنى على العرب المساوئ والمعايب، ولعل في هذا القول الذي يرويه الجاحظ عن بعض المتعصبين على العرب ما يدلنا إلى أي حد كان تجنبهم. قال الجاحظ: (وزعم لي سلمويه وابن ماسويه مطيّب الخلفاء أنه ليس على الأرض جيفة انتن نتنا ولا أثقب ثقوباً من جيفة بعير، فظنت أن الذي وهّمهما ذلك عصبيتهما عليه، وبغضهما لأربابه).

أما الديك فكان عند العرب من أظهر ألوان الحياة الفارسية، فهم دائماً يضيفونه إلى العجم. ومن ذلك قول الشاعر:

لعمري لأصوات المكاكي بالضحى ... وسوء تداعي بالعشي نواعبه
أحب ألينا من فراخ دجاجة ... ومن ديك أنباط تنوس غباغبه

وعن قتادة أن أبا موسى الأشعري قال:

(لا تتخذوا الدجاج في الدور فتكونوا أهل قرية) ويفسر الجاحظ هذا بأن الديك من خصائص الحياة المدنية، وكان ولاة العرب حريصين على أن يظلوا عرباً، وأن يحتفظوا بمواهبهم الحربية التي لا تلبث أن تضعف فيهم، ثم تتلاشى منهم، إذا هم ركنوا إلى حياة القرى، فاتخذوا الديكة التي هي منأبرز مظاهرها.

وهكذا نرى أن الصلة وثيقة بين العجم والديك بقدر ما هي وثيقة بين العرب والكلب، وأن كلا منهما يعتبر من خصائص الحياة الاجتماعية لذويه، وأن العرب كانوا يكرهون الديك وينفرون منه بقدر ما كان الفرس يمقتون الكلب ويسخرون من أصحابه.

وهناك دليل آخر على ما أسلفنا من أن الديك كان شديد الصلة بالأعاجم فيما يرى العرب، حتى كان يرمز في العقل العربي إليهم، وهو - فيما نحسب - دليل قوي، لأنه يجئ من عالم الأحلام، ومجالها العقل الباطن فيما يذهب إليه المحدثون من الباحثين. ذلك هو ما حكاه الدميري في كتابه (حياة الحيوان الكبرى) قال: (روى مسلم وغيره أن عمر رضي الله عنه خطب الناس يوماً فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إني رأيت رؤيا لا أراها إلا لحضور أجلي، وهي أن ديكاً نقرني ثلاث نقرات، فحدثتها أسماء بنت عميس، رضي الله عنها، فحدثتني بأن يقتلني رجل من الأعاجم) وهناك رواية أخرى للحاكم ليست فيها أسماء بنت عميس: (قال على المنبر رأيت في المنام كأن ديكاً نقرني

ثلاث نقرات فقلت أعجمي يقتلني) ثم إنه مهما تكن قيمة هذه الرواية فان تأويل الديك بالأعجمي يدل وحده دلالة صريحة على ما ذكرنا. ويضاف إلى هذا ما حكاه ابن سيرين من أنهم كانوا يؤولون الكلب الأسود بالعربي. وإذن فقد تم الأمر من وجهيه، وتضافرتالدلائل على أن ذلك الغرض الذي افترضناه قريب لا تكلف فيه ولا تعسف.

على أن هذا الغرض - فوق تفسيره لموقف الجاحظ - يفسر لنا طائفة من الأحاديث الموضوعة، لم نفهم من قبل السر في وضعها، والعناية بصنعها، فنحن نعرف كيف كانت الطوائف المختلفة تجتهد في وضع الأحاديث ونسبتها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، لتأييد مذاهبها، ونشر الدعاية لمبادئها، ومثل هذه الأحاديث نستطيع في غير عنت أن ندرك السر في وضعها. أما تلك المجموعة من الأحاديث التي نحن بصددها فيبدو في بادئ الرأي أن وضعها كان عبثاً ولهواً وسخرية، وإلا فما ظنك بهذه الأحاديث التي وضعت عن الديك، ووضعته في صف الملائكة المقربين. كذلك الحديث الذي ذكره صاحب التهذيب، في ترجمة البزي - وقد قال عنه إنه ضعيف الحديث - وهو: (الديك الأبيض حبيبي وحبيب حبيبي جبريل، يحرس بيته وستة عشر بيتاً من جيرانه) أو ذلك الحديث الآخر: (ثلاثة أصوات يحبها الله تعالى: صوت الديك، وصوت قارئ القرآن وصوت المستغفرين بالأسحار). أو ذلك الحديث الثالث الذي يعتبر بدعه فنية خليقة بالخيال الفارسي المترف، وقد رواه الطبراني في معجمه: (إن لله سبحانه وتعالى ديكاً أبيض، جناحاه مُوشّيان بالزبرجد والياقوت واللؤلؤ: جناح بالشرق وجناح بالمغرب، ورأسه تحت العرش وقوائمه في الهواء، يؤذن في كل سحر، فيسمع تلك الصيحة أهل السموات وأهل الأرض إلا الثقلين الإنس والجن، فعند ذلك تجيبه ديوك الأرض، فإذا دنا يوم القيامة يقول الله تعالى ضم جناحيك وغض صوتك، فيعلم أهل السموات وأهل الأرض إلا الثقلين أن الساعة قد اقتربت) ومثل ذلك كثير مذكور في الكتب.

أفي الحق أن كل ذلك كان عبث عابث ولهو لاه ساخر؟ أكل ذلك العناء في وضع تلك الأحاديث، والتكلف لها وتلفيق أسانيدها، وذلك الجهد الذي لا نشك في أنه كان عظيماً من أجل امرارها وإدماجها بين الأحاديث الصحيحة، أكل أولئك كان لهواً ولعباً لا غاية ولا هدف يتجه نحوه؟؟

كلا! وإنما هي الشعوبية التي أسرفت في وضع الأحاديث عن فارس وسلمان الفارسي وغير ذلك، هي هي التي أوحت بتلك الأحاديث الغريبة في تمجيد الديك وتقديسه، باعتباره رمزاً فارسياً.

وإذن فقد استطاع ذلك الفرض أن يكشف لنا عن السر في وضع تلك الأحاديث الغريبة، وأن يبين لنا لوناً من ألوان ذلك النزاع بين النزعة العربية والنزعة الشعوبية.

محمد طه الحاجدي

4 - هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

خطب زرادشت

التحول في ثلاث مراحل

سأشرح لكم تحوّل العقل في مراحله الثلاث فأنبئكم كيف استحال العقل جملاً، وكيف استحال الجمل أسداً، وكيف استحال الأسد أخيراً فصار ولداً.

إنها لعديدة تلك الأحمال التي تثقل العقل الجَلْد الصليب الذي يتجلى الوقار فيه، فأن صلابته تتوق إلى الحمل الثقيل بل إلى الحمل الأثقل.

يفتّش العقل السليم عن أثقل الأحمال فينيخ كالجمل ظهره متوقعاً رفع خير حمل إليه.

أن العقل السليم ينادي الأبطال قائلاً: أيّ حمل هو الأثقل لأرفعه فتغتبط به قوتي؟

أفليس أثقل الأحمال هو في الاتضاع لإنزال العذاب بالغرور؟ أفليس أثقلها أن يبدي الإنسان اختلالاً لتظهر حكمته جنوناً؟

أم أثقلها في تخليّ الإنسان عن مطلب حين يقترن هذا المطلب بالنصر، أم في ارتقاء قمم الجبال لتحدّي من يتحدّى؟

أم أثقلها في أن يتغذّى الإنسان بأقماع السنديان والأعشاب وبتحمّل مجاعة نفسه من

أجل الحقيقة.
أم أثقلها في احتمال المرض وطرد العائدين المعرّين، أم في مخادنة الصمّ الذين لا يسمعون ولا يعون ما تريد؟
أم أثقلها في الانحدار إلى المياه القذرة إذا كانت الحقيقة فيها والرضى بملامسة الضفادع اللزجة والعقارب التي تقطر صديداً
أم أثقلها في محبة من يحتقرنا وفي مد يدنا لمصافحة شبح يقصد إدخال الرعب إلى قلوبنا. أن العقل السليم يحمل ذاته جميع هذه الأثقال المرهقة، وكالجمل الذي يسارع إلى طريق الصحراء عندما يرفع الوقر عن ظهره ليندفع هو أيضاً نحو صحرائه
وهنالك في الصحراء القاحلة يتمّ التحوّل الثاني إذ ينقلب العقل أسداً لأنه يطمح إلى نيل حريته وبسط سيادته على صحرائه
وفي هذه الصحراء يفتش عن سيده ليناصبه العداء كما ناصب سيده السابق، فهو يستعد لمكافحة التنّين والتغلب عليه
ومن هو هذا التنّين الذي يتمرد العقل عليه فلا يريد بعد الآن أن يرى فيه ربه وسيده؟
إن التنين هو كلمة (يجب عليك) وعقل الأسد يريد أن ينطق كلمة (أريد)
إن كلمة (الواجب) تترصد الأسد على الطريق تنّيناً يدَّرع بآلاف الأصداف وعلى كل) قطعة منها تتوهج بأحرف مذهبة كلمة (يجب عليك)
وعلى هذه الأصداف تشع سنو ألف عام والتنّين الأعظم يعج قائلاً إن جميع السنين تتوهج عليّ
كل ما هو سنّةٌ قد أُوجد من قبل، وبي تتمثل جميع السنين الكائنة. والحق أن كلمة (أريد) يجب ألا ينطق بها أحدٌ بعد! هكذا قال التنّين
فأية حاجةٍ لكم أيها الأخوة بأسد العقل؟ أفما يكفيكم الحيوان القوي الجليل الممنّع بامتناعه؟
من اعبث أن تطمحوا إلى خلق سنين جديدة، إن الأسد نفسه ليعجز عن هذا الخلق إذ لا يسعه إلا أن يستعد بتحرير نفسه لخلق جديد لأن قوته لن تتجاوز هذا الحد.
أيها الأخوة، إنّ العمل الذي تحتاجون فيه إلى الأسد إنما هو تحرير أنفسكم والوقوف ببطولة الامتناع في وجه كل شيء حتى وجه الواجب. ذلك أيها الأخوة هو العمل الذي تحتاجون إلى الأسد للقيام به.
إن الاستيلاء على حق إيجاد سنن جديدة يقضي بالجهاد العنيف على العقل الخشوع الصبور، ولا ريب أن في هذا الجهاد قسوة لا يتصف بها إلا الحيوانات المفترسة.
لقد كان العقل فيما مضى يتعشق كلمة (الواجب) كأنها أقدس حق له، وقد أصبح عليه الآن أن ينظر حتى إلى هذا الحق المفدّى فيراه توهماً واعتسافاً، ليتمكن بإرهاق عشقه أن يستولي على حرّيته وليس غير الأسد من يقوم بهذا الجهاد.
ولكن ما هو العمل الذي يقدر عليه الطفل بعد أن عجز الأسد عنه؟ ولماذا يجب أن يتحوّل الأسد المكتسح إلى طفل؟
ذلك لأن الطفل طهرٌ ونيسانٌ، لأنه تجديد ولَعِب وعجلة تدور على ذاتها فهو حركة البداية وعقيدةٌ مقدَّسة.
أجل أيها الأخوة إن العمل الإلهي للإبداع يستلزم عقيدة مقدسة، فأن العقل يطلب الآن إرادته، ومن فقد الدنيا يريد الآن أن يجد دنياه.
لقد ذكرت لكم تحولات العقل الثلاثة فأوضحت كيف استحال العقل جملاً وكيف استحال أسداً وكيف استحال أخيراً إلى طفل.
هكذا قال زارا، وكان في ذلك الحين مقيماً في مدينة اسمها البقرة العديدة الألوان. منابر الفضيلة
وبلغ زارا خبر حكيم أطنب الناس في علمه ومقدرته في التكلم عن الكرى وعن الفضيلة فحبوه بالتكريم والتبجيل واتبعه عدد من الشبان أصبحوا دعامة لمنبره العالي، فذهب زارا وجلس معهم أمام المنبر مصغياً إلى الحكيم فكان يقول:
مجدوا الكرى وعظموه لأن له المقام الأول وتحاشوا مرافقة من ساء رقادهم ومن استحوذ عليهم الأرق.
إن اللص ليقف خاشعاً أمام الكرى فيدلج في الليل مخرساً وقع أقدامه ولكن الساهر المجازف لا يتورع عن حمل بوقه

ليس بالسهل أن يعرف الإنسان كيف يستسلم لسنة الكرى وليس إلا لمن عرف كيف ينتبه طول النهار أن ينام ملء جفنيه.
يجب عليك أن تقاوم نفسك عشر مرات في النهار فتغنم خير التعب وتهيئ المخدر لروحك.
عليك أن تصالح نفسك عشر مرات في النهار لأنه إذا كان في قهر النفس مرارة فأن في بقاء الشقاق بينك وبينها ما يزعج رقادك
عليك أن تجد عشر حقائق في يومك كيلاتضطر إلى السعي وراءها في نومك فتبقى نفسك جائعة.
عليك أن تضحك عشر مرات في يومك لتكون مرحاً كيلا تزعجك معدتك في ليلك والمعدة بيت الداء.
قليل من يعرف هذا من الناس؛ ولن يتمتع بالرقاد الهنيء إلا من حاز جميع الفضائل. فإذا
ما المرء أدى شهادة زور أو تلطخ بالزنا وإذا هو اشتهى خادمة قريبة فقد حرم وسائل الهناء في نومه
غير أن المرء يحتاج فوق فضائله إلى شيء آخر وهو أن يدفع إلى الرقاد بفضائله نفسها في الزمن المناسب.
إن من الفضائل من هي كالغإنيات المتجنيات، فأقم بينهن حائلا كيلا ينتهين إلى عراك تكون أنت ضحيته.
ليكن سلام بينك وبين ربك وبين الأقربين، فلا نوم هنئ بدون هذا السلام. وسالم شيطان جارك أيضاً لئلا يراودك في رقادك.
أكرم السلطة واخضع لها حتى ولو كانت هذا السلطة عرجاء. إن ذلك ما يقتضيه النوم الهنيء.
وما أنا بالجاني إذا كان يحلو للسلطة أن تسير متعارجة.
(إن خير الرعاة من يقود قطيعه إلى المروج الخضراء ذلك ما يقتضيه الرقاد الهنيء
لا أطلب كثيراً من المجد ولا وفيراً من المال وكلاهما يؤدي إلى الاضطراب، ولكنّ المرء لا ينام هنيئاً ما لم يكن له شيء من الشهرة ولديه شيء من المال.
أفضّل أن يزورني القليل من الناس على أن يرتاد مسكني عشراء السوء، وهذا العدد القليل يجب عليه ألاّ يطيل السمر عندي لئلا يعكّر صفو رقادي.
تسرني مجالسة البلهاء لأنهم يجلبون النعاس؛ ولشدّ ما يغتبطون عندما نحبذّ حماقاتهم ونشهد بإصابتهم.
على هذه الوتيرة يقضي فضلاء الناس نهارهم. أما أنا فأنني إذا ما أمسى المساء أحترس من أن أراود النعاس لأنه سيد الفضائل ولا يرتاح إلى تحرش الساهرين.
وتحت جنح الظلام أستعرض ما فكّرت فيه وما فعلته في يومي فأنطوي على نفسي كالحيوان الصبور وأسائلها عما قهرت به أميالها عشر مرات وعما عقدت به الصلح مع ذاتها عشر مرات، وعن الحقائق العشر والمسرّات العشر التي أفعمت بها
وبينما أكون مستغرقاً تهزني الأربعون خاطرة يستولي النعاس علي فجأة، وهكذا يسودني الكرى سيد الفضائل دون أن أتوجه بدعوة إليه.
يشغل النعاس جفنيَّ فتغمضان، ويلمس فمي فيبقى مفتوحاً
إنه يدلف إليَّ كلص محبوب فيسرق أفكاري وأبقى أنا منتصباً كعمود من خشب، ثم لا تمر لحظات حتى أنطرح ممدداً على فراشي
وبعد أن أصغى زارا إلى هذه الأقوال يقرع الحكيم بها الأسماع تملك ضحكة وأشرق نور في جوانب نفسه فناجاه قائلا:
يترآى لي أن هذا الحكيم قد جُنّ كخواطره الأربعين.
ولكنه جد خبير بحالات الكرى. فما أسعد من يجاور هذا الحكيم! لأن مثل هذا النعاس شديد الانتقال بالعدوى حتى إلى وراء الجدران.
إن شيئاً من السحر يفوح من منبره العالي، وما يجتمع هذا العدد من الشبان عبثاً حول خطيب الفضائل.
إن قاعدة هذا الحكيم إنما هي - اسهروا لتناموا - وفي الحقيقة لو لم يكن للحياة معناها فوجب أن اختار لها حكمة لا معنى لها لما كنت أجد أفضل من هذه القاعدة.

لقد أدركت الآن ما كان يطلب الناس قبل كل شيء عندما كانوا يفتشون على أوليات الفضائل؛ إنهم كانوا يطلبون النوم الهنيء والفضائل التي يتجلىَّ على مفرقها تاج المخدرات. وما كانت الحكمة في عرف حكماء المنابر، لقد نالوا الإعجاب والثناء إلا قاعدة النوم لا تقلقه الأحلام. إنهم لم يكتشفوا معنى أفضل من هذا المعنى للحياة.
وكم في أيامنا هذه من أناس يشبهون هذا الواعظ في دعوته إلى الفضيلة غير أنهم أقلَّ إخلاصاً منه. ولكن هذا الزمان يعد زمانهم ولن يطول وقوفهم والكرى يراود أفكارهم فهم عن قريب سيُمددون.
طوبى لمن دبَّ إلى عيونهم النعاس! إنهم عما قريب سيرقدون هكذا تكلم زارا.
(يتبع)
فليكس فارس
بين أحضان الطبيعة
للشاعر السويسري جو تفريد كلر
أيتها الطبيعة المشرقة. انشري فوقي رداءك الأخضر الجميل وغني حولي بحفيف أشجارك الباسقة الناضرة.
وأيقظيني عند تباشير السحر المشرق، وفي بسمة الفجر المنير لقد تعبت روحي
فذهبت ترفرف عليك حيرى واجفة
ونعست عيني أمام تلك العظمة وهذا الجلال!
فدعيني أحلم بلياليك الزاهرة.
إن وجهك كوجه الطفل في مهده
وأنت تتناجين بحفيف أزهارك التي بللت وجناتها دموع الحزن وجرت على خدِّها عبرات الأسى.
ولكنها ما تلبث أن تستردَّ نضارتها وبشاشتها من جمالك السحري.
إن قلبي مفعمٌ بالآلام والأشجان، ولكنها تتلاشى بين أحضانك الزاهرة، وتذوب في أجوائك الساحرة، فأعود كالطفل الطروب.
أيتها الطبيعة: أيتها الصديقة التي وهبتني إخلاصها الأبدي وشبابها الدائم الذي أحيا في قلبي ميت الأمل وضائع المنى
أنت قبلتي التي أؤمها، وكنفي الذي أستظل به
فإذا جاء يوم نسيتُ فيه وفاءك، ولم أوفِّك حقك من الإخلاص فاعلمي أني هبطت إلى الدرك الأدنى وأصبحت هائماً ذاهلاً. واعلمي أن قلبي قد أدمته الجراح فنسى كل شيء.
أيتها الطبيعة المشرقة! قفي بجانبي في معترك الحياة الزاخر وظليني بحنانك، واشمليني بعنايتك، وارقبيني بنظرات الأمومة الحانية. وإذا دنت ساعتي وحانت منيتي فانشري فوقي رداءك الخضر الجميل.
ما أبهج الحياة والموت في أوديتك الساكنة!
أحمد فتحي مرسي
تاريخ العرب الأدبي - 6
للأستاذ رينولد نيكلسون
ترجمة حسن حبشي
الفصل الأول
وهكذا نجد بين التبابعة ملكة سبأ التي ذكرت مخاطراتها مع سليمان في السورة السابعة والعشرين من القرآن، وبالرغم من أن محمداً (ص) نفسه لم يشر إلى اسمها أو نسبها فان المفسرين اعتبروها بلقيس ابنة شراحيل (أو شرحبيل)
أما البطل الوطني الذي ورد ذكره في أسطورة عرب الجنوب فهو (تبع أسعد كامل) أو كما يسمى أحياناً (أبو كرب) الذي ما زالت ذكراه حتى اليوم - كما يقول فون كريمر - حية باقية، وما زالت روحه تكثر من الترداد على خرائب قصره في ظفار (وما من أحد يطالع قصيدة مخاطراته أو النصائح التي وجهها إلى أبنه حسان وهو مسجى على فراش الموت إلا اعتقد مضطراً أنه أمام شعر قصصي أصيل مستمد من الخرافات العربية الجنوبية التي ترجع أوليتها دون شك إلى عصر قديم جداً) وهأنذا أقدم للقارئ بعضاً من القصيدة التي يمكن تسميتها بقصيدة (الساحرات الثلاث)

الدهر يأتيك بالعجائب والأيا ... مُ والدهر فيه معتبر
بينا ترى الشمل فيه مجتمعا ... فرقه في صروفه القدر
لا ينفع المرء فيه حيلته ... فيما سيلقاه لا ولا الحذر
إني زعيم بقصة (عجبٍ) ... عندي لمن يستزيدها الخبر
يكون في الأسد مرّة رجل ... تم له في ملوكه الخطر
مولده في قرى ظاهر هم ... دان بتلك التي اسمها خمر
يقهر أصحابه على حدث السن ... نِّ ويحقرهم فيحتقر
حتى إذا مكنته صولته ... وليس يدري ما شانه البشر
أصبح في هيوم على وجل ... وأهله غافلون ما شعروا
رأوا غلاماً بالأمس عندهم ... أزرى لديهم بجهله الصغر
لا يفقدوه لا در درهم ... لو علموا العلم فيه لافتخروا
حتى إذا أدركته روعته ... بين ثلاث وثلاثة (!) حجروا
جاءت إليه الكبرى بأسقية ... شتى وفي بعضها دم كدر
فقال هاتي أليَّ أشربها ... قالت له: ذر فقال لا أذر
فناولته فما تورّع عن ... أقصاه حتى أماده السكَر
فنهنهته الوسطى فنازلها ... كأنه الليث هاجه الذّعر
قالت له هذه مراكبنا ... فاركب فشر المركب الحمر
فقال (حقاً صدقت) ثم سما ... فوق ضبيع قد زانه الضمر
فدق منه جنباً فغادره ... فيه جراح منها به أثر
ثم أتته الصغرى تمرّضه ... فوق الحشايا ودمعه دِرَر
فحال عنها بمضجع ضجر ... ولا تساوي الوطاء والزعر
كان إذ ذاك بعد صرعته ... من شدة الجهل تحته الإبر
قلن له لما رأين جرأته ... أسَعْدُ أنت الذي لك الظفر
في كل ما وجهة يوجهها ... وأنت يشفى بحربك البشر
وأنت للسيف والسنان وفي ... الأبدان تبدو كأنها الشمر
وإنّ أنت المهريق كلّ دم ... إذا ترامى (بشخصك) السفر
فارشد ولا تستكن في (خمر) ... ورد ظفارا فأنها الظفر
فلست تلتذ عيشه أبداً ... وللأعادي عين ولا أثر
نحن من الجن يا أبا كرب ... يا تبعّ الخير هاجنا (الدغر)
فما بلونا فيك من تلف ... عن عمد عين وأنت مصطبر
ثم أتى أهله فأخبرهم ... بكل ما قد رأى فما اعتبروا
فسارعتهم من بعد تاسعة ... إلى ظفار وشأنه (الفكر)
فحلّ فيها والدهر يرفعه ... في عظم شأن وهو يشتمر
إنا وجدنا هذا يكون معاً ... في علمنا والمليك مقتدر
فالحمد لله والبقاء له ... كل إلى ذي الجلال مفتقر

وتجعل هذه القصيدة أسعد بطل حملة عظيمة إلى فارس حيث نازل القائد الذي أرسله إليه أحد ملوك العراق وقهره ثم انطلق إلى بحر قزوين، وفي طريق عودته اخترق الحجاز وإذ ذاك علم أن ابنه الذي خلّفه في المدينة قد قتل غيلة، فأقسم أن يكون ثأره من أهل تلك البلدة شديداً (وبينما كان تبع منهمكا في إعداد الغارة عليهم، وفد عليه حبران يهوديان من قريظة يتفجّر العلم منهما، فلما علما بعزمه قالا له: (أيها الملك لا تفعل فأنك إن أبيت إلا ما تريد حيل بينك وبينها ولم نأمن عليك عاجل العقوبة) فقال لهما: (ولم ذلك؟) فقالا: (هي مهاجر نبي يخرج من هذا الحرم من قريش في آخر الزمان تكون داره وقراره) فتناهى عن ذلك، ورأى أن لهما علماً وأعجبه ما سمع منهما فانصرف عن المدينة واتبعهما على دينهما). . . وكان تبع وقومه أصحاب أوثان يعبدونها فتوجّه إلى مكة وهي في طريقه إلى اليمن، ثم أتاه نفر من هذيل قالوا له: (أيها الملك، ألا ندلك على بيت مال داثر أغفلته الملوك قبلك فيه اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب والفضة؟) قال: (بلى) فقالوا: (أرسل إلى الحبرين) فأرسل إليهما وأخبرهما بما حدثه به الهذليون فقالا له: (ما أراد القوم إلا هلاكك وهلاك جندك. ما نعلم بيتاً لله اتخذه في الأرض لنفسه غيره، ولئن فعلت ما دعوك إليه لتهلكنّ وليهلكنّ

من معك) فسألهما ما يصنع إذا قدم عليه فأشارا عليه بأن يصنع ما يصنع أهله (تطوف به وتعظمه وتكرمه وتحلق رأسك عنده وتذلل له) فقال: (فما يمنعكما إنتما من ذلك؟. . .) قالا: (أما والله إنه لبيت إبراهيم، وإنه لكما أخبرناك ولكن أهله حالوا بيننا وبينه بالأوثان التي نصبوها حوله وبالدماء التي يهريقون عنده وهم نجس أهل شرك) فامتثل أمرهما وقرب النفر من هذيل فقطع أيديهم وأرجلهم ثم مضى حتى قدم مكة فطاف بالبيت ونحر عنده وحلق رأسه وأقام بمكة ستة أيام فيما يذكرون ينحر بها للناس ويطعم أهلها ويسقيهم العسل. ثم لما دنا تبع من اليمن ليدخلها حالت حمير بينه وبين ذلك وقالوا (لا تدخلها علينا وقد فارقت ديننا) فدعاهم إلى دينه، وقال: (إنه خير من دينكم) فقالوا: (فحاكمنا إلى النار) قال: (نعم)

وكان باليمن فيما يزعم أهل اليمن نار تحكم بينهم فيما يختلفون فيه، تنفر تأكل الظالم ولا تضر المظلوم، فخرج قوم بأوثانهم وما يتقربون به من في دينهم، وخرج الحبران بمصاحفهما في أعناقهما متقلّديها حتى قعدا للنار عند مخرجها الذي تخرج منه فخرجت

النار إليهم، فلما أقبلت نحوهم حادوا عنها وهابوها فذمرهم من حضرهم من الناس وأمروهم بالصبر لها فصبروا حتى غشيتهم فأكلت الأوثان وما قربوا معها ومن حمل ذلك من رجال حمير، وخرج الحبران بمصاحفهما في أعناقهما تعرق جباههما لم تضرهما فأصبحت عند ذلك حمير على دينه. فمن هنالك كان أصل اليهودية باليمن.

(يتبع)

من الأدب الإنكليزي

مرثية جراي

تعد هذه المرثية من أبلغ المراثي في الشعر الإنكليزي، قرأها على صديقي الأستاذ (علي) (حيدر الركابي فنقلتها إلى العربية كما فهمتها

للأستاذ علي الطنطاوي

قُرع الناقوس ينعى النهار الآفل، وراح القطيع يزحف ببطء يتسلق الهضبة راجعاً إلى القرية؛ وعاد الفلاح إلى البيت يجر رجله تعباً. . . وبقي العالم لي وللظلام!

تدثر الكون بالسواد، وتوارى عن الأنظار، وسكنت الدنيا سكوناً مَهيباً، ولم يبق في الجو نامة تسمع، إلا هذه الأصوات العميقة تفيض بها الأودية البعيدة والشعاب النائية، وإلا طنين حشرة تطير، ونعيب بومٍ على تلك الدوحة، يشكو ظلم الناس وعدوانهم على وكره الآمن.

هنالك. . . عند تيك الشجرات القديمات، تحت تلك الرِّجام التي يزدحم عليها العشب، ويتكوَّمُ الكلأ. . . كان (أجداد القرية) ينامون إلى الأبد في حفرهم الضيِّقة، وأجداثهم العميقة.

لا يوقظهم نسيم الصباح الأرج، ولا تغريد البلبل الطَّرب ولا زقاء الديك المزهو، ولا زمّارة الراعي السعيد. . . كل ذلك لم يعد يوقظهم من رقدتهم.

لا. ولن توقد من أجلهم نيران المدافئ، ولن تقوم في خدمتهم ربات المنازل، ولن يهتف أطفالهم اللُّثغ فرحين بمقدمهم، ولن يتسلّقوا ركبهم يستبقون إلى أحلى تمْنيةٍ لهم قبلة من آبائهم عند عودتهم إلى منازلهم وأهليهم.

كم كان المنجل العضب لسواعدهم، وكم كانت الأرض الصّلدة تشقق تحت معاولهم، والغابة القاسية كم لانت لضرباتهم.

كان عملهم مفيداً، وحياتهم مجدية، فلا يسخر الطموح من مسراتهم الهينة، وحياتهم المجهولة، ولا تستمع العظمة هازئة حديث الفقر، وقصته الساذجة القصيرة.

فان فخر القواد، وعظمة الأقوياء، وكل ما تمنحه الثروة، ويأتي به الجمال. . . كل ذلك ينتظر الساعة التي لا مفر منها، والغاية التي لا محيد عنها، لا فرق في ذلك بين عظيم وحقير، لأن طريق المجد لا ينتهي إلا إلى القبر!

فيأيها المغترون، لا تلوموا هؤلاء المساكين إن خلت قبورهم من نُصُب المجد، وتماثيل العظمة، على حين تتصاعد ألحان الثناء وأغاني المديح، من بين جدران المدافن الفخمة، وتحت أقبيتها المزخرفة.

لأن البخور المحروق، والتمثال المنحوت، لا يرد الروح على الميت الراقد، وهتاف الناس، وعجيج الجماهير، لا ينفخ الحياة في التراب الجامد، وهمس التملق، وهجس

التزلف، لا يبلغ سمع الموت البارد!
ومن يدري؟ فلعلّ في بطن هذه البقعة المهجورة قلباً كان يمكن أن يفيض منه النور السماوي، ويداً كانت تدير دفّة المركب السياسي، وأصابع كان يمكن أن تمشي على أوتار القيثارة الخالدة فتنشئ النغم السحري. . . لولا أن العلم لم يفتح أمامها صفحاته الحافلة بثمرات الزمان!
أخمد النسيان جذوة أرواحهم النبيلة، وأجمد نهر حياتهم الجارية، وطغا عليهم لج الزمان. . . ولكن، كم في جوف البحر من جواهر مخبوءة، ولآلئ مجهولة، وكم في عرض البادية، من وردة تفتحت واحمرت، فلم يرها أحد، فضاع أريجها المطر في رياح الصحراء.
ومن يدري؟ فلعل هنا بطلاً (كهامبتن) كان حاكماً في حقوله مطلقاً، وكان جباراً شجاعاً، ولعل هنا (ملتون) آخر، ولكنه صامت مغمور، ولعل هنا (كرمول)، ولكنه كرمول برئ من دم أبناء الوطن!
منعهم القدر من الاستمتاع بهتاف الجماهير، وتصفيق البرلمانات، ومنعهم من المغامرة، وركوب الأهوال، وازدراء المصاعب، واحتقار العقبات، ومنعهم من نثر الخيرات على بلادهم، وقراءة تأريخهم في عيون الشعب.
ولكن القدر لم يمنعهم مزاياهم وحدها وفضائلهم، بل منعهم رذائلهم أيضاً وجرائمهم. . . فلم يرتقوا العروش على الجماجم، ولم يسدوا أبواب الرحمة على البشر، ولم يخفوا حمرة العار والخجل، ولم يخفتوا صوت الضمير، ولم يعطروا معابد ترفهم واستكبارهم بالبخور الذي تحرقه (ربّة الشعر).
لقد اتبعوا طريقهم السوي في وادي الحياة المنعزل البارد، وساروا فيه صامتين، لم تتعلم أمانيهم القريبة، وشهواتهم البريئة الخروج بهم عن صفوف الشعب المناضل على الحياة،
المزاحم على البقاء.
ولكنهم - مع ذلك - لم تخل قبورهم، من أثر للذكرى ضئيل: شعور مكسور، ونقش محطوم، يستجدي المارة آهة العطف، وهمسة التقدير، ويحفظ عظامهم من أن تهان.
إن هذا الشعر - شعر الأميّة الساذجة - الذي ينطق بأسمائهم وأعمارهم، يقوم مقام التعظيم والتبجيل والرثاء، وينشر بين القبور نصوصاً مقدسة، تعلم المربين والمعلمين كيف يصمتون ويتعلمون.
وأي امرئ بلغ من خمول الذكر والهوان على الناس يترك الدفء والنور والسعادة من غير أن يلتفت إلى الوراء فيودع العالم بنظره. . . إن الروح الراحلة تريد أن تتكئ قبل رحيلها على صدر محب، والعين المغمضة تحتاج قبل إغماضها إلى دموع الإخلاص. . . بل إن صراخ الحياة لينبعث من صميم القبر فيضرم نارها في رمادنا البارد.
وبعد، فيأيها الشاعر الذي يقوم في المقابر، ويندب الموتى المنسيين، إني لألتفت الآن إليك، فأرى رجلاً مثلك، شاعراً هائماً، قد جاء يبحث عما حلّ بك، وانتهى إليه مطافك، فوجد فلاحاً هرماً فسأله عنك، فقال له:
لقد طالما رأيناه عند انبلاج الفجر، يسرع الخطو ليستقبل الشمس من ذروة الهضبة.
وطالما لمحناه في الظهيرة متمدداً بجسمه المنهوك على أقدام تلك الشجرة الهرمة، وفوق جذورها البادية العجيبة يرقب الجدول الذي ينساب إلى جانبه، ويتأمل أمواهه الهادرة المتكسرة، وطالما أبصرناه هائماً على وجهه بالقرب من هذه الغابة باسماً آناً كأنه ساخر من كل شيء، وآناً عابساً كئيباً كأنه مضني هدته الآلام، وأم مريض قتله الحب اليائس.
وفي ذات صباح، نظرنا إلى الهضبة فلم نجده، فبحثنا عنه في الذروة، وعند الشجرة، والى جانب الجدول، وبالقرب من الغابة فلم نقع له على أثر.
ثم رأينا شاعراً آخر يحتل مكانه.
ثم رأينا بعد نعشه محمولاً إلى المقبرة، ترتل من حوله أناشيد الموت.
وهاهو ذا قبره، قائم تحت تلك الشجرة التي كان يجلس إليها، فتعال اقترب. . . اقرأ ما عليه:
(هنا. . . في حضن الأرض، يرقد شاب تجهله الثروة ولا يدري به المجد، ولا يعرفه إلا

الحزن الذي اصطفاه خليلاً وهو في المهد
كان كريماً مخلصاً، فكانت مكافأته عظيمة؛ منح البائسين كل ما يملك: وهو دمعه!
ومنحه الله كل ما يطلب: وهو صديق
لم يحب أن يفيض في ذكر مزاياه أكثر مما أفاض، ولم يشأ أن يهتك الستر عن
نقائصه، لأنه أودعها كلّها أمانة في قلب أبيه، وعند ربه. . .)
علي الطنطاوي
من شعر المناسبة
إلى زعيم الأمة الأكبر
للدكتور أحمد زكي أبو شادي
تقبَّلْ من الدُّنيا العُلى والتهانئَا ... وعش هانئاً يا جاعل الشعب هانئا
وهيهات أن تنسى أياديك أمة ... درأتَ الرَّدى عنها، ومازلت دارئا
أننسى أعاصيرَ السنين التي مضت ... وإن كنت مَنْ لاقى الأعاصير هازئا
أننسى جبال الموج حتى كأننا ... غرقنا، فلم تيأس ونلت الشواطئا
معاذ الوفاءُ اليوم تنسى قلوبُنا ... فكل فؤادٍ كان عندك لاجئا
وقد كنت للمجد المقدَّس قارئاً ... فأصبحت أنت اليوم وحيا وقارئا
لئن عرفَ الشاني بنصرك حقدهُ ... فكلُّ عظيمٍ ليس يعدم شانئا
وما عرف الشاني المآثر تبتني ... وغايتُه للشرّ يعملُ ذارئا
صبرت ولكن في جهادٍ مُضاعف ... وفُزْت ولكن عُدت للجهد بادئا
وما القدوة المثلى سواك، وحسبنا ... هداك، وما يرضى هداك الممالئا
ليصخب كما يرضى هواه، فللورى ... عقولٌ ترى الحسنى وتدري المساوئا
رميت بأقوى حُجة بعد حُجةٍ ... ويُضحكني من جاء بالوهم لاتئا
ولو نحن نقبنا وَجدناه دائماً ... تذبذب حتى ضيع العُمر صائبا
فسِمناه في هذا التهافت ساخراً ... وَشمناه في هذا التحرُّق طارئا
تقدم زعيم الشعب للفتح ثانيا ... وَنظم شؤون الحكم سمحا وواضئا
وَجُدْ بغنى الدستور حريةً لنا ... فقد مات عهد كان للحر رازئَا
وَدُسْ كلَّ أفعى في سبيل كماله ... فكم دُست من قبل الغنى واللآلئَا
وَكم قد بذلت التضحيات لأجله ... وَمازلت من حبِّ المنافع بارئا
فأهلاً بمن يغلو بنقدك عامداً ... وإن فضح الإسرافُ ما كان غابئَا
ستروى له الأيام حزمك خالقا ... مدَى العدْل وَالحكم المنزه كالئا
لئن كان طفلاً فهو باسمك ناشئٌ ... وَحبك كم قد صيَّر الطفل ناشئا
كأنك قد أنجبت جيلاً مؤخراً ... وَإن لم تكن بالخير وَالعدل ناسئا
كأنك قد أبدعت جيشك غازيا ... وَأسطولك النامي يجوب الموانئا
سنلقى وَيلقي أمةً شع نورها ... وَقد كان من فرط التحزب طافئا
وجواً طليقا بالتسامح عابقا ... ونبعا سريا ليس يُرجع ظامئا
وفكراً أبيّاً منجبا نفع قومه ... وَقد كان مدفونا فأصبح ناتئا
وَأنك أهلٌ أن تناظر مصلحا ... سميَّك، لا تحيي بلادك جازئا
تحديت في الماضي المصاعب هادئا ... كذلك في الآتي ستلقاك هادئا
(الإسكندرية)
أحمد زكي أبو شادي
ذكرى شهيد كلية الآداب
للشاعر الحضرمي علي أحمد باكثير
في مثل هذا اليوم ثرَّ دمُ ... تبكي البلاد له ويبتسم
جذلان يمضي للخلود، ولا ... يلوي به أسف ولا ندم
خَلَع الشبابَ على نضارته ... لِشباب مجدٍ ما له هَرَمُ
خَلَع الشبابَ، فويح رَيقِّهِ ... لم توفَ منه للهوى ذِمم!
عينانِ ناعستانِ ترقبُه ... ويدان في لطف النَّدى، وفمُ
كانت ترى فيه لها حُلُماً ... فَصَحَتْ ولما ينقضِ الحُلُم!
ونوازع للشِّعر جائشة ... تهفو عليه أسىً وتضطرم
قد كان يذخره ليُجلِسَه ... يوماً بحيث تألّقُ النُّجُمُ

قد كان يأمل أن يتمَّ به ... للضّاد ما ترنو له الأُمم
حتى دعا وطنٌ فخفَّ له ... شيحانُ في عرنينه شَمم
مِصْرُ؛ وأيّ فتىً تُهيب به ... مصر فليس جوابَهُ (نعم!)
نسى المُنى والأهلَ واحتشدت ... في قلبه العزماتُ والهِمم
هذا الحِمى نَهْب يعيث به ... خصمٌ ألدْ وطامع نَهِمُ!
جاثٍ على الوادي ينوء به ... ويضيقُ من أنفاسه الكَظَمُ
أتظلّ مصرٌ تحت كلكله! ... أيُهان شَعب كله كرم؟
أتداس للوادي كرامته؟ ... أيُصان من غدروا ومن ظلموا؟
هلا فتىً يسخو بمهجته! ... هلاً فتى للعزّ ينتقم!
وهناك صاح دمٌ تردّد في ال ... وادي فلبَّاه دمٌ فدم!!
أصغى له (الطاغي) وقبل شكا ال ... شاكي فلم يُسمع له كلمُ
لا يُسمِعُ الخطباءُ مظلمةً ... ما يُسمِعُ الدّمُ من به صمم!
يا مصر لم يف غيرَ واجبه ... مُستَشْهَدٌ لعُلاك ينتقم
أنت الكنانة أرضها ذهب ... تنمي الفنون، وماؤها شم
وعلى سمائكِ صحو عاشقة ... هبت سُحيراً وهي تبتسم
ترعى (الجزيرةُ) فيك نهضتها ... وبحبل ودٍّ منك تعتصم
قد تأملين فكلها أمل ... أو تألمين فكلّها ألم
ما تنقلين لسؤددٍ قدماً ... إلا وتقفوها لها قدم
فاستقبلي (العهد الجديد) بما ... تجلى به عن أفقك الظلم
قوى عتاد الجيش تحترمي ... فالجيش دون الحق يحترم!
إنا لفي زمن يسود به ... بين الشُّعوب الفاتك الحُطم
السيف يخطب فيه مرتجلاً ... في العالمين، ويهمس القلم!
بدأ الجهاد اليوم - إذ فرغت ... من قدحِه كفّاك - يحتدم!
دون المرام مصاعبٌ غُلُبٌ ... لكنها بالعزم تُقْتحم
وبنوكِ عزموا الخلاص ولن ... تقف الرواسي دون ما عزموا!
آمنت أنّهُم بما اتحدوا ... غُلبُ الأسود وأنكِ الأجم
شهداء مصر لَيَهنكم نُزُلٌ ... بجوار (سعد) يحوطه العِظم
أقسمتم بشراء أنفسكم ... في حب مصر فبورك القسم
ولتحيَ (مصرُ) ويحيَ (عاهلها) ... و (زعيمها) و (النيل) و (العلَم)

علي أحمد باكثير

القصص

أقصوصة وصفية

سائق القطار

للأديب محمود البدوي

(تشرب. . .؟)

(. . .لا. . . وأشكرك)

فانحنى مساعد السائق، ووضع القلة الفخارية المفحمة في ركن من القاطرة، وانتصب وهو يمسح بيده الماء السائل من جانبي فمه، وتحول إلى النافذة وقال بعد أن لمح نور إحدى القرى:

(الفكرية؟)

(آه. . . . . .)

(. . . . . .)

(. . .فحم)

ففتح المساعد باب الفرن المستدير، ورمق النار وهي تتضرم وتلتهب، وطالعه وهجها وسعيرها، فارتد عنها وأمسك بمجراف الفحم وقوس ظهره وغيب طرف المجراف في المخزن، ثم استدار وتقدم خطوة وعينه على الباب، ورمى النار بالوقود، فخمدت جذوتها وتلوت ودخنت، ثم شبت وامتدت ألسنتها على الحديد والتصقت بجدران الفرن، ودارت على جوانبها وسقفها، وزادها تيار الهواء ضراماً وسعيراً. . . ورمى المساعد النار بمجراف آخر، ثم رقبها لحظة، وكأنه شعر بحاجتها إلى المزيد فرماها بمجرافين

معاً، وضم الباب بيده، ونصب قامته ويده على مقبض المجراف، وطرف كمه الممزق يمسح العرق المتصبب الملوث بغبار الفحم وقطرات الزيت، ونزلت يده على جنبه وتنفس وقال في صوت هادئ تشوبه بعض المرارة:

(كل شيء تغير في هذه الدنيا بعد الحرب. . . حتى الفحم)

فسأل السائق وعينه على الطريق وظهره إلى مساعده:

(لماذا. . .؟)

فقال المساعد في حماسة غير منتظرة وهو ثرثار ضامر ناحل الجسم معروق:

(كان الفحم قوالب ضخمة. . . كارديف. . . وكان القالب الواحد يسير قاطرة بأسرها. . كنا ننزل القالب في حوض الورشة ونضربه ضربتين على يافوخه، ومثلها على جنبه، فيتهشم ويتناثر، فننضحه بالماء، وندفع منه المجرافين أو الثلاثة في النار وننام على حسه!! أما الآن فهذا الفحم كعيدان الذرة لا خير فيه. .)

فتحول إليه السائق بجانب وجهه، وبصره لا يزال عالقاً بالقضيب، وقال باسماً في خبث:

(تعبت. . .؟)

(تعبت!! لا يزال نور (المنيا) بادياً. . رحم الله أيام الشباب، كنا نعمل في الورشة أكثر من عشر ساعات وقوفاً على الأقدام ولا نفكر حتى في الطعام. كان أحسن الله إليه. .)

وحبس سيل الكلام بعد أن بصر بالسائق يتراجع إلى الوراء ويرقب البخار. . وسأله:

(59؟. .)

(8. . . .)

ثم نسى ما كان فيه من حديث وأمسك (بالاسطبة) وأخذ يلمع جوانب الفرن وعجز الآلة الضخمة ويزيل الزيت اللاصق بالحديد والنحاس، والأنابيب الصفراء الملتوية والمعدنية الدقيقة؛ ولما وصل إلى محبس البخار بدا له أن ينفس عنه قليلاً، ففعل، وهب البخار القوي من بوق القاطرة وهو يئز وينش وطار مع التيار، ولما قفل المساعد المحبس ثانية رضت أصابعه بعض المفاتيح الصغيرة، فعبس وكشر، وصمت محنقاً، وكان صمته منتهى ما يرجوه السائق!

وكان السائق واقفاً عند نافذة القطار الزجاجية الصغيرة يرقب الطريق، وهو يدخن؛ وكان يتحول عن موقفه من حين إلى حين ليلمح الساعة وضاغط الهواء ودرجة البخار ومقياس الطريق، ثم يعود إلى مكانه عند النافذة، ويده في سرواله الأزرق، وسترته تنحسر عن صدره العريض القوي البارز، وعلى كتفيه وفي طرف كمه الزيت الملوث بالفحم المنضوح. وكان في وقفته ساكن الملامح، هادئ النفس، ثابت الجوارح، راسخ القدم، فعل الواثق من نفسه وعمله؛ وكان لصلابة عضلاته ووثاقة تركيبه وقوة أعصابه أثر واضح في ذلك.

أما المساعد فقد ما بظهره على ركن القاطرة تحت مخزن الفحم بعد أن أشعل سيجارة من جمرة جذبها من الفرن وانطلق يدفع الدخان ويفكر، ونظره لا يتحول عن السائق الواقف أمامه في حلته الزرقاء. ولما مد السائق رجلا وثنى الأخرى وعينه مستقرة على الطريق، انتصب المساعد وحدجه بطرفه، وتحول إلى ظله الجاري على الأرض، وأنعم فيه النظر في سكون حتى بصر به ينسحب بعد لحظات فرفع وجهه، وكان السائق قد انحنى عليه وفي فمه سيجارة جديدة فأخرج المساعد سيجارته من فمه وناولها إياه، وقد تلاقت عينا الرجلين واختلطت أنفاسهما، ونظر المساعد في حدة إلى عيني صاحبه العميقتين السوداوين ذواتي البريق العجيب، والى ملامح وجهه المعبرة القوية الساكنة وجبهته العريضة البارزة ووجهه الأبيض المستطيل. وأحس بتضعضعه وخوره أمام قوة صاحبه وغلبته؛ شعر أمام السائق بالعجز والضعف والونى فتحسر وتقبض، ولما أرتد السائق إلى مكانه من النافذة أخذ المساعد يتفرس فيه، ويقارن بين جسمه القوي المصبوب، وبين نفسه، وهو الناحل الضامر المعروق. وفتق هذا التأمل المستكن ذهنه حتى أخذ يستعرض في مخيلته عمل كل منهما، وشغله هذا التفكير حتى نسى أن ينفض عن السيجارة رمادها أو يمحو عن فمه ما ارتسم عليه من أسى مشوب بالحقد والحسد. . . وأنطلق يحدث نفسه:

ما الذي يفعله هذا السائق. . يحرك القطار في المحطة ثم يتركه بعد ذلك للأقدار. .)
ويمضي معظم الليل واضعاً يده في جيوبه يدخن، ويتلهى بالنظر إلى الطريق، وكل ما
يعمله هو عقرب الساعة ومقياس البخار والضغط والطريق. . وبعض الأحيان بتواضع
ويمسح ما على الساعة من غشاوة!! ثم بعد هذا كله يلقي الأوامر: غذِّ النار. . ندِّ
الفحم. . رّيت الآلات. . أما أنا فأظل الليل طوله واقفاً على باب جهنم، أضرمها وأغذيها
وأصلى بنارها وأمسح ما على الحديد من غبار وفحم وزيت، حتى يلمع ويصقل،
وجسمي عليه ضعف قاذوراته.
وإذا وقف القطار في المحطة نزلت تحت العجلات وانبطحت على الأرض لأزيّت العدد
الصغيرة والمفاصل والدوافع والجواذب وأمسح معدن الذراع، فحتى هذا يجب أن
يكون لامعاً!. وإذا ملأنا الماء طوقت الخرطوم بذراعي ودفعته عن الخزان بجسمي
فيصيبني
هاطله ويزيدني بلاء على بلائي. . . هذا هو عملي وعمله، ومع هذا فأجره ضعف أجري
ويزيد، وأوقات فراغي وراحتي ليست كأوقات فراغه وراحته. . . وامرأته عاقر وامرأتي
تجيء في كل عام بمولود سعيد!! وأولادي من فرط الطوى ضامرون مهزولون
يترقبون الصيب من السماء ليربوا ويكتنزوا ويملئوا البطون بالطعام والسماء لا تجيب!
وهو فارع قوي مفتول يفور جسمه بحرارة الشباب، وأنا قميء ناحل معروق تقوست
قناتي، وشابت شياتي، وأضحت جلدتي تتخدد. والحياة تقبل عليه بوجهها وتدبر
عني. . . ومن يدري؟ ربما كان لقوته وسطوته سبب في ذلك، فما تحط الحياة إلا على
أمثالنا من الضعفاء المرضى المناكيد، وما كنا مناكيد إلا لأننا مرضى، ولو كنا أقوياء
مثله لخافت بأسنا، واتقت شرنا، وأحنت لنا الرأس فسرنا في مسالكها شامخين. . .)
(. . . . . .فحم)
فاستفاق المساعد من خواطره على صوت السائق الرنان؛ وفتح باب الفرن وأقبل
على النار يغذيها بالوقود وهو صامت صابر.
عندما جاز القطار محطة (ملوي) كان الليل قد انتصف واعتدل الجو، وهب النسيم
العليل من جنبات الوادي الخصيب، فأثر هذا الجو الرخي المنعش على خواطر
المساعد، فخف حسده على صاحبه وزالت نقمته عليه، ووقف ينصت لدوي القطار
وهو ينهب الأرض ويطوي القرى والدساكر، وقد خيم عليها النخيل وطواها الظلام في
جوفه، حتى بدت صامتة موحشة رهيبة، ثم بارح مكانه وأخذ يجرف بعض الفحم من
المخزن ويهيئه على عتبته للنار، وبعد أن فرغ من ذلك أشعل سيجارة ونظر إلى
السائق وود لو يحادثه، يثرثر معه في أي موضوع، ويتكلم عن أي شيء، دون أن يكون
لكلامه وقع أو غرض أو غاية، فما كان يعنيه هذا، وإنما حسبه أن يتكلم لأن الصمت
يمله ويضجره ويأخذ بمخنقه ويثير أعصابه. . . . وفتح فمه ثم أطبقه، وكان يعرف أن
السائق قليل الكلام طويل الصمت. وتنحنح وسعل وأطل من النافذة فطن في أذنيه
التيار الشديد، وسفي في وجهه الغبار وجرى على وجهه دخان الفحم، وسمع صفير
قطار من بعيد فبقى في مكانه ليحيي السائق إن أمكن.! ومر قطار البضاعة يجلجل
على القضبان، فقال المساعد: وكأنما انبعث صوته من أعماق هاوية سحيقة
(367. .؟)
(. . .نعم)
(من الأقصر. . .؟)
(. . .آه. . وخزن في أسيوط)
(توفيق شاكر. . .؟)
فهز السائق رأسه موافقاً، وصمت المساعد لحظة كأنما يستعرض في ذهنه صوراً
باهتة يحاول بروزها ووضوحها وغير من نبرات صوته وهو يقول:
(. . .كان سائقاً للقطار 72. . . أنزلوه. . . بعض الأحيان تتحكم الأقدار)
فلم يقل السائق شيئاً وأخذ يتمثل في مخيلته صورة حادث توفيق كما سمعه من
رفاقه. . . ثم وضع يده على جبينه يتفرس في الطريق، يستشف الحجب، ما وراء
الغيب، ما في بطن الأقدار فقال المساعد وقد طاب له أن يجد ما يتحدث فيه:
كان خارجاً من ورشة سوهاج. . . ليوصل القطار إلى الأقصر. . . كانت السرعة أكثر)
من اللازم، وكان العامل يتخطى القضبان. . . توفيق نفسه لا يدري كيف مات الرجل. .

شهد عليه عامل (البلوك) و (اثنان من الخفراء)
فقال السائق وقد حز في نفسه الأسى على صاحبه
(سيئ الحظ. . . وكان عليه أن يحاذر)
فقال المساعد بصوت وإن:
(يولد كثير من الناس ليموتوا تحت العجلات. . . فما الذي يدفعه الحذر والسائق والكشاف ونور الكشاف؟ مرت على المرء كثير من الحوادث العجيبة التي تبعث على الدهشة والتفكير العميق. . . كنا قد بعدنا عن ديروط وفلاح مسكين، على جملة، ينتظر مرور القطار، ومر القطار وفزع الجمل، ورمى الرجل تحت العجلات. قد يكون مر على هذا الجمل مائة قطار وهو ساكن ثابت ولكنه جفل في هذه المرة لسبب لا نفهمه.)
فقال السائق وقد بدت على وجهه البشاشة:
(ولكن إذا كان الفلاح قد رد الجمل عن الحديد الممر وبعد به عن الشريط أكان يموت؟)
(كان لا يستطيع في تلك الساعة أن يفعل ذلك. . . كان لا بد من أن يموت فمات)
ومر القطار على حقل كبير من القطن وقد تفتح ونوَّر فتحول المساعد إلى الحقل وراقب السائق مقياس الطريق لحظات ثم أدار المحرك إلى اليسار قليلاً، فقد بدأ الوادي ينحني والشريط يدور، وكان يعرف هذه الطريق أكثر من موضع أنفه من وجهه، وهدأت حركة الآلات نوعاً، ثم أرجع المحرك إلى مكانه بعد ثوان، وارتد عن النافذة ووقف أمام الفرن، وطرفه على الساعة والمقياس، واستمر هكذا مدة، ثم أدار المحرك إلى اليسار مرة أخرى في شدة حتى تعدى الكثير من الدرجات، فقد وصل القطار إلى طريق مرمم واهن لا تزال تجري عليه أيدي العمال في النهار. . ودار بخلده أن أحد العمال قد يكون ترك سهواً بعض الأدوات الحديدية على الشريط، فمد بصره إلى نهاية نور الكشافة وثبت نظره على حديد القضبان. . . وفكر في نفسه أنه بعد نصف ساعة وستمائة سيدخل محطة أسيوط؛ وسره هذا كما سره خروجه منتصراً من الطريق المرمم. . وبعد أن لمح المقياس أدار المحرك بالتدريج إلى اليمين، إلى نهاية ما تتحمله أرض النيل السعيد! وكان يود أن يعوض بتلك السرعة الجارفة ما قضاه وهو سائر ببطء على الطريق الواهن. . وانطلق القطار كالسهم يطوى القرى ويزلزل تحته الأرض.
وقال المساعد:
(النيل عال. . وشديد)
فقال السائق وقد تحول بوجهه إلى النيل فرأى بعض المراكب الشراعية تسير مغالبة التيار.
(أتخاف أن تتقطع الجسور؟)
(!لا. . . جسور القطارات هي آخر من يصيبه الأذى دائماً)
وبقى نظر السائق ثابتاً على النيل وقد راقه هول الليل عند الأفق البعيد.
. . .وأطل المساعد من النافذة وبصره على الأرض الجارية
وخيم صمت عميق.
وقال المساعد بعد دقائق بصوت يرتعش:
(. . .رجل)
(ماذا. .؟؟؟)
(. . .رجل تحت. . الـ)
فتلفت السائق في سرعة البرق حيث أشار مساعده فرأى شبه شبح يضطرب في غمرة الليل. . فصفر وألقى الشبكة وأدار المحرك إلى اليسار في حذر شديد. . . وكان قد فوجئ بالأمر فاضطرب جسمه قليلاً وجاشت نفسه. . . ثم حبس البخار. . . وأحس بعد مدة بضغط الفرامل وجلجلة العدد وقد أجبرت على البطء على غير انتظار، ووقف وروحه تثور ونفسه حانقة ساخطة.
كان يود أن يدخل محطة أسيوط في الساعة الواحدة والدقيقة الرابعة والعشرين. . . منذ خمس سنوات لم يتأخر في حياته مرة. . . مرة واحدة. . . كان دائماً يحاذي الرصيف وعقرب الثواني على الستين. كم كان يشعر بالفخر والزهو والشموخ

والتعالي على الأخوان، كم كان يشعر بالزهو والفخر وهو العارف بأنه المسيطر على الحديد والنار. كان إذا تأخر في أثناء الطريق يغذي النار ويدفع البخار ويجهد العدد ليدخل المحطة في ميعاده. . . ولكنه الآن سيتأخر لأول مرة في حياته كسائق سيتأخر. . . سيتأخر. . . لا دقيقة ولا دقيقتين ولا ثلاثاً. . . بل أكثر من ذلك. شعر بنفسه تذوب حسرات، أحس بالآلات تئن وتتوجع وتدق كالطبول. . . كانت ضربات الضاغط والدوافع وسحبات الذراع ورجعات (البستون). . . تدوي في أذنيه كالطاحون البالية، كالمدافع المنطلقة على غير هدى في وادي التيه. أحس بدمه يفور. . . وروحه تثور حتى عقدت جبينه السحب. . ولكن يده القوية كانت لا تزال على المحرك، والقطار يحبس نفسه ويغالب قوة دفعه. . . أي مأفون هذا الرجل الذي عبر الشريط هكذا وألقى بنفسه إلى التهلكة. . .؟ وتصور الرجل وقد تمزق وطارت أشلاؤه، وطحنته العجلات، وجرى دمه مع الزيت فتفطر قلبه على الرجل المسكين. . . ووقف تتملكه أعصابه الحديدية. صامتاً. . . حتى أحس بعد مدة بالآلات تجلجل وتطيل، والبخار ينش ويئز، والذراع يغالب ويجاهد، ويطوح بنفسه في ثقل ثم يدركه الونى فيحتضر.

ونزل السائق ودار حول مقدمة القاطرة، ثم انحنى ودخل تحتها يفحص العدد الصغيرة والآلات المحركة وخرج بعد دقائق ووجهه ينضح عرقاً، وعلى معارف وجهه الساكنة آيات الهدوء المطلق، ورآه مساعده وهو يستقيم بظهره القوي عند العجلات الأمامية ثم يتراجع

خطوتين إلى الوراء ويتقدم تجاهه وهو يضرب بقدميه الزلط الملقى بجانب الشريط، وكان لصوت قدميه دوي مسموع في الليل الساكن، وتوقف المساعد عن مسح عمود الذراع وقبض براحته على (الاسطبة) الملوثة بالزيت القذر، وقال وهو يميل بوجهه إلى صاحبه حيث:

(لا شيء. . .؟)

لا شيء في العجلات الأمامية، وإنما أثر الدم واضح في التروس الخلفية التي أخذ) عندها الرجل، على أن العدد سليمة ولا أثر للحم ولا عظام. . .)

فصمت المساعد وكأنه يفكر، ثم استأنف عمله وكان المشعل الصغير الذي في يسراه ينتفض ويخبو ويشتعل ويميل لسان اللهب يمنة ويسرة تبعاً لهبات الرياح. . وكان الزيت قد امتزج بعرقه الهاطل وسال من يده على ساعده ولوث الكثير من جسمه، فمسح الرجل الزيت في سرواله، بعد أن رمى الأسطبة على الأرض، ودارت يده حول ذقنه ورفع المشعل إلى ما فوق رأسه، واستدار ومد بصره وكان الكثير من الركاب يطلون من النوافذ ووجوههم إلى الخلف، وظلهم للواقف منهم على الأبواب واضح على الأرض، وعامل العربة الخلفية يتحدث مع (الكمساري) وحولهما بعض الناس.

واعتمد السائق على حديد النافذة وأخذ يدخن ونظره مسدد إلى الوراء حتى رأى عامل الإشارة يلوح برايته، فقال لمساعده:

(اطلع. . .)

فطلع المساعد إلى القاطرة ووضع المزيتة جانباً، وبعد السائق عن النافذة الجانبية ووقف أمام الآلة يحدق في الساعة، ثم مد يده وأدار المحرك إلى اليمين قليلاً فتحركت العجلات الأربع الأمامية الصغيرة في بطء وثقل شديد، ودارت العجلات الأربع الكبيرة التي خلفها على الفارغ، ارتفعت عن القضبان ودارت على الفارغ في سرعة وجنون، وزفر القطار وأز البخار ونش، وشال الذراع وحط، وتحركت العجلات الأمامية ولامست العجلات التي خلفها القضبان، وشال الذراع وحط وتقدم القطار وهو يئن ويتوجع وينوح. . . تقدم القطار في بطء وحزن من غير صفير!

محمود البدوي

البريد الأدبي

وفاة عميد الموسيقى الإنكليزية

نعت إلينا الأنباء الأخيرة السير ادوارد جيرمان عميد الموسيقى الإنكليزية توفى في الرابعة والسبعين من عمره بعد حياة موسيقية حافلة، وكان مولده في ستروبشير في سنة 1862، وتخرج من أكاديمية الموسيقى الملكية، وظهر لأول مرة بقطعته الأوبريت المسماة (الشعراء المتنافسون) وفي سنة 1889 عين السير جيرمان مديراً للموسيقى في مسرح جلوب بلندن؛ وفي نفس العام وضع تلحينه لرواية رتشارد

الثالث لشكسبير؛ ثم أتبعه تلحين عدة روايات أخرى من روايات الشاعر الكبير مثل هنري الثامن وروميو وجولييت؛ وكما تحب، وهملت وغيرها. ووضع السير جيرمان قطعاً موسيقية مستقلة نالت نجاحا عظيما؛ واشتهر بحفلاته الموسيقية الرائعة في أواخر القرن الماضي، كما اشتهر اشتراوس في فينا. وله عدة مقطوعات موسيقية شهيرة مثل (الجزيرة الخضراء) التي وضعها لسوليفان؛ وإنكلترا المرحة؛ وأميرة كنسنجتون وغيرها؛ وألف كبلنج مجموعة غنائية شهيرة عنوانها وهو الذي وضع نشيد التتويج للملك جورج الخامس، وعزف أثناء تتويجه في سنة 1911.

ومن مؤلفاته أيضاً مجموعة كثيرة من الأناشيد والأغاني؛ وهو كثير الشبه في أسلوبه بأسلوب سوليفان، بيد أنه يسبغ عليه من ابتكاره طابعاً خاصاً؛ ويتجه بنوع خاص إلى الروح الإنكليزية القديمة.

كتاب عن النيل لأميل لودفيج

ظهر أخيراً في لندن كتاب جديد للمؤرخ الألماني الشهير أميل كون المشهور في عالم التأليف بأميل لودفيج؛ وهو كتابه الموعود عن (نهر النيل). وكان لودفيج يشتغل بتصنيف هذا الكتاب منذ عدة أعوام؛ وقد خطرت له فكرة تأليفه مذ زار مصر والسودان في سنة 1929، وأثرت فيه مناظر النيل وروعته الخالدة. وعرض لودفيج فكرته على المغفور له الملك فؤاد فأولاه كل عطف وتشجيع، ولقي من جانب السلطات كل معونة في الوقوف على ما أراد من المعلومات، ومراجعة ما شاء من المستندات. ولودفيج مؤرخ بالفطرة، وليس بعالم جغرافي، ولكنه لم يجعل من كتابه عن (النيل) بحثاً جغرافياً جامداً؛ وإنما اتبع في وصف النيل ومناظره ووديانه وفيضانه نفس الأسلوب الذي يتبعه في كتابه التأريخ، فكما أنه لا يعني في ترجمة الأشخاص بالحوادث العامة قدر عنايته بالحوادث والصور الخاصة وقراءة الأفكار والمشاعر من الأعمال والتصرفات الشخصية، فكذلك قد عني بأن يبرز من النيل شخصيته المعنوية الرائعة وما يرتبط بها من الصور والأفكار التي ترجع إلى غابر العصور، وتسبغ على النيل طابعاً من العظمة الخالدة. وكتاب لودفيج شعري ووصفي أكثر منه جغرافياً، وإن كان المؤلف لم يهمل تقديم المعلومات الجغرافية الكافية. وقد صدر كتاب لودفيج بالإنكليزية لأول مرة، ولم يصدر بالألمانية، لأن لودفيج من الكتاب اليهود الألمان الذين شردتهم ألمانيا الهتلرية، ونزعت منهم كل حقوق الطبع والنشر في ألمانيا، وحرمت دخول كتبهم في الأراضي الألمانية، ولذلك يصدرون اليوم كتبهم في لندن وباريس وامستردام، تارة بالألمانية وغالباً بالإنكليزية أو الفرنسية.

وفاة مشترع نمسوي

من أنباء النمسا أن الدكتور يوسف ردلنج المشترع النمسوي الكبير قد توفى في التاسعة والستين من عمره؛ وقد كان الدكتور ردلنج حجة في المسائل القانونية والإدارية وخصوصاً ما كان منها ذا صفة دولية؛ وكان حتى وفاته عضواً في محكمة العدل الدولية الدائمة؛ وكان أيضاً من أقطاب الساسة النمسويين في أواخر عهد الإمبراطورية، وقد شغل منصب وزير المالية في آخر وزارة للإمبراطور كارل؛ ثم تولى الوزارة مرة أخرى في سنة 1931. ومنذ سنة 1926 يشغل منصب أستاذ القانون العام في جامعة هارفرد.

وللدكتور ردلينج عدة مؤلفات قانونية شهيرة منها كتاب عن إجراءات مجلس العموم البريطاني، وكتاب آخر عن الحكومات المحلية الإنكليزية؛ وهما من أحسن الكتب في موضوعيها.

صورة حية للإنسان الأول

نشرت صحف هلسنجفور نبأ غريباً عن عثور بعثة للصيد على مخلوق مدهش نصفه قرد ونصفه إنسان في بعض إحراج ريغا عاصمة لاتافيا. وتفصيل النبأ أن بعثة صيد كانت تجوس خلال إحدى الغابات الكبيرة في تلك المنطقة، فلحظ بعض أفرادها ذلك المخلوق جاثماً عند ساق شجرة؛ فلما اقتربوا منه فر هارباً، وتسلق أحد الأغصان المدلاة، وصعد إلى أعلى الشجرة برشاقة مدهشة؛ فصوب أحد الصيادين بندقيته إليه وأطلق النار عليه فصاح المخلوق صيحة مزعجة، وسقط على الأرض مضرجاً بدمه. ولما قبض الصيادون

عليه وجدوه مخلوقاً عارياً وقد نما الشعر في جسمه حتى غطاه. فحملوه إلى القرية القريبة، وهنالك تبين أن هذا المخلوق كان عاملاً في إحدى المزارع، وقد فر منها منذ بضعة أعوام ولم يظهر له أثر بعد.

ولا يستطيع هذا الإنسان القرد أن يتكلم، كما أنه لا يفهم ما يقال له؛ ولكنه يصيح سروراً حينما يقدم إليه اللحم والفاكهة.

وقد أثار هذا الاكتشاف الغريب اهتماماً خاصاً في الدوائر العلمية؛ ويرى بعض الباحثين أن اكتشاف مثل هذا المخلوق يدلل بصورة حية على الصلة القوية التي توجد بين الإنسان وبين بعض أنواع القردة، وهي صلة يدلل عليها العلامة داروين في كتابه (أصول الأنواع)؛ ثم إن منظر هذا المخلوق يذكرنا بالإنسان الأول في أطوار هجميته الأولى في عصور ما قبل التأريخ.

أسرار المجتمع الألباني

ألبانيا من البلاد البلقانية القديمة، ولكنها مازالت غارقة في غمار الماضي، ولا يعرف عن حياتها الداخلية سوى القليل، وقد رأى كاتب صحفي إنكليزي معروف هو مستر برنارد نيومانعاش في ألبانيا أعواماً طويلة أن يضع كتاباً عما شهده ووقف عليه من أسرار هذه البلاد المجهولة؛ وأخرج كتابه أخيراً بعنوان (باب ألبانيا الخلفي) ويقول المؤلف إنه دخل ألبانيا من بابها الخلفي فوجدها بلاداً لا فن فيها ولا موسيقى ولا آداب، ولكنه وجد فيها شعباً يرتبط أفراده فيما بينهم بكلمة اللسان فقط. ومن المأثور في تلك البلاد أنه إذا توفى شخص فأن الناس لا يسألون عن سبب وفاته، ولكن يسألون عمن قتله؟ ذلك لأن مبدأ الثأر لا يزال يسود جميع الطبقات والأسر، ولا يهدأ بال إنسان حتى يقتل خصمه؛ وكل فرد في قبيلة يحمل بندقية. ويقول لنا المؤلف أيضاً إنه عقد عهد الأخوة الدموية مع ألباني، ووجد أن أهم آثاره ينحصر في احترام الأخوين كل لحياة صاحبه. وقد طاف مستر نيومان في جميع أرجاء ألبانيا بعجلته التي كانت مثار الدهشة، ولقي في كل مكان حفاوة ودية بالغة، واستطاع خلال طوافه وإقامته العديدة بين مختلف الطوائف والطبقات أن ينفذ إلى الروح

الألبانية، وأن يعرف كثيرا عن أخلاق هذا الشعب وعاداته وتقاليده. ولكتابه قيمة تاريخية واجتماعية كبرى، ومعظم الكتاب الذين كتبوا عن ألبانيا في العهد الأخير يقصرون عنايتهم على مسائلها السياسية والاقتصادية، ولكن مستر نيومان لا تعنيه هذه المسائل، وإنما يحصر جهده في المسائل الاجتماعية والأخلاقية.

كيف يعامل الكتاب في ألمانية النازية

أضحت ألمانيا جحيم الكتاب الأحرار من كل لون وكل أمة؛ وقد هجرها جميع كتابها ومفكريها الأحرار مذ عصفت بها ريح الطغيان الحالية؛ ولكن ألمانيا النازية وما زالت تضيق ذرعاً حتى بالضيوف إذا كانوا أحراراً؛ فقد روت بعض الصحف السويدية أن الكاتب الروسي الكبير ايفان بونين الذي أحرز جائزة نوبل في الآداب منذ عامين، قد عومل في ألمانيا عند زيارته لها معاملة سيئة، وأنه قبض عليه وعذب في سجن (الجستابو): (سجن البوليس السري اللسيسي)؛ وكان بونين يقوم بزيارة عادية لمدينة لانداو في جبال الألب طلباً للراحة والنزهة، ولكن بونين معروف بأنه كاتب حر، وأنه حمل في بعض كتاباته على النظم الطاغية التي تسود ألمانيا في الوقت الحاضر؛ ومع انه من الروس البيض (خصوم البلاشفة) فان مجرد كونه انتقد ذات يوم نظم النازي كان سبباً في القبض عليه وتعذيبه. وقد أثارت كتابات الصحف السويدية عن هذا الحادث الرأي العام الدولي، فبادرت وزارة الدعاية الألمانية إلى إنكاره، ولكنها سلمت بأن إيفان بونين كان أثناء زيارته لألمانيا موضوعاً تحت الرقابة السياسية!

حول مباراة المولد النبوي

تناولت الصحف في الأيام الأخيرة موضوع مباراة المولد النبوي وما انتهت إليه باختيار رسالة الأستاذ عبد الله عفيفي - على الرغم مما فيها من العيوب التي اضطرت الوزارة إزاءها أن تمنحه نصف المكافأة - وأشارت بعض الصحف إذ ذاك إلى أن اللجنة التي ألفت من هيئة كبار العلماء لفحص الرسائل التي تقدم بها 133 كاتباً من مصر والقطار العربية، كانت قد اختارت من مجموعها ثلاث رسائل إحداها رسالة الأستاذ عفيفي، وطلبت هذه الصحف إلى الوزارة بهذه المناسبة أن تقسم النصف الثاني من المكافأة بين صاحبي

الرسالتين الثانية والثالثة تقديراً لما بذلا من جهد، وتحقيقاً لبعض ما علقا من آمال، وإنفاقا لهذا المبلغ في الناحية التي أرصد لها، ولأن الاقتصار على مكافأة واحدة في مباراة كهذه فيه شيء كثير من الغبن وتثبيط الهمم لا يتفق مع ما ترمي إليه المباريات العامة من التشجيع وإظهار الكفايات المغمورة.

ولقد كان غريباً بعد هذا أن ينشر الأستاذ عفيفي بياناً في بعض الصحف يشكو فيه من الوزارة لأنها لم تمنحه المكافأة كلها ولم تغض عما في رسالته من نقص. ويحاول أن يزكي نفسه ورسالته فينشر للمرة الثالثة خطاباً أرسله إليه الأستاذ عبد الوهاب النجار أحد أعضاء لجنة التحكيم يصفه فيه بأنه أقدر من كتب في السيرة بعد القاضي عياض - وتلك شهادة يشكر عليها الأستاذ النجار ويغبط عليها الأستاذ عفيفي - ثم يذهب الأستاذ في بيانه إلى أنه سوف ينشر رسالته، ويحتكم فيها إلى الجمهور لينتصف لنفسه ولرسالته من وزارة الأوقاف.

ولا شك أن الأستاذ عفيفي يعلم حق العلم أنه إذا كان في هذه المباراة غبن أو ظلم فأنه واقع على غيره، وأنه إذا كان لأحد أن يشكو ويتظلم فأن الأستاذ آخر من يحق له ذلك.

على أني أعتقد أن في الأقدام على هذه الخطوة إثارة لحقائق قد تكون مؤلمة. ولقد كنا نتحاشى ونحن نكاد نلمس الغبن الواقع في بعض نواحي هذه المباراة أن نلجأ إلى النشر أو الاحتكام إلى الجمهور احتراماً لرأي اللجنة وتنزيهاً لقرار الوزارة عن مظنة الشك والارتياب. أما وقد أندفع الأستاذ في هذا الطريق فأنا نؤيده في فكرته، وسوف نستأنف معه الشوط الأخير، وللرأي العام أن يحكم، وللتاريخ أن يشهد، وللحق أن يأخذ مجراه.

(حمامات حلوان)

محمد كامل حنة

أحد الثلاثة الأول

الكتب

1 - مقتل عثمان بن عفان: للأديب محمود الغزاوي

2 - الشخصية: تأليف الأستاذ محمد عطية الأبراشي

3 - التربية الإنكليزية: تأليف الأستاذ محمد عطية الأبراشي

للأستاذ محمود الخفيف

يعتبر مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه من أهم الحوادث في تأريخ الإسلام، إذ كان مقتله نتيجة ثورة عاصفة عاتية، نسى فيها الثوار - والإسلام في مستهل ضحاه - ما نهى عنه دينهم من قتل النفس التي حرم الله، وامتدت أيديهم الأثيمة في غير تردد أو اضطراب إلى عثمان بن عفان خليفة الرسول، وزوج ابنتيه، وأحد السابقين الأولين الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، وسال دم الخليفة الشيخ في عقر داره، فلن يشن على أحد غارة أو يشهر في وجه أحد سيفاً، مما ضاعف بشاعة الجريمة، وزاد تلك المأساة هولاً ونكرا.

ولقد انطوت تلك المأساة على معان كثيرة، فهي وليدة عدة عوامل، ثم هي أول حادث من نوعه في الإسلام؛ ترى فيها ثورة سياسية، مازالت تنمو حتى انقلبت إلى فتنة ثم إلى الطغيان.

وفي هذا الكتاب الذي ألفه الأديب محمود الغزاوي ترى دراسة واضحة لتلك الثورة وتصويراً قوياً لما انتهت إليه من مأساة. مهد لموضوعه بمقدمة مبينة عن الخلافة وما كان من أمر تولية أبي بكر وعمر، ثم وضح ما حدث من الشورى بعد موت الخليفة الثاني، وأخذ بعد ذلك يدرس عوامل الفتنة فأشار إلى العداوة القديمة بين الهاشميين والأمويين؛ ثم درس سياسة عثمان وبين عوامل الثورة، وشرح حال الفتنة في الأمصار وصور في الخاتمة المأساة.

فالكتاب يعطيك فكرة جلية عن هذا الحادث التاريخي، وهو مجهود جدير بالثناء، نرجو أن تعقبه مجهودات أخرى للغزاوي فهو رجل نشاط وأدب. وأريد ألا أختم الحديث عن كتابه دون أن أشير إلى بعض هفوات لا تتفق وما عرف به من فطنة وحصافة، فهو في صفحة 13 بينا نراه يحار بين أمرين في تلمس العلة في عدم توصية النبي لأحد بالخلافة، نراه في

الوقت ذاته إلى مخافة النبي من وقوع الانقسام والفتن، فهل لا يعتبر هذا تعليلاً؟. وفي هامش 52 نرى خطأ مطبعياً لم يصححه. كذلك لم يبين المؤلف كيف كان جمع الناس على مصحف واحد عاملاً من عوامل الثورة صفحة 61، وفي صدد الكلام عن إيثار عثمان أقاربه بالخلافة نراه يثبت في صفحة 65 أن عثمان عزل عن الكوفة محمد بن عتبة وولى سعيد بن العاص، ولكن المؤلف عندما راح ينقد هؤلاء الولاة تكلم عن الوليد كوال للكوفة فماذا كان من أمر سعيد بن العاص؟ ومتى عين الوليد؟

هذا وفيما عدا تلك الهنات فالكتاب بحث قيم ممتع. ومما يحمد للمؤلف أنه وضع في آخره ثبتاً مسهباً للمراجع العربية والإفرنجية وأنه عني بطبعه عناية جعلت الكتاب في طبعته الثانية هذه أجمل شكلاً وألطف حجماً مما كان عليه في لباسه الأول، وهو مطبوع في دار النشر الحديث للأستاذ الصاوي وثمنه خمسة وسبعون مليماً.

- 2 -

يأتي بعد ذلك كتاب (الشخصية) للأستاذ محمد عطية الابراشي وهو كتاب ظريف الشخصية قويها، يجتذبك إذا رأيته، ويسرك إذا خبرته: يجتذبك بلطف شكله وحجمه، ويسرك بما تطالع فيه من عوامل تكوين الشخصية. والأستاذ المؤلف معروف اليوم بكتاباته في علم النفس، ولقد كتب عن الشخصية فصلاً في كتابه في (علم النفس) ولكن (عن له فيما بعد أن موضوعاً كالشخصية يحتاج إلى كثير من التفصيل والتمثيل، والآن يسره أن يتقدم إلى قراء العربية وبخاصة شبان اليوم ورجال الغد بذلك الكتاب).

ولقد نحا الأستاذ في كتابه طريقة سهلة سائغة، فهو يتعرض للمسألة ثم يوضحها بالأمثلة المتنوعة؛ ومما يحمد له أنه كان يأتي بها من الشرق والغرب، بل لقد كان يتمثل بكثير من الشخصيات العربية ويرينا كثيراً من مواقف البطولة والفضيلة عند العرب ويعرض علينا منهم صوراً ما أجملها وأدقها في المقارنة بين حاضرنا وماضينا.

وبهذه الطريقة الشائقة جعل الأستاذ الابراشي كتابه في متناول كل قارئ فلا يحتاج الإنسان إلى كد ذهنه في تفهمه، بل إنك إذا تناولته لا تحب أن تدعه حتى تتمه.

بيد أني احب أن أشير إلى بعض هنات ما أحسبها تنال من شخصية الكتاب إلا بمقدار ما ينال من شخصية العالم الضليع بعض ما تضطره إليه العجلة من الهفوات. فلست أرى رأيه في المثال الذي أورده في صفحة 10 عن الحجاج وزياد بن عمرو العتكي؛ وأسأل الأستاذ ماذا عسى أن يكون موقف الحجاج لو أن زيادا انتقده عند الخليفة وأظهر معايبه؟ كذلك لا أشاركه رأيه في أن من أكبر عيوب نابليون شدة قسوته على النوع الإنساني. ثم إنه ذكر نابليون في صفحة 50 باسم ملك فرنسا وما كان نابليون ملكاً في يوم ما؛ ثم هو يقول عن باستور إنه اعظم العلماء نفعاً للبشرية وهذا تعميم في غير محله. هذا إلى أنني لم أفهم ما يرمي إليه في الفصل التاسع، فأنه يخيل إلي انه يعتبر نقص الإنسان في الخلقة كأنه أمر مستحب لا ينبغي أن يخشى المرء منه أو يتوقاه لأنه (إن نقص الإنسان من جهة حاول أن يكمل نفسه من جهة أخرى). وما أظن هذا يقع في جميع الظروف والأحوال؛ والأستاذ نفسه يشير في أول الفصل إلى أن الشخص الناقص في الخلقة كثيراً ما يضطر إلى التكلف والتظاهر وهما من اكبر ما يهدم الشخصية. وفيما عدا هذا فالكتاب جدير بأن ينتفع به شبابنا، وهو من المؤلفات التي نشعر بأشد الحاجة إليها لنبني الجيل الجديد، ونطبع رجاله على الفضيلة، ولذلك فأني شديد الغبطة حين أقدمه إلى القراء.

- 3 -

أتكلم بعد ذلك عن كتاب (التربية الإنكليزية) وهو كتاب آخر للأستاذ الابراشي أو هو دليل آخر على نشاطه العقلي، ويقع في نيف ومائتين وخمسين صفحة من القطع الكبير محلى بأكثر من ثلاثين شكلاً توضيحياً.

نهج الأستاذ في هذا الكتاب طريقة العرض، فموضوعه وصفياً أكثر منه نقدياً، يستطيع القارئ بمطالعته أن يلم بنظم التعليم في إنجلترا والروح التي تسير في تلك النظم.

واعتقد أن الأستاذ أحسن بذلك صنعاً، فما أحوجنا في مصر إلى مقارنة نظمنا المدرسية بغيرها من النظم في البلاد الممدنة. إذ ما تزال تلك النظم عندنا مضطربة لا تكاد تتبين لها غاية، بل لا تكاد تعرف على أي أساس وضعت. نعم إن لكل أمة ظروفها ولكل أمة وجهتها، ولكن المقارنة على الرغم من ذلك خليقة بأن تكشف لنا كثيراً من

عيوبنا وأن ترينا كثيراً من أوجه الصلاح، وعلى الخصوص فيما كان له مساس بالقواعد العامة للتربية والغرض منها مما لا تختلف فيه الأمم كلها اختلافا كبيراً.

تطالع في هذا الكتاب مناهج التعليم الأولي والابتدائي والثانوي في إنجلترا في المدارس الشعبية والحكومية، وتتبين فيه الروح التي تسيطر على كل مدرسة ونظامها المحلي والداخلي، وما يتعلق فيها بالأساتذة وطريقة اختيارهم ومرتباتهم ورؤساء المدارس وأعمالهم، كما تتبين الغاية التي يرمي إليها التعليم في جملته، فلقد أسهب الأستاذ في الأمثلة وإيراد البينات والجداول التي تقوم فيها الأرقام مقام الكلام، ثم تطالع إلى جانب ذلك فصولاً في الجامعات الإنجليزية ونظمها وكليات المعلمين، وإدارة التعليم في البلاد والسلطات المحلية والرئيسية والتفتيش المدرسي وأعمال المفتشين. . . الخ

ولقد يقول بعض الناس، وأراهم محقين فيما يقولون إن الكتابة عن التعليم ينبغي أن تكون كتابة نقدية تحليلية، أو بعبارة أخرى ينبغي أن يعنى فيها بالناحية النظرية ويكتفي بضرب الأمثلة، على نحو ما فعل صاحب (سر تقدم الإنجليز السكسونيين) مثلاً في كلامه عن التربية في إنجلترا، وكما فعل مؤلف هذا الكتاب الذي أحدثك عنه في كلمته التي صدر بها الكتاب، وهي (كلمة عامة عن العلم في إنجلترا). بيد أني أرى من جهة أخرى أن الطريقة الوصفية تضع أمام المشتغل بالتربية مادة درسه فيستخرج منها ما شاء من النظريات، وهي في ذاتها طريقة عملية يظهر أثرها قوياً كما أسلفت بين نظم ونظم، وبالمقارنة يهتدي إلى كثير من الصواب. وكذلك أميل إلى اعتبار طريقة الأستاذ ميزة كتابة بدل أن أراها عيباً فيه، هذا ومما يحمد له أنه يشير بين حين وآخر إلى ما يراه من أوجه النقص في نظمنا ذاكراً ما يرى من أوجه الإصلاح والعلاج بقدر ما اتسع له المجال؛ وحبذا لو رأينا له في القريب العاجل كتاباً عن (التعليم في مصر) ينتقد لنا فيه ما يراه عندنا من خلل ونقص ويبسط لنا آراءه فيما يرى من سبل الإصلاح الخفيف.

العالم المسرحي والسينمائي

الجريمة والعقاب لدستؤفسكي

على مسرح الأوبرا الملكية

لناقد (الرسالة) الفني

لم يكن ليدور بخلدي يوم قرأت الترجمة الإنجليزية للرواية القصصية كما وضعها دستؤفسكي - وذلك منذ سنين بعيدة - أن هنالك من سيخاطر يوماً باقتباس مسرحية منها؛ فان من أصعب الأمور أن يعمد كاتب إلى هذا الاقتباس دون أن يحجم مرات خوف الفشل. فاقتباس مسرحية من رواية قصصية معناه تلخيصها، والتلخيص مهما كان وافياً يعطي صورة غير صحيحة عن الأصل، ولكن جاستون باتيه المخرج الفرنسي المعروف لم يعبأ بكل هذا واقتبسها وأخرجها على المسرح في باريس فلاقت من النجاح والإعجاب الشيء الكثير مما حدثتنا عنه الصحف الفرنسية.

حقاً إنه لحدث عظيم أن تظهر على مسرح مصري رواية لدستؤفسكي ذلك الكاتب الألماني العظيم الذي طبقت شهرته الآفاق، ونقلت مؤلفاته إلى جميع اللغات الحية؛ وإنه لنصر عظيم للفرقة القومية أن تخطو خطوة جريئة كهذه وتفتح موسمها الثاني بهذه الرواية أمام كبار رجال الدولة وشيوخ الأمة ونوابها، فتعلن فوز الفن العالي والأدب الرفيع.

والرواية تقوم على التحليل النفسي العميق، ولكن في بساطة ووضوح يسهل تناولها لمن كان على قليل من الثقافة؛ وهي خالية من العوامل المفاجئة والصناعة التي اعتدنا أن نراها في المسرحيات الفرنسية. وفيها أوضح المؤلف غاية الرجل الروسي - في أيام القيصرية - من الحياة، فهو لا يرى لها غاية غير الألم على عكس الرجل الأوربي الذي يرى غاية الحياة السعادة فيسعى إليها. أما الروسي فيفتتن بالألم ويتكالب عليه، بل يسعى إليه جاهداً ليصهر في بوتقته روحاً لا يراها مؤدية رسالتها في الحياة إلا من طريق التفكير والعذاب.

نقل المسرحية عن الفرنسية الشاعر الرقيق الدكتور إبراهيم ناجي، والممثل الأديب

فتوح نشاطي، فجاءت الترجمة سلسلة سهلة مما يلائم موضوع القصة وبساطة الوسائل في معالجة المؤلف للموضوع، فكان إعجابنا بالترجمة قدر إعجابنا بالاقتباس.

ملخص القصة

الطالب راسكو لينكوف شاب روسي نفور عبوس، شديد الكبرياء على الرغم من طهارة قلبه؛ تسممت روحه بفلسفة القوة التي سادت أوربا في نهاية القرن التاسع عشر، فخيل إليه أنه شخص ممتاز، وأنه باعتباره عبقرياً وضع نفسه فوق القانون. وكان يسائل نفسه: (لو كان نابليون قد صادف في طريقه إلى المجد عوائق وعثرات، أكان ينكص على عقبيه، أم يتقدم في جرأة ويزيلها؟).

كان الرد الطبيعي على هذا التساؤل أن قتل مرابية عجوزاً ليثبت نفسه أنه يمتاز على الناس أجمعين بقوة تتسامى عن الخضوع للقوانين، ففي رأيه أن هناك أناساً يحق لهم أن يعتدوا على الحياة الإنسانية دون أي عقاب، ولكنه ما انتهى من جريمته حتى أضحى فريسة آلام مبرحة، فشعر بوحدته القاسية بين الناس ولم يطق البقاء حتى مع أمه وأخته، وهجر الجميع ليختلف إلى الحانات يختلط فيها بالأوساط الوضيعة.

وهناك يلتقي بسكير شيخ جعل يقص على الطالب آلامه وكيف أن إدمانه قد جر على أسرته الوبال من مرض اضطرت معه ابنته أن تسقط في مهاوي العار لتقوم بأودهم، فيعطف الطالب على هذا المخلوق الملوث. وتدهم هذا السكير عربة فيقضي نحبه، ويتعرف الطالب إلى الأسرة البائسة ويساعدها بما تملك يده ويحنو على الفتاة الساقطة التي تقوضت حياتها مثله ويرى فيها ملجأه الوحيد في هذا العالم.

وكان (بوفير) قاضي التحقيق الذي عهدت إليه قضية مقتل المرابية يشك في الطالب، وتشاء المصادفات أن يطلع على مقال بتوقيع راسكولنيكوف يشير فيه إلى أن هناك طبقة ممتازة من الناس تملك حق ارتكاب الجرائم، فيلاحقه في حذر ودهاء، فهو لا يملك برهاناً مادياً، لأن يقظة الطالب تفسد عليه كل شيء.

وهكذا لا تستطيع العدالة أن تقتص من القاتل، فهل ينجو من يقتل نفساً بشرية؟! لا، إنه الضمير يهيب في نفسه ويعذبه فتهن أعصابه ولا يستطيع أن يحتمل هذه الحياة، فيسير إلى الفتاة ليلقى على منكبيها هذا السر الذي أنقض ظهره وعجز عن احتماله، فترى الفتاة أن الإنسان وإن انتصر على عدالة الناس إلا أن في أعماق ضميره عدالة أسمى وأقسى لا يخفت لها صوت حتى يكفر عن جريمته، فيستمع لها ويخرج من بيتها فيلقى قاضي

التحقيق فيناديه قائلاً: (بوفير. انتصر) ويركع أمام أكثر الأفراد الذين ظهروا في المسرحية ويعترف بجريمته.

الإخراج والتمثيل

جهود كبيرة ومصروفات باهظة جعلت الرواية مظاهرة إخراج هائلة. ولقد أعجبنا بالمناظر كل إعجاب، كما أعجبنا بالتاج القيصري الذي يعلو الستار الحريري الجميل الذي يحمل الشعار القيصري ويفصل بين المنظر والآخر، والحق أن الجهد الذي بذله الأستاذ عزيز عيد يستحق الشكر.

ولكن، هل فكر المخرج قليلاً أن طريقته هذه في الإخراج تتعارض وأهم خصائص الفن الروسي وهي البساطة؟

إن تعدد المناظر وإصرار المخرج على إظهارها كاملة البناء جعل التمثيل يمتدد بالنظارة حتى منتصف الساعة الثانية صباحاً، فكنا نشهد تمثيل المنظر في وقت قصير ونبقى طويلاً وطويلاً جداً في انتظار تهيئة المنظر الذي يليه، وهكذا كان يضيع الأثر الذي تركه التمثيل من ملل الانتظار الطويل. ولقد كان (المايسترو) المسكين الذي يدير فرقة الموسيقى يعيد ويكرر المقطوعة الواحدة حتى يشغل النظارة فأرهق وضاعت آثار قطعه التي تعب كثيراً في إعدادها، ولولا ذلك لاستسغناها وصفقنا لكل مقطوعة منها.

إن أهم واجبات المخرج أن يعمل على تركيز إخراجه حتى تأتي الرواية والتمثيل بالثر المطلوب، لا أن يتركها هكذا مفككة؛ وأظن أنه رأى معنا إخراج هملت وروميو وجولييت من الفرقة الايرلندية التي عملت في الموسم الماضي على مسرح الأوبرا. لقد كانت كما قلت في حديث سابق على صفحات (الرسالة) تعتمد على منظر واحد وتستعين بستار صغير وبالضوء في تبديل المنظر، وهذا لا يستغرق بضع ثوان. ولو أن الأستاذ عزيز عيد عمد إلى هذه الطريقة أو قارب بينها وبين طريقته لما أضطر إلى

حذف أربعة مناظر حتى لا يتأخر التمثيل عن منتصف الثانية صباحاً. فهل للمخرج أن يترفق بالجمهور؟!

تحدث معي أحد المعجبين بالأستاذ عزيز مؤيداً وجهة نظره في عرض المناظر في بناء كامل فهو يراها خير من استعمال الستائر مع (الفوندو)، وإني أخالف هذا الرأي، فأن استخدام الطريقة الثانية أجل إذ هي تجعل الجمهور أكثر انتباها وأكثر استخداما لعقله من

الطريقة الأولى، وهذه الطريقة هي طريقة بدائية. ولو أنك عهد إلى ممثل مبتدأ باعداد مناظر رواية كبيرة لما فكر إلا في اختبار مناظر كاملة البناء لكل فصل وكل منظر من مناظر الرواية. أما الطريقة الأخرى فلا يلجأ إليها إلا الفنان القوي الذي يتغلب على الصعاب ويلجأ إلى كل جديد؛ واعتقادي في عزيز أنه يستطيع هذا، ولكن لا أدري لم لا يفعل؟

والإضاءة عادية تحتاج إلى بعض العناية؛ ويجب على المخرج أن يستخدمها اكثر من ذلك لتساعد ممثليه على قوة التعبير. وهناك بعض الاضطراب في إضاءة منظر المقابر ولا أظنه إلا خطأ غير مقصود نتيجة الإسراع، وأرجو أن يتلافاه رجال المسرح كما أرجو ألا يضاء الستار الحريري بضوء قوي صارخ بعد المناظر المؤثرة لأن هذا الضوء يضيع الأثر الحزين من النفوس.

لا يتسع لي المجال للتحدث عن التمثيل بإفاضة، واكتفي اليوم بأن اذكر أن جميع الأفراد قد أدوا جهوداً كبيرة في سبيل نجاح هذه الرواية؛ ولكني أحب أن ألفت نظر الأستاذ جورج أبيض إلى أنه لم يكن مستذكراً دوره، فكان صوت الملقن يرتفع لأسماعه فيصل ألينا في المقاعد الخلفية؛ وموقفه كذلك مع عباس فارسالذي يعترف له بأنه القاتل لا يحتاج إلى هذه الثورة وهذا الإلقاء التراجيدي. والآنسة زوزو الحكيم عليها أن تعني بالإلقاء ومخارج الألفاظ وبتلوين جملها؛ أما الآنسة أمينة نور الدين فكانت تلقي جملها في خشونة تشبه خشونة الرجال، وأرجو أن تترفق بالنظارة قليلاً وتخفف من حدتها؟

يوسف تادرس

العدد 179 - بتاريخ: 07 - 12 - 1936

بعد المعاهدة

استقلال اللغة

استقلال اللغة مظهر استقلال الذات؛ ووحدة اللسان جزء من معنى الأمة، واتحاد البيان سبيل إلى توحيد الرأي والهوى والثقافة. فإذا سمعت امرأ يتكلم غير لغته من دون ضرورة، أو يلهج غير لهجته من دون مناسبة، فلا يخامرك شك في أنه كذلك في خليقته وعقيدته ونمط تفكيره وأسلوب عمله. وإذا رأيت أمة تدير في أفواهها ألسنة الأمم، وتستعير في أعمالها دلالات الناس، فلا تتردد في الحكم عليها بالتبعية المدنية والعبودية الأدبية والوجود الملفق. وإذا شق عليك أن ترى في الأرض هذه الأمة، أو تسمع في الأمة ذلك الإنسان، فتحامل على شعورك وجل جولة في إحدى عواصم مصر. فهنا أو هناك تجد في معارض التجارة، ودور الصناعة، وبيوت المال، وأماكن اللهو، خليطا من الناس كجيش الدمستق.

تجَّمع فيه كل لَسْنٍ وأمة ... فما يُفهم الحدَّاثَ إلا التراجم

تدخل متجرا من المتاجر، أو مصرفا من المصارف، أو مقصفا من المقاصف، أو شركة من الشركات، فلا تقرأ في الإعلانات والمستندات إلا كتابة أجنبية، ولا تسمع في المحادثات والمفاوضات إلا لغة أجنبية. فإذا حرصت على أن تتفاهم بالعربية لاعتزازك بها أو لجهلك بغيرها، تضاءلت في رأى مخاطبك فينظر إليك بشطر عينه، ويكلمك ببعض شفته، وربما صغرت وصغرت حتى يستسر عليه مرآك فلا يحفلك. وتغشى قصرا من قصور الأمراء أو دورا من دور الكبراء، فتسمع النادين يتطارحون الحديث بالفرنسية أو التركية، فإذا شاركتهم فيه بلغتك، وقروا آذانهم عن سماعك، لأنك نقلت الحديث الخطير إلى لغة السوقة، وأنزلت البهو الوثير إلى مجلس العامة، وتلقى أبناء (الذوات) في المشارب والملاعب والأندية، فتسمعهم يتراطنون بلغة مشوهة التأليف، مدخولة الوضع، بغيضة اللهجة، من نحو قولهم: يا وداشئ)، ' أطلع ولو وجدت في هذا الخلط تظرفاً من أولئك الأيفاع المدللين الذين نشأتهم المهود الأرستقراطية، وثقفتهم

المدارس الأجنبية، فإنك لا تجد فيه غير حمى الروح إذا تكلفه من درج في البيئات الشعبية، وخرج من المعاهد الدينية. فقد حدثوا أن شيخاً من شيوخ اللغة ومعلميها أوفدته وزارة المعارف إلى إنجلترا ليلم بطرائق التعليم ومذاهب التربية؛ فمكث تحت ضباب لندن عاما أو عامين ثم عاد، فإذا لسانه قد اعوج وسمته قد تبدل! يكلمك فتسمع من وراء (البيبة) كلاماً عربي الحروف سكسوني المخارج! فإذا تمضمض بالجملة أو الجملتين في المعنى المألوف توقف وتأفف، ثم راح يزاوج في الفقرة الواحدة بين العربية والإنجليزية، لأن العربية أصبحت أمام الخاطر ألد فاق، والخيال السباق، والمعاني الجديدة، أعجز من أن تسعف اللسان وتجاري البيان وتحدد الفكرة!

كل ذلك كنا نراه فنشعر بالغربة وسط الدار، وبالذلة بين الأهل، وبالتبعية تحت العلم. وكل ذلك كنا نسمعه فنحمل الآذان على مكروهه، ونروض الأنفس على أذاه، لأن أمورنا كانت في كل ناحية من نواحي الحياة شذوذا لا يستقيم في عقل، ونشوزا لا يتسق في شعور. فلما أذن الله لوجودنا أن يتميز، ولاستقلالنا أن يتم، كان من المحتوم على أولياء العهد الجديد أن يعالجوا الضعف الذي يوهن وثبات العزة، ويزيلوا النقص الذي يعوق خطوات الكمال.

تريد اللغة العربية من أولياء العهد الجديد أن يطردوا الاحتلال اللغوي من الشركات والبنوك كما طردته تركيا، فيمدوا لها أسباب السيادة، ويهيئوا للعاطلين وسائل العمل، ويضمنوا للأهليين صحة التعامل، ويمصروا هذه البيوت التي تطاول الحكومة في النفوذ، وتجابه الأمة بالعجز، ويشتمل كل منها على دولة وسفارة وامتياز. تريد العربية أن تكون لسان العلم في المدارس الأجنبية، وفي كليات الجامعة المصرية، فإن التعليم باللغة الأوربية ينقل بعض الأفراد إلى العلم، ولكن التعليم باللغة الوطنية ينقل كل العلم إلى الأمة. وما دام للغة مجمع لغوي قوي يساعدها على النمو، فلن يخشى عليها في الطريق قصور ولا فشل.

تريد العربية أن تأخذ مكانها الشرعي في المحاكم المختلطة ريثما تدك قواعدها المعاهدة. فإن من أعجب الأمور أن يضيع القانون بين قوم يعيشون بالقانون، ويزهق العدل في دار أقيمت للعدل. وقد كان الإغضاء على ذلك يحمل على مصانعة القوة ومخادعة السياسة، ولكنه اليوم لا يحمل إلا على تفريط العجز وترويض الاستكانة.

كذلك تريد العربية أن تطهر من شوائب التركية في الدواوين والقوانين والمدارس والجيش، فلا تحب أن يداخلها بعد اليوم باشكاتب ونوبتجي وبوستجي وقلفة وطابور ويمكخانة ويوزباشي وصاغ وأميرالاي الخ. ولنا فيما يعمل الترك والفرس بالعربية مثل ماثل ودافع محرض.

ذلك ما تريده اللغة من الحكومة. أما ما تريده من الأمة فذلك شيء تلهمه العزة وتمليه الكرامة؛ فإن لغة المرء تاريخه وذاته؛ فالغض منها غض منه، والتفضيل عليها تفضيل عليه، ولا يرضى لنفسه الضعة والصغار إلا مهين أو عاجز.

أحمد حسن الزيات

القلب المسكين - 5

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

أما صاحب القلب المسكين فتزعزعت كبده مما رأى؛ وجعل ينظر إلى هذه الفتانة تمثل زفاف العروس وقد أشرق فيها رونقها وسطعت ولمعت فبدت له مفسرةً في هذه الغلائل غلائل العرس؛ وما غلائل العرس؟

إنها تلك الثياب التي تكسو لابستها إلى ساعة فقط. . . ثياب أجمل ما فيها أنها تقدم الجمال إلى الحب، فأزهى ألوانها اللون المشرق من روح لابستها، وأسطع الأنوار عليها النور المنبعث من فرح قلبين.

تلك الثياب التي تكون سكباً من خالص الحرير ورفيع الخز، وحين تلبسها مثل هذه الفاتنة تكاد تنطق أنها ليست من الحرير، إذ تعلم أن الحرير ما تحتها. . .

ثم تنهد المسكين وقال: أفهمت؟

قلت: فهمت ماذا؟

قال: هذا هو انتقامها

قلت: يا عجبا! أتريدها في ثياب راهبة؛ مكبكبة فيها كما ألقيت البضاعة في غرارة، بين

سوادٍ هو شعار الحداد على الأنوثة الهالكة، وبياض هو شعار الكفن لهذه الأنوثة؟
قال: أنت لا تعرفها؛ إن الرواية التي تمثل فيها بين الروح والجسم، هي التي احتاجت إلى هذا الفصل يقوي به المعنى؛ وكل عاشقة فعشقها هو الرواية التي تمثل فيها، يؤلفها هذا المؤلف الذي اسمه الحب؛ ولا تدري هي ماذا يصنع وماذا يؤلف، غير أنه لا يفتأ يؤلف ويضع وينقح كما تتنزل به الحال بعد الحال، وكما تعرض به المصادفة بعد المصادفة؛ وعليها هي أن تمثل. . .
قلت: فهذا، ولكن كيف يكون هذا انتقاما؟
قال: إن الأفكار أشياء حقيقية، ولو كشف لك الجو هذه الساعة لرأيته مسطوراً عباراتٍ عبارات كأنه مقالة جريدة. هذا الفصل حوار طويل في الهموم والآلام ورقة الشوق وتهالك الصبوة؛ لو كتب له عنوان لكان عنوانه هكذا: ما أشهاها وما أحظاها! إن الهواء بين كل عاشقين متقابلين يأخذ ويعطى. . .
قلت: يا عدو نفسه ما أعجب ما تدقق. لقد أدركت الآن أن المرأة تتسلح بما شاءت لا من أجل أن تدافع، ولكن لتزيد أسلحتها في سلاح من تحبه فتزيده قوةً على قهرها وإخضاعها. . .
أما هذه (العروس) فكانت أفكارها لا تجد ألفاظاً تحدها فهي تظهر كيفما اتفق، مرسلةً إرسالاً في اللفتة والحركة والهيئة والقومة والقعدة، وهي من علمت: امرأة تعيش للحقائق، وبين الحقائق، ككل ذي صنعة في صنعته، فكانت في تماديها خطراً أي خطر على صاحب القلب المسكين، تمثل شيئاً لا أدري أهو ظاهر بخفائه أم هو خافٍ بظهوره؛ وقد وقع صاحبنا منها فيما لم يدخل في حسابه، فكانت الخبيثة الماجنة كأنها تسكره بمسكرٍ حقيقي غير أنه من جسمها لا من زجاجة خمر.
وكانت لذهنه المتخيل كالسحابة الممتلئة بالبرق؛ تومض كل لحظة بأنوار بعد أنوار، وبين الفترة والفترة ترمي الصاعقة. . .
وظهرت كأنها امرأة مخلوقة من دم ولهب؛ فلقد أيقنت حينئذ أن الحب إن هو إلا الغريزة البهيمية بعينها محاولة أن تكون شيئا له وجود فني إلى وجوده الطبيعي، فهو مصيبتان في واحدة، وكل عمله أن يجعل اللذة ألذ، والألم أشد، والقلة كثرة، والكثرة أكثر، وما هو نهاية كأنه لا نهاية.
هذه (العروس) كانت قبل الآن واقفة على حدود صاحبها، أما الآن فإنها تقتحم الحدود وتغزو غزوها وتمتلك.
يا لسحر الحب من سحر! كل ما في الطبيعة من جمال تظهره الطبيعة لعاشقها في إحدى صور الفهم. أما الحبيب الجميل فهو وحده الذي يظهر لعاشقه في كل صور الفهم، وبهذا يكون الوقت معه أوقاتاً مختلفة متناقضة، ففي ساعة يكون العقل، وفي ساعة يكون الجنون.
يا لسحر الحب! لقد أرادت هذه المرأة أن تذهب بعقل صاحبها، وأن تنقله إلى وحشية الإنسان الأول الكامن فيه، وأن تقذف به إلى بعيدٍ بعيدٍ وراء فضائله وعصمته؛ فسنحت له كما يسنح الصيد للصائد يحمل في جسمه لحمه الشهي. . . وتركت شعوره جائعاً إلى محاسنها بمثل جوع المعدة. . . وبرزت له صريحة كما هي، ولما هي، ومن حيث أنها هي هي؛ وكل ذلك حين ألبست جسمها ثياب الحقيقة المؤنثة.
آه من (هي) إذا امتلأت الهاء والياء من قلب رجل يحب! وآه من (هي) إذا خرجت هذه الكلمة من لغة الناس إلى لغة رجل واحد!
إن في كل امرأة. . . امرأة يقال لها (هي) باعتبار الضمير للتأنيث فقط كما يعتبر في الدابة والحشرة والأداة ونحوها من هذه المؤنثات التي يرجع عليها هذا الضمير؛ ولكن (هي) المفردة في الكون كله لا توجد في النساء إلا حين يوجد لها (هو). . . . . .
أنا أنا الذي يقص للقراء هذه القصة، قد كابدت من شدة الحب وإفراط الوجد ما يملأ قلبين مسكينين لا قلباً واحداً؛ وكانت لي (هي) من إلهيات عانيت فيها الحب والألم دهراً طويلاً؛ وقد ذهبت بي في هواها كل مذهب إلا مذهباً يحل حراماً، أو مذهباً يخل بمروءة؛ ولقد علمت أن الشيء السامي في الحب هو ألا يخرج من العاشق مجرم.
فالشأن كل الشأن أن يستطيع الرجل الفصل بين الحب من أجل جمال الأنثى يظهر عليها، وبين الحب من أجل الأنثى تظهر في جمالها. فهو في الأولى يشهد الإلاهية في إبداعها السامي الجميل. وفي الأخرى لا يرى غير البشرية في حيوانيتها المتجملة. . .

وقد أدركت من فلسفة الحب أن الحقيقة الكبرى لهذا الجمال الأزلي الذي يملأ العالم - قد جعلت حنين العشق في قلب الإنسان هو أول أمثلتها العملية في تعليمه الحنين إليها إن شاء أن يتعلم. فكما يحب إنسان بروح الشهوة يحب إنسان آخر بروح العبادة؛ وهذا هو الذي يسميه الفلاسفة (تلطيف العسر) أي جعله مستعدا للتوجه إلى النور والحق والخير، وقد عدوا فيما يعين عليه الفكر الدقيق والعشق العفيف.

وكذلك تبينت مما علمني الحب أن طرد آدم وحواء من الفردوس، كان معناه ثقل معاني الفردوس وعرضها لكل آدم وحواء يمثلان الرواية. . . فإذا (قطفا الثمرة) طردا من معاني الجنة طردا كهوَ من الجنة، وهبطا بعد ذلك من أخيلة السماء إلى حقائق الأرض.

نعم هو الحب شيء واحد في كل عاشق لكل جميل، غير أن الفرق بين أهله يكون في جمال العمال أو قبح العمل. وهذه النفوس مصانع مختلفة لهذه المادة الواحدة؛ فالحب في بعضها يكون قوة وفي بعضها يكون ضعفاً؛ وفي نفس يكون الهوى حيواناً يراكم الظلمة على الظلمة في الحياة، وفي أخرى يكون روحانياً يكشف الظلام عن الحياة.

والمعجزة في هذا الإنسان الضعيف أن له مع طبيعة كل شيء طبيعة الإحساس به، فهو مستطيع أن يجد لذة نفسه في الألم، قادر على أن يأخذ هبة من معاني الحرمان. وبهذه الطبيعة يسمو من يسمو، وهي على أتمها وأقواها في عظماء النفوس حتى لكأن الأشياء تأتي هؤلاء العظماء سائلةً: ماذا يريدون منها؟

فمن أراد أن يسمو بالحب فليضعه في نفسه بين شيئين: الخلق الرفيع والحكمة الناضجة، فأن لم يستطع فلا أقل من شيئين الحلال والحرام.

أنا أنا الذي يقص للقراء هذه القصة، أعرف هذا كله، وبهذا كله فهمت قول صاحب القلب المسكين: إن ظهور صاحبته في فصل العروس هو انتقامها، حاصرت عيناها عينيه، وزحفت معانيها على معانيه، وقاتلت قتال جسم المرأة المحبوبة في معركة حبها، وبكلمة واحدة: كأنما لبست هذه الثياب لتظهر له بلا ثياب. . .

وأردت أن أعيبها بما صنعت نفسها له، وأن أعيبه هو بدخوله فيما لا يشبهه، وقلت في غير طائل ولا جدوى، فما كنت إلا كالذي يعيب الورد بقوله: يا عطر الشذى ويا أحمر الخدين.

وقد أمسك عن جوابي وكانت محاسنها تجعل كلماتي شو هاء، وكان وضوحها يجعل معاني غامضة، وكانت حلاوتها تجعل أقوالي مرة، وكانت ثياب العروس وهي تزف تريه ألفاظي في ثياب العجوز المطلقة. وكلما غاضبته مع نفسه أوقعت هي الصلح بينه وبين نفسه.

والعجيب العجيب في هذا الحب أن فتح العينين على الجميل المحبوب هو نوع من تغميضهما للنوم ورؤيا الأحلام؛ ليس إلا هذا ولا يكون أبداً إلا هذا. فمهما أعطيت من جدل فإقناعك المحب المستهام كإقناعك النائم المستثقل؛ وكيف وله ألفاظ من عقله لا من عقلك، وبينك وبينه نسيانه إياك، وقد تركك على ظاهر الدنيا وغاص هو في دنيا باطنه لا يملك فيها أخذاً ولا رداً إلا ما تعطي وما تمنع.

ثم. . . ثم غابت (العروس) بعد أن نظرت له وضحكت ضحكت بحزن حزن الذي يسخر من حقيقة لأنه يتألم من حقيقة غيرها. . . وكان منظرها الجميل المنكسر فلسفة تامة مصورة، للخير الذي اعتدى عليه الشر فأحاله؛ والإرادة التي أكرهها القدر فأخضعها؛ والعفة المسكينة التي أذلتها ضرورة الحياة؛ والفضيلة المغلوبة التي حيل بينها وبين أن تكون فضيلة ويا ما كان أجملها ناظرة بمعاني البكاء ضاحكة بغير معاني الضحك؛ تتنهد ملامح وجهها وفمها يبتسم.

كان منظرها ناطقاً بأن قلبها الحزين يسأل سؤالاً أبداه على وجهها بلطف ورقة؛ كان يسأل إنساناً: ألا تحل هذه العقدة. . .؟

وانقضى التمثيل وتناهض الناس

أما صاحب القلب المسكين؟

(يتبع)

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

تطور خطير في السياسة الدولية
هل تقترب نذر الحرب
بقلم باحث دبلوماسي كبير

تتابعت الحوادث الدولية في الأسبوعين الأخيرين بسرعة، وبدت في الأفق أزمات واحتمالات مزعجة يرى فيها المتشائمون نذر الحرب تجتمع وتهيئ الأسباب للاصطدام الخطر؛ ففي أسبانيا تتطور الحوادث تطوراً واضحاً، إذ يقف هجوم الثوار على مدريد، بعد أن كادت تسقط في أيديهم، وترجح قوات الجمهوريين التي تؤيدها نجدات سوفيتية قوية؛ وتسارع إيطاليا وألمانيا إلى الاعتراف بحكومة برجوس (حكومة الثوار) لكي تشد أزر الجنرال فرانكو زعيم الثورة من الوجهة المعنوية، ولكي تسبغ على حكومته صفة الدولة المحاربة فيسهل عليه تلقي النجدات الخارجية بصورة أوسع؛ وقد ظهر أثر هذا التأييد واضحاً في تصرفات الجنرال فرانكو الأخيرة؛ فقد أعلن أنه سيفرض الحصار البحري على شواطئ أسبانيا الشرقية والشمالية، وأنه سيغلق ثغور أسبانيا التي بأيدي الجمهوريين أعني برشلونة وبلنسية واليقنت ومالقة، وأن سفنه ستطلق النار على أية سفينة أجنبية تدخل هذه المياه؛ ووجه الجنرال فرانكو أيضاً إلى فرنسا إنذاراً بطلب الذهب الأسباني الذي سحبه الجمهوريون من بنك أسبانيا، وأودعوه في باريس؛ ومع أن الجنرال فرانكو لا يملك من الوحدات البحرية سوى عدة طرادات صغيرة لا تستطيع أن تضطلع بمثل هذا الحصار الخضم، فان المفهوم أنه سيعول في تنفيذ وعيده على يد الغواصات الإيطالية والألمانية؛ وقد ظهر أثر هذه المعاونة البحرية سريعاً في إصابة الطراد الجمهوري (سيرفانتيس) من مقذوف بحري أطلقته عليه غواصة أجنبية؛ على أن الجنرال فرانكو لم يلبث إزاء موقف إنكلترا وتشددها في عدم اعتبار صفة شرعية لحكومة الثوار، ومطالبتها بالا يتعدى الحصار المياه القومية، أعني مدى الثلاثة أميال المقررة في القانون الدولي، وأن تعين منطقة محايدة لرسو السفن الأجنبية، أن اضطر إلى تعديل موقفه والتسليم بهذه المطالب التي أيدتها إنكلترا بإجراء بعض المناورات البحرية الضخمة في المياه الأسبانية.

وظاهر من هذه الخطوة التي اتخذها الجنرال فرانكو، بتحريض الدول الفاشستية أعني إيطاليا وألمانيا وتأييدها المعنوي والمادي، أنه يقصد وقف المساعدات القوية التي تتلقاها

الحكومة الجمهورية من روسيا السوفيتية عن طريق برشلونة وبلنسية، ومطاردة السفن الروسية التي ترد بلا انقطاع إلى هذه المياه مشحونة بالذخائر والمؤن، وهي معاونة كان لها أكبر الأثر في إحباط هجوم الثوار على مدريد، وفشل خطط الجنرال فرانكو فشلاً قد يؤدي إلى انهيار الثورة بصورة نهائية؛ وظاهر أيضاً أن فشل الجنرال فرانكو إنما هو فشل لألمانيا وإيطاليا اللتان تؤيدانه منذ البداية وتمدانه بكل أنواع المعاونة في البر والبحر والهواء؛ ولهذا بادرت الدولتان الفاشستيان إلى الاعتراف بحكومة برجوس ستراً لهذا الفشل، وإلى دفع الجنرال فرانكو إلى إعلان الحصر البحري وتأييده بإرسال الغواصات إلى المياه الأسبانية لمحاولة اعتراض السفن الروسية أو الأجنبية الأخرى التي تحمل الذخائر والمؤن للحكومة الجمهورية.

بيد أنه يشك كثيراً في أن يكون لهذا الإجراء أثره المنشود، ذلك لأن روسيا السوفيتية أبدت أنها لن تعبأ به، وأنها ستقاوم العنف بالعنف إذا اعتدى على سفنها، وما زالت السفن الروسية ترد إلى برشلونة وبلنسية تحرسها وحدات بحرية روسية؛ وهذا مما يجعل الموقف في هذه المياه في منتهى الدقة والخطورة خصوصاً بعد أن ثبت وجود بعض القوات الإيطالية في جزيرة ميورقة تجاه بلنسية، ووجود بعض الطرادات والغواصات الإيطالية في مياهها، هذا فضلا عن أن إنكلترا تهتم بالحالة في تلك المياه اهتماماً شديداً وتجوسها بعض وحدات أسطولها، وكذلك فرنسا، فأن وقوع هذه المياه على مقربة من شواطئها، ثم في طريق الجزائر يحملها على أن تشاطر إنكلترا اهتمامها، وأن ترقب الحالة مع الاستعداد لكل طارئ.

وهكذا نرى هذه المعركة التي تضطرم في الظاهر في أسبانيا بين الجمهورية وخصومها تبدو في صورتها الحقيقية صراعاً بين الفاشستية والديموقراطية حسبما بينا من قبل غير مرة؛ وهي تبدو اليوم في هذه الصورة واضحة تؤيدها الأدلة المادية الظاهرة، فمن وراء الجنرال فرانكو تعمل إيطاليا وألمانيا والبرتغال بصورة منظمة

مستمرة؛ وتعمل روسيا السوفيتية لمعاونة حكومة مدريد الجمهورية بكل ما وسعت، وتؤيدها فرنسا وإنكلترا بصورة مستترة؛ وقد شرحنا من قبل ما ترتبه الدول الفاشستية من المطامع والأماني على إضرام نار الحرب الأهلية في أسبانيا بهذه الصورة، والسعي بواسطة الجنرال فرانكو إلى إقامة حكومة فاشستية في أسبانيا تعضد نفوذ إيطاليا وألمانيا في غرب البحر الأبيض المتوسط، وتحقق لهما بعض المغانم الاستعمارية في جزر البليار والكناري، وربما في مراكش الأسبانية؛ وبينا أيضاً ما يحمل الدول الديموقراطية أعني إنكلترا وفرنسا على مقاومة هذه المحاولة وإحباطها؛ وإذا كانت الدولتان الديموقراطيتان لا تعملان لمعاونة أسبانيا بصورة ظاهرة، فأنهما تعتمدان في هذه المعاونة على روسيا، وتؤيدان مساعيها في هذا السبيل؛ وهناك بالأخص نقطة تلفت النظر؛ وهي أن الأسطول الروسي الذي يحمل المؤن والذخيرة إلى حكومة مدريد يسير بعيداً عن قواعده لنجدة الجمهوريين، ويغامر بالظهور في مياه أجنبية، وقد يتعرض لاعتداء الغواصات الألمانية والإيطالية؛ ولكن لا ريب في أن روسيا لا تقدم على مثل هذه المغامرة إلا وهي معتمدة على تفاهمها مع إنكلترا، وعلى حماية الأسطول الإنكليزي وإمكان استخدام المياه الفرنسية لحماية سفنها وقت الخطر.

وقد لاح مدى لحظة أن قوات الجنرال فرانكو تكاد تكتسح كل شيء في طريقها وتستولي على مدريد بأيسر أمر؛ ولكن الحوادث تطورت بسرعة وتحطم هجوم الثوار على مدريد، وبدا التفوق في جانب الجمهوريين واضحاً، وربما كان هذا الفشل مقدمة انهيار الثورة الأسبانية، والخطط الفاشستية التي تؤيدها.

على أن هناك غير حوادث أسبانيا عدة تطورات وحوادث دولية خطيرة أخرى زادت في حرج الموقف ودقته. ذلك أن السياسة الفاشستية نشطت أخيراً إلى مضاعفة جهودها في سبيل تقوية جبهتها ضد أوربا الغربية بوجه عام، وروسيا السوفيتية بوجه خاص؛ فبعد أن عقدت ألمانيا وإيطاليا تحالفهما المعروف ضد (البلشفية)، وبعد أن اتفقتا على تقسيم أوربا الوسطى إلى منطقتي نفوذ سياسي واقتصادي، تتعاونان في استغلالهما وتوجيههما مع اختصاص ألمانيا بالعمل في تشيكوسلوفاكيا، واختصاص إيطاليا بالعمل في المجر، واشتراكهما معاً في العمل في النمسا، فاجأت ألمانيا العالم بعقدها تحالفاً مع اليابان اتخذت مكافحة البلشفية والثورة العالمية التي تعمل روسيا لإضرامها ستاراً له، وهذه الحجة الظاهرة، أعني مكافحة البلشفية هو الشعار الذي تستتر به ألمانيا في سياستها الحالية وتقرنه بالتهويل في وصف الخطر البلشفي ووجوب اتحاد أمم العالم على مقاومته وإنقاذ المدنية من شره؛ بيد أنه يظن أن الاتفاق الألماني الياباني، رغم ما نشر من نصوصه، يبطن تحالفاً عسكرياً سرياً، ويقصد إلى غايات خطيرة أخرى تتلخص في تعاون اليابان وألمانيا على مقاومة روسيا وتهديدها في الشرق الأقصى، وفي أوربا؛ وتدعيم الخطط الاستعمارية اليابانية في الصين والشرق الأقصى، نظير تدعيم الخطط الألمانية العسكرية والاستعمارية في شرق أوربا وفي غربها إذا اقتضى الأمر؛ وبعبارة أخرى يمكن اعتبار التحالف الألماني الياباني رداً على التحالف الفرنسي الروسي الذي اعتبرته ألمانيا موجهاً ضدها.

وقد كان لعقد هذا التحالف الألماني الياباني وقع شديد في أوربا وأمريكا معاً؛ ومع ما قدمته ألمانيا واليابان من الإيضاحات لتخفيف وقع التحالف، فأن الغاية من عقده لم تخف على أحد؛ ولم تقتنع الدول الكبرى بصحة الزعم الذي اتخذ ستاراً لعقده، وهو التعاون على مكافحة البلشفية، لأن البلشفية نظام داخلي يخص روسيا وحدها، وفي وسع الدول التي تخشى من تسربه إليها أن تقاومه داخل أرضها بوسائلها الخاصة؛ ولدى ألمانيا واليابان أشد الوسائل الداخلية لمكافحة البلشفية وغيرها من الأنظمة غير المرغوب فيها؛ وترى إنكلترا وفرنسا وأمريكا في عقد هذا التحالف خطراً على مصالحها في الشرق الأقصى، لأنه يعاون اليابان في تنفيذ خطتها لاستعمار الصين الجنوبية، ويقوى مركزها في المحيط الهادي على حساب أمريكا وإنكلترا، وقد كانت هذه الدول ترى في التوازن الياباني الروسي في الشرق الأقصى نوعاً من الضمان لمصالحها، فإذا قضى على هذا التوازن، واستطاعت اليابان أن تطلق يدها في شؤون الشرق الأقصى اعتمادا على انشغال روسيا بحماية حدودها الغربية من مطامع ألمانيا،

أصبح التفوق الياباني خطراً على مصالح الدول الغربية وسيادة أمريكا في المحيط الهادي.

والظاهر أن ألمانيا تحاول أن تحشد في هذه الجبهة الجديدة كل الدول التي تميل إلى التعاون معها وفي مقدمتها إيطاليا، وهي تعمل لذلك الغرض بنشاط مضاعف؛ ومن المشكوك فيه أن تستطيع ألمانيا أن تحشد في تلك الجبهة الشرقية دولاً أخرى، وإن كانت إيطاليا تميل إلى تأييدها من الوجهة المعنوية، لأن إيطاليا مع صفتها الفاشستية العميقة لا تذهب في خصومة روسيا إلى الحد الذي تذهب إليه ألمانيا، والواقع أنه إذا كانت ألمانيا قد استطاعت بتحالفها مع اليابان أن تقوي مركزها ضد روسيا السوفيتية فإنها قد أثارت بعقده

في نفس الوقت شكوكاً ومخاوف جديدة، ففرنسا وروسيا تريان فيه خطراً جديداً عليهما يجب أن يقابل بمضاعفة الجهود في التسليح والاستعداد، وإنكلترا وأمريكا تتوجسان شراً من تطور الأحوال في الشرق الأقصى تطوراً قد يضطرهما إلى العمل لصون مصالحهما؛ فهذه الظروف مع ازدياد الشك في نيات ألمانيا ومطامعها العسكرية والاستعمارية يثير حول سياستها ريباً ما كان أغناها عن إثارتها، ويجعل مزايا التحالف الجديد ضئيلة بالقياس إلى ما أحدثه من رد فعل عميق.

هذا، ومن جهة أخرى فأنه مهما كانت مزايا هذا التحالف من الوجهة العسكرية، فان الدول التي تقصدها ألمانيا بعقده، وهي فرنسا وروسيا، هما الآن أعظم الدول استعداداً من الوجهة العسكرية، وكلتاهما تتمتع بتنظيمات دفاعية وموارد عسكرية هائلة، ومهما قيل في استعداد ألمانيا الحربي من الوجهة الفنية، فإنها فقيرة في المال والمواد الأولية؛ وفرنسا تعني بمضاعفة جهودها في التسلح والدفاع ولا سيما في الأشهر الأخيرة التي ظهرت فيها ألمانيا بمظهر الوعيد والتحدي؛ وكذا روسيا فإنها مذ أدركت خطر السياسة النازية العسكرية على حدودها الغربية، انضمت إلى جبهة الدول الغربية، وعقدت ميثاق التحالف مع فرنسا؛ وفرنسا لا يمكن أن تترك روسيا وحيدة إذا هاجمتها ألمانيا، لأن بقاء روسيا قوية سليمة مما يهم فرنسا كضمان لسلامتها؛ وعلى ذلك، فإذا اندفعت ألمانيا في سياستها العسكرية الخطرة، وعملت على إثارة الحرب في شرق أوربا بصورة من الصور، فلا ريب أن الحرب ستقع أيضاً في غرب أوربا، وعندئذ تقع حرب عالمية أخرى.

والخلاصة أن الأفق الدولية مثقل بالسحب؛ ومما يلفت النظر في ذلك كله أن الفاشستية تلعب في إثارة هذه الأزمة الدولية الدقيقة أكبر دور، ولا تحجم عن تغذية الاتجاهات والشهوات العسكرية الخطرة بكل ما وسعت؛ وقد شرحنا في مقال سابق ما تنطوي عليه سياسة الدول الفاشستية، أعني ألمانيا وإيطاليا، من المغامرة وقصر النظر، وبينا أن الخطر على سلام أوربا وسلام العالم يرجع قبل كل شيء إلى هذه السياسة الخطرة. بيد أنه مما يبعث إلى نوع من الطمأنينة أن تكون الدول الغربية، أعني فرنسا وبريطانيا العظمى قد فطنتا إلى الخطر في الوقت المناسب، واستطاعتا أن تصلا في تحقيق التسليح والتنظيمات الدفاعية إلى حدود بعيدة؛ فإذا أضفنا إلى ذلك أن كفة روسيا إنما هي دائماً مع الدول

الغربية، فأن مما يشك فيه أن تذهب الفاشستية الصاخبة إلى المغامرة بإثارة حرب تلقى فيها مثل هذه القوى الساحقة؛ وإذا كان ثمة سحب وأزمات خطيرة تكدر أفق السياسة الدولية، فلسنا مع ذلك نذهب مع المتشائمين إلى حد الاعتقاد بأنها نذر الحرب، وأن الحرب قد غدت على وشك الاضطرام.

(* * *)

التنكر

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

قلت مرة لنفسي: (لماذا لا أخرج للناس متنكراً كما كان يفعل الولاة والسلاطين والخلفاء وفيما تحدثنا الروايات أو الخرافات؟).

وليست لي رعية أتفقدها، ولا لي شعب أتعهد مرافقه ومراشده، ولكن هذا الخاطر استبد بي مع ذلك فلم يسعني إلا أن أجري معه إلى حيث يوميء؛ والتنكر فن، وإتقانه لا يتسنى إلا بالتدريب، ولكن قلت إن الله ركب لي في وجهي عينين أنظر بهما، وعندي مرآة تستطيع أن تريني هل وفقت أو أخفقت، وفي وسعي أن أعيد التجربة مرة

وأخرى فلا أبرز للناس إلا وأنا مطمئن القلب.
وقد كان. اشتريت لحية كثة طويلة - شبراً وبعض شبر إذا أردت الدقة - وشاربين وحاجبين، ومسحوقاً أبيض أنفضه على شعر رأسي، وشرعت أجرب - أعني ألصق هذه الأشياء بوجهي، وعيني على المرآة، وكنت أوصد الباب علي، وأنا أفعل ذلك، لأضمن الوحدة، ولأني اعتزمت أن أجعل التجربة الأولى في بيتي. فلما وثقت أني قد أحكمت التنكر، وأني أستطيع أن أقوم وأقعد وأمشي، وأحرك رأسي، وألمس لحيتي، وأفتح فمي، وأرفع حاجبي على هيئة المستغرب، وأضحك وآكل وأشرب من غير أن تسقط اللحية أو ينحرف أحد الحاجبين عن قوسه، أو يتدلى شارب، على حين يبقى الآخر مفتولاً - خرجت على أهلي، وعلى وجهي هذه الأشياء، وفي يدي عصا غليظة أتوكأ عليها وقد تقوست قناتي من الهرم، فلم تكد تقع علي العيون في مدخل الباب حتى صرخت أمي وجدتي وأسرعتا فسترتا وجهيهما عن هذا الشيخ الغريب؛ وكان أخي الصغير معهما فوثب إلى قدميه وصاح بي يسألني أنا من؟ ويأمرني أن أخرج، وينعتني بقلة الحياء وسوء الأدب ويهددني بالشرطة، وأنا أقول له بصوت يرعش من الكبر وما يجره من الضعف (حلمك، حلمك يا بني!) فيأبى أن يكون حليماً، ولا يعبأ بشيخوختي، ولا يترفق بوهني البادي، ويدفعني عن الباب فأكاد أسقط على الأرض؛ فأنه صبي قوي، وأنا شيخ هم أقوم على العصا، فلم تبق لي حيلة إلا الخروج من البيت كما أمر. . .
خرجت مطمئناً واثقاً؛ وإذا كان أخي - ابن أمي وأبي - لم يعرفني فكيف يعرفني الإخوان
والخلان؟ ومن ذا الذي يمكن أن يفطن إلى أن هذه الغابة التي زرعتها حول وجهي وسترت بها شبابي جليبة؟ وكان انخداع أخي - لا أمي ولا جدتي - هو الذي أراح بالي، ونفي عني الخوف؛ لأن فزعهما واستحياءهما منعا أن ينظرا ويحدقا؛ أما أخي فأمره مختلف جدا، وقد كان يمسك بكتفي ويهزني ويدفعني ويحدق في وجهي متعجباً لجرأتي، منكراً لتطفلي. ومع ذلك لم يعرفني!
ومضيت إلى شارع الدواوين، وكنا - إخواني وأنا - نختلف إلى (القهوة) فيه، ونقضي هناك بعض الوقت، نشرب (الخشاف) ونتبارى في لعب (الطاولة) ونصغي إلى الفونغراف وننظر إلى الرائحين والغادين، فلقيت في بعض الطريق أحد هؤلاء الأخوان، فوضعت يدي على كتفه وابتسمت له وقلت:
فقال: (يظهر أنك لست من أهل (هل تستطيع يا بني أن تدلني على لاظ أو غلى الحي؟! هذا هو أمامك مسافة مائة متر لا أكثر).
قلت: (آه! لعن الله الشيخوخة! وقاتل الله الضعف! مائتا متر! يا سلام! أقول لك. . . ربنا المعين. نعم ربنا المعين) وهممت بأن أنصرف عنه، فقال: (هل تسمع بأن أتناول ذراعك وأساعدك على السير قليلاً؟)
فدعوت له بخير وبشرته، وأكدت له أن الله سيجزيه أحسن الجزاء، وتركت له ذراعي، وسرنا معاً بعض الطريق، وأنا أدب بالعصا وأقول من الضعف (إه! إه) كما يفعل الشيوخ الذين انقطعت أنفاسهم، فقد كانت اللحية التي لففت فيها وجهي عظيمة جداً وبيضاء كالقطن. وبلغنا (القهوة) المألوفة فهمست في أذنه بصوت خافت: (أقول لك يا بني؟ سأستريح هنا قليلاً. . . نعم فأن العجلة من الشيطان، ولا خير في أن يحمل المرء على نفسه ويكلفها فوق وسعها).
وجلست إلى أقرب مائدة ووضعت العصا عليها واضطجعت مغمض العينين حتى انتظمت أنفاسي وسكن اضطراب صدري، وهدأت دقات قلبي، ثم التفت إلى صديقي وقلت (الله يرحم أيام الشباب!! هل تعرف يا بني؟ لقد كنت أصعد درج السلم - مائة درجة - خمس مرات أو ستاً في اليوم، جرياً بلا تمهل أو ترفق؛ وكنت أستحم في الشتاء القارص البرد من بئر في البيت، مرتين. . . مرة في الفجر ومرة في العصر؛ وكنت أستطيع أن ألتهم
نصف الخروف وحدي فضلاً عن غيره من الألوان. . . أين هذه الأيام؟ إيه؟
وتنهدت: فقال: (يظهر أنك كنت قوياً متين الأسر في شبابك!)
قلت: (قوي؟ ولو لم أكن قوياً لما عشت إلى هذه السن. أنا أقول لك. . . كنت أتناول عيدان القصب. . . سبعة وأربطها ثم أتناولها من الطرفين وأضرب بها ساقي، فتنكسر. . . أعني العيدان هي التي كانت تنكسر لا ساقي بالطبع. . . هأ هأ. . . تنكسر ولا تبقى

قشرة واحدة تصل قطعتي عود. . . فهل تستطيع الآن - وأنت شاب - أن تصنع هذا؟)
فهز رأسه وابتسم، فقلت: (على الرغم من ضعفي الظاهر وشيخوختي العالية، لا أزال محتفظاً ببعض القوة، ولولا أن الدخان قطع نياط قلبي لما رأيتني أنهج. . . أحذر يا بني أن تعتاد التدخين! إنها نصيحة شيخ مجرب. . . نصيحة لوجه الله. نعم لا تزال في قوة باقية. . . هذه يدي. . . اقبض عليها. . . احتفظ بكل قوتك وانظر)
وفتحت له كفي، ومددت إليه ذراعي فتناول يدي كما يفعل المرء عند المصافحة، ثم قبض عليها وقبضت على يده، وضغط وضغطت. ثم بدت عليه الدهشة، وقد نسيت أن أقول إني كنت وما زلت قوي الذراعين جداً إذا اعتبرنا ضآلة جسمي، وكل قوتي في يدي، فلا عجب إذا كان قد دهش، فقلت له: (أرأيت؟؟ ألم أقل لك؟؟ وتصور كيف كنت خليقاً أن أكون لولا فعل الدخان الملعون؟؟ لقد خرب صدري من سوء تأثيره. . .)
وسحبت يدي وفركتها فقد كانت ضغطته قوية لا رفق فيها قبحه الله؛ وجاء في هذه اللحظة واحد آخر من إخواني وكان كثير العبث، فوقف ينظر إلينا ويعجب، ثم سأل صاحبه بصوت عال كأنما كان قد وثق أني أصم.
من هذا الرجل الفظيع؟)
قال: (هذا شيخ يستريح. . . اسمع. . . (لي) أعطه يدك ليمتحن قوتها. . .)
فقلت: (لا يا بني. . . تعبت. . .)
وقال: اللعين الواقف (ماذا تصنع بكل هذه اللحية؟ أليس في بيتك مقص؟ أو مخرطة؟ أو منشار؟)
فخطر لي أن أمازحه - وليتني ما فعلت - فقلت: (لا فائدة. وما غناء المقص؟؟ إنه يتقصف إذا لامسها. . . والمنشار ما حيلته في هذه الخيوط الحديدية؟؟ لا. . . لا تطمع في
محوها، فقد أعياني أمرها مذ جئت إلى هذه الدنيا. . . وقد كنت حين بدأت أتعلم المشي بعد الحبو أتعثر بها. . .)
فقهقه اللعين ثم مد يده إليها وتناول شعرات منها وفتلها كما يفتل الحبل، وأنا صابر جامد لا أتحرك مخافة أن أرتد برأسي فتتزحزح عن موضعها أو تسقط في يده، وكنت أتبسم أيضاً لأتألفه وأخجله عسى أن يكف عن لحيتي، فأطمعه حلمي، فكف عن فتل الشعرات، وتناول منها قبضة، فاضطربت، وجذب هو، أو ارتدت أنا - لا أدري - فإذا هي في يده.؟؟
وقلت بعد أن سكتت العاصفة: (ما قولكما الآن؟؟ ألم أخدعكما؟؟) وبدأت أقلد نفسي وأقول: (هل تستطيع يا بني أن تدلني على لاظ أو غلى؟. . . لقد قطع الدخان أنفاسي، فيحسن أن أستريح هنا برهة. . . أحذر يا بني الدخان، فأنك ترى ما صنع بي. . . والآن أعترف أني كنت بارعاً. . .)
فقال اللعين: (بارع؟ أنت كنت بارعاً؟. . لقد عرفتك على بعد عشرة أمتار. . . يقول إنه كان بارعاً؟؟ وأين المغفل الذي يمكن أن تخدعه هذه اللحية السخيفة؟؟. . . وعلى فكرة. . . ألا تنوي أن تخلع الشاربين والحاجبين؟؟ فأنا أخاف أن يجتمع علينا الأطفال ويتدخل الشرطة وتسوء العاقبة بها).
فنزعتها، فما بقيت بي إليها حاجة بعد زوال اللحية، ولكني لم أستطيع أن أصدق أن يكون قد عرفني كما زعم بعد أن نكرني أهلي - وأخي على الخصوص. وقد أعياني أن أعرف الحقيقة، فسكت. . . وآليت بعد ذلك ألا أبرز الناس إلا في جلدي الذي خلقه الله لي. . . .

إبراهيم عبد القادر المازني

في الأدب المقارن

أثر نظام الحكم في الأدبين العربي والإنجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

تمر الأمم في استقرارها وتحضرها بثلاثة أطوار عامة من أنظمة الحكم: ففي الطور الأول تكون أزمة الأمور بأيدي رؤساء القبائل الرحالة أو القريبة العهد بالاستقرار، وهو ضرب من الحكم أرستقراطي؛ وفي الطور الثاني تتجمع مقاليد الحكم في يد حاكم فرد يوحد أجزاء مملكة ذات مساحة يعتد بها وتخوم طبيعية، وهو نظام الملكية؛ وفي الطور الثالث يعود تصريف شؤون الدولة في أيدي جميع أبنائها القادرين، وهو النظام

الديمقراطي الذي هو أصلح الأنظمة جميعاً، إذ هو أدناها إلى العدل والمساواة وأجدرها أن يفسح المجال للمواهب الفردية ويمهد الطريق لرقي الأمة.

ومن الشعوب البدائية ما لا تتجاوز الطور الأول، ومن الأمم ما تقف عند الثاني كجميع دول الشرق القديم، ومنها ما تصل إلى الثالث كبعض مدن اليونان ورومه، وقد تعود دولة بعد بلوغ الطور الثالث فترتد إلى الثاني، لنكسة في أحوالها تحرمها التمتع بمزايا الحكم الديمقراطي وتجعل الحكم الفردي ضربة لازب، ومثال ذلك رومه حين اتسع سلطانها وأفسد الترف أخلاق أبنائها، فعجز السناتو عن تصريف شؤونها ووقع حكمها في قبضة الدكتاتوريين والأباطرة.

وقد عرف العرب الطور الثاني من أطوار الحكومة في جاهليتهم في أطراف الجزيرة، حيث ساعد خصب الأرض واستواؤها على توحد دولة متسعة وتوطد ملكية قوية، أما في سائر الجزيرة فظل الطور الأول، طور الحكم الأرستقراطي، سائداً، وبلغ بين بعض قبائلها ولا سيما في الحجاز مستوى عالياً من الأحكام؛ وكانت لأشراف العرب دراية عملية فائقة بقواعد الحكم والاجتماع. تتمثل في قول الأفوه الأودي:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ... ولا سراة إذا جهالهم سادوا

تبقى الأمور بأهل الرأي ما صلحت ... فان تولت فبالأشرار تنقاد

وهو تلخيص شعري رائع لنظريات أرسطو في السياسة. وقد نمى هذا النظام في نفوس العرب نزعات الحرية والحمية والشجاعة التي أدت إلى دوام الخصام بينهم، وأورثتهم الفخر بالعصبية والتمدح بالنسب؛ وأثر كل ذلك بين في أشعار ذلك العهد التي أغلبها تكرار مستمر للمفاخر والمآثر القبلية، وتمدح بالعز والمنعة، فإلى ذلك صرف شعراؤهم قولهم، ولم ينصرف الشعراء إلى مدح الملوك وتعداد مآثرهم دون مآثر القبيلة أو الأمة إلا حيث قامت ممالك الغساسنة والمناذرة والتبابعة، فكانت من ذلك مدائح حسان والنابغة والأعشى.

فلما جاء الإسلام خرج العرب دفعة واحدة من الطور الأول من أطوار أنظمة الحكم طور الأرستقراطية، إلى طور الملكية الذي توطدت بينهم قواعده وظلوا في حدوده لا يتعدونه إلى الطور الثالث طور الديمقراطية؛ ويرجع تمكن الملكية بين العرب بعد تعودهم التشاور في الأمور ورغم حض الإسلام على ذلك التشاور، إلى عوامل خطيرة أولها مكانة النبي عليه السلام: إذا كان أول حاكم فرد للجزيرة، وكان له من جلال النبوة وعظمة الشخصية والقدرة الخارقة ما عود العرب الامتثال لأمير مطاع؛ وزادهم انقياداً لهذا الضرب من الحكومة اقتفاء العمرين أثره في عدل الحكم ونجاحهما في الخارج والداخل، وحرص المسلمين على وحدة الكلمة والدين ما يزال يجاهد أعداءه؛ ومن تلك العوامل أيضاً اتساع أطراف الدولة العربية السريع، حتى عادت إدارتها متعذرة إلا بيد حاكم فرد مطاع؛ ومنها قيام الدولة على أنقاض ملكيات عتيدة ما لبثت تقاليدها أن سرت في كيان الدولة الجديدة؛ ومنها الصفة الدينية التي ظل يتخذها الحاكمون

لذلك هجر العرب تدريجياً تقاليد التشاور وتوطد لديهم نظام الملكية المطلقة، فكان منذ قيام دولتهم النظام الوحيد الذي عرفوه، أو فكروا فيه، فلم يقم من مفكر يهم من نادى بنظام مخالف له، أو دعا إلى ضرب من الديمقراطية؛ بل كانت الملكية لديهم هي النظام الطبيعي الذي لا نظام غيره؛ وظل لسان حالهم قول المتنبي: (وإنما الناس بالملوك)، وإنما كان أحرار هم يفرضون في الملك العدل والإصلاح واتباع أحكام الدين وإلا وجب خلعه. وعلى هذا الأساس كان خلع عثمان والوليد ابن يزيد، وامتلأ تاريخ العرب بالثورات، ولكنها لم تكن - فيما عدا ثورة الخوارج الذين تمسكوا وحدهم بتقاليد الجاهلية وديمقراطية الإسلام - تمرداً على نظام الملكية المطلقة، بل كانت ثورة مظلوم على ظالم، أو وثبة فرد بفرد، أو فتكة أسرة بأسرة؛ وفي ظل هذا ظل هذا النظام الملكي المطلق بلغ الأدب العربي غاية رقيه.

أما في إنجلترا، فساعدت الظروف المحلية الجغرافية والتاريخية على خروج الشعب من الطور الثاني إلى الطور الثالث من أنظمة الحكم، فأن عزلة الجزيرة أبعدتها عن غمار الحروب التي تتخذها الملكية ذريعة لتقوية سلطانها، وفرض الضرائب، وجمع جيش قائم يخمد كل تمرد على مظالمها في الداخل ويشيد في الخارج إمبراطورية لا

يتسق حكمها لغير الملكية، فلم يتجه الشعب الإنجليزي إلى التوسع الخارجي، ولم يبن إمبراطورية إلا بعد أن وطد أساس حقوقه وحرياته، وبنى تلك الإمبراطورية تدريجياً، فلم يستهدف لتضخم فجائي يوقع حكومته في يد دكتاتور، وبذلك ظل الشعب غنياً عن خدمات الملكية في الخارج قادراً على كبح جماحها في الداخل لقوته وضعفها، فأحرز عليها النصر الحربي في كل ثورة ثارها في وجهها، بينما كان نصيب الثورات الشعبية في الدولة العربية السحق العاجل.

ترعرع الأدب الإنجليزي وقد ثبت النظام الدستوري في إنجلترا بجانب نظام الملكية، وشهد الأدب تضامنهما أحياناً كما في عصر شكسبير، وصراعهما أحياناً كما في عصر ملتون، وكان رجال الأدب عادة في جانب الحرية والديمقراطية يجاهرون المستبدين العداء، وقد عميت عينا ملتون في دفاعه بقلمه عن الجمهورية في ظل كرومويل؛ ولم يصلح ما بين الملوك والأدباء إلا بعد انتصار الديمقراطية على الملكية، وصيرورة الملكية جزاء من النظام الدستوري، وشارة من شارته؛ وفي ظلال هذه الديمقراطية بلغ الأدب الإنجليزي مبالغ عظمته.

فهذا فرق ما بين الأدبين في هذا الصدد: أن أحدهما بلغ أوجه في ظل النظام الملكي؛ والثاني جرى إلى مداه في حمى النظام الدستوري؛ ومن ثم نجد الأدب الإنجليزي أعظم حرية في النزعة وأصدق في التعبير، وأغنى بالمواضيع، وأكثر تنوعاً في الأشكال، لأن الملكية ليست بخير النظم التي يترعرع في ظلها الفن الصحيح، لأنها شديدة الأثرة والغيرة، ولا ترضى من ضروب النشاط إلا بما يتوفر على خدمتها، ولا تسمح للحق والفن بالذيوع إذا كان في ذيوعهما تحدٍ لسلطتها. أما النظام الدستوري فيفسح المجال للمواهب بلا عائق، ويطلق العنان للحقيقة بلا كابح.

فمن شأن الملكية المطلقة أن تخمد الرأي العام في بلادها، لأنها (هي الدولة) والرأي لها، لا يكاد ينطق ناطق أو يعمل عامل إلا بما ترضاه؛ ومن ثم كفت الشعب عن ممارسة شؤون الحكم، وكفت الأدباء عن نقد أحوال المجتمع؛ فعاش أدباء العربية بنجوة عن ذلك المجتمع لا يكادون يشعرون بشعوره أو يعبرون عن خوالجه أو يصفون أحواله، ومن ثم لم تظهر في الأدب العربي القصة التي تدرس المجتمع وتحلل دخائل النفس، وجاء شعر الشعراء ونثر الكتاب أكثره نظرياً لا اتصال بينه وبين حقائق المجتمع والحياة اليومية. أما في إنجلترا فان توطد أركان الديمقراطية صاحبه ظهور القصة الاجتماعية وتعاظم مكانتها حتى طغت على أشكال الأدب الأخرى.

وفي ظل الملكية المطلقة ذوى ضرب آخر من ضروب الأدب، هو الخطابة التي لا تزدهر إلا حيث الديمقراطية والمشاورة وحرية الرأي، فنراها بعد أن بلغت أوجها قبيل الإسلام وفي صدره تخمل تدريجيًا تحت الملكية التي تستأثر بالرأي والفعل، وتبطل كل رأي آخر وكل فعل، على حين ظلت للخطابة في الإنجليزية منزلتها، وأنجب البرلمان الإنجليزي في عهوده القريبة خطباء مصا قع، أمثال والبول وفوكس وبت وبرايت وغلادستون.

وفي نظير ابتعاد الأدباء عن نقد المجتمع والخوض في شؤون الحكم، ترك لهم الملوك عنان العبث مرسلا، يقارفون ضروب المجون في منتدياتهم، ويدونون صنوف الهجر في آثارهم، ويتبادلون فاحش القول في أشعارهم، فامتلأ الأدب بذلك السقاط حتى ظن المتأخرون الذين شبوا على دراسته أن الرقاعة والخلاعة من صفات الأديب، وحتى ترفع ذوو الحسب عن معاطاة الأدب

ولم يكتف الملوك بكف الأدب عن نقد أعمالهم بل اتخذوا رجاله أبواقاً للتمدح بمآثرهم ما صبح منها وما بطل، فكما اتخذوا من مرتزقة الجند أنصاراً لهم على إخضاع الرعية، اتخذوا من مرتزقة الشعراء أعواناً على تضليلها، وقد هبط هذا الارتزاق بالأدب عن مكانته السامية درجات؛ وحسبك أن يهبط الشاعر من قمة الفن والشعور والصدق إلى وهدة الشحاذة والتمليق والكذب، وهذه خلال تنزه عنها الأدب الإنجليزي في أغلب عهوده، لأن الشعب لم يمكن الملكية من ابتزاز ثمار اجتهاده وكده لتبعثرها في مظاهر الأبهة الجوفاء، وتنثرها على المرتزقة من الجند والشعراء.

وفي سبيل استرضاء الحكام واستدرار صلاتهم لم يحجم كثير من الشعراء عن امتهان الفن

من جهة، فأذالوا الشعر وملئوه بالأكاذيب، وعن امتهان الخلق الكريم من جهة، فمدحوا الظالم والقاتل ما دام في دست الحكم، وتقربوا إليه بذم أحفاد الرسول، وتملقوه بهجاء من فتك بهم من قواد ووزراء، وهجا البحتري الخلفاء المخلوعين ومدح من استعادوا العرش على التوالي، ومدح بشار العلوي الخارج على المنصور، فلما علم باندحاره حور القصيدة ومدح بها المنصور. وتحاسد الشعراء وتهاجوا لتنافسهم على جوائز الأمراء، على حين نرى في الإنجليزية أن شلي لما بلغه امتداح سوذي لملك إنجلترا في ذلك العهد امتداحاً متملقاً، كتب إليه يوسعه توبيخاً ويجاهره بالقطيعة.

وإذا ندرت في الأدب العربي آثار انتصار الأدباء للشعب ومناصبتهم الملوك دفاعاً عنه، فلم تندر فيه أخبار الخارجين على الحكام طلباً للملك والمجد الشخصي كحكاية تميم بن جميل الذي أنشد بين يدي المعتصم تائيته البديعة التي مطلعها:

يعز على الأوس بن تغلب موقف ... يسل عليَّ السيف فيه وأسكت

ولم تندر أخبار الأدباء الطامحين إلى الملك كالمتنبي الذي خرج في صباه وظل يتوق إلى الخروج طول حياته، والشريف الرضى الذي باح مرة بدخيلة نفسه فأسقط عليه الخليفة، بقصيدته التي أولها:

ماُ مقامي على الهوان وعندي ... مِقوَل صارم وأنف حَميّ

وما كان مثل ذلك ليكون في الأدب الإنجليزي: فالأدباء الإنجليز كانوا أشد حباً للأدب واعتداداً بمكانة الفن من أن يهجروهما إلى شيء آخر ولو كان هو الملك، كما كانوا من جهة أخرى أشد إخلاصاً لوطنيتهم ووفاء لسعادة بلادهم من أن يفكروا في اعتراض سبيل الحياة الدستورية التي رضيتها لنفسها، وما كانت الظروف لتعينهم لو حاولوا بأكثر مما أعانت أدباء العربية سالفي الذكر.

ولتزاحم شعراء العربية على صلات الملوك ومن تشبه بهم من الأمراء تجمعوا في المدينة وانصرفوا عن محاسن الطبيعة، فلم تفز من أغلبهم بكبير التفات. وقل مثل ذلك في شتى أبواب الشعر: فما يكاد يكون في أشعار الفحول وصف لجيش أو أسطول أو بحر أو بلد أو قصر أو منظر، أو رثاء أو حكمة أو تفكير في الحياة والموت، إلا مرئياً كل ذلك من وجهة نظر الممدوحين وجارياً في أطواء مدحهم والترنم بما حازوا من رفيع الشأن، فكانت مدحة

صاحب النوال هي الوحي الأول الذي يدفع الشاعر إلى ملاحظة تلك المشاهد وتدبر تلك الحقائق.

ولاعتماد الأدباء في معاشهم على صلات الأمراء، وتوقف سعودهم ونحوسهم على رضى الأمراء وغضبهم، كثرت الشكوى في الأدب العربي، وأنحى الأدباء على ما أسموه الدهر ذماً وتقريعاً وتفنيداً، وعزوا أنفسهم بالتفاخر الأجوف، وطال ذمهم لحرفة الأدب، وما يزاملها من شقاء وحرمان؛ ولا ذنب للأدب، وإنما هم صيروه حرفة وما هو إلا فن، بل هبطوا به إلى ما دون الحرفة فصيروه تسولاً. أما في الإنجليزية فنرى جيبون مثلاً يسخر مر السخر ممن يزعمون أن الأدب أشقاهم ويعلن في صراحة واغتباط أن كتابه عن تاريخ الرومان كان خير رفيق له وسمير لروحه أعوام تصنيفه، ثم أناله من بعد ذلك صيتاً وضمن له بعد مماته ذكراً ما كان يستحقه بدونه.

أما من قنطوا من صلات الأمراء من بين شعراء العربية، وقعد بهم عجز حيلتهم عن الوصول إلى ساحات الملوك، فأما هجروا الشعر جملة وإما عكفوا على نظم أشعار الزهد، فغزر ذلك الضرب من النظم في العربية. وليس التزهيد في الحياة بأسمى رسالات الآداب، بل رسالتها الصحيحة الترغيب في الحياة والتعبير عن جمالها والدعوة إلى الاستمتاع به.

ولطمع الأدباء في جوائز الأمراء نزحوا من أطراف البلاد إلى العاصمة؛ فصارت دون سواها من المدن مجال الشعر وسوق الأدب، وخمد في غيرها نور الفنون؛ أما في إنجلترا فقلما هجر أديب بلده إلى لندن طلباً للحظوة والمال، بل هجر بعضهم مقامه بالعاصمة إلى منطقة البحيرات، فاستقر حيث الجمال الطبيعي والحياة الشعرية والوحي الصادق، وحيث عرش الطبيعة لا عروش المالكين.

ومن خلال المدح كان يتحدث شعراء العربية عن انتصارات الدولة في الحروب، فكل من أبي تمام والمتنبي وابن هاني الأندلسي يشيد بانتصار ممدوحه، وينسب إليه كل الفضل في تدبير الرأي والإقدام وهزيمة العدو ونصر الدين؛ أما في الإنجليزية فكان

شعراء الوطنية أمثال كاميل وتنيسون وكبلنج يرون في انتصارات الدولة ظفراً للقومية الإنجليزية لا فخراً شخصياً للملك، فتغنى الشعراء بتلك الانتصارات، وشادوا ببسالة القواد وأمراء البحر الذين أكسبوا أمتهم مواقف الفخار، وقلما التفتوا إلى الملك أو خصوه بذكر.

وكما طلب شعراء العربية الرزق بمدح الملوك، طلبه الكتاب بالاستيزار والإنشاء في دواوينهم، فجاءت آثارهم الأدبية كآثار الشعراء، كثيرة المبالغة والإغراق، قليلة النصيب من صدق الشعور وصحة النظر، كثيرة التلاعب بالألفاظ؛ وكان لأولئك الوزراء شأن أعجب من شأن الشعراء: إذ اتخذهم الخلفاء وسيلة لابتزاز أموال الرعية، حتى إذا ما حان الحين فتكوا بهم واستصفوا أموالهم، وكتب الأدب حافلة بأنباء نكباتهم.

ولا ريب أن غيرة الملوك على سلطانهم المطلق كانت من أسباب الانصراف عن ترجمة تراث اليونان الأدبي والتاريخي، كما ترجم تراثهم الفلسفي إلى العربية، لأن هذا الأخير مشحون بالنظريات والقضايا الخيالية التي لا تتعرض لسلطانهم بسوء، على حين أن تراث اليونان الأدبي حافل بمظاهر الديمقراطية، وآثار اشتراك الشعب في حكم نفسه، فالملكية أكثر تسامحاً مع العلماء وتشجيعاً للعلوم التي تدرس ظواهر الكون العامة، منها للآداب التي تترجم عن مشاعر النفوس؛ ولا شك في أن اطلاع الإنجليز على آداب الإغريق وتاريخهم كان من عوامل تمكين نفوسهم وتشبثهم بحقوقهم. وهكذا كانت الملكية المستبدة من أسباب حرمان الأدب العربي من الأثر اليوناني الذي استفاد منه الأدب الإنجليزي فوائد جزيلة.

فالملكية في إبان صولتها ليست بخير أنظمة الحكم التي تزدهر في ظلها الآداب الرفيعة، أما في عهود عجزها فهي شر مستطير على الفكر والحضارة عامة: فحين ضعفت قبضتها على الدولة العربية تقطعت أوصال المملكة، وتكاثر الملوك والأمراء وتنازعوا وتحاربوا، فكل بلدة (فيها أمير المؤمنين ومنبر)، وظهروا في جلود الأسود منتفخين، وأفقروا البلاد بحروبهم ومغارمهم، وكان منهم الأعاجم الذين لا يقدرون الأدب، فخيب لديهم رجال الشعراء فركد حتى ذلك الضرب من الشعر المملوء بالأماديح والمبالغات، ودخلت الحضارة عامة والآداب خاصة في دور ذلك التدهور الطويل الذي دام قروناً.

فالأدب العربي قد شهد الطورين الأول والثاني من أطوار النظام الحكومي التي تقدم ذكرها في صدر هذه الكلمة: طور الأرستقراطية في الجاهلية، وطور الملكية في الإسلام، فجاء في الطور الأول أكثره حماسي عصبي ممجد للقبائل وأبطالها، وكان قائلوه عادة من الأشراف ذوي المكانة، وظل في الطور الثاني مكفوفاً في حيز الحدود التي رضيتها له الملكية، منصرفاً عن أغراض كثيرة من أغراض الفن السليم، وترعرع الأدب الإنجليزي في الطور

الثالث من أنظمة الحكم، طور الديمقراطية، فجاء حر النزعة، متعدد النواحي، واسع الأفق، محتفظاً بسمو الفن وتجرده عن المادة؛ وكان الفرق بينه وبين الأدب العربي، أن الأخير بلغ أشده في ظل الحماية والمنحة، والأول جرى إلى غايته في ظل الحرية والاستقلال.

فخري أبو السعود

نظرية النبوة عند الفارابي

للدكتور إبراهيم بيومي مدكور

مدرس الفلسفة بكلية الآداب

للباحثين في تاريخ الفلسفة مذاهب كثيرة وطرائق مختلفة. فجماعة يرون إن واجب المؤرخ ينحصر في دراسة الأشخاص وتفصيل القول في حياتهم وبيان الظروف المحيطة بهم والعوامل الداخلية والخارجية التي أثرت فيهم. ولا يعنون عناية كبيرة بأفكارهم في نشأتها وتكونها وارتباطها بالآراء والنظريات السابقة واللاحقة. على أنهم إن تعرضوا لهذه الأفكار نظروا إليها منعزلة عما حولها، وبدت في أيديهم كأنها وحدة مستقلة وحلقة منفصلة عن سلسلة التفكير الإنساني. وهناك طائفة أخرى تؤمن بأن الفلسفة دائمة وأن الأفكار الفلسفية في مختلف العصور متصلة الحلقات مرتبط بعضها ببعض. فيجب على الباحث إذن أن يبين مقدار تأثر الخلف بالسلف وما زاد

التلميذ على الأستاذ. وليس بكاف أن يقال إن فيلسوفاً ما جاء بفكرة معينة، بل لا بد من البحث عن أمهات هذه الفكرة وجداتها القريبات أو البعيدات، وعن بناتها وبنات بناتها إن صح أنها أعقبت في الأجيال التالية؛ والأفكار كالأشخاص ذات تاريخ يطول ويقصر وحياة متنوعة الألوان والأشكال، ففي حين أنه يقدر لبعضها الخلود قد يقضى على بعضها الآخر بالإهمال والنسيان.

وفي رأينا أن الدراسة التاريخية الكاملة تستلزم الجمع بين هاتين الطريقتين؛ وكي تفهم الأفكار فهماً صحيحاً يجب أن تدرس على ضوء حياة أصحابها والبيئة التي تكونت فيها، ولا يمكننا أن نقدر الفلاسفة والمفكرين حق قدرهم وننزلهم في المنزلة اللائقة بهم إلا أن تتبعنا أفكارهم في مختلف أدوارها وأثبتنا ما أنتجت من آثار. وكثيراً ما أعانت الأفكار على توضيح نواح غامضة في حياة مبتكريها أو القائلين بها.

وسيراً على هذه السنة قد بدأنا فعرضنا نظرية النبوة كما تصورها الفارابي، وحاولنا أن نبين الأسباب الاجتماعية والدينية التي دفعته إليها، والمناقشات اليومية والأبحاث النظرية التي ولدتها، ثم صعدنا إلى أصولها التاريخية ووضحنا العلاقة بينها وبين بعض الآراء

القديمة، وناقشناها أخيراً مبينين ما إذا كانت تلتئم مع التعاليم الإسلامية وتقتصر شقة الخلاف بين الفلسفة والدين؛ ونرى اليوم واجباً علينا أن نبين ما لهذه النظرية من أثر فيمن جاء بعد الفارابي من فلاسفة ومفكرين، وسنتتبع تاريخها في المدارس الإسلامية على اختلافها محاولين أن نبين كذلك مقدار نفوذها لدى اليهود والمسيحيين في القرون الوسطى والتاريخ الحديث.

وقد يكون أول سؤال يسأله الباحث هو: هل أخذ فلاسفة الإسلام الآخرون بهذه النظرية؟ والجواب على هذا أن ابن سينا أولاً اعتنقها في إخلاص، وعرضها على صورة تشبه تمام الشبه ما قال به الفارابي من قبل، وقد خلف لنا رسالة عنوانها: (في إثبات النبوات وتأويل رموزهم وأمثالهم)، وفيها يفسر النبوة تفسيراً نفسياً سيكلوجياً، ويؤول بعض النصوص الدينية تأويلاً يتفق مع نظرياته الفلسفية. ويبدأ كالفارابي، فيوضح الأحلام توضيحاً عليماً؛ فإذا ما حل مشكلتها جاوزها إلى موضوع النبوة. وفي رأيه أن التجربة والبرهان يشهدان بأن النفس الإنسانية تستطيع الوقوف على المجهول أثناء النوم؛ فليس ببعيد عليها أن تستكشفه في حال اليقظة. فأما التجربة والسماع فيقرران أن أشخاصاً كثيرين تنبئوا بالمستقبل بواسطة أحلامهم. وأما عقلاً فنحن نسلم بأن الأحداث الماضية والحاضرة والمستقبلة مثبتة في العالم العلوي ومقيدة في لوح محفوظ، فإذا استطاعت النفوس البشرية الصعود إلى هذا العالم والوقوف على هذا اللوح عرفت ما فيه وتنبأت بالغيب، وهناك أشخاص يدركون هذا أثناء النوم عن طريق مخيلتهم فيحلمون بأشياء كأنها حقائق ملموسة، وآخرون عظمت نفوسهم وقويت مخيلتهم، فأدركوا ما في عالم الغيب في حال اليقظة كما يدركونه أثناء النوم. وهؤلاء هم الأنبياء الواصلون إلى مرتبة النور والعرفان. يقول ابن سينا (التجربة والقياس متطابقان على أن للنفس الإنسانية أن تنال من الغيب نيلاً ما في حال المنام. فلا مانع من أن يقع مثل ذلك النيل في حال اليقظة إلا ما كان إلى زواله سبيل ولارتفاعه إمكان. إما التجربة فالتسامع والتعارف يشهدان به، وليس أحد من الناس إلا وقد جرب ذلك في نفسه تجارب ألهمته التصديق، اللهم إلا أن يكون أحدهم فاسد المزاج نائم قوي التخيل والتذكر. وأما القياس فاستبصر فيه من تنبيهات:

تنبيه: قد علمت فيما سلف إن الجزئيات منقوشة في العالم العقلي نقشاً على وجه كلي، ثم قد

نبهت لأن الأجرام السماوية لها نفوس ذوات إدراكات جزئية وإرادات جزئية تصدر عن رأي جزئي. ولا مانع لها عن تصور اللوازم الجزئية لحركاتها الجزئية من الكائنات عنها في العالم العنصري.

إشارة: ولنفسك أن تنتقش بنقش ذلك العالم بحسب الاستعداد وزوال الحائل. قد علمت ذلك فلا تستنكرن أن يكون بعض الغيب ينتقش فيها من عالمه) فالحقائق منقوشة في العالم العلوي وكل من اتصل به أدركها. والمهم فقط هو شرح كيفية هذا الاتصال. وابن سينا يوضح هذا توضيحاً يحاكي فيه الفارابي حذوك القذة بالقذة. فيلاحظ أن بعض المرضى والممر ورين يشاهدون صوراً ظاهرة حاضرة دون أن يكون

لها أية صلة باحساساتهم الخارجة؛ ولابد لهذه الصور من سبب باطني ومؤثر داخلي. وإذا بحثنا في قوى النفس المختلفة وجدنا أن المخيلة مصدر الصور الباطنية المختلفة بيد أنه قد يصرفها عن عملها شوا غل حسية وأخرى باطنية. فإذا انقطعت هذه الشواغل أو قلت أثناء النوم لم يبعد أن تكون للنفس فلتات تخلص بها إلى جانب القدس فينتقش فيها نقش من الغيب. وإذا كانت النفس قوية الجواهر تسع الجوانب المتجاذبة، وتستطيع الاستيلاء على الشواغل المختلفة، لم يبعد أن يقع لها هذا الخلس والانتهاز في حال اليقظة. وهذه القوة ربما كانت للنفس بحسب المزاج الأصلي؛ وقد تحصل بضرب من الكسب يجعل النفس كالمجرد لشدة الذكاء كما تحصل لأولياء الله الأبرار. والذي يقع له هذا في جبلة النفس ثم يكون خيراً رشيداً مزكياً لنفسه، فهو ذو معجزة من الأنبياء، أو كرامة من الأولياء. وتزيده تزكيته لنفسه في هذا المعنى زيادة على مقتضى جبلته فيبلغ المبلغ الأقصى.

فالنبوة إذن فطرية لا مكتسبة، وكل ما للكسب فيها من يد أنه يزيد النبي كمالاً على كماله، ورفعة فوق رفعته. وإذا ما حظي شخص بالاتصال بالعالم العلوي تمت على يديه أمور خارقة للعادة من معجزات وكرامات. وهذه الأمور وإن غاب عنا سرها يمكن أن تفسر من هذه الطريق النفسي الروحاني. يقول ابن سينا: (لعلك قد تبلغك عن العارفين أخبار تكاد تأتي بقلب العادة فتبادر إلى التكذيب. وذلك مثل ما يقال إن عارفاً استسقى للناس فسقوا، أو استشفى لهم فشفوا، أو دعا عليهم فخسف بهم وزلزلوا أو هلكوا بوجه آخر، أو دعا لهم فصرف عنهم الوباء والموتان، أو السعير والطوفان، أو خشع لبعضهم سبع، أو لم ينفر عنه طير، أو مثل ذلك مما لا يأخذ في طريق الممتنع الصريح، فتوقف ولا تتعجل، فان لأمثال هذه أسباباً في أسرار الطبيعة، وربما يتأتى لي أن أقص بعضها عليك). وهذه الأسباب، في رأي ابن سينا، ليست شيئاً آخر سوى ان النفوس السامية وقد تجردت عن المادة وصعدت إلى سماء الأرواح تستطيع التأثير في العالم الخارجي مثل نفوس الأفلاك وعقولها. وأثرها هذا خاضع في الواقع للإرادة الإلهية وفيض من العناية الربانية. فالمعجزة وإن خرجت على المألوف في ظاهرها هي أثر من آثار القوى المتصرفة في الكون. وكأن ابن سينا أحس بأن هناك أشخاصاً سيتمادون في طريق الفروض العقلية ويرفضون هذه التفسيرات الروحانية، فعاد في آخر بحثه ودعاهم إلى التأني والتدبر والبحث والتمحيص قبل الإنكار والقطع بالاستحالة، وختم إشاراته بتلك النصيحة الذهبية الغالية التي يجب أن يضعها كل باحث وكل مفكر دائماً نصب عينيه. يقول: (إياك أن يكون تلبسك وتبرؤك عن العامة هو أن تنبري منكراً لكل شيء فذلك طيش وعجز، وليس الخرق في تكذيبك ما لم تستبن لك بعد جليته دون الخرق في تصديقك ما لم تقم بين يديك بينته. بل عليك الاعتصام بحبل التوقف، وإن أزعجك استنكار ما يوعاه سمعك ما دامت استحالته لم تبرهن لك. والصواب لك أن تسرح أمثال ذلك إلى بقعة الإمكان، ما لم يذدك عنها قائم البرهان، واعلم أن في الطبيعة عجائب، وللقوى العالية الفعالة والقوى السافلة المنفعلة اجتماعات على غرائب)

درس ابن سينا نظرية النبوة في البحث الأخير من الإشارات فجاءت درة العقد وإكليل الكتاب، وأفاض عليها من فصيح بيانه وقوة برهانه ما منحها سلطاناً فوق سلطانها وقوة إلى جانب قوتها، ويغلب على ظننا أن كل فلاسفة الإسلام اخذوا بها. ومما يؤسف له أنه لم يصلنا شيء عن ابن باجة وابن طفيل يوضح موقفهما إزاءها، إلا أن نزعتهما التصوفية ورغبتهما الأكيدة في التوفيق بين الفلسفة والدين تدفعنا إلى القول بأنهما كانا يسلمان بها ويدعوان إليها، أما ابن رشد فقد عرض لها في تهافت التهافت مفنداً لاعتراضات الغزالي ومدافعاً عن الفلاسفة القدامى والمحدثين، وهو يرى أن هذه النظرية وإن تكن من صنع فلاسفة الإسلام وحدهم مقبولة في جملتها، ولا وجه للغزالي في الاعتراض عليها، وما دمنا نسلم أن الكمال الروحي لا يتم إلا باتصال العبد بربه فلا غرابة في أن تفسر النبوة بضرب من هذا الاتصال. غير أن هذه التفسيرات العلمية يجب أن تبقى وقفاً على الفلاسفة والعلماء، فأن عامة الناس لا يدركون كنهها ولا يستطيعون الوقوف على حقيقتها، وجدير بنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم، ونقدم لكل طائفة ما يناسبها من غذاء.

(يتبع)
إبراهيم بيومي مدكور
الشفاء
للأستاذ علي الطنطاوي
كان مصاباً بالسل، ولكنه سل غريب قاتل، لم يكن في الرئة ولا في الأمعاء، بل . . . كان في النفس، في الفكر، فكان يعطل شعوره وتفكيره، ويخنق حياته، ويهد كيانه. . . كان مصاباً (بداء الحب).
خمدت جذوة قريحته، وتعطلت ملكاته كلها، وضاع ذكاؤه وبادت فطنته، وضاق كل شيء في نظره، فأصبح يراه مقتضباً مختصراً: فالمسرات كلها اختصرت في لقاء من يحب، والآلام في فراقه، والواجبات كلها في إرضائه، والمحرمات كلها في أغضابه، واختصر كتاب حياته، وطمس اسمه وعنوانه، فكان حاشية صغيرة على هامش الحياة التي يحبها، واختصرت الدنيا الطويلة العريضة المليئة بالفضائل والأمجاد، الفياضة بالجمال والحقيقة والخير، فكانت كلها هذه المرأة. . .
وأقهم عن الطعام واجتواه، وأصبح خالفاً لا يشتهيه ولا يميل إليه؛ وإذا اضطر أكل أكل من قزت نفسه واكتفى بلقيمات ما يقمن صلبه، كأن هذا المرض لا يرضيه ما يفسد من النفس، حتى يحطم الجسم؛ وأصابه الأرق، فأمسى يبيت ليله سهران مسهداً، وإذا رنق النوم في عينيه، وغلبته حاجة جسمه خفق خفقة، ثم أفاق فزعاً، يفكر في هذا الإنسان، يخاف أن يطير مع الأنفاس، أو يسيل مع الدمع، أو يغرق في بحر عينيه!. . .
فهزل جسمه وخارت قواه، وتراخت مفاصله، وشحب وجهه، وآض ساهماً رازماً، ضعيفاً مخبخباً، ولم يعد يعيش إلا على المجاز، يعيش بذكرى أيامه الماضية قبل أن يصيبه هذا السل، أيام كان ذا جسم قوي، وفكر ثاقب، وقلت شاعر. . . ولم يعد ينتفع بنفسه، أو ينتفع بها الناس بشيء، لأنه أصبح لا لنفسه ولا للناس ولا للحياة، ولكن لإنسان واحد يحبه. . .
وهكذا الحب أبداً: مرض في الجسم، وضيق في الفكر، وفرار من حومة الحياة!
وكان أمس، وكان يوماً هجهاجاً من أيام الخريف في بغداد، هبت فيه الرياح خرقاء هوجاء معصفة، تذعذع الأشجار، وتثير الأوراق، وتكسر الأغصان، وتمتد إلى كل شيء في الطبيعة، فتعيث فيه وتعبث به، وتدفعه من ههنا، وههنا. . . معتكرة تسفي التراب. وتحمل هذا الغبار الناعم الدقيق الذي يملأ الجو ويخالط كل ذرة من ذرات الهواء، وينتشر في
السماء كمثل السحاب، يمنع الشمس، ويحجب المرئيات، ولا يمنع منه شيء، فهو يدخل الغرف مهما أحكمت إغلاق الباب وضبطت النوافذ، وينفذ من خلال الثياب مهما كانت حصيفة محكمة، ويخش في العيون والمناخر والآذان، وفي أصول الشعر، ويمر إلى أجواف الصناديق، وبطون الخزائن، وقلوب الساعات. . . بل إنه لدقته وخفته وسرعته ليكاد يدخل في نفسه. . .
وكان على صاحبنا أن يغدو إلى عمله في بغداد، وكان ينزل ضاحية من ضواحيها، فتردد ثم لم يجد من الأمر بداً، فتحزم وتدثر، وتعطف بمعطفه الثخين، والتحف فوقه بالممطر (المشمع) يتقى به المطر، ولف شملة على عنقه، ولبس قفازيه، وأخذ عصاه فتوكأ عليها؛ وسار الهويني، لا يطيق حراكاً، لكثرة ما يحمل من ثياب، ولطول الطريق، وشدة الرياح، وما به من الضعف والإعياء.
وكان وحده في طريق (الصليخ)، لم يجد سيارة يركبها، ولا قوماً يصحبهم، فنزل ماشياً، وكان الطريق طويلاً على طرفيه النخيل، تعبث به الرياح فتميل بجذوعه وتحرك أغصانه. فتفرقها ثم تجمعها، فتبدو كأنما هي مراوح ضخمة، تحركها يد لا ترى، فتروح بها على وجه الدنيا، وكانت تظهر أوائلها، وتغيب أواخرها في هذا السحاب الترابي الذي يغطى على كل شيء، ويصل الأرض بالسماء، فترى الطريق كأنه صاعد إليها، أو تراها كأنها هابطة إليه؛ وكانت الرياح زعزعاً شديدة، تميل بالأشجار وتعصف بالغصون، ولم يكن ثابتاً وسط الرياح إلا صاحبنا بعصاه وضعفه وأحماله. . . ولحظ ذلك من نفسه، وأعجبه أن يلحظه ويفكر فيه، وعراه شيء من الاعتداد بالنفس، وازداد حتى ملأه الشعور بقوته، فجعل ينظر في عطفيه زهواً وتيهاً، وجعل يتأمل دخيلته، ويفكر في نفسه؛ من هو؟ وما هذه الحياة التي يحياها؟. . .

واشتدت الرياح وعزفت، ثم صفرت صفيراً، فلم يبال بها ولم يحفلها، لأن زوبعة أخرى أشد هولاً قد هبت في نفسه. . . تنطح هذا الحب وتريد أن تنسفه. . . فوقف يفكر: لماذا يضيق حياته بيده؟ لماذا يعطل فكره وملكاته؟ أكل ذلك لأنه وجد إنساناً جميلاً ظن أنه يحبه؟
لتكن جميلة أو قبيحة، ما شأنه هو بها؟ ومن قال إنه لا يعيش إلا بها؟ ماذا كان يصنع قبل
ان يعرفها؟ ألم يكن يعيش؟ ألم تكن حياته أجمل وأحفل بالعظائم، وأملأ بالفضائل؟ هل كان هذا الحب إلا مرضاً عضالاً هد جسمه ومحا مواهبه، وفل عزيمته، وأقام بينه وبين الحياة سداً من لحم ودم؟
يا للسخف! أيحكم على نفسه بالألم الدائم، والقلق المستمر ليحظى ذلك الإنسان بالسرور والاطمئنان؟
أيوجب على نفسه الشحوب لأنها موردة الوجنتين؟ أيختار المرض والهزال لمجرد أنها صحيحة بضة؟. . .
يا للخجل! ألا يرى الدنيا إلا في عيني هذا الإنسان؟ أيقنع من السعادة والمجد والعلم والبطولة والدفء والنور والحياة بابتسامة واحدة؟
وبدا له الحب كأسخف شيء يكون. . .
وكانت الدنيا قد استطير لبها، وجن جنونها، وهطلت الأمطار سريعة قوية، تضرب وجهه. . . فأحس بالقوة والنشاط، وجعل ينشق ملء رئتيه، وتبرق عيناه بريق العزم، ثم ألقى عصاه وشملته، ونزع عنه هذه الأحمال من الثياب. . . وانتفض وضرب الفضاء بقبضيته، وصاح صحية الفرح: قد شفيت!
ثم انطلق نحو الدنيا الواسعة. لم تعد محرمة عليه، لأنه لم يعد يحب!
(بغداد)
علي الطنطاوي
ما قول علمائنا؟
الوحدة الإسلامية
للأستاذ عبد المتعال الصعيدي
الأستاذ بكلية اللغة العربية بالأزهر
سمعت المحاضرة التي ألقاها بدار جمعية الشبان المسلمين صاحب السماحة الشيخ عبد الكريم الزنجاني كبير مجتهدي الشيعة ورئيس مجلسهم الأعلى، وكانت المحاضرة في الدعوة إلى الوحدة الإسلامية، فرأيت فيه عالماً كبيراً، وإماماً مصلحاً، يندر وجود مثله بين علماء المسلمين في هذا العصر. ولا غرو أن تنجب بلاد إيران مثله، فقد أنجبت قبله في هذا العصر ذلك الحكيم العظيم، (جمال الدين الأفغاني) موقظ المسلمين من غفلتهم، وباعث الدعوة الإصلاحية القائمة الآن فيهم؛ وكأن الله أتى بالأستاذ الزنجاني ليكمل ما بناه قبله الحكيم الأفغاني، فليسر الأستاذ في سبيله، ولينسج على منواله، فالطريق ممهدة والغاية مرجوة، والأمل كبير في النجاح بعون الله تعالى.
ولكن كيف تتم الوحدة الإسلامية التي يدعو الأستاذ الزنجاني إليها؟ وما هو الطريق الموصل إليها حقيقة لا خيالاً؟ هنا أخالف الأستاذ الزنجاني فيما يراه من قيام هذه الوحدة على إزالة الفوارق بين الطوائف الإسلامية في الأصول الدينية على الأقل، وتقريب شقة الخلاف بين هذه الطوائف حتى تنحصر في الفروع وحدها.
فأني أرى ان هذا طريق شائك لا يوصلنا إلى الغاية المطلوبة من هذه الوحدة، لأن هناك خلافات حقيقية وكبيرة بين هذه الطوائف، ولا يمكن التقريب بينها فيها ولو بذلنا في ذلك ما بذلنا؛ فلا بد من طريق آخر يوصلنا إلى هذه الوحدة غير هذا الطريق ويقوم فيه بناؤها مع قيام هذه الفروق، وبقاء تلك الخلافات في الأصول والفروع.
فالخلاف بين أهل السنة والشيعة في عصمة الأئمة خلاف حقيقي، وهو خلاف في أصل من أصول الاعتقاد لا في حكم من الأحكام الفرعية؛ وأهل السنة يرون أن العصمة صفة خاصة بالأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، أما الشيعة فلا يرون العصمة صفة خاصة بهم ويعتقدون العصمة في الأئمة من أهل البيت أيضاً، ولكنهم لا يقولون بأنهم أنبياء أو

رسل. وقد تكلف الأستاذ الزنجاني إزالة الفرق بين أهل السنة والشيعة في هذا الاعتقاد، فقال ما مؤداه إن عصمة النبيين تختلف عن عصمة الأئمة عند الشيعة، وأنها في الأئمة معناها العدل والثقة، ونحن إذا وثقنا من رجل في علمه ودينه وعمله استبعدنا أن يقع منه خطأ أو مالت نفوسنا إلى استبعاد وقوع هذا الخطأ منه؛ أما عصمة الأنبياء فلها معناها الحقيقي، فهم معصومون عن كل خطأ، والفرق ظاهر في التقديرين وفي الحكمين. وإني أرى أنه لو كان هذا هو المراد من عصمة الأئمة لما كان هناك معنى في تسميتها عصمة، ولكان شأن الناس فيها كشأن الأئمة من أهل البيت وهو ما لا يقول به الشيعة.

وكذلك الخلاف بين أهل السنة والشيعة في خلافة الشيخين (أبي بكر وعمر) خلاف حقيقي، وله قيمته عند الفريقين.

ويضاف إلى هذا وذاك أن الشيعة في أصول الاعتقاد يتفقون في كثير منها مع أئمة المعتزلة، ويخالفون أهل السنة، كمسألة نفي الصفات وغيرها من مسائل علم الكلام، وهذه كلها خلافات يصعب إزالتها، فلا يصح أن نطمع في بناء الوحدة الإسلامية على محوها

وإنما الواجب في ذلك أن نقبل هذه الخلافات في ديننا، وأن تتسع لها صدورنا، وأن نجعل الخلاف في مثل هذه الأصول مثل الخلاف الذي نقبله في الفروع، فإذا قال الشيعة بعصمة الأئمة فلهم في هذا رأيهم، ما داموا يقولون إنهم أئمة معصومون، وليسوا بأنبياء ولا برسل؛ وإذا قال الشيعة إن علياً رضي الله عنه كان أحق بالخلافة من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وأنكروا خلافتهما فلهم في هذا أيضاً رأيهم، ولنا رأينا في أن خلافتهما خلافة صحيحة.

وليقم الجدال في هذا وأمثاله بين الطوائف الإسلامية على الإقناع بالحجة النقلية أو العقلية، ولنبعد فيه عن التغالي في التعصب للرأي، والطعن في الدين والعقيدة، والرمي بالإلحاد والكفر، ولنجعل الخلاف في الرأي أداة تواصل وتعارف، لا أداة تقاطع وتجاهل، وليقم الخلاف بيننا على أنه خلاف بين أخوين في الدين، تجمعهما كلمة الإسلام، وتظلهما راية التوحيد، وقد امتاز الإسلام على غيره من الأديان بما سنه من سنة الخلاف في الرأي، فقال الله تعالى في سورة هود (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم، وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) وجعل

الرسول صلى الله عليه وسلم للمجتهد إذا أخطأ أجراً واحداً، فإذا أصاب فله أجران، ولم يفرق في هذا بين أصول وفروع، بل أطلق الأمر إطلاقاً، وفتح باب الاجتهاد في الأصول والفروع معاً.

وهذا هو الأساس الصحيح الذي لا يمكن أن تقوم على غيره تلك الوحدة المطلوبة، أما ذلك الأساس الذي يراد بناؤها عليه فلا يمكن تحقيقه أبداً، لأن الخلاف في الرأي سنة طبيعية في الإنسان، وعلى هذا مضى أمره منذ الخليفة، وسيمكث عليه إلى ما يشاء الله تعالى.

ولابد أن أشير في هذه الكلمة إلى أنه لا بد في تحقيق تلك الوحدة من قبر ذلك الماضي القائم على التدابر والتقاطع، ولا يمكن قبر هذا الماضي إلا بقبر هذه الكتب المتدابرة المتقاطعة، وهي الكتب التي يدرسها أهل السنة في الجامع الأزهر بمصر، والكتب التي يدرسها الشيعة في معهد النجف الأعلى بالعراق؛ وقد أخذت النفوس في الأزهر هذه السنة تحن إليها، وتعمل على إعادة كثير منها، وتمدح مماحكاتها اللفظية الساقطة، وتنسى ما جلبت من الشقاء على الإسلام والمسلمين، وأنه بينما كانت كل قوانا الفكرية مصروفة إلى ألفاظها، كانت قوى غيرنا مصروفة إلى حقائق الأشياء ومعانيها، فنجحوا في علومهم دوننا، وتقدموا وتقهقرنا، ولم تنفعنا هذه المماحكات اللفظية التي برعنا فيها. ولا بد أن أشير أيضاً إلى أنه لا يكفي في تحقيق تلك الوحدة أن يزور الأستاذ الزنجاني الأزهر والكليات التابعة له، ثم نبادله في معهد النجف الأعلى زيارة بزيارة، بل لا بد من الاعتراف في الأزهر بفقه الشيعة ودراسته فيه كما يدرس فقه أهل السنة، ويكون هذا بندب أستاذ لدراسته في الأزهر من أساتذة معهد النجف الأعلى، كما يجب أن يعترف الشيعة بفقه أهل السنة، ويدرسوه في معهدهم كما ندرس فقههم في أزهرنا، ويكون هذا بندب أستاذ من أساتذة الأزهر لدراسة فقهنا

عندهم، فيتم بهذا التعارف بيننا وتزول تلك الجفوة الممقوتة، وتتحقق تلك الوحدة المطلوبة.

عبد المتعال الصعيدي

قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكي

مدير مصلحة الكيمياء

- 3 -

إن العلم يجب أن يكون حراً طليقاً يبحث في العالم المجهول حيث شاء وأين يقع. هكذا تقول أنت، وهكذا كنت أقول يا سيدي، ومن أجل جهري بهذا الرأي وإعلاني إياه بصوت غير خافت ساء ما بيني وبين قوم ذوي نباهة وسلطان. كلانا مخطئ يا صحابي في زعمه! وشاهدنا إسميث الذي نحن بصدده. بدأ عمله مستمتعاً بحرية لا تزيد إلا قليلاً على حرية كاتب حكومي صغير، ووجب عليه ألا يبحث إلا في أشياء يمليها عليه الدكتور سلمون، وهذا بدوره إنما استخدم ليوجه إسميث إلى حل معضلات أعجزت المزارعين وأرباب المواشي. فالثلاثة جميعهم - سلمون وكليورن وإسميث، وكذلك إسكندر، وليس بنا عنه غنى - كل هؤلاء دفعت السلطات إليهم أجورهم كما تدفعها إلى فرقة المطافئ، وانتظرت منهم مثل الذي تنتظره من فرقة المطافئ: أن ينهضوا كرجال الحريق كلما اشتعلت عدوى المرض في الخنازير والعجول والثيران والخرفان فيوجه إليها خراطيمهم فيندفع منها العلم اندفاعاً حتى تنطفئ فيعود البرء والسلام إليها. وكان أصحاب الماشية في هذا الوقت قلقين قلقاً شديداً من جراء مرض غريب يدعى بحمى تكساس.

كانت الأقطار الجنوبية تستورد أبقاراً من الشمال، فتساق هذه الأبقار السليمة من القطر الحديدية إلى المراعي فتنساب فيها فتختلط بأبقار الجنوب وهي جد سليمة، فيمضى الشهر أو الشهران على خير، ثم فجأة تظهر الوافدة الخبيثة في هذه الأبقار الشمالية الجميلة فلا تلبث أن تعاف الطعام، ويصيبها الهزال فتفقد في اليوم الواحد أرطالاً من وزنها، ويجري بولها أحمر غريباً، وتقف حائرة متقوسة الظهر حزينة العين، ثم لا تمضي أيام قليلة حتى تكون كل بقرة قد سقطت سقطة الإعياء، ثم ترقد على الأرض رقدة الموت، وقد تصلبت أرجلها، واستترت بجسومها الباردة المديدة أرض الحقول. وحدثت هذه المأساة عينها عندما استورد أهل الشمال من الجنوب عجولاً، فلما رعت هذه العجول في الحقول ونزحت عنها، وحل محلها قطعان من بقر شمالي، لم يمض على هذا البقر ثلاثون يوماً أو نحوها حتى أخذ يموت، ولم تمض عشرة بعد أيام ذلك حتى عمه الموت.

أي موت غريب هذا الذي حملته الأبقار الجنوبية إلى الحقول الشمالية دون أن تصاب هي به، فاختبأ بعد ذلك في مخابئ الأرض يتربص لأبقار الشمال ليذيقها عذاب الموت ألواناً؟ وما السر في أنها إذا طلعت على هذا الموت المخبوء لا يبادرها بالهلاك بل يتمهل شهراً أو يزيد؟ وما السر في أن هذا الهلاك لا يحيق بها إلا في أشهر الصيف الحرار.

وثارت ثائرة الأمة كلها من أجل هذا، وساءت العلاقة بين أصحاب البقر في الشمال وأصحاب البقر في الجنوب. وهاجت مدينة نيويورك وارتاع أهلها لما جاءت الأنباء بموت مئات من الأبقار في القطر التي كانت تحملها من الغرب إليها لتغتذي من لحومها. وتحرج الموقف، وصار لا بد من عمل شيء، فنهض الأطباء الفخام في مصلحة الصحة للمدينة العظيمة وأخذوا في البحث عن المكروب الذي سبب هذا الداء. . .

وكان في الغرب طائفة من البقارين كسبوا الحكمة من طول تربيتهم للبقر، فخالوا لهذا الداء علة أوحيت إليهم إيحاء من خلل الدخان المتصاعد من نراجيلهم وهم يتأسون بتدخينها فوق الجثث المركومة التي أضاعوها بسبب هذا الداء. خالوا في شيء من الإبهام أن هذه الحمى التكساسية تسببها حشرة تعيش على جلد البهيمة وتمتص دمها، وأسموا هذه الحشرة القرادة

وضحك الأطباء العلماء في مصلحة الصحة بالمدينة العظيمة، وضحك معهم كل بيطري ممتاز في المحطات التجريبية الحكومية.

قرادة تقدح حمى! حشرة تخلق داء، من ذا الذي سمع بهذا أبداً! وأي علم يرضاه؟ إنها حماقة بالغة! وقال الدكتور جامجي وهو عمدة في الموضوع معروف: إن تفكيراً يسيراً قصيراً يقنع كل أحد بسخافة الفكرة. وكان قائماً قاعداً في بحث حمى تكساس، ولكن لفظة القراد لم تخرج من فيه أبداً. وكان العلماء في كل نواحي القطر قائمين في تقطيع أجسام الأبقار النافقة وكانوا يجدون البشلات في بطونها، ولكنهم لم يستخرجوا منها قرادة واحدة! قال أحدهم: إن روث البهائم ينشر بينها الحمى، فقال الآخر: إنك مخطئ، بل إن اللعاب ينقلها. وهكذا تعددت النظريات بتعدد الباحثين، وظلت الأبقار تموت وهم يختلفون.

- 4 -

وفي عام 1888 كلف الدكتور سلمون رجاله الثلاثة أن يتوفروا على بحث الحمى التكساسية، فوضع اسميث في القيادة يعاونه كلبورن، ثم اسكندر ينظف من ورائهما. وطلب إليهم (أن يكتشفوا الجرثومة)، ولم يذكر لهم شيئاً عن القراد. ولم يأتهم في هذا العام من البقر غير أربع من الأكبدة ومثلها من الأطحلة، جاءتهم في الثلج في جرادل من فرجينيا وماريلاند إلى غرفتهم في ذروة البناء وهي كالفرن في حرارتها.

وكان لدى اسميث حس لم يكن لدى سائر البحاث، فحرر مكرسكوبه على قطع من الطحال الأول فرأى فيه مكروبات كثيرة عديدة الأنواع. واقترب بأنفه منها فتجعد من سوء ما أحس من رائحتها. فقد كانت فاسدة.

عندئذ قام يرسل الرسائل فوراً إلى البقارين أن ينتزعوا أحشاء البقر عقب موته بلا تريث، وأن يرسلوها إليه في الثلج، وأن يعملوا على تقصير ما تستغرق من الوقت في سفرها. وأنفذوا ما أراد. ونظر في الأطحلة لما جاءته فلم يجد بها مكروبة واحدة، ولكنه وجد بها عدداً كبيراً من خلال الدم الحمراء قد انفقع لغير سبب ظاهر، قال: (إن هذه الخلايا انفقعت فتحطمت بفعل فاعل)، ولكنه لم يجد مكروباً، وكان لا يزال حدثاً، وكانت به سخرية الشباب، وكانت به قلة اصطبار واحتمال للبحاث الذين لا يقدرون على التفكير العميق والتركز الشديد.

وكان رجل يدعى بيليجنس ادعى في سخافة أنه رأى بشلة عادية في كل جزء من جثة كل بقرة فحصها، وفي كل ركن من أركان الزريبة، حتى في أكوام روثها، ونسب إلى هذه البشلة حمى تكساس، ونشر عن ذلك مقالاً قال يفتخر فيه: (إن شمس البحوث الأصيلة في الأدواء تحول مطلعها من الشرق إلى الغرب).

قرأ إسميث هذا المقال فقال: (تلك لعمري طنطنة الفخور الغالي). وعقب على هذا ببضع جمل قصيرات قاسيات نال بها شر منال من هذا العبث الذي يدعى علماً. واستيقن أن لا فائدة من الجلوس في معمل مهما كثرت خنازيره الغينية، وترصصت زاهيةً بارقةً محاقنه، ما دام أن البحث لا يصنع فيها إلا التحديق في أكبدة وأطحلة من جثث بقر نالها الفساد إن قليلاً وإن كثيراً، وأراد أن يسلك السبيل السوي، سبيل التجريب الصادق؛ أراد أن يدرس

الداء في البهائم الحية، أراد أن يدرسه فيها وهي تلفظ آخر أنفاسها، أراد أن يتتبع الطبيعة في خطواتها. وجاء صيف عام 1889 فأخذ يتجهز له. وذات يوم أخبره كلبورن بخبر تلك النظرية الخرقاء التي يتحدث بها البقارون، تلك النظرية التي تعزو الداء إلى قراد البقر.

عندئذ أرهف إسميث آذان عقله، لو أن للعقل آذاناً: (إن البقارين الذين يعيشون مع البقر، ويخسرون البقر إذا مات، ويرون من هذه الحمى الخبيثة أكثر مما يرى الباحث، هؤلاء البقارون هم الذين يقولون بهذه النظرية!).

ولد اسميث في المدينة، فهو ابن المدينة لا ابن الريف، ومع هذا فقد كانت تستهويه نفحات الحشيش وهو يحش، وأخاديد الحقل الدكناء وهو يفلح. وكان يؤمن بتلك الجمل القصيرة المقلمة التي ينطق بها الفلاحون عن الجو وعما تنبت الأرض، وكان يرى الحكمة فيها وأنها الحق أو أقرب ما تكونه. كان إسميث ضليعاً في الرياضيات عارفاً باختزالاتها البديعة، وهي علوم يجهلها كل الجهل هؤلاء الرجال الذين اصطنعوا الأرض واحترفوا فلاحتها. وكان كذلك ضليعاً خبيراً في كل تلك العلوم التي تتمثل في المجاهر والأنابيب والخرائط وبريق المعامل، ملماً بكثير من فنون العرفان الدنيوي الصناعي المزوق الذي درج على احتقار الحكمة تجري على ألسن العامة، والسخرية بسذاجة

الفلاح وبساطة حاله. ولكنه مع كل هذه الدراسات الواسعة لم يأذن للأبنية الفخمة والمعامل البديعة وأجهزتها المعقدة أن تعكر عليه فكره الرائق، أو تتنفس على مرآة ذهنه الصقيلة، وهذا فيمن نشأ نشأته غريب نادر. وكان دائم الشك لكل ما يحصله من الكتب، دائم الريبة في كل ما تريه الأنابيب. . ونظر إلى أشد الفلاحين جلفاً واخشيشاناً، وأحصرهم وأعقدهم لساناً؛ حتى إذا أمسك ببيبته - وهي من قلاح الذرة - فأخرجها من قبضة أسنانه - وقد تكون صفراء قلحة قذرة - فهمهم كالرعد بالمثل الريفي المشهور: (شآبيب ابريل تنبت زهور مايو)، سقط هذا القول من فم هذا الفلاح إلى قلب صاحبنا كأنما سقط من شفة حكيم أريب.

واستمع إسميث إلى كلبورن وهو يتحدث حديث النظرية السخيفة، وأكد له كلبورن أن البقارين في الغرب يكادون يجمعون على أن القراد أصل البلاء؛ ثم أخذ يفكر ملياً: (رؤوس هؤلاء البقارين خالصة من زخارف المنطق ومفسدات الفكر، وإن أجسامهم لتتفاوح منها روائح الثيران والعجول كأنهم بعضها، وهم هم الذين سهروا الليالي وقد تركزت فكرتهم على الداء وهو يجري بالفناء في عروق بهائمهم فيحيل دمها الثخين ماء رقيقاً، وينتزع لقمة الرزق من أفواه أبنائهم وعيالهم، وهم هم هؤلاء الذين قاموا على دفن هذه البهائم الضائعة بعد موتها. فهؤلاء الفلاحون هم الذين يقولون في نفس واحد: (لا حمى حيث لا قراد).

فارتأى إسميث ان يتبع الزراعين، وأن يراقب الداء عن كثب مراقبة البقارين، وتلك طريقة مستجدة في صيادة المكروب: اتباع الطبيعة والتدخل فيها بالحيلة الهينة القليلة.

وجاء صيف عام 1889 واشتد حره، فذكر الناس خسائرهم الماضية، وذكروا شكاواهم المرة التي كانت، فكان لا بد من عمل شيء. وأحست الحكومة كذلك بالحاجة إلى عمل حاسم، فاعتمدت الوزارة للبحث مبلغاً طيباً من المال، وقام الدكتور سلمون بإدارة البحث المطلوب. ومن حسن الحظ أنه لم يعرف إلا القليل عن التجارب والتجريب فلم تقم إدارته عقبة في سبيل إسميث أبداً.

- 5 -

وفي منطقة منعزلة بعيدة أقام إسميث معمله، وأعانه كلبورن في إقامته. وما بالمعمل المعهود كان، فلم يحده سقف وأربعة أركان، بل كان سقفه السماء الحارة، وكان حجراته خمسة أو ستة من الحقول تسورت عن بقية الأرض بسور. وفي يوم 27 يونيو سنة 1889 جاءت سفينة فخرجت منها إلى المعمل سبع بقرات نحيفة بعض النحافة ولكنها صحيحة سليمة. وجاءت هذه البقرات من كرلينة الشمالية وهي بؤرة الحمى التكساسية ومقبرة كل بقرة تدخلها من الأقطار الشمالية. وكان على ظهور هذه البقرات بضعة ألوف من القراد، منها الصغير الذي لا تراه إلا بالمجهر، ومنها أنثيات عظيمة تبلغ نصف بوصة طولاً، وقد انتفخت مما امتلأت بالدم الذي شربته من الجسم المعذب المنكود الذي أضافها غير مختار.

فساق إسميث وصاحبه كلبورن إلى الحقل الأول أربع بقرات من هذه، وأدخلوا معها ست بقرات شمالية سليمة. قال إسميث: (والآن فلن يلبث القراد أن ينتقل إلى هذه البقرات الشمالية، وهي لم تعرف قط ما الحمى التكساسية، فهي لا تعرف ما الحصانة منها. . .) ثم

قال: (والآن فلننهض إلى حيلة يسيرة لنعرف أحقاً هذا القراد سبب الحمى) وأنفذ حيلته الأولى - أو إن شئت فأسمها تجربته الأولى - وما كانت إلا تجربة قليلة، كان في استطاعة أي بقار ذكي أن يبتدعها لو أنه فرغ من عمله الكثير للتفكير. أما سائر العلماء الأمريكيين فعدوا هذا التجربة من السخف بحيث لا تستأهل محاولة. وبالرغم من هذا قام إسميث وكلبورن فأجرياها، فأخذا يلتقطان بأيديهما ما على ثلاث البقرات الجنوبية الباقية من قراد فلا يفلتان منه واحدة، وأخذ البقر يرفص ويضرب في وجههما بذيله، واحتر الجو فعلت درجته على السابعة والثلاثين، وارتفع تراب الأرض برفص البهائم فانعقد سحباً فوق الرجلين وحولهما، وامتزج بالعرق على جبهتيهما فتعجن وتلصق. واحتل القراد من جلود البقر موضعاً تحت شعورها المتلبدة، وخرج صغاره من اللبد فما أحس بأنامل اللاقطين وهي مجهودة تتحسس حتى انكفأ راجعاً

يجد له في مسارب الشعر مهرباً. وتلك القرادات الكبيرة، تلك الأنثيات التي جرعت من الدم حتى انتفخت، كانت لا ترضى أن تنتزع فتتعلق بجلد البقر، فإذا شدت عليها أنامل اللقاط انفقعت فتبجس دمها ولوث.

ولم ينقض النهار حتى خلصت البقرات الثلاث من القراد جميعه، فلم تكن لتجد على جلدها قرادة واحدة، فوضعاها في الحقل الثاني، ووضعا معها أربع بقرات شمالية صحيحة؛ ثم قال: (هذا البقر الشمالي على تمام الاستعداد لأخذ الحمى والموت بها لو تهيأت إليه أسبابها؛ وقد وضعناه الآن مع هذا البقر الجنوبي على أرض واحدة، فسيأكل الجميع حشيشاً واحداً، ويشرب الجميع ماء واحداً. وهذا البقر الجنوبي سيحك أنوفه في أنوف الشمالي، وسيتشمم روثه، ولكنه لن يستطيع أخذ قرادة واحدة منه. إذن فلنصبر لنرى ما شأن القراد والحمى!)

وصبرا على القلق والحر شهرين: يوليو وأغسطس، تسلى فيهما إسميث بدراسة القراد دراسة واسعة، أعانه فيها خبير في الحشر حكومي يدعى كوبر كرتيس فدرسا معاً حياة القراد وأعماله وأحواله، فاكتشفا كيف يتسلق طفل القراد وله ست أرجل ظهر البقرة، وكيف يرتبط بجلدها، فلا يقع من على ظهرها، وكيف هو يمص من دمها بعد ذلك، وكيف ينسلخ من جلده ثم يزيد في أبهة إلى أرجله الست رجلين فتصير ثمانية، ثم هو ينسلخ من جلده مرة أخرى، واكتشفا كيف أن الأنثى من بعد ذلك تتخذ لها زوجاً صغير تتزوجه على ظهر البقر، ثم كيف تجرع بعد ذلك من دم البقر جرعات عظيمات كأنها وليمة العرس، فإذا هي استكملت أنوثتها سقطت إلى الأرض لتبيض فيها ألفي بيضة أو تزيد؛ وعندئذ، وبعد ما لا يزيد على عشرين يوماً من تسلقها رجل البقرة في أول مرة، تكون قد أدت رسالتها في هذه الحياة الدنيا فتأخذ تنضمر ثم هي تموت. أما الألفان من البيض فتبدأ فيها سير وأحداث غريبة أخرى.

وكان إسميث لا يفوتها السفر إلى معمله في العراء البعيد يوماً واحداً، وكان يجد روحه في الخروج من المدينة وترك معمله المعهود في تلك الحجرة الكابسة الحابسة هرباً من صراصيرها ولو إلى تلك الحقول وهي تكاد من الحر تتقد ناراً، وكان كلبورن قواماً على معامل الحقل، وهو الذي طلب الرزق بعد ذلك من تجارة الصيني والفخار. وكان إسميث يدخل في الحقل الأول ليرى هل ظهر القراد على أي من البقرات الشمالية، وليرى هل زادت حرارتها وأخذت رقابها تميل. ثم هو يخطو من بعد ذلك إلى الحقل الثاني ليلتقط من على ظهور البقرات الجنوبية التي فيه بضع قرادات ظهرت عليها، وما كان أفلتها في لقطه الأول، ولكنها كانت عندئذ صغيرة لا ترى. وما كان تنظيف البقر من القراد والتيقن منه إلا عملاً ثقيل مجهداً. والحق أن تلك الأيام التي صبراها على الحر والعرق لم يكن فيها إلا السأم امتد واتصل، حتى جاء يوم بعد منتصف أغسطس بدأت تطلع البشائر فيه. ففي هذا اليوم ظهر القراد على بقر من البقر الشمالي في الحقل الأول، ولم يمض طويل حتى تقوس ظهرها وعافت الطعام. ثم ظهر القراد على كل أخواتها، واتقدت الحمى فيها جميعاً، وخف دمها فصار كالماء، وشفت أضلاعها وبرزت في الجوانب عظامها. والقراد؟ رحماك فقد كان يموج عليها موجاً.

هذا هو الحقل الأول. أما الحقل الثاني حيث لا قراد، فقط ظلت البقرات الشمالية فيه صحيح سليمة كصاحباتها الجنوبية التي اختلطت بها.

(يتبع)

أحمد زكي

بحث لغوي

كلمة (قرآن)

بقلم محمد طه الحاجري

للقراء في أداء كلمة قرآن طريقان: تحقيق الهمزة فيها، وإهمالها منها؛ فبعضهم يقرؤها (القران) وبعضهم (القرآن) والقراءة غير المهموزة تنسب إلى إسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين قارئ أهل مكة في زمانه، وآخر أصحاب ابن كثير زماناً، كما يقول عنه الذهبي في كتابه (طبقات القراء المشهورين) وقد روي عن أبي عبد الله الشافعي قوله في هذا الصدد، قال: (قرأت على إسماعيل وكان يقول القرآن اسم

وليس بمهموز، ولو كان من قرأت كان كل ما قريء قرآناً، ولكنه اسم للقرآن مثل التوراة والانجيل، تهمز قرأت ولا تهمز القرآن) وكذلك روى صاحب اللسان مثل هذه الرواية، وزاد عليها تزكية لها وإعلاء لسندها النسب الذي يصل قراءة إسماعيل بالقراءة الأولى على رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: (قال إسماعيل قرأت على شبل، وأخبر شبل أنه قرأت على عبد الله بن كثير، وأخبر عبد الله أنه قرأ على مجاهد، وأخبر مجهد أنه قرأ على ابن عباس رضى الله عنه، وأخبر ابن عباس أنه قرأ على أبي، وقرأ أبي على النبي صلى الله عليه وسلم)، وبعد أن أورد ابن منظور هذا القول روى عن أبي بكر بن مجاهد أنه قال: (كان أبو عمرو بن العلاء لا يهمز القرآن، وكان يقرؤه كما روى عن ابن كثير) فهذه إذن قراءة معتبرة لا شك في صحتها وقوة سندها.

ولكن عبارة القسط ينظر إليها من ناحيتين: ناحية الرواية وناحية الدراية أو التعليل، أما الأولى فلا كلام لنا فيها، وأما الناحية الثانية فقد نازعه فيها كثير من العلماء الذين أورد الفخر الرازي أقوالهم، فقد قال الزجاج عن قول إسماعيل هذا إنه سهو والصحيح أن ترك الهمزة من باب التخفيف، ونقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها، فكأنه يرى أنها مشتقة من مادة قرأ، وأنها تساوي كلمة قرآن المهموزة، إلا ما كان من هذا التخفيف الذي تجيزه اللغة وتخضع له، ولا يغير شيئاً من أصول الكلمات فيها

على أن هذا التخفيف كثير شائع مطرد في كثير من القراءات التي ترجع إلى أهل الحجاز لما في طبيعة نطقهم وميلهم اللغوي، وهاك ما يقوله ابن الجزري في كتابه: (النشر في

القراءات العشر): (ولما كان الهمز أثقل الحروف نطقاً وأبعدها مخرجاً، تنوع العرب في تخفيفه بأنواع التخفيف كالنقل والبدل وبين بين والإدغام وغير ذلك، وكانت قريش وأهل الحجاز أكثرهم له تخفيفاً، ولذلك اكثر ما يرد تخفيفه من طرقهم كابن كثير من رواية ابن فليح، وكنافع من رواية ورش وغيره، وكأبي جعفر من أكثر رواياته، وكابن محيصن قارئ أهل مكة مع ابن كثير وبعده، وكأبي عمرو فأن مادة قراءه عن أهل الحجاز)

وهذا صريح جلي في بيان قول الزجاج وصحة مذهبه، وأن إسماعيل بن قسطنطين قد غاب عنه المنحى العربي اللغوي في مثل هذا، فذهب يلتمس التعليل المنطقي ويقول: (لو كان من قرأت كان كل ما قرء قرآناً) كما غاب عنه أيضاً أن الاصطلاح من طبيعته أن يحد من مدلول الكلمة المصطلح عليها.

وذهب آخرون إلى تلمس اشتقاق لها في مادة (قرن) باعتبار أن الكلمة على أصلها لم تعان شيئاً من الإبدال والإعلال: فقال قوم إنها مشتقة من قرنت الشيء بالشي إذا ضممت أحدهما إلى الآخر، وسمى به لقران السور والآيات والحروف فيه، ونسب إلى الفراء القول بأنها مشتقة من القرائن لأن الآيات يصدق بعضها بعضاً ويشابهه.

هذا مجمل الآراء في تعليل كلمة قران بغير همز. أما القراءة الأخرى المهموزة فاختلف كذلك في اشتقاقها على قولين أو ثلاثة

فابن جرير الطبري يروي رأيين في هذا، أحدهما عن ابن عباس، والآخر عن قتادة، أما الأول فيذهب إلى أن القرآن مصدر من قول القائل: (قرأت) كقولك الخسران من خسرت والغفران من غفر الله لك، والكفران من كفرتك، والفرقان من فرق الله بين الحق والباطل - ولم يتعرض الطبري لرواية قراءة ابن عباس لها، وإن كان مساق القول في المهموزة، لكن ذلك لا يعتبر نصاً؛ وإنما تعرض لاشتقاقها. وقد رأينا من كلام إسماعيل بن قسطنطين أن سند قراءاته يتصل بابن عباس؛ فكأن ابن عباس كان يقرؤها مخففة، ويعلم أنها مخففة عن تحقيق، كما رأى ذلك الزجاج فيما سبق بيانه.

أما رأي قتادة فهو أنها مصدر من قول القائل: (قرأت الشيء) إذا جمعته وضممت بعضه إلى بعض، كقولك ما قرأت هذه الناقة سلى قط، أي لم تضمم رحماً على ولد قط. كقول عمرو بن كلثوم:

ذراعي عيطل أد ماء بكر ... هجان اللون لم تقرأ جنينا

أما الرأي الثالث فيرويه السيوطي في كتاب الإتقان عن الزجاج. فهو يرى أنه مشتق من القرء بمعنى الجمع. ثم هو لا يعتبره مصدراً - كما يروى عن ابن عباس وقتادة - وقد سمى به الكتاب المقروء، وإنما يعده وصفاً على فعلان.

وقد وقف الطبري بين رأيي ابن عباس وقتادة، ثم أخذ يرجح الأول على الثاني بأنه يتمشى مع تأويل قوله تعالى: (إن علينا جمعه وقرآنه، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه) على الأصل الثابت المقرر في الدين، إذ لو كان القرآن هنا بمعنى الجمع والتأليف لما لزم الرسول صلى الله عليه وسلم فرض (اقرأ باسم ربك) ولا فرض (يا أيها المزمل) ولا غيرهما من آي القرآن الكريم قبل أن يؤلف إلى ذلك غيره من القرآن.

وهذا توجيه وجيه استطاع ابن جرير أن يملك به على خصمه الحجة في أسلوب منطقي حاسم.

ونحن إذا أجزنا لأنفسنا أن ندخل في هذا النزاع، وندلي برأينا فيه، اتخذنا لأنفسنا مسلكاً غير ذلك المسلك؛ فقد نستطيع أن ننظر إلى المسألة من ناحية فنية محضة، نلتمسها في القرآن نفسه؛ وحينئذ نلاحظ أن كلمتي القرآن والقراءة تزدوجان في كثير من آي الكتاب الكريم، فأولى أن تكون كلمة (القرآن) مشتقة من القراءة لا من القرء، قال تعالى:

(وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً). (فإذا قرأناه فاتبع قرآنه) (إن علينا جمعه وقرآنه). (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) (وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا) (فإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون)

وقد تقترن بكلمة القرآن كلمة التلاوة في نحو قوله تعالى: (وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن). (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله).

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي تشير إلى أصل كلمة قرآن إشارة نحسبها كافية في مثل هذا المجال.

ثم إن تسمية القرآن بالذكر وبالكتاب تشير إشارة ما إلى هذا الأصل أيضاً، وحسبنا هذا.

فإذا انتقلنا من مادة قرآن إلى صيغتها رأينا المتقدمين يختلفن فيها: هل هي مصدر أو وصف على فعلان. وأيا كان الوجه فلا شك أنها قد تركت المصدرية أو الوصفية وتمحضت للاسمية المحدودة، علماً على ذلك الكتاب المقدس.

ولكن بعض المستشرقين مثل شفللي وفلهوزن يعارض في عربية كلمة (قرآن)، ويرى فيها كلمة (قرياني) السريانية، وهي بمعنى القراءة أو المقرء، ويقوي هذا الفرض لديهم مقاربة الكلمة السريانية للكلمة العربية في الصبغة ولكن هذا المقاربة أو المشابهة لا قيمة لها، لأن في العربية كثيراً من المصادر على وزن فعلان مثل رجحان ونقصان وغفران وكفران وخسران وغير ذلك مما هو عربي صريح مادة وصيغة، فأي شيء يلجئنا إلى مثل هذا الفرض؛ ألأن السريانية لغة الإنجيل. . .؟

قد لا نمنع أن يكون الكتاب الكريم قد استحدث كلمة (قرآن) استحداثاً، وليس هذا الاستحداث بالأمر الغريب في اللغة. بل ربما لم نجد بداً من فرض ابتداع القرآن الكريم لهذه الكلمة، ما دامت نصوص اللغة الجاهلية الصريحة النسبة إلى ما قبل الإسلام قليلة نزرة لا تمدنا بالدلائل العلمية الكافية القاطعة. ولكن إذا كان كتاب الله قد استحدثها فذلك من أصل عربي وعلى نحو عربي. وقد لا يكون ذلك النحو شائعاً في اللغة كثير السريان فيها كغيره من الصيغ، ولكنه في حقيقة الأمر موسيقى مرنان ليس أجدر منه أن يكون اسماً وعنواناً لذلك الكتاب الخالد. وقد قصد إلى تقرير ذلك الإسلام في الأذهان إذا كان ذلك من الأمور الخطيرة في الدعوة، ولذلك كرره أكثر من ستين مرة على أساليب متنوعة، وفي مواضع مختلفة، ومناسبات شتى.

لقد كان أساس الدعوة إلى الدين الجديد هو القرآن، ولاسيما في العهد الملكي، فلا جرم كان تقرير اسمه أمراً جديراً بالعناية فكان كثير التكرار كما قلنا، وهذه الكثرة واضحة وضوحاً تاماً في العهد المكي، دون المدني الذي لا نكاد نقرأ فيه كلمة (القرآن) في أكثر من خمسة مواضع، وقد كان المقتضى لذكرها في بعض هذه المواضع مجرد السياق الذي لا بد منه كما في آية سورة التوبة: (. . . وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن) أو سبب النزول كما في آية سورة المائدة: (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم، وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم) - على حين نرى في إحدى السور

المكية الظاهر فيها أسلوب الدعوة الحارة المفتنة، والجدل القوى الغلاب، وهي سورة الإسراء، إن كلمة القرآن تكررت فيها نحو ثمان مرات. والفرق بين العهدين ظاهر، ففي العهد المدني كان اسم (القرآن) قد ثبت وتقرر وأخذ ذلك المعنى المحدود فلم تعد الحاجة ماسة إلى تكراره وإشاعته، كما في العهد المكي

إن قول المستشرق في إنكار كلمة (القرآن) يرجع - فيما أحسب - إلى أصلين: أحدهما قولهم في القرآن إنه يصدر عن أصول أجنبية كالتوراة والانجيل، فمن هنا لا يرون بأساً في أن يكون القرآن قد استعار عنوانه من هذه المصادر أو من اللغة التي كتبت بها، ولاسيما إذا عزز هذا الأصل الثاني المقرر لديهم وهو عدم ورود كلمة قرآن في نص جاهلي، وبعد الذي تقرر من صيغة فعلان صيغة عربية صريحة لا يكون لهم إلا إنكار مادة قرأ بمعنى القراءة في اللغة العربية الخالصة ' وقد يكون لهم عذرهم في هذا، فأن من العسير حقاً أن نعثر فيما بين يدينا من النصوص الجاهلية على مادة القراءة، وإني أقطع بأن هذه المادة لم تجيء في المعلقات العشر، وإنما وردت كلمة (تقرأ) في بيت عمرو بن كلثوم على رواية أبي عبيدة، ولكن هذا من واد آخر ولكن هبه صحيحاً أن مادة القراءة لم ترد في نص جاهلي آخر، فهل يدل هذا دلالة قاطعة على عدم وجود الكلمة في اللغة؟ إنما يكون هذا لو أن الأدلة انحصرت في النص وحده، وليس النص هو كل شيء، فالوقوف عنده يؤدي بنا من غير شك إلى الخطأ في الاستنتاج.

لم تكن العرب قبل الإسلام أمة كتلك الأمم التي تعيش في حالة أولية، وإنما كانت أمة تجارة تتعامل بتجارتها مع أمتي التاريخ الكبريين: الفرس والروم على معرفة وبصيرة، وكانت مكة بصفة خاصة مركزاً من المراكز الكبرى لهذه التجارة الواسعة النطاق، وكانت المظاهر التجارية فيها بارزة في حياتها بروزاً كبيراً مما دعا الأب لامنس إلى تلقيبها في كتابه عنها بالجمهورية التجارية. وهذه الحياة التجارية تعتمد إلى حد كبير على الكتابة - ولن تكون كتابة بغير قراءة - فمن الغريب جداً الحكم بأن لغة العرب لا تحتوي على ما يدل على هذا المعنى. وإن النصوص الجاهلية نفسها تدل على أن العرب قد اتخذوا الكتابة، لا في الوثائق التجارية فقط، بل في عقد المحالفات بين القبائل المختلفة، وحسبنا ما قاله الحارث بن حلزة في شأن بكر وتغلب:

واذكروا حلف ذي المجاز وما ... قدم فيه العهود والكفلاء

حذر الجور والتعدي وهل ... ينقض ما في المهارق الأهواء

ونحن نعرف في السيرة مظهراً من مظاهر هذه العهود في (عهد الحديبية) وكان مندوب قريش في كتابته عمرو بن سهيل، وهو يقدم إلينا صورة من صور الحصافة والدقة في كتابة العهود والاتفاقات، فلم تكن قريش حديثة عهد بمثل هذا وانظر هذه الصورة التي يقدمها لبيد في معلقته:

وجلا السيول عن الطلول كأنها ... زُبُر تجد متونَها أقلاُمها

ومثل هذه الصورة شائع في الشعر الجاهلي الذي بين أيدينا، وكلها تثبت أن العرب لم يكونوا غرباء عن الكتابة والقراءة وإذن فافترض أن القرآن استعار مادة القراءة من بعض اللغات السامية الأخرى لعدم العثور على هذه المادة في النصوص الجاهلية التي بين أيدينا افتراض فيه شيء كثير من المجازفة.

محمد طه الحاجري

هكذا قال زرادشت - 5

للفيلسوف الألماني فرديك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

المأخوذون بالعالم الثاني

وترامي زارا يوماً بخياله إلى ما وراء الإنسانية، فتراءى هذا العالم لديه كما يراه جميع المأخوذين بالعالم الثاني خليقة رب متألم مضطرب، فقال:

رأيت الدنيا كأنها أحلام نائم أبدعت أبخرة حوالة متلونة ترتد عنها ألوهية النفس على غير رضى. وقد لاح لي الخير والشر والأفراح والأحزان وذاتي وذات الآخرين كما تلوح الأبخرة الملونة لعين المبدع، ولعل المبدع أراد أن يتحول ببصيرته عن ذاته فأوجد العالم.

لا ينتشي المتألم بمسرة أشد من مسرته حينما يعرض عن آلامه وينسى نفسه. هكذا

تكشف لي العالم يوماً فرأيت مسرته ثملاً ونسياناً وهو يتقلب أبداً في نقائصه معكساً للتناقض الأبدي
نظرت إلى العالم يوماً فلاح لي مسرةً مسكرة يتمتع بها مبدع غير كامل خلقته أنا، فجاء ككل أعمال البشر جنةً بشرية.
ما كان هذا الإله إلا إنساناً، بل جزءاً من شخصية إنسان، لأنه نشأ من ترابي ومن لهبي. إنه لشبح من هذا العالم لا من وراء هذا العالم.
شهدت ذلك، أيها الأخوة، فتفوقت على ذاتي بآلامي، وحملت ترابي إلى الجبل حيث أوقدت ناراً تشع نوراً فإذا بالشبح يتوارى مبتعداً عني.
فإذا ما آمنت الآن بمثل هذا الشبح، فلا يكون إيماني إلا توجعاً وصغاراً، ذلك ما أقوله للمأخوذين بالعالم الثاني.
ما أوجدت العوالم الأخرى في هذا العالم سوى الآلام والشعور بالعجز، ذلك ما أوجدته تلك العوالم فأوجدت معه هذا الجنون السريع الزوال بسعادةٍ ما ذاقا من الناس إلا أشدهم آلاماً
إن المتعب الذي يطمح إلى اجتياز أبعد مدى بطفرة واحدة بطفرة قاتلة، وقد بلغت به مسكنته وجهالته حداً لا يستطيع عنده أن يريد، إنما هو نفسه مبدع جميع الآلهة وجميع العوالم الأخرى.
صدقوني، أيها الأخوة، إن الجسد قد قطع رجاءه من الجسد، فغدا يجس بأنامله مواضع الروح المضللة، وذهب يتلمسها من وراء الحواجز القائمة على مسافة بعيدة.
صدقوني، أيها الأخوة، إن الجسد قد تملكه اليأس من الأرض فسمع صوتاً يناديه من قلب الوجود، فأراد أن يخترق برأسه أطراف الحواجز، بل حاول العبور منها إلى العالم الثاني، غير أن العالم الثاني جد خفي عن الناس لأنه بتخنثه وابتعاده عن كل صفة إنسانية ليس إلا سماء من العدم. إن قلب الوجود لا يخاطب الناس إذا لم يكلمهم كإنسان.
والحق إنه ليصعب علينا إثبات الوجود واستنطاقه. أجيبوا أيها الأخوة، أفما يلوح لكم أن أغرب الأمور أثبتها دليلاً؟ . . .
أجل! إن هذه الذات على ما فيها من تناقض واختلال تثبت بكل جلاء وجودها فتبتدع وتعلن إرادتها لتضع المقاييس وتعين قيم الأشياء، وما تطلب هذه الذات في إخلاصها إلا الجسد حتى في حالة استغراقه في أحلامه وتحفزه للطيران بأجنحته المحطمة
إن هذه الذات تتدرب على الإفصاح عن رغباتها باخلاص، وكلما ازدادت تدرباً ألهمت البيان للإشادة بالجسد وبالأرض.
لقد علمتني ذاتي عزة جديدة أعلمها الآن للناس: علمتني ألا أخفي رأسي بعد الآن في رمال الأشياء السماوية، بل أرفعها رأساً عزيزة ترابية تبتدع معنى الأرض.
إنني أعلم الناس إرادة جدية يتخيرون بها السير على الطريق التي اجتازها الناس عن غباوة من قبلهم؛ أعلمهم أن يطمئنوا إلى هذه الطريق فلا تنزلق أرجلهم عنها كما انزلقت أرجل الاعلاء المتهكمين، وما هؤلاء إلا من ابتدعوا الأشياء السماوية واخترعوا قطرات الدماء المراقة لافتداء البشر. على أن هذه السموم التي أخذوا بلذتها ورهبتها لم يستخرجوها إلا من الجسد ومن الأرض.
لقد شاءوا الفرار من الشقاء وتراءت لهم الكواكب بعيدة صعبة المنال فوجموا يدفعون بالزفرات قائلين: وا أسفاه! لم لا تنفتح أمامنا سبل في السماء ننسحب عليها إلى وجود آخر وسعادة أخرى.
في ذلك الحين اخترعوا أوهامهم وكؤوسهم الصغيرة المترعة بالدماء. . . وحسب هؤلاء الناس في عقوقهم أنهم فازوا بالنعيم بعيداً عن جسدهم وعن الأرض؛ وتناسوا أن تنعمهم ورعشة ملذتهم إنما نشأت من جسدهم ومن هذه الأرض.
إن زارا ليشفق على الإعلاء فلا يغضب لما أوجدوه من وسائل السلوان ولا يتمرمر لأنهم عقوا جسدهم وأرضهم، بل هو يرجو لهم الشفاء والتغلب على أنفسهم ليوجدوا لهم أجساداً أرقى من أجسادهم.
إن زارا لا يغضب أيضاً على الناقه الذي يحن إلى وهمه فيذهب في منتصف الليل ليطوف بقبر إلهه، ولكنه لا يرى في دموع هذا الناقه إلا أثر المرض والجسم المريض.
لقد وجد في كل زمان كثير من المرضى المستغرقين المتشوقين فهم يكرهون إلى

حد الهوس كل من يطلب المعرفة، ويكرهون أبسط الفضائل وهي فضيلة الإخلاص.
إنهم يلتفتون دائماً إلى الوراء، إلى الأزمنة المظلمة، إذ كان للجنون وللإيمان حلتهما الخاصة؛ فكان الإله يتجلى في هوس العقل، وكانت كل ريبة خطيئة.
لقد عرفتهم جد المعرفة، أولئك المتجلين على صورة الله ومثاله، فتيقنت أن جميع رغباتهم تتجه إلى أن يؤمن الناس بهم وأن يصبح كل شك فيهم خطيئة، وما فات مداركي ذلك الإيمان الذي يدعون رسوخه فيهم. فانهم لا يؤمنون لا بالعوالم الأخرى ولا بقطرات الدماء تفتدى العالم، بل هم كسائر الناس يعتقدون بالجسد، ويرون أن أجسادهم نفسها هي الكائن الواجب الوجود
غير أن هؤلاء الناس يرون الجسد كائناً معتلا، فيودون أن يبار حوا جلودهم وذلك ما يدفعهم إلى الإصغاء للمبشرين بالموت وما يهيب بهم إلى التبشير بالعوالم الأخرى.
أما أنتم، يا إخوتي، فأصغوا إلى صوت الجسد الذي أبل من دائه لأن هذا الجسد يخاطبكم بصوت أنقى وأخلص من تلك الأصوات.
ان الجسد السليم يتكلم بكل إخلاص وبكل صفاء، فهو كالدعامة المربعة من الرأس حتى القدم وليس بيانه إلا إفصاحاً عن معنى الأرض.
هكذا تكلم زارا.
المستهزئون بالجسد
لأقولن للمستهزئين بالجسد كلمتي فيهم: إن واجبهم ألا يغيروا طرائق تعاليمهم، ولكن عليهم
أيضاً أن يودعوا أجسادهم فيستولي على ألسنتهم الخرس.
يقول الطفل: أنا جسد وروح. فلماذا لا يتكلم هؤلاء الناس كالأطفال؟ أما الإنسان الذي انتبه وأدرك ذاته فيقول: إنني بأسري جسد لا غير، وما الروح إلا كلمة أطلقت لتعيين جزء من هذا الجسد.
ما الجسد إلا مجموعة آلات مؤتلفة للعقل، ومظاهر متعددة لمعنى واحد. إن هو إلا ميدان حرب وسلام، فهو القطيع وهو الراعي.
إن آلة جسدك إنما هي أداة عقلك الذي تدعوه روحاً، أيها الأخ، إن هو إلا أداة صغيرة وألعوبة صغيرة لعقلك العظيم.
إنك تقول: (أنا)، وتنتفخ غروراً بهذه الكلمة، غير أن هنالك ما هو أعظم منها، أشئت أن تصدق أم لم تشأ، وهو جسدك وأداة تفكيره العظمى؛ وهذا الجسد لا يتبجح بكلمة أنا، لأنه هو (أنا)، هو مضمر الشخصية الظاهرة.
إن ما تتأثر الحواس به وما يدركه العقل لا نهاية له في ذاته، غير أن الحس والعقل يحاولان إقناعك بأن فيهما نهاية الأشياء جميعها، فما أشد غرورهما!
ما الحس والعقل إلا أدوات وألعوبة؛ والذات الحقيقة كامنة وراءهما مفتشة بعيون الحس ومصغية بآذان العقل.
إن الذات ما تبرح مفتشة مصغية، فهي تقابل وتستنتج ثم تهدم متحكمة في الشخصية سائدة عليها، فأن وراء إحساسك وتفكيرك، يا أخي، يكمن سيد أعظم منها سلطاناً، لأنه الحكيم المجهول، وهذا الحكيم إنما هو الذات بعينها المستقرة في جسدك وهي جسدك بعينه أيضاً.
إن في جسدك من العقل ما يفوق خير حكمة فيك، ومن له أن يعلم السبب الذي يجعل جسدك بحاجة إلى خير ما فيك من حكمة
ان ذاتك تهزأ بشخصيتك وبألعابها قائلة: - ما هي خطرات الفكر وتساميه إن لم تكن جنوحاً إلى هدفي، أفلست أنا رائدة الشخصية وملهمة أفكارها؟
تقول الذات للشخصية - اشعري بألم، فتتألم وتفتكر بالتخلص من هذا الألم وقد تحتم عليها أن تتجه إلى هذه الغاية.
وتقول الذات للشخصية - اشعري بالسرور، فتسر وتفتكر بإطالة أمد هذا السرور؛ وقد تحتم عليها أن تتجه إلى هذه الغاية
لي كلمة أقولها للمستهزئين بالجسد، وهي أن احتقارهم إنما هو في الحقيقة حرمة واعتبار، إذ من هو يا ترى موجد الاحترام والاحتقار والتقدير والإرادة؟
إن الذات المبدعة أوجدت لنفسها الاحترام والاحتقار كما أوجدت اللذات والألم، إن الجسم المبدع أوجد العقل لخدمته كساعد يتحرك بإرادته.

إنكم لتخدمون الذات الكامنة فيكم حتى في جنونكم وفي احتقاركم. وأنا أقول لكم أيها المستهزئون بالجسد إن ذاتكم نفسها تريد أن تموت، وقد تحولت عن الحياة لأنها عجزت عن القيام بما كانت تطمح اليه، وما أقصى رغباتها إلا إبداع من يتفوق عليها، ولقد مضى زمن تحقيق هذه الرغبة، لذلك تطمح ذاتكم إلى الزوال أيها المستهزئون بالأجساد.

إن ذاتكم أصبحت تتوق إلى الزوال، وهذا ما يدفع بكم إلى الاستهزاء بالأجساد إذ قد امتنع عليكم أن تخلقوا من هو أفضل منكم.

إن هذا العجز قد ولد فيكم النقمة على الحياة والأرض. وها هي ذي تتجلى شهوة في لحظاتكم المنحرفة دون أن تعلموا

إنني لا أسير على طريقكم أيها المستهزئون بالأجساد، لأنني لا أرى فيكم المعبر الذي يؤدي إلى مطلع الإنسان الكامل

(يتبع)

فليكس فارس

الربيع الناطق!

للشاعر الحضرمي علي أحمد باكثير

يا مَن تفتَّح كالربيع لناظري ... فلمحت فيه شقائقاً وبهارا
والفُلَّ يشرق بالضياء وبالشَّذا ... والنرجسَ النعسان والنوَّار
والوردَ فخوراً يتمتم: (ويحكم ... هيا أغنموا مُتع الحياة قصارا)
متباين الألوان ألّف بينها ... ذوق يبلبل سرُّه الأفكارا
تلك المفاتنُ ينتهين لغايةٍ ... ولقد يريبك أنها تتبارى!
أمثولةُ الحسن البديع مرامُها ... تطوى لها المضمار فالمضمارا
فكأنها أحزاب شَعب راشدٍ، ... كلٌّ يجمّع حوله الأنصارا
يتنافسون، وإنما مرماهم ... تحقيق آمال البلاد كبارا
ما للجمال وللسياسة؟ إنه ... أهدى إلى قصدِ السبيل منارا
هو عالم ننساب في أطيافه ... ونعانق الأنداء والأنوارا!
من ضلّ في ساحاته كمن اهتدى ... وكمن صحا من لا يفيق خُمارا
يا من تفتَّح كالرّبيع لناظري! ... أضرمت ما بين الجوانح نارا
أسكرتَ روحي بالسَّنا فذهلتُ عن ... نفسي، وخلت العالمين سكارى!
وسهوتُ عن زمني فلست بمثبتٍ ... أسكرتُ ليلاً أم سكرت نهارا؟
رمتُ الكلامَ، فحار في شفتِي كما ... تاه الجمالُ بناظريك وحارا!
ماذا أقول وكل لفظٍ شاردٌ؛ ... عيناك أعظم أن تُطيقَ حوارا
عيناك أقوى بالحياة وفيضها ... زخراً، وأعمق في الحياة قرارا!
لَبَصُرْتُ بالتّفاح يلعن نفسه ... لما أبيتَ مساسه استكبارا!
كم ودّ لو يلقى الشهادة في فمٍ ... يهبُ الخلود وينهب الأعمارا!
ما كان ضرّك لو مسحت جبينه ... فأحاله لَهبُ الحياة نُضارا!
أو لو قبلت فداءه فجعلَته ... معنى يحيط به الجمال إطارا
أم غرت منه؟ فيا لقلبك قاسياً! ... ماذا تركت لحسنه فتغارا؟
يكفيه في زيناته أن يكتسي ... شَفقاً له منن وجنتيك مُعارا
ما كان إلا خادماً لك طائعاً ... يقفو خُطاك يُقبّل الآثارا!
راجع فؤادك في أحقِّ مُورَّد ... برضًى وأكرم مُشبهيك نِجارَا
تغفو وتصحو، وهو في صلواته ... لخدودك الآصالَ والأسحارا!
أما نثار الورد إذ بدّدته ... فلو استطاع من السرور لطارا
أَلأنَّه يحكي القلوب بشكله ... عبثت يداك بشمله استهتارا؟
إهنأ بظلمك؛ فالقلوب تودّ لو ... تُلقى لديك على البساط نثارا!
ويح القلوب! غلوت في بغضائها ... فمَقتَّ من جرَّائها الأشعارا
أتلوم أرضاً - يا غمام - بخيرها ... حفلت، وأنت فجرَتها أنهارا؟
أهبطت (شاكسبير) من عليائه ... وأزحْتَ عن كرسيّه (مهيارا)
ووقفت في وجهِ (الخلود)؛ فهل تُرى ... تطوى الخلود وقد طوى الأدهارا؟
لن تستطيع! فمن جمالك دونه ... سدٌّ يقيه سطوك الجبارا!!

رفقاً بحبّات القلوب تسومُها ... سوء العذاب وما جنت أوزارا
ألاِنها تهفو لحسنك كلما ... لمحته أو هجست به تذكارا!
يا لائم الأوتار في إرنانها ... مهلاً! بنانك تضرب الأوتارا!
يا طاوي الأقدار تحت جفونه! ... حتَّى لنَخْشاهنَّ لا الأقدارا
لما أبيتَ على مشاعرنا الهوى ... هلا مسخت قلوبنا أحجارا!!
علي أحمد باكثير
خاطرة!
قلبي يعاطف هذا الكون أجمعه ... لكنه لم يجد قلباً يعاطفُه!
يا ليت لي في الورى قلباً يلوذ به ... قلبي فتبيضّ من حُبٍّ صحائفُه
أقول شعري فهل قلب يصيخ له ... وتستبيه كما أهوى طرائفُه!؟
العوضي الوكيل
قسوة الطفولة
للأستاذ أمجد الطرابلسي
عُدْ به للوطن الغا ... لي وِللامِّ الرؤومِ
عد به للمؤكن البا ... كي وللصّحب الوُجومِ
عد به لِلِفْتَنِ الذا ... وي وللزَّهر الكليم
وارحَم اليُتْمَ فمن أص ... عبَ عيشاً مِن يتيم
زهرةٌ فواحةٌ مَط ... روحَةٌ فوقَ الأديم
وُئدَتْ في عُنفُوان ال ... حُسْنِ ما بيْنَ الرّجوم
تَطأ الأقدامُ خَدَّي ... ها على الترب الوَخيم
- أيّها الطفلُ - وهَلْ أر ... هَبُ من طِفْلٍ غَشوم
ما جنى تِرْبُكَ حَتَّى ... سِمَ ألوانَ الهُموم؟
هُوَ يا طفلُ حزينٌ ... جائعٌ غيرُ فَطيم
صامتٌ يجهلُ بَثَّ ال ... حزنِ والكربِ العَظيم
أيُّ مِسكينٍ غريبٍ! ... أيُّ مظلومٍ مَضيم!
جسْمُهُ الأرْغَبُ لايَنْ ... هَضُ بالخَطْبِ الجَسيم
يَتَنَزّى فَرَقاً كالزّ ... هرِ في مَسْرى النَّسيم
أوْ كَغُصْنٍ مُرْعَشٍ ما ... بينَ عَصْفٍ وَهَزيم
أُمُّهُ يا طفلُ تَبكي ... في دُجى اللَّيْلِ البَهيم
تَتَمَشَّى فَوْقَ أغصا ... نِ الرّبى مَشْيَ السَّقيم
تَسْأَلُ الأزْهارَ عَنْهُ ... وَعناقِيدَ الكُروم
والنسَيمْاتِ اللّواهى، ... ونُثاراتِ الغُيوم
لم تذُقْ طَعْمَ الكرى في ... وَكْرِها الداجي الوَجوم
أكَرىً والدَّمْعُ ما بَي ... ن نَثيرٍ وَنَظيم؟
والجوى يَعْصِفُ بالأضْ ... لاعِ والقَلْبِ الهَشيم
أكَرىً بَعْدَ فِراقِ الأ ... هلِ أوْ فَقْدِ النَّديم
غَابَ لا تدْري أحَيٌّ ... هُوَ أمْ بَعْضُ الرَّميم
أسَجينُ القَفَصِ الخا ... نِقِ أمْ فَرْسَةُ بُوم
أنا يا عُصفورُ منْ ير ... أفُ بالغَمِّ الكَظيم
ما بأشْجانِكَ يا مِسْ ... كينُ مِثلي من عَليم
هِجْتَ في قَلْبِيَ جرحاً ... غافياً جِدَّ قَديم
هو عطفُ الأمِّ، ما أن ... دْاهُ في القَلْبِ الكليم!
لم أذُقْهُ؛ ليتَ لي منْ ... قدْسِهِ بَعْضَ رسوم
إيهِ يا عُصْفورُ هذي ... سُنَّةُ البَغْيِ الذميم!
هكذا الناسُ! فمنْ عا ... دٍ وَمِنْ نَهْبٍ هَضيم
ظالم يَقْسوا عَلى ال ... حقِّ انتصاراً لظلوم
وجريحٍ مُؤْلم يح ... نو على الجرحِ الأليم
القصورُ الشمُّ تَشوى ... الراح واللَّحْنِ الرّخيم
والدموعُ الحُمْرُ تَنْ ... هَلُّ منَ الكوخِ الهَديم

ساكِنُ الفِرْدَوسِ لا يُد ... ركُ وَيلاتِ الجحيم
وهو في الأحلامِ واللّ ... ذاتِ والعِزِّ المقيم
أينَ طعمُ العَسَلِ الدفّ ... اقِ منْ لذَعِ الحميم!
أينَ مَرُّ النسمة الحُل ... وةِ من لَفْحِ السَّموم!
أينَ أَصْداءُ الأغاري ... دِ وَهَمْساتُ النُّجوم
من عويلِ الأَكْبدِ الحَرَّ ... ى وأَناتِ الجُسوم!
عدْ بهِ للوطَنِ الغ ... الي وللأمِّ الرَّؤوم
وارحَمِ الصَّعْفَ فما يَسْ ... حَقُهُ غيرُ لئيم
سافِكٍ لا يَعْرِفُ الرَّأْ ... فَةَ أَوْ أَسْوَ الكُلوم
يَتَلَهَّى بالدَّم المُهْ ... راقِ والدَّمْعِ السَّجيم
كيفَ تَصْفو عِيشَةُ إلحُ ... رِّ وَأفراحُ الكَريم
وعَلى الأرضِ شَقَّى ... واحِدٌ نِضْوُ غُموم
كُنْ رَحيماً إنما الإِنْ ... سانُ ذو القَلْبِ الرّحيم
(دمشق)
أمجد الطرابلسي
تاريخ العرب الأدبي - 7
للأستاذ رينولد نيكلسون
ترجمة حسن حبشي
الفصل الأول
أما القصيدة الموجهة إلى ولده وخليفته حسّان والتي اقتضت التقاليد والعرف أن يقولها فلا تعدو نصيحة الوداع وقد استنفد جزءاً كبيراً منها في تعداد غزواته والفخر بأسرته وبنفسه وكل ما نجده فيها من الأمثال والنصائح لا يعدو قوله:
حضرتْ وفاة أبيك يا حسّان ... فانظر لنفسك فالزمان زمان
فلربّما ذل العزيز وربّما ... عزّ الذليل وهكذا الإنسان
قولوا الحمير يقبروني واقفاً ... وتكن معي الخيلان والرّقان
وانظر لكاهنتي فان كلامها ... علم وأن بصوتها غيمان
وعلى ذكر غيمان فيمكن إضافة بضع كلمات قلائل حول قلاع اليمن التي تجثم بقاياها الخربة وتتراءى للمسافر المار بها في وحدتها متجهمة ساخرة؛ ومنذ ألفي عام، وربما قبل ذلك بكثير كان يسكن هذه القلاع والحصون أمراء أقوياء الشكيمة مستقلون أو شبه مستقلين يولون ملوكهم ويعزلونهم أحياناً حينما أخذت دعائم الإمبراطورية الحميرية تتداعى. ولقد أسهب الهمداني الجغرافي في وصف هذه القلاع في المجلد الثمن من مؤلفه العظيم (الإكليل) الذي تناول فيه تاريخ اليمن وذكر عادياتها وآثارها، وإن أقدم هاتيك الحصون وأشهرها لهو المسمى (غمدان) قلعة صنعاء، ويصفونه بأنه صرح هائل ذو عشرين طابقاً ارتفاع كل طابق عشر أذرع؛ وقد شيدت أوجهه الأربعة من حجارة متباينة الألوان: بيضاء وسوداء وخضراء وحمراء، وعلى قمة الصرح غرفة ذات نوافذ رخامية محلاة بالأبنوس والخشب المصقول، وفي وسطها لوحة مرمرية فإذا ما اضطجع صاحب غمدان على سريره، شاهد الطيور محلقة فوق رأسه، واستطاع أن يميز الحدأة من الغراب؛ وفي كل ركن من أركان الغرفة قد نصب تمثال أسد من البرنز، فإذا ما هبت الريح تغلغلت في ثناياها، فيخرج منها إذ ذاك صوت أشبه بزمجرة الليوث.
وإن مخاطرات (أسعد كامل) مع الساحرات الثلاث تذكر القارئ ببعض مناظر خاصة في رواية ماكبث. وإن العجيب في تاريخ ابنه حسان، تلك الحادثة التي تؤلف منظراً أشبه بمنظر مسير غابة برنام. وهنا نشير إلى قبيلتي طسم وجديس، ولما أحدثت جديس المجزرة التي فتكت فيها بطسم استطاع أحد أفراد القبيلة الثانية الهروب وهو (رباح بن مرة) فاحتمى بتبع حسان، واستطاع أن يؤثر فيه حتى أرسل معه جيشاً ليقتص به من القتلة. وكانت أخت رباح وتدعى (زرقاء اليمامة) قد بنت بأحد رجالات جديس، وكانت حادة البصر حتى لقد كان في استطاعتها أن ترى الجيش على بعد ثلاثين ميلاً، ولما كان رباح يعرف ذلك في أخته فقد نادى في الجيش أن يقتلع كل رجل شجرة ويحملها أمامه. وإذ جن المساء وأصبحوا على مسيرة يوم من جديس قالت

زرقاء اليمامة لقومها: (إني أرى غابة تسير إليكم) فلم يصدقها أحد وسخروا بها حتى إذا كان الصباح أغار حسان عليهم وأعمل السيف في رقابهم.

ولقد أحس زعماء حمير أن الحملات الحربية - التي شجعها حسان - إنما هي عبء ثقيل عليهم، فدبروا مؤامرة لذبحه وتولية أخيه عمرو مكانه، فقالوا له: (اقتل أخاك حساناً وتملك علينا وترجع بنا إلى بلادنا) فامتنع بادئ ذي بدء وأبى الخضوع لما أشاروا به، غير أنهم استطاعوا التغلب عليه فطعن بيده تبع؛ بيد أن الجرم أقض مضجعه، ولم يذق جفناه الكرى فصمم على أن يقتل كل من وسوس إليه بذلك؛ وكان هنا زعيم يدعى (ذا رعين) حاول جهده إنقاذ عمرو مما هو مقدم عليه فما استطاع، ولما وجد أن محاولاته ذهبت عبثاً كتب رقعة رفعها إليه وختمها وقال له: (ضع لي هذا الكتاب عندك حتى أطلبه) فلما مثل ذو رعين أمام عمرو سأله عن الرقعة فأخرجها:

ألا من يشتري سهراً بنوم ... سعيد من يبيت قرير عين

فأما حمير غدرت وخانت ... فمعذرة الإله لذي رعْين

فلما قرأها عمرو أيقن الإخلاص في قوله ثم أطلق سراحه وقد انتهى عهد التبابعة بعمرو هذا. أما الملوك الذين خلفوهم فقد كان يختارهم ثمانية أقيال أقوياء، كانوا في الحقيقة أمراء مستقلين، يحكم كل منهم في حصنه القوي. وفي أثناء هذه الفترة غزا الأحباش بعض أجزاء المملكة، وأرسل النجاشي ولاته المسيحيين ليحكموها باسمه، حتى قام أخيراً ذو نواس - وهو من ذرية تبع أسعد كامل - وطرد الأشراف الثائرين، وجعل نفسه حاكماً لليمن غير مسئول، وكان يهودياً متعصباً، فجمع العزم على أن يستأصل شأفة المسيحية من نجران التي يقال إن النصرانية دخلتها على يد رجل مبارك يدعى فيميون، ودخل الحميريون في دينه أفواجاً يدفعهم إلى ذلك كرههم لاستبداد الأحباش أكثر من احترامهم للدين. وحدث إذ ذاك أن قتل طفلان يهوديان فأتاح هذا الحادث لذي نواس فرصة ليصب نقمته عليهم، فسار إلى نجران على رأس قوة جرارة، ودخل المدينة وخير أهلها بين اليهودية أو القتل، فرفضوا دينه، فحكم السيف في أعناق الكثيرين، وألقى بالآخرين في أخدود أمر بحفره وأشعل النار فيهم؛ وبعد مائة عامة تقريباً من هذا الحادث حين لقي محمد (ص) أشد ضروب الاضطهاد من قومه أخذ يضرب لأتباعه المثل بنصارى نجران وكفاحهم: (قتل أصحاب الأخدود، النار ذات الوقود، إذ هم عليها قعود، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود؛ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) وقد دفع ذو نواس ثمن هذا النصر غالياً، فان دوس ذا ثعلبان كان قد نجا من القتل ففر إلى إمبراطور الروم مستنصراً إياه باعتباره كبير المسيحيين ليساعدهم على أخذ ثأرهم، فكتب يوستنيانوس رسالة إلى النجاشي طالباً إليه أن ينوب عنه في تنفيذ هذه المهمة؛ وسرعان ما حشد النجاشي سبعين ألفاً من الأحباش الأيدين، وجعل عليهم أرياط قائداً فغزا اليمن. ولم يستطع ذو نواس الاعتماد على إخلاص أشراف حمير، وتفرقت قواته (فلما رأى ما نزل بقومه وبه وجه فرسه إلى البحر ثم ضربه فدخل فيه، فخاض به ضحضاح البحر حتى أفضى إلى غرق فاقتحمه فيه فكان آخر العهد به) وبهذا انتهت سلسلة الملوك الحميريين.

وعلى كل فان اليمن تظهر في تاريخ ما قبل الإسلام، كإمارة حبشية أو ولاية خاضعة للفرس، وأما القصص التي تروى بعد ذلك فتعتبر تمهيداً لرواية جديدة يمثل على مسرحها عرب الجنوب دوراً تافهاً لا يعتد به.

(يتبع)

حسن حبشي

البريد الأدبي

بين الأدب والسياسية - فون أوسيتسكي حاصل جائزة نوبل

قررت اللجنة المختصة بجامعة استوكهلم أن تمنح جائزة نوبل للسلام عن سنة 1935 للكاتب الألماني كارل فون أوسيتسكي، وعن سنة 1936 للدكتور سافدرا لاماس سفير جمهورية الأرجنتين في لندن، وذلك لما أبداه كل منهما في سبيل قضية السلام من خدمات وجهود.

وليس في قرار جامعة استوكهلم ما يثير الدهشة، لأن جائزة نوبل للسلام تمنح كل عام كباقي جوائز نوبل الأخرى عن العلوم والآداب والفنون، وقد منحت في الأعوام

السابقة لكثير من الكتاب والساسة مثل مسيو بريان رئيس وزارة فرنسا السابق، والسير نورمان انجل الكاتب الإنجليزي المعروف.

وقد منحت جائزة نوبل للهرفون أوسيتسكي تطبيقاً لدستور نوبل الذي يقضى بأن تمنح هذه الجائزة (لكل من قام بأكبر جهد وبأفضل جهد في سبيل توثيق روابط الأخوة بين الشعوب، أو في سبيل تخفيض السلاح، أو نشر الدعوة إلى السلام)، وقد لبث فون أوسيتسكي مدى أعوام يبث بقلمه الدعوة إلى السلام من منبر الصحافة، ولاسيما في صحيفة (الفلت بينه) (مسرح العالم) التي كان يحررها مع صديقه وزميله في الدعوة إلى السلام الكونت فون جيرلاخ الكاتب السياسي الكبير الذي توفى منذ أشهر في منفاه في باريس.

ولكن حكومة برلين النازية ترى في منح جائزة السلام لهذا الكاتب الألماني إهانة لها، وتحتج على ذلك رسمياً لدى حكومة السويد، ولماذا؟ لأن كارل فون أوسيتسكي يعتبر في نظرها خائناً لوطنه، فتكريمه بهذه الصورة من هيئة عالمية يعتبر مناقضاً لواجب المعاملة الدولية، بل يعتبر استفزازاً لألمانيا.

واليك قصة كارل فون أوسيتسكي المحزنة، ولماذا تعتبره ألمانيا الهتلرية خائناً لوطنه:

كان فون أوسيتسكي من دعاة السلم كما قدمنا، وكان كاتباً مستقلاً لا ينتمي لأي حزب سياسي، وإنما يبث دعوته السلمية بالكتابة الملتهبة، ويدعو إلى تفاهم الشعوب ونزع السلاح بكل قواه، ويحمل على السياسة العسكرية لأنها خطر على السلام والمدنية؛ ولم تكن هذه الدعاية مما يتفق مع مبادئ الوطنية الاشتراكية ونزعتها العسكرية؛ فلما قبض الوطنيون

الاشتراكيون (النازي) على زمام الحكم في سنة 1933، كان فون أوسيتسكي ممن قبض عليهم من الكتاب المعارضين للمبادئ الهتلرية؛ فزج من ذلك الحين في أحد معسكرات الاعتقال المشهورة دون محاكمة أو تهمة معينة، وعانى في الاعتقال ضروباً مرهقة من الحرمان والتعذيب؛ والتمس كثير من الهيئات الأدبية والكتاب في مختلف الأمم من الحكومة الألمانية أن تطلق سراحه فأبت حتى أشرف الكاتب المعتقل على الموت، وعندئذ فقط سمحت بأن يغادر معسكر الاعتقال إلى أحد المستشفيات، حيث هو الآن تحت الحجر والاعتقال.

ورأت الهيئات الأدبية المختلفة وأكابر الكتاب في أنحاء العالم أن يلفتوا نظر جامعة السويد إلى قصة هذا الكاتب الشهيد لكي تمنحه جائزة نوبل للسلام، واشترك في تقديم هذا الطلب رومان رولان، وابتون سنكلير، وهنريش مان، والفيلسوف ليفي بريل، وأميل لودفيج، وجيللمو فيريرو وغيرهم، تقديراً لخدماته وكتاباته الكثيرة في سبيل قضية السلام؛ وكان أن شاطرت اللجنة المختصة تقدير الرأي العالمي ومنحت كارل فون أوسيتسكي هذا الشرف العظيم.

والآن يحتضر فون أوسيتسكي على سرير موته، وقد يموت بعد أيام أو أسابيع قلائل دون أن يعرف شيئاً عن الشرف العظيم الذي أسبغ عليه.

أما اعتبار الحكومة الألمانية مواطنها خائناً، فلأنه كان قبل تبوئها الحكم بأعوام، يكافح بالقلم في سبيل السلام.

كتاب عن نابليون لاوكتاف أوبري

أوكتاف أوبري كاتب ومؤرخ من أشهر كتاب فرنسا الحاليين؛ وهو مؤرخ قبل كل شيء يمتاز بأسلوبه الشائق وبيانه الساحر في عرض الوقائع وتصنيفها؛ وقد اتخذ في الأعوام الأخيرة عصر نابليون بونابرت ميداناً لمباحثه، وأصدر عن نابليون وعن العصر وأبطاله عدة كتب: وآخرها كتاب (نابليون وعصره وفي هذا الكتاب يعني أوكتاف أوبري بالنواحي الشخصية والاجتماعية أكثر مما يعني بالنواحي السياسية والعسكرية؛ فلست تقرأ في كتابه استعراضاً تاريخياً جامداً، وإنما تقرأ قصة ممتعة عن الإمبراطور، وأطوار حياته الشخصية، وعن خاصته وصحبه من الرجال والنساء، وعن حوادثه الغرامية؛ وتقرأ عن

جوزفين وعن منافساتها فصولاً شائقة؛ ثم تقرأ تفاصيل المأساة الأخيرة: نفى الإمبراطور، واعتقاله في سنت هيلانة، وما قاساه من الآلام المادية والمعنوية، وتعرف الكثير عن بطانته التي صحبته في الاعتقال من رجال ونساء إلى أن تصل إلى ختام المأساة في جو يفيض سحراً وتأثراً. ويفرد أوكتاف أوبري للإمبراطورة ماري لويز بحثاً

شائقاً يحلل فيه شخصية هذه الأميرة التي ألقتها أقدار الحرب والسياسة في طريق الإمبراطور، وأنجبت منه ولده (ملك رومة) أو النسر الصغير أو الدوق فون ريخشتاث، كما يسميه آل هبسبورج.

هذه محتويات كتاب أوبري تغري بالقراءة، ويحطيها جميعاً جو من السحر المؤثر.

بين العلم والعاطفة

كثر الجدل منذ حين في إنكلترا حول مسألة اجتماعية وإنسانية دقيقة، وهي هل يحق للإنسان أن يعاون على الموت شخصاً عزيزاً عليه أصابه المرض وعز شفاؤه؛ وقد ثارت هذه المسألة أخيراً في ألمانيا على اثر ظهور رواية للكاتب الوطني الاشتراكي الدكتور هلموث عنوانها (الرسالة والضمير) ويطلبها طبيب يعالج هذا السؤال: هل يحق لي أن أعجل الموت لمريض استعصى شفاؤه، أم يجب علي الانتظار حتى يوافيه الموت؛ وقد عنى ببحث هذه المسألة عدة من أكابر الأطباء الألمان، وأذاعوا آراءهم في الصحف؛ فيرى الأستاذ زاوربروخ الجراح الأشهر، أن هذه مسألة ضمير لا يمكن حلها على هذا الوجه، وأنه لا يمكن أن توضع لها قاعدة ولا أن يشرع لها قانون، وهي تبعة عظمى لا يمكن أن يحتملها الطبيب بسهولة. ويقول الدكتور كلاري الأخصائي الكبير في مباحث السل؛ إنها مسألة لا يمكن التسليم بها، ولا معنى مطلقاً لأن تثار مسألة اليأس من الشفاء لأن العلم يتقدم ويأتي كل يوم بالعجائب، فمن يدرينا أنه لن يكتشف بين اليوم والغد علاج للسرطان مثلاً؟ إنه من الاستهانة الكبرى أن تعامل الحياة بمثل هذه الرعونة بحجة الإشفاق على مريض عزيز؛ ويؤيده الدكتور أونفرخت في ذلك ويقول إن مهمة الطب هي أن تعاون على صون الحياة وإطالتها، لا على تحطيمها والتعجيل بسحقها؛ وهذا هو رأي معظم أعلام الطب في ألمانيا في هذه المسألة الدقيقة.

ديوان حافظ

رفع الأستاذ أحمد أمين إلى صاحب المعالي وزير المعارف ديوان المرحوم حافظ بك إبراهيم بعد أن تم جمعه وشرحه وتبويبه وقد بدأت مطبعة دار الكتب في طبعه.

ولم يعثر الأستاذ في جميع المجلات والصحف المتداولة على قصيدتين من خير قصائده وهما قصيدته في رثاء البابلي ومطلعها:

بدأ الممات يدب في أترابي ... وبدأت أعرف وحشة الأحباب

والثانية قصيدة في وصف الحالة في مصر قبيل وفاته ومطلعها:

قد مر عام يا سعاد وعام ... وابن الكنانة في حماه يضام

وهو يرجو ممن لديه القصيدتان أو أحدهما أو شيء منهما أن يتفضل فيبعث بذلك إليه في لجنة التأليف والترجمة والنشر في شارع الكرداسي رقم 9 بعابدين وله الشكر.

واجبنا بعد المعاهدة

فرغت لجنة أسبوع المعاهدة من تنظيم محاضراتها التي تبحث فيما يجب أن يتجه إليه المجتمع المصري في عهده الجديد على البيان التالي:

يوم السبت 5 ديسمبر (واجب الشباب بعد المعاهدة) لسعادة أحمد نجيب الهلالي بك.

يوم الاثنين 7 ديسمبر (فكرة عامة عن منشأ الحروب وواجبنا الحربي بعد المعاهدة) لسعادة اللواء عزيز المصري باشا

يوم الخميس 11 ديسمبر (واجبنا الاجتماعي بعد المعاهدة) لسعادة حسن نشأت باشا

السبت 19 ديسمبر (واجبنا الأدبي بعد المعاهدة) للدكتور طه حسين بك

الاثنين 21ديسمبر (واجبنا نحو التعليم بعد المعاهدة) للدكتور علي مصطفى مشرفة

الخميس 24 ديسمبر (واجبنا الصحي بعد المعاهدة) للدكتور حامد محمود (واجبنا الزراعي بعد المعاهدة) لحسين عنان بك

الاثنين 28 ديسمبر (واجبنا الرياضي بعد المعاهدة) لصاحب السعادة محمد طاهر باشا

الخميس 31 ديسمبر (واجبنا القانوني بعد المعاهدة) للدكتور عبد الرزاق السنهوري

الاثنين 4 يناير سنة 1937 (واجبنا القومي بعد المعاهدة) للأستاذ محمد توفيق دياب

الخميس 7 يناير (واجب الطلبة بعد المعاهدة) للأديب فريد زعلوك

الاثنين 11 يناير (واجبنا الصحفي بعد المعاهدة) لأنطون الجميل بك (واجبنا نحو الفلاح بعد المعاهدة) للآنسة ابنة الشاطئ

الخميس 14 يناير (واجب المرأة بعد المعاهدة) للسيدة استر فهمي ويصا.

وستلقى هذه المحاضرات في قاعة يورت التذكارية وقد أعدت اللجنة بطاقات تبيح لحاملها الدخول في جميع المحاضرات أو بعضها مجاناً لمن يطلبها من سكرتير اللجنة بكلية الحقوق أو بنادي الجامعة.

وثائق الحملة الفرنسوية

اعتزمت الجامعة المصري شراء طائفة من الوثائق والمستندات التاريخية الخاصة بعهد نابليون بونابرت في مصر، وقد طلبت إلى وزارة المالية الموافقة على الاعتماد الذي قدرته لهذا المشروع؛ وفي انتظار تلك الموافقة وكلت إلى صاحب العزة عميد كلية الآداب أن يتصل بالمفوضية المصرية في باريس ويطلب إليها موافاة الجامعة بالبيانات والمعلومات الخاصة بهذه المجموعة، فتلقى الأستاذ العميد من معالي وزير مصر المفوض برقية يقول فيها إن هذه المجموعة ملك لأحد الفرنسيين، وأنه قد عرضها للبيع بالمزايدة العلنية خلال هذا الشهر. أما ثمنها الأساسي فيقدر بنحو ألفي جنيه. ثم عرض معاليه على الجامعة استعداده لشراء هذه المجموعة إذا هي رغبت في ذلك.

الكتب

نفح الطيب في طبعته الجديدة

بقلم محمد فهمي عبد اللطيف

همة مشكورة تلك التي يبذلها الدكتور أحمد فريد رفاعي في الحرص على تراثنا الأدبي الحافل، بإحياء عناصره، ونشر مصادره. وإذا كنا قد عرفنا هذه الهمة في نفس الأستاذ من قبل - رغبة وأملا - فأننا الآن نلمسها منه عملاً جليلاً وجهداً كبيراً يؤديه في نشر كتابي، معجم الأدباء، ونفح الطيب، في طبع متقن، وضبط كامل، وتقسيم واضح، وتصحيح دقيق، تقوم وزارة المعارف بمراجعة أصوله النهائية مبالغة في إجادته وحرصاً على إتقانه.

ولقد وقع لي (القسم) الأول من نفح الطيب، فرأيته كالعروس المجلوة تخطر في الثوب القشيب، فهو يغري بالقراءة إغراء، ويستحث على المضي في استجلائه وتأمله، فعاودت الكتاب بالنظر والتصفح، إذ كنت قد قرأته من قبل في طبعته الأولى، فقدرت عمل الدكتور النافع، وتملكني الإعجاب بذلك المجهود الذي بذله في إخراج هذا الكتاب الجليل، ولكن نشوة الإعجاب بالدكتور لا تمنعي من أن أنبه على بعض هنوات ما تحسبها إلا قد ندت عن الخاطر اليقظ، وخرجت عن الدقة البالغة.

فمن ذلك أنه وضع اسم الكتاب على الغلاف ناقصاً، فسماه نفح الطيب فحسب، والمؤلف قد سماه (نفح الطيب، من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب) وهذا الاسم هو الذي وضع على الطبعات السابقة، فكان على الأستاذ أن يثبته كاملاً للمحافظة على وضع المؤلف، ولأن ذكر لسان الدين هو الفكرة الداعية لتأليف الكتاب كما أوضح ذلك المقري في مقدمته.

ثم إن الأستاذ رأى أن يخرج الكتاب أقساماً تبلغ العشرين وأسمى القسم الأول منها بالجزء الأول، ومن المعلوم أن المؤلف قسم كتابه عند التأليف إلى أربعة أجزاء، ومسألة التقسيم مسألة اعتبارية، والدقة تقضي بالمحافظة على اعتبار المؤلف الذي أخرج الكتاب عليه؛ فكان الأنسب أن يقسم الناشر كل جزء إلى أقسام، فيقول مثلاً: القسم الأول من الجزء الأول، والقسم الثاني من الجزء الأول. . . وهكذا حتى ينتهي الجزء الأول، فيبتدئ تقسيماً جديداً للجزء الثاني.

ونتجاوز هذا إلى صميم الكتاب، فنقف مع الأستاذ في تلك المقدمة التي دبجها في التعريف بمؤلف الكتاب، فنجده قد جاء بأشياء ذكرها المقري نفسه في المقدمة التي كتبها عن سفراته ورحلاته، والباعث له على تأليف الكتاب. ومن العجيب أن يقول الأستاذ وهو يسرد مؤلفات المقري: ومن مؤلفاته الشائقة عرف الطيب في أخبار ابن الخطيب، ثم يقول في الهامش: ذكر في كشف الظنون أنه سماه بعد ذلك نفح الطيب، وهذا لف لا حاجة إليه، فإن المؤلف قد شرح مسألة التسمية في المقدمة فقال: (وقد كنت أولاً سميته بعرف الطيب في التعريف بالوزير ابن الخطيب، ثم وسمته حين ألحقت به أخبار الأندلس بنفح الطيب. . .) فكان سبيل الكلام أن يقول الأستاذ: ومن مؤلفاته نفح الطيب. . . ولا يثبت اسماً قد ألغاه صاحبه، ولا ينتدب كشف الظنون لمهمة قد أداها المؤلف عن نفسه؛ على أنه بعد ذلك قد ذكر الاسم الأول محرفاً كما يتبين ذلك من مقابلته بعبارة المؤلف.

وفي (ص52) قال المقري من قصيدة طويلة:
أين الذي الهرمان من ... بنيانه الحاكي اعتزامه
فعلق عليه الشارح بقوله: كشف من الأهرام حتى الآن أربعة!! إلا أن شعراء الماضي يذكرون الهرمين: هرم خوفو وهرم خفرع، ثم استشهد لذلك بقول أبي الطيب:
أين الذي الهرمان من بنيانه ... ما قومه ما يومه ما المصرع!
نقول: وشعراء الماضي يذكرون الأهرام بلفظ الجمع وهو كثير في أشعارهم، ومن ذلك قول ابن جبارة:
لله أي غريبة وعجيبة ... في صنعة الأهرام للألباب
أخفت عن الأسماع قصة أهلها ... ونضت عن الإبداع كل نقاب
وفي (ص 61) قال المقري: (وقد زمت للرحيل القلص الرواسم) فقال الشارح: الرواسم هي الإبل السائر رسيما قال الشاعر:
متى تقول القلص الرواسما ... يدنين أم قاسم وقاسما
وهذا تفسير ناقص فكان عليه أن يبين مرتبة هذا الرسيم من السير، أهو إلى السرعة أم إلى الريث، وإنما نبهنا على هذه لأن أمثالها في الكتاب كثير. ألا تراه يعلق على كلمة - نيسان - بالشرح فيقول. هو شهر رومي؟
وفي (ص 79) قرأت قول القائل:
رحلنا فشرقنا وراحوا فغربوا ... ففاضت لروعات الفراق عيون
وقد رأيت كلمة فشرفنا بالفاء، ولعل من الواضح أنها بالقاف لتكون في مقابلة (فغربوا) وأحسب هذا الخطأ من تحريف الطابع.
وفي (ص 98) قال المقري: (فكم جبنا من مهامه فيحا، ومسحنا بالخطأ منها أثيراً وصفيحاً. . .) فقال الأستاذ الشارح: الأثير عند الأقدمين الفلك التاسع، فهو على تشبيه المهامه بالفلك في اتساعه، أو الأثير من أثر السيف وهو فرنده ورونقه وديباجته ولعل هذا أنسب. نقول: أما المعنى على التفسير الأول فخطأ لا يصح، وأما التفسير الثاني ففيه نظر؛ تقول اللغة: أثر السيف بوزن الأمر فرنده؛ وتقول اللغة أيضاً: الصفيح العريض من كل شيء، فالمقري يريد أن يقول: إننا جبنا هذه المهامه وسرنا بالعريض منها والدقيق. ومن هنا ترى أن صحة العبارة (ومسحنا بالخطأ منها أثراً وصفيحاً. . .)
وفي (ص 139) قال المقري وهو يتكلم عن دمشق: (وهي المدينة المعمورة البقاع، بالفضل والرباع) فلم يطمئن الشارح لكلمة الرباع بالباء الموحدة، وقال: لعلها الرياع بالياء المثناة أي الريع والنماء والزيادة. نقول. واللغة لا تقول الرياع وإنما تقول الريع، ثم لاشك أنها الرباع بالباء الموحدة جمع ربع بمعنى القوم كما هو إطلاقهم على الحجاز، فكأن المقري يريد أن يقول: إنها عامرة بالفضل وبالأقوام، وهو كما يقولون في التعبير الحديث (آهلة بالسكان).
وفي (ص 152) قول القائل في وصف دمشق أيضاً:
إن تكن الجنة الخلود بأرض ... فدمشق لا يكون سواها (؟)
أو تكن في السماء فهي عليها ... قد (أمدت) هواءها وهواها
فقال الشارح: لعلها أمرت!! نقول ومعنى أمرت أذهبت ولا يصح المعنى على هذا الحدس، فهي أمدت كما في الأصل لأن الشاعر يريد أن يقول: إن تكن الجنة بالأرض فهي دمشق، وإن كانت بالسماء فموضعها فوق دمشق وإنها أمدتها بهوائها وهواها. . .
وفي (ص 162) قال الشاعر:
رونق كالحباب يعلو على الما ... ء ولكن تحت الحباب الحباب
والشارح قد قيد الحباب جميعها في البيت بالضم، وإنما هي في الأولى والثانية بالفتح بمعنى الفقاعات التي تعلو سطح الماء، وقد فطن إلى هذا الخطأ فقيد الكلمة مصححة بالفتح فيما بعد.
وفي (ص 164) قال المقري: (ولو كان بين الصفا والحجون) وقد رأيت الصفا مضبوطة بكسر الصاد، وإنما هي بالفتح كما جاءت في القرآن الكريم.
وفي (ص 181) البيتان:
تمتع بالرقاد على (شِمال) ... فسوف يطول نومك باليمين
ومتع من يحبك باجتماع ... فأنت من الفراق على يقين
فقال الشارح: يجوز أن تكون (شمال) جمع شملة وهي كساء يشتمل به. . . وفي

حديث على (!؟) قال للأشعث بن قيس: إن أبا هذا كان ينسج الشمال بيمينه؛ وهي من أحسن الألفاظ وألطفها بلاغة!! وهذا كله شرح فاسد، فأن المراد بالشمال مقابل اليمين، إذ المعنى: تمتع بالنوم على جنبك الشمال في الحياة قبل أن يستمر نومك باليمين في الموت. ولعل من المعروف أن الأفضل في دفن الميت أن يوضع على جنبه الأيمن:

وفي (ص 201) قال الشاعر:

أين أيامنا اللواتي تقضت ... إذ زجرنا للوصل أيمن طير

فقال الأستاذ في الشرح: زجر الطير من العيافة ثم قال: والعيافة باطلة، واحتج لذلك بقول الشاعر:

لعمرك ما تدري الطوارق بالحصا ... ولا (زجرت) الطير ما الله صانع

وهذا فضول في الشرح ومثله في الكتاب كثير، ثم في كلمة زجرات تحريف وإنما هي زاجرات.

وفي (ص 203) قرأت قول ابن الخياط:

فلم أر الطرة حتى جرت ... دموع عيني (بالمربزيب)

. . .وأنا أحفظها كالمربزيب وهي أصح وأبين

وفي (ص 220) أثبت المقري قصيدة للمولي الشاهيني جاء فيها:

وهاكها سيارة أعتقت ... على جواد كان للبحتري

ورثته منه ولكنما ... من شاعر وافى إلى أشعر

ما للفتى الطائي شواط امرئ ... يصطاد نسر الجو بالمنسر

وقد علق الأستاذ على البيت الأخير فقال: أظنه يريد بالفتى الطائي أبا تمام وبامرئ امرأ القيس فانظر - وقد نظرنا فرأينا أنه يعني بالفتى الطائي البحتري الذي ذكره في البيت الأول، وأنه يريد بامرئ: نفسه على جهة التشبيه بامرئ القيس وهذا هو الذي يقتضيه السياق، ويتطلبه المعنى.

وفي ص (257) قال المقري في تحديد الأندلس: (وهذه المدينة - يعني مدينة أربونة - تقابلها مدينة برديل. . .) فقال الأستاذ: لم نعثر في المعاجم على اسم هذه المدينة، وقد تكون محرفة عن (برديش) وهي من مدن قرمونية بالأندلس. وليس ثمة تحريف، فأن برديل هي بردو الآن، وتقع حيث يقترب البحر المحيط من البحر الشامي، وهي في مقابل أربونة؛ وقد كان القدماء يقسمون الأندلس إلى ثلاثة أركان، ويقولون إن ركنها الثاني يقع بالشرق بين أربونة وبرديل.

وفي (279) قال وهو يتكلم عن المعادن والأفاويه بالأندلس: (وقد سبق منه - أي العود الهندي - إلى خيران الصقلي صاحب المرية) والمقري قد نقل العبارة بنصها عن الإحاطة للسان الدين، وقد جاء في الإحاطة اسم صاحب المرية (حيزوان)

ذلك ما أحصيناه في هذا القسم من الكتاب في نظرة عجلى، وربما لو عدنا إليه بالنظرة الفاحصة لعثرنا على ما هو أهم وأجل، ولعل الله ييسر لنا النظر في جميع أقسام الكتاب.

محمد فهمي عبد اللطيف

العالم المسرحي والسينمائي

بعوث التمثيل وسياسة أعداد المخرجين

لناقد (الرسالة) الفني

لقد ترك الأستاذ زكي طليمات باعتزاله العمل في الفرقة القومية مكاناً شاغراً وإنه ليصعب على فرقة تضم هذا العدد الكبير من الممثلين أن تسير بمخرج مسرحي واحد، ونحن إذا طالبنا الأستاذ عزيز عيد أن يخرج جميع روايات الموسم فإنما نطلب ما ليس في الاستطاعة وما يخرج عن القدرة؛ وهو إن قبل هذه المهمة فإنما يظلم نفسه، وتكون النتيجة تعطيل عدد كبير من الممثلين انتظاراً لإعداد رواية بعد أخرى كما هو حاصل اليوم. ثم إن قيام مخرج واحد بهذه المهمة يجعل دراسة الروايات سطحية لكثرة العمل وضيق الوقت؛ وقد يضطر المخرج إلى تأجيل موعد التمثيل في إحدى الروايات حتى يتسع له الوقت لتدريب الممثلين كما حدث في رواية (سافو) في الأسبوع الماضي.

ونحن نناشد مدير الفرقة أن ينظر إلى هذه الحالة جيداً وأن يقدر الموقف لعله

يستطيع أن يوفق إلى مخرج. أما نحن فنرى أن من الخير للممثلين أنفسهم وللجمهور وللفرقة أن يعهد صاحب العزة مديرها إلى أحد كبار الممثلين الذين لهم من الثقافة وسعة الاطلاع ما يؤهلهم للقيام بمهمة الإخراج ببعض الروايات لإخراجها، وأنا على ثقة من أن في الفرقة من سبق له أن أخرج عشرات الروايات لطلبة المدارس الثانوية الأميرية وغير الأميرية. فهل تحقيق الفرقة هذا الرجاء حتى يعود إليها من الخارج من توفدهم من البعوث لدراسة الفن في أوربا!!

وعلى ذكرى البعوث نقول إن خير عمل قامت به لجنة ترقية التمثيل العربي منذ إنشاء الفرقة القومية في العام الماضي، هو قرار لجنتها التي عقدت في مساء يوم الخميس الماضي، القاضي بإرسال أربعة من الشبان المصريين إلى أوربا لدارسة فن الإخراج والتمثيل: اثنين من الممثلين المعروف، واثنين من الشبان المتعلمين الحائزين على درجات علمية محترمة. وهذه السياسة التي تسير عليها اللجنة جديرة بأن تقابل من كل محب للمسرح بالشكر إذ تهيئ لنا شباناً مثقفين ثقافة مسرحية شاملة، وسوف يدخلون على المسرح المصري كل جديد طريف ويسيرون به إلى الإمام خطوات واسعة، وسوف يجد فيهم صغار الممثلين أساتذة وإخواناً يستفيدون منهم كل ما تغيب عنهم معرفته.

إن أهم ما يشكو منه المسرح هو عدم وجود المخرج الفنان، فعلى أعضاء البعثة أن يعنوا بدراسة الإخراج أكبر العناية، وأن يخصصوا له الجانب الأكبر من جهودهم فيتفهموا وسائله ونظرياته ويدرسوا الضوء، فمن المحزن أن نبقى حتى اليوم ونحن لا نكاد نفهم ما هو الضوء، وكيف نستخدمه ونستفيد منه، وكيف نستعين به في معاونة الممثلين على التعبير وإبراز عوامل الجمال في الرواية.

رواية سافو

كانت الفرقة القومية المصرية قد أعلنت عن تمثيل رواية سافو ابتداء من 2 ديسمبر الماضي، ولكن اضطرت الفرقة لظروف خاصة إلى تأجيل هذا الموعد إلى يوم الثلاثاء القادم الموافق 8 ديسمبر، ونحن نرجو أن يقبل الجمهور على هذه الرواية فهي من روائع الأدب المسرحي الفرنسي.

فيلم جديد لاستديو مصر: الشيخ شريب الشاي

جرت العادة أن تدعو الشركات الأجنبية ممثلي الصحافة إلى حفلة عرض خاصة لكل فلم جديد تنتجه، وقد اقتدى استديو مصر بهذه الشركات فدعا النقاد السينمائيين إلى شهود آخر منتجاته (الشيخ شريب الشاي) الذي قام بإخراجه لحساب جمعية الشاي الدولية.

فالفلم للدعاية وأصحابه هم أصحاب فكرته، ولكن الاستديو هو الذي قام بإعداده وإدارته فنياً؛ وموضوعه تحبيذ للشاي الجيد، وحض للناس على تفضيل هذا النوع من الشاي. وبطل الفلم شيخ من الفلاحين له مكانته في قريته يستيقظ في الفجر هو وأولاده يطلبون الشاي ويلقون الأغاني في طلبه، ونرى الأم تقوم بإعداده على الطريقة الصحية. وهنالك مواقف كثيرة فيها تتجلى مضار الشاي الأسود، ومحاسن الشاي الجيد المصنوع على الطريقة الصحية وأثر هذا الشاي في الصحة. وقد وفق الأستاذ نيازي مصطفى في إدارة الفلم فنياً كما وفق يوسف بهجت في تصميم مناظره، وكذلك وفق حلمي رفلة في عمليات التنكر وإبراز الشخصيات مما يتفق وأدوارها في الفلم، وأذكر له شخصية الشيخ، وشخصية الخفير الأبله الذي تدل سحنته على البلاهة حقاً كما كانت سحنة بائع الشاي بغيضة أيضاً. وإلى مجهود هؤلاء الشبان يعود الأثر الأكبر في متابعة النقاد (المغشوش) لمشاهدة الفلم برضاء وسرور مع أنه كما قلنا فلم دعابة فيه كثير من الترديد والإعادة والتحبيذ للشاي الصحي وشربه، وفي هذا ما قد يبعث الملل إلى النفس.

ويمكنني أن أقول إن نيازي أثبت في هذا الفلم أنه مدير فني متمكن من فنه، فعمله يفوق أي فلم مصر آخر مما تخرجه الشركات وتستغل به طيبة المصريين.

والتمثيل لا بأس به، وفي مقدمة الجميع كان محمد كامل الذي قام بدور البربري فله مواقف طريفة، وإبراهيم عمارة في دور الشيخ شريب الشاي أعطى جوانب طيبة من الشخصية، ولكنه أهمل جوانب أخرى واهتم بالإلقاء أكثر مما اهتم بالتمثيل ولهذا لم يبرز روح الفلاح كاملة. أما الموسيقى فكانت تتنافر وجو الفلم، وكان من الأفضل أن

يميل الملحن فريد غصن إلى الموسيقى البلدية في أغاني القرية حتى ولو كانت عن الشاي.
والفلم في مجموعه مجهود موفق، فنرجو للاستديو التوفيق المستمر.
التصوير أم الإضاءة
رأي المدير الفني لفيلم نشيد الأمل
يعلم رجال شركة فلم الشرق بهمة كبير لإخراج فلم نشيد الأمل الذي تقوم بالدور الأول فيه الآنسة أم كلثوم، ويبذل كل من المخرج والمدير الفني مجهوداً مضنياً، حتى ينتهي إعداد الفلم قبل يوم 10 يناير وهو الموعد المحدد لعرضه في سينما رويال.
جمعني مجلس بالأستاذ أحمد بدرخان فتحدثنا عن فلم نشيد الأمل وعن الجهود التي يبذلها الجميع لإخراجه في هيئة تنال رضاء الشعب، وانتقل بنا الحديث إلى التصوير فقلت له: إن الذين شاهدوا فلم (وداد) لاحظوا أن الآنسة أم كلثوم في الصور المأخوذة عن قرب تبدو غير جميلة، وتضعف شخصيتها كثيراً عما نعرفه عنها، وتمنيت أن يكون قد عمل على تلافي هذه الغلطة في فيلم نشيد الأمل. وسألته عما إذا كان قد فكر في إظهار الآنسة أم كلثوم في الصور القريب غير واضحة التفاصيل حتى يمكن تلافي أي عيب. وقد أجاب الأستاذ بدرخان بأنه لو كان قد أشرف على الإدارة الفنية في (وداد) لما ظهرت أمثال هذه الصور التي لفتت الأنظار، لأنه يعرف كيف يلافي أمثال هذه الأخطاء، وأنه شخصياً يرى
أن الصور غير الواضحة التفاصيل تظهر الوجه بديناً إلى حد ما وإن أدت إلى الغرض المقصود، وهذه الصور تلائم الممثل النحيف كالأستاذ محمد عبد الوهاب ولكنها لا تلائم الآنسة أم كلثوم؛ ولهذا يرى أن الإضاءة الفنية تحقق هذه الغاية.
وسوف يرى النقاد ورواد فلم نشيد الأمل كيف تظهر الآنسة أم كلثوم هذه المرة، وسوف يحكمون على إدارة المصريين للأفلام ويقارنون بين ما ينتجون وبين ما أنتج الأجانب الذين استقدمناهم لإدارة أفلامنا الشرقية والمصرية.
(يوسف)
تصويب
جاء في مقال المسرح المنشور بالعدد الماضي صفحة 1979 في السطر الثاني عشر من العمود الأول: (ذلك الكاتب الألماني العظيم) والصواب (الكاتب الإنساني).
العدد 180 - بتاريخ: 14 - 12 - 1936
عرس وسرير
بين سلطان وسلطان
يا كافرين بالشعر والأحلام والحب! أتريدون بعد حادث اليوم معجزة؟
هذا ملك المغرب، وإمبراطور المشرق، وإله البحر، وصاحب العرش المحمول على أعناق الشعوب، ووارث التاج المتألق على جباه القرون، وخليفة المجد المحفوف بالجلال الباهر والسؤدد العريق والسنَّة المقدسة، وسليل الدم السَّرى الذي يتدفق بالحياة في هدوء ويجيش بالنشاط في ثبات، وربيب البيئة التي تعظم القوانين وتقدس التقاليد وتعبد الإمبراطورية؛ هذا هو ينزل عن العرش، ويلقي التاج، وينبذ اللقب، ويهجر الوطن، ويلحق بحبيبته أميراً لا يميزه شعار، وإنساناً لا تحدوه أبَّهة، وفرداً لا تصحبه حاشية!
يا جاحدين لسلام الروح وراحة القلب ورضى العاطفة، أتمارون بعد اليوم في هذه الآية؟
زعمتم أن الأرض بدلِّت غير الأرض، والدنيا أصبحت غير الدنيا، فقدَّرتم سعادة الحياة بالوزن والكيل والمساحة، وقلتم أودى منطق العقل بإلهام القلب، وأزرت مادية العلم بروحية الأدب، وغلبت أثرة المنفعة على إيثار التضحية؛ ورحتم تتجهزون بما صنع العلم من صواعق وزلازل وبراكين، لتنسفوا ما قام من المدينة، وتقتلوا ما بقي من الإنسانية، وتقرُّوا في ملكوت الله نظاماً لا يعيش فيه جمال ولا خير ولا حق؛ فقام أكبر ملك في العالم، على أظهر مكان في الأرض، يعلن أن عظمة الملك لا تضمن سعادة النفس، وسلطان العرش لا يعوض حرية الإرادة، وجواهر التاج لا تساوي بسمة الحبيب!
سبحانك يا بديع الحياة والحي! ما هذا الذي تضعه في العيون فنسميه سحراً، وتجريه

على الشفاه فندعوه جاذبية، وترسله في الأعضاء فيكون رشاقة؟ ما هذا الذي تودعه هذا الجسم الرقيق الناعم فيقهر سطوة الجبار، ويسوِّي أخدع المتكبر، ويطأطأ أشراف الملك؟ أهو إعجاز القدرة التي تغلب بالأضعف؟ أم سر الحكمة التي تمكر بالأقوى؟ أم روح القدس الذي ينفّذ قانون الحياة في هذا الكوكب؟

بين سورة الملك وأمانة التاج، وبين فتنة الجمال ومحنة الهوى، وقف العاهل ادوار الثامن يتحسس في مطاوي الغيب مشيئة القدر: أيعيش في نفسه ولنفس، أم يعيش في جنسه وللناس؟ أيظل رمزاً لأمته يخفق فوق رءوسها كالعلم، ويتغلغل في قلوبها كالأيمان، ويتردد

على ألسنتها كالصلاة، ثم لا يكون له ما للعامل الفقير من وجود مستقل وإرادة مختارة؛ أم يرتد إلى طبيعة الإنسان فيضرب بنفسه في الزحام، ويبحث عن نصيبه في الرغام، ويضطلع بعبئه ككل فرد؟؟ أيبقى أسير التقاليد التي نسجتها عناكب الماضي البعيد على نوافذ البلاط والبرلمان، فلا يفكر إلا بإيحاء، ولا يتحرك إلا بميقات، ولا يتكلم إلا بمقدار، ولا يعمل إلا بإشارة؛ أم يتمرد تمرد الحي المريد، فيدفع من أمامه ذلك الحاجز الصفيق الثقيل، ويجدّ من ورائه ذلك الذيل العتيق الطويل، ثم ينطلق في أجواء الله انطلاق الطائر المرح، يقع في كل روضة، ويهبط على كل غدير، ويتملى أليفه فوق عروش الورود، وعلى بسط المروج، وبين أفنان الخمائل؟؟

كانت هذه الآراء الحائرة تعصف نكباء في رأس الملك، بينما كان في (لندن) الواجب المرير الخشن يتمثل في وجه (بلدوين) الحازم الجبار، ومن خلفه برلمان متحد يؤيد دستوره، وملكوت واسع يريد إمبراطوره، وشعب مخلص يحب ملكه؛ وفي (كان) حب عنيف ملح يشرق في قسمات (مسز سمبسون) الفاتنة، ومن ورائه إنسان يطلب حريته، وقلب ينشد سعادته، وحي يتغنى حظه من الحياة

وهنا يتدخل القدر الذي يحكم وحده على الملوك، فيحل عقدة الرواية التي يشهدها العالم كله، على غير ما يحلها به الروائيون الخياليون، فينصر تجديد الطبيعة على تقليد العرف، ويغلّب سلطان الحب على سلطانالواجب، ويرفع سرير الأسرة على عرش الأمة!

يا كافرين بالشعر والأحلام والحب! أتريدون بعد حادث اليوم معجزة؟

أيها الناسون ما صنعت حواء بأبيكم آدم! لا تحسبوا أن الماسونية والجاسوسية والشيوعية والصهيونية والفاشية والنازية هي التي في تقلب في السر أو في العلن أوضاع المجتمع.

فتشوا في زوايا كل أولئكم عن المرأة! وإذا كانت مأساة البرنس ادوار تذكرنا بمأساة البطل أنطوان، فليست كليوبطرة أول النساء، ولا مسز سمبسون آخرهن؛ وسيظل هذا الجنس القوي الخفي الغامض سلطان الكون المطلق؛ فهو محور الطموح والمنافسة، ومصدر الخير والشر، ومنبع السرور والألم، ولئن خضع له اليوم أدوار، فمن قبلهخضع نابليون، ومن قبل نابليون خضع الرشيد وقال فيما حدَّث الرواة:

ملك الثلاث الآنسات عناني ... وحللن من قلبي بكل مكان

مالي تطاوعني البرية كلها ... وأطيعهن وهن في عصياني

ما ذاك إلا أن سلطان الهوى ... - وبه قوين - أعزُّ من سلطاني

احمد حسن الزيات

القلب المسكين - 6

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

أما صاحب القلب المسكين فقام ليخرج، وقد تفارطته الهموم وتسابقت إليه فانكسر وتفتّر؛ وكأنما هو قد فارق صاحبته باكياً وباكيةً من حيث لا يرى بكاءه غيرها ولا يرى بكاءها غيره

ورأيته ينظر إلى ما حوله كأنما تغشَّى الدنيا لون نفسه الحزينة إذ كانت نفسه ألفت ظلَّها على كل شيء يراه؛ وجعل يدلف ولا يمشي كأنه مثقلٌ بحمل يحمله على قلبه إنه ليس أخفُّ وزناً من الدمع، ولكن النفوس المتألمة لا تحمل أثقل منه، حتى لينتثر على النفس أحياناً وكأنه وكأنها بناءٌ قائم يتهدَّم على جسم. وبعض التنهدات - على رقتها وخفتها - قد تشعر بها النفس في بعض همها كأنها جبل من الأحزان أخذته الرجفة فمادت به، فتقلقل، فهو يتفلّق ويتهاوى عليها

آه حين يتغير القلب فيتغير كل شيء في رأي العين. لقد كان صاحبنا منذ قليل وكأن كل سرور في الدنيا يقول له: أنا لك؛ فعاد الآن وما يقول لك أنا لك إلا الهم؛ والتقى هو والظلام والعالم الصامت

جعل يدلف ولا يمشي كأنه مثقل بحمل يحمله على قلبه. ومتى وقع الطائر من الجو مكسور الجناح انقلبت النواميس كلّها معطلة فيه، وظهر الجو نفسه مكسوراً في عين الطائر المسكين، وتنفصل روحه عن السماء وأنوارها حتى لو غمره النور وهو ملقىً في التراب لأحسَّه على التراب وحده لا على جسمه

ثم خرجنا فانتبه صاحبنا مما كان فيه؛ وبهذه الانتباهة المؤلمة أدرك ما كان فيه على وجه آخر فتعذَّب به عذابين: أما واحد فلأنه كان ولم يدم؛ وأما الآخر فلأنه زال ولم يعد.

والسرور في الحب شيء غير السرور الذي يعرفه الناس، إذ هو في الأول روحٌ تتضاعف به الروح؛ فكل ما سرك وانتهى شعرت أنه انتهى؛ ولكن ما ينتهي من سرور العاشق المستهام يشعره انه مات، فله في نفسه حزن الموت وهمُّ الثكل؛ وله في نفسه همُّ الثكل وحزن الموت.

وينظر صاحب القلب المسكين فإذا الأنوار قد انطفأت في الحديقة، وإذا القمر أيضاً كأنما

كان فيه مسرح وأخذوا يطفئون أنواره.

كان وجه القمر في مثل حزن وجه العاشق المبتعد عن حبيبته إلى أطراف الدنيا. فكان أبيض أصفر مكمدا، تتخاذل فيه معاني الدموع التي يمسكها التجلد أن تتساقط.

كان في وجه القمر وفي وجه صاحبنا معاً مظهر تأثير القدر المفاجئ بالنكبة

وبدت لنا الحياة تحت الظلمة مقفرة خاوية على إطلالها فارغة كفراغ نصف الليل من كل ما كان مشرقاً في نصف النهار. يا لك من ساحر أيها الحبُّ! إذ تجعل في ليل العاشق ونهاره ظلاماً وضوءاً ليسا في الأيام والليالي.

أما الحديقة فلبسها معنى الفراق؛ وما أسرع ما ظهرت كأنما يبست كلها لتوّها وساعتها، وأنكرها النسيم فهرب منها فهي ساكنة؛ وتحولت روحها خشبيّة جافة، فلا نضرة فيها على النفس؛ وبدت أشجارها في الظلام قائمة في سوادها كالنائحات يلطمن ويولولن، وتنكر فيها مشهد الطبيعة كما يقع دائماً حين تنبت الصلة بين المكان ونفس الكائن فيه.

ماذا حدث؟

لا شيء إلا ما حدث في النفس؛ فقد تغيرت طريقة الفهم، وكان للحديقة معنى من نفسه فسلب المعنى، وكان لها فيض من قلبه فانحبس عنها الفيض، وبهذا وهذا بدت في السلب والعدم والتنكر، فلم يبق إيداعٌ في شيء مبدع، ولا جمال في منظر جميل.

أكذا يفعل الحب حين يضع في النفس العاشقة معنى ضئيلاً من معاني الفناء كهذا الفراق؟

أكذا يترك الروح إذا فقدت شيئاً محبوباً، تتوهم كأنها ماتت بمقدار هذا الشيء؟ مسكين أنت أيها القلب العاشق، مسكين أنت!

ومضينا فملنا إلى ندى نجلس فيه، وأردت معابثة صاحبنا المتألم بالحب، والمتألم بأنه متألم، فقلت له: ما أراك إلا كأنك تزوجتها وطلقتها فتبعتها نفسك

قال: آه. من أنا الآن؟ وما بال ذلك الخيال الذي نسّق لي الدنيا في أجمل أشكالها قد عاد فبعثرها؟ أتدري أن العالم كان في ثم أخذ مني فأنا الآن فضاء فضاء

قلت: أعرف أن كل حبيب هو العالم الشخصي لمحبه

قال: ولذلك يعيش المحب المهجور، أو المفارق، أو المنتظر وكأنه في أيام خلت؛ وتراه كأنما يجيء إلى الدنيا كل يوم ويرجع

قلت: إن من بعض ما يكون به الجمال جمالاً انه ظالم قاهر عنيف كالملك يستبد ليتحقق من نفاذ امره؛ وكأن الجميل لا يتم جماله إلا إذا كان أحياناً غير جميل في المعاملة.

قال: ولكن الأمر مع هذه الحبيبة بالخلاف؛ فهي تطلبني واتنكبها، وهي مقبلة لكنها مقبلة على امتناعي؛ وكأنها طالب يعدو وراء مطلوب يفرّ، فلا هذا يقف ولا ذلك يدرك

قلت: فإن هذه المشكلة، ومتى كانت الحبيبة مثلها، وكان المحب مثلك، فقد جاءت العقدة بينهما معقودة من تلقاء نفسها فلا حل لها

قال: كذلك هو، فهل تعرف في البؤس والهم كبؤس العاشق الذي لا يتدبر كيف يأخذ حبيبته، ولكن كيف يتركها؟ ما هي المسافة بيني وبينها؟ خطوة، خطوتان؟ كلا، كلا؛ بل فضائل وفضائل تملأ الدنيا كلها. إن مسافة ما بين الحلال والحرام متراخية ممتدة ذاهبة إلى غير نهاية. وإذا كان الحب الفاسد لا يقبل من الحبيب إلا (نعم) بلا شرط ولا قيد لأنه فاسد، فالحب الطاهر يقبل (لا) لأنه طاهر؛ ثم هو لا يرضى (نعم) إلا بشرطها وقيدها من الأدب والشريعة وكرامة الإنسانية في المرأة والرجل

وإذا لم ينته الحب بالإثم والرذيلة، فقد أثبت أنه حب؛ وشرفه حينئذ هو سرُّ قوته وعنصر دوامه

أتعرف أن بعض عشاق العرب تمنى لو كان جملاً وكانت حبيبته ناقة. . . .؟ إنه بهذا يود ألا يكون بينهما العقل والقانون وهذا الحرمان الذي يسمى الشرف، وألا يكون بينهما ألا قيد غريزتها الذي ينحلُّ من تلقاء نفسه في لحظة ما، وأن يترك لقوته وتترك هي لضعفها؛ والقوة والضعف في القانون الطبيعة هما ملك وتمليك واغتصابٌ وتسليم

قلت: وهذا ما يفعله كل عاشق لمثل هذه الراقصة إذا لم يكن فيه إلا الحيوان، فان بينهما قوة وضعفاً من نوع آخر، فمعه الثمن وبها الحاجة، وهما في قانون الضرورة ملك وتمليك

قال: وهذا مما يقطّع في قلبي، فلو أن للأمة ديناً وشرفاً لما بقي موضع الزوجة فارغاً من رجل، وإن هذه وأمثالها إنما ينزلن في تلك المواضع الخالية أول ما ينزلن، فكل بغيّ هي في المعنى دينٌ متروك وشرف مبتذل في الأمة

قلت: فحدثني عنك ما هذا الوجد بها وما هذا الاحتراق فيها، وأنت قد كنت بين يديها خالياً محصناً كأنما جمعتها في حواسك فأخذتها وتركتها في وقت معاً. وحواسك هذه لا تزال كما هي قد زادت حدة، فكما صنعت لك من قرب تصنع لك من بعد

قال: أنا في محضرها أحبها كما رأيت بالقدر الذي تقول هي فيه إنك لا تحبني، إذ كان بيننا آخر اسمه الخلق؛ ولكني في غيابها أفقد هذا الميزان الذي يزن المقدار ويحدده. وإذا كنت لم تعلم كيف يصنع العاشق في غيبة المعشوق، فأعلم أن كبرياءه حينئذ لا ترى بازائها ما تقاومه فتتخلى عنه وتخذله، وفضيلته لا تجد تستعلن فيه فتتواري وتدعه، وشخصيته لا تجد ما تبرز له فتختفي وتهمله؛ فما يكون من كل ذلك إلا أن يظهر المسكين وحده بكل ما فيه من الوهن والنقص وحدَّة الشوق، وهنا ينتقم الحب مما زوّرت عليه الكبرياء والفضيلة والشخصية فيضرب بحقائقه ضرباتٍ مؤلمةً لا تقوم لها القوة، ويجعل غياب الحبيب كأنه حضوره مستخفياً لرؤية الحقيقة التي كتمت عنه. وكم من عاشقة متكبرة على من تهواه تصدُّه وتباعده، وهي في خلوتها ساجدة على أقدام خياله تمرغ وجهها هنا وهنا على هذه القدم وعلى هذه القدم

ألا إنه لا بد في الحب من تمثيل رواية الامتناع أو الصد أو التهاون أو أي الروايات من مثلها؛ ولكن ثياب المسرح هي دائماً ثياب الاستعارة ما دام لابسها في دوره من القصة ثم وضع المسكين يده على قلبه وقال: آه. إن هذا القلب يغاضب الحياة كلها متى أراد أن يشعر صاحبه انه غضبان

مَن مِن الناس لا يعرف أحزانه، ولكن من منهم الذي يعرف أسرار أحزانه وحكمتها؟ أما إنه لو كُشف السر لرأينا الأفراح والأحزان عملاً في النفس من أعمال تنازع البقاء؛ فهذا الناموس يعمل في إيجاد الأصلح والأقوى، ثم يعمل كذلك لإيجاد الأفضل والأرقّ. ومن ثم كانت آلام الحب قويةً قويةً حتى لكأنها في الرجل والمرأة، تهيئ أحد القلبين ليستحق القلب الآخر

آه من هذه اللواعج! إنها ما تكاد تضطرم حتى ترجع النفس وكأنها موقد يشتعل بالجمر، وبذلك يُصْهرُ المعدن الإنساني ويصنع صنعة جديدة؛ وإلى أن ينصهر ويتصفى ويُصنع، ماذا يكون للإنسان في كل شيء من حبيبه؟ يكون له في كل شيء روحه الناري

قلت: بخ بخ. هكذا فليكن الحب. إنها حين تهيج في نفسك الحنين إليها تعطيك ما هو أجمل من جمالها وما هو أبدع من جسمها، إذ تعطيك أقوى الشعر وأحسن الحكمة.

قال: وأقوى الألم وأشدَّ اللوعة. يا عجبا! كأن الحياة لا تقدم في عشق المحبوب إلا

عشقها هي، فإذا وقعت الجفوة، أو حُمَّ البين، أو اعترى اليأس - قدَّم الموت نفسه فكل ذلك شبه الموت
إن الحزن الذي يجيء من قبل العدو يجيء معه بقوة تحمله وتتجلد له وتكابر فيه، ولكن أين ذلك في حزن مبعثُه الحبيب؟ ومن أين القوة إذا ضعف القلب؟
قلت: لا يصنع الله بك إلا خيراً. فإذا كان غدٌ وأنسلخ النهار من الليل، جئنا إليها فرأيناها في المسرح، ولعل الأمر يصدر مصدراً آخر. قال: أرجو
ولم يكد ينطق بهذه الرجيَّة حتى مرَّ بنا سبعة رجال يقهقهون، ثم تلاقينا وجئنا؛ ويا ويلتنا على المسكين حين علم أنها رحلت؛ لقد أدرك أن الشيطان كان يضحك بسبعة أفواه. . .
من قوله: أرجو
ولماذا رحلت؟ لماذا. . .؟
وأما هو؟
(يتبع - طنطا)
مصطفى صادق الرافعي
سالزبورج
مدينة المطر والموسيقى
بقلم سائح متجول
لم يطل بنا المكث في ربوع سويسرا الجميلة فغادرنا (تسيريخ) (زيورخ) إلى ألمانيا عن طريق شافهاوزن، وقصدنا (منشن) (ميونيخ) عاصمة بافاريا عن طريق أوجسبورج واولم؛ وفي أثناء الزيارة الجمركية عند الحدود الألمانية، أحصى الموظف المختص ما معنا من صنوف النقد الأجنبي وقيمه وأثبتها بعد الاطلاع عليها في شهادة خاصة؛ وهذا إجراء لا بد منه لكي يستطيع السائح أن يخرج من ألمانيا بما يحمل من صنوف النقد الأجنبي، ووصلنا إلى (منشن) عصراً بعد رحلة ممتعة خلال سهولة بافاريا الغنية، فألفينا المدينة تموج بالوافدين عليها من السياح من مختلف الأقطار، وألفينا الفنادق غاصة بالزائرين، وقد رفعت أجورها جميعاً عن الأسعار الرسمية المدونة في سجل الفنادق الألمانية؛ وقد كانت دورة الألعاب الأولمبية قد بدأت في برلين قبل ذلك بأيام، فلم نرغب في الذهاب إليها اجتناباً لضجيجها وحياتها الصاخبة، وآثرنا البقاء في منشن وبافاريا فلم نجد ما كنا ننشد من الراحة والهدوء
وقد تحدثنا في فصل سابق عن (منشن) ومناظرها وعن أبهاء البيرة الضخمة التي اشتهرت بها، فلا نعود إلى ذلك. وإنما نلاحظ هنا فقط أن الفنادق الألمانية لا ترضى بالأسعار الرسمية التي تقيدت بقبولها والتي يعول عليها السائح، وهي مدونة في دليل الفنادق الرسمي الذي يقدم إليك؛ وإن السائح يتكبد في صرف تحاويل السياحة (رجستر مارك) خسائر لا مبرر لها، فكل تحويل بخمسين ماركا أو أقل يؤخذ عنه (مارك) ويؤخذ عن المائة مارك ونصف مارك، وهكذا فإذا ذكرت أنه يؤخذ مثل هذه النسبة أو أكثر عند شراء التحويل، فإن (العمولة) قد تصل بذلك إلى أربعة أو خمسة في المائة، هذا والسائح الذي يريد أن يحول ما تبقى لديه من النقد الألماني بعد انتهاء زيارته يتكبد في تحويله خسارة لا تقل عن عشرين أو خمسة وعشرين في المائة، وهذه نسبة غير معقولة.
أضف إلى ذلك أن نفقات المعيشة في ألمانيا ليست من الرخص كما يقال، وهذا بالرغم مما وضعته ألمانيا من تسهيل في مسألة النقد بتقرير (الرجستر مارك) للسياح؛ وتمنح ألمانيا
على سككها الحديدية تخفيضاً قدره ستون في المائة، ولكنها تشترط في مقابل ذلك أن يقيم في أرضها سبعة أيام كاملة على الأقل، وهذا شرط مرهق بلا ريب؛ لأن إيطاليا تمنح للأجانب تخفيضاً قدره خمسون في المائة أو أكثر على سككها الحديدية دون اشتراط الإقامة مطلقاً، وكل ما هناك أنك تزور معرضاً في إحدى المدن الإيطالية التي تمر بها وقد لا يستغرق ذلك أكثر من ساعتين
غادرنا (منشن) بقطار الساعة الثانية مساء إلى مدينة سالزبورج، فوصلنا إليها بعد رحلة قصيرة وتمت الإجراءات الجمركية بسرعة في الجانب النمسوي من المحطة؛ ثم جزنا إلى خارج المحطة، ولشد ما كان سرورنا ودهشتنا إذ التقينا في فنائها بصديقنا

القديم الصحفي النابه الأستاذ محمود أبو الفتح، فبادلناه تحية حارة، وتواعدنا على التزاور واللقاء، ولكن الظروف لم تسمح للأسف بتلاقينا بعد ذلك؛ وقد علمنا فيما بعد من صديقنا الأستاذ توفيق الحكيم أنه كان في نفس الوقت الذي زرنا فيه سالزبورج يقبع في فندق (شتات ميران) الذي نزلنا فيه؛ ومع أننا كنا نجوس خلال المدينة في كل وقت بالنهار وبالليل ونغشى جميع المقاهي والمنتديات التي ذكر لنا الصديق أنه كان يغشاها أيضاً؛ فأننا لم نعرف بوجوده ولم نقع له على خبر أو أثر؛ ولعله كان يؤثر الاعتكاف والاحتجاب ليستجم كل تفكيره وخياله ثم يطالعنا بكتابه الذي اعتاد أن يخرجه كل موسم؛ وعلى أي حال فقد كان المطر ينهمر باستمرار في سالزبورج، ويحمل ذوي الأمزجة الرقيقة على الاحتجاب والاعتكاف. أما نحن فقد كنا نجد في هذا الغيث المنهمر الذي اشتهرت به سالزبورج ظاهرة بديعة من ظواهر الطبيعة، وكنا نستقبله باسمين مرحين رغم انه كان يغمرنا بالبلل ليل نهار. والواقع أن المطر يغمر هذه المدينة الرشيقة بنوع من الصباحة المنعشة، كما تغمرها الشمس أيام الصحو وبضوئها المنعش؛ وحينما يسقط المطر تقدم إليك تلك المدينة منظراً بديعاً، فالمظلات تنتشر فوق الرؤوس، ويرتدي الناس معاطف المطر الجلدية؛ وترى المطر يقطر من المارة، ولكن حركة المدينة تبقى على حالها؛ ومما يلفت النظر بنوع خاص من السيدات وهن يرتدين المعاطف الجلدية أو معاطف صنعت من ورق خاص يسيل عليها المطر وتحمي من البلل؛ وإذا كانت سالزبورج وقتئذ تموج بالوافدين لحضور حفلاتها الموسيقية الشهيرة، فقد كنا نرى أسراب الحسان يرتدين هذه المعاطف الورقية المختلفة الألوان فوق ثياب السهرة، وينساب الماء فوق معاطفهن، كما ينساب السحر من زينتهن وعطرهن، وهن ضاحكات مرحات لا يزعجهن البلل

وإذا كانت سالزبورج تشتهر بمطرها الذي لا ينقطع حتى في أشد أيام الصيف، والذي يغمرها دائماً بالبلل المنعش، فإنها تشتهر أيضاً بصفة أخرى، هي أنها مدينة الموسيقى؛ وشهرتها عالية تدعو إليها الزائر من أقصى العالم؛ ولا غرو فهي مسقط رأس موتسارت، وفيها بزغ مجده؛ وما زال المنزل الذي ولد فيه موتسارت قائماً في سالزبورج، وفيه الجناح الذي قضى فيه طفولته؛ وقد حول هذا الجناح اليوم إلى متحف يحج إليه المعجبون بذكرى الموسيقي الكبير، ويتأملون فيه ذكرياته وآثاره؛ وإنك لتشعر حين ترى هذا المنزل المتواضع الذي حرص أولوا الأمر على استبقائه بشكله القديم؛ وحين تطوف بغرفه الضيقة ذات الأسقف الخفيضة، بنوع من التأثر يمازجه الخشوع؛ ذلك أنك ترى في كل زاوية من المكان أثراً حياً لذلك الذي بهر العالم وسحره منذ طفولته برائع أنغامه ورائع مقطوعاته؛ فهنالك مسودات لكثير من قطع موتسارت كتبت بخطه، وهنالك رسائل كثيرة، وصور عديدة تمثله في مناسبات وحفلات مختلفة؛ وهنالك جمجمة الموسيقى الكبير ذاتها، لا نجد لوضعها معنى بين هذه القطع والآثار الفنية؛ ثم هنالك مناظر سحرية تمثل كثيراً من القطع التمثيلية التي وضع موتسارت مقطوعاتها الموسيقية واشترك في إحيائها مثل (الدون جوان) و (زواج فيجارو) و (المزمار المسحور) و (كوزي فان توتي) و (اختطاف الحريم) وغيرها؛ وهذه المناظر آية في الدقة والإبداع لأنها تمثل المناظر والأشخاص والألوان مجسمة واضحة، وتدل على مبلغ ما انتهى إليه المسرح في عصر موتسارت أعنى في أواخر القرن الثامن عشر من التقدم؛ ولفت نظرنا بنوع خاص من بين هذه الذكريات عدة إعلانات مسرحية ترجع إلى سنة 1780 و 1781، عن روايات يشترك في إحيائها موتسارت وقد ذكر فيها أنه يتولى قيادة الموسيقى، وأن الأثمان عادية أو مخفضة! وما زلنا نرى هذه الأوضاع ونقرأ هذه العبارات التي كان يتخذها المسرح منذ قرن ونصف للإعلان عن نفسه، فيما يصدره اليوم من الإعلانات والبرامج! وإنك لتكاد تقرأ في هذه الغرف المتواضعة، وفي هذه الذكريات المؤثرة طرفاً من حياة ذلك الذي لم تغنه عبقريته الرائعة شر الحاجة؛ ذلك أن موتسارت قد بهر مجتمعات عصره يسمو فنه وافتنانه، ونهل من منهل

المجد ما شاء، ولكنه لبث طول حياته يتخبط بين غمار الفاقة، وتوفي مثقلاً بالبأساء والدين

وقد اسبغ تراث موتسارت وذكرياته على سالزبورج شهرة موسيقية عالمية ما زالت تحتفظ بها حتى اليوم. ولسالزبورج موسم موسيقى مشهور تقيمه في كل صيف في

يوليه وأغسطس، ويشترك في إحيائه أقطاب الموسيقى العالميون مثل برنو فالتر، فليكس فينجارتنز، وأرتورو توسكانيني؛ وتمثل في هذا الموسم عدة من القطع المسرحية الخالدة التي وضع موسيقاها موتسارت وبيتهوفن وشوبرت وغيرهم من أقطاب الفن، وتنظم حفلات موسيقية رائعة تعرض فيها قطع وأناشيد من وضعهم، وتقوم بتنفيذها فرقة موسيقية رائعة على رأسها أحد أقطاب العصر ممن ذكرنا؛ وتقام إلى جانب هذه الحفلات حفلات موسيقية منوعة، كلاسيكية أو عصرية أو كنسية؛ وقد أعدت بلدية سالزبورج لإحياء هذه الحفلات الشهيرة مسرحاً شاسعاً يمتاز بسذاجة وفخامته معاً؛ وكنا في سالزبورج والموسم على اشده، والمدينة تموج بالوافدين عليها من سائر الأقطار؛ تغص بهم فنادقها ومقاهيها وطرقاتها، ولم نستطع أن نشهد من هذه الحفلات الرائعة أكثر من حفلين لاستحالة الحصول على التذاكر ولأنه يجب للحصول عليها أن نشتري قبل الموعد بأيام إن لم يكن بأسابيع، وكان مما شهدنا حفلاً موسيقياً رائعاً برآسة أرتورو توسكانيني، ونظم في ضحى يوم ماطر كثير البلل، ومع ذلك فلم نتمكن من شهوده إلا بعد جهد جهيد

وتتخذ مدينة سالزبورج وسكانها خلال الموسم استعدادات خاصة لاستقبال آلاف الزوار الوافدين عليها، وتنظيم معدات الاقامة، وتيسير حركة النقل والتنزه، ويرابط في الطرق المؤدية إلى المسرح كثير من رجال البوليس لتنظيم حركة المرور الهائلة التي تجري حوله، وتغص الشوارع المجاورة والمقاهي القريبة بالجماعات الأنيقة وأسراب الحسان من كل جنس وأمة، وتسمع مختلف اللغات في كل مكان

وتقع سالزبورج في بسيط ساحر تحيط به الجبال الشاهقة؛ ومن أشهر بقاعها ونزهها ضاحية (هيلبرون) وقصرها الشهير، وتقع هيلبرون على مسيرة نصف ساعة من سالزبورج، ويربطها بها ترام خاص، يخترق طائفة من الربوع والمحلات المزهرة؛ وقد قصدنا إليها ذات صباح ماطر، وزرنا قصرها وبساتينها الشهيرة، ورأينا في قصر هيلبرون مناظر عجيبة لم نرها في أي أثر آخر؛ ذلك أنه قد نظمت في هذا القصر الغريب

مغارات ومجالس جهزت كلها بنوافير من المياه تنبثق من كل نواحيها في أشكال وأوضاع ساحرة؛ ورتبت هذه النوافير والمنابع الخفية في حديقة القصر حول المماشي والأحراج بنفس البراعة والدقة، فكنا نتصور حين تطلق المياه من منابعها الخفية أننا أمام سحر ساحر؛ وفي المغارات والمجالس تماثيل بارزة وصور من الفسيفساء صنعت على مثل صور كنيسة القديس مرقص بالبندقية. وأما القصر ذاته فهو صرح فخم من صروح القرن السابع عشر، وقد زينت غرفة وأبهاؤه بطائفة من الصور الثمينة ومجموعات من الأثاث القديم الذي يرجع إلى عصر إنشائه، وزينت سقفه بالأخص بصور ونقوش بديعة تأخذ الألباب بدقتها وروعتها.

وقد فهمنا من دليل القصر، أن الذي أنشأ هذا الصرح الفخم أسقف سالزبورج في ذلك العصر، وأنه هو الذي أشرف على زخرفته وتنسيقه على هذا النحو المدهش؛ ويقع القصر وسط بستان شاسع نظمت في إحدى جوانبه حظيرة ترتع الغزلان في جنباتها، ويؤمها زوار القصر للتفرج ومداعبة الغزلان

وعلى الجملة فإن هذه المدينة الصغيرة - لأن سالزبورج مدينة صغيرة لا يتجاوز سكانها أربعون ألفاً - تبدو بفنادقها الأنيقة، وطرقها وميادينها المنسقة في ثوب خاص من الحسن والرشاقة، ينم عن حسن ذوق أهلها وسلطاتها البلدية، ويزيد في سحر سالزبورج ومتاع الإقامة فيها، فضلاً عن روحها الموسيقي، ما فطر عليه أهلها من الأدب الجم والشمائل الرقيقة. وهذه في الغالب أخلاق أهل المدن السياحية؛ بيد أنك تشعر في سالزبورج أن هذه الخلال الحسنة ترجع إلى الفطرة أكثر منها إلى مقتضيات المعاملة، وتشعر أنها بعيدة عن الرياء المعسول الذي تأنسه في المجتمعات السياحية الأخرى

وغادرنا سالزبورج لأيام قلائل، وقد ترك بللها المنعش، وموسيقاها الساحرة، وذكرياتها السريعة الممتعة في النفس أجمل الأثر

حبُّها. . .

للأستاذ السيد محمد زيارة

عرفتها شاعرة في عينها الشعر؛ وكأنما خلقها الله بهاتين العينين ليودع فيهما من

أسرار الغيب، ويصور بهما من معاني الخلود معنى الفن. . . فجاءتا هكذا ساحرتين لا يُفهم من أي نوع سحرهما، ولا يدرك إلى أي حد تأثيرهما؛ وغاية ما يفهم أو يدرك منها انهما حين تلمحان تجرحان، وحيث تنظران تأسران. . .

ويبدو فمها كأنه جمرة صغيرة. . . .

ويُرى خداها كأن على كل منهما وردة في لهب. . .

وعرفتها في كل هذا وبكل هذا. . . عرفتها في قصة حب أولها معروف وآخرها مجهول كانت تغني، ووقع بصري عليها لأول مرة فلا أدري ما الذي نزل منها على نفسي فحال فيها ثم استقرَّ فيها فما ذهب عنها وما هو ذاهب أبداً!! إلا أنني أذكر. . . أذكر جيداً أنها كانت ترسل الأغاني من فمها ومن عينيها، وأنني كنت أسمع الأغاني بأذني وبقلبي والله ما أحلاها وقد بدت في ثوبها الأسود الهفاف، فلا يظهر منها إلا وجه كأنه حلم بالوصل في منام عاشق محروم، ويدان كأنهما زهرتان غضّتان أسفرتا من جنة محجوبة

وقد أبى صدرها إلا أن يتيه ويشمخ، وعز عليه أن يحد الرداء من كبريائه فنهض يتحرر، وبدا كأن بينه وبين الرداء معركة. . .

وظهر جيدها فوق صدرها كشعاع الصبح يشرق من أعلى جبل. . .

ونظرت إليها فرأيتها كلها فناً منفرداً في كل جزء منه فن منفرد؛ ثم نظرت إليها فرأيتها نوراً تتشعب منه أنوار، ثم هممت أنظر إليها فريع البصر ورُدّت النظرة إلى الفؤاد سهماً

ثم تنفشت كالبلبل المتندي، ثم نظرت إلى الحشد ثلاث نظرات وقعت إحداها عليّ فملت أتحاشاها؛ ولكنها سبقت إلى القلب فإذا القلب عاصفة في وسط عاصفة؛ ثم راحت تغني فأرسلت من بين شفتيها صوتاً فيه شذىً جعلني أعتقد أن للورد تغريداً وأن هذا هو تغريد الورد، وأعتقد أن سراباً من البلابل لو أجتمع على أن يأتي بمثل سحرها لما أتى إلا بما يثبت أنها ساحرة معجزة

وأحسست أنها كلما زادت في غنائها آهة أو لفظة ربطت بين روحي وبينها آصرة، وأنها كلما أصابتني بنظرة مدت بين قلبي وبينها جسراً. . . ثم أحسست أنها قربت مني حتى صارت جزءاً مني فيه روحي وقلبي وعقلي؛ ولكني بعد ذلك لم أحسب إلا أنني خبلت، ولم أدرك أن هذا هو حبها يدخل من عيني ومن أذني. . .

وانتهيت من ساعتها ثملاً لأتم ليلتها أرقاً وبي من الجنون مس في القلب يكاد يبلغ إلى مس في العقل. . . هو الحب. . .

هو الحب الوليد الجبار ولد ثم أيفع وشب شبابه في ساعة. . .

هو الحب خلق في عينيها ليعيش في قلبي. . .

هو الحب جاء يعلن أنه الحب بعذابه وسهره، وأنه سيكون عقدة بعد عقدة، ثم لا يكون إلا عقدة بعد عقدة. . .

هو سهمها جاء قاسياً ليقتل ثم اشتدت قسوته فلم يقتل؛ وإنما جرح وأدمى ليظل الجرح جرحاً ويظل الألم ألماً. . . يا ليته قتل. . .

ومرّ عام في ليلة، وآه منها ليلة قاسية وسعت كل دقيقة من دقائقها هاجساً من هواجسي فبثُّ أصبو بصبوة قلبي، ثم أحار بنزاع عقلي، ثم أغفي بعين أحلامي، واقطع مدى الليل بين الصبوة في جهلها وغرورها، والحيرة في شدتها وعسرها، والأحلام في جلوتها وروائها؛ وما أستطيع أن أخرج من هذا كله إلا باليأس منها حبيبة محبة ولو بعد حين. . .

ما كان لي أن أحبها وهي ذات جاه، ولها سلطان وحاشية، ويسعى إلى مجلسها من علية القوم فئة يبتغون الأنس والسمر، وهي تدلّ عليهم دلال حسنها ودلال عفتها، ثم تتدلى إليهم زهرة محصنة يستنشي أرجها ولا تقطف ولا تمس.

وما كان سهلاً على أن أيأس من حبها في أول حبها ما دامت في باطني عين لا تنظر إلا إلى أعلى فلا تبصر إلا ما هو أعلى، ولا مستحيل عندها ولا صعب. ما كان سهلاً علي أن أيأس من حبها وعين خيالي كالمنظار تقرّب لعيني رأسي بعيدها وتهوّن مسافتها.

وطلع الفجر يتثاقل كأنه لا يريد أن يطلع. . . طلع وأنا بين شيطانين شيطانها الفاتن وشيطاني المفتون، كلاهما يدعوني إليها بينا أتخوفها على نفسي ولا أبتغي إليها

الوسيلة؛ فمثل هذه التي ألفت تهافت العشاق، وتغنَّت بآلام المدنفين، لا يقع في قلبها الحب إلا بمعجزة. . .
ومضى الليل إلا قليلاً وأنا كما أنا، آخذ بقلبي وأرد بعقلي! ولبثت يتقاذفني تحذير اليأس وإغراء الأمل حتى يئست ونمت.
ورأيت في الرؤيا أني أزورها وأنها ترحب بي؛ وما أحسب إلا أن لقاءنا كان في فردوس، فقد رأيتها ترفل في الخز حول قامتها قوس من نور يتهادى على أفق من شفق، وتحت قدميها ورد منثور كأنه طبقة من الأرض، وهي تتخفف في خطوها كأنها تسير على الماء.
وسرت إليها أترفق بالورد، ورأتني أحييها بتحية قلبي فتبسمت فتبسمت في ثغرها الأمل، ثم تأودت فكأنها بانة عطفتها نسمة، ثم قالت: تعال. . .
. . .ثم. . . ثم قالت: أهلاً. . . تعال
. . .ووثب قلبي إليها ووثبت أدركه بين يديها فصحوت
وما تم الليل بانفلاق صبحه حتى تم في قلبي الحب بانتصار أمله على يأسه، فشعرت بها تغني في قلبي، وتتجلى في عقلي، وتميس في خيالي؛ ثم شعرت بها توحي إليّ وحي فتنتها لتؤدي به رسالة الجمال إلى الفن، وتثبت فيه ارتباط الفن بالجمال.
وعشت أستوحيها حيناً من الدهر طال ما طال ولم يكن فيه إلا اكتفائي من حبها بالوحي: أتنسم حنان صوتها، وأتفيأ ظلال مفاتنها، وأعيش في جوها وأناجيها وأستلهمها. . . كل هذا وأنا بعيد أتباعد لأن قلبي جعل لها سلطاناً عليه وتهيّبها وبذلك سد على منافذي إليها.
ولكن الحب أقوى وأشد. . . فما زال بي حتى طغى علي فرحت أطلب زيارتها؛ وهي كانت تعرف وحيها في كلامي ولا تعرفني، فعرّفت نفسي إليها بكتاب، ثم ذهبت أزورها في موعد حددته. . .
وكان موعدها في ضحوة النهار من يوم مخلد؛ قمت ليله أتطير بالشوق بين الفرح والرهبة، ولا يتحول بصري عن الساعة في يدي وهي تبطئ كأنها نائمة؛ وكلما غبرت من الليل، فترة ودعتها من الفؤاد زفرة، حتى أحسست في نهاية الليل أن دمي قد احترق بنيران فكري، وأنني لم يبق مني إلا هيكل كل ما فيه أنه هيكل.
وجاء الموعد الذي كنت احسبني لن أبلغه. . . جاء الموقف الذي كان وراء العقل. . . جاءت الساعة، ولقيتها. . . ولقيتها وأنا حي!!
. . .ماذا كنت في تلك اللحظة؟. . . إني كنت بركاناً وكنت زلزالاً وكنت ريحاً عاصفاً وجلست هكذا في قاعة الاستقبال بدارها، ورأيت الأثاث فيها كأنه يهتز لينقلب على رأسي.
أكان هذا حباً؟. . . أكان هذا شوقاً؟. . . لا والله إنه كان هذياناً، ثم ظهرت فيه حكمة الحب عندما لاحت الفتانة بالباب تتقدم إليّ؛ وحكمة الحب لا تظهر إلا حين يريد هو أن تظهر. . .
جاءت تتيه في مشيتها كأنها سكرى، وكأن خطواتها همسات قلب متيم إلى صاحبه، وكانت قد بارحت فراشها من لحظة، فدخلت علي صاحيةً بكل جسمها إلا عينيها، فقد كانتا ذابلتين كأنهما ما تزالان في نعاسهما.
. . .أما وجهها فكان بمسحة النوم عليه كأنه الفجر مائلاً بسناه يقبل باقة من الورد
أما شعرها فكان ثائراً كأنه ليل عاشق مؤرَّق، وكأنها استيقظت وما يزال رأسها نائماً في ليله. . .
. . .أما قوامها فكان سكباً من البان في سكب من الحرير
. . .أما هي - أما هي فكانت سحراً يمشي ويتبختر، وكانت حسناً متكبراً بتواضع
وجاءت تلوح لعيني متصوفة سكرى وقالت: أهلاً بمن سبقه إلينا شيطانه!!
ثم صافحتني بيد أنضر من الزهر، واتخذت مجلسها، ثم نظرت إلي تتأملني فقلت: وكيف عرفت شيطاني؟. . .
. . .قالت: أما شعر لي وتغنى بي وكتب عني؟
قلت: يا له حظاً سعيداً. . . ما كنت أحسب شيطاني موفقاً هذا التوفيق!! أو تقرئين ما يكتب؟!
قالت: بلى. . . وما أحبَّ شياطين الشعراء إلى نفوسنا نحن المغنيات. إن للمغنية في

كل شاعر تستميله مرآة ترى فيها نفسها؛ والشاعر والمغنية كلاهما تمام الآخر فيما خلقا له.
فتنهدت وقلت. إنك الآن توقدين رأسي
قالت: وكيف ذلك؟
ثم انبسطت على شفتيها ابتسامة صغيرة بان فيها أنها داهية تمكر؛ إلا أن مكرها في ابتسامتها كان مكراً أحمرِ ملتهباً في فتنة حمراء ملهبة؛ فنظرت إليها أستزيده ثم قلت: كلامك هذا فيه نار أشعر بأجيجها في رأسي.
فقالت وهي تمكر مكراً أشد وأحلى: إذن لا يعجبك كلامي
قلت: كلا كلا. . . وهل يخرج مثل هذا الفم إلا ما يُحب؟ إن النار التي في كلامك نار لذيذة كنار الحب في قلب المحب.
لقد قلتِ إن الشاعر والمغنية كلاهما تمام الآخر، فهل بعد هذا من سحر على لسان؟ وهل بعد هذا من نار محبوبة في كلام؟.
. . .إنك توقدين رأسي بهذه النار من هذا السحر في هذا المعنى
إنك لو اطلعت الآن على أحشائي لعلمت أن الحسن يجني ولا يشفق في جنايته.
فخفرت وكسرت في عينيها لمحة وتهدل شعرها على وجهها ليستر روعة الخفر، ثم فتحت بيديها بين نوائبها منفذاً لقولها
وقالت: هذا كلام شيطانك
. . .قلت: بل هذا كلام قلبي
فرفعت بقية شعرها عن وجهها بيديها ورشقتني بنظرة داوية سمعت لها رعداً في صدري وقالت: أنت إذن. .
. .ووقف لسانها ببقية الكلمة، وقالت لي عينيها بنظرة أخرى حنون: أتممها
. .فقلت: أنا إذن. أحب
فأطرقت فخبّأت وجهها يبن شعرها ثم هزت رأسها تنفض الشعر فرأيت وجهاً جديداً مشرقاً في معنى الحب.
يا عجباً!! يا عجبا! إن كلمة الحب تسمعها غادة جميلة من محب هائم تجعل في محياها المشرق قسمات جديدة.
ونضح الحياء على جبينها قطرات كأنها قطرات الندى على أوراق وردة بيضاء، فمسحتها بمنديلها وشخصت إلي فقلت: وجهك الآن مؤمن. . .
قالت: وهل كان من قبل كافراً؟ وكيف يكون إيمان الوجوه وكفرها؟
قلت: الوجوه تؤمن وتكفر إيمان القلوب وكفرها! وقد رأيت وجهك الآن مؤمناً إيمان قلبك. . لكأنه كان يقول لي: إني شاعر بك وشاعر بما بك، لأني أفهم حبك فهو وحي جمالي إليك، وأعذر قلبك لأنه صيد عيني منك. . .
أما سمعت وجهك يقول هذا؟
فضحكت وقالت: وجهي لم يقل شيئاً، وأنا لم أسمع منه شيئاً. . كيف يتكلم الوجه إلا بالفم؟. . ولكن فمي لم يقل هذا فمن أين جئت به؟.
وضحكت ضحكة أخرى وهي تنتظر جوابي فقلت: لا يتكلم من الوجوه إلا الوجه الجذاب، فتكون في كل لمحة من لمحات عينيه عبارة، وفي كل وقدة من وقدات وجنتيه همسة، وفي كل ومضة من ومضات جبينه إشارة.
أما رأيتني أصغي إلى كلام وجهك بشغف؟.
فضحكت مرة ثالثة ثم سكنت وجهها كأنها تتذكر، ثم قالت: لا. . . لم أر. . ولم أعقل ما تقول. .
قلت: آه!! ها هو ذا وجهك عاد يستهترِ بإيمانه. . . ها هو ذا يدل ويتجنى.
وسكتت هي تداعب يداً بيد وطرفها يختلس ما يختلس، وسكت أنا ألتهمها بعيني في سكونها الساحر المترنم. . ثم فاجأتني بطرفها ينظر إلى كل أجزائي بكل ألحاظه وقالت: إنك لتنظر إلي بعين الشاعر المليئة بالحب فترى في كل شئ مني شيئين متناقضين.
قلت: وأنظرِ إليك بهذه العين من ناحية القلب فأراك نشوة للقلب تأخذه بقوتها؛ وأنظر إليك من ناحية العقل فأرى فيك غذاء للعقل ما أحوج العقل إليه!. ثم أنظرِ إليك بالعين المجردة من الشعر والحب فأراك في أقل درجاتك جميلة عزيزة الجمال.

فرأيتها كأنها تنظر إلي من خلال منظار لتتبين في كلامي حقيقة. . ثم كأنها تقتنع. . ثم رأيتها تفكر. فحدقت فيها ملياً ثم قلت: أنت شاعرة. .
. .قالت: وهي تمسك وراء شفتيها ابتسامة: وعلى هذا تكون أنت مغنياً
فانتفضت في مكاني وقلت: إذن أنت تعتقدين إنني جزء منك يكملك في أي أحوالك - إذن قد تحقق الحلم يا آنستي.
فتأجج خداها وأطرقت، وعجز قلبي عن مقاومة ما فيه منها، وحسبت أنه قضي.
ثم إنّا تفرقنا عاماً لا نملك أن نلتقي، وكان هذا العام مثار الوحي ومجال القلم.
ثم تلاقينا في قصر جميل شيد على جناح النيل بين الخضرة والماء.
وجلست في بهو القصر أضم جوانحي على الأشواق والهموم، وينبعث دخان التبغ من فمي
مختلطاً بدخان كبدي المحترقة.
ومضت أفكاري تصور لي ما سيكون في لقاء ساعة بعد فراق سنة. . . وإني لمضطرب أجر نفسي جراً بين أول دقيقة الانتظار وآخرها، إذ سمعت على الدرج المرمري وقع حذاء الحسناء تتوثب في نزولها كالظبية تتنقل في واديها بين الربى والسهول.
وتلفت فإذا هي مقبلة تتمايد في وشاح فضفاض من حسنها، وأمامها في الهواء نهدان خلقاً ليسبقاها أينما مشت.
وكان وجهها يتلألأ بين ضوء الجبين ووهج الوجنتين حتى حسبته قمراً كحلت عيناه في ليلة التمام.
ووقفت يفصل بيني وبينها بعد خطوتين، وفي عينيها نظرة عتاب كأنها طعنة خنجر، ووقفت أنا وفي عينيّ نظرة اعتذار كأنها دمعة قلب. . . والتقت النظرة بالنظرة فإذا هما في الهواء قطعة من (المغنيزيوم) تشتعل، وإذا هما في كبدي شعلة من الوجد تضطرم.
ثم تقدمت الحسناء وقالت: أهلاً بذاكرنا أهلاً بناسينا
. .فقلت: وكيف أنساك وأنا ناس بك كل ما عداك؟
قالت: ما رأيت من تذكرك إلا ما قرأت من رسائلك؛ فهل كل ما عندك أن ترسل الرسائل؟! كأني بك لا تحب إلا أن تتخيل لتعيش في خيالك
قلت: وكثيراً ما أهرب من لقاء الحقيقة لأظل مفتوناً بالخيال ناعماً بمتعته؛ ولولا أنك فوق تصوره لما بحثت عنك إلا في خيالي بين أحلامي وأوهامي.
. . .قالت: أنت إنسان عجيب
وبدا محياها كأنه مبلول بالخمر، وعربد قلبي كأنه سكير، وصمتنا؛ ثم تنفست وقلت: ويحي. . . ويحي. . . إنك حقاً فوق تصوري وبعد خيالي، فإني لأحس الآن أن كل قطرة من دمي تناجيك وتسبّح لك، وأحسب إن الله تعالى قد خلقك خلقة ممتازة.
فضحكت ضروباً، وانعطفت في ناحية الكبرياء من جمالها وقالت: هكذا أنتم أيها الشعراء كثيراً ما تكفرون. . .
قلت: آه لو كنت رجلاً مثلي وعشقت فتاة مثلك!! إذن لصدقت أنك من خلقة ممتازة.
قالت: أما يزال شيطانك يكفر؟. . إنكم أيها الشعراء لقادرون؛. إنكم تستطيعون أن تصنعوا
من القبح جمالاً، ومن الجمال فنَّ جمال، ومن فن الجمال عالماً من الفنون. فكم تصورون من مشاهد الكون وتبالغون في التصوير فيظن الناس أن الطبيعة هي التي أبدعت ما صنعت فنقلتم عنها الحقائق.
. . .ثم سكتت ثم قالت: هأنت تقول عني ما ليس فيَّ فأكاد أصدق أن فيَّ ما تقول
فقلت: مهٍ مه. . . يا فاتنة. . . إنك تتكبرين في تواضع، وتتواضعين في تكبر؛ والله ما رأيت مثلك غادة جميلة تنكر أنها جميلة. . . ألا إن هذا وحده يقوم دليلاً على أنك مطمئنة إلى نبوغ جمالك وعبقريته.
. . .فرمقتني بنظرة تائهة في فرح عينيها وقالت: إنك تغزوني
قلت: أرأيت القاتل يقتل ويتهم المقتول؟. . . هذه أنت تتهميني بأنني أغزوك وأنت فاتحة قلبي.
. . .قالت: لسانك وقلمك قد تآمرا عليّ

وحزن جمالها فصوَّر في حزنه أجمل معاني الحزن، وترقرقت عيناي إلا أنني أمسكت العبرة بين أجفاني فتغشى بها بصري لحظة. . . ولما نظرت بعد ذلك رأيتها مطرقة تشد منديلها بين يديها وكأنها تغالب في باطنها قوة تمردت عليها. . . وكأن وجهها يفكر، وكأن لحظها يحلم. . .

قلت: إنك تخبأين شيئاً ويريد الشيء أن يظهر

فرنت إلي بطرفها مبللاً بالحنين، فانطبقت أجفاني تتنهد، ودارت بي الأرض دورة. . . ثم فتحت عينيّ فرأيت منديلها يسقط من يدها. . .

الله أكبر!! ما هذا السحر الذي كان يشع من فتنتها وهي تنهزم؟. . . كانت ساكنة سكون ثورة، وكان قلبها ينبض فلا يحتمل بدنها الرقيق نبضه فيتموّج، وانعكس قلبي على وجنتيها فرأيتهما تلتهبان بالحب، وكانت عيناها تتألم، وكانت نظراتها تئن!! وزفر قلبها زفرة، وزفرت عيناها زفرة أخرى، ثم قالت وهي تجاهد نظرها إلي:

أتحبني؟

ثم ماذا. . . ثم ماذا أيها العشاق؟

(طنطنا)

السيد محمد زيادة

وحي المعرفة

للأستاذ إسماعيل مظهر

لا أقصد به الوحي الذي ينزله الله وتعالى على المختارين من عباده، أو المصطفين من خلائقه، فإن ذلك الوحي بعيد عن أن تدرك العقول من ماهيته شيئاً، بل أعتقد أن جل ما تدرك منه إنما يتعلق بأعراضه وظواهره دون حقيقته وجوهره.

ولا أقصد به الوحي الذي يقول به الروحانيون، أولئك الذين يحاولون إثبات العلاقات بين الجواهر اللطيفة الروحانية، وبين المواد الغليظة الجسمانية، حتى بعد أن تفارق الأرواح الأبدان، وتنفصم تلك العروة التي تربط بين المبدأ العلوي الحال في الأجسام السفلية.

ولا أقصد به ذلك الوحي الذي حاول أوائلنا من السلف الصالح عليهم رحمة الله أن يثبتوا إن له بالأحلام وأضغاث الأحلام صلة ورابطة؛ ولا الوحي الذي يقول به بعض المحدثين من أنصار العلامة فرويد، أولئك الذين قلبوا آية الأحلام فجعلوا عالم الشهادة سبباً في الرؤى، بعد أن كانت الرؤى عند الأقدمين نذيراً بما سوف يقع في عالم الشهادة.

لا أقصد شيئاً من هذا ولا من غيره من الأشياء التي تجعل بين ما بعد الطبيعة والطبيعة رابطة، قد يدركها التصور، وقد ينفيها الإدراك الحسي، وإنما أقصد الوحي المادي، وحي المعرفة تلك التي تشعر ونعتقد أن لها بكياننا المادي علاقة السبب والمسبب، ورابطة العلة والمعلول. ذلك بأني أعتقد أن بعض العقول الممتازة، ولا أعلم كيف هي ممتازة، قد خصت بكفايات الوحي، مستمداً من المعرفة التي تستوعبها. وكذلك أعتقد أن لبعض العقول ميولاً أشبه بميولنا النفسية، وأن لبعضها دون بعض رباطاً بناحية معينة من نواحي المعرفة. فلبعضها رابطة بالعلم، ولبعضها رابطة بالأدب والفلسفة، ولبعضها رابطة بالفن، ولبعضها رابطة بالدين. تلك صدور من المعرفة، أو بالأحرى أشكال من المعرفة، لكل منها حدودها التي يعينها العقل تعييناً قد يبلغ بعض الأحيان مبلغ اليقين، وقد ينزل بعض الأحيان منزلة الشك؛ ولكنها على قدر ما نعلم من اختصاص العقول بالتبريز في ناحية من نواحيها لها حدودها المتفق عليها عند من يعنون بوضع الحدود والفروق بين كفايات العقل الإنساني.

أما وقد نعلم من طريق اختصاص العقول بالتبريز في نواح معينة من المعرفة أن لصور المعرفة من علم وأدب وفلسفة وفن ودين حدوداً معينة وتخوماً مقررة في شريعة العقل، فما نشك بجانب هذا في أن لكل عقل من العقول اختصاصاً في ناحية من نواحي المعرفة. نضيف إلى ذلك ظاهرة أخرى؛ هي أن لبعض العقول فوق اختصاصها في التبريز في ناحية معينة من نواحي المعرفة، قد خلقت وفيها موهبة خاصة تجعلها أكثر من غيرها استعداداً لتلقي نوع من أنواع الوحي، تظهر آثاره باستيعاب قدر خاص من المعلومات قلّ أم كثر، وهذه الآثار التي تتجلى في إدراك بعض العقول لحقائق أو نظريات، قد تظهر عند درسها أنها قد لا تكون نتاجاً لدرس عميق، ولا لأكباب على التفكير، ولا تعمل

أو تمحل في إدراك حقائق الأشياء؛ بل غالباً ما تكون أشبه بالومضة السارية في الظلام أو الشعاع المنير يفلق بنوره غياهب الشك ويقضي على الجهالات.

أي سر هذا؟ عقول تدرك بالومض كأنها اللوح الحساس وعقول تعجز عن إدراك ما تدرك تلك! عقول تنفذ إلى صميم الأشياء بلمحة سانحة، فتستخلص الحقائق الأولية وتنتزعها من تلك الأضغاث التي تراكمت حولها من فتنة الفكر وتحف الخيال، وأخرى تستوعب ما تستوعب من مبادئ العلم وصور الأدب ونظريات الفلسفة وتأريخ الفن وشرائع الدين، وتظل في جمودها تنظر إلى تلك الومضات التي تفيض بها الأولى مأخوذة بأن ما أدركت الأولى قريب مما استوعبت، ولكنه بعيد عن أحلامها قصي عن إدراكها!

يصعب على العلم أن يعلل هذا تعليلاً يصل به إلى حقيقة الأمر منه. بل ولا شك في أن الخيال والتصور يقفان أمام هذه الظاهرة وقفة العلم من حيث العجز عن إدراك السر فيه. وليس لنا أن نستوحي العلم أو نذهب مع الخيال نعلل حقيقة هذه الظاهرة. وإنما نريد أن نحصر بحثنا في بعض الظواهر التي ترجع إلى ما ندعوه وحي المعرفة.

إذا مثلت لتأريخ الفكر البشري بشريط طويل من اللون الأسود، وأردت أن تضع على مسافات معينة من هذا الشريط دوائر بيضاء، تمثل بها لتلك الومضات الوحيية التي جادت بها عقول ممتازة، وكان لها الأثر الدافع إلى غايات طلبها الإنسان وضرب في سبيل الوصول إليها، لرأيت أن الفراغات السود بين الدوائر البيض قد تطول حدودها حتى يخيل إليك أن الإنسانية منذ أبعد عصورها لم تستهد بغير عدد قليل من العقول التي وهبتها الطبيعة تلك الهبة السامية، هبة الوحي تستنزله المعرفة. ولا شك في أنك تقف عند فكرة التوحيد في عقل إخناتون، وفكرة الإنسان الكامل في عقل سقراط، وفكرة المنطق عند

أرسطو طاليس، وفكرة دوران الأرض والسببية الطبيعة في عقل غليليو، وفكرة الأسلوب والشك في عقل ديكارت، وفكرة المثاليات في عقل اسبينوزا و (كانت)، وفكرة التطور في عقل دورين.

قد نجعل لمثل هذه العقول منزلة وحدها ونرفعها إلى مكانة من الفضل مفردة. فإذا نزلنا عن هذه الدرجة أمكننا أن نسرد من العقول الممتازة عدداً إن خص بهذه الموهبة فإن اختصاصها بالفن يرفعها إلى درجة الأولى، بل تلوح لنا كأنها التابع حيال المتبوع، أو الصورة الواضحة في المرآة الصافية. ثم تنزل من هذه درجة ثم إلى أخرى، حتى نبلغ حداً لا نميز فيه بين العقول، وحيث نأنس أن العلم بالأشياء وحفظ المتون ظهر الغيب ليس له من أثر في الابتكار، كأنما تلك العقول ليست أكثر من نسخة مكررة في كتاب واحد.

أكثر أولئك الذين نسميهم علماء أو ننعتهم أدباء أو مفكرون، هم من طبقة الذين نطلق عليهم طبقة (النسخة المكررة من الكتاب الواحد). يعيشون في حدود ما قرءوا؛ وقد يجيدون حفظ الكتاب إجادة تبلغ الكمال، ويفكرون على الأسلوب الذي رسمه الكتاب، بل قلما يجيدون التفكير على ذلك الأسلوب فيفسدون ما قرءوا في الكتاب وينزلون به درجة بعد درجة حتى تمسخ عقولهم ما قرءوا وما حفظوا، فيصبحون بذلك نسخة مبدلة من كتاب قرءوه، أو فرض عليهم أن يقرءوه ليؤدوا بقراءته غرضاً لا يعترف به العلم، ولا هو من شريعة الفهم في شئ.

قد يكون السبب في ذلك راجعاً إلى أن عقول هؤلاء قد صرفت مقسورة عن تنمية الموهبة التي أعدتها الطبيعة فيها؛ وقد يكون للنشأة في ذلك أثرها وللبيئة طابعها الثابت؛ وقد يكون لنظرة ما ينظر من ناحيتها في الحياة أثر في العقل ينتج ذلك الجمود العلمي والتحجر العقلي؛ قد يكون للخلق وللشهوات عوامل خفية تؤثر في اتجاه العقول.

قد يكون ذلك وقد يكون أكثر منه. والحق أن من يفكر في مثل هذا الأمر يشعر بالعجز عن بلوغ الغاية في تعليله تعليلاً علمياً يقبله العقل، ولكن لنا أن نقول إن للوارثات المختلفة وحالات الحياة الأثر الأول في حدوث هذه الظواهر العجيبة.

على أننا إلى جانب هذا لا نستطيع أن ننكر أن هذه الملكة، ملكة الوصول إلى غايات من العلم والأدب والفن تكاد تظهر كأنها الوحي، هي من الملكات التي يمكن أن تنميها التربية،

وتصححها النشأة، وتقويها طرق التعليم. ذلك بأن العقل الإنساني في ذاته يكاد يكون في أشياء الطبيعة بمثابة الوحي في جمود الحيوانية وموت الجمادات. قسه مثلاً على غرائز الحيوان أو تفاعل الجمادات الكيميائي، وأنت واجد أنه في ظواهر الطبيعة نسيج وحده وطابع لا يتكرر. وهذا العقل بكفاياته وملكاته، تصبه البيئة والتعاليم والنشأة في قوالب تظهر بها مرونته وقدرته على التشكل في أشغال كثيرة، واستعداده إلى قبول حالات جديدة ليست له من قبل. وما تلك الأشكال وهذه الحالات إلا آثار مختلفة يخلقها ما يحيط بالعقل من عوامل التدرج نحو بلوغ الغايات العليا من المعرفة؛ تلك الغايات التي تنتهي إلى تلك الومضات الوحيية التي جادت بها على البشرية عقول ننعتها بأنها فذة وأنها بلغت من سمو الإدراك.

لما كان للتربية والبيئة خاصة التأثير في تكوين العقول، ولما كان لهما ذلك الأثر البالغ، كان علينا ألا ننكر إن همَّ المصلحين يجب أن يتجه أولاً إلى وضع التربية والتنشئة الأولى في موضع من الاعتبار يجعل لها القيمة العليا في أشياء الجمعيات الإنسانية كما يجب عليهم أن ينظروا في تأثير البيئات التي تكتنف النشء، وأن يسيطروا عليها إلى الحد الذي يباح فيه إلى للحكومات أن تحد في بعض النظم والمعاهد اتقاء لما تنشئ من بيئات مصطنعة بعيدة عما تتطلبه التربية السامية وقواعدها المقررة وأصولها المعروفة.

ففي البيت وفي المدرسة وفي الحياة العامة، ينبغي أن تقوم تلك البيئات التي تساعد على تنشئة العقل وتدريبه على النظر في الأشياء نظرات تنفذ إلى صميمها، وأول خطوة في هذه السبيل يجب أن تقوم على هدم الأوهام ومحو الأضاليل، وما محو الأوهام وهدم الأضاليل، إلا نتيجة أولية لتحرير العقل.

إسماعيل مظهر

قصة المكروب كيف كشف رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكي

مدير مصلحة الكيمياء

وسطاء شر أبرياء

وصل الفائت:

بدأ اسميث ببحث علة الحمى التكساسية التي تنتقل من أبقار الولايات الجنوبية في الولايات المتحدة إلى أبقار الولايات الشمالية فيها. فجهز حقلين: ووضع في الحقل الأول بقرات شمالية مع بقرات جنوبية ولم ينتزع من هذه الأخيرة القراد الذي عليها، ووضع في الحقل الثاني مثل ذلك بعد أن نظف البقرات الجنوبية من قرادها، وتركها جميعاً، فأصابت الحمى البقرات الشمالية في الحقل الأول، ولم تصبها في الحقل الثاني.

وزادت الحمى في الحقل الأول اتقاداً، ثم أخذت بقراته تموت واحدة بعد أخرى. وشقَّت بطون الجثث للفحص فجرى دمها أحمر صبيباً. واختلفوا بين حقول الريف ومكرسكوبات المعمل بالمدينة في امتحان الدماء. وانتقلت عدوى العمل إلى اسكندر الكسول لمّا أحس بأن في الجو أمراً جللاً، فنفض غبار كسله المأثور وأخذ نصيبه من الحركة. ونظر إسميث إلى دم البقر الخفيف وأخذ يتأمله، ثم قال: (إن المكروب الخفي لهذه الحمى التكساسية إنما يهجم على كريّات الدم الحمراء فيفقؤها. ففي بطون هذه كريّات يجب أن أبحث عن المكروب)

كان لا يثق بالتقارير التي يكتبها المكرسكوبيون المختصون، أو الذين يدعون بالمختصين، ومع ذلك فقد كان له بالمكرسكوب خبرة لا تبارى. وحرّر أقوى مكرسكوب لديه على دم البقرة التي ماتت أولاً، فأخذ الحظّ بعينه، فارتأى لأول وهلة في الكريّة الدموية الحمراء، وهي في المعروف متصلة الجوف صماء، رأى فراغات صغيرة تعنقدت معاً فاتخذ مجموعها شكل الكمثرى؛ وتراءت له في أول الأمر كأنها ثقوب في قرص الكرة الدموية ليس إلا، ولكنه أخذ يبعد عدسة المجهر ويقرّبها فأحكم بؤْأرتها، وأخذ يكثّر عدد العينات التي يمتحنها، فأخذت هذه الفراغات والثقوب تنبض في بصره بالحياة فتتمثل له على حقيقتها أحياء لها شكل الكمثرى. ورآها في دم كل بقرة ماتت بالحمى التكساسية، ورآها

دائماً في جوف كرات الدم الحمراء تفسد فيه وتُخفّه فيصبح مرهفاً كالماء.
ولم يرها قط في دم بقرة شمالية صحيحة، فأسرّ لنفسه: (لعل هذا مكروب الحمى).
وكان له اتئاد الفلاح فلم يتعجل في الحكم، واعتزم قبل أن يقضي على أن يفحص دماً من مائة بقرة مريضة وسليمة، وأن يمتحن الملايين من الكرات الحمراء.
وكان الحرّ قد مضى وحلّ شهر سبتمبر، وكان في الحقل الثاني أربع بقرات من البقر الشمالي كلها سليمة ترعى الحشيش وتزداد سمناً - ولم يكن عليها قراد أصلاً. فقال إسميث وهو ينظر إليها: (إن من الميسور أن نحقق التهمة المعزوّة إلى القراد من تسبيب الحمى). وقام فساق اثنتين من هذه البقرات السليمة الأربع إلى الحقل الأول الذي مات به البقر المريض، ففي أسبوع رأى قراداً أحمر أغبر صغيراً على فخذ البقرتين. ومضى أسبوعان أو يزيدان قليلاً فماتت إحداهما، أما الأخرى فغادرها تعاني من الحمى ما تعانيه.
ولم يقتنع إسميث بكل هذا فطلب المزيد - المزيد الذي لا يطلب مثله في العلماء سواه. وكانت لا تزال هناك حيلة لا بد من احتيالها، أو إن شئت فقل تجربة لا بد من إجرائها. فقد كان جاء من كرلينة الشمالية صفائح ملأى بالحشيش تجري عليه جماعات القراد تسعى عطشى إلى دم تستقيه. فأخذ إسميث هذه الصفائح إلى حقل ثالث لم تطأ أرضه بقرة واحدة من بقر الجنوب أو قرادة قط من قراداته. وأخذ يذهب فيه ويجيء، يفرغ حشيش الصفيحات وينثره بقراده على أرضه فلعل فيه الموت، ثم اقتاد أربع بقرات سليمة إلى هذا الحقل، فمضت بضعة أسابيع انحل فيها دم البقر كله. وماتت منه بقرة، أما الثلاث الأخريات فنالتها نوبات شديدة من الحمى ولكنها اشتفت أخيراً.
وعلى هذا فقد نجح إسميث أول ناجح في تتبع أثر مكروب قاتل، والكشف عن السبيل الذي يسلكه إلى حيوان بركوبه على ظهر آخر. ففي الحقل حيث كان بقرٌ جنوبيّ، وكان قرادٌ مات البقر الشماليّ. وفي الحقل حيث كان بقرٌ جنوبي، ولكن لم يكن قراد، زاد البقر الشمالي سمناً وهنئ عيشاً. وفي الحقل الذي لم يكن به بقرٌ جنوبي ولكن كان قرادٌ، أصيبت البقرات الشمالية بالحمى التكساسية.
إذن فالقراد أصل البلاء.
وإذن فقد أثبت إسميث بذلك المنطق البسيط، وبهذا العدد العديد من التجارب أن البقّارين
في غرب أمريكا إنما قالوا حقاً ورأوا صدقاً، واستبانوا حقيقة جديدة من اكبر حقائق الطبيعة عندما اتهموا القراد. واستخلص إسميث هذه الحقيقة الكونية الكبرى من ذكاء الشعب ومما جرت به ألسنة الخلق فكان مثل هذا الكشف الخطير مثل العجلة يرد اختراعها إلى الناس، إلى قوة ابتكار الدهماء حتى تبوأت مكانها من المحركات الكهربائية العظيمة الدوّارة الطنّانة.
ولعلك حاسب بعد ذلك من وضوح تجاربه وثبوت نتائجه ثبوتاً قاطعاً أنه اكتفى بها، ولعلك حاسبٌ أنه نصح حكومته بعد ذلك بإشهار حرب طاحنة على القراد. ما كان هذا طبع إسميث، ولم تكن تلك سبيله، فبدل ذلك اصطبر إلى صيف العام المقبل علم 1890، فلما جاء حرّه أجرى تلك التجارب مرة أخرى وزاد عليها، وكلها تجارب بسيطة ولكنه إذ أتهم لم يرد أن يكون اتهامه إلا عن يقين. فتساءل: (كيف ينقل القراد الداء من بقرة جنوبية إلى بقرة شمالية، ونحن نعلم أن القرادة تقضي حياتها كلها على ظهر بقرة واحدة، وهي لا تطير كالذباب من بقرة إلى أخرى؟. .) وهذا سؤال لا شك عويص، أعوص من أن يحله البقارون بمعارفهم الساذجة. فنصب إسميث نفسه ليردَّ عليه.
فتفكر ثم قال: (لا بد أن القراد يمتص من الدم ثم يمتص حتى إذا امتلأ وبلغ واستوى، سقط فانهرس على الأرض، فخلّف على الحشيش المكروب الكمثريّ الشكل الذي كان بالدم الذي استقاه، فجاء البقر الشمالي فأكل الحشيش ومكروبه)
وعلى ذلك أخذ آلافاً من القراد الذي جاء في الصفائح من الجنوب، وخلطها بحشيش جاف، وأطعمها بقرة شمالية لا تقوى على دفع الحمى، كان أسكنها حظيرة وحدها، واعتنى عناية مختارة بها؛ وانتظر أن يأتيها الداء فلم يأت. وأخذت البقرة تجتر طعامها الجديد هانئة مستمتعة، وازدادت عليه شحماً. وأشرب بقرةً أخرى حساء صنعه من قراد مدهوك، ثم عاد فأشربها ثم أشربها فكأنما أراد أن يغرقها في الحساء إغراقاً.

ولكن هذه البقرة أيضاً خُيِّل أنها تستمرئُ شرابها الغريب وحسنت عليه حالها.
فسدت التجربة فأرتج عليه، إذن فالبقر على ما يظهر لا يأتيه المكروب من أكل القراد.
وفي الليل توالت عليه الأسئلة يلقيها على نفسه تباعاً في سلسلة لا تنتهي. وتساءل فيما تساءل: (إن البقر الجنوبي ذا القراد ينزل في الحقل فلا يكون هذا الحقل وبيئاً إلا بعد
ثلاثين يوماً من نزول البقر فيه. فلم هذا؟) وعرف البقارون هذه الحقيقة أيضاً، وعرفوا أنهم يستطيعون خلط بقر شمالي بجنوبي عشرين يوماً أو نحوها، ثم يفصلون بينها فلا ينال المرض البقر الشمالي أبداً. أما إذا هم تركوها على اختلاط فوق هذا القدر من الأيام، أو حتى إذا هم أبقوا البقر الشمالي وحده حيث هو من الحقل فوق العشرين يوماً بأيام قليلة، فلا يلبث أن يفجأه الداء فكأنما انقض عليه من السماء. فتلك أحجيةٌ أي أحجية
وذات يوم من هذا الصيف صيف علم 1890 تفسرت الأحجية بغتة واتصلت قطع الصورة المتكسرة المتفرقة فُجاءةً فاتضحت في عينيه على حين غرّة فشدهته، فوقف أمامها ذاهلاً مبهوتاً. وكان إذ ذاك في شغل من أمور عديدة أخرى وإجراء تجارب من ألوان شتى: كان يفصد البقر الشمالي ويسكب من دمه جالونات ليفقر دمه، فقد كان خال أن المكروب الكمَّثريَّ الذي رآه في كرات الدم ربما كان فقراً في الدم لا مكروباً. وكان يتعلم كيف يفقّص قراداً صغيراً نظيفاً في معمله. وكان لا يزال يلقط القراد من على ظهر أبقار جنوبية ليثبت أنها من غير قراد لا تضر الأبقار الشمالية، وقد يفوته أن يلتقطه كله فتأتي نتيجة التجربة بغير الذي أراد. وكان قائماً في سبيل استكشاف حقيقة باهرة؛ أن العجول الشمالية لا تصيبها إلا حمى هينة لا تميت في الحقول التي تقضي على أمهاتها. كان همه أن يجد كل أثر أياً كان نوعه للقراد في البقر الشمالي - فلعلها تسبب لها أسواء أخرى غير الحمى التكساسية.
ففي أثناء كل هذا تفسرت الأحجية. ذلك أنه سأل نفسه أتُرى أني بدأت ببويضات القراد في صحن من الزجاج فأخرجت منها في حجرتي قرادات نظيفة لم تر حقلاً أو بقرة وبيئة، ثم لو أني وضعتها بعد ذلك على بقرة شمالية وتركتها تمتص من دمها ملئها، أفتستطيع أن تمتص ما يكفي لإفقار دم بقرة؟ سؤال غريب يتراءى لي أنه كان لغير غاية، ولكنه يدل على أن فكرته كانت أبعد ما تكون من الحمى التكساسية.
ومع هذا حاول أن يحصل على جواب سؤاله، فأني بعجلة سمينة بنت عام ووضعها في زريبة مقفلة، وأخذ يهيل عليها يوماً فيوماً مئات من قرادات صغيرات من تفقيسه، ويمسك بها حتى يغوص القراد بعيداً تحت شعرها ويتمسك بجلدها. وأخذ يوماً فيوماً يشق جلدها ليأخذ قطرات من دمها ليستوثق من فقره. وذات يوم جاء إلى الزريبة ليجري عليها ما
اعتاده، فلما وضع يده عليها أخذته الدهشة مما أحسّ. فقد أحسها حارّة، شديدة الحرارة شدة جعلته يتهم حالها. ونظر إليها فوجد رقبتها تميل. وامتنعت عن الطعام، ودمها الذي كان يخرج من شقوق جلدها أحمر ثخيناً أصبح يجري رهيفاً داكناً. فجرى إلى حجرته بقطرات من هذا الدم على قطع من الزجاج، ووضعها تحت المجهر ورأى، ويا صدق ما خال. ورأى كرات الدم الحمراء قد التوت وتثلمت وتحطّمت وقد كان عهده بها قوراء ناعمة كالدرهم المسيح. وفي هذه الكرات الحطيمة وجد المكروب. . .
فهاك غريبةٌ من الغرائب التي قد لا تجود بها الأحلام: فهذه المكروبات لا بد أنها جاءت من جنوب أمريكا في القراد البالغ، فلما باض وجد المكروب سبيله إلى البيض فاستكنّ فيه، فلما انفقس البيض في صحون الزجاج عن قرادات صغيرة حملت هذه المكروب معها، فلما وقعت على ظهر العجلة مصت دمها فانساب المكروب أكثر ما يكون تهيؤاً للفتك بالعجلة المسكينة التي وقعت فريسة القدر على غير قصد وبغير ذنب.
في سرعة البرق اتضح كل هذا لعين إسميث.
ليست القرادات العجائز التي امتلأت بالدم وارتوت هي التي تهيئ سبيل المكروب إلى البقر الشمالي، بل صغارها من ذات خمسة الأيام إلى العشرة هي التي حملت القتلة الأشرار إلى ضحاياها.
وعندئذ فقه السبب الذي من أجله تأخر الحقل أن يكون خطيراً، فان الأمهات من القراد كان لا بد لها من السقوط عن ظهر البقر الجنوبي الحصين أولاً، ثم لا بد لها

على الأرض من أيام تبيض فيها، ثم لا بد للبيض من عشرين يوماً أو تزيد لإنفقاسه، ثم لا بد للصغار الخارجة من البيض من زمن تزحف فيه إلى أرجل البقر الشمالي فإلى أفخاذه - وهذه الأحداث تستغرق أياماً كثيرة، تستغرق الأسابيع. فهل وجدت جواباً أيسر من هذا لسؤال أعسر من هذا، لولا المصادفة البحتة ما تيسر بداً؟

وما لبث أن استخرج بالتفقيس في صحون دافئة من الزجاج آلافاً من القراد، وأخذ في زيادة إثبات اكتشافه الكبير حتى ثبت ثبوتاً قاطعاً. فكان كلما ركم قرادة على ظهر بقرة شمالية أصابتها الحمى؛ ولم تكن تكفيه الكفاية من البراهين. وأخذ صيف عام 1890 في الأدبار وأخذ البرد في الإقبال، فإذا به يسخّن الحظائر بمواقد الفحم، ويفقس القراد في مكان

دافئ، ثم يضعه على جلد البقرة فيقوم نار الحظيرة مقام الشمس في إكمال نموه، فإذا به يصنع على ظهر البقرة صنيعه المعهود، وإذا بها تجيئها الحمى في الشتاء وهي لم تكن جاءت شتاءً في الطبيعة أبداً.

وقضى إسميث وكلبورن صيفين آخرين يضربان في الحقل ليستكملان بحثهما، ويسدّان خروق السفينة بالقار والكتان، ويتساءلان كل سؤال يخطر بالبال، ويجيبان بتجارب غاية في البساطة غاية في الإفحام على كل اعتراض يحتمل أن يثيره العلماء البيطريون، وذلك قبل أن تعطي الفرصة لهم ليعترضوا. واكتشفنا ثناء ذلك حقائق غريبة في الحصانة، إذ وجدوا أن العجول الشمالية تصيبها الحمى التكساسية إصابتين خفيفتين أو ثلاثاً في الصيف، فإذا دار العام وكبرت أخذت ترعى في الحقول الوبيئة القاضية على كل بقرة شمالية فلا تحس وباءها أصلاً. . . لا يفسران حصانة البقر الجنوبي: إن هذه الحمى الخبيثة توجد في الجنوب حيثما وجد القراد. والجنوب كله قراد. فهذا القراد لا يفتأ يصب مكروبه في دماء الأبقار الجنوبية في كل آن ومكان، وهذه الأبقار الجنوبية تحمل المكروب في دمها ليل نهار، ولكنها لا تحفل به، لأنها أصيبت به وهي عجول فاحتملته فتحصنت منه نم بعد ذلك.

وأخيراً، وبعد أربعة أصياف شديدة الحر كثيرة الإنتاج مجيدة، جلس إسميث جلسة طويلة يصف الحمى التكساسية فلا يدع فيها سؤالاً لسائل، ويصف كذلك كيف يمحي الداء محواً. وكان ذلك في عام 1893، وكان بستور الذي تنبأ بإمحاء الأدواء جميعاً على نحو هذا المثال يتهيأ عندئذ للكفن والقبر.

كتب إسميث ما كتب عن هذه الحمى فأتى بقطعة رائعة من قطع الفن لم أجد أبسط منها ولا أوضح في حل لغز من ألغاز الطبيعة، أقول هذا وأنا لست بناس روائع لوفنهوك ولا بدائع كوخ أو أي رجل من رجال المكروب؛ قطعة رائعة يفهمها الصبيّ الذكيّ لبساطتها، ويرفع لها نيوتن العظيم قبعته احتراماً لعظمتها. كان إسميث وهو صغير يحب بيتهوفن وموسيقاه، وإني لأجد في قطعة إسميث هذه التي أسماها (بحثاً في طبيعة الحمى التكساسية أو حمى الأبقار الجنوبية، وفي أسبابها، وفي منعها) إني لأجد فيها من الروعة ما في السمفونية الثامنة لبتهوفن، تلك التي أنشأها في أواخر أيامه المريرة. كلتا القطعتين بسيط موضوعهما

بساطة بلغت حد السخف، ولكن موضوعهما هذا البسيط نُوِّع وركّب تنويعاً لا يستطيعه إنسي، فكانتا على مثال الطبيعة ذاتها، غاية في البساطة غاية في التركيب والتعقد.

فبهذا التقرير فتح إسميث للإنسانية فتحاً جديداً، فأرى الناس سبيلاً جديدة يسلكها المكروب بالداء إلى ضحيته: محمولاً على حشرة. وبدون هذه الحشرة لا يستطيع الوصول. أعدموا هذه الحشرة، غطّسوا كل مواشيكم في سائل ليقتل قرادها، أعيشوا البقر الشمالي في أرض لا قراد فيها. افعلوا كل هذا تختف الحمى التكساسية من على ظهر البسيطة. واليوم تقوم عدة ولايات كاملة بتطهير مواشيها بالتغطيس في المطهِّرات، واليوم لا تجد أحداً يرتاع أقل ارتياع لهذه الحمى التي أنذرت بالفناء الألوف المؤلفة من قطعان أمريكا.

وليس هذا كلَّ الخير الذي جاء من هذا التقرير البسيط الذي لا زركشة فيه ولا تزويق، هذا التقرير الخالد الذي لم ينل ما يستحق من التقدير حتى لا تجد منه في السوق نسخة واحدة. فأنه لم يلبث إن شاع حتى حدثت من جرائه أحداث عظيمة في جنوب أفريقيا وفي الهند وإيطاليا. ففي أفريقيا الجنوبية في أدغالها الخطيرة عضت ذبابة رئيس الأطباء في كتيبة من كتائب الجيش، وكان اسكتلنديا جسيماً، فسب من عضتها

ولعن، ثم خطر له الخاطر فأخذ يفكر فيما عسى أن تصنع هذه الذبابة من الضر بالإنسان غير عضتها المقلقة. وبعد هذا بقليل حدث أن رجلاً إنجليزياً في الهند، وآخر إيطالياً في إيطاليا، فتح كلاهما آذانهما وسعهما ينصتان لجماعات البعوض ترسل بطنينها المديد الشاكي، ثم فتحا أذهانهما وأعملا خيالهما وأطلقا الأعنة للأحلام فاختطا خططاً عجيبة لتجارب غريبة. . .

على أن هذه قصص سترويها الفصول القادمة. قصص تحكي لنا عن أوبئة قديمة معجزة جامحة أعجزها الإنسان وألجمها، فأسلمت له المقادة؛ قصص تحكي عن وباء أصفر فتّاك، أمحى الآن من الوجود أو كاد، قصص تحكي لنا عن رجال ذوي آمال صوّروا الحياة البشرية تزداد بتناقص الأدواء، وتنشط ويمتد عبابها الزاخر حتى يغمر أدغالاً لا تسكنها الآن غير الزواحف والضواري، فتزدهر عن مدائن ذات أنوار وأبراج؛ فهذه القصص كلها مهَّد لها إسميث بما قام به في صيادة المكروب من بحوث جديدة عفّي عليها الآن النسيان أو كاد، بحوث هي الأولى التي سوغت لبني الناس أن يحملوا الأحلام الجميلة عن دنيا لهم مقبلة جميلة تختلف اختلافاً بيناً عن دنياهم الحاضرة.

أحمد زكي

الفتح الإسلامي

للأستاذ علي الطنطاوي

(الفتح الإسلامي) أكبر لغز من ألغاز العبقرية، وأروع أحجيَّة من أحاجي النبوغ، وأجل مظهر من مظاهر العظمة في تاريخ البشر. ولقد مرت عليه إلى اليوم قرون طويلة، وأعصار مديدة، ارتقى فيها فن الحرب، وتقدم فيها البشر أشواطاً في كل ميدان من ميادين الحضارة، وغاص المؤرخون في أعماق الحوادث التاريخية، فكشفوا أسرارها وعرفوا أسبابها، فبدت لهم هينة ضئيلة، بعد إن كانوا يرونها لغزاً لا يحل، ولكنهم لم يستطيعوا أن يكشفوا سر الفتوحات الإسلامية - ولم يدركوا كنهها. وستمر قرون أخرى وأعصار - قبل أن يكشف ذلك السر، وقبل أن يرى تأريخ البشر حادثاً أعجب وأعظم من (الفتح الإسلامي).

إن الحوادث العظيمة في التاريخ على اختلاف مظاهرها وتنوع أشكالها، لا تعدو أن تكون واحدة من ثلاث: إما أن تكون عظمتها فيما أورثت الإنسانية من حضارة وعمران، وما رفهت من عيش الناس، وما أفادتهم من رغد ونعمة وترف، وإما أن تكون هذه العظمة فيما خدمت به العقل البشري، وأمدته بأسباب القوة والنضوج، ورفعت من تفكير الناس، وأدنتهم من المثل العليا التي يطمحون إليها، بما فتحت عليهم من أبواب الثقافة وسبل المعرفة، وإما أن تكون عظمة الحادث التاريخي في ذاته، وفيما ينطوي عليه من بطولة نادرة، وقدرة عجيبة، وجلال لا يعرفه التاريخ إلا قليلاً؛ أي أن العظمة إما أن تكون عظمة حضارة وعمران، أو علم وفكر، أو بطولة وحرب.

أعظم الحوادث التاريخية كلها، في أبواب العظمة كلها، لا يدانيه في (والفتح الإسلامي) ذلك حادث في تأريخ الشرق والغرب، القديم منه والحديث.

أما في الحروب فإن التاريخ يعرف كثيراً من الفاتحين، منذ عهد الإسكندر ومن قبل الإسكندر، إلى عهد نابليون ومن بعد نابليون، ولكنه لم يعرف فتحاً أوسع ولا أسرع من (الفتح الإسلامي) الذي امتد في أثنى عشر عاماً فقط من طرابلس الغرب إلى آخر بلاد العجم، وحاز مصر وسورية وفارس كلها. . على أن ميزة الفتح الإسلامي ليست في السعة والسرعة وحدهما، ولكن ميزته الكبرى أنه فتح أبدى، فلم يعرف عن المسلمين أنهم دخلوا

بلاداً وخرجوا منها؛ ذلك أنهم لا يفتحون البلاد بسيوفهم شأن كل الفاتحين، ولكنهم يفتحون القلوب والعقول، بعدلهم وعلمهم، فلا تلبث البلاد المفتوحة أن تندمج بالمسلمين، وتصبح أغير على الإسلام من المسلمين الفاتحين، بينما ترى البلاد التي فتحها غيرهم تبقى خاضعة لهم ما بقى السيف مصلتاً فوق رؤوس أهلها، فإذا أحسوا من الفاتحين غرّة، وآنسوا منهم ضعفاً وثبوا عليهم فطردوهم، وعادوا إلى ما كانوا عليه، حتى أن أمريكا على رغم أنها كانت خالية إلا من قبائل لا شان لها، وليس فيها دين يناوئ ديناً، أو عادات تصادم عادات، وعلى رغم أن أهلها الذين استعمروها إنكليز كالإنجليز الحاكمين، فأنهم وثبوا عليهم وحاربوهم حتى نالوا استقلالهم؛ ولا تجد اليوم

أمريكياً واحداً يريد الانضمام إلى إنكلترا (الأم الكبرى)، بينما تجد كل مسلم في الصين أو الهند أو جاوا أو القسطنطينية كل مسلم صحيح، يتحسر على الوحدة الإسلامية - ويسعى إليها - ولا يقبل بها بديلاً، على رغم ما أحدثوا لهم من كذبة القوميات وبدعة الوطنيات، وما أقاموا بين الإخوان من سدود، وما فصلوا به بينهم من حدود، وما مر على هذه التفرقة من سنين وأعوام. ذلك لأن (الفتح الإسلامي) فتح أبديّ، مستقر في القلوب، لا تقوى فيه بشرية على انتزاعه، وهذه هي ميزته التي امتاز بها على كل فتح في التاريخ.

أما في العلم والثقافة؛ فقد كان (الفتح الإسلامي) أكبر حادث علمي، لأنه حمل إلى البلاد التي فتحها علم السماء والأرض، فحرر عقولها بالتوحيد، واعتقها من عبودية الأحجار والأشجار، واليزان والأخشاب، والقس والأشراف. ثم وضع في أيديهما القرآن الذي يأمر بالتفكر في خلق السموات والأرض، ويحفز إلى البحث والنظر والاستدلال، والسنّة التي ترغب في العلم وتدعو إليه، وتجعل طلبه فريضة على كل مسلم؛ وكان الفاتحون أنفسهم علماء، فما هي إلا أن فرغوا من الحروب حتى وضعوا السيف وحملوا القلم، وألقوا الدروع وأخذوا الكتب، وجلسوا في المساجد (والمساجد برلمانات المسلمين وجامعاتهم العلمية) يدرسون ويقرئون ويبحثون، فكان من تلاميذهم المفسرون والمحدّثون، والفقهاء، والأصوليون، والأدباء والنحويون، والقصاص المؤرخون، والفلاسفة والباحثون، والأطباء والفلكيون، أولئك الذين تصدّروا بعدُ للتدريس في جامعات الشرق، وجامعات الأندلس، فجلس بين أيديهم الباباوات، والملوك ملوك أوربا، وكانوا أساتذة العالم الحديث.

فكان من ثمرة الفتح أن هذه البلاد الأعجمية - التي كانت تئن في ظلام الجهل والظلم - لم تلبث أن ظهر منها علماء فحول، كان لهم الفضل على العقل البشري، ولا تزال أسماؤها خالدة، تضيء في جبين الدهر.

ومن لعمري ينسى البخاريّ والطبريّ والأصبهاني والهمذانيّ والشيرازيّ والسَّرخسي والمروزي والرازيّ والخوارزمي والنيسابوري والقزويني والدِّينوري والسّيرافي والجرجاني والنّسائي وغيرهم وغيرهم ممن لا يحصيهم عدّ؟ ألا يشعر كل مسلم بأن هؤلاء وأمثالهم هم علماء الملة وأعلامها؟ ألا نحلّ كتاب البخاري أسمى محل من نفوسنا، ونتخذه حجة بيننا وبين الله؟ ألا يؤلف هؤلاء العلماء صلة من أوثق الصلات بيننا وبين فارس لا يستطيع أن يفصم عراها مائة حكومة من مثل الحكومة الحاضرة، التي تستن في فارس سنة (هذا الآخر. . .) في تركيا.

هذا هو فضل الفتح علينا وعلى الأجيال الآتية - أما فضله على العقل البشري - فحسبك أن تعلم أنه لولا الفتح الإسلامي، ولولا علماء المسلمين وفلاسفتهم لم يكن عقل القرن العشرين.

أما في الحضارة والعمران؛ فللفتح الإسلامي أكبر الأثر في نشر الحضارة وتوطيد العمران، والعمران طبيعة في العربي المسلم، فلم يمض على فتح المسلمين بلاد العراق إلا سنوات حتى أسسوا مدينتين كبيرتين كان لهما الفضل والمنة على الحركة العلمية والأدبية في العالم كله. فضلاً عن أنهما كانتا قاعدتين حربيتين من أكبر القواعد الحربية؛ وما استقرت أقدامهم في البلاد حتى شرعوا في بناء المدن الكبيرة، والقصور العظيمة، وإنشاء أروع آثار البناء، حتى كانت بغداد وسرَّ من رأى، وكانت دمشق من قبل، والقاهرة ومدن الأندلس من بعد، أعجوبة في فن العمران، وها إن أثراً صغيراً من آثار العرب - ليس بأعظمها ولا أكبرها - لا يزال إلى اليوم محطّ ركاب الرحال من أهل العلم ورجال الأدب، ولا يزال مصدراً مالياً لحكومة من كبار حكومات أوربة تعيش إلى اليوم بفضل العرب، هي حكومة أسبانيا. ولقد حاول الإنكليز على قوتهم وغناهم - في هذا العصر الذي تيسرت فيه أسباب كل شيء - أن ينشئوا مثل (الحمراء) فأنشئوا قصراً في سيدنهام يعدّ من أعظم المباني العصرية وأجملها، ولا يزال دون الأصل بمراحل فكيف بمن بنى الأصل في ذلك العصر الغابر؟

وكيف لو بقيت (الزهراء) التي حيّرت رسل الإفرنج، أو بقى (التاج) في بغداد، أو (دار الشجرة) التي أدهشت وفود الروم؟

إنه ما من شك لدى المنصفين من المؤرخين، أنه لولا قيام الحضارة الإسلامية في

القرون الوسطى وازدهارها في الشرق حين كانت أمم الغرب في ظلمات بعضها فوق بعض، لم تقم الحضارة الحاضرة، ولم يتمتع البشر اليوم بثمراتها.

فالفتح الإسلامي إذن أعظم حادث في البطولة والفكر والعمران. وهو لغز غامض حيّر نابليون (نابغة العصر الحديث في فن الحرب) وحير المؤرخين كلهم. ذلك أن العرب على ما امتازوا به من الكرم والشجاعة والوفاء والعزة والإباء، كانوا في جاهليتهم بداة متفرقين، وجاهليين وثنيين، منقسمين على أنفسهم، مختلفين فيما بينهم، لا يعرفون إلا جامعة القبيلة، ووحدة العشيرة، فإذا فخروا فبها يفخرون، وإن دافعوا فعنها يدافعون. . إذا وجد العربي من القبيلة قافلةً من غير قبيلته، كان في حل من انتهاب مالها، وقتل رجالها، لا حكومة تنظم أمورهم، ولا دين يردعهم، إلا ديناً مضحكاً سخيفاً، دين من يتخذ رباً من التمر، فإذا جاع أكله، كما (أكلت حنيفة ربها. . .)، أو من ينحت من الصخر صنماً، ثم يعكف عليه عابداً داعياً، أو من يعبد الشجر والحجر. وكانوا يخشون كسرى، ويرهبون قيصر؛ وكان ملوكهم في الحيرة والشام تبعاً للفرس والروم وجنداً لهما، يضربون بعضهم ببعض، ليذهبوا هم بالغنم ويعود العرب بالغرم؛ وكان اتحاد قبيلتين اثنتين كبكر وتغلب في طاعة كليب، أو قيس والسَّكون في جيش قيس بن معدي كرب حادثاً عجيباً يكسب صاحبه فخر الأبد، وأمراً نادراً يلبث حديث الناس أياماً وليالي. . . فكيف يتحد العرب كلهم، عدنانيّهم وقحطانيّهم، ويسيرون في صف واحد، يقدمهم رجل واحد، حتى يواجهوا جيوش كسرى وقيصر التي يهابونها ويرهبونها، ثم يضربونها الضربة القاصمة للظهر، فإذا انجلى غبار المعركة نظرت فإذا المعجزة قد ظهرت على أتمها، وإذا الأرض قد بدلت غير الأرض، وإذا فارس الوثنية، وسورية النصرانية، ومصر الرومانية، قد محيت كلها محواً، وقامت مكانهم أمم إسلامية في فارس وسورية ومصر، كأنما هي لإخلاصها للعربية والإسلام لم تكن يوماً من الأيام على غير الإسلام؟

أكان هذا الانقلاب ما بين ليلة وضحاها. . . أكان هذا التبديل الذي تغلغل في صميم الأمة العربية فغير كل شيء فيها وأنشأها إنشاء جديداً لأن رجلاً قام في مكة، يتلو كتاباً جاء به؟ أيقوى رجل مهما كان شأنه على مثل هذا العمل ويكون له في تأريخ العالم ومستقبل البشرية هذا التأثير؟

هذا هو اللغز الذي حير المؤرخين من الغربيين، ولم يعرفوا له حلاًّ معقولاً!

على حين أن الأمر واضح والسبب ظاهر، ذلك أن هذا الأمر لم يكن عمل رجل عظيم من عظماء الناس، ولكنه عمل الله جلّت قدرته، أظهره على يد سيّد أنبيائه، وخاتم رسله، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

ذلك أن (الفتح الإسلامي) معجزة من معجزاته صلى الله عليه وسلم.

هذا وإن من الخطأ أن نعدّ الفتح الإسلامي، مثل ما نعرف من فتوح الأمم المختلفة في الأعصار المتباينة، لأن للفتح الإسلامي طبيعة خاصة به تجعله ممتازاً عن سائر الفتوح، وتنشئ له في التاريخ باباً خاصاً، ذلك أن كافة الفتوح إنما كانت الغاية منها ضمّ البلاد المفتوحة إلى أملاك الفاتحين، والانتفاع بخيراتها ومواردها، لا نعرف فتحاً يخرج عن هذا المبدأ إلا الفتح الإسلامي، فلم تكن الغاية منه ضمَّ البلدان إلى الوطن الإسلامي. وامتصاصا دماء أهلها وأموالهم، واستغلال مواردهم الطبيعية وخيراتها، ولكن غايته نشر الدين الإسلامي، والسعي لإعلاء كلمة الله، وإذاعة هدى القرآن في الأرض كلها؛ فكانوا كلما وطئوا أرضاً عرضوا على حكومتها وشعبها الإسلام، فأن قبلوا به واتبعوه ونطقوا بكلمة الشهادة انصرفوا عنهم وعدوهم إخوانهم لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، لا فرق بين أمير المؤمنين وآخر مسلم في أقصى الأرض؛ كلهم سواء في الحقوق والواجبات، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى. وإن لم يقبلوا بالإسلام عرضوا عليهم الجزية، وهي أقل بكثير مما كانوا يدفعونه إلى ملوكهم وأمرائهم، وسموهم ذميين لهم ذمّة المسلمين، وأعطوهم الحرية في أمور دينهم ودنياهم، وتعهدوا لهم بالأمن الداخلي والخارجي. وإن أبوا أن يعطوا الجزية حاربوهم. . . ثم لم يكرهوا أحد على الإسلام، لأن صحة الإسلام وفوائده في الدنيا والآخرة ما يغني في الدعوة إليه عن السيف. وما (دين محمد ودين السيف) كما يهتف العامة والجاهلون، ولكنه دين العقل والمنطق والعلم، والمسلمون عامة دعاة مرشدون،

ولكنهم دعاة أقوياء، يحملون القرآن بيد، والسيف بالأخرى، فمن قبل فما كانوا ليحاربوه، ومن أبى وحاربهم أدّبوه حتى يرجع إلى الحق، ويجنح إلى السلم.

ثم إن معاملة المسلمين للذميين، ووفائهم بعهودهم، وصدق وعودهم وكرمهم وتسامحهم الذي شهد به الأصدقاء والأعداء؛ وصار أشهر من أن يذكر ما يؤكد طبيعة (الفتح الإسلامي) ويرفعه عن أن يقاس به فتح آخر!
وهذه هي التواريخ فاستقروها واحكموا!
(بغداد)
علي الطنطاوي
كتاب أنساب الأشراف للبلاذري
للدكتور إسرائيل ولفنسون
أستاذ اللغات السياسية بدار العلوم
يعلم كل من تتبع حركة النشر والطبع في الأقطار الشرقية في العصر الحديث أن كثيراً من المصنفات العربية العظيمة الشأن إنما نشرت بوساطة العلماء المستشرقين؛ ومما لا شك فيه أن هذه العناية المفرطة إنما كانت من الأسباب المباشرة التي ساعدت على نمو النهضة العلمية في الديار العربية.
كلنا نعلم أن كتاب السيرة النبوية لمحمد بن أسحق من رواية عبد الملك بن هشام طبع للمرة الأولى سنة 1859 - 1860 بوساطة العالم ويستنفلد، وكذلك تولى العلامة دي غويه بمعونة علماء آخرين طبع كتاب تأريخ الأمم والسلوك لأبي جعفر محمد أبن جرير الطبري في ليدن من سنة 1876، وكذلك طبع نخبة من المستشرقين كتاب الطبقات الكبرى لأبن سعد من سنة 1905 - 1921.
وكذلك طبع كتاب (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون) لمصطفى بن عبد الله المشهور باسم حاجي خليفة من سنة 1835 - 1858 بمدينتي ليدن وليبسيك، وكان ذلك تحت إشراف العالم فليجل، وهو الذي تولى طبع كتاب فهرس أبن النديم من سنة 1870 - 1871.
وليس هذا المقام مقام إحصاء كل ما طبع العلماء من المستشرقون، وإنما سردت بعض الكتب القيمة العظيمة القدر التي لا نتصور حركاتنا العلمية ونهضتنا الأدبية دون الرجوع إلى هذه المصادر الهامة.
وهناك أمر آخر له خطره في أمر نشر المصنفات العربية بوساطة المستشرقين وهو أنهم أساتذة لنا، معشر الشرقيين، في إخراج المطبوعات على الطريقة العلمية المجدية، إذ هم ليسوا طابعين وناشرين فحسب كما اعتدنا أن نرى من الناشرين للمؤلفات عندنا، بل هم يميلون إلى المراجعة بعناية، والمقابلة بما ورد في الكتاب الذي أمامهم بالمصادر والمراجع الأخرى، ويذيلون مطبوعاتهم بحواش هي غاية في الدقة والخطورة في أغلب الأحوال.
وقد لاحظنا أن بعض الناشرين عندنا عمدوا إلى إعادة طبع ما طبعه المستشرقون في أوروبا، ولكن مع الأسف الشديد جاء عملهم ماسخاً لما عمله المستشرقون مشوهاً له؛ إذ كانت الطبعة الثانية غير مضبوطة، كثيرة الأغلاط، فاحشة الأخطاء.
على أن بعض الأفراد ممن تثقف في أوروبا، وممن أتصل بالحركة العلمية الأوروبية قد بدأ ينشر بعض المصنفات العربية على الطريقة المألوفة عند الأفرنج، وخصوصاً ما ظهر من الهمة والعزيمة في نشر الكتب تحت إشراف دار الكتب المصرية، فلا شك أن عمل دار الكتب يعد صفحة بيضاء جديدة في تأريخ نشر الكتب والعرفان في الشرق. على أننا نريد أن نقول لدار الكتب كلمة صريحة نؤجلها إلى فرصة أخرى إن شاء الله.
ذكرت ذلك بمناسبة تولي المعهد الشرقي بالجامعة العبرية بالقدس نشر كتاب أنساب الأشراف للبلاذري الذي ظهر منه في الآونة الأخيرة الجزء الخامس.
ذاع صيت أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري في العصور الأخيرة بوساطة كتابه الصغير فتوح البلدان الذي أقدم العالم دي غويه على طبعه سنة 1866 بمدينة ليدن. أما مصنفه العظيم المذكور في معجم ياقوت الحموي باسم أنساب الأشراف (معجم الأدباء ج2 - ص131) أو كما سماه ابن النديم بكتاب الأخبار والأنساب (فهرس ص 114) أو كما يقول الشريف المرتضى (الشافي ص260، 688) كتاب البلاذري، أو كما يشير أبن عساكر إلى البلاذري ويصفه بصاحب التأريخ (تأريخ دمشق ص131).
وهو الكتاب الذي ارتشف من منهله المتقدمون والمتأخرون ممن جاءوا بعد البلاذري

من كبار الأدباء والمؤرخين والجغرافيين مثل الشريف المرتضى الذي توفي سنة 436، وابن عساكر الذي توفي سنة 571، وياقوت الحموي الرومي الذي توفي سنة 626، والنويري الذي توفي سنة 632، وأبن خلكان الذي توفي سنة 681، وأبن حجر الغسقلاني الذي توفي سنة 852، وأبن تغرى بردى الذي توفي سنة 874. أما هذا الكتاب فقد توارى عن العيون في العصور الأخيرة ومر عليه العلماء مر الكرام حتى أصبح نسياً منسياً إلى أن جاء العالم أهلوارت في سنة 1883 وأخرج جزءاً منه كان يشك في بعض العلماء في صحة نسبه إلى البلاذري. ثم حدث أن أعلن الأستاذ بيكر في مؤتمر المستشرقين الثالث عشر أنه عثر على نسخة كاملة من كتاب أنساب الأشراف في الآستانة ولم يحفظ الدهر لهذا الكتاب نسخة كاملة غيرها؛ وكان قد عقد النية على نشر الكتاب ولكن كبر حجمه من ناحية

ومشاغل الأستاذ بيكر من ناحية أخرى عاقته عن المضي في تحقيق هذا المشروع إلى أن أقترح عليه الأستاذ جوتهلد الذي كان مديراً للقسم الشرقي من مكتبة برلين الكبرى على العلامة بيكر أن يعرض مشروع طبع أنساب الأشراف على هيئة تدريس اللغة العربية في الجامعة العبرية بالقدس ففعل.

أما المخطوط من هذا الكتاب فيشتمل على 1228 صفحة، وهو أكبر حجما من الطبقات الكبرى لأبن سعد أو أقل قليلاً من كتاب التأريخ لأبن جرير الطبري؛ وهو بحث مفصل في أنساب العرب يبدأ دراسته بالتأريخ القديم من عهد نوح وذريته إلى سيدنا إبراهيم خليل الله وأعياصه، ثم ينتقل إلى قريش وبني هاشم ويبحث في أصلهم وفصله من ثم يقص سيرة الرسول وأخبار علي بن أبي طالب وما جرى في عهد الخلفاء الراشدين، ويفصل تفصيلاً كثيراً مطولاً تأريخ بني أمية حتى تشتمل أخبارهم على ثلث الكتاب بأجمعه. ومع أنه كان من الموالين لبني العباس وكان يشغل منصباً رفيعاً عند خلفائهم فان ما ورد بشأنهم من الحوادث والأخبار لا يتجاوز سبعين صفحة من المخطوط الكبير.

وكذلك يوجه عناية شديدة إلى قبائل مضر الآخرين فيتعرض لأنساب كنانة وأسد وهذيل وعبد مناة ومزينة وتميم وقيس وذبيان وفزارة وعبس وهوازن وسليم وثقيف.

ولم يذكر قبائل ربيعة واليمن لأن المنية عاجلته عن إتمام كتابه إذ لقي حتفه في أوائل عهد الخليفة المعتضد سنة 279 (كشف الظنون جـ1 ص 274).

ومع أن هناك مصنفات في أنساب العرب قبل البلاذري إذ كان محمد بن هشام الكلبي الذي توفي سنة 204 قد وضع كتابه جمهرة الأنساب والهيثم بن عدي ألّف مصنفاً في تأريخ الأشراف وهو ممن توفي في أوائل القرن الثالث فان كتاب أنساب الأشراف للبلاذري يعد من الذروة مما وصل إليه الأدب التاريخي عند العرب في الأنساب.

والبلاذري لم يكتف بجمع الأخبار من مصنفات من سبقه بل جمع كثيراً من الأخبار من المسجلات الرسمية التي كانت في خزائن الدولة؛ وهو على ميله إلى العباسيين لا يظلم بني أمية بل يقص عنهم أخباراً كثيرة تدل على أن حنكة المؤرخ الذي يتغلب على شعوره ويتجرد عن أهوائه، وذلك أمر لا بد للمؤرخ المنصف منه.

والكتاب الذي طبع الآن ليس الجزء الأول بل الخامس منه، إذ وزعت صفحات المخطوط

على جملة من العلماء لم يتمكنوا إلى الآن من إتمام العمل الذي كلفوا أن يقوموا به.

وكان الجزء الخامس قد وكل أمر العناية به إلى الأستاذ س. د. جويتاين وهو الآن في العقد الرابع من العمر تخرج من جامعة فرنكفورت بألمانيا وكان من خيرة تلاميذ الأستاذ المرحوم يوسف هورفيتس واختاره للتدريس بالجامعة العبرية بالقدس.

وقد بذل الأستاذ جوبتاين جهده مدة سنين كثيرة في مراجعة صفحات المخطوط وأخرجه بعد عناء ومشقة على النسق المألوف عند كبار المؤلفين من المستشرقين مع مقدمة علمية بحث فيها الناشر في أصل تسمية الكتاب وما يحتوي عليه مع مقارنة بين من سبقه وبين من أتى بعده من المؤرخين وبيّن ما أخذه ممن كان قبله ومن أخذ عنه ممن جاء بعده.

ومما يؤسف له أن هذه المقدمة النفيسة قد وضعت بالعبرية من ناحية، وبالترجمة الإنجليزية من ناحية أخرى، وقد أكتفي الناشر بكلمة موجزة بالعربية. كان من الواجب أن يصدر بالمقدمة العربية قبل كل شيء، لأن الكتاب عربي موجه إلى الناطقين

بالضاد قبل غيرهم، وإذا كان جمهرة من العلماء الإفرنج يدرسون كتاب أنساب الأشراف فهم يستطيعون أن يدرسوا المقدمة بالعربية أيضاً.
وكذلك أقول عن الذيل الذي وضع بالإنجليزية كأن الكتاب إنما كان موجهاً إلى الغربيين لا للأندية المثقفة من أبناء الشرق أيضاً.
وإني أوجه أنظار الأساتذة العاملين على إخراج بقية أجزاء الكتاب ألا يتورطوا فيما تورط الأستاذ جويتاين من مسألة المقدمة والذيل التي أغفل فيهما العربية إغفالاً يكاد يكون تاماً
والذي نتمناه من صميم الفؤاد أن يبادر بقية العلماء القائمين بمراجعة الكتاب بإخراج الأجزاء الأخرى حتى يستفيد العالم العربي عاجلاً من كتاب أنساب الأشراف الذي يعد بحق من أمهات المصادر لكل من يبحث في عصر ظهور الإسلام وفجره وضحاه
إسرائيل ولفنسون (أبو ذؤيب)
تاريخ العرب الأدبي - 8
للأستاذ رينولد نيكلسون
ترجمة حسن محمد حبشي
الفصل الأول
وقد استمر إرياط يتوغل في اليمن بعد موت ذي نواس الحميري (فقتل ثلث رجالها وخرب ثلث بلادها، وبعث إلى النجاشي بثلث سباياها، ثم أقام بها فضبطها وأذلها، ثم نازعه في أمر الحبشة باليمن أبرهة الحبش، وكان في جنده حتى تفرقت الحبشة عليهما، فأنحاز إلى كل واحد منهما طائفة منهم؛ ثم سار أحدهما إلى الآخر، فلما تقارب الناس ودنا بعضهم من بعض أرسل أبرهة إلى إرياط (إنك لن تصنع بأن تلقي الحبشة بعضها ببعض حتى تفنيها شيئاً، فابرز لي وأبرز لك، فأينا أصاب صاحبه انصرف إليه جنده) فقيل أبرهة، وكان رجلاً قصيراً لحيماً حادراً وكان ذا دين في النصرانية؛ وخرج إليه إرياط وكان رجلاً عظيماً طويلاً وسيماً، فرفع إرياط الحربة فضرب بها على رأس أبرهة يريد يفوخه، فوقعت على جبهة أبرهة فشرمت حاجبيه وعينه وأنفه وشفته، فسمى أبرهة الأشرم، وحمل غلام أبرهة عتورة على إرياط فقتله، فملك أبرهة، ثم كتب إلى النجاشي: (أيها الملك إنما كان إرياط عبدك وأنا عبدك فاختلفنا في أمرك، وكلٌّ طاعته لك، إلا أني كنت أقوى منه على أمر الحبشة وأضبط لها وأسوس، وقد حلقت رأسي كله حين بلغني قسم الملك وبعثت إليه بجراب من تراب أرض اليمن ليضعه تحت قدميه فيبر قسمه) فثبته النجاشي. ثم إن أبرهة بنى (العكيس) بصنعاء لم ير مثلها في زمانها، ثم كتب إلى النجاشي: (إني قد بنيت لك كنيسة ولست بمنته حتى أصرف إليها حاجّ العرب) فلاكت الألسن ذلك فقام رجل من بني فقيم: فخرج إلى العكيس فقعد فيها، ثم خرج فلحق بأرضه فأخبر بذلك أبرهة فحلف ليسيرن إلى البيت فيهدمه. ولكن الفشل الذريع الذي منيت به هذه الحملة التي وقعت عام الفيل (سنة 570م) لم يحرر بلاد اليمن في الحال من نير الأحباش، إذ أن ولدي أبرهة يكسوم ومسروق كانا عبئاً ثقيلاً على العرب ضجوا منه. وقام في ذلك الحين أحد أشراف حمير واسمه (سيف بن ذي يزن) مستحثاً الهمم، ولكن ضاعت دعوته إياهم أدراج الرياح.
ولما لم ير مساعدة من قومه وجه وجهه شطر الاستعانة بغوث أجنبي، وتردّد بين قيصر الروم وكسرى فارس، فمضى أولاً إلى القسطنطينية فردّه القيصر خائباً، فطلب من والي الحيرة العربي الذي كان خاضعاً لفارس أن يقدّمه إلى بلاط المدائن؛ ولكن كيف استطاع أن يكسب عطف الملك الساساني أنو شروان الملقب بالعادل حتى أرسل معه ثمانمائة مقاتل من نزيلي السجون ممن أطلق سراحهم؟ وكيف أبحروا معه إلى اليمن وعلى رأسهم قائد طاعن في السن؟ وكيف أحرقوا مراكبهم واستمدوا من اليأس قوّة، وكيف هزموا الأحباش هزيمة منكرة وطردوهم واستردوا اليمن وجعلوها ولاية فارسية. . . كل هذا يسوقنا إلى سرد قصة آثرت تخطيها وإغفالها في مثل هذا المجال، لأنها تتصل بتاريخ الفرس أكثر من اتصالها بتاريخ الأدب العربي، تلك الأمور التي قامت - كما رجّح نلدكه - على أخبار لقنها الغزاة الفرس الذين استوطنوا اليمن لأبنائهم الأشراف، الذين يسميهم العرب الأبناء أو بني الأحرار.
وإنا لنترك الآن مملكة اليمن وقد تهاوت دعائم قوتها ودالت دولتها وسقطت من علياء مكانتها إلى الأبد، ونعود من ناحية الشمال في دراسة التاريخ العربي:

الفصل الثاني
تأريخ العرب الوثنيين وأساطيرهم
يسمى المسلمون الفترة الواقعة منذ فجر التاريخ العربي حتى ظهور الإسلام بالجاهلية، وقد ورد هذا اللفظ في أربع فقرات في القرآن، ويقصد به عادة (الجهل)، وإن كان جولدزيهر قد أوضح أن المدلول الذاتي لكلمة (جهل) (الذي اشتقت منه الجاهلية) عند شعراء ما قبل الإسلام لا يقصد به (عدم المعرفة) أو (الوحشية) و (الهمجية)، وليس المعنى المضاد لكلمة (علم)، ولكنه عكس معنى حلم المعبّر عن التهذيب الأدبي عند الرجل المثقف. (وحينما يقول المسلمون إن الإسلام قضى على طبائع وعادات الجاهلية فانهم يقصدون بذلك العادات المستقبحة، وهذا الخلق الهمجي الذي تفترق به الوثنية عن الإسلام، وبالمستهجن من الطباع التي جدّ محمد (ص) في استئصالها من نفوس قومه: كحمية الجاهلية، والعصبية القبلية، والجد في طلب الثأر، والحقد، وغير هذا من طبائع الوثنية المستهجنة التي قضى
(عليها الإسلام
وإن المصادر التي نستمد منها صورة حياة هذه الفترة لتندرج تحت أربعة أبواب كما يلي:
(1) القصائد والمقطعات الشعرية التي وإن لم تكن قد دونت في ذلك الحين إلا أنها ظلت محفوظة بالرواية الشفهية، ثم كتب معظمها بعد ذلك بقرنين أو ثلاثة قرون، وهي في الحقيقة الأثر الوحيد الذي بين أيدينا عن تأريخ العصر السابق للإسلام، وتتضح أهميتها من القول المأثور (إن الشعر ديوان العرب وجامع شتات المحاسن التي سلفت لهم) وسيرى القارئ في الفصل التالي بعضاً من الشعر العربي في تلك الفترة
(2) الأمثال وهذه أقل قيمة من الشعر، إذ قلما تفسر نفسها بينما يكون الشرح المرفق بها من عمل الأدباء الذين يدأبون على تفسيرها، ولو أنه في حالات عدة يؤتى بمعانيها ومقصودها على سبيل الحدس، كما نسيت الظروف التي بعثتهم على إرسالها، وبالرغم من هذا فقد كنا نخسر شيئاً جسيماً لو لم تكن بين أيدينا المجاميع الشهيرة للمفضل بن سلمة (المتوفى حوالي 900 م) والميداني (1124م) التي تضمنت إشارات عجيبة وأخباراً تلقي بصيصاً من النور على كل جوانب الحياة التي سبقت ظهور الإسلام.
(3) الأخبار والأقاصيص: لما لم يكن للعرب الوثنيين - على العموم - معرفة بفن الكتابة الخطية واستعمالها فقد كان من المستحيل أن تقوم للنثر - باعتباره فناً أدبياً - قائمة فيهم، ومع ذلك فان بذور النثر الأدبي يمكن إرجاعها إلى عصر الجاهلية، وعدا المثل والخطبة نجد عناصر التاريخ والقصة في القصص النثري الذي كان يقدمه الحفاظ والرواة لتوضيح موضوع أغانيهم، وفي القصص التي تعدّد مآثر القبائل وأبنائها. وإن العدد الوفير من هذه القصص (التي يرجع بعضها إلى أصل حقيقي والآخر يحمل طابع الخرافة) لمثبوت في ثنايا المؤلفات الأدبية والتاريخية والجغرافية التي وضعت أيام الدولة العباسية وخاصة في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (967م) وهو مجموعة ثمينة قامت على دراسة الشخصيات الأدبية الكبيرة في القرنين الثاني والثالث للهجرة. وقد ضاعت الكتابات الأولى لهؤلاء الأدباء والنقاد دون استثناء، ولولا اقتباسات الأغاني الكثيرة لما كان في متناول أيدينا نماذج من آثارهم. ويقول أبن خلدون عن هذا السفر: (إن أبا الفرج جمع فيه أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم وأيامهم ودولهم، وجعل مبناه على الغناء في المائة صوت التي
اختارها المغنون للرشيد، فاستوعب فيه ذلك أتم استيعاب وأوفاه، ولا يعدل به كتاب في ذلك فيما نعلم وهو الغاية التي يسمو إليها الأديب ويقف عندها.
ولن أحاول في الصفحات التالية أن أضع في ترتيب واتصال هذه الأشعار والقصص المضطربة التي رسخت في الأذهان واندس بين ثناياها جميع ما نعرفه عن بلاد العرب في العصر السابق للإسلام؛ إذ أنجز هذا خير إنجاز وفي دقة عجيبة كوزان دي برسيفال في كتابه ' ' وليس هناك ثمة جدوى مطلقاً من أن أسوق للقارئ موجزاً مقتضباً لهذا العمل القيم، والأجدى - كما يتراءى - أن أسوق للقارئ بضع ظواهر واضحة بينة تمثل هذه الفترة كما وضعها العرب أنفسهم. وإذا كانت الأحاديث العربية يعوزها الدقة التاريخية فإنها في مجموعها تكشف القناع عن الروح السائدة في العصر المظلم الذي

تستحضره في غياهب الزمن السحيق وتبرزه أمامنا.

وفي حوالي منتصف القرن الثالث المسيحي كانت تتاخم بلاد العرب من الشمال والشمال الشرقي إمبراطوريتان تتنافسان في الزعامة هما دولة الروم ودولة الفرس اللتان تفصلهما صحراء الشام عن بعض؛ ولما رأى الفرس أنهم عرضة لغزوات البدو الذين كانوا يشنون الغارات بين حين وآخر على الحدود، ويستولون على ما يصل أيديهم من الغنائم، ثم يختفون بنفس السرعة التي اتسمت بها اغاراتهم، لما رأوا ذلك وجدوا الضرورة تدعوهم إلى إيجاد حامية على طول حدود هذه الصحراء، وبهذا أمكن صد غزوات القبائل البدوية وغاراتها، ولكن تبيّن أن القوة علاج غير ناجح تماماً، فضلاً عما تكلفه الدولة، وعملاً بالمثل القائل: (فرّق تسد فقد ارتُؤي إدخال بعض القبائل المغيرة في خدمة الإمبراطورية. ومما أدّى إلى عدم قيام البدو بأي اضطراب دفع شيء من المال لهم بانتظام، واستعدادهم على الدوام للغزو الفجائي إذ كان الروم والفرس في هذه الأيام في حروب لا يخمد أوارها ولا يخبو ضرامها، ومن ثم فقد حاربوا كمحالفين أحراراً تحت لواء أمرائهم أو شيوخهم. وبهذه الوسيلة ظهرت أسرتان عربيتان هما دولة الغساسنة في سورية واللخميين في الحيرة غرب الفرات، وكانتا في نزاع دائم واصطدام ونزال، حتى ولو لم تكن تدفعهما من الخلف قوة الإمبراطوريتين، وسرعان ما ظهرت كفاية العرب الحربية ومهارتهم حينما درّبوا على الأسلحة. وفي أثناء حرب فاليران مع كسرى سابور الأول

خرج شيخ عشيرة عربي في (تدمر) ويدعى أذينة وسار على رأس قوة كبيرة ضد المغير ونازله وفرّق شمله وطرده من سورية واقتفى آثاره حتى رده إلى أبواب المدائن عاصمة فارس سنة 265م ولقد قدر الإمبراطور جاليانوس صنيعه الباهر فأنعم عليه بلقب العظيم)، ولقد كان في الحقيقة السيد المطاع في الكتائب الرومانية في الشرق، ولكنه قتل غيلة في العام التالي وكان في زوجته زينوبيا (الزباء) خير خاف، فأخذت على عاتقها تشييد إمبراطورية شرقية ضخمة، ولم يكن نجاحها أعظم من نجاح كليوباترا في مثل هذه المحاولة، ولكن حدث ما ليس في حسبانها إذ أنتصر أرليان واقتيدت (ملكة الشرق) المتكبرة أسيرة أمام عربته في شوارع رومة عام 274م

(يتبع)

حسن محمد حبشي

مرثية توماس جراي

نشر الأستاذ علي الطنطاوي في (الرسالة) عدد 178 بتاريخ 30 نوفمبر سنة 1932 ترجمة لمرثية جراي الشاعر الإنجليزي الشهير نقلاً عن قراءة صديقه الأستاذ حيدر الركاني، والأستاذ الطنطاوي أديب فنان لا يشق له غبار في كل ما يكتب، ومن الأفذاذ الذين رفعوا رأس الأدب العربي الحديث عالياً، ومن الملهمين الذين أراد الله لهم ولأدبهم الخلود ليؤدوا رسالة الأديب الفنان للمجتمع الذي يعيش فيه. ومما لا شك فيه أن الأستاذ الطنطاوي يؤلمه أن يقوم إنسان فيغير على آثاره الأدبية يترجمها ويقول على لسانه شيئاً لم يقله، أو يشوه أفكاراً وتعابير خالدة في فنه. ومما لا شك فيه أيضاً أن المترجم يحمل أمانة في عنقه لمن يترجم عنه، وعليه أن يؤديها غير منقوصة، وألا ينقل إلا الواقع وإلا ما أراده ذلك المترجم عنه. وعندي أن الأستاذ لو ترجم المرثية عن أصلها لبان له من روحه الفنانة وإخلاصه ما يجعل ترجمته في دقتها تقف في صف واحد مع ترجمة جرالد للرباعيات الخيامية المشهورة. ولو كانت صفحات الرسالة تتسع لأكثر من هذا المقدار لقدمت أمثلة على عدم دقة النقل؛ والذي يراجع الأصل لا يجد صعوبة في اكتشاف ذلك وهو كثير. على أن الواقع يدفعني إلى تقديم الشكر للأستاذ الطنطاوي على الإجادة التي لا تجارى في ترجمته التي كادت أن تقرب من الكمال. وإنا لنرجو أن يتبارى الشعراء في نقل هذه القطعة الخالدة إلى الأدب العربي شعراً بالرجوع إلى الأصل مع الاستعانة بترجمة الأستاذ المذكورة.

وزيادة لفائدة القراء رأيت أن أذكر مختصراً لحياة الشاعر توماس جراي وعن الظروف التي رافقت نظم تلك المرثية.

توماس جراي

ولد في السادس والعشرين من ديسمبر 1716 في كورن هل حيث كانت والدته وشقيقها يتجران بقبعات السيدات، وكان والده فيليب جراي كاتب عقود رسمية، وكان

هو الوحيد الذي عاش من أسرة عدد أفرادها اثنا عشر شخصاً.
وفي سنة 1727 التحق بكلية إيتون حيث كان عمه مدرساً مساعداً في تلك الكلية، وهناك نشأت صداقته المتينة مع ريتشارد وست، وهراس ولبول، وتوماس اشتون.
وترك كمبردج في السنة التالية دون أن ينال إجازة علمية؛ ورحل في عام 1729 إلى القارة مع صديقه الحميم هراس ولبول في رحلة استغرقت ما يقرب من التسعة أشهر، وعاد بعدها إلى لندن. وفي سنة 1741 توفي والده فانتقلت والدته وشقيقتها إلى المعيشة مع أخت ثالثة اسمها ماري في مقاطعة بكنجهام شير وهناك نظم أول قصيدة عنوانها اجربينا وفي عام 1742 مات صديقه ريتشارد وست، فرثاه رثاء مؤثراً.
وفي هذه السنة عاد إلى كمبردج وبقى مدة سنتين حصل في نهايتهما على درجة بكلوريوس في الحقوق.
وبعد ذلك بخمس سنوات توفيت خالته ماري وأحرق منزله في كورن هل.
وفي عام 1750 أكمل مرثيته التي نحن بصددها، وبعد ذلك بثلاث سنوات توفيت والدته. وفي سنة 1757 عرض عليه أن يكون شاعر العرش البريطاني الذي خلا بموت كولي سيبر فرفض ذلك. وبعد ذلك بخمس سنوات عرض نفسه ليكون مدرساً للتاريخ بدلاً من الدكتور ترنر المتوفى في تلك السنة، ولكن اللورد بيوت حال بينه وبين هذه الأمنية التي نالها بعد ثماني سنوات.
وفي سنة 1765 زار اسكتلندا وهنا عرضت عليه جامعة أبردين أن تمنحه لقب دكتور في الحقوق فرفض ذلك مستنداً إلى أن دراسته في كمبردج لا تؤهله لقبول مثل هذا اللقب. وبعد ذلك بأربع سنوات نظم نشيده المشهور الذي مثل عند تولية دوق جرافتون رئاسة الجامعة التي كان يدرس فيها التاريخ الحديث، وزار في تلك السنة منطقة البحيرات.
وفي سنة 1771 توفى فجأة بينما كان يتناول طعام الغداء، إلى جانب والدته في ساحة الكنيسة في في مقاطعة بكنجهام شير.
هذا مختصر لحياة هذا الشاعر. وفيما يلي وصف لظروف المرثية:
ابتدأ في نظم هذه المرثية في عام 1742 ولكن القسم الأعظم منها كتبه بين السنوات 1746 - 1750، وقد أتمها في اليوم الثاني عشر من شهر يونيه سنة 1750، وفي العاشر من فبراير أرسل إليه رئيس تحرير مجلة المجلات الإنجليزية يستأذنه في نشرها في مجلته فرفض طلبه. وعند ذلك أسرع وطلب إلى صديقه هراس ولبول أن ينشرها على الناس دون إمضاء. وفي السادس عشر من نفس الشهر طبعت في كراسة بعنوان (مرثية
كتبت في ساحة كنيسة قرية) مع المقدمة التالية من ولبول: (لقد وقعت القصيدة التالية في يدي مصادفة، إذ جاز أن يدعي انتشار هذه القطعة وذيوعها بين الناس عرضاً. إن الاستحسان الذي صادفته هذه القصيدة سيجعل اعتذاري لمؤلفها في غير محله، لأنه ولا شك يشعر باغتباط شديد لإعجاب الناس وسرورهم بها فيما مضى. ومما لا شك فيه أيضاً أنه سيغفر لي جرأتي على النشر، لأشاركه تقديم المسرات لعدد آخر غير قليل).
وهناك ثلاث نسخ بخط الشاعر جراي نفسه محفوظة حتى اليوم. فالأولى كانت سابقاً ملكاً للسير وهي الآن في كلية ايتون، ومن المحتمل أن تكون النسخة الأصلية. والثانية تخص ورتون وهي موجودة في المتحف البريطاني تحت الرقم (2400). والثالثة في كلية بيمبروك وفي آخر هذه النسخة كتب جراي بخطه أيضاً ما يأتي: (نشرت في فبراير سنة 1751 بواسطة دوزلي وأعيد طبعها أربع مرات شهرين، وبعد ذلك طبعت الطبعة الخامسة حتى الحادية عشرة. وأعيد طبعها في 1753 بواسطة مستر بنتلي ثم ترجمت إلى اللاتينية وطبعت في عام 1762).
(نابلس)
ف. . . . .

الثقافة والإنتاج العلمي في فلسطين

للأستاذ قدري حافظ طوقان

لا يختلف اثنان في أن الوضع الحاضر في فلسطين شاذ وغير طبيعي وهو غيره في الأقطار الشقيقة المجاورة، فالكل يقاسي آلاماً مبرحة من الاستعمار والمستعمرين،

والكل واقع تحت نير الاستعباد والعبودية؛ ولست واجداً أحداً يرضى عن السياسة المتبعة في بلاده وعما يجري حوله، إلا أن هناك فرقاً بين فلسطين وغيرها من البلاد المجاورة، ففي هذه جبروت واحد وطاغية واحد، وهنا جبروتان وطاغيتان قد تسلحا بالخبث والمكر والقوة والدهاء، وعلى هذا فالمصيبة هنا أعظم والبلاء هنا أعم والخطر محقق والفناء يتهدد.

ومن الطبيعي أن بلاداً هذه حالها لا تكون صالحة للإنتاج العلمي ولا لازدهار الثقافة والأدب بالمعنى الواسع. ومن الطبيعي أن تؤثر هذه الأوضاع على الشباب المثقف وعلى الأدباء والعلماء فتأخذ قسماً من أوقاتهم ومجهوداتهم وتفكيرهم يصرفونها في مبادئ السياسة لدرء الأخطار المحدقة، ولتخفيف المصائب علينا انصباباً من كل جانب. وكيف يمكن لثقافة أن تنمو، ولقريحة أن تنتج وتبتدع إذا لم تكن تلك القريحة في جو من الحرية، وفي محيط خال من القيود والغلال ليس فيه من يسخرك لمنافعه ومصالحه، وليس فيه من يسعى للقضاء على معنوياتك، وعلى قتل الطموح فيك؟ وكيف يمكن لشاب أن يعكف على العلم بقصد الاستزادة والاكتشاف والبحث والاستقصاء إذا لم يكن هناك من يساعده ويشجعه ويأخذ بيده؟ فكيف به إذا وجد في محيطه كله تثبيط للهمم، وكله إحباط للعزائم؟ وإذا تتبعنا الطرق التي تسير عليها الحكومات المستعمرة في مختلف دوائرها، ولا سيما المعارف منها نجد أنها ترمي إلى القضاء على روح الطموح، على روح البحث وحب الاستزادة من العلوم والفنون؛ ترمي إلى خلق روح الاعتماد في الناشئة على الغير، إلى إماتة روح الوطنية، وبث روح الاستهتار بالتراث العربي والإسلامي وانتقاصهما بشتى الوسائل، وفوق ذلك نجدهم (المستعمرين) يشغلون أوقات الناس والموظفين في أمور ليس فيها متاع، وليس فيها ما يعود على البلاد بخير أو انتفاع. فمن الطبيعي إذن - هنا وفي البلاد المرزوءة بالاستعمار - أن الحكومات فيها لا تشجع العلم ولا تحث على متابعته، ولا على إيجاد رغبة صادقة في التأليف والبحث على الرغم من حاجة الأمة إلى كل ذلك. وإذن فلا محال لغرابة الكثيرين في موقف الحكومة تجاه المؤلفين وتجاه الذين يلاحقون فروعهم في العلم والفن، بل الغرابة كل الغرابة في حسن ظن هؤلاء الكثيرين بالحكومات المنتدبة والاعتماد عليها في تشجيع الناس في التنوير والتقدم وقد جهلوا أو تناسوا أن هذه الحكومات تسير على برنامج استعماري خاص من شأنه أن يقضي على كل ما من شأنه رفع مستوى الأمة ورقيها. لهذا وجب على العلماء العرب أن يلتفتوا إلى هذه الناحية، وأن يعيروها بعض اهتمامهم، وأن يعتمدوا على أنفسهم قبل كل شيء، وأن يأخذوا من موقف الحكومات قوى تحفزهم إلى توسيع الحركة الثقافية في فلسطين وغيرها، ونشر روح البحث والاستقصاء بين المثقفين، ويقضي الواجب الوطني على الشباب العامل والأساتذة أن ينحوا في تعليم الناشئة وتثقيفها ناحية قومية وطنية، وقد يجدون في هذا صعوبة، وقد يصادفون أمامهم عقبات، ولكن عليهم أن يجاهدوا ويصرفوا بعضاً من مجهوداتهم في التغلب على ذلك، وفي توجيه التعليم والثقافة توجيهاً يخلق في النشء روح الاعتزاز بالقومية وروح الاعتقاد بالقابلية، يخلق في الناشئ شخصية قوية وكياناً مستقلاً ورجولة مستعدة لتلبية نداء الوطن قادرة على المساهمة في خدمة الحضارة. ويقضي الواجب الوطني على الباحثين أن ينحوا ببحوثهم الناحية القومية، وأن يبينوا للناشئة فضل العرب الكبير على المدينة، وقد تبوءوا مركزاً سامياً لم يتبوأه غيرهم أيام كانوا سائرين على النهج القديم الذي وضعه الرسول وصحبه وخلفاؤه، أيام كان الاهتمام باللباب دون القشور؛ بهذا وحده يمكن أن تنشئ الأمة شباباً مؤمنين عاملين على رفع مستوى البلاد، شباباً مثقفين ثقافة قومية وطنية يعرفون كيف يخدمون الوطن. وهذا هو أقوى سلاح يمكن أن تمد به الأمة الناهضة ليساعدها على خوض غمار هذه الحياة عالية الرأس موفورة الكرامة، وعلى نيل ما تبغي من عز وسؤدد.

وقد يسر القراء الكرام أن يعلموا أن هناك مساعي جدية للشروع في أعمال مشتركة تقوم بها جماعات مثقفة تأخذ على عاتقها الأشغال في ناحية خدمة الأمة عن طريق بعث الثقافة والتعليم القومي، عن طريق بعث الثقافة العربية والإسلامية، عن طريق تشجيع ذوي العقول النيرة والقرائح الخصبة في توجيه بحوثهم ونتاجهم في العلم

والفن إلى ناحية قومية وطنية. وقد قام جماعة في نابلس من الشباب المثقف بإنشاء ناد ثقافي أطلقوا عليه أسم
غايته هي: (إيجاد روابط وصلات بين المتعلمين، والعمل على تأليف (النادي الثقافي) قلوبهم وتوحيد جهودهم العلمية والأدبية وتوجيهها توجيهاً قومياً، ورفع مستوى البلد الثقافي والأدبي بطرق مختلفة عملية أهمها المحاضرات والحلقات العلمية وإيجاد مكتبة حافلة بالكتب القيمة. .) وسيجد الناس في هذا النادي وطنية عملية ستعود على البلاد بفوائد جليلة. وكذلك هناك جماعات في نابلس والقدس ويافا وحيفا وبقية البلاد تفكر في مشروع إنشاء لجنة ترجمة وتأليف ونشر على غرار لجنة مصر. والذي نرجوه أن توفق هذه الجماعات في مشاريعها الثقافية، وأن تأخذ بيد الأمة إلى حيث التقدم والمجد ومعارج القوة والعظمة.
(نابلس)
قدري حافظ طوقان
كبرياء الألم
وراحة النفس في الشكوى ولذتها ... لو أمكنت، لا تساوي ذلة الشاكي
(أسامة بن منقذ)
للأستاذ أمجد الطرابلسي
أتظلُّ تخفق في الأضالع واهياً ... يا قلب حسبك! لن تراني شاكيا
يا ذلة الباكي! إذا أعداؤُه ... شمتوا به، والخِل أصبح راثيا
يا ذلة الباكي! لجرحي لاهباً ... أرضى لنفسيَ يا خفوق ونارِيا
أكتم لهيبك ما تقسمك الأسى ... لا يرخصن بكاك جرحاً غالِيا
واشمخ بأنفك في الخطوب ولا يكن ... غلف القلوب أشد منك تعاليا
ولْتكرم الألم المخلّد، ولتكن ... بلظى تكتمه الضلوع مباهيا
فالكون تضحكه الدموع إذا جرت! ... أتظل تضحك ذا الزمانَ اللاهيا؟
والمجد للألم الدفين على المدى ... لا للذي يؤذي المسامع باكيا
والوجد أنبله كمينٌ صامت ... وأجله ما كان جُرحاً خافيا
كنز من الإلهام لا تلقى له ... بين الكنوز مشابهاً ومساوياً
يهب الجلال لمن يطيق صيانه ... والعبقرية والثناء الباقيا
يا أصدقائي النائحين تجملوا! ... لا تصبحوا بين الأنام ألاهيا
تبّاً لقلب لم يذق مجد الأسى ... وبِلىً لقلب لا يملّ تشاكيا
أغلوا الجراح فلن تروا مثل الجوى ... للعبقرية مُنضجاً ومواتيا
إِن القريض أعز مجداً من فتى ... يمسي ويُصبح ضارعاً متباكيا
لا يستحق الخلد شِعر ناحب ... تتقاطر العبرات منه جواريا
يا أيها الشاكي! إلى من تشتكي؟ ... أفأنت مُلْفٍ في الأنام مواسيا؟
وإذا لقيت فإِن في إشفاقه=ورثائه ذلاًّ لنفسك كافيا
أم الطبيعة ما تبث وأذنها ... موقورة ما إن تجيب مناديا
تشكو فتعتنق الطيور على الرُّبى ... بين الغصون ضواحكاً ولواهيا
وتنوح الأزهار وتضحك خلسة ... والجدول المِطرب يسخر جاريا
هل أسكنت يوماً لشاكي علة ... طيراً على عرش الأزاهر شاديا
أو حطمت أغصانها لفجيعة ... أو مزقت حُللاً ترف زواهيا
أوَلم تجيء هذي الطبيعة مرة ... ولهان تفتقد الحبيب النائيا
كم جئتماها قبلُ كنف الهوى ... وقضيتما فيها ضحى وأماسيا
الزهر حولكما يرفُّ مهنئاً ... والطير فوقكما تحوم شواديا
والغصن مخمور يصفق ناثراً ... قُبَلاً على عطفيكما ولآليا
أودعتماها الذكريات حبيبة ... تحكي أزاهرها اللطافُ، غواليا
وكتبتما فوق الجذوع مواثقاً ... ونقشتما فوق الصخور أساميا
واليوم. . .! تأتيها وحيداً شارداً ... ترجو بمغناها لجرحك آسيا
فانظر إليها! هل رعت ذمم الهوى ... أو خلدت ذكراً حلَوْن خواليا
سائل! فلست ترى لعهدك ذاكراً ... وابحث فلست ترى لحبك راعيا
واجزع! فلن تلقى لخطبك جازعا ... واندب! فلن يلقى بكاك مباليا!

ما بالها تلهو وأنت مكلّم ... تتلمس الذكرى وعهداً خاليا
إن الطبيعة غادة فتانة ... لا تعرف القلب الوفي الحانيا!
أحبيبي الغالي، وأنت مخاطبي -! ... هيا استشفَّ من القصائد ما بيا
هذا القريض يشف عما تحته. ... أتظن قلبي بعد ذلك ساليا؟
ألهو وأضحك ليس يبصر ناظري ... ماذا تكنُّ أضالعي وفؤاديا
أتقول: لا يذكي الهيامُ قصائدي! ... لولا لحاظك ما زكتْ أشعاريا
أقصائد يحملن آلام الهوى!؟ ... يا هونَهن! ولو يكنَّ دراريا
وانا قصيدتك البديعة صغتُها ... من فيض سِحرك أبحراً وقوافيا
وبخافقي ما لو تقسمه الورى ... وسع القلوبَ على الزمان خواليا
لكنني أغلى فؤادي أن يرى ... بين الأنامِ - وأنت فيه - داميا
(دمشق)
أمجد الطرابلسي
ذكرى 17 رمضان:
ثورة بدر
بقلم محمود حسن إسماعيل
مقتطفات منها
خَفَق العرشُ بالنشيدِ المطهرْ ... فدع الشعرَ والأغاني. . وكبِّرْ!
رجفتْ في الجنانِ كالزعزع القصَّ ... افِ تدوي بجانبيَّ وتزأرْ
من فجاج الغيوبِ هاجت صباحا ... ثورةٌ في الرمالِ هبّت تُزَمْجِرْ
أقبلت كالعجاجِ في هبوة الحرْ ... بِ (قُرَيْشٌ) على الحياض تُنَفِّرْ
حَشَدوا موكبَ المنايا وخفوا ... لِضياء الإلهِ غاوين فّجّرْ
يتراءوْنَ كالصواعِقِ في الرم ... ل ووجهُ الضحى من الروعِ أغبر
كالشياطين جلجلت في دجى اللي ... ل وهاجت في البيد تعوى وتصفر
أرزمت فوقهم سيوفهم، وريعت ... من تناديهمُ أضاءةٌ وِمغْفر
زلزلوا راسي الفيافي، وراحت ... منهم البيدُ تقشعر وتذْعَر
ومضى الشرك بينهم مزعج الهي ... جة طيشانَ كاللظى المتسعِّر
جمَّع الهول كله في يديه ... ومضى بالحمام في الهول يزفر
إن يكن كبرهُ أجَنَّ البلايا ... لنبيِّ الإسلام. . . فالله أكبر
وعلى التلِّ خاشع في عريش ... قُدسيِّ الظلال زاكٍ مُنوِّر
كاد من طيبِ الجريدُ المحنَّى ... من ذُبول البلى يميس ويُزهر
هالة تسكُبُ الجلال، وتندى ... بوميض الهدى يُفيق ويسحر
لو رميت كاسف البصيرة أعمى ... عاد منها مُبلّج القلب أحور
باسطٌ كفّه إلى الله يدعو: ... رَب حُمّ القضا لدينكَ فانْصر
إن أجناديَ البواسل قُل ... وخميس العدو كالموج يَزخَرْ
خفقة من كرى تجلّتْ عليه ... مال من طهرها الرِّداء المحبَّرْ
وإذا الوحي بارقٌ مستهلٌّ ... من سماء الغيوب هَنَّا وبَشّرْ
فانتضى سيْفه وهبَّ على الفا ... رةِ بالسَّرْمد القويِّ مؤَزّرْ
ينفح القوم بالحصا فتدوِّي ... أسلاتُ الإسلام في كل مِنجر
وجنود السماء من كل فَجٍّ ... غُيّب للعيان في القلب حُضّر
تشعل النار في قلوب المذَاكي ... وتَؤُج الرجال ناراً تَسعَّر
قوَّةٌ من جوانب العرشِ هبَّت ... ذاب من بأسها الحسام المشهّر
و (بلال) يلقى (أميّة) غضبا ... ن فيشفى الغليل منه ويثأر
أمس كم حمل الصخور الذَواكي ... بلهيب الرمضاء تغلي وتسعر
وهو اليوم قاذف صخرَة المو ... ت. . . عليه تهوى فتردى وتقبر
وأبو جهل جندلته قناة ... فهوى تحت جندل البيد يزحر
وقف الكفر فوقه يندب الكف ... ر ويهذي على الرُّفات وَيهذر
لكأني بعظمك الآن يصطكُّ ... وَيغلي من الأسى وَالتحسُّر
وَشظايا اللسان ندمانة كا ... دت لنور الهدى حنيناً تكبِّر!
تمرات في كف أعزل جوعا ... ن هضيم بين الوغى متعثِّرْ

عربيٍّ من شيعة الله وانٍ ... عن صراع الهيجاء قهراً تأخر
حينما شاهد النبيَّ تلظّت ... جمرة النصر في حشاه المفتّر
هاج كالعاصف المدمِّر في الجي ... ش وَأهوى كالموت يبلى ويدحر
سلَّ من روحه حُساماً وَمن إس ... لامه في مسابح الروع خِنجر
هكَذا نجدة السماء أحالت ... واهِن الجسم كالعتيِّ المدمر
فإذا النصر صيحة هزت الدني ... اوراعت بروج كسرى وقيصر
وإِذا (بدر) خفقة في لسان الش ... رق يزهى على صداها ويفخر
محمود حسن إسماعيل

القصص

قصة واقعية

الغريب. . .

نالت هذه القصة جائزة قدرها 100 جنيه في مسابقة للقصص)
الواقعية في مجلة الإنجليزية)

نقلها عن الإنجليزية

أحمد فتحي مرسي

لا أعلم ما الذي جعلني أشعر بالخوف والوحدة بعد أن امتطى فرانك صهوة جواده ومضى في سبيله ظهر أحد أيام الأحد. . . لقد كان عليّ أن أمكث مع طفلي العزيزين أياماً وأياماً وحيدين في مزرعتنا بين تلك المروج الواسعة، لم يساورني خلالها مثل ما ساورني ذلك اليوم. . ربما كانت الوحدة تخيف بعض النساء؛ بيد أنني قضيت في هذه الجهة ما يقرب من عامين بعيدة عن العالم منفردة عن المجتمع، فضلاً عن إنني نلت قسطاً من التعليم جعلني أنبذ ما تدعيه النساء من خرافات وأباطيل. . . كان هناك ما يقرب من العشرين ميلاً بيننا وبين أقرب جار لنا؛ ولقد كان في تناثر المزارع على هذا الشكل مغنم للصوص ورجال العصابات، فكان الإنسان يقضي أياماً طوالاً دون أن يرى في هذه الناحية وجهاً لإنسان، اللهم إلا أحد رعاة البقر يبحث عن قطيعه الممزق ويجمع أشتات ماشيته المتفرقة، ولكني كثيراً ما قضيت مع فرانك الشهور الطويلة دون أن يقع بصرنا على إنسان ما.

ولقد كانت مصاحبة طفلي العزيزين تجعلني سعيدة قريرة العين. وكان أكبرهما في الثانية من عمره ويدعى بوبي؛ وأما فيل الصغير فقد كان عمره لا يزيد على بضعة أشهر، ولكنه برغم ذلك كان طفلاً هادئاً مريحاً.

ولقد يتساءل البعض: لماذا اخترنا هذه البقعة الموحشة لنقضي فيها ميعة صبانا وزهرة شبابنا؟ فأجيب: منذ حوالي أربع سنوات عندما تزوجت من فرانك، كان يشغل منصباً في أحد البنوك في مدينة ولتون فيل على مسير خمسة وثلاثين ميلاً من مزرعتنا؛ وكان قد

اقتصد قليلا من المال مدة اشتغاله في المصرف. ولم يلبث فرانك طويلاً في المصرف بعد زواجنا؛ فقد أصبح المصرف في غنى عن عمله لضيق أعماله، فأخذ يبحث عن عمل ولكن دون جدوى. . . وأخيراً وجدنا أنفسنا وليس معنا إلا قليل مما اقتصدناه. وكان فرانك قد درس هذه المنطقة ملياً مدة اشتغاله في المصرف، وكانت تحوي الكثير من المزارع التي تصلح لتربية الماشية وزراعة بعض الحاصلات الصيفية.

وفي ركن قصيّ من تلك الأصقاع كانت تقع مزرعة جميلة فيها منزل ريفي بديع الموقع بسيط التأثيث، وبها بئر طيبة المورد عذبة الماء، وحول المنزل قطعة مسورة من الأرض يخيل إليّ أنها كانت حديقة فيما مضى. وأخذنا الفرح بهذه المزرعة، فاشتريناها وبدأنا عملنا فيها.

وكان كلانا في ضحوة شبابه وربيع حياته يتمتع بصحة جيدة وبنية قوية. وكان فرانك لا يعرف الكثير من أحوال المزارع وإدارتها فلازمنا الفشل في أول الأمر - شأن كل من يبدأ عملاً لم يمارسه من قبل - ولكن أدركتنا عناية الله فذللنا كل ما قابلنا من العقبات.

ولد لنا (بوبي) في مدينة ولتون فيل، وأما (فيل) فقد ولد في مزرعة مري وذر على بعد عشرين ميلاً منا. ولقد كانت السيدة مري وذر نعم الأم الحنون البرة مدة إقامتي عندها.

ومضت الأيام تتبع الأيام والشهور تقفو أثر الشهور، ونحن سعيدان بهذه الحياة الهادئة على رغم بعدنا عن العالم وانفرادنا عن المجتمع، إلى أن كان يوم زارنا فيه جار لنا يدعى جيبون، يطلب مساعدة فرانك في إصلاح قطعة من الأرض اشتراها أخيراً. فلما اعتذر له فرانك بأنه ليس لديه جواد، فضلا عن أنه لديه من الأعمال ما يشغله عن ممارسة غيرها، قال غاضباً:

- هذا شيء لا يحتمل! من أين لي أن أجد رجلا آخر في هذه الناحية المقفرة؟ سأعطيك كل ما تطلب من الأجر نظير ترك أعمالك، فضلاً عن أني سأعوضك جواداً خيرا من جوادك.

وبعد نقاش طويل قبل فرانك ما عرضه عليه الجار على أن يدعه يعود إلى المزرعة في أيام السبت والأحد لإنجاز أعماله الهامة. وعلى هذا أصبحت أقضي جل الأسبوع وحيدة إلا من طفلين لا يستطيع أكبرهما أن ينطق. ولكني كنت أعزي نفسي بأن العمل يستغرق أسابيع يعود بعدها فرانك ومعه المال والجواد.

ولا أكون مبالغة إذا قلت إننا نشعر في حياتنا بسرور قدر ما شعرنا به تلك الليلة عندما عاد فرانك للمرة الأولى يحمل أجرة الأسبوع الأول، فقد خيل إلينا أننا في حلم عندما نثر النقود على المائدة؛ وليس هذا عجيباً، فقد كان كلانا لم ير النقود من زمن غير قليل. قال فرانك:

- أظن أنه ليس في الإمكان السفر إلى ولتون فيل لإيداعها في المصرف قبل أن أنتهي من مساعدة جيبون، وستكون هنا في مأمن. فقلت:

- إذن دعنا نخبئها في مكان ما.

- حسن! ثم وضع النقود في كيس صغير وأعطاها إياي قائلاً:

- ضعيها تحت وعاء الدقيق يا عزيزتي. . فإذا داخلك الشك يوماً في أحد يحوم حول هذا المكان فاحفري لها في الأرض.

وفي مساء الجمعة التالية زاد قدر ما عندنا من النقود بما أضافه إليها فرانك من أجره الثاني.

وفي صبيحة السبت نهض فرانك مبكراً وأخذ يعمل في المزرعة بجد ونشاط - كعادته في سائر أيام السبت والأحد - حتى إذا كان ظهر الأحد خرج ليسرج جواده ويمضي إلى عمله عند جيبون. . . ولسبب ما داخلني شعور غريب هذه المرة، فقد كنت أريد من أعماق نفسي ألا يذهب وألا يتركني هذه المرة. ولما ضمني ليودعني لم أجد ما أقوله غير هذه الكلمات:

والحقيقة أنني كنت أشعر (لا تذهب يا فرانك. . . لا تتركني هذه المرة يا عزيزي) بشعور خفي، وبدافع من صميم قلبي يدفعني إلى استبقائه بجانبي. لكنه ابتسم قائلاً:

- تشجعي يا عزيزتي. . . سأعود قريباً.

ثم انطلق الجواد كالسهم وأنا واقفة أتابعه بنظري وهو يختفي في ظلام من الغبار.

استيقظت في الرابعة من فجر اليوم التالي، لأنه كان يروق لي أن أنجز أعمالي في الصباح الباكر قبل أن يشتد وهج الشمس في سماء الصيف الصافية ويحمرُّ قيظها، فأخرجت الماشية من حظائرها وأوقدت النيران في الموقد، ثم عدت إلى المنزل لأغذي الأطفال، وألقيت وأنا أصعد الدرج نظرة خاطفة على الطريق الذي مضى فيه فرانك أمس. ولشد ما كانت دهشتي عندما أبصرت من بعيد شبحاً سائراً على قدميه يقترب رويداً رويداً من المزرعة؛ وقد عجبت من ذلك أشد العجب، فهذه أول مرة أرى فيها شخصاً يجوب هذي السهول المترامية سيراً على الأقدام. أسرعت إلى المنزل ووقفت في النافذة وأنا أفكر فيمن يكون ذلك الشخص وما مأربه؟ أهو صاحب مزرعة من اللواتي حولنا يطلب مساعدة؟ ولكن هذا لا يمكن، فكل منهم يملك جواداً على الأقل إن لم يكن يملك مركبة. إذن فهذا الرجل غريب عن الناحية.

ولكن لماذا يأتي الغريب إلى هنا؟ ربما ضل الطريق وأخطأ الجهة التي يقصدها! ولكنه لا يمكن أن يصل إلى هذه الجهة المنفردة دون أن يدرك أنه أخطأ الطريق. . . كل هذه الأفكار كانت تساورني وأنا واقفة في النافذة أرقب الرجل وهو يقترب:

- ترى ماذا يفعل ذلك الرجل لو علم أني وحيدة في ذلك المنزل؟ وماذا يفعل لو عرف

شيئاً عن النقود؟
وأخيراً قلت لنفسي: (حسن. ما دام فرانك أخذ دوره وعمل بجد حتى حصل على هذه النقود، يجب أن أخذ دوري في الدفاع عنها) وأسرعت إلى (مسدسي) وكان محشواً، وأيقظت الأطفال حتى لا يزعجهم إطلاق النار. وكان الرجل قد وقف على بعد خمسين خطوة من المنزل يقلب الطرف في الحديقة والدار؛ وبدا لي وجهه مخيفاً مرعباً وملابسه قديمة رثة. على أنه لم يدهشني قط عندما أخرج مسدسه من جيبه ومشى صوب الباب لأني كنت أتوقع ذلك بين لحظة وأخرى. . . انتظرت حتى أصبح على بعد خطوات من الباب ثم دفعت الباب بقدمي فأصبحت أمامه وجهاً لوجه.
- مكانك وإلا لهبت رأسك!
فوقف الرجل مبهوتاً، ثم أردفت على عجل:
- والآن ماذا تريد؟
- سيدتي! ما أنا إلا رجل فقير جائع؛ أريد قطعة من الخبز أسد بها رمقي، أو أي عمل عندكم أعيش منه. . . ثم تابع كلامه وقد رأى الشك في عيني:
- أنني أمين يا سيدتي؛ لا تسيئي بي الظن
- شكراً لك! إن زوجي قد قام بكل الأعمال، وليس لدي ما أعطيك إياه
- . . . لقد قضيت يا سيدتي يومين سائراً. يعلم الله أني لم أذق في خلالهما شيئاً قط
وأيقنت من نبراته أنه صادق في كلامه برغم ما داخلني فيه من شك. وقد رأيت أن من الغباء أن أدعه يعمل عندنا ونحن لا نعرف أصله، ولكني لم أعدم شيئاً من العطف على رجل لم يذق الطعام من يومين؛ فقلت له وأنا ما أزال قابضة على المسدس:
- إن ورائي على المائدة وعاء من اللبن وقطعتين من الخبز خذهما وأمض في سبيلك. . فنظر لحظة إلى المسدس قبل أن يجد في نفسه الجراءة الكافية على الدخول، ثم جمع أشتات نفسه ودخل وحمل الطعام ثم خرج متمتماً بكلمات الشكر.
ومضيت في عملي فنسيت ذلك الحادث. وكانت الشمس قد ارتفعت في السماء. فجلست مع بوبي لنتناول الفطور في هدوء وصمت. وفجأة تذكرت أنني لم أجمع بيض الدجاج هذا الصباح، وكانت عادتي أن أجمعه في الصباح الباكر قبل أن تعبث به زواحف القفر. فلما بلغت آخر مجاثم الدجاج طرق سمعي فحيح حاد صادر من الحطب الهشيم الملقى على جوانب المجثم، فعرفت الصوت لساعته وإن كنت لم أسمعه في هذه الجهة من قبل، فهلع قلبي وأسرعت بالعودة، إلا أنني لم أكد أدير وجهي حتى شعرت باللدغة في قدمي اليمنى.
لقد كانت عضة أفعى سوداء كبيرة. وقد جمدت في مكاني لمجرد ذكراها قبل أن تلمحها عيناي المضطربتان وهي تزحف بين الهشيم وأخيراً بلغت المنزل أجر قدمي ورائي وأنا ألهث من التعب، ومزقت الحذاء سريعاً فبدا أثر النابين عميقاً ظاهراً، وكنت أجهل تماماً ما سأفعل وأنا على قاب قوسين من الموت. . . فجعلت أجهد ذاكرتي حتى أصل إلى ما قاله لي فرانك عن علاج مثل هذه الحالة. وأخيراً وجدت ضالتي المنشودة. لقد قال لي: يجب أن تربط الرجل من فوق اللدغة بقليل حتى لا يسري السم مع الدماء، ثم تعالج الإصابة (ببرمنجانات البوتاس). . . وسرعان ما مزقت قطعة من القماش من غطاء المائدة وربطت بها الرجل من فوق اللدغة بقليل ثم قمت أبحث عن الدواء
ولكني تذكرت فجأة أنه لم يبق عندنا منه شيء، فقد استنفذته عن آخره في تطبيب الدجاج في الربيع الماضي ونسيت أن أطلب من فرانك أن يشتري بدله.
عدت إلى المقعد في ذهول وأغمضت عيني وجعلت أفكر وأفكر ولكن دون جدوى. . . كل ذلك والسم آخذ طريقه في قدمي حتى تصلبت عضلاتها. . . ماذا افعل وأنا وحيدة مع
طفلين وهناك عشرات الأميال بيني وبين أقرب نجدة؟ وإذا قدر لي الموت فما مصير الطفلين البريئين؟ كانت قدمي تؤلمني ألماً مبرحاً ولا أعلم إن كان ذلك من السم أم من شدة الرباط؟
لم يكن أمامي ثمة شيء ينقذ حياتي وحياة الأطفال إلا أن أحاول أن أذهب معهم إلى (مري وذر). فربما أتمكن من إدراكها قبل فوات الوقت إذا تركت للجواد العنان. . . فقمت أتحامل على نفسي وعلى الحائط؛ ولكن قبل أن أدرك الباب تذكرت شيئاً آخر

جعلني أكاد أسقط على الأرض. . . لقد أخذ فرانك الجواد ولسنا نملك غيره. شعرت بأن الدم يكاد يفيض من وجهي، وأنا أعود إلى المقعد في ذهول. . . أأصحب الطفلين وأمضي سائرة على الأقدام؟ ولكن هذا معناه ساعات وساعات دون أن نصل إلى وجهتنا. . . قمت ثانية لأحمل (فيل) ولكني عدت فتذكرت أن قدمي بوبي الصغيرتين لا تحتملان السير أكثر من ميل أو ميل ونصف. . . إذن سأضطر إلى حمل الطفلين في الطريق، وسأبذل من الجهد ما يجعل الدم ينشط والسم يسري فتكون النهاية المحتمة الأليمة: طفلان في القفر في يد القدر بجانب أم ميتة.

يا ألهي! ماذا أفعل وهذا الموت المحقق يسير في عروقي، وعن قريب أصير في عداد الأموات. . . ولكن الطفلان ما مصيرهما؟ الموت دون شك. . وإذا كان لابد من الموت فلم لا أسرع حتى أخلص من عذاب النفس الممض وعذاب الجسم المبرح؟. . . لم لا أسرع بالقضاء على نفسي وعلى الطفلين حتى نستريح جميعاً؟. . . خففت قليلاً من وطأة الرباط فلم تعد ترجى منه فائدة، وتناولت قلماً وورقة من المكتب ثم جلست أكتب لفرانك ظهر الاثنين:

عزيزي فرانك:

لقد لدغتني أفعى سامة كبيرة. ولم أجد لها علاجاً ناجعاً ولا يمكنني أن أعيش أكثر من بضع ساعات. أما الطفلان فلا أظنهما يلبثان على قيد الحياة إلى حين حضورك. لذلك سأفعل الأمر الوحيد الذي يمكنني أن أفعله في هذه الحالة فأريح نفسي والطفلين من العذاب الأليم. وأتمنى لك حياة طويلة سعيدة.

عزيزتك

روز ماري

ووضعت الورقة على المائدة ثم تناولت المسدس، واقتربت من طفلي فيل وكان مستغرقاً في نومه فركعت بجانبه ثم طبعت على جبينه قبلة حارة وصوبت (المسدس) إلى رأسه بيد مرتعشة، ثم أغمضت عيني لأطلق النار. . .

- بحق السماء ماذا تفعلين يا سيدتي. . .؟

اضطرب (المسدس) في يدي وتلفت إلى مصدر الصوت في جزع فإذا الرجل الغريب الذي رأيته في الصباح واقفاً بالباب ينظر إلي تارة والى المسدس أخرى. . ثم تقدم أخيراً فقبض على المسدس من يدي وألقاه على المائدة، ثم تابع كلامه قائلاً - أتقدمين على قتل هذا الطفل البريء؟

- نعم أقدم على ذلك

- أمجنونة أنت؟

- كلا. . . لقد لدغتني أفعى سوداء سامة وأدركت أن الموت من نصيبي وأيقنت أن الطفل سيموت جوعاً ففضلت أن نموت سوياً

- أفعى سوداء! قالها وتقدم إلي في سرعة فرفعني من مكاني وأضجعني على المقعد ثم أخرج من جيبه سكيناً حاداً رسم بها دائرة حول أثر النابين، ثم أخذ يضغط الجرح بشدة حتى سالت الدماء وفاضت على جوانبه. . . ثم نهض مسرعاً وجذب قضيباً من الحديد كان ملقى على المائدة، ثم سأل:

- أين الموقد؟

- وراءك إلى اليمين. فأسرع إليه ووضع القضيب في النار إلى أن أحمر طرفه ثم عاد إلي قائلاً:

- يعز علي أن أفعل ما أنا مقدم عليه، ولكن هذا هو العلاج الوحيد. ولما انتهى من كي الجرح أحضر لي جرعة من الماء. ثم تبع ذلك صمت طويل قطعه أخيراً بقوله:

- لقد توسمت فيك الشجاعة هذا الصباح يا سيدتي. وقد رأيتها الآن رأي العين؛ وأظن أنك ستشعرين بألم مبرح بضعة أيام يزول بعدها كل شئ. ورانت على الغرفة فترة أخرى من الصمت ثم قال أخيراً في هدوء وتؤدة:

- لا يمكنني على ما أظن أن أمضي وأتركك على ما أنت عليه. . . ثم أردف باسماً:

- إنه ليبدو عجباً أن أحضر إلى هنا رغبة في الاستيلاء على أموال زوجك وقتلك إذا دعت الحال، فإذا بي أساعدك وأسهر عليك وأعني بمرضك كما لو كنت صديقاً حميماً! وأظن أن آخر شئ يمكنني أن أذكره قبل أن يأخذني الإغماء هو صورة الغريب في يده وعاء اللبن وهو ذاهب لحلب البقرة وبوبي يقفز حوله في سرور. أما فيل فقد كان

مستغرقاً في سباته، وكانت الشمس قد آذنت بالغروب. . . ثم أظلم المكان في عينيّ
. . .ولم أشعر بما يجري حولي، اللهم إلا أشباحاً تتراقص، وأيدياً تلوّح، وأصواتاً تدوي
حينما أفقت من الإغماء كان الوقت ظهراً والسجُف مرخاة على النوافذ والغرفة خالية
إلا مني ومن بوبي الذي كان جالساً يأكل في أحد الأركان في سرور جعلني أشعر
بمثله.
- أظنك تشعرين الآن ببعض التحسن يا سيدتي. . . كان ذلك صوت الرجل الغريب،
فتلفت فإذا به واقف بجانب السرير ينظر إلي في حنان وعطف. فسألته:
- في أي يوم نحن الآن؟
- الأربعاء يا سيدتي
وفي مساء الجمعة وكان قد ثاب إلي بعض صحتي ونشاطي؛ وكان بوبي وفيل قد
أخذتهما سنة من النوم، قال لي الغريب:
- في أي وقت تتوقعين حضور زوجك يا سيدتي؟
- إنه يصل عادة بعد التاسعة بقليل
- إذن يجب عليّ أن أذهب، ولكن لن أتركك حتى أسمع وقع حوافر جواده
- ولكن لماذا؟ قد يرغب فرانك في رؤيتك ليقول لك شيئاً
- شكراً، أني أعلم ما سيقوله لي
- إذن دعني أمنحك قليلاً من المال، أنه لشيء تافه بجانب ما تكبدته لإنقاذي وإنقاذ
الطفلين. . ثم قمت لأحضر النقود، ولكنه أعترض سبيلي قائلاً:
- أرجوك الجلوس يا سيدتي - لقد كانت النقود في متناول يدي طول أيام الأسبوع،
ولكني لم ألمسها ولن أمسها. . .! ثم خيم على الغرفة صمت طويل قطعه أخيراً وقع
حوافر جواد قادم في الطريق، فقام الرجل وسار نحو الباب في خطوات متزنة ثم
اختفى بين طيات
الظلام.
قصصت على فرانك القصة فما انتهيت منها حتى أبتدر الباب باحثاً عن الرجل، ولكني
استوقفته وأخبرته أن من العسير أن يعثر عليه في هذا الظلام الحالك، فرجع آسفاً.
ومنذ ذلك الحين ونحن نتمنى لو تتاح لنا فرصة نشكر فيها ذلك الغريب ونوليه أضعاف
جميله؟

أحمد فتحي مرسي

البريد الأدبي

قانون جديد للصحافة في فرنسا

صدر أخيراً قانون جديد للصحافة في فرنسا يرمي إلى وضع حد لذلك الإغراق التي
انتهت إليه بعض الصحف المتطرفة في شأن الأنباء الكاذبة والمقالات القاذفة؛ وكان
صدوره على أثر انتحار المسيو سالنجر وزير الداخلية الذي لبث مدى أشهر هدفاً
لحملات بعض الصحف المتطرفة مثل (جرينجوار) و (لاكسيون فرانسيز)، فقد
استمرت هذه الصحف تنشر عنه وعن ماضيه كثيراً من الأخبار والمطاعن المثيرة،
وتطعن في وطنيته ونزاهته وإخلاصه لوطنه. ومع أن اللجنة الخاصة التي ألفت لبحث
ماضي المسيو سالنجرو قد انتهت بتقرير بطلان هذه التهم جميعاً، ومع أن البرلمان
ذاته قد انتهى بتبرئته وإعلان تقديره لوطنيته، فأن هذه الصحف القاذفة لم تنقطع عن
مطاردته حتى سقط صريعاً في الميدان. فبادرت الحكومة باستصدار القانون الجديد،
وهو يرمي إلى أغراض ثلاثة: الأول قمع الأخبار الكاذبة؛ والثاني منع المطاعن
والحملات القاذفة؛ والثالث وضع رقابة فعلية على المصادر المالية للصحف، نظراً لما
ثبت من أن كثيراً من الصحف تندفع بتأثير ما تتناوله من الإعانات المالية إلى إثارة
الخصومات السياسية والمطاعن الشخصية دون اكتراث للنتائج والشخصيات. وبناء
عليه يجب أن تقوم الصحف من الآن فصاعداً في شكل شركات مساهمة، وأن يعتبر
مديروها كما يعتبر محرروها مسؤولين عما يظهر في الجريدة.
وقد كانت الحملات الصحفية القاذفة تعرقل كثيراً من أعمال الحكومات، وكانت
الحكومات المختلفة تفكر في إصدار مثل هذا القانون منذ زمن طويل، ولكنها تتراجع
دائماً، حتى جاءت الحكومة الاشتراكية ووقعت حادثة مسيو سالنجو. ومن الغريب أن
تكون الحكومة الاشتراكية هي التي اضطلعت بإصدار مثل هذا القانون المقيد للحرية،

ولكنها في الواقع أصدرته لحاجة ماسة. ذلك أن الإسراف في نشر الأنباء الكاذبة والحملات القاذفة قد وصل إلى حدود لا يمكن احتمالها، وكثرت الصحف القاذفة التي تعيش من الطعن في الأشخاص والجماعات؛ والقذف معاقب عليه في القانون الفرنسي دائماً، ولكن القانون الجديد يعتبر القذف واقعاً في جميع الأحوال إذا كان يمس الهيئات الرسمية أو الأشخاص الذين تشير إليهم المادة 35 من قانون سنة 1881؛ وقد نص في القانون الجديد على تقصير الإجراءات حتى يقع العقاب المنشود بالقاذفين بسرعة، ونص فيه على عقوبات مالية فادحة إلى جانب العقوبات المقيدة للحرية وما نص عليه من تعطيل الصحيفة. وقد أثيرت حول القانون الجديد اعتراضات كثيرة أهمها أنه لا يمكن إجراء الرقابة المالية المنشودة دون الإضرار بكثير من الصحف النزيهة المخلصة وعرقلة تقدمها، وإنه يخشى أن تعمد الهيئات التي تستتر وراء الصحف القاذفة إلى تزويدها برجال من قش يحكم عليهم دون أن ينال هذه الهيئات شيئاً ودون أن تقطع معونتها على الصحيفة المحكوم عليها. ثم إنهم يخشون جداً من عدم استقلال القضاء الفرنسي وميله مع الاتجاهات السياسية. بيد أن الحكومة الاشتراكية تتمتع في إصدار هذا القانون بكثرة من كل أولئك الذين يقدرون قيمة النزاهة والإخلاص والتعفف عن المطاعن القاذفة في صناعة القلم التي يجب أن ترتفع عن الاستغلال في الخصومات الدنيئة.

كارل فون أوستيسكي أيضاً

بسطنا في العدد الماضي كارل فون أوستيسكي الكاتب الألماني الكبير الذي فاز بجائزة نوبل للسلام عن سنة 1935، والذي اعتبرت الحكومة الألمانية فوزه بهذا الشرف تحدياً لها لأنها تعتبره خائناً، لما كان يكتبه من مقالات في الدعوة إلى السلام ونزع السلاح؛ وقد أرادت أن تعتقله منذ سنة 1933، ولكنها اضطرت إزاء اشتداد العطف الدولي عليه أن تطلق سراحه، فغادر المستشفى مريضاً منهوكاً حيث يعالج الآن. وقد اطلعنا أخيراً في جريدة (بازلر ناخرختن) السويسرية على حديث جرى لمكاتبها البرليني مع هذا الكاتب الشهير بإذن السلطات الألمانية، خلاصته أن فون أوستيسكي حينما نقل إليه خبر فوزه أبرق إلى الأكاديمية السويدية بقبول الجائزة، وبأنه سيأتي بنفسه إلى استوكهلم ليلقي خطبة القبول؛ بيد أنه سيحاول جهد استطاعته أن يكون واسطة لتحسين العلائق بين ألمانيا والسويد. ويصرح فون أوستيسكي بأنه ما زال على عقيدته السلمية يدعو إلى تفاهم الممم، وأن الدعوة إلى السلم إنما هي في مصلحة وطنه، وأنها تتجه إلى جميع الأمم التي تبالغ في التسليح مثل روسيا السوفيتية؛ وأنه حين يغادر ألمانيا لن يعود إليها بعد. على أنه لا يريد قط أن يكون فوزه بجائزة السلام مدعاة لمظاهر سياسية؛ وأنه يأسف كل الأسف إذ كان فوزه بهذه الجائزة مثاراً للمناقشين بين السويد وألمانيا. ويأسف بنوع خاص لأنه كان موضع حملة من الشاعر النرويجي الكبير كنود هامبسون.

والظاهر أن الحكومة الألمانية قد اقتنعت أخيراً بإطلاق سراح الكاتب الكبير نهائياً، ورأت أن ليس في صالحها أن يطول أمد اعتقاله؛ وقد كان الكاتب عند وطنيته وإخلاصه لوطنه على رغم ما لحقه من صنوف الأذى طيلة هذه الأعوام.

نقل الآداب الأوربية إلى الأدب العربي

ذكرنا من قبل في إحدى افتتاحيات (الرسالة) أن لجنة التأليف والترجمة والنشر قد أعدت مشروعاً لنقل الآداب الغربية إلى الأدب العربي؛ ويسرنا أن نذكر اليوم أن وزارة المعارف العمومية قابلت هذا المشروع بما يستحقه من التقدير والعناية، فقررت أن تساعد اللجنة على تحقيقه بخمسمائة جنيه في ميزانية هذا العام، تزيدها إلى ألف جنيه في ميزانية العام المقبل (على أن يشرف على هذا المشروع لجنة من حضرات الأساتذة الدكتور طه حسين ومصطفى عبد الرزاق وأحمد أمين مع الاستعانة بالعناصر الأجنبية للإرشاد عن خير المنتجات الأوربية في اللغات الثلاث: الإنجليزية والفرنسية والألمانية). وبعد عطلة العيد ستجتمع اللجنة لتنتخب الأساتذة الذين يناط بهم تنفيذ هذا العمل الخطير تمهيداً للسير فيه.

وفاة لويجي بيراندللو

توفى في صباح يوم الخميس الماضي الكاتب الإيطالي لويجي بيراندللو على أثر إصابته بالتهاب الرئة. وهو زعيم الأدب المسرحي في إيطاليا من غير منازع، وصاحب

المذهب الفني المعروف بمذهب الفكاهة أو نسبة إليه. وقد ولد في أجريجانتي بجزيرة صقلية في سنة 1867 ودرس الأدب في روما ثم سافر إلى ألمانيا فحصل على الدكتوراه في الآداب من جامعة (بُن). ولما رجع إلى بلاده عين أستاذاً في المدرسة العليا للبنات فظل فيها من عام 1897 إلى عام 1921، وكان في خلال ذلك يؤلف القصص والروايات وينشرها حتى بلغ إنتاجه أربعمائة أقصوصة وثلاثين رواية. وفي سنة 1934 نال جائزة نوبل للآداب، وبهذه المناسبة نشرت (الرسالة) عنه فصلاً تحليلياً إضافياً في عددها الرابع والسبعين فارجع إليه إن شئت المزيد.

كلمة حول زارا وتحقيق نسبته

كتاب (زاراتسترا) للفيلسوف الشاعر الألماني (فردريك نيتشه) الذي تنشر ترجمته (الرسالة) من مؤلفات الذائعة الصيت في عالم الثقافة الغربية، ويعدُّ هذا الكتاب بل (الديوان) أعظم أثر شعري في العصر الحديث. وقد قيل فيه إنه لم ينتج شاعر في العصر الحديث أثراً يضارع ما حوته دفتا هذا الكتاب! وحسبك أن تعلم أن الموسيقي الألماني الشهير (ريشارد شتراوس) قد لحنه موسيقياً.

وبلغ من تأثير هذا الكتاب أن عُدَّ مسؤولاً إلى حد كبير عن إذكاء تلك الروح التي حفزت الشباب الألماني ودفعته إلى خوض غمار الحرب الكبرى، ولم يقتصر أثر هذا الكتاب على كثير من عقول مفكري الغرب، بل تناول كثيرين من مفكري الشرق. فالشاعر الهندي الفيلسوف محمد إقبال قد تأثر به إلى حد كبير تحسه في كتبه (أسرار الذاتية) و (أسرار اللاذاتية). . . وما دعوة الجهاد الإسلامي التي يريد إحياءها (إقبال) ولا يفتأ يرددها ويدعو إليها إلا أثر من آراء نيتشه وفلسفته في تمجيد القوة والدعوة إلى (السوبرمان).

وجبران خليل جبران الشاعر اللبناني ينهج في كتابه (النبي) نهجاً يشابه طريقه الفيلسوف الألماني، وهو إن خالفه في الروح والمبادئ فانه يشابهه في الأسلوب وطريقة الأداء التي يتميز بها كتاب (زاراتسترا)، وقد تبوّأ هذا الكتاب مكانه في التفكير الغربي كإنجيل جديد يبشر بمذهب جديد في الحياة وغايتهم على الأرض، مذهب هو أقرب إلى الدعوات الدينية منه إلى المذاهب الفكرية الفلسفية.

وقد دعاني إلى كتابة هذه الكلمات ما رأيته من خلاف في نسبة (زارا). على أن كل المصادر مجمعة على نسبته إلى ولكن الخلاف هو في تفسير هذا؛ فالمستر في مقدمة الترجمة الإنجليزية طبعة ' يشير إلى أنه زرادشت صاحب الديانة الفارسية القديمة، وهكذا أيضاً تفسره دائرة المعارف الفرنسية وأما دائرة المعارف البريطانية فلم أجد بها ما يفسره.

على أنه توجد طبعة لترجمة إنجليزية أخرى بدار الكتب المصرية بالقاهرة تفسر هذا الاسم بأنه لأحد آلهة الإغريق القدماء يدعى ولست أدري المصدر الذي استقى منه محرر مقدمة هذه الطبعة. على أن هذا الرأي كفيل أن يسترعي منا كل عناية واعتبار، لأنه من المعلوم

أن نيتشه كان متضلِّعاً في الثقافة الإغريقية؛ ثم إنه يدين للإغريق بكثير من إنتاجه وفلسفته؛ وتأثره بآلهة الإغريق عميق ولا سيما الإله ديونيزوس إله الخمر، وقد أسهب في هذه النقطة البروفسور ليشتنبرجر في كتابه عن نيتشه المسمى (إنجيل السوبرمان)

فلا نستبعد أن يكون نيتشه قد نسب بطل كتابه إلى هذا الإله الإغريقي القديم اعترافاً منه بفضل الثقافة الإغريقية وتمجيداً لها. وهذا موضوع من الفائدة بمكان لو تبارت فيه عقول المحققين لتجلو غامضة وتظهر حقيقته؛ وإنه لخليق بمجلة البحث والفكر الغراء (الرسالة).

(المنصورة)

محمد فهمي

الكتب

كتاب باب القمر

تأليف الأستاذ إبراهيم رمزي

بقلم الأستاذ محمد فريد أبو حديد

ماذا أسميه؟ أأسميه قصة؟ إنني إن فعلت فلن أعدو الحقيقة إذ هو في الواقع قصة

فيها ما في القصص عادة من مداخل الخيال وطلاوته. ففيها لمياء ابنة الحارث بن كلدة، تلك الصورة الحية الناطقة التي لا يسع قارئ القصة إلا أن يتمثلها ويحس ما تحسه من أشجان. فتاة عربية رومية تجمع ثقافة الإغريق وصفاء نفس العرب، وتتمثل فيها فضائل المدنية وفضائل البداوة جنباً إلى جنب. وفيها ورقة ابن العفيفة، ذلك الفتى العربي النبيل الذي يتقلب في بلاد العرب وفيما حولها حتى ينتهي به التجوال إلى الإسكندرية فيصبح فيها أمين الحاكم وكبير حراسه. وهذان هما الشخصان اللذان قد حيكت حولهما حوادث القصة على ما ألف الناس في القصص من دوافع العواطف الشريفة وخوالج النفوس المضطرمة؛ على أنني لا أملك إلا أن أعقب على هذا القول لأحدد منه. فان هذا الكتاب ليس على ما يفهم من القصة المحض، فان المؤلف قد جعل إلى سداه القصصي لحمة من التاريخ المصفى الذي لا يخطئ القارئ إذا اعتمد عليه ووثق من حقائقه، فهو يصور حال بلاد العرب في أول أيام البعثة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام، فابتدأ في نجران وصور ما كانت عليه حال تلك المدينة القديمة ومكان الأسقف المسيحي منها؛ ثم هبط اليمن مع قوافل التجار التي تيمم الشمال في رحلاتها المنتظمة حتى بلغ معها بلاد الحجاز فصور مكان النبي عليه الصلاة والسلام في أوائل سني البعثة وصور صحابته تصويراً لا أظن ريشة المصور تبدع خيراً منه، كما صور أعداءه وشتى وسائل عداوتهم له إلى حصارهم إياه في الشِّعب على ما هو معروف في كتب السيرة؛ وعبر بعد ذلك إلى الشام فعرض صورة لدولة الروم وهي تناضل الفرس ذلك النضال الهائل الذي غلبت فيه في أدنى الأرض، وعرض بعدها صورة ثانية لمصر والإسكندرية وبين ما كان فيها من اضطراب وأحزاب إلى أن دخلتها جيوش فارس بتدبير بعض الخونة مثل بطرس البحريني المنافق.

فصور القصة قد تدخلت فيها صور التاريخ تدخلاً عجيباً كان من أثره أن جليت للعصر صفحة واضحة يكاد قارئها يحس أنه يحيا بين أهله ويتنفس في جوهم.

ولست بمستطيع في هذه الكلمة الموجزة أن أذكر كل من جلاهم ذلك الكتاب القيم من شخصيات التاريخ، فانك لا تكاد تجد اسماً من الأسماء المعروفة في هذه الفترة لم يبرزه في ناحية منه ويصور له صورة حية؛ ولكن شخصيتين من هذه الشخصيات كانتا مثالاً عالياً في التصوير الأدبي؛ ولعل المؤلف النابه قد قصد منهما أن يكونا رمزين للحزبين المتناضلين: حزب الرسول وحزب قريش، ألا وهما حمزة بن عبد المطلب رمز المسلمين، والنضر بن الحارث الطبيب رمز المكذبين من قريش. وأما أشخاص غير العرب فقد أبدع في تصوير بعضهم إبداعاً عظيماً، ومن هؤلاء بطرس البحريني الذي قيل إنه كان آلة الفرس في فتح الإسكندرية بالخديعة والخيانة.

وإذا كان المؤلف الفاضل قد جمع بين القصة والتاريخ هذا الجمع فانه لم يقع في خطأ وقع فيه كثير من القصصيين، وذلك هو الخلط بين الخيال والحقيقة وما يترتب على ذلك من تشويه لكليهما، فانه حرص على أن تكون وقائع التاريخ كلها صحيحة، وبالغ في ذلك فجعل في هامش القصة ذكر بعض المراجع وبعض فقرات الإيضاح، واحتاط عند ذكر ما يتعلق بالرسول عليه الصلاة والسلام، فما وقع منه فعلاً نسبه كما جاء في كتب السيرة، وأما ما كان فيه مدخل للخيال فقد قاتل فيه: (واخاله قد فعل). فهذا الكتاب حلقة مجيدة ظهرت في الأيام الأخيرة لبعض أعلام الأدب الحديث.

وإنا إذا رأينا هذه النهضة المحمودة في إيراد حوادث التاريخ على هذا الأسلوب كان علينا أن نبتهج ونغتبط وأن نشكر هؤلاء الأدباء الأعلام الذين يمهدون لجمهور القراء مثل هذا الغذاء العقلي السليم. ولا أظن إن في استطاعة أحد أن يكافئ هؤلاء الأفاضل على ذلك المجهود الكبير، اللهم إلا أن يكون رضاؤهم عن أنفسهم وشعورهم بأنه قد أدوا للناس خدمة أدبية تفيد لغتهم الشريفة، وتعمل على إعلاء نهضتهم المباركة. (فعلى هامش السيرة) للأستاذ الكبير الدكتور طه حسين و (محمد) للأديب الكبير توفيق الحكيم و (باب القمر) للأديب الكبير إبراهيم رمزي ثلاثة أعوام يجدر بالعصر الحديث أن يفاخر بها.

ولقد حاولت في قراءتي لهذه القصة التاريخية أن أجد مأخذاً أدخله إلى مقالي حتى لا يكون كله صورة من الإعجاب الذي ملك على نفسي فلن أظفر من ذلك إلا برأي أظنه جديراً بأن يعرض، وهو أن الاستطراد الكثير في سياق القصة كان كثيراً ما يضيع شيئاً

من تماسكها.
وأمر آخر لمحته في بعض المواضع وهو أن بعض القول كان على غير ما يمليه الطبع.
ومن ذلك أن سيدة كانت في موقف حزن عميق إذ فقدت زوجها وولدها (فخنقتها العبرات وتحدرت الدموع على خديها متداركة كقطرات السقاء المخلخل، ولم يستطع ورقة (الذي كان في موقف الصديق) أن يحبس دمعه لدن هذا المنظر المؤلم فبكى لبكائها ثم تملك نفسه يقول: هوني عليك يا سيدتي. لا تضعفي نفسك بهذا الوجد، أنت شابة وسرية كما أرى، وستشرق عليك شمس حياة طيبة جديدة يوم تعودين إلى الإسكندرية، وسيكون لك أولاداً وزوج تحبينه. إن الله واسع الرحمة. ما أرجو منك إلا أن تضعي أمور الدنيا أمامك كما تضعين الكتاب، وتقرئي فستجدين في هذا الكتاب مخطوطاً بقلم عريض كبير: لا تنظري إلى الوراء: انظري إلى الأمام. إذا ورد عليك فكر مؤلم فرديه بيدك وسيري إلى الأمام لتبلغي ما تعده الدنيا لشبابك وجمالك من النعمة والمتعة التي تنسين بها كل ما مضى الخ). وإنني لأظن إن هذا القول ما كان يلائم أن يقال في مثل هذا الموقف ولا سيما من قائله (ورقة). على أنني أرى مع ذلك إن مثل هذا النقد ناشئ من اختلاف في النظر والتفكير، وما ينبغي أن يتفق الناس في مثل هذه الأمور كل الاتفاق.
وأما لغة الكاتب فأنها اللغة الجديرة بكاتب مجيد كإبراهيم رمزي جمع إلى لباقة الفنان الأديب. فمرحباً بذلك الفتح الجديد في الأدب العربي. وما أحرانا أن نهنئ الأديب الكبير بنجاحه الباهر في قصته، وأن نستنجزه الوعد الذي وعد به في آخرها أن يتحفنا بباب الشمس بعد أن أمتعنا بباب القمر.

في المسرح المصري

الفرقة القومية المصرية

وسياسة إعداد المخرجين

لناقد الرسالة الفني

تحدثنا في العدد الماضي عن بعثات التمثيل إلى أوربا وانتخاب اللجنة لأربعة من الأعضاء؛ اثنين من الممثلين واثنين من غيرهم. ونزيد اليوم إن أسماء هؤلاء الأعضاء قد أذيعت، وقد استولت الدهشة على كل المتصلين بالمسرح والذين يعنون بشؤونه، لأن اللجنة ترسل واحداً إلى إنجلترا لدراسة المناظر المسرحية وتصميمها، وبقية الأعضاء إلى ألمانيا وفرنسا لدراسة فن الإخراج والتمثيل ولم ترسل أحداً إلى إنجلترا في حين أنها في مستهل الموسم أذاعت على الممثلين إنها ترى أن ينهجوا على الطريقة الإنجليزية في أداء الأدوار لأنها أجدى على الفن؛ وهذا اعتراف صريح بما للمسرح الإنجليزي من مكانة تفوق مكانة المسارح الأخرى.
والثقافة الإنجليزية هي الثقافة الغالبة والسائدة الآن ولا سيما بين الشبان منذ أصبحت الإنجليزية اللغة الأوربية الأولى في المدارس المصرية. والأدب المسرحي الإنجليزي لا يقوم على العواطف والحب والصلات غير الشريفة كالأدب المسرحي الفرنسي، بل هو يعالج الشؤون الاجتماعية والدراسات النفسية والآراء الإصلاحية، ولذلك يحتاج إلى وسائل خاصة في إخراج رواياته.
ولست في حاجة إلى القول بان المسرح الإنجليزي يقوم على البساطة في وسائله وطرق إخراجه، فقد رأينا فيما تعرضه الفرق الإنجليزية على مسرح الأوبرا الملكية بالقاهرة شواهد عدة وهو في هذا عكس المسرح الفرنسي الذي يقوم على الصناعة والمغالاة والتعقيد في الإخراج. هذا إلى إن الإضاءة المسرحية في إنجلترا قد تقدمت حتى بزت جميع المسارح الأوربية. فإزاء هذا نرى من واجب اللجنة أن تبعث بأحد الممثلين الذين يجيدون الإنجليزية إلى لندن ليدرس الفن هناك.
وإنما طالبت بأن يكون المبعوث ممثلاً لا متعلماً أياً كان لإن الممثل أقدر من غير على تفهم
وسائل الإخراج والقيام بهذه المهمة فيما بعد، فان من الصعب على غير الممثل وهو يخرج رواية أن يرشد الممثلين إلى أداء الأدوار أداء صحيحاً أو رد أي ممثل إلى حدوده الشخصية إذا ما خرج أو شذ عنها.
ولقد أزددنا دهشة حين لم نجد اسم الممثل الأستاذ أحمد علام بين أعضاء البعثة، ففي تخطي اللجنة له إلى غيره من الممثلين وغير الممثلين قسوة وإنكار لجهوده الطويلة

ومواهبه العظيمة؛ فأعضاء اللجنة المحترمون أكثر من غيرهم معرفة بمكانته الدبية وثقافته الإنجليزية واطلاعه الواسع على فنون المسرح، ومكتبته عامرة بكتب الفن الإنجليزية التي ازدحمت هوامشها بالملاحظات الجديرة بالتقدير، كما تعلم إن وزارة المعارف قد عهدت إليه بتدريس الفن المسرحي في مدارسها الأميرية، فقام بالمهمة خير قيام، وهو كممثل من أقدر الممثلين، فأدواره في رمسيس منذ عام 1926 تشهد بنبوغه، فلا يستطيع إنسان أن ينكر أدواره في روايات: اللهب، والذئاب، والإغراء، وتوسكا، والشرف، وغرام الوحش؛ ولنجاحه المنقطع النظير في فرقة السيدة فاطمة رشدي في روايات: الحب المحرم، والبعث، ويوسف الصديق، ومجنون ليلى.

ولقد أرسلته وزارة المعارف عام 1931 في بعثة صيفية إلى إنجلترا، فمن الواجب أن تعاونه اللجنة على إتمام دراسته، ولا أظن إن هنالك مجالاً للاعتذار لأن بقائه تعزيزاً لقوة الفرقة القومية، فالواقع يؤيد أنها لا تنتفع به كما يجب فهو حتى اليوم لم يظهر على المسرح ولا ينتظر ظهوره حتى الرواية الرابعة، وعلى اللجنة ألا تنظر إلى المنفعة القريبة بل تنظر للمستقبل، وتعمل للبناء حتى يمكنها أن تجني ثمار جهودها الكبيرة.

هذه كلمة دفعنا إليها حبنا للمسرح نرجو أن يكون لها أثرها.

يوسف

العدد 181 - بتاريخ: 21 - 12 - 1936

اللسان المرقع. . .

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

وقال صاحب سر (م) باشا: جاء (حضرة صاحب السعادة) فلان لزيارة الباشا؛ وهو رجل مصري ولد في بعض القُرى، ما نعلم أن الله تعالى ميزه بجوهر غير الجوهر، ولا طبع غير الطبع، ولا تركيب غير التركيب، ولا زاد في دمه نقطة زهوٍ ولا وضعه موضع الوسط بين فَنَّين من الخليقة. غير أنه زار فرنسا، وطاف بإنجلترا، وساح في إيطاليا، وعاج على ألمانيا، ولون نفسه ألواناً، فهو مصري ملون. ومن ثم كان لا يرى في بلاده وقومه إلا الفروق بين ما هنا وبين ما هناك، فما يظهر له دين قومه إلا مقابلاً لشهوات أحبها وغامر فيها، ولا لغة قومه إلا مقرونة بلغة أخرى ودَّ لو كان من أهلها، ولا تاريخُ قومه إلا مغمى عليه. . . كالميت بين تواريخ الأمم

هو كغيره من هؤلاء المترفين المنعَّمين: مصري المال فقط، إذ كانت أسبابهم ومستغلاتهم في مصر؛ عربيُّ الاسم لا غير، إذ كانت أسماؤهم من جناية أهلهم بالطبيعة؛ مُسلُم ما مضى دون ما هو حاضر، إذ كان لا حيلة في أنسابهم التي انحدروا منها

هو كغيره من هؤلاء المترفين المنعِّمين المفتونين بالمدنية، لكل منهم جنسه المصريُ ولفكره جنس آخر

قال: وكان حضرة صاحب السعادة يكلم الباشا بالعربية التي تلعنها العربية، مرتفعاً بها عن لغة الفصيح ارتفاعاً منحطاً. . . نازلاً بها عن لغة السوقة نزولاً عالياً. . . فكان يرتضخ لكنة أعجميةً بينا هي في بعض الألفاظ جرسٌ عال يطن، إذا هي في لفظ آخر صوت مريض يئنّ، إذا هي في كلمة ثالثة نغم موسيقي يرن. ورأيته يتكلف نسيان بعض الجمل العربية ليلوي لسانه بغيرها من الفرنسية، لا تظرفاً ولا تملحاً ولا إظهاراً لقدرة أو علم، ولكن استجابة للشعور الأجنبي الخفي المتمكن في نفسه. فكانت وطنية عقله تأبى إلا أن تكذِّب وطنية لسانه، وهو بإحداهما زائفٌ على قومه، وبالأخرى زائف على غير قومه.

فلما انصرف الرجل قال الباشا: أفٍّ لهذا وأمثال هذا! أفٍ لهم ولما يصنعون! إن هذا الكبير يلقبونه (حضرة صاحب السعادة)، ولأشرفُ منه والله رجلٌ قرويُ ساذج يكون لقبه (حضرة صاحب الجاموسة). . . . نعم إن الفلاح عندنا جاهل علم، ولكن هذا أقبح منه جهلاً فانه

جاهلُ وطنية

ثم إن الجاموسة وصاحبها عاملان دائبان مخلصان للوطن؛ فما هو عمل حضرة (صاحب اللسان المرقع) هذا؟ إن عمله أن يعلن برطانته الأجنبية أن لغة وطنه ذليلة مهينة، وأنه متجرد من الروح السياسي للغة قومه إذ لا يظهر الروح السياسي للغةٍ ما إلا في الحرص عليها وتقديمها على سواها

كان الواجبُ على مثل هذا ألا يتكلم في بلاده إلا بلغته، وكان الذي هو أوجبُ أن يتعصب لها على كل لغة تزاحمها في أرضها، فترك هذا وهذا وكان هو المزاحم بنفسه؛ فهو على أنه (حضرة صاحب سعادة) لا يُنزل نفسه من اللغة القومية إلا منزلة خادم أجنبي في حانة

أتدري ما هو سر هؤلاء الكبراء وهؤلاء السَّراة الذين يطمطمون إذا تكلموا فيما بينهم؟ إنهم عندنا طبقات:

أما واحدة فأنهم يصنعون هذا الصنيع منجذبين إلى أصل راسخ في طباعهم مما تركه الظلم والاستبداد والحمق في زمن الحكم التركي. فهم يُبدون جوهرَ نفوسهم لأعينهم وأعين الناس، كأن اللغة الأجنبية فيما بينهم علامة الحكم والسلطة واحتقار الشعب واستمرار ذلك الحمق في الدم. . . وهم بها يتنبَّلون

وأما طبقة فإنهم يتكلفون هذا مما في نفوسهم من طباع أحدثها النفاقُ والخضوع والذلُّ السياسي في عهد الاحتلال الإنجليزي؛ فاللغة الأجنبية بينهم تشريف واعتبار، كأنهم بها من غير الشعب المحكوم الذي فقد السلطة وهم بها يتمجدون

وأما جماعة فأنهم يتعمدون هذا يريدون به عيب اللغة العربية وتهجينها إذ اتخذوا من عداوة هذه اللغة طريقة انتحلوها ومذهباً انتسبوا إليه؛ وفيهم العالم بعلوم أوربا والأديب بأدب أوربا؛ وذلك من عداوتهم للدين الإسلامي إذ جعل هذه اللغةَ حكومةً باقيةً في بلادهم مع كل حكومة وفوق كل حكومة؛ وهم يزدرون هذا الدين ويُسقطون عن أنفسهم كلَّ واجباته.

وهؤلاء قد خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً إذ يغلون في مصريتهم غلواً قبيحاً ينتهي بهم إلى سفه الآراء وخفة الأحلام وطيش النزعات فيما يتصل بالدين الإسلامي وآدابه ولغته. وما أرى الواحد منهم إلا قد غطى وصفُه من حيث هو رقيعٌ، على وصفه من حيث هو عالم أو أديب أو ما شاء. إن هذا لمقتٌ (كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا)

ومن أثر تلك الفئات الثلاث نشأت فئةٌ رابعة تحوَّل فيهم ذلك الخلط من الكلام إلى طريقة نفسية في النفس، فهم يُقحمون في كتابتهم وحديثهم الكلمات الأجنبية ويحسبون عملهم هذا تظرفاً ومعابثةً ومجوناً، على أنه هو الذي يُظهِرُ لعين البصير مواضع القطع التاريخي في نفوسهم، وأماكن الفساد القومي في طبيعتهم، وجهات التحلل الديني في اعتقادهم. هؤلاء يكتب أحدهم (النرفزة) وهو قادر أن يقول الغضب، (والفلير) وهو مستطيع أن يجعل في مكانها المغازلة، (وسكالنس) وهو يعرف لفظة أنواع وألوان، وهكذا وهكذا: ولا والله أن تكون المسافةُ بين اللفظين إلا المسافة بعينها بين قلوبهم ورشد قلوبهم

وما برح التقليدُ السخيف لا يعرف له باباً يلج منه إلى السخفاء إلا باب التهاون والتسامح؛ ونحن قومٌ ابتُلينا بتزوير العيوب على أنفسنا وعدِّها في المحاسن والفضائل، من قلة ما فينا من الفضائل والمحاسن. وبهذه الطبيعة المعكوسة نحاول أن نقتبس من مزايا الأوربيين فلا نأخذ أكثر ما نأخذ إلا عيوبهم إذ كانت هي الأسهلَ علينا، وهي الأشكلُ بطبعنا الضعيف المتسامح المتهاون

ومن هذا تجد مشاكلنا الاجتماعية على أنها أهونُ وأيسرُ من مشاكل الأوربيين، وعلى أن في ديننا وآدابنا لكل مشكلة حلها - تجدها هي علينا أصعبَ وأشدَّ لأننا ضعفاء ومتخاذلون ومقلدون ومفتونون، وكل ذلك من شيء واحد: وهو أن أكثر كبرائنا هم أكبر بلائنا

قال صاحب السر: ثم ضحك الباشا ضحكته الساخرة وقال: كيف تصنع أمة يكون أكثر العاملين هم أكبر العاطلين، إذ يعملون ولكن بروح غير عاملة. . .

(طنطا)

مصطفى صادق الرافعي

طور جديد في تاريخ أوربا السياسي

بقلم باحث دبلوماسي كبير

تجوز أوربا اليوم مرحلة فاصلة في تاريخها القومي والسياسي. وقد ظهرت الأعراض الأولى لهذه المرحلة الجديدة في التاريخ الأوربي عقب الحرب الكبرى، إذ قامت عصبة الأمم لتحقق أمنية عالمية، ولتؤيد مبادئ السلام والتفاهم بين الأمم، ولتحاول القضاء على الحرب كأداة للسياسة القومية؛ وقد كان قيام العصبة وما تحمل من مبادئ ومثل

جديدة في السياسة الدولية، وفي علائق الأمم ظاهرة جديدة في تاريخ أوربا السياسي؛ فقد كانت أوربا حتى الحرب الكبرى تمثل من الناحية العامة كتلة معنوية موحدة، وكانت تأخذ بزعامة العالم القديم، وتحاول دائماً أن تفرض عليه حضارتها وسلطانها السياسي؛ وكانت أوربا تحتفظ باستقلالها المعنوي وسيادتها القديمة بين الشرق القديم وأممه من ناحية وبين العالم الجديد (أمريكا) وأممه من ناحية أخرى؛ ولكن الحرب الكبرى أسفرت عن ظاهرة جديدة هي تراجع أوربا عن دعواها القديمة في الاستئثار بزعامة العالم القديم، وإفساحها المجال لزعامة أمة عظيمة ناهضة هي اليابان التي استطاعت في الأعوام العشرة الأخيرة أن تقوض أسس النفوذ الأوربي في الشرق الأقصى، وشهدت أوربا لأول مرة تدخل العالم الجديد في شؤونها الحيوية؛ وقامت عصبة الأمم لتجمع أمم الشرق وكثيراً من أمم العالم الجديد مع أوربا في صعيد واحد؛ وبذلك نزلت أوربا أمام تطور الظروف والحوادث العالمية عن زعامتها القديمة واستئثارها القديم بالقيادة السياسية والمعنوية في شؤون العالم

وهذا التطور في موقف أوربا يرجع إلى الثغرة العميقة التي أحدثتها الحرب الكبرى في القومية الأوربية؛ فقد خرجت أوربا من الحرب محطمة ناضبة الموارد، وانقسمت إلى معسكرين كبيرين هما معسكر الغالبين ومعسكر المغلوبين؛ واستأثر الفريق الظافر مدى حين بالزعامة في توجيه الشؤون، فأملى على المغلوب شروطه المرهقة، وعمل على تمزيق الوحدات السياسية القديمة، وإحياء قوميات ناشئة ليحقق بقيامها أغراضاً عسكرية وسياسية؛ وبذلك مزقت أوربا نفسها، واضطرمت الأحقاد القومية القديمة أضعاف ما كانت قبل الحرب؛ وكان اضطرامها أشد في الجبهة المغلوبة أو المغبونة؛ ولم يلبث أن أسفر هذا الاضطرام عن النتيجة المحتومة، أعني الانفجار؛ فقامت الفاشية في إيطاليا ساخطة على

هذه الزعامة وهذا الاستئثار في استخلاص المغانم والأسلاب وفي توجيه الشؤون، وأخذت تعمل على إنشاء قومية إيطالية حديثة، تضطرم بمختلف الأطماع المشروعة وغير المشروعة، وتسرف في الحقد، وفي الوعيد والتحدي، وتمعن في انتهاك النظريات والمبادئ القديمة المتعلقة بالحقوق والحريات الشعبية، وتسخر من دعوة السلام ومن مبادئ العدالة الدولية. وقامت الاشتراكية الوطنية بعد ذلك في ألمانيا، وشعارها الانتصاف لألمانيا مما نزل بها من فروض مرهقة، وتحريرها من الأغلال التي طوق بها الغالب عنقها، والارتفاع بها إلى مكانتها القديمة في معترك الحرب والسياسة؛ ولكن الاشتراكية الوطنية، عملت من ناحية أخرى على إذكاء الأحقاد القومية والجنسية، بصورة لم يسمع بها، وقد فاقت الفاشية في عنف أساليبها، وفي نزعاتها العسكرية والاعتدائية، وفي سحق الحقوق والحريات الفردية، وإنكار الحقوق العامة، وفي تحدي كل مبادئ العدالة الدولية، وعادت النظرية الألمانية القديمة (الحق هو القوة) في أخطر صورها؛ ولم تشهد أوربا منذ حرب الثلاثين، والحروب الدينية موجة في الأحقاد والمنافسات القومية والجنسية أشد من تلك التي تثيرها اليوم الفاشية الإيطالية والنازية الألمانية

تلك هي الظاهرة الأولى في انحلال القومية الأوربية. وأما الظاهرة الثانية فهي معركة المبادئ التي تضطرم اليوم في أوربا بصورة لم تشهدها منذ الثورة الفرنسية؛ ولقد بدأت هذه المعركة قبل نهاية الحرب الكبرى، حينما ظفرت البلشفية بتحطيم دولة القياصرة في روسيا، وأقامت مكانها جمهورية شيوعية تمثل سيادة الكتلة العاملة؛ وكانت المعركة يومئذ واضحة محدودة المدى؛ فقد كانت البلشفية في ناحية، وكانت أوربا كلها في الناحية الأخرى تناضلها وترد غزوها؛ بيد أن هذا النضال بين البلشفية والرأسمالية يغدو اليوم في المحل الثاني بالنسبة لمعركة أشد وأبعد مدى تضطرم بها أرجاء القارة الأوربية، تلك هي معركة الفاشية والديموقراطية؛ فالفاشية أو بعبارة أخرى نظم الطغيان العنيف التي تحمل لواءها إيطاليا وألمانيا، تحاول أن تغزو الديموقراطية الأوربية وأن تصرعها؛ والديموقراطية الأوربية تناضل عن كيانها بكل ما وسعت. وما زال حصن الديموقراطية في غرب أوربا: في فرنسا وإنكلترا؛ بيد أنه يمكن أن يقال أيضاً إن روسيا البلشفية تنحاز في هذا الصراع إلى جانب الديموقراطية؛ وليس أدل على خطورة هذا الصراع، مما نرى في الحرب

الأهلية الأسبانية من انتظام القوى الفاشستية والقوى الديموقراطية وجهاً لوجه، واعتماد الأولى على معاونة إيطاليا وألمانيا، واعتماد الثانية على معاونة روسيا وفرنسا، وظهور الحرب الأسبانية كلها بمظهر الصراع بين هاتين الجبهتين الخصيمتين. فهذا الصراع المذهبي الذي يخرج اليوم من طور الجدل والنقاش، إلى طور النضال المادي، يهز أسس القوميات الأوربية ويهددها بأروع الأخطار التي يمكن تصورها

وهنالك ظاهرة عامة ليست أقل خطورة وأثراً من تطور تاريخ أوربا السياسي، تلك هي انهيار المبادئ العامة التي يقوم عليها القانون الدولي، وانهيار الضمانات القومية والدولية التي كانت تكفل احترامه وتطبيقه. ففي الأعوام الأخيرة رأينا بعض الدول الكبرى، مثل اليابان وإيطاليا وألمانيا، تعمل على انتهاك المعاهدات والحقوق القومية والدولية بجرأة ترجع بالسياسة الدولية إلى فوضى العصور الوسطى؛ فاليابان تعتدي على منشوريا الصينية وتفتحها بالقوة المسلحة أمام سمع العالم وبصره، وتتحدى عصبة الأمم، ثم تغادرها لكي تطلق العنان لمشاريعها الاستعمارية دون أي تدخل أو وازع، وما زالت تتابع اعتداءها على الأراضي الصينية طبقاً لخطة منظمة ترمى إلى بسط حمايتها المسلحة على هذه الإمبراطورية الشاسعة؛ وإيطاليا تحذو حذو اليابان، فتنظم اعتداءها على الحبشة، وتجرد أقوى وأحدث وحداتها على الشعب الحبشي الضعيف، وتمطره وابلاً من القنابل الجوية والغازات الخانقة، ثم تنتزع منه أرضه قسراً، وتضمها إلى إيطاليا؛ وذلك على رغم كل العهود والمواثيق الدولية التي قطعتها على نفسها باحترام استقلال الحبشة ووحدتها الجغرافية، وبرغم ما اتخذته عصبة الأمم في هذا الظرف من تقرير العقوبات الاقتصادية على إيطاليا؛ وها هي ذي الفاشية تباهي اليوم بظفرها، وتسخر جهاراً من عصبة الأمم ومن كل المعاهدات والمواثيق الدولية، وهي على أهبة لتمزيق أي ميثاق وأية معاهدة لا تتفق مع أطماعها العسكرية والاستعمارية. وأما ألمانيا الهتلرية، فقد خصت بضرباتها أعظم دستور دولي وضع لأوربا منذ معاهدة فينا، ونعني معاهدة الصلح أو معاهدة فرساي، فنقضت جميع نصوصها العسكرية التي كانت تقيد حريتها في التسليح، والتي تتعلق بتحريم منطقة الرين، ونقضت أخيراً نصوصها الخاصة بنظام الملاحة الدولية في بعض الأنهار الألمانية؛ ونقضت وثيقة دولية هامة أخرى هي ميثاق لوكارنو الذي عقد لتدعيم معاهدة فرساي وتأمين السلام في الحدود الفرنسية الألمانية؛ وحطمت ألمانيا بذلك آخر القيود العسكرية والسياسية التي فرضت عليها في معاهدة الصلح. ومهما قيل في تبرير هذا النكث من جانب ألمانيا وكونها حملت عليه مضطرة لتقضي بذلك على الأغلال الظالمة التي فرضتها عليها معاهدة الصلح، والانتصاف لسياستها القومية، وكرامتها كدولة عظمى، فإنها بلا ريب قد عملت أكثر من أي دولة أخرى لتمزيق العهود والمواثيق الدولية، ولتقويض أسس الثقة بين الأمم وإضعاف هيبة القانون الدولي؛ ولا ريب أنها قد أعادت للعالم ذكرى اعتدائها على البلجيك في سنة 1914 وذكرى نظريتها الشهيرة في المعاهدات الدولية بأنها (قصاصات ورق) لا يعتد بها

فهذه الظواهر والظروف الخطيرة تهز اليوم أسس الدستور الدولي الذي عاشت القارة الأوربية في ظله منذ معاهدة فينا، - أعني منذ قرن وربع - وتدفع بها إلى طريق جديد لم تتضح طوالعه بعد. بيد أن هنالك ما يدل على أن هذا المصير الذي تتهيأ أوربا لاستقباله سيكون هائلاً مروعاً؛ فالدول العظمى تستعد كلها لخوض أعظم معارك عرفها التاريخ؛ والدول الصغرى ترتجف كلها فرقاً من المستقبل، وتحسب لاعتداء القوة المسلحة أعظم حساب؛ وهي لا تستطيع أن تعتمد على قوة المواثيق والضمانات الدولية كما كانت في الماضي بعد الذي رأته من عبث بعض الدول العظمى بكل هذه المواثيق والضمانات، ولكنها تزمع في جميع الأحوال ألا تسقط دون دفاع: فالبلجيك وهولندة وتشيكوسلوفاكيا والنمسا وسويسرة وغيرها من الدول الصغيرة تجد في تسليح نفسها بكل ما وسعت، وبعضها مثل البلجيك وهولندة ينظر بمنتهى الجزع إلى مصير أملاكه الاستعمارية الواسعة؛ على أن هذه الدول تندمج غالباً في إحدى الجبهتين الأوربيتين اللتين تستعدان لخوض المعركة القادمة، ومصيرها يتوقف على مصا ير المعركة ذاتها.

وقد فقدت أوربا القديمة زعامتها العالمية، وفقدت حتى زمام سياستها الخاصة؛ فاليوم نجد دولة أوربية عظمى هي ألمانيا تحالف دولة أسيوية عظمى هي اليابان ضد روسيا

وضد الجبهة الأوربية التي تندمج فيها. وهذا تطور خطير في سياسة أوربا التقليدية التي حرصت دائماً أن تواجه الشرق متحدة؛ وهذه ظاهرة تعود بنا إلى القرن السادس عشر والسابع عشر حينما كانت فرنسا تستعين بمحالفة الدولة العثمانية على قتال خصومها الأوربيين ولا سيما أسبانيا؛ وقد استطاعت أوربا أن تقضي على هذه الظاهرة، وأن تقف طوال القرن التاسع عشر متحدة ضد الدولة العثمانية حتى انتهت بتمزيقها. وفي الحرب الروسية اليابانية كانت أوربا كلها تتوجس شراً من انتصار اليابان، ولو أن دولا أوربية كانت تتمنى ألا تنتصر روسيا انتصاراً يؤدي إلى تقوية سلطانها في القارة؛ ولما انتصرت اليابان ارتاعت أوربا، وذاعت من ذلك الحين صيحة الخطر الأصفر، واجتمعت أوربا على مقاومة الاستعمار الياباني حتى كانت الحرب الكبرى فانضمت اليابان إلى الحلفاء ضد ألمانيا، واستولت على أسلابها الاستعمارية في الصين. أما اليوم فان ألمانيا تحالف اليابان ضد أوربا، وتحدث بذلك ثغرة عميقة في إجماع أوربا القديم، وتجمع الشهوات العسكرية والاستعمارية بين الجنس الأصفر الذي اعتبر فيما مضى خطراً على أوربا، وبين الجنس (الآري) الذي تزعم ألمانيا الهتلرية أنه أفضل أجناس العالم

وأخيراً نجد العالم الجديد (أمريكا) يتأهب للأخذ بنصيبه في توجيه سياسة القارة القديمة؛ وقد دخلت أمريكا الحرب إلى جانب الحلفاء، وعاونت على ظفرهم في المعركة الحاسمة، واشتركت في شؤون أوربا مدى حين، ولكنها انسحبت منها حينما تفاقمت الفوضى الدولية في أوربا، وعادت إلى سياستها التقليدية من اعتزال الشؤون الأوربية. بيد أنه يلوح لنا أن التحالف الياباني الألماني قد يحملها على العود إلى الاشتراك في السياسة الأوربية مرة أخرى، والى محالفة الدول الغربية على العمل لمصالحها المشتركة في الشرق الأقصى، وهذا عامل خطير أيضاً في إضعاف الطابع الأوربي للسياسة الدولية العامة

والخلاصة أن أوربا فقدت زعامتها السياسية والاجتماعية القديمة، وأخذت تندمج شيئاً فشيئاً في الوحدة العالمية الكبرى؛ وقد فقدت فكرة الحضارة الأوربية، وخصومة الشرق والغرب، والتضامن الأوربي في الشؤون الاستعمارية كثيراً من معانيها وأوضاعها القديمة التي كانت تسبغ على أوربا مكانة الزعامة والوحي والإرشاد

(* * *)

سوء تفاهم

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

كانت الساعة العاشرة حين خرجت السيارتان إلى الطريق العام - أو صعدتا إليه إذا أردت الدقة فان الأرض هناك، في لبنان، قلما تكون مستوية - وكنت أقود إحداهما ومعي فيها زوجتي وأبنائي، وفي الثانية أقارب لنا يقضون الصيف في (ضهور الشوير) وقد مروا بنا في بكفيا - حيث كنا نقضي الصيف - ليرافقونا إلى (الشاغور) حيث دعينا إلى الغداء عند أسرة صديقة لنا من يافا. وتوكلنا على الله وأخذنا الطريق إلى بيروت وكله من بكفيا انحدار وبعضه أوعر من بعض، ولكني كنت قد ألفته وزايلني الخوف من التواءاته وتعاريجه الحادة التي يثب عندها القلب إلى الحلق. وكان اليوم مشرقاً والمناظر على الجانبين مما ترتاح العين إليه وينشرح الصدر له، والطريق أحسن ما يكون نعومة وملاسة وإن كان مما يدير الرأس أحياناً أن يصوب المرء عينه عن الجبل الأخضر من ناحية إلى الوادي العميق من الناحية الأخرى؛ وكان لا بد من العناية والحذر في السير لشدة الانحدار وكثرة المنعرجات وازدحام الطريق بالصاعدين والنازلين فيه بالسيارات الخفيفة والثقيلة والضخمة والصغيرة، فكان البطء الذي اضطرنا إليه الحذار من أسباب المتعة، فاستطعنا أن نتملى بالمناظر التي حولنا وأن نتحدث كما نشاء ونجنب الصمت الذي تدعو إليه السرعة والذي لا يكون إلا ثقيلاً على المسافرين واحتجنا أن نتزود من (البنزين) ولم يكن معنا إلا ورق مصري، فقالت زوجتي وأنا أناول الرجل ورقة مصرية بجنيه وأخذ الباقي: (ماذا أعطاك؟)

ففتحت لها كفي على ما فيه فأخذته وعدَّته، ثم سألتني: (كم أعطوك؟. . إني لا أفهم!)

قلت: (الجنيه المصري يساوي 394 قرشاً سورياً، وقد أخذوا حقهم وأعطوني حقي وهو معك)

فقالت زوجتي والتفتت لأقاربنا (لست أفهم. . . لقد كان الجنيه يساوي 397 قرشاً)

فقلت: (ولكن الفرنك ارتفع وارتفعت تبعاً له العملة السورية)
فقالت مستغربة: (ولكن لماذا أهملت أن تستبدل النقود المصرية قبل أن يهبط)
قلت وأنا أبتسم: (إنه لم يهبط بل ارتفع)
فقالت وهي تخلط: (كيف يكون ارتفع وهو قد هبط. . ألسنا نأخذ أقل)
فقالت قريبتنا: (تمام. . 394 أقل من 397)
فقلت: (دعيني أشرح لك الأمر. . تصوري أن الفرنكات التي في الدنيا كلها انقلبت تفاحاً)
فقالت زوجتي: (نعم)
قلت: (وتذهبين إلى السوق وتجدين التفاح كثيراً فتشترين الأقة بخمسة قروش)
قالت: (نعم)
قلت: (وفي أثناء الليل يرتفع التفاح)
فقالت قريبتنا: (كيف يرتفع)
قلت: (يقل. . هه. . يتعفن. . يسرق. . تصيبه آفة. . . يقل والسلام؛ فإذا ذهبت تشترين أخذت بالقروش الخمسة أقل من أقة)
فقالت قريبتنا: (يعني أنه يهبط)
قلت: (يصعد)
قالت: (كيف يصعد وهو أقل؟)
فقال زوجها: (اسمعي. . أنا أفهمك المسألة. . . تعرفين مقياس الحرارة)
قالت: (بالطبع. . ما له؟)
قال (لا شيء. . تنظرين إليه يوماً فتجدين أن الرقم الذي يشير إليه ثلاثون؟)
قالت: (نعم)
قال (وفي اليوم الثاني تنظرين إليه فإذا الرقم قد صار 28. . . ومعنى هذا أنها هبطت)
قالت: (نعم)
قال: (أما الفرنك فان المعنى يكون العكس)
قالت: (نعم)
قال: (هذا كل ما هنالك)
فنظرت إليه كالمذهولة وكنا نحن نضحك؛ فقالت زوجتي وهي تجرها: اسمعي. . . إنهم يضحكون منا ويخيل إلي أن أسلم طريقة أن نقول إن الفرنك صعد كلما فهمنا أنه هبط)
واستأنفنا السير وكنا قد ملنا عن طريق بيروت إلى طريق (عالية) وفرغنا من الانحدار وبدأ الصعود والطريق في هذا الجبل أوسع وأرحب والتواؤه أقل حدة، فأطلقنا للسيارتين العنان، ولم تمنع السرعة زوجتي أن تتكلم فقالت: (إني أشعر أننا لن نجد زينب) تعني الصديقة التي دعتنا إلى الغداء. ففزعت وكادت عجلة القيادة تضطرب في يدي وقلت لها بصوت تشي لهجته بالقلق: (لماذا؟)
فلم تجب بل سألتني: (ماذا قلت لها بالتليفون. . بالضبط؟)
قلت: (قلنا كلاماً كثيراً. . وألححت عليها أن تجيء لتتغدى معنا في بكفيا ولكنها أصرت إصراراً شديداً على أن نذهب إلى الشاغور. . وأذكر تماماً وبغاية الوضوح أنها وصفت لي عين الماء التي هناك)
فأشارت إلي بكفها أن اسكت وقالت: (ماذا قلت لها بالضبط. هذا ما أريد أن أعرفه فلا تغرقه في طوفان من الوصف الذي لا يفيد شيئاً. . . وإذا كنت تريد أن تصف الشاغور فانتظر حتى تراه)
قلت: (ماذا قلت بالضبط. .؟ ياله من سؤال. . اتفقنا على اليوم. . وأؤكد لك أني لم اترك عندها أي شك فيه. . صرخت حتى بح صوتي. . قلته بالعربية. . وقلته بالفرنسية فصاحت زوجتي
قالت: (بأعلى من هذا الصوت)
قالت: (هل قلت. هذا معناه السبت لا الأحد)
فتداركت الخطأ وقلت وأنا مضطرب (لا لا لا لا بل قلت
وجرى ببالي أني لا أزال أغلط في أسماء الأيام باللغة الفرنسية ولكني كافحت هذا الخاطر حتى نفيته وطردته وقلت لها: (وهبيني أخطأت فقد قلت لها بالإنجليزية ولا

يمكن أن أغلط في هذا)
قالت: (سنرى)
فقلت وأنا محنق: (سنرى. . ألا يمكن أن أتكلم بالتليفون من غير أن تتهميني بالتخليط. . . هل هذا التليفون معجز. .؟ سبحان الله العظيم!)
قالت: (طيب اسكت بقى)
فسكت. ووصلنا الشاغور ودخلنا الفندق وسألنا عن السيدة وزوجها فقيل لنا إنها خرجت
معه في الصباح الباكر وإنهما قالا إنهما سيرجعان بعد المغرب؛ فنظرت إليَّ زوجتي نظرة ذات معنى، ولم تكفها النظرة بل راحت تقص الحكاية على أقاربنا بأسلوب وكلام لا يدعان أي شك في أني حمار من أطول الحمير آذاناً وأنا ساكت، لأن كل شيء كان يثبت أنها هي الصادقة وأنا الكاذب أو على الأقل المخطئ. ولا أحتاج أن أقول إني اضطررت أن أطعم كل هذا الجيش على حسابي. ولكن اليوم كان على الرغم من هذه الخسارة الفادحة ممتعاً وكان أحلى ما فيه أننا نمنا على الأرض بعد الغداء الباهظ التكاليف بجانب الماء الذي يتدفق كالشلال من العين وهو يرغي ويزبد ثم يتحدر في أقنية ضيقة محفورة له تتخلل الحديقة الواسعة
ولما آن أن نعود تركت هذه الرقعة لصديقنا وزوجته:
لا شك أن النسيان أرخص. ولكنه كلفني ما أخشى أن أحسبه، فقد جئنا إليكما من غير) أن نفطر فنجوتما أنتما ووقعت أنا في الفخ؛ وصدق مرة أخرى أن من حفر بئراً لأخيه وقع فيها. على أن هذا هين وإنما الذي يضيق صدري به ولا أكاد أقوى على احتماله أن زوجتي تحملني التبعة عن هربكم، وإذا كنت لا أطمع في أن تردوا إلي ما أنفقته على إشباع هذه البطون الجائعة كلها، فأني أطمع أن تردوا ثقة الزوجة بي وذلك بأن تعترفوا بأنكم هربتم)
ولم نكد نبلغ بيتنا حتى وقفت الصانعة - كما يسمون الخادمة في لبنان - وقالت لنا: إن السيدة زينب وزوجها كانا هنا ودفعت إلي ورقة فيها هذه العبارة الوجيزة:
لا بأس! لعلكم نسيتم. والآن يجب أن تجيئوا أنتم إلينا. ولن نهرب منكم كما هربتم) منا)
قرأتها وهممت أن أدسها في جيبي ولكن زوجتي سألتني ماذا فيها؟ فقلت إنهما يعترفان بخطئهما، ودفعت إليها الرقعة وذهبت أعدو. . وكيف أقنعها بأن الذي وقع خطأ غير مقصود. . كلا.
لا فائدة. والهرب أحجى وأرشد. . . حتى تهدأ الفورة
إبراهيم عبد القادر المازني
في الأدب المقارن
غرض الأدب في الأدبين العربي والإنجليزي
للأستاذ فخري أبو السعود
التعبير عن خوالج النفس الإنسانية وتأثراتها بمظاهر الكون المحيطة بها هو غرض الفنون جميعاً ومن بينها الأدب. ولا يرقى الأدب إلى مرتبة الفن السامي حتى يكون ذلك التعبير عن المشاعر النفسية غرضه الوحيد، منزهاً عن كل غرض خارجي أو مطلب مادي؛ فإذا خالطه شيء من ذلك هبط إلى مرتبة الصناعة، ولم يعد له في النفوس ذلك الوقع المطرب الذي تتركه فيها الفنون الجميلة
وقد ظل التعبير الحر الصادق عن نوازع النفس غرض الأدب الإنجليزي الوحيد في أغلب عصوره، فلم يكن غرض الكاتب أو الشاعر مما ينشئ إلا الإفصاح عما يشعر به أو يفكر فيه؛ فزخر الأدب في عصوره المتوالية بألوان الشعور وأشتات الأفكار في مختلف مشاعب الحياة ومتباين حالات النفوس؛ وتناول بالتصوير والتحليل دخائل النفوس وأغوار الطباع وأطوار الأفراد والمجتمعات، ولم يدع فحوله شاردة ولا واردة من نوازعهم وبوادرهم ومشاهداتهم وتأملاتهم إلا أثبتوها في منشآتهم وأبرزوها في روائع الصور
وكذلك كان التعبير الصادق المنزه عن الغرض الخارجي غاية الكثير مما نظمه الشعراء وسطره الكتاب في العربية، وحفل الأدب العربي بالرائع من الحكم والأمثال والدقيق من أوصاف النفس وغرائزها وميولها؛ وأمثلة ذلك أكثر من أن تحصى أو يشار إليها،

وإنما نذكر منها الوصايا المنسوبة إلى بعض فحول العربية، كذي الإصبع العدواني وعلي بن أبي طالب، ومنها وصية ابن هراسة لابنه حيث يقول: (إن من الناس ناساً ينقصونك إذا زدتهم، وتهون عليهم إذا أكرمتهم. ليس لرضاهم موضع فتقصده، ولا لسخطهم موقع فتحذره. فإذا عرفت أولئك بأعيانهم، فأبد لهم وجه المودة، وامنعهم موضع الخاصة، ليكون ما أبديت لهم من وجه المودة حاجزاً دون شرهم، وما منعتهم من موضع الخاصة قاطعاً بحرمتهم)

غير أن في الأدب العربي بجانب ذلك آثاراً كثيرة لم يكن التعبير عن خوالج النفس غرضها، ولا الصدق شعارها، فهي لذلك لا ترقى إلى مرتبة الفن الجميل، ولا تؤثر في النفس تأثيره، وإنما هي أدنى إلى الصناعة؛ لها كالصناعة غرض مادي تؤديه وغاية خارجية تخدمها. ولا غرو كان العرب يسمون النظم والنثر بالصناعتين، ويعدون الأدب (صناعة) أو (آلة) (يتعاطاها) صاحبها، ولم يكن لكلمة (الفن) لديهم ما لها اليوم من المعنى السامي

بلغ الأدب العربي مرتبة الفن السامي في عصر الجاهلية، حين كان أشراف القبائل وحكماؤها يودعون الشعر حكمتهم وإطرابهم وأحزانهم؛ فلما قامت الدولة العربية صحبتها عوامل لم تكن لتساعد على اطراد رقي الأدب في وجهته الصحيحة، بل عملت في غير ناحية على تقهقره وفقدانه ما كان له من الجاهلية من قوة وصدق وسمو، وهي سمات الفن الصحيح، حتى أصبح من السهل تقسيم الآثار الأدبية، بل تقسيم أثار كل أديب مفرد، إلى قسمين: قسم صادق يصدر عن شعور صحيح ويدخل في دائرة الفن السليم، وقسم كاذب مملوء بالمفارقات والمبالغات يمت إلى الصناعة ولا يمت إلى الفن

وأول تلك العوامل ذيوع التكسب بالشعر، فأنه جعل للشعر غرضاً سوى التعبير عن خوالج النفس الذي هو غرض الفنون جميعاً، وصير له غاية مادية هي صلة الممدوح التي قامت مقام الحافز النفسي والشعور الصادق، فسارع إلى الشعر الكذبُ والمبالغة، وهبط عن مرتبة الفن السامي وصار صناعة تمارس ويبرّز فيها ذوو اللباقة والمهارة، لا أصحاب العبقرية والنفوس الكبيرة؛ وداخل النثر من هذه السمات ما داخل الشعر، لأنه مثله سخر نفسه لخدمة الحاكمين

وثاني العوامل هو نزعة المحافظة والتقليد، التي سرعان ما تمكنت من الأدب العربي، حين أشفق العرب على أدبهم ولغتهم ودمائهم مما اجتاحها من هجنة الأعاجم الداخلين في دينهم ولسانهم ومجتمعهم؛ أدى ذلك إلى الضن الشديد بآثار المتقدمين والتبجيل العظيم لأشكال الأدب وصوره في عهدهم، والإعجاب المطلق بأشعارهم وخطبهم ذات اللغة الفصيحة السليمة؛ وتمادى الشعراء فقلدوهم في وعورة الألفاظ أحياناً، وفي المعاني وضرب الأمثال والإستهلال بالنسيب، وتمادى الكتاب فأنحوا على آثار المتقدمين محاكاة واقتباساً وتضميناً؛ وفي مثل هذا الجو من المحافظة والتقليد يخمد الفن الصحيح الذي يصدر عن صادق الشعور، ولا يسود إلا الصناعة التي تتكلف الألفاظ وتتعمل المعاني

وثالث تلك العوامل اعتزال الأدب العربي غيره من الآداب، فهو قد أهمل الأدب اليوناني ولم يتأثر بالأدب الفارسي، إلا قليلاً عن غير قصد، واتصال الأدب بغيره من آداب الأمم شرط أساسي لدوام رقيه في معارج الفن السليم، لأن ذلك الاتصال يدخل في الأدب صادق النظرات والأفكار، التي تشترك فيها الإنسانية جمعاء على اختلاف المشارب واللغات، دون التفات إلى زخارف الألفاظ وتلفيقات المعاني، التي لا تمت إلى الطبع السليم بصلة، ولا تتعلق من الفن الصحيح بسبب. واعتزل الأدب غيره ينحرف به شيئاً فشيئاً عن وجهة الفن القويمة، ويميل به إلى ناحية التكلف والتعمل والتقليد والجمود والصناعة.

ولما كان الكاتب يكتب والشاعر ينظم ونصب أعينهما غايتان: إرضاء صاحب السلطان الذي تسخر له الأقلام، وإرضاء النقاد الذين لا يريدون عن مناهج الأولين حولاً، لم يسعهما إلا الإقلاع عن محاولة التعبير عن شعورهما الصادق، واللجوء إلى محاولة إظهار البراعة ليرضيا الفريقين، فصارت البراعة - لا صدق التعبير عن الشعور - هي غاية الأديب. فالبحتري وابن المعتز والبديع وابن العميد والحريري وأضرابهم، قلما نظموا أو نثروا بغية التعبير الصادق البسيط عن مشاعر حارة تعتلج في نفوسهم ولا

يستطيعون لها حبساً، وإنما كان إبداء البراعة وطلب الإعجاب وتحري الأغراب ديدنهم في معظم ما أنشئوا، وكتاباتهم لذلك - حتى حين يجيدون - فاترة الشعور باردة الوقع لا تنفذ إلى القلب ولا تهز النفس، ربما أوحت إلى المطالع أن أصحابها بارعون، ولكن قلما توحي إليه أنهم نوابغ عظماء ذوو نفوس كبيرة ونظرات بعيدة

ولما جهد الأدباء في تقليد معاني الأقدمين ومناحيهم، واختراع أوصاف الممدوحين ومحامدهم، حتى لم يَعُدْ في مجال المعاني متسع لتكلف، التفتوا إلى الألفاظ يطلبون في مجالها السبق والبراعة، ففشت المحسنات اللفظية، فكانت انحرافاً جديداً للأدب عن جادة الفن القديم؛ وشغل الأدباء بالسجع والجناس والمقابلة وحسن التعليل عن صدق الشعور وصدق التعبير، وركبت الصناعة الأدب من ناحيتيه: ناحيتي المعنى واللفظ

وطلب الأدباء البراعة من طريق آخر: فأقحموا في الأدب ما ثقفوه من مصطلحات العلوم ومسائلها، كعلوم النجوم والكلام والنحو والمنطق، فتجلت البراعة فيما أنشئوه من ذلك ولكنه فقد دبيب الحياة، فمن تقليد قضايا المنطق قول المتنبي:

تقولين ما في الناس مثلك عاشق ... جِدِي مثل من أحببته تجدي مثلي

وقول الشاب الظريف:

رمى فأصاب قلبي باجتهاد ... صدقتم: كل مجتهد مصيب

ومن استخدم مصطلحات النحو قوله:

لأي شيء كسرت قلبي ... وما التقى فيه ساكنان؟

ووقر في نفوس كثير من الأدباء أن الأدب مجال للصناعة والبراعة، وليس مظهراً لأحاسيس النفس ولا مستودعاً لخوالجها. فإذا أعوزهم ممدوح يثنون عليه بما هو ليس أهله من المبالغات، طلبوا البراعة واصطنعوا التظرف بوصف أمر تافه، كحَمل هزيل أو قدح خمر أو محبرة أو يراع، إلى غير ذلك مما لا خطر له في ذاته، ولكنه يمنح الفرصة لطلاب البراعة ليُظهروا لطافة بديهتهم وحسن محاضرتهم ووفرة محصولهم اللغوي.

وكثيراً ما كانوا يتبادلون ذلك في الرسائل الإخوانية، والكتب التي يستهدون فيها الخمور والأقداح والمزاهر والقيان

ولإصدار الأدباء في كتاباتهم عن أغراض مصطنعة بعيدة عن غرض الفن الصحيح نجد الكثيرين منهم يقفون مواقف متناقضة: فيمدح أحدهم الرجل أرفع المدح ثم يذمه أقبح الذم، فإن خاف بطشه عاد مستغفراً متزلفا يقول كما قال الأعشى:

سأمحو بمدح فيك إذ أنا صادق ... كتاب هجاء سار إذ أنا كاذب

ويطلب أحدهم البراعة بتحسين القبيح وتقبيح الحسن، أو بمدح الشيء الواحد وتحسينه ثم ذمه وتقبيحه، كما فعل الحريري حيث جعل أبا زيد يمدح الدينار بمقطوعة من الشعر، ثم يذمه بأخرى حين اقترح عليه بعض الحضور أن (يذمه ثم يضمه)، ويدّعى المتنبي الغرام والصبابة والنحول في مطالع أماديحه، فإذا أفصح عن صادق شعوره وميوله قال إن المجد ليس زقا وقينة، وأن للخود منه ساعة ثم بينهما فلاة، وأنه يرى جسمه يكسى شفوفاً تَرُّبه، وقال:

ومن خبر الغواني فالغواني ... ضياء في بواطنه ظلام

وجاء النقاد فأقروا الشعراء على هذا التناقض، وأباحوهم ضروب اللغو والهذر، وأخذوا تلفيقاتهم في قصائد المديح مأخذ الجد، وأضاعوا وقتهم ومنطقهم وحججهم في الموازنة والمفاضلة بينها، وفضلوا شاعرا على شاعر، لا لصدق شاعر يته وصدق فهمه للحياة، ولكن لبراعته في احتيال الحيل اللفظية والمعنوية لتفخيم شأن ممدوحه. فقدامة بن جعفر مثلا يقدم الأعشى في قوله في ممدوحه:

وإذا تجيء كتيبة ملمومة ... شهباء يخشى الراهدون نهالها

كنت المقدم غير لابس جُنة ... بالسيف تضرب مُعْلَما أبطالها

على كثير لقوله في ممدوحه:

على ابن أبي العاصي دِلاص حصينة ... أجاد المُرَئ نسجها وأذالها

يود ضعيف القوم حمل قتيرها ... ويستظلع القرم الأشم احتمالها

لأن الأول جعل صاحبه يغشى الوغى غير مدرع، والثاني وصف صاحبه بالتحصن وراء الدروع الثقيلة، يفاضل قدامة بينهما بصرف النظر صرفا تاماً عما إذا كان المعنى

المذكور في كل حالة صحيحاً، فالمسألة لا تتعلق لديه بالتزام الصدق، بل البراعة في الاختراع والمبالغة وتهويل أمر الممدوح ووصفه بكل عظيمة صحيحة أو مزعومة، ممكنة أو مستحيلة

وبهذا المقياس المجحف الذي لا يقيم اعتباراً لصدق الشعور والتعبير، بل يجعل الاعتبار كل الاعتبار للبراعة واللباقة والخفة والاحتيال، قاس كثير من النقاد آثار الأدباء وفاضلوا بينهم. بل إن النقاد صرفوا جل اهتمامهم إلى ذلك الضرب الصناعي من الأدب الذي قوامه التعمل والاختراع، وعماده الأقيسة المنطقية، بل المغالطات المنطقية، وأهملوا الضرب الصادق الذي يُترجم عن شعور الأدب الصحيح. فإذا رأوا أثراً من هذا القبيل مروا به كراماً ولم يروه أهلا للنقد والتحليل، لأنهم يرونه بسيطاً عادياً غير محتو على براعة لفظية أو معنوية. والأدب كان في نظر كثير منهم صناعة لا فناً. وقد سمى أحدهم وهو أبو هلال العسكري كتابه في أصول الشعر والنثر: (كتاب الصناعتين)

والحق أن أكثر ما يعرف اليوم بالفنون الجميلة كان لدى العرب صناعات؛ فالأدب والموسيقى والعمارة والنحت والتصوير كل هذه كانت أشبه بالصناعات، لأنها كانت في أكثر الأحيان تخدم أغراضاً مادية خارج ذاتها، وكانت تنتج نتاجها في ظلال الملوك والكبراء الذين يسخرونها لأبهتهم ومتعتهم، ولم تنل من الاستقلال الفني والغرض الذاتي ما

لها اليوم. ومن ثم ظل الفنانِ الأخيران دائماً في حالة بدائية لم يتعدياها إلى أطوار الفن السامية

ولقد تترعرع الفنون الأخرى كالعمارة والنحت والتصوير في ظلال الرعاية والمنحة من جانب الأمراء، كما حدث في عهد النهضة الإيطالية التي أنجبت رافائيل وميكلانجو ودافنسي وعشرات من أمثالهم، أما الأدب فهو أشد احتياجاً إلى الحرية وأسرع انحطاطاً وركوداً في ظلال الاستبداد، فأن الملكية المسّتبدة إذا سخرته لأغراضها وسيرته في ركابها حَمَلَتْه على إخفات الحق وإغفال الصدق ونسيان رسالته؛ ولهذا ازدهر الأدب في إنجلترا أكثر من ازدهار غيره من الفنون التي اقتبسها الإنجليز عن أهل القارة، حتى بارى الإنجليز غيرهم في الآداب وبذوهم؛ فقد ألفى الأدب في إنجلترا من حرية الفكر والتعبير أكثر مما ألفى في غيرها. ولنفس السبب ازدهر الأدب في المدن الإغريقية، على حين كان رقيه في روما الملكية قصير العمر

لم يُسخِّر الأدب الإنجليزي نفسه لتمليق الأمراء والكبراء، كما سخَّر الأدب العربي نفسه، ولم يصرفه طلب رضاهم عن طلب رضى الفن الصحيح، وإن كان بعض رجاله - منذ عهد شكسبير - قد تزلفوا إلى سلطان آخر غير سلطان الحاكمين، فطلبوا رضى الجمهور من رادة المسارح وقراء الكتب، ولو بتضحية رضى الفن أحياناً. على أن ذك قلما كان؛ وأكثر الأدباء احتفظوا بسمو الأدب وأرستقراطيته، ولم يلبث انتشار التعليم أن وسع دائرة القراء الذين يقدرون الفن الصحيح ويتسامون عن الفضول؛ وانقسم الكتاب إلى فريق محافظ على سمو الأدب، فهم عماد الأدب السامي، وفريق ينشد إقبال العامة باللغو والهراء. ولم يحدث أن هبط الأدب جملة عن مرتبة الفن الصحيح المنزه الغرض

كذلك ربأ بالأدب الإنجليزي أن تركبه الصناعة وتغلبه على غرضه الصحيح، دوام تبصر رجاله في الآداب الكلاسية والأوربية المعاصرة، فكان معين تلك الآداب يجري في شرايينه من آن لآخر، فيجرد ما فَتَرَ فيها من دفعة الحياة، فكلما مر الأدب بطور ركود تغلب فيه الصناعة الفن الصحيح - كذلك الذي مر به في بعض القرن الثامن عشر - شعر الأدباء بعظيم الفرق بينه وبين الآداب الأخرى، فانتشلوه من وهدته

ومما ساعد على احتفاظ الأدب الإنجليزي بصبغته الفنية، وحماه الهبوط إلى درك الصناعة

الرخيصة، إطلاع فحوله على آثار الفنون الأخرى الراقية، من تصوير ونحت، تلك التي تشترك جميعاً في غرضها الذي ذكر في أول هذه الكلمة، وهو التعبير الصادق عن الشعور الصحيح، فكان للأدب دائماً من تلك الفنون أسوة، تهيب به أن يحيد عن جادته أو ينحرف عن غايته، أو يضل في تيه التلفيقات المعنوية والزخارف اللفظية

وقد راج في الأدب الإنجليزي ضروب من القول قد يتبادر إلى الظن لأول وهلة أن الأديب يتجرد عندها من نوازعه الشخصية وشعوره الصحيح ويطلق العنان للخيال

والصناعة، كالرواية التمثيلية والقصة والملحمة التي يتحدث مؤلفها عن أشخاص بعيدين عنه ويصف عواطف غيره وتصرفاتهم، ولكن الواقع أن المؤلف فيها لا يقل صدقاً ووفاء للحياة وحقائقها عن المؤلف في غيرها، ولا هو يتجرد من ميوله، بل يخلع تلك الميول على أبطاله، وينطق أفكاره ومشاهداته على ألسنتهم؛ فكل بطل من أبطال شكسبير، كهملت وعطيل ولير، يمثل حالة من حالات نفسه وفكرة أو فكرات من أفكاره؛ والقصصي الإنجليزي الذي يتحدث عن الآخرين في كتاباته أصدق وأكثر إفصاحاً عن ذات نفسه من الشاعر العربي الذي يشبب بليلى ودعد ويصف ممدوحه بغير ما يعلم فيه

ففي كلا الأدبين العربي والإنجليزي ترى في آثار الفحول دلائل الطبع الجزل والشعور الصادق والفن الصحيح، ولكن نظراً لتلك العوامل التي صاحبت الأدب العربي فأفشت الصناعة في كثير منه، وهذه العوامل التي لازمت الأدب الإنجليزي فساعدته على الاحتفاظ بسمات الفن، جاء الأدب الإنجليزي أحفل بصادق الشعور وجاد الأفكار من الأدب العربي، وكان التعبير الصادق عن النفس الإنسانية غرضه دائماً، على حين زاحمت هذا الغرض في الأدب العربي أغراض أخرى: كالصناعة وطلب البراعة والأغراب والتظرف ومحاكاة الأقدمين.

فخري أبو السعود

صخرة النجوى

لالفرد دي ميسيه

(. . .الحياة عذبة سائغة ولكن عند من لا يعرفونها)

بقلم الأستاذ أحمد المحمود

وكان الليل جميلاً رائعاً، والقمر يصَّاعد متئداً على شمالي، وقد اجتذب إليه نظر (بريجيت) طويلاً وهو يخرج متسللاً من الأسنان السوداء التي كانت الهضبات الحرجَة ترسمها على رقيع الأفق. ورقت أغنية (بريجيت) المشجية حينما أخذ القمر يتخلص من أسوجة الغابة الكثيفة وتتسذرَّي أضواؤه في الفضاء وعلى الجلَد، فانحنت علي تطوق رقبتي بذراعيها قائلة:

(لا تظنن أنني لا أعلم قلبك، وأنني أنتسب لك لايلامك إياي؛ وليست الخطيئة خطيئتك إذا ضقت ذرعاً يا صديقي العزيز بنسيان حياتك الماضية. ولقد أحببتني وكنت مؤمناً بهذا الحب ولن أتأسف - إذا ما أسكت هواك نأمتي - على هذا اليوم الذي استسلمت لك فيه. واعتقدت أنك بُعثت إلي الحياة ثانية وأنك ستنسى - بين ذراعي - ذكريات اللواتي أضعنَك.

وا حسرتاه يا أكتاف! لقد تبسمت فيما مضى من هذه التجاريب الباكرة التي كانت لك في حياتك والتي كنت تدل بها عليَّ كالأطفال الذين لا يدرون من أمور الحياة شيئاً، وحسبت أن ليس لي إلا أن أشاء، وأن قد سيطفرُ كل ما في قبلك من صلاح وخير على شفتيك للقبلة الأولى التي منحتك إياها، وقد كنت أنتَ تحسبُ ذاك أيضاً ولكن كنا مخدوعين. أيها الطفل!. . . إنك تحمل في قلبك جرحاً لا يندمل، ويجب أن تكون قد أحببت هذه المرأة الخادعة الهاجرة حباً جماً؟ أجل. . . وأكثر مما أحببتني وإلي أبعد الحدود وا حسرتاه!. . . لأنني لم أستطع - مع حبي الشديد البائس - أن أمحو من مخيلتك صورتها! ويجب أن تكون خديعتها لك قاسية لأن أمانتي تبذل لك عبثاً؟ والأخريات الشقيات ماذا فعلن لتسميم شبابك؟ وهل كانت الملذات التي بعنها منك حادة ورهيبة لتطلب إليَّ أن أماثلهن وأتأثرهن!. . . وتذكرهن وأنت بجانبي؟ ما أقساك أيها الطفل!. . . ولأحبُّ للنفس وأثلج للفؤاد أن أراك ظالماً مغضباً، وأن تنسب إلى الجرائم الوهمية وأن تثأر مني للأذى الذي لحق بك من خليلتك الأولى من أن تطفر في وجهك هذه المسرة الرهيبة وهذا المظهر الخليع الذي ينتصب حجاباً من الصلد الأصمّ بين شفتي وشفتيك. قل لي أكتاف، لم هذا الصقيعُ في شفاهك؟ ولم هذا التهكم والاحتقار يبينُ في حركاتك وسكناتك؟ وإنك لتسخر - بحزن شديد - حتى من أعذب صباباتنا، وكيف استحوذت على أعصابك المهيجة هذه الحياة الماضية الرهيبة حتى تنثال من فمك مثل هذه الشتائم بالرغم منك؟ أجل بالرغم منك لأن لك قلباً نبيلاً وتصطبغ خجلاً مما تفعل. أنت تحبني كثيراً ويجب أن يُسعدك هذا الحبُّ لأنني آلم منه كما ترى. آه! أعرفك الآن!. .

وعندما وقع بصري عليك لأول مرة وأنت على حالك هذه عراني هول شديد لا شيء يعطيك صورة عنه. ولقد حسبتك ماجناً في توددك إليَّ، وأنك تحاول خدعي بسيماء هذا الحب الذي لم تكن لتحس به، وإني أرى حقيقة نفسك كما بدت لي لأول وهلة. أواه يا صديقي! لقد فكرت في الموت وأية ليلة نكراء قضيت! أنت لا تعلم حياتي ولا تدري أنني - أنا التي أخاطبك - قد خلصتُ من هذه الحياة بتجربة هي أعذبُ من تجربتك وأحلى. وا أسفاه! الحياة عذبة سائغة ولكن عند من لا يعرفونها

أي عزيزي أكتاف! لست بالرجل الأول الذي أحب. إن في أعماق هذا القلب ذكرى مشئومة راقدة أحب أن أطلعك عليها

أعدَّني والدي منذ بكوري في الحياة إلى ابن صديقه الأوحد، وكانا جارين في الدار والأرزاق؛ وعاشت العائلتان على هذا النمط من الاختلاط والوحدة. مات أبي وتصرّم زمن طويل على فقدان أمي فانتقلت إلى وصاية خالتي التي تعرفها، وأزمعت خالتي سفراً فأسلمتني إلى حمِيِّ الذي عشت في كنفه برهة من الزمن، وكان يدعوني بابنته، وكان الجيران يعرفون خطوبتي من ابنه، فيتركون لنا الحرية التامة

تظاهر دوماً هذا الشاب الذي لا أدري حاجة إلى ذكره بمحبتي، فقد كان صداقة ساذجة من أيام الطفولة تحولت إلى حب وهيام مع الزمن. وكان يقص عليَّ عندما نخلو، أو نكتَنُّ في زاوية من البيت عن السعادة التي تنتظرنا وذهوب صبره، وكان يكبرني بسنة واحدة، ولكنه تعرف إلى رجل من الجيران سيئ العيش محتكر للصناعة فوسوس له وأغواه،

وبينما كنت أستسلم إلى مداعباته بوداعة الطفل إذا به يغدر بوالده ويتركني بعد أن أضاعني

أتى بنا والده إلى غرفته وأبلغنا موعد الزواج فلقيني في مساء اليوم نفسه في الحديقة، وباح لي بقوة عما يكنه لي من الحب، وأنه زوجي منذ الآن أمام الله ونفسه ما دام أن موعد الزواج قد تحدد. فلم أعتذر إليه بغير شبابي وجهلي وسذاجتي، فاستسلمت إليه قبل أن يتم الاقتران الشرعي، ولم تمض ثمانية أيام حتى غادر بيت أبيه وهرب مع امرأة قدمها له صديقه الجديد فكتب لنا أنه مسافر إلى ألمانيا ومنذ ذلك الحين لم نره

هذه هي قصة حياتي وقد عرفها زوجي كما تعرفها أنت الآن، ولي من عزة نفسي وكبريائها ما أهاب بي إلى العزلة، فآليت ألا أقرب من رجل يسبب لي ألماً وضرًّا أكثر مما لقيت في سابق حياتي؛ ورأيتك فنسيت قسمي ولكن لم أنس جرحي، فعليك أن ترأف بتضميده. وإذا كنت مريضاً فأنا مريضة أيضاً، فيجب أن نتعهد نفسينا بالتداوي.

وأنت ترى يا أكتاف أنني أعرف أيضاً قيمة الذكرى الماضية التي ما تزال تقض مضجعي إلى جانبك، ولكني سأتذرع بالشجاعة والصبر لأنني قاسيت أكثر مما قاسيتَ، ومن حقي البدء في هذا العمل، وإن قلبي لقليل الثقة بنفسه، وأنا أضعفُ عن احتمال أكثر مما احتملت. وكم كانت حياتي سعيدة في القرية قبل قدومك إليها! وما أكثر ما أخذت على نفسي ألا أغيّر من حالها شيئاً مما جعلني أتطلّبُ منها ما لا تستطيع أداؤه، ولكن لتكن مشيئة القدر فأنا لك الآن! أو لم تقل لي في أوقات انبساطك بأن العناية الإلهية سخرتني للحدب عليك كأم رؤوم؟ الحق ما قلت يا صديقي العزيز. أنا لست خليلتك كل الأيام وأود أن أظفر بأكثر من هذا في بعضها وأن أكون لك أماً حتى لا أرى فيك حبيباً يقسو على حبيبته. أواه يا أكتاف! لقد أصبحت طفلاً مريضاً عاتياً متشككاً، أريد أن أمرضه بنفسي وأبعث فيه الرجل الذي أحب وأهوى حتى الأبد. فليمدني الله بالقوة!. . . قالت ذاك ونظرت إلى السماء ضارعة: ربِّ يا من ترانا وتسمع نجوانا! يا إله الأمهات والمحبين، هب لي الحياة للقيام بهذا الواجب! وإذا كان لي أن أخفق وأن تثور كبريائي أو أن ينحطم قلبي البائس بالرغم مني وأن حياتي كلها .. .

ولم تتم الكلام حتى غامت عيناها بالدموع فلم تعد تستطيع النطق. يا إلهي!. إني أراها راكعة أمامي ويداها مضمومتان منحنية على الصخرة والهواء يموجها كما يموج حقول الخلنج المجاورة. يا لك من مخلوق ضعيف سام! لقد صلت من أجل حبها ثم أنهضتها بذراعي متمتماً: (وا صديقتي الوحيدة! ووا خليلتي وأمي وأختي!. . اضرعي إلى الله واطلبي منه أن يمدني بالقدرة على حبك والإخلاص لك كما تستحقين. توسلي بأن يمد في حياتي وأن يقدرني على العيش وأن يغسل قلبي بدموعك وأن يجعله قرباناً مقدساً

نقياً نقتسمه أمام الله!. . .)
واستلقينا على الصخرة وغرق كل ما حولنا في هدوء عميم وانبسطت السماء فوق رؤوسنا ألقه بالنجوم (أوتذكرين يا بريجيت لقاءنا الأول؟)
حمداً لك اللهم! ومنذ هاتيك الأمسية لم نعد إلى تلك الصخرة التي ظلت لنا قدساً طاهراً والطيف الأبيض الوحيد من حياتي الماضية ما يعبر من أمامي إلا ويغترق بصري ويملأ حسي
(طرطوس)
أحمد المحمود
قصة المكروب كيف كشفه رجاله
ترجمة الدكتور أحمد زكي
مدير مصلحة الكيمياء
عزرائيل يقبض بيد صفراء
- 1 -
كل الناس متفقون على أن ولْتر رِيد رئيس بعثة الحمى الصفراء، كان رجلاً ذا أدب جمّ ولطف كثير، لا يُؤخذ بملامة، ولا يُعوز ذمّتَه طُهْر؛ وكان يألف الاعتدال في أعماله، ويجري على المنطق في تفكيره؛ ولا شك أيضاً في أنه قامر بحياة آدمّيين فأقحمها المخاطر على علم في سبيل أبحاثه، ولم يكن له مندوحة عن ذلك، فالحيوانات تأبى كل الأباء أن تأخذ عدوى الحمى الصفراء
كذلك ليس بين الناس اختلاف في أن جيمس كارول وقد كان خشّاباً فيما مضى، كان على أتم استعداد للتضحية بنفسه في سبيل ما يريد ريدُ إثباته، وأنه لم يكن ممن تأخذه عاطفة أو رحمة بأرواح الخلق إذا ما أراد برهان أمر جلّ أو قل
كذلك يُجمع الكوبيّون وهم الذين شهدوا البعثة تعمل عن كَثَب في أرضهم، على أن الجنود الأمريكيين الذين تطوعوا بأجسامهم في التجارب عوضاً عن الخنازير الغينية المعهودة كانوا على جانب من الشجاعة لا يوصف. كذلك أجمع الأمريكيون الذين كانوا عند ذاك في كوبا وأكّدوا أن المهاجرين الأسبانيين الذين تطوعوا في التجارب مكان الخنازير الغينية لم يكونوا شجعاناً مخاطرين ولكن تجّاراً طامعين. أفَلَم ينقد كل واحد منهم مائتي ريال أجراً عن مخاطرته؟
وما من شك في أنك تستطيع أن تحني باللائمة الشديدة على القدر أن قسا تلك القسوة البالغة على جس لازار ولكن كذلك لا بد أن تنحى باللائمة عليه هو أيضاً، فهو الذي أبى أن يطرد تلك البعوضة التي وقعت على ظهر يده، وهو الذي أذن لها أن ترتوي من دمه ملء جوفها. والقدر إن كان قسا عليه فقد حنّ له من بعد موته وعطف على ذكره، فحكومة الولايات المتحدة سمّت باسمه مدفعية في ميناء بلتيمور إحياء له، ورتّبت لأرملته معاشاً
خمسمائة وألف ريال
وسترى أن قصة الحمى الصفراء لا نقاش فيها ولا خصام، فحكايتها متعةٌ للحاكي، وهي فوق ما فيها من المتعة ضرورية لكتاب يحكى عن المكروب ورجاله، فهي تحقق الحُلُم الذي ارتآه بستور، فهو لو قدر الآن لصاح من قاع قبره الجميل بباريس يتحدّى العالم أجمع تيّاهاً فخوراً: (ألم أقل لكم ذلك من زمن بعيد). ذلك أنني الآن وأنا أكتب هذا أعلم أن الدنيا أصبح لا يوجد بها من سمّ هذه الحمى ما تتغطى به رؤوس ستة دبابيس. وقد لا تمضي عدة سنوات أخرى حتى لا يكون على ظهر الأرض كلها ذرة من سمها، وتصبح الحمّى خبراً يُروى كبعض البائدات - هذا إذا لم نكن فوّتنا غلطةً خطيرة في التجارب المحكمة المريعة التي قام بها ريدُ وجنوده الأمريكيون ومها جروه الأسبانيون كانت هذه الحرب التي انتهت بالغلبة على الحمى الصفراء مثلاً جميلاً للتعاون المجيد، انتظم في إثارتها وإدارتها جنود من أعجب الجنود. وكان أول من قدح شرارتها رجل عجوز غريب يُدعى الدكتور كَرْلوس فِنْلي أعفي من اللحية ذقنه، ولكنه انبتها على كل من صدغيه، فجاءت جميلة يغبطه الناس عليها. وكان يخلّط في التجارب تخليطاً. وحسبه أفاضل الكوبيّين وحكماء الأطباء رجلاً مغفّلاً قديم الغفلة مغرماً بالنظريات. وعدّه الناس أجمعون رجلا مأفوناً جسوراً. فهذا الرجل هو الذي خّمن في هذه الحمى تخمينة أبعدت في الأغراب ولكنها وقعت في الصميم من الصواب

نعم عدّه كل أحد مأفوناً، لأن كل أحد من الناس عرف عرفان اليقين كيف يدفع هذا الوباء المخوف - هذه الحمى الصفراء! وكان لكل أحد طريقته لدفعها: قال بعضهم: يجب تبخير الحراز والسّتان ومتاع الناس جميعاً قبل خروجه من المدن الو بيئة. وقال آخرون لا، فهذا غير كاف فلابد من حرقه جميعه، لا بد من حرق الحرائر والستان والأمتعة ولابد من دفنها ولابد من إتلافها قبل دخولها مناطق الوباء. وقال قوم: ليس من الحزم أن تصافح أصدقاءك إذا كان لهم أقرباء يموتون بالحمى الصفراء. وقال آخرون: ليس في هذا ضرر أبداً. وقالت جماعة ثالثة: إن الخير في هدم المنازل التي دخلتها الحمّى، فليس بكاف تطهيرها بدخان الكبريت. وعلى اختلافهم هذا فقد أجمع الناس في جنوب أمريكا وفي أوساطها وفي شمالها، مدة قرنين تقريباً، على أنه إذا حدث أن أهل مدينة أخذت تصفرّ وجوههم، وتشخص الريح من صدورهم، ويصعد القيء أسود من جوفهم، ثم أخذوا يموتون بالعشرات والمئات كل يوم، لم يبق لعاقل ما يفعله إلا أن ينتفض على رجليه، ويتجه إلى أقرب باب للمدينة ويسير قُدُماً غير لاوٍ عن يمين أو يسار حتى يخرج منها. ذلك أن عِزْريل ذا اليد الصفراء يحذق النفاذ من الحيطان، واستراق الخُطا على الأرض، ومباغتة الناس من وراء الأركان، حتى النار يجوس خلالها؛ وقد يحق عليه الموت، ولكنه لا يلبث أن يُبعث حيّا. ويقوم الناس لمطاردته وفيهم أحذق الأطباء، فبعد أن يخطئوا في مطاردته أكثر ما يستطيعون من أخطاء، يأتونها بأكثر ما في قلوبهم من هوس، يجدون هذا القاتل الفلاّت لا يزال في قتله قائماً؛ ثم يسأم القتل بغتة فيكفّ عن الناس. ويجيئه هذا السأم دائماً في شمال أمريكا بمجيء الصقيع

هذا ما كان من علم الناس عن الحمى الصفراء إلى عام 1900 وصاح فِنْلي عالياً ملء صدغيه: (أيها الناس إنكم تجهلون. أيها الناس إن الحمى الصفراء تأتي من بعوضة)، فذهبت صيحته كصرخة في واد، وارتد عليه صداها بالسخرية والهوان

- 2 -

في عام 1900 كانت الحال في مدينة هبانا أسوأ حال. فالحمى الصفراء كانت قتلت من الجنود الأمريكيين ألوفاً أكثر مما أسقط رصاص الأسبانيين، وكان المعهود في الأوبئة أنها تنزل اختياراً من طوائف الناس حيث الفقر والقذر. أما هذه الحمى فنزلت في أركان حرب الجنرال ليونارد وود فذهبت بثلث ضباطه، وضباط أركان الحرب، كما يعلم الحربيّون، رجال مصطّفون هم أكثر الجند نظافة، وأكبرهم حظاً في الحمية من الأمراض. وزأر الجنرال بأوامره فنزل رجاله على أهل هبانا غسلاً ودعكاً حتى أحالوا الكوبيّين من قوم في وسخهم سعداء إلى قوم في نظافتهم تعساء؛ وصنعوا كل ما يُصنع للمدينة، ولكن الوباء لم يتراجع، بل تزايد حتى بلغ حدّاً لم يبلغه في السنوات العشرين الماضية

عندئذ أبرقت هبانا إلى واشنطن وفي 25 يونيو عام 1900 جاء البكباشي ولْتَرْ ريد إلى كويمادوس في كوبا ومعه أمر (بأن يُعنى عناية خاصة بكل ماله صلة بأسباب الحمى الصفراء وبطرق منعها). وهذا أمر كبير، يزيده كبره كبراً إذا ذكرنا مَنْ هو ولتر ريد؛ هو أمر حاوله بستور من قبل! وأين ريدُ من بستور؟ بالطبع لم يكن ريد خلواً من المؤهلات،

ولو أنك قد تعترض عليها بأنها ليست مما له صلة بصيادة المكروب؛ فهو جنديّ كأحسن ما يكون من الجنود، خدم في الغرب في سهوله وجباله أربعة عشر عاماً أو تزيد؛ وكان يطير كبعض الملائكة والريح تعصف والسماء تثلج حتى يحط على فراش المرضى ممن هبطوا تلك البقاع استعماراً واستيطاناً؛ وكان على خلق متين، وجانب ليّن رقيق؛ وكأني بك تقول: ما الرقة وما الخلق الكريم ومكروب الحمى الصفراء وهو إنما يتطلب عبقرية نادرة لاصطياده. أنت على حق، ولكن مع هذا سترى أن العمل الجليل الذي تم كان يتطلب قبل كل شيء خلقاً قوياً وإرادة من حديد. ومع هذا فان ريد قام ببعض صيادة المكروب في عام 1891، وقام ببعض بحوث متقطعة في أحسن مدرسة للطب في كنف أستاذ هو من غير شك أشهر أساتذة المكروب في أمريكا، وكيف لا يكون هذا الأستاذ هكذا وهو الذي عرف كوخ وخالطه مخالطة الحميم حميمه

وجاء ريد إلى كيمادوس. وبينا هو يدخل مستشفى الحمى الصفراء مرّ به عدد كبير من شباب الجند الأمريكي خارجاً منه محمولاً على الأعناق. . . فاطمأن ريد إلى أن العمل

لن يعوزه، وأن المرضى الهالكين كثيرون. وكان مع ريد الدكتور جيمس كارول ولم يكن ممن يوصف بالرقة تماماً، ولكنك ستجد بعد قليل انه نعم الجندي الباحث كان. ووجد ريدُ جس لازار في انتظاره، وكان صياد مكروب متدرّب تدرب على صيادتها في أوربا. وكان له من العمر خمس وثلاثون سنة، وكان له زوجة وطفلان خلّفهما وراءه في الولايات المتحدة، وكانت تبدو في عينه نُذُر الموت. وكان رابع الثلاثة أرستيدس اجرامونتي وكان كوبياً، وكان عمله قطع جثث الأموات. وأحسن عمله إحساناً كبيراً، ولكن اسمه لم يذع لأنه كان أصيب بالحمى فتحصّن منها فخلا عمله من المخاطر. فهؤلاء الأربعة هم (بعثة الحمى الصفراء)

وكان أول ما صنعته البعثة أن عجزت عن إيجاد المكروب في الحالات الثماني عشرة الأولى التي فحصتها، وكان منها حالات غاية في السواء، ومات منها أربع. ولم يتركوا حالة من تلك الحالات إلا ضبعوا وأوغلوا فيها فحصاً وتنقيباً، فمن ابتزاز دم إلى تزريع مكروب إلى تشريح جثث. وكثرت زريعات المكروب حتى لم يحصرها عدٌّ، ولكنهم لم يجدوا في أيها بشلة واحدة. وكان الوقت صيفاً، والشهر يوليو، وهو أسوأ الشهور لهذه الحمى. وخرجت الجنود من المستشفى متلاحقة وهي أجساد هامدة

خابت البعثة خيبة كاملة فيما ارتجت، ولكن من هذه الخيبة كان النجاح. فهذه إحدى خصائص هذه الصناعة صناعة المكروب. وهذا هو الأسلوب الذي يدرجُ عليه قُنّاصه ليجدوا منه مثل الذي وجدوا. وجد إسميث ما وجد من القُرَاد لأنه آمن بالذي قال الفلاحون. ووجد رونالد رُس ما وجد مما يفعل البعوض الأشهب لان بتريك منسون دّله عليه. وكشف جراسي ما كشف عن بعوضة الملاريا بدافع من وطنيته. وهذا ريدُ يخيب في أول خطوة يخطوها، وقد يقول كل أحد إنها أهم خطوة يخطوها، فماذا هو صانعه! لا شيء. فلم يبق لديه ما يصنعه. وإذن توّفر لديه الوقت الكافي ليفْرُغ إلى نفسه ويُفكر ويُصغي إلى صوت ذاك المغفل القديم ذي النظريات، صوت الدكتور كارلوس فنلي يصيح: (أيها الناس إنكم تجهلون! إن الحمى الصفراء تأتي من بعوضة!)

وخف رجال البعثة إلى هذا الرجل المأفون الذي ضحك منه كل سن، وصُمَّت دونه كل أذن. فتلقاهم هذا الشيخ بالسرور والترحاب وأخذ يفسر لهم نظريته، ويذكر لهم أسباباً غامضة إلا أنها مبدعة جميلة حدت به إلى اتهام البعوض في نقل أسباب الحمى الصفراء. وأطلعهم على نتائج تجارب أجراها هي بئست التجارب لا تقنع أحداً. وأعطاهم بعض بيض أسود اللون مستطيل كالإصبع وقال لهم: (هذا بيض المجرم). فأخذ ريد البيض وأعطاه إلى لازار؛ وكان هذا في إيطاليا من قديم فعرف هناك بعض الشيء عن البعوض. فأخذه لازار ووضعه في مكان دافئ فانفس عن دُويدة انقلبت إلى بعوضة صغيرة غاية في الحسن كأنما شُدَّت على ظهرها أوتار من فضة فتراءى كالقيثار

خاب ريد، ولا شك في هذا. ولكن إلى جانب إقرارنا له بالخيبة، يجب أن نُقرّ له بقوة الملاحظة الحادة، وبكثير من التمييز وحسن التبصر في الامور، وستعلم فوق هذا انه كان كبير البخت محظوظاً. ومن ملاحظته وهو في غمرة من إخفاقه أن رأى حالات للمرض ثقيلة فظيعة، احمرّت فيها عيون المرضى كأنما صعد الدم متدفعاً فيها، وأصفرت صدورهم فصارت كأنها الذهب وأخذوا يفوقون ويتهوعون إنذاراً بالسوء. ثم رأى الممرضات يجُسن خلال هذه الحالات وينلْن منها ويتلوثن بها، ولكنهن بالرغم من ذلك لم تجئهن الحمى الصفراء أبداً

فناقش ريد رجال بعثته، قال: (لو كان المكروب أصل هذه الحمى بمثل ما هو أصل الكوليرا والطاعون، إذن لأصاب الممرضات فجمعتهن الحمى)

وأخذ ريد بعد ذلك يلاحظ ألاعيب شتى تقوم بها هذه الحمى، فرآها تظهر في كيمادوس فجأة حيث لا مظنة لظهورها: جاءت رجلاً يسكن في منزل رقم 102 بشارع ديل، وإذا بها تنط من هذا الشارع فتنعطف إلى شارع الجنرال لي فتنزل بساكن به في منزل رقم 20. ثم هي تنط ثالثة إلى الصف الآخر من هذا الشارع. وما يكن بين المصابين صلة ما، ولا التقى بعضهم ببعض أبداً

قال ريد: (كأني بهذا الحال يشير إلى أن شيئاً ينقل المرض عبر الهواء من دار إلى دار). وكانت هناك حيل غريبة أخرى تأتيها هذه الحمى درسها عنها كرتر الأمريكي: تصيب الحمى رجلاً في منزل، فقد يموت وقد يُشفى فيرحل عن المنزل، ثم يمضي

على هذه الإصابة أسبوعان فلا يحدث جديد، ثم ينقضّ البلاء كالصاعقة، فإذا بنفر من أهل هذا البيت يصابون بها. قال ريد لرجاله: (كأني بمكروب من هذا البلاء يتريّث أسبوعين في بطن حشرة ليستكمل نموّه)، فلم يصدقوه ولكنهم كانوا جنوداً طائعين قال ريد: (وعلى هذا فقد يكون صواباً ما ارتآه فِنْلي عن البعوض، وعلى أساس فكرته فلنقم بالتجربة)ـ فاعتزامه التجريب كان بناء على الأسباب السابقة والملاحظات السالفة، وعلى الأخص بناء على أن البعثة لم تدر ما تصنع بعد الذي صنعته وكان القول بالتجريب قولاً هيّناً. ولكن كيف يكون البدء فيه، والمعروف الثابت أن الحمى الصفراء لا يمكن إعطاؤها للحيوانات، حتى القردة وهي أقرب إلى الإنسان خلْقاً لا تأخذها. ولكن لإثبات أن البعوض ينقل الحمى لا بد من حيوانات للتجريب، وإذن لم يبقى إلا أن تكون هذه الحيوانات آدمية. ولكن أيكون معنى هذه إعطاء هذه الحمى عمداً لبعض الناس! إن الإحصاءات دلّت على أن الوافدة إذا حلّت فقد يموت من المصابين ثمانون وخمسة من مائة، أو قد يبلغون خمسين، وعلى أية حال لا يقل الموتى عن عشرين في المائة. إذن فإعطاء الحمى عمداً لبني آدم قتل للأنفس التي حرّمها الله! ولكن هنا تتدخل شدة أخلاق ريد وصلابته لتلعب دورها الكبيرـ وكان ريد رجلاً لا شائبة في خلقه، ولا عائبة في ذمته، وكان مؤمناً، وبالرغم من اعتداله كان الرجل الذي اصطفاه الله لخدمة أهل بني هذه الإنسانية على مثل هذا الأسلوب الوعر المتطرفـ وتخيّل إسميث أنْ قد ثبت له أن البعوض وحدَه هو ناقل هذه الحمى وتخيلّ ما يكون بعد ذلك من أحداث خطيرة .. !وطاف نهار يوم بين رجال صُفرٍ يحتضرونـ فلما جاء الليل بحرّه الشديد، جمع رجاله ثم قام فيهم فقال من حديث: (. . . فلو أننا نحن رجال هذه البعثة قمنا فجازفنا بأرواحنا فأذنّا لبعوض تغذّي من دم قوم محمومين أن يَعَضَّنا ويشرب من دمائنا، إذن لضربنا خير المُثُل للجند الأمريكيين. . .). ونظر إلى لازار. ونظر إلى كارول قال لازار: (أنا أقبل عضة البعوض)، وكانت له زوجة وطفلان وقال كارول: (اعتمد عليّ يا سيدي وتوكل على الله)، وكانت له زوجة وخمسة أطفال، ولم يكن له من متاع الدنيا غير أجر جراحٍ مساعد في الجيش، وهو أجر حقير معروف، وغير عقل الباحث ومزاجه

(يتبع)

أحمد زكي

الخلود والأدباء

(مهداة إلى الأستاذ المازني)

للأستاذ عبد الحليم عباس

يعتقد الأديبـ - والأديبـ الناشئ على الأخص - بأنه الإنسان المصطفى لتأدية رسالة الحياة إلى الأحياء، وأن غيره. . . هذه المخلوقات التي لا تدين بالأدب ولا تتلقى وحي الفن، ليست خليقة أن تساميه، ولا أن تطال إلى مقامه. إنها تقف في حيث تأخذ عنه، وتسمع إليه. . . ومن ثم فهو خالد بخلود هذا الأدب، وما عداه - من عباد الله - فمن التراب وإلى التراب. . . وهذه قضيةٌ مسلم بها - في رأي الأديبـ - لا تحتاج إلى مماراة، ومن هنا يجيء هذا العنت، وهذه السلسلة من الخيبة والإخفاق في حياة الأديبـ إنه يعجب من الناس كيف لا يقدرونه حق قدره، وكيف لا يتنحون له عن مقامه الذي هو خليق به، والذي أعدته الحياة له؟ ولم لا! وهذا العلم بالحياة، وهذه المذاهب الفلسفية، والتبحر في فنون الأدب، أليس من حقها أن تقدم صاحبها وتقدره من المجموع؟. . بلى بلى - هكذا يقول الأديبـ - ولكنه ظلم الحياة، وجحود الأحياء، فما عليه إلا أن يقف معانداً لهم، مناهضاً لهذه الحياة، ليُعاد إليه حقه السليب المهتضم . . .

وبين هذا العناد والإصرار يضيع الأديبـ حاضره، ويخرِّب حياته، وقد يخربه الجوع. . . قال لي أديب ناشئ: لست أنظرـ إلى الجراح الماهر إن لم يفهم الأدب أكثر من نظري إلى جزار

وقال لي آخر: سأترك العمل عند هذا الوزير لأنه سخيفٌ وبذئ؛ فقلت له: هل أصابك رشاش من بذاءته؟ قال: كلا؛ ولو حدث لأدَّبته؛ قلت إذن دعه وشأنه. قال لا أستطيع.

وفي اليوم التالي أضاع أديبنا وظيفته. وقليل من رجال الأدب من ربحت تجارته الدنيوية، وأصبح من رجال الأعمال

مثل هذه الحوادث كثيرة نشاهدها في كثير من الأحيان، ونحتار في تعليلها؛ ولكن مردها في البعيد يعود إلى فهم الأدباء للحياة على ضوء الأدب، وإلى الذهاب في تقدير قيمهم، وإن من حقهم أن يتعالوا على الناس، لأنهم من طائفة الخالدين. . .

ويكبر الأديب، ويشب عن الطوق - كما يقولون - وتمر عليه صورٌ من الحياة، وتثقله تكاليفها اليومية السخيفة - كما ينعتها سبينوزا فيرى أن يقبل عليها، ويضرب مع الضاربين فيها - إن أراد أن يعيش - فالكواكب ليست أرغفة، والسماء لا تمطر بقلا. . . وهكذا ترغمه الحياة على أن يصانعها ويصانع معها الأحياء. . .

ولكن هل انتهى بينه وبينها الخلاف؟ وهل أصبح هو وبنيها على أتم وفاق، يوم علم أن هذا الأدب الذي يدلُّ به ليس له كبير فضل، وأن هذا الخلود لا يعني شيئاً؟ لقد خلدت في الدنيا بغلة أبي دلامة، وحمار الرشيد. أم أن فهمه للدنيا على هذا النحو الجديد، يعني بداية معركة جديدة حامية، ولكنها تحرق الأديب قبل أن تحرق غيره. . . أظن أن كثيرين يوافقونني على أن هذه بداية معركة لا نهاية؛ فالحياة لم تلق من هؤلاء الذين يناصبونها العداء طول حياتهم مثلما لقيت من هذه الطائفة من الأدباء الذين يضربون في زحمتها، ويسايرون مواكبها، على أن يخرجوا لها ألسنتهم هزؤاً، كلما آنسوا منها غفلة، وليفضحوا سرائرها في كل حين. . .

لم تنته المعركة بعد، فليست قضية الخلود هي كل الخلاف بين الأديب والأحياء. فكيفما جارى الأديب الناس في فهمهم للحياة فلا مشاحة في أنه يفهم الحياة على وجهة تختلف عن الوجهة التي يفهمها عليها الأحياء، إذ أن الأمر لا يتعلق باختياره؛ وقد يحب هو أن يجاريهم في كل شيء، ولكن ما حيلته في هذه الأعصاب التي ركبت على شكل يختلف عما ركبت عليه أعصاب الناس - أحسن منهم أو دونهم هذا لا يعنينا - إنها مرهفة دقيقة، مستوفزة، تفعل بها الإشارة الغامضة ما لا تفعله بغيرها العبارة الصريحة، كيف يحب؟ وكيف يكره؟ وكيف يجنُّ بالحسن، وتفعل به الزهرة الغضة أو الذابلة؟ هذه أشياءٌ تفسيرها عند هذه الأعصاب

وشيء آخر يباعده عنهم، ويمد في شقة الخلاف، هو أين يعيش الأديب، وما هي دنياه؟؟ لا نحب أن نكتب خيالاً، إن إدمان مطالعته في نماذج الجمال والأدب، ولد في نفسه حباً للجمال. إنه يعيش بهذا الجمال الذي يطالعه به الخيال، أكثر مما يعيش في دنيا الواقع. . . كما وإن إدمان دراسته للحياة والواقع فتح عينه على الجانب البشع منها. أليس في الحياة بشاعة؟ ومن لا يقول هذا مع الأديب، حتى عباد الحياة أنفسهم؟ إذن فهو يريد أن يتسامى في هذا الواقع ليوائم بينه وبين ما في نفسه من جمال، يود أن يرتفع بهذه الخلائق، يذيب

نفسه قطرة قطرة، ليرى الناس جمال الحق وعظمة الصدق ونبالة الوفاء، ولكن الحياة والواقع يحتاجان إلى نقائض هذه، فما هو إلا أن يشعر بالخيبة حتى يروح يحرق الأرم ويتلوى على نفسه؛ وبين الخيال، وركود الأحياء في دنيا الواقع، تختضب الأيام بدم الكاتب، فهو على مثل هذا وفاق بين الأديب ودنياه، على أننا لا نأسف - نحن النظارة - لذلك، فلو لم يغمس الأديب قلمه بدمه، ولو لم يقدم نفسه قرباناً للجمال والحق. . . لما عرفنا أين يقع الجمال والحق في هذه الدنيا. فلتدم هذه المعركة - وهي دائمة بفضل هذه الأعصاب الشاذة - ما برحت - وإن نحر فيها الأديب نفسه - تدنينا من الحق، ولو قيد شعرة. . . إذن فلا وفاق بين الأديب والأحياء. .؟ نعم ولو أصبحت هذه الدنيا وفاق حلم الأديب، ودنياه المثالية، فالخيال لا يزال يبدع والجمال في هذه النفوس لا يحد. . .

وما هذه المصانعة التي تبدو من جانب الأدباء للحياة في بعض الأحايين والتي يخيل إليهم فيها أنهم أصبحوا يتلقون الحياة كما يتلقاها الآخرون - (بلا تذمر ولا سخط) إلا مخادعة النفس، وإلهائها عن آلامها الرفيعة التي تحزُّ فيها؛ هي قطعة الحلوى نقدمها للطفل لنسكته عن الصراخ

كيف يكون على وفاق هذا السابق مع المقعد المتخلف؟ فالأدباء في كل أمة هم رواد النهضات. يشيرون إلى العالم البعيد المجهول الممتلئة به أفكارهم، الآخذ عليهم مسارب نفوسهم، وخفي أشواقهم. كلُّ نهضة كان يسبقها أديبٌ أو أكثر، يبشر أن فجر الحق قريبٌ ورائع، وأن هناك في ضمير الغيب دنيا أمتع من هذه وأحلى. . .

والآن هل استطاع المازني - أن يلقى الحياة، كما يلقاها الغير، أبناؤها؟ أما هو . . ؛

فيكاد يقول نعم، أو قد قالها بالفعل، بعد أن أزاح من فكره - حب الولع بالخلود - والحمد لله. أما نحن جمهرة القراء فنقول لا، ونمدُّ بها أصواتنا
كيف يلقى الناس الحياة؟ إنهم ينسابون في غمارها، يندفعون في لجتها - كما تندفع أنت يا أستاذ بالذات - حذو القذة بالقذة، ولكن تمرُّ الشهور، وتتصرم السنون، وينتهي العمر، وهم لا يفطنون لذواتهم، ولا يعرفون عن هذا السرور شيئاً، كيف جاء، وكيف راح؟ تلك قضية لا دخل لهم فيها.
حسبهم انهم مسرورون وكفى؛ أما هؤلاء الذين يلقون أنفسهم بالسرور إلقاء، ثم يقفون عند
كل شوط، ليسائلوا أنفسهم هل سروا حقاً؟ هل استطاعوا أن يغرقوا ذواتهم المضطربة، ويسكتوها ولو دقيقة واحدة؟ فهؤلاء بعيدون عن السرور، وأحرى أن يتقلب بهم هذا السرور إلى شر، أو يزيدهم شراً.، إنهم يحتسون من خمرة الخيام تلك التي اتخذها ليغرق في أكوابها صحوه وعقله
وإذا ما التوت الحياة وتعقدت، وكان ضيقها لا ينفرج، وعقدتها لا تحل، إلا في نحر الوفاء، وتضحية الصدق، فما عسى يصنع الأديب؟ أما ابن الحياة فينحر هذه غير آسف، بل هو ينحرها دون أن يعلم، ولو توصلاً (إلى ترفيع درجة إن كان موظفاً). . . فهل يستطيع الأديب ذلك؟ وماذا يصنع بهذا الضمير وهذه المثل التي لا حياة له إلا بها؟ إنه خليق أن يجن أن فعلها. . .
نعود فنستميح - أديبنا المازني - عذراً، فما أراد كل هذا، وإنما أراد أن يوهم نفسه ساعة واحدة أنه أصبح كسائر الناس، يسر بما يسرون ويضحك كما يضحكون. وقديماً قال:
يا صدى إن بقلبي لكلوماً وهموماً ... مدرجات فيه لكن لا تموت
كلما قلت قضت رهن السكوت ... صحن بي من كل فج يتراءى
عم مساء
أما هذا الرفيق المخالف الذي يتمناه للأديب، فما أخال الأحياء مع الأديب إلا إياه، وما أظن الدنيا تتعدى أن تكونه. فحسبه هذا. . .
(شرق الأردن)
عبد الحليم عباس
تاريخ العرب الأدبي - 9
للأستاذ رينولد نيكلسون
ترجمة حسن محمد حبشي
الفصل الثاني
لم ينس العرب هذه الحوادث فبعثت فيهم الكبرياء القومي، فقالوا إن الجيوش الرومانية سارت ذات مرة - على أية حال - تحت لواء أميرة عربية، ولكن القصة - كما نستدل من أخبارهم - ذات صلة قليلة بالواقع، ولم يقتصر التغيير على أسماء الأشخاص والأماكن فحسب، (كما حدث في اختلاط اسم زينوبيا باسم وزيرها زبدي) بل إن الوضع التاريخي قد أصبح مستحيلاً على التمييز. وكل ما بقى لا يتعدّى قصة من قصص المخاطرات التي كان عرب الجاهلية يميلون إلى سماعها، وكما هو الحال اليوم في أبنائهم المحدثين الذين لا يملون سماع قصة عنتر أو ألف ليلة وليلة
ويقال إن أول ملك من العرب الذين استقروا في العراق هو مالك الأزدي الذي رمى بقوس من يد ابنه سليمان وقبل أن يسلم الروح قال بيتاً راح فيما بعد مضرب المثل:
أعلمه الرماية كل يوم ... فلما اشتد ساعده رماني
وقد وحّد مملكة مالك - إذا جاز أن توصف بهذا اللقب - ونظم أمورها ابنُه جذيمة الأبرش (وهو تصحيف أدبي لكلمة أبرص)، الذي حكم كتابع لأردشير بابكان (226م) مؤسس الدولة الساسانية في فارس، التي استمرت مسيطرة على عرب العراق طول فترة ما قبل الإسلام، وإن جذيمة هذا لبطل كثير من الخرافات والأمثال، وكان من كبريائه - كما يقال - إنه لم يكن ليسمح لأحد ما بمجالسته ومنادمته سوى نجمين يسميان بالفرقدين، فإذا ما عاقر الحان صبّ لكل منهما كأساً، وقد علقت أخته بوصيف له يدعى (عديا بن نصر)، وفي لحظة لعبت الخمر برأس جذيمة رضى بزواجها إياه، فبنى عدي بها؛ وفي الصباح، عندما عاد أخوها إلى رشده، وثاب إلى صوابه تميز من

الغيظ من تلك الخديعة التي جازت عليه فأطاح رأس الزوج المسكين، وأرغم أخته أن تتزوّج من عبد حقير، ومع ذلك فلما وضعت غلاماً تبنّاه جذيمة وكلأه بعطفه وحدبه؛ واختفى الشاب عمرو ذات يوم فجأة ويئس
الجميع من وجوده، وانقضى زمن طويل لم يعثر أحد فيه له على أثر حتى صادفه أخوان: هما مالك وعقيل، وقد وجداه عرياناً متوحشاً يهيم على وجهه، فاهتما به وألبساه ومثلا به أمام الملك الذي غلب عليه السرور فوعدهما ألا يرد لهما طلبة يسألانه إيّاها، فاختارا الشرف الذي لم يجرؤ على طلبه إنسان قبلهما قط: وهو أن يكونا نديميه، وعرفا فيما بعد باسم (ندماني جذيمة)
وكان جذيمة هذا أميراً مفكراً شجاعاً، وفي إحدى حملاته ذبح عمرو بن ظرب بن حسان بن أذينة، وهو رئيس عشيرة عربية كان قد ضم جزءاً من سورية الشرقية وأرض الجزيرة إلى نفوذه، والذي يتضح لنا أنه (كما هو ظاهر من اسم أذينة) كان بعينه أذينة زوج زينوبيا، يؤيد هذا الرأي ما قاله ابن قتيبة (وخطب جذيمةُ الزباء، وكانت بنت ملك الجزيرة وملكت بعد زوجها) وطبقاً لما يراه المؤرخون المسلمون، فقد كانت الزباء ابنة عمرو بن ظرب، واختيرت لتكون خليفته، بعد ترديته في ساحة القتال، ومهما يكن هذا الأمر فقد برهنت على أنها امرأة نادرة الشجاعة ذات عزم جبار، ولكي تأمن شر الغارات شيدت حصنين قويين على شاطئ الفرات جعلت بينهما نفقاً، وأقامت هي في أحدهما وسكنت أختها زينب في الآخر، فلما اجتمع لها أمرها واستحكم ملكها أجمعت على غزو جذيمة ثائرة لأبيها فكتبت تقول له إنها قد رغبت في صلة بلدها ببلده، وإنها في ضعف من سلطانها وقلة ضبط لمملكتها وإنها لم تجد كفؤاً غيره، وتسأله الإقبال عليها وجمع ملكها إلى ملكه، فلما وصل ذلك إليه استخفه الطرب ولم ينتصح برأي مشيره، فقال له قصير مرشده في طريقه (انصرف ودمك في وجهك) حتى إذا شارف مدينتها قال لقصير: (ما الرأي) قال: (ببقّة تركت الرأي) فراحت مثلاً، ثم استقبله رسلها بالهدايا والألطاف فقال: (يا قصير كيف ترى؟) قال: (خطر يسير في خطب كبير، وستلقاك الخيول، فأن سارت أمامك فالمرأة صادقة، وإن أخذت في جنبيك وأحاطت بك فالقوم غادرون، اركب العصا (أي فرسه) فإنها لا تدرك ولا تسبق قبل أن يحولوا بينك وبين جنودك) فلم يفعل، ولما أحيط بجذيمة التفت فرأى قصيراً على فرسه العصا، وقد بعدت ثلاثين ميلاً، وأدخل جذيمة على الزباء، ثم أمرت جواريها أن يقطعن رواهشه في طست من ذهب وقالت: (يا جذيمة لا يضيعن من دمك شيء فإنما أريده للخبل)، ثم سقطت نقطة من دمه على اسطوانة رخام ومات ومضى قصير إلى عمرو بن عدي وطلب إليه أن يثأر لخاله، فقال عمرو: (كيف وهي أمنع من عقاب الجو)، فجدع قصير أنفه وأذنه ودخل على الزباء، وأخبرها أن عمْراً لاحق به لقتله جزاء خيانته فصدقته وأعطته مالاً للتجارة، فأتى بيت مال الحيرة فأخذ منه بأمر عدي ما ظن أنه يرضيها، وانصرف به إليها، ففرحت به، ثم قال لها يوماً: (إنه ليس من ملك ولا ملكة إلا وقد ينبغي له أن يتخذ نفقاً يهرب إليه عند حدوث حادثة يخافها) فقالت له: (قد اتخذت نفقاً تحت سريري هذا يخرج إلى نفق تحت سرير أختي) وأرته إياه، فأظهر لها سروره بذلك وخرج في تجارته وعرف عمرو بن عدي ما فعله، فركب عمرو في ألفي دارع على ألف بعير في الجوالق، حتى إذا صاروا إليها تقدم قصير يسبق الإبل وقال لها: (اصعدي في حائط مدينتك فانظري إلى مالك وتقدمي إلى بوابك)، فلما دخل آخر الجمال نخس البواب عكما من الأعكام، فأصاب خاصرة رجل فصاح، فقال البواب: (شر والله عكمتم به في الجواليق) فثاروا بأهل المدينة وانصرفت الزباء راجعة، فلقيت عمرو بن عدي فمصت خاتمها، وقالت: (بيد لا بيد عمرو)
ولقد بلغت الثقافة في مملكتي الحيرة وغسّان في عصر ما قبل الإسلام شأواً بعيداً في الرقيّ وشعشعت أنوارها، وعمّ أثرها جميع أنحاء الجزيرة العربية، وليس من الإسراف في القول أن نذكر في هذا المجال تاريخ وملابسات الظروف، التي مكنتهم من القيام بنشر الرقي والحضارة
في مستهل القرن الثالث بعد الميلاد كانت هناك بعض قبائل يرجع كلها أو بعضها إلى أصل يمني، وقد عقدت فيما بينها حلفاً وسميت في مجموعها (بتنوخ)، وكانت تلك القبائل تثير بين آن وآخر كثيراً من الاضطرابات، وانتشرت في جميع ربوع إمبراطورية

وأغارت على العراق، حتى ألقت عصا التسيار في إقليم غرب الفرات الخصيب، وبينما ظلّ بعض المغيرين يحيون حياة بدوية محضة، اشتغل آخرون بفلاحة الأرض وزرعها، وعلى كر الأيام نشأت المدن والقرى، وكان أعظمها أهمية الحيرة (أي المعسكر) ذات الموقع الصحيّ الجميل وعلى مسيرة عدة أميال قليلة من جنوب الكوفة، بالقرب من بابليون القديم، وطبقا لما ذكره هشام بن محمد الكلبي (+ 819 أو 821م) المؤلف العظيم عن عصر الجاهلية، فقد كان سكان الحيرة في عهد أزدشير بابكان أول ملك ساساني لفارس
يتكوّنون من ثلاث طوائف هي (م240 - 226):
تنوخ: وتسكن غرب الفرات بين الحيرة والأنبار في طنب من وبر الجمال (1)
العباد: ويسكنون البيوت في الحيرة (2)
الأحلاف: ولم يكونوا ينتمون إلى إحدى الطائفتين السابقتين بل ألحقوا أنفسهم (3) بأهل الحيرة، وعاشوا بينهم كأنهم آبقون قتلة يلاحقهم الثأر، أو مهاجرون معوزون يحاولون الاطمئنان على مستقبلهم

وطبيعي أن يؤثر أهل المدن إلى حد بعيد في السكان، ولقد رأينا هشاما يسميهم (العباد) وهذا لفظ غير دقيق تماماً إذ العباد عرب الحيرة المسيحيون، وقد سموا بذلك لاعتناقهم النصرانية، أما العرب الوثنيون الذين سكنوا الحيرة منذ أن أنشئت، وظلوا مقيمين بها، فلم يكونوا يدلون على نقيض المعنى المفهوم من الوثنية. أما لفظ (العباد) فيقصد به خُدَّام الله والمسيح، ولا نستطيع أن نحدد تماماً أيان بدئ إطلاق هذا اللقب على أولئك المتدينين الذين كانوا من قبائل مختلفة، كانت تسكن الحيرة أثناء القرن السادس، وليست التواريخ ذات قيمة كبيرة نسبياً، بيد أن الأمر الذي تجب الإشارة إليه، هو وجود جماعة عربية في فترة ما قبل الإسلام لم تكن قائمة على صلات الدم أو تجمعها العصبية، ولكن تربطها روابط روحية أعني بذلك الإيمان العام. أما ثقافة وديانة (العباد) فقد تسرّ بنا إلى أقصى الأماكن والجهات النائية المنعزلة في شبه جزيرة العرب كما سترى ذلك مفصلاً في مكانه الخاص، وكان هؤلاء أساتذة العرب الوثنيين الذين قليلاً ما كانوا يقرءون أو يكتبون كما كانوا عازفين عن التعليم فخورين بجهلهم بالتهذيب الذي يرون فيه نوعاً من المذلة، ومع ذلك نرى أن أرقى العقول ثقافة بين البدو كانت مجذوبة بلا نزاع إلى الحيرة، ولقد وجد شعراء هاتيك الأيام في الأمراء خير مشجع، فزار كثير من شعراء الجاهلية بلاط اللخميين كما اتخذها بعضهم كالنابغة الذبياني وعبيد بن الأبرص دار إقامة

وليس من المهم أن ندخل في تفاصيل غير مجدية كأصل ونشأة دولة اللخميين في الحيرة، ويذكر هشام بن محمد الكلبي إن أول حاكم لخمي كان يدعى (عمرو بن عدي بن نصر بن ربيعة بن لخم) وهو الذي تبنّى جذيمة والذي انتقم له من الملكة الزّباء، ولسنا ندري في الغالب شيئاً عن خلفائه، حتى نصل إلى النعمان الأول المسمّى بالأعور، والذي كان حكمه

في الربع الأول من القرن الخامس الميلادي، وقد اشتهر النعمان هذا بأنه باني الخورنق، وهو قصر فخم بقرب الحيرة بناه في عصر الملك الساساني يزدجرد الأول الذي أراد مسكناً صحياً لابنه الأمير بهرام جور، وعند إتمامه أمر النعمان بأن يلقى مهندسه الروماني سنمار من شاهق البنيان، إما لافتخاره بأنه كان يستطيع إقامته بناء عجيباً يدور مع الشمس حيث دارت، أو خوفاً من أن يذيع مكان حجر خاص إذ أزيح من مكانه انهار البناء كله. وفي صباح يوم من أيام الربيع أخذ النعمان مجلسه في الخورنق مع وزيره، وأشرف على النجف وحدائقها وما فيها من نخيل وعيون، وأدار بصره في جميع النواحي شرقاً وغرباً، فلما امتلأت نفسه بسحر ما رأى قال لوزيره:
- أرأيت مثل هذا؟
- كلا. ولكن لو دام!
- وما الذي يخلد؟
- ما عند الله في السماوات

فسأله النعمان: كيف يتوصل المرء إلى ذلك؟ فأجابه الوزير: بالعزوف عن الدنيا والتفاني في خدمة الاله، والكفاح من اجله. ويقال إن النعمان آلى على نفسه حينئذ أن يهجر مملكته، حتى إذا ما أقبل الليل تدثر بثوب خشن، وتسلّل في جنح الظلام، وساح

في الأرض فلم يره أحد بعد ذلك؛ ويظهر أن هذه الأسطورة قد تبلورت وتضخمت من هذه الأبيات التي نظمها عدي بن زيد العبادي:

وتدبّر ربّ الخورْنق إذ أش ... رف يوماً والهدى تفكيرُ
سره حاله وكثرة ما يم ... لك والبحرُ معرضاً والسدير
فأرعوى قلبه فقال: (وما غِبْـ ـطة حي إلى المماتِ يصيرُ؟
ثم بعد الفلاحِ والملك والأمَّ ... ة وارتهمُ هناك القبور
ثم أضحوا كأنهم ورق جف ... فألوت به الصبا والدبور

أما ما يراه جمهرة مؤلفي العرب من اعتناق النعمان المسيحية فليس له أساس من الصحة، وإن كان هناك ما يبعث على الاعتقاد بأنه كان ميالاً إليها، إذ كانت الحرية الدينية مطلقة لرعاياه المسيحيين، كما ورد ذكر حبر مسيحي بالحيرة سنة 410م (يتبع)

ترجمة حسن حبشي

هكذا قال زرادشت - 6

للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

الملذات والشهوات

إذا كان لك فضيلة يا أخي، وكانت هذه الفضيلة خاصة بك فأنك لا تشارك فيها أحداً سواك. ولا ريب في أنك تريد أن تدعوها باسمها وتداعبها لتتسلى بها، ولكنك بهذا أشركت بها الناس بما أطلقت عليها من تعريف، فأصبحت أنت وفضيلتك مندغمين في القطيع

خير لك يا أخي أن تقول: إن ما تلذ به روحي وتتعذب به يتعالى عن الإيضاح، ويجل عن أن يسمى، وهذا العجز عن إدراكه يخلق المجاعة في أحشائي

لتكن فضيلتك أسمى من أن تستخف بالأشياء عند تحديدها، وإذا ما اقتحمت هذا التحديد، فلا تستحي من أن تتلفّظ به تمتمةً، فقل وأنت تتمتم:

- إن هذا هو خيري الذي أحب، إن هذا ما يثير إعجابي، فأنا لا أريد الخير إلا على هذه الصورة. لا أريد هذه الأشياء تبعاً لإرادة ربّ من الأرباب ولا عملاً بوصية أو ضرورة بشرية، فأنا لا أريد أن يكون لي دليل يهديني إلى عوالم عليا وجنات خلود . . .

قل: ما أحب سوى فضيلة هذه الأرض، لأن ما فيها من الحكمة قليل، وأقل منه ما فيها من صواب متفق عليه. إن هذا الطير قد بنى عشه على مقربة مني، لذلك أحببته وعطفت عليه، وها هو ذا الآن يحتضن عندي بيضه الذهبي

على هذه الوتيرة تكلّم وأنت تتمتم ممتدحاً فضيلتك

لقد كان لك فيما مضى شهوات كنت تحسبها شروراً، أما الآن فليس فيك إلا الفضائل، وقد نشأت هذه الفضائل من شهواتك نفسها، لأنك وضعت في هذه الشهوات أسمى مقاصدك فتحولت فيك إلى فضائل وملذات هي منك ولك، ولسوف ترى جميع شهواتك تستحيل إلى فضائل، ولسوف ترى كل شيطان فيك يستحيل ملاكاً حتى ولو كنت ممن يستسلمون للغيظ والشهوات وكنت من فئة الحاقدين المتعصبين

لقد كانت الكلاب المفترسة تسكن دهاليزك من قبل، فها هي ذي الآن أطيار مغرّدة. لقد استقطرت بلسماً من سمومك وحلبت ناقة الأوصاب، وأنت الآن تكرع لذيذ دَرِّها

لن يخلق شرٌّ منك بعد الآن؛ غير أن هنالك شراً قد ينشأ من تخاصم فضائلك. فأصغ إليّ، يا أخي! إنك إذا شعرت بسعادة فما يكون ذلك إلا لفضيلة مستقرة فيك وهي تسهِّل اجتياز الصراط عليك

إنها لمزية أن تكون للإنسان فضائل عديدة، غير أن تعدّد الفضائل يرمى بالإنسان إلى أشقى الحظوظ. وكم من مجاهدٍ أرهقه النزال في ساحات الفضائل فتوارى لينتحر في الصحراء

إذا كنت ترى المعارك والحروب شروراً، فاعلم يا أخي أنها شرور لا بد منها، لأن للحسد والريبة والشتيمة مقامها المحترم بين فضائلك نفسها. تبصر ترَ أن كلا من فضائلك تطمح إلى المقام الأسمى وتطمع في الاستيلاء على جميع أفكارك لتستعبدها وتحصر بها وحدها كل ما في غضبك وبغضائك وحبك من قوة

إن كلا من فضائلك تحسد الأخرى، والحسد هائل مريع يتناول الفضائل أيضاً فيبيدها
إن من يحيط به لهيب الحسد تنتهي به الحال إلى ما تنتهي العقرب إليه فيوجه حمته المسمومة إلى نحره
أفما رأيت، يا أخي، من الفضائل من تشتم نفسها وتنتحر؟
ليس الإنسان إلا كائناً وجب عليه أن يتفوق على نفسه، لذلك حقَّ عليك، يا أخي، أن تحب فضائلك لأنك بها ستفنى هكذا تكلم زارا. . .
المجرم الشاحب
أفما تريدون أن تنزلوا القصاص، أيها القضاة والمضحون، ما لم يهز الحيوان رأسه؟
إليكم رأس المجرم الشاحب، إنها لترتعش؛ وها إن أفظع احتقار يتكلم في نظراته
إن عيني المجرم تقولان لكم ما الشخصية إلا شيء وجب علينا أن نتسامى فوقه؛ وما شخصيتي إلا عظيم احتقاري للبشر
لقد انتهى أجل هذا المجرم عندما أصدر حكمه على نفسه؛ فلا تتركوا للتسامي سبيلاً يندفع منه إلى الانحطاط. عاجلوه بالموت فهو المنفذ الوحيد لمن بلغ عذابه بنفسه هذا الحد البعيد
ليكن قصاصكم، أيها القضاة رحمة لا انتقاماً. وإذا ما حكمتم بالموت فلتكن غايتكم تبرير
الحياة. لا يكفيكم أن تقيموا السلم بينكم وبين من تقتلون، بل يجب أن يكون حزنكم تعبيراً عن ولهكم بالإنسان الكامل. وهكذا تبررون الاستبقاء على أنفسكم
قولوا إن هذا الرجل عدوٌ ولا تقولوا إنه سافلٌ. صفوه بالمرض لا بالدناءة. اعتبروه مختّلاً لا مجرماً. وأنت أيها القاضي لو أنك تعلن للملأ، وأنت في برودك الحمراء، ما ارتكبت من مآتٍ في تفكيرك، لكنت تسمع الناس يهتفون قائلين: اخلعوا هذا الرجل عن كرسيه فهو ممتلئ أقذاراً وسموماً
ولكن الفكرة شيء والعمل شيء آخر، كما أن شبح العمل شيء مستقل بنفسه أيضاً.
فليس بين هذه الأشياء الثلاثة أية علاقة يصح أن تعتبر علاقة العلة بالمعلول
إن شبح الجريمة كان صورة لاحت لهذا الرجل فعلا وجهه الاصفرار، لأنه عندما ارتكب جرمه كانت قوته على مستواها، ولكنه ما أتم الجرم حتى وهنت تلك القوة فلم يستطع أن يتفرّس في شبح جرمه
لقد لاح لهذا الرجل أنه ارتكب فعلة واحدة لا غير، وبذلك يقوم جنونه لأن الشواذ تحوّل إلى قاعدة في كيانه. إن الدائرة التي يرسم خطها المجرم هي قيد الأفكار، إذ يصبح كالفرخة يرسم المنوّمُ حولها دائرة فلا تستطيع اجتياز خطّها. وهكذا لا يكاد المجرم يخرج من جرمه حتى يدخل في دائرة جنونه
أصغوا إليّ، أيها القضاة؛ إن الجنون الذي يتلق العمل إنما تقدّمه جنونٌ آخر قبله؛ وانتم لم تسبروا روح المجرم إلى أقصاها
إن القاضي الأحمر يتساءل عن سبب إقدام المجرم على القتل، فيقول في نفسه إن القاتل أراد السرقة أولاً، أما أنا فأقول إن نفس المجرم لم تقصد السرقة بل طلبت إراقة الدماء، لأنها كانت ظامئة إلى إغماد النصل. إن عقلية المجرم لم تفهم هذا الجنون فاندفع إلى ارتكاب جرمه، وعقليته تناجيه قائلة: ما يهمك أن تريق الدماء ما دام جرمك يوصلك إلى السرقة أو الانتقام. لقد أصغى المجرم إلى صوت عقليته المسكينة لان ما أسرّت به إليه كان ثقيلاً كالرصاص، فسرق بعد أن قتل لأنه أراد أن يبرّر جنونه ولا يخجل منه
وعاد جرمه فثقل عليه كالرصاص أيضاً، فثقل عقله المسكين فاستولى عليه التخدّر والشلل. ولو أن هذا المجرم تمكّن من أن ينتفض بهامته لكان تهاوى حمله الثقيل عنه، ولكن من
كان سيهزّ له رأسه يا ترى؟
لو أنك أنعمت النظر في هذا الإنسان، لما تجلّى لك إلا مجموعة علل تتطلع بالعقل إلى العالم الخارجي مفتشة عن غنيمة تظفر بها
ليس هذا الإنسان إلا كتلة أفاع اشتبكت وهي في تدافع مستمر لا تستكن إلا لتتفكك منسابة في شعاب الدنيا تسعى وراء غنائمها
انظروا إلى هذا الجسم المسكين! إن روحه الضعيفة طمحت إلى استكناه ما في

الجسم من ألم ورغبات، فخيّل لها أنها متشوقة إلى القتل
إن من يتسلط عليه هذا المرض في هذه الأيام لتباغته شرورها فيريد أن يعذب الآخرين بما يتعذب هو به؛ غير أنه قد مرّ زمان من قبل كان له خير وشر، هما غير خير هذه الأيام وشرها. ذلك زمان كانت تحتسب فيه شكوك الإنسان ومطامعه جرائم عليه، فكان المبتلى بالشكوك والمطامع يعدّ ساخراً ومنشقاً عن المجتمع فيعمد هو إلى تعذيب الآخرين بعذابه
إنكم لا تريدون الإصغاء إلى أقوالي إذ ترونها تلحق الضرر بالصالحين بينكم، ولكنني لا أقيم وزناً لرجالكم الصالحين
إن في هؤلاء الرجال من تشمئز منه نفسي؛ وليس ما أكره فيهم ما يُعدّ من الشرور، فإنني أتمنى لهم جنوناً يوردهم الردى كجنون المجرم الشاحب
والحق أنني أريد أن يدعى هذا الجنون حقيقة أو إخلاصاً أو عدلاً، لأن فضيلة هؤلاء الناس لا تقوم إلا على إطالة عمرهم لقضائه بالملذّات السافلة ولا ملذّة لهم إلا بالارتياح إلى نفوسهم والرضى عنها
ما أنا إلا حاجز قائم على ضفة النهر، فمن له قدرة على التمسك بي فليفعل، ومن لا طاقة له على ذلك فلا يظن أني سأكون في يده يقبض علي كما يقبض الكسيح على عصاه
هكذا تكلم زارا. . .
القراءة والكتابة
إنني أستعرض جميع ما كُتب، فلا تميل نفسي إلا إلى ما كتبه الإنسان بقطرات دمه. اكتب بدمك فتعلم حينئذ أن الدم روح، وليس بالسهل أن يفهم الإنسان دماً غريباً. إنني أبغض كلّ قارئ كسول لأن من يقرأ لا يخدم القراءة بشيء، وإذا مرّ قرن آخر على طغمة القارئين
فلابد من أن تتصاعد روائح النتن من التفكير
إذا أُعطى لكل إنسان الحق في أن يتعلم القراءة، فلن تفسد الكتابة مع مرور الزمان فحسب، بل إن الفكرة نفسه سيفسد أيضاً
لقد كان الفكر فيما مضى إلهاً فتحوَّل إلى رجل؛ وها هو ذا الآن كتلة من الغوغاء. إن من يكتب سُوَراً بدمه لا يريد أن تتلى تلك السورة تلاوة، بل يريد أن تستظهرها القلوب
إن أقرب الطرق بين الجبال إنما هو الخط الممتد من ذروة إلى ذروة، ولا يمكنك أن تتبع هذا السبيل إذ لم تكن لك رجلا مارد. يجب أن تكون التعاليم شامخة كهذه الذرى، وأن يكون لمن تلقن لهم قوة الجبابرة وعظمتهم
لقد رقّ النسيم وصفاً، وهذه المخاطر تحدق بي عن كثب، وفكرتي تتخطر مرحة في قسوتها؛ أمامي الصراط الممهد فلأتخذنّ من الجن أتباعاً. أنا ربّ الجسارة والعزم؛ ومن توصل بأقدامه إلى طرد الأشباح لا يصعب عليه أن يخلق من الجنّ له أتباعاً
لقد تاقت شجاعتي إلى الضحك، وقد انقطع كل حبل بيني وبينكم. إن السحب المتمخّضة بالعواصف لهي سحبكم السوداء الثقيلة وأنا أهزأ الآن بها
إنكم تنظرون إلى ما فوقكم عندما تتشوقون إلى الاعتلاء، أما أنا فقد علوت حتى أصبحت أتطلع إلى ما تحت أقدامي. فهل بينكم من يمكنه أن يضحك وهو واقف على الذرى
من يحوِّمْ فوق أعالي الجبال يستهزئ بجميع مآسي الحياة، ويستهزئ بمسارحها، بل بالحياة نفسها
تريدنا الحكمة شجعاناً لا نبالي بشيء، تريدنا أشداء مستهزئين، لأن الحكمة أنثى، ولا تحب الأنثى إلا الرجل المكافح الصلب
تقولون لي إن الحياة وقر ثقيل، فقولوا لي أيضاً لماذا تقابلون الصباح بغروركم، ثم يجيء المساء فلا يجد فيكم إلا المذلة والخضوع؟
إن الحياة جدّ ثقيلة، ولكن ما هذا الخورُ الذي يبدو عليكم؟ أفلسنا كلنا دواب ولكل دابَّة منا وقِرُها؟ وهل من شبه بيننا وبين برعم الورد، يرتجف متضايقاً لسقوط قطرة الندى عليه!
لا ريب أننا نحب الحياة، وليس سبب ذلك لأننا تعودناها، بل السبب في أننا تعوّدنا حب الحياة

إن في الحب شيئاً من الجنون، ولكن في الجنون شيئاً من الحكمة. وأنا نفسي التائق إلى الحياة يتراءى لي أن خيرَ من يدْرك السعادة إنما هي الفراشات وكرات الصابون الفارغة، ومن يشبهها من الناس. ولا شيء يبكي زارا ويدفعه إلى الإنشاد كنظره إلى هذه الأرواح الصغيرة الخفيفة الرائعة الدائمة الخفقان في جنونها

إن الإله الذي يمكنني أن أومن به إنما هو الإله الذي يمكنه أن يرقص

عندما تراءى لي الشيطان رأيته جامداً مستغرقاً ملؤه الجد والجلال، فقلت هذا هو الروح الثقيل الذي تتساوى جميع الحالات لديه

إذا أردت القتل فلا تستعن بالغضب، بل استعن بالضحك. فهيّا بنا نقتل الروح الثقيل

إنني ما زلت راكضاً منذ تعلمت المشي. وهأنذا أطير الآن ولست بحاجة إلى من يدفعني لأتحرك

لقد أصبحت خفيفاً، فأنا أطير مشعراً بأنني أحلّق فوق ذاتي وأن إلهاً يرقص في داخلي

هكذا تكلم زارا. . .

(يتبع)

فليكس فارس

مشرقيات

في الأدب العربي الحديث

للأستاذ أغناطيوس كراتشقويفسكي

الأستاذ بجامعة لينينجراد

بقية ما نشر في الأعداد السابقة

إن مسألة لغة الحوار في التأليف المسرحي قد تبدو ذات أهمية أكثر منها في عالم القصة. ويستدل من الاتجاه السائد أن اللغة العربية الفصحى احتفظت حتى الآن بقواعدها، لكن هناك محاولات جديرة بالاهتمام، مشبعة بروح متناقضة. ولنذكر منها محاولات جلال وتيمور. وكثيراً ما ظهرت مؤلفات نظرية تشير إلى ضرورة انتهاج تقاليد أدبية ثابتة. بل إنه قام جدال قلمي حاد في سوريا، عند ظهور مؤلفات مارون غصن، (المولود في سنة 1881)، فالموضوع يثير اهتمام الباحث المدقق، لكن حله ليس من السهولة بمكان

ومما تجدر ملاحظته أن القصصي محمود تيمور، الذي كان يكثر من استعمال العامية في الطبعات الأولى من مؤلفاته، عاد يكتب بعدئذ بلغة هي أقرب إلى الفصحى، وذلك على الرغم من أنه - نظرياً - ينبأ بمستقبل العامية المصرية ويدافع عنها

وفي مؤلفات توفيق الحكيم المسرحية، نراه يجمع بمهارة بين اللهجة العامية في الحوار وبين اللغة الفصحى عندما يدون ملاحظاته أو وصفه. وقد دلت التجارب العملية على أن هذا الحل هو خير الحلول الوسطى في الوقت الحاضر

ء - أنواع أخرى

إن تاريخ تقدم الأدب العربي الجديد محاط ببعض الظروف الخاصة التي تضطرنا إلى الولوج في بعض أنواع قد تترك جانباً إذا أثير البحث حول ما اتفق على تسميته (الأدب). مثال ذلك الصحافة، فقد لعبت بأسرها دوراً من المرتبة الأولى في الأهمية، إذ كانت مدرسة لا للقراء فحسب، بل وللكتاب أنفسهم، فكان ما ينشره الكتاب من المقالات في الصحف يساعدهم على تحسين أسلوبهم شيئاً فشيئاً، وذلك يؤثر في كتابتهم عندما يتناولون الأنواع الأخرى

وأشد هذه الأنواع تأثراً: النثر الخطابي (السياسي وغيره) وهكذا نشأت أبحاث في النقد وتاريخ الأدب، ورسائل أدبية مختلفة، تذوقها الجمهور، إذ وصلت في أسلوبها إلى مرتبة الشعر المنثور. وسار هذا الأسلوب الخاص بالصحف والمجلات والرسائل سريعاً في طريق التقدم. نعم، إن القرن التاسع عشر لم ينتج شيئاً جديراً بالاهتمام، لكننا لا نستطيع أن ننكر أثر البستاني ونشراته الدورية العديدة. وقد تخرج في تلك المدرسة عدد كبير من الصحفيين أمثال أديب اسحق، الخطيب الملتهب حماسة، ونجيب حداد الذي اتجهت ميوله إلى الجدل الفلسفي

وكان للهجرة إلى أوربا بعض الشيء من الأهمية، إذ أنجبت شخصيات فذة عديدة، مثل الشدياق وخصمه رزق الله حسون المتوفى في سنة 1880، ورشيد الدحداح الذي امتاز بما نشره من المؤلفات القديمة (1813 - 1889). وفي خلال المدة من سنة

1880 إلى 1890 اجتازت مصر نقطة من أدق النقط في تاريخها. فعلى أثر نشوب الثورة العرابية بدت في الأفق شخصية عبد الله نديم (1844 - 1896) الذي أخذ يعالج في صحف عدة المسائل الاجتماعية والسياسية بأسلوب لاذع وفي لغة الكلام العادية. ومثله يعقوب صنوع (1839 - 1912) المعروف باسم الشيخ أبو نضارة والذي أقام فترة طويلة في فرنسا. أما عبد الرحمن الكواكبي (1849 - 1903) فكان في شبه عزلة عن كتاب عصره. كان الكواكبي رحالة ثائراً، يحلم بالجامعة الإسلامية، وقد أنشأ في كتابه (أم القرى) فكرة خيالية رائعة عن مؤتمر الاتحاد الإسلامي بمكة المكرمة في خلال تلك المدة، أخذت مدرسة الشيخ محمد عبده تنمو وتقوى. ومن الذين تخرجوا في تلك المدرسة سعد زغلول (1859 - 1927) أشهر خطيب سياسي في مصر الحديثة، فلم يكن له نظير في مستهل القرن العشرين سوى مصطفى كامل (1874 - 1908) مؤسس الحزب الوطني. أما الذين خلفوا الشيخ عبده مباشرة، فقد وقفت جهودهم عند أبحاث إسلامية بحتة في التفسير وفي الدفاع عن الإسلام، ولم تحدث أي أثر واقع في الحركة الأدبية. وهذه الملاحظة تنطبق على أمثال محمد رشيد رضا، وهو أدقهم محافظة وأشهرهم. ومحمد فريد وجدي (المولود في سنة 1875)، وهو أكثرهم تشبعاً بالروح العصرية

وفاقت شهرة علي يوسف (1863 - 1913) - منشئ (المؤيد) - في عالم الصحافة شهرته في أي ميدان آخر. ولا يزال الأمير الدرزي شكيب أرسلان نزيل أوربا منذ سنوات، يشغل المقام الأول. واستأنفت المدرسة الصحفية السورية تقاليدها في مصر، بفضل يعقوب صروف (1852 - 1925) صاحب المقتطف، وسليمان البستاني (1856 - 1925) الرحالة النابه، ومترجم الإلياذة، وقد كتب عن تركيا مؤلفاً جاء فيه بأحسن الأوصاف عن حالة العرب الاجتماعية قبل الحرب العظمى. وللأسلوب العلمي الفلسفي الذي امتاز به البستاني نقيضه فيما كتبه ولي الدين يكن (1873 - 1921) من مقالات ورسائل، وقصائد

كان ولي الدين من أشد أنصار التقرب من الأتراك والعرب، فراح يصنف بعبارات تلتهب حمية وحماسة، وفي صور مؤثرة أيام أسره في إستامبول في عهد السلطان عبد الحميد، وما شاهده من المفارقات الاجتماعية في تركيا

وامتاز مصطفى لطفي المنفلوطي - وهو أصغر تلاميذ الشيخ عبده سناً - بما بذله من الجهود الموفقة لابتكار أسلوب جديد شائق، ويمكننا أن نقول إنه نجح نجاحاً كبيراً عن جدارة واستحقاق. أما البحث فيما إذا كانت المؤلفات العديدة التي نقلها بتصرف عن أصلها الأوربي قد أفادت القراء من حيث فهمها على حقيقتها، فهذا موضوع بحث آخر

وأظهرت المدرسة السورية ميلاً خاصاً إلى الرسائل والشعر المنثور. ويعتبر أمين الريحاني مبتكر هذين النوعين، وهو كاتب معروف، حائز حسن التقدير. وكان أول من رفع فن الرسائل والشعر المنثور إلى المكانة الأولى وضمن لهما شهرة ذائعة، وقد ظل مخلصاً لفنه، كما هو واضح في مؤلفاته الأخيرة. ومثله جبران خليل جبران، فانه تفرغ إلى هذين النوعين، بل إن جل مؤلفاته دواوين من الشعر المنثور أو رسائل تحوم حول نظرية خاصة أو فكرة مركزية. ثم سارت المدرسة السورية المتأمركة في طريق التنويع (مثال ذلك: ميخائيل نعيمة) لكن الأفضلية ظلت للرسائل والشعر المنثور. وهذه الرسائل، مع اختلاف مضمونها، تعد أهم مميزات المدرسة الحديثة، وإن كانت في مصر توجه عناية واهتماماً خاصاً إلى مسائل تاريخ الأدب، والفلسفة، والاجتماع

ومن الأمور الغريبة الجديرة بالملاحظة أن كتب رواد هذه المدرسة (كمنصور فهمي والعقاد وهيكل والمازني وسلامة موسى) إن هي إلا مقالات سبق أن نشرت على صفحات

المجلات والصحف اليومية، وهو دليل على حيوية هذا النوع، بل برهان ساطع على الأثر القوي الذي تركته الصحافة الدورية بالنسبة لتقدم الأدب

ترجمة محمد أمين حسونه

من ذكريات رحلة الجامعة المصرية إلى أوربا

زاكوبانا

مدينة الأحلام والثلج

بقلم محمد عبد الرحيم عنبر

كان من برنامجنا الطويل أن نزور بولندا، فوصلنا عاصمتها الجديدة (فارسوفيا) في مساء 17 أغسطس الماضي، كما كان من المقرر أن نقيم فيها ثمانية أيام، إلا أن أموراً شاقة عرضت فجعلت رئيس الرحلة يغير وجهة السير، إذ أن شرذمة كبيرة من مهرة (النشالين اليهود) قد احتفت بمقدمنا الاحتفاء اللائق! ومما زاد في مضايقتنا إجراءات البوليس البولندي التي كان لها كل الفضل في تأخير وصلوا حقائبنا إلى (بيت الطلبة) القذر الذي هيئ لأقامتنا!. وكان أغلبنا قد غلبه النعاس من فرط الإعياء فأسلم عينيه لسلطان الكرى ونام ببذلته نوماً هنيئاً حتى تبدت خيوط الصباح في اليوم التالي.

وفي ذلك اليوم استفحلت احتفاءات النشالين إلى درجة مزعجة

فكان طبيعياً أذن أن يستقر بنا الفكر على مغادرة فارسوفيا بعد إذ جاهدنا جهاد الأبطال في الذود عن (جيوبنا) مما محا من نفوسنا جمال كل رؤية!

وعلى رصيف المحطة حدثني أحد الأولاد البولنديين عن هذه الظاهرة في أسف قائلاً لي: (يؤلمنا جداً أن يزعجكم أولئك النشالون الدوليون من سفلة اليهود الذين تضيق بهم بلادنا!) فشكرته وطيبت خاطره لكي أذهب عن وجهه لمعة الخجل

وبعد سفر شاق دام عشر ساعات بالقطار بلغنا زاكوبانا. وكم كان المنظر رائعاً حين كنا نعدو سراعاً خفافاً، كل خمسة منا في عربة رشيقة صغيرة ذات حصان واحد ينهب الأرض نهباً، ويطوي المسافات الطويلة صاعداً فوق صدر ربوات عاليات في طريقنا إلى فندق (مارتون الجميل الذي يطل على قلب المدينة من فوق ارتفاع تسعمائة متر، ارتفاع شاهق يتيح للنزل أن يدوروا بأعينهم فوق آفاق الجبال السامقة المترامية الأطراف، ذات التيجان الثلجية؛ أو أن يرسلوا أنظارهم بعيداً إلى حيث تفترش أشعة الشمس رقع الأرض ذات الألوان الصارخة المختلفة؛ وأينما تقع أبصارهم يشاهدوا جمالاً أخاذاً، ويروا صوراً

مختلفات من سحر الطبيعة الخالدة. فها هي ذي تلك الذرى الشاهقة - ذرى الجبال - تلتحف بأوشحة رمادية فاتنة من ضباب كثيف لا يلبث أن يستحيل رذاذاً خفيفاً ثم مطراً ثقيلاً يتجمع ليفترق لينتهي إلى جداول ضئيلة تتشابك أو تتشعب، وتلتوي أو تستقيم، وتنتهي بدورها إلى مجار أوسع تعترضها صخور ضخمة ترقاها المياه بعد صراع عنيف تنبعث في لحظات عنفوانه ألحان الانتصار وأنغام موسيقية شجية فتنة الناظرين ومرح السامعين!

وها هي ذي الغابات الكثيفة تزين كل مكان وتهز في النفوس حنين الالتجاء إلى أحضانها، في ظل أشجارها الباسقة، وتحت أغصانها المتهدلة، لقضاء ساعات طوال بين الخضرة والماء والوجه الحسن!

وههنا وهناك المنازل الخشبية الريفية على صدر الجبال وقممها أو على قلب السهول، متقاربة حيناً ومتباعدة أحياناً. وتبدو جلية طوراً تحت أشعة الشمس وبين الرياض النضرة كأنما هي زهرات من بنفسج فضاح! وشاحبة طورا بين لفائف الضباب كأنها فكرة سابحة في خيال شاعر مفتون!

فكيف إذن لا تكون زاكوبانا مدينة الخيال والأحلام؟

وزاكوبانا ليست مصيفاً فقط، كما أنها ليست مشتى فقط، بل هي هما معاً. فالمعجبون بها يرحلون إليها في الصيف كما يرحلون إليها في الشتاء، ويبهرهم جمالها في الفصلين. فإذا زرتها في الصيف فلست منتّهياً من سماع وصف الشتاء حين يهبط بثلوجه فتتحول تلك البقاع الخضراء الضاحكة إلى بساط فاتن من الثلج فتتيح للناس الانزواء في منازلهم يلتمسون الدفء والراحة. وتعطي الأزواج فرصة الأوبة إلى زوجاتهم مبكرين على غير العادة! ولا يخرج إلا أولئك الراغبون في الانزلاق على الجليد. عادة شائعة في تلك البلاد

فإذا كان الشتاء حدثوك عن جمال الصيف وسحره. الصيف المفتون حيث تطوى شمسه الدافئة ذلك البساط الرهيب وتدفع بأفواج الناس إلى أحضان الغابات، راجلين أو فوق ظهور الجياد. حيث تدب الحياة من جديد في الكائنات المقرورة. حيث تلبس الطبيعة رداءها الجديد! فالناس هناك لذلك تواقون إلى الرياضة العنيفة. وتتجلى هذه الروح في الطفل والشاب والشيخ! في الرجل والمرأة! في الفقير والغني! في العاشق والخلي! في كل

. . .كائن حي حتى الحيوان الذليل
والقوم هناك لا يألون جهداً في توفير أسباب السعادة حيث يعيشون عيشة الفطرة
وينزعون عن أجسامهم المنهكة أردية السهرات الأنيقة وملابس العمل الثقيلة. فلا
كلفة ولا تصنع ولا رياء ولا حقد ولا مفاخرة كاذبة. تأويلهم المدنية كلهم على السواء،
ولا تجعل لأحدهم مجال الفضل على آخر، كأنهم أسرة واحدة يخرجون إلى الشوارع
(بالبيجامات) وأثواب النوم. ذلك الأمر المستقبح في مدن العمل والرسميات. يتبادلون
المجاملات الرقيقة كأنهم متعارفون متوادون منذ زمن بعيد
ولم يحاول أهل تلك البلاد زخرفة الطبيعة. بل تركوها كما هي بزركشتها الإلهية. وإن
كان هناك ثمة مجهود يبذله الإنسان فهو في الاستمتاع بسحر الطبيعة ليس إلا؛
فيتسلق الجبال أو ينزلق على الثلج،. . . الخ. وزاكوبانا في كل هذا كالجمهورية الفاضلة
التي أسسها أفلاطون في خياله الواسع!.
تكفي نفسها بنفسها وتعيش بذاتها لذاتها. يكاد يشعر المقيم بها أن تلك المدينة الوديعة
هي كل ما يستطيع أن يتصور من الدنيا
وفيها السهرات الصاخبة التي تصل الليل بالنهار، وتجعل السهران يستطيع أن يقول
في شيء من الزهو - إن كان هناك ثمة مجال لزهو - (بدأت سهرتي تحت ضوء القمر
وختمتها تحت ضوء الشمس!)
وإن أنس لا أنس تلك الليلة البارعة التي أمضيناها في كازينو وتشاسكا حيث سعدنا
ساعتين أو يزيد بمشاهدة الرقصات القومية التقليدية التي يؤديها الوطنيون في ثوبهم
الوطني الموشى بالقصب والحرير ذي الألوان الفاقعة. يؤدونها رجالاً ونساء وأطفالاً!
يختلط الحابل فيهم بالنابل. يأخذ الرجل يد أية امرأة يقع عليها بصره! ويمسك الطفل
الغرير - مازحاً - بذقن الشيخ العجوز المائل على حافة القبر! ويحتضن الشاب الغريب
الفتاة المكتملة ذات الصدر الناضج! فيدورون جميعاً في حلبة الرقص، يتجاذبون
ويصفقون ويلفون لفات سريعة بارعة على كعوب أحذيتهم أو أطراف أصابعهم!
ضاحكين متراقصين
وصعدنا مرات جبال تاتري راجلين أو ممتطين (القطار المعلق) إلى حيث ارتفع بنا نحو
ألفين وخمسمائة متر فوق سطح البحر! نوع غريب من المواصلات لا يوجد إلا حيث
تتناهى الجبال إلى مثل هذا الارتفاع الشاهق كسويسرا.
وهو عبارة عن صندوق ذي أركان من الصلب وجدران من الزنك، معلق في أسلاك
قوية شدت إلى أعمدة متينة رفعت فوق ذرى الجبال السامقة. وفي كل ذروة محطة
كبيرة، ومكتبة وبوفيه صغيران
وزاكوبانا ككل قرية أوربية بها دار للسينما وأخرى للتمثيل وناد للرياضة. وتتوفر فيها
كل أسباب الحياة من حوانيت ومقاه ومستشفيات وفنادق. . . الخ
وتنتشر هناك على الأخص الصناعات الخشبية الرفيعة كالتماثيل وأدوات المكتب
والزينة والعصي لوفرة الخشب المجلوب من الغابات الكثيفة
هذه هي زاكوبانا التي تفتح ذراعيها لكل قادم. وتتألم لكل راحل بعد إذ يكون قد أنشأ
بينه وبين المقيمين بها علاقات ودٍّ وصداقة! المدينة التي تأوي كل هارب من مضنيات
الحياة، كل ناشد راحة ومتعة وسعادة وجمالاً!
وأخيراً! المدينة التي قضينا في رحابها ستة أيام بين جمال لا ينتهي وسحر لا يوصف.
والتي غادرناها محملين منها في جعابنا بمقادير غير محصورة من الأحلام والشعر!
ولعل كثيراً منا دخل إليها وقد أقفلت دونه أبواب الشعر والنثر، وخرج منها شاعراً
مجيداً وأديباً فريداً!!. . .
محمد عبد الرحيم عنبر
بكلية الحقوق - الجامعة المصرية
القصص
راعية الغنم
للآنسة جميلة العلايلي
هناك في أعماق الصحراء النائية اتخذت راعية الغنم مأواها؛ وعند شط البحر الزاخر
بأمواج الأزل استقر بها المقام، حيث تختلط أضواء السماء بظلال الأجواء، ويبدو
الفضاء كأنه مرآة لصورة اللانهاية

في هذه الدنيا المجهولة اتخذت الراعية سكنها أو معبدها كما نظن وهي لا تدري كيف استطاعت أن تعبر محيط الحياة المحدود لتعيش في كنف الوحشة الهائلة التي لا حد لها، وكيف تمكنت من تحكيم التقاليد المرعية لتقيم لنفسها حياة لا وزن لها ولا قيمة في نظر المجتمع الإنساني

كذلك لا تدري كيف تمكنت من مغالبة رغبات الشباب وأهواء الصبا ونزعت راضية إلى حياة التقشف والحرمان

وتحار أيضاً في تفهم حياتها بقدر حيرتها من خضوعها لقوة قاهرة مجهولة ساقتها دون وعي منها إلى هذه الحياة الجرداء

وهي تذكر ماضيها القريب بما يحمله من نعم الحياة ومباهج الترف والملذات وأطايب الوجود كأنه حلم مر بها لحظات من الزمن الحالم، ولكنها لا تذكره بحنين ولا تتوق إليه ولا تتمناه، وهي تتأمل نفسها في حاضرها فيحلو لها أن تشعر بقدرتها التي حملتها - وهي لم تتعد بعد العشرين من عمرها - إلى اجتياز عقبات الحياة، وقد عبرت محيط الوجود في غير خوف، وحطمت تقاليد المجتمع الغاشمة في غير لين. . .

إنها تضحية هائلة منها بلا ريب، إذ كيف يمكن لإنسانة رقيقة ناعمة شديدة الحساسية أن تعيش في دنيا موحشة مليئة بالمخاوف والأوهام! إنها تشعر بذلك، ولكنها تعرف أيضاً أن الوحشة الهائلة والخوف المروع والسكون الرهيب أهون من أباطيل المدنية وتهاويل الجموع ومساوئ البشر، وأقل خطراً من محن التقاليد وتعسف البيئة الحاكمة!!!

لذلك ارتضت حياة الحرمان قانعة؛ ومع أن ليل الصحراء المروع كان يملأ جوانب نفسها رهبة، فإنها كانت تقتل الخوف بأحلامها السانحة. . .

كانت تتخيل دائماً أن الله معها، وأن ذلك الشروق البهيج كلمة الأمن تنطق بها شفتا الأزل، وأن مظهر الغروب كلمة العزاء ترسم على صفحة السماء لتوحي إليها أحلام الأمن والطمأنينة والصفاء!!!

كانت تشعر أن قلبها عامر بالحب إلى درجة يسع معها ذلك الخلاء المطلق لو ضمت الخلاء بين جانحتيها؛ وعندما تواتيها أخيلة المساء تتأمل الكون في خشوع فيرتد إليها الأمن وتعاودها الطمأنينة، ويبعث الله إليها ملائكة الرحمة فتنام نوماً هادئاً لا تشوبه مرارة القلق ولا الفزع حتى يقبل الصبح فاها بمنقار طير جميل فتستيقظ وهي على يقين أن ذلك الطير بعثه الله ليحمل إليها رسالة رضاه

على أن حياتها كانت لا تخلو من العمل الجدي في نهارها. كانت ترعى أغنامها وتغزل أصوافها وتستخرج الزبد والجبن من ألبانها ولا تنتفع بذلك لنفسها بل كانت تهبه راضية أبناء السبيل وهم في ناظريها اليتامى والمساكين والمحرومون

هؤلاء هم الذين يعرفون الله ويحبونه حباً جماً، ومع ذلك تحرمهم الحياة من نعمه وهي واحدة منهم - كما تعتقد - ولكنها الآن تملك ما لا يملكون فلم لا تمنحهم مما وهبها الله الجليل العظيم؟

إنها تشعر أنه وهبها ذلك من أجلهم وعليها أن ترد الأمانة لهم، ولعل هذا الإحساس الذي ولد معها وظل ينمو ويترعرع حتى اشتد أزره وملك عليها قلبها وعقلها هو الذي دفعها إلى ترك حياة القصور والفرار من بيئتها سراً لتعيش هنا في كنف هاته الوحشة أليفة وحيدة. بنت عشها من الأغصان وزينته بالزهر، وراحت تقتات النبت وتروي عطشها من ماء النهر، وباتت تحس أن كل ما يحيط بها حان عليها، وتحس بنسمات العطف ترف عليها من كل جانب، فتشعر أن قلبها بحبه الهائل أسمى من الوجود، أو لعله صورة لذلك الذي يسمونه الخلود. ويخيل إليها أنها تملك الحياة بأسرها لأنها تتنفس في طلاقة، وتعدو في غير قيد، وتخلع أرديتها دون أن تخشى النظرات الفاسقة، وتسير كما يحلو لها فلا يلاحقها أصحاب القلوب المريضة

مرت بها الأيام وهي لا نعرف لأيامها حساباً، بل تشعر أنها كما ولدتها أمها خالية الذهن إلا من الإيمان الأكيد حتى بلغ بها الخيال يوماً فحسبت أنها تعيش في الفردوس الذي وعد الله

به المخلصين من عباده، حتى رأت يوماً إنسياً يروح ويجيء من بعيد فأيقنت أنها ما زالت على أرض الحياة تعيش

وتعلق نظرها بذلك الشبح الذي تراءى لها وهو يتمشى في سكون، وينقل خطاه في

هوادة، وفي يده كتاب لا يقرأ منه إلا لماما ليتأمل مظاهر الطبيعة الفاتنة البادية في الصحراء؛ وظل كذلك حتى لمح عن بعد طيف الراعية الحانية على الغنم تطعمها وتسقيها، فتقدم نحوها عامداً، وراح يتأملها في عجب وهو يتوجس خيفة من وحشة المكان الذي يأويها؛ وقد عجب لجرأتها، وظن أنها لا بد أن تكون همجية مستأنسة أو أنسية متوحشة - ولكن مظهرها الملائكي طبع في ذهنه فاكتسح أمامه هذه الخواطر وراح يرثى لحالها ويفكر في أمرها، ووجد نفسه يتقدم إليها من حيث لا يدري فتوقف عن المسير وأسرع الخطى بعيداً عنها

فلشد ما كان يؤلمه أن يخاطب امرأة مجهولة، وكذلك يخجله أن يواجه امرأة. ولما ابتعد عنها وشعر بطول المسافة بينهما - ندم على تسرعه وقال لنفسه: وما ضرني لو حادثتها؟ ألا يحتمل أن تكون هي صحيفة مجلوة من ذلك الكتاب الغامض الذي يحتاج لقاموس؟ ثم ارتد إليه اعتدال رجولته فاطمأن إلى تصرفه

أما هي فقد راحت تتأمله في حذر وتعجب بدورها! فلأول مرة في تاريخ وجودها في الصحراء ترى إنسياً، وقد كانت سعيدة بوحدتها، فأي قدر قذف إليها اليوم بذلك الرجل المجهول. فملكها خوف ورعب، وسادها قلق واضطراب، وراحت تنظر للخلاء كأنه مغارة مخيفة تكاد تبتلعها، ثم تنزل عليها خاطر غريب فهدأت أعصابها فاطمأن قلبها وقالت لنفسها: عله عابر سبيل!! ثم استعادت بخيالها صورته، فأدركت أنه شاب وسيم الطلعة عليه مهابة الشباب الثري، وتأمله في كتابه يدل على أنه من طلاب العلم أو المتأدبين، من عسى أن يكون؟

عله يملك هذه البقاع فجاء اليوم يزورها - ولكن لو كان لسألني بأي حق اتخذت هذه البقعة؟ ثم إني لا أعرف إنساناً متمدينا يبلغ به جنون الزهد أو التقشف إلى حد يدفع به إلى شراء أرض قاحلة لا فائدة منها. والناس كلهم يجرون وراء الفائدة المادية

بهذه الخواطر شغلت نفسها طوال الليل حتى طلع الصباح فمر بها وقد تأملها في سكون،

بينما هي تتأمله في خفر، وراح يمر عليها كل يوم ملقياً عليها نظرة عابرة وهي تتعمد أن تبدو غير آبهة ولا حافلة، حتى اشتد ظمؤه يوماً، فاقترب منها وعليه طابع الصلف والكبرياء وطلب كوب ماء، فقدمت له إناء به ماء وهي تبتسم وتقول: يؤسفني أن الماء غير مكرر. . . فذق مياه الزاهدين (قالت ذلك بلهجة لا تخلو من عطف خفيّ، ولطف ساذج، وعذوبة محببة، وتحفظ رزين، فتأفف وأبى في صمت قالت: إذن تفضل كوبة من اللبن؟

فهز رأسه موافقاً وشرب ثم مد يده ببعض دريهمات إليها فامتنعت في إباء وقالت: المال لطلاب الحياة ولست منهم! فشكرها في إيجاز وكبرياء، وتركها في موقفها وسار في طريقه في هدوء وراحت تترقب مروره وقد هيأت له كوب اللبن في كل صباح فلم يحضر، ومرت الأيام وقد ازدادت لهفتها

لم ترغب فيه كرجل يحادثها أو يجالسها، ولكنها كانت تود أن تراه ثم تغمض عينيها إلى الأبد، ولم تستطع تفسير شعورها الغامض الذي ملكها. لقد باتت تحلم به في الليل وتترقبه في النهار، وجاءها على غير موعد يطلب لبناً. . . ولما شرب ظل في موقفه لا يتحرك ولا يتكلم وهي في موقفها تواري اضطرابها بالاشتغال في غزلها وأخيراً قال بلهجة التهكم المر: ما الذي جاء بك إلى هذه البقاع الجرداء وأنت صبية حسناء؟

فمالت برأسها إلى الخلف وقد بانت أشد فتنة وسحراً ثم قالت في هدوء ودعة:

ما الذي نجنيه من حياة المدنية وضجيجها! ما الذي نجنيه من أوهام الحياة؟

. .!!لا شيء بالتأكيد

إذن خير لنا أن نفكر على قدر عقولنا في حياة تكفل لنا بقدر المستطاع الأمن والسلام

فضحك الشاب متهكما وقال: وإذا كان جميع الناس على هذا الطراز (طرازك التقشفي) فما الذي تجنيه الإنسانية أيضاً؟

قالت: على الأقل تخلو من التنابذ والتنافر فترتدع الخلائق عن الحرب والتقاتل

فازداد تهكما وقال:

وهل تظنين أن امتناعك عن مشاطرة الناس حياتهم العامة يشوه من جلال الحياة؟

قالت: لا، ولكن يطمئنني أنا ويسعدني

قال: إذن فأنت تلبسين مسوح الراهبة إمعاناً في الأنانية؟
قالت: وهل يمكن لإنسان أن يتحرر من الأنانية؟. . . ولكن يمكن تحديد الأنانية وتوجيهها إلى طريق مستقيم، فهناك فارق كبير بين إنسان يقتل إنساناً ليسعد نفسه، وبين آخر يعرف كيف يمتع نفسه في حدود الخير والفضيلة دون أن يلجأ إلى الشر أو الرذيلة
فهز رأسه وهو يتمتم ويقول: هيه؟؟. . . وأخيراً قالت: سأعيش هنا حتى نهاية أيامي، فقال: ألا تشعرين بوحشة الوحدة؟
قالت: قلبي عامر
قال: بمن؟
قالت بنغمة حارة: بالحب!
فعاد إلى تهكمه ضاحكا وقال: وأين ذلك الحبيب؟
قالت: إنه معي
قال: ولكني لم أره، قد جئت هنا كثيرا
قالت: يخيل إليّ أنك تتغابى لتستدرجني
فتلفت الشاب يمنة ويسرة كأنه يفتش عن ذلك الحبيب، ولكنها لم تدعه في حيرته وقالت: أيمكنك أن ترى الله؟ من أجل الله جئت هنا، ومن أجله أعيش، ومن أجله أحب العالم كله!
قال: قد يكون ذلك صحيحاً، ولكن لا بد لك من تحديد هذا الحب وتركيزه
فلم تفهم ما يعنيه وقالت: إنني أحب كل كائن لأنني أرى فيه سمة من سمات العظمة الإلهية، فأنا أحب الكائنات كلها لأنها تكون في مجموعها القوة الجليلة الهائلة والجمال اللامحدود، أعني أحب صورة الله منوعة الرسوم
كانت تتحدث وكل خالجة فيها تعبر بوضوح عن صدق إيمانها، وكان في التماع عينيها واختلاج شفتيها معنى صريح لعواطفها الصادقة
فغمغم الشاب بلهجة المريب: لقد دفعك الحرمان إلى ذلك
فتندت عيناها وتمتمت بصوت خفيض: أجل. هو الحرمان الذي قربني إلى الله، وهو الذي فتح قلبي للحب السامي، وهو الذي أودع في قلبي عاطفة هائلة هي على قدر غموضها عميقة عميقة
وأحس الشاب أن كلماتها تنزلت على قلبه فتمنى لو يعانق جسمها اللدن ليبثها الحرارة التي في كيانه، ولكن بقية من كبريائه دفعته للصمت، وكان شعورها قد فاض بها فازداد اضطرابها
ولما أحس بحنينه يشتد خاف أن يفتضح أمره فانسحب وقد حياها على عجل وانصرف ومرت بها الأيام وهي تتجنبه بقدر ما تتمناه، فقد أدركت من المرات التي لقيته فيها أن في التماع عينيه حكاية، وعلى شفتيه طابع الرغبة الجامحة؛ ولعله ظن ذلك التجنب زهداً فاحترم مشيئتها وراح يمر بها هادئاً ويعرض عنها صامتاً
وقد فسرت هي تصرفه بالخشونة والجمود فاكتفت أن تنظر إليه من بعيد عندما يجيء ويجلس هناك على صخرة وسط الرمال كأنه يحدثها بسرائر نفسه ليرفه عن صدره عبء خواطره الثقيل
وفي أمسية قمرية ساجية أحست بشعور قوي جارف يدفعها إليه. . . لتراه ثم تعود، ولما جاءته وكان قد أخذ مجلسه على الصخرة، نظر إليها نظرة خاطفة، ثم أشار إليها بيده لتجلس فامتنعت واتجهت خلفه لتعود، فانتصب في هدوء وقال لها في رفق: أجلسي يا طيفي الهارب. . . فامتنعت. . .
فعاد يقول بصوت حزين: أنا مريض
فتمتمت: لا أظن
قال: صدقيني
قالت: لست مريضاً. . . ولكنك حالم - أجل - إن ما بك هو حلم عميق وهو الذي أورثك هذا الجمود
فارتاع ثم قال: أجامد أنا؟
قالت: أو تشك؟
قال: أجل

قالت ثق
قال: لا أظنه جمود عاطفة ولكنه رهبة وخوف
قالت: ممن تخاف؟
!!!قال: منك
قالت: أيمكن أن يخاف الرجل القوي امرأة ضعيفة؟
قال: آه من المرأة! في عينيها بريق الأمل وعلى شفتيها طابع الألم، ومن هذا الالتماع تتدفق القسوة في شبه زلال الرحمة
قالت: إن الله يحيط المرأة بسياج الغموض وهو ما يخيف الرجل، وما يسميه بالقسوة ليجعل لها حصانة طبيعية وسلاحا لا يؤذي. فتكلف ابتسامة شاحبة وقال: وبرغم ذلك فألف أف من سلاح عينيك
فضحكت في سذاجة وقالت: في عينيك حكاية وفي عيني سلاح - هه - يا للفارق الهائل:
فتماكر وقال:
!!في عيني حكاية!! عجبا
أتعرف الراعية التكهن؟
قالت: أجل
قال: إذن نبئينني يا كاهنتي؟
!!فلزمت الصمت طويلاً وهي تحدق في عينيه ثم قالت: في عينيك حكاية حلمك
قال: يا لله، وهل لحلمي حكاية؟
وإذا كان هذا رأيك عن عيني فما عساي أقوله في عينيك
فقالت: بدون اكتراث:
قال ما بدا لك
فنظر إليها طويلاً ثم أرخى جفونه وراح يعبث بعصاه في الرمل كأنه يصور خواطره بها ثم نظر إليها وقال:
في عينيك عمق الأبد وسر الأزل
قالت: ثم
قال: لا شيء
قالت: فسر ما وراءهما
قال: عسير عليّ إدراك ما وراء الأبد وتفهم خفايا الأزل
قال ذلك وهو يتأهب للانصراف فتشبثت بردائه وقد نسيت حذرها وخوفها وقالت: ابق بجانبي، ابق بجانبي، لا تتركني هكذا وشيكا
فتعمد عدم الاهتمام وحاول أن يخلص نفسه من بين يديها. ولما رفع وجهه إلى عينيها ولمح دموعها تخاذل وأخفق وأطرق برأسه في استسلام وقد تجهم وجهه ولزم الصمت. وأخيراً غمغم بصوت خفيض: أتمنى، فقبضت على يده وهي تقول: افتح عينيك!! ودعني أتأمل فيهما طويلا
دعني أتأمل فيهما حتى نهاية الوقت بل دعني أتأمل فيهما حكاية قلبي!! وهنا تلاشى كبرياؤه وبدأت عواطفه تشيع في عينيه وتتراءى كالظلال على شفتيه بسمة السخرية حتى امتدت إلى قهقهة طويلة فاستفاق فوجدها بين يديه جثة هامدة
فنضحها بالماء حتى استفاقت ففتحت عينيها في بطء وغمغمت: أما زلت هنا أيها القدر الجائر. ثم ابتسمت وقالت أترانا انتهينا؟
قال: أي قوة هائلة قد قذفتك من أعماق الحياة لتأخذي مكانك في قلبي؟ فانتصبت وقد ملكها الفرح وقالت: إذن أنت لي وسوف تظل بجانبي إلى الأبد
وأحس في أعماقه بسخرية القدر فتألم لها وعليها، إذ أدرك خطورة تصرفه وأيقن أنه عاجز عن مكافأتها على حبها - انه مرغم على فراقها، فللتقاليد حرمة يجب أن تصان، ولبيئته تقاليد مرعية يجب أن تحترم، ولوالده عليه حق الطاعة والخضوع - فتلطف بها وقال: قد أكون تطفلت عليك فمعذرة، سأذكرك دائماً بالخير، وإذا احتجت إلى معونة فأنا أقرب الناس إليك
فتألمت واحتجت في عنف وحاولت أن تحتم عليه البقاء بجانبها فخانها النطق وقعد بها الحياء

ولم يترك لها مجالاً لاستعادة قواها. فحرك ساقيه ومضى عنها مهرولاً وتركها في مكانها تتمتم:

أيمكن أن تقذفني الحياة من أعماقها إلى شاطئ فيصدمني القدر بصخرة الفناء ومرت الأيام سراعا وهي تترقبه كل يوم وتسقط ورقة أحلامها من على شجرة أمانيها ذابلة صفراء وحاولت أن تبحث عنه هنا وهناك فلم تعثر على آثار خطاه لقد مل الصحراء كما ملتها، أو لعله تعمد تجنبها رحمة بها وخوفاً عليها فأنه كان على يقين من أنه أعجز من أن يحارب أوضاع المجتمع الصارمة، وأضعف من أن يحطم التقاليد الغاشمة

ورأته في منامها على سفر يشير إليها بيده من نافذة القطار فقامت مبكرة وقطعت الوهاد والنجاد حتى بلغت محطة أول قرية تقرب من الصحراء لتتعزى برؤية المسافرين، ومرت القطر تباعا وهي تتأمل الوجوه الغادية والرائحة؛ (وأخيراً) لمحته من النافذة يرقبها في حذر ويشير إليها بيده من نافذة القطار، وسمعت بجانبها صوت رجل يقولون له (العمدة) يصيح: مع السلامة! لا تتأخر في الميعاد المحدد! وقال له صاحبه لماذا؟

فأجابه: يوم زفافه:

جميلة العلايلي

البريد الأدبي

نظريات جديدة في الفن والنقد

اطلعنا في البريد الأخير على تفاصيل القرار الذي صدر في ألمانيا بتحريم النقد الأدبي والفني، والبواعث التي أملت بإصداره؛ ويقضي القرار الجديد بتحريم نقد المؤلفات الأدبية والفنية والموسيقية والمسرحية، ويشمل أيضاً المسرح والسينما والحفلات الموسيقية كما يشمل أشخاص المؤلفين والفنانين جميعاً، ولا يباح بمقتضى القرار الجديد سوى عرض الموضوعات ووصفها دون التعليق أو إبداء الرأي. وقد صدر من قبل قرار يقضي على الكتاب بأن يعنوا عند نقد المؤلفات الفنية بالتنويه بالمزايا السياسية والثقافية والجنسية للاشتراكية الوطنية

ويرجع هذا التحريم إلى رأي الوطنية الاشتراكية (أو الهتلرية) في الفن وهو أن الفن يجب أن يستمد إلهامه من المثل والخواص القومية، وأنه لا يوجد من أجل قيمته الذاتية فقط، ولكنه يوجد لخدمة مصالح الدولة والأمة

وقد بسط الدكتور جبلز وزير الدعاية الألمانية في بيانه الرسمي بواعث هذه الخطوة الحديثة، فذكر أن مهمة الفنان هي أن يحمل إلى الأمة (القوة مع السرور)، وأن النقد الفني لا يزال في ألمانيا يحمل طابع (الحرية اليهودية) على رغم جميع الجهود التي بذلت لمحو هذا الطابع؛ وإن أولئك الفتية الذين يزعمون اليوم أنهم أقطاب المعرفة والنقد يسيئون دون قصد إلى حياتنا الفنية والثقافية؛ وهم بلا ريب ورثة الأرستقراطية اليهودية الناقدة دون أن يشعروا. ثم قال إن ذلك لا يعني إخماد حرية النقد، ولكن القصد أن يقتصر النقد على أولئك الذي تؤهلهم معارفهم ومقدرتهم للحكم على أعمال الآخرين. وإنه ليس من الإنصاف أن يتصدى فتية أحداث في العشرين أو الثانية والعشرين لنقد أعمال رجال من أقطاب الفن قضوا أعمارهم في تفهمه وإتقانه وأحرزوا شهرة عالمية فيه، وإنه يجب أن يبدأ أولئك الفتية بالتمرن على الوصف والعرض، وإن باب النقد مفتوح للقادرين، ولكنهم لا يوجدون الآن، وإنه لا يريد أن يسقط الفنانون صرعى النقد الحر. هذا ولن يفقد الفن شيئاً إذا بعد أولئك النقدة الأغرار من الميدان، فالعظمة الزائفة تسقط في ظرف عام حتى ولو لم يقتلها النقد. أما ذوو العظمة الحقيقية فيجب أن يسمح لهم بحرية الابتكار والاحتفاظ بكرامتهم الفنية، ويجب أن تصان العبقرية الحقيقية من كل ما يؤذيها ويمهد لسقوطها

هذه هي نظريات العهد الألماني الجديد في الفن وفي النقد؛ ومهما كانت في ظاهرها تحمل الطابع الطرافة، فلا ريب أنها أخطر ما يكون على الفن وعلى العبقرية الفنية، فالفن الحقيقي لا يزدهر في ظل العبودية الفكرية، ولا تنظمه القوانين العسكرية، والعبقرية الفنية أو الفكرية، لا تزدهر إلا في جو النقد الحر، والنقد وحده هو الذي يبرزها ويذكيها ويصقلها

كتاب عن علائق العرش والأمة

لعل من الأزمة الدستورية التي تجتازها إنكلترا الآن وفي الخلاف الذي قام بين العرش والحكومة ما يجعل لمثل هذا الكتاب أهمية خاصة؛ فقد صدر أخيراً بالإنكليزية كتاب للدكتور بريديل كايت عنوانه (الملك والتاج الإمبراطوري. ما لجلالته من حقوق وما عليها من واجبات) ويتناول المؤرخ بالشرح كل الواجبات والأعمال التي يضطلع بها العرش في مختلف الشؤون العامة، ثم مركز الملك وعلائقه بالنسبة للإمبراطورية وما له من حقوق وما عليه من واجبات في الحالتين؛ ثم مدى تأثير العرش في مختلف الدوائر الحكومية، ويتناول المؤلف خلال بحثه كثيراً من الشخصيات السياسية الكبيرة، ويبين ماذا كان موقفها من العرش؛ ويخص السياسي الكبير جلادستون بمديحه وتقديره، في حين أنه يحمل على دزرائيلي وعلى أسلوبه. ومع أن الكتاب يدور في معظمه على علاقة العرش بالحكومة والأمة، ومدى ما يقوم به في سبيل الخدمة العامة، فان أهم فصل في الكتاب هو الفصل الذي يتناول علاقة العرش بالإمبراطورية، لأن هذا البحث جديد (ولأن المسألة التي يتناولها جديدة في تاريخ الإمبراطورية البريطانية)

وقد أسبغت الأزمة الإنكليزية الأخيرة على هذا البحث أهمية خاصة

ذكرى موسيقى كبير

يحتفل في العام القادم في مدينة ليبسك بألمانيا بذكرى الموسيقي الكبير بكستهودي أعظم أساتذة (باخ) عميد الموسيقى الألمانية، وذلك لمناسبة مرور ثلاثمائة عام على مولده؛ وستقام بهذه المناسبة حفلات موسيقية يعزف فيها بآلات الكنيسة القديمة التي كان يعزف عليها في عصر بكستهودي، ويقام قداس موسيقى، وينظم متحف يضم مخطوطات الموسيقي الكبير

ورسائله والكتب التي ألفت فيه

وقد كان بكستهودي من أهل ليبسك وقضى معظم حياته فيها ولبث أعواماً طويلة رئيس الفرقة الكنسية في كنيسة سان ماري؛ وما زالت بهذه الكنيسة المنابر التي أمر بكستهودي بإنشائها ليلقى منها مقطوعاته الشهيرة؛ وهنالك أيضاً معزف صغير كان يعزف عليه، وعدة آلات موسيقية أخرى كان يستعملها لتوقيع الموسيقى المقدسة؛ ويوجد بمكتبة ليبسك كثير من القطع الموسيقية التي وضعها، وكثير من الوثائق التي تتعلق بحياته وعلائقه مع تلميذه باخ

معهد من نوع جديد

افتتحت جامعة لايبزج أخيراً معهداً تاريخياً من نوع جديد يخصص لدراسة المسائل المتعلقة بشعوب جنوبي شرق أوربا؛ وسيقوم بالتدريس فيه جماعة من الأخصائيين من يوجوسلافيا ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا واليونان وبلغاريا والمجر وتركيا؛ وقد انتدب لإدارة المعهد الأستاذ الدكتور (منستر)، وهو من أعظم المتخصصين في هذا الباب

كتاب عن العراق الحديث

صدر أخيراً بالإنكليزية كتاب عن العراق عنوانه (تكوين العراق الحديث) بقلم كاتب أمريكي هو مستر هوارد فوستر والكتاب بحث نقدي مدعم بكثير من الوثائق، كتب بأسلوب هادئ؛ بيد أنه يكتفي من الوثائق بالمطبوع منها، ولا يدعى بأنه اطلع أو أحاط بأية وثيقة غير معروفة. ويستعرض المؤلف تاريخ العراق الحديث حتى سنة 1934؛ إلا أنه يغضي عن ذكر بعض الحوادث المعروفة كثورة الآشوريين وإخمادها في سنة 1933، وعقد اتفاق أنابيب النفط في سنة 1934، مع أنه يتحدث عن موضوعات أخرى لا تتعلق مباشرة بتاريخ العراق مثل الحرب بين ابن السعود والإمام يحيى. وينوه المؤلف بمجهود الرئيس ولسون في وضع مبدأ تقرير الشعوب لمصيرها، ويرى أنه لولا جهاده في سبيل هذه المثل العليا لكانت العراق وغيرها قد راحت ضحية الاستعمار الجشع. وهذا رأي لا يوافقه عليه الكثيرون

آثار فرعونية في المتحف البريطاني

تعرض لأول مرة في المتحف البريطاني مجموعة من التماثيل الفرعونية نادرة المثال. وهي ملك للمسيو كالوستي جلبنكيان من كبار رجال المال والزيت الدوليين، وقد أعارها للمتحف من مجموعته الخصوصية المشهورة بباريس

وهناك أربع عشرة قطعة بينها رأس تمثال يرجح أنه للملك أمينمحعت الثالث من ملوك الأسرة الثانية عشرة. وهو مصنوع من (الابسديان) أو الزجاج الطبيعي، وكان يستعمل

قبل المعادن في صناعة الأسلحة مثل رؤوس الحراب والرماح. وكذلك يوجد تمثال لقطة بحجمها الطبيعي ومعها قطتان صغيرتان. وربما كان التمثال الفريد بينها رأس امرأة يرجع عهده إلى 3500 سنة خلت، وهو مؤلف من جزءين: غطاء الرأس وهو من الفخار المدهون بطلاء أزرق، ثم الوجه وهو من مادة زجاجية

النقد

سلسلة الموسوعات العربية

معجم الأدباء

بقلم الدكتور عبد الوهاب عزام

- 1 -

سمعت بعد عودتي من العراق الصيف الماضي أن الأديب الهمام الدكتور احمد فريد الرفاعي تطوع لنشر طائفة من أمهات كتبنا، وأن وزارة المعارف وآزرته فيما تطوع له فضمنت له تصحيح الكتب، وأن تشتري من كل كتاب ألف نسخة. وتلك همة مشكورة من الدكتور، وسنّة محمودة من الوزارة

وقد عرفت من قبل في معجم الأدباء، كما طبعه الأستاذ مرجليوت، نقصاً وسقطاً وتحريفاً، فرجوت أن تكون الطبعة الجديدة سادّة ما في الكتاب من خلل، ولبثت أنتظر أن يتحقق رجائي حين ينشر القسم الأول من الكتاب. فلما طلعت الجرائد بالبشرى بادرت إلى قراءة الأجزاء التي نشرت؛ ولكني ألفيت غير ما رجوت، وتوالت عليّ أثناء القراءة خيبة ظن بعد خيبة حتى فرغت من القسم الأول موقناً أن نشر الكتاب على هذه الشاكلة أمر لا يفي ربحه بخسارته، ولا يقوم سروره بندامته؛ وأنه يجب وقف الطبع إلى أن تؤخذ الأهبة الكافلة تصحيح الكتاب وإتقان طبعه. فليس يليق بالكتاب العظيم، ولا بالناشر الفاضل ولا بوزارة المعارف هذا التحريف والمسخ والشرح السخيف

- 2 -

وسأعرض على القارئ كيف توسمتُ الخيبة ثم ترادفت شواهدها، وتوالت أمثلتها:

نظرت إلى صفحة العنوان فرأيت أسطراً لم أبالها، ثم رأيت اسم الكتاب والمؤلف على هذا الترتيب: (معجم البلدان) وتحته: (في عشرين جزءا) وتحت هذا: (لياقوت). فبدا لي أن وضع اسم الكتاب والمؤلف على هذا الشكل ليس فاتحة خير. وكان ينبغي أن يقدم اسم المؤلف على عدد الأجزاء ويكمل الاسم بذكر اسم الأب والنسبة ويكتب بخط كبير. ثم المؤلف لم يجزّئ كتابه هذه التجزئة، فكان ينبغي الاحتفاظ بتجزئته، وتقسيم كل جزء

أقساماً. ومن اللطائف أني قلت لبعض الأصحاب: لماذا كتب اسم ياقوت مختصراً بحرف صغير؟ قال انظر. وأراني نسخة أهداها الناشر إلى بعض الأدباء، وقد سمي نفسه فيها المؤلف لا الناشر، ثم قال لا تعجب بعدُ من وضع اسم ياقوت هذا الوضع.

قلت: أتعني أن قلم المطبوعات يفكر في حذفه؟

ثم قرأت على صفحة العنوان: (الطبعة الأخيرة) فلم أدر كيف سمى الناشر طبعته الطبعة الأخيرة. أرأيت إن طُبع الكتاب طبعة أخرى أتكون طبعتنا هذه الطبعة الأخيرة أيضاً؟ أيمكن أن يقال إن في نية وزارة المعارف أن تحرّم على الناس طبع الكتاب من بعد فتبقى طبعتها الطبعة الأخيرة إلى يوم القيامة؟

رأيت هذا كله في صفحة العنوان فسألت الله ألاّ يصدق المثل: (الكتاب يقرأ من عنوانه)، ومضيت أتصفح الكتاب فإذا هو مشكول كله كلمة كلمة وحرفا حرفا. وعجيب أنه تحمّل الكلمات هذه الأحمال، ويؤذي القارئ بهذه الأشكال دون فائدة. إن الشكل في مثل هذا الكتاب ينبغي أن يُتحرّى به مواضع اللبس، فلا يشكل ما لا يشتبه على القارئ، وأما شكل واو العطف و (في) الجارّة، والقاف من قال واللام من أداة التعريف فعمل أقل ما يوصف به أنه عبث. خذ مثلاً هذه الجملة من صفحة 194: (كان من أبلغ الناس في الكتابة) فهذه لا تحتاج إلى أن تشكل لقراء معجم الأدباء. فإذا راعينا المبتدئين من طلاب الأدب وضعنا كسرتين تحت الغين والسين. فأية حاجة إلى شكل الحروف كلها: (كَانَ مِنْ أَبْلَغِ النَّاسِ فِي الكِتَابَةِ)

قلت لنفسي: دعي شكل العنوان وشكلات الحروف ولا تقفي عند الأشكال وانظري إلى الموضوع. فقرأت فألفيت تحريفاً في الطبعة الأولى مُتَّبعاً، وتحريفاً آخر مبتكراً،

وسوء صنيع في بيان مبادئ الكلام ومقاطعه، والفصل بين ما يقوله ياقوت وما ينقله، وشرحا في الحاشية لا يعدو في معظمه أن يكون غلطاً أو عبثاً
أعرض على القارئ أمثلة من هذه المآخذ، وأكتفي في هذا المقال بالتحريفات الواضحة والغلطات البيّنة تاركاً التحريف الخفيّ الذي يحتاج إلى مراجعة الكتب لبيان صوابه ريثما أفرغ له
أ - تحريفات في حروف الكلمات أو شكلها:
أول ما يلقى القارئ من التحريف الذي كشف عنه الولع بشكل الكلمات اسم مرجَليوث بفتح الجيم وجُب بضمها، وقد وردت الثانية مرتين ص 5 و 15.
ولا أدري ما عذر الناشرين في هذا الضبط. ونحن نسأل صديقنا المستشرق الأستاذ جب: أجاء اسمه بِضم الجيم في لهجة إنكليزية أو قحطانية أو عدنانية؟
أنا أعلم أن شاعر الترك الكبير عبد الحق حامد حينما كتب البيتين اللذين ينشران على غلاف مطبوعات جب، اضطر إلى مدّ الجيم من جب أو الكاف كما كتبها فقال:
نه اولور دي ياشامش اولسه ايدي مستر كَيب
ولكني لا أعرف ضرورة تقضي بضم الحرف
ص 16 - نَشوار، والقَفطى. والصواب كسر النون والقاف
ص 20 - كيش وعَمّان. والصواب عُمان. وشتّان ما بين البلدين
ص 21 - السلطان محمد بن تَكْش. والصواب تُكُش بضمتين
ص 23 - ثعلبة بن عكاية، وص 107 ثعلبة بن عكاشة. والصواب عكابة بالباء
ص 31 - مرو الشاهِجان، ونِتّفها. والصواب فتح الهاء وضم النون
ص 35 - لبّ عازب، وحُلم غائب. والصواب كسر الحاء
ص 37 - يعالج لما خَرّبه من هذا الأمر المقيم المقعدِ. وفي الحاشية: خرّبه نزل به. والصواب لما حزبه. يقال حزبه الأمر لا خرّبه الأمر. والمقيم بالفتح مفعول يعالج لا صفة للأمر
ص 40 - أبيات لياقوت (في غلام تركي رمدت عينه وعليها رفائد سود). وفي الحاشية الرفادة الخرقة توضع على الجرح. وهذا صواب. ولكن جاء في البيت الثاني:
وكان ينبغي أن يُعلم أنها فضل رفادة بعد أن ذِكرت (أرخى على عينيه فضل وقاية) الرفادة وشرِحت
ص 63 - قول ياقوت: (فاجعل جائزتي دعاء يزكو غرسه عند ذي العرش، واحمدني في بُسُطه والفرش) والصواب في بَسْطه أي بسط الكتاب
ص 64 - (إذ كلُّ همَّه تحصيل المأكول والمشروب). والصواب همُّه بضم الميم. والمراد هنا الاسم، لأن الفعل أهّم لا همّ
ص 80 - ومعاوية بفارسٍ. والصواب بفارسَ، فإنها ممنوعة من الصرف، وفي الصفحة نفسها: ينعي. والصواب ينعىَ بالفتح
ص 82 - أمغطٍّ منى على بصري بالسحب أم أنت أكمل الناس حُسناً
وقد شرحه الناشر في الحاشية وقال: (ويروى أمُغَطىَّ على صيغة المفعول). والصواب أمغطًّى لا يحتمل البيت غيرها، وكان الواجب تصحيح البيت لا إثبات الغلط وشرحه، وفي البيت غلط آخر في وضع كلمة السحب بدل الحب. والبيت معروف.
ص 93 - (ولا أبدأ نفعا ولا أحمدُ أخلاقا ولا أدومُ سرورا)، وقال في الحاشية: في الأصل أبد نفعا. فقد أصلح غلط الأصل بغلط آخر. والصواب أبدي بالياء.
ص 99 - (ولم تُعوَّض من ذاك ميسُرة). والصواب فتح السين.
ص 108 - (لُغوِيا نبها ثَبَتا). وقد شرحها في الحاشية فقال: والثَبَت بفتح الباء الحجة والرجل الثقة. والصواب ثبْتا. يقال رجل ثبْت لا ثبَت، والثبت بالفتح البرهان اسم لا وصف.
ص 112 - كأنْ ثنى النُّحوص. . الخ والصواب فتح النون.
ص 115 - أُضِقت إضاقة شديدة، وبعد أسطر: أُضِقت مرّة. والصواب أضَقت بالبناء للفاعل أي أصابه ضيق.
ص 133 - فلا أزال أماكسهم ويزيدوني. والصواب يزيدونني.
ص 188 - فنقطت القلم نقطة. وفي الحاشية: الأنسب نقط القلم. أقول: وأنسب من هذا نقطت من القلم نقطة.

ص 187 - يسائل عن أخي جُرم. . الخ والصواب جَرم وهو اسم قبيلة.
ص 208 - إبراهيم بن قُطْن. ونحن نعرف في الأسماء قَطَنا لا قُطنا.
ص 209 - المُصَيصَة اسم بلد. والصواب المَصِّيصة
ص 213 - أبو عليّ الرَّوْزباري. والصواب الرُّوذباري.
ص 219 - ثنى الصَّبا غصنا قد غازلته صَبا، والصواب ثنى الصِّبى
ص 237 - أحمد الفِرغاني. والصواب فتح الفاء
ص 240 - غُمار الناس. والصواب كسر الغين
ص 221 - :
يخال بأن العِرض غير موفَّر ... عن الذم إلا أن يدال له الوفر
والصواب يذال بالذال المعجمة من الاذالة أي الامتهان
ص 224 - :
سقى الله صوب القصر تلك مغانياً ... وإن غنيت بالنيل من سُبُل القطر
وهذا بيت معمور بثلاث غلطات. والصواب صوب القطر. و (عن سَبَل القطر)
ص 233 - (وسعد بن مسعود هو أخو عبيد بن مسعود صاحب يوم الجسر.) والصواب أبو عبيد وهو صحابي معروف قاد جيوش المسلمين في وقعة الجسر وقُتل بها. والعجيب أن في الكتاب بعد سطر واحد: وسعد هو عم المختار بن أبي عبيد الثقفي. ولم يتنبه الناشر إلى أن أبا عبيد الثقفي هذا هو أبو عبيد ابن مسعود الذي سمّاه عبيد بن مسعود. ومثل هذا ما جاء في ص 235: (محمد بن علي الشلمغاني) وبعدها بسطرين: (من أهل قرية من قرى واسط تعرف بشلغمان. ولو لم يكن المصحح نائماً لما سمى الرجل في سطرين عبيداً وأبا عبيد، وسمى القرية في سطرين شلمغان وشلغمان
ص 256 - (وكان حسن الحفظ للقرآن. أولَ ما يبتدئ به الخ). وفي الحاشية: أول مفعول يبتدئ. والصواب أولُ بضم اللام وهي مضافة إلى المصدر المؤول بعدها لا مفعول يبتدئ. وينبغي أن يُعلم أن ما بعد ما المصدرية لا يعمل فيما قبلها
ص 187 - في متن الكتاب: (ثم التي لا يقع حسم الداء بغيرها.) وهو كلام مستقيم، ولكن الناشر أخرج هذه الجملة إلى الحاشية. وأثبت في المتن (التي لا يقع بحسم الداء غيرها.) أجاز لنفسه هنا أن يغيّر المتن وهو صحيح. ولم يجز لنفسه في مواضع أخرى أن يصحح المتن وهو غلط بيّن فاكتفى بإثبات الرواية الصحيحة في الحاشية
ص 191 - كان في متن الكتاب:
كذبت همة عين ... طمعت في أن تراكا
أَوَ ما حظُّ لعين ... أن ترى من قد رآكا؟
فغير الناشر (أَوَ ما) إلى (أَيُّ ما). والصواب ما كان في المتن. والغلط ما رآه الناشر. وغلط آخر في رسم (أيّما) مفصولة كما رسمها
ص 270:
معاذ الله أن تُلقى غضابا ... سوى ذاك المطاع على المطيع
وفي هذا غلطان. والصواب: تُلفى غضابا بالفاء، في الشطر الأول و (دَلّ المطاع) بدل (ذاك المطاع) في الشطر الثاني
هذا ما أخذته وأنا أعبر القسم الأول وهو جزء من عشرين، ووراء هذا معضلات من التحريف تحتاج إلى بحث وتنقيب ليتبين صوابها. وسأبين في المقال الآتي ما في تعليق الناشرين من غلط وعبث، يرى فيهما القارئ المبكي المضحك، وموعدنا العدد الآتي إن شاء الله
عبد الوهاب عزام
نفح الطيب
في طبعته الجديدة
بقلم الأستاذ أحمد يوسف نجاتي
شارح الكتاب
اطلعت في العدد الأخير من مجلة (الرسالة) الغراء على مقال بالعنوان الذي اخترناه لكلمتنا هذه بقلم الأديب محمد فهمي عبد اللطيف، فأردت بعد قراءته أن أقدم لحضرته هذه الكلمة في غير ردّ عليه ولا تزييف لقوله. وعسى أن تكون هذه الكلمة

البريئة رسالة تعارف ودّي بيني وبين الناقد الكريم تتلاقى به الأشباح كما تلاقت الأرواح، فطالما قرأت له بمجلة (الرسالة) القيمة مقالات شائقة ممتعة؛ ولا غرو في ذلك فالرسالة ميدان تتبارى فيه فرسان البلاغة وجياد البراعة، وهي المجلة التي يتقبلها الأدباء بقبول حسن ويحلّونها من أنفسهم أكرم محل

افتتح حضرة الناقد الجهبذ مقاله الكريم بكلمة طيبة أثنى فيها على تلك الهمة المشكورة التي يبذلها حضرة الأستاذ الدكتور أحمد فريد الرفاعي في إحياء الأدب العربي وبعث تراثه من مراقده ونشر موسوعاته الجامعة؛ وراقه من كتاب نفح الطيب (وغيره طبع متقن وضبط كامل وتقسيم واضح وتصحيح دقيق تقوم وزارة المعارف بمراجعة أصوله النهائية مبالغة في إجادته وحرصا على إتقانه)؛ ونحن نشاركه في هذا الثناء ونتوجه بالشكر الجزيل لحضرة صاحب المعالي زكي العرابي باشا وزير المعارف الجليل وإلى حضرتي وكيليه الهمامين، فما منهم إلا نصير للغة وآدابها عامل على ترقيتها، فجزاهم الله خير الجزاء. وكذلك سرّنا من حضرة الناقد أن نوه بالمحاسن - وإن أجمل القول في ذلك إجمالاً - فجانب بذلك عادة عرف بها كثير من نقادنا وهي إغضاؤهم عن الحسنات وتشهيرهم بما يرونه هفوات

فليس من الحزم في شيء أن ينزل الكاتب - لشهوة الكتابة - على حكم النظرة الأولى العجلى فطالما أعجلت الكاتب عن التفكير، وكان حكمها خاطئاً بعيداً عن الحق متنكباً جادة الصواب؛ وليس من الكياسة الحكيمة أن يسرع بعض الناقدين إلى رمي من ينقدون أعمالهم

بفساد القول وزلل المنطق، فقد كان من آثار ذلك أن أحجم كثير من المبرزين في الآداب أن يجلوا للناس عرائس أفكارهم، ضناً بأعراضهم أن ترتع فيها الألسنة المضرِّاة حتى تركوا الميدان لهؤلاء الذين جعلوا عقولهم وراء ألسنتهم، يجولون فيها وحدهم، ونرجو أن يكون للكتاب والناقدين قدرة حسنة في حضرة ناقدنا الأديب وأسوة صالحة بالكاتبين الكرام في الرسالة الغراء

1 - قال حضرة الناقد: إن الناشر (وضع اسم الكتاب على الغلاف ناقصاً فسماه: (نفح الطيب) والمؤلف قد سماه نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، وهذا الاسم هو الذي وضع على الطبعات السابقة) ونحن أيضاً نرى أنه كان الأولى أن يكتب على الغلاف اسم الكتاب كاملاً محافظة على وضع المؤلف. ولعل العذر في ذلك اشتهار الكتاب باسم (نفح الطيب) فحسب، وأن الاسم لو أثبت كاملاً لم يتسع له نطاق الغلاف بهذا الوضع المنسق الذي هو عليه، وأن القارئ لا يلبث إذا تصفح بضع ورقات من الكتاب أن يرى اسمه التام الذي اختاره له مؤلفه، والخطب في هذا يسير وليست ملافاته عسيرة. وكذلك نرى أنه كان من الخير أن يراعى تقسيم المؤلف فيقسم كل جزء من الأجزاء العشرين إلى أقسام ينبه بها إلى التقسيم الأصلي للمؤلف، ويبين فيها حدود أجزائه الأربعة الأصلية، وهذا أيضاً شيء يهون أمره ولا يعز تداركه في الأجزاء الآتية إن شاء الله

2 - ونقول لحضرة الناقد إن المقدمة التي صدر الجزء الأول بها للتعريف بمؤلف الكتاب ليست للناشر ولا لغيره من الشارح أو المراجعين، وإنما هي منقولة بنصها من كتاب خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر لابن فضل الدين المحبي، وقد نبه حضرة الناشر إلى ذلك في أول ذيل الصفحة الأولى، وما كان للناشر أن يتصرف في تلك المقدمة بمحو أو إثبات. فليس من العجب أن ينقل الأستاذ عبارة المحبي كما هي، وليس هو الذي أثبت اسماً قد ألغاه صاحبه ولكن المحبي صاحب خلاصة الأثر هو الذي أثبته غير مرة في هذه الترجمة الطويلة التي (جاء فيها بأشياء ذكرها المقري نفسه في المقدمة التي كتبها عن سفراته ورحلاته والباعث له على تأليف الكتاب) وإذا عرفنا أن المقدمة كلها من ص 9 - 31 منقولة من خلاصة الأثر فقد ارتفع اللوم عن الناشر وغيره

وليس (لفّا) من الشارح ولا (فضولاً) أن ينبه في أسفل صفحة 9 إلى أن المؤلف قد غير اسم الكتاب من (عرف الطيب) إلى (نفح الطيب) قبل أن ينبّه المؤلف نفسه إلى ذلك في صفحة 244 حتى لا يتوهم بعض القراء في أول الكتاب عند صفحة 9 قبل أن يقطع المسافة إلى صفحة 244 أنهما كتابان متغايران

(يتبع)
أحمد يوسف نجاتي
العدد 182 - بتاريخ: 28 - 12 - 1936
الضحك
للأستاذ أحمد أمين
ما أحوجني إلى ضحكة تخرج من أعماق صدري فيدوّي بها جوّي! ضحكة حية صافية عالية، ليست من جنس التبسم، ولا من قبيل السخرية والاستهزاء، ولا هي ضحكة صفراء لا تعبر عما في القلب؛ وإنما أريدها ضحكة أمسك منها صدري، وأفحص منها الأرض برجلي؛ ضحكة تملأ شدقيّ، وتُبدي ناجذَيّ، وتفرج كربي، وتكشف همي ولست أدري لماذا تجيبني الدمعة وتستعصي عليّ الضحكة، ويسرع إليّ الحزن، ويبطئ عني السرور، حتى لئن كان تسعة وتسعون سبباً تدعو إلى الضحكة وسبب واحد يدعو إلى الدمعة، غلب الدمع وانهزم الضحك، وأطاع القلب داع الحزن ولم يطع دواعي السرور!
ولي نفس قد مهرت في خلق أسباب الحزن؛ تخلقها من الكثير، ومن القليل، ومن لا شيء؛ بل وتخلقها من دواعي الفرح أيضاً. وليست لها هذه المهارة ولا بعضها في خلق أسباب السرور؛ كأن في نفسي مستودعاً كبيراً من اللون الأسود، لا يظهر مظهر أمام العين حتى تسرع النفس فتغترف منه غَرفة تسوّد بها كل المناظر التي تعرض لها، ثم ليس لها مثل هذا المستودع من اللون الأحمر أو اللون الأبيض!
يقولون لي: اضحك يدخل على قلبك السرور؛ وأنا أقول لهم: أدخلوا السرور على قلبي أضحك. ففي المسألة (دَوْر) كما يقول علماء الكلام، وكما يقول الشاعر:
مسألة (الدوْر) جَرَتْ ... بيني وبين من أُحِب
لولا مَشيبي ما جَفَا ... لولا جَفَاهُ لم أَشِب
وإلى الآن لم أَدر من المصيب! هل الضحك يبعث السرور، أو السرور يبعث الضحك؟ ودخلت المسألة في دور من الفلسفة مظلم كالعادة، وانتقلت إلى بحث بيزنطي، كالبحث في هل البيضة أصل الدجاجة أو الدجاجة أصل البيضة؟ فلنغلق هذا الباب ولنعد إلى (الضحك)
يقول المناطقة في أحد تعريفاتهم للإنسان: (الإنسان حيوان ضاحك)؛ وهذا عندي أظرف من تعريفهم الآخر: (الإنسان حيوان ناطق). فالإنسان في هذا الزمان أحوج إلى الضحك منه إلى التفكير، أو على الأصح نحن أحوج ما نكون إلى التفكير والضحك معاً ولكن لمّ خصت الطبيعة الإنسان بالضحك؟
السبب بسيط جدّاً. فالطبيعة لم تحمّل حيواناً آخر من الهموم ما حمّلته الإنسان؛ فهمّ الحمار والكلب والقرد وسائر أنواع الحيوان أكلة يأكلها في سذاجة وبساطة، وشربة يشربها في سذاجة وبساطة أيضاً. فإذا نال الحمار قبضة من تبن وحفنة من فول وغَرفة من ماء، فعلى الدنيا العفاء، ولكن تعال معي فانظر إلى الإنسان المعقد المركب! يحسب حساب غده كما يحسب حساب يومه، وكما يحسب حساب أمسه؛ ويخلق من هموم الحياة ما لا طاقة له به، فيحب ويهيم بالحب حتى الجنون، ويشتهي ويعقّد شهواته حتى لا يكون لعقدها حل؛ فإذا حلت من ناحية عقدها من ناحية؛ ثم إذا سذجت اللذة وتبسطت لم تعجبه بل أخرجها من باب اللذة، وعقد أمله على لذة معقدة. وإذا تفلسف - والعياذ بالله من فلسفته - خرج بها عن المعقول، وحاول أن ينال ما فوق عقله، ولم تعجبه الأرض والسموات مجالاً لبحثه؛ إنما يريد الحقيقة والماهية والكُنْه. وويل له من كل ذلك! أستغفر الله فقد نسيت أن أذكر هموم الموظف بالعلاوات والترقيات، وما كان منها استثنائياً، وما كان غير استثنائي، وما يترتب على ذلك من معاشات وحساب تمغة، وما إلى ذلك من أمور لا تنتهي. وهذا أيضاً من ضروب الفلسفة المظلمة، فلنعد إلى الضحك
أقول إن الطبيعة عودتنا أن تجعل لكل باب مفتاحاً، ولكل كرب خلاصاً، ولكل عقدة حلاً، ولكل شدة فرجاً؛ فلما رأت الإنسان يكثر من الهموم ويخلق لنفسه المشاكل والمتاعب التي لا حد لها، أوجدت لكل ذلك علاجاً؛ فكان الضحك
والطبيعة ليست مسرفة في المِنَح، فلما لم تجد للحيوانات كلها هموماً لم تضحكها، ولما وجدت الإنسان وحده هو المهموم المغموم جعلته وحده هو الحيوان الضاحك

لو أنصف الناس لاستغنوا عن ثلاثة أرباع ما في (الصيدليات) بالضحك، فضحكة واحدة خير ألف مرة من (برشامة أسبيرين) وحبة (كينين) وما شئت من أسماء أعجمية وعربية. ذلك لأن الضحكة علاج الطبيعة، والأسبرين وما إليه علاج الإنسان. والطبيعة أمهر علاجاً وأصدق نظراً وأكثر حنكة. ألا ترى كيف تعالج الطبيعة جسم الإنسان بما تمده من حرارة وبرودة، وكرات حُمر وبيض، وآلاف من الأشياء يعالج بها الجسم نفسه ليتغلب على المرض ويعود إلى الصحة، ولا يقاس بذلك شيء من العلاج المصطنع؟ فانفجار الإنسان بضحكة يُجري في عروقه الدم؛ ولذلك يحمر وجهه، وتنتفخ عروقه. وفوق

هذا كله فللضحكة فعل سحري في شفاء النفس وكشف الغم، وإعادة الحياة والنشاط للروح والبدن، وإعداد الإنسان لأن يستقبل الحياة ومتاعبها بالبشر والترحاب ولو أنصفنا - أيضاً - لعددنا مؤلفي الروايات المضحكة والنكت والنوادر البارعة التي تستخرج منك الضحك وتثير فيك الإعجاب، وتنشئ بك الطرب، وهؤلاء الذين يُضْحكون بأشكالهم وألاعيبهم وحركاتهم؛ أقول لو أنصفنا لعددنا كل هؤلاء أطباء يداوون النفوس، ويعالجون الأرواح، ويزيحون عنا آلاماً أكثر مما يفعل أطباء الأجسام، ولعددنا من يستكشف الضحكات في عداد من يستكشف دواء للسل أو للسرطان أو نحو ذلك من الأدواء المستعصية؛ فكلاهما منقذ للإنسانية من آلام، مصلح لما ينتابها من أمراض والضحك بَلْسم الهموم ومرهم الأحزان؛ وله طريقة عجيبة يستطيع بها أن يحمل عنك الأثقال، ويحط عنك الصعاب، ويفك منك الأغلال - ولو إلى حين - حتى يقوى ظهرك على النهوض بها، وتشتد سواعدك لحملها

ومن مظاهر رقي الأمم أن نجد نواحي الضحكات، ملائمة لاختلاف الطبقات. فللأطفال قصصهم وألاعيبهم ومضحكاتهم، ولعامة الشعب مثل ذلك، وللخاصة وذوي العقول الراقية المثقفة ملاهيهم وأنديتهم ومضحكاتهم. فأن رأيت أمماً - كأممنا الشرقية - حرم مثقفوها من معاهد الضحك وكانت مسلاتهم الوحيدة أن ينحطوا ليضحكوا، أو يرتشفوا من الأدب الغربي والتمثيل الغربي ليضحكوا، فهي أمم ناقصة في أدبها، فقيرة في معاهدها. وهذا أيضاً ضرب من ضروب الفلسفة المظلمة، فلنعد إلى الضحك تعال معي نتعاهد على أن نرعى في حياتنا جانب الضحك كما نرعى جوانب الصحة والمرض، وجانب الهزل بجوار جانب الجد، ولنتخذ الضحك علاجاً في بعض أمورنا قال لي صديق مرة إنه حاول أن يتغلب على همومه وأحزانه بعلاج بسيط فنجح. ذلك أنه إذا اشتد به الكرب، وتعقدت أمامه الأمور حتى لا يظن لها حلاً، انفجر بضحكة مصطنعة فسُري عنه وتبخرت همومه

ويروي أنه كان عند اليونان فيلسوفان يلقب أحدهما الفيلسوف الضاحك، والآخر الفيلسوف الباكي؛ كان أولهما يضحك من كل شيء ضحِكَ جِدٍّ أحياناً، وضحك سخرية أحياناً: يضحك من سخف الناس ومن وضاعتهم وحقارتهم، ويبكي الثاني مما يضحك منه الأول

وقرأت مرة قصة لطيفة أن بئراً ركّب عليها دلوان، ينزل أحدهما فارغاً، ويطلع الآخر ملآن؛ فلما تقابلا في منتصف البئر سأل الفارغ الملآن مم تبكي؟ فقال: ومالي لا أبكي؟ أخذ الرجل مائي وسيأخذه وسيعيدني إلى قاع البئر المظلم! وأنت مم تضحك وترقص؟ فقال الفارغ: ومالي لا أضحك؟ سأنزل البئر وأمتلئ ماء صافياً وأطع بعد إلى النور والضياء!

وقد أراد مؤلف القصة أن يصور نفس الموقفين اللذين وقفهما الفيلسوف الضاحك والفيلسوف الباكي، وأن الحياة مليئة بأشخاص يتولون عملاً واحداً، ثم هذا ينظر إليه من الجانب السار الفرح، وذاك ينظر إليه من الجانب الحزين القابض

فكن الفيلسوف الضاحك، ولا تكن الفيلسوف الباكي. وكن الدلو الراقص، ولا تكن الدلو الدامع. وجرب أن تلقى الحياة باسماً أحياناً، ضاحكاً أحياناً، ولأجرب معك!

أحمد أمين

القلب المسكين - 7

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

وأما صاحبُ القلب المسكين فما علم أنها قد رحلتْ عن ليلته حتى أظلم الظلامُ عليه، كأنها إذا كانت حاضرةً أضاء شيء لا يرى، فإذا غابت انطفأ هذا الضوء؛ ورأيتُه واجماً

كاسفَ البال يَتنَازَعُهُ في نفسه ما لا أدري، كأن غيابها وقع في نفسه إنذارَ حرب
لماذا كان الشعراء ينوحون على الأطلال ويلْتاعُون بها ويرتمضون منها وهي أحجارٌ وآثارٌ وبقايا؟ وما الذي يتلقاهم به المكان بعد رحيل الأحبة؟ يتلقاهم بالفراغ القلبيّ الذي لا يملأه من الوجود كله إلا وجودُ شخص واحد؛ وعند هذا الفراغ تقف الدنيا مليًا كأنها انتهت إلى نهاية في النفس العاشقة، فتبطل حينئذ المبادلةُ بين معاني الحياة وبين شعور الحي؛ ويكون العاشق موجوداً في موضعه ولا تجده المعاني التي تمرُّ به، فترجع منه كالحقائق تُلمُّ بالفراغ العقليّ من وعي سكران

يا أثر الحبيب حين يفارق الحبيب! ما الذي يجعل فيك تلك القدرة الساحرة؟ أهو فصلك بين زمن وزمن، أم جمعك الماضيَ في لحظة؛ أم تحويلك الحياة إلى فكرة؛ أم تكبيرك الحقيقة إلى أضعاف حقيقتها؛ أم تصويرك روحية الدنيا في المثال الذي تحسُّه الروح؛ أم إشعارك النفس كالموت أن الحياة مبنيةٌ على الانقلاب؛ أم قدرتك على زيادة حالة جديدة للهم والحزن؛ أم رجوعك باللذة ترى ولا تمكن؛ أم أنت كل ذلك لأن القلب يفرغ ساعةً من الدنيا ويمتلئ بك وحدك؟

يا أثر الحبيب حين يفارق الحبيب! ما هذه القوة السحرية فيك تجتذبُ بها الصدرَ ليضمك، وتستهوي بها الفم ليقبلك، وتستدعي الدمعَ لينفرَ لك، وتهتاج الحنين لينبعث فيك؟ أكل ذلك لأنك أثر الحبيب، أم لأن القلب يفرغ ساعةً من الدنيا ولا يجد ما يخفق عليه سواك؟

ووقف صاحبنا المسكين محزوناً كأن شيئاً يصله بكل هموم العالم؛ وتلك هي طبيعة الألم الذي يفاجئ الإنسان من مكمن لذته وموضع سروره فيسلبه نوعاً من الحياة بطريقة سلب الحياة نفسها، ويأخذ من قلبه شيئاً مات فيدفنه في قبر الماضي. يكون ألماً لأن فيه المضض، وكآبةً لأن فيه الخيبة، وذهولاً لأن فيه الحسرة؛ وتتم هذه الثلاثةُ الهموم بالضيق الشديد في النفس لاجتماع ثلاثتها على النفس، فإذا المسكين مبغوت مبغوت كأن الآلام

أطبقت عليه من الجهات الأربع فقلبه منها صُدُوعٌ صُدوع

وجعلت أعذلُ صاحبنا فلا يعتذل، وكلما حاولت أن أثبت له وجود الصبر كنت كأنما أثبت له أنه غير موجود. ثم تنفس وهو يكاد ينشقُّ غيظاً وقال: لماذا رحلتْ، لماذا؟

قلت: أنت أذللت جمالها بهذا الأسلوب الذي ترى أنك تُعِزُّ جمالها به، وقد اشتددت عليها وعلى نفسك وتعنَّتَّ على قلبك وقلبها؛ كانت ظريفة المذهب في عشقها وكنت خشناً في حبك، وسوَّغتك حقاً فرددته عليها، وتهالكتْ وانقبضتَ أنت، ورفعتْ قدرك على نفسها تحبباً وتودُّداً فخفضت قدرها عن نفسك من إطراح وجفاء، واستفرغتْ وسعها في رضاك فتغاضبت، ونَضَتْ عن محاسنها شيئاً شيئاً تسأل بكل شيء سؤالاً فلم تكن أنت من جوابها في شيء

ومن طبع المرأة أنها إذا أحبت امتنعتْ أن تكون البادئة، فالتوتْ على صاحبها وهي عاشقة، وجاحَدَتْ وهي مُقرَّة؛ إذ تريد في الأولَّة أن تتحقق أنها محبوبة، وفي الثانية أن يُقدَّم لها البرهان على أنها تستحق المهاجمة؛ وفي الثالثة هي تريد ألا تأخذها إلا قوةٌ قوية فتمتحن هذه القوة، ومع هذه الثلاث تأبى طبيعة السرور فيها والاستمتاع بها إلا أن يكون لهذا السرور وهذا الإمتاع شأنٌ وقيمة، فتذيق صاحبها المرَّ قبل الحلو ليكبر هذا بهذا

غير أنها إذا غلبها الوجد وأكرهها الحب على أن تبتدئ صاحبها؛ ثم ابتدأتْ ولم تجد الجواب منه، أو لم يأت الأمر فيما بينها وبينه على ما تحب، فان الابتداء حينئذ يكون هو النهاية، وينقلب الحب عدو الحب. وأنا أعرف امرأة وضعتها كبرياؤها في مثل هذه الحالة وقالت لصاحبها: سأتألم ولكن لن أغلب؛ فكان الذي وقع وا أسفاه - أنها تألمت حتى جُنَّت، ولكن لم تُغلب. . .

قال: فما بال هذه؟ أما تراها تبتدئ كل يوم رجلاً؟

قلت: إنها تبتدئ متكسِّبةً لا عاشقة، فإذا أحبت الحب الصحيح أرادتْ قيمتَها فيما هو قيمتها. وأنا أحسبها تحب فيك هذا العنفَ وهذه القسوة وهذه الروحية الجبارة، فإنها لذّات جديدة للمرأة التي لا تجد من يُخضِعها. وفي طبيعة كل امرأة شيء لا يجد تمامَه إلا في عنف الرجل، غير أنه العنف الذي أوله رقة وآخره رقة

أما والله إن عجائب الحب أكثر من أن تكون عجيبة؛ والشيء الغريب يسمى غريباً فيكفى
ذلك بياناً في تعريفه؛ غير أنه إذا وقع في الحب سمى غريباً فلا تكفيه التسمية، فيوصف مع التسمية بأنه غريب فلا يبلغ فيه الوصف، فيقع التعجب مع الوصف والتسمية من أنه شيء غريب؛ ثم تبقى وراء ذلك منزلة للإغراق في التعجب بين العاشق وبين نفسه؛ وهكذا يشعرون
فكل أسرار الحب من أسرار الروح ومن عالم الغيب، وكأن النبوة نبوتان: كبيرة وصغيرة، وعامة وخاصة. فإحداهما بالنفس العظيمة في الأنبياء، والأخرى بالقلب الرقيق في العشاق. وفي هذه من هذه شَبهٌ لوجود العظمة الروحية في كلتيهما غالبةً على المادة، مجرِّدةً من إنسان الطين إنساناً من النور، محركةً هذه الطبيعة الآدميةَ حركةً جديدة في السموّ، ذاهبةً بالمعرفة الإنسانية إلى ما هو الأحسن والأجمل، واضعةً مبدأ التجديد في كل شيء يمر بالنفس، منبعثةً بالأفراح من مصدرها العلوي السماوي
بيدَ أن في العشق أنبياءَ كذَبة؛ فإذا تسفَّل الحب في جلال، واستعلنت البهيمةُ في عظمة، وتجرد من إنسان الطين إنسان الحجر، وتحركت الطبيعة الآدمية حركة جديدة في السقوط، وذهبت المعرفة الإنسانية إلى ما هو الأقبح والأسوأ، وتجدد لكل شيء في النفس معنى فاسد، وانبعثت الأفراح من مصدرها السفلي - إذا وقع كل هذا من الحب فما عساه يكون؟
لا يكون إلا أن الشيطان يقلد النبوة الصغيرة في بعض العشاق كما يقلد النبوة الكبيرة في بعض الدجَّالين
هكذا قال صاحب القلب المسكين وقد تكلم عن الحب ونحن جالسان في الحديقة وكنا دخلناها ليجدّد عهداً بمجلسه فلعله يسكن بعض ما به؛ واستفاض كلامنا في وصف تلك العبهرَة الفتانة التي أحلّته هذا المجال وبلغت به ما بلغت، وكان في رقةٍ لا رقة بعدها وفي حب لا نهاية وراءه لمحب. وخيل إلي أنه يرى الحديث عنها كأنه إحضارها بصورة ما
وأنفع ما في حديث العاشق عن حبه وألمه أن الكلام يخرجه من حالة الفكر، ويؤنسُ قلبه بالاتعاظ، ويخفف من حركة نفسه بحركة لسانه، ويوجه حواسه إلى الظاهر المتحرك، فتسلبه ألفاظه أكثر معانيه الوهمية، وتأتيه بالحقائق على قدرها في اللغة لا في النفس؛ وفي كل ذلك حيلة على النسيان، وتعلل إلى ساعة، وهو تدبير من الرحمة بالعاشقين في هذا البلاء الذي يسمى الفراق أو الهجر
وكان من أعجب ما عجبتُ له أن صديقاً مرَّ بنا فدعاه صاحبنا وقال وهو يومئ إليّ: أنا وفلان هذا مختلفان منذ اليوم لا هو يقيم عذراً ولا أنا أقيم حجة؛ وأحسب أن عندك رأياً فاقض بيننا
ويسأله الصديق: ما القضية؟ فيقول وهو يشير إليّ:
إن هذا قد تخرَّق قلبه من الحب فلا يدري من أين يجيء لقلبه برقعة. . . وأنه يعشق فلانة الراقصة التي كانت في هذا المسرح ويزعم لي. . . أنها أجمل وأفتن وأحلى من طلعت عليه الشمس، وأنه ليس بين وجهها وبين القمر وجه امرأة أخرى في كل ما يضيء القمر عليه، وأن عينيها مما لا ينسى أبداً أبداً أبداً. . . لأن ألحاظها تذوب في الدم وتجري فيه، وأن الشيطان لو أراد مناجزَةَ العفة والزهد في حرب حاسمة بينه وبين أزهد العباد لترك كل حيَله وأساليبه وقدَّم جسمَها وفنها. . .
فيقول له المسؤول: وما رأيك أنت؟
فيجيبه: لو كان عنها صاحياً لقد صحا. إن المشكلة في الحب أن كل عاشق له قلبُه الذي هو قلبُه، وحسبها أن مثل هذا هو يصفُها. وما يدرينا من تصاريف القَدَر بهذه المسكينة ما عليها مما لها، فلعلها الجمالُ حكم عليه أن يُعذَّب بقبح الناس، ولعلها السرورُ قضى عليه أن يسجن في أحزان
وقلت له: يا صديقي المسكين، أوَكلُّ هذا لها في قلبك. فما هذا القلب الذي تحمله وتتعذب به؟
قال: إنه والله قلب طفل، وما حبُّه إلا التماسُه الحنان الثاني من الحبيبة، بعد ذلك الحنان الأول من الأم. وكل كلامي في الحب إنما هو إملاء هذا القلب على فكره كأنه يخلق به خلق تفكيره

آه يا صديقي، إن من السخرية بهذه الدنيا وما فيها أن القلب لا يستمر طفلاً بعد زمن الطفولة إلا في اثنين: من كان فيلسوفاً عظيما، ومن كان مغفلاً عظيما
وافترقنا؛ ثم أردت أن أتعرَّف خبره فلقيته من الغد، وكان لي في أحلامي تلك الليلة شأن عجيب، وكان له شأن أعجب أما أنا فلا يعنى القراء شأني وقصتي وأما هو. . .؟
(يتبع - طنطا)
مصطفى صادق الرافعي
في الطفولة
للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني
زارني مرة في مكتبي صديق كريم، وكان معي في ذلك اليوم أصغر أطفالي؛ فقد تشبث بي وأبى إلا أن يصحبني. فلم أر بأساً من ذلك، وسأله الصديق بعد حوار طويل لم يعلق بذهني منه شيء (أبوك من. .) - قالها هكذا بالعربية الفصيحة - والصبي حديث عهد بتعلم القراءة والكتابة فلم يفهم (من) هذه وظنها شيئاً معيباً أو غير لائق وهز رأسه منكراً؛ فكرر الصديق السؤال، فقطب الصبي وقال: (توْ توْ) فنظر إليّ صديقي فقلت: (يا صاحبي إنه يحسب أن (من) هذه مثل قولك (كلب) أو (قط) أو شيء آخر لا يليق في رأيه أن يكونه أبوه، ولو كنت قلت له (مين) بالعامية لفهم وأجابك، وما أظن به الآن إلا أنه وقع في نفسه منك أنك تسب أباه وإني لأخشى أن يحقدها عليك ولا يكون رأيه فيك بعد اليوم إلا سيئاً، وأكبر ظني أنه سيحدث أمه عنك حديثاً لا يسرك أن تسمعه
وانقضت هذه الحادثة وأطلق الغلام خارجاً ليلعب فقد سئم الحوار الذي ارتفعنا به عن طبقته. فقال صديقي بحق: إنه موقن أن الصبي يشعر بوحشة مع أمثالنا من الكبار لأنه يحتاج إلى صغار مثله يفهمهم ويفهمونه فيسر بهم ويأنس. فقلت له إني لا أظن أن أبنائي يستوحشون حين أكون معهم لأني أستطيع أن أنزل إلى مستوى مداركهم فأكون معهم كأني أحدهم، فقال إن أمره ليس كذلك
وخرج صديقي فذهبت أفكر فيما قال فسألت نفسي: (لماذا لا نحسن نحن الكبار أن نفهم الصغار كما ينبغي أن يفهموا. . إننا لم نجيء إلى الدنيا كما نحن الآن. . ولم تلدنا أمهاتنا بأسناننا وشواربنا ولحانا ورؤوسنا الناضجة - أو التي نزعمها لغرورنا ناضجة - وإنما جئنا إلى الحياة صغاراً ثم كبرنا شيئاً فشيئاً. ولم تكن طفولتنا قصيرة العمر، بل كانت سنوات طويلات، وإن من الكبار لكثيرين لا يزالون أطفالاً وإن كانوا قد شابوا وشيخوا. . وأنَّا لنذكر حلاوة الطفولة وجمال عهدها ونحن إليها ونتمنى لو أمكن أن نرتد إلى ما كنا في أيامها بكل ما حفلت به. . ومع ذلك لا نستطيع بعد أن كبرنا أن نفهم الأطفال ونفطن إلى أساليب تفكيرهم وقد كنا مثلهم. . ومع أن الطفولة ليست غريبة عنا ولا أجنبية منا حتى يستعصي علينا فهمها فان صفحتها تمحى من ذاكرتنا كل المحو فننقلب محتاجين إلى من يشرحها ويفسرها لنا ويبين لنا ما فيها ويعلمنا كيف نقرأها ونفهمها. . .
وأذكر أني وأنا طالب في مدرسة المعلمين العليا كنت أضحك فيما بيني وبين نفسي حين أسمع أستاذنا يقول لنا بلهجة الجد إن علينا أن نعنى بأن ندرس الطفل؛ وكنت أقول لنفسي وأي حاجة بنا إلى درس المعروف المفهوم كأنه مجهول أو غامض. فلما كبرت وصار لي ابن أدهشني أني وجدت أني محتاج أن أروض نفسي على النظر إلى الأمور بعين الطفل لا بعيني أنا؛ ولم تكن هذه الرياضة لا سهلة ولا خفيفة، فقد كانت تستنفد صبري ومجهودي معاً، ولكني كنت مضطراً إلى ذلك بعد أن شاءت الأقدار ألا يبقى له من أبويه سواي، ولولا ذلك لنفضت يدي من الأمر كله وتركت العبء لغيري
ومن فرط جهلي بالطفولة وثقل الشعور على نفسي بذلك أراني أحياناً أتمنى لو يرزقني الله عشرين أو خمسين طفلاً دفعة واحدة لا لأعذب نفسي بهم وأطير عقلي معهم، بل ليتسنى لي أن أدرس الطفولة كما ينبغي أن تدرس على نحو ما سمعت أن العلماء يدرسون ما لا أدري في معاملهم، ولكن الحوائل دون ذلك كثيرة: منها أن المرأة ليست كالقطة أو الأرنبة، ومنها إني لا أستطيع أن أعول كل هذا الجيش من الصغار، ومنها إني خليق في هذه الحالة أن أجن فلا أنا درست شيئاً ولا أنا أبقيت على عقلي

والضرورة تفتق الحيلة كما يقولون؛ والحاجة أم الاختراع. وقد لجأت إلى وسيلة أخرى أخف محملاً وآمن عاقبة، وفيها بعد ذلك لهو لا بأس به، وتلك أني أكون مع أطفالي كما يكونون أو كما أراهم يكونون، وكما يبدو لي منهم، فأخلع ثوب الكبر والوقار والاحتشام وأجعل من نفسي طفلاً مثلهم، وأحاول أن ألبس هذا الثوب الذي نضته عني الأيام بكرهي ولم تبقى لي منه إلا ذكرى السعادة وأما أمرح فيه. ومن العجيب أنا لا نذكر إلا أنا كنا سعداء به؛ أما كيف كنا سعداء، وما كان يسعدنا، فهذا ما نتخيله في كبرنا لا ما نعرفه على التحقيق. ولكن استعادة هذا العهد الذاهب عسيرة جداً. نعم أستطيع أن أقلدهم فيما أراهم يصنعون، فأضحك مثلاً بكل جسمي لا بفمي وعيني فقط! وأسقط على الأرض متهافتاً من شدة الضحك كما يفعلون، وأقذف بالكرة بلا حساب أو تقدير فتصيب المرآة أو زجاج الصورة المعلقة أو أنف جالس يستغرقه الحديث الذي يخوض فيه مع جاره فينتفض مذعوراً، ويسبقه لسانه بما لا يروي وما يجب أن يغتفر له، ونرى ذلك نحن الأطفال

فيترامى بعضنا على بعض من فرط السرور والجذل، وتتصادم رؤوسنا ثم نفطن إلى غضب الذي أصيب أنفه وندرك أن هذا الغضب قد يكلفنا ما لا نحب فنذهب نعدو ويد الواحد منا على كتف صاحبه أو ممسكة بذيل ردائه، ونتزاحم ونحن خارجون من الباب الذي لا يتسع لنا جميعاً؛ فيقع أحدنا ويتعثر الباقون فوقه، ويصيح المتأذون من الضجة التي أحدثناها وينهروننا ويزجروننا عن هذا العبث المزعج الذي يفلق الرؤوس ويعرض الأنوف والعيون للإصابات المباغتة، فتخفت أصواتنا ويلصق بعضنا ببعض في ركن من الغرفة الثانية ونكمن وراء خزانة أو غيرها مما يتفق وجوده ونصمت برهة ثن يشق علينا السكوت، وتمل ألسنتنا الهدوء، ويتذكر أحدنا ما أفاد من المتعة حين رأى المصاب في أنفه يصرخ ويرفع يديه إلى وجهه ويصيح باللعنات الحرار والتهديد المرعب - يذكر أحدنا ذلك فيغلبه الضحك فيكركر ويساوره الخوف مما هدد به فيتناول بعض ثوبه ويضعه على فمه ليخفض صوت السرور ولكنا نرى ذلك منه فيعدينا فنفعل مثل ما يفعل ونصبح نحن الثلاثة أو الأربعة كأننا ثلاثة قطط أو أربعة - قطط صغار وليدة من فرط التداني والاختلاط، فهذا وجهه مدفون في صدر ذاك، وذاك رأسه تحت ذقن الثالث، والثالث وجهه إلى الحائط وهو يغت ويغالب ضحكه، والرابع قاعد على الأرض ومخف وجهه في طيات الثياب. وأحيانا أكون مع الأطفال قطاراً يسير متعرجاً بين الكراسي والمقاعد والأثاثات المختلفة، ولا يخلو سير هذا القطار الآدمي من حادثة فيكسر كوباً أو إبريقاً أو يقلب شيئاً؛ وقد نقع الحادثة له - فيتعثر الذي هو القاطرة وتنكب المركبات على جسمه؛ ولكن الحوادث - كائنة ما كانت - ولا يراق فيها دم - إلا دم إصبع مجروح أحيانا - ولا تمنع البشر والضحك، بل لعل هذه الحوادث هي التي تجلب السرور ولا تكون المتعة إلا بها

أفعل ذلك وغيره وأقدر عليه، ولا يحس الأطفال الذي ألاعبهم وأغالط نفسي بأني أحدهم ومثلهم أن هنالك أي فرق بيني وبينهم، ولكني أنا أحس بالفرق الذي يخفي عليهم. ومهما بلغ من استغراق اللعب لي فليس يسعني أن أنسى أني كبير وأني مقلد ليس إلا. ولو نسيت لأذكرني التعب الذي سرعان ما يحل بي، وصدري الذي يعلو ويهبط كموج البحر، ودقات قلبي السريعة، وأنفاسي المنبهرة، فلا يلبث ذلك كله أن يردني بعنف وغلظة إلى ما أتجاهله من الحقائق؛ ولو لم يكن هناك شيء من هذا لكان حسبي من الفرق أن الأطفال يختلفون

عني في التفكير والنظر والتقدير، وأنهم يفعلون ما يفعلون بفطرتهم، ولأن حيويتهم كلها في أعضائهم وأين أجاريهم متكلفا؛ وهم يسرون بما يفعلون، أما أنا فسروري بمبلغ توفيقي في التقليد والتمثيل لا في الفعل نفسه، أي أن سروري بمحاكاتهم ومجاراتهم فني في الحقيقة؛ أما هم فالأمر عندهم طبيعي، وإفادة السرور راجعة إلى أنهم يرسلون نفوسهم على سجيتها

ولست ألاعب الأطفال لأسرهم فقط - وإن كان هذا وحده كافياً لتهوين ما أتكلفه من العناء والجهد - ولكني أحب أن أدرس الطفولة بمحاولة الاندماج مع الأطفال وتمثل احساساتهم وتصور بواعثهم على قدر ما يتيسر ذلك لي وبمعالجة استرداد القدرة على الصدور عن وحي الفطرة التي لا يكبحها العقل أو التهذيب أو العرف أو غير ذلك من اللجم التي يحسها الكبار كلما هموا بفعل شيء تغريهم به الفطرة

ولدرس الطفولة مزايا كثيرة هي السر في ولعي بهذا الموضوع: منها أن الطفل في بلادنا أشقى عباد الله. وإنه ليخجلني أن أقول إننا نعذب الأطفال ونقمع في نفوسهم الجديدة روح الطفولة ونمنعها أن تتفتح وتزهو وتربو؛ وأحر بنا إذا فهمنا الطفولة أن نحسن سياستها ونسعدها ونجعل عهدها حميداً وتمهيداً صالحاً لعهد الشباب؛ وأنا موقن أن خير الآباء ليس هو الذي يرضى عن أبنائه أو عما يعتقد فيهم ويظن بهم - فقد يكون مخدوعاً وهذا هو الأغلب - وإنما أحسن الآباء هو الذي يرضى عنه أبناؤه ويفرحون به ويباهون يعتزون

فسياستي مع أطفالي هي أن أسعى لاكتساب رضاهم عني لا أن يكونوا بحيث أرضى أنا عنهم؛ والفرق دقيق ولكني أظنه واضحاً. وقوام هذه السياسة أن تدرك أن للطفل نفساً غير نفسك، وأن لها استعداداً لعله غير استعدادك، وأن مهمتك أن تعين الطفل على إنماء مواهبه الكامنة والانتفاع بهذا الاستعداد المضمر، وأن توجد الفرصة لإبراز ذلك، لا أن تأخذ عليه الطريق وتسده؛ وبعد أن يبدو لك ما يشي بالاستعداد تسرع في توجيهه وتقويته. ولا يمكن أن يتيسر ذلك إلا إذا تركت للطفل حريته. وكيف يمكن أن تعرف ما يخفى من أمره إذا كنت تلزمه حالة معينة، أو تحتم عليه مسلكا لا يجوز له أن يعدوه أو ينحرف عنه؟. . . وكيف ترجو أن تكون له شخصية متميزة بخصائصها إذا كنت تأبى عليه الاستقلال والحرية؟. . . إن تربية الطفل هي في الحقيقة تجربة يجريها المربي ولا سبيل إلى الاطمئنان إلى صحة النتيجة إذا كنت تبدأ برأي معين وفكرة لا تحيد عنها. وسلسلة

الاختبارات المتعاقبة هي التي تشير إلى اتجاه النفس، وتدل على ناحية الاستعداد المجهول. فلابد من ترك الطفل حراً، ومن تعويده الاستقلال في النظر والعمل وفي تلقي وقع الحياة، وفي طريقة استجابته لهذا الوقع. ولا نكران أن الرقابة لا معدي عنها، ولكنها يجب أن تكون بحيث لا يشعر بها الطفل ولا يتأثر بها. وكذلك ينبغي أن يكون التوجيه حين يجيء وقته، وإلا فقد الطفل استقلاله وخيف أن يكون قد اتجه حيث أردت له لا حيث يدعوه استعداده الشخصي

ومزية أخرى هي أن الطفل يمثل الأدوار التي اجتازتها الإنسانية والمراحل التي قطعتها كلها في تاريخها الطويل. وصحيح أنها تكون فيه - أي في الطفل - مختزلة جداً، ولكن المرء يستطيع أن يفطن إلى بعضها وإن كان يفوته أكثرها. وحسبي هذا القدر لئلا ندخل في مباحث علمية لا قدرة لي عليها

ومزية ثالثة لا يشق عليَّ الكلام فيها ولا يثقل فيما أرجو على القارئ؛ وتلك هي أن الطفولة غرائز ساذجة وعواطف واحساسات فطرية لم تهذب ولم تصقل، ولكنا بالتربية نعود الطفل أن يكبح شهواته ويضبط أهواءه ويضع لنفسه اللجم والقيود، وهذا شبيه بما يصنعه المجتمع بنا نحن الكبار. وقد يعلم القراء - أو لا يعلمون فما أدري - أن سبيل المدنية أن تتخذ من النظم الاجتماعية مجاري تتدفق فيها العواطف والغرائز الإنسانية الساذجة الفطرية. مثال ذلك أن الحب هو الذي يرجع إليه الفضل في نظام الزواج الذي صلح به أمر المجتمع إلى الآن. ذلك أن الرجل كان فيما خلا من عصور الاستيحاش تأخذ عينه امرأة فتروقه فيخطفها أو يستحوذ عليها بالقوة أو غير ذلك من الوسائل، ويستأثر بها ويقاتل دونها ما دام راغباً فيها، ثم يدعها أو يبقيها بعد الفتور عنها إلى أخرى تستولي على هواه، وكان الأمر كله فوضى ولكنه انتظم بالزواج، فلا خطف الآن ولا قتل ولا عنف. وقد احتفر الرقي المجرى الاجتماعي فتدفقت فيه الحياة من هذه الناحية. وكذلك الوطنية ليست في مرد أمرها إلا مظهر أنانية وأثرة، ولكن نطاق الأثرة اتسع فشمل الجماعة المتماثلة كلها بعد أن كان قاصراً على القافلة الصغيرة مثلاً أو على الفرد قبل ذلك وهكذا إلى آخر ذلك؛ وما من نظام اجتماعي إلا والأصل فيه غريزة من الغرائز الساذجة التي لم تهذب ولم تصقل

ونحن نصنع بالطفل ما تصنع بنا الحياة المدنية - نعلمه كبح الغرائز ونروضه على ضبط النفس وننشئه على إدراك الحدود والواجبات ونعده لحياة الجماعة المنظمة التي لا يسمح فيها بإرسال النفس على السجية في كل حال بغير كابح أو رادع أو ضبط وشيء آخر لا سبيل إليه إلا الطفل، وذاك أن من أراد أن يعرف حقيقة الإنسان فليتأمل الطفل؛ وأنا أومن بأن الإنسان مخلوق لا شريف، ولا كريم، ولا خير، ولا فيه خصلة واحدة من خصال الخير؛ وأنه لا يعرف لا خيراً ولا شراً، ولا فضيلة ولا رذيلة، وإنما

يعرف نفسه وأهواءها وشهواتها وما يحسه من رغباتها؛ وهنا موضع التحرز من خطا؛ فأنا لا أقول إن الإنسان خير بطبعه، ولكني لا أقول شرير بطبعه. وسبب ذلك أني لا أرى الغرائز الطبيعية لا خيراً ولا شراً، وإنما هي غرائز طبيعية وكفى، وعقلي لا يسمح لي أن أستنكر الفطرة التي بنينا عليها

ولا حاجة في الحقيقة إلى الرجوع إلى الطفل للاستدلال على أن الإنسان ليس بفطرته خيراً أو فاضلاً أو كريماً إلى أخر هذه المعاني الحسنة، فانه يكفى أن يفكر الإنسان في هذه الشرائع والقوانين وما إليها وكلها حض على الخير ونهى عن الشر. ولماذا يحتاج الإنسان إلى كل هذا الحض على الخير والتزيين له والتحبيب فيه، وكل هذا الزجر عن الشر والتخويف منه والتهديد بالعقاب عليه إذا كان بفطرته خيراً عزوفاً عق النكر والسوء؟.

ولكن الطفل مع ذلك أبرز مثال محسوس لحقيقة الفطرة الإنسانية. هات طفلاً وأعطه عصفوراً، وانظر ماذا يصنع به. . يربط رجله ويشد عليها ولا يبالي ألمه ويروح يطوح به ذراعه مسروراً بالدائرة الوهمية التي يرسمها به في الهواء غير عابئ بما يكلفه ويحمله من الأذى، أو يقبض على عنقه ويحبس أنفاسه ثم يلقيه على الأرض ويغتبط بأن يراه منطرحاً على جنبه ورجلاه إلى فوق، وهو لا يحس أن هذا قسوة لأنه لا يعرف لا القسوة ولا الرحمة، وإنما يفعل ما يفيده السرور الذي يطلبه والمتعة التي يشتهيها.

وتعطيه قطعاً من الحلوى ويجيء من يطلب منه واحدة، فإذا كنت لم تعلمه ما نسميه الأدب فانه لا شك يضم يده الصغيرة عليها وقد ينثني فوقها ليحجبها عنك ويمنعك في ظنه أن تأخذ منها ما طمعت فيه

وتكون في يدك موزة أو تفاحة أو ما يشبهها من الفاكهة فإذا كنت لم ترضه على كبح النفس فستراه يشب ويمد كلتا يديه إلى ما في يدك ويصيح بك أن هاتها واحرم نفسك وأعطني

وتكون قد وعدت أخاه بشيء إذا حفظ درسه مثلاً فيحفظه فتهدي إليه ما وعدته، ويراك أخوه فيغضب ويغار وينقم منك أنك اختصصت أخاه دونه بشيء، ويدعوك أن تأخذ من أخيه وتعطيه هو، ويسره أن تفعل ذلك ولا يبالي أخاه ولا يحفل أنه خطفت من يده الهدية الموعودة، بل يروح يخايله بها ويكايده ويغتبط بأن يراه منغصاً محروماً دونه

ولا شكر على صنيع جميل ولا حفاظ لعهد، ولا وفاء ولا ذكر، إنما له الساعة التي هو فيها، والشيء الذي يحس أن نفسه تطلبه، وفيما عدا ذلك على كل شيء وكل إنسان ألف سلام

قد يقال أن هذا من الجهل وقلة الإدراك، فأقول: إني أتكلم عن الأصل قبل التهذيب والصقل. أم الإدراك فهو كالرقي الذي وصل إليه الإنسان على الأيام وبعد الحقب الطويلة؛ وقد أسلفت أن الطفل يمثل الأدوار التي مرت بالإنسانية من بدئها إلى حاضرها. فأنت ترى في سنة من عمر الطفل اختزالا لما قضت الإنسانية دهوراً ودهوراً طويلة وهي فيه من الحالات. وأما التعليم والتهذيب فهذه هي اللجم والأعنة التي نضعها لضبط هذه الغرائز وكبح العواطف وتوجيهها إلى المجاري التي احتفرت على الأيام وتحدرت فيها حياة الجماعة المنتظمة المهذبة؛ واللجام طارئ، فإذا كان يكبح بما يشد ويصد فليس معنى هذا أن ما صار إليه الأمر بعدها هو الذي كان قبلها

ومع ذلك هل نحن الكبار المثقفون المهذبون المصقولون خير من الأطفال الصغار؟.

وللجواب عن هذا السؤال أرجو أن يسأل القراء أنفسهم ماذا يكون الحال - حال المجتمع لو أمنتم عقاب الله وسطوة القوانين وحكم العرف؟. والقوانين لا تعاقب على بعض الرذائل مثل الكذب والخداع والنفاق، فانظر من الذي لا يكذب أو يخادع أو يداهن وينافق - أحياناً كثيرة على الأقل؟ أظن أنه لو أمن الناس البطش والعقاب لما بقى شيء لا يجترحونه

وتعالى إلى الرجل الساكن الوقور الرزين الذي يملك زمام أعصابه ولا يدعه قط يفلت من يديه، وادن منه وهو بين الناس والطمه على خده لطمة قوية، ثم انظر ماذا يبقى من صقله وسكون طائره ووقاره، ومن هذه القشرة التي كسته المدنية وزانته بها؟ وأوجز فأقول إن الإنسان يرتد إلى طباعه الفطرية إذا أوجدته في حالة تسمح لهذا

الطباع بالظهور والتغلب على لجم المدنية مثل الجوع أو الغضب أو الألم أو الخطر على الحياة أو
السكر. فليس الطفل وحده هو الذي يشهد أن الإنسان في الأصل لا كريم ولا ذو مروءة أو شهامة أو غير ذلك، وأنه إنما يكون كذلك اكتساباً وبالدربة والعادة وبفضل الرغبة والرهبة وغيرها مما يدفع إلى الحرص على المصلحة الذاتية، ومن هنا كانت أهمية العناية بالطفل، فما ترك طفل وشأنه بغير عناية وتوجيه إلا فسد وصار شريراً وأمرؤ سوء. وهذا دليل آخر على أصل فطرة الإنسان. وليس معنى هذا أن أصل فطرة الإنسان سيئة، وإنما معناه أن عوامل ما نسميه الشر في الدنيا أقوى وأشد إغراء وأعظم استيلاء على النفس، وأن الخير مجعول لمصلحة الجماعة ومصلحة الفرد ضمنا وليس أقدر من الأطفال على التخيل. ترى الواحد من الأطفال يمشي القهقري بحذر فلا تفهم، وتجده يحشر نفسه بين كرسيين ثقيلين ثم يعجز عن التخلص، ويضيق صدره فيصيح بك، أو يبكي فتنهض إليه وتسأله عن الخبر فيقول لك إنه كان يدخل السيارة في الجراج فانحشرت وانكسر السلم ويكون معنى هذا أنه عد نفسه سيارة واستولت عليه هذه الفكرة فهي تستغرقه وتذهله عن كل شيء، فلو كلمته لما سمع؛ وتراه مرة أخرى يشير إلى الهواء ويكلم من لا وجود له ويدعوه أن ينزل؛ فلو كان رجلاً لظننته قد جن، ولكنه طفل يتصور أن في الجو طيارة يحادث ربانها ويدعوه إلى النزول ليركب معه وهكذا
وللطفولة أحزانها كما أن لها مباهجها ومسراتها، ولكن المزية أن الأحزان أو الهموم لا تكون إلا هموم هنيهة قصيرة تزول وتمحي ولا يبقى لها ذكر متى عرض شاغل آخر. ويعيش المرء منا ما يعيش ويبلغ من العلم والعرفان والتجربة والفطنة ما يبلغ ولكنه لا يستكبر أن يتمنى أن يرد إلى هذه الطفولة الذاهلة. فإذا كان للسعادة معنى أو كان لها في الدنيا وجود فهي في عهد الطفولة ولا شك
إبراهيم عبد القادر المازني
القصور المثلى
للأستاذ محمد عبد الله عنان
للصروح والهياكل العظيمة، كما للأشخاص والدول شخصيات تشغل مكانها في حياة الأمم والعصور، وتؤدي دورها في الحوادث والسير العظيمة؛ فإذا ذهبت الدول وفنيت الأجيال بقيت الصروح والهياكل شاهدة بما توالى عليها من الإحداث والمحن تلقى على الماضي نوعا من الضياء القاتم، وتذكرنا بتلك الأدوار العظيمة التي لعبتها في سير الدول والشخصيات الذاهية
وما زالت طائفة كبيرة من هذه الصروح والهياكل العظيمة تزين العواصم الأثرية القديمة؛ ولدينا في مصر عدة من الهياكل الفرعونية الخالدة لعبت أدوارها العظيمة في تاريخ مصر القديمة، ولكنا لا نتحدث عنها هنا لأنها تقترن بعصور تغيض منا في ظلمات الماضي البعيد؛ ولم يبق بمصر من الصروح الإسلامية العظيمة سوى المساجد، وهي ليست مما نعني به في هذا الفصل
وإنما نريد أن نتحدث هنا عن بعض الصروح الأوربية العظيمة التي شهدناها، والتي تعتبر بما لعبت من أدوار خطيرة في الدول والعصور التي قامت فيها صروحا (مثلى) إن أسماء صروح كاللوفر وفرساي والفاتيكان وقصر الدوجات لا تمثل الهياكل والأبنية العظيمة التي تعرضها هذه الصروح فقط، ولا تقف أهميتها وروعتها عند النقوش والذخائر الفنية العظيمة التي تحتويها، ولكن أعظم ما تدلى به هذه الصروح في نظرنا هو تراثها المعنوي والحوادث والذكريات العظيمة التي اقترنت باسمها
فقصر اللوفر مثلاً يمثل عصوراً بأسرها من حياة الملوكية الفرنسية ويعرض لنا في أبهائه الشاسعة ونقوشه وذخائره طرفا من روعة هذه الملوكية وأيام عظمتها وازدهارها؛ هذا جناح هنري الثاني، وهذا جناح زوجه كاترين دي مديتشي التي تملأ سيرتها كثيراً من القصص الشائق؛ وهذه غرف ولديها فرانسوا الثاني وشارل العاشر؛ وهذا جناح هنري الرابع؛ ولويس الثالث عشر، وهذا جناح الملك العظيم لويس الرابع عشر: في تلك الغرف والأبهاء الشاسعة عاشت الملوكية الفرنسية أحقابا تشرف على مصاير أمة عظيمة، وفيها كم دبرت أمور وكم قررت شؤون خطيرة كان لها أكبر الأثر في سير التاريخ الأوربي؛ كان

اللوفر مدى قرنين قلب فرنسا النابض، وأحيانا قلب أوربا بأسرها شأنه في عهد لويس الرابع عشر

وقد كان قصر فرساي يكمل حياة اللوفر؛ وكان في أواخر عهد الملوكية الفرنسية ملاذها ومستقرها: هذا جناح لويس الرابع عشر الفخم، وهذه غرفة نومه، وهذا بهو عمله ومتزينه، وهذا جناح الملك الخليع لويس الخامس عشر قد أثث بأثاث ما يزال إلى اليوم نموذجا فنياً رائعاً؛ أجل وهذا جناح خليلاته دوباردي ودي بومبادور الخ على مقربة من جناح زوجه الشرعية، ماري لكزنسكا، وهذه أبهاء الحفلات الباذخة التي كان ينفق عليها بغير حساب، وكانت تثقل كاهل الشعب المسكين؛ وأخيراً ها هو ذا (بهو المرايا) الشهير الذي عقد فيه مؤتمر الصلح في سنة 1919 وأملت فيه فرنسا وحلفاؤها الظافرون إرادتهم على ألمانيا المنهزمة ووقعت فيه ألمانيا وثيقة انكسارها وذلتها

في هذه الربوع والمواطن الصامتة التي تغدو اليوم آثاراً يحج إليها السائح كان يكتب تاريخ فرنسا وتاريخ أوربا

على أن الأحداث والذكريات التاريخية الرائعة لم تجتمع قدر اجتماعها في صرحين عظيمين، هما قصر الفاتيكان في رومة، وقصر الدوجات في البندقية (فينزيا) فأما الفاتيكان فهو بلا ريب أجل آثار النصرانية وأعظمها؛ وفي الفاتيكان الذي غدا علماً على البابوية والكرسي الرسولي، تتمثل عظمة البابوية، وبذخ البابوات، وكل ما في عصر الأحياء من عبقرية وجمال وافتنان؛ وليس الفاتيكان قصراً تستطيع أن تحيط برؤيته التجوال فيها والتمتع بروائعها أياماً عديدة. وقد نشأ الفاتيكان في أواخر القرن الرابع عشر قصراً متواضعاً إلى جانب كنيسة القديس بطرس، وغدا من ذلك التاريخ مركز الكرسي الرسولي، ثم تعاقب عدة من البابوات على إنشائه وزخرفته، فأقاموا إلى جانب القصر القديم قصوراً وأجنحة جديدة بلغت أعظم مبلغ من الفخامة والبهاء، نخص بالذكر منها مصلى سكستوس الرابع المسمى كابيلاسستنا، والذي خلف ميشيل آنجلو فوق جدرانه من ريشته آيات خالدات، وجناح آل بورجيا الذي أنشأهإسكندرالسادس، وأفاض عليه أبدع ما تمخض عنه الأحياء من بذخ وزخرف وبهاء؛ وجناح جوليوس الثاني (لوجي)، وهو الذي زينه رافائيل بآيات باهرات من فنه وريشته؛ ولبث البابوات يزيدون في صروح الفاتيكان وفي زخرفته

حتى غدا مجموعة من القصور الشامخة الباذخة، تضم عشرات من الأبهاء والأروقة الفخمة، وعشرات الساحات والأفنية العظيمة، ونحو عشرة آلاف غرفة. ولا يستطيع القلم مهماً أوتى من قوة أن يصف ما تزدان به تلك الصروح والأبهاء الخالدة من نقوش وزخارف وصور تأخذ الأبصار بجمالها وروعها؛ ويكفي أن نقول إنها مثوى لأبدع وأروع ما تمخضت عنه عبقرية الجمال والفن في أعظم وأزهى العصور

على أن روعة الفاتيكان لا تقف عند جمال الفن؛ وإنما تمثل بنوع خاص في ذلك الدور الخطير الذي أداه في تاريخ النصرانية، وتاريخ البابوية، فقد كان الفاتيكان وما زال رأس الكنيسة المفكر وروحها المسير، وكان مدى عصور طويلة مبعث تلك السلطة الزمنية القوية التي زاولتها البابوية مع سلطنها الروحية جنباً إلى جنب؛ وكانت أبهاء الفاتيكان ومخادعة مسرحاً لكثير من الحوادث التاريخية البارزة، وكانت أيضاً مسرحاً لكثير من المؤامرات والدسائس والمآسي المروعة

وليس بين صروح أوربا الأثرية كلها صرح يثير ما يثيره الفاتيكان في النفس من روعة وإجلال وإعجاب؛ وسيبقى الفاتيكان عصوراً علما على عظمة البابوية الذاهبة، وسيبقى حلية الآثار النصرانية والكنسية كلها

ولنتحدث بعد ذلك عن قصر الدوجات ذلك الصرح الذي لا يدلى مظهره المتواضع بذلك الدور العظيم الذي لعبه في تاريخ أعظم جمهوريات العصور الوسطى

كان قصر الدوجات الذي لا يزال يجثم بحناياه العربية البيزنطية وشرفاته المنخفضة بجوار كنيسة القديس ماركو على المنعطف الذي يصل بين البحر وبين ميدان سان ماركو (القديس مرقص) منزل الدوجات ومستقر الهيئات النيابية التي امتازت بها نظم البندقية في العصور الوسطى، مثل المجلس الأعلى ومجلس العشرة الشهير الذي يثير اسمه كثيراً من الذكريات المروعة؛ وكان رأس الجمهورية المفكر وقلبها النابض، يكتب فيه تاريخها وتدبر فيه أسباب قوتها وعظمتها، وتضطرم فيه تلك الدسائس

والمؤامرات الخطيرة التي تدفع بها إلى براثن المحن الدموية أو الفوضى، وكان أخيراً حرمها المقدس وملاذ دستورها، وسلطانها الأعلى

ومن هم أولئك الدوجات الذين سمى الصرح العتيد باسمهم، وتوج اسمهم تاريخ البندقية

الحافل من مبدئه إلى منتهاه؟ كان الدوج (أو الدوق) رئيس الجمهورية وحاكمها الأعلى، وكان في المبدأ يعين بالانتخاب على يد جمعيات من الشعب، ثم أنشئ المجلس الأعلى في القرن الثاني عشر من نواب يعنيهم زعماء الولايات، ومنهم ينتخب الدوج والوزراء وكبار القضاة؛ وكانت البندقية جمهورية، ولكن جمهورية أرستقراطية، تقبض الأرستقراطية على مصايرها وتستأثر فيها بالحكم والسلطان؛ وكان الشعب يجاهد طول الوقت لكي ينتزع لنفسه تلك السلطات التي تستمد منه وتدار باسمه؛ ولكن تلك الأرستقراطية الطاغية المستنيرة معاً كانت حريصة على سلطانها وزعامتها؛ وفي القرن الثالث عشر استطاعت الأرستقراطية أن تقصي الشعب نهائياً عن كل اشتراك في الشؤون العامة، وذلك بأن حول المجلس الأعلى من هيئة نيابية انتخابية إلى هيئة وراثية خالدة، وبذا قامت في البندقية تلك الأرستقراطية الوراثية القوية التي يصفها المؤرخ الفيلسوف سسموندي بقوله: (كانت فياضة الحزم والغيرة والطمع، جامدة في مبادئها، راسخة في سلطانها، تقترف باسم الحرية طرفا من أشنع مثالب الاستبداد، مشاكسة غادرة في السياسة، دموية في الانتقام، متسامحة مع الفرد، باذخة في الشؤون العامة، مقتصدة في الإدارة المالية، عادلة نزيهة في القضاء، قديرة في إزهار الفنون والزراعة والتجارة، محبوبة مطاعة من الشعب؛ يرتجف النبلاء الذين تمثلهم منها فرقا) ثم اختارت الأرستقراطية مجلس العشرة الشهير، وخول سلطات استثنائية وعهد إليه بحماية الجمهورية وسحق كل جريمة وثورة يدبرها الخوارج والطامعون، فتم بذلك للأرستقراطية سلطانها المطلق، وغدت كل شيء في نظم الجمهورية وحياتها ومصايرها

وقصر الدوجات من أقدم الصروح التاريخية يرجع بناؤه إلى نحو ألف عام، ولكن القصر القديم أحرق وزالت معالمه غير مرة خلال الحوادث والفتن، وأعيد بناؤه، وتعهده الدوجات بالإنشاء والزخرف حتى اتخذ شكله الحالي منذ القرن الرابع عشر؛ وتشرف واجهة القصر الأمامية التي تذكرنا حناياها المرمرية بالمشرفات الشرقية، على منعطف سان ماركو، وتشرف واجهته الخلفية على قناة من الماء؛ ويقع في مواجهته بناء عتيق قاتم هو سجن الدولة القديم؛ وتربط الصرحين قنطرة معلقة هي قنطرة الزفرات الشهيرة (بونتي دي سوسبيري) التي يمثل اسمها في كثير من القصص المؤسى، والتي يقال إنها لعبت أيما دور

في مصارع النبلاء والسادة، يدفعون منها إلى السجن أو يلقون إلى الماء

وتتكون أبنية القصر من طبقات ثلاث تشرف من الداخل على فناء مستطيل واسع، وليس في مظاهرها الخارجية كثير من الزخرف، ولكنها تبدو قاتمة عابسة تؤذن بأنها كانت أيام مجدها ملاذ الكتمان والصرامة، فإذا نفذت إلى الداخل أخذتك روعة الغرف والأبهاء الشاسعة الفخمة التي زينت جدرانها وسقفها بأجمل ما خلقته عبقرية الأحياء من النقوش والصور؛ ولقد زينت شرفات الطبقة الأولى بتماثيل عدة من مشاهير الدوجات، وزينت إحدى غرف الطبقة الثانية بطائفة كبيرة من الدروع والأسلحة القديمة التي كان يرتديها أو يتقلدها الدوجات أو قادة الجمهورية؛ بيد أن أروع ما في هذا القصر الشهير هو الطابق الثالث حيث يوجد جناح الدوج والأبهاء الرسمية التي تحيط به؛ هذا هو بهو اجتماع المجلس الأعلى لا يزال بتقاسيمه ومقاعده الخشبية القديمة وفي صدره مقعد الدوج؛ وهذا هو البهو الأكبر حيث تنعقد الاجتماعات الرسمية الكبرى، وهنالك في أعماق القصر وراء هذه الأبهاء الشاسعة توجد غرفة متوسطة متواضعة أقيمت في صدرها عدة مقاعد خشبية هي غرفة اجتماع مجلس العشرة! وهنالك بالضبط عشرة مقاعد يتوسطها مقعد الدوج؛ وفي الغرفة المتواضعة التي يخيل إليك أنها تمثل روح العصور الوسطى، وتمثل الصرامة والغدر والسلطان المطلق معا، كانت تبرم أهم الشؤون وأخطرها، وتصدر أعظم القرارات في حياة الجمهورية، ولقد زينت جدران هذه الأبهاء وسقفها بطائفة بديعة من الصور التاريخية رأينا بينها صورة لافتتاح الصليبيين والبنادقة لقسطنطينيه سنة 1203 وموقعة لبانتو البحرية

الشهيرة التي هزم فيها الترك سنة 1571
وقد عرفت مصر الإسلامية عظمة الجمهورية البندقية وعظمة الدوجات في العصور الوسطى وكانت ثمة في عصور السلام علائق ومخاطبات منتظمة بين بلاط مصر وبين قصر الدوجات، وكان البلاط المصري يخاطب (الدوج أو الدوك) باسمه مقرونا بألقاب التعظيم والتكريم
هذه طائفة من الصروح العظيمة التي تمثل بماضيها الحافل عصوراً وأحقاباً عظيمة من التاريخ؛ وهي بذلك صروح مثلى كالأمم والشخصيات المثلى، لا تقف عظمتها عند تلك الأبنية الشامخة وتلك الروائع الفنية التي أسبغتها عليها عبقرية الأجيال والعصور الزاهرة؛
ولكن أشد ما تمثل عظمتها في تلك الصفحات الخالدات التي سجلتها في بطون التاريخ، وذلك التراث المعنوي الزاخر الذي يغمر كل رحابها وجنباتها الصامتة
محمد عبد الله عنان
في الأدب المقارن
أثر الترف في الأدبين العربي والإنجليزي
للأستاذ فخري أبو السعود
الترف من مستتبعات الحضارة، تتجه إليه الأمم عقب عصور النهضات، إذ يلذلها الركون إلى الراحة واجتناء ثمرات مجهوداتها التي بذلتها في عهود النهوض والكفاح والتمهيد، وتميل إلى الاستمتاع بخيرات الحياة من دعة ولذة وسرور في ظل السلام والنظام اللذين تنشرهما الدولة بعد أن توطدت أركانها، وفي بحبوحة الثروة والنعمة اللتين أثلهما جهاد السنين والأجيال، فيهجر الشعب رويداً رويداً حياة الخشونة والقناعة والجد ويستكثر من أسباب الراحة والبهجة، وإشباع مطالب الجسم والنفس، وبدوات الخيال والشهوة
ويكون أشد الأمم إقبالاً على وسائل الترف ومضيّاً إلى غاياته، أشدها من قبل تخشناً في العيش، وأعظمها جلاداً في ميدان تنازع البقاء، وأتمها ظفراً وغلبة على البلدان، لما تجنح إليه من الراحة بعد الجهد، والاستمتاع بعد الحرمان، ولما تغدقه عليها انتصاراتها من أسلاب أعدائها وأرزاقهم، وما تطلّع عليه من وسائل لهوهم وترفهم؛
ومن ثم انتشرت موجات هائلة من الترف في مصر الفرعونية عقب فتوحها الكبيرة في آسيا، وفي أثينا عقب امتداد سيادتها على سواحل بحر الأرخبيل وجزره، وفي روما بعد اتساع سلطانها شرقاً وغرباً
وكلتا الأمتين العربية والإنجليزية خرجتا من بداوة وخشونة عيش إلى حضارة وحياة دعة؛ وكلتاهما أقامتا إمبراطورية مترامية التخوم تعج نواحيها بالخيرات والكنوز، وَسرَت إليهما من جراء ذلك عدوى الترف وبدا أثرها في أدبيهما. بيد أنهما تفاوتتا تفاوتاً كبيراً في مدى تأثرهما بذلك الترف، فكانت الأولى على الأرجح أعظم الأمم أخذاً بوسائله وتفنناً في ضروبه؛ وكانت الأخيرة أقلها انقياداً لتياره وأشدها تشبثاً بأهداب الاعتدال
فالأمة العربية ينقسم تاريخها الاقتصادي إلى ثلاثة أطوار كبيرة: فالطور الأول وهو عهد الجاهلية أقرب إلى الفقر والخشونة التي فرضتها على العرب طبيعة بلادهم الضنينة، مما أورثهم صفات القناعة والصبر والجلد واحتمال المشقات، كما أورثهم الجود وقرى الأضياف، فتمدحوا بكل هاتيك الصفات وامتلأ بها شعرهم، وجاء ذلك الشعر في جملته قوياً
متسماً بالرجولة مثيراً للإعجاب؛ وندر في ذلك العهد شعر المجون والخلاعة ووصف دواعي الرفاهية ومظاهر الحياة الناعمة، بل كان السادة يتبرأون من الانقياد لشهوات الجسم والنفس. ومن روائع آثار ذلك في الأدب قول حاتم الطائي:
وإني لأستحي صديقي أن يرى ... مكان يدي من جانب الزاد أقرعا
وإنك مهما تُعط بطنَك حقه ... وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا
وقول عنترة:
يُخْبرك من شهد الوقيعة أنني ... أغشى الوغى وأعف عند المغنم
وأرى مغانم لو أشاء حويتها ... فيصدني عنها الحيا وتكرمي
وبقيام الدولة العربية دخل العرب في الطور الثاني: طور الحضارة والرفاهية والترف،

وتدرجوا في الأخذ بأسباب ذلك مع مرور الزمن حتى أوفوا على الغاية. ولا غرو فقد اجتمع لديهم من أسباب الترف ما لم يكد يجتمع لغيرهم؛ فأن نجاحهم الحربي الفجائي أوقع في أيديهم أغنى بقاع الأرض وأخصبها وأعظمها حضارة وترفاً لعهدهم، وأغدق على كبرائهم ومقاتلتهم فيضاً متلاحقاً من الأموال، وأدخل في حوزتهم شاسع الأملاك، وأقام في خدمتهم الجمَّ الغفيرَ من الموالي؛ وسمحوا هم لشتى الأجناس بمخالطتهم والإقامة بين ظهرانيهم، فجاءت الأمم المقهورة في ميدان الحروب تسلط على الأمة الغالبة ما بذتها فيه من أسباب الرفاهية واللذاذة، وهي التي كانت من قبلُ سببَ سقوط عزيمتها وأدبار دولتها

وكان كل ذلك جديداً على أعين العرب الذين قضوا الأجيال في شظف البادية وتقتيرها، فاندفعوا يصيبون من تلك اللبانات ما حرموه طويلاً، وأغرقوا في استمراء تراث الأمم المغلوبة كما يغرق الوارث الذي طال حرمانه في تبذير ثروة الغنى الراحل. وكأنما تعجل العربُ في تراث كسرى وقيصر ما وعدوه في الدار الآخرة من طيبات؛ ومن ثم ابتنى الخلفاء القصور وحشدوا لتشييدها الصناع من شتى الأجناس، ووفروا بها آنق أسباب الدعة والمتعة، وحشروا فيها الغلمان والقيان، وبالغوا في إعداد الموائد والأسمطة، وأكثروا من الألوان والصحاف، واستمتعوا بالغناء والشراب، ورفلوا في فاخر الثياب، واحتفوا بالمواسم والأعياد والمهرجانات، وأسرفوا في أعراسهم حتى ضربت ببعضها الأمثال، ولم يدعوا متعة من متعات النفس أو لذة من لذات الجسم إلا استاموها

واحتذاهم في ذلك الأمراء والكبراء وكل من أطاقه من عامة الشعب، فانتشرت مجالس الشراب والغناء، وأحكمت أوضاعها وارتقت آدابها، وراحت صناعة المغنين وحذقوا فنهم وجودوه، وراجت تجارة الرقيق ونفقت سوق الجواري، وأُخِذْن بالتثقيف والتهذيب ليجمعن فتنة اللب إلى فتنة النظر، وأولع الناس بالرقة والظرف والكياسة، ونفروا من الخشونة وتندروا بالجلافة والغفلة، واحتفوا بالمواسم يشخصون فيها إلى الرياض أو الأديرة في أرباض المدن، يتنادمون ويتغزلون

وأثر تلك الحياة المترفة جلى في الأدب العربي، بل لعله أكبر فارق يفرق أدب ما بعد الإسلام والحضارة عن أدب الجاهلية، إذ أن الأدباء اهتموا بتصوير مظاهر ذلك الترف كلها، بل كانوا من أشد الناس حرصاً على الانغماس فيه، بل تجمعوا في العواصم طلباً لأسبابه، وكان منهم من صاحبوا الخلفاء والأمراء في مجالس شرابهم وسماعهم وساعات تبذلهم واستمتاعهم، وجلسوا إلى موائدهم وشاركوا في محافلهم ومهرجاناتهم، وكل ذلك ضمنوه مدائحهم لأولئك الحكام؛ وكان شهودهم تلك المشاهد وما يحوكونه فيها من القصائد، من متممات السرور والأنس، ومستلزمات الأبهة والعظمة

ومن ثم يحفل شعر بشار وأبي نواس وأبي تمام والبحتري وابن المعتز وابن الرومي وابن حمديس وكثيرين غيرهم بأوصاف القصور والحدائق والنافورات، وسفائن النزهة وكلاب الصيد، وألوان الطعام والفاكهة والأسمطة، ومجالس الشراب وحذاق المغنين وحسان المغنيات، والمحافل والمواكب، كما امتلأ بالنسيب الذي كان أغلبه نسيباً بالجواري دون الحرائر، والذي امتزج بكثير من الخلاعة والفجور؛ وروي الشعراء في كل ذلك عن ممدوحيهم من الأمراء تارة، وعن أنفسهم تارة أخرى، وصوروا في الحالتين حياة الترف المغرق التي طغى سيلها في عهود العباسيين والفاطميين وخلفاء الأندلس وغيرهم

وقد ظفرت الخمر من بين أسباب الترف هاتيك بالمكانة الأولى في النفوس، وفازت بالحظ الأوفر من حفاوة الشعراء، فكانت معقد السرور ومناط الأنس ورمز الصفاء؛ وتفنن الشعراء في تمجيدها ووصف تأثيرها ووصف مجلسها وساقيها وكأسها، وطلبوا البراعة بالابتكار في تلك الوجوه، وخلعوا العذار واطرحوا التدين في التوفر عليها والتغني بها، وهزئوا باختلاف الفقهاء في تحليل بعض أنواعها وتحريم بعض، وظفرت الخمر في الأدب

العربي بمنزلة لا تبارى في أدب آخر، وسما شأنها حتى زاحمت النسيب على مكانته الموروثة من عهد الجاهلية، فأصبح وصف الخمر كالتشبيب والوقوف بالدمن وسيلة تقليدية من وسائل استهلال القصيد

ومن أجمل الشعر في وصف أسباب الرفاهية تلك، قول ابن الرومي الذي يختمه بتحسره على حرمانه مما يصف، إذ أصبح التلهف على أسباب النعيم ديدن الشعراء، وكانوا من قبل في الطور السابق كما تقدم يتبرأون من الاستسلام للترفُّه والشهوات:

في أمور وفي خمور وسَموٍّ ... رٍ وفي قاقُمٍ وفي سنجاب
في حبير منمنم وعبير ... وصحانٍ فَسيحة ورحاب
في ميادين يخترقن بساتي ... ن تمس الرؤوسَ بالأهداب
عندهم كل ما اشتهوه من الآ ... لات والأشربات والأشواب
والطروقات والمواكب والول ... دان مثل الشودان الأسراب
والغوالي وعنبر الهند والمس ... ك على الهام واللحى كالخضاب
لم أكن دون مالكي هذه الأش ... ياء لو أنصفَ الزمان المحابي

وقد بلغ من ولع كثير من الشعراء باجتناء ثمار تلك الحياة المترفة الغارقة في اللذات، أن خصصوا أشعارهم لمدح الأمراء بغية أن يُقرَّبوا ويُمنحوا طرفا من ظل تلك النعمة السابغة، ويشاركوا ممدوحيهم في أبهتهم ولذاتهم، وبغية النوال ينفقونه في ارتياد مواطن اللهو التي حفلت بها العواصم، ويبذرونه في مجالس الشراب والغزل يعقدونها في دورهم أو في دور المغنين والنخاسين أو في الحانات والأديرة؛ ومن ثم امتلأ شعرهم بالمدح من جهة، وبوصف الملاهي من جهة أخرى، وراح بشار مثلا يفخر بكلا الأمرين: باقتناص أموال الملوك، وانتهاب سوانح اللذات، قال:

وإني لنهَّاض اليدين إلى العلا ... قروعٌ لأبواب الهمام المتوج

وقال:

قد عشت بين الريحان والراح وال ... مزهر في ظل مجلس حسن

وبعد طور الثروة والترف هذا جاء الطور الثالث طور الفقر والانحلال، حين استنزفت موارد البلاد، وعظمت مفاسد الحكام، وخمدت العزائم من جراء الانهماك في ذلك الترف،

وفدحت الضرائب الأهلين، وتنازع الأمراء والولاة. وقد كان جانب كبير من الشعب يشقى ويألم في عهد الرخاء والترف السالف؛ أما في هذا العهد فعم الشقاء، وانتشر الخراب، وكسدت الصناعات، وظهر القحط وتتابعت المجاعات

ولم يبق معتصما بربوة الترف فوق سيل هذا البؤس إلا القليل ومنهم الأمراء الذين يتنازعون الحكم ويرهقون الأهالي بالمغارم ليتشبثوا بمظاهر الملك والفخفخة ويتشبهوا بالسابقين في الجاه والأبهة؛ يسلبون الناس أرزاقهم باليمين ليمنوا عليهم باليسار بالأثواب والأطعمة في المواسم والأعياد كأنما يأبون أن يطلبوا الرزق من وجوهه الشريفة، ولا يريدونهم إلا عجزة مستجدين يفزعون إلى بر الأمير ويتمدحون بجوده. تلك كانت حال مصر مثلاً في فترات طويلة من حكم الفاطميين والمماليك؛ وتلك كانت حال الأندلس على عهد بعض ملوك الطوائف الذين لم تكن الحرب بينهم تهدأ، حتى لقد تشابه ثمة الأمراء ذوو الجيوش وقطاع الطرق أصحاب العصابات والمناسر. وقد أوجز بعض شعرائها وصف عبث الأمراء برفاهية البلاد في قوله المفعم بالحسرة:

أطاعت أمير المؤمنين كتائبٌ ... تصرَّفُ في الأموال كيف يريد

فثالث الأطوار المشار إليها في بدء هذه الكلمة هو طور العوز والبؤس الذي جاء رد فعل لطور الإسراف في الترف، كما يجيء الخمار عقب الإسراف في الشراب. وفرق ما بينه وبين فقر الطور الأول أن الأول كان فقراً طبيعياً معتدلاً قضت به البادية على أبنائها وحصنتهم منه بالخلق المتين؛ والأخير فقر منشؤه الإفراط والتفريط، وحليفُهُ الذلة والمسكنة واللئيم من الطباع، وفي طيه الشره والشهوة المكبوتة والتلدد والحرمان. وقد انعكس كل ذلك في أدب هذا الطور إذ جاء ضاوياً سقيما مملوءاً بالشكوى والتوجع، منطوياً على تمويهات المعاني ومخادعات الألفاظ التي تحكى ما كان يجيش به المجتمع من تمويه

هكذا جرى العرب من الترف إلى أبعد غاياته، ثم كانت سقطتهم من بعد ذلك بعيدة المهوى. أما الإنجليز فأنهم وإن شابهوا العرب ومن قبلهم الرومان في تأسيس إمبراطورية ضخمة، كانوا نسيج وحدهم في ترقي أعراض الترف وتحاشي عقابيله التي يجرها على المجتمع، والتي تحدث ابن خلدون وغيره من علماء الاجتماع بهدمها

لصروح الدول، لما تسلب أبناءها من صفات النخوة والجهاد والغلبة، فلم يمسَّ الترفُ المجتمع الإنجليزي والأدب
الإنجليزي إلا مساً خفيفاً، وفي عهود قصيرة، وذلك للظروف التي أحاطت ببناء الإمبراطورية
فقد شيدت الإمبراطورية الإنجليزية ببطيء وتدرج، لا بسرعة كما شيدت الإمبراطورية الرومانية، ولا فجاءة كما بنيت الإمبراطورية العربية، فلم يغمر المجتمع الإنجليزي سيلٌ مفاجئ من الثروة؛ وبنيت الإمبراطورية في العصور الحديثة فلم يتبع الإنجليز الطريقة القديمة من انتهاب أموال العدو المهزوم وأسر المقاتلين أو المسالمين واسترقاقهم؛ ولم يستأثر الملوك والقواد بغنائم الحرب وثمرات الفتح، فتنحصر الثروة في طبقة محدودة تسرف في اللذات بينما بقية الشعب محروم، بل كان الإقليم المفتوح حرباً يفتح للتجارة الإنجليزية ورجال الأعمال الإنجليز صغارهم وكبارهم، فجاء توزيع الثروة بين طبقات الشعب أكثر تعادلاً مما كان في المجتمع العربي
أضف إلى ذلك أن الإنجليز لم يخالطوا الشعوب المفتتحة ولم يسمحوا لأبنائها أن يملأوا عليهم وطنهم الأول ولم ينتقلوا هم إليهم بحواضرهم كما فعل العرب، ولم يأخذوا عنهم ضروب لهوهم وترفهم ولا غير ذلك من مظاهر الحياة، لأنهم كانوا عادة يفتتحون أقاليم أقل منهم حضارة، لا يستسيغون ما عندها من ضروب المتَع؛ وظل الإنجليز في بلادهم بعيدين عن تأثيرات أملاكهم، متمسكين بتقاليدهم القومية وعوائدهم وأنظمتهم التي نمت وتوطدت قبل الالتفات إلى ما وراء البحار
هذا إلى أن الإمبراطورية لم تشيد إلا وقد كسرت شوكة الملكية في إنجلترا واستتب النظام الدستوري؛ والملوك المستبدون هم عادة رادةُ الترف في ممالكهم والموجون إلى رعاياهم باغتنام اللذات والملاهي، يتوفر أوائلهم على تأسيس الدولة وتأثيل السطان، ثم يعكف أخلافهم على الترف والأبهة واتباع الشهوات، ويقتدي بهم من هم دونهم. كذلك كانت الحال في الدولة العربية حيث توطد سلطان الملك بامتداد أطراف الإمبراطورية؛ أما في إنجلترا حيث كف الملك عن أموال الدولة أن يبذرها، فقد ظل الملوك متبعين سياسة الاعتدال، فلم يكونوا قدوة سيئة لغيرهم من الطبقات
إنما فشا الترف والفساد في المجتمع الإنجليزي في أواخر القرن السابع عشر حين عادت الملكية منتصرة من فرنسا مستعيدة بعض ما ضاع من نفوذها، مصحوبة بالفرسان الإنجليز
الذين عاشوا زمناً في المجتمع الفرنسي، والفرسان الفرنسيين الذين شبوا في بلاط لويس الرابع عشر، فعج البلاط الإنجليزي بمظاهر الترف وأسباب الغواية، وفشا ذلك منه في طبقات الشعب، وساعد على ذلك تبرم الناس بما كان حكم المطهرين الغلاة قد فرضه عليهم قبل ذلك من كبح وتزمت، وبدا أثر ذلك الترف والفساد الخلقي في درامة ذلك العهد
وانتشر الترف كرة أخرى في بعض القرن الثامن عشر بين طائفة أرباب الأعمال الذين أثلوا لأنفسهم ثروات ضخمة بشريف الوسائل وخسيسها في الولايات الهندية قبل أن تشرف الحكومة الإنجليزية على إدارتها، وعادوا إلى أوطانهم مكاثرين بطارف أموالهم مستكثرين من مظاهر الأبهة والفخفخة، وعرفوا بالنواب تشبيهاً لهم بأمراء الهند؛ ورأى فيهم أدباء العصر مواضيع شائقة لكتاباتهم الساخرة، وأولع بهم ماكنزي وكوبر وغيرهما طويلا؛ على أنه في كلتا هاتين الحالتين كانت النوبة عارضة قصيرة الأمد ضيقة الحيز، صمد لها الخلق القومي، والطبع الإنجليزي الهادئ، وتغلبت عليها تقاليد الأيام المتعاقبة وعاد الاعتدال شعار البلاط والمجتمع والأدب
فالأدب العربي قد حوى من آثار الترف الشيء الكثير، بل حوى من ذلك ما لعل أدباً آخر لم يحوه، وحفل بالرائع من الأوصاف لتلك الآثار، وإن نبأ بعضها أحياناً عن الذوق السليم والخلق الكريم. ولا ريب أن ميله هذا إلى زخارف العيش وولعة بتصويرها كان مما جنح به أخيراً إلى زخرف الألفاظ وأنيق المعاني. أما الأدب الإنجليزي فظل رجاله غالباً بعيدين عن موائد الأمراء، وظل الاعتدال في أغلب العصور رائده، بعيداً عن زخارف الحياة المترفة وزخارف الألفاظ المنمقة معاً، وكان رجاله أشد شغفاً بتصوير دخائل النفس الإنسانية ووصف محاسن المناظر الطبيعية منهم بوصف قصور الأمراء

ومحافلهم ومواكبهم.

فخري أبو السعود

من صديق إلى صديقين

للدكتور أحمد فريد رفاعي

مدير قلم المطبوعات

صَدقني أيها الصديق، الكبير في أدبه، الكبير في خلقه، الكبير في أثره، أستاذنا الزيات، أنني معجب بما تفضلتم بنشره في مجلتنا الشرقية المحبوبة (الرسالة) مما دبجته براعة الصديق الزميل، البحاثة الدءوب، الكاتب العالم الوديع، الأديب عبد الوهاب عزام، خاصاً بما لاحظه - مشكوراً مني ومن المستفيدين بنقده وعلمه، مأجوراً من ربي وربه - على ما فات علينا جماعة (دار المأمون) أولا وقبل كل شيء، ومن عاوننا في الطبع والإخراج من وراقين وطابعين آخراً

ومهما يكن من إيماني بصدق قول يحيى بن خالد: (لا يزال الرجل في فسحة من عقله ما لم يقل شعراً أو يصنف كتاباً) بيد أني ارتحت الارتياح كله إلى أن فاضلاً أديباً كأخي الأستاذ عبد الوهاب عزام تجشم المتاعب والصعاب، وأفنى الليل والصحة والجهد، في القراءة والمقابلة، والمطالعة والمقارنة، والتصحيح والاستقراء، في سبيل إقامة الأوّد، وإحقاق الحق؛ فله الحمد والثناء على ذلك، ما أبلى وأجاد، وبحث وأفاد. . ولست بقائل له إنني ألحقت بالجزء الثالث ما يفيد ويرشد، وفي الرابع ما ينصف ويحمد. ولست بمتألم لما كان من مبادرته بما تداركناه، لأن الكرم العلمي، والسخاء الأدبي لا يعدوان صنيعه. بيد أني - وهو الأستاذ الحجة - ناقل له هنا كلمات متواضعة أرجح أن علمه الوفير سيسيغها، وعطفه الفسيح سيسعها، وأدبه الجم سيبررها

وكم كان يحلو لي أن أتحدث طويلاً عن النقد وحقيقته، علماً وفناً، وتاريخاً وتطوراً، وما) له من أثر عميق يعتد به في توجيه نهضتنا التجديدية إلى الإنتاج والبقاء، والتشييد وحسن الأداء، والتقدم والنماء؛ وكم كان يحلو لي أن أستفيض معك في القول في هذا الباب، وأميط لك اللثام عما لنصفه النقدَة من سداد تزجية، وحكيم توجيه، وحسن إبانة، وفضل على الصناعة، ومنن في عنق التأليف، ورواج للكتب والتصنيف، وإصابة للنصاحة، وإعانة على الفصاحة؛ وكم كان يحلو لي أن أزاملك في جولة في تلخيص كتاب (سالسبوري) في علم النقد، وأن أرافقك في سياحة في أسفار (ماكولي) وما كان له من إرشاد إلى الحقائق،

في شكر للناشر، وثناء على المؤلف، في غير افتئات ولا إعنات، وفي نأي عن الحقد والشحناء، والجدل والمراء، والإقذاع والهجاء. كم كان يحلو لي ذلك كله وما في سلكه ونظامه، لولا أن النية منصرفة، إذا مد الله في سني العمر، وأطال في حبل الحياة، إلى أن أفرد لك كتاباً في هذا، وأن أشرح لك فيه ما له صلات بالأدب والعالم، وأعرج لك فيه على مضار الخصومات والاتهام بالزندقة، والتشكيك في العقيدة، لأن العلم يجب أن يكون للحق خالصاً، والأدب يجب أن يُخلق للفن محضاً، والفن يجب أن يتجه للجمال صرفا، والجمال يجب تحليته لرفاهة الحس، ومتعة العين، وصقل الذوق، (مستساغاً حلواً

وهذه فصول لعمرك تتطلب الدرس والتقرِّي، والفرْي والتقصي؛ ولكن قصارى ما) نثبته لك هنا، التوجه إليك بالنصيحة، أن تجعل الدين السمح بينك وبين ربك، وأن تتخذ من هديه تهذيب نفسك، وتقويم عوجك، وتغذية روحك، وأن تتنكب ما في وسعك لها مزالق الفتن، واغترارات التردي، ومجاهل التدسي في الخصومات التي تقوم بين العلم والدين، وبين القديم والحديث، وبين الحق والأضلولة، وبين الموعظة والأحبولة، وبين الوجدان والسخيمة، وبين السليمة والسقيمة، وبين الصدق والمين، وبين القصد والسرف، وبين الافتيات والإرشاد، وبين الإعوجاج والسداد، وبين الحلكة والنور، وبين الإفادة والغرور، وبين الرقة واللطف، والشدة والعنف، وبين التعليم والتجريح، وبين الإبهام والتوضيح، وبين الملتوي والصحيح، وبين اللفظ والمبنى، وبين العبارة والمعنى، وبين الإجحاف والإنصاف، وبين الإصلاح والإتلاف، وبين المعدلة والتحيف، وبين الإفادة والتعسف، وبين الإجادة والتحرف، وبين العقل والشهوة، وبين الزبد والرغوة، وبين الهدى والتدني، وبين الجني والتجني، وبين الشفاء والتشفي، وبين الورع والغاية، وبين البداية والنهاية.)

ولكن ذلك كله لا يحول بيننا وبين أن نجتزئ لك القول، بأن النقد هو المرشد البريء،)
والمعلم المؤدب، والظهير المعين، الذي يقدر متاعبك في التأليف، ويشيد بأوجه
إحسانك، ويجلي لك مواطن الضعف، في أدب ولباقة، مع تحليل الموضوع، شخصاً كان
أو عصراً، إلى ما له من عناصر ومقومات، وأثر بيئة ووسط، ووراثة ودم، ومنبت
ومنجم، ومزاج نحيزة، وطبيعة إقليم، إلى ما يلابس عصرك من علوم وفنون، وحقائق
وبداية، ونظريات وأسس، ومدارس تفكير، وقواعد جدل، وأصول نقد، ومعايير منطق،
،ومقاييس مقارنة
وأوجه موازنة، وتناسب مقدمات، واستخلاص نتائج، وفهم لطريقة (ديكارت)، وتعرف
لمناهج (كولريدج)، واستيعاب لتاريخ (سالسبوري)، وانتهال من مقولات (ماكولي)،
وقفة على أطلال مذهب (بوالو)، في استشراف إلى ناحية الجمال والخير من كل
شيء، ودرس للطبيعة المركبة في كل شيء، لذاتها لا لأشخاصها، ووصف للصفات
الإنسانية العامة، والفضائل البشرية العامة، والطبائع الاجتماعية العامة، كمدرسة
القرن التاسع عشر التي كان في طليعة كماتها (كورني) (وموليير) و (راسين) وأترابهم
وأشباههم، وانتقال إلى أصحاب المذهب الإيجابي، وهم (أوجست كنت) و (أرنست
رينان) ورائدهم (تين) الذين يتوخون البرهنة العلمية في كل شيء، ويرجعون مقومات
الرجل إلى الجنس والبيئة والطبيعة والزمن وما إلى ذلك، مع إلمامنا بمذهب (فرديناند
برونتير)، في التدرج والانتقال، المبني على فلسفة (دارون) في النشوء والارتقاء، من
تقسيم الآداب العامة، من وجدانية واجتماعية، وشعرية ونثرية، إلى وحدات وفصائل،
مما ليس هذا موضع الإسهاب فيه، والشرح له، مع أخذنا بأساليب العرب، وتذوق
لمعنى الجمال، في صفاء روح، ومضاء عزيمة، ونفس طُلَعة، ورفاهة إحساس،
للموازنة والإفادة، واضطلاع بقدسية العلم، وأمانة البحث، وحرمة العقول، واستكناه
لهدى الجدل المترفق الوئيد، وتحرر من ربقة التعنت العتيد، ونزول على سياسة
التسهيل والتعبيد، والتأسيس والتشييد، وأن تكون الروح الحاكمة على سلطان النقد
الحافزة إلى الارتصاد له والتبسط فيه الأخذ بصفو المؤلف لا إهدار جهده، والمضي في
الإعانة له لا التقحم لانتقاص أثره، والتقدم إلى شد أزره، لا التهانف بذكره، وإجلال
صنيعه، في ذوب نفسه، واعتصار ذهنه، وسهر ليله، ومتاعب تحصيله، ودءوب إكبابه،
ومضنى إمضائه، وعناء كتابه، بديلاً من سياسة السخرية والتكذيب، والهدم والتخريب،
(واللوم والتثريب، في غير هدى ولا تعقيب
أما بعد: فلست يا سيدي الجليل بمنتحل كتاب ياقوت، إلى شخصي الضعيف، لاسيما
وقد أفردت لتاريخه ربع الجزء الأول. وأود أن تعلم يا سيدي، غير معلم، في غير غمز
ولا لمز، ولا تعليق ولا تعقيب، أن حكمة إصدارنا لما نحاول إصداره من مؤلفات السلف
الصالح، (من رسمية وشبيهة بالرسمية؛ فالرسمية، ونعني بها كتب الأدب المجمع
عليها، وهي البيان والتبيين، والعقد الفريد، والكامل، والأمالي؛ والشبيهة بالرسمية
أمثال ابن
منظور، وابن قتيبة، وابن بسام، وابن ظفر، وأبي حيان، والزمخشري، والجاحظ في
حيوانه، وما إليها، وكتب الطبقات والتراجم، أمثال معجم الأدباء لياقوت، وتاريخ الإسلام
للذهبي، ووفيات الأعيان لابن خلكان، ومن على شاكلتهم - أود أن تعلم يا سيدي أن
حكمة إصدارنا لهذه المؤلفات هو أنا نرى في إحياء هذه الكتب، وبعثها إلى النشور
والظهور، اللبنة الأولى في بناء صرح الموسوعة العربية، التي يحتاج إليها الناطقون
بالضاد، والتمهيد الذي لا محيص عنه، إذا ما رغبنا رغبة عملية حقة في الاتجاه العلمي
والعملي معا، في وضع دائرة معارف عربية شرقية، مستندة على أصول تاريخية
(صحيحة، وقائمة على أسس عملية حقة
ثم أود أن تعلم يا سيدي الصديق الكريم أن وزارة معارفنا قد أحسنت صنعاً وأصلحت
أمرا، حينما أخذت على عاتقها إنْشارَ الأدب، وإحياء لغة العرب، وبعث تواليف السلف
الصالح، والأخذ بناصرنا في إصدار أمهات كتبنا الأدبية، ومظاننا التاريخية، ومراجعنا
اللغوية. ولتعلم - غفر الله لي ولك - أنها قررت أن تفتح الباب على مصراعيه لكل
أديب عالم، أو أستاذ مثقف، أو ناشر همام، يتقدم لها برغبته في المعونة برجالاتها
وأئمتها لمراجعة ما يصدر، والإشراف على ما يطبع، رغبة في خدمة الثقافة، وحرصاً
على الأمانة العلمية المرجوة. ثم أود أن تعلم يا سيدي أن تسعة أعشار ما يطبع الآن،

وما يروج في السوق، ليس من آثارك النافعة، ولا من منتجات من هم في مكانتك وثقافتك، بل هو مع الأسف الشديد من الروايات المبتذلة، وقصص البوليسيات والإجراميات، وأن المصلحة كل المصلحة في محاولتنا جميعاً تغيير الاتجاه، وخلق الذوق الأدبي الجديد

ثم أود أن تعلم - غير معلم طبعاً - أيها الأستاذ الجليل أن ضبط الأعلام، ومراجعة الأعلام، وشرح المبهم، والتذبيل على ما فات المؤلف والناشر - كل هذا ليس بالسهل الميسور، ولا بالعمل الضئيل، الخليق بالسخرية والتهانف. وحاشاك أن تجنح - وأنت المؤدب خلقاً ولفظاً، ومعنى ومبنى - إلى ما لم يعهد فيك طوال حياتك. وأود أن تعلم أيها الصديق الأديب أننا كلنا، في أعمالنا الأدبية والثقافية والعلمية، لم ندرج بعد من مهدنا، وأننا في بداية البداية، وأن لغتنا العربية بحاجة إلى الضبط الكامل، والشكل الكامل، والأيْد الكامل، والتآزر الكامل، وأنني أومن بحاجتي إلى توالي نصحك، ومطرد إرشادك، ومتتابع تعقيبك، ومحتاج حقاً إلى علمك وأدبك. وأود أن تعلم يا سيدي أنك ستأسف كثيراً - وأنا العليم برجاحة عقلك، وسجاحة خلقك، ومتانة مباءتك، ودماثة سجاياك - حينما ترجع إلى الجزءين الثالث والرابع، وترى فيهما أن حضرة أستاذنا سوياً الشيخ عبد الخالق عمر، أستاذ اللغة العربية الأول بدار العلوم لم يأل جهداً في إصلاح الكتاب وتدارك ما فات على الأستاذ المستشرق د. س. مرجليوث، في غير موضع، يستحق التقدير والشكر، والثناء وحسن الأجر

وأود أن يعلم الصديق الكريم - في غير منّ ولا تجمل، وفي غير زهو ولا اغترار - أنني ارتحت أيما ارتياح لتجنيك مبطلاً، أو هديك مرشداً، أو تحيفك متعنتا، أو إرشادك محقاً، في ترجيح نبالة القصد، وحسن الطوية، على ما عداهما علم الله. ارتحت أيما ارتياح - مهما كان الحافز والدافع، والحادي والهادي - لما كان، لأنني أسأت التصرف حقاً، ولأنني أخطأت محجة السبيل صدقاً، ولأنه لا معنى لأن يحتمل مثلي، ومن في صحتي ومتاعبي، ومن خرج أمس القريب من محنة المعاش، وإضاقة الرزق، وتوالي النكبات والأرزاء - لا معنى لأن يحتمل مثلي مسئوليات كبار، مخيفة ومفزعة، في التصدي لما تصدره الآن (دار المأمون)، التي تكلفني هي والمراجع الشمسية ومنسوخاتها ومصادرها ما لا يقل عن مائة وخمسين جنيهاً شهرياً؛ لو علم الصديق الكريم النفس والخلق مصدرها وطريقة جمعها، لتردد في أن يركب رأس الشيطان، ولتريث حتى يطلع على استدراكاتنا، ولكان نعم المشجع والظهير، ونعم العون والنصير

وأود أن يعلم الصديق الكريم - غفر الله لنا سوياً، وهو هو النبيل الخلق، الطاهر الذيل، العف الوجدان - أننا معشر الكتاب نعاني الأمرين من حسد الحاسدين، وظلم المبطلين، وشظايا الراجمين. ولو كان الصديق الكريم - رحمه الله، وهو المتصل بالدكتور طه حسين بك زعيم الأدب ونصيره، ومن خاصة الأستاذ أحمد أمين وهو عميد الأخلاقيين، ومن كتاب الرسالة ولها في الأدب وبنائه رسالات خالدات ليس إلى انتقاصها من سبيل - لو كان الصديق الجليل أنعم النظر لآثر أن يترك منهجه الجديد في تقدمته لنقده، لمن هو دونه بمراحل، خلقاً وعلماً، وثقافة وأدباً؛ ثم لوازن - بفرض عدم مطالعته لاستدراكاتنا في الجزءين الثالث والرابع - بين معجم ياقوت لمرجليوث ومعجم ياقوت لدار المأمون، ثم لم يبخل بالإرشاد عن طريق الصحف إن كان محباً للإعلان، أو عن طريق الصداقة إن جنح إلى الاحسان، في غير انتقاص لفضله ولا نكران

وأود أن يعلم الصديق الكريم - وأقول هذا من باب الإكبار وأنت خير أهله، ومن باب التقدير وأنت خير موضع له - أنني كنت أنتظر منك ومن زمرتك الصالحة الجليلة أن تكونوا أكثر عوناً لي من الأستاذ مرجليوث؛ فلقد كتب إليَّ - فيما بيني وبينه وبين ربي وربه - ليرشدني إلى أن نسخة شمسية لقسم ناقص من الكتاب لدى المستشرق يهودا، وأن آخر في فلسطين لديه كذا، وأن نسخة مكتبة جلالة الشاه فيها كذا، وهو ليس بعربي، وإن كان للعربية محبا ولها نصيراً. وأنت يا سيدي - الكريم البيت، الكريم الخلق، الكريم الماضي والحاضر - تمسك بمعاول هدم، ومقولات إقذاع، وتمهيدات تهكم! ويا ليتك أتيت بجديد، بل يا ليتك لم يفتك ما استدركناه! والله لا أحمل عليك لأنك شخص، ولكنه الإكبار لشخصك، والإكبار لعروبتك، والإكبار لمصريتك، والإكبار

لنصفتك العلمية، ومكانتك الأدبية
ثم أود أن تعلم أيها الصديق الكريم، والزميل القديم، أنني - مع إكباري لكل نقد، ورضوخي لكل هدى، وإذعاني لكل ارشاد، وخضوعي لمحجة الصواب - كنت أؤمل منك كثيراً، وكنت أؤمل من (الرسالة) كثيراً، وكنت أؤمل من علماء العربية كثيراً، وكثيراً جداً؛ وليس بعباب ولا نقيصة أن أفتح لكم قبلي جميعاً، لأقول إن مشروع الأحياء أكثر مما أطيق، وأكثر مما أحتمل، وإنه بحاجة ماسة إلى عونكم الأدبي والمادي؛ أما الأدبي فبغير تلك السبيل الشائكة المقذعة المريرة؛ لاسيما وأنتم أعلم مني، وأدرى بطلاسم النساخ ومعميات الكتاب، وأخطاء الأجيال، ومجاهل اللغة، وفيافي الأحاجي؛ وأما المادي، فبأن تتقدموا بالدعاية القوية الحارة المؤمنة، بأن يساهم السراة والأغنياء في أكبر عمل ثقافي أدبي، يخدم لغة القرآن، ويرفع سمعة مصر إلى السماكين، ويحتفظ بزعامتها على الشرق وعلى الناطقين بالضاد
ثم أود أن يعلم سيدي الصديق الكريم - غير معلم طبعاً - أنني ممن لا يحفل كثيراً بمادحة أو ذامه، وأن مراني في هذا الباب كون مني رجلاً لا يخشى إلا الله، ولا يعمل إلا بوازع يخشى الله دون سواه، وأن مدح اليوم قد يكون ذم الغد، لأن معايير الأشياء تختلف بالبيئة،
والظرف، والمكان، والزمان. وما زلت أذكر ما تذكره جيداً من محاضرة أستاذنا المرحوم الشيخ محمد المهدي، حينما حدثنا عن الصاحب بن عباد، وما عزاه إليه صاحب الأمتاع، في معرض الذم والهجاء، من ميله إلى أن يقال عنه: (أصاب سيدنا، وصدق مولانا، - ولله دره - ما رأينا مثله، مَن ابن عبد كان مضافاً إليه؟ ومن ابن ثوابة نقيسه عليه؟ ومن إبراهيم بن العباس الصولي؟ ومن صريع الغواني؟ ومن أشجع السلمي؟ إذا سلكا طريقهما، قد استدرك مولانا على الخليل في العروض، وعلى أبي عمرو بن العلاء في اللغة، وعلى أبي يوسف في القضاء، وعلى الإسكافي في الموازنة، وعلى ابن نوبخت في الآراء والديانات، وعلى ابن مجاهد في القراءات، وعلى ابن جرير في التفسير، وعلى أرسطاطاليس في المنطق، وعلى الكندي في الجدل، وعلي ابن سيرين في العبارة، وعلي أبي العيناء في البديهة، وعلي ابن أبي خالد في الخط، وعلي الجاحظ في الحيوان، وعلي سهل بن هرون في الفقر، وعلي يوحنا في الطب، وعلي ابن يزيد في الفردوس، وعلي عيسى بن كعب في الرواية، وعلي الواقدي في الحفظ، وعلي النجار في البدل، وعلي ابن ثوابة في التقفية، وعلي السري السقطي في الخطرات والوساوس، وعلي مزيد في النوادر، وعلي أبي الحسن العروضي في استخراج المعمى، وعلي بني برمك في الجود، وعلي ذي الرياستين في التدبير، وعلي سطيح في الكهانة، وعلي أبي المحياة خالد بن سنان في دعواه.) وما عزاه إليه آخر في معرض المديح والثناء، في باب مكارم الأخلاق: (إنه استدعي يوماً شراباً من شراب السكر، فجيء بقدح منه، فلما أراد شربه قال له بعض خواصه: لا تشربه فانه مسموم. فقال له: وما الشاهد على صحة ذلك؟ قال: بأن تجربه على من أعطاكه. قال لا أستجيز ذلك ولا أستحله. قال فجربه على دجاجة. قال: إن التمثيل بالحيوان لا يجوز. وأمر بصب ما في القدح، وقال للغلام: انصرف عني، ولا تدخل داري بعدها، وأقر رزقه عليه. وقال: لا تدفع اليقين بالشك؛ والعقوبة بقطع الرزق نذالة). فلعلك ترى ما أراه من أن للكاتب الواحد أحزاباً لامتداحه، وأخرى لاستهجانه والزراية عليه؛ وأن وجهات النظر تختلف، بل معايير الحقائق تتباين على قدر غلبة النسبية فيها. ولعلك ذاكر قصة العميان السبعة مع فيلهم الموصوف؛ ولله في خلقه شؤون
وأخيراً أود أن تعلم يا سيدي أنني شاكر لك حقا كل فضل في إصلاح خطئنا في المعجم
وفيما أصدره، لأنني أنشد الخدمة الحقة لوطني وديني ولغتي
والسلام عليكما ورحمة الله وبركاته
أحمد فريد رفاعي
قصة المكروب كيف كشفه رجاله
ترجمة الدكتور أحمد زكي
مدير مصلحة الكيمياء

عزرائيل يقبض بيد صفراء
وصل الفائت
أرسلت حكومة الولايات المتحدة البكباشي ريد إلى جزيرة كوبا ليفحص سبب وباء الحمى الصفراء. وكانت الحرب الأسبانية انتهت في كوبا. فأعلن البكباشي أن الحرب قائمة ضد عدو جديد هو الحمى الصفراء. وطلب متطوعين ليجرب فيهم عض البعوض ليعلم هل تنقل الحمى به. فتطوع لازار وهو صياد مكروب متدرب، وتطوع كارول وكان جراحا مساعدا في الجيش
- 3 -
واستدعى رجال الحكم رِيدَ إلى واشنطن ليؤدي تقريره عن أعمال جرت في الحرب الأسبانية. فلما جاءته الدعوة أصدر أوامره مفصلةً إلى كارول ولازار وأَجَرَمُنْتي. وكانت أوامر سريّة، وكانت غاية في التطرف والوحشية إذا أنت قرنتها بطبع ريد المعتدل الهادئ - أوامر إذنابية لا ترضاها الذمم، وهي إلى جانب هذا خروج على النظام العسكري، فما كان لدى ريد إذن من رؤسائه في الجيش بإصدارها. ورحل ريد إلى واشنطن. وقام لازار وكارول يصدعان بأوامره فيركبان خطة غاية في الجرأة لم يركبها قبلهما من صُياد المكروب أحد. أما لازار، وقد كنتَ بالأمس تقرأ في عينه معنى الفناء ووجْمة الموت، فقد صرت اليوم تقرأ فيها معنى العزم والتلهف على البحث. وأما كارول فقد كان جندياً بطبعه فلم يأبه عمرّه بمجالس التأديب العسكرية ولم يحفل قط بالموت، وقد كان في المكروب صياداً طويل الحبل طويل الباع
بدأ لازار خطته. فحمل معه في زجاجات تلك البعوضات التي فقّسها فخرجت من البيض تحمل على أظهرها أقلاما من فضة وأخذ يسير بها بين سرائر المرضى وقد اصفرّت
وجوههم كورق الخريف، واحمرت أعينهم بالدم القاني، وهذَوا في القول وحق عليهم الفناء. وفتح زجاجاته على جلود المرضى، فأخذت البعوضات تمتص من دمائهم حتى إذا امتلأت سدّ الزجاجات عليها، وحملها إلى منازل من الزجاج أعدّت لها، وأدخل فيها إلى البعوض أطباقا صغيرة من الماء ومن سكر. وفي هذه المنازل هضمت أنثيات البعوض هذه غذاءها من الدم المحموم، وطنّت قليلا، ثم سكتت في انتظار التجربة وتذكر لازار ما قاله رِيدُ له: (يجب ألا تغفل عن حمى الملاريا، فلعل بينها وبين هذه الحمى الصفراء شبهاً قريباً، ففي حمى الملاريا لا يكون البعوض خطراً على الناس إلا بعد أسبوعين أو ثلاثة، فلعل الحال في هذه مثله في تلك)
ولكن أين الصبر من لازار، وأين منه صبر أيام بَلْهَ صبر الأسبوعين أو الثلاثة! فجاء بسبعة متطوعين لا أدري كيف جاء بهم، ولا ادري ما اسمهم، لأن أسماءهم على ما أعلم أسدِل عليها الستار عمداً، لأن التجربة أريدَ إجراؤها في خفاء كالليل البهيم. وقام لازار على هؤلاء السبعة - ولعّله أسكرهم أو لعّله خدرهم - فأسقَى البعوضَ من دمائهم، هذا البعوض الذي استقى منذ أيام قلائل من دم مرضى أصبحوا في هذه الساعة في عداد الأموات
وا أسفاه للازار! فقد جاءت النتيجة بغير ما ارتجى، فظل السبعة الرجال على أصح حال ولم تأتهم الحمّى. فانكفأ على عقِبَيْه خاسراً نادماً
خسر لازار، وبقى كارول لم يجرّب بعدُ حظّه. وكارول هو الرجل الذي قضى سنين عونَ ريد الأول، وكان دخل الجيش أول ما دخل جندياً بسيطاً، ثم صار أمباشيَّ وجاويشَ سنوات عديدة تعلم فيها الطاعة حتى صارت من جبلّته. وكان رئيسه ريد قال: (جربوا البعوض). وكان رئيسه ريد ارتأى أن الشيخ المأفون فِنْلي لم يقل لغوا عندما اتهم البعوض. فلزم كارولَ أن يقول ما قال ريد وأن يرى ما ارتآه. أما رأيه هو فثانويّ في حكم الجيش ومألوفه. ألم يقل لهم البكباشي ريد عند رحيله (جربوا البعوض)!
فجاء كارول إلى لازار وهو في يأسه يذكّره، قال: (هأنذا بين يديك متأهب لما تريد). وسأله أن يُخرج إليه أخطر بعوضة لديه - بعوضة تكون عضّت لا مريضاً واحداً بل عدة من المرضى. ومن مرضى في أسوأ حال من حمّاهم. وفي السابع والعشرين من أغسطس

أخرج لازار بعوضة حسبها أخرط ما عنده، فقد كانت شربت من دماء أربعة من مرضى الحمى الصفراء كان من بينهم اثنان في أسوأ حال. وحطّت هذه البعوضة على ذراع كارول.

ونظر إليها الجندي كارول وهي تتحسس بمقراصها تتخير للقرص مكاناً من جلده. فما الذي دار في خلده وهو يرقها تنتفخ كالكرة مما تشرب من دمه؟ لا أدري ولا أحد يدري، ولكني أحسبه يداور في فكره حقيقة يعرفها كل أحد: (أنا الآن في السادسة والأربعين، وفي الحمى الصفراء كلما زادت السن قل الرجاء في الشفاء). وكان في سنّه السادسة والأربعين، وكانت له امرأة وخمسة أولاد، ومع هذا فقد كتب في هذا المساء إلى ريد يقول: (إذا كانت نظرية البعوض صائبة وجب أن يكون حظي من الداء وفيراً). وفعلاً قد كان حظه منه وفيراً

فبعد يومين أحس بالتعب ورغب عن عيادة المرضى في عنبرهم، وبعد يومين آخرين أحسّ أنه مريض، وخال أن عنده حمى الملاريا، فنهض بنفسه على رجليه وذهب إلى معمله وفحص دمه تحت المجهر فلم يجد به مما خال أثراً. ولما خيّم الليل ضرب في عينيه الدم، واحمرّ وجهه وأقتمّ، وفي الصباح حمله لازار إلى عنبر الحمى الصفراء، وبقى هناك أياماً طويلة وإلى جنبه الموت. . . ومرّت به دقيقة أحس فيها كأن قلبه سكت فلم ينبض. . . وتلك دقيقة أعقبته سوءاً ستعلمه بعد حين. وظل بعد شفائه يعد تلك الأيام التي قضاها مريضاً بالمستشفى أمجد أيامه. قال: (أنا أول رجل أصابته الحمى الصفراء في أول تجربة من عضة بعوضة متعمَّدة)

وعانى مثلَ حظ كارول جنديٌّ يدعى (س. ص)، أسماه هذا الاسم هؤلاء البحّاث الذين خرجوا على القانون فتستّروا في ظلام الكتمان، وكان اسمه الحقيقي وليم دِين ومسكنه جراند رابدز بمتشجان فهذا عضّته أربع بعوضات وكارولُ في أول مرضه، إحداها هي التي عضّت كارول، والثلاث الأخريات عضت ستة رجال في درجة من المرض معتدلة وأربعةَ رجال كانوا في أسوأ حالة من الحمى ورجلين ماتا بها. وحَظِي هذا الجندي بالشفاء كما حظي كارول

إذن فالتجارب جاءت بخير ما يُرجَى. نعم لقد عضَّ البعوض ثمانية رجال فلم يصبهم سوء، ولكنه عض كارول وعض (س. ص) ونِعْم الخنزيرين الغينيين كانا في هذا التجريب فأصابتهما الحمى، وكاد قلب كارول أن يقف، وتماثل الاثنان للشفاء؛ وكان كارول مغتبطاً يكتب إلى رئيسه ريد وينتظر اليوم الذي يعود فيه ليطلعه على سجل التجارب زاهياً فخورا

ولم يشكّ في هذه التجارب أحدٌ إلا لازار، فداخله في هاتين الإصابتين شيء من الريبة، لأنه كان مجرِّباً متقناً دقيقاً حذِراً في تجريبه؛ وكان يرى أنه إذا قام بتجربة وجب عليه أن يتحكّم في ظروفها ويضبطها غاية الضبط حتى لا يتسرب إليها الخطأ، شأنَ البحّاثة القح. حدَّث لازار نفسه قال: (ليس من الكرم التشكك في أمر هاتين التجربتين بعد ما أبدى فيهما كارول و (س. ص) من التضحية والجرأة ما أبديا، ولكن كلا الرجلين تعرض للإصابة قبل التجربة وذهبا حيث توجد الحمى مرة أو مرتين قبل أن يصابا بها فعلا، فليست التجربة بالغة حدَّ الكمال، فمن يدريني أن بعوضي لا غيره هو الذي أعطاهم الحمى)

تشكك لازار، ولكن ما تشكُّكُ جندي أول واجبه إطاعة الأمر؟ وإذنْ فقد أخذ يجري على عادته فيذهب عصر كل يوم إلى أسرّة المرضى في تلك الحجرات ذات الرائحة الغريبة الضعيفة المعهودة، وإذنْ فقد استمر يقْلب زجاجات اختباره بما فيها من البعوض على أذرع رجال حمر الوجوه محمومين، ويجعل البعوض يمتص من دمائهم حتى يرتوي.

وجاء اليوم الثالث عشر من سبتمبر، فكان يوماً على لازار مشؤوما، إذ بينما هو يأذن للبعوض في الزجاج أن يشرب من دم المرضى، حطت من الجو على ظاهر كفه بعوضة تائهة، فتركها تشرب من دمه وقال: (دعها تشرب فما أظنها من البعوض الذي يسيء)، قال ذلك عن بعوضة تائهة طائرة طليقة في عنبر به الرجال تموت!

كان هذا في اليوم الثالث عشر من سبتمبر

و (في مساء اليوم الثامن عشر من سبتمبر. . . شكى الدكتور لازار سوء المزاج، وجاءته رِعدة في الساعة الثامنة مساء). هكذا ذكر سجل المستشفى

واستمر السجل يذكر في إيجاز:

سبتمبر: الساعة 12 ظهرً، الحرارة 39. 1 ? درجة. النبض 112. بالعين احتقان (19 وبالوجه ارتشاح)
(الساعة السادسة مساء. الحرارة 39. 9 ? درجة النبض 106)
ظهرت الصفراء في اليوم الثالث. واستمرت حالة المريض في التدرج إلى أن ظهرت عليه أعراض الحمى فكانت شديدة موئسة)
ثم يخرج السجل عن جفافه القاسي ويلطف من أسلوبه قليلاً: (جاءت الوفاة زميلنا العزيز فمات مأسوفا عليه في مساء الخامس والعشرين من سبتمبر عام 1900)
(يتبع)
أحمد زكي
إدوارد الثامن
بين عرشه وقلبه
للأستاذ محمود غنيم
أرأيت ذلك العاهل الشاب، ينازعه عاملا عرشه وقلبه، يهيب به الأول: أن الجاه الجاه، والسلطان السلطان؛ ويهيب به الثاني: لا سلطان إلا سلطان الغرام؛ وهو فيما بين هذا وذاك كريشة في مهب الريح، وقد أرهف العالم أذنيه، ليسمع كلمته الفاصلة، وكاد الفلك يكف عن دورانه، لينصت إلى قراره الأخير، حتى أطلقها من فيه كلمة كالقذيفة، وسمع دويها في الخافقين، فكانت فصل الخطاب؟
ألا فليشهد الفلك وليحدث التاريخ: أن عرش الإمبراطورية البريطانية الذي لا يهزه قصف المدافع، ولا تزعزته قوة الأساطيل، قد هزه لحظ فاتر، وزعزعه بنان مخضوب!
وهكذا تثبت الطبيعة البشرية أن المرأة هي المرأة في كل زمان ومكان، منذ أن أخرجت آدم من الجنة إلى أن زحزحت إدوارد الثامن عن عرشه
لقد شهد تاريخ القرون الوسطى حرباً شعواء دارت رحاها بين السلطتين الزمنية والروحية، فليشهد التاريخ الحديث حرباً شعواء من نوع آخر بين السلطتين الزمنية والقلبية. فلئن كان العرش أخضع الفاتيكان يوماً لنفوذه، فها نحن أولاء نرى العرش ينهزم أمام الحب، ثم يقف بين يديه خاضعاً ذليلاً، يبايعه بالأمارة، ويعترف له بالغلب. ولعمري إن السلطة القلبية لهي أقوى السلطات الثلاث بأساً، وأصعبها مراساً، وأشدها عراماً، وأنفذها أحكاماً. ألم يضح الناس قديماً بالأديان على مذبح الحب والغرام؟
فأن تسلمي نسلم وإن تتنصري ... يخط رجال بين أعينهم صُلبا
هذه هي بريطانيا العظمى أولى دول العالم، وهذا هو إدوارد الثامن الرجل الأول في بريطانيا العظمى، فأن شئت أن تشير إليه فقل: إن الإنسانية جسم هذا هامته، أو هي رأس هو ذؤابته، لو خلق إنسان من غير طين وماء لكان إياه، ولو استمر البشر على عبادة البشر لعبدوه من دون الله
ولكن، أليس عجيباً أن يكون هذا العاهل العظيم، لا يملك من أمر نفسه ما أملكه أنا من أمر نفسي، وما يملكه عامة شعبه من أمور أنفسهم؟! يشاء العامل البسيط أن يتزوج فيخطب
فيمهر فتزف إليه عرسه، ويشاء إدوارد الثامن أن يتزوج فتهز القوانين رأسها نفياً، ويطل شبح التقاليد بأذنيه، وتحول الحوائل، وتعترض العقبات، وتنطبق الزرقاء على الغبراء!
أليس عجيباً حقاً أن تتقيد حرية الملك فيما هو أمس الأشياء بشخصه إلى هذا الحد، وأن الذي يقيد حرية الملك إلى هذا الحد هو الدستور الذي يكفل جميع الحريات! الدستور الذي يحرر الأديان، ما باله يقيد العواطف؟ الدستور الذي يحرر اليد واللسان، ما باله يحول بين المرء وقلبه؟ ما باله يمنع الملك أن يتزوج زواجاً شرعياً، يقره الإنجيل، ويباركه يسوع! ما هذا الدستور الذي يبيح للرعية ما لا يبيح للراعي، ويمنع الملك ما يمنح المملوك، والذي يجلس الملوك على العروش آلات صماء تتحرك بالكهرباء؛ لا تأمر ولكن تأتمر، ولا تصدر الأحكام ولكن تتلقى الأحكام؟ أهكذا تنقلب الأوضاع وتنعكس الحقائق في القرن العشرين؟
لقد كان خليقاً بهذه الأزمة أن تستحكم حلقاتها في كل قرن إلا في القرن العشرين، وفي كل مكان إلا في أوربا؛ أوربا التي حملت لواء الديموقراطية وطافت تبشر بها في أنحاء الكرة الأرضية، ما بالها تنغمس اليوم في الأرستقراطية إلى الآذان، وتأبى

الاعتراف (بمسز سمبسون) لأن الدم الملكي لا يجري في عروقها؟ أكان يجري الدم الملكي في عروق نابليون يوم سمحت له أوربا أن يكون إمبراطوراً يعبث بخريطتها كما يعبث الأولاد بالألواح، ويصرف ملوكها كما تصرف قطع الشطرنج؟ أحرام على (مسز سمبسون) أن تتبوأ عرش إنجلترا، كما تبوأت (جوزفين) عشر فرنسا من قبل، ولاسيما في هذا الزمان الذي أصبح فيه كل عامل في منجم وزيراً، وكل بائع صحف دكتاتوراً؟

وماذا يفعل الملك ببنات الملوك إذا كان قلبه عند غيرهن؟ وما ضر (مسز سمبسون) ألا تكون بنت ملك متوج، أو أخت ملك متوج، ما دامت هي ملكة متوجة على عرش الجمال؟. . . وكيف لا تتبوأ مع قرينها عرش الحكم كما تبوأت عرش القلوب، دولة بدولة، وسلطان بسلطان؟ فلماذا لا يقال: إنهما كفؤان؟ هبوها ليست عذراء، هبوها ذات زوجين من الأحياء، أليست فاتنة حسناء؟ إن الجمال يقتل كل غيرة، ويغطي على كل اعتبار، وهل نضيرها ببكارتها الذاهبة، ما دامت فتنتها باقية، ووجهها لم يفقد نضرته، وعينها لم تفقد سحرها. الحسناء عذراء وإن بدلت كل يوم بعلاً، بكر وإن أعقبت كل يوم نسلاً؛ ولن تزال

بكراً عذراء حتى تفقد جاذبيتها، وتحول نضرة خديها، وتنطفئ الجذوة التي تشع من عينيها؛ ألا رحم الله جاريتي الرشيد حين سحبت الأولى على الثانية ذيل التيه وقالت: أنا عذراء. فأجابت الأخرى ما بيننا إلا ليلة

ألا رحم الله زمانا كانت تثب فيه المرأة من أحضان عاشقيها إلى أريكة الحكم! رحم الله عشيقات البلاط الفرنسي في عهد أسرة البوربون - وما عهدهم ببعيد - حين كانت تقيد بأسمائهن التشريفات، وتصدر بأسمائهن الأحكام، وتعنوا أمامهن جباه أهل النفوذ والجاه! كلمة إحداهن مرسوم، وإيماءتها قانون، وأمرها نافذ حتى على الملك نفسه، وهي له خليلة لا حليلة

ألا رحم الله أيام العباسيين، إذا كان يؤهل المرأة لمشاطرة الملك فراشه رشاقة في قد، أو أسالة في خد، أو رأى صائب تبديه، أو بيت من الشعر فصيح ترويه، فتصبح زوجاً لخليفة، وأما لخليفة، كلاهما يتحكم في الرقاب، ويتحدى السحاب!

ألا رحم الله أيام الأندلسيين، حين كان يقف الملك على شاطئ الغدير، وينتقي زوجته من بين حملة الجرار، فيغدق عليها من ألوان النعيم ما لا عهد لها به، فتضيق بذلك كله ذرعا، ثم يعاودها حنينها إلى حمل الجرار، والانزلاق بها في الأمطار، فتخضب ردهة القصر بالحناء تخضيباً، وتمطر سماؤه بدل الماء طيباً، ثم تحمل جرتها وتسير فتنزلق قدمها، فيسري عنها، وتقر عينها، ثم لا تلبث أن تثور على الملك ثائرتها، فتقسم ما رأت معه يوم صفاء، حتى ولا يوم الحناء!

أليس من حق الملك الذي نهاره لشعبه، أن يكون ليله لقلبه؟ قاتل الله السياسة، فإنها ما تركت شأناً من شؤون أصحابها، إلا دست فيه أنفها، لقد أحصت عليهم الحركات والسكنات، فلا يتحرك أحدهم إلا بميقات. ولم تقنع بذلك، بل تركتهم يمرضون حين تشاء لهم المرض، ويشفون حين تسمح لهم بالشفاء، ويأكلون على خوانها، ويشربون من دنانها، ويجوعون ويظمأون إذا ضنت عليهم بالطعام، أو حبست عنهم المدام؛ ثم لم تقنع بذلك، فأرادت أن تعض على قلوب أصحابها بأنيابها، فلا يميلون إلا وفق ميولها، ولا يتزوجون إلا ممن تحوز شرف قبولها

لحا الله شعراء العرب! لقد كان يأرق أحدهم ليلة في سبيل الحب، فيطول به الضجر، من

طول السهر، ومناجاة القمر؛ ولقد كان يذرف عاشقهم عبرة، فيلونها بالخمرة، ويشكو من تقرح جفنيه، ويجعل الدمع خلقة عينيه، ثم يعاف الماء القراح، ويشرب الدمع بالأقداح! كم أنشأ عاشقهم المعلقات الطوال، في والإيثار، وأنه ابتعد عن أهله، وفارقهم من أجله

وحاربت أهلي في هواك وإنّهم ... وإياي لولا حبك الماء والخمر

فيا ليت شعري، ماذا يقول ذلك العاشق الذي لم يسل الحب نومه من عينيه، ولم يرق دمعة على وجنتيه، وإنما أفقده عرشاً يمتد ظله على ربع الكرة الأرضية؟

لا تباه امرأة بعد اليوم بما بذل في صداقها من فضة ونضار، ومنقول وعقار. إنهما امرأتان، مهر كل منهما عرش وإيوان! كليوباطره في التاريخ القديم، (ومسز

سمبسون) في هذا الزمان. فما أحرى كلا من إدوارد الثامن ومارك إنطوان أن يترنم بقول أمير الشعراء:

من يكن في الحب ضحى بالكرى
أو بمسفوح من الدمع جرى
نحن قربنا له ملك الثرى

أعود فأقول: أيها الملك النازل عن عرشه، هون عليك. لا أقول لك: ابك مُلكاً مضاعاً لم تحافظ عليه، لقد كسبت امرأة، ولم تخسر شيئاً، فانعم بالاً، وقر عيناً ولعمري إن إمبراطور الحبشة لأولى منك بالدمع مقلة. لقد كان إمبراطوراً طيلة حياته، ولم تكنه في يوم من أيام حياتك. وماذا تجديك إمبراطورية واسعة لا تحتكم فيها على موضع قدميك؟ شتان بين من يحكم شعبه ومن لا يحكم قلبه! فعزاء له عن ملكه الزائل، وهنيئاً لك حريتك المستردة، وقلبك الحر الطليق.

(كوم حماده)

محمود غنيم

مدرس بالمدرسة الابتدائية الأميرية

هكذا قال زرادشت - 7

للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

دوحة الجبل

وارتقى زارا ذات مساء الربوة المشرفة على مدينة (البقرة الملونة) فالتقى هنالك بفتى كان يلحظ فيما مضى صدوده عنه؛ وكان هذا الفتى جالساً إلى جذع دوحة يرسل إلى الوادي نظرات ملؤها الأسى، فتقدم زارا وطوق الدوحة بذراعيه وقال: - لو أنني أردت هز هذه الدوحة بيدي لما تمكنت. غير أن الريح الخفية عن أعيننا تهزها وتلويها كما تشاء. هكذا نحن تلوينا وتهزنا أيادٍ لا ترى

فنهض الفتى مذعوراً وقال: هذا زارا يتكلم! وقد كنت موجهاً أفكاري إليه

فقال زارا: ما يخيفك يا هذا؟ أليس للإنسان وللدوحة حال واحدة؟ فكلما سما الإنسان إلى الأعالي، إلى مطالع النور، تذهب أصوله غائرة في أعماق الأرض، في الظلمات والمهاوي

فصاح الفتى: أجل! إننا نغور في الشرور؛ ولكن كيف تسنى لك أن تكشف خفايا نفسي؟

فابتسم زارا وقال: إن من النفوس من لا نتوصل إلى اكتشافها إلا باختراعها اختراعاً

وعاد الفتى يكرر قوله: اجل إننا نغور في الشرور. قلت حقاً يا زارا، لقد تلاشت ثقتي بنفسي منذ بدأت بالطموح إلى الارتقاء فحرمت أيضاً ثقة الناس، فما هو السبب يا ترى؟ إنني أتحول بسرعة فيدحض حاضري ما مضى من أيامي. ولكم حلّقتُ فوق المدارج أتخطاها وهي الآن لا تغتفر لي إهمالي. إنني عندما أبلغ الذروة أراني دائماً منفرداً وليس قربي من يكلمني، ويلفحني القَرُّ في وحدتي فترتجف عظامي، وما أدري ماذا أتيت أطلب فوق الذرى!

إن احتقاري يساير رغباتي في نموّها، فكلما ازددت ارتفاعاً زاد احتقاري للمرتفعين فلا أدري ما هم في الذرى يقصدون. ولكم أخجلني سلوكي متعثراً على المرتقى، ولكم هزأت بتهدج أنفاسي. إنني أكره المنتفضين للطيران. فما أتعب الوقوف على الذرى العالية!

ونظر زارا إلى الدوحة يتكئ الفتى عليها ساكتاً فقال: إن هذه الدوحة ترتفع منفردة على

القمة وقد نمت وتعالت فوق الناس وفوق الحيوانات، فإذا هي أرادت أن تتكلم الآن بعد بلوغها هذا العلو فلن يفهم أقوالها أحد. إنها انتظرت ولم تزل تتعلل بالصبر، ولعلها وقد بلغت مسارح السحاب تتوقع انقضاض أول صاعقة عليها

فهتف الفتى متحمساً: نطقت بالحق، يا زارا إنني اتجهت إلى الأعماق وأنا اطلب الاعتلاء، وما أنت إلا الصاعقة التي توقعتها. تفرَّس فيَّ، وانظر إلى ما آلت إليه حالتي منذ تجليت لنا، فما أنا إلا ضحية الحسد الذي استولى عليّ

وكانت الدموع تنهمر من مآقي الفتى وهو يتكلم، فتأبط زرارا ذراعه وسار به على

الطريق. وبعد أن قطعا مسافة منها قال زارا: - لقد تفطر قلبي، إن في عينيك ما يفصح بأكثر من بيانك عما تقتحم من الأخطار. إنك لما تتحرر يا أخي، بل ما زلت تسعى إلى الحرية، وقد أصبحت في بحثك عنها مرهف الحس كالسائر في منامه إنك تريد الصعود مطلقاً من كل قيد نحو الذرى، فقد اشتاقت روحك إلى مسارح النجوم، ولكن غرائزك السيئة نفسها تشتاق الحرية أيضاً

إن كلابك العقورة تطلب حريتها، فهي تنبح مرحة في سراديبها، على حين أن عقلك يطمح إلى تحطيم أبواب سجونك كلها. وما أراك بالطليق الحر فأنت لم تزل سجيناً يتوق إلى حريته، وأمثال هذا السجين تتصف أرواحهم بالحزم غير أنها تصبح وا أسفاه مراوغة شريرة

على من حرّر عقله أن يتطهّر مما تبقّى فيه من عادة كبت العواطف والتلطخ بالأقذار؛ لتصبح نظراته برّاقةً صافية. إنني لا أجهل الخطر المحدق بك، لذلك أستحلفك بحبي لك وأملي فيك ألا تطرّح عنك ما فيك من حب ومن أمل

إنك لم تزل تشعر بالكرامة ولم يزل الناس يرونك كريماً بالرغم من كرههم لك وتوجيههم نظرات السوء إليك، فاعلم أن الناس لا يبالون بالكرماء يمرون بهم على الطريق، غير أن أهل الصلاح يهتّمون بهم، فإذا ما صادفوا في سبيلهم من يتشح الكرامة دعوه رجلاً صالحا ليتمكنوا من القبض عليه لاستعباده

إن الرجل الكريم يريد أن يبدع شياء جديدا وفضيلة جديدة، على حين أن الرجل الصالح لا يحن إلاّ إلى الأشياء القديمة، وجل رغبته تتجه إلى الإبقاء عليها

لا خطر على الرجل الكريم من أن ينقلب رجل صلاح، بل كل الخطر عليه في أن يصبح وقحاً هدّاما

لقد عرفت من الناس كراما دلّت طلائعهم على أنهم سيبلغون أسمى الأماني، فما لبثوا حتى هزأوا بكل أمنية سامية، فعاشوا تسير الوقاحة أمامهم، وتموت رغباتهم قبل أن تظهر، فما أعلنوا في صبيحتهم خطة إلا شهدوا فشلها في المساء

قال هؤلاء الناس: ما الفكرة إلا شهوة كغيرها من الشهوات

وهكذا طوت الفكرة فيهم جناحيها فتحطما، وبقيت الفكرة تزحف زحفا وتدنس جميع ما تتصل به

لقد فكر هؤلاء الناس من قبل أن يصيروا أبطالاً، فما تسّنى لهم إلا أن يصبحوا متنعمين، يحزنهم شبح البطولة ويلقى الخوف في روعهم

أستحلفك بحبي لك وأملي فيك ألاّ تدفع عنك البطل الكامن في نفسك إذ عليك أن تحقق أسمى أمانيك

. . .هكذا تكلم زارا

المنذرون بالموت:

ما أكثر المنذرين بالموت! والعالم ملئٌ بمن تجب دعوتهم إلى الإعراض عن الحياة

إن الأرض مكتظة بالدخلاء وقد أفسدوا الحياة، فما أجدرهم بأن تستهويهم الحياة الأبدية ليخرجوا من هذه الدنيا

لقد وُصف المنذرون بالموت بالرجال الصفر والسود، ولسوف أصفهم أنا فينكشفون عن ألوان أخرى أيضاً

إنهم لأشد الناس خطراً، إذ كمن الحيوان المفترس فيهم، فغدوا ولا خيار لهم إلا بين حالتين، حالة التحرق بالشهوة وحالة كبتها بالتعذيب. وما شهوتهم إلا التعذيب بعينه. إن هؤلاء المسوخ لم يبلغوا مرتبة الإنسانية بعد، فليبشروا بكره الحياة، وليقلعوا عن مرابعها

هؤلاء هم المصابون بسلّ الروح، فانهم لا يكادون يولدون للحياة حتى يبدأ موتهم، وقد شافتهم مبادئ الزهد والملال

يود هؤلاء الناس أن يُدرَجوا في عداد الأموات، فعلينا أن نحبّذ إرادتهم ولنحترس من أن نعمل على بعث هؤلاء الأموات وعلى تشويه هذه النعوش المتحركة

إذا هم صادفوا مريضاً أو شيخاً أو جثة ميت، فانهم يقولون - لقد انتفت الحياة؛ ولو أنصفوا لقالوا إنهم هم نفيٌ للحياة، وإن عيونهم دحضٌ لها لأنها لا تتجه إلا إلى مظهر واحد من مظاهر الوجود

هم يتلفّعون برداء وسيع من الأسى ويتشوقون إلى الحوادث التي تجر وراءها الموت.

ولكنهم يتوقعون الموت وأسنانهم تصطك فرقا. غير أنهم في الوقت نفسه يمدون أيديهم إلى ما لذّ وطاب هازئين، فكأن الحياة قشة يهزأون بها ولكنهم يحرصون عليها.
إن حكمة هؤلاء الناس تهتف قائلة (الحياة جنون، أفظع منه التمسك بالحياة. وقد بلغ الجنون بنا هذا الحد الفظيع)
يقولون إن الحياة آلام؛ فهم يقولون حقا، فلماذا لا يضعون حداً لهذه الحياة إن لم يكن فيها سوى العذاب؟ تلك تعاليم ترمي إلى وجوب الانتحار؛ فيقول البعض وهو يدعو إلى الموت: إن الملاذ الجنسية خطيئة فيجب الامتناع عنها والإضراب عن التوليد. ويقول البعض الآخر: إن الولادة مؤلمة، فعلاَمَ تلد النساء وهنّ لا يقذفن إلى الوجود إلا بالأشقياء؟ وهذه الفئة هي أيضاً من المنذرين بالفناء
وتقول لك فئة أخرى: إن الرحمة لازمة فخذ ما نملك، بل خذ ما تتكون شخصيتنا منه، فان فعلت فأنك تقطع من الأسلاك التي تشد بنا إلى الحياة. ولو أن رحمة هذه الفئة من الناس تتغلغل في صميم ذاتهم لكانوا يبذلون الجهد في سبيل دفع سواهم إلى كره الحياة. ليستمر هؤلاء الناس على ما هم عليه، لأن رحمتهم الحقيقية كامنة في إيقاع الأذى
إن ما يقصد هؤلاء الناس إنما هو التملص من تكاليف البقاء فلا يهمهم أن هم ألقوا بأغلالهم على الآخرين.
وأنتم أيضاً، أيها المتحملون من الدنيا همومها وجهودها المرهقة، أفما تعبتم من الحياة؟ أفما أنضجت المحن نفوسكم لتقوم هي أيضاً منذرة بالموت؟
أنتم يا من تحبون الأعمال الوحشية وكل حادث يمتعكم بكل جديد وغريب سريع الزوال! لقد ضقتم ذرعا بأنفسكم فما تتهالكون في العمل إلا تهربا من الحياة وطلبا للاستغراق لتصلوا بذاتكم إلى نسيان ذاتها. ولو كنتم أشد إيمانا بالحياة لما كنتم تستسلمون هذا
الاستسلام الكامل لحاضركم. لقد خلت سرائركم من القوة اللازمة للانتظار، بل خلت مما يستلزم كسلكم نفسه من جلد
إن صوت المنذرين بالموت يدوي في كل مكان، والعالم مكتظ بمن وجبت دعوتهم إلى الموت أو بالحري إلى الحياة الأبدية؛ ولا فرق عندي بين ذاك وهذه إذا كان هؤلاء الناس يسارعون إلى إخلاء الأرض
هكذا تكلم زارا
(يتبع)
فليكس فارس
في بهو فندق
خيانة اللغة العربية والآباء والأجداد والدهر والتاريخ
للأستاذ محمد بدر الدين الخطيب
أنا (ولا أنانية) والسائح العراقي الأستاذ يونس البحري الساعة في (صالون) فندق من أكبر فنادق بيروت، نقلب الطرف والسمع في الزمر التي نحتشد حولنا، ونتداول شتى الحديث ونود إلى (الرسالة) وافتتاحيتها المشرقة بما في نفس كاتبها الأستاذ الزيات
وبما في نفوسنا نحن إخوانه من شعور صحيح يتصل بتيار الحمية ولا يتقطع ملحقا بسلك مذبذب ضعيف يتفرع إلينا من الغرب.
نحن في حماس وإشراق، والزمر التي رأيت تلغط حولنا بالفرنسية، وبالفرنسية فقط، لغطاً ضعيفاً أشبه بالنور الضئيل في المصباح الكهربائي الذي يستمد تياره من الفرع الضعيف الذي رأيت أيضاً
هذه فتاة ريانة يهفهف العطر والجمال والدلال في خطوها، تتحدث إلى أخرى بالفرنسية، وأزاءها أمها تتطلع إليها تطلع المأخوذ الذي لا يعي ما يقال.
ها هي ذي أمها تسائلها (بالعربية)
التفتت الفتاة في نزق وقد التهب وجهها بالحمق ولسانها بالنزق وصاحت بأمها:
أي! أي! هس! هس!
وعادت إلى الكلام بالفرنسية وفي نفسها أن أمها قد مسخت المدنية أو مسخت موقفها في المدنية والفرنسية في حديثها إليها بالعربية.
لم أكتم نفسي وتركت الغضب يمد عليها ويجعلني ألتفت إلى صاحبي (يونس) وأحدثه

بما يشبه الصيحة عما أرى وأسمع.
وكان صاحبي مثلي في وجوم وألم مما يرى فلم يكتم نفسه وانبعث يصيح ويعلن أسفه (بالثلث)
وكان بجوارنا زمرة من الشباب وقع عليها ما نقول وقع العجب في غير رجب، فالتفتت بجملتها وتوجه أحدها إلينا يقول:
(الناس أحرار يتكلموا ما شاءوا أفرنسية ولا عربية ولا ألمانية حتى شوهاد يا إخوان).
. . .قلت له شوهاد؟ أي كلمة كبرت، وأي حمية صغرت، وأي
ليتك تذهب إلى تركيا وتتكلم بغير التركية ويحسبك الأتراك تركيا مارقا فترى وتسمع ما لا عين رأت ولا أذن سمعت من التأنيب والتعذير!
لا دواء لك ولا لأمثالك إلا أن تذهب إلى تركيا في شكل تركي، ولا أحسب المنطق يفيدك أو يفيد هذا الجمهور الغريب من أشباه الشباب وأشباه الرجال، هذا الجمهور الخارج من حظيرة فنية استعمارية. . نعم. . .
وصاح صاحبي السائح العراقي يقول: لقد طفت أكثر بلاد العالم فلم أجد أمة تحتقر نفسها وتلوي ألسنتها وتتحمس لهذا العبث إلا في بلادنا العربية
ما شأن اللغة العربية حتى تتجاوز عنها وترطن بالفرنسية؟ أليست لغة المجد والعلم، ولغة دمك وبلادك؟
بهتت الزمرة، وساد وجوم، وتلجلج الجو، لا يحير، وماذا يحير، وعناصره عربية، وإن لم تكن عربية فطبيعية، تشهد للأمر الواقع، وتخشع احتراماً له وإجلالاً؟
ساد صمت وعدنا إلى حديثنا، ثم انفضت من حولنا الزمرة! وذهب أفرادها وفي نفوسهم ما لا يعلم إلا الله
وعدنا نقرأ مقال الأستاذ الزيات نفرج به ما اشتبك واحتبك من الشجون، ونثني على كاتبه ثناء خالصاً مشرقاً وثناء صحيحاً يجدر بالشعور الصحيح والرأي الصحيح
وتأملنا ولا زلنا نتأمل في هذه الظاهرة السوء والعلة الغريبة التي تجد في كثير من الذين داخلتهم حمية وحماسة ورعونة ولؤماً للدفاع عنها والسفاهة في سبيلها
تأملنا ولا زلنا نتأمل، وفي نفوسنا وأمانينا أن يبادر من يشعر بالخطر وبما وراء هذا الانحلال من نذر من الكتاب إلى معالجته بقوة وبصراحة

محمد بدر الدين الخطيب

في ساعة يأس

للشاعر القروي

هل بينكم من راحمٍ قاتلِ ... يزحزح الأيامَ عن كاهلي
يقذِفُ بي في دَرَك اللجّ لا ... يلفِظني موجٌ إلى ساحِلِ
يا من يُذَرّيني طحيناً على ... وجهِ صعيدٍ محرقٍ قاحلِ
ما رشَحَت من جوّهِ قطرةٌ ... يوماً على نَصْرٍ ولا ذابلِ
أشفِقُ أن أبعثَ في عُشبةٍ ... أو زهرةٍ أو غُصُنٍ مائلِ
يا لاَشتهائي جنَّة من لظىً ... آكلُ من يانعِها الآكلِ
في شجر من لهب ثائرٍ ... على ضفاف اللهبِ السائلِ
مأدبةٌ تأكلُ أضيافَها ... آمنةُ الوارشِ والواغِلِ
وأبَرْدَها عندي إذا اجحَو حَمَت ... كأختِها في قَفصي الناحِلِ
لاقفةً فُلكَ همومي معي ... ذاهبة بالحِمل والحامِلِ
من يشتري لي عَدَما مطلقاً ... يُعْيى على النافخ والجابلِ
لاشِ حياتي يا إلهي ولو ... حقّقتَ زعمُ الملحِدِ الجاهلِ
جسمي وروحي وأغانيَّ لا ... تُبقِ على باقٍ ولا زائِلِ
ما حيلةُ اليائسِ لا ينتهي ... من عاجل إلا إلى آجلِ
أقسى من الموتِ على النفسِ أن ... تسعى إلى الموتِ بلا طائلِ
هَبْ كانَ لي الخلدُ تنغّصْتُهُ ... بذكرِ هذا الألمِ الهائلِ
وا حيرة العاقلِ في. . . ... قضى وأمضى بشَقَا العاقلِ
يفعلِ ما لو غيره فاعلٌ ... لقامت الدنيا على الفاعِلِ
يا بائعاً (سَحبانَ) من (باقل) ... كبيعه شعبيه بالشاقلِ
القدسُ لم تَزَنِ فما بالها ... تُرجَمُ عن (بابِلَ) من (بابِلِ)

كم صرعةٍ للحق قد زعزعَت ... رأييَ في الحقِّ وفي الباطِلِ
مُت يا أخي العامل، مُت جائعا ... ولا تسل عن أجرة العاملِ!
إن فاتَكَ الخبزُ فَلُكْ آية ... وانعم بموت الآمن الآمل!
غداً لك الخلدُ فما ضرّ إن ... لم تأكل اليومَ مع الآكلِ!
قبّلْ يدَ الظالمِ قسراً ولا ... تعتب على خالقهِ العادلِ!
هل كانت الآلام مذ قُدِّرت ... إلا نصيبَ الرجل الفاضلِ!
فلنحمدِ المولى على نعمةٍ ... خُصت بنا من فضله الشاملِ،
إبليسُ! يا مسكين! مُت غيرة ... فالصَّلب. . حظ البشر الكامِلِ!
يا سائلي عن سر هذا الأسى ... أقصِرْ وقاك الله يا سائلي
ما أبعد الشكوى، على هولها ... عن بعض ما ينهش في داخلي
عن سرّ أسرار عذابي الذي ... عزّ على السامع والقائلِ
يا مستعير الدمع لبيّكَ خذ ... ما شئت من طَلٍّ ومن وابلِ
في كل جفن من جفوني سَماً ... وكُلَّ هدب مقلتا. ثاكلِ
(سنبولو - البرازيل)
الشاعر القروي
من العصبة الأندلسية
إدوارد الثامن
للدكتور أحمد زكي أبو شادي
كأنكَ لم تبذل فؤادك داويا ... لشعبكَ حتى فاتكَ اليوم داميا
كأنكَ لم تدر البطولة يافعاً ... ولم تصحب الهيجا وتَسْلُ المغانيا
كأنك لم تُعطِ العظائم حقَّها ... ولم تعرفْ الأوطان حُبّكَ فاديا
كأنك ما طاردت عن شعبك الأذى ... وأنفقت في هذا الطراد اللّياليا
مَواهبُ يَجنى العُرْفُ شَرَّ جنايةٍ ... عليها، ويَنْسَى العُرْفُ غيرك جانيا
وما قيمةُ التاجِ الذي أنتَ تاركٌ ... إذا بات هذا التاجُ خصما وعاديا؟
تفانيتَ في الإحسانِ للشعبِ دائما ... فلم يَزِن الإحسانَ أو كان ناسيا
وأذعَنَ للتقليدِ في حين قد أبى ... نُزُولَكَ عن عرش زهابك ساميا
وهيهات أن يحظى بسحرك تاليا ... وهيهات أن يلقى شبيهك ثانيا
فكان مُهينا كبرياءك، جارحا ... وفاءك، مهما عُدَّ للعرش وافيا
ومِنْ قِدَمٍ كان التذبذبُ مِلّةً ... وسوف على الدهماءِ يلبثُ عاتيا
أمثلكَ في إشفاقِهِ وإبائِهِ ... يُسَخَّرُ، مهما زُخْرفَ القيدُ حاليا
أَتحْرَمُ مَحْضَ العيشِ مثلَ بني الوَرى؟ ... إذنْ كلُّ عيش دونه ليس غاليا
تُضَحِّي؟ نعمْ ضَحَّيتَ أضعافَ ما رَجَوْا ... ولكنّهم ما بادلوكَ الأمانيا
وما كنتَ للحبِّ المقدَّسِ خاضعا ... ولكن لمعنىً بَذّ عندي المعانيا
هو البرُّ بالنفسِ العظيمةِ عندما ... تَرَى الناسَ فَوْضى والأماني مآسِيا
ومِثلُكَ لن يرضى الحياةَ مَنِيَّةً ... ولكنّما يهوى الحياةَ معاليا:
معالي مِنْ نُبْل وسعى وخدمة ... وحرية، لا أن يرى العيش خاليا
وَهَبْتَ الكثيرَ الفخم للشعبِ خالصا ... ولكنَّه يأبى لكَ النّزْرَ صافيا
ومِنْ عَجَبٍ يحنو عليكَ بلهفةٍ ... فلم ترض إلا أن تكون المواسيا
وكنت عظيم النُّبْلِ في كلِّ موقف ... كأنكَ يومَ الرَّوْعِ تشدو الأغانيا
فأفعمت قلبي من ثباتِكَ نشوة ... ومِنْهُ لباكي الشعبِ صُغْتَ التعازيا
إذا أسَرَ التقليدُ أحلامَ أمَّةٍ ... نظمتُ لها قبلَ العَزاءِ المراثيا!
الإسكندرية
أحمد زكي أبو شادي
إلى الفيلسوف الشاعر نيتشه
بقلم محمد فهمي
نظمت على أثر قراءة ديوانه (هكذا قال زرادشت) الذي
تترجمه (الرسالة)
أَذبْتَ قلبك أَشعاراً تردِّدُها ... أَوْدَعْتها لَذعَ ما في القلب من نارِ
في كل بيتٍ لسانُ النار مندلعٌ ... في كل بيت تَبدّي شبه إِعصارِ

وأُيُّ قلب تراك اليوم ساكبه ... وأَيُّ فكر تراءى لي بأسرار
أَلا هو القلب دفاقاً ومنطوياً ... على البُطولة في سيّالها الجاري
أَلا هو الفكر في أَجوازه لُمَعٌ ... من الخلود كضوء الفرقد الساري
تُلقى القذيفة من شعرٍ مؤججةً ... نحو القلوب فتغدو كاللّظى الواري
وتبعث البأس فيها جِدّ محتدمٍ ... وتوقُظ العزم في إِقدام جَبّار
وتحطِمُ القيد إذ حلقاتُه نسجت ... من الخرافة في تأثيرها الزَّاري
وتُطلق الروح كالطير الذي فُتحت ... له السجون وأَقفاصٌ لأُسَّار
يمضي يُحلّق نشواناً ومنطلقاً ... ويهتك الحُجب من غيب وأستار
حتى يشارف سر الكون مجتليا ... غايَ الحياةٍ لإنسان به سار!
فما الحياة أراها اليوم أَلهيةً ... لفتنةٍ النفس في كشفٍ وإضمار
وما الخلود أراه طيف أُمِنَيةٍ ... تساور الفكر في حلٍّ وتسيار
ولا الوجود هباء ليس يَعْدِله ... في كفّة الزُّهد حتى عُشر معشار!
بل الحياة كفاحٌ لا قرار له ... وليس يلحاه إلا كلُّ خوَّار
بل الوجود هو الفردوس تحجبه ... عنا سخائف أوهامٍ وأوطار
وما الخلود سوى قُصوى بُلَهْنِيةٍ ... لكامل الخلق فوق الأرض قرَّار
أنت الذي جعل الآمال دانيةً ... وأَنْزَلَ الخُلد في الأخرى لذي الدار
وَحْيٌ من الفكر يهدي شهد حكمته ... في كأس سِفرٍ تَجلّى فوق أسفار. . .
(المنصورة)
محمد فهمي
من هنا ومن هناك
بوشكين أمير شعراء روسيا
تستعد روسيا السوفيتية استعداداً عظيما للاحتفال بمرور مائة سنة على وفاة شاعرها الأكبر بوشكين الذي مات متأثراً بجروح بالغة بعد مبارزة جنونية مع هيكرين دانت أحد ضباط الحرس القيصري الذي كان يغازل امرأة بوشكين، والذي قيل إنه استطاع أن يحظى بها بعد مجازفات غرامية سافلة انتهت بمقتل شاعر روسيا الكبير في 27 فبراير سنة 1837
ولو عاش بوشكين إلى اليوم لأبى أن تحتفل به روسيا هذا الاحتفال الذي يؤلمه ويكبر عليه من رجال مستبدين غاشمين داسوا تعاليمه، ولم يبالوا أن يجعلوا روسيا جحيما لا يطاق من العسف والجبروت، والفاقة والعوز، والكبت والتنكيل. وهي أمور وقف بوشكين حياته على محاربتها في عهد القيصر، وانضم بسببها إلى جماعة الديسمبريين يناضل الظلم بيده ولسانه وقلبه، ولم يبال أن ينفى إلى الجنوب، وأن يحرم ملذات بطرسبرج وأنوارها التي كانت في ذلك الوقت زينة الحياة الدنيا
ولد بوشكين في 26 مايو سنة 1799 من أب روسي، وأم خلاسية يجري في عروقها دم الزنوج الأفريقيين، لأنها حفيدة (هينبال!) العظيم، أحب خدم البلاط إلى بطرس الأكبر، والذي كان يلقبه عاهل روسيا (جوهرة بلاطي!) من سبيل الدعابة، لأنه كان عبداً أسود امتاز بشجاعته النادرة وإخلاصه المتين لصاحب التاج
وكان أبوه روسياً مثقفاً يقتني مكتبةً حافلة تزخر بأجود الكتب الفرنسية كقصص فولتير ومؤلفات روسو وغيرها، فكانت النبع الفياض الذي ارتوى منه بوشكين وشفى نفسه الصادية، وساعدته ذاكرته القوية على استظهار ما في كتبها من درر وغُرر ومُلَح وطُرف، وهو لم يعد بعد طور الصبى. ولم يظهر بوشكين عبقرية ما في صغره؛ وكان يكره اللغة الروسية من صميمه، ولم يكن يعلم أن سيصير عما قريب إمامها المجلي، وفارسها المغوار، وشاعرها الذي لا يدانيه شاعر
وكان أبوه يضيق بضعف ولده في الروسية، فلما ضبطه مرة مكباً على فولتير يكاد يلتهمه، لم يسعه إلا أن يضربه ضرباً مبرحا وحرَّم عليه دخول مكتبته حتى يتقن اللغة الروسية. . . (وعندها يا بني يمكن أن يثمر في قلبك، وعلى لسانك، هذا الأدب الفرنسي الجميل!. . .)
وقد صدق أبوه!!
وفي سنة 1812 التحق بصالة المحاضرات في قرية زارسكوسيلو، إحدى ضواحي موسكو، وهناك تعرف إلى الشاعر (درزهافن) فنفخ فيه من روحه وشجعه على قرض

الشعر، وكان يستملح منه هذه القصص الممتعة التي كان ينظمها وينشدها أخواته الصغيرات. وحدث أن زار الشاعر الروسي الكبير (زهيكوفسكي) ضاحية زارسكو، وسمع بوشكين فأعجب به وتنبأ له عن مستقبل باهر. وقد تأيدت تك النبوءة عندما نظم بوشكين قصيدته الطويلة (رسلان ولدميلا) سنة 1820 فأرسل إليه الشاعر الروسي صورته وعليها هذه العبارة (إلى التلميذ: من أستاذه المغلوب على أمره!) وقد اشتملت قصيدة رسلان على طائفة كبيرة من الفوكلور الروسي الذي كان يترفع عنه الشعر في ذلك الوقت، وبرغم ذلك فقد كان للقصيدة رنة عظيمة في روسيا ولهج بها كل لسان؛ وكان الشاعر باتيوشكوف يصبو إلى إمارة الشعر الروسي، فلما صدرت قصيدة بوشكين حقد على الشاعر الشاب (الذي سبق الشعراء إلى ما كانوا يصبون إليه!)

رحل بوشكين إلى العاصمة الصاخبة بعد حصوله على شهادة الليْسيوم، وكان يتمنى لو التحق بالمدرسة الحربية، بيد أنه ألحق بوظيفة في السلك السياسي، واستطاع أن يجوب آفاق القوقاز، وهو في ذلك العهد مسبح خيال الشعراء ونبع إلهامهم؛ ثم تجول في ربوع القرم، وقضى حقبة طويلة درس فيها الإيطالية والإنجليزية، واشتد ولعه بشاعر الإنجليز بيرون فكان يستظهر قصائده، وبلغ ما إعجابه به أن قلد بقصيدته (أسير القوقاز) قصيدة بيرون (تشيلد هارولد). وفي هذه القصيدة يبدع بوشكين في الكلام عن الحب ووصف الجمال القوقازي والخرائد القوقازيات ويرتفع ببطل القصيدة إلى ذروة الطهر

وشعر بوشكين في هذه الفترة من عمره متأثر بالأدب العربي إلى حد بعيد؛ وأثر أبي نواس والمدرسة العباسية فيه شديد الوضوح، فهو يصف بيوت الحانات وما فيها من ألوان الترف وجمال السراري والولدان. ومن يقرأ ما جاء في الأغاني ونهاية الأرب عن حب الأعراب ثم يقرأ قصيدة (الغجر لبوشكين يلمس أثر الثقافة العربية في هذا الشاعر لمساً تاما. فهذا الفتى (أليكو) الذي يسأم صخب المدن ويفر إلى الريف فيحب الفتاة (زمفيرا) ويتزوجها، ثم تمله الفتاة وتقلوه وتعلق فتى وسيم الخلق فتتصل به وتساقيه كؤوس الغرام ويفاجئهما أليكو

في حالة مريبة فيقتلهما جميعا، ويثير عليه غضب سيده وهو والد الفتاة، فيطرده من خيامه ليهيم على وجهه في الأرض، ويعود السيد ليرى زوجته بين يدي عاشق أثيم فتسود الدنيا في عينيه ويترك العاشقين وشأنهما وينطلق على وجهه في الأرض حيران. . كأنما انتقم منه القضاء للفتى أليكو

وتأثر بوشكين بشكسبير أيضاً، ويبدو ذلك الأثر على أتمه في قصيدته (بوريس جوديونوف) التي تصور رجلاً آفاقياً متشرداً يصل إلى عرش أمة في غفلة الزمن، وقد عرض فيها بديمتري الذي استطاع أن يحكم روسيا ولم يكن من قبل شيئاً مذكورا ومن أحسن قصائده (أونجين) التي بدأ بنظمها سنة 1823 وأتمها سنة 1831 وسنعود إليها في عدد تال

مسز جراندي

اشتهر القرن التاسع عشر في إنجلترا بأنه قرن الانتقال المفاجئ في حياة أمة عظيمة عتيقة محافظة - ففيه ظهر داروين الذي قلب البيولوجية رأساً على عقب؛ وفيه تبدل الاجتماع الإنجليزي فأصبح اجتماعاً صناعياً يرتكز على أساس من الآلة البخارية بعد أن كان اجتماعاً زراعياً أو صناعياً يرتكز على أساس من آلة تدار باليد. وفيه خطا الطب خطوة واسعة من الشعوذة إلى التشريح العلمي وبحث خصائص المكروب

ولكن القرن التاسع عشر لم يستطع أن يخطو بالأسرة الإنجليزية خطوة واحدة إلى الأمام، بل إنه زاد الطين بلة فأغرق إنجلترا في بحر من الذهب فأنزف الإنجليز إترافا زادهم جموداً وقوى من سلطان مسز جراندي عليهم جميعاً

ومسز جراندي هذه هي هذا الشبح الخرافي الذي يكنى به في إنجلترا إلى اليوم عن سلطان التقاليد العتيقة البالية التي تعطي للأب في منزله سلطة الدكتاتور، وللأم سلطان القديسة، تأمر وتنهي وترفع في وجوه أبنائها عصا القرون الوسطى فتفل بها من حريتهم وتحد من استقلالهم إن فرض أن لهم استقلالا أو حرية. وكان صوت مسز جراندي يدوي في كل بيت إنجليزي فيقول: هذا واجب وذاك لا يصح، وينبغي أن تدنى

الفتاة عليها من جلاليبها، وألا تفتح النافذة، وألا تمد عينيها إلى أحد إذا سارت في الطريق، وألا تختار لنفسها بل أبوها هو الذي يختار لها

وكان لمسز جراندي سلطان مخيف على الأدباء، وكانوا جميعاً يخشون بأسها، ولذا كانت أفكارهم سجينة في زخارف من الكلام الأجوف الموشى الذي يعجب اللغويين ويهزأ به الأدباء المصلحون. وماكولي دليل على ذلك، فأسلوبه المرقص المطرب لا يكاد يدانيه أسلوب آخر في موسيقاه، ولكنه بأفكاره يعيش كما تعيش العناكب في الأركان والزوايا، وكما تسعى الخفافيش في ظلام الليل. وجون رسكن كذلك، وهو رجل أنيق العبارة رشيق الأسلوب، ومع ذلك أراد أن يضحي تقدم إنجلترا ورقيها الآلي ما دام هذا الرقي في رأيه ينافي الفن الصحيح. ولقد ثار على مسز جراندي أديبان عظيمان هما لورد بيرون وبرسي شللي فكان أولهما يجاهر بآرائه الكفرية، ويغيظها فيشرب الخمر في جمجمة ميت، ويترخص في الحب وينظم دون جوان. وكان الثاني يحتقرها في عظمة ووقار وينظم مأساة سنسي ويفلسف في الحب، ولكن مسز جراندي هي الأخرى لم تأبه بهما، بل هي قد لفظتهما من إنجلترا إلى اليونان وإيطاليا ولذلك لم يشعر بهما أحد إلا بعد أن مرضت هذه السيدة المحتشمة وأوشكت أن تموت

والذي يهمنا من هذه الكلمة عن مسز جراندي أن الشريعة الإسلامية أكبر أعدائها، ومع ذلك فسلطان مسز جراندي في مصر أقوى منه بكثير في إنجلترا، فهل يتأذن الله أن تموت؟!

د. خ

البريد الأدبي

كتاب جديد لأندريه جيد

منذ بضعة أعوام ظهرت للكاتب الفرنسي الكبير أندريه جيد عدة مقالات رنانة تفيض بالمديح في روسيا السوفيتية وفي نظمها وأحوالها، وفيما هيأته للطبقات العاملة من حياة جديدة، ولكن أندريه جيد يطلع الآن على قرائه بكتاب جديد عنوانه: (العودة من جمهوريات الاتحاد السوفيتي وفيه يحمل على روسيا السوفيتية بعنف وشدة، وينعت ما سماه قبل بجنة العمال والطبقات العاملة بالجحيم المستعر، ويقول لنا أندريه جيد في سر هذا الانقلاب إنه كان يحب روسيا ونظمها الجديدة قبل أن يرى ويختبر بنفسه ما فيها؛ ولكنه الآن وقد وقف بنفسه على الحقيقة، وشاهدها في موطنها، وبعد أن أقام في روسيا زهاء ثلاثة أعوام، يستطيع الآن أن يقول فيها كلمة حق وصدق

يقول لنا أندريه جيد في كتابه: (إن أقل احتجاج أو نقد يعاقب عليه في روسيا السوفيتية بأشنع العقوبات، ثم يخمد في الحال؛ وإنه يرتاب في أن دولة أوربية أخرى - حتى ألمانيا الهتلرية ذاتها - يخمد فيها الرأي ويسحق ويذل مثل ما هو في روسيا)

ثم يقول لنا أن الثقافة العالية وسفه الرعاع في روسيا أمر سواء، ولا يسمح لإنسان أن يفكر بغير ما تفكر به جريدة (برافدا) لسان الحزب الشيوعي؛ ويحظر على كل روسي أن يعبر الحدود؛ وأن يعرف شيئاً عن العالم الخارجي؛ والمهم دائماً هو أن يعتقد الشعب الروسي أنه أسعد حالاً من كل الشعوب الأخرى

ثم إنه فيما خلا الطبقة الممتازة التي تنعم بالحياة المترفة في الطعام واللباس والمسكن، ترى الشقاء يسحق كل الطبقات والجموع؛ ويتكدس الناس في مساكن ضيقة قذرة ويعيش معظمهم على الخبز الجاف والسمك؛ وأما البضائع فهي مكدسة في الحوانيت والمخازن ولكنها جميعاً من أردأ صنف؛ والرداءة صفة عامة لكل شيء في روسيا. وأما المبادئ الشيوعية فلم يبق منها إلا صورتها؛ وتجد السياسة السوفيتية الحالية في التدرج في إحياء الأسرة والملكية الشخصية والميراث، حتى يشعر الفرد أنه يملك شيئاً لنفسه يجب أن يدافع عنه؛ بيد أن الفرد ليس له وجود، وقد سحق كل ما فيه من مظاهر الاستقلال المادي والمعنوي

وقد أحدث ظهور كتاب أندريه جيد دهشة كبيرة في جميع الدوائر لأنه كان معدوداً من أصدقاء روسيا الحميمين، ومن أخلص محبيها ودعاتها

معرض للتاريخ السياسي

افتتح في برلين أخيراً، في جناح من المكتبة الملكية البروسية، معرض من نوع خاص عنوانه: (ألمانيا السياسية، الطريق إلى مصير الشعب الألماني)، وقد عرضت في هذا

المعرض الجديد عدة وثائق تاريخية، مما عرض من قبل في مؤتمر نورمبرج، مما يتعلق بتطورات الحزب الاشتراكي الألماني، وكفاحه في سبيل الحكم، وما قامت به الحكومة الجديدة في الأعوام الثلاثة الأخيرة من المشاريع والأعمال؛ وفيه أيضاً وثائق ومخطوطات تاريخية، لقادة ألمانيا في العصر الحديث، مثل إرنست مورتس آرنت، وفردريك وليم الثالث، والبارون فون شتاين، وشارنهورست، وأندرياس هوفر، وكلها ترجع إلى العصر المسمى في التاريخ الألماني (بعصر التحرير) وهو في أوائل القرن التاسع عشر

وقد أذيع عن المعرض والغاية التي أقيم لأجلها بيان جاء فيه إن هذا المعرض يوضح كيف أشرفت الإمبراطورية الألمانية غير مرة على السقوط، وأنها كانت تجتاز مثل هذه المرحلة حين قبض الحزب الاشتراكي الألماني على زمام الحكم، وأن الكفاح لانتشال ألمانيا من هذه الوهدة والعود بها إلى مركزها القديم هو نقطة التحول في تاريخ العصر الجديد؛ وأن ألمانيا تكتب الآن تاريخها مرة أخرى، وأنها قد حققت مركزها القديم في الأسرة الأوربية، وستعمل على تبوء مركزها في تاريخ العالم؛ وأن الاشتراكية الوطنية التي تقود ألمانيا الآن إلى مصايرها، تقدر القوى الثقافية والكفاحية التي كانت لها في الماضي حق قدرها، ولذا ترى أن تبرز هذه القوى للجيل الجديد

قبيلة الكنتين

تلقينا من (نيالا) بمديرية دارفور بالسودان من مأمورها الفاضل عبد الماجد إبراهيم الكلمة الآتية:

السلام عليكم ورحمة الله؛ وبعد: فتوجد قبيلة في دارفور الآن تسمى الكنتين نزحت إلى دارفور من جهة مراكش وأن رجالها ملثمون ونساءها سافرات؛ وفي أكثر حليهم وسيوفهم

علامة الصليب؛ وهم مسلمون ولغتهم أعجمية؛ وهم يقولون إنهم عرب أو أصلهم عربي، وينتمون في نسبهم إلى طارق بن زياد.

ولكن بعض المؤرخين يقول إن الكنتين (بربر) من جهات مراكش، وبعضهم يقول إنهم تتار. فأرجو أن تتفضلوا وتوضحوا لنا أصل هذه القبيلة إذا كانوا حقيقة من أصل عربي أو بربري أو تتري. . . الخ

وقد رأينا أن نذيع الاستفهام على صفحات (الرسالة) عسى أن يتقدم من الباحثين الذين توفروا على دراسة السودان وقبائله من يتفضل بإجابة الكاتب عن سؤاله

مرثية جراي

نشرت الرسالة في عددها 180 بتاريخ 141236 كلمة من نابلس عن مرثية جراي أبدي كاتبها فيها إعجابه بالنص العربي كما خطه يراع صديقي الأستاذ على الطنطاوي وأنحى باللوم على الترجمة. ولما كان لهذا اللوم مساس بي فقد أحببت أن أقول كلمة في الموضوع:

قال الكاتب ما نصه: (وعندي أن الأستاذ لو ترجم المرثية عن أصلها لبان له من روحه الفنانة وإخلاصه ما يجعل ترجمته في دقتها تقف في صف واحد مع ترجمة جرالد للرباعيات الخيامية المشهورة). وأكبر ظني أن الكاتب المحترم لم ينتبه إلى كلمة (دقة) التي ذكرها وعلاقتها بالموضوع فإذا كان يريد بالدقة المحافظة في الترجمة على المعنى الحرفي للأصل فأني أعترف بأن ترجمتنا للمرثية لم تكن دقيقة، لأننا لم نسع لذلك البتة، بل كان هدفنا الوحيد جعل القارئ العربي يستمتع - على قدر الإمكان - بجمال الفكرة التي أوحت الأصل، وقد كان أسلوب الأستاذ الطنطاوي كفيلاً بذلك. ولا شك أن الكاتب يوافقني إذا قلت بأن ترجمة فيتز جرالد (لا جرالد كما ذكر هو) لرباعيات الخيام لم تكن قط دقيقة بهذا المعنى. وإذا كان في شك من ذلك فليقارن ما بين ترجمة فيتز جرالد المذكورة وترجمة الأستاذ الصافي النجفي. هذا وقد أجمع النقاد الإنجليز على أن قصيدة فيتز جرالد ما كانت لتتبوأ مكانتها العظيمة في الشعر الإنجليزي لو راعى المترجم النص الأصلي (بدقة) وأخيراً فان جاز لي أن أفهم رأي الكاتب في الدقة بالترجمة من قصره لمعنى كلمة على العم وترجمته لكلمة بقارة بدون أن يفكر في معناها الخاص، أو من ترجمته لمقدمة ولبول التي اعترف باني لم أفهمها إلا بعد الرجوع للنص الأصلي

نعم إن كان هذا مراده من الدقة في الترجمة فإني مغتبط بأن ترجمتنا لم تكن دقيقة - ولله الحمد
(بغداد)
علي حيدر الركابي
النقد
سلسلة الموسوعات العربية
معجم الأدباء - الجزء الأول
للدكتور عبد الوهاب عزام
وعدت القارئ في المقال السابق أن أعرض عليه بعض ما أخذته على تعليق الناشرين في القسم الأول من المعجم
والمآخذ هنا أنواع: منها شرح كلمات بيّنة لا يجهلها أحد ممن يقرءون معجم الأدباء، ومنها غلط في الشرح، ومنها فضول يذكر ما لا يحتاج إليه البيان ولا ينتظره القارئ، ومنها نوع آخر لا أدري ماذا أسمّيه إلا أن أسميه الشرح المضحك.
وسأجتزئ بمثل من هذه الأنواع دون استقصاء:
فمن الأول الأمثلة الآتية (أ):
ص 52 دري الشيء وبالشيء دراية: وصل إلى علمه
ص 52 حسب ما اقتضاه: قدر ما استلزمه. وهذا معنى يعثر عليه بالقرائن اهو أنا أسأل القارئ هل يحتاج إلى قرائن لمثل هذا التفسير؟
ص 55 القرطاس: الصحيفة التي يكتب فيها، الغيّ: الضلال. العيّ: العجز عن الكلام
ص 56 الفسحة: السعة
ص 113 النصارى: أتباع يسوع المسيح، الواحد نصراني نسبة على غير قياس إلى الناصرة أو جمع نصران أو جمع نصري الخ، فهل يرى القارئ أن ورود كلمة نصارى في المعجم تحوج إلى هذا التفسير؟ وهي لم ترد في سياق بحث في الدين أو في الاشتقاق، بل لأن بعض المترجمين أخواله نصارى
ص 115 اقترضي: استسلفي. يقال استسلف منه دراهم وتسلف
ص 157 أجلّك: عظّمك
ص 208 سما: علا
ومن العبث الضار أن الشارح ينقل أحياناً عن كتب أخرى ترجمة لبعض أدباء المعجم لا تزيد على ما رواه ياقوت، كما فعل في ترجمة إبراهيم بن العباس الصولي، وفي نقل ترجمة ياقوت نفسه عن شذرات الذهب بعدس ترجمة وافية لا تعدو الثانية أن تكون نبذاً منها. ولو كانت التراجم التي ينقلها مفيدة فوائد ليست في المعجم ما جاز إثباتها ولوجب أن يكتفي ببيان موضعها ليرجع إليها من يشاء. وفي الجزء الثاني من هذا مثال عجيب جداً سيراه القارئ إن شاء الله
وأما الغلط فسأقتصر منه على ما لا يقبل التأويل والتخريج على الأوجه الضعيفة (ب) في اللغة والنحو حتى لا أفتح باباً للمناقشات الواهية
ص 47 ذكر ياقوت كتاب المرزباني في النحو وقال: (إلا أنه حشاه بما رووه، وملأه بما وعوه، فينبغي أن يسمى مسند النحويين) وجاء في التعليق: (المسند من الحديث ما عزى ورفع إلى قائله) وهذا صواب، ولكنه لا يصلح تفسيراً لكلمة المتن. فالمسند هنا الكتاب الذي يجمع الأحاديث على ترتيب الرواة؛ وليس كل كتاب في الحديث يسمى مسنداً، فلا يقال مسند البخاري كما يقال مسند أحمد
ص 106 (وكانت كلماته حاملة إياي على هذا التصديع لمجلسه الرفيع) وهذه جملة من رسالة كاتب إلى بعض الرؤساء يقول فيها: إن ما بلغه من ثنائه عليه، حمله على كتابة الرسالة إليه. فالتصديع هنا كناية عن الكتابة التي تكلف المكتوب إليه مشقة القراءة. ولا تزال هذه العبارة جارية في بلاد العرب والفرس.
يقول المتكلم لمن يخاطبه، أو الزائر لمن يزوره: صدّعناكم. أي سببنا لكم الصداع بكلامنا الخ. فقول الناشرين في الحاشية في تفسير الجملة السابقة: (صدعت إلى الشيء ملت إليه) خطأ
ص 108 في ترجمة أبان بن عثمان: (يعرف بالأحمر البجلي أبو عبد الله مولاهم) فُسرت كلمة مولاهم بهذه العبارة: (من الشيعة) وهذا غلط، والمراد بها أنه مولى

بجيلة. ومثل هذا شائع في التراجم. مثلاً يقال: محمد بن الحسن الشيباني مولاهم. أي مولى بني شيبان. الخ
ص 110 (إبراهيم بن عبد الوهاب الابزاري الطبري) وفي الحاشية: (نسبة إلى طبرية) والمعروف أن الطبري نسبة إلى طبرستان، وأن طبرية يقال في النسبة إليها طبراني، ومنها الحافظ أبو سليمان الطبراني أبو سليمان الطبراني المحدث المعروف
ص 110 بنو حمدان ممن استقلوا بالموصل. . . وكان مقر ملكهم الموصل وأشهرهم سيف الدولة. . . الخ. والمعروف أن سيف الدولة لم تكن له إمارة بالموصل بل في حلب، وأن أمارة الحمدانيين بالموصل ورثها ناصر الدولة وحده
ص 117 استحلفني: أقسمت له يميناً بناء على طلبه. ويرى القارئ ما في هذا التفسير
ص 121 (ونهى النبي عن لبس السراويل المخرفجة).
وفي الحاشية: (خرفج الشيء أخذه أخذاً شديدا. وكأنه يريد أنها أخذت وهي تخلط أخذاً حتى ضاقت فصارت بحيث تصور أعضاء الجسم لضيقها.) وهذا تفسير بالنقيض. يقال عيش مخرفج أي واسع، والسراويل المخرفجة الواسعة التي تسقط على ظهر القدم. وبهذا فُسر الحديث
ص 222 في الحاشية: رماح خطية منسوبة إلى الخط: مكان فيه شجر تصنع منه الرماح. والصواب: أن الخط بلد في البحرين تجلب إليه الرماح من الهند. قال في اللسان: وليست الخط بمنبت الرماح، ولكنها مرفأ السفن التي تحمل القنا من الهند)
وأما الفضول في الشرح فمن شواهده (جـ):
ص 102 ذكر في المتن الجواليق بمناسبة أبي منصور الجواليقي، فقال الناشرون في الحاشية: (الجوالق والجواليق وعاء من صوف أو شعر مندوف وهو الذي تقول عنه العامة شوال: قال الراجز.
يا حبذا ما في الجواليق السود ... من خشكنان وسويق مقنود
(أي مختلط بالقند: وهو عسل قصب السكر؛ يقال: سويق مقنود ومقند.)
فإذا أغضينا عن التسوية بين الجوالِق والجواليق في الشرح مع أن الأول مفرد والثاني جمع نجد الشارح أتى بالرجز لا شاهدا بصحة تفسيره ولكن لاشتماله على كلمة الجواليق، ثم استطرد لتفسير المقنود الخ
وص 105 الصنائع جمع صنيعة وهي الجميل والمعروف قال الشاعر:
إن الصنائع لا تكون صنيعة ... حتى تصيب بها مكان المصنع
وفي الحديث صنائع المعروف تقي مصارع السوء
ص 151 وأغرب من هذا ما جاء في ترجمة إبراهيم بن سعدان، فقد أبى الشارح إلا أن يشرح، فلما قال ياقوت: (وكان لسعدان ابن المبارك النحوي ابن يسمى إبراهيم) كتب هو في الحاشية:
(سعدان علم منقول. والسعدان نبات من أحسن المرعى وأجوده يضرب به المثل؛ فيقال في الشيء يحسن ولاَ يبلغ في الحسن درجة غيره: ماء ولا كصداء، ومرعى ولا كالسعدان.)
وص 238 (وهذا قول متمرد على الله مستغربا مهال الله)
وفي الحاشية: أغراه إمهال الله استدراجا له فتمرد وتمادى. وفي الحديث إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته. وقال تعالى: (وأملي لهم إن كيدي متين)، (فمهِّل الكافرين أمهلهم رويداً)
وظاهر أن سوق الحديث والآية الأولى شرح للموضوع لا للفظ وهو فضول هنا. ومصدر هذا كله أن الشارح لا يسير على خطة، فهو حيناً يستطرد بما لا حاجة إليه، وحيناً يترك ما يحتاج إليه القارئ. بل أحسب أن للكتاب شراحاً مختلفين ليس بينهم اتفاق؛ ولهذا أدلة فيما يأتي
وأما ما سميته الشرح المضحك فمن فكاهاته:
ص 131 في سياق الكتاب: (فجاء كتاب بعض بني مارقة من الصراة) فأراد الشارح أن يعرف القارئ بني مارقة فقال: (بنو مارقة قوم يسكنون الصراة) قلت: وفوق كل ذي علم عليم!
ص 165 في الكلام على إبراهيم الصولي ويزيد بن المهلب: (حتى قتل يزيد يوم العقر). وفي الحاشية: يوم العقر بفتح العين من أيام العرب، قتل فيه يزيد بن المهلب)

فهل زاد الشارح على ما فهمه القارئ من الكتاب؟ على أن قتل يزيد كان في أيام بني أمية، وأيام العرب تقال غالباً لأيام الجاهلية
ص 167 روى ياقوت أبياتاً أولها: ولكن الجواد أبا هشام، الخ ثم قال بعد الأبيات: (وهذا الشعر يدل على أن قبله غيره) فقال في الحاشية في تفسير كلمة (غيره): أي من الشعر
ص 101 هراة بفتح الهاء والراء بلد، النسبة اليها هروى، وبلخ بفتح وسكون يصرف ويمنع من الصرف، وإليها ينسب أبو معشر البلخي). لم يبال الشارح أن يبين أين هراة وبلخ، ولكن اهتم بأن يبين أن بلخا ممنوعة من الصرف أو مصروفة.
ثم قوله في هراة (بفتح الراء) لغو لأن ما قبل الألف لا يكون إلا مفتوحاً
هذا وموعدنا العدد الآتي لنبين بقية مآخذ الجزء الأول وبعض مآخذ الجزء الثاني. والله المستعان
عبد الوهاب عزام
نفح الطيب في طبعته الجديدة
بقلم الأستاذ أحمد يوسف نجاتي
تتمة ما نشر في العدد الماضي
3 - لم يقل الشارح الذي علّق على ما في صفحة 52 إن القدماء جميعاً لم يذكروا الأهرام إلا بصيغة التثنية ولكنه قال: إن شعراء الماضي يذكرون الهرمين، وليس معنى هذا أنهم لا يذكرون الأهرام، ولكن الغرض أن الكثير الشائع على ألسنة أغلب الشعراء ذكر الهرمين: هرمي خوفو وخفرع كما في قول المتنبي، وقول لسان الدين بن الخطيب وغيرهما، وخطب هذا يسير أيضاً
4 - قد يكون تفسير الرسيم في صفحة 61 ناقصاً كما يقول حضرته، بل كان خيراً لو بينت مرتبة هذا الرسيم من السير، ولكن لو تتبع حضرته كل صفحات الجزء لوجد أنها مشروحة شرحاً شافياً في غير هذا الموضع؛ ودعوى أن أمثالها في الكتاب كثير دعوى مجازفة لا ينهض عليها دليل؛ بل إن بعض الكلمات اللغوية التي يوجز في شرحها في موضع يشبع القول فيها في موضع آخر؛ ولو فصل القول في كل مرة للعبارة الواحدة والكلمة قد تتكرر في الكتاب نحو مائة مرة لكان هذا البيان (فضولاً) من القول - يتحقق به وصف الناقد الأديب صانه الله
5 - شكرنا لحضرة الكاتب أن أحسن ظنه بالشارح في مثل هذا التحريف الذي يدركه كل قارئ في صفحة 79 حتى أن نقطتي قاف (فشرقنا) في ذيل ص 14 ظاهرتان جد الظهور
6 - أضم صوتي إلى حضرة الناقد الأديب في أن شرح الأثير ص 98 الشرح الأول خطأ لا يصح - ويعلم الله كيف سرى هذا التفسير إلى الكتاب فقدسها عن محوه مراجع النموذج الأخير وكان قد أثبته غيره، وان كان حضرة الناقد إنما يوجه نقده إلى ما في الكتاب من تفسير خاطئ لبعض كلماته من حيث هو خاطئ. وليس بدافع اللوم عن هذا الخطأ تعدد الأيدي في الشرح فهي متكاتفة على العمل متضامنة فيه ولكن الكرام يعفون عن نصف تفسير خاطئ لأكثر من ألفي تفسير مصيب.
وأما التفسير الثاني الذي أتى به الشارح لكلمة الأثير فالنظر الدقيق يؤيده، والذوق السليم لا يبعده، بل هو الذي رآه حضرة الناقد بعينه، لا بل إن الشارح قد قال فيه أكثر مما قال،
وكان يحسن بحضرته أن يأتي بنص العبارة تاما ولا يختزلها.
وما رآه حضرته من أن صحة العبارة: ومسحنا بالخطأ منها أثراً وصفيحا لا نراه، بل صحة العبارة كما هي في الأصل (أثيراً) الموازنة (صفيحاً) فان أثر السيف، أثره، وأثيرة فرنده ورونقه، وكأن المقري جعل الطريق سيفاً لاستطالته ودقته وصعوبة السير فيه وجعل خطاهم به وقطعهم إياه مسحا له
7 - ليت شعري ما الدليل على أن (الشارح) لم يطمئن (ص 139) لكلمة الرباع بالباء الموحدة؟ ويا لله لمن يدري خلجات النفوس أكثر من أصحابها ويعرف اطمئنان القلوب وقلقها وإن لم يشعر بذلك ذووها. ولو أن الشارح لم يطمئن لها لاستبدل بها في الأصل غيرها كدأبه في كثير من صفحات الكتاب مع تنبيهه إلى ذلك، ولكنه أبقاه لارتياحه إليه واطمئنانه به، ثم قال أيضاً في أسفل الصفحة تعليقاً عليه (لعلها الرياع

بالياء المثناة أي الربع والنماء والزيادة، و (لعل) تفيد معنى ربما، وقد يكون، ولا يزال الشارح مصرا على ذلك الجواز فكلا المعنيين لا غبار عليه. أما المعنى الأول فيجذب إليه كلمة (البقاع) فان الرباع جمع ربع بمعنى الدار والمحلة والمنزل والوطن، فهو بذلك التفسير مناسب للبقاع؛ وقد يكون الربع بمعنى أهل المنزل مثل السكن، وجماعة الناس، ولست أحيل أن يكون (رباع) جمعاً لربع بهذا المعنى الذي يراه حضرة الناقد وإن كان الأنسب أن تكون بمعنى الأماكن معطوفة في سجعة المقري على كلمة البقاع. وأما الرأي الثاني وهو أن تكون الكلمة (الرياع) فيقتضيه كلمة الفضل المجاورة له، ولا زلنا نصر على رأينا (أن اللغة تقول بملء فيها (الرياع) بمعنى النماء والزيادة، ويقول أهل اللغة: راع الطعام وغيره رَيْعاً رُيوعا ورِياعا ورَيَعانا إذا نما وزاد وزكا

8 - قال حضرة الناقد وفي ص 152 قول القائل في وصف دمشق:

أو تكن في السماء فهي عليها ... قد (أمدّت) هواءها وهواها . . .

فقال الشارح: لعلها أمرّت!؟ نقول ومعنى أمرت أذهبت ولا يصح المعنى على هذا (الحدس) الخ. ونحن نقول: أنّا لا نزال عند رأينا في جواز إرادة معنى أمرَّت، وإن اللغة تقول: أمرّ كذا بالشيء إذا جعله يمرُّ به وينعطف عليه، والمعنى الذي شرحه لكلمة (أمدت) فيه شيء من القلق لا يساعد عليه كثيراً تركيب البيت

9 - اشتد حضرة الكاتب في حملته على تعليقنا الذي رأينا جوازه في معنى كلمة (الشمال) بصفحة 181 عند قول الشاعر:

تمتع بالرقاد على (شمال) ... فسوف يطول نومك باليمين

فقد قال الشارح (يجوز) أن تكون (شمال) جمع شملة وهي كساء يشتمل به. . . ثم أتى بحديث علي رضي الله عنه الخ فقال حضرة الناقد الأديب - بعد أن نقل العبار مقتضبة: (وهذا كله شرح فاسد) فان المراد بالشمال مقابل اليمين، إذ المعنى: تمتع بالنوم على جنبك الشمال في الحياة قبل أن يستمر نومك باليمين.

ولا زلنا مصرين جد الإصرار على أن هذا المعنى جائز - وان لم يكن متيقنا - بل أن سياق الحديث ربما رجح هذا المعنى. قال المقري: ويحث على انتهاز فرصة اللقاء إذ هي غنيمة، ويذكر بقول من قال - وأكف الدهر موقظة ومنيمة: تمتع بالرقاد على شمال الخ. فالشاعر يحض على انتهاز الفرصة وانتهاب المسرة، ويحرض المرء أن يختلس غفلات الدهر إذا نامت عيونه عنه فيتمتع من يحب بالنوم على هذه الشمال التي تجمع الشمل وتلم الشتات يلتف المتحابان بها إذا لفهما الليل بشملته قبل أن يودع كلاهما بطن الثرى فلا يكون فراش وثير ولا مضجع ممهد، وإنما يوسد في القبر يمينه، ويجعل عمله لا حبيبه قرينه. ومن لفظ (الشملة) اشتقت العرب معنى الشمل واجتماعه، والجمع والتئامه

وأنا لنعجب جد العجب من وضع حضرة الكاتب علامتي التعجب والاستفهام بعد قولنا (وفي حديث علي!؟) فليس في العبارة ما يتعجب منه ولا فيها منكر يستفهم عنه. فما أحوج علامتيه هاتين إلى بضع علامات التعجب والاستفهام

قال الناقد الأديب في شرح زجر الطير (وهذا فضول في الشرح ومثله في الكتاب كثير) وهاتان دعويان يصعب على حضرته تأييدهما، فان ما يراه حضرة الناقد فضولاً قد يراه غيره لازماً؛ والضعيف أمير الكرب. وهل على الشارح من حرج أو ضير وهو يشرح بيتاً يقول: إذ زجرنا للوصل أيمن طير، أن يبين أن زجر الطير كان عادة جاهلية أبطلها الإسلام (وإن لم يرد الشاعر هنا حقيقة معناها البدوي). وأي فضول في هذا البيان الذي استدعته المناسبة وجر إليه الحديث وهو ذو شجون؟

قال حضرته: وفي صفحة 203 قرأت قول ابن الخياط:

فلم أر الطرة حتى جرت ... دموع عيني بالمريزيب

ثم قال وأنا أحفظها كالمريزيب وهي أصح وأبين. وأنا أقول كلتا الروايتين لا بأس بها والمعنى عليهما واحد

أما ما نبه إليه في صفحة 220 من أن المراد بالفتى الطائي هو البحتري لا أبو تمام فلم يفت الشارح، بل سبقه إلى التنبيه عليه منذ شهرين في الاستدراك على الجزء الأول الذي طبع ملحقاً بالجزء الثاني؛ وكان يجمل بحضرة الناقد الحكيم أن يطلع عليه قبل أن يسجل نقده على صفحات الرسالة الغراء؛ وقد تداولت الأيدي الجزء الثاني من

مدة غير قصيرة (يريد بالفتى الطائي أبا عبادة البحتري لسبق ذكره في هذه الأبيات) وقول حضرته إنه يريد بامرئ يصطاد نسر الجو بالنسر نفسه على جهة التشبيه بامرئ القيس (كما قلنا في ذيل صفحة 220) أخالفه فيه، فقد يسوغ لي أن أرى الآن خلاف ما ذهبنا إليه معاً في ذلك بل يصح أن يكون امرؤ القيس لا دخل له هنا، وأن الشاعر (وهو ابن شاهين) إنما يرى نفسه كالبحتري الذي يزعم أنه ورث منه طرفاً كريماً وجواداً سابقاً أعنقت عليه قصيدته، وسار مسرعاً عليه أدبه، وأنه يريد (بامرئ يصطاد نسر الجو بالنسر) ممدوحه المقري إقراراً من الشاعر بأنه أشعر منه كما صرح بذلك من قبل في قوله:

ورثته منه ولكنما ... من شاعر وافى إلى أشعر

فالشاعر ابن شاهين هو نسر الجو (وقد اصطنع التوجيه والتورية في اسمه (شاهين) نسر الجو، والذي يصطاد نسر الجو بالنسر ويتغلب عليه هو المقري الممدوح بالقصيدة، يعني أنه أقوى من النسر، وأشد افتراساً من الشاهين. والغرض من هذا أنه أشعر وأقدر وذلك ظاهر واضح لمن يتأمل

ومثل ذلك ما أخذه حضرته على تعليقنا على مدينة (برديل) بصفحة 257، فقد تلافينا هذا السهو بالاستدراك، فنرجو حضرته أن يطلع عليه بصفحة 10 منه، بل قد نبهتا إليه مرة أخرى في الجزء الثالث وأشبعنا القول في هذه المدينة، وهدانا الله منذ زمن إلى موقعها، والى لغات العرب فيها، بل إلى لغات غير العرب، وقلنا إنها هي مدينة بوردو، وأطلنا الكلام في ذلك بالجزأين الثاني والثالث

وفي الختام نقول لحضرة الكاتب أن اسم صاحب المرية هو (خَيْران) الفتى العامري الصقلي وإليه تنسب قلعة خَيْران بالأندلس. أما ما في الإحاطة من أن اسمه (خيروان) فهو تحريف فاسد لا يعول عليه، وإنما هو (خَيْران) (فَعْلان من الخير) وقد ذكرنا ترجمته وتكلّمنا عليه طويلاً في الجزأين الثالث والرابع (الذي يجري الطبع فيه) والشارح يعرف من قديم (خيْران) هذا فله أثر عظيم في تاريخ العرب بالأندلس، وهو مشهور لدى المؤرخين وليس من رجال الأندلس من يسمى خيروان أبداً

وأرجو من حضرة صديق الغيب أن يحمل حديثي هذا على خير محامله، وأن يتنزل بقبول شكري له وثنائي عليه أن عُني بالكتاب وقدر العمل فيه قدره ونبِّه إلى ما اعتدَّه هفوات، وكلنا نتعاون في خدمة هذه اللغة الشريفة والنهوض بآدابها ونشر ثقافتها.

أحمد يوسف نجاتي

الأستاذ بدار العلوم العليا

سافو على مسرح الأوبرا الملكي

لناقد الرسالة الفني

وهذه رواية أخرى تقتبس للمسرح وتلاقي من النجاح ما بلغته (الجريمة والعقاب) وإن أضاع الاقتباس نواحي كثيرة من جمال الرواية القصصية على الرغم من أن مؤلفها العظيم الفونس دوديه اشترك مع مؤلف مسرحي آخر هو أدولف بيلو في وضع هذه المسرحية. ولكنها مع ذلك عظيمة تحوي شخصيات قوية وفيها دقة وصدق تصوير وجمال

تصف حال الشبان عندما يبلغون العشرين ويمرون بهذه المرحلة الخطرة من الحياة وهم في سذاجة وقلة تجريب يتصلون بالنساء فيقاسون من ألم الفراق والهجر والوصل والغيرة ما تنوء به كواهلهم، فيه إنذار للشبان من بنات الهوى وتحذير لهم من الاتصال بهن والعيش معهن تحت سقف واحد، فان من أخطر الأمور على الشاب أن يقع في حب واحدة منهن لأنه لا يستطيع أن يحتمل ماضيها ويغفر لها ما سلف من حبها لغيره ويكون الخطر أشد لو أن المرأة بادلته الحب الخالص فإذا حدث وخضع أحد الحبيبين للعقل والواجب وترك الآخر فما أشد الهجر وأمر الفراق ولهذا فقد أهدى دوديه القصة: (إلى أولادي عندما يبلغون سن العشرين)

الإخراج والتمثيل

يؤلمني أن مخرج الفرقة القومية لا يقوم بدراسة الروايات كما يجب، فإزاء رواية كهذه كان من الخير للفرقة والفن أن يرجع إلى الرواية القصصية ليفهم كل شخصية على حقيقتها فيوفر على نفسه هذا التخبط في توزيع الأدوار وتفهيم ممثليه لروحها وهو لو فعل لما أسند دور سافو إلى السيدة دولت أبيض، ولما عهد إلى علي رشدي بدور جان

جوسان أو على الأقل لأفهم كلا منهما الشخصية على حقيقتها حتى لا تكون الهوة بين ما رسم المؤلف وبين ما أبرز الممثلون سحيقة

إن أول ما يلفت نظر الناقد أن سافو دولت أبيض تكبر في السن عن سافو الفونس دوديه وفي هذا نقص يجب على الممثلة والمخرج أن يعملا على تغطيته، ولكن طبيعة السيدة دولت جامدة وهي لا تليق لأدوار العاطفة، ومن المؤلم أنها تعتقد أن البكاء وحده هو الوسيلة التي تستطيع بها أن تؤثر في النظارة وتصل إلى قلوبهم ونسيت أن الصناعة

وحدها ليست كافية فهي لم تتأثر بالقصة ولم تعش في هذه الشخصية وتحس بها وإلا لأبرزت ما يضطرم في نفسها من احساسات متباينة ولم تقصر همها على الإلقاء والبكاء وتبدو سطحية بكل معنى الكلمة

انظر إليها وهي تسرع بإلقاء كلماتها في الفصل الأول ثم وهي تقف خلف جان، ثم وهي في الحان لا تهتم بأن تبرز عاطفة، بل تهتم بالإلقاء، وفي هذا الفصل الثاني بينما يكون الموقف على أشد ما فيه من حياة بين الممثلين تراه فجأة قد برد عند دخولها واشتراكها في الحديث معهم واتهامها لهم، وكان الطبيعي أن يزداد حياة وقوة

كل هذه دلائل على أن دولت لم تستطع أن تسمو بالدور أو تؤديه على وجه مرض.

على أني لا أبخسها مواقفها في الفصل الخامس منذ دخول جان وحوارها معه. ثم وهي تلقى علينا الرسالة التي تكتبها له فقد أجادت إلى حد بعيد. فهذه المواقف تلائم طبيعتها لأنها مواقف تخمد فيها العاطفة الثائرة ويعمل فيها العقل وتتغلب غريزة الأمومة والواجب؛ وهذا يؤيد قولي بصلاحيتها التأدية أدوار الأمومة

وكما أن دولت تكبر من سافو كذلك (علي رشدي) لا يصلح لجان، فليس هو بالشاب الريفي القوي، وليس بالجميل الذي يجعل إحدى النساء تصرخ: (يا للفتى الجميل) وهو مع هذا كان بعيداً عن الشخصية بعداً تاماً إذ كان عبداً لتعاليم المخرج حتى كأنه يحاول أن يبرز لنا عزيز عيد الشاب في صباه لا جان جوسان

قلت إن الشاب كان ريفياً قوياً جامد العواطف؛ فقد كان يجلس إلى مكتبه بينما سافو أمامه على كرسي فلا يتحرك إليها في تلهف بل يبقى مكانه يقرأ، وهكذا عكس ما أبرزه علي رشدي فقد كان في الفصل الأول متظرفاً ضعيفاً حتى كأنه باريس، بل وأكثر من ذلك كانت تبدو لنا منه جوانب الخنوثة وكان اهتمام علي بالإلقاء والصناعة أكثر من اهتمامه بإبراز احساساته وما يضطرم في نفسه من مختلف العواطف.

ولست أسوق دليلاً أكبر من موقفه في الفصل الثاني حيث الفارق كبير بينه وبين منسي وعباس. وكذلك في الفصل الرابع ترى الصناعة واضحة يكشفها إلقاء عباس الهادئ الحزين الذي يؤدي بعاطفته

أكتفي بهذا اليوم وسأتحدث عن بقية الممثلين والترجمة كما أتحدث عن رواية المعجزة.

يوسف

العدد 183 - بتاريخ: 04 - 01 - 1937

الرسالة في عامها الخامس

أستهل عام (الرسالة) الخامس والدنيا في بلاد الرسالة تلقى بسمعها إلى دعاء الوحي من جديد. فالعقول التي كبلتها أغلال الجهل تتحرر، والنفوس التي دنستها أرجاس الذل تتطهر، والعزائم التي طالما استنامت لسلطان القوة تستفيق! كأنما ارتد إشراق الروح إلى مطالعه بعد أن اضطرب في الضباب والسحاب عشرة قرون! هذه مصر والعراق وسورية وأكثر أمم الشرق تنبثق في أجوائها وأرجائها أشعة الشمس الصحراوية الأولى، فتنعش ما خمد من غرائز الرجولة، وتحي ما همد من نوازع المجد، وتقتل ما عاث من جراثيم البلى، وتهدي من ضل إلى سواء المحجة؛ بينما أمم الغرب يغيم عليها الأفق، فتدفع بالسلام إلى الحرب، وتلقي بالحياة إلى الموت، لأن حضارتها الحديدية علمتها كيف تهدم، ولم تعلمها كيف تبني! فالمصري أو العربي أو الشرقي يعلم أنه كان يناضل عن ذاتيته، فلما استردها عاد يناضل عن إنسانيته؛ وسلاحه في كفاح البربرية اليوم، هو كسلاحه في كفاحها أمس: قوة صارمة تعتمد على العدل، وثقافة عاملة تستند إلى الروح، وسياسة جامعة تقوم على المحبة. ومحال على ابن الرسالة والنور أن يرى مخلفات العقل والقلب تتهاوى في العدم ثم لا ينهض!

أستهل عام (الرسالة) الخامس ومصر وأخواتها على باب عهد جديد؛ فالنوايا معقودة على تغيير الحال، والميول متجهة إلى طريق الكمال، والآمال معلقة على الثقة بالله؛ ولكل حال مقتضى، ولكل عهد رسالة، ولكل قوم أدب. وسبيل القلم أن يدخل في عُدد هذه النهضة دخول الآلة والمدفع: ينتج إنتاج الخير كتلك، ويدافع دفاع الحق كهذا، ثم ينفرد هو بالوساطة بين الروح والجسم، والسفارة بين السماء والأرض. ولقد كان لأدبنا في أمسه الدابر ذبذبة بين الشرق والغرب، فلا إلينا ولا إليهم. وتلك حال كانت لازمة لما نحن فيه لزوم النتيجة المحتومة؛ فإذا أحس الفنان مظاهر الاستقلال والاستقرار في الوطن والحكم والرأي والعقيدة والعزيمة، كان حريا بفنه أن يستقل، وبذهنه أن يبتكر. (والرسالة) ترجو أن تحمل بعون الله دعوة العقول الخصيبة إلى هذه الأمة النجيبة. وستظل تنقل خطاها الوئيدة السديدة المتزنة على ما رسمته لها كرامة الجنس وطبيعة البيئة وحاجة الثقافة؛ لا تتخذ لهوالحديث، ولا تصطنع خوادع الحس، ولا تتملق شهوات الأنفس. وأصدقاؤها - والحمد لله والشكر لهم - لبسوها على هذه الخشونة، فلا يريدون أن تخطر في وشي، ولا أن تطرى في كلام، ولا أن تميل إلى هوى العامة، حتى أبوا كل الأدباء أن يتسع فيها مجال القصص، والقصص في الأدب الحديث فرع يكاد يختصر كل فروعه ويطغى على جميع نواحيه. وما زلت أذكر يوم أعلنا عن باب المسرح والسينما في الرسالة! فقد انثالت علينا رسائل الإشفاق والعتب تناشدنا الله أن نربأ بالصحف المهذبة الوقورة أن تنطوي على هذا (الهذر)! ولا يكاد العدد يخرج إلى الناس حتى تأتينا آراء القراء في التليفون أوفي البريد تستحسن ما ارتفع إلى المستوى الذي عهدوه، وتستهجن ما أنخفض عنه؛ وهذه الرقابة الغالية دليل على اشتراك الذوق ووحدة الهوى بين القارئ وبين المجلة. فنحن لذلك حريون أن نحرص كل الحرص على أن ندع للرسالة هذه الخطة، ونحفظ عليها تلك السمة

على أن هناك طائفة من ذوي الثقافة المتخطفة والذوق الملول، تعودوا أن يتناولوا كل شيء بالمس الرقيق؛ فهم يريدون أن يكون لكل عدد لون، ولكل مقالة خلاصة، ولكل خلاصة نكتة، ولكل نكتة صورة. وما دامت الصورة تمثل الفكرة، والعنوان يلخص الموضوع، فالاستغراق في التفاصيل بعد ذلك عناء وعبث!! هؤلاء هم الجناة على الأديب والأدب؛ يدفعون الباحث بسأمهم إلى توخي السهولة وإيثار الخفة، فيكون من ذلك هذا التفاعل الدوري بين سطحية القارئ وسطحية الكاتب. وإنا لنرجو أن تجد هذه الطائفة في (الرواية) مجازا إلى (الرسالة)؛ فإن المثل يقول: تطعَّم تطْعم، أو ذُق تشتهِ. ومن الخير أن تمهد للجد باللهو، وأن تجر إلى التثقيف بالتسلية. والرواية حلقات بين عامي ? الذوق ونبيله، ودرجات بين خفيف الأدب وثقيله؛ وخفتها من طرافة الموضوع لا من سخافة الفن، ووزانتها من براعة الأسلوب لا من وقار الفكرة. وبالرسالة والرواية نحاول مخلصين أن نرضي كل ذوق، ونساير كل طبقة، ونضع في بناء الأدب العربي الجديد لبنة

تحرشت بالرسالة في عامها المنصرم عوادٍ من الأسى والمرض، بعضها يقطع الوجهة على السالك البصير، ويدفع اليأس في صدر الواثق المؤمن. ولكن الله أبرُّ بالعمل الصالح أن يدعه فريسة الأحداث والغير. ومضيَّ الرسالة قدما في خطتها الرشيدة إلى غايتها البعيدة أربع سنين لا تتغير ولا تتعثر ولا تتخلف، يجرئنا على أن نجدد لقرائها العهد، ونؤكد لأصدقائها الوعد، ونحن أقوى ما يكون العاهد والواعد اطمئناناً للوفاء ووثوقاً بالمستقبل

احمد حسن الزيات

البحث عن الذهب

بقلم الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

وجدت صديقي ينتظرني - كما وعد - فدخلنا معاً وجلسنا متقابلين إلى مائدة صغيرة، وبدأنا بأيدينا ففركناها - فقد كان البرد شديداً، وكان كلانا قد خلع المعطف والطربوش، وكانت الحجرة دافئة ولكنه لم يكن قد مضى من الوقت ما يكفي لانتقال الدفء إلى أبداننا. ثم أكب صاحبي على البيان الذي فيه ألوان الطعام وجعل يسردها لي لأتخير ما يطيب لي منها. وفرغنا من ذلك بعد طول التردد وانصرف العامل بدفتره الذي دون فيه ما طلبنا. فقال صديقي وهو يميل على المائدة:

(والآن ما العمل؟)
قلت: (هذا هو السؤال الأبدي! وما أظن بنا إلا أننا سنظل نسأل عن ذلك طول العمر - طال أم قصر. . المسألة مسألة حظ يا صاحبي)
فقال: (كلا. . لابد أن هناك وسائل كثيرة لاكتساب المال بسرعة. . كثيرون يفعلون ذلك. . وهذا دليل على أن الوسائل موجودة ولكنا نحن - لسبب ما - لا نهتدي إليها)
قلت: (فليكن الأمر كما تصوره، فلست أرى أن هذا يجدينا شيئاً)
قال: (ولكن لابد أن تكون هناك وسيلة)
قلت: (إذا كان ينفعك أو يريحك الإيقان من ذلك فأيقن وأرح نفسك)
فقال وهو يهز رأسه: (نحن اثنان. . كلانا محتاج إلى مبلغ حسن من المال. . والحاجة ملحة، والسرعة لا مفر منها. . لا سبيل إلى الاقتراض لأن الذين يقرضون يطلبون ضماناً. . شيئاً يطمئنون به على مالهم. . سخافة؟!. ولماذا ينبغي أن نرد شيئا؟؟. ألسنا أحق بالمال من هؤلاء الذين لا يعرفون كيف ينفقونه ويروحون يكنزونه ويدفنونه في خزانات أوفي قدور يدسونها تحت الأرض. .؟؟)
فضحكت وقلت: (هذه بلشفية)
قال: (لا تصدق. . آه لو كنت غنيا!!. إذن لصارت الدنيا أرغد وأهنا. .)
قلت وأنا أبتسم: (ماذا كنت تصنع؟)
قال: (أصنع؟. أتسأل؟. . كنت أضع المال في صرر وأرمي بها لمن أتوسم فيهم أنهم أهل
لأن يكون في يدهم مال. . (وأطرق شيئا ثم رفع رأسه وقال): هل تعرف أني زرت اليوم أختي؟؟. . إنها غنية كما تعرف. . وكيف لا تكون غنية وهي لا تنفق شيئاً؟ فلما دخلت عليها وفتحت فمي لأتكلم رفعت يدها في وجهي وقالت: (ولا مليم!) فغضبت وصحت بها ونهرتها عن هذا السلوك)
فقلت: (ماذا قلت لها على سبيل الزجر عن هذا السلوك الذي لا يليق بين الأخ وأخته؟)
قال: (قلت لها؟. قلت لها هل تظن أنها من بوليس المرور حتى ترفع يدها هكذا لأقف؟؟ شيء غريب فقالت بهدوء: إنها ليست هذا، وليست كذلك دكان تسليف! كلا لا فائدة. . بح صوتي معها. . أكدت لها مائة مرة أني محتاج إلى قليل من المال، فوافقت وأكدت لي أني سأكون محتاجاً إلى هذا المال حين أخرج من بيتها. . سلوك يطير العقل. . فهل تسمى هذه أختاً؟ إني أتصور أختاً ظريفة لطيفة سخية كريمة تعطيني، وهي تعتذر، وتملأ يدي وهي مغضبة. . . وهكذا تكون الأخت. . . أما هذه؟. . . أعوذ بالله!. . على كل حال لا فائدة. . وإنما أردت أن أقول لك أن هذا الباب أيضا سد في وجهي)
فقلت: (لماذا لا تفكر في طريقة لكسب المال)
قال بلهجة الاستنكار: (أفكر. . وما الفائدة من التفكير؟ لا فائدة مادامت الدنيا مقلوبة. . آه لو كان لي سلطان في هذه البلاد. . إذن لعقدت امتحاناً كل ثلاثة شهور للأغنياء. . . يجلس أعضاء اللجنة ويقف أمامهم الغني فيقول له أحدهم: (كم تملك يا مولانا؟) فيقول: (ألف فدان، ونحو مائتي ألف جنيه في المصرف وعمارتين - كلا منهما ذات سبع طبقات في شارع الملكة نازلي) فيقول أحد الأعضاء (وماذا تصنع بكل هذه الثروة) فيقول (أوه لا أصنع شيئا. . كل ما زاد على حاجاتي الضرورية جدا أضيفه إلى المدخر) فتقول اللجنة: (شيء جميل. . . أهذا رأيك فيما ينبغي أن يصنع المرء بالمال؟. . لا بأس. . اسألوا أحمد (أي العبد الخاضع المطيع) ماذا يكفيه؟) فأقول ردا على السؤال: (أوه يكفيني القليل. . خمسون ألفاً. . كفاية. . أعني مؤقتاً. .) فتقول اللجنة: (أحمد هذا رجل يحسن أنفاق المال. . أعطوه ما يطلب) فاقبض المبلغ وأفرك يدي وأقول (إذا سمحتم لي يا حضرات الأعضاء الموقرين فأني أستأذنكم في لفت نظركم إلى رجل يعرف كيف يعطي. . . بارع جدا في الإنفاق) فيسأل أحدهم (من هذا. . . قل بسرعة) فأقول (انه المازني) فيقول (آه صحيح. . .
كيف نسيناه؟. . هاتوه حالاً. . علينا به. . اقبضوا عليه حيثما تجدونه) فيقبض عليك الشرطة ويجرونك مصفدا إلى اللجنة فيضحك الأعضاء ويقولون (خذ. خذ. خذ أيضا) فتخرج معي مسرورا. . ونروح ننفق باليمين وبالشمال حتى يحين موعد الامتحان التالي. . ما قولك؟)

فقلت وأنا أضحك: (شيء عظيم جدا. . . ولكن إلى أن يتيسر أن تلي أمور الناس ماذا نصنع؟)
فقال: (آه هذه هي المسألة. . ما رأيك أنت)
قلت: (يمكننا أن نكسب الورقة الأولى الرابحة من يانصيب المؤاساة، أو اليانصيب الأيرلندي)
قال: (هذا ممكن. . ولكن ذلك يتطلب أن ننتظر بعضة شهور. والعجلة من الشيطان، ولكنه لا معدي لنا عنها - كائنة ما كانت منه. . شيطان أو غير شيطان. . سيان. .)
قلت: (صدقت. . يمكن أن نخترع شيئا ونحتكر بيعه - وصنعه بالطبع - فنغنى)
قال: (صحيح. . . فكرة لا بأس بها. . سأدون هذا في مذكرتي. . تنفع في المستقبل. . وعلى ذكر ذلك ماذا نخترع؟)
فقلت: (باب الاختراع واسع. . واسع جدا. . . مثلا نخترع طريقة تجعل السيارات تستغني عن البنزين وتكتفي بالماء - أو حتى بالهواء - أو نخترع بديلا من النقود، فان النقود هي أصل البلاء في هذه الدنيا. . . أو نخترع. .)
قال: (يكفي! يكفي! ولكن هذا كله يحتاج زمن. والمطلوب هو الاهتداء إلى وسيلة تكفل إفادة المال اللازم في أربع وعشرين ساعة. . .)
فقلت وأنا اضطجع وأرسل الدخان من فمي خيطا متلويا - فقد فرغنا من الطعام -: (يظهر أن الضرورة تفتق الحيلة حقيقية)
فقال: (معلوم. . اسمع. . أترى هذا الرجل القاعد هناك في الركن الأيمن؟. أترى كيف يأكل؟. أترى كرشه المدورة كالكرة، ووجهه المنتفخ؟ وكيف يفتح عيناً ويغمض أخرى وينظر حوله قبل أن يدس اللقمة في فمه كأنما هو يخشى أن يراه أحد؟. . الحق أقول لك إني أكره وجهه ولا أرتاح إلى النظر إليه)
قلت: (يا أخي لا تنظر إليه. . دعه وحول عينيك عنه)
قال: (ولكني لا أستطيع. . إنه وجه سوء. . لا يمكن أن يكون هذا الرجل من أهل الخير. . إنه ممن لا يؤتمنون على القصر والأيتام والأرامل. .)
فضقت به وصحت (ولكن مالك أنت؟. . دعه وشأنه. . أليس له حق في أن يأكل هنا مثلي ومثلك؟)
قال: (يا أبله. . إن هذا الرجل لا بد أن يكون منطوياً على أسرار يكره أن تذاع. . لأن وجهه ناطق بأنه شرير. . فلوقمت إليه الآن وقلت له: (طيب. طيب) كأني أعرف سره الذي يجاهد لإخفائه ألا تظن أنه يفزع ويضطرب ويشتري سكوتي بأي ثمن. .)
فقلت: (أها؟. أهذه طريقتك؟. أتريد أن تبتز المال من الناس بهذه الوسائل؟. .)
قال: (المصيبة أني لا أستطيع. . تنقصني الشجاعة. . ولكني واثق أني أنجح إذا استطعت أن أصنع هذا؟. . ومع ذلك لكل إنسان سره القبيح. . ولو أن واحداً جاء إليّ ووقف على رأسي الآن وحدق في وجهي ثم هز رأسه هزة العارف بكل ما هناك ثم قال (طيب! طيب! يا أحمد) لما وسعني إلا أن أضطرب. . على كل حال يظهر أنه لا فائدة. . لا أمل في مال كثير نفيده بالسرعة اللازمة. .)
قلت: (صدقت. لا أمل)
قال: (خسارة. . سأظل أتحسر لأني لم أجد الشجاعة الكافية للوقوف على رأس هذا المجرم - هو مجرم ولا شك - وإبلاغه بعيني أني لا أعرف باطنه كما أعرف ظاهره البادئ لنا. . خسارة. . نهايته
(نقوم؟ . . .
قلت: (تفضل)
ودفع إلى الخادم ثمن الطعام وخرجنا
ولم نقل للرجل المنتفخ الأوداج شيئاً فلم نعرف أله - أم ليس له - سر يشتري كتمانه. .
وقلت لصاحبي وأنا أودعه (على فكرة. . من قبيل الاحتياط للمستقبل. . من يدري؟.)
قال: (نعم. .)
قلت: (ما هو الجواب الصحيح. . أمام اللجنة؟)
قال: (آه!. . انفق ما في الجيب يأتك ما في الغيب)
قلت: (أهو ذاك؟. أما ما في الجيب فلست أحتاج في أمر إنفاقه إلى التكلف. . وأما ما

في الغيب فهل تعرفه يأتي يا صاحبي؟)
فأشار لي بيده ومضى عني وهو يضحك

إبراهيم عبد القادر المازني

عاصفة في الشرق الأقصى

حول حوادث الصين الأخيرة

بقلم باحث دبلوماسي كبير

بينما تواجه أوربا أزماتها الخاصة، في أسبانيا وفي حوض البحر الأبيض بنوع خاص، وتنظر إلى تطوراتها بحيرة يمازجها الجزع، إذا بحدث خطير يقع فجأة في الشرق الأقصى ويثير في الصين فتنة جديدة كادت تسفر عن أخطر العواقب لو لم تخمد في مهدها. وقد غدت هذه الفورات الفجائية ظاهرة الحوادث في الصين، وأضحى من الصعب أن نقف على بواعثها وغاياتها دون الرجوع إلى مثيلاتها من الحوادث والمفاجآت التي توالت في الصين في عشرة الأعوام الأخيرة، واستعراض الأوضاع السياسية الفريدة التي تعيش في ظلها تلك الإمبراطورية الشاسعة

وملخص الحادث المسرحي الجديد الذي كاد يثير ضرام الحرب الأهلية في الصين كرة أخرى، هو أن الماريشال تشانج هسويه ليانج الذي يرابط بقواته في سيانفو عاصمة إقليم شنصي، قد دبر كميناً للقبض على الماريشال تشانج كايشك رئيس حكومة نانكين الوطنية، والقائد العام للجيوش الصينية بينما كان يستشفي قريباً من سيانفو، واعتقله مع بعض حاشيته؛ ثم أذاع أنه يرمي بذلك إلى حل الحكومة الوطنية الحاضرة التي تمادت في خضوعها لليابان، وتأليف حكومة جديدة تعلن الحرب على اليابان، وتعمل على استرداد الأقاليم التي انتزعتها اليابان من الصين وفي مقدمتها إقليم منشوريا؛ وقد أخطر الماريشال الثائر أسيره بهذه المطالب، وأخطر بها حكومة نانكين، فرفض الرئيس المعتقل ورفضت الحكومة أن تبحث في شانها قبل الإفراج عن الرئيس، وإعادة الأمور إلى نصابها؛ وقد حاولت حكومة نانكين أن تصل بطريق المفاوضة والتفاهم إلى تسوية مؤقتة يفرج معها عن الماريشال المعتقل، فأبى الزعيم الثائر؛ واضطرت الحكومة أن تجرد عليه بعض قواتها؛ وقد زحفت القوات الحكومية فعلاً صوب سيانفو، وبدأت المعارك الأولى بين الفريقين ونحن نكتب هذه السطور

فمن هو هذا الزعيم الثائر تشانج هسويه ليانج؟ وما هي بواعث حركته؟ إن الماريشال تشانج هسويه ليانج هو ولد الماريشال تشانج تسولين زعيم منشوريا السابق الذي قتل غيلة

في حادث قطار دست له القنابل سنة 1930؛ وكان تشانج تسولين مدى أعوام طويلة حاكما بأمره في منشوريا قبل أن تنتزعها اليابان؛ وكان يعمل بالاتفاق مع السياسة اليابانية، فلما قتل خلفه ولده في حكم الإقليم، ولكنه اختلف مع السياسة اليابانية، وكانت حكومة نانكين الوطنية قد قامت يومئذ باسم الصين المتحدة كلها، فأعلن تشانج هسويه ليانج انضمامه إليها؛ ورأت اليابان الفرصة سانحة لتنفيذ مشروعها الاستعماري في الصين، فاحتجت بوقوع بعض حوادث اعتداء على الرعايا اليابانيين، وغزت منشوريا في سنة 1931، واضطر الجنرال تشانج هسويه ليانج إلى الانسحاب بقواته دون مقاومة تذكر؛ وعسكر مدى حين في إقليم جيهول في جنوب منشوريا؛ ولما أتمت اليابان غزو منشوريا واحتلالها، دفعت قواتها إلى جيهول، فارتد أمامها الماريشال المنهزم بقواته؛ واحتلت اليابان هذا الإقليم في سنة 1933؛ وعسكر تشانج هسويه ليانج من ذلك الحين بقواته في بعض أنحاء إقليم شنصي. وفي سنة 1935، انتدبته حكومة نانكين، أوبعبارة أخرى انتدبه الماريشال تشانج كايشك لمحاربة القوات الشيوعية التي تقدمت جنوباً واحتلت ولاية ستشوان المجاورة لشنصي؛ ولكنه بدلا من أن يقوم بهذه المهمة فضل التفاهم مع الشيوعيين، واتخذ من ذلك الحين موقفه المريب من حكومة نانكين

ويجب أن نذكر كلمة عن الشيوعية في الصين؛ ففي الصين الآن حزب شيوعي كبير يسيطر على قوات عسكرية كبيرة بقيادة زعيم الشيوعية الصينية ماو تسي دون؛ فقد كانت الشيوعية من قبل عضد الحركة الوطنية، ومنذ سنة 1924 إلى سنة 1927 وهي فترة الحرب الأهلية بين الشمال والجنوب، تعمل الحركة الوطنية بمعاونة الشيوعية، ويندمج الحزب الشيوعي في الحزب الوطني الصيني (الكومن تانج) وتستمد الحركة

الوطنية كثيرا من القوة والتنظيم من روسيا البلشفية ودعاتها في الصين. ولكن الماريشال تشانج كايتشك بعد أن تم له الظفر على قوات الشمال في سنة 1927، واستطاع أن يقيم حكومة نانكين الوطنية رأى أن يضع حدا للتعاون مع الشيوعية، وقضى على عناصرها من (الكومن تانج) ومن الحكومة والجيش، وبدأت الخصومة من ذلك الحين بين حكومة نانكين وبين الشيوعية؛ ومنذ عدة أعوام تعمل قوات الحكومة لمطاردة قوات الشيوعية ومحاصرتها في الأقاليم الوسطى التي تسيطر عليها ولكنها لم تستطيع حتى ألان أن تقضي عليها

وفي تلك الفترة استطاعت اليابان أن تنتزع منشوريا وجيهول وبعض الأقاليم الأخرى من الصين، وان تمهد تمهيدا قويا لسياستها الاستعمارية في الصين؛ وهنا حدث تطور واضح في سير الحركة الوطنية، فقد رأى كثير من الزعماء والمستنيرين أن استمرار الحرب الأهلية على هذا النحو يقوي نفوذ اليابان ويفتح أمامها أبواب الصين، وانه من الحكمة والضرورة أن تتضافر القوى المشتتة لمقاومة الاعتداء الأجنبي؛ ولوحظ أيضا أن الماريشال تشانج كايتشك رئيس الحكومة الوطنية يتبع إزاء الغزو الياباني سياسة الضعف والتسليم، وانه لم ينفك عن التصريح بأنه يريد التفاهم والاتفاق مع اليابان، ولكن على أي الأسس؟ إن اليابان تسير مسرعة في تنفيذ برنامجها الاستعماري، ومازالت تنتهز كل فرصة للتوغل في قلب الصين واحتلال أراضيها. ويرد زعماء (الكومن تانج) على ذلك بأن الحكومة الوطنية مرغمة على اتخاذ هذا الموقف، وأن الصين لا تستطيع في ظروفها الحاضرة أن تقف أمام الغزو الياباني، وأنه يحسن التفاهم مع العدو المغير حتى تقوى الصين نفسها وتستطيع أن تقاوم الاعتداء بصورة فعلية؛ وقد اضطر تشانج كايتشك نفسه أمام هذا التيار الجديد أن يؤكد في تصريحاته الرسمية أمام مؤتمر اللجنة التنفيذية للحزب الوطني (الكومن تانج) في الصيف الماضي أن الحكومة المركزية لن تتنازل قط عن التمسك بوحدة الصين وسلامة أراضيها ولن تعقد أي معاهدة تخالف هذا المبدأ، ولن تنزل عند أي رغبة أو وعيد بإرغامها على إقرار الحالة في منشوكيو (منشوريا) أو أية حالة أخرى من حالات الاعتداء على الأراضي الصينية

وقد رأى الماريشال تشانج هسويه ليانج أن ينتهز فرصة هذا التطور لينزل إلى الميدان، والظاهر انه يريد أن يحاول استغلال الشعور القومي الذي آثاره اعتداء اليابان المتكرر على الصين، وأن يجعل من مطالبته حكومة يانكين لان تعلن الحرب على اليابان شعاراً قوميا يلتف حوله المعارضون لسياسة الحكومة الوطنية. بيد أن تشانج هسويه ليانج شخصية ثانوية في الواقع، وهو لا يشغل بين زعماء الصين أو قادتها مركزاً خطيراً يمكنه من تزعم مثل هذه الحركة الخطيرة؛ ومن جهة أخرى فان الأساليب التي لجأ إليها في اعتقال رئيس الحكومة وقائد الجيش الأعلى ومعاونيه، ليست مما يشهد له بالفطنة والكياسة، وليست مما يعاون على التمهيد للحسم لمشاريعه. وتقدر قوات الزعيم الثائر بنحو

مائة وخمسين ألف جندي، وهي قوة ضئيلة بالنسبة للوحدات العسكرية الصينية، وبالنسبة لقوات الحكومة المركزية التي تقدر بنحو مليونين؛ وإذا كانت الحوادث لم تسفر حتى كتابة هذه السطور عن حل حاسم للمشكل فانه لا ريب أن حكومة نانكين لن تنزل عند وعيده، ولن تتخلى عن محاربته حتى يلقي سلاحه

هذا من الناحية الداخلية، بيد أن للمسألة ناحية خارجية في منتهى الخطورة. فنحن نعرف أن الصين ميدان للتنافس الخطر بين اليابان وروسيا، وان اليابان تسيطر على منشوريا، كما تسيطر روسيا على منغوليا الخارجية، وأن عوامل الاحتكاك بينهما لا تنتهي، وخصومة اليابان وروسيا خصومة طبيعية وتاريخية معاً؛ وكلتاهما تخشى الأخرى وترقب مساعيها في الصين بمنتهى الغيرة واليقظه؛ وقد ذهبت اليابان في توغلها في الصين إلى حد يثير مخاوف روسيا ويحملها على مضاعفة جهودها لصون أملاكها ومصالحها في الشرق الأقصى؛ ومن جهة أخرى فقد عقدت اليابان أخيراً تحالفاً مع ألمانيا ضد الشيوعية أو بعبارة أخرى ضد روسيا، ومن المرجح أن هذا التحالف الذي يقوم في الظاهر على هذا الأساس، يتضمن تحالفاً سرياً عسكريا بين الدولتين، وان غاية الحقيقة حصر روسيا بين نارين: نار اليابان من الشرق، ونار ألمانيا من الغرب إذا ما وقعت حرب عالمية. ذلك أن ألمانيا الهتلرية تعتبر روسيا البلشفية عدوتها المميتة،

وتسعى إلى تحطيمها وسحقها بكل ما وسعت وتعتقد أن تعاونها مع اليابان على هذه الصورة يكون رداً بليغاً على الميثاق الروسي الفرنسي الذي اعتقدت انه موجه ضدها، وانه خطر دائم على سلامتها؛ والظاهر أن حوادث الصين الأخيرة لم تكن بعيدة عن آثار الميثاق الياباني الالماني، وانه يمكن أن نلمس فيها أثرا لإصبع روسيا، وأن الماريشال تسانج هسويه ليانج كان يعول في ثورته على معاونة روسيا الخفية إذا ما ساعدته الحوادث على تنفيذ برنامجه، وأن روسيا ترى في اضطرام هذه الثورة على حكومة نانكين وضد النفوذ الياباني، ما يمكن أن يكون رداً من جانبها على الميثاق الياباني الألماني؛ بيد أن روسيا لم تخرج عن تحفظها إزاء هذه الأزمة ولم يبد منها ما يدل على إنها تتصل بها أو تعلق عليها أهمية خاصة، هذا في حين أن اليابان قد أبدت استعدادها وتحفزها للتدخل إذا ما تطورت الحوادث تطورا يمكن أن يهدد نفوذها أو مصالحها

ثم هنالك الدول الغربية وعلى رأسها إنكلترا، وهي تعلق أهمية خاصة على سير الحوادث في الشرق الأقصى؛ وهنالك أمريكا، وهي تخشى ازدياد النفوذ الياباني في الصين وفي المحيط الهادئ. ومن الواضح أن بريطانيا العظمى، والدول الأخرى التي تسيطر على أملاك عظيمة في الشرق الأقصى مثل فرنسا وهولنده، يهمها كبح التوغل الياباني ومقاومته، لأنه يزداد كل يوم خطراً على أملاكها ومصالحها؛ والسياسة البريطانية تميل بلا ريب إلى تأييد كل حركة تؤدي إلى تحقيق هذه الغاية؛ بيد أنها لا تميل في نفس الوقت إلى نهوض الشيوعية وتقدمها في الصين، لأنها تعتبرها خطراً عظيما على أملاكها ونفوذها؛ وهي ألان في موقف انتظار وتريث واستعداد للطوارئ؛ وأما أمريكا فهي تسير في ذلك على سياسة مستقلة، وكل ما يهمها هو الاحتفاظ بنفوذها وسيادتها في المحيط الهادئ، وهي تعتقد أنها تستطيع تحقيق هذه الغاية بالتفاهم مع اليابان وعقد اتفاق يصون مصالح الفريقين

هذا وقد صح ما توقعناه من أن حكومة نانكين لن تخضع لوعيد الزعيم الثائر، وإن الثورة لن يرجى لها النجاح المنشود؛ فقد وردت الأنباء الأخيرة بأن المارشال تشانج هسويه ليانج قد أذعن للإنذار الذي وجهته إليه الحكومة المركزية، واستمع لنصح زملائه حكام الولايات المجاورة، وأفرج عن الماريشال تشانج كايشك؛ وقد عاد الماريشال إلى نانكين عود الظافر في مظاهرات حماسية، واعتذر الزعيم الثائر على فعلته؛ ولم تعرف شروط التسوية بعد؛ ولكن الظاهر أن تشانج هسويه ليانج سيغادر الصين مدى حين، وان الحكومة ستمنحه معاشاً حسنا، وانه تعهد بعدم التدخل في الشؤون العامة العسكرية أو السياسية

على أنه يبقى لنا أن نتساءل، هل انتهت الفتنة وأخمدت نهائياً، أم أنه يخشى أن تكون بذورها قد تمكنت في القوات المتمردة، وإن الشيوعية المحلية لا تزال تغذيها؟ هذا ما لا يتضح الآن: بيد أنه يمكن القول أن حكومة نانكين ستنشط إلى محاربة الشيوعية والقضاء عليها، لأنها تخشى منها على نفوذها واستقرارها. ولا ريب أيضاً أن الحكومة الوطنية ستعنى بأمر هذا التطور العميق في شعور الشعب الصيني واتجاهه إلى وجوب الوقوف في وجه اليابان ووضع حد لمطامعها؛ وربما اضطر الماريشال تشانج كايشك غير بعيد إلى أن يتخذ سياسة اشد حزماً إزاء المطامع اليابانية، إذا وجد في مثل هذا الشعور ما يكفي لتوحيد الصفوف، وشد أزر السياسة الوطنية المتطرفة التي يجب اتباعها يومئذ وتدعيمها بقوة السلاح إذا اقتضى الأمر

(* * *)

نظرية النبوة عند الفارابي

للدكتور إبراهيم بيومي مدكور
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

تعددت المدارس وتنوعت الفرق في العالم الإسلامي، فمن متكلمين إلى متصوفة، ومن شيعيين إلى سنيين، وتحت كل شعبة من هؤلاء طوائف شتى وأحزاب متفرقة. بيد أن هذه المدارس المتنوعة والفرق المتعددة تلتقي في نقط مشتركة ويقوم الخلاف بينها على بعض المبادئ العامة. وقد استطاعت التعاليم الفلسفية أن تنفذ إليها

جميعاً، ولكن بدرجات متفاوتة. ففي حين أن الشيعة، وخاصة الإسماعيلية، يتقبلون بقبول حسن كثيراً من الآراء الفلسفية، نرى أهل السنة يقفون من هذه الآراء موقف الحذر والحيطة؛ وعلى هذا النحو يمكننا أن نلاحظ أن المعتزلة يدنون في اغلب أبحاثهم من الفلاسفة، في حين أن الأشاعرة يعارضونهم ويناقضونهم. وقد سبق لنا أن بينا مقدار تأثر فلاسفة الإسلام بنظرية النبوة الفارابية، ونريد اليوم أن نبين إلى أي مدى استطاعت هذه النظرية أن تؤثر في المدارس الإسلامية الرئيسية، وكيف استقبلت من معارضيها ومحبذيها. ولا نظننا في حاجة إلى أن نبين موقف الصوفية منها، فهي بما فيها من تصوف كفيلة بأن تنال حظوتهم، وهي فوق هذا تضع أساساً علمياً لآرائهم ونظرياتهم. وسنقصر حديثنا على المعتزلة والأشاعرة من علماء الكلام، والإسماعيلية والباطنية من الشيعيين

فأما المعتزلة فقد دالت دولتهم تقريباً وانقضى سلطانهم قبل أن تظهر نظرية النبوة الفارابية في ثوبها الواضح وشكلها الكامل. غير أن نظرية كهذه تتلاءم مع نزعتهم العقلية وروحهم الفلسفية، ولا نظنهم، لو أدركوها، كانوا يحاربونها ويقابلونها بالرفض والمعارضة الصريحة. ذلك لأن أكبر مأخذ يؤخذ عليها، كما أسلفنا، أنها تتعارض مع بعض النصوص الثابتة الواضحة، ولكن المعتزلة وقد فتحوا باب التأويل على مصراعيه لن يعدموا الحيلة في التوفيق بين هذه النصوص وبين فكرة تشرح النبوة شرحاً عقلياً فلسفياً. وأما الأشاعرة فقد نصبوا أنفسهم للدفاع عن التعاليم الإسلامية المأثورة، وجدُّوا في تفهمها كما وردت. حقاً

إنهم يقولون بالتأويل، ولكنهم لا يتوسعون فيه توسع المعتزلة

ونظرية الفارابي في النبوة تناقض في رأيهم مناقضة صريحة طرق الوحي المسلم به في الكتاب والسنة ومما يؤسف له أن أبا الحسن الأشعري وهو من معاصري الفارابي لم يخلف لنا شيئاً يعتد به في هذا الصدد. إلا أن الغزالي وهو اكبر نصير للأشاعرة على الإطلاق، وفي النصف الأخير من القرن الخامس الهجري بوجه خاص، لم يغفل نظرية الفارابي في النبوة، وتحامل عليها كما تحامل على الآراء الفلسفية الأخرى، ولكنه في تحامله هذا لم يستطع أن يرد عليها رداً مقنعاً أو ينقضها بشكل واضح. على انه هو نفسه بالرغم من خصومته لها وتحامله عليها لم ينج من أثرها، وقال بآراء تقترب منها كل القرب؛ وخصومة الأفكار تختلف إلى حد ما عن خصومة الأشخاص، فقد تستطيع التبرؤ من كل ما يتصل بخصمك المادي مع انه يعز عليك أحياناً أن تنجو تماماً من سلطان فكرة تعارضها، ذلك لان النظريات والآراء بما فيها من قدر من الصواب يمكنها أن تؤثر في أصدقائها وأعدائها، بل وفي اشد الناس هجوماً عليها؛ ولا أدل على هذا مما نلاحظ في مسألتنا الحاضرة، فأن الغزالي يناقش في كتابه (تهافت الفلاسفة) نظرية النبوة الفارابية ملاحظاً أن النبي يستطيع الاتصال بالله مباشرة أو بواسطة ملك من الملائكة دون الحاجة إلى العقل الفعال أو قوة متخيلة خاصة أو أي فرض آخر من الفروض التي يفرضها الفلاسفة، ثم يعود في كتابه (المنقذ من الضلال) فيقرر أن النبوة أمر مسلم به نقلاً ومقبول عقلاً، ويكفي لتسليمها من الناحية العقلية أن نلاحظ إنها تشبه ظاهرة نفسية نعترف بها جميعاً، آلا وهي الأحلام والرؤى. وهاكم عبارته بنصها: (وقد قرب الله تعالى ذلك على خلقه أن أعطاهم أنموذجاً من خاصية النبوة وهو النوم، إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب إما صريحاً وإما في كسوة مثال يكشف عنه التعبير).

ونحن في غنى عن أن نشير إلى أن هذه العبارة تحمل في ثناياها أفكاراً فارابية واضحة وبصرف النظر عما في موقف الغزالي من تناقض فان اعتراضه على نظرية الفارابي في النبوة لم يكن شديداً ولا قاطعاً. ولهذا لم يتردد في أن يعتنقها في مكان آخر محاولاً، كما صنع الفارابي، إدعامها على أساس من الفيض والإشراق. ولعل هذا هو الرأي الأخير الذي اطمأنت إليه نفسه، ولاسيما. والدلائل قائمة على أن المنقذ متأخر تأليفاً عن التهافت،

ومشتمل على خلاصة أبحاث الغزالي ونتيجة دراساته السابقة

وإذا كانت نظرية النبوة الفارابية قد استطاعت التأثير في خصومها من الأشاعرة فهي على هذا أقدر لدى من ينتمون إليها من الإسماعيلية والباطنية. وإنا لنلحظ منذ أخريات القرن الرابع الهجري أن إخوان الصفا الذين لم يبق اليوم شك في أمر اتصالهم

بالإسماعيلية يشيدون بذكر قوة المخيلة ويبينون ما لها من اثر في المظاهر النفسية المختلفة، وخاصة في المنامات والأحلام والوحي والإلهام. ويلخص لنا الغزالي في رده على الباطنية معتقدهم في النبوات قائلاً إنهم يذهبون إلى (أن النبي عبارة عن شخص فاض عليه من السابق بواسطة المثالي قوة قدسية صافية مهيأة لأن تنتقش عند الاتصال بالنفس الكلية بما فيها من الجزئيات كما قد يتفق ذلك ليعض النفوس الذكية في المنام حتى تشاهد من مجاري الأحوال في المستقبل إما صريحاً بعينه أو مدرجاً تحت مثال يناسبه مناسبة ما فيفتقر فيه إلى التعبير إلا أن النبي هو المستعد لذلك في اليقظة، فلذلك يدرك الكليات العقلية عند شروق ذلك النور وصفاء القوة النبوية، كما ينطبع مثال المحسوسات في القوة الباصرة من العين عند شروق نور الشمس على سطوح الأجسام الصقيلة). ويضيف الغزالي أن هذه الآراء كلها مأخوذة عن الفلاسفة، وهذه ملاحظة لا تقبل الشك ولا الإنكار وقد تأثر الإسماعيلية بالأفكار الفلسفية في غير موضع، إلا أن نظرية النبوة على الخصوص راقتهم إلى حد كبير وصادفت هوى في نفوسهم. فإنها لا توضح النبوة فحسب، بل تشرح فكرة الإمامة التي قامت عليها دعوتهم، وقد قدمنا أن الفارابي يصرح بان الإمام والنبي والفيلسوف يرمون إلى غاية واحدة ويستمدون تعاليمهم من مصدر مشترك آلا وهو العقل الفعال. وإذا كان بعض الإسماعيلية قد أخذ على عاتقه أن يرد على منكري النبوة فهو في الوقت نفسه يدفع شبهاً يمكن أن توجه إلى الإمامة. فنظرية النبوة الفارابية أساس علمي متين بنى عليه الإسماعيليون كثيراً من تعاليمهم. ولم يزيدوا عليها شيئاً إلا انهم تأولوا بعض النصوص التي سكت عنها الفارابي فقالوا مثلاً إن جبريل هو العقل الذي يفيض على الأنبياء بالمعلومات، وإن القران تعبير عن المعارف التي فاضت على النبي صلى الله عليه وسلم من هذا المصدر

الآن وقد لخصنا في اختصار أثر نظرية النبوة الفارابية في القرون الوسطى الإسلامية، يجدر بنا أن نولي وجهنا شطر القرون الوسطى اليهودية والنصرانية لنبين ما إذا كانت هذه النظرية قد تمكنت من النفوذ إليها أم لا. وسنكتفي من بين مفكري اليهود بموسى بن ميمون الذي يعلن في صراحة تلمذته للفارابي وابن سينا. وسنشير بين المسيحيين إلى (ألبير لجراند) فقط الذي كثيراً ما ردد اسم الفارابي في مؤلفاته اللاتينية. فأما ابن ميمون فلا نظن أن واحداً من رجال الفلسفة المدرسية - اللهم إلا ابن سينا - قد أستمسك بنظرية النبوة الفارابية وعنى بها مثل عنايته، فقد وقف عليها في الجزء الثاني من كتابه (دلالة الحائرين) نحو مائة صفحة أو يزيد، وبذل جهده في التوفيق بينها وبين الديانة الموسوية وترجع الآراء المتعلقة بالنبوة في نظره إلى ثلاثة أقسام. فطائفة ترى أن النبي مجرد شخص اصطفاه الله من بين خلقه وكلفه بمهمة خاصة سواء أكان عالماً أم جاهلاً صغيراً أم كبيراً، فلا يشترط فيه أي شرط ما دام الله قد أختاره، اللهم إلا أن يكون حسن السلوك سامي الأخلاق؛ ويرى المشاؤون - ويعني بهم ابن ميمون فيما نعتقد الفارابي وابن سينا - أن النبوة تستلزم كمالاً في الطبيعة الإنسانية وسموا في المواهب العقلية والاستعدادات الفطرية، فليس لكل شخص إذن أن يكون نبياً، بل من اكتملت فيهم صفات نفسية وعقلية معينة. والرأي الأخير الذي ينحاز إليه الفيلسوف اليهودي هو أن النبي إنسان كامل من الناحية العقلية قد فضله الله واصطفاه على عباده الآخرين. ولا بد له من مخيلة قوية تمكنه من الاتصال بالعقل الفعال وتقفه على الأمور المستقلة كأنما هي أشياء محسوسة ملموسة. وعلى قدر ما تعظم المخيلة ويزيد اتصالها بالعالم العلوي تسمو الإلهامات النبوية وتتنوع، ومن هنا تفاوت الأنبياء فيما بينهم بتفاوت مخيلاتهم، وأختلف ما يوحي إليهم تبعاً لذلك. فقوة المخيلة إذن ذات اثر كبير في الكشف والإلهام وشرط أساسي في كل من يرقى إلى مرتبة النبوة. بيد انه يجب أن يضم النبي إلى مخيلته قوى عقلية عظيمة، لأن المخيلة لا تستطيع أن تصعد إلى درجة العقل الفعال إن لم يكن في معونتها قوى فكرية ممتازة. هذه الملاحظات على اختصارها تكفي للبرهنة على أن ابن ميمون اعتنق في إخلاص نظرية الفارابي في النبوة

وأما ألبير لجراند فقد أثرت فيه الآراء الفارابية عامة من نواح كثيرة. فهو يقول بنظرية في السعادة لا تختلف كثيراً عما ذهب إليه الفارابي، ويقرر إن الإنسان متى وصل إلى

مرتبة العقل المستفاد اصبح على اتصال دائم بالعالم الروحاني، وأضحى إلى حد ما شبيها بالله، ووقف على المعارف المختلفة، وفاز بغبطة لا نظير لها. ويحلل من جهة أخرى نظرية النبوة تحليلاً سيكولوجيا يتفق اتفاقا تاما مع ما جاء به الفارابي. كل هذا يثبت، كما لاحظ رينان من قبل، إلى أي حد نفذت اللغة العربية والنظريات الإسلامية الخطيرة إلى المدرسة الألبيرية. وسهل علينا أن نحدد على وجه التقريب المصدر الذي استقى منه ألبير نظرية النبوة الفارابية، فإنه لا يبعد أن يكون قد قرأ عنها شيئاً فيما ترجم من كتب ابن سينا إلى اللاتينية، أوفي كتاب دلالة الحائرين الذي أحرز منزلة عظيمة في مختلف المدارس المسيحية

يتبع

إبراهيم بيومي مدكور

في الأدب المقارن

أشكال الأدب في الأدبين العربي والإنجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

تبدأ العلوم والفنون الإنسانية كلاًّ مختلطاً كالسديم، فإذا ما ارتقت وتطورت تبينت أجزاؤها وانفصلت، ووضحت أشكالها وتميزت، وتعددت مناحي كل علم وفن، وتوفر بعض ممارسي تلك العلوم أو الفنون على ناحية من نواحي العلم أو فرع من فروع الفن وتوفر غيرهم، كلٌّ يتبع ما هو أقرب إلى طبعه وأوفق لعبقريته وأتمُّ تعبيراً عن منازعه؛ وكلما ارتقى العلم أو الفن جدت فيه ضروب وأشكال لم تكن من قبل، وتولدت من الأشكال القديمة أخرى غيرها

وذلك شأن الأدب. يبدأ بانفصال الشعر عن الموسيقى، فإذا هو ألحان وأهازيج ساذجة المعاني؛ ثم ما يزال جانب المعنى منه يقوى حتى يطغى على جانب النغم، حتى يبلغ الشعر أشده وما تزال الآمة متبدية؛ فإذا ما نالت حظاً من الحضارة والثقافة ظهر النثر بجانب النظم، حاوياً لكثير من مميزات الشعر الفنية: كالتعبير عن الوجدان وحسن الاختيار الألفاظ المعبرة، فإذا ما استمر الأدب في رقيه تعددت أشكال النظم والنثر واختلفت صورهما، واجتذب كل شكل فريقاً من الأدباء يصطفونه دون غيره أو بجانب غيره، لإخراج أفكارهم وأحاسيسهم في قالبه، وإبراز نظرتهم إلى الحياة في أوضاعه وحدوده

فتعدد أشكال الأدب من دلائل رقيه وابتعاده عن عهود الابتداء وعصور الإبهام والعموم، وهو أيضاً من دلائل سريان روح التجديد فيه: فمن طبيعة النفس الإنسانية أن تسأم النغمة الواحدة إذا كررت، مهما كانت عذوبتها أو براعة صاحبها، وتستوي في ذلك الموسيقى وغيرها من الفنون، فإذا ما سئم جيل شكلا من أشكال الأدب، أو أصبح ذلك الشكل الأدبي غير ملائم لعصره، فأن روح التجديد - إذا كانت هناك - تدفعه إلى ابتكار شكل طريف ملائم، وهجر الأشكال القديمة مهما كانت منزلة الأدباء المتقدمين الذين مارسوا تلك الأشكال، ومهما يكونوا قد أودعوها من صادق الأفكار والشعور، ومحكم الصور لعصرهم

وقد شهد الأدب الإنجليزي عصر اليزابيث، وهو ما يزال مختلط الأجزاء، مضطرب الصور، لم تتميز أشكال منظومه ومنثوره، بل لم تستقم بعد أساليبه الشعرية ولا لغته الكتابية؛ فما لبث الشعر على أيدي شكسبير ومعاصريه من مؤلفي المسرح، وسبنسر وملتون ثم دريدن، أن كسب لغة نقية مختارة، وأشكالاً واضحة بينة، صالحة للتعبير عن شتى الأفكار وتصوير مختلف الحالات النفسية. وضع شكسبير أساس الشعر المرسل، ورفع بعبقريته مكانة ذلك الضرب من الموشحات المعروف بالسونيت، وهوموشح من أربعة عشر بيتاً متداخلة القوافي على هيئة تبرز الفكرة الوحيدة التي تتضمنها السونيت إبرازاً رائعاً؛ ووضع سبنسر موشحه المنسوب إليه والمكون من أبيات تسعة متداخلة القوافي آخرها أطول عروضاً من سائرها، مما يجعل أداة صالحة للقصص الشعري الرصين

وجاء ملتون فأدخل الملحمة في الشعر الإنجليزي الحديث: والملحمة أعظم ضروب الشعر شأناً، وأكثرها كلفة، وأبعدها منالاً لما تحتاج إليه من طول التوفر، وعمق البصر بالأدب، واتساع الثقافة، والتضلع من اللغة، والتمكن من الأساليب الشعرية، وامتداد الخيال؛ وقد قدر كولردج الزمن اللازم لإنشاء ملحمة بعشرين عاما: ينصرف الشاعر

في عشر منها إلى الاستعداد والتحضير؛ وبتوفر في عشر على الإنشاء والتجويد؛ وجاء دريدن عقب ملتون فوطد أساس ضرب آخر من النظم يدعى الأود أو القصيد الخطابي، يمتاز بوعورة عروضه وقوافيه، ويوجه الخطاب فيه عادة إلى شيء مخصوص أو فرد معروف أو ذكراه؛ ورفع دريدن كذلك مكانة (الدوبيت) في الشعر الانجليزي، أعني القصيد المؤلف من أبيات ثنائية القوافي، محكمة الوزن، مصقولة اللفظ؛ وهو الضرب الذي تلقفه عنه بوب فزاده صقلاً وإحكاما، وساد من بعدهما القرن الثامن عشر

توطدت دعائم الشعر وتميزت أشكاله فجاء دور النثر، وهو دائماً متأخر عن الشعر في الظهور، ودعت الأحوال السياسية والاجتماعية التي سادت القرن الثامن عشر إلى احتفاء الأدباء والمثقفين بالنثر: فقد كانت النظم الدستورية قد استتبت، والرأي العام قد تكون، والطبقة الوسطى قد تعاظم شأنها، والحركة العلمية قد نشطت بعد ما اقتبسته إنجلترا من علوم أهل القارة، والصحف قد انتشرت معتمدة على الرأي العام والطبقة الوسطى، وقد غبر عهد المخاطرة والجهاد الذي تجلى في حكم اليزابيث وثورة المطهرين، ألهب خيال الشعراء، وجاء عهد الإصلاح والعمل الرزين في الداخل والخارج

وفي أول ذلك القرن كان النثر الإنجليزي حطاماً مبعثراً من الألفاظ المتنافرة والتعابير المتعثرة، والأساليب العامية، وزخارف اللفظ، وبهارج المعنى، والتقليدات الفاشلة للأسلوب اللاتيني المتطاول الجمل؛ فما لبث دريدن وكاولي أن هذبا من حواشيه وقوّما من معوجه، ونقياه من الغريب والسوقي، فظهر النثر الإنجليزي الحديث المعروف ببساطة ألفاظه، ولطافة مأخذه، وسلاسة تعابيره؛ ثم تلاهما اديسون وسنيل فوطدا دعائم (المقالة) في الصحف التي تعاونا في إصدارها، فإذا المقالة شكل من أشكال الأدب جم المزايا. فهي تدور حول فكرة مفردة تكون وحدتها وتجمع شتى الأفكار الثانوية، وتتناول ما شاء الكاتب أن يدرسه من مسالة اجتماعية أو نقد أدبي أو حالة نفسية، أو نظرة في الفنون

ومن المقالة نمت بذور شكل آخر من أشكال النثر دعت أليه طبيعة ذلك العصر: هو القصة التي تكونت من اجتماع عدد من المقالات تدور حول شخصيات معينة، فما لبث الذوق العام أن استطرفها وكان قد مل الرواية التمثيلية، فحلت القصة محلها في تصوير المجتمع ودرس الأخلاق واستكناه دخائل النفس الانسانية، وتوفر عليها من كبار الكتاب أمثال ريتشاردسن وجولد سميث، وجين اوستن، فاحكموا أوضاعها، وهذبوا حوارها ووضحوا شخصياتها، وأسلموها إلى القرن التالي شكلا من أشكال الأدب جم المزايا مبشراً بمستقبل حافل

وكأن النثر لم يقنع بهذا الضرب الخيالي من التأليف، وآثر أن يجعل من الحقيقة الواقعة مادة للفن كما جعل من القصص الخيالي، ويتخذ من الماضي مراداً له كما اتخذ من الحاضر، فالتفت إلى التاريخ، وكان من قبل يدون باللاتينية أو بإنجليزية ملتوية التراكيب مختلطة الحقائق بالأوهام والاكاذيب، فبعث فيه الروح الفنية التي شملت نواحي الأدب ونفخ فيه النزعة العلمية التي تمشت في سائر العلوم، ولم ينصرم القرن إلا وقد ظهر اكبر اثر تاريخي في اللغة، وهو كتاب جيبون عن الدولة الرومانية، وإذا النثر الفني قد كسب شكلا جديداً هو التاريخ الفني للعصور أو الوقائع أو الأبطال وهكذا صار الأدب الإنجليزي أدباً رفيعاً متسع الجوانب متميز الأوضاع متعدد الأشكال، مشتملاً على أرقى ما لدى الأمم الأخرى من الصور الأدبية، يقدم لممارسيه ما يختارونه من أشكال الأدب ملائماً لطبائعهم، ولقرائه ما يؤثرونه موافقاً لأذواقهم، وورث القرن التاسع

عشر عن القرنين السابقين له تراثاً ضخما من أشكال المنظوم والمنثور وآثار الفحول فيهما، فلم يكد يحس حاجة إلى استحداث أشكال أخرى، بل انصرف إلى استغلال ما بين يديه منها، ولاءم بين بعضها وبين حاجاته، وآثر بعضاً منها على بعض: فعالج وردزورث وتيسون الشعر المرسل، وعالج سوذي وموريس وهاردي الملحمة واختلفت حظوظهم من النجاح، واستغل هازلت وثكري وماكولي المقالة في النقد الأدبي، وعالج ماكولي وكارليل التاريخ. وهجرت الرواية التمثيلية الشعرية وحلت محلها أخرى نثرية أكثر التزاما للواقع وملاءمة لحاجة العصر، وتعاظمت مكانة القصة الطويلة والقصيرة

حتى فاقت ما عداها، والتفتت إلى تصوير المجتمع الجديد القائم على الصناعة والمخترعات

أما تاريخ الأدب العربي منذ نهضته بقيام الإسلام وتوطد دولته، ودخوله في طور الحضارة والثقافة، فمغاير لهذا: فقد ورث عن الجاهلية لغة قوية غنية تبشر بمستقبل عظيم، وشعراً رصيناً محكم الأوزان متعددها موطد الأركان ممهد الأساليب مؤذنا برقى إلى ابعد الغايات، فإذا الأدب يجمد في أول الطريق، ويجتزئ بماضيه عن مستقبله، ويطوي زهاء خمسة قرون من عهود الحضارة والثقافة، فلا يتفرع كما تفرع الأدب الإنجليزي إلى أشكال متميزة ذات خصائص واضحة، بل يظل كل من الشعر والنثر سديماً مشوشاً كما كان في أول بدئه، وينبغ من فحول العربية أمثال ابن المقفع والجاحظ وابن الرومي والمتنبي والمعري، فلا يعنيهم غير تقيل السلف فيما درجوا عليه من مناهج القول، ولا تتوطد على أيديهم أشكال جديدة للنظم والنثر، ولا يؤدون للعربية الخدمات الجلي التي أداها للإنجليزية أبناؤها

طوى الأدب العربي عصور ازدهاره وهو يضرب على نغمة واحدة في النظم وأخرى في النثر؛ ففي النظم ظلت القصيدة المفردة القافية، غير المحدودة الطول، غير الموحدة الفكرة، غير المعروفة العنوان، هي الشكل الشعري الوحيد، يصوغ فيه ابن القرن الخامس أفكاره كما صاغ الجاهلي أفكاره من قبل؛ وفي النثر ظلت كتب الأدب المبهمة العناوين المشتجرة الفصول والفقرات المتباعدة المواضيع، المختلطة النظم بالنثر، والأدب بالدين، والقصص بالنقد، وهي الضرب السائد منذ انتشرت الكتابة إلى أن خمد الأدب

وفي الشعر ابتكرت الموشحات، فلم تكن غير زخارف من القوافي ينمقها الناظم كما شاء دون أن تكون أوضاع قوافيها معينة على إبراز المعاني، ولم ينتشر استعمال تلك الموشحات واقتصرت على من ضروب الشعر الوجداني الضئيل الحظ من المعنى. قال ابن رشيق: (وقد رأيت جماعة يركبون المخمسات والمسمطات، ويكثرون منها، ولم أر متقدماً حاذقا صنع شيئاً منها لأنها دالة على عجز الشاعر وقلة قوافيه وضيق عطنه. . . وهذا الجنس موقوف على ابن وكيع والأمير تميم ومن ناسب طبعها من أهل الفراغ والرخص)؛ وفي النثر ابتكرت المقامة فإذا هي أشد من الموشح احتفاء باللفظ، وإذا هي لا تفوقه ذيوعا ونجاحا، وحاكته عقما فلم ينتج عنها ابتكار جديد، كما مهدت المقالة في الإنجليزية السبيل مثلاً للقصة

فإذا بحثت في الأدب العربي عن أشكال أدبية متميزة متعددة لم تجدها، وإنما ظل الأدب كما بدأ سديما مختلطا متشابها: ارتقت معانيه وتعددت أغراضه ورقت ديباجته، ولكن جمد شكله فلم يتحول إلى أشكال جديدة، وظل النقاد لا يقسمون الأدب إلى أكثر من نظم ونثر ثم يقفون، ويفاضلون بين النظم والنثر مفاضلة ليس لها موضع ولا هناك ما يسوغها؛ فأن أرادوا التوسع فاضلوا بين الرجز والقصيد، وقدموا شاعرا على شاعر لبراعته في الطول أو في القطع، وهي مفاضلات كذلك لا موضع لها ولا مبرر، لأن هذه الأشياء متقدمة الذكر ليست بأشكال للشعر متميز كلٌّ منها بخصائص في الأسلوب أوفي الموضوع، تجعل شكلا منها أصعب على الشاعر المعالج من شكل آخر أو أبعد متناولا

وإنما جنح بالأدب العربي إلى هذه الحال من الجمود الشكلي التي لا يجد معها جديد، ولا يحل طريف محل عتيق، ولا يتسع أفق الأدب ولا تتشعب مناحيه، عوامل تقدمت الإشارة إليها مراراً وكان لها أبعد الأثر في تاريخ العربي، بل كان لها فيه ضرر بليغ، إذ باعدت بينه وبين أن يكون دائما تعبيرا حرا صحيحا عن شعور الفرد والمجتمع متطورا مع حاجات الأجيال وتجدُّد شؤون الحياة، وتلك هي تغلب روح المحافظة على روح التجديد فيه، واعتماده على تشجيع الملوك، واعتزاله الآداب الأخرى، واحتفاله باللفظ قبل المعنى

فلو عنى أدباء العربية بدراسة الآداب الأخرى حق العناية لا طلعوا على أشكال للأدب تستحق أن تنقل إلى العربية فتكون باعثا على ابتكار غيرها. ولقد اهتدى الأدباء الإنجليز في كل ابتكاراتهم سالفة الذكر بهدى الأمم الأخرى: فالسونيت اقتبسوها عن بترارك، والشعر المرسل أخذوه عن الدرامة الإغريقية، والأود نقلت عن بندار، والملحمة تأثر فيها

ملتون أثر هوميروس وفرجيل، والمقالة أوحت بها كتابات مونتين؛ وليس يدين الأدب العربي بشيء من هذا لغيره من الآداب، ولو فعل لجاء أرحب آفاقا وأوضح مناهج وأبرز أشكالا

استقل الأدب العربي بنفسه وأعتزل غيره، ولم يكن من داخله حافز إلى التجديد والابتكار: فأن نفس السبب الذي صده عن آداب الأمم الأخرى صدف به عن تجديد نفسه، ذلك السبب هو إكبار المتقدمين وإجلال آثارهم إجلالاً لا مطمع معه إلى تنكب طرائقهم أو الحيدة عن أساليبهم، وغير هذه النزعة المحافظة كانت تسود الأدب الإنجليزي: كانت روح التجديد متمكنة من سائر فحوله، لا يمنعهم إعجابهم بمتقدميهم من الأعلام عن اختطاط غير طرقهم، وبفضل هذه الروح المجددة كان الأثر المنقول عن الآداب الأجنبية لا ينشب أن تتمثله الإنجليزية ويونع فيها، ويؤتى ثمرا جديدا لم تحظ به الآداب المنقول عنها؛ فالسونيت أصبحت في الإنجليزية ضربين: الشكسبيري والملتوني؛ والمقالة هذَّبت واستخدمت في مقاصد لم تخطر لمونتين على بال، وكانت أداة إصلاح اجتماعي نادر المثال، وخرجت من غضونها القصة الاجتماعية

وولوع أدباء العربية بالألفاظ استغرق كل تفكيرهم واجتهادهم: ألهاهم احتيال الحيل في تنسيق الألفاظ وإظهار البراعة في استخدامها عن التفكير في المعنى أو الشكل الأدبي الذي يصاغ فيه، فابتكروا كثيراً في البديع الذي يتعلق باللفظ ولم يبتكروا فيما يتعلق بالشكل الأدبي. ولما أراد شاعر مجيد كالمعري أن يأتي بجديد في القوافي لم يتجه إلى تحرير الشعر من بعض قيودها أو تذليلها لإبراز المعنى على أحسن صورة، بل زادها قيوداً فضاعف حروف الروي في لزومياته، لأنه كان يحس أنه يفعل ذلك دون أن يَخْرِمَ التقاليد الأدبية المتخلفة عن الأقدمين، ودون أن يتهمه متهم من النقاد كابن رشيق (بعجزه وقلة قوافيه وضيق عطنه)

واعتماد أدباء العربية على نوال الأدباء، وترددهم على أبوابهم، ومشاركتهم إياهم في لذاتهم وترفهم أحياناً، أو دوام طموحهم إلى تلك اللذات والمتعات، وذهاب أيامهم بين مرارة الحرمان ونشوة اللذاذة ووخامة البشم والخمار، كل ذلك لم يدع لهم وقتاً للتوفر على الأدب الصحيح والانصراف إلى الفن الرفيع، ولم تقم أمامهم حاجة إلى الابتكار والتجديد، إذ كان

الأمراء قانعين أن يقال فيهم مثل ما قيل فيمن قبلهم من الملوك الفخام وكما قيل في أولئك الملوك، فكان حسب الشاعر أن يقتفي أثر من قبله ويحذق وسائله في اقتناص معاني المديح

أما فحول الإنجليزية فكان معظمهم بمنجى من هذه الحاجة الملحَّة، ومعتصم من حياة الفلاكة واللذاذة التي كان يحياها كثير من أدباء العربية، وكان لهم بفضل كدِّهم في سبيل الحياة أو بفضل ما ورثوه من ثروة غنى عن سؤال الأمراء، ومتَّسع من الوقت للاعتزال في صومعة الفن الخالص من شوائب المادة، بل كان منهم أفراد كوردزورث وشلي وتنيسون عاشوا في رغد دون أن يعملوا في حياتهم عملاً سوى أن يقرءوا يكتبوا ما يسر نفوسهم ويرضي الفن وحده. ولا ريب أن أمثال هؤلاء أشد رغبة في التجديد والاختراع، وأقدر على القيام بالتجاريب الأدبية في الأشكال والصيغ والمواضيع، ممن يقضون العمر نظماً للمدح والسؤال وترقُّباً للرضى والأنعام. وقد فطن ابن رشيق في عبارته السالفة إلى ضرورة اتساع الفراغ للتفنّن في ضروب القول، وإن يكن قد قرن ذلك بذكر الرخص وأضافه إلى البطالة والعبث

فالأدب الإنجليزي ظل دائماً على صلة بالحياة وحقائقها، يعينه على ذلك ما به من روح التجديد، وما اخذ نفسه به من التزود من الآداب الأخرى، وما تمتع به أقطابه من وقت قصروه على فنهم والحياة دائبة التحول والتجدد، فلا ندحة للأدب إذا توثقت صلته بها عن تحول أشكاله وتجدد صورة

وأزيائه. أما الأدب العربي فباعد بينه وبينها تلك العوامل السالفة الذكر؛ فلا غرو أن جمد فلم تتجدد أشكاله مع مرور الزمن، وتحول الأدب الإنجليزي في قرنين من أدب ناشئ مختلط الأوضاع إلى أدب راق متجدد الصور متعدد الأشكال

فخري أبو السعود

البيان

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

لا وجود للمقالة البيانية إلا في المعاني التي اشتملت عليها يقيمها الكاتب على حدود ويديرها على طريقة، مصيباً بألفاظه مواقع الشعور، مثيراً بها مكامن الخيال، آخذاً بوزن تاركاً بوزن لتأخذ النفس وتترك

ونقل عن حقائق الدنيا نقلاً صحيحاً إلى الكتابة أو الشعر، هو انتزاعها من الحياة في أسلوب وإظهارها للحياة في أسلوب آخر يكون أوفى وأدَّق واجمل، لوضعه كلَّ شيء في خاصِّ معناه وكشفه حقائق الدنيا كشفةً تحت ظاهرها الملتبس. وتلك هي الصناعة الفنية الكاملة: تستدرك النقص فتتمه، وتتناول السر فتعلنه، وتلمس المقيَّد فتطلقه، وتأخذ المطلق فتحدُّه، وتكشف الجمال فتظهره، وترفع الحياة درجةً في المعنى، وتجعل الكلام كأنه وجد لنفسه عقلاً يعيش به

فالكاتب الحقُّ لا يكتب ليكتب؛ ولكنه أداة في يد القوة المصوِّرة لهذا الوجود، تصوّر به شيئاً من أعمالها نوعا جميلاً من التصوير، الحكمة الغامضة تريده على التفسير، تفسير الحقيقة؛ والخطأ الظاهر يريده على التبيين، تبيين الصواب؛

والفوضى المائجة تسألها الإقرار، إقرار التناسب؛ وما وراء الحياة يتخذ من فكره صلة بالحياة؛ والدنيا كلها تنتقل فيه مرحلة نفسيةً لتعلو به أو تنزل. ومن ذلك لا يخلق الملهم أبداً إلا وفيه أعصابه الكهربائية، وله في قلبه الرقيق مواضع للاحتراق تنفذ إليها الأشعة الروحانية وتتساقط منها

وإذا اختير الكاتب لرسالة ما، شعر بقوة تفرض نفسها عليه، منها إسناد رأيه، ومنها إقامة برهانه، ومنها جمال ما يأتي به؛ فيكون إنساناً لأعماله وأعمالها جميعاً، له بنفسه وجود، وله بها وجود آخر؛ ومن ثمَّ يصبح عالماً بعناصره للخير أو الشر كما يوجَّه؛ ويلقي فيه مثل السر الذي يلقى في الشجرة لإخراج ثمرها بعمل طبيعي يرى سهلاً كل السهل حين يتم، ولكنه صعب أيُّ صعب حين يبدأ

هذه القوة هي التي تجعل اللفظة الواحدة في ذهنه معنى تاماً، وتحول الجملة الصغيرة إلى قصة، وتنقلب باللمحة السريعة إلى كشف عن حقيقة، وهي تخرجه من حكم أشياء ليحكم

عليها، وتدخله في حكم أشياء غيرها لتحكم عليه؛ وهي التي تميز لغته وأسلوبه لأنها تلتقط بمعانيها ألفاظها، وما تعطيه هو إلا لتعطي الناس منه، وكما خلق الكون من الإشعاع تضع الإشعاع في بيانه

ولابد من البيان في الطبائع الملهمة ليتسع به التصرّف، إذ الحقائق أسمى وأدق من أن تعرف بيقين الحاسة أو تنحصر في إدراكها. فلو حدَّت الحقيقة لما بقيت حقيقة، ولو تلبَّس الملائكة هذا اللحم والدم لبطل أن يكونوا ملائكة؛ ومن ثم فكثرة الصور البيانية الجميلة للحقيقة الجميلة، هي كل ما يمكن من طريقة تعريفها للإنسانية

وأيُّ بيان في خضرة الربيع عند الحيوان من أكل العشب إلا بيان الصورة الواحدة في معدته؟ غير أن صور الربيع في البيان الإنساني على اختلاف الأرض والأمم، تكاد بعدد أزهاره ويكاد الندى ينظرها كما ينظره

ولهذا ستبقى كل حقيقة من الحقائق الكبرى: كالإيمان والجمال والحب والخير والحق - ستبقى محتاجة في كل عصر إلى كتابة جديدة من أذهان جديدة

وفي الكتَّاب الفضلاء باحثون مفكرون تأتي ألفاظهم ومعانيهم فنّاً عقلياً غايته صحة الأداء وسلامة النَّسق، ويندر البيان في كلامهم فيكون كوخز الخضرة في الشجرة اليابسة هنا وهنا؛ ولكن الفنَّ البياني يرتفع على ذلك بان غايته قوة ألداء مع الصحة، وسموَّ التعبير مع الدقة، وإبداع الصورة زائداً جمال الصورة؛ أولئك في الكتابة كالطير له جناح يجري به ويدفُّ ولا يطير، وهؤلاء كالطير الآخر له جناح يطير به ويجري، ولو كتب الفريقان في معنى واحد لرأيت المنطق في أحد الأسلوبين يقول: أنا هنا في معانٍ وألفاظ. والإلهام في الأسلوب الآخر يقول: آنا هنا في جلال وجمال وصورة وألوان

ودورة العبارة الفنية في نفس الكاتب البياني دورة خلق وتركيب، تخرج بها الألفاظ اكبر مما هي كأنها شبَّت في نفسه شباباً، وأقوى مما هي كأنما كسبت من روحه قوة، وأدلَّ مما هي كأنما زاد فيها بصناعته زيادة. فالكاتب العلميَّ تمر اللغة منه في ذاكرة وتخرج كما دخلت عليها طابع واضعيها؛ ولكنها من الكاتب البياني تمر في مصنع تخرج عليها طابعه هو. أولئك أزاحوا اللغة عن مرتبة سامية، وهؤلاء علوا بها إلى أسمى

مراتبها؛ وأنت مع الأولين بالفكر، ولا شيء إلا الفكر والنظر والحكم؛ غير انك مع ذوي الحاسة البيانية لا
تكون إلا بمجموع ما فيك من قوة الفكر والخيال والإحساس والتأثر
وللكتابة التامة المفيدة مثل الوجهين في خلق الناس: ففي كل الوجوه تركيب تامٌّ تقوم به منفعة الحياة، ولكن الوجه المنفرد يجمع إلى تمام الخلق جمال الخلق، ويزيد على منفعة الحياة لذة الحياة؛ وهو لذلك يرى ويؤثر ويعشق
وربما عابوا السموَّ الأدبيَّ بأنه قليل، ولكن الخير كذلك؛ وبأنه مخالف، ولكن الحق كذلك؛ وبأنه محيّر، ولكن الحسن كذلك؛ وبأنه كثير التكاليف، ولكن الحرية كذلك
إن لم يكن البحر فلا تنتظر اللؤلؤ، وإن لم يكن النجم فلا تنتظر الشعاع، وإن لم تكن شجرة الورد فلا تنتظر الورد، وان لم يكن الكاتب البياني فلا تنتظر الأدب
(طنطا)
مصطفى صادق الرافعي
حب الشاعر
للأستاذ السيد محمد زيادة
يا حبها: أأنا مخلوق بك ومخلوق لك؟. . كيف أتَّقيها ولجمالها في كل مشرق من مشارقه صورة، وفي كل صورة معنى، وفي كل معنى خلابة وفتنة؟. .
كنا على موعد أنا وهي، وكان موعدنا بين الأصيل والغروب في حديقة سميناها حديقة الحب؛ تترامى أطرافها، وترى في مكانها من بعيد كأنها عاشق برح به هواء فذهب إلى الخلاء يتفرج بالوحدة، وترى من داخلها في جوها الشعري الغزلي كأنها جنة هيئت لعاشقين
وتقوم بين أفنانها ربوة صاحية نائمة. . . صاحية بنسيمها الرفاف الممطر، ونائمة بمنظرها السكران الحالم، وتظل هذه الربوة شجرة لقاء وارفة تعانقت أغصانها فكان لها مواقف الحب والشوق. . . وهناك على هذه الربوة تحت هذه الشجرة كان الموعد. . . والتقينا
وقبل أن يحين الملتقى بساعة كنت جالساً في حجر الشجرة أترقب من خلال أوراقها احمرار الشمس بعد تمايل الأصيل، وكان كل ما في الحديقة من أشجارها وزهرها يترجرج، كأنما كان للحديقة قلب ينتظر انتظار قلبي. . .
وسرب خيالي بين أنحاء الطبيعة في أنحاء الفكر؛ أما قلبي فكان معي ولم يكن معي!!. كنت أحس انه معي يدق ويرتعش وهو مطمئن خائف، وكنت أحس أنه بعيد عني بعد حبيبتي وأنه قادم معها بعد فترة
ومرت عليَّ الدقائق ثقيلة محببة، فكانت كل دقيقة تأتي بعد دقيقة كأنها اجل يمتد إلى اجل. . .
وإني لفي غرةٍ وذهول فكر إذ رأيت الحديقة تهتز فجأة كأنما راعها رائع. . . فتبينت فإذا بنسمة وردية تنفلق في جو الحديقة نصفين وينفذ من بينهما صوت ملاك. . .
وتسمَّعت فإذا بها أغنية هي فن وسحر فن، وسمعت صوت الملاك يردد:
يا حبيب القلب مالي ... شغلت نجواك بالي
وأنصتُّ فإذا الصوت يقترب شيئاً فشيئاً، وإذا الحديقة تبتسم شيئاً فشيئاً، وإذا القلب يذوب شيئاً فشيئاً. . .
لقد جاءت الحسناء. . .
جاءت تترنم بهذه الترنيمة!! ومادت بي الربوة فلم اسمع إلا رعد فؤادي، ولم أر إلا برق خيالي؛ ثم انقشعت من فوق رأسي سحابة فنظرت فرأيت الحديقة ترقص، ورأيت الحسناء قد وافت باسمة مغنية متثنية. وخيل إليَّ أن الأشجار كلها قد تجمعت وسارت جحفلاً لتحيي جمالها وتزف إلى الطبيعة في قوامها غصناً خلقه الله ليحيا، وأحياه ليظل سراً وتظل الطبيعة عاجزة عن معرفة هذا السر
ومدت إليَّ يدها وهي ضاحكة وقالت: كأنك تناديني من بعيد، فهل أنت بعيد؟
قلت: كانت روحي بعيدة شاردة، وها قد رجعت لما سمعت صوتك. . . وأنا ألان أناديك منها
قالت: لعل روحك طويلة، ولعلك تناديني من أولها. . .
قلت: بل أناديك من آخرها، ولولا انك أدركتني فأدركت آخرها لضاع مني في الانتظار

كما ضاع أولها
ثم ضحكت وافتنَّ مبسمها في الضحك فقلت: كأني بالحديقة كلها تضحك في وردة إذ تضحكين
قالت: هذا رأي خيالك
قلت: ورأي عينيَّ ورأى قلبي ورأى الحقيقة. . .
قالت: إذا كانت الحديقة تضحك فلم لا أراها كما تراها؟
قلت: لأنك لا ترين ثغرك الضاحك كما أراه
فضحك وجهها كله، ويا للجمال في ضحكة الوجه الجميل!!
لقد رايته يومض وميض قبلة دانية تمتنع، ويشع شعاع قبلة ممنوعة تدنو، فقلت: وهاهي الدنيا كلها تضحك
قالت: لقد كبرت الحديقة فصارت في خيالك دنيا. . .
قلت: لا. . . بل تبسمت الدنيا من حول الحديقة لان وجهك تبسم من حول ثغرك فأطرقت إطراقة حنين وحب، وترقرقت في مفاتن حسنها معاني هواها فكانت فلسفة الجمال بين فلسفة العواطف؛ ثم رفعت رأسها ونظرت إلى السماء فسبحت عيناها في الشفق، ثم
عادت إليَّ من غيبتها وقالت: ما ارق قلب الطبيعة، إنها الآن حانية. . . ألا توحي إليك؟. .
قلت: لقد أوحي إليّ بهذه الأبيات وأنت قادمة
قالت: ما أشوق نفسي ألان إلى الشعر
قلت: هذا هو شعر الحديقة:
صدْح البلابل فنٌّ من تغنيها ... يا سكرة اللحن لما مرَّ من فيها
البدر تفسير معنى من تلألئها ... والغصن تفسير معنى من تثنيها
كأنها آية قد ألبست جسداً ... يحار في حسنها الرفاف رائيها
في صوتها رنة لم يعطها ملك ... تضنى قلوب الورى من حيث تشفيها
غنت فقال الهوى هذي مخلدتي ... هذي التي قدستني في أغانيها
فأسبلت أجفانها على نظرة صارخة ثم زفرت وقالت: آه منكم آيها الشعراء!! إنكم إذ تغوون لا ترشدون
قلت: وأين ألغي هنا؟
قالت: في لسانك من وراء شيطانك، من وراء قلبك. . . لقد جعلت الشعر مصيدة. . . إنك محتال شريف!!
قلت: إذا فما لشعري لم يصد؟
فسكتت هي وقالت عيناها وقالت: يا منكر الخير. . .
ثم سكتت عيناها وقالت هي:. . . ويحك
قلت: لو انك رأيت كيف كان اللحن بين شفتيك وأنت مقبلة عليَّ إقبال الدنيا على طريدها، وكيف كانت شفتاك في وجهك وكيف كان وجهك فوق قوامك، وكيف كان ميد قوامك بين ميد الغصون. . . لو انك ما رأيتِ هذا لكنتِ ألان شاعرة ولما قلت في وصف نفسك غير ما قلته؛. والله لكأن الفتنة ما خلقت إلا للمغنيات. . .
ونظرت إليها خلسة فرأيت وجهها ساكناً يحتج على أني أخطأت وعددت فتنته من فتنة غيره، ثم رفعت بصري لأخلس نظرة أخرى، فصدمتني منها نظرة حزينة وقالت: أكل المغنيات جميلات لديك؟. . .
قلت: ومن غيرك جمعت بين جمال الجسم وجمال الصوت في جمال ثالث هو انفرادها بالجمع بينهما؟؟. . فإذا كنت لم أحسن التعبير فليكن عذري أنني أحسنت القصد ولكنها غضبت وطال منها الغضب، وتراءت لي كأنها تجادل قلبها في صوابه لترده إلى صوابها، ثم كأنها انتصرت وأمسكت قلبها بالحجة؛. . ثم تبسمت فتهكمت ثم قالت: يخيل إلى انك خلقت وفي قلبك أذن مرهفة للغناء فعشت لتهوى المغنيات، وتجعل من كل منهن قصة حب، وتفيد من كل منهن تجربة حب، وتحسب كلا منهن إنها نهاية فلا تلبث حتى تراها بداية؛ وجاء دوري عندك. . . ولكن أي حب؟!
قلت: حب الشاعر الجاعل روحه نسمة في جوك، الباذل لك من قلبه كل البذل
وقالت: كفى أن تقول حب الشاعر ليفهم سامعك أنه حب أيام أو أسابيع أو شهور،

وأنه كالزهرة لا تكاد تينع حتى تجتني
قلت: لقد عكست الوضع يا آنستي؛ فحب الشاعر غير حب الناس، لا يكون له آخر كما يكون له أول؛ وإنما هو الحب الذي يبدأ ليظل حيث يبدأ فيرتبط بأجل الشاعر ما طال أجله ثم يبقى بعده ما بقى ذكره. . . أفلا تعلمين أن الشعراء هم اشد أهل الوفاء تمسكا بالوفاء، وأكثر أهل الحب صدقاً في الحب؟. .
قالت: هذا من وهم الشعر والشعراء
قلت: أفلا تعرفين أنهم يشقون ليسعدوا غيرهم؟. .
قالت: وهذا من أكاذيب الشعر والشعراء
قلت: أفلا تعتقدين أنهم مخلدون؟. .
قالت: وهذا من أحلام الشعر والشعراء
قلت: إذن فماذا تقولين فيهم؟
قالت: أقول إنهم شواذ الناس، أما خلالهم فهي الخير والشر، كلاهما يشق طريقه في جوف الآخر، وأما كلامهم فأجمل ما فيه أكذب ما فيه، وأما حياتهم فما منها غير تناقضها واضطرابها، وليس لها أن تركن إلى حال مهما تكن الحال. . .
قلت: وحبهم إذا كان من قلوبهم؟
قالت: أليس الشاعر كالطائر لا يطيب له عيشه إلا في تنقله بين الأفنان والادواح؟ ثم أليس من طبيعة الشاعر أنه طماح لا تقنع نفسه إلا بسعيه وراء الجديد حيث يكون؟ فهل مع هذا
نصدق أن في طوقه أن يحب فتنفرد لديه حبيبته، ويحبس عليها قلبه؟
قلت: وهذه الحرق التي في كبدي منك، ما هي وما مصيرها
قالت: هي الهوى الغاوي ومصيرها إلى غيرها من غيري
ثم اضطجعت إلى ظهر المقعد تبتسم وتخفي ابتسامتها كأنها شاعرة بغيظ فؤادي فقلت: وهذه الألفة التي بين روحي وروحك من أين جاءت إذا لم تكن بنت الحب؟ فقطَّبت بعض جبينها الوضاح، وظهرت لي كأنها تنكرني وتتنكر لي، ففلقت بهذا كبدي ثم قالت: هذه الألفة؟. . سل عنها قلبك. . .
أواه منها!! أواه منها!! ما كان أقساها
وسكتنا فترة وكلانا في حاله. . . هي في دلالها تتأود وتهز ساقاً موضوعة فوق ساق، وأنا في حنقي أتلوَّى واضغط يداً مضمومة إلى يد، ثم نظرتُ إليها ونظرتْ إليَّ فقلت: هل تعلمين كيف أنت ألان في قلبي؟
قالت: لا إخالني إلا ممقوتة مقت الحقيقة عندما تكون مرة
قلت: بل محبوبة حب الدلال في الجمال. . . إني أراك ألان فاتنة أخرى ممثلاً في فتنتها عناد الفتنة؛ فأنت في عيني برق يثور على برق؛ أما أنا فلست أنا. انظري. . . هل تَرينني كما كنت قبل دقائق إنساناً بحالة إنسان؟
فسرّحتْ طرفها في هيكلي، فاقتحمتْ نظراتها إلى قلبي فذابت في دمي وجرت في عروقي، وكانت النظرات شيئاً حلواً في شيء مر. . . كانت رضا في غضب، وإغراء في صد، ولينا في صلابة
ثم كفتَّ الغادة بصرها وقالت: لو لم يكن غرام الشعراء غرام برهة من الدهر قد تطول وقد تقصر لما كان مزعزعاً مُخلًّى، ولكان فيه أظهر ما في الغرام؛ ولكن من حكمة الله أنه يخلق في كل شيئا كامل شيئاً ناقصاً ليجعل الكمال في الدنيا غاية لا تدرك
قلت: الشاعر يخلق موعوداً بحبيبة يتناهى إليها الجمال في رأيه، فيعيش ما يعيش هائماً على وجهه بين مراتع الغيد يفتش عن تلك الحبيبة المجهولة، فتجنح به عيناه إلى كثيرات يتخايلن له بتلك التي في غيبه. . . حتى إذا صادفها وعرضت له جمعته على حبها وأخرجته من طور الفكرة المشعثة إلى طور الفكرة الملمومة. . . وهانت التي كانت في
غيبتي فأصبحتْ في حياتي
قالت: لا أكاد أصدِّق هذا إلا لأكذِّبه، فما يثبت عندي أنني أول من توافي وأخر من تحب
قلت: كيف لا وأنت قد أصبحت لي في كل مالي، فأنا لا أرى الجمال إلا في جمالك أو في خلال جمالك؟. . إن خيالي ليقف عند نهايتك فليس فيه ما بعدك إلا أنت أو ما

. . .يجيء عنك
يا رب سبحانك!! يا فاتح الروح للروح. . . يا هازم القلب بالقلب. . . يا فاعل ما تريد. . . .. يا رب سبحانك
ماذا أقول؟. . . يا حبها أجب، فأنت السائل وأنت المجيب
آني رايتها تبكي ولكن بغير دموع، وسمعتها تضجُّ ولكن بغير صوت، ثم بدت في عينيها فترة كأنها سنة، ورأيتها في جلستها رخيّة رخيّة كأنها نائمة، وكانت حقاً نائمة نوم أحلام في يقظة فكر
. . .!قلت: آه ما أجملك
. . .قالت: وما اجمل شيطانك
ثم هزت رأسها هزة ضعف، ثم سكتت فتركتها تسكت لأرى ما في سكوتها من كلام حسنها. . . فماذا رأيت؟ رأيت وجهها يحمرُّ ويحمر حتى يكاد يلتهب، ثم رايته يميل عني ليخفي ما سفر عليه مما احتجب خلفه، وأدركت ما بها فاستحييت أن أطيل النظر إلى شعاع السحر في احمرار الخفر على محيياها، فأغمضت جفوني على حلم سكران فلم أراها. . .
وسمعتها تتنهد، وجاوبها قلبي فتنهد، وفتحت عيني مخمورتين لأراها فإذا بجمالها ثائر فزع. . . عينان مهمومتان ووجه مرتبك
ثم رايتها وخزت شفتها بسنها، وقرصت إصبعاً بإصبعين، ودقت برجلها على الأرض دقة وقالت: ما أضعف الإنسان!!.
!!ثم تفتَّرت وتندَّى جبينها وهدأت هدوء الفكر المستسلم فقلت: وما أقوى الحب
(طنطا)
السيد محمد زياده
قصة المكروب كيف كشفه رجاله
ترجمة الدكتور أحمد زكي
مدير مصلحة الكيمياء
عزرائيل يقبض بيد صفراء
وصل الفائت
ذهب البكباشي ريد رئيس بعثة الحمى الصفراء في جزيرة كوبا إلى الولايات المتحدة بدعوة من السلطات. وبقى مساعداه كارول ولازار في كوبا. أما كارول فطلب إلى لازار أن يسلط عليه بعوضة سبق أن شربت من دم مريض بالحمى، ففعل، ومرض كارول بالحمى ثم أشتفى. ثم وقعت بعوضة وبيئة اتفاقاً على ذراع لازار وهو يدور في عنابر المرضى فمرض بالحمى ومات

وعاد ريد من الولايات إلى كوبا، فرحب به كارول ترحيباً حاراً. وحزن ريد للازار وفرح للتجربتين اللتين نجحتا في إعطاء الحمى إلى كارول والى س. ص. وجفف مدامعه على لازار ورأى في القدر الذي وقع به يد الله التي لا غالب لها، ولم يفته أن يرى فيه ظاهرة للعلم أيضاً. كتب ريد: (أن لازار قرصته بعوضة وهو في عنابر الحمى الصفراء بالمستشفى، فلا أقل من الإقرار بجواز أن هذه البعوضة تلوثت بالحمى الصفراء من مريض، وإذن فحادث لازار وقع اعتباطاً ولكنه لم يضع سدى. . .)
قال ريد: (والآن جاء دوري أنا لأذوق البعوض دمي). ولكنه كان بلغ الخمسين من عمره فأرادوا تخزيله فقال لهم: (ولكن لابد من البرهان). وتُنصتُ إلى صوته الموسيقي فتجده لطيفاً خافتاً. وتنظر إلى وجهه فلا تجد لذقنه هذا البروز الذي يكون للفتوة والرجولة القوية. وتجمع هذا وهذا فتكاد تحسب أن ريد كان في الذي قال مترددا هيابا. ووالله لو حسبت ذلك ما شأنه، وكيف يشينه وهو وأحد من ثلاثة مات أولهم من غير شك وَوُرى التراب يقيناً
قال ذلك الصوت اللطيف الناعم: (ولكن لابد من برهان). وقام ريد صاحب هذا الصوت اللطيف الناعم إلى الجنرال ليونارد وود وحمل إليه الأخبار كلها وما تضمنته من أحداث مؤثرة. وكان وود أقل الرجال تخنثاً. فما سمع ما سمع حتى أذن لريد أن يفعل ما يشاء وأن يذهب إلى أي حد شاء. وأعطاه مالاً ليقيم معسكراً من سبع خيام وبيتين صغيرين، حتى قناة العلم أعطاه ثمنها. وأحسن من هذا كله أنه أعطاه مالاً يشتري به رجالا

يقامرون في تلك التجارب بأرواحهم فيسلكون بها سبيلاً تهلك فيها على الأقل نفس من كل خمس فلا تعود إلى الوجود لتستمتع بالثمن الذي دفع فيها. فشكر ريد الجنرال، وخرج عن كيمادوس حتى إذا بعد عنها ميلاً نصب على الأرض سبع خيام، ونشر العلم الأمريكي فوقها، وأسمى المعسكر معسكر لازار - ولنهتف ثلاثاً لذكرى لازار. وستعرف بعد قليل أي أعمال مجيدة وقعت في هذا المكان

ليس آكد في الحقائق من الحقيقة الآتية: كل صائد من كبار صياد المكروب يختلف اختلافاً بيناً عن كل صائد آخر منهم، ولكنهم جميعاً تجمعهم صفة واحدة: أنهم جميعاً مبتكرون، إلا ريد. ولكنه لا يستأهل الشنق لأنه لم يبتكر، لأن عذره حاضر، فأمر البعوض والقراد وغيره من ناقلات المكروب كان حديثا شائعا على ألسن البحاث في عشر السنوات الأخيرة من القرن الماضي، فلم يكن لريد مندوحة عن سماعه واقتباسه. وإن فاته الابتكار في هذا، فوالله ما فاته أن يسود البحاث جميعا بقوة خلقه. وإلى جانب هذا كان مجربا متقناً محسنا. ووسوس إليه خلقه الصلب القويم: (لا بد من قتل الناس لخلاص الناس)، فقام يرسم سلسلة من اختبارات محكمة هي أسوأ ما ابتدعه رجل خير من الجرائم

وكان ريد رجلاً يحب الإتقان والإحسان في الأعمال، فقضى بأن كل رجل يراد قرصه ببعوضة يصير حبسه قبل قرصه أياماً وأسابيع في هذا المعسكر تحت شمسه المحرقة حتى يكون بمعزل عن أي عدوى بالحمى الصفراء تأتى من غير هذه البعوضة، فلا بد أن تكون التجارب مسدودة الثقوب محكمة لا يخر الماء منها. وأعلن ريد في الجند الأمريكي أن الحرب لم تضع أوزارها بعد، وأن حرباً جديدة أعلنت لخلاص الإنسان. وسأل هل فيكم متطوعون؟ ولم يكد يجف مداد الإعلان حتى دخل إليه في مكتبه جندي يدعى كيسنجر من ودخل معه رجل آخر يدعى جون موران وحتى هذا لم يكن جندياً بل كاتباً ملكياً يعمل في مكتب الجنرال فتز هيولي دخلا عليه مكتبه فقالا: (جئنا أيها السيد لتجرب فينا).

وكان ريد رجلاً طاهر الذمة حي الضمير، فسألهما هل أدركا كل الإدراك ما اقدما عليه من المخاطر، وأخبرهما خبر الصداع الذي يجيئهما، والتهوع الذي يأتيهما، والقيء الأسود الذي يقيأن. وذكر لهما ما كان من وافدات جائحة لم تبق من الرجال على رجل واحد ليعود فيحكي خبرها ويدل على فظائعها

فأجاب الرجلان: (نعلم ذلك، وإنما جئنا تطوعاً واختياراً في سبيل العلم والإنسانية وحدهما). عندئذ اخبرهما ريد بما كان من كرم الجنرال ود، وذكر لهما أن من تعضه البعوضة سيكون له مائتا ريال قد تزاد إلى ثلاثمائة. فقال الرجلان: (نحن إنما تطوعنا على ألا نأخذ عن تطوعنا أجراً)، فانتفض ريد على قدميه ورفع يده بالسلام إلى قبعته، وهو البكباشى، وقال لهما: (أيها السيدان الكريمان، لكما تحيتي!)

وفي نفس هذا اليوم دخل الاثنان المحجر العسكري ليتجهزا فيه ليصيرا بمثابة خنزيرين غينين للتجريب على أحسن ما تكون الخنازير، فلا تدخل إليهما لوثةً ولا تتطرق إليهما ريبة. وفي الخامس من ديسمبر استضاف كيسنجر خمس بعوضات شربت من دمه حتى تروت، وكانت اثنتان منها قد شربتا منذ خمسة عشر يوماً وتسعة عشر يوماً من دم مرضى هلكوا بالحمى. ولم تمض عليه غير خمسة أيام حتى جاءه صداع يكاد يصدع رأسه، ومضى يومان آخران فاخذ يصفر لونه، وتعاقبت عليه أعراض المرض كما يجب أن تكون. ثم تعافى فحمد الله ريد على هذا الشفاء

ثم جاء المجد يسعى إلى ريد وصاحبيه كارول وأجرمنتي. وإن يكن الدهر لم يسعفهم، بمعنى أن الشبان الأمريكيين لم يزدحموا عليهم للتطوع ازدحاماً ويدوسوهم في سبيله دوساً ويرموا بحياتهم رمياً في سبيل العلم والإنسانية، فقد بعث الدهر إليهم رجالاً أسبانيين جاءوا من كوبا حديثا من أسبانيا، وكانوا غاية في الجهالة، وكان لهم مأرب في المائتي ريال؛ فتقدم خمسة من هؤلاء طمعاً في المال. ولنسمهم المهاجرين الأسبان، أو لعل الأوفق أن أسميهم بالأرقام 1، 2، 3، 4، 5 كما يسمى صيادو المكروب حيواناتهم التجريبية فيقولون الأرنب رقم 1 والأرنب رقم 2 وهلم جرا. وعلى كل حال تقدم هؤلاء الخمسة، فلما تهيئوا للقاء البعوض عضهم عضات هي أخطر في المتوسط من الرصاص البنادق، واستحقوا المال الذي أخذوه، فأن أربعة منهم جاءتهم الحمى الصفراء على أبين ما تجيء وبأظهر ما

تكون من الأعراض، أو كما يقول بعض الأطباء إذا هم لبسوا جلد العلماء: (بأجمل ما تكون الأعراض) وهذا نصر مبين! نصر لا يأتيه الشك من أي جهاته؛ فأن أحداً من هؤلاء الرجال لم يقترب يوماً من حيث يكون الوباء، وأخذوا فعوملوا معاملة الخنازير الغينية والفئران والأرانب التجريبية فحبسوا طويلاً في كيمادوس في خيمات مستورة لا يصنعون شيئاً ولا يرون أحداً، ولم تحدث لهم أحداث إلا شكات في أجسادهم شكتهم إياها إناث البعوض المقلمة ظهورها بالفضة. وكان الضجر لاشك قاتلهم لولا أنهم كانوا جهالا مغرقين فلم يكن بينهم وبين الحيوان فارق مبين

كتب ريد إلى زوجته يقول: (افرحي معي يا حبيبتي، فإنك لو استثنيت لقاح الدفتريا وبشلة السل التي اكتشفها كوخ، فهذا الكشف العلمي الذي وجدناه سيروى للأحفاد بأنه أكبر كشف حدث في القرن التاسع عشر. . .)

لم يكن ريد في السبيل التي اتخذها مبتكراً، ولكن دقته هذه بلغت حداً تنهض به إلى طبقة المبتكرين، فهو لا شك مبتكر في دقته، وقد كان في مقدوره أن يقف من بحثه عند هذا الحد، بل لعلك مقسم أن قد سولت له نفسه الوقوف عند هذا الحد، ولِمَ لا وهؤلاء ثمانية جاءتهم الحمى من قرصات البعوض؟ ألا أي حظ هذا الذي صحب ريد فلم يمت من رجاله الثمانية غير واحد؟

على أن ريد لم يقف عند هذا الحد، وأخذ يتسأل: (. . . ولكن أيجوز أن تنقل الحمى عن طريق غير البعوض؟)

واعتقد الناس أجمع أن ملابس الموتى من الحمى وأفرشتهم وكل ما يمتلكون يحمل الموت في طياته، فأحرقوا من أجل ذلك من الأفرشة والملابس ما بلغت قيمته ملايين الدولارات. وارتأى هذا الرأي رئيس الأطباء، وأرتآه كل طبيب له اسم في أمريكا شماليها وجنوبيها وأوسطها إلا الشيخ المخبول فنلى. وتشكك فيه ريد. وبينا هو في سرور من نجاحه في عدوى كيسنجر والأسبانيين المهاجرين جاء النجارون فنصبوا بيتين صغيرين دميمين في معسكر لازار. وكان البيت الأول أقبح البيتين، طوله أربع عشرة قدما في عشرين عرضا. وكان له بابان في مدخله، نصب أحدهما في حذق خلف الآخر حتى لا يفلت منه البعوض. وكان له نافذتان تطلان على الجنوب فتحا والباب في حائط واحد حتى لا يجري في هواء

البيت تيار. ووضع في البيت موقد لطيف ليرفع حرارته بعيداً فوق الدرجة الثانية والثلاثين المئوية، ووضع فيه براميل مليئة بالماء ليتشبع منه الهواء فيصبح بحره ومائه خانقاً كبطن سفينة ببعض مناطق الاستواء. وكان في هذا كفاية لهذا البيت من كرب وضيق، ولكن جاء الثالث عشر من نوفمبر عام 1900 فحمل جند إليه وهم يتصببون عرقاً عدداً من صناديق محكمة التسمير متهمة المنظر جاءت من عنابر الحمى الصفراء لتجعل من هذا البيت مثلاً يضرب في اللعنة والشؤم. . .

فلما أدبر نهار هذا اليوم وخيم ليله شهد ريد وكارول مشهدا من خير مشاهد الشجاعة والتضحية، ففي هذا البيت اللعين الأول دخل دكتور أمريكي شاب يدعى كوك، ودخل معه جنديان أمريكيان (ليت شعري ماذا عوق الناس فلم تنصب لهؤلاء الأبطال تماثيل الأبطال) يدعى أحدهم فوك ويدعى الآخر جرنجان

وفتح هؤلاء الرجال الثلاثة هذه الصناديق المحكمة المريبة داخل هذا البيت في جو رطب متلزج تضيق فيه الأنفاس

أُف لها من رائحة كريهة! ولعنوا وسبوا وسدوا أنوفهم واستمروا يفتحون الصناديق. فأخرجوا منها وسائد عليها القيء الأسود لقوم ماتوا بالحمى. وأخرجوا منها ملاءات أسرةٍ وألحفةٍ تلوثت بما يخرج من المريض إذا غاب حسه وهمدت قوته وضاع تحكمه في جسمه. وأخذوا يضربون الوسائد وينفضون الملاءات والألحفة، فقد كان ريد قال لهم: (لابد أن تعفروا جو هذه الحجرة بالوباء وتنشروه جيداً بين أرجائها). وقاموا يهيئون لأنفسهم من هذا المتاع فراشا على آسرة صغيرة من آسرة الجيش. وخلعوا ملابسهم ورقدوا على هذه الفرش القذرة وحاولوا النوم في تلك الحجرة الملعونة. . . وأقام ريد وكارول على هذه الحجرة يحوطانها بالرعاية ويحاذران خشية أن تدخلها بعوضة تائهة.

أما طعام فوك وكوك وجرنجان فلا تسل عنه فقد كان لا شك أطيب طعام

وتوالت الليالي وثلاثتهم في هذا البيت راقدون، ولعلهم كانوا يفكرون فيما صنع الله بأرواح من سبقوهم إلى هذه الملاءات وهذه الألحفة، أو لعلكم كانوا يفكرون هل من

سبيل غير البعوض تنتقل به الحمى. . . ثم جاء ريد، وهو رجل يجمع إلى طهارة ذمته شدة دقته؛ وجاء كارول، وهو رجل كالح عبوس؛ جاء كلاهما يزيدان تجربتهما إحكاماً على إحكام.

فحملا معهما صناديق أخرى وردت من عنابر الحمى الصفراء، فلما فضها فوك وكوك وجرنجان فزعوا إلى خارج عجزاً عن احتمالها ولكنهم عادوا ورقدوا وناموا. . .

وقضوا على هذا عشرين ليلة! فأين ذكراهم لا تُخلَّد، ولِمَ صنيعهم لم يُمجّد! ثم نقلوا وعزلوا وحدهم في خيمة طلقة الهواء وانتظروا أن تأتيهم الحمى؛ ولكنها لم تأتهم، وزادوا وزناً وصحوا أجساماً وقرقعوا بالنكات على البيت القذر الذي شرفوه، وعلى ألحفته وملاءاته التي تلفعوا بها فيه. ولما جاءتهم الأخبار بان كيسنجر والأسبانيين أصابتهم الحمى ضحكوا ملء أشداقهم كتلاميذ المدارس أن تكون الحمى جاءت هذه الأجسام الكبيرة من عضة بعوضة صغيرة

قد يعجبك هذا البرهان إعجابا شديدا، ولكن أي تجربة فظيعة تلك التي ساقت إليه، على أنه لم يكف ريد فلم يرضه علمه ولم تقتنع به لوثته

فأعاد الكرة، فأدخل إلى تلك الحجرة ثلاثة آخرين من شباب أمريكا، وجاءهم بملاءات وألحفة جديدة القذر جديدة البشع وعلى هذا أنامهم عشرين ليلة؛ وأراد أن يزيد في رفاهيتهم فأنامهم في نفس الأقمصة التي مات فيها المصابون

ثم عاد بعد ذلك فأدخل ثلاثة شبان امريكيين آخرين في نفس هذا البيت، وأرقدهم فيه عشرين ليلة على نفس الأسلوب مع فرق بسيط زاد التجربة دقة؛ ذلك أن غطى ووسائدهم بفوط أشربت قبل ذلك من دماء رجال ماتوا بالحمى

وبرغم كل هذا بقي كل هؤلاء الرجال التسعة أصحاء فلم تنلهم مسة ولو خفيفة من الحمى. قال ريد: (ما اعجب العلم؟).

وكتب: (إن الأسطورة الكاذبة التي تقول بأن الملابس تنقل الحمى الصفراء قد انفقأت كما تنفقئ فقاعة تخزها بدبوس). ولقد صدق ريد، فما أعجب العلم حقا! ولكن كذلك ما أقساه! وما أقسى صيادة المكروب! فهي قد تنزع من الباحث قلبه. وأخذ شيطان ريد الباحث يوسوس إليه: (ولكن أصادقة حقاً تلك النتائج التي أدت إليها تجاربك)؟ نعم إن الحمى لم تأت أيا من هؤلاء الرجال الذين ناموا في هذا البيت، ولكن ما أدرانا أنهم بطبيعتهم حصينون من الحمى، فهي لا تأتيهم أبداً؟ وكان ريد وكارول سألا فوك وجرنجان أمراً هو أقصى ما سأله ضابطا جنديا فأجاباهما إليه، ومع هذا فقد قام الاثنان من جديد فحقنا

جرنجان بدم وبئ أشد الوباء جاءا به من دم مريض، وقرصوا فوك ببعوض كان قرص مرضى ماتوا من الداء. فأصيب جرنجان وفوك بآلام جسام. واحتقن وجهاهما، واحمرت بالدم عيونهما، ونزلا وادي الموت ولكنهما عبراه سالمين. فحمد ريد ربه؛ حمده لخلاصهما، ولكنه حمده على الأكثر لما تبين له أنهما لم يكونا حصينين من الحمى لما باتا في بيت الكرب عشرين ليلة

ووهبوا كلا من فوك وجرنجان عن صنيعهما ثلاثمائة ريال، وهو مبلغ لم يكن صغيراً في تلك الأيام

(يتبع)

احمد زكي

بين عامين

أنا ونفسي. . .!

للأستاذ علي الطنطاوي

كنت نائماً ولكن قلبي لم ينم، بل كان يقظان يهزني لأفيق، ويغريني بشتى . . . الألاعيب يلوح لي بها، ملفوفة بثياب الأحلام زاهية وكابية، سارة ومحزنة. . . فلا أحفل بها، فلما ضاق بي ذرعا، وضعني على حافة الهاوية، ودفعني. . . فأفقت فزعاً. . . فإذا العام على وشك الرحيل!

نظرت من النافذة فإذا كل شيء أراه نائم؛ هذه النخلة التي تقوم حيال شباكي، وقبة الأعظمية التي تبدو من ورائها في عظمة وجلال، ودجلة التي تجري صامتة مهيبة، والقمر الذي يغسل ماءها بشعاعه. . .

وإذا على الطريق شبح يسير منهوكا!

على الطريق الذي لا يمتد في سهل ولا وعر، ولا يسير على سفح جبل، ولا شاطئ بحر، ولا يسلك الصحراء، ولا يخترق البساتين. . ولكنه يلف السهل والوعر، والجبل والبحر، والصحراء والبساتين وكل ما تحتويه، ومن يكون فيها. .
على الطريق الطويل الذي يلوح كخط أبيض، يغيب أوله في ظلام الأزل، ويختفي آخره في ضباب الأبد. .
رأيت شبحاً يسير على. . طريق (الزمان)!
وسمعت صائحاً يصيح بالطبيعة: أن تيقظي، إن العام يرحل الآن!
ففتحت النخلة عينيها ونظرت، فلما رأته قالت: قد رأيت عشرات مثله تأتي وتذهب، فلم تبدل شيئاً. . الفأس لا تزال باقية، وهذا الوحش البشري لا يزال ينتظر ثمري ليسلبنيه؛ ثم إذا قنط مني كافأني بالفأس والنار. . . فمالي وللعام الراحل؟ وأغمضت عينيها فنامت، ولم تكترث!
ونظرت القبة، فلما أبصرته قالت: قد رأيت مئات مثله تجيء وتروح، لم تبدل شيئاً؛ فهذا النخيل قائم حولي كما كان، والشمس تطلع عليّ كل يوم وتغيب، والنجوم تسطع فوقي كل ليلة، والأرض تنتظرني، تريد أن أهرم فتجذب أحجاري إليها وتأكلني. . وكل شيء على حاله لم يتبدل إلا الإنسان: كان الخليفة يمشي تحتي، ويخطر بين أساطيني في حلل المجد وأردية الجلال؛ إن أمر أطاعت الدنيا، وإن نادى لبى الدهر، وإن مال مالت الأرض؛ وكان الناس يطيفون بي أجلة أمجاداً، عباداً أذلاء لله، وملوكا أعزة على الناس. . فأصبحت وحيدة منعزلة، لا أرى إلا هذه الفئات من العامة المساكين الذين تعروا من كل جاه إلا جاه العبادة، ومجد إلا مجد الآخرة. . فمالي وللعام الراحل؟ وأغمضت عينيها، وعادت تحلم، ولم تكترث!
وتنبهت دجلة ونظرت، فلما رأته قالت: قد رأيت ألوفا مثله تمر في هذه الطريق فلم تعمل في الكون شيئاً، ولم تغير إلا الإنسان؛ كانت تقوم على شاطئ القصور الفخمة، تتوج هامها العظمة، ويحل أرجاءها الجلال، ويمثل في أبهائها المجد، ويقف على بابها التاريخ، يصدر عنها، ويكتب حديثها، وتبثق منها أشعة الحضارة والفن، وتسطع منها أنوار العلم والأدب، وتومض في شرفاتها وأروقتها العمائم التي كانت على أشرف رؤوس وأحفلها بالفضائل والعلوم. . . فلم يبق من هذا كله إلا أطلال، يريدون أن يطمسوا اليوم آثارها ويغطوا عليها بقبعة. . . ولكن ذلك لن يدوم؛ إن طريق الزمن لا يزال مسلوكا. . . ثم صمتت وعادت تجري كما كانت تجري ولم تكترث!
وأنصت القمر وأطل ينظر، فلما رأى العام الراحل قال: لقد رأيت ملايين مثله، وقد مللت مر السنين وكر العصور، فمالي وله؟ وعاد يفيض نوره على الكون ولم يكترث وبقيت وحدي!
بقيت وحيداً. . فنظرت في نفسي:
لقد صحبت سبعاً وعشرين قافلة من قوافل الزمان. . . فهل اقتربت من آمالي؟ هل دنوت من الغاية التي أسعى إليها في سفري؟
ثم سألت نفسي: ما هي الغاية التي تسعين إليها؟ أتسيرين إلى غير ما نهاية، كلما مر عام تعلقت به فسرت معه حتى يضيق بك عام من الأعوام فيقذف بك إلى وادي الموت؟ ألا تعلمين إلى أين المسير؟
ولم تكن النفس ترقب مثل هذا السؤال، فاضطربت اضطراباً شديداً، وكثرت فيها الآراء، واشتد بين أعضائها الخلاف، ثم انشقت انشقاقا، وانقسمت أحزاباً، وانتثرت نفوساً
قالت النفس الأولى: الغاية يا صاحبي واضحة؛ إننا نسعى لخدمة هذا الجسم الذي نحمله، نحيا لنسد حاجاته، وإجابة رغباته، وإمتاعه بملذاته
قالت الثانية: خسئت أيتها (النفس الفاجرة!) إننا لم نسخر من أجل هذا العنصر الأجنبي؛ إن الجسم ليس منا
قالت الأولى: أفهو إذن من غيرنا؟ وقهقهت ضاحكة
قالت: اسخري من نفسك، إنه لو كان منا، لما عشنا إلا فيه ولم نعش بعده؛ إنه ثوب نلبسه ونخلعه، أفيكون الثوب جزءا من اللابس؟
قالت الأولى: إنني لم أفهم فلسفتك، أتزعمين أن يدي ورجلي ليستا مني؟

قالت: نعم إن المرء لو قطعت يده أو رجله، أو ذهب سمعه أو بصره، لا تنقص نفسه شيئا، بل لقد يكون الأعمى الأصم أكمل نفساً، وأقوى عقلا، وأسمى روحا، من السميع البصير؛ وإنك لتعلمين هذا، ولكنك (نفس سوء) تريدين الاستمتاع بشهواتك، ونحن لا نحيا لنيل الشهوات!

قالت الأولى: فلم إذن نحيا يا أيتها (النفس المفكرة؟)

قالت: نحيا لنكشف خبايا الوجود، لنستطلع طلع الكائنات، لنعرف نواميس الكون وأسرار الطبيعة. . . من أجل هذا نحيا

فانبرت لها نفسي الثالثة. . . فقالت:

- كنت أظنك عاقلة تفهمين وتعرفين، فإذا أنت جاهلة. ويحك! ما نحن والوجود؟ مالنا وللطبيعة؟ ماذا يعنينا أكانت المجرة نهراً في السماء، أم كانت مجموعة من الكواكب؟ وماذا ينفعنا أن يكون في المريخ ناس، أو يكون مقفراً لا ناس فيه؟. . . مالنا ولهذا الفضول؟

قالت الثانية: إنك (نفس شاعرة) تنكرين قيمة العلم

قالت: إن هذا العلم خسران لك يا حمقاء! إنك كنت ترين في الكسوف حادثاً غريباً مليئاً بالأسرار يبعث فيك عالماً من العواطف، فلما علمت انه حادث طبيعي: كوكب يقوم بحذاء كوكب، ضاع معناه، وانتفت أسراره، ولم يعد يثير فيك عاطفة، أو يهيج فيك حسا

قالت الثانية: وما قيمة العاطفة؟ أتريدين أن ندع العلم من اجل عاطفة؟

قالت الثالثة: لا. بل تعلمي، ولكن تعلمي ما تحتاجين إليه؛ العلم دواء يؤخذ بمقدار الحاجة،

ولكن الشعور غذاء لا يستغنى عنه، فنحن نحيا لنرى الجمال ونستمتع به، ونتذوقه في الطبيعة وفي الإنسان وفي الفن. . . من أجل هذا نحيا

فوثبت النفس الرابعة (النفس المؤمنة المطمئنة) فقالت: يا للسخف!

قالت الثالثة وقد غاظها ما قالت: أي سخف ترين من فضلك؟ إذا كنا لا نرى الجمال فلم نحيا؟

قالت الرابعة متهكمة: كأنك تحيين الآن! إنك يا سيدتي سجينة فاسعي لتتخلصي من قيود السجن، ثم انطلق في فضاء الحرية، فعيشي في الحياة الأخرى: حياة الانطلاق

ورأيت المناقشة قد طالت وغدت مملة، وتشعبت فيها الآراء فأسكتهن ورجعت أفكر وحدي

قلت: إنني لا أدري لماذا أحيا؟ ولا أعرف ما هي صلتي بالكون!

كنت أنظر إلى الدنيا من خلال الكتب، وأشرف عليها من نافذة المدرسة، فأراها صغيرة كقبضة الكف، فحسبت أني إذا خرجت من المدرسة وحزت الشهادة قبضت عليها بيدي

وعشت بهذا الأمل، فلم أعرف حقيقة الحياة، ولم أعد لها العدة، ولم أجد من يخبرني خبرها إلا هؤلاء الأساتذة، وهم قوم مخادعون، لا يبصرون التلميذ بالدنيا كما هي في ذاتها، بل كما يريدون هم أن تكون. . .

وخرجت من المدرسة، وهبطت من سماء الخيال إلى ارض الحقيقة، فإذا الطريق مزروع بالشوك؛ فانطلقت امشي وأجاهد بهمة الشاب القوي الطموح، فما قطعت من الطريق إلا قليلاً حتى وجدت هذه (الطفيليات البشرية) تتعلق بكتفي وتستمسك بي، حتى إذا دنوت من أول منزل وهممت أن أستريح فيه وثبت فسبقتني إليه، فسرت أجاهد وأتقدم أؤم منزلاً آخر، حتى هدني التعب، ونال مني النصب، ولم أصل إلى شيء ولاح لي فجأة قصر عظيم على جانب الطريق، تلمع قبابه المغشاة بالذهب، وتشرق جدرانه المغطاة بالفضة، وتضيء نقوشه وزخارفه في شعاع الشمس، ويقرأ على بابه بأحرف من النور: (هذا قصر اليأس) فراعني مظهره، وهممت أن أحيد عن الطريق فأدخله، ولكني نظرت إليه أولاً، فإذا هو موحش مظلم في وسطه قبر مفتوح مملوء بالأساود والأفاعي. . . وإذا هو خال من البشر، ليس فيه إلا جماعة الشعراء البائسين، يعدون قصائدهم لتدفن معهم في هذا القبر الأسود فلا يدري بها أحد. . .

فوليت هاربا، وآثرت العودة إلى مقارعة الشوك، وجهاد الحياة

عدت فقارعت وجاهدت، فلم أصل إلى شيء. . . فسألت نفسي: هل أيأس؟

. . .سألتها وحدثتها، ولكني جهرت بالحديث، فأيقضت النائمين
أطلت علي النخلة؛ فقالت: إلامَ تجاهد وتناضل؟ ماذا تريد أيها الرجل؟ ألا تقنع مثلي بأن تقف في مكانك حتى يأتيك الموت؟
قلت: لا. إن لي غاية واحدة، هي أن أبقى دائما أجاهد وأناضل!
فضحكت وقهقهت أوراقها، وعادت إلى منامها
ومدت القبة رأسها فقالت: ألا تنام مثلي أيها الفتى وتحلم؟ لماذا تعدو في طريق القبر؟ قلت: إني أحب أن اصل إلى القبر لأني سأخرج منه إلى الفضاء الواسع؛ سأخلع فيه ثوبي الجثماني ثم أنطلق صُعُدا
فذهبت وهي تحدث نفسها: ينطلق صعداً؟ أنا هنا منذ ألف ومائة سنة ولم انطلق صعداً، ثم رجعت إلى المنام
وقالت دجلة وقد صفق لي ماؤها سروراً:
- امض أيها الغلام امض؛ إن طريقك طويل، ولكنك قوي؛ إنك لا تمشي إلى القبر لتفنى، ولكن تدخل من باب القبر إلى عالم الخلود، هأنا قد بلغت من العمر سبعمائة وخمسين ألف سنة، ولكنك قد ولدت بعقلك قبلي، وستعيش بروحك من بعدي. . . انطلق. . . انطلق إلى حياة الخلود؛ إنك ستبقى بعد أن تموت الجبال، وتغرق البحار، ويختنق الهواء. . . وتدفن الصحراء!
وأمن القمر على كلامها، وأطلَّ عليّ من النافذة فصافحني بشعاعه وقال!
لقد صدقت! إنك تعيش ألان لتعد العدة للحياة. . . إنك ستحيا حقاً حين تنطلق من قيود الجسم
ثم صمت. . . وصمت!
وكان العام يقطع اللحظة الأخيرة. . . فصحت به:
أنا الذي يهتم بك أيها العام. . . أنا الذي يودعك ويستقبل غيرك، لا النخلة ولا القبة ولا دجلة ولا القمر. . . تلك للفناء، وأنا للبقاء. . . تلك تنتظر الموت، وأنا انتظر الحياة. . .
أنا امشي على هام السنين إلى الحياة الأخرى!
(بغداد)
على الطنطاوي
بَنانٌ على بيان (البيانو)
للشاعر العالم الراوية الأستاذ أحمد الزين
ضَربتْ على وَتَر الحنانِ ... نفسي فداؤك من بنان
وشدَت بعاجٍ من أنا ... مِلِها على عاجِ (البيانِ)
مرّت عليه مثلما ... مرّت على القلبَ الأماني
أو مثلما مرَّ الخيا ... لُ يعيدُ لي ذكرى المغاني
وأفتن في سحر النُّهى ... شدُو الأنامل وَاللِّسان
وهفاَ بلُبِّكَ في أفا ... نين الصبابة ساحران
رنّات ساحرةِ الغِنا ... ء تجيبُ رنات المثاني
بثت إلى الأوتار من ... حرَ الصبابة ما تعاني
كم أودعت ألحانَها ... في الشوق من سحر المعاني
فتحِسُّ أوتار (البيا ... ن) وَقلبها يتشاكيان
لم يعرف الحبَّ المبَّر (م) ... ح مثلُ أفئدة الغواني
فلُرب حابسةِ الدُّمو ... ع وَدمعها في الصدر قاني
حبس الحياءُ بكاءها ... فبكت بترجيع الأغاني
نشرت صحيفة لحنها ... رمزاً يدق على البيان
رمزوا إلى ألحانهم ... صوناً لها عن الامتهان
وَاللحن من سرِّ الملا ... ئك غير مبتذل الصيان
وحي تنزَّل من سما ... ءِ قريحة ذات أفتنان
تنسي الوقورَ وقاره ... طرباً وَتمضي بالجبان
وتخالُ بالأوتار نا ... رَ الشوق تُضرمها اليدان
لاقت أنامِلها (البيا ... نَ) كما تلاقى عاشقان
يتضاحكان من السرو ... رِ وَفي الأسى يتباكيان

في نفْحة أُحسَسْت من ... طرب بها طَرِب المكان
وَتجاذَبَا ذِكر الهوى ... وحديث أيامٍ حِسانِ
وَلياليا طابت وَأث ... مارُ المنى فيها دواني
ومجالساً هبطت إلى الد ... نيا بها عُليا الجنان
زَمن تولى صفوه ... أيعود صفوك يا زماني
آناءُ لهوٍ خلّفت ... حزناً عليها كل آن
لم أنسها يا صاحبْي ... وُدي ولكن ذكّراني
إني لُيطربني الحدي ... ث وَإن ملأت بها جناني
زيدا فؤادي لوْعة ... لا تطعما أن تسلياني
من لم يذق ألم الحيا ... ة قضى سِنِيها وَهو فاني
(احمد الزين)
هدى النفس
بقلم العوضي الوكيل
يا هُدَى النفس بعد طول ضَلال ... لا تزالين لمْعَةً في خيالي
أتملاكِ في خياليَ طيفاً ... بالغ السحرِ، عبقريَّ الجمالِ
وكأني أراك باسمةَ الثغ ... ر تجيبين لوعتي وَاشتغالي
نحن روحان عاشتا قبل هذا الكو ... ن، في عالم رفيع الجلال
!ينكر الناس منهُ صورةَ ما تش ... هدُ عين الهوى، وَلسنا نُبالي
أنا هذا الفتى المثالِيُّ في التسع ... ر، وأنت - الحياةَ - أسمى مِثال
العوضي الوكيل
الفنون
بيتر باول روبنز
الفنان الخالد
للدكتور أحمد موسى
إذا قيس قدر الفنان بعمله، وفنه بحسن اختياره، ومجده بتراثه، فأنك تجد روبنز في عصره إمام الفنانين، وحجة العارفين، لأنه الفنان الذي عاش لفنه، وشعر بالجمال فيما حوله، وبحث وراء المثل الأعلى في كل ما صادفه. صور الجمال فأبدع، والطبيعة فأحسن، والحياة فأجاد. صور القصص التاريخية والدينية فأوضح، والشخصية فعرف؛ لا تجد فيما ترك مجالاً للنقد، ولا بين ما أختار موضعاً للزلل
هذا هو روبنز الذي ولد في مدينة سيجين سنة 1577، وانتقل في صحبة والديه وأخوته إلى كولونيا سنة 1578 وبقى فيها إلى سن العاشرة ثم تركها إلى انتفرب سنة 1588.
تمتع بقسط وافر من التربية الراقية التي لم تكن دائماً متوفرة لغيره من الفنانين، ودان بكثير من درايته بالتاريخ العام والتاريخ الديني إلى المدرسة الكاثوليكية بانتفرب شب روبنز مولعاً بمشاهد الطبيعة، موهوبا حدة النظر ودقة الملاحظة، له نظر سجل كل ما رآه؛ انجذب نحو الجمال، وتعطش إلى الخلود، وهام بالكمال المطلق
لم ير روبنز المثل الأعلى بين الموجودات، ولكنه ظل في خياله السامي، فعبر عنه جهد طاقته في تراثه المجيد
استمد من الطبيعة مادة التعبير والتصوير، فاستطاع إظهار ما انطوت عليه عبقريته وما جال بخاطره. كان من هذه الناحية عبداً للطبيعة، ولكنه فاز في النهاية بدرجة الوصول فكان سيدها، لأنه استمد منها مادته، ووصل بها إلى ما لم تصل هي إليه من تسام، إن قدر لنا أن نتأمله ونفهمه ونتأثر به، وصلنا نحن أيضاً بمشاعرنا إلى كمال الاستمتاع
كان أول معلميه للمناظر الطبيعية توبياس فيرهجت الذي وصل صيته إلى إيطاليا، كما كان أدم فان نورت معلمه لتصوير الأجسام والمناظر الشخصية؛ أما معلمه للفن والألوان فكان اوتوفان فين
لاحظ فيه معلموه نبوغا ظاهراً، فكانت دروسهم له أشبه بتعاريف أولية لأصول سير العمل، أما هو فقد نهج في اقصر وقت منهجا سار عليه وعرفت روحه فيه، وظل بعد مائة عام يؤثر في الفن الفلامنكي تأثيراً عميقاً إلى أقصى حد
شاءت المقادير لروبنز أن يسافر إلى إيطاليا سنة 1600، وشاءت المقادير أن يلحق

بخدمة أحد أمرائها الذي كان من كبار عشاق الفنون الجميلة في مدينة مانتوا، فشاهد روبنز لدى الأمير حيناً وبوساطته حيناً أخر أحسن ما أخرجته قرائح الفنانين الإيطاليين وغير الإيطاليين

لم يكن لروبنز إلا الانتقاد والتأمل، فكان في حالة من البؤس النفسي شبيهة بحال الفيلسوف المتصوف؛ لم يقنع بما رآه، ولم ير شيئاً عده كاملاً؛ ولذا فقد عمل مكملاً، وصل إلى ما صبت إليه نفسه، تلك النفس التي تميزت من نفوس المجموع بدقة التأمل وبالدرس. وبقوة الملاحظة وبالتغلغل في كنه المرئيات، وأخيراً بالقدرة اللانهائية على تفهم الجمال

وبقدر تفانيه في التصوير كان عاشقاً لسماع الموسيقى ولعزفها، كأنه يقول إن مصدر الفنون واحد، وإن الفنان الكامل لابد له من دراية بالفنون الأخرى لزيادة الاستمتاع بما في الحياة من مكنونات لا يصل إليها إلا العارف

تراه أيضاً ألمّ بأصول الكيمياء لرغبته في الوقوف على سر صناعة الألوان

سافر كثيرا، وتأمل كثيرا؛ لم يترك لحظة تمر دون النظر والدرس، باحثاً عن الجمال أياً كان نوعه، وحيثما كان وجوده. كان لرحلته إلى أسبانيا تأثير في نفسه لم يقل من اثر رحلته إلى إيطاليا التي استطاع أن يعرف الفن القديم والفن المعاصر أثناء إقامته بها وتدل كراسات روبنز ومذكراته الخاصة على أنه كان كثير التدوين والتسجيل والنقل والاقتباس، لا للتقليد بل للإلمام، شأن العالم الجهبذ؛ فتراه ينقل قدماً لتمثال استماله، ووعيناً من صورة استهوته، وذراعا ورأساً من أخرى، فكان جباراً في اختياره عنيفاً في نقده

خلق روبنز فنا قائما بذاته ومدرسة عرفت باسمه، بعد أن شاهد الكثير من أعمال فناني إيطاليا، وتأثر إلى حد بعيد بميشيل أنجلو وروفائيل وتيتسيان وكراتسي، كما أن بعض لوحاته تمت بصلة إلى جيليو رومانو الذي شاهد صوره عندما أقام في مانتوا أشبع نفسه الفنية، فعرج بعد عودته من إيطاليا على دراسة الألوان ودرسها درساً وافياً،

فكان له في صوره لون اسمر قوي، وظلٌ ازرق رمادي عُرفا بعده باسمه

أقام في بروكسل حيث تزوج من ايزابيلا برانت سنة 1609 وبنى بيتاً خاصاً لأقامته كان متحفا لآيات الفن ومدرسة لتلامذته، أمثال فان دايك، وفان تولدن، وكورن، وارسموس كويللينيوس، وجان فاندن هوك، وتوماس فان ايبرن، وساللارت، وفوتز، ودل مونت، وولفوت

وكل هؤلاء كانوا خير معين له على إتمام أعماله، فكان غالباً يضع التصميم والرسم التخطيطي ويترك لهم القيام بالتنفيذ تحت إشرافه، كما أنه كان المخرج الأخير لكل صورة

على أن فان سيندر وباول دي فوس كانا قديرين إلى حد أن سمح لهما بتصوير بعض الحيوانات في مصوراته

أما لوكاس فان آدن وجان وبلدنز فكانا يصوران أجزاء على لوحاته الشاملة للمناظر الطبيعية، كما كان جان بروجل يصور الزهور

ولا يعد هذا نقصا في مقدرة روبنز ولا تقصيرا منه، لأنه كان في ذلك أشبه بأستاذ يدير معهداً للأبحاث يساعده فيه تلامذته

والمجال لا يسمح هنا بوصف كل تراثه الخالد الذي بلغ ألفي قطعة من روائع الفن موزعة على متاحف العالم، ولكنا نقتصر فقط على وصف ما جاء من صوره بهذا المقال

فالصورة الأولى (الخاطئون أمام المسيح) تمثل يسوع واقفا وحول رأسه هالة من نور، أمامه امرأة خاطئة تقف منحنية بخشوع والدمع منهمر من عينيها تلتمس المغفرة عن الخطيئة، وحولها ثلاث رجال ظهرت على وجوههم علائم الندم والألم لما فرط منهم، لأنهم أمام رسول الله الذي ينظر إليهم نظرة العطف والسمو

والصورة الثانية (إنزال الجسد من الصلب إلى الأرض) تراها مجموعة رائعة من تسعة أشخاص لا تجد بينها واحدا خرج عن دائرة الاندماج وتكميل الشخصية الكاملة للصورة. انظر إلى طريقة ووقوف القديسات واشتراكهن في حمله، ولاحظ ما ارتسم على وجوههن من علائم الألم والحزن. أليس هذا الإنشاء الكامل دليلا على قوة المعرفة

بالقصص الدينية والعبقرية الفنية في الإخراج؟
وصورة مادونا القديس إلديفونسو تمثل العذراء جالسة على عرش وفوق رأسها ملائكة ثلاثة في هيئة أطفال بأجنحة يحملون الأزهار، وحولها وقفت أربع قديسات ينظرن إلى القديس الدفونسو وهو راكع أمامها، وهي في مجموعها تبين إلى حدٍ بعيد نبل الإخراج وقوة التعبير. وإذا تأملنا وجوه هذه القديسات وملابسهن نراها تعطينا فكرة صحيحة عن ناحية القوة البنائية في إنشاء روبنز
أما الصورة الرابعة (حكم الراعي باريس) فهي توضح لنا إلى أي حد وصل علم روبنز بالتاريخ القديم وبالقصص الإغريقي؛ فباريس هذا كان شاباً وديعاً يرعى الغنم، صادفه في طريقه ثلاثة آلهة هن هيرا واثينا وافروديت في هيئة نسوة غاية في الجمال، وسألنه أن يعطي التفاحة التي بيده إلى أجملهن منظراً. فأجاب باريس سائلاً ماذا يكون جزاؤه؟
وعدته هيرا بأن تمنحه الملك والغنى - وأثينا بمنحه الحكمة والشهرة - وأفروديت بأجمل النساء على الأرض إطلاقاً! تريث باريس وأخيراً أعطى تفاحته إلى أفروديت (راجع إلياذة هومير 28: 24)
أنظر إلى باريس وهو يمثل التريث والحيرة في الاختيار؛ ثم انظر إلى كل واحدة منهن ثم إليهن جميعاً، فكل واحدة أبرع من الأخرى جمالاً، ثم لا تلبث أن يستلفت نظرك ما فيها من قوة لا تزال إلى اليوم مطمح الفنانين
فكر قليلاً في العصر الذي مثل فيه روبنز هذه القصة الإغريقية الخرافية! أليس عجيباً أن يوفق روبنز إلى هذا الحد الذي يدعو إلى الدهشة والاستغراب؟ ألا تراه وفق كل التوفيق في تصوير هذه القصة الرائعة؟ أعطى تفاصيل الجسم كل عنايته، فكانت أية في جمال التناسب وعظمة الانسجام. لا ترى للتكرار فيها أثراً. إن متحف مدريد يحسد حقاً على احتوائه هذه التحفة الفنية، ولعل الحرب الداخلية لا تكون سبباً في أن يتسرب التلف إليها كما تسرب إلى غيرها في هذه الأيام بأسبانيا
وتعد لوحته الممثلة لأحد مواقف رواية اشيللوس تاتيوس في القرن الخامس قبل المسيح والمسماة لوسيبوس وكليتوفون من أروع وأبدع اللوحات
أنعم النظر إلى مظهر المرأتين المخطوفتين وإلى ما ظهر عليهما من علائم الوجل والتوسل، وكيف استطاع روبنز أن ينفث فيها من روحه وعبقريته، وتأمل كيف ينظر الحصانان إلى هذا الموقف الخطير كما لو كانا يتحفزان للهرب، ثم إلى قوة عضلات الرجلين الخاطفين
إن مجلداً ضخماً لا يكفي للكتابة عن روبنز الخالد، ولكنا مع هذا استطعنا أن نعرف بعض ما سجله تاريخ الفن له
دكتور أحمد موسى
القصص
البنتُ سرُّ أمها
و (فوجان بيسكو) (لشولتو دوجلاس)
ترجمة محمد عبد الفتاح محمد
مالت السيدة (بولا بار فيلد) في مقعدها الوثير إلى الوراء فبان جيدها العاجي الأبيض ينم عن أنوثة ناضجة وفتنة ساحرة
وأخذت ترنو إلى سقف الغرفة بعينين ساجيتين وقد غربت عن بالها لفافة التبغ التي استوت بين أصابع يدها البضة الجميلة المستندة على ذراع المقعد
كانت تحلق في أجواء الخيال تبحث عن حيلة تحوك خيوطها وهي التي قد بلغت السابعة والثلاثين من عمرها - ولم تجنح إلى تدبير الحيل واستنباط الوسائل. لأن وسامة محيياها كانت أحبولة كافية لجر المغنم ونيل المقصد. . إلا أن توالي الأعوام لم يدع من فتنة وجهها شركا يقوى على اصطياد الفرائس. . بل رأت أن شحذ الفكر وتدبير الحيل خير عون لها ألان على نيل ما تصبو إليه النفس وما يتمناه الفؤاد. . بعد أن الفت أن نجاحها عن طريق لحاظها الفتاكة قد تعثر في كثير من المواقف
كانت تقنع إبان حياتها المدرسية بالبنسات لشراء الحلوى راضية بعطف معلميها ومعلماتها. غير أن الثناء الذي كان ينصب على جمالها انصباباً والمديح الذي كان ينهال على فتنتها انهيالاً. حولا وجهها إلى أصدقائها الشبان فأنصتت لهم وهم يترنمون بهزج

الهوى في أذنيها ويرتلون أية الحب على مسمعيها. . مالت إليهم بكليتها. وتقبلت منهم الهدايا على اختلاف صنوفها
ولتلك الخطة الزرية عثراتها وأخطاؤها. فما بلغت الثامنة عشرة من سنيها حتى تزوجت من رجل فقير أهاب بها قلبها القُلّبُ أنها تحبه وتهواه
وكان زوجها هذا رجلاً هادئ الطبع، وديعاً جميلاً، خاملاً مغموراً، لا يهمه من دنياه سوى أن يملأ بطنه ليعيش. لذلك أخذت هي تدبر أمور الحياة لها وله ولابنتهما التي خرجت مبكرة إلى عالم الوجود بعد الزيجة بتسعة أهِلة
ولم تحس بأي إحساس من الحزن عندما قضى بعلها نحبه بعد ثلاث سنين من زواجهما. بل انبسطت أساريرها، وسرت لزوال تلك العقبة الكؤود التي كانت تقف حائلاً بينها وبين أمالها وأمانيها
كذلك لم تكن بالمرأة التي ترى أن الشرف في الحياة هو العمل على تحصيل القوت من سبله المشروعة، بل كانت من النساء اللواتي يسلكن أي سبيل للوصول إلى الحياة الرغدة الهانئة؛ ولا غضاضة في أن تهب جسدها متعة لمن يشاء مادام يجر عليها ذلك ما ترغب من أطايب العيش ولذائذه. ولذا عهدت بطفلتها إلى مرضع، ثم إلى مربية، ومن ثم إلى مدرسة داخلية، واتبعت أهواءها وما تمليه عليها رغباتها ومطامعها. راحت تخبط في ذلك العالم العابث الصاخب مع من يقع في يدها من الرجال
ولما أتمت ابنتها الثانية عشرة ألحقتها بمدرسة خارجية، ثم بأخرى، ومضت لا تعنى بتتبع أخبارها، ولا تهتم لترسم خطواتها؛ فكان لهذا ابلغ الأثر في إفساد الفتاة وإتلافها إلى أن بلغت الثامنة عشرة فبدت جميلة فاتنة. . . ففكرت أن تسلخها من دور العلم وأن تبقيها في المنزل، إلا إنها الفتها منافساً خطراً وأليفاً ينقص من قيمتها في سوق الجمال
ولا ننكر إنها كانت تنظر إلى ابنتها كمجرد طفلة، ولكن عندما تكون المرأة في السابعة والثلاثين، وترى نفسها تبدو كأنها في السابعة والعشرين، لا ترضى بأية حال أن تكون لها ابنة حسناء فاتنة في الثامنة عشرة
وكانت الابنة حقاً فاتنة، ولم تكن تلك الحقيقة لتغيب عن المرأة. . . غير إنها كانت تبدو دائماً دمثة الأخلاق مهذبة. . ولم تبدر منها طوال حياتها أية بادرة تؤخذ عليها، بل كانت تعامل أمها بما كانت تتلقنه من ضروب الأدب وحسن الأخلاق
وفتح الباب آنئذ ودخلت الفتاة تقول لامها في صوت ثابت رزين مشوب باحترام شديد:
- لقد أفرغت حقيبتي يا أماه. . . هل آخذ (بوجو) إلى الحديقة لنتنزه قليلا؟
يا للجمال الرائع! ويا للحسن الخلاب! كانت طويلة القامة في مهابة وجلال، ناضجة الأنوثة، مستكملة لكل معاني الجاذبية
وجابهت المرأة الحقيقة المرة، وصدمتها الرؤيا الحقيقية القاسية. . . روعتها تلك المنافسة الخطرة. . . رأت من غير جهد جاذبية قوية وجمالاً باهراً، فأحست بنيران الغيرة تضطرم
بين ضلوعها، وكرهت فيها. . . في ابنتها ذلك الجمال المغري الذي اكسبه رداؤها المدرسي البسيط روعة وجلالا
ورنت إليها وأخذت تحدث نفسها قائلة: (إنها ساحرة. . . تانك العينان الزرقاوان الصافيتان، وتلك الأهداب الوطف الناعسة. لقد كنت وأنا في مثل سنها أبدو كما تبدو، مغرية فاتنة، بذلك الشعر الذهبي المتهدل في إهمال حبيب على جبينها الأبيض المشرق، وبهاتين الشفتين الحمراوين اللتين تغريان بالقبل. إنها بهذا الحسن الفتاك، وبهذا الجمال الغلاب، تبدو كإحدى ربات الجمال القديمات)
وأخذت كل من الأم وبنتها تنظر إلى الأخرى في صمت وسكون. . . في حين كانت تنتاب المرأة شتى العوامل والأفكار وهي تتفرس في ابنتها البريئة. الطاهرة. . والفاتنة أيضاً
وكانت الفتاة مازالت في وقفتها تنتظر رد أمها على سؤالها ولكن تجاهلت المرآة ذلك وقالت كأنها تنتزع الكلام من حلقها انتزاعا
- سوف لا تذهبين إلى المدرسة بعد ألان يا عزيزتي. فماذا اعتزمت أن تفعلي بنفسك بعد ذلك؟
- لست. . . لست ادري بالضبط. . . وأظن انه يجدر بي أن. . أن أبقى هنا بجوارك. .

أني احب ذلك من قرارة نفسي. وعلى كل. سأتبع ما تشيرين به عليّ
- أضنك سئمت المدرسة؟ إذ قد تركتك فيها زمنا طويلاً
- لقد كانت جد سعيدة والله يا أماه. . . وقد ارتبطت بأواصر الصداقة مع كثيرات
ودق جرس التليفون، فرفعت المرأة السماعة، ثم قالت تحدث مخاطبها:
- أهذا آنت يا (فريدي؟) لقد ضننت أنك لن تعود إلا في الغد. . . ماذا؟. . . اجل. . . ساكون على أهبة الاستعداد في تمام السابعة لتناول العشاء معا. . . إلى اللقاء يا حبيبي. . .
ثم وضعت السماعة مكانها وعادت إلى مقعدها تفكر، وغرقت فيه وهي لا تزال في تفكيرها؛ غير أنها بعد لحظة ضربت بيدها فجأة على ذراع المقعد، ثم رنت إلى ابنتها وهي تقول:
- تعالي واجلسي يا عزيزتي. . . إن لي حديثاً معك
فجلست الفتاة قبالتها وتفرست فيها أمها فترة طويلة وهي صامتة؛ ثم خرجت من صمتها أخيراً وآخذت تسرد عليها تاريخ حياتها في شي من الإسهاب. . . مالت إلى الخلف في مقعدها وقصت عليها تلك الأسباب التي دفعت به إلى هذه الطريق الوعرة التي تنساب فيها، وتلك الحياة الشائكة التي تحياها
وعندما انتهت من قصتها خيم على الغرفة صمت رهيب أطرقت أثناءه الابنة وأخذت تنظر إلى الفرش الثمينة التي ازدانت بها أرض الغرفة
غير أن الأم استأنفت تقول:
- وها أنت ترينني وقد بلغت السابعة والثلاثين من عمري، فإذا كنت ترغبين في حياة رغدة هانئة فدعيني اشق لنفسي الطريق التي أراها أجدى لنا وانفع
فرفعت الفتاة رأسها في سرعة وقد شع من عينيها الزرقاوين بريق غريب لم تستطع الأم أن تدرك معناه
فترددت المرأة طويلاً قبل أن تتابع الحديث. وساءلت نفسها. . ترى هل أدركت ابنتها معنى ما قصته عليها. . إنها تجلس أمامها هادئة رزينة، في تأدب واحترام كطالبة صغيرة ساذجة واستطردت قائلة:
- والآن، هل فهمت ما أرمي إليه؟ وهل تفقهين ما أبغي إذا قلت لك إنه يتحتم عليك الخروج من الميدان ردحاً من الزمن؟ فهناك رجل جديد. رجل غني واسع الثراء. . . وإني أحوك حوله شباكي هذه المرة. لا لشيء سوى أن اقترن به. إني أعمل يا ابنتي كي أوفر لك، ولي أيضاً أسباب السعادة والهناءة. وسوف يأتي هنا هذا المساء. فيجب ألا تظهري أمامه. . . وليس ذلك لأنك تظهرين حقيقة عمري فحسب، بل لأني أيضاً لا أستطيع الثبات بجمالي أمام سحرك؛ وليس هناك من الرجال من يقوى على رؤيتنا معاً - أنا وأنت - في غرفة واحدة دون أن يفتنه حسنك
فهبت الفتاة واقفة بغتة وهي تقول صارخة:
- أمي!!
واختفت دلائل الطهارة والبراءة والأدب الجم والحياء الشديد، اختفت كل تلك الدلائل وحل محلها بريق غريب في العينين الزرقاوين. تبدلت بضحكة ثائرة صاخبة تحشرجت في
حنجرتها المتهدجة الحنون
ألقت بنفسها على حجر أمها ثم طوقت عنقها بذراعيها واستطردت تقول:
- أمي. . . أمي العزيزة. . كم. . كم أنا سعيدة! كم أنا فرحة هانئة؛ إنك طيبة القلب جداً؛ لطالما أعجبت بك إعجاباً شديداً؛ إنك حياتي يا أمي؛ إني احبك حباً هائلاً؛ وساكون لك أكبر عون على نجاح خطتك. . . هيا أعطيني (شلنين) لأذهب إلى (السينما) وسأبقى خارج الدار حتى يرحل عنها رَجُلُكِ. . ومن ثم ننظر في باقي الأمر عندما يسفر الصبح. . ويا حبذا لو أمكنك بسلاح جمالك وقوة سحرك أن تجعليه يهبني سيارة صغيرة ذات مقعدين. . . سيارة سباق زرقاء بجوانب حمراء. . يا لسعادتنا! يا لطالعنا المجدود!
فلهثت الأم وهي تقول:
- ابنتي!!
فقالت الفتاة العصرية الساحرة:

ماذا علينا لو فعلنا ذلك ما دمنا نود رغد العيش؟. يا ترى هل سنشرب (الجن) و - (الفيرموت) الإيطالي!؟

محمد عبد الفتاح محمد

بالمساحة والمناجم

البريد الأدبي

العيد المئوي لمعهد مصري جليل

كان الاحتفال بالعيد المئوي للمدرسة الخديوية حادثا فريداً في تاريخ مصر الثقافي والاجتماعي، فقد انقضت مائة عام كاملة مذ قام هذا المعهد الجليل ليعنى بالثقافة الإعدادية أو الثانوية؛ وكان قيامه في سنة 1836 في أبي زعبل مكان مدرسة الطب القديمة، ثم الحق بعد ذلك بمدرسة الألسن الشهيرة التي كان مقرها مكان فندق شبرد الحالي، والتي كان مديرها العلامة الشهير رفاعة رافع بك الطهطاوي؛ ثم اعيد بعد ذلك إلى أبي زعبل، ثم إلى بولاق، ثم إلى العباسية، واستقر أخيراً في بنائه الحالي بسراي فاضل باشا بدرب الجماميز منذ سنة 1888، اعني منذ ثمانية وأربعين عاما، وأطلق على المعهد اسم (المدرسة التجهيزية) إشارة إلى مهمتها في أعداد الطلبة للالتحاق بالمدارس العالية أو الخصوصية كما كانت تسمى في ذلك الوقت؛ ثم أطلق عليها اسم المدرسة الخديوية أيام إسماعيل باشا، وكان التعليم فيها داخليا مجانياً حتى أواخر القرن الماضي

وقد أنجبت المدرسة الخديوية خلال عمرها الطويل الحافل ثبتاً باهراً من العلماء والعظماء والزعماء في كل ضرب وفن، وزودت مصر الحديثة بمئات من أبنائها البررة الذين عملوا على تقدمها، وشادوا نهضتها الحديثة، وقادوها في مختلف نواحي حياتها العامة، وسهروا على مصايرها وتسديد خطاها طوال هذه الحقبة المليئة بالحوادث والخطوب من تاريخها. والمقام أضيق من أن يتسع لتعداد هذا الثبت الباهر؛ ويكفي أن نذكر أن صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا زعيم مصر المستقلة هو من خريجي هذا المعهد الجليل، وان أكابر رجال الدولة الآخرين الذين شهدوا الاحتفال بصفة رسمية كرئيس مجلس الشيوخ، ورئيس مجلس النواب، ووزير المعارف كلهم من خريجيه، وان منهم أعلاما ساطعة كأميري الشعر الحديث صبري باشا وشوقي بك، وإمام الوطنية المصرية الشاب مصطفى باشا كامل

وكان الاحتفال بالغ الروعة والجلال؛ وقد بدئ في اليوم الأول، وهو يوم الاثنين الماضي بإقامة حفلة رياضية شائقة في النادي الأهلي اشترك في مباراتها كبار الرياضيين القدماء من خريجي الخديوية؛ وكان منظراً شائقاً مؤثراً أن ترى أولئك الكهول الذين شابت

نواصيهم وصلعت رؤوسهم يرتدون ثياب اللعب القديمة فرحين جذلين، ويلعبون متأثرين متحمسين؛ ثم أقيمت في المساء بدار الأوبرا الملكية حفلة تمثيلية موسيقية؛ وفي اليوم التالي أقيم الاحتفال الرسمي الكبير في سرادق فخم رحيب نصب في فناء المعهد القديم، واحتشد فيه آلاف من خريجي الخديوية؛ وانتظموا جماعات يجمع بينها عهد التخرج؛ وكان لقاء الخريجين بعد هذا البعاد الطويل مؤثراً، وكان بعضهم يعانق بعضا في مظاهر من الحنان المشجي، ألقيت في الاحتفال خطب رنانة، اشترك في إلقائها وزير المعارف، رئيس الوزراء، ورئيس مجلس الشيوخ، وناظر المدرسة الحالي وبعض الخريجين

وبعد أن قام مندوب جلالة الملك بوضع الحجر الأساسي بفناء المعهد الجديد اختتم الاحتفال بمنظر بالغ في الطرافة والروعة، إذ هرع المدعوون جميعا وفي مقدمتهم مندوب جلالة الملك والوزراء والعظماء والخريجين على اختلاف أعمارهم ومراتبهم إلى قاعات طعام معهدهم القديم، وجلسوا جميعا يتناولون الشاي والفطائر على موائدهم الخشبية القديمة عارية كما عرفوها أيام الدرس، فكان لذلك منظر مرح ومؤثر معاً

بول بورجيه بالعربية

ظهرت أخيراً ترجمة عربية لأثر من الآثار الغربية الخالدة هو قصة (التلميذ بقلم بول بورجيه الكاتب الفرنسي الكبير وعضو الأكاديمية الفرنسية؛ أخرجها بالعربية الأستاذ عبد المجيد نافع المحامي. وقد ظهرت القصة لأول مرة في سنة 1892، وبورجيه

يومئذ في عنفوان شبابه، فنالت نجاحاً عظيما، وحملته إلى الطليعة بين كتاب العصر، ومهدت لدخوله بعد ذلك بعامين في الأكاديمية الفرنسية وانتظامه في سلك الخالدين. ويعتبرها البعض أعظم قصصه، وأمتنها أسلوباً، أوفرها امتناناً. أما الترجمة العربية فهي متينة بليغة تشهد لمترجمها بما بذل في سبيلها من جهد شاق يقدره على الأخص أولئك الذين يقرءون لبورجيه بالفرنسية ويعرفون روعة أسلوبه، ودقة بيانه، وقوة تعبيره وقد توفى بورجيه منذ نحو عام في الثانية والثمانين من عمره بعد أن غمر الأدب الفرنسي بفيض رائع من شعره وقصصه ومسرحياته وآثاره النقدية

وظهور مثل هذه الآثار الخالدة من الأدب الغربي مترجمة بأقلام رصينة بارعة كقلم الأستاذ نافع مما يبعث إلى الغبطة، ويدفع بالترجمة إلى غايتها المقصودة، ويرتفع بالتراث المترجم

إلى المستوى الرفيع الذي نرجوه غذاء للعقلية المصرية الفتية في عصر النهضة والاستقلال

معهد ألماني جديد للتمثيل

يفتتح في يناير الحالي معهد جديد للتمثيل في مدينة ميونيخ (منشن) عاصمة بافاريا (بألمانيا)، وسيكون برنامجه شاملا لدراسة فن التمثيل ذاته، وفن الزخرفة والإخراج، وتنظيم الأزياء والمناظر، وتاريخ المسرح، ومدة الدراسة فيه سنتان. والجديد في هذا المسرح أن أساتذته سيختارون جميعاً من بين الشباب. ولميونيخ شهرة خاصة بفنها المسرحي، وبها مسرح تاريخي قديم تمثل فيه أرقى الروايات الألمانية يقع إلى جانب القصر الملكي القديم؛ وفي كل عام ينظم فيها مسرح عظيم في العراء يشهده الألوف

مجموعة شعرية عن الريف المصري

صدرت أخيراً بالفرنسية مجموعة شعرية عن الريف المصري بعنوان (في الجنوب تحت السماء الحارة) , بقلم السيدة نيللي فوشيه زنانيري؛ والسيدة نيللي مصرية المولد والنشأة والوطن، ومن الشخصيات المعروفة في الأوساط الاجتماعية المصرية الأوربية؛ وهي كاتبة وشاعرة قديرة تعبر عن خواطرها باللغة الفرنسية، وعضو في نادي القلم المصري. وقد أصدرت من قبل مجموعتين شعريتين أخريين؛ ومجموعتها الجديدة تحتوي خمس وعشرين قصيدة كلها وصف وتصوير للمناظر الطبيعية المصرية والريف المصري بشمسه الوضاءة وفلواته الشاسعة، ورماله وضبابه ورذاذه المنعش؛ وهذه القطع الشعرية تفيض قوة ورقة، كما أنها تفيض موسيقى. ذلك أن الخيال الذي أخرجها قد صاغته الطبيعة المصرية، ونما وترعرع في ظلها، فهو يحسن لذلك التعبير عنها وعن مؤثراتها. وقد زينت هذه المجموعة الشعرية بعدة صور فنية بديعة

المدينة الخالدة ومجتمع المستقبل

منذ نصف قرن اصدر الكاتب الأمريكي إدوارد بلامي كتابه أو قصته عن الحروب الجوية، وعنوانها (نظرة إلى الوراء من سنة 2000 إلى سنة 1887) فيها تخيل أن الحرب قد انتقلت من الأرض إلى الجو، وأن معارك جوية ستنشب في السماء كما تنشب المعارك بين

الجيوش البرية؛ وقد أيدت الحوادث خيال الكاتب، فلم تجيء الحرب الكبرى حتى كانت أساطيل من الطيارات تملأ الجو، وحتى كانت المعارك الحامية تنشب في الهواء وقد صدرت أخيراً بالألمانية قصة جديدة من هذا النوع في تصور المستقبل، وهي ليست قصة عسكرية كقصة بلامي، بل قصة اجتماعية عنوانها (المدينة الخالدة) بقلم الكاتب النمسوي الكبير البارون فون ليفنتال؛ والمدينة الخالدة هي مدينة فيينا عاصمة النمسا؛ ويصور لنا الكاتب في قصته ماذا سيكون عليه المجتمع النمسوي سنة 2000، وهو يتوقع أن يكون النظام السائد يومئذ هو نظام النقابات؛ ويتوقع أن ينعم المجتمع بكثير من الرخاء والرفاهة، وأن يحتفظ المجتمع النمسوي خلال هذه الحقبة دائماً بميوله المرحة، وتفاؤله رغم كل الظروف والمحن؛ وقصة البارون ليفنتال تفيض وطنية وحماسة وقد استقبلت في النمسا استقبالاً عظيما، وذاعت ذيوعاً كبيراً، وهي اليوم كتاب الموسم في العاصمة النمسوية؛ وتعتبر في نظر النقدة أصدق صورة للروح النمسوية والعواطف الفينية التي تجنح في مجموعها إلى المرح والدعابة والترويح عن النفس، واستقبال الحياة دائماً بالابتسام والرضى

النقد
سلسلة الموسوعات العربية
معجم الأدباء - الجزء الثاني
للدكتور عبد الوهاب عزام
أفتتح هذا المقال بكلمتين: الأولى أن الدكتور الفاضل احمد فريد الرفاعي مشكور على ما يبذل من جهد في نشر الآداب العربية، معترف له بالهمة العالية. وليس يذهب بجهده، ولا يحط من همته، أن تقع في الكتب التي ينشرها أغلاط، ولكن يشين الأدباء جميعاً إلا يبين له الغلط ليبتغي الوسيلة إلى تجنبه
والكلمة الثانية أوجهها إلى أستاذي الجليل الشيخ عبد الخالق عمر الذي اعترف كل حين بفضله، وانطوي ما حييت على حبه؛ فقد شرعت أنقد الكتاب وليس أمامي إلا الناشر ومن ورائه وزارة المعارف. ولما تبينت أن لأستاذي الفاضل شركة في العمل لم اعد هذا النقد موجهاً إليه، ولا حسبت هذه الأغلاط مأخوذة عليه، لأن هذا العمل على اضطرابه لا يمكن أستاذنا من الأشراف على التصحيح، والتصرف في الآمر على قدر علمه الواسع وبحثه الدقيق. ولو وكل الآمر إليه ما وقعت في الكتاب هذه المأخذ.
ثم أمضي في نقد الجزء الثاني (أو القسم الثاني من الجزء الأول، في تجزئة ياقوت) متجاوزاً عن بقية مآخذ الجزء الأول، بادئاً بأغلاط المتن فمثنياً بمآخذ التعليق. وأذكر القارئ بما قلته في مقالي الأول أن هذا النقد نقد تمثيل لا استقصاء، وأني لا اثبت إلا الغلط الذي أدركه بالنظرة الأولى، تاركاً إلى حين الجمل التي يحتاج تصويبها إلى مراجعة وبحث
ص 10 أبيات أولها
فإن تسأليني كيف أنت فأنني ... تنكرت دهري والمعاهد والصَّبِرَا
وسائر الأبيات على روي الباء المطلقة، مثل عزبا، الدربا. فلست ادري كيف سها الناشر عن اختلاف القافية في الأبيات؟ وكيف يتفق هذا السهو مع عنايته بشكل الصبرا، وهوغلط آخر، فالصبر هو المادة المرة المعروفة، وما أظن الناشر أراده، والوزن لا يحتمله فهذه كلمة واحدة تنوء بثلاثة أغلاط
ومثل هذا في ص 244 أبيات أولها:
إذا كانت صِلاتكم رقاعا ... تخطط بالأنامل والأكف
وبعده بيت عكس شطراه فصار:
فها خطي خذوه بألف ألف ... ولم تكن الرقاع تجر نفعا
ولم ينبه اختلاف القافية الناشر إلى هذا الغلط
وهذا الغلط مما استدركه الناشرون، ولكني أبقيته في المقال لأنني لم ادع أن هذا يدق على إفهامهم، ولكنه دليل على مقدار العناية بالتصحيح، وليس يذهب بالمؤاخذة إنهم استدركوه؛ فإن وقوعه في الكتاب يدل على الإسراع والتساهل
ص16 (وكان من رستاق جِي) وفي الحاشية تروى: رستاق الحيَّ، ولعلها رستاق حي على الإضافة. . . الخ. والصواب جيّ بالجيم المفتوحة وللياء المشددة، وهو موضع بأصفهان
ص29 (لأن المهلبي مات بعَمّان) والصواب عُمان
ص31 (ولقد قرَرْتَ عين أبيك بك في حياته، وسكنت مضاجعه إلى مكانك بعد وفاته). والصواب قرَّت عينُ أبيك، لأن قرّ لازم، ولو لجاز أن يتعدى ما جازت التعدية في هذه الجملة رعاية لسياق الكلام
ص37 (كتابي - أيدك الله - من المعسكر بجَيْل) والصواب جيل بالكسر، وكانت بلدة قرب بغداد، أو جَبُّل وكانت بين بغداد وواسط
ص41 ولكنا وهبنا إساءتك لخدمتك، وعلينا المحافظة فيك على حفيظتك. وفي الحاشية على بمعنى مع. والصواب غلّبنا المحافظة. . . الخ
48) فخرجت مبادراً وأنفذتِ لِشُكْرَسْتان صاحبي، وانفذ ابن سعدان محمدا لأواتيه. والصواب لَشكَرِستان. والظاهر: محمدا ابنه كما يفهم من .(وانتظرت عودهما بما فعلا سياق الكلام
ص53 (لولا الثقة بأنه يحقن مياه الوجوه ويحميها، ويَجُمُّها ولا يَقذِيها). والصواب يُجمّها لا يُقذيها، من أجم أقذى

ص57: أيارب كلُّ الناس أبناءِ علة=أما تعثر الدنيا لنا بصديق
والأصح أبناء عَلّة؛ وأبناء العلات من أبوهم واحد وأمهاتهم مختلفة. والمراد أن الناس على
اختلافهم متشابهون ينزعون إلى أصل واحد. وفي الحديث: (الأنبياء أبناء علات) وقال المعري:
ألا إنما الأيام أبناء عَلّة ... وهذي الليالي كلها أخوات
ص81 حتى ترى في وجهك الميمون غاية سُؤلها
والصواب تسهيل الهمز لتلائم القوافي الأخرى: رَسولِها، وُصولِها الخ
ص86 ثلاثة عشر بيتا في الغزل، والخطاب فيها لمؤنث. غيّره الناشر إلى مذكر، مع أن الشاعر سمى من يخاطبه ظبية، وجعل لها فرعاً من الشعر؛ ومن هذه الأبيات:
والصابئون يرون انك فردة ... في الحسن إقراراً لرب ماجد
كالزهرة الزهراء أنت لديهم ... مسعودة بالمشتري وعطارد
قال الشارح: فردة بمعنى مفرد، ليستقيم له خطاب المذكر على رغم الشاعر واللغة
ص90 السري بن احمد الشاعر الرّفاء. والصواب تشديد الفاء
ص91 (وارتقوا كيف شِئتمْ في المعالي - والصواب شئتمُ بضم الميم ومدها
ص122 (ومات فرأته السيدة فاتّهمَ أنه سقاه السم)
والصواب فمات ابن أخي السيدة الخ والدَليل في ص 110 -
ص123 المُحْسن بن علي التنوخي. والصواب المحسِّن
قال المعري في القصيدة التي كتبها إلى ابنه على بن المحسن:
يا ابن المَحسِّن ما أُنسيت مكرمة ... فاذكر مودتنا إن كنت أنسيتا
ص126 منديل الغُمْر. والصواب منديل الغَمَر
ص128 لها فخِذٌ بُختيّةٌ تُعلف النوى - والصواب فخذا بختيّة بالتثنية والإضافة
ص 133:
إن بان شخصي عن مجالس غيره ... فالنفس في ألطافه تتقلب
والصواب مجالس عِزّء، لأن الأبيات شكوى من احتجاب الممدوح وأولها:
ومحجب بحجاب عز شامخ ... وشعاع نور جبينه لا يحجب
ص135 وجدت في آخر نسخة المعتضد لعبد القاهر الجرجاني - والصواب المقتصد
ص139 (وكان ورعا متخشناً في الحكم) وفي الحاشية (هكذا رواه ابن الانباري وفي الأصل متلينا. ورواية ابن الانباري أظهر.) أقول: واظهر من هذا وذاك (متثبتاً في الحكم)
ص178 قول بديع الزمان:
أخامقة حتى يقال سجية ... ولو كان ذا عقل لكنت أعاقله
وفي الحاشية: المقة المحبة - والصواب أُحامقُه حتى يقال سجية. أي يجاريه في الحمق
ص182 من مطبوخ ومسلوخ الخ - والصواب بين مطبوخ الخ
ص188 في رسالة الخوارزمي إلى البديع (أما ما شكاه سيدي من مضايقتي إياه رَغْيمٍ في القيام). والصواب مضايقتي إياه - زَعَم - في القيام. يعني ما زعمه من مضايقتيً الخ
ص189 من رسالة الخوارزمي أيضاً: (ففيهم لعمري فوق ما وصف حسنُ عشرة، وسدادُ طريقة وجمالُ تفصيل وجملة.)
والصواب الفتح في الكلمات الثلاث: حسنَ عشرة الخ على التمييز، يشهد بهذا سياق الرسالة
ص 194 من رسالة الخوارزمي أيضاً: ولو أراد سيدي أن اصدّق دعواه في شوقه إليّ، ليَغُضَّ من حجم عتبه عليّ، فإنما اللفظ زائد، واللحظ وارد) وهذه جمل لا معنى لها.
والصواب لنَقَص من حجم عتبه الخ فإنما اللفظ رائد بالراء
ص 114 أبو العباس أحمد بن محمد البارودي - والصواب الباوردي
ص 138 أبا لهب محمد ابن أبي العلاء - والصواب أبو كريب، وليس في المسلمين من يسمى أبا لهب
ص 139 وكان مفتياً في علوم شتى. والصواب متفنناً

147 في نسخة مرجليوث: قال ابن أبا جعفر؛ فصححت في هذه الطبعة: قال ابن أبي جعفر. والصواب قال ابن الفرات: أبا جعفر الخ كما يفهم من سياق القصة؛ فابن الفرات يخاطب أبا جعفر

ص151 ابن عمر - والصواب أبي عمر

وسأبين في المقال الآتي أن شاء الله ما أخذته على تعليق الناشرين في هذا الجزء. ثم أبين سوء النسق في تراجم الكتاب وفي متنه. والله ولي التوفيق

عبد الوهاب عزام

معجم الأدباء أيضاً

رد على نقد

للأستاذ محمود مصطفى

الأستاذ بكلية اللغة العربية

قرأت كلمة للعالم الجليل الدكتور عبد الوهاب عزام يتناول فيها ذلك العمل العظيم الذي اضطلع به الدكتور احمد فريد الرفاعي من إظهار هذه الكنوز الأدبية العظيمة في ثياب قشيبة معبدة الطريق للقراء

واشهد أن الدكتور عزام قد دل بكلمته على غيرة على العربية لم يقر له معها قرار حتى يغير ما رآه غير مساوق للصواب في نظره، وهي غيرة يشكر قدر شكر الدكتور الرفاعي على غيرته التي حملته بذل المصونين الجهد والمال في سبيل خدمة العربية وما دفعني أن ادخل بين الناقد والمنقود إلا حبي لإحقاق الحق وإقرار الأمور في نصبها اكتب هذه الكلمة ولم اسعد بعد باقتناء الكتاب، فأنا اكتفي بالرد على ما لمست عدوله عن الجادة في كلام الدكتور عزام

يقول الدكتور عزام الصواب همُّه بضم ،(إذ كلٌّ هَمَّه تحصيل المأكول والمشروب) (1) الميم والمراد هنا الاسم إذ الفعل أهمه لا همه. وتقول عبارة القاموس المحيط: وهمه الأمر أحزنه كأهمه. ولا يعزب عن البال أن استعمال هذا الفعل بمعنى شغله واستبد بمشاعره مجاز قريب لا تكلف فيه

قال الصواب بفارسَ فأنها ممنوعة من الصرف. وأقول ورد في (ومعاوية بفارس) (2) القاموس وفارس الفرس أو بلادهم. وإذا اتبعنا القاعدة القائلة إن كل اسم قبيلة أو موضع لا علامة للتأنيث فيه يصح تذكيره على معنى القوم أو الرهط والموضع، وتأنيثه على معنى القبيلة أو البلدة، فعلى هذا لا يكون لتخطئة الدكتور التنوين وجه مقبول

قال الدكتور عزام: الصواب فتح السين؛ وأقول في (ولم نعوضّ من ذاك ميُسرة) (3) القاموس المحيط الميسرة مثلثة السين. وفي كتاب (نيل الأرب في مثلثات العرب) للشيخ قويدر الخليلي:

سهولة الأمر تسمى ميسره ... ومصدر إلى قدرت مقدره

يريد أن ميسرة مثلثة السين، وكذلك كلمة مقدرة مثلثة الدال. وغيرهما مما هو على هذا الوزن كثير

قال الدكتور عزام والصواب ثَبْتاً يقال رجل ثَبْت لا ثَبَتٌ والثَبَت (لغويا نبيها ثَبَتاً) (4) بالفتح (يريد بالتحريك) البرهان اسم لا يوصف. وأقول: في القاموس الإثبات الثقات، وفي شرحه وهو ثبت من الإثبات إذا كان حجة لثقته في روايته، وهو جمع ثَبَت بالتحريك وهو الأقيس وقد يسكن وسطه. الخ

ولعل التفرقة التي جاء بها الدكتور عزام وهي أن الثبت (بالتحريك) البرهان اسم لا وصف، إنما عقدها بنظرة خاطفة من قول الشارح (وقيل للحجة ثبت بفتحتين إذا كان عدلا ضابطا) فذهب باله إلى أن الحجة هنا الدليل والبرهان

قال الدكتور عزام (والصواب بالبناء للفاعل أي إصابه (أُضِقتُ إضاقة شديدة) (5) ضيق) وأقول لو إنه فسرها بقوله أصابه عسر لقلنا إنه تابع صاحب القاموس في قوله: أضاق ذهب ماله وأعسر، فإما وقد فسرها بقوله أصابه ضيق فهو تفسير عام ينطبق عليه قول القاموس: ضاق ضد اتسع وأضاقه وضيقه) فمعنى كل ذلك جعله ضيقاً. والمراد هنا ضيق الصدر

قال الدكتور عزام والصواب الَمصِّيصة. وأقول: ورد في كتابي (المُصَيْصة اسم بلد) (6) (إعجام الأعلام): (المَصِيصة - المِصِّيصة مدينة على ساحل البحر الرومي. . . قال في القاموس (والمصيصة كسفينة بلد بالشام ولا تشدّد) وقد ضبطها صاحب تقويم البلدان

عن مزيل الارتياب فقال: بكسر الميم وتشديد الصاد وسكون الياء وفتح الصاد)
فمن ذلك يعلم أن الناقد والمنقود وقعا في الخطأ وإن كان اللوم في نظري على الناقد اشد، لأنه يأخذ على غيره في مسالة بعينها فيجب أن يكون تحريه للصواب أدق
قال الدكتور عزام والصواب كسر الغين، وأقول يفهم من مراجعة (غُمار الناس) (7) القاموس المحيط لمن وقف على سر اختصاره وراعى مراده في عطفه واستئنافه أن الغمار جمع لغَمْر وهو الماء الكثير كما أن الغَمْر يكون بمعنى الكريم الواسع الخلق أو الجواد من الخيل أو السابغ من الثياب أو اللفيف من الناس ويشاركه في هذا المعنى الأخير (اللفيف
من الناس) مفردات أخرى وهي الغَمَر (بالتحريك) والغَمْرة بالفتح فالسكون مع تاء التأنيث والغُمارة بالضم مع التاء والغَمار بالفتح أو الضم. وعلى هذا يكون مصيباً من قال غمار الناس (بالضم) بمعنى جماعتهم ولفيفهم. كما أنه ليس في القاموس ما يدل على أن غِماراً يكون جمعاً لغَمْر بهذا المعنى الأخير وإلا لأتى به قبل ذكر الجمع كما هي عادته
وليس معنى كل هذا أن استعمال غِمار بالكسر في معنى جماعات الناس خطأ بل نقول إنه خلاف الأولى لأن استعماله يكون مع التجوز بتشبيه جماعة الناس باللجة وإطلاق لفظ غمر عليها ثم جمعه على غمار. أما المفرد وهو غمار (بالضم) فكاف في الدلالة على الجماعة دلالة حقيقية لا تجوز فيها. فظهر من هذا أن المنقود استعمل الضبط الجائز القريب في الاستعمال
هذا قول أعجلتنا عن الإفاضة في نواحيه وتتبع مظانه، مشاغل لم نستطع أن نزيحها عن كاهلنا إلا بهذا القدر والسلام
محمود مصطفى
معجم الأدباء أيضا
للأستاذ عبد العظيم علي قناوي
يعرف أولو البصر بالأدب والأستاذ الباقعة الدكتور عبد الوهاب عزام، عالماً ثقة، وعلماً حجة؛ فيصلاً إذا قال، وثبتاً إذا جال؛ لا يقف نبوغه عند ناحية من نواحي الأدب، بل يفيض علمه عليها جميعاً؛ فهو من أدبائنا القلائل الذين برزوا في كل أفق، وربطوا بآصرة الأدب بين الغرب والشرق، وقد اختص ببحوثه الرائعة وآرائه الشائقة مجلة (الرسالة)، لأنها رسول الثقافة، وآخر ما أمتع به قراءها ذلك النقد الجامع لكتاب (معجم الأدباء) الذي ينشره الدكتور الرفاعي. فنقد القسم الأول منه نقداً عميقاً، وفحص عن وجه الحق فحصاً دقيقاً، وأبى له تواضعه إلا أن يقول: (هذا ما أخذته وأنا اعبر القسم الأول وهو جزء من عشرين، ووراء هذا معضلات من التحريف تحتاج إلى بحث وتنقيب ليتبين صوابها) واقرر مؤكداً أن هذا النقد الممتع سيحمل الناشر على الإمعان في التحري، وسيدفعه إلى التريث والتأني حتى يخرج الكتاب كما يريده الأدباء والمؤرخون
على أن لي رأياً في قليل من كثير مما أورده من المآخذ الأستاذ القدير ولعليّ قد وفقت إلى الصواب
ص64 (إذ كلٌّ همَّه تحصيل المأكول والمشروب). (والصواب همه بضم الميم، والمراد هنا الاسم، لأن الفعل أهم لا هَمَّ) هذا ما أرتآه الدكتور. واللغة تخالفه. نص القاموس (مادة هم) قال: (وهمه الأمر هماً ومهمة حزنه كأهمه) وإن الأبلغ ما رآه الأستاذ، وليس في الكتاب شبهة من خطأ
ص82:
أمغط مني على بصري بالحبب ... أم أنت اكمل الناس حسنا
وقد شرحه الناشر في الحاشية وقال: (ويروى أمغطى على صيغة المفعول). (والصواب أمغطى لا يحتمل البيت غيرها وكان الصواب تصحيح البيت لا إثبات الغلط وشرحه) وأرى أن كلا اللفظين جائز والمعنى معهما مستقيم، فالأول يثبت أن حبيبه قد غطى على بصره بالحب أو أنه أكمل الناس جمالاً في صورة الاستفهام عن الشقين، ولا أنكر أن الوجه الثاني أفضل وأفصح
ص93 (ولا أبدأ نفعا، ولا أحمد أخلاقا، ولا أدوم سرورا). (وقال في الحاشية في الأصل أبد نفعا؛ فقد اصلح غلط الأصل بغلط آخر. والصواب أبدى، وليس ما صححه الناشر

غلطا، ولعله الأوفق حتى يتفق ونظم الكلام ووزن الأفعال الذي يبدو أنه مراعى في العبارة
ص99 (ولم تعوض من ذلك ميسرة) (والصواب فتح السين) والفتح والكسر والضم كلها صحيح إذ السين مثلثة، واحسب الأستاذ اختار الفتح لأنه به قرء قوله تعالى (فنظرة إلى ميسرة) وكان أيسر للناشر أن يتركها دون ضبط أو يثلث ضبطها
ص133 (فلا أزال أماكسهم ويزيدوني) (والصواب يزيدونني) ولا أدري كيف ساغ للدكتور تخطئة الصواب فكتب النحو تنص على جواز تزيدوني بالتخفيف والتثقيل، وبالتخفيف قرأنا نافع وتأمروني وتحاجوني
ص221
(يخال بأن العرض غير موفر ... عن الذم إلا أن يدال له الوفر)
(والصواب يذال بالذال المعجمة من الإذالة أي الامتهان)
ويدال ليست خطأ بل لعلها أوقع في المعنى لإن الغرض من الادالة الدوران والتحول والزوال، وكل هذه المعاني انسب من الامتهان في البيت. هذا ما عنَّ لي التعليق به على نقد أستاذنا النابغة وأرجو أن يلاحقنا بالحكمة والرأي الرشيد
(المعادي)
عبد العظيم علي قناوي
العالم المسرحي والسينمائي
المعجزة
لناقد الرسالة الفني
النقاد عادة من أدق الناس في مسائل الذوق الفني، فهم بطبيعة عملهم كقضاة، قاسون لا يرضيهم من الأعمال إلا كل عظيم جليل، ولهذا فإن اختيارهم يكون بلا ريب ممتعاً، وقد أيد زميلنا وصديقنا الناقد المسرحي الأستاذ محمد على حماد هذا الرأي باختياره هذه القصة وقيامه بترجمتها للمسرح المصري ترجمة سلسلة الأسلوب سهلة اللفظ تلائم رواد المسرح
والرواية قطعة فنية رائعة من تأليف الكاتب الإنجليزي (رودولف بيزير) نالت في إنجلترا نجاحاً كبيراً دعا الكتاب الفرنسيين إلى نقلها لمسرحهم ودفع بأكبر شركة سينمائية في العام إلى اقتباسها. وقد أتيح لرواد السينما أن يروا شارلس لانتون ونورما شيرر وفريدريك مارش يقومون بالأدوار الرئيسية في هذا الفلم الذي نال الجائزة الأولى للعام الذي اخرج فيه. واللذين شاهدوا الفلم ثم رأوا القصة تمثل على مسرح الأوبرا لابد أحسوا بأن المسرح قد ابرز عوامل الجمال فيها في حين أن الفلم قصر عن أداء هذه المهمة كاملة
لست في حاجة إلى ذكر ملخص الرواية فموضوعها معروف لان أشخاصها ظهروا على مسرح الحياة في العهد الفكتوري، فالبطل روبرت بروننج شاعر إنجليزي كبير له دواوينه وأعماله الأدبية، والبطلة اليزابيث باريت شاعرة رقيقة العاطفة تزوجت من بروننج؛ وقد نشرت مجموعة الرسائل التي تبادلها البطل والبطلة والتي استمد منها المؤلف مادة قصته
لست أوافق من قام بالتلخيص المنشور في البرنامج الذي توزعه الفرقة القومية من أن القصة تدور في أساسها حول ذلك النزاع القديم المتجدد بين جيل وجيل، وبين فكرة وفكرة، وبين الآباء المحافظين الذين يريدون أن يفرضوا آراء أجيالهم الغابرة على أبنائهم الخ، فلو أن القصة تقوم على هذا الأساس وحده لما استحقت أن توصف بأنها عمل فني؛ فقد سبق المؤلف كثيرون إلى طرق هذا الموضوع. والواقع أن في القصة تحليلا نفسيا عظيما لشخصية الأب وشخصية الفتاة؛ ومن يتتبع القصة بانتباه تبرز أمامه الحقيقة الواضحة التي يعنيها المؤلف ويصورها بدقة، وهي أن الأب يحب ابنته - دون أن يدري - حبا جنسياً
فالعاطفة الجنسية هي سر حبه لابنته، ولكنه لا يدري هذه الحقيقة؛ فابنته ثمرة الحب ولدتها
أمها أيام كانت الحياة هانئة بين الزوجين، فهو إنما يحب أمها فيها في حين أنه يكره أولاده الآخرين لأنهم ليسوا ثمرة الحب، بل أنجبتهم أمهم في أيام الجفوة والشقاء بين الزوجين، وهذا هو السر في قسوته عليهم وفي أنه لا يفهمهم ولا يفهمونه

الإخراج والتمثيل
تصرف المخرج تصرفا له من السوابق ما يبرره وهو إخراج الروايات التاريخية في ثوب عصري، إلا أنه كان من الخير أن تظهر القصة في ثوبها التاريخي، فإنما تمثل واقعة تاريخية هي قصة زواج روبرت بروننج من اليزابيث باريت. أما رسم المناظر فبديع ولا سيما المنظر الثاني، ولكن اختيار الورق الأزرق الداكن لكساء حوائط غرفة نوم اليزابيث مما لا يلتئم والحوادث التي تجري فيه. فالرواية كما نعلم تحوي المواقف المحزنة والمواقف المضحكة، والأزرق الداكن لا يصلح إلا للمواقف المحزنة، ولأنه يبعث أثراً قابضاً في نفوس النظارة، فكان من الواجب أن يتنبه المخرج لهذه الحقيقة أما الإضاءة فمهملة إلى أبعد حدود الإهمال: فهي واحدة لا تتغير سواء في المواقف المحزنة والمفرحة؛ ومن بديهيات الإضاءة أن الضوء القوي الصارخ من ضروريات المواقف الفكهة، كما أن الضوء الخافت من ضروريات المواقف المحزنة؛ ولكن الأستاذ عزيز يتجاهل هذا كله ويجعل الضوء قوياً صارخاً طوال مواقف الرواية وفي المنظر الأول نجد الشبان يصعدون إلى غرفة نوم شقيقتهم بعد تناول العشاء وهم في ملابس السهرة في حين أن الشقيقتين كانتا تلبسان الملابس العادية. والأدهى أننا لم نحس أثناء التمثيل أننا في جو إنجليزي، فقد كان الممثلون في أحاديثهم وحركاتهم مصريين أكثر منهم إنجليزا. فالأستاذ منسي فهمي قام بدور الأب وبذل مجهوداً كبيراً ووفق إلى حد بعيد في تأدية الدور، ولكن كان يثور من حين لحين مما لا يتلاءم مع الشخصية ومع الخلق الإنجليزي؛ فالشخصية ليست في حاجة إلى الثورة لتؤثر الأب في نفوس أولاده، فان الرهبة التي في نفوسهم منذ الطفولة كفيلة بأن تعنى عن هذه الثورة، ولكن الذنب ليس ذنب الممثل بل هو ذنب المخرج. والآنسة نجمة إبراهيم كانت مجيدة في دور هنريتا، ولكنها كانت في ثورتها مصرية وفي سخريتها كانت بعيدة عن تصوير الخلق الإنجليزي. ومن المؤلم أن يسمح المخرج لعباس فارس أن يظهر الكابتن بهذه الصورة المزرية، فإن من الإسفاف أن نلجأ إلى الحركات لإضحاك النظارة ونيل رضاهم، والفرقة القومية قامت للسمو بالفن، والشخصية سهلة واضحة هي أن الكابتن خجول يرتبك في حضرة السيدات، وكان من الواجب أن يبرز الشخصية على حقيقتها دون الالتجاء إلى الافتعال قام حسين رياض بدور الشاعر فأداه أداء طيباً، ولكن إبرازه له على انه شاب رزين مما لا يرضيني ومما يتعارض مع ما هو معروف عن نزوات الشعراء وخفتهم، وهذا الشاعر تقدم للزواج من فتاة شبه مقعدة!! وفي الموقف الذي يطلب فيه يد اليزابيث اهتم بتجويد إلقائه اكثر من اهتمامه بإبراز عاطفته
أما السيدة زينب صدقي فقد كانت بديعة إلى ابعد حد. والحق أن هذا الدور من احسن أدوارها، وفيه أثبتت أنها مقلدة ماهرة لنورما شيرر ولا سيما في المنظر الأول عند حدوث المعجزة وقيامها من فراشها وسيرها إلى النافذة، وفي الفصل الأخير عندما قبلها والدها القبلة التي كادت تفضح عاطفته

يوسف تادرس

سافو على المسرح الأوبرا الملكي

تتمة ما نشر في العدد الماضي

تحدثنا في العدد الماضي عن دولت ابيض في (سافو) ثم عن علي رشدي في دور جان، وقبل أن انتقل إلى غيره من الممثلين أرى أنصافا لهذا الشاب المجتهد أن أقول انه ظلم ظلما كبيرا في إسناد دور لا يليق به ولا يتفق مع طبيعته، وإنه على رغم هذا قد بذل جهداً مشكوراً يستحق الثناء

ولابد لي أن اذكر عباس فارس في دور (ديشليت) ومنسي فهمي في دور (كودال) وفؤاد شفيق في دور (سيزير) فهؤلاء الثلاثة بلغوا درجة كبيرة من النجاح، وإليهم الفضل في النهوض بالرواية والوصول بها إلى درجة تجعل الجمهور يتقبلها ويستسيغها وأما المناظر فمنقولة عن المناظر التي أخرجت بها الرواية في فرنسا، وقد استطاع الأستاذ أدمون تويما مدير المسرح أن يقنع الأستاذ عزيز بإخراجها في ثوب عصري ولكنه فيما أرى اخفق في إقناعه بالاستغناء عن المصباح البترولي في الفصل الأول، فقد كان مضحكا أن ترى الشاب الفقير الذي يسكن الطابق الخامس يضيء غرفته بثريا كهربائية كبيرة! وبرغم ذلك نراه يضيء مكتبه بمصباح بترولي! إن التقيد بالأصل

دون استعمال العقل يبعث السخرية، وكان أولى بالمخرج أن يضع بدلاً من المصباح البترولي مصباحاً كهربائياً للمكتب

أما الإضاءة فعادية، وبودي لو يعنى المخرج بتوزيع الضوء ومساقطه حتى لا تتعارض ظلال الممثلين وحتى لا يقع ظل ممثل على زميله وأن يختار من ألوان الضوء ما يلتئم مع جو المواقف

الترجمة

نقل القصة إلى العربية الأستاذ محمود كامل المحامي، وقد لاحظت الفرقة بعد أن نقدت المترجم الأجر أن الترجمة غير دقيقة، فعهدت إلى لجنة مؤلفة من الأساتذة أدمون تويما وإبراهيم الجزار وسراج منير بمراجعتها فاستغرق عملها 27 يوماً. وقد اطلعنا على صفحات عديدة فشاهدنا الكثير من التصحيح والتبديل، فكان أثر هذا أن أصبحت القصة تحوي اكثر من أسلوب واحد، وكنا نفضل لو أن المترجم اشترك مع أعضاء هذه اللجنة

لتجنب هذا الخلط

العدد 184 - بتاريخ: 11 - 01 - 1937

ذكرى ميلاد

في مثل هذا الأسبوع من عام 1932 وأنا في دار السلام، هبط على برق الأثير هبوط الملك البشير على زكريا الواهن اليائس. بشرني بأن أسمي قد اشترك، ووجودي قد ازدوج، وعمري قد امتد، وأصلي قد تفرع! فأخذني شعور لا عهد لي بمثله؛ لا أصفه لأنه اعمق من الإدراك، ولا أنساه لأنه أوسع من الذاكرة. هو شعور خليط مبهم؛ لا هو حماسة، ولا هو نشوة، ولا هو جذل، ولا هو غبطة؛ وإنما هو كل أولئك وشيء آخر لا أدريه، لون مشاهد الطبيعة بألوان الأمل، وعطر نسائم (دجلة) بروائح الجنة، وزين مغاني الكرخ باوشية السحر. فخرجت إلى بساتين (الصالحية) وفي إهابي المشبوب رجل أخر، يحيا لأنه يحب الحياة، ويعمل لأنه يريد العمل، ويزهى لأنه يسعى لآسرة، مررت بالأطفال الذين كنت أراهم كل يوم، فبدت لي في قسماتهم وبسماتهم معان جديدة. لم يعودوا شقاء الوالدين وهم الحياة كما كنت اشعر، وإنما أصبحوا كطفلي بهجة الوجود وراحة المكدود ورجاء المستقبل؛ ثم وجدتني آنس بكل أب، وأسكن إلى كل أم، واشعر كما يشعر كل والد بحمل رخي رضي يثقل رويداً رويداً على البال المطمئن الوادع!!

عدت إلى مصر فرأيتني ارسخ في الوطنية لأني غدوت أصلاً من أصولها، وأعز في القرابة لأني صرت فصلاً من فصولها؛ ثم تجددت الأفراح، وتسابقت التهاني، وتنافست الهدايا، وتعاقبت المآدب، وغرقت الدار الكئيبة في فيض من البهجة، ورقصت الروضة الموحشة على الحان البلبل، ورفرفت السعادة الهشة على مهد الوليد

وكان العش الآمن الغار يعلن في كل رابع عشر من شهر يناير ذكره للنعمة وشكره لله؛ فيرف للأصدقاء بالأنس، ويخف للفقراء بالصدقة. وتتفتح مصاريعه الضاحكة لتهنئات الصحاب ودعوات الأحبة. ويخرج المرموق المعشوق صاحب العيد في زينته وبهجته كالسوسنة الغضة، يقابل مهنئيه، ويتقبل هداياه، ويستعرض لعبه، ويشع على الحفل البهيج من روحه الجذاب، وحسنه الفاتن، وذكائه الباكر، إشعاعاً من وراء المعلوم لا يدركه إلا الأب الحنون وإلا الأعزب الشاعر

حنانيك يا رباه! أكل ذلك اصبح اليوم ذكرى؟ أغاية السعادة في الأرض أن تنقلب وحشة في النفس وظلمة في العين وحسرة في الفؤاد؟ لا يزال صوته الصافي الجميل يرن في شعوري كله: فأنا اسمعه يقول ويده الصغيرة تجذب يدي: (يالله نشترى خروف عيدي يا

بابا. . . عاوز أتومبيل أحمر زي أوتومبيل الملك يا بابا.) فأخرج معه كما يخرج الصديقان الأليفان لأمر مشترك؛ فينتقي ثيابه بذوقه، ويختار لعبه بنفسه، ويقترح على أن نذهب إلى (حديقة الفردوس)، فيمشي بين أفواف الزهر، أو على زخرف الممشى، فلا أدري أجمال الروض زها فيه فنظر حتى فتن، أم جماله هو فاض على الروض فزها حتى بهر! ثم يتفرق بصره المبهور بين التماثيل والتصاوير والورد، فيذهل عن طريقه فيخوض في الماء فجأة؛ فيخلع حذاءه وينزع جوربه ثم يدعهما للشمس ويقعد هو تحت المظلة أو فوق العشب يرسل على أبيه السعيد سيلاً من الأسئلة لا ينقطع، وفيضاً من

المسرة لا ينضب؛ ثم يعود إلى بيته المزدان المرح فيستقبل في المساء أعمامه احمد أمين وزكي وخلاف والعبادي وعوض زناتي ويونس وسائر محبيه ومحبي أبيه، فينقلهم بإشراق نفسه وائتلاق طبعه من عالم الناس إلى عالم الملائكة!

ثم دار الفلك، وتجرم العام، وعاد اليوم الرابع عشر من شهر يناير! ولكنه وا حسرتاه يعود هذه المرة على بيت غير البيت، ودنيا غير الدنيا!! فلا العش مرح بفرخه، ولا الروض شاد ببلبله، ولا الأتومبيل حال براكبه!

يعود على ثياب مطوية، ولعب مخفية، وصور مستورة، وعيون مقروحة، وقلوب محطمة، وأمال مهيضة! فلا بساط الأنس ممدود يا رفاق، ولا حفلة العيد ساهرة يا أحبة!

اجل يعود اليوم الرابع عشر من شهر يناير، ولكنه والهفتاه يعود على قبر جني الأزاهير بين حقول القرية البعيدة؛ تسهر عليه الشجرة الصغيرة، وترعاه من قرب عيون الآهل!

فيا من دعوت نفسك الرءوف الرحيم! أين أجد رأفتك فيخف أساي، وأصيب رحمتك فيندمل جرحي؟

ويا شاعر العروبة، وحكيم الدهر، وطريد الغير؛ متى أجد مصداق بيتك المعزي الخالد:

ستألف فِقدانَ الذي قد فقدتَه ... كإلفِك وِجدان الذي أنت واجد

احمد حسن الزيات

الشمس

للأستاذ أحمد أمين

أي شيء أحب إلى النفس، من المتعة هذه الأيام بالشمس، والحديث عن الشمس؟

فقد أقرسنا البرد حتى اصطكت منه أسناننا، وانكمش جلدنا، ويبست أطرافنا، وحتى وددنا - إذا رأينا النار - أن نحتضنها، وإذا رأينا الجمرة أن نلتهمها؛ ولوددت في هذه الأيام أن أكون فرانا، أو طباخا، أو سائق قطار، حتى لا أفارق النار

كل شيء في الطبيعة جميل، وأجمل ما فيها شمسها

وهي في شتائنا أجمل منها في صيفنا، ولها في كل جمال

فلها - صيفا - جمال القوة، وجمال القهر، وجمال السفور الدائم، نعظمها ونجلها؛ ونهرب منها ولكن نحبها. تقسو أحيانا، ولكنا نرى الخير في قسوتها؛ فهي كالمربي الحكيم، تقسو وترحم، وتشتد وتلين؛ تلفحنا بنارها، ولكنها نار كنار الحب يكتوي بها قلب العاشق، ثم هو يرجو بقاءها، ويخشى زوالها؛ ترسل علينا شواظاً من نار، فتسفع جلودنا، وتكوي جباهنا، حتى إذا غلا جوفنا، ووغر صدرنا، غابت عنا، وأرسلت رسولها اللطيف الوديع (القمر) فخفف من حدتنا، ولطف من سورتنا، وأصلح ما أفسدت، وضمد ما جرحت؛ فإذا خشيت أن نطمئن إليه، أدركتها الغيرة فغيبته، وطلعت علينا ببهائها، وجمالها وجلالها. وهكذا دواليك

وهي - شتاء - تطلع علينا بوجه آخر، ترينا فيه جمال الحنو، وجمال الدعة، وجمال الرحمة والعطف، وجمال الغادة اللعوب، تشاغلك فتظهر وتختفي، وتسفر وتحتجب، وتخرج من قناعها ثم تتقنع

وتنتقم من رسولها الذي غارت منه صيفاً فتطلعه علينا في جو بارد لا نطيقه، حتى لا نفكر إلا في دفئها ونسمتها، ولا نشتاق لشيء شوقنا لرؤيتها

فما أجملها قاسية وراحمة! وما أجملها واصلة وهاجرة!

تتلون بشتى الألوان فتسحر العقول، وتبهر العيون؛ فهي تارة بيضاء، وتارة صفراء، وتارة حمراء، ثم لا تستطيع أن تحكم هي في آيها أبهى وأجمل، فهي تزين ثيابها بأكثر مما تزينها ثيابها

فتحت النافذة قبل أن اكتب مقالتي فتدفقت في حجرتي أشعتها الفضية اللامعة، وملأتها روحاً وحياة، وملأتني دفئاً، وملأتني معاني، وكانت حياتي في حجرتي قبل زيارتها حياة مظلمة باردة جامدة لا معنى فيها ولا روح

خلعت من جمالك على الزهر، فكان فتنة للناظرين؛ فجماله من جمالك، ولونه قبس من ألوانك، وحياته مدد من حياتك؛ فأبيضه وأحمره، وأصفره وأرزقه، ليس إلا نعمة من نعمك، وأثراً من فيضك

فالوردة الحمراء ليست إلا نقطة من دمك، والياسمين الأبيض ليس إلا لمحة من نورك، والنرجس الأصفر ليس إلا تبراً ذائباً من شعاعك

لقد أبيت على الناس أن يديموا النظر إلى جمالك، فألهيتهم بالنظر إلى بعض آثارك، ولونت الأزهار بألوانك، وأريتهم قدرة إبداعك، فشغل الجاهلون به عنك، وشغف العارفون به على أنه قبس منك، يطالعون جمالك فيه، ويقرأون معانيك في معانيه ثم شأنك في البحر عجب أي عجب! تضربينه بشعاعك، وتلفحينه بنارك، فيتحول ماءه بخارا، يصعد إليك ليستجير منك، ويمثل بين يديك لتمنحيه عفوك، وتنيليه عطفك، حتى إذا شعر برضاك، وأمن من غضبك، دمع دمعة السرور، ففارقته ملوحته، وعاد إليه صفاؤه وعذوبته، واكتسب منك الحياة فكان ماءً جارياً، بعد أن كان ماءً راكداً، فجرى جداول وانهارا، فأرسلته إلى خدمك في الأرض من أزهار وأشجار يحيي ذابلها، ويستخرج دفينها، وينضج ثمارها

ثم تحركت فملأت الحياة حولك حركة؛ فكم من نجوم لا يعلمها إلا الله تسير حولك وتحذو حذوك؛ ثم تلعبين بالهواء من سخونة وبرودة فيتحرك، ويتعلم منك اللعب فيلعب بالبحار والأنهار والأشجار وبكل شيء يمر به؛ فإذا الدنيا كلها لعبة في يده

ثم أنت أنت حرقت الأشجار والنبات، وطمرتها تحت صفحة الأرض آلافاً من السنين بعد آلاف، حتى إذا تنبه الناس آخر الزمان فطنوا إلى انه مستودع من مستودعاتك، فاستغلوه في كل ما نرى الآن من حركة، فهو سر حركة المصانع والبواخر، وسر حركة القطارات والآلات، فلو قلنا إن كل حركة في الأرض أنت مصدرها لم نبعد

تلعبين بالناس فتنمينهم وتوقظينهم؛ ترسلين أشعتك الجميلة على العالم فينتبه، وتغيبين عنه

فينام؛ ثم تتداولين العام فتنبهين قوماً وتنيمين قوما، ويراك قوماً شروقاً وقوم غروبا، وقوم ليلاً وقوم نهارا، وقوم صيفاً وقوم شتاء، وأنت أنت في عليائك لا تملين الحركة ولا تشعرين بنوم أو يقظة، ولا بليل أو نهار

بل بك يجري الدم في عروقنا، فدمنا من غذائنا، وغذاؤنا من حرارتك، تسلطينها على الأرض فتخرجين منها (حباً وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلاً وحدائق غلباً وفاكهة أبا)؛ بل ما أفكارنا إلا منك؛ أليست أفكارنا من دمائنا، أو ليست دماؤنا منك؟

بل لقد كنت حيناً من الأحيان آله الناس ومعبودهم، فكنت مصدر وحيهم، ومصدر إلهامهم، ووجهة عبادتهم. رأوك مصدر الحياة فعبدوك، ورأوك مصدر النعم فمجدوك، ورأوك يحيط بك كثير من الغموض على جلائك ووضوحك فألهوك، ورأوك أكبر النجوم فربوك

ثم أتى الأنبياء فرأوك تأفلين فسلبوك ألوهيتك، ورأوك تتغيرين فحولوا عبادتهم عنك

ولكن إن سلبوك ألوهيتك فلم يسلبوك عظمتك وجمالك وجلالك وكفاك ذلك فخراً

لست ادري أأصاب العرب إذا أنثوها أم أصاب الإنجليز إذ ذكروها؛ لعل الإنجليز رأوا القمر وادعاً جميلاً هادئاً رقيقاً فأنثوه، ورأوا الشمس قوية قاهرة قاسية فذكروها؛ ولكن لعل واضعي اللغة الإنجليز لو عاشوا في عصرنا، ورأوا ما نرى من قوة المرآة وضعف الرجل، وجبروت المرأة واستكانة الرجل، لرجعوا إلى رأي العرب، وآمنوا ببعد نظرهم، وقلبوا المذكر مؤنثاً والمؤنث مذكرا

ولعل العرب أيضاً رأوا الشمس أم الأرض وأم القمر وأم الزرع فأنثوها، إذ لا تلد إلا المرأة؛ ورأوا القمر طفلاً يدور حول أمه فذكروه، واحتاط العرب أن يدرك الشمس شيء مما يلحق الأنوثة فقال شاعرهم: (وما التأنيث لاسم الشمس عيب)

أما الشمس نفسها فلم تعبأ بتأنيث ولا تذكير، كما لم تعبا بمن أنثها وبمن ذكرها فهي في سمائها تؤدي رسالتها، وتسير سيرتها، وتبهرنا بجمالها، وتوحي إلينا بأسرارها فما أعظمك! واعظم منك من خلقك

يناير سنة 1937 4

احمد أمين

القلب المسكين - 8

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

وأما هو فحدثني بهذا الحديث العجيب من لطائف إلهامه وفنه قال: انصرفت إلى داري وقد عز على أن يكون هذا منها وأن يكون هذا مني، وهي أن غابت أو حضرت فأنها لي كالشمس للدنيا، ولا تظلم الدنيا من ناحية إلا من أنها تضيء في ناحية، فظلمتها من عمل نورها. وكانت ليلتي فارغة من النوم فبت أتململ، وجعل القلب يدق في جنبي

كأنه آلة في ساعة لا قلب إنسان؛ وكان في الدنيا من حولي صمت كصمت الذي سكت بعد خطبة طويلة، وفي أنا صمت آخر كصمت الذي سكت بعد سؤال لا جواب عليه؛ وكان الهواء راكداً كالسكران الذي انطرح من ثقلة السكر بعد أن هذى طويلاً وعربد؛ والوجود كله يبدو كالمختنق لإن معنى الاختناق في قلبي وأفكاري. ونظرت نظرة في النجوم فإذا هي تتغور نجماً بعد نجم كأن معنى الرحيل انتشر في الأرض والسماء إذ رحلت الحبيبة، وكان كل وجه مضيء يقول لي كلمة: انتظر

فلما عسعس الليل رميت بنفسي فنمت والعقل يقظان، وصنعت الأحلام ما تصنع، فرأيتها هي في تلك الشفوف التي ظهرت فيها عروساً؛ وما اعجب كبرياء المرأة المحبوبة! إنها لتبدو لعيني محبها كالعارية وراء ستر رقيق يشف عنها كالضوء، ثم تدل بنفسها أن ترفع الستر، فان لم يتجرأ هو لم تتجرأ هي؛ وكأنها تقول له: قد رفعته بطريقتي فارفعه أنت بطريقتك. . .

وكانت مصورة في الحلم تصويراً أخراً فلا ينسكب من جسمها معنى الحسن الذي أتأمله وأعقله، ولكن معنى السكر الذي يترك المرء بلا عقل؛ ولم تكن غلائلها عليها كالثياب على المرأة، ولكنها ظهرت لي كاللون على الوردة الزاهية؛ تظهر فتنة وتتم فتنة

أيتها الأحلام ماذا تبدعين إلا مخلوقات الدم الإنساني، ماذا تبدعين؟

قلت: يا صديقي دع الآن هذه الفلسفة وخذ في قص ما رأيت. ثم ماذا بعد الوردة ولون الوردة؟

قال: انه القلب المسكين دائما، انه القلب المسكين. لقد ضحكت أي وقالت: هاأنذا قد جئت، وأقبلت ترائيني بوجهها، وتتغزل بعينيها، وتتنهد بصدرها، وألقت يدها في يدي فأحسست

اليدين تتعانقان ولا تتصافحان؛ ثم تركناهما نائمتين إحداهما على الأخرى، وسكتنا هنيهة وقد خيل إلينا إذا تكلمنا استيقظت يدانا

أما صافحتك امرأة تحبها وتحبك؟ أما أحسست بيدها وقد نامت في يدك ولو لحظة؟ أما رأيت بعينيك نعاس يدها وهو ينتقل إلى عينيه فإذا هما فاترتان ذابلتان، وتحت أجفانهما حلم قصير؟

قلت: يا صديقي دع الفلسفة؛ ثم كان ماذا بعد أن نامت يد على يد؟

قال: ثم كانت سخرية من الشيطان اقبح سخرية قط

قلت: حسبي لكأنك شرحت لي ما بقى. . .

فضحك طويلا وقال: أن الشيطان يسخر الآن منك أيضاً، وكأني به يقول لك: وكان ما كان مما لست اذكره. . . أفتدري ما الذي كان وما بقية الخبر

لقد كنت مولعاً بامتحان قوتي في الضغط بيدي على أعواد منصوبة من الحديد، أو على أيدي الرجال الأقوياء إذا سلمت عليهم؛ فلما صافحني لبثت مدة من الزمن ثم شددت على يدها قليلاً قليلاً، فتنبهت في هذه العادة؛ فمسخت الحلم وانصرف وهمي إلى أقبح صورة وأشنعها وأبعدها مما أنا فيه من الحب ولذات الحب؛ فإذا بازائي وجه، وجه من؟ وجه مصارع ألماني كنت اعرفه من عشرين سنة واضغط على يده. . .

قلت: إنما هذه كبرياؤك أو عفتك تنبهت في تلك الشدة من يدك، ولا يزال أمرك عجيبا؛ فهل معك أنت ملائكة ومع الناس شياطين؟

قال: والذي هو اعجب أني رأيت في أضعاف أحلامي كأن قلبي المسكين يخاصمني وأخاصمه؛ وقد خرج من أحناء الضلوع كأنه مخلوق من الظل يرى ولا يرى إذ لا شكل له؛ وسبني وسببته، وقلت له وقال لي، وتغالطنا كأننا عدوان؛ فهو يرى أني امنعه لذته، وأرى انه هو يمنعني، وانه أشقى بي على ما أشقى؛ قلت له فيما قلت: لا قرار على جنايتك فاذهب عني ولا تتسم باسمي فانه لا فلان لك بعد اليوم؛ ولولا انك مخذول في الحب لعلمت أن لمسة يد الرجل ليد المرأة الجميلة نوع مخفف من التقبيل، فإذا هي تركته يرتفع في الدم انتهى يوماً إلى تقبيل فمه لفمها، ولولا انك مخذول في الحب لعلمت أن هذا الضم بين اليدين نوع مخفف من العناق، فإذا هي تركته يشتد في الدم انتهى يوماً إلى ضم

الصدر للصدر؛ ولكنك مخذول في الحب، ولكنك مخذول

وقال لي فيما قال: وأنت أيها الخائب؟ أما علمت أن أناملها الرخيصة هي أناملها، لا

أعوادك من الحديد؟ فكيف شددت عليها ويحك من تلك الشدة التي أخرجت لك وجه المصارع؟ ولكنك خائب في الحب، ولكنك خائب.

قلت: فهذه قضية بيني وبينك أيها القلب العدو؛ لقد تركتني من الهموم كالشجرة المنخرية قد بليت وصارت فيها التخاريب فلا حياتها بالحياة ولا موتها بالموت، وكم علقتني بفاتنة بعد فاتنة لا عنها إقصار ينتهي ولا فيها مطمع يبتدئ؛ ما أنت إلا وحش اكبر لذته لطع الدم

واستدار الحلم فلم البث أن رأيتني في محكمة الجنايات، وكأني شكوت قلبها إليها فهو جالس في القفص الحديدي بين المجرمين ينتظر ما ينتظرون من الفصل في أمرهم؛

وقد ارتفع المستشارون الثلاثة إلى منصة الحكم وجلس النائب العام في مجلسه يتولى إقامة الدعوى وبين يديه أوراقه ينظر فيها، ورأيت منها غلافاً كتب على ظاهره: قضية القلب المسكين.

وتكلم رئيس المحكمة أو من تكلم فقال: ليس في قضية القلب محام، فابغوه من يدافع عنه؛ ثم التفت إليه وقال: من عسى تختار الدفاع عنك؟

قال القلب: أو هنا موضع للاختيار يا حضرة الرئيس؟ ليس تحت هذه - وأومأ إلى السماء - ولا فوق هذه - وأومأ إلى الأرض - إلا الحبيبة. أكذلك. غير أنها أستاذة في الرقص لا في القانون. . .

فبدر النائب العام وقال: إلا الحبيبة. أكذلك. غير أنها أستاذة في الرقص لا في القانون

القلب: ولكنني لا اختار غيرها محكوماً لي أو محكوماً علي. أنا أريد أن انظر فيها - وانظروا انتم في القضية. . .

الرئيس: فليكن؛ فهذه جريمة عواطف ائذن لها أيها الآذن -

فنادى المحضر: الأستاذة. الأستاذة

وجاءت مبادرة، ودخلت تمشي مشيتها وقد افتر ثغرها عن النور الذي يسطع في النفس؛ وأومضت بوجهها يميناً وشمالاً فصرف الناس جميعاً أبصارهم إليها وقد نظروا إلى فتنة من الفتن، وثارت في كل قلب نزهة، وغلبت الحقيقة البشرية فانتفضت طباع الموجودين في قاعة الجلسة، وابطل قانون جمالها قانون المحكمة، فوقعت الضجة وعلت الأصوات

واختلطت؛ وترددت بين جدران المكان صدى في صدى كان الجدران تتكلم مع المتكلمين

أصوات أصوات: سبحان الله! سبحان الله! تبارك الله، تبارك الله، آه آه؛ آه آه؛ وسمع صوت يقول: اتهموني أنا أيضاً. . . فنفرت الكلمات وأنا وأنا وانا. واختفت المحكمة وانبعث المسرح بدخول فاتنته الراقصة؛ وكان المستشارون والنائب العام في أعين الناس كأنهم صور معلقة على الحائط لا يخشاها أحد أن تنظر إلى ما يصنع

فصاح الرئيس: هنا المحكمة! هنا المحكمة! سبحان الله. . . المحكمة المحكمة

النائب العام: هذا بدء لا ترضاه النيابة ولا تقبل أن تنسحب عليه. نعم أن هذا الوجه - الجميل ابرع محام في هذه القضية، ونعم أن جسمها. . . آه ماذا؟ إنكم تأتون بالشهوة الغالبة القاهرة لتدافع عن المشتهي. . . عن المتهم. هذا وضع كوضع العذر إلى جانب الذنب. وكأنكم يا حضرات المستشارين. . .

فبدرت المحامية تقول في نغمة دلال وفتور: وكأنكم يا حضرات المستشارين قد - نسيتم أن النائب العام له قلب أيضاً. . .

واشتد ذلك على النائب وتبين في وجهه، فقال: يا حضرة الرئيس

الرئيس مبتسما: واحدة بواحدة، أرجو إلا تكون لها ثانية، ومعنى هذا كما هو ظاهر إلا - تكون لها ثالثة. . .

(ضحك)

قال صاحبي المسكين: وكنت بلا قلب. . . فلم التفت للجمال، بل راعني ذكاء المحامية ونفاذها وحسن اهتدائها إلى الحجة في أول ضرباتها، وتعجبت من ذلك اشد التعجب، أيقنت أن النائب العام سيقع في لسانها كما يقع مثله في لسان المحامي القدير، ولكن كما يقع زوج في لسان زوجة معشوقة متدللة تجادله بحجج كثيرة بعضها الكلام. . .

وقلت في نفسي:

يا رحمة الله لا تجعلي من النساء الجميلات الفاتنات محاميات في هذه المحاكم، فلو ألبسوهن لحى مستعارة لكان الصوت الرخيم وحده من تلك الأفواه الجميلة العذبة

. . .نداءا قانونياً للقبلات
ونهضت المحامية العجيبة فسلطت عينيها الساحرتين على النائب، ثم قالت تخاطب المحكمة: قبل النظر في هذه القضية قضية الحب والجمال، قضية قلبي المسكين. . . أريد
أن أتعرف الرأي القانوني في اعتبار الجريمة. أهي شخصية، فتقصر على صاحبها؛ أو خاصة فتضر غير جانبها؛ أو عامة فيتناولها العموم المحدود لمن تجمعهم جامعة الحب؛ أو هي اعم، فيتناولها العموم المطلق للهيئة الاجتماعية؛ ما هي جريمة قلبي. .؟
- الرئيس: ما رأى النيابة؟
النائب ضاحكا: (غزالتها رايقة) كما يقول الراقصات والممثلات. . . . أرى أنها جريمة آتية من ضرب الخاص في العام. . (ضحك)
المحامية: جواب كجواب القائل: حب أبي بكر. كان ذلك الرجل يحب زوجته الجميلة ويخافها، وكانت تقسو عليه قسوة عظيمة وتغلظ له الكلام وهو يفرق منها ولا يخافها. فرآها يوما وقد طابت نفسها فأراد أن ينتهز الفرصة ويشكو قسوتها؛ فقال: يا فلانة قد والله أحرق قلبي. . ولم يدعه يتم الكلمة، فحددت نظرها إليه وقطبت وجهها وقال: حب أبي بكر الصديق رضى الله عنه. . (ضحك) ورنت ضحكة المحامية فاضطربت لها القلوب، ووقعت في كل دم، وفي دم النائب أيضاً؛ فانخزل ولم يزد على أن يقول: . .أحتج من كل قلبي
الرئيس: لندخل في الموضوع، ولتكن المرافعة مطلقة فان الحدود في جرائم القلب تسدل وترفع كهذه الستائر في مسرح التمثيل. وعشرون ستارة قد تكون كلها لرواية واحدة
- النائب العام: يا حضرات المستشارين، لا يطول اتهامي فان هذا القلب هو نفسه تهمة متكلمة
المحامية: ولكنه قلب
النائب: وأنا يا سيدتي لم أحرف الكلمة ولم اقل انه كلب. (ضحك) وتضرج وجه المحامية وخجلت
- الرئيس: الموضوع الموضوع
النائب: يا حضرات المستشارين. أن ألم هذه الجريمة آما أن يكون في شخص الجاني أو ماله، أو صفته كان يكون زوجا مثلا، أو صيته الأدبي. فأما الشخص فهذا ظاهر، وأما المال فنعم أن القلب المسكين قرر لنفسه ولصاحبه إلا يبتاع أبدا تذكرة دخول إلى جهنم. . . (ضحك)
- المحامية: أستميح النائب عذرا إذا أنا. . . إذا أنا فهمت من هذا التعبير أن حضرته يعرف على الأقل أين تباع هذه (التذاكر). . . (ضحك) وتفرج وجه النائب العام وخجل.
- الرئيس: كنت رجوت إلا تكون للأولى ثانية، وقلت: أن معنى هذا كما هو ظاهر إلا يكون لها ثالثة؛ فهل أنا محتاج إلى القول بان المعنى المنطقي إلا يكون للثالثة رابعة. . ؟.
- النائب: يا حضرات المستشارين. وأما الصفة، فهذا القلب المسكين قلب رجل متزوج؛ ولا تغرنكم صوفية هذا القلب، ولا يخدعنكم تألهه وزعمه السمو. انه على كل حال يعشق راقصة، وهذا اعتداء في ضمنه اعتداء؛ على الزواج وعلى الشرف. وهبوه متصوفاً متألهاً ولم يتصل بالراقصة، فهو على كل حال قد أخذها ولكن بأسلوبه الخاص. . . وبهذا اقترف الجريمة. آه. أن هذه القضية ناقصة؛ وذلك نقص فيها أخشى أن يكون نقصا في الحكم أيضاً، فأتموه انتم. يا حضرات المستشارين أن النقص فيها إنها لا شهود فيها؛ ولكن هذا عمل آلهي لا يظهر إلا يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون
- المحامية: هذا تعبير اكبر من قدرة قائله ومن منزلته ووظيفته، هذا تعبير جسور. يا حضرة النائب؛ من الذي لا يحمل شهودا في لسانه ويديه ورجليه؛ بل ألف شاهد على ليلة واحدة. . . يجب أن يكون مفهوما بيننا يا حضرة النائب أن النون والباء في لفظة (نائب) غير النون والباء في لفظة (نبي)
- النائب: يا حضرات المستشارين. لا أرى مما يحرجني في الاتهام أن أصرح لكم أن مما حيرني في هذه الجريمة أن ليس فيها من أوصاف الجرائم إلا ثلم الكرامة. فلا

. . .قذف ولا سب ولا هتك عرض ولا فجور، ولا اصغر من ذلك، ولا كاس خمر للراقصة
- المحامية: لا أرى يا حضرة النائب كاس ماء، وسيجف حلقه في هذه القضية فلعل المحكمة تأمر لي بكاس. . . (ضحك)
- النائب: يا حضرات المستشارين. يعشق راقصة؛ اسم فاعل من رقص يرقص؛ امرأة لا تلبس ثيابا بل عرياً في شكل ثياب. . . امرأة لا كالنساء؛ كذبها هو صدق من شفتيها. . . .لماذا؟ لأنهما حمراوان رقيقتان عذبتان محبوبتان مطلوبتان
. . .المحامية: تضحك
- النائب بعد أن تتمتع: امرأة لا كالنساء، جعلتها الحرفة امرأة في العمل، ورجلاً في الكسب. . .
- المحامية: ولكنك لا تدري تحت أي حمل سقطت المسكينة. وقد يكون في الرذائل رذائل كبعض أصحاب الألقاب؛ ذات عظمة. . .
- النائب: يحب راقصة، أي يضعها في عقله الباطن ويشتهيها. نعم يشتهيها. فمن عقله الباطن، وبتعبير اللغة، من واعيته - تخرج الجريمة أو على الأقل فكرة الجريمة والصيت الأدبي. يا حضرات المستشارين؟ هل من كرمة لمن يعشق راقصة؟ لا بل هل من كرامة في الحب؟ ألم يقولوا أن كرامة الرجل العاشق تكون تحت قدمي المرأة المعشوقة كالممسحة الخشنة تمسح فيها نعليها
الحب؟ ما هو الحب؟ انه ليس فكرة، بل هو شيطان يتلبس لجسم العاشق ليعمل أعماله بأداة حية، وهذا التركيب الحيواني للإنسان هو الذي يهيئ من الحب مداخل ومخارج للشياطين في جسمه. وهل رضى صاحب القلب المسكين بجناية قلبه عليه، وعظيم ما انتهك من أخلاقه السامية، هل رضى بعشقه راقصة؟ انه لم يرض الرضى الصحيح، أو رضى بقدر ما. فعلى كليهما يقوم في نفسه مانع والمانع من الرضى هو الموجب للعقوبة
- المحامية: ولكن قدراً من الرضى ينزل بالجناية فيردها إلى جنحة كما في القانون الإنجليزي. وقد قرر الشراح انه ما دام الرضي غير مستلب بكله، فالجريمة غير واقعة بكلها
- النائب: جنحة كل قلب هي جناية من هذا القلب بخصوصه، على طريقة: (حسنات الأبرار سيئات المقربين). والعبرة هنا بالواقع لا بالصفة القانونية. وقد قرر الشراح أن الواقع قد يكون أحياناً سبباً في تشديد العقوبة، فلا بد من تشديد العقوبة في هذه القضية. لا اطلب الحكم بالمادة 230 عقوبات بل بالمواد من 230 إلى 241 ضربة واحدة. . .
- المحامية: قد نسيت أن هذا قلب وعقوبته عقوبة لصاحبه البريء
- النائب: إذن اطلب عقابه بحرمانه الجمال؛ وهذا اشق عليه من العقاب باثنتي عشرة مادة وبعشرين وثلاثين
الرئيس: وما هي الطريقة لتنفيذ الحكم بهذا الحرمان؟
النائب: تأمر المحكمة بالمراقص كلها فتغلق، وبالمسارح كلها فتقفل، وبالسما فتبطل إلا ما
لا جمال فيه منها ولا غزل ولا حب، ويحرم السفور على النساء إلا العجائز والدميمات، ويمنع نشر صور الجمال في الصحف والكتب، و. . .
المحامية: قل في كلمة واحدة: يجب إصلاح العالم كله لإصلاح القلب الإنساني
وجلس النائب، فالتفت الرئيس إلى المحامية وقال لها:
وأما هو؟
(لها بقية - طنطا)
مصطفى صادق الرافعي
الريف
للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني
أراني كلما فسد الجو، وكثر تقلبه، وعز الاطمئنان إليه، أميل إلى الخروج إلى الصحراء أو الريف، ولا أطيق القعود في البيت؛ ولست اعرف لهذا المزاج - الشاذ فيما اعتقد - تعليلاً يسكن إليه العقل وتستريح إليه النفس. فأما انه مزاج شاذ فاعرفه من صياح أهلي حين يرونني ارتدي ثيابي والمطر منهمر والريح تعصف، وأهم بالخروج. ولست

أراهم يملون أن يقولوا لي: (يا شيخ، ما هذا الجنون؟ تخرج في هذا المطر!! أما أن هذه لحكاية! اقعد. . . اقعد. . . نضرم لك الفحم، ونشوي (أبا فروة) أو نمص القصب ونحمد الله على وقاية الجدران) فأهز رأسي وأقول: (ما أحلى هذا! ولكني لا أطيق المكث هنا على حبي له بينكم، ولست احب أن أفارقكم لحظة، وانه ليعز على إلا تأخذكم عيني في حيثما أكون، ولكن نفسي أمارة بالسوء، أو بالحماقة، أو بما شئتم غير ذلك. فإذا كنتم تحبونني فتعالوا معي. . . فان الفضاء رحيب، الصحراء واسعة، وهاتوا القصب معكم، وأبا فروة أيضاً. . . نضع هذا كله في السيارة ونمضي بها. . . قوموا)

ولكنهم لا يفعلون، فامضي وحدي وأعود بزكام أو برد، ولكني أعود مستريح النفس هادئ الأعصاب!

وقد كنت أقول لصديق لي منذ بضعة أيام، وهو من أصحاب العقول المثقفة، والنظر البعيد، والغوص الشديد: (يا أخي، لماذا لا يحب المصريون الريف؟)

قال: (وكيف لا يحبونه وهم لا يبرحونه؟)

قلت: (إنما اعني أهل المدن - القاهرة مثلا - قلما يخطر لهم أن يقضوا أيام البطالة والفراغ من العمل في رحلة إلى الريف)

قال: (وأين تريد أن يذهبوا، وليس في الريف لغير أهله مذهب أو مقام؟)

قلت: (هذا هو سؤالي. . . لو كان الناس عندنا يحبون الريف ويطيب لهم أن يقضوا فيه كل ما يسعهم أن يخسروه من الوقت، لتغير حال الريف، وتكيف على مقتضى هذه الرغبة، وصار لغير أهله فيه مذهب ومقام)

قال: (ربما) وانقطع كلامنا في ذلك

ولكني لم اكف عن التفكير فيه، وقد أدرت عيني في شعوب البحر الأبيض فإذا أكثرها كأهل مصر، ليس لهم (غرام) أو (عشق) للريف أو ما يسمى (الطبيعة)، فالروم والطليان والفرنسيون والأسبان، كلهم على شاكلتنا: الحضري منهم يبقى في المدينة ولا ينشد الريف أو يحن إليه؛ والريفي في قريته، يندران تنزع نفسه إلى تركها أو التطواف بعيدا عنها. ولا نكران أن هجرة أبناء هذه البلاد إلى الأقطار الأخرى غير قليلة، وفي مصر وحدها منهم عشرات الألوف، أو مئاتها، ولكن الهجرة تجيء عن اضطرار لا عن رغبة، والباعث عليها الحاجة، فلا دخل لهذا فيما أقول عنهم من ضعف ولوعهم (بالطبيعة)

واكثر الأجانب هنا يتخذون مساكنهم في قلب المدينة ولا يبعدون ببيوتهم عن أماكن عملهم بعدا يكلفهم مشقة أو يجشمهم عناء ونفقة، ما خلا الإنجليز، فان الرجل منهم يكون عمله في شبرا، فيتخذ بيته في أطراف مصر الجديدة أو في الزمالك على النيل، أو في الجيزة على طريق الهرم، ولا يبالي ما يضيع من الوقت في الذهاب والإياب، ولا يحفل ما يكلفه هذا البعد من النفقة. وقلما يقضي يوم بطالة في بيته إلا إذا كان مريضا. وليس بالنادر أن ترى الواحد منهم يحمل في سيارته خيمة وطعاما وشرابا يكفيان أياما، وفراشا أيضاً للنوم والجلوس، وأدوات للعب، ويذهب بذلك كله إلى السويس مثلا؛ ولو شاء لأعفى نفسه من هذا العناء كله، فلن يعدم فندقا يبيت فيه، ولكنه يضرب خيمته على ساحل البحر أو في الصحراء ويقضى أياما ناعما بالعزلة والوحدة وبما حوله من وجوه الأرض أو الماء، ويروح يمشي بضعة فراسخ كل يوم. . . وقد يكون وحده، فلا يشعر بوحدة ولا تخطئه سكينة النفس، وقد يكون معه غيره، فلا تراه - فيما يبدو لك - شاعرا بأنس يفتقده في وحدته، فكأن انسه كله بالمحل ولا بالرفقة. . ومن المتع التي يحرص عليها أن يكون له بيت أو كوخ - سيان عنده - في مكان ريفي بعيد يذهب إليه كلما أوسعه أن يخلو من مشاغل العمل. فهو في هذا نسيج وحده. ولا يمنعه المطر أو الإعصار أن يخرج في ثياب السهرة ليتعشى ويرقص ويحيى الليل على اسعد حال، ولا يقعده البرد في بيته كما يقعدنا - حتى في بلاده التي لا اعرف اسخف منها جوا، ولا ابعد عن الاعتدال، فهو هناك كعهدنا به هنا

وآهل الشام على خلاف آهل مصر، فانهم كثيرو الخروج إلى الرياض والبساتين؛ حتى أو (مقاهيهم). كما يريدوننا أن نسميها - قلما تكون إلا في بستان أو كما (قهواتهم) يقول ابن الرومي:

ميادين يخترقن بساتي ... ن تمس الرؤوس بالأهداب (في)

ولا اعرف كما قلت تعليلا لهذا الاختلاف في الطباع؛ واحسب أن اعتدال جو بلادنا على العموم يحمل على الرضى بالموجود ولا يغري بغشيان غيره. ولماذا يشتاق ساكن المدينة إلى الريف وليس في المدينة ما يزهده فيها ويدفعه إلى الخروج منها والتماس ما هو أخف محملا، واكفل براحة النفس وسكينة الأعصاب؟ ومما يساعد على القناعة ويبعث على القعود أن التنوع مفقود؛ فالذي يترك القاهرة لا يتوقع أن يستفيد متعة يخطئها فيها؛ والمناظر في الريف واحدة أو هي متشابهة، فلا جبال هناك ولا غابات ولا إحراج، ولا غير ذلك مما يحرك الخيال فيحرك النفس، ولا اختلاف هناك يجعل للنقلة لذة ترجى. والريف من مصر قريب، فهو معروف غير مجهول. والصحراء حولها من بعض جهاتها فلا موجب للتخيل، ولكن الإنجليزي شانه غير شاننا، فان جو بلاده دائم التقلب، وهو مع تقلبه السريع سخيف غير مأمون؛ وقد يكون هذا مما يدفع الإنجليزي إلى اشتياق الريف ويغريه بتصور سحره ويبعثه على التماسه ونشدانه حتى ولو تكررت خيبة أمله فيه

وأمم البحر الأبيض شبيهة بنا من حيث المزاج، وجوها اقرب إلى الاعتدال من جو الشمال؛ ومن هنا فيما أظن مشاكلتها لنا في هذه الطبيعة، ولست أرى وجوه الاختلاف تؤثر في هذا

ولا نكران إننا تغيرنا. فكثر بيننا الذين يطلبون الريف أو الصحراء ويؤثرونهما على المدن، ولكننا نفعل ذلك على سبيل التقليد ومن قبيل المحاكاة ويفضل التثقيف الحديث والاتصال الوثيق بالغرب لا بدافع من الفطرة وحافز من الطبيعة. ومثلنا في هذا أمم البحر الأبيض فقد ذهبت تقلد أمم الشمال كالإنجليز والاسكندناويين والألمان، وراحت تتكلف حب الطبيعة حتى لصارت تبدو كأن هذا فيها طباع، وما هو بذاك

إبراهيم عبد القادر المازني

الخليفة العزيز بالله وزوجه النصرانية وأصهاره البطاركة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

ليس غريبا أن تقرا في التاريخ الإسلامي أن خليفة من الخلفاء قد ولد من أم نصرانية أو انه قد تزوج من نصرانية وله بين الأمراء النصارى أصهار ولأولاده منهم أقارب؛ ولكن ربما يبدو غريبا أن يقترن خليفة مسلم بنصرانية تنتمي إلى آسرة من الأحبار، وأن يكون له بين أحبار الكنيسة أصهار، ولولده منهم أقارب وخؤولة: تلك هي حالة العزيز بالله ثاني الخلفاء الفاطميين بمصر، ولد المعز لدين الله، ووالد الحاكم بأمر الله

كانت الخلافة الفاطمية منذ قيامها بمصر تتشح بصيغتها المذهبية العميقة؛ بيد إنها رأت أن تتبع نحو الذميين من النصارى واليهود سياسة التسامح الحر؛ وظهر اثر هذا التسامح جليا في علائق الذميين بالدولة، وفي ارتفاعهم إلى أرقى مناصبها؛ بل نرى في خلافة المعز لدين الله وولده العزيز ثبتا حافلا من الوزراء والكتاب النصارى واليهود يحتلون ارفع المناصب في البلاط وفي الحكومة؛ وكان أول وزراء الدولة الفاطمية وأعظمهم يهوديا اعتنق الإسلام، وهو الوزير يعقوب بن كلس؛ وفي عصر العزيز كان مدير الدولة وكبير الوزراء نصراني هو عيسى بن نسطروس؛ وكان متولي أعمال الشام يهوديا يدعى منشا؛ وفي عهد المعز والعزيز أنشئت كنائس وأديار كثيرة؛ وبلغ نفوذ النصارى واليهود ذروته في عصر العزيز حيث استولى الوزراء والكتاب الذميون على معظم أعمال الدولة، واستأثروا بمعظم السلطات والنفوذ، وقد كان لهذه السياسة المتطرفة في التسامح والعطف أثر سيئ في المجتمع المصري؛ وتنقل الرواية إلينا في ذلك قصة خلاصتها أن العزيز بالله رأى ذات يوم في طريق الركب الخلافي امرأة تمد بيدها رقعة كأنها ظلامة. فتناولها، فإذا بالمرأة هيكل من الجريد قد ألبس أزرار، وإذا في الرقعة ما يأتي: (بالذي أعز اليهود بمنشا، والنصارى بعيسى ابن نسطورس، وأذل المسلمين بك إلا ما كشفت ظلامتي. . .) فأدرك العزيز ما انتهت إليه نفسية الشعب من تحكم الأقلية الذمية في مناصب الدولة ومرافق الأمة؛ وسواء صحت هذه الرواية أم كانت فقط أسطورة ذات مغزى، فان العزيز لم يلبث أن أدرك خطر هذه السياسة على سلطان الخلافة وهيبة إمامتها المذهبية، فانقلب

إلى مطاردة الذميين، وقبض على الوزراء والكتاب من النصارى واليهود؛ ولكنه عاد فأفرج عنهم بعد أن اتخذ بعض الضمانات التي تكفل الحد من طغيانهم وإسرافهم في سياسة الاصطفاء

وتجمع الروايات المعاصرة على أن جنوح العزيز إلى هذا الإسراف في التسامح نحو الذميين يرجع من وجوه كثيرة إلى نفوذ زوجه أو سريته النصرانية، وابنته منها الأميرة ست الملك؛ وكانت فتاة عاقلة حازمة يحبها والدها العزيز ويستمع إلى نصحها، في كثير من الأمور؛ وأخيرا إلى نفوذ صهريه أخوي زوجه، وهما حبران كبيران تبوأ في عصر العزيز أرفع المناصب الكنسية

وهذه القصة: أعنى قصة زواج العزيز من سيدة نصرانية، قصة يمازجها شيء من الغموض والاضطراب، وتنفرد بتفاصيلها الرواية النصرانية، ولا تكاد تشير إليها الرواية الإسلامية؛ وتقول لنا الرواية أن هذه السيدة زوج العزيز أو سريته، كانت جارية رومية نصرانية من طائفة الملكية، وكان لها أيام العزيز نفوذ كبير في الدولة؛ وكان لها أخوان هما ارسانيوس أو (أرساني) وأريسطيس، رفعهما العزيز بتدخله ونفوذه إلى ذرى المناصب الكنسية، فعين أريسطيس بطريركا للملكية ببيت المقدس (سنة 375هـ) وعين أرسانيوس في نفس العام مطرانا للقاهرة، ثم عين بعد ذلك بطريركا للملكية بالإسكندرية (سنة 390هـ) وكان لهذين الحبرين بلا ريب نفوذهما في بلاط يرتبط معها بأواصر المصاهرة، وفيه أختهما (زوج الخليفة) وابنته منها الأميرة العاقلة المحبوبة ست الملك؛ وكانت عند وفاة والدها العزيز في نحو السادسة والعشرين من عمرها؛ وقد حملت رسالته في التسامح بعد ذلك في فرص كثيرة، ولاسيما بعد مصرع أخيها الحاكم بأمر الله سنة 411هـ

وتذهب الرواية الكنيسة إلى أبعد من ذلك، فتقول لنا أن هذه السيدة النصرانية هي أم الخليفة الحاكم بأمر الله ولد العزيز، وتنفرد بهذا القول الرواية القبطية المعاصرة، وتقول لنا بالنص ما يأتي: (وكان الملك العزيز بالله بن المعز لدين الله قد رزق ولدا من سرية له رومية وجلس في الملك من بعده، ولقب بالحاكم بأمر الله؛ وكان للسرية المذكورة التي هي أم الحاكم أخ اسمه أرساني فجعلتها بعنايتها بطرك الملكية. . .) ولكن الرواية النصرانية تنقل إلينا في غير موطن أن هذه السيدة هي أم ست الملك ابنة العزيز دون الإشارة إلى

أنها أم الحاكم؛ فيقول لنا يحيى الانطاكي مثلا، وهو مؤرخ معاصر تقريبا: (وفي شهر رمضان سنة خمس وسبعين وثلاثمائة صير اريستس خال السيدة ابنة العزيز بالله بطريركا على بيت المقدس، أقام عشرين سنة ومات بالقسطنطينية، وصُير أخوه ارسانيوس أيضاً مطرانا على القاهرة ومصر). ويقول لنا المكين بن العميد في صراحة ووضوح: (أن العزيز بالله صاحب مصر تزوج امرأة نصرانية ملكية ورزق منها بنتا؛ وكان للمرأة أخوان أحدهما اسمه ارميس (اريستس) صيره بطركا على بيت المقدس، والآخر أرسانيس صيره بطركا للملكية على القاهرة ومصر؛ وكان لهما من العزيز جانب لأنهما أخولة ابنته)، وهذا بينما تلزم الرواية الإسلامية الصمت إزاء هذه المسالة كلها، ولا تشير إلى أم الحاكم إلا بأنها (الست العزيزية)ـ بل نرى المقريزي يشير إلى ارسانيوس وولايته لمنصب البطريركية دون الإشارة إلى أنه صهر العزيز أو خال ست الملك. ومما يبعث إلى التأمل انه إذا كانت السيدة النصرانية هي أم ست الملك، فأن العزيز يكون قد تزوجها أو تسراها وهو ولي عهد بالمغرب قبل سنة 359هـ - وهو تاريخ مولد ابنته - ففي أي ظروف حصل هذا الزواج أو التسري؟ وفي أي ظروف وقعت هذه الجارية الرومية المصرية في يد البلاط الفاطمي بالمغرب؟ هذا ما لا توضحه لنا الرواية، ومن جهة أخرى فان الرواية الكنسية (القبطية) المعاصرة هي التي تنفرد بالقول بان هذه السيدة هي أيضاً أم الحاكم، هذا بينما تكرر الرواية النصرانية المعاصرة والمتأخرة إنها هي أم ست الملك فقط؛ ولو كانت نفس الأم هي أم الحاكم، وهو الخليفة وشخصيته أهم من شخصية أخته، لما ترددت الرواية في ذكر هذه الحقيقة. وقد ولد الحاكم بعد مولد أخته بستة عشر عاماً (سنة 375 هـ) ولم يرزق العزيز خلال هذه الفترة إلا بابن يدعى محمداً وقد توفى طفلاً؛ وفي ذلك أيضاً ما يبعث إلى التأمل

أفلا نستطيع على ضوء هذه الملاحظات أن نرتاب في هذا القول الذي تنفرد به الرواية

الكنسية، وأن نعتقد أن هذه السيدة النصرانية هي أماً لست الملك فقط، وأن (السيدة العزيزية) التي تشير إليها الرواية الإسلامية بأنها أم الحاكم هي سيدة أخرى، وإنها هي الزوجة الشرعية؟ هذا ما نميل إلى الأخذ به، خصوصاً إذا ذكرنا موقف ست الملك من النصارى، وهو موقف عطف دائماً وموقف أخيها الحاكم وهو موقف اضطهاد وقسوة لا مثيل لهما، وصمت الرواية الإسلامية في هذا الموطن لا يمكن أن يحمل على انه صمت تحفظ وإغضاء، لان الرواية الإسلامية تقدم إلينا ثبتاً حافلا من الخلفاء الذين ولدوا من أمهات من النصارى، وفي مقدمتهم عبد الرحمن الناصر اعظم خلفاء الأندلس

وتقدم إلينا الرواية النصرانية بعض تفاصيل عن حياة هذين الحبرين الكبيرين اريسطيس وارسانيوس صهري الخليفة العزيز بالله؛ فتقول لنا أن الطائفة الملكية اشتد ساعدها في عصر العزيز من جراء هذه المصاهرة الملوكية، ووضعت يدها على بعض كنائس اليعاقبة؛ وأن البلاط الفاطمي في أوائل عهد الحاكم بأمر الله، وفي عهد مدبر دولته برجوان الصقلبي، انتدب اريسطيس بطريرك بيت المقدس ليكون سفير الحاكم إلى قيصر قسطنطينية باسيل الثاني في سنة 390هـ (سنة 1000م)، ولكي يعمل على عقد الهدنة والصداقة بين مصر والدولة البيزنطية بعد أن استطالت الحرب بينهما في الشام منذ عهد المعز لدين الله؛ فسار اريسطيس إلى قسطنطينية مع رسل القيصر، وقام بالمهمة، وعقدت بين مصر والدولة البيزنطية معاهدة سلم وصداقة لمدة عشر سنين، وأقام اريسطيس في عاصمة بيزنطية أربعة أعوام حتى توفى في سنة 394 هـ

أما ارسانيوس فانه لبث بطريركا للملكية زهاء عشر سنين؛ وكان في أواخر أيامه قد اعتزل الحياة، في دير القصير الذي شيد في بعض ربى المقطم، وعكف على النسك والتعبد؛ وفي سنة 400هـ (1010م) حينما اشتدت موجة الاضطهاد الديني التي أثارها الحاكم بقوانينه الصارمة ضد النصارى واليهود، أمر الحاكم بهدم هذا الدير الشهير ضمن ما أمر بهدمه من البيع والأديار الأخرى، فهاجمته الغوغاء، وقوضت أبنيته، ونهبت مقتنياته وآنيته، واخرج منه ارسانيوس مع باقي الرهبان الساكنين فيه؛ وقضى ارسانيوس اشهرا أخرى في بعض البيع حزيناً على ما أصاب قومه من الخطوب؛ وفي ذات ليلة من شهر ذي القعدة سنة 400هـ نفذ بعضهم إلى مكانه المتواضع وقتلوه سراً، واحتوت ابنة أخته ست الملك على ما كان له من المال والثياب والذخائر المقدسة. ولم تحدثنا الرواية عمن قتله أو من أمر بقتله، بيد أن في هذا الحادث نفسه ما يبعث إلى الريب في قرابة الحاكم بأمر الله بالحبر المقتول

تلك هي قصة زوج العزيز أو سريته النصرانية وقصة أخويها الحبرين البطركين؛ وهي مصاهرة طريفة فريدة في نوعها، ولا تذكر لنا الرواية مثلاً أخر يرتبط فيه خليفة مسلم مع بعض خلفاء النصرانية برباط المصاهرة، وإذا استبعدنا من الرواية ما يتعلق بالحاكم ونسبته لهذه الأم النصرانية، فانه ليس ثمة ما يحمل على الشك في جوهرها وتفاصيلها. بيد أن الرواية لا تحدثنا عن اسم هذه السيدة الرومية النصرانية التي سطعت في قصر من أعظم القصور الإسلامية، وفي ظل خلافة تطبعها الصبغة المذهبية بأعمق طابع، ولا تحدثنا عن مصيرها

محمد عبد الله عنان

صفحة من طفولتي ترتبط بصفحة من حاضري

للأستاذ خليل هنداوي

(كان لي أخت فقدتها صغيرة أيام نكبة الحرب العظمى بالكوليرا. ومازال اسمها يطوي أيامي حتى استقر على صغيرة لي حلت مكان الأولى؛ فكانت الأخت والبنت؛ وكان لها اسمها ومقامها)

يا لشد ابتهاجي حين أراها تخطر أمامي ووجهها يتدفق نوراً بالصفاء، وشعرها الأشقر يتموج كالشعلة!

تملأ وحدها مكاناً ويملأ أخواها مكاناً،

وتفعم وحدتي أنساً وقلبي محبة؛

فلا ألمحها إلا ضاحكة، ولا أسمعها إلا مهلهلة!. . .

كأنها ضحكة انطلقت بها الحياة،
أو بسمة انجلت عن معنى الرضا.
أناديها باسمها، فيهزني اسمها لأنه وليد ذكرى أليمة ترتبط بها ذكريات. أراها فأرى فيها صاحبة هذا الاسم أيام كانت تحيا بجانبي وتصل طفولتي بطفولتها، أيام كانت تتعانق أحلامنا وتتلاقى آمالنا
أرى فيها صاحبة هذا الاسم طفلة كما كانت بالملامح التي كانت. ولكن العين التي أرى بها قد اختلفت وزالت عنها معاني الطفولة! ولكني أراها وألمسها وأعانقها فأرى أن سلسلة هذا الزمان الطويل لم تكن خلال ذلك منقطعة، لأنها استطاعت أن تثبت لي اتصال الموت بالحياة، واستطاعت أن تعيد لي الميت باسمه وروحه!
أراها تخطر أمامي واثبة أو متهادية، ويراها من معي بعينه كما أراها، ولكن عين الذكرى تمتد إلى أبعد من هذا الحد، فتراها متصلة بذكريات بعيدة الأمد، تحملها كما تحمل عيناها نور غدها. تراها تحمل إلي شيئاً من طفولتي المطوية، أناديها باسمها فأرى (يسرى) الأولى التي كانت تخاف كثيرا من الدخان كأنما صفاء روحها لا يحتمل أن يرى السواد
يغشى السماء الزرقاء والتي كانت لا تجد وسيلة إلى إهداء سلامها إلى أبينا الجندي إلا القمر!
كانت في الخامس من ربيعها يوم زحف الهواء الأصفر بجنوده وويلاته، يغشى المدينة فيأخذ منها جنوداً، ويدخل البيت فلا يرضى إلا بكبشين أو ثلاثة! أو بكل ما تنفس بحياة. كنا نسمع بصفته فنخشى ريحه، ونرتاع من صوته ونحذر أن نلقاه في مكان؛ ولكنه كان يمشي ولا يرى، يدخل ولا يحسه أحد. فأنشب مخالبه في أخي الصغير. فكانت (يسرى) تخشى الدنو منه، ولكنها كانت تسمع من الجارات يقلن لأمه: إنه سليم لأن يديه لم يزرقا. . خافي من زرقة اليدين فهي علامة الموت) وما مر على الصغير ساعات معدودة حتى سقطت (يسرى) التي كانت تحذر وتبالغ في الحذر على صغرها، لأنها تفهم الموت شيئا مروعا. وكانت أمنا تجاهد فينا لا تخشى أن ينشب المرض مخالبه فيها، وما غلبته إلا بقوة اعتقادها وإيمانها. فحنت على سرير (يسرى) وقد رأت أخاها نجا بمعجزة. . ولكن يسرى تتأمل في يديها فترى أن الزرقة أحاطت بهما فتقول لأمها: (ها إنني أموت، لأن يداي مزرقتان. .) فتواري الأم وجهها لتذرف دمعتها بعيدة عن عينيها! (إنني لن أشفى يا أماه لأنني لا أرى في جسدي إلا الزرقة.) هاتي لي ثياب العيد - وكان العيد بعد أسبوع - من خزانتي، أريد أن ألبسها كلها. هاتي ردائي الأحمر الذي أرسله إلى والدي من القدس.) لبست ثيابها واغتبطت برغم الألم، ثم أخذها ذهول عميق عقبه سكرة الموت، ولبثت حتى حان وقت وقوعها في الداء، فأسلمت روحها ولما يتنفس الفجر! فبكت أمنا بهدوء يشقه بعض شهقات، تحاول ألا نسمع وكنا نياما، وهي تخشى على أخي النكسة، حتى طلع النهار - وأوصت حفار القبور
تتراءى لي هذه الصفحة الأليمة فأراها واضحة السطور على رغم القدم، وأذكر أنني نهضت فوجدتها كتلة زرقاء هامدة لا تنبض بالحياة، فروعني ذلك ولكني لا أذكر كيف بكيت! فمشينا إلى المقبرة وهي على يدي الحفار لا يمشي خلفها إلا ثلاثة: أمها وجدتها وأنا، أعدو خلفهما حافي القدمين، ولكني أرى من وراء ظهر الحفار رأسها الملتف وقدميها الملتفتين. وكيف يمشي أحد معنا والناس لاهون بموتاهم. فوجدنا على باب المقبرة ولداً لا أهل له يوارونه التراب وكان اللحد ضيقاً، فطووا قدميه بالعنف حتى يتسع اللحد له! فمشينا
حتى أدركنا لحدها وكان واسعاً، فقالت أمها:
انه كثير السعة وهي صغيرة.
وسدوها اللحد وهالوا على وجهها التراب. وكنت أظن أن وجهها توارى إلى الأبد. فعدنا وأخذ النسوة يعزين والدتي قائلات:
- اشكري الله على نجاة الصبي بهذه الفدية
ولعل هذه التعزية كانت مما تخفف عن الأم لوعتها ولكن مكان الولد لا يسد (لكلِّ مكانٌ لا يسد اختلاله)
بلى ضننت أن وجه يسرى قد توارى إلى الأبد

ولكن هاهي ذي الحياة تتمخض مرة جديدة عن (يسراي) تعيدها إلي ابنة لا أختا؛ تعيدها قطعة من كبدي
لا أحفظ للأولى صورة، ولا أذكر من ملامحها شيئاً، ولكن جدتك - يا يسراي - تقول لي: إنها عادت بملامحها ونضرة وجهها وكأنها هي. وإنها لا ترى فيك إلا ابنتها. . .
فأهلاً بك أختاً وبنتاً!
وأهلاً بك يا شعلة حياتي!
خليل هنداوي

في الأدب المقارن

الأدب العامي في الأدبين العربي والإنجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

بداوة الأمة هي عهد طفولتها؛ فيها يكون أدبها ساذجاً على صدق عاطفته، ضئيل الحظ من الفكر المستقيم على قوة شعوره؛ ويشبه دخول الأمة طور الحضارة والثقافة بلوغ الناشئ الحلم؛ إذ تنضج أفكارها ويتنبه وعيها بما يحيط بها من مظاهر الكون ويزداد تأملها فيها واتصالها بها؛ ومن ثم يزداد اثر الفكر السليم والنظر الثاقب في آدابها بجانب الشعور الحار والعاطفة المتدفقة؛ على انه لما كانت العاطفة عادة تقتصر على فريق من أبناء الأمة دون فريق، فأنه يصير للامة المتحضرة أدبان: أدب راق للخاصة وأدب عامي للدهماء؛ ولا ريب انه كلما ازداد انتشار التعليم في الأمة كان ذلك كسباً للأدب الراقي؛ ولم توجد بعد الأمة التي يتوحد فيها الأدبان

وتزداد الهوة بين الأدبين تدريجيا بارتقاء الحضارة وازدهار الثقافة وترفه المجتمع: فتدخل الأدب الراقي النزعة العلمية، وترتقي لغته وتتسع جوانبها، وتتهذب لهجته وترق حاشيته، ويزداد تراثه من جيل إلى جيل لاستعانته بالكتابة؛ أما الأدب العامي فيتداول بالرواية، ولذا يظل في تجدد وتحول وزيادة ونقص؛ تلونه المجتمعات المتعاقبة بألوانها، وتترك فيه العصور المتوالية مياسمها، ويظل ساذجاً كأدب البداوة الأولى: يهتف بالغرائز والعواطف البسيطة، ويتحدث بأحلام النفس الإنسانية في السعادة المطلقة وميلها الدائب إلى الجمال والقوة والحق والفضيلة، ويظل على ما يشوبه من خرافة وغرارة هو الثقافة الوحيدة التي تتمتع بها الطبقة العاملة

وقد كان للعرب على عهد حضاراتهم أدبان كذلك: ساعد على قيام الأدب الراقي اعتداد أشراف العرب بأدبهم القديم، وتمسكهم بلغتهم، وانتشار الثقافة والعلوم التي ورد مناهلها فريق من الأمة دون فريق؛ ساعد على ظهور الأدب العامي اختلاط العرب بالأمم وفساد لغة الكلام. وصار للإنجليز كذلك أدبان منذ تحضروا وتثقفوا وامتزجت اللغة الانجلوسكسونية باللاتينية، واستخدمت في العلوم والآداب، وتوطدت قواعدها واتسعت جوانبها وأصبحت لغة مجتمع راق. فانفصال الأدبين الخاص والعامي أحدهما عن الأخر جاء مختلف الكيفية في الأمتين: ظهر الأدب العامي في العربية بفساد اللغة الفصحى

وانحطاطها، وظهر الأدب الفصيح في الإنجليزية بارتقاء اللغة العامية وارتفاعها تختلف الأمتان في هذا، وتختلفان أيضاً في علاقة الأدبين الفصيح والعامي في الأزمنة التالية لانفصالهما: ففي العربية كانت الهوة بينهما سحيقة والاتصال يكاد يكون معدوما، لشدة ترفع الأدب الفصيح عن صاحبه، بل تجاهله لوجوده؛ أما في الإنجليزية فكانت المسافة بينهما اقرب، والاتصال أوثق؛ وظل للأدب العامي دائماً للمثقفين اعتبار، ورحب به الأدب الفصيح مرارا وخلطه بنفسه، واقتبس أساليبه وصوره، واصطنع مواضيعه ونغماته، فأفاد بذلك فائدة كبرى

فالأدبان الفصيح والعامي وإن اختلفا تهذب لغة واستقامة تفكير وعمق نظرة وتنوع أشكال، يستقيان من معين واحد، هو النفس الإنسانية، بميولها وأحلامها وآمالها. وإذا امتاز أولهما بصفات هي وليدة الحضارة العالية والمجتمع الراقي والعلم المنظم، فان الثاني يمتاز بصفات الصدق والبساطة والقرب من الطبيعة التي هي مرجع كل فن؛ والأدب الفصيح عرضة من آن إلى آن لغلبه اللفظ فيه على المعنى ورجاحة الزخرف على الجوهر، وظهور التأنق والتحذلق على الشعور الصحيح والطبع المرسل، فهو بحاجة دائما إلى العودة إلى الطبيعة، وخير سبيل له إليها الأدب العامي، إذا نقاه من أو شابه واستخلص أجود عناصره

ظل للأدب العامي في إنجلترا دائما اعتبار، وظل كبار الأدباء مهما سمت ثقافتهم واتسعت نظرتهم إلى الحياة على علم به: فشكسبير وسبنسر وملتون طالما استقوا من معينه قصصا سائغا ضمنوه آثارهم، والتقطوا من كنوزه ألفاظا معبرة ألحقوها باللغة الشعرية الراقية فصارت من بنيتها؛ وأتيح للاغاني الشعبية من حين إلى حين أفراد من خاصة المثقفين عنوا بجمع ما وصل إلى عهودهم منها، فكانت تلك المجموعات نصب أعين الشعراء، يتخذون منها مواضيع لأشعارهم أو يحاكونها في الأسلوب والنظم

وكان لتلك الأغاني فضل عظيم في بعث النهضة الرومانسية في أوائل القرن التاسع عشر، بعد أن اختنق الشعر في جو المدينة وأثقلته قيود الألفاظ والتقاليد؛ فقد انصرف جمهور المتأدبين عن ذلك الضرب المتكلف من النظم إلى مجموعات الأشعار الشعبية التي توفر على جمعها ونشرها إذ ذاك نفر من الأدباء، وضمنوها ما وصل إليهم من مقطوعات منذ

عهد القرون الوسطى فنازلا، بعضها يدور حول السحر والطلاسم، وبعضها من نسج الخرافة، وبعضها مزيج من الخرافة والتاريخ، وكلها مملؤة بحب الطبيعة ووصف مناظرها؛ وكان لاسكتلندا وأدبائها فضل كبير في تلك الحركة؛ فقد اخذ الكثير من الأغاني من أدبها العامي، وقام أدباؤها بالجانب الأكبر من ذلك الجمع والنشر، وقاموا بالرحلات بين أريافها وحزونها ينقلون عن الزراع والرعاة أغانيهم وأسمارهم

ومن الاسكتلنديين أيضاً كان الرعيل الأول من الشعراء الذين نظموا أشعارهم في التغني بالطبيعة وحياة البسطاء من الفلاحين والرعاة وحياة الفروسية الغابرة؛ ومن أولئك ألان رمزي وروبرت برنز ووالتر سكوت. وقد كان ثاني هؤلاء فلاحا قحا، فعبر في شعره عن حياة فلاحي اسكتلندا وتقاليدهم وأفراحهم وأتراحهم؛ اما الثالث فقد كان على نقيض ذلك أرستقراطيا سليل أسرة تمت إلى الفرسان العصور الوسطى، فاحتفى شديد الاحتفاء بالأغاني الراجعة إلى تلك العصور، وازداد شغفا بالأغاني الشعبية حين اطلع على ما ترجم منها عن الألمانية، فطاف في اسكتلندا طلبا للاستزادة، وجعل محصوله من كل ذلك مادة لأشعاره وقصصه التي رفعته في زمنه وبعده إلى مصاف كبار الأدباء، وأكسبته شهرة عظيمة في القارة الأوروبية

وفي هذا الجو المملؤ بحب الطبيعة والبساطة والشعور الصادق، نشا وردزورث وكولردج ثم شلي وكيتس، وهذه الروح الخافقة المأخوذة عن الأغاني الشعبية هي التي أوحت إليهم أشعارهم البديعة وجعلتهم ينهجون بالشعر نهجهم الطريف. وكان وردزورث احرص الجميع على اختيار المواضيع البسيطة لقصيده، واختيار أشخاصه من بين الريفيين والدهماء، واستعمال ألفاظهم بذاتها في شعره؛ وقد جمع باكورة ما نظمه على ذلك النمط في كتابه (الأغاني الشعرية) الذي أخرجه بالاشتراك مع كولردج، وصدراه بمقدمة شرحا فيها المذهب الجديد المستمدة روحه من روح الأغاني والأقاصيص العامية

ووجد الأدب لعامي لنفسه مسلكا جديدا إلى الأدب الفصيح، حين تقدمت القصة وتناولت الحياة الاجتماعية بالوصف الدقيق، وأولعت بتصوير شتى الشخصيات من الطبقات الفقيرة والأوساط الريفية، وتناولت معاملات تلك الطبقات والأوساط ومحاوراتها وعقلياتها بالعرض والتحليل، وتوخت الأمانة للواقع بنقل ألفاظ القوم ومحاكاة أساليبهم في الخطاب؛

وفي روايات هاردي تصوير لكل ذلك دقيق لا يباري دقة ونفاذ بصيرة؛ وهكذا كسب الأدب الفصيح كسبا جديدا من الأدب العامي

أما في العربية فكان نصيب الأدب العامي دائما الزراية والتجاهل؛ وكان أول ما يأخذ به المتأدب نفسه التخلص من شوائب العامية لفظا ومعنى وأسلوبا، وشر ما يوسم به لفظ إنه عامي، أو معنى انه سوقي؛ وابعد ما يفكر فيه الأديب أن يخالط العامة أو الزراع ليأخذ عنهم ما يتحدثون فيه وما يتأدبون به، من قصص ممزوج بالخرافة، وغناء متسم بالسذاجة، أو يطوف في الأرض طلبا لذلك كما طاف سكوت وأمثاله في شعاب اسكتلندا؛ إنما كان أدباء العربية يشدون الرحال إلى البادية طلبا للفصيح من الكلام والأصيل من الأساليب، والمأثور من أقوال العرب يتخذ حجة في المناظرة، وأنموذجا في الإنشاء وقد عيب على بشار قوله في جارية:

ربابة ربة البيت ... تصب الخل في الزيت
لها عشر دجاجات ... وديك حسن الصوت
لأنه تناول موضوعا بسيطا عاميا وتحدث في سذاجة لا تليق بالشعر الفصيح. وإنما كان الأدب العربي فيما ارتضى له أصحابه، واستن له نقاده، أدب بلاط يحفل بذكر الملوك لا السوقة، ونديم أرستقراط يشارك في حياة العلية ويشمخ عمن دونهم، ولا يرى في حياء الدهماء وحياً لقول، ولا موضوعا لتفكير، فلم يكن من شعراء العربية من يحتفي بوصف أشخاص قريته كما فعل جولد سميث في (القرية المهجورة) وصفاً كله حب وحرارة، ولا من يرثى أبناء القرية في مراقدهم الأخيرة، وهم الذين افنوا العمر كدا دون أن تسمع الدنيا بأسمائهم أو يصعدوا إلى المجد على أكتاف غيرهم أو دمائهم، كما فعل جراي في مرثيته

وقد اثر عن بعض شعراء العربية كابي نؤاس وأبى تمام، انهم كانوا يتلقفون أحيانا أقوال العامة فيصوغونها شعرا، كالذي رواه ابن الأثير من أن أبا تمام وصل من بعض قصيده إلى قوله: (وأحسنُ من نور يفتِّقه الصَّبا) وارتج عليه، حتى مر بالباب سائل يقول: (من بياض عطاياكم في سواد مطالبنا)، فاكمل أبو تمام البيت: (بياض العطايا في سواد المطالب)، على أن ذلك كان نادرا ضئيل الأثر. أما الاحتفال للأدب العامي، ومحاولة الانتفاع به، والرغبة في جمعه، والعمل على تلقيح الأدب الفصيح بعناصر الحياة فيه، فذلك

كان بعيدا جدا عن أذهان أدباء العربية

لم يستفد الأدب العربي الفصيح من شقيقه العامي شيئا، مع انه كان أحوج كثيرا من الأدب الإنجليزي إلى تلك الاستفادة، بل لعل رفضه الاستفادة من أدب العامة كان من أسباب اضمحلاله وسقوطه: فقد أبى الأدب العربي إلا اعتزال أدب العامة بنفس الإصرار والشموخ الذين اعتزل بهما آداب الأمم الأخرى، وتعالى عليه تعاليه عليها؛ ورأى المسعودى وابن النديم نسخا من قصص ألف ليلة وليلة، التي بدأت تتجمع حولها آداب العامة فاستخفا بها وحقراها، ولم يخطر لهما أن بها مادة لعبقرية الأديب أو لقاحا للأدب. سخرا من الأقاصيص الشعبية في القرن الرابع الذي كانت الصنعة اللفظية فيه قد ركبت الأدب، والتقاليد قد كبلت المنظوم والمنثور، ولو التفت الأدباء إلى ذلك الأدب الشعبي الناشئ واستوحوه جديدا من القول، لربما شهد الأدب العربي نهضة جديدة وإحياء كالذي شهده الأدب الإنجليزي في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن الذي يليه

والحق أن الأدب العربي العامي قد احتوى من المواضيع الأدبية والأشكال الفنية ما أعوز الأدب الفصيح، بل انه احتوى من ذلك على ما هو أشبه بالأدب وانهض بوظيفته واقرب إلى التعبير عن الشعور. والحق أن الأدب الفصيح ليس بالترجمان الصادق المستقل للمجتمع العربي، ولا هو بالسجل الكامل لنتاج الذهن العربي وخلاصة النفس العربية في تعاقب العصور، والأدب العامي اصدق وأوفى منه في كل ذلك

فالأدب العامي حافل بآثار الخيال؛ مملوء برائع القصص، وهو ما يعوز الأدب العربي الفصيح منثوره ومنظومه؛ فالقصة الاجتماعية ضرب من الأدب لم يألفه أدباء العربية، والخيال الذي أولع به الشعراء واشتهر به البحتري خيال كاذب، إنما هو وهم ومغالطات صبيانية: من توهم أطياف أحبة لا وجود لهم، واختراع مواقف للوداع لا طائل تحتها؛ ولو فطن الأدباء لأخذوا بيد القصة فرفعوها من عاميتها إلى لغة الفكر المثقف والوضع المهذب، فأضافوا بذلك إلى الأدب فنا يجد فيه متحولا عن فنونه العتيقة

والأدب العامي حافل بضروب الأوزان والقوافي الشعرية المتداخلة، وهي الأشكال التي رفضها الأدب الفصيح وظل متمسكا دونها بالقصيدة الموحدة القافية، وأبعدها عن حظيرته فلجأت إلى حظيرة الأدب العامي؛ على أن تلك الموشحات التي راجت في الزجل دون

الشعر أدل على الرقي الأدبي واقدر على التعبير عن شتى المقاصد من القافية الموحدة، فتلك فائدة أخرى ما كان أحرى الأدب الفصيح أن يستفيدها من الأدب العامي، ولكن الأرجح أن ذيوع تلك التوشيحات في أدب العامة زاد الأدباء صدودا عنها فيما يحتفون به من أغراض القول

وأسباب هذا الجفاء الذي استحكم بين الأدبين الفصيح والعامي في العربية هي: روح

المحافظة التي سادت الأدب الفصيح والتبجيل العظيم لآثار الأقدمين، والاعتداد الشديد بلغة الضاد التي هي لغة الكتاب المنزل والدولة؛ وهي عوامل نماها وقواها اعتزاز العرب في صدر الإسلام بقوميتهم وتعاليهم عمن عداهم من الشعوب، وحرص أبناء تلك الشعوب على التشبه بهم بحذق لغتهم وتقليد أساليبهم؛ كل ذلك جعل للفظ عند الأدباء التقديم على المعنى، فكل قول عدم اللفظ الفصيح هو عامي سوقي حقير لا قيمة له، وجعل لأساليب العرب الأقدمين مكانة رفيعة، فكل قول شذ عنها ناب مستهجن، وكل احتذاء لها مهما أرهقه التكلف وخرج به التقليد عن طور المعقول والمحسوس، فهو مقبول معدود في الأدب؛ هذا إلى ما تقدمت الإشارة إليه من تعلق الأدباء بأهداب الملكية والعلية ابتغاء النوال، مما نأى بجانبهم عن جانب العامة فالأدب الفصيح استحال في حيز تلك التقاليد والمراسيم إلى قوالب متحجرة، وأوضاع متصلبة، غير حر الحركة ولا سهل التجديد ولا قابل لتأثير من الخارج، لا يتأثر إلا بماضيه، بتراث العرب الأفحاح الذين قصدوا القصائد ونسبوا وفخروا وهجوا وارتجلوا الخطب؛ وتلك حال إذا صار إليه الفن جمد وبعد عن الأمانة للحياة والتصوير لحقائقها. وشبيه بذلك ما صار إليه فن النحت وفن التصوير عند قدماء المصريين من جمود وزيغ عن الحقيقة، حين كبلتها الأوضاع والرموز الدينية

وقد اصبح لزاما على الأدب الفصيح وقد كبلته التقاليد بالقيود، وأحاطته الصناعة بالسدود، أن يترك التعبير الصحيح عن شعور المجتمع للأدب العامي، وذلك هو الذي تم دون أن يشعر رجاله، ودون أن يقلعوا عن كبريائهم وترفعهم عن الشعب. فظلوا في تقاليدهم الجامدة وبراعاتهم اللفظية سادرين، وقد نما الأدب الشعبي واتسع، وحوى من صادق المشاعر والعواطف، وجميل المحاورات والمناظر، ما أعوز الأدب الفصيح، وما قربه إلى نفوس الشعب وإلى نفوس الأمم الأخرى معا:

فقد فطن الأوربيون من عهد الحروب الصليبية إلى ما في الأدب العربي من جمال وعبقرية ومتعة، فتداولوا أقاصيصه وأغانيه وحاكوها في آدابهم الشعبية وخلطوها بها، وترجموا مجموعات منها إلى لغاتهم في شتى الأزمنة، ولم يالوها حفاوة وامتداحا، وعرفوا فضلها في إدخال العنصر الرومانسي في آدابهم العالية، وهي نفس الوظيفة التي أداها أدبهم الشعبي؛ أما موقفهم من الأدب العربي الفصيح فكان خلاف ذلك: فانهم كلما حاولوا دراسته والانتفاع به في آدابهم صدهم عنه ما فيه من غرابة معان متكلفة لا تمت إلى الحياة الصحيحة، ومن زخارف ألفاظ يحتفي بها أدباء العربية كأنها حقائق مجسمة، فإذا ترجمت لم تعد شيئا مذكورا، فرجعوا خائبين وعزوا تلك الغرابة إلى اختلاف عقليتي الشرق والغرب، وما هو كذلك وإنما مرجعها ما خالط الأدب الفصيح من تقاليد جامدة شبيهة بالرموز الدينية، بعدت به عن التعبير عن شعور النفس الإنسانية، شرقية كانت أو غربية

فالأدب العربي العامي قد احتوى من عناصر الصدق في الشعور، وتصوير المجتمع، ووثبات الخيال ما أعوز الأدب الفصيح كثيرا، وهو مع ذلك قد لقي الإهمال والازدراء من المثقفين وخسر الأدب الفصيح معونته في العصور الماضية، وهو أن لم يكن أحرى من الأدب الفصيح بالدرس، واكثر منه فائدة لمؤرخ الأدب والمجتمع فليس دونه تلك الوجوه، وهو خليق بان يدرس معه جنبا إلى جنب، وتجمع أثاره المتخلفة من شتى العصور، ففيها هي ذاتها متعة جليلة، وفيها بجانب ذلك للشاعر والقصصي ما يبعث الإلهام، ويبسط منادح التفكير والقول، ويدني من الطبيعة والصدق

انتهى بنا الحديث في المقال السابق إلى بيان اثر نظرية النبوة الفارابية في القرون الوسطى. ويظهر أنها لم تقف عند هذا الحد بل جاوزته إلى التاريخ الحديث. ونرى واجبا علينا لإتمام هذا البحث أن نشير إلى بعض المفكرين المحدثين في الغرب والشرق الذين حاولوا تفسير النبوة تفسيرا يمت بصلة إلى النظرية الفارابية؛ ولن

نتحدث من بين فلاسفة الغرب إلا عن اسبينوزا الذي أشرنا في بحث سابق إلى انه يلتقي مع الفارابي في نقط كثيرة. وأما مفكرو الشرق ومصلحوه فسنذكر من بينهم شخصيتين جليلتين كانت لهما اليد الطولى في نهضة الأمم الإسلامية الأخيرة وتقدمها العلمي والأدبي، وهما السيد جمال الدين الأفغاني والأستاذ الإمام. ولا نظن أحدا إلى الآن حاول أن يربط آراء هذين المصلحين ربطا وثيقا بنظريات علماء الإسلام الأول ومفكريه، اللهم إلا محاولات ضئيلة ترمي إلى أيجاد علاقة بينهما، أو بين الأستاذ الأمام بوجه خاص من جانب وابن قيم الجوزيه وابن تيميه والغزالي من جانب آخر. وإذا صح أن آراءهما الدينية قد ربطت بأقوال بعض أئمة السلف فأبحاثهما العقلية لا تزال حتى الساعة غير واضحة الصلة بنظريات فلاسفة الإسلام. وخطأ أن يظن أن هذه الصلة مقطوعة أو معدومة، فان السيد والأمام إنما تم تكوينهما أولا وبالذات على حساب المصادر العربية؛ وفي مجلة العروة الوثقى ما يشهد بأنهما كانا يدعوان إلى دراسة فلاسفة الإسلام وتفهم أفكارهم. وسنرى بعد قليل كيف يلتقيان في مشكلة من أهم مشاكل الإسلامية

كلنا يعلم أن الصلة بين العقل والنقل بين الفلسفة والدين شغلت الفلاسفة المحدثين كما كانت حجر الزاوي في فلسفة القرون الوسطى. وقد وقف اسبينوزا على هذا الموضوع كتابا مستقلا غير معروف من جمهور القراء، لان نفوذ كتابه الآخر المشهور (الأخلاق) غطى عليه، ونعنى به (رسالته الدينية السياسية) التي تتمم في رأينا مذهبه الفلسفي. ذلك لأنه إذا كان (كتاب الأخلاق) يوضح الحقائق العقلية، فأن هذه (الرسالة) تشرح الحقائق النقلية. وهذان الضربان من الحقائق متميزان عند اسبينوزا ومستقلان تمام الاستقلال ويقابلان علمين منفصلين: الحقيقة العقلية وموضوع الفلسفة، والحقيقة النقلية في موضوع علم الإلهيات، واسبينوزا فيلسوف وعالم في الإلهيات في أن واحد، فلا يستطيع أن يلغي إحدى هاتين الحقيقتين ولا أن يدمجها في الأخرى، بل يقرر أن كل واحدة منهما ضرورية ومطلقة النفوذ في مضمارها؛ والدين أن لم يكن الحقيقة كلها حقيقي في ذاته ولا غنى للجمعية عنه. غير أن الحقيقة الدينية تعتمد رأسا على الوحي والإلهام، فكيف يتم هذا الوحي وبأنه وسيلة يستطيع الأنبياء الوصول إليه؟ هذا هو السؤال الذي حاول اسبينوزا أن يجيب عليه. وفي رأيه أنا إذا تتبعنا الكتب المقدسة جميعها وجدنا إن الإلهامات النبوية المختلفة سواء أكانت عبارات صحيحة آم صورا رمزية إنما تتم بواسطة مخيلة قوية. وعلى هذا لا تتطلب النبوة شرطا آخر سوى أن يكون الأنبياء ذوي خيالة نشيطة متنبهة

لا يمكننا أن نمر بهذه الآراء دون أن نفكر على الفور في الفارابي وفي الدراسات الفلسفية اليهودية في القرون الوسطى. حقا أن المعرفة الناتجة عن الوحي والإلهام لا تساوي في نظر اسبينوزا المعرفة العقلية، مع انهما عند الفارابي متساويتان متكافئتان؛ ولعل هذا راجع إلى أن اسبينوزا فيلسوف قبل أن يكون لاهوتيا، وديكارتي قبل أن يكون فارابيا؛ ولا شك أن الأفكار الواضحة النيرة هي وحدها عند ديكارت سبيل المعرفة اليقينية غير انه بالرغم من هذا الخلاف فمن المسلم أن الفيلسوف العربي والفيلسوف اليهودي متفقان على أن قوة الخيالة شرط أساسي في النبوة. وهنا نتساءل: هل هذا الاتفاق مجرد مصادفة أو اخذ اسبينوزا عن الفارابي بعض آرائه في النبوة؟ إذا ما لاحظنا أن الأول درس في عناية مؤلفات ابن ميمون أمكننا أن ندرك الصلة بين الأفكار الاسبينوزية ونظرية النبوة الفارابية. ونحن نلحظ من جهة أخرى أن مذهب السببية عند الفيلسوفين متحد، وانهما يقبلان فكرة التنبؤ بالغيب دون أن يكون لها أي اثر في مجرى القوانين الطبيعية. ففي مقدور ذوي النفوس الممتازة أن يقفوا أثناء اليقظة أو في حالة النوم على الأمور المستقبلة ويتكهنوا ببعض الحوادث التي ستحصل غدا أو بعد غد لا محالة. وعلى كل حال فنحن لا نذهب مطلقا إلى أن اسبينوزا اخذ عن الفارابي مباشرة، لأنه ما كان يعرف العربية؛ وبعيد أن يكون قد وقع في يده شيء مما ترجم من كتب الفارابي إلى اللاتينية. وكل الذي نعتقده انه استقى بعض الأفكار العربية من مصدر ثابت هو كتاب (دلالة الحائرين) لابن ميمون، وفي هذا الكتاب، كما قدمنا قسط وافر عن نظرية النبوة

ولنعد الآن مرة أخرى إلى الشرق وإلى السيد جمال الدين الأفغاني والأستاذ الإمام

بوجه خاص. فأما السيد فلم يخلف لنا مؤلفات كثيرة نستطيع أن نقرا فيها كل أبحاثه ونظرياته، وفيما وراء (رسالته في الرد على الدهريين) و (تاريخه للأفغان) لا نكاد نجد له إلا مقالات متفرقة في (العروة الوثقى) وفي بعض الصحف والمجلات الموجودة في ذلك العهد. وكأنه اكتفى بان يلقن اتباعه وتلاميذه تعاليمه دون أن يودعها بطون الكتب شان سقراط وطائفة من المصلحين. هذا إلى أن حياة الاضطراب والرحلة والانتقال التي قضاها ما كانت تسمح له بالهدوء الكافي للجمع والتأليف. ومهما يكن فقد أدلى في موضوع النبوة بآراء جديرة بان تسرد هنا. وذلك انه أثناء مقامه الأول في القسطنطينية سنة 1870 دعي إلى إلقاء محاضرة في دار الفنون. ويظهر انه شاء أن يكون موضوع المحاضرة متناسبا مع المكان الذي ألقيت فيه، ولهذا تحدث عن فائدة الفنون. وفي خلال هذا الحديث شبه الجمعية بجسم مرتبط الأجزاء والأعضاء، ولكل عضو من أعضائه خاصة. ثم انتقل من هذا إلى انه لا حياة للجسم إلا بالروح، وروح هذا الجسم هي النبوة أو الحكمة. فالنبي والحكيم من الجمعية الإنسانية بمنزلة الروح من البدن. وكل ما بينهما من فارق: هو أن النبوة منحة إلهية لا تنالها يد الكاسب يختص الله بها من يشاء من عباده (والله اعلم حيث يجعل رسالته) في حين أن الحكمة تنال بالبحث والنظر. وفوق ذلك فالنبي معصوم من الخطأ والزلل، بينما الحكيم يجوز عليه ذلك ويقع فيه وأول شيء يستخرج من التشبيه السابق أن النبي عضو وعضو هام من أعضاء الجمعية الإنسانية، وأن النبوة مهمة ووظيفة من الوظائف الضرورية للمجتمع. وفي هذا ما هيأ السبيل لشيخ الإسلام حسن فهمي أن يثيرها شعواء على السيد متهما إياه بأنه يزعم أن النبوة فن، وأن النبي صانع. وقد أحدثت هذه التهمة ضجة عنيفة في صحف الشرق المختلفة، وترتب عليها أن أرغم السيد على مفارقة استامبول سنة 1871

التتمة في العدد القادم

إبراهيم بيومي مدكور

قصة الميكروب كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكي

مدير مصلحة الكيمياء

عزرائيل يقبض بيد صفراء

وصل الفائت: بنى ريد رئيس بعثة الحمى الصفراء ومساعده كارول بيتا صغيرا وأناما فيه ثلاثة رجال، الطبيب كوك والجنديين فوك وجرنجان، أناماهم في اقمصة الموتى بالحمى وفي دمائهم، فلم تصب الحمى أحدا منهم. إذن فالحمى لا تنتقل من ثياب المرضى ولا من قذرهم، وأنما من البعوض. وخشية أن تكون الحمى لم تصبهم لأنهم بطبيعتهم حصينون، حقنا أحدهم بدم مريض، وسلطا على الآخر بعوضة وبيئة، فجاءت الحمى كليهما

وبينا هذه التجارب تجري كان رجل غير جندي من أهيو كاسف البال حزينا. هذا جون موران الذي أنتصب له ريد قائما ورفع له يده بالسلام. تذكر انه تطوع (في سبيل العلم والإنسانية) ورفض بتاتا أن يأخذ أجرا، وقرصته بعوضة الحمى ذات الأقلام الفضية البيضاء، وبعد ذلك قرصته مرارا بعوضات مختارات تحمل السم نقيعا في بطنها، ولكنه صمد وا أسفاه لكل هذا وظل صحيحا سليما. فحار ريد ماذا يصنع به

ثم أسعده الخيال فقام فبنى له بيتا صغيرا ثانيا إلى جانب ذلك البيت الكريه الأول، وكان هذا البيت الجديد على نقيض جاره القديم. فكانت له نوافذ في قبالة الباب حتى يجري فيه الهواء، وكان باردا، وكان به سرير لطيف نظيف عقم فراشه بالبخار. وعلى الجملة كان منزلا ترضاه الصحة غاية الرضاء، فكأنما بني خصيصا لمسلول يعيش فيه ليطيب؛ وأقام في وسط البيت سترا من ثوب شف دقيق ضاقت فروج نسجه فلا تأذن لأصغر بعوضة أن تنفذ منها. ونال الستر من البيت عدا الحائطين سقفه وأرضه

وفي اليوم الحادي عشر من ديسمبر عام 1900 في الساعة الثانية عشر ظهرا دخل البيت موران بعد استحمام، وليس عليه من الثياب غير قميص فضفاض للنوم؛ ومضت خمس دقائق، فجاء ريد وكارول بوعاء من زجاج فتحاه في البيت فخرج منه خمس عشرة من

بعوضات أنثيات عطشى تطن حنينا إلى شربة من دم. وكانت كل واحدة من هذه الخمس عشرة شربت في أيام مختلفات قبل هذا من دم صبية صفر الوجوه في مستشفى لاس انيماس

دخل موران إلى هذه الحجرة النظيفة الصغيرة بعد استحمامه في قميص واحد ورقد على سريرها النظيف وانتظر القدر الذي يكون. هذا موران، فهل يسمع به أحد من الناس الان؛ وبعد دقيقة طن البعوض حول رأسه. وبعد دقيقتين قرصه البعوض. وفي ثلاثين دقيقة كنت تراه راقدا سطيحا وفي جلده عدة وخزات وخزها إياه البعوض وهو صاغر مستسلم لا يؤذن له حتى شفاء غليله بدق هذا البعوض

وعاد للقرص في منتصف الساعة الخامسة من نفس اليوم، وعاد إليه مرة ثالثة في غد اليوم ليعطيني الفرصة لإناث البعوض التي لم تعثر عليه فتعضه، لتعثر عليه وتعضه حتى تشتفي منه. وكان إلى جانب موران في النصف الآخر من البيت شابان يعيشان فيه لا يفصلهما عن موران وعن بعوضه غير الستر الشفاف، وعاشا في هذا النصف ثمانية عشر شهرا في سلام

آما موران ففي صبيحة عيد الميلاد من عام 1900 استقبله العيد بالهدايا الآتية: وجع ينبض في رأسه، وحمرة في عينيه يزيدها نور الشمس ألما، وهمود بلغ منه حتى عظامه؛ لقد هده البعوض شر هدة، وأطاح به حتى كان من الموت على قيد شعره؛ ثم آخذت الأقدار بيده فحمد الله ريد على انه اشتفى، ولكنه اشتفى ليعيش في خمول ذكر ما استحقه أبدا، وعلى كل حال فقد نال أمنيته - في سبيل العلم والإنسانية؛ والنتيجة انه هو وفوك وجرنجان وكوك وكل من تطوع معهم أو أوجر، كل هؤلاء اثبتوا أن البيت الأول بيت الكرب والهول خلا من البعوض فخلا من كل خطر برغم قذره، وأن البيت الجميل النظيف الثاني دخل إليه كل خطر برغم أناقته ونظافته. ووقع ريد أخيرا على جواب كل سؤال في معضلته الكبرى، وكتب في أسلوبه العتيق يقول: (إن أول شرط يجب توفره في بناء ليكون وبيئا بالحمى الصفراء أن يحل فيه بعوض عض من قبل مرضى بالحمى الصفراء)

كلمة ما ابسطها. وكلمة ما اصدقها. وانتهى الأمر وكان ما كان. وكتب ريد إلى زوجه: (أن الدعاء الذي بت أدعو الله إياه عشرين عاما: أن يكون من نصيبي بطريقة ما وفي وقت ما

أن اخفف عن الإنسان شيئا من شقاء الإنسان، هذا الدعاء قد استجابه الله! وهذا العام الجديد يطل علينا، فآلف عام وآنت بخير يا عزيزتي. . . أنصتي! أنصتي! هؤلاء عشرون (بواقا ينفخون أبواقهم معا يسترقدون العام القديم

أم هم ينفخون أبواقهم تحية لازار! أم هم ينفخون أبواقهم احتفالا بالحمى الصفراء أن أمكن محوها من على ظهر الأرض! آم ينفخ هؤلاء الموسيقيون أبواقهم إنذارا بالقدر الخبيء الذي لن يلبث أن يجيء أفراد هذه البعثة الصغيرة بعيد ساعة نصرها بقليل . . .

وجاءت الدنيا إلى هبانا، وهتف هناك لريد. وجاء العلماء إلى هبانا واشتركوا في نقاشهم العابس وفي التساؤل والتشكك المعهود. ثم جاء وليم كروفورد جرجاس وكان رجلا مثل ريد لا يعاب، جاء إلى هبانا يتدرب استعدادا لصنيعه الأكبر الاخلد في بنما فدخل إلى ميازيب هبانا وإلى مجمعات مراحيضها والى أحواض مائها وشن فيها الغارة على البعوضة الاستيجيوميويه، وفي تسعين يوما خلصت المدينة من الوباء لأول مرة بعد قرنين فلم تقع فيها إصابة واحدة من الحمى الصفراء. انقلاب كأنه السحر، ولكن مع هذا بقي الشك يساور الأطباء والعلماء والنطاسيين ذوي اللحى العبوسة، في أوربا وأمريكا، فظلوا يسألون عن هذا، ويعيدون الكرة على هذا، فعل الذي لم يطمئن قلبه. . . وذات صباح دخل خمسون من هؤلاء الشكاكين بيت البعوض المذكور واخذوا يقولون: (أن هذه التجارب بارعة جميلة، ولكن نتائجها يجب أن تمحص وتوزن من غير عوج أو ميل. . .). وبينا هم فيما هم انكشف غطاء وعاء به بعض انثيات البعوض، انكشف بالطبع اتفاقا، فخرجت البعوضات منه وذهبت قدما إلى وجوه هؤلاء العلماء تطن طنينا وفي عيونها بسمة الخبيث ولهفة الجوعان. فوا حسرتاه على العلماء الإجلاء! طار الشك من قلوبهم، كما طارت أرجلهم بهم - إلى الباب. وارتد الستار بينهم وبين البعوض بقوة صاخبة تحكي عن قوة اقتناعهم بالذي قال ريد. ثم اتضح

الأمر فإذا بالبعوض لم يكن لوث بالحمى
بعدئذ جاء جرجاس، وقد سبق ذكره، وجاء معه جون جتراس وكان كوبيا عمدة في الحمى الصفراء، وكانا كلاهما اقتنعا في الذين اقتنعوا بالتجارب التي أجريت في معسكر لازار، فاختطا الخطط لتطبيق نتائج هذه التجارب. وكانت خططا جميلة، ولكنها كانت مع
الآسف سريعة نزقة. قالا: (أن من الغريب أن تلك الإصابات التي حدثت في معسكر لازار لم يمت أصحابها. إنها كانت إصابات ذات أعراض نموذجية من الحمى الصفراء، ولكن أصحابها اشتفوا منها وصحوا من بعدها. أفيكون سبب ذلك أن ريد لم يمهلهم على أرجلهم طويلا وبعث بهم إلى الفراش ليستريحوا سريعا). وبدا يلعبان بالنار. قالا: (سنأتي بنفر من المهاجرين الأسبانيين الذين وردوا حديثا، فهم غير حصينين، ثم نصيبهم بالحمى إصابة شديدة، ولكن على أسلوب ريد لتكون العاقبة مأمونة). هكذا فكرا وهكذا اختطا، وما كان ايسر محو الوباء بإبادة البعوض وهو من البعوض الأنيس الذي يسكن منازل الناس ويتناسل في أماكن بين ظهرانيهم غير خافية ولكنهما قالا: (وبهذا نكون أيضاً قد أعدنا تجارب ريد وخرجنا على نفس نتائجه فزدناها ثبوتا) وجاءا بالمهاجرين، وكانوا قوما جهلاء لا يفقهون، أنصتوا للذي قالاه لهم واطمأنوا إلى أن الإصابة ستكون مأمونة العاقبة. ثم عض البعوض سبعة منهم، وعض ممرضة أمريكية شابة جسورة. فخرج من المستشفى من هؤلاء الثمانية مهاجران والممرضة، وقد أمن الثلاثة عواقب للمرض جديدة، وأمنوا عواقب الأمراض اجمع، وكل هم من هموم الدنيا. خرجوا محمولين على الأعناق والطبول تدق دقا بطيئا خافتا حزينا . . .
ألا ما كان ابرع ريد في بحثه. ألا ما كان أسعده حظا في بحثه - في تلك التجارب التي خلت من الموت في معسكر لازار . . .
واستولى الذعر على هبانا، وأخذت الجماهير تتجمع وتتحدث بالغضب اصطخابا، ومن ذا الذي يلومهم والحياة الإنسانية عند كل الناس غالية مقدسة
كان كارول قد عاد إلى هبانا ليقضي في بعض مسائل علمية صغيرة، وكان رجلا كالحنوطي ذهبت العاطفة من قلبه، وكان فوق ذلك جنديا. قال: (نحن الآن نستطيع أن نستأصل الحمى الصفراء فلا تكون، ونحن الآن نعلم بأي وسيلة تنتقل من رجل لرجل، ولكن الذي لا نعلمه هو الشيء الذي بسببها). هذا ما قاله كارول لريد، وهذا ما قاله ريد لكارول، ولابد من اعترافنا، واعتراف كل أحد معنا، بان الشيء الذي لم يعلماه بعد، والذي ظلا يعتزمان طلبه، إنما كان أمرا علميا محضا لا يهم إلا ممن يطلبون المعرفة للمعرفة. وأني أسألك أكان هذا أمرا من الخطورة بحيث يستحق ضياع الأرواح، ولو أرواح
مهاجرين أسبانيين؟ أما أنا فلن أستطيع جواب هذا السؤال. وأما ريد وكارول فقد أجاباه بنعم. ولا عجب. فهما بدآ هذا الأمر جنديين يطيعان أمرا، وبدآه إنسانيين يخاطران بروحيهما في سبيل الإنسان، وآذنا للبعوض أن يصب سمة في جلديهما في سبيل المعرفة القاسية الباردة، ثم زهاهما المجد الذي يكون من كشف الغطاء عن كل مجهول . . .
وتأكد لديهما أن الوباء ليس بشلة ترى، أو أية مكروبة أخرى تريها اكبر المجاهر , لقد نظرا في أكبدة الناس وأحشاء البعوض طلبا لهذا المكروب عبثا. ولكن أمعنى هذا انه لا يوجد؟ كلا. فهناك احتمالات خفية أخرى. فهناك احتمال وجود نوع اصغر من المكروب دق حتى عن اكبر مكرسكوب لا يحسن وجوده إلا بقتل الرجال ونفث سمه الخفي فيهم، قد تكون هذه طبيعة مكروب هذه الحمى الصفراء. يؤيد هذا أن فريدريك لفلار، الرجل القديم ذا الشوارب الكبيرة، كشف عن وجود مثل هذه الأحياء في داء (الفم والقدم) الذي يصيب العجول. وود ريد وكارول أن يكشفا في الحمى الصفراء عن وجود مثل هذا المكروب الذي اخرج عن طوق المجاهر فلم تكتشفه
وكان ريد في شغل شاغل، فبعث كارول إلى هبانا يستطلع الامر، فلما جاءها غضب اشد الغضب لموت من مات في تجارب جتراس، وكان جتراس في هلع هالع ومن ذا الذي يلومه، فمنع كارول أن يستخرج دما من مرضى الحمى الصفراء. لا، لا. لا يمكن أن يستخرج دما ابدا. بل ولن يؤذن لكارول أن يعضهم ببعوضه. وزاد جتراس في سخفه ففضل إلا يفحص كارول حتى الجثث التي تموت خشية أن يثير هذا ثائرة

السكان. فكتب كارول إلى ريد يقول: (. . . فتصور خيبتي في وسط هذا) وزاد فاستنكر مخاوف قوم جهال يتسخفون. على أن هذا لم يورثه الخيبة، فما مثل كارول يخيب
ولسنا ندري أي حيلة اعمل، وأي سحر استنجد حتى جاء بدم وبئ من مريض بالحمى، ورشحه في مرشح خزفي دقت مسامه حتى لا ينفذ منه المكروبات التي تريها المجاهر، واخذ السائل الراشح الذي نفذ من الخزف وحقنه تحت جلد ثلاثة رجال غير حصينين من الحمى - ولا يذكر التاريخ كيف أغراهم بالرضاء. فأصيب اثنان منهم. فصرخ صاحبنا صرخة الفرح: أن الحمى الصفراء مثل مرض (الفم والقدم) كلاهما ينشا عن أحياء بالغة الصغر تستطيع الإفلات من مرشح خزفي دقيق المسام
وكتب ريد إلى كارول يقول: (كف عن قتل الناس فقد غلونا فيه)، ولكن أين الكف من كارول، فلابد له من الحصول على بعوض وبئ، وحصل عليه ببعض طرائقه الجريئة الشيطانية، وانتزع الرحمة من قلبه وقام بأخيرة تجاربه
وقال في صدد ما جرى: (لقد عضني البعوض ومرضت، وكنت انتظر الخاتمة تأتي في بحر سبعة أيام. ولكنها لم تأت، فاقتنعت كل الاقتناع بان قوة الإصابة تتوقف على قابلية المصاب اكثر منها على عدد القرصات. ففي التاسع من أكتوبر علم 1901 جمعت كل البعوض الوبيء الذي عندي، وكانت ثمان منها أتاها الوباء قبل ذلك بثمانية عشر يوما، وسلطتها عامدا على رجل غير حصين، فكانت الإصابة التي جاءته إصابة معتدلة). وختم مقاله ختام الفاخر المنتصر. ولك ماذا كان الحال لو أن هذا المريض مات، والله يعلم أن احتمال هذا كان كبيرا؟
هذه قصة هذه العصابة العجيبة. غريبة ما وسعت الغرابة. وإني لأعود بالذكر إلى الذي كان من هذا الباحث كارول، وأتصوره وقد عرت من الشعر رأسه، واحتجبت عيناه وراء منظاره، ثم اذكر انه كان حطابا قبل أن يكون بحاثا، ثم اذكر ما كان من جرأته الخارقة وقلة مبالاته بالعاقبة في أمر نفسه، فلا أتمالك أن ارفع قبعتي احتراما وإعجابا به بالرغم من اغرامه الشديد وإلحاحه في أن يتجسس عن أسرار الطبيعة في اخطر مخابئها. إن كارول كان أول رجل أصيب في هذا السبيل، وهو الذي سن السنة الأولى فاقتدى به الجنود الأمريكيون، وقفى على آثره الكاتب الملكي، وتشجع به المهاجرون الأسبانيون رقم 1، 2، 3، 4، 5، وحذا على حذوه البقية الباقية من هذا النفر الكريم الذي عرفنا أعمالهم وجهلنا أسماءهم - كل هذا في سبيل العلم وسبيل الإنسانية!
ولعلك تذكر انه لما أصيب وقف قلبه أو كاد في سبيل العلم وفي سبيل الإنسانية. فهذا القلب الذي وقف أو كاد في عام 1900، ثم تشبث بعد ذلك بالحياة، عاد في عام 1907. . . فوقف وقفة لا حركة من بعدها
- 7 -
وقبل ذلك بخمسة أعوام، أي في عام 1902، مات ريد وهو في عنفوان شبابه، وكان متعباً اشد التعب برغم صباه. مات وهتاف الأمم له يزداد اصطخابا. وهل تدري بأي علة مات؟ بالزائدة الدودية. ومات فقيرا. تمتم لصديقه كين وهو على سرير العمليات قبيل أن يهبط
المخروط بالأثير على وجهه: (إني لم اترك لزوجتي ولابنتي من متاع الدنيا إلا القليل. . . القليل. . . القليل)، واسكت الأثير لسانه، وهبط به إلى الأخير من أحلامه
لنا الفخار في امتنا وفي مجلس امتنا، فنهم منحوا مدام املي لورانس ريد، زوجة الرجل الذي اقتصد للعالم ملايين الدولارات، دع ذكر الأنفس، منحوها منحة طبية، خمسمائة وألف دولار معاشا سنويا، ومنحوا مثلها لأرملة لازار، ومثلها لأرملة كارول، ولاشك أن هذا كانت فيه الكفاية لهن، بدليل أن لجنة من شيوخ المجلس قالت في غرابة وإبهام: (إن الأرامل لا يزال باب الرزق في وجوههن مفتوحا)
ولكن ما الذي جرى لكيسنجر، جندي اهيو، الذي غامر في التجربة وصمد فيها صمودا في سبيل العلم والإنسانية وحدهما؟ أن الحمى الصفراء لم تقتله. وانه رفض أن يأخذ أجرا عن آلامه وتخاطره. ولكنهم أخيرا وبعد الجهد أغروه بقبول خمس عشرة ومائة دولار وساعة من ذهب، أهديت أليه في حفل جنود معسكر كولومبيا وضباطه. انه لم يمت بالحمى، ولكن خرج سم الحمى من جسده ليدخل فيه ما هو شر منه: شلل زحف في جثمانه بطيئا. واليوم هو مقعد يعد الزمن مصابرة على عقارب ساعته، وهي

من ذهب! وساعده الحظ أخيرا فجاءته زوجة طيبة تعوله من غسل الثياب للناس
وماذا جرى للقوم الآخرين؟ أن الوقت يضيق بي عن تناولهم. وفوق هذا فأنا لا ادري
ماذا جرى لهم. لقد لقي كل واحد من هذا النفر قسمة مختلفة خصته بها المقادير. أي
والله لقد كانوا زمرة من اغرب الزمر، قامت في تلك السنوات العشر بأعجب ما قام
به صياد المكروب، وتوجت هذه الصيادة بأفخرها وأفخمها، وعملت بيد واحدة وقلب
واحد في بحث وباء الحمى الصفراء حتى لم يبق من سمه وأنا اكتب هذا ما يغطي
راس دبوس
قال دافيد بروس وهو محارب الموت القدير: (ليس بمستطاع في الوقت الحاضر أن
نتخذ من أجسام الناس أداة للتجريب). فاليوم ماذا يقول بعد الذي كان!
احمد زكي
هكذا قال زرادشت - 8
للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه
ترجمة الأستاذ فيلكس فارس
الحرب والمحاربون
لا نريد أن يراعينا خيرة أعدائنا، كما لا نريد أيضاً أن يراعينا من نحبهم من صميم الفؤاد
دعوني أعلن لكم الحقيقة
أنني احبكم من صميم الفؤاد، أيها الرفاق في المعارك، فما أنا الآن إلا، كما كنت في
الأمس، جندي مثلكم، فأنا إذن من خيار أعدائكم. دعوني أعلن الحقيقة لكم
إنني عارف ما في قلوبكم من حقد وحسد، فانتم من العظمة بحيث لا يمكنكم أن
تتجاهلوا الحقد والحسد؛ فلتكن عظمتكم رادعة لكم عن الخجل بما في قلوبكم. وإذا
امتنع عليكم أن تكونوا أولياء في معرفة الحق فكونوا على الأقل جنودا يكافحون من
اجل هذه المعرفة؛ وما المكافحون إلا طليعة الأولياء
لقد كثر عدد الجنود فليتني أرى مثل هذا العدد من المحاربين، وعسى إلا تكون
سرائرهم على طراز واحد كالألبسة التي يرتدونها
لتكن أنظاركم منطلقة تفتش على عدو لكم، وقد لاحت في لمعانها بوادر البغضاء.
عليكن أن تجدوا العدو لتصلوا معه حربا تناضلون فيها من اجل أفكاركم، حتى إذا
سقطت هذه الأفكار في المعترك، ينتصب إخلاصكم هاتفا بالظفر
احبوا السلام كوسيلة لتجديد الحروب، وخير السلام ما قصرت مدته. أنني لا أشير
عليك بالعمل، بل أشير بالكفاح؛ لا أشير عليكم بالسلم، بل بالظفر. فليكن عملكم
كفاحا وليكن سلمكم ظفرا
لا اطمئنان في الراحة إذا لم تكن السهام مسددة على أقواسها. وما راحة الأعزل إلا
مدعاة للثرثرة والجدال. فليكن سلمكم ظفرا . . .
تقولون أن الغاية المثلى تبرر الحرب؛ أما أنا فأقول لكم أن الحرب المثلى تبرر كل
غاية، فقد أتت الحروب والأقدام بعظائم لم تأت بمثلها محبة الناس، وما أنقذ الضحايا
حتى الآن
إلا إقدامكم لا إشفاقكم
أنكم تتساءلون عن الخير، وما الخير إلا الاتصاف بالشجاعة، فدعوا صغيرات الأطفال
يقلن: (أن الخير في اللطف والجمال)
يقولون أن لا قلوب لكم، ذلك لان قلوبكم تنبض بالإخلاص، وأن احب تواضعكم في
إخلاصكم. أنكم تستحون لان أمواجكم تندفع في مدها، وسواكم يخجل من تراجعها في
جزرها
أن قبحكم مريع، فتدثروا به أيها الاخوة، لان في دثار القبح ما ليس في سواه من
الروعة والبهاء
أن النفس لتقف صاخبة عندما تعتلي، والقسوة كامنة في اعتلائكم، فما خفيت حالكم
عني. ففي ميدان القسوة الشديد العزم بمنهوك القوى فلا يمكنهما أن يتفاهما - إنني
اعرف من انتم
إذا ظفرتم بعدو فصبوا عليه بغضكم؛ وحاذروا أن تصبوا عليه احتقاركم، فما عدوكم إلا
مدعاة مباهاتكم، فإذا عملتم بوصيتي يصبح انتصاره انتصارا لكم أيضاً
أن الثورة مفخرة للعبيد، فليكن افتخاركم انتم قائما على طاعتكم. وليكن أمر الآمر

فيكم جزءا من هذه الطاعة نفسها. أن المحارب الصادق يفضل ما يجب عليه ما يريده.
فعليكم أن توجهوا ما تؤمرون به إلى هدف رغباتكم. وليكن حبكم للحياة تعبيرا عن أسمى أمانيكم؛ ولتكن هذه الأماني عبارة عن ارفع فكرة في الحياة. وما ارفع فكرة لكم، وأنا أستمحيكم إبداءها لكم كأمر، إلا هذه القاعدة: (ما الإنسان إلا كائن يجب أن نتفوق عليه)
على هذا الوجه تمر حياتكم بالطاعة والجهاد، فما يهمكم أطالت الحياة أم قصرت.
فليس من محارب يطلب أن يعامل بالمراعاة
لقد قلت لكم الحق بلا محاباة لأنني احبكم من صميم الفؤاد، أيها الاخوة في السلاح
هكذا تكلم زارا. . .
الصنم الجديد
لم يزل في بعض الأماكن من الأرض شعوب وجامعات، أما نحن فليس عندنا سوى حكومات وما أدراكم ما هي الحكومات، وما أدراكم ما هي الحكومات
أعيروني أسماعكم لأخاطبكم عن موت الشعوب: - ليست الحكومة إلا ابرد مسخ بين المسوخ الباردة، فهي تكذب بكل رصانة إذا تقول: (أنا الحكومة، أنا الشعب)
إياكم وتصديق ما تقول؛ فما كون الشعوب إلا المبدعون الذين نشروا الأيمان والمحبة؛ فأتوا بأجل خدمة للحياة. وما الناصبون الإشراك للجموع الغفيرة ألا من يهدمون كيانها ليشيدوا الحكومات على أنقاضها، ويعلقوا نصلا قاطعا فوق راس الشعب، وينصبوا مئات الشهوات أمام عينه
إن الشعب، حيث بقى له مرتع على الأرض، لا يفهم ما هي الحكومة، بل هو ينفر منها كما ينفر من العين الساحرة، ويراها شذوذا هادما للشرائع والتقاليد. وإليكم هذا الدليل: أن لكل شعب بيانه عن الخير والشر؛ وجيرة هذا الشعب لا تفهم هذا البيان الذي أوجده لنفسه محددا به شرائعه وتقاليده، على حين أن الحكومة تكذب في جميع تعابيرها عن الخير والشر، فليس ما تقوله إلا كذبا، وليس ما تملكه إلا نتاج سرقتها واختلاسها
أن كل ما للحكومة مزيف، فهي تنهش بأسنان مستعارة، وأحشاؤها مختلقة اختلاقا؛ وما شعارها إلا (البيان المبهم المشوش عن الخير والشر) فهي تتجه به نحو الفناء، وتقوم بنشره بدعوة صريحة للمنذرين بالموت
أن عدد من يدخلون الدنيا قد تجاوز الحد، وما أوجدت الحكومة إلا لخدمة الفضوليين الدخلاء على الحياة. انظروا إلى هذه الحكومة كيف تجتذب إليها فتضمهم إلى صدرها وتشبعهم عناقا وتقبيلا. اسمعوها تهدر قائلة:
- ليس اعظم مني على وجه الغبراء، فأنا يد الألوهية المنظمة
وعندما تهتف هذا الهتاف، تتهاوى الركاب جاثية، وبين الراكعين كثير من غير طوال الآذان وقصار النظر
أن هذه الأكاذيب تجد مصدقين لها وا أسفاه حتى بينكم انتم، يا من تجول فيكم النفوس الأبية، لان الحكومة تعرف أن تدغدغ قلوبكم الطافحة بالمكارم، الطامحة إلى الجود، إنها لتخترق سرائركم، انتم أيضاً، يا من تغلبتم على الألوهية القديمة، فهي تعرف إنكم تعبتم من الكفاح فتستخدم ملالكم لعبادة الصنم الجديد
انه لصنم يتمنى أن يحيط به الأبطال وفضلاء الرجال؛ انه لمسخ بارد يريد أن يدفأ بشمس
الضمائر المشعة المشرقة
انه ليمنحكم كل شيء إذا أنتم سجدتم له. فهذا الصنم الجديد يشتري لمعان فضائلكم وما في لفتاتكم من عزة وكرامة. انه في حاجة إليكم ليجتذب إليه العدد الفائض من الدخلاء على الحياة، فهنالك البرج الجهنمي، وهنالك جياد الموت تقرقع بعددها حاملة شارات المراتب والأمجاد؛ اجل ذلك هو اختراع الموت أتى به للجموع ليحصدها حصدا
وهو يباهي بأنه هو الحياة، والمنذرون بالموت يرون بفعلته خير لمبادئهم
حيث يكرع الجميع السموم ويضيع كل إنسان نفسه صالحا كان أو طالحا، فهنالك تقوم الحكومة لأنها تسود كل مكان يوصف فيه الانتحار البطيء بالحياة
انظروا إلى هؤلاء الدخلاء. انهم يختلسون ثمرة جهود المخترعين وكنوز الحكماء ويدعون هذا الاختلاس تمدنا؛ غير أن كل شيء يصبح أدواء ومصائب تحت سلطانهم.

انظروا إلى هؤلاء الدخلاء وليس فيهم إلا الإعلاء ينفثون غسلين مرائرهم، وينتحلون صفة الصحافيين. . . انهم يتناهشون ويلتهم بعضهم البعض الآخر وليس لهم القوة على هضم ما يلتهمون

انظروا إلى هؤلاء الدخلاء، انهم يحشدون الأموال، وكلما ازدادت ذخائرهم زاد فقرهم، فانهم يطمحون إلى الاستيلاء على القوة فيبدءون بالقبض على محركها الأول: على الأموال الطائلة، وما هم إلا الدخلاء العاجزون

انظروا إليهم! انظروا إلى هؤلاء القرود يتسلق بعضهم البعض الآخر فيتدافعون متمرغين في الأوحال على الشفير. أن كلا منهم يطمح إلى التقرب من العرش، وقد عراهم جنون التوصل إليه، فكان لا سعادة إلا على مقربة منه، وقد يرتفع رشاش الأوحال إلى العرش كما ينزلق نفسه إلى الأوحال

إنني أراهم وقد جن جنونهم، قرودا لا تكن لهم حركة وهم يتسلقون قاعدة صنمهم البارود وقد انبعثت منه ومنهم اكره الروائح وأخبثها

(يتبع)

فليكس فارس

تاريخ العرب الأدبي

للأستاذ رينولد نيكلسون

ترجمة حسن محمد حبشي

الفصل الثاني

وخلف النعمان ولده المنذر وكان أميرا عاقلا شجاعا. ويستدل على سطوة اللخميين إذ ذاك من الحادثة التي حدثت عقب موت يزدجرد الأول، وذلك ذلك أن المنذر تدخل في النزاع القائم حول انتخاب خليفته، وأيد اختيار بهرام جور الذي عارض توليته رجال الدين في فارس. وفي الحرب التي أندلع لهيبها بعد قليل بين الفرس والروم برهن المنذر على أنه تابع مخلص، ولكن الروم كبدوه خسائر فادحة عام 421م. وفي أوائل القرن السادس الميلادي اعتلى العرش أمير يسمى المنذر الثالث الذي دعاه العرب أبن ماء السماء، وطالت مدة حكمه وازدهرت، وان كانت قد تلبدت سماؤها بغيوم حادثة يستحيل فهمها دون الرجوع إلى التاريخ العام لهذه الفترة؛ ذلك أنه حوالي 480م امتد نفوذ قبيلته كندة التي يظهر أمراءها كانوا خاضعين لتبابعة اليمن خضوع اللخميين لملوك فارس، وشمل نفوذها جزءا كبيرا من وسط بلاد العرب وشمالها. وكان اليد العاملة في بسط هذا النفوذ حجر (آكل المرار) أحد أجداد امرئ القيس، ولكن ما لبث أن تفكك هذا عندما مات حجر، ولكن عاد الشمل فالتم مرة ثانية لمدة وجيزة حوالي سنة 500م على يد حفيده الحارث بن عمرو، وصار منافسا خطيرا لإمارتي الحيرة وغسان؛ على حين كانت تعاليم مزدك الاشتراكية قد اتسع نطاق دعوته وتغلغلت بين العامة في فارس حتى انتهى الأمر بان أعتنقها الملك قباذ نفسه. ومن المؤكد انه قد حدث بين عامي 505 و 529م أن اجتاح الحارث بن عمرو الكندي العراق وأقصى المنذر عن مملكته. وليس من البعيد أن يكون سقوط الأخير - كما يؤكد كثير من المؤرخين - راجعا إلى عدائه للتعليم المزدكية التي أثارت سخط مولاه. وعلى كل حال - وأيا كانت الأسباب - فان الحارث قد أقصى المنذر وقتاما؛ وبالرغم من انه عاد إلى عرشه بعد فترة قصيرة قبل تولية انوشروان الذي قتل كثيرين من اتباع مزدك (528م) فان النسيان لم يسحب ذيوله على ما لحقه من إهانة وقسوة، وإن حياة امرئ القيس

وقصائده لتحمل طابع الكراهية الموروثة التي تأصلت جذورها بين لخم وكندة. ولقد أدت أعمال المنذر ضد الروم إلى نشاط كبير، فقد دخل سورية ووصل إلى إنطاكية، وراى جستنيان نفسه مضطرا لان يكل أمر الدفاع والذب عن هذه الأقاليم إلى الحارث بن جبلة الغساني (الحارث الأعرج) الذي وجد فيه المنذر قوة تفوق قوته. ومنذ ذلك الحين اخذ كل من ملوك الحيرة وغسان في الإغارة على إقليم الآخر وتخريبه؛ وفي إحدى الغزوات اسر المنذر ابن الحارث، وسرعان ما ضحى به لأفروديت الإلهة العربية العزى، ولما استرد الإقليم ثانية سنة 554م فوجئ في معمعان القتال وذبح في موقعة تدعى (يوم حليمة). ومجمل القول أن اللخميين كانوا وثنيين ليس لهم حظ من الرقي والحضارة، تلك التي يستحقها تماما النذر الثالث. وقد روى الأغاني أنه كان له نديمان

من بني أسد هما خالد بن المضلل وعمرو بن مسعد، فأغضباه في بعض المنطق، فأمر بحفر حفرتين وأن يجعلا في تابوتين ويدفنا فيهما ففعلوا ذلك بهما، حتى إذا اصبح سأل عنهما فأخبر بهلاكهما فندم على ذلك وأغتم؛ ثم ركب المنذر حتى نظر إليهما فأمر ببناء الغريين عليهما فبنيا وجعل لنفسه يومين في السنة يجلس فيهما عندهما يسمى أحدهما يوم نعيم يعطي فيه أول طالع عليه مائة من الإبل سودا، والأخر يوم بؤس يعطي فيه أول طالع عليه راس ظربان اسود، ثم يأمر به فيذبح ويطلى بدمه الغريان، ويقال أن عبيد بن الأبرص كان أول من اشرف عليه يوم بؤسه فقتله؛ وظل على هذا الحال حتى مر به رجل من طي يقال له حنظلة، فلما رأى نفسه مقتولا قال له: (أجلني سنة ارجع فيها إلى أهلي، ثم أصير إليك فانفذ في حكمك) فقال: (من يكفلك حتى تعود) فنظر في وجوه جلسائه فعرف فيهم شريك بن عمرو الذي قام وقال للملك: (أبيت اللعن يدي بيده ودمي بدمه إن لم يعد إلي اجله) فلما كان العام القابل جلس في مجلسه ينتظر حنظلة أن يأتيه فإبطا عليه، فأمر الملك بشريك ليقتله، فلم يشعر إلا براكب قد طلع عليهم فتأملوه فإذا هو حنظلة متكفنا متحنطا معه نادبته تندبه، فلما رآه المنذر عجب من وفائهما وكرمهما فأطلقهما وابطل تلك السنة وقد خلفه على العرش ابنه عمرو الذي يعرفه شعراء العربية المعاصرون والمؤرخون باسم عمرو بن هند؛ وفي عهده أصبحت الحيرة مركزا أدبيا زاهرا، وقد وفد على بابه كثيرون من شعراء عصره، وسترى في الفصل التالي علاقاته مع طرفة وعمرو بن كلثوم والحارث
بن حلزة. ولقد كان عمرو هذا رجلا شرس الطباع مستبدا طاغية ضاق به العرب ذرعا كما نرى ذلك من قول الدهان العجلي:

أبا القلبُ أن يهْوي السدير وأهله ... وإن قيل عيشٌ بالسدير غريرُ
فما انذروا الحيّ الذي نزلوا به ... وإني لِمَن لم يأتهِ لنذيرُ
به البقّ والحمىَّ وأسْد خفيةٌ ... وعمرو بن هند يعتدي ويجور

ولقي عمرو مصرعه على يد كبير التغالبة عمرو بن كلثوم، ثأرا لكرامة أمه ليلى التي خدشت عنده
ونكتفي بالإشارة إلى اسمي قابوس والمنذر الرابع ابني هند اللذين ولي كل منهما العرش فترة قصيرة، ونكون بذلك قد وصلنا إلى أخر ملك لخمي للحيرة ألا وهو النعمان الثالث ابن المنذر الرابع ويكنى بأبي قابوس وقد حكم من سنة 585 إلى 607م؛ كما نشا في أحضان أسرة مسيحية شريفة في الحيرة قامت بتربيته وتعليمه، وكان كبيرها زيد بن حماد أبا الشاعر عدي ابن زيد، وعدي هذا ذو شخصية جذابة كما كانت وقائعه قوية الصلة بحوادث النعمان؛ وكان كل من جده وأبيه ذا ثقافة ليست بالقليلة، وشغلا مراكز سامية أيام المنذر الثالث وخلفائه، وقد استطاع زيد بواسطة دهقان يدعى (فاروخ ماهان) من اجتذاب عطف كسرى انوشروان بان صار كاتب ديوانه، وذلك منصب لا يرقاه إلا أبناء الأشراف. وحينما اشتد ساعد عدي أرسله أبوه ليتلقى المعارف مع ابن الدهقان فأجاد الفارسية كتابة وقراءة، كما أتقن العربية اتقانا تاما، وقرض الشعر، وتعلم ركوب الخيل، ولعب الكرة، كما أن جماله الشخصي وذكاءه وذلاقة لسانه وحضور بديهته كل أولئك حببه إلى انوشروان فقربه أليه واتخذه كاتبا له ومترجما في ديوانه؛ ولم يكن قد كتب بالعربية قط من قبل في الديوان الملكي، وحباه الملك عطفه، وبعث به إلى القسطنطينية في سفارة خاصة حيث استقبل اجل استقبال؛ وعند أوبته أوحى القيصر - جريا على سنة متبعة - إلى جميع الموظفين القائمين بحراسة الطريق بمد الخيل في محطات البريد بما يلزمها حتى يرى المبعوث الفارس عظمة واتساع الإمبراطورية البيزنطية
(يتبع)
(حسن حبشي)
من ديوان البغضاء:
الست التي. .؟؟
للأستاذ محمود محمد شاكر

بَلَى! كنتِ في قلبي سِرَاجا يضيئه ... فيفترُّ عن أنوارِه كلَّ جانبِ
وكنتِ حياة للحياةِ تمدُّها ... بأفراحها في عابسات المصائب

وكنت لِيَ البرَّ الوديع إذا غلت ... بأمواجها وادَّافعت بالمناكب
وكنتِ نسيما واللَّظى ينشِفُ اللَّظى ... ويتركُ ظِل الدّوْح ظلَّ اللّواهب
وكنتِ ملاذي والشؤون كأنّها ... من الدّمع ينبوعٌ يجيش بغارب
وكنتِ إذا ما العينُ مدّت هيامها ... إليكِ تلّقتها احنُّ الترائب
وكنتِ كأنفاسِ الرياضِ، عبيرُها ... على الفاقِدِ المحزونِ فَرْحة آيب
بلَى! كنتِ. . . كنت السحرَ تبدو صدورُه ... من الخير تخفي منه شَّر العواقبَ
ارى الحَّية الرقطاَء اجملَ منظراً ... وألينَ مسّاً من ثِديّ الكواعب
إذا ما تراَءتها العيونُ بريئةً ... من الخوف خالتَها دُعابةَ لاعب
تدانىَ إلى اللاّهي دُنوَّ مقاربٍ ... فيدنو ويُدْنِي كفّه كالمُداعب
إلا ارْفَعْ يداً، واذهب بنفسك رهبةً ... فمن حُسنها نابٌ شديد المعَاطب
بَلَى! كنتِ. . . إذ عيني عليها غشاوةٌ ... وإذْ أتردَّى من سوادِ الغياهب
وأخرى على عينِ البصيرة خيَّلت ... لنفسي هداها بالأماني الكواذب
أُرى من تكاذيبِ الخيالِ كأنني ... إلى جنة الفردوس أحدو ركائبي
أغني لآمالي لأبلغ غايتي ... وأدرك لذّاتي، واجني مطالبي
وما ذاك إلاّ راحةُ القلبِ بالهوى ... وبالوُدِّ في عيشٍ شديد المتاعب
وأَن أَرِدَ الماء الزلالَ. . . ولم أرِد ... وقد عشت دهرا - غيرَ رنْق المشارب
ألا فاعلمي أني ظَمِئت، وأنّني ... تجنبت جُهدي الماء جمَّ الشوائب
فجئتُك ضمآنا يموتُ بِغُلةٍ ... فأغريت بي الغُلاتِ من كل جانب
لقد كنتُ خِلواً انْتحي حيث اشتهي ... وأرْضَى وآبى مُقدِما غير هائبِ
تسهِّلُ لي الصعب الأبي عزيمتي ... ويكفُلُ لي صدقي قِضاءُ مآربي
وارمي بنفسي في المهالك باسماً ... لأنفُذَ منها باسماً غيرَ خائب
فوا حزنَا. . .! أضْللت عزمي وهِمتي ... وأيْتَمت أفكاري وَضيعت وَاجبي
تخشَّعت تحت الحُبِّ وَالوجد وَالجوى ... وطول اضطرابي في الهموم الغوالب
أذَلَّ شبابي الحبُّ حتى رأيتُني ... أمُّر بأترابي مرور المُجانِبِ
وَأحسدُهم مما لقيت. . . وَإنّني ... لأخشى عليهم، مِحنتي وَتجاربي
ألاوَيحها!! كم بت ارُقبُ طيفها! ... وكم سهرت عيني نجيَّ الكواكب!
وَكم طُفت بالبيداء أطلب خلوة! ... وَأرسل طَرْفي في ضلال المذاهب!
أمَّثلها حتى أكادَ امسها! ... وَألقي إليها ما تضمُّ جوانبي!
وَأشتاقُها وَالبحر بيني وَبينها ... وَبيدٌ تعاوت بالرِّياح الغواضب!
فلما التقينا ضمنا الشوق وَالهوى ... وَكان حديث الوصل صمت الرغائب
وَلكن. . . رمت بيني وَبينك بعدهُ ... ضريبة أنثى. . . وَهي شرُّ الضرائب
فأطلقت في إثري الضواري مُجِدة ... تعاني على أنيابها بالمخالب
تمزّقُني ألحاظها وَعيونُها ... كأني أرْمى بالسهام الصوائب
يفزِّعُني ظِلِّي إذا ما لمحتُه ... وَقد غالني رُعبي وسُدَّت مهاربي
فما كدْت أنجو بالحشاشة بعدما ... تلقيت من حُبيك شرّ النواكب
ألا لا تقولي كيف كنت!!. . . فإنني ... أرى كلَّ أنثى شرُّها غيرُ غائب
ترومينَ مني الوُدَّ بُقيا عَلَى الذي ... مضى. .!! خاب فألي أن أرى غير ثائب
ترومين مِنّي الودّ!. . تلك عجيبة ... وَأسعى لذبحي! تلك أمُّ العجائب
تشهَّيت لحماً. .! فَات ما تشتهينه ... فلم يبق من لحمي طعامٌ لساغب
تمليت هذا البغض حتى رأيتني ... أريب حيَّاتي وَأغذو عقاربي
فإن يكُ بغضي كلَّ ذنب جنيته ... إليك. .! فإني لست منه بتائب
وَكيف!. . وقد أنهكتني وَعرقتني ... وَقدت عَلَى قلبي جيوش النوائب!
ذريني. . . ولكن الحياة مليئة ... بكن. . . فما في الأرض منجى لهارب

محمود محمد شاكر

الفنون

فرانسسكو جويا

للدكتور أحمد موسى

يعد جويا من أغرب شخصيات القرن التاسع عشر وأبعدها أثرا في الفن. ظل يصور حتى تجاوز الثمانين من عمره، وقضى حياة حافلة بمختلف الحوادث والعبر، وبوفاته

انتهى دور من أهم أدوار الفن الأسباني
ولد فرانسسكو جويا في 30 مارس سنة 1746 في فونديتورس إحدى القرى الصغيرة في مديرية اراجون لوالدين فقيرين اشتغلا بالفلاحة في قطعة صغيرة من الأرض كانت مصدر حياتهم؛ فكانت طفولته مليئة بالعمل والتعب والملل.
وعندما بلغ الثانية عشرة من عمره رسم شكلا تخطيطيا لخنزير على حائط مسكنه الريفي، وشاهد أحد الرهبان هذا الرسم مصادفة فوجد فيه ما يدل على استعداد راسمه؛ فتقدم إلى والده ناصحا بان يذهب بابنه إلى فنان يقيم في سرقوسة وهي اقرب البلدان إلى قريتهم
كان أول معلميه جوزي لوزان مارتنز، فعرف منه كيفية تحضير الألوان وشد قماش اللوحات في الإطار، وما إلى ذلك من وسائل العمل نظير خدمته لمعلمه
وفي مدة وجيزة استطاع جويا أن يفهم الأسرار العملية لمهنته التي ولد لها، وأمكنه أن يصور بعض تفاصيل مهمة على لوحات معلمه، ولم تنقض ثلاث سنوات حتى رخص له مارتنز برسم لوحات بأجمعها
جمع جويا بين ظاهرة العبقرية الفنية وبين قوة العضلات؛ فكان يمضي أوقات فراغه في الرياضة البدنية والمصارعة والجري وحمل الأثقال
وكان محبوبا من بنات البلدة اللواتي كن يحضرن لمشاهدة مصارعته مع أمثاله الذين تغلب عليهم دائما. وكان كثير التردد على القهوات والحانات فكان روادها يخشون بأسه.
بدأ جويا حياته الفنية بتصوير العذراء، فأخرجها إخراجا أنيقا في ثوب رقيق وقوام رشيق. ومع هذا السمو كنت تراه أحيانا يغني أغاني شعبية عامية لا تنسجم مطلقا مع مصوراته في ذلك الحين، كما كان عصبي المزاج سريع الغضب سريع البطش
عاد في آخر الليل مرة مع أصدقاء له إلى المدينة فصادفه في حارة قذرة من حاراتها نفر
من قطاع الطرق الذين أرادوا به وبأصدقائه شرا، ولكن جويا بمساعدة رفاقه استطاع مطاردتهم وقتل ثلاثة منهم!
ولم يترك الفرصة تسنح للقبض عليه ففر هاربا إلى مدريد. ظهر في العاصمة كفنان بسيط، ولم ير سبيلا إلى العيش لأنه لم يكن يعرف أحداً فيها. كان دائب البحث عن أي عمل ولكنه كان يعود مساء كل يوم كسير القلب إلى الملجأ الذي أقام فيه
وفي صباح يوم وجد المسكين في إحدى الأزقة الضيقة وقد اعتدي عليه بالسكاكين فأخذه أولئك الذين كان يقيم معهم وعنوا به حتى شفي من جراحه
علم البوليس انه من العاطلين المدمنين على الخمر فطارده إلى خارج العاصمة، فذهب إلى حلبة مصارعة الثيران واستطاع أن يجد عملا حقيرا نظير اجر بسيط ادخر معظمه حتى تمكن به من الوصول إلى إحدى موانئ أسبانيا الجنوبية حيث أبحر إلى شاطئ إيطاليا الغربي. وصل إلى روما وهناك أمكنه العمل عند فنان شعبي راجت حاله
وعند هذا الفنان تعرف إلى أناس لا يميلون بطبعهم إلى العلم ولا إلى المتعلمين وإنما هم من أولئك الذين تجتذبهم حياة الشوارع وما فيها من وسائل لقتل الوقت
ومال بطبيعته وبحسب استعداده وبعامل البيئة التي عاش فيها إلى تصوير مناظر الأزقة والحارات والقهوات على نقيض الفنانين الآخرين الذين كانوا كثيرا ما يتحاشون إظهار هذه المواقف على لوحاتهم
وهذه نزعة لم يسبق أحد إليها خصوصا وانه اكثر من تصوير الوجوه الثائرة والمناظر الشاذة المتصلة بحياة الجمهور والغوغاء مباشرة، حتى لترى هذه المسحة على معظم لوحاته التي تعد بحق خير مسجل لشخصية مصور من انبغ فناني القرن التاسع عشر
صعد يوما إلى قبة كنيسة بطرس ليحفر الأحرف الأولى من إسمه، ولا تزال محفورة إلى اليوم. وهكذا كانت أقامته في روما غريبة الأطوار. وقد تعرف فيها بسفير روسيا الذي طلب إليه السفر إلى بطرسبرج ليكون مصورا للقصر. وفي أثناء المفاوضة في هذا الشأن قبض عليه بتهمة تحريض إحدى الراهبات على عمل غير شريف. ولولا اتصاله الوثيق بسفير روسيا لما استطاع الإفلات من يد العدالة
كان جويا تعسا في غربته، وكان دائم الحنين إلى بلدته، ورأى في إقامته الطويلة بروما

تكفيرا كافيا لسابق جرائمه، فعاد إلى مدريد سنة 1775 وتزوج من يوزيفينا بايو شقيقة الفنان فرانسسكو بايو الذي كان مصورا في قصر مدريد والذي بوساطته استطاع جويا أن يقوم بعمل تصميمات لمناظر وزخارف الأقمشة التي كانت تغطى بها حوائط القصر. وأول تصميم له نسج على قماش لهذه الغاية سنة 1776، واستمر حاله هكذا حتى سنة 1791، وتدرج في التقرب من سادة القصر وتقدم في فنه تقدما عظيما حتى اصبح ابرز فناني عصره في أسبانيا، وعمل لوحات مثلت الحياة على الصورة التي تغلغلت في نفسه كما صور اكبر الشخصيات

كان جويا فنانا بكل معاني الكلمة، كما كان بوهيميا في علاقته الزوجية، ولم يخل تاريخ حياته من فضائح أهمها اتصاله بأميرة ألبا التي عشقها عشقا تملك عليه مشاعره فصورها على لوحات تجل عن الحصر في مواقف مختلفة، وكان يعيش في جناح من قصرها. أما هي فكانت تتوجه من حين لأخر إلى زوجته وأولاده وتقدم إليهم العطايا والهدايا

ولم تكن الملكة راضية عن هذه العلاقة؛ فعملت ترتيبا أخرجت به الأميرة من القصر إلى جهة نائية. سافر جويا بصحبة معشوقته في عربة خاصة كسرت عجلتها في الطريق الوعر، فقام بعمل الإصلاح اللازم كما لو كان حدادا ماهرا، وأمكن السير بالعربة إلى اقرب قرية لتغيير العجلة. تعرض جويا بعد هذا المجهود للهواء البارد فأصيب بصمم في إحدى أذنيه لازمه حتى أخر حياته

مضت الأعوام وعادت الأميرة إلى مدريد وماتت بعد وصولها. وعاد هو لتصوير مناظر دلت على منتهى الحنق والحقد على النساء، كما دلت على كثير مما خالج نفسه من البؤس والشقاء

زحف الفرنسيون على مدريد فقابلهم جويا بكل ترحيب وانضم إليهم بقلب مطمئن، وبعد خروجهم منها وجهت إليه تهمة الانضمام للعدو؛ إلا انه تمتع بالعفو لكبر سنه بدأ الهدوء يدب إلى نفسه، واستمر يصور لوحاته، واكمل مجموعته بالقلم الرصاص حتى بلغ السابعة والسبعين، ثم رحل إلى بوردو عملا بمشورة طبيبه، ولم يترك التصوير مع ضعف بصره، بل كان يستعين بالمجهر. وآخر لوحة له صورها في سن الحادية والثمانين، ومات بعدئذ بسنة واحدة سنة 1828

هذه هي ترجمة فنان لم يكن له نظير في مجرى حياته ولا في قوته الإنشائية لمجموع لوحاته التي من اشهرها صورة (البقرة العمياء) تمثل مجموع من بنات وشبان تتوسطهم بنت مغمضة العينين تبحث عمن يناديها (محفوظة بمدريد)، وصورة (الغداء في الغيط) وفيها مثل الطبيعة تمثيلا رائعا (محفوظة بلندن) وصورة (النزهة في الأندلس) وكانت مرسومة خصيصا للنسج (محفوظة بمدريد) وصورة الولد النطاط وهي من أدق الصور التي تدل على منتهى قوة الملاحظة والإخراج. وقفت أربع بنات يحملن ملاءة كبيرة وفوقها صبي واقف على ساق واحدة استعداد للقفز إلى أعلى عندما يشددن الملاءة

وصورة (المشاجرة في الملجأ) وهي من احسن صوره، تذكرنا بوقت بؤسه عندما كان بعيدا عن بيته يبحث عن عمل ولم يجد إلا ملجأ حقيرا يأوي إليه. والناظر فيها يأخذه العجب عندما يرى أنها تمثل حياة الملاجئ تمثيلا صادقا؛ صور عليها بعض الحيوانات وبعض الأشجار وعربة قديمة في ركن من اللوحة؛ أما بوسطها فقد وقف المتشاجرون موقفا عنيفا لا يستطيع غير جويا أن يخرجه في هذه القوة

وله لوحة خالدة (محفوظة بمدريد) اسماها (الرمي بالرصاص) على يمينها وقف الجنود شاهرين بنادقهم، وعلى اليسار اصطف المنبوذون مستسلمين للإعدام، وقد أعطى الصورة ظلا ونورا قويين قلما تراهما لغيره من الفنانين

هذا غير لوحاته العظيمة للشخصيات البارزة في عصره، كصورة ماري لويس، وصورة فرديناند السابع وصورة أمير الكاديا وغير ذلك مما يجل عن الحصر

وله لوحات تعد من اغرب ما تركه فنان، منها صورة (شجرة الربيع) وهي تمثل صبية التفوا حول رجل يحمل ساقا طويلة ثبت في أعلاها شجرة صغيرة وولدان صغيران يتسلقان الساق

أما لوحته (بالقلم الرصاص) الممثلة لحلبة مصارعة الثيران فهذه تعد في مجموعها من اعظم ما أخرجه؛ فقدرته على تصوير الثور الثائر والمصارع الماهر لا سبيل إلى

وصفهما
احمد موسى
البريد الأدبي
توحيد الثقافة العربية
بحث أساتذة كلية الآداب بالجامعة المصرية منذ أسابيع في امثل الطرق إلى توحيد الثقافة في البلاد العربية، ثم رأوا أن يذاكروا ذلك إخوانهم القائمين على أمور الثقافة في لبنان وسورية وفلسطين، فدعوهم إلى القاهرة في عطلة عيد الفطر، فلبى الدعوة بعض أساتذة الجامعة الأمريكية في بيروت والأستاذ اسحق الحسيني عن فلسطين، ولم يستطع الأساتذة الدمشقيون الحضور لأسباب طارئة؛ ثم قضوا في القاهرة أسبوعا حافلا بالزيارات والمشاهدات على برنامج معين؛ واجتمعوا مرارا في دار (لجنة التأليف والترجمة والنشر) وتناقشوا في موضوع الدعوة ومنهاجها ووسائلها، فأسفرت المناقشة عن اتفاقهم على هذه الأسس الآتية:
1 - أن تؤلف جمعية لتوحيد الثقافة العربية وتركيزها وتقويتها تتكونه من 24 عضواً هم الداعون والمؤسسون
2 - أن تسعى الجمعية في أن تضم أليها أعضاء من البلدان العربية الأخرى، وهي العراق وشرق الأردن وتونس والجزائر ومراكش
3 - أن يراعى في اختيار الأعضاء الجدد أن يمثلوا فروع الثقافة المختلفة
4 - أن تؤلف لجنة فنية لدرس النهضات الفكرية والبرامج التعليمية في البلاد العربية لتوحد غاية التعليم وتقرب مناحي الفكر بقد ما تسمح بذل طبيعة الإقليم
5 - أن تتلافى تعارض الجهود الادبية، فلا ينشر مثلا كتاب قديم في بلد يكون بلد آخر قد اخذ ينشره على صورة مرضية
6 - أن تعمل الجمعية لإصدار مجلة خاصة بها يعالج فيها أعضاؤها الأغراض التي أنشئت لها
7 - أن تعقد الجمعية مؤتمرات ثقافية في العواصم العربية على التتابع يحضرها الأعضاء ومن يدعون من الأدباء والعلماء فيوثقون الروابط ويرصدون التطور ويوجهون الجهود إلى الغرض المشترك. وسننشر أسماء الأعضاء وتفاصيل المشروع في فرصة أخرى
لجنة تفسير القران تحدد الفرص وتضع قواعد العمل
حددت الجنة التي ألفت لتفسير القرآن الكريم تمهيداً لترجمة معانيه غرضها بأنه:
(وضع تفسير يقصد به إلى فهم معاني القران الكريم كما يدل عليه نظمه العربي المبين، ومعرفة ما فيه من أنواع الهداية، ويكون في متناول جمهرة المتعلمين فهمه والاهتداء به إلى معاني القران في سهولة ويسر)
ولتحقيق ذلك نتبع القواعد الآتية في التفسير:
1 - أن يكون التفسير خاليا ما أمكن من المصطلحات والمباحث العلمية إلا ما استدعاه فهم الآية
2 - ألا يتعرض فيه للنظريات العلمية فلا يذكر مثلا التفسير العلمي للرعد والبرق عند آية فيها رعد وبرق، ولا رأي الفلكيين في السماء والنجوم عند آية فيها سماء ونجوم؛ إنما تفسر الآية بما يدل عليه اللفظ العربي، وتوضح مواضع العبرة والهداية فيها
3 - إذا مست الحاجة إلى التوسع في تحقيق بعض المسائل وضعته اللجنة في حاشية التفسير
4 - ألا تخضع اللجنة إلا لما تدل عليه الآية الكريمة، فلا تتقيد بمذهب معين من المذاهب الفقهية، ولا مذهب معين من المذاهب الكلامية وغيرها. ولا تتعسف في تأويل آيات المعجزات وأمور الآخرة ونحو ذلك
5 - أن يفسر القران بقراءة حفص، ولا يتعرض لتفسير قراءات أخرى إلا عند الحاجة أليها
6 - أن يجتنب التكلف في ربط الآيات والسور بعضها ببعض
7 - أن يذكر من أسباب النزول ما صح بعد البحث، وأعان فهم الآية
8 - عند التفسير تذكر الآية كاملة أو الآيات إذا كانت كلها مرتبطة بموضوع واحد ثم تحرر معاني الآية أو الآيات مسلسلة في عبارة واضحة قوية، ويوضع سبب النزول

والربط وما يؤخذ من الآيات في الموضع المناسب
9 - إلا يصار إلى النسخ إلا عند تعذر الجمع بين الآيات
10 - يوضع في أول كل سورة ما تصل إليه اللجنة من بحثها في السورة، أمكية هي أم مدنية، وماذا في السورة المكية من آيات مدنية والعكس
11 - توضع للتفسير مقدمة في التعريف بالقران وبيان مسلكه في كل فن من فنونه كالدعوة إلى الله وكالتشريع والقصص والجدل ونحو ذلك، كما يذكر فيها منهج اللجنة
طريقة التفسير
1 - تبحث أسباب النزول والتفسير بالمأثور، فتفحص مروياتها وتنقد، ويفرد الصحيح منها بالتدوين، مع بيان وجه قوة القوي وضعف الضعيف من ذلك
2 - تبحث مفردات القران بحثا لغوياً، وخصائص التراكيب القرآنية بحثاً بلاغياً وتدون
3 - تبحث آراء المفسرين بالرأي والتفسير المأثور، ويختار ما تفسر الآية به مع بيان وجه رد المردود وقبول المقبول ويفند ذلك كله
4 - يصاغ التفسير المختار مستوفياً ما نص على استيفائه في الفقرة الثانية من القواعد السابقة؛ وتكون هذه الصياغة بأسلوب مناسب لإفهام جمهرة المتعلمين خال من الأغراب والصنعة
التوزيع
نظرا لظروف أعضاء اللجنة وتحقيقاً للتعاون رئي أن تقوم لهذه الأعمال الأربعة جماعتان فقط: أولاهما تقوم ببحث أسباب النزول والتفسير بالمأثور وبحث آراء المفسرين بالرأي وما يستنبط من الآية. الخ. وتتألف من فضيلة رئيس اللجنة وحضرات الأساتذة جاد المولى بك، واحمد أمين، وأمين الخولي، والشيخ علي الزنكلوني، والشيخ محمود شلتوت
وثانيتهما تقوم ببحث المفردات اللغوية والأوجه البلاغية كما تقوم بالصياغة الأخيرة للتفسير الذي يختار؛ وتتألف هذه الجماعة من حضرات الأساتذة علي الجارم بك، ومصطفى عبد الرازق، والشيخ إبراهيم حمروش
على أن تقدم الجماعة الثانية بحثها أولاً في المفردات اللغوية والأوجه البلاغية للجماعة الأولى التي تتقاسم بينها أعمالها وتقدم تقارير بها، وما يستقر عليه الرأي في اختيار المعنى يعرض على اللجنة العامة مجتمعة فتنتهي فيه إلى قرار يقدم بعده إلى الصياغة فتنجزها الجماعة الثانية وتعرضها على اللجنة العامة مجتمعة ليقر إقرارا نهائيا مع ملاحظة أن كل خطوة يتم حثها يطبع ما تم فيها ويوزع على أعضاء اللجنة جميعها ليدرسوه قبل مناقشته
في اللجنة العامة
التفسير المختصر
تقرر كذلك أن تضع اللجنة بعد الفراغ من تفسير كل آية أو آيات موجزاً يختصر من التفسير الأول اختصاراً دقيقاً يختصر التفسير الأول اختصاراً دقيقا في جلاء ووضوح يفرد وحده ويكتب في كتاب خاص
وفاة شاعر تركيا محمد عاكف بك:
في 29 ديسمبر الماضي استعز الله بالشاعر الكبير محمد عاكف بك أستاذ اللغتين التركية والفارسية في كلية الآداب بالجامعة المصرية، وكانت علته الفادحة قد اضطرته إلى اعتزال هذا المنصب في يونيو سنة 1936 والسفر إلى الآستانة حيث قضى نحبه بين قومه. كان الفقيد أستاذاً في جامعات تركيا قبل الانقلاب، وزاول الصحافة زهاء ثمانية عشر عاماً اصدر في خلالها مجلتي (صراط مستقيم) و (سبيل الرشاد)؛ وكان إلى ذلك عضواً في المجلس الوطني أثناء حرب الأناضول
ولا تزال قصائده الوطنية وأناشيده الحماسية التي نظمها في ذلك الحين تعلق بالقلوب وتجري على الألسن. ومن روائعه الخالدة في الأدب التركي قصيدة (جناق قلعة) التي وصف فيها موقعة الدردنيل وصفا بليغ المعرض شديد الروعة؛ وقصيدته في رحلته من نجد إلى المدينة؛ ثم نشيده الوطني الذي يردده ملايين الأتراك. وقد اشتمل ديوانه على خمسة أجزاء نشرها جميعا تحت عنوان (صفحات)
وفد إلى مصر منذ أربعة عشر عاما لازم فيها المغفور له الأمير محمد عباس حليم؛ وقد نظم في مصر والمصريين قصائد رائعة، منها قصيدته (مع فرعون). وعسى أن

تتهيأ الفرصة لصديقه الحميم الوفي الدكتور عبد الوهاب عزام فيجلو لقراء (الرسالة) نواحي أدبه بعد مماته، كما أمتعهم بروائع شعره في حياته

كتاب الأشباح

صدر أخيرا في إنكلترا كتاب طريف مدهش معاً عنوانه (قصص حقيقية مع الأشباح) بقلم المركيزة تونز هند أوف رينهام والسيدة مود فولكس؛ وطرافة هذا الكتاب في أن القصص التي يحتويها ليست قصصاً خيالية من مبتكرات مؤلفتها، إنما هي قصص حقيقية واقعية تؤيدها المركيزة تونز هند بكثير من الشواهد والادلة؛ وهي في مجموعها تدور عن العلاقة بين الأحياء والأموات، وعلى الاتصال بأرواح الذاهبين ومثولها في كثير من الأحيان. والمركيزة تونز هند مؤلفة هذه المجموعة من اشهر المشتغلات بمسائل الأرواح والغيب، ولها في ذلك تجارب شهيرة؛ وهي تقيم منذ أعوام في دار اشتهرت منذ بعيد بما يسكنها من الأشباح والأرواح، وهي دار رينهام وتعرف في مقاطعة نور فولك (البيت الأعظم)، وقد كانت هذه الدار مسرحاً لأكثر من مأساة دموية، ولها شهرة مرعبة في جميع الأنحاء المجاورة

وإذا كانت تلاوة قصص الأشباح المختلفة تثير الدهشة والجزع أحيانا، فان تلاوة هذه القصص الحقيقية تثير الروعة والرعب في الأذهان المؤمنة

وفاة الشاعر والفيلسوف الأسباني أومانومو

من أنباء أسبانيا الأخيرة أن الفيلسوف الكاتب الشاعر الأسباني الكبير ميجويل دل اومانومو مدير جامعة شلمنقة (سلامانكا) قد توفي في الثاني من يناير. وكان موله بثغر بلباءو في سنة 1864؛ ودرس دراسة جامعية حسنة، وبدأ أستاذاً للغة اليونانية في جامعة شلمنقة سنة 1891؛ واشتغل منذ حداثته بالشعر والأدب، ودرس الفلسفة دراسة مستفيضة. واخرج في سنة 1907 ديوانه، فلقي تقديراً عظيماً، وتبوأ اومانومو مكانته في الطليعة بين شعراء أسبانيا المعاصرين. وعالج اومانومو كتابة القصة أيضاً؛ واخرج منذ سنة 1897 قصته الشهيرة: (السلام في الحرب) وفيها يصف مسقط رأسه، ومشاهد صباه؛ ثم اتبعها بقصة عنوانها (من بلادي)، ثم بقصة (المركيز دي لومبريا)

بيد انه اشتهر على الأخص بمباحثه الفلسفية. فاخرج في سنة 1913 كتابه (الشعور المؤسى بالحياة)؛ وفي سنة 1925 اخرج كتابه الشهير: (احتضار النصرانية)، واخرج أيضاً عدة كتب أخرى فلسفية ولغوية

ومنذ سنة 1914 يشغل لومانومو منصب مدير جامعة شلمنقة. وقد عزل عن كرسيه لمطاعنه اللاذعة في نظام الطغيان العسكري الذي أنشأه الجنرال دي ريفيرا؛ ثم نفي مدى حين إلى جزر الكناري، ثم رحل إلى فرنسا. وكتب في منفاه عدة رسائل وكتباً شائقة منها:

ومنها كتابه المؤثر: (رومانشيرو في المنفى)، ولما انهارت دعائم الطغيان في أسبانيا عاد اومانومو إلى شلمنقة وأعيد إلى منصبه الجامعي ،(كيف تكتب القصة)

وقد كان اومانومو من اعظم الشخصيات الأدبية التي طبعت الأدب الأسباني المعاصر بطابعها العميق

النقد

سلسلة الموسوعات العربية

معجم الأدباء

للدكتور عبد الوهاب عزام

أخي صاحب الرسالة:

أود أن تفسح لي قليلاً في صفحات رسالتك فإني مضطر إلى التوسع قليلا في الكتابة. وسأضن كما ضننت من قبل بصفحات الرسالة القيمة فاقتصر على سرد أغلاط المعجم سرداً واثقا بفهم القارئ، مكتفياً باللمحة الدالة والإشارة الموحية، ولو استوعبت الأغلاط وأسهبت في بيان الأدلة لكان لنا معجم آخر

ابدأ مقال اليوم بكلمة في نقد الأستاذ الفاضل محمود مصطفى وأخرى في نقد الأديب الكريم عبد العظيم قناوي وثالثة في مقالات الأستاذ عبد الخالق عمر

وأود أن يتنبه الكاتبون إلى أمرين؛ الأول: أننا في شان كتاب قديم ينشر. فكل همنا أن يكون الكتاب كما راده مؤلفه. فإذا أثبت الناشر أو المصحح كلمة تدل القرائن على أن

المؤلف لم يكتبها فهي غلط على المؤلف ولو كان لها محمل في اللغة
والثاني: أن مقياسنا في النقد هو اللغة التي نتعلمها ونعلمها ونكتب بها، ونعرف أن المؤلف كتب بها، فالأوجه الشاذة والمحامل الضعيفة ليس لها مساغ هنا
أقول بعد للأستاذ محمود مصطفى:
1 - جاء في مقدمة ياقوت: (إذ كل همه تحصيل المأكول والمشروب.) والقارئ بين أن يقرا هَمُّه فيخرج الكلام على وجه قوي، وبين أن يقرأ (هَمَّه) فيحمل الكلام علة وجه ضعيف، لان هَمَّ لازمة أصالة عرض لها التعدي توسعاً، واهمَّ متعديه وضعاً، وهي لغة القران. وليس من حقنا أن نعدل عن الراجح إلى غيره دون ضرورة. على أن المصححين أنفسهم اعترفوا بان عبارة المؤلف (هَمُّه) بالضم وأستدركوها في أخر الجزء الرابع فلا موضع للجدال
2 - وجاء في الكتاب: (ومعاوية بفارسٍ) فقلت إنها ممنوعة من الصرف. فنقل الأستاذ عن القاموس أن فارسَ الفرسُ أو بلادهم. وقال إن التذكير والتأنيث في أسماء القبائل والمواضع جائز فيجوز فيه الصرف والمنع. وأنا أقول: إن فارس في عبارة ياقوت ليست الفرس أو بلادهم، ولكنها ولاية في الجنوب الشرقي من بلاد الفرس. فليرجع إلى الكتاب. وأما الصرف ومنعه بنية التذكير أو التأنيث فهو من مماحكات بعض النحويين. وقد جرت اللغة على تأنيث ألفاظ وتذكير أخرى، وإجازة الوجهين في غيرها. فلا ينبغي أن ننوي التذكير في لفظ جرت اللغة على تأنيثه. فذلك ضرب من التأول لا حاجة إليه. وقد جرى العرب على تأنيث فارس. جاء في الحديث: (خدمتهم فارس والروم) وشواهد هذا كثيرة. وهؤلاء مؤرخو المسلمين هل تجد من يقول (فُتِحَ فارس) أو هم جميعاً يقولون: فتحت بالتأنيث؟ وما أرى الأستاذ في هذا النص: قال ياقوت نفسه في معجم البلدان: (قال أبو علي: فارس اسم البلد وليس باسم الرجل؛ ولا ينصرف لأنه غلب عليه التأنيث. . . وليس بأصله بعربي بل هو فارسي معرب بارْس)
3 - وأما ميسرة فقال الأستاذ فيها إنها مثلثة. ولا أضنه يجادل أن المختار فيها الفتح وبه جاء القران. فضبط كلمة مثلثة على غير الوجه المختار فيها غلط. وكان على المصحح أن يتركها لاختيار القارئ أو يعين الوجه المختار فيها. على أن المصحح اعترف في مقاله له بالمقطم أن (ميسُرة) غلط مطبعي. فان أراد الأستاذ من بعد أن يجادل فيها فليجادل المصحح نفسه
4 - جاء في ياقوت (لغوياً نابهاً ثبتاً) فقلت الصواب: (ثبتاً) بالسكون. والثبت بالفتح البرهان اسم لا وصف. فقال الأستاذ: إن القاموس أجاز فيها الفتح، وظن أني وهمت حين قرأت قول شارح القاموس: (وقيل للحجة ثَبَتَ بفتحتين إذا كان عدلا ضابطا) فذهب بالي (كما يقول) إلى أن الحجة هنا الدليل والبرهان. أقول: هل يظن الأستاذ حقاً أني إذا قرأت هذه العبارة والشارح يقول فيها: (إذا كان عدلاً ضابطاً) يذهب بالي إلى أن الحجة هنا البرهان؟ ثم أقول له: لا ريب أن الوصف ثبْت بالسكون، وأن الثبَتَ مصدر. قال صاحب اللسان: (ورجل له ثبت عند الحملة بالتحريك أي ثبات). ويقال للبرهان ثبت. قال في اللسان: (لا احكم بكذا إلا بثبت أي بحجة. وفي حديث صوم يوم الشك: ثم جاء الثبت أنه من رمضان. الثبت بالتحريك الحجة والبينة). فإذا قيل للرجل المتثبت ثبت، فذلك كما يقال
له حجة، وكما يقال رجل عدل. كل هذا وصف بالمصدر للمبالغة. فأما الوصف الأصيل الدائر على السنة المحدثين فهو ثبت بسكون الباء، وهو الذي تحمل عليه عبارة ياقوت. فضبط الباء بالفتح أن لم يكن غلطا فهو عبث
5 - جاء في ص 115 ج1: أُضقْت أضاقة شديدة الخ. قلت الصواب أَضَقت. ويريد الأستاذ محمود أن يصوبها مبنية للمفعول. كأن الرجل يقول: أضاقني الزمن فأضقت أي صرت ضيقا. وهذا تعسف لنصر الغلط على الصواب. والوجه أن يقال: أضاق الرجل كأعسر. قال صاحب اللسان: (أضاق الرجل فهو مضيق إذا ضاق عليه معاشه. وأضاق أي ذهب ماله) فما بالنا نعدل عن النهج الواضح إلى بنيات الطريق؟
6 - وجاء في ص 209: نزل ثغر المُصَيْصَة. قلت الصواب: المَصيصَه، وقال الأستاذ إنها المِصيِّصة، واحتج بكتابه إعجام الأعلام. وأيد حجته بقولين متناقضين: قول صاحب القاموس بأنها كسفينة؛ وقول صاحب التقويم إنها مِصيّصة. ثم خطأ الناقد والمنقود

وجعلني أوفر نصيباً من اللوم؛ وأنا أحتج عليه بقول ياقوت نفسه، قال في معجم البلدان: (المَصيِّصة بالفتح ثم الكسر ثم التشديد وياء ساكنة وصاد أخرى. كذا ضبطه الأزهري وغيره من اللغويين بتشديد الصاد الأولى الخ) ومثل هذا في اللسان. ثم أقول للأستاذ إن كان الناقد حين يخطئ اجدر باللوم من المنقود، فما تقول في خطأ ناقد الناقد؟

7 - جاء في الكتاب ص 240: أنه من غُمار الناس وصغارهم. قلت الصواب غِمار بالكسر. وصوب الأستاذ الوجهين، واعترف المصحح أن الكسر أولى، وأن الضم غلط المطبعة؛ وأنا أقول مع الأستاذ محمود انه لم يخطئ في هذا ولم تخطيء المطبعة وبعد فأسال الأستاذ الفاضل: ما رأيه في بقية الغلطات التي أخذت على الجزء الأول؟ لماذا لم يتعرض لها في مقاله؟ وإن كان راضيا بها فلماذا لم يصرح بهذا؟

وأما الأستاذ عبد العظيم قناوي فقد شارك الأستاذ مصطفى في كلمتي (هَمَّه وميسُرة). وقد تقدم الكلام فيهما. وبقي من رده قوله في البيت

أمغط مني على بصري بالحب ... (م) أم أنت أكمل الناس حسناً

أن هذا الضبط جائز - وهذا غلط بين، فالشطر الثاني خطاب لامرأة. وهو لا يستقيم مع هذا الضبط. ثم المسالة ليست مجالاً للرأي بل هي رواية يجب أن تتبع، والبيت في كتب الثقات كما رويته. وقد اعترف المصححون أنفسهم بالوجه الصحيح الذي نبهت أليه

وقوله انه يجوز في (أماكنهم ويزيدونني) حذف النون. وذلك حمل للكلام على الأوجه الشاذة. وقد تقدم القول فيه

وجاء في الكتاب ص 212

يخال بأن العرض غير موفر ... عن الذم أنه يدال له الوفر

فقلت الصواب يذال - وقال الأستاذ (ويدال ليست خطأ بل لعلها أوقع في المعنى الخ) وأنا أقول إنها خطأ لأن البيت في مدح رجل. ومعناه أن هذا الممدوح يظن أن عرضه لا يبرأ من الذم إلا إذا بذل ماله وأذيل أي امتهن - وإذا قرأت (يدال) كان البيت ذما. ويكون معناه انه يظن أن عرضه لا يسلم إلا إذا أديل له المال أي صار غنيا. وهذا ليس من المدح في شيء

واختم بشكر الأستاذ على حس ظنه، ولومه على مبالغته في الثناء علي. والله يهدينا جميعا للتي هي أقوم

وأما أستاذنا عبد الخالق عمر فقد وجهت إليه كلمة بارة في المقال السابق، ثم اطلعت على مقالات له في المقطم. وأنا أسال الله أن يعينني على تناسي هذه المقالات. وارى أن من الخير لي وله ألا أناقشه فيما قال. فسأستمر في نقدي فارضاً أنني لم أقرا ما كتب متمنياً انه لم يكتب

ثم أعود إلى الموضوع متمماً نقد الجزء الثاني من الكتاب، وقد وعدت في المقال السابق أن أبين ما أخذته على تعليق الناشرين، ولكني أتقدم بتبيين أغلاط كتبتها ثم سهوت عن إلحاقها بأخواتها في ذلك المقال

ص 199: قول البديع يرد على الخوارزمي هجاء الصحابة

هلا نهتك الوجنة الموشومة ... عن مشترَى الخلد ببئر رومه

والصواب مشترِي بالكسر. ومشتري الخلد الخ هو عثمان بن عفان، وقصة شرائه بئر رومة في المدينة ووقفها على المسلمين معروفة. ثم هذا البيت لم يستحق تفسيراً من الناشرين الذين يكلفون في مواضع أخرى بان يفسروا الماء بالماء

ص 237: فقال هذا زِنبيل الحوائج الخ - وفي الحاشية! وفي الأصل زبيل الحوائج تحريفا - أقول التحريف ما فعله المصححون، فأما الزبيل فهو افصح من الزنبيل أو هو معربه، وقد اقتصر عليه صاحب القاموس ولم يذكر الزنبيل، وذكره صاحب اللسان بعد الزبيل ثم قال: وقيل الزنبيل خطأ وإنما هو زبيل أهـ. وقال المعري:

أيها الجامع الكنوز أزر ... أم هي زِبال من نملة في زبيل

وأما الحوالج فالظاهر إنها جمع حالجة المرأة تحلج القطن، وزبيل الحوالج يجمع فيه ندافة القطن، وقد جعل في الكتاب مثلا فليرجع أليه

ص 242: في أخبار جحظة البرمكي انه كان يلقب خَنْياكِر وفي الحاشية: (كلمة فارسية معناها المغني). وهذا التفسير صحيح، ولكن كيف ضبطت الكلمة هذا الضبط؟

هل أجراها المصححون مجرى الأعلام الأعجمية وجروا فيها على المذهب الذي نشر في المقطم فأجازوا فيها كل تحريف؟ والصواب خُنَياكَر
ص 258
ماذا ترى في جَدْيٍ ... وفي عقار بوارد
وقهوة ذات لون ... يحكي خدود الخرائد
والوزن لا يستقيم في الشطر الأول فينبغي أن يكون: ماذا ترى في جُدَيٍّ - تصغير جدي. ولا يضره الصغر إذا كان لحمه لذيذاً
ص 272: قول جحظة البرمكي في قصة رجل أعطاه ثياباً وعتيدة وهي وعاء للطيب: (فخرجت كأني لص قد خرج من بيت قوم، على قفا غلامي الثياب والعتيدة كارة) والكارة حمل الثياب. فرأى المصحح أن يحذف كلمة (كارة) كرها ويضع مكانها كلمة (كلها) وكتب في الحاشية: كانت رواية الأصل كارة، ولا معنى له) وقد عرف القارئ أن له معنى وأن المصحح غير متن الكتاب غلطاً، وقدمت لهذا نظائر وسيأتي:
ص 279: قول جحظة:
يا من دعاني وفر مني ... أخلفت والله حسن ظني
قد كنت أرضى بخبز رزّ ... ومالح أو قليل بُنّ
وأرى من الصواب في القافية الثانية بُنيٍّ بالياء. وهو ضرب من السمك لا يزال معروفا بهذا الاسم في مصر والعراق. وفي بعض الأغاني العامية المصرية بني يا سمك بني.
وليت الناشرين فسروا كلمة بن هنا فهي في حاجة إلى التفسير
ص 280 يقول بعض الشعراء إلغازاً عن الدواة والأقلام:
أحاجيك. ما قبر عديم ترابه ... به معشر موتى وأن لم يكفنوا
سلوت عن التبيان مدة قبرهم ... فان نبشوا يوما من الدهر بينوا
وهو إلغاز عن الأقلام في الدوى القديمة
والتحريف في كلمة سلوت، والصواب سكوت الخ
ص 283 في الكلام عن أبي نصر الباهلي الذي يقال انه ابن أخت الأصمعي: (وكان اثبت من عبد الرحمن يعني ابن أخت الأصمعي وأسن). والمعروف أن عبد الرحمن ابن أخي الأصمعي لا ابن أخته. وصاحب الأمالي يكثر الرواية عن عبد الرحمن عن عمه (الأصمعي)
ص 285 وكان يسكن باب الأرَجِّ. والصواب الأرَج بغير تشديد. وهو اسم محلة كبيرة كانت في الجانب الشرقي من بغداد
ويضيق مقال اليوم عن الكلام في مآخذ التعليق على هذا الجزء فموعدنا العدد الآتي أن شاء الله. والله ولي الهداية إلى الصواب
عبد الوهاب عزام
العالم المسرحي والسينمائي
شركة أفلام الشرق وجهودها في إخراج (نشيد الأمل)
تقرر أن يعرض فيلم نشيد الأمل في يوم الاثنين 11 يناير سنة 1937 بسينما رويال، والمعروف أن هذا الفلم لم يستغرق أعداده اكثر من 80 يوما، وهذه المدة القصيرة تشهد بالجهود الكبيرة التي بذلها رجال الشركة في إخراج هذا الفلم العظيم. ويقول رجال الشركة إن الفضل في هذا التوفيق يرجع إلى معاونة العناصر الفنية في مصر وتضافرها على نجاح هذا الفلم؛ فأولاً استديو مصر - ذلك البناء الشامخ الذي يعتبر الدعامة الأولى في نهضتنا السينمائية والذي خطا بصناعة الأفلام خطوة جريئة واسعة - وضع تحت تصرف الشركة كامل معداته الحديثة وجهد فنانيه، فقاموا بأحسن ما في وسعهم من جهد فني
فالتصوير قام به سامي بريل المصور الأول للاستديو فجاء متقناً بديعاً، وتسجيل الصوت قام به مصطفى والي يعاونه عزيز فاضل فجاء واضحاً جلياً، وبناء المناظر (الديكور) قام به ولي الدين سامح يعاونه يوسف بهجت فكان شاهداً على حسن الذوق والدقة، والتنكر (الماكياج) قام به سترانج الروسي يعاونه حلمي رفله المصري الذي اشترك في اكثر الأفلام المصرية نجاحاً
أما الإخراج فكان من نصيب الأستاذ احمد بدرخان وهو شاب وديع هادئ مفكر يشع الذكاء من عينيه، وقد كان من بين أوائل المصريين اهتماماً بفن السينما؛ وهو مبعوث

شركة مصر إلى فرنسا لدراسة هذا الفن. ونشيد الأمل هو أول عمل فني يقوم بإدارته؛ وطبيعي انه ركز كل قواه ومعلوماته في هذا الفيلم حتى جاء تحفة رائعة. وقد عاونه في عمله صديقه الشاب جمال مدكور

هذا والفيلم يحوي عدا الآنسة أم كلثوم مجموعة من خيرة الممثلين في مصر وعلى رأسهم الأساتذة زكي طليمات مبعوث الحكومة المصرية لدراسة التمثيل في أوروبا وعباس فارس وفؤاد شفيق وغيرهم من كبار ممثلي الفرقة القومية وممثلاتها

الفاكهة المحرمة

للأستاذ احمد عبد الرحمن المحامي والأستاذ محمد السوادي

وأخيراً وبعد صراع عنيف بين لجنة قراءة الروايات في الفرقة القومية، وبين المؤلفين قدر لهذه المسرحية أن تظهر على مسرح الاوبرا، وأن يستمتع الجمهور بمؤلفة مصرية ممتازة نالت رضا رواد المسرح واستحسانهم، لأن الرواية تمس جانباً من حياتهم.

ولعل في النجاح الذي تعاون عليه المؤلفان وممثل الدور الأول الأستاذ احمد علام ما يجعل الفرقة القومية ورجال اللجنة تعطي الأفضلية للروايات المصرية، فليس من شك أن الفاكهة المحرمة نالت من الإقبال ما لم تنله الروايات الأخرى في هذا الموسم لئن عيب على المسرحية المصرية أنها ما برحت تفتقر إلى الطابع الأصيل الذي يميزها عن الروايات الغربية لخلو أدبنا القديم من هذه الصورة من الأدب، فان هذه الرواية تختلف عن هذا النوع، إذ تتميز بهذا الطابع تميزاً ظاهراً، فهي قطعة من صميم الحياة والبيئة المصرية، تتصل بحياتنا وتقاليدنا وروحنا أوثق اتصال؛ وهي تقوم على الصراع بين الشباب الذي يأبى لنفسه أن يهن أمام الشيخوخة التي لا تعرف من الدنيا إلا الاعتزاز بالثروة، وعلى الصراع بين المنطق المستمد من الحكمة وجموح الرغبة، ولكن. . . في ظل التقاليد!!!

ليس من شك في أن أدبنا يفتقر إلى الوراثة المهذبة في فن صياغة المسرحية، فليست لنا تقاليد ولا آثار سابقة كما قلنا؛ ولهذا فان كتابنا الذين يعالجون المسرحية ما برحوا يأخذون بتقاليد المسرح الغربي وينحون نحوه. فالمؤلف في مصر يقف بين ثقافتين الثقافة اللاتينية والثقافة السكسونية؛ فالأولى تهتم بالمفاجئات والحركات المسرحية المتصلة والشخصيات المشتبكة المعقدة؛ والثانية تعنى بخلق الجو الهادئ والشخصيات الواضحة البسيطة

فضل مؤلفا هذه المسرحية الثقافة اللاتينية، بل قل المدرسة الفرنسية فجعلا الحوادث تتجدد، وجاءا بشخصيات تعاون على إبراز الشخصيات الرئيسية في المسرحية، وبهذا كثرت الحركة المسرحية والنشاط؛ ولكن في رأييأنهما لو سلكا الطريق الآخر وأعطيا هذه العناية للشخصيات الرئيسية لكان توفيقهما أتم. فهذه شخصية (فاضل) ذلك الصديق الذي يحب (درية) وشخصية (زوزو) ابنة صاحب الجريدة التي تحب (حسن) لو فكر المؤلفان في

الاستغناء عنهما أو الاستغناء عن الشخصية الثانية وتصحيح موقف الشخصية الأولى منذ بدء الفصل الثاني، فأنا زعيم بان ختام المناظر يكون اهدأ وافعل في النفس أثراً، ولرأينا صورة بارزة من المسرح المتزن الذي يجعلنا نلتذ للتكشف الهادئ للحادثة ويصدم أذهاننا فيبعثنا على التأمل والاعتبار بالحوار ومناقشة الرأي. ولو أن لي أن أشير بنصيحة لطالبتهما بهذا الإصلاح

على أن هذا الرأي قد يكون متأثراً بعض الشيء بثقافتي السكسونية وحبي للمسرح الإنجليزي، ولكني القي به مع اعتقادي بان المسرحية قطعة أدبية ممتازة بشخصياتها الرئيسية الكاملة التصوير، والجو المصري الخالص الذي تعيش فيه هذه الشخصيات، والأسلوب الرائع الملموس في نواحي المسرحية

اشترك في تأليف المسرحية الأستاذان احمد عبد الرحمن قراعة المحامي المعروف ومحمد السوادي الصحفي؛ وقد يصعب على الناقد أن يفرق بين عمل مؤلفين أتما رواية واحدة معا، ولكن المسرحية من حيث الأسلوب وطريق التفكير والشخصيات تنم عن قراعة اكثر مما تنم عن زميله

يقول (بيفون) الكاتب الفرنسي الكبير: إن الأسلوب هو الرجل. وليس من شك في أن أسلوب قراعة القوي قد نم عليه، وليس الأسلوب وحده، بل كذلك الشخصيات وطريق التفكير؛ والمأساة تدل على أن له النصيب الأوفر في هذا العمل

فنحن نرى الشخصيات تنحني أمام قوة التقاليد، وحتى حسن ودرية، وهما من أصحاب الثقافة العالية، لا يفكران في الثورة على التقاليد والنظم بل يخضعان ويقبلان التضحية من اجل والديهما؛ ثم النهاية القاسية التي تفرق بين حسن ودرية، لان الشرع يحول دون زواجهما - تنم عن روح قراعة ربيب بيت التقاليد وبيت الإفتاء

الإخراج والتمثيل

ظهرت هذه المسرحية من غير مخرج، فقد كانت من نصيب الأستاذ زكي طليمات، وقد بدأ فعلاً في تدريب الممثلين، فلما ترك الفرقة وقامت العقبات في سبيل ظهور هذه المسرحية أهملت، وأبى الأستاذ عزيز عيد أن يتم إخراجها، فقام الممثلون أنفسهم بهذا العمل وعاونهم الأستاذ أدمون تويما منظم المسرح

وافلح الممثلون في مجهودهم، كما وفق الأستاذ أدمون تويما في اختيار المناظر واختيار ألوان الضوء وتوزيعه كما يتناسب وجو المسرحية. وأقرر أن هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها مسرحية مصرية اكتمل فيها الضوء وكان عونا للممثلين؛ وأرجو أن تهتم الفرقة بهذه الناحية، وتسند إلى الأستاذ نويما الإضاءة دائما

قام الممثل الأستاذ احمد علام بالدور الأول، فكان لظهوره رنة فرح بين جمهور المعجبين به الذين احتجب عنهم زمناً غير قصير. ولقد اظهر براعة فائقة في دور حسن بك وإني بهذه لأذكر له موقفه البديع في الفصل الأول وهو يكاشف درية بحبه، وفي الفصل الثالث بعد عودته إلى البيت وحديثه مع درية زوجة ابيه، ذلك الحديث الهادئ الذي يدل على ما يضطرم في نفسه من شتى الاحساسات الألم والحب المكبوت وما إليها

وكذلك في الفصل الرابع وهو يتحدث مع شقيقته، وبعدها وهو يتحدث إلى درية، ويعرف أنها تضمر له الحب، يسمو في هذه المواقف ويصل إلى قلوب النظارة فيحركها بالألم

ويأتي بعد علام في النجاح السيدة ثريا فخري التي مثلت دور الدادة، فقد وفقت فيه توفيقاً كبيراً وأدته أداء طيباً يعجز ممثلات الفرقة عن إدراكها فيه. وكان سراج منير موفقاً في إبراز شخصية والد درية، وكانت (روحية خالد) بديعة في تأدية دور شقيقة حسن، وكانت حسنة الإلقاء خفيفة الظل، كما كان محمود رضا عذب الروح في دور نسيم أفندي مضحك الأسرة

وقامت الآنسة فردوس حسن بدور درية، وهو الدور الأول في هذه الرواية؛ فبذلت مجهوداً لا باس به، إلا إنها لم تعن العناية الكافية بإبراز عاطفتها واحساساتها في شتى المواقف، وأن تكون اقل سرعة في إلقاء كلماتها. والأستاذ منسي فهمي قام بدور محيي بك، ويخيل إلى انه لم يهتم به اهتمامه بأدواره السابقة ولم يعره جانب عنايته، ولكنه في الفصل الرابع أبدى بعض العناية فأنقذ الشخصية في النهاية

يوسف تادرس الناقد الفني

العدد 185 - بتاريخ: 18 - 01 - 1937

الدفاع المقدس

قانون الحياة مادتان: هجوم على القوت، ودفاع عن الذات. وما كلمات النباهة والمجد والخلود إلا طعوم مغريات في يد الطبيعة، تتذرع بها إلى ضمان الحياة بالوفرة، كما تتذرع بالجمال والشهوة واللذة إلى بقاء النوع بالولادة. فالحي خليق بالبقاء تتوفر فيه ولا ريب قوة السعي لنفسه، وقوة الوقوف لغيره؛ فإذا فقد هاتين القوتين أو إحداهما كان طفيليا على مائدة الحياة، وفضوليا في ملكوت الطبيعة. وليست العزة التي تملك القاصر حين يرشد، أو التابع حين يستقل، إلا يقظة الأنانية في طبعه، وثورة الحيوية في دمه. وهذا الذي نشهده اليوم في مصر المستقلة من التسابق إلى إعداد القوة، والتنافس في إنشاء الدفاع، إنما هو استكمال لإحدى وسيلتي العيش، واستشعار لأرقى طبيعتي الوجود. فقد كانت مصر قبل عهدها الجديد تجري على قدر مجهول في الغيب، وتعيش على خطر معلوم من العدو، ثم لا تجد في واديها ولا في أيديها ما يدفع الغارة ويمنع الحوزة، فهي كالمرأة حمايتها على الزوج، وكالقاصر تبعته على الوصي. لذلك خشعت نفوسها أمام القوى الساطية خشوع الوحش الداجن إذا حطم نابه وقلم ظفره، فلا تدخل في شر، ولا تشارك في مراء، ولا تملك من دون وليها المحتل نفعا ولا ضرا. كان ذلك وأكثر الدول السيدة الأيدة كالبلجيك واليونان والترك لا يطولها أصلا،

ولا يكثرها نفراً، ولا يفوقها ثروة. وكان ذلك والقوة هي الدستور النافذ في الأرض؛ فالتسليح خطة السياسة، والحرب عماد السلام، والمنفعة حجة القانون، وعصبة الأمم والمعاهدات (منيكير) لمخلب الأسد؛ ولكن الاحتلال الذي غل اليد وشل الإرادة قد سلبنا فيما سلب الثقة بالقدرة، والاعتماد على النفس، فكنا فقراء مع الغنى، وأذلاء على الكثرة، لا ندري على اليقين قيمة ما نملك ولا مدى ما نطيق

أما اليوم وقد تحطمت حلقات القيود على ضغط الجهاد الملح والزعامة المخلصة، فهاهي ذي مصر طليقة على سجيتها، سافرة عن طويتها، وقد عصفت في رأسها النخوة، وتمرد في نفسها التاريخ، فهي تتأهب لإعلان قوتها وإعزاز كلمتها وتحصين عزتها في الميادين الحرب الثلاثة! وهاهم أولاء أبناؤها الميامين البررة يتدفقون في التبرع السخي لمشروع الدفاع الوطني تدفق الدماء الحية في قلوبهم الحرة! وسيدهش العالم لهبتهم العاصفة، كما دهش من قبل لغفوتهم الثقيلة، فان مصر في كل شيء فريدة عجيبة!

لقد هبوا أول الجهاد فسخوا لها بالأنفس، وهم يهبون اليوم أول النصر ،ليسخوا لها بالأموال؛ وعلى قدر الإخلاص والتضحية في الهبة الأولى سيكون البذل والإيثار ولا ريب في الهبة الثانية

صحيح أن تلك النهضة بدأت من الشعب وانتهت إلى الحكومة، وأن هذه النهضة ابتدأت من الحكومة وستنتهي إلى الشعب؛ ولكن ذلك لا يقدح في حقيقتها ولا يشكك في نتيجتها، فان حكومة اليوم هي شعب الأمس والذين ألبوا الأنفس على ذل الاحتلال، هم أنفسهم الذين يحمسون الأفئدة لعز الاستقلال؛ وبين عرش الملك، وكرسي الحكم، ومقعد البرلمان، وئام ناشئ من خلوص النية، وانسجام قائم على وحدة الغاية؛ ولن يهلك على خلوص النية رأي، ولن يصل على وحدة الغاية سبيل

افتتح التبرع للدفاع المقدس الوزراء فتبعهم الموظفون؛ فهل يفتتحه من الجانب الآخر الأمراء والأغنياء ليتبعهم الأهلون؟

يريد الوطن الضعيف الأعزل من أولئك الذين ربَّبهم على دلال السرف، وقلبهم في أعطاف النعيم، فحشا أهبهم بخيره، وأفعم خزائنهم بذهبه، وبسط ملكهم على أكثر أرضه، ومد نفوذهم على معظم بنيه، أن يعززوه ليفي عليهم، ويسلحوه ليدافع عنهم، ويبروه ليدوم عليهم بره وظله

ما الذي يحبس هذا الأمير المترف أن ينفق على سلاح وطنه مثل ما ينفق على سلاح صيده، ويبذل في سبيل أمته بعض ما يبذل في سبيل شهوته؟

وما لهذا الباشا البطين صاحب الهيل والهيلمان، وملك الثيران والأطيان، ورب النفوذ والسلطان، يقر أذنه عن نداء وطنه، وإنما عظمته من فضله، وعزته من أهله، وثروته من ثراه! أيتلكأ الباشا ويتباطأ الأمير حتى تنشأ عدة الدفاع مما يرضخ به الفقير والأجير والعامل؟ وهل ترك هذا أو ذاك لأحد من هؤلاء شيئا يعطيه؟ وهل من المروءة أن يدعا الفقير أو الأجير يتبرع من قوته وهو لا يكفيه؟

سادتي أصحاب السمو وأرباب السعادة! أن الفقير يغذيكم طيلة العمر بعرقه، وسيدافع عنكم يوم الفزع بدمه، ولن يكلفكم هذا الصابر المسكين إلا أن تشتروا له الفأس، وتقدموا له السلاح فهل هذا كثير؟

احمد حسن الزيات

في الحب

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

الكلام في الحب يحلو للعاشق والسالي والخلي؛ وأنا والله (لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء)، وقد كنت أتوهم أني عشقت بضع من المرات في حياتي مذ عرفت أن لي قلباً وأن مكانه في الناحية اليسرى لا اليمنى. ولهذه المعرفة قيمتها عندي، فقد خيل إلي في صدر أيامي أني أحب فتاة وأفضيت إليها يوماً - أو على الأصح ليلة وكان القمر طالعاً والجو سجسجاً - بما يجن صدري، وأردت أن أؤكد لها الحب فأشرت إلى حيث الضلوع في الجانب الأيمن، وكانتأعرف مني بتركيب الجسم الإنساني، فضحكت وقالت: (هل أنت واثق مما تقول؟. .) فلم أفهم معنى لسؤالها وظننتها تريد أن تعاهدني على الحب والحفاظ وما إلى ذلك من الكلام الفارغ - أو الذي صرت أعتقد أنه فارغ - فوضعت كفها الرخصة على حيث أشرت لها إلى موضع قلبي وقالت: (مسكين

هذا القلب!. .) فتناولت يدها وقبلتها وقلت على سبيل التأييد: (إي والله. . مسكين. .) فسألتني: (وما العمل الآن؟. .) فقلت: (في أي شيء؟) قالت: (أليس الواجب أن نبدأ بقلبك فنرده إلى مكانه الذي حوله الحب عنه؟) قلت: (كيف؟. ماذا تعنين؟) قالت: (أن قلوب الناس هنا. . إلى اليسار. . ولكن قلبك قد وثب وثبة نقلته إلى اليمين؛ وهذا - فيما أظن - يجب أن يستعان على إصلاحه بالجراح. . والى أن يتم ذلك. . .)

فلم أدعها تتم كلامها ووليت هارباً. وخطر لي بعد ذلك أنه إذا كان القلب في غير الموضع الذي حسبته فيه فأن ما توهمته من إحساسه - أو بعبارة أدق - من الإحساس في ذلك الموضع لا بد أن يكون تخيلاً لا حقيقة له. وكانت هذه مغالطة، فليس من الضروري أن يعرف الإنسان موضع قلبه ليحب، ولكن المغالطة نفعتني وشفتني من هذا البلاء

وأنا لا اعشق بالمعنى المألوف لأني شديد النسيان سريعه. والنسيان يجعلني أمسى عاشقاً، واصبح سالياً. وكثيراً ما حدث أني عشقت، ولكن الليل يجيء فأجوع - ولا سيما في الشتاء - فأكل فيغلبني النعاس - والامتلاء يساعد عليه - وانهض في الصباح فيخطر لي شيء ساعة افتح عيني على الدنيا فاشغل بذاك عما عداه وافرغ من هذا الأمر الجديد في العصر أو بعد يوم أو اثنين؛ فاقعد أفكر فيما مر بي في يومي، أو في الأيام الأخيرة، وإذا بي أتذكر فجأة أني عشقت فأقول: (اوووووه. . . . أعوذ بالله! ما هذا النسيان الفظيع؟ إلا شد ما أذهلتني الحياة عن حبيبتي التي لا شك إنها تحسبني الآن أحيي الليل ساهراً أناجيها. . . كلا، ينبغي أن أكتم هذا لئلا تغضب؛ وليس من اللائق على كل حال أن أخبرها أني كنت ناسياً أني عاشق مد نف. . . ولكن من هي الحبيبة؟ لقد ذكرت حبها ولكني والله نسيتها هي. . .) وأحار ماذا أصنع. . . فليس من المعقول أن أسال من أعرف من الفتيات أهي التي أحبها آم سواها. ويعجبني هذا الموقف فأتصور أني أقبلت على واحدة وفركت كفي وقلت لها: (هل تسمحين لي أن القي عليك سؤالاً عني؟ (فتقول) تفضل. . . بالطبع. . لم لا؟.) فأقول: (أن المسالة بسيطة!!. . أعني أنها في الحقيقة دقيقة. . والمفروض أني أعرف بها ولكني كما تعرفين حمار. فتقول: (استغفر الله!. لماذا تطعن على نفسك هكذا؟.) فأقول: (معذرة. . واشكر لك هذا اللطف ولكنها الحقيقة. . على كل حال لقد تبينت من كلامك. . أعني. . أريد أن أقول إن كلامك الذي سمعته أغناني عن السؤال فآلف شكر لك يا روحي ونور عيني وحبة قلبي و. . .)

فتقاطعني وتصيح بي: (ماذا جرى لك؟. . . لماذا تتكلم هكذا. . .؟)

فأقول: (معذرة. . . ولكن ألست أنت روحي ونور عيني وحبة قلبي. . . لقد ضننتك. . .)

فتسال وهي مقطبة: (هل جننت. . .؟)

فأقول: (لا. . . لم أجن. . . . ولكني نسيت. . .)

فتقول وهي كالمذهولة: (نسيت!. . . ماذا نسيت. . .؟)

فأقول: (اسمعي. . . لم يبق بد من الإقرار بالحقيقة. . . إني أحب، ولكني نسيت ولم أعد أعرف من هي التي سرقت قلبي، وقد كانت نيتي حين ربكتني بالمقاطعة أن أسألك أأنت التي أحبها أم أنا قد غلطت؟. . . فلما أظهرت هذا العطف علي وأغضبك أني أطعن على نفسي، قلت إنك لا بد أن تكوني المحبوبة الضائعة - أعني المنسية - فان لم تكونيها فأنت لاشك أولى منها بحبي. . . وهذا هو تأويل قولي: يا روحي يا نور عيني ويا حبة قلبي. . . فما رأيك؟)

أتصور هذا الموقف فلا يسعني إلا أن أضحك. ومتى ضحك المرء فقد سلا وخلا قلبه من الوجع. ولو أن كل عاشق استطاع أن يضحك لكان الأرجح ألا يبقى في الدنيا حب عنيف طاغ

ولا أحتاج أن أقول إني في الحب كما تشاء ذاكرتي؛ فإذا استيقظت وتنبهت، ووسعها أن ترتب ما فيها، وتبرز ما يستحق الإبراز، وتؤخر ما التأخير أولى به، وتعرض الأمر علي عرضا يساعد على التدبر ولا يغري بالفرار والتماس النجاة. . . إذا فعلت ذاكرتي هذا فأني أستطيع أن أعرف أأنا عاشق أم خلي، ومن هي التي أحببتها، أو من هن اللواتي أحببتهن ثم نسيتهن؟ ولا غرابة إذن أن يكون حبي - حين أفطن إليه - بالجملة.

أما إذا عجزت ذاكرتي عن هذا العرض فأني أمشي في الدنيا مستريح القلب من هم الحب وكربه، واثقاً من نعمة الخلو ومزية السلامة والنجاة
ولكن البلاء والداء العياء أن ذاكرتي تفاجئني بومضات التذكر حين تحسن اللجلجة في النسيان. . . وتصور أن تكون جالساً تناجي من تذكرت أنك تحبها. وأن تكون راغباً في ملاطفتها لتعوضها من الإساءة إليها بنسيان أمرها، فتروح تبثها هذا الحب وتناجيها بأعذب ما تستطيع من عبارات الشغف والهيام، وتؤكد لها أنك ما أحببت. . . كلا، ولن تحب سواها، وأن قلبك وقف عليها، وأن حبك لها خالد، وأن الدنيا تستطيع أن تعمر بمن شاءت من النساء الجميلات الفاتنات الساحرات؛ ولكنك أنت لن تكون لك عين ترى سواها، أو قلب يخفق لغيرها. . . وإنك لتسح بهذا الكلام وإذا بذاكرتك تصيح بك: (أتراك نسيت تلك التي . . . ماذا تقول؟. . . أتزعم أنك لا تحب سواها؟ يوه. . . حاسب كنت تقسم لها مثل هذه الأيمان الغلاظ البارحة. . . البارحة فقط. . . في الساعة التاسعة. . . على شاطئ النيل. . . أو تلك التي دعوتها إلى الذهاب معك إلى الإسكندرية لأنك لا تطيق البعد عنها يوماً واحداً. . . أو الأخرى. . . أو. . . أو . . .)
وأرجو أن يكون القارئ منصفاً، وأن يقول لي كيف بالله يمكن أن يمضي المرء في الكلام الذي بدأه؟. . . أو كيف يستطيع أن يستحلي ما هو فيه؟. . . أو ماذا يبلغ من شعوره بالتنغيص في لحظة جميلة كالتي هو فيها؟. . . ثم أن هذه سماجة من الذاكرة. . . لماذا لا تنتظر حتى تنقضي اللحظة الحلوة، ويفوز المرء بالمتعة - متعة الجلسة والحديث والمناجاة وسرور المحبوبة بأنها محبوبة ثم بعد ذلك - بعد أن تنقضي الساعة التي هو فيها لا يبقى مانع من أن تذكره بما شاءت، وأن تعرض عليه الحقائق الثقيلة في غير أوانها
فماذا أصنع بالله. . . وكيف أستطيع أن أحب ما ينبغي. . . وهل مما يستظرف أن تعابثني ذاكرتي معابثة تحرمني لذة الحب في دنيا تزخر بالجمال؟. . . وماذا عسى أن أقول للغانيات؟. . . والله أن هذه لحيرة وأي حيرة، ثم والله أني لمستريح مسكين
إبراهيم عبد القادر المازني
القلب المسكين
تتمة
للأستاذ مصطفى صادق الرافعي
قال صاحب القلب المسكين: ووقفت المحامية وكأنها بين الحراس تزدحم عليها من كل ناحية، وقد ظهرت للموجودين ظهور الجمال للحب، ونقلتهم في الزمن إلى مثل الساعة المصورة التي ينتظر فيه الأطفال سماع القصة العجيبة؛ ساعة فيها كل صور اللذة للقلب
وكانت تدافع بكلامها ووجهها يدافع عن كلامها، فلو نطقت غيا أو رشداً فلهذا صواب ولهذا صواب، لان أحد الصوابين منظور بالأعين
كان صوت النائب العام كلاماً يسمع ويفهم؛ أما صوت المحامية الجميلة فكان يسمع ويفهم ويحس ويذاق، تلقيه هي من ناحية ما يدرك، وتتلقاه النفس من ناحية ما يعشق، فهو متصل بحقيقتين من معناه ومعناها، وهو كله حلاوة لأنه من فمها الحلو
وبدأت فتناولت من أشيائها مرآة صغيرة فنظرت فيها
- النائب العام: ما هذا يا أستاذة؟
- المحامية: إنكم تزعمون أن هذه الجريمة تأليف عيني، فأنا أسأل عيني قبل أن أتكلم
- النائب: نعم يا سيدتي؛ ولكني أرجو إلا تدخلي القضية في سر المرآة وأخواتها. . . أن النيابة تخشى على اتهامها إذا تكحلت لغة الدفاع
فضحكت المحامية ضحكة كانت أول البلاغة المؤثرة . . .
- النائب: من الوقار القانوني أن تكون المحامية الفاتنة غير فتانة ولا جذابة أمام المحكمة
- المحامية: تريد أن تجعلها عجوزاً بأمر النيابة. . .؟ (ضحك)
- النائب: جمال حسناء، في ظرف غانية، في شمائل راقصة، في حماسة عاشقة، في ذكاء محامية، في قدرة حب. هذا كثير
- المحامية: يا حضرات المستشارين. لم تكن المرآة هفوة من طبيعة المرأة، ولكنها الكلمة الأولى في الدفاع. كلمة كان الجواب عنها من النائب العام أنه أقر بتأثير

الجمال وخطره، حتى لقد خشي على اتهامه إذا تكحلت له لغتي
- القضاة يتبسمون
- النائب: لم أزد على أن طلبت الوقار القانوني. الوقار. نعم الوقار، فان المحامية أمام المحكمة، هي متكلم لا متكلمة
- المحامية: متكلم بلحية مقدرة منع من ظهورها التعذر. . . (ضحك)
كلا يا حضرة النائب؛ إن لهذه القضية قانوناً آخر تنتزع منه شواهد وأدلة؛ قانون سحر المرأة للرجل، فلو اقتضاني الدفاع أن أرقص لرقصت، أو أغني لغنيت، أو أثبت سحر الجمال لأثبته أول شيء في النائب العام. . .
- الرئيس: يا أستاذة؟
- المحامية: لم أجاوز القانون، فالنائب في جريمتنا هو خصم القضية، وهو أيضاً خصم الطبيعة النسوية
- النائب: لو حدث من هذا شيء لكان إيحاء لعواطف المحكمة. . . فأنا أحتج
- المحامية: احتج ما شئت، ففي قضايا الحب يكون العدل عدلين، إذ كان الاضطرار قد حكم بقانونه قبل أن تحكم أنت بقانونك
- النائب: هذه العقدة ليست عقدة في منديل يا سيدتي، بل هي عقدة في القانون
- المحامية: وهذه القضية ليست قضية إخلاء دار يا سيدي، بل هي قضية إخلاء قلب
- الرئيس: الموضوع، الموضوع
- المحامية: يا حضرات المستشارين. إذا انتفى القصد الجنائي وجبت البراءة. هذا مبدأ لا خلاف عليه؛ فما هو الفعل الوجودي في جريمة قلبي المسكين؟
- النائب: أوله حب راقصة؟
- المحامية: آه دائماً هذا الوصف. هبوها في معناها غير جديرة بان يعرفها لأنه رجل تقي، فليست في حسنها جديرة بان يحبها لأنه رجل شاعر؛ احكموا يا حضرات القضاة. هذه راقصة ترتزق وترتفق، ومعنى ذلك إنها رهن بأسبابها، ومعنى هذا إنها خاضعة للكلمة التي تدفع. . . فلماذا لم ينلها وهي متعرضة له، وكلاهما من صاحبه على النهاية، وفي أخر أوصاف الشوق؟ أليس هذا حقيقياً بإعجابكم القانوني كما هو جدير بإعجاب الدين والعقل؟ وأن لم يكن هذا الحب شهوة فكر، فما الذي يحول دونها وما يمنعه أن يتزوجها. . .؟
- القضاة يتبسمون
- النائب: نسيت المحامية إنها محامية وانتقلت إلى شخصيتها الواقفة على النهاية وفي أخر أوصاف الشوق. . . فأرجو أن ترجع إلى الموضوع، موضوع الراقصة
- المحامية: آه دائماً الراقصة. من هي هذه المسكينة الأسيرة في أيدي الجوع والحاجة والاضطرار؟ أليست مجموعة فضائل مقهورة؟ أليست هي الجائعة التي لا تجد من الفاجرين إلا لحم الميتة؟ نعم إنها زلت. إنها سقطت. ولكن بماذا؟ بالفقر لا غير؛ فقر الضمير والذمة في رجل فاسد خدعها وتركها؛ وفقر العدل والرحمة في اجتماع فاسد خذلها وأهملها. يا للرحمة لليتيمة من الأهل، وأهلها موجودون! والمنقطعة من الناس، والناس حولها!
تقولون: يجب ولا يجب، ثم تدعون الحياة الظالمة تعكس ما شاءت فتجعل ما لا ينبغي هو الذي ينبغي، وتقلب ما يجب إلى ما لا يجب. فإذا ضاع من يضيع في هذا الاختلاط، قلتم له: شانك بنفسك ونفضتم أيديكم منه فأضعتموه مرة أخرى. ويحكم يا قوم! غيروا اتجاه الأسباب في هذا الاجتماع الفاسد تخرج لكم مسببات أخرى غير فاسدة تأتي المرأة من أعمال الرجل لا من أعمال نفسها، فهي تابعة وتظهر كأنها متبوعة؛ وذلك هو ظلم الطبيعة للمسكينة؛ ومن كونها تظهر كأنها متبوعة، يظلمها الاجتماع ظلماً آخر فيأخذها وحدها بالجريمة، ويقال سافلة وساقطة وما جاءت إلا من سافل وساقط
لماذا أوجبت الشريعة الرجم بالحجارة على الفاسق المحصن؟ أهي تريد القتل والتعذيب والمثلة؟ كلا فان القتل ممكن بغير هذا وبأشد من هذا. ولكنها الحكمة السامية العجيبة: أن هذا الفاسق هدم بيتا فهو يرجم بحجارته
ما أجلك وأسماك يا شريعة الطبيعة؛ كل الأحجار يجب أن تنتقم لحجر دار الأسرة إذا انهدم

تستسقطون المسكينة ولو ذكرتم آلامها لوجدتم في ألسنتكم كلمات الإصلاح والرحمة لا كلمات الذم والعار. إنها تسعى برذيلتها إلى الرزق؛ فهل معنى هذا إلا إنها تسعى إلى الرزق بأقوى قوتها. نعم أن ذلك معنى الفجور؛ ولكن أليس هو نفسه معنى القوت أيها الناس؟

- الرئيس وهو يمسح عينيه: الموضوع الموضوع.

- المحامية: ما هو الفعل الوجودي في جريمة قلبي المسكين؟ ما هو الواقع من جريمة يضرب صاحبها المثل بنفسه للشباب في تسامي غريزته عن معناها إلى أطهر وأجمل من معناها؟ لبئس القانون إن كان القانون يعاقب على أمر قد صار إلى عمل ديني من أعمال الفضيلة

- النائب: ألا يخجل من شعوره بأنه يحب راقصة؟

- المحامية: ومم يخجل؟ أمن جمال شعوره أمن فن شعوره؟ أيخجل من عظمة في سمو في كمال؟ أيخجل البطل من أعمال الحرب وهي نفسها أعمال النصر والمجد؟ أتأذنون يا حضرات المستشارين أن أصف لكم جمال صاحبته وأن أظهر شيئاً من سر فنها الذي هو سر البيان في فنه؟

- النائب: إنها تتماجن علينا يا حضرات المستشارين، فالذي يحاكم على السكر لا يدخل المحكمة ومعه الزجاجة. . .

- الرئيس: لا حاجة إلى هذا النوع من ترجمة الكلام إلى أعمال يا حضرة الأستاذة

- المحامية: كثيراً ما تكون الألفاظ مترجمة خطأ بنيات المتكلمين بها أو المصغين إليها؛ فكلمة الحب مثلاً قد تنتهي إلى فكر من الأفكار حاملة معنى الفجور، وهي بعينها تبلغ إلى فكر آخر حاملة إلى سموه من سموها. وعلى نحو من هذا يختلف معنى كلمة الحجاب عند الشرقيين والأوربيين؛ فالأصل في مدنية هؤلاء إباحة المعاني الخفيفة من العفة. . وإكرام المرأة إكرام مغازلة. . . يقولون أن رقم الواحد غير رقم العشرة فيضعونه في حياة المرأة، فما أسرع ما يجيء (الصفر) فإذا هو العشرة بعينها. . .

أما الشرقيون فالأصل في مدنيتهم التزام العفة وإقرار المرأة في حقيقتها. لا جرم كان الحجاب هنا وهناك بالمعنيين المتناقضين: الاستبداد والعدل، والقسوة والرحمة، و. . .

- النائب: وامرأة البيت وامرأة الشارع. . .

- المحامية: وبصر القانون وعمي القانون

- الرئيس: وحسن الأدب وسوء الأدب. . . الموضوع الموضوع

- المحامية: لا والذي شرفكم بشرف الحكم يا حضرات المستشارين ما يرى القلب المسكين إلا في حبيبته إلا تعبير الجمال، فهو يفهمها فهم التعبير ككل موضوعات الفن. وما بينه وبينها إلا أن حقيقة الجمال تعرفت إليه فيها. أئن أحس الشاعر سراً من أسرار الطبيعة، في منظر من مناظرها، قلتم أجرم وأثم؟

هذا قلب ذو أفكار، وسبيله أن يعان على ما يتحقق به من هذا الفن. قد تقولون: أن في الطبيعة جمالاً غير جمال المرأة فليأخذ من الطبيعة وليعط منها. ولكن ما الذي يحي الطبيعة إلا أخذها من القلب؟ وما هي طريقة أخذها من القلب إلا بالحب؟ وقد تقولون: إنه يتألم ويتعذب، ولكن سلوه. أهو يتألم بإدراكه الألم في الحب؛ أو بإدراكه قسوة الحقيقة، وأسرار التعقيد في الخير والشر؟

إن شعراء القلوب لا يكونون دائماً إلا في أحد الطرفين: هم أكبر من الهم، وفرح أكثر من الفرح. فإذا عشقوا تجاوزوا موضع الوسط الذي لا يكون الحب المعتدل إلا فيه؛ ومن هذا فليس لهم آلام معتدلة ولا أفراح معتدلة

هذا قلب مختار من القدرة الموحية إليه، فالتي يحبها لا تكون إلا مختارة من هذه القدرة اختيار ملك الوحي. وهما بهذا قوتان في يد الجمال لإبداع أثر عظيم ملء قدرتين كلتاهما عظيمة

فان قلتم إن حب هذا القلب جريمة على نفسه، قالت الحقيقة الفنية: بل امتناع هذه الجريمة جريمة

إن خمسين وخمسين تأتي منهما مائة؛ فهذا بديهي؛ ولكنه ليس أبين ولا أظهر ولا أوضح من قولنا: إن هذا العاشق وهذه المعشوقة يأتي منهما فن

قال صاحب القلب المسكين: وانصرف القضاة إلى غرفتهم ليتداولوا الرأي فيما يحكمون به، وأومأت لي المحامية الجميلة تدعوني إليها، فنهضت أقوم فإذا أنا جالس وقد انتبهت من النوم

(طنطا)

مصطفى صادق الرافعي

في التاريخ السياسي

تفاقم المشكلة الأسبانية

ألمانيا تكرر محاولة أغادير

بقلم باحث دبلوماسي كبير

يظهر أن أخطار المشكلة الأسبانية لن تقف حد؛ فقد بدأت الثورة الأسبانية في أواخر يوليه الماضي حرباً أهلية، ولكن عوامل التدخل الدولية التي صحبتها منذ قيامها لم تلبث أن غلبت على صفتها المحلية الداخلية، فهي اليوم حرب دولية في الأراضي الأسبانية، يستتر فيها فريق الدول الفاشستية وراء الجنرال فرانكو زعيم الثورة، وتستتر الدول الديمقراطية وراء حكومة مدريد؛ وقد كان هذا الاستتار شفافاً في البداية ينم على حركات الدول المختلفة؛ ولكنه يفصح اليوم عن كل شيء بجلاء؛ وتبدو الدول المتدخلة ولا سيما ألمانيا وإيطاليا والسوفييت في الميدان بكل جرأة؛ وتتقاطر الأسلحة والذخائر والنجدات الأجنبية إلى الفريقين المتحاربين بلا انقطاع

فهذه الصورة الدولية التي أسبغها التدخل الأجنبي على الحرب الأهلية الأسبانية تغدو اليوم بالنسبة لأوربا بركاناً يضطرم بمختلف المفاجآت والأخطار؛ وقد كان آخر طور من أطوارها الخطرة تفاقم التدخل الألماني وظهور ألمانيا في سياستها الأسبانية بمظهر يزعج الدول الغربية ويثير كل مخاوفها. ذلك أنها لم تكتف بإرسال السلاح والذخيرة والمتطوعين إلى جبهة الثورة، ولكنها بعثت بقسم من أسطولها إلى المياه الأسبانية الشمالية، وأخذت سفنها الحربية تعتدي تباعاً على السفن الأسبانية الجمهورية بحجة الانتقام لحادث الباخرة (بالوس)؛ وفي الأنباء الأخيرة أن قوة عسكرية ألمانية نزلت في مراكش الأسبانية، وأنه شرع في بناء الثكنات اللازمة لإيوائها مما يدل على أنها ستمكث هناك طويلاً؛ وأن قوات أخرى نزلت في قادس لنجدة الجبهة الثورية وقد كان تدخل إيطاليا وألمانيا في الحرب الأسبانية على هذا النحو يزعج الدول الغربية منذ البداية؛ بيد أنه يلوح لنا أن السياسة الإيطالية أخذت على أثر تفاهمها مع إنكلترا تخفف نوعاً من هذا التدخل، وأن الاتفاق الإنكليزي الإيطالي (اتفاق الجنتلمان) على الاعتراف

بالحقوق والمصالح المتبادلة في البحر الأبيض المتوسط، وعلى احترام الحالة الراهنة فيه كان ذا أثر كبير في تعديل سياسة إيطاليا الأسبانية، وقد ظهر هذا التحول واضحاً في سحب إيطاليا لقواتها من جزيرة ميورقة، وفي وقف النجدات التي كانت ترسلها تباعاً إلى جبهة الثوار؛ هذا بينما يشتد التدخل الألماني ويتفاقم، ويمتد من أسبانيا نفسها إلى مراكش الأسبانية؛ وكان من المنتظر أن المجهود الذي تقوم به السياستان البريطانية والفرنسية لحصر الحوادث الأسبانية في نطاقها المحلي ودرء أخطارها الدولية يسفر عن بعض النتائج المرضية؛ ولكن الدولتان الفاشستيان وهما إيطاليا وألمانيا لجأتا إلى المطل والتسويف في الرد على هذا المسعى. وكانت المذكرة البريطانية الفرنسية تقترح على الدول ذات الشان أن تبذل مجهوداً مشتركا لوقف التدخل الدولي في شؤون أسبانيا الداخلية، ومنع المعاونات العسكرية عن الفريقين المتحاربين، وترك المسألة الأسبانية يحلها الأسبان فيما بينهم؛ وقد أجابت روسيا وهي التي تؤازر حكومة مدريد على هذا الاقتراح بالقبول؛ ولكن إيطاليا وألمانيا وهما اللتان تؤازران فريق الثوار تمهلتا في الرد حتى تطورت الحوادث الأسبانية على هذا النحو الخطر، واستطاعت ألمانيا أن تمد الثوار بنجدات عسكرية كبيرة؛ وأخيراً قدمت إيطاليا وألمانيا رديهما وهما متحدان في اللهجة والموضوع، وخلاصة رد الدولتين الفاشستيتين هو أنه لا محل لإجراء المفاوضات الدبلوماسية للبحث في هذا المشكل في حين أن هنالك لجنة خاصة للبحث في مسالة عدم التدخل، وأن منع المتطوعين الآن معناه معاونة حكومة مدريد التي تؤازرها قوات بلشفية كبيرة، وأن التبعة في تفاقم التدخل الأجنبي في أسبانيا ترجع إلى إنكلترا وفرنسا لأنهما هما اللتان اعترضتا منذ البداية على

اقتراحات ألمانيا في وجوب منع المتطوعين الأجانب؛ وتزيد ألمانيا على ذلك إنها ترى بحث المشكلة كلها لا بحث بعض نواحيها فقط، وإنها تحتفظ بحرية العمل إذا لم تقبل وجهة نظرها

ومن الغريب أن ألمانيا تقرن ردها بإرسال نجدات جديدة إلى أسبانيا، وبإنزال بعض قواتها في مراكش الأسبانية، وإذا كان ظهور الجنود الألمانية في أسبانيا وفي صفوف الجنرال فرانكو قد أثار مخاوف إنكلترا وفرنسا، فان ظهورها في مراكش الأسبانية يضاعف هذه المخاوف ويذكيها، وقد رأينا الوزارة البريطانية تسارع بالاجتماع لبحث المشكلة الأسبانية،

ورأينا السياسة الفرنسية، تضطرب لهذا التطور المزعج في الشؤون الإسبانية. ولكي نقدر خطورة هذا الظرف يجب أن نرتد بالذاكرة إلى حاث مماثل وقع في ظروف مماثلة، ذلك هو حادث أغادير الشهير الذي كاد يثير ضرام الحرب بين فرنسا وألمانيا؛ ففي أغسطس سنة 1911 ظهر في مياه أغادير المراكشية (وأغادير واقعة على المحيط الاطلنطي) طراد ألماني، وطلب القيصر في نفس الوقت (مركزا لألمانيا تحت الشمس) واضطربت فرنسا لهذا الحادث واعتبرته انتهاكا لحقوقها التي كفلتها معاهدة الجزيرة والتي عقدت بين الدول العظمى ومنها ألمانيا، ونصت على أن حفظ النظام في مراكش هو من شان فرنسا وأسبانيا وحدهما؛ واشتد توتر العلائق بين الدولتين ويومئذ لاح شبح الحرب بينهما في الأفق؛ ولم تسحب ألمانيا طلباتها ووعيدها إلا بعد مفاوضات طويلة شاقة، وبعد أن تنازلت لها فرنسا عن بعض أراضيها في الكونغو؛

والآن وقد بسطت فرنسا حمايتها على مراكش، ووطدت في مركزها وسلطانها، وأضحت جزءاً من إمبراطوريتها الضخمة في شمال أفريقية، فإنها ترتجف لأقل بادرة تهدد مراكش أو أي جزء آخر من أجزاء هذه الإمبراطورية الغنية؛ وقد كانت فرنسا تتوجس جزعاً مذ قامت الثورة الأسبانية، واضطربت شؤون مراكش الأسبانية التي تحد أملاكها من الشمال، وأضحت منطقة عسكرية خطرة؛ فالآن يزيد جزعها وتتضاعف مخاوفها إذ ترى الجنود الألمان ينزلون في هذه المنطقة ويعسكرون في مليله على مقربة من الحماية المراكشية

وهنالك ما يدل على أن هذا الحادث يشبه حادث أغادير من كل الوجوه. ذلك أن ألمانيا أثارت حادث أغادير لأطماع استعمارية، واستغلته لإرضاء هذه المطامع، وهي الآن تعيد الكرة، وتجيش بنفس الأطماع. وليس من المصادفات أن تنزل الجنود الألمانية في مراكش الأسبانية في نفس الوقت الذي تتقدم فيه ألمانيا بمطالبها الاستعمارية إلى فرنسا وإنكلترا بصورة رسمية. وقد كانت ألمانيا تروج لمطامعها الاستعمارية منذ اشهر وينادي بها زعماء ألمانيا المسؤولون في شدة وصراحة؛ وقد أجابت فرنسا وإنكلترا غير مرة على لسان ساستها وصحفها انهما لا تفكران في النزول عن شبر من الأرض لألمانيا، ولكن ألمانيا لم تنثن عن ندائها ومطالبها؛ ومنذ أسابيع قلائل كان وزير الاقتصاد الألماني الدكتور شاخت يكرر هذه المطالبة بعنف وبشدة ويصرح بأن استعادة ألمانيا لمستعمراتها لم يبق مسألة

كرامة فقط، وإنما أضحى ضرورة اقتصادية ترزح ألمانيا تحت عواملها المرهقة، وينذر أوربا بالانفجار إذا لم تعط ألمانيا حقها من المستعمرات والمواد الخام؛ ثم اتخذت ألمانيا بعد ذلك خطواتها الرسمية الأخيرة، بتقديم مطالبه الخاصة بالمستعمرات إلى فرنسا وإنكلترا، مقرونة بمناورتها البحرية في المياه الأسبانية الشمالية، وبمناورتها العسكرية في شمال مراكش

فهل تزمع ألمانيا أن تستغل هذه المظاهرات العسكرية لتحقيق مطامعها الاستعمارية؟ هذا ما نعتقد؛ ولقد جرت ألمانيا النازية في العهد الأخير على سياسة المجازفة والوعيد والتظاهر، وجنت ثمار هذه السياسة في نقض ميثاق لوكارنو، وفي تسليح منطقة الرين الحرام، وفي غيرهما، واستطاعت أن توقع بسياستها الخلاف في صفوف الحلفاء السابقين، واضطرت فرنسا أن تسلم بالأمر الواقع في هذه المسائل مع إنها مما يمس سلامتها؛ فهل تني فرنسا أمام الوعيد والتظاهر مرة أخرى؟ هذا ما لا نعتقد؛ ففرنسا تنظر إلى أعمال ألمانيا ومشاريعها في أسبانيا وشمال إفريقية بمنتهى التوجس؛ وألمانيا تصيب هنا نقطة حساسة جداً في السياسة الفرنسية، وقد ظهر اهتمام فرنسا واضحاً في ذهاب وزير حربيتها إلى شمال أفريقية ليتفقد أعمال الدفاع، وفي حركات

أسطولها حيث تجتمع وحدات كبيرة منه على مقربة من المياه الأسبانية؛ وقد بادرت فرنسا بالاحتجاج لدى حكومة بورجوس على السماح للجنود الألمانية بالنزول في مراكش طبقا لما تنص عليه معاهدة الجزيرة من تحريم مثل هذا الأجراء؛ ومن المحقق أن فرنسا لن تتساهل على الإطلاق في مشاريع ألمانية في هذه الناحية خصوصا أن مراكش الأسبانية تقع وسط إمبراطوريتها الأفريقية كما إنها تشرف من جهة البحر على طريق فرنسا الإمبراطوري؛ وإنكلترا لا تستطيع مثل فرنسا أن تتسامح في وجود الجنود الألمان في هذه المنطقة على مقربة من ثغر سبتة المواجه لجبل طارق والذي يعتبر أهم من جبل طارق ذاته بالنسبة للأشراف على مدخل البحر الأبيض المتوسط، وقد بدأت إنجلترا مثل فرنسا في حشد جانب كبير من أسطولها على مقربة من المياه الأسبانية؛ فالسياستان البريطانية والفرنسية تجمعهما هنا سياسة موحدة، وتحدوهما إلى العمل المشترك بواعث مشتركة لا شك في خطورتها

والمعروف أن ألمانيا منذ قيام الحرب الأهلية ترنو إلى استغلال هذه الأزمة الأوربية الجديدة لمصالحها الخاصة، وأنها تحوم حول مراكش الأسبانية وجزر الكناري، كما أن إيطاليا كانت تحوم حول جزر البليار، ولكن إيطاليا انتهت إلى إدراك الحقائق الواقعة وآثرت أن تتفاهم مع إنكلترا، وأخذت في الواقع تخفف من تدخلها في المسالة الأسبانية وإن كانت في الظاهر تبدو مؤيدة لخطة ألمانيا. أما ألمانيا فقد اندفعت في خطتها إلى هذا المدى الذي يثير اليوم أزمة في منتهى الدقة والخطورة. وفرنسا لا تجهل البواعث التي تدفع ألمانيا إلى مثل هذه المغامرة، وهي تدرك تمام الإدراك أن من ورائها المسألة الاستعمارية برمتها؛ ولكنها على ما يفهم من تعليقات صحفها لا تنوي أن تنزل في هذا الموطن على وعيد ألمانيا ورغباتها؛ وكل ما هنالك أنها لا تأبى أن تبحث المسألة الاستعمارية على ضوء جديد، وأنها لا ترى مانعاً من تحقيق بعض رغبات ألمانيا في هذا السبيل إذا كانت ألمانيا تتعهد من جانبها بان تقف عند هذا الحد من تحقيق مطامعها، وأن تعود إلى حظيرة الدول الغربية لتعمل معها على تأييد السلام الأوربي؛ ويقتضي ذلك أن تخفف ألمانيا من حدتها العسكرية، وأن تعمل مع الدول الأخرى على تخفيض سلاحها؛ أما إذا كان قصد ألمانيا من الاستيلاء على المستعمرات هو بالعكس استثمارها لتوسيع مشاريعها العسكرية، فأن فرنسا تعارض كل المعارضة في استيلاء ألمانيا على شبر من الأرض يعاونها على تحقيق هذه الغاية. هذه النظرية الفرنسية كما تعرضها الصحف الفرنسية؛ أما إنكلترا فلم يتضح موقفها بعد في هذه المسألة تماماً، وإن كان ساستها المسؤولون قد أكدوا غير مرة إنها لن تنزل عن شيء من مستعمراتها

ومن المحقق أن تطور هذه الأزمة الجديدة يتوقف إلى حد كبير على تطور الحوادث الأسبانية ذاتها، وعلى نتائج المعارك التي تضطرم حول مدريد؛ فإذا كتب الفوز للثوار، فأن ألمانيا تزداد إصرار في سياستها ومشاريعها؛ وإذا كان الأمر بالعكس، فمن المحقق أن هذه المغامرة ألمانية تنهار في مهدها

وسنرى من جهة أخرى ماذا تستطيع الجهود السياسية أن تحقق في هذا السبيل

(* * *)

نظرية النبوة عند الفارابي

للدكتور إبراهيم بيومي مدكور

مدرس الفلسفة بكلية الآداب

تتمة

وبصرف النظر عن هذه الحملة الباطلة التي أثارتها عوامل الحقد والحسد والتي لم يكن لها أساس من الواقع والحقيقة في شيء، فأن الذي نحب أن نستخلصه من الأفكار السابقة هو أن السيد يلتقي مع الفارابي في نقطتين هامتين؛ فهو يوضح أولاً مهمة النبي الاجتماعية والسياسية، وهذه مسألة يعد الفارابي من أول من صوروها في الإسلام بصورة علمية نظرية، وربما تلخص كتابه (آراء أهل المدينة الفاضلة) في إدعاء فكرة النبوة على أساس من (جمهورية) أفلاطون وعلم النفس عند أرسطو. والسيد وهو مصلح ديني وسياسي لا بد له أن يحتذي هذه الخطى ويسير على هذا النهج. ومن جهة أخرى لا يفوتنا أن نشير إلى أن النبي والحكيم يقتربان عند هذين المفكرين إلى حد كبير، فهما روح الجمعية ومبعث الحياة والإصلاح. نعم إن السيد يفرق بينهما من

ناحية الكسب والعصمة، في حين أن الفارابي لم يوضح القول في الأول وأغفل الثانية بتاتاً، وبدا كأنه يسوى بين النبي والفيلسوف من جميع الوجوه. ولكن يجدر بنا ألا ننسى أن الفارابي كان يصعد بالحكيم إلى مستوى هو العصمة بعينها ولا يمكن أن يتصور فيه الزلل، ولهذا لم يفرق بينه وبين النبي في هذه النقطة. وفوق هذا فأن السيد إذا كان قد جهر بهذه التفرقة فهو متأثر بعصره وبيئته والحملات التي وجهت من قبل إلى البحث العقلي، لأنه يعود إلى موضوع الحكمة بعد سبعة قرون قضاها المسلمون في مطاردة الفلسفة والفلاسفة. فلم يكن في مقدوره أن يدعو للفلسفة دعوة صريحة ولا أن يثبت لها حقاً في الحياة مكتملاً من كل نواحيه. وكيفما كانت الفوارق بينه وبين الفارابي فمما لا شك فيه أنه قرب المسافة بين النبي والحكيم، وعدهما معا مصدر تقويم وإصلاح؛ وهاتان الفكرتان فارابيتان في أصلهما سواء أكان السيد قد استمدهما مباشرة من كتب الفارابي أم بالواسطة من مصدر آخر. وقد ساهم السيد في نصرة الفلسفة والأخذ بيدها وساعد على إحياء دراستها في الشرق بعد أن كان الناس قد انصرفوا عنها زمناً

ولم يكن الأستاذ في تأثره بالفارابي أقل وضوحاً من شيخه وصديقه السيد جمال الدين، فقد قرأ ابن سينا واشترك بنفسه في إحياء الدراسات الفلسفية القديمة المهجورة. وفي نشره لكتاب (البصائر النصيرية) ما يشهد بذلك. هذا إلى إنه وإن اشترك مع السيد في فكرة التجديد والإصلاح يخالفه في الوسائل الموصلة إلى ذلك. فبينما السيد مجدد طموح يريد الوصول سريعا وعن طريق السياسة، إذا بالأستاذ الأمام يعتقد أن طبيعة الأشياء تأبى الطفرة وأن الإصلاح يستلزم خطوات رزينة، وتدرجا معقولا، ودعائم مثبتة من الأخلاق والدين. لهذا اتجه أولاً وبالذات نحو التعاليم الدينية محاولا أن يصوغها في القالب الذي يتفق وروح العصر، وأن يصعد بها إلى ما كان عليه السلف الأول. فقد كان على يقين مما لحق الإسلام من أفكار فاسدة صورته بصورة معيبة شنيعة، ووضعت حجر عثرة في سبيل النهوض والتقدم. ولم ير بداً من محاربة هذه الأباطيل والترهات والقضاء على البدع والخرافات، والأخذ بيد التفكير الحر الطليق تحت راية الدين الصحيح. وأثره في هذه الناحية أوضح من أن ينوه عنه. وفي رأيه أن العلم والدين لا يختلفان مطلقاً، بل يجب أن يتضافرا على غاية واحدة هي تهذيب الإنسانية وترفيهها وإسعادها. فالدين يحول دون الإنسان والزيغ الذي يقود إليه عقل جامح؛ والعلم يوضح الأصول الدينية ويبين إنها لا تتنافى مع المبادئ العقلية. ولن نستطيع الإدلاء هنا بكل أفكار الأستاذ الأمام الدينية، وسنكتفي بأن نلخص رأيه في النبوة كي تتبين وجوه الشبه بينه وبين النظرية الفارابية

يقف الأستاذ الأمام على هذا الموضوع ثلث (رسالة التوحيد) المشهورة أو يزيد، وفيها يتحدث عن الرسالة العامة وحاجة البشر إلى الرسل وإمكان الوحي ووقوعه ووظيفة الرسل ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم. ويصرح بأن الإنسان مدني بطبعه محتاج إلى المخالطة والمعاشرة، وعلى كل فرد من أفراد الجمعية واجب يؤديه وحق يطالب به. بيد أن الأفراد قد يخلطون الحقوق بالواجبات، ويتهاونون فيما كلفوا به مسرفين كل الإسراف فيما يدعونه لأنفسهم من حقوق؛ فتعم الفوضى وينتشر الفساد، وتصبح الجمعية في حاجة ماسة إلى قيام بعض أفرادها هداة ومرشدين، يبينون للناس النافع والضار، ويميزون لهم الخير من الشر، ويعلمونهم ما شاء الله أن يصلح به معاشهم ومعادهم، وما أراد أن يقفهم عليه من شؤون

ذاته وكمال صفاته؛ وهؤلاء هم الأنبياء والمرسلون صلوات الله عليهم. فبعثتهم من متممات كون الإنسان، ومن أهم حاجاته في بقائه، ومنزلتها من النوع الإنساني منزلة العقل من الشخص؛ منحة أتمها الله لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل. وليس غريباً أن يختص الله بعض خلقه بالوحي والالهام، فقد سمت نفوسهم وأصبحوا أهلاً للفيض الإلهي والكشف الرباني؛ وبديهي أن درجات العقول متفاوتة يعلو بعضها بعضاً، ولا يدرك الأدنى منها الأعلى إلا على وجه الأجمال. وليس هذا التفاوت نتيجة الاختلاف في التعليم فحسب، بل كثيراً ما كان أثراً من آثار الاختلاف في الفطرة التي لا تخضع لقوانين الكسب والاختبار؛ ولا يزال المرء يرقى في الكمال حتى يبدو البعيد له قريباً، وتتفتح أمامه حجب الغيب. يقول الأستاذ الأمام: (فإذا سلم ولا محيص من التسليم بما أسلفنا من المقدمات فمن ضعف العقل والنكول عن النتيجة اللازمة

لمقدماتها عند الوصول إليها ألا يسلم بان من النفوس البشرية ما يكون لها من نقاء الجوهر بأصل الفطرة ما تستعد به من محض الفيض الإلهي لأن تتصل بالأفق الأعلى وتنتهي من الإنسانية إلى الذروة العليا، وتشهد من أمر الله شهود العيان ما لم يصل غيرها إلى تعقله أو تحسسه بعصا الدليل والبرهان، وتتلقى عن العليم الحكيم ما يعلو وضوحاً على ما يتلقاه أحدنا عن أساتذة التعاليم)

لا نظننا في حاجة أن نشير إلى أن كثيراً من هذه المعاني التي يرددها الأستاذ الأمام قال بها السيد جمال الدين. فمهمة النبي في رأيهما أخلاقية واجتماعية، ووظيفته تنحصر في تربية الشعوب والسير بها نحو الطريق القويم. وإذا كان السيد قد اعتبر النبي روح الجمعية الإنسانية فالأستاذ الأمام عده عقلها. ولا نظننا مغالين إذا قلنا إن الأمام يعود بنا إلى عصر الفارابي وبن سينا اللذين كانا يفسران النبوة تفسيراً علمياً سيكولوجياً. وهو يميل دائماً كما قدمنا، إلى أن يرجع التعاليم الإسلامية إلى الحال الزاهرة التي كان عليها السلف الأول؛ وفي كثير من آرائه ما يقربه من هذين الفيلسوفين وما يدفعنا لأن ندرس العلاقة بينه وبينهما في شكل أكمل وعلى صورة أوضح. فهو يقرر مثلهما أن التعاليم والأوامر الدينية يراد بها الشعوب وعامة الناس في حين أن الفلسفة إن صلحت غذاء لطائفة معينة فليس في مقدور الجميع استساغتها. ويقول بالأسباب الطبيعية التي أنكرها أهل السنة ملاحظاً، كما لاحظ فلاسفة الإسلام من قبل، إنها لا تتنافى مع قدرة الله واختياره في شيء. وفي اختصار يتفق الأستاذ الأمام مع الفارابي في محاولته التوفيق بين العقل والنقل، بين العلم والدين. وهذه المحاولة تدور عادة حول نقط تكاد تكون محدودة، ولعل هذا هو السبب الذي قرب المسافة في بعض المسائل بين هذين المفكرين

تتبعنا في كل ما سبق نظرية النبوة الفارابية منذ نشأتها، أعني في القرن العاشر الميلادي، إلى أن وصلنا بها إلى أوائل القرن العشرين؛ ونأمل أن نكون قد وفقنا لبيان أثرها في الشرق والغرب، في التاريخ المتوسط والحديث؛ ونعتقد أن في هذا ما يحفزنا إلى إخباء الدراسات الفلسفية الإسلامية، فقد ثبت أن هناك صلة بين أفكار اليوم والأمس، وفي أبحاث القرون الوسطى، كما لاحظ ليبنتز، درر نفيسة لا يصح إغفالها. على أن نهضتنا العقلية والفكرية لا يمكن أن تؤسس على أساس صالح إلا إن ربط فيها الحاضر بالماضي واتصلت سلسلة التفكير الإسلامي الصحيح؛ ولنا في الأستاذ الأمام والسيد جمال الدين أسوة حسنة

إبراهيم بيومي مدكور

في الأدب المقارن

النسيب في الأدبين العربي والإنجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

الجمال هو مادة الفن، والتأثر به هو وحي الأديب، والتعبير عنه هو رسالة الأدب، سيان جمال الطبيعة والجمال الإنساني؛ وأصدق مقياس لرقي الأدب وحيويته حسن تعبيره عن الفتنة بهذين الضربين من الجمال، وأدق برهان على رقي المجتمع وصحة بنيته حفول أدبه بالتعبير الصادق عن الشعور الحار بفتنة الجمال في مظهريه. والأديب الموهوب لا مندوحة له عن الإتيان بشيء جليل في بابي الوصف الطبيعي والنسيب، مهما كان حظه من سائر ضروب القول؛ فالجمال الطبيعي والجمال الإنساني هما لباب الفن وصميمه، وما عدا ذلك نوافل وفضول

والنسيب لا يزدهر إلا في مجتمع توفرت له شروط خاصة: في مجتمع على جانب من الثروة لا هو إلى الترف ولا هو إلى الفاقة، على جانب من الخلق العظيم لا هو إلى النعومة والضعف ولا هو إلى الجلافة أو التزمت، على حظ من حب المغامرة لا فانٍ في حروب متواصلة ولا خانع قابع، في منزلة من الحضارة والرقي العقلي بين الهمجية والتوحش، وبين الإغراق في التقاليد المملوءة بالنفاق: ففي المجتمع الفقير يشتغل الأفراد بكسب القوت عن الترنم بعواطف النفوس، وفي المجتمع المترف ترذل الأخلاق وتدنس العلاقات، والتزمت أو التشدد الديني يخفت صوت العواطف، وكذلك تخفته التقاليد الحمقاء الشديدة الوطأة، كما أن عصور المغامرة هي شباب الأمم التي تحس فيه بكل نوازع الشباب، من حب الجمال والشغف بالعظائم

وقد تحققت هذه الشروط إلى مدى بعيد في العربية في العصر الأموي: ففيه كانت

الأمة العربية على جانب من الثروة والرقي العقلي والسمو الخلقي وحب المغامرة: قد ورثت أخلاق البادية المتينة وصقلتها الحضارة ولم تفسدها بعد، وأصابوا من ثروة الأمم التي أدانوها، وما زالوا مجاهدين متأهبين للجلاد، فلا غرو ارتقى النسيب في هذا العصر؛ وكان قد بلغ في الجاهلية درجة عالية من الرقي، فأصاب في العصر الأموي غاية رقيه؛ وكان ذلك العصر عهده الذهبي في العربية، ففيه نبغ من شعراء النسيب جميل وكثير وقيس،

وجم غفير منهم عروة بن حزام وبن الدمينة وأبو صخر الهذلي وبن الطثرية

امتاز نسيب هذا العصر بخير ما يمتاز به النسيب: صدق شعور، وحرارة عاطفة، وجزالة نسج، وعفة مقال، وحسن بيان لمظاهر الحب وخفاياه وأحواله، وحسن وصف لجمال المحبوبة الجسمي دون إغفال لجمالها النفسي. ومن عجب أن جيلاً نبغ فيه من ذكر كان يصغي في نفس الوقت إلى الأخطل والفرزدق وجرير وهم يتشاتمون؛ ونبه شأن هؤلاء حتى كادوا أن يخملوا الأولين، مع أن جميلا وعروة وأمثالهما كانوا يترنمون بعواطف إنسانية نبيلة، والآخرين كانوا يتقاذفون بالأوضار! ومن بديع النسيب المتخلف عن هذا العصر قول قيس بن ذريح:

نهاري نهار الناس، حتى إذا دجا ... لي الليل هزتني إليك المضاجع
أفضّي نهاري بالأحاديث والمنى ... ويجمعني بالليل والهم جامع

وقول ابن الدمينة:

لك الله إني واصل ما وصلتني ... ومثن بما أوليتني ومثيب
وأحْذُ ما أعطيتِ عفواً وإنني ... لأزوَّر عما تكرهين هيوب
وإني لأستحييك حتى كأنما ... عليَّ بظهر الغيب منك رقيب

تصرم ذلك العصر تدريجياً، ودخل عصر الترف والمجون والملكية المطلقة ذات الأبهة، فلم يعد المجتمع يصلح للحب الصادق، ولا الأدب يتسع للتعبير الصادق عن الحب: فقد ضعفت الأخلاق وانتشرت المفاسد، واشتد تأثير الجواري في المجتمع. وتقلصت مكانة الحرائر وضرب عليهن حجاب الجهل. وفي ذلك الجو الخليع تفشو الغواية والشهوة، ولا يفشو الحب العذري الحار؛ فالحب الصادق لا يكون، والنسيب الرائع لا يزدهر، إلا حيث جمال وحيث عفة، كما قال العذري؛ أما حيث تقع الجارية من نفس الرجل فيشتريها بماله ويصيرها في عداد ممتلكاته، فلا يكون ذلك

وذهب عهد المغامرة والجلاد وتلاه عهد الشيخوخة والوهن وكفت الأمة العربية عن الحرب، وأقيم عليها المرتزقة من الترك والعجم، وخمدت العزائم، واستخذت النفوس تحت جبروت الملكية المطلقة وعمالها الغاشمين الذين أفقروا الأهلين بمغارمهم، فأنصرف الناس إلى طلب القوت وحرصوا على المادة؛ ولم يعد الحب إلا اسماً يذكر، وطيفاً يتوهم، وأنيناً موصولاً وعويلا، وتصابياً كتصابي الشيوخ؛ أما صدق الشعور بالحب والتقلب في أحواله وأطواره، فقد انقضى بانقضاء شباب الأمة

أما الأدب فسرعان ما داخله التكلف في ظل الملكية ذات الصلات، وتوفر الشعراء على المديح؛ وبدل أن يبتكروا جديداً انصرفوا إلى معارضة معاني الأقدمين في المدح والنسيب. ومن ثم انقسم شعراء العصر العباسي فريقين: فريقاً انغمس في تيار الشهوات وملأ شعره بوصفها، كبشار وأبى نؤاس اللذين أوغلا في الباب الذي كان فتحه ابن أبي ربيعة في العصر السابق؛ وفريقاً كان أنقى صفحة وأعف طبعاً فلم يجر إلى ذلك المدى، ولكنه لم يودع شعره وصفاً صحيحا صادقاً لعواطفه وغرامه كذلك الذي توفر عليه جميل ومعاصروه، بل اكتفى بالنسيب الاستهلالي التقليدي الذي تتكلف فيه البراعة وتتوخى المحسنات البديعية؛ ومن ثم لا نرى في أشعار البحتري والطائي والشريف ومهيار وصفاً صادقاً حاراً لغرامهم. ومن الخطأ الشديد حين الكلام على النسيب في العربية أن نخلط نسيب هذا العصر الاستهلالي التقليدي بنسيب العصر الماضي الصادق الحي.

وقد شهد النسيب في الإنجليزية عصوراً مشابهة لهذه وإن جاء ترتيبها مختلفاً: فأما العصر الذهبي للنسيب في الإنجليزية فهو العصر الاليزابيثي الذي توفرت فيه الشروط السالفة الذكر، فكان عهد شباب وطموح ومغامرة، فيه ثروة ونهضة وعقلية وخلق متين؛ ومن ثم حفل مجتمع ذلك العصر بأحاديث الحب؛ وكانت قدوة الشعب ملكته

التي كانت على جانب عظيم من الجمال والثقافة، يحيط بها طائفة من الفرسان البواسل، يتقربون إليها بتدويخ أعدائها ومد سلطانها براً وبحراً؛ ومن ثم ازدهر النسيب في أشعار شكسبير وسبنسر وبن جونسون وغيرهم

وفي العصر التالي خمد النسيب حيناً بتغلب طائفة المطهرين المتشددين الذين حولوا المملكة إلى صومعة يسودها الوقار والكآبة، وحرموا شتى المتعات والمسرات، حتى قيل إن سبب تحريمهم قتال الديكة - وكانت تلك تسلية معروفة إذ ذاك - لم يكن رغبتهم في الرفق بتلك الطيور، بل حرصهم على حرمان الناس السرور والتمتع. وقد ركد النسيب كذلك ركوداً طبيعياً لم يفرضه عليه أحد، في صدر الإسلام حين امتلأت النفوس برهبة الدين وانصرفت الهمم إلى جهاد أعدائه

وتلا عصر المطهرين في إنجلترا عصر ترف وفساد، جاء رد فعل للعصر السابق، فرانت الشهوات في المجتمع، وشاع الفجور في الأدب، كالذي كان في العصر العباسي، ثم زايلت المجتمع والأدب تلك اللوثة رويداً رويداً خلال القرن الثامن عشر. على أن النسيب لم يزدهر ثانية خلال ذلك القرن لأقفاره من روح المغامرة والطموح، وتقاعد رجاله في المدن وتزاحمهم في المنتديات التي شاعت إذ ذاك. ومن أهم ما يعاب على شعراء ذلك العصر أمثال بوب وأديسون وجونسون خلو شعرهم من آثار الفتنة بالجمال في مظهريه الطبيعي والإنساني

وإنما ازدهر النسيب وحفل الأدب بوصف فتنة الجمال بانبعاث النهضة الرومانسية، التي انصرف رجالها إلى الطبيعة والتفتوا إلى الماضي الحافل بحوادث البطولة، فكان جميع رجالها كوردزورث وكولردج وكيتس وشلي مغرمين غراماً شديداً بمحاسن الطبيعة ومفاتن الجمال الإنساني. ولكيتس في ذلك أقوال جرت مجرى الأمثال، كقوله: (الشيء الجميل هو حبور لا ينقضي) وقوله: (الجمال هو الحق والحق هو الجمال؛ هذا كل ما هنالك، وهذا كل ما يعنيك أن تعلمه)

والحق أن النسيب في الإنجليزية مقرون غالباً بالوصف الطبيعي، لشعور الأدباء البدهي بما بين الأمرين من صلة وثيقة؛ فالطبيعة غالباً هي المنظر الخلفي للصورة التي يرسمها الشاعر لموقف الحب الذي يريد رسمه، كما يتخذ المصورون مظاهر الطبيعة من بحر أو غاب أو أفق مناظر خلفية لما يصورون من وجوه أو أشخاص آدميين. والطبيعة هي التي تمد الشاعر الإنجليزي بالأوصاف والتشبيهات التي يمثل بها حبيبته وعاطفته؛ وظواهر الطبيعة هي الرسل الأمينة بينه وبين محبوبته، وهي أيضاً الوحي الذي يوحي إليه فلسفة الحب التي ينسجها لنفسه

فشلي مثلاً يقول: (النافورات تمازج النهر، والنهر يمازج المحيط، ورياح الفضاء تمازجها دائماً روح عذبة، ولا شيء في العالم يمضي وحيداً، بل كل الأشياء مطيعة لقانون إلهي يمازج أحدها الآخر، فلم يشذ كلانا؟) ومارلو يقول: تعالي سويا وكوني لي، كي نستوعب كل المتعات التي يحبونها بها التلاع والسهول والوديان والحقول والجبال الوعرة) وتنيسون يقول: (ما بالها تتباطأ في إسباغ الحب على قلبها تباطؤ الوريقة على الغصن في اكتساء

الخضرة وقد اخضر جميع الغابة؟) وولر يقول: (اذهبي أيتها الوردة الجميلة إليها، إلى تلك التي تضيع وقتها ووقتي، والتي تعلم حين أشبهك بها كم هي تبدو لي جميلة جذابة. أخبريها - تلك الصغيرة التي يأبى لها الخفر أن يطلع إنسان على مفاتنها - أنك لو نبت في القفار الموحشة لذويت دون أن يطري جمالك إنسان؛ ثم موتي أيتها الوردة كي تقرأ فيك النهاية المحتومة لكل غال عزيز، وتعلم قصر المدة التي يحظى بها كل جميل جذاب)

ولولوع أدباء الإنجليزية بالفنون الجميلة، وشمول نظريتهم إلى شتى مظاهر الجمال وأحواله ووسائل التعبير عنه، كانوا كثيراً ما يمزجون جميع ذلك في مقطوعة واحدة من شعر النسيب. فشلي يقول مثلاً: (إن رجع الألحان بعد خفوت الصوت يبقى مردداً في الأفئدة، ولنشر البنفسج بعد موته طيب في الأنوف، وأوراق الورد بعد ذبولها تنثر على فراش الحبيب، وكذلك ذكرياتك تظل بعد ذهابك ماثلة)، وكولردج في قصيدته (الحب) يصور موقفه مع حبيبته حيال تمثال فارس مدجج تستند إليه محبوبة الشاعر، ثم يمضي يقص حكاية غرام ذلك الفارس في سالف الدهر في أسلوب خيالي عذب، مازجا وصف عواطف الفارس بوصف عواطفه هو نفسه

وفي النسيب في العربية شيء من ذكر الطبيعة ولكنه ضئيل. وقد كانت الطبيعة على العموم مهضومة الجانب في الأدب العربي، كما مر ذكره في كلمة سابقة؛ ولم يخفق الأدب العربي في عصر من عصوره بمثل ذلك الحب الحار الذي خفق به للجمال الإنساني، في معالجته للوصف الطبيعي؛ إنما جرت عادة شعراء العربية على تحميل الرياح سلامهم، ودعاء الغيث إلى سقي منازل أحبابهم، ومناجاة الحمائم والتشاؤم بالغراب، وتشبيه لواعجهم بلواعج الإبل أو القطا لفقد صغارها وألافها، كما كانوا يغبطون الوحش الآمن في سربه المهنأ بألفه كما قال أبو صخر الهذلي:

لقد تركتْني أغبط الوحش أنْ أرى ... اليقين منها لا يروعهما الذعر

أما مناظر الطبيعة: أشجارها وأزهارها، والامتزاج الروحي بكل ذلك، فقليلة الأثر في الشعر العربي عامة وفي النسيب خاصة؛ فبينا نجد الشاعر الإنجليزي حين يتأنق في تصوير أقصى مناه يتصور نفسه ومحبوبته يجوسان بين الخمائل والغدران، نجد الشاعر العربي الذي تعود حياة المدينة واستمرأ معيشة الحضارة، لا يتصور اللقاء إلا في الدار،

ولا يقابل حبيبته إلا في المجالس والمحافل والمآتم والحج، كما قال أبو حية النميري:

رمَتْه أناه منَ ربيعة عامر ... نؤومُ الضحى في مأتم أي مأتم

وكما قال كثير:

ولما قضينا من منى كل حاجة ... ومسَّح بالأركان من هو ماسح

نقعنا قلوبا لأحاديث واشتقت ... بذاك نفوس منضجات قرائح

وكما قال ابن الرومي:

يا ليت شعري هل يبيت معانقي ... ويداي من دون الوشاح وشاحه؟

وقد يتفق النسيب العربي والنسيب الإنجليزي من بعض الوجوه: ففي كليهما استعار الشعراء أحياناً أسماء خيالية تكتماً وتعمية عند التحدث عن حبائبهم: ففي العربية فشت أسماء هند وليلى وسعاد مأخوذة عن العرب المتقدمين، وفي الإنجليزية استعملت أسماء جوليا وإلكترا وثيرزا منقولة عن الأدب الكلاسي؛ وفي كلا الأدبين اشتهر نفر من رجال الدين برقة النسيب والبصر بملابسات الحب: ففي الإنجليزية كتب دن وهربرت وسويفت وغيرهم قطعا من أصفى وأنقى ما كتب في النسيب، وفي العربية أثر عن عروة ابن أذينة الفقيه نسيب رائع اشهره أبياته التي مطلعها (إن التي زعمْت فؤادَك ملَّها)، وألف ابن حزم وهو فقيه من بيت فقهاء كتاب (طوق الحمامة) يفصل فيه أطوار الحب ونوازعه، ويبرهن على نظرياته بتجاريبه الخاصة وقد تناول الأدبان شتى أغراض النسيب بين فارحها وحزينها، وبين الذكريات والآمال، وبين طرب اللقاء ولوعة الفراق، وبين التوجع لغدر الحبيب ولتفجع لوفاته؛ بل تتماثل في الأدبين معان كثيرة جدا من معاني النسيب: فقول الشاعر العربي: (أسرب القطا هل من يعير جناحه؟) له نظير في مقطوعة تنيسون (إلى الخطاف)، وقول كراشو: (وجه لم يصنع من دكان غير ذلك الذي تفتحه يد الطبيعة البيضاء على مصراعيه) شبيه بقول جميل: (إذا ابتدلت لم يزرها ترك زينة)، وقول تنيسون من قصيدته (مود): (لو كنت فانياً منذ قرن لسمع قلبي خطاها على رقتها، ودق وخفق تحت قدميها، وارتد زهراً احمر قانياً) يشبه قول توبة الحميري:

ولو أن ليلى الأخيلية سلّمت ... عليَّ ودوني جندل وصفائح

لسلمتُ تسليم البشاشة أو زقا ... إليها صدى من جانب القبر صائح

واختص الأدب العربي بمواضيع احتفى بها وأدمن طرقها، وكان أكثرها وليد خصائص بيئته، وقلما التفت إليها الشاعر الإنجليزي: كالوقوف بالأطلال، ومناجاة الأطياف، ووصف نحول الجسم وذم المشيب الذي يقعد عن المتعات ويروع الغانيات، والشكوى من الواشي والرقيب والعذول؛ وهذا الأخير راجع إلى انتشار الحجاب وحظر الاختلاط بين الجنسين إلى حد بعد أو قرب في مختلف عصور العربية. وهو أمر جعل مسحة الحزن ولتفجع اظهر في النسيب العربي منها في الإنجليزي، إذ لا مانع في المجتمع الإنجليزي من الاختلاط، ولا رقيب سوى الخلق القوي؛ وكان الشريف الرضي عني هذه الحال في المجتمع الإنجليزي بقوله:

عفافيَ من دون التَّقيَّةِ زاجرُ ... وصَونكِ مِن دون الرقيب رقيب

يختلف النسيبان من هذه الوجوه، ويختلف أدباء كلا الأدبين بعض الاختلاف في النظر

إلى الجمال، لاختلاف البيئتين وأثر ذلك في تكوين الجسم: فالأديب العربي في بيئته الحارة يشبب بالعيون الدعجاء والحوراء، والشعور السوداء الاثيثة، والجفون المريضة، والجسم الممتلئ ونؤوم الضحى، على حين يهم الشاعر الإنجليزي بالشعور الشقراء يشبهها بالثلج نقاءً، ويهوى زرق العيون وينفر من الحدق النجل؛ والأديب العربي يشبب بكاعب (بنت عشر وثلاث) كما قال بشار، ولا تكون مثل هذه في الجو الإنجليزي إلا طفلة غريرة؛ والشاعر الإنجليزي آخر من يعجب بصاحبة الشاعر العربي التي يصفها بقوله:

أبتِ الروادف والثديُّ لقمصها ... مسَّ البطون وأن تمس ظهورا
وإذا الرياح مع العشيِّ تناوحت ... نبهن حاسدة وهِجنَ غيورا

يختلف النسيبان من وجه آخر أهم كثيراً: ذلك أن النسيب كسائر فنون القول في الأدب العربي التزم طريقة التعبير المباشر، يعبر الشاعر عن إحساسه الفردي تعبيراً صريحاً ثم لا شان له بسواه، كما عبر جميل عن حبه لبثينة، وتوبة عن حبه لليلى؛ أما في الإنجليزية فيقوم بجانب هذا الضرب المباشر من التعبير ضرب غير مباشر، فيه يتحدث الشاعر عن شعور سواه بالجمال، ويصف جمال غير محبوبته، ومجال ذلك الروايات التمثيلية كروايات أنطوني وكليوباترا لشكسبير، والقصص كقصص وسكس لهاردي، ففي هذه وتلك يصور الأديب عواطف غيره ومواقفهم، مازجا ذلك بلا ريب بعواطفه ومواقفه، مسبغاً على إنشائه ثوباً رائعاً من الخيال

وفي العربية شيء من القصص أولع بتأليفه بعض المتأخرين من الكتاب كابي الفرج الببغاء؛ غير أنه بدائي سطحي مشوب بلوثة الترف والشهوة. وأحسن ما في العربية من وصف للحب وأطواره هو النسيب الشعري؛ فالشعر لموسيقاه واختيار ألفاظه وأخيلته خير معبر عن الشعور الفردي المباشر؛ فالشعر في العربية دون النثر هو المستأثر بالتعبير عن الحب؛ أما في الإنجليزية فللنثر نصيب من ذلك تزايد بانتشار الرواية التمثيلية وذيوع القصة، حتى ليكاد بفضل الأخيرة يغلب الشعر على مكانته من نفوس القراء، لما يستطيعه دون الشعر من التحليل المسهب الدقيق، والحركة المستمرة، والوصف المستوعب لدخائل النفوس وأطوار الحب. مواقف الغزل، حتى ليستطيع القصصي البارع أن يبكي قراءه ويمزج نفوسهم بنفوس أشخاص قصته، ويجعلهم يتمثلونهم أحياء ويذكرونهم مدى حياتهم كأنهم أصدقاء قدماء قد فقدوهم

ومن ثم نرى أن أعلام الغرام المذكورين في الأدب العربي، والذين تتخذ أسمائهم رموزاً للحب، وتضرب أمثالاً في الهيام، هم الأشخاص الحقيقيون الذين عاشوا وسجلوا قصة غرامهم بأنفسهم في أشعارهم وحدثتنا عنهم كتب الأدب؛ كعنترة وعبلة، وجميل وبثينة، وتوبة والأخيلية، وبن زيدون وولادة، على حين نرى في الإنجليزية أن أعلام الغرام الذين تضرب بهم الأمثال ويجري ذكرهم على الألسنة هم الأشخاص الخياليون الذين اخترعتهم مخيلة الأدباء، مثل روميو وجوليت، وعطيل وديدمونة، وأوفيليا وهملت، نعرف كل أولئك وهم من ابتداع شكسبير، ولا نعرف إلا الشيء القليل الغير المستيقن عن محبوبته (الحسناء السمراء) ولم ينفرد القصصيون بذلك الابتداع وذلك التعبير المباشر عن مظاهر الحب، بل جاراهم الشعراء: فمعظم شعراء الإنجليزية الذين تناولوا الحب في شعرهم تغنوا بالجمال الإنساني على إطلاقه، ولجئوا إلى الخرافات اليونانية أو أساطير عهد الفروسية، ينتخبون منها من وقائع الغرام بين بواسل الأبطال وفاتنات ربات الحجال ما يصوغونه شعراً سلساً، يضفون عليه ثوبا رقيقاً من الخيال، ويودعونه شغفهم المطلق بالجمال غير مقصور على امرأة واحدة، ولا على الوجه الإنساني، بل شاملاً لمحاسن الطبيعة أيضاً

ولهذا الضرب من الشعر النسيبي مزايا جمة: ففيه إمتاع للخيال وإثارة للطرب، وإشباع لحب الجمال على إطلاقه؛ وهو منزه عن الغرض الشخصي وعن ريبة الشهوات تنزيهاً تاما؛ وهو يجعل من الحب والجمال والبطولة والمرأة مثلا عليا تهفو إليها النفوس، ويمنح المؤلف والقارئ معاً جواً من النقاء والسمو كثيراً ما يعوزنا في الحياة الواقعة، وفي ذلك عزاء للنفس عن نقائص الواقع المجرد وأوشاب الحياة التي قلما تتعلق بالكمال

فالأدبان العربي والإنكليزي فرسا رهان في مضمار النسيب، قد وعيا من آثاره سجلاً

حافلاً يصور فتنة النفس الإنسانية بالجمال الإنساني؛ يتمثل ذلك في العربية في بعض شعر الجاهلية، وبالأخص في شعر العصر الاموي، وبذلك النسيب الأموي يعتز الأدب العربي ويفاخر أول ما يفاخر، لصدق ما فيه من شعور يعوز شعر العصور التالية، ونبل ما فيه من غرض يباين غرض أشعار المديح والهجاء، وجزالة ماله من أسلوب يزدري أسلوب الصناعة والمحسنات التي داخلت الشعر بعده، وذلك الأدب النسيبي لم ينل حقه من التقدير والاهتمام بعد، وأولئك الشعراء الناسبون لم يتبوءوا مكانهم الجدير بهم في الأدب العربي

فخري أبو السعود

جي دي موباسان

1850 - 1893

بقلم محمد سليمان علي

حياته:

ربما ظل جي دي موباسان كاتباً خامل الذكر في القسم المدني الفرنسي طيلة حياته لولا إيحاء جوستاف فلوبير. فقد اكتشف الروائي العظيم مخايل النبوغ في الطالب الذي كانت غايته من الحياة الدنيا على حد اعترافه أن يكون (حيواناً كامل الصحة) والذي أطلق وهو في الثالثة عشرة على الدين أسم (اللاشيء الأبدي)

وكانت أمه تعتزم أن تجعل منه مؤلفاً نابهاً. وربما كان فلوبير باعث هذا الأمل، فقد كان يعرف لورا موباسان قبل زواجها من جستاف دي موباسان الفتى المتأنق الذي هجرها بعد أن جردها من كل شيء. وكان فلوبير ولورا يتراسلان بلا انقطاع، فكان يسدي النصح إليها فيما يختص بتربية ابنيها هرفيه وجي. ولقد كان لهما بمثابة الأب الناصح على نقيض أبيهما الذي كان يتجنب المسؤولية ويحب اللهو، حتى حرم بإسرافه ابنيه من فرصتهما في الحياة. ولقد كان (جي) وهو صبي (كجواد طليق في أحد الحقول)، وفي (اللبسيه امبريال نابليون) برع في الرياضة والسباحة، والنكات العملية الأنيقة؛ وفي الثالثة عشرة كان فلوبير يقرأ المحاولات الأولى في الشعر لمتبناه

وبعد أن غادر موباسان المدرسة بدأ يدرس القانون، غير أن المال أعوزه فلم يتم الدرس، واضطر أن يلجأ إلى حمى الوظيفة التي كانت غاية الوقار والأمان عند أسر الطبقة الوسطى. وكان موظفاً قديراً. وظل سنين عدة في منصب مغمور، يتناول مرتباً ضئيلاً لا يكفي رغباته المسرفة. ولكنه لم يتعجل لتعزيز وسائله بالكتابة، اللهم إلا بضع مقالات لجرائد ومجلات أدبية. فقد كانت يد حكيمة، قائدة، تسدد مستقبله الأدبي. وكان يرد على إلحاح أمه إذ تطلب منه قطعاً رائعة: (لم يحن الوقت بعد. إنني أتعلم صناعتي) وكان يكتب بعزم دون كلل، ويعرض كل سطر على فلوبير ليصححه أو يكتبه له من جديد، وما اشتكى موباسان قط ولا كد نفسه

واستمرت تلمذته ثلاث عشرة سنة تلاها عشر من الغنى والمجد. ولما تخلص من خمول الوظيفة، وأصبح سمير الأبهاء الفرنسية، تعطش للنجاح، بيد أنه على أثر سقوطه النسبي كمؤلف مسرحي اعتراه ذلك الأسى الذي ألقى ظلاً قاتماً على الجزء الأخير من حياته. (فالتكرار) وهي المسرحية التي كان بها جد فخور، لم تمثل إلا بعد إحدى عشرة سنة من وفاته

وقد انتصر الكاتب على حساب (الحيوان كامل الصحة)؛ فقد كان من مغامراته أن يلقى بنفسه في السين وهو في لباسه ليدهش مواطنيه الباريسيين المتكلفي الاحترام، وأن يصطاد في الهواء والماء، وان يلاكم ويبارز بالسيف، وأن يجوب البلاد والأمصار. إلا أن حياة الحيوان في دي موباسان لم تكن في واقع الأمر في حدود الصحة، فقد فرط في قواه الجسمانية، وعبث بالصحة التي كان يقدرها فوق كل شيء. ولقد قدر (لثور بريتاني) كما كانوا يدعونه لضخامة جسمه أن يجلس في تراخ في الأبهاء بحكم عمله؛ ومع حبه للأدب كان نظره الضعيف يعوقه عن القراءة. وفي شبابه كان في سن تؤهله للاشتراك في الحرب الفرنسية الألمانية عام 1870، ولكن نفوذ من يهمهم مستقبله الأدبي كان سبباً في تعيينه في قسم المؤونة بعيداً عن معمعة القتال. وكان كبسترندبرج يحتقر النساء، ولكنه لم يكن يستطيع العيش دونهن

وكان في أسرته جنون وراثي؛ فبعد أن أصيب أخوه في قواه العقلية ثم موته، علم موباسان أنه محكوم عليه بتلك النهاية، وكانت حالته معقدة، وأغلب الظن إنها لو

فحصت في البداية لكان في الإمكان إنقاذه. ولن يعادل ما وضع من السخريات في قصصه تلك السخرية التي إصابته في السنين القلائل الأخيرة من سني حياته، حينما انحطت قواه العقلية بسرعة. وحقاً لقد كان استمراره في الكتابة نتيجة لأرادته الحديدية وقوته الشديدة!

وفي ذات يوم وهو يغادر مكتبه التفت فابصر نفسه مازال جالساً إلى مكتبه هذا، وزادت أخيلته سوءا وأخذت أشكالاً مخيفة؛ ولم يكن هناك أمل بعد؛ غير أن الساخر الذي لم يكن يعتقد في فضيلة من الفضائل ظل يغالب الأمل، وفي الدرجات الأخيرة من مرضه كتب إلى أمه يخبرها أنه في تحسن ظاهر: فالعقل في داخليته مازال يستطيب الحياة ويقدر الشمس والسباحة والرياضة

وحاول بمعونة فرانسوا خادمه الأمين الذي ظل سنوات عدة صديقه المخلص أن يفر من النساء المعجبات به اللاتي لم يتحققن أنه هالك، ولاسيما إحداهن وهي امرأة غامضة؛ وقد حاول بعد زيارة فجائية منها أن يطلق الرصاص على نفسه، لكن فرانسوا اليقظ كان قد اتخذ الحيطة فأخرج الرصاص من الغدارة. وبعد محاولة أخرى للقضاء على حياته نقل إلى مستشفى المجانين حيث ظل في راحة لا يذكر شيئاً ولا يحس شيئاً سوى تلك التأملات المبهمة التي يراها من فقد قواه العقلية بلا أمل فنه:

لو طلع إنسان على نخبة من قصصه دون إلمام بالتواريخ والأحوال والنظريات، لاستطاع دون عناء أن يستنتج أنه كتب حين كانت مرارة الهزيمة في حرب السبعين ما زالت تلقى على فرنسا ظلاً عبوساً، وأنه كان رجلا مكنته وسائله وأخلاقه من الاختلاط بالأوساط الخاصة إلا أن النصيب الأعظم من عطفه الغريزي كان للفلاحين والفقراء، وأنه كان مشغولا بمعضلة البغاء، وأنه مع كل عظمته كفنان كان في استثماره تلك المعضلة لمؤثرات عاطفية ظاهرة يهبط أحياناً إلى درجة الإسفاف

وقصص موباسان جيدة. فالموضوع جذاب مشوق حتى ليجذب الانتباه لو حكي على مائدة الأكل، وهذه ميزة يعتد بها، فمهما كانت كلماتك متقطعة، وسردك فاتراً ضعيفاً، فلن تخفق في إثارة اهتمام سامعيك إذا قصصت عليهم القصة العارية في (بول دي سويف) أو (الميراث) أو (القلادة) فهذه القصص لها بداية ولها وسط ولها نهاية. فليست تهيم في خط متردد لا تستطيع أن تعرف أين تنقاد، ولكنها تتبع من المقدمة إلى النهاية منحنيا قويا جريئا

وربما خلت قصته من المعنى الروحي. ولم يرم موباسان إلى ذلك، فلقد كان ينظر إلى نفسه كرجل عادي. ولم يدع الفلسفة وحسنا فعل، لأنه حين يندفع في التأمل يصبح سطحياً. ولكنه مبدع في حدوده. وحقاً لقد كانت له مقدرة عجيبة في خلق أشخاص يزخرون بالحياة؛ وقد يضيق بالإيجاز، ولكنه يستطيع في صفحات قلائل أن يعرض أمامك ستة من الرجال في صورة واضحة حتى إنك لتعرف كل ما تحتاج عنهم فضلاً عن أن حدودهم ظاهرة، ومزاياهم واضحة، وأنهم يتنسمون أنفاس الحياة، وقد خلوا من التعقيد ومن التردد ومن المفاجآت ومن الغموض الذي نراه في الآدميين فصور أشخاصه بسيطة إلا أن هذه البساطة غير متعمدة، فعيناه الحادتان كانتا تريان بوضوح وإن كان على عمق غير بعيد. ولقد كانتا فرصة سعيدة أن تريا ما هو ضروري للفكرة التي يرمي إليها. فهو حقاً يضع عينه على المرمى الذي نصبه أمامه، ولكنه ما كان يستطيع أن يرى أكثر من مرمى واحد في وقت واحد. فالمنظر الواحد، والجو المفاجئ، والباعث القاهر، كانت قوام مادته. وهذا هو السبب في أنه لم ينجح في القصة الطويلة كما نجح في القصيرة. ويقول موباسان: (الفنان يحاول أن ينجح أو يخيب، والناقد لا يحق له أن يقدر النتيجة دون أن يتتبع طبيعة المجهود، وليس له الحق في أن يشغل بالمؤثرات.) ولما كان يفرق بين الخيالي والواقعي، كان يصر على أن الواقعي يجب أن يكون (أكثر كمالاً، وأشد تأثيراً، وأتم انطباقاً، مثل الحقيقة نفسها.) وهو كمن سبقه من الكتاب النابهين لم يكن خيالياً فحسب ولا واقعياً فحسب، ولكن كان الاثنين معاً؛ وكانت عبقريته في أن يرى ما في الحقيقة من ابتداع

وتمتاز كتابته أيضاً بصحة وطلاوة وبساطة من الصعب تحليلها ولكن من السهل فهمها. وليس معنى ذلك أن سهولة فهمها للأجنبي تجعلها سهلة الترجمة. فالواقع إننا نجد أن أسهل الأعمال في كل لغة أصعبها في النقل، فقراءة هوميروس أسهل من قراءة

(مآسي أثينا) إلا أنه لم ينجح في نقل هومير الشاعر الساحر إلى الآن أحد. وموباسان يعالج المحيط بنفس البساطة، فهو يضع منظره بدقة واختصار وتأثير، فإذا كان يصف طبيعة نورمانديا الفاتنة، أو أبهاء القرن الثامن عشر، فهو في الحالين سواء

وكان من أتباع المذهب الطبيعي يرمي دواماً إلى الحق، غير أن الحق الذي كان يتوصل إليه به قليل من الزيف. فلم يكن يحلل شخصياته، ولا يهتم بالأسباب الدافعة. فهم يتصرفون ولكنه لا يعرف إلى أي نهاية. وفيما يلي تعليله على حد قوله: (في رأيي أن التحليل النفسي في قصة طويلة أو قصيرة معناه هذا: أن أظهر الرجل الداخلي من حياته) حقاً هذا جميل، بل هو ما يفعله القصصيون أجمعون، ولكن الحركة لا تدل دواماً على الباعث. والنتيجة عند موباسان كانت تبسيطاً للشخصية، وهذا له أثره في القصة القصيرة، ولكنه عند إعمال الفكر يتركك غير مقتنع. وإذ ذاك تقول إن في الرجال من يفوق ذلك، هذا وقد كانت تتملكه الفكرة المنتشرة بين مواطنيه إذ ذاك، وهي أن الواجب على المرء لنفسه

أن يتصل بأي امرأة دون الأربعين تصادفه. فأشخاصه تساير رغباتها الجنسية لكي ترضي احترامها لنفسها. فهم كمن يأكل لوناً من الطعام دون إحساس بالجوع ولكن لأنه غالي الثمن

قلنا إنه كان تلميذاً وصديقاً لفلوبير. وكان التلميذ يتقبل آراء أستاذه في مواضيع عدة؛ وكان يعتقد أنه يحاكيه في مجهوداته الجبارة في الإنشاء. إلا أنه من الصعب أن يتفق ذلك وسهولة أسلوب موباسان؛ على أن الحقيقة التي لا مراء فيها هي أن الإنشاء الفني كان عند فلوبير نصباً وعناء. ولما كان موباسان قد مات في شرخ الشباب، فمن المحتمل أن ننسى أحياناً أنه لم يكن تلميذ فلوبير فحسب، إنما كان تلميذا لدوديه وزولا وأناتول فرانس أيضاً. ومن العبث القول بأن هؤلاء الكتاب الكبار كانت لهم طريقة مشتركة، سواء من الوجهة النظرية أو العملية، ولكن إذا تكلمنا على وجه العموم دون تقييد فقد نستطيع القول أنهم يمثلون الحركة المتجهة نحو الدقة والواقعية. فالتنقيب عن الكلمة الملائمة أكثر من سواها، والقول بان الفنان ينبغي أن يسدد نظره إلى الموضوع، وألا يقبل المقاييس العامة لتنظيم تقديرات الشخصية كانت ميول المدرسة والوقت. والدقة الجميلة في عمل فلوبير تدين لمبدئه وطريقته، على حين أن أدب زولا الواقعي كان في الحقيقة منتخبات من أجزاء من الطبيعة أثارت اهتمامه أكثر من سواها. وبعد، أليست ماهية الفنان وعمله مهما حاول أن يوضحه، أننا في النهاية نجده لم يصور الحقيقة وإنما غيرها؟ فإذا سما بهذا التغير نحو الجمال فقد نجح، وإذا انحط به إلى القبح فقد أخفق. وكان موباسان فناناً مجيداً لدرجة تسمو به عن الإسفاف المطلق، فأن أرخص قصصه له ميزة الابتكار، ولكنا نرى النقاد في بعض الأحيان قد بالغوا في مدحه، مع محاولته أن يكون طبيعياً نجده أحياناً يهبط إلى القيود البيانية، ويسمح أحياناً بالعواطف الزائفة

ولقد كان غالباً ما يبدأ قصصه بمقدمة يقصد بها أن يهيئ القارئ لحالة عقلية خاصة، وهي طريقة خطيرة إن لم تنجح فقد تكون مملة، وقد تحمل القارئ بعيداً عن الأثر. ولقد كان يختار أشخاصاً عاديين، ويحاول أن يظهر ما في أعمالهم العادية وحياتهم من الفواجع، وكان يختار الحادث الذي لا أهمية له ويخرج منه كل ما يستطاع من المواقف المؤثرة، وهي طريقة تساعد على خلق الانتباه للقصة. وكان يكتب ويفرط في الكتابة، وكان أيضاً يتخذ موضوعاً متشابهاً حتى (بول دي سويف) التي سببت شهرته تعطينا مقارنة سهلة

عادية بين الرحلة التي قام بها بعض المبجلين هرباً من غضب البروسيين وقد أحسوا بقرص الجوع العنيف فسرهم أن يشاركوا البغي المسكينة زادها، وبين الرحلة الأخرى بعد أن أغروها بشتى الوسائل من حيلة ورجاء على ارتكاب الخطيئة مع الضابط الألماني تلبية لطلبه، حتى إذا قبلت التضحية على مضض شديد، أبدوا لها ازدراءهم وترفعوا عن دعوتها لمشاركتهم الزاد في الطريق بعد أن نالوا الأذن باستئناف المسير ولقد وجد قادة النقاد أن قصص موباسان وإن لاءمت نبوغه لا تصلح على الرغم من مظهرها الخادع لأن تكون أنموذجاً مثالياً للغير. وقد كان مع حيوانيته وشهوته يعرف رقة الحب النقي. انظر على سبيل المثال قصته (ضوء القمر) ففيها نرى الكاهن الذي يكره النساء وهو ذاهب لكي يفاجئ ابنة أخيه وعشيقها ويجازيها شر الجزاء، يذهب إلى

ضوء القمر الشاحب، ويذهل بين الغمام والبلابل، وحين يرى الحبيبين يخطران في تلك الجنة الفيحاء، يقول في نفسه (ربما خلق الإله القادر، هذه الليالي السواحر، لكي يلقى غلالته القدسية على الحب البشري)

محمد سليمان علي

من ذكريات المجد!

وحي دار ابن لقمان

بقلم الأديب محمد فهمي

نحن الآن في 22 صفر سنة 647 هجرية، والقصر الملكي بجزيرة الروضة يموج بالأمراء والعظماء والحاشية؛ الكل يغدون ويروحون في ردهاته الفخمة في قلق شديد يكاد لا يستقر أحدهم في مكان، وصاحب الجلالة الملك الصالح نجم الدين أيوب جالس على العرش تضطرب الدماء في شرايينه؛ أعصابه ثائرة، وقلبه يخفق خفقاناً شديداً.

إنهم جميعاً ينتظرون النبأ الخطير: نبأ المعركة الدائرة رحاها حول أسوار دمياط.

دمياط الواقفة كالسد المنيع أمام الجيوش الأوربية الصليبية وهي تتدفق كالسيل وتحاصرهم بقيادة ملك فرنسا (لويس التاسع). إنها ليست حرب المسيحية والإسلام، وإن سموها كذلك، وإنما هي نضال الشرق والغرب الذي لم يخمد أواره منذ أن كان هناك شرق وغرب؛ هي الحرب بين مصر العظيمة زعيمة الشرق والإسلام، وأوربا بأجمعها؛ هي حرب بين الغرب الطامع والشرق المدافع!

نعم إن أول من دعا إليها هم رجال الكنيسة باسم الدين، ولكن الدين من دمائها براء! فلم يخضها إلا ملك طامع في توسيع ملكه، أو أمير يمني نفسه بالذهب الوفير، أو فقير يطلب المال والغنى من بلاد النفائس والكنوز. . .

وبينما القصر الملكي على تلك الحال من الاضطراب والغليان إذا بفارس قد أنهكته وعثاء السفر أشعث أغبر يلهث من الإعياء ويتصبب عرقاً يقتحم ردهات القصر وطرقاته متخذاً سمته قدماً نحو قاعة العرش. وطلب الإذن بالمثول بين يدي صاحب الجلالة. فدخل الحاجب يعلن قدوم الرسول المنتظر! انتفض الملك في مكانه وحبس أنفاسه كأنما يتهيأ للنبأ الهائل. . . دخل الفارس وألقى بالنبأ الخطير في صوت أجش. فيه شجاعة وفيه ألم. . . مولاي! سقطت دمياط بعد معركة تشيب لهولها الولدان، ودفاع يشرف شهداءنا الإبطال! سقطت دمياط!! كانت هذه العبارة خنجراً مسموماً نفذ إلى صميم قلب الملك. . .

سقطت دمياط! وفي عهدي أنا؟ أبعد أن كان جدي البطل صلاح الدين يدوخ جيوشهم في ربوع سوريا وفلسطين، ويذيقهم مرارة الهزيمة المرة بعد المرة، يجرءون اليوم على الدنو

من العرين الذي طالما رجفوا لذكره؟! هكذا ناجى الملك نفسه في حسرة ما بعدها حسرة. . . ثم أمر الجيش بالتجهز وسار على رأسه لملاقاة العدو المغير، وعسكر في مدينة المنصورة، وقد اتخذها قاعدة لحركات الجيش

ولكن قلبه كان دائماً يئن في حشرجة المذبوح من أثر الطعنة التي أصابته عند ما ألقي إليه نبا سقوط دمياط!! فما هي إلا فترة حتى اشتد عليه المرض، فحمل إلى قصره بجزيرة الروضة؛ وهناك وبين يدي المرأة التي أحبها وأخلص لها (شجرة الدر) أم ولده وولي عهده غياث الدين توران شاه فاضت روحه إلى ربها

وفي هذه اللحظة الرهيبة وقد نظرت شجرة الدر فإذا بمليك مصر وزوجها الأثير عليها مسجى على سرير الموت بين يديها، فتملكها الأسى على الفقيد العظيم، ولكنها سرعان ما أفاقت على صوت يهتف في أعماق نفسها. . . الوطن. . . الأعداء. . .!

فولي العهد كان في تلك الأثناء ببلاد الشام ولم يبلغه بعد نبأ الرزء الفادح. وها هوذا العدو قد اقتحم أبواب البلاد متجهاً نحو العاصمة. فساءلت نفسها كيف يستطيع الجيش الثبات ومقاومة العدو إذا علم بموت الملك وفقدان الرأس المدبر؟ وهل تقاوم البلاد بغير رأس؟ إن الوطن في خطر فلابد من الحكمة والتبصر. . . وهنا لمعت في خاطرها فكرة جريئة. . . لا. . . يجب ألا يعلم الجيش بموت الملك. . . ثم خرجت من الحجرة وأشاعت أن الملك مريض ويرغب ألا يدخل عليه أحد؛ وأرسلت إلى قواد الجيش وأمرائه أن الملك يأمرهم بالتأهب للقاء العدو المغير في طريقه، بينما طيرت النبأ إلى ولي العهد ببلاد الشام بالقدوم على جناح السرعة. . .

أخذت الجيوش الفرنسية تخوض في أحشاء البلاد قاصدة المنصورة، والفزع يزداد يوماً بعد يوم، والاستعداد قائم على قدم وساق؛ في هذه الساعة العصيبة حضر ولي العهد توران شاه فأطلعته شجرة الدر على كل شيء وتسلم زمام الملك. فجمع الملك الشاب كل عزمه وأصدر أوامره للقواد، وعبأ الجيوش وتأهب لليوم العظيم. . . هذا هو يوم الفصل، فإما نصر لأوربا والجيوش الصليبية يملكها مصر وبيت المقدس، بل وقلاع الشرق جميعاً ويقضي على الإسلام في دياره قضاء مبرماً، وإما نصر لمصر يرد هذه الموجة الهائلة ويحمي ذمار الوطن والدين. وكم كانت مصر كالصخرة الهائلة تتكسر عليها أمواج الحملات الصليبية

المتتابعة!ـ هاهي ذي أوربا بعظمتها وجيوشها الجرارة كاملة العدة هائلة العدد (كان جيش الصليبيين حوالي تسعين ألفاً) وعلى رأسها ملك من أعظم ملوك أوربا: لويس التاسع ملك فرنسا. . .

التحم الجيشان وبدأ الصراع الهائل: التقى صراع بين عدو مغير وبين أبطال يدفعون عن حمى الدين والوطن. وقد نفذ فيهم المليك الشاب من روح الشباب وعزيمته، فاندفعوا كالليوث يفتكون بالأعداء؛ ولما اشتد الضغط على العدو والتفت حوله ليكشف مكاناً للهرب، فما هاله إلا الماء قد حاصره من الخلف، إذ كانت الأوامر قد صدرت بفتح جسور النيل فتدفقت مياه الفيضان من وراء الأعداء كالسيول الجارفة. . نظر العدو فإذا البحر قد حصره من الخلف والجيش الباسل قد أطبق عليه يرمي عن قلوب تشتعل حمية وحماسة للوطن والدين، وينظر الملك لويس والحسرة تنهش قلبه فيرى أشلاء جيشه تتطاير تحت مطارق الأذرع الحديدية من جنود مصر. هاهم أولاء جنوده يتساقطون في الميدان حوله جماعات كالفراش. ومن طلب الفرار من شفرات السيوف ابتلعه اليم. . .

وإذا بفرقة من الجيش المنتصر تتقدم نحو الملك (لويس). . . هاهم أولاء بعض الأمراء والفرسان المحيطين به يناجزونها مناجزة اليائس المستميت مدافعين عن مليكهم. ولكن ماذا تجدي شجاعة بضعة أفراد أمام جيش كله أبطال؟! فما هي إلا جولة أو بضع جولات حتى كان الملك ومن بقي معه من الأمراء جميعاً في الأسر!! وإذا بالجيش العرمرم قد انهار كما ينهار البناء الشامخ!!. . .

انجلت المعركة عن فناء العدو وقد بلغ عدد قتلاه ثلاثين ألفاً خلاف الاسرى، وكتبت آيات النصر بمداد غزير من الدماء. هاهو ذا الملك المعظم توران شاه يعود إلى المدينة تجلله أكاليل النصر والفخار، ويسوق وراءه في السلاسل والأغلال ملك فرنسا وأمراءها. الكونت دنجواي، والكونت داراتوار، والكونت دوبواتييه!؟ والكونت دوبواتييه!؟ يا لروعة الذكرى التي يعيدها إلى الأذهان أسم هذا الكونت!! ويا لسخرية القدر الذي ساقه ليشهد بعيني رأسه كيف تثأر مصر لشهداء بواتييه (بلاط الشهداء سنة 732م) بعد خمسة قرون في معركة تكسو فرنسا عارا يطغى على بريق بواتييه ويسجل في تاريخ فرنسا بل في تاريخ أوربا كلها جبروت مصر وعظمة الشرق. . .

خيم الليل على دار ابن لقمان في مدينة المنصورة حيث أودع الملك الأسير وأمراء بلاده؛ وكان ليلاً رهيباً. وفي جوف الليل تذكر الملك الأسير بلاده وجيشه ومجده وآماله المحطمة والذل الذي يعانيه، فانحدرت الدموع غزيرة من عينيه. فخاطبه أحد أمرائه الذين يشاركونه الأمر قائلاً: (لقد نصحتك يا مولاي وقلت لك إن مصر عرين الشرق، وإن روح صلاح الدين العظيم لازالت تغذي أشبالها، فأبيت إلا محاولة ما أعجز قبلك إمبراطور ألمانيا وريكاردوس قلب الأسد)!؟ وهنا جلجل في حنايا القاعة صوت الحارس الطوشي (صبيح) الذي وكل إليه حراسة الملك الاسير، قائلاً: (نعم، صدقت أيها الأمير! أن أشبال الحمى وأبطال الوطن لتعد هذه الخاتمة لكل من رام مرام هذا الملك الأسير)

إن دار ابن لقمان لا تزال قائمة تنتظر الجيل الذي يعيد إليها حياة أبطالها. وإن من السواح الأوربيين والفرنسيين على الأخص من يقصدون هذه الدار ليشهدوا بأعينهم ويسمعوا بآذانهم عظة من أبلغ العظات ودرساً من أقسى الدروس تلقنهم إياه مصر؛ وإن الفرنسي الذي يتيه عجباً وخيلاء في رحاب دمشق وربوع ميسلون ليحنى الرأس إذلالاً أمام دار ابن لقمان. ولكن كيف يحتفظ المصريون بهذا الهيكل من هياكل المجد والفخار! إنهم ويا للعار قد أهملوه شر إهمال وتركوه نهب البلى والأقذار. وهاهي ذي

أحجاره وجدرانه تصارع البلى في أنفة وكبرياء! فأية كرامة لامة لا ترعى هياكل المجد!؟ وكأني بزوار الدار من الأوربيين يقولون في أنفسهم وقد نظروا إلى حالتها المزرية هذه: (لو كانت لنا هذه الدار لجعلناها كعبة يحج إليها الشباب والفتيان ليستمعوا أبلغ أناشيد المجد والبطولة ترددها جوانب هذه الدار، وجعلنا منها رمزاً خالداً على الدهر، نمجد في رحابه أرواح أسلافنا الأبطال وهي ترفرف محومة بين جدرانه! ولكنها ويا للأسف المرير لشعب لا يرعى مجد آبائه!!)

إيه أيتها الدار!! لقد خط المجد على جدرانك أروع آيات البطولة؛ وفي رحابك سجن ملك من أعظم ملوك أوربا حاول اقتحام الوطن بجيشه العرمرم فتلقفته سيوف الأبطال والأشبال، فإذا الجيش أشلاء تتطاير على شفرات السيوف وأسنة الرماح، وإذا بالملك العظيم. . سجين جدرانك .!!

ألا خبرينا أيتها الدار، كيف شهدت أوربا المتجبرة العاتية التي خرجت بجيوشها الجرارة لإذلال مصر؟ كيف شهدتها تذرف دموع الحسرة والتفجع، وأنات الأسى والحزن، وهي ترسف في قيود الأسر وذل الهزيمة. في شخص (لويس التاسع) ملك فرنسا .!!

ألا تكلمي أيتها الدار، فكلمة منك توقظ الأسماع وتهز القلوب. لأنك تتحدثين بلسان من قد رأى وقد سمع!!

ألا تكلمي، فكلمة منك تقشع عناكب النسيان والجهل التي خيمت على صفحات المجد والبطولة من سفر تاريخنا الحافل .!. .

أيها المصريون! ألا إن بقاء هذه الدار بحالتها الحاضرة المزرية لطعنة في صميم الكرامة المصرية والوطنية المصرية والشعور الحي لأمة تعرف مالها من كرامة ومجد وتاريخ. . .

(المنصورة)

محمد فهمي

بناء العلم

للسير جيمس جنز

ترجمة إبراهيم البرسي

إذا ما تجمع لدى الباحثين قدر مناسب من الحقائق في ناحية من نواحي العلمية، فالخطوة التالية تكون محاولة إيجاد قاعدة عامة تربط هذه الحقائق جميعها؛ وقد تتفق هذه القاعدة أولا تتفق مع الاعتبارات المقررة. ولا يكفي أن تفسر هذه القاعدة الحقائق المعروفة، بل لا بد أن تتفق مع كل ما يكشف منها؛ فهي على ذلك لا تكون إلا بمثابة افتراض؛ ويبدأ العالم بأن يقول: (إن التجارب أثبتت هذه الحقائق، وأرى أن افتراضاً معيناً يتفق معها جميعها) ثم يستمر هو وأمثاله في العمر للحصول على بيانات أدق وأوفى مرتبطة بالحقائق الأولى؛ وكثيراً ما يؤدي ذلك إلى الوصول إلى حقائق جديدة. ويمتحن الافتراض الأول بمطابقته للمعلومات الجديدة

أما إذا وجد افتراضان متناقضان، فقد يكون ممكناً أن نتبين الصحيح منهما؛ فإذا أمكننا مثلاً أن نبين أن ظاهرة (س) تحدث إذا كان الفرض الأول صحيحاً، ولا تحدث إذا كان الفرض الثاني صحيحاً، فبأجراء تجربة لمشاهدة ظاهرة (س) يثبت أحد الافتراضين هذه التجربة كغيرها: هي في الواقع توجيه سؤال للطبيعة وهو: (هل يستقيم الفرض الأول؟. .) وهي تجيب بان ترينا إما ظاهرة مناقضة للفرض أو متفقة معه. ولكنها لا تستطيع مطلقاً أن ترينا ظاهرة تثبت صحة هذا الفرض، لان ظاهرة واحدة تكفي لتهدم فرضاً معيناً بينما لا تكفي ملايين الظواهر لإثباته. ولهذا السبب لا يستطيع العالم أن يجزم بمعرفته أي شيء على وجه التأكيد؛ اللهم إلا الحقائق المباشرة للمشاهدات. وإذا تعدى هذا فلا يستطيع التقدم إلا بافتراضات متعاقبة تحظى الواحدة منها باتفاقها مع حقائق اكثر من سابقتها وتتخلى كل منها لمن تتبعها؛ وفي الواقع لن يأتي وقت لانتقال من الافتراضات إلى التأكيدات

الآن وقد ناقشنا أبسط مثل لاستفسار الطبيعة يجدر بنا أن نشير إلى بعض الصعوبات، فليس من الممكن دائماً أن تضع سؤالاً يكون جوابه (الإيجاب) أو (النفي) فقط، فكثيراً ما تنشأ مسائل أكثر صعوبة عند ما يخدع فرض وهمي من يقوم بتجربة، أو يحاول الحصول

على جواب لسؤال غير معقول؛ فإذا أمكنه بطريقة ما أن يجري تجربته فان نتيجتها تكون غير مفهومة كما كان السؤال بالنسبة للطبيعة

ولنضرب لذلك مثلاً، فنتصور عدداً من الرجال مجهزين بأدق الأجهزة، ولكن ينقصهم الإدراك العلمي، فإذا رأوا مثلا (قوس قزح) في السماء ورغبوا في معرفة بعده عنهم، وبدءوا يعتبرونه كمنظر عادي بسيط فكونوا فرقة من المساحين لتعيين بعده، فمن القياسات المأخوذة بأدق الأجهزة تظهر نتيجة واحدة لا خلاف فيها، وهي أن المسافة (ناقص 93 مليون ميل)

وظاهر أن من السخف بمكان أن تقاس مسافة بالسالب، وأسخف منه هذا التقدير الكبير لها، إذ أن القوس قد يظهر بيننا وبين جبل معين مثلا وبعده لا يداني هذه المسافة بحال. أما إذا غير وضع السؤال بان قلنا (ما المسافة التي يبعدها مصدر الضوء الذي نراه في القوس أمامنا؟) رأينا الجواب (ناقص 93 مليون ميل) محملا بالمعاني. فالعلامة السالبة تدلنا على أن مصدر الضوء لا يقع أمامنا بل خلفنا، ومن بعده نستنتج أن هذا المصدر ليس إلا الشمس بعينها

وفي الواقع أن وضع سؤال معقول أصعب كثيراً من الحصول على جواب لسؤال غير معقول، ولنضرب مثلا ينقلنا من هذا التعميم وصعوبته بالفلك والنظرية النسبية:

جمع الإغريق والمصريون عدداً كبيرا من الحقائق المتعلقة بالحركة الظاهرية للشمس والقمر والكواكب. وحوالي عام 150 من الميلاد حاول (بطليموس) عالم الإسكندرية وضع فرض يفسر هذه الحركات جميعها؛ وقد تصور الأرض مركزا لهذه المجموعة تدور الشمس والقمر والكواكب حولها، مخالفا بذلك ارسطاطاليس وأتباع فيثاغورس، فالشمس والقمر يتحرك كل منهما في دائرة، بينما الكواكب تتحرك في مسارات معقدة. ولم تكشف حقائق جديدة لاختبار هذا الفرض حتى وضع (كوبرنيكس) في سنة 1543 فرضا آخر اتضح أنه يفسر الحقائق السالفة الذكر بطريقة أبسط، فاعتبر الشمس - لا الأرض - مركزا للمجموعة الشمسية بينما الأرض والقمر والكواكب تسير في دوائر حولها، ولكن لازالت حركة الكواكب معقدة بعض الشيء بالحركة في دوائر ثانوية

وعلى ذلك ظهر افتراضان في المحيط العلمي؛ وقد حاول (كوبرنيكس) الفصل بينهما. فإذا

كان فرض (بطليموس) صحيحا فان كوكب (الزهرة) لا يرى أقل من نصف دائرة ضوئية. ومن الناحية الأخرى إذا دار هذا الكوكب حول الشمس وجب أن نرى له أوجها كأوجه القمر. وقد مكننا التلسكوب الذي استكشف في سنة 1609 من توجيه سؤالنا إلى الطبيعة لتفصل بين الفرضين. وبمجرد أن رأى (جاليلو) كوكب الزهرة يظهر على شكل قوس دقيق تأكد أن فرض بطليموس لا يستقيم

ولم يثبت هذا بالطبع فرض (كوبرنيكس) ولكن تجمعت حقائق جديدة على جانب كبير من الدقة جعلت الشك يحوم حول هذا الفرض. ونخص بالذكر من بين هذه الحقائق ما لاحظه (كبلر) من أن حركة المريخ التي درسها في شيء من التفصيل لا تتفق مع فرض (كوبرنيكس). وقد جعله هذا يعرض فرضا جديدا، وهو أن الكواكب لا تدور حول الشمس في دوائر ودوائر صغيرة حول محيطها، ولكن في إقطاع ناقصة تكون الشمس بؤرتها المشتركة وقد ظل هذا الفرض متفقاً مع كل الحقائق الفلكية لمدة طويلة

وقد حاول (نيوتن) بعد هذا بنصف قرن أن يجمع هذه الحقائق وغيرها تحت فرض أوسع، فتصور أن كل جسم في الكون يجذب غيره بقوة الجاذبية، وهذه تتغير عكسيا مع مربع المسافة بين الجسمين؛ وفرض أن الكواكب تتحرك تحت تأثير هذه القوى فقط، ثم بين أن هذا الفرض يفسر سير الكواكب في إقطاع ناقصة، وكذلك يفسر كمية كبيرة من الحقائق والظواهر منها حركة القمر حول الأرض وحركة كرة الكريكيت في قطع مكافئ عند قذفها. حتى المد والجزر فسره هذا الفرض وأخيراً وجد أنه يفسر حركة المذنبات هذه التي كانت تعتبر دلائل مخيفة ومجهولة تخشى لأنها علامة الشر أو الغضب السماوي أصبحت لا ترى إلا ككتل جامدة ترسم مسارها حول الشمس تحت تأثير نفس القوى التي تعمل في الكواكب

ثم استمرت بعد ذلك الحقائق والبيانات تترى وكلها متفقة مع نظرية نيوتن حتى

منتصف القرن التاسع عشر حيث وجد الفلكي (لفرييه) شذوذاً في حركة عطارد، فان فرض نيوتن يتطلب أن يعيد الكوكب مساره دائماً حول الشمس في نفس القطع الناقص كما تدور لعب الأطفال الآلية في نفس المسار مرات مستمرة، بينما وجد (لفرييه) أن كوكب عطارد يتحرك في قطع ناقص ولكن هذا القطع نفسه متحرك في الفراغ ويتم دورته في نحو ثلاثة ملايين من السنين، فكأنما المسار الذي تجري فيه هذه اللعبة موضوع على مائدة متحركة
تدور حول محورها ببطء بينما تجري هي بسرعة في مسارها
وبمضي الزمن عرض (أينشتين) فرضاً جديداً هو النظرية النسبية، وهذه لم تفسر الظواهر التي فسرتها نظرية الجاذبية لنيوتن فحسب، بل وضحت حركة (عطارد) توضيحاً دقيقاً وفسرت كذلك عدداً كبيراً من الحقائق العلمية الأخرى
وقد أمكن عمل تجارب ومشاهدات فاصلة بين النظريتين: النظرية الحديثة (لأنشتين) والنظرية القديمة لنيوتن، وفي كل هذه التجارب والمشاهدات قضت الطبيعة على نظرية الجاذبية وعززت النظرية النسبية؛ وقد أجريت تجارب أخرى لتفصل في النظريات السائدة في هذا العصر كالنظرية القائلة بان الضوء ينتقل كموجات في الأثير الذي يملأ كل شيء، وأن القوى الكهربائية والمغناطيسية تنتقل كضغط وشد في هذا الأثير، وفي هذه أيضاً انحازت الطبيعة للنظرة النسبية. وقد أصبحت النظرية النسبية الآن تفسر مجموعة هائلة من الظواهر الطبيعية ولم تظهر بعد حقيقة واحدة لا تتفق معها.
إن الغرض العام للعلم هو أن يسير إلى مثل هذه النظريات ويصل إليها. ولا نستطيع مطلقا أن نعتبر نظرية ما نهائية أو حقيقة مطلقة، إذ من المحتمل أن تظهر حقيقة جديدة في وقت ما ترغمنا على هذه النظرية؛ وقد يحدث ذلك للنظرية النسبية ولو أنه بعيد الاحتمال. وإذا ما حدث ذلك برغم استبعاده فان الوقت الذي أنفق في تكوينها لم يضع سدى، بل سيكون تدرجا إلى نظرية أوسع وأكمل تتفق مع عدد أكبر من الظواهر الطبيعية. من ذلك يظهر العلم للرجل العادي متغيرا دائم التغير دائراً حول نفسه مخالفا لنظرياته الأولى، ولكن العالم يراه دائم التقدم ويرقى من نظرية إلى أخرى، تحظى كل نظرية منها باتفاقها مع حقائق تزيد على التي أزاحتها، ورائده الوصول إلى هدفه الأسمى وهو النظرية التي تفسر ظواهر الطبيعة كاملة
إبراهيم البرلسي
تاريخ العرب الأدبي - 11
للأستاذ رينولد نيكلسون
ترجمة حسن محمد حبشي
الفصل الثاني
وأمضى عدي فترة من الزمن في سورية وخاصة في دمشق حيث يقال إنه نظم فيها أول قصيدة. ولما مات أبوه حينئذ هجر مقامه في الحيرة واهتم بالصيد والقنص وسائر فنون اللهو والتسلية. وكان يزور (المدائن) بين فترة وأخرى ليشرف على أعمال التحرير، وفي فترة زيارته للحيرة علق فؤاده هند ابنة النعمان التي كانت تبلغ من العمر وقتئذ إحدى عشر سنة. وإن القصة التي يرويها الأغاني لفي غاية الغرابة حتى لا يمكن التجاوز عنها؛ وتتلخص في أن هنداً كانت أجمل نساء أهلها وزمانها، خرجت في خميس الفصح تتقرب في البيعة في أيام المنذر، ودخلها عدي يتقرب، وكانت عبلة الجسم فرآها عدي وهي غافلة وتأملها ولم يقل لها جواريها ذلك، وإنما قبلن هذا من أجل أمة لهند يقال لها مارية، كانت قد أحبت عدياً فلم تدر كيف تجيء له، فلما رأت هند عدياً ينظر إليها شق عليها ذلك وسبت جواريها، ولكنها وقعت في نفس عدي، فلبث حولاً لا يخبر بذلك أحداً حتى أخبرت مارية هنداً ببيعة دومة وما فيها من الرواهب وحسن بنائها، فسالت أمها الإذن فأذنت لها، وبادرت مارية إلى عدي فأخبرته الخبر فاخذ معه جماعة من فتيان الحيرة ودخلوا البيعة، فلما رأته ماريا قالت لهند: (انظري إلى هذا الفتى فهو أحسن من كل ما ترين من السرج وغيرها) فقالت هند: (ومن هو؟) فقالت: هو عدى ابن زيد، ثم حرضتها على الاقتراب منه وسألتها أن تكلمه، ثم انصرفتا وقد تبعته هند بنفسها وانصرف بمثل حالها، ثم عرضت له في الغد فقال لها: (لا تسأليني شيئاً إلا أعطيتك إياه) فعرفته إنها تهواه وحاجتها الخلوة به على أن تحتال له

في هند وعاهدته على ذلك، وبادرت إلى النعمان فأخبرته خبرها وذكرت إنها شغفت به، وأنه إن لم يزوجها إياه افتضحت في أمره أو ماتت. فقال لها: (ويلك وكيف أبدأه بذلك؟). فقالت: (هو أرغب في ذلك من أن تبدأه)، وأتت عديا فأخبرته الخبر وقالت (أدعه فإذا أخذ الشراب منه فاخطب إليه فأنه غير رادك) قال: (أخشى أن يغضبه ذلك) قالت: (ما

قلت لك هذا حتى فرغت منه معه) فصنع عدي طعاماً، ثم أتى النعمان بعد الفصح بثلاثة أيام فلما أخذا منه الشراب خطبها إلى النعمان، فأجابه وزوجه وضمها إليه بعد ثلاثة أيام

وعند موت المنذر الرابع أيد عدي حق النعمان الذي كان من قبل تلميذه ثم غدا حماه، في عرش الحيرة، ولقد تكللت الخدعة التي مثلها في هذا الحادث بالنجاح التام، ولكنها كلفته حياته

فعزم على الأخذ بالثأر أتباع (أسود ابن المنذر) إذ فشل صاحبهم في نيل العرش، ولكن مكائدهم أثارت شكوك النعمان ضد صانع العرش له. فألقى عديا في غياهب السجن حيث ظل يرسف في القيد ردحاً طويلاً حتى قتله النعمان حينما توسط كسرى ابرويز في إطلاق سراحه

وترك عدي غلاماً يدعى زيداً أشار كسرى ابرويز بان يخلف أباه في إدارة التحرير العربي في الديوان الملكي بالمدائن، ولما تصالح مع النعمان لم ينس ثأره القديم ولكنه أخذ يتحين الفرصة ويتأهب لها؛ وكان ملوك الفرس ذوي دراية بمحاسن النساء فإذا أرادوا امرأة بعثوا من يذيع طلبتهم وما يتوفر فيها من محاسن جثمانية وخلقية، ولكنهم لم يكونوا قد فكروا حتى ذلك الحين في نساء بلاد العرب ظناً منهم بأنها خالية من أية امرأة جميلة حوت من الصفات ما طلبوه، فوجد زيد إذ ذاك الفرصة سانحة، فجاء كسرى وقال له: (رأيت أيها الملك أنككتبت في نسوة، وعند عبدك النعمان من بناته وبنات عمه وأهله كثير فأبعثني وابعث معي رجلا من حرسك يفقه العربية) فبعث معه رجلا جليداً، ثم دخلا الحيرة ثم وصف للنعمان طلبة الملك، فقال لزيد والرسول يسمع: (أما في عين السواد ما تبلغون به حاجتكم؟) فقال الرسول لزيد: (ما العين؟) قال: (البقر) ثم رجعا إلى كسرى فقال لهما: (أين الذي كنت خبرتني به؟) فقال له الرسول: (قال النعمان أما في بقر السواد ما يكفيه حتى يطلب ما عندنا؟) فعرف الغضب في وجهه، ثم بعث إليه كسرى فقيده وبعث به إلى خانقين، فلم يزل في السجن، ثم أمر بقتله فقتل ووطأته الفيلة

وإن الشواهد المنقولة إلينا لتظهر النعمان الثالث حاكما مستبداً زير نساء مولعاً بالخمر والغناء، كما كان مشجعاً لكثير من الشعراء وخاصة النابغة الذبياني الذي فر هاربا من الحيرة لفرية كاذبة. وإن هذه القصة وأخرى اتهم فيها الشاعر المنخل لتلقيان شعاعا نستطيع على هديه أن نتعرف حياة النعمان الخاصة، فلقد تزوج امرأة أبيه المتجردة أجمل نساء عصرها، وبينما كان هو يوليها كل حبه كانت هي تحب غيره. وقد اتهم فيها النابغة لنظمه قصيدة يصف فيها محاسن الملكة ويذكر فيها نواحي خاصة دقيقة، ولكن الحقيقة هي إنها كانت والمنخل اليشكري يتبادلان الحب ويجرعان كؤوس الهوى، وقد فاجأهما النعمان ذات يوم على غير ما يهوى؛ ومنذ ذلك اليوم لم يعد أحد يرى المنخل.

ومن هنا نشأ المثل القائل (حتى يعود المنخل) وبالرغم مما يقال من أن كثيراً من ملوك الحيرة كانوا مسيحيين فان الشك يحتك في الصدور عما إذا كان أحدهم - سوى النعمان الثالث - يستحق هذا اللقب؛ وكان اللخميون بعكس غالبية رعيتهم عريقين في الوثنية. أما تعاليم النعمان فقد هيأته للنصرانية، كما أن هدايته - كما تؤكد القصة - كانت على يد رائده عدي ابن زيد

يذكر النسابة المسلمون أن الغساسنة - سواء المقيمون منهم في المدينة أو من جرى العرف بتسميتهم بغساسنة الشام - من ولد عمرو ابن عامر المزيقيا الذي كان قد باع أملاكه في اليمن وهاجر على رأس جمع غفير من سكانه قبيل انفجار سد مأرب؛ ويعتبر ابنه جفنة عادة مؤسس الأسرة، أما عن تاريخهم البدائي فالثابت منه ضئيل جداً لا يبل ظمأ الباحث. ومما يذكر عنهم أنهم دفعوا الجزية للضجاعمة وهي أسرة من نسل صليح الذي كان حاكما على حدود سورية تحت رعاية الروم. وتبع ذلك صراع عنيف خرج منه الغساسنة ولواء النصر يرفرف فوق رؤسهم. ومنذ ذلك الحين نراهم

قد استقروا في هذه الأقاليم كممثلي السلطة الرومانية ذوي ألقاب رسمية كأشراف وقواد، تلك الألقاب التي أبدلوها هم والعرب الذين حولهم بكلمة (ملك) كما هي العادة الشرقية. (وأول من ملك الشام من آل جفنة الحرث ابن عمرو بن محرق، وسمي محرقا لأنه أول من حرق العرب في ديارهم ويكنى أبا شمر؛ ثم ملك بعده الحرث بن أبي شمر وهو الحرث الأعرج وأمه ماريه ذات القرطين، وكان خير ملوكهم وأيمنهم طائراً وأبعدهم مغاراً، وأشدهم مكيدة وكان قد غزا خيبر فسبى من أهلها ثم أعتقهم، وكان قد سار إليه المنذر بن ماء السماء في مائة ألف فوجه إليهم مائة رجل فيهم لبيد الشاعر وهو غلام، وأظهر أنه إنما بعث بهم لمصالحته فأحاطوا برواقه فقتلوه وقتلوا من معه في الرواق وركبوا خيلهم فنجا بعضهم وقتل بعض، وحملت الخيل الغسانيين على عسكر المنذر فهزموهم وكانت له بنت يقال لها حليمة كانت تطيب أولئك الفتيان يومئذ وتلبسهم الأكفان والدروع، وفيها جرى المثل (ما يوم حليمة بسر) (يتبع)

حسن حبشي

هكذا قال زرادشت - 9

للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

أفيحلو لكم، أيها الاخوة، أن يخنقكم ما يتبخر من أشواق هؤلاء المسوخ؟ حطموا النوافذ واقفزوا منها لتنجوا بأنفسكم

حاذروا هذه الأبخرة الخانقة وابتعدوا عن عبادة الأصنام فإنها دين الدخلاء على الحياة.

حاذروا هذه الأبخرة واعرضوا عن هذه الضحايا البشرية

لم يزل حتى الآن مجال تسعى في رحبه النفوس الكبيرة نحو الحرية في الحياة، ولم تخل الأرض من أماكن يلجا إليها المنعزل منفرداً أو مزدوجاً حيث تهب نسمات البحر الهادئة. فان الحياة الحرة لم تزل تفتح أبوابها لكبار النفوس؛ والحق أن من يملك القليل لا يناله إلا اليسير من تحكم المتسلطين. فطوبى لصغار الفقراء!

لا يظهر الإنسان الأصيل في الحياة إلا حيث تنتهي حدود الحكومات، فهنالك يتعالى نشيد الضرورة بنغماته المحررة من كل مطاوعة وتقييد

هنالك عند آخر حدود الحكومات، قفوا وتطلعوا، يا إخوتي، أفما ترون تحت قوس قزح المعبر الذي يجتازه الإنسان الكامل؟

هكذا تكلم زارا

حشرات المجتمع

سارع إلى عزلتك، يا صديقي، فقد أورثك الصداع صخب عظماء الرجال، وآلمتك وخزات صغارهم. إن جلال الصمت يسود الغاب والصخور أمامك، فعد كما كنت شبيها بالدوحة التي تحب، الدوحة الوارفة الظل المشرفة على البحر مصغية في صمتها إلى هديره

على أطراف حقول العزلة تبدأ حدود الميادين حيث يصخب كبار الممثلين ويطن الذباب المسموم. لا قيمة لخير الأشياء في العالم إن لم يكن لها من يمثلها، والشعب يدعو ممثليه رجالاً عظاماً. فالشعب يسيء فهم العظمة المبدعة، فيبتدع من نفسه المعاني التي يجمل بها ممثليه والقائمين بالأدوار الكبرى على مسرح الحياة

إن العالم يدور دورته الخفية حول موجدي السنن الجديدة. وحول لاعبي الأدوار على مسرح الحياة يدور الشعب وتدور الأمجاد، وعلى هذه الوتيرة يسير العالم

إن للاعب الأدوار ذكاءه، ولكنه لا يدرك حقيقة هذا الذكاء لانصباب عقيدته إلى كل طريقة توصله لخير النتائج والى كل أمر يدفع بالناس إلى وضع ثقتهم به

غداً سيعتنق هذا الرجل عقيدة جديدة، وبعد غد سيستبدل بها أجد منها. ففكرته تشبه الشعب تذبذباً وتوقداً وتقلباً

إن ممثل الشعب يرى بالتحطيم برهانه، وبإيقاد النار حجته، وبإراقة الدماء افضل حجة وأقوى دليل. إنه ليعتبر هباء كل حقيقة لا تسمها إلا الآذان المرهفة، فهو عبد الآلهة الصاخبة في الحياة

إن ميدان الجماهير يغص بالغوغاء المهرجين، والشعب يفاخر بعظماء رجاله فهم أسياد الساعة في نظره. ولكن الساعة تتطلب الإسراع من هؤلاء الأسياد، فلذلك يزحمونك،

ياأخي، طالبين منك إعلان رفضك أو قبولك، والويل لك إذا وقفت حائراً (بين) (نعم) وبين (لا)
وإذا كنت عاشقاً للحقيقة فلا يغرنك أصحاب العقول الرعناء المتصلبة، وما كانت الحقيقة لتستند يوماً إلى ذراع أحد هؤلاء المتصلبين
دع المشاغبين وارجع إلى مقرك، فما ميدان الجماهير إلا معترك يهدد سلامتك بين خنوع (نعم) وتمرد (لا). إن تجمع المياه في الينابيع لا يتم إلا ببطء، وقد تمر أزمان قبل أن تدرك المجاري ما استقر في أغوارها
لا تقوم عظمة إلا بعيداً عن ميدان الجماهير وبعيداً عن الأمجاد، وقد انتحى الأماكن القصية عنها من أبدعوا السنن الجديدة في كل زمان
اهرب، يا صديقي، إلى عزلتك. لقد طالت إقامتك قرب الصعاليك والأدنياء، لا تقف حيث يصيبك انتقامهم الدساس وقد اصبح كل همهم أن ينتقموا منك. لا ترفع يدك عليهم فان عددهم لا يحصى، وما قدر عليك أن تكون صياد للحشرات. انهم لصغار أدنياء ولكنهم كثرة. ولكم أسقطت قطرات المطر وطفيليات الأعشاب من صروح شامخات. ما أنت بالصخرة الصلدة، ولشد ما فعلت بك القطرات، ولسوف يتوالى ارتشاقها عليك فتصدعك
وتحطمك تحطيما
لقد أرهقتك هذه الحشرات السامة فخدشت جلدك وأسالت منه الدماء، وأنت تتحصن بكبرك لتكظم غيظك، وهي تود لو إنها تمتص كل دمك معتبرة أن من حقها أن تفعل لان دمها الضعيف يطلب دماً ليتقوى، فهي لا ترى جناحاً عليها إذ تنشب حمتها في جلدك. إن هذه الجروح الصغيرة لتذهب بالألم إلى مدى بعيد في حسك المرهف، فتتدفق صديداً يرتعيه الدود. أراك تتعالى عن أن تمد يدك لقتل هذه الحشرات الجائعة، فحاذر أن يجول سم استبدادها في دمك
إن هؤلاء المشاغبين يدورون حولك بطنين الذباب، فهم يرفعون أناشيدهم تزلفا إليك ليتحكموا في جلدك ودمك. انهم يتوسلون إليك ويداهنونك كما يداهنون الآلهة والشياطين، فيحتالون عليك بالملاطفة والثناء، وما يحتال غير الجبناء
انهم يفكرون بك كثيراً في سرهم فيلقون الشكوك عليك، وكل من يفكر الناس به كثيراً تحوم حوله الشبهات
انهم يعاقبونك على كل فضيلة فيك ولا يغتفرون لك من صميم فؤاد هم إلا ما ترتكب من أخطاء. انك لكريم وعادل، لذلك تقول في قلبك: (إن هؤلاء الناس أبرياء وقد ضاقت عليهم الحياة) ولكن نفوسهم الضيقة تقول في نجواها: (إن كل حياة عظيمة إنما هي حياة مجرمة) ويشعر هؤلاء الناس بأنك تحتقرهم عندما تشملهم بعطفك، فيبادلونك عطفك بالسيئات. انك لتصدعهم بفضيلتك الصامتة فلا يفرحون إلا عندما يتناهى تواضعك فيستحيل غروراً. إن الناس يطمحون بالطبع إلى الهاب كل عاطفة تبدو لهم، فأحذر الصعاليك لأنهم يحسون بصغارهم أمامك فيتحمسون حتى ينقلب إحساسهم كرها وانتقاماً
أفما شعرت انهم يخرسون عندما تطلع عليهم، فتبارحهم قواهم كما يبرح الدخان النار إذا همدت
اجل ياصديقي، ما انت إلا تبكيت في ضمائر أبناء جلدتك لأنهم ليسوا أهلا لك، فهم لذلك يكرهونك ويودون امتصاص دمك
إن أبناء جلدتك لن يبرحوا كالحشرات المسمومة لان العظمة فيك ستزيد أبداً في كرههم لك
إلى عزلتك، يا صديقي، إلى الأعالي حيث تهب رصينات الرياح، فانك لم تخلق لتكون صياداً للحشرات
هكذا تكلم زارا. . .
العفة
احب الغاب، فما تسهل حياة المدن علي وقد كثر فيها عبيد الشهوات الثائرات
لخير أن يقع الرجل بين براثن سفاح من أن تحدق به أشواق امرأة جامحة ملتهبة
إنك إذا ما تفرست في رجال المدن، لتشهد لك نظراتهم بأنهم لا يرون في الأرض شيئاً يفضل مضاجعة امرأة. . .

في أغوار أرواحهم ترسب الأقذار، وأشقاهم من تمرغ عقله بأقذاره
ليتك حيوان اكتملت حيوانيته على الاقل، ولكن أين منك طهارة الحيوان؟ ما أنا
بالمشير عليك بقتل حواسك؛ إن ما أوجبه إنما هو طهارة هذه الحواس
ما أنا بالمشير عليك بالعفة، لأنها إذا كانت فضيلة في البعض فإنها لتكاد تكون رذيلة
في الآخرين. ولعل هؤلاء يمسكون عن التمتع، غير أن شبقهم يتجلى في كل حركة من
حركاتهم
إن كلاب الشهوة تتبع هؤلاء الممسكين حتى إلى ذرى فضيلتهم فتنفذ إلى أعماق
تفكيرهم الصارم لتشوش عليه في سكينته؛ ولكلاب الشهوة من مرونة الزلفى ما
تتوسل به إلى نيل قطعة من الدماغ المفكر إذا منعت قطعة اللحم عنها
إنكم تحبون المآسي وكل ما يفطر القلوب، أما أنا فلا أثق بكلاب شهواتكم لأن
نظراتكم الرصينة تمتلئ شهوات عندما تقع على المتألمين؛ وقد تنكر الشبق فيكم
فدعوتموه إشفاقاً وأني لأضرب لكم مثلا على هذا: حالة العدد الوفير ممن أرادوا طرد
الشياطين فدخلوا هم في الخنازير بدلاً منها
إذا ما ثقلت العفة على أحد منكم فعليه أن يعرض عنها كيلا تنبسط أمامه سبيلاً إلى
الجحيم، جحيم أقذار النفس ونيرانها
لعلكم ترون بذاءة في كلامي، أما أنا فأرى البذاءة حيث لا ترونها انتم
ليست البذاءة في قذارة الحقيقة، بل هي في تدنيها وإسفافها، وطالب المعرفة يأنف
من الانحدار إلى مهاويها
إن من الناس من دخلت العفة قلوبهم فلانت هذه القلوب لها. أولئك هم الضاحكون
وفي ابتسامهم ما ليس في ابتسامكم من إخلاص. انهم يهزءون بالعفة ويتساءلون عما
يمكن أن تكون أفليست العفة غروراً؟ أفليست هي التي جاءت إلينا ولم نذهب نحن
إليها؟ لقد فتحنا قلبنا لها فاستقرت ضيفاً ثقيلاً فيه، فليبق هذا الضيف نازلاً فينا ما طاب
له المقيل
هكذا تكلم زارا. . .
(يتبع)
فليكس فارس
إلى شباب الوادي
للأستاذ محمود الخفيف
تنفّس صُبحكمو المنتظر ... فلله هذا الصباحُ الأغرْ
تهَلَّلَ في المهد سمحَ الجبين ... رفيف الحواشي بِهيَّ الغُرر
على جانبيه يفيضُ اليقينُ ... ويلمعُ في مُقلتيهِ الظّفرْ
وتضحك بين يديه المنى ... وتبدو البشائرُ ملَء البصر
ثقيفَ العزيمة في مهده ... يريك نبوغَ صِباهُ الصِّغر
جريء الوثوب إلى مبتغاه ... ذكي الفؤاد وثيق الحذَر
يفيضُ على الأرض من ذَوبه ... نُضارٌ يكلِّلُ هام الشجر
وتحنو عليه بناتُ الهديل ... وتنثر في المهرجان الزَّهَرْ
ويزُهي الوجودُ بهذا الوليد ... وينسى لديه وضئ البُكَرْ
ويستقبلُ الشرق من وَمضه ... معاني تبعث حُلو الذِّكَرْ
أناشيد جاشت بهن النفوس ... يقصِّرُ عنهن لحن الوتر
تُرنُّ بأيامه الحافلات ... وتومي إلى سرِّه المدَّخر
وتوحي إلى مصر من مجدها ... ومُعجز آياتها ما غبر
تدبُّ بواديه روحُ الرَّجاء ... ويُحصي القرونَ إليه النهر
وقد طال بالنيل عهد الهوان ... وبالأمس كان عزيز النفر
وما عرف النيل معنى الخلاص ... ولا لَمَحَ النصر حتى سفر
فيالك صبحاً جرى نورُه ... فبدَّد من ليلنا ما اعتكر
نرى حُمْرَةَ الورد في أفقه ... بشير السلام جلاه السَّحَرْ
وما كان يقطر إلا النجيع ... وما كان يلبس إلا العَفَرْ
تلقته مصرُ لقاء الرؤوم ... ألح عليها الضنى والسهر
وطال المخاضُ وطافت بها ... صنوف الرزايا وشتَّى الغِير

عبرنا إلى شطِّه الحالكاتِ ... وخضنا الحتوف إليه زُمرْ
دعاَ الأعْزَلُ الشيخ أشْبَالَهُ ... فضج له الغاب لما زأر
وراحت تُعربدُ ريح المنون ... وترمي صواعقها بالشرَر
تقدَّم يزجي صفوف الجهاد ... وليس من الموت فيه وَزر
عنيد الخصومة صعب الأباء ... شديد المراس جليل الخطر
على رأسه من جلال المشيب ... هدًى ومن الحق نورٌ بهر
وليس بيمناه غيرُ اليقين ... إذا غيره بالسنان افتخر
فتىَّ الفؤاد له عزمةٌ ... تذيب الحديد وتفري الصخَر
سل الموت كيف طغى موجه ... وكيف صبرنا له فانحسر
سل المجد كيف ارتخصنا النفوس ... وكيف ارتضينا ظلامَ الحُفر
وكيف انثنت دوننا الحادثاتُ ... وكيف انجلت جائحات الغمر
سل الحرب من خاضها قبلنا ... بغير القنا والظبا فأنتصر؟!
بني مصر وافاكمو يوُمكُمْ ... وثاب الزمان ولان القدر
جعلتم من الروح مهر الخلاص ... فسال بها من دِمكم وانتشر
وَما ضنَّ حُرٌّ غداة النضال ... وَلا مَنَّ يوماً بها من مَهَرْ
فلله موقفكم في الفداء ... ولله سيرتكم في السِّير!
ومصر لكم في غدٍ أمرها ... أعدوا لها من جليل الأثر
بني مصرَ لا يُكتفَي بالصباح ... فقد يعقب الصَّفْوَ فيه الكدر
هلموا فما دون رأدِ الضحى ... وما دون جذوته من وطر
هلموا إلى صهوات العلى ... فما ضلَّ ساع لها أو عثر
وكونوا لها في ظلال السلام ... كما كنتمو في غواشي الخطر
فليس السلام ركوناً وعجزاً ... وَلكنه همة تُعتصر
شبولَ الحمى لن يِذِلَّ الشبولُ ... وَلن يعرف الليث معنى الخور
زمانكمو للجريء النطاح الد ... ؤوب الجلادِ القويِّ الظفُر
لكل كميٍّ يخوض الوغى ... إذا شب جانِبُها وَاستعر
وَلن تتناعس أظفارُه ... إذا زحمته ذئاب البشر
فروضوا على البأس أخلاقكم ... ير العَصْرُ من روحكم ما استتر
وَيرهب أحلافُكُمْ وُدَّكُمْ ... ودادُ الأعزَّة لا يحتقر
ألستم طلائع هذا الوجود ... أصول الحضارة فيمن عَمَر؟
أفيضوا على مصر من روحكم ... شباباً يرد لها ما اندثر
خذوا الوحي من أمسها العبقريِّ ... وَمن يومها بالغات العبر
أشيروا إلى غدها في الكفاح ... وَغنوا بحاضرها في السَّمَرْ
شبول الحمى قد تولى الشتاء ... وَوَافى ربيع المنى وَازدهر
وَليس الربيع جمالاً فحسب ... يهز القلوب وَيَسْبي النَّظر
وَلكنه قوة لا تني ... وَبَعْثٌ تراه شتيت الصُّور
نماءٌ وَخَلْقٌ وَحُرِّيةٌ ... إلى سرها جو مصر افتقر
وَانتم لعمري رياحينُه ... وَزينته وَشذاه العَطِر
أعيذكمو أن تشينوا الربيعَ ... وَأن تذروا غرسه يهُتصر
فصونوا عن اللهو إكليلكم ... وَإلا ذوَى عِقدُه وَانتثر
غدا نبتني صرحنا عالياً ... وَنجني من الغرس أحلى الثمر
الخفيف
تأملات. . .
المصباح الناعس
للأديب احمد فتحي مرسي
خافقٌ في الظلام كالأملِ البا ... سم قد فاض في القلوب وَرَفّا
هامسٌ كالشفاه تهمسُ في رف ... قٍ بما نمَّ عن أساها وَشفّا
ناعس كالجفون أدركها الأي ... نُ فَلبَّى الكرى نداها وَخَفّا
باسمٌ كالطيوف في حُلُم الصبِّ (م) ... توالت عليه طيفاً فطيفا
راقصٌ كالظلال في نغم الروْ ... ض إذا الروضُ فاض شدواً وَعزفا

وَكأن الظلامَ جْمعٌ من الخل ... ق غفيرٌ يلوح صفًّا فصفّا
وَكأن المصباح في وقفْةِ الوا ... عظ شيخٌ ينوءُ وَهْنَا وَضعفا
أرتجَ القولُ وَالخطابُ عليه ... فبدا في الظلام يرجف رَجفا
فاغراً فاهُ، فَاتحاً شفتيه ... دون أن يَلفِظَ - العَشيَّةِ - حرْفا
نشر الليلُ بردتيه وَأرخى ... فوق هام الربى مُسوحاً وَسُجفا
وَالنجومُ الوضاءُ تخفق في الأف ... ق وَريحُ المساءِ تعصفُ عصفا
وَكأن الظلام بحر خضمٌّ ... يَفرَقُ القلب منه رُعباً وَخوْفا
وَكأن المصباحَ فيه غريقٌ ... بين لجاته يلوح وَيخفى
يغلب الموج ساعديه فينأى ... كلما قارب النجاة وَأوْفى
أيُّهذا السجينُ في ظلماتِ اللي ... ل كيف الخلاص مِنْهن كيفا؟
أنت في قبضة الظلامِ أسير ... في صِفادِ السهادِ ترسف رسفا
ساهرُ الجفن قيدتكَ يد اللي ... ل فلهفاً عليك في القيد لهفا
وَالفراش الوديع يرقصُ حولي ... ك وَيروي صداه لثماً وَرشفا
أي شيءٍ أحبُّ من رشفةِ الضو ... ءِ وَأحلى من السناءِ وَأشفى
أي شيء ارق من لمحة النو ... رِ وَأبهى من الضياء وَأصفى
. . .عَشِقَ الحرق في سناكِ قريراً ... وَتمنّى لوْ مدَّ للموت كفا
رُب نفس هفت إلى النور وَالحس ... ن وَلو كان ثَّم موتا وَحتفا
هكذا هذه الحياةُ شُعاعٌ ... في ظلام الوجود يخَطَفُ خطفا
يغِلبُ الليل وَالظلامَ فيحيا ... أو يغير الدجى عليه فيُطفْاَ
أحمد فتحي مرسي
الفنون
رمبراندت
للدكتور أحمد موسى
أراد الله أن يكون خلود الشخصية وقفاً على الغنى أو الجاه، كما شاء ولا راد لمشيئته أن يمنح الإنسان عقلاً يميز به موضع الجمال في خلقه، فيقدسه ويستلهم منه وحياً لحياته التي لا تعتبر حياة بمعناها الكامل إلا إذا رجعت في جوهرها إلى التمييز وكأن الشخصية التي نحللها اليوم من تلك الشخصيات التي لم يكن للغنى يد في تخليدها، ولا للجاه أي اثر في تكوينها، بل رجع الفضل فيها إلى الفن الذي عبر عنه رمبراندت تعبيراً استلهمه من الواقع الملموس طامحاً به إلى الكمال المنشود ولد رمبراندت فان راين في منتصف يوليو سنة 1606 بليدن لأبوين فقيرين، اشتغل الوالد طحاناً محدود الرزق؛ أما أمه فكانت الزوجة المخلصة البريئة شب الولد بسيط النشأة والمعيشة لم ير أحد على ملامحه أي اثر للنزعة الفنية، كما انه هو نفسه لم يكن يدري ماذا يكون من أمره في مستقبل الأيام والشخصية في نظر التاريخ لا يتحتم أن تكون فذة في العلم أو الأدب، ولا في السياسة أو الحرب؛ لان الحضارة في اكمل معناها تقوم على أركان لا يقل الفن فيها قيمة عن أي ركن آخر، بل إن شيلر شاعر ألمانيا الأعظم يقول: (إن الحضارة الحق يجب أن تمهد سبيل الحرية للإنسان، وأن تعينه على الوصول إليها، كما يجب أن تشغل فراغ عقله حتى يصبح بها قادراً على الشعور بوجدانه مادام انه مخلوق ذو إرادة) وهكذا كان إنتاج رمبراندت ممهداً السبيل للشعور بالحرية في تراثه المجيد، الذي إذا تأملناه شعرنا بالوجود، وانتعشت فينا الإرادة إلى العمل والانتاج، بل والى الاستمتاع إلى حد بعيد، اعني انه ترك وراءه ركناً هاماً من أركان الحضارة الإنسانية! ونبوغ التلميذ لا يتوقف دائماً على قدرة أستاذه؛ وهذا ما يلاحظ على رمبراندت؛ فعندما التحق بالعمل عند سوانبرج في ليدن سنة 1621 لم يكن معلمه هذا من الدرجة الأولى؛ ومع انه استمر يتلقى مبادئ الفن عليه ثلاث سنوات؛ فقد سافر إلى أمستردام لزيادة المعرفة؛ فتلقى الدرس على لاستمان نصف سنة عاد بعدها إلى بلدته ليدن، وبدأ حياته
العملية مستقلاً في آخر سنة 1631، اعني عندما بلغ الخامسة والعشرين؛ إلا انه ظل - ولو أن أول لوحة له مؤرخة سنة 1627 - يواصل الليل بالنهار في المران والمشاهدة، حتى إذا ما بلغ الثلاثين كان أستاذاً معترفاً به

تزوج رمبراندت في أواخر يوليو سنة 1634 من زاسكيا فان اولنبرج، فأتمت عليه نعمة الحياة؛ ولم يكن اختياره لها لمجرد الهدوء إلى جانب زوجة، بل لأنه وجد فيها خير معين؛ وكان القدر قاسياً، فلم تمض ثماني سنوات حتى فرق الموت بينهما

كانت وفاة زاسكيا فاتحة مصائب كثيرة، تراكم دينه، وساءت حاله؛ بعد أن كان من عشاق جمع الصور النادرة والتحف الثمينة، اصبح والمحكمة تحدد موعداً لبيع بيته وما فيه

وكانت هندريكا ياجرز مدبرة بيته عاشقة له معجبة به، فتقدمت بمالها الخاص وأنقذت الموقف ولم يتم البيع

أثرت هذه الصدمات تأثيراً فعالاً في اتجاه الفنان، نتبينه في لوحات كثيرة له، فنرى بعضها تشمله روح اكتئاب وحزن ظاهرين

توفي رمبراندت في اليوم الثامن من أكتوبر سنة 1669 بعد حياة مليئة بالإنتاج الفني الهائل، الذي تخلله هدوء العيش حيناً، وآلام النفس أحياناً أخرى، معتبراً في التاريخ العام وتاريخ الفن إماماً لفناني المدرسة الهولاندية إطلاقاً

وتاريخ الفن لا يعنى بإنتاج الفنان من حيث الكثرة؛ وإنما يعني أول ما يعني بقدرته على الابتكار، ولمس النواحي التي لم يسبق لغيره معالجتها، ولذا يقول كارل بوليوس فيبر بان الفنان الجدير بالتسمية هو ذلك الذي ينتج ما لا يستطيع غيره انتاجه؛ لاننا نقول أن إنتاجاً ما بعيد عن الفن إذا استطاعت الكثرة عمل نظيره

ترك رمبراندت حوالي الخمسمائة لوحة، صورها خلال ثلاثين سنة، مثلت المناظر التاريخية الدينية، والشخصية، والطبيعية بروح لا يمكن لغيره تصويرها

حفظت المتاحف والكنائس كثيراً منها، وتتباهى الممالك بكثرة ما بمتاحفها وكنائسها من عمله، وتوجد أربعون لوحة منها بمتحف بطرسبرج ومثلها بباريس وكاسل وامستردام، واثنتا عشرة ببرلين واقل من ذلك بفينا ومدريد

،هذا عدا ما هو في حيازة الأفراد؛ فلدى ملك إنجلترا ودوق وستمنستر والليدي والاس واللورد البسماير بلندن، وهافمير بنيويورك، ورودولف كان بباريس، وكارستانجن ببرلين والليدي سيكس بامستردام قطع من تصويره

أما الدارس للوحاته فنه يرى ما يفيض عليها من صدق التمثيل للحقيقة متمشياً في ذلك مع مذهب الواقع فضلا عن انه من ناحية مذهب الكمال لا يقل بحال عن كبار الفنانين، كما يلمس فيها روح القوة العنيفة المتغلغلة في إخراجها وسحر الألوان المشتملة عليها، والقدرة التي أصبحت مضرب الأمثال في تكوين الظل والنور، اللذين لا يزالان مثلاً أعلى يحتذي به إلى هذا العصر

بهذا الظل والنور ابرز رمبراندت الجمال التكويني والمجموعي إبرازاً يعتبر أدق ما أمكن الوصول إليه، مكونا طرازاً خاصاً انطبعت عليه نفسه، وعرف باسمه على مر القرون

ويعتبر إنتاج رمبراندت إجمالاً المقياس الصادق لقوة الفن الجرماني؛ إذ بشخصيته الممثلة في طرازه يتم التوازن بين عظمة الفن الروماني في كفه، والفن الجرماني في الكفة الأخرى

فسر رمبراندت الكتاب المقدس على لوحاته تفسيراً سهلاً من الناحية الوضعية، ولكنه قوي من الناحية الفنية، متخذاً مادته من الطبيعة المحيطة به، أما الأشخاص فقد كانوا من مجاوريه، حتى أشخاص أقاصيص كتاب العهد القديم كانوا من يهود هولاندا المعاصرين. ومن كل هذالا نرى فيه فناناً عبقرياً فحسب؛ بل مسجلاً ومؤرخاً صادقاً في كل ما صور، لأنه لم يعتمد الخيال كل الاعتماد، بل على الموجود الملموس

أخرج اللوحات الشخصية إخراجاً فذاً، فصور أبرز رجال عصره تصويراً دقيقاً، كما صور حوالي الأربعين لوحة لنفسه حينما كان يخلو مستلهماً بين حين وآخر؛ ولذلك ترى في هذه الأربعين لوحة صفحة كاملة لتكوينه النفسي والفني، وتطوره في تفكيره وفهمه لحقيقة الوجود

ومن أهم هذه الصور لوحته المحفوظة بمتحف برلين والمؤرخة سنة 1634، ولوحته المحفوظة بالهاي 1634 أيضاً، وبفينا سنة 1635، وباللوفر سنة 1637، وفي لندن بالناشونال جاليري سنة 1640، وبيكنجهام بالاس في لندن سنة 1642

ومن أحسن صوره لنفسه من الناحيتين الإنشائية والفنية تلك اللوحة التي مثلته جالساً على
مقعد وثير، وهي في حيازة اللورد الشستر بلندن ومؤرخة بسنة 1658، وكذلك واحدة أخرى في باريس مؤرخة بسنة 1660 وثالثة في لندن بالناشونال جاليري سنة 1664 أما آخر صورة من هذه المجموعة فهي مؤرخة بسنة 1669 أعني قبيل وفاته، وهي في حيازة السير ريلد بلندن
وصورته لنفسه لا تنم عن عظمة مصطنعة ولا تجميل مرغوب فيه، ولا تكلف لضعف في الإخراج. تراه وقد أسدل الشعر على كتفيه متفنناً بدقة وانسجام، مكوناً للوجه من حوله مكاناً ملاصقاً لسواد الشعر؛ فأبرزه خير إبراز؛ كون فيه شخصيته دون جفاف؛ فترى نظرة العينين وما ينطوي فيهما اقرب إلى الآلام منه إلى مسرة الحياة، ولكن هذا ليس غريباً على رجل كامل الحس، فنان بنفسه ولحمه ودمه، صادف آلاما مبرحة فضلا عن نظرته الخاصة إلى الحياة
وله لوحة (بمتحف درسدن) خالدة، تنبض بالحياة، تمثله وزوجته زاسكيا في مرح وسعادة، والمشاهد لها يدهش للقدرة العظيمة التي استطاع بها أن يجعلها فذة مودية للغاية التي صورها من اجلها، فجاءت ملامح وجهيهما ناطقة بالهناء والتوفيق. انظر إلى يده اليمنى رافعة كأساً امتلأت لنصفها، والى صفاء لون الخمر فيها، ثم المس جمال الإنشاء العام ولاحظ قوة الظل والنور التي جعلتها مجسمة
ولوحته لمدبرة بيته هندريكا، وهي مؤرخة سنة 1663 ومحفوظة بمتحف برلين، والمجموعة المحفوظة بقلعة وندسور ومنها لوحة لأمة، وصورة أخيه أدريان لابساً خوذة ذهبية ومؤرخة 1650، ومحفوظة بمتحف برلين، وصورة ابنه تيتوس المحفوظة بمتحف فينا، عدا الكثير لأبيه وأخته، كل هذه تكون لك ناحية جلية لقوته
أما اللوحات التي صورها للشخصيات البارزة في عصره فهي أيضاً مجموعة جديرة بالتسجيل هنا. من أهم ما فيها صورة الخطاط كوبينول مؤرخة 1631 ومحفوظة ببطرسبرج، وصورة اليزابيت باس، وصورة حرم الأدميرال سوار تنهوت في امستردام، وصورة العمدة بانكراس وحرمه مؤرخة سنة 1645 في قصر بكنجهام بلندن، وصورة الطاهية مؤرخة 1651 بمتحف ستوكهلم، وصورة جان سيكس مؤرخة 1654، ومحفوظة بسيكس جاليري في امستردام
واهم لوحاته العامة صورة الصيرفي وهي مؤرخة 1627، ترى أن ابرز ما عليها شخصية الصراف الجالس إلى منضدة، ملتفتاً إلى محدثه في شيء من التردد، واضعاً يديه عليها، قابضاً باليسرى على كيس نقوده، واليمنى في حالة استعداد لأخذ قطعة النقود من محدثه. وترى على يمينه كاتب الحسابات جالساً مصغياً، شاخصاً بعينيه إلى المتكلم، وقد امسك ريشة الكتابة بيمينه، ووضع اليسرى على الكتاب وضعاً في غاية الدقة لا يوفق إليه غير رمبراندت والوجوه خلف الصورة لا تقل روعة عما في مقدمتها، إلا أن مهارة الفنان جعلت المشاهد يدرك تماماً ابرز وضع للوحة واهم ما يقصد منها بمجرد النظر إليها، لما خيم عليها من ضالة النور المتعمدة. أما الظل والنور فهما واضحان بالنظر إلى الظل الواضح على صفحة الكتاب تحت يد الكاتب، وكذلك ظل الكتاب فوق المنضدة، فضلا عما تراه من الظل على الجانب الأيسر لوجه الصيرفي؛ على حين جعل الجانب الأيمن منيراً. وظهر الشعر المجعد ظهوراً غاية في الدقة. وتدل ملامح وجه المتكلم على الرجاء والالتماس بكل قوة.
وله لوحة اسماها (دانيا) وهي صورة لامرأة عارية بالحجم الطبيعي مؤرخة سنة 1636، محفوظة ببطرسبرج، وصورة المراكبي وامرأته وهي في حيازة ملك إنجلترا، وصورة كوينتابل في سان ريمو؛ وصورة امرأة تستحم مؤرخة سنة 1654 بلندن؛ وصورة العروس اليهودية مؤرخة سنة 1665 بامستردام؛ وكذلك صورة رجال الكنيس اليهودي في جنازة دوق دوفنشير. هذا عدا صوره لرجال ونساء عجائز تعد من آيات الفن، معظمها محفوظ بلندن وبطرسبرج وبروكسل ودرسدن
(لها بقية)
أحمد موسى
البريد الأدبي
الأدب العربي الحديث

جاء في جريدة (النوفيل ليترير) الفرنسية ما يأتي:
كثيراً ما يقال ومازال يقال: إن تلك الصلة الوثيقة التي تجمع الشرق والغرب لا يجب إنقاذها مما هي سائرة إليه فحسب، بل يجيب تمكين أواصرها، وتوثيق عراها؛ وهذا بالطبع لا يتأتى إلا تبادل الأفكار وتناقل الآراء. . . فما الذي يعرفه الغربيون عن الأدب العربي الحديث؟. وما الذي يعرفه الغربيون عن تلك النهضة الأدبية الحديثة التي يحمل لواءها شباب مصر، وتلك الباكورة الأدبية الطيبة التي تتزايد في ربوع النيل يوماً بعد يوم؟
ويسرنا أن نشكر جهود هؤلاء الكتاب الذين بذلوا ما في طاقاتهم في سبيل نشر هذه الآداب في ربوع الغرب، وفي طليعتهم الكاتب الفرنسي القدير موريك برن. . . فهو لا ينفك يعمل منذ اثني عشر عاماً على أحكام الرابطة بين الفكرين الشرقي والغربي.
ولم يقتصر على ما بذله في سبيل ذلك من الجهود التي ترمي إلى تبادل الآداب والفنون، بل نرى له اليوم جولة أخرى في ميدان الترجمة اعتزم فيها أن ينقل أفكار أعلام الأدب العربي الحديث إلى اللغة الفرنسية، وقد بدأ جولته - بالاشتراك مع الأستاذ. م. خضري - بترجمة رواية توفيق الحكيم الرائعة (شهرزاد)
وقد سئل موريك برن لماذا آثر تقديم توفيق الحكيم على غيره من كتاب العربية، فأجاب:
- إن توفيق الحكيم - دون منازع - هو اقدر كتاب العربية في التأليف القصصي (الدرامي) وهو الكاتب المسرحي الأول في مصر. ومن روائع مسرحياته رواية (أهل الكهف) التي قامت دار الأوبرا الملكية المصرية بتمثيلها في الشتاء الماضي ولا تقل (شهرزاد) عنها قوة ولا روعة
فسئل: ألا يكتب توفيق الحكيم غير المسرحيات؟ فأجاب:
- كلا. . . إن له أيضاً باعاً طويلا في غير المسرحيات. . . فهو اقدر كتاب العربية على تصوير الحياة المصرية خير تصوير. . ولست مبالغاً في ذلك؛ فعندما تقرءون روايته القادمة (عودة الروح) التي أوشكت على الفراغ من ترجمتها ستتثبتون من ذلك. وهذه القصة تصور حال أسرة مصرية ثرية تصويراً يبعث على الإعجاب في نفس القارئ؛ وسترون في شخص بطلها (محسن) الشاب المصري الذي يمتلئ حماسة ويفيض قوة وفتوة، مما يجعلني اكرر لكم أن توفيق الحكيم اقدر كاتب مفتن في تصوير الحياة المصرية اصدق تصوير
فسئل: ولكن لماذا اختار لها اسم (عودة الروح)؟ فأجاب:
- لأن القصة تصور كيف انبعثت من جوانح مصر روح جديدة جعلتها تحطم أصفادها، وتكسر أغلالها. فقصة (عودة الروح) هي قصة جهاد مصر ونضالها في سبيل استقلالها. . .
وأقول أخيراً إنه لن يمضي طويل من الزمن حتى نرى أدباء مصر الناهضة يتبوءون مكانهم اللائق من أدباء الغرب، فمن بواعث السرور أن نرى بينهم تلك النهضة الأدبية الموفقة التي تنتظم ربوع النيل

محمد عاكف بك

نعت الرسالة في عددها الأخير الشاعر الكبير محمد عاكف بك، ولما كنت من الذين عرفوا الفقيد شاعراً، واعجبوا به، وترجموا بعض آثاره إلى العربية، فأني اكتب هذه الكلمة الصغيرة للتعريف بالنواحي التي عرفتها من أدبه، تاركا للدكتور عزام صديقه ما وراء ذلك من تعمق واستقصاء
سمعت بالفقيد بعد أن اصدر ديوانه (الظلال) وقد كان يترجم لي إلى النثر العربي، كان يترجمه صديقي الأستاذ محمد محمد توفيق
وأول ما قرأت له مقدمة ديوانه الظلال، وهي قصيدة تشرف على العشرين بيتاً، عنوانها خسران، وفي نهايتها يقول:
(وذلك نظمي بالعربية)
وصدى تألميَ العميق يضيع في ... تجويف هذى القبة الزرقاءِ
وكذاك خسراني الذي أودعته ... في شعري المتأجج الوضاء
لهفي عليه يئن أنا خافتاً ... وكأنه ما خط من لأوائي!

ولست اذكر هذه القصيدة بتمامها، ولم أعثر عليها في أوراقي، ووددت ووجدتها فنشرتها
على الناس فإنها تفيض بإسلامية الرجل، وحبه للجامعة الإسلامية التي يتمناها، وفي ذلك يقول:
وغايتي ... أن يستعيد نفوذه الإسلامُ . . . . . .
والصوفية العميقة هي الطابع الذي يغلب في شعره، قرأت منها قصيدة عنوانها (الوحدة) اشتغل الآن بنقلها نظماً إلى العربية، وقد بلغ الذروة العليا في تصوير الإحساس، وقد استهلها بقوله:
من منذ آبادً وآباد وإي ... ماني لنورك ظامئ لم ينهل!
وله منها قصيدة نظمها وهو منحدر إلى الحجاز حاجاً، وأبدع فيها أيما ابداع، ولعلها خير ما قيل في هذا على الإطلاق
وفي شعره موسيقى تتملك عليك مشاعرك، وقد أعجبتني قصيدة له سمعتها بالتركية فافتتنتبها وترجمتها إلى العربية نظماً وعنوانها على قبر شهيد؛ وهاهي ذي:
خليليَّ إن الأولى يبذلو ... ن نفوسهمُ فدية للوطن
مسجّون تحت سجوف السما ... ء، يحيط بهم دمهم كالكفن
. . .ومثل أولئك عاشوا وماتوا ... وهانوا. . . وأوطانهم لم تهن
ولا يسكنون الثرى بل لهم ... غوادً برحمته رائحه
ولا يطلبون إلى عابر ... قراءة شيء سوى الفاتحه
وقد اعجب رحمه الله بالترجمة لما رآها وشكر لي الدقة التي راعيتها فيها. رحم الله الفقيد، وعوض الأدب عنه خيراً ووفق إخوانه وأصدقاءه أن يترجموا لنا عربياً حتى نستمتع بأدبه وقوته
العوضي الوكيل
وحي القلم للرافعي
أصدرت لجنة التأليف والترجمة والنشر في هذا الأسبوع الجزء الأول والثاني من كتاب (وحي القلم). والأستاذ الرافعي من أفذاذ الألسنة البيانية في الأدب العربي كله قديمه وحديثه، وقد استقام قلمه على طريقة من البيان انفرد بها فعرفت به وعرف بها. وهذا الكتاب قد اجتمعت فيه روح الرافعي الفلسفية وروحه البيانية، وتعاونا على بناء الفن العربي بناءً جديداً فيه من الروعة والمتانة والتسامي والجمال كل بديع. وكل أديب عربي يحتفل بهذا الكتاب احتفالاً خاصاً لأنه قطعة من النفس العربية المتصلة بالماضي والحاضر والمستقبل، ويهتز له لأنه تعبير فني دقيق عن المعاني الغامضة التي لبثت قروناً لا تجد من يبن عنها إبانة الرافعي
محاضرة عن حاجتنا إلى الفن
يلقي الأستاذ محمود تيمور برابطة موظفي الحكومة شارع عماد الدين رقم 187 بعمارات الخديوي حرف (أ) محاضرة عن حاجتنا إلى الفن. وذلك في يوم الخميس 21 يناير سنة 1937 في تمام الساعة السادسة مساء. وتطلب التذاكر من دار الرابطة أو من المحاضر بشارع الأمير حسين رقم 6 بالزمالك بالقاهرة
النقد
سلسلة الموسوعات العربية
معجم الأدباء
للدكتور عبد الوهاب عزام
كان للأستاذ محمود مصطفى أرباً في أن يصدني عن نقد معجم الأدباء، أو مصلحة في أن يحسب من المجادلين عن ناشري الكتاب. فهو لا يألو جهداً في أن يشغلني بمناقشة غير سديدة
نشرت (الرسالة) للأستاذ رده في سبعة مآخذ مما أخذته على المعجم في مقالي الأول، ثم طلع على الناس في جريدة المصري بمقال قال فيه:
فقد كانت المآخذ عشرة فما زال بي (يعني صاحب الرسالة) حتى نزلت له عن اثنين) فيها. فلما حاول أن انزل له عن ثالث لم اقبل فتظاهر بالرضى عن نشره، ولكنه حين خلا بنفسه حذف ذلك المأخذ، وما كنت احب أن يكون منه ذلك. والأعجب من هذا انه حين ناقشته بعد ظهور المجلة في أمر هذا الحذف كان جوابه أن الدكتور عزاما لم

(يرض عن نشره
وأنا اعرف أن الزيات نصح الأستاذ أن يحذف جداله في بعض الكلمات تنزيها له
وللرسالةعن اللغو لا إشفاقاً من حججه الدامغة. وقد أبى الأستاذ إلا أن ينشر على
الناس المآخذ الثلاثة التي نصحه الزيات بحذفها؛ وليس أدل على نصح صاحب الرسالة،
ولا ادمغ لحجة الأستاذ محمود من نشر هذه الكلمات
1 - قال الأستاذ إن مرو الشاهجان ينبغي أن تكون بكسر الهاء. وهذه حجته: (إن
التركيب إضافي في اللغة الفارسية، ومعنى مفرداته هكذا. المرو=المرج.
الشاه=الملك. جان=نفس أو روح فالمعنى على ذلك: مرج نفس الملك. والقاعدة في
اللغة الفارسية أن جميع كلماتها مهملة الإعراب ملازمة السكون إلا في موضعين:
الموصوف وأول المتضايفين فهما يكسران، وذلك يعرفه من ألم اقل إلمام بهذه اللغة،
فمن اجل ذلك كان كسر كلمة الشاه واجبا. . . ويظهر أن لهذا المآخذ شاناً خاصاً إذ
كان هجوما فانتصارا من اعزل مثلي (لم يجلس إلى معلم الفارسية إلا شهراً أو
شهرين) على عالم جليل يفوق أهل اللغة علما
بأسرارها. فهذا ما حدا بصديقه الأستاذ الزيات إلى تخطيه التقليد الواجب في مثل هذا
المقام) اهـ
وأقول إن للكتاب محنا، واشدها على أنفسهم أن يضطروا إلى الجدل في الصغائر وان
يرجعوا القهقرى إلى عهد الكتاب
إن تفسير مرو الشاهجان بما فسره الأستاذ منقول من معجم البلدان، وقد قرأته منذ
أمد بعيد وعددته من هذيان ياقوت في تفسير أسماء البلدان. كالذي يقوله عامة مصر
في تفسير الفيوم بألف يوم، والبدرشين بقول يوسف الصديق حين رأى زليخا عجوزاً:
اصبح البدر شينا الخ
والصواب: أن مرو الشاهجان تعريب مرو شاهكان، أي مرو الشاهية. وتفسير هذا لا
يفهمه من درس الفارسية شهراً أو شهرين
ولو سلمت للأستاذ هذه الخرافة ما بلغت به غايته، فمن (ألم اقل إلمام) بالفارسية
يعلم أن القاعدة التي ذكرها الأستاذ غلط. ولو انه (جلس إلى معلم الفارسية شهراً أو
شهرين) لعرف أن المضاف إذا تقدم يكسر، فإذا عكست الإضافة وتقدم المضاف إليه
لم يكسر، مثل عالمشاه وجهانشاه وخوانسلار وهلم جرا.
ومقتضى خرافة ياقوت التي تبعه فيها الأستاذ أن شاهجان معناه روح الملك فالمضاف
إليه مقدم، فيجب أن يقال: شاهجان باسكان الهاء، وهذا الضبط مروي أيضاً.
هذا جدال الأستاذ في الفارسية، فلننظر أكان أقوم رأياً فيما يرجع إلى العربية وآدابها
والإسلام وتاريخه
2 - في ص29 ج2 من المعجم: (لأن المهلبي مات بعمان) وفي الحاشية: عمان بلد
في أطراف الشام. قلت الصواب: عُمان، لأني اعرف من تاريخ المهلبي انه مات
بعُمان لا بعَمان. فانظر كيف يجادل الأستاذ. يقول: يفهم من كلامي أني لا اعرف أن
في الشام بلدا اسمه عُمان. كأن اشتغالي بأمور المسلمين والعرب التاريخية
والحاضرة، وذهابي إلى الشام ثماني مرات لم يعرفاني أن في الشام بلداً اسمه
عمان. . . الخ. والحمد لله على أن أحداً غيره لم يفهم هذا من كلامي. ثم يقول:
(فيثبت بواسع علمه أن المهلبي إنما مات بالتي على الخليج الفارسي (عُمان) ولم
يمت بالتي في الشام، فإما مجرد التخطئة في الضبط فليس فيها
إقناع مادام للبلدين وجود في العالم العربي الذي كان المهلبي يتولى الوزارة فيه) اهـ
يا أستاذ! المهلبي مات بعُمان، ولا يحتاج إدراك هذا إلى علم واسع فأقرا ترجمة
المهلبي في معجم الأدباء نفسه لتعرف أين مات الرجل. كيف وأمامنا النص القاطع
نقول أن المهلبي كان وزيراً في البلاد العربية فجائز أن يكون مات في كل بلد عربي؟
ولو لم نعرف بالنص أن الرجل مات بعُمان أو عمان لرجحنا الأولى، لأنا نعلم أن
المهلبي كان وزيراً لمعز الدولة بن بويه، وبنو بويه لم يمتد سلطانهم على عمان قط.
أرايت أيها الأستاذ أن الزيات نصحك ولم يغشك حين أشار عليك بالعدول عن الجدال
في هذا؟
3 - جاء في الكتاب: (وأنفذت لشكرستان صاحبي الخ) فقلت الصواب لشكرستان،
فوقف الأستاذ موقف الحكم يخطئ الناشر والناقد في ناحية ويصوب رأيهما في أخرى

- ولو عرف أن الشكرستان هنا اسم رجل لا مكان لأراح نفسه من هذا العناء. فليخطئ نفسه ويسترح

4 - ورد في الكتاب السري الرفاء - فقلت الصواب تشديد الفاء. فقال الأستاذ إن المؤاخذة بهذه الشدة: (شدة متناهية) وان الذنب في هذا على المطبعة - وأنا أقول لولا أن الناشرين التزموا الشكل في كل حرف لما أخذتهم بهذا، وقد شكلوا حروف الرفاء كلها فشددوا الراء وفتحوا الفاء عبثاً. فلم يكن بد من أن أظن أن تخفيف الفاء مقصود. لأن من يشكل ما لا يحتاج إلى شكل لا يترك ما يحتاج إليه إلا عمداً

5 - وجاء في الكتاب من رسالة الخوارزمي إلى البديع: (ففيهم لعمري فوق ما وصف حسن عشرة وسداد طريقة وجمال تفصيل وجملة) فقلت الصواب أن ينصب حسن وما عطف عليه على إنها تمييز - فقال الأستاذ ما قال: ورماني بأني لم أدرك ما تقضي به بدائة النحو

والأستاذ في هذا مليم ومعذور؛ مليم بما حسبني قرأت الجملة كما قرأها فلم اهتد إلى أن (فيهم) خبر مقدم و (جمال) مبتدأ مؤخر. وكان عليه أن يفرض أن لي وراء هذه البدائة النحوية نظراً دقيقاً في الجملة عدل بي عن رفع الكلمات إلى نصبها، وكان عليه إذ لم يبن له قصدي أن يستوضحني ثم يجادل. وأما انه معذور فلأني لم اكتب الجملة كلها مصححة وكان يلزمني أن أعيدها كلها على هذه الشاكلة: (فهم فوق ما وصف حسن عشرة الخ) ولكن

حرصي عل الإيجاز في نقدي كله أفاتني هذا البيان

وانظر ما الذي دعاني إلى تخطئة الجملة كما ضبطت في الكتاب: لو أني اكتفيت بقراءة الجملة وحدها أو قراءة رسالة الخوارزمي كلها لما أدركت السقم في هذه العبارة، ولكن قرأت رسالة البديع التي أجاب عنها الخوارزمي فأدركت الخطأ والصواب. وبيان هذا أن البديع كتب إلى الخوارزمي ينقم عليه سوء لقائه ويصف قومه في همذان بأوصاف هي في مضمونها حسن العشرة وسداد الطريقة الخ. وأجابه الخوارزمي معترفا بان قوم البديع أو أهل همذان فيهم هذه الأوصاف: حسن عشرة الخ فلا يمكن أن يكون معنى جملة الخوارزمي: إن قومك فيهم فوق ما وصفت: حسن عشرة الخ لان هذه الأوصاف ليست زائدة على ما وصف البديع، بل هي خلاصة وصفه، ويجب أن يكون مراد الخوارزمي أن القوم فيهم من حسن العشرة الخ فوق ما وصف البديع، وهذا لا يستقيم مع الجملة التي في الكتاب فالصواب ما رأيت. ويؤيد هذا رواية رسائل البديع المطبوعة في بيروت: فإما القوم الذين صدر عنهم سيدي فكما وصف (حسن عشرة وسداد طريق الخ

فهل يرى الأستاذ بعد هذا إنها غفلة عن بدائه النحو أو نظر دقيق وراء النحو والصرف لا يدركه إلا الموفقون لإدراك دقائق البيان؟

6 - جاء في الكتاب (وكان مفتياً في علوم شتى) قلت: الصواب متفنناً. وقال الأستاذ مفتنا. فقد وافقني على خطأ الكتاب. وأنا افرض أن مفتنا أصح من متفنن. ولكنا نبحث عن عبارة ياقوت، وهو قد استعمل (متفننا) في مواضع منها ما في ص238 ج2: وهو شاب فاضل بارع متفنن) وقد استعملها الناشرون أنفسهم فقالوا: (كان غزير الفضل متفننا في العلوم (ص107) فان ادعى إنها حيث وجدت في الكتاب محرفة عن مفتن فليؤاخذ بها الناشرين حيثما وجدها

وبعد فإني احمد للأستاذ غيرته في المجادلة عما يظنه صواباً، ولكني أود أن يتثبت ويتهم ظنه كثيراً وأن يجادل للحق لا طلباً للزلفى عند الناس. ثم أقول له خاتماً: أن أربأ بالأستاذ وبنفسي وبالقراء عن مثل ما جادل به في مرو الشاهجان، وعّمان، ولشكرستان الخ، فان عاد إلى المجادلة في أمثالها فليعذرني إذا لم يظفر مني بجواب وحسبي ما أضعت من وقتي في جداله

ثم أعود إلى المعجم، منجزاً ما وعدت به من نقد تعليق الناشرين على الجزء الثاني:

سأتجاوز عن شرح البديهيات مثل السخط: ضد الرضا. والعواقب: جمع عاقبة آخر كل شيء. وسأترك شرح الفصول فان الناشرين يقولون إنا نريد أن نوضح الواضح وان نستطرد لإفادة القارئ كما يستطرد صاحبا الكامل والأمالي ولكل وجهة

ثم أعدد المآخذ الآتية:

ص30 - قول الصابي:

قُلّدتُ ديوان الرسائل فانظروا ... أعدلت في لفظي عن التسديد
أعليّ رفع حسابَ ما أنشأته ... فأقيم فيه أدلتي وشهودي
وفي الحاشية: (في هذا البيت لبس. ولعل حساب منونة منعت من الصرف للضرورة وتكون ما نافية والمعنى حساب ما أنشأته أو أن الأصل ما أنشيه) وليس في البيت لبس ولا ضرورة. وحساب مضاف إلى ما أي حساب الذي أنشأته. والمعنى أيلزمني أن أرفع إليكم حساب منشآتي كما يرفع صاحب الخراج حسابه الخ
ص38 - الكنف: الظل. وهذا تفسير مضلل للقارئ الذي فرضنا انه في حاجة إلى إيضاح الواضح. والتجوز لا يسوغ هذا الشرح، بل الكنف الجانب والناحية الخ
ص40 - (فتبعني بعض حجابه وعدل بي إلى البيت من داره) وفي الحاشية: عدل إلى الشيء رجع. وهذا تفسير إن صح في بعض الاستعمال لا يصح لتفسير الكلمة هنا. فهي هنا بمعنى مال وحاد
ص69 - العذار الشعر المتدلي بجانب الأذن؛ وهذا غلط. فالشعر المتدلي لا يسمى عذارا، وإنما هو الشعر النابت على جانبي الوجه
ص73 - الحائن: الأحمق. والذي نعرفه أن الحائن اسم فاعل من الحين أي الهلاك
ص74 - قول الصابي في وصف البق:
أحاط بي عسكر للبق ذو لجب ... ما فيه إلا شجاع فاتك بطل
في الحاشية: اللجب الصوت والجلبة. ما عهدنا للبق لجبا، وإنما ذلك للبعوض اهـ. أقول البق هو البعوض. ولا يعرف البعوض في العراق اليوم إلا بهذا الاسم
ص89 - الشريحة كل قطعة من اللحم - والصواب القطعة المرفقة من اللحم
ص90 - الجمار الجزء الأبيض من طلع النخل - والجمار ليس من الطلع وإنما هو قلب النخلة أو شحمها كما يقول اللغويون وأسال أي عامي في مصر عن الجمار
ص107 - ذكر اسم الصابي في المتن. فأثبت الشارح في الحاشية ترجمته في خمسة اسطر. وقد مضت قبل عشر صفحات ترجمة الصابي في أربع وستين صفحة - كأن الشارح لا علم له بما مضى في الكتاب - وفي الحاشية نفسها ترجمة للصاحب بن عباد في ثمانية اسطر وستأتي ترجمته في خمس وأربعين ومائة صفحة
وفي حاشية ص161 ترجمة لبديع الزمان مختصرة من بن خلكان. وفي الصفحة نفسها تبتدئ ترجمة البديع في متن الكتاب وتستغرق إحدى وأربعين صفحة
فليت شعري لم هذا العبث؟ أما كان يمكن إحالة القارئ على التراجم المطولة في أماكنها؟
ص184 - (وإنما يشتغل بالجل من لا يعرف قيمة الخيل) وفي الحاشية الجل: السرج. وهذا غلط واضح إنما الجل ما تلبسه الدابة ليصونها من برد أو حر
ص185 - البارح الريح الحارة في الصيف تأتي من قبل اليمين، ولست ادري ما معنى اليمين هنا؟ هل المراد أن هذه الريح تدور مع الشخص كيفما دار فتأتيه عن يمينه؟ أظن في هذا لبساً بين البارح من الرياح والبارح من الحيوان
ص205 - (تكريت: بلدة مشهورة. . . ولها قلعة حصينة في طرفها الأعلى راكبة على دجلة غربيها) وهذا وصف تكريت في الزمن القديم وكان ينبغي أن توصف تكريت الحاضرة أو يقال: كانت الخ ولا يجوز أن توصف بلاد قائمة بأوصاف زالت عنها، وليس في تكريت اليوم قلعة حصينة في طرفها الأعلى
ص277 - في الكلام عن بعض الوزراء: (فكانت له أفعال منكرة منها انه استدعى العيارين وضمنهم ما يسرقونه من أموال الناس). وفي الحاشية: ضمنه الشيء كفله به والزمه إياه اهـ وهذا تفسير لا يصلح هنا. فلو أن هذا الوزير الزم العيارين ما يسرقونه ما كان هذا فعلا منكراً بل التضمين هنا معناه أن الوزير اتفق مع العيارين على أن يؤدوا ما لا معينا مقابل ما يكسبون بالسرقة. كما يؤدي العامل مالاً عن ارض أو غيرها. وهذا من الوزير إقرار للعيارين على أعمالهم. ومن اجل هذا كان عملاً منكراً.
وبعد فلست أستطيع إحصاء أغلاط الكتاب وتحريفاته. ولا تبيين مساوئ الترتيب في التراجم، والتهاون في تنسيق المتن، وحسبي أن دللت على العيب، ودعوت إلى تداركه. وقد رأيت في الأجزاء 3، 4، 5، 6 مثل ما في الأول والثاني من الأغلاط. فسأنتظر حتى تظهر الأجزاء التي طبعت بعد هذا النقد، فان ألفيتها كما أود فذلك مقصدي. وإن كانت كأخواتها أديت حقها من النقد حتى يقوم الأود. والخير أريد، وما

توفيقي إلا بالله
عبد الوهاب عزام
العالم المسرحي والسينمائي
على ستار سينما رويال
نشيد الأمل
إنتاج شركة أفلام الشرق وإخراج أحمد بدرخان
ظهرت كلمة (النهاية) على شاشة سينما رويال فكانت إيذاناً بانتهاء عرض فيلم نشيد الأمل، فضج الناس بالتصفيق وتطلعوا إلى الشرفة حيث تجلس الآنسة أم كلثوم بطلة الفلم وجعلوا يهتفون بحرارة فلقد أخذتهم بتمثيلها، وسحرتهم بصوتها العذب البارع، ولم أغادر مقعدي وجلست قليلاً في مكاني فمر بي خاطر عجيب وقلت لنفسي: (ترى هل كان يظهر الفلم على هذه الصورة وينال هذا النجاح لو لم تنشئ شركة مصر للتمثيل والسينما أستوديو مصر العظيم؟)
الحق أن هذا الفلم الهائل إذا كان يدين ببعض النجاح لمواهب بطلته، فهو يدين أولاً إلى رجل مصر العظيم طلعت حرب باشا الذي أنشأ شركة مصر للتمثيل والسينما وأقام ذلك الاستديو الكامل المعدات الذي عرض لنا الفلم بعض معداته
ولقد كان لرجل الاستديو النصيب الأكبر من إعداد الفلم حتى المدير الفني (أو المخرج كما يسمى في مصر خطأ) كان مبعوث شركة مصر إلى فرنسا لدراسة السينما، فهو معدود من رجال الأستوديو وإن كان قد بعد عنه لظروف خاصة. فلولا الأستوديو لما ظهر الفلم في هذه الصورة، ولولا طلعت حرب لما أقيم الاستديو
نجح الفلم نجاحاً كبيراً، ما في هذا شك، وهذه باكورة مباركة لشركة أفلام الشرق في أول أعماله، وجزاء طيب للجهود الجبارة التي بذلها الأساتذة عبد الله فكري أباظة ومحمد شتا وعبد الحليم محمود كما هو توفيق عظيم يستقبل به صديقنا الأستاذ احمد بدرخان أول أعماله الفنية التي نرجو لها الاتصال ودوام التوفيق
ملخص السيناريو
قبل أن أتحدث عن نواحي الفلم المتعددة أرى من الخير أن أبدأ بتلخيص القصة أو السيناريو حتى يتفهم قولي من لم يسعدهم الحظ بشهود الفلم بعد
فآمال فتاة منكودة الحظ كان من قسوة الحياة عليها أن تزوجت من رجل غوي يدعى إسماعيل كان بين عصابة تعمل لترويج المخدرات. وأهمل الزوج امرأته وابنته سلوى وتركهما يعانيان الآم الفاقة، حتى انتاب الصغيرة المسكينة المرض ولم تجد ما تقتات به. ولم يكن الزوج يكتفي بهذا بل كان ينتهز الفرص ليقتنص بعض المال مما ينال زوجه من نصيب لها في وقف
ظلت هذه الحال تلازم (آمال) وازدادت حالة الصغيرة سلوى سوءاً لولا عناية الله إذا أرسل الدكتور عاصم وهو طبيب كريم الخلق طيب القلب، فتولى معالجة ابنتها وكان يغمر الأم بحنانه وكرمه
وجاء الدكتور يوماً لزيارتها فسمعها تنشد لطفلتها نشيداً عذباً تحتال به على انامتها، فأعجب برخام صوتها. وطلبت آمال من الدكتور أن يعاونها في الحياة بان يجد لها عملاً شريفاً يساعدها على كسب قوتها كممرضة مثلاً، ولكن عاصما يشير عليها باستغلال ما وهبها الله من صوت ملائكي فتتردد أولاً ثم تقبل أخيراً. ويتعهدها الدكتور بأكبر أساتذة يلقنونها فن الموسيقى والغناء كما يمهد لها الطريق للظهور أمام الجماهير ويقوم للدعاية لها بين أصدقائه ومعارفه
وكانت الحفلة الأولى لها فنجحت نجاحاً هائلاً وحالفها الحظ، فخطت خطوات واسعة وارتقت درجات الشهرة، وصارت قبلة عشاق الموسيقى والطرب، وكان بين المرضى الذين يعالجهم الدكتور عاصم مخرج سينمائي يشكو اضطراب الأعصاب، فأخذه عاصم ليسمع (آمال) في حفلة طلبة الجامعة، فيعجب المخرج بها، ويختارها بطلة لفلم التضحية الذي يتولى إخراجه
وعاد الدهر يناوئ (آمال) فبعث لها زوجها السابق يرهقها بطلب المال، فأمرته ألا يتردد على بيتها وأن يلازم داره وهي تمر عليه لتناوله ما تجود به نفسها
وتوثقت عرى الصداقة بين عاصم وآمال، وأخيراً كتب لها يكاشفها بحبه، ويعرض عليها الزواج فتسر وتقبل، وينتظر الاثنان حتى ينتهي عملها في الفيلم ويحتفلا بالزواج.

ويحدث أن الممثل الأول في الفلم يتودد إلى آمال فتصده، ويتابعها يوماً فيراها تدخل البيت الحقير الذي يقطنه إسماعيل، فيسرع بالكتابة إلى عاصم يقول له إن آمال تخونه

وتحل الوقيعة بين الحبيبين بعد أن يتهمها بالخيانة، ولا يحتمل عاصم الصدمة فيرحل إلى أوربا، ويخرج إسماعيل لها يرهقها بطلباته، فلما رأى إنها لا تهتم له كثيرا يعمل على كيدها بانتزاع فلذة كبدها (سلوى) فيستصدر حكما شرعياً بحضانة ابنته بحجة أن أمها تحترف الغناء. وهكذا تفقد حبيبها وتنتزع طفلتها المسكينة من أحضانها

ولم ينقطع إسماعيل بعد هذا عن إرهاقها، فذهب إليها في الاستديو فأمهلته قليلاً، وأشارت إلى أحد موظفي الاستديو باستدعاء رجال الشرطة، ويعرف إسماعيل بهذا فيثور ويقرر الانتقام منها، ويستمر العمل في التقاط صور الفلم، ويكون من نصيب ممثل الدور الأول أن يطلق مسدسه على آمال، فينتهز إسماعيل الفرصة ويطلق في نفس الوقت رصاصة حقيقية من مسدسه فتسقط مضرجة بالدماء

ويصل رجال الشرطة، وتقوم معركة بينهم وبين إسماعيل تنتهي بموته كما يقع بقية زملائه المهربين في أيدي الشرطة وتسعف آمال بالعلاج، ويتولى العناية بها الدكتور محبوب صديق عاصم، فيعرف الحقيقة كلها ويكتب بها إلى عاصم

وتشفى آمال، وتحضر حفلة العرض الأول لفلم التضحية الذي ينال اكبر النجاح، ويتوافد الناس على بيتها يهتفون لها، ويجيء لتهنئتها المخرج والدكتور محبوب ومعهما الدكتور عاصم، ويلتقي الحبيبان ثانية

إن أول ما يذكر لرجال شركة أفلام الشرق انهم لم يسيروا وراء غيرهم من الشركات الأخرى فيختارون قصصاً مضطربة ضنا على المؤلف الأديب ببعض المال وإنما اختاروا قصة من تأليف شاب مثقف هو صديقنا ادمون تويما واقتبسوا منها قصة سينمائية، ولهذا فان الوقائع كانت تسير سيراً منتظماً وتتتابع تتابعاً طبيعياً من غير تعسف ولا شطط

وقد يرى القارئ أن القصة لا ترمي إلى غرض سام أو فكرة نبيلة ولكن ليس من الضروري أن يقوم الفلم على فكرة من هذا النوع؛ ولقد شاهدنا الكثير من الأفلام الأمريكية والأوربية تنال اكبر النجاح وهي لا تقوم إلا على فكرة بسيطة، أو قل إن في بعضها ما تنعدم فيه الفكرة؛ وإنما يكفي الفلم انه يصور ناحية مصرية وينقد ناحية خاصة في أخلاقنا وأحكامنا، ويسير في طريق طبيعي دون أن يشعر المشاهد أن هنالك ثغرة في الوقائع أو قطيعة في التسلسل تجعل المشاهد يصحو إلى نفسه من سحر المنظر، فيفسد خياله وينحى

باللوم على الشركة والممثلين والمدير الفني

اكتفي الآن بهذا القدر وسأتم الحديث في العدد القادم

يوسف

العدد 186 - بتاريخ: 25 - 01 - 1937

محضر جلسة

للأستاذ احمد أمين

تذاكر جماعة - من ذوي الرأي - في الأدب العربي وحاجته إلى الإصلاح، وفيما له من ثروة قديمة تحتاج إلى الإحياء، واقترحوا أن يكونوا جمعية للأخذ بناصر الأدب والنشر ذخائره؛ وكان من بينهم من ينتسب إلى الجامعة الأزهرية، ومن ينتسب إلى الجامعة المصرية، ومن ينتسب إلى المجمع اللغوي، ومن هو عضو في لجنة التأليف والترجمة والنشر، ومن يتصل بدار الكتب، وغيرهم؛ وصحت عزيمتهم على ذلك، وعهدوا إلى أحدهم بوضع مشروع قانون للجمعية يحدد غرضها، ويوضح نهجها، واختاروا يوم 15 ديسمبر سنة 1936 الساعة الخامسة بعد الظهر لقراءة المشروع.

فلما حان الموعد حضر واحد فقط، وخيل إليه انه اخطأ اليوم، أو اخطأ الساعة، أو اخطأ المكان، فأعاد قراءة الدعوة فإذا كل شيء من الزمان والمكان صحيح. وبعد ربع ساعة حضر آخر، فتبادلا العجب من عدم حضور الأعضاء في الموعد.

واخذ من تأخر يلقي محاضرة قيمة في المحافظة على الزمن، وكيف هي عند الإنجليز والفرنسيس والألمان، وما جرى له من أحداث في هذا الباب أيام كان في أوربا، وحاجة المصريين إلى معرفة قيمة الزمن؛ وقد استغرقت محاضرته القيمة ربع ساعة

كان قد حضر في أثنائه عضوان آخران فاشتركوا جميعاً في الحديث عن قيمة الوقت، وكل يروي نادرة في هذا الموضوع طريفة، وقصة ممتعة؛ وتختم النادرة أو القصة بضحكات عالية يدوي بها المكان، وتتخلل الضحكات تعليقات على ما يروى تسلسل الضحك وتتابع الفكاهة.

ولا أطيل عليك، فقد تم اجتماع اغلب الأعضاء في الساعة السادسة والنصف، وقد اعتذر بعضهم بزيارة صديق له عند خروجه، وآخر بتعطيل الترام له، وثالث بان من عادته أن ينام بعد الظهر وقد طال على غير عادته، ورابع بأنه نسي الموعد لولا إنه لقي فلاناً مصادفة فذكره به.

اخذوا يتناقشون في هل يختارون رئيساً للجلسة حتى يتم القانون؟ انحاز إلى هذا الرأي فريق، لأنه لا بد لكل جلسة من رئيس يدير المناقشة ويأخذ الأصوات؛ وعارض فريق بحجة أننا نريد أن نكون ديمقراطيين لا رئيس ولا مرءوس، وانه حتى بعد إن يتم القانون

لا حاجة لنا إلى رئيس، فكلنا سواسية في الرأي، ويكفي أن يكون للجلسة (ناموس) يدون الآراء ويأخذ الأصوات.

ولا أطيل عليك أيضاً فقد وافت الساعة السابعة والجدل على اشده في هذا الموضوع الخطير، وعند تمام الساعة السابعة والنصف انتصر الفريق الأول فكان لا بد من رئيس.

ولكن عرضت مشكلة أخرى اخطر من الأولى: هل يختار الرئيس بالسن أو بالاقتراع السري؟ قال قوم بهذا، وقال قوم بذاك، وكاد يحتدم الجدل على نمط المسألة الأولى لولا إن أحد الحاضرين قال: اختار فلاناً ليدير هذه الجلسة، فخجل الآخرون إن يطعنوا في هذا الاختيار، فسكتوا وكفى الله المؤمنين القتال.

وطلب من المقرر أن يقرأ المادة الأولى فقرأها، ونصها: (أنشئت بمدينة القاهرة جمعية تسمى جمعية إحياء الأدب العربي)

- أ -: هل يقال: (أنشئت) أو (تنشأ)؟ أظن إن الأصح إن يقال: (تنشأ)، لان الجمعية لم تتكون بعد، فكيف يعبر بالماضي فيقال أنشئت؟

- ب: هذا رأي في محله، لان إنشاء الجمعية مستقبل، والذي وضع للدلالة على المستقبل هو الفعل المضارع والأمر لا الفعل الماضي. فإذا قلنا أنشئت دل على أنها تكونت في الزمن الماضي، وليس ذلك بصحيح.

- جـ: الفرض في القانون إن يوضع في شكل يدل على إن الجمعية أقرته، فواضع القانون فرض إن الجمعية اجتمعت وأقرت القانون وألبسته ثوبه النهائي، ولذلك يوضع في صيغة الماضي.

- د: وأمثال ذلك كثيرة، فكاتب العقود يقول: (في تاريخه أدناه قد باع فلان لفلان كذا) ثم يمضي البائع والمشتري العقد؛ وقبل الإمضاء كان البيع مستقبلاً، ومع ذلك عبر عنه بالماضي.

- هـ: ومع هذا فلم تذهبون بعيداً؟ والماضي يستعمل في المستقبل كما قال تعإلى: (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) فأمر الله هو يوم القيامة وهو لم يأت بعد، وإنما عبر عنه بالماضي للإيذان بأنه أمر محقق، أو للتنبيه على قرب مجيئه، فهنا كذلك، لما كان تكوين الجمعية محققاً إن شاء الله أو قريب الوقوع يعبر عنه بالماضي على سبيل المجاز.

- و: الأمر ابسط من هذا كله، فإذا قلنا (أنشئت) أو (تنشأ) لا يترتب على ذلك ضرر، وهو لا يقدم الجمعية ولا يؤخرها؛ إنما ينهض بالجمعية عملها في تحقيق غرضها، فإذا حققته لا يضرها أنشئت أو تنشأ، وإذا لم تحققه لا ينفعها أنشئت أو تنشأ.

- أ (محتداً): ولكننا نجتمع لإحياء الأدب العربي فاقل ما يجب علينا أن تكون عبارتنا صحيحة لفظاً ومعنى، نحواً وبلاغة، وإلا أعطينا مثلاً سيئاً لإحياء الأدب العربي.

- الرئيس: أظن أن الأمر وضح؛ فلنأخذ الآراء على (أنشئت) أو (تنشأ).

- ز: لكن بقيت مسألة: أليست (تكونت) خيراً من (أنشئت) لان الإنشاء في اللغة هو الخلق، والخلق يكون من العدم، وليست أفراد الجمعية معدومين حتى يقال فيها أنشئت؛ إنما هي موجودة مفرقة، فهي تتجمع وتتكون لا تنشأ.

- أ: ومن قال إن التكوين لا يكون من العدم؟ ففي كتب المتكلمين (إن التكوين إخراج

المعدوم من العدم إلى الوجود) وفي التوراة سفر اسمه سفر التكوين وفيه حكاية خلق العالم، والعالم قد خلقه الله من العدم.
(أراد (ز) أن يرد عليه فقاطعه الرئيس واخذ منه الكلمة)
- الرئيس: (في شيء من الضجر): أرى أن نكتفي بهذه المناقشة في هذا الموضوع ونأخذ الأصوات على ما يأتي: هل نقول أنشئت أو تنشأ، أو تكونت أو تتكون؟
- أ: لا، بل نأخذ الرأي - أولاً - على أن تصاغ الكلمة من مادة الإنشاء أو من مادة التكوين، وبعد ذلك نأخذ الرأي هل نعبر بالماضي أو المضارع.
- الرئيس: وهو كذلك.
(آخذت الآراء - أولاً - فكانت الأغلبية في جانب مادة الإنشاء؛ ثم أخذت - ثانياً - فخرجت الأغلبية في جانب أنشئت.
- الرئيس: إذن ننتقل إلى المادة الثانية.
- أ: التعبير (بإحياء الأدب العربي)، فان هذا التعبير لا اقبله، واحتج عليه بكل قوتي؛ فانه يدل على أن الأدب العربي ميت ونحن نريد إحياءه، فهل كان الأدب العربي ميتاً؟ انه حي، وكان حياً في العصور الماضية وسوف يبقى حياً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وكيف نقول إن الأدب العربي قد مات وعلى رأسه القرآن الكريم وقد قال الله تعالى فيه:
(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون). إن الأدب العربي حي، وكل ما نريد أن تعمله الجمعية أو تنظمه أو تنشر كتبه القديمة. فأما لفظ الإحياء فلا؛ وأنا أنذركم أنكم إذا أصررتم على لفظ الإحياء انسحبت من الجمعية.
هنا ساد المجلس صمت رهيب.
- جـ تشجع وقال: في الواقع إن المسألة لا تحتاج إلى كل هذا، فلفظ الإحياء لا يدل على سبق الموت؛ ألا ترى يا أستاذ.
- أ: إن الغزالي سمى كتابه الكبير (إحياء علوم الدين) فهل كانت علوم الدين قبله ميتة؟ كلا إنما أصابها نوع من الركود والجمود، فأراد الغزالي أن يزيل عنها ركودها وجمودها، وان يعرضها عرضاً جديداً يتفق وذوق عصره؛ ولم يقل أحد إن الغزالي صبأ أو كفر أو تزندق بتسمية كتابه هذا الاسم. وموقفنا الآن من الأدب العربي هو موقف الغزالي من علوم الدين؛ نريد إن ننهض الأدب ونعرضه في شكل حديث يتفق وأذواق الناس في هذا العصر.
- د: وأيضاً فان الإحياء ترجمة لكلمة (رينسنس) وقد استعملها الفرنج للدلالة على حركة النهضة العقلية في أوربا وبعث المدنية من رقدتها، والمعنى الحرفي لهذه الكلمة: (الولادة من جديد) فاختار الكتاب المحدثون كلمة الإحياء للدلالة على ذلك.
- الرئيس: نأخذ الأصوات على بقاء كلمة (إحياء الأدب العربي) أو تغييرها.
- أ، هـ، ي (في نفس واحد): لا! المناقشة لم تستوف بعد.
- الرئيس: الساعة الآن التاسعة فلنؤجل المناقشة إلى الجلسة المقبلة.
- الجميع: موافقون.
قال صاحبي: ومتى تنتهي قراءة القانون:
قلت: في المشمش. .!

أحمد أمين

في النسيان

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

أعوذ بالله من قولة (أنا)؛ ولكني مصاب بنفسي وهذا عذري، وشر ما أصبت به منها النسيان؛ وحسبك به بلاء عظيماً. وقد صرت بفضله - أو من جرائه - امرأ له الساعة التي هو فيها، فأعفيت من الهموم كما أعفيت من اللذاذات أو المسرات ومن ذكرياتها الحلوة. ولا آسف على ذلك فقد تكافأ الربح والخسارة. ولو أراحني الناس كما أراحتني نفسي لتمت لي السعادة في هذه الدنيا الدنية. ويبلغ من نسياني إني أكون ذاهباً إلى فراشي في الليل فأراني اقف أمام السرير متردداً حائراً لا ادري ماذا جاء بي إلى هنا. . أهي علبة السجائر، أم أريد المعطف أو العباءة؟ هذا في الشتاء - أم ماذا يا ترى؟ ثم استخير الله وأقول لنفسي: (نم يا شيخ وأرح نفسك من عناء المحاولة فما فيها فائدة).

وارقد على فراشي، فتدور في نفسي معان وتتمثل لذهني صور أتعلق منها بما يروقني فاغمض عيني - وقد قرت - وأقول إن شاء الله في الصباح اكتب الفصل أو ارسم الصورة أو أقص القصة. . واقرأ الفاتحة للموتى وآية الكرسي ليحفظني الله من العين وأنام. . ويطلع الصبح فاستيقظ مع الدجاج فإذا بي قد نسيت كل شيء، وإذا بالصور والمعاني قد مسحت بقدرة ربك من اللوح ولم يبق منها ولا اثر ضئيل يدل عليها ويهدي إليها، ويساعد على رجع ما ولى منها، فأتعزى بان الذي لا أجده لا يزال هناك وانه غاب ولكنه لم يمح، وقد تنتعش الذاكرة فجأة فيطفو ما رسب.

ويتفق أن اقف أمام المرآة لأسرح شعري أو أسوي ربطة الرقبة أو افعل غير ذلك من الشؤون التي تحوج في العادة إلى المرايا - وان كنت أنا أستطيع ذلك كله بغير معونتها - حتى إذا صرت أمامها وقفت متعجباً متسائلاً: (لماذا يا ترى انظر في المرآة؟) وارفع يدي إلى جبيني وافركه وأحاول أن أتذكر، ولكن الأمر يعييني فأهز رأسي وامضي لشأني.

وأقول وأنا ماض إلى عملي اليومي: إني سأكتب كيت وكيت، ويشغلني ذلك طول الطريق، واصعد إلى مكتبي والتقي بإخواني وزملائي ويجر اللقاء إلى التحدث في أمور شتى من عامة وخاصة، حتى إذا خلا المكان وتناولت القلم وأقمت سنه على الورقة رأيتني أتساءل: في أي شيء كنت أنوي أن أكتب يا ترى؟. وكيف أمكن أن أنسى بهذه السرعة العجيبة وقد

كنت مشغولاً به طول الطرق؟. وأحتاج أن أبحث عن موضوع آخر. . ومن يدري. . فقد يكون الموضوع الذي أهتدي إليه بعد العناء هو بعينه الذي نسيته وأنا أحسبه غيره.

ومن كثرة نسياني تحتاج الخادمة أن تحاسبني كلما هممت بالدخول أو الخروج، فأني أفقد مناديلي لأني أنسى أين أتركها، أو القيها ولا أذكر ماذا صنعت بها، وزوجتي تعدها مسئولة عن هذه المناديل التي لا ينتهي الخلاف عليها ولا ينقطع الجدال من جرائها. فأنا أزعم أني تركتها حيث ينبغي أن تترك هذه الأشياء، والخادمة تنفي ذلك وتؤكد أني لم أفعل - بأدب طبعاً - وتقسم أنها عدتها فألفتها ناقصة؛ وزوجتي تحدق في وجهي وتسألني: هل أكون مستريح الضمير إذا صدقوني؟ ومتى وصل الأمر إلى الضمير والذمة فأنه لا يسعني إلا أن أتردد وأقول بالأرجح والمعقول كأنها قضية منطقية.

فتشير زوجتي إلى الخادمة وتقول: (يكفي. . . اذهبي يا بنت) فتذهب البنت ولكنها تواجهني حين أهم بالخروج وتسألني كم منديلاً معي؟ فأصيح (أوووه). . وهل أنا أعرف؟. سبحان الله العظيم! ألا يمكن أن يستريح المرء في هذا البيت؟. ما معنى هذا التعطيل؟. تنحي من فضلك.

فتقول: (أرجو أن تعدها).

فأقول: (وما الفائدة، ما دامت تضيع. . . . هه) وأخرجها من الجيوب وأعدها وأقول: (ثلاثة) مثلاً.

فترجو ألا أنسى أنها ثلاثة، فأقول: (طيب. طيب).

وتفتح لي الباب وأنا عائد وتسألني عن المناديل، فأخرج ما أحمل منها وأرمي به إليها وأمضي عنها، فتدركني وهي تصيح وتقول: (هذه أربعة. . . من أين جاء الرابع؟).

فأتعجب وأقول: (من أين جاء؟. . ماذا تعنين. . ربما كنت اشتريته).

فتقول: (ألا يمكن أن تكون أخذت منديل صديق وأنت. . . وأنت. . .!)

ويمنعها الأدب والحياء أن تنطق باللفظ فأنوب أنا عنها وأقول (ذاهل. . . أليس كذلك. . كلا لم يبلغ الأمر هذا الحد. .).

فتلح وتقول: (ولكن من أين جاء إذن؟).

فأقول متململاً: (أوووه. . . إن شكواك لا تنقطع من أن المناديل تنقص وأنت الآن تزعمين أنها زادت واحداً فاحمدي الله إذن وأريحيني)

ولكني لا أرتاح منها ولا من ستها ولا من الأطفال، ولا أزال أرى من يجري ورائي منهم ويخبرني إني نسيت الجورب أو لبست اثنين مختلفين، أو تركت الطربوش ويوشك أن أخرج برأسي عارياً، إلى آخر هذه التوافه التي لا أعرف لها آخراً.

وأحسب أن نسياني إنما يشتد لأن رأسي لا يخلو من شيء يدور عليه تفكيري ويستغرقني ذلك حتى لأذهل عما عداه؛ وقد كانت أمي - عليها رحمة الله - تتعجب لأمري وتقول لي: (يا بني ما الذي يطير عقلك؟)

فلا يعجبني هذا وأقول معترضاً: (إن عقلي لم يطر. . ثم إن هذا غير معقول. . أم تظنينه حمامة)
فتقول غير عابئة بملاحظتي: (لم يكن أبوك هكذا. . ولا أنا مثلك. . إنك لا تتذكر شيئاً أبداً)
فأقول: (إني من صنعكما - أنت وأبي المحترم - فأين ذنبي بالله؟)
فتقول مستاءة: (لماذا لا تتكلم خيراً؟)
فأقبلها وألثم يدها وأسترضيها وأقول معتذراً: (ماذا أصنع إذا كان ربي قد خلقني هكذا. . . واسع خروق الرأس كالغربال القديم)
فتبتسم وتدعو لي الله أن يرد علي ما غرب من عقلي، فأتقبل دعاءها بالشكر وأمري إلى الله.
والأم تحتمل ابنها وتصبر على ما يكون من ذهوله، ولا تسيء به الظن، وليست هكذا الزوجة فإنها تحمل ذلك على غير محمله، وتؤوله بأنه قلة اكتراث وعدم مبالاة، وأن الرجل لا يفكر فيها ولا يفرض لها وجوداً ولا يقيم لها وزناً إلى آخر هذا الهراء؛ وهي سليمة لا تخونها الذاكرة، فليس في وسعها أن تدرك بلاء النسيان وأن تعذر المنكوب به. ومن العبث أن يقول لها المرء إن كثرة المشاغل هي التي تطير من الرأس كل ما عسى أن يكون فيه. إذن لماذا لا يشغل الرجل بها هي ولا ينسى ما عداها هي. . .؟ هذا هو المشكل
وما دخلت البيت مرة إلا شعرت أني لا بد أن أكون قد نسيت شيئاً أوصتني به زوجتي، فأقول لنفسي: (سترك اللهم. . وعونك أيضاً) وقد أكون مخطئاً ولكن الخطأ لا يمنع الشعور
الثقيل. وكثيراً ما يتفق أن يكون ظني في محله، فلا تكاد ترى وجهي الناطق بتوقع اللوم حتى تبتدرني بقولها: (بالطبع نسيت) فأقول وأنا أتكلف الضحك: (أي والله. . صدقت. . الحق أن فراستك قوية)
فتقول: (وما العمل؟)
فأسال متحرزاً: (في أي شيء؟)
فتقول: (في أن تذكر. . كيف نحملك على التذكر؟)
فأقول: (اربطي لعبة في رجلي فأضطر أن أتذكر كلما سمعت كركرتها)
فتقول: (إني جادة)
فأقول: (نكتب الشيء في ورقة وأضعها في جيبي أو مع الساعة)
فتقول: (وتنساها في جيبك. . وتخرج الساعة فترى الورقة فترميها وأنت ذاهل)
فأقول: (ألبسيني الجاكتة مقلوبة. . أزرارها إلى الخلف)
فتهز رأسها وتقول آسفة (كلا. . لا فائدة. . الأمر لله. . لو كان شيئاً يعالج. . ولكنه مستعص. . لا علاج له).
فأقول متشهداً: (صدقت يا امرأة. . أما والله إنك لمنصفة. . جزاك الله خيراً وقواك على احتمالي)
وأعترف أني كثيراً ما أنتفع بالمعروف المشهور من نسياني، فإذا سألتني عما لا أريد أن أبوح لها به أو أذكر الحقيقة فيه تظاهرت بالبلاهة وقلت: (وهل أنا أعرف؟. وأين العقل الذي يتذكر؟. .)
وما قرأت كتاباً إلا نسيت ما فيه - نسيته جملة وتفصيلاً؛ حتى اسمه واسم كاتبه؛ وقد أعود إليه كأني ما قرأته ولا سمعت به، فهو في كل مرة أعود فيها إليه جديد ولو كنت قرأته عشر مرات؛ وهذا نافع لان فيه اقتصاداً. وكم من كتاب اشتريته ثم نسيت أين وضعته ثم يتفق أن أعثر عليه فأقف مستغرباً متسائلاً: أتراني قرأت هذا الكتاب من قبل. . أم لم أفتحه. . على كل حال. . الأمران سيان. . توكلنا على الله)
وأحسب هذا يجعل العلم والجهل سيين. ولولا أني أعرف أن ما أقرأ لا يضيع وإنما يختفي لأغراني ذلك بالانقطاع عن القراءة لقلة ما يبدو لي من فائدتها المحسوسة.
إبراهيم عبد القادر المازني
انتصار الحب
للأستاذ مصطفى صادق الرافعي
كل ما يكتب عن حبيبين، لا يفهم منه بعض ما يفهم من رؤية وجه أحدهما ينظر إلى

وجه الآخر.
وما تعرفه العين من العين لا تعرفه بألفاظ، ولكن بأسرار والغليل المتسعّر في دم العاشق، كجنون المجنون يختص برأسه وحده.
وضمة المحب لحبيبه إحساس لا يستعار من صدر آخر، كما لا يستعار المولود لبطن لم يحمله.
وكلمة القبلة التي معناها وضع الفم، لن ينتقل إليها ما تذوقه الشفتان.
ويوم الحب يوم ممدود؛ لا ينتهي في الزمن إلا إذا بدأ يوم السلو في الزمن.
فهل يستطيع الخلق أن يصنعوا حداً يفصل بين وقتين لينتهي أحدهما؟
وهبهم صنعوا السلوان من مادة النصيحة والمنفعة، ومن ألف برهان وبرهان فكيف لهم بالمستحيل، وكيف لهم بوضع السلوان في القلب العاشق؟
وإذا سألت النفس من رقة الحب، فبأي مادة تصنع فيها صلابة الحجر؟
وما هو الحب إلا إظهار الجسم الجميل حاملاً للجسم الآخر كل أسراره، يفهمها وحده فيه وحده؟
وما هو الحب إلا تعلق النفس بالنفس التي لا يملأها غيرها بالإحساس؟
وما هو الحب إلا إشراق النور الذي فيه قوة الحياة كنور الشمس من الشمس وحدها؟
وهل في ذهب الدنيا وملك الدنيا ما يشتري الأسرار، والإحساس، وذلك النور الحي؟
فما هو الحب إلا انه هو الحب؟
ما هو هذا السر في الجمال المعشوق، إلا أن عاشقه يدركه كأنه عقل للعقل؟
وما هو هذا الإدراك إلا انحصار الشعور في جمال متسلط كأنه قلب للقلب؟
وما هو الجمال المتسلط بإنسان على إنسان، إلا ظهور المحبوب كأنه روح للروح؟
ولكن ما هو السر في حب المحبوب دون سواه؟ هنا تقف المسألة وينقطع الجواب.
هنا سر خفي كسر الوحدانية، لأنها وحدانية (أنا وأنت).
ناقشوا الحب؛ فقالوا أصبحت الدنيا دنيا المادة، والروحانية اليوم كالعظام الهرمة لا تكتسي اللحم العاشق.
وقال الحب: لا بل المادة لا قيمة لها في الروح؛ وهذا القلب لن يتحول إلى يد ولا إلى رجل.
ناقشوا الحب؛ فقالوا إن العصر عصر الآلات، والعمل الروحي لا وجود له في الآلة ولا مع الآلة.
قال الحب: لا، يصنع الإنسان ما يشاء، ويبقى القلب دائماً كما صنعه الخالق.
وقالوا: الضعيفان: الحب والدين، والقويان: المال والجاه، فبماذا رد الحب؟
جاء بلؤلؤة روحانية في (مسز سمبسون)؛ ووضع إليها في ميزان المال والجاه اعظم تاج في العالم: تاج إدوارد الثامن (ملك بريطانيا العظمى وإرلندا والممتلكات البريطانية فيما وراء البحار وملك - إمبراطور الهند).
وتنافست الروحانية والمادية، فرجع التاج، وما فيه إلا ضعف المعنيين من القلب.
وأعلن الحب عن نفسه بأحدث اختراع في الإعلان، فهز العالم كله هزة صحافية: الحب. الحب. الحب.
تلك الجميلة بنصف جمال، المطلقة مرتين. هذا هو اختيار الحب، (مسز سمبسون).
ولكنها المعشوقة؛ وكل معشوقة هي عذراء لحبيبها ولو تزوجت مرتين؛ هذا هو سحر الحب.
ولكنها الفاتنة كل الفتنة، والظريفة كل الظرف، والمرأة كل المرأة؛ هذا هو فعل الحب.
ولكنها العقل للأعصاب المجنونة، والأنس للقلب المستوحش، والنور في ظلمة الكآبة؛ هذا هو حكم الحب.
ومن اجلها يقول ملك إنجلترا للعالم: (لا أستطيع أن أعيش بدون المرأة التي احبها)؛ فهذا هو إعلان الحب. . . . .
إذا أخذوها عنه أخذوها من دمه، فذلك معنى من الذبح.
وإذا انتزعوها انتزعوها من نفسه، فذلك معنى من القتل.
وهل في غيرها هي روح اللهفة التي في قلبه، فيكون المذهب إلى غيرها؟

لكأنهم يسألونه أن يموت موتاً فيه حياة.
وكأنهم يريدون منه إن يجن جنوناً بعقل. . . هذا هو جبروت الحب.
. .وللسياسة حجج، وعند (مسز سمبسون) حجج، وعند الهوى
التاج، الملكية، امرأة مطلقة، امرأة من الشعب، فهذا ما تقوله السياسة.
ولكنها امرأة قلبه، تزوجت مرتين ليكون له فيها إمتاع ثلاث زوجات؛ وهذا ما يقوله الحب.
واللحظة الناعسة، والابتسامة النائمة، والإشارة الحالمة، وكلمة (سيدي). هذا ما يقوله الجمال.
وانتصر الحب على السياسة، وأبى الملك أن يكون كالأم الأرملة في ملك أولادها الكبار. . .
العرش يقبل رجلاً خلفاً من رجل؛ فيكون الثاني كالأول.
والحب لا يقبل امرأة خلفاً من امرأة، فان تكون الثانية كالأولى.
وطارت في العالم هذه الرسالة: (أنا إدوارد الثامن. . أتخلى عن العرش وذريتي من بعدي).
(وأعلن الحب عن نفسه بأحدث اختراع في الإعلان؛ فهز العالم كله هزة صحافية) الحب. الحب. الحب.
(طنطا)
مصطفى صادق الرافعي
ضوء جديد على مأساة شهيرة
هل قتل الحاكم بأمر الله أم اختفى؟
معترك من الروايات والأساطير المدهشة
للأستاذ محمد عبد الله عنان
في ليلة السابع والعشرين من شوال سنة 411 من الهجرة (13 فبراير سنة 1021م) خرج الحاكم بأمر الله يطوف كعادته في شعب المقطم حيث اعتاد أن يرصد النجوم، ثم لم يعد من جولته قط، ولم يعرف إنسان خبره أو مصيره قط؛ وكل ما عثر عليه بعد ذلك من آثاره، حماره الأشهب وقد وجد معرقباً في طريق حلوان، ثم ثيابه مزررة وبها آثار الطعان في بركة قريبة من حلوان.
بيد إن اختفاء الحاكم تلك الليلة الشهيرة، واجتماع مختلف القرائن والآثار على مصرعه بيد الجناة، لم يكن خاتمة حاسمة لعهده وسيرته وذكراه. اجل أعلنت وفاة الحاكم، وأقيم ولده أبو الحسن على مكانه في كرسي الخلافة، وذلك يوم النحر (10 ذي الحجة سنة 411هـ) لأسابيع قلائل من اختفائه، ولقب الظاهر لإعزاز دين الله؛ وبدأت الخلافة الفاطمية عهداً جديداً؛ ولكن ذكرى الخليفة الذاهب لبثت تغمر الأفق مدى حين، وتثير في المجتمع مختلف الفروض والأساطير. ذلك أن أدلة الجناية لم تكن واضحة، ولم يقم دليل قاطع على القتل أو الوفاة، ومن جهة أخرى فان الحاكم بأمر الله لم يكن فيما زعموا شخصية عادية يغمرها العدم كما يغمر سائر البشر، وتطوى آثارها من ذلك العالم لتغيض في العالم الآخر بتلك البساطة التي أحاطت باختفائه. ألم يكن الحاكم شخصية خارقة تهيم في الخفاء، وتزعم الاتصال بعوالم الغيب، وترنو إلى مدارك السمو فوق البشر؟ ألم يقدمه الدعاة السريون إلى الناس بأنه (ناطق الزمان) وانه آلة وروح حل في صورة البشر؟ وهل من كانت هذه خواصه ومزاعمه يسري عليه قانون الفناء كما يسري على جميع الناس؟
لقد اجمع معظم الروايات المعاصرة والمتأخرة على إن الحاكم ذهب ضحية المؤامرة والجريمة على اختلاف بينها في مدبري المؤامرة ومرتكبي الجريمة. ومعظمها على إن الذي دبر المؤامرة أخته الأميرة ست الملك، وذلك لما بدا من إسرافه في قتل الزعماء
ورجال الدولة، وما ارتكب من التصرفات العنيفة المتناقضة التي هزت أسس المجتمع وقلبت أوضاعه؛ وأخيراً لما جنح إليه من حماية الدعاة الملاحدة الذين نادوا بألوهيته؛ فهذه الأسباب حسبما تقول الرواية هي التي حملت أخته على تدبير مصرعه اتقاء لنشوب ثورة تودي بالعرش وبتراث الدولة الفاطمية كله؛ أما شريك ست الملك ومنفذ الجريمة، فهو الحسين بن دواس زعيم قبيلة كتامة، وكان يخشى سطوة الحاكم وفتكه؛

وأما القتلة فهم عبيده أو هم جماعة من البدو اعترضوا الحاكم في طريقه ليلة اختفائه بحجة التماس الإحسان والصلة، ورتبهم المتآمرون لقتله؛ أما جثته فقد حملها الجناة إلى أخته فدفنتها في نفس مجلسها: هذا ملخص ما تقوله الرواية في شأن المؤامرة والجريمة.

وهذه الروايات ليست موضوعنا في هذا البحث؛ وهي ليست كل شيء في تلك المأساة العجيبة؛ وإنما نعني في هذا البحث بطائفة أخرى من روايات ذات نوع خاص ودلالة خاصة، لا تأخذ بنظرية المؤامرة أو الجريمة، ولكنها تؤيد فكرة الاختفاء العمد والهجرة الأبدية، وتسبغ بذلك على ذهاب الحاكم لونا من الخفاء الغامض، كذلك الذي يغمر شخصيته وحياته كلها؛ وإذا كانت هذه الروايات تجنح في مجموعها إلى نوع من الأسطورة، فإنها مع ذلك تدخل في عداد التاريخ وتستحق الدرس بهذه الصفة، خصوصاً، وان ما تقدمه إلينا من التفاصيل والوقائع ليس في ذاته مستحيلاً ولا خارقاً.

وأول رواية من هذا النوع رواية كنسية كتبت في عصر الحاكم ذاته، ووردت ضمن سير البطاركة، أو سير البيعة المقدسة في ترجمة الأنبا زخاريا البطرك القبطي المعاصر للحاكم؛ وخلاصتها، إن الحاكم خرج إلى الجبل ذات ليلة، وسار في الجبل ومعه ركابي واحد إلى أن بلغ حلوان، ثم نزل عن حماره؛ وأمر الركابي أن يعرقبه ففعل، ثم أمره بالانصراف إلى القصر وتركه بمفرده، فعاد الركابي كما أمر؛ فلما لم يعد إلى القصر في اليوم التالي سأل رجال القصر هذا الركابي عن سيده، فأجابهم بأنه تركه في حلوان، وعاد وحده نزولاً على رغبته، فمضوا في طلبه، فوجدوا الحمار معرقباً، وبحثوا عن الحاكم في كل موضع، فلم يجدوه ولم يقفوا له على خبر أو اثر.

ووردت في تأريخ الكنائس المنسوب لأبي صالح الأرمني، والذي كتب في أواخر القرن السادس الهجري رواية مماثلة نصها: (وبهذه الناحية (أي حلوان) نزل الإمام الحاكم بأمر

الله عن الحمار الذي كان راكبه، وتقدم إلى الركابي الذي كان بصحبه إلى حيث يذهب بأن يعرقب الحمار، وذهب هو وحده إلى داخل البرية، ولم يرجع يعود، ولا عرف أين توجه إلى يومنا هذا، وكان ذلك في شوال سنة إحدى عشرة وأربعمائة).

ويشير مؤرخ نصراني آخر، هو إن ابن العبري الذي كتب تأريخه في أواخر، القرن السابع الهجري إلى مثل هذا الرأي، فيقول في حوادث سنة 411هـ: (وفيها فقد الحاكم بن العزيز ابن المعز العلوي صاحب مصر، ولم يعرف له خبر)، ثم ينقل قصة طوافه ومصرعه حسبما رواها القضاعي، وذلك على سبيل الرواية والترديد فقط.

وتقول الرواية الكنسية أيضاً، (ولم تزل الناس مدة غيبة الحاكم وإلى إن انقضى مدة ولده يقولون إنه بالحياة. كثير كانوا يتزيون بزيه ويقول كل واحد منهم أنا الحاكم، يتراؤوا للناس في الجبال حتى يأخذوا منهم الدنانير) ثم تروى لنا قصة رجل يسمى (شروط) كان نصرانياً واسلم ثم تعلم السحر والشعوذة، وكان يشبه الحاكم شبهاً عجيباً، ولو انه أطول منه بقليل؛ فلمّى اختفى الحاكم ظهر في الناس باسم (أبي العرب)، وادعى انه الحاكم، والتف حوله بعض الناس، وكان يطالب الأغنياء بالمال، ويقول لهم انه سيعيده إليهم عند رجعته إلى مملكته؛ ثم استتر طيلة عهد الظاهر وهو مستمر على دعواه حتى اعتقد كثير من الناس انه الحاكم، وانه يخفي نفسه لأمر مكتوم لا يعرفه سواه؛ وفي أوائل عهد المستنصر، نزح إلى البحيرة ونزل عند بعض البدو وتظاهر بالنبوة ومعرفة الغيب واستمر في دعواه انه الحاكم وانه يعتزل الحياة العامة حتى ينتهي قطع طالعه الذي يخشاه؛ ولما ذاع أمره، واهتمت السلطات بمطاردته توارى عن الأنظار ولبث مختفيا حتى عرف بأمره سانونيوس البطرك، وانفذ إليه مالاً وتعهده بعونه ورعايته، وأول ما يلفت النظر في هذه الرواية الكنسية هو أنها لا تشير أية إشارة إلى فكرة المؤامرة أو الجريمة، بل لا تشير مطلقا إلى فكرة الوفاة، ولكنها تميل في مجموعها إلى تأييد فكرة الغيبة والاختفاء، وتستأنس في ذلك بالإشاعات والأساطير التي ذاعت في ذلك الشان منذ اختفاء الحاكم، واستمرت ذائعة أيام ولده الظاهر

على إن الرواية الكنسية لا تقف عند ذلك الحد؛ ذلك إن ابن العبري يحدثنا عن مصير الحاكم بعد اختفاءه، ويقول لنا إن كثيراً من الناس اعتقدوا حين اختفاءه انه لجأ إلى مكان

في الصحراء واعتنق النصرانية، ثم ترهب وقضى أيامه هنالك؛ ثم يقول انه، أي المؤرخ، حين ما كان بدمشق سمع بعض كتاب الأقباط يقولون إن الحاكم حينما اشتد في مطاردة النصارى ظهر له يسوع المسيح كما ظهر لبولس الرسول، فآمن به، وتوارى سراً في الصحراء حتى توفي

ومما يجدر ذكره إن هذه الأسطورة - أي أسطورة تنصر الحاكم وترهبه ليست هي الأولى من نوعها، فقد نسب جده المعز لدين الله إلى مثل ما نسب إليه، وزعمت الرواية الكنسية إن المعز تأثر بما شهده من معجزة نصرانية هي تحرك جبل المقطم لدى صلوات الأحبار النصارى وتضرعاتهم، فنزل عن الخلافة لولده العزيز وتنصر وترهب، ودفن في إحدى الكنائس

ويجب لكي نقدر مغزى هذه الروايات الكنسية إن نذكر الظروف التي نشأت فيها، وان نكر موقف الكنيسة القبطية ونفسية المجتمع النصراني في عصر الحاكم بأمر الله: فقد عانت الكنيسة وعانى النصارى في هذا العصر ضروبا مرهقة من الاضطهاد المادي والمعنوي، وجازت الكنيسة شر محنة نزلت بها منذ عصر الاضطهاد الروماني، فهدمت بيعها وأديارها، ونبهت أموالها، وبدد تراثها المقدس، وثل الأحبار كل هيبة ونفوذ، وامتحن الكثير منهم، وعانى المجتمع النصراني من القوانين والفروض الجديدة شر ما تعانيه اقليه مضطهدة من ضروب العسف والذلة والإرهاق؛ ومن ثم فان الروايات الكنسية المعاصرة تصور لنا هذا العصر، عصر استشهاد للكنيسة ورعاياها، وتحدثنا في مواطن عديدة عن مختلف المعجزات النصرانية التي ظهرت في هذا العصر والتي كانت الكنيسة تستمد منها العزاء والصبر على مغالبة المحنة؛ ومنها قصة فتى مسلم يسمى ابن رجاء تأثر بمعجزات المسيح فتنصر وترهب، ورسموه قديساً باسم بولس ولقبوه بالواضح؛ ومنها قصة أبي نجاح النصراني، وكان من أعيانهم وأكابرهم فأراد الحاكم إن يرغمه على الإسلام فأبى فأمر بجلده حتى توفى، وزعمت الأسطورة إن الماء كان يقطر من لحيته أثناء ضربه، وان المسيح ظهر له وتولى سقايته أثناء تعذيبه؛ وقصة الرئيس الفهد الوزير، فقد قتله الحاكم لأنه أبى الإسلام وأمر بإحراق جثته، ولكن النار لم تؤثر فيها؛ وقصة البطرك زخاريا فقد اعتقله الحاكم وطرحه للسباع لتأكله ولكنها نفرت منه ولم تمسه بأذى؛ وغير ذلك من الخوارق المزعومة التي تدل على روح الكنيسة وعقليتها في هذا الظرف العصيب، وعلى جنوحها إلى الاستعانة بسيل من الأساطير والمعجزات الجديدة لتأييد هيبتها المقوضة، وتقوية نفوس رعاياها والمؤمنين بقدرتها وسلطانها

فهل نعجب إذا كانت الرواية الكنسية تحدثنا عن مصير الحاكم بأمر الله بهذا الروح ذاته فتحيط هذا المصير بأسطورة من أساطيرها، وتضيف بذلك معجزة إلى معجزاتها؟ إن في تقديم الحاكم بأمر الله، الخليفة الفاطمي، في ثوب النادم المستنيب، يبدو له المسيح، فيرتد عن دينه ويعتنق النصرانية، ثم يترهب، ويقظي بقية حياته في بعض الأديار النصرانية، لأعظم معجزة تقدمها الكنيسة إلى المؤمنين، واعظم ظفر تستطيع إن تصوره لرعاياها في هداية ذلك الذي انزل بهم شر البلايا والمحن أعواما مديدة، ثم انتهى به المطاف إلى إن غدا جندياً من جند المسيح. إن في هذه الخاتمة لأعظم عقاب للآثم، واعظم ترضية للكنيسة والمؤمنين، وابلغ انتقام يمكن إن تنزله الكنيسة بخصيمها

- 2 -

ولا ريب إن التاريخ لا يمكن يحفل بمثل هذه الأسطورة التي لم يؤيدها أي دليل أو أية قرينة سوى الرواية الكنسية التي تنفرد بترديدها، والتي تنم في الحال عما وراءها من الغايات والبواعث؛ بيد إن هنالك في الرواية الكنسية الأولى شيئا واحداً يمكن الوقوف به، وهو ما تنوه به من اختفاء الحاكم أو غيبته دون الإشارة إلى مصرعه بصورة من الصور. ذلك أن هذه النظرية - نظرية الاختفاء - لم تكن دون صدى في حوادث العصر ووثائقه. وإذا استبعدنا فكرة المؤامرة والجريمة مدى لحظة، واستبعدنا ما ينسب إلى الأميرة ست الملك من أنها هي التي دبرت مصرع أخيها على الوجه الذي بسطنا، فان الحوادث والقرائن الأولى التي عقبت ليلة السابع والعشرين من شوال تسبغ على فكرة الاختفاء مسحة من الاحتمال. ذلك إن مصرع الحاكم أو وفاته لم تكن أول ما خطر لرجال القصر والدولة، بل كان أول ما خطر لهم فكرة الغيبة، فخرجوا في اثر

الحاكم عدة مرات يبحثون عنه ويستقصون أثره قبل إن يؤمنوا بمصرعه؛ ولبث الكرسي الخلافي شاغراً مدى ستة أسابيع حتى يوم عيد النحر (العاشر من ذي الحجة)، ولم ينادى بالخليفة الجديد حتى استقر لدى رجال الدولة إن الحاكم قد لقي حتفه بصورة من الصور أو على الأقل قد ذهب إلى غير ما عودة: بيد أن فكرة مصرعه، مهما كانت الصورة التي صورت بها ومهما كانت الجناة التي نسب تدبيرها أو تنفيذها إليهم، لم تكن فيما يبدو من روايات العصر وأحاديثه، حقيقة مقررة، ولم تكن رأي السواد الأعظم من الناس. بل لقد أشارت بعض الروايات التي سلمت بمصرع الحاكم إلى صدى هذا الشك في مقتله، فنرى ابن خلكان مثلاً يقول في ترجمة الظاهر ولد الحاكم ما يأتي: (وكانت ولايته بعد أبيه بمدة، لان أباه فقد في السابع والعشرين من شوال سنة إحدى عشر وأربعمائة؛ وكان الناس يرجون ظهوره، ويتبعون آثاره إلى إن تحققوا عدمه، فأقاموا ولده المذكور في يوم النحر)

(النقل ممنوع - للبحث بقية)

محمد عبد الله عنان

في الأدب المقارن

التأثير في الآداب الأخرى

في الأدبين العربي والإنجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

من أقوى الدلائل على حيوية أدب أمة وصدق ترجمته عن المشاعر الإنسانية احتفاء الأمم الأخرى به، وعنايتها بدرسه، وتأثرها بنتاجه، واصطناعها وسائله، واشتهار فحوله بينها؛ فإن الأدب إذا كان حياً صادق التعبير عن النفس الإنسانية، عميق النظرة في مشاهد الكون، تخطى حدود أمته واجتاز حوائل اللغة والتقاليد والجنسية والبيئة؛ تخطى ذلك إلى ساحة الإنسانية التي تمحى عندها فوارق الزمان والمكان، ويلتقي لديها أبناء الأمم المختلفة والأزمان المتباعدة، وتمجد العبقرية الفنية حيثما نبتت فحيوية الأدب وصدقه شرط أساسي لذيوعه وتأثر الآداب الأخرى به. وقد تجتمع إلى قوة الأدب الفنية الخاصة قوة أصحابه الحربية وسلطانهم السياسي، فيكون ذلك عاملا كبيرا مؤديا إلى انتشار الأدب؛ على انه عامل إضافي لا يضير انعدامه.

فالأدب واللغة هنا على طرفي نقيض: فلغة الأمة لا تذيع في الأمم الأخرى إلا تبعاً لارتفاع سلطانها السياسي، مهما كان رقي اللغة ذاتها وصلاحيتها وتفوقها على اللغات الأخرى، أو تخلفها عنها؛ فلغات الرومان والعرب، ثم الفرنسيين والإنجليز، لم تذع وتتخذ صبغة عالية إلا مصاحبة لامتداد نفوذ تلك الأمم؛ أما الأدب فلا يذيع إلا لرقيه وصلاحيته وتفوقه في بعض النواحي، سواء أساعده النفوذ السياسي أم أعوزه؛ ذلك لان اللغة وسيلة ضرورية من وسائل التعامل، فلا بد من الإلمام بلغة الأمة ذات الشان العظيم في الحياة الدولية والاقتصادية؛ أما الأدب فهو متعة وجدانية كمالية، تقبل النفس منه ما وافق طبعها وترفض ما لا تستسيغه، ولو كان يمت إلى أوسع الأمم سلطانا وأضخمها جيشاً.

والأدب الإغريقي نسيج وحده في هذا الباب، وهو مصداق كل ما تقدم ذكره، ولم يؤثر أدب تأثيره في آداب الأمم، ولا نال مثل ما نال من احتفالها: فهو أدب حي راق صادق، ذاع في عهد سطوة أصحابه وفي عهد اضمحلالهم، بل أثر في غالبيهم في ميدان الحرب والسياسة

الرومان - ابعد تأثير ثم عاد فبعث مكمنه فأثر فيه نشأت الآداب الأوربية الحديثة، بل - على يديه درجت، وفي حجره شبت؛ ومازالت دراسته أحد فروع الثقافة العالية في الجامعات الأوربية؛ ومن اجل دراسته والاستفادة من كنوزه تدرس اللغة الإغريقية على بعد ما بينهما وبين اللغات الحديثة. أما اللغة ذاتها فتقلص ظلها منذ تقلص ظل السيادة اليونانية التي أظلت حوض البحر الأبيض الشرقي على عهد أثينا والإسكندر والبطالسة، ودرست اللغة وبطل التخاطب بها حتى في بلاد اليونان ذاتها

وتتراوح درجة تأثير أدب أمة في آداب غيرها تبعا لحالة المؤثر والمتأثر. فيكون الأثر شاملاً غامراً إذا كانت الهوة بينها بعيدة، بأن كان الأول عظيم الرقي والآخر بدائياً ساذجاً، كما كان تأثير الأدب اليوناني في الأدب الروماني والآداب الأوربية الحديثة، وكما كانت منزلة الأدب الفرنسي من الأدب الألماني في أوائل القرن الثامن عشر؛

وقد يكون أثر أدب في غيره قاصراً على ناحية يتفوق فيها أو يمتاز بها، كما كان تأثير قصة المغامرات الإسبانية في الأدب الإنجليزي، أو تأثير القصة الروسية في الآداب الأوربية العصرية؛ وقد تحتفي أمة بدراسة أدب أمة أخرى إعجاباً به وتقديراً له، دون أن يتأثر به أدبها تأثراً كبيراً؛ واغلب ما يكون ذلك إذا تماثل الأدبان في الرقي، كما هي الحال بين كثير من الآداب الأوربية الحديثة التي قطعت مراحل متماثلة، ووصلت إلى درجات من الرقي مقاربة؛ وقد يتناكر أدبان ويتنابذان فلا يتأثر أحدهما بالآخر، لشدة ما بينهما من تفاوت، أو لاعتداد كل منهما بنفسه، كما كان من ازورار الأدب العربي عن الأدب اليوناني؛ وقد يدرس الأدب في المعاهد وعلى أيدي العلماء والأدباء لمجرد البحث العلمي والتاريخ، دون إن يكون له كبير اثر في آداب الأمم، آو يكون لجمهور المتأدبين بصر به، كما يدرس الأدب العربي في بعض الجامعات الأوربية اليوم

وكلا الأدبين العربي والإنجليزي أثر في آداب الأمم الأجنبية، وبلغ في الرقي والخطر ما جعله جديراً باحتفائها، واشتهر فحوله وأعلامه بينها، وساهم بنصيب في الأدب الإنساني العالمي. على أن الأدب العربي أعطى اكثر مما أخذ، وأثر في آداب الأمم الأجنبية أكثر مما تأثر بها، بينما الأدب الإنجليزي قد اخذ اكثر مما أعطى إلى اليوم، وغنم من كنوز الأمم الأخرى أكثر جداً مما أودع تلك الكنوز؛ وهذه في الحقيقة ظاهرة مطردة في تاريخي

الأمتين لا في أدبيهما فقط. كانت الأمة العربية منذ ظهورها أمة إعطاء، أعطت العالم ديناً وقوانين ولغة وأدباً، ولم تأخذ إلا ما يتضاءل أمام ذلك كله من حضارة الفرس المادية، ونظريات اليونان الفلسفية. وكانت الأمة الإنجليزية أمة أخذ، أخذت عن غيرها دينها، والفت من لغاتهم لغتها، واشتقت من آدابهم أساليب أدبها وأشكاله، وأغنت جزيرتها بخيرات الأقطار، ولم تهد إلى العالم من مبتكراتها إلا نظامها النيابي. وعلى حين انزوت جزيرة العرب قابعة في عزلتها بعد أداء رسالتها، أثرت إنجلترا بما قطفت من أطياب العالم المادية والأدبية التي اجتنتها على مدى العصور اجتناء مميز بصير خبير بما ينفع، نابذ لما يذهب جفاء

أثر الأدب العربي في آداب كثير من الأمم الشرقية، كالهنود والفرس والترك واليهود؛ وما يزال ذلك التأثير ماثلاً في الألفاظ والأساليب التي اقتبستها منه تلك الآداب؛ وقد أدى إلى اتصال تلك الآداب بالأدب العربي اتصال العرب بتلك الأمم بالحرب والتجارة، وبسط العرب سيادتهم عليهم حيناً، ونشرهم دينهم بينهم، فكانت سيادة العرب سبب انتشار اللغة العربية التي ظلت تدرس في تلك الأقطار عصوراً طوالاً، ولم تزل تدرس في بعضها؛ وكان انتشار الدين الإسلامي عاملاً آخر أطول بقاء؛ فلما انتقلت السيادة إلى الفرس فالترك ضعفت مكانة اللغة العربية، بينما ظل التفوق والتأثير للأدب العربي حيناً طويلاً لرقيه وتأخر الآداب الأخرى

ولم يسم من تلك الآداب الشرقية إلى مضاهاة الأدب العربي إلا أدب الفرس. وقد كان بين هذين الأدبين وفحولهما تمازج واتصال وتعارض وتبادل عديم النظير بين أدبين آخرين: بدأ ذلك بانتصار العرب الحربي والديني، وكان أدبهم على جانب عظيم من التقدم، بينما أدب الفرس بدائي لم يتعد بعد طور الطفولة، ولم يستقل تماماً عن الدين، لأنه - كأدب قدماء المصريين - ترعرع تحت ملكية شديدة الجبروت والأنانية، وكهنوتية شديدة الغيرة والأثرة، فلم يكن يعدو الأقاصيص الساذجة والمواعظ ونوادر الملوك والآلهة؛ أما الأدب العربي فكان قد ترعرع في حرية البادية

فلما اتصل الفرس بالأدب العربي واعجبوا به، لم ينقلوا ما راعهم منه إلى أدبهم بل انتقلوا هم إليه، فنثروا ونظموا في لغة الدولة والدين والقران، وكان منهم جملة من فحول الأدب

العربي، على حين كان أدبهم هم خالياً من الفحول على الإطلاق؛ ثم نشأت طبقة منهم تؤلف باللغتين وتساهم في الأدبين، وبذلك بدأ الأدب الفارسي في الظهور وكان الشعر اسبق من النثر؛ فلما استقلت فارس واستعادت سيادتها القومية في ظل السامانيين والبويهيين ومن بعدهم، نبغ فيهم رهط كبير من الشعراء والكتاب عكفوا على إحياء أدبهم وإثرائه، متأثرين خطى الأدب العربي في المواضيع والأشكال الأدبية والأوزان الشعرية والألفاظ، واخذوا عن العربية ما كان قد داخلها إذ ذاك من محسنات وصنعة؛ وبينما دخل الأدب العربي في طور ركوده افتتح الأدب الفارسي عصر رقي رائع طويل،

ضارع فيه الأدب العربي وفاقه في كثير من الأبواب، كشعر الملاحم ووصف محاسن الطبيعة، ونال بعض فحوله كالفردوسي والخيام من الشهرة العالمية ما قصر عنه فحولة العربية

وكان للأدب العربي اثر كبير في آداب الأمم الغربية؛ ولكن بينما تأثرت الآداب الشرقية بالأدب العربي الفصيح، كان الأدب العربي العامي هو الذي اثر في الآداب الغربية: فالأقاصيص الشعبية وضروب الأزجال التي فشت في الأندلس كانت نواة الأدب الإسباني الحديث الذي تمثل في عهد النهضة الأوربية في قصص سرفانتيس، والذي أثر في الأدبين الفرنسي والإنجليزي أثراً مذكوراً فيما بعد؛ وتلك الأقاصيص والأزجال انتقلت من إسبانيا إلى جنوب فرنسا، حيث نشأ شعراء التروبادور الذين وضعوا اللبنة الأولى في أساس الشعر الفرنسي الحديث. أضف إلى ذلك ما نقل من تلك الأشياء إلى الأدب الإيطالي وأثر في كتابات بوكاشيو وبترارك ودانتي، وما تسرب إلى الأمم الأوربية في عهد الحروب الصليبية. هذا إلى قصص ألف ليلة وليلة التي انتقلت إلى أوربا من عهد بعيد وترجمت إلى لغاتها، وكانت موضع إعجاب الأدباء واقتباسهم

وللأدب العربي أثر ثالث عظيم الخطر عديم النظر، لم يتأت حتى للأدب اليوناني أن يأتي بمثله: ذلك هو حلوله محل غيره في الشام والعراق وشمال أفريقية، حتى نسي أهل كل قطر من هاتيك ما كان له من أدب قبل ذلك، واصبح تاريخ الأدب في كل إقليم منها يبدأ بعهد الجاهلية في جزيرة العرب. والواقع أن الأدب العربي لم يسد تلك البقاع لمجرد قوته وحيويته، وإنما تمكن من الإتيان بتلك المعجزة بفضل ما صاحبه من ظروف وعوامل، كقوة اللغة العربية ذاتها وكونها لغة الدين الجديد والدولة، ثم السياسة الحكيمة التي سلكها

العرب في حكم الأقطار: فقد تركوا لها حرية العبادة والمعيشة، وأشعروها مع ذلك بالنقص وانحطاط منزلتها عن منزلة الفاتحين أصحاب الدين والدولة؛ فتسامحهم الديني لم يستفز تلك الأمم إلى مقاومة الدين الجديد ومعاندته، كما قد كان يستفزها القهر والإرغام على اتباعه؛ وشعورها الباطن بالنقص والانحطاط دفعها إلى التشبه بالقائمين بالأمر عليها والانغمار في جملتهم؛ ومن ثم انتشر الدين واللغة وحلا محل غيرهما، وانتشر بانتشارهما الأدب العربي

فالأحوال كانت مهيأة في الشرق مساعدة لانتشار الأدب العربي: لتفوقه وتفوق لغته على ما كان هناك من آداب ولغات، وانتشار دين قومه وسيادتهم، ومشابهة الأمم الشرقية للعرب في الطباع إلى مدى، وامتزاجها بهم في أطراف الإمبراطورية العربية. أما في الغرب فلم يكن الأدب العربي الفصيح ليلاقي مثل هذا النجاح، بل هو لم يلاقي نجاحاً ما، ولم يصب إعجاباً قط؛ وقد هرع إليه متأدبو الإفرنج غير مرة يريدون الانتهال من مورده، وارتدوا خائبين قانطين؛ وبينما وجدوا في الأدب الفارسي ما يترجمونه ويظنون به ظنهم بآثار آدابهم، لم يجدوا في مدائح المتنبي لسيف الدولة وأهاجيه لكافور، وتفنن بديع الزمان في صوغ الأسجاع والنكات على لسان أبي الفتح، ما يستحق عناء الدرس والترجمة، أو يحث على الإعجاب والظن. إنما تنقل الأمم من آداب غيرها ما يمت إلى الإنسانية في شتى بقاعها وعصورها بأوثق الأسباب؛ أما المدح والذم والزخارف اللفظية التي إذا ترجمت تبخرت فلا تنفق في غير لغتها وعصرها

ولقد كانت الآداب الغربية قبل عهد النهضة ناشئة تتلفت باحثة عن الأستاذ المرشد، فلم تره في الأدب العربي الفصيح، لأنه لم يكن أدب شعب ومجتمع وحياة متجددة بل اختار لنفسه إن يكون أدب بلاط، ونديم علية، ورهين تقاليد لا تتغير، واستبعد من حظيرته منادح كثيرة من منادح القول، ومواضيع شتى من صميم الحياة والفن؛ وإنما استفادت تلك الآداب بما وجدته في الأدب العربي العامي من آثار الخيال الرائع، والتصوير الصادق، والتعبير المتعدد الأشكال عن الحياة الإنسانية المتدفعة المتجددة، فضلاً عما ينسم منه من روائح الشرق وبذخه وكنوزه وغرائبه، تلك التي ما زالت من قديم تستهوي نفوس الغربيين وتثير أخيلتهم، فأوسع الأوربيون ذلك الأدب العامي دراسة وترجمة ومحاكاة، ثم لم يلبثوا إن

اهتدوا إلى ضالتهم المنشودة في الأدب اليوناني، فعلوا من معينه ونهلوا

وقد قيل إن كوميدية دانتي الإلهية متأثرة برسالة الغفران، وقصة ربنسون كروزو أوحت بها قصة حي بن يقضان، وذلك بعيد: فلو أن الآداب الأوربية كانت تتأثر بالأدب

العربي الفصيح لما اقتصر تأثرها على هذين المثالين الشاردين - على كون قصة حي بن يقضان أثراً فلسفياً لا أدبياً - وليس بين الكوميدية الإلهية وبين رسالة الغفران شبه سوى أن الجنة والنار مشاهد وقائعهما، ولا بين روبنسون كروزو وحي بن يقضان تماثل إلا انعزالهما في جزيرة، وتوفيرهما حاجاتهما بأنفسهما؛ وكلتا الفكرتين بديهيتان يلوح انهما تطرآن على الفكر الإنساني في شتى العصور والأصقاع. وهل شيء اكثر بداهة واقرب إلى الطبيعة من أن دانتي المتعصب الديني في عصر التعصب الديني وفي وطن البابوية يلتفت إلى العالم الآخر ويجري فيه حوادث مهزلته؟ أو إن ديفو المغامر الأفاق في عصر المغامرات البحرية، وفي إنجلترا البلد البحري يتخذ بطلاً لقصته مخاطراً بحاراً؟

أما الأدب الإنجليزي فكان - كما تقدم - أقل من الأدب العربي تأثيراً في الآداب الأجنبية، وأكثر منه تأثراً بها: تأثر من عهد النهضة بالأدب اليوناني والروماني والفرنسي والإيطالي والأسباني ثم الألماني، وأخذ خير ما تلك الآداب من الأشكال الأدبية والمواضيع والأساليب، وصاغها على النحو الملائم لطبائع أهله وعبقرياتهم الخاصة، ومثل كل ما اخذ ونقاه، حتى جاء الأدب الإنجليزي مضاهياً لأحسن ما في تلك الآداب إن لم يفقهها جميعاً عمق فكرة وشمول نظرة وحرارة شعور وصدق عاطفة وبساطة بيان، ونبغ فيه من الأعلام أمثال شكسبير وملتون وبيرون وسكوت من كان لهم مكان رفيع في القارة، وعنى بدراستهم، والإشادة بفضلهم أقطاب الآداب الأوربية، أمثال هوجو وتين وسنت بيف، وحوكيت قصائد بيرون وقصص سكوت، ومثلت روايات شكسبير في مسارح العواصم الأوربية، وساهمت إنجلترا بنصيبها في النهضة الرومانسية التي كانت حركة أدبية دولية ساهمت فيها سائر الآداب الأوربية والأمريكية على إن كل ذلك لا يكاد يتخطى حدود التقدير والإعجاب بذلك الأدب، ولم يتعدى ذلك إلى إحداث ثورة شاملة أو تطور خطير في تلك الآداب، ولم يؤثر الأدب الإنجليزي فيها بعض ما أثرت هي فيه، فهو قد جاء متأخراً عنها قليلاً ولحق بها فتشابه الجميع اليوم رقياً، فهي

في غنى عن الأخذ عنه، وهو لا يفاجئها بعناصر ليست فيها، وهو وهي سواء في الأخذ من الأدب اليوناني والبناء على أساسه واعتناق مبادئه التي دان بها في تصوير الحياة وتحليل النفوس وعبادة الجمال.

فالآداب الأوربية اليوم، بما فيها الأدب الإنجليزي، فرسا حلبة واحدة، متشابهة في النشأة والتاريخ والمنهج، وهي وإن كانت على اتصال وامتزاج دائبين، لن ينتظر أن يكون تأثير واحد منها في غيره تأثيراً بعيد المدى شاملاً غامراً، كما كان تأثير الأدب اليوناني في الأدب الروماني، أو تأثير الأدب العربي في الأدب الفارسي، فمثل هذا التأثير الشامل لا يكون إلا بين أدبين قد انفرجت بينهما مسافة الخلف، وضرب حجاب العزلة بينهما دهراً، كما هو الشأن اليوم بين الآداب الغربية في مجموعها - ومن بينها الأدب الإنجليزي - والآداب الشرقية في مجموعها - ومن بينها الأدب العربي - فقد كان التدابر والتناكر سائدين بينهما عصوراً طويلة، والأولى في رقي مطرد، والثانية في تدهور مستمر، فلما تلاقتا ورفع من بينهما حجاب العزلة أثرت الأولى في الثانية؛ وما تزال تؤثر تأثيراً هو أدنى إلى الثورة المطلقة أو الخلق من جديد.

فالأدب الإنجليزي قد بلغ من الرقي وصدق الرسالة واتساع الجوانب ما يبذ به الأدب العربي، ونال من المكانة بين آداب الأمم أسماها، وحاز من أدباء تلك الأمم اعظم التقدير والحفاوة، وهو مكانة ستظل له دائماً كما ظلت مكانة الأدب اليوناني بعد زوال دولته، وهو خليق أن يؤثر في آداب الأمم التالية أثراً بعيداً، أما إذا ووزن بين تأثيره في الآداب الأخرى إلى اليوم وبين تأثير الأدب العربي في الآداب المعاصرة له، فان الأدب العربي يرجحه كثيراً. بيد إن الأدب العربي قد أدى رسالته في ذلك الصدد ولم يعد صالحاً لان يؤثر في آداب الأمم الأخرى حتى يتجدد ويتأثر هو ذاته بغيره من الآداب، ويفتتح في تاريخه فصلاً جديداً غير الفصل السالف.

فخري أبو السعود

على أطلال الماضي

وقفة على (إيوان كسرى)

للأستاذ علي الطنطاوي

خرجنا من بغداد فسلكنا على (حي البتاويين) ظاهر (الباب الشرقي)، وجزنا على قصوره الشم التي تتكئ فيها الأرستقراطية الناعمة على الأرائك سكرى بخمرة الذهب، وسرنا إلى (الهنيدي) في الطريق التي تنام على بسط الحقول السندسية، يحرسها صفان من النخيل، حتى انتهينا إلى (المعسكر البريطاني) صرح أكاسرة اليوم، فتركناه وأممنا صرح أكاسرة الأمس لنقف عليه ذاكرين معتبرين.

عبرنا نهر (ديإلى) وخلفنا القرية جاثمة على كتف النهر، قد دلت رجليها في مائه، واستقبلنا الفلاة الواسعة، فما عدنا نرى إلا الفضاء؛ حتى إذا سرنا فيها ساعتين طلعت علينا قرية (سلمان) تلوح على حاشية الأفق، تضح وتغيب، ثم تبيناها ورأينا قبة مسجدها واضحة، ورأينا بجنبها بناء ضخماً كأنه جبل. . . قلت: ما هذا؟ قال صحبي: هذه قبة سلمان الفارسي، وهذا ايوان كسرى. فقلت: يا للعجب! أطاف سلمان حتى استقر قبره بجانب الإيوان، فغدوا متلاصقين، وبدوا متعانقين؟ وحثثنا (الدراجات) إلى القرية فبلغناها بعد ساعة.

كانت قرية صغيرة، نشأت على تربة سليمان رضي الله عنه، ليس فيها - إلا مسجده - شيء يذكر؛ أما الإيوان فهو في ظاهر البلد، متربع على ظهر الفلاة وحيد معتزل، مطرق حزين!

وقفنا عليه فإذا هو طاق عال مهدم، وجدار شامخ متصدع، وإذا هو ضخم فخم، ولكنه عار موحش، ليس فيه صورة ولا نقش: لا صورة إنطاكية التي تروع بين روم وفرس، ولا انوشروان الذي يزجي الصفوف تحت الدرفس، ولا عراك الرجال بين يديه في خفوت منهم وإغماض جرس، ومن مشيح يهوي بعامل رمح، ويليح من السنان بترس. . .

لقد محا الدهر الصورة، كما محا أهلها، ودار الزمان دورة أخرى، فأصبح حاضر البحتري ماضياً وعيانه أثراً. . . ذلك لأن الماضي نقطة واحدة، تتلاقى فيها الأبعاد، وتضيع المسافات، وتفنى الدهور. . . نقرأ قصيدة البحتري، ونرى الإيوان، فنحس أنهما قد التقيا

في عالم الماضي وضاع ما كان بينهما من عصور، كما التقت آثار (سر من رأى) بأطلال بابل، فكان حكمها في الخيال واحداً وأثرها في النفس واحداً، وكما التقت في أبصارنا ونحن قادمون على القرية قبة سلمان بالإيوان. . . ومن لعمري يدرك الزمن الذي كان بين آدم ونوح، وإبراهيم وموسى، وبلقيس والزباء، وهوميروس وأفلاطون، وحروب طروادة وفتوح اسكندر؟ إن الحوادث كلما أمعنت في المضى، ضاعت من بينها الأزمنة وامّحت الأبعاد

وليس يهيج النفس ويثيرها كرؤية أطلال الماضي والوقوف بآثار الغابرين؛ ففيها روعة البقاء، وهول الفناء، وعبرة الدهر؛ وهي نوافذ تطل منها النفس على عالم المجهول الذي تحن إليه أبدا ولا تنى تقرع بابه، فتتحرر فيها ساعة من قيود المادة، وتطير في مسارب الأحلام

ولقد وقفت على الأهرام، ومررت على الحديبية، وجلست في العقيق، وعرجت على حطين، وزرت بعلبك، فكان شعوري في ذلك كله كشعور اليوم وأنا في المدائن أمام إيوان كسرى. . . استعظم الأثر واعجب بجلاله، واكبر القدرة التي أنشأته، ثم أعود بفكري إلى الماضي فأحسن بأن صفحته تفتح أمامي فأرى حقيقة شاهده كل ما قد قرأت في الكتب، وأتخيل أنى مع الغابرين أسمع وأرى، فأراني قد عشت دهوراً؛ ثم أقابل وأعتبر، ثم أذهل عن نفسي، وأجول بفكري وخيالي في آفاق كثيرة لم أرها من قبل في الآثار الباقية للأمم الماضية يلتقي أعظم شيئين وأجلهما: الزمان والمكان؛ فتلمس القرون تنحدر على صخر الهرم، أو أعمدة بعلبك، أو آجر الإيوان، هذا الآجر الذي حمل أعباء القرون السبعة عشر. يا لروعته وجلاله! اني لأحتقر نفسي وأنا قائم بقامتي القصيرة الهزيلة حيال هذا الكائن الجبار الهائل، ثم أعود فأرى كل شي دوني حقيرا، أنا الحي، وأنا الباني، وما هذه كلها إلا أثر من آثاري، ليس لها لولا فكري وجود ولا لوجودها معنى. . .

أطفت بالإيوان في خشوع واكبار، ووقفت على بابه في هيبة وإجلال، ثم دخلت من الصحراء فإذا. . . فإذا أنا خرجت إلى الصحراء، الصحراء الصامتة صمت الموت، الموحشة وحشة المقبرة، الممتدة امتداد الزمان. . . وقفت أستنشق عبير المجد،

وأتسمع نشيد العظمة؛ فما سمعت إلا صفير الرياح، ولانشقت إلا رطوبة الفناء. لمست الجدار فما
أحسست إلا برودة الحجر؛ تسلقت الجدار حتى كلت رجلاي ولم أبلغ نصفه، فجلست على لبنة بارزة لاستريح، وتلفت. . . فإذا الأفق الواسع الرحيب وإذا الناس كالنمل، وإذا القرية كأنها كومة من الحجارة، مكومة في أعماق الوادي، وإذا دجلة تجرى بعيدا تلبس حلة من نور الشمس فتبدو لامعة تزيغ منها الأبصار، وإذا أنا وحدي معلق بين السماء والأرض، فغثت نفسي، وأخذني الدوار، وهممت بالسقوط، فأغمضت عيني كيلا أرى شيئاً
أغمضت عينى، وفتحت قلبي، فرأت البصيرة مالا يراه البصر: رأيت إني قد ذهبت أتخطى أعناق القرون وأطوي سجل الزمان، وأدير بفكري دولاب الفلك، فيكر راجعا. . ازّخرفت هذه الجدران العارية وأخذت زينتها، وعادت هذه الأبواب، فأسدلت عليها ستر الوشى والديباج، وتحلت هذه السقوف بالصور والنقوش وتدلت منها سلاسل الذهب، تحمل الثريات المرصعة باللؤلؤ. . . عاش الإيوان، وقام في صدره سرير انو شروان، ورجع المجد وعاد السلطان
وحلت الحياة في هذه الصحراء، فنبعت المدائن والقصور من الأرض نبعاً، ونبتت منها نباتا، فنمت في لحظة وأورقت، وعلت واستطالت، ولونت الحياة هذه البرية الكالحة بألوان الزهر، فعادت حدائق وبساتين، كانت لهذه المدائن كالإطار، فرايتها أعظم المدن، وقصورها أفخم القصور، والإيوان أجل صروحها وأعلى ذراها، ورأيت هذه الأبواب التي كانت منذ ساعة تفضي من الصحراء إلى الصحراء، مفتحة للرياح والذئاب. . . قد قامت عليها الحجاب، ووقفت دونها الملوك، وحل على أعتابها المجد، والجدران التي كانت عارية مصدعة، قد شمخت وبذت وعزت، حتى غدت والطير تخشى إن تطير فوقها، أو تحوم في سمائها، ورأيت دجلة التي كانت منذ ساعة تجرى في البادية بعيدة عن الإيوان، معرضة عنه، لا تلتفت اليه، ولا تأبه له، قد غدت ساقية. . . تمشي خاضعة وسط المدائن، وتنحني لتعقد على كتفيها القناطر والجسور، وتفتح صدرها لتضم ظلال هذه القصور، وهى تستنقع فيها في أمسيات الصيف الحارة!
ورنوت بعيني إلى هناك، إلى الحيرة، فإذا الخورنق السامق يعنو للإيوان كما يعنو صاحبه لربه؛ ورميت ببصري إلى بعيد. إلى الجزيرة، فإذا فيها أشباح تجيء وتروح خلال الضباب، تموج كأنها في بحر واسع، وكأن خيامها سفائن يحملها الموج، ويمشي بها مد وجزر، ولكن هذه الأمواج تتكسر على صخرة الإيوان ثم ترقد ضعيفة وانية، والإيوان مشمخر عات، لا ملك اعظم من ملكه، ولا سلطان اعظم من سلطانه، ولا إنسان اعز من ربه؛ وامتد ببصري إلى المشرق والمغرب فلا أرى كالإيوان ثروة وجاهاً وعظمة ومجداً.
ولكن. . . مه! إن في البادية لشيئاً جديداً؛ إنها تضطرب وتهتز؛ إن فيافيها تتمخض بالحياة، ها هوذا النور يشق الضباب الكثيف، حتى يلمع كالبرق الخاطف، بين قصور المدائن وتحت أقبية الإيوان. . . لقد ضرب محمد (صلى الله عليه وسلم) صخرة الخندق، فأضاءت المعجزة الإيوان، فوعده اتباعه وقال لهم: هذا الطريق.
يا للعجب العجاب! إن هذه القرية الملتفة في ألحفة الرمل، النائمة على صخور الحرة، المتوسدة سفح أحد، وجوانب سلع، تريد أن تأكل المدائن!. . بلغ كسرى الخبر، فضحك حتى استلقى. . . ثم جاء كسرى الكتاب، فعبس وبسر، واعرض واستكبر، ومزق كسرى كتاب سيد العالم. . .
لقد نطق سيد العالم بالحكم النافذ: ليمزقن الله ملك كسرى.
وفتحت عيني فإذا الحلم قد تصرم، فغاضت المدائن في الأرض ونزعت الجدران ثيابها، وابتلعت الصحراء زهرها ووردها، وعادت قاحلة ليس فيها إلا هذه الأنقاض جاثمة على ظهرها، قد حطمها الكبر، وثقلت عليها السنون، فانحنت حتى تسلق صبية القرية سطحها يلعبون عليه. . .
الصبية يعلبون على سطح الإيوان! أين كسرى يرى ما صار إليه إيوانه؟ أبناء العرب يتلهون بمجلسك يا شاهنشاه! لقد قوض المجلس، وثل العرش، وهوى التاج، فما أنجدك الجند، ولا أغنى عنك الغنى، ولا حمتك الحمية، ولا آواك الإيوان!
لقد مزق البدو ملكك يا كسرى؛ وما هذا عجيباً، فالتمزيق اسهل من الترقيع، والهدم

اهون من البناء؛ ولقد هدم البرابرة من قبل عرش الرومان. . . غير أن هؤلاء البدو - يا ملك - قد أسسوا حضارة خيراً من حضارتك، وبناء اجل من بناءك، وحكموا اعدل من حكمك. وقد أثمرت حضارتهم حضارة القرن العشرين، وحضارتك لم تثمر شيئاً.
لقد بنت ديمقراطية عمر الذي كان ينام على التراب، ويلتحف بالبرنس، ويؤدب بالدرة، ويعين الفقير، ويخدم العجوز، وينصف من نفسه، لقد بنت ديموقراطيته دولة. أما جبروتك،
وعظمتك الجوفاء، واستبعداك الناس، فلقد هدم دولة!
هذه بغداد الإسلام؛ فيها أربعمائة وخمسون ألفاً؛ وهذا إيوانك تصفر فيه الرياح الباردة صفير الفناء المرعب، وتنشد فيها الطبيعة نشيد الموت!
من الذي كان يفكر أيام عز الإيوان أن صبية العرب ستلعب في أنقاضه؟ من الذي يفكر اليوم بان أطفال الحبشة ستقفز على أطلال روما؟ لا تتعجبوا من شيء، إن الليالي يلدن كل عجيبة. . .
وليعتبر الطغاة، فلقد كان كسرى - يوم كان كسرى - اضخم سلطاناً، واعظم بنياناً، واكثر أعواناً، فأباد الزمان السلطان، ودك البنيان، واهلك الأعوان. . .
اعتبروا. . . فهذا صرح كسرى خال موحش. وهذا قبر سلمان عامر مأنوس. . . قد مات القصر، وعاش القبر! قصر كسرى شاهنشاه، الذي كانت تقوم على بابه الملوك ضاحين حسرى من وقوف خلف الزحام وخنس قد مات، وغدا قبراً في الفلاة؛ . . .
وهذا القبر، قبر فارسي من عامة الناس، يصبح مثوى الحياة، تلتف به البيوت، ويؤمه الزائرون، يقفون حياله خاشعين، ثم يعودون ولا يلتفتون إلى الإيوان وبينهما ثلثمائة متر. . .
اين كان سلمان من كسرى انوشروان؟ أين كان من وزراءه واتباعه؟ أين كان من خدامه وحشمه؟ صه. . لقد خلد سلمان بالإسلام، فكان اعظم من كسرى!
أما بعد، فقد تكون الأهرام اضخم أفخم، وأعمدة بعلبك اجل واجمل، ولكن للإيوان معنى آخر. . .
هنا كان يستقر جلال الماضي كله؛ هنا كانت عظمة الملك وجبروت السلطان؛ هنا كان الذي يستعبد الناس، فيؤلهه الناس. . . لم يبق من ذلك كله شئ. . .
وكانت الشمس قد جنحت إلى المغيب، فنزلت ووقفت أودع الإيوان، فاقترب مني سائل اعمى، وجعل ينفخ في ناي معه نغمة حزينة مؤثرة. . . فكان لها - في تلك الساعة، في صمت الصحراء، ووحشة الإيوان، وغروب الشمس - اثر في نفسي لا يوصف، فقلت: آه. . . ليتني كنت شاعراً.

علي الطنطاوي
مدرس الأدب في الثانوية المركزية ببغداد

إلى الأستاذ الزيات
حركت قلمي (ذكرى ميلاد)!
للمربية الفاضلة الآنسة زينب الحكيم

أحييك من قلب فواجع الحدثان للتتابعها، ويئن من المصائب لتواليها، حتى اصبح قلباً كسيراً ملتاعاً. وأشكرك على كلمتك (ذكرى ميلاد) بقدر ما أشاركك عواطفك النبيلة نحو ذلك (الرجاء) الضائع والأمل المنهار.
لقد هز نفسي هذا المقال هزة عنيفة، وحرك قلمي بعد أن سكن طويلاً ليكتب عن الأطفال، والطفولة الهنيئة. وكنت قد دفنت هذه الذكرى لا تعمداً ولكن قهراً، مع إن أمنيتي في الحياة كانت العمل على إسعاد الأطفال واستمتاعهم بطفولتهم، ولا سيما ونحن في بلد لا يعرف للطفل حقه، ولا يدرك للطفولة كرامتها.
وكم نحن في حاجة إلى آباء مثلك يعنون بدراسة أبناءهم، ويشاركونهم الحياة ليعيشوا وإياهم سعداء.
غالب الظن، أن الأستاذ الزيات لم يدخل مدرسة علم النفس الحديثة، أو هو إذا كان قد فعل لا يطنطن بدراساته المتعددة وجهوده المتكررة كما يفعل بعضهم. إن كلمتك يا أستاذ تعد بمثابة رؤوس لعدة دروس تربيوية جامعة في عالم الأطفال، يجب أن توضح وتدرس للآباء والأمهات جميعا.
فان (فرحك الصادق، واستبشار نفسك بذلك المولود الذي هبطت عليك بشراه هبوط

الملك على زكريا، والذي جعل نفسك تطمئن إلى إن اسمك قد اشترك، ووجودك قد ازدوج، وعمرك قد امتد في الحياة)، كل ذلك ما ينبغي أن يحسه ويشعر به جميع الآباء والامهات، قبل وبعد أن يرزقهم الله أطفالاً، وذلك من أهم العوامل التي تؤثر في حياتهم.

إن ذلك (الرجاء) الذي غير من نظرتك إلى الاطفال، فجعلها نظرة عملية جادة، بعد إن كانت خيالية نظرية، تلك النظرة التي جعلتك تتقرب إلى كل أب، وتسكن إلى كل أم، هي التي جعلتك في هذه الناحية في صف المكلفين المسؤولين. ولعمري إن الرجل المكلف المسئول هو الرجل الحر الذي يعتمد عليه. فلله ما اجمل ما اختصك الله به من فطنة للوجود الحق، وما أقوى ما امتازت به طبيعتك من تكوين الأسرة السعيدة التي هي اللبنة الأولى في بناء الوطن العزيز.

ثم إن خطة تعاقب المآدب، وتقديم الهدايا، وبهجة الدار المتوالية، وإعطاء الصغير فرصة الرياضة في الحديقة، والعناية بنظام حياته كلها، في غير إسراف أو تقتير يتفق تماماً وروح التربية الصحيحة. كذلك إقامة حفلات الميلاد والتعارف بين الأطفال، وما إلى ذلك، لمما يزيد في بهجة الأسر، ويدرب النشء على الآداب العامة من نعومة أظفارهم، ويشعرهم بالواجب، ويعد شخصيتهم للنضوج التدريجي، ويشجعهم أيضاً على قبول كل شيء حولهم وفحصه، من أشياء وأفكار ومبادئ، فيخضعون للصالح منها في غير تأفف، ويأنفون من الطالح في صراحة ويقين.

لقد كنت مثال الأب الصالح بالنسبة لطفلك العزيز، فان مصاحبة الآباء لأبنائهم أثناء شراء لعبهم ولوازمهم، وإعطاءهم فرصة الانتقاء والاختيار مع التوجيه الصحيح والإرشاد الحكيم، يمكنهم من دراسة غرائز أطفالهم وتعرف ميولهم، فيعملون على تربية كل وفق طبيعته.

وكم كنت أباً رحب الصدر، بارعاً في فن تربية الأطفال وهم رجال المستقبل وعدة الوطن حينما كنت تجيب (رجاء) على أسئلته بقدر ما يحتمل عقله، ولا ترد له سؤالاً أو تعنفه عليه، ولو كنت فعلت لما لحظت مخائل نجابته المبكرة، ولا حدة ذهنه وشخصيته القوية المرنة كما وصفت

إلى هنا، يأتي دور العتب على الأستاذ الزيات، في هلع نفسه، وتطيره من الحياة، لان الله اختار ذلك الكم العبق لجواره الكريم (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) أيدري أحدنا لماذا خلق على النمط الذي اختصه الله به؟! أو لماذا يرجعنا الله إليه إن عاجلاً أو آجلاً؟! له فيما يريد ابلغ حكمة

وعهدنا بالأستاذ كبير النفس قوي الإيمان، صقلته غير الدهر وصروف الزمن، فلا ينبغي أن يجزع إلا على قدر

ولست ادري لم تطوى ثياب (رجاء) تعبث بها الهوام وتوارى في الحقائب، وقد لامست جسمه النضر، وتضوع فيها شذى أنفاسه العطر!! ولماذا تخفى لعب (رجاء)، وهو الذي لمسها بيديه الطاهرتين؟! وأتساءل في دهشة: لماذا تستر صور (رجاء) وجميع آثاره؟!!

إن هذا ينافي بقاء ذكراه الكريمة، ويمحو صورته الجميلة من المخيلة، ويذهب بصوته الرائق من الأذن

أيها الأب الكريم! سهل على النفس غرامها، وعلى القلب حنينه، وعلى العقل حيرته. انشر صور (رجاء) في كل مكان جميل في المنزل، وضع لعبه في اكرم مكان وأليقه، وانفض عن ثيابه المطوية الغبار، حتى تتلمسه في كل شئ حولك؛ وضع أثراً من آثاره كمنديل، أو قفاز، أو لعبة صغيرة في مكان يحتمل أن تطرقه على حين فجأة، وانس انك وضعت ذلك الأثر في هذا المكان، فإذا صادفك بعد حين، فاختبر انفعال نفسك بالعثور على ذلك الأثر المنسي، وجدد الذكرى؛ ثم حدث أصدقاءك ومحبيك كلما زاروك عن صور (رجاء) على اختلاف مواضعها ومناسباتها. واشد بذكائه وجمال نفسه، وما كنت تعقد على وجوده من أمل، وبهذا تستطيع إن تبقى (رجاء) حيا في عقلك وفؤادك، وبهذا تستطيع أن تجد رجاء أقوى في (خليفة رجاء). وحذار من تضليل الطفل بعاطفة مصطنعة، فإنها لن تخفى عليه مهما صغر سنه، وان هو عجز عن أن يثأر لنفسه منك صغيراً، فلن فلت منه وهو كبير. واعمل بالمبدأ القائل: احي ويسر للآخرين الحياة

وإني بهذه المناسبة، يحضرني حوار شعري طريف، كنت قد حفظته وأنا طفلة بالمدرسة لشاعر الطبيعة الإنجليزي (وردذورث ألخص معناه فيما يلي:
تخيل الشاعر انه قابل مرة طفلة ريفية راقه حسنها، فاستأذن في محادثتها، وسألها: (ألك اخوة وأخوات أيتها الصغيرة؟ قالت: نعم، نحن سبعة من ذكور وإناث، مات منا اثنان. فقال لها: إذن انتم خمسة الآن لا سبعة؟! فقالت: لا، نحن سبعة. فقال إذا كان قد مات منكم اثنان فالأحياء خمسة فقط!! فأجابته الريفية الساذجة بدهشة ردت الشاعر العظيم إلى صوابه قائلة: ولكنهما حيان عند الله وسنتقابل جميعا في الجنة. .)
هذا يا سيدي الأستاذ تحليل طفلة غربية ساذجة، فهل يجوز أن يكون جواب الشرق في مثل هذه الأحوال كذلك؟!!
الجواب منك وإليك، وأنت صاحب النفس الكبيرة، والإيمان العامر. أطال الله بقاءك، وأجمل عزاءك
زينب الحكيم
من الشعر المنثور
أحبك أيها الشتاء!
للأستاذ خليل هنداوي
ألف أدباؤنا أن يكرهوا الشتاء لأنه فصل قاتم الأحشاء، يفرون)
من جوه الثقيل ولا يدعون شعره بنفذ إلى قلوبهم، ولكني
أراني تدفعني إلى لقاء الشتاء دوافع لا أستطيع لها دفعاً، وقد
اترك القطر الذي لا تظهر فيه آثار الشتاء كثيراً إلى قطري
الذي تتجلى فيه)
(خ. هـ)
احبك أيها الشتاء!
احب غيومك المتناطحة في الأعالي، تغشى السماء فتحجب زرقتها عن العيون، وتسطو على النور فتتركه قاتم الأحشاء
احب خيوطك المتواصلة التي لا تنقطع، كأنها أغنية السماء للغبراء
احب طيورك السوداء النازحة، هائمة بين الأشجار الجرداء، أو محلقة في الأجواء
احب أشجارك العارية لأنها خلعت ثياباً قديمة وطرحت أوراقاً ذاوية، تاركة لغيرها حق النماء
احب عصافيرك التي تتوارى في الغيوم المدلهمة وقد صرفها التأمل عن الغناء
احب هامات الجبال المكتسية بالثلوج، وبطونها التي في كل منحدر منها ساقية تغني، وفي كل منبطح جدول له خرير
احب رائحة الأرض التي تنم عن كنوز تنطوي عليها فأفعم نفسي بشذاها، وأملأ قلبي من طيب ثراها
احبك حيثما كنت أيها الشتاء!
احبك وأنت تزجي إلى مدينتي الغيوم السوداء
تطرح على غامرها وعامرها شباكاً من خيوطك المتواصلة
فما يبالي العاملون بك، ولا يفر الساعون منك؛ يمشون سراعاً تحت شباكك إلى العمل الذي يناديهم!
احب هذه الحجب القاتمة التي يطرحونها على أبدانهم يتقون بها برد الشتاء
انهم يريدون إن يصافحوك تحت هذه السرابيل ولا يريدون منك فراراً
احبك وأنت تغشى مدينتي لأنني أرى قلبها ينبض ويخفق بهؤلاء المتزاحمين صفوفا متراصة في كل شارع؛ تدوي أصواتهم في قلبك وقد كانت هامدة، وتعلو حركتهم في جوك وقد كانت خامدة
احب أنفاسك المتراكمة على المدينة حابسة أنفاسها فيها. . . أتروح هذه الأنفاس فلا أجد إلا نفساً واحداً، وأنت لو ميزت هذا النفس لرأيت انه خليط من أنفاس متباينة؛ أنفاس زفرت من صدور عاملين بائسين؛ وأنفاس خرجت من رجال ونسوة مرحين كلها صدتها أنفاسك تحت غيومك، فردتها إلى المدينة نفساً واحداً، أكاد - إذا تروحته - أن أقول: هذا نفس عاشقة تترنح! وهذه زفرة بائس يتروح!
ولكني لا أجدها إلا نفساً واحداً متمازجاً! يعبق في جو المدينة، وينسل إلى دور المدينة

فنهارك الحائل متحرك، وليلك الحالك متحرك
!هذه الحركة هي أبرز مظاهرك وخير ظواهرك، تشأ وتنمو في حضنك أيها الشتاء
احب حركتك التي تدل على ثورة الأرض والسماء فيك، فكل شئ فيهما وبينهما ثائر يتحرك!
توحي غيومك المتناطحة معنى الحركة، وتهدي عواصفك الثائرة ورياحك الجائرة إلى الحركة، وتعلن في كل مكان نزلت فيه الحركة. . .
أقم ما شئت يا شتاء!
ولتدلهم - ما شاءت - غيومك!
فإنني أحببت كل اضطرابك، وأنست باصطخابك يا علامة النفس الحية الثائرة!
خليل هنداوي
من مرآتي لامرتين لحبيبته إلفير
إلى إلفير
أما الشاعر فانه لقادر على أن يترك لمن يحب ويهوى . . .)
(!حياة لا يهرمها العفاء
لامرتين
ترجمة الأستاذ معروف الأرناءوط
بلى إن نهر (آنيو) ليمور وقد استفاضت أثباجه، ورجع صداها اسم (سنتي) البهي، وكذلك نهر (الفوكلوز) ألا تراه هادراً دافقاً يحمل إلى صخور (تيبور) اسم (لور) المستحبّ، وان لنهر (فه رار) مثل هذا الشأن، إذ ألقى في سمع العصور الآتية اسم (الينور)
يا لهناءة الجمال وقد عكف الشاعر على عبادته واصطفاه حرماً ومقاماً! بل يا لهناءة الاسم الذي يسكن في أغانيه وأناشيده!
أيتها الحبيبة! انك لتستطيعين أن تبعثي أنفاسك الأخيرة، أما الشاعر فانه لقادر على أن يترك لمن يحب ويهوى حياة لا يهرمها العفاء. ألا ترينه وقد سدر في سدفة، يحلق في الفضاء بجناحين من عبقرية وذكاء؟ إنه ليصعد حتى يلتقي مع الخلود في مصاف واحد
لئن كان زورقي، وقد استخذى للرياح البوارح، غبر يمشي قدماً إلى شاطئٍ وادعٍ ساكنٍ، فذلك لان ريحاً لينة سجواء تهافتت عليه ومشت به إلى نورٍ دافقٍ
إذا كانت هنالكَ شموس ابهر للألآءً استفاضت فوق هامتي، إذا كانت دموع الحبيبة غسلت حوبات قدري العاثر ورفهت عن جبيني وقد غشيته ظلال الفناء، فربما كان ذلك
- عفوك يا صاحب النغم الثائر - حادياً بي إلى أمر يتساوى معه تمردي بالحب الذي يستهويني فأصوغ أناشيد الرثاء والنزع واترك في معبد الحب القديم نصباً قائماً وأثراً خالداً
ألا نرى الرجل الجوَّابة وقد اعتسف السير وارتاد حمى الوادي كيف اطمأن إلى الشجرة الفرعاء، ينعم بوارف ظلها ثم استفزته نوازع النفس إلى نقش اسمه على جذعها فترك بذلك أثراً بيناً
أرأيت كيف تنكر كل شئ واستبهم، وكيف غشيت ظلمة الموت حواشي الطبيعة فتعرت
الأرض من روائها، ونصل زبرج الغابات وذوى، واستفاقت أمواج النهر في أعماق الزاخرة الهزج، وهبت على المروج ريح صرصر عاتية صوحت زهرها وأقاحها ومشت عربة الخريف في مزالق السنين تدفعها إلى المجهول يد الشتاء العابثة
إن الزمن والموت حليفان سلاحهما سيف مرهف الحد عظيم الصليل، انهما ليطويان العالم الخامد ويجددانه كر الغداة ومر العشي
ينثال الحصاد في حضيض النسيان الابدي، وكالصيف الذي يتساقط عشبه وينهار، وكالكرمة الذابلة المصفرة إذ ترى الخريف المخصوصب يلقي بأزهارها إلى القطاف، هكذا ستسقطين وتذبلين يا زهرات العمر القصيرة وما تمثل فيك غير الشباب، والحب والسرور والجمال الزائل
انظر بعين رأفة وحب إلى ذلك الشباب الهادر! انه يتألق ويفيض جمالاً ثم يمتصه السرور والفرح، وحينما تنصب كأسه المترعة لن يبقى منها إلا ذكرى ضئيلة، فإن القبر الذي ينتظره يبتلعه بأسره، ثم يسود هذا الحب سكون أبدي

ولكن العصور الآتية ستمر فوق رغامك يا (إلفير) وستعيشين إلى الأبد
(دمشق)
معروف الأرناءوط
. . .إلى نينون
لألفريد دي موسيه
ترجمة الدكتور احمد ضيف
أستاذ الأدب العربي بدار العلوم
ترى. . . ماذا تقولين لي - يا ذات الشعر الأسود والعيون الزرقاء - إذا بحت لك بحبي. .
. الحب كما تعلمين ينبوع أسقام مضنية، بل هو سقم لا يعرف الشفقة. . وانك
لتتجرعين آلامه. مع هذا فقد تتوعدينني بالعقاب
نينون! انك لبارعة. . فقد خفي علي انصرافك عني فلم أتنبأ به؛ فإذا قلت لك إن ستة
اشهر قد انصرمت في صمت وسكون خفيت فيها آلامي المبرحة وآمالي السانحة. .
. . .ربما تقولين انك تعلمين ذلك
فإذا قلت لك إن جنوناً حلواً لذيذاً صيرني ظلاً من ظلالك، وحملني على ألا أفارق
خطواتك. وان شيئا من الشك والوجد، كما تعلمين، جعلك اجمل ما تكونين، قد تقولين
لا أظن ذلك. وإذا قلت لك إني احفظ في سويداء قلبي كل صغيرة وكبيرة من
مسامراتك، وان نظرة ارتياب منك - كما تعلمين - تجعل تلك العيون الزرقاء لهيبا
مشتعلاً. . . إذن لتحرمين علي رؤيتك؛ وإذا قلت لك إن السهاد ينتابني كل ليلة، وان
البكاء يتملكني كل يوم، وإني أدعو الله جاثياً. . نينون! ألا تعلمين انك عندما تضحكين
!تظن النحلة أن فمك زهرة قرمزية. . إذا قلت لك ذلك ربما تضحكين مني
سيخفى عليك أمري فسأجيء إليك صامتا. . اجلس في ضوء مصباحك وأتحدث معك
فاسمع صوتك واستنشق عبيرك، ولك أن ترتابي في حبي وان تظني بي الظنون وان
تضحكي مني، ولكن لن يتسنى لعينيك إن تعرفا لماذا تنظران إلي شزراً؟
ساجني في الخفاء زهرات حافلة بالأسرار , وفي المساء اجلس خلفك واسمع عزف
يديك على البيانو، واشعر بقدك الرشيق يلتوي بين ذراعي كغصن يميد، وأنت غارقة
!في لجة الأنغام المرقصة
فإذا جننا الليل، وبدد النوى شملنا، ودخلت حجرتي، وأرخيت سدولها، تناوبتني ذكريات
أيقضت في نفسي الغيرة؛ فهناك وأنا وحدي أمام الله أهيم فرحاً وسروراً. . . افتح
قلبي، وكأنه خزانة من ذهب، فأجده مملوءاً بحبك. . . إني احب وأعرف أن اكتم
حبي. . . احب ولا ينبئ عن حبي شئ. . . احب ومثلي لا يذاع له سر! فما اعز سري،
!وما اعز سقمي وحبي
لقد أقسمت أن احب في غير أمل ولا رجاء، ولكن في سعادة وهناء. . . إني أراك
وكفى! كلا. . . لم اخلق لهذه السعادة الجلى كي أموت بين ذراعيك أو أعيش تحت
. .قدميك! وا أسفاه! كل شئ ينبئ بذلك. . . حتى آلامي
مع هذا، ترى ماذا تقولين لي - يا ذات الشعر الأسود والعيون الزرقاء إذا بحت لك
بحبي؟
احمد ضيف
هكذا قال زرادشت - 10
للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه
ترجمة الأستاذ فليكس فارس
الصديق
يقول المنفرد في نفسه (لا أطيق وجود أحد بقربي) ولكثرة ما يقف محدقا في ذاته
تظهر التثنية فيه، ويقوم الجدال بين شخصيته وبين ذاته فيشعر بالحاجة إلى صديق.
وما الصديق للمنفرد إلا شخص ثالث يحول دون سقوط المتجادلين إلى الأغوار كما
تمنع المنطقة المفرغة غرق العائمين
إن أغوار المنفردة بعيدة القرار، فهو بحاجة إلى صديق له أنجاده العالية؛ فثقة الإنسان
.في غيره تقوده إلى ثقته بنفسه، وتشوقه إلى الصديق ينهض أفكاره من كبواتها
كثيراً ما يقود الحب إلى التغلب على الحسد، وكثيراً ما يطلب الإنسان الأعداء ليستر
.ضعفه ويتأكد إمكانه مهاجمة الآخرين

من يطمح إلى اكتساب الصديق وجب عليه إن يستعد للكفاح من اجله، ولا يصلح للكفاح إلى من يمكنه أن يكون عدواً. يجب على المرء أن يحترم عداءه في صديقه، إذ لا يمكن لك أن تقترب من قلب صديقك إلا حين تهاجمه وتحارب شخصيته.
أنت تريد الظهور أمام صديقك على ما أنت عليه هاتكاً كل ستر عن خفايا نفسك، فلا تعجب إذا رأيت صديقك يعرض عنك ويقذف بك إلى بعيد.
من لا يعرف المصانعة يدفع بالناس للثورة عليه، فاحذر العرى، يا هذا، لأنك لست إلهاً، والآلهة دون سواهم يخجلون من الاستتار.
عليك بارتداء خير لباس أمام صديقك، لتهيب به إلى طلب المثل الأعلى: الإنسان الكامل.
أفما تفرست يوماً في وجه صديقك وهو نائم لترى حقيقته؟ أفما رأيت ملامحه إذ ذاك كأنها ملامحك أنت منعكسة على مرآة مبرقعة معيبة؟ أفما ذعرت لمنظر صديقك وهو مستسلم للكرى؟
ما الإنسان، أيها الرفيق، إلا كائن وجب عليه أن يتفوق على ذاته، وعلى الصديق أن يكون
كشافاً صامتاً، فامسك عن النظر علناً إلى كل شيء ما دمت قادراً في غفلتك على كشف كل ما يفعله صديقك في انتباهه. عليك أن تحل الرموز قبل أن تعلن إشفاقك، فقد ينفر صديقك من الإشفاق ويفضل أن يراك مقنعاً بالحديد وفي عينيك لمعان الخلود.
ليكن عطفك على صديقك متشحاً بالقسوة وفيه شيء من الحقد، فيبدو هذا العطف مليئاً بالرقة والظرف.
كن لصديقيك كالهواء الطلق والعزلة والغذاء والدواء، فان من الناس من يعجز عن التحرر من قيوده ولكنه قادر على تحرير أصدقائه.
دع الصداقة إذا كنت عبداً، وإذا كنت عاتياً فلا تطمح إلى اكتساب الأصدقاء
لقد مرت أحقاب طويلة على المرأة كانت فيها مستبدة أو مستعبدة فهي لم تزل غير أهل للصداقة، فالمرأة لا تعرف غير الحب.
إن حب المرأة ينطوي على تعسف وعماية تجاه من لا تحب، وإذا ما اشتعل بالحب قلبها فان أنواره معرضة أبداً لخطف البروق في الظلام. . .
لم تبلغ المرأة بعد ما يؤهلها للوفاء كصديقة؛ فما هي إلا هرة، وقد تكون عصفوراً، وإذا هي ارتقت أصبحت بقرة. . .
ليست المرأة أهلاً للصداقة، ولكن ليقل لي الرجال من هو أهل للصداقة بينهم؟ إن فقر روحكم وخساستها يستحقان اللعنة أيها الرجال، لان ما تبذلونه لأصدقائكم يمكنني أن ابذله لأعدائي دون أن ازداد فقراً.
إنكم لا تتخذون إلا الأصحاب، فإلى متى تسود الصداقة بينكم؟
ألف هدف وهدف
لقد شاهد زارا كثيراً من البلدان وكثيراً من الشعوب، فنفذ إلى حقيقة الخير والشر، وعرف أن لا قوة في العالم تفوق قوتهما.
تحقق أن ليس على الأرض من شعب تحلو له الحياة دون أن يخضع النظم والسنن لتقديره، وان كل شعب يرى من واجبه، إذا أراد الحياة، أن يجيء بتقدير يختلف عن تقدير من يجاوره من الشعوب. وهكذا كان ما يراه أحدها خيراً يراه الآخر دناءة وعاراً.
ذلك ما عرفته، فكم من عمل اتشح بالعيب في بلد، رأيته مجللاً بالشرف والفخر في بلد
آخر.
لم أر جاراً تمكن من إدراك حقيقة جاره، بل رأيت كلاً منهما يعجب لجنون الآخر وقسوته.
لقد علق كل شعب في رأسه لوح شريعته، وسطر عليه ما اجتاز من عقبات وما تضمر إرادته من عزم، فما تراءى له صعب المنال فهو موضوع تمجيده، وما خيره إلا حاجة ملحة عز مطلبها، فهو يقدس كل وسيلة تمكنه من الظفر بهذه الحاجة.
إن كل ما يوطد الحكم لهذا الشعب، وكل ما ينيله النصر والمجد ويلقي الرعب في روع جاره مثيراً حسده إنما هو في نظره ذو المكانة الأولى، وما احتل المقام الأول في

اعتباره يصبح مقياساً لجميع أموره ومعنىً لجميع ما يحيط به؛ فإذا ما تمكنت من الاطلاع على حاجات أي شعب وخبرت أرضه وجوه وحالة جاره، فانك لتدرك النواميس التي تتحكم فيه وتحفزه إلى المجالدة للغلبة على اهوائه، ولتعرف السبب في اختياره مراقيه الخاصة يتدرج عليها لبلوغ أمانيه.

عليك أن تكون سباقاً مجلياً في كل مضمار، فلتتلفع نفسك بغيرتها كيلا تبذل الولاء إلا (للصديق)

إنها لكلمات إذا وقعت في أذن يوناني، ترتعش نفسه لها فيندفع إلى اقتحام الصعاب طلباً للمجد.

(قل الحق، وكن ماهراً في تفويق سهامك من قوسك)

إنها لوصية صعبت وعزت على الشعب الذي اقتبست اسمي منه، وفي هذا الاسم من المصاعب قدر ما فيه من أمجاد.

(اكرم أباك وامك، ولتكن باراً بهما من صميم قلبك)

وهذه الوصية القائمة على إرغام النفس، قد عمل بها شعب آخر فبلغ القوة واصبح خالداً.

كن أميناً وابذل للأمانة دمك وشرفك حتى ولو كان جهادك في سبيل ما يضير وما (يورد المهالك).

وهذه أيضاً وصية عمل بها شعب آخر، فتغلب على ذاته واصبح عظيماً تثقله الأماني الجسام.

لقد أقام الناس الخير والشر، فابتدعوهما لأنفسهم، وما اكتشفوهما ولا أنزلا عليهم بهاتف من
السماء.

لقد وضع الإنسان للأمور أقدارها ليحافظ على نفسه، فهو الذي أوجد للأشياء معانيها الإنسانية.

ما التقدير إلا الإيجاد بعينه، فأصغوا إلي أيها الموجدون.

ما الكنوز والجواهر إلا أشياء أرادها تقديركم جواهر وكنوزاً، فما القيمة إلا اعتبار، ولولا التقدير لما كان الوجود إلا فتوراً لا نواة فيها. اسمعوا أيها الموجدون: إن قيمة الأشياء تتغير تبعاً لتحول اعتبار الموجد، ولا بد لهذا الموجد من أن يهدم في كل حين.

لقد كانت الشعوب تتولى الإيجاد في البدء حتى ظهر الأفراد الموجدون، فما الفرد في الواقع إلا احدث هيئات الوجود.

لقد أقامت الشعوب لنفسها قدماً شريعة خيرها، وما نشأت هذه الشريعة إلا باتفاق المحبة التي طمحت إلى السيادة، والمحبة التي رضيت بالامتثال.

إن هوى المجموع اقدم من أهواء الفرد، وإذا كان خير الضمائر ما يكمن في المجموع، فان شرها ما يتجلى في الفرد المعلن شخصيته.

والحق أن الشخصية المراوغة التي لا محبة فيها، الشخصية التي ترمي إلى الاستفادة من خير الأكثرية، إنما هي عنوان انحطاط المجموع لا مبدأ كيانه.

ما خلق الخير والشر في كل عصر إلا المتهوسون المبدعون، وما أضرم نارهما إلا عاطفة الحب وعاطفة الغضب باسم الفضائل جمعاء!

لقد شاهد زارا كثيراً من الشعوب والبلدان فيما رأى قوة على الأرض تفوق قوة المتهوسين، والقوة معنى لكلمتي الخير والشر.

ما أشبه ما يستدعى التمجيد ويستوجب العقاب بالمسخ الهائل، فمن له بسحق هذا المسخ، أيها الاخوة؟ من سيشد بالأغلال على ما يتلع هذا الحيوان من آلاف الأعناق؟

لقد بلغت الأهداف الألف عداً إذ بلغ عدد الشعوب الفاً، فنحن بحاجة إلى قيد واحد لألف عنق، لأننا بحاجة إلى هدف واحد، فالبشرية لم تعرف حتى اليوم لها هدفاً، ولكن إذا كانت الإنسانية تسير ولا غاية لها، أفليس ذلك لقصورها وضلالها؟

هكذا تكلم زارا

(يتبع)

فليكس فارس

تاريخ العرب الأدبي - 12

للأستاذ ينولد نيكلسون

ترجمة حسن محمد حبشي
الفصل الثاني
ثم ملك بعده الحرث الأصغر بن الحرث الأعرج بن الحرث الأكبر؛ ومن ولد الحرث الأعرج أيضاً عمرو بن الحرث الذي كان النابغة سار إليه فارق النعمان بن المنذر؛ وكان يقال لعمرو أبو شمر الأصغر ومن ولده المنذر بن الحرث والأيهم ابن الحرث، والأيهم هذا أبو جبلة بن الايهم؛ وجبلة آخر ملوك غسان، وكان طوله اثني عشر شبراً، وكان إذا ركب مسحت قدمه الأرض، وأدرك الإسلام فأسلم في خلافة عمر بن الخطاب ثم تنصر بعد فلك ولحق بالروم. وكان سبب تنصره انه مر في سوق دمشق فأوطأ رجلاً فرشه فوثب الرجل فلطمه فأخذه الغسانيون فادخلوه على أبى عبيدة الجراح فقالوا هذا لطم سيدنا. فقال أبو عبيدة: (البينة بان هذا لطمك؟) قال وما تصنع بالبينة؟ قال إن كان لطمك لطمته بلطمتك. قال ولا يقتل؟ قال لا. قال تقطع يده؟ قال لا، إنما أمر الله بالقصاص فهي لطمة بلطمة، فخرج جبلة ولحق بأرض الروم وتنصر ولم يزل هناك إلى أن هلك). وإن الأخبار العربية الخاصة بدولة الغساسنة لمحيرة موئسة، وقل أن تمد الباحث بأي مادة حتى يستطيع أن يؤلف من شتاتها هيكلاً تاريخياً تقريبياً بإضافتها إلى النتف المبعثرة في كتب المؤلفين البيزنطيين. ويظهر أن أول أمير مستقل من الغساسنة هو الحرث بن جبلة الذي اختاره جستنيانوس حوالي 529م ليكون في جانبه ضد المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة، وقد قضى الجانب الأعظم من حكمه الطويل (529 - 569) في حروب طاحنة مع منافسة الخطير الذي ذكر شيء عن دفاعه وموته في الواقعة الفاصلة واقعة حليمة التي أشرنا إليها آنفاً، وكان الحرث مسيحياً يعقوبياً، وقد دافع عن هذا المذهب دفاعاً شديداً في حماسة منقطعة النظير في وقت كان التعلق بأهدابه إبانه مجازفة خطيرة. وان القصة التالية لتصور خلقه الخشن المخيف: ذلك انه في أخريات أيامه زار القسطنطينية ليتفق مع السلطة الحاكمة هناك عمن يخلفه من أبنائه، واستطاع أن يجتذب إليه عطف الكثيرين،
وترك أثراً عظيماً في نفوس أهلها وخاصة ابن أخي الإمبراطور جستنيانوس؛ وبعد عدة أعوام حينما تقدم بجستنيانوس عمره وأصابه الجنون، خافه حجابه إذا اخذ يهذي بقوله: (هش سيأتي ارثاس ويأخذكم).
وخلف الحارث ابنه المنذر الذي ظهر على ملك الحيرة الجديد قابوس بن هند عام 570م في الموقعة التي ربما كانت هي المعروفة عند العرب بعين أباغ، وربما يكون رفض الإمبراطور جستنيانوس إمداده بالمال مانعاً إياه (المنذر) من الاهتمام برعاية مصالحه؛ وكان ذلك فاتحة عداء بينهما، ولذلك تلبدت سماء صداقتهما بغيوم عداء ظل مستحكم الحلقات إحدى عشرة سنة؛ ومنذ ذلك الوقت حتى استيلاء الفرس على فلسطين سنة 612م ضربت الفوضى بجرانها، وعمت أرجاء مملكة الغساسنة، فأخذت القبائل المختلفة تختار رؤسائها الذين كانوا بطبيعة الحال، وفي كثير من الأحيان، من جفنة؛ ولكن الأسرة نفسها تحطمت تماماً؛ وغير بعيد إن تكون قد استعادت قواها الداثرة وسطوتها الغابرة، حينما طرد هرقل الفرس من ارض سورية سنة 629م إذ نجد الغساسنة مراراً يحاربون المسلمين بجانب رومة، ويتفق المؤرخون العرب جميعاً على إن جبلة بن الأهيم الجفني - الذي كان له ضلع كبير في النزاع - هو آخر ملك غساني، وقد حكم حوالي سنة 635م؛ وان الشاعر حسان بن ثابت الذي كانت تربطه رابطة القربى بالغساسنة قد زار في شبابه بلاطهم فصور لنا تصويراً شاملاً دقيقاً ما يموج به من صور النعيم والترف والعظمة في قوله (لقد رأيت عشر قيان: خمساً روميات يغنين بالرومية، وخمساً يغنين غناء أهل الحيرة أهداهن إليه إياس بن قبيصة، وكان يفد إليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها، وكان إذا جلس للشرب فرش تحته الآس والياسمين وأصناف الرياحين، وضرب له العنبر والمسك في صحاف من الفضة وأوقد له العود المندى إن كان شاتياً، وان كان صائفاً بطن بالثلج واتى هو وأصحابه بكساء صيفية يتفضل بها هو وأصحابه في الصيف، وفي الشتاء الفراء والفنك وما أشبهه؛ ولا والله ما جلست معه يوماً قط إلا خلع على ثيابه التي عليه في ذلك اليوم وعلى غيري من جلسائه. هذا مع حلم عمن جهل، وضحك من غير مسألة، مع حسن وجه وحسن حديث، ما رأيت منه خناً قط ولا عربدة)

ولم تكن إقامة الغساسنة ثابتة بعكس منافسيهم في الفرات، فقد حكموا الإقليم الذي حول
دمشق وتدمر، ولكن هذه الأماكن لم تكن في حوزتهم أبداً، وكانت عاصمة ملكهم
البدوية (الحيرة) التي ظلت تنتقل معهم هنا وهناك، ولكنها كانت توجد عادة في
الجولان جنوب دمشق، وقد استطاع الغساسنة إن ينشئوا حضارة اعظم من حضارة
اللخميين لتأثر الأولين تأثراً شديداً بالثقافة الإغريقية، وللطبيعة البدوية التي كان عليها
الآخرون الذين كانوا أوثق اتصالاً بالعرب الوثنيين الذين استطاعوا أن يسموهم
بميسهم. وان بعض مظاهر هذه الحضارة لتتضح لنا من خلال الوصف الشائق لبلاط
جبلة بن الأيهم، ذلك وصف الذي ينسب إلى الشاعر حسان. ولما صب النعمان الثالث
ملك الحيرة جام غضبه على الشاعر الألمعي النابغة هرب إلى سورية حيث نظم
قصيدة رائعة امتدح فيها الغساسنة في شخص مليكهم الحرث بن الأعرج، وبعد إن
امتدح بسالتهم وشجاعتهم في ركوب متن الأهوال التي صورها في بيت واحد قوي
يقوله فيه:

ولا عيب فيهم غير إن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

اخذ يقول:

لهم شيمة لم يعطها الله غيرهم ... من الجود والأحلام غير عوازب
محلتهم ذات الأله ودينهم ... قويم فما يرجون غير العواقب
رقاق النعال طيب حجزاتهم ... يحيون بالريحان يوم السباسب
تحييهم بيض الولائد بينهم ... وأكيسة الإضريج فوق المشاجب
يصونون أجساداً قديماً نعيمها ... بخالصة الأردان خضر المناكب

وتاريخ البدو أيام الجاهلية لا يخرج من كونه سجلاً لحروبهم، أو بالأحرى عن ذكر
عصابات كانت تغير على القوافل بين آن وآخر للسلب والنهب، ولم تكن ثمة حاجة إلى
الاستغاثة، بل كان كل فريق منهم يفخر بنسبه، ويرمي الآخر بوابل هطال من الأهاجي
المقذعة وتؤسر الإبل والنساء، كما كانت المناوشات العدة تقوم بينهم، ولكن القليل
منها يؤدي إلى نشوب حرب، وكان ذلك نوعاً من الحروب الهوميرية أتاح فرصة طيبة
للقيام بأعمال تنطوي على البطولة. ويقول ثوريك في ذلك: (وإذا شئنا أن نكتب
التاريخ الواقعي لمثل هذه المنازعات البدوية وجدنا ذلك اقرب إلى المستحيل. أما عن
المصادر المعاصرة لها التي تستأهل عناية الباحث، فليس لدينا سوى القصائد
والمقطعات الشعرية التي ظلت
محفوظة، وطبقاً لما يذكره السيوطي كان العرب يطلبون من أي بدوي يقص حادثة
تاريخية إن يقرنها ببعض أشعار تتعلق بها. وفي الحقيقة أن هذه الأقاصيص وأشباهها
التي حفظت على مر العصور حتى وصلت إلينا قد تبلورت حول القصائد. ومما يؤسف
له أنها قلما كانت صحيحة، وكثيراً ما يتضح أن الأقاصيص قد اخترعت اختراعاً حتى
توافق موضوع الأشعار).

حسن حبشي

الفنون

رمبراندت

للدكتور احمد موسى

بقية ما نشر في العدد الماضي

أما صور الجماعات، فمنها ما هو في منتهى الروعة والقوة. وصورة التشريح تمثل
عدداً من فطاحل أطباء أمستردام متلفتين حول جثة منبسطة على منضدة التشريح،
والدكتور تلب يلقي عليهم شيئاً عن حالة تشريحية معينة أتم الفنان تصويرها سنة
1632، وكانت في دار جماعة الأطباء بأمستردام إلى أن أخذتها الجليري الملوكية في
الهاي. وهي صورة تمثل ثمانية اشخاص، سبعة منهم يستمعون لثامنهم وهو الدكتور
تلب، وتظهر على الوجوه إجمالاً ملامح الوقار العلمي والشوق إلى معرفة الجديد. أما
الدكتور تلب فقد مثل الثبات والهدوء اللازمين للعالم، ماسكاً (جفتاً) بيمينه رافعاً به
الشرايين، ناظراً إلى زملائه، متحفزاً للشرح، مشيراً بيسراه إشارة العالم الواثق الذي
تنبعث من عينيه نظرة محيطة بالدرس والفحص؛ وتبدو على وجوه المستمعين ظاهرة
الرغبة الأكيدة والاستغراب، انظر للواقف إلى جانب الدكتور تلب، ممسكاً صفحة ورق

بيسراه، ألا ترى وجهه ناطقاً بالحياة؟ ثم انظر إلى التكوين المجموعي للرؤوس وقد بدت اللحى نامية تحت الذقن، سنة العلماء ذلك الحين. لقد جمع رمبراندت بين بساطة مظهر العالم وبين جلالة العلم والوقار، أما الجثة فلا يمكن إخراجها بأحسن مما أخرجه رمبراندت، فهي مسلوبة الإرادة تماماً، ترى اليد مرتمية ارتماءً متراخياً على المنضدة، فضلاً عما ظهر على الوجه من علائم فقدان الحياة؛ فالفم مفتوح والعينان مغمضتان، والجسم عار، والذراع الأيسر مشرح ظهرت منه الشرايين ممسوك بعضها بالجفت، وهي في مجموعها لا تدل فقط على القوة في الإخراج، بل تدل أيضاً على النزعة العظيمة التي نزع إليها رمبراندت، فهو ميال إلى الجديد، مدفوع بعامل الفن إلى خدمة النواحي البعيدة التي لولا تفكيره فيها واتجاهه إليها لما شرع في عمل شبيهاتها غيره من بعده

وتكاد تكون أهم لوحاته عموماً صورة الحراسة الليلية وهي أكبرها مساحة، إذ بلغ طولها

أربعة أمتار ونصف متر وعرضها ثلاثة أمتار ونصف أو يزيد قليلاً. وبالرغم من إن الصورة تظهر كما لو كانت تمثل فرقة من الجنود الأمستردامیین خارجين من مركزهم نهاراً، فنظر لما وقع من أشعة النور على جانب من وجوههم؛ إلا إن الظل والنور في الصورة يعطي فكرة صحيحة عن قوة هذا العبقري ولمسه جمال التصوير في ظلام حالك يخترقه شعاع من النور، فيزيد في جلال التصوير بجوار الظلام الحالك. تمثل هذه اللوحة عشرين شخصاً لا ترى وجهاً يشابه الآخر، ولكنه مع هذا جعل الجزء منسجم في الكل ومندمج في المجموع؛ فهو بتصويره على هذه الصفة أشبه بملحن موسيقي يوزع قطعته على آلات موسيقية عديدة، جاعلاً الانسجام الكلي متوافراً بينهما ليتم بذلك الخلق الفني المنشود.

صورها رمبراندت في فترة طويلة وأتمها سنة 1642، وهي مع اتساع مساحتها مليئة بالإنشاء، لا ترى فيها فراغ إصبع دون معنى أو دون عناية، جعل الظل شديداً والنور شديداً فظهرت بألوانها الساحرة معجزة عصره.

ومجموعته للصور الدينية كبيرة عظيمة من أهمها صورة (بولص في السجن) مؤرخة سنة 1627 ومحفوظة باستوتجارت، وسمسون ودليلة سنة 1628 ببرلين، والعائلة المقدسة سنة 1631 بميونيخ وتجهيز الصليب 1633 بميونيخ ايضاً، وانزال المسيح من الصلب 1633، وضحية إسحاق 1635 ببطرسبرج، وسيمون ينذر حماه، وصعود المسيح 1636، وعائلة توبياس 1637 باللوفر، وبعث المسيح 1639 بميونيخ، وبحث العذراء عن المأوى 1640 في جروسفنور هاوس بلندن، والعائلة المقدسة باللوفر، وتضحية مانو مؤرخة 1641 بدرسدن؛ وهي أيضاً تكمل تعريفنا بفنان لا يمضي يوم دون ذكر اسمه في عالم الثقافة والفن. انظر إلى وجهي القديسة والقديس وما بدا عليهما من فرط الخشوع والاستسلام. أما الملابس بثناياها وتفاصيلها، والدار والمدخل والسلم، فكلها بجانب ما ظهر على تكوين الملاك الصاعد شيء ثانوي؛ صوره كما لو كان مسحوباً من أعلى بإرادة خارقة، وتراه وقد تجرد عن الإرادة الذاتية صاعداً دون مقاومة.

وصورة الزوجة الزانية أمام المسيح 1644، والعائلة المقدسة 1645 ببطرسبرج، وإبراهيم مضيفاً لملاك 1645 ببطرسبرج أيضاً، وسوزانا في الحمام 1647 ببرلين، وداود وشارل

يعزفان الهارب بامستردام، وأولاد يعقوب يحضرون لأبيهم بدم أخيهم يوسف ببطرسبرج، وعودة الابن المفقود (وهذه أيضاً من احسن لوحاته) ببطرسبرج.

أما الصورة الطبيعية، والتي تظهر أنها لم تتجاوز الاثنتي عشرة، فمن أهمها صورة الطاحونة وهي في حيازة اللورد لانسدون، وصورة الرعد في متحف براونشيوايج، وصورة منظر جبلي على سفحه بعض خرائب وهي مؤرخة 1560 بجاليري كاسل، وصورة جبال وقع عليها ضوء القمر فجعلها تؤثر على الناظر تأثيراً شعرياً غريباً.

ومجموعته بالقلم الرصاص والريشة معظمها باللوفر وفينا، وبمتحف الصور اليدوية بميونيخ وبرلين ودرسدن، وبالمتحف البريطاني، وبمتحف هارلم وأمستردام غير ما لدى الأثرياء؛ وهي كلها تبلغ حوالي المائتين وستين صورة تصلح لان تكون وحدها رسالة علمية فنية لحلقة في سلسة تاريخ الفن العام.

ولا يحضرني الآن ما أقوله عن رمبراندت الخالد سوى قول شيللر:
(إن الإنتاج الفني الحق لا ينبغي أن يحيط بما هو خارق للعادة من الناحية الإشتمالية البحت، ولكنه ينبغي أن يشمل ما هو خارق لها من الناحية التكوينية، التي بها يتأثر الإنسان بكليته؛ على حين لا يتأثر إلى هذا الحد بالناحية الإنشائية التي لا تهم غالباً إلا الأخصاء ذوي الحاجة المحدودة).

احمد موسى

من هنا وهناك

غاندي والفيران

انتهى سلطان غاندي في الهند وظهرت حقيقة الزعيم الذي كان بريق شهرته يخطف الأبصار. وفي الحق لقد كان الناس معذورين في إعجابهم بغاندي، لا سيما أيام إعلانه العصيان المدني وصبره الجميل لبطش نائب الملك وغطرسة الحكام الإنجليز؛ فلما فشل العصيان المدني ورأى الهنود أن غاندي كان يسخرهم في تيه لا طائل وراءه، هب الشباب في أنحاء الهند يسخطون على المهاتما ولم يبالوا أن يلتفوا حول جوهر لال نهرو. وزهدهم في غاندي انغماسه الشديد في الهندوكية، ودفاعه الحار عن تعاليمها التي هي سبب نكبة الهندوكيين. وغاندي برهمي سخيف العقيدة، فهو مؤمن سني يقدس البقرة ويتبرك بروثها بل يتطهر به، وهو لذلك لا يرى مانعا من أن تترك 70 مليون بقرة سائمة، لا يستطيع أحد أن يطردها من حقله إذا عاثت فيه أو نفشت في زرعه. ويدعي غاندي أنه انصرف عن الميدان السياسي إلى نصرة المنبوذين وتخليصهم، وكان ادعاؤه ذلك جميلاً لو أنه عمل به، ولكن غاندي، بدلاً من أن يوصي بالمنبوذين خيراً ويكف عنهم أذى البراهمة أوصاهم بالصبر على هذا الأذى. . . لأن الدين يأمر بذلك. . . وهو يقول أن الدين يأمر بذلك، ويعلم أن الفيدا - كتاب البراهمة المقدس - لم يرد فيه سطر واحد يهون فيه من شأن هذه الطبقة البائسة. وبذلك كان غاندي ضغثا على المنبوذين، وكان موقفه الموئس سبباً في ثورة الدكتور امبيدكار - زعيم المنبوزين - عليه وتصميمه على الانحياز بإخوانه، وهم سبعون مليوناً - إما إلى المسلمين وإما إلى السيخ.

ولكن المضحك من أمر غاندي هو انهيار ماضيه العظيم وتربيته العالية تلقاء خرافات الصوفية البرهمية التي لا تطاق. فقد حدث أن زلزلت الأرض زلزالها في الهند وانخسف جانب عظيم من الأرض، فما كان من غاندي إلا أن عزا الزلزال إلى غضب الآلهة؟! واحنق بذلك أديب الهند الكبير طاغور. وحدث مرة ثانية أن اجتاح الهند طاعون قتال، فأوصت الحكومة بوجوب محاربة الفيران لأنها اكبر الوسائل في نقل ميكروب هذا المرض. . . فما كان من غاندي إلا أن هب يحمي الفيران ويناضل عنها (لأنها مخلوقات ضعيفة لا حول لها وهي لا تستحق التعذيب والقتل لكي يسعد الناس، والطاعون قضاء من السماء إن شاءت رفعته!!).

بين يوريبيدز وأرسطوفان

كان يوريبيدز عدواً للمرأة، وهو في كل دراماته كان يبشر بالحد من سلطانها وجعل الرجل سيدها المطلق. ولم يكن يؤمن بها مطلقاً، وكان يبني مآسيه دائماً على المصائب التي تنبع من مكرها والتي كان يعزوها إلى الشيطان الثاوي في أعماقها؛ وعلة ذلك انه كان بائساً في زواجه؛ فقد دخل الجحيم عندما تزوج زوجته الأولى، فلما خرج منها تزوج زوجته الثانية استقر في سقر، ولم يسعه إلا أن يطلقها كذلك، وقد طلق زوجتيه لأنهما كلتيهما خانتاه وصبتا إلى غيره. . .

هذا ويوريبيدز أقوى رجال المسرح اليوناني، ودراماته تدل على تفكير عميق وخيال خصب، ولكنه هاج الرأي العام اليوناني بأفكاره المتطرفة وآرائه التي كان لا يتورع أن يسخر فيها بالآلهة، بله الناس.

وقد سلطت المقادير أرسطوفان - الدرامي الكوميدي - على يوريبيدز يوسعه سخرية، ويتخذ من أدبه هزواً؛ وأرسطوفان اكبر أديب مهرج عرفه التاريخ، وهو لا يستحي أن يظهر على المسرح بطل الدرامة راكباً حماراً اعرج، أو يلبس الرجل زي امرأة وما يلبث أن ينكشف آخر الأمر؛ وقد يحشو الرواية بنكات مكشوفة تتصل بالعرض وتنهش الشرف ويحمر لها وجه الفضيلة.

وسنلخص كوميديات أرسطو فان في هذه النبذ في الأعداد التالية، غير أن الذي يروعنا منه في هذه المناسبة هو جراءته الكريهة على سيد أدباء اليونان والتعريض المزري بأمه؛ وكان يبالغ في إيذائه فيتهمها بالدعارة والفجور، وأنها كانت في صدر حياتها تبيع الفجل والخيار والطماطم في (مشنة) تحملها على رأسها وتنادي في شوارع أثينا!! وكان اليونانيون يسمعون هذا البذاء ويغضون. وقد أدى رضاءهم عن أرسطوفان إلى سقوطهم وظهور رومة عليهم.

سرفانتس

هاج ضرب الثوار الإسبانيين للطراد سرفانتس ذكريات سرفانتس الكاتب الروائي الإسباني العظيم صاحب (دون كوبكسوت) والذي يباهي به الإسبانيون الإنجليز كما يباهي الإنجليز كل العالم بشاكسبير. والذي يقرأ سرفانتس لا يلبث أن يتملكه الإعجاب الشديد بذكائه الخارق، ونشاط روحه التي يطبعها المرح، وتسبح في لجة من المزاح البريء والدعابة الخلابة والنكتة الحلوة المضحكة. ولقد كتب سرفانتس مقدمة كتابه (دون كوبكسوت) وهو نزيل السجن، وقد صدرت تلك المقدمة عام 1605 فما لبثت أن ترجمت إلى الإنجليزية ثم الفرنسية بعد صدورها بعام واحد. هذا وقد صدر الجزء الثاني سنة 1615، وقد استطاع سرفانتس أن يتناول في كتابه هذا الخالد حياة طبقات الناس في إسبانيا كما لو كان عائشاً بينهم - ولم تفته طبقة من تلك الطبقات على كثرتها إلا وتغلغل فيها واندمج في معائشها. فهو يصف المحامين والحلاقين، والأطباء والسماسرة، والمعلمين واللصوص، والكهنة وعذارى الأندلسيات من العرب والطباخين وأميرات قشتالة والجزائر. وشخصية دون كوبكسوت شخصية عجيبة اخترعها سرفانتس فجعلها تحب وتكره، وتسخط وترضى، وتنشد المثل الأعلى للحياة والقدوة الصالحة للفروسية، ودون كوبكسوت رجل غريب الاطوار، وهو في الحقيقة يمثل سرفانتس نفسه، لأنه شقي كما شقي صاحبه، وتعذب كما تعذب، وجال في الآفاق كما سجن سرفانتس وحي عبداً رقيقاً في قيود البيئات المختلفة كما حي سرفانتس عبداً رقيقاً عند أحد أمراء الجزائر ببلاد المغرب. ولقد عاش سرفانتس في العصر الذهبي لإسبانيا المسيحية في القرن السادس عشر بعد جلاء العرب والقضاء على صولة ملوك الطوائف، ومات في نفس اليوم الذي مات فيه شاكسبير من عام 1616.

يوريبيدز والسوفسطائيون

يصغر يوريبيدز الشاعر الدرامي اليوناني الكبير مواطنه سوفوكلس بخمسة عشر عاماً، ولهذه الخمسة عشر عاماً أثر كبير جداً في المسرح اليوناني الذي بدله يوريبيدز وغير معالمه إن لم يكن قد هدمه وأقامه على أسس جديدة متينة. ففي هذه الفترة كان السوفسطائيون قد عظم سلطانهم، واتسع مدى تعليمهم، وتأثر الناس بفلسفتهم، لأنهم علموا اليونانيين قواعد النقد، وبذروا في نفوسهم الشك، وجعلوهم يستريبون في كل قديم حتى آلهتهم، لأنهم كانوا يجيدون الجدل ويتقنون المنطق، فوسعهم أن يصبحوا المعلمين الفنيين لجميع الشعب اليوناني المثقف. ولقد تأثر بهم يوريبيدز، وانتهل من مورد فلسفاتهم، ومن هنا ثورته على التقاليد القديمة للمسرح، واستهزاؤه الشديد بآلهتهم، ونظرته إلى هذه الآلهة نظرة السخرية المرة التي تقع في اعتبارها موقع المردة والشياطين الجبارين، لا موقع الأرباب الرحماء.

حقيقة لقد أسخط يوريبيدز قومه، ولكنه فتح عيونهم على حقيقة الحياة، وبدلاً من أن يقدم لهم روايات أبطالها الأرباب وأنصاف الارباب؛ قدم لهم روايات أبطالها هؤلاء الناس، وحوادثها تلك الحوادث التي تزدحم بها الحياة كل يوم. . . الحب والبغضاء، والحقد، والطمع، والأنانية، و. . . المرأة!.

ولا نغالي إذا قلنا إن يوريبيدز هو الذي أنار الذهن اليوناني واعد الأفكار لثورة الفلاسفة (سقراط وأفلاطون وأرسطو. . .) وبالتالي فهو الذي أنار أذهاننا منذ اكثر من أربعة وعشرين قرناً.

هل برنردشو كافر؟

لا تستطيع أن تدعو برنردشو فيلسوفاً؛ مع انه احسن الفلاسفة الذين يعيشون في العصر الحديث، وليس في هذا الكلام تناقض، إذ لا تستطيع أن تحدد فلسفة شو كما

تحدد فلسفة نيتشه أو كانت أو ديكارت أو برجسون، وكل من هؤلاء قد ترك أثراً كبيراً أو طفيفاً في عصره وبيئته، ولكن شو قد ترك آثاراً جليلة في الدنيا برمتها، وسيعيش أدب شو، ولكن أدباً كأدب ولز سيموت. ذلك أن أدب شو كتب لهذا الجيل وللأجيال القادمة، أو قل انه كتب للنفس البشرية في كل العصور، ولكن ولز يكتب لهذا العصر الذي نعيش فيه فقط، وقد ماتت كل كتبه التي دعا فيها إلى الإخاء الأممي. وها هي ذي الدكتاتوريات تبتلع آراءه وتغيبها في أعماق الظلام. ولذلك كتبنا مرة أن ولز قد مات وكان ذلك يوم الاحتفال ببلوغه السبعين، وكنا نقصد انه مات بأفكاره وكتبه وقصصه لولا أن سها الصفاف فاغفل هذه العبارة. وفلسفة شو هي باقات يانعة من الآراء الاجتماعية منتثرة في قصصه ودراماته، وليست له نظرية محدودة كما للفلاسفة، ولكن الذي يبرز بروزاً واضحاً منها هو كفره الصريح وإيمانه بان الله هو الحياة نفسها، وليس شيئاً آخر. ومع أن هذا الرجل متأثر إلى حد بعيد بالطهريين، وهو إلى الآن ينحو نحوهم في امتناعه عن إيذاء الحيوان والاكتفاء بالأغذية النباتية فانه يكفر بأفكارهم ويثور على تقاليدهم الاجتماعية بكل ما فيه من قوة وجلد. وقلما ألف شو في الحب، وهو يستهزئ بالمحبين، ولذلك لم ترج دراماته في مصر خاصة، وفي ممالك البحر الأبيض عامة، ذلك لان شعوب هذا البحر شعوب وجدانيون مولعون بالموسيقى والرقص والغناء والفنون، وهذه كلها من آلات الحب، ويدلنا ذلك أيضاً على رجحان العقل في رأس شو على القلب في صدره، ولذلك لم ندهش يوم زار مصر وتفرج على آثار توت عنخ واحتقرها، وقال انه جدير بمصر أن تبيعها للأمريكان وتبني بثمنها سدودا على النيل أو تسدد بها ديونها. حقا إن شو لكافر!.

د. خ

البريد الأدبي

ذخائر أسبانيا الفنية

أثارت أهوال الحرب الأهلية الإسبانية جزع الكثيرين على مصير ذخائر إسبانيا الفنية والأدبية، ولكن السنيور كارلوس مونيثلو رئيس الجنة التي الفت للمحافظة على هذه الذخائر يؤكد لنا أن تراث إسبانيا الفني قد نجا من السلب والتخريب، وانه اليوم حيثما يصان من كل عبث، ولم تفت هذه المشكلة الخطيرة حكومة مدريد حينما اشتدت وطأة الحرب الأهلية، فقد الفت لجنة من العلماء والفنيين لتعنى بالمحافظة على تراث إسبانيا الفني؛ وبادرت اللجنة بنقل ذخائر الاسكوريال (ومنها المكتبة العربية الأندلسية) إلى مكان امين؛ ولما اشتد هجوم الثوار على مدريد وتقاطرت قنابلهم على المدينة المحصورة نقلت اللجنة معظم الذخائر الفنية إلى بلنسية حيث تقوم الآن حكومة الجمهورية. ويقول السنيور مونيثلو انه قد فقدت بعض الذخائر أو أتلفت خلال الحرب، ولكن من جهة أخرى وجدت ذخائر كثيرة كانت مدفونة في أعماق الأديار أو مخبأة في المجموعات الخاصة، وهذه وحدها تعدل كل ما فقد أو أتلف أو تزيد عنه. وقد وجدت أيضاً عدة صور ومخطوطات ثمينة في المنازل والمكاتب الخاصة التي تركها أصحابها حينما اقترب الثوار من مدريد، ومنها مخطوطات كانت قد سرقت من الكتبة الوطنية وقد سجلت هذه الذخائر كلها في قوائم سرية حيث لا يعرف بوجودها أحد، وحتى يبت في مصيرها متى وضعت الحرب أوزارها، ومما عثرت عليه اللجنة من الذخائر المجهولة مخطوط بأغاني برثيو أقدم شاعر إسباني، ومخطوط من كتب لوبي دي فيجا اعظم شعراء إسبانيا. وقد زعم الثوار أن الجمهوريين أتلفوا ذخائر كنيسة طليطلة ومنها صورة الجريكو الشهير، ولكن السنيور مونيثلو يؤكد أن الجمهوريين غادروا الكنيسة سليمة بكل ذخائرها وحافظوا عليها حتى اللحظة الاخيرة، وحاولت اللجنة الجمهورية أولاً أن تحمي المتاحف العامة بوضع أكياس الرمل وحظائر السمنت، ولكن إلقاء القنابل المحرقة كان يهددها بالدمار، فعند إذ قررت نقلها من مدريد، ونقلت معظم الذخائر الشهيرة مثل صور موريليو، وفيلاسكيز، ونقوش جويا، وصور رافائيل كلها إلى بلنسية، ولما شبت النار في قصر دوقات ألبه من جراء قنابل الثوار، بذل الجمهوريون جهداً عنيفاً لإنقاذ معظم ما فيه من الذخائر الفنية، وهكذا استطاعت الحكومة الجمهورية خلال الأهوال والخطوب أن تنقذ معظم تراث إسبانيا الفني ليبقى ذخراً لإسبانيا وللحضارة كلها.

حول تنظيم المسرح المصري

نشرت مجلة (الكوميديا) الفرنسية في أحد أعدادها الأخيرة مقالاً عن تنظيم المسرح المصري، ذكرت فيه أن المسيو جورج ريمون مراقب الفنون الجميلة بوزارة المعارف العمومية قد اقترح على الوزارة أن تنتدب الفنان الفرنسي الكبير المسيو اميل فابر المدير السابق لمسرح (الكوميدي فرانسيز) ليقوم بمهمة تنظيم المسرح المصري. والأستاذ فابر من اعظم الأخصائيين في فن التنظيم المسرحي، ومن أعظمهم مقدرة وافتتاناً؛ وقد اشرف مدى أعوام طويلة على تنظيم مسرح الكوميدي فرانسيز وهو مسرح الدولة، وأحرز على يديه تقدماً باهراً. ولكن الذي يدعو إلى التأمل أن ينتدب المسيو فابر لتنظيم مسرح شرقي ذي تقاليد خاصة تمتزج بعادات الشعب وعقائده الدينية، ذلك أنه إذا كانت روح المسرح ومقاصده واحدة في مختلف المجتمعات، فانه يختلف في توجيهه وفي مظاهره وفي وسائله لتحقيق غاياته الثقافية، باختلاف الأمم والشعوب، وهذا ما نرجو أن تفطن إليه وزارة المعارف.

وقد صرح مسيو فابر لمكاتب الصحيفة المذكورة انه قد خوطب فعلاً في قبول هذه المهمة وانه قد يسافر قريباً إلى مصر.

مجموعة شعرية فرنسية عن مصر

أصدرت السيدة إيمي خير الكاتبة الشاعرة المعروفة وعضو نادي القلم المصري مجموعة شعرية جديدة بالفرنسية عنوانها (تعاريج النهر) وتحتوي هذه المجموعة على عشرات من القصائد والمقطوعات الساحرة في وصف أيام مصر ولياليها، ومروجها وضفاف نيلها؛ وعدة أخرى في سعادة الأمومة ومتاعبها. ويمتاز نظم السيدة إيمي خير بالدقة والبساطة المؤثرة؛ وهي فوق كونها شاعرة أديبة ممتازة، عالجت القصة وأخرجت منذ بضعة أعوام بالفرنسية قصتها المعروفة (سلمى وقريتها).

بعض أوراق البردي المصرية

كانت مكتبة ريلاند الشهيرة بمنشستر قد اقتنت في سنة 1917 على يد الدكتور رندل هاريس مجموعة من أوراق البردي المصرية، وبينما كان العلامة الأثري الأستاذ روبرتس يعنى أخيراً بفحص هذه المجموعة إذ استوقف نظره قطعة سميكة من الورق المقوى كانت قد وجدت في تابوت مومياء، وظهر بفحصها أنها مجموعة من عدة أوراق البردي ألصقت معاً، فتولى الأستاذ علاجها ووصل أوراقها، ولجأ في ذلك إلى عدة عمليات صعبة دقيقة، وكلل مجهوده بالنجاح إذ أخرجت كل ورقة منها على حدة، ووجد أنها عبارة عن مجموعة أدبية شعرية ترجع إلى القرن الثاني قبل الميلاد؛ ومن بينها عدة مقطوعات من كتاب (الدوترونوم)، وعدة أخرى من الكتاب الأول من (الإلياذة)، وقطعتان من مأساة يونانية قديمة، وقطعة من كتاب تاريخي، وبعض قصائد متفرقة؛ فعولجت الأوراق جميعها، وألقيت عليها طبقة من الصمغ تمسك أجزائها.

عصير البرتقال والدم الإنساني

هل يحل عصير البرتقال مكان الدم الإنساني؟ إن عملية نقل الدم الإنساني من شخص سليم قوي البنية إلى شخص عليل يحتاج إلى الغذاء الدموي ليست حديثة، فقد ظهر من النقوش والصور المصرية القديمة أنها لم تغب عن تفكير الطب المصري القديم. ولكن هذه العملية تغدو اليوم من أهم الظواهر والوسائل الطبية في عصرنا؛ وفي برلين وحدها مائة شخص من الأقوياء يعطون دمهم للمرضى؛ واشتهر من بينهم بالأخص شخص يدعى إدموند أكارث تبرع منذ سنة 1933 إلى نحو خمسين مريضاً بدمه وخص كل منهم نحو نصف لتر، والمدهش في أمر هذا الرجل انه يعيش طبقاً لنظام خاص، ويشرب كميات كبيرة من عصير البرتقال والليمون، ويؤكد أن هذا العصير من اعظم المقويات الغذائية والدموية وهو يتناول منه نحو ثلاثين قدحاً في اليوم. وقد أثارت حالة هذا الشخص دهشة الأطباء، ويتولى بعضهم فحصه ليرى مبلغ ما يمكن أن يؤديه عصير البرتقال في تقوية الدم وغزارته.

التدريم بمناسبة ما جاء في افتتاحية العدد الماضي

أهم شيء في (المنيكير) هو تسوية الأظفار بعد القص، فإذا وضعت لها لفظة (التدريم) مشت الحال.

جاء في القاموس المحيط: (درم أظفاره تدريماً سواها بعد القص).

والاصطلاح والاستعمال سيشملان سائر تلك العناية باليد، وهل اللغات اصلها إلا تواضع واصطلاح، فيقال:

فن التدريم، تدريم اليد، درمت يدي، الآنسة المدرمة، الأوانس المدرمات، ما اجمل هذا التدريم.
(وفوق كل ذي علم عليم)
أحد القراء
النشيد القومي
نشرت جريدة الأهرام هذا الخبر:
تلقى حضرة صاحب المعالي وزير المعارف كتاباً من لفيف من حضرات أصحاب الفضيلة أعضاء هيئات التدريس بكليات اللغة العربية وأصول الدين والشريعة الإسلامية والمعهد الأزهري يرفعون فيه باسم اللغة والدين إلى معاليه اجمل عبارات الشكر والتقدير لإقراره النشيد القومي، حامدين لأعضاء لجنة التحكيم يدها البيضاء على البلاد وعلى رأسهم سعادة رئيس مجلس النواب.
وقد طلبوا إلى معالي العرابي باشا تعميم النشيد بين جميع أبناء البلاد طلاباً وشعباً؛ ثم رجوا في آخر كتابهم أن تساير النهضة الوطنية الحاضرة نهضة دينية لتصبح البلاد مثلاً أعلى في الفكر والدين والخلق.
وهذا الخبر العجيب في صورته العجيبة، هو إجماع من لفيف من حضرات علماء الأزهر الشريف على أن النشيد لا غلط فيه ولا إلحاد ولا ضعف ولا ركاكة، ثم هو إعلان للناس جميعاً ليقولوا سمعنا واطعنا. . .
ومعنى هذا أن لفيفاً من حضرات علماء الأزهر يردون على ما نشر في (الرسالة) من غلطات هذا النشيد رداً لا برهان فيه إلا كلمة (العلماء).
وهل يكفي في مثل هذا القرار أن ينسب إلى لفيف من علماء الأزهر ليقول للناس: (إنه لقول فصل وما هو بالهزل)؟ ونحن في زمن العلم الذي قاعدته (هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين)؟. . .
لقد نزل حضرات العلماء إلى المعركة، فلنا أن نطلب منهم الرد على ما جاء في (الرسالة) من غلطات النشيد واحدة واحدة. . فان لم يتفضلوا بذلك قلنا لهم الكلمة المشهورة: ولو أفتاك المُفْتون. . . نعم ولو:. .
السيد زيادة
الاجتهاد في الأصول
قال الأستاذ عبد المتعال الصعيدي (الرسالة 179): وان الرسول صلى الله عليه وسلم جعل للمجتهد إذا اخطأ أجراً واحداً وإذا أصاب فله أجران، ولم يفرق في ذلك بين أصول وفروع، بل أطلق الأمر إطلاقاً، وفتح باب الاجتهاد في الأصول والفروع معاً فأنكرت هذا القول أشد الإنكار، وعجبت منه أشد العجب لان الاجتهاد (في تعريفه الأصولي) هو بذل الجهد في طلب العلم بأحكام الشريعة، وهو عبارة عن استنباط الفروع من الأصول، ولأنهم ينصون في كتب الأصول (راجع كتاب الخضري، وهو اقرب المراجع ص 457) ينصون على أن المجتهد فيه هو كل حكم شرعي ليس فيه دليل قاطع، يخرج من ذلك ما لا مجال للاجتهاد فيه مما اتفقت عليه الأمة من جليات الشرع، أما المسائل الكلامية، أي الأصول (راجع الخضري ص 462) فالحق فيها واحد ومن أخطأ فهو آثم، فان كان الخطأ فيما يرجع إلى الإيمان بالله ورسوله فالمخطئ كافر.
وقد ألحق الأصول بالفروع الجاحظ وأشباهه، ممن لا يعتد بهم، ويتضح بطلان مذهبهم لكل من كان واقفاً على شيء من علم الأصول.
علي الطنطاوي
هومير لابلاند
نعت إلينا أنباء السويد الأخيرة كاتباً من طراز خاص هو صائد الذئب والكاتب اللابي الشهير يوهان توري توفي ببلدته يوكاسيرفي في قاصية لابلاند (شمال السويد) في الثانية والثمانين من عمره؛ وكان توري في شبابه من أشهر صائدي الذئب في تلك الأنحاء
الثلجية، وكان كاتباً وشاعراً ملهماً بالفطرة حتى انه سمي (هومير لابلاند)، وعرف توري لأول مرة حينما اصدر كتابه الشهير عن الشعب اللابي بلغته الأصيلة التي يجيد الكتابة بها، ويرجع الفضل في حثه على تأليفه وإخراجه إلى آنسة دانماركية تدعى

إميلي ديمانتهات عرفته في رحلة لها إلى لابلاند حيث أقامت حيناً بين القبائل اللابية ودرست أحوال معيشتهم، وعندئذ فاتحها توري برغبته في وضع كتابه عن حياة هذا الشعب القطبي المدهش، ولم يكن معتاداً على الكتابة ولا على الجلوس إلى المكتب، فشجعته وعاونته حتى أتم الكتاب؛ ثم ترجمته إلى اللغة الدنماركية، فنال نجاحاً عظيما وذاعت شهرة مؤلفه في الأمم الشمالية كلها

وكتب توري بعد ذلك عدة كتب باللغة اللابية أيضاً وترجمت جميعها إلى السويدية والنرويجية والدنماركية؛ وأنعم عليه بوسام شرف لما أداه من مجهود في التعريف بجنسه وأمته؛ وكان فوق مواهبه الأدبية يشغف بالرسم، وله عدة لوحات قطبية بديعة نالت تقديراً وإعجاباً

وكان توري صياداً بارعاً ويقال انه قتل من الذئاب ما لم يقتله أي صائد آخر في عصره، وكان في أعوامه الأخيرة يعيش من راتب صغير أجرته عليه الحكومة، ويغذي نفسه بالأسماك التي يصيدها بنفسه، وقد احتفل مواطنوه منذ عامين ببلوغه الثمانين في حفلة قطبية رائعة أفاضت في وصف طرافتها وبهائها الصحف السويدية

الكتب

وحي القلم

تأليف الأستاذ مصطفى صادق الرافعي

اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم

للدكتور عبد الوهاب عزام

أنا معجب بالرافعي منذ قرأت له. وأحذر أن يغطي الإعجاب على بصري، وتكل عين الرضا عن العيوب، وقد اتهمت نفسي، ولتكافئ التهمة الإعجاب، ويعادل الحب الارتياب.

الرافعي نسيج وحده؛ تقرأ له فتشعر أنك في اختراعه وتصويره، وبيانه وتفكيره، لا يذكرك بأحد، ولا يذكرك به أحد. وحسب الكاتب أن يكون كوناً مستقلاً يستملي الضمير، ويبدع في التصوير، وكثير من الكتاب قوالب تختلف أحجامها وأشكالها ولكنها صور مستعارة لا تفتأ تستعير مادة عملها.

بين شعراء الفرس شاعر تسمى (خلاق المعاني)؛ والرافعي في وحي القلم جدير بهذا اللقب. وما اعسر الخلق هنا وما اصعب الإبداع. يعمد إلى الحدث الصغير ذي المعنى المحدود فيحطم حدوده ويصله بالبشرية كلها، أو يشيعه في العالم كله، ويصوره صوراً تلقى القارئ بجدتها وروعتها: والكاتب الملهم يرى الخليقة أسباباً متصلة، ومعاني متجاوبة، وصوراً متجاذبة، فما يبصر ذرة إلا رأى وراءها الفلك، ولا يمسك شعاعاً إلا جذبه إلى الشمس، وكأن كل شيء في الوجود عين تطل على العالم غير المحدود. تنثال عليه الفكر وتتزاحم أمامه الصور، فيكون همه أن يشق طريقه بين المعاني المتزاحمة ويحد سبيله بين الطرق المتشعبة، وان يطرد المعاني التي لا يريدها عن المعاني التي يقصدها. فهو من الخصب في نصب - نصب الكاتب المقلد من الأجداب والأجيال.

العالم أمام الرافعي كتاب مفتوح، يدرك فيه جمال الحروف، وحسن السطور، ثم ينفذ إلى ما لا ينتهي من المعاني. وما يزال يعرض المعنى الواحد في صور رائعة حتى يدع القارئ معجباً حيران، قد اجتمعت على القراءة خفقات قلبه، ونظرات عينه، وأسارير وجهه. فلو أن الرافعي صور هذه الخفقات وبين هذه النظرات والقسمات لاسترد البيان الذي أفاضه

على قارئه

والرافعي يغرب أحياناً، أو يدق فينبهم معناه. وفي هذا ثورة بعض الأدباء عليه، ولكن الذي آمن بقدرته فيما وضح واستبان من كلامه يؤمن انه حين يغمض يتحيل لمعنى دقيق خفي لم ترضه الألفاظ، ولم يذلله الكتاب، أو يتلطف لفكر نفور آبد ليختله. وكثيراً ما يخيل إلي وأنا اقرأ آبدات الرافعي إني اتبع بصري طائراً يرتفع في اللوح ثم يرتفع حتى تضمره السحب؛ فلا تراه العين ولكنها تعرف انه في جو السماء. فان قيل أن هذا حكم الإعجاب والرضى، قلت فإني اتهم نفسي فلا ادفع عن هذه الأوابد. ولكن وحي القلم بريء من الغموض والانبهام، وإنما اكتب اليوم عن وحي القلم.

وهذا الكاتب النابغة نزاع إلى الجمال، طماح إلى الفضيلة، مولع بكل خلق كريم، فلا

يعالج أمراً إلا حلق به إلى الجمال والرأفة والرحمة والإحسان والحرية والإقدام وهلم جراً.
وقلبه فياض بالإيمان والطهر، فإذا كتب في الدين وما يتصل به ارتقى إلى حيث تنقطع المطامع. اقرأ مقاله: (سمو الفقر في المصلح الاجتماعي الأعظم). إنها تملأ القارئ إعجاباً، وتسمو به حتى يحسب نفسه ملكاً محلقاً يرى مآتم الناس ومصائبهم من حيث لا تتعلق به ولا تستهويه؛ ولا يوفق لهذا البيان إلا مسلم ملهم كالرافعي، يكتب في حقيقة علوية كالنفس المحمدية. ثم اقرأ في مقاله: (الله اكبر) وصف المسجد ونشيد الملائكة؛ لقد قرأت فكانت تنبعث التكبيرة من قرارة نفسي، فامسكها مؤثراً الاستماع إلى هذا التكبير الذي يدوي به المسجد؛ فلما انتهى المقال لم املك إن رفعت صوتي بآخر كلمته منه (الله اكبر)
هذه النزعات العلوية، والسمو الروحي يتجلى في مقالاته: الإشراق الإلهي، فلسفة الإسلام، حقيقة المسلم، وحي الهجرة، فوق الآدمية، درس من النبوة، شهر للثورة، ثبات الأخلاق.
الرافعي كاتب الإسلام والعربية، يتناول الحديث الصغير في تاريخ الإسلام ومآثر العرب فيجعله عنوان فصل بليغ من الحكمة والموعظة، يسايره فيه القارئ متعجباً: كيف ولدت الواقعة الصغيرة هذه المعاني التي تحاول أن تكون تاريخ جيل؟. اقرأ (زوجة إمام) و (السمكة). واقرأ (يا شباب العرب) و (يأيها المسلمون).
وهذا الكاتب السماوي ابرع الناس تحليقاً بالحب الطاهر، وأعظمهم ترفعاً به، وأبصرهم بالمهاوي والمهالك التي يحلق عنها هذا الحب العلي الأبي. نظرة إلى السماء تصف العلاء
والمضاء والطهر والسمو الروحي الذي لا يحد، ونظرة إلى الأرض تصف السقوط الحيواني، والهوى الشيطاني؛ فترى القارئ مدعواً إلى السماء، مطروداً عن الأرض، طائراً إلى الخير، نافراً عن الشر.
وإذا وصف صاحبنا الجمال، بث في العالم معانيه، ونقض عليه ألوانه، فكأنما خلق العالم خلقاً جديداً. يخلق من الشعاع شمساً، ومن القطرة نهراً، ومن الوردة حديقة؛ ثم يغرد فلا يدري أهذا التغريد تفسير هذا الجمال، أم هذا الجمال تصوير هذا التغريد. .
ولا يدري القارئ أهو في ربيع باهر، أم في بيان ساحر؟. وما أشبه قلمه وهو يشقق المنظر الغفل عن سرائر الجمال بإبرة الحاكية، تسلط على الصفحة الجامدة السوداء فتردها كلاماً وأنغاماً وألحاناً؛ واقرأ (عرش الورد) ترى كيف جعل ابنته على عرشها مركزاً يحيط بها الجمال فلكاً دائراً.
ولله مصطفى حين يتغلغل في الجماعات، فيحس آلامها، ويصف أسقامها، ويعرب عما في ضمائر البائسين، وعما في رءوس المتكبرين؛ ولا يزال بالمعنى الذي يراه الناس جماداً، يقدحه حتى يخرج منه النار والنور. ويأخذ الحادثة الصغيرة ينطقها بما وراءها، ويكشفها عما انطوت عليه حتى يقيم بها للإنسانية عرساً أو مأتماً. اقرأ (أحلام الشارع) تسمع أنات البشرية وتر عبراتها وتلمس مصائبها مصورة ملونة بدم المهج وماء العيون ونار الزفرات وحز الحسرات وسواد الفاقة والذلة؛ ثم تسع لعنة الإنسانية على لسان ما خلقت الإنسانية من قوانين. والعجب انك كلما أسال الحزن عبراتك طبع البيان الساحر على شفتيك بسمة إعجاب لا تملك نفيها. واقرأ (عربة اللقطاء) تر انه صاغ من أساريرهم حروفاً للهجاء تسع كل معنى، وتتمثل الآثام التي ولدت هؤلاء، والمصائب التي يحملها هؤلاء، والمفاسد التي سيلدها هؤلاء. وتقرأ (لحوم البحر) فتستمع إلى الشيطان والملك، كل ينشد أناشيده. ويستخرج الرافعي منها دعوة إلى الفضيلة ولعنة للرذيلة، وهو قادر تسخير الشيطان لبيانه. فقد أعطي في البيان ملك سليمان.
وإذا وعظ مصطفى الصادق نفذ إلى السرائر، وصور للإنسان فضائله ورذائله تصويراً لا يدع له إن يختار إلا الأولى وان يهجر إلا الثانية. وهو لا يعمد إلى النذر يصبها على النفس صب السياط، يألم لها الجسم، ويموت القلب، بل يعمد إلى الحياة يصورها هنا على
حقائقها نافياً عنها تلبيس إبليس، وإلى القلب ينفخ فيه العظمة، ويبث فيه الفضيلة والطهارة والطموح إلى كل خير، والنفور من كل شر. واقرأ له (وحي القبور).
وهذه المقاصد الجليلة والنزعات السامية تخالطها دعابة دقيقة، وسخرية نافذة؛ ترى

الكاتب يرتفع فوق العالم ثم يسخر مما عبد الناس من أباطيل وأهواء، فإذا التماثيل التي يسجدون لها تهاويل، وإذا الهول الذي يفزعون منه تهويل، وإذا العظمة والكبرياء والسلطان والجاه والغنى وكل ما عده الاجتماع عظمة لقوم وحقارة لآخرين، أضاحيك يخلقها الجهل، ويهدمها العقل، ويقدسها الإنسان حيوانا، ويحطمها الإنسان إنساناً. .
وأعوذ بالله من الرافعي إذا انطلق ساخراً يرسل بيانه طعنات دراكاً وهو يضحك ضحك البرق في السحاب الراعد، أو لمع السيف في يد الضارب.
وبعد، فهذا وصف الروض في كلمات لو كانت أزهاراً ما مثلته، ونعت البحر في سطور لو كانت أمواجاً ما صورته. فأما الروض في بهجة جماله، والبحر في روعة جلاله، فهما ما خطه الرافعي. فإن شئت فقل جنات في صفحات، وعباب في كتاب؛ وان شئت فقل انه العالم في سطور قد انتظم، ووحي الهي سماه الرافعي (وحي القلم).
(ذلك الفضل من الله)
عبد الوهاب عزام
نشيد الأمل
إنتاج شركة أفلام الشرق
لناقد لرسالة الفني
السيناريو والإدارة الفنية (الإخراج)
تحدثنا في العدد الماضي عن قصة الفلم التي اخذ عنها السيناريو، ولكن القارئ فيما أعتقد يرى أن هناك بعض نواح كان من الخير اهمالها، مثل مناظر عصابة تجار المخدرات.
إن سر نجاح الأفلام الفنية التي تؤدي رسالة واحدة وتشيع فيها ناحية واحدة هي ناحية الفن الخالص، ولكن الأستاذ بدر خان عندما كتب سيناريو (نشيد الأمل) وأدار الفلم أعطى بعض المناظر أهمية لا تستحقها، واخذ لها صوراً كثيرة؛ فتصويره للاستوديو وشركة الطيران والباخرة النيل جعل من الفلم أداة دعاية، ونحن يسرنا بالطبع هذه الدعاية لمؤسسات مصرية وطنية ناجحة نؤيدها ونعتز بها، ولكن يؤسفنا أن نقلل من القيمة الفنية لأفلامنا بمثل هذا التصرف.
وهو كذلك لم ينصف شخصياته، فتراه في دور الدكتور عاصم - وهو الشخصية الرئيسية الأولى في القصة - قد اختزله وجعله ثانوياً في حين جعل دور المخرج دوراً رئيسياً وجارى غيره
العدد 187 - بتاريخ: 01 - 02 - 1937
قرآن الفجر
للأستاذ مصطفى صادق الرافعي
كنت في العاشرة من سني وقد جمعت القرآن كله حفظاً وجودته بأحكام القراءة؛ ونحن يومئذ في مدينة (دمنهور) عاصمة البحيرة؛ وكان أبي رحمه الله كبير القضاة الشرعيين في هذا الإقليم. ومن عادته أنه كان يعتكف كل سنة في أحد المساجد عشرة الأيام الأخيرة من شهر رمضان؛ يدخل المسجد فلا يبرحه إلا ليلة عيد الفطر بعد انقضاء الصوم؛ فهناك يتأمل ويتعبد ويتصل بمعناه الحق، وينظر إلى الزائل بمعنى الخالد، ويطل على الدنيا إطلال الواقف على الأيام السائرة، ويغير الحياة في عمله وفكره، ويهجر تراب الأرض فلا يمشي عليه، وتراب المعاني الأرضية فلا يتعرض له، ويدخل في الزمن المتحرر من أكثر قيود النفس، ويستقر في المكان المملوء للجميع بفكرة واحدة لا تتغير؛ ثم لا يرى من الناس إلا هذا النوع المرطب الروح بالوضوء، المدعو إلى دخول المسجد بدعوة القوة السامية، المنحني في ركوعه ليخضع لغير المعاني الذليلة، الساجد بين يدي ربه ليدرك معنى الجلال الأعظم
وما هي حكمة هذه الأمكنة التي تقام لعبادة الله؟ إنها أمكنة قائمة في الحياة، تشعر القلب البشري في نزاع الدنيا أنه في إنسان لا في بهيمة. .
وذهبت ليلةً فبت عند أبي في المسجد؛ فلما كنا في جوف الليل الأخير أيقظني للسحور، ثم أمرني فتوضأت لصلاة الفجر وأقبل هو على قراءته. فلما كان السحر الأعلى هتف بالدعاء المأثور: اللهم لك الحمد! أنت نور السماوات والأرض، ولك الحمد، أنت بهاء السماوات والأرض؛ ولك الحمد، أنت زين السماوات والأرض. ولك الحمد، أنت قيام السماوات والأرض ومن فيهن ومن عليهن، أنت الحق ومنك الحق. إلى آخر

الدعاء
وأقبل الناس ينتابون المسجد فانحدرنا من تلك العلية التي يسمونها (الدِّكة) وجلسنا ننتظر الصلاة. وكانت المساجد في ذلك العهد تضاء بقناديل الزيت في كل قنديل ذبالة يرتعش النور فيها خافتاً ضئيلاً يَبِص بصيصاً كأنه بعض معاني الضوء لا الضوء نفسه.
فكانت هذه القناديل والظلام يرتج حولها، تلوح كأنها شقوق مضيئة في الجو، فلا تكشف الليل ولكن تكشف أسراره الجميلة، وتبدو في الظلمة كأنها تفسير ضعيف لمعنى غامض يومئ
إليه ولا يبينه، فما تشعر النفس إلا إن العين تمتد في ضوئها من المنظور إلى غير المنظور كأنها سر يشف عن سر
وكان لها منظر كمنظر النجوم يتم جمال الليل بإلقائه الشُّعَلَ في أطرافه العليا وإلباس الظلام زينته النورانية؛ فكان الجالس في المسجد وقت السحر يشعر بالحياة كأنها مخبوءة، ويحس في المكان بقايا أحلام، ويسري حوله ذلك المجهول الذي سيخرج منه الغد. وفي هذا الظلام النوراني تنكشف له أعماقه منسكباً فيها روح المسجد، فتعتريه حالة روحانية يستكين فيها للقدر هادئاً وادعاً راجعاً إلى نفسه، مجتمعاً في حواسه، منفرداً بصفاته منعكساً عيه نور قلبه؛ كأنه خرج من سلطان ما يضيء عليه النهار، أو كأن تلك الظلمة قد طمست فيه على أبواق الأرض.
ثم يشعر بالفجر في ذلك الغَبَش عند اختلاط أخر الظلام بأول الضوء شعوراً نديا كأن الملائكة قد هبطت تحمل سحابة رقيقة تمسح بها على قلبه ليتنضَّرَ من يُبْس، ويرق من غلظة. وكأنما جاءوه مع الفجر ليتناول النهار من أيديهم مبدوءاً بالرحمة مفتتحاً بالجمال؛ فإذا كان شاعر النفس التقى فيه النور السماوي بالنور الإنساني فإذا هو يتلألأ في روحه تحت الفجر
لا أنسى أبداً تلك الساعة ونحن في جو المسجد، والقناديل معلقة كالنجوم في مناطها من الفلك، وتلك السرج ترتعش فيها ارتعاش خواطر الحب، والناس جالسون، عليهم وقار أرواحهم، ومن حول كل إنسان هدوء قلبه؛ وقد استبهمت الأشياء في نظر العين ليلبسها الإحساس الروحاني في النفس، فيكون لكل شيء معناه الذي هو منه ومعناه الذي هو ليس منه، فيخلق فيه الجمال الشعري كما يخلق للنظر المتخيل
لا أنسى أبداً تلك الساعة وقد انبعث في جو المسجد صوت غرد رخيم، يشق سُدْفةَ الليل في مثل رنين الجرس تحت الأفق العالي، وهو يرتل الآيات من آخر سورة النحل: (ادْعُ إلى سبيل ربك بالحكمةِ والموعظةِ الحسنَةِ وجادلْهم بالتي هِي أحسنُ، إن ربَّك هو أعلمُ بمن ضلَّ عن سبيله وهو أعلمُ بالمهتدين. وإن عاقبتم فعاقِبوا بمثْل ما عُوقبتم به؛ ولئن صبرتم لهُوَ خيرٌ للصابرين. واصبِرْ وما صبرُكَ إلا بالله، ولا تحْزَنْ عليهم، ولا تكُ في ضيْقٍ مما يَمْكرُون. إنَّ الله مع الذين اتقوْا والذين هم مُحسنون).
وكان هذا القارئ يملك صوته أتم ما يملك ذو الصوت المطرب، فكان يتصرف به أحلى مما يتصرف القمري وهو ينوح في أنغامه، وبلغ في التطريب كل مبلغ يقدر عليه القادر، حتى لا تفسر اللذة الموسيقية بأبدع مما فسرها هذا الصوت؛ وما كان إلا كالبلبل هزته الطبيعة بأسلوبها في جمال القمر، فاهتز يجاوبها بأسلوبه في جمال التغريد
كان صوته على ترتيب عجيب في نغماته؛ يجمع بين قوة الرقة وبين رقة القوة، ويضطرب اضطرابا روحانياً كالحزن اعتراه الفرح على فجأة. يصيح الصيحة تترجح في الجو وفي النفس، وتترد في المكان وفي القلب، ويتحول بها الكلام الإلهي إلى شيء حقيقي، يلمس الروح فيرفض عليها مثل الندى، فإذا هي ترف رفيفا، وإذا هي كالزهرة التي مسحها الطل
وسمعنا القرآن غضاً طرياً كأول ما نزل به الوحي، فكان هذا الصوت الجميل يدور في النفس كأنه بعض السر الذي يدور في نظام العالم. وكان القلب وهو يتلقى الآيات كقلب الشجرة يتناول الماء ويكسوها منه
واهتز المكان والزمان كأنما تجلى المتكلم سبحانه وتعالى في كلامه، وبدا الفجر كأنه واقف يستأذن الله إن يضيء من هذا النور.
وكنا نسمع قرآن الفجر وكأنما محيت الدنيا التي في الخارج من المسجد وبطل باطلها، فلم يبق على الأرض إلا الإنسانية الطاهرة ومكان العبادة؛ وهذه هي معجزة الروح متى

كان الإنسان في لذة روحه مرتفعاً على طبيعته الأرضية
أما الطفل الذي كان فيّ يومئذ فكأنما دعا بكل ذلك ليحمل هذه الرسالة ويؤديها إلى الرجل الذي يجيء فيه من بعد. فأنا في كل حالة اخضع لهذا الصوت: ادع إلى سبيل ربك؛ وأنا في كل ضائقة اخشع لهذا الصوت: واصبر وما صبرك إلا بالله.
طنطا
مصطفى صادق الرافعي
أنا والأحمر
للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني
غضبت على ذات دل وحسن. ومن النساء من تدل ولا حسن لها. ومن هن الجميلة التي لا تدرك قيمة ما وهبها الله؛ ولكن هذه عارفة مدركة أصح أدراك وأدقه. وآية ذلك إنها لا تنفك تؤكد خصائص جمالها وتبرزها بألوان الثياب، وأسلوب التفصيل، وبطريقة تسريح الشعر وفرقه، وبحركاتها ومشيتها ولفتة وجهها، والجانب الذي تؤثر إن تمنحكه منه، وابتسامتها وخطرتها ووقفتها، وبالصورة التي تعرضها على عينك وهي متكئة على ظهر كرسي أو حافة شرفة، إلى آخر ذلك إذا كان له آخر
وسر هذا الغضب أنها تؤمن بالدلال - كما لا يسعها إلا إن تفعل - وأني أنا أؤمن بقول المتنبي عليه ألف رحمة:
زودينا من حسن وجهك مادا ... م فإن الجمال حال تحول
وصلينا نصلك في هذه الدن ... يا فإن المقام فيها قليل
فلها عقلها وطبيعتها، ولي عقلي وطبيعتي؛ ومن أجل ذلك نحن مختلفان متجافيان - تراني فتعرض عني، وأرها فأتجاوزها بعيني، كأنها ليست هناك؛ وتراجع نفسها أحياناً فتصفو وتقول عفا الله عما سلف، وتومئ إلي إيماءة تجعلها خفيفة خفية من الكبر والتردد، فأتجاهل وأتعامى وأتباله، فترجع إلي شر مما كانت به من الغضب والسخط، وتمنحني كتفها أو توليني ظهرها، وتمضي الأيام على هذا التقاطع الشديد - أخرج إلى الشرفة وتكون هي مطلة فتأخذني عينها، فما أسرع ما تتناول مصراعي الشباك وتغلقهما بعنف لا داعي له سوى أنها تريد إن تسمعني صوت الإغلاق لأدرك معناه. وأكون أنا في الشرفة فتظهر في نافذتها أو شرفتها، فلا أكاد أراها حتى اعبس وأمط بوزي. كان من سوء حظي ألا استطع إن اقف في الشرفة دقائق من غير إن تسد الفضاء أمامي، ثم أدور دورة سريعة وارتد إلى الغرفة ملتمساً الوقاية من جدرانها ولم يكن هذا حالنا من قبل، بل كنت أقبل عليها فتهش لي وتريني وميض أسنانها والتماع عينيها، وكنت ألقاها فتدنو مني حتى لاحس أنفاسها العطرة على وجهي، وتضع راحتها البضة على قلبي وتقول لي: (كيف حال هذا المسكين الذي لا يمل الدق بل الوثب؟)
فأقول (أتريدين إن يمل)
فتقول (أعوذ بالله. . ما هذا الكلام يا شيخ. .)
فأصرف الكلام عن وجهه وأقول (إنه يدق لي ولك، فلا عجب إن كان يتوثب)
فتبتسم لي - في عيني - وتقول: (ألا يمكن إن يفتر ذكرك لي - يفتر قليلا - ليرتاح هذا القلب بعض الراحة. . إنه عنيف الدق وأنا أشفق عليه)
فأقول (لا تخافي عليه ولا تجعلي إليه بالك. . دعيه يدق فإن هذا عمله وواجبه في الحياة)
ثم نمضي معه إلى حيث يروق القعود ويطيب الحديث وتحلو النجوى ويحسن الغزل، ونرجع ضاحكين وتنام ملء عيوننا
وقلت لها مرة (لماذا هذه المساحيق كلها. . ما حاجتك إليها؟ كيف يمكن إن يفتقر إلى زيفها هذا الوجه الخارج من الفردوس؟
فضحكت وقالت (أهو زيف. .؟)
قلت مغالطاً (أنه تأكيد لا حاجة بك إليه)
قالت (يا خبيث. . اعترف أنك تريد إن تقبل فمي وتخشى إن يعلق بشفتيك الأحمر!)
قلت (إلا يكون مجنوناً أو أعمى ذاك الذي لا يشتهي إن يقبل هذا الفم الجميل!)
قالت (لا تغالط. . دع العموم إلى الخصوص)
قلت (أتتعمدين إن تضعي هذا الأحمر إذن؟)

قالت (لا. . هي عادة ليس إلا. .)
قلت ملحاً: (أتكرهين إن أقبلك. . أو بعبارة أصرح فإن عفريت الصراحة ركبني اليوم. . إلا تشتهين هذه القبلة التي تقيمين في سبيلها الحواجز وتضعين الأسلاك الشائكة أو الأصباغ العالقة؟)
قالت (مالك اليوم. . ماذا جرى لك؟)
قلت: (إن الذي جرى لي هو هذا. . أنت تعرفين إني احب فمك. . وأنت لا تكرهين إن أضع شفتي على شفتيك. . وتعرفين أيضاً أني شديد الكره لهذا الأحمر السخيف، وتعرفين فوق هذا أن أزالته سهلة إذا هو علق بفمي منه شيء يسير أو كثير، ولكني مع ذلك أكرهه لله. . هكذا أنا. . خلقني الله كذلك ولا حيلة لي. . فلماذا تصبغين به شفتيك على الرغم من
ذلك. . ليس الأحمر في ذاته هو الذي يضايقني ولكن تعمد وضعه. إذا كان الدلال هو الباعث على ذلك فإن الدلال ميسور بغير الأحمر. وعلى أن الدلال حسن وجميل، وهو يشحذ الرغبة ويقوي الحب إذا كان في حدود الاعتدال ولم يجاوز المعقول أو المحتمل. . أي ما يسهل على الرجل احتماله بلا عناء شديد أو مرهق، ولكن المرأة لا تفهم هذا مع الأسف، وهي لا تزال تلح في الدلال وتلح وتلح حتى يسأم الرجل وتنتفخ مساحره ويتعذر عليه الصبر ويضيق صدره فيفتر حبه، لأنه يكلفه فوق ما تطيق أو ما يمكن إن تحتمل طبيعته، فتذهب المرأة تقول غدر الرجال وعدم وفائهم وتقلبهم؛ ولو أنصفت للامت نفسها ولأدركت أنها هي التي أملته وأزهقت روحه
فقطبت وقالت (أهذا تهديد؟)
قلت (وهذا خطأ آخر. . فليس فيما أقول تهديد وإنما هو عجب واستغراب يدعو إليهما اختلاف الطبيعتين. .)
فقاطعتني وقالت (قل إن طبيعتك المتجبرة تريد إن تجعل مني ملهاة لنفسك لا تخالف لك إرادة ولا تعصي لك أمراً. .)
فقاطعتها وقلت: (كلا: ليس هناك تجبر ولا شبهه، إنما أشرح لك ما تغريك به طبيعتك وما تغريني به طبيعتي. .)
ولا أحتاج إن أروي ما قالت وقلت، فإن في مقدور القارئ إن يتصور ذلك، وأكبر الظن إن تجارب مثل هذه مرت به وعاناها، فما تعيش المرأة بغير الرجل ولا رجل بغير المرأة إلا في الندرة القليلة والفلتة المفردة؛ ومتى عاش رجل وامرأة فلا مفر من أن تسوقهما الطبيعتان إلى الشجار والنقار في بعض الأحيان، وأكثر ما يحدث ذلك من جراء توافه لا قيمة لها، ولا يجري في الخاطر إن تجر إلى خلاف.
وقد حاولت يوم ذاك إن ألاعبها وأمازحها بعد فتور الحدة وذهاب السورة، ولكن تعبي ذهب عبثاً، ورجعنا وقد أيقن كلا منا أن هناك سرا أعوص لما أبدى صاحبه من الجفاء وضيق الصدر.
ولقيتها بعد ذلك، فقلت لنفسي إن العتاب يجدد مرارة الخلاف ولم يكن لي ولا لها مفر من الكلام والنفاق، فقد كنا في حفل حاشد من المعارف والأهل، وانفض السامر فناولتها ذراعي
وقلت (تعالي فإن بي حاجة إلى الهواء الطلق، فابتسمت، فتوهمت إنها نسيت ما كان بيننا أو آثرت مثلي إن تطويه. وإذا بها تقول لي أول ما تقول ونحن في السيارة (إنك مستبد) فعجبت وقلت: (كيف.؟ لقد كنت أظن أني من ألين خلق الله وأسلسهم قياداً)
(فصاحت بي (أنت. . تقول إنك سلس القياد. . أعوذ بالله. .)
قلت وأنا أحول إن أصرفها عن هذا الموضوع الشائك (طيب. . آمنا وسلمنا. . مستبد مستبد. . كما تشائين. . والآن يا جاحدة. .)
وكنت أنوي إن أمازحها، ولكنها قاطعتني بسرعة وحدة: (جاحدة. . لماذا بالله. . هه)
فقلت لنفسي إن ليلتي لاشك سوداء. . وأنا رجل أكره الجدل العقيم ولا يثقل على نفسي شيء مثله، ولست أعرف لي صبراً عليه؛ غير أني ضبطت نفسي ولم ادع عنانها ينفلت من بين أصابعي فقلت: (معذرة: إني أضحك ولا أعني ما أقول)
قالت (واعترف أنك مستبد)
قلت (إذا الاعتراف بما ليس في يرضيك، فهأنذا اعترف وأمري لله)
قالت (كلا. . إنما أريد اعترافاً صريحاً لا مكابرة ولا تحفظ فيه)

قلت (فليكن؛ ولكن ما خيره؟. ماذا يفيدك إن اقر لك بأني مستبد؟. أما إن هذا لغريب)
قالت (اعترف والسلام. . لست أريد فلسفة)
قلت (اعترفنا يا ستي. . فهل راق مزاجك ورق)
فضحكت وقالت: (نعم) قلت: (إذن امسحي الأحمر الذي صبغتي به شفتيك، أو دعيني امسحه لك بهذا المنديل. . إنه نظيف)
قالت (كلا) وأصرت على الرفض والتأبي فقلت: (إلا تدركين أنك مغرورة؟) فاحمر وجهها كأنما أفرغت على وجنتيها كل ما في الدنيا من الأحمر، فقلت وقد تعمدت إن اثقل عليها: (نعم مغرورة. . ولم أكن أحسب شوقي رحمه الله صدق في قوله: والغواني الخ. . تعرفين الباقي. . وأحسبك تتوهمين أن حياتي رهن بأن تمسحي هذا الأحمر. . أو أن روحي معلقة بِشفتيك وما يكون أو لا يكون عليهما من الأصباغ السخيفة. . ثقي أن الأمر ليس كذلك. . وإنما انصح لك بمسح الأحمر لأنه. . .)
وأمسكت إشفاقا عليها من اللفظ القاسي الذي كان على لساني فسكتت ولم تقل شيئاً
والغريب أنها بعد إن نزلت أمام منزلها وودعتها تعمدت إن تقف هنيهة قبل إن تدخل من الباب وتخرج منديلا صغيراً وتمسح به الأحمر عن شفتيها وفي يدها الأخرى مرآة الحقيبة
وكان هذا أخر عهدي بلقائها وكلامها
ولا تزال المعركة ناشبة، واحسبنا سنمل هذه الحرب الباردة - حرب الشفاه الممطوطة والأكتاف المهزوزة والإشاحة بالوجه والأعراض بالعين وتقطيب الحواجب وتجعيد الجبين، إلى آخر هذه المناظر المضحكة، ولولا أني لا اعدم القدرة على رواية الجانب المضحك لانفلقت، ولكنت حرياً أن ألقي السلاح وأعدل عن الكفاح، ولكنها هي متكبرة. . أوه جداً جداً. . وأنا كما تعرف. . دائم الضحك - هذا أولا - وأما ثانياً فإني لا أنفك أقول لنفسي: لقد عشت قبل عهدها دهراً طويلا لا تحس بالحاجة إليها ولا تعرف إنها موجودة. وإنك الآن لتحيا بغيرها، ولا تعدم نعيما تفيده بدونها ومن غير طريقها، فماذا ينقصك ولماذا تعني نفسك بالتفكير في الأمر كله؟. . دع كل شيء للظروف والمصادفة. . وليكن ما يكون. . . ولكن يخطر لي أحياناً أني قد ألقاها ولا أرى على شفتيها هذا الأحمر، فماذا يكون العمل حينئذ؟. أقول لك. . دع هذا أيضاً للمصادفة وإلهام الساعة، إن التدبير هنا قلما يجدي أو يصح. .
ولكن ضحكي يحنقها، وابتسامي يثير سخطها، وأنا لا أستطيع أن أكره نفسي على التعبيس بلا موجب، وهذا هو البلاء والداء العياء، فإنها تتوهم أني أسخر منها فتزداد لجاجة في الصد والإعراض، واحسبني سأظل هكذا أبداً. . أفسد على نفسي متع الحياة بسوء تصرفي وقلة حكمتي، فلا حول ولا قوة إلا بالله!
إبراهيم عبد القادر المازني
في الأدب المقارن
الإنسان
في الأدبين العربي والإنجليزي
للأستاذ فخري أبو السعود
إذا ما استقر الإنسان في موطن آمن، وارتقت عقليته، لم يعد يكتفي بتوفير حاجاته الجسدية واتقاء قوارع الطبيعة، بل بدأ يفكر في نفسه ومنشئه وغايته؛ لم يعد يكتفي بقبول الحياة على علاتها ومداراة غوائلها، بل راح يتساءل عن ماهيتها وغايتها وما بعدها، وأجاب عن تساؤله ذاك بما تتيح له عقليته البدائية من تفسيرات فطرية، بعضها صادق وأكثرها وهمي؛ ثم ما يزال كلما ترقى في مدارج الفكر يعاوده الشك من حين إلى حين في تلك التفسيرات، ويثور على عقائده المتوارثة، ويتناولها بالتعديل والتهذيب، فيكون من ذلك الدين والفلسفة
ويشارك الأدب الدين والفلسفة في التعبير عن تأمل الإنسان في نفسه، وتساؤله عن نشأته ومصيره، فيحفل الأدب شيئاً فشيئاً بآثار تفكير الإنسان في الحياة والموت، وافتخاره بقوته وسيادته، وجزعه من ضعفه وقصور حيلته، واعتداده بمبتدعاته في مجال العلم والفن والصناعة، وارتياعه من تضاؤل آثاره تلك جميعاً إزاء قوى الطبيعة وأبعاد الكون؛ وتصطبغ تأملاته تلك في عالم الأدب بصبغة البشر والتفاؤل حيناً، وبصبغة

التشاؤم والقنوط حينا، حسب ما يسود المجتمع من عوامل الحيوية والثقة بالنفس والإقبال على أسباب المتعة والحبور، أو دواعي الانخذال وسقوط الهمة وفتور العزيمة، وحسب ما يخالج الأديب الفرد من بشر ملازم أو طارئ، وتشاؤم مصاحب أو عارض. فتأمل الإنسان في نفسه، وتساؤله عن مكانه في الكون، واهتمامه الدائب بسبر قواه وامتحان قدرته واستكناه غاياته ومراميه، كل هاتيك من أظهر ميزات المجتمع المتحضر والأدب الحي. وقد كان ذلك الاهتمام الملح بالإنسان: قواه وطباعه ومواطن ضعفه، ومفاخره ومعايبه ومصائره ومطامحه، من أبرز ظواهر الحضارة الإغريقية وخصائص الأدب الإغريقي والفنون الإغريقية، ففيها تنويه بالجمال الإنساني وترنم بالبطولة الإنسانية، وفيها بجانب ذلك عرض لنقائض الإنسان ومغامزه، وفيها إشادة بما تمهد له الحياة من أسباب

المجد والابتداع والتمتع والسرور، وتصوير لما تفرضه عليه من هوان وصغر وقهر وآلام، وما تبسط له من فجاج الحرية وما تكبله به من مشعبات القيود؛ وليست مواضيع الدرامة اليونانية المتعددة في صميمها إلا موضوعاً واحداً: هو اصطدام مطامع الإنسان بصرامة الأقدار

ولحفول الأدب الإغريقي على ذلك النحو بدراسة الإنسان، سميت الآداب الإغريقية أو الكلاسية عامة منذ عهد النهضة الأوربية (بالإنسانيات)، فإن الاطلاع عليها لم يكن كشفاً للعالم القديم فقط، بل كان كشفاً للنفس الإنسانية ذاتها، تلك النفس التي كانت قد أهملت في العصور الوسطى اشد الإهمال، وازدريت شر الازدراء، بتأثير الكنيسة التي ذهبت في تضليل العقول مذهباً بعيداً، فزعمت الإنسان شريراً خاطئاً بالطبع، وعلمت الإنسان أن فيه نزعة من الشيطان، لا يذهب مسها عنهم إلا العصا في الصغر، ودوام التندم والاستغفار في الكبر. وهكذا عكست الكنيسة بجهالتها غاية الدين الذي لم يأت إلا لتوطيد ثقة الإنسان بنفسه وتمكين اعتقاده بحاضره ومستقبله، فلا غرو خمد الأدب في تلك العصور، إذ لا أدب ولا حياة إلا حيث للإنسان ثقة بالإنسان

وقد ورث الأدب الإنجليزي فيما ورث عن الأدب الإغريقي تلك النزعة الإنسانية، وحفل كما حفل أدب اليونان بتمجيد الإنسان من جهة، والأسى لتلاعب الأقدار به من جهة أخرى: فمواضيع روايات شكسبير الكبرى كهملت وعطيل وماكبث هي مواضيع الدرامة اليونانية: فهي تدور حول أبطال أو عظماء نالوا من المجد وشرف المحتد وفضائل الشجاعة والقوة والعقل شأوا عظيماً، ولكن كل مزاياهم تلك تذهب هدراً من جراء مغامز في شخصياتهم تتسلل منها أصابع القدر إلى سعادتهم فتنغصها، وإلى مجدهم فتثله؛ ورواياته بجانب ذلك تعج بشتى الدراسات للطبائع الإنسانية، التي تثير الروعة والإكبار تارة، والشفقة والأسى مرة، والاحتقار والاشمئزاز حيناً، والسخر والضحك طورا.

وإذا انتقلنا إلى العصر الحديث في الأدب الإنجليزي ألفينا نفس ذلك العراك المستمر بين النفس الإنسانية الجادة في تحقيق مطالبها ومطامحها، وإثبات شأنها وخطرها، وبين القدر الصارم القوانين السادر في جبروته، لم يزد بعد تقدم العلم وتذليل قوى الطبيعة إلا تجسماً واستفحالاً. وقد نقله هاردي من عالم الرواية التمثيلية التي تدور حول الأبطال والملوك،

إلى القصة المقروءة التي تدرس المجتمع العادي، وتتناول أوساط الناس ودهماءهم، وليست (تس) الفقيرة إلا نظيرة (أوفيليا) المنعمة، ولا (يهود المغمور) في طموحه إلى القوة إلا قريع (مكبث) المشهور في تطاوله إلى العرش: مطامح إنسانية، وآمال في المتعة والسعادة، وأقدار ماضية تعترضها وتبطش وهي عمياء بطش جبارين

وقد كان الموت ولن يزال عدو الإنسان اللدود، وبلاءه الأكبر، واللغز الأعظم الذي استغلق على فهمه، ووقف له بالمرصاد كأنما يسخر من كل ما يبني وما يجمع، ويتهكم بكل ما يأتي وما يدع، ويقنعه في ذروة نجاحه ومجده وسعادته بعبث سعيه وإدراكه؛ ومن ثم امتلأت الآداب بذكر الموت وصولته وإزرائه بالحياة والاحياء، واتيانه على الجبابرة، وتسويته بين العلية والسوقة، وبين العالم والجاهل، وتمزيقه شمل الألاف، وتعفيته لآثار السرور والفوز بوصل الأحبة، وعبثه بحور العيون وبياض الأجياد والنحور. وقد تفنن الخيام في رباعياته في صوغ هذه المعاني وتحليتها بالصور الفاتنة المنتزعة من الطبيعة ومن الجمال الإنساني، ومن مجالس الصفو والشراب

وبجانب الموت تمثلت الرهبة لعيني الإنسان في مظاهر الطبيعة الرائعة، وقواها المصطرعة، وفجاجها المترامية، ومخلوقاتها المقتتلة في سبيل الغلب والبقاء، وصممها عن آلامه وأشجانه، وغفلتها عن أفراحه وأتراحه، ومضيها على عاداتها حسنت به الحال أو ساءت، وخلودها على رغم فنائه، وطيها جيلاً من الناس بعد جيل؛ فامتلأ الأدب بذكر ذلك كله. ومن جميل أمثلته مقطوعة هوجو (الطبيعة والإنسان) التي يقابل فيها بين شباب الطبيعة وشيخوخته، ونضارتها وجفاف عوده، وبقائها ووشك ذهابه، ويتنبأ بقيام جنازته بين معالم أعيادها، وبمضيه غير ما سوف عليه منها، ولا محسوس فقدانه.

وقد كان شكسبير معنياً بالموت موكلاً بالتفكير فيما بعده، ينطق بذلك أبطاله كهملت، الذي يتأمل في الموت في خلوته، ويؤم المقابر حيث يرى الحفارين يعبثون بالجماجم وحيث يشهد دفن حبيبته في ريعانها. ولا يمل شكسبير ذكر الموت والبلى، حتى في شعره النسيبي، الذي يتسم لذلك بمسحة الحزن والكآبة. ولشيرلي مقطوعة رائعة في الموت سارت بعض أبياتهم مسير الأمثال، وهي تطابق في شتى المواضع معاني رباعيات الخيام. ومن احسن أشعار التأمل في الموت في الإنجليزية قول كيتس، وقد كان لضعف بنيته ما يزال متمثلا شبح الموت: (حينما يخامرني الخوف من أن أقضي قبل أن أجني كل ثمار عقلي الوافرة، وقبل أن تحويها الكتب المكدسة كما تحوي البيادر المحصول الناضج؛ وحينما أشاهد على وجه الليل المرصع بالنجوم رموزاً من الغمائم لرواية تجري في علو، وأذكر أني ربما لا أعيش حتى أرسم ظلاً لها بيد الإلهام السحرية؛ وحينما اشعر يا جميلتي الوشيكة المضي إني لن أراك بعد، ولن أنعم بتلك القوة الساحرة: قوة الحب الأعمى، عند ذلك أقف وحيداً على شاطئ الدنيا الرحيبة، وأفكر حتى يصير الحب والمجد هباء)

وتمثلت رهبة الطبيعة لأدباء الإنجليزية في البحر وهياج أواذيه واصطخاب عواصفه، واطراد ثورته وبعد غوره، ومن روائع آثار الشعراء في هذا الصدد أبيات تنيسون التي نظمها وقد قصد البحر مفكراً مهموماً، يبغي العزاء عن فقد صديق له حميم، ومنها قوله: (تكسر أيها البحر على صخورك الباردة الكالحة، وطوبى لابن الصائد إذ يتصايح هو وأخته لاعبين، وتمضي الجواري المنشآت إلى مرافئها بسفح التل. ولكن من لي أنا بمصافحة تلك اليد التي غابت، وذلك الصوت الذي سكت). واستعار شلي رحب البحر وشدة أسره وصرامة صروفه، للتعبير عن صرامة الزمان وبطشه بالإنسان. قال يخاطب الزمان: (أيها البحر الذي لا يسبر غوره، والذي أمواجه السنون، والذي قد غدت أواذيه أجاجاً من ملح دموع الإنسان، والذي يطوي في مده وجزره أطراف الإنسانية، ويبشم من فرائسه وإن يكن ما يزال يعوي طلباً لسواها فيلفظ بقاياها على شطوطه غير الكريمة ولا الوثيرة)

واسترعت تفكير الأدباء أحوال المجتمعات التي رضيها الإنسان لنفسه مقاماً وما يداخلها من نقائص لا يخلو من بعضها مجتمع أو جيل، وما في بعض أنظمتها من تقييد للحريات وهضم لحقوق بعض الأفراد أو الطبقات، فنددوا بتلك المساوئ ونادى بعضهم بإصلاح تلك المفاسد التي تهبط بالإنسان عن رتبته التي هو جدير بها في الكون، وتعترض سيره إلى ما ينشده من كمال؛ فكان منهم رادة حركات النهوض والإصلاح؛ بل نادى بعضهم بفض المجتمع والعودة إلى الطبيعة. وبمثل تلك الكتابات الاجتماعية تحفل كتابات فلتير وروسو. وقد كانت هذه النزعة ضئيلة المظهر في الآداب القديمة؛ أما في الآداب الحديثة فهي تتعاظم وتشتد جيلا فجيلا. فالنقد الاجتماعي والحض على الإصلاح غرض حديث من أغراض الأدب يضارع غرضه القديم من التعبير عن الجمال والإفصاح عن الشعور الفردي

فالتفكير في شأن الإنسان ماضيه وحاضره ومستقبله من مميزات الإنسان المتحضر المثقف، وهو لا يكف عن هذا التفكير طوال حياته؛ ولا تزال أشباح الماضي والمستقبل والحياة والموت ماثلة أمامه، يكون لنفسه في شأنها فلسفة تختلف عمقاً واتساعاً وإقناعاً، وتختلف في مدى قربها من اليقين والجزم، أو قيامها على الشك والرفض. على إن هذا التفكير الإنساني يفرض نفسه فرضاً شديداً على كل أديب أو كل مثقف أو كل إنسان، في فترة خاصة من فترات حياته، بل أزمة من أزمات وجدانه، يشتد فيها تفكيره في نفسه وبني جنسه، ويحفزه إلى التساؤل والثورة على الحياة الإنسانية

حادث نفساني يؤثر فيه أثراً عمقاً: من خيبة أمل أو إخفاق حب أو موت عزيز، فتتسم آثار الأديب في تلك الفترة بالتمرد والتشاؤم والكآبة؛ وقد يحاول إصلاح العالم دفعة واحدة ويدعو الناس إلى حياة جديدة تصورها له أحلامه، ثم ما يلبث إن تخلف الحقائق المتحجرة ظنونه وتثبط هياجه وتروض جماحه، فيعدل حياته بما يلائم ظروف الحياة الإنسانية البطيئة التغير الوئيدة الخطى، فتعود آثاره الأدبية مشرقة بالبشر متغنية بمباهج الحياة بدل الإمعان في التفتيش عن معايبها

ولسريان الحياة في دماء الشعب الإنجليزي وغلبة التفاؤل على أمزجة أبنائه، كان أدباؤه إذا راعتهم نقائص الحياة الإنسانية وشرورها، وأحزنهم ضعف الإنسان وشقاؤه، لم يلبثوا إن يتحولوا عن ذلك الجانب الأسود من الصورة إلى جانبها الأبيض، ويطلبوا العزاء بما في الحياة من جمال عما فيها من قبح، فيشيدون بمقدرة الإنسان على الجلاد وبراعته في الابتكار، وبطولته وماضيه الحافل بالعظائم، ويترنمون بمفاتن الطبيعة وما يصيب الإنسان عندها من رخاء بال وراحة نفس، ويطلبون السلوى قبل كل شيء بممارسة فنهم الذي يصور تلك الحياة ويحكيها حكاية تروي من نفوسهم مالا ترويه الحقيقة الواقعة، يصور آلامها تصويراً يخفف تلك الآلام عن نفوسهم، ويحكي مفاتنها ونعمها التي فاتتهم حكاية تشفى صدورهم. فتمثيل الأديب للحياة في فنه يشعره كأنما قد أحاط بتلك الحياة وتمكن من أعنتها، ويكسبه ثقة بنفسه وإيمانا بقدرته على الابتداع والإتيان بجديد من عنده.

فتنيسون حين فقد صديقه الحميم سالف الذكر توفر على إنشاء قصيدة طويلة في ذكراه،

ولكنها لم تقتصر على ذكراه بل امتدت إلى شتى نواحي الحياة وشملت نظرته العامة إليها؛ وشكسبير حين مرت به أزمته النفسية الكبرى بإخفاق آماله في الحب والصداقة، نفس عن صدره بمآسيه الكبرى، وفيها لا نرى الإنسان ألعوبة عاجزة في يد الأقدار، بل نرى في آثار بطولته ما يملؤنا روعة ويبقي أمامنا نور الأمل؛ وورد زورث حين تبددت أحلامه في المجتمع الإنساني الفاضل الذي خال الثورة الفرنسية منجلية عنه، مرت به غيمة قنوط عابسة لم يقشعها عنه إلا تعزيه بمحاسن الطبيعة وقضائه الوقت متفيئا ظلالها مصوراً آثارها في شعره. وفي عبادة الجمال الطبيعي والإنسان كان كيتس يجد مفزع روحه مما يتكنفه من بأساء الحياة وما يمض عيشه من فتكات الداء

ومن أبدع الأشعار التي تعرض جانبي الصورة ناصعهما وحالكهما، وتجسم ضعف الإنسان وفناءه، وتمجد قوته وعبقريته، مقطوعة شلي المسماة (أوزيمانديأس المصري) وفيها يقول: (قابلت مسافراً من أرض قديمة قال: تقوم في الصحراء ساقان من الحجر ضخمتان عديمتا الجذع، وقد ارتمى بجانبهما وجه مهشم يكاد يغور في الرمال، تنطق تقطيبته وشفته المعوجة كبرياء وعظمة هادئة، بأن المثال قد أجاد قراءة تلك الصفات التي ما تزال حية مطبوعة على ذلك الحطام الجامد، وقد فنيت اليد التي صورتها والقلب الذي غذاها، وقد لاحت على القاعدة هذه الكلمات: اسمي أوزيمانديأس، ملك الملوك. انظروا إلى آثاري أيها الجبابرة وأقروا يائسين، وليس بجانب ذلك شيء باق، قد أحاطت بذلك الحطام الهائل المهدم رمال موحشة منبسطة جرداء تمتد إلى مالا نهاية)؛ فهنا وصف شائق أخاذ لعظمة الملك وبراعة الفنان، وتصوير رائع لسطوة الموت وبطشة الفناء

وفي الأدب العربي نرى تزايد هذا الاهتمام بالإنسان نشأته وأحواله ومصيره، بتزايد حظ العرب من الحضارة والثقافة: ففي الأدب الجاهلي وفي صدر الإسلام لا نعثر إلا بالأبيات المتفرقة يتأمل فيها الشاعر في ضعف الإنسان وقصر حياته، وتلاحق همومه، واتصال آماله برغم ذلك، وشدة إقباله على الحياة وتغاضيه عما وراءها. وفي ما عدا تلك النظرات الخاطفة والمواعظ العارضة، لا يكرث الشعراء أنفسهم كثيراً بالتساؤل فيما كان وما سوف يكون، بل لكل منهم شأن يعنيه من حاضره، فمتغزل عاكف على هواه مترنم بليلاه، ومفتخر يشيد بمجد نفسه ومكان قبيلته، ومداح مجتهد في استدرار صلات الأمراء، وهجاء ممعن في إثخان غريمه. ومما أثر عن متقدمي الشعراء في التأمل في حال الإنسان وقول القائل:

مَنَعَ البقاَء تقلبُ الشمس ... وطلوعها من حيث لا تمسي

وقول الآخر:

ألا تسألان المرء ماذا يحاول؟ ... أنحب فيُقضى؟ أم ضلال وباطل؟

ويتزايد التفكير في خلق الإنسان وغايته كلما انتشر العلم والفلسفة: فنرى في شعر بشار وأبي نواس وأبي تمام من آثار ذلك فوق ما نجد في شعر الأخطل والشماخ جميل، حتى يبلغ ذلك التفكير مداه بنضج العلوم والفلسفة في القرنين الثالث والرابع، ويبدو ذلك واضحاً في آثار شعراء العربية الكبار: أبن الرومي والمتنبي والشريف والمعري: لكل من هؤلاء فلسفة إنسانية منثورة في إنحاء شعره، ونظرة إلى الحياة تلائم طبعه ومذهبه: فابن الرومي يرى الحياة فرصة من الجمال الطبيعي والإنساني يجب إن تغتنم، ومتعة للحس والروح يجب أن تباكر. والمعري يرى حياة الناس شقاء وشراً متصلا. والشريف يرى مثله الأعلى في الفضيلة والمعاني. والمتنبي يرى الناس سواما يحر فيهم القتل ويحق لمثله إن يسود فيهم ويعتلي، فلسان حاله قوله:

ومن عرف الأيام معرفتي بها ... وبالناس روَّى رمحه غير راحم

كما إن جُماع فلسفة المعري قوله:

فأف لعصريهم: نهار وحندس ... وجنسي رجال منهم ونساء

والحق إن المعري كان أشمل هؤلاء جميعاً نظرة، وأنفذ شعراء العربية جميعاً فكرة، وأشدهم شغلا بالحياة، وعناء بأمر الإنسان والأحياء، وتفكيراً في ماضي الإنسان ومستقبله، وتبصراً في أحوال مجتمعاته ودياناته، وله في كل ذلك من مستنير الأفكار المصبوبة في جزل الألفاظ والأساليب ما ينزله أرفع مكانة بين الشعراء المفكرين، على ما يشوب تفكيره في أكثر مواضعه من مسحة التشاؤم القاتم المغرق الذي هو وليد عصره المضطرب، وحياته الكئيبة، وبنيته السقيمة، وأعصابه المرهفة.

وفيما عدا المعري نرى أدباء العربية عامة أقل عناء بشؤون الإنسان وشغلا بالحياة وغايتها من أدباء الإنجليزية؛ وهم أكثر منهم قبولا للحياة على علاتها، ورغبة في اغتنام متعاتها والتغاضي عن سوآتها، وأقل تمرداً ولجاجاً في الأزمات النفسية. والأديب العربي أكثر تحدثاً عن نفسه وعاداته وآدابه ولباناته منه عن الإنسان عامة؛ وهذه النزعة السمحة الراضية ترجع إلى العوامل أهمها طيب المناخ الذي يبعث البشر والثقة، والإيمان الديني الذي بعثه الإسلام في نفوس أبنائه وبثه في مجتمعهم، والإسلام اكثر تغلغلا في حياة معتنقيه وتسرباً في أرواحهم وتجسما في مظاهر مجتمعهم من غيره من الأديان.

هذا إلى أن الحكم المطلق لم يكن يسمح للأدباء بنقد المجتمع والنظم نقداً جريئاً، وإنما كان يروضهم على الاندماج في ظروف الحياة المحيطة بهم، والتعود على اجتناء خيرها واتقاء شرها، كما قال الشاعر:

وإن امرأً أمسى وأصبح سالما ... من الناس إلا ما جنى لسعيد

فلم يكن أدباء العربية يطيلون الوقوف بمهامه الشكوك ومضايق الأزمات النفسية، بل سرعان ما كانوا يشيحون عما يطوف بهم من خيالاتها علماً بأن من أطال الفكر في الحياة وغايتها، والإنسان ومصيره، أقامه الفكر بين العجز والنصب، كما قال المتنبي، وحين كانت تطيف بهم تلك الحالات النفسية العابسة، ويثير شجنهم وجزعهم ما يلاحظون في حياة الإنسان ومجتمعه من نقص وشر، لم يكونوا يتأسون كما يتأسى شعراء الإنجليزية بمحاسن الطبيعة، فقلما أعاروا محاسنها التفاتاً، كما أنهم قلما اكترثوا لفجائعها وأهوالها، ولو كانوا يتعزون بذكر البطولة الإنسانية، فما يكاد يكون لها في آدابهم أثر؛ أو بتاريخ الأمم العظيمة، فما كانوا يذكرون من آمرها إلا غرور مشيديها وتقويض الزمان لأركانها، ولا بالتأمل في مخلفات فنون تلك الأمم، فما كانت توحي إليهم إلا بضعف الإنسان وبطلان مساعيه وقد التفت المتنبي إلى شرقي الإمبراطورية الإسلامية المترامية فقال:

أين الأكاسرة الجبابرة الأولى ... كنزوا الكنوز فما بقين ولا بقوا؟

من كل من ضاق الفضاء بجيشه ... حتى ثوى فحواه لحد ضيق

والتفت إلى غربيها فقال:

أين الذي الهرمان من بنيانه؟ ... ما قومه؟ ما يومه؟ ما المصرع؟

تتخلف الآثار عن أصحابها ... حيناً ويدركها الفناء فتتبع

إنما كان أدباء العربية إذا جزعوا لضعف الإنسان وقصر مدته وشرور مجتمعه، يجدون

مفزعهم من الحزن والقنوط في (الفضيلة الاجتماعية): في الأخلاق القويمة التي تكسب الإنسان حسن الأحدوثة الموروث حبها عن العرب الأقدمين، وتنجيه من شرور المجتمع الذي لا يد له بإصلاحه، والذي لا تنال شروره عادة إلا من يستهدف لها بسوء فعله، وتكسبه رضى ربه وتضمن له عقبى الدار. ومن ثم زخر الأدب العربي بروائع الحكم ونبيل التمدح بمكارم الأخلاق، وهذا باب من أشرف أبواب الأدب العربي وبه يمتاز على غيره، ومن محاسن ما فيه من ذلك قول إياس بن القائف:

إذا زرت أرضاً بعد اجتنابها ... فقدت صديقي والبلاد كما هيا

فاكرم أخاك الدهر ما دمتما معا ... كفى بالممات فرقة وتنائيا

وقول الشريف:

لغير العلا مني القلى والتجنب ... ولولا العلا ما كنت في العيش أرغب

غرائب آداب حباني بحفظها ... زماني، وصرف الدهر نعم المؤدب

فالعرب كانوا منذ جاهليتهم أمة اجتماعية ذات ميل غريب إلى الاجتماع، وفضيلة اجتماعية أصيلة، واستعداد متمكن للتحضر والتعاون، وأن يكونوا أمة مصلحة، يأنسون بالاجتماع ويتفاخرون بحسن الجوار وسيادة العشيرة وخدمتها معاً، ويشتغلون بمتعات تلك الحياة الاجتماعية عن طول الندب لنقائص الحياة وشوائبها، وطول التشكك والتحير في منشأ الكون ومنتهاه، وميلهم الطبيعي ذاك واضح الأثر في شعر شعرائهم، وفضيلتهم الاجتماعية تلك هي مرجع ازدهار العمران في كل بلد وطئوه، حالما وطئوه، على حين نشر الإغريق الخراب في شرقي البحر الأبيض حين هبطوه، واستغرقوا قروناً طويلة في الاستقرار وتشرب الحضارة.

فخري أبو السعود

ضوء جديد على مأساة شهيرة

هل قتل الحاكم بأمر الله أم اختفى؟ - 2

نظرية الاختفاء كما يشرحها الدعاة السريون

للأستاذ محمد عبد الله عنان

وقد رأينا فيما تقدم إن الدعاة الملاحدة، أعني حمزة بن علي وصحبه، ألفوا في اختفاء الحاكم فرصة لاذكاء الدعوة وتغذيتها واتخذوا من هذه الاختفاء وظروفه الغامضة، مستقى جديداً للزعم والإرجاف؛ فزعموا إن الحاكم لم يقتل ولم يمت، ولكنه اختفى أو ارتفع إلى السماء، وسيعود عندما تحل الساعة فيملأ الأرض عدلاً، وأضحى هذا الزعم أصلا مقرراً من أصول مذهبهم. وقد انتهت إلينا في هذا الزعم - أي زعم الغيبة والرجعة، وثيقة هامة بقلم كبير الدعاة حمزة بن علي ذاته، وفيها يشرح لنا ظروف هذا الاختفاء وبواعثه على ضوء دعوته وأصول مذهبه، واليك ما جاء في تلك الوثيقة الهامة التي تقدم رغم غرابة شروحها ومزاعمها إلى المؤرخ مادة للتأمل:

يقدم إلينا حمزة رسالته بهذا العنوان: (نسخة السجل الذي وجد معلقاً على المشاهد في غيبة مولانا الإمام الحاكم) وهي التي يفتتح بها رسائله في متن الدعوة وأصولها حسبما أشرنا فيما تقدم

ويؤرخ الداعي هذه الرسالة بشهر ذي العقدة سنة 411هـ أعني عقب اختفاء الحاكم أو بعده بأيام قلائل، ويفتتحها بدعوة الناس إلى المبادرة (بالتوبة إلى الله تعالى وإلى وليه وحجته على العالمين وخليفته في أرضه وأمينه على خلقه أمير المؤمنين) وأنه قد سبق إليكم، اعني إلى الناس (من الوعد والوعظ والوعيد من ولي آمركم وإمام عصركم، وخلف أنبيائكم، وحجة باريكم وخليفته الشاهد عليكم بموبقاتكم، وجميع ما اقترفتم فيه من الأعذار والإنذار، ما فيه بلاغ لمن سمع وأطاع واهتدى وجاهد نفسه عن الهوى وآثر الآخرة عن الدنيا، وأنتم في وادي الجهالة تسبحون، وفي تيه الضلال تخوضون وتلعبون، حتى تلاقوا يومكم الذي كنتم به توعدون)

وإن أمير المؤمنين قد أسبغ على الناس نعمه ولم يفر عليهم شيئاً منها، ولم يبخل عليهم

بجزيل عطائه، ولم يشاركهم في شيء من أحوال هذه الدنيا (نزاهة عنها، ورفضاً منه لها على مقداره ومكنته لأمر سبق في حكمته، وهو سلام الله عليه اعلم به، فأصبحتم وقد حزتم من فضله وجزيل عطائه ما لم ينل مثله بشر من الماضين من أسلافكم. . . ولم تنالوا ذلك من ولي الله باستحقاق ولا بعمل عامل منكم من ذكر وأنثى؛ بل منة

منه عليكم ولطفا بكم ورأفة ورحمة واختباراً ليبلوكم أيكم احسن عملاً، ولتعرفوا قدر ما خصكم به في عصره من نعمته وحسن مننه وجميل لطفه وإحسانه، وعظيم فضله دون من قد سلف من قبلكم)

وأنه قد أجرى عليهم الأرزاق والنعم من الذهب والفضة والخيل المسومة والأقطاع والضياع، ورفعهم إلى ذرى المراتب وشرفهم بأرفع الألقاب، حتى غدوا سادة يحكمون ويطاعون، وعاشوا في نعماء ورغد، فاقبلوا على الدنيا واعتزوا بها، وظنوا إنها سبيل الفوز في الآخرة، وتظاهروا بالطاعة في حين أنهم متمسكون بالمعصية؛ ثم يقول الداعي:

(ثم من نعمة الباطنة عليكم إحياؤه لسنن الإسلام والإيمان، التي هي الدين عند الله وبه شرفتم وطهرتهم في عصره على جميع المذاهب والأديان، ومزيتم من عبده الأوثان وابانهم عنكم بالذلة والحرمان وهدم كنائسهم ومعالم أديانهم. . . وانقادت الذمة إليكم طوعاً وكرهاً فدخلوا في دين الله أفواجاً: وبنى الجوامع وشيدها وعمر المساجد وزخرفها، وأقام الصلاة في أوقاتها والزكاة في حقها وواجباتها، وأقام الحج والجهاد وعمر بيت الله الحرام، وأقام دعائم الإسلام، وفتح بيوت أمواله، وأنفق في سبيله، وخفر الحاج بعساكره، وحفر الآبار، وأمن السبيل والأقطار، وعمر السقايات، واخرج على الكافة السدقات، وستر العورات، وترك الظلمات، ورفع عن خاصتكم وعامتكم الرسوم والواجبات، وقسم الأرض على الكافة شبراً شبراً، وفتح لكم أبواب دعوته، وأيدكم بما خصه الله من حكمته ليحثكم على طاعته وطاعة رسوله وأوليائه عليهم السلام، فشينتم العلم والحكمة وكفرتم الفضل والنعمة، وآثرتم الدنيا كما آثروها قبلكم بنو إسرائيل في قصة موسى عليه السلام، فلم يجبركم ولي الله عليه السلام، وغلق باب دعوته واظهر لكم الحكمة وفتح لكم خارج قصره دار علم حوت من جميع علوم الدين وآدابه وفقه الكتاب في الحلال والحرام والقضايا والأحكام. . . وأمدكم بالأوراق والدواة والحبر والأقلام، لتدركوا بذلك ما تمضون به وتستبصرون. . .)

ثم يقول حمزة بعد إن يستعرض أعمال الحاكم على هذا النحو - إنهم - أي الناس، لم يزدادوا إلا ضلالاً وإثما، وتمادوا في غيهم وفجورهم؛ وينعى على الناس هذه النازلة الأليمة ويحذرهم من عواقبها، ثم يقول مشيراً إلى اختفاء الحاكم: (فقد غضب الله تعالى ووليه أمير المؤمنين سلام الله عليه من عظم إسراف الكافة أجمعين، ولذلك خرج من أوساطكم، قال الله ذو الجلالة والإكرام: (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم)، وعلامة سخط ولي الله تعالى تدل على سخط الرب تبارك وتعالى. فمن دلائل غضب الإمام غلق باب دعوته ورفع مجالس حكمته، ونقل جميع دواوين أوليائه وعبيده من قصره ومنعه عن الكافة سلامه، وقد كان يخرج إليهم من حضرته ومنعهم لهم عن الجلوس على مصاطب سقائف حرمه، وامتناعه عن الصلاة بهم في الأعياد وفي شهر رمضان، ومنعه المؤذنين أن يسلموا عليه وقت الآذان ولا يذكرونه، ومنعه جميع الناس أن يقولوا مولانا ولا يقبلوا له التراب، وإنهاؤه جميعهم من الترجل عن ظهور الدواب، ثم لباسه الصوف على أصناف ألوانه، وركوبه الأتان، ومنعه أولياءه وعبيده الركوب معه حسب العادة في موكبه، وامتناعه عن إقامة الحدود على أهل عصره، وأشياء كثيرة خفيت عن العالم، وهم عن جميع ذلك في غمره ساهون. . .

ومن ثم (فقد ترك ولي الله أمير المؤمنين سلام الله عليه الخلق أجمعين سدى، يخوضون ويلعبون في التيه والعمى الذي آثروه على الهدى)

ويختتم الداعي رسالته الغريبة بتكرار الدعوة إلى التوبة والاستغفار، وأن يتجه المؤمنون بأبصارهم إلى الطريق التي سلكها أمير المؤمنين (وقت أن استتر) وأن يجتمعوا فيها بأنفسهم وأولادهم، وأن يطهروا قلوبهم، ويخلصوا نياتهم لله رب العالمين، وأن يتوسلوا إليه بالصفح والمغفرة وأن يرحمهم بعودة وليه إليهم. . . (والحذار الحذار أن يقفوا أحد منكم لأمير المؤمنين أثراً ولا تكشفوا له خبراً، ولا تبرحوا في طريق يتوسل جميعكم. . . فإذا أطلت عليكم الرحمة خرج ولي الله أمامكم باختياره راضياً عنكم، حاضراً في أوساطكم، فواظبوا على ذلك ليل نهار قبل أن تحق الحاقة ويغلق باب الرحمة وتحل بأهل الخلاف والعناد النقمة، وقد أعذر من أنذر. . . . الخ).

ويؤرخ الداعي رسالته بذي القعدة سنة إحدى عشر وأربعمائة، وينعت نفسه فيها بمولى دولة أمير المؤمنين، ويذيلها بالحث على نسخها وقراءتها والعمل بما فيها.
وهذا السجل يعتبر وثيقة مدهشة، وربما كان بروحه وأسلوبه أقوى رسائل الدعاة وأهمها، ومما يلفت النظر بنوع خاص ما يطبعه من حرارة وأسى، وإذا كنا لا نستطيع أن نؤمن بأن الداعي يصدر فيه عن إيمان حقيقي، فإنه ينم على الأقل عن براعة الداعي في عرض ما يريد أن يعتبره الناس أساساً لعقيدة مدهشة، هذا إلى أن هذا (السجل) يعتبر وثيقة تاريخية هامة بما يقدمه إلينا عن أعمال الحاكم وتصرفاته المختلفة في بادئ عهده ثم في خاتمته.
على أنه ما يلفت النظر أيضاً أن الروايات الإسلامية والنصرانية، المعاصرة والمتأخرة، لا تشير أية إشارة إلى هذا (السجل) الذي يقول لنا الداعي إنه وجد معلقاً على المشاهد، ولو وقعت مثل هذه العلانية في إذاعة السجل بمساجد مصر لما أغفلت الرواية الإشارة إليها، ولعل الدعاة حاولوا إذاعته فلم يفلحوا، وقد اشتدت عليهم وطأة المطاردة عقب مصرع الحاكم كما رأينا فلاذوا بالاختفاء والاستتار. واصدر الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله ولد الحاكم سجله الشهير الذي يتبرأ فيه من هذه المزاعم الخارقة التي قيلت في أبيه وفي أسلافه، وفيه يعلن اعترافه إلى الله (بأنه وأسلافه الماضين وأخلافه الباقين مخلوقون اقتداراً ومربوبون اقتساراً، لا يمكلون لأنفسهم موتا ولا حياة، ولا يخرجون عن قبضة الله تعالى) وأن جميع من خرج منهم عن حد الأمانة والعبودية لله عز وجل، فعليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين؛ وأنه قدم إنذاره لهم بالتوبة إلى الله من كفرهم، فمن أصر فسيف الحق يستأصله
وإلى جانب هذه الوثيقة التي كتبها حمزة بن علي عقب اختفاء الحاكم. والتي يحاول فيها أن يعلل هذا الاختفاء وان يشرح بواعثه، وأن يطمئن المؤمنين على رجعة سيده ومولاه، توجد بين رسائل الدعاة وثيقة أخرى عنوانها (الغيبة) تمس نفس الموضوع من ناحية اخرى، وقد كتبت بعد اختفاء الحاكم بثلاثة اشهر عن لسان قائم الزمان (أي الحاكم بأمر الله) بقلم داع مجهول، والظاهر إن كاتبها هو المقتني أحد أكابر الدعاة واحد (الحدود الخمسة): وقد وجهت إلى أهل الشام خاصة، وفيها يذكرهم قائم الزمان بالعهد الذي قطعوه، ويحذرهم من الدجال الذي يزعم أن الألوهية انتقلت إليه، والذي عاند الموحدين وحاصرهم، ويقول إن الدين لا يصح إلا عند الامتحان، ثم يخاطب الموحدين بقوله:
(معشر الموحدين، إذا كنتم تتحققون أن مولاكم لا تخلوا الدار منه وقد عدمته أبصاركم. . . وإذا فسدت المعدة ضرت البصر؛ فهكذا إذا كانت المادة واصلة إلى النفوس الصحيحة، فينظروا صورة الناسوت نظراً صحيحاً، وإذا كانت المادة من فعل الأبالسة ومادة النطقاء والأنس وشرائعهم فيفسد النظر وما ينظر إلا بشر واعلموا معاشر الموحدين لمولانا الحاكم المعبود سبحانه وتنزه عن الحد والمحدود أن قائم زمانكم يطالبكم، وقد شهدتم في مواثيقكم بعضكم على بعض بما شرطتموه على نفوسكم. . .)
ثم يشير إلى أن كثيراً من الموحدين ارتدوا عما كانوا أقروا به وهو الاعتراف بألوهيته، ويحذرهم من سلوك هذا الطريق؛ ويشير إلى (الدجال) ويقول إنه قتل الكثيرين بسبب عبادة الحاكم؛ وأن المولى غني عن عبادتهم، وإنما هي أعمالهم ترد عليهم.
ثم يقول: (ألم تعلموا أن مولاكم يراكم من حيث لا ترونه. . معشر الأخوان أحسنوا ظنكم بمولاكم يكشف لكم عن أبصاركم ما قد غطاها من سوء ظنكم)
ويلوح لنا أن هذا (الدجال) المشار إليه في هذه الرسالة إنما هو عبد الرحيم بن الياس ولي العهد، ووالي الشام؛ فقد اشتد في مطاردة الدعاة، حينما ظهرت دعوتهم بالشام، وفتك بكثير من أتباعهم وأنصارهم، وهو ما تشير إليه الرسالة.
(النقل ممنوع - للبحث بقية)
محمد عبد الله عنان
إلى رجال التعليم:
نقد نظام التعليم في مصر
للأستاذ ساطع الحصري بك
مدير دار الآثار العربية بالعراق

يذكر القراء أن المربي الكبير الأستاذ ساطع بك الحصري كان قد وفد إلى القاهرة في العام الماضي ليطلع على الأنظمة التعليمية المصرية فزار المدارس وقرأ المناهج ثم لاحظ على نظام التعليم عندنا ملاحظات قيمة لم يرد أن ينشرها يومئذ لصفته الرسمية في وزارة المعارف العراقية. فلما أنتقل منها إلى دار الآثار رأى أن يذيع هذه الملاحظات في مصر عن طريق الرسالة ليطلع عليها القائمون على شئون التعليم فيها ثم يناقشونها. وهذه فرصة حسنة يتيحها الأستاذ لرجال التعليم ليبادلوه الرأي فيما يجب أن يكون عليه نظم التعليم في عهد مصر الحديث.

(الرسالة)

- 1 -

لعل ابرز المآخذ التي تستلفت أنظار الباحث المحايد عندما يلقي نظرة انتقادية عامة على نظام التعليم في مصر هو (حرمان المدارس الابتدائية من أساس متجانس متين) فإن الدراسة في هذه المدارس لا تبتدئ ببداءة (الأعمال المدرسية) كما هو شأن المدارس الابتدائية في سائر أنحاء العالم، بل تبتدئ بعد ذلك بسنة أو سنتين، لأن المدرسة الابتدائية لا تقبل إلا من (يعرف القراءة والكتابة). وهذه (المعرفة) لا تتيسر بطبيعة الحال إلا بالتخرج في رياض الأطفال، أو بالدراسة في الصفوف الأولى من المدارس الأولية مدة سنتين أو اكثر، أو بالدراسة في المنزل مدة غير محدودة وإذا تركنا الدراسة المنزلية جانباً، ولاحظنا الفروق العظيمة الموجودة بين أساليب التعليم والتربية المتبعة في رياض الأطفال من جهة، وفي المدارس الأولية من جهة أخرى، اضطررنا إلى القول بأن (أسس المدارس الابتدائية) في مصر بعيدة عن (التجانس) بعداً كبيراً. وإذا شبهنا تلك المدارس بالمباني، نستطيع أن نقول: إنها ليست مشيدة على الأرض المتينة، بل قائمة على دعائم غير متجانسة، يختلف بعضها عن بعض اختلافاً كبيراً من حيث الطول والعرض والعمق والمتانة.

لهذا السبب، تشاهد بين طلاب الصفوف الأولى من المدارس الابتدائية فروق عظيمة، من حيث العمر والمعلومات والقابلية العقلية

ومن المعلوم أن (عدم التجانس بين الطلاب) من أخطر الآفات التي تعتري (نظام التعليم الجمعي)، ومن أكبر المشاكل التي تعقد مهمة المعلمين الذين يقومون بتعليم عدد غير قليل من الطلاب في فصل واحد ووقت واحد. ولذلك تجد رجال التربية في البلاد الغربية يبحثون عن ألف طريقة وطريقة لزيادة التجانس في الصفوف ويسعون دائما للتأليف بين ضرورات التعليم الجمعي وبين مطالب الفروق الفردية.

وأما نظام التعليم الابتدائي المرعي في مصر - فبعكس ذلك - يزيد هذه المشكلة زيادة هائلة. لأنه يضيف إلى الفروق الطبيعية فروقاً اصطناعية ناشئة عن اختلاف نتائج الدراسة السابقة.

إن التخلص من مضار هذه المشكلة ليس من الصعوبة بمكان. إذ يكفي لذلك تغيير النظام الحالي على أساس (إتمام بناية المدرسة الابتدائية بإيصال أسسها إلى الأرض القوية)؛ وجعلها مؤسسة تعليمية قائمة بنفسها، تتعهد بتعليم وتربية الأطفال منذ بدء أعمارهم المدرسية، دون أن تتكل على مؤسسات أخرى في تعليم القراءة والكتابة.

- 2 -

ومن المآخذ البارزة التي تستلفت الأنظار في نظام التعليم في مصر هي (اصطباغ رياض الأطفال بصبغة مدرسية)، واضحة.

ومن المعلوم أن رياض الأطفال تعتبر - عادة - بمثابة معاهد (تربية قبمدرسية) تتعهد بتربية الأطفال - (حتى وصولهم إلى الأسنان المدرسية) - بالأساليب الملائمة للأعمار التي تتقدم تلك الأسنان بوجه عام.

وأما نظام التعليم المتبع في مصر فينظر إلى (رياض الأطفال) نظره إلى (المدارس) تماما. فإن التعليمات الرسمية المتعلقة بها تحمل عنوان (منهج الدراسة) و (مدارس رياض الأطفال) وتوصل عدد (الدروس) في الأسبوع إلى الأربعة والثلاثين، وتكرر كلمات

و (الدراسة) و (أوقات الدروس) و (خارج أوقات الدروس) على الدوام، حتى (الدرس) إنها تنظر إلى (التهذيب) أيضا كدرس من الدروس، وتعين (الغرض من تدريس التهذيب

للأطفال، وتبين كيف يجب أن (تلقي عليهم دروس التهذيب)، وكيف يجب إن يجري (تدريس التأمل في مشاهد الطبيعة).

إن حركة التطور والتقدم السريعة التي حصلت في ساحة رياض الأطفال منذ بداءة القرن الحالي - ولاسيما ما كان منها بسبب آراء وأعمال دكرولي ومونتسوري - اتجهت على الدوام نحو (تخليص رياض الأطفال من الصبغة المدرسية). واعتقد أن أسباب بقاء رياض الأطفال في مصر بعيدة عن هذا الاتجاه، بهذه الصورة، تعود أولا وبالذات إلى كيفية (تكوين المدرسة الابتدائية). إذ من الطبيعي أنه عندما يطلب من رياض الأطفال إن تهيئ الطلاب إلى المدارس الابتدائية القائمة على الطراز الذي ذكرناه آنفا، ويحتم عليها تعليم القراءة والكتابة والحساب بالقدر الذي تتطلبه المدارس الابتدائية الحالية - يتعسر جعلها (دور تربية) أكثر من جعلها (بيوت تدريس)، بل يصبح من الضروري جعلها (مدارس من نوع خاص).

إن التعديل الذي يدخل على أسس المدارس الابتدائية، - وفقا للاقتراح الذي أدرجناه في الفقرة السابقة - يفسح في الوقت نفسه مجالا واسعاً لإصلاح رياض الأطفال وفقا للنزعات التربوية الحديثة، ولجعلها بمثابة (معاهد تربية قبمدرسية) - كما تقتضيها النزعات المذكورة - اكثر من (مدارس إعدادية للمدارس الابتدائية) كما هي الحال الآن

غير أن أهم المآخذ التي تؤخذ على نظام التعليم في مصر، هو (الاختلاف العظيم الموجود بين الدراسة الابتدائية وبين الدراسة الأولية) إذ أن مناهج هذين النوعين من المدارس المصرية يختلف بعضها عن بعض اختلافا كلياً، ولا توجد بينهما رابطة منظمة تسهل انتقال الأطفال من الواحدة للأخرى؛ حتى ولا يوجد تماثل نسبي يساعد على تقريب تأثيراتهما على نفوس الأطفال على الأقل.

لنفرض أننا أخذنا جدولين يبين كل واحد منهما خطة الدراسة المتبعة في كل واحد من هذين النوعين من المدارس؛ واستبدلنا فيهما تعبير (اللغة العربية) بتعبير (اللغة البيتية) أو

؛ وعرضنا الجدولين على أحد المربين دون أن نخبره بماهيتها، فلا شك عندنا (لغة الأم) في أنه عندما يقارن هذين الجدولين بعضهما ببعض، سيظن أن كل واحد منهما يعود إلى مملكة، وسيجزم بأن هاتين المملكتين تختلفان اختلافاً كلياً من حيث الحاجات والتقاليد والنزعات. وإذا أخبرناه بأن هذين الجدولين يعودان إلى مملكة واحدة، فسيقول بدون تردد (إذن يجب أن يكونا عائدين إلى دورين مختلفين من الأدوار التي مرت عليها حياة تلك المملكة)، وسيظن أن هذين الدورين ينفصل بعضها عن بعض بتطورات خطيرة وانقلابات عظيمة؛ وعلى كل حال سوف لا يتصور قط أن هذين الجدولين يمثلان مناهج الدراسة المتبعة في نوعين من المدارس التي تربي أبناء جيل واحد في مملكة واحدة بل في مدينة واحدة.

وفي الواقع تصوروا جارين يسكنان في محلة واحدة، وافرضوا أن لكل منهما طفلاً في التاسعة من العمر، غير أن الأول قد أرسل ابنه إلى مدرسة ابتدائية في حين أن الثاني أرسل ابنه إلى مدرسة أولية أو إلى مكتب عام؛ ثم قارنوا بين الدروس التي سيتلقاها كل واحد منهما، تجدوا أن الأول سيخصص ستة في المائة من أوقات دراسته لتعليم الدين والقرآن، في حين أن الثاني سيخصص ثمانية وعشرين في المائة من مجموع أوقات دراسته لنفس الموضوع، كما أن هذه الأوقات ستصل إلى أربعين في المائة إذا ذهب الطفل إلى أحد المكاتب العامة؛ هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الأول سيخصص خمس مجموع أوقات دراسته لتعليم اللغة الإنكليزية، وسيبدأ بدراسة تلك اللغة قبل أن يبدأ بتعلم قواعد اللغة العربية نفسها؛ في حين أن الثاني سوف لا يتعلم شيئاً منها طول مدة دراسته المقبلة. وعلاوة على كل ذلك، فإن الأول سيخصص اكثر من ربع أوقات دراسته للرسم والأشغال اليدوية والتربية البدنية، في حين أن حظ الثاني من هذه التمارين والأعمال سيكون شبيهاً بالعدم.

وإذا لاحظنا مدى تأثير هذه الفروق العظيمة على عقلية الأطفال ونفسياتهم، وجب علينا أن نقول: إن نظام التعليم المتبع في مصر لا يساعد على تكوين (جيل موحد الشعور).

كان يوجد في البلاد الغربية أيضا بعض الفروق بين مناهج الفصول الابتدائية التابعة

للمدارس الثانوية وبين مناهج المدارس الابتدائية المستقلة عنها، غير أن تلك الفروق كانت
بالنسبة إلى الفروق الهائلة التي تشاهد بين مناهج المدارس الابتدائية (طفيفة جداً)
والأولية في مصر. مع هذا، قام علماء التربية ورجال السياسة في تلك البلاد بحملات عنيفة ضد تلك الحالة، وأثاروا حولها أبحاثاً دقيقة ومناقشات شديدة، انتهت في معظم البلاد بتوحيد أسس الدراسة الابتدائية وفقا لمبدأ (المدرسة الموحدة) ذلك المبدأ الذي يلخص في عبارة (شعب واحد، مدرسة واحدة).
أفليس من الغريب جداً ألا تبدأ في مصر إلى الآن أية حركة ضد هذا النظام؟.
إنني لا اجهل بأنه نشأت في مصر - منذ مدة - حركة مباركة تطالب بتوحيد التربية والتعليم، وتعمل في سبيل ذلك بنشاط وقوة. غير أني ألاحظ في الوقت نفسه أن أغراض تلك الحركة المباركة وخططها لم تتعد حدود (التوحيد بين المدارس الأميرية والمدارس الحرة؛ في حين أنني اعتقد اعتقاداً جازماً بأن هذه الحركة لا يمكن أن تثمر الثمرة الكافية، إذا لم تسع لتوسيع نطاق عملها فتشمل في الوقت نفسه (توحيد أسس الدراسة في المدارس الأميرية نفسها).
إن الفرق العظيم الموجود بين مناهج المدارس الابتدائية والأولية كان من أول النقائص التي استوقفت نظري في نظام التعليم في مصر عندما زرت مدارسها للمرة الأولى سنة 1921 قبل مجيئي إلى العراق؛ واستمرار هذه الفروق بدون معارضة أو انتقاد كان من أهم ما استقلت نظري عن زيارتي الثانية لها سنة 1936
لقد عرضت ملاحظتي هذه - عند زيارتي الأولى على وشك المعارف بكتاب خاص. وعندما قدمت العراق، وجدت أن السلطة الإنكليزية كانت قد نقلت هذا النظام إلى هذه البلاد أيضاً، وكانت قد أحدثت مدارس أولية تختلف بمناهجها عن المدارس الابتدائية. وأول الأعمال التي أقدمت عليها - عندما توليت إدارة المعارف العامة هنا - كان القضاء على ذلك النظام؛ فقد وحدت برامج الدراسة في السنين الأربع الأولى توحيدا تاما، وجعلت الدراسة الأولية منطبقة على دراسة السنين الأربع الأولى من المدارس الابتدائية كل الانطباق.
أقدمت على ذلك - حينئذ - تحت تأثير عقيدة تربيوية اجتماعية، قبل أن أرى مفعولها في كثير من البلاد بصورة فعلية. فإن مبدأ (المدرسة الموحدة) كان قد دخل حديثاً في صلب
دستور (وايمار) في ألمانيا؛ غير أن معظم البلاد الأوربية كانت قد ظلت بعيدة عن الأخذ به، كما أن جميع البلاد الشرقية - بما فيها تركيا - كانت معرضة عنه. غير أن التطورات التي حدثت في نظم التعليم العام في تلك البلاد وغيرها - منذ ذلك التاريخ - أثبتت تماماً أنني كنت مصيباً في ذلك العمل كل الإصابة.
أفلا يجب على مصر أيضا أن تقوم بعملية مماثلة لتلك، وتعيد النظر في أسس نظامها التعليمي على مبدأ (توحيد أسس الدراسة)؟
- 4 -
من الأمور التي يجب أن تلاحظ بوجه خاص، أن الفروق العظيمة التي أشرنا إلى وجودها بين مناهج المدارس الابتدائية ومناهج المدارس الأولية كانت تتماشى بفروق مماثلة بين معاهد المعلمين الذين يتولون شؤون التربية والتعليم في كل نوع من نوعي هذه المدارس،
فإن معلمي المدارس الأولية يتخرجون في دور المعلمين الأولية في حين أن معلمي المدارس الابتدائية يتخرجون في معهد التربية. غير أن الفروق الموجودة بين دور المعلمين ومعهد التربية في مصر، لم تكن من نوع الفروق الاعتيادية التي تنتج من اختلاف (درجة التحصيل العام) أو (أسلوب الاستعداد المهني) فحسب، بل هي من نوع الفروق العظيمة التي تنتج من اختلاف (نوع الدراسة ونزعتها). و (نوع الثقافة التي تتولد منها). وذلك لان دور المعلمين الأولية تستند على المدارس الأولية، فالمدارس الأولية الراقية، وتستمر على خططها ونزعاتها، في حين أن معهد التربية يستند على المدارس الابتدائية، والثانوية، ويستمر على خططها ونزعاتها.
إنني لا أود في هذا المقام أن أتطرق إلى خطط كل من معهد التربية ودور المعلمين الأولية ومناهجها وأبدي رأيي في هذا الخطط والمناهج نفسها، بل أود أن الفت الأنظار

إلى الفرق العظيم الموجود بين نوع الثقافة واتجاه العقلية التي يستند عليها ويصل إليها كل واحد منهما. وأقول: إن الفروق العظيمة التي شرحنا وجودها بين مناهج الدراسة الابتدائية والأولية تشتد وتقوى بصورة هائلة خلال تطبيق تلك المناهج، من جراء الهوة العميقة الموجودة بين معاهد معلمي المدارس الابتدائية والأولية.

ولهذا السبب تصل (ثنائية التربية والتعليم في مصر) إلى أقصى الدرجات التي يمكن أن
يتصور الإنسان وجودها في مملكة واحدة

إنني كثيراً ما تصفحت التقارير التي قدمها الخبراء الفنيون الذين استقدمتهم الحكومة المصرية للاسترشاد بآرائهم في إصلاح معارفها، وأوردت أن اطلع على رأيهم في هذه الثنائية، ولو من خلال التقارير التي قدموها؛ وعلمت أنهم لاحظوا هذه الثنائية؛ غير أنهم لم يبدوا أي اعتراض عليها. ويغلب على ظني أن السبب في ذلك كان اعتقادهم بأن هذه الأمور تتعلق بتقاليد مصر ونزعاتها التي لا يجوز المناقشة حولها. لأنهم قسموا النظام التعليمي في مصر إلى قسمين، عنونوا أحدهما بعنوان (المدارس التي على النمط الأوربي) واكتفوا بإبداء بعض الملاحظات لإصلاح كل واحد من هذين النظامين على حدة: غير أني أرى من الضروري أن نتساءل قبل كل شيء: هل يجوز أن يكون في مملكة واحدة نظامان من المدارس، أحدهما على (نمط أوربي) وثانيهما على (نمط محلي أو غير أوربي؟)

أنا أعتقد أن ذلك مما لا يجوز بوجه من الوجوه. فعلى مصر أن تأخذ من الأنماط الأوربية ما يلائم حالاتها وحاجاتها، ثم توجد نمطاً قومياً خاصاً بها. فلا يجوز لها مطلقاً أن تؤسس صنفا من المدارس (على النمط الأوربي) بجانب صنف آخر يبقى على نمط غير أوربي. وإذا كان لوجود هذين النمطين بعض المستوجبات والمبررات في بدء تأسيس المعارف، فلا يمكن أن يكون لبقائهما الآن أي موجب بعد أن وصلت مصر إلى هذه المرحلة من مراحل نهوضها، وبعد أن صارت تحكم نفسها بنفسها. . .

يظهر أن مصر الفت هذا النظام المزدوج منذ مدة طويلة. ولعل هذه الألفة الطويلة كانت من أهم الأسباب التي حالت دون انتباه مفكري مصر إلى أضرار هذا النظام.

غير أنني أعتقد أن إعادة النظر في أسس النظام التعليمي في مصر على مبدأ (توحيد أسس الدراسة) أصبحت من أهم الإصلاحات الضرورية لمصر في بدء عهد نهضتها السياسية والاجتماعية الحديثة. فإن بقاء نظام التعليم على ما هو عليه من الثنائية يكون خطراً على وحدة الشعور التي يجب أن تسود البلاد.

قد يقول قائل: لا خوف على وحدة الشعور في مصر أبدا لان هذه الوحدة تجلت بأجلى مظاهرها خلال كفاح المصريين الطويل ضد الحماية والاستعمار؛ غير أنني أقول بأن (وحدة الشعور) التي عملت عملها خلال ذلك الكفاح كانت (وحدة) من نوع خاص، تكونت
تجاه عدو مادي وخارجي، استمر في إرهاق نفوس الجميع منذ مدة تنيف على نصف قرن. أما الآن فستدخل مصر في حياة كفاح جديدة تتطلب النضال في سبيل إصلاح النقائص الداخلية وضمان التقدم في جميع مناحي الحياة.

إن وحدة الشعور التي تكونت وتجلت خلال الكفاح السياسي لا تلبث أن تندثر خلال هذا النضال الإصلاحي إذا لم تغذ بتربية موحدة مستندة على نظام تعليمي موحد.

ولذلك أقول: إن إعادة النظر في أسس نظام التعليم أصبحت من الواجبات التي تتحتم على مصر في مستهل حياة النهوض التي دخلتها الآن.

- 5 -

هذه ملاحظات تتعلق بأسس نظام التعليم في مصر، ابسطها أمام الرأي العام المستنير بكل احترام وصراحة وإخلاص. وأرجو ألا يعتبرني أحد متطفلاً على مصر بهذه الملاحظات، فإني عربي صميم أدين بدين (العروبة) في أيمان وصدق، واهتم بمصر بقدر ما اهتم بسورية والعراق. ولا أكون مغالياً إذا قلت: أنني اهتم بمصر اكثر مما اهتم بسورية والعراق، لأنني أعرف أن مصر - بحسب أوضاعها العامة - أصبحت (القدوة المؤثرة) في العالم العربي بأجمعه. فاعتقد لذلك أن كل تقدم يحصل في مصر لا يخلو من النفع لسائر البلاد العربية، كما أن كل نقص يعيش ويستمر في مصر لا يخلو من ضرر العدوى إلى سائر البلاد العربية.

فكل خدمة تسدى إلى مصر تكون كأنما أسديت إلى سائر البلاد العربية جمعاء.
بغداد
أبو خلدون
(ساطع الحصري)
الفقر أستاذ. . .
للأستاذ السيد محمد زيادة
التقى رجلان فقيران، كلاهما مدقع ذليل لفقره. . . وجلسا يتشاكيان ويتناجيان بأحاديث يصل فيها الفقر إلى الألم، ويصل الألم إلى الحسرة، وتبلغ الحسرة إلى الثورة، وتنتهي الثورة إلى الدموع. . . ثم يكون بعد الدموع الاستلام والجلد والهدوء والراحة
قال أحدهما للآخر: هبك أصبحت غنياً من أهل الترف والنعيم والجاه؛ فكيف تكون في غناك، وماذا تعمل إذ ذاك بمالك؟
فأجاب: أكون ظلا مباحاً يأوي إليه الشَّرَدُ بلا قيد، ويتفيؤه الفقراء بغير عناء، وأكون حلقة الاتصال بين الأغنياء والمساكين. . . أعطي أولئك المكانة والمظهر، وأعطي هؤلاء النفس والجوهر
وأما مالي فلا يكون ألا مطية للكرم ومجالاً للعطف وسبيلاً للرحمة، ولا أكون عليه إلا كالأمين على مال موقوف للخير ولا يكون لي منه ألا ما للمرضع من لبن ثديها تدرُّ به للتربة
والتقى رجلان غنيان كلاهما مرهوب مرفوع لغناه. . . وجلسا يتداعبان ويتنادمان بأحاديث يصل فيها الغنى إلى الفخر، ويصل الفخر إلى الكبر، ويبلغ الكبر إلى التعاظم، وينتهي التعاظم إلى الوقاحة. . . ثم يكون من الوقاحة انتفاخ الأوداج واتساع المزاعم وادعاء المستحيل
قال أحدهما للآخر: هبك أصبحت فقيراً من أهل البؤس والعدم؛ فكيف تكون في فقرك؟ وماذا تجد إذ ذاك في دنياك؟
قال الثاني: وهل تتوقع الفقر لأمثالنا؟
قال الأول: ليكن هذا مستحيلاً، ولنفرض انه وقع. . .
قال الآخر: إذن أنتحر. . .
ومشت الأيام في طريقها إلى غايتها. . . فإذا الفقير المعدم غني موسر يتدرج نحو الثراء وشيكاً؛ فيجد في كل عمل حظاً، ويكسب من كل حظ ثروة، ويحس في كل ثروة سعادة. . . لأن الدنيا رضيت عنه فراحت تسترضيه، ومالت إليه فأخذت تستميله وقد كان بين آخر العسر وأول اليسر يحمل تلك النفس الطيبة التي كان يحملها وهو فقير والتي أوحت إليه إذ ذاك أن يقول لصاحبه ما قال. . . فظلم نفسه باستمساكه بمذاهب الفقر واستعذابه حياة الفقراء!!. ثم تتغير قليلاً فكانت دنياه مزيجاً من حياته القديمة وحياته الجديدة، فأنصف نفسه بذلك وعدل بين الفقر والثراء!!. ثم تتغير تغيراً بينياً فنسى الفقر ونسى أنه كان فقيراً، وحقر الفقراء واستقر في الأغنياء، وطغى واستكبر، وبدل النفس الخيرة بنفس شريرة، واستطاب لسانه كلمة أنا. . . وبذلك لبس الغنى كما يشاء الغنى أن يلبس
وويل للغني من جهلة إذا تسلط على عقله الغرور فتعبده!!. ينسيه أنه إنسان ويلقي في روعه أنه فوق مرتبة البشر، ليجرد من صفات الإنسانية، ويكسوه صفات غيرها تصيره تحت؛ ودائماً تحت مرتبة البشر. . . المال في يده مفسدة لخلقه ومضيعة للفضيلة ونداء للجشع وقضاء على الرحمة. . .
لقد تلف الرجل، وفقدته الحياة حياً فلم يصبح معدوداً في الناس؛ وإنما اصبح رقماً حسابياً لثروة واسعة ليس من ورائها خير
ومشت الأيام في طريقها إلى غايتها، فإذا الغني الذي استبعد على نفسه الفقر قد رجع فقيرا يستبعد على نفسه الرجعة إلى غناه. تمور به الدنيا وتهيئ له في كل خطوة عثرة، وفي كل عثرة كبوة، وفي كل كبوة مصيبة، وفي كل مصيبة هماً وشقاء. . . لأنها غضبت عليه فراحت تقصيه عنها شيئاً فشيئاً لتقطع أسباب المودة بينها وبينه
وكان في بدء انكسار حظه واغتراب نجمه يستكبر على الفقر ويتعظم على القدر، ويحاول بشق النفس ألا يتحول مرتعه ولا يتبدل منزعه، فوضع نفسه بهذا أمام الدنيا في موضع الحرَد والعنت ليناصبها العداء، ويملي عليها العصيان والكبرياء!!. ثم اشتدت

عليه غضبة الدهر فأيقظت فيه بعض عقله ونبهته إلى حاله ومصيره. . . فأعتدل طغيانه، وفتر عنفوانه، وهمت به نفسه الخائرة الواهنة تريده على أن ينتحر فراراً من الفقر النازل؛ ولكن راجعته بوادر السمو المنساقة إليه في بوادر الفقر. . . فتشجع واستمهل نفسه فيما أرادت!!. وكان في هذا كالذاهب على رغمه إلى ميدان الحرب. . .

ثم تمت صنعه الفقر فيه. فتأهب للصبر الطويل، وتماسك عزمه لاحتمال الفاقة وصراع الزمن. وتهذبت سريرته من شوائب الغنى وكفر المادة؛ وبذلك أسلمت نفسه بالحقيقة وحسن إسلامها.

الفقر في ذاته قبيح شديد القبح؛ ولكنه في عمله جميل رقيق الجمال، إذا نزل بالرجل مسخه وبدل في طبيعته، وصير منه للناس الفقراء رجلاً خفيفاً محبوباً، وصير منه للناس الأغنياء رجلاً ثقيلاً مبغضاً، وصير منه بين أولئك وهؤلاء رجلاً بين المحبوب والمكروه. . . فيصبح الرجل بفقره ثلاثة رجال، لكل منهم روح خاصة تضعه في مكانه من الإنسانية

وإذا رضى الله عن رجل ممن ولدوا أغنياء واحبه امتحنه بمحنة الفقر ليخلق منه إنساناً في أرفع درجات الإنسان، وإذا غضب رجل ممن ولدوا فقراء ومقته هيأ له الغنى وغمره به، ليخلق منه رجلاً آخر بين الإنسان والحيوان. . حتى إذا أراد الله وعاد الأول إلى غناه وعاد الثاني إلى فقره شعر كل منها بنعمة الفقر

وإن الفقير ليتعلم من فقره القناعة فيجد سعادته في قناعته، كما يتعلم الغني من غناه الجشع فيجد شقاءه في جشعه. . .

ولا يعرف الفقير أنه فقير إلا إذا عرف أن غيره غني. . . ولا يشعر بوجود الفقر معه إلا إذا شعر بامتناع الغني عليه؛ فإذا اجتمع قوم من الفقراء ولم يكن بينهم واحد من الأغنياء، لم يجدوا للفقر مَضَضاً ولوعة، ولم يحسوا أنهم الفقراء. . . حتى يكون منهم أو يكون بينهم ذو يسار فيرونه في مباهج النعيم ومناهج السعادة، فيفكرون فيجدون في حياته حياة أخرى لم يألفوها ولم يعرفوها، ثم يفكرون فيجدون في حياته فراغاً لا يملؤه إلا المادة، ونقصاً لا يسده إلا الثراء. ثم يفكرون فيعرفون أنهم فقراء والفقراء في هذه الحياة مظلومون لأنهم يحرمون بقدر ما يعملون. . .

والفقر يمتاز من الغنى بأنه ألزم للحياة وادعى لسلامتها. فليس الناس إذا جمعهم الفقر فصاروا جميعاً فقراء، كالناس إذا جمعهم الغنى فصاروا جميعاً أغنياء. . إذ لو أراد الله الحالة الأولى لوجدنا الناس كتلة واحدة مبنية على الطهارة الفطرية مدعمة بالإخلاص الروحي؛ يتبادلون المعروف ويتعاونون على أيامهم بمناعة الأيمان وقناعة النفوس. . . فتصلح لهم وتصلح بهم الحياة، ويعيشون في نعيم دونه نعيم الغني. . .

ولو أراد الله الحالة الثانية لوجدنا الناس كالوحوش بنفوس داجية وعقول ضارية؛ يتعشق

كل منهم التسلط حيث لا مجال للتسلط، ويستكبر على القيام براحة نفسه فلا يجد من يقوم براحته. . . فتفسد عليهم وتفسد بهم الحياة، ويعيشون في جحيم أخف منه جحيم الفقر. . .

فالفقر أستاذ أخلاق، ومن قدر له أن يكون أحد تلاميذه فقد قدر له أن يتقلى دروس الحياة.

طنطا

السيد زيادة

التعب

للأستاذ محمد جلال

ألقى الأستاذ ميكائيل فستر خطبة في هذا الموضوع بجامعة كمبردج في 14 يونية سنة 1893. لا تزال ذات قيمة

ولابد للباحث من الرجوع إليها ليعرف نشوء الآراء وتبدلها فيما هو بصدده. ولذلك سأبدأ بتدوين ملخص رأيه.

قال الأستاذ فستر: (إن قوة الإنسان الجسمانية محدودة بنقيصتين هما: ميل الجسم إلى السكون حتى ليعسر حثه على الحركة. وسرعة استعداده للتعب، أي العجز عن مواصلة العمل المطلوب منه.

والتعب ينشأ حتى من تكرار أبسط الحركات. ولنضرب لذلك مثلاً تحريك صنج أو ثقل باليد. أن هذا العمل يتم فسيولوجيا على الوجه الأتي: يحصل في الجهاز العصبي المركزي - ولنطلق عليه اسم (المخ) تبسيطاً للشرح - تغيرات تبعث على حدوث تغيرات أخرى في حزم من الألياف تسمى الأعصاب. وهذه التغيرات التي يسميها الفسيولوجيون دوافع عصبية تحدث في العضلات تغيرات من شأنها أن تجعلها تقصر ثم تنكمش حتى تتلاقى أواخرها معاً. وفعلها هذا يحرك روافع عظيمة. وبذلك تنثني الذراع أو اليد ويرفع الثقل

ومن الجلي أن التعب قد ينشأ بطرق ثلاث على الأقل.

(1) نكوص العضلات

(2) نكوص الأعصاب

(3) نكوص المخ، أو نكوص اثنين منها أو الجميع معاً.

أما ما يعتري العضلات من نصب فلا يتوقف على مقدار ما تنفقه من جهد مثل ما يتوقف على مقدار سرعة ذلك الجهد وتعويضه، أي على مقدار الفرق بين سرعة الهدم وسرعة البناء

ويشذ القلب عن جميع عضلات الجسم بأنه لا يعرف الكلل، وحينما يعجز عن الاستمرار في تأدية وظيفته يكون ذلك بسبب اختلال أو فساد يصيب أحد أجزاء الجسم الأخرى لا بسبب اختلاله أو فساده هو ألا في ما ندر.

وتوجد عوامل لتعب العضلات غير الإفراط في بذل رأس ماله الحيوي، ذلك بأنها ميدان حياة وموت، إذ تحمل إليها الشرايين مواد حية وتنقل منها الأوردة مواد ميتة. ومن مظاهر الحياة الغريبة أن كل عضو يصنع سماً لنفسه وهو يؤدي حركة من حركة فالتعب يتوقف على مقدار ما تفرزه العضلة من السم الضار بها كما يتوقف على ما تدخره بقية أجزاء الجسم من قوة تعين بها تلك العضلة على مقاومة ما يعتريها من وهن بإزالة السموم وجلب مواد حية جديدة.

على أن كل عمل تأتيه العضلات يشاركها فيه المخ والأعصاب، وما ينجم من تعب لا يصيب العضلات وحدها. ومن المشاهد أن الإنسان قد يبلغ به الجهد حد الإعياء، ومع ذلك قد يدفعه الفرح أو الخوف المفاجئ إلى إتيان ما كان يظنه منذ لحظة مستحيلاً، وقد تشل حركتنا وتنضب قوتنا من تأثير انفعال مباغت. ولما كانت العضلات لا تحس ولا تشعر ولا تدري بما يفاجئ، فلا يمكن أن تتأثر بالانفعالات، فالتعب الذي يمحوه الأمل أو الذي يعجل به اليأس لا يمكن أن يعزى إلى العضلات بل لابد أن يكون مصدره الجهاز العصبي.

وهنا يجب التنبيه على التفرقة بين الأعصاب والجهاز العصبي فالأعصاب لا تتعب مطلقاً، وإنما الذي يكل هو المخ أو الإرادة، وهذا ما نقصده بالجهاز العصبي، وهو أقل قدرة من العضلات على تحمل التعب. ولعل سرعة تكرار ذبذبة الأمواج الصوتية والضوئية وغيرها مما يجتهد المخ مسجل الاحساسات، فأننا لنرى أن الصوت المستمر يأتي علينا وقت لا نسمعه كما نفقد الشعور بلمسة واصبة ولا نشعر بحلاوة ما نأكل أو نذوق من مادة سكرية نأكلها أو نذوقها دون انقطاع، وإحساسنا يكاد يصبح بليداً، دون أن ندرك بفعل التكرار، ولذلك تفقد الملذات لذتها في نظرنا بطول المدة وتشبع الجسم وسآمته

ولما كانت أعضاء الجسم جميعاً مرتبطة في العمل، فالجهد الذي يصيب أحدها لا تسلم منه سائر الأجزاء. . . ولما كان الدم يحمل السموم كما يحمل المواد المنعشة فإن مروره في الجهات الحساسة كالمخ قد يسبب لها اضطراباً وقلقاً أو تخديراً وموتاً.

على أن تلك السموم تفيد بعض الأعضاء التي تتغذى بها أو تحولها إلى مواد غير ضارة أو تقذف بها إلى خارج الجسم، ولذلك تجب علينا العناية بالأعضاء الداخلة وخصوصاً الكبد.

ولا يفوتنا أن الجلد لا يقل أهمية عن الكبد. وليذكر كل واحد أن لأبداننا علينا حقوقاً (يجب أن نوفيها بالراحة والرياضة غير المجهدة).

هذا بعض ما يقوله الأستاذ فستر.

أما الدكتور فلوري فقد أفرد باباً للتعب في كتابه الطلي الذي جعله مقدمة لطب النفوس، وفيه يقول: (إن الإنسان يستنفد قواه اليوم ما يتعرض له من مختلف

الذبذبات، فقد أقام المسيو فيريه البرهان على انه يكفي أن يمر تحت نظرنا لون زاه، أو على سمعنا صوت، حتى يهيج جهازنا العصبي إلى حد يزيد قوتنا مؤقتا ثم يعقب ذلك خمول دائم. فإذا قدرنا ما يقع تحت أبصارنا من ألوان الصور، وما يقرع أسماعنا من أصوات الموسيقى وحركة العربات وغيرها، أمكننا أن نكون فكرة عن مقدار ما يذهب من قوانا هباء بسبب التعب الجسماني ليس غير

وإذا أضفنا الإجهاد العقلي وما تستنفده حياتنا العاطفية استطعنا أن نعرف أن أجل نومنا قصير لا يعوض ما كابدنا من مشقة، وهذا هو الإرهاق بعينه، ولا يكون علاج هذا الإرهاق المدمر ألا بإحدى وسائل ثلاث:

الراحة والمران ثم تنبيه المراكز العصبية تنبيهاً منظماً

أما الراحة فتتطلب العزلة التامة بعيداً عن المنغصات والمثيرات في بيت من بيوت العلاج المائي بحيث لا يقطع تلك الحياة البسيطة التي يقضيها المجهد هناك ألا فترات الأكل والاستحمام والنزهة والتعرض لتيارات الكهرباء الاستاتيكية.

وفلوري يرى أن هذه الوسيلة شرها أعظم من خيرها ولا يقرها علاجاً إلا حين يخفق كل علاج سواها، فإن المرء لا ينبغي له أن يرتمي في أحضان السآمة بل يجب عليه أن يصون نشاطه ويذكيه بتنمية ميله الطبيعي إلى العمل بالمران. فإن البطالة والكسل مصدر كل الموبقات ومنبع عدة اضطرابات وأمراض عصبية. والتعب الحقيقي نادر عارض لا يلازم المفكرين المنتجين إلا أمداً قصيراً، ولكنه كثيراً ما يلازم الفارين من متاعب الحياة الذين يقضون أوقاتهم دون عمل، والذين لا ينتجون إلا إذا هبط عليهم وحي أو الهام. لأمثال هؤلاء لا تنفع الراحة إذ هم في راحة دائمة، والراحة لا تفيد ألا من تعوزه، وهي لا تعوز ألا من يبذل أقصى الجهد في عمل متواصل. أي أناة وجلد ومثابرة، وأي جهد

استلزمته مؤلفات إسكندر دوماس الكبير أو مؤلفات بلزاك أو ميشليه أو هوجو أو تيير؟ فلنر كيف كان هؤلاء الفحول يشتغلون

يقول دوماس الصغير في والده: لم يكن والدي يشتغل متقطعاً، بل كان يشتغل يومياً من وقت استيقاظه حتى الظهر غالباً؛ ولم يكن الغذاء ألا فترة راحة، وإذا تناول طعامه وحيداً، وهذا نادر، نقلت له مائدة صغيرة إلى حجرة العمل حيث يأكل برغبة ولذة كل ما يقدم إليه. فإذا انتهى الأكل عاد إلى كرسي العمل وتناول قلمه. ولم يكن يشرب وقت الغداء إلا النبيذ الأحمر أو الأبيض مخلوطاً بماء سلتز، فلا قهوة ولا خمر ولا تبغ. أما بقية اليوم فلم يكن يتناول فيه ألا شراب الليمون. وشغله في المساء قليل، ولكنه على كل حال لم يكن يسهر أبداً حتى ساعة متأخرة من الليل بل كان ينام نوماً عميقاً. ولم يكن يشعر بتعب ألا إذا قضى على هذه الحال عدة أيام بل عدة اشهر. عند ذلك يسافر للصيد والقنص في رحلة قصيرة يستغرق معظم وقتها في النوم دون أدنى تفكير، فإذا ما حل ببلدة فيها ما يدعو إلى الفرجة ذهب لمشاهدة غرائبها ودون مذكرات عنها؛ فكل راحته في تغيير العمل.

ولقد شاهدته في عدة سنين يصاب بالحمى يومين أو ثلاثة عقب عمله اليومي المستمر، وتبلغ ضربات قلبه 120 أو130 فيعالج نفسه بالنوم العميق وشراب الليمون يوضع له في جفنة عظيمة على منضدة بجوار السرير، فكلما استيقظ تناول جرعات، منها وبعد مضي يومين أو ثلاثة ينتهي كل شيء فيقوم ويستحم ويبدأ عمله.

وكان دائماً في صحة جيدة لا يرتاح راحة تامة إلا في الصيد والسفر، ولم أعهده يرتاح في المنزل مطلقاً. غير أنه كان كثير النوم؛ وقد ينام بالنهار (على حسب هواه) ربع ساعة نوماً مصحوباً بشخير عظيم، فإذا ما استيقظ امسك بالقلم، ولم يكن يمحو شيئاً حين يكتب، وكان جميل الخط

أما دوماس الصغير فكان على خلاف والده، متقطع العمل يسكت أشهرا ثم يستأنف الكتابة، ذلك بأنه كان عديم الخيال، معتمداً في تأليفه على الملاحظات والتفكير؛ فكان لابد من أن يستغرق زمناً طويلاً في المشاهدات، ثم يفكر في طريقة صوغ القصة، حتى إذا ما نضجت عمد إلى تدوينها على القرطاس؛ وكان يقضي مدة المخاض في حركة، حتى إذا ما أراد

الوضع بدأ عمله مبكراً واستراح عند الظهر. وكان يحب التأليف في الريف، ولا يشتغل في اليوم اكثر من ساعتين أو ثلاث، وكلما طال عمله طال نومه وقلت رغبته في

الأكل، وكانت صناعة الكتابة منهكة له، وكثيراً ما اضطر إلى الانقطاع عن العمل بتاتاً مددا طويلة.
على أنه كان كأبيه من حيث الاعتدال، فلم يكن يشرب نبيذاً ولا قهوة ولا خمراً ولم يكن تبغاً.
أما بلزاك العظيم فقد كان غريباً في حياته التأليفية. فلم يكن يكتب ألا بعد أن يلبس لباس الهبان، وكذلك كان سلوكه مثلهم منظماً نقياً جيدا. ويروى تيوفيل جوتييه أن بلزاك كان ينصح لتلاميذه أن ينقطعوا للعمل سنتين أو ثلاثا بمعزل عن الناس، وألا يشربوا إلا الماء ولا يأكلوا إلا الأرانب، وأن يناموا عند تمام الساعة السادسة مساء ويستيقظوا عند منتصف الليل فيبدأوا عملهم حتى الصباح، كما كان ينصحهم بالعفاف المطلق؛ وكان كثير التكرار لهذه النصيحة الأخيرة. ولم يكن هازلا في نصائحه. وقد كان عظيم الإنتاج بفضل إرادته الخارقة ومزاجه التقشفي وانقطاعه عن الناس انقطاع المتحنثين الأبرار. وكان في سلوكه مستقيماً حتى لم يكن يشرب النبيذ
وأما هوجو فكان مفرطاً في شرب الخمر والأكل دون اكتراث، ولكنه ككل عظماء المنتجين، كان يبدأ عمله في ساعات محددة من وقت الاستيقاظ إلى وقت الغداء. وكان يستيقظ في الساعة السابعة دائماً فيغسل رأسه بماء بارد، ثم يبدأ يكتب وهو واقف بسلاسة دون محو صفحات من نثر أو نظم قد أختمر في عقله في مساء اليوم السابق في أثناء نزهته المعتادة بعد الظهر. وما أكثر ما صنف! ولكن تصانيفه الهائلة لم تجهده أبداً وذلك بفضل نظام العمل.
أما ميشليه فكان من عادته أن يكتب مبكراً؛ فكان في أول حياته يستيقظ في الرابعة صباحاً، ثم اصبح في وسط حياته يعمل نحو الساعة الخامسة: وفي آخر حياته صارت السادسة هي ساعة بدء العمل. وكان محباً للنوم، هادئه عميقه، وكان ينام الساعة التاسعة مساء حين كان وحيداً. وكان يدرس قبل نومه الحقائق الأساسية الخاصة بالفصل الذي عليه أن يكتبه في اليوم التالي، فمما لا شك فيه أن العقل يشتغل بالليل وصاحبه نائم.
وكان معتدلاً في غذائه، لا يأكل شيئاً ثقيلاً، ويكثر من الخضر؛ وقبل بدئه عمله يتناول فنجانة صغيرة من قهوة ولبن دون خبز وفي الحادية عشرة صباحاً يأكل بيضتين وشريحة من اللحم المشوي؛ وقد يأكل قليلاً من الفاكهة ويشرب قليلاً من النبيذ أما الخمر فلم يكن يتعاطاها ولم يكن يحب القهوة ألا باللبن
وكان يشتغل في كل يوم ست ساعات طول حياته، ولم يكن يحب الملاهي، وما كان يزورها ألا نادراً؛ وما كان يلهيه عن عمله شيء، فإذا ما أتم كتابه شعر بأثر متاعب العمل المتواصل فلا ينجيه من آلامه إلا الريف والتاريخ الطبيعي
مما سبق يتبين أن هؤلاء العظماء قد اشتغلوا كثيراً جداً دون انقطاع تقريباً مدى عدة سنين ولم يصابوا في صحتهم بسوء، فقد عاش دوماس الكبير 67 سنة وميشليه 74 وتيير 80 وهوجو 82 ودوماس الصغير 71، ولم يمت صغيراً ألا بلزاك فقد عاش 51 سنة فقط. ولعل لكثرة مشاغله وهمومه المالية أثراً في ذلك؛ فكثيراً ما كان يضطر إلى العمل 16 ساعة في اليوم شهرين متتاليين أو ثلاثة أشهر. فلا عجب إذا كل وعجز عن المقاومة وإن كان قوى الجسم مفتول العضلات.

شاعر الإسلام
محمد عاكف

بقلم الدكتور عبد الوهاب عزام

- 1 -

كنت أقرأ اسم محمد عاكف بين أعلام الأدب التركي الحديث، وكنت لا اعرف ألا طرفاً من أخباره وأشعاره. فلما سافرت إلى استنبول منذ سبع سنين، وكان عاكف قد هاجر إلى مصر، عرفت من سيرته وأدبه ما حببه إلي وشاقني إلى لقائه. فلما عدت إلى مصر بادرت إلى زيارته، وكان من سعادة الجد حينئذ أن ألفيته على مقربة مني في حلوان نازلاً في كنف الأمير عباس حليم باشا رحمه الله
ذهبت إلى داره، فطرقت الباب رجل ناهز الستين اشمط ربعة قوي البنية، عليه سيما الحياء والتواضع. وجلست فتحدثنا قليلاً، فافتتحنا عهداً من المودة المؤكدة والصداقة المخلصة

وكان صديقي حيياً، نزر الكلام، كثير التفكر، طويل الصمت، نزاعاً إلى العزلة، نفوراً من المجامع؛ فتوفر حظي من لقائه والأنس به، قلما زرته فلم ألفه في داره وكان أنسه أن أزوره أو يزورني، فنفرغ للحديث نصرفه بين الماضي والحاضر، ونمزج فيه الجد بالفكاهة. ونطوف به في أرجاء الأدب والتاريخ، ونتعرف بها أحوال المسلمين. وكان إذا أنس بالمجلس انطلق في الحديث وتبسط واستزاد المحدث بحسن استماعه واهتمامه. فإذا قاسمنا مجلسنا غيرنا صمت حياء أو انقباضاً، أو إصغاء أو إنكارا؛ فإذا سألته لأشركه في الحديث هز رأسه متجاهلاً، أو ابتسم أو أجاب موجزاً، ثم راجع صمته. فإذا انفض المجلس أبدى لي رأيه مخالفاً أو موافقاً، ساخطاً أو راضياً

وكان احب شيء إليه أن نلتقي في عشايا الصيف، فنطوف في حلوان نتعطف في شوارعها كما تتعطف بنا شجون الحديث، فلا ننتبه لمكاننا حتى نخرج من ابنيه المدينة فنرجع إليها، ويلهينا الحديث حتى ننتهي إلى طرفها الآخر. وكان قوياً على المشي محباً له لا يذكر الدار ألا أن شكوت إليه التعب، فيشكني عائداً إلى داره أو داري لنقطع الحديث بشرب الشاي.

وكم تحدثنا وقرانا في سيرنا وجلوسنا في الآداب الثلاثة: العربية والفارسية والتركية. وكنت احب أن أقرأ عليه شعره؛ وكان يسره أن يستمع له. وكانت كل أحاديثنا وقراءتنا متعة، نجتمع فيه على الفكر والذوق والأمل والألم. وكان أطيب المجالس مجلساً نفزع فيه إلى شعر محمد إقبال. وهو (رحمه الله) عرفني بإقبال يوم أعارني ديوانه (بيام مشرق) فإذا صفا الوقت عمدت إلى أحد كتب إقبال فقرأت واستمع مقبلاً مستغرقاً يقطع إنشادي في الحين بعد الحين بالاستعادة أو الاستحسان أو التعجب أو التأوه. وشد ما كان يثير إقبال نفسه، أو يثلج صدره! وشد ما كان يحزنه أو يفرحه! وأذكر أننا بدأنا كتاب إقبال (أسرار خودي) فوالينا الجلسات حتى أنهيناه إنشادا، ثم اتبعنا به أخاه (رموزبي خودي) فختمناه على شوق إلى الإعادة

وكنت عرفت أساتذة كلية الآداب بهذا الأديب الكبير، فاختاروه لتدريس التركية بها، فكان محبباً إلى الأساتذة والطلاب يأنسون به ويجلونه ويتوددون إليه

- 2 -

كرت علي هذا الأيام، وعددنا فيه بضع سنين لا يكاد عاكف يغيب ثلاثة أيام لا أراه في حلوان أو كلية الآداب. وكان قوياً صحيحاً مغتبطاً بالعافية، فلم يرعنا ألا أن بدا عليه الهزال والشحوب، وازداد به الانقباض والحزن، فإذا سألناه اخبرنا أن مرضاً قديماً عاوده. وهو يطب له ويرجو الشفاء. ثم بدا له أن يذهب إلى الشام يستمد العافية من السفر وتجديد الهواء، فعاد بعد شهرين وقد استفاد أن مرضه لم يزدد. ثم تغير وتغير فأنكرنا حاله ورثينا له، وإذا الجسم القوى المضمور عظام تحت الثياب، ولكنا كنا نأمل له العافية، ونرتقب أن نغتبط به معافى متهللاً كما كان.

وكان سفري إلى العراق، فتركته راجياً أن ينجده الطب فيسترد عافيته ونضرته، وتطول سعادة أصدقائه وغبطة الأدب به. وكتبت إليه من بغداد فلم اظفر بجواب، ولم يكن ذاك من دأبه. فالتمست له عذرا من المشاغل وتمنيت ألا يكون المرض شغله عن رجع الخطاب، ثم علمت أنه سافر إلى استنبول وأن حاله لا تبشر بالرجوع إلى مصر.

- 3 -

رجعت إلى حلوان افتقد زوراته بالنهار والليل، وأندب غدواتي وروحاتي إليه، ممسكاً بكتاب أو معداً الحديث، وأتذكر مجالس عزت علي من بعده، ومن لي بعد عاكف بمجالسه؟

وعلمت أواخر الصيف الماضي أن صاحبنا لما به، وأن داءه قد استفحل، وغلب اليأس الأمل. ثم انقطعت الأخبار، وطال الانتظار، وأرجفت الأنباء، ولم نظفر من الأمر بيقين. والتمسنا أخباره بالبريد والبرق فلم نستقر على نبأ

ثم طلعت جرائد مصر بالنعي، وترادفت جرائد تركيا بخبره، ولكن بالحسرة والرثاء، وبصورته ولكن في ساعاته الأخيرة، وبمشهده، ولكن محمولاً على الأعناق، وبالخبر اليقين! ولكن في بطن الثرى.

فإلى رحمة الله التقي النقي، وفي ذمة الله الأديب الألمعي وفي رضوان الله (شاعر الإسلام)

(للكلام بقية)
عبد الوهاب عزام
سجين شيلون
للشاعر الإنجليزي لورد بيرون
بقلم الأستاذ محمود الخفيف
إلى الذين لا يلويهم شيء عما يعشقون من حرية
(المعرب)
تمهيد
كتب بيرون هذه القصيدة الجميلة في فندق صغير في قرية بالقرب من لوزان، حيث عاقته رداءة الجو عن متابعة سيره، وقد أثار مرأى ذلك الحصن العتيق (شيلون) في قلبه ذكرى فرنسوا دي بونفارد الذي سجنه فيه دوق سافوي من أجل مبادئه الجمهورية عام 1570م وقد جعله بيرون بطل هذه الأقصوصة الخيالية الرائعة.
- 1 -
لقد علق الشيب بشعري ولكن لم تلده السنون، كذلك لم تبيض رأسي في ليلة كما تبيض رؤوس الرجال بغتهم الرعب.
وتقوست ساقاي. وإن لم يك ذلك عن جهد، بل لقد صدئتا في سكون موبق مهلك، إذ كانتا نهب الدمار في سجن مظلم تحت الأرض
وكان حظي في هذه الدنيا حظ أولئك الذين لا يجدون في أرضها مضطربا، ولا في سمائها مسرحاً، إذ كان ذلك عليهم محرما
على أن ما ألاقيه، إنما هو من أجل عقيدة أبي! أجل، من أجل تلك العقيدة أقاسي الأصفاد وأغازل الموت طالبا يده!
ولقد قضى ذلك الأب نحبه مستشهدا على خشبة الصلب، في سبيل مبادئه، التي لم يكن لينثني عنها، وفي سبيل هاتيك المبادئ عينها، يجد أبناؤه مأواهم في ظلمات السجن
كنا سبعة، نحن الذين تراهم الآن واحداً فحسب، ستة في الشباب وواحداً في المشيب، انتهوا جميعاً كما بدأوا فخورين بما صبه الاضطهاد على رؤوسهم من نقمة.
ألقي بواحد في النار، وهلك اثنان في الميدان، حيث طبع الدم عقيدتيهما بخاتمه، وذهبا كما ذهب أبوهما في سبيل الله الذي أنكره أعدائهم، وألقي بالثلاثة الباقين في غيابة السجن حيث لم يعش منهم سواي أنا. . . حطامهم الباقي
- 2 -
هنالك في سجن (شيلون) ذلك السجن العتيق العميق، توجد سبعة أعمدة أقيمت على النمط القوطي، سبعة أعمدة ضخمة شهباء، تتراءى كالحة على بصيص منبعث من شعاع كئيب سجين، شعاع من أشعة الشمس ضل طريقه، فسقط من خلال الشقوق في الجدار الضخم على أرض السجن، واخذ يزحف فوق تلك الأرض الرطبة المبللة كأنه خيال المذنب انعكس في مستنقع
في كل عمود من تلك الأعمدة علقت حلقة، وفي كل حلقة ربطت سلسلة. آه. يا لهذا الحديد من آكل، فهاهي ذي أسنانه لا يزال أثرها في ساقي ولن يزول ذلك الأثر إلا بزوال هذا النهار الجديد، الذي تتأذى به الآن عيناي وتتألمان، لأنهما لم تريا الشمس هكذا تشرق منذ سنوات لا يسعني حصرها، فقد نسيت عددها وغاب عن وعيي تعاقبها الثقيل، منذ أحنى آخر اخوتي رأسه وفارق دنياه، وأنا بجانبه لا تزال تدب في جسمي الحياة!
- 3 -
أوثقونا كلا في عمود من تلك الأعمدة الحجرية وكنا ثلاثة معا، ولكن كل في معزل عن أخويه، ولم نك نستطيع أن نتحرك خطوة واحدة، ولم يك يتسنى لأحدنا أن يرى وجهي الآخرين لولا ذلك الضوء الشاحب الأغبش الذي جعل كلاً منا غريباً في عين أخيه: وهكذا كنا معا وإن كنا في الوقت نفسه منفردين، كانت أيدينا مغلولة مربوطة، ولكن قلوبنا كانت تذوي من الحزن.
على أننا مع ما كنا نقاسيه من حرمان أنفسنا من عناصر الحياة الصافية وجدنا بعض العزاء أن كنا نستطيع أن نتحادث ويسمع كل منا كلام أخويه فيسري كل عن الآخرين

بما ينشد من أمل جديد أو بما يذكر من أسطورة قديمة أو بما يتغنى به من نشيد حماسي من أناشيد البطولة
ولكن هاتيك التعلات وا أسفاه تسربت إليها في النهاية برودة المكان، وصار لأصواتنا رجع كئيب موحش هو الصدى المرتد من أحجار ذلك السجن، صارت أصواتنا حبيسة ضعيفة ولم تعد كما كانت بالأمس طليقة مليئة. ربما كان ذلك وهما ولكني لم اعد أتبين في تلك الأصوات أصواتنا السوالف.
- 4 -
كنت أكبر هؤلاء الثلاثة، وكان علي أن أشد أزر أخوي وأسري عن قلبيهما، ولقد قمت من ذلك بأحسن ما استطعت، وكذلك قام كل منهما بما وسعه
وتالله لقد حرك الحزن نفسي من أعماقها، وبلغ الأسى منها كل مبلغ من أجل أخي الأصغر، ذلك الفتى الذي أحبه أبي لأنه كان يرى في جبهته جبهة أمه، وكان يرى في عينه لازورد السماء
وفي الحق أنه مما يذكي القلوب أسى أن يرى مثل هذا الطائر في مثل ذلك القفص.
ذلك لأنه كان جميلاً كالنهار حين كان يبدو لعيني من جمال النهار بقدر ما يبدوا منه لأعين النسور الفتية المحلقة في جو السماء؛ كان جميلاً كنهار القطب، لا يرى الغروب حتى يتصرم صيفه، ذلك الصيف الصاحي الطويل زمن ضوئه ابن الشمس المتشح بياض الثلج.
كان أخي شبه ذلك النهار في نقائه وبريقه وكان عذب الروح يفيض بالمرح، ولا تعرف عيناه الدموع في شيء، اللهم إلا فيما ينال الآخرين من شقاء، وهنالك تفيضان كما يفيض الغدير المنحدر من الجبل، ولن يرقأ دمعه حتى يدفع ذلك الشقاء الذي أزعجه مرآه وأمضه
- 5 -
وكان الآخر مثله في صفاء الروح، ولكنه خلق محارباً مقداما، فكان قوي البنية، متين الأعضاء، له من قوة الإرادة ما يتحدى به العالم في ساحة الحرب، وكان أشد ما يبهج نفسه أن يتاح له الموت في طليعة الصفوف، لا أن يذوي هكذا في الأغلال.
ولقد أوهن روحه صليل تلك الأغلال حتى ذبلت كما تذبل الزهرة، ورأيتها تتساقط شيئاً فشيئاً، وفي الحق لقد نالني مثل ما ناله، ولكني تجلدت لأبقي على حشاشة هذا البيت العزيز الغالي، وكان أخي هذا صائداً يطارد الغزلان والذئاب على متون التلال، ولذلك كان
يرى في هذا السجن أقبح هوة وفي تصفيد قدميه أسوأ عذاب.
- 6 -
كان تقع بحيرة ليمان تحت أقدام ذلك الحصن على عمق ألف قدم. وكانت لججها تتلاطم وتعج حتى لتصل إلى رأسه وتجعل قياس عمقه يبدأ من تلك الرأس البيضاء التي كانت تكتنفها الأمواج من جميع النواحي، وتجعل مع الحائط من الحصن سجنين؛ وتدعه كالقبر الحي!
وكان يقع القبو الذي ألقي بنا فيه تحت سطح البحيرة، وكثيراً ما سمعنا موجها فوق رؤوسنا يلطم الجدران بالنهار والليل ولقد أحسست ثبج الشتاء يضرب القضبان في الريح العاصفة ورأيته ينبعث صعداً نحو السماء الهانئة.
وعند ذلك أرتج الصخر وهو الصخر، وأحسسته يهتز وما هو بالمهتز، ذلك أني كنت حينئذ أستطيع أن ابتسم، أن أرى الموت الذي يطلقني من هذا الأسر!
البقية في العدد القادم
الخفيف
الشتاء
للأستاذ أديب عباسي
أحسب أن مقال الأستاذ الكبير (أحمد أمين) في امتداح الشمس وذكر آياتها فينا وأياديها علينا، كان بداعي توارد المعاني والانتقال الطبيعي من موضوع (الضحك) إلى تاليه (الشمس)
فالشمس بما ترسل إلى النفوس في الشتاء من إشراق، وما تشيعه في الوجوه من بشر، وما تبعثه إلى القلوب من حرارة، تعمل عمل الضحك في النفوس والأجسام.

ومن هنا ما جوزت لنفسي أن افترض من انتقال الأستاذ بين الموضوعين انتقال توارد لا انتقال عفو

وأنا اعترف بأنني متأثر الأستاذ الكبير، متأثر به في كتابة هذا الفصل. فلولا موضوع الشمس الذي دبجت يراعته الساحرة ما كنت في الأرجح أفكر في موضوع (الشتاء) وأكتب فيه في هذا الفصل الذي يغرى بالاعتكاف والانكماش. ولولا طريقة الأستاذ في امتداح الشمس والتغزل بمحاسنها لكانت لي خطة تباين في الراجح هذه الخطة عند الكتابة في هذا الموضوع لو عينت يوماً أن اكتب فيه

والشتاء - كما لا بد انك تعلم - أقل فصول العام نصيباً من احتفال الشعراء والكتاب له. ومن هنا كان ما قيل فيه مدحاً وهو القليل، وذماً وهو الكثير، أقل لما جاء في الربيع أو الصيف أو الخريف مدحاً وثناء. ولعل ذلك لما يرين على النفوس في هذا الفصل من حرج الشتاء وضيق البرد مما يذود عن الشعراء أقل الشعر والنثر في التغزل بالشتاء ومدح القر. على أنني سأخرج على هذه القاعدة وامتدح الشتاء في فصل الشتاء عينه وإبان اشتداده وسورته غير العادية في هذا العام.

وأول ما نذكره للشتاء وغيومه المقطبة وبروقه الملعلعة ورعوده المقعقعة وغيثه المنهل وسيله الحادر ونهره الهادر، أنه فصل الأحياء والبعث في الطبيعة، وأنه محرك رواقد الأجنة وغوافي النبت، ثم هو مغذي الزرع وباعث الرزق ومحيي الضرع. ولعلة واضحة وسبب مقبول أن أشتق العرب الغيث من الغوث، إذ لولا الشتاء ما نبت نبت ولا تفتح زهر ولا اكتسى دوح ولا فاح عطر ولا غنى جدول ولا انبجس نبع ولا أورق عمود ولا أخضر ربع ولا أحصد زرع

يسيل في الترب الماء فينقل أسباب الخصب والنماء إلى البذور المستكنة والأجنة المخبوءة في باطن الأرض، فتصاعد الجواهر المغذية محمولة في مطاويه إلى سوق النبت وأزهاره وأوراقه وبراعمه وتسير في كل مسير، فيأخذ حاجته ونصيبه كفعل الجسم بالدم

ولولا الشتاء لحرمنا الربيع بوشيه وأفوافه وأنواره، والصيف وضلاله الندية، ونسماته الرخية وغلاله الوفية، والخريف وما أنضج من ثمر شهي وفاكهة روية

وللشتاء جماله الرائع القوى: ففيه الغيوم تأخذ كل شكل وتلون كل لون وتسير متلاحقة مطردة، تارة مسرعة وأخرى وئيدة، تشق عباب الجو كالسفين المثقلة. وهي تجتمع في الجو لتفترق، وتفترق لتتجمع، فهي حيناً جميعة وهي حينا الشمل شتيت. وأنا هي مسفة حتى لتدخل من النوافذ وتتطفل على الناس في مخادعهم وأسرتهم، وآونة تسمو وتشيل في كبرياء وأنفة حتى لتكاد تحس بأنها تبغي إلى الشمس سبيلا.

والغيم رمز الأمل القوي والعزم الفتي. فهو أبداً متجدد وهو أبداً يسير، وأبداً يستهدف المرامي البعيدة والآفاق القصية، ولن يصده عنها سهل ولا وعر. وهو كلما وصل أفقاً وبلغ غاية استهدف أفقاً آخر جديداً إلى أن يفنى كفناء الأمل بفناء العمر الذي يضع الحدود ويقيم السدود للآمال والأماني الإنسانية.

وفي الشتاء السيل المنزع والموج المصطفق والنهر الزاخر، وفيه الثلج يكسو الأرض حلة نقية من أديم الشمس هي لولا برودها، وفيه الجليد كالثريات المدلاة حيناً، وحيناً كصفحة السماء، في الزرقة والاستواء، وحيناً آخر تراه. فتخاله هشيماً من البلور النقي الصفيق. وفيه الندى مسلوكا عقوداً من اللؤلؤ في خيوط الزرع وتباشير النبت. وفيه الضباب يضيق الأفق ويقصر أمد الأبصار فترة، فيكون للأبصار كالحمية للأجسام يعطيها فرصة للاستجمام من ألم النظر البعيد! وفي الشتاء البروق الخواطف والرعود القواصف والرياح العواصف. وكل هذا فيه جمال القوة وجمال الروعة، وهما كجمال الهدوء والاعتدال لا زمان لرياضة العواطف وحياة الشعور. وإن يكن في فصول العام ما يرينا عظمة الخالق وجبروته ففصل الأمطار هو أول هذه الفصول. ولا يذكر الناس الله ويخشعون أمام سطوته خشوعاً صادقاً إلا في فصل الشتاء حينما يعود إلى الأذهان ذكر الطوفان الذي أغرق قوم نوح، وحينما يشتد قصف الرعد وهزيمه فتزلزل الأرض زلزالها، وتوشك أن تخرج أثقالها كيوم الحشر.

والشتاء في أول عوامل التعمير والبناء في صرح الاجتماع، فلولا الشتاء لما كان الموقد، ولولا الموقد لما كانت الأسرة أو لتأخر نشوءها أمد طويلاً، ولولا الأسرة ما كانت قبيلة، ولولا القبيلة ما كانت دولة ولا مملكة. فأنت ترى أنه لولا الشتاء وضرورة

اجتماع الأفراد حول النار للاصطلاء وطلب الدفء، لظل نشوء الأسرة رهناً بحوادث وظروف أخرى طارئة قد تقع وقد لا تقع.

وفي الشتاء يقل الأجرام قلة ملحوظة، وذلك أن الناس يقلون من الغدو والرواح ويعتكفون في بيوتهم مما لا يهيئ للصوص فرصاً عديدة للسلب والنهب. وفيه كذلك يسمو مستوى الحياة العائلية. فالأب يرى بنيه وزوجه، يخالطهم ويباسطهم ويقيم بينهم وقتاً أطول، فلا الزوجة ساهرة مسهدة، ترقب دامعة العين والقلب أوبة الزوج من إحدى زوراته الليلية، ولا البنون يلتمسون حنو الأب وعطفه عليهم ورعايته لهم وانتباهه إليهم فلا يجدونها، ولا العاشق المفتون ييسر له كل اليسر أن يتسور على الناس الدور ليسطو على الأعراض ويلغ فيها ويفسد

وفي الشتاء تقل الضوضاء ولا يقطع على الناس في الليل وأطراف النهار هدوءهم لغط الباعة وهرجهم وصراخهم وضجيجهم في الشوارع والأزقة وأمام الدور والمدارس والمستشفيات وفي كل محل تجوس خلاله أقدامهم

هذا ويعلم الشتاء الناس الحذر والحيطة، فلا يجدي معه أن تهمل لباسك أو تهمل أمور بيتك أو تهمل استشارة الطبيب أو تغامر في الأدلاج والسير فإنه على خلاف بقية الفصول، سريع حاسم في عمله، ولا يدع لك فرصة للمطل والمراوغة وترك التبعات المفروضة عليك نحوك ونحو بنيك وذويك.

ويعلمنا الشتاء بتقلبه واختلاف وجوهه وقوة تنبيهه دراسة الطبيعة وحسن الاستدلال بالأمائر والإشارات على حال الجو من دفء أو قر أو إمطار أو انحباس وخلافها. والبدوي أسرع الناس استدلالاً وأسوغهم معرفة وأصدقهم فراسة بشؤون الجو، لأن للشتاء عنده من المعاني غير ما له عند الحضري وساكن المدينة

ومن أنعم الشتاء على الناس وفضله العميم انه يحجب عن الأبصار كثيراً من مشاهد القبح والتشويه المغثية مما تقذى به العيون، وأنه يحجب كذلك الكثير من مظاهر الفتنة والجمال
والإغراء

وقد تقول محتجاً ومعارضاً: نستطيع أن نفهم ونسيغ أن يكون من فضل الشتاء على الناس وخيره العميم أنه يحجب عنهم مظاهر القبح فيمن حرموا الجمال بما لابد أنهم مخبؤه من أجسامهم الشوهاء المضطربة بما يلففون به أنفسهم من أردية وأكسية ثقيلة، حتى لا يكاد يبدو الاضطراب والتشويه. قد تقول: إننا نستطيع أن نُسيغ هذا ونفهمه، ولكن كيف نفهم أن يكون إخفاء الحسن والجمال والفتنة من أنعم الشتاء عندنا وفضله العميم علينا؟

وأجيب: إنك بلا ريب تحمد للشتاء أن يخفي عنك الفرو الغزير حول العنق فتنة الجيد العاجي، وما يصله بأعلى الصدر من نحر يطل عليك إطلالة الفجر. وتحمد للشتاء أن يخفي عنك بالمعطف الثقيل والدثار الكثيف والصوف الخشن الصدر الناهد البض، والترائب المصقولة والأعضاء المملوءة والرداء الشف يخفي شيئاً ويبدي أشياء فتكون الفتنة - وايم الله - أشد من فتنة العرى الكامل!! وتحمد للشتاء أنه يخفي عن عينك ضمور الخصر وهيف القد والساقين لفرط انسجامها لا تدري أهمها إلى الربالة والامتلاء، أم هما إلى الدقة والنحافة. ستحمد للشتاء كل أولئك لأنك تحب أن يثوب إليك رشدك والعازب من لبك، وتحب أن تنقطع شيئاً آهاتك وتغيب حيناً مثيرات الحرمان والحسرة في فؤادك.

أفبعد هذا لا نصوغ للشتاء عقود المدح والثناء. ونردد قول الشاعر: (سلام الله يا مطر عليك). سواء (أعنى الشاعر مطر السماء أم عنى اسما من الأسماء؟

بلى، سلام وألف سلام يا شتاء!

أديب عباسي

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

محبة القريب

إنكم لتعطفون على القريب، وتعبرون عن عطفكم بتزويق الكلام، أما أنا فأقول لكم إن محبتكم للقريب إن هي إلا أنانية مضللة.

إنكم تلجئون للقريب هرباً من أنفسكم، وتريدون أن تعدوا هذا العمل فضيلة، وهل يخفى علي كنه تجردكم هذا؟
إن المخاطب أقدم من المتكلم، فالأول مقدس أما الثاني فلم يقدس بعد. ذلك هو السبب في عطف الإنسان على قريبه.
إن ما أشير عليكم هو أن تنفروا من القريب لا أن تحبوا لتتمكنوا من محبة الإنسان البعيد، فإن ما فوق محبة القريب محبة الإنسان البعيد المنتظر، وإني أضع فوق محبة الإنسان محبة الأشياء والأشباح.
إن الشبح الذي يعدوا أمامك، يا صديقي، لهو أجمل منك، فلماذا لا تعيره لحمك وعظمك؟
لقد استولى الخوف عليكم فلذلك تفزعون إلى القريب. لا قبل لكم باحتمال أنفسكم وما حبكم بالحب الكامل، لذلك أراكم تطمحون إلى إغواء قريبكم لتتمتعوا بضلاله.
أتمنى أن تنفروا من جميع فئات الأقربين ومن جيرتهم أيضاً لتضطروا إلى إيجاد الصديق الذي يطفح قلبه بالإخلاص. إنكم لتدعون شهوداً عندما تريدون أن تغدقوا الثناء على أنفسكم، وإذا ما توصلتم إلى تضليلهم ليحسنوا الظن بكم تبدءون حينئذ بإحسان الظن بأنفسكم.
ما من أحد يرتكب الكذب إلا إذا تكلم ضد ضميره؛ فأصدق الناس من لا ضمير له يحول دون قوله الصدق. على هذه القاعدة تتكلمون عن أنفسكم بين الناس لتضللوهم في حقيقتكم.
يقول المجنون في نفسه: (إن مخالطة الناس تفسد الأخلاق، بل هي تفسد بخاصة من لا خلاق لهم)
إن منكم من يهرع إلى جاره ليفتش عن نفسه، ومنكم من يذهب إليه لينساها. أنكم تسيئون محبة أنفسكم، لذلك يصبح انفرادكم بمثابة سجن لكم.
إن الغائبين يؤدون ثمن حبكم للقريب، لأن خمسةً يجتمعون منكم يقضون دائماً على السادس الغائب.
إنني لا احب أعيادكم، إذ رأيتها مليئة بالممثلين، ورأيت النظارة أبرع منهم تمثيلاً.
لا أدعوكم إلى محبة القريب، بل أدعوكم إلى محبة الصديق. فليكن الصديق لكم مظهر جبور الأرض فتحسون بما ينبئكم بالإنسان الكامل.
أوصيكم بالصديق يطفح قلبه إخلاصاً؛ غير أن من يطمح إلى الظفر بمثل هذا القلب يجب عليه ن يكون كالاسفنجة قادراً على تشرب السائل المتدفق. أوصيكم بالصديق الذي يحمل عالماً في نفسه، فهو الصديق المبدع الذي يسعه أن يقدم لكم هذا العالم في كل حين فيعرض عليكم ما مر به من عبر الحياة، فتشهدون كيف يتحول الشر إلى خير وكيف تنتهي الصدف بكم إلى غاياتكم.
ليكن المستقبل والمقاصد البعيدة ما تصبو إليه في يومك، فتحب في صديقك الإنسان الكامل، وتضعه نصب عينيك كغاية لوجودك.
لا أشير عليكم بحبه القريب أيها الأخوة، بل محبة الآتي البعيد.
هكذا تكلم زارا. . .
طرق المبدع:
أتقصد العزلة يا أخي لتجد الطريق التي توصلك إلى مكمن ذاتك؟ أذن، فقف قليلا في ترددك وأصغ إلي:
لقد قال القطيع: (من فتش فقد تاه، ومن انعزل فما أمن العثار).
وأنت قد عشت طويلا بين هذا القطيع، ولسوف يدوي صوته ملياً في داخلك. فإذا قلت له: - لقد تغير ضميري جانحاً عن ضميرك - فلن تكون إلا شاكياً متألماً.
إن اشتراكك بالشعور مع القطيع قد أورثك هذا الألم، وآخر وهج من هذا الضمير المشترك لا يزال يلهب فجيعتك فيجددها. ولكنك ترغب في اتباع هاتف آلامك لأنه يقودك إلى التوغل في ذاتك، فأين برهانك على حقك في المضي إليها وعلى أنك قادر على هذا السفر.
أفأنت قوة جديدة وحق جديد؟ أأنت حركة ابتداء؟ أأنت عجلة تدور على ذاتها؟ أبوسعك أن تجعل النجوم تدور حولك؟
لكم من طموح يتحفز نحو الأعالي، ولكم من طمع يرتعش في أمانيه، فاثبت لي أنك

لست من الطامحين الطامعين.
إن كثيراً من ساميات الأفكار لا تعمل إلا عمل الأكر المنتفخة فلا تكاد تتضخم حتى يحكمها الضمور.
إنك تدعو نفسك حراً، فقل لي ما هي الفكرة التي تقيمها مبدأ لك. ولا تكتف بقولك إنك خلعت نيرك، فهل كنت يا ترى ذا حق بخلعه؟ إن من الناس من يفقدون آخر مزية لهم إذا هم انعتقوا من عبوديتهم.
لا يهم زارا أن تقول له من أية عبودية تحررت، فلتعلن له نظراتك الصافية الغاية التي تحررت من أجلها
هل بوسعك أن تسن لنفسك خيرها وشرها فترفع إرادتك شريعة تسود أعمالك.
أبوسعك أن تكون قاضياً على نفسك وان تكون منتقماً منها لشريعتك؟
إنه لأمر مريع أن يبقى الإنسان منفرداً مع من أقامه قاضياً عليه ومنتقماً منه بالشريعة التي أوجدها. إن مثل هذا الإنسان ليذهب في الفضاء ذهاب الكوكب مقذوفاً إلى فراغ الوحدة وصقيعها.
إنك وقد أصبحت منفرداً لا تزال تتألم من المجتمع لأنك لم تطرح شجاعتك ولم يزل للأمل مرتع فيك. غير أنك ستتعب من انفرادك يوماً، إذ تلين قناتك، وينحطم غرورك فلا تتمالك من الهتاف قائلاً. إنني أصبحت وحيداً فريداً
سيأتي يوم تحتجب فيه عظمتك عنك فتلتصق صغارتك فيك حتى لترتجف فرقاً من تساميك نفسه إذ يبدو أمامك كشبح مرعب فتصرخ قائلاً (كل شيء باطل)
إن في المنفرد عواطف تطمح إلى القضاء عليه فإن لم تنل منه نالت من نفسها وانتحرت. فهل أنت مستعد لارتكاب جريمة قتل؟
أتعرف، يا أخي، معنى كلمة الاحتقار، وما ستكون آلامك إذا أنت أردت العدل واضطررت إلى الاقتصاص ممن يحتقرونك؟
إنك تكره الكثيرين على تغيير اعتقادهم فيك، فتثير حفيظتهم عليك. لقد اقتربت منهم ثم تجاوزتهم، فهم لذلك لن يغتفروا لك.
لقد تفوقت عليهم، فكلما اعتليت فوقهم ازددت صغاراً في أعين الحاسدين. وما كره الناس أحداً كرههم للمحلق فوق السحاب.
لقد وجب عليك أن تقول للناس: - إنني اخترت ظلمكم نصيباً حق لي منكم، لذلك عز إنصافي عليكم. إن الناس يرشقون المنفرد بالمظالم والمثالب، ولكنك إذا كنت تريد أن تصبح كوكباً فعليك أن ترسل أنوارك حتى إلى الراشقين.
واحترس بخاصة من أهل الصلاح والعدل لأنهم يتوقون إلى صلب من يوجد فضيلة لنفسه. إنهم يكرهون المنفرد.
واحترس أيضا من السذاجة المتقية، لأنها ترى الكفر في كل إنسان لا يلتصق بها. وقد كان الساذجون في كل زمان يتوقون إلى إيقاد النار واللعب بها.
كن على حذر من التطرف في حبك، فإن المنفرد يمد يده متسرعا لمصافحة من يلتقي في طريقه. أن من الناس من يجب عليك إلا تمد إليهم يداً، بل مخلباً ناشباً.
غير أن اشد من تصادف من الأعداء خطراً إنما هو أنت وما يترصدك في المغاور والغابات إلا نفسك.
لقد تبينت الطريق الذي يقودك إلى ذاتك. أيها المنفرد، وطريقك منبسط أمامك وأمام شياطينك السبعة. فتصبح منذ الآن جاحداً لنفسك، ساحراً مجنوناً، مشككا كافراً شريداً.
فيجب عليك أن ترضى بالاحتراق بلهبك إذ لا يمكنك أن تجد ما لم تشتعل حتى تصبح رماداً.
إنك تتبع طريق الخالق، أيها المنفرد، فأنت تفتش على إله لك تقيمه من شياطينك السبعة. إنك تتبع طريق العاشق، أيها المنفرد، وقد عشقت نفسك، فأنت لذلك تحتقرها احتقار العاشقين.
يريد العاشق أن يبتدع لأنه يحتقر، وما له أن يدعي الحب إذا كان لم يبدأ باحتقار المحبوب.
توغل في عزلتك، يا أخي. سر فلا رفيق لك إلا حبك وإبداعك. إنك ستسير طويلا قبل أن

تقفو العدالة أثرك متثاقلة متعارجة.
اذهب إلى عزلتك فأنني أشيعك بدموعي يا أخي، لأنني احب من يتفانى ليوجد في فنائه من يتفوق عليه.
هكذا تكلم زارا
الشيخة والفتاة
لماذا تدلج مختفياً في الغسق يا زارا؟ وما هو الذي تخفيه بكل احتراس تحت ردائك؟ (أكنز وهبته أم طفل رزقته؟ وإلى أين تتجه على طريق اللصوص يا صديق الأشرار؟)
فأجاب زارا: - والحق يا أخي، أن ما أحمل إنما هو كنز وهبته، فهو حقيقة صغيرة طائشة كالطفل، ولولا إنني كممت فمها لصاحت بملء شدقيها.
- :بينما كنت أسير اليوم منفرداً في طريقي عند الغروب، التقيت بشيخة ناجتني قائلة لقد كلمنا زارا مراراً نحن النساء، ولكنه لم يتكلم عنا مرة واحدة.
قلت لها: - يجب ألا يتكلم عن النساء إلا للرجال.
فقالت: - لك أن تتكلم أمامي عن النساء لأنني بلغت من العمر أرذله فلن تستقر أقوالك في ذهني.
وقبلت رجاء المرأة العجوز فقلت لها: - كل ما في المرأة لغز، وليس لهذا اللغز إلا مفتاح واحد وهو كلمة (الحَبل)
ليس الرجل للمرأة إلا وسيلة؛ أما غايتها فهي الولد، ولكن ما تكون المرأة للرجل يا ترى؟ أن الرجل الحقيقي يطلب آمرين: المخاطرة واللعب؛ وذلك ما يدعوه إلى طلب المرأة فهي أخطر الألعاب.
خلق الرجل للحرب، وخلقت المرأة ليسكن الرجل إليها، وما عدا ذلك فجنون، ولا يحب المحارب الثمرة إذا تناهت حلاوتها، فهو لذلك يتوق إلى المرأة لأنه يستطعم المرارة في أشد النساء حلاوة
تفهم المرأة الطفل بأكثر مما يفهمه الرجل؛ غير أن الرجل أقرب إلى خلق الطفل من المرأة، ففي كل رجل حقيقي يحتجب طفل يتوق إلى اللعب. فلتعمل النساء على اكتشاف الطفل في الرجل.
لتكن المرأة لعبة صغيرة طاهرة كالماس تشع فيها فضائل العالم المنتظر.
ليتوهج الكوكب السني في حبك أيتها المراة، وليهتف شوقك قائلا: لأضعن للعالم الإنسان الكامل. ليكن في حبك استبسال تتسلحين به لاقتحام من يثير الوجل في قلبك. ضعي شرفك في حبك، وما تعرف المرأة من الشرف إلا يسيراً؛ غير أن الشرف في حبك هو الخلق الذي يجعلك تبادلين المحبة بأكثر منها فلا تنحدرين إلى المقام الثاني
ليحذر الرجل المرأة عندما يستولي الحب عليها، فهي تضحي بكل شيء في سبيل حبها، إذ تضمحل في نظرها قيم الأشياء كلها تجاه قيمته. ليحذر الرجل المرأة عندما تساورها البغضاء، لأنه إذا كان قلب الرجل مكمنا للقسوة، فقلب المرأة مكمن للشر
إلى من توجه المرأة أشد بغضائها؟
والجواب في قول الحديد للقوة الجاذبة:
- إن أشد كرهي موجه إليك لأنك تجتذبين ولا طاقة فيك لتربط على ما تجتذبين.
إن سعادة الرجل تابعة لإرادته؛ أما سعادة المرأة فمتوقفة على إرادة الرجل.
تقول المرأة وقد استسلمت لحبها العميم: لقد اكتمل العالم.
ولابد لها أن تخضع وأن ترى أعماقا على سطحها، لأن روح المرأة سطحية، فهي صفحة ماء متماوجة تداعبها الرياح، في حين أن روح الرجل أعماق تزمجر أمواجها في المغاور السحيقة القرار؛ وقد تشعر المرأة بقوة الرجل ولكنها لن تفهمها
عندئذ قالت العجوز: لقد تكلم زارا عن أشياء طريفة اجدر بسماعها من النساء من لم يزلن في مقتبل العمر. ومن الغريب أن ينطق زارا بالحق عندما يتكلم عن النساء وهو لا يعرفهن إلا قليلا. أفتكون أصابته ناشئة عن أن ليس في حالة المرأة شيء ممتنع
والآن أصغي إلي يا زارا، فإنني سأعلن لك حقيقة صغيرة مكافئة على ما قلت، وكبر سني يجيز لي أن أعلنها لك، فاسترعها وأطبق شفتيك عليها لئلا يتعالى صراخها من فمك
- :فقلت هاتها، هذه الحقيقة الصغيرة أيتها المرأة. وهذا ما قالت العجوز

- إذا ما ذهبت إلى النساء فلا تنس السوط.
هكذا تكلم زارا. . .
(يتبع)
فليكس فارس
شاعر الطبيعة
للسيد عمر أبو ريشة
شاخص الطرف محدق في الفضاء ... فوق طود عالي المناكب ناءِ
يرقب الفجر والندى مالئ بُرْ ... دَيْه والشعر مائج في الهواء
شاعرٌ خافق الجوانح بالحب ... (م) بعيد عن عالم الضوضاء
تتراءى في وجهه الهادئ الوا ... جم آي الوداعة الغرَّاء
وبعينيه بارقٌ قذفته ... شعلة الروح مبهم اللألاء!
نهض الفجر مثقلاً يتلوَّى ... فوق صدر الطبيعة الخرساء
يتخطَّى الربى وئيداً ويهمى ... بشتيت الأظلال والأنداء
وثبةٌ إثر وثبة ذائب الأل ... وان فيها وجامد الأضواء
فارتدى الكون بردةً من جمال ... وتهادى بباسم النعماء
فإذا السفح باسمٌ تمرح القط ... عانُ فيه وترتعي بهناء
وإذا الطير بين كرٍّ وفرٍ ... من غدير لروضة غناء
صورٌ أفرغت على أذن الشا ... عر نجوى علوية الإيحاء
هبط السهل والهجيرة تنقضّ ... (م) وتطوي مطارف الأفياء
وتصبُّ الخمول والسام الصاخ ... ب والصمتَ في فم الغبراء
وتردّ الجمال منهتكَ الستر ... (م) سليب النعومة العصماء!
وتسلّ النشاط من قبضة الكو ... ن فيغفو على ذراع الفناء!
فصدور الحقول متعبةٌ تل ... هث في غمرة من الإعياء!
ورءوس الأزهار مطرقة تن ... سلّ منها انتفاضة الكبرياء!
. . .وقيان الغصون مَلْوِيَّة الأع ... ناقِ صرعى كآبة عمياء
صورٌ أفرغت على أذن الشا ... عر نجوى علوية الإيحاء!!. .
بلغ المنحنى . فجاز مدى الطر ... ف بحسٍّ مفجَّع الأنباء!
مأتمُ الشمس ضجَّ في كبد الأف ... ق وأهوى بطعنة نجلاء
عصبت أرؤس الروابي الحزانى ... بعصاب من جامدات الدماء!
فأطلّت من خدرها غادة اللي ... ل وتاهت في ميسة الخيلاء
وأكبَّت تحلُّ ذاك العصابَ ... (م) الأرجواني باليد السمراء!!
وذؤابات شعرها تترامى ... في فسيح الآفاق والأجواء
وعيون السماء ترنو إليها ... من شقوق الملاءة السوداء!!
فإذا الكون لجَّة من جلال ... فجَّرتها أصابع الظلماء
يرسب الطرف في مداها ويطفو ... ثم يرتد فاقد الارتواء
فتطلُّ الأشباح من كوَّة الوهم ... (م) وتعوي مجنونة في العراء
وتموج الأصداء من جهش الأر ... ض بأذن المهابة الصماء
وتحس الروح الوديعة بالرع ... شات تسري كموجة الكهرباء!
صور أفرغت على أذن الشا ... عر نجوى علويَّة الإيحاء!!
هكذا استعرض الوجود مليّاً ... في غضون الإصباح والإمساء
في اختلاج البروق في قهقا ... ت الرعد في صاخب من الدأماء
في ابتسام الرياض في هدأة الجد ... ول في نفحة الربى الفيحاء
فانثنى ضاربا على الوتر الشا ... دي أهازيج روحه الشماء!
قَضَّ فيها عن الحياة نقابا ... من خداع وبرقعا من رياء!
ورمى ختم سرها فتجلت ... بعد لأي عريانة للرائيْ!
فتهادت بناتها باصطفاق الص ... نج والدف واتساق الغناء
كدُمى هيكل لقد نفض الله ... (م) عليها اختلاجة الأحياء!
يتمايلن راقصات نشاوى ... بدلال مفجر الإغراء!
فمن الخصر عطفة تركت في ... حُلمة النهد نفرة للعلاء

كل بنت جياشة الصدر ترمي ... أختها بابتسامة استهزاء
هذه في يمينها مشعلُ الحب ... (م) قصير الأنفاس خابي السناء
هذه في عيونها تصرخ الشه ... وة جوعا وتزدري بالحياء
هذه فوق رأسها تشرق الحك ... مة في شبه هالة وضاء!
هذه. . خَل هذه، ودع الأخ ... رى فصعب إصابة الإحصاء
. .!زمر من كواعب برزت في ... صور العيش في أتم جلاء
عزف الشاعر النبيغ فجسَّت ... أكبدَ الراقصات كف العزاء
مسنداً رأسه على كتف القي ... ثار مستسلماً إلى الأهواء
. .وإذا ما صحا على نفخة البو ... ق بأذنيه وازورار القضاء
خدِرت كفه على الوتر الشا ... دي وسالت أصداؤه في الفضاء
وتلاشت تلك الحسان تلاشي ال ... شمع في زفرة اللظى الحمراء
!!وهوى فوق مضجع من تراب ... تحت عطفي صفصافة غيناء

حلب

عمر أبو ريشة

الفنون

اكروبوليس أثينا

-

للدكتور أحمد موسى

الجمال في هذا الوجود كثير، ولكنه ليس رخيصاً؛ ولذلك كانت معرفته والاستمتاع به شان فئة معينة من الناس. وكان من أهم ما نظرت إليه الجامعات الأوربية الحديثة وجوب تدريس مادة علم الجمال ضمن دراسة الفلسفة، ومادة تاريخ الفن العام وعلم الآثار بعد إكمال دراسة التاريخ والجغرافيا؛ فبالأولى نتمكن من معرفة الجمال بقواعد تؤدي إلى ترقية حواسنا وتهذيب تقديرنا، وتقريب استمتاعنا من الكمال، وما ينبني على هذا كله من تمهيد السبيل إلى إكمال سلسة التطور الفني والوصول بها إلى الغاية المقصودة دون ركود أو انحطاط. وبالثانية نسجل ماضي الفن تسجيلاً علمياً نقيس به الحضارات ونعمل على ربط الحاضر بالماضي وبالمستقبل فيكون التطور طبيعياً والتقدم منتظراً.

وإذا رجعت إلى حضارة أي شعب أو أمة، وجدت أن الآثار والفن من أهم مواد التسجيل لمقياس مدى هذه الحضارة؛ فكأننا بدراساتنا هذه نقصد الوصول إلى معرفة الوسائل التي بها نستطيع تكوين حضارة حقيقية ترجع في جوهرها إلى معرفة نواحي الجمال الفني، فضلا عن الاستمتاع واللذة نتيجة صدق التقدير.

وإذا نظرنا إلى مصر وجدنا أن الفن فيها عظيم، وان الطبيعة منحتها الكثير من جمالها، ومع هذا يجهل كثير من أبنائها ما فيها منه، وليس جهلهم هذا نتيجة مباشرة لجهلهم العام دائماً، ولكنه نتيجة لإهمال مدارسنا لعلم يعد اليوم من أهم العلوم الدراسية في أوروبا التي نأخذ عنها الكثير.

والظاهر أننا بحسب مولدنا والبيئة التي نشأنا فيها قليلو التأمل فيما نراه - وأثر ذلك واضح في كثير من تصرفاتنا العامة حتى في مطالعتنا، ترانا نقرأ ما نقرأ بطريقة أوتوماتيكية خالية من الأخذ والرد تبعدنا غالباً عن الاستمتاع.

وإذا نظرنا إلى الطبيعة فإننا قد لا نستطيع أن نتذوق ما يسميه الغير جمالاً؛ وإذا شاهدنا معبدا أو كنيسة أو جامعاً أو صورة صعب علينا التعرف على ما فيها من سر الجمال والإنشاء.

وإذا كان من نصيب البعض زيارة متاحف أو معارض فنية، وكان من شانه وصف ما شاهد، أو نقد ما عاين، أو تكوين رأي شخصي، تراه لا يخرج فيما يكتبه أو يقوله أو يقرره عن مديح وإطراء أو ذم وتقليل ليس فيه قيمة دراسية تعود على القارئ أو المستمع بأي تثقيف أو فائدة، بل على النقيض من ذلك قد تضر استعداده الفطري وتنقص منه؛ وذلك ما حدا لي في الواقع إلى الاتصال بالأستاذ الكبير رئيس تحرير هذه المجلة، بقصد التحرير في تاريخ الفن وتاريخ الآثار أجمالا، حتى أستطيع بذلك أن أقدم للقارئ تعاريف إجمالية تكوين خلاصة هذه الدراسات، إذ بها يمكن اكتساب المعرفة

الحقة لعلمين مهمين يؤديان بنا إلى التعرف على ما في حياة الإنسان من تراث فني مجيد، ويكسبنا ناحية من الاستمتاع قد لا يمكن الوصول إليها دون المعرفة الدراسية ولاسيما وبيئتنا لا تزال تخلو من هذا النوع من التثقيف.

وقد فكرت كثيراً في الخطة التي يمكنني السير عليها، ووجدت أن الملائم للقراء وجمهرتهم من الأدباء والمثقفين، إلا أنحو نحواً مدرسياً بحتاً قد يمل القارئ، فتراني مرة أكتب عن روبنز وأخرى عن جويا وثالثة عن رمبراندت، ثم تراني أنتقل فجأة إلى اكروبوليس أثينا، مع أن الصلة المدرسية أو المنهجية بين هذه المقالات وبعضها مفقودة تماماً؛ كما أني لم اعرج على الفن المصري أو الإسلامي بعد، ولكني أتعمد هذا الأعراض مؤقتا، كما أتعمد الانتقال المفاجئ لأمرين: أولهما تشويق القارئ كل مرة بقراءة شيء جديد مخالف لسابقه؛ وثانيهما إعطاء الفكرة العامة عن ماهية تاريخ الفن وتاريخ الآثار في ابسط عبارة تؤدي إلى معرفة وسائل القياس بواسطة الفن المقارن، وبذلك تكمل حواسنا، وندرك الجمال على الوجه المتقدم.

على أنه كان ولابد من جعل الدراسة منتظمة، فهذا ما سيكون بطبية الحال في النهاية؛ إذ يمكن عندئذ، بعد عمل ترتيب بسيط، جمع فناني كل مدرسة على حدة، ووضعهم معاً وضعاً تاريخياً، وهذا الترتيب يمكن أجراؤه فيما يتعلق بتاريخ الآثار أيضا.

واليوم أقدم إيضاحاً عن اكروبوليس أثينا الذي يعتبر آية من آيات الفن القياسي، إلا أني مضطر للإشارة إلى تاريخ أثينا نفسها قبل الدخول إلى اكروبوليس اضطرار من يريد تاريخ الأزهر مثلاً، فيعرج على تاريخ القاهرة وعلى ما كان لها من الشان أيام إنشائه كانت أثينا من ناحية حضارة الإغريق مركز الحياة اليونانية، وكانت من الناحية السياسية من أهم بلاد الإغريق حينا، وعاصمة لها حينا آخر.

قامت هذه المدينة على مرتفع أكسبها بروزاً هاماً في مقاطعة أتيكا بين نهيري اليزوس وكفيزوس وعلى بعد خمسة كيلومترات من شاطئ البحر وسبعة كيلومترات من ميناء بيريوس. يرجع إنشاؤها إلى الملك ككروبس اختار لها هذا المرتفع لحسن ملاءمته. ثم أقيم مكان هذه المدينة بناء قلعة اكروبوليس الذي خصص للحفلات الدينية والحربية في عصر الحضارة الإغريقية. بعد إصلاح الأرض وتسطيحها ثم إحاطتها بسور عال من كل الجهات (ش 1) فكان بذلك أهم بناء في أثينا، وقد جعل المدخل في الجهة الغربية للمرتفع مكوناً من مداخل بعضها خلف بعض لتعزيز الوصول إلى اكروبوليس، ولأمكان عمل الرقابة اللازمة عند الدخول إليه أو الخروج منه، وسمي هذا المدخل في ذلك الحين بلاسجيكون نسبة إلى ما يقال من أن مؤسسيه كانوا البلاسجر (ش 2) وفي داخل المرتفع المحاط بالسور سكن ملوك هذه المنطقة من أتيكا، وبجوار تمثال الإله زويس بني معبد هيكاتومبيدوس وهو اقدم المعابد، وفيه أقيم تمثال أثينا بولياس وتمثال الإله ارشتايوس وعلى اسمه بني بعدئذ معبد ارشتايون، وتمثال بوزيدون إله البحر والزلازل.

كثر سكان أثينا وزحف جزء منهم تدريجياً إلى جنوب وغرب المرتفع، فكان أمام المدخل وعلى بعد مناسب منه أول سوق تجارية

ونظراً لاتحاد سكان اتيكا وتكوينهم مقاطعة متحدة الأطراف عملاً بإرادة الملك تيستوس اتسعت دائرة المدينة وزادت قيمتها الاجتماعية والسياسية فأصبحت العاصمة.

أما السكان الذين زاد عددهم كثيراً عن قبل فقد امتدوا بمساكنهم إلى الأطراف خصوصاً إلى الجزء الغربي، حيث سكن صناع الفخار، ولذلك سمى هذا الموقع حي الفخارين

اشتغل الفنان بيسستراتوس وأولاده بتجميل المدينة مبتدئين بالجزء الشمالي الغربي منها، فبنوا هيكلاً شمل الاثني عشر إلهاً، كان بوضعه ملتقى الشوارع التي أنشئت وتقاطعت عنده.

ثم أبتدأ بيسستراتوس وأولاده أيضا في بناء معبد زويس الأولمبي بالطرف الجنوبي الشرقي وسموه معبد ألمبيون على أن بناءه لم يتم إلا بواسطة هدريان كما أنهم أضافوا إلى مباني معبد أثينا القديم مدخلاً مكوناً من أعمدة أقيم في أعلاها إفريز رسومات شملت تماثيل تبين مواقع حربية؛ أما المدخل العام للمرتفع فأنهم أدخلوا

عليه كثيراً من التحسينات البنائية، فأصبح مدخلاً فخماً بكل معاني الكلمة.
ولم يترك بيسستراتوس البئر الموجودة بالسوق القديم دون تحميل، فبنى حولها بناء ظاهراً، كما بنى الجهة الشرقية دائرة ليكايون لتقديس أبولون؛ على أن بناءها لم يتم إلا بواسطة بركليس. وقد تحولت هذه الدائرة فيما بعد إلى جمنازيوم أقيمت فيه الحفلات الرياضية منذ أيام الحاكم ليكورجوس
وبعد ثورة تيرانيس وانتصار الديموقراطية بواسطة كلايستينس في نهاية القرن السادس قبل المسيح أصبحت أهمية أثينا عظيمة وقيمتها الاجتماعية أعظم.
وبعد عام 500 ق. م. أقيم مكان خصص للرقص في الموضع المخصص للإله ديونيزوس في الجنوب الشرقي للمرتفع تطل عليه أماكن صنعت من الخشب لمشاهدة تمثيل المناظر الدراماتيكية التي مثلت أيضا في هذا المكان.
ظل الحال كذلك حتى جاء الفرس محاربين (480 - 479 ق. م) فدمروا المدينة وهدموا معظم مبانيها. وكانت فترة إقامتهم قصيرة، فعاد الأثينيون إلى أثينا نشطين، وأخذوا يعيدون الحال إلى ما كانت عليه مبتدئين ببناء سور جديد بطول ثمانية كيلومترات.
وواصل المهندس تيميستو كليس أعماله البنائية بميناء بيريوس وهي التي بدأها قبل الحرب الفارسية، ثم أنتقل إلى مواضع أخرى أنشأ عليها مواني أخرى غير بيريوس.
أبتدأ رؤساء المدينة بالإشراف على أعمال التأسيس والبناء، وأول ظاهرة لهذا اهتمام كيمون بتوسيع الجهة الغربية لمكان القلعة وبجوار مدخل اكروبوليس، وذلك ببناء أكتاف عريضة أقيم على جزء منها ومن المسطح الأول معبد أثينانيكا - الذي اتخذ منه الأتراك عام 1687 طابية لهم؛ فتفككت أحجاره وتهدم، وظل كذلك حتى أعاد بناءه المهندسان الألمانيان شوبرت وهانزين تحت أشراف العالم الأثري لودفيج روس عام 1835.
وبنى بايسيانكس أحد أقارب كيمون صالة رحبة على أجورا، وصور الفنان لوحات زين بها هذه الصالة.
انتهت أيام كيمون وابتدأ عصر بركليس الذي يعد أهم عصور أثينا فأنشأ الأوديون ثم التفت إلى تجميل اكروبوليس
وبنى اكتينوس معبد بارثنون (ش2) وبعده قام البناء العظيم منيسيكليس ببناء المدخل الباهر للقلعة، وهو المسمى بروبيلين (ش2).
هذا بيان موجز لنشأة أثينا وأكروبوليس وما أحاط بهما لم يكن منه بد.
للكلام بقية
أحمد موسى
القصص
العبقري الملعون
للكاتب الإيطالي
جيوفاني بابيني
ذهبت إلى براغ مرتين ولكني لم أستطع لقاءه. ففي المرة الأولى لم أجرؤ على التطلع إلى بيته. وفي الثانية لم أهتد إلى منزله الجديد، فقضيت ليلة في تلك المدينة الغريبة أسائل الناس عنه وأنا مسوق إليه سوقي إلى المصير المحتوم.
لقد كنت في تلك الليلة متشبعاً بكلامه وأفكاره حتى أخذت أحلم أحلامه وأغني أغانيه وأتابع تيارات تفكيره وأتمثل نفسي أحد أبطال قصصه. لم أخضع لرجل من قبل كما خضعت لذلك الرجل الغريب الذي يزداد تأثيره فيَّ يوماً بعد يوم حتى لم أعد أفكر في أمل الخلاص منه. كنت أعتقد أنه أعظم رجل أنجبته أوربا. ففي فنه روعة (بو) وتهاويله، وقوة نيتشه ووحدته، وموسيقى شيلي وعذوبته، وآلام (دستوفسكي) ومرارته فيه حمرة الجحيم وزرقة السماء. فيه طلاقة الطفل وعبوس الشيطان، ولكن شيئاً آخر كان خافياً عليَّ هو عبقريته الفذة التي لم يكن يدركها أو يشرف عليها إلا القليلون.
ولم تكن شهرته الذائعة التي نالها في سنين قلائل إلا مجداً خالداً يشدو بذكره. لقد رماه الناس بالكبرياء والنفور، ولكنهم لم يدروا شيئاً عن مؤلفاته ولم يحيطوا بأركان عبقريته. لقد أحببت قصصه إذ كانت كلها سيرة لشخصه من نسج غريب. تزأر أرواح أبطاله وتدوي بين أحزان الحياة ومخاوفها.

لم أستطع أن اكبت ذلك الإعجاب طويلاً، بل أحسست بدافع قوي لأن أراه وأتطلع إلى وجهه واسمع كلمات تخرج من فمه. أردت أن اقرأ في سطور وجهه تلك الآلام العاصفة التي صبها في أبطال قصصه فوطنت العزم على لقائه. وقد ساعدني على ذلك رجل فرنسي قادني إلى بيته، فدلفت إلى سلمه وقد ازدادت دقات قلبي شدة كلما دنوت من الطابق الذي كان يقطنه. وقفت أمام الباب وحاولت الكلام ولكن لساني كان قد لصق بسقف حلقي فوقفت برهة انظر إلى تلك اللوحة النحاسية المنقوش عليها اسمه في حروف كبيرة سوداء فازددت هلعاً ورعباً. وأخيراً استجمعت قواي ومددت يدي إلى الباب أقرعه، فجاءتني خادمة تَصف في لباس أسود، فهمست في أذنها باسم ذلك الكاتب العظيم، فقادتني إلى ممر طويل ينبعث فيه نور ضئيل شاحب حتى وصلت إلى غرفة نظيفة قد أغلقت نوافذها وتدلت مصابيح الكهرباء في وسطها، فلمحت في أحد جوانبها مكتباً صغيراً عليه دفتر كبير شبيه بدفاتر المحامين وقد كسيت الجدران بالخرائط والصور.

شعرت بخيبة الأمل عندما وقع نظري على تلك الغرفة العادية التي لم تكن تختلف عن سائر الغرف ولاسيما وقد كنت أتوقع صومعة لقديس أو عريناً لأسد لا مكتب أحد المحامين؛ فأخذت أسائل نفسي: أحقا هذا بيته وتلك غرفته، أم أنا في بيت أحد أقربائه؟ ولكني لم أطل التفكير في هذا إذ رأيت أمامي رجلاً ضئيلاً قد أربى على الخمسين يحييني بلغة فرنسية صحيحة، فارتعت لمرآه. أيعقل أن يكون رجل أحلامي وأماني هذا الرجل الضئيل الذي يرمقني بعينين صغيرتين وتنفرج شفتاه عن ابتسامه هي أقرب إلى ابتسامات البله والسذج؟ أيعقل أن يكون هذا الرجل الذي يرتدي ثوباً أسود ويضع يديه في جيبه كما يصنع ضابط الاستيداع أو موظف المعاش؟ ذلك الذي جعل قلبي يخفق بروعة آثاره وقوة أسلوبه؟ وهل يمكن أن تكون تلك الأفكار العظيمة التي حيرتني وجعلتني اقطع الليالي ساهراً قد نبعت من ذلك الرأس الأصلع الصغير؟ لم اكن لأصدق هذا، بل كنت كلما أنعمت النظر فيه ازددت دهشة وعجباً، حتى لم أستطع أن أخفي دهشتي فقلت. أأنت الكاتب الذي أبحث عنه والشاعر الذي كتب (نفسي) و (الله) (ومشاكل نصف الليل)؟ فأجابني في هدوء وابتسام: نعم، وكأنه لم يشعر أنني أهنته بسؤالي هذا فدعاني إلى الجلوس وسألني حاجتي.

لم أكن أعرف مكاني، ولم أكن أستطيع التفكير في شيء أقوله، فلاحظ علي بعض هذا الارتباك فدنا مني متلطفاً وقال: أراك أحد المعجبين الأجانب الذين يأتون لرؤيتي. إن هذا أمر يسير، فأني أستطيع أن أقوم لك بما تريد. ثم أسرع إلى مكتبه وأخرج ورقة ومجموعة من الصور وعاد ثانية يستأنف حديثه: (هاك بعض تاريخ حياتي مدوناً بالفرنسية، وفهرسا كاملا لجميع مؤلفاتي. أي صورة تعجبك؛ إنني أظن أن أحسن صوري ما كان جانبيا، ولكن لك الاختيار. في أي صحيفة ستنشر هذا المقال؟ أفي صحيفة يومية أم في مجلة؟ فلما رأى أنني لم أجبه إلا بنظرة حائرة ساهمة عاد إلى مكتبه وأخرج كتابا صغيرا وقدمه إلي قائلا: هاك أشهر المقالات التي نشرتها كبرى الصحف عن مؤلفاتي، إنها مدبجة بأقلام كبار الناقدين. ألا تريد صورة تنشرها مع المقال؟ ثم أسرع ذلك الرجل الذي لا يعرف التعب إلى مكتبه وجاءني بأقاصيص من الورق مكتوبة بخط يده، فلم أستطع أن أخفي دهشتي، ولكن صاحبي مضى في حديثه قائلا: أليس هذا كل ما تحتاج إليه؟ أظنك تريد أن تعرف كيف أكتب، سأخبرك حالا: إني أعمل أربع ساعات في اليوم ولا أكتب أكثر من خمسين صفحة في جلسة واحدة. إني لا أستعمل الكتب القديمة ولا المعاجم البالية، لأني صنفت كل مواد الكتابة تصنيفا جديدا. ففي هذا الصندوق تجد الصفات، وفي ذلك تجد التشابيه والاستعارات، وفي الثالث تجد المتناقضات، وفي الأخير تجد أوصاف المناظر الطبيعية، وفي ذلك الذي عن يمينه تجد الأوصاف الغريبة لجميع الناس. أما الذي عن يساره فقد جمعت فيه كل عناوين القصص والمسرحيات. أظنك الآن تستطيع أن تفهم أن عملي ليس شاقا جدا بفضل هذا الترتيب. إني أكتب بدون تفكير كأني آلة: فإذا أردت أن أكتب شيئاً فما علي إلا أن أضع يدي فأخرج كل ما أحتاج إليه. إني لست أحد أولئك البلهاء الذين ينتظرون الوحي والإلهام، فإنني أكتب بانتظام وفي أوقات معينة. فماذا ترى في هذا؟ فحاولت أن أتكلم ولكني لم أستطع. فمضى صاحبي يقول: (أخبرني. ألا يمكن أن تؤدي لي عملا في إيطاليا؟ ألا يمكنك أن تنقل

بعض كتبي إلى الإيطالية؟ إني أعطيك 40 % في المائة من الأرباح وحق النشر في بلادك. دعنا نكتب العقد.

ومن حسن الحظ أن دق جرس التليفون في الغرفة الثانية فأسرع إليه الرجل دون استئذان، ولكنه ما لبث أن جاءني يقول: عفوا إن ناشري كتبي في ميونيخ يطلبوني. دعنا نستأنف حديثنا. قل لي بصراحة: ألا تستطيع أن تقوم بهذا! فنهضت مذعورا وأنا أعجب أن تكون هذه اليد الغليظة قد جرت بتلك الروائع الخالدة، ثم صوبت نظري إلى الباب ولكنه لم يكد يراني أنهض حتى صاح: ألا تنتظر الشاي! إن زوجي وطفلي سيعودان حالا وسنتناول الشاي معاً. ألا تريد أن ترى طفلي؟ إنهما طفلان جميلان، أحدهما في السابعة والآخر في الحادية عشرة، إن زوجي تجيد العزف على (البيان) وتتقن فن التصوير. إن هذه اللوحات الفنية التي تراها على الجدران من ريشتها، فقبعت في كرسي وأنا أتفرس في وجه ذلك الرجل الذي لم يفتأ يقوم ثم يقعد ويفتح الأدراج ثم يقفلها وأخيراً قال لي: هنا تجد الطبعة الأولى من كتبي، وفي الدرج الآخر تجد الطبعات الثانية، وتحتها التراجم. إنه محصول كبير، أليس كذلك؟ إني أعنى بها عنايتي بأطفالي. ثم أخذ يقهقه عاليا فلم أطق أن أرى فكيه ينفرجان عن فم واسع كريه، فصحت: يجب أن أذهب، ثم اندفعت إلى الباب وتدحرجت على السلم؛ وبدون أن أشعر وجدت نفسي خارج المنزل، وما كدت أصل إلى منزلي حتى ألقيت جميع مؤلفات ذلك الملعون في النار

ترجمة نظمي خليل

البريد الأدبي

اكتشاف مدهش في الموميات المصرية:

وقع العلماء الأثريون في متحف (المتروبوليتان) بنيويورك على اكتشاف مدهش في شأن الموميات المصرية القديمة؛ فقد رأى الدكتور ونلوك مدير المتحف أن يسلط أشعة رنتجن على لفائف الموميات لأول مرة، وقد انتهى البحث إلى نتيجة مدهشة؛ وكان بعض العلماء قد سلط هذه الأشعة على الموميات من قبل فكانت النتيجة سلبية دائما لأن اللفائف الكثيرة التي تحيط بالجثث المحنطة كانت تحول دون ظهور أية نتيجة. ولكن العلامة الكيميائي الدكتور أرثور كوب توصل إلى اختراع جهاز جديد، واستعمل الدكتور ونلوك للكشف على مومياءين ترجعان إلى الأسرة الحادية عشرة، وهي مما وجدته البعثة الأمريكية أثناء حفرياتها بمصر سنة 1920، فكشفت الأشعة عن حقيقة مدهشة هي أنه يوجد تحت هذه اللفائف العديدة، وفوق الجثة المحنطة كثير من الحلي والجواهر التي زينت بها الجثة في الصدر والعنق والمعاصم، وبذا كشفت الصورة التي أخذت عن كنز لم يكن يحلم به إنسان، ففي عنق المومياء وجدت أربعة عقود، منها واحد ذهبي يتوسطه بعض اللآلئ الكبيرة والصغيرة، وعقد من اللآلئ الصناعية الصغيرة (الخرز)، ووجد على الصدر غطاء من الخرز وعقد كذلك، وكشفت الأشعة عن سوارين، كل معصم فيه سوار من الخرز وثلاثة جعارين كبيرة قد ثبتت فيهما. كذلك كشفت الأشعة عن سوارين في مفصل القدمين كسواري المعصمين. ومن أعجب ما كشفت الأشعة هيكلا جرذين صغيرين عند القدم يظهر أنهما تسربا إلى الجثة عند ربطها. وقد رأى العلماء إزاء هذا الاكتشاف أن يحاولوا نزع اللفائف عن المومياء، بيد أنه رؤي قبل ذلك أن نتخذ كل الوسائل العلمية لحفظها خوفاً عليها من التلف. وقد عرضت الصور التي كشفت عنها الأشعة بجانب المومياء في متحف نيويورك.

شعب مصري في غانة الجديدة؟

نشرت إحدى الصحف الألمانية التي تصدر في بودابست نبأ اكتشاف غريب وفق إليه بعض الطيارين والعلماء الإنكليز أخيراً في جزيرة غانة الجديدة التي تقع في المحيط الهادي على مقربة من استراليا، فقد طار إلى الجزيرة بعض الطيارين الأستراليين وتوغلوا

في داخلها، فوقعوا على شعب غريب عن أهلها يعيش في الداخل ويبلغ عدده زهاء مائتي ألف، وليس بينه وبين باقي سكان الجزيرة شبه في الجنس أو العادات. وجاء بعدهم بالطيارة إلى الجزيرة بعض الأخصائيين في علم الأجناس وبحثوا أحوال هذا الشعب المتأخر المنقطع عن العالم فألفوه ماهرا في الزراعة خبيراً بطرق الري.

ورأى العلماء أنه يوجد بين هذا الشعب وبين المصريين شبه كبير، ورتبوا هذا الاستنتاج على عدة حقائق علمية، منها أنهم يحرزون من الآلات الموسيقية ما هو شبيه بالآلات التي ترسم على الآثار الفرعونية، كذلك أسلحتهم الحجرية تشبه أسلحة المصريين القدماء. كذلك يوجد في معتقداتهم الدينية كثير مما يشبه عقائد المصريين القدماء. ويرى هؤلاء العلماء المكتشفون أنه ليس بعيداً أن يكون المصريون القدماء قد ساحوا إلى تلك المياه في العصور الغابرة، ونزلوا على تلك الجزيرة الثانية وحل بعضهم بها، وأقاموا فيها مجتمعا خاصا بهم ونقلوا إليها بعض عاداتهم وحضارتهم. بيد أنه يبقى على أولئك العلماء أن يبحثوا عما إذا كان لذلك الشعب من الخواص الجنسية، وعما إذا كان في لغته، ما كان للشعب المصري القديم؛ فإذا وقفوا إلى وجود هذه الخواص، فعندئذ يغدو الاكتشاف حقيقة علمية لا ريب فيها

ولقد دلت أبحاث المكتشفين من قبل على وجود آثار حضارة مشابهة لحضارة الفراعنة في بعض أنحاء أمريكا الجنوبية والمكسيك، ولكن البحث لم يقطع بوجود الصلة بين هذه الحضارة وحضارة المصريين القدماء.

فبير عميد الموسيقى الألمانية

احتفلت دوائر ألمانيا الفنية والموسيقية أخيراً بذكرى الموسيقي الألماني الكبير كارل ماريافون فبير وذلك لمناسبة مرور مائة وخمسين عاما على وفاته. وكان مولد هذا الموسيقي الكبير في ديسمبر سنة 1786 في إحدى قرى هولشتين وكان أبوه رئيساً لموسيقى البلاط المحلي - فخرج على رأس فرقة من الممثلين الهزليين يطوف جميع أرجاء ألمانيا، ومعه أبنه فبير؛ وهكذا قضى الموسيقي العظيم حداثته متجولا في مختلف الأنحاء؛ ومنذ سن العاشرة ظهر شغفه بالموسيقى؛ ولم يمض عامان حتى وضع أولى مقطوعاته الموسيقية؛ وفي الرابعة عشرة وضع أولى (أوبراته)، وفي الثامنة عشرة أتم فبير دراسته الموسيقية، وغدا علماً يشار إليه. وتولى رياسة الفرقة الموسيقية في برزلاو -

وقام بتنفيذ موسيقى (طيطوس) لموتسارت ثم التحق بخدمة دوق فرتمبرج. وبعد أن تنقل حينا في قصور هذا الأمير اتهم بالتدخل في الشؤون السياسية فقبض علية وزج إلى السجن. ولما أطلق سراحه تقلب حينا بين مانهايم ودارمشتات وبامبرج حيث تعرف بالكاتب الأشهر هوفمان، زار ميونيخ وهنالك مثلت (أوبرته) (أبو حسن) ثم قصد إلى فيمار وتعرف بشاعر ألمانيا الأكبر جيته، وأشتغل بعد ذلك في درسدن وفي برلين واشتهرت أوبراته ومقطوعاته الغنائية؛ وكانت أشهر قطعه (فراي شتس) التي نالت في عصره أعظم نجاح، والتي تعتبر فاتحة عهد جديد في تاريخ الموسيقى وهذه القطعة التي حملت فاجنر فيما بعد على أن يقول (لم يوجد موسيقى أكثر ألمانية من فبير)

وتوفي فبير في الأربعين من عمره في لندن ثم نقل رفاته بعد ذلك إلى مدينة درسدن تثوي إلى يومنا.

عيد جريدة الطان

من أنباء باريس أن جريدة (الطان) كبرى الصحف الفرنسية قد احتفلت بعيدها الخامس والسبعين في حفل فخم أقيم في بهو الاستقبالات بقصر أورسي وشهده جمع عظيم من الوزراء والنواب وأكابر الكتاب والفنانين ورجال المال والصناعة وأعضاء الأكاديمية والمجمع العلمي، وخطب فيه عده من الوزراء وأقطاب التفكير الفرنسي مثل مسيو أندريه تارديه، ورنيه بو، وجاك شاستنيه وغيرهم منوهين بعظمة الطان وعظمة المهمة التي تضطلع بها وكونها فخر الصحافة الفرنسية بلا مراء سواء من حيث رصانتها وسمو تفكيرها أو أسلوبها الرفيع المتزن، والواقع أن الطان على رغم ثوبها المحافظ وحرصها على القديم وأحجامها عن مجاراة التطور الصحفي المعاصر من حيث التصوير والتنويع، تبقى عميدة الصحافة الفرنسية من حيث غزارة مادتها وقوة تحريرها ونزاهة غايتها واحتشام أسلوبها

وقد أسست الطان منذ خمسة وسبعين عاماً سنة 1861 في أواخر الإمبراطورية الثانية؛ وكان مؤسسها صحفيا يدعى نفتزر. أسسها أولا لخدمة التجارة الدولية. ثم تحولت إلى جريدة سياسية قوية، أهم مظاهرها إذاعة الأنباء الدولية؛ ثم كانت المرحلة

الثالثة في عنايتها بالعلوم والآداب والنقد؛ وكتب فيها أئمة التفكير الفرنسي مثل شيرر وسانت بيف
وبريسون وبلان، وكتب فيها عظماء الوزراء والساسة مثل بوانكاريه وتارديه. وقد اشتهر مراسلوها الخارجيون بأنهم أعظم مراسلين من نوعهم حتى قيل في المثل أن فرنسا لها سفيران: (السفير الفرنسي ومراسل جريدة الطان) وأشرفت على إدارة هذه الصحيفة الشهيرة مدى نصف قرن أسرة ايبرار، التي أنجبت عدة من كبار الصحفيين والكتاب، وكان أخرهم في الإشراف عليها أميل ابيرار الذي تخلى عن إدارتها منذ نحو عشرة أعوام.

أيام تولستوي الأخيرة

صدرت أخيراً ترجمة إنكليزية لمذكرات الكونته تولستوي زوج الكاتب الروسي الأشهر ليون تولستوي بعنوان (المعركة الأخيرة) ترجمها ومهد لها الكاتب الإنكليزي الميرمود. وقد ذاعت عن أيام تولستوي الأخيرة قصص عديدة، فقيل إنه في أواخر حياته كان يعيش عيشة الفلاحين الذين اعتنق قضيتهم؛ وقيل إنه رجل نظري لا يفعل ما يعتقد. فهذه المذكرات التي كتبها عن هذه المدة من حياته ألصق الناس به تبدد كثيرا من الأخطاء الذائعة وتلقي ضوءاً كبيراً على خاتمة الكاتب العظيم في مقامة الهادئ في (سنايا بوليانا)

وقد اجتمعت أسباب عديدة لتنغص عيش تولستوي في أعوامه الأخيرة، وأهمها الدسائس والشجار المتواصلة بين زوجه وأبنائه من ناحية، وبين أبنته الكبرى وهي أعظم أصدقائه. وكان تولستوي يود في تلك الفترة أن يترك العالم لينقذ روحه، وكانت ثمة مسألة مؤلفاته ولاسيما مذكراته وكلها ذات قيمة أدبية ومادية معا. وهذه المذكرات التي تنشر اليوم تشمل سنة 1910 التي توفي فيها تولستوي. وفيها مذكرات كثيرة من تحرير تولستوي نفسه عن أحواله وشؤونه اليومية.

وكانت هذه المذكرات بين تراث أسرة تولسيوي حتى صحت عزيمة ولده سيرجي على طبعها وإخراجها، وقد تولى ترجمتها الميرمود صديق تولستوي وأخرجها في أسلوب صادق مؤثر كما هي في أصلها، ومهد لها بمقدمة بديعة يحلل فيها شخصية الكاتب العظيم تحليلا يدل على الوفاء والإعجاب الذي لا حد له، وشرح كثيرا من مواقفها وغوامضها. وما كادت هذه الترجمة الإنكليزية تصدر حتى هرع القراء إلى اقتنائها بسرعة مدهشة دلت على ما لذكرى الكاتب العظيم من الأثر والصدى.

جائزة للقصص التاريخي

كانت جريدة (الانترانسيجيان) الفرنسية قد خصصت منذ حين جائزة مالية كبيرة، تقوم بمنحها الأكاديمية الفرنسية والمعهد العلمي لمؤلف أحسن قصة تاريخية تعرض فيها حقائق التاريخ في أسلوب القصص الرفيع. وقد عقد أخيراً اجتماع كبير من بعض أعضاء الأكاديمية وكثيرين من رجال الأدب لتخصيص هذه الجائزة عن سنة 1936، وكانت لدى اللجنة عشرة مخطوطات جديدة، فنال الجائزة المسيو روجيه رجيس عن قصته التاريخية التي عنوانها وهي قصة تدور على أسر نابوليون الثالث في الحرب السبعينية في قلعة (هام) وبطلتها فتاة حسناء هي (صانعة قباقيب)؛ ومع أن للواقعة أصلا تاريخيا لاشك فيه، فإن المؤلف استطاع أن يخرج منها قصة خيالية ممتعة.

وقد تبوأت القصة التاريخية مركزها في الأدب الفرنسي في العصر الأخير بنوع خاص وكان كتابها في الغالب مؤرخين من الطراز الأول، وكان أستاذ هذا الفن من المعاصرين المؤرخ لينوتر الذي توفي منذ نحو عام، وكان يكتب قصصه التاريخية في جريدة (الطان) بعنوان (التاريخ الصغير) وفيها يحي شخصيات وحوادث تاريخية مجهولة ويسبغ عليها من قلمه سحراً لا يبارى

ألمانيا وكتابها المنفيون

أصدرت الحكومة الألمانية أخيراً قانوناً ينزع الجنسية الألمانية عن طائفة كبيرة من الكتاب والمفكرين الذين يخاصمون النظام الهتلري والذين غادروا ألمانيا منذ بدء الحركة اتقاء الفتك والمطاردة. ومن هؤلاء الذين نزعت عنهم الجنسية الكاتب القصصي الكبير توماس مان وجميع أفراد أسرته، والمؤرخ الكبير الأستاذ ديتريش فون هلد براند الذي يشغل الآن كرسياً في جامعة فينا، وعدة كبيرة من الكتاب والصحفيين والفنانين الذين يقيمون في مختلف العواصم الأوربية. وهذا آخر إجراء تتخذه الحكومة

الهتلرية في شأن هؤلاء الكتاب المنفيين بعد أن نزعت كل أملاكهم وحرمت نشر كتبهم في ألمانيا.

حياة النور

النور أو الغجر من الشعوب البدوية المدهشة التي مازالت تحتفظ بعاداتها وتقاليدها القديمة وسط أمواج الحضارة المحدثة. ومع أن النور يستقرون جماعات كبيرة في أواسط أوربا،

ولاسيما في المجر ورومانيا، فإنهم بدو في أعماق نفوسهم بمعنى انهم لا يستقرون على أسلوب معين في الحياة. وقد صدر أخيراً بألمانيا كتاب عن هذا الشعب الغريب بقلم الدكتور مارتني بلوك عنوانه (النور: حياتهم ونفسيتهم) , وأصدره معهد التراجم بمدينة لايبزج، ويتناول المؤلف حياة النور وخواصهم وعاداتهم، ثم يحاول شرح نفسيتهم ومشاعرهم وتفكيرهم بطريقة تدل على تعمقه في هذا البحث. ويبين محاسن عاداتهم التي مازالت تقوم على الفطرة والسذاجة كما يبين مساوئهم وميولهم الخبيثة التي أملتها عليهم عصور من التشريد والاضطهاد. ومع أنه ينحو في مؤلفه نحواً علمياً رزيناً فإنه يتبع في نفس الوقت في عرض آرائه أسلوباً بسيطاً جذاباً؛ ويفيض المؤلف في خواص النور النفسية والفكرية والفنية، ويصف براعتهم في بعض الفنون مثل الموسيقى التي اشتهروا بها ونحو فيها نحواً خاصاً لا يباريهم فيه أحد.

مع أن مصادر هذا البحث ليست كثيرة، فإن الدكتور بلوك استطاع أن يجمع في مؤلفه شوارد موضوعه بإفاضة، وأن يجمع فيه كثيراً من المسائل والحقائق التي تلقي ضياء كبيراً على حياة هذا الشعب الغريب الذي مازال ينظر إليه أينما حل بعين البغض والريب

جريدة الشباب بدلاً من الشورى

جاءنا من الأستاذ محمد علي الطاهر أنه اتفق مع الأستاذ محمود عزمي على أن يتولى إصدار جريدته (الشباب) بشكل آخر في خلال شهر فبراير المقبل.

وهو يرجو من أصدقاء الشورى القدماء أن يمنحوا الجريدة الجديدة نفس الثقة التي منحوها للشورى، وسيظل عنوانه كما كان: 30 شارع عبد العزيز بمصر تليفون 56800

الكتب

شرح الإيضاح

تأليف الأستاذ عبد المتعال الصعيدي

أتمت المطبعة المحمودية التجارية ومكتبتها بالأزهر بمصر طبع الجزء الثالث من شرح الإيضاح في علوم البلاغة للأستاذ عبد المتعال الصعيدي المدرس بكلية اللغة العربية وقد بدأ في هذا الجزء بشرح قسم علم البيان من كتاب الإيضاح وأتمه فيه، وسار في شرحه على منوال الجزء الأول والثاني لا يعنى بالمماحكات اللفظية والمناقشات التي لا تتصل بصميم علوم البلاغة، وإنما عني بتحقيق مسائل هذه العلوم، وبشرح شواهدها ونسبتها إلى أصحابها. وقد يذهب في ذلك إلى مخالفة من سبقه من علماء هذه الفنون، كما ذهب في هذا الجزء إلى أن وظيفة علم البيان تخالف وظيفة علم المعاني مخالفة تجعله علماً مستقلاً عنه، وليس شعبة منه، كما ذهب إليه الإمام السكاكي ومن تبعه

فوظيفة علم المعاني على هذا تطبيق الكلام على مقتضيات الأحوال، ومرجع ذلك إلى مراعاة ما يرجع فيه من جهة البلاغة؛ ووظيفة علم البيان معرفة إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة من الدلالة ليعرف ما يقبل منها وما لا يقبل، ويحترز بهذا فيها عن التعقيد المعنوي؛ ومرجع ذلك في الكلام إلى مراعاة ما يجب فيه من جهة الفصاحة بقطع النظر عن مراعاة مقتضى الحال وإن كان لابد من ذلك فيه، ولكن هذه وظيفة علم المعاني، وشأنها من وظيفة علم البيان كشأن وظيفة علم النحو وغيره منها

وعلى هذا لا يكون من شأن علم البيان أن ينظر في مثل قول امرئ القيس:

ألم تسأل الربع القديم بعسعسا ... كأني أنادي إذ أكلم أخرسا

من جهة مطابقته لمقتضى الحال أو عدم مطابقته له وإنما ينظر فيه من جهة فساد التشبيه، لأجل انه لا يقال كلمت حجراً فلم يجب فكأنه كان حجراً، وإنما الجيد في ذلك قول كثير عزة:

فقلت لها يا عز كل مصيبة ... إذا وطنت يوماً لها النفس ذلت
كأني أنادي صخرة حين أعرضت ... من الصم لو تمشي بها النفس زلت
وكذلك ينظر في امرئ القيس:
وأركب في الروع حيفاتة ... كسا وجهها سعف منتشر
من جهة فساد الاستعارة فيه؛ لأنه إذا غطى الشعر العين لم يكن الفرس كريماً، ولا يعنيه في ذلك اعتبار المطابقة وعدمها
وكذلك ينظر في قول أبي تمام:
رقيق حواشي الحلم لو أن حلمه ... بكفيك ما ماريت في أنه برد
من جهة أن الرقة لا تستعار للحلم، وإنما يوصف بالرجحان والرزانة كما قال النابغة:
وأعظم أحلاماً وأكبر سيداً ... وأفضل مشفوعاً إليه وشافعا
وهكذا يسير الشرح في علم البيان على هذا المنوال، يطنب إذا اقتضى المقام الإطناب. ويوجز إذا اقتضى المقام الإيجاز، فجزى الله مؤلفه عنه خير الجزاء.
(ص)
مرافعات
تأليف الأستاذ حسن الجداوي
كثير منا رأى الدفاع في قاعة المحكمة وهو يدافع عن المتهم. . يدافع عن المجرم! ويحاول بقوة حجته وشدة عارضته وذلاقة لسانه أن يحطم الأغلال والقيود التي تطوق الرجل ويطلقه من إساره. . . أو يرجو متى أفلت أمر الرجل من يده وغدا مصيره إلى الظلمات أن يعامل بروح القانون. وكثير منا أنصت إلى وكيل النائب العام وهو يحمل على المتهم، ويدافع عن الإنسانية المعذبة في أشخاص هؤلاء المجرمين السفاكين الذين يسودون وجه الحياة المشرق النظير ويلطخونه بالدماء، لا يزجرهم زاجر ولا يأخذ على أيديهم قانون. ولكن قليلاً منا من فكر في الظروف القوية التي تسوق المجرم إلى الإجرام، قليل منا من فكر في ظروف الحياة القاسية التي تخلق المجرمين والسفاكين وتدفعهم إلى ارتكاب أشنع الآثام. قليل من الناس من يفكر كما يفكر الدفاع وهو يدرس القضية ويقف أمام القضاء يشرح أدوارها ويبسط فصولها ويلقي الضوء القوي الباهر على ما خفي منها من أسرار.
هذه المرافعة البيانية القوية لها أثرها المحمود في نفوس القضاة ونفوس الناس فكثيراً ما تقسوا الحياة وتتضافر العوامل السيئة على المتهم المسكين، فلا ينقذه إلا محاميه ومرافعة
محاميه، متى كانت قوية خلابة كهذه المرافعات التي بين أيدينا الآن، والتي ترجمها الأستاذ حسن الجداوي عن الفرنسية وتخير فيها قضايا إنسانية تقع في كل بلد وتجري في كل محكمة وتدور على كل لسان. فقضايا حرية الرأي والصحافة والدفاع عن العرض، والقتل بدافع الغيرة والشفقة، والخيانة الزوجية التي يضمها هذا الكتاب القيم، كلها قضايا إنسانية لا تقف على بلد واحد وشعب واحد. ولقد أبدع المترجم في الترجمة خير إبداع، ووفق أحسن توفيق، فجاء كتابه تحفة أدبية رائعة أكملت نقصاً محسوساً في المكتبة العربية وسدت فراغا كبيراً في الأدب القضائي
وسيجد القارئ في مرافعة بعض المحامين الفرنسيين منطقاً أخاذاً ولساناً رائعاً دعم بالدراسة الفنية الدقيقة كمرافعة جوزيه في قضية التجميل حتى قال عنها زميله وخصمه (لقد أدهشتني مرافعة الأستاذ جوزيه تيري بما فيها من معلومات طبية أنحني أمامها، كنت أسائل نفسي أيهما أخطر علي الأستاذ جوزيه تيري أو الدكتور جوزيه تيري؟) وهذا أقل ما يجب أن يكون عليه المحامي في هذا العصر، إحاطة شاملة بعلم التشريح وعلم الإجرام وعلم النفس
وفي قضية حرية الدفاع سيقرأ القارئ دفاعاً فذاً فيه بلاغة وقوة وبيان وحجج منطقية وكلام يجري مجرى الأمثال (إن القوانين لم تعد تطبق بل أصبحت تفسر، وتفسر دائماً بالمعنى الذي لا تدل عليه ولا إرادة المشرع لها. . . إنهم يعذبون القوانين ليجعلوها صالحة لتعذيب الناس) وما الذي سيقوله القارئ بعد هذا الكلام.
وفي محاكمة شارل الأول ترى صورة قوية للشعب الإنجليزي الصابر الباسل المتفاني في حب مليكه حتى في عهد كرمويل.
وفي القرن الماضي أعدم مجرم شقي بطريقة همجية وحشية فثار شارل هيجو ابن

شاعر فرنسا الكبير فوصف الحادث في الصحف وحمل عليه حملة شديدة وسيق بعدها إلى المحاكمة. ومما كتب قوله:

(ما الذي ارتكبه هذا الرجل ضد الهيئة الاجتماعية؟ أنه قتل. . وما الذي فعلته الهيئة الاجتماعية بذلك الرجل؟ إنها عذبته. . . ولكن أتدرون ما الأثر الذي تركته فعلتكم؟ لقد أتيتم أمرا إدا، فيه قسوة وفيه وحشية وفيه إيلام. . إنكم بدلاً من أن تكسبوا عطف الجمهور المشاهد لجانب القانون كدتم تحولون عطفه لجانب المجرم. لقد أخفق الجلاد الأول فجئتم بثان، وبعد نصف يوم من جهاد مستمر أستطعم آخر الأمر أن تقهروا الرجل، وتمسحوا في آن واحد الدم من نصل المقصلة والعرق من جباهكم. . لا لا. إن الإعدام ليس بالمنظر الجميل. . .)

ومرافعات الكتاب كلها قوية بليغة وهي على نسق قصصي يسر ويشوق، ويعرض صوراً بارزة من الحياة. وسيجد فيها القارئ لذة خالصة وفائدة محققة، أما المحامي فسيطلع في لغته على مرافعات يكفي أن يقال عنها إنها لأفذاذ رجال القانون.

هذا والكتاب مطبوع طبعاً جيداً على ورق ناعم وغلاف مقوى وهو يقع في 180 صفحة من القطع الكبير وهو مفهرس الأعلام حسن التبويب زهيد الثمن.

ونرجو ونحن نهنئ المؤلف على جهده الأدبي المشكور أن يتحفنا دائماً بأمثال هذا الكتاب الرائع.

محمود البدوي

العدد 188 - بتاريخ: 08 - 02 - 1937

. . .لو كنا نقرأ

في مصر تسعمائة وتسعون في كل ألف لا يقرأون، وتسعة من العشرة الباقية ينتفون الأخبار من الصحف اليومية، ويقطفون النكت من المجلات الخفيفة؛ وواحد هو الذي يقرأ الكتاب المثقِّف ويطالع المجلة المهذِّبة؛ وهذا الواحد الأحد يدركه في أكثر العام فتور الطبع أو عدوى البيئة أو فوضى النظام فيعاف الكتاب، ويجتوي الصحيفة، ثم يقعد في مشارب القهوة يتقمع، أو يسير في مجالي الطبيعة يتأمل، أو يضطجع في مراقد السكينة يستجم. ذلك تقدير مقارب نتهجم به على (مصلحة الإحصاء) وفي يدينا استقراء متتبع لا يتهيأ لغير من قضى أكثر العمر في التعليم والتأليف والصحافة. وتقدير المؤلفين والكتاب في هذا الباب هو الكاشف الحق عن مكان الأمة من التربية القويمة والثقافة السليمة والرقي الصحيح. أما قياس درجة الرقي على نسبة القارئين بالقوة لا بالفعل، فذلك عمل كل ما يدل عليه أنه خانة في سجل التعداد - ماذا يردّ على العقلية المصرية إذا بلغ (فكاكو الخط) فينا مائة في المائة مادام فك الخط لا يطلق عقلا أسيرا ولا يجلو بصرا حسيرا ولا يذكي قريحة كابية؟ أوافق مصلحة الإحصاء على أن في الخمسة عشر مليون نفس أكثر من مليوني قارئ، وأن في هذين المليونين ألوفا من ذوي الشهادات المدرسية والدرجات الجامعية يستطيعون أن يكشفوا للعقل آفاق المعرفة، وينهجوا للنفس طرائق الكمال؛ ولكنك إذا وازنت بين عدد المتعلمين وعدد ما يطبع من الكتاب وما يوزع من الصحيفة خامرك الشك في إحصاء المصلحة، أو في تعليم المدرسة، أو في عقلك أنت! ينتشر في العام كله بضعة من الكتب يتراوح ما يطبع من كل واحد منها بين الألف والثلاثة، ثم تساق إلى قراءته بالطبل والزمر مصر جمعاء وفي معونتها العالم العربي أجمع، ومع ذلك لا تنفد طبعته المباركة بعد الأغراء بالإعلان والإهداء قبل خمس سنين!

أليس معنى ذلك أن هذا الشعب أمي وإن عرف حروف الهجاء، وعامي وإن تلقب بألقاب العلماء؟ تتبع الطالب من يوم دخوله روضة الأطفال إلى يوم خروجه من الجامعة؛ فهل تراه يقرأ - إن قرأ - إلا كتب المدرسة أو ملخصات المعلم أو فكاهات الصحف؟ إنك تراه ساعة الدرس وأذنه إلى فم الأستاذ، ويده على القلم، وعينه في الدفتر، يختصر ما اختصر، ويقتصر على ما أقتصر؛ وتراه ساعة الفراغ يحاول أن ينقشه بالتكرار على صفحة ذهنه، فيصدع رأسه بترديد ما لا يفهمه، ويغثي نفسه بإساغة ما لا يهضمه، حتى إذا خرج من المدرسة خرج مكروباً لا يتقار من الكلال والسأم، فينفس عن صدره بالفكاهة الرخيصة أو القراءة السهلة ? فإذا نال الشهادة بالحفظ تبعه هذا النفور إلى منصبه إذا

كان عبد الوظيفة، أو إلى مكتبه إن كان حر العمل، فيكره الأدب لأنه يتذكر درس (المحفوظات)، ويعاف القراءة لأنه لم ينس درس (المطالعة)؛ وعمله وأمله لا يقتضيانه التعمق ولا المزيد، فيعود كما بدأه الله أمياً يعمل بالإرشاد، وفطرياً يهتدي بالغريزة. والمعلم الذي يخرّج التلميذ اليوم، كان هذا التلميذ نفسه بالأمس: أرسل إليّ مدرس في كلية الآداب كتاباً يسألني فيه أن أقطع عنه (الرسالة) لأنه لا يجد وقتا لقراءتها، وهو لا يلقاك إلا حدثك بما قالته المجلة الفلانية عن الفتاة فلانة، وما تهزأت به المجلة الأخرى من الأستاذ فلان؛ ثم سأله أحد طلابه ذات يوم عن (واسط) فقال له: أحسبها مكاناً في طريق القصير ? قرأت هذا الكتاب فعذرت وكيل المعرض الزراعي الصناعي وقد دخل عليه مندوب الرسالة يطلب إليه (تصريحاً صحفياً) بدخول المعرض، فقال له وإمارات التعجب الساخر تتخايل على جبينه العريض: ولكني لم أر هذه (الرسالة) قط! فلم يجبه مندوبنا وإنما أجابه حاجبه هو بقوله: لا، يا بك! هذه مجلة صفتها كيت وكيت؛ وأنا وابنتي نقرأها كل أسبوع، ونجلدها كل سنة ? سمعت هذا الخبر فعذرت ذلك الباشا القاروني الذي أهديت إليه الرسالة لصلة بين أخي وبينه، فردها علي وقد كتب على غلافها الأبيض بالقلم الغليظ: (مرفود) فوقع في نفسي أن الباشا يتشبه بالملوك والخلفاء، في رفد المعوزين من الأدباء والشعراء، فهممت أن أكتب إليه أشكره وأستعفيه لولا أن نبهني صديق أوتي منطق الناس أن (مرفود) معناها (مرفوض) ولا أريد الترسل في هذا الحديث، ففي ذاكرة كل صحافي من بابه طرائف وأعاجيب

الحق أننا لا نزال أمة أمية ننظر إلى الكتاب نظر المتعظم الخائف، أو المتقنع العازف؛ ومادمنا لا نرى الكتاب ضرورة للروح، كما نرى الرغيف ضرورة للبدن، فنحن مع الخليقة الدنيا على هامش العيش أو على سطح الوجود

تتطور المذاهب والآراء، كما تتطور الحلي والأزياء؛ فإذا لم تتقصّ بالقراءة المتجددة أخبار هذا التطور في أطراف الأرض عشت في عصرك غريب العقل أجنبي الشعور وحشي الثقافة، كالذي يلبس في الناس زيا مضى بدل زي حضر

إن من وظائف المدرسة أن تعودك القراءة وتعلمك كيف تقرأ، وإن من وظائفك أن تقرأ

وأن تعرف ماذا؛ فإذا لم تفعل هي فقد قصرت عن رسالة، وإن لم تفعل أنت فقد فرطت في واجب

ليت الذين يطلبون من الأدباء أن ينتجوا ويجيدوا الإنتاج، يطلبون من القراء أن يقرءوا ويحسنوا القراءة. فلو كنا نقرأ لخلقنا الكاتب والكتاب ولو كنا نقرأ لأخصبنا حقول المعرفة فأزهرت في كل مكان وأثمرت في كل نفس؛ ولو كنا نقرأ لما كان بيننا هذا التفاوت الغريب الذي تتذبذب فيه الأفكار بين عقلية بدائية وعقلية نهائية؛ ولو كان العالم العربي يقرأ لنشر من الكتاب زهاء مائة الألف، ووزع من الصحيفة قرابة المليون؛ وإذن تستطيع أنت أن تتصور كيف تزهر الثقافة وتنتشر الصحافة ويتنوع الأدب ويرقى الأديب!

أحمد حسن الزيات

حديث مجلس

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

زارني صديق، ففعلت ما يفعل المرء مثله في العادة حين يجيئه ضيف: قدمت له السجاير ليأخذ منها واحدة وأشعلت عود الكبريت. وكنت لا أشعر برغبة في التدخين في تلك اللحظة، فكانت أصابع إحدى يدي ممدودة إليه بالكبريت وأصابع اليد الأخرى تثني الغطاء على السجاير، فلما أشعل سيجارته رددت يدي إلى فمي وزممت شفتي لأنفخ وأطفئ النار ألفيتني أتردد ثم أتناول سيجارة.

وقلت لصاحبي وأنا أنفخ الدخان مثله (أرأيت. . . لم أكن أريد أن أدخن، ولكن العادة غلبتني حين رأيت النار في طرف العود بين أصابعي، وأنا أغالط نفسي وأقول لها مازحا إن الكبريت أغلى من السجاير، وإن من سوء التدبير أن أضيع عود الكبريت من أجل سيجارة واحدة. وتروقني هذه المغالطة لأنها تفتح لي باب القياس والتمثيل فأقول إن الإنسان كثيرا ما يضيع الكثير من جراء حرصه على القليل فما رأيك؟)

قال: (رأيي أن هذا صحيح. وسأقص عليك قصة)

قلت: (هاتها)
وسرني أني أطلقت لسانه وأنه صار في وسعي أن أستريح من الكلام، فإن من نقائصي أني طويل الصمت وإن كنت في العادة ثرثاراً عظيما، واحسبني أهرب بالصمت من الناس، وبالثرثرة من نفسي
وسمعته يقول: (كنت منذ سنوات أتعلم العزف على الكمان، وكان معلمي تركيا ضيق الصدر من أولئك (المولوية) الذين يعيشون في التكايا ويزجون فراغ الحياة بالموسيقى وما تغري به. وكنت قد اشتريت (فرسا) جديدة للكمان - والفرس كما تعرف هي قطعة من الخشب المنجور ترفع عليها الأوتار، فلما رآها أستاذي غضب ورماها وقال إنها غليظة، وذهب يعنفني ويؤنبني كأنما كنت أنا صانعها، أو كأنما كنت أدري قبل ذلك شيئا عن الكمان والأوتار والفرس، فكرهت سوء خلقه وثقل على نفسي سلوكه وزهدت في التعلم - على هذا الرجل على الأقل - وزارني بعد خروجه صديق رآني منقبضا متجهما، فسألني عن السبب فحدثته به، فأحب أن يرى هذه (الفرس) التي أثارت كل هذا الخلاف، وكانت لا
تزال على الأرض، فأشرت إليها فتناولها وقال: (هذه) وجعل يقلبها في يديه مستغربا، ثم طلب أن أدعها له، فقلت: (خذها يا سيدي) فما لها قيمة في الحقيقة فإن ثمنها لا يزيد على قرشين، ولكن معلمي كان ممن يخلقون من الزبيبة خمارة عظيمة ومضى بها صاحبي ونسيت الأمر كله جملة وتفصيلا، وإذا به بعد سنة أو نحو ذلك يقول لي أنه يتعلم العزف على الكمان وإن الدافع له على ذلك والمغري به كان هذه الفرس التي ظل بضعة شهور يخرجها من مكانها كلما خلا إلى نفسه ويتأملها
وهو الآن من خير هواة العزف على الكمان
قلت: (وأنت)
قال: (أنا. . انقطعت عن الدرس. . لم أجد أستاذا أقدر منه أو مثله قدرة وإن كنت وجدت كثيرين أرحب صدرا. . . على أني كنت أدور على المعلمين كارها وبي فتور شديد فكففت)
قلت: (هل تعلم أني أنا أيضاً تعلمت العزف على الكمان. . ظللت أتعلم أكثر من سنة. . فلو أني واظبت لكنت الآن من أمهر العازفين على هذه الآلة. . خمس وعشرون سنة. . من يدري. . لعلي كنت خليقا أن أتحول عن الأدب إلى الموسيقى. ولكن قلة الصبر. . والخجل من أن يسمع الجيران الأصوات النابية التي أخرجها. . والاستحياء من أن يعرف عني أني مبتدئ، كل هذا صرفني. . كما صرفتني عوامل أخرى عن الشعر. .)
فابتسم وقال: (والآن؟)
قلت: (الآن. . أنا الذي كنت خليقا أن أكون شيئا. ولكن. . لا بأس. . أرانا بعدنا جدا عن الموضوع)
فابتسم مرة أخرى وقال (لا بأس. .)
قلت: (صدقت. . كل شيء ككل شيء في هذه الحياة. . هبني كنت الشيء الضخم الذي كان يغريني الصبى والخيال الجامح بالطمع فيه والتطلع إليه فماذا إذن؟.)
قال: (كنت تكون أشد رضى عن نفسك)
قلت: (كنت أشعر. . كلا. . كان رأيي في نفسي يبقى كما هو. . ربما غرني رأي الناس أحيانا، ولكن بلائي أني حين أغتر أدرك أني مغتر فيسلبني إدراكي هذا متعة الغرور. . .
لست أقول إني غير قابل أو مستعد للغرور أو عرضة له، فإني كغيري في هذا، والغرور لازم لإطاقة الحياة، وبغيره لا أدري كيف يطيق الناس عيشهم. ولكني لا أزال أدير عيني في نفسي وأتأملها وأفحصها وأنكت تربتها كما ينكت المرء الأرض بطرف العصى، وأخلق بهذا أن يكشف للإنسان عن حقائق غير التي يزيفها أو يموهها الغرور. . وأول ما يعرفه المرء - بفضل الفحص المتواصل والتدبر المستمر - هو حدودها، ومتى عرف المرء حدود نفسه فأيقن أنها لن تغيب عن عينه قط. . وقد يعالج توسيعها وإفساح ما بينها. . ولكنها تظل ماثلة أبدا. . والشعور بهذه الحدود كرب وبلاء. . والجهد الذي يبذله الإنسان لعلاج النقص الذي يشعر به في نفسه كرب آخر. . آلة محدودة القوة تريد أن تبلغ بها ما تستطيعه آلة أخرى أقوى منها. . هذا الجهد ماذا تظنه يكلف الآلة المسكينة المحدودة القوة والعزم. . وفوق كل قوة أخرى أعظم. . وتجاهد حتى

تبلغ بنفسك فوق ما كان ظنك أنها قادرة عليه فلا تقنع بهذا. لأن هناك مرتبة أعلى ومنازل أخرى أسمى، فأنت لا تزال تستحث نفسك وتدفعها وتخزها. . ولانهاية لهذه الدائرة. . وهذه هي حياتنا جميعا. . في الحقيقة والخيال. . محاولات مستمرة لعلاج ما نحسه من نقصنا. . ولا يخلو هذا من جانبه المضحك. . فقد يعيينا أن نصلح الفاسد ونعالج الضعف، أو أن نعوضه من ناحية أخرى قابلة للزيادة والنمو فنروح نستر العيب أو الضعف أو النقص سترا نظنه وافياً كافياً أو نحتال لنبدو كأن قوتنا هي في هذه الناحية التي نعرف ضعفنا فيها. والإنسان ليس بشيء إذا لم يكن منافقاً مرائياً ودجالا كبيرا).

فقال صاحبي: (أو لا يدرك المرء حدود نفسه إلا إذا دأب على إدارة عينه فيها؟)

قلت: (لا. . ليست هذه سوى طريقة واحدة لمعرفة النفس، ومثلنا العامي يقول إن سكة أبي زيد كلها مسالك. ولا أعرف من هو أبو زيد هذا. ولكني أعلم أن المعرفة سكتها كثيرة المسالك. ومن المسالك التجربة والمعاناة. والتجربة تتيح للإنسان أن يقيس ما عنده إلى ما عند سواه فيعرف في أية ناحية قوته، وفي أي النواحي نقصه وضعفه وتقصيره. . وأعترف لك بحقيقة. . لقد كنت في سني وفي ميعتي يهولني أن أرى نفسي عاجزاً عن الحب الذي أرى غيري قادراً عليه. . . نعم كنت أشعر بالإعجاب وبسحر الجمال وفتنة الحسن، ولكن شعوري هذا كان لا يطول ولا يلبث أن يفتر. . ولم يكن الحب عندي أكثر

من مظهر رغبة وقتية تزول إذا زال الداعي إليها كما يجوع المرء فيشتهي الطعام، حتى إذا أصاب شبعه صد عنه ولم يعد يذكر إلى أن يجوع مرة أخرى. . . فلا أرق ولا شوق ولا أحلام ولا بكاء، وإذا حرمت حظاً في باب الحب فكما يحرم المرء نصيباً من لون من ألوان الأكل كان يشتهيه أن يفوز به. . وما أكثر ملايين الناس الذين يعيشون محرومين ويعلمون أنهم محرومون ومع ذلك يحيون ويسعدون بالحياة. . . كذلك كنت. ولم يكن إخواني كذلك، ولا كان الذين اقرأ أخبارهم في كتب الأدب مثلي، فكنت استغرب وأنكر من نفسي هذا الجمود أو إن شئت هذه الحصانة أو المناعة من الحب بالمعنى المعروف المألوف. الحب الطاغي العنيف الذي لا يفتر ولا يخبو له ضرام والذي يذكرك بمجنون ليلى وأشباهه. فأغراني هذا الذي بلوته من نفسي بالتكلف ولججت في التكلف حتى لكان يخيل إلي أحياناً أن الأمر صار جداً لا هزل فيه. وكنت أشجع نفسي على الأرق وأحثها على التذكر والشوق، وألح عليها بأجمل شعر الغزل في الأدب العربي والآداب الغربية لأوحي إليها الروح الذي ينقصها، وكنت أتمثل هذه الحالات التي يصفها الشعراء واسمع بها من الأخوان، وأروض نفسي على مثلها وأجعلها تستغرقني حتى قلت شعرا كثيرا في ذلك لا يشك قارئه في أنه صادر عن عاطفة صادقة عميقة قوية. ولم أكن أنا أشك في أن الأمر كذلك أيام كنت أقول هذا الشعر لأني لم أزل أعالج نفسي بالإيحاء إليها حتى صار الأمر أشبه ما يكون بالحقيقة. ولكني كنت في أعمق أعماق نفسي أدرك الحقيقة. وكنت أمتحن نفسي أحياناً بالبعد فلا أراني اشتاق أو أتلهف أو أتحسر أو أصبو إلى آخر ذلك. وأخيرا مللت هذا التكلف. وهذا من أسباب تركي للشعر. وثم أسباب أخرى ولكن هذا من أكبرها إذا لم يكن أكبرها).

فاستغرب صاحبي وجعل ينشدني بعض ما يحفظ - وما نسيت أنا - من شعري، ويسألني أكان هذا تكلفا، فقلت له (لم يكن الشعور الموصوف في هذه الأبيات كاذبا، فانه كان صادقا في ساعته. . كان حبا قصير العمر جدا. . حب ساعة. . إعجاب إذا شئت، نشوة عارضة كنشوة الخمر. وكونها عارضة. . . من فعل الخمر أو بتأثير الحسن لا يمنع أن الشعور الذي تحدثه صادق في حينه. وقد يلح المرء على نفسه بالإيحاء إليها حتى يشعر بما يشعر به العاشق الحقيقي. فيكون شعوره أيضاً في حينه صادقا. ولكن بعد ذلك. . بعد أن يثوب

الرشد الذي أضاعه الخمر، ويرجع الاتزان الذي أفسده منظر الحسن، أو تعود الحالة الطبيعية التي اضطربت من جراء الإيحاء. بعد ذلك يذهب ما جاءت به النشوة الوقتية، وقد أفادني علاج نفسي ورياضتها على أن تستغرقها الحالة التي أتمثلها. نعم بقيت عاجزا عن العشق وفي أمان من جنون الحب فإن هذه طباع لا حيلة لي فيها، ولكني أصبحت بفضل هذه الرياضة أستطيع حين أفكر في شيء أو أكتب شيئاً أو أشغل بأمر

أن أذهل عن الدنيا فلا أسمع ولا أرى، ولا يستطيع شيء أن يصرفني عما أنا فيه. . خرجت بفائدة على كل حال. وكثيرا ما ترى الإنسان يطلب شيئاً فيخطئه ويفوز بغيره.)
فقال (ولكنك محروم وهذا فظيع)
قلت (كلا. أنا على نقيض ذلك سعيد. مستريح من وساوس الحب وبلابله وهواجسه وتخريفه، وفي وسعي دائما أن أمتع نفسي بالحسن وأنا هادئ الأعصاب مدرك لما أنا فائز به بلا إسراف أو غمط في التقدير، ومن غير أن أنغص على نفسي هذه المتع بعد ذلك بالوساوس والخيالات وما إلى ذلك مما يكابده المحبون. . . وأقول لك الحق إني أصبحت لا أصدق من يزعم أن حبه على نحو ما يصف الشعراء ومن إليهم. ولا أعتقد إلا أن ذلك نشوة يطيلون عمرها بالإيحاء. والإيحاء يا صاحبي - إلى النفس والى الغير - عامل خطير الأثر في حياتنا. صدقني)
قال: (ولكني جربت)
قلت: (ما أظن بك إلا أنك تخدع نفسك. وهذه سنة الإنسان أبداً. عد إلى نفسك وحلل خوالجك بلا خوف من مواجهة الحقيقة ولا جزع ولا إشفاق. اجعل من نفسك شخصاً مستقلا. طبيبا يفحص حالة ولا يعينه إلا ما يهتدي إليه. وانظر ما يكون. . ثم تعال واخبرني. وأنا واثق أن النتيجة ستكون مطابقة لما حدثتك به عن نفسي)
فوعد أن يفعل. . ولكنه لم يعد إلي
إبراهيم عبد القادر المازني
في الأدب المقارن
التفاؤل والتشاؤم
في الأدبين العربي والإنجليزي
للأستاذ فخري أبو السعود
حب الحياة كائن في طبيعة كل حي، والرضى بها والاطمئنان إليها والإقبال عليها شيمة جميع الأحياء مادامت بنياتهم صحيحة وحاجاتهم حاضرة، والمرح واللعب غاياتهم الأخيرة مادامت غرائزهم مقضية اللبانات مشعبة المطالب. ولما كان الإنسان يمتاز بالخيال والفكر فإن له مطالب نفسية غير مطالب جسده الغريزية؛ يرضى ويرتاح إذا قضاها، ويقنط ويكتئب إذا أخطأها؛ وليس يشكو الحي أو يألم، وليس يسخط الإنسان أو ينقم، إلا أن يغدو وهو سقيم الجسم أو محروم الغريزة أو ممنوع المطالب. فحب الحياة والإقبال عليها والرضى عنها هي الحال الطبيعية العادية، وذم الحياة والعزوف عنها والسخط عليها حال طارئة استثنائية، نتيجة لامتناع وسائلها وعدم مواتاة أسبابها.
فالمتشائمون قوم قست الحياة عليهم فحرمتهم قليلا أو كثيراً مما حبت به سواهم، فثاروا عليها وكالوا لها قسوة بقسوة، وجزوها على حيفها بمرير الذم والتفنيد؛ فلسنا نرى بين المتشائمين الزارين على الحياة والأحياء رجلا صحيح البدن معتدل المزاج مجدوداً واثقاً بنفسه، بل كلهم ممن أكسبتهم الوراثة والنشأة والبيئة أجساماً معتدلة أو أعصاباً مختلة، أو ألحت عليهم الخطوب فحطمت مساعيهم، أو اقتنعوا بعجزهم عن مصاولة الأحياء في ميدان الحياة، فأورثهم ذلك حساً مرهفاً متيقظاً إلى مواطن الشر والقسوة والنقص في الحياة، فقعدوا يبرون لها وللمقبلين عليها السهام.
وفي الحياة مواطن للنقص لا تحصى، يهتدي إليها الناقمون عليها بلا عناء، وهي تعرض مثالبها عليهم وتضع أصابعهم على نقائصها؛ بيد أن المتفائل المعافى الجسم الناجع المسعى قلما يلتفت إلى تلك المساوئ، وإذا التفت إليها فبرهة قصيرة يأسى فيها ويعتبر، ثم يعود إلى ما كان فيه من استمراء لمتعات الحياة واجتلاء لمفاتنها، متعزياً بهذه المفاتن والمتعات عن تلك النقائص والمقابح، باذلاً جهده لتوفير السعادة لنفسه ولمن حوله، ومحو ما يستطيع
من أسباب الشقاء؛ على حين يظل المتشائم أمام ما يروعه من مساوئ الحياة قائماً، لا يريد أن يحول بصره إلى سواها، بل يهول تلك المساوئ كما يسول له حسه المرهف وخياله المغرق.
والأدباء وغيرهم من رجال الفنون عادةً أرهف حساً وأبعد خيالاً ممن عداهم، وما من أديب إلا تتجسم له مقابح الحياة جهمة مقززة في فترة من فترات حياته، فتعافها نفسه، وينقم عليها وعلى نفسه وعلى الأحياء جميعاً؛ فأما من كان متفائلا بطبعه معتزاً بنفسه واثقاً من قدرته على خوض وغى الحياة، فسرعان ما يخرج من تلك الغمة

وتنتصر فيه دفعة الحياة القاهرة، فيلتفت إلى ما بالحياة من مباهج بجانب ما بها من مآس، ويطلب العزاء ببعض تلك عن بعض هذه، ويستن لنفسه مثلاً أعلى جديداً في الحياة؛ وأما المتشائم المحس بوطأة الحياة الثقيلة على جسمه المتعب وأعصابه المنهوكة ونفسه الخائرة، فيرفض كل عزاء ويأبى كل إيمان ويسخر من كل مثل أعلى فالفرق الرئيسي بين المتفائل والمتشائم هو أن الأول يرضى العزاء والثاني يرفضه، والأول يؤمن بمثل أعلى والثاني يأبى الإيمان بشيء، فالمتشائم يرفض الدين فيما يرفض، فالتشاؤم والدين ضدان لا يلتقيان: التشاؤم إزراء بالحياة وإنكار لجدواها وتحقير لأبنائها، والدين يبشر بجدوى الحياة الصالحة ويبث العزاء في النفوس عن آلام الحياة. وما كانت الديانات الأولى كديانات المصريين والفرس إلا محاولة حاول بها الإنسان أن يفسر ما راعه من تجاور قوى الخير والشر في الحياة، وأن يتعزى بجانب الخير عن جانب الشر منها، أما والتشاؤم هو فقد الإيمان بالحياة ورفض العزاء عن شرورها، فالتشاؤم والدين نقيضان، ولا ترى متشائماً إلا يسر الإنكار للدين أو يعلنه، ولا مؤمناً معتصماً بدينه قد هوى في لهوات التشاؤم

وليس فقد الإيمان بالحياة ومثلها العليا - أو التشاؤم - ينتهي بصاحبه في كل حالة إلى الإسراف في رفضها واعتزالها، بل هو ربما أدى إلى إسراف مناقض لهذا: إسراف في انتهاب لذاتها القريبة وإشباع الغرائز النهمة منها، تناسياً لمنغصاتها وتخلصاً من لذعات التفكير في نقائصها؛ فالمتشائمون المعتزلون للحياة الناقمون على الإحياء الساخرون من المجتمع، والمتشائمون المستهترون باللذات المتهكمون بتقاليد المجتمع وأخلاقه، الخارجون

على عرفه المصادمون له في عقائده؛ أولئك وهؤلاء سيّان في التشاؤم ورفض الإيمان والعزاء النفسي، أو قل هما طرفان متباعدان بينهما الوسط الذي يحتله المتفائلون الراضون بالحياة على علاتها، المتسلون بنعمائها عن بأسائها في قصد واعتدال، المتشبثون ببعض مثلها العليا

على أن المتشائمين أنفسهم لا يخلون من عزاء وإن توهموا سوى ذلك؛ وأشدهم إمعاناً في التشاؤم لا ينضب من نفسه حب الحياة، وعزاء أكثرهم هو ذلك الفن الذي يزاولونه، هو أدبهم الذي يودعونه فلسفتهم المتشائمة وخطراتهم القائمة، ففي كتابة أفكارهم تلك راحة لنفوسهم المعذبة وشفاء لغرائزهم الظامئة؛ ولولا أنهم ما يزالون يحبون الحياة في صميم أفئدتهم، على رغم إعلانهم الحرب عليها، لما لبثوا بساحاتها؛ ولو أنهم يزدرونها ويزدرون أبناءها بقدر ما يزعمون، لما حفلوا بتدوين آرائهم فيها وعرض تلك الآراء على أبناءها؛ ففلسفتهم المتشائمة تناقض نفسها بنفسها فإذا كانت فلسفة تصدق أو تفسير للحياة يقبل، فليست فلسفة المتشائمين بالتي ترجح وتفسر الحياة، وليست رسالتهم التي يؤدونها إلى الإنسانية بالتي تقبل، لأن فلسفتهم كما تقدم تناقض نفسها، وتناقض طبيعة الحياة التي بثت حبها في جبلات أبنائها، ومهدت من متعاتها ما يرجح شوائبها، وزودت بنيها بالسلاح اللازم لهيجائها. ليست فلسفة المتشائمين بالمقبولة في جملة، وإن احتوت في أطوائها من صائب النظرات وبديع اللفتات وآثار الفكاهة والسخر والوصف والتحليل ما يمتاز به أصحاب ذلك المزاج، وما يهديهم إليه حسهم المرهف المستوفز وخيالهم المتيقظ المسترسل وفلسفات المتشائمين في مختلف الأمم والأجيال متماثلة، ومواضيعهم متقاربة: إسهاب في شرح مظاهر تنازع البقاء، وإطناب في ذكر لئيم الطباع في الأحياء وفي الإنسان خاصة، وإصرار على تذكر الموت وكرور الزمن وحلول البلى، وتهويل لضعف الإنسان إزاء جبروت القدر، وتصوير لنفاق المجتمع وجور أنضمته، وتحقير للمرأة وموازنة بينها وبين الحياة؛ وآراؤهم في كل ذلك مردها إلى اضطراب تكوينهم وتزعزع ثقتهم بأنفسهم وحرمانهم من شتى مطالب الحياة؛ ففلسفة المتشائمين لا تدلنا على حقائق الحياة والكون، بمقدار ما تدلنا على نفوس أصحابها وأمزجتهم وعوامل تكوين أذهانهم

فهم يجزعون لمرآي تنازع البقاء لإحساسهم بأنهم عزّل ضعفاء، وينحون على المجتمع بقوارع الكلم لأنهم عاجزون عن الانغمار فيه ونيل الحضوة والصدارة به، ويذكّرون الناس بالموت والدثور لأن الناس يتمتعون دونهم بالطيبات، فهم يسلّون أنفسهم بتكرار القول بأن تلك الطيبات عما قليل ذاهبة، ويخوفون الناس بجبروت القدر لأن

غيرهم يتمتعون بالقوة والاقتدار، فهم يلوحون أمام أعينهم بالقدر الذي يتلاعب بهم ويضحك من تدبيرهم، ويرمون المرأة بالغدر والتقلب لأنها تفي لغيرهم، ويجاهرونها بازدرائهم إياها لأنهم يسرون الإحساس بازدرائها إياهم وإعراضها عنهم.

ولما كان مردّ المزاج السوداوي المتشائم إلى عوامل فردية محض، من وراثة أو بيئة، يظهر المتشائمون في شتى الأمم والأجيال متفرقين لا اتصال بينهم من مدرسة أو مذهب؛ على أن مسحة التشاؤم تطغي عادة في آداب عصور الأدبار السياسي والضيق الاقتصادي والفوضى الخلقية، فيسود الشك والرفض والتهكم المرير، كما كان الشأن في الأدب الروسي تحت الحكم القيصري؛ كما أن صبغة الأيمان والبشر والتفاؤل تغلب في عصور الرخاء والنجاح والمغامرة، وهي الصبغة التي سادت الأدب الإغريقي في عصره الذهبي عقب الانتصار على الفرس. فلما تلا ذلك عهد الأدبار ظهر السخر والشك ومذاهب الرفض والاعتزال من جهة، ومذاهب الاستهتار والإباحية من جهة أخرى

ولعل أشد أدباء الإنجليزية نكيرا على الإنسان وتهكما بمساعيه وتهويناً لشأنه هو جوناتان سويفت، وهو أديب نشأ نشأة ضنكة مقلقة، ولازمه داء في أذنه جشمه آلاما مبرحة، ومازال حتى طغى على عقله في أواخر حياته؛ وحالف الإخفاق مطامحه السياسية وصاحب النحس غرامه، فلم يبق له إلا الانزواء في عزلته ببعض بلدان أيرلندة، وإلا أن يقول لبعض أصحابه إنه يمقت ذلك الحيوان المسمى الإنسان من أعماق قلبه، وما ذاك إلا لما كابد من عنت الظروف والأمراض ولدد الخصومات وغصص الإخفاق، وهو الذي كان فيما عدا ذلك من أوفى الناس عهدا وأصفاهم ودا، وهو الذي عطف على الأرلنديين ودافع عنهم، على حين ناصبهم من قبل ذلك مواطنه وزميله في حرفة الأدب ادموند سبنسر. وكتاب سويفت (رحلات جليفر) على ما به من سلالة وفكاهة وبراعة تصوير، مملوء بالسخر المرير من الإنسانية.

وزعيم التشاؤم في العصر الحديث توماس هاردي، الذي كانت أشباح الموت والبلى والقدر لا تبرح ناظريه، وكان لا يمل تكرار موضوعه الوحيد في شتى قصائده وقصصه: موضوع ضعف الإنسان وقلة حيلته وعبث مسعاه، حيال ضربات القدر الأعمى، ودوران رحى الزمن الطحون، فكان دائبا يتفنن في اختراع المواقف المفجعة والظروف المنحوسة، يتخذ مشاهدها في المقابر والبراري وفي الأيام الداجنة الكالحة، ويطيف أشخاص روايته بين الموتى، وينطق الموتى في أشعاره، ويغالي في تصوير فجائع الحب: بين الغدر والسلو والنسيان والغيرة وجفاف الجمال؛ فأشعاره لا تكاد تنتقل بك من غمة إلا إلى غمة، ولا من محنة للإنسان إلا إلى انتصار وحشي للأقدار عليه ومعاصره أو خليفته في هذه النظرة المتشائمة إلى نصيب الإنسانية في الحياة هو هاوسمان، الذي كان يحاكيه كثيراً في اختيار مواضيعه وطريقة معالجتها وإجرائه الحديث فيها بين الأحياء والأموات. ومن نماذج ذلك الضرب من شعر التشاؤم قوله: (- أما برحت خيلي تحرث الأرض كعهدي بها، إذ أنا حي أسواقها واسمع صليل شكائمها؟ - بلى ما تزال تنقل خطاها وشكائمها تصل، ولم يتغير شيء برغم أنك قد رقدت تحت الأرض التي كنت من قبل تحرثها - أو ما تزال الكرة تترامى ويتسابق خلفها الرفاق على شاطئ النهر، وإن أك لا أستطيع اليوم نهوضاً؟ - نعم تترامى الكرة بينهم وكلهم باذل في اللعب جهده، وذلك مرماهم قائماً وحارسه لايني - وفتاتي التي شق عليّ فراقها، أسأمت البكاء واستطابت طعم الغمض؟ - نعم هي ناعمة في خدرها، فنم أنت وقر - وهل صديقي صحيح معافى وقد نحلت أنا وبليت؟ وهل وجد بعد فراشي فراشاً وثيراً؟ - أجل أنا يا صاح لي ضجعة كأروح ما يشتهيه الفتى: أسلي حبيبة رجل قضى، ولا تسألني حبيبة من)

ومن أمثلة الوراثة المختلة والمزاج السوداوي في تاريخ الأدب الإنجليزي كوبر وبيرون: كلاهما كان مضطرب التكوين اضطراباً أدى إلى ظهور الغرابة في مسلكيهما وأدبيهما، على أنهما رغم اتفاقهما في ذلك كانا يختلفان ثقة بالنفس: كان أولهما ضعيفاً متناهياً في الخجل، وكان الثاني مفرطاً في الزهو والاعتداد بمواهبه ونسبه، فقنع كوبر بحياة العزلة ولم يعلن على الناس حرباً، وإن ظهرت أعراض التشاؤم في كثير من شعره؛ أما بيرون فصادم المجتمع بمسلكه الخلقي كما هاجمه في شعره؛ ولما لفظه المجتمع الإنجليزي زاد

عتوا وجرأة، وتحدياً لخصومه وتشفياً من مؤيدي النظم الاجتماعية التي كان يمقتها. هذا فضلاً عما حفلت به آثاره عامة من تصوير لضعف الإنسان وقصر مدته وعبث جهوده.

ورمز التشاؤم في العربية هو ولا شك المعري، الذي اجتمع عليه من أسباب التشاؤم ما لم يجتمع على غيره: من اعتلال التكوين الجسمي، واختلال الصحة، والحرمان من شتى اللذات، واضطراب العصر الذي عاش فيه، فجاءت فلسفته مثالاً نادراً لفلسفات المفكرين المتشائمين: حقر الإنسان. وأنذر ببطش الأقدار، وذكر بالموت، وشك في الدين، وأزرى بالمرأة، وندد بالمجتمع. وفند الحكام، وأطنب في تنازع البقاء؛ ورثى مع ذلك للإنسان ورأف بالحيوان، وضاق بنفسه كما ضاق بغيره وحرم على نفسه اللذات وعاش نباتياً ومات عزباً لم يجن على أحد، وعبر عن نظراته النافذة الحكيمة التي سبق بها عصره، تعبيراً شعرياً عربياً جزلاً ممتعاً؛ وكان صادقاً صريحاً: اعترف بأنه لم يختر تلك الحياة الضنكة إلا لأن سواها قد شآه، فهو القائل:

ولم أرغب عن اللذات إلا ... لأن خيارها عنى خنسنه

فقد كان لدقة حسه شديد الحرص على كرامته، شديد التوقي لمواطن السخر والزراية، فكان ذلك حائلاً بينه وبين ما تصبو إليه غرائزه من متعات، وكانت حياته معركة طويلة قائمة داخل نفسه، بين الرغبة في الاستمتاع بطيبات الحياة والإصرار على رفضها، لاستعصاء سبلها على الكفيف المجدور، إلا أن يبيح كرامته ويهدر حياءه. وما أطار خياله إلى طيبات الفردوس إلا حرمانه من طيبات الحياة وطول نزوع نفسه إليها. وما كان وصفه لمتعات الخلد إلا إرضاء لشهواته المخمدة تحت رماد التوقر والتقشف. وما كان تأليفه رسالة الغفران أو اتخاذه الخلد مسرحاً لها إلا تنفيساً عن مكتوم نوازعه؛ وبفضل هذه النوازع المكبوتة خلّف المعري الكفيف أثراً من آثار الخيال فريداً في اللغة، كان المبصرون من أدباء العربية منصرفين عن مثله

والمعري نسيج وحده في التشاؤم في العربية، يرفع راية الرفض للحياة والاعتزال لها والإزراء عليها، ويمارس في حياته ما ينادي به في أشعاره، ولا ينضوي تحت تلك الراية سواه: إنما كانت غالبية المتشائمين في العربية الذين نبذوا الإيمان ورفضوا العزاء وهانت عليهم الحياة فلم يجدوها أهلاً لسعي ولا لحفاوة هم طائفة المتشائمين المستهترين، الذين

ظهروا حين طغت تيارات الترف والمادية والشكوك، على المجتمع والعقائد في العهد العباسي كبشار وأصحابه، وأبي نواس وأضرابه، أولئك ساقهم تفكيرهم إلى تصغير الحياة وما يقدس الناس من مثلها العليا، فلم ينبذوا الحياة جملة بل راحوا يطفئون غليل نفوسهم المتحرقة في لذات الحياة الدنيا، ويشبعون غرائزهم الحيوانية متهكمين بما عدا ذلك مما يسميه المجتمع فضائل وعظائم وعقائد. وأبو نواس هو القائل:

وما هنأتك الملاهي بمث ... ل إماتة مجد وإحياء عار

والقائل:

قلت والكأس على كف ... ي تهوى لا لتثامي:

أنا لا أعرف ذاك ال ... يوم في ذاك الزحام

وإنما حرضهم على سلوك تلك السبيل ما كان يسود عصرهم من حرية تقرب من الإباحية، وما كان يسود المجتمع العربي دائماً من صراحة لا نظير لها في المجتمع الإنجليزي، حيث التقاليد الاجتماعية شديدة الصرامة، فعلى حين كان يتأتى لبشار وأبي نواس وأضرابهما أن يباشروا وهم معافون حياة الاستهتار التي باشروها، ويتهكموا بعقائد غيرهم ما شاءوا، ويترنموا بمخازيهم شعراً، نرى بيرون الذي لم يجر إلى مداهم يلفظ من المجتمع الإنجليزي الذي بجله من قبل لشعره وحسبه

وحياة المعري وبشار موضع لموازنة ممتعة: كلاهما عاش كفيفاً، أي مكفوفاً إلى مدى بعيد عن كثير من مسرات الحياة ومتعات المبصرين، فخلقت فيهما تلك الحال وحشة وشذوذاً وزراية على الحياة والأحياء، ولكن المعري كان دقيق الحس مرهف الأعصاب ضعيف البنية، فنفض يده من الحياة ونجا بالسلامة والكرامة، وبشار كان مفرط الجسم متنزّي الحيوانية مضطرم الشهوة، فأكب على إشباع شهواته مستهدفاً لزراية الآخرين وتهكمهم. وشهر عليهم سوط لسانه المقذع، كما يشرع السبع المنهمك في تمزيق فريسته مخلبه لذب غيره من السباع عنها.

تلك مظاهر التشاؤم، أو فقه الإيمان بسمو الحياة والعزاء النفسي عن شوائبها، في الأدبين العربي والإنجليزي، وفيما عدا ذلك كان أقطاب الأدبين - لما يتدفق في شرايينهم وشرايين أمتيهم من دفعة الحياة - متفائلين متشبثين بأهداب المثل العليا التي ترضاها لهم طبائعهم

وبيئاتهم، يغبر لهم وجه الحياة حينا فيبدو أثر ذلك عابساً في آثارهم، ثم يجنحون إلى التعزي والإيمان: فملتون في الإنجليزية مثلا على فرط ما لاقى من خذلان في حياتيه الفردية والعامة وما حل به من فقدان البصر، ظل وطيد الإيمان متطلبا للعزاء إلى منتهى حياته، وكتب ملاحمه في أواخر أيامه طلبا للترفيه عن نفسه ولكي (يبرر للناس أعمال الله)؛ والمتنبي في العربية رغم ما أصاب من إخفاق متوال في مطلب حياته الأسمى، الذي (جل أن يسمى)، ورغم ما كابد من حسد وكيد وعداوة، وما صب على الناس من قوارص كلمه، ظل أبدا (من نفسه الكبيرة في جيش وفي كبرياء ذي سلطان)، متدرعاً متأهباً للجلاد.

وإن يكن هناك مجال للمقابلة، فالأدب العربي لا شك أكثر اصطباغاً بالتفاؤل والإيمان، على كثرة ما به من الشكوى؛ والأدب الإنجليزي أحفل منه بآثار التشاؤم، ولاسيما في العصور الحديثة التي زادت الحياة فيها تعقدا ووطأة؛ وإنما يبث ذلك التفاؤل في المجتمع والأدب العربيين أمران: صحو الجو الذي يعدل المزاج ويبعث البشر والطلاقة، والدين الإسلامي الذي يبث الإيمان في النفوس ويحض على اجتلاء متعات الحياة التي أحل الله، والذي هو كما تقدم القول أكثر تغلغلا في سرائر معتنقيه، وشمولا لجوانب حياتهم من غيره من الأديان.

فخري أبو السعود

ضوء جديد على مأساة شهيرة

هل قتل الحاكم بأمر الله أم اختفى؟

نظرية الدعاة السريين ومزاعمهم

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تتمة

تلك هي النظريات والشروح الغريبة التي لجأ إليها الدعاة لتفسير اختفاء الحاكم وغيبته؛ ولا ريب أن اختفاء الحاكم على هذا النحو الفجائي كان ضربة شديدة للدعاة؛ فقد كان الحاكم ملاذهم وحاميهم، وكان شخصه محور دعوتهم وعماد مزاعمهم؛ فلما اختفى الحاكم انهارت الدعوة في مصر بسرعة، وتفرق الدعاة في مختلف الأنحاء اتقاء المطاردة به، ولكن الدعاة ألفوا في هذا الظرف ذاته مستقى جديداً لدعوتهم؛ فقد اختفى الحاكم ولكن إلى رجعة؛ وليس على المؤمنين أن يعرفوا أين اختفى وكيف اختفى؛ ولكن عليهم بالصلاة والاستغفار حتى يرضى عنهم، ويعود إليهم عندما تحل الساعة، ذلك لأنه اختفى غضباً عليهم لما أمعنوا فيه من الآثام والخطايا، ولن يظهر إلا عندما تصفو قلوب المؤمنين وتصفو نياتهم؛ وفي هذا الاختفاء ذاته دليل ساطع على ألوهيته وخارق قدرته، وهو في السماء أو في الأرض روح بلا جسم، يشرف على عباده (وإنه ليراهم من حيث لا يرونه)!

هذا وقد مضى إلى اليوم على مصرع الحاكم تسعمائة وخمسة عشر عاما، ولا يزال الموحدون يؤمنون برجعته ويرقبونها؛ ولم يقل لنا الدعاة أنى ومتى تكون هذه الرجعة من عالم الأبدية، وكل ما هنالك أن حمزة يقول للمؤمنين في رسالته الشهيرة، (إنه متى أطلت عليهم رحمة الله خرج ولي الله إمامهم باختياره راضياً عنهم، حاضراً في أوساطهم. .) ويكرر الدعاة هذه الإشارة الغامضة إلى مثول الحاكم ورجعته في رسائلهم، ولاسيما رسالة الغيبة التي أشرنا إليها، فيقولون: (إن مولاكم لا تخلو منه الدار وقد عدمته أبصاركم) (إن مولاكم يراكم من حيث لا ترونه) (أحسنوا ظنكم بمولاكم يكشف لكم عن أبصاركم ما قد غطاها من سوء ظنكم) وأمثالها من الإشارات والعبارات الرمزية الجوفاء. وخلاصة مزاعمهم في ذلك هو أنه متى حلت الساعة، يقوم جند الموحدين من ناحية الصين،

ويقصدون إلى مكة في كتائب جرارة، وفي غداة وصولهم يبدو لهم الحاكم على الركن اليماني من الكعبة، وهو يشهر بيده سيفاً مذهباً، ثم يدفعه إلى حمزة بن علي فيقتل به الكلب والخنزير وهما عندهم رمز الناطق والأساس؛ ثم يدفع حمزة السيف إلى محمد

(الكلمة) وهو أحد الحدود الخمسة، وعندئذ يهدم الموحدون الكعبة ويسحقون المسلمين والنصارى في جميع أنحاء الأرض، ويملكون العالم إلى الأبد، ويبسطون سلطانهم على سائر الأمم، ويفترق الناس عندئذ إلى أربع فرق. الأولى الموحدون وهم (العقال) أو (العقلاء) والثانية أهل الظاهر وهم المسلمون واليهود والثالثة أهل الباطن وهم النصارى والشيعة، والرابعة المرتدون وهم (الجهال) (الجهلاء)؛ ويعمد حمزة إلى أتباع كل طائفة غير الموحدين فيدمغهم في الجبين أو اليد بما يميزهم من غيرهم، ويفرض عليهم الجزية وغيرها من فروض الذلة والطاعة، وأما أصحابه فالعقلاء منهم يصحبون أرباب السلطة والمال والجاه في سائر أنحاء الأرض

والظاهر أن هذه المزاعم الأخيرة في سحق أنباء الأديان الأخرى مستمدة من أقوال حمزة ذاته في رسالته المسماة (النهاية والبلاغ في التوحيد) إذ يقول: (وعن قريب يظهر مولانا جل ذكره سيفه بيدي، ويهلك المارقين ويشهر المرتدين، ويجعلهم فضيحة وشهرة لعيون العالمين؛ والذي يبقى من فضلة السيف تؤخذ منهم الجزية وهم صاغرون، ويلبسوا الغيار وهم كارهون)

تلك هي نظرية الدعاة السريين ومزاعمهم في غيبة الحاكم وفي رجعته، وهي نظرية في منتهى الإغراق والجرأة؛ بيد أنه لا ريب في سخفها؛ وقد ألفى الدعاة بعد انهيار دعوتهم في مصر، ملاذا لهم في الشام، فوجهوا إليها أنظارهم، وحاولوا بشروحهم ومزاعمهم الجديدة أن يستبقوا ولاء شيعتهم وأنصارهم هنالك، ومازالت ثمة بقية من شيعتهم إلى يومنا وهم طائفة الدروز

بيد أن الدعاة لم يكونوا مبتدعين أيضا في نظريتهم الجديدة؛ فقد رتبوا فكرة اختفاء الحاكم ورجعته على فكرة قديمة هي فكرة بعض غلاة الشيعة في المهدي المنتظر؛ ومنذ عصر علي بن أبي طالب تتبوأ هذه الأسطورة مكانها؛ ويزعم هؤلاء الغلاة وهم الرافضة، أن عليا لم يمت، ولكنه حي غائب عن أعين الناس مستقر في السحاب، صوته الرعد، والبرق

صوته؛ ومنهم من يقول مثل هذا القول في ابنه محمد بن الحنفية، وأنه مستقر في جبل رضوى من أعمال الحجاز؛ ويقول آخرون وهم الاثنا عشرية إن هذا الإمام المنتظر هو محمد بن الحسن العسكري (وهو أيضا من ولد علي) وأنه لم يمت، ولكنه اختفى وغاب عن الأنظار، ولا يزال مختفيا إلى آخر الزمان، ثم يخرج فيملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا

فالقول باختفاء الحاكم مستمد من هذه الأسطورة القديمة؛ وقد كانت هذه الأسطورة، أعني أسطورة الغيبة والرجعة، وما يكتنفها من الرموز والغموض، مبعث الخفاء دائما؛ وكان هذا الخفاء ذاته مبعث الخشوع والروع في المجتمعات الساذجة المؤمنة؛ وكان مبعثا لأكثر من دعوة بالنبوة والإمامة؛ بل كان مبعثا لدعوى الألوهية ذاتها؛ أليس منتهى الخفاء والروع أن يغيض الحاكم على هذا النحو إلى حيث لا يعلم أحد؟ وقد رأى الدعاة أن يستغلوا هذا الخفاء في تأييد دعوتهم، وأن يبثوا بين المؤمنين جوا من الرهبة والخشوع لذكرى ذلك الذي اختفى ليعود حين تحين الساعة، والذي (يرى ولا يرى)

على أن هناك نقطة غامضة في موقف الدعاة إزاء هذا الاختفاء إذا سلمنا بان الحاكم اختفى ولم يقتل؛ ذلك هو الدور الذي يحتمل أن يكون قد أداه الدعاة في هذا الاختفاء ذاته. فهل للدعاة يد ما في هذا الاختفاء؟ وهل دبروه أو اشتركوا في تدبيره؟ أليس من المحتمل أن يكون الدعاة هم الذين اقنعوا الحاكم بأن يختفي تقوية للدعوة، وتمكينا للزعم بألوهيته لدى الأولياء والكافة؟ بل نستطيع أن نتساءل أيضا، أليس من المحتمل أن يكون الدعاة قد فكروا في اغتيال الحاكم خدمة لدعوتهم، وانهم دبروا مؤامرة لاغتياله أو اشتركوا في تدبيرها واستطاعوا أن يحكموا تدبير جريمتهم، لكي يستغلوا بعد ذلك فكرة الاختفاء على النحو الذي أسلفنا؟ هذه أسئلة قد تخطر على الذهن في مثل هذا الموطن، خصوصا وقد كان حمزة وصحبه أهلا لكل اجتراء، ولا تبعد فكرة الجريمة عن أولئك الذين اجترءوا على زعم الألوهية البشرية، وسفكوا في سبيلها دماء الأبرياء؛ بيد أن هذه مسائل يحيط بها الظلام المطبق، ولا يقدم التاريخ إلينا عنها أية لمحة أو ضياء، ومن المستحيل أن نعاملها بأكثر من فروض عارضة، وستبقى أبد الدهر على التاريخ لغزاً مغلقاً.

بيد أنه من الغريب أن تلقى هذه الفروض المغرقة سبيلها إلى دوائر البحث الحديث. فنرى المستشرق فون ميللر مثلا يأخذ بنظرية اختفاء الحاكم، ويعلق عليها بما يأتي:
(أما أن أخته قد دبرت قتله لخوفها من تنفيذ وعيده لها بالقتل، فهو حديث خرافة، والواقع أن مصيره لم يعرف قط، وعندي أنه طبقاً لكل ما نعرفه من حياته، قد رأى استحالة تحقيق مبادئه في مصر، فاعتزل الحياة واختفى في مكان ما ليقضي حياته بعيداً عن الأنظار لكي يعتقد أنصاره على الأقل أنه هو (الناطق) حقيقة (ناطق الزمان) وأنه سيعود من رمسه آخر الزمان في شخص الإمام أو المهدي؛ وهذا ما لا يزال ماثلا إلى اليوم في عقائد الدوز)

أما نحن فمازلنا نرجح فكرة المؤامرة والجريمة. وسواء أكانت المؤامرة من تدبير ست الملك، أم من تدبير أبن دواس، أم كانت من تدبير الدعاة أنفسهم، وسواء أكان الذي ارتكب الجريمة هم عبيد ابن دواس، أم البدو الذين اعترضوا الحاكم ليلة اختفائه: أم آخرون لم يعرفوا. وسواء أكانت البواعث السياسية أم البواعث الدينية هي التي أملت بتدبير المؤامرة وارتكاب الجريمة، فإن ما لدينا من الروايات والقرائن على أن الحاكم قد زهق ضحية الجريمة، يرجح في نظرنا كل فرض آخر مما استعرضنا وليس من المستحيل أيضاً، أن يكون الحاكم قد اختفى من تلقاء نفسه أو بتحريض الدعاة لبواعث أو مشاريع خيالية أو جنونية قامت في نفسه: بيد أن هذا الفرض يبدو في نظرنا من الضعف والإغراق بحيث له موضعاً من التاريخ.

هذا والظاهر أن فكرة اختفاء الحاكم بأمر الله لبثت مدى حين تردد بين آونة وأخرى حتى أوائل عهد المستنصر بالله، أعني بعد وقوع الحادث بنحو ربع قرن، وقد أشرنا فيما تقدم إلى قصة ذلك المشعوذ الذي تسمى (بأبي العرب) وزعم حينا أنه الحاكم ثم توارى بعد ذلك. بيد أن هنالك قصة أخرى من هذا النوع كادت أن تحدث فتنة حقيقية؛ ففي رجب سنة 434هـ (1043م) في أوائل عهد المستنصر، ظهر بمدينة مصر شخص يدعى (سكين) كان يشبه الحاكم في بعض ملامحه، وادعى أنه الحاكم، وأنه بعث بعد موته وعاد من غيبته؛ والظاهر أنه كان من عصبة الدعاة السريين، وأن الدعاة أرادوا بدفعه إلى هذه المغامرة أن يحاولوا إثارة الفتنة التي خمدت، وأن يطبقوا نبوءاتهم وما بشروا به في رسائلهم من رجعة الحاكم بصورة عملية؛ فالتف حوله فل الملاحدة، من شيعة الدعاة الذين يعتقدون أو يتظاهرون بالاعتقاد في هذه الخرافة؛ وفي ظهر يوم سار سكين وأصحابه إلى القاهرة وقصدوا إلى القصر الكبير، ولما حاول الجند منعهم نادى الملاحدة بأنه الحاكم، قد عاد من غيبته، فارتاع الجند مدى لحظة ثم ارتابوا في الدعي فقبضوا عليه، وحملوا على صحبه، واشتبك الفريقان في معركة حامية ضجت لها أرجاء القصر، وقتل من الملاحدة عدد كبير واسر الباقون، وصلب سكين وأصحابه وقتلوا بالنبال شر قتلة وكانت هذه آخر مغامرة من نوعها، ولا نسمع بعد ذلك شيئاً عن أولئك الدعاة الملاحدة أو دعوتهم بمصر. ولا نجد بعد ذلك أثراً لأسطورة غيبة الحاكم أو رجعته إلا في الشام حيث استقرت الدعوة في بعض أنحائه ورسخت حتى يومنا.

(النقل ممنوع قطعاً - تم البحث)

محمد عبد الله عنان

النفس وخلودها عند أبن سينا

للدكتور إبراهيم بيومي مدكور
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

النفس سر الله في خلقه وآيته في عباده، ولغز الإنسانية الذي لم يحل بعد، وقد لا يحل يوما ما. هي مصدر المعارف المختلفة والمعلومات المتباينة، ولكنها لم تسم إلى أن نعرف حقيقتها معرفة صادقة يقينية؛ وهي منبع الأفكار الواضحة الجلية، إلا أن فكرتها عن ذاتها مشوبة بقدر كبير من الغموض والإبهام. ومع هذا فالإنسان منذ نشأته تواق إلى تعرفها جاد في تفهمها، ولا يزال حتى اليوم يبذل قصارى جهده في إدراك كنهها والوقوف على أمرها. وبوده أن يعرف في دقة ماهيتها ويدرك الصلة بينها وبين الجسم ويتبين مصيرها ومآلها. وكيف لا وهو طلعة يحب أن يعرف كل شيء، وهو في معرفة الأشياء المجهولة والأمور المستترة أرغب. وإذا كان قد خطا خطوات فسيحة في سبيل فهم الطبيعة وتوضيح آياتها فنفسه التي بين جنبيه أولى بالبحث والتوضيح،

هذا إلى أنه مدني بطبعه لا يستطيع أن يعيش بمعزل عن إخوانه وذويه، ومعرفته لنفسه كثيراً ما تعينه على تفهم بني جنسه، وكم بذل الأخلاقيون والمربون من جهد في تحديد الدعائم النفسية التي يقوم عليها إصلاحهم ووعظهم وتعليمهم وإرشادهم. والأديان والشرائع تخاطب النفوس قبل أن تخاطب الأبدان، وتتجه إلى الأرواح أكثر من اتجاهها إلى الأجسام. والثواب والعقاب والمسؤولية الأخلاقية والدينية بوجه عام تدعو إلى التفكير في الروح وخلودها ومآلها بعد مفارقة البدن. ففي أحوال الإنسان الفردية وظروفه الاجتماعية وأبحاثه العلمية وتعاليمه الدينية ما يدفعه إلى كشف ذلك السر الذي أودعه الله فيه والذي آمن به الناس جميعا دون أن يروه.

لهذا كان موضوع النفس شغل الباحثين والمفكرين في مختلف العصور؛ وليس ثمة فيلسوف إلا أدلى فيه برأي وتعرض له بالبحث والتحليل، وربما كان في تاريخه ما يلخص تاريخ الفلسفة بأسرها. بيد أن ابن سينا، فيما نعتقد، قد عني به عناية كبيرة لا نجدها لدى واحد من رجال التاريخ القديم والمتوسط. حقاً إن أفلاطون تحدث عن النفس في محاورات عدة ووقف على خلودها محاورة مستقلة؛ وكتاب أرسطو في النفس ومؤلفاته المسماة (بالطبيعيات الصغرى) تصعد به إلى مرتبة أسمى عالم نفسي عرف في التاريخ القديم. ولم

يغفل أفلوطين أمر النفس في تاسوعاته، وشغل بوجه خاص بهبوطها من العالم العلوي واتصالها بالعالم السفلي ورغبتها الدائمة في أن تعود إلى مقرها الأصلي. ولفلاسفة القرون الوسطى المسيحيين وخاصة أوغسطين وتوماس أبحاث مختلفة في حقيقة النفس ووظائفها. إلا أن هؤلاء جميعاً لا يبدو عليهم الشغف بهذا الموضوع مثل ما شغف به أبن سينا، فإنه يعود إليه غير مرة ويقف عليه جملة رسائل مستقلة، ويتحدث عنه في كل كتبه الرئيسية التي وصلت إلينا. ففي كتاب القانون المعروف يبين قوى النفس المختلفة على طريقة الأطباء ويشير إلى الصلة بينها وبين الجسم. وفي الشفاء يعقد فصلاً مستفيضاً يفصل فيه أراءه النفسية، وفي النجاة يلخص هذا الفصل ويصوغه في قالب مدرسي محكم، وفي الإشارات ينظم في نحو عشرين صفحة عقداً من مسائل علم النفس كله درر قيمة وآيات بينة. وله تعليق على كتاب النفس لأرسطو لا يزال مخطوطاً حتى اليوم ولم يقنع بهذا، بل كتب رسالة قيمة في القوى النفسية أهداها للأمير نوح بن منصور الساماني، ورسالة أخرى في معرفة النفس الناطقة وأحوالها، وشرح هبوطها إلى الجسم وحنينها إلى مصدرها الأول في قصيدة مشهورة.

كنا نتوقع وأبن سينا هو الطبيب والفيلسوف أن يستخدم طبه في دراسة الظواهر النفسية وأن يستعين بالملاحظة والتجربة على شرحها وتوضيحها فينمي معلوماتنا ويخطو بنا إلى الأمام في سبيل هذا البحث الدقيق. ولكنه، فيما يظهر: كان يعتقد أن الفصل في مشاكل علم النفس ليس من عمل الطبيب ولا من دائرة اختصاصه، بدليل أنه يشير في القانون إلى بعض نقط متصلة من نفس وقواها قد اختلف فيها الأطباء والفلاسفة، ويصرح بأن الكلمة كلمة الآخرين. وإن استيفاء هذه النقط إنما يتم في كتبهم والواقع إن التجارب المنظمة والأبحاث العلمية الدقيقة المتصلة بالنفس أثر من آثار التاريخ الحديث وحده، بل القرنين الأخيرين فقط، وفي وسط طبي حضر فيه التشريح وحرم من الأدوات الحديثة لم يكن في الإمكان دراسة المخ والجهاز العصبي دراسة تجريبية كاملة. ولا نكاد نحظى بباحث بين المسلمين نحى هذا المنحى التجريبي فيما وراء أبن الهيثم الذي أدلى بآراء في الضوء والرؤية تقترب مما جاء به فيبير حديثاً. وأما ما يذهب إليه أبن سينا من تقسيم المخ إلى مناطق تقابل قوى النفس المختلفة ومن ملاحظات فيسيولوجية شيء فهو ترديد لما قال به

أطباء وفلاسفة اليونان. فقد كان أمامه تراث عظيم خلفه أفلاطون وأرسطو وجالينوس وأفلوطين أفاد منه كثيراً وعول عليه التعويل كله. وإليه يرجع الفضل في عرض هذا التراث في صورة واضحة مهذبة لم نعهدها عند سابقيه، وإذا كان قد فاته أن يتوسع في دراسة المخ والظواهر النفسية دراسة تجريبية فإنه لم يفته أن يفتن في البرهنة علي وجود النفس وخلودها افتناناً يستلفت النظر ويستحق التقدير. ولعل ذلك راجع إلى أن النزعة الميتافزيقية والفلسفية البحتة غلبت عليه في كل أبحاثه النفسية وبالرغم من أن أبن سينا عالة على السابقين في أغلب آراءه المتعلقة بالنفس

وأحوالها فإنه قدر لهذه الآراء نجاح عظيم في القرون الوسطى ولدى بعض رجال التاريخ الحديث، فكانت عماد علم النفس جميعه في العالم العربي منذ القرن العاشر الميلادي إلى أخريات القرن التاسع عشر؛ وخلفت آثاراً واضحة في الفلسفة المدرسية اليهودية والمسيحية؛ واتصلت بنسب إلى بعض ما جاء به ديكارت في حقيقة النفس ووجدوها. وقد عرف لها الباحثون المحدثون هذه المنزلة فسارعوا إلى دراستها وجمع مصادرها وبيان أثرها في المدارس الغربية. وربما يكون البادرون كارادي فومن أول من لخصوها وحاولوا إعطاء فكرة عنها. فقد عقد لعلم النفس السينوي (نسبة إلى أبن سينا) فصلاً في كتابه المسمى: ثم جاء الدكتور صليبا أخيراً فتوسع في هذا الموضوع قليلاً في رسالته التي تقدم بها إلى السربون للحصول على الدكتوراه. أما من اشتركوا في نشر مؤلفات أبن سينا السيكولوجية فيجب أن نشير أولاً إلى الدكتور صمويل لانداور الذي نشر رسالة القوى النفسية المهداة إلى نوح بن منصور الساماني سنة 1875؛ وقد وفق في عمله هذا كل التوفيق وأحاطه بوسائل الدقة والبحث الصحيح فاعتمد على أصول عربية وعبرية ولاتينية ليختار النص المناسب والتعبير المقبول؛ ولم يفته أن يرجع إلى المصادر اليونانية رجاء أن يوضح بها بعض عبارات أبن سينا. وعلى ضوء مجهوده العظيم استطاع فنديك بعد ذلك بنحو 30 سنة أن يعيد نشر هذه الرسالة مرة أخرى مع ترجمة إنجليزية دقيقة وفي العام الماضي نشر ثابت أفندي الفندي أحد خريجي كلية الآداب ومبعوثها الآن في باريس رسالة أخرى في معرفة النفس الناطقة وأحوالها. ويظهر أن أثر أفكار أبن سينا السيكولوجية في المدارس المسيحية قد شغل الباحثين ومؤرخي الفلسفة من قديم. ففي النصف الثاني من القرن الفائت نرى هانيبرج يدرس نظرية المعرفة لدى أبن سينا والبير لجراند. وفي أوائل القرن العشرين كتب فنتر في إحدى صحف مونيخ العلمية مقالاً طويلاً عن الجزء السادس من طبيعيات الشفاء المترجم إلى اللاتينية، وهذا الجزء هو الذي يدرس فيه أبن سينا النفس وقواها وفي سنة 1929 وفى المسيو جلسن مؤرخ الفلسفة المدرسية وأستاذها في (كوليج دي فرانس) هذا الموضوع حقه من البحث، وبين أثر أبن سينا في هذا المضمار بما لا يدع مجالاً للشك

وفي اختصار يمكننا أن نقول إن علم النفس عند ابن سينا كان أعظم حظاً من أجزاء فلسفته الأخرى وكان نصيبه من الدراسة والبحث أكبر منها جميعاً، بيد أن هذه الدراسات على اختلافها ناقصة وغير مقنعة. فبعضها لا يخرج عن ترجمة حرفية أو ملخص غير كامل لآراء أبن سينا. وبعضها يعنى بهذا الفيلسوف لدى اللاتينيين أكثر من عنايته به لدى العرب، ويفصل القول في أثره في الغرب تاركاً جانباً ما كان من أمره في الشرق، وأغلبها ينسى الأساس اليوناني الذي بنى عليه فلسفته عامة وأبحاثه النفسية خاصة. وسنتتبع هنا آراءه النفسية المختلفة مبينين أولا صلتها بالوسط الذي نشأ فيه وبالأفكار الإسلامية على العموم وباحثين ثانياً عن منابعها لدى فلاسفة اليونان وأطبائهم، ومظهرين أخيراً ما كان لهما من أثر في الشرق والغرب.

إبراهيم مدكور

من روائع أدب الغرب

' الخلود

لشاعر الحب والجمال الفونس دي لامرتين

ترجمة السيد حسين تفكجي

أحبها فبادلته حبه، فراحا يرشفان أكؤس الغرام تحت ظلال الأشجار الباسقة.

في أفياء الأدواح المنتشرة غنى لها لحن غرامه. فسمعه الطير على غصنه، وأنصت له العصفور على فننه. اختلسا النعيم ساعات معدودة. حتى رمى الدهر سهم التفرقة، فسافرت بعيدة عنه إلى باريس.

انتظر كتابا منها يطمئنه على صحتها يرجع الأمل إلى صدره، والى فؤاده أشعة الحياة. ولكن ساعي البريد أتاه بكتاب نعيها.

مسكينة؟! أماتت (جولي). أو يموت من عاش لأجل الحب؟ لم يصدق عينيه. سار يخبط خبط عشواء، يردد ألفاظها، يقف الساعات الطوال مكانه يرجع أنشودة غرامها.

(إنها أمل رحل. وحب مقيم

نظم قصيدته (الخلود) ' فكانت قطعة من قلبه الملتهب، ونشيدا لفؤاده المضطرب.

قضت (الفير) (كما يدعوها) نحبها. فدبت إلى جسم (لامرتين) يد المرض.
كان في ريعان الشباب. ظن نفسه أنه على طريق الآخرة يسير. فلذا جاءت قصيدته (الخلود) جامعة لشتى معاني الفلسفة، والحب والجمال، والخلود، والحياة والموت.
إلى جولي
شمس حياتنا اصفرت وهي في فجرها. ترسل على جباهنا الذابلة ووجوهنا المنهوكة المتعبة أشعتها المضطربة، وأضواءها الحائرة، التي تغالب طلائع الظلام وتناصب هواجمه. الظل يمتد، النهار يموت؛ كل شيء يزول، وكل شيء يفر ويحول.
كم يهلع المرء لهذا المنظر الرهيب ويرتجف! لشد ما يتراجع وهو راعن الأوصال مضطرب الفؤاد عن شاطئ الهاوية الماثلة أمامه! بل لكم يخفق قلبه الضعيف، إذ ينصت من بعيد لتلك الأنشودة المظلمة!
تلك أنشودة الموت، مازالت تتردد في أعماق صدره، وتنتشر في أنحاء نفسه. وتلك الزفرات المتصاعدة والتنهدات المرسلة، والأنات المخنوقة، والأنفاس المتحشرجة، لهي آهات الحبيب، وزفرات الخليل، وانتحابات الولهى، تضطرب وتتراجع، تتقدم وتتأخر، حول سرير الموت.
الناقوس الصغير مازال يرسل الهمسات، ويعلو بالخفقات. أصواته التي تطويها معالم الفضاء تنبئ الأحياء أن شقياً بائساً رحل، ومكدوداً تاعساً إلى هوة القبر نزل
أحييك أيها الموت، أيها المنقذ السماوي، سوف لا تظهر أمام ناظري بهيئتك المرعبة، وبزتك الموحشة، وطلعتك المشؤومة. إن يمينك سوف لا تشارفني بمرهف ماضيك، أني لا أرى تجهم وجهك، ولا أقرأ في عينيك معالم الجريمة والخيانة، فأنت الذي تنقذنا من آلامنا، تخفف من أحزاننا، تأخذ بيمنانا لتقودنا إلى حيث الرب الرحيم تستعدي رحمته على نكباتنا، وتستنزل رأفته على ويلاتنا.
إنك لا تميت بل تنقذ؛ إنك لا تهلك بل ترحم؛ إن يدك يا رسول السماء تحمل إلي نبراساً إلهيا، يوم تغمض عيناي الكليلتان أجفانهما. تأتي تحت الأضواء المنعشة لتبلل ناظري، وتغمض عيني، والأمل إلى قربك يطفر، يظلله الأيمان، تشده التقوى، فتفتح أمامي عالماً رائعاً
إلي أيها الموت. أقبل واكسر عني أغلال الجسد. بدد عن نفسي قيود الأوصال. أفتح باب سجني واكسر مغالق حبسي وأعرني أجنحتك الرفرافة، وقوائمك الهفهافة. ماذا يمنعك عني؟. لماذا تتأخر؟ ماذا يعيقك عن زيارتي الأخيرة؟ تقدم إلي. فإني أريد أن أرمي بنفسي نحو ذلك الكائن المجهول، حيث أعرف سر حياتي ومماتي
أي شيء فصل عني؟ من أنا؟ ومن سأكون؟.
أموت ولا أعرف ماهية الحياة وسر الوجود، وأذهب وأنا أجهل ما البقاء! ما أنت أيتها الروح المبهمة، أيها الطيف المجهول؛ أيها السر الغامض. قبل أن أردى في لحدي أريد أن أسألك: أية سماء بحقك تسكنين؟ وفي أي عالم تعيشين؟ وأي قدرة إلهية رمتك إلى هذه الكرة المحطمة، حيث عالمنا الضعيف الهشيم، وأي يد إلهية قذفت بك إلى سجنك الفخار، واعتقلك في محبس الطين؟ وأي سر عجيب ربطك بالجسد وربط الجسد بك وأي يوم
تنسلخ الروح فيه عن المادة؟ وتصبح عالما بنفسها، تقوم بأودها دون أن تعتمد على الجسد البالي والجسم الفاني؟
إلى أين تذهبين؟ أتتركين الأرض الجميلة لترحلي إلى قصر منيف؟ هل نسيت كل شيء؟ أم لا زلت تذكرين؟ إن هناك القبر، فهل ستبعثين إلى عالم مجهول جديد؟
أتعودين إلى حياة أشبه وعالم أحكى وأمثل إلى حجر الله، حيث رأيت أشعة الحياة ولمست معالم الوجود. أم إنك ستفصلين من كل شيء تدب إليه يد الفناء؟ وتسير في عروقه دماء البلاء
أستنعمين بمناعم الخلود الأبدية وتلعبين في الجنان غير البالية؟
نعم، هذا أملي الوحيد يا نصف حياتي. تلك هي الأمنية التي بها رأت الروح التي تضيء جوانب صدري طرق الحياة. وكانت عزاء نفسي المتألمة التي قضي عليها بالسجن في هذا الجسد البالي. شهدت ربيع حياتك يرحل وألوانه البهيجة تموت وتذبل، وزهوره المتلألئة تسير نحو هوة الفناء، والحزن مازال يفتك بي، والموت يدير مني الخطوات وأنا أجود بالنفس الأخير، ترتسم على شفتي الابتسامة، وتنهمل من عيني دموع الفرح،

مقدماً إليك كلمات الوداع الأخير، منتظراً نظراتك لتشع في عيني قبل أن يغمضهما الموت
أولئك الذين تعلقوا بأذيال المادة، وكانوا أشبه بالقطيع، يسيرون وراء راعيهم (أبيقور سيهتفون (يا له من أمل كاذب خلب قد مضى ورحل، عندما يرون معالم الدنيا قد قضت وانتهت
وذلك العالم الذي مازال يفحص أسرار الطبيعة يود اكتشافها، يدرسها في زاوية مهملة تسمى العقل. سيقطع الدهر في فهم كنه المادة، يعيش في عالم الملموسات، يغفل عن الروح ولكنهم سيهتفون به:
أيها الأحمق، أي كبر سخيف يكسوك؟ أنظر حولك! تأمل بناظريك! كل يبتدئ لينتهي، وكل يدب نحو الفناء دبيبه. إن سيرك نحو هدف ممثل، والى غاية نهائية هي (هوة الموت)
انظر إلى الحقل وقد علت أوراقه صفرة الذبول! ألا ترى الزهرة تتعب وتضمحل ثم تلفظ الأنفاس؟ ألا تشهد في هذه الأحراج الملتفة تلك السدرة العظيمة بجبينها الشامخ ونظراتها إلى العلياء كيف هوت تحت ثقل السنين ورزحت تحت أعباء الدهر، ثم امتدت على العشب النضير المنتشر على البطحاء الأرض؟
ألا تنظر الأنهار تنضب في مجاريها، والبحار تجف في قيعانها، وهذا الكوكب المتلألئ في السماء أخرت يد الزمن ولادته، وهذه الشمس، وما أشبهها بنا! إنها تسير إلى الفناء والعدم، وفي السماء حيث الأموات ينتظرون يوماً به ينعمون.
تأمل حواليك الطبيعية. مرت الأجيال فتكاثفت أتربتها. وتحولت الأعوام إلى ذرات غبار تناثرت في فضائها
إن الزمن بخطوة واحدة يذل من كبريائك، يخمد عزة نفسك، ويطفئ جذوة اشتعالك، يقبر في جوفه العميق الحوادث، ويرمس في لحده المخيف الأيام.
ولكن الإنسان، الإنسان وحده، المجنون الأكبر في هذا الكون! إنه ليظن أن القبور لتسعد بسكانها، ويأمل أن يعيش الحياة ثانية فيها، فيظفر طياتها بالحياة أثر الحياة، ويحلم بالأبدية والخلود، وهو كريشة في مهب زوبعة العدم الهائجة
ليجبكم غيري، يا عقلاء الأرض، يا مدعي الفلسفة. اتركوا لي خطأي، فأنا أهوى فلذا آمل، فإذا كان الخلود خطيئة لا توجد مرسومة إلا في بعض العقول دون أخرى، فكم هذه الخطيئة عزيزة لدي!
اتركوني أيها العقلاء أنعم بجانب ضلتي، إني أحب أن أتمنى وأن أعلل الأشياء، إن عقلنا الضعيف المضطرب يتحير. بلى إن عقلنا ليمسك عن الكلام أمام حججكم، ولكن الإدراك يجيبكم
أما أنا، عندما أرى الكواكب تسبح في السماوات العلى، والنجوم تنحرف عن طرفها المدبرة وسبلها المقررة، واشهد النجم في حقول الأثير اللانهائية يناطح النجم، والكوكب يركض أثر الكوكب، فأنصت لصراخ الأرض، واستسكن لسماع صرخاتها المتوالية تتنهد، وقد شق جوفها، ومادت كرتها هائمة تضطرب، بعيدة عن السماوات وشموسها، تبكي الإنسان المحطم، أبنها العاني، المسرع في طريق الموت الذي هام في حقول الأبدية المظلمة، عندها أكون الشاهد الأخير، والحاضر الفرد، وقد احتاطني المدلهمات، وأمسك بيدي الموت إلى جوف الظلمات. وبالرغم من ضعفي سأنهض واثباً، لا خوف يدب إلى قلبي، ولا ذعر يمسك علي فؤادي، أفكر فيك، أرقب بفارغ الصبر عودة الفجر الأبدي ليضيء العالم المحطم، حيث أرقب لقاءك وأرجو زورتك
كنت تذكرين دائماً رحلتنا الهنيئة وسفرتنا الرغدة، يوم نشأ غرامنا الخالد وبدأ حبنا المقيم، فكنا ننعم على ذوائب الصخور القديمة التي شهدت مجد الأولين حيناً، وحينا على ضفاف البحيرة الساكنة، نرقب أمواجها الهادئة، ونستمع إلى أصوات مياهها العذبة، فتحمل نفوسنا على جناح النعيم حيث نسلو العالم الصاخب.
كنت أخوض معك الظلماء التي أنتجها التفاف الأشجار. وأسير جنبك تحت الظلال الوارفة والأفياء المنتشرة، نهبط الربى لنصعد الجبال. لحظة سعيدة مرت أصغينا خلالها لموسيقى النجوم الغامضة، وأصخنا بسمعنا إلى غناء الكواكب الجميل، لا صخب يتخلله ولا ضوضاء تمسك ألحانه
كم دهشنا لهذه الصورة الجميلة التي تغطي العالم، عدنا أدراجنا إلى المعبد، خشعنا

أمام الضوء الخافت الذي يرسل أشعة متضائلة تبعث إلى القلب الرهبة، والى الأجسام الرعشة. سكرى من جمال الوجود، كنت ترددين النظر بين الأرض والسماء ثم تهتفين:
(إله الغيب، هذه الطبيعة مأواك، عندما نتأمل بنظراتنا صنع يديك، الروح تراك متمثلا
في كل صورة من إبداعك، فهذه الدنيا صورة كمالك: النهار نظرتك، والجمال ابتسامتك. في كل مكان القلب يعبدك، والنفس ترجو أن تدب فيها الأمل وتنفخ طياتها روح العمل
أيها الخالد اللانهائي القدير الجليل! إن قلمي ليعجز عن وصف اسمك وكتابة حسناتك،)
والروح التي حبيتها بنفختك تمجد عظمتك حتى تخمد فيها الحركة، وتسكن بين جنباتها الخفقات
أيها الإله القدير! إن الروح لتخضع لحكمتك العليا وأنشودتك المثلى. تريد أن تطفر)
نحو علاك، وتثبت إلى سمائك. إنها لتشعر أن الحب هو ختام حياتها، فهي تحترق لمعرفتك وتلتهب لمرآك
كذلك كنت تقولين وبهذه النفثات كنت تناجين. وقلبانا يجمعان التنهدات، يمزجان الأنات، يصعدان الزفرات، يرسلانها صوب هذا الكائن العظيم الذي يدل عليه هوانا، ويشهد لعظمته غرامنا، نخشع بصلاتنا أمامه، نحمل طيات قلوبنا محبته واحترامه، يرسل إليه الفجر تخشعاتنا وتضرعاتنا، ويرفع نحوه المساء تذللاتنا وابتهالاتنا، وعيوننا السكرى بجمال ما صنعت يداه، تتأمل بين الفينة والفينة الأرض حيث نفينا والسماء مسكنه.
أواه! في هذه اللحظة والروح على وشك الفرار تريد البعاد، تود تحطيم السجن. هو ذا الإله يطل علينا من عليا سمائه، يستجيب دعانا، ينظر إلى شكوانا نظرة عطف تنقذ كلينا.
إن روحينا تريدان أن ترجعا إلى حيث وجدتا النور. واستشفتا الضياء. تريدان أن تقطعا معاً خضم هذا العالم إلى النهاية المحتمة، يداً بيد، ووجهاً إزاء وجه. حتى تصلا على جناح الحب إلى النهاية. فهي تصعد كضوء النهار إلى أن تنتهي إلى حيث الإله الخالد، وترتمي تحت أقدامه متعانقة باكية.
هذه الأفكار: أتراها تغشنا وتخدعنا؟
أواه! أللعدم خلقت أرواحنا؟ أللفناء كانت حياتنا؟ أتشترك الروح في مصير الجسد إلى العدم، ويلتهمها جوف القبر الغامض كما تلتهم الضواري اللحم، ويضيع بين ترابها العظم؟ أتعود إلى التراب الذي منه نشأت، أم تطير في الأجواء ولا تستحيل إلى هباء؟
أم تراها تتبدد في الفضاء، كما تتبدد صرخات صوت قذفته عروس حسناء؟
بعد حسرة ضائعة، وزفرة راجعة، وتوديعة باكية، أترى يفنى المحب، ويطوي الدهر في صفحات كتابه غرامنا؟ أواه؟! إن هذا السر العظيم لا يعرف كنهه إلا أنت. ألا انظري موت من أحبك (الغير) أجيبي. ردي علي!
حسين تفكجي
وطني في عرس الحرية
للأستاذ عبد المنعم خلاف
عرش الشمس، عليه صباح مشرق، كله أضواء وأنداء وأغاريد وطوالع سعدٍ، واستهلال مجد
يَرِفُّ فوقه علم هو النمو والخصب والعلا وإقبال الأيام، رفيف القلوب حوله والأجفان فيه
وعلى العرش ملك يومئ الزمن باسمه إلى تاريخ وقف، وتاريخ أقبل. . . . وبشبابه إلى ربيع مخضر يلف بنت النيل بطيلسانه وريعانه فتنبت الورد والشوك. والغصن والرمح، للجمال والقوة. فهو ملك وكلمة من كلمات الغيب ألهمها (فؤاد) فوضعها فيما وضع من أعلام المجد
وأمة صهرت الفتن جوهرها نصف قرن، فخرج صافياً غير مدخول ولا زائف، قد (تكتل) وتجمعت ذراته، وتضائلت خلاياه، ونشطت عضلاته، ونهض في مركزه بين مشرق الشمس ومغربها صلب العاتق كالأهرام، رشيقا كالنيل، رهيبا كالصحراء، ينتظر أن يحمله الزمن رسالته الحديثة
وشعب يبدو كخلية النحل، يعمل في رأي مجتمع، ونشوة بعذوبة الوحدة بعد مرارة

الفرقة، وحيرة الادلاج والسري خمسين سنة في مجهل السياسة، وقد ترك على الطريق جثثاً صرعى ونفوساً هلكى، فلما عسعس الليل وملّ الحادي وحار الدليل، أسعفه القدر بانفلاق الإصباح وإقبال النور والهدى إلى الغاية
وتاريخ يمسك قلمه القديم الذي كتب به أولى صحائف الحضارة والعلم ليكتب صحيفة جديدة نرجو ألا ينقضي مداها ولا يأفل سناها
وأرواح حائمة من الأبوة الأمجاد تصلي في ملكوت السموات أن يحمي رحمن العالم أرض الذرية ووصلة الشرق بالغرب.
وشيوخ محنكون يضعون الأساس ويخلقون الجو الجديد للروح والجسم، بالقلم والسيف، للمجد والحق.
وشباب ملتهب الفؤاد مسعر الروح، يريد أن يقيم البناء بنجوم السماء. . لا يدري ماذا يقدم من مطالب الوطنية ورغائب الحياة الجديدة، فما يولد يوم إلا ومعه إلهام منه يتنزل على
العقول بمعنى من معاني توكيد الاستقلال والتأهيل لاستكماله، لأنه يشعر بالعظيمة التي ألقيت على كاهله في عصر الانتقال وتغير مجرى التاريخ، وإليه مآل الحوادث وقرار النتائج
ذلكم هو وطني من بعد. . أبي وأبوكم الرحيم أيها المصريون! تشيع منه في عيني صورة حاضرة على غيابه، مجلوة على احتجابه، طائفة في المُصبح والمُمسي، والخلوة والجلوة
وقد شاء الله أن تعود الحرية النائية إلى ربوعه وأنا عنه بعيد، فلم أشهد مواكبها وعرسها على الجباه والشفاه، ونشوتها في الأرواح والأشباح، وأملأ فراغي من فرح الحياة بها كما ملأته من الأسى عليها وهي حمراء دامية. . واضحك للبلسم كما بكيت للدم!
ولي ولع برؤية الجماهير ورصدها، وللجماعة في أعصابي سحر. . . عجيب يجدد إيماني بقوة الذرة إلى الذرة. إلى الصحراء، وبالقطرة إلى القطرة. . . إلى الدأماء، وبالإنسان إلى الإنسان. . إلى الدولة. فكانت مناي أن أرى الشباب الذي طالما خر إلى الأرض شهيداً يخر للأذقان ساجداً تحت رجفة من هتاف الزعيم (اسجدوا. . اسجدوا لله شكرا)
طلع الفجر يا بني أبي! وانفجر الضوء، فاغسلوا قلوبكم بنوره، ونقوا ضمائركم بطهوره، وأشيعوا معانيه في صدوركم، وسلطوه على أوكار الظلام والضعف والجهل، واقتلوا به الحشرات المخربة الدنيئة. . . ثم أجمعوا أمركم لسفر طويل في طريق وعر مملوء بالإشراك والتعاسيف والمتاهات والزحام والسعالي والغيلان. . وجثث الأمم الوانية الخطى، الخرقاء التدبير، المتخاذلة القوى، المفرقة الهوى. . . طريق المجد!!
وقبل السير قفوا وتلفتوا إلى الخلف، وسرحوا الأبصار في معالمه، وتذكروا أغلاط الماضي واستوحوا هداه وعبره، فإن ذلك أحرى أن يطرد معه السير على الجادة دون انحراف إلى بنيات الطريق
بغداد
عبد المنعم خلاف
حول رأيين في
الوحدة الإسلامية
للأستاذ حسين مروة
لنكاد نلمس اليوم في مظاهر الحركة الإصلاحية القائمة في ديار الإسلام وأمة القرآن الكريم - اتجاها جديدا يغتبط به كل مسلم يستشعر في نفسه الأيمان الحق، ومظهرا مباركا يرتاح إليه كل موحد يحمل في صدره عاطفة الخير الصريح، وإننا - إلى اغتباطنا بهذا الاتجاه - لنزداد طمأنينة إليه إذ نتلمس بين عوامله وأسبابه عامل النضج الفكري وفهم الحقائق المستوحاة من ملابسات الحياة وروحية الدين الإسلامي الحنيف. وإننا لنذهب في طمأنينتنا واغتباطنا هذين مذهباً أبعد مدى، إذ نشهد بين العاملين على هذا الاتجاه طائفة رجال الدين التي يرى كثير من المشتغلين في هذا الحقل إنها السبب الأول في إخفاق الحركات الإصلاحية التي نشأت في الأعوام المتأخرة لتوحيد كلمة الأمة الإسلامية وجمع رأيها الشتيت ورتق ما فتق التاريخ من مجدها السني وعزها الرفيع.

وفي الحق أن طائفة رجال الدين هذه كانت في عصور التاريخ الإسلامي الأولى هي العنصر الصحيح الذي عمل للإسلام أكثر مما عملته العناصر الأخرى، إذ بينما كانت هذه العناصر تحمل المعاول لهدم صروح الوحدة الإسلامية الشامخة - كان علماء الدين يجلسون إلى القرآن والحديث الشريفين يستوحونهما حقائق الدين؛ ويستهدون بنورهما المبين إلى حل المشكلات وتوضيح الغامضات، يجتمعون على ذلك فيما بينهم وإن باعدت المذاهب بين صفوفهم، ويتواصلون تواصل الأرحام وإن حاولت أهواء السياسة أن تنثر جماعاتهم نثراً وأن تستغل بساطتهم البريئة استغلالا، وأن تستثير حفائظهم الدينية لتأييد اغراضها، فتراهم - على هذا كله ينصرفون عما حولهم من شؤون إلى دراسة، أو تدريس، أو تأليف، أو مناظرة علمية مهذبة الحواشي طاهرة المقاصد موطأة الأكناف بالسماحة الرحبة والتساهل العذب وأدب البحث النزيه. وإذا كنت ترى في مخلفات هذه الطائفة في عصورها تلك من المؤلفات والدراسات ما لا يدل على شيء من هذا الذي نقول - فإنما هو النادر الذي لا يصح القياس به، أو هو مما ألحت عليه السياسة بأسبابها ونوازعها الأثيمة. وهكذا كانت السياسة تلحف بالتنقص من أطراف الوحدة، وتلج في تبديد

الشمل، وتجهد في تضييع الخلق العلمي السمح، واستئصال هذه البقية الكريمة من تراث العصر الأول للإسلام - حتى انثال رجال الدين إلى السياسة، وأنهال العلماء على الدنيا، وكان ما كان من هذه الطرائق المبعثرة، وهذه الأهواء المتدافعة. وهذه الدنيا الإسلامية المليئة بالأحداث الجسام والنوازل المروعة الفادحة

وعفا الله عن رجال الدين هؤلاء ومن خلف من بعدهم إلى يوم المسلمين هذا، فلقد سايروا أهل المطامع، وكانوا معهم إلبا على الدين من حيث لا يشعرون، وكانوا لهم عونا على الإثم من حيث هم غافلون، ونحن لا نشك في أن أصحاب الرأي القائل بأن علماء الدين قد عرقلوا سير الإصلاح في الإسلام - على شيء من الحق، وإن لم يكونوا على الحق جمعية فيما نرى، لأن تخلف هؤلاء عن قافلة رجال الإصلاح الذين قطعوا شوطاً في هذا المضمار - ليس هو السبب - كما يرون - في إخفاق الحركات الإصلاحية التي قامت في هذه الأمة إلى اليوم، لأننا لا نعتقد أن سلطة رجال (الاكليروس) الإسلامي تتناول هذا المدى من التأثير في سير الأمور العامة في دنيا المسلمين، ولعلنا لا نزيغ عن الحق إذا قلنا لأصحاب هذا الرأي إن السبب الأول في فشل المصلحين يرجع إلى عاملين أثنين: أحدهما - كاتبوا التاريخ الإسلامي أنفسهم الذين أمعنوا كثيراً - علم الله - في تملق السياسة ومجاراة أهواء النفوس من أي حزب كان هؤلاء ومن أي شيعة ولون، جعلوا تاريخنا مثارا للحزازات وموقظا للنعرات كلما شاء الزمان أي يبدلنا بشرنا خيراً، وبفرقتنا اجتماعا، وشر البلية في هؤلاء أننا مرغمون على قرائنه فما الحيلة إذن؟. ترى هل يعمد القائمون على فكرة الإصلاح إلى ما كتب المؤرخون عن عصور القلق الإسلامي فيقطعون ألسنتهم فيما يتحدثون به إلينا من فضول الأحاديث؟.

وأما العامل الثاني فليس في قراء (الرسالة) الكريمة - كما نعتقد - من يجهله، أو ليس هو (الغرب) الغازي. . . المظفر. . .، ويعلم القراء ما وراء هذا من شجون الحديث وشؤونه الرائعات.

هذان ما نعتقد أنهما السبب الأول في تمزيق شمل المسلمين. وإذا كان لرجال الدين من أثر بعد هذا، فذلك هو استسلامهم إلى هذين العاملين استسلاماً ساذجاً أخرق، ولا نقول عنه إلا ذلك. . .

ونعود الآن لنقول ثانية: إن هذا الاتجاه الحادث في دفة الحركة الإصلاحية، يزيد في اطمئنانا إليه أن بين عوامله وأسبابه فهم أولي الشأن من طوائف المسلمين حقائق الحياة المحدقة بهم وأسرار الروحية الإسلامية السمحاء، وأن في صف العاملين عليه طائفة رجال الدين، ورجال الدين هؤلاء المساهمون في هذا الاتجاه ليسوا من الأزهر الشريف وحده، وليسوا من النجف المقدس وحده، ولكن المعهدين الشقيقين كليهما يمدان الفكرة الجليلة المنشودة: (الوحدة الإسلامية) بروح منهما وبسبب من عندهما بليغي الأثر، كريمي العنصر، طيبي المنبت، وهاهي دار (الكنانة) العزيزة، زعيمة هذه الفكرة المثلى وحاملة المشعل المقدس اليوم قد شهدت منذ أيام عالما جليلا من علماء النجف يحاضر في دار جمعية الشبان المسلمين في موضوع (الوحدة الإسلامية)

بروح من التسامح جليل البادرة، ويجتمع إلى عظماء البلد الإسلامي الكريم يحادثهما حول هذا الشأن فيلقي في رجال العرش المؤثل الرفيع كل العطف، ويشهد في أوساط الأزهر العظيم أبلغ المثل على نضج الفكرة، ويأنس من علية البلد وزعمائه الأبرار ومن حملة العلم والقلم ورجال الفكر فيه - ألمع الدلائل على قرب اليوم السعيد، إذ يصبح المسلمون إخواناً كأنهم البنيان المرصوص تظللهم جميعاً راية التوحيد العليا.

ولكننا - ونحن نعرض لهذا كله - نرى من واجبنا أن نقول كلمة في مرحلة ثانية للموضوع، وهي التي أردناها أول ما أردنا أن نكتب في هذا الباب، ذلك أن للموضوع مرحلتين: أولهما - حاجة الأمة الإسلامية إلى الوحدة الشاملة الكبرى، وهذه قد فرغ الباحثون من التدليل عليها، ووضعها في ميزانها الصحيح، وفرغ كذلك المصلحون منعقد الضمائر على الإيمان بها وجعلها مثلاً أسمى تستهدفه النفوس، وتستهون في سبيله الجهود. والمرحلة الثانية هي: قضية العوامل والأسباب القرب أثراً وأعظم فعلا في تحقيق هذه الأمنية الغالية والمثل الرفيع.

هذه المرحلة الثانية قال الكاتبون والمصلحون فيها ما شاؤا، ولقد طلع على العالم الإسلامي منذ أعوام بعيدة أو قريبة، رأي بهذا الشأن عرفه السوريون أكثر من غيرهم، إذ نشأ - أول ما نشأ - في ديارهم، ويقول أصحاب هذا الرأي إن الخلافات المذهبية - ولاسيما بين طائفتي السنة والشيعة - هي مصدر الفرقة، وهي مصدر البلاء والشقاء، وإذن فلنعمد إلى

قلع هذا الوباء من أصله، ونجذه من جذوره، بأن نجمع المسلمين كافة على مذهب واحد يستخلص من مجموعة هذه المذاهب على ضوء القرآن والحديث، ولكن هذا الرأي لم يكد يظهر حتى اختفى دون أن يثير وراءه جدلا ولا بحثا، ودون أن يترك بعده صوتاً لنادب عليه أو شامت به؛ وهاهو ذا اليوم يظهر ثانية على لسان سماحة العلامة الزنجاني - ومن النجف كذلك -، فإذا هو يلقي هذه المرة في مصر وفي ديار الشام غير ما لقي أول مرة، وإذا هو موضوع بحث وعناية من العلماء ورجال الفكر وأولي الشأن الجليل في القطرين الشقيقين. وبينا نفكر في إدلاء دلونا بين الآراء في الموضوع وإذا (الرسالة) الرفيعة تطلع علينا فنستقبلها بالهمة الروحية التي نستقبلها بها في كل مرة، ونقف - أثناء سبرها - على مقال جليل للأستاذ الشيخ عبد المتعال الصعيدي في الموضوع نفسه وبعنوان: (الوحدة الإسلامية) وللأستاذ حرمة في النفس حملتنا على أن نجمع الفكر إلى مقاله، فإذا هو يقول فيه ما كنا نحاول أن نقول في الموضوع قبل ذلك، وها نتقدم إلى (الرسالة) الغراء بهذه الكلمة العاجلة تأييداً لرأي الأستاذ الصعيدي الذي تفرد به بين من عرضوا لهذا (المشروع) بشيء من القول:

في الحق - يا سيدي الأستاذ - أن محاولة توحيد المسلمين عن هذا الطريق الذي يقولون، لهي - شهد الله - عامل جديد على توسيع شقة الخلف بينهم، وتهديد هذا الكيان الحاضر - على هزاله - بالاضطراب فالاضمحلال.

ليس هذا أوان التلبيس والإبهام ونحن نبحث أمراً حيوياً له خطره وله عواقبه الجليلة ونتائجه المرموقة، فلنقل - إذن - بصراحة: إن خلاف الطائفتين في أصول العقائد حقيقي، وليس هو - كما قالوا - ظاهري قشري يستطاع (تصفيته) في اجتماع أو مؤتمر أو ما يشبه هذا. ولنقل كذلك - بمثل هذه الصراحة -: إن من العسير، بل من المتعذر، أن نحمل أية من هذه الطوائف على التزحزح عن مبدأ واحد من مبادئها أو أصل واحد من أصولها - قيد شعرة، بعد أن أصبحت هذه المبادئ والأصول عقيدة في العقائد. ولا نظن السادة أصحاب هذا الرأي يجهلون أن العقيدة جزء من كيان المرء لا ينفك عنه مادام كياناً ينسب إليه ويتميز به، ونظننا في غنى عن التبسيط بهذه الناحية، وفي مباحث العلوم النفسية والاجتماعية وفي منطق الواقع نفسه ما يغني عن التبسط والتدليل

ولنفرض - جدلاً - أن اجتمع نخبة من علماء كل طائفة، وتجرد هؤلاء عن اعتبارات المذهب، وموحيات العقيدة، وبحثوا الأمر بحثاً علمياً صريحاً مستهدين بروح الإسلام الأعلى ومبدأ القرآن الأول، ثم أقروا جملة من المبادئ والأصول قد تكون مزيجاً من مذاهب شتى وقد تميل إلى مذهب دون مذهب - لنفرض هذا كله، ولنجعله بمكان من الاعتبار الصحيح، ولكن من يضمن لنا هذه الدهماء أن تتنازل عن عقائدها لقاء ما يقول

لها العلماء، هكذا قضى البحث وقواعد العلم، وهكذا تشاء مصلحة الإسلام. أو أن تتقبل هذا المذهب (الجديد) بطمأنينة ورضا واقتناع، ومن يضمن لنا كذلك هذا التاريخ الأرعن أن يوقظ النعرات من جديد فنستهدف مشكلة جديدة ونضيف إلى هذه المجموعة (الضخمة) من المذاهب مذهباً جديداً، أو قل: عاملاً جديداً على صدع الصف وخلق الفوضى التي نحاول أن نبيدها من الوجود؟.

لا. لقد جاء الأستاذ الصعيدي - حفظه الله - بالحق إذ نحا غير هذا المنحى في سبيل الإصلاح وجمع الشمل. ولقد نحونا مثل هذا كذلك في مقالات نشرتها جريدة (الهاتف) النجفية ناشدنا فيها هيئة العلماء العليا في النجف أن يعتبروا هذه الخلافات في أصول العقائد بين المذاهب الإسلامية، كما يعتبرون هذه الخلافات في الفروع بين مجتهدي المذهب الواحد، وأن تمد مدرسة النجف يدها إلى شقيقتها الكبرى مدرسة الأزهر، وأن يتبادل المعهدان الكريمان البعوث العلمية ويوحدا مناهج التعليم فيها وأن يشتركا في الرأي كلما حدث في الإسلام حدث من إصلاح أو تثقيف، أو تأليف، أو تأسيس الخ.

هذه هي الخطة المثلى التي نرجو أن يعتبرها المصلحون من علماء الطائفتين قاعدة لأعمالهم في سبيل الوحدة الإسلامية المنشودة. وإننا لنرجو أن يكون لنا في هذا الاتجاه الإصلاحي الجديد - سبب أي سبب في تحقيق هذه الأمنية الحبيبة.

وأنا أرجو - في ختام كلمتي - أن أحقق أمنية تعتلج بالصدر في أن أشد الرحال في اليوم القريب إن شاء الله إلى الأزهر العظيم رجاء أن نشق الطريق إلى تواصل الأرحام بين المعهدين الشقيقين، وتحقيقا لمقترح الأستاذ الصعيدي الكريم، والله ولي الأمر.

حسين مروة

دعابة الجاحظ

بقلم محمد فهمي عبد اللطيف

كان أبو عثمان الجاحظ لوقته شيخ الأدب، وفخر العرب، جمع بين اللسان والقلم، وبين الفطنة والعلم، وبين الرأي والأدب، وبين النثر والنظم، وبين الذكاء والفهم، إن تكلم حكى سحبان في البلاغة، وإن ناظر ضارع النظام في الجدل، وكان إلى جانب هذا كله ظريفاً مرح النفس، يحرص على النادرة ويحتفل بها، ولو كان فيها ما ينال من شخصه، ويمسه في سمته. ولما كان الأدباء قد أكثروا القول عن الجاحظ في أدبه وفنه، وعلمه وتحقيقه واقتداره على الكلام والجدل، فقد رأينا أن ننظر إليه في دعابته ومرحه؛ وإنها لناحية للباحث فيها مراد ومنزع، وللقارئ منها متاع ولذة. ولعل من الخير قبل الإمعان في البحث أن ندحض وهما يقوم في رؤوس بعض الناس إذ نجدهم ينكرون ذلك على الجاحظ وأضراب الجاحظ، لأن كرامة الأديب أو العالم في رأيهم أكبر من أن تكون مصدر عبث ومجانة، وأرفع من أن تبتذل في الضحك والتنادر، وقديما قيل: ليس لمزاح مروءة، ولا لممار خلة. ولقد رأيت ابن قتيبة لما أراد أن يثلم الجاحظ لم يدخل عليه إلا من هذه الجهة إذ قال: إنه كان يقصد في كتبه للمضاحيك والعبث. وفات هؤلاء الناس أن الإنسان حيوان ضاحك باك بطبعه، وأن الله قد خلق فيه الضحك قوة تعينه على استساغة هذه الحياة المريرة، كما خلق فيه البكاء قوة تقف به موقف العظة والاعتبار. وقد روي فيما روي عن الحسن البصري أنه قال: حادثوا هذه القلوب فأنها سريعة الذبول، وارعوا هذه الأنفس فإنها طلعة، وإنكم إن لم ترعوها تنزع بكم إلى شر غاية!! ومما جاء في التاريخ أن عبد الله بن طاهر جلس مجلسا أنصف فيه من وجوه القواد، وأمراء الأجناد، وضرب العناق، وقطع الأيدي، وردّ كبار المظالم، ثم قام وقد دلكت الشمس، فتلقاه الخدم، فأخذ هذا سيفه، وهذا قباءه، وهذا إزاره، فلما دخل دعا بنعل رقيقة فلبسها ثم رفع ثوبه على عاتقه وتوجه نحو البستان وهو يتغنى:

النشر مسك والوجوه دنا ... نير وأطراف الأكف عنم

قال عيسى بن يزيد: وكنت جريئا عليه، فجذبت ثوبه من عاتقه وقلت له: أتقعد بالغداة قعود كسرى وقيصر، ثم تعمل الساعة عمل علوية ومخارق؟! فردّ ثوبه على عاتقه وهو يقول:

لابد للنفس إن كانت مصرفة ... من أن تنقل من حال إلى حال

ومن أولى - رعاك الله - بأن يصرف نفسه من حال إلى حال، ومن أحق بالاسترواح والانشراح من ذلك العالم أو الأديب الذي يصهر ذهنه في خدمة الإنسانية، كالذبالة

تضيء للناس وهي تحترق؟ وهل هو يفعل في ذلك إلا ما تقضي به إنسانيته، وتدفعه إليه طبيعته؟ فإذا طاب لنا أن نقف بهذا وأمثاله موقف التزمت والوقار في كل فترة من فتراتهم، فنحن في الواقع نجردهم من نصف إنسانيتهم ونعطل فيهم قوة خلقها الله لهم مباءة للرفاهية والراحة، بل نحن نبقي لهم حياة هي الكرب الآخذ بالخناق، والجحيم الذي لا يطاق (وإني لأعجب لبعض الناس أن تطرق إلى عقولهم تلك العقيدة الغريبة وهي أن حياة الأبرار في الجنة، أرفع وأشرف من أن يدخلها الضحك، ويكون فيها التنادر. ولقد رأيت كثيرا من هؤلاء يهيئون نفوسهم في هذه الحياة الدنيا لاستقبال تلك العيشة العابسة التي يزعمونها في دار النعيم، فهم يطردون من صدورهم كل ميل إلى السرور والانشراح، ويكشحون عن صحائف وجوههم كل لمحة من سنا البشر والطلاقة. وكثيرا ما أصادف في غدواتي أحد هؤلاء العابسين فينظر إلي كمن عرفني نظرة موحشة شزرة، كأنما هو قاض سماوي قد هبط إلى هذا العالم ليحكم بأقصى العقوبة على كل من يعرف، ومثل هذا الرجل يقطع ولاشك ذنب هرته إذا هو صادفها تعبث به، فبالله سله من علم الهرة أن تعبث بذنبها؟!.)

هذا وللجاحظ في هذا المعنى كلام حسن هو من أقوم ما قيل في بابه، وأدق ما أتى في معناه، وإنما ساق الرجل الحديث في ذلك وهو ينضح عن نفسه، ويدحض شبهة كالتي نعالجها، إذ خاف - وهو العالم الأديب - أن يتهم بالنزق والسفه من أجل ما يستروح به من المزح والفكاهة، وبسوقه من الطرف والتنادر. والظاهر أن مسألة الجد والمزاح كانت من المسائل التي شغلت الأذهان في عصر الجاحظ، فكثر حولها القول، وطال فيها الخلف والتضارب، وما كان ذلك إلا نتيجة لازمة لتلك الحياة الفكرية التي كان عليها القوم، وهي حياة مضطربة لم تأخذ وضعها من الاستقرار بعد، ولم تكن قد خلصت من شوائب الأخذ والرد، فهناك علماء الفقه والسنة مازالوا يتلمسون نصوص الشريعة يطبقونها على ما أمامهم من مظاهر وظواهر، وتبيان ما هو حلال منها وما هو حرام، والى جانب هؤلاء جماعة يتولون الوعظ بأحوال السابقين، والزجر بالقصص والآثار، وإن فيهم من لا يتورع

عن التزيّد والافتراء، والحشو والكذب، لتأييد أمر له فيه غرض ومآرب. وثمة عناصر فارسيةً من الشعراء والأدباء لا يتحرجون من اقتحام الدين والخروج على الأوضاع، فكل همهم إشباع الجسد، وإمتاع القلب. وفيهم من يذهب في التظرف مذاهب، فكان من الطبيعي أن تقوم مسألة (المزاح) عند كل فريق من هؤلاء باعتبار، وأن يجري فيها القول على خلافٍ، إذ لكل هوى ومنزع، وقدعرض الجاحظ أقوالهم أجمل عرض فقال: (وقد ذهب الناس في المزاح إلى معانٍ متضادة وسلكوا منه في طرق مختلفة، فزعم بعضهم أن جميع المزاح خير من جميع الجد، وزعم آخرون أن الخير والشر عليهما مقسومان، وأن الحمد والذم بينهما نصفان) وبعد أن أتى الجاحظ على جمل هذه الأقاويل أخذ في إعلان رأيه فقال: (ونحن نعوذ بالله أن نجعل المزح في الجملة، كالجد في الجملة، بل نزعم أن بعض المزح خير من بعض الجد، وعامة الجد خير من عامة المزح، وقد يكون الكلام في لفظ الجد ومعناه معنى الهزل، كما يكون في لفظ الهزل ومعناه معنى الجد، ولو استعمل الناس الدعابة في كل حال، والجد في كل مقال، وتركوا التسجيح والتسهيل، وعقدوا أعناقهم في كل دقيق وجليل، لكان السفه صراحاً خيراً لهم، والباطل محضا أردّ عليهم، ولكن لكل شيء قدر، ولكل حال شكل، فالضحك في موضعه، كالبكاء في موضعه، وكذلك التبسم والقطوب، والمنع والبذل، فأن ذممنا المزاح ففيه لعمري ما يذم، وإن حمدناه ففيه ما يحمد، وفصل ما بينه وبين الجد أن الخطأ إلى المزاح أسرع، وحاله بحال السخف أشبه، فأما أن يذم حتى يكون كالظلم، وينفى حتى يصير كالغدر فلا، لأن المزاح مما يكون مرة قبيحاً ومرة حسنا، ولا يكون الظلم إلا قبيحا، وبعد: فمن حرّم المزاح وهو شعبة من شعب السهولة، وفرع من فروعه الطلاقة، وقد أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحنفية السمحة، ولم يأتنا بالانقباض والقسوة. .)

ولاشك أن الجاحظ في رأيه هذا قد وقف موقف العدل والأنصاف، وقال قولا هو غاية القصد. ولقد أحسن الرجل كثيراً إذ راعى (المقام) في حكومته بين الجد والمزاح، فقال بأن (لكل شيء قدر، ولكل حال شكل، فالضحك في موضعه، كالبكاء في موضعه، وكذلك التبسم والقطوب، والمنع والبذل) نقول: بل وكذلك كل شأن من

شؤون هذه الحياة، وما أحسب أحداً في الناس يجهل أن وضع الندى في موضع السيف مضر، كوضع السيف في موضع
الندى؛ ولكن قل في الناس من يتعرف الوضع المناسب، ويتبين المقام المشاكل، وما ذلك في الواقع إلا مسبار الذكاء، ومحك البراعة، وهل التنادر يقوم إلا على قوة المفارقات، والتمييز بين المناسبات؟ وهل الرجل الذي يلقي بالنادرة في موقف العظة والاعتبار، أو يخلق الضحكة ينطلق بها فمه بين مظاهر الأسى والحزن، ألا نزق طائش، بل قل سفيه لا يحس بالواجب، ولا يقدر العواقب، وسرعان ما ترمقه العيون بالنظر الشزر، ويقعد في الجالسين مقعد الثقيل المملول، وربما كانت نادرته حلوة رائعة، وضحكته رقيقة حسنة، ولكنه ألقى بها في المقام الكز، واختار لها الموقف الخشن!! ولا عاب في المزح عند الجاحظ إلا أن الخطأ إليه أسرع، وحاله بحال السخف أشبه، ومن ثم فهو يرى أن من الصون للأديب أو العالم أن يكون فيه على قصد، وأن يعالجه على قدر، هو قدر الاسترواح والانشراح. ولقد أوضح هذه الناحية إذ يقول: (والمزاح باب ليس المخوف فيه التقصير، ولا يكون الخطأ فيه من جهة النقصان، وهو باب متى فتحه فاتح، وطرق له مطرق، لم يملك من سده مثل الذي يملك من فتحه ولا يخرج منه بقدر ما كان قدم في نفسه، لأنه أصل بناءه على الخطأ، ولا يخالطه من الأخلاق إلا ما سخف، ومن شأنه التزيد، وأن يكون صاحبه قليل التحفظ، ولم نر شيئاً أبعد من شيء ولا أطول له صحبة. .، من الجد والمزاح، والمناظرة والمراء. . .)
وهذا كلام يتفق فيه الجاحظ هو وصاحب حديث المائدة، إذ يقول في كلام له عن الجد والمزاح (أنا لا أمقت منكم ميلكم إلى الضحك، ولا أضن عليكم بالكلمة تضحككم متى قدرني الله على ذلك، فأما أن تطلبوا إلي ألا أقول إلا ما يضحك، وإلى أنفسكم ألا تفعل شيئاً غير الضحك، فذاك مخالف لسنة الطبيعة، وجدير بمن هذا شأنه أن ينقلب قرداً لتوّه وساعته. . . ولذا كان من البلية على الكاتب أو الشاعر أن يسترسل في باب المضحك، فإنه يعوّد الناس بذلك ألا ينتظروا منه إلا ما يضحك وألا يعرفوه إلا مزاحاً، فهم يضحكون معه مادام يضحكهم، فإذا أراد أن يجد وشرع ينطق بالعلم والحكمة ضحكوا منه وهزئوا به). ثم ينظر صاحب حديث المائدة إلى الموضوع من ناحية لم يتمعنها الجاحظ فيقول: (على أن هناك سبباً أغمض من ذلك، ألا تشعر أنك ترى نفسك فوق كل إنسان يتصدى لإضحاكك، سواء بحركات جسده أو بحركات قلمه؟ بل ألا تشعر بأنك تفيض عليه من برك
وإحسانك إذ تمن عليه بتقبلك منه الوثبات الحقيقية أو الشعرية!!. فإذا لزم أدبه، ووقف عند حده فخيراً يفعل، وإذا حاول أن يعلو إلى مقامك الرفيع، فأخذ يدلي إليك من منبر عظته نوابغ الحكم، فبئس ما صنع، وساء ما أتى، وهيهات أن يقوم عندك مقام الواعظ، أو يفوز منك بنظرة الإجلال التي هو جدير بها لعلمه وأدبه!).
وما كان الجاحظ من الدعابة والمزح، إلا في ذلك المقام الكريم الذي اتفق عليه هو وصاحب حديث المائدة، فتجده يستروح بالنادرة، ويتفكه بالدعابة، ولا يضن على السامر بالكلمة تصفق لها القلوب، وترتاح لها النفوس. وإنه في أبحاثه وكتاباته ليبتدع النكتة ابتداعاً، ويحتفل بالنادرة يسوقها إلى القارئ، ولكن كل هذا في المقام المناسب، وعلى القدر اللازم، فما تعدى طوره، ولا خرج عن قدره، ولا أستذل كرامته بالتزيد والإمعان في المجانة. وإذا كان ابن قتيبة قد عاب الجاحظ بالعبث والضحك، فما ابن قتيبة إلا مسرف في هذا الاتهام، وإنه ليطعن الجاحظ في غير مطعن، بل أنه ليريد أن ينكر على الرجل طبيعته البشرية، وكأنه كان يحمله له ضغناً، ولماذا ينكر ابن قتيبة على الجاحظ ما استباحه هو لنفسه في عيون الأخبار من سرد المضاحيك والمعائب، حتى ليقول في مقدمة ذلك الكتاب بلهجة صريحة: (وسينتهي كتابنا هذا إلى باب المزاح والفكاهة وما روي عن الأشراف والأئمة فيهما، فإذا مر بك أيها المتزمت حديث تستخفه أو تستحسنه أو تعجب منه أو تضحك له، فاعرف المذهب فيه وما أردنا به، واعلم أنك إن كنت مستغنياً عنه بتنسكك، فإن غيرك ممن يترخص فيما تشددت فيه محتاج إليه، وإن الكتاب لم يعمل لك دون غيرك، فيهيأ على ظاهر محبتك! ولو وقع فيه توقّي المتزمتين لذهب شطر بهائه وشطر مائه، ولأعرض عنه من أحببنا أن يقبل عليه معك. . .)، وأحب أن يتأمل القارئ قوله - شطر بهائه وشطر مائه - فيا ليت شعري إذا كان توقّي المزاح والفكاهة سيذهب بالبهاء والماء، فماذا يبقى بعد!؟.

(للكلام صلة)
محمد فهمي عبد اللطيف
جولات في الأدب الافرنسي الحديث
تطور الحركة الأدبية في فرنسا الحديثة
لأستاذ الأدب في جامعة السربون (دانيال مورني)
بقلم الأستاذ خليل هنداوي
فصول ملخصة من كتاب تاريخ الأدب والعقل الفرنسي الحديث لأستاذ الآداب في)
جامعة السوربون (دانيال مورني) تبحث تطور الشعر والرواية والنقد والتاريخ
ودانيال مورني أستاذ له مدرسته التحليلية وطريقته الأدبية التي يفرضها (والفلسفة
على آداب أمته في هذا الجيل! وهو مؤرخ للأدب بطريقة خاصة يكاد يكون بها نسيج
وحده. تقرأ كتبه ومقالاته فتشعر باطلاع واسع عميق وجهد كبير وفكر عال استطاع أن
!يقرأ ويفيد ويحلل فتأخذ منه ما اوجزه فإذا به يخفي طي سطوره القليلة ما يغني
يكتب بأسلوب سهل كتابة يغلب عليها الأسلوب الأدبي طوراً والأسلوب التحليلي تارة،
وهو في كل ذلك حي تجري حياة الفكر فيه، يكتب عن المدرسة الأدبية أو حياة الأديب
صفحة أو صفحتين ويقف وإنك لراغب في الزيادة! ولكن وقوفه هو الحاجز الذي يجب
أن يقف عنده. ولن يمضي زمن حتى ينشأ هذا الأسلوب الموجز في تحليل الأدب
وتعيين مواقفه الحاسمة. وأشهر كتبه المنشورة تاريخ شامل للأدب الفرنسي قديمه
وحديثه. وتاريخ لمراحل خاصة للعقل الفرنسي وقد أحببت أن أدرس هذا الكتاب لأنه
درس شامل لعقل وأدب. لا يذهب وراء الخيال كثيرا كأنه كل شيء، ولا ينطلق وراء
العقل كثيراً كأنه كل شيء. . . لأن صاحبه يرى التأثير متبادلا بينهما، ففيه نرى تأثير
العلم في تطور الأدب وتأثير الأدب في الفلسفة. وفيه يرى أصحابنا تأثير النظريات
الفنية والعلمية في توجيه الأدب.
(خ، هـ)
رقية العلم عام 1880
لم تبلغ العلوم الطبيعية من الذيوع والقوة ما بلغته في أواخر القرن التاسع عشر. فأن
أهم اكتشافاتها ومخترعاتها إنما تمت في عهد قبل عهد الأواخر. فكتاب (داروين) مثلا
عن
أصل الأنواع إنما ظهر عام 1859 وكذلك في الأعوام الأخيرة نشأت اكتشافات جديدة
غمرت الأرض وألقت في إخلادهم أن العلم قادر على تبديل الحياة الاجتماعية وغير
عاجز عن تغيير الحياة ذاتها. وساعدت على نشر هذا الاعتقاد الانتصارات المتتالية في
كل ميادين العلم. ولم يقبل عام السبعين حتى ازداد هذا الاعتقاد عنفا ورسوخاً حتى
اعتنقه بعضهم كما يعتنق ديناً. على أن الناظر لا يرى خلقا جديداً في مذاهب العلم
وأساليبه وأصوله، ولكن غير العلماء كانوا يتحرون في أصوله عن النور الذي ينبغي له
أن ينير مسالك الحياة الاجتماعية والحياة الخاصة وما قدر لها. فـ (رينان وتين) قد
جمعت آثارهما قبل عام السبعين ولكن الشباب لم يتخذ منهما قائدين إلا بعد هذا
العام. وهكذا انتشر سلطان العلم وغلب على كل سلطان وطني على الأدب واصبح
موضع الأنظار. وأعلن أحد رسل العلم (برتلو) بعد اكتشافه في الكيمياء مذهب تأليف
الأجزاء المتفرقة بأنه بواسطة هذا المذهب يستطيع إنسان الغد أن يصبح المسيطر
على عالم الأجساد والنفوس. فهو يضع غذاءه ويخلق عصور الرفاهية التي تتجلى فيها
المساواة والإخاء إزاء شريعة العمل المقدسة. كل شيء سجله العلم ويخلقه خلقا
جديداً. وكذلك شأن الأخلاق يدركها هذا التطور الذي أدرك الطبيعة
كل شيء في الحقيقة ينتظم ليخضع كل فكرة إنسانية لقوانين العلم. وقد كان علم
طبقات الأرض وعلم الآثار القديمة والتوسع فيها كانا ذائعين في القرن الثامن عشر
قبل أن تتفجر عن العلم اكتشافاته وتزداد حركته. وهنالك مجامع كثيرة قامت ومدارس
نشأت تطلب أن تقيم الدراسة المحض للحقائق بدلا من الركض وراء الخطرات
الخيالية اللامعة على غير جدوى. ولكن هذه المطالب كانت لا تزال تقدم رجلا وتؤخر
أخرى، فيها تردد غير المطمئن وشك غير المؤمن. فبقي التعليم وجامعاته والنقد
وحركاته أمينة لمذاهب الأدب القديمة التي تعتمد على الذوق والذهاب إلى إحياء فن
الأوائل بالخيال، حتى بزغ عام السبعين فبدأت الأذواق تنفر من هذه الأخيلة، ودعا

الأدباء إلى اعتناق علم (الألمان) الذين ربحوا الحرب، ليكون منهم علماء في دراسة اللغات ومؤرخون وأساتذة، وأن تكون دراساتهم مرتكزة على بحث الحقائق وتجريدها ونقدها نقداً علمياً. وقد طغت هذه الدعوة العنيفة على جامعات فرنسا وغزت مجامعها الأدبية، فتغير الأسلوب وتبدلت المناهج،

ونرى أثر ذلك في مدرسة (أثينا) الفرنسية التي أخذت تنهج في الدرس نهجاً حديثاً، وفي بقية مدارس أنشئت لهذه الغاية كمدرسة (روما) ومدرسة القاهرة، وفي بعض مجلات علمية أنشئت لتعمل على تشجيع هذا المذهب الجديد!

وقد سرى هذا الارتجاج إلى الفلسفة فخالت أن العلم يبدل منهجها. وبدا أثر هذا الارتجاج في الدراسات النفسية التي كانت تعتمد على الدرس الباطني فبدل نوع هذا الدرس وجاءوا بعلم جديد لدرس النفس لا يعتمد إلا على الفحص والتجريب والبرهان.

وخزانة الفلسفة الفرنسية لا تزال طافحة بهذا النوع الجديد من الدرس كآثار الفيلسوف (ريبو) في معالجة أمراض الذاكرة والإرادة والشخصية. وكلها أبحاث قائمة على الفحص العلمي والبرهان العملي الذي لا مجال للخيال فيه وهي تثبت أن أصول علم النفس الروحاني لا تتلاءم مع الأعمال، وأننا بدرسنا - علمياً - لفساد المادة الدماغية ندرس كذلك فساد الفكرة التي لابد أنها مظهر من مظاهرها واثر من تأثيرها.

أما علم درس المجتمعات فهو لا يشبه العلم فحسب، بل يجب أن يكون علماً صارماً في تطبيق مبادئه وفي تطبيق نتائجه، كما هو الحال في علوم الطبيعة ولم ينشأ هذا العلم في فرنسا إلا بعد عهد، ولكن هذا لا يمكن أن يكون وليد المذاهب العقلية. وإنه علم ومنطق يراد به خلق أصوله ومذاهبه. وقد وقف العالم (دور كهايم) جهوده على القول بأن الحوادث الاجتماعية هي حوادث مخصصة معينة يجب اعتبارها كأنها خاضعة لقوانين خاصة يكتشفها علم الاجتماع كما يكتشف علم الطبيعة قوانين الطبيعة

وهنالك فئة علمية تدين بالعلم. هذه الفئة التي قدم لها (رينان) كتابه (مستقبل العلم) هذه الفئة هي التي مشت وراء تعاليم (دارون) وعلى هذه الفئة ثبت مستقبل العلم ومستقبل الديموقراطية، وفي الحقيقة كانت الجمهورية الفرنسية متقلقلة متزعزعة حتى عام 1880، فتألب رجال السياسة والصحافة على استنقاذها من مأزقها، فعمدوا إلى التبشير بكلمات (برتلو) بالمساواة والحرية والاتحاد والسعادة، بالعمل على تأييد العلم الذي يجازى العاملين من أجله بالسلامة والعافية ورفاهية العيش، وهو الذي سيحل عقدة الحياة والوجود.

إن هذه الرقية العلمية غزت الأدب فيما غزت وكان لها فيه تأثير بليغ.

خليل هنداوي

دمعة وفاء على المرحوم الأستاذ غانم محمد

بمناسبة مرور أربعين يوما على وفاته

للأستاذ زكي نجيب محمود

أحقاً يا غانم حم القضاء وقام فيك الرثاء؟ أحقاً طاح بدوحك العاتي منجل الفناء؟ وا فجيعتاه؟ قم إذن يا صاح فاهتف بالمحاجر أن تسح الدمع هتوناً سخيناً، وبالحناجر أن تسكب ذوب النفوس أنيناً حزيناً.

عجباً! آستطاع الدهر في لمحة من الزمن، أن يطوي الشمس في ظلمة الرمس؟ آستطاع الموت بلفظة في لحظة أن يدك طوداً كان شامخاً بالأمس؟ أفي اليوم الذي نرجو للأمة فيه غانماً وغانماً، يهوي مخلب الموت، بين أشاجعه رعب القدر، وننظر فإذا غانمنا الواحد قد افتقدناه في مثل اللمح بالبصر؟ حنانيك يا رباه! أأصبت بالمنية غانماً أم أصبت عشيرة في رجائها؟ أرميت بالبلية رجلا أم رميت الرجولة في سويدائها؟ فما كان فقيدنا في عداد القوم واحداً كسائر الآحاد، بل كان ينبوعاً للرجولة دافقاً، وقلباً للوطنية خافقاً، يمتلئ همة حتى ليسكب الهمة في بنيه، ويشتعل حماسة حتى ليبث الحماسة في مواطنيه، لا يدخر في سبيل ذلك ما وسعه من جهد اللسان والقلم.

فهأنذا أطوي الليالي القهقرى أعواما ثلاثة، فإذا بالمطبعة العربية تذيع في الناس كتاباً لا يخطف العين مظهره، ولا يضج به في الناس منشئه ومسطره: جان دارك تأليف غانم محمد.

أقبلت على الكتاب حينئذ، ولم أكن أدري عن صاحبه إلا أشتاتاً منثورة، فحسبته بادئ الأمر كتابا من الكتب أخرجه للناس كاتب من الكتاب، فما هي إلا صفحات عشر أتلوها

حتى همست لنفسي قائلا: كلا! تالله إن الرجل لكاتب بارع وأديب قدير، اختلجت في نفسه الفكرة عنيفة جبارة، تنشد التصوير والتعبير، فاستجاب لدعوة القلم وكأنه فولتير يثور فيسطر فيثير. نعم لم تكن إلا صفحات عشرا أتلوها حتى أيقنت أن الكاتب منتش مخمور، قبس من صحائف التاريخ هدى ونوراً ليلقيه في جوانحنا لهباً مسعوراً! فما كتابه هذا عن جان دارك إلا منصرف تدفقت فيه أواذي نفسه المضطربة المصطخبة في بيان رائع خلاب. كأنها وحي النبوة يستحيل إلى بلاغ في كتاب.

(استمع إليه كيف يستهل كتابه:

لم اكتب مذ عرفت أناملي قبض القلم وتحريكه، ولم تنطق شفتاي مذ انفرجتا للنطق، ولم يخفق قلبي، ولم يجش وجداني وتنشرح جوانحي، منذ أن خرجت إلى الدنيا، لأمر (من الأمور هو أسمى وأرفع واشرف من الغرض الذي أرمي إليه بموضوع اليوم ثم أنفذ إلى الختام وأنصت إليه ماذا يقول قبيل أن يضع القلم: (وإني أختم هذا الكتاب مترسماً أثر جان في دعوتها وحياتها وصفاتها، وكلي أمل خالص أن تبعث قراءة قصتها في قلوب القارئين نور الأيمان الصادق ونشوة الوطنية الحقة. . . إن ما حققته جان في مقدورنا أن نحققه، إذا ما ارتفعت بنا، كما ارتفعت بها هي من قبل، أجنحة الوطنية والدين. . . أيتها الفتاة المنقطعة النظير! انفخي فينا من روحك، وبثي فينا من حماستك، لكي نحيا حياتنا ونموت في سبيل الله والوطن!!)

وإذا أنت مضيت بين تلك الفاتحة وهذه الخاتمة، لم تقرأ أسطراً كالأسطر، بل أحسست في الكلم حرارة وقوة وحياة، فهو ثائر حيناً شاعر حيناً، إذا جالت جان دارك في أجنادها زأر القلم في يده زئيراً، وإذا جلجلت جان دارك في أصفادها صرّ القلم من الأنين صريراً. وهكذا صور تتلوها صور، أبدعها صناع فسواها، وألهبها من شعوره فأذكاها. حتى لتقرأ الكتاب وكأنما تخوض في أتون مستعر، أو كأنك تنصت إلى صوت من السماء يهتف بك: تلك جان دارك في فرنساها، وهأنت ذا في مصرك، فماذا أنت صانع ليذكو شعورك الخابي، وينهض بلدك الكابي؟! وهذا النداء في ذلك الحين ما كان ابلغه من نداء حيث كادت تذهل أنفس عن الطموح إلى السماء، فانحرفت إلى الأرض راضية من الغنيمة بالحب والماء!

لم أكد أفرغ من قراءة الكتاب عندئذ حتى حملت قلمي على وهنه وعثاره. ودعوت للكتاب (في الرسالة) لأني آمنت أن الدعوة له صيحة وطنية واجبة، وكلما ازددت للكتاب قراءة ازددت يقيناً بما قلته إذ ذاك من أن غانماً (اخرج بكتابه للناس درة من أثمن ما تحوي لجة التاريخ من درر، ونشر صفحة من أسطع ما طوى الدهر من صفحات، ومن إنه بهذا الكتاب قد أذاع في الناس مثلاً أعلى للتضحية والفداء، ونموذجاً سامياً للوطنية المشتعلة الصادقة ممثلة في جان دارك). وما أزال عند كلمتي التي ختمت بها مقالي من أن غانماً (قد وفق في التصوير توفيقاً بلغ حد الكمال، وأن ليس هذا الكتاب واحداً من الكتب يتلى ثم يطوى وكأنه لم يكن، إنما هو فيض من الشعور القوي النبيل سيغمرك ويحتويك حين (قراءته وسيطبعك بطابع هيهات أن يزول أثره ما بقيت على الدهر إنساناً ذلكم هو غانم الذي التقيت به في كتابه منذ أعوام ثلاثة لقاء قارئ بكاتب، ثم التقيت به منذ أشهر ثلاثة لقاء روح بروح، ثم افترقنا فراق الأبد، بعد أن خلف لنا حرارة نفسه وحلاوة جرسه في كتابه الخالد

فرحمة الله ورضوانه على الفقيد الكريم

زكي نجيب محمود

شاعر الإسلام

محمد عاكف

بقلم الدكتور عبد الوهاب عزام

- 2 -

كتب الأديب الكاتب عمر رضا صهر الأستاذ محمد عاكف مقالاً في جريدة جمهوريت التركية بعنوان (أيام عاكف الأخيرة) فأردت أن يطلع عليه قراء الرسالة في هذه الترجمة:

منذ ستة اشهر أرست في استنبول باخرة قادمة من مصر، توسمت النازلين منها فإذا على السلم شبح لم أثبته للنظرة الأولى، فلما أنعمت النظر عرفت الفاجعة؛ وتأوه

رفيقي مدحت جمال آهة أعربت عن وقع الفاجعة في نفسه.
لقد انحطم الأستاذ عاكف! ولكنه كان على ذلك، لا يزال متفائلاً يحسب أن هواء الوطن يحييه. ذلك كان ضنه، وذلك ما أمله إلى آخر رمق من حياته. أخبرته يوماً أن أحد أقاربه يود مقابلته. فقال: (لا يشق على نفسه؛ سأزوره أنا حين أستعيد بعض عافيتي)
ولقد حيرني حقاً هذا الرجاء، وهذه القوة الروحية التي رسخت فيه بعد أن آذنه الأطباء بخطر المرض، وضعف الأمل، ورأى هو صحته تضمحل يوماً بعد يوم. كان تفاؤله يملأ نفسي عجباً، فكنت أقول لنفسي: أتراه يريد أن يشعرنا الطمأنينة وينفي عنا الفزع؟ ثم أرجع فأقول: كلا إن هذا الأمل القوي لا ينبع من تعلق البشر بالحياة وإفراطهم في حبها، بل وراءه منبع ابعد غوراً، وأغزر فيضاً، وأسمى مكاناً
كان الزائرون يتتابعون إلى حجرته في المستشفى، وكان في هذه الزيارات إرهاق له. وكان الأطباء يكرهونها ولكنه هو كان يحرص على لقاء أصدقاءه ورؤية أحباءه، وكان يسكن إلى محادثة كل واحد منهم منفرداً ولا يجد في هذا حرجاً ولا نصبا.
ولم يكن بد من تغيير هذه الحال، فدعي الأستاذ لينزل ضيفاً في دار لأحد أصدقاءه القدماء. وكانت الدار في (علم طاغي). وحسب أصدقاء الأستاذ أنه سيجد في هواء هذه الجهة وماؤها بعض شفاءه إلى ما تجدي عليه العناية بنظام الغذاء وتناول الأدوية التي كانت تجلب له من أوربا
فرح الأستاذ كثيراً حين بلغ علم طاغي وسكن إليها. ورسم له أن يهبط المدينة مرة كل أسبوع لزيارة أصدقائه واستشارة أطبائه. وكان هو يقول: سأفترش سجادة تحت شجرة وأنشق الهواء النقي، وأستمتع بحرارة الشمس الصافية، وأحاول أن أسترجع قواي وشيكاً. فإذا آنست في بدني الصحة، دعوتكم جميعاً إلى علم طاغى، وعندي هناك طاه منقطع النظير.
وحق إن الأستاذ افترش سجادته في ظلال أشجار علم طاغي الخضراء، وأنس بها وتمشى في تلك المروج، ولكن مرارة الدواء كانت تنغص عليه جمال المكان ومسراته، بل كانت ترد هذه المتعة المموقة سماً قاتلاً. وكان يقول: لو إن هذه الأدوية تشرب مرة واحدة كل يوم! لا أكاد اخلص من جرعة حتى ألزم بجرعة أخرى، فأنى لي أن أشهد جمال علم طاغي وآنس لذاتها.
لست أنسى قوله ذات يوم: (يا بني لقد كنت أطوي الطريق من اسكدار إلى علم طاغي سيراً على قدمي لا أبطئ ولا أقف. وهاأنذا اليوم اقطع الطريق لا تمس قدماي الأرض. ولكن ماذا تجديني هذه السيارات وآهاتي فيها لا تفتر. آه لو شفيت فعدت سيرتي أقطع الطريق على قدمي!.) - وأما هواء (علم طاغي) فلم يرد على الأستاذ عافيته بل كانت قواه في خور مستمر.
ليت شعري ماذا ألهمه هذا التفكير العميق الذي دام أشهراً؟ وماذا كان يريد أن يعرض علينا من أفكاره حين يبل من مرضه!! لقد كان نظم (قصة الاستقلال) إحدى أمانيه منذ سنين. وكان يبغي من التجاءه إلى مصر أن يخلص من متاعب الحياة ويفرغ لهذه القصة. فلما هم بهذا طلبت إليه رياسة الأمور الدينية في أنقرة أن يترجم القرآن الكريم إلى اللغة التركية، فأشفق وأبى وأعتل بأن أمامه قصصاً يود أن ينظمها، فلم يقبل عذره وتوسلت رياسة الأمور الدينية بصديقه الحميم أحمد نعيم بك أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة استنبول فاضطر عاكف أن يذعن كارهاً. والحق إن إباءه الإطلاع بترجمة القرآن أول الأمر كان من إجلاله الكتاب الكريم واعتقاده إن إنساناً لا يستطيع أن يؤدي ترجمته على الوجه الجدير به مهما أوتي من العلم والبيان. وكان كلما سئل عن الترجمة قال: (لم اقدر عليها. إنها لم ترضني فكيف ترضي غيري؟.)
وقضى الأستاذ سبع سنين في مصر وهو في شغل
شاغل عن ترجمة القرآن، وكانت النتيجة ما رأينا فقد ضاعت تلك السنون وحرم الأدب التركي من أثر خالد. وكان نظم حجة الوداع من أمانيه - هذا المشهد التاريخي العظيم الذي يمثل الرسول في حجته الأخيرة يخطب على مائة ألف من المسلمين، وكذلك كان يريد أن ينظم قصة تمثيلية في الحروب الصليبية وبطولة صلاح الدين الأيوبي، وحالت دون الأماني حوائل، وعاد الأستاذ إلى استنبول عليلاً بدت عليه إمارات الهجوم الأخير من هذا المرض المشؤوم فثقل لسانه قليلاً ولكنه لم يفقد من إدراكه إلا يسيراً ويوماً تغيرت حال الأستاذ فجأة، وبدت عليه إمارات القوة والنشاط، فكان يتحدث إلى

الناس ويستمع إليهم، ويطلب أن يكونوا حوله ولا يرضى أن يترك وحده.
وفي مساء هذا اليوم ضاقت نفسه فلم يلبث إلا يسيراً حتى كانت الخاتمة
(للكلام بقية)
عبد الوهاب عزام
سجين شيلون
للشاعر الإنجليزي لورد بيرون
بقلم الأستاذ محمود الخفيف
تتمة ما نشر في العدد الماضي
- 7 -
ذكرت أن أقرب الأخوين إلى مكاني تساقطت نفسه وذوى عوده، وكذلك ذكرت أن قلبه القوي انصدع وانسرقت قوته
عزفت نفسه عن الأكل وعافته، ولم يك ذلك لما كان عليه من قبح ووحشية، فقد ألفنا طعام الصيد ورضنا أنفسنا عليه.
أبدل ما كنا نشربه من لبن تجود به غنمات الجبل، بماء أتوا به من الخندق، وكان الخبز الذي يلقى إلينا على حال أحسسنا معها كأن دموع الموثقين البائسين قد سقته فألانته آلاف السنين، منذ ألقى الإنسان ببني جنسه أول مرة في الأصفاد كما يفعل بضواري الوحوش!
ولكن ما كان ليضيره ذلك أو يضيرنا، لم يكن ذلك ما أذاب قلبه وفت في عضده، فقد كانت روح أخي من ذلك الطراز الذي تتسرب إليه برودة الموت حتى ولو كان في قصر، إذا حيل بينه وبين شعاب الجبال وجوانبه الحادرة. وليت شعري لم أخفي الحقيقة وأؤجل النطق بها. . . لقد لفظ أخي أنفاسه
رأيته يموت ولكن وا حسرتاه لم أستطع أن أسند رأسه، لا ولم استطع أن أمسك بيده وهي تموت ولا بعد أن همدت فيها الحياة، لم أستطع شيئاً من ذلك ولو أني تنزيت في الحديد وحاولت عبثاً أن أفك السلاسل واجعل أصفادي شطرين. لفظ أخي أنفاسه، ففكوا سلاسله وحفروا له لحدا قليل العمق، وقد جعلوه هكذا قريب القرار في مثل تلك الأرض الباردة أرض ذلك القبو
ولقد توسلت إليهم أن يمنوا علي بسلوة لنفسي فيدفنوا جثمانه في بقعة يقع عليها ضوء النهار وهي فكرة سخيفة، ولكنها أوحت إلى نفسي أن قلبه الذي فطر على الحرية لن يجد حتى في ضجعة الموت راحة في مثل ذلك السجن
وكان أولى بي أن أكفي نفسي عناء هذا التوسل، فما أغنى عني منهم شيئاً، إذ ضحكوا في برود ثم وسدوه وسدوا عليه حيث سجنوه، وهناك رقد ذلك المخلوق الذي أجزلنا له الحب تحت أرض منبسطة لا ينبت فوقها عشب، ترتكز فوقها السلاسل المفرغة والأغلال نصبا ملائما لذلك الاغتيال!
- 8 -
ولكن الآخر، ذلك الفتى الحبيب الذي كان يشبه الزهرة، ذلك الذي أعززناه منذ أن رأت الوجوه عيناه، ذلك الذي كان يحمل صورة أمه في وجه صبوح. ذلك الطفل الذي تحب فيه الطفولة جميعاً، ذلك الذي كان أحب وأعز خيال إلى أبيه الشهير، والذي اصبح في السجن آخر ما بقي لأعنى به، والذي كنت من أجله أجهد أن أبقي على حشاشة نفسي، عسى أن يقلل ذلك من شقاءه وعسى أن تتاح له الحرية يوماً ما؛ أقول حتى ذلك الأخ أيضاً، ذلك الأخ الذي ظل إلى ذلك الوقت محتفظاً بروح ذاتية أو موحاة، غلب على نفسه في النهاية ورأيته يذبل كما تذبل الزهرة على غصنها يوما بعد يوم
يا إلهي! إنه لمما يبعث الرعب في القلوب، أن نرى الروح البشرية تنطلق مولية في أية صورة وفي أي موقف، ولقد رأيتها من قبل تنطلق في دم مسفوح، ورأيتها في البحر الثائر تجاهد الموج المنتفخ القاذف، ورأيت المضاجع المحتضرة مضاجع الذين أسرفوا على أنفسهم يشيع فيها الهذيان من شدة الهول، رأيت ذلك كله وما حوى من صور مرعبة، ولكن رزئي في أخي كان فاجعة.
لم يصحب موته هول مما أسلفت، وإنما أسلم روحه مستيقنا غير معجل، وتساقطت نفسه ومضى هادئا وادعا، أكثر نعومه في نحوله، وابرز جمالا في ضعفه؛ ذهب غير دامع المقلتين ولكنه عطوف رؤوف، حزين على من خلفهم وراءه؛ سار للموت وفي

وجنتيه نضرة بدت كأنها تهزأ بالقبر! ولقد ذهبت صبغتها في رقة وهدوء كما يتلاشى في السماء قوس الغمام؛ سار وفي عينيه بريق يكاد ومضه يضيء ذلك القبو
مات لم أسمع له غمغمة ولا أنة تحسر على هذا الذي انتابه قبل أوانه. لم أسمع سوى كلمات قليلة عن حياة هي خير وأبقى، وإشارة طفيفة إلى الأمل أراد بها أن يثيره في نفسي إذ قد غرقت في السكون، وأحسست بفقدان روحي في ذلك القفر الذي عظم عندي عن كل
قفر.
وأخيرا توانت وتضاءلت تلك التنهدات التي كان يحاول كتمانها، تلك التنهدات المنبعثة من هزال نفسه المتلاشية
أصخت بسمعي، ولكني لم اسمع شيئاً، فصرخت إذ ذهب الهلع بلبي، فعدت في وحشية المذعور ثم أدركت أني صرخت عبثاً؛ ولكن هلعي ما كان لينهنه بزجر، لذلك عاودت الصراخ واحسبني سمعت صوتا، وإذ ذاك فصمت سلسلتي في وثبة قوية وأسرعت إليه ولكنني لم أجده!
وما فعلت سوى أن رحت أحدق في تلك البقعة القاتمة، وما أحسست سوى أني مازلت حيا وأن رئتي تتنفسان ذلك الهواء الرطب اللعين هواء القبو.
وهكذا انكسرت تلك الحلقة التي كانت تصلني باللانهاية، والتي كانت تربطني بتلك السلالة المضمحلة التي انحدرت منها؛ انكسرت في ذلك المكان المهلك تلك الحلقة الوحيدة آخر الحلقات واعزها جميعا لدي. وبات أخواي أحدهما تحت الأرض والآخر فوقها وكلاهما لا ينبض فيه عرق
أخذت بيدي تلك اليد التي تدلت هامدة، ولكن يدي وا حسرتاه كانت مثلها في برودتها.
ولم أعد أجد في نفسي القوة لأن أتحرك أو أناضل، ولكني على الرغم من ذلك أحسست أني ما زلت حيا، وتملكني ذلك الشعور المضطرم الذي لا يقر، ذلك الشعور الذي يكون مبعثه إدراكنا أن الشيء الذي أولياه محبتنا لن يعود أبداً إلى ما كان عليه.
وليت شعري لم عجزت عن أن أضع حدا لتلك الحياة؟ لم يعد يربطني بالأرض أمل. ولكن ظلت لي فيها عقيدتي وهي التي حالت دون أن اقتل نفسي.
- 9 -
أما ما كان من أمري بعد ذلك، فلست أتبينه تماماً. لا أذكر سوى أنني فقدت شعوري أولا بالضوء ثم بالهواء، وأخيراً بالظلمة نفسها. لم أعد أفكر في شئ أو أحس شيئاً، ووقفت حجراً بين الأحجار. كنت كالصخرة الجرداء يغشاها الضباب، إذ لم يكن حولي سوى الفراغ والكآبة والظلام. لم يعد ثمة ليل ولا نهار؛ حتى ولا ذلك النور البغيض نور القبو الذي كان ينفر منه بصري الكليل، لم يبقى إلا الفراغ الذي فني فيه الكون كله فلا أحس
سواه، والوجود الذي لا يرتبط بمكان في معناه!
لم يعد ثمة سماء ولا أرض، ولم يعد ثمة ثبوت ولا تحول ولا زمن ولا خير ولا شر، لم يكن هناك سوى السكون، والتنفس الذي لا يبعث حركة فلا هو إلى الحياة ولا هو إلى الموت.
كنت في بحر من الخمود الراكد تغشاه الظلمة، لا تدرك له نهاية، ولا يسمع فيه صوت، ولا تحس فيه حركة!
- 10 -
طافت بعقلي بغتة بارقة من النور؛ كانت غناء حلوا تغنى به طائر، غناء انقطع ولكنه ما لبث أن عاد؛ ولقد كان أجمل سجع سمعته الآذان! طربت له أذناي حتى دارت عيناي تتبعان هذه المباغتة السارة، في تلك اللحظة لم تستطيعا أن تريا إني حليف الشقاء،
ولكن حواسي عادت في خطا كئيبة إلى طريقها التي الفتها، ورأيت جدران القبو وأرضه تدور فتلتف حولي في بطئ كما كانت من قبل، ورأيت ذلك البصيص المنبعث من الشمس يزحف كما كان يزحف من قبل؛ بيد أني رأيت ذلك الطائر في تلك الكوة التي دخل منها الشعاع يقف مشغوفاً أليفاً كما لو كان فوق شجرة، بل اكثر ألفة مما لو كان هنالك. كان طائراً جميلاً ذا جناحين أزرقين وغناء جم المعاني؛ ولقد خيل إلي إنه تغنى بتلك المعاني جميعاً من أجلي! وما وقعت عيناي من قبل على طائر مثله ولن تريا بعد شبيهاً له أبداً. وبدا لي كأنما كان يعوزه إلف كما كان يعوزني إلف، ولكنه لم

يصل إلى نصف ما كنت فيه من وجد ووحشة. وكذلك بدا لي إنما قد جاء ليهبني حبه، على حين لم يبق لي من يهبني ثانية مثل ذلك الحب. ولقد جعلتني هذه البشرية المنبعثة من حافة القبو أشعر ثانية وأفكر ولست أدري أكان أطلق سراحه حديثاً أم أنه كسر قفصه وجاء ليطل عليّ قفصي! ولكني أيها الطائر الجميل وقد عرفت معنى الأسر لن أستطيع أن أريده لك!

وليت شعري لعله زائر من الفردوس تنكر في جناحين! ذلك إني كنت أفكر أحياناً أنه ربما كان روح أخي هبطت إلي. ولتغفر لي السماء تلك الفكرة، تلك اللحظة التي جعلتني أذرف الدمع وجعلتني ابتسم ولكنه في النهاية ولى بعيداً عني، وإذن فقد كان من بني الفناء؛ عرفت ذلك حق المعرفة. وإلا فما كان ليذرني هكذا في وحدة أحسستها ضعفين: وحدة كنت فيها كما يكون الجسد في أكفانه، أو كما يكون السحاب المنعزل: ذلك السحاب الفريد الذي يتراءى في اليوم الضاحي حينما تكون نواحي القبة صافية كلها فيبدو في الجو كعبوس لا موجب لظهوره والسموات طلقة والأرض في بهجة

- 11 -

طرأ على حالي نوعاً من التغير إذ أصبح آسري ذوي رحمة؛ ولست أدري ماذا جعلهم كذلك وقد ألفوا مناظر الشقاء، ولكن ذلك ما حدث. بقيت سلسلتي المكسورة منفصمة الحلقات. وكانت الحرية عندي أن أتجول في صومعتي من جانب إلى جانب، وأن أقطعها طولاً وعرضاً، وأن أطأ أرجاءها جميعاً، وأدور حول كل عمود، ثم أعود إلى حيث بدأت، لا أتجنب وأنا أطأ الأرض بقدمي إلا ذينك القبرين العاريين: قبري أخوي. ذلك أني كنت إذا ظننت أن وطأة على غير قصد مني قد أهانت مضجعهما الخافض، ينبعث نفسي لاهثاً كثيفاً، وينقلب فؤادي المتحطم ضريراً عليلاً.

- 12 -

تسلقت الحائط ولكني ما أردت الهروب. فقد غال الردى كل من كانوا يحبونني من البشر، ومن ثم صارت الأرض كلها عندي سجناً أكثر سعة مما أنا فيه، لم يكن لي ولد ولا والد ولا ذو قربى، ولا شريك فيما ألاقي من شقاء.

ذكرت ذلك فاغتبطت به لأن فكري في هؤلاء قد أورثني الجنون، ولكني كنت أتطلع إلى تسلق الجدار حتى النوافذ التي تعترضها القضبان. كما كنت أتطلع إلى أن أصوب بصري مرة أخرى في هيام إلى تلك الجبال الشاهقة

- 13 -

رأيتها لما تزل على ما كنت عليه فلم تنل منها يد التغيير كما نالت مني في الأغلال؛ ورأيت الثلج الذي يكلل هاماتها منذ آلاف السنين كما رأيت البحيرة الواسعة الطويلة اسفل منها، ونهر الرون الأزرق في أشد فيضه وسمعت جارف السيل يتلاطم ويندفق فوق الصخر المتشقق والجذوع المتحطمة؛ وأخذت عيناي المدينة النائية البيضاء المنازل، كما لمحت القلاع التي تفوقها ابيضاضاً تجري مسرعة؛ ثم وقع بصري على جزيرة صغيرة

تراءت حتى لي أنا باسمة، ولم يلح سواها أمام نظري؛ جزيرة صغيرة خضراء ظهرت كأنما لا يزيد عرضها على ذلك إلا قليلا، قامت فيها ثلاث شجرات باسقات، وكانت تهب عليها نسمات الجبل وتجري بجوارها المياه، كما كانت تنمو فوقها زهرات جميلة اللون عاطرة الأنفاس.

ورأيت فيما رأيت السمك يسبح إلى جدران السجن؛ ولقد بدا للعين مرحا: وحداته وجماعاته؛ وأبصرت النسر يركب متن الريح الهائجة، ويخيل إلي إني لم أره من قبل في مثل تلك السرعة. وعندئذ اخضلّت عيناي بدمع جديد وتبلبل خاطري، وودت لو أني لم انطلق من تلك السلاسل، ولما نزلت أحسست كأن الظلمة في مأواي الكدر تقع عليّ كأنها حمل ثقيل: كانت كأنها القبر ينطبق عليّ من جهدنا في خلاصه، وأحس بصري وقد انقلب إلى هكذا محزوناً كأنه يطلب راحة كراحة القبر.

- 14 -

ولست ادري كم لبثت بعدها في ذلك القبو، ربما كانت شهوراً أو أعواماً أو أياماً. لم أحص لها عدداً ولم ألق إليها بالاً ولم يك ثمة من أمل يرفع عيني ويمسح عنهما القذى المحزن. وأخيراً اقبل الرجال ليطلقوني من الأسر، فلم أعن أن أعرف ما سبب هذا

ولا حفلت أين اذهب، فلقد تساوى في النهاية عندي الفكاك والقيد. وتعلمت أن أصالح على اليأس نفسي. ولذلك حين اقبلوا يطلقونني وحين ألقيت جميع السلاسل جانباً، أحسست أن تلك الجدران السميكة قد صارت لي معتكفاً وأصبحت علي وقفاً؛ وكأني شعرت نصف شعور ساعتئذ إنهم أتوا ينتزعونني من وطن ثان. لقد اتصلت بيني وبين العناكب أسباب الصداقة، وكنت أراقب عملها الدائب، كما كنت أرى الجرذان في نور القمر. وليت شعري ماذا يدعوني أن أحس أنني دون هؤلاء جميعاً؟ لقد صرنا آلافاً جمعتهم وحدة المكان

وكنت أنا فيهم ملك الجميع، ولي الحول أن اقتل أنى شئت! ولكنا تعلمنا أن نعيش معاً هادئين، وذلك لعمري من عجيب الأمور! في ذلك السجن توثقت الألفة بيني وبين الأغلال ذاتها. وهكذا ينتهي بنا طول الاعتياد إلى ما نصير إليه فهأنذا الذي لاقيت ما لاقيت قد تنهدت حينما عادت حريتي إلي!

الخفيف

الفنون

اكروبوليس أثينا

ومعبد بارتنون:

للدكتور أحمد موسى

يرى الواقف في وسط أثينا على بعد ليس بقليل، مرتفعاً أشبه بتل منبسط القمة تعلوه مبان ظاهرة، أكثرها ارتفاعاً معبد بارتنون.

والقاصد إلى هذا المرتفع يعرج إلى جهته الغربية ليستطيع الوصول إليه، فتنتهي به الطريق إلى مدخل بروبيلين المعتبر من أكبر الأعمال البنائية في أثينا، مبني كله من الرخام بين سنة 437 وسنة 432 ق. م، على آثار بناء قديم، تحت إشراف المهندس منيسيكلس وأستغرق بناؤه زهاء الخمس سنوات. وهو بحالته الحاضرة لا يزال يعطي المشاهد أنموذجاً فذاً لعصر البناء الفني في أثينا، فضلاً عن أنه مثال رائع لجمال البناء على مر القرون.

وهو بوضعه أشبه شيء بجبين الحسناء في نظر المتجه إلى اكروبوليس، لأنه في مقدمة ما يرى الداخل إلى المرتفع، يمر منه للوصول إلى المعابد.

وكانت شهرة بروبيلين وبارتنون شهرة فاقت كل وصف في ذلك الحين، ومع أن عمل التجديد به لم ينته بعد، إلا أن الزائر لأكروبوليس لا يمر منه دون أن يأخذه العجب من عظمة إخراجه وإتقان بنائه وجمال أجزائه.

ويتكون الجزء الأوسط منه من مداخل بعضها خلف بعض على جانبيها أعمدة من الطراز الدوري تحمل سقفاً جملوني الشكل يبدأ بإفريز شمل نقوشاً ورسومات دون تماثيل، كما ذكر ذلك كل من سبن وهيلر & اللذين زاراه سنة 1675.

ويلاحظ المشاهد لمدخل آثار الألوان وماء الذهب على أجزاء من رؤوس أعمدته، كما يرى أن الردهتين الأمامية والخلفية تتجهان بستة أعمدة دورية إلى الشرق والغرب، وبينهما يقع المدخل بفتحات كبار كانت في ذلك الحين مما يمكن إغلاقه حسب الرغبة بواسطة أبواب أشبه بأجنحة.

وعمل المدخل المؤدي إلى الباب الوسط بحيث يتصل بالردهة الغربية، وله أيضاً ثلاثة أعمدة يونية الطراز على كلا الجانبين، وتتصل الصالة الداخلية من الشمال والجنوب ببناءين صغيرين زاداهما قوة وهيبة جعلت من المجموع الكلي لبروبيلين فخامة ظاهرة، وطرازاً أنيقاً

أما البناءان الصغيران فيسمى الأيمن منهما بينا كوتيك لأنه كان شاملا لمجموعات صور الفنانين في ذلك الحين. والأيسر أصغر بكثير من الأيمن نظراً لما طرأ على العمل من التعطيل بسبب حرب البلوبونيس ولمعارضة حزب الكهنة في امتداد البناء خشية أن يصل إلى حدود معبد أثينا نيكا وارتميس برورونيا فيقلل من شانهما، كلاهما يكمل الجمال الإنشائي لبروبيلين. (أنظر ش1 من المقال السابق)

وهناك ردهات أخرى لم يتم بناؤها كما كان مفروضاً وفق التصميم الذي وضعه منيسكليس للأسباب المشار إليها.

يسير المشاهد بعدئذ إلى معبد بارتنون الخالد الذي يعد أبهى بناء فني في العصر القديم كله، فهو وحيد في مظهره العام وأبهة بنائه وعظمة تجسمه وضخامته دون

خروج على أصول الانسجام في أكمل معانيه.
وإذا شاهدت كل آثار أثينا فلن ترى من بينها بناء يفوق بارتنون؛ ومع أن الفارق بين مظهره الحالي ومظهره القديم شاسع جداً إلا أنه لا يزال يشع جمالا خالداً يملأ الروح بهجة ويفعم العقل روعة.
يقع بارتنون في وسط جنوب المرتفع، فهو بموقعه هذا يشغل نقطة أشبه بمركز قوس دائري يلتف حوله كل ما قام على المرتفع من مبان زادت في عظمت وقوته (أنظر ش1 من المقال السابق).
كان أساس الحوائط وما يعلوه قليلاً من الرخام الخالص عندما هاجم الفرس أثينا وأشعلوا النار بالمرتفع، ولكن أدركه عصر بركليس فجدد بناؤه وجعل كله من الرخام.
قام بركليس ببناء هذا المعبد كما تولى بنفسه الأنفاق على تكاليفه. أما أستاذا بنائه فكانا اكتينوس وكلليكراتس
وتعد حليات البناء الخارجية من أروع القطع الفنية التي عملها الفنان العظيم فيدياس فكانت معجزة سميت باسمه إلى اليوم، وضع تصميمها واشرف على عملها واشترك فيها بيده ونفخ فيها من روحه. كان فيدياس صديقاً مقرباً لبركليس، فأفادت هذه الصداقة إلى حد بعيد في إخراج معبد بارتنون على هذه الصورة من الجمال والروعة.
أقيم هذا البناء كما تشير الكتابات الخاصة به في القرن الخامس عام 438، وافتتح عام 447 ن. م.، ومن هذا يتضح أنه تم في عشر سنوات بعد مجهود جبار استغرق كل أيام السنين العشر. وإذا علمنا أن هذه الأعجوبة البنائية الرائعة شملت 62 عمودا كبيرا و36 عمودا صغيرا وحوالي الخمسين تمثالا بحجم الإنسان الطبيعي لتحلية الموضعين المثلثي الشكل من الناحية الأمامية والخلفية المحمولة على الأعمدة لتكوين واجهتي السقف الجمالوني وبأفريزه البالغ طوله 160 مترا حول البناء من نواحيه الأربع، واثنين وتسعين مستطيلا صغيرا انحصرت بين رؤوس الأعمدة وقاعدة السقف فكونت الأفريز؛ وأخيراً تمثال أثينا الذي بلغ ارتفاعه ثلاثة عشر متراً وصنع كله من العاج والذهب؛ إذا تمثلنا كل هذا الإنتاج الفني الهائل في بناء واحد تناسقت كل أجزاءه وانسجمت كل مشتملاته، وجدنا أنفسنا أمام عظمة قل أن يجود الزمان بمثلها مرة أخرى.
انظر إلى الأعمدة المتكررة دون إملال ودون تشابه (ش - 1)، وتصور إلى أي حد وصل فنانو الإغريق، والى أي درجة بلغت القدرة في الإنتاج الفني الذي يعد بحق آية من آيات القدرة الإنسانية في أبهى ما وصل إليه تفكيرها وشعورها بالوجدان والجمال.
والأعمدة كما ترى عملت مسلوبة من أعلاها، كما أنها لم تكن مستديرة صماء حفرت على طولها قنوات متوازية سارت على ارتفاع العمود فزادته حسناً وأكسبته حياة.
حملت الأعمدة السقف الجمالوني الذي لم يبن فوقها مباشرة، بل ارتفع قليلا ليترك مكاناً إلى المستطيلات الصغيرة الملتفة حول محيطه الخارجي البالغ طوله 160 متراً كما سبق القول. وترى على هذا المحيط الإفريز الشامل لتلك المستطيلات المملوءة بالمناظر البارزة الأخاذة لبصر المشاهد المدقق. اشتملت كلها ما يمثل كثيراً من حياة الإغريق العامة والخاصة. والمجال هنا لا يسمح بالتوسع في التكلم عنها أو الإتيان بمعظم صورها. ولما كانت دراستنا في هذا المقال إجمالية، فإننا نأتي ببعض هذه القطع.
فإذا تأملت المتسابقين بخيولهم (ش2) أخذتك روعة غريبة تملك عليك مشاعرك عندما تعلم
أن هذا ما استطاع الفن الإغريقي إبداعه قبل المسيح بخمسة قرون.
انظر إلى الإنشاء الكلي للقطعة وتصور أن هذا منحوت على الرخام ومع ذلك ظهر بهذه القوة التي مثلت صورة تنبض بالحياة. انظر إلى الخيل وهي جامحة والى تفاصيل أجسامها وهي في غاية من الدقة، والى بروز عضلاتها التي لا تخالف أصول التشريح؛ ثم تأمل الفرسان واذكر قدرة فيدياس في عظمة إخراجه لهم دون تناظر ودون تماثل، لاشك ترى أن هذا دليل الغنى الفني إلى ابعد حدوده. تأمل عيون الفرسان وعيون الخيل تر اليقظة الكاملة في الأولى والوثوب التام في الثانية.
والصورة 3 أوضحت لنا أربع نساء تحمل كل منهن آنية، ظهرت أجسامهن كاملة مغطاة إلى أعناقهن بملابس امتلأت بالحياة فالتعاريج والتفاصيل التي شملتها هذه

الملابس لا ترى لها نظيراً في قوة الإخراج ولم يترك الفنان رؤوسهن متشابهة، بل جعلها تختلف الواحدة عن الأخرى مسجلا بذلك الحالة كما كانت، فضلا عما ينجم عن ذلك من تقوية درجة الاستمتاع النظري، فجعل اليمنى تربط الشعر برباط رفيع، على حين جعل الثانية بذؤابة صغيرة ظهر بروزها من خلف رباط الرأس، وتركت الثالثة شعرها مسترسلا على ظهرها، أما رابعتهن فقد أخفت الشعر تحت غطاء هرمي الشكل.

أما تفاصيل الوجوه فهي مع كونها تعبر عن جمال المرأة الإغريقية فإنها تمثل الخشوع إلى حد بعيد؛ إنهن يحملن ما بأيديهن بقصد التوجه إلى المعبد. أما نبل الإخراج فهو ظاهر من طريقته في تكوينهن الواحدة وراء الأخرى في انسجام.

وصورة حاملي الأواني (ش4) تريك، فوق قوتها الفنية البعيدة إلى أي حد استطاع المثال أن يجعل من حركة سير الثلاثة رجال صورة رائعة لقدرته على الإخراج - تأمل صدر الرجل الأوسط تر الفنان لم يتركه دون حياة، فوضوح خطوط العضلات وبروزها مع ما تراه شاملا للقطعة من حسن التصوير ودقة الثنايا، كل هذا جدير بالإعجاب. إن غنى مادة فيدياس ظاهر واضح عندما تحقق من الكيفية التي سار عليها المثال في تكوين ذراعي كل رجل وكيفية حمله الآنية فوق رأسه وسندها بيمينه.

ومن قطع بارتنون الرائعة أيضاً اللوحة (ش5) حيث ترى إلى أقصى اليسار رجلا جالسا يتحدث إلى شاب بجواره. مشيراً له بيسراه إشارة المستمر في الحديث، وهو ينصت إليه،

وإلى اليمين ترى ولداً عارياً يستند إلى ركبة أمه وهي تشير إليه لافتة نظره إلى شيء معين، وكأن مجاورتها تشترك معهما في النظر، وهي في مجموعها أوضحت ما أراده الفنان من تمثيلها آلهة العدالة.

أما صورة تيسويس (ديونيزوس) الجالس عارياً فهي وحدها درس كامل لجمال الإنشاء وصدق التعبير وقوة الإخراج، فكل ما برز فيها من تفاصيل تشريحية مملوءة بالحياة وان المتحف البريطاني ليفخر بوجود هذه القطعة وغيرها من تماثيل بارتنون التي لا تزال إلى الآن النماذج الفذة لفن النحت.

ومهما يكن من شيء فإن بارتنون أعظم بكثير من أن يسجل بين سطور لا يتجاوز ما جاء فيها قطرة في محيط فنه وجماله.

(لها بقية)

أحمد موسى

من هنا ومن هناك

الاثنولوجيا الجديدة وهر هتلر

الأثنولوجيا أو علم الأجناس البشرية هو علم حديث لا يزيد عمره على الخمسين أو الستين سنة، وأشهر العلماء الذين ساهموا في مباحثه هم هكسلي وولفرد بلنت وجريفث تايلر وسير. ف. بتري والأستاذ ج. ف هورابين الذي وضح بالرسوم خلاصة التاريخ لولز ثم الأستاذ العلامة إليوت سميث الذي يتعصب لمصر القديمة ويعترف أنها صاحبة الفضل في تثقيف العالم. ولقد كانت الاثنولوجيا القديمة تحصر الأجناس البشرية في السلالات الثلاث التي تنتسب إلى أبناء نوح وهم حام وسام ويافث، وقد نسخت الأثنولوجيا الحديثة تلك النظرية البالية وأصبحنا نرد الشعوب في أقاصي الأرض إلى أصول أقرب إلى الحقيقة وإن يكن الجدل لم ينته بعد حول هذه الأصول

وقد أثار العداء الناشب بين هر هتلر وبين اليهود الجدل من جديد حول الأصول الأثنولوجية وكانت النتيجة الهائلة أن طرد اليهود من ألمانيا وأن حرمت ألمانيا التزاوج على أبنائها من غير الآريين، وهي تخص بهذا التحريم الشعوب السامية وإن تكن تقصد - كما صرح ساستها - أنها تعني اليهود من بين الشعوب السامية قاطبة!!

وبعد أن نهضت اليابان نهضتها الحاضرة أصبح علماء الأثنولوجيا في شك مريب من القيم الذهنية التي كانوا يخصون بها بعض الشعوب. ونحن لا تعنينا هذه القيم الآن وإنما أردنا أن نقدم للقارئ خلاصة مفيدة عن الأجناس التي تعترف بها الأثنولوجيا الحديثة

1 - فهم يرجعون الأصول الإنسانية إلى العصر الباليوليتي الأقدم واشهر أناسيه هم: إنسان هيدلبرج والإنسان النيندرتالي وإنسان بلتدن ثم الإنسان الراقي الذي هو الجد الأول للشعوب

2 - ثم يأتي العصر الباليوليتي الحديث وتنقسم أناسيه إلى مجموعتين كبيرتين:
المجموعة الكروماجنارديه والمجموعة الجريمالديه وهذه المجموعة هي مجموعة الزنوج وقبائل البوشمان والأستراليين والطسمانيين والأندمانيين
3 - أما المجموعة الجريمالديه فهي مجموعة الجناس الراقية وتتفرع إلى ثلاث شعب: الأجناس النورديه والأجناس السامية والأجناس المغولية
4 - على أن بعض العلماء يطلق اسم (الجنس القوقازي) على سكان أوروبا وغرب آسيا، ويقسم القوقازيين إلى (نورديين) وهم أهالي شمال غرب أوروبا ثم (أيبريين) وهم أهالي البحر البيض و (ألبيين) وهم سكان اللب والجبال الممتدة منها
5 - وهناك أجناس مولدة (خلاسية) من النورديين والأيبريين أهمها الأيرلنديون والقلتيون والغاليون
6 - وإذا ذكر الآريون فإنما يجيء ذكرهم عند الكلام عن الفيلولوجيا (التي تعني علم فقه اللغات) ويشملون الإنجليز والفرنسيين والألمان والأسبان والإيطاليين والإغريق والروس وأهل أرمينيا. والفرس وشمال ووسط الهند ويسمون - أو
7 - وتشمل شعبة الساميين المصريين والعرب والشآميين والفرس والساميريين والدرافيد (الهند) والسياميين وأهل ملايو
8 - أما شعبة المغول فتشمل الهون والترك والمنغوليين والإسكيمو والأمرنديين واليابانيين والصينيين والتتار
9 - ويتكون من أجناس المجموعة الراقية الكروماجنارديه مزيج وسط يطلقون عليه (البرونيتيين) وهم شعوب الثقافة الهليوليتية
ولا يحسبن القارئ أن هذه الأجناس صافية مستقلة بأصولها محتفظة ببذرتها فقد تزاوجت كثيراً وتداخل بعضها في البعض الآخر. ومن أنفع الكتب التي تفيد المستزيد في هذا الباب كتاب الأستاذ إليوت سميث (هجرة الثقافة في العصور القديمة)
د. خ
لويجي بيراندللو:
مات الأديب الإيطالي العظيم لويجي بيراندللو منذ شهرين فخسرت فيه إيطاليا ملكا أكبر من الحبشة! وإمبراطورية أوسع من إمبراطورية سبط يهوذا. وشتان بين فتح مغتصب، وأدب خالد مكتسب!
لقد استطاعت إيطاليا أن تساهم في الثقافة العالمية منذ القدم إلى اليوم بطائفة من الأدباء الأفذاذ الملهمين، لولاهم لتأخر موكب الإنسانية، ولتباطأت النهضة (الرنيسانس) عن تاريخها منذ خمسة قرون، ولاستطالت العصور الوسطى، ولتبدل مجرى التاريخ. وهذه الأسماء البارزة في تاريخ الفكر الإنساني: فرجيل، هوريس، شيشرون، سنكا، دانتي، بوكاشيو، جاليليو، كوبرنيكوس رفائيل، سانازارو، كارو، كاسا، كاستليوني، ليوباردي، بترارك الخ. هي أسماء عظيمة لاشك، وقد ضم إليها ورقد إلى جانب أصحابها لويجي بيراندللو فزاد التراث وعظمت إيطاليا
ولد براندللو في جيرجنتي إحدى مدائن صقلية وشب في أسرة كثيرة المتاعب والخصومات، وقد ماتت أمه فتزوج أبوه وكان أباً شهوانياً مولعاً ببنات الهوى، وقد ظل متصلا بابنة عمته الأرمل برغم زواجه، وقد حملت منه سفاحاً فأرضاها بهبة مالية على أن تهاجر إلى بلد آخر
ويظهر أثر هذه الحياة العائلية المضطربة في بيراندللو، وقد سجل فضيحة أبيه في درامته (إكساء العراة) حيث يصور العلاقة الأثيمة بين الفتاة أرزيليا ومخدومها الذي شغف بها حباً واتصل بها ثم أولدها. فلما حاولت الانتحار ولم تستطعه ألحف عليها مخبرو الجرائد ليتعرفوا سبب محاولتها الانتحار حتى اضطرت أن تعترف لهم بكل شيء ثم أفلحت آخر الأمر في أن تنتحر.
وفي درامته (إيف - و - لين) يصور لنا شاباً مالياً يتزوج من الفتاة الجميلة (إيفلين) ثم يقع في عسر مالي فيهرب ويتركها وقد ولدت منه طفلاً جميلا - وتتصل إيفلين بمحامي زوجها فتتزوج منه وتلد له طفلة بارعة الجمال. . . وتمضي الأيام. . . ويعود الزوج الأول وقد هاجه الشوق إلى زوجته ولكنه يجدها متزوجة محاميه وقد ولدت له هذه الطفلة - وكان كل منهما يدللانها فيدعوها الأول (إيف) ويدعوها الثاني (لين) - وهنا

تظهر براعة بيراندللو في تصوير العواطف المتباينة في قلب هذه المرأة وحيرتها بين حبها القديم وواجباتها الزوجية الحاضرة، وبين حبها لطفلها الأول الذي اصبح اليوم شاباً وطفلتها الأخرى من زوجها الآخر. . . ثم لا يسعها إلا الرضى بما قسم لها. . .

ولم ينبه ذكر بيراندللو إلا بعد إصداره درامته الخالدة (ماتياس باسكال) والتي يصور فيها حياة رجل ضج بالحياة وتبرم بزوجه وحماته فهرب منهما واعتزم الرحيل إلى الدنيا الجديدة. ولكنه مر في طريقه على مونت كارلو بلد الميسر والمقامرة فرأى أن يجرب حظه

على الروليت فربح أرباحاً طائلة - ولكنه قرأ في الجرائد أن جثة غريق ظهرت في النهر وأنها لرجل يدعى (ماتياس باسكال) فضحك ماتياس. وهنا خطر له أن يستغل الحادث وأن يعيش عيشة رجل مجهول طليق من الأوضاع الاجتماعية ولكنه سرعان ما يفقد شخصيته ويحس كأنه ميت حي!

وبعد صيت بيراندللو فعين أستاذاً للآداب في جامعة رومة، ولكن مهنته الجديدة زادت في متاعبه، فقد كان يعلم التلميذات في الجامعة وكن ظباء كلهن، واضطرمت الغيرة في قلب زوجته، وكثيراً ما اتهمته بميله إليهن وغرامه بهن؛ وغلى هو في التبرؤ إليها ولكنها ازدادت حقداً عليه بزعم غلها يده في نفقته الشخصية حتى لم تكن تسمح له إلا بدريهمات لا تغني. . . ثم تضاعفت غيرتها وساورتها الشكوك فكرهت أبناءها وقلبت بيتها جحيماً لا يطاق، فاضطر بيراندللو آخر الأمر أن يلجأ بها إلى مستشفى للأمراض العقلية

وقد أرسل بولديه إلى الميدان في الحرب الكبرى فأسر الأكبر وجرح الأصغر، ثم وصل إليه أبوه المفلس الأعمى من صقليه، فزادت أشجانه وتضاعفت متاعبه ولاسيما بعد أن لفظت الألسن وولغت في عرض أبنته التي اضطرت أن تقضي بقية حياتها في دير بعيد منفردة بعد أن فشلت في الانتحار غير مرة. . . . . فمن هذه الفذلكة السريعة يدرك القارئ كيف أثرت تلك الحياة المشجونة القلقة التاعسة في كاتب إيطاليا العظيم، حين أصدر درامته الخالدة العبقرية (ستة أشخاص يبحثون عن مؤلف) والتي ملأها بكل مخاوفه وأحزانه

وقد تأثر بيراندللو بالكاتب الروسي دستوئفسكي، وبين دراماته وقصص دستوئفسكي صلات وثيقة، ولا نكاد نقرأ قصة أو درامة لبيراندللو إلا ونلمح أثر البطل راسكو لنيكوف ومناظر (بيت الموتى) ماثلة فيها - وقد تأثر كذلك بالسيكولوجي النمساوي فرويد وقد غادر منصبه في الجامعة سنة 1922 ليتفرغ للمسرح، وقد كان يصحب فرقته التمثيلية إلى مختلف العواصم الأوربية والأمريكية ليباشر إخراج دراماته بنفسه

ومن أخلد دراماته وقصصه: هنري الرابع - و - أنت تضحك - وزوجها - كوميديا الموت - وحصان في القمر - والفخ - وشهوة الشرف. . . الخ.

ومما يؤخذ على بيراندللو إغراقه في الخيال وتجزئ الشخصيات والغموض الشديد في بعض مواقف دراماته المملوءة بالمنازعات

وقد نتناول بعض دراماته بالبحث والتحليل في إعداد تالية

د. ح

البريد الأدبي

المصطلحات العسكرية في مجمع اللغة العربية:

تألفت في المجمع اللغوي الملكي لجنة لوضع كلمات عربية للمصطلحات العسكرية المستعملة في الجيش من حضرات الأساتذةالأب انستاس الكرملي وحسن حسني عبد الوهاب باشا والشيخ أحمد السكندري وسيادة حايم ناحوم أفندي ومنصور فهمي بك، وقد روعي في تشكيلها أن تظم بعض ممثلي الأقطار العربية الأخرى للاستئناس بما اتبع في البلاد الأخرى ورغبة في توحيد المصطلحات في جميع الأقطار العربية.

ومما يذكر أن بعض هذه الأقطار مثل العراق عرب تلك المصطلحات منذ مدة وقد حصلت اللجنة على بيان بالمصطلحات العربية في تلك البلاد. وكان المجمع قد كتب إلى وزارة الحربية لموافاته بالمصطلحات العسكرية المستعملة في الجيش الآن والتي ينظر أن تستعمل فيه بعد زيادته وإعادة تنظيمه، وقد الفت وزارة الحربية لجنة لموافاة المجتمع بما يطلبه. وقد أرسل المجمع إلى وزارة الحربية خطاباً طلب فيه انتداب ضابط ملم باللغة العربية ليحضر الجلسات التي يعقدها المجمع للنظر في وضع

عبارات عربية لعبارات التعاليم العسكرية
الاجتهاد في الأصول
قرأت ما كتبه الأستاذ علي الطنطاوي في الرد على ما ذهبت إليه من تجويز الاجتهاد في الأصول كالفروع، لأن النبي صلى الله عليه وسلم جعل للمجتهد أجرين إذا أصاب وأجراً واحداً إذا أخطأ، ولم يفرق بين أصول وفروع، بل أطلق الأمر إطلاقاً، وفتح باب الاجتهاد في الأصول والفروع معاً
وقد أنكر الأستاذ هذا أشد الإنكار لأنه يخالف ما استقر عليه الرأي بين المتأخرين من علماؤنا في الاجتهاد، ويخالف تعريفهم له بأنه استنباط الفروع من الأصول، فيخرج من هذا المسائل الكلامية لأنها ليست من الفروع، ولأن الحق فيها واحد فمن أخطأه فهو آثم، فإن كان الخطأ فيما يرجع إلى الأيمان بالله ورسوله فالمخطأ كافر
وما كنت أظن أن الأستاذ يؤاخذني بهذا بعد أن قرأ ما كتبته في موضوع الاجتهاد، وهو موضوع سأعود إليه بعد في مجلة الرسالة الغراء، فإني فيما كتبت في هذا الموضوع خارج
على أولئك العلماء من المتأخرين، فلا يصح أن يحتج علي برأيهم في الاجتهاد، وتقييدهم له بالفروع دون الأصول
فالاجتهاد عندي بذل الجهد في استنباط الأحكام من النصوص الشرعية، اعتقادية كانت تلك الأحكام أو عملية
وليس بصحيح ما ذهب إليه الأستاذ من أن المخطئ في المسائل الكلامية آثم، لأن الخلاف بين أهل الكلام ليس مقصوراً على الخلاف بين جماعة أهل السنة وغيرهم من الفرق التي يقال إنها آثمة، فهناك خلاف أيضاً في علم الكلام بين أهل السلف والخلف من جماعة أهل السنة، وهناك خلاف أيضاً بين الخلف من الاشعرية والماتريدية، وهو خلاف لا أثم فيه لقيامه على الاجتهاد، وأنا لا أزيد على هذا إلا أني لا افرق فيه بين أهل السنة وغيرهم
عبد المتعال الصعيدي
كتاب سياسي خطير
صدر أخيراً بالإنكليزية كتاب سياسي عنوانه (عند الصفر) بقلم رتشارد فروبند وهو كاتب إنكليزي من اصل نمسوي، عرف أخيراً بقوة كتاباته السياسية وحسن تقديره للحوادث والنتائج؛ ويتناول المؤلف في كتابه مواطن الخطر في أوربا الحالية وفي أفق السياسة الدولية بصفة عامة؛ ولا يعنى الكاتب بالنظريات والمبادئ النظرية، ولكنه يعنى بنوع خاص بالحقائق العملية وبالحوادث الواقعة؛ وهو يعلق أملا ضئيلا على عصبة الأمم وعلى مستقبلها وما يمكن أن تؤديه في إنقاذ العالم من اضطرابه الحالي.
ويتحدث عن كل مسالة وكل دولة في أوروبا، وعن الحوادث والقوى التي تضطرم بها أفريقية والشرق الأقصى في الوقت الحاضر؛ وهو أكثر ميلا إلى التشاؤم، ولا يرى في النظم والمجتمعات الحالية سوى معترك من الأنانية القومية. ويخشى أن يسفر هذا الاضطراب عند أية لحظة عن الانفجار الذريع الذي يحمل العالم إلى مصير كله الويل والدمار
ويعنى المستر فروبند بمركز ألمانيا الهتلرية بنوع خاص، ويرى أنها تمثل الآن طوراً من أطوار الطموح والتوسع، لابد له أن ينفجر آجلا أو عاجلا؛ ومن حسن الحظ أن ميول هتلر الشخصية وبغضه المأثور لروسيا والبلاشفة يحول دفة المعترك اليوم إلى جهة الشرق وإلى
الجنوب الشرقي؛ ولكن إذا مات هتلر، أو إذا استطاعت روسيا أن تسحق تحديه، فقد تتجه ألمانيا إلى ناحية أخرى، وقد تتجه إلى الإمبراطورية البريطانية. ويرى مستر فروبند أن ألمانيا الهتلرية قد بدأت بالفعل تتجه إلى مناوأة المصالح البريطانية في كثير من المواطن، وأن السياسة الإنكليزية تسيء صنعاً إذا هي لم تعتبر بهذه الحقيقة وآمنت بوعود هتلر وتأكيداته؛ وعلى أي حال فإن المصاعب الداخلية التي تتخبط فيها ألمانيا الآن كفيلة بأن تشحذ سياسة العدوان الألمانية وتدفع ألمانيا في طريق الحرب والاعتداء
أما عن إيطاليا فيرى مستر فروبند أنها تنمو وتتقدم باستمرار، وأنه لابد أن تأتي الساعة التي تضطر إنكلترا فيها إما إلى الحرب وإما إلى التراجع، لأنها لا تستطيع أن

تنزل عن سيادتها في البحر الأبيض المتوسط دون المخاطرة بكل مركزها في أفريقية والشرق الأدنى. كذلك يتوقع الكاتب أن تضطر إنكلترا قريباً إلى الوقوف في وجه اليابان بشيء من الحزم لأنها بدأت فعلاً تهدد منطقة المصالح البريطانية. ويعرض مستر فروبند نظرياته بقوة وصفاء ويدعمها بكثير من الحقائق والحوادث الواقعة

رأي جديد في أسباب الثورة الفرنسية

يرى البحث الحديث رأيا جديداً في الثورة الفرنسية وفي أسبابها، فبينما تجمع الروايات والبحوث القديمة كلها على أن الثورة ترجع إلى أسباب اقتصادية واجتماعية وسياسية فقط، إذا بالبحث الحديث يرى أنها ترجع أيضاً إلى جهود الجمعيات السرية الخفية ولاسيما محافل البناء الحر (الماسونية) وأن هذه الهيئات السرية قد لعبت من وراء الستار دورا عظيما لإضرام نارها

وقد ظهر أخيرا كتاب بالإنكليزية عنوانه: (لويس السادس عشر وماري انتوانيت قبل الثورة) بقلم السيدة نستا وبستر وفيه تميل المؤلفة إلى الأخذ بهذا الرأي، وتفصل العوامل والظروف الخفية التي كانت تحيط بهذين الملكين التعيسين قبل نشوب الثورة. وترى السيدة وبستر أن المساعي الخفية التي قامت بها الجمعيات السرية وراء الستار كانت كالأسباب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية عاملا خطيرا في نشوب الثورة الفرنسية؛ ومن رأيها أن قضية عقد الملكة الشهيرة التي ثارت حول اسم الملكة واتهم فيها الكردينال دي روهان والكونت كاجليوسترو، إنما ترجع إلى تدبير هذه القوى الخفية، وإن

كاجليوستر لم يكن سوى داعية خطر يحمل رسالة هذه القوى، ويحيك شراكه من وراء الكردينال. ولقد كانت هذه القضية أو هذه الفضيحة من أعظم أسباب الثورة، ومع أن السيدة وبستر تعدد عيوب ماري انتوانيت ووجوه ضعفها كامرأة وملكة، فإنها تدافع عنها في موطن الشرف والكرامة، وتقول إن الدعاية الواسعة التي أثيرت حول أسمها لتشويه سمعتها الشخصية لم تكن سوى مزيج من الأكاذيب والوشايات المدبرة وأن ماري انتوانيت، كانت امرأة وافرة الشرف والعفة، وملكة وافرة الكرامة والعقل.

الكتب

رسالة المنبر إلى الشرق العربي

للأستاذ فليكس فارس

يقول الله في صفة بقية القوم الصالحين من القسيسين والرهبان (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين) وقد قرأت كثيراً من هذا الكتاب فتراءت لي هذه الآية، وتراءى الأستاذ فليكس فارس بقية من هذه البقية الصالحة، فهو طالب حق لا يغفل، وساع إلى غاية لا يمل. والكتاب مجموعة من أدب الأستاذ تربط بينها هذه الرابطة: طلب الحقيقة مبرأة من العصبية لما يخالفها، وسعى إلى غاية مبدأة في الطلب، يحتمل في سبيلها إرهاق الفكرة للبلوغ، وحرمان النفس للسمو، والعدل بين المتخالفين لإقرار الحق وتثبيته والعلو به عن نوازع النفوس وشهواتها، وهو في ذلك فارس كاسمه متدفع متدفق، مأمون العثرة، حديد النظرة، ثابت الجنان لا يرهب ولا يتخلف

وقد تعاطى - في كتابه - القول في كثير من الأدباء، وتكلم في أدبهم الكلام القسط، وكشف ببيانه عن الحقيقة الأدبية التي انطوى عليها أدبهم، وعن الحقيقة الفنية التي اشتملت عليها جوانحه، وافصح عن الحقيقة الشرقية التي تعمل في حياة الشرق عمل الدؤوب والاستمرار لتجعل في ضعفه قوة عضلة تستعصي على الأنياب الأجنبية التي تزعم أنها (تستعمر) أرضه وبلاده ونفوس أهله وبنيه. فجزى الله (فارس الحلبة) خير ما جوزي مجاهد عن أمته.

وقد سمى الأستاذ الفارس كتابه (رسالة المنبر إلى الشرق العربي) وأصاب، فهو في جوهره يحمل الأصل المشرق الذي تكون منه الرسالة. ففيه الشمول والتعدد واختلاف الأغراض وما يتبع ذلك مما يمتاز به الكاتب من جودة الفكرة، وجلاء العبارة، وحسن القصد، وبلاغ الغاية. فأنت من أول فصل مندفع إلى قراءة البقية لما تجد من الروعة واللذة والفائدة.

بدأ رسالته بقوله (نحن وأنتم)، وهي أول رسالة إلى البلاد العربية مصر والشام والعراق وأرض الحجاز فهو فيها عربي قد غلبته عروبته على هواه وعلى عصبيته، يدعو

دعوة الحق لليقظة والاتحاد والتعاضد والتخلص من آصار العبودية القاتلة التي تتلجلج في
أوهامها تلجلج المحموم. ثم يتدافع من ثم إلى رسالته في الثقافة الشرقية والعربية، فهو عربي مفكر يقظ مؤمل هاد إلى حقيقة الثقافة الشرقية العربية، عامل على ربط الأول بالآخر من هذه الأمة، داع إلى نبذ الأوهام المتمكنة من وباء الجهل القديم، والسمو عن التورط في التقليد الذي لا يرد بنا إلا موارد التلف. ثم يقف بك على باب أدب من أدب (جبران) وهو كتاب وحده فيه من الفكر ما تختلف عليه العقول، وحسب القارئ أن يقرأه فأن فيه روح الكاتب متجلية كاشفة ناقدة بصيرة عليمة بفنها وإحساسها قادرة على الإبانة عن خلجاتها خير الإبانة. ثم الرسالة الخامسة وهي إصلاح الحياة البيتية، وهو من أدق أبواب هذه الرسالة، يبين عن الفكرة الاجتماعية المخلصة التي تدفع الأستاذ إلى البصر والتفكير والنقد والتمييز، ولولا ما يحول بيننا وبين الإفاضة لأثبتنا بعض هذا الباب وعقبنا، فهو على جلالته فيه مواقع من القول لو عاد إليها الأستاذ بثاقب فكره ومسدد نظره لأنكشف له الحق الذي ينشده ويبغيه.

وأما الرسالة الأخيرة فهي (المهود في الشرق والغرب) وهي التي كتبها بالفرنسية ونشرها ثم ترجمها إلى العربية، فلا غرو أن كانت هذه الرسالة (هي رسالة الشرق والغرب) فإنها بنيت على أصل ثابت من نظرة الشرقي المتحفز بشرقيته في الحياة الغربية التي انتقلت إلينا انتقال الوباء. وأهم ذلك مسألة النسل، وقد كان الرافعي قد كتب (رؤيا في السماء)، فترجمها الأستاذ الفارس واستخرج منها الحكمة الإسلامية في الزواج والنسل وما أعجزت به هذه الشريعة فكر الإنسان في إصابتها مكان الداء على اختلاف الزمان والمكان، وانطوائها على الدواء الذي لا يدع للعلة ما تتعلق في الجسم الاجتماعي

فهذه هي رسالة المنبر إلى الشرق العربي، وهي قبس من إشراق هذا الشرق المتلفع المتجافي ذي الأهوال والأسرار

ثمن الكتاب عشرة قروش ويطلب من إدارة الرسالة ومن المكاتب الشهيرة.

(ش)

نظرات تاريخية دستورية

للأستاذ حسن صادق

صفحة من القطع المتوسط 180

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

قلما يعالج الباحث القانوني في مصر موضوع البحث الدستوري، وقلما يتناول الأنظمة النيابية في العالم بأي درس أو بحث. وإذا استثنينا بضع مذكرات موجزة يضعها أساتذة القانون لطلبتهم. فإننا نرى هذا الميدان خلوا من أقلام الباحثين.

وأخيرا يطالعنا الأستاذ حسن صادق بكتابه (نظرات تاريخية دستورية) ويشمل هذا الكتاب ثلاثة بحوث مستفيضة لثلاثة من دساتير العالم الهامة التي تكونت بعد الحرب العظمى وهي: الدستور الألماني، النمسوي، والتشيكوسلوفاكي.

مهد الأستاذ لكتابه بمقدمة قصيرة، أوضح فيها كيف جاهدت مصر في سبيل دستورها على يد زعيميها، وبين فيها كيف كان لزاما على المصري أن يعرف ماله من حقوق وما عليه من واجبات، وأشار فيها إلى أن الغرض من كتابه هو المساهمة في تربية الشعب تربية دستورية صادقة.

ثم بدأ الكاتب بدراسة الدستور الألماني دراسة دقيقة، فتكلم أولا عن الوجهة التاريخية في ذلك الدستور منذ أن سنه بسمارك في إبريل سنة 1871 فخلص ذلك الشعب الذي رسف في قيود الرجعية زمناً طويلا، والذي آده الظلم وأضنته الآلام من نير الظلم ووطأة الاضطهاد، وعلمه كيف يحكم نفسه بنفسه، وكيف يصبح سيداً لا مسوداً، وكانت ألمانيا إلى قبل الحرب مكونة من دويلات صغيرة. وكانت السيادة في دولة الريخ ممثلة في مجلسين: الأول وهو البندسرات ويتكون من مندوبي أمراء الدول. والثاني الريخستاج وينتخب من الشعب. ثم الإمبراطور وهو الرئيس الأعلى للدولة.

واستمر الحكم على هذا النظام إلى أن شبت ثورة سنة 1918. وأخذ الشعب يعمل بجد وعزم حتى سن لنفسه دستوراً، يذهب في الديموقراطية إلى أبعد حد. وأنشأ سلطاناً نيابياً يعبر عن سلطته حق التعبير، وجعل نفسه الحاكم العام في كل خلاف يقع

بين عناصر الدولة، وبذلك جعل الشعب الحكومة تستمد منه سلطانها وتدين له بمناصبها إن شاء أسقطها، وإذا شاء أبقاها، وفي ذلك اطمئنان الشعب.

ثم انتقل الكاتب إلى الكلام عن الدستور النمسوي فبين لنا كيف تخلص ذلك الشعب بعد جهاد طويل من أغلال الإمبراطورية النمسوية التي قيدته زمناً طويلاً. فما أشرق عام 1918 حتى هب الشعب يطالب بحقوقه. فسن لنفسه دستوراً ووضع السلطة كلها في يد المجلس الوطني، وهذا المجلس له حرية مطلقة في تحديد انعقاده وتأجيله ولا يمكن لرئيس الدولة أو الوزارة التدخل في ذلك. وفي أثناء الحل والعطلة تقوم مقامه لجنة تراقب أعمال الحكومة. وإذا خالف الرئيس أو الوزارة قواعد الدستور حوكموا أمام المحكمة الدستورية. والدستور النمسوي منظور فيه إلى الدستور الألماني ومقتبس منه في بعض أجزائه.

أما الشعب التشيكوسلوفاكي الذي نزلت به ضروب الظلم، وصنوف الإرهاق أيام الإمبراطورية النمسوية فأنه انتهز فرصة انهزامها سنة 1918، فأعلن استقلاله، وسن لنفسه دستوراً مقتبسا من دساتير العالم الأخرى. ونص فيه على وجوب دوام الحياة النيابية وذلك بتأليف لجنة من 24 عضواً ستة عشر من الشيوخ وثمانية من النواب، تزاول عمل البرلمان في عطلته وذلك لضمان وجود السلطة التشريعية حتى لا تستأثر السلطة التنفيذية بالأمر

ومما يلاحظ في الكتاب أن الدساتير الثلاثة التي اختارها الأستاذ متشابهة إلى حد ما، ويشمل ذلك التشابه أيضاً نظام الحكم في هذه الدول الثلاث (الحكم الجمهوري) فلو أن الكاتب الفاضل اختار لنا صوراً مختلفة من الدساتير العريقة الأخرى التي يمكن للشعب أن يفيد من تجاربها الدستورية لجاء الكتاب جامعاً شاملا.

والكتاب - في دقة آرائه وبحوثه - مجهود موفق نشكره للأستاذ، وقدوة طيبة نرجو أن نجد في مصر من يقتدي بها، وثمرة تبشر باهتمام الكتاب بالناحية الدستورية، ومساهماتهم في تربية هذا الشعب تربية دستورية صادقة.

أحمد ف. م

التلميذ

لبول بورجيه

ترجمة الأستاذ عبد المجيد نافع

لعل من فضول القول أن يتحدث متحدث عن الفراغ الذي ملأته ترجمة هذه القصة إلى العربية، فما أشد ما كانت تمتلئ قلوبنا أسفاً وحسرة حينما نرى الدنيا تتحدث عن بول بورجيه، ونسمع بأدبه وترى في قصته الخالدة مثلا من أروع المثل للقصص المفتن الدقيق، والأدب العالي الجميل؛ ثم نتلفت حولنا، فنرى مكانه في العربية خالياً إلا من كلمات عنه طائرة هنا وهناك، لا تمثل في ذهن القارئ العربي أدبه، ولا يمكن بطبيعة الحال أن يجد فيها ذلك المتاع الفني المهذب، أو يستشعر لقاءها تلك اللغة العقلية السامية التي يبتعثها في النفس أدب ذلك الأديب.

وقصة التلميذ التي بين يدينا هي، فيما يقول بعض نقاد الأدب الفرنسي، أروع ما كتب بول بورجيه وما نحسبهم أطلقوا هذا إطلاقاً إلا أنها خير ما يمثل مذهبه في كتابة القصة، فقد أبدع فيها أيما إبداع في عرض الدقائق النفسية عرضا فنياً خلابا، وتحليل الأمزجة العقلية المعقدة تحليلا عبقريا رائعا. حتى لا يكاد يفلت منه عنصر من العناصر التي تكون الشخصية، على ما فيها من غموض وإبهام وتصوير ذلك في صورة فنية منسقة مضطردة، لا يحس القارئ فيها بنبوة، ولا يلمح بها شيئا من الصنعة المتكلفة، أو التلفيق البغيض.

وهو في هذه القصة يعرض شخصية شاب من شبان القرن التاسع عشر، وهو من أعقد العصور فيما أحسب إذا اعتبرنا التأثيرات المختلفة، والنزعات المتباينة، والاتجاهات الغريبة التي تعرض لها الفكر الأوربي في تلك الفترة من الزمن، وأمتحن بها محنة ظهر أثرها في جميع مجالات الحياة، فلا يدع شيئاً مما يكون الشخصية حتى يسوقه في سياقة الغنى الرائع، فإذا أتم عرض شخصيته في صورة فيلسوف من فلاسفة ذلك القرن. قد فني في الفلسفة حتى صار صورة حية منها كر عليها كرة أخرى، فإذا بذلك كله آثار سطحية، وإذا بتلك الصبغة الفلسفية وهذه الصوفية العلمية لم تستطع أن تغير من كيانه الداخلي أو تنسخ ذلك الميراث الذي ورثته الإنسانية

الحاضرة عن أناسيها الأولى. فما تزال له من تحت هذا الظاهر الوقور المتزن غرائزه الطبيعية الكامنة التي كان يبدو بادئ الرأي أنها ضعفت وتلاشت بتأثير تلك الحياة الفلسفية الخلابة، ولكنها لم تلبث أن وجدت في البيئة التي تلائمها: ورأت من حولها موضوعا لبروزها ونشاطها حتى ثارت ثورتها، وخرجت من مكمنها، ملونة ألواناً. . بتأثير المؤثرات المختلفة التي كونت صاحبها، ولا تزال تعمل فيه وتوجهه في طريقها وفي هذه الألوان الغريبة التي عملت في تكييفها شتى العوامل، وفي إظهارها مفتنة متموجة، تتجلى عبقرية بورجيه وقدرته الفائقة على تحليل الحالات النفسية المعقدة إلى دقائقها، وتصويره لها في أروع صورها وأدقها، في أسلوب بياني خلاب.

فما من شك في أن هذه القصة من أعجب المثل الأدبية الخليقة بالخلود، الحقيقة بأن تمثل في كل لغة تقيم للأدب العالي وزناً، فللأستاذ المترجم أخلص التهنئة على هذا التوفيق الذي صادفه في ترجمتها، وأجزل الشكر على الجهد البليغ الذي بذله فيها، حتى جلاها في أسلوب عربي رائق، ومظهر من النشر أنيق.

وبعد فقد كنا نود، مع هذا الصنيع المبارك المشكور، لو أن الأستاذ المترجم عني بأن يبرز إلى اللغة العربية صورة من هذا الأثر الفني الخالد دقيقة كاملة بتفصيلاتها. كما أبرزها جميلة وافية في جملتها. ولكنه اتخذ لنفسه مذهبا في الترجمة وضع فيه الأدب ودقة النقل في المكان الثاني. ووضع فيه جمهور القراء في المكان الأول: فهذه صورة لا تتفق مع تقاليد جمهورنا، إذن يجب أن تبعد! وهذه مسألة فلسفية أطنب المؤلف في عرضها حتى لا تلائم عقلية جمهورنا، إذن يجب أن تبتر! وهذا إسهاب في التحليل والتصوير يبعث السأم إلى نفوس جمهورنا، إذن يجب أن ينفى! ولا بأس بشيء من ذلك مادام سياق الرواية مضطردا، ووقائعها متسقة، وفكرتها محققة. هذا هو مذهب الأستاذ المترجم عرضه في مقدمة ترجمته. وعندنا أن هذا المذهب إن جاز أن يتخذ في نقل بعض الآثار الأدبية الأخرى فلا يجوز أن يتخذ في هذا الذي سماه الأستاذ المترجم نفسه خالدا، والذي صدر عن نابغة كتاب فرنسا حقا، فهو أثر عالمي لا ينبغي أن يخضع لسيطرة بعض هذه الاعتبارات البسيطة. على أنا لا نمنع مع هذا أن المسالة دقيقة كل الدقة، وأن الفصل بين المذهبين ليس من الأمور الهينة التي يتقبلها الضمير دون معاناة.

أما أسلوب المترجم فهو على ما نعرف منه: عربي جميل ناصع، لا ابتذال فيه ولا إبهام. وقد وفق - على حد قوله - إلى إحلال المعاني الغربية في معان عربية. على أنا كنا نود أيضاً أن لو برئ من مثل هذه العبارة: (عالما لا يشق له غبار، ولا يصطلي له بنار) فليس هذا فيما نحسب معنى عربيا، بل هو دمنة بدوية.

وهناك هنوات لغوية لا نرى بأسا في أن نشير إلى شيء منها مثل قطع همزة الابن في صفحة 41، ومثل قوله (ص55) أصبحت وأمي وحيدين) والصحيح الفصل في مثل هذا بالضمير المنفصل فيقال: (أصبحت أنا وأمي وحيدين)، ومثل قوله (ص19) (قد تلقى خمسة أو ستة خطابات) وليس هذا فيما أحسب بناء عربياً، وإن كان من الممكن أن يخرج له وجه نحوي، والعربية المستقيمة تقول: خمسة خطابات أو ستة وهذا على كل حال أمر هين يسير، لا يغض من القيمة الأدبية لذلك الصنيع العظيم.

(الحاجري)

العدد 189 - بتاريخ: 15 - 02 - 1937

الحياة والقيود

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

- :قلت لصديق ونحن خارجون من السينما - أو لعلنا كنا داخلين فما أذكر الآن يا أخي أحسب إن من الخسارة علينا أننا خلقنا في هذا الزمان، ولو تأخر بنا الحظ) جيلاً آخر لكان عيشنا خليقاً أن يكون أطيب وأرغد، فإن هذا عصر انتقال لم تستقر فيه الأمور على حد مريح)

فوافق واستطردنا إلى حديث آخر. ولكني ظللت أفكر فيما قلت فبدا لي أني أخطأت، ولا نكران أن زمننا هذا زمن انتقال، ولكن هذا حال كل زمان، فما تلزم أمور الحياة حداً تنتهي إليه ولا تكون قط على حال لا يتغير أو لا يتبدل. وكل عصر عصر انتقال. والتحول هو قانون الحياة فلا وقوف ولا رجوع، لأن هذا وذاك مستحيلان في الحياة. ولو

كنا خلقنا في زمن غير هذا - قبله - لكنا أحسسنا ما نحسه الآن من إننا في عصر انتقال وإننا نعاني من جراء ذلك اضطرابا وقلقا وقيوداً كثيرة تثقل علينا ونعتقد أن الأيام ستصدعها عن الناس وتعفيهم منها ولتوهمنا إن الناس سيكونون حينئذ اسعد وارغد عيشاً واكثر حرية واقل شعوراً بالتقلقل والاضطراب والحيرة بين القديم المنشوء الذي يتزلزل والجديد المأمول الذي بدت بشائره. وحضرني وأنا أفكر في مثال قريب، فقد كنا في الجيل الذي مضى نسخط على الحجاب وما يقتضيه من التفريق بين الرجال والنساء، وكانت بشائر السفور قد بدت، ولكن أملنا يومئذ في أدراك عهده والانتفاع به قبل أن تعلو بنا السن وتفتر الحيوية ويفسد علينا الأمر كله - كان يبدو لنا بعيداً. وقد أدركنا زمن السفور بأسرع مما كنا نتصور ووثبنا إليه في أوجز مما كنا نقدر، وقبل أن ترتفع أسناننا وينضب معين الحيوية فينا، غير أنا بعد أن صرنا إلى هذا الحال الجديد الذي كنا نحلم به ونتطلع إليه ونتخيل إن الحياة ستكون به أهنأ وأطيب - لم نرض ولم نقنع. ولسنا الآن في حاضرنا ننظر إلى ما كان بل نحن ننظر إلى تيار الزمن واتجاهه، ونقول انه يتحدر إلى ساحة من الحرية أوسع وارحب. ولا سيما بعد أن عرف الإنسان ضبط النسل. والشجرة - كما لا أحتاج أن أقول - تعف بثمرها، فحيث لا توجد ثمرة لا يخطر للمرء أن هناك شجرة فهي غير موجودة فيما يعلم وإن كانت في الواقع هناك

لا. . لم نخسر بأن خلقنا في هذا الزمان. وليست العلة أننا موجودون في زمان دون آخر. بل العلة إن العمر إلى انتهاء وأن الحياة إلى نفاذ كائنا ما كان الزمن الذي نحن فيه. ولا خير في تقطيع النفس حسرات على ما عسى أن يكون الغيب منطوياً عليه، وأحجى بالإنسان أن يقصر همه على حاضره فانه هو الحقيقة التي يضيع كل شيء إذا هو ضيعها. ومهما يبلغ من اتساع نطاق الحرية في المستقبل فان حياة الجماعة لا تنتظم إلا بالقيود والحواجز والاسداد. وستظل هناك قيود من ضروب شتى ومع ذلك ماذا ينقصنا من الحرية في زماننا هذا. . السنا نصنع ما نحب كما نحب وحينما نحب. . ولا شك أن هناك قيوداً وأغلالاً غير قليلة أو هينة، ولكن هذه القيود هي التي تكسب الحياة الطعم وتفيدها المزية والفضيلة. ولست أحاول أن أعزي نفسي بهذا الكلام أو أغالطها به بل أنا أومن بأن الأمر كما أقول والحال على ما أصف وتصور أن الماء المنحدر من الجبال أو غيرها لم تعترض طريقه الاسداد ولم يمنعه شيء أن يظل يتدفق وينتشر على وجه الأرض حتى يذهب أو ينتهي إلى البحر، أكان من المكن في ظنك أن تتكون بحيرة مثلاً. . وقد لا تكون ثم حاجة إلى البحيرة وقد تحتاج الجماعة في وقت ما إلى محوها من الوجود، ولكن هذا لا يؤثر في القضية ولا ينفي أن البحيرة إنما تتكون بفضل الاسداد التي يلقاها الماء وهو يجري

والطيارة التي تحلق في الجو وتنقلنا إلى حيث نحب وتقصر المسافات وتطوي الأبعاد والتي نعدها من آيات هذا العصر، كيف كان يمكن أن نفعل ذلك لولا مقاومة الهواء لدفع المحرك؟. بل كيف كان يتسنى أن تتحرك لولا هذه المقاومة. ولست أعرف شيئاً في هذه المسائل العلمانية فإني من اجهل خلقه سبحانه وتعالى وتنزه عن العبث، ولكني التفت إلى هذا الأمر يوماً وكنت في طيارة وإنا فيها لمسرورون مغتبطون بهذا التحليق وإذا بها تسقط كالحجر مائة وخمسين قدماً كما قيل لي فيما بعد، وكانت هنيهة قصيرة جداً. ولكنها على قصرها الشديد كانت أقسى ما جربت في حياتي، فقد أحسست أن قلبي صار في حلقي من فعل السقوط المفاجئ لا من الخوف فما اتسع الوقت لخوف أو رجاء. ثم عادت الطيارة فمضت بنا في طريقها وكرت إلى مثل الارتفاع الأول فلم أفهم سبب هذه السقطة المزعجة، فلما نزلنا كدت أنسى أن أسأل عن السر فيما حدث، ولكنني تذكرت بعد أن مشيت خطوات فارتددت إلى الطيار فقلت له يا أخي قد سقطنا في الهواء فما سبب ذلك؟ قال هل أحسست شيئاً؟ قلت كيف لا أحس وقد كانت أنفاسي تنقطع.؟ قال لقد صادفنا فراغاً. . قلت كيف واستغربت فبين لي أن بعض طبقات الجو تخلو لأسباب شتى - نسيتها - من الهواء فتصبح فارغة، فإذا دخلت الطيارة منطقة الفراغ لم تستطع أن تجتازها لأن الهواء هو الذي يعينها بمقاومته على الطيران، ولهذا تسقط حتى تخرج من المنطقة الفارغة فيتيسر لها أن تمضي في طيرانها وذكر لي أن المنطقة التي صادفناها كانت أكبر ما لقي من الفراغ مذ ركب طيارة

وقد علق بذهني هذا ودار في نفسي من يومئذ فأضفته إلى ما كنت أعرف من فضل المقاومة بل ضرورتها فأني عاجز عن تصور حياة لا يلقي فيها الحي مقاومة. وكيف تكون يا ترى هذه الحياة إذا أمكن أن توجد حياة على هذا النحو. . لا أدري ولا أحسب أن أحداً يستطيع أن يزعم أن في وسعه تخيلها. . ماذا يدفع فيها إلى العمل ويغري بالسعي. . ويبعث على الطموح. ز الذي هو الوسيلة إلى حفظ النوع في الدنيا؟ كيف يكون حينئذ ولا مقاومة هناك ولا عائق ولا صعاب ولا عراقيل ولا حواجز من العرف أو القانون أو غير ذلك. . أتراه عبثاً ومسلاة. . وكيف تكون له لذة اللهو ومتعة العبث ومزية التسلي وهولا يمكن أن يوجد أصلاً. . أم ترى ينحط فينقلب مجرد رغبة عارضة واشتهاء زائل بزوال دواعيه الوقتية. . وكيف تنشأ الرغبة وماذا يشحذ الشهوة ولا شيء هناك من قبيل الموانع

ودع الحب وأنظر في غيره وأسأل نفسك ماذا عساك أن تطلب حينئذ ولا عسر هناك ولا عناء ولا خوف من حرمان لأنه لا عقبة هناك ولا صعوبة ولا مقاومة من الأحوال أو الحظ أو الناس أو التنافس أو غير ذلك مما تكون به المقاومة. .

ويطول بي الكلام إذا أنا أحببت أن أتقصى وجوه هذا الأمر: وما الداعي إلى الإطالة والمسألة واضحة. كلا لم أخسر بأن خلقت في هذا الزمن. ولا خسر أحد شيئاً بأن خلق في زمنه وإنما ينظر الإنسان إلى ما هو مستطيع ويقيسه إلى ما يشتهي فيرى البون عظيماً والبعد كبيراً والمسافة طويلة بين المطلوب والموجود، فيتوهم أن ذلك إنما كان هكذا لأن في الزمن عيباً وفي أحواله فساداً، وأنه لو كان في زمن آخر لكان حقيقياً أن يكون أمله أقرب منالاً وسعيه أعظم توفيقاً. وهذا وهم كما قلت فأن رغائب الإنسان في أي زمن أكثر

مما يبلغ وينال. والذي يسمح لرغبته بأن تطغى إلى هذا الحد حتى لتصور أمر الحياة على هذا النحو المقلوب تكون شهوته أقوى من إدراكه أو إرادته أو أعصابه إذا شئت ولم ألق صديقي لأبلغه أني غيرت رأيي أو صححته، فهأنذا أقول له ذلك في (الرسالة)

إبراهيم عبد القادر المازني

صعاليك الصحافة. . .

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

لما ظهر كتابي (وحي القلم) حملت منه إلى فضلاء كتابنا في دور الصحف والمجلات أهديه إليهم ليقرءوه ويكتبوا عنه. وأنا رجل ليس فيَّ أكثر مما فيَّ، كالنجم يستحيل أن يكون فيه مستنقع. فما أعلم في طبيعتي موضعاً للنفاق تتحول فيه البصلة إلى تفاحة، ولا مكاناً من الخوف تنقلب فيه التفاحة إلى بصلة، ولست أهذي من كتبي إلا إحدى هديتين: فإما التحية لمن أثق بأدبهم وكفايتهم وسلامة قلوبهم؛ وإما إنذار حرب لغير هؤلاء

والقرآن نفسه قد أثبت الله فيه أقوال من عابوه ليدلل بذلك على أن الحقيقة محتاجة إلى من ينكرها ويردها، كحاجتها إلى من يقر بها ويقلبها؛ فهي بأحدهما تثبت وجودها، وبالآخر تثبت قدرتها على الوجود والاستمرار. والشعور بالحق لا يخرس أبداً، فإذا كانت النفس قوية صريحة مر من باطنها إلى ظاهرها في الكلمة الخالصة، فإن قال لا أو نعم صدق فيهما، وإذا كانت النفس ملتوية اعترضته الأغراض والدخائل، فمر من باطن إلى باطن حتى يخلص إلى الظاهر في الكلمة المقلوبة، إذ يكون شعوراً بالحق يغطيه غرض آخر كالحس ونحوه، فإن قال لا أو نعم كذب فيهما جميعاً

وكنت في طوافي على دور الصحف والمجلات أحس في كل منها سؤالً يسألني به المكان: لماذا لم تجيء؟ فإني في ابتداء أمري كنت نزعت إلى العمل في الصحافة، وأنا يومئذ متعلم ريِّض ومتأدب ناشيء، ولكن أبي رحمه الله ردني عن ذلك ووجهني في سبيلي هذه والحمد لله، فلو أنني نشأت صحافياً لكنت الآن كبعض الحروف المكسورة في الطبع. . .

وللصحافة العربية شأن عجيب، فهي كلما تمَّت نقصت، إذ كان مدار الأمر على اعتبار أكثر من يقرءونها أنصاف قراء أو أنصاف أميين. وهي بهذا كالطريقة لتعليم القراءة الاجتماعية أو السياسية أو الأدبية، فتمامها بمراعاة قواعد النقص في القارئ. . . وما بدُّ أن تتقيد بأوهام الجمهور أكثر مما تتقيد بحقيقة نفسها. فهي معه كالزوجة التي لم تلد بعد. لها من رجلها من يأمرها ويجعلها في حكمه وهواه، وليس لها من أبنائها من

تأمرهم وتجعلهم في طاعتها ورأيها وأدبها. ثم هي عمل الساعة واليوم فما أبعدها من حقيقة الأدب الصحيح إذ ينظر فيه إلى الوقت الدائم لا إلى الوقت الغابر، ويراد به معنى الخلود لا معنى النسيان

ولا يقتل النبوغ شيء كالعمل في هذه الصحافة بطريقتها. فأن أساس النبوغ (ما يجب كما يجب)، ودأبه العمق والتغلغل في أسرار الأشياء وإخراج الثمرة الصغيرة من مثل الشجرة الكبيرة بعمل طويل دقيق. أما هي أساسها (ما يمكن كما يمكن)، ودأبها السرعة التصفح والإلمام وصناعة كصناعة العنوان لا غير

فليس يحسن بالأديب أن يعمل في هذه الصحافة اليومية إلا نضج وتم وأصبح كالدولة على (الخريطة) لا كالمدينة في الدولة في الخريطة، فهو حينئذ لا يسهل محوه ولا تبديله. . . ثم هو بمدها بالقوة ولا يستمد القوة منها، ويكون تاجاً من تيجانها لا خرزة من خرزاتها، ويقوم فيها كالمنارة العظيمة تلقي أشعتها من أعلى الجو إلى مدى بعيد من الآفاق. لا كمصباح من مصابيح الشارع.

وحالة الجمهور عندنا تجعل الصحافة مكاناً طبيعياً لرجل السياسة قبل غيره، إذ كان الرجل السياسي هو صوت الحوادث سائلاً ومجيباً، ثم يليه الرجل شبه العالم، ثم الرجل شبه الممثل الهزلي. . والأديب العظيم فوق هؤلاء جميعاً، غير أنه عندنا في الصحافة وراء هؤلاء جميعاً

ولما فرغت من طوافي على دور الصحف جاءت هي تطوف بي في نومي. فرأيتني ذات ليلة أدخل إحداها لأهدي (وحي القلم) إلى الأديب المتخصص فيها للكتابة الأدبية، ودلوني عليه فإذا رجل مربوع مشوه الخلق صغير الرأس دقيق العنق جاحظ العينين، تدوران في محجريها دورة وحشية كأنما أرعبته الحياة مذ كان جنيناً في بطن أمه لأنه خلق للإحساس والوصف، أو كأنما ركب فيه النظر الساخر ليرى أكثر مما يرى غيره من أسرار السخرية فينبغ في فنونها، أو هو خلق بهاتين العينين الجاحظتين دلالة عليه من القدرة الإلهية بأنه رجل فذ أرسل لتدقيق النظر

وقال الذي عرَّفني به: حضرته عمرو أفندي الجاحظ. . . وهو أديب الجريدة

قلت شيخنا أبو عثمان عمرو بن بحر؟

فضحك الجاحظ وقال: وأديب الجريدة، أي شحاذ الجريدة. يكتب لها كما يقرأ القارئ على ضريح؛ بالرغيف والجبن والبيض والقرش. . .

قلت: إنا لله فكيف انتهيت يا أبا عثمان إلى هذه النهاية وكنت من أعاجيب الدنيا، وكيف خبت في الصحافة وكنت رأساً في الكلام؟

قال: نجحت أخلاقي فخابت آمالي، ولو جاء الوضع بالعكس لكان الأمر بالعكس. والمصيبة في هذه الصحف أن رجلاً واحداً هو قانون كل رجل هنا

قلت: وذاك الرجل الواحد ما قانونه؟

قال: له ثلاثة قوانين: الجهات العالية وما يستوحيه منها. والجهات النازلة وما يوحيه إليها. وقانون الصلة بين الجهتين وهو. . .

قلت: وهو ماذا؟

فحملق فيَّ وقال: ما هذه البلادة؟ وهو الذي (هو). . . أما ترى الصحيفة ككل شيء يباع؟ وأنت فخبرني - ولك الدولة والصولة عند القراء - ألم تر بعينيك أنك لو جئت يدفع ثمانمائة قرش، لكنت في نفوسهم أعظم مما أنت وقد جئت تهدي ثمانمائة صفحة من البيان والأدب؟

قلت: يا أبا عثمان. فما تكتب هنا؟

قال: إن الكتابة في هذه الصحافة صورة من الرؤية، فماذا ترى أنت في. . وفي. . وفي.؟ لقد كنا نروي في الحديث. (يكون قوم يأكلون الدنيا بألسنتهم كما تلحس الأرض البقرة بلسانها) فلعل من هذه الألسنة الطويلة لسان صاحب الجريدة. . .

قلت: ولكنك يا شيخنا قد نسيت القراء وحكمهم على الصحيفة.

قال: القراء ما القراء، وما أدراك ما القراء. وهل أساس أكثرهم إلا بلادة المدارس، وسخافة الحياة، وضعف الأخلاق، وكذب السياسة؟ أن الإبداع كل الإبداع في أكثر ما تكتب هذه الصحف، أن تجعل الكذب يكذب بطريقة جديدة. . . وما دام المبدأ هو الكذب فالمظهر هو الهزل. والناس في حياة قد ماتت فيها المعاني الشديدة القوية السامية، فهم يريدون الصحافة الرخيصة، واللغة الرخيصة، والقراءة الرخيصة. وبهذا

أصبح الجاحظ وأمثاله هم (صعاليك الصحافة)
ودق الجرس يدعو أبا عثمان إلى رئيس التحرير، فنهض إليه ثم رجع بعنين لا يقال فيهما جاحظتان بل خارجتان. . . وقال: أفّ. (وحبط ما صنعوا فيها وباطلٌ ما كانوا يعملون).
كلا والذي حرم التزيُّد على العلماء، وبهرج الكذابين عند الفقهاء، لا يظن هذا إلا من ضل
سعيه).
قلت: ماذا دهاك يا أبا عثمان؟
قال: ويحها صحافة. قل في عمك ما قال في المثل: جحظ إليه عمله.
قلت: ولكن ما القصة؟
قال: ويحها صحافة. وقال الأحنف: (أربع من كن فيه كان كاملاً، ومن تعلق بخصلة منهن كان من صالحي قومه: دين يرشده، أو حسب يصونه، أو حياء يقناه). وقال: (المؤمن بين أربع: مؤمن يحسده، ومنافق يبغضه، وكافر يجاهده، وشيطان يفتنه. وأربع ليس أقل منهن: اليقين، والعدل، ودرهم حلال، وأخ في الله). وقال الحسن بن علي. . .
قلت: لم أحسن المهاترة في المقال الذي كتبه اليوم. . . . ويقول رئيس التحرير: إن نصف التمويه رذيلة؟ فأن نصفه الآخر يدل على أنه تمويه. ويقول: إن سمو الكتابة انحطاط فصيح، لأن القراء في هذا العهد لا يخرجون من حفظ القرآن والحديث ودراسة كتب العلماء والفصحاء، بل من الروايات والمجلات الهزلية. وحفظ القرآن والحديث وكلام العلماء يضع في النفس قانون النفس، ويجعل معانيها مهيأة بالطبيعة للاستجابة لتلك المعاني الكبيرة في الدين والفضيلة والجد والقوة؛ ولكن ماذا تصنع الروايات والمجلات وصور الممثلات والمغنيات وخبر الطالب فلان والطالبة فلانة والمسارح والملاهي؟
ويقول رئيس التحرير: إن الكاتب الذي لا يسأل نفسه ما يقال عني في التأريخ، هو كاتب الصحافة الحقيقي، لأن القروش هي القروش والتأريخ هو التأريخ. ومطبعة الصحيفة الناجحة هي بنت خالة مطبعة البنك الأهلي. ولا يتحقق نسب ما بينهما إلا في إخراج الورق الذي يصرف كله ولا يرد منه شيء
إنهم يريدون إظهار المخازي مكتوبة كحوادث الفجور والسرقة والقتل والعشق وغيرها؛ يزعمون أنها تروى وتقص للحكاية أو العبرة، والحقيقة أنها أخبارهم إلى أعصاب القراء. . .
ودق الجرس يدعو أبا عثمان إلى رئيس التحرير. .
لها بقية
(طنطا)
مصطفى صادق الرافعي
إلى رجال التعليم
بقايا التركية في لغة مصر الرسمية
للأستاذ أبي خلدون ساطع بك الحصري
مدير دار الآثار العربية بالعراق
لقد لاحظ العلماء الذين توغلوا في درس الحوادث الاجتماعية اللسانية، أن الكلمات ما تنتقل من لغتها الأصلية إلى اللغات الأخرى حسب العلائق التي تنشأ وتتوثق بين الأمم التي تتكلم بها، وقد تندمج هذه الكلمات في اللغة التي دخلت عليها؛ فتنتظم في سلك كلماتها الأصلية وتتكيف بمقتضيات قواعدها الخاصة؛ وقد تولد نسلاً جديداً في موطنها اللغوي الجديد، يختلف عن النسل الذي كان قد تولد منها في موطنها الأصلي اختلافاً كلياً
أما أنواع الكلمات التي تنتقل بهذه الصورة من لغة إلى لغة، فتتبع - بطبيعة الحال - أنواع العلائق التي تحدث بين الأمم التي تتكلم بها: فالمعاملات التجارية تئدي إلى انتقال المصطلحات العلمية مع الآراء والمعلومات، والسيطرة السياسية تؤدي إلى انتشار الكلمات والتعبيرات المستعملة في الأنظمة الإدارية والعسكرية، والكلمات والمصطلحات التي تدخل على اللغة بسبب هذه العلائق المتنوعة، تبقى فيها عادة حتى

بعد انقطاع تلك العلائق. . ولهذا السبب نجد العلماء الذين يستكشفون الحقائق في مجاهيل التأريخ يستندون في بعض الأحوال إلى (مقارنة الألسن) و (تتبع الكلمات) في استدلالاتهم المتعلقة بالحوادث التاريخية والتطورات الاجتماعية.

لعل الآثار التي تركتها التركية في مصر، ولا سيما في لغة الدواوين الرسمية، من أبرز الأمثلة وأقربها إلى ما أسلفنا. إذ أننا إذا استعرضنا عناوين الوظائف الرسمية في جداول الميزانية ودليل التليفون وتصفحنا بعض النشرات الرسمية، وتتبعنا بضعة أعداد من الجرائد اليومية، فسجلنا الكلمات والتعبيرات التركية التي نصادفها خلال هذا البحث السريع. . دهشنا من كثرة الكلمات والتعابير الباقية من عهد الحكم التركي في مصر

نستطيع أن نقول إن معظم النعوت والألقاب المستعملة في مصر هي من بقايا ذلك الحكم. ولا سيما الكلمات والتعابير التي تدل على الرتب الملكية والعسكرية، فكلها ترجع إلى منشأ

تركي بدون استثناء فإن كلمات (بك، أفندي، باشا، هانم) تركية الأصل. مع هذا تستعمل في مصر كالكلمات العربية، ويقال لذلك (بكوية وبكوات) و (باشوية وباشوات، أفندية، وهوانيم) ومما تجب ملاحظته أن الألقاب ألغيت في تركية أخيراً واستبدلت بكلمة (باي) للرجال و (بايان) للنساء

فمن يتتبع الجرائد التركية الآن لا يجد فيها أثراً للكلمات التي بحثنا عنها؛ غير أن من يتصفح الجرائد المصرية يصادف في كل نسخة منها مئات

ومما يستلفت الأنظار أن الألقاب الرسمية التي تستعمل في مصر عند ذكر أصحاب الرتب أو مخاطبتهم - مثل: صاحب العزة، صاحب السعادة - أيضاً تمت بقرابة إلى العهد التركي، بالرغم من مظهرها العربي: فأن الأتراك عندما أرادوا أن يضعوا لقباً خاصاً بأصحاب كل رتبة من الرتب الملكية والعلمية، اقتبسوا من العربية كلمات كثيرة، مثل (رفعة، عزة، سعادة، عطوفة، دولة، فخامة، فضيلة، سماحة، سيادة، عناية، عصمة.) وأضافوا إلى كل واحدة منها حرف (لو) الذي يعرف في قواعد الصرف التركي باسم (أداة المصاحبة) فقالوا (. . . عزتلو، سعادتلو، دولتلو، فخامتلون فضيلتلو، سماحتلو. . .) إن هذه النعوت والألقاب استعملت في مصر مدة غير قصيرة بصيغتها التركية، ثم استبدلت فيها (أداة المصاحبة) التركية بتعبير (صاحب الـ. . .) العربية؛ فتحولت بذلك هذه الألقاب إلى (صاحب العزة، صاحب السعادة، صاحب الدولة، صاحب الفضيلة. . .) فنستطيع أن نقول: إن هذه الألقاب تركية بمدلولاتها الحالية، وإن كانت عربية بألفاظها الأصلية. وإلا فلا يوجد أي سبب معقول لاعتبار (الفضيلة أو العزة أو السعادة) من النعم التي يستطيع أن يحصل عليها الإنسان عن طريق إنعام الملوك والحكومات. .

وأما أسماء الرتب العسكرية المستعملة في مصر، فبعضها تركية بحتة مثل شاويش، باششاويش، أونباشي، يوزباشي، بيك باشي، . . .

فان اللفظة الأولى كلمة مفردة، والأربع الباقية كلمات مركبة، تعني (رئيس الشاويشية، رئيس العشرة، رئيس المائة، رئيس الألف. .)

وهناك أسماء رتب عسكرية مؤلفة من كلمة تركية وكلمة عربية، حسب الاستعمال التركي: مثل (بلوكامين) بمعنى أمين الرهط، و (ميرالاي) بمعنى آمر الكتيبة. .

وأما كلمة (صاغ) التي تدل على إحدى الرتب العسكرية في مصر، فتركية أيضاً؛ غي أنها لا تستعمل في التركية للدلالة على رتبة من الرتب العسكرية أبداً. لأن معناها اللغوي عبارة عن (أيمن)، نظراً لرتبته العسكرية. وأما كيف صارت هذه الكلمة لقباً لإحدى الرتب العسكرية في مصر، فلا يتضح إلا بمراجعة تاريخ الألقاب العسكرية في تركيا: إذ يوجد في الجيش التركي رتبة عسكرية تسمى باسم (قول أغاسي) بمعنى (آمر الجناح). وبما أن القطع العسكرية كانت تقسم إلى جناحين، كانوا يقسمون هذه الرتبة قبلاً إلى درجتين فيسمون الأولى (صاغ قول أغاسي) بمعنى (آمر الجناح الأيمن)، ويسمون الثانية (صول قول أغاسي) بمعنى (آمر الجناح لأيسر). غير أنهم وحدوا الدرجتين مؤخراً، فحذفوا كلمات (صاغ) و (صول) من هذه الألقاب، واقتصروا على تسمية الرتبة بـ (قول أغسي) أي (آمر الجناح). ويظهر أن لفظ (صاغ قول أغاسي) كان يستعمل في مصر أيضاً؛ غير أنه أختصر مؤخراً، بدون ملاحظة معاني

الكلمات التي يتألف منها، فجرى الاختصار عن طريق حذف الكلمتين الأخيرتين، والاحتفاظ بالكلمة الأولى وحدها. وبما أن الصفة في اللغة التركية تتقدم على الموصوف، كما أن المضاف إليه يتقدم على المضاف، صار هذا الاختصار بمثابة حذف كلمتين (آمر) و (الجناح) والاحتفاظ بكلمة (الأيمن) وحدها، وبهذه الصورة أصبحت كلمة (صاغ) التركية، التي تدل على (اليمين) أو (الأيمن)، اصطلاحاً على الرتبة من الرتب العسكرية المصرية

غير أن الكلمات التركية المستعملة في الجيش المصري لا تنحصر في أسماء الرتب العسكرية التي أسلفنا ذكرها. بل أن المصطلحات العسكرية التالية أيضاً تمت إلى . .منشأ تركي صريح؛ بلوك، تابور، آلاي، أورطة، قيشلاق، قره قول، طوبجي، نوبتجي إن كلمة (اورطة) تستحق النظر والتأمل بوجه خاص: فأن هذه الكلمة من التعبيرات الدارجة في تشكيلات مصر الدارجة وهي تدخل في التراكيب مثل الكلمات العربية، فيقال مثلاً (الاورطة الثالثة) و (استعراض الأورطتين) وأعلام الاورط، كما يقال (اورطته، اورطتيه، اورطتيهما. . .). . مع إنها من الكلمات التركية المهجورة في تركيا نفسها فان استعمالها في الجيش التركي قد بطل منذ عهد بعيد، يرجع إلى تاريخ إفناء الانكشارية، وإحداث النظم العسكرية الجديدة: ومن المعلوم أن المدة التي مضت منذ ذلك التاريخ تناهز

القرن الكامل

هذا، ومما يجدر بالانتباه أن قاموس الاصطلاحات العسكرية المصرية يحتوي على بعض الكلمات الفارسية أيضاً - مثل، بيادة، سوارى، ياور، سردار. - غير أن هذه الكلمات لم تدخل على العربية من الفارسية مباشرة، بل دخلت عليها بواسطة التركية. ولذلك يجب علينا أن نعتبر هذه الكلمات أيضاً من بقايا الحكم التركي بالرغم من أصلها الفارسي

كذلك كلمة (حكم دار) أيضاً تشبه الكلمات المذكورة آنفاً، إذ أنها مركبة من كلمة (حكم) العربية وكلمة (دار) الفارسي، فمعناها اللغوي عبارة عن (صاحب الحكم). غير أن معناها الدارج في تركية إذ أن تعبير الـ (حكم دار) لا يستعمل في التركية إلا للدلالة على (الملوك)

هذا وإذا استعرضنا عناوين الوظائف والخدمات المختلفة نجد بينها أيضاً عدداً كبيراً من التعبيرات التركية

أولاً، سلسلة كبيرة من التعبيرات التي تحتوي على كلمة (باش) التركية: باش كاتب، باشمفتش، باشمهندس، باشمعاون، باش محضر، باش صراف، باش حكيم، حكيمباشي، خاخامباشي، باش ساعي، باش فراش، باش طباخ، باش جنايني، باش بستاني، باش ميكانيكي، باش آدلاء، باش رئيس البحرية، باش رئيس المطافي. فإذا أنعمنا النظر في هذه التعبيرات نجد أن كلماتها الأساسية عربية، غير أنها موصولة بكلمة (باش) وفقاً لقواعد اللغة التركية، وإذا بحثنا في عن منشأ التراكيب نجد أن نصفها الأول مستعمل في التركية أيضاً غير أن نصفها الأخير لم يستعمل في التركية أبداً. فنستطيع أن نقول إن القسم الأول منها (من باش كاتب إلى خاخام باشي) مقتبسة من التركية. وأما القسم الثاني (من باش ساعي إلى باش رئيس المطافي) فمستحدثة في مصر نفسها. قياساً على التراكيب المماثلة المستعملة في التركية

ثانياً، سلسلة غير قصيرة من التعبيرات التي تحتوي على أداة (جي) التركية: تليفونجي، تلغرافجي، بوسطه جي، نوفكجي، نيشانجي، تعليمجي، مخزنجي، محاسبجي، قهوجي، سفرجي، عطشجي، عربجي، قمشجي، اجزاجي، تيمارجي، جاشمبجي، مطبعجي، استفجي، جزمجي، مكوجي، اشرجي، ناضورجي، مفتاحجي. وما يجب عليه التنبيه إليه أن التراكيب

الأربعة الأخيرة ليست مستعملة في التركية، مما يدل على أنها استحدثت في مصر قياساً على أمثالها وعلاوة على كل ما تقدم نذكر فيما يلي الكلمات التركية التي صادفناها في النشرات الرسمية:

فنار، ليمان، أورمان، كوبري، قزان، طولمبة، بوري، باشبوري، أوضه، قاووش، آغا، ترزي. وهذه الكلمات تدخل في تراكيب بعض التعبيرات مثل: مصلحة الليمانات والفنارات، حديقة الأورمان، أوضة المحامين، الطلمبات الأميرية، تعمير القزانات

مصلحة الكباري، كما نذكر فيما يلي الكلمات الفارسية التي صادفناها في تلك النشرات، والتي انتقلت إلى مصر بواسطة التركية أيضاً سراي، شنكل، كليم، نيشان، أورنيك، ماهية، رفت، خانة،. . .
ومما يجدر بالذكر أن الكلمة الأخيرة تدخل في تراكيب كثيرة مثل: أجزخانة، كتبخانة، دفترخانة، بطركخانة، سلخانة، جبه خانة، يمكخانة، أدبخانة، عربخانة، شفخانة، مهندسخانة.
بعد أن القينا هذه النظرة السريعة على اللغة الرسمية في مصر يجدر بنا أن نقوم بمقارنة عامة بين دواوين سورية والعراق في هذا الموضوع
من الغريب أن هذه المقارنة تظهر لنا تبايناً عظيماً في الأمر: إذ بينما نجد أن دواوين مصر مضيافة لجميع هذه الكلمات الدخيلة والمصطلحات الأعجمية نجد أن دواوين سورية وللعراق - بعكس ذلك - مجردة منها ومتعصبة عليها. .
هذا. . مع أنه قد مضى على انفصال مصر عن تركية عهد طويل، في حين أنه لم يمض على انفصال سورية والعراق عنها إلا زمن قصير، ومع أنه لا يشاهد في مصر أثر للقوانين الموضوعة في العهد الترك، في حين أن عدداً غير قليل منها لا تزال نافذة في سورية والعراق. . .
ومع أن أنظمة الحكومة المصرية مختلفة عن الأنظمة التركية اختلافاً كلياً في حين أن أنظمة سورية والعراق لم تتباعد عنها إلا تباعداً جزئياً. . . وما أن الذين يعرفون التركية بين موظفي الحكومة المصرية قليلون جداً، في حين أن عددهم كثير في سورية والعراق. . ومع أن اللغة الفصحى منتشرة في مصر انتشاراً كبيراً، ودراسة الآداب العربية متقدمة فيها
تقدماً عظيماً، في حين أن كل ذلك لا يزال محدوداً في سورية والعراق
فيجدر بنا أن نتسائل عن أسباب هذه الأحوال والحوادث المتناقضة: كيف أن مصر حافظت، ولا تزال تحافظ، في دواوينها الرسمية على هذه المصطلحات الأعجمية، بالرغم من قدمها في الانفصال وتقدمها في فصاحة القلم واللسان؟ وكيف أن حكومات سورية والعراق - بعكس ذلك - تخلصت في دواوينها من جميع تلك المصطلحات، بالرغم من قرب عهدها في الانفصال وحداثة دخولها في مضمار فصاحة الإنشاء والبيان؟
إننا نعتقد بأن أسباب ذلك تعود إلى تباين الظروف التي حدث فيها انفصال هذه الأقطار العربية المختلفة عن الدولة العثمانية: فان انفصال مصر حدث قبل أن يستيقظ الشعب يقظة مقرونة بشعور قومي واضح، وللغة العربية استولت على الدواوين المصرية بصورة تدريجية، دون أن تضطر إلى الاصطدام مع اللغة التركية والقيام عليها بحركة عنيفة. وهذا ما جعل مصر متساهلة مع الكلمات التركية ومضيافة لها، بل لا نغالي إذا قلنا: غير منتبهة إلى أعجميتها.
وأما انفصال سورية والعراق عن الدولة العثمانية، فلم يحدث إلا بعد حوادث كثيرة أدت إلى أيقاظ الشعب يقظة مقرونة بشعور قومي واضح واللغة العربية لم تصبح رسمية هناك إلا بعد أن حدثت مشادة بينها وبين التركية وبعد أن مازج هذه المشادة شيء غير قليل من العنف من الطرف الواحد ومن الثورة من الطرف الآخر. فقد قامت في سورية والعراق، وفي أواخر العهد العثماني، جمعيات عديدة تطالب بـ (حق التعلم والتعليم بالعربية)، تارة بالطرق السياسية، وطوراً بالطرق الثوروية. ولم تنل تلك البلاد هذا (الحق) بصورة فعلية إلا بعد الحرب العالمية، فعندما تألفت الحكومة العربية بجد وحماس؛ فلا نغالي إذا قلنا أن المصطلحات التركية خرجت من الدواوين هناك مع خروج الموظفين الأتراك منها.
والحكومة العراقية التي تأسست بعد سقوط الحكومة العربية السورية أيضاً حذت حذوها ف هذا الباب؛ وزيادة على ذلك وجدت أمامها متسعاً من الوقت لإتمام عملها في تكوين مجموعة المصطلحات الإدارية والعسكرية من الكلمات العربية التي لا تشوبها شيء من الأعجمية
هذه هي سلسلة الحوادث والأسباب التي وجهت الأمور في سورية والعراق إلى اتجاه يختلف عن الاتجاه الذي سارت عليه في مصر في هذا المضمار. . .
مع هذا، لابد من الإشارة إلى أن هذه الأسباب تعود إلى النشأة الأولى وظروف

الانفصال فأدت إلى إبقاء هذه المصطلحات في لغة الدواوين المصرية إلى الآن. غير أنه يجدر بنا أن نتساءل: هل هذه الأسباب ستضمن دوام هذه المصطلحات بعد الآن أيضاً؟

إنني لا أتردد في الإجابة على هذا السؤال بالنفي. فلا أستبعد أن يصبح معظم ما كتبه آنفاً (حكاية ماض) - في عصر مصر الحديث - بعد مدة وجيزة من الزمن

بغداد

أبو خلدون

ساطع الحصري

في الجامعة المصرية

كرسي خاص لدراسة الأدب المصري الإسلامي

للأستاذ محمد عبد الله عنان

قرأت مع الغبطة نبأ ذلك الاقتراح الجليل الذي تقدم به صديقي الأستاذ العميد الدكتور طه حسين إلى مجلس إدارة الجامعة المصرية بوجوب إنشاء كرسي خاص للأدب المصري الإسلامي؛ وهو اقتراح لا ريب أن سيلبيه المجلس الجامعي الموقر، وسيلقي بلا ريب تأييداً حاراً من كل أولئك الذين يقدرون تراث التفكير القومي، ويعتزون به، ويتوقون إلى بعثه وإحيائه واستعراض نفائسه، بعد أن طال الأمد على إغفالها ونسيانها.

ولقد حاولت منذ أعوام أن ألفت النظر إلى وجوب العناية بدراسة تأريخ مصر الإسلامية وآدابها، وحاولت جهدي أن أحث الشباب المتأدب على قراءتها ودراستها، وكان من بواعث دهشتي أن الجامعة المصرية الفتية لم تفكر منذ قيامها في إنشاء كرسي خاص لتأريخ مصر الإسلامية، وكرسي آخر لآدابها إلى جانب ما أنشأته من كراسي خاصة للتأريخ الأوربي والآداب الفرنسية والإنكليزية؛ فإذا كان الأستاذ العميد يتقدم اليوم باقتراحه بإنشاء كرسي خاص للأدب المصري الإسلامي فهو إنما يعبر في ذلك عن أمنية قديمة لنا جميعاً، والجامعة إنما تعمل بتحقيقها على استدراك نقص في دائرة الثقافة القومية كان خليقاً أن يستدرك منذ بعيد

والواقع أن الأدب المصري الإسلامي لم ينل في عصرنا شيئاً من العناية التي هو حقيق بها، في حين أن كثيراً من نواحي الأدب الأخرى من شرقية وغربية تنال من عنايتنا أوفر حظ؛ وما زال الأدب العربي يقدم إلينا في صورته العامة ويمثل لنا بنوع خاص في الأدب العباسي، وقلما نعني بدراسة نواحيه الخاصة، بل إن الشباب المتعلم ليرغب اليوم عن الأدب العربي كله ويتجه شطر الأدب الغربي، ويعرف عن تطورات الأدب العربي وخواصه؛ ويعرف من شخصيات الآداب الأوربية وآثارها ما لا يعرف عن شخصيات الأدب العربي وآثارها؛ وإذا كانت ثمة أقلية من الشباب المتأدب تعنى بالأدب العربي على وجه التعميم، فهي قلما تعنى بدراسة شيء من تراث أدبنا المصري

ونحن نعرف الأسباب التي يرجع إليها هذا الشذوذ في ثقافتنا الأدبية وهذا الانصراف عن

تراثنا العربي وتراثنا المصري بنوع خاص؛ وهي أسباب سياسية واجتماعية لا نرى محلاً لاستعراضها في هذا المقام؛ بيد أنه يجدر بنا أن نشير هنا إلى سبب مادي واضح، هو أننا لم نوفق حتى اليوم سواء في برامجنا الدراسية أو في بحوثنا الأدبية إلى تقديم الأدب العربي في مثل تلك الصور الأنيقة الشائقة التي يقدم بها الأدب الغربي إلى قرائه؛ ومن ثم كان انصراف الشباب عن الأدب القومي إلى صنوف منوعة من الأدب الغربي يجد في قراءتها كثيراً من المتاع العقلي، فيؤثرها بعناية وفراغه، ولا يستطيع أن يتذوق بجانبها شيئاً من ذلك التراث الذي ما زال يغمره القدم وما زال يقدم إليه في صور العصور الوسطى

وإذا كنا قد دعونا منذ أعوام إلى العناية بدراسة الأدب المصري الإسلامي، وإذا كنا نرى وجوب التخصص في دراسة هذا الادب، فليس ذلك فقط لأن البواعث القومية تدعو إلى مثل ذلك في كل أمة حية تشعر بماضيها وتعتز بتراثها القومي، بل لأن هناك أيضاً من البواعث العلمية والثقافية والتاريخية ما يدعو إلى اعتبار الأدب المصري الإسلامي وحدة أدبية مستقلة بين تراث الأدب المصري الإسلامي وحدة أدبية مستقلة بين تراث الأدب العربي العام، تستحق أن تدرس على وحدة؛ وأن تدرس على حدة؛ وأن تدرس خواصها وتطوراتها دراسة خاصة، كما يدرس الأدب العباسي أو الأدب الأندلسي

بل نستطيع أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول إن الأدب المصري الإسلامي يستأثر بمميزات خاصة قلما توجد في فرع آخر من الأدب العربي؛ نعم إن الأدب العباسي والأدب الأندلسي، وأدب الشام، وأدب شمال أفريقية يمتاز كل منها بمميزاته الخاصة، من إقليمية، واجتماعية وسياسية، ولكن الأدب المصري فضلاً عن احتفاظه بمثل هذه المميزات العامة يمتاز أيضاً بطابعه المصري العميق؛ وتبدو هذه الخاصة واضحة في كل فنونه ومراحله، وتكاد تغلب على كل خواصه الأخرى؛ وذلك يرجع إلى عوامل تاريخية وثقافية خاصة؛ فقد اتخذت الحضارة الإسلامية في مصر طابعها الخاص؛ وكان قيام الأزهر بالقاهرة منذ منتصف القرن الرابع عاملاً جديداً في توكيد هذا الطابع الخاص للأدب المصري؛ ولما انهارت الخلافة العباسية في المشرق وفرت العلوم الآداب الإسلامية أمام الغزاة البرابرة من السلاجقة والتتار، تبوأت مصر زعامتها الفكرية في المشرق، ولبثت القاهرة بجامعتها

الكبرى، ملاذ التفكير الاسلامي، حتى الفتح التركي؛ وفي جميع هذه المراحل كان الأدب المصري الإسلامي يحتفظ بجميع مميزاته وخواصه في جميع مناحي التفكير، في الشعر والأدب والتاريخ والعلوم والفنون؛ وإذا كان الأدب المصري قد تأثر في العصور ببعض العوامل الخارجية، سواء من المشرق أو المغرب، فأنه لم يفقد بالأخص شيئاً من طابعه المصري العميق

ويبدو هذا الطابع المصري الخاص لأدبنا الإسلامي في تراثنا الفكري بأوضح صورة؛ ففي الرواية والتأريخ، وفي الشعر والنثر. وفي أساليب والتفكير والكتابة، نلمس هذه الخاصة ولا سيما في الشخصيات والآثار النموذجية؛ فأنه يصعب مثلاً أن تجد بين شعراء العربية في الأمم الأخرى، شاعراً مثل البهاء زهير، أو ابن نباتة؛ فهذان شاعران مصريان روحاً ومعنى، يمثلان مصر أقوى تمثيل وأصدقه، ومن النادر أن تجد بين شعراء العربية من يحمل الرسالة القومية بمثل ما يتجلى في شعرهما من إخلاص وقو ة في التعبير عن الروح القومي وكل خواصه ومميزاته؛ كذلك ينفرد الأدب المصري بنوع من أدب الموسوعة أو (الأدب الانسيكلوبيدي، ولدينا من ذلك آثار تعتبر بحق نماذج فريدة مثل نهاية الأدب للنويري، ومسالك الأبصار للعمري. وصبح الأعشى للقلقشندي، وهي آثار ليس لها نظائر من حيث تنوعها وطابعها العام، وتخصصها مع ذلك فيما عرضت إليه؛ وانفردت الرواية المصرية الإسلامية أيضاً بمميزات خاصة تستحق أن ندرس على حدة، فأليها يرجع الفضل مثلاً في ابتكار فن الخطط والآثار، الذي يقوم على استعراض تأريخ المجتمع والحضارة إلى جانب تاريخ الدول، ونستطيع أن نقول بحق أنه لا يوجد بين آثار الرواية الإسلامية كلها أثر كخطط المقريزي في طرافته وقيمته الاجتماعية والتاريخية؛ وهذه أمثلة قليلة من كثيرة نستطيع أن ندلل بها على ذلك الطابع القومي الخاص الذي يمتاز به أدبنا المصري الإسلامي على غيره من آداب الأمم الإسلامية الأخرى

كذلك يجب أن لا ننسى أثر الأزهر في تكوين ذلك الطابع الخاص؛ وقد لبث الأزهر قروناً ملاذ العلوم والأدب في مصر الإسلامية؛ وأثره في تكوين تراثنا الفكري أعظم من أن نحيط به في مثل هذا المقام، وهو أثر يستحق أن يدرس لذاته ولأهميته وإذا كلن الأزهر نفسه أحق بأن يدرس تأريخه العلمي الحافل؛ فانه من المعقول أيضاً أن تكون رسالة الأزهر في

ماضيها وحاضرها موضعاً للدراسة المستفيضة في استعراض مراحل الأدب المصري الإسلامي التي تعني الجامعة المصرية بالبحث في إنشاء كرسي خاص لها؛ بل يلوح لنا أن مثول الأزهر في تاريخنا الفكري بمثل هذه القوة من العوامل الأدبية الخطيرة التي تملي بضرورة إنشاء هذا الكرسي الخاص

وقد كنا نود أن تعني الجامعة المصرية إلى جانب عنايتها بإنشاء كرسي للأدب المصري الإسلامي بإنشاء كرسي آخر لتأريخ مصر الإسلامية؛ فقد انقضى عصر طويل لم يحظ فيه تاريخنا الإسلامي بما يجب من الدرس والعناية؛ ونحسب أن العوامل السياسية التي كانت تملي من قبل بإسدال الستار عن ماضينا وعلى ذكرياتنا القومية المجيدة. وبتصوير مصر في جميع مراحل تاريخها أمة مستعبدة، لم تذق في ماضيها الطويل الحافل طعم الحرية والاستقلال قد أنقضت؛ ونحسب أن الوقت قد حان لأن يعرف الشباب المصري عن تاريخه القومي على الإقلال مثلما يعرف عن تاريخ الأمم الغربية

الذي تسخو برامجنا التعليمية في تلقينه للطلاب، وأن يرفع عن تاريخنا ذلك الستار الذي أسدلته يد الاهواء، وأن نستعرض ذكرياتنا القومية المجيدة على ضوء البحث المنزه، فيكون لنا منها غذاء قومي حقيقي، يخلق بالعصر الجديد الذي تستقبله مصر، فالتاريخ القومي في جميع الأمم الحية عنصر هام في تكوين الشعور الوطني وفي تغذيته وإذكائه

فالمشروع الجليل الذي يتقدم به اليوم الأستاذ العميد إلى مجلس الجامعة المصرية إنما تملي بتحقيقه بواعث علمية وقومية معاً؛ وما نحسب المجلس الموقر إلا سيقدر هذه البواعث قدرها وسوف يكون إنشاء الكرسي المنشود حادثاً علمياً في تاريخ برامجنا الدراسية؛ وفي اعتقادنا أن الجامعة ستفهم مهمة هذا الكرسي بأوسع معانيها، فتجعل منه بداية حسنة لدراسات مصرية إسلامية شاملة فيما بعد، وسوف يكون لهذه الدراسات أكبر الأثر في إحياء تراثنا الفكري، وسيكون لها بالأخص أكبر الأثر في التدليل على أهميته وعلى قيمته التي طمستها عصور طويلة من النسيان والنكران

محمد عبد الله عنان

في الأدب المقارن

البطولة في الأدبين العربي والإنكليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

البطل فرد يمتاز عن غيره من أفراد مجتمعه بمواهب عقلية أو خلقية أو جسدية، يظهر بها بينهم وينال من أجلها إجلالهم ويبذلها في خدمتهم ويتولى قيادتهم في معترك الحياة ردحاً من الزمن، ويترك في تاريخهم أثراً يطول عهده أو يقصر؛ فالبطل لا يكون إلا في مجتمع، وهو عادة نموذج لصفات أبناء ذلك المجتمع ومثل أعلى لنوع حياتهم، ومواهبه إجابة لمطالب ذلك المجتمع وحاجاته في فترة من الزمن، فالأمة المحاربة إذا كانت تجري الحياة في عروقها قوية وتتمتع بالصفات اللازمة للبقاء ينبغ فيها القائد، والأمة الشاكة الحيرى يظهر فيها النبي، والشعب الذي يشكو فساد أنظمته الاجتماعية يقوم فيه المصلح

والأمة المتبدية الساذجة التي لم تستقر بعد ولم تبرح حياتها سلسلة متواصلة من الحروب، لا يكاد يظهر فيها من أنواع البطولة إلا القواد البسلاء، الذين يقودونها في مهاجراتها ومحارباتها لجيرانها، ويبدون من ضروب الشجاعة ويفتقون من أفانين الحيلة والرأي والمكيدة ما يبلغون به الفرصة في أعدائها؛ ولأولئك الأبطال في تلك الجماعات مكانة لا تطاول وأثر لا يبارى وكلمة لا ترد، وإن أحدهم ليغني غناء الجحافل، ويعدل بين قومه ما لا تعدل الآلاف، ولا غرو: فالحروب في أمثال تلك العهود أكثرها مصاولات فردية، وتسمى تلك العهود لذلك عصور الأبطال

وفضلاً عما يناله البطل في عصره من تبجيل وتقديم، فإنه إذا ما مات وخلا مكانه وافتقد مثاله، زاد ذكره ارتفاعاً وزاد ذاكروه مبالغة في تعظيم آثاره وتصوير وقائعه وتخيل صفاته ومواهبه، وما يزال جيل يزيد على جيل حتى تقوم حول بعض الأبطال أقاصيص طويلة السرد، تنطوي على شيء من الحقيقة الأولى ويتكون أغلبها من صنعة من الخيال ومما تصبو إليه النفس الإنسانية دائماً، من أمثلة القوة والشهامة والنجدة والغلب وحماية الذمار، ومما تتوق دائماً إلى تصوره من روائع المشاهدات، وجسام الوقائع؛ بل كانت بعض المجتمعات البدائية تغالي فترتفع بأبطالها إلى مصاف الآلهة، كما فعل أوائل قدماء المصريين بأوزيريس وأخته وابنه، وكما فعل أوائل الاسكندناويين ببطلهم أودين، أو إلى مراتب أنصاف الآلهة كما فعل الإغريق القدماء بأبطالهم

وإذا ما استقرت الأمة وتحضرت، وجنحت إلى السلم ولم تعد الحرب هي حالها الاجتماعية وضؤلت مكانة أبطال السلم من أنبياء ومصلحين ومشرعين وحكام وأرباب علم وفن، وهبطت قيمة القائد في الجيش قليلاً فلم يعد هو وحده المهيمن على مصائر الحرب بل صار للعدد والنظام والسلاح وغير ذلك حساب كبير؛ وبطل تصديق المتعلمين بواقع الأقاصيص المتخلفة عن عصور الأبطال؛ ولكن البطولة أعلى صورة من الصور خالدة، وعبادة الناس في كل العصور لها قائمة، بل إن احتفاء الأمة بأبطالها من أبرز دلائل حيويتها، كما أن من دلائل حيويتها حفول تاريخها بأسمائهم، بل يغالي كارليل ويزعم أن تاريخ الأمة هو تاريخ أبطالها، وتاريخ العالم إن هو إلا سير الأبطال

وتلك الأقاصيص المتخلفة عن عصور الأبطال إذا فقدت اعتقاد الناس بصدق كثير مما فيها فم فقدت إلا هيناً يسيراً، ولن تفقد ما يعج به من روائع الأوصاف وبدائع الصور وممتع الأخيلة وشائق المواقف والوقائع، والعرض الصادق لأحوال المجتمعات المتخلفة عنها تلك الآثار، والتأمل في طبائع الإنسان ومذاهبه في الحياة؛ فتظل تلك الأقاصيص تحفظ لنفاستها، وتظل كنزاً ثميناً لقرائح الأدباء وأخيلتهم، يطيب لهم الهيام في عالمها البعيد، وإجراء أفكارهم على ألسنة أشخاصها العظماء، واستعارة وقائعها وتشاهدها في التمثيل لوقائع عصورهم وأحداثها، وإبراز معانيهم وأغراضهم بالإشارة إلى حوادثها وملابساتها؛ وخير مثال لكل ذلك عصر الأبطال في بلاد الإغريق:

فعصر الأبطال في بلاد الإغريق، الذي أمتد زمن استقرارهم في شرق البحر الأبيض وتشربهم حضارته، هو أشهر عصور الأبطال وأسيرها ذكراً، لأن أشعار هوميروس قد خلدت روائع الصور لأحواله وعظائم أبطاله، وبدائع الأوصاف الشاملة لمعتقدات القوم وتصورهم لآلهتهم؛ حتى إذا ما انقضى ذلك العصر وبرزت اليونان في عالم التاريخ الواضح وطلعت في عصرها الذهبي وحلت الفلسفة محل الخرافة، وبطل الاعتقاد بكثير من أخبار الإلياذة والأوديسة، اتخذت أشعار الملاحم تلك مادة لضرب جديد من الأدب هو الدرامة، التي ظهرت لتسد حاجة ذلك العصر ما لم يعد يسده شعر الملاحم الذي يلتفت إلى الماضي ويتوفر عليه، ولا يعير الحاضر التفاتا

وكلتا الأمتين العربية والإنجليزية قد مرت في استقرارها وتحضرها بعصر أبطال ترك أثره في أدبها: وعصر الأبطال في التأريخ العربي هو عهد الجاهلية الذي انتهى بظهور الإسلام وظهور الأمة العربية في ضوء التأريخ المستيقن، فالجاهلية العربية شديدة الشبه بالعصر الهوميري: فيه كانت الأمة منقسمة على نفسها لا تفتر عن القتال، ولا يزال يظهر فيها من الأبطال أمثال عنترة ومهلهل ودريد بن الصمة، ولا تزال تتحدث بأيام المواقع وتتفاخر وتتنافر كما تفاخر أبطال الحروب الطروادية، ولولا أن الإسلام وضع حداً فجائياً لذلك العصر، لما بعد أن تتجمع أشعاره وأقاصيصه في ملحمة أو ملاحم كبرى؛ وكان العرب على تفرقهم يشعرون بوحدتهم في الجنس واللغة ويجتمعون في مواسم الحج وأسواق التجارة والأدب، كما كان اليونان يجتمعون في دلفي وأوليمبيا، وكما كان اليونان يزدرون غيرهم ويلقبونهم بالبرابرة كذلك كان العرب يعتدون بعربيتهم ويلقبون غيرهم بالاعاجم، ولم يفتهم أ، يجمعوا شملهم تحت لواء العربية لدفاع الفرس في موقعة ذي قار، كما فعل الإغريق من قبل إذ تجمعوا بزعامة أثينا لرد عادية الفرس أيضا، وفي موقعة ذي قار يقول الأعشى:

لما أمالوا إلى النشاب أيديهم ... ملنا ببيض فظل الهام يقتطف
وخيل بكر فما تنفك تطحنهم ... حتى تولوا وكاد اليوم ينتصف

ومر الإنجليز بمثل ذلك العصر في عهد استقرارهم في الجزيرة، وأهم الآثار الأدبية المتخلفة عن ذلك العصر ملحمة بيولف التي تصف كيف تغلب أمير إنجليزي على وحش هائل أقض مضاجع بعض الملوك المجاورين، وذلك العصر في التاريخ الإنجليزي شديد الغموض، ولغموضه ذاك رُدَّت إليه خرافات لعلها لم تكن منه في شيء كقصص الملك آرثر وفرسان مائدته المستديرة، وهي قصة قد نالت من احتفال أدباء الإنجليزية ما لم تنله قصة بيولف، لسذاجة هذه وشدة إمتاع تلك، واحتوائها على كثير من تقاليد العصور الوسطى وأنظمة فروسيتها ومغامراتها

ولم ظهر الأدب الإنجليزي الحديث، بعد انتشار الحضارة والعلم، اتخذ الشعراء والروائيين من تراث العصر السابق مادة لخيالهم، ولم يكتفوا بذلك بل استعاروا خرافات عصر الأبطال الإغريق مضافاً إليها تاريخ الإغريق والرومان، مما انطوى عليه ذلك التاريخ من

سير الأبطال، فحفل الأدب الإنجليزي بذكر البطولة وتمجيد الأبطال، سيان إنجليزيهم وأجنبيهم، تاريخيتهم وخرافيتهم، عجت بذكر هؤلاء وأولئك روايات شكسبير، وتفنن سبنسر وتنيسون في سرد قصص آرثر وفرسانه، واستعار شلي أبطال اليونان وآلهتهم لبعض مواضيعه، كما في قصيدته (بوميثيوس المقيد) ولم يألُ سكوت جهداً في تصوير بطولة القرون الوسطى في قصصه

تناول الأدباء سير أولئك الأبطال بالدراسة الفنية لشتى الأسباب: لما ركب في الطبع الإنساني من عبادة الأبطال والشغف بحديثهم، ولما يُضفيه مجدهم وبأسهم على

الموضوع التناول من عظمة وجلال، ولما يبعثه حديثهم في النفس من تسام وصبو إلى المثل الأعلى، وما يبثه ذكر أبطال الوطن في نفوس أبنائه من فخر وثقة؛ فلعباده البطولة في إطلاقها وتمجيد العظمة الإنسانية في عمومها تناول شكسبير سير قيصر وبروتس وكريولانس وعطيل بالوصف، وكتب ماثيو ارنولد قصيدته الطويلة سهراب ورستم، ولتبجيل البطولة القومية والاعتزاز بأبوة الوطن الذين شادوا مجده تناول شكسبير مواقف هنري الخامس في حرب مائة العام، وألف سكوت قصصه الاسكتلندية مثل خرافة منتروز وكونتين دروارد

ولم يقتصر أدباء الإنجليزية في تمجيدهم للبطولة واحتفائهم بالأبطال على الماضي الخرافي أو التاريخي البعيد، بل التفتوا إلى الحاضر والماضي القريب، ووفوا أبطال جزيرتهم الذين وطدوا مكانتها وأعلوا كلمتها حقهم من الذكر والتعظيم، في جانبي المنثور والمنظوم؛ بل كان الأبطال الخرافيون يستعارون أحياناً رموزاً للعظماء المعاصرين، كما فعل ادمزند سبنسر في قصته الشعرية (الملكة الحسناء). وكما قيل أن شكسبير قد قصد من الزمن لشخصية هملت إلى شخصية إرل إسكس؛ وقد أحتفل سوذي وكاميل وتنيسون وما كولي نتمجيد أبطال الإنجليز وعظمائهم في البر والبحر أمثال نلسون وولنجتون وكلايف. وكتب كارليل كتابه (الأبطال وعبادة الأبطال) فأسهب في الكلام على مظاهر البطولة في شتى الأزمان والأمم، واثر الأبطال في تقدم العمران البشري وما هم جديرون به من حفاوة

فالأدب الإنجليزي، بعد انقضاء عصر الأبطال المحاربين، لم يخل من ذكر البطولة وتمجيد الأبطال، بل ظل معنياً بأبطال الماضي ولم يجعل الحاضر دبر إذنه: لأبطال الماضي البعيد بوقائعه الخارقة التمجيد والتصوير الفني المبالغ المغرق في الخيال والشاعرية، ولأبطال

الحاضر التكريم والتأريخ الذي هو أدنى إلى الحقيقة دنو عصرهم من الأذهان، وأبعد من الخرافة والخيال بعد الإنسانية عن عصور طفولتها؛ أما في الأدب العربي فقد أنقطع ذكر الأبطال أو كاد بانتهاء عصر البطولة الجاهلية: أهمل الأبطال الجاهليون أو فازوا بالنظرة العابرة والذكرة العارضة، ولم يكن أبطال الإسلام أوفر منهم حظاً من عناية الأدباء- مهما كان نصيبهم من اهتمام المؤرخين ومكانهم في التاريخ

ولم يخل تاريخ العرب بعد الإسلام من أبطال يمجدون وتنسج حولهم القصائد الطوال، ولا أقفر تاريخهم من حوادث مملوءة بالوحي الشعري الصادق، بل أن تاريخ نهضتهم وبسط سلطانهم لهو ملحمة التاريخ الكبرى التي تزري بكل ملحمة، وتسخر من الوقائع الموضعية الضئيلة التي حاك حولها هوميروس قصيده الفاخر، وقد أنجبت تلك النهضة - بعد شخصية الرسول الكريم التي لم يجد بمثلها الزمن - نخبة من أبطال السلم والحرب، كخالد وعمر وعلي وابن العاص ومن عاصرهم وتلاهم من فحول الأبطال الذين لو تنجب أمة أعظم منهم. واحتوى تاريخ العرب على سير أفذاذ يستفزون الوحي الشعري خاصة، لما انطوت عليه سيرهم من طرافة وجاذبية: كالحسين الذي استشهد على أسنة الرماح آبياً أن يستأسر، وصلاح الدين الذي رفع لواء الإسلام وقصم ظهر الصليبيين في سورية، وعبد الرحمن الداخل الذي شاد من الفوضى دولة أزهر دول التاريخ، ومحمد بن القاسم، الذي فتح السند وهو يافع والذي قيل فيه:

ساس الجيوش لسبع عشرة حجة ... يا قرب ذلك سؤدداً من مولد

ولكن الأدب العربي قد نبذ ذكر أولئك جميعاً ظهرياً، ولم يحتو من ذكر البطولة والحماسة والحروب إلا على وقائع ثانوية كفتح عمورية وأعمال أنصاف الأبطال، كبدر بن عمار، وغيره من ممدوحي الشعراء الذين كانوا يطمعون في رضاهم ونوالهم، فجاء مدحهم لهم شديد التكلف مغرقاً في التهويل؛ أما إذا لم يكن نوال ولا سلطان حاضر فلا بطولة تستهز نفس الشاعر، ولا عظمة تستدعي إعجابه وتستجيش وحيه، ولا يرد ذكر عظماء الجاهلية في القصيد إلا مستعارة صفاتهم وفضائلهم للمدوح مهما ظهرت فضفاضة عليه داعية إلى السخرية، بل كان أولئك العظماء يزدرون في مواقف الملق لأرباب السلطان: فقد قيل إن بعض الحضور عاب على الطائي تشبيهه ممدوحه (بأجلاف العرب) حين أنشد سبيته في مدح أحمد بن المعتصم فقال منها:

إقدام عمرو في سماحة حاتم ... في حلم أحنف في ذكاء إياس

ومن مثل هذا الحديث تتبين بعض أسباب إعراض الأدب عن حديث البطولة: كالتكسب بتمليق أمراء أنانيين يأبون إلا أن يكون كل المدح لهم؛ بيد أن هناك سبباً أهم هو انعدام روح القومية بين العرب: فقد كانت العصبية القبلية فوق القومية العربية في عصر الجاهلية، فلما وحد الإسلام العرب تحت لوائه وحض على التآخي ونبذ العصبية، لم يستمر العرب دولة واحدة مستقلة منعزلة زمناً طويلاً كافياً لتوحد عناصرها توحداً صحيحاً، واعتناقها جميعاً للقومية العربية مكان العصبية القبلية، بل اندفعوا وهذه العصبية ما تزال على أشدها يفتحون شرقي العالم وغربيه، فإذا هم في بضع سنين يموجون في إمبراطورية مترامية، ضلت قوميتهم العربية في قومياتها المتعددة، وظلت عصبيتهم المأصلة تستأثر بولائهم وتثير الفتن بين قبائلهم، وكان هذا التناحر القبلي من أكبر أسباب انتصار الفرس، ووثوبهم إلى السلطان على أيدي العباسيين فالمجتمع العربي عرف العصبية القبلية الضيقة الحدود والإمبراطورية العالمية الفضفاضة الجوانب، ولم يعرف القومية العربية التي تسمو على العصبية وتفخر بأبطال العرب الغابرين من أي الإحياء كانوا، والتي تضيق دون مدى الإمبراطورية الواسعة، التي لا يجمعها ماض واحد ولا تشترك في تراث عمراني ثقافي فرد. فلم يكن العربي المسلم يفخر بأبطال العرب المشتركين كابن الوليد وابن الخطاب قدر ما يفخر بآبائه الذين تنتسب إليهم قبليته فابن الرومي في القرن الثالث يمدح أبا الصقر فلا يفوته أن يمدح قبيلته شيبان، وأبو الصقر يرى أن ابن الرومي لم يوف شيبان حقها فيحرمه العطاء، وأبو فراس في القرن الرابع يفخر ببني حمدان الذين يراهم لم يخلقوا إلا (لمجد أو لبأس أو لجود)، ولا يرد ذكر العرب في شعره، وهذه النزعة القبلية الضيقة لا تنتج شعر بطولة فنياً راقياً، بل تنتجه الروح القومية المتدفقة إنما كان الدين يحل محلل القومية من نفوس العرب، ومن ثم كان له في أدبهم أثر بعيد المدى، ولذلك نرى أن جانباً عظيماً مما قد ندعوه شعر بطولة في العربية يدور حول أعظم الشخصيات الدينية في الإسلام بعد الرسول الكريم، شخصية الإمام علي، وشخصيات

أبنائه: ففي الأشعار التي تندب مصارعهم - رغم اتسامها بالحزن والفجيعة، وقلة ما تسجله من عظائم أولئك الأبطال الذين نهضوا في الحقبة بعد الحقبة، وساروا إلى الموت مملوءين ثقة وبسالة - تمجيد صادق الشعور للمثل العليا مشخصة في أولئك النفر الغر الميامين، ولدعبل وابن الرومي وغيرهما أشعار حارة فيهم، ومن ذلك قول الأول:

وليس حي من الأحياء نعلمه ... من ذي يمان ومن بكر ومن مضر
إلا وهم شركاء في دمائهم ... كما تشارك أيسار على جزر
قتل وأسر وتحريق ومنهبة ... فعل الغزاة بأرض الروم والخزر

وسبب آخر عظيم الأثر في خلو الأدب العربي من تمجيد البطولة، هو أن هذا الضرب فني يحتاج في ممارسته إلى تفرغ وطول معاناة وكثرة مراجعة، ومثل هذا الفراغ لم يتهيأ لأدباء العربية، ومثل هذا العكوف أو الترهب الفني الذي حظي به ملتون ووردزورث وتنسيون وغيرهم من شعراء الإنجليزية لم يفز به شعراء العرب وكتابهم، أضف إلى ذلك أن الأدب العربي كان دائماً يؤثر التقليد ويحجم عن اتخاذ مواضيع أو صور جديدة لم يرثها العرب الأولين، ولهذه النزعة المحافظة قد نفي من حظيرته كثيراً من فنون القول ومنادح الفن، لم يرها من شأنه ولم يحسبها جديرة بالتفاته، لأنه لم يرثها عن الأقدمين ولم يطلع على أدب الإغريق فيقف على بدائع النظم التي تأتي من ذلك الباب

وكان الأدب العربي كلما نفي من حظيرته باباً من أبواب القول يمت إلى الطبيعة الإنسانية بسبب لا يجذ، ويروي من النفس البشرية غليلاً دائم الحاجة إلى الري، تلقفه عن الأدب العامي فنهض عنه بالعبء الذي طرح، وآثر إرضاء النفس الإنسانية حين آثر الأدب الفصيح إرضاء التقاليد، ومن ثم حلك الأدب العامي، أو الخيال العربي، حول أبطال الجاهلية كعنترة وكليب، وعظماء الإسلام كعلي بن أبي طالب وهارون الرشيد، روائع قصص البطولة ومنازلة الصناديد ومقابلة الأنس والجان واجتلاء أسباب المتعة والبهجة والفكاهة؛ وما كان بالأدب العربي الفصيح قصور عن ذلك الضرب من القول لو أراده. انظر إلى روعة الوصف في قول المتنبي:

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه ... وفي أذن الجوزاء منه زمازم
وقول ابن هانيء الأندلسي في جيش جوهر:
إذا حل في أرض بناها مدائناً ... وإن سار عن أرض ثوت وهي بلقع
فهذا وصف للجيوش لن تحوي أبلغ أشعار أروع منه، ولا غرو: فقد كانت المادة متوفرة لأدباء العربية لينسجوا من أحاديث البطولة وأوصاف المواقع ما شاءوا، فقد تفنن المسلمون في وسائل الحروب البرية والبحرية وحازوا فيها غايات السبق، والدول والانقلابات كانت تتوالى على أعين الأدباء تباعاً واللغة العربية الرحبة المساعدة بالألفاظ، الغنية بالأوزان الرصينة والقوافي المتعددة، خير معوان على نظم قصيد الملاحم ووصف عظائم الأبطال، فلو التفت الشعراء إلى هذا المجال من القول لرأوا سعة ولكنهم أغفلوه فيما أغفلوا، وعدوا البطولة والأبطال شأناً من شؤون التاريخ، لا فناً من فنون الأدب

فخري أبو السعود

دعابة الجاحظ - 2

بقلم محمد فهمي عبد اللطيف

ولقد رأيت في الناس من يحسب أن التنادر من الشيء الهين، الذي يستطيعه كل إنسان، ويقدر عليه كل شخص؛ وهذا حسبان خطأ، فان التنادر فن له ثقافة ودراية كسائر الفنون، ولا بد من حذقه من استعداد موهوب، وملكات فطرية، يتصل بعضها بالقلب، وبعضها بالعقل، وقد يناقض بعضها بعضاً، وقد لا تجتمع كلها لشخص واحد، ومن ثم اختلف حظ الناس في إجادة هذا الفن، كاختلافهم في إجادة الشعر والكتابة والرسم وغيرها، ففيهم الذي يبلغ في ذلك مرتبة العبقرية، ومنهم من يقف عند حد النبوغ، وفيهم من هو دون ذلك وأقل، ثم تتدلى وتتدلى حتى تقع على البليد الأصم الذي لا يفهم ما يقول، ولا يفقه ما يقال، فهو أخو الجمادات في فقدان الشعور، وبلادة الإحساس، وإن كان قد تميز بالنطق، وبالنطق فحسب!

ومن أجل أن نقيم الأود في هذا الخطأ على وجه أوضح، ونعطي الموضوع بعض ما يستحقه من الشرح، نقول بأن التنادر لا يقف في اتجاهاته ومراميه عند العبث والضحك، ولكنه في الواقع يقصد إلى ما هو أهم وأجل، ويرمي إلى أغراض متعددة، كل غرض منها يعتمد على ملكات ولا بد له من استعداد خاص، فمن ذلك السخر وهو يقوم على الذكاء وقوة الإدراك، وحسن المفارقات؛ والدعابة وهي تعتمد على انبساط النفس، ومرح الطبيعة، وخفة الروح؛ ثم الهزل وإنما يكون عن استهانة بتكاليف الحياة وعظائم الأمور، وتفريط في الواجب؛ وقد يتدفع الإنسان إلى الهزل والعبث بدافع العطف والتبسط، كما تضحك من طفلك الصغير، ومن أصحاب النقص وذوي العاهات.

وقليل في الناس من تجتمع له كل هذه الجهات بملكاتها كما كان الجاحظ، وكثير من نجده يجيد الضرب والضربين، فهو في أحدها يقطف، وفي بعضها يقف على أنه لابد لحذق هذا الفن بعد كل هذه المواهب والملكات من ثقافة بضروبه، وعلم بمسالكه وانتهاجه، حتى يمكن للتنادر أن يقع بالنادرة من قلوب السامعين موقعاً يهز المشاعر، ويشفي نجى البلابل، وقد تكلم الجاحظ في تبيان النهج الذي يكون به أداء النادرة وحظها من القبول والاستملاح والاستطابة فقال: (والنادرة الباردة جداً قد تكون أطيب من

النادرة الحارة جداً، وإنما الكرب الذي يخيم على القلوب ويأخذ الأنفاس، النادرة الفاترة التي لا هي حارة ولا هي باردة، وكذلك الشعر الوسط، والغناء الوسط، وإنما الشأن في الحار جداً والبارد جداً. . .

ومتى سمعت حفظك الله بنادرة من كلام الأعراب، فإياك وأن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها، فإن أنت غيرتها بأن تلحن في إعرابها، وأخرجتها مخرج كلام المولدين والبلديين، خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير. وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام، وملحة من ملح الحشوة والطغام، فإياك وأن تستعمل فيها الإعراب أو أن تتخير لها لفظاً حسناً، أو تجعل لها من فيك مخرجاً سرياً، فان ذلك يفسد الإمتاع بها، ويخرجها من صورتها، ومن الذي أريدت له، ويذهب استطابتهم إياها، واستملاحهم لها. .)

وثمة ناحية لا أحب أن تغرب عن البال، وهي أن الإنسان وإن اجتمعت له ملكات

التنادر، وتمت له مواهب الدعابة، وكان على علم بشرائط ذلك وضروبه، فأنه مع هذا كله لا يستطيع أن يكون له فبهذا الفن إلا إذا استوفى شرائط أخرى في هيئته ومخبره وإشاراته، وما هذه الشرائط في الواقع إلا أداة هذا الفن وآلته، فكما أنهم ارتضوا للخطيب نمطاً خاصاً في موقفه من اعتجار العمامة، وإصابة الإشارة، وجهارة الصوت، وجودة الإيقاع؛ وكما أنهم اشترطوا للمنادم بزة معلومة من الزي، وحسن الحديث ولطف المدخل، فكذلك رأوا من شرط المسامر والمنادر أن يكون خفيف الإشارة لطيف العبارة، ظريفاً رشيقاً، لبقاً رفيقاً، غير فدم ولا ثقيل، ولا عنيف ولا جهول، قد لبس لكل حالة لباسها، وركب لكل آلة أفراسها فطبق المفاصل، وأصاب الشواكل، ولقد تم للجاحظ كل هذا من مواهب الفن وملكاته، فبلغ فيه مبلغ العبقري النادر، وكان له في كل ضرب من ضروبه واتجاهاته، يتهكم تهكماً مراً لاذعاً، ويداعب مداعبة حلوة سائغة، ويهزل هزلاً هو مراح الأرواح، وأنس القلوب. وإنك لتجده في سائر كتاباته وأحاديثه يجمل القول بالنادرة، ويخلط الجد بالدعابة، فيجعله حسيباً إلى النفوس، سهلاً في التناول، وما أعرف للجاحظ ضريباً في تلك الناحية غير الكاتب الإنجليزي الماجن صاحب (الأفكار البليدة) فقد كان ذلك الكاتب خفيف الروح، قويم الفكر، له آراء صائبة، ولكنه كان يسوقها إلى القارئ مساق الدعابة والتفكه، وكان مشغوفاً بنقض ما ،تواضع عليه الناس من الفضائل والأخلاق، فيحسب الغرور فضيلة، والقناعة بلادة ويرى أن أهل الخير والطيبة على باطل، وإنه في ذلك كالجاحظ إذ كان يكتب في الأمور المتناقضة، والحالات المتضاربة، فيحتج لفضل السودان على البيضان، ويفتخر للرماد على المسك، وإن الشبه ليشتد بين الرجلين إذ يتحدث كل منهما عما يتصل بنفسه، ويمسه في شخصه، ولقد وقفت على فصل لذلك الكاتب يتكلم فيه عن الذاكرة، ويتنادر بضعف ذاكرته حتى بلغ به أنه كان ينسى أسمه في بعض الأحيان، فاذكرني ذلك بما كان من أمر الجاحظ إذ قال: نسيت كنيتي ثلاثة أيام، فسألت أهلي !!بماذا أكنى فقالوا لي: أبو عثمان

ولقد كان الجاحظ في كثير من قبح الشكل، ودمامة الخلقة، وقصر القامة، ونشوز التركيب. ولكنه كان على الرغم من ذلك كله طيب المحضر، شهي الحديث، خفيف الروح. ظريفاً في إشاراته، فكان بذلك ريحانة السامر، وأنس النادي، ومهوى الرؤساء وولاة الامر، يطلبونه لخفته، ويحرصون عليه لظرفه، ويغمرونه لذلك المرح الذي يفيضه عليهم. وأسوق إليك من ذلك طرفاً: حدث الرواة أن الجاحظ كان جانب الوزير أبن الزيات ينصره على القاضي ابن أبي دؤاد، وكان الشنآن مستحكماً بين الرجلين، فلما غضب المتوكل على أبن الزيات وقتله، وتم الظفر للقاضي، خاف الجاحظ على نفسه التلف، فطلب السلامة بالهرب، فلم يلبث أن قبض عليه، وحمل إلى ابن أبي دؤاد مغلول العنق، مقيد الرجلين، في قميص سمل. فلما وقف بين يديه، وأرسل القاضي في وقف بين يديه، أرسل القاضي في طلب حداد. فقال الجاحظ أعز الله القاضي، ليفك عني أو ليزيدني؟ قال: بل ليفك عنك! فلما جيء بالحداد، غمزه بعض أهل المجلس أن يعنف بساقه، ويطيل أمره قليلاً، فلطمه الجاحظ وقال: اعمل عمل شهر في يوم، وعمل يوم في ساعة، وعمل ساعة في لحظة، فإن الضرر على ساقي، وليس بجذع ولا ساجة. فضحك ابن أبي دؤاد وأهل المجلس منه. وقال ابن أبي دؤاد لمحمد ابن منصور وكان حاضراً: أنا أثق بظرفه، ولا أثق بدينه!! ثم قال يا غلام صر به إلى الحمام، وأمط عنه الأذى، فنزع منه الغل والقيد وأدخل الحمام وقد حمل إليه تخت من ثياب وطويلة من خف، ثم جاء فصدر المجلس، ثم أقبل عليه وقال: هات الآن حديثك يا أبا عثمان

وكم كنا نشتهي أن يصلنا ذلك الحديث الذي لا نشك في أنه كان عذباً شهياً يفيض بألوان من المرح، وفنون من الأنس، قد توثب فيه الجاحظ على طريقته من نادرة إلى ،نادرة

وتنقل به من طرفة إلى طرفة. فيا ترى ماذا قال أبو عثمان، وبماذا أجاب ابن أبي دؤاد !ولماذا سكت الرواة؟

(له بقية)

محمد فهمي عبد اللطيف

حديث الأزهار
للكاتب الفرنسي آلفونس كار
الفونس كار من أبرز أدباء القرن التاسع عشر وقد أشتهر بأسلوب خاص من السهل الممتنع، ومن ابلغ آثاره (حديث الأزهار) وهو مجموعة قطع صغيرة في كل منها مجال وسيع للتفكير، وهذه بعض أحاديث أزهاره أنقلها إلى العربية وأقدمها إلى قراء الرسالة.
ف. ف
(1)
الزهرة الأولى
لقد انبلج صبح نيسان (أبريل) فإلى الحقول يا بنات الأمل لاقتطاف أول زهرة من أزهار الربيع.
اقطفي أول زهرة يا فتاتي وضعيها تحت طيات ثوبك على صدرك، فأنها طلسم السعادة يشدد العزم ويحيى الأمل.
ليست الوردة ولا البنفسجة أولى أزهار الربيع، بل هي الزهرة التي تلمحها العين قبل سواها؛ هي التي يبدو لمرتاد الحقول كأول ابتسامة ترسلها الطبيعة من خلال دموع الشتاء.
لقد كانت الوردة أول زهرة أعلنت إلى قدوم الربيع في السنة الماضية؛ وكانت زهرة البنفسج رسول الحياة إلى قلبي في أول هذا الربيع. ومن يدري ما تكون الزهرة الأولى بعدها، فلعلها زهرة القبور.؟
من أي نوع كنت يا زهرة الربيع، أنت ابتسامة الحياة بعد الموت، ولمعة الأمل بعد اليأس. أنت الزهرة الأولى، لا تلمسك يد دون أن ترتجف، ولا تقع عليك عين دون أن تترطب بندى الأجفان.
إن الناظر إليك يا أولى الزهار، ليشعر بأن فتوة القلب ستعود مع فتوة الزمان، وأن النفس ستنور مع تتويج الأزهار وتخضّر ذاوياتها مع اخضرار الأوراق.
أنت الأمل يا زهرة نيسان، بل أنت ابتسامة أوهام ينخدع بها المرء فيؤمن بإمكان رجوع المنصرم وعودة خطوات الزمان.
أولى الأزهار شبيه بالأعياد في دوران الأعوام، فهي درة في عقد الساعات والايام، إذا ما بدت في الحاضر نبهت ما مضى بمثل زمانها الغابر ودفعت بالقلب إلى العودة نحو الزمان القديم إنها لوقفة يربط الإنسان فيها حلقة الآن الحاضر بمثلها من الآن البعيد، فيحسب نفسه إلهاً ينفخ في الأموات نسمة الحياة. وما أوجع ما يشعر به حينما يرى هذه الرجعة وهماً تولده حرارة القلب وتبدده عاصفات الأقدار.
ما أجملك أيتها الزهرة الأولى، وما أحلى وما أمر ما تفعلين بالقلوب، ينشر مشهدك من جوانب التذكار ألوفاً من مجنحات الحياة ثم يطويها ليردها مكسورة الأجنحة إلى قبر الزمان.
إنها لسريعة الذبول، أولى أزهار الربيع، وما أشبهها بما تولد في القلب من شعور سلاماً على وريقاتك يا زهرة الربيع وبلسماً من عبيرك على قلوب العاشقين والشعراء، على قلوب الحزانى والآملين.
لئن كان في وهمك بعض العذاب، فان فيه ما يعيد إلى التذكار برهة من متلاشيات الحياة.
في أول قطفك برهة من الشباب للشيخ، ولحظة أمومة للثكلى، وفترة بنوة لليتيم. وما بين وريقاتك الباسمة فترة لقاء لأبناء هذه الحياة بأحبابهم الراحلين الثاوين في القبور سلام عليك يا زهرة الربيع، فأنني وجدت بك وأنا أقتطفك لوحدي ما كنت أجده وأنا أقتطفك من قبل مع الأحبة المودعين.
فليكس فارس
جولات في الأدب الفرنسي الحديث
تطور الحركة الأدبية في فرنسا الحديثة
لأستاذ الأدب في جامعة السربون (دانيال مورني)
بقلم الأستاذ خليل هنداوي
القصة الواقعية

أميل زولا
أصول مذهبه:
يتولد أدب زولا من إرادة قانونية ومن طبع لا يتلاءم مع هذه الإرادة. أما هذا النظام فهو يعود إلى تأثير (بالزاك) فيه و (فلوبير) وفلسفة (تين) والواقعيون هم الذين قالوا بأن القصة لا ينبغي أن تكون رومانتيكية إبداعية لأنها ليست وليدة خيال أو وهم، وإنما يجب أن تكون محاكاة حقيقية للحقيقة، ولكن زولا بما أوتي من الخصب وبما أفاد من مطالعة المتأخرين وجد إن هنالك مذهباً أجدر بالأخذ، يجب أن تخلق القصة المبنية على الامتحان الذي يصل إلى عرفان حقائق علمية. وقد آلت بزولا مطالعته للدراسات النفسية التي نشأت في جيله كنظرية ولادة العواطف ونظرية الوراثة الطبيعية فلسفياً وفسيولوجياً إلى أن يرى أن الطبائع في الرواية المدرسية إنما كانت عقداً بسيطة، على أن كل ما في الإنسان وكل ما في القصة يخضع للجبلة الطبيعية أو للطبع. وهذا الطبع إنما هو وليد الوراثة ووليد تأثير الأوساط والظروف، فواجب القصة إذن ألا تقف بحثها على دراسة حالات نفسية ما هي إلا كلمات مصفوفة، وإنما على حالات واقعية. فتأنيب الضمير مثلا ما هو إلا اضطراب بسيط عضوي، (وإنما غايتي أن أكون كاتباً واقعياً وطبيعياً) ولكن القصة الامتحانية يجب أن يكون لها هدف أبعد، إنها ستكون درساً. فقد يجلس القصصي وتحمله ملاحظته وتأملاته إلى حالة من حالات كل يوم، فيرى مثلاً حالة جنون التصوف أو هلاك المدمنين للكحول، أحل بهم هذا عن مصادفة، أم نتيجة شريعة معلومة؟ إذا أردنا أن نعرف ذلك فلنقم أشخاصاً وأنفسنا مقام من تخيلهم فكرنا المؤلف على الطريقة الامتحانية، ولنتأمل مجرى هذه الأشياء، فإذا وصلنا في النهاية إلى النتيجة التي أدركناها بالتأمل الأول كان لنا أن النتائج الواحدة تتبع الأسباب الواحدة، وهكذا أوجدنا قانوناً، وعملنا علماً!
على أن أهواء (الرومانتيكيين) لم تكن أبسط ولا أسهل من هذه البحوث العنيفة التي يشبهها زولا بحقائق علمية يختلقها رجل الأدب كما يشاء هواه لكي يصل إلى النتائج التي تلائم فكرته وغايته. وأحكام زولا العلمية لم تكن أكثر جداً من بحوثه.
وقد وضع زولا قصصه سائراً على طريقته بصبر وجلد، لا يعرف الملل، وقد عمل على الذهاب من المبدأ إلى النتائج، فبعض أشخاصه تؤثر فيهم عوامل الوراثة، وبعضهم لا يستطيعون فراراً من تأثير الأوساط والظروف وبهذا لم تظهر الفضيلة عنده كمثل مستقل وإنما الفضيلة تحتاج إلى الوراثة والى تأثير الأوساط والظروف كما هو الحال في الرذيلة التي تنشأ بهذا التأثير.
طبع المؤلف وعبقريته
لقد كان طبع زولا أشد وأقوى من تعاليمه الفلسفية، وقد كانت آثاره الأولى تفيض عاطفة ورقة. لق كان كاتباً رومانتيكياً! وهو لا يجهل ذلك في نفسه. فلقد أخذ عهداً على نفسه بأن يكون واقعياً وطبيعياً، وطلب إلى القصصي أن يكون ذا عاطفة، تموج في صدره كل العواطف حيث لا تغنيه عاطفة التأمل والتحليل وحدها. ولقد كانت تموج في صدر زولا العواطف على اختلافها: العواطف الاجتماعية، والعواطف النبيلة. ولقد كان جمهورياً ثم صار اجتماعياً فاشتراكياً. وله هذه الجملة المأثورة (الجمهورية ستكون واقعية أو لن تكون). فكان من وراء ذلك إن رأى في الأغنياء والأسياد والمثرين رجالاً لؤماء وأرواحاً قاسية وعقولاً منحطة، ولا ينزل النبل والشرف والحقيقة إلا منازل رجال الشعب والفنانين والمفكرين المؤمنين بالجمهورية الواقعية. وفي استطاعتنا أن نناقش هذه الأفكار ولكنها بجملتها تصل بنا إلى بعض الأنانية والحمق، والى الإشفاق على البؤس والبؤساء.
إن الصورة التي صور بها - زولا - الإنسانية صورة مظلمة الألوان، تحمل في طياتها اليأس والوجوم، تتلخص هذه الصورة في أنها مجموعة مظلمة للعيوب والخبث والرياء، وجهود دائبة تبعث على الإشفاق تذهب مذهب العنف في قتال الفاقة الروحية والجسدي؛ على أن زولا برغم ذلك كله يعتقد أن هذا النضال شريف وعظيم، يبشر بمستقبل خير من
الحاضر ويعلن أن الحياة الحرة المخصبة هي التي ستظفر وتنتصر. وتراه قبل كتابة (أناجيله العاطفية) كان يعتقد بجمال الحياة، هذا الجمال الذي هو عنوان قصه له، إن جمال الحياة سينتصر على كل شناعة فيها، وسيغلب على كل مناسك وشعائر لا تبعث

إلا على الزهد والفرار من الحياة وسيقهر المذاهب المسممة. الحياة وحدها ستكون جميلة لأنها ستكون صادق مبدعة. وهكذا تجد زولا يتشاءم ويطغي عليه تشاؤمه تلوح خلاله لمعات الرجاء، ويمشي فيه شعاع التفاؤل

ولزولا مخيلة قوية وثابة. إن الشيء الذي يحبه حباً جماً هو مشهد الحياة. يحب الشناعة فيها والرذيلة والفساد أيضاً، أليس هو مشهداً من مشاهدها؟ وإن مشهد الحياة يجمل بنفسه حيث يبدو مجموعة صور تتجلى فيها لجبة الحياة، وفي الحق لا تظهر عبقرية زولا وفي الحق لا تظهر عبقرية زولا إلا في هذا القدرة على التخيل. وان هوجو وفلوبير قد وصفا الجماعات في حركتها، وفي عراكها وصراعها، ولكنه وصف ينشأ حول أبطال القصة ولا يدخل في أنفسهم. أما زولا فقد بدل هذا النظام، وترك الحياة المضطربة المبهمة تسود جو القصة كلها. فهنالك صور كبيرة تهيمن على الجماهير، وهنالك كائنات سرية عظيمة كأنها تحيا باضطراب الجماعات، وأن عالماً ضخماً واسع الحدود، ذا لجب وصخب، مبهم التفسير، يفتش ويتحرى ويجد تأويل نفسه في هذا الرمز يبدو - طوراً - كصورة عنه، وتارة كوهم باطل!

وقام لزولا منتمون لمدرسته، أخذوا بمبادئه الأدبية وهجروا مبادئه الفلسفية، فلم يشاءوا أن يجعلوا تأريخ البشرية مقيداً بتاريخ الوراثة والأدواء الكحولية، ولم يعتقدوا بأن القصة إنما تكون تجربة فسيولوجية اجتماعية. . . فعادوا إلى المصادر التي صدر عنها زولا، والى الواقعية التي أقتبسها من فلوبير وكونكور، ورأوا أن كل ما فيه اختلاق هو افتراء، ورأوا ألزم شيء التحدث عن شيء لاحظناه، ولو أن الحياة قدمت لنا مشاهد نادرة الوقوع فمن الواجب أن نهملها لأنها افتراء! مادة الرواية هي مادة كل يوم، هي مادة كل شيء لا ابتداء له ولا انتهاء، مادة كل ما يمكن وقوعه كل يوم في كل كون، والحياة التي تتمثل لنا كل يوم وفيكل كون هي حياة فيها القبح والشنيع، أما الجمال والفضيلة فهما صفتان نادرتان، أو أقل هما مستحيلان، وهما مما لا يصح اتخاذه موضوع القصة، القصة التي تعرض الشناعة

والرياء الضعيف الممتثل في مجتمع بنيت أسسه على رذائل مشتهرة وأنانية متبجحة. وإنما قيمة القصة وحسنها يتوقفان على مقدار صدقها في وصف هذه الشناعة والرياء هذه مبادئ جهد بها هؤلاء ولكنهم لم يكونوا أمناء لمبادئهم، فقد كانت فضيلتهم زاهية مختالة، قتلوا كبرياء وخلقوا كبرياء، وكرروا موضوع (كتلة الشحم) تحت مظاهر متحدة الغرض، وكل رواياتهم تعود إلى وصف فئة تتظاهر بنصر الفضيلة، تمدح جماعة سافلة إذا افترقت إليها، وتعود إلى إهانتها إذا فرغت منها. ولهذا لم يبق من (الواقعية) إلا مبادئ عامة قد تتلاقى بالمذهب (المثالي) حيث تكتب القصة بإسناد وأدلة، والروائي لا يحيا إلا في العالم الباطن، عالم نفسه، وإنه ليخرج منه ليلتقط من الحياة اليومية ألف مشهد، ويتحرى في هذه المشاهد عن الغرائز والهواء التي تتمثل هذه القصة. الحياة الحقيقية ليست هي حياة صفوة مختارة، وقد تكون هذه الحياة كاذبة مرائية، إن الحياة في حياة المجموع، حياة الشعب الصادقة، والفن يكون في تصوير هذه الحياة الشعبية

جي دي موباسان

جمال الحياة ومذهبه الواقعي:

عاش موباسان للحياة ولجميع لذائذ الحياة. لقد كان فتى (نورمانديا) له مظهر يملأ العين ونفس لا تعرف الكلال. كان يهيم شغفاً بالطبيعة وجمالها وهو القائل (إني أحب السماء كعصفور، والغابات كذئب شرس، والصخور كوعل أحب حباً وحشياً عميقاً قدسياً وحقيراً - كل شيء يحيا). ولقد كان له في فنونه حواس لا للتمتع فحسب، بل للملاحظة، وقد كان الصديق المقرب الوفي للكاتب (فلوبير) إذا هم بأن يكتب قيد بانتباه ودقة لا كل ما شاهده، بل كل ما يقدر أن يشاهده. ولقد أعطى صوراً كثيرة قوية عن مناظر السين والمارن ومقاطعة نورمانديا وعن حياة القرويين وطلاب الجامعات. وفي قصصه الأولى سخر من معايب نفسه ومخازيها، وسخر من كل ما يراه كاذباً في المجتمع في الأديان والشرائع والعادات.

لقد كان ماجناً مرحاً ولكن لم يطل عهد مجونه ومرحه. فقد تألم وغزا الألم جسمه ونفسه فبدل كل نظراته الواهمة في الحياة

لقد كان مسرفاً جد الإسراف في التمتع بالحياة، وقد أساء لنفسه وجسده بهذا الإسراف، إسراف عنيف في لذته وصناعته كأنما كان طبيعة شاذة عنيفة في ميولها!

فبكرت إليه الاوصاب وتناوشت جسمه العلل، فأراد أن يقاوم سلطانها فعكف على الخمر والمورفين والمخدرات وما لبث قليلاً حتى أثر ذلك في نفسه فولد فيها الاضطراب فتبدلت ألوان الحياة في وجهه، واستحال نورها ظلمة حالكة، وأخذت هذه الروح المرحة تشك في فرح الحياة وبدأت تحقر معانيها، وآزره على ذلك عقول أوى إليها كان تفكيرها متجهماً، فهو يحب شوبنهاور ممن وجدوا الحياة صفحة سوداء. ومنذ ذلك الحين إذا كل شيء في عينه زهواً باطلاً وجنوناً وعدما: (سعداء همة أولئك الذين لا يبصرون بسأم كبير. لا شيء يتبدل، ولا شيء يتحول، وأن كل شيء يغمره سأم طويل. . فكرة الإنسان ساكنة لا تتحرك وإنما تدور ضمن حدودها المتقاربة كذبابة في قارورة مسدودة) وهذا الضجر الذي عراه يظهر على صور مختلفة في ثنايا مواضيعه ورواياته؛ على أنه لم يجعل من هذه الإنسانية الكئيبة المحزنة صورة فتانة، وهو إذا لم يجل هذه الصورة بوجه صحيح فانه كان مفعماً شفقة وحناناً عليها، فهو في المواطن التي تهتز فيها الغرائز وتملك على المشاعر يبصر فضائل خفية وجمالاً متوارياً ونزوعاً عنيفاً متألماً نحو المثل الأعلى، تراه يعود إلى حديث من أحاديث الحياة حيثما كان مصدره، يسكب عليه الحنان والرقة، ويسبغ عليه الجمال؛ على أن فوزه الأدبي والثروة التي نالها قد بدلاه وأثرا في نفسه، فقد كان يغشى الأوساط الأرستقراطية ويتمتع بما تخلقه هذه الأوساط من الفنون والمرح العنيف في الحياة، فلم يعد يقنع بطريقته وفنه الأول في وصف الأشياء البسيطة وتصوير الحوادث القريبة. إنه نشط إلى ما تدعوه طبيعته الصافية إلى تحليل نفوس مركبة يستحوذ عليها القلق ويهديها الشقاء، ومن جملة هذه الأنفس نفسه. كتب قصة (قوى كالموت) و (قلبنا) و (بطرس) و (حنا) وما هي قصص تحليلية. هو يريد فيها أن يخفي التحليل بدلاً من نشره. وأشخاصها يريدون أن يخدعوا الناس أسرار نفوسهم بهذه الفصول والحركات التي يأتون بها. وأكثر قصصه تجري على طريقته، القصة الشخصية التي تدور حوادثها حول بطل هو صاحب القصة، تجري على طريقة الاعترافات التي تعبر عن الحياة الباطنة والتحليل الخلقي. على أن موباسان كانت جهوده بارزة في تطور المدرسة الواقعية وهو في خير قصصه تبدو واقعيته في ذوق حاد مشبوب يسمو إلى فتنة الحياة الشعبية وهجو الحياة الاجتماعية هجواً لا فظاظة فيه ولا مرارة في انتقاء هذه الحقائق التي تمثل الحقيقة الأكثر ارتباكاً في الحياة. كل شيء في أسلوبه يدل على صرامة واتزان. ولا يمل (موباسان) من قول كل شيء. ولكن من قول كل ما يوحي إليه عقله بقوة وبيان. وقد تفتنه الطبيعة وتأسره وتؤثر فيه، ولكن القصة تخون نفسه، وأخيراً تراه لا يتردد في التحري عن الحقيقة الإنسانية التي تعكس في لحظة واحدة من هذه الحياة المتغيرة العابرة شيئاً من حقيقة النفس الخالدة للناس.

(يتلوه بحث تأثير العلم في الرواية)

خليل هنداوي

التبعة الأدبية

للدكتور حسن صادق

سنبين في هذه الكلمة تبعة الشعراء والكتاب التي يحملونها أمام التاريخ وتثقل على أسمائهم وشهرتم عند مؤرخي الأدب وتطوره، إذا أنتجت أعمالهم الأدبية حالة من الاضطراب العقلي والقلق النفسي بين شباب الأجيال المتعاقبة

وقد يقول قائل إن من ينسب إلى مصنفي الكتب مثل هذه التبعة الخطيرة، إنما يجعل للأدب قيمة أكبر وأعظم من قيمة الدور الحقيقي الذي يقوم به في حياة الأفراد والشعوب. ولكننا نجيب على هذا الاعتراض بأن الطريق الوحيدة التي نملكها لحفظ كنز الإنسانية الأدبي ونقله من جيل إلى جيل، من فجر العصور التاريخية إلى اليوم، هي الكتب؛ وكل ما نعرفه عن العصور الماضية البعيدة لم نصل إليه إلا بأعمال الكتاب. وفضلاً عن ذلك فإن الدراسة المضنية التي يقوم بها الأساتذة أثناء الأعوام الطوال في معهد العلم المختلفة، ليست إلا شرحاً وتفسيراً لأعمال مكتوبة

وينتج عن ذلك أن الحضارة والأدب أمران متعاونان لا ينفصلان، وأن أحدهما بغير الآخر لن يكون إلا التكرار المستمر لوقائع ومذاهب ونظريات بعينها، بدون أية مقارنة ممكنة بين الماضي والحاضر. وما دام هذا هو اعتبار مهمة الكتابة فأن من السهل تصور التعبئة الهائلة الملقاة على عاتق الذين يدونون أفكارهم وينشرونها بين الناس

إن الروح السائد بيننا الآن، قد كونه الشعراء والكتاب والمؤرخون والفلاسفة الذين يتحدثون إلينا بوساطة كتبهم منذ آلاف السنين؛ وسيتأثر من غير شك روح الأجيال القادمة بما نكتب اليوم أو ببعضه على الأقل، ومن أجل ذلك يشعر الإنسان بشيء من الانفعال المستبهم كلما نشر كتاب جديد، لأنه يجهل مبلغ الخير أو الشر الذي ينتجه الكتاب خلال سير الإنسانية.

وليست أنواع الكتب جميعاً متساوية فيما تنتج من الأثر، ولكن أعظمها سلطاناً على النفس وأشدها خطراً وأقواها بأساً هي الكتب التي مصدرها الخيال، أو ما يصح أن يطلق عليها الكتب الشعرية

وفي الحق أنى الكتب الغزيرة المادة التي تدل على التبحر وتتطلب الجدال والمناقشة، أو التي تثبت آراء وأفكاراً وأسس تفندها وتهدمها، سواء أكان موضوعها التأريخ أم الفلسفة أم

الدين، تجد أمامها كتباً أخرى كتبت في الموضوعات نفسها للقضاء على الأثر الذي أنتجه النوع الأول من الكتب؛ وبهذه الطريقة نجد تصحيحاً لشر هذه، في الخير الذي تنشره تلك. وجمهرة الناس الذين لهم حق الخيار في الأخذ بما يرون لهم من الآراء، يستطيعون الوصول إلى الحقيقة بفضل جهودهم العقلية الخاصة. وبهذه المناسبة أذكر كلمة حكيمة للكاتب الفرنسي أناتول فرانس، فقد دخلت عليه في صباح أحد الأيام سيدة، فراعها كثرة ما رأت عنده من الكتب والمجلدات، وقالت له في دهشة شديدة: أقرأت يا سيدي الأستاذ هذه الكتب جميعاً؟ فقال نعم، ومن أجل هذا لا أعرف شيئاً. فازداد عجبها من هذا الجواب الغريب وسألته الإفصاح فقال: كل كتاب من هذه الكتب ينقض الآخر ويهدمه. ولهذا السبب لا يخرج القارئ منها جميعاً إلا بفائدة واحدة، هي أن يتعلم كيف يفكر

ولنفرض - كما هو الواقع - أن مؤخراً نشر كتاباً لحمته الهوى وسداه الحقد على شعب أو ملك أو زعيم ما، ففي هذه الحال يكتب مؤرخ آخر في الموضوع نفسه كتاباً يدافع به عن الشعب أو الملك أو الزعيم الذي حمل عليه المؤرخ الأول، ثم يقوم مؤرخ ثالث بجمع الوثائق والأدلة الصحيحة ويثبت الوقائع والآراء في دقة تاريخية، وهكذا. فإن كان المؤرخ الأول قد قصد إلى الشر، فان نجاحه لا يكون إلا في حدود ضعيفة وقتية لا تلبث أن تزول. وكذلك الحال في ميدان الفلسفة، فإذا دعاك حكيم إلى الركود وعدم الاكتراث مثلاً، أظهر لك حكيم آخر بالمنطق ضرورة الإرادة والعزم والحركة.

فمهما تكن قوة أصحاب المذاهب والمفكرين، فليس لهم علينا إلا سلطان نسبي، لأننا نظل سادة أنفسنا في قبول مبادئهم ومذاهبهم أو رفضها، ونجد في كتابات أخرى السلاح الذي ندفع به عن أنفسنا هجمات هؤلاء

أما حالنا مع الشاعر فعلى النقيض من ذلك، لأنه السيد المطلق في الميدان الذي اختاره لنفسه. والشاعر هنا هو الذي يخلق من عبقريته الخاصة عالكماً من الحوادث والانفعالات والصور ينفث فيه كل حيوية الأشياء الحقيقية، وإذن فالشاعر هو الروائي أو المؤلف التمثيلي، أو الموسيقار، أو مبتكر الحكايات الخرافية أو مصنف الملاحم أو مبتدع الكلام الموزون المقفى

وبفضل هذه الموهبة، موهبة خلق عالم مستقل، يكون الشاعر فخماً عظيماً أو خطراً مخيفاً.

إنه لا يبحث ولا يناقش ولا يبرهن، ولكنه يبتدع ويخترع. فهو لا يقنعنا، ولكنه يستهوينا ويفتننا كما تفتننا المناظر الطبيعية الجميلة واصطفاق الأشجار في سكون الغابة وخرير الماء في الغدير، أي أن الشاعر يغزونا دون أن نستطيع الدفاع عن أنفسنا وصد غارته عنا. وهو بعبقريته يجعلنا عاجزين عن أن نحذر سلطانه، وفرض علينا أريج أزهاره وظلال غاباته والتحليق في أفقه، فنحن في الواقع سجناء سحره، وأين نجد ملجأ للخلاص من الصور والأخيلة التي يطبعها فينا؟ أنلجأ إلى شاعر آخر؟ كلا لأن هذا يكون تعباً ضائعاً لا طائل تحته. فكل شاعر منهم له ميدان حر مستقل خالص، وليس من المعقول أن يفند الإنسان ملحمة بأخرى ولا درامة بأخرى ولا نشيداً بأغنية. ومن هنا نرى الخير أو الشر الذي يستطيع الشاعر عمله. فهو يستطيع أن يغرس فينا بذور البطولة أو جراثيم الجبن؛ وفي وسعه أن يقودنا إلى الخير أو يدفعنا إلى الشر على الرغم منا

والشاعر الكبير الجدير بهذا اللقب هو الذي يشعر بالرحمة العميقة، ويحتقر المتاع المادي، ويستعذب الآلام في سبيل المجد المستقبل. ويلهمنا حب الحياة ويحثنا على إعزاز الإرادة وقهر الهوى، ويدفعنا إلى ضروب التضحية المجيدة، أي يدفعنا إلى البطولة مهما اختلفت البلاد والجنس والذين والفلسفة. وهذه صفات مشتركة بين الشاعر والبطل

وكلامنا هنا عن الشاعر العبقري؛ أما الشاعر الذي يعوزه الابتكار والأسلوب والعبقرية فلا قيمة له ولا أثر يخشى منه. ومثل هذا ربما يحصل على نجاح وقتي، ولكن شهرته لا تطول ونفوذه لا يمتد ولا يثمر

والشاعر العبقري نوعان: الأول هو الذي أوتي المقدرة على استهواء الناس بخصوبة ذهنه ورقة خياله وقوة ألفاظه وإحكام نسجه، ثم يستسلم فيما يكتب لضعف الهوى ويتغنى بالحياة السهلة الرخوة ويندفع في الملذات الحقيرة المبتذلة ويؤثر بهذا فيمن يسحرهم ويدعوهم إلى الضعف والجبن والأثرة والاشتهاء والشراهة. والثاني هو الذي يحملنا نحو مثل أعلى من القوة والنور والبطولة ولا يورطنا في اضطراب الذهن ورعشة الأعصاب والحواس

حسن صادق

تاريخ العرب الأدبي - 13

للأستاذ رينولد نيكلسون

ترجمة محمد حسن حبشي

إن تاريخ البدو أيام الجاهلية لا يخرج عن كونه سجلاً لحروبهم، أو بالأحرى هو ذكر عصابات كانت تغير على القوافل بين آن وآخر بغية لسلب والنهب. ولم يكن ثمة حاجة تدعو إلى الاستغاثة، بل كان كل فريق منهم يفخر بنسبه، ويصب على الآخر وابلاً هطالاً من الأهاجي المقذعة، وتؤسر الإبل والنساء، كما كانت المناوشات العدة تقوم بينهم ولكن القليل منها يؤدي إلى نشوب حرب، وكان ذلك نوعاً من الحروب الهومرية أتاح فرصة طيبة للقيام بأعمال تنطوي على البطولة. ويقول ثوربك بصدد هذا الشأن: (وإذا شئنا أن نكتب التاريخ الواقعي لمثل هذه المنازعات البدوية وجدنا ذلك أقرب إلى المستحيل. أما عن المصادر المعاصرة له التي تستأهل عناية الباحث فليس لدينا سوى القصائد والمقطعات الشعرية التي ظلت محفوظة، وطبقاً لما يذكره السيوطي كان العرب يطلبون من أي بدوي يقص حادثة تاريخية أم يقرنها ببعض أبيات تتعلق بها. والحقيقة أن كل مثل هذه الأقاصيص التي ضغطت على مر العصور حتى وصلت إلينا قد تبلورت حول القصائد. ومما يؤسف له أنها قلما كانت صحيحة، ويتضح في اغلب الأحيان أن الأقاصيص قد اخترعت اختراعاً وهيئت حتى توافق موضوع الأشعار) ورغماً من أن معظم ما يتعلق بأيام العرب خرافي إلى حد بعيد إلا أنه يصف في أمانة الخصومات القبلية التي كانت تنشب بينهم والطريق الذي كانوا يسلكونه فيها، وقصة حرب البسوس التالية - وهي أشهر حرب في الجاهلية كافية في تصوير هذا الجانب المهم من الحياة البدوية، وجنوب أرض نجد المرتفعة يقترب المسافر بالتدريج من البحر الأحمر الذي تفصله عن الجبال المحاذية له أرض منخفضة ضيقة يقال لها تهامة، أما الحجاز فهو تلك الهضبة الوعرة المسلك التي تقوم بين نجد والشاطئ وهذا هو الشعب الذي كانت تسلكه في الأزمنة القديمة قوافل السبئيين محملة بالبضائع الغالية الثمينة، ميممة شطر موانئ البحر الأبيض المتوسط؛ ومنذ عدة قرون قبل الميلاد نشأت محطتان تجاريتان عظيمتان هما مَكُرَب (مكة فيما بعد) وفي شمالها يثرب (اسم المدينة قبل الإسلام) ولسنا نعرف شيئاً عن سكانهما الأولين أو تاريخهم إلا ما تفيض به روايات الكتاب المسلمين التي تطوي القرون القهقري حتى تصل إلى ذكر أيام آدم وإبراهيم؛ ولقد كانت مكة مهد الإسلام هذا الدين الذي كان - كما يذكر محمد (ص) - ملة إبراهيم، ولكن جاء من بعده خلف أفسدوه إلى أن أرسله الله ليطهره من شوائبه مبشراً به من جديد، ولذلك قيل إن دين أهل مكة قبل ظهور الإسلام بزمن كبير كان هو في ذاته الإسلام. وإن مدينة الإسلام المقدسة لتظهر منذ آلاف السنين وهي مغمورة بفيض هذا السناء، ويقال أن العرب حينذاك كانوا جميعاً يعبدون (الله) ثم تفرقوا بعد ذلك وزلوا بعبادة الأوثان ولكنهم عادوا كحجاج إلى مزار خصص أولاً للكائن الأعظم الفرد، بيد أن المطاف قد استحال إلى حرم الآلهة القبائل

المختلفة، وهذه النظرية من أول ما جاء به الإسلام، وسأقص - جهد ما أمكنني الاختصار - النقط البارزة القوية
في وادي مكة - وهي البيت الأول لهذا الفريق من الجنس العربي الذي يدعي أنه من ذرية إسماعيل بن إبراهيم من زوجه هاجر - يقوم بناء مكعب الشكل على غير نظام، وفي مساحة صغيرة ذلك هو الكعبة، وتنسب قصة بنائها إلى آدم الذي شادها بأمر سماوي، وحينما طغى الطوفان وطوى في لجته كل ما على الأرض رفعت الكعبة إلى السماء حتى غاض الماء أعاد بناءها في مكانها السابق إسماعيل وإبراهيم، وبينما كانا منهمكين في عملهما هذا جاءهما جبريل بالحجر الأسود المعروف وموضعه الجنوب الشرقي من البناء، وأوصاهما بأداء فريضة الحج. ولما انتهى البناء انتصب إبراهيم واقفاً على صخرة يطلق عليها المتأخرون (مقام إبراهيم) واستدار إلى الجهات الأربع ثم ولى وجهه شطر السماء وصاح (أيها الناس: لقد فرض عليكم الحج إلى البيت العتيق فاستمعوا لألهكم) وحينئذ أجابته من كل الجهات أصوات هاتفة (لبيك اللهم لبيك).
وكثر نسل إسماعيل حتى ضاق بهم الوادي فساح عدد جم منهم في فجاج الارض، وخلفتهم قبيلة جرهم كأسرة حاكمة للبقعة المقدسة، ولقد غرقت تلك القبيلة في الكبرياء والآثام حتى حلت نقمة الله عليها، وكثيراً ما يشار إلى انفجار سد مأرب الذي جعل الكثير من عشائر اليمن تشد رحالها ناحية الشمال، ولقد استقر المهاجرون في الحجاز واستأصلوا غالبية الجرهميين ثم واصلوا السير إلا قبيلة واحدة هي قبيلة خزاعة التي استقرت في جوار مكة إمرة زعيمها لحيّ، واشتهر عمرو أبن لحيّ بين العرب بثرائه وكرمه، ويقول أبن هشام
حدثني بعض أهل العلم أن عمرو بن لحيّ خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره) فلما قدم مأرب من أرض البلقاء وبها يومئذ العماليق رآهم يعبدون الأصنام فقال لهم ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟ قالوا له هذه أصنام نعبدها نستمطرها فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا. وقال لهم: أفلا تعطونني منها صنماً فأسير به إلى أرض العرب فيعبدوه؟ فأعطوه صنماً يقال له هبل. فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه. وقلده العرب في ذلك فجاءوه بأوثانهم ونصبوها حول المعبد، وبذلك تم انتصار الوثنية وعم انتشارها، حتى لقيت كل هاتيك الأوثان مصرعها حينما دخل محمد (ص) مكة على رأس جيش من المسلمين في السنة الثامنة للهجرة (= 629م)
أما أشهر القبائل التي نسلت من إسماعيل من عدنان واستقرت في الحجاز فهي هذيل وكنافة وقريش، وينبغي أن نجعل أسم هذه القبيلة الأخيرة على الدوام نصب أعيننا، إذ نجدها قبل ظهور محمد بقرن صاحبة السيادة في مكة. وشيوخها حراس الكعبة، وتلك المرتبة قد حصلوا عليها لما تدر من ثراء عظيم. وبسبب صعودهم إلى معارج القوة أنه كان لكلاب بن مرة ولدان: هما زهرة وزيد وكان الثاني طفلاً حينما اغتصب الموت أباه، وتزوجت أمه فاطمة من رجل يدعى ربيعة فاحتملهما إلى بلاده، وشب زيد بعيداً عن وطنه الأول ومن ثم سمي (قصياً) ولما بلغ مبلغ الرجال وعرف موطنه أتى مكة حيث كانت السيادة فيها معقودة على هام بن خزاعة وتحت زعامة شيخهم حليل بن حبشية، فكانت شؤون الكعبة بعيدة عن قريش وهي من سلالة إسماعيل، ثم أن قصي بن كلاب خطب إلى حليل بنته حبى فرغب فيه حليل، وكان هدف قصي أن يخلف حليلاً في هذه المكانة الرفيعة بيد أن هذا سلم مفاتيح الكعبة ساعة وفاته إلى أحد ذوي أقربائه واسمه أبو غبشان، وكان كثير الشرب فاحتال قصي عليه وأسكره حتى باعه مفاتيحها لقاء زقة من النبيذ. ولهذا يقال في الأمثال (أظل من غبشان) ولم ترض خزاعة بهذا الأمر فامتشقت الحسام، ولكن قصياً ظهر عليها. ومن ثم غدا المهيمن على شؤون البلدة وحرمها القدسي وكانت باكورة أعماله أن جمع قريشاً وكانت قد تفرقت في سهول مكة فسمته قريش (المجتمع) وبنى دار الندوة حيث يجتمع شيوخ العشائر والقبائل فيها متبادلين الرأي والمشورة فيما يعرض أمامهم من الأمور، ولما مات قصي احتفظت قريش بهذا الإرث المقدس وظل في بيتها.
وربما كانت موت قصي قد حدث في النصف الثاني من القرن الخامس للميلاد، وقد ولد الرسول بعد ذلك بقرن أعني عام 570 أو 571م وهنا ينبغي الإشارة إلى أن تاريخ

مكة طوال هذه الفترة كان سجلاً لمشاغبات تافهة قل أن تخللها حادثة ذات أهمية، كما أننا نجد الصدارة لأسلاف النبي طوال هذه المدة. وتظهر المنافسة التاريخية للبيتين الأموي والعباسي في شخص مؤسسيهما: أمية وهاشم؛ وفي أثناء ذلك كان نفوذ قريش ثابت الدعائم، واسع الانتشار، وغدت الكعبة دار ندوتهم الأهلية الكبرى، كما أن وفود الحجج الذين أقبلوا من مختلف أصقاع بلاد العرب لم يعملوا فحسب في رفع العبء عن قريش بل عاونوها في تنبيت مركزها التجاري، ولقد قصصنا عليك من قبل، كيف عزم أبرهة - والي الحبشة على اليمن - على النيل من مكة بما ارتكبه أحد القرشيين من تدنيس كنيسة صنعاء، وقد يصح أن يكون هذا سبباً يتخذه أبرهة بيد أنه كان يريد بلا شك الاستيلاء على مكة ومفاتيح تجارتها.

ويزعم المؤرخون المسلمون أن هذه الحادثة العجيبة وقعت عام ميلاد الرسول في السنة المعروفة بعام الفيل حوالي 570م، وبرهان على أن العرب قد هالهم مرأى هذه الحيوانات الضخمة أن واحداً أو أكثر قد صحب الحملة الحبشية، وقد أوقع صدى استعداد أبرهة الحربي الرعب في قلوب القبائل التي حاولت في مبدأ الأمر أن تصده، معتبرة الدفاع عن الكعبة أن تصده، معتبرة الدفاع عن الكعبة واجباً مقدساً، ولكن سرعان ما طارت نفوسهم شعاعاً إذ رأوا أن لا قدرة لهم على ذلك، وبعد أن هزم أبرهة ذا نفر الحميري، عسكر في جوار مكة دون أن يلقي مقاومة تذكر، بعث إلى عبد المطلب جد النبي الرسالة التالية، وكان عبد المطلب موقراً محترماً من جميع القبائل (إني لم آت إلى سربكم، إنما جئت لأهدم البيت، فإن لم تعرضوا دونه بحرب فلا حاجة لي بدمائكم) فرد عليه عبد المطلب (والله ما نريد الحرب وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله وبيت خليله إبراهيم، وإن للبيت رباً سيمنعه، وإذا لم يشأ فلا حول لنا) وأنطلق عبد المطلب إلى معسكر الأحباش مع حناطة رسول أبرهة فتوسط له أنيس عند الملك وقال له (أيها الملك هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك وهو صاحب عير مكة يطعم الناس بالسهل والوحوش في رؤوس الجبال) فأذن له أبرهة، وكان عبد المطلب رجلاً عظيماً وسيماً جسيماً، فلما رآه أبرهة أجله وأكرمه أن يجلس تحته، وكره أن تراه الحبشة يجلسه معه على سرير ملكه فنزل أبرهة عن سريره وجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه ثم قال لترجمانه (قل له ما حاجتك) فقال عبد المطلب (حاجتي إلى الملك أن يرد عليّ مائتي بعير أصابها لي) فقال أبرهة لترجمانه (قل له قد كنت أعجبتني حين رأيتك ثم زهدت فيك حين كلمتني أتكلمني في مائتي بعير قد أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه؟) فقال عبد المطلب (إني أنا رب الإبل وإن للبيت رباً سيمنعه) قال (ما كان ليمنع مني) قال (أنت وذاك، أردد إليّ إبلي)

ويقال أن القبائل المقيمة حول مكة قد أوفدت رسلاً من لدنها ومن بينهم عبد المطلب فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت فأبى عليهم ولما استعاد عبد المطلب إبله انصرف إلى قريش فأخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز في شعف الجبال والشعاب تخوفاً عليهم من معرة الجيش، ثم قام فأخذ بحلقه باب الكعبة وقام معه نفر من قريش فقال عبد المطلب:

لا هُمَّ إنَّ العبد يْم ... نع رحله فامنع حلالَكْ
لا يغلبنَّ صليبهم ... ومحالهم أبدا محالكْ
ولئن فعلت فربّما ... أولى فأمر ما بدا لكْ
ولئن فعلتْ فإنّه ... أمر تتمّ به فعالكْ

فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة فأقبل نفيل بن حبيب الخثعمي حتى قام إلى جانب فيله وقال (ابرك محمود وارجع راشداً من حيث جئت فإنك في بلد الله الحرام، ثم أرسل أذنه فبرك الفيل فوجهوه لمكة فأبى ثم للشام فهرول، وللمشرق واليمن ففعل مثل هذا، وأرسل الله عليها طيراً من البحر أمثال الخطاطيف يحمل كل طائر منها ثلاثة أحجار: حجر في منقاره وحجران في رجليه لا تصيب أحداً منهم إلا هلك وقد أشير إلى هذا الحادث في السورة الخامسة بعد المائة المعروفة بسورة الفيل حيث يقول تعالى (ألمْ تر كيف فَعَلَ رَبُّكَ بأصْحَاب الفِيل. ألمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ في تَضْليل، وأرْسَلَ عليْهِمْ طيرْاً أبابِيل، ترميهِمْ بِحَجارَةٍ مِنْ سِجِّيل، فَجَعَلَهُمْ كَعَصفٍ مَأكُول)

وإن الفصل الذي قام بتمثيله عبد المطلب في هذه القصة لهو فصل ديني الغرض منه تبجيل شأن هذه المدينة المقدسة، كما يتضح لنا منه ما كانت عليه أسرة النبي من سطوة وثراء قبل انبثاق نور الإسلام بنصف قرن، (وحينما رد الله الحبشة عن مكة وأصابهم بما أصابهم به من النقمة، وعظمت العرب قريشاً وقالوا أهل الله قاتل الله عنهم وكفاهم مؤونة عدوهم، وقالوا في ذلك أشعاراً يذكرون فيها ما صنع الله بالحبشة وما رد عن قريش من كيدهم وينسب ابن إسحاق الأبيات التالية إلى ابن الصلت بن ربيعة بن ربيعة الثقفي وينسبها كثيرون غيره لأمية بن أبي الصلت الشاعر المشهور وكان حنيفياً ومعاصر للنبي:

إن آيات ربنا ثاقبات ... لا يمارى فيهنّ إلاّ الكفورُ
خلق الليل والنّهار فكلٌّ ... مستبين حسابهُ مقدورُ
ثم يجلو النّهار رب رحيم ... بمهاةٍ شعاعها منشورُ
حبس الفيل بالمغمس حتّى ... ظلّ يحبو كأنه معقورُ
لازماً حلقة الجرَان كما قط ... طَرَ من صخر كبكب مجدورُ
حوله من ملوك كندة أبطا ... ل ملاويث في الحروب صقورُ
حلّفوه ثم أبذعروا جميعا ... كلهم عظم ساقه مكسورُ
كل دِينٍ يوم القيامة عند الل ... هِ إلاّ دين الحنيفة زور

ولقد أثارت غزوة الأحباش وهزيمتهم النعرة الوطنية في نفوس عرب الحجاز، هذه المشاعر التي لابد وأن يكون قد شاركهم فيها إلى حد بعيد البدو عامة، وظهرت روح جديدة خلال الحوادث التي تخللت الأربعين عاماً التي تلت هذا الحادث في جميع نواحي شبه الجزيرة، وينبغي أن نتذكر دائماً أن أسرة اللخميين في الحيرة قد انتهت بالنعمان الثالث الذي لقي مصرعه على يد خسرو وبرويز (602 هـ، 607 م) وكان قبل موته استودع أسلحته وبعض حاجاته عند هانئ شيخ عشيرة بني بكر وقد طلب خسرو هذه الودائع ولكن هانئاً رفض تسليمه إياها، فأرسل هذا جيشاً فارسياً عرمرماً إلى ذي قار وهو مكان قرب الكوفة يطفح بالمياه المتدفقة ولذلك كان ملجأ حصيناً لبني بكر أثناء فصل الجفاف، ونشبت هناك معركة حامية الوطيس انتهت بهزيمة الفرس هزيمة منكرة وكانت قوات العرب أكثر من قوات الفرس، وقد عد العرب هذه الموقعة فاتحة عصر جديد. من ذلك ما يروي أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) قال حينما سمع بهذا (هذا أول يوم استراح فيه العرب من الفرس) أما قبائل الصحراء فقد قوى اعتقادها في نفسها وأخذت موقف المهاجم بعد أن كانت من قبل تستظل بلواء إمبراطورية آل ساسان وتخضع إلى للأسرة الحاكمة في الحيرة، وأخذت تلك القبائل تظهر الموجدة والاحتقار بهذا الشبح الذي لم يعودوا يخشون بطشه بل وطئوه بأقدامهم.

(انتهى الفصل الثاني)

محمد حسن حبشي
شاعر الإسلام
محمد عاكف
بقلم الدكتور عبد الوهاب عزام

- 3 -

مات الشاعر الكبير والساعة ثمان إلاّ ربعاً من مساء الخميس التاسع والعشرين من ديسمبر، تاركاً للأمة التركية آثاراً خالدة، آثار مثل (دفاع جناق قلعة) و (نشيد الاستقلال)
(1)

شيعت الجنازة من (عمارة مصر) في بيوغلي إلى جامع بايزيد. وهنالك أقيمت صلاة الجنازة، ثم اتصل المسير إلى قبر الشاعر الذي هُيّئ له في المقبرة التي أمام شهيدلك في (أدرنه قبو)

كان في توديع الشاعر كثير من أصدقائه وجمهور عظيم من طلبة الجامعة، فلما أديت الصلاة وأريد وضع التابوت على لسيارة أبى الطلبة إلا أن يحملوا النعش على أيديهم، واشترك مئات الشبان في حمله طوال الطريق من بايزيد إلى (أرنه قبو)

وعلى حافة القبر فتح التابوت وأخذ النحات راتب عاشر صورة الشاعر في قالب من

الجص ليصنع مها تمثالاً
ولما وضع الشاعر في لحده دوّت أصوات الطلبة جميعاً بنشيد الاستقلال الذي نظمه محمد عاكف. ثم تكلم طالب كلية الآداب في حياة الشاعر وما أعقبته وفاته من أسى، وأنشدت طالبة القصيدة (جناق قلعة) وأنشدت أخرى أبياتاً كتبها الشاعر تحت صورته، وهي آخر ما نظم
ثم أقترح بعض الطلبة أن يشيد طلبة الجامعة قبر شاعرهم العظيم، فتلقاه الحاضرون بالموافقة والاستحسان، واتفقوا أن يحتفل كل عام بيوم الوفاة وأن يسمى (يوم عاكف)
ثم أنصرف الذين أودعوا الشاعر الكبير مقره الأبدي بين الحسرات والدموع
(2)
هو ابن محمد طاهر أفندي الايبكي أحد مدرسي الفاتح. وأمه تركية خالصة من بخارى ولد في استانبول عام 1873. وبدأ تعلمه على أبيه، ثم حصل العلوم الدينية وأتقن اللغتين العربية والفارسية
ثم التحق بالمدرسة الإعدادية في استانبول، فلما أتم دراستها التحق بمدرسة الطب البيطري إلى أن نال شهادتها من الدرجة الأولى. وقد فاق أقرانه جميعاً في الكيمياء والطبيعة، والنبات والحيوان والتشريح ووظائف الأعضاء
ثم تنقل في عمله بين سورية والروملي والأناضول. وشرع حينئذ ينشر أشعاره ولما وقعت حرب البلقان عمل في شعبة النشر من جماعة الدفاع الملي. ولما كانت المهادنة بعد الحرب العامة ذهب إلى الأناضول ولبث هناك محتملاً عبئه في الجهاد الوطني حتى النهاية، وكان نائباً في المجلس الكبير عن ولاية بوردور. وفي ذلك الحين نظم نشيد (نشيد الاستقلال) الذي بذ به كل المتبارين في نظم نشيد وطني
(3)
كان محمد عاكف يحب من شعراء العرب ابن الفارض، ومن الترك فضولي، ومن الفرس سعدي، ومن الفرنسيين لامرتين. ويمكن أن يقال إن شعره آثاراً من هؤلاء ظاهرة أو خافية، ولكن الذي لا ريب فيه أن عاكفاً قد رفع النظم التركي في أوزان العروض إلى درجة من السلاسة لم ينلها شاعر آخر، وقد صارت اللغة التركية بقلمه أيسر لغات الشعر وأبلغها، نشيد الاستقلال أبرع بيان لهذا اللسان الحساس النقي الذي ذلله قلم عاكف. ومنظوماته (صوت الحق) (حقك سسلري) و (الصفحات) في أجزائها السبعة تراث يغني به الأدب التركي، وإن لعاكف في تاريخ الأدب لمكانه خاصة. لقد فقدنا بموته شاعراً عظيماً
(4)
ذلكم إجمال ما كتبته الجرائد التركية عرضته على قراء (الرسالة) تمهيداً للكلام في شعر عاكف، موضوعه ومقاصده، وأسلوبه وأوزانه. وعسى أن أبين هذا في الأعداد الآتية
(للكلام بقية)
عبد الوهاب عزام
حول المدفأة
أنا وابناي
للأستاذ محمود نعيم
وأطيبُ ساعِ الحياةِ لديَّا ... عشيَّةَ أخلو إلى وَلدَيَّا
متى الجُ البابَ يَهتفُ باسمْي الع ... ظيمُ ويحبو الرضيعُ إليَّا
فأجلسُ هذا إلى جانبي ... وأجلس ذاك على رُكبْتيَّا
وأغزو الشتاء بموقد فحْمٍ ... وأبسُط من فوقه راحتيَّا
هنالك أنْسى متاعب يوم ... ي حتى كأني لم ألْقَ شيَّا
وأحسَبُني بين طفليَّ (شاها) ... وأحسَبُ عُشِّيَ قصراً عَليَّا
فكلُّ شرابٍ أراهُ لذيذاً ... وكل طعام أراهُ شهيَّا
وما حاجتي لغذاء وماءٍ ... بِحَسْبيَ طفلايَ زاداً وَرِيَّا؟
هنا أستعيدُ زماناً خلا ... وأرجعُ أطوي اللّياليَ طيَّا
فأنسَى عِذَارِي وأنسى وَقارِي ... وأحسَبُ أنيَ عُدتُ صبيَّا

فقل لرفاق النديِّ سلاماً ... فلستُ من اليوم أغشى النديَّا
ولن أتلَهَّى (بشاةٍ) (وفرزٍ) ... ولن ألعب النرد ما دمت حيَّا
وأيَّةُ نجوى كنجوايَ طفلي ... يقولُ: أنى فأقولُ: بُنَيَّا؟
ويا رُبَّ لغوٍ يفوهُ الصبي ... به فيكونُ حديثاً شجيَّا
وأفصحُ من ألف سحبانَ طفلٌ ... أراد الكلام فكان عَيِيَّا
فيا ليتَ شِعري أتمتَد بِي ... حياتي فأجنيَ غرسَ يديَّا؟
وأشهدَ طفلِيَ حين يَشِبُّ ... فتىً عاليَ النفس شهماً أبيَّا؟
أبوك أمرُؤ من رجالِ الكلامِ ... فكنْ أنت يا أبني أمرَأً عَمليَّا
فما احتقر الناسُ إلا الأديبَ ... ولا احترام الناسُ إلا الغنيَّا
أيا ابْنَيَّ أحْبِبْ بما تَكسِرانِ ... وأَهْوِنْ بما تُتلفان عَلَيَّا
يصونكما الله من حادثات اللَ ... يالي ويُبقيكما لي مليَّا
ويكفيكما اللهُ شرَّ البكاءِ ... ويحفظُ من وقعه أذُنيَّا
أمن كبدي أنتما فِلْذَتا ... ن أم أنتما حَبَّتَا مقلتيَّا؟
كوم حماده
محمود غنيم
أروع الأشياء
للدكتور عبد الوهاب عزام
!أتذكرين يوم جئت حيرى ... سائلة: ما أروع الأشياء
أتذكرين حيرتي وأنى ... طوّفت في الأرض وفي السماء
ثم انثنيت واللسان عيَّ ... يعثر بين العجز والحياء؟
أتذكرين بعد ذاك يوماً ... أسلمك الحزن إلى البكاء
ترقرت فيه الدموع تترى ... لألاءة في خدك الوضاء
هذي الدموع، لا عراك حزن ... أوحت لقلبي أصدق الإيحاء
أروع شئ في الورى دموع ... في مقلة الحزينة الحسناء
وله أيضاً:
شباب أم أماني؟
يا زهرة في ضفاف الماء ناضرة ... يهتز فيها جمال جد مفتون
وللنسيم على أوراقها عبث ... ينشر فيه الحسن كل مكنون
تطالع الماء تبغي فيه صورتها ... تردّها الريح عنه رد مغبون
وينفذ الدهر فيها حكمه فإذا ... شتى الوُريقات بين الماء والطين
أين الشباب الذي راقت نضارته ... ورفرفت فوقه أحلام مجنون
أنضرة الزهر لم تثبت لناظرها ... أم صورة الماء بين الحين والحين
السراج المفقود
للأستاذ أمجد الطرابلسي
لا! دعوني وسطَ الجموعِ وحيداً ... أشعلُ القلب كي أنيرَ سبيلي
عجباً أيها الورى! ما الذي تب ... صر في حالكِ الدّجى المسدول؟
أتراني ولدتُ أعمى؟ أم الكو ... ن ظلام؟ أم كلّ حَيٍّ متيلي؟
أم هُمُ الناس واهمون سكارى ... يتغنون بالسَّراب الجميل؟
!رقصوا في فم الجحيم وغنَّوا ... فوقَ أشلائهم وبين الطلول
!خابت العين! ليس يُبصرُ إلا ال ... قلبُ، يا نعمةَ الخليِّ الجهول
!يا هناء الصخور في هذه الدني ... اويا شقوة الشعور النبيل
!يا ضلال العقول في الحانة السَّكْ ... رى ونعَمى المعربد الصّليل
أين منى قلبي يُنيرُ سبيلي؟ ... أترى ذاتَ قبل ليلى الطّويل؟
أم ترى أطفأتهُ عاديةُ الرّ ... يح جنوناً وزمجراتُ السّيول؟
ورَمَتْهُ كفّي فأهوى به السَّي ... لُ غضوباً إلى أقاصي السهُّول
!وأخَبا لي! أما سمعتُ سراجي ... يَتَشَظّى؟ وما أشدَّ ذهولي
مَزَجَتْ شِرَّةُ السّيولِ بقايا - هـ معَ الشوكِ والحصى والوحول
تلك أشلاؤه تَشعَّ على البع ... دِ وراءَ الربى وخلفَ الحقول
!يا سراجي المفقودَ في ثورةِ اللّي ... لِ شَهيداً، يا مشعلي ودليلي

يا سنا مقلتيَّ في الظّلَمِ السو ... دِ ويا نورَ غَمِّيَ المَمْلول!
كنت لحني فمن يمزق صمتي؟ ... ومدامي فمن يبل غليلي؟
وأنيسي فمنْ تركتَ لأنسي؟ ... وخليلي فمنْ يكون خليلي؟
يا سراجي كلّت ذراعي فألقت ... كَ بلا رحمةٍ ودونَ عويل
فرحتْ مثلما تسِرّ بِتَرْكِ ال ... غُلِّ كفُّ المصفَّدِ المغلول
حسبت في نواكَ راحتَها الكبر ... ى ضلالاً، واخيبة المأمول!
يا سراجي! لما صرخت هشيماً ... وتبددْتَ كالدم المطلولِ
قد تصاممتُ عن أذنيكَ، لا بل ... كانَ عندي كأنَّه الا رغول!!
نصبٌ آدنى فخّففتُ حملي ... بعد يأسي من حُلمَي المقتول
ما ترى الفلكَ في العواصفِ تلقي ... بخفيفٍ منِ حمْلِها وثَقيلِ. .؟
أيهذا الساري المرَوَّعُ! مهلاً ... وعزاءً عن كلّ قصد وسولِ
ما ترجى وهذه الدَّجية النكرا ... ءُ غَشَّتْ بوارقَ التأميلِ؟
الدّجى راعبٌ تفحّ به الأشب ... احُ ظمأى إلى النّجيعِ العليل
موحش ليسَ فيهِ غير صدى الوب ... لِ وهزجِ الأمواهِ وسْطَ المسيل
وأعاصيرُهُ تلاعب خديَّ ... كَ بسيفٍ من بردها مصقولِ
والذئابُ الجياعُ ضَجَّت عواءً ... في بطونِ الهُوى وفوقَ التلول
تتحرّى فريسةً من جريحٍ ... أو طريد أو شاردٍ أو قتيل
أيهذا المسكين! أيَّ الأماني ... تتقرى؟ هُديتَ من مخبولِ!
شعَّثت رأسَكَ الرَّياح السّوافي ... وتعثَّرتَ في الكثيب المهيلِ
لا تمدَّن إلى جبينكَ كفًّا ... ضُرِّجتْ بالدم الزكيَّ الطليلِ!
ضرَّجَتْها الأشواك من طولِ ما تك ... بو عَياءً كالموثقِ المكبول
أتُرَجَّى خلفَ الدَّياجي شعاعا ... من صباحٍ مُزَوَقٍ أو أصيل؟
ما وراءَ الظلام إلا الظلام ... ليس فيه من ملجأ أو مَقيل!
كلُّ وادٍ وراءه ألف واد! ... كل ميلٍ وراءه ألف ميل!
خابَ من سار لاصطيادِ الأماني ... في عمايات مَهْمَهٍ مجهول
من يسر دونَ غايةٍ كيف يحظى ... بعد طول السّرى بنعمى الوصول؟
ارجعِ القهقري فلن يطلعَ الفج ... رُ ولنْ تستقرّ بعدَ الرحيل
وتلمَّسْ بينَ الصخورِ رماماً ... من سِراجٍ محطّمٍ مشلول
وأعدْ سبكها سراجاً منيراً ... لدجاك المعبَّس المسدول
لا تقُل إنه يهدُّ ذِرَاعَيّ ... م ويدني نضارتي للأفولِ
إنه فجرُكَ الذي تتمنىَّ ... إنّه نِبعه الهَوى والميولِ
إنه فرحة الحياة وبؤسا ... ها وشهدُ المنى وسم الذحول
إنه هيكلُ الرِّضى والتأسّي ... إنّه رَفْرَفُ الجمالِ الخجولِ
انه مهبطُ الرؤى والأماني ... والخيالاتِ والهوى المعسولِ
يا سراجي أنت العناء ولكن ... في تواريكَ مصرعي وأفولي
(دمشق)
أمجد الطرابلسي
الفنون
أكروبوليس أثينا
للدكتور أحمد موسى
(تابع)

وإذا أردنا أن نسجل هنا كل ما في معبد بارتنون من عجائب الفن وآياته، فإننا نحتاج إلى أعداد كاملة من (الرسالة)، ولكنا نقتصر على وصف أهم ما فيه مما يستطيع غير المشتغل بعلم الآثار أو بتاريخ الفن تفهمه وتذوقه

فالمثلثان المصوران بين السقف الجمالوني وأفريز المعبد من ولجهتيه حيث المدخل المؤدي للهيكل، اشتملا كما سبق القول على منحوتات غاية في الإبداع الفني وجمال الإنشاء المجموعي، كلها من خلق الفنان فيدياس.

وترى في (ش1) مجموعة منحوتات أحد المثالين، نقلها العلامة كاري عن الأصل بتصرف قليل أضطر إليه، وهي كما يتضح بالنظر إليها مبتورة الأجزاء، ومعظم هذه

القطع موجود في المتحف البريطاني وبمتحف أثينا.
والصورة (ش2) تبين امرأتين جالستين، إحداهما قد اضطجعت مستندة إلى صدر الأخرى وواضعة يمناها على فخذها، على حين ترى ساقي الثانية كادا يلتصقان بالفخذين حتى يكون بذلك إخراجهما طبيعياً إلى أبعد حد.
والبناء العام لجسميهما مثل عال من أمثلة تناسب الأعضاء؛ وإذا رجعنا إلى أصول وقواعد النحت، نجد أن فيدياس من أقدم مؤسسي هذه الأصول والقواعد، كما يتضح هذا من منحوتاته، التي ترى الوحي فيها خارجاً عن دائرة حاجات النفس المادية، بل إنك إذا تفرغت بها للاستمتاع الذوقي ترى أنها تعرج بك إلى ملكوت الخيال السامي ومهما وصفنا قطع فيدياس فأننا لا نزال نقصر عن وصف ما جال بخاطره عند نحتها الذي عبر به عن ثورة فنية رائعة تكاد تكون خارقة للمعقول، إذا علمنا أنها نحتت من الرخام في القرن الخامس قبل المسيح.
ولعل تمثال أثينا بارتنوس المصنوع من الرخام أيضاً (ش2) يعطينا فكرة عن تمثال أثينا الذي قلنا في المقال السابق إنه كان من العاج الخالص والذهب وارتفاعه ثلاثة عشر متراً، والصورة هنا ليست على جانب كبير من الدقة، إلا أنها لا تخلو من إظهار الغاية التي عمل التمثال من أجلها
والمغادر لمعبد بارتنون يرى الناحية الشمالية على بعد قليل، معبد إرشتايون (انظر صورة أكروبوليس بالمقال الأول) وهو المعبد الذي مناه ككروبس لأثينا بولياس بأحجار نحتتها الآلهة وألقت بها من السماء إلى الأرض على هذه البقعة حيث تحاربت أثينا مع بوزيدون على امتلاك البلاد، كما كانت شجرة الزيتون التي غرستها أثينا والمنبع الملحي الذي حفره بوزيدون في هذا الموضع أيضاً
حطم كسركس هذا الموضع المقدس، ولكن إقامته أعيدت بكل نشاط في عصر بركليس، إلا أنه لم يتم نهائياً إلا عند انتهاء حرب بيلويونيز. والناظر إلى المجموع الإنشائي لهذا المعبد يرى أنه مكون من ثلاثة معابد: هي معبد أثينا ومعبد بوزيدون ارشتايوس (ارشتايون) وبانوروزوس لأن الرغبة كانت متجهة إلى المحافظة على هذه المساحة المشغولة بالثلاثة المعابد معاً، لذلك كان المجموع الإنشائي على شكل غير منسجم التكوين من حيث الوضع الهندسي للبناء، ولفظ ارشتايون باللغة الإغريقية معناه الأقدم، وقد أطلق على هذا المعبد نظراً لأنه مكون من الثلاثة معابد القديمة وصالة كرياتيد (ش5) تحمل سقفها آنسات قد وقفن وعلى رؤوسهن السقف، ولم تظهر على وجوههن علائم التعب والإجهاد، بل إن وقفتهن تمثلن كما لو كان يحملن شيئاً مألوفاً. ويعطي قوامهن فكرة كاملة عن جمال الشابات الإغريقيات اللاتي لم تمتلئ أجسامهن بعد. والواقع أن جمال الأجسام لا يرتبط بضخامتها أو نحافتها، بل بتكوينها الكلي وحسن تناسب أجزائها وانسجامها بعضها مع بعض لتكوين المجموع، وهذا نفسه ما قرره أوجستينوس (354 - 320 ب. م.) في شرح الجمال ,
وإذا لاحظنا أن الأولى من اليمين تكاد تتشابه مع الثانية من حيث طريقة الوقوف، مع فارق ضئيل في كيفية امتداد الذراع، وأن الأولى من اليسار اختلفت في شكل امتداد الساق اليسرى بدلاً من اليمنى كما كان الحال في الاثنتين الأخريين، وعلمنا أنهن يشتركن جميعاً في حمل سقف واحد؛ أمكننا أن نتصور القدرة الهائلة في الإخراج، لأن أوليات قواعد
الهندسة تحتم أن يكن كلهن في ارتفاع واحد ليستوي السقف. فترى الفنان مع هذا القيد الهام ووجوب مراعاته استطاع أن يخرج عن ضرورة التشابه خشية الإملال كما هو الحال في عمل الأعمدة، وتصرف في طريقة إخراج السيقان والأذرع فجعلها مختلفة دون إخلال بأصول التوازن
أما التيجان البسيطة التي علت الرؤوس، وما فوقها من الإفريز (الشامل للأسنان) فكل هذه في ضبط نحتها واستوا خطوطها مثل آخر من أمثلة الدقة
وفي (ش4) نعرف موقع الصالة المقول عنها. وكذلك الشكل الكلي للمعبد. وأهم ما يلفت النظر هو التكوين الشكلي للأعمدة، فهي مخالفة في قاعدتها السفلى والعليا لأعمدة بارتنون التي قلنا إنها من الطراز الدوري. أما هذه فهي من الطراز اليوني أعني أنها اختلفت عن اليونية بوجود قاعدة صغيرة أسفل كل عمود فضلاً عن التاج الدائري الجانبين على نهاية كل منها، وعلى هذه النهاية قام السقف الجمالوني الذي

ترك مثلثاه دون منحوتات بداخلهما كتلك التي رأيناها في معبد بارتنون والشجرة المغروسة إلى جانب الصورة تمثل شجرة الزيتون السابق ذكرها بالمقال الفائت. ولا نترك أكروبوليس أثينا دون تنويه بمعبد أثينانيكا القريب من المدخل العام (بروبيلين) وها هي ذي قطعة من أفريزة (ش6) تشمل أحد المناظر التي تجلت فيها قدرة الإخراج. فإذا تأملت الأشخاص وما مثلته من حركات الهجوم والمقاومة والانتصار والانهزام، رأيت أن المثال أخرجها في قوة جديرة بالتسجيل بالنظر لما فيها من دقة العضلات وتفاصيل الجسم وحسن التمثيل

أحمد موسى

القصص

شحاذ الأرواح

للكاتب الإيطالي جيوفاني بابيني

دفعت آخر قرش كان معي ثمناً لفنجان القهوة ثم أخذت أفكر في الجوع - الجوع للطعام والجوع للشهرة - إذ لم يكن هناك من يهمه أمري حتى صاحب المجلة التي أكتب فيها لم يكن يقبل مني قصة إلا عندما لا يجد أفضل منها، وقد اعتاد أن ينفحني خمس (ليرات) سواء كانت القصة طويلة أو قصيرة.

في ذلك المساء من شهر يناير كان الجو يدوي بالرياح القوية العاصفة وأصوات الأجراس الرتيبة العالي، فدلفت إلى أحد المقاهي الكبيرة أتفرس في الوجوه النائمة المتعبة، ثم أخذت أرتشف فنجان القهوة وأنا أفكر في مخاطرة غريبة تصلح لأن تكون موضوعاً لقصة. فأخذت أقدح زناد فكري علني أهتدي إلى فكرة لقصة أصيب منها بضع ليرات تكفيني يوماً أو يومين.

كنت مضطراً لأن أكتب قصة في تلك الليلة أقدمها لصاحب المجلة في الصباح، فينفحني مبلغاً من المال يكفي لأكلة طيبة، فأخذت أفكر أترقب أول خاطر يهفو بذاكرتي أملأ به تلك الأوراق البيضاء التي وضعتها أمامي على المنضدة.

قضيت أربع ساعات وأنا على هذه الحالة من الانتظار والحيرة ولكن رأسي كان فارغاً وخيالي ثقيلاً وذهني مكدوداً، فيأست من كتابة أي شيء في تلك الليلة فألقيت بآخر قطعة من نقودي على المائدة وانصرفت.

ولكني لم أكد أترك المقهى حتى جال بخاطري ذلك القول القديم وهو (إذا استطاع الإنسان العادي أن يدون حياته الخاصة فإنه يخرج لنا أعظم القصص) ثم أخذت أفكر في هذا ولكني لم أصل إلى شيء جديد. إلا أنه ما كدت أصل إلى منزلي حتى وقفت وقلت لنفسي (لماذا لا تحاول هذا بنفسك. لماذا لا تكتب حياة أي رجل عادي يقابلك في الطريق).

لم يكن لدي ما أقوله عن نفسي فقد أفرغت كل شيء حدث لي في قصصي، وعلى ذلك يجب أن أبحث عن رجل عادي - وإن كنت لا أعرفه - يقص عليّ قصة حياته.

لاحت هذه الفكرة غريبة وبسيطة حتى أنني عزمت على تنفيذها بأسرع وقت، فتركت منزلي وأخذت أطوف في الشوارع آملاً أن أصادف في تلك الساعة المتأخرة من الليل إنساناً. سرت مسرعاً أتفرس في كل الوجوه محاولاً أن أختار الشخص المناسب ولكني لم أصادف مخلوقاً فانعطفت إلى ميدان صغير ووقفت هناك كأني أحد قطاع الطرق أو أحد لصوص الليل. ثم لمحت شبحاً قادماً فلم أرد أن أفاجئه بهجومي السريع فانتظرت حتى دنا مني فإذا هو رجل عادي قد التف في عباءة طويلة وترك شعره الطويل يتموج في الفضاء فلم أرد أن أساله وتركته يمضي في طريقه، ثم تبعت آخر وكان حليق الذقن محدودب الظهر يتمتم بأغنية إسبانية قديمة لعلها كانت تذكره بأيام شبابه الماضية، فلم أكد أتفرس في وجهه حتى رأيته يغلب عليه النوم فتركته لِشأنه.

إني لا أستطيع أن أتذكر الحال التي كنت فيها في تلك الليلة، كلما فكرت في تلك الحالة فأتصور نفسي إنساناً غريباً من قطاع الطرق يترقب شخصاً لا يعرفه يسأله قصة حياته وهو يتحرق شوقاً لأن ينقض على تلك الفريسة المجهولة، وكأن القدر القاسي قد ظن عليّ بذلك الرجل الذي أنتظر، إذ أن جميع من مروا بي كانت تبدو عليهم علامات الترف والنعيم. ولكني لم أيأس من الوصول إلى بغيتي، فبقيت واقفاً تحت المصباح الذي كان يتمايل كلما هبت الريح ولكن الشوارع كانت مقفرة، ولم تكن تلك الرياح العاصفة تغري الناس على السير في تلك الليلة الباردة. ولكن لم يطل

انتظاري إذ لاح على بعد شبح قد أيقض الشارع وملأه حركة بعد سكونه ثم أخذ يدنو مني شيئاً فشيئاً، ولم يكد يقترب مني حتى عرفت أنه الرجل الذي أبحث عنه. لم يكن ذلك الرجل بالجميل ولا بالقبيح. بل كان وسطاً بين الاثنين كما كان وسطاً بين الشباب والكهولة، ذا عينين هادئتين يلبس معطفاً سميكاً على أحدث طراز. فلم يكد يخطو عدة خطوات حتى أوقفته بيدي، فارتاع لمرآي ورفع يدع كمن يتأهب للدفاع عن نفسه ولكني أسرعت فطمأنته أني لا أريد به سوءاً فقلت له في صوت رقيق (لست قاتلاً ولا سفاك دماء ولا شحاذاً وإن كنت شحاذاً من نوع آخر، إني لا أطلب مالاً ولكني أطلب شيئاً واحداً لا يكلفك نفقة هو قصة حياتك) فحملق الرجل في وجهي ثم تراجع إلى الوراء، فتوقعت أنه قد ظن أني معتوه فقلت في صوت هادئ رزين (إني لست مجنوناً كما تظن وإن كنت قريباً من ذلك فأنا كاتب قصص عليّ أن أكتب قصة قبل طلوع النهار لأرد عن نفسي غائلة الجوع، ومن أجل ذلك أسألك أن تخبرني عن كل ما حدث لك. من أنت؟ وماذا تعمل؟ حتى يمكنني أنم أكتب قصتي عنك. إني أصارحك القول إني أحتاج إليك وإلى قصة حياتك وإلى اعترافاتك. أرجوك أن لا تخفي عني شيئاً. إني واثق أنك لا تضن بمساعدة مخلوق بائس مثلي فأنت الرجل الذي كنت أنتظره وربما كنت أستطيع أن أكتب بما تقدمه إليّ أروع القصص.

فبدا على الرجل التأثر ونظر إلي في عطف وإشفاق وقد زال عنه الخوف وقال (حسناً. إذا كنت تريد حقاً أن تسمع قصة حياتي فيمكنني أن أخبرك عنها ولا سيما أنها سهلة بسيطة. فقد ولدت منذ 35 سنة من أسرة كريمة وكنت وحيداً والدي فأرسلاني إلى المدرسة وأنا في السادسة. وفي التاسعة عشرة التحقت بالجامعة وحصلت على درجتي في الرابعة والعشرين. لم أظهر طوال دراستي شيئاً من النبوغ الخارق، أول الغباوة الفاضحة. ثم أعانني والدي على أن أشغل وظيفة في السكة الحديدية وخطب لي فتاة جملية. إني أعمل ثماني ساعات في اليوم وعملي لا يحتاج إلا إلى الصبر وذاكرة متوسطة، ويزداد مرتبي جنيهين كل ستة سنوات، وعلى ذلك فإذا عشت حتى الرابعة والستين فسأحصل على معاش قدره كذا. لقد أنجبت طفلين ولداً وبنتاً، فالولد في العاشرة الآن وسأعده لأن يكون مهندساً. وأما البنت فهي في التاسعة. وسوف تكون مدرسة. إني أحيا الآن حياة هادئة لا يشوبها نكد أو أطماع. أستيقظ في الثامنة من صباح كل يوم وفي التاسعة مساءً أذهب إلى المقهى حيث أتحدث مع بعض زملائي عن الطقس والحرب والحكومة والوظائف. والآن لقد أخبرتك بما تريد، فهل تسمح لي بالعودة بعد أن تأخرت عن موعد ذهابي إلى المنزل عشر دقائق).

ولم يكد ينتهي من كلامه حتى شعرت بشيء غريب اضطرب له جسمي إذ كيف يحيى ذلك الرجل تلك الحياة الرتيبة العادية الثابتة، فأشفقت عليه ومضيت في طريقي وأنا أقول في نفسي (حسناً، هذا هو أحسن نموذج للرجل العادي والبطل الحقيقي للحياة الحديثة. والعجلة الصغيرة في الماكينة الكبرى، واللبنة الأولى في الحائط العظيم، الرجل الذي لا يضطرب كثيراً للخيالات والتصورات، كنت أظن أن مثل هذا الرجل غير موجود ولكني قد وجدته أخيراً واقفاً بجانبي ثم أردت أن أعرف عنه كل شيء فهرولت وراءه وأنا أقول (أليس هناك شيئاً آخر في حياتك، ألم يعرض لك حادث غريب، ألم يحاول أحد أن يقتلك؟ ألم تخدعك زوجتك أو يهزمك عدو؟) فأجابني: (لا شيء من هذا. لقد كانت حياتي كلها هادئة منتظمة فلم أعرف الأفراح البهجة ولا الأحزان القاتلة. لم يحدث لي ما يستحق الذكر) فقاطعته قائلاً: أحقاً ما تقول؟ حاول أن تتذكر - إني لا أكاد أصدق هذا النوع من الحياة. فأجابني: (إني أكد لك أنه لم يحدث لي شيء حتى هذه الليلة، حتى فاجأتني بلقائك الغريب الذي هو أول مخاطرة - فإذا أردت أن تكتب شيئاً فعليك بهذا).

قال هذا ثم مضى مسرعاً بقيت في مكاني أنظر حولي حائراً مذهولاً.

ثم عدت إلى منزلي دون أن أكتب القصة. ومنذ ذلك المساء لم أعد أسخر من أولئك الناس العاديين ثانية.

نظمي خليل

البريد الأدبي

كيف يكتبون عن حركتنا الأدبية

قرأنا في صحيفة (هنوفر شر كورير) الألمانية فصلاً كتبه لها مراسلها الخاص في

القاهرة تحت عنوان (الشعراء المصريون وأثر الشعر في مجد مصر القومي) فرأينا أن نأتي على ترجمته ليرى قراء العربية كيف يكتب الأجانب عن حركتنا الأدبية وكيف يصورونها تصويراً يبعد أحياناً عن الحقيقة بمراحل؛ قال الكاتب: تبدو مصر بطرافة مشاعرها القومية وروعة سماءها وإقليمها وسحر ماضيها وصراعها المستمر في سبيل الحرية كأنها موطن الشعر، وتبدو وكأنها تذكي الفكر وتجذبه، بيد أن ترثها الأدنى، وبالأخص ترثها من الشعر السياسي والقومي يبدو متواضعاً جداً. ويرجع ذلك إلا أن شعب النيل منذ عهد النيل يرزح تحت صنوف الاستعباد والذلة؛ فبعد الإسكندر الأكبر جاء قياصرة روما، ثم قياصرة بيزنطية، ثم العرب، ثم الترك؛ وهكذا مزق صرح الوحدة القومية الذي لا بد منه لكل تقدم عقلي قومي؛ ومنذ عصر محمد علي أي منذ نحو قرن بدأ نماء هذا الصرح القومي وألف ختامه الظاهري أخيراً حيث استطاعت مصر أن تحقق حريتها السياسية وسيادتها القومية، بيد أنها رغم هذا الظاهر لا تزال من حيث الناحية المعنوية في المؤخرة.

وللجاليات الأجنبية التي تعيش في مصر منذ بعيد، رغم تطور مصر القومي أثر قوي في جميع مناحي الحياة؛ وقد كانت الدوائر الاجتماعية التي كان بوسعها أن تعمل على خلق نهضة ثقافية خاصة على اتصال دائم مع الأجانب، بيد أنها فيما يتعلق بشؤون الأسرة اتجهت إلى اسطنبول، لأن معظم رجال هذه الطبقة كانوا يتخذون زوجاتهم من التركيات، وهؤلاء طبعنا الحياة العائلية بطابعهن ولغتهن؛ بل لقد غلب التركية على العربية، وألقى بالعربية في الشارع حتى غدت في مستوى العامية، ولم تبقى اللغة الأدبية إلا في الدوائر الدينية، وبقى مثلها الأعلى لغة القرآن.

وتبوأ الدين زعامته إزاء الاستعباد المستمر وسحق الكرامة الوطنية، وسادت الفكرة الإسلامية كل نواحي الحياة العامة والاجتماعية؛ فحال ذلك دون نهضة الشعر القومي؛ وقامت ضد الفكرة الوطنية فكرة الجامعة الإسلامية، ولم تتخذ الفكرة السياسية لها مكاناً خاصاً بل غمرتها الفكرة الدينية فسارت في أثرها؛ وهكذا كان منحا الشعر السياسي فأنه

سار في أثر الفكرة الدينية؛ واجتمع حول رعاية القصر في عهد أول زعيم لنهضة مصر الثقافية في العصر الحديث ألا وهو الخديوي إسماعيل؛ ومن شعراء هذا العهد علي الليثي وعبده الحمولي (كذا).

وتقدمت عملية ترقية الشعب علي يد البعثات التي أرسلها محمد علي إلى فرنسا، وعاد أولئك الشبان إلى مصر يحدوهم العزم في أن يخلقوا لمصر حياتها العقلية الخاصة؛ بيد أنه كانوا دائماً متأثرين بالنفوذ الأجنبي ولا سيما النفوذ الفرنسي، وفي أثناء هذه البداية في سبيل الوحدة القومية وقعت الحوادث العرابية التي انتهت باحتلال الإنكليز لمصر؛ وهنا ظهر لأول مرة جيل فتي من الكتاب والشعراء يهتف بحريات الوطن والذود عنها، وشرد أبناءه في السجن والمنفى؛ وكان أهم أعلام هذا الجيل سامي البارودي محمد عبده.

وبث الاحتلال الأجنبي وما أصاب الوطنية الوليدة روحاً جديدة في الوحدة القومية؛ وظهر في مصر أول الزعماء الوطنين في المشرق، وأسس مصطفى كامل تلميذ جولييت آدام وبيير لوتي الحزب الوطني، وأدرك هذا الزعيم منذ البداية أهمية الشعر والكتابة في النهضة الوطنية فجمع حوله ما هنالك من كتاب وشعراء قلائل؛ بيد أن هؤلاء لم يكونوا سوى أبواق سياسية؛ ولم ينبغ من هذا الجيل سوى شاعرين اقتحما هذه الدائرة السياسية الضيقة في نظمها هما: شوقي وخليل مطران، فهذان شاعرين بلا ريب وهما يدعوا فقط إلى الوطنية، بل تجولا أيضاً في ميدان التأملات الخاصة؛ وقد ضم ذهنا هما الفكرة المصرية والفكرة الوطنية وتوثقت فيهما عدائهما رغم أن خليل مطران ليس مصرياً إلا بالموطن (وهو سوري المولد) ففي نظمهما يرى الإنسان مصر، كما يود أن يراها كل منهما؛ تلك هي مصر المصرية وللشعب المصري.

هذا ما نشرته الصحيفة الألمانية، وفيه ما يغني عن التعليق، بيد أننا نلاحظ فقط أن ما نكتبه نحن عن أدب الغرب وعن الحركات الأدبية الغربية يندر أن يعرض لمثل هذا الخلط في الوقائع والتصوير وإن لنغتبط إذ يعني القوم بالكتابة عنا كما نكبت نحن عنهم، بيد أنا نرجو أن يوفقوا في دراساتهم لشؤوننا وحركاتنا بأكثر فيما يبدو في مقال الكاتب.

الأزهر والمؤتمرات الدولية

قرر مجلس الجامع الأزهر تلبية لدعوة المكتب الدولي للتعاون الثقافي أن يشترك في شهود مؤتمر القانون الدولي الذي تقرر عقده في مدينة لاهاي (بهولندة) في شهر أغسطس القادم، وسيمثل الأزهر الشريف الإسلام ويقدم إلى هيئة المؤتمر بحوثاً شرعية في الوقف والمواريث والهبة وغيرها من المسائل التي تمتاز بطرافة أحكامها، وسيتألف الوفد الأزهري إلى مؤتمر من ثلاثة أعضاءهم الأستاذ الدكتور محمد عبد المنعم رياض مدير قضايا بنك التسليف الزراعي والأستاذ عبد الرحمن حسن القاضي الشرعي والأستاذ محمود شلتوت المدرس بكلية الشريعة وقد سبق أن اشترك الأزهر في الأعوام الأخيرة في غير مؤتمر دولي علمي أو ديني، وهذه السنة حسنة تمهد لتعاون الأزهر مع الهيئات العلمية والدولية الكبرى، وتزيد في هيبته العالمية.

تحريم جوائز نوبل في ألمانيا

سبق أن أشرنا في عدد سابق من (الرسالة) إلى الضجة التي حدثت في ألمانيا على أثر منح الأكاديمية السويدية جائزة نوبل للسلم إلى الكاتب الألماني كارل فون أوسيتسكي، وإلى ما أبدته الحكومة الألمانية يومئذ من الامتعاض والتأثر لأنها ترى في الكاتب الذي أسبغت عليه لجنة نوبل هذا الشرف خائناً لوطنه، والخيانة هنا هي أن أوسيتسكي كان قبل قيام النظام الهتلري يدعو إلى السلم ونزع السلاح ومنع الحروب، وهي مبادئ تخالف الأماني العسكرية والإمبراطورية التي تتعلق بها ألمانيا النازية: وكان أوسيتسكي حينما أنعم عليه بجائزة نوبل سجيناً في المستشفى، ولكن الحكومة الألمانية سمحت له تحت ضغط الرأي العام الدولي أن يقبل الجائزة. على أنها اتخذت أخيراً في هذا الموضوع خطوة حاسمة، فقد قررت أن تحرم جوائز نوبل أياً كانت على الألمان، وأنشأت هي جائزة قومية ألمانية قدرها ثمانية آلاف جنيه، (وهو ما يساوي قيمة جائزة نوبل)، وبذلك خرجت ألمانيا من عداد الدول التي يتقدم علماؤها وكتابها لنيل الجوائز الشهيرة، وقد فاز الألمان منذ نهاية الحرب الكبرى بنحو خمس وعشرين جائزة في مختلف العلوم والفنون والآداب، ولكن ألمانيا الهتلرية تمقت كل حركة تمازجها الصفة الدولية، وكل شرف لا يطبعه الشعار القومي، وهي من جهة أخرى لا تريد أن تسمح للهيئات العلمية الأجنبية أن تكون حكماً عليها في أمر من الأمور كما حدث في مسألة كارل فون أوسيتسكي.

طوالع الأيام قديما وحديثا

كان العرافون القدماء يحصون الحوادث السيئة والحوادث الطيبة في أيام معينة لكي يستخرجوا بعد ذلك الأيام السعيدة والأيام المنحوسة، وقد انتهوا بعد أجيال إلى القول بأن هناك أياماً بعينها تعتبر أياماً سعيدة، وأخرى تعتبر منحوسة، وكانت هذه الأيام معروفة منذ العصر الغابر، وكان يعرفها أهل بابل قبل المسيح، وكان المصريون القدماء يقولون أيضاً بمثل هذه التفرقة بين الأيام، ولهم قوائم معينة بالسعيد منها المنحوس، واستمرت هذه القوائم معروفة متداولة حتى العصور الوسطى. وعندئذ طبقها العرافون على أيام التقويم الجريجوري.

فمثلاً يمثل يوم الاثنين السلام، ويمثل الأربعاء والخميس الشجاعة والأحد يمثل الراحة والسعادة، وهذه هي الأيام السعيدة. أما الأيام المنحوسة فهي الثلاثاء وهو مارس إله الحرب، والجمعة وهو يوم فينوس، والسبت وهو يوم زحل.

أما العرب فقد خالفوا هذا الاستنتاج، واعتبروا يوم الجمعة من الأيام السعيدة، وأنه يوم القرآن.

ويرى العرافون المحدثون ألا يأخذوا في ذلك بأقوال القدماء، وأقوال عرافي العصور الوسطى، ويرون أن لكل إنسان طالعاً بظروفه وحوادث معينة، وعلى هذا الطالع يتوقف مصير الإنسان مدى الحياة.

رحلات بيتر موندي

صدر أخيراً كتاب بالإنكليزية عن رحلات رحالة إنكليزي في القرن السابع عشر تعتبر في ذاتها وثيقة تاريخية هامة، والرحالة المذكورة هو بيتر موندي، وقد كان موظفاً في شركة الهند الشرقية التي بدأت استعمار الهند، وكتب عن أسفاره ومشاهداته مذكرات يومية لبثت مخطوطة حتى العصر الأخير، وعندئذ عنى بنشرها السير تمبل فنشر منها

أربعة مجلدات حتى سنة 1925، وصدر أخيراً المجلد الخامس والأخير، وفيه يقص موندي رحلته الأخيرة إلى الهند، ويصف البلاد التي زارها أثناء مسيره في أوربا وآسيا ولا سيما الجزائر الأفريقية التي كانت ترسو بها السفينة مثل سنت هيلانة وأسانشيون. وقد شهد موندي حوادث الثورة الإنكليزية ولكنه حريص في سردها، يقدمها كما وقعت دون تعليق، وتتناول

هذه الفصول وصف كثير من المدن الآسيوية ومشاهدها في هذا العصر الذي أخذ الشرق ينحدر فيه إلى سبته الطويل، وأخذ الغرب يتربص به وينقض عليه تباعاً، وقد عاش موندي بين سنتي 1208 و 1667، وصدرت رحلاته بهذا العنوان: رحلات بيتر موندي في أوربا وآسيا، ومن المحقق أن المؤرخ يجد في مذكراته كثيراً من الوقائع والحقائق التي تفيد في درس مجتمعات القرن السابع عشر.

في ميدان الاجتهاد

مسألة الاجتهاد في الدين - من المسائل الفكرية - التي تعني الرسالة بدرسها وتسجيلها - من أجل ذلك فتحت صدرها لمقالات الأستاذ الشيخ عبد المتعال الصعيدي (في ميدان الاجتهاد) - المجلد السادس: 58 و 260 و 464 - والمجلد السابع: 1998 - ونشرت آراءه فيها - فكان من رأيه فيها:

1 - (أن نعتمد من رجال كل من أهل السنة والشيعة والخوارج من اعتمدوه - ونرفض منهم من رفضوه - ولا يوجد ما يمنعنا من الانتفاع بالحديث الضعيف في التشريع - والأخذ به عند الحاجة إليه، فلا نرفض من الأحاديث إلا ما ثبت أنه موضوع بيقين ولا نهتم من رجال الحديث إلا من ثبت عليه الكذب قطعاً ورب حديث ضعيف يكون هو الصحيح - ورب رجل متهم. يكون هو الرجل الثقة).

2 - (أن نحذف الإجماع من بين الأصول التي يرجع إليها في الاجتهاد - وأن نرجع مباشرة إلى النصوص التي لا بد من استناده إليها - فقد يفتح الله علينا بفهم جديد - غير ما فهموه منها)

3 - (ألا نقتصر في القياس على إلحاق الشبيه بالشبيه لأن هذه السنة قد اختلفت رواياتها اختلافاً كبيراً ولا بد من تحكيم الرأي فيها تحكيماً مطلقاً)

4 - (إن الاجتهاد جائز في الأصول وفي الفروع لأن النبي صلى الله عليه وسلم جعل للمجتهد أجرين إذا أصاب وأجراً واحداً إذا أخطأ، ولم يفرق بين أصول وفروع - بل أطلق الأمر إطلاقاً - وفتح باب الاجتهاد في الأصول والفروع معاً)

5 - وكان الأستاذ في آرائه تلك خارجاً على العلماء الأصوليين المتأخرين - كما قال هو عن نفسه في الرسالة (118).

6 - (ولم يدع العصمة فيما قال - بل عرض رأيه على صفحات هذه المجلة - لنشترك فيه الآراء - وتمحصه البحوث - كما قال في خاتمة مقالاته (في ميدان الاجتهاد) فما هي آراء العلماء الأعلام - في هذه المسألة؟ أرجو أن يدلوا بها باختصار - وأنا واثق أن (الرسالة) التي أثارت البحث في هذه المسألة المهمة - ونشرت كل قال الأستاذ الصعيدي - لن تضن عليهم بنشر ما يرونه - وهذه سبيل الوصول إلى الحقيقة - التي نريدها ويريدها الأستاذ الصعيدي - والمسألة مهمة - تتصل بأصل الدين - ولا يجوز التغافل عنها.

دمشق

علي الطنطاوي

المعارض الدولية

أصبحت المعارض الدولية عنوان النهضات الاجتماعية والاقتصادية ومع أنه لم يمض على البدء بتنظيمها أكثر من ثمانين عاماً. فإنها تغدو اليوم من أعظم المظاهرات القومية والدولية في سائر نواحي التقدم، وقد أقيم أول معرض أو سوق عالمية من هذا النوع في لندن سنة 1851 في قصر البلور الذي التهمته النيران منذ أسابيع قلائل: ثم تبعه معرض باريس في سنة 1855، وفي سنة 1878 أقامت فرنسا معرضها الشهير في قصر (التروكاديرو) الذي أنشأ خصيصاً لإقامته فأحرزت بإقامته نجاحاً عظيماً وذاع صيته في أنحاء العالم وفي سنة 1889، أقامت معرضاً عظيماً آخر. هو الذي أقيم لمناسبته برج أيفل المشهور، وعرضت فيه مناظر فنية وموسيقية في جميع أنحاء العالم ومنها القاهرة، وقد كانت هذه المعارض في الواقع مراحل واضحة لما

بلغته الأمة من التقدم في سائر النواحي والمرافق.
أو هي كما يقول المؤرخ (تاين) تبيان عصر، وتعبير مجتمع. ومن المحقق أن المؤرخ يجد في هذا المناظر المختلفة مجموع ما انتهى إليه مجتمع العصر من ضروب التقدم العقلي والاجتماعي، ولقد بلغ الشغف في إقامة هذه المعارض في عصرنا ذروته، وأصبحت الأمم الكبرى تتنافس في إقامتها وفي الإنفاق عليها. حتى لقد تبلغ من الضخامة والتنوع قدر
المدينة العظيمة، وقد يقتضي الطواف بمعرض أو سوق دولية ساحات طويلة قبل أن تلم بمناظره ومحتوياته. والمنتظر أن تكون سوق باريس الذي تستعد فرنسا لإقامتها منذ أعوام. والتي ستقام في الربيع المقبل أعظم مظهر دولي لما بلغته هذه المظاهرات الاجتماعية والاقتصادية من الفخامة والتنوع والرونق والجمال.
الكتب
إحياء النحو
تأليف الأستاذ إبراهيم مصطفى
خير ما تقدم به هذا الكتاب القيم إلى القراء أن ننشر هذه المقدمة التي صدره بها مؤلفه الفاضل فقد حدد فيها الموضوع ورسم الطريق وبين الغاية. وللرسالة بعد ذلك كلمة فيه
هذا البحث من النحو عكفت عليه سبعة سنين وأقدمه إليك في صفحات. سبع سنين من أواسط أيام العمر وأحراها بالعمل، صدقت فيها الاعتكاف إلى النحو، وإلى ما يتصل بمباحثه، وأضعت له من حق الصديق والأهل والولد والنفس جميعاً.
كان سبيل النحو موحشاً شاقاً، وكان الإيغال فيه ينقض قواي نقضاً، ويزيدني من الناس بعداً ومن التقلب في هذه الدنيا حرماناً. ولكن أملاً كان يزجيني ويحدو بي في هذه السبيل الموحشة؛ أطمع أن أغير منهج البحث النحوي للغة العربية، وأن أرفع عن المتعلمين أصر هذا النحو، وأبدلهم منه أصولاً سهلة يسيرة، تقربهم من العربية، وتهديهم إلى حفظ من الفقه بأساليبها.
كانت بارقات الأمل - خادعة وصادقة - تدفعني في سبيلي، غير راحمة ولا وانية. فليكن ما أنفق من هذا العمر ذخراً في أعمار الدارسين من بعد، ولتكن شيخوخة هذا الشيخ فدى للعربية؛ أن تقرب من طالبيها، ويمهد السبل لمتعلميها.
اتصلت بدراسة النحو في كل معاهده التي يدرس فيها بمصر، وكان اتصالاً طويلاً وثيقاً؛ ورأيت عارضة واحدة، لا يكاد يختص بها معهد دون معهد، ولا تمتاز بها دراسة عن دراسة، وهي التبرم بالنحو، والضجر بقواعده وضيق الصدر بتحصيله؛ على أن ذلك من داء النحو قديماً، ولأجله ألف (التسهيل) و (التوضيح)، و (التقريب) واصطنع النظم لحفظ ضوابطه، وتقييد شوارده.
والنحو مع هذا لا يعطيك عند المشكلة، القول البات، والحكم الفاصل. قد يهدي في سهل القول، من رفع فاعل ونصب مفعول. فإذا عرض أسلوب جديد، أو موضع دقيق، لم يسعفك النحو بالقول الفصل، واختلاف الأقوال، واضطراب الآراء وكثرة الجدل التي لا تنتهي إلى فيصل ولا حكم، كل ذلك قد أفسد النحو أو كاد، فلم يكن الميزان الصالح لتقدير
الكلام، وتمييز صحيح القول من فاسده.
وإذا جئنا إلى مدارس الناشئين، كانت المشكلة في تعليمهم النحو أشد وأكد؛ فهو على ما تعلم من بعد تناوله، وصعوبة مباحثه، قد جعل المفتاح إلى تعلم العربية، وكتب على الناشئ أن يأخذ بنصيبه منه، منذ الخطوة الأولى في التعليم الابتدائي والثانوي، واختير له جملة من القواعد، قدر أنها تفي بما يحتاج إليه لإصلاح الكلام وتقويم اللسان، ثم كانت خصومة هادئة قاسية بين طبيعة التلميذ، وبين هذا المنهاج والقائمين عليه. أما التلميذ فقد بذل الجهد واعياً ولم يبلغ من تعلم العربية أرباً. وأما أصحاب المنهج. فقد رأوا أن يزيدوا في منهجهم، ويكملوا للتلميذ حظه من القواعد، فلا سبيل له إلى العربية غير هذا النحو؛ فزادوا في هوامش كتبهم ما يكمل القواعد ويتمم الشروط - ثم تسللت هذه الزيادات إلى جوف الكتاب فضخم، وزاد المنهاج المفروض - ولكن طبيعة التلميذ الصادقة في إباء هذه القواعد، والتململ بحفظها، لم تخف شهادتها، ولم يستطع جحدها، فكانت ثورة على المنهاج وأصحابه، وخفف منه، وانتقص من مسائله،

والداء لم يبرأ، والعوارض لم تتغير، وتكررت الشكوى، وعادوا على المنهاج بالنقص، حتى كان المقرر قواعد من النحو مختلفة، كأنما هي نماذج يراد بها عرض نوع من مسائله قد كان في هذا، الشهادة الصريحة بفشل هذا النحو أن يكون السبيل إلى تعلم العربية، والمفتاح لبابها.

ولقد بذل في تهوين النحو جهود مجيدة، واصطنعت أصول التعليم اصطناعاً بارعاً، ليكون قريباً واضحاً؛ على أنه لم يتجه أحد إلى القواعد نفسها، وإلى الطريقة وضعها، فيسأل: ألا يمكن أن تكون تلك الصعوبة من ناحية وضع النحو وتدوين قواعده، وأن يكون الدواء في تبديل منهج البحث النحوي للغة العربية؟

هذا السؤال هو الذي بدا لي، وهو الذي شغلني جوابه طويلاً. ولقد تميز عندي نوعان من القواعد: نوع لا تجد في تعليمه عسراً، ولا في التزامه عناء، ولا ترى خلاف النحاة فيه كبيراً، وذلك كالعدد ورعاية أحكامه في مثل: قال رجلان، والرجلان قالا. وقال رجال والرجال قالوا. فمع دقة الحكم في رعاية العدد، واختلافه تبعاً لموضع الاسم والفعل من الجملة، لا تجد العناء في تصوره، ولا المزلة في استعماله.

ونوع آخر لا يسهل درسه ولا يؤمن الزلل فيه، وقد يكثر عنده خلاف النحاة، ويشتد جدلهم، كرفع الاسم أو نصبه في مواضع من الكلام.

ثم رأيت علامات العدد تصور جزءاً من المعنى يحسه المتكلم حين يتكلم، ويدركه السامع حين يسمع. أما علامات الإعراب، فقل أن ترى لاختلافها أثراً في تصوير المعنى، وقل أن يشعرنا النحاة بفرق بين أن تنصب أو ترفع؛ ولو أنه تبع هذا التبديل في الأعراب تبديل في المعنى. لكان ذلك هو الحكم بين النحاة فيما اختلفوا فيه، ولكان هو الهادئ للمتكلم أن يتبع في كلامه وجهاً من الأعراب.

فلو أن حركات الأعراب كانت دوال على شيء في الكلام، وكان لها أثر في تصوير المعنى، يحسه المتكلم ويدرك ما فيه من الإشارة ومن وجه الدلالة، لما كان الأعراب موضع هذا الخلاف بين النحاة ولا كان تعلمه بهذه المكانة من الصعوبة، وزواله بتلك المنزلة من السرعة.

ألهذه العلامات الإعرابية معان تشير إليها في القول؟ أتصور شيئاً مما في نفس المتكلم، وتؤدي به إلى ذهن السامع؟ وما هي هذه المعاني؟؟

والعربية - لغة القصد والإيجاز - أتلتزم علامات الإعراب على غير فائدة في المعنى، ولا أثر في تصويره؟

لقد أطلت تتبع الكلام، أبحث عن معاني لهذه العلامات الإعرابية، ولقد هداني الله - وله خالص الإخبات والشكر - إلى شيء أراه قريباً واضحاً، وأبادر إليك الآن بتلخيصه:

(1) إن الرفع علم الإسناد. ودليل إن الكلمة يتحدث عنها

(2) إن الجر علم الإضافة، سواء أكانت بحرف أو بغير حرف

(3) إن الفتحة ليست بعلم على إعراب، ولكنها الحركة الخفيفة المستحبة، التي يحب العرب أن يختموا بها كلماتهم ما لم يلفتهم عنها لافت؛ فهي بمنزلة السكون في لغتنا الدارجة

(4) إن علامات الأعراب في الاسم لا تخرج عن هذا إلا في بناء أو نوع من الأتباع، وقد بيناه أيضاً.

فهذا جماع أحكام الإعراب؛ ولقد تتبعت أبواب النحو باباً باباً واعتبرتها بهذا الأصل القريب اليسير، فصح أمره، وأطرد فيها حكمه.

ثم زدت في تتبع هذا الأصل، فتجاوزت حركات الإعراب، ودوست التنوين على أنه منبئ عن معنى في الكلام، فصح لي الحكم واستقام، وبدلت قواعد (مالا ينصرف) ووضعت للباب أصولاً أيسر وأنفذ في العربية مما رسم النحاة للباب. ولا أؤجل عنك إجمال هذه الأصول أيضاً.

(1) إن التنوين علم التنكرين

(2) لك في كل علم ألا تنونه، وإنما تلحقه التنوين إذا كان فيه حظ من التنكير

(3) لا تحرم الصفة التنوين حتى يكون لها حظ من التعريف

والبحث الذي أقدمه إليك الآن، هو شرح موجز لهذه الفكرة ودرس لها في أبواب النحو

المختلفة، وبيان لما رأينا موجز لهذه الفكرة ودرس لها في أبواب النحو المختلفة، وبيان لما رأينا من الأدلة لتأييدها وكنت أريد أن أشكر لصديقي الدكتور طه حسين، وأذكر فضله في إتمام البحث وإخراج الكتاب؛ ولكنه آثر أن يقدم الكتاب، وانزلق إلى الثناء على صاحبه، فأجررت أن أتكلم.

وحق علي أن أشكر تلاميذي الذين عاونوني في شيء من المباحث، وإن لم أملك الآن أن أسميهم وأعمالهم.

وأحمد الله حمداً ملؤه التوحيد والتمجيد والشكر.

قصة الكفاح بين روما وقرطاجة

تأليف الأديب توفيق الطويل

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

ما زال الناس يستلهمون التاريخ ويستمدون منه العبرة كلما ألجأتهم ضرورة في حاضرهم إلى ذلك، فإن تجربة العصور في حاضرها لا تغني الناس إذا شاءوا التماس الحكمة أو استبانة القانون الإنساني، وذلك أن حوادث السنين لا تتصل نتائجها بمقدماتها إلا بعد مضي القرون ولا تكمل عبرتها إلا بعد توالي الأجيال. وليس في تكرار التمثل بعبر الزمان إعادة ولا في تعدد النظرات إليها إباحة لها أو ابتذال، فان الحادثة الواحدة قد تنطوي على ما لا حد له من العظات، وقد يتناولها الناس في كل عصر فيجد كل منهم فيها ناحية من المعنى مخالفة لما وجده سواه من معانيها. ولقد كان النضال بين قرطاجة ورومة أحد هذه المواقف التاريخية الفذة التي هزت العالم هزة قوية في أبانها، وما زالت العصور التالية ترجع وتلتفت صوبه، وكل منها يشير إلى ما يبتغي من عبرة فيه أو يتحدث عنه حديثاً يوحيه إليه موقع الضوء عليه في ناظره، وهكذا كان شأن الأستاذ (توفيق الطويل) مؤلف هذا الكتاب عندما تناول بالبحث هذا النضال.

لقد نظر المؤلف الفاضل إلى تلك الحرب التي يسميها التاريخ بالحرب اليونانية كما نظر سواه إليها ووصفها ورسم لنا منها صورة خاصة لا أظن أنها تشابه صورة أخرى رسمها أحد في لغة العروبة فهو قد استدرج الذهن من موقعه إلى موقعة ومن صورة إلى صورة حتى بلغ به النهاية فأشار إليه مومئاً إلى ما تحت قدميه، فإذا بالعبرة التي كان يرمي إليها ماثلة واضحة لا يستطيع أحد أن يخالف فيها ولقد كانت الشعوب الإنسانية منذ القدم ينافس بعضها بعضاً في كل ميادين النشاط والمطامع، فلقد كانت تتنافس في امتلاك الأراضي وفي الانتفاع بالمراعي، وكانت تتنافس في القوة والمنعة ثم هي تتنافس اليوم في كل هذه المعاني بوسائل سلمية تارة وحربية أخرى. غير أن ذلك التنافس الإنساني كانت له مظاهر عدة، فقد كان يحدث بين وحدات القبائل الصغيرة في دائرة محدودة كما كان يحدث بين الأجناس والشعوب في دوائر أوسع، فأنا لا نكاد نجد عصراً خلا من محاولة شعب من شعوب الأرض سيادة سائر الشعوب ونبوغ شعب آخر يتصدى له بالدفاع، فإذا بشعوب الأرض موزعة بين الزعيمين المتناضلين حتى ينتهي الأمر بإذعان أحدهما أو انقراضه وضياع سلطانه. وقد حاول بعض علماء التاريخ أو الاجتماع أن يخلصوا من استقراء ما حدث من ذلك النضال في كل العصور إلى أن أجناس العالم بينها طائفتان كبريان لا تفتأ تميل إلى النزاع والنضال على سيادة الأرض، فيسمون طائفة من الطائفتين شرقاً والطائفة الأخرى غرباً، ويقول هؤلاء العلماء إن النضال بين هاتين الطائفتين دائب مستمر استمرار الليل والنهار فقد يحدث أن شعبين من طائفة واحدة يثوران حيناً للنضال ثم لا يلبثان أن يستقرا على نوع من التفاهم والتجاور، في حين أن الطائفتين الكبريين لا يستقر بينهما النضال بل لا تزالان تتصاولان وتتصارعان. فإما إحداهما سيدة غالبة، والأخرى تناضل في سبيل الحياة تجاهها، وإما أن تنقلب الآية فتصبح السيدة مسودة والمستضعفة سيدة، وهؤلاء العلماء يجعلون قرطاجة وروما رمزيين لهاتين الطائفتين الكبريين في العصور التي سبقت الميلاد بقرنين أو ثلاثة. كما أنهم يجعلون حرب الفرس واليونان رمزاً لذلك النضال قبل ذلك، وحرب العرب والروم ثم الفرنج رمزاً له في العصور الوسطى.

ومهما يكن من أمر هذا الرأي فأنا لا نستطيع أن نغضي عما فيه من الضعف والتعسف، فالحقيقة التي لا شك فيها هي أن أمم الأرض تتنازع وتتناضل فيما بينها. وان ما بقي بعد ذلك من التحديد ناشئ من الظروف والحوادث. ولقد كان نضال

قرطاجة ورومة بغير شك من أروع مواقف النزاع العالمي، ولكن لم تكن رومة لتمثل عند ذلك شيئاً اسمه الغرب، ولم تكن قرطاجنة تمثل شيئاً اسمه الشرق، فقد كانت مصر عند ذلك تحت سلطان البطالسة العظام، وما كانت قرطاجنة إلا مدينة نامية تستولي على المال وتستخدمه في سبيل بسطة سلطانها بأن تسخر الجيوش لتنتصر لها في حروبها، وما كان لمثل هذه المدينة أن تكون زعيمة الشرق أو الآخذة بزمامه في نضال السيادة العالمية، بل لقد كانت مصر أجدر منها بذلك وأحرى

ويلوح لي أن المؤلف الفاضل لا يذهب مع أصحاب الرأي المتقدم فأنه علم أن قرطاجنة لها رحم بالساميين لم يجعلها ممثلة الشرق في نزاع الأجناس، بل نظر نظرة أخرى تختلف كل الاختلاف عن تلك الوجهة التي أشرنا إليها، فهو لا يتعصب لها ولا يراها تمثل مثلاً من أمثلة الشرق العليا، بل أنه لينظر إلى المثل العليا لروما على أنها أقرب إلى تمثيل مثل الإنسانية عامة، وهو يتحدث عن حوادث نضال قرطاجنة وروما حديث من يريد أن يتغلغل دون السطح ليتخذ من بحثه عظة وتنفعنا في حاضرنا فهو يريد أن يوجه أنظارنا إلى أن قرطاجنة قد فنيت لأنها كانتا جديرة بالفناء، وأن روما قد بقيت ونمت لأنها كانت جديرة بالبقاء والنمو، ثم هو يشير لنا وهو يسير في حديثه إلى الأسرار التي أهلت كلاً من المدينتين إلى مصيرها وجعلتها جديرة بما نالها.

خلفت الأساطير قصتين عن منشأ المدينتين المتناضلتين، وما أحرى هاتين الأسطورتين أن تكونا مختصرة لتاريخهما. فروما تنشأ في العراء وتغذوها الوحوش ثم ترويها الدماء ولكنها ترفض الاستكانة إلى الدعة ويطلب أهلها العيش في ظلال المكارم، فلا تزال مثلها العليا الخشونة والقوة والقسوة. وقرطاجنة تنشأ هرباً من مطامع الطامعين لتنفرد في مأمن تتمتع في برغد العيش وذكريات السعادة ولكنها لا تلبث أن تحرق نفسها دفاعاً لمطامع جديدة

اتجهت إليها من ناحية أخرى. وما كانت التاريخ ليحدثنا عن المدينتين إلا هكذا إذ شاء اختصار حكاية كل منهما في كلامات قليلة.

وانه لمن ألذ المطالعات أن يتتبع القارئ وصف هذا الكتاب لحوادث تلك الحقبة من الدهر، فان فيه خصالاً ثلاث تسمو به. دقة في البحث، ونفوذ في النظر، وجمال في الأسلوب.

وإني لأنتهز هذه الفرصة لتهنئته تهنئة حارة على ما أصاب من إجادة وتوفيق.

محمد فريد أبو حديد

العدد 190 - بتاريخ: 22 - 02 - 1937

على هامش الرتب والنياشين

شكر المنعم واجب

قال لي صديقي وهو أبيٌّ وفي نزيه: ألا يوحي إليك إنعام العرش وإكرام الوزارة كلمة في الرسالة؟ فأجبته جوابا أملس لا يتماسك عليه إيجاب ولا سلب؛ لأن نفسي قلما تنفعل لما يشغل الناس من ضحكات القلوب في هذه الحياة. فقال في لهجة حادة جازمة: إذا لم تكتب أنت كتبت أنا، لأن الأمر بالنسبة إليك يستغرق الفكر طويلا ويستوجب الشكر جهرة

انصرفت عن صديقي ومضيت في طريقي أقاول نفسي في اقتراحه، وأداول عقلي على رأيه. فانثالت على خاطري معانٍ لا أدري أين كانت

لا جرم أن الأمر بالإضافة إلي يستغرق كما قال صديقي الفكر طويلاً ويستوجب الشكر علانية، ولا ريب أن واجب الشكر على هذا العطف السامي لا يسقط عني بتسجيله في دفتر التشريف بقصر المُلك ودار الرياسة، فإني لم ألق همي إلى هذا الأنعام، ولم أضع نفسي في طريق هذا الوسام، ولم أكن ذا منصب فأقدّم على حسب ما قضيت به من زمن أو أمضيت فيه من كفاية، ولا صاحب مال فأكرم على قدر ما أنفقت منه في مشروع الدفاع أو في سبيل الخير؛ ولست بالكاتب السياسي الذي يكافأ على عظم جهاده وكرم تضحيته، ولا بالأديب الصالوني الذي يقرب للطف مدخله وحسن مصانعته؛ وإنما أنا رجل لا أحسن بطبعي تكاليف المجتمع: أعيش في زاوية مظلمة من زوايا الحياة، وأدور في دائرة ضيقة من دوائر الوجود، لا أتعرض لأقطاب السياسة، ولا أتعلق بأصحاب النفوذ، ولا أخرج عن هذا النطاق الصوفي الذي ضربته عليّ مواهبي، وحصرت فيه رغائبي وواجبي؛ فأنا كما أجدني في شعوري هوى خالصاً من أهواء

الطبيعة: أمجد الوادي لأنه الوطن، وأقدس الملك لأنه الدولة، واحب الوفد لأنه الشعب، وأوثر الخير لأنه الجمال، وأعشق الأدب لأنه الحياة. فإذا نفذت مع ذلك عين الوزارة إليّ، وبسطت جناح برها عليّ. دل ذلك على يقظة تخترق كل حجاب، وعدالة تشمل كل فرد، ونزاهة تفند كل اعتراض

ولا يمكن أن تكون الوزارة قد قصدت بهذا التكريم شخصي الضارع، وإنما قصدت به ولا ريب تكريم الأدب المستقل في جندي من جنوده، وتشجيع الجهاد الثقافي في ناحية من نواحيه. فأما عسيُّ أن أشكر هذه اللفتة الكريمة بلسان الأدب لأنها إلى الأدب، وعلى منبر

لأنها متصلة بهذا السبب (الرسالة)

كان العهد بالسلطان المطلق أن يكون إنعامه على رأي ابن المقفع أشبه بشجرة الكرم تعلق بأقرب الشجر لا بأكرمه، فلما غلبت الديمقراطية على طبيعة الملك، وقبضت الأمم على أزمة الحكم، تهيأ لكل فرد أن ينال نصيبه المقدور من الكرامة القومية العامة، والسيادة الوطنية المشتركة، وتسنى للنبوغ المستور، والذكاء المغمور، والعبقريات الفقيرة، أن تطاول في المجد شرف الولادة، وتنافس في الجاه سلطان الثروة

وهذا الذي تفعله الحكومة من اقتراحها الألقاب المميزة والأوسمة المشرفة لأبناء الأمة، ظاهره يخالف طبيعتها الشعبية، ولكن باطنه يوافق المنطق ولا يعدو الإنصاف. فإن المساواة روح الدستور وجوهر العدالة، فإما أن تلغى هذه الألقاب فيصبح الناس سواسية أمام المجتمع، كما هم سواسية أمام القانون؛ وإما أن تبتذل هذه المميزات حتى تتداني الطبقات ويقصر هذا الفرق المهين بين (الباشا) و (الفلاح)

لقد كانوا بالأمس يعيرون الوفد أنه حزب الرعاع وقائد السوقة، فما بالهم اليوم وقد ورث أمجاد الوطن يعيبونه أن يرفع عن حزبه أو شعبه معرة هذه الإهانة؟

زعموا أن الديموقراطية العاملة حين ثارت في فرنسا على الأرستقراطية العاطلة، أوحت إلى العمال العراة الجياع أن يقتحموا قصور السراة والنبلاء، فلبسوا وشيهم، وتقلدوا حليهم، وغرقوا في مقاعدهم المنجدة، وطعموا على موائدهم المنضدة، فشعروا في ساعة واحدة باسترداد ما فقدوه في الحقب الطوال من اللذة والعزة والكرامة والعظمة؛ فلم لا يكون ذلك من هذا؟

عفواً! لقد كدت أخرج عن موضوع الشكر وما قضيت منه لبانة وما نقعت به غلة. وليس الشكر باباً من أبواب الملق ولا ضربا من ضروب التنبيه كما يظن، ولا هو قيد النعم الموجودة، وصيد النعم المفقودة كما يقال، وإنما هو للصنيعة كالاعتراف للاقتراف والتسبيح للعقيدة، يخفف عبء المنة عن الضمير ويكفكف سورة الإيمان عن القلب!

ولئن كان يخجلك في رأي نفسك من التكريم أن تسعى إليه، لقد يخجلك في رأي غيرك إلا تشكره وقد سعى إليك

على أن الأدب نفسه سجل عصره بما فيه من محاسن ومساوئ؛ فهو يضمن الذكر والشكر لمعضده، كما يضمن المجد والخلود لموجده. والأدب كان ولن يزال لغة التاريخ، ولسان النهضة، وقبس الروح، وومضة الإلهام، ورائد الإنسانية إلى المثل الأعلى؛ فلا يمكن أن يكون رجاله في عهد الذين اشتهرت زعامتهم به، وقامت دعايتهم عليه، أضعف ركناً واقل شأناً من رجال الأعمال وأصحاب الأموال وعبيد الأرض

ولولا خلال سنها الشعر ما درى ... بناة المعالي كيف تبنى المكارم

أحمد حسن الزيات

في الحب أيضا

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

أرجو إلا يتوهم أحد أن هذا حديث في فلسفة الحب فإنه لا قدرة لي على الفلسفة، وقد فقدت إيماني بها مذ خذلتني وخيبت أملي وعجزت عن أن تفسر لي شيئا مما يحيرني في هذه الحياة. وقد قرأت كثيرا مما كتبه الذين ينسبون إلى الفلسفة وإلى البحث العلمي، غير أني لم اقتنع به ولم استرح إليه. ومن سوء الحظ - حظي أنا بالطبع كما لا أحتاج أن أنبه - أنه ليس لي في هذا الباب تجربه تستحق الذكر حتى كنت

أعرض ما يقول الفلاسفة والعلماء على ما جربت وأرى إلى أي حد أصابوا ووفقوا. ولست أكتمكم أني عاجز عن هذا الحب. وعسى أن أكون واهما لا عاجزا. ولكني ما قرأت قط شعر العشاق وما قالوه في الصبابة والوجد وفي ما تضطرب به نفوسهم وتجيش به صدورهم من الخوالج والاحساسات في القرب والبعد، والإقبال والصد، والمواتاة والحرمان، ولا سمعت ممن اعرفهم وصف ما جربوا من ذلك إلا قلت لنفسي - حين أخلو بها - (اسمحي لي يا نفس أن أقول انك - ولا مؤاخذه - بليدة) فتسألني لماذا؟ فأقول (لأني لا أراك تحسين شيئا من هذا الذي اجمع على وجوب الإحساس به الشعراء والناس قاطبة. فهل أنت بليدة أم هؤلاء كلهم كذابون أو على الأقل مبالغون؟) ولا احتاج أن أقول أني لا اخرج من هذا الحوار الذي يدور بيني وبين نفسي بشيء آنس به واستريح إليه. فإنها تصر على أن الناس مبالغون وأصر أنا على منطق (قرقوش) المشهور. فقد قالوا أن ناسا كثيرين وضعوا رجلا من الأحياء في نعش وحملوه فيه كالميت، فمر قرقوش بجنازته فصاح به الرجل مستنجدا وأكد له انه لا يزال على قيد الحياة، فاطرق قرقوش قليلا وفتل شعرات من لحيته ثم رفع رأسه ونظر إليه وإلى الناس وقال: (أتريد أن أصدقك واكذب هذا الخلق كله؟) وكذلك أنا مع نفسي - لا يعقل عندي أن تكون هي وحدها على صواب وكل هذه الملايين من النفوس مخطئه أو كاذبة، أو مبالغة.

ولا أنكر أن نفسي كانت تتحرك أحيانا فأشجعها مسرورا واستحثها فرحا بيقظتها بعد طول السبات، ولكن أقصى ما جربت حين تفتح النفس عينيها على ما حولها أن يخفق القلب خفقان تصعد به إلى حلقي من فرط شدتها، فأفهق وتعود فتهوي به إلى قريب من حذائي

كأنما هذا ليس قلبا وإنما ركب لي الله سبحانه في مكانه لعبة من لعب (اليويو) التي شاعت في الزمان الأخير. وأحيانا اشعر بأن حولي فراغا وأحس شيئا من اللهفة وقليلا من الشوق، ولكنه شوق هادئ ولهفة محتمله لا تثقل على النفس ولا يشقى بها القلب ولا يسود من جرائها العيش. وشبيه بذلك أن يشتهي الإنسان أن يرى شريطا من أشرطة السينما سمع عنه ثناء أو أن يشتاق أن يطوف حول الأرض أو يشاهد معرضاً كبيراً في بلد ناء. ولا أضن أن هذا يعد حبا بالمعنى القديم أو الحديث

وللسامع العذر إذا تساءل: (كيف إذن كنت تقول الشعر في شبابك وتذكر فيه الحب ولواعجه وصباباته وما تزعم أنك كنت تعانيه من السهد والضنى أو تريقه من الدموع إلى آخر ذلك) والسؤال طبيعي ولكن الجواب عنه حاضر، ولولا عادة الصدق التي اكتسبتها في الأيام الأخيرة لعز الجواب. والجواب يعرفه القراء فقد سقته في فصل سابق عن الحب نشرته لي (الرسالة) وخلاصته أني أوحيت الحب إلى نفسي

ومن الجرأة أن أزعم أن الناس كلهم كذلك، ولكني أقول إن نشوة الحب تطول عند الناس بفضل الإيحاء المستفاد من تأثير الجماعة والعرف. ولو خلت الكتب مما نقرأه في وصف الحب وأثره في النفس وألف المرء أن يرى الناس يحبون حبا لا يخرج بالنفس عن الاتزان لصار الحب هادئا فاترا كالصداقة. وأحسب أن الفرق بيني وبين غيري ليس هو أني شاذ وهم طبيعيون، بل إني تأثرت بإيحاء الجماعة وإيحاء الكتب وأنا عارف بذلك مدرك له متفطن لحقيقته، وأن الأكثرين يتأثرون على هذا النحو تماما ولكنهم لا يدركون أن في الأمر إيحاء ولا يفطنون للحقيقة فيه. والحياة تقوم - كما لا أحتاج أن أبين - على الإيحاء، وكل امرئ يوحي إلى كل امرئ آخر ويستوحي منه، بل نحن نستوحي الأشياء كما نتلقى الإيحاء من الناس.

ويخيل إلي أن الحب اسمه غلط، فإنه يبدو لي أن هذه العاطفة التي نسميها الحب خالية في الحقيقة من الحب والعلاقة فيها بين الجنسين ليست علاقة مودة. وهذا كلام قد يبدو متناقضا ولكني أظنه صحيحاً. ذلك أن الحب ضرب من الجوع؛ ولا تقولوا إنه جوع معنوي فإن هذا يكون تخريفا، إذ ليس ثم فيما يتعلق بالإنسان أو الحياة شيء معنوي. والإنسان مادة وكل ما في الحياة من المادة وإلى المادة، فلندع هذه الخيالات ولنجتزئ بالحقائق فإن أرضها

صلبة متينة لا تسوخ فيها الرجل. والمرء يجوع فيشتهي الطعام أي يطلبه، لا لأنه يحب الطعام في ذاته، ولا لأن بينه وبين ما يأكل مودة، بل ليسد الحاجة التي يشعر بها ويقضي الرغبة التي تلج به ولا يستطيع أن يهدئها بغير الأكل. وكذلك يجوع جوعا من

ضرب آخر - جوعا يطلب به إرضاء الرغبة الطبيعية في النسل إطاعة لغريزة حفظ النوع، كما يطلب بالأكل إطاعة لغريزة المحافظة على الذات. وكما لا يقال إن بين المحبين مودة. إنما تكون العلاقة بينهما قائمة على الرغبة في الالتهام أو الاستحواز إطاعة للغريزة لا عن مودة. والحبيبان أشبه بالمتقاتلين المتبارزين منهما بالصديقين المتوادين، لأن مطلب كل منهما الاستيلاء والغلبة؛ وهما لا يستعملان سلاحا ولا يحدثان جراحا، ولكن الواقع أن القبل والعناق والضم وغير هذا وذاك مما يكون بين المحبين - كل ذلك ليس إلا وسائل للتليين بغية التغلب. وقد استعمل الشعراء ألفاظا كثيرة كانوا فيها صادقين من حيث لا يشعرون، فذكروا في مواقف الحب وحالاته المختلفة المتعددة السيف والجراح والأكباد القريحة والقلوب المفجوعة والنفوس الكليمة والسهام وما إلى ذلك، فأشاروا إلى حقيقة العلاقة بين الحبيبين من حيث يحسون بها بالفطرة ولا يدركونها بالعقل. والحقيقة هي أن الحب حرب واقتتال وفتك، وغايته - وهي النسل - تنطوي على تعرض للتضحية الكبرى - على الأقل من جانب المرأة - وسبيله الإخضاع، فالمرأةتحاول إخضاع الرجل ليتسنى لها بذلك أن تجيء بالنسل الذي جعلتها الطبيعة أداة له. والرجل يحاول إخضاع المرأة ليتسنى له أن يجعلها تجيئه بالنسل الذي يطلبه بغريزته. والحال بينهما دائر أبداً على الكفاح. وفي شعر صادق - قديم أو حديث - لمحات عديدة تدل على التفطن إلى هذه الحقيقة ولو من غير إدراك تام صحيح جلي لها

والحب يتخذ الصورة التي يؤدي إليها التفاعل بين عاملين: الأول هو الدافع الغريزي للإنسان، والثاني هو مقاومة الجماعة، وهي مقاومة مرجعها إلى العرف والدين وما يجري هذا المجرى. وإلى تفاعل هذين العاملين وما ينتجانه فيما بينهما من الأثر ترجع الصور الشائعة للحب بين الجماعة. وقد كان التحرج شديدا في الجيل الماضي من ذكر الحب والاعتراف أو المجاهرة به، لأن التقاليد كانت صارمة وكان لها معين من الدين لا يستهان به، وكانت الجماعة تنزع إلى الاحتشام. وكانت قاعدة الحياة من هذه الناحية المثل المشهور

فكانت معاقرة الخمر على قارعة الطريق ممنوعة لا بحكم (إذا بليتم فاستتروا) القانون بل بقضاء العرف، وكان الشبان مثلا يستحيون أن يجلسوا في القهوات، وكان النساء يتحجبن ويحرصن على ستر زينتهن، ولم يكن اتصال شاب بفتاة من الهينات، ثم جاءت الحرب فرجت الدنيا وزلزلت قواعد الحياة فيها وانتشر التعليم وشاع الاطلاع على الآراء الحديثة في الأمور الجنسية، وهدمت الهبة القومية المصرية حواجز كثيرة وفي جملتها ما كان يفصل الجنسين ويفرق بينهما، وصار الناس - شيئا فشيئا - يلهجون بذكر الحب ويتناوله في مجالسهم وفي كتاباتهم تناولا هو أقرب ما يكون إلى البحث العلمي، ولم يعد الشبان - بسبب نشأتهم والجو الجديد المحيط بهم ينظرون إلى الحب وما يتعلق به كما كان آباؤهم يفعلون أو يرون في الأمر موجبا للحماسة أو داعيا للخجل أو باعثا على الاستحياء؛ وجاء التطور الاجتماعي ولاسيما فيما يتعلق بإمكان ضبط النسل هادما لحاجز منيع بين الرجل والمرأة. وفي الأمثال إن الشجرة تعرف من ثمارها؛ فإذا لم تكن ثم ثمرة فأين الشجرة؟ وضعف العرف وتفككت قيوده وحصل التمرد عليه في سبيل الحرية كما حصل التمرد على كل قيد آخر. ومن أخطار الحرية في بادئ الأمر أن الناس يطلبون الحقوق وينسون الواجبات التي تقابل الحقوق. والتوازن لا يعود إلا ببطء وبعد التجارب الطويلة والمعاناة المرة والدروس العلمية الأليمة. وبذلك فقد الحب الهالة التي كانت حوله وسلب القداسة القديمة، وصار على الأيام أمرا عاديا، وهوى إلى مرتبة الرقص والألعاب الرياضية، لأن وطأة العرف والتقاليد ضعفت وخفت جدا حتى ليمكن أن يقال إنها غير محسوسة في الأغلب والأعم. وفي مثل هذه الأحوال التي يعظم فيها الترخص والتسامح يندر الحب القوي العميق الطويل العمر، وقد يكون هذا الحال هو بعض السر في ركود الشعر إلى حد كبير في هذه الفترة من حياتنا الأدبية

إبراهيم عبد القادر المازني

النفس وخلودها عند ابن سينا

للدكتور إبراهيم بيومي مدكور
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

يدرس أبن سينا النفس من نواح كثيرة، فيحاول أولاً أن يثبت وجودها ومغايرتها للبدن، ثم ينتقل بعد هذا إلى حقيقتها فيعرض لجوهريتها وروحيتها ويبرهن على خلودها ببراهين شتى ووسائل متعددة. ولن تفهم حقيقة النفس فهما كاملا إلا إذا حددت وظائفها وبين في دقة عملها. وابن سينا يتحدث طويلا عن أنواعها المختلفة من نباتية وحيوانية وإنسانية، ويسهب بوجه خاص في حديثه عن قوى النفس الإنسانية الظاهرة والباطنة، وهذا الجزء يلخص تقريباً علم النفس عنده. وواضح أن مشكلة العقل التي تعد أحد الأحجار الأساسية في بناء الفلسفة الإسلامية والتي شغلت فلاسفة القرون الوسطى على العموم، تتصل اتصالا وثيقاً بقوى النفس الباطنة، وسنتبع هنا الخطوات السابقة لندلي بفكرة كاملة عن أبحاث ابن سينا في النفس، ولكنا سنجمل القول في أقسامه وتفصيلاته الكثيرة المتصلة بأنواعها وقواها لأن هذا في أغلبه أصبح من علم النفس البائد، وسنكتفي بأن نشير منه إلى مصادره اليونانية. وأما مشكلة العقل فهي من الأهمية بحيث لا تدرس عرضاً وفي ثنايا بحث كهذا، ولابد من دراسة مستقلة سبق لنا أن حاولناها في كتابنا عن الفارابي

لم يعن مفكرو اليونان كثيراً بالبرهنة على وجود النفس، وكأنهم كانوا يعدون وجودها واضحا بحيث لا يتطلب الإثبات، ومسلماً به إلى درجة لا تقبل الشك أو المناقشة. فالماديون منهم والروحيون متفقون على وجود النفس، وخلافهم فقط في بيان ماهيتها وتحديد وظائفها. وأطباؤهم وفلاسفتهم مجمعون على أن للظواهر النفسية مصدراً وأصلا تعتمد عليه بجانب الجسم. وعلى هذا يمكننا أن نقول إن المادية المتطرفة التي ظهرت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر والتي تنكر وجود النفس بتاتاً غير معروفة لديهم. ذلك لأن هذه المادية اثر من آثار الطب وعلم وظائف الأعضاء الحديثين. وكل همها أن تفسر الأحوال العقلية جميعها تفسيراً واقعياً تجريبياً، وفي اعتقاد أنصارها أن المخ والجهاز

العصبي كفيلان بتوضيح كل أعمال الفكر السامية. لهذا نراهم يصرحون بأنه (لا تفكير بدون الفسفور) وأن (المخ يهضم الاحساسات بشكل ما ويفرز عصارة التفكير إفرازاً عضوياً) وما كان الطب متقدما عند اليونان تقدمه في التاريخ الحديث، ولا كانت وظائف الأعضاء واضحة وضوحها اليوم

ومن الغريب أن ابن سينا الذي تقبل كل مبادئ الطب وعلم وظائف الأعضاء اليونانيين قد عنى عناية خاصة بالبرهنة على وجود النفس وإثبات أنها تغاير البدن. ولعل ذلك راجع إلى أن بعض الماديين قد غالوا مغالاة الماديين المحدثين وتطرفوا تطرفهم، فوحدوا بين النفس والجسم أو أنكروا وجودها رأسا واعتبروا الجسم مبعث الظواهر العقلية على اختلافها. فلم ير بداً من أن يرد عليهم ويبين خطأهم، وقد أشار إليهم صراحة في إحدى رسائله. وفوق هذا فالمنهج القويم في رأيه يقتضي أن يبدأ الباحث بإثبات وجود النفس ثم ينتقل بعد هذا إلى شرح وظائفها وأعمالها. يقول: (من رام وصف شيء من الأشياء قبل أن يتقدم فيثبت أولا أنيَّته (يعني وجوده) فهو معدود عند الحكماء ممن زاغ عن محجة الإيضاح. فواجب علينا أن نتجرد أولا لإثبات وجود القوى النفسانية قبل الشروع في تحديد كل واحدة منها وإيضاح القول فيها

وهو في برهنته على هذا الوجود يسلك سبلا عدة ويستخدم وسائل متفرقة. فليلجأ تارة إلى العرف العام والاستعمالات الدارجة مستمدا منها بعض الملاحظات الدالة على أننا نؤمن بوجود حقيقة فينا تخالف الجسم. ويركن تارة أخرى إلى بعض القضايا الفلسفية المسلمة من القدامى ليستعين بها على تحقيق هذه الغاية. ويبتكر أحيانا فروضا وتعليلات دقيقة تقربه من بعض الفلاسفة وعلماء النفس المحدثين. فيلاحظ أن الإنسان إذا كان يتحدث عن شخصه أو يخاطب غيره فإنما يعني بذلك النفس لا الجسم. فحين تقول: أنا خرجت أو أنا نمت لا يخطر ببالك حركة رجليك ولا إغماض عينيك، بل ترمي إلى حقيقتك وكل شخصيتك. وقد صاغ ابن سينا هذه الملاحظة على الصورة الآتية (إن الإنسان إذا كان منهمكا في أمر من الأمور فإنه يستحضر ذاته حتى أنه يقول إني فعلت كذا أو فعلت كذا؛ وفي مثل هذه الحالة يكون غافلا عن جميع أجزاء بدنه. والمعلوم بالفعل غير ما هو مغفول عنه، فذات الإنسان مغايرة للبدن. وأنا لنلمح في ثنايا هذه الملاحظة فكرة الشخصية أو فكرة

التي هي مثار بحث طويل بين علماء النفس المعاصرين. فالشخصية أو (الأنا) ?) (أنا)
في رأي ابن سينا لا يرجع إلى الجسم وظواهره، وإنما يراد به النفس وقواها
ومن جهة أخرى تبدو علينا آثار لا يمكن تفسيرها إلا أن سلمنا بوجود النفس، وأهم هذه
الآثار الحركة والإدراك. فأما الحركة فضربان: قسرية ناتجة عن دفعة خارجية تصيب
جسما ما فتحركه، وغير قسرية وهي التي تتصل بنا هنا. وغير القسرية هذه منها ما
يحدث على مقتضى الطبيعية كسقوط حجر من أعلى إلى اسفل، ومنها ما يحدث ضد
مقتضى الطبيعة كالإنسان يمشي على وجه الأرض مع أن ثقل جسمه كان يدعوه إلى
السكون، أو كالطائر الذي يحلق في الجو بدل أن يسقط إلى مقره فوق سطح الأرض.
وهذه الحركة المضادة للطبيعة تستلزم محركا خاصا زائدا على عناصر الجسم
المتحرك، وهو النفس. وأما الإدراك فأمر امتازت به بعض الكائنات على بعض، وإذن
لابد للكائنات المدركة من قوى زائدة على غير المدركة. هذا هو البرهان الطبيعي
السيكولوجي الذي يعتمد عليه ابن سينا في إثبات وجود النفس. وهو كما لاحظ لانداور
مستمد في أغلب أجزائه من كتابي (النفس) و (الطبيعة) لأرسطو. ففي الكتاب الأول
يصرح الفيلسوف اليوناني بأن الكائن الحي يتميز من غيره الحي بميزتين رئيسيتين:
هما الحركة والإحساس. وفي الثاني يقسم الحركة إلى أقسام عدة لم يعمل ابن سينا
شيئا سوى أن رددها وبنى عليها برهنته السابقة. بيد أن هذه البرهنة، فوق أنها برهنة
باللازم، غير مقنعة وخاصة في جزئها الطبيعي. فأنه لو كانت الأجسام كلها مكونة من
عناصر متحدة لكان لهذه البرهنة قيمتها. فأما وهي مختلفة التكوين فلا مانع من أن
الجسم الذي يضاد الطبيعة العامة بحركته متمش مع قوانين طبيعته الخاصة ومشتمل
على عناصر تسمح له بالحركة. وكم من جهازات وآلات تتحرك حركات مضادة للطبيعة
ولا يخطر ببال أحد الآن أنها تحتوي على نفس أو قوة خفية أخرى، وقد انقضى الزمن
الذي كانت تعتبر فيه النفس أصل الحياة والتفكير في آن واحد، أو مصدر الحركة
والإدراك. إن شئنا أن نستعمل لغة ابن سينا، واصبح علماء الحياة يفسرون الظواهر
الحيوية تفسيراً آلياً أو (ديناميكياً) بمعزل عن القوى النفسية تاركين للنفسيين توضيح
النفس وظواهرها، وهؤلاء الأخيرون حتى الممعنون في الروحية منهم لا يذهبون اليوم
مطلقاً إلى أن للنفس عملا فوق الظواهر العقلية ويتقبلون التفسير الآلي للحياة
والحركة. ويظهر أن
ابن سينا قد تنبه إلى ضعف برهنته بدليل أنه لم يطنب فيها إلا مرة واحدة وفي مؤلف
تقوم كل الدلائل على أنه كتبه في صباه. أما في (الشفاء) و (الإشارات) وغيرهما من
مؤلفات الشيخوخة: فإنه يمر بها مسرعة ويحاول أن يثبت وجود النفس معتمداً على
آثارها العقلية؛ وهذه هي البراهين التي تدل على العبقرية والابتكار.
فيلاحظ أولا أن في الأحوال النفسية تناسقاً وانتظاماً يؤذن بقوة مهيمنة عليها ومشرفة
على نظامها، وهي برغم تنوعها وتخالفها بل تنافرها أحياناً تدور حول مركز ثابت
وتتصل بمبدأ لا يتغير، وكأنها مرتبطة برباط وثيق يضم أطرافها المتباعدة، فنسر
ونحزن، ونحب ونكره، وننفي ونثبت، ونحلل ونركب، ونحن في كل هذا صادرون عن
شخصية واحدة وقوة عظمى توفق بين المختلف وتوجد المؤتلف؛ ولو لم تكن هذه
القوة لتضاربت الأحوال النفسية واختل نظامها وطغى بعضها على بعض. وما النفس
من آثارها إلا بمنزلة الحس المشترك من المحسوسات المختلفة؛ كلاهما يلم الشعث
ويبعث النظام والترتيب.
وهنا يشير ابن سينا إلى ذلك البرهان المشهور الذي كثيراً ما ردده أنصار المذهب
الروحي من علماء النفس المحدثين. ويتلخص في أن وحدة الظواهر النفسية ?
تستلزم أصلا تصدر عنه وأساساً تعتمد عليه. وضعف هذه الوحدة أو انعدامها معناه
ضعف الحياة العقلية أو القضاء عليها
يدنو ابن سينا من المحدثين، بل ومن المعاصرين بشكل أوضح من هذا في برهان آخر
يصح أن نسميه برهان الاستمرار. وملخصه أن حاضرنا يحمل في طياته ماضينا ويعد
لمستقبلنا، وحياتنا الروحية هذا الصباح ترتبط بحياتنا أمس دون أن يحدث النوم أي
فراغ أو انقطاع في سلسلتها، بل وترتبط بحياتنا منذ أعوام مضت. ولئن كانت هذه
الحياة متحركة ومتغيرة فإنما تتحرك في اتصال وتتغير في ارتباط. وليس هذا التتابع
والتسلسل إلا لأن أحوال النفس فيض معين واحد ودائرة حول نقطة جذب ثابتة. يقول

ابن سينا: (تأمل أيها العاقل في أنك اليوم في نفسك هو الذي كان موجوداً في جميع عمرك حتى أنك تتذكر كثيراً مما جرى من أحوالك. فأنت إذن ثابت مستمر لا شك في ذلك. وبدنك وأجزاؤه ليس ثابتاً مستمراً بل هو أبداً في التحلل والانتقاص. . . ولهذا لو حبس عن الإنسان الغذاء مدة قليلة نزل وانتقص قريب من ربع بدنه. فتعلم نفسك أن في مدة عشرين سنة لم يبق
شيء من أجزاء بدنك، وأنت تعلم بقاء ذاتك في هذه المدة، بل جميع عمرك. فذاتك مغايرة لهذا البدن وأجزائه الظاهرة والباطنة) وفكرة استمرار الحياة العقلية واتصالها من الأفكار التي أثبتها حديثاً وليم جيمس وبرجسون وعداها من أخص خصائص الظواهر النفسية ومن اكبر الدلائل على وجود (الأنا) أو الشخصية. وفي رأيهما أن تيار الفكر لا سكون فيه ولا انقسام ولا انفصام، وهو في حركة متصلة مطردة. وما أشبه الحياة العقلية بقطعة موسيقية مكونة من نغمات مختلفة ومتميزة قد امتزجت واختلط بعضها ببعض فأنتجت لحناً منسقاً يقول جيمس: (من الصعب جداً أن نجد في شعور واقعي حالا نفسية مقصورة كل القصر على الحاضر بحيث لا نستكشف فيها أي شعاع من أشعة الماضي القريب). فابن سينا ببرهانه المتقدم يسبق عصره بعدة أجيال ويدلي بآراء يعتد بها علم النفس الحديث كل الاعتداد
(يتبع)
إبراهيم مدكور
الصوت الخافت
للأستاذ مصطفى حمدي القوني
(مهداة إلى صديقي الكاتب السويسري جوستاف بيل)
- 1 -
ما كان يدور بخلدي قط أن يكون هذا كل نصيبي من الدنيا، لقد طالما حلمت إبان صباي وفي فجر شبابي أني سوف أدير كرة الأرض على أناملي، وأني سوف أمثل باسمي الأفواه والأسماع والقلوب. والآن وقد نقضت أيام الصبا فإذا لي دنياي أديرها في غير جهد، وإذا أفواه وأسماع وقلوب يملؤها أسمي، وإذا أيد ترتفع إلى الجباه تحييني كلما أقبلت على عملي أو أدبرت عنه. ويا ما أكثر ما يتملقني تلاميذي!
واليوم إذ خرجت في الصباح إلى المدرسة بدأت تطوف برأسي هذه الخواطر: كنت في الماضي أصور الآمال وانتظر تحقيقها في أيام مقبلة، وأقبلت هذه الأيام فإذا آمالي ليس إلى تحقيقها من سبيل، فأصابني شيء من الرضا والقناعة وطفئت حرارة الصبى وجرأته، وأصبح الصبى وآماله حطاما، وإن عاودتني أحيانا ذكراه فلا أكاد أصدق أني كنت في يوم الأيام
إني أحيا الآن ولكن. . . عاريا عن الآمال والعواطف. لقد سقطت عني عواطفي وآمالي كما تساقط عن الشجرة الذاوية أوراقها؛ وكثيراً ما أشعر أني كالغريق الملقى على ضفة اليم ينتظر النهاية.
لست آسف على الماضي ولا أؤمل في المستقبل ولا أبالي كيف يكون، ولكني اقف الآن حيث أنا فاتحا يدي للقدر يلقي فيهما ما به يجود. . .
وإني لأدخل حجرة الدراسة - وأنا لا أزال غارقا في مثل هذه الخواطر - إذ تسألني نفسي:
- أكان من الممكن أن تقنع بمثل هذا في الماضي؟
وإذا بي أسمع صوتا ساخراً يقول مجيباً:
- ولم لا؟ ألم يكن يحلم بشجرة الخلد وملك لا يبلى و. . . عرش عظيم؟
واعتليت المنصة!
ووقف التلاميذ رافعين أيديهم بالتحية، وإذ رفعت يدي أرد تحيتهم جلسوا صامتين، وبدأت قائلا:
- واجب الدرس السابق
ففهموا بذلك أني أريد أن يقف المقصرون ويلقوا إليّ بأعذارهم عن التقصير فيما كلفتهم به؛ ووقف واحد من التلاميذ كان من أكثرهم جداً وعناية بعمله، ولكنه لم يلق إليّ بأي عذر وإنما بقى ساكناً صامتاً كأنما لا يبالي
ونزلت من على المنصة وتقدمت إليه في خطى ثابتة ورفعت يدي أريد أن ألطمه،

وحينئذ انبرى زميل له يقول في صوت خافت:
- لا لا يا أستاذي! إن أباه قد مات البارحة.
ونزلت يدي إلى جانبي وعدت إلى مكاني من جديد والحجرة يخيم عليها سكون، وأنفاس التلاميذ كأنها محبوسة، ونظراتهم متعلقة بي تتبعني، ففتحت كتاباً أمامي وقلت لهم من دون أن أرفع نظري إليهم:
كتاب المحاسبة صفحة 65 التمرين الثاني. سوف أراه مع سابقه في الدرس القادم.
وفتحوا كتبهم في سكون وبدأت اذرع الغرفة جيئة وذهوباً ورأسي يدور، وقلبي كأن به بركاناً ثائراً
- 2 -
ودق الجرس فخرجت من الفصل ومن المدرسة إذ كان هذا هو درسي الوحيد في هذا اليوم، وبدأت أجوب شوارع المدينة ذاهلا عن كل ما حولي إذ بدأت أعود بالذاكرة إلى الماضي وكأنما بدأت أعيش فيه كرة أخرى:
(هذا أنا طفلا في المدرسة الابتدائية أسير إليها مع الشمس كل صباح وأعود منها كل أصيل. وهذا أنا أعود من المدرسة في أصيل يوم من الأيام فلا أجد أمي: لقد انتقلت إلى الريف تبتغي فيه شفاء من مرض ألم بها. وهذا أنا أعود في أصيل كل يوم أتنسم أخبارها، فإذا جن الليل سهرت من أجلها أدعو لها وأتمنى لها طيب الأماني. وهذا أنا أقوم إلى المدرسة ذات صباح فأجد رسولا من القرية جاء يستقدم أبي، فينقلب أملي شكا طاغياً
جارفاً. وهذا أنا أخرج من المدرسة في أصيل هذا اليوم يائساً أشد اليأس، حزيناً أشد الحزن، أسرع الخطا ثم أبطئها، أسرع لأني أريد أن أعلم ماذا كان مصير أمي، ثم أحس كأن شيئاً يرد من خطاي ويصدني: لقد كان الشك يغمر نفسي
أذكر أن الشمس كانت جانحة إلى المغيب تلقي على طرق المدينة أشعة صفراء باهتة حزينة، وإني لازلت إلى الآن تفيض نفسي بالكآبة كلما رأيت مغرب الشمس.
وفي أول الطريق الذي ينتهي إلى بيتنا قابلني عمي ثم أجلسني إلى جانبه في دكان صغير هناك وجاء أحد الجيران يشتري بعض حاجة من الدكان، فألقى إلي نظرة ومال برأسه إلى صاحبه كأنما يسأله عن شيء، وهز صاحب الحانوت رأسه ومص الجار شدقيه راثياً، وقمت من مكاني وانفجرت باكيا وجريت إلى البيت لأسترسل في البكاء
وهناك كانت نسوة كثيرات - في ثياب سود - حاولن عبثاً أن يكفكفن من عبراتي. وهناك كانت أختي الصغيرة مدهوشة حيرى لا تدري ماذا جرى. وهناك كانت أختي التي تكبر هذه - في هدوئها وسكونها الدائمين - تسكب عبرات صامتة
وكانت ليلة. . .
- 3 -
وأصبح الصباح فإذا الشمس مشرقة كعادتها، وإذا بي أسير إلى المدرسة محني القامة خافض الهامة، أفكر فيما كان وفيما سيكون
وابتدأ الدرس الأول، وكان درس القواعد العربية، وإني لأذكر تماما الشيخ عبد الحميد رجلا قصير القامة مكور الوجه قاسيا، وأذكر أنه كان في هذا الصباح جاداً في إلقاء الدرس وشرح ما غمض منه على السبورة، ولكني لا اذكر ما هو الدرس الذي كان يلقيه، إذ أني نسيت - فيما نسيت - هذا الباب الذي من أمثلته (حضرموت وبختنصر)، ولكن ماذا يهمني من هذا، إن ما يزال عالقاً بذهني هو أني انتبهت لحظة للشيخ وللدرس، ورفعت نظري إلى السبورة أمامي فوجدت هاتين الكلمتين (حضرموت - بختنصر)
تأملت الكلمة الأولى وقرأتها هكذا (حَضَرَموْت) ثم بدأت أقول في نفسي:
- يا ما أسعد من لا تموت أمهاتهم! وهؤلاء الذين يحضرون موت أمهاتهم إنهم أسعد مني حالا، أنا الذي لم يحضر موتها ولا يدري ماذا مصيرها
وحينئذ عن للشيخ أن يلقي إلي بسؤال - ولعله رآني عنه وعن درسه في شغل شاغل - ولكن كلمة واحدة لم تند عن شفتي جواباً لسؤاله
وكان أن تقدم إلي ولطمني لطمة قاسية. . . تقبلتها صامتاً. وماذا كانت هذه إلى جانب لطمة القدر؟
- 4 -

وحين وصلت بذكرياتي إلى هذا الحد - وكنت قد وصلت في سيري إلى شارع سليمان باشا - رفعت يدي إلى خدي كأنما أتحسس بها أثر اللطمة بعد هذه السنين الطوال. ثم تراءى لي - ويدي لا تزال على خدي - أن أعبر الشارع. وإني لأخطو أولى خطواتي إذ سمعت كأن صوتاً يناديني:

- إبراهيم! يا إبراهيم!

وكان الصوت خافتاً كأنه آت من بعيد، من أعماق هاوية، وقد خيل إلي أنه ليس غريباً عني، وأني سمعته قبل الآن، متى وأين لا أدري؟ وتلفت حولي واختل توازن خطاي وكادت سيارة تدهمني، فنظر إلي شرطي المرور كأنما يسألني ماذا بي. فقلت له في بساطة:

- إن اسمي إبراهيم!

فلم يبد على وجه الشرطي أنه فهم شيئاً

وطفت على شفتيه ابتسامة فيها سخرية وفيها رثاء.

مصطفى حمدي القوني

في أفق السياسة الدولية

المسألة الاستعمارية والصراع على الأسلاب والغنائم

بقلم باحث دبلوماسي كبير

يظهر أن المسالة الاستعمارية ستغدو في القريب العاجل مسألة المسائل، وربما لعبت دوراً خطيراً في تطورات السياسة الدولية هذا العام، وقد كانت مسالة المستعمرات، خلال الأعوام الأخيرة تبدو في الأفق من آن لآخر، ولكنها كانت تتخذ صبغة نظرية؛ بيد أنها منذ غزو إيطاليا للحبشة واستيلائها عليها تتخذ صورة عملية واضحة؛ وكانت ألمانيا وإيطاليا هما اللتان تصران على إثارة هذه المسألة الشائكة كلما سنحت الفرص، أما ألمانيا فلأنها فقدت كل مستعمراتها السابقة في أفريقية وفيما وراء البحار نتيجة لهزيمتها في الحرب الكبرى وتنفيذاً لنصوص معاهدة الصلح، وأما إيطاليا فلأنها رغم كونها كانت في عداد الحلفاء الظافرين ورغم استيلائها على نصيبها من أسلاب الدول المهزومة، كانت ترى دائماً أنها خدعت من حلفائها، وانهم استأثروا دونها بالغنائم الكبرى وخصوصاً في مسألة المستعمرات والأراضي الجديدة، إذ بينما حصلت فرنسا وإنكلترا وبلجيكا على انتدابات وأملاك واسعة في أفريقيا وآسيا، إذا بإيطاليا تحرم من كل نصيب في هذا التراث وترغم على الاكتفاء بما منح لها من الأراضي النمسوية القليلة في أوربا؛ وقد كان هذا الغبن شعار السياسة الفاشستية في الأعوام الأخيرة، وذريعة إيطاليا في وجوب إعادة النظر في معاهدات الصلح وتعديلها تعديلا يكفل استقرار الأحوال في أوربا، وحل مسألة الانتدابات والمستعمرات بصورة ترضي الأماني الإيطالية، فلما لم توفق إيطاليا إلى إرضاء مطامعها بطريق المفاوضة والتفاهم، عمدت إلى طريق القوة، فنظمت اعتداءها المعروف على الحبشة رغم المعاهدات المعقودة، واستولت عليها، وحققت بذلك بعض مطامعها الاستعمارية وأما ألمانيا فلم تفكر قبل قيام الحكومة النازية في أن تثير مسألة المستعمرات بصورة جدية، وإن لم تنقطع منذ معاهدة الصلح عن الشكوى من فداحة شروطها المرهقة، ولم تنقطع ألمانيا بالأخص لحظة عن السعي في سبيل التنصل من تبعة الحرب التي اتخذت ذريعة لسحقها وتصفيدها بمثل هذه الفروض والمغارم الفادحة، وكانت ألمانيا تثير مسألة

المستعمرات من آن لآخر ولكن بصورة نظرية فقط، فلما قامت الحكومة النازية منذ أربعة أعوام كان برنامجها الواضح أن تنكر معاهدة فرساي برمتها، وأن تنكر بالأخص الأساس الذي قامت عليه وهو تبعة ألمانيا في الحرب الكبرى، وأن تحطم من نصوصها القائمة كل ما يمس السيادة الألمانية أو يغل حقوق ألمانيا وحرياتها؛ وقد فازت ألمانيا الهتلرية في هذه الأعوام القليلة بتحقيق غايتها من نقض معاهدة فرساي وتمزيقها. وفي نفس الوقت الذي كانت ألمانيا تنكر فيه تبعة الحرب وتنكر شرعية معاهدة الصلح، كانت تطالب برد مستعمراتها وتنوه بضرورة هذه المستعمرات لتقدمها الاقتصادي والاجتماعي؛ ولما نظمت إيطاليا مشروعها لغزو الحبشة كانت ألمانيا من ورائها تؤيدها بكل ما استطاعت، لأنها كانت ترى في مشروع إيطاليا دعامة لقضيتها الاستعمارية وذريعة لإثارة المسألة الاستعمارية كلها؛ ذلك أن غزو إيطاليا للحبشة لم

يكن مشروعاً إيطالياً داخلياً فقط، ولكنه كان يمثل في نفس الوقت طموح الفاشستية إلى التوسع الاقتصادي. ويمثل بالأخص نزعتها العسكرية المتوثبة، وهي النزعة التي تضطرم بها ألمانيا اليوم كما تضطرم إيطاليا، وقد كان في مثل إيطاليا قدوة صالحة لألمانيا؛ وكان العام الماضي بالنسبة لألمانيا عام القضاء على معاهدة الصلح وميثاق لوكارنو، واسترداد ألمانيا لسيادتها المطلقة في مسائل التسليح، وفي منطقة الرين الحرام، أما هذا العام فسيكون بالنسبة لألمانيا عام المستعمرات والمسالة الاستعمارية، كما تدل على ذلك طوالع السياسة الألمانية الجديدة ومقدماتها فمنذ أشهر يتحدث زعماء ألمانيا الهتلرية وتتحدث صحفها بشدة عن ضرورة استعادة ألمانيا لمستعمراتها السابقة، ويقولون إن المسالة فضلاً عن كونها مسألة كرامة قومية لأن ألمانيا هي الدولة العظمى الوحيدة التي حرمت من المستعمرات، قد أضحت في نفس الوقت بالنسبة لألمانيا ضرورة اقتصادية واجتماعية، لأن سكان ألمانيا يزيدون بسرعة وألمانيا لا تستطيع الحصول على المواد الأولية اللازمة لصناعتها إلا بالشراء واستنزاف موارد ثروتها القومية، وهي حالة تهدد كيانها الاقتصادي؛ وقد رأينا الدكتور شاخت زعيم ألمانيا الاقتصادي يهدد أوربا بالانفجار إذا لم تحقق ألمانيا أمانيها الاستعمارية، ورأينا الجنرال جيرنج رئيس الحكومة البروسية يصف اقتطاع الحلفاء للمستعمرات للألمانية بأنه سلب وسرقة صريحة؛ وقد كانت هذه كلها تمهيدات عنيفة للخطوة الرسمية التي تزمع ألمانيا أن

تتخذها في سبيل المسالة الاستعمارية؛ وفي 30 يناير الماضي أعلن الهير هتلر زعيم الدولة الألمانية في خطابه الرسمي الذي ألقاه في مجلس الريخستاج لمناسبة الذكرى الرابعة لتولي النازي الحكم مطالب ألمانيا الصريحة في سبيل استرداد مستعمراتها وبذلك اتخذت ألمانيا في هذه المسالة موقفها الرسمي الصريح؛ ولم يمض على تصريح الهير هتلر أيام قلائل حتى كان صدى المطالب الألمانية يتردد في دوائر باريس ولندن، وحتى وقعت المقابلة الأولى بين الهير فون ريبنتروب السفير الألماني في لندن، وبين اللورد هاليفاكس القائم بأعمال وزير الخارجية البريطانية، وفيها بسط السفير الألماني وجهة نظر حكومته في مسالة المستعمرات

ويجب أن نذكر إلى جانب ذلك كله موقف ألمانيا من المسألة الإسبانية وهو موقف وثيق الصلة بمطالبها ومشاريعها الاستعمارية؛ فقد اشتركت ألمانيا مع إيطاليا والبرتغال في تدبير الثورة الإسبانية القائمة، وعاونت زعيمها الجنرال فرانكو بالرجال والذخائر، واعترفت بحكومته أي بحكومة برجوس الفاشستية، ولألمانيا عدة سفن حربية في المياه الإسبانية تعاون مشاريع الثوار؛ وقد أذيع في الأسابيع الأخيرة أن ألمانيا استطاعت أن تحصل من الجنرال فرانكو على امتيازات عظيمة لاستغلال مناجم النحاس وغيره في أنحاء كثيرة من أسبانيا؛ وقد ذهبت ألمانيا إلى ابعد من ذلك فحاولت بالتفاهم مع الجنرال فرانكو أن تحتل مراكش الإسبانية، وأنزلت فيها بعض قواتها فعلا؛ ولم يك ثمة شك في الغايات الاستعمارية المباشرة أو غير المباشرة التي تعلقها ألمانيا على هذه الحركة التي ذكرتنا بحادث أغادير في سنة 1912، وهو الحادث الذي استغلته ألمانيا يومئذ لمصالحها الاستعمارية؛ بيد أن ألمانيا اضطرت إزاء حزم فرنسا وما أبدته من الاستعدادات البحرية العظيمة في المياه الإسبانية وما همت به من اتخاذ الإجراءات العسكرية السريعة في مراكش وعلى حدود أسبانيا الشمالية أن تتراجع في مشروعها وأن تؤكد أنها لا ترمي إلى أية غاية استعمارية في مراكش الإسبانية أو في أسبانيا ذاتها

والآن ما هي الاحتمالات التي يمكن أن تسفر عنها حركة ألمانيا في سبيل المستعمرات؟ إن ألمانيا تتقدم بمطالبها إلى جميع الدول التي استولت على أملاكها السابقة في أفريقية وفيما وراء البحار، وهي إنكلترا وفرنسا وبلجيكا واليابان؛ وهي تتقدم إلى إنكلترا بصفة خاصة

لأنها وضعت يدها على اكبر قسم من هذه التركة، ولأن موقفها من المسألة قد يغدو مفتاح الموقف كله؛ وقد كانت السياسة البريطانية تتوقع هذه الخطوة من ألمانيا منذ أشهر، ولهذا فقد بحثت المسالة، وانتهت فيها على ما يلوح إلى خطة معينة لم تتضح قواعدها بعد. بيد أنا نستطيع أن نتبين موقف السياسة البريطانية من بعض التصريحات الرسمية والتعليقات غير الرسمية؛ وقد أدلى السير صمويل هور وزير الخارجية

البريطانية السابق، منذ اكثر من عام خلال مناقشات عصبة الأمم في المسألة الحبشية بأول رأي واضح لإنكلترا في المسألة الاستعمارية وهو أن إنكلترا مستعدة لأن تنظر في مسألة تنظيم توزيع المواد الأولية تنظيما يكفل توزيعها بصورة أكثر عدالة ورضاء للدول المحرومة منها؛ أما عن التخلي عن المستعمرات ذاتها أو إعادة شيء منها إلى ألمانيا، فقد صرح مستر ايدن وزير الخارجية الحالي، وكذلك مستر بلدوين رئيس الوزارة اكثر من مرة في مجلس العموم، بأن إنكلترا لا تنوي التخلي عن أية مستعمرة أو منطقة يظللها العلم البريطاني؛ بيد أنه يلوح لنا أن السياسة البريطانية قد تقدمت أخيراً خطوة أخرى في سبيل بحث المسألة الاستعمارية، وهو أنها مع عدم استعدادها لبحثها من الوجهة الشخصية، فإنها على استعداد لبحثها من الوجهة الدولية العامة، أعني من حيث ارتباطها بالسلام الأوربي، ووضع تسوية عامة للمسائل الدولية والأوربية يستقر معها السلم بصورة نهائية؛ ومن هذه مسألة تحديد السلاح، وتأمين الحدود المختلفة، وحل المشكلة الأسبانية وغيرها؛ وهذا ما تأباه ألمانيا، لأنها لا تقبل المساومة في أي مسالة تتعلق بسيادتها وحرياتها في العمل، وتصر على أن تنظر المسألة الاستعمارية في ذاتها؛ وهي تجد في إنكلترا ذاتها بعض المؤيدين لنظريتها، فقد رأينا مستر جارفن الكاتب السياسي الكبير ينصح بإعادة مستعمرات ألمانيا إليها، ويقول أن مسألة المستعمرات لا تستحق أن تكون مثارا للحرب بين الدول العظمى

ولا ريب أن المسالة لا يمكن أن تحل بمثل هذه السهولة؛ فإنكلترا لا تقبل مطلقا أن ترد لألمانيا مثلا شرق أفريقية الألماني وبذا تعيدها خصما منافسا لها في شرق أفريقيا إلى جانب إيطاليا الفاشستية، أو تعيد إليها غرب أفريقيا الألماني فتهدد بذلك سلامة إمبراطوريتها في جنوب أفريقيا وفي أواسطها، أو مستعمرة غانه الجديدة فتهدد مواصلاتها مع استراليا؛ وقد كانت هذه أهم مستعمرات ألمانيا السابقة. وليست فرنسا اقل تمسكا من

إنكلترا بما وضعت يدها عليه من تراث ألمانيا السابق في الكمرون وفي توجلاند؛ والنظرية الفرنسية في مسألة المستعمرات معروفة، خلاصتها أن فرنسا لا تقبل مطلقا أن تعيد إلى ألمانيا أية مستعمرة أو أراض تستغلها ألمانيا في سبيل تدعيم قواتها ومشاريعها العسكرية، ولا تنظر في مسألة المستعمرات إلا إذا ارتبط البحث فيها بمسألة السلامة العامة، وأسفر عن ضمانات جديدة مؤكدة تقدمها ألمانيا في هذا السبيل

والخلاصة أن مسالة المستعمرات هي مسألة اليوم، وهي طور جديد من أطوار الصراع التي تثيره ألمانيا الهتلرية في سبيل استرداد مكانتها القديمة كاملة شاملة وفي سبيل تدعيم مشاريعها الاقتصادية والعسكرية؛ وقد يؤدي البحث فيها إلى بحث الموقف الأوربي كله، ويؤدي إلى تسوية دولية عامة؛ وقد يقف البحث فيها عند الخطوات التمهيدية إذا أصرت ألمانيا على وجهات نظرها المعروفة من رفض البحث في مسالة تحديد التسليح، والإصرار على وجوب إبعاد روسيا عن حظيرة الدول الأوربية، وعندئذ تتعقد المشكلة الأوربية، ويصعب التكهن بما قد يفضي إليه هذا التعقيد من التطورات

ويجدر بنا أن نشير أخيراً إلى أن هذه الشهوة المضطرمة التي تحدو الدول الفاشستية، وتحدو ألمانيا إلى السعي لامتلاك المستعمرات لا ترجع إلى بواعث اقتصادية واجتماعية حسبما تصورها لنا السياسة الفاشستية، فإن الإحصاءات تدل على أن المستعمرات تغدو في أحيان كثيرة، عبئاً اقتصاديا، وقد لا يهاجر إليها من البيض سوى آلاف قليلة لا تؤثر في تخفيف مشكلة السكان في البلد الأصلي، واكثر ما ترجع هذه الشهوة إلى بواعث سياسية وعسكرية فوق ما ترجع إليه من الأطماع المادية واقتصادية؛ وهي نفس البواعث التي تحمل الدول الأخرى على الاحتفاظ بتراثها الاستعماري الشاسع، وهي في الواقع معركة الغنائم والأسلاب الخالدة؛ فإذا كانت ألمانيا قد فقدت مستعمراتها في حرب كبرى هزمت فيها وسحقت، فمن الصعب أن تتوقع عودة هذه المستعمرات إليها غنيمة باردة، وعليها إما أن تبذل الثمن المناسب، وإما أن تخوض حرباً تحرز فيها النصر، وعندئذ تستطيع أن تملي شروطها، كما أملى عليها الظافرون شروطهم بالأمس، وهذا ما نستبعد وقوعه في الظروف الحاضرة

(* * *)

2 - صعاليك الصحافة. . .
للأستاذ مصطفي صادق الرافعي

وغاب شيخنا أبو عثمان عند رئيس التحرير بعض ساعة ثم رجع تدور عيناه في جِحَاظَيْهما وقد اكفهر وجهه وعبس كأنما يجري فيه الدم الأسود لا الأحمر، وهو يكاد ينشق من الغيظ وبعضه يغلي في بعضه كالماء على النار. فما جلس حتى جاءت ذبابتان فوقعتا على كنفي أنفه تتمان كآبة وجهه المشوه، فكان منظرهما من عينيه السوداوين الجاحظتين منظر ذبابتين ولدتا من ذبابتين. . .

وتركهما الرجل لشأنهما وسكت عنهما. فقلت له: يا أبا عثمان هاتان ذبابتان ويقال إن الذباب يحمل العدوَى

فضحك ضحكة المغيظ وقال: إن الذباب هنا يخرج من المطبعة لا من الطبيعة. . .

فأكثر القول في هذه الجرائد حشرات من الألفاظ: منها ما يستقذر، وما تنقلب له النفس، وما فيه العدوى، وما فيه الضرر؛ وما بد أن يعتاد الكاتب الصحافي من الصبر على بعض القول مثلما يعتاد الفقير من الصبر على بعض الحشرات في ثيابه. وقد يريده صاحب الجريدة أو رئيس التحرير على أن يكتب كلاماً لو أعفاه منه وأراده على أن يجمع القمل والبراغيث من أهدام الفقراء والصعاليك بقدر ما يملأ مقالة. . . كان أخف عليه وأهون، وكان ذلك أصرح في معنى الطلب والتكليف.

وكيفما دار الأمر فإن كثيراً من كلام الصحف لو مسخه الله شيئاً غير الحروف المطبعية، لطار كله ذباباً على وجوه القراء.

قلت: ولكنك يا أبا عثمان ذهبت مُتَطَلِّقاً إلى رئيس التحرير ورجعت متعقداً فما الذي أنكرت منه؟

قال: (لو كان الأمر على ما يشتهيه الغرير والجاهل بعواقب الأمور لبطل النظر وما يشحذ إليه وما يدعو إليه، ولتعطلت الأرواح من معانيها والعقول من ثمارها، ولعدمت الأشياء حظوظها وحقوقها). هناك رجل من هؤلاء المعنيين بالسياسة كما هي السياسة في هذا البلد. . . يريد أن يخلق في الحوادث غير معانيها، ويربط بعضها إلى بعض بأسباب غير أسبابها، ويخرج منها نتائج غير نتائجها، ويلفق لها من المنطق رقعاً كهذه الرقع في الثوب

المفتوق. ثم لا يرضى إلا أن تكون بذلك رداً على جماعة خصومه وهي رد عليه وعلى جماعته، ولا يرضى مع الرد إلا أن يكون كالأعاصير تدفع مثل تيار البحر في المستنقع الراكد

ثم لم يجد لها رئيس التحرير غير عمك أبي عثمان في لطافة حسه وقوة طبعه وحسن بيانه واقتداره على المعنى وضده، كأن أبا عثمان ليس عنده ممن يحاسبون أنفسهم ولا من المميزين في الرأي، ولا من المستدلين بالدليل، ولا من الناظرين بالحجة. وكأن أبا عثمان هذا رجل حرُوفي. . . كحروف المطبعة ترفع من طبقة وتوضع في طبقة وتكون على ما شئت، وأدنى حالاتها أن تمد إليها اليد فإذا هي في يدك

وأنا أمرؤ سيد في نفسي وأنا رجل صدق ولست كهؤلاء الذين لا يتأثمون ولا يتذممون؛ فإن خضت في مثل هذا انتقض طبعي وضعفت استطاعتي وتبين النقص فيما أكتب، ونزلت في الجهتين فلا يطرد لي القول على ما يرجو ولا يستوي على ما أحب. فذهبت أناقضه وارد عليه؛ فبهت ينظر إلي ويقلب عينيه في وجهي كأن الكاتب عنده خادم رأيه كخادم مطبخه وطعامه هذا من هذا

ثم قال لي: يا أبا عثمان إني لأستحي أن أعنفك. وبهذا القول لم يستح أن يعنف أبا عثمان. . . ولهممت والله أن أنشده قول عباس بن مرداس:

. . . أكُلَيب. . . مالك كلَّ يوم ظالما ... والظلمُ أتكدُ وجهه ملعون

لولا أن ذكرت قول الآخر:

وما بين من لم يُعطِ سمعاً وطاعةً ... وبين تَميمٍ غيرُ حَزِّ الغلاصمِ

حزُ الغلاصم (وقطعُ الدراهم) من قافية واحدة. . . وقال سعيد بن أبي عروبة: (لأن يكون لي نصف وجه ونصف لسان على ما فيهما من قبح المنظر وعجز المخبر - أحب إلي من أن أكون ذا وجهين وذا لسانين وذا قولين مختلفين). وقال أيوب السختياني. . .

وهم شيخنا أن يمر في الحفظ والرواية على طريقته فقلت: وقال رئيس التحرير. . .؟

فضحك وقال: أما رئيس التحرير فيقول: إن الخلابة والمواربة وتقليب المنطق هي كل البلاغة في الصحافة الحديثة، ولهي كقلب الأعيان في معجزات الأنبياء صلوات الله عليهم فكما انقلبت العصا حيةً تسعى، وهي عصا وهي من الخشب، فكذلك تنقلب الحادثة في
معجزات الصحافة إذ تعاطاها الكاتب البليغ بالفطنة العجيبة والمنطق الملون والمعرفة بأساليب السياسية، فتكون للتهويل وهي في ذاتها اطمئنان، وللتهمة وهي في نفسها براءة، وللجناية وهي في معناها سلامة. ولو نفخ الصحافي الحاذق في قبضة من التراب لاستطارت منها النار وارتفع لهبها الأحمر في دخانها الأسود. قال: وإن هذا المنطق الملون في السياسة إنما هو إتقان الحيلة على أن يصدق الناس، فأن العامة وأشباه العامة لا يصدقون الصدق لنفسه ولكن للغرض الذي يساق له، إذ كان مدار الأمر فيهم على الإيمان والتقديس، فأذقهم حلاوة الإيمان بالكذب فلن يعرفوه إلا صدقاً وفوق الصدق، وهم من ذات أنفسهم يقيمون البراهين العجيبة ويساعدون بها من يكذب عليهم متى أحكم الكذب، ليحققوا لأنفسهم أنهم بحثوا ونظروا ودققوا . . .
ثم قال أبو عثمان: ومعنى هذا كله إن بعض دور الصحافة لو كتبت عبارة صريحة للإعلان لكانت العبارة هكذا: سياسة للبيع . . .
قلت: يا شيخنا فإنك هنا عندهم لتكتب كما يكتبون، ومقالات السياسة الكاذبة كرسائل الحب الكاذب تقرأ فيها معان لا تكتب، ويكون في عبارتها حياء وفي ضمنها طلب ما يُستَحى منه. . . والحوادث عندهم على حسب الأوقات، فالأبيض اسود في الليل والأسود ابيض في النهار، ألم تر إلى فلان كيف يصنع وكيف لا يعجزه برهان وكيف يخرج المعاني؟
قال: بلا نعم الشاهد هو وأمثاله. إنهم مصدقون حتى في تاريخ حفر زمزم
قلت: وكيف ذلك؟
قال: شهد رجل عند بعض القضاة على رجل آخر، فأراد هذا أن يجرح شهادته، فقال للقاضي: أتقبل منه وهو رجل يملك عشرين ألف دينار ولم يحج إلى بيت الله؟ فقال الشاهد: بلا قد حججت. قال الخصم: فأسأله أيها القاضي عن زمزم كيف هي؟ قال الشاهد: لقد حججت قبل أن تحفر زمزم فلم أرها . . .
قال أبو عثمان: فهذه هي طريقة بعضهم فيما يزكي به نفسه؛ ينزلون إلى مثل هذا المعنى وإن ارتفعوا عن مثل هذا التعبير؛ إذ كانت الحياة السياسية جدلاً في الصحف لنفي المنفي وإثبات المثبت، لا عملا يعملونه بالنفي والإثبات. ومتى استقلت هذه الأمة وجب تغيير هذه الصحافة وإكراهها على الصدق فلا يكون الشأن حينئذ في إطلاق الكلمة الصحافية إلا من
معناها الواقع.
والحياة المستقلة ذات قواعد وقوانين دقيقة لا يترخص فيها مادام أساسها إيجاد القوة وحياطة القوة وأعمال القوة، ومادامت طبيعتها قائمة على جعل أخلاق الشعب حاكمة لا محكومة. وقد كان العمل السياسي إلى الآن هو إيجاد الضعف وحياطة الضعف وبقاء الضعف؛ فكانت قواعدنا في الحياة مغلوطة، ومن ثم كان الخلق القوي الصحيح هو الشاذ النادر يظهر في الرجل بعد الرجل والفترة بعد الفترة؛ وذلك هو السبب في أن عندنا من الكلام المنافق أكثر من الحر، ومن الكاذب أكثر من الصادق، ومن المماري أكثر من الصريح؛ فلا جرم ارتفعت الألقاب فوق حقائقها وصارت نعوت المناصب وكلمات باشا وبك من الكلام المقدس صحافياً . . .
يا لعباد الله! يأتيهم اسم الأديب العظيم فلا يجدون له موضعاً في (محليات الجريدة)؛ ويأتيهم أسم الباشا أو البك أو صاحب المنصب الكبير فبماذا تتشرف (المحليات) إلا به؟ وهذا طبيعي، ولكن في طبيعة النفاق، وهذا واجب ولكن حين يكون الخضوع هو الواجب. ولو أن للأديب وزناً في ميزان الأمة لكان له مثل ذلك في ميزان الصحافة، فأنت ترى أن الصحافة هنا هي صورة من عامية الشعب ليس غير. . . ومن ذا الذي يصحح معنى الشرف العامل لهذه الأمة وتاريخها - وأكثر الألقاب هي أغلاط في معنى الشرف. . .؟
ثم ضحك أبو عثمان وقال: زعموا أن ذبابة وقعت في بارجة (أميرال) إنجليزي أيام الحرب العظمى؛ فرأت القائد العظيم وقد نشر بين يديه درجاً من الورق وهو يخطط

فيما رسما من رسوم الحرب. ونظرت فإذا هو يلقي النقطة بعد النقطة من المداد ويقول: هذه مدينة كذا، وهذا حصن كذا، وهذا ميدان كذا. قالوا فسخرت منه الذبابة وقالت: ما ايسر هذا العمل وما أخف وما أهون! ثم وقعت على صفحة بيضاء وجعلت تلقي وَنِيمَها هنا وهناك وتقول: هذه مدينة، وهذا حصن. . .
والتفت الجاحظ كأنما توهم الجرس يدق. . . فلما لم يسمع شيئاً قال:
لو أنني أصدرت صحيفة يومية لسميتها (الأكاذيب)، فمهما أكذب على الناس فقد صدقت في الاسم، ومهما أخطئ فلن أخطئ في وضع النفاق تحت عنوانه
قال: ثم أخط تحت أسم الجريدة ثلاثة أسطر بالخط الثلث هذا نصها:
ما هي عزة الأذلاء؟ هي الكذب الهازل
ما هي قوة الضعفاء؟ هي الكذب المكابر
ما هي فضيلة الكذابين؟ هي استمرار الكذب
قال: ثم لا يحرر في جريدتي إلا (صعاليك الصحافة) من أمثال الجاحظ. ثم أكذب على أهل المال فأمجد الفقراء العاملين، وعلى رجال الشرف فأعظم العمال المساكين، وعلى أصحاب الألقاب فأقدم الأدباء والمؤلفين. و. . .
ودق الجرس يدعو أبا عثمان إلى رئيس التحرير. . .
لها بقية
(طنطا)
مصطفى صادق الرافعي
حديث الأزهار
للكاتب الفرنسي الفونس كار
ترجمة الأستاذ فليكس فارس
(2)
زهرة السلوان
حذار من زهرة السلوان! إنها زهرة يصيبك بهاؤها ويقتلك عبيرها. إنها لزهرة تتشح الجمال وتتكلف الابتسام، تحدجك بلفتات ساحرة وتستهويك وتقول لك: - تعال إلي، ففيَّ الإخلاص وفيَّ العزاء.
رأيت رجلاً اقتطف زهرة السلوان من حقول الحياة بعد أن عرفته هائماً تتقد في قلبه النار التي لا تنير دون أن تحرق، فأصبح خليَّ البال يحدق فيمن كان يهواها فلا يفرح ولا يحزن، لا يلذه شيء ولا يتألم لشيء
ولكن السلوان لا يدخل وحده إلى القلب، بل يجر معه رفيقه الملازم له: يجر معه الضجر والملال. ومن اقتطف زهرة السلوان يسير حزيناً مطرقاً بالأرض لأنه لن يحب بعد. . .
من سطا السلوان عليه فهو طريد لا قرار له
من ينس مرة فلن يحب أبداً
أرى الخليَّ يقطع السهول ويتسلق الروابي فيقف متضجراً ينصت إلى تغريد الأطيار ويسرح الطرف في أزهار الخمائل وجداول المروج متسائلاً أمام الطبيعة العاشقة عما أفقده عشقه، فتجيبه الطبيعة: لأنك قطفت زهرة السلوان
ويبكي هذا الطريد زماناً كان يبكي فيه إذ كان شقياً، ولكن قلبه لم يكن ساكناً لا حرارة فيه ولا خفوق
إن من الأمراض ما يفوق ألم شفاؤها آلام استفحالها
دلني على منابت زهرة السلوان لأجتنبها، قل لي أين تنور لأحول طريقي عنها
هي زهرة صفتها أسم لها؛ تنبت في الأماكن الموحشة المقفرة وقد تنمو في المدن بين الحركة والضجيج، غير أن جرثومتها عالقة في عالم الخيال في أسرار حياة الموت وموت
الحياة
هي زهرة الضجر والملال والعذاب، زهرة السلوان
في الأدب المقارن
الرحلة
في الأدبين العربي والإنكليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

كان الإنسان رحالة قبل أن يكون ذا وطن: كان يهجر جماعات جماعات بقاع الأرض الشحيحة ويقصد أصقاعها الخصيبة ووديانها الكريمة، طلباً للقوت والتماساً للغنم؛ فلما استقر في الأوطان والمساكن لم يستغن في حياته عن الرحلة، بل ظل يحفزه إليها ابتغاء الرزق تارة، وحب الاستطلاع والمتعة أخرى، وشهوة الغلب والفتح طوراً، ونشدان العلم آنة، وأداء مناسك دينه حيناً، والفرار من الظلم أو الذل أحياناً؛ وامتازت عصور نهضاته خاصة باشتداد حبه للرحلة: فإذا ما مشت نسمة الحياة بين الأمة، وتنبهت فيها ثقتها بنفسها، وامتلأت روحها بحب العمل والإقبال على أسبابه، تطلعت دولتها إلى الخارج تبسط سلطانها عليه، وراح أفرادها في أثر جنودها يبتغون الرزق ويتوسمون وجوه المعرفة، ويهجمون على ظواهر الكون وخفاياه

تلك النهضة الروحية التي تهب ريحها بين الأمة، وتدفع أبناءها إلى الارتحال وطلب المغامرة والمجد والعلم، وابتغاء الجديد والطريف، تصحبها عادة نهضة أدبية تعبر عن هذا الروح الوثاب، وتنعكس فيها آثار تلك الرحلات وما تبهر به الأذهان من روعة الكون وعظمته ورحب أقطاره، وما تحدث في العقائد الدينية والعلمية من ثورة، وما توسع به آفاق التفكير من حقائق جديدة وما تدخل في الأدب من عناصر أجنبية تخالط عناصره المحلية، من قصص وأوصاف وألفاظ؛ فيفيد الأدب بذلك كله فائدة كبرى، وينبغ فيه من أعلام النظم والنثر أنداد من ينبغون من أفذاذ المغامرة والقتال والرحلة

عرف قدماء المصريين هذه النهضة المصحوبة بحب المغامرة والاستطلاع على عهد إمبراطوريتهم في آسيا، فامتلأ أدبهم إذ ذاك بقصص الهجرة والمخاطرة والتجوال؛ وإلى أدب ذلك العهد ترجع القصة التي مازالت تتشكل على توالي الأجيال، حتى انتهت إلينا في شكل حكاية علي بابا واللصوص الأربعين. ومشت بين الإغريق روح المغامرة تلك أبان

نهضتهم قبيل الحروب الفارسية وبعدها، فكان كثير من أفذاذهم وعلماءهم أمثال لكرغ وصولون وهيرودوت وطاليس وأفلاطون رحالين جابوا مهود الحضارة الشرقية، وأخذوا عن المصريين والبابليين علومهم، وكتبوا مشاهداتهم في رحلاتهم، واصفين جغرافية تلك البلاد وتاريخها، وهبت ريح المغامرة شديدة على الممالك الأوربية في عهد إحياء العلوم، فدفعتهم إلى ارتياد العالم المعروف واكتشاف العالم المجهول، وبسط حضارتهم وثقافتهم في أطراف العالمين القديم والجديد. وكان من رادة هذه النهضة مركوبولو وداجاما وكولمبس

وقد كان أكثر العرب في جاهليتهم رحالين لا ينزلون أرضاً إلا ريثما يتحولون عنها، يطلبون الكلأ أو يبتغون القتال أو ينقلون التجارة؛ ومن ثم شغفوا حباً بإبلهم وجيادهم، وترنموا بوصفها، وكثرت في لغتهم أسماؤها وأسماء سيرها، وقدموا الحديث عنها بين يدي قصيدهم، وأدمنوا ذكر ارتحال أحبتهم، وتمدحوا بطول التنقل وإنضاء الرواحل وإباء المقام بأرض الذل. وكان بعض سادتهم يسفرون إلى ملوك الروم والفرس؛ وإلى تلك الرحلات المختلفة الأغراض يرجع الفضل في انتشار بعض أسباب الحضارة والرقي الفكري والكتابة الخطية بين العرب قبيل الإسلام. ولا ريب إن الرحلات التي قام بها الرسول الكريم كانت من أهم عوامل تكوينه الروحي والعقلي، حتى تهيأ له أن يضطلع برسالته العلوية؛ فالرحلة عادة من أهم العناصر المكونة لشخصية العظيم؛ كما أن الرحلات التي قام بها في الجاهلية أفذاذ القواد أمثال عمرو بن العاص إلى الممالك المجاورة كانت عظيمة النفع للجيوش العربية حين توجهت لغزو إمبراطوريتي الفرس والروم. ومن تمدح العرب بالرحلة عن موطن الهوان قول الشنفري:

ولولا اجتناب الذام لم يلف مشرب ... يعاش به ألا لدي ومأكل
ولكن نفساً حرة لا تقيم بي ... على الذل ألا ريثما أتحول

وقول الشاعر الإسلامي أوس بن معن:

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى ... وفيها لمن خاف القلى متعزل

ونهض العرب نهضتهم الحربية العظيمة فرأوا من أقطار الأرض وصنوف الخلق ما لم يكن يخطر لهم ببال وكان لذلك كل الأثر في أذهانهم وآدابهم، والتقت تحت رايتهم شتى الحضارات والأجناس، وشدت الرحال من أقصى إمبراطوريتهم إلى أقصاها: وهدأت

ضجة الحرب فمشى التجار حيث مشى الجنود من قبل، وسار العلماء والأدباء في شرقي الأرض ومغربها يطلبون العلم والأدب، ويلتمسون الرزق والحظوة، وأظهر العرب من حب الرحلة لشتى الأغراض ما لا تبذهم فيه أمة أخرى: هاجروا جماعات فأنشئوا الأساطيل يفتحون بها سواحل البحر وجزره، وأفراداً فبثوا الدعوات وأنشئوا الدول، وسافروا تجار فنشروا الإسلام وحضارته في الأطراف والمجاهل التي لم تبلغها سنابك خيول الفاتحين، وتجشم علماؤهم متاعب الأسفار طلباً لتحقيق العلم والمشاهدة والتثبت من صحة الأحاديث الشريفة. وحرص الكثيرون على حج بيت الله الحرام مهما بعد، وزيارة عاصمة الإسلام حيث كانت

وظهر من أعلام الرحالين الذين طافوا أنحاء الإمبراطورية الإسلامية وجاوزوها إلى الأقطار الأجنبية شغفاً منهم بحب الاستطلاع والتجوال، أو ولوعا بعلم تقويم البلدان وطلباً لغرائبه، أمثال المسعودي وابن جبير وابن بطوطة، طوف أولئك الرحالون تدفعهم الروح التي كانت تدفع هيرودوت وديودور قديماً، والتي حثت ماجلان وكوك وأضرابهما فيما بعد، وما تزال تدفع العلماء إلى قرع أبواب العلم المغلقة، وطرق سبله المجهولة، ودون أولئك الرحالون المسلمون مشاهداتهم، فنالت كتبهم الذكر والأهتمام، ودرست لا في البلاد العربية وحدها، بل في أوربا حيث ظلت زماناً من أكبر مراجع التاريخ والجغرافيا؛ ولم تكن رحلات كولمبس غرباً وداجاما شرقاً في الحق إلا إتماماً لما بدأه العرب وحذقوه من التجوال في البحار وارتياد الأقطار. وقد انتفع كلا ذينك الكاشفين وغيرهما بآثار العرب في الرحلة والجغرافية، واستفادوا بخبرة الملاحين المسلمين

كان لكل هاتيك الكتب والرحلات والأخبار أثاراها في الأذهان والآداب؛ غير أنه لما كان الأدب العربي قد نفى من حضيرته القصة وازدرى الخرافة، وزهد في كثير من منادح القول، فقد أهمل الكثير من ثمار تلك الأسفار وطرائف تلك الأخبار التي تحوي أنفس المواد لخيال الأديب وفنه، فلم تبد آثار الرحلات والمخاطرات في الأدب العربي الفصيح إلا ضئيلة متفرقة: ففي المقامات شيء منها، إذ تدور المقامة حول أفاق يذرع الأرض ويهبط كل يوم بين قوم؛ وإنما استأثر بالتحدث عن الرحلة والمخاطرة والبلاد البعيدة الأدب العامي: تجمعت أقاصيص الأمم القديمة، وأضيفت إليها أخبار الرحلات الجديدة، وذاع كل

ذلك في العامة، ودون بعضه في قصص ألف ليلة وأشباها، وظل بعضه غير مدون يتداول شفاها

ولم يكن الأدباء أنفسهم أقل من العلماء والتجار حباً للتجوال وجوباً للأقطار، بل كانت الرحلة عندهم جزءاً من منهاج الدرس والتأدب لا غنى عنه. فكانوا يشدون الرحال إلى العواصم، ويشخصون إلى العلماء والأدباء المتقدمين ويقصدون دور الكتب التي أولع بإنشائها الأمراء. فإذا ما قضوا من ذلك وطراً التفتوا إلى طلب الحظوة والنوال، فنصوا المطايا إلى أبواب الملوك والخلفاء. فإذا تمت لهم الحظوة وأضواهم الملك تحت ظله صحبوه في قليل أو كثير من رحلاته وغزواته، كما صحب عباس بن الأحنف الرشيد وابن هانئ الأندلسي المعز. فحظ أدباء العربية عامة من الرحلة لم يكن بالضئيل حتى أبو العلاء الكفيف لم يقعده عماه عن ركوب مشاق الأسفار والشخوص إلى العواصم وقد ضرب كبير شعراء العربية المتنبي في الرحلة بسهم وافر: قضى شطراً من شبابه في البادية، وجاب أطراف العالم العربي، وقصد الأمراء ما بين فارس ومصر، وصحب سيف الدولة في حروبه، ومات وهو على سفر، وامتلأ شعره بذكر الرحلة والشغف بها والتمدح بتعوده إياها، ووصف الخيل والإبل وذكر الليل والفلاة وتفضيل النياق على الغواني. وقد كان يحب الرحلة حباً أصيلا لا تكلف فيه ولا ادعاء للبأس والفروسية: كان دوام التأهب والنقلة يشفي من نفسه الطامحة إلى جلائل الأعمال صداها، ويستوعب نشاط جسمه المتحفز للنضال وحمل الأعباء. لم تتهيأ له الفرصة لمجالدة الأبطال وتضريب أعناق الملوك فاعتاض عن ذلك مجالدة قوارع الطبيعة ومجابهة شدائدها.

ومن رصين أشعاره في ذلك قوله:

ذراني والفلاة بلا دليل ... ووجهي والهجير بلا لثام

فإني استريح بذا وهذا ... واضوي بالاناخة والمقام

وقوله:

غني عن الأوطان لا يستفزني ... إلى بلد سافرت عنه إياب
فحب الرحلة كان أمراً شائعا في الدولة العربية، يدعو إليه توطيد الملك وبسط السلطان وابتغاء الرزق، ونقل التجارة ونشدان العلم والأدب وتأدية مشاعر الدين. وقد أدلى الأدباء
في ذلك بدلوهم، وقل منهم من لم يرحل عن وطنه ولم يتغرب في بعض الأغراض؛ واثر ذلك ملحوظ في الأدب، غير أنه ضئيل محصور في مواطن قليلة: كوصف الرحلة إلى بلد الأمير الممدوح يقدم في صدر المدحة، وكالحث على الارتحال في طلب العلم والرزق والمنفعة وصحبة الماجدين في أشعار مشهورة سار كثير منها أمثالاً: يشبه فيها المرء في وطنه بالأسد في غابة لا يصيد، والماء في مستقره يأسن، والعود في أرضه لا ينفق ولا يزكو، والشمس في دارة الحمل لا يغني عنها شرف المحل؛ ومن جيد ما قيل في ذلك قول أبي تمام:

ولكنني لم أحو وفرا مجمعا ... ففزت به إلا بوفر مبدد
ولم تعطني الأيام نوما مسكنا ... ألذ به إلا بنوم مشرد
وطول مقام المرء في الحي مخلق ... لديباجتيه فاغترب تتجدد
فإني رأيت الشمس زيدت محبة ... إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد

وكثير مما قيل في الرحلة في هذا الباب متشابه لا يمتاز بعضه من بعض إلا في قوة الأسلوب أو ضعفه، وكثرة ما به من محسنات أو قلته، وكثير منها يتفق في تداول نفس المعاني والاستعارات، جرياً على عادة المحافظة على تقاليد المتقدمين الأدبية، التي أتبعها الأدباء في كثير من فنون القول. أما الوصف المسهب لروائع المشاهدات التي تمتع بها الأديب في سفراته، وأثرها في ذهنه وقلبه، وتحويلها لنظرته إلى الحياة والكون، وما أثارته فيه من تأمل طويل، وما نازعه من حنين عميق إلى أوطانه، وما استرعى نظره من محاسن الطبيعة، وراع نفسه من آثار الأقدمين وبدائع فنون الإنسان؛ أما الوصف المسهب المفصل لكل ذلك، وتصوير أثر الرحلة في تكوين شخصية الأديب - فهي من أم عناصر ذلك التكوين - فقلما يبدو في الأدب العربي، فهذا باب آخر من أبواب الأدب الصميمة تغاضى عنه الأدب العربي، وتركه بين أيدي كتاب التاريخ وتقويم البلدان، وتخلى للأدب العامي
فالرحلة عن الموطن في نظر الأديب المثقف ليست فقط وسيلة لابتغاء الرزق أو اصطحاب الماجد أو قصد الملوك، ولا هي وسيلة لطلب العلم والأدب المدون والمحفوظ فحسب. بل هي قبل هذا وذاك وسيلة للمشاهدة واكتشاف الجديد والاطلاع على المجهول والوصول إلى
البعيد. فطول مقام المرء في الحي لا يبغضه إلى معارفه ولا يحرمه من الوفر المجمع فقط، بل هو يضيق أفق ذهنه ويخمد قوى نفسه ويكفكف وثبات مطامحه؛ والرحلة تثير عزيمته وتزيد نشاطه وقدرته على التفكير والإنتاج، وتطلعه على أحوال الأمم الأخرى التي تزيده بصراً بأحوال أمته ومجتمعه ونفسه، وتشهده بدائع الطبيعة التي تتجدد حلاها في كل خطوة، وتتبدل محاسنها من بقعة إلى بقعة، وتبدي من أسرار جمالها صورة في أثر صورة، وفي ذلك من متعة النفس وغذاء الخيال والفن ما فيه. كما أن الوحدة التي هي نصيب الغريب في كثير من أوقاته تعوده الوقوف عن العالم المضطرب بنجوة، وإدمان الفكرة فيما يشاهد من أمور بنيه، وبالكثير من هذا يعج الأدب الإنجليزي
كان الإنجليز كما كان العرب في أول أمرهم رحالة دائبي التجوال والهجرة والمقاتلة، بيد أنهم كانوا منصرفين إلى البحر مزاولين للملاحة، فلما استوطنوا الجزيرة جنحوا إلى حياة الاستقرار رويدا رويدا، وإن لم ينفكوا عن حبهم للبحر وركوب أثباجه، وساهموا في النهضة الأوربية فأولعوا بالرحلة والمغامرة والكشف في عهد اليزابيث وما يليه، ونبغ من رحاليهم ومغامريهم أمثال رالي ودريك من رفعوا مكانة إنجلترا في البحر وما وراءه، وتلاهم التجار ورجال الأعمال والمهاجرون اتباع المذاهب الدينية المضطهدة، وانتشر الشعب الإنجليزي شرقا وغربا، وانتشر العلماء والأدباء في اثر ذلك يكثرون معارفهم ويستقصون مباحثهم، وصار من تقاليد خريجي الجامعات أن يطوفوا في بعض أنحاء القارة الأوربية عقب إتمام دراستهم، ليعرفوا أحوال الأمم ويزوروا خاصة إيطاليا واليونان مهدي الحضارة القديمة، وفرنسا التي ظلت زعيمة

الثقافة والمدنية في أوربا مدى حين
وكان لأكثر أدباء الإنجليزية ولع بالرحلة لا ينقضي، وشغف بالبعيد لا يهدأ، وغرام بالاستطلاع لا يحد، واشتغال بمظاهر الطبيعة المتجددة ومحاسنها المتعددة، وتطلع إلى أحوال الأمم قاصيها ودانيها حاضرها وماضيها، ومن ثم أولعوا بالرحلة يقضون بها مآرب أرواحهم: فطوفوا في أنحاء جزيرتهم ولاسيما منطقة البحيرات ومرتفعات اسكتلندا وجزرها، وشخصوا إلى أصقاع أوربا المشهورة كباريس وإسبانيا ورومة والبندقية وأثينا، وجول بعضهم مثل كنجليك ولين بول في الشرق، وأودعوا أوصاف رحلاتهم تلك مذكراتهم أو رسائلهم إلى أصدقائهم في الوطن أو قصصهم أو قصيدهم ومن أدبائهم الذين طوفوا كثيراً ديفو الأفاق صاحب روبنسون كروزو. وجولد سمث الذي ضرب في أنحاء أوربا على قدميه وهو لا يملك شروى نقير، وكان يتكسب بالعزف على مزمار، وسبنسر الذي قضى ردحا طويلا في أرلندة، وبيرون الذي جول مراراً في أواسط أوربا وسواحل البحر الأبيض، وانتهى به المطاف إلى اليونان حيث استشهد في حرب الاستقلال، وشلي الذي قصد إلى إرلندة ليقودها إلى الحرية ويحقق فيها مجتمعه الفاضل، ثم آب إلى إنجلترا ومازال في ترداد بينها وبين أوربا إلى أواخر أيامه، تركت هذه الرحلات آثارها واضحة في الأدب، فمن سفراته اتخذ بيرون مادة لقصيده ولاسيما قصيدتيه الطويلتين: (تشايلد هارولد) و (دون جوان)، وفيهما يصف مشاهداته براً وبحراً وأثرها في ذهنه. وكتب شلي وكيتس وبروننج وهاردي الكثير عن آثار رومة وفنون إيطاليا عامة. وكان تنيسون في رحلاته يدون ملاحظاته لدقائق المناظر الطبيعية كي يعود إليها وقت النظم. وهيهات أن تتتبع آثار الرحلة ومظاهر الشغف بها في الأدب الإنجليزي، فهي مبثوثة في كل موضع منه
لم يقنع أدباء الإنجليزية بتدوين أوصاف رحلاتهم في آدابهم تدويناً مسهبا نابضا بالحياة، بل عمدوا - ولاسيما من قعد بهم الجد عن القيام بالرحلات الطوال التي يحلمون بها - إلى تخيل الأقطار البعيدة والمشاهد الغريبة والأمم العجيبة والحوادث الجسيمة وأودعوا كل ذلك قصصهم وأشعارهم ليشفوا غليل نفوسهم الظامئة إلى الجدة والحركة والجمال الطبيعي، فتخيل شكسبير وقائع رواياته في شتى بقاع الأرض والبحر، وتخيل كولردج مشاهد (الملاح القديم) في جهة من المحيط نائية مملوءة بالأسرار والألغاز، وتصور ستيفنسون في قصصه الحوادث الجسيمة في أقاصي الجزر والبحور، وهي الحوادث والمناظر التي كان يقعده الداء الممض عن مباشرتها بنفسه ولجأ الأدباء إلى تاريخ ملاحيهم وجوابيهم يقصونه، وإلى الخرافة القديمة يستعينون بها على تصوير نزوعهم إلى الرحلة والمشاهدة في شتى الطور، كما استعانوا بتلك الخرافة في الكثير من فنون الأدب. ومن أبدع آثار ذلك قصيدة تنيسون المسماة يوليسيز باسم البطل اليوناني الذي تقص الأوديسا أخبار مغامراته، وقد أصبحت قصيدة تنيسون تلك عنوانا في الإنجليزية على حب الرحلة. تبدأ القصيدة ويوليسيز ملك في جزيرة إيثاكا، يتململ من
الإقامة، ويتذكر سالف مخاطراته ومشاهداته ووقائعه حول طروادة، ويحن إلى معاودة حياة التجوال في البر والبحر واكتساب المعارف بلا انقطاع، فيعول على ترك ابنه تليماك ملكا مكانه، ويهيب بصحبة الأقدمين الذين شيبتهم الأهوال في صحبته، أن يأخذوا مقاعدهم من السفينة، ويهووا بمجاديفها على الأمواج المصطفقة، فتنطلق بهم إلى حيث لا يعلمون، إما إلى الردى وإما إلى جزائر الفردوس حيث يلقون البطل أخيل. يصف تنيسون كل ذلك في أسلوبه الشعري الممتاز، وفي خيال معجب أخاذ، ويرصعه بوصف مطرب لمناظر الطبيعة جملا وفرادى، من سهول طروادة إلى أثباج اليم وهبوط حواشي الليل عليها، إلى تلألؤ النجوم على صخور الشواطئ البعيدة، وصعود القمر منها وئيداً.
ومن أجمل أشعار الحنين إلى الوطن ومناجاته قول جولد سميث في (القرية المهجورة): (قد كنت آمل دائماً - في جميع جولاتي في هذا العالم الرحب المملوء بالمتاعب وفي جميع أشجاني، وقد حباني الله نصيبي منها - أن أتوج ساعاتي الأخيرة بالقرار بين هذه المغاني البسيطة المتواضعة؛ وكنت آمل - إذا ما تقشعت همومي - أن أعود إلى الوطن، وفي الوطن أقضي نحبي، كما يعود الأرنب البري الذي تجد الكلاب والأبواق في أثره، إلى الجحر الذي أنطق منه أول مرة)

ومن أعذب الأشعار المترجمة عن حب الرحلة في الأدب الحديث مقطوعة الشاعر المعاصر جرالد جورلد: (الشمس طالعة في المشرق وفي المغرب البحر، وسيان أن كنت في الشرق أو في الغرب فهذا الظمأ إلى الرحلة لن يدعني أقر، بل يعصف بي كالجنون، ويحملني على توديع موطني، فالبحار تدعوني، والنجوم تدعوني، ويا شد ما تدعوني السماء! ولست أدري أين ينتهي الطريق الأبيض، أو اعلم ما تلك الجبال الزرقاء، ولكن كفى للمرء بالشمس زميلا، وبالنجم دليلا، ثم لا آخر للمطاف إذا ما هتف الصوت، إذ الأنهار تدعوني، والطريق يدعوني، ويا شد ما يدعوني الطائر! ذلك هو الأفق ممتدا، وهناك ليل نهار تعود السفن القديمة إلى أوطانها، وتنطلق السفن الصغار، وربما أعود أنا، ولكن لابد أن أذهب. فإن سألك سائل ما السبب، فالق اللوم على النجوم، والشمس، والطريق الأبيض والسماء!)

فحب الرحلة كان أمراً شائعاً في الأمتين، وقد نال أدباؤهما منها بنصيب، وظهر أثرها في أدبيهما؛ بيد أنها في الأدب الإنجليزي أظهر أثراً، وأدباء الإنجليز بها اشد شغفاً وأكثر تغنياً، ونظرتهم إليها أوسع أفقاً من نظرة أدباء العربية؛ فهؤلاء كانوا ينظرون إليها نظرتهم (الاجتماعية) إلى شتى الأمور، يرونها وسيلة من وسائل فهم المجتمع الذي يعيشون فيه ويطلبون الرزق في مضطربه، وذريعة من ذرائع استيعاب معارفه والتذرع باسبابه، على حين كانت نظرة أدباء الإنجليز إليها كنظرة الإغريق إنسانية شاملة، وفنية حرة خالصة من كل غرض خارجي: كان يريدون بها المعرفة المطلقة بشؤون الكون والإنسان، وإن لم تجدهم تلك المعرفة في معركة الحياة فتيلا، ويريدون ري غريزة الاستطلاع الكامنة في الإنسان والتي تظل متيقظة مادامت النفس مقبلة على الحياة، ويبغون إرضاء نشاط جسومهم وأرواحهم والتثبت من بقاء نشاطها وحيويتها، ويسعون لاستجلاء محاسن الطبيعة التي لا تفنى مجاليها ولا تحد آفاقها

فخري أبو سعود

من الأدب التركي

أبناء المجرم

القاضي الشاعر:

فؤاد بك خلوصي أحد رؤساء محكمة النقض والإبرام في الجمهورية التركية الآن وهو مولود في طرابلس الشام، رجل فذ من رجال القانون وشاعر من أرق الشعراء عاطفة وأروعهم بيانا. ولهذا القاضي الشاعر ديوان باللغة التركية وقفت فيه عند قصيدة ممتعة من خالد الشعر يصف فيها تنفيذ حكم الإعدام على مجرم يترك في الحياة أرملة وأطفالا، وقد كان الشاعر أحد قضاة المحكمة العسكرية التي حكمت بإعدام المجرم في ثورة البلقان، فاخترت تعريب هذه الأبيات لما فيها من حكمة وعواطف، ولعرضها مشكلة كبرى من مشاكل العدل الإنسانى تجاه سر الحياة

ف. ف

وكانت من شهر ديسمبر أواخر أيامه القارصة، وكان آخر الليل؛ سواد يربط على صقيع وديجور أربد ملفع بالجمود

في كل خطوة أوحال متحجرة بالجليد وزمهرير يسفع الوجوه فيلفحها كالسعير.

تجهم وجه السماء كجمرة تطفئ، وشرارها بقية كواكب الليل، حكمها الملال فأطبقت على أنوارها وتراجعت إلى الأفول

وساد الآفاق ارتعاش صامت، ونعق البوم مقلقلاً سكون الظلمة العميق

أمامك ووراءك حلك الظلام، وفوق رأسك سماء متألمة واجمة، فإلى أين مسيرك يا فؤاد، مضطرباً معقود اللسان؟ إلى أين تتجه في آخر هذا الليل، أيها الرجل؟

هو قاتل أنزل القضاء عليه الحكم بالرفع إلى المشنقة، وأمام قصر الجند المجلل بالرهبة بين المعاقل الحصينة ركزت يد الانتقام بل يد العدل آلة الإعدام، وهناك سينزل القصاص بمن أردى أحد الجنود شهيدا

هبوا من رقادكم أيها الشجعان وأسرعوا إلى المشهد، ذلك حكم الأمة عادلاً وهي تنتظر تنفيذه في المجرم المهين! أيتها الرقة الحديدية سارعي لإطلاق رصاصك على الجاني.

ولكن لا، إنما رصاص بنادقك شريف يضيع في هذا الخائن. اتركوا للحبل فريسته، إن للموت المعلق قلادة القنب وقساوة الجلاد

أيها القضاة المقسمون بوجدانكم! أفما أنتم الحاكمون بالإعدام إجابة لاختيار مجرد فيكم، فعلى مَ ارتعاشكم، وما هذا السهم النافذ الآن إلا سهمكم الذي شددتم له القوس وسددتم له المرمى. .؟
لن أنسى ما حييت ما أرى
بين لجج الظلمات المطبقة على كل منظور، كان نور المشعل واحد تجهمت أشعته على صفحة الأوحال لتزيد في روعة المشهد، وكان هنالك جذعان من الأشجار مرتكزان على الأرض وفوقهما عارضة أفقية تدلى منها حبل تجسم الموت فيه وارتجف الروع برجفانه
أفما تعجب لهذا الانقلاب فيك؟ علام حزنك واضطرابك وأنت الشاجب والقاضي؟ لقد عددت هذا الجاني عدواً للإنسانية ورآه وجدانك مستحقاً للإعدام، وما يجديك افتكارك الآن شيئاً. اثبت أو تردد، اضطرب أو تجلد، لك ما تشاء، فمشيئتك عبث وقولك لن يسمع، ارجع إلى الوراء وقف إلى جانب، اهرب وتوار عن الأنظار، إن يد الجلاد هي التي تقبض الآن على زمام الأقدار
- ما أسمك وما أسم أبيك؟
- فلان وأبي فلان على قيد الحياة
سئل هل له أولاد، فترجم المترجم: إن له طفلين
وشعرت إذ ذاك أن اللجة قد فغرت فاها تحت رجلي
ارتفع الأنين من صدري فاختنق، وربط الروع بشهقة الألم على أنفاسي، وانتصبت أمامي الضحية المقربة لليتم طفلين متشحين السواد، وصرخ من فوف المشنقة: عفوك أيها الإله! وخمدت أنفاسه
وغشت عيني ظلمة خفقت من ورائها الأشياء. نفدت قولي وامتنع الاستجلاء عليّ، فتلاشى أمام ناظري القاتل والمقتول وانتصب مكانهما خيال عيالٍ باكية مصدوعة القلوب دامية الصدور
ذلك أب يبكي أرملة ويتيمين يجولون تائهين بالفقر والمسكنة في فيافي المستقبل الأدكن.
ويلاه ما جنت هذه العيال لتقتسم الجزاء مع الجاني؟ معضلة، من يسبر غورها؟ ومسألة، من يحل عقدتها؟
لو أن هذا المشهد أحلام لبدده انفلاق الصباح وانعتق القلب من روعه وآلامه، ولكن هي الحقيقة الهائلة، ليتها كانت طيفا أو خيالا. . .
فؤاد خلوصي
تعليق على مقال
أثر المرأة في حياة الشيخ محمد عبده
للأستاذ عثمان أمين
كتب أستاذنا الكبير الشيخ مصطفى عبد الرزاق بك في مجلة (الشباب) مقالا عنوانه (أثر المرأة في حياة الشيخ محمد عبده). ونحن مع إعجابنا بما حوى هذا المقال من طرافة ودقة بحث، هما شأن أستاذنا فيما يسطر قلمه البارع، نرجو أن يسمح لنا في التعليق عليه بعض ملاحظات
ذكر أستاذنا كيف كان قصر الأميرة نازلي فاضل مجتمعاً للعظماء وقادة الرأي في مصر في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وأشار كذلك إشارات لطيفة إلى ما اتصفت به الأميرة من صفات شخصية عالية جعلتها تميز قيم الرجال وتخص الشيخ محمد عبده بمكانة تجمع بين الحب والإجلال
ونحن من جانبنا نوافق أستاذنا مصطفى بك فيما ذهب إليه من أمر تلك المودة الصادقة التي قامت بين الشيخ محمد عبده وبين الأميرة نازلي والتي كان لها - من غير شك - أثر عميق في حياة الشيخ وفي نفسه الكبيرة الحساسة.
ولقد وقع لنا - أثناء بحثنا عن آثار الأستاذ الإمام - خطاب يشهد بوجود تلك الصداقة التي ذهب إليها حضرة صاحب المقال؛ والخطاب بالفرنسية كتبته الأميرة بخطها إلى الشيخ محمد عبده تدعوه فيه إلى القدوم لرؤيتها. وهذا نصه:

'
وإليك ترجمة الخطاب:
السبت
صديقي العزيز:
أرجوك أن تحضر لرؤيتي هذا المساء بعد الساعة السابعة
أنا آسفة إذ فاتتني رؤيتك أمس
صديقتك المخلصة:
نازلي
فأمر الصداقة إذن حق. واختلاف الشيخ محمد عبده إلى قصر الأميرة أمر مقرر. ولعلنا الآن لا نبالغ إذا قلنا إن عناية الشيخ محمد عبده بإتقان اللغة الفرنسية ربما كان نفحة من نفحات الأميرة التي كانت تتكلم بالفرنسية كإحدى بنات (السين) ذوات الثقافة العالية والأدب الرفيع. ونظرة إلى مجموعة الكتب الفرنسية التي وجدت بمكتبة الأستاذ الإمام، والتي تعالج منها شؤون الأدب الفرنسي بنوع خاص، تؤيد ما ذهبنا إليه من أثر الأميرة في ميول الأستاذ الإمام واطلاعاته.
أراد أستاذنا الفاضل مصطفى بك أن يبين أثر الأميرة في حياة الشيخ محمد عبده من ناحية أخرى، فذكر في آخر مقاله أن الشيخ كان يجهر أول أمره بعداوته لإنجلترا ويكتب في ذلك فصولا ضافية، ثم قال: (أما بعد اتصاله بالأميرة نازلي التي كان هواها مع إنجلترا، وكانت صديقة للورد كرومر، فقد تلاشت عداوة إنجلترا من صدر أستاذنا (محمد عبده) وأصبح يجهر في كتاباته ودروسه أن بريطانيا العظمى أحسن الدول استعماراً).
فهل يسمح لنا فضيلة الأستاذ أن نبدي في هذه النقطة رأياً آخر؟
إذا كان الإمام محمد عبده، أول أمره، قد حمل على الإنجليز حملات شديدة، فقد كان ذلك في جريدة (العروة الوثقى) أيام اتصاله بأستاذه السيد جمال الدين الأفغاني. فكان يكتب وهو في باريس، مدفوعاً بحماسة الشباب، ومرارة المنفى بعيداً عن وطنه، ومتأثراً بآراء أستاذه الأفغاني، وقد كانت على ما يعلم الجميع - ترمي إلى الثورة سواء بتأليف الجمعيات السرية، أو الإذاعة بالقلم واللسان. أو استعمال العنف والقتل، وبالجملة القيام في وجه الظالمين المستبدين سواء أكانوا شرقيين أم غربيين. وكان محمد عبده، أول الأمر يعتنق أكثر آراء أستاذه الأفغاني، لكنه بعد عودته من باريس وحبوط الدعوة وانفصاله عن أستاذه،
عدل آراءه الأولى، ومال إلى الأخذ بالاعتدال والتدريج متوخياً الإصلاح، لا من طريق السياسة والثورة، بل من طريق التعليم والتربية الاجتماعية والدينية، وكان الأستاذ المصلح يتحدث عن هذا فيقول:
(علينا أن نهتم الآن بالتربية والتعليم بعض سنين. وأن نحمل الحكومة على العدل بما نستطيع، وأن نبدأ بترغيبها في استشارة الأهالي في بعض مجالس خاصة بالمديريات والمحافظات، ويكون ذلك كله تمهيداً لما يراد من تقييد الحكومة. وليس من اللائق أن تفاجئ البلاد بأمر قبل أن تستعد له فيكون من قبيل تسليم المال للناشئ قبل بلوغ سن الرشد: يفسد المال ويفضي إلى التهلكة).
أما عن الإصلاح الديني فهو يقول في رده على هانوتو: (إن الغرض الذي يرمي إليه جميعه (أعني المصلحين من المسلمين) إنما هو تصحيح الاعتقاد وإزالة ما طرأ عليه من الخطأ في فهم نصوص الدين، حتى إذا سلمت العقائد من البدع تبعها سلامة الأعمال من الخلل والاضطراب، وتهذبت الأخلاق بالملكات السليمة. ولم يخطر ببال أحد ممن يدعو إلى الرجعة إلى الدين سواء في مصر أو غيرها، أن يثير فتنة على الأوربيين أو غيرهم من الأمم المجاورة للمسلمين.) فلما أراد محمد عبده تطبيق وجوه الإصلاح على الأزهر بإدخال العلوم الحديثة في برامجه - وكانت أولى محاولاته الإصلاحية في عهد الخديو توفيق - قام في وجهه شيوخ جامدون على ما ألفوا من تقليد، ولم يفطنوا إلى مدى إصلاحه، وبعد ذلك نظر الشيخ عبده إلى السلطات العليا يتلمس عندها التأييد، فوجد من الخديو عباس الثاني مناوأة له ومناصرة لخصومه، ولقي الإمام في ذلك من الأذى كثيراً. ولسنا اليوم بحاجة إلى بيان ما كان فيه خصومة الخديو للأستاذ الإمام من شدة، فذلك أمر مشهور. وحسبنا أن نشير إلى تلك الوثيقة

التاريخية الخطيرة التي نشرها أخيراً أحمد شفيق باشا والتي أرسلها الخديو إلى شفيق باشا - وكان إذ ذاك رئيساً للديوان العالي - يؤنبه فيها على السير في جنازة الشيخ محمد عبده إزاء الدسائس المتوالية والحملات المنكرة التي كانت توجه من كل صوب إلى رجل الإصلاح، لم يكن للأستاذ الإمام بد أن يدير وجهه إلى السلطات الإنجليزية فعرف (لورد كرومر) وأقنعه بوجهته في الإصلاح، ووجد محمد عبده المفتي من العون عند كرومر ما أخطأه عند عباس الثاني وعند شيوخ الأزهر. ومن اطلع على التقارير السنوية التي كان يقدمها لورد كرومر إلى حكومته وجد فيها ذكراً طيباً للشيخ محمد عبده وتقديراً لأعماله. وعميد الإنجليز في مصر يذكر لنا في نفسه إن مناصرته محمدا عبده لم تكن بالأمر اليسير نظراً لما كان يلقاه الإمام المصلح من خصومة المحافظين له وكراهة الخديو إياه، بل لولا كرومر ما بقي محمد عبده في منصب الإفتاء طويلا

نرى مما تقدم أن الشيخ عبده لم يصادق الإنجليز عفواً ولا إرضاء لهواه، بل ألجأته إليه الظروف: كان يريد الإصلاح حقاً، ولم يكن بمقدوره أن يمضي في إصلاح وأهل الجمود والتقليد يقيمون في وجهه العراقيل، ويحيكون من حوله ضروب الدسائس، فكان طبيعياً إذن أن يلتمس موافقة الإنجليز. وكان لهم حينذاك النفوذ الفعلي في البلاد على أن رضاه عن سياسة بريطانيا في مصر لم يكن ينسيه واجبه كوطني، بل كأول من حاول بث الفكرة الوطنية في نفوس المصريين. ولم تكن تفوته فرصة دون أن يطالب فيها بقيام دستور للحكم العادل في البلاد، ووضع حد للتدخل الذي كان يدعيه لأنفسهم الموظفون الإنجليز كالمستشارين وغيرهم (بحيث لا يكون الموظفون المصريون مجرد ألعوبة في أيديهم) كما كان الحال في ذلك الزمان

ونحب في ختام هذا التعليق أن ننبه إلى إننا ما قصدنا إلا أن ندلي بتعليق جديد للموقف الذي اتخذه المصلح الكبير إزاء الإنجليز؛ وما أردنا مما ذكرنا من وقائع أن نتعرض بالنقد لرأي أستاذنا الجليل مصطفى عبد الرزاق بك. فنحن أول من يعترف بفضله، ونجل فيه شدة وفاءه لأستاذه الإمام محمد عبده وعمله الدائم على إحياء ذكراه

ويخيل إلينا أن الأستاذ الإمام قد توسم علائم هذا الإخلاص في تلميذه الشيخ مصطفى فكتب إليه سنة 1904 يقول: (ولقد عرفت مني على حداثة سنك ما لم يعرفه الكبار من قومك. فلله أنت ولله أبوك)

عثمان محمد خليل

مبعوث الجامعة المصرية بباريس

تاريخ العرب الأدبي - 14

للأستاذ رينولد نيكلسون

الفصل الثالث

الجاهلية: شعرها وعاداتها ودياناتها

ترجمة محمد حسن حبشي

يقول أبن رشيق القيرواني: (وكانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها بذلك وصنعت الأطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن في الأعراس، وتتباشر الرجال والولدان لأنه حماية لأعراضهن، وذب عن أحسابهم، وتخلد لمآثرهم، وإشادة لذكرهم، وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد أو شاعر ينبغ أو فرس تنتج)

وفي خلال هذا الزمن لم يكن هناك سوى أدب منطوق حفظته الرواية الشفهية، ولم يشرع في كتابته إلا بعد ذلك بزمن طويل. أما عصر الجاهلية فيشمل قرنا ونيفا من السنوات، أعني منذ سنة 500 بعد الميلاد حينما نظمت أول قصيدة وصلت إلينا حتى عام هجرة النبي محمد (عليه الصلاة والسلام) إلى المدينة سنة 622م تلك السنة التي تعد نقطة انتقال ومستهل عهد جديد في التاريخ العربي. وكان أثر هذه المائة والعشرين سنة كبيراً وخالداً، فقد شهدت نشأة تدهور نوع من الشعر اعتبره أغلب المسلمين الناطقين بالضاد مثالا للإبداع لا يتأتى الوصول إليه، فهو شعر قد سار مع حياة القوم جنبا إلى جنب. ووحد بينهم قبل ظهور محمد (صلى الله عليه وسلم) بزمن طويل من الناحيتين الخلقية والروحية، وقبل أن يؤلف الرسول بين أهوائهم المتشعبة وقبل أن يجعلهم أمة تسعى من أجل غاية مشتركة، وترمي إلى مقصد واحد. في هذه

الأيام لم يكن الشعر من الكماليات للأقليات المثقفة بل كان الوسيط المفرد في التعبير الأدبي، وكان لكل قبيلة شعراؤها يعبرون بحرية عمّا يختلج في النفوس ويصورون أفكارهم، وكان كلامهم الشفهي هذا ينطلق في رحاب الصحراء أسرع من انطلاق السهم، ويجد آذانا صاغية وقلوبا واعية عند جميع من يستمعون إليه. وفي وسط هذا الصراع الخارجي والتفكك كان هناك مبدأ يربطهم جميعا: ذلك أن الشعر أحيا وعمم المثل الأعلى ألا وهو: (المروءة) ولو أنها كانت تقوم على عصبية الدم القبلية،

ونرى أن روابط الدم مقدسة؛ بيد أنها غدت رباطا غير واضح تماما بين القبائل المختلفة. وأوجدت عرضا أو اتفاقا أساس اتحاد قومي في الشعور

ولقد حاولت في الصفحات التالية أن أتعقب أصول الشعر العربي، وأصف طبيعته وعناصره وخصائصه العامة، وأن ألم بأبرز شعراء الجاهلية، ومجاميع شعر هذه الفترة، ثم أنتهي من ذلك إلى عرض الوسيلة التي حفظت بها حتى وصلت إلينا

كان العرب القدماء يعدون الشاعر كما يدل عليه أسمه - ذا صلة بالغيبيات، وساحرا يؤاخي الجن والشياطين ويستمد منهم العون فيما يعرضه من مقدرة رائعة. وتتضح هذه النظرة إلى شخصيته ومكانته التي يتبوأها مما يروى عن شاب أبت حبيبته الزواج به لأنه لم يكن شاعراً أو كاهنا أو عرافا، وارتقت بعد ذلك فكرة الشعر كفن إذ كان الشاعر الوثني في الجاهلية كاهن قبيلته ومرشدها في السلم والحرب، وبطلها في معمعان القتال، تستشيره إذا ما بحثت عن مرعى جديد، ولا تضرب طنبها إلا حسب إشارته. وإذا عثر راودها المجهدون الظامئون على بئر نهلوا من مائها واغتسلوا به، وقادهم إليه رافعين جميعا عقيرتهم بالغناء كما فعل إسرائيل من قبل: (انبثق أيها الماء، ويا هؤلاء غنّوا له)

ولابد أن تكون قد وجدت في العصور الأولى ضروب أخرى من الشعر عدا أغاني الينابيع والحرب والتراتيل الدينية للأصنام - هذه الضروب كالتشبيب والرثاء، كما كانت مواهب الشاعر تستغل أيما استغلال في الهجاء الذي كان في أقدم صورة (يبعث القبيلة على طلب الثأر، ويعد باعثا من بواعث الحرب لا يقل عن الطعن والنزال) كما يعد وعيده للعدو وتهديداته إياه دليل خطب جسيم، أما منظوماته التي لا تقل عن السهام فتكا فكان أثرها أثر اللعنات الصارمة يجريها الوحي على لسان نبي أو كاهن، وكان الشعراء يتناشدون أشعارهم في حلقات خاصة ذات طقوس وأنظمة خاصة، كدهنهم أحد جانبي الرأس، وإسدالهم العباءة، وانتعالهم (خفا) واحدا من الصندل. وقد أبقى الهجاء على شيء من هذه العادات المستهجنة إلى عصر متأخر، حينما تخلى منطق الشاعر الساحر عن مكانته للهجاء والقذع الذي كان يكيل به الشاعر لخصومه السب ويسمهم بميسم العار

وإن الطلائع الأولى المبهمة للشعر العربي (التي غطت عليها حيويته الساحرة المعروفة) لم تترك وراءها أثراً في هيكل الأدب، ولكن المهمة قد تكون سهلة نسبيا حينما نواجه قوماً جدّ

محافظين مستمسكين بالقديم كالعرب. وقد يمكن القول بأن أقدم صورة للكلام الشعري في بلاد العرب كانت السجع أو كما ينبغي تسميته (النثر المقفى) وإن وصف مناهضي محمد عليه السلام إياه بأنه شاعر لما جاء به القرآن من صور له حتى بعد معرفة الموازين الشعرية واستنباطها ليظهر لنا أن هذه النظرة كانت لا تزال حتى ذلك الحين قوية ثابتة

وتطور السجع أخيرا - كما سنرى - فأصبح حلية لفظية فقط، والميزة البارزة لكل فن من فنون البلاغة سواء في الخطابة أم في الكتابة، ولكن كان له في الأصل مرمى بعيد يتصل عن قرب بالناحية الدينية، ويختاره الشعراء والكهنة ومن على شاكلتهم ممن كانوا يعتبرون ذوي صلات بالقوى الخفية ليفسروا به للدهماء كل ما يحز بهم من مسائل عويصة لا يدرون لها تأويلاً ولا يعرفون لها حلا. وتفرع من السجع فن آخر يجري على وزن يعد أقدم موازين الشعر العربية ذلك هو الرجز، وهو بحر شاذ العروض والتفاعيل يحتوي في الغالب على تفعيلتين أو ثلاث. ومن أوضح مميزات الرجز التي تظهر صلته القوية بالسجع أن نهايات شطراته تجري على قافية واحدة، مع أنه في معظم البحور لا يحدث التصريع إلا في مطلع القصيدة. وزيادة على ما ذكرنا، نجد ميزة

أخرى للرجز، هي أنه على الدوام يكون مرتجلا، فينشد الرجل الأرجوزة عند المفاجآت يفسر بها بعض مشاعر الشخصية أو عواطف أو تجارب، ومثل هذا ما ارتجله دويد بن زيد بن نهد القضاعي وهو يتهيأ للموت:

اليُوْمَ يُبْنَى لِدُوَيدٍ بَيْتُهُ ... لَوْ كَانَ لِلدَّهْرِ بِلًى أَبْلَيْتُهُ
أوْ كانَ قِرْنِي وَاحِداً كفَيتهُ ... يَارُب نَهْبٍ صَالِحٍ حَوَيْتهُ
وَرُبَّ عَبْلٍ خَشِنٍ لَوْيْتهُ

ويحسن أن نأتي في هذا المقام على ذكر بعض البحور الهامة في الشعر العربي كالكامل والوافر والطويل والبسيط والخفيف وغيرها. وإيثاراً للاختصار أحيل القارئ إلى البحث الوافي عن هذا الموضوع في مقدمة سير شارلز ليل في كتابه (ص45 - 52). وكل البحور قياسية كما هو الحال في الإغريقية واللاتينية. وقد استنبط قواعد العروض من القصائد القديمة لأول مرة ونظمها ورتبها الخليل بن أحمد اللغوي (791م) الذي يقال إن الفكرة طرأت له حينما شاهد حداداً يضرب بمطرقته على السندان

ولابد لنا الآن من أن نبحث في نظام وموضوع هذه الأشعار التي تعد أقدم ما في التراث العربي، فبين هاته النصوص البالغة حد الإتقان والروعة وبين شواهد السجع أو الرجز التافهة بون شاسع ليس من اليسير تحديده. وأول من نعرف من الشعر هؤلاء الذين تلوح في آثارهم إجادتهم لصناعتهم وإبداعهم فيها (وإن عدد الموازين التي يستعملونها وتعقدها وقوانينهم الثابتة عن الكمية، والطريقة المألوفة التي كانوا يستهلون بها قصائدهم بالرغم من الفترة التي بين كل ناظم وآخر، هذه تحتاج إلى دراسة طويلة واندماج تام في تعرف فن التعبير للغة واتساع نطاقها وطلاقتها، وهي دراسة قل أن نجد بين أيدينا اليوم ثبتا يساعدنا عليها)

(يتبع)

محمد حسن حبشي

إليها!

للأستاذ أمجد الطرابلسي

حبيبي! إنْ بدا الفجرُ ... ورفَّ كثغركَ الزَّهرُ
وغنَّى الطيرُ مخموراً ... لحوناً كلُّها خمرُ
فلا تأسَ على أيا ... منا الفَرحى ولا تعتبْ
هو الدّهْرُ! ومن للدَّه ... ر إن أخطأ أو أذنبْ؟
حبيبي! إنَّ في قلبي ... ظلاماً ما لهُ فجرُ
ولولا طيفُكَ الخَطَّا ... رُ ما شعَّ به كوكبْ!
حبيبي! بان لي الكونُ ... ولمْ أكُ مدركاً بعضْه
عرفتُ نجومهُ الحَيْرى ... عرفت زهورَه الغَضَّه
عرفت النسمةَ الفرحى ... عرفت البلبلَ الشادي
عرفت الحلمَ الزاهي ... عرفت الأمل الحادي
نشيدَ الروح! هل كنّا ... سوى طيرينِ في روضَه؟
فمن ظلٍّ إلى ظلٍّ ... ومن وادٍ إلى وادِ . . .
أأيامَ الهوى البَرِّ ... وأمسياتهِ الحْلوَهْ!
جفَوْتِ ولم يذقْ طفلا ... كِ بعدُ لذاذة الصَّبوه
حبيبي! يا ترى هل تس ... عدُ الأيّامُ قلَبينا؟
فنأسو الجرحَ والذكرى ... ونسلو الغمَّ والبَينا . . .
ألسنا في الشّبابِ الحل ... وِ زَنْبقَتَيْنِ في ربوه؟
فما للعاصفِ المجنو ... نِ يفرقُ بينَ غُصنينا؟
حبيبي! إن دجا اللّيلُ ... وطافتْ بكَ أشباحُهْ
وأورى طرفك الساجي ... جوى البعدِ وأتراحه
فإنّي بينَ أترابي ... وأصحابي وإخواني
غريب مُلْهَبُ الأجفا ... ن واري القلب كالعاني!
حبيبي! إنَّ ليل الحبَّ ... جرحُ القلب مصباحُهْ
وهل يعبق نشر العو ... د إلا وسْطَ نيران

من زوايا النسيان
زهرات ذابلات
لشاعر معروف
أحاذر في نجواك بث شكاتي ... فأكتم ما في القلب من حسرات
ويُضرعني وجدي فألقاك شاكيا ... ولابد للمصدور من نفثاتِ
لقد علمت أخت الملائكِ أنني ... من الهّم والآلام في غمراتِ
وأن هواها مستبدّ بمسمعي ... وفي كل حسن مالئٌ نظراتي
وملء فؤادي والأمانيِّ كلِّها ... يبرّح بي في يقظتي وسُباتي
أروم اصطبارا عن لقاك فأنثني ... إليك بملء القلب من لذعات
والتمس السلوى لديك فانثني ... بزاد من الأشواق مستعراتِ
إذا ما دجا بالغمّ قلبي أضاءه ... كواكب من ذكراكِ والخطرات
وإن جنحت للشر نفسي هديتها ... بذكرك فارتدّت إلى الحسنات
وإن أخلدت يوما إلى الأرض ردها ... هواك إلى الأفلاك في لمحات
وذكرك قد يجلو عن القلب رَينه ... فيسطع فيه النور حين صلاتي
على إنني يعتادني من تذكري ... لواعج همّ مشعَل الزفرات
هي النور وهي النار والسلم والوغى ... بقلبي، ومنها غبطَتي وشكاتي
وأمني وخوفي، وهي أنسي ووحشتي ... وظلمة أيامي وضوء حياتي
فيا قمر إن غاب عنّيَ نوره ... فقلبي ليل موحِش الظلمات
ويا شمس حسن إن تغِب فجوانحي ... بها شفق في وقده الجمرات
ويا فلكا للحسن والحب دائرا ... يبارك ربّي هذه الدوَرات
فلو كان ما بيني وبينك فرقة ... لقطع بحار أو لطيّ فلاة
ولكنه الدهر المُشتُّ يُقيمنا ... على قربنا في فرقة وشتات
تمنّيت أنا طائران بدوحة ... تظلّل نبعا تَرَّ في الفلوات
أصوغ لك الأزمان شعر وبهجة ... وأسمع منك الخلد في نغمات
ويُمسِك هذا الدهر عن حركاته ... فلا هو بالماضي ولا هو آت
أناظمة الأشعار أنت قصيدة ... جلَتها يد الخلاّق في قَسَمات
يطالعها قلب من الشعر مُجدب ... فينبت فيه الشعر أيّ نبات
وينشدها من قدّ في الصخر قلبه ... فيُنبِض منه الحبُّ قلبَ صَفاة
أرى وجهِكَ الوضّاء شعرا مصوَّرا ... تحاوله الأبيات في كلمات
كأن يراعا في يمينك إبرة ... تردّد ما في الوجه من نغمات
يقولون (شعر شاعر): هل عنَوا به ... بديعةَ حسن تنظم الشطرات
يُحيّي بهذا الشعر قلبيَ فاقبلي ... وإن كنت روضا، هذه الزهرات
سقتها دموعي واصطلت حرّ زفرتي ... فلا تهزئي إن لم تكن نضرات
(شاعر)
وحي الشاطئ
أيها البحر. . .
للأديب أحمد فتحي مرسي
سهِرت عَيْنُهُ مَلاَلاً وسُهْدَا ... هَدَأ اللّيْلُ مالهُ لَيْسَ يَهْدَا
يرتمِي لا غِباً على بُسُطِ الشَطِّ ... م ويُولِي الرِمالَ ميلاً وصَدَّا
وكأنَّ الأمَوَاجَ كفَّا بَخِيلٍ ... رَامَ أن يَرْفِدَ - العَشِيَّة - رِفْدَا
كلّما مَدَّ بالعَطَاءِ يَدَيْهِ ... غَلَبَ البُخْلُ نَفسَه فاسترَدَّا
ما أحبَّ الشطآنَ تَهْدِرُ في اللّيْ ... لِ ومَا أبْهَجَ الرِمَالَ وأنْدَى
وكأنَّ الأمْوَاجَ أوْفَتْ عَلَيها ... حَاسِب جَدَّ في الحِسَاب وكدَّا
سَطَّرَتْ كفُّهُ الرِمَالَ سُطوراً ... وصَفَا ذِهنُهُ وراقَ وجَدَّا
مفْكرِ - في السكونِ - حتَّى إذا مَا ... خَذَلَتْهُ النُهى، وأخْطأ عَدَّا
عَادَ لِلّوْحِ حَانِقاً فَمَحَاهُ ... وأعَادَ الحِسَابَ فيهِ وأبْدَا
سَرِّحْ الطّرْفَ أيها العَاشق الحُسْ ... نَ. هنا الحُسْنُ رَائِع يَتَبَدَّى
وتَأمَّلْ في ذَلكَ الغَاضبِ الحَا ... نق يَطوي الفَضَا مَرَاحاً وَمغْدَى
وكأنَّ الأموَاجَ ترغى على الشُّطآ ... ن شَيْخ يَميلُ أيناً وَجَهْدَا

شَيَّبَتْ صَوْلة المقاديرِ فُودَي ... هـ وهُدَّتْ قوَاهُ في الدَهْرِ هَدَّا
مدْلِج طالَ في الظَلامِ سُرَاهُ ... كلمَا جَدَّ في خُطَاهُ تَرَدَّى
أيها البحرُ. . . ما لأمَوَاجِكَ الحَيْ ... رَى ترامى وتزْعِدُ - اليومَ - رَعدا
فرّقتْ بَيْنَنَا المقاديرُ يا بَحْ ... رُ وَوَدَّ الزَمانُ ما لمْ يودَّا
أتُرَى أنتَ ذَاكِرٍ طِيْبَ ما وَلّى ... (م) وما غابَ في الزَمانِ وأوْدَى
يومَ كنَّا واللَيلُ مُرخىً علينَا ... نتساقى من أكْؤُسِ الوِدِّ شهدا
ساعة للصفاءِ مَرَّتْ من الدَهْ ... رِ، وللصفوِ ساعة لنْ تُردَّا
كم نَرَجى لو عاد ما فاتَ منها ... وَسُدىً نرتجي لما فاتَ عودا
أحمد فتحي مرسي
دعابة الجاحظ - 3
للأديب محمد فهمي عبد اللطيف
ولكن ليس كل هذا ما فقدناه من أحاديث الجاحظ وآثاره في المرح والدعابة فأن له كثيراً من الطرائف والملح التي ضاعت بين سمع الأرض وبصرها، وطوتها الأحداث بين أجواء العصور الخالية، فلم يبق منها إلا معالم كأنها معالم الطود قد استبد به الزمن ومحقته العواصف القاسية. وهانحن أولاء نكتب عن دعابة الجاحظ وليس بين أيدينا من مصادر البحث إلا وشل من معين، فكل ما هنالك جملة من النوادر المبعثرة في بطون الكتب يتلمسها الباحث بشق النفس، مع أن الرجل قد جرد في ذلك كتبا ورسائل تدل أسماؤها على أنها قد ضمنت ألواناً من الدعابة والمزاح، وأترعت بفنون من النوادر والمضاحيك. وتلك الكتب على ما ذكر الجاحظ نفسه وعلى ما قال بعض الباحثين: هي كتاب الملح والطرف، وما حر من النوادر وبرد، وما عاد بارده حاراً لفرط برده حتى أمتع بأكثر من إمتاع الحار ثم كتاب المزاح والجد، وكتاب خصومة الحول والعور. وكتاب المضاحيك، ورسالة في فرط جهل الكندي يعقوب بن إسحاق أول من اشتهر في الإسلام بالعلوم الفلسفية وما إليها. والظاهر أن الجاحظ قد ساق هذه الرسالة في التندر على هذا الرجل والتهكم به كمثل صنيعه مع أحمد بن عبد الوهاب في التربيع والتدوير. . . ثم أين نحن بعد هذا كله مما كتبه الجاحظ إلى إخوانه وخلطائه (من مزح وجد، ومن إفصاح وتعريض، ومن تغافل وتوقيف، ومن ملح تضحك، ومواعظ تبكي. . .)، بل أين نحن مما أفرغه في جميع كتبه ومؤلفاته من النوادر والمعابث، وقد كانت تلك طريقته وذلك صنيعه، وهو الذي يقول في وصف الكتاب: (ومن لك بوعاء ملئ علماً، وظرف حشي ظرفا، وإناء شحن مزاحاً وجداً، إن شئت كان أبين من سحبان وائل، وإن شئت كان أعيا من باقل، وإن شئت ضحكت من نوادره، وإن شئت عجبت من غرائب فرائده، وإن شئت ألهتك طرائفه. . .)
فيا لها من ثروة كبيرة تلك التي وفرها الجاحظ في باب المزاح والدعابة. ولو أن الزمن قد أبقى لنا على كل هذه الثروة لفزنا بكثير، ولوقفنا باليقين على اتجاهات الرجل وما كان له من قدم في مسالك هذا الفن وضروبه؛ أما وقد خسرنا هذه الصفقة، فليس إلا أن نسير في البحث على قدر تلك الإثارة التي بقيت لنا من أماليح الجاحظ على الرغم من مغالبة المحن
وقسوة الأحداث، وأن فيها ما قد يجدي في البحث، ويغني في الوقوف على مقاصد الرجل من دعاباته. ولعل أهم تلك المقاصد وأجلها إنما هو التهكم؛ ولعل الجاحظ لم يبرع في ناحية من مناحي الدعابة كما برع في تلك الناحية وتفنن، فهو عجيب في تهكمه؛ تنظر إلى إحدى غمائزه فلا تدري إلى أي جو قد نقلك الرجل، ولا ما ثم من أشتات المعاني التي قد أوردها على ذهنك وأثارها في نفسك، فهو يحاور ويداور. ويصطنع أسلوبا ملتوياً له ظهر وله بطن، وفيه لين وفيه قسوة، وبه طرافة وبه جفوة؛ وقد يقف من القارئ موقف المتسائل، ويسير معه سير المتجاهل، فكأنه يريد أن يتهكم أيضاً بالقارئ على غفلة. وليس هذا كله إلا علامة القدرة ودليل الطبع؛ وإنما كان الجاحظ موهوباً في تهكمه، ساخراً بطبعه؛ ومن ثم لم يقف في تهكمه عند حد الدعابة والعبث، بل لقد كان يتناول ذلك في كثير من نواحي فنه، فهو أداته في الهجاء والتقريع، والنقد والتعريض، والجدل والمناظرة، وما إلى ذلك من مواضع الأخذ والرد والنظر والبحث. ألا تراه وهو ينتقد الخليل بن أحمد إذ صنف في علم لم تجتمع له أداته، ولم يتوفر له شرطه فيقول: (والخليل بن أحمد من أجل إحسانه في النحو

والعروض وضع كتابا في الإيقاع وتراكيب الأصوات وهو لم يعالج وتراً قط، ولا مس بيده قضيباً، ولا كثرت مشاهدته للمغنين. وكتب كتاباً في الكلام ولو جهد كل بليغ في الأرض أن يتعمد ذلك الخطأ والتعقيد لما وقع له ذلك. ولو أن ممروراً استفرغ قوى مرته في الهذيان لم يتهيأ له مثل ذلك، وما يتأتى مثل ذلك إلا بخذلان من الله الذي لا يقي منه شيء. ولولا أن أسخف الكتاب، وأهجن الرسالة، وأخرجها من حد الجد إلى حد الهزل، لحكيت صدر كتابه في التوحيد، وبعض ما وضعه في العدل!)

فهذا أسلوب من النقد الساخر الذي كان يصطنعه الجاحظ وإنه لأسلوب شديد الوطأة، وإنه بالهجاء لأشبه. فهو كما ترى يطلب (أولا) مرتبة لتصنيف الخليل هي أحط مراتب الضعف والتهافت، فيضعه دون الخطأ (يتعمده) كل (بليغ) في الأرض (جهده) ولكن هذه المرتبة الدون لا تقنع الجاحظ، فيعود (ثانيا) فيجعله عدلا (لهذيان) الممرور قد (استفرغ) كل مرته في الهذيان؛ وهذه أيضاً لا تقنع الجاحظ ولا تشبع نفسه، فنجده (أخيراً) يحكم على صنيع الرجل بأنه ضرب من الضعف لا يتأتى لطبيعة بشرية إلا (بخذلان) من الله، ثم زاد فجعله سخفاً وهجانة لو حكاه لخرج بالقارئ من حد الجد إلى باب الهزل. وهذه مداورة من الجاحظ فيها ما فيها من التهكم المر، والتقريع اللاذع، والتعريض الذي لا يطاق استهزاء وسخرية!!

ولقد كان هذا التهكم هو سلاح الجاحظ أيضاً وعدته في التقريع الحشويين وأهل التزيد، والذين يفترون الأخبار الغثة، ويلفقون الأحاديث الكاذبة، ويروجون القصص التافهة، ثم هم يحشرون ذلك في الدين، ويلصقونه بالأخبار النبوية الشريفة، ويسندونه في الرواية إلى الأصحاب الأخيار، والرواة الثقاة، كمثل ما زعموه عن كبد الحوت، وقرن الشيطان، وتنادم الديك والغراب، ودفن الهدهد أمه في رأسه فأنتنت ريحه، وتسبيح الضفدع، وطوق الحمامة، ودخول إبليس إلى سفينة نوح في جوف الحمار، وما أسندوه إلى ابن عباس من أن الحجر الأسود قد نزل من الجنة وكان أشد بياضا من الثلج فسودته خطايا أهل الشرك، ثم ما تحدثوا به عن السيدة عائشة بشأن الصحيفة التي كان فيها المنزل في الرضاع فأكلتها داجن للحي حين شغلوا بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم؛ فكان الجاحظ يستنكر هذه الأخبار وأشباهها، ويحكيها في سخر بالغ، وتهكم قارص. وتستطيع أن تقف على ذلك وأمثاله في كتابه (الحيوان) في كل موضع يفرغ فيه الرجل لبعض خرافات القوم ومزاعمهم. وقد تجده لا يعنى بتفنيد هذه المزاعم ولا يهتم بأدحاضها لأنها ظاهرة السخافة والبطلان، ثم هو يعقب عليها بكل تهكم واستهزاء، ويختمها بالعبارة القصيرة الموجزة تأتي عليها من القواعد. فمثلا تجده يحكي أقوال (صاحب المنطق) عن التزاوج والتلاقح بين بعض الحيوانات وبعضها، فيسترسل الجاحظ في الحكاية، ثم ينتهي إلى التعليق عليها فيقول: (وقد سمعنا ما قال صاحب المنطق من قبل، وما يليق بمثله أن يخلد على نفسه في الكتب شهادات لا يحققها الإمتحان، ولا يعرف صدقها أشباهه من العلماء، وما عندنا في معرفة ما ادعى إلا هذا القول!) ثم يخرج بعد ذلك إلى بعض خرافات القوم التي تتعلق بالحيوانات، ثم يتهكم بها فيقول: (ولولا أني أحببت أن تسمع نوعاً من الكلام! ومبلغ الرأي، لتحدث لله تعالى شكراً على السلامة، لما ذكرت لك شيئاً من هذا الجنس.)

فبهذا الأسلوب التهكمي اللاذع كان يتذرع الجاحظ في كثير من نواحي فنه؛ وبهذا الأسلوب التهكمي اللاذع كان يأخذ في دعابته ومزحه فيبلغ الغاية من إرضاء الفن، ويسمو إلى الذروة في إمتاع القارئ. وعجيب أمر بعض أبناء العربية الذين يشدون من الأدب إذ تراهم يطيرون بفن الكاتب الفرنسي (فولتير) فيبالغون في سخريته، ويمتدحونه بلذاعته، ويثنون على عبقريته في التهكم، وما أحسبهم يعرفون ذلك للجاحظ أو يعترفون به، وأنهم لو علموا لتعجبوا من جهد كاتب العربية واقتداره، ولراحوا يتلمسون تلك الناحية من فنه فيما له من كتب وآثار، وهم لاشك واجدون متاعهم ولذتهم، واقعون على أربهم ومبتغاهم، ثم هم لا جرم سيعترفون له بما يعرفون (لفولتير) وأضرابه. وسنرى الجاحظ في أحاديثهم وكتاباتهم منعوتا بالكاتب الساخر، وما يجري مجرى هذا النعت وتعال إلى الرجل في شيء من دعاباته الساخرة. فإنك واجده على ما ذكرنا - حلوا مستساغا، قويا قادراً قد تمكنت في طبعه ملكة السخر، وتمت له موهبة التهكم، فإذا

أخذ بعض الأشخاص بالتصوير (التهكمي) فهو يقدم لك صورة الدقيقة الرائعة التي تثير في نفسك كل ما يمكن من معاني الضحك والفكاهة، والسخر والتهكم، والعطف والإشفاق، والنفور والبغض. ألا تراه وهو يتندر على سهل بن هرون في بخله وشحه فيقول: (قال دعبل الشاعر: أقمنا عند سهل فلم نبرح حتى كدنا نموت جوعا. فلما اضطررناه قال: يا غلام ويلك غدنا! قال فأتانا بقصعة بها مرق فيه لحم ديك، وليس قبلها ولا بعدها غيرها، لا تحز فيه سكين ولا تؤثر فيه الأضراس، فاطلع في القصعة وقلب بصره فيها، ثم أخذ قطعة خبز يابس، فقلب جميع ما في القصعة حتى فقد الرأس من الديك، ثم رفع رأسه إلى الغلام فقال: أين الرأس؟ قال لم أضنك تأكله. قال: ولأي شيء ظننت أني لا آكله؟ فوالله إني لأمقت من يرمي برجليه، ولو لم أكره ما صنعت للطيرة والفأل لكرهته! فإن الرأس رئيس، وفيه الحواس، ومنه يصدح الديك؛ ولولا صوته ما أريد؛ وفيه قرنه الذي ينبرك به، وعينه التي يضرب بها المثل في الصفاء فيقال. شراب كعين الديك؛ ودماغه عجيب لوجع الكلية. ولم أر عظما أهش تحت الأسنان من عظم رأسه. فهلا إذ ظننت أني لا آكله ظننت أن العيال يأكلونه؟ وإن كان بلغ من نبلك أنك لا تأكله فإن عندنا من يأكله. أو ما علمت أنه خير من طرف الجناح ومن الساق ومن العنق، فانظر أين هو؟ قال والله ما أدري أين رميت به. قال: لكني أدري: إنك رميت به في بطنك والله حسيبك)

وقد تكون هذه النادرة من مرويات دعبل حقاً، وقد تكون من اختراع الجاحظ وابتداعه، وإنما حمله على تلفيقها ما كان بينه وبين سهل من الشنآن، ثم عزاها لدعبل ليخلص من

تبعتها ولتكون أبلغ في المؤاخذة. ومهما يكن من شيء فإن الرجل هو الذي عرضها هذا العرض وجلاها في هذا الثوب، فجاءت على ما ترى من السخر والتهكم والضحك والمرح، والغمز واللمز. وأنها لصورة دقيقة رائعة مهما بلغ كاتب من القدرة في التصوير فما أحسبه سيبلغ في وصف بخل سهل وتصوير شحه وإقتاره ما بلغ الجاحظ في هذه النادرة وهيهات!

(للبحث صلة)

محمد فهمي عبد اللطيف

الفنون

الفن المصري

للدكتور أحمد موسى

تمهيد

سل من شئت من المصريين عن تاريخ مصر الفني وعما في تراث الأجداد من مميزات، وعن الناحية الجميلة الممتعة فيه؛ بل سل أغلبية الناس في مصر ممن زاروا أهرام سقارة، وممن تطرف في حب المشاهدة للآثار المصرية وسافر إلى الأقصر، وشاهد معبد الكرنك وطيبة ووادي الملوك والملكات وتمثالي ممنون؛ سل كل هؤلاء عما شاهدوه وعما استفادوه، وعن ناحية الجمال فيما عاينوه، فلا تسمع إلا تخبطا يكاد لا يختلف عما تسمعه من أمي يعيش بجوار هذه الآثار طوال أيام حياته!

ثم شاهد مدينة القاهرة - على اعتبار أنها عاصمة القطر وأهم مدينة فيه - وما فيها من ضورب الخروج على أبسط مبادئ الذوق العام، وأخطر في أحسن شوارعها يستوقفك شذوذ الانسجام في مبانيها وظاهرة انحطاط الذوق في كل ما فيها؛ ثم تفلسف قليلا لمعرفة السبب في ذلك تجده دون شك ينحصر في جهل الناس معنى الجمال ومعنى الذوق ومعنى الفن. وهم في ذلك سواء، يستوي الجاهل مع العالم، والفقير مع الغني، والشيخ مع الأفندي

بيوت عالية شاهقة، وأخرى واطئة حقيرة، كلها متجاورة. وإذا صادفت عشر عمارات كبار الواحدة ملتصقة بالأخرى، ترى لكل منها شكلا ولكل منها منهجاً؛ كل هذا بجانب دكاكين كتب في أعلى مداخلها باللغة الإغريقية مرة وبالعبرية أخرى وبالأرمنية ثالثة، دكاكين كتب أعلى مداخلها بالفرنسية حينا وبالإيطالية أو الإنجليزية حينا آخر، كما تصادفك أخرى كتب عليها بالعبرية لغة الوطن، لغة البلاد!

تأمل كل هذا، ثم عرج على آثار الأقدمين تر أنها منسجمة، كلها من طراز واحد سمي الطراز المصري القديم. وإذا شاهدت المساجد جميعها رأيتها من طراز سمي

(الأرابسك) فيه روح الانسجام، دون حاجة - في هذه أو تلك - إلى دقة الفحص لمعرفة عصر الآثار، وهل هي من مباني الأسرات الأولى أو المتوسطة أو الأخيرة، كما أنك لا تضطر إلى
فحص نقوش مسجد أو كتاباته أو تفاصيل مبانيه لتعرف أن كان من الطراز الطولوني أو الفاطمي أو طراز المماليك البحرية أو الشراكسة، وما ذلك إلا لأن الأول مصري والثاني إسلامي
هذا ما سار عليه الناس أيام كانوا أميين، أما اليوم حيث كثر المتعلمون، وأصبحوا يلبسون كما يلبس الجنتلمان في أوربا، فنرى أنهم مع مزيد الأسف قد تجردوا من الذوق وبعدوا بعدا شاسعا عن المعرفة الحق، والثقافة الكاملة المؤدية إلى حسن التقدير والاستمتاع عن طريق التذوق
لعل قائلا يقول: وما ذنبنا نحن في هذا؟ الواقع أن الذنب راجع إلى مناهج التعليم المصرية، لأنها تجردت من كل المشوقات للدرس، وخلت مما يمهد لحب الفحص والنقد، فضلا عن بعدها عن كل ما ينتمي إلى الذوق العام بصلة
وفي أيامنا هذه كثر اللغط حول معارض الفن وحول التصوير والنحت وحول الموسيقى ووجوب تدريسها بالمدارس الابتدائية والثانوية، على أني أعتقد أن كل هذا لا يخرج عن معالجة الأعراض، أما الأسباب فهي عند أولي الأمر في المؤخرة
قرروا تدريس الموسيقى في المدارس، فهل قرروا إلى جانب ذلك تحسين الموسيقى وجعلها تخرج عن الوحدة الملائمة للرقص الخليع ورقص الخيل؟
وهذا نفسه ينطبق على نوع التثقيف الفني. فمنذ أن كانت لنا مدارس ابتدائية وثانوية وفن الرسم والتصوير باقيان على ما هما عليه لم يتغيرا ولم يتطورا، حتى كتب التاريخ العام لا ترى فيها أثراً لمعنى تاريخ الفن أو تاريخ الآثار تفصيلا أو إجمالا، مع أن التاريخ في جوهره يعتمد عليهما إلى أبعد حد
وهذا لم يكن سبباً كافيا لمن أولى الأمر على الاهتمام بدراسة تاريخ الفن، ليغرسوا في نفوس النشء شيئاً من التذوق والمعرفة الفنية
كان تاريخ الفن ضمن مواد الدراسة في كلية الهندسة عندما كانت مدرسة عالية، أما الآن فقد تقرر إلغاء تدريس هذه المادة للثقة التامة في عدم نفعها أو على الأقل لعدم الحاجة إليها في المستقبل العملي للمهندسين. أما كان الأجدر بكلية الطب إلغاء مادة الصوت والضوء من علم الطبيعية ومادة التشخيص الباطني لمن سيكون طبيباً للعيون. وإذا كان الأمر كذلك
فلم يدرس طلبة كلية الحقوق القانوني الروماني؟ ولم يدرس طلبة كلية الآداب شيئاً من الأدب الإغريقي مثلا مع أنه لا ينفعهم في مستقبل حياتهم؟ (وهذا غير صحيح) الحق أننا نتخبط ولا نعرف إلى أي اتجاه نسير. فالثقافة العامة لن تكون كاملة ما لم تشمل أيضاً المعرفة بأصول الفن عن طريق دراسة تاريخه ولو إجمالا! إن الرسم والتصوير والنحت فنون ليست من شأن الرسامين والمصورين والنحاتين وحدهم، بل هي من شأن المجموع، إذا علمنا أن الفنان لا يعيش لنفسه، كما أن خلقه الفني لا يسجله هو بشخصه، بل أيضاً بعصره الذي عاش فيه، وبوطنه الذي شب على أرضه وهذا ما يحتم علينا أن نعنى عناية خاصة بتاريخ الفن المصري والفن الإسلامي، وإذا كان مقال اليوم منصبا على الفن المصري وحده إجمالا، فأني أبدأ هنا بالتمهيد والتقديم له لأني لا أقصد بالكتابة مجرد الكتابة، ولا بنشر الصور مجرد التحلية، وإلا فما كان أهون عليّ من أن أتخير أجزل العبارات وأجمل المصورات، ولكني كما ترى أذهب بك ثمانية آلاف سنة إلى الوراء. لكي أستطيع أن أوضح في بساطة كيف نشأ الفن المصري وكيف نما وازدهر
والناظر إلى خريطة العالم يرى أن القطر المصري يتوسطها تقريبا إذا أراد أن يقسم الكرة الأرضية إلى قسمين متكافئي المساحة والتكوين، كما يرى أن وادي النيل أهم بقعة في القارة الأفريقية، ومن أهم مواقع الاتصال بين القارات جميعا.
وإذا كان هيرودوت قد قال بأن مصر هبة النيل , 4 , 351 - 355.) فلأنه كان ثاقب الفكر بعيد النظر، لتوقف حياة مصر على النيل مباشرة حيث نشأت في واديه أقدم مدينة عرفها التاريخ ولا يزال العالم أجمع يعجب بعظمتها في كل نواحيها
سارت هذه الحضارة والمدنية سيراً بطيئا طبيعياً ككل الحضارات الأخرى، مع فارق

واحد هو التبكير العجيب، وإن علمنا أنها بدأت منذ خمسة آلاف سنة، فإن ثلاثة آلاف قد سبقتها لتمهد لها أعني منذ أصبحت أرض مصر الواقعة على ضفتي النيل صالحة للزراعة
هب إلى وادي النيل جماعات من تلك التي كانت تعيش في الأراضي القاحلة بصحراء ليبيا، والدارس لمقابر هؤلاء وما وجد فيها من متروكات، يستطيع أن يقف على طرق معيشتهم وأحوالهم رغما عن قلة ما تبقى منها (ش1) فيرى أنهم صنعوا العصي من سيقان
الأشجار بمقابض من الحجر، كما زينوا أوانيهم الفخارية بأشكال متناظرة الرسم، متكررة الوضع لا تخرج عن خطوط مستقيمة متقاطعة أو منحنية أو دائرية، رسمت داخلها خطوط أخرى أقرب إلى الهاشور في أبسط مظاهره
وبمشاهدة مجموعات الأواني الفخارية يمكن ملاحظة التقدم التدريجي الذي طرأ عليها؛ فترى أنها اكتسبت شكلا تكوينياً أجمل (ش4) وزودت برسومات صغيرة مثلت شيئاً من حياتهم، فضلا عن التقدم الفني الذي نستطيع ملاحظته بمقارنة الأواني في (ش3) وفي (ش4) بعضها ببعض. والناظر إلى الآنية الوسطى من (ش4) يرى على سطحها الدائري رسوما ضعيفة، تمثل أناساً يحمل أحدهم إلى أقصى اليسار وعاء على رأسه، كما يرى على الجانب الأيمن للوعاء نفسه رسم النعام. أما الأواني الأخرى فهي أجمل شكلا وأكثر زخرفة مما لا يزال مستعملا إلى اليوم في مصر وبشمال أفريقية ببلاد الجزائر والمغرب، وهذا يدل على وجود صلة قديمة بهؤلاء.
ووجدت ببعض المقابر أمشاط للشعر، زينوها من أعلاها بأشكال كانت غالبا تمثل رؤوس حيوانات أو طيور أو رأس إنسان.
وصنعوا أسلحتهم من الصوان (ش2)، وكانت هذه خطوة لا يستهان بها، خصوصا لصلابته وصعوبة نحته وما يتطلبه ذلك من مجهود وعناية.
ولبس المصريون النعال المصنوعة من الجلد، وجعلوا لها أربطة (ش5) من الجانبين لتثبيتها على القدم.
وأخذوا يلتفتون تدريجيا إلى الزينة، فعملوا العطور ووضعوها في أوعية صغيرة كانت بأشكال مختلفة. واستمروا في تقدمهم فراجت مصنوعاتهم وانتشرت تجارتهم. وازدادت صلتهم بالبلاد المجاورة وازداد عددهم. كما عرفوا المعادن واستخدموها في مختلف أغراضهم وأدخلوها في صناعة أدوات الزينة والتحلية، فعملوا الأساور والعقود بعضها من الذهب ومن الحديد الأزرق الجميل الذي زادها رونقا، وأعطانا فكرة صادقة عن ندرته وغلائه.
وبدأت العقيدة الدينية تدب إلى نفوسهم نتيجة شعورهم بالوجدان والاجتماع، وأخذت نظرتهم إلى الحياة تتطور، فعملوا تعاويذ لجلب الرزق ولصد العين. وكانت هذه التعاويذ
عبارة عن طيور وحيوانات عبدها المصريون أيام تحضرهم، ورسموا بعضها في مناسبات كثيرة.
واعتقد المصريون بخلود الروح، فوضعوا في مقابرهم كثيرا من الحبوب والتمر والتحف السابقة لعصر التاريخ.
وعندما وصل المصريون إلى هذا المستوى، في وقت كان العالم فيه لا يزال في ظلمات الجهل، أخذوا يشعرون بحاجتهم إلى القانون وإلى الاتحاد لصد هجمات البلدان المجاورة، فقام فيهم الملك مينا موحدا البلاد، جاعلا من مصر السفلى والعليا مملكة واحدة ابتدأ بتأسيسها، فبدأ بذلك عصر مصر التاريخي أو عصر الأسرات.
(يتبع)
أحمد موسى
القصص
على كف القدر
للأديب السيد محمد زيادة
الحياة لغز معقد أعجب ما فيه أن يشقى من لا يستحق الشقاء وأن يهنأ من لا يستحق الهناء؛ ولكن رحمة الله قريب. . .
التف الولدان والبنتان حول أمهم في أول الليل يسألون عن العشاء، وراحت هي

. .تعللهم وتشاغلهم بما يلذ لهم من الحديث ليغمى على طفولتهم فيناموا
ثم ما لبثت صغرى البنتين أن استلقت على حجر أمها نصفها يقظان ونصفها هاجع، فحدبت عليها الأم ومالت تقبلها وتهز أعطافها برفق لتصرف عنها بقية يقظة وتسرب إليها بقية نعاس.
ثم نامت الفتاة طاوية تشيع على وجنتيها حمرة صفراء فيها معنى الطوى، وترقد بين أجفانها نظرة موهونة فيها معنى الألم، وتجول على شفتيها ابتسامة حزينة فيها معنى اليأس!!
ورأتها أمها نائمة لا يستقر على ملامحها الكرى، فحدقت في وجهها وأطالت التحديق. . فأي حزن أبلغ من حزن أم فقيرة تنظر إلى وجه ابنتها النائمة فترى الجوع والفقر يتصالحان لتذبل في صلحهما زهرة ناضرة؟.
وسقطت من عين الأم على خد الفتاة قطرة من الدمع. . . ثم نهنهت المسكينة دمعها، ورفعت رأسها إلى أعلى وقالت: يا رب!
ونظر الولد الأصغر إلى أمه بعد إذ تنهدت وقال: هاهي ذي قد نامت فلم يبق إلا نحن الثلاثة. . . أما لديك طعام لنا؟
قال الولد الأكبر: إذا كان لديها طعام فماذا كان يمنعها أن تقدمه؟. انتظر يا مجنون حتى يعود أبونا فأنا لا نملك الطعام أو ثمن الطعام إلا بعد عودته.
قال الولد الأصغر لأمه: وهل يحضر معه ما وعدني وهو خارج في الصباح بإحضاره يا أماه؟ أم يخلف ما وعد كما فعل بالأمس وكما يفعل كل يوم؟.
قالت الأم: سيأتيك بكل ما تطلب يا ولدي والله معينه.
قالت البنت الكبرى: إنه تأخر الليلة عن موعده يا أماه.
قال الولد الأكبر: أنا أعرف إنه تأخر ليملأ جيبه بالمال، وسوف ترون كيف يوسع علينا الليلة فتشبع بطوننا بكل ما نشتهيه.
وما هي إلا هنيهة حتى أقبل الرجل يتحامل على نفسه فيتقدم به شيء ويتأخر به شيء. . . يتقدم به الحنين إلى أولاده وتتأخر به الحسرة عليهم. . . فهو بين الماشي والواقف، يحمل على كتفه صندوقه وفيه تجارته يجوب بها الطرقات.
ورآه الأولاد مقبلاً فجنوا جنون الفرح، واستيقظت النائمة على أصواتهم، ونهضوا جميعاً يهللون ويصيحون: جاء أبونا. . جاء أبونا. . . أما هو فقد لقيهم بوجه كاسف مغبر، فكان كمن توقع مصيبة فوافته مصيبتان. وأسلم لهم يديه وجسمه يتعلقون به ويتواثبون حوله، وأبقى لنفسه رأسه بما حوى من فكر وما حمل من هم.
أما زوجته فقد علقت بصرها به فعرفت ما به، وبادلته نظرات مستصرخة بنظرات صارخة ثم تنفست وقالت: يا رب.
ووضع الرجل صندوقه وجلس إلى جوارها مكبكباً مخذولاً، والتأم الأولاد حولهما وقال الولد الأصغر: هل نكثت بوعدك يا أبي كعادتك؟. قال الرجل: لا يا بني. سأفي إن شاء الله
قال الولد: ومتى يشاء الله؟. كل يوم تقول هذا ولا تفعل شيئاً!!
قالت البنت الصغرى: لقد تأخرت يا أبي للآن ولم نأكل، ألم تدر أنني جائعة؟ إني سأخاصمك ولكن بعد العشاء
فضحك الرجل ضحكة باكية ثم قدم لزوجه ما في جيبه وقال: خذي هذا فهو كل ما رزقته في مطافي. . .
وما الذي كان في جيبه؟.
قرش ونصف قرش جناها الرجل من سعيه طول يومه، فهل تكفي لقوت أسره لا أدم عندها ولا خبز؟ يا رحمة الله بالمساكين! يا رحمة الله! أي فقر هذا؟
أطفال أبرياء يرهقهم الجوع وليس لديهم مما يحمله غير الصياح والتوجع، وليس حولهم مما يدفعه غير تسلية أمهم ووعودها وأم حسرى ممزقة الكبد، ترى أولادها وهم فتات قلبها نوحاً يتكلم الجوع بألسنتهم. ويتكلم ألم الجوع بعيونهم، وهي حيرى تسمع كلامهم بأذنها
وتحس آلامهم في قلبها. ولكنها لا تملك لهم شيئاً فلا تستطيع أن تفعل شيئاً، فهي محتوم عليها أن تظل صابرة على ما تسمع وما ترى. وأن تنسى نفسها بأولادها فتحمل كربتهم على كربتها، وأن تنظر دامعة ما يفلت من بين يدي القدر إلى يدي زوجها من

رزقه الحبيس.
ووالد بائس يعلم أن ورائه أربعة أطفال يمرغهم الجوع بين أحضان أمهم البرّة فلا يغنيهم حنانها عن الطعام. . . ويعلم إنهم يحيون في غير الحياة، وينتظرون عودة الحياة في عودته!! فيندلق في الطرقات ناحية فناحية يتبع شيئاً ممنوعاً، هو رزقه، ويصل شيئاً مقطوعاً هو حظه، ويقطع شيئاً موصولاً هو فقره. . .
ولكنه لا يبلغ بسعيه وجهاده غير ما يقدر له. . . وماذا يقدر للفقير غير الفقر؟ يا ويلتا!! يا ويلتا لهم!!
وجعل الرجل والمرأة يتشاوران، وراح كل من الأولاد يطلب شيئاً بينما لا يكفي القرش ونصف القرش لشراء شيء. . .
قالت البنت الصغرى: أريد أن آكل سمكاً فأنا أشتهيه من شهر وكلما طلبته تؤخرونه إلى يوم بعد كل يوم. وقد رأيت بنت الجيران تأكل منه بالأمس، ولولا إنني خفت أن تضربوني لشحذت منها؛ وكانت هي تنظر إلي مختالة ونظراتها تقول لي ما تقول. وكنت أنا أنظر إليها حزينة ونظارتي تقول لها ما تقول أيضاً
فتبللت أجفان الأم وصرخ قلبها صرخة وقالت: عزيز علي يا ابنتي - فاصبري لعل الله يرحمنا
قال الولد الأصغر: وأنا أريد أن آكل أرزاً. . .
قالت الأم: آه يا ولدي!! غداً أعمل لك الأرز
قال الولد: يا طالما تقولون غداً وما يأتي الغد بشيء. . . أريد أن آكل الآن أرزاً، وإلا فسأبكي. . .
وجهش الولد إلى أمه المسكينة، ثم بكى فبكت له وضمته إلى صدرها وعيناها مدرار تميح من قلبها الدموع
وبكت البنت الأخرى فبكى الولد الآخر. . .
أما الرجل. فكان مطرقاً واجماً لا يطيق أن يرى موقف البكاء في منظر الفقر بين زوجه وأولاده؛ وكان تائها في دنياه يرى بخياله ماضيه الرخي الناعم فيهز رأسه، ويرى بعينه حاضره الشقي المظلم فيزفر، ويرى بفكره مستقبله الحالك المقطب فيرتعد ثم ضاقت به نفسه فخرج على حكمة الرجولة وهوى من ثبات الإيمان إلى خور اليأس. وبكى. . . وبكى بكاء رجل، وما أمر بكاء الرجال!!.
ثم رفع المسكين رأسه وقال: يا رب ما ذنبي وذنب صغاري؟ ماذا يطعم هؤلاء الليلة وماذا يطعمون كل ليلة؟
قالت الزوجة: خفف عنك حملك. . . إن الله لم يخلقنا لينسانا. . . إنه يرانا. . . إنه قادر رحيم. . .
ثم قالت: سأخرج الآن لأشتري بالقرش خبزاً وبالنصف قرش جبناً ليأكل هؤلاء. وغداً يفعل الله بنا ما يريد
ورضي الأولاد أن يمسكوا رمقهم بالجبن، فشيء خير من لا شيء. . وخرجوا تصحبهم أمهم لتهون عليهم في الطريق مشقة انتظار الطعام، ومشوا حولها يتناقشون. . .
يقول هذا: أنا الذي أحمل الخبز، وتقول هذه: لا. . أنا التي أحمله. . . ويقول هذا: أنا الذي أصون الجبن، وتقول هذه: لا. . . أنا التي أصونه. . . ثم يقول هذا: أنا الذي أجلس إلى جنب أمي وقت الأكل، وتقول هذه: لا. . . أنا التي أجلس إلى جنبها. . .
حتى إذا كانوا على بعد خطوات من البدال كان النقاش بينهم على اشده، فعثرت أمهم بأحدهم فكادت تسقط على الأرض وسقطت النقود من يدها. .: فقفزت لترد القضاء ولكن القضاء أسبق!! حمل القرش والنصف إلى الطين ثم إلى الخفاء
يا لله!! يا لله!! ما هذه الدنيا؟ إنها لا ترحم ولا تعرف ألين في القسوة. نكبت هذه الأسرة بالفقر ثم لم يرضها هذا حتى نكبتها بفقر الفقر! يا أيها الأغنياء. . كيف يحل لكم عيشكم الرغيد وفي الحياة مثل هذه الأسرة؟
ومدت المسكينة يدها في الطين تبحث فلم تجد شيئاً. . . وجعلت تبحث فلا تجد. . . ثم وقفت ذاهلة وعيناها تذرفان ما سال من حشاها
ثم جمعت أولادها الباكين وعادت. . . ولكن كيف عادت؟
عادت محطومة يستغلق على إحساسها كل ما حولها. . . فلا تسمع شيئاً مما ترى، ولا ترى شيئاً مما تسمع؛ وكأنما انفضت من حولها الدنيا فلم يبق إلا هي وأولادها، وما بينها

. . .وبينهم إلا أنين وأنين
وإنهم ليقتحمون ظلمة الطريق بظلمة اليأس إذ أفلت الولد الصغير من بينهم
. . .فتأخر
!ثم صاح وهو يجري ليلحقهم: أماه. . . لقد وجدت قرشاً
وأخذت الأم ما في يده فإذا في يدها قطعة فضية بعشرين قرش. . . يا أرحم
الراحمين. . . ودارت الأم، ودار أولادها معها ومضوا. . . ومضوا إلى السوق
طنطا
السيد محمد زيادة
البريد الأدبي
التعاون الأدبي بين الشرق والغرب
ليس من ريب في أننا ندين بكثير من تكويننا العقلي الحديث للغرب
،ولآثار الثقافة والآداب والغربية. فنحن ننقل عنها وننتفع بها منذ أجيال
ولها أكبر حظ من قراءتنا واطلاعنا. بيد أننا نستطيع من جهة أخرى
أن نقول أن الأمم الشرقية بدأت تكوينها الأدبي الحديث، وأخذت تسير
في طريق الإنتاج المستقل وأخذ الغرب من جانبه يعنى بآدابنا كما
نعنى بآدابه وإن كانت هذه العناية لا تزال محدودة. ولقد ترجمت إلى
كثير من اللغات الأوربية بعض الآثار الشرقية الرائعة المحدثة، وكانت
الهند أوفر الأمم الشرقية حظاً من ذلك؛ فآثار تاجور مثلا تعرف في
الغرب كما تعرف آثار أعظم كتابه العالميين، وقد كانت الآداب العربية
المحدثة أقل حظاً في هذا الميدان، فلم يعن الغرب بها عناية كافية إما
لأنها لا تستحق في نظره أن يعنى بها، وإما لتقصير من جانبنا في
التعريف عنها؛ بيد أنه يلوح لنا أنه قد تتاح في المستقبل القريب فرص
جديدة للتعاون الأدبي بين الآداب العربية والغربية، فقد أثيرت مسألة
النقل والترجمة في أكثر من مؤتمر دولي في الأعوام الأخيرة، وأدلت
مصر بصوتها في هذه المؤتمرات على يد نادي القلم المصري؛ وقد
بدت أخيراً نتائج هذه الحركة بصورة عملية؛ فقد تقدمت بعض هيئات
النشر الإنكليزية إلى نادي القلم المصري تطلب معاونته في التعريف
،عن بعض الآثار العربية المصرية التي تصلح للنقل إلى الإنكليزية
وذلك لتترجم وتنشر بالإنكليزية، والمعروف أن هذه الهيئات قد وضعت
،مشروعاً كبيراً لترجمة الآثار الشرقية النموذجية إلى الإنكليزية
وأفسحت فيها مجالاً كبيرا للآثار العربية؛ وسوف يعنى نادي القلم
المصري ببحث هذه المسألة واختيار الآثار النموذجية الصالحة؛
والمرجو أن يسفر هذا التعاون في القريب العاجل عن أثره المحمود
في التعريف عن طائفة من كتابنا وآثارنا، وأن يتسع نطاقه مع الزمن
حتى يغدو تبادلا حقيقيا بين الآداب الشرقية والغربية.
مهرجان أولمبي للآداب والفنون:
وقفنا في الصحف الفرنسية الأخيرة على نبأ مشروع طريف تبحثه اليوم بعض الدوائر
الأدبية في مدينة مونبلييه، ذلك هو السعي إلى إقامة مهرجانات دولية أولمبية تمثل
الحركة العقلية والفنية. ولقد قيل في ذلك إن المهرجانات الأولمبية التي تقام في
عصرنا لا تمثل إلا ناحية واحدة هي الثقافة الرياضية، وهذه الناحية لا تمثل كل ما رتبه
القدماء على إقامة الاحتفالات الأولمبية، فقد كانت هذه المهرجانات الشهيرة تضم عدا
الرياضيين عدداً كبيراً من المفكرين والموسيقيين والفنانين يعرضون ثمرات قرائحهم
إلى جانب الألعاب الرياضية ويمثلون بذلك القوة العقلية والمهارة الفنية كما تمثل
الألعاب القوة البدنية والمهارة الرياضية. ويرى أصحاب هذه الفكرة أن ينظم كل أربعة
أعوام مهرجان أولمبي عقلي وفني في إحدى مدن أوربا التي اشتهرت بتراثها الفني أو
الثقافي مثل أوكسفورد وفلورنس وهيدلبرج ومونبلييه ورومة وأثينا وغيرها. وتختار كل
أمة من الأمم المشتركة في المهرجان وفداً يضم بعض المفكرين والشعراء
والموسيقيين والفنانين يعرضون في المهرجان ثمرات الحركة العقلية والفنية في
بلادهم في شكل قطع شعرية أو موسيقية أو تمثيلية أو محاضرات يلقيها أو يمثلها

الأخصائيون كل في ناحيته، وأن يقع الاختيار بالأخص على كل ما يصلح للعرض أو الإلقاء التمثيلي، ويختص كل وفد بيوم يعرض فيه ما لديه على ممثلي الأمم الأخرى، ويشمل البرنامج إقامة حفلات تمثيلية وموسيقية وراقصة عامة تتبارى فيها مختلف الوفود، ويقترح أصحاب الفكرة أن تكون مدينة مونبلييه مركزاً لأول مهرجان أولمبي عقلي إذ هي مهد قديم من مهاد الثقافة من الجنوبية. ثم يعقد المهرجان بعد ذلك كل أربع أعوام في إحدى المدن التي اشتهرت بتراثها العقلي أو الفني والتي لها طابع عالمي

نقول وهذا مشروع بديع بلا ريب، ومن المحقق أنه يلقى تأييداً من المفكرين والفنانين في أنحاء العالم، ومن المحقق أن تنفيذه يعاون في تقارب الشعوب وتعاونها معاونة لا تحققها المهرجانات الأولمبية الرياضية

أثر الفراعنة في الفن السينمائي

هل تصدق أن الأفلام الفكاهية التي تعرف باسم (مكي ماوس) والتي غدت من أشهر المناظر السينمائية في عصرنا إنما ترجع إلى أصل فرعوني؟! هذا ما يقوله العلامة الأثري البلجيكي الأستاذ جان كابار نزيل مصر الآن؛ فهو يقول لنا أنه انتهى في مباحثه إلى أن هذه المناظر والصور المحدثة قد عرفت في مصر الفرعونية قبل أربعة آلاف عام، وأنها وجدت مرسومة على القبور الفرعونية قبل أن تظهر على شعار السينما؛ ويستدل العلامة المذكور على صدق نظريته بما يأتي:

أولا - يوجد في متحف القاهرة صورة للملكة ماكيت وهي تشبه ميكي ماوس شبهاً عجيباً، وقد صورت وهي تتلقى احترام رعاياها

ثانيا - يوجد في متحف بروكسل الملكي وفي متحف التاريخ صورة لهذه الملكة ترى فيها وهي تتناول طعامها وأمامها قطة تقوم بخدمتها

ثالثا - توجد في متحف تورينو لوحة من ورق البردي صورت عليها صورة جوقة موسيقية من عدة حيوانات: حمار بيده معزف، وأسد ينفخ في مزمار، وتمساح بيده قيثارة، وقرد يقود الفرقة بحركاته وينفخ في مزماره؟ وهذه الصورة تماثل شريطاً من أشهر الأشرطة الفكاهية من نوع مكي ماوس التي عرضت أخيراً في دور السينما

ففي ذلك كله ما يدل على أن المصريين القدماء مع تمسكهم بالرسوم الدينية العميقة، وتعلقهم بالشعائر المقدسة، كانوا في نفس الوقت يمزجون فنونهم الرصينة ونقوشهم المقدسة، بنوع من الفكاهة، وعلى إنهم قد عرفوا قبل آلاف السنين أن يتخذوا من الحيوانات رموزاً لتمثيل الأفكار الفكاهية والسخرية الإنسانية على نحو ما يبدو الآن في الأفلام التي اتخذ أبطالها من الحيوانات وهي المعروفة بميكي ماوس

كتاب جديد عن مصر:

صدر أخيراً بالألمانية كتاب جديد عن مصر وضعه أستاذ مجري كان مديراً لمتحف فؤاد الزراعي وعنوانه: الاقتصاد الزراعي في مصر المعاصرة وفيه أبحاث مستفيضة في كل ما يتعلق بشؤون مصر الإقليمية والزراعية والصناعية، مثل تربة الأرض والنيل وطرق الري وخزان أسوان، والمواسم الزراعية، والمحاصيل، وزراعة القطن ونسجه، والقروض الزراعية والتعاونية واستغلال المصايد والملاحات وشئون الموصلات والتجارة الخارجية وغيرها مما يتصل بموضوع الاقتصاد الزراعي، ويختتم المؤلف كتابه ببحث قيم في وسائل تنمية الاقتصاد الزراعي المصري، ويبدي في بحوثه خبرة واطلاعاً واسعين، وقد تولت نشره مطبعة (شوليه) في فينا

رنيه بنجامان

قدم القاهرة منذ أيام قلائل الكاتب الفرنسي الكبير رنيه بنجامان، وقد ألقى محاضرة شائقة عن (رسائل بلزاك الغرامية) وسيلقي محاضرة أخرى في الخامس والعشرين من هذا الشهر عن (موليير وشخصيته) بقاعة يورت التذكارية. ومما يؤثر عن الكاتب الكبير إنه من أقدر المحاضرين في فرنسا، فهو يتمتع في الإلقاء بمواهب ساحرة، وأسلوبه جذاب رائع، وقد اشتهر بمحاضراته الأدبية والتاريخية الشائقة

كتاب الفصول والغايات لأبي العلاء المعري

هذا الكتاب الغريب في بابه العجيب في أسلوبه قد وضعه أبو العلاء في الوعظ وتمجيد الله فزعم بعض أعدائه إنه يعارض به القرآن. وقد فقد هذا الكتاب فيما فقد من آثار

هذا الفيلسوف حتى عثر على جزئه الأول الأستاذ محب الدين الخطيب وأهداه إلى المرحوم تيمور باشا، ثم قيض الله له صديقنا الأستاذ محمود حسن زناتي أمين الخزانة الزكية سابقاً فأخذ يقدم له ويعلق عليه ويشرحه ويصححه، وسيقدمه إلى الطبع عما قليل وهي بشرى نزفها إلى أصدقاء أبي العلاء من أعيان الأدباء والعلماء

الكتب

شعراء مصر وبيئاتهم

في الجيل الماضي

تأليف الأستاذ عباس محمود العقاد

أحوج ما يحتاج إليه أدبنا سواء في ذلك قديمه وحديثه، معرفة مكانة الأدباء والشعراء، لا من حيث البلاغة والفحولة والمعاني الشعرية في ذاتها فحسب، بل من حيث الخاصية النفسية لكل منهم ونوع مزاجه ووشائجه الإنسانية ونظرته إلى الطبيعة وفلسفته في الحياة إن كانت له نظرة وفلسفة

وقد تناول الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد في كتابه الأخير شعراء الجيل الماضي يتخللهم بلحظه الناقد وطبعه القويم، فإذا الرعيل المحشود في صعيد واحد تتبين له ألوان وشيات مهما خفتت وتقاربت، وتتميز له ملامح وسمات مهما خفيت وتشابهت، وإذا بكل شاعر من شعراء ذلك الجيل مبيت في حيزه، وكل أمر من أموره مقرر في نصابه. وقد انتظم الكتاب بين دفتيه الساعاتي وعبد الله فكري وعبد الله نديم وعلي الليثي ومحمد عثمان جلال ومحمود سامي البارودي وعائشة التيمورية وحفني ناصف وإسماعيل صبري والسيد توفيق البكري ومحمد عبد المطلب وحافظ إبراهيم وشوقي ثم كلمة ختام عن مدارس الشعر بعد شوقي

والأستاذ العقاد في كلامه عن هؤلاء لا يرسل القول إرسالاً، بل يدعمه كعادته بما أحاط به تحصيله الواسع وأدركه تفكيره العميق من بحوث عالية في رسالة الأدب للحياة وموازينه الصحيحة والفروق الفاصلة بين شعر الصنعة وشعر الطبع وبين الذوق الخاص والذوق العام

فالذوق ذوقان: فأما الشائع منهما فهو الذوق الذي يتملى الجمال ويستحسنه حين) يراه معروضا عليه. وأما النادر منها فهو الذوق الذي يبدع الجمال ويضفيه على الأشياء ولا يكون قصاراه أن يتملاه حيث يلقاه أو يساق إليه.

فالذين يحبون محاسن الطبيعة كثيرون يحسبون بعشرات الألوف وكل من يخرجون إلى

الرياض ويجلسون على الجداول ويسهرون في القمراء ويستمعون إلى شدو العصافير ويبتغون منازه الأرض في المواسم وأيام البطالة - هم محبون للطبيعة يشغفون بها كما يشغفون بالفرجة والاسترواح. وقد يشبههم في هذا بعض الأحياء التي تغرد على الشجر كلما آن الأوان أو تأوي إلى الظلال والأمواه كلما حنت إلى الراحة وبرد الهواء.

ولكن هذا هو الذوق الشائع كما قلنا، وليس هذا هو الذوق الخالق المحيي الذي يضيف من عنده شيئاً إلى شعور الناس بما يراه ويصفه ويحكيه

إنما صاحب الذوق الخالق المحيي هو الذي ينقل إليك إحساسه بالشيء القديم الموجود بين جميع الناس، فإذا بك كأنك تحسه أول مرة لما أودعه فيه من شعور وما أضفاه عليه من طرافة. فإذا وصف البحر أو السماء أو الصحراء أو الروضة فكأنما هو يجعلها بحره وسماءه وصحراءه وروضته لفرط ما مزج بينها وبين مزاجه وشعوره. وتسري إلى القارئ هذه الجدة فيرى هذه المناظر بعين غير التي كان يرى بها مألوفاته ومن ذاك المعين الفياض نبع وصف الأقدمين للطبيعة ومحاسنها ومخاوفها فتمثلوها - لفرط شعورهم بها - عرائس وحوراً وأطيافاً وأرواحاً وبعثوها جنة وشياطين وأغوالا. لأنهم عاشوا فيها وعاشت فيهم فمزجوها بدمائهم ولم ينظروا إلى الطبيعة كأنهم ينظرون إلى (سجادة) منسقة الخيوط مزبرقة الألوان مريحة لمن يمشي فوقها أو ينام عليها كما يستريح العديد الأكبر من رواد الرياضة في منازه الخلاء

فالرياض - عند الشاعر من هؤلاء - والخمائل والجداول والأنهار والسماوات هي بعينها رياض زوار (المواسم والآحاد) وخمائلهم وجداولهم وأنهارهم وسماواتهم لا تزيد ولا تنقص. . . . وأن بيتاً واحداً كبيت البحتري الذي قاله في الربيع:

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكاً ... من الحسن حتى كاد أن يتكلما

ليساوي كل ما نظم شاعرهم في ربيعياته وريحانياته: لأن الطلاقة والاختيال والبشاشة والحسن الذي يهم بالكلام هي علامات الربيع المبثوث في النفوس. وكل كلمة من هذه الكلمات تدل على النفس الحية التي تشاهد الربيع أكثر من دلالتها على الربيع الظاهر فيما يبدو للعيان أو على (السجادة) المزخرفة بالأصباغ والنقوش والدوائر والخطوط. . ولو لم يكن البحتري قد أحس بشاشة الطلاقة وزهو الاختيال وفرح الحياة النامية ونجوى الحسن

المتكلم حين شهد ربيعه لما كان لزاما أن يذكر هذه الكلمات ويجمع بين هذه الصفات. ولكانت له مندوحة عنها بوصف الأحمر أو الأخضر يبحث له عن أحمر أو أخضر مثله في محفوظات المشبهين، وبوصف العطر يطلق حوله الند والبخور، وكلمة من هنا وكلمة من هناك عن الخدود والعيون والوجد والهيام على نحو ما يفعل شعراء الصنعة وشعر الصنعة ليس على نهج واحد كله، فمنه ما هو زيف فارغ لا يمت إلى الطبيعة بواشجة ولا صلة. وليس فيه إلا لفظ ملفق وتقليد براء من الحس والذوق والبراعة. ومنه ما هو قريب إلى الطبيعة ولكنه - كما قدمنا - منقول من القسط الشائع بين الناس. فليس فيه دليل على شخصية القائل ولا على طبعه ولا تتبين فيه لمحة من الملامح ولا قسمة من القسمات التي يتميز بها إنسان بين سائر الناس

وليس هذا بشعر النفس الممتازة ولا بشعر النفس (الخاصة) إن أردنا أن نضيق معنى الامتياز. وليس هو من أجل ذلك بالشعر الذي هو رسالة حياة ونموذج من نماذج الطبيعة. وإنما ذلك ضرب من المصنوعات غلا أو رخص على هذا التسويم

والفرق بينه وبين شعر (الشخصية) إن الشخصية تعطيك الطبيعة كما تحسها هي، لا كما تنقلها بالمجاورة والسماع من أفواه الآخرين. فهذه هي الطبيعة وعليها زيادة جديد مطلوبة أبداً، لأن الحياة والفن على حد سواء موكلان بطلب (الفرد) الجديد أو النموذج الحادث، أو موكلان بطلب (الخصوص) والامتياز لتعميمه وتثبيته والوصول منه إلى خصوص بعد خصوص وامتياز بعد امتياز

واقرب ما يمثل به لذلك زارع يستنبت صنوف الثمار لينقي منها (المميز) في صفة من الصفات المطلوبة. فإذا عثر بالثمرة الواحدة التي وصل فيها إلى غرضه قومها وحدها بعشرات الأفدنة من الثمرات الشائعة عند غيره، لأنه بهذه الثمرة الواحدة ليستأثر بالطلب والإقبال ويعفي على ثمرات الشيوع والعموم

وهكذا الشخصية الممتازة في عالم الشعر أو في عالم الحياة عامة: (هي عندنا وعند الحياة التي أنشأتها أقوم من جميع المتشابهات الشائعات وإن كن جميعاً مطبوعات غير مقلدات ولا زائفات

وإنما يستحق الشعر أن يسمع ويحفظ حين يكون كهذا الشعر - وقد أورد الأستاذ أروع الأمثال عليه - الذي يرينا ما في الدنيا وما في نفس إنسان، ونعرف فيه الطبيعة على لون صادق ولكنه أيضاً لون بديع فريد لأنه لون القائل دون سواه، فتجتمع لنا غبطة المعرفة من طرفيها، ويتسع أمامنا أفق الفهم وأفق الشعور، إذ يتكرر الشعور الواحد باختلاف الشعراء كأنه مائة شعور، ويتكرر فهم الحقيقة الواحدة كأنها مائة حقيقة، (وتلك هي الوفرة التي تتضاعف بها ثروة الحياة، ونصيب الأحياء منها

وفي هذه الصفحات التي أدمجناها ما يجعل الإضافة والتعقيب فضولاً منا. وإن القارئ بعد هذا الذي قدمناه لاشك مؤثر أن يخلو بالكتاب ونفسه

(ص)

أحلام الصبا

للأديب إدوار حنا سعد

صفحة من القطع المتوسط 130

طبع بمطبعة مصر بالإسكندرية

قليل من أدباء الشباب في مصر من يجمع فن القصة إلى جانب الشعر، فالأديب الناشئ في طور التثقيف عادة أما أن يقتصر على قرض الشعر ويتجه إليه بكليته حتى يجعله يطغى على غيره من فنون الأدب، وإما أن يقتصر على القصة فتملك عليه زمامه وتشغله عما عداها من أغراض الأدب الأخرى، وأما أن يجمع بين الاثنين فيغلب أحدهما على الآخر ويطغى عليه

وبين يدي الآن مجموعة من الشعر والقصص أهداها إلي صديق أديب جمعها في كتاب

أسماه (أحلام الصبا). وقد قدم الأستاذ فخري أبو السعود للكتاب بمقدمة قصيرة، تناول فيها شخصية المؤلف ببعض التحليل ثم تكلم عن القصص وتحدث عن استقلال الكاتب في موضوعاته ومتانة صياغته للقصة، وربط أجزائها وحسن نسجها. وختم الأستاذ مقدمته بالكلام عن الشعر مستدلاً ببعض بيوت المؤلف في معرض حديثه ننتقل بعد ذلك إلى قسم القصص في الكتاب. . . فنرى إن قصص المؤلف وإن كانت تدور
حول موضوعات مطروقة من قبل إلا إنها حسنة السبك متينة الصياغة، تسيغ عليها البساطة روعة الحقيقة. وأذكر منها هنا قصة (أحلام الصبا) وقصة (رقصة شيطان) وأما الشعر فهو يشغل النصف الثاني من الكتاب، وللمؤلف نزعة شعرية وطابع خاص فهو يميل إلى الشعر الغنائي، ولذا كثيراً ما نراه يختار لذلك البحور القصيرة، وهو لا يهتم بجانب المعنى قدر اهتمامه بموسيقية الألفاظ، فكثيراً ما يخرج القارئ من بعض قصائده دون أن يلفت نظره معنى جديد. أما شعره في جملته فسهل الألفاظ، رقيق الديباجة، موسيقي التوقيع. . ومن جيد شعره قصيدة (أنت وأنا) وقصيدة (لقاء الحبيبين)
والمؤلف من أدباء الشباب الذين جمعوا بين القصة والشعر، وغلب أحدهما على الآخر، فنرى القصة غالبة عليه، وأغلب الظن إنه لو والها وصرف فيها بعض عنايته لكان له فيها مستقبل زاهر
أحمد فتحي مرسي
طلعت حرب
للأدباء: حافظ محمود- مصطفى الفلكي، محمود فتحي عمر
180 صفحة من القطع الكبير طبع بمطبعة مصر.
كثيراً ما يطالعنا كتاب الغرب وأدباؤه بدراسات تحليلية طويلة، وبحوث فائضة في حياة زعمائهم، اعترافاً بفضلهم وإشادة بذكرهم وحثاً لغيرهم على الاقتداء بهم والنسج على منوالهم
وهذه الناحية التحليلية التي نراها بين أدباء الغرب قلما نجد لها أثراً ظاهراً في الأدب الشرقي. . . فأدباء الشرق لا يعنون بدراسة زعيم ما، مادام بين ظهرانيهم، ومادامت تجري فيه دماء الحياة، حتى إذا ضمه القبر وواره التراب، بدءوا يجمعون شتات أخباره، ونثير آراءه وأفكاره، فيما يسمونه ببحث في حياة الراحل، أو تحليل لشخصية الفقيد وبين يدي الآن كتاب أعده منوالاً يجب النسج عليه، وثمرة فكرة طيبة يجب اقتفاء أثرها، وضعه ثلاثة جمعتهم بزعيم مصر الاقتصادي (طلعت حرب باشا) صلة وثيقة، فألموا بدقائق حياته عن قرب، ودرسوا شخصيته عن كثب، ثم كشفوا لنا في كتابهم عن صفحات
ناصعة من حياة ذلك الرجل العظيم، ودرسوا ماضيه وحاضره، وبينوا لنا آراءه وأفكاره لا في الناحية الاقتصادية فحسب، بل في غيرها من نواحي المجتمع، مستدلين بصفحات من مؤلفاته ونبذ من خطبه
وقد وفق الأساتذة المؤلفون إلى متانة نسج الكتاب وحبك خيوطه، مما لا يجعل الملل يتسرب إلى نفس القارئ أو يدركه الضيق من طول الكتاب
(ف)
ثورة العرب الكبرى
تأليف السيد عبد الحميد راضي
120 صفحة. ورق صقيل. مطبعة الجزيرة ببغداد
من بواعث الغبطة والسرور، أن نرى تلك النهضة الأدبية التي يحمل لواءها شباب العراق، والتي تنتظم ربوع دجلة والفرات تنشط يوماً بعد يوم، فتعيد إلى الأذهان سيرة السلف الصالح وذكريات الماضي المجيد. . .
وأمامي الآن قصة شعرية طريفة وضعها أديب عراقي، وتناول بها موضوع الثورة العربية الكبرى، فبسط لنا دقائقها وصور حوادثها- وقد بدأت القصة بتمرد العرب على الأتراك، وانتهت بوفاة الملك حسين بعد أن تنازل عن العرش لولده الملك علي وقد راقني موضوع القصة بقدر ما راقني أسلوبها، فالمؤلف في كتابه قوي الصياغة، متين النسج، غير متكلف النظم يرسل الشعر إرسالاً على سجية الشاعر المطبوع دون

تصنع أو تكلف
ولا يسعني هنا إلا أن أهنئ المؤلف بكتابه الفريد كما أهنئ العراق بأدبائه النابهين وشبابه الناهض
أ. ف
كتاب الشهر
تتقدم دار الثقافة العامة، وقوامها جماعة من شباب الجامعة وخيرة رجالها، وكبار أصدقائها
إلى قراء العربية في أقطارها بمشروعها الجديد (كتاب الشهر) وهو سلسلة من المؤلفات. يخرج كل مؤلف منها في موضوع مستقل يكتبه عالم أو مؤرخ أو أديب أو بحاثة متخصص، وتكون غاية هذه الكتب تلخيص وتيسير مباحث العلم والتاريخ والأدب والسياسة وتقريبها في أسلس أسلوب إلى أذهان قرائها، مراعية إلى جانب الدقة في اختيار المواضيع حسن العرض، ورخص الثمن حتى تكون في متناول الجميع. وقد اختيرت طائفة من فروع المعرفة العامة لتصدر بها السلاسل الأولى من كتب الشهر، وهي السياسة الدولية في أشخاص قادتها العالميين المحدثين. والتاريخ الإسلامي يمثله ستة من عظمائه لكل كتاب على حدة، وتاريخ مصر الحديث في كتب ستة، وتاريخ العقائد الشرقية القديمة يبحث تاريخ آلهتها وأنصاف آلهتها في أبديتها
وبين يدي القراء الآن، كتاب الشهر الأول عن هتلر وسيتبعه في الشهر التالي كتاب ثان عن موسوليني ثم ديفاليرا ثم مصطفى كمال ثم ستالين
فاقتناء هذه السلاسل، والحرص عليها، يكون لدى أصدقائها بعد مدة وجيزة، مكتبة نفسية لن تقل قيمة عن مكتبات كتب الجيب والست بنسات وغيرها التي عرفت في اللغات الأوربية. ولتيسير اقتناء السلاسل، وضعنا نظاماً للاشتراك فيها، وهو عشرة قروش لكل سلسلة، أي أنها تكون ثمناً لستة كتب (وتتضاعف القيمة للخارج)
ويسر دار الثقافة العامة، أن تجد لغيرتها على مستوى الفكر المصري العربي صدى يكون المكافأة الحقة لجهودها بعد أن اتضح من رخص أثمان الكتب، وقيمة الاشتراك في سلاسلها إلى جانب جودة الطبع، ما ينفي كل فكرة عن غايتنا هي مجرد الاتجار أو الكسب
محمد صبيح
العالم المسرحي والسينمائي
روميو وجولييت لشكسبير
إخراج ايرفنج تالبرج
لناقد (الرسالة) الفني
استطاع المرحوم (ايرفنج تالبرج) أن يخلد اسمه في عالم السينما كمخرج قوي وعظيم بإخراجه رواية روميو وجولييت. وتالبرج هذا كان من كبار مخرجي شركة مترو جلدوين ماير الذين يشار إليهم. كان جريئاً مجدداً، عمد إلى اقتباس أشهر المسرحيات العالمية الحديثة وإخراجها على الشريط. وتاريخه جليل حافل ولكنه في إخراجه البديع لهذه الرواية أضاف مجداً إلى مجد، وكان هذا الفلم خير عمل يختم به مخرج حياته الحافلة.
لم يكن تالبرج أول من اقتبس أعمال شكسبير للسينما الناطقة، بل سبقه إلى هذا المخرج المسرحي والسينمائي العظيم (ماكس رينهارت) إذ أخرج رواية (حلم ليلة صيف) ' وهي أصعب روايات شكسبير في الإخراج السينمائي، ولكن ذلك الفنان العبقري استطاع أن يبرزها على الشاشة في أجمل الصور وأحبها إلى النفس، فله في هذا فضل السبق إلى جانب الروعة التي لم يدركه أو يدانه فيها أحد. على أن أهم ما يمتاز به إخراج تالبرج هو الصدق وعدم المغالاة، والدقة في إبراز حوادث الرواية والمحافظة على روحها واستعمال الحوار الشعري الذي وضعه شكسبير نفسه
يعرف القراء أن اقتباس سيناريو من رواية مسرحية عمل من الصعوبة والدقة بمكان، لأن الكاتب يعمد إلى ترجمة الحوار إلى صور، وليس كل حوار يمكن أن يترجم إلى صور، والمسرحية مقيدة بزمان ومكان، ولكن روايات شكسبير تشذ عن هذه القاعدة، فالمسرح في عهد شكسبير لم يعرف المناظر التي تتغير، لأن الستار لم يكن قد عرف بعد، وكانت الحوادث تمثل على مسرح مرتفع ويُكتَفى بإبراز لوحة صغيرة مكتوب

عليها أسم المكان الذي تجري فيه الحادثة، وعلى رواد المسرح أن يتخيلوا المنظر أمامهم، ولهذا لم يتقيد المؤلف بالمكان فكثرت المناظر في الرواية الواحدة وكانت نتيجة ذلك تتابعاً مستمراً في الحوادث دون انتقال مفاجئ أو انقضاء فترات طويلة بين فصل وآخر؛ وهذا يشبه في
نواح كثيرة القصة السينمائية. ولهذا كان الطريق أمام كاتب سيناريو هذا الفلم ممهداً فلم يلق صعوبة تذكر في عمله وجاء الفلم مطابقاً للمسرحية في كل نواحيها ولقد أمكن المخرج ومساعديه أن يبرزوا الفلم في جمال وقوة وروعة، وللمدير الفني (جورج كيكور) فضل كبير في نجاح الفلم وظهوره في هذه الصورة الكاملة: من إتقان في المناظر والإضاءة والتصوير مما يليق برواية الحب الخالدة التي يحفظ كل شاب وفتاة حوادثها
لم تكن المناظر عظيمة ولا ضخمة ولا ذات ترف كبير وما إلى هذا مما يعمد إليه المخرج الأمريكي سيسيل دي ميل للتأثير في رواد أفلامه، فالمناظر بسيطة وفي حدود ضيقة، ولكنها تتسق مع القصة وحوادثها. ولقد أدت مهمتها في معاونة الممثلين على الوصول إلى قرارة النفوس
إن من يتتبع الفلم باهتمام لا يكاد يلمس للمخرج أو المدير الفني خطأ يحصيه عليه منذ بدء المعركة الأولى بين آل منتاجو وآل كابيوليت حتى موت روميو وجولييت وتصافح الزعيمين أمام قبرهما اللهم إلا موقفاً واحداً عندما تلتقي عينا جوليت بروميو وتنسى نفسها فالحوادث هنا تجري أسرع مما ينبغي
لعل أول ما خطر ببالي عندما سمعت بتوزيع الأدوار في الفلم أن نورما شيرر تكبر في السن عن الحد الذي يليق بجولييت وقدرت لها السقوط، ولكن الواقع كان عكس ما ظننت، فهذه الممثلة استطاعت أن تؤدي الدور على خير ما يكون وأن ترتفع به إلى أعلى درجات النجاح، فصورت الطفولة والسذاجة في جولييت الصغيرة حتى أحس رواد الفلم أن الممثلة التي أمامهم فتاة في الحلقة الثانية لا امرأة في الحلقة الرابعة، ولكنها مع هذا كانت تمثل بحذر وترقق من نبرات صوتها حتى تبدو صغيرة، فنجحت في التمثيل ولكنها لم تستطع أن تحيي الدور، وهنالك فرق كبير بين أن يحيي الممثل الدور وبن أن يجيد تمثيله
وليسلي هوارد شاب توافق سنه سن روميو وقد نجح في أداء الدور ولكن ليس إلى الحد الذي قدرناه. كانت حركاته ثقيلة وصوته خشناً أجش وإن كان يعبر وجهه تعبيراً حسناً موقفه في الفلم عكس موقف نورما شيرر فهو مع صغر سنه بدا كبير السن في الفلم
مثل جون باريمور دور (ماركيشيو) وكان بديعاً إلا أنه غالى في تصوير الشخصية، وهذه المغالاة تبدو لمن قرأ الرواية أو رآها على المسرح، ولكنه وهو يموت من أثر الطعنة التي أصيب بها كان بديعاً وقد وصل إلى القمة
والقسيس كان خشناً وقسمات وجهه قاسية ولم تبد منه نواحي الحنان والشفقة التي تحبب الإنسان إلى رجل الدين وتجعله يبوح له بمكنون سره، وأجاد بقية الممثلين أدوارهم ولاسيما المربية مما جعل الاتساق يسود الرواية ويجعل التمثيل في قوة الإخراج
عرضت سينما ديانا بالقاهرة ترجمة عربية للحوار ولكنها مع الأسف كانت ترجمة سخيفة، وكان ظهورها على الشاشة يتأخر دائماً، ونرجو لو تعنى إدارة السينما باللغة العربية وبرواد السينما من المصريين وعواطفهم أكثر من هذا.
يوسف تادرس
العدد 191 - بتاريخ: 01 - 03 - 1937
ثقافة مصر المستقلة
يجب أن تقوم على أسس جديدة
للأستاذ محمد عبد الله عنان
مصر في مفتتح عهد جديد، لا يتناول مركزها السياسي فقط، بل يتناول أيضاً كل شيء في حياتها العامة. ذلك أن التطورات السياسية العميقة تحدث أثرها دائما في سائر نواحي الحياة الاجتماعية والفكرية لأمة من الأمم؛ وقد كان تكوين مصر الاجتماعي في العصر الحديث وليد تطورات وأحداث سياسية خاصة، تختفي اليوم من الأفق ليحل

محلها عهد جديد بكل معاني الكلمة؛ وسيحدث العهد الجديد أثره في حياتنا الاجتماعية والفكرية؛ وستتوقف آثاره ونتائجه على مبلغ ما تبديه مصر ذاتها من استعداد وطموح ومن المعروف أن العوامل المعنوية في تقدم الأمم تسبق العوامل المادية دائما؛ ومصر الآن في مستهل المرحلة الأولى من العهد الجديد أي في طور التكوين المعنوي الذي يلائم هذا العهد. ولما كانت هذه المرحلة من أدق المراحل في حياة الأمم الناهضة، فإنه يجب على مصر أن توليها أفور عناية حتى تستطيع أن تشيد خلالها تكوينها المعنوي الجديد على خير الأسس التي تمهد لها طريق التقدم والنهوض ولا ريب أن الثقافة القومية هي أقوى دعامة يقوم عليها كيان الأمة المعنوي؛ وقد قطعت مصر بالفعل في هذا الميدان خطواتها الأولى، حتى قبل أن تحقق استقلالها السياسي؛ ولكنها مازالت في مفترق الطرق تنقصها عناصر الاستقرار في توجيه ثقافتها الجديدة. وهذا التردد طبيعي في تكوين الثقافات القومية الناشئة؛ بيد أنه يجب ألا يطول عهده، ويجب أن تحل مكانه عوامل الاستقرار المنشود بسرعة؛ وعندئذ يبدأ بناء الصرح المعنوي الذي يقوم عليه كل شيء في حياة الأمة الجديدة

ومصر تتمتع اليوم بثقافة حسنة، ولكن ينقصها كثير من العناصر القومية الحيوية. ومن الصعب أن نحدد لون هذه الثقافة أو نوعها، فهي اليوم مزيج متباين من ثقافات مختلفة يرجع تكوينه إلى ظروف مصر السياسية والاجتماعية في العصر الأخير. ولقد قيل في مناسبات كثيرة إن مصر تتمتع بنوع من الثقافة اللاتينية وإن هذا النوع من الثقافة، أعني اللاتينية، هو خير ما يلائم عقلية مصر ومشاعرها، كأمة من أمم البحر الأبيض المتوسط

الذي تغمر هذه الثقافة ضفافه الشمالية منذ العصور الوسطى، وإن الأمر يتعلق هنا بعوامل جغرافية واجتماعية لا سبيل إلى إنكارها؛ بيد أننا نشك في صواب هذه النظرية؛ والواقع أنه إذا كانت الثقافة اللاتينية أو بعبارة أخرى الثقافة الفرنسية قد غلبت على الثقافة المصرية في القرن التاسع عشر، فإن ذلك يرجع بالأخص إلى حوادث وظروف تاريخية طارئة، أخصها مقدم الحملة الفرنسية إلى مصر، وما بذلت خلالها مقامها القصير بمصر من مجهودات علمية وثقافية محمودة. وما كان من اعتماد محمد علي بعد ذلك على نصح المستشارين والعلماء الفرنسيين في تنظيم ثقافة مصر الجديدة؛ هذه هي الظروف والعوامل الحقيقية التي نشأ فيها لون ثقافتنا اللاتيني، ولا دخل هنا للعوامل الجنسية والجغرافية في هذا التطور الثقافي الطارئ؛ والدليل على ذلك أن طابع ثقافتنا الفرنسي قد ضعف في العصر الأخير، وقوي فيها الطابع السكسوني نظراً لتغلب النفوذ الإنكليزي في شؤون التربية والتعليم، وتسرب العوامل الثقافية الجديدة إلى المجتمع المصري

والآن ومصر في مستهل عهد جديد من تاريخها يمتاز بآفاقه الحرة المستقلة، نرى أنه يجب على مصر أن تعمل، كما تعمل جميع الأمم المستقلة الناهضة على أن تطبع ثقافتها الجديدة بطابع قومي واضح؛ وأول ما يجب عليها في ذلك هو أن تجانب اصطفاء ثقافة أجنبية بعينها، وأن تنظر إلى مختلف الثقافات والحضارات نظرة واحدة تأخذ منها جميعاً ما يصلح لإنشاء ثقافتها الخاصة، وان تنسق ذلك المزيج المستخلص من الثقافات المحدثة وتدعمه بالعناصر القومية التي تسبغ عليه طابعه القومي المنشود

والمعروف أن الثقافات القومية تعتمد دائماً على أمور جوهرية منها إذكاء الروح والتقاليد الوطنية، وتقوية اللغة القومية، وتدعيم المثل الأخلاقية، والعناية بالتاريخ القومي، وتقديم الشؤون والدراسات القومية على غيرها. ولا مرية في أن ثقافتنا الحالية ضعيفة في معظم هذه النواحي، فهي بعيدة أولا عن ذينك التخصيص والاستيعاب اللذين تأخذ بهما جميع الثقافات المستقلة في الدراسات القومية، بل يلاحظ بحق إن ثقافتنا الحالية تعتمد على المعلومات والدراسات السطحية العامة، فتقتبس القليل السطحي من كل شيء، ولا تتجه إلى التخصص والإتقان في شيء؛ وهذا عيب جوهري يجب تداركه بأسرع ما يستطاع، ثم إن ثقافتنا لا تكفي بصورتها الحالية لتغذية الروح الوطني الناشئ، لأن أنظمتها وبرامجها الحالية وضعت في جو خانق من الريب والحجر على العواطف والأماني الوطنية، فوجب أن تبحث من جديد في ظل العهد الجديد، وأن تفسح مجالا لكل ما يعاون في

تنمية الروح الوطني؛ ومن جهة أخرى فقد لبثت اللغة القومية، أعني اللغة العربية، عصراً ضحية هذه السياسة القديمة، ولولا أنها استطاعت أن تقاوم ضغط الأجنبي بكل ما فيها من حيوية، وأن تشق لنفسها طريقها المستقل خارج المعاهد الحكومية في الآفاق الحرة، لما استطاعت أن تنهض كما تنهض اليوم؛ بيد أنه لا يزال علينا أن نحررها من شوائب المؤثرات والمنافسات الأجنبية التي تعرقل نهضتها، والتي هي من بقايا عهد طويت صفحته، فاللغة العربية يجب أن تتبوأ مقامها الأول في كل معاهدنا ودراساتنا كلغة أصلية لا تنافسها في هذا المقام أية لغة، ويجب أن تكون لغة التربية والتعليم في كل مراحل الدراسة، إلا ما اقتضته مصلحة الدراسة ذاتها؛ ويجب أن يختفي من معالم حياتنا العامة ذلك المزيج المؤلم من لغات أجنبية يستعمل بلا ضرورة في كثير من دوائرنا ومصالحنا الحكومية، بل وفي بعض بيئات مجتمعنا الرفيع، فقد حان الوقت الذي يجب أن تختفي فيه هذه الآثار الأخيرة التي ترمز إلى سيادة فكرية أو اتفاقية أجنبية لا وجود لها اليوم

أما عن دراسة التاريخ القومي التي هي اليوم من دعامات الروح الوطني في جميع الأمم المستقلة، فمن الأسف أنها انتهت في العصر الراحل إلى حالة يرثى لها؛ ومازال التاريخ القومي يغمط حقه من جميع النواحي، ومازلنا نتلقى عن تاريخ الأمم والحضارات والشخصيات الأجنبية أضعاف ما نتلقى عن تاريخنا وتاريخ شخصياتنا وحضارتنا، ولم يكن ذلك غريبا في عهد السيادة الأجنبية لأنها تعرف بخبرتها في طبائع الشعوب ومشاعرها أن الأمم ذات التواريخ الحافلة المجيدة، تهتز في عصور الضعف والانحلال لذكرياتها القديمة، وتستمد منها الوحي والقوة في مغالبة الخطوب وشحذ الشعور الوطني؛ وقد كانت أساليب التربية القديمة ترمي إلى محاربة ذلك الشعور وإضعافه، وكان التاريخ القومي من العناصر الثقافية التي قضي عليها بالمسخ والمحو تقريباً؛ أما اليوم فإن الاستقلال الوليد في أشد حاجة لأن نحيطه بسياج من تاريخنا القومي، وان توطد دعائمه بما يبعثه إلى نفوسنا استعراض هذا التراث الحافل من اعتزاز وطموح إلى استئناف تاريخنا المجيد، وربط مستقبلنا بماضينا، وهذا عنصر في تغذية الشعور القومي تعرفه الأمم

المستقلة وتعنى به اشد عناية

وأخيراً يجب ألا ننسى ما للناحية الخلقية في تكوين الثقافة القومية من أهمية خاصة. ولسنا بحاجة لأن ندلل على أن المثل الأخلاقية الرفيعة يجب أن تكون غاية الغايات في كل ثقافة عظيمة؛ فإذا كان الماضي قد طوى بسيئاته ومثالبه المعنوية فمن ألزم واجباتنا في العهد الجديد أن نعمل على إخراج جيل جديد يتمتع بالجرأة والصراحة واستقلال الرأي وسلامة التفكير والتقدير؛ فهذه القوى المعنوية والأخلاقية ضرورية لحماية الاستقلال القومي ضرورة الجيوش ذاتها

والخلاصة أن ثقافتنا الجديدة يجب أن تكون وليدة ثورة حقيقية، سواء في نظمها أو روحها أو مادتها؛ يجب إلا تكون ثقافتنا المستقبلة كما كانت في الماضي، معتركا لتنافس الثقافات والمؤثرات الأجنبية المختلفة. بل يجب أن تكون ثقافة مصرية خالصة، حرة من كل تيار غير مرغوب فيه؛ ويجب أن تكون ثقافاتنا غزيرة عميقة في نفس الوقت، تأخذ بالتخصص في جميع الدراسات والشؤون الجوهرية، ولا تخلو مع ذلك من التعميم النافع؛ وأخيراً يجب قبل كل شيء أن يتبوأ الطابع القومي مقامه الأول في صوغ ثقافتنا وفي توجيهها.

محمد عبد الله عنان

النحو

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

النحو علم لا أعرف منه إلا اسمه. وما أكثر ما أجهل وأضأل ما أعرف! ولو كنت وجدت من يعلمنيه لتعلمت وما قصرت. وكيف بالله تنتظر مني أن أعرفه بالفطرة والإلهام. . . كان أول من قيل لنا إنه معلم نحو رجلا قاسياً سيئ الطباع سريع البادرة، وكانت له عصا قصيرة من الخيزران يدسها في كمه، حتى إذا أمن أن يراه الناظر أخرجها وسلطها على أجسامنا الصغيرة وأهوى بها على أيدينا وجنوبنا ورؤوسنا فلا يتركنا إلا بعد أن ينقطع نشيجنا وتخفت أصواتنا وتذهب عنا القدرة على الصراخ والاستنجاد، فلم يكن ابغض إلينا من درسه. ومن المضحك أن ذلك لم يكن يخيفنا منه

ولا يزيدنا إلا إلحاحاً في معابثته. وكنت أنا أثقل التلاميذ عليه وأبغضهم إليه، لأني كنت - وأحسب أني مازلت - شيئاً صغيراً جداً وخفيفاً مستدقاً لا استقر في مكان. ولا أزال أنط من هنا إلى هنا ولا يكف لساني عن الدوران. فكان نصيبي من هذه العلقات النصيب الوفر وحضي هو الأجزل. وكان الناظر فيه سذاجة عجيبة لم تفتنا نحن الأطفال. وكيف كان يمكن أن يفوتنا التفطن إلى سذاجته ونحن مئات من الأطفال لنا مئات من العيون نفحصه بها، ومئات أخرى من الآذان والرؤوس تسمعه وتتدبر أمره وتجسه وتختبره. . فكنت أذهب إليه وأقول له على سبيل الملق والدهان: (يا سعادة البك) فيلتفت بوجهه الكبير إلي ويقبل علي بابتسامته البلهاء، فقد كانت الرتبة جديدة وفرحه بها عظيما. ويسألني (مالك يا امن (بالميم فقد كان أخن) عبد القادر) فأقول له: (يا سعادة البك. الشيخ فلان يا سعادة البك معه عصا يخفيها في كم القفطان ويضربنا بها يا سعادة البك) وكنت صادقاً ولكنه لم يكن يعرف أني صادق؛ غير أنه كان يسمع (سعادة البك) تصافح أذنه مرات عديدة في نصف دقيقة فيطرب، ويصرفه الطرب عن التثبت فيقول لي - متآمراً معي - (طيب. رح إلى الفصل وعاكسه) أي والله كان يحرضني على معاكسة الشيخ المسكين ليضبطه - كما يقال - متلبساً بالجريمة، أو كان يكتفي بأن يأمرني بالعودة إلى الفصل ثم يدخل هو ويفاجئ الشيخ بانتزاع العصا من كمه ويوبخه أمامنا وينصرف. فتصيح أربعون حنجرة جديدة (هيه) فيكاد الشيخ يجن وينهال علينا ضرباً باليدين والرجلين فتنكشف سراويلاته فيعلو الصياح من جديد، ولكنه يكون قد تعب وأضناه الجهد وبهر أنفاسه العدو وراءنا فيقف وهو ينهج ويخرج المنديل من جيب القفطان ويمسح به العرق المتصبب ونحن جميعاً نتكلم وليس بيننا واحد يصغي إلى ما يقال

هذا كان أستاذنا في النحو. ولو أنه كان موفقاً في التعليم لكان الناظر وحده كفيلا بإفساد الأمر عليه. فقد كان يتظاهر بالعلم بكل شيء وهو لا يعرف شيئاً. فإذا تورط ولم يسعه إلا الاعتراف بجهله قال: (جاهل جاهل. لكن إداري تمام) ومن ظريف ما اذكره من نوادره أنه دخل علينا في درس ترجمة وكان المعلم غائباً. ولم يكن هو يعرف ذلك وان كان فيما يزعم إدارياً حاذقاً. ولكنه سمع ضجتنا العالية فسأل فقيل له إن هذه الفرقة ليس فيها معلم، فلم يندب غيره بل جاء هو إلينا بنفسه وبطوله وعرضه وسألنا: (ما لكم يا أولاد؟) قلنا (يا سعادة البك المعلم غائب) قال (الدرس إيه) قلنا (ترجمة يا سعادة البك) فانشرح صدره واغتبط وأيقن أنه سيظل يسمع منا ما يسره فقال: (طيب وايه يعني؟) فقلنا (يا سعادة البك لم نفهم الدرس السابق يا سعادة البك) فسأل عن هذا الدرس السابق الذي استعصى علينا فقلنا له انه كان يحاول أن يعلمنا النفي في اللغتين العربية والإنجليزية ولكنا لم نفهم عنه. فأعرب لنا بعبارات صريحة عن دهشته وتعجبه لوزارة المعارف التي تعين مدرسين لا يحسنون تفهيم لتلاميذ، وأكد لنا أنه يعطف علينا لأننا نؤدي للوزارة أجور التعليم كاملة ولا نتعلم مع ذلك شيئاً. ثم قال أن المسألة بسيطة وأن النفي سهل جداً وأن أدواته في اللغة العربية معروفة وهي (لا ولم ولن الخ) والأمثلة سهلة ومعروفة، وشرع يسوق الأمثلة. فلما بلغ (لم) قال (مثلا. . لم كتب. لم ضرب. لم ذهب) فانفجرنا ضاحكين وكان لنا العذر. وكيف لا نضحك من (لم كتب ولم ضرب) فلما سكنت العاصفة بعض السكون قال يوبخنا ويزجرنا ويعظنا: (تضحكون؟. . ابكون. . ابكون. .) فلم يبق منا طفل على مقعده من شدة الضحك. ولم يسكتنا الخوف منه وإنما أسكتنا الألم الذي صرنا نحسه في بطوننا من الضحك الطويل

هذا في التعليم الابتدائي. أما في التعليم الثانوي فقد كان أول معلم لي فيه مصابا بالربو، فكان لا ينفك يسعل ويتفل حتى توجعنا بطوننا، ولهذا كنا ننام في درسه أو نهرب منه اتقاء لوجع البطن. ثم صار لنا معلم آخر وكان سياسيا ولكنه كان في هذا نسيج وحده، فكان يغلق النوافذ ليأمن أن يسمع أحد ما ينوي أن يقول - أعني ما ينوي أن يفضي إلينا به من الأسرار. ثم يشرع في الحديث فيصف لنا كيف كان الحكم المصري على عهد الخديو إسماعيل ظالما، فنجادله وينقضي الدرس كله في هذا الجدل العجيب. ولست أدري لماذا كان يجشم نفسه إغلاق النوافذ. ولو أن الناظر الإنجليزي سمعه لكان حقيقا أن

يسر لا أن يغضب، ولكني أحسبه كان يفعل ذلك ليكون تأثير كلامه في نفوسنا ابلغ.
والعجب بعد ذلك أن تلاميذه كلهم صاروا وطنيين متطرفين في وطنيتهم لا خونة لبلادهم كما كان يشتهي هو أن يكونوا
فممن كنت أتعلم النحو بالله؟. وما الذي كان يمكن أن يغريني أن أتعلمه وحدي؟. ثم ما فائدة هذا النحو الذي لم أتعلمه ولم أحتج إليه. . وعسى من يسأل: (وكيف كنت تصنع في الامتحانات؟ فأقول إني كنت أقرأ ورقة الأسئلة واترك النحو إلى آخر الوقت ثم أتناوله وأروح أجمع طائفة من الأمثلة أستخلص منها القاعدة فأجعل هذا جوابي. ولاشك أنه كان لا يخلو من نقص ولكنه لم يكن خطأ كله. هذه كانت طريقتي وقد استغنيت بها عن حفظ ما في كتب النحو. وأراني الآن أصبحت كاتباً - وقد كنت في زماني شاعرا كذلك - وقد وسعني هذا وذاك بغير معونة من النحو. بل من غير أن أتعلم العروض. وأذكر أني وأنا في مدرسة المعلمين العليا كان الشيخ حمزة فتح الله هو الذي يتولى امتحاننا في اللغة العربية - على الأقل في إحدى السنين - وكان من أعضاء اللجنة التي هو رئيسها الشيخ عبد العزيز شاويش وفتح الله بركات بك وأستاذنا في المدرسة؛ وكنا ندخل على اللجنة واحداً واحداً كما هي العادة فأخبرني الذين سبقوني إلى أداء الامتحان أن الشيخ حمزة عليه رحمة الله يفتح كتاب النحو والصرف ويأمر الطالب أن يسمعه الباب الفلاني، وكانت هذه مبالغة ولكنا صدقناها، فأيقنت أني مخفق ووطنت نفسي على معركة. وجاء دوري فدخلت، فناولني مقدمة ابن خلدون وقال افتحها في أي موضع واقرأ، ففعلت، فأمرني أن أضع الكتاب وشرع يسألني عن كلمة (العدوان) ما فعلها الثلاثي ولماذا يقال (اعتدينا) - بفتح الدال للماضي - واعتديا (بكسرها للأمر. فلم أعرف لهذا جوابا، فقلت: (هكذا نطق العرب وعنهم أخذنا). فألح في طلب الجواب المرضي فقلت (إن اللغة نشأت قبل القواعد. وأنا أنطق وأكتب وأقرأ كما كان العرب يفعلون من غير أن يعرفوا قاعدة أو حكما) فساءه جوابي ونهرني وخشي الشيخ شاويش العاقبة فقال له: (يا مولانا. العصر وجب) فنهض الشيخ حمزة لصلاة العصر وتركني لزملائه فأسرعوا في امتحاني قبل أن يفرغ الشيخ ويعود
وأحسب أن ما وسع العرب الأولين من معرفة العربية بلا نحو لا يعجز عنه أبناء هذا الزمان. ومن الميسور فيما أعتقد أن تحل قراءة الأدب العربي محل النحو. وليس يعجز رجال العربية عن وضع مختارات صالحة لكل سن. وإذا كان لابد من النحو فليكن ذلك عرضا وأثناء القراءة وعلى سبيل الشرح وللاستعانة به على الفهم، وعلى إلا يكون ذلك درسا مستقلا يؤدى فيه امتحان. أما الطريقة التي يتعلم بها أبناؤنا العربية فإني أراها مقلوبة لأنها تبدأ بما يجب الانتهاء إليه. ومن ذا الذي يتصور أن صبياً صغيراً يستطيع أن يفهم ما الفعل وما الاسم وما الحرف. وأن هذا يكون حكمه كيت وكيت وذاك يجري عليه كذا وكذا من. . وإن هذه الفتحات والضمات والكسرات علامات إعراب أو لا أدري ماذا هي، وأن لفظا يكون مسندا ولفظا يكون مسندا إليه إلى آخر هذه الألغاز التي لا يعقل أن يدركها طفل صغير. بل إني أنا الكبير أردت منذ بضعة أيام أن أراجع شيئا في النحو ففتحت وقرأت فيه شيئا ثم وضعته يائسا من الفهم ولجأت إلى وسيلة أخرى كانت أجدى علي من هذا الكلام الذي أراه يفهم، وذلك أني كتبت الوجهين اللذين حرت بينهما واختلط علي الأمر فيهما فلم أعد أدري أيهما الصواب وأيهما الخطأ، ثم ذهبت أنظر إليهما فالذي سكنت إليه نفسي أخذت به وتبنيت بعد ذلك أن ما أخذت به كان هو الصحيح وأن عيني لم تخدعني وأن نفسي إنما اطمأنت إلى ما طال عهدها به من الصواب. أما ما لم تألفه أثناء مطالعاتي فقد رفضته. والطريقة التي أشير بها تجعل العربية سليقة على خلاف ما هو حاصل الآن فإن أبناءنا يتعلمون العربية كما يتعلمون الإنجليزية أو أية لغة أجنبية أخرى لا يشعرون بصلة بينها وبين نفوسهم. وكثيرا ما يتفق أن يخرج التلميذ وهو أعرف باللغة الأجنبية منه بالعربية. وليس بعد هذا فشل والعياذ بالله. وأسأل من شئت فلن تجد أحداً لا يقول لك إن اللغة العربية انحطت - أعني ضعف العلم بها - في هذا الجيل. ولست أعرف لهذا سببا إلا أن التلاميذ لا يتعلمون اللغة وإنما يحفظون نحوا وصرفا وبلايا كثيرة أخرى مثل البلاغة الخ لا تعلمهم اللغة وإنما تبغضها إليهم. فإذا كان التبغيض هو الغاية المنشودة فلا

شك أن المعلمين قد وفقوا إلى ما لا مزيد عليه. أما إذا كان الغرض هو تعليم اللغة فخير الأساليب هو الأسلوب الطبيعي الذي يتعلم به الطفل الكلام

إبراهيم عبد القادر المازني

. . .صعاليك الصحافة - 3

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

ولم يلبث أن رجع أبو عثمان في هذه المرة وكأنه لم يكن عند رئيس التحرير في عمله وأدائه، بل كان عند رئيس الشرطة في جنايةٍ وعقابها. فظهر منقلب السحنة انقلاباً دميماً، شوّه تشويهه وزاد فيه زيادات. . . . ورأيته ممطوط الوجه مطّاً شنيعاً، بدت عيناه الجاحظتان كأنهما غير مستقرتين في وجهه، بل معلقتان على جبهته . . .

وجعل يضرب إحدى يديه بالأخرى ويقول: هذا باب على حِدَةٍ في الامتحان والبلوى، وما فيه إلا المئونة العظيمة والمشقة الشديدة؛ والعمل في هذه الصحافة إنما هو امتحانك بالصبر على اثنين: على ضميرك، وعلى رئيس التحرير. (وسأل بعض أصحابنا أبا لقمان الممرور عن الجزء الذي لا يتجزأ ما هو؟ فقال: الجزء الذي لا يتجزأ عليّ بن أبي طالب عليه السلام. . . فقال له أبو العيناء محمد: أفليس في الأرض جزء لا يتجزأ غيره؟ قال: بلى. حمزة جزء لا يتجزأ. . . قال: فما تقول في أبي بكر وعمر؟ قال: أبو بكر يتجزأ. . . قال: فما تقول في عثمان؟ قال: يتجزأ مرتين، والزبير يتجزأ مرتين. . . قال: فأي شيء تقول في معاوية؟ قال: لا يتجزأ

فقد فكرنا في تأويل أبي لقمان حين جعل الأنام أجزاء لا تتجزأ إلى أي شيء ذهب؟ فلم نقع عليه إلا أن يكون أبو لقمان كان إذا سمع المتكلمين يذكرون الجزء الذي لا يتجزأ، هاله ذلك وكبر في صدره وتوهم أنه الباب الأكبر من علم الفلسفة. وأن الشيء إذا عظم خطره سموه بالجزء الذي لا يتجزأ)

. . .قلت: ورجع بنا القول إلى رئيس التحرير

فضحك حتى أسفر وجهه ثم قال: إن رئيس التحرير قد تلقى الساعة أمراً بأن الجزء الذي لا يتجزأ اليوم هو فلان؛ وأن فلانا الآخر يتجزأ مرتين. . . وأن المعنى الذي يبنى عليه رأي الصحيفة في هذا النهار هو شأن كذا في عمل كذا؛ وأن هذا الخبر يجب أن يصور في صيغة تلائم جوع الشعب فتجعله كالخبز الذي يطعمه كل الناس وتثير له شهوة في النفوس كشهوة الأكل، وطبيعةٌ كطبيعة الهضم. . . وقد رمى إليّ رئيس التحرير بجملة الخبر؛ وعليّ أنا بعد ذلك أن أضرم النار وأن أجعل التراب دقيقاً أبيض يعجن ويخبز ويؤكل

ويسوغ في الحلق وتستمرئه المعدة ويسري في العروق

وإذا أنا كتبت في هذا احتجت من الترقيع والتمويه، ومن التدليس والتغليط، ومن الخِبّ والمكر، ومن الكذب والبهتان - إلى مثل ما يحتاج إليه الزنديق والدهريُّ والمعطل في إقامة البرهانات على صحة مذهب عرف الناس جميعا أنه فاسد بالضرورة إذ كان معلوماً من الدين بالضرورة أنه فاسد. وأين ترى إلا في تلك النّحل وفي هذه الصحافة أن ينكر المتكلم وهو عارف أنه منكر، وأن يجترئ وهو موقن أنه مجترئ، ويكابر وهو واثق أنه يكابر؟ فقد ظهر تقدير من تقدير، وعمل من عمل، ومذهب من مذهب؛ والآفة أنهم لا يستعملون في الإقناع والجدل والمغالطة إلا الحقائق المؤكدة؛ يأخذونها إذا وجدت ويصنعونها إن لم توجد، إذ كان التأثير لا يتم إلا بجعل القارئ كالحالم يملكه الفكر ولا يملك هو منه شيئاً، ويلقى إليه ولا يمتنع، ويعطى ولا يرد على من أعطاه

قلت: ولكن ما هو الخبر الذي أرادوك على أن تجعل من ترابه دقيقاً أبيض؟

قال: هو بعينه ذلك الشأن الذي كتبت فيه لهذه الصحيفة نفسها، أنقضه وأسفهه وارد عليه وكان يومئذ جزءاً يتجزأ. . . فإن صنعت اليوم بلاغتي في تأييده وتزيينه والإشادة به، ولم يكن هذا كاسراً لي، ولا حائلا بيني وبين ذات نفسي - فلا أقل من أن يكون الجاحظ تكذيباً للجاحظ. آه لو وضع الرديو في غرف رؤساء التحرير ليسمع الناس . . .

قلت: يا أبا عثمان. هذا كقولك: لو وضع الرديو في غرف قواد الجيوش أو رؤساء الحكومات

قال: ليس هذا من هذا فإن للجيش معنى غير الحذق في تدبير المعاش والتكسب وجمع المال؛ وفي أسراره أسرار قوة الأمة وعمل قوتها؛ وللحكومة دخائل سياسية لا يحركها أن فلانا ارتفع وأن فلانا انخفض، ولا تصرّفها العشرة أكثر من الخمسة؛ وفي

أسرارها أسرار وجود الأمة ونظام وجودها
قال أبو عثمان: وإنما نزل بصحافتنا دون منزلها أنها لا تجد الشعب القارئ المميز الصحيح القراءة الصحيح التمييز، ثم هي لا تريد أن تذهب أموالها في إيجاده وتنشئته. وعمل الصحافة من الشعب عمل التيار من السفن في تحريكها وتيسير مجراها، غير أن المضحك أن تيارنا يذهب مع سفينة ويرجع مع سفينة. . . ولو أن الصحافة العربية وجدت
الشعب قارئاً مدركا مميزاً معتبراً مستبصراً لما رمت بنفسها على الحكومات والأحزاب عجزاً وضعفاً وفسولة، ولا خرجت عن النسق الطبيعي الذي وضعت له، فإن الشعب تحكمه الحكومة، وإن الحكومة تحكمها الصحافة، فهي من ثم لسان الشعب؛ وإنما يقرأها القارئ ليرى كلمته مكتوبة. وشعور الفرد أن له حقاً في رقابة الحكومة وأنه جزء من حركة السياسة والاجتماع هو الذي يوجب عليه أن يبتاع كل يوم صحيفة اليوم
قال أبو عثمان: فالصحافة لا تقوى إلا حيث يكون كل إنسان قارئاً، وحيث يكون كل قارئ للصحيفة كأنه محرر فيها، فهو مشارك في الرأي لأنه واحد ممن يدور عليهم الرأي، متتبع للحوادث لأنه هو من مادتها أو هي من مادته، وهو لذلك يريد من الصحيفة حكاية الوقت وتفسير الوقت، وأن تكون له كما يكون التفكير الصحيح للمفكر، فيلزمها الصدق ويطلب منها القوة ويلتمس فيها الهداية، وتأتي إليه في مطلع كل يوم أو مغربه كما يدخل إلى داره أحد أهله الساكنين في داره
وفي قلة القراء عندنا آفتان: أما واحدة فهي القلة التي لا تغني شيئاً، وأما الأخرى فهم على قلتهم لا ترى أكبر شأنهم إلا عبادة قوم لقوم، وزراية أناس بآخرين، وتعلق نفاق بنفاق، وتصديق كذب لكذب. وآفة ثالثة تخرج من اجتماع الاثنتين: وهي أن أكثرهم لا يكونون في قراءتهم الصحيفة إلا كالنظارة اجتمعوا ليشهدوا ما يتلهون به، أو كالفراغ يلتمسون ما يقطعون به الوقت، فهم يأخذون السياسة مأخذ من لا يشارك فيها، ويتعاطون الجد تعاطي من يلهو به، ويتلقون الأعمال بروح البطالة، والعزائم بأسلوب عدم المبالاة، والمباحثة بفكرة الإهمال، والمعارضة بطبيعة الهزء والتحقير. وهم كالمصلين في المسجد؛ فمثل لنفسك نوعا من المصلين إذا اصطفوا وراء الإمام تركوه يصلي عن نفسه وعنهم وانصرفوا. . .
قال أبو عثمان: بهذا ونحوه جاءت الصحف عندنا وأكثرها لا ثبات له إلا في الموضع الذي تكون فيه منافعه ووسائل منافعه؛ ومن هذا ونحوه كان أقوى المادة عندنا أن تظهر الصحيفة مملوءة حكومة وسلطة وباشوات وبيكوات. . . وكان من الطبيعي أن محل الباشا والبك والحوادث الحكومية التفهة لا يكون من الجريدة إلا في موضع قلب الحي من الحي.
ثم استضحك شيخنا وقال: لقد كتبت ذات يوم مقالة أقترح فيها على الحكومة تصحيح هذه
الألقاب، وذلك بوضع لقب جديد يكون هو المفسر لجميعها ويكون هو اللقب الأكبر فيها، فإذا أنعم به على إنسان كتبت الصحف هكذا: أنعمت الحكومة على فلان بلقب (ذو مال).
. . .ودق الجرس يدعو أبا عثمان إلى رئيس التحرير
فلم يلبث إلا يسيرا ثم عاد متهللا ضاحكا وقد طابت نفسه فليس له جحوظ العينين إلا بالقدر الطبيعي، وجلس إلي وهو يقول:
بيد أن رئيس التحرير لم ينشر ذلك المقال، ولم ير فيه استطرافاً ولا ابتكارا ولا نكتة ولا حجة صادقة، بل قال كأنك يا أبا عثمان تريد أن يأكل عدد اليوم عدد الغد، فإذا نحن زهدنا في الألقاب وأصغرنا أمرها وتهكمنا بها وقلنا إنها أفسدت معنى التقدير الإنساني وتركت من لم ينلها من ذوي الجاه والغنى، يرى نفسه إلى جانب من نالها كالمرأة المطلقة بجانب المتزوجة. . . وقلنا أنها من ذلك تكاد تكون وسيلة من وسائل الدفع إلى التملق والخضوع والنفاق لمن بيدهم الأمر، أو وسيلة إلى ما هو أحط من ذلك كما كان شأنها في عهد الدولة العثمانية البائدة حين كان الوسام كالرقعة من جلد الدولة، يرقع بها الصدر الذي شقوه وانتزعوا ضميره، إذا نحن قلنا هذه وفعلنا هذا، لم نجد الشعب الذي يحكم لنا، ووجدنا ذوي المال والجاه والمناصب الذي يحكمون علينا، فكنا كمن يتقدم في التهمة بغير محام إلى قاض ضعيف.

يا أبا عثمان إنما هي حياة ثلاثة أشياء: الصحيفة، ثم الصحيفة، ثم الحقيقة. . . فالفكرة الأولى للصحيفة والفكرة الثانية هي للصحيفة أيضاً. ومتى جاء الشعب الذي يقول: لا. بل هي الحقيقة، ثم الحقيقة، ثم الصحيفة - فيومئذ لا يقال في الصحافة ما قيل لليهود في كتاب موسى: تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا. .

قلت: أراك يا أبا عثمان لم تنكر شيئاً من رئيس التحرير في هذه المرة، فشق عليك إلا تثلبه، فغمزته بالكلام عن مرة سالفة.

قال: أما هذه المرة فأنا الرئيس لا هو، وفي مثل هذا لا يكون عمك أبو عثمان من (صعاليك الصحافة). إن الرجل اشتبه في كلمة: ما وجهها أمرفوعة أم منصوبة؟ وفي لفظة: ما هي: أعربية أم مولدة؟ وفي تعبير أعجمي: ما الذي يؤديه من العربية الصحيحة؟ وفي جملة: أهي في نسقها افصح أم يبدلها؟

. . .إن المعجم هنا لا يفيدهم شيئاً إلا إذا نطق

ولقد ابتليت هذه الأمة في عهدها الأخير بحب السهولة مما أثر فيها الاحتلال وسياسته وتحمله الأعباء عنها واستهدافه دونها للخطر، فشبه العامية في لغة الصحف وفي أخبارها وفي طريقها إنما هو صورة من سهولة تلك الحياة، وكأنه تثبيت للضعف والخور، وأنت خبير أن كل شيء يتحول بما تحدث له طبيعته عالياً أو نازلاً، فقد تحولت السهولة من شبه العامية إلى نصف العامية في كتابة أكثر المجلات وفي رسائل طلبة المدارس، حتى لتبدو المقالة في ألفاظها ومعانيها كأنها القنفذ أراد أن يحمل مأكلة صغاره، فقرض عنقوداً من العنب، فألقاه في الأرض وأتربه وتمرغ فيه، ثم مشى يحمل كل حبة مرضوضة في عشرين إبرة من شوكه.

ثم مد أبو عثمان يده فتناول مجلة مما أمامه وقعت يده عليها اتفاقاً، ثم دفعها إلي وقال: اقرأ ولا تجاوز عنوان كل مقالة. فقرأت هذه العناوين:

تخر مغشياً عليها) ،(مودة الراقصات الصينيات) ،(مسئولية طبيب عن فتاة عذراء) هل يعتبر قبول الهدية دليلا على الحب، وإذا كانت) ،(لأنهم اكتشفوا صورة حبيبها هل يحق للأب أن يطالب صديق ابنته. .) ،(ملابس داخلية. . . فهل تعتبر وعدا بالزواج؟ بعد أن قص على) ،(بين خطيبتين لشاب واحد) ،(. بتعويض إذا كانت ابنته غير شرعية عروس تأخذ (شبكة) من) ،(زوجته أخبار السهرة. . . لماذا أطلقت عليه الرصاص؟ لماذا خطفت العروس في اليوم) ،(زوجة الموظف أين ذهبت) ،(شابين ثم تطردهما فلانون وفلانات، زواج وطلاق،) ،(في الطريق - حب بالإكراه) ،(المحدد للزفاف؟ وأخبار المراقص، وحوادث أماكن الدعارة الخ الخ.

فقال أبو عثمان: هذه هي حرية النشر؛ ولئن كان هذا طبيعيا في قانون الصحافة إنه لأثم كبير في قانون التربية؛ فإن الأحداث والضعفاء يجدونه عند أنفسهم كالتخيير بين الأخذ بالواجب وبين تركه، ولا يفهمون من جواز نشره إلا هذا. (وباب آخر من هذا الشكل فبكم أعظم حاجة إلى أن تعرفوه وتقفوا عنده، وهو ما يصنع الخبر ولاسيما إذا صادف من السامع قلة تجربة، فإن قرن بين قلة التجربة وقلة التحفظ - دخل ذلك الخبر إلى مستقره من القلب دخولا سهلا، وصادف موضعاً وطيئاً وطبيعة قابلة ونفساً ساكنة، ومتى صادف

القلب كذلك رسخ رسوخاً لا حيلة في إزالته

ومتى ألقي إلى الفتيان شيء من أمور الفتيات في وقت الغرارة وعند غلبة الطبيعة وشباب الشهوة وقلة التشاغل و. .)

. . .ودق الجرس يدعو أبا عثمان إلى رئيس التحرير

(لها تتمة)

(طنطا)

مصطفى صادق الرافعي

في الأدب المقارن

موضوعات الأدب

في الأدبين العربي والإنجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

يعبر الأدب عن شتى خوالج النفس وخواطر الذهن، ويصف تأثر النفس بمختلف صور الحياة وظواهر الكون وصروف الدهر، وكلها أمور لا يحد مداها ولا تحصى مذاهبها،

ومن ثم لا تحد ولا تحصى أشتات الموضوعات التي يعالجها أدب أمة من الأمم في مختلف عصوره، فأدب الأمة الحي يشمل أطراف حياتها المترامية، مما يوحي به التدين والورع إلى ما يمليه التبذل والاستهتار، وما يمليه الحزن والألم إلى ما توحي به الغبطة والسرور، وما يدعو إليه التفكير والتأمل الرزين أو يحمل عليه التفكه والتندر، ومن كل ما يبعث إعجاب الإنسان ورهبته وخشوعه أو يثير احتقاره أو نفوره، ومن كل ما يوقظ حب الاستطلاع والدرس والمعرفة المركب في طبع الإنسان، ويمتد مجال الأدب حتى يختلط بشتى فروع العلم في بعض أطرافها

على أن موضوعات الأدب وإن تعذر استقصاؤها يتجمع أكبرها وأخطرها شأنا حول مواضيع رئيسية يكثر طرقها ويعزى إلى واحد منها كل أثر من آثار رجال الأدب، كالنسيب والرثاء مثلا؛ كما أن أدبا قد يختلف عن أدب في فن يحتفي به ولا يكاد يوجد في غيره، أو فنون يدمن طرقها دون غيرها، بل يختلف الأدب الواحد في عصر من عصوره عنه في عصر آخر من حيث فنون القول التي يحتفي بها ويقدمها على غيرها. فالبيئة والعصر يتركان أثرهما في فنون الأدب التي تحظى بالرواج والإقبال: ففي عصور الجهاد والصراع مثلا تسود أشعار الحماسة وتمجيد الحمى والأبطال؛ وفي عصور النزاع بين المادية والترف وبين الدين والتقاليد، تكثر آثار المجون والزيغ من جهة، وآثار الوعظ والزهد من جهة أخرى؛ وعصور البداوة تتسم آثارها بالسذاجة والعاطفة المتدفقة، وعصور الثقافة تمتلئ آدابها بآثار التأمل والأزمات النفسية؛ وكلما ارتقى المجتمع وصدق أدبه في التعبير عن حياته كثرت فنونه التي يطرقها، وطال طرقه للفنون الرئيسية التي تمت إلى

النفس الحية والفكر المهذب بأوثق الأسباب، واختلف أدباؤه كل منهم يخص فنا أو فنونا منها باحتفائه. أما في عصور التدهور والركود فتضيق دائرة تلك الفنون ويتعلق كثير منها بالسطحي والتقليدي من الأقوال، ويتفق أكثر الأدباء في طريقة تناول تلك الفنون المحصورة

والأدبان العربي والإنجليزي قد تناولا أشتاتا من فنون القول، وعبرا عما لا يحصى من أفكار الإنسان ومشاعره، واتفقا في كثير من ذلك لاتفاق الطبيعة الإنسانية في كل مكان، واختلفا في مدى الاحتفال ببعض الفنون والأعراض عن بعضها لاختلاف بيئات الإنسان من إقليم إلى آخر، وظهرت في كل منهما على تعاقب العصور مواضيع لم تكن معروفة من قبل، وحظيت مواضيع دون أخرى بالحفاوة والصدارة؛ فالشعر الحماسي كان في العصر الجاهلي هو الفن الرئيسي، لما كانت تتطلبه الحياة القبلية من التعبير عن صفات القوة والغلب، ثم حلت الخطابة السياسية في صدر الإسلام محل الشعر، ثم احتل الصدارة في العصر الأموي النسيب والمهاجاة، وهلم جرا. وفي الأدب الإنجليزي بلغت الخطابة الدينية الوعظية شأوها في عهد المظهرين، وملكت الطبيعة جل اهتمام الشعراء في العصر الرومانسي، وفاز التحليل القصصي النفسي والاجتماعي بالصدارة في العصر الحديث

ولعل النسيب أحظى فنون الأدب باحتفال الأدباء في شتى الأمم، لما يصدر عنه من عواطف وغرائز متأصلة في النفس الإنسانية على اختلاف البيئات. وقد بلغ من احتفاء العرب به أنهم لم يقتصروا على الحديث عنه في مكانه، بل استهلوا به منذ عهد الجاهلية قصيدهم. ولم تخل من حديث الحب أكثر روايات شكسبير في القديم وقصص هاردي في العصر الحديث. فوسع الأدبان شتى الأوصاف لحالات الحب الراضية وأطواره الغاضبة. وإلى الحب يرجع الفضل في كثير من الآثار الأدبية وفي تكوين نفوس كثير من الأدباء، وحول حديثه يدور جانب عظيم من كل أدب؛ وقد غلا قوم فعدوه مصدر كل أدب وفن

والرثاء فن معدود من فنون الأدب في العربية والإنجليزية، يمتاز كثير من آثاره بالصدق وحرارة العاطفة وعمق التأمل. وذاك لأن حلول الموت ينقض الشمل وينغص المسرة ويذهب بالإلف، فيبعث في نفس الأديب ثورة، ويدفعها إلى مراجعة التأمل في الحياة، ويستخرج خير ما في النفس من صفات الوفاء والمودة وعذب الذكريات وخلجات الحنين.

ومن غرر المراثي في العربية رثاء مهلهل لأخيه، ودالية المعري ورثاء البحتري للمتوكل ورثاء ابن الرومي لأوسط صبيته ورثاء التهامي لولده. ومن روائع المراثي في

الإنجليزية مرثية ملتون المسماة ليسيداس ومرثية شلي المسماة ادونيس ومرثية تنيسون المسماة الذكرى. وقد نظم منهم قصيدته في رثاء صديق له رفيق لصباه مات معتبطا ومن بدائع المراثي الإنجليزية أيضاً خطبة مارك انطوني على جسد قيصر في رواية شكسبير الذائعة الصيت، ومرثية جراي التي نظمها في مقبرة قرية

والتدين والوعظ فن يشترك فيه الأدبان، يتمثل في العربية في خطب الرسول الكريم وكثير من خلفائه، وكثير من أشعار أبي العتاهية وأبي نواس وابن عبد القدوس وابن الفارض وأصحاب المدائح النبوية؛ وفي الإنجليزية في كثير من شعر ملتون ودن ونثر هوكروبنيان ونيومان، وأكثر ما كتب من ذلك في الإنجليزية إنما كان بأقلام رجال الدين المنتمين إلى الكنيسة. أما العربية حيث لم تكن للدين هيئة رسمية ذات نفوذ كالكنيسة فجاء أدب التدين متفرقا يستوي في معالجته رجال الدين المتفقهون فيه ورجال الدنيا غير المتوفرين عليه. ومن أنبغ رجال الدين في الأدب العربي الإمام الشافعي الذي يمتاز شعره برصانة ونقاء رائعين، ومن آثاره قوله:

ثلاث هن مهلكة الأنام ... ودعاية الصحيح إلى السقام:

دوام مدامة ودوام وطء ... وإدخال الطعام على الطعام

وقوله:

ومن لم يذق ذل التعلم ساعة ... تجرع ذل الجهل طول حياته

حياة الفتى والله بالعلم والتقى ... إذا لم يكونا لا اعتبار لذاته

والميل إلى الصداقة طبع في الإنسان لا يكاد يقل عن الحب تمكنا وقوة، فما يزال الإنسان في حنين إلى الأليف الروحي الذي يبادله الفهم والشعور، ويقاسمه الحزن والسرور؛ ومن ثم تشغل الرسائل والقصائد الإخوانية في الأدبين العربي والإنجليزي مكانا معدودا، بين تخاطب في شتى الأمور وبين تعارف وتقاطع، وبين تعاتب وتقريع. ومن آثار الصداقة في الإنجليزية كثير من مقطوعات شكسبير، وما كان بين بوب وكوبر وليدي منتاجيو وبعض معاصريهم من تراسل، وما كان بين جونسون وجولد سمث وبوزويل وجماعتهم من

أحاديث دونها الأخير في كتابه عن الأول، وما كان بين جراي وشلي وبيرون وكثيرين غيرهم وبين أصدقائهم في الوطن من مراسلات، حين كان أولئك الشعراء يطوفون في ربوع أوربا. وللجاحظ والبديع والصابي وابن العميد رسائل إلى أصدقائهم بارعة تعد في صميم الأدب العربي. ولم تكن رسالة الغفران إلا رسالة بين صديقين. ومن قصائد التعاتب المشهورة لامية معن ابن اوس التي مطلعها:

لعمرك ما أدري وإني لأوجل ... على أينا تعدو المنية أول

وهمزية ابن الرومي الطويلة التي مطلعها:

يا أخي أين عهد ذاك الإخاء؟ ... أين ما كان بيننا من صفاء؟

ونقد الأدب موضوع مهم من مواضيع الأدب، تلذ قراءته كما تلذ قراءة آثار الأدب الأخرى، لما يحوي من عام النظرات وخاصها في مختلف الأدباء وعصور الأدب. ومما يزيد أكثر كتب الأدب في العربية ككتاب الصناعتين وكتاب الوساطة إمتاعاً حفولها بالكثير من بدائع المختارات والمقتبسات. وفي الإنجليزية يحتفي بعض النقاد أمثال ماكولي وماثيو أرنولد وإديسون بأسلوبهم الأدبي في نقدهم لآثار غيرهم، حتى ترى آثارهم النقدية مضاهية لما ينقدونه لذة وإمتاعاً. ويمتزج بنقد الأدب في الإنجليزية نقد الفنون الجميلة عامة، والإشارة إلى القواعد التي تشملها هي والأدب؛ ففي مقاله عن بيرون مثلا يوضح ماكولي آراءه بأمثلة من الفنون الأخرى من موضع إلى آخر.

وأحوال المجتمع وأحداث السياسة ليست مما يمر بالأديب المثقف دون أن يكرثه، بل لابد أن يترك ذلك أثره الواضح في أدبه. وقد كان شعر الجاهليين سجلا موجزاً لكبريات أحداثهم، فلما خضع العرب للملكية بعد الإسلام كفكفت تلك النزعة كثيراً؛ وقل نقد الأنظمة الاجتماعية والسياسة في الأدب والتعليق على الحوادث إلى حد كبير، إلا أن يكون في ذلك مجاراة ومظاهرة لأصحاب السلطان. وقد قتل المنصور ابن المقفع الذي رفع إليه رسالة في شؤون الحكم وإن عزي مقتله إلى سبب آخر وأحيط بالغموض. إنما أثر السياسة والحوادث في الأدب بعد الإسلام باد في الرسائل الديوانية التي كان يتأنق الوزراء الكاتبون أمثال سهل بن هرون والقاضي الفاضل وابن زيدون

في كتابتها إلى عمال الأمير وأنصاره وأعدائه والخارجين عليه، كما أن في كتابات الجاحظ ومقامات البديع تصويراً واضحاً
لكثير من أحوال مجتمعهم وأنبائه. ومن أشعار الأحداث السياسية قصيدة يزيد المهلبي في رثاء المتوكل وقصيدة ابن الرومي في ثورة الزنج التي منها يقول:

بينما أهلها بأحسن حال ... إذ رماهم عبيدهم باصطلام
صبحوهم فكابد الناس منهم ... طول يوم كأنه ألف عام

وهذا الفن أوسع محيطاً واحفل بالآثار في الإنجليزية، حيث مهدت الحكومة الديمقراطية السبيل للنظرات الحرة والنقدات الصادقة. وكان استقلال الأمة الإنجليزية عن غيرها واعتزالها سواها إلى حد بعيد داعياً إلى اشتداد الشعور القومي والإحساس بوحدة المجتمع والاهتمام لشؤونه كأنها شؤون كل فرد الخاصة. وقد قال الإمام علي: كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته. وما أسماه مبدأ إنسانياً ومذهباً ديمقراطياً وحكمة عمرانية؛ بيد أنه كان شعار المجتمع الإنجليزي أكثر منه شعاراً للمجتمع العربي، ومن ثم كانت لأكثر أدباء الإنجليزية نظراتهم الإصلاحية الخاصة، التي تتراوح بين الخطرات العارضة وبين الرغبة في الانقلاب الكلي، وظهرت القصة نتيجة هذا الاندماج الاجتماعي تصور المجتمع تصويراً دقيقاً لا يغادر منحى ولا مذهباً.

ولكن الحياة ليست كلها جداً مرا، ولا النفس الإنسانية تحتمل الجد المواصل، وإنما يميل الإنسان بطبعه إلى الترفيه عن نفسه بالتفكه والنظر إلى الجانب الهزلي من الحياة. والأدباء لدقة إحساسهم ونفاذ نظراتهم سريعون إلى ملاحظة مواطن التناقض ومواضع الفكاهة في أخلاق الناس وأعمالهم؛ ومن ثم يحفل الأدبان العربي والإنجليزي بصور عديدة من صور الفكاهة، تتراوح درجاتها بين العبث البريء في أيدي شكسبير وجولد سمث واديسون والجاحظ، وبين السخر المرير في أيدي سويفت وبوب وابن الرومي والمعري، ويتناول بها الأدباء منافسيهم ومعاصريهم ويفندون حماقات المجتمع وهناك مواضيع احتفى بها الأدب العربي حفاوة بالغة تفوق ما نالته في الإنجليزية، وأولها الحكمة. فأدباء العربية كانوا منذ الجاهلية يعشقون الحكمة ويحبون نظمها والاستماع إلى أشعارها، بل كانوا كما قيل لا يعترفون لشاعر بالفحولة حتى يوفق إلى شيء منها. وظل الأعشى مزوياً عن مصاف الفحول حتى قال في مدحه سلامة ذا فائش: (والشيء حيثما جعلا)، فجمع صدق النظرة إلى إيجاز اللفظ وهما سمتا الحكمة عند العرب. ولما اطلع العرب على ثقافات الأمم كان أهم ما احتفوا بنقله من آدابهم الحكمة. ومن كتب الحكمة مؤلفات ابن المقفع ومقصورة ابن دريد والخطب المنسوبة إلى قس ابن ساعدة والإمام علي، والجم الغفير من أشعار المتنبي التي سارت مسير الشمس؛ وليس من محض الصدفة أن كان أكبر شعراء العربية وأسيرهم ذكراً حكيما مكثراً لصوغ الحكم وضرب الأمثال. وبالحكمة الصادقة البليغة الموجزة كان الأديب العربي يستغني عن فنون وأشكال من الأدب ازدهرت في الإنجليزية، كالقصة والرواية التمثيلية والملحمة، فالعبرة التي تنطوي عليها إحدى هذه يجمعها الشاعر العربي في بيت واحد يلقيه إليك وخلاه ذم

واقتباس الحكمة والمثل والاستشهاد بأقوال السلف أقل حدوثا في الإنجليزية منه في العربية، لأن الحكم الموجزة التي تغزر في الأخيرة قليلة في الأولى. وكثيراً ما يلجأ المقتبس في الإنجليزية إلى الأدبين الإغريقي واللاتيني، وحتى هذا يبطل تدريجياً في العصور الحديثة. واكثر أدباء الإنجليزية حظوة لدى المقتبسين والمستشهدين شكسبير، وليس ذلك لأنه كان يتعمد صوغ الحكمة أو يحرص على التكثر منها، بل لأن رواياته من جهة قد أحاطت بشتى أحوال الحياة والنفس الإنسانية، بحيث يجد فيها كل كاتب شيئاً مقاربا لما هو بصدده، ولأن مقدرته اللغوية العظيمة من جهة أخرى كانت تهديه إلى صوغ أفكاره صياغة موجزة ممتنعة؛ ويليه سيرورة أقوال بوب، زعيم الأسلوب المحكم الرصين الذي كان شعاره في الأدب التعبير (عما قيل من قبل كثيرا، ولكن لم يقل أبدا بهذا الإحكام)، فسار كثير من أبياته المحكمة الموجزة على الأقلام والأفواه

ومما يتصل بالحكمة في الأدب العربي ويمتاز هذا الأدب به التمدح بحميد الخصال كالجود والشجاعة وحمي الذمار وحسن الجوار وحفظ السر وكظم الغيظ ومداراة السفيه، إلى غير ذلك من الدساتير الخلقية التي كان كثير من أشراف العرب الأدباء

يسنونها لأنفسهم، وامتداح تلك الصفات في الغير والحث عليها، وهذا من أنبل مواضيع الأدب العربي، ولحاتم الطائي ومسكين الدارمي والمقنع الكندي والشريف الرضي والإمام الشافعي آثار في ذلك، تروع برصانة أسلوبها ومتانة أسرها وعظمة خلقها؛ فلما غلب التقليد على الأدب، ودخل الشعر في طور التقهقر انقلب مثل هذا التمدح المحبوب الصادق المقرون بالفعال فخرا عاجزا أجوف، بمآثر وهمية وعزائم مزعومة، وتيها على النجوم ودلا على الزمان،

كقول السري الرفا:

وإنك عبدي يا زمان وإنني ... على الرغم مني أن أرى لك سيدا:

والغريب أن أحد أولئك الشعراء المتشدقين بالفخر ربما قرنه في القصيدة الواحدة بشكوى سوء الحال وقعود الجدود وخيبة الآمال. والشكوى موضوع من مواضيع الأدب العربي كانت أقرب إلى متناول أدبائه منها إلى أدباء الإنجليزية؛ وقد فشت خاصة في آثار المتأخرين. والأدب العربي من جهة أخرى أحفل بوصف آثار الترف ومظاهره: من القصور والمحافل ومجالس الشراب وآلات الطرب ودواعي المجون. وللخمر خاصة منزلة في الأدب العربي لا نظير لها في الإنجليزية، وقد حظيت من جزالة أسلوب الأخطل وأبي نواس وابن الرومي بما خلد أوصافها وأعلى ذكرها، وقلما يرد ذكر الخمر في الأدب الإنجليزي إلا تظرفا وتشبها بالإغريق الأقدمين وإشارة إلى باخوس إله الخمر عندهم

وراج في الأدب العربي فنان ليسا من صميم الأدب في شيء، ومازالا يرقيان حتى احتلا مكان الصدارة من الأدب، وموضع الحفاوة من الأدباء، وهما المدح والهجاء اللذان استفحل أمرهما من عهد الأمويين فنازلا، حتى استبدا بأجزاء كبيرة من دواوين بشار وأبي نواس وأبي تمام والمتنبي، وكادا يشغلان كل دواوين آخرين غير هؤلاء. وما كان ارتفاع شأنهما هكذا إلا نتيجة فساد تقاليد قديمة، كانت في الجاهلية تقاليد محمودة لا ضير فيها، ثم استمرت بعد ذهاب عصرها واندثار بيئتها بظهور الإسلام وقيام الدولة المتحضرة المركزية ففسدت تلك التقاليد وصارت بلاء على الأدب الصحيح

كان العرب الجاهليون يحرصون على حسن الأحدوثة، ويتمدحون بكريم الصفات، وينافحون خصومهم بالشعر، ويجزون من فعل ذلك عنهم، وكان ذلك كله وليد بيئتهم البدوية، فلما كان الإسلام والدولة والحضارة لم يعد لمثل ذلك التفاخر والتهاجي موضع، ولكن الشعراء استبقوا ذلك التقليد طلباً للنوال، والأمراء قبلوا منهم ذلك الأحياء المفتعل لتقليد غبر عصره طلباً للمجد الزائف. ومن العسير أن تحصى المساوئ التي جرها هذان الفنان من القول على الأدب العربي: مواضيعه ومعانيه وأساليبه

ولم يكن في الإنجليزية شيء من هذين الفنين يقاس بما كان في العربية، وحتى القليل من المدح الذي كان في بعض الفترات يستفز الأدباء الأباة إلى مثل قول بوب: (فلأعبر عن رأيي في الأمر في كلمة: إن وصف الرجل بأكثر مما نعلم فيه عمل بعيد عن الأمانة إذا قصد من ورائه الربح، وعمل أخرق إذا لم يقصد، وكل من نجح في مثل هذا العمل لابد أن يعتقد في قرارة نفسه أنه هو نفسه دجال لأنه فعل ذلك، وأن ممدوحه أحمق لأنه صدق ما قيل فيه)

وعلى حين احتفى شعراء العربية بهذين الفنين الزائفين من فنون القول، أهملوا إلى حد بعيد فناً هو من صميم الأدب والحياة، وهو والوصف الطبيعي: فديوان المتنبي الذي يعج بمعاني المدح والهجاء المخترعة لا يضم إلا أبياتاً معدودة منثورة في التغني بمباهج الطبيعة. أما في الإنجليزية فالطبيعة وحي ما لا يعد من قصائد بين مقطوعات ومطولات، ووصفها يتخلل أشتات المنظوم والمنثور في مختلف الأغراض، وهي المنظر الخلفي لكثير من روايات العصر الأليزابيثي وملاحم ملتون وسبنسر ومطولات تنسيون وقصص هاردي، بل بلغ من دقة دراسة تنيسون إياها أن اصبح شعره يقتبس في كتب الجيولوجيا والجغرافيا أحياناً، وبلغ من معرفة هاردي بطبيعة الإقليم الذي أجرى فيه حوادث قصصه، أن كان يخصص الصحائف الطوال لوصف المنظر الواحد في قصصه بدقة العالم لا القصصي

وهناك مواضيع أدمن أدباء الإنجليزية ورود مناهلها وغزرت آثارها في أدبهم، فكانت فيه

مادة فن وإمتاع وغبطة: كالتحدث عن المغامرات وروائع القصص وعجائب الرحلات، وجسام حوادث الماضي وعظائم أبطال الأمم، وممتع خرافات الأجيال وأغنيات طبقات الشعب وأقاصيصهم، كل هاتيك وجد فيها أدباء الإنجليزية منادح للفن والخيال ومعارض لميول النفس الإنسانية وطباعها وسجاياها المرسلة؛ أما الأدب العربي فيمتاز بكفكفة غلواء الخيال والتجافي عن البعيد من الأمكنة والأزمنة والازورار عن الأمم الأخرى والترفع عن العامة وثقافتهم المتواضعة، واحتقار الخرافة وأساطير الماضين.

واتخذ الأدب الإنجليزي التاريخ الواقعي مادة لموضوعاته: منه اتخذ الأليزابثيون مواضيع بعض رواياتهم، وفيه جال جيبون وسوذي وماكولي وكارليل، يدرسون كبريات الوقائع وعظماء الرجال وإليه رجع الشعراء والقصصيون، وقد صور سكوت في قصصه حوادث التاريخ تصويراً يفوق كتب التاريخ أحياناً دقة ووضوحاً، ولم يكد يلتفت إلى التاريخ من أدباء العربية ويتناوله في أسلوب أدبي جزل سوى الجاحظ.

فالأدبان العربي والإنجليزي قد تناولا مواضيع مشتركة بينهما، وطرق كل منهما مواضيع لم يحتف بها الآخر. على أن الأدب الإنجليزي أغزر موضوعات وأكثر شغلا بأسباب الحياة؛ والأدب العربي لم يظل دائماً ترجماناً لكل عواطف المجتمع العربي، وكانت روح المحافظة التي سببت عدم تطور أشكاله سبباً في قلة تطور مواضيعه أيضاً، فأهمل مواضيع شتى تمت إلى الطبع الإنساني بأوثق الأسباب وتدخل في حظيرة الأدب أول داخل، وتناول غيرها لا تمت إلى الفن بسبب، ومرجع ذلك ما خالطه من نزعة تقليد جامدة، وما اعتمد عليه من رعاية الأمراء، على حين كان الأدب الإنجليزي دائماً حر النزعة حر الحركة والنمو

فخري أبو السعود

بين تلستوي وماكس نوردو

للأستاذ عبد الرحمن شكري

قرأت تلستوي قبل أن أقرأ نقد ماكس نوردو لآرائه. وكنت أشك فيما شك الناقد الألماني، ولكني عندما قرأت نقده لتلستوي لم يقنعني تعليله، أو على الأقل رأيت أنه لم يتتبع كل احتمال يمكن أن تصير إليه النفس الحائرة في بحث معضلات الحياة، ولم يقف كل موقف من الجائز أن تقفه في أثناء بحثها؛ فكان تعليله لما ينقد من الآراء بالشذوذ الجثماني في صاحب الرأي، ولم يدر أن كل إنسان شاذ وأن كل مفكر مصحوب بشيء من الشذوذ الجثماني، وأن الشذوذ الجثماني قد يكون في غير المفكر أكثر منه المفكر، وأن الإنسان حيوان شاذ. وأن الرأي الذي ينقده قد يكون قد دخل عليه الخطأ بسبب رفض صاحبه لخطأ آخر في أثناء بحثه الحياة واختيار مسالك الرأي فيها. ولو أن ماكس نوردو قد فسر سبب رفض تلستوي لنقيض ما رأى من الآراء لكان قد وصف رحلة نفس تلستوي في عالم الإحساس والوجدان، ولكان قد وصف رحلة فكره في عالم الأفكار، ولكان قد وصف من تلك المسالك ما هو كالتيه ذي الطرق المتشعبة وما يحسبه ماكس نوردو طريقا معبدا بالخرسان والقطران والإسفلت

خذ مثلا رأي تلستوي في الامتناع عن الإجرام حتى قتل المجرم للدفاع عن النفس أو عن طفل بريء، فهو يقول لك انصح المجرم وعظه والتجئ إلى الجانب الخير من نفسه وحاول أن تمنعه من ارتكاب جريمة القتل، ولكن أحذر أن يكون منعك إياه عن الجريمة بأن تأتي أنت جريمة كأن تقتله؛ فإذا رأيت مجرماً يريد أن يقتل طفلا فضع نفسك بينه وبين الطفل وعظه، ولكن لا تقتله لأنه يريد أن يقتلك أو أن يقتل إنساناً آخر حتى ولو كنت قادراً على قتله

يأخذ ماكس نوردو هذا الرأي فيفنده ويسخر به ويهزأ منه. وله أن يفنده وأن يظهر مواطن الضعف فيه، وله أن يسخر منه ما شاء أن يسخر، وله أن يقول أن هذا رأي يؤدي إلى موت الأبرار وتحكم الأشرار. إذا أخذ به بعض الناس ولن يأخذ به كل الناس إلا إذا انمحى الشر من النفس الإنسانية فلا يكون إذن للرأي معنى ولا ضرورة، وإذا مات الأبرار الأخيار بسبب أخذهم بهذا الرأي وتحكم الأشرار رجعت الحالة إلى ما كانت عليه قبل

الشروع في تحقيق هذا الرأي وانعدم هذا الرأي من عالم الأفكار والأحياء. فإذا قال ماكس نوردو كل هذا كان مصيباً في قوله، وإن كنا لا نقطع بحدود فجاءات النفس البشرية وحدود عدوى المحاكاة كمحاكاة الانقطاع المطلق عن الشر. ولعل تلستوي

قد قدر كل ما قدره ماكس نوردو من شر يعود به الانقطاع عن الشر حتى في الدفاع عن الخير أو عن النفس أو عن الأحياء، ولكن لعله كان يؤمن بالنفس البشرية أكثر من إيمان ماكس نوردو بها فقدر أيضاً ذيوع الأخذ برأيه وانتشار عدوى محاكاة الانقطاع عن الشر حتى تعم الناس قاطبة بعد ويل يكون للبادئين بالأخذ به، والبادئون دائماً ضحية في كل رأي ومذهب. ولعله قدر أيضاً أنه لو أخطأ في إيمانه بالنفس الإنسانية فإن الويل والضرر اللذين يكونان نتيجة الأخذ برأيه مقبولان في سبيل تجربة قد تعود على الإنسان بالخير الآجل إن لم يكن عاجلا؛ ولعله قدر أيضاً أن المرء قد لا يأخذ برأي الانقطاع عن الشر المطلق دائما، ولكن هذا الرأي قد يبعد به عن الشر أحياناً أو قد يقلل من غلواء شره كما قللت رواد المسيحية من قسوة من اعتنقها من التيوتون الذين غزوا الدولة الرومانية وإن لم تقض على قسوتهم كل القضاء. ولم يكن تلستوي أول من فكر هذا الفكر، فأنه فكر تلتجئ إليه النفس الإنسانية المعذبة كلما حاولت التهدي إلى وسيلة تخلصها من شرور الحياة كما فعل البوذيون قديماً عندما دهمتهم قبائل المغول والتتر والتركمان في الهند، وكما فعل المسيحيون القدماء عندما كانوا مضطهدين في الدولة الرومانية الوثنية قبل اعتناقها للمسيحية

ثم لعل تلستوي قد قدر أيضاً أن دفع الشر بالشر يؤدي إلى خلود حب الانتقام والأخذ بالثأر؛ وكثيراً ما فنيت أسر وقبائل وشعوب بسبب خلود حب الانتقام والأخذ بالثأر جيلا بعد جيل. ونحن نرى الآن كيف يهدد الخراب عالم العمران بسبب دفع الشر بالشر والمباراة فيه.

فترى أن خطأ تلستوي ليس بالخطأ الذي يتهم صاحبه من أجله بالانحطاط والجنون كما فعل ماكس نورداو الناقد الألماني، ولم يكن هناك من داع في هذه الحالة لنظرية الانحطاط التي بنى عليها ماكس نوردو كتابه (الانحطاط) ولو انه اكتفى بإبراز الحيرة الفكرية التي أدت بهروب تلستوي من نظرية دفع الشر بالشر إلى نظرية إلا يدفع الشر بالشر وأوضح خطأ هذه الحيرة لكان أقرب للتقوى

وعرض ماكس نوردو مذهب تلستوي في العاطفة الجنسية؛ وله أن يفنده وأن يسخر منه، ولكن كان من تمام الحكمة والفلسفة والتفكير أن يعرض شرور الحلول الأخرى التي تحل بها معضلة العاطفة الجنسية لكي يفسر الحيرة التي أدت إلى هروب تلستوي منها، فإن حل معضلتها ليس طريقا ممهودا بالإسفلت والقطران كما حسب ماكس نوردو؛ وهو إن كان كذلك فهو أيضاً كثير الحفر والمهاوي، وهي التي أدت إلى ذلك الرأي الغريب الذي ارتآه تلستوي وجعله يطلب رفضها رفضاً باتا حتى في حالة الزواج؛ وهو في هذه الناحية أقل إيماناً بالنفس الإنسانية من ناقده، ولكن كان يجدر بناقده أن يبرز الشرور والآثام التي تكثر، سواء أكان حل معضلة العاطفة الجنسية بغلبة القيود والغيرة، أو بضعف القيود والغيرة أو بانعدامها كلها؛ فلعل تلستوي قد نظر طويلا إلى كل حالة من هذه الحالات؛ ولعل طول نظره في كل حالة هو الذي حيره ودعاه إلى رفض العاطفة الجنسية رفضا باتا. فالحيرة ليست دائما دليلا على كلال الذهن وقصر نظره وغموضه وانحطاطه؛ وهي تذكرني برجل جليل فاضل مفكر كان يجيد لعب الشطرنج ويفكر في كل تفكير يصح أن يفكر فيه الذي يلاعبه، فكان لا يفكر في لعبة إلا فكر في طريقة ضدها تهزمها فينتهي به الحال إلى أن يلعب أول لعبة تخطر على ذهن اللاعب وتستدعي سخر الناظرين وضحكهم

ونظر ماكس نوردو إلى موقف تلستوي من العلم، وكان ينبغي لو حاول الاتزان في النقد أن يفسر سبب الحيرة التي دفعت بتلستوي إلى رفض أكثره، وأن يميز بين حيرة الجاهل الغبي وبين حيرة الذكي التي هي أشبه بحيرة لاعب الشطرنج الذي وصفته، وأن يفرق بين خطأ الغافل الذي لا يفكر وخطأ المفكر الذي يحيره كثرة الفكر وتشعب مسالكه والتواؤها حتى يراها مثل حارات القاهرة القديمة التي ليس بها منفذ ولكنها حيرة لا تستدعي أن يتهم صاحبها بالانحطاط حتى ولو كان صاحبها مخطئاً، وإلا كان الإنسان حيوانا كثير الانحطاط، وكأن الانحطاط الذي يعنيه هو من النقص المحتوم في الطبيعة البشرية ولعل تلستوي قد قدر عواقب العلم الحديث في النظم الاقتصادية وفي النظم والمخترعات الحربية وهي عواقب أدت إلى كوارث الحرب العظمى وأهوالها، وإلى الأزمة الاقتصادية ومعضلاتها، وهي إلى الآن تهدد العالم بالخراب؛ فلا

غرابة إذا أدركته الحيرة، ولا غرابة إذا أخطأ فلم يصب أحد بعد في حل تلك المعضلات.
ولعل تلستوي قد فكر أيضاً فيما فكر
فيه اللورد بالفور عند ما قال في وصف أثر العلم الحديث في تغير نظر الإنسان إلى الحياة: (إن العلم الحديث يعلم الإنسان أن الدنيا لم تخلق من أجله، وأنه ليس تاج الخليقة ولا أنه من سلالة من سكن الجنان قديماً، وأن حياته جاءت عفوا، وأن تاريخه قصة عار وحادثة لا تشرف من حوادث أحقر نجم سيار، وأنه مملوء بالأسقام والآثام والمجاعات والقتل والقسوة، وأن الإنسان بعد آلام لا تحصى قد صار له من الضمير ما يعرف به حقارة نفسه، ومن العقل ما يدرك به أنه مخلوق تافه، وأنه بعد عصور طويلة في ذاتها قصيرة بالنسبة إلى ما مضى من العصور الجيولوجية سينمحي بهاء الشمس ورونقها، ولا تسمح الأرض ببقاء ذلك المخلوق الذي أقلق هدأتها، فيفنى الإنسان وتفنى معه آراؤه وأفكاره كلها، فكأنما كان عمله وذكاؤه وإيمانه وآلامه وجهاده في عصور حياته الطويلة عبثاً ومن غير جدوى)
ثم إن العلم الحديث يقول أيضاً إنه على فرض تحقق السلم والخير الشامل، وعلى فرض انمحاء الشر، فإن هذه حالة تؤدي إلى تدهور الإنسانية، لأن الخير في مقاتلة الشر، والذكاء مستنبط من الخوف والحذر من الجوع ومن اعتداء القوي، فإذا انمحى الخوف والحذر والشر والاعتداء ضعفت الإنسانية وتدهورت وتردت في هاوية الفناء
ولعل تلستوي قد نظر أيضاً إلى ما نظر إليه ادن فلبوتس القصصي الإنجليزي في وصف أثر هذه الآراء كلها في المجرمين في أوروبا والولايات المتحدة وغيرهما. فإذا كان تلستوي بعد ذلك النظر قد رفض أكثر هذه الآراء العلمية فليس رفضه دليلا على الانحطاط كما قال ماكس نورداو بل هو من حيرة المفكر الذي يتهدى.
ولعل تلستوي في استعراضه تاريخ العاطفة الجنسية ومحتملاتها ونفاقها وأكاذيبها وآثامها ونظمها على اختلاف تلك النظم ولعله أيضاً عند استعراض تلك الآراء والنظم العلمية الحديثة قد نظر إلى قول القائلين إن العاطفة الجنسية والعلم الحديث هما كالماء الذي تضعه في الإناء القذر فيصير قذراً، وتضعه في الإناء النظيف فيكون نظيفاً، والآنية تختلف كاختلاف النفوس واصل الماء واحد سواء الذي وضع في الإناء القذر والذي وضع في الإناء النظيف.
ولكن لعل تلستوي أيضاً قد فطن إلى أن هذا تشبيه لا اقل ولا أكثر، وأنه عند امتحان النفوس وتطبيقه عليها يتلاشى ويتضاءل إذا أعوز الإناء النظيف من آنية النفوس البشرية

عبد الرحمن شكري

في الصحراء

للأستاذ عبد النعم خلاف

عشقتها منذ أن عاش جسمي بين يديها أربعا وعشرين ساعة في الخريف الماضي كذرة من رمالها في وهج ظهيرتها، وأفياء آكامها، وطَفَل أصائلها، وأشباح دياجيها، ورهبوت عوالمها. . . ومنذ أن لمست يدا قوية من طبيعتها تمتد إلى قلبي فتضربه بشعلها وتعصره برهبتها، وتحمله في أجوائها مع الهبوات، وتسقيه من آلها وسرابها أمواجاً تظمئ ولا تروي، وتتلف ولا تسعف، لأنها أحلام الأرض الظامئة والأكباد الحرَّى. .
واستقبلت العودة إليها في ظرف موات استقبال المتطلع إلى عالم مسحور ناطق بالصمت محيٍ بالموت، مثير بالهدوء، منظر بالشوك، مُروٍ بالجفاف مؤنس بالوحشة، يضج القلب فيه ضجيج الدنيا وإن صمت هو صمت الآخرة، ويحوم الفكر فيه حول العقدتين: الأزل والأبد، فتختلط الحواس ويتداخل فعلها فتسمع العين وترى الأذن وتلمس الأضواء والألوان!
سلام عليك أيتها الذرات المتشابهة الراقدة على مهاد الأزل حالمةً بالنقلة على جناح الرياح إلى عوالم الأنهار والأزهار والحيوان. . سأمانة من طول الرقاد على بساط الديموم، تمثلين العقم والبساطة والصورة الأولى للأجسام. . . تنظرين إلى الذرات العليا المضيئة الدائرة في فضاء ربي والراقدة أيضاً على صدر الفراغ. . تحلم بالقرار كما تحلمين أنت بالانطلاق والفرار. .
في قلبي ذرة صغيرة معربدة لذاعة وددت لو استحالت إلى جمودك! إذن لأراحت واستراحت من روح الحياة. . إنها ذرة تحلم بالرياح كما تحلمين. فهي ثائرة تريد

الانطلاق من ضيق المكان. . وهي دائبة عن ذلك حتى يفنى الزيت من السراج، وتخمد الوَقْدة التي وضعت شرارتها يد الله في ذراتي الأولى!

نحن ركب مسيرون لا سائرون أيتها الذرات. . مسيرون بعواصف خفية فهي أهول، مكبوتة فهي أعنف، متنافرة فهي أسرع في تحطيمنا ونقض بنائنا. فلا إرادة ولا خيرة في النقلة وإنما هي رياح من نوع آخر، وما أكثر جنود ربي!

سألتُ: كم مضى من دهرك أيتها الديموم. . .؟ فأجابت: طفلة أنا لا أعي دورات الفلك، ولا أشيخ على الدوام. . . وإنما تقاس الأزمان وتعرف الأعمار بجفافٍ في ورقة، أو تجعيدةٍ على وجه. وأنا كما تراني علامة ابتداء. . .

وسألت: لمن خُلِق ليلك والنهار، وشمسك والقمر؟ ومن يسمع تناوح رياحك وعزيفها على شعاف جبالك، وصفيرها في كهوفك؟ ومن يسمر مع نجومك، ويشهد تقاتل عناصر الطبيعة على صدرك؟ لمن وشائع الغيوم على صفحات سمائك، وألوان جددك وظرابك وآكامك؟ وأين كل ما صبته الشمس والكواكب على أديمك من أضواء وألوان؟ أللعابرين فيك كالنسمات والطائرين عليك كالخطرات؟! أكل هذه الأكوان للشياه والبعران والرعيان؟! ويح الجمال من غير عيون تجتليه، والجلال من غير قلوب تستوحيه، والسطور من غير قارئ!

فأجابت: سري وسحري أن أكون آبدةً عقيماً متفردة لأني أرض الخفاء والمجهول والجن. . . الجن الذين ملأوا آفاقي بتهاويلهم كما ملأتم دياركم بالشواخص والأجرام. . . وقد خلقت لهم، وإن منهم قلوب الشعراء والمتأملين، السائرة مع الأضواء والظلمات ترقبها في الشفق والغسق، الخافقة مع الهبوات والنسمات ترصد فعلها في المدر والوبر والدوح والورق، النائمة في حضن جبل أو على ذراعي موجة أو في عين نجم، أو في عش، أو على زهرة منضورة نقطها الندى، أو في ناي راعٍ، أو في قبر مهدم متفرد!

يا أم الفطرة! أريد أن أقبض قبضة من ذراتك البسيطة التركيب، البريئة من الدنس، المطهرة من الرجس، فأحصب بها وجوه المصانع وناطحات السحاب لعل أحجارها تذكر المهد الأول فترعى ذممه، وتوشج رحمه، وتزيح عنها دخان البارود لترى السماء وتسمع خبرها. . .

يا أم الفطرة ودينها، انبهامُك ترك عقل (محمد) في حيرة غداة شب عن الطوق يرعى. ومجالي الفتنة والروعة فيك نادته إلى العزلة في شعفة من شعفات جبالك يسأل الدنيا عن سرها وأزلها وأبدها ومللها ونحلها حتى حدثته السماء خبرها، ولم ينزل خبر السماء إلا فيك أو على حَوافيك، لأنك القدس والمطهر، تسجد الطبيعة فيك بالإصباح والإمساء، والنجوم والجبال والشجر والدواب. . . وإن أهل الأرض مدينون لك بالظل الذي يجدون برده على قلوبهم وامتداده على أرواحهم؛ ولقد نشرت (كتابك) على الدنيا مرة فطبعت كلماته على الآفاق كلها؛ ولكن ركاما من الغيوم يكاد يخفيها، فأرسلي رياحك الحارة تذيب الركام وتجلو كلمات النبوة. . تريد الأرض موجة جديدة منك أيتها الصحراء، فاهتزي!

ضَحِكَت بالقَتاد والأشواك ... ضِحكةً خِلتُها بشاشةَ باكِ
أرسلتها في الصمت هَمْساً ولكن ... رَنَّ في مسمعي صداها الحاكي
فَرْحةً بالربيع دَبَّ على الأر ... ض وليدا يثيرها لِحراك
فرَشت في طريقه الشوكَ والحَم ... ض ووشّت رمالَها بالأراك
عجزت أن تجارَي الخَصبَ بالحب (م) ... وفَرش الرُّبى ونفح الزواكي
فأنالت جُهدَ المقلِّ، وما يُطْ ... لَبُ من عاجز بلوغُ السماك

القاهرة

عبد المنعم خلاف

عمر بن الخطاب - 2

للأستاذ علي الطنطاوي

- 6 -

كان المسلمون في مكة - فكانت الخصومة بينهم وبين الكفار من قريش - خصومة فردية، شخص يناوئ شخصاً، وجماعة تقاتل جماعة. فلما كانت الهجرة وأستقر الإسلام

في (يثرب) وفتحت له صدرها، وقدمت لنصرته أبناءها وفلذات كبدها، استحالت الخصومة إلى شبه (خلاف دولي) بين القرشيين المقيمين على الشرك، العاكفين على الأصنام، المدافعين عن الباطل، وبين أهل (المدينة المنورة) بنور التوحيد - (أنصار) الإسلام وحماة الدين وجنود الله؛ واتسع الخلاف وخاب مع الكفار المنطق وتعذر الصلح ولم يبق بد من الحرب

ومهما يقل اليوم (دعاة السلام) في شناعة الحرب ويصفوا من أهوالها وينفروا منها، ومهما يألفوا في ذلك من كتب ويصنفوا من أصناف، فإن مما لا ريب فيه إن هناك (حرباً مقدسة) مشروعة فاضلة، هي الحرب التي تشب نارها دفاعاً عن الحق وذباً عن الفضيلة وتأديباً للمجرمين. . . ومن ينكر على الجند أن يحاربوا اللصوص والمجرمين ويمنعوهم أن يعيثوا في الأرض فساداً؟ ومن يمنع القاضي أن يقتل القاتل ليشتري بموته حياة أمة، ويحبس الجاني ليضمن بحبسه حرية شعب؟

كذلك كانت (معركة بدر) حرباً مقدسة، أثيرت من أجل الحق والفضيلة والسلام والإسلام. . . فمشت إلى بدر (عصابة المجرمين) من قريش، مزهوة زهو اللصوص، شامخة بآنافها شموخ القتلة، مستكبرة استكبار قطاع الطرق. . . ومشت فرق الجنود المسلمين متواضعة لله خاضعة له، لا قوة لها إلا قوة الحق، ولا سلاح إلا سلاح الإيمان، ولا غرض لها إلا تطهير الأرض من أدران الشرك واوضار الظلم ومحو الأرستقراطية السخيفة العاتية. .

والتقتا في (بدر) - فالتقى الحق بالباطل - والنور بالظلام، ووقف الجنود والحراس وجهاً لوجه. . . ووقف التاريخ على الطرق يرقب النتيجة - فإما أن ينتصر المسلمون فيمضي صعداً ويرقى في مدارج العلاء متوشحاً بوشاح الحضارة، وإما أن يندحروا فينحدر إلى الهاوية. . فلم ينجل الغبار حتى خرجت راية محمد (صلى الله عليه وسلم) خفاقة منصورة

وخرج اللصوص بين قتيل ملقى للسباع والطير قد خسر الدنيا والآخرة، وأسير في عنقه حبل يساق إلى (المحكمة)!

وانعقدت أشرف محكمة وأعدلها - برئاسة سيد العالم - وأفضل النبيين (صلى الله عليه وسلم) وعضوية شيخي المسلمين، وخليفتي النبي الأمين - الصديق والفاروق - وكان في كرسي (النيابة العامة) شاعر الإسلام، وعلم الأنصار، البطل الشهيد: عبد الله بن رواحة. . .

وافتتحت الجلسة. . . وثبت الجرم. وكان (جرماً مشهوداً) وطلب (النائب العام) أن يعود المتهمون على حياة جهنم التي كذبوا بها، واقدموا عليها - فيكون جزاؤهم جزاء ناريا: يلقون في واد كثير الحطب - ثم يضرم عليهم ناراً

دخلت المحكمة (للمذاكرة) فسأل الرئيس الأعضاء آراءهم، فلان أبو بكر (أرحم الأمة بالأمة) ورأى أن تؤخذ منهم الفدية فتكون قوة للإسلام ولا يقتلوا لأنهم بنو العم والعشيرة والإخوان، وخالفه عمر (أشد الناس في دين الله) وطلب (إعدامهم) جميعاً: هؤلاء أئمة الكفار وصناديدهم وقادتهم؛ إنهم يعترضون سبيل الدعوة الجديدة - إنهم قطاع الطريق - فيجب أن تسلم الطريق إلى الله - يجب أن تمضي الدعوة في سبيلها آمنة مطمئنة

وسكت صلى الله عليه وسلم - ووازن بين الرأيين - ثم نطق بالحكم فكان كما رأى أبو بكر. . .

غير أن الحكم قد (استؤنف) ونزل (الاستئناف) من السماء: (ما كان لِنبيٍّ أنْ يكونَ لهُ أَسْرى حتى يُثْخِنَ في الأرْض. تريدون عَرَضَ الحياة الدنيا والله يريد الآخرَةَ والله عزيز حكيم. لولا كتاب من الله سَبَق لمسّكم فيما أخذتم فيه عذاب عظيم)

وسمت منزلة عمر في الإسلام. فلم يكن فوقه إلا الصديق الأعظم. وكان عمر بطل الدعوة وفتاها وحارسها. ثبت مع النبي (صلى الله عليه وسلم) في أحد ساعة اضطراب الجيش وفداه بنفسه، واختاره صلى الله عليه ليجيب أبا سفيان باسم الإسلام، فأجابه جواب القوي الظاهر. . . حسب أبو سفيان أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) قد قتل. وقتل صاحباه، واستراحت قريش من هذه البدعة فهي ذاهبة إلى حلقاتها حول الكعبة - التي تحدق بها

الأصنام - تتحدث حديثها وترويها أبناءها ليعتبروا بها فلا يحاولوا الخروج عما ألفوا عليه آباءهم. . . حسب أبو سفيان أن الإسلام غمامة صيف جاءت ثم انقشعت. لم يدر أن الإسلام أثبت من الأرض، وأخلد من الزمان، وأنها تزول السموات والأرض ولا يزول، فما هُبل، وما هذه الأباطيل؟ أقطعة من الحجر وفلذة من المعدن، تصنعها بيدك، وتدوسها برجلك، تسويها برب العالمين؟ ما هذا العقل يا أبا سفيان؟

كانت أحد فكان عمر عظيما ظافراً فيها. كما كان في بدر وهما لعمري سواء، ما غلب المسلمون في أحُد. وما غلب فيها المشركون. . . ذلك أنهم ما ساروا خمسمائة كيل، من مكة إلى المدينة ليصيح قائدهم: اعل هبل. . . أعل هبل. . . ثم يرجع من حيث جاء، ولكن ساروا ليفتحوا المدينة، ويقتلوا محمداً، ويجتثوا الإسلام من أصله، فكيف يدعون المدينة وما بينهم وبينها إلا مسيرة نصف ساعة، وما فيها حامية تذكر ولا يدخلونها ولا يحتلونها ولا يغيرون عليها فينهبونها؟ وكيف ينظر قائدهم العام محمداً صلى الله عليه وسلم وصحبه وهم قواد العدو، ويكلمهم ويحادثهم ولا يقتلهم ولا يأسرهم، وهو ظافر بهم ظاهر عليهم؟ وكيف يعد جيش المسلمين منهزماً، وقواده ثابتون، وضباطه مستقرون في أماكنهم، وقلبه باق ورايته مرفوعة؟

أما إن الحق أن جيش المسلمين، قد اضطرب بعد أن غادر الرماة أماكنهم، وأغار عليه خالد - قائد فرسان المشركين، وانهزمت بعض فرقه، مذعورة خائرة - ولكن القادة، وفرق القلب بقيت ثابتة في أماكنها. تمنع العدو من الوصول إلى المدينة حتى يئس فارتد على أعقابه من حيث جاء، ونجح الجيش الإسلامي في خطته الدفاعية نجاحا باهرا، ذلك أن الجيش الإسلامي كان مدافعا، وأكبر نصر يناله الجيش المدافع، هو أن يرد العدو وينقذ الوطن. وهذا ما قام به الجيش الإسلامي على أتمه ولكنه خسر كثيرا من الضحايا. . .

فمعركة أحد إذن نصر للإسلام، وعمر من أعلام هذه المعركة وأبطالها

واقرأ (السيرة) كلها، فهي سيرة عمر - وإذا لم يظهر اسمه في كل موطن - ولم يبد ذكره في كل موقع - فلأن النبي صلى الله عليه وسلم شمس تسطع في سمائها - فتكسف النجوم مهما كانت وضاءة متلألئة

على أن عمر رضي الله عنه لقوة شخصيته ومضاء عزيمته لا يكاد يخفى، فقد كان يمثل الجانب القوي المغامر الطماح، من الجبهة الإسلامية، لا يرضى بالهوادة ولا يعرف اللين، ولا تأخذه في الله شفقة ولا ملامة

كان يأبى أن توقع معاهدة الحديبية، ويلح على النبي صلى الله عليه وسلم أن يعمد إلى الحرب: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؛ فعلام نعطي الدنية في ديننا؟

فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ابن الخطاب! إني رسول الله، ولن يضيعني الله أبدا

فيشتد عليه الأمر، ويضيق به صبره، فيذهب إلى أبي بكر وقد عجز الصحابة كلهم عن احتمال المحنة - إلا أبا بكر. فيقول له: يا ابن الخطاب. انه رسول الله ولن يضيعه الله أبدا. . .

فلا يقنع عمر ولا يرضى، ولكنه يسمع مكرهاً ويطيع، حتى إذا مرت الأيام، ووضحت حكمة النبوة، وكان الفتح، أدرك عمر سمو رأي النبي صلى الله عليه وسلم، فمازال يتصدق ويصوم ويصلي ويعتق، مخافة كلامه يومئذ، حتى رجا أن يكون خيراً. على أن عمر لم يعارض النبي صلى الله عليه وسلم ولم يعصه ولكنه رأي رآه واجتهاد اجتهده؛ فكان يأمل موافقة ربه سبحانه وتعالى، كما سبق له أمثالها، وقد كانت طاعته للنبي صلى الله عليه وسلم معروفة، وكان يؤثر رضاه على رضاه، ولقد أقسم عمر - باراً - أن إسلام العباس يوم أسلم كان أحب إليه من إسلام أبيه الخطاب لو أسلم، لأن إسلام العباس أحب إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وكان النبي صلى الله عليه وسلم أحب إليه من أهله وولده، ومن نفسه التي بين جنبيه

أنجز الله وعده. فظهر الإسلام وغلب وعم الجزيرة، ودان له العرب كلهم، واجتمعوا في عرفات، في المؤتمر الأعظم، فأنزل الله آخر آية من القرآن، آخر مادة من

الدستور الخالد: (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا) فاحتفلوا بكمال الدين، وتمام النعمة، وقام النبي صلى الله عليه وسلم خطيباً مودعاً، وأعلن (حقوق الإنسان)
كاملة: الحرية والعدالة والمساواة.
وعاد صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، فلم يلبث أن مرض
جزع الصحابة، وشغلهم مرضه عن أولادهم وأنفسهم، فكانوا لا يهنأون بمنام ولا يسيغون طعاماً، ولا يقبلون على عمل، ولا يرون وجه الدنيا قلقاً عليه صلى الله عليه وسلم، وكانوا يودون لو يفتدى بكل ما في الأرض من شيء ليفتدوه، وكانوا يسألون عنه في كل ساعة ولحظة، ويعلمون علمه. فلما قيل قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم طارت العقول، وخفت الأحلام، وزلزل الناس زلزالا شديداً، وأصابتهم حيرة وعراهم ذهول، فلم يدروا ما يصنعون، وكانت ساعة من يوم الحشر. ولا عجب فقد كانوا أمواتاً قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان الرسول مطلع حياتهم، وأول دنياهم، فلم لا تكون وفاته خاتمة الحياة، وآخر الدنيا، وأن يكون يوم قبضه كيوم القيامة؟
وجزع عمر وهزت الرزية نفسه، وغلبه حبه رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يستطع أن يتصور أنه قد مات، ولم يقدر أن يتخيل الحياة بدونه، فهو أساسها ومصدرها، وهو شمسها المنيرة، وهل حياة من غير شمس؟ وهو روح هذا الكون، وهل يعيش جسم بلا روح؟ ولم يطق أن يسمع أنه قد مات، فوثب مخترطا سيفه، تنطقه عاطفته، وحبه رسول الله صلى الله عليه وسلم، يمنع الناس أن يقولوا: مات رسول الله انه لم يمت ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى ابن عمران وقد غاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم، والله ليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما رجع موسى، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات!
وكان أبو بكر رضي الله عنه غائباً في منزله في السُّخ، وكان أبو بكر العقل الثابت الذي لا تقلقله الحادثات ولا تحركه النوائب، وكان عمر يومئذ القلب الحساس الذي يفيض بالعاطفة وينبثق بالشعور، فلما قدم دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبله ثم خرج وعمر يتكلم، فاستنصته فلم ينصت، ومضى يتكلم، لا مخالفة لأبي بكر، ولكن الحس الذي طغى على نفسه، والحب الذي غمرها لم يدع فيها سبيلا لغيره. . حتى إذا تكلم أبو بكر فقال كلمته العظيمة:
أيها الناس: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، وتلا قول الله عز وجل:
(ومَا محمد إلاّ رَسول قَدْ خَلَتْ منْ قبلْهِ الرسلُ، أَفَإنْ ماتَ أَوْ قتلَ انْقَلَبْتمْ علَى أعقْابِكمْ، وَمَنْ ينَقْلَبْ عَلى عقِبَيهْ فَلَنْ يَضُرَّ اللهِ شيْئاً وَسَيَجْزي اللهُ الشاكِرينَ) وسمعها عمر، أفاق كم استيقظ من حلم، فرأى أنه كان مخطئاً، وتحقق الرزية وأدرك أنه لن يرى بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخارت قواه ولم تحمله رجلاه، فسقط على الأرض
دمشق:
علي الطنطاوي
دعابة الجاحظ - 4
للأديب محمد فهمي عبد اللطيف
ولعل أهم ما وصلنا من أساليب الجاحظ في السخر والتهكم، تلك الرسالة التي . . . وضعها في التنادر على صاحبه أحمد بن عبد الوهاب الكاتب، وهي الرسالة المعروفة برسالة التربيع والتدوير وقد تعرف أيضاً برسالة الطول والعرض، والتوسع والتدوير، ورسالة المفاكهات، ولكنها ذاعت ونشرت بين الناس وطبعت في مصر ولندن بهذا الاسم الأول، قال الجاحظ: (وقد كان احمد بن عبد الوهاب هذا مفرط القصر ويدعي أنه مفرط الطول، وكان مربعاً وتحسبه لسعة جفرته واستفاضة خاصرته مدوراً، وكان جعد الأطراف قصير الأصابع وهو في ذلك يدعي السباطة والرشاقة، وأنه عتيق الوجه، أخمص البطن معتدل القامة تام العظم؛ وكان طويل الظهر قصير عظم الفخذ، وهو

مع قصر عظم ساقه يدعى أنه طويل الباد، رفيع العماد، عادي القامة عظم الهامة، قد أعطي البسطة في الجسم والسعة في العلم؛ وكان كبير السن متقادم الميلاد، وهو يدعي أنه معتدل الشباب حديث الميلاد؛ وكان ادعاؤه لأصناف العلم على قدر جهله بها، وتكلفه للإبانة عنها على قدر غباوته فيها؛ وكان كثير الاعتراض لهجاً بالمراء شديد الخلاف كلفاً بالمجاذبة متتابعاً في العنود مؤثراً للمغالبة مع إضلال الحجة والجهل بموضع الشبهة، والخطرفة عند قصر الزاد، والعجز عند التوقف، والمحاكمة مع الجهل بثمرة المراء، ومغبة فساد القلوب. . . وكان قليل السماع غمراً، وصحفيا غفلا، لا ينطق عن فكر، ويثق بأول خاطر، لا يفصل بين اعتزام الغمر واستبصار المحق، يعد أسماء الكتب ولا يفهم معانيها، ويحسد العلماء من غير أن يتعلق فيهم بسبب، وليس في يده من جميع الآداب إلا الانتحال لأسم الأدب. . .)

فالرجل - على ما يصف الجاحظ - كان دعياً يبالغ في قدره، ويشتط على نفسه، فيجري في حلبة العتاق وهو كودن، ويطاول السماء وأسبابه لاصقة بالأرض، فكأنه الهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد، فهو يزور على الناس مخبره، ويدلس في حقيقته، ويزعم لنفسه دعوى عريضة لا يد له فيها ولا رجل. . والظاهر أنه بالغ في دعواه وأمعن. وأصر عليها وتهور، قال الجاحظ: (فلما طال اصطبارنا حتى بلغ المجهود منا، رأيت أن أكشف قناعه، وأبدي صفحته للحاضر والباد، وسكان كل ثغر وكل مصر، بأن أسأله عن مائة مسألة أهزأ

فيها وأعرف الناس مقدار جهله، وليسأله عنها كل من كان في مكة ليكفوا عنا من غربه، وليردوه بذلك إلى ما هو أولى به. . .) ولقد استطاع الجاحظ أن يبدي صفحة الرجل حقا، وأن يهزأ به ويبلغ منه، فأخذه بأسلوب لاذع، وغمره بفيض من السخر والتهكم والتعريض، وتندر عليه في منظره ومخبره، وعلمه ومعرفته، وغروره وادعائه، وكذبه وتدليسه، وكل ما زعمه لنفسه. وقد استهل الجاحظ القول في براعة فائقة فقال يغمزه وكأنه يدعو له: (أطال الله بقاءك، وأتم نعمته عليك، وكرامته لك! قد علمت حفظك الله أنك لا تحسد على شيء حسدك على حسن القامة، وضخم الهامة، وعلى حور العين، وجودة القد، وعلى طيب الأحدوثة، والصنيعة المشكورة، وأن هذه الأمور هي خصائصك التي بها تكلف، ومعانيك التي بها تلهج. . . ثم أخذ الجاحظ يناقشه في طوله وقصره، وعرضه واتساعه، وتربيعه وتدويره، وقده وخرطه. . . ثم أورد عليه شيئاً من آراء الناس عنه واختلافهم فيه، وحسدهم له!! ثم ابتدأ فقال: فأنت المديد وأنت البسيط، وأنت الطويل وأنت المتقارب، فيا شعراً جمع الأعاريض، ويا شخصاً جمع الاستدارة والطول، ما يهمك من أقاويلهم. ويتعاظمك من اختلافهم؟. وهل في تمامك ريب حتى يعالج بالحجة؟ وهل رد فضلك جاحد حتى يثبت بالبينة؟ وهل لك خصم في العلم، أو ند في الفهم، أو مجار في الحكم، أو ضد في العزم؟ وهل يتبلغك الحسد أو يضرك الغبن، وتسمو إليك المنى، أو يطمع فيك طامع، أو يتعاطى شأوك باغ؟ وهل يطمع فاضل أن يفوقك، أو يأنف شريف أن يقصر دونك، أو يخشع عالم أن يأخذ عنك؟ وهل غاية الجميل إلا وصفك؟ وهل زين البليغ إلا مدحك؟ وهل يأمل الشريف إلا اصطناعك؟ وهل يقدر الملهوف إلا غباءك؟ وهل للغواني مثل غيرك، وهل للماتج رجز إلا فيك؟ وهل يحدو الحادي إلا بذكرك؟ وهل على ظهرها جميل حسيب، أو عالم أديب، إلا وظلك أكبر من شخصه؟! وظنك أكثر من علمه، واسمك افضل من معناه، وحلمك اثبت من نجواه، وصمتك أفضل من فحواه؟ وهل في الأرض حليم سواك؟ وهل أظلت الخضراء ذا لهجة أصدق منك؟ وهل حملت النساء أجمل منك؟ فمن يطمع في عيبك بل من يطمع في قدرك؟ وكيف وقد أصبحت وما على ظهرها خود إلا وهي تعثر باسمك، ولا قينة إلا وهي تغني بمدحك، ولا فتاة إلا وهي تشكو تباريح حبك، ولا محجوبة إلا وهي تنقب الخروق لممرك، ولا عجوز إلا وهي تدعو لك ولا غيور إلا وقد شقي بك!

وكم من فتاة معذبة قد افرج قلبها الحزن، وأجهد عينها الكمد،. . . فأصبحت والهة مبهوتة، وهائمة مجهودة، بعد ظرف ناصع، وسن ضاحك، وغنج ساحر، وبعد أن كانت ناراً تتوقد، وشعلة تتوهج!! وليس حسنك أبقاك الله بالذي تبقى معه توبة أو تصح معه عقيدة أو يدوم معه عهد أو يثبت معه عزم، أو يمهل صاحبه التثبت، أو يتسع للتخير، أو ينهنهه زجر أو يهذبه خوف!! ولكنه شيء ينقض العادة، ويفسخ المنة، ويعجل عن الروية وننسى معه العواقب ولو أدركت ابن الخطاب لصنع بك أعظم مما صنع بنصر

(ابن حجاج
ثم أمعن الجاحظ في التنادر على الرجل، وراح يتفنن في السخر من حسنه وجماله وخلقه وتركيبه، وبعد أن اقتحمه بنظرة إجمالية على نحو ما قدمنا لك أخذ ينظر إليه في كل عضو من أعضائه فقال: (وما ندري في أي الحالتين أنت أجمل، وفي أي المنزلتين أنت أكمل، إذا فرقناك أو إذا جمعنك، وإذا ذكرنا كلك، أو إذا تأملنا بعضك. فأما كفك فهي التي لم تخلق إلا للتقبيل والتوقيع، وهي التي يحسن بحسنها كل ما اتصل بها! وما ندري الكأس في يدك أحسن أم القلم، أم الرمح الذي تحمله أم المخصرة، ام العنان الذي تمسكه، أو السوط الذي تعلقه؟! وما ندري أي الأمور المتصلة برأسك أحسن وأيها أجمل وأشكل؟ آللمة أم مخط اللحية، أم الإكليل، أم العصابة، أم التاج، أم العمامة، أم القناع أم القلنسوة؟! وأما قدمك فهي التي يعلم الجاهل كما يعلم العالم، ويعلم البعيد الأقصى كما يعلم القريب الأدنى أنها لم تخلق إلا لمنبر ثغر عظيم، أو ركاب طرف كريم؛ وأما فوك فهو الذي لا ندري أي الذي نتفوه به أحسن، وأي الذي يبدو منه أجمل؟ الحديث أم الشعر، أم الاجتماع أم الأمر والنهي، أم التعليم والوصف؛ وعلى أننا ما ندري أي ألسنتك أبلغ، وأي بيانك أشفى؟ أقلمك أم خطك، أم لفظك أم إشارتك أم عقدك؟ وهل البيان إلا لفظ أو خط أو إشارة أو عقد. . . وقد علمنا أن القمر هو الذي يضرب به الأمثال، ويشبه به أهل الجمال، وهو مع ذلك يبدو ضئيلا نضواً، ومعوجاً شختا، وأنت أبداً قمر بدر فخم غمر، ثم هو مع ذلك يحترق في السرار ويتشاءم به في المحاق، ويكون نحساً كما يكون سعداً، ويكون نفعا كما يكون ضرا، ويقرض الكتان ويشحب الألوان، ويخم فيه اللحم، وأنت أبداً دائم اليمن ظاهر السعادة، ثابت الكمال شائع النفع، تكسو من أعراه وتكن من أشحبه. . .)
وانطلق الجاحظ بعد ذلك يندد بالرجل فيما يدعيه لنفسه من طراوة الشباب ونضارة الإهاب
على أنه كبير السن قد شابت شواته وتخدد أديمه، وسلخ من العمر غايته. وتجد الجاحظ ظريفاً طريفاً إذ يقول: (جعلت فداك ما لقي منك الذهب، وأي بلاء دخل بك على الخمر؟! كانا ينبهان بطول العمر ويبهجان ببقاء الحسن، وبأن الدهر يحدث لهما الجدة إذا أحدث لجميع الأشياء الخلوقة، فلما أربى حسنك على حسنهما، وغمر طول عمرك أعمارهما، ذلا بعد العز، وهانا بعد الكرامة. فيا عقيد الفلك كيف أمسيت؟ ويا فوه الهيولي كيف أصبحت؟ ويا نسر لقمان كيف ظهرت؟ ويا أقدم من دوس، ويا أسن من لبد، ويا صفي المستقر، ويا صاحب المسند، حدثني كيف رأيت الطوفان؟ ومتى كان سيل العرم؟ ومنذ كم مات عوج؟ ومتى تبلبلت الأنس؟ وكم لبثتم في السفينة؟ وما حبس غراب نوح؟ هيهات! أين عاد وثمود؟ وأين طسم وجديس؟ وأين أمم ووبار؟ وأين جرهم وجاسم؟ أيام كانت الحجارة رطبة وإذ كل شيء ينطق! ومذ كم ظهرت الجبال ونضب الماء عن النجف، وأي هذه الأودية أقدم: أنهر بلخ أم النيل أم الفرات أم دجلة، أم جيحان أم سيحان أم مهران؟. . . أبقاك الله! وليس دعائي لك بطول البقاء طلباً للزيادة، ولكن على جهة التعبد والاستكانة، فإذا سمعتني أقول: أطال الله بقاءك فهذا المعنى أريد، وإذا رأيتني أقول لا أخلى الله مكانك فإلى هذا المعنى أذهب. وفيك أمران غريبان، وشاهدان بديعان: جواز الكون والفساد عليك، وتعاور الزيادة والنقصان إياك، جوهرك فلكي وتركيبك أرضي، ففيك طول البقاء، ومع دليل الفناء، فأنت علة للمتضاد، وسبب للمتنافي! فإياك أن تظن أنك قديم فتكفر، وإياك أن تنكر أنك محدث فتشرك، فإن للشيطان في مثلك أطماعاً لا يصيبها في سواك، ويجد فيك عللا لا يجدها في غيرك، ولست - جعلت فداك - كإبليس وقد تقدم الخبر في بقائه إلى انقضاء أمر العالم وفنائه، ولولا الخبر لما قدمته عليك ولا ساويته بك، وأنت أحق من عذر، وأولى من ستر، ولو ظهر لي لما سألته كسؤالي إياك وإن كان في التجاذب مثلك فهو في النصيحة على خلافك، ولأنك إن منعت شيئاً فمن طريق التأديب أو التقويم، وهو إن منع منع بالغش والأرصاد، وأنت على أية حال شكل، ونحن نرجع إلى أصل ونلتقي إلى أب ويجمع بيننا دين)
ويزداد الجاحظ ظرفاً وملاحة، ويشتد تهكما وسخرية إذ يدخل على صاحبه من ناحية علمه، أو قل من ناحية جهله! فقد أورد عليه كثيراً من الخرافات والمحالات وتلقف له جملة مما

هو شائع عند العامة من الأكاذيب والأخبار، وجعل هذا كله من باب المسائل ورؤوس المعضلات، فأخذ يعاييه بها ويسأله عنها: فسأله عن الشقناق والشيصبان، ومن قيرى ومن عيرى ومن جلندي، ومن أولاد الناس من السعالي، ومتى تخزعت خزاعة، ومتى طوت المناهل طي، وما القول في هاروت وماروت، وما عداوة ما بين الديك والغراب، وما صداقة ما بين الجن والأرضة، وما علة خلق الخنزير؛ وكيف اجتمع في الذبابة سم وشفاء، وكيف لم تقتل الأفعى سمها، وكيف لم تحرق الشمس ما عند قرصها، ومذ كم كان الناس أمة واحدة ولغاتهم متساوية، وبعد كم بطن اسود الزنجي وابيض الصقلبي، وما عنقاء مغرب، وما أبوها وما أمها؟ وهل خلقت وحدها أم من ذكر وأنثى؟ ولم جعلوها عقيما وجعلوها أنثى. إلى آخر ما تلقفه الجاحظ من الطرائف وبلغ به مائة مسألة كلها من هذا الطراز وعلى هذا النمط، ولعل من المعلوم أنه لم يكن يطمع في الإجابة من صاحبه بل إنه ليقول له: (وقد سألتك وإن كنت أعلم أنك لا تحسن من هذا قليلا ولا كثيراً؛ فإن أردت أن تعرف حق هذه المسائل وباطلها وما فيها خرافة وما فيها محال، وما فيها صحيح وما فيها فاسد، فألزم نفسك قراءة كتبي ولزوم بابي وابتد بنفي التشبيه والقول بالنداء، واستبدل بالرفض الاعتزال، وان أتنكر منعك بعد التمكين والبذل وبعد التقريع والشحذ فلا يبعد الله إلا من ظلم!)

ولاشك أن الجاحظ قد ابتدع رسالته هذه ابتداعاً، وأتى بها على غير مثال سابق في الأدب العربي، ولاشك أنها قد جاءت قوية رائعة تعلن عن فن الرجل في بابها، واقتداره على أمثالها. ولقد كان الجاحظ على اعتزاز بها غاية الاعتزاز، فأشار إليها بالإكبار، وأحال عليها بالأقدار، واقتبس منها في بعض ما كتب. وقد تأثر بها بعض الكتاب فحاول الخوارزمي أن يحذو حذوها فقلدها في رسالة كتبها إلى أحد أصحابه الشعراء يعرف بالبديهي فبلغ أربا، ولكن دون ما بلغ الجاحظ بكثير. ثم جاء البديع الهمذاني فانتهج الطريق في بعض مقاماته إذ كان يهاجي بعض أصحابه ولكن يظهر أنه نظر إلى الخوارزمي أكثر مما نظر إلى أبي عثمان فسلبه كثيراً من تعبيراته، وخرج من التعريض إلى الشتم، ونزع عن التهكم إلى السب، وبدل التلميح بالتصريح، والمرح بالتجهم، وهذا كله غير ذلك كله، فتعرف الصنفين، وافرق بين الطريقين. . . .

(للكلام صلة)

محمد فهمي عبد اللطيف

شقية

للسيد عمر أبو ريشة

حثثت خطاي الحمر عن هيكل القدس ... وفي حمأة الأرجاس كفرت عن رجسي
وما استعذبت نفسي الشقاء وإنما ... وجدت عزاء النفس أقتل للنفس
دعوني أعب السم من أكؤس الملا ... وأقضي على تلك البقية من حسي
كفاني نفضت الكفَّ من يانع المنى ... وبعت صباي الغض بالثمن البخس!!
وما من ضحايا النار، حسناء كاعب ... عليها جلال الحسن في العري واللبس
تمشت ونفحات المحاجر حولها ... ومن خلفها الكهَّان خافتة الجرس
ولما ذكت في المذبح النار تمتمت ... مصليَّة والضرس يقرع بالضرس
وزجَّت بها عريانة فتفجرت ... جراح وقطرات الدما صبغة النفس
وفي كل جرح فوهة من جهنم ... تولول كالريح المؤججة البأس
بأهلك مني عند فضٍ مآزري ... على المذبح الشهوات للمصبح الممسي!!
يؤرقني الماضي فأنشر طرسه ... وألسنة الآلام تقرأ في الطرس
وأهجس والأشباح تعتام ناظري ... فيرتد إشفاقاً فأقصر من هجسي
وأزجر دمعي أن يثور وزفرتي ... فلا دمعتي تسلي، ولا زفرتي تنسي
تغرُّ ابتساماتي عيون أخي الهوى ... وخلف ابتساماتي جراح من البؤس
طلعت على الأيام والطهر حارسي ... يحيك على عطفيَّ جلبابَه القدسي
تشيعني الأبصار أين توجهت ... خطاي فأمشي مشية الرجل النكس
وضج بأعطافي الغرور فلم أَلِنْ ... لصرخة ولهان تَمخضُ باليأس
كنرجسة في الحقل تلثم ساقَها ... ثغور من الأزهار طيبة الغرس
ولكنها. . . والكبرياء تهزها ... أبت أن ترى في غيرها رفعة الجنس
حنت رأسها كيما تقبل ظلها ... غرورا فماتت وهي محنيَّة الرأس!!

ولما رأيت الفقر أزبد فكه ... وكشَّر عن أنياب منهرت طلَس
صحوت فلم ابصر حواليَّ راحما ... يخفف من بؤسي ويطرد من تعسي
وألقتني الأقدار في كف أرعن ... كما قبضت كف البخيل على الفلس
يبثُّ لي النجوى فيطربني بها ... فأبني من الآمال أساً على أس
فكنت كشاة ألفت العيش زاهرا ... تروح على أنس وتغدو على أنس
يهش لها الراعي فترقص حوله ... فيلقمها الأعشاب بالأنمل الخمس
يسمنها. . . للذبح وهي تظنه ... رحيما يقيها صكة الناب والضرس
فولَّت أمانيَّ العذابُ تلاشياً ... كما يتلاشى الثلج من قُبلة الشمس
وضاقت بي الدنيا فهمتُ طريدة ... أفتش عن سعدي فيلطمني نحسي!
فما لاح لي إلا دم متلاطم ... ففي لجه أغدو وفي لجه أمسي
أرى عنده للانتقام من الورى ... مناهل تنسي ما أجرَّع من بؤس
فرب فتى ما دنَّس الخزي قلبه ... نصبت له سهم الإساءة في القوس
تمطيت لاستغوائه فتثاءبت ... بعينيَّ أفواه الدعارة والرجس!
وما خفَّ للَّذَّات حتى تركته ... يصارع داءً قد تحفَّز للغرس
إذا أنّ هزَّت رعشة الأنس أضلعي ... وأفرحني إن لاح في صفرة الوَرْس
فصرت إذا ما اشتدَّ دائي تركته ... ليعدي وإن أبصرت من خلفه رمسي!
كما النحلة الغضبى لدى وخز خصمها ... تموت. . . ولكن وهي مرتاحة النفس!!
(حلب)
عمر أبو ريشة
أترانا فراشتين؟
للأستاذ خليل هنداوي
أتراها فراشةً سبحت في ... مائج الكون، والخيالُ الجناح؟
دأبها أن تهيم فوق الروابي ... يلتقيها منها الشذا الفواح
عيشها بسمة تشع، وفيض ... من سنا اللهو ساطع وضَّاح
الصباحُ النديُّ يحنو عليها ... كل ما حولها ندى وأقاح!
ليلها دفقة من النور تمشي ... والليالي - مع الغرام - صباح
وتراني فراشةً حثها الشو ... ق وهمت فلم يطعها جناح
فترامت .! ولا تسل إذ ترامت! ... كان أدري بحالها المصباح
خليل هنداوي
النفس وخلودها عند ابن سينا
للدكتور إبراهيم بيومي مدكور
مدرس الفلسفة بكلية الآداب
- 3 -
لم يقف ابن سينا عندما تقدم في إثبات وجود النفس ومغايرتها للبدن، بل افترض فرضاً آخر هو من أبدع حججه وأكثرها ذيوعاً، ونعني به فرض الرجل المعلق في الفضاء. فلو تصورنا أن شخصاً ولد مكتمل القوى العقلية والجسمية، ثم غطى وجهه بحيث لا يرى شيئاً مما حوله، وعلق في الهواء أو بالأولى في الخلاء كي لا يحس بأي احتكاك أو اصطدام أو مقاومة، ووضعت أعضاؤه وضعاً يحول دون تماسها أو تلاقيها، فإنه لا يشك بالرغم من كل هذا في أنه موجود وأنه كان يعز عليه إثبات وجود أي جزء من أجزاء جسمه، بل قد لا تكون لديه فكرة ما عن الجسم والوجود الذي تصوره مجردا عن المكان والطول والعرض والعمق، وإذا فرض أنه تخيل في هذه اللحظة يداً أو رجلا فلا يضنها يده ولا رجله، وعلى هذا إثباته أنه موجود لم ينتج قط عن الحواس ولا عن طريق الجسم بأسره؛ ولابد له من مصدر آخر مغاير للجسم تمام المغايرة وهو النفس. يقول ابن سينا: (يجب أن يتوهم الواحد منا كأنه خلق دفعة وخلق كاملا، ولكنه حجب بصره عن مشاهدة الخارجات، وخلق يهوى في هواء أو خلاء هوياً لا يصدمه فيه قوام الهواء صدما ما يحوج إلى أن يحس، وفرق بين أعضائه فلم تتلاق ولم تتماس، ثم يتأمل أنه هل يثبت وجود ذاته فلا يشك في إثباته لذاته موجوداً، ولا يثبت مع ذلك طرفا من أعضائه ولا باطنا من أحشائه ولا قلبا ولا دماغا ولا شيئا من الأشياء من خارج، بل كان يثبت ذاته ولا يثبت لها طولا ولا عرضا ولا عمقا. ولو أنه أمكنه في تلك الحال أن

يتخيل يداً أو عضواً آخر لم يتخيله جزءاً من ذاته ولا شرطا في ذاته؛ وأنت تعلم أن المثبت غير الذي لم يثبت، والمقر به غير الذي لم يقر به، فإذن للذات التي أثبت وجودها خاصية لها على أنها هو بعينه غير جسمه وأعضائه التي لم يثبت)، وواضح أن هذه البرهنة قائمة على أن الإدراكات المتميزة تستلزم حقائق متميزة تصدرعنها، وان الإنسان قد يستطيع أن يتجرد من كل شيء اللهم إلا نفسه التي هي عماد شخصيته وأساس ذاته وماهيته. وإذا كانت الحقائق الكونية كلها تصل إلينا بالواسطة فهناك حقيقة واحدة ندركها إدراكا مباشراً ولا نستطيع أن نشك فيها لحظة، لأن عملها يشهد دائما بوجودها. وما أصدق سقراط حين قال: اعرف نفسك بنفسك. ولئن كنا نستدل على وجود جسم ما بالحيز الذي يشغله فالتفكير الذي هو خاصة النفس الملازمة لها دليل قاطع على وجودها

وقد سبق إلى هذا المعنى أغسطين فيلسوف المسيحية في القرن الخامس الميلادي وسلك في البرهنة على وجود النفس سبيلا تشبه من بعض الوجوه السبيل الآنفة الذكر، فذهب إلى أن الجسم والنفس حقيقتان متميزتان تمام التميز، ففي حين أن الأول يشغل حيزاً وله طول وعرض وعمق لا حيز للثانية مطلقا، وخاصيتها الوحيدة هي التفكير؛ ومن أجل هذا كان شعورنا بها وإدراكنا لها إدراكا مباشراً، فإن الفكر لا يحتاج إلى واسطة في فهم ذاته، ومادامت النفس تفكر فهي موجودة، لأن تفكيرها يساوي وجودها تمام المساواة. وقد يستطيع الإنسان أن يتجرد عن جسمه وعن العالم الخارجي في كل مظاهره، وأن ينكر الحقائق على اختلافها وأن يشك في كل شيء إلا نفسه التي هي مصدر شكه ومبعث تفكيره فإنه لا يجد إلى الشك فيها سبيلا

وهنا نتساءل: هل تأثر ابن سينا بأغسطين أم الأمر مجرد توافق خواطر؟ لم يثبت مطلقا أن مؤلفات الأخير نقلت إلى العربية، ولا نجد أية وسيلة سمحت لابن سينا بالأخذ عنه، ويرجح الأستاذ جلسن أنهما معا صدرا عن أصل إسكندري ولاسيما وهما شديدا التعلق بأفلوطين وتعاليمه، بيد أنا لم نقف على شيء مما وصل إلينا يشهد بأن رجال مدرسة الإسكندرية حاولوا البرهنة على وجود النفس على النحو السابق. ولسنا ندري ما المانع أن يكون برهان الرجل المعلق في الفضاء من ابتكار ابن سينا واختراعه، خصوصا وهو قد عودنا صوراً فرضية أخرى كثيرة كحديث حي بن يقظان ورسالة الطير التي تدل على خيال خصب ومهارة في التصوير. وعلى فرض أنه عالة على من قبله في بعض عناصر برهانه، فليس هناك شك في أن الصورة الجذابة التي صوره بها من بنات فكره وإنتاجه الشخصي، ويخيل إلينا أنه كان مغتبطا بفنه معجبا بتصويره، ولا أدل على هذا من أنه أبرزه مرتين في كتاب الشفاء وعاد إليه مرة ثالثة في إشاراته

وهذا التصوير هو الذي ميز برهنته من برهنة أغسطين وان كانتا تلتقيان في الغاية والمرمى. وهو الذي استلفت أنظار فلاسفة القرون الوسطى المسيحيين واستولى على نفوسهم، فأعاده الكثيرون منهم بنصه أحياناً، وخاصة أتباع أغسطين مثل غليوم الأقرني وحنا الروشيني، وكأن هؤلاء ازدادوا تعلقاً بالفيلسوف العربي حين رأوه يقترب من أستاذهم اللاتيني.

ولا نظننا في حاجة إلى أن نشير إلى أن كتاب الشفاء ترجم إلى اللاتينية. وكان للجزء المتعلق بالنفس منه أكبر الأثر في رجال الفلسفة المسيحية، ولم يكد دومينقوس جندسالينوس يترجمه في القرن الثاني عشر الميلادي حتى اقبلوا عليه يتدارسونه ويأخذون عنه مختلف الآراء، ولا يرون على أنفسهم غضاضة في أن يعزوا البرهان الذي نتحدث عنه إلى صاحبه ومبتكره ابن سينا

ويظهر أنهم استمروا يرددونه فيما بينهم إلى عصر النهضة وإلى أن جاء ديكارت فنادى بمبدئه المشهور الذي ينطوي على أفكار أغسطين وسينويه، ففي بحثه عن الحقيقة عاهد نفسه على أن يرفض كل ما يتطرق له الشك، لأن حواسنا في حال اليقظة تخدعنا وتنقل إلينا العالم الخارجي نقلا مشوها، ومخيلتنا أثناء النوم تغدق علينا صوراً وأوهاماً لا أساس لها. وأخذ يشك في كل شيء إلى أن انتهى به شكه إلى حقيقة ثابتة هي أنه يفكر؛ ومادام يفكر فهو موجود، وفي مقدور الشكاك واللاأدريين أن يهدموا الحقائق على اختلافها إلا هذه الحقيقة التي تحمل معها برهانها.

يقول ديكارت: (قد أستطيع أن أفترض أن لا جسم لي وأن لا عالم ولا مكان أحل فيه،

ولكني لا أستطيع لهذا أن أفترض أني غير موجود، بل على العكس ينتج قطعاً وفي وضوح من شكي في حقيقة الأشياء أني موجود. . . فقد عرفت إذن أني جوهر ذاته وطبيعته التفكير، ولا يحتاج في وجوده إلى مكان ولا يخضع لشيء مادي، وعلى هذه الصورة الأنا أو النفس التي هي أساس ما أنا عليه متميزة تمام التميز من الجسم، بل هي أيسر معرفة منه، حتى في حال انعدامه لا تنقطع هي عن أن توجد مع كل (خصائصها.

هذا هو الكوجيتو الديكارتي القائل: (أنا أفكر فأنا إذن موجود). وهذه هي البرهنة عليه. ولا يجد القارئ صعوبة في إدراك وجوه الشبه بين هذه البرهنة والبرهنتين السابقتين الأغسطينية والسينوية، وقديماً لاحظ أرنولد أن ديكارت يحاكي أغسطين تمام المحاكاة في إثباته وجود النفس وتميزها من البدن ولم يبق مجال للشك في أن أبا الفلسفة الحديثة قرأ مؤلفات أغسطين وخاصة ما اتصل منها بالنفس وخلودها وحديثاً استطاع المسيو ليون بلنشيه أن يبين في سعة وتفصيل جديرين بالإطراء الأفكار التي سبقت الكوجيتو الديكارتي ومهدت له، غير أنه فاته أن يشير إلى الصلة بينه وبين برهان الرجل المعلق في الفضاء. وقد حاول أخيراً المستشرق الإيطالي فورلاني أن يتلافى هذا النقص، فكتب في مجلة فصلا عنوانه (ابن سينا والكوجيتو الديكارتي). وفيه يعرض برهان الفيلسوف العربي وترجمته اللاتينية القديمة، ثم يقارنه بما جاء به ديكارت موجها عنايته الكبيرة إلى بيان أثر الحواس والمخيلة لديهما، وينتهي بعد كل هذا إلى النتيجة الآتية: وهي أنه يستبعد أن يكون ديكارت قرأ ابن سينا رأسا لقلة المطبوعات وعدم تداول مؤلفاته في الأيدي، ويرجح أن يكون قرأه عن طريق غليوم الأقرني ولكنا نلاحظ أن ترجمة كتاب الشفاء اللاتينية، أعيد طبعها في فينيس ثلاث مرات بين سنة 1496 وسنة 1546. فتكون آخر طبعة منها ظهرت قبل ميلاد ديكارت بخمسين سنة فقط. ونحن نعلم كيف أثيرت مشكلة النفس وخلودها لعهده، فمن المحتمل أن يكون الباحثون قد لجأوا إلى كل المصادر الممكنة لحلها. وابن سينا من أطول الناس حديثا فيها وأكثرهم غراما بها. وقد أبان رينان من قبل مقدار تعلق السربونيين ورجال الدين في باريس بالفلسفة الإسلامية بوجه عام ومناقشتهم لها وردهم عليها وبحثهم عن أصولها ومصادرها، فلا يمكن أن تكون قد فاتتهم مطبوعات فينيس المتقدمة وفي مكتبة باريس الأهلية أكثر من نسخة من هذه المطبوعات، ويغلب على الظن أنها وصلت السربون منذ ذلك التاريخ: وإذا كان أرنولد قد أشار إلى أغسطين فقط ليبين أن ديكارت عالة على من قبله. فلعل ذلك راجع إلى أنه تخير شخصية معروفة من العالم المسيحي المحيط به

على أن ديكارت لم ينتبه إلى ابن سينا بواسطة غيوم الأقرني فقط، بل يغلب على ظننا أنه اهتدى إليه أيضاً في ثنايا مؤلفات روجير بيكون التي قرأها وتأثر بها في نواح مختلفة. ومهما يكن فسواء أقرأ ديكارت ابن سينا مباشرة أم عن طريق غير مباشر فكل الدلائل قائمة على أن برهان الرجل المعلق في الفضاء جدير بأن يعد بين الأفكار التي سبقت

الكوجيتو الديكارتي ومهدت له. وإذا كان ديكارت مديناً لأغسطين بشيء في صوغه وتصويره فهو مدين بدرجة لا تقل عن هذا لابن سينا كذلك، خصوصاً وإلى الأخير يرجع الفضل في بعث أفكار أغسطين من مرقدها وتوجيه اللاتينيين من جديد نحوها توجيهاً نشيطاً في الأربعة قرون السابقة لديكارت. وهو مع زميله ابن رشد قد أثارا في العالم الغربي منذ القرن الثاني عشر مشكلة العقل والنفس ونظرية المعرفة بوجه عام إثارة امتد صداها إلى عصر النهضة.

وغني عن البيان أنه لا يعيب الكوجيتو مطلقاً أن يكون بعض الباحثين قد اهتدى إليه من قبل عن طريق آخر، فإن اتفاق الآراء على أمر من الأمور يزيده قوة فوق قوته ويقيناً إلى يقينه. وليس ثمة داع لأن نجهد أنفسنا، كما صنع هملان وغيره في أن نثبت بأي ثمن أن ديكارت مبدعه الأول، فإن هذه محاولة فاشلة ولا تتفق مع روح البحث العلمي الحديث. ولا يعيب ديكارت نفسه أن يكون قد سبق إليه في صورة غير الصورة التي أظهره فيها، وثوب غير الثوب الذي البسه إياه، فإن الفكرة الواحدة تتشكل بأشكال مختلفة تبعاً للمذاهب الفلسفية التي تبدو فيها

يتبع
إبراهيم مدكور
تاريخ العرب الأدبي - 15
للأستاذ رينولد نيكلسون
ترجمة حسن محمد حبشي

ومن المحتمل أن يكون فجر العصر الذهبي للشعر العربي هو هذه السنوات العشر الأولى من القرن السادس بعد الميلاد. فحوالي هذا الوقت كان قد اشتد ضرام حرب البسوس التي سجلت سنيها عاما فعاماً أشعار معاصريها إبان ذلك الوقت، كما أن أول قصيدة عربية أنشئت - كما تذكر أخبارهم - قصيدة نسج بردتها المهلهل بن ربيعة التغلبي في رثاء أخيه كليب الذي كان مصرعه سببا في إشعال نار الوغى واشتجار رماح قبيلتي بكر وتغلب. وعلى كل حال ففي خلال القرن التالي لهذه الحادثة يجد كثيراً من المنشدين في جميع أصقاع شبه الجزيرة العربية ظلوا مقتفين لهجة شعرية واحدة في معانٍ مشتركة ضلّت محترمة لم تمسسها يد التغيير والتبديل حتى نهاية العصر الأموي (750م) ومع ذلك فقد سادت الأدب أيام الخلافة العباسية روح جديدة سرعان ما ثبتت قوائم سلطانها الذي ظل على قوته حتى اليوم تقريبا، وكان هذا النمط يتمركز في القصيدة التي تعد الصورة - أو بتعبير أدق - المثل الأعلى لما يمكن تسميته بالعصر الرائع للأدب العربي. وتختلف القصيدة في عدد الأبيات لتي تتألف منها، لكنها قلما تقل عن خمسة وعشرين أو تربو على المائة، ولا يكون التصريع إلا في المطلع، ثم تجري القافية على روي واحد حتى نهاية القصيدة. أما الشعر المرسل فغريب عن العرب الذين لا يرون الإيقاع حلية وتنميقا أو تقييدا منهكا بل يعدونه روح القصيدة وجوهرها. وأغلب ما تكون القوافي رقيقة فيها أنوثة كقولهم سخينا، تلينا، مهينا، مخلدي، يدي، عوّدي، رجامها، سلامها، حرامها. وإنّ تذليل عقبات القافية الواحدة ليتطلب مهارة فنية كبرى حتى في لغة يكون من أشد خصائص تكوينها تعدد القوافي وكثرتها، وأن أطول المعلقات لأقصر من مرثية جراي، أما من ناحية الوزن فللشاعر الحرية في اختيار أي بحر إلا الرجز الذي يعد أتفه من أن يستعمل في القصيدة. بيد أن حريته لا تصل إلى اختيار الموضوعات أو إلى طريقة استغلالها بل نرى عكس ذلك، إذ أن مجرى أفكاره مقيد بشروط قاسية لا يستطيع الفكاك منها، وفي ذلك يقول ابن قتيبة: (وسمعت بعض أهل العلم يقول أن مقصد القصيد إنما ابتدئ فيها بذكر الديار

والدمن والآثار، فشكى وبكى وخاطب الربع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين عنها إذ كان نازل العمد في الحلول والظعن على خلاف ما عليه المدر لانتجاعهم الكلأ، ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الشوق وألم الوجد والفراق وفرط الصبابة ليميل نحوه القلوب لأن النسيب قريب من النفوس لما جعله الله في تركيب العباد من محبة للغزل وألف للنساء، فليس يكاد يخلو أحد من أن يكون متعلقا منه بسبب، فإذا علم أنه استوثق من الإصغاء إليه عقب بإيجاب الحقوق فرحل في شعره وشكا النصب والسهر وسرى الليل وانضاء الراحلة، فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء بدأ في المديح فبعثه على المكافأة وهزه على السماح وفضله على الأشباه)

وهناك مئات من القصائد لا تخرج عن هذا الوصف الذي لا يجب على كل حال أن يعتبر النموذج الثابت على الدوام إذ يتجاوز الشاعر في بعض الأحيان عن المقدمة الغزلية وخاصة في المراثي، وإذا لم تقده على الفور إلى الغرض المنشود تلاها وصف دقيق صادق لبعير الشاعر أو حصانه الذي يحمله خلال القفار في سرعة الظبي النافر أو الحمار الوحشي أو الظليم. وشعر البدو يفيض بالدراسة الجميلة لحياة الحيوان ووصفها؛ ولاشك أنهم كانوا يولون المديح همهم وعنايتهم، كما كان أحب شيء إلى نفوسهم. وقد استطاع الشاعر أيام الجاهلية أن يرضى نفسه فلم تكن القصيدة وحدة قائمة بذاتها، ولكنها أشبه ما تكون بمجموعه صور رسمتها يد واحدة أو كما يقول الشرقيون مكونة من لآلئ مختلفة الحجم والقيمة، ثم ألف منها عقد

قد يمكن وصف الشعر العربي القديم بأنه نقد تصويري للحياة الجاهلية وأفكارها، إذ نجد الشاعر في هذه البيئة بعيداً عن التكلف والميوعة والبهرجة. وليست تسمية

مجموعة أبي تمام (بالحماسة) من قبيل الصدف. أو لأن ذلك عنوان من عناوين الكتاب أو فصل من فصوله يشغل قرابة نصفه. بل لأن الحماسة تشير إلى أجل فضيلة عظمها العربي، فقد امتدح البسالة في القتال والصبر عند اشتداد البلاء، والجد في طلب الثأر، وحماية الضعيف والازدراء بالأهوال، أو كما قال تنيسون (كافح واطلب تجد ولا تخضع)

ومن صور المثل الأعلى للبطل العربي الشنفري الأزدي، وقرينه في الغزو والسلب (تأبط شراً) فقد كانا قاطعي طريق طريدين، كما كانا شاعرين مبدعين، أما عن الأول فيروى أن

بني سلامان اختطفوه طفلا وربوه فيهم، ولم يعرف اصله حتى نما عوده فاقسم لينتقمن من خاطفيه وعاد إلى قبيلته الأولى، ونذر أن يفتك بمائة رجل من بني سلامان فمثل بثمانية وتسعين ثم نجح مطاردوه في أسره، وبتر إحدى ذراعيه في دفاعه عن نفسه فشد على أعدائه بيده الأخرى وقتل واحدا منهم ولكنهم تكأكأوا عليه فغلب على أمره وقتل وقد بقى على إيفاءه نذره رجل واحد، وبينما كانت أقحوفته ملقاة على الأرض مر بجوارها رجل من أعدائه فركلها بقدمه فدخلت فيها شظية من جمجمته ونغل الجرح ومات الرجل، ومن ثم قتل المائة، وفي قصيدته الموسومة بلامية العرب يذكر طرفاً من صور بطولته وبسالته وعناء حياة السلب:

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى ... وفيها لِمَن خاف القِلى متحوَّلُ
لَعَمْرُكَ ما بالأرض ضِيق على امرئ ... سَرَى رَاغباً أو راهِباً وَهْوَ يعْقِلُ
ولي دونكم أهلُون سيد عَمَلَّس ... وأرْقط زُهْلول وعرفاءٍ جَيْأَلُ
هُمُ الأَهْلُ لا مُسْتَوْدَعُ السِّر ذائعٍ ... لدَيهمْ وَلا الجَاني بما جَرَّ يخْذَلُ
وكلّ أبيّ باسِل غيرَ أنَّني ... إذا عَرَضَتْ أولَى الطّرَائِدِ أبْسلُ
وإنْ مُدَّت الأيدْي إلى الزَّادِ لم أكن ... بأعْجلِهِمْ إذْ أجْشَعُ القَوْمِ أعْجلُ
وما ذاك إلّا بسطة عن تفضل ... عليهم وكان الأفضل المتفضلّ
وإني كفاني فقدُ من لستَ جازياً ... بحسنَى ولا في قربة متعلّلِ
ثلاثة أصحاب: فؤاد مشيع، ... وأبيض إصليت، وصفراء عَيطلُ
هتوف من الملس المتون يزينها ... رَصائع قد نيطت إليها ومحمل
إذا زال عنها السهم حنَّت كأنها ... مرزّأة ثكلى ترِن وتعوْلُ

ثم يأخذ في الكلام عن قبيلته التي تلفظه لفظ النواة وتتركه هائما على وجهه حينما يتكالب عليها الأعداء مطالبيها بثأر تلك الدماء المهراقة ويقول:

فلا تقبروني إنّ قَبري مُحَرَّمُ ... عليكم ولكن أبْشِري أمَّ عامرٍ
إذا احتملوا رَأسِي ففي الرَّأسِ أكثْرِي ... وَغودِرَ عنْدَ الملتْقَى ثَمَّ سَايري
هنالك لا أرْجُو حيَاة تسرُنِي ... سَجِيسَ الليالي مُبسْلاً بالحرايرِ

أما ثابت بن جابر بن سفيان فهو من قبيلة (فهم) ويسمى تأبط شراً، وسبب ذلك أن أمه

أبصرته ذات يوم خارجا من الخباء إلى الخلاء متأبطاً سيفاً فسألها أحدهم (أين ثابت؟) فقالت: (لست أدري، لقد تأبط شرا وخرج) وهناك قول آخر بأنه قد خرج في بعض أموره فالتقى بغولٍ فشدّ عليه وجزّ رأسه ثم حمله إلى بيته على هذه الحال، فقيل له تأبط شرا. وإن الأبيات التالية التي يصور بها خاله شمس بن مالك لكفيلة بتصوير طبيعة الشاعر ونفسه تماما وهي انعكاس لعاداته:

قليلُ التَّشكي لِلْمهم يصيبُهُ ... كثيرُ الهوى شتى النَوَى والمسالك
يّظل بِمَوْمَاة ويمسي بغَيرها ... جَحِيشاً ويَعْرَوْرى ظُهور المهالِك
ويَسبْق وفْدَ الرِّيح من حيث ينتحي ... بمنْخَرقٍ مِنْ شده المتَدَارِك
إذا حاصَ عَيْنيِه الكرى النَّوْم لم يزل ... له كالئٍ مِنْ قلب شيَحْان فاتك
ويجعلُ عينيه ربيئة قلبه ... إلى سلةٍ من حدِّ أخلق صائِك
إذا هَزَّه في وجه قِرن تَهللتْ ... نوَاجذِ أفوَاهِ المنايا الضَّوَاحِكِ
يَرَى الوَحشة الأنس الأنيس ويهتدي ... بحيث اهتدت أمُّ النجوم الشوائك

وهذه الأبيات السالفة تصف في دقة وتلم كل الإلمام بالفضائل الأولية العربية من شجاعة وخشونة وبأس. وهنا نرى لزاما علينا أن ننتقل بالقارئ إلى ناحية بعيدة بعض الشيء عن الناحية الأدبية، تلك هي الناحية الخلقية التي تعد من الأسس المهمة التي قام عليها كيان المجتمع الوثني الذي ليس لدينا من مرجع عنه سوى الشعر الجاهلي.

لم يكن للعرب قانون مكتوب أو مرجع ديني أو أي شيء من هذا القبيل، بل كان هناك ثمة قوة أجل من هذه وأعلى شأنا وأنفذ تأثيراً في نفوسهم، تلك هي (الشرف)، ولكن ما هي خصائص الشرف البارزة وميزاته الواضحة التي تنطوي عليها فضيلة المروءة كما كان يفهمها عرب الجاهلية؟ لقد أشرنا إلى أن شجاعة العرب تشبه تمام الشبه شجاعة الإغريق (يولدها ثوران النفس ولكنها تتلاشى إزاء الإبطاء أو التراخي ومن ثم كان البطل العربي رجل جلاد يقتحم الأهوال، ويزدري الأخطار، كثير الفخر كما يظهر لنا ذلك من معلقة عمرو بن كلثوم، وإذا رأى أن ليس لما يفوته بالهرب خطر عظيم أسرع غير مليم، ولكنه يحارب ويناضل حتى آخر رمق فيه ذابّا عن نسائه اللائي كنّ إذا جد الجد واشتبكت الرماح، صحبن القبيلة ووقفن خلف صفوف القتال:

لما رأيْتُ نِسَاءنا ... يفْحَصن بالمغراءِ شدَّا
وبَدَتْ لميسُ كأنَّها ... بَدْرُ السماء إذا تَبَدَّى
وبَدَتْ محَاسنُها التي ... تخفَى وكان الأَمْرُ جَدَّا
نَازلْتُ كبْشَهُمو ولمْ ... أرَ مِنْ نِزَال الكبش بدَّا

وكانت الديمقراطية دستور القبيلة يتولى الإشراف على تطبيقه شيوخها الذين استحقوا السيادة بما لهم من شرف النسب، ونبل الأخلاق، وسعة الثروة، وحكمة الرأي، وكمال التجربة كما أشار إلى ذلك شاعر بدوي بقوله:

لا يَصلْح الناس فوْضى لا سراة لهم ... وَلا سَرَاة إذا جَهَّالهم سادوا
والبَيْتُ لا يبتَنى إلا لهُ عمدُ ... ولا عِمَاد إذا لمْ ترْسَ أوتادُ
وإن تجمع أوتادٌ وأعمدة ... يوماً فقد بلغوا الأمر الذي كادوا

(يتبع)

حسن حبشي

الفنون

الفن المصري

العقيدة الدينية أصل الباعث على الفن

للدكتور أحمد موسى

انظر إلى خريطة وادي النيل الطبيعية، تجد أن مصر واد جميل منبسط، لا تتخلله ارتفاعات ولا انخفاضات خصوصاً في المناطق المأهولة بالسكان، أما الأمطار فهي نادرة فيه، فضلا عن أن الشمس تسطع عليه طوال أيام السنة وتفكير الناس وتكوين إحساسهم وليد البيئة التي يعيشون فيها. ولما كان الفن وليد دقة الإحساس وسمو التفكير، وجب أن يكون الفن المصري بسيطا سهلا، نظراً لبساطة الخيال المصري ولين شاعريته، على عكس الخيال الإغريقي مثلا وكان المصري ولا يزال قليل الاستمتاع بجمال الطبيعة لندرة تغيرها، على حين نرى الإغريقي عظيم الإحساس بالجمال والاستمتاع به سريع التأثر بمظاهر الطبيعة المتقلبة، كثير السعي والبحث وراء ما فيها من جمال وفن. كل هذا راجع إلى اختلاف الطبيعي بين مصر وهي البلاد المنبسطة المكونة من قطعة واحدة غير منفصلة، وبين اليونان وهي جزائر سواحلها كلها تضاريس، فضلا عن كثرة الارتفاعات والانخفاضات في سطحها

وقد أوضحت شيئا يسيراً عن الفن المصري قبل التاريخ، وقلت إن الالتفات إلى الدين كان قبيل عهد الأسرات، وأن هذا الالتفات نما وأزداد حتى عصر مينا، الذي وحد بين الوجهين البحري والقبلي مكونا مملكة واحدة

وإذا استطعنا أن نفهم شيئا عن تطور العقيدة الدينية، فإنه يمكننا أن ندرك الفن المصري إلى حد الاستمتاع

أنعم المصريون النظر في الموجودات والمرئيات، واتجهوا بنظرهم إلى السماء، فتصور بعضهم أن القبة السماوية شيء أشبه ببقرة كبيرة رأسها متجه نحو الغرب، وأن بلادهم بين أرجلها، كما تخيلوا أن النجوم لا تخرج عن كونها زينة تتحلى بها ،وتصور غيرهم أن السماء على هيئات امرأة انحنت متجهة بيديها ورأسها نحو الغرب وبأرجلها نحو الشرق، وأن النجوم حلي منثورة على بطنها وصدرها

وإذا فكرنا قليلا نجد التشابه في الفكرة عظيما، ولاسيما وأن الذين تخيلوا السماء على هيئة بقرة ظنوا أن الشمس تولد (تشرق) على هيئة عجلة صغيرة؛ وأما الآخرون الذين

تخيلوها على شكل امرأة فقد ظنوا أنها تشرق على هيئة طفلة تسير من الشرق إلى الغرب، فلا تلبث أن تصير عجوزاً عند غروبها
ظل الحال كذلك حتى اتصل أهل مصر العليا بأهل مصر السفلى وتم التعارف بينهم، وتبادلوا التجارة وتفاهموا في شؤون الحياة وفي شؤون الدين
وكانت نتيجة هذا التعارف والتفاهم أن وجدنا أن هناك من رأوا الصقر يطير بسرعة، فتخيلوا الشمس مثله، تطير بجناحين من الشرق إلى الغرب. وكان أثر هذا الخيال عميقاً في الفن المصري، فترى الشمس قد رسمت بجناحين في مناسبات مختلفة ولم ينته الأمر عند هذا الحد، بل نظر المصري إلى الماديات وأولها وادي النيل، فتخيله رجلا منبسطاً على الأرض، ظهره إلى السماء وعليه نمت النباتات، وعاش الإنسان والحيوان مستمدين الحياة من الشمس. وظنوا أن الدنيا تبدأ حيث بدأ النيل من ذلك المحيط اللانهائي جنوباً، وتنتهي حيث يصب شمالا
واعتقدوا أن هناك آلهة للماء وللأرض وللهواء، وتوسعوا في تصوراتهم فجعلوا للحياة إلها وللموت آخر، وللمسرات والحب غيرها وهكذا
وكانت عبادتهم للشمس قوية باعتبارها مصدر الحياة والنور، فاختاروا لها مدينة خاصة أسموها عين شمس (هليوبوليس) كما أسموا الشمس (رع) عند الشروق و (اتوم) عند الغروب.
ونظراً لدقة ملاحظتهم للقمر وإعجابهم بانتظام سيره الزمني، جعلوا منه منظما لزرعهم واعتبروه إلها للعلوم والآداب، واتخذوا بلدة الأشمونين (قريبة من المنيا) مقراً لعبادته
ورمزوا للسماء ببقرة رسموها في معبد درندرة (بالقرب من قنا) وبقطة في صا الحجر (بالقرب من كفر الزيات) وبلبؤة في ممفيس (بالقرب من البدرشين)
وكانت مصوراتهم التي رمزوا بها للآلهة بسيطة في أول الأمر، مما يدل على بساطة معيشتهم في ذلك الحين، كما أن رسوماتهم لها لا تدل على انهم أحبوا حيواناتهم حباً عظيماً
جعلهم يصورون رؤوس هذه الآلهة بصور تلك الحيوانات نفسها عند تدهور المدنية المصرية
وإذا دهشنا للعقلية المصرية من ناحية العقيدة الدينية، فإننا لا نندهش عندما نجد الكهنة يتركونهم مسترسلين في عقائدهم حتى بذلك يدوم لهم السلطان
وكانت هذه العقيدة، رغماً عن عدم انسجامها مع العقلية المصرية خير دافع للفن المصري بل وإلى الحضارة المصرية إجمالا، فكل ما وصل إليه المصريون من أبهة وعظمة كان عن طريق هذه العقيدة، وكل ما تركوه من آثارها لا يخرج عما شيدوه للدين
فإنشاؤهم المقابر والأهرام والمعابد، كل هذا لم يكن إلا لرسوخ العقيدة الدينية في أنفسهم. ولا يعنينا الآن وصف شيء من مقابرهم أو أهراماتهم؛ أما معابدهم فكانت إجمالا عبارة عن حوش محدود بحوائط تنتهي بصالة مستطيلة ذات أعمدة، وعلى يمينها ويسارها غرف لحفظ الأثاث والأدوات والهدايا، وضمن هذه الغرف مساكن الخدم
وخصصوا غرفة وضعوا في وسطها حجراً من الجرانيت المنحوت جيدا، جعلوه قاعدة لتمثال المعبود الذي كان أحيانا من الخشب المطعم بالذهب والفضة والأحجار الكريمة، وبارتفاع يتراوح بين نصف متر ومترين
وكانت احتفالاتهم الدينية في أول الأمر بسيطة، ولكنها أخذت شكلا عظيما فيما بعد، فبدأوا يقيمون حفلاتهم الدينية التي كانت تتخللها الموسيقى والغناء والرقص
وقام الكل بتموين هذه المعابد بالمأكل والمشرب، ووصل بهم الحال إلى جعل الاشتراك في هذه الاحتفالات إجباريا فاشتركت البلاد من أقصاها إلى أدناها، وقدموا هداياهم إرضاء للمعبود لينالوا بذلك سعادة الدنيا والآخرة. وكان فرعون، وهو الحاكم المطلق للبلاد يقوم علاوة على مهمته المدنية بمهمة الكاهن الأكبر، وقد عين لنفسه نائبا في كل معبد، يقوم بتقديم القربان للمعبود؛ وبرئاسة المصلين الذين يدعون لفرعون بدوام الملك والأبهة. وكان من شأن الكاهن أن يقوم بالمحافظة على المعبد بمشتملاته وبمراقبة حساباته من إيراد ومصروفات

من كل هذا نرى أن الدين المصري دفع المصريين في إخلاصهم المتناهي له، إلى بناء المعابد والاهتمام بشأنها وتنميتها وزخرفتها. وكل هذا لا يخرج عن كونه الفن المصري إجمالا، لأننا إذا ألقينا النظر على وادي النيل كله، وتأملنا ما تركه المصريون قديما، لا نجد إلا أهراما ومعابد ومدافن، وما بداخلها لا يخرج أيضاً عن متروكات ارتبطت بحياة الناس أو بموتهم

ويتلخص تاريخ الفن المصري كدراسة خاصة، في التوسع في وصف هذه الآثار ووضع قواعد لنماذجها وتطوراتها ورقيها وانحطاطها، وعلاقة ذلك بالحياة الاجتماعية في ذلك الحين، مع الاستعانة بما وجد على الجدران والسقف من كتابات ونقوش وزخارف، وما وجد من تماثيل وتحف ومحفوظات دلت بدرسها على ما وصلت إليه المدنية المصرية من مستوى يجعلها وحيدة فريدة بذاتها بين أمم العالم

ولاعتقاد المصريين في عودة الحياة إلى الجسم بعد الموت (البعث) فضل عظيم في إيجاد التقدير الهائل نحو الموتى الذين تمتعوا أثناء حياتهم بمشاهدة مقابرهم التي سيدفنون بها بعد موتهم

وفكرة شروق الشمس واعتقادهم بأنها تأتي معها بالحياة، وفكرة غروبها واعتقادهم بأنها تذهب ومعها الحياة، جعلتهم يدفنون موتاهم على الضفة الغربية للنيل في معظم الأحيان، ليمثلوا بذلك الموت في اظهر معانيه

وكانت هناك عقائد خاصة بحال الروح بعد الموت؛ فمن المصريين من اعتقد أنها تسكن عالماً آخر اسفل هذه الدنيا؛ ومنهم من ظنها تتحول إلى طير يطير بعد مفارقة الجسم إلى قرص الشمس ليعيش بجواره

وحرصهم على جثث موتاهم التي ستعود إليها الروح في وقت ما، جعلهم يمهرون في فن التحنيط، كما تفننوا في طريقة المحافظة على الموميات، فتراهم دفنوها دفناً منيعاً، بعد وضعها في تابوت من الخشب وضع في تابوت آخر من الصوان أو الحجر الجيري. وكانت مدافنهم على شكل الأهرام أو على المصاطب أو في جبانات عملت خصيصا

وكان الغرض من التحصين الحيلولة بين اللصوص وبين العبث بالجثث، وبما دفنوه معها من أدوات وجواهر وتماثيل الخ.

واشتملت حوائط غرف الأهرام والمصاطب والمقابر على كتابات ونقوش، كما اشتملت على رسومات تبين صاحب القبر يراقب الخدم أثناء اشتغالهم بخدمته والمحافظة على راحته بعد موته.

وكانت العناية ببناء المقابر فائقة في كل أجزائها التكوينية والشكلية، وسهر نفر معين من الناس للمحافظة عليها نظير أجر معلوم حصلوا عليه من أصحابها.

أحمد موسى

من هنا ومن هناك

أونجين

لعل هذه التحفة النادرة هي أبدع ما نظم بوشكين الشاعر الروسي طول حياته، وقد بدأها سنة 1823 وأتمها سنة 1831. وهي خيال طريف لقصيدة بيرون ببو وإن تكن في صدقها وروعة فنها خيراً من ببو ومن كل ما نظم بيرون على الإطلاق. ونلخص اليوم تحفته أونجين التي تبذ كل ما كتب الأدباء الروس فنقول:

بوجين أونجين أحد أبناء الطبقة المتوسطة من سكان بطرسبرج، حسن البزة، منسق) الهندام، عنى أبوه بتربيته تربية رفيعة، وتوجيهه في الحياة وجهة خاصة، إذ وصله بالأستاذ لابيه فتفقه في الفرنسية حتى ثقفها وأصبح يتكلمها كواحد من أهلها. وكان مشغوفاً في ملبسه بالطراز الإنجليزي من نسق لندن. وأجاد بضع رقصات كان أحبها إليه (المازورقا) - وكان متأنقاً في عبارته، يتخير اللفظة الرنانة، ويصقل الحروف صقلا أرستقراطياً يزيد في فخامتها، ويضاعف موسيقاها. وطالما كان ينثر في حديثه أبياتاً من الأنييد (فرجيل) أو يستشهد بالحكمة اليونانية، والمثل اللاتيني، كأنما يريد أن يلفت السامع إلى تبحره في الأدب، ورسوخ قدمه في التاريخ، وإلمامه بعلوم الأولين. . . . . والآخرين! وفي مشيته، بل في طعامه، بل في جلسته، بل في

الإيماءة الصغيرة بطرفه، كان يتعمل تعملا ملحوظاً، وكأنما أورثه تعمله هذا رذيلة الاضطغان، والتبرم بجميع المخلوقات!. . . وكان أبوه رجلا متلافاً مبذراً، لا يكفي دخله المتوسط للمظهر الذي كان يبدو به بين الناس، وكان لذلك الاستدانة قليل السداد. . . يقيم في داره المراقص والمراقص. . . وهو في إفلاس وضيق ليس وراءهما إفلاس وضيق. فلما مات خلف تركة ثقيلة من الديون الفادحة، أتت على أخضره ويابسه واشتد الضيق على أونجين فارتحل إلى عمه في الريف فوجده قد انتقل إلى الآخرة هو الآخر. وثمة تعرف إلى شاب ألماني حَدَث، واسع أفق الفكر، متشعب المعرفة، درس كانت وشيللر وهجل وأدباء الألمان، حتى ما يكاد ينطق إلا بكلامهم ولا يفيض إلا عنهم. ويقدمه

هذا الشاب (لنسكي) إلى عائلة مجاورة قوامها أرمل وابنتان، صغراهما أولجا، فتاة يافعة ممشوقة ساحرة اللفتات، رشيقة الحركات، علقها لنسكي من كل قلبه، وشغفه حبها حتى ما يفكر إلا فيها. والكبرى، تاتيانا، أقل جمالا من أولجا، وإن تكن أرجح عقلا، وأثبت جناناً، وأكمل أنوثة. ترى أونجين فتحس بزائر جديد يحتل قلبها دون أن يستأذن، وتشعر بانعطاف إليه يقرب أن يكون ولوعاً. وتكتب إليه بعد أن يكون التعارف قد اشتدت أواصره، وتعترف له بما تحس نحوه في أعماقها، في أسلوب صارخ، وعبارة مجلوة منتقاة، وكلمات تكاد تتوهج وتلتهب. وليس في أشعار العالم شيء يشبه ما نظمه بوشكين في رسالة تاتيانا هذه، بل ليس في فلسفة الحب صورة هي أروع ولا أصدق مما جاء في خطابها إلى أونجين. لقد كان قلبها يتكلم ويتضرم، وكانت نفسها الملتاعة الوامقة تسيل دماً على شباة القلم. ولقد قرأنا درة شللي (أبيبسيكيديون) في الحب، ولكنا لم نلمس هذه الروح التي هبطت من وحي بوشكين في رسالة تاتيانا، ولم نلمح هذا القبس المقدس الذي أججه بوشكين العظيم في شعره العظيم. . .

ويرد أونجين على هذه الرسالة العلوية بخطاب فاتر بارد فيدعي فيه أنه لم يخلق للحب، ولا يفكر في الزواج. وأنه غير جدير بها، لأنه لم يشعر نحوها إلا بما يشعر به الأخ نحو أخته.

وإنهم جميعاً لفي مرقص، فتدعو أولجا الصديق أونجين إلى رقصة اختارتها، فينهض ملبياً طلبها، وما تنتهي الموسيقى إلا وقد جن جنون لنسكي من الغيرة، فينهض إلى أونجين وينتهره، ويتحداه تحدياً يهيجه، فتكون بينهما مبارزة هائلة يقتل فيها لنسكي - وتسود الدنيا في عيني أونجين، فيرحل عن هذا البلد ويتنقل في أطراف البلاد. . وتنتقل الأرمل بابنتيها إلى العاصمة حيث يتفتن أحد أغنيها بتاتيانا، فيخطبها إلى أمها، وسرعان ما يصبحان زوجين سعيدين

ويلتقي بها أونجين فجأة في إحدى حدائق بطرسبرج، فتثور في نفسه الذكريات القديمة، ويهيج به ميله الماضي، فيبثها حبه ولكن. . ولكن. . الفتاة تدمع قليلا. ثم تصارح الفتى قائلة:

(أونجين! لقد أحببتك من صميمي، ولكنك استكبرت ورفضت حبي. . . وهأنا الآن زوجة وعلي واجبات. . . ولزوجي شرف، وله كرامة. . . وهو بحبه لي خير منك بعبثك عليَّ. . . أونجين. . . وداعاً!)

هذا ملخص مقتضب لهذه القصة الرائعة التي يخطئ مؤرخو الآداب فيقرنونها بدون

جوان لبيرون

فن راسين (1639 - 1699)

يعتز الفرنسيون براسين اعتزاز الإنجليز بشاكسبير. ولكل من راسين وشكسبير ميزة يفضل بها أخاه، فراسين يحكم العقل في العاطفة ويسخرها له وبعكسه شاكسبير الذي يجعل العاطفة مسيطرة على العقل سيطرة تامة ويترك لها القياد فوق المسرح فتنتقل بالنظارة في آفاق شعرية جميلة صاخبة لا وجود لها في عالم الحقيقة. ولا يدري أحد أيهما يفضل أخاه ولا يستطيع أحد أن يحكم لأحدهما على الآخر والذي يلفت النظر في فن راسين أنه مشيد على دعائم يونانية من فن سوفوكليس ويوريبيدز في حين تفيض فيه روح مسيحية عليها طابع قوي من جماعة الـ (أو الطهريين الفرنسيين) ثم يزين ذلك كله رواء من أبهة لويس الرابع عشر وفخامته. ولكن يوريبيدز أقوى أثراً في راسين من كل شيء آخر. ولا غرو، فقد كان راسين يسير على درب الأديب اليوناني الكبير ويمشي على منهاجه فلا يحيد قيد أنملة، اللهم إلا

فيما يجعل دراماته ملائمة لعصر لويس العظيم. ففي (أندروماك) و (إفجنيا) و (فيدر) نلمس يوريبيدز في الأدب الفرنسي وتكاد المقارنة بينهما، وإن كان راسين قد لون فن أستاذه بمثل الألوان التي كان رافائيل يضيفها على صور لداته فيخلقها خلقاً آخر.

وليس شك في أن (أندروماك) خير درامات راسين جميعا. ولا نبالغ إذا قلنا إن أية درامة أخرى لم تجمع أشخاصاً ذوي عواطف شتى وأحاسيس متناقضة كما جمعت أندروماك. ولا نستطيع أن نعلل الأسباب التي إليها يرجع عدم نجاح هذه الدرامة العنيفة على المسرح المصري، إلا أنها قطعة كلاسيكية لم يعتدها الذوق المصري بعد. وهذا ما يؤسف له! وإذا كانت أندروماك قد جمعت كل هذه الشخصيات المتناقضة فبعكسها (فيدر) التي ازدحمت في قلب بطلتها متناقضات من عواطف غريبة ما برحت تتنقل وترتفع وتنخفض وتخبو وتشتعل حتى ختام المأساة. فقد أحبت فيدر ابن زوجها حبا شهوانيا اختلط بلحمها وخامر

قلبها، ثم جعلت تتلطف إليه، ثم أعلنت إليه أنها تحبه، وطفقت تراوده، ولكن الفتى أبى أن يخون أباه أو يغمس شرفه في الوحل، فتضرعت إليه، وانقلبت الضراعة فأصبحت مذلة وهواناً، فلما اشتط الفتى في تمنعه انقلبت المذلة فصارت حقدا وغيظا، ثم اضطرم الغيظ فصار شرا تضمره فيدر ويمزق فؤادها. . . ثم اتهمت الفتى لدى أبيه أنه يراودها عن نفسها. . . فوقعت المأساة! فأنت ترى - إن كنت قد قرأت أندروماك أو شهدتها على المسرح - أن العواطف المتناقضة التي توزعت على أبطال أندروماك قد اكتظت كلها في نفس فيدر؛ وهذا عمل فني خالد لم يتح لكاتب مثل راسين.

كذلك قد قلد راسين الشاعر الكوميدي اليوناني أرسطوفان في ملهاته التي احتذى فيها الكوميدية اليونانية (الزنابير!) والتي أضحكت لويس الرابع عشر حتى ذهبت بوقاره المعروف عنه!

البريد الأدبي

وثيقة فرعونية عن المعاملات الشخصية

اقتنى متحف شيكاجو أخيراً وثيقة مصرية قديمة يرجع عهدها إلى ما قبل الميلاد بنحو مائة عام، أعني إلى أواخر عهد البطالسة تدل على أن المصريين القدماء كانوا يجرون في القروض الشخصية على قواعد وأوضاع اقتصادية صارمة. وإليك خلاصة ما نصحت عليه الوثيقة المذكورة التي حل رموزها الدكتور ناتانيل ريش العلامة الأثري، على لسان المقترض:

(أنا العبد انسناكومني التابع لمقبرة زيمي، قد اقترضت من المرأة نخوتسي 22. 5 إردباً من القمح. وأتعهد برد هذا القرض مع أداء مثله بصفة ربح ليكون المجموع 45 إردباً.

وأن يكون الأداء من قمح حسن لا غش فيه، ويكال بنفس الكيل الذي استعمل في القرض، كما أتعهد بأن أحمل القمح المذكور إلى منزل المرأة نخوتسي متحملا نفقات الإرسال، وذلك في آخر يوم من الشهر التاسع من السنة التاسعة دون طلب امتداد الميعاد، فإذا لم استطع أن أؤدي القمح في الميعاد المذكور فأتعهد بأن أدفع في الشهر التالي عن كل إردب ستين قطعة من الفضة

ولا حق لي مادام هذا الإيصال في يد نخوتسي أن أدعي الوفاء كله أو بعضه، هذا مع إقراري بأن كل ما أملكه الآن أو أملكه في المستقبل يكون رهناً لذمة نخوتسي حتى أؤدي الدين كاملا، فإذا اضطرت نخوتسي إلى مقاضاتي من أجل الوفاء فإني أتحمل كل ما يترتب على ذلك من التعويضات، هذا مع اعترافي باتباع كل ما يأمر به وكيل نخوتسي في كل وقت بلا معارضة ولا ممانعة).

نقول: فهل يستطيع رجل القانون المعاصر أن يكبل المدين لمصلحة الدائن بأوثق من هذه القيود؟

ذكرى بوشكين عميد الشعر الروسي

احتفلت حكومة جمهورية اتحاد السوفيت، وروسيا كلها، في اليوم الحادي عشر من فبراير بالذكرى المئوية لوفاة الشاعر بوشكين أعظم شعراء روسيا الحديثة. وأطلق اسم الشاعر بهذه المناسبة على متحف الفنون الجميلة في موسكو، وعلى مسرح لننجراد كما أطلق اسمه

على عدة من الشوارع الهامة في العاصمتين، وأطلق أيضاً على مدينة (دتسيكو زيلو) التي نشأ فيها الشاعر وتلقى تربيته. ويعتبر اسكندر سرجيفتش بوشكين في الواقع شاعر روسيا القومي كما يعتبر شكسبير شاعر إنجلترا، وجيته شاعر ألمانيا. وكان مولد الشاعر سنة 1799 في موسكو، ولما انتهى من دراسته القانونية في عين وظيفة بوزارة الخارجية، وفي سنة 1822، ذهب إلى جنوب روسيا وزار القوقاز، وألهمته هذه الزيادة موضوع روايته الشعرية الشهيرة (سجين القوقاز)، ثم أخرج قصيدته الرائعة (ثناء نابليون) وكتاباً شائقاً في حياة النور. واتهم بوشكين في تلك الآونة في عدة مؤامرات سياسية، ولكنه استطاع أن يفلت من العقاب نظراً لمكانة أسرته. وفي سنة 1824 استقال من وظيفته لخلاف بينه وبين رؤسائه وتفرغ للكتابة والنظم. وأخرج في العام التالي مأساته الشهيرة (بوريس جودونوف) وهي القطعة الخالدة التي حررت المسرح الروسي من نفوذ المسرح الفرنسي، ودفعت التأليف المسرحي في روسيا إلى وجهة قومية جديدة، وفي سنة 1828، ظهرت (بولتاوا) وهي قصة شعرية عن أيام بطرس الأكبر، ثم وصف شائق لرحلته الثانية في القوقاز، وعاد بوشكين إلى سلك الوظائف سنة 1831، وكتب تاريخاً للثورة القوقازية التي وقعت يومئذ، ثم أخرج بعد ذلك قصته الرائعة (ابنه الكبتين)، ثم قصيدة (أوجين أونجين) وهي في نظر النقدة أبدع ما نظم. وهي مزيج من الفكاهة والتهكم والقصص، يبدو فيها أثر اللورد بيرون واضحاً جلياً، وهو أثر يبدو في كثير من قصائد بوشكين الأخيرة. وفي فبراير سنة 1837 وقعت بين بوشكين وبين البارون ذايتس الذي اقترن بأخت زوجته تاتاليا جورشاروف مبارزة جرح فيها بوشكين جرحاً أودى بحياته، وبذلك انتهت حياته القصيرة الباهرة.

حول التاريخ الألفي للأزهر

كتب كاتب في جريدة الجهاد الغراء مقالا يستعرض فيه قصة اللجنة التي أنشئت منذ ثلاثة أعوام لكتابة تاريخ شامل للجامع الأزهر لمناسبة عيده الألفي الذي تقرر الاحتفال به عند حلوله في أوائل سنة 1359هـ؛ وذكر الكاتب أن اللجنة المذكورة قد عقدت بضعة اجتماعات، وأن لجنة فرعية من بعض الأعضاء ألفت لوضع برنامج لتاريخ الأزهر، ثم لم يسمع بعد ذلك شيء عن اللجنة ولا عن أعمالها

وما ذكره الكاتب عن اللجنة صحيح في مجموعه، بيد أن هنالك بعض حقائق غابت عنه ولا بأس من ذكرها بهذه المناسبة، ذلك أن إنشاء هذه اللجنة كان نتيجة للقرار الذي اتخذته مشيخة الأزهر في عهد شيخه السالف بالاحتفال بالعيد الألفي للأزهر؛ فلما تغيرت المشيخة بعد ذلك بقليل، رأى فضيلة الشيخ الحالي أن يرجئ جميع الأعمال الخاصة بالعيد الألفي لأنه في رأيه لا يزال ثمة فسحة كبيرة من الأجل، وبذا تعطل عمل اللجنة دون حلها، هذا في حين أن اللجنة كانت قد قطعت بالفعل مرحلة تذكر في سبيل إنجاز برنامجها، وكانت اللجنة الفرعية التي ألفت لوضع برنامج العصر الفاطمي قد وافقت على البرنامج الذي وضعه أحد أعضائها الأستاذ محمد عبد الله عنان، ووزعت مواده بالفعل على بعض أعضاء اللجنة العامة، وأنجز بعض الأعضاء ما عهد إليهم بكتابته وفي مقدمتهم الدكتور حسن إبراهيم حسن، والأستاذ عنان، ثم وقفت اجتماعات اللجنة واجتماعاتها عند هذا الحد

وقد ظهرت أثناء مباحث اللجنة ومناقشاتها حقائق تلفت النظر؛ من ذلك أن أقطاب المشيخة قد لمحوا أكثر من مرة إلى أن التاريخ المراد وضعه للأزهر يجب أن يكون في مجموعه وفي روحه نوعاً من التاريخ الرسمي، وأنه يراد أن تخص منه عصور معينة دون غيرها، وأن العناصر السياسية أو المذهبية التي يحفل بها تاريخ الأزهر يجب إلا تمثل فيه، وكانت هذه التلميحات والرغبات داعية دهشة أعضاء اللجنة (المدنيين) ولاسيما المتخصصين منهم في التاريخ، وقد علقوا عليها بأكثر من مرة بأنه يجب إذا أريد أن يوضع تاريخ ألفي للأزهر فيجب أن يكون تاريخاً بالمعنى الصحيح، وعلى هذا سارت اللجنة الفرعية في عملها

وثمة حقيقة أخرى كانت موضع النضال، وهي أنه ظهر خلال المناقشة أن المشيخة تريد أن تنتفع بجهود العلماء المتخصصين في التاريخ، لينسب المؤلف فيما بعد في مجموعة إلى (مشيخة الأزهر)؛ ولكن هذه النقطة كانت موضع الاعتراض الشديد إذ أصر الأعضاء المدنيون على أن ينسب كل فصل إلى صاحبه على طريقة المؤلفات العلمية الأخرى

هذه بعض حقائق عن لجنة التاريخ الألفي للأزهر تجدر إذاعتها؛ وإذا كان لنا أن نعلق على هذا الموضوع بشيء، فهو أن تأليف اللجان الحاشدة ليس وسيلة لكتابة التاريخ، وأن كتابة التاريخ الصحيح قد أصبحت في عصرنا علماً حقيقيا لا يستطيع أن يضطلع به إلا
المتخصصون فيه
هذا وإنا لنأمل أن يكون لمشيخة الأزهر في عهدها الجديد في هذا الموضوع نظرة أوسع آفاقاً، وأوفر سداداً وتوفيقاً
الذكرى السنوية الأولى للزهاوي
ستقيم وزارة المعارف العراقية حفلة تأبينية للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي ببغداد يوم الجمعة 12 مارس سنة 1937، دعت إليها نفراً من كبار الأدباء في البلاد العربية، ثم أرسلت لجنة التأبين إلى جمهرة أخرى من الكتاب هذا الكتاب:
وبعد فإني أتشرف بإخباركم بأن حفلة تأبينية كبرى ستقام في بغداد يوم الجمعة المصادف 12 مارس1937 إحياء للذكرى السنوية الأولى لوفاة شاعر العرب الكبير الفيلسوف الحكيم السيد جميل صدقي الزهاوي الذي خدم الأدب العربي مدة نصف قرن
ولما كنا نعتقد بأن حضرتكم ترغبون في الاشتراك في رثاء الفقيد الطيب الذكر نرجو أن تتكرموا بما تجود به قريحتكم في هذا الشأن ليتلى في الحفلة التأبينية أو يثبت في الكتاب المزمع نشره تخليداً لذكرى الراحل الكبير. . .
تأبين الزهاوي في وزارة المعارف ببغداد
الكتب
المتنبي مع طه حسين
للدكتور محمد عوض محمد
إن الذين يطالعون الكتاب الذي بين أيدينا على أنه كتاب لطه حسين في المتنبي سيخطئون القصد ويفوتون على أنفسهم اللذة الحقيقية والمتعة العظيمة التي يستطيعون أن ينالوها من مطالعة هذا الكتاب على الوجه الصحيح. أي على أنه كتاب أدبي أو قصة أدبية شائقة لها بطلان المتنبي وطه حسين معاً. فليس الكتاب بحثاً تاريخياً جافا، أو نقداً موضوعياً، بل قصة ممتعة تشترك فيها شخصية المؤلف الأديب وشخصية المتنبي المدهشة. . . ولهذا يجمل بنا أن ندعو الكتاب طه حسين مع المتنبي، أو المتنبي مع طه حسين؛ كما ينادون في بعض المطاعم على الأصناف اللذيذة بأن يقولوا فراخ مع الأرز، أو كوارع مع الفتة. . .
فالكتاب الذي نحن في حديثه الآن اسمه الصحيح إذن هو المتنبي مع طه حسين. . . والمتنبي مع طه حسين مظلوم!. . فقد كان طه حسين معرضاً عنه إعراضاً تاماً؛ وظل معرضاً عنه زمناً كدنا إلا نعرف له آخر. . وقد قرر طه حسين أن يعرض عن المتنبي كل هذا الأعراض، منذ أن كان يطلب العلم في الأزهر الشريف. ثم لم يزل معرضاً عنه ممعنا في الإعراض. لا يستمع لصوته القوي، ولا يستجيب لندائه العذب. وهو يستعين على هذا الإعراض بضروب من الوسائل؛ فجعل يضع القطن الغليظ في أذنيه، ويقيم الحجب والجدران بينه وبينه، ويقول له: ابعد عني! لا أريد أن أصغي إليك. . .
وهكذا ظل المتنبي يهيب بالأديب الكبير، والأديب الكبير ليس له - كما تقول العامة - سوى أذن من طين وإذن من عجين
ولكن لم كل هذا الإعراض، أو التجني، أو التمتع؟
سيقول لك خلطاؤه الذين لا ينظرون إلا إلى ظاهر الأمور إن إعراض طه حسين يرجع إلى الخصومات التي تنشأ بين الطلبة، وتذهب بهم في التشيع الأدبي مذاهب مدهشة، فكان يكفي أن ينادي زيد بأن الطائي شاعر كبير، لكي يخاصمه في ذلك عمرو وبكر وخالد؛ وكان يكفي أن يشتد إعجاب بكر بشعر المتنبي ويسرف في مدحه، حتى يتألف عليه الآخرون، ويقاطعوا المتنبي المسكين من غير جريرة ولا ذنب
أقول إن هذا ما يزعمه الزاعمون. وقد يكون هذا ما يزعم طه حسين نفسه إذا سألته عن سبب إعراضه الطويل. ولكن الحقيقة أعمق وأبعد غوراً من هذا كله: وقد خفيت حتى على المؤلف نفسه. ذلك أن طه حسين كان يحس - إحساساً مبعثه الإلهام الذي لا حول له فيه ولا قوة - أن شعر المتنبي متعة هائلة أولى به أن يدخرها، وأن يؤجل

التمتع بها كما يترك المرء أطيب الثمار إلى آخر الوجبة، بادئاً بالفج الثقيل منها. قال لي بعض الناس مرة: هل رأيت إيقوسيا؟ قلت: لا! قال فإني أحسدك على هذا اشد الحسد. إني لأعطي كل ما عندي لكي أرى إيقوسيا للمرة الأولى!

ومن هذا الجامد البخيل الذي لا يعطي كل ما عنده لكي يدرس شعر المتنبي للمرة الأولى؟

ذلك هو السبب الحقيقي لهذا الإعراض الطويل؛ وكان لابد لصاحبه إذا سأله لماذا لا تعنى بدراسة المتنبي أن يجيبك بأعذار ينتحلها انتحالا، وإذا هو يصطنع خصومة بينه وبينه، وقد ينتهي به الأمر إلى تصديق هذه الأعذار والإيمان بأن تلك الخصومة المفتعلة تقوم على أساس أو شبه أساس.

إلى أن جاء الوقت، واستطاع المتنبي أن يرغم طه حسين على أن يسهر مع الساهرين من اجل شوارد شعره التي كان ينام عنها هو ملء جفنه. وأن يكب على دراسة المتنبي انكبابا عجيبا، وأن يقيم للمتنبي أسبوعا كان من أجل وأروع أسابيع الجامعة المصرية، وأن يصطحب المتنبي معه إلى أوربا، وأن ينزله معه في الباخرة وفي القطارات وفي مختلف الفنادق والديار!!

وهكذا اضطر طه حسين إلى أن يرى نفسه - على كره منه كما يقول - منصرفا إلى دراسة المتنبي، وأن يبادر إلى المتعة التي ادخرها لنفسه هذا الدهر الطويل، وأن يسلط على هذه الدراسة ما وهبه الله من ذكاء خصب، واطلاع واسع، وملاحظة دقيقة، وقدرة على استنباط الحقائق من ايسر المعلومات التي يمر بها الناس مرا دون أن يروها. . ثم استطاع بعد ذلك أن يصور لنا المتنبي، فإذا نحن نحسه وإذا نحن نلمسه، وإذا نحن نراه ماثلا أمامنا، وإذا نحن نسير وإياه جنبا إلى جنب، وإذا شخصية المتنبي تبرز لنا من وسط هذه الصفحات بروزا غير محاط بلبس ولا إبهام

،وطه حسين الذي أبدع هذه الصورة يقول لنا مع إنه ليس من المعجبين بالمتنبي المشغوفين بشخصه وفنه، ولكنه لحسن الحظ لا يطلب منا أن نصدق كلامه هذا بل يقول لنا إننا مخيرون في أن نرى أن هذا الكلام يصدر عن تفكير أو هذيان أو شذوذ وجموح (ص70). . وأنا أفضل الرأي الأخير. . ومن الممكن للمصور البارع الذي أبدع الصورة وجلاها للناظرين أن يزعم أنه لا يحب صاحب هذه الصورة ولكنه لم يجد بين الناس من يصدقه

ليقل طه حسين إذن في علاقته الشخصية بالمتنبي ما يشاء. فإن القراء قد ظفروا منه على كل حال بكتاب ممتلئ حياة وقوة. ليس المتنبي فيه اسما يذكر وأشعارا تتلى وجدالا يسرد، بل شخصا حيا يسعى ويعمل، ويحس ويشعر، ونحن نشاركه كل هذه الحياة. واستطعنا بسبب هذا كله أن نزداد حبا للمتنبي وعطفا عليه. وهي نتيجة لم يكن المؤلف يريدها أو يفكر فيها. كذلك استطعنا أن نعجب بالمؤلف حين ينصف المتنبي، ويبرز الخفي من أركان هذه الحياة الثائرة العجيبة. واستطعنا أيضاً أن ننظر شزرا حين نرى المؤلف يحمل على المتنبي حملات أقل ما يقال عنها إنها لا تتفق مع ما يذكره المؤلف نفسه عن المتنبي حين يتناسى ما بينهما من الحزازات القديمة

ليس من الممكن هنا أن نعدد محاسن هذا الكتاب الذي قلما خدم شاعر في العربية كما خدم به أبو الطيب. وسيرى القارئ من غير مشقة كيف استطاع المؤلف أن يزيد لذتنا ومتعتنا بأشعار المتنبي أضعافا مضاعفة، فقصيدة مثل (وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه) ونحوها. أصبحنا بعد أن صورت لنا حياة المتنبي والظروف المعقدة التي أنشدت فيها تلك القصائد - نرى فيها حياة وقوة وعمقا لم نكن نحس له وجودا

ومع هذا - وبعد هذا كله - فالمتنبي مع طه حسين مظلوم. لأن طه حسين لم يستطع دائما أن ينسى ما بينه وبين المتنبي من خصام، بل يتذكر هذا الخصام أحيانا فيعود إلى ظلم المتنبي، ويمعن في التشنيع عليه. أنظر إليه حين يريد أن يوهمنا بأن المتنبي مداح كسائر المداحين وأنه ينكر نفسه كلما اقتضت منه المنفعة العاجلة إنكارها. ويريد منا أن نصدق هذا، وهو نفسه الذي يرينا في صراحة وجلاء كيف أعرض المتنبي عن مدح اسحق بن كيغلغ ولم يعبأ بتهديده ووعيده. مع أن المنفعة العاجلة كانت تقضي من غير شك بإنكار النفس وبذل المدح

ونحن نرى المتنبي لا يكتفي بهذا بل يهجوه هجاء مراً، ذلك لأن المتنبي كان غاضباً من هذا الرجل الذي أبى أن يقبل منه المدح فيما مضى، فجازاه المتنبي على إعراضه بأن

أعرض عنه يوم أضحى شاعرا مشهوراً.
هذا كله لا يمكن أن يذكر للمتنبي إلا بالخير. فانظر كيف يصور لنا المؤلف هذا الحادث:
(فلا تسل عن كبرياء الشاعر وما امتلأت به نفسه من الزهو والغرور، وإذا هو يمتنع على الأمير ويأبى أن يجيبه إلى المدح الذي رغبه فيه، ويحتال الأمير في ذلك فلا يوفق. وتشق عليه هذه الإهانة فيمسك الشاعر في طرابلس، ولا يخلي بينه وبين السفر، وإنما يمسكه سجيناً كالطليق، وطليقا كالسجين)
والمنطق السليم يقضي بأن مسلك أبي الطيب هذا ينطوي على كثير من العزة والشمم، ولا يدل مطلقاً على أنه يطلب العاجلة، فينكر نفسه. ولابد للمنصف أن يرى أن عبارة المؤلف في وصف ذلك الحادث قاصرة لم يمهلها الإنصاف، بل أن للحزازات القديمة أثراً فيها
وفي حياة أبي الطيب أمثلة من الوفاء والإخلاص، استطاع المؤلف أن يحولها إلى أمثلة من التزلف والخوف. انظر مثلا إلى الحادث الشهير يوم أن غضب أبو العشائر على أبي الطيب وأرسل غلمانه وراءه فرماه أحدهم بسهم وقال خذها وأنا غلام أبي العشائر. فأنشد أبو الطيب هذه الأبيات العجيبة الساحرة:
ومنتسب عندي إلى من أحبه ... وللنبل حولي من يديه حفيف
فهيج من شوقي وما من مذلة ... حننت ولكن الكريم ألوف
وكل وداد لا يدوم على الأذى ... دوام ودادي للحسين ضعيف
فإن يكن الفعل الذي ساء واحداً ... فأفعاله اللائي سررن ألوف
ونفسي له - نفسي الفداء لنفسه، ... ولكن بعض المالكين عنيف
فإن كان يبغي قتلها يك قاتلا ... بكفيه فالقتل الشريف شريف
وليس هنا مجال لسرد الحادث كله، ولكن العجيب أن سرد المؤلف له يضع الذنب كله على المتنبي، لأنه أهمل مدح أبي العشائر وكأنه يلتمس العذر لهذا الرجل في غدره بأبي الطيب
لقد قرر المؤلف في نوبة من نوبات الظلم التي كانت تعاوده وهو يملي كتابه هذا: أن المتنبي (عبد للطمع والمال، لا للجمال والفن.) ولم يجد من الحوادث والأشعار مساعداً له
على تأييد هذا الرأي، فاضطر إلى أن يصبغ الحوادث بالصبغة التي تتفق مع هذا الظلم، وأن يلتمس للشعر الخالص البريء أسباباً غير خالصة ولا بريئة
وقد وجد الأستاذ المؤلف نفسه في مأزق حرج أمام قصيد المتنبي (وا حر قلباه ممن قلبه شبم) فقد رأى المؤلف إنها قصيدة لا يمكن أن تصدر عن رجل خلقه الأساسي أنه عبد للطمع والمال لا للجمال والفن. فماذا يفعل بهذه القصيدة التي إن دلت على شيء فإنها تدل على أن المتنبي رجل خلقه الأساسي الشمم والأباء. لم يكن للمؤلف بد من أن يمر بهذه القصيدة مراً، وأن يختصر الكلام عنها، وعن الحادث الذي تدل عليه اختصاراً. وأن يعتذر عن ذلك بأن الناس قالوا فيها فأكثروا. . أما ما اشتملت عليه القصيدة من الفن الهائل فأنه لا يظفر من المؤلف إلا بالعبارة الآتية: نلاحظ مسرعين أن المتنبي قد وفق فيها إلى حظ لا باس به (كذا) من الإجادة الفنية. . سلك طريق ابن الرومي فألح في العتاب حتى كاد يبلغ الهجاء. وأسرف في المدح ليصلح ما أفسده بالعتاب.)
هذا كل ما يقوله عن هذه القصيدة هذا المؤلف العجيب الذي يخصص ست صفحات من كتابه لقصيدة (كفرندى فرند سيفي الجراز)
ونحن نلاحظ هنا أمراً مدهشاً قد ساق المؤلف إليه إصراره على تجاهل هذه القصيدة. .
ولنمر أولا - مر الكرام، على قوله أن بها حظا لا باس به من الإجادة الفنية، ولكننا نقف قليلا عند قوله إن المتنبي أسرف في المدح ليصلح ما أفسده بالعتاب)
إن أقل إلمام بهذه القصيدة يرينا أن ما اشتملت عليه من المدح ليس من النوع الذي يوصف بالإسراف. ومهما يكن من شيء فإن هذا المدح مقدم في أول القصيدة، لا لإصلاح ما أفسده العتاب، بل توطئة للعتاب القاسي واللوم المر؛ والقصيدة تزداد شدة وعنفا كلما اقتربنا من النهاية؛ حتى تنتهي فعلا بتهديد سيف الدولة بالانصراف عنه والرحيل من دياره

وهذه القصيدة تدل على براعة فنية هائلة، وعلى خلق متين وعر. ولذلك لا نتفق مع الدعوى بأن المتنبي عبد للطمع والمال، ذليل للملك والسلطان، ولذلك تجاهلها المؤلف ومر بها مرا سريعاً. . .

وبعد فليست بي حاجة لأن أدلي بأمثلة أخرى يظهر فيها ما بين المؤلف والمتنبي من خصومة قديمة. . ففيما ذكرناه كفاية لأن يرى القارئ أن المتنبي مع طه حسين مظلوم.

ولكن من العدل أن نقرر أن طه حسين كثيراً ما كان ينسى هذه الخصومة. والكتاب ممتلئ بقطع عديدة، استطاع المتنبي أن يثأر بها لنفسه، وأن ينال من المؤلف كل إنصاف وتقدير بالرغم منه

والمواقف الظالمة التي وقفها المؤلف من الشاعر هي من الوضوح والظهور بحيث لن يخطئها القارئ؛ ونحن لا نشك في أنها البقية الباقية من أيام العهد القديم حين كان بعضنا يتعصب للمتنبي وبعضنا يتعصب عليه، وكان طه حسين دائما من الفريق الثاني. .

ولكننا برغم هذا التحامل - بل لسبب هذا التحامل - سنجد في مطالعة هذه الفصول متعة شائقة، بحيث لا يمكن أن نتناول الكتاب ثم نلقيه قبل أن نفرغ منه

يجب أن نطالع هذا الكتاب لا على أنه تاريخ أو نقد، بل على أنه قطعة أدبية فنية، تمثل صورة وتقص قصة. ولك أن تطالعه إذا شئت على أنه كتاب لطه حسين عن المتنبي.

ولكنك بهذا ستضيع على نفسك لذة عظيمة ومتعة فائقة. فالوجه الصحيح للتمتع بهذا الكتاب هو أن تقرأه على حقيقته التي كشفت لك عنها في أول هذا المقال. فالموضوع الصحيح هو المتنبي مع طه حسين. أو إذا شئت اصطلاحا حسابيا فقل: (المتنبي مضروبا في طه حسين) فالكتاب هو حاصل هذا الضرب

وبهذا الاعتبار أو ذاك ستجد في مطالعة الكتاب لذة جديدة لم تكن تتاح لك من قبل.

ولو كان في هذا الزمان إنصاف لشكرني الناس على الكشف الذي كشفت والهدي الذي هديت، ولكنا في زمن كما يقول صاحبنا:

إنا لفي زمن ترك القبيح به ... من أكثر الناس إحسان وإجمال

والآن فبالأصالة عن نفسي وبالنيابة عن عشاق المتنبي أسجل هنا ما أحرزناه من النصر بانضمام عدو عنيد إلى صفوفنا.

محمد عوض محمد

العالم المسرحي والسينمائي

على مسرح الأوبرا

موسم الدرامة الإنجليزي

لناقد (الرسالة) الفني

كان للمظهر الفني البديع الذي ظهرت فيه فرقة (دبلن جيت) الأيرلندية في العام الماضي ما جعل وزارة المعارف العمومية تستقدمها في هذا العام أيضاً لتحي موسم الدرامة الإنجليزي على مسرح الأوبرا الملكي

ويذكر قراء الرسالة أنه سبق لنا الحديث عن هذه الفرقة وعن مقدرة مخرجها المستر (هلتن ادواردز) الذي يعمد في إخراج رواياته إلى الطريقة الإيمائية إذ يراها وسيلة لأشغال بال رواد المسرح وتفكيرهم فيكونون بذلك عنصرا من عناصر الرواية والتمثيل. وعنده أن من يقصد المسرح يجب أن يجلس منتبه الحواس لكل كلمة وكل حركة أو إشارة تبدو من الممثلين في حين أن من يقصد السينما يجلس في مكانه هادئ البال مرتاح الفكر يرى الأشياء تعرض أمامه عرضا سهلا لا يكلفه عناء لأن المدير الفني يجعل عدسة التصوير تحصر أمامه ما يريد أن يوجه الأنظار إليه.

وليس من شك في أن طلبة البكالوريا هذا العام سيقصدون دار الأوبرا لمشاهدة رواية (لابورنم جروف) المقررة عليهم فنرجو أن ينتبهوا إلى طريقة المخرج وفكرته في الإخراج: من استعمال المنظر الواحد لتمثيل مشاهد ومناظر متعددة مستعينا بالإضاءة وبالنظارة في تخيل المنظر المتجدد وما إلى هذا من الطرق التي لم يألفوها في المسرح المصري؛ فعليهم إلا يضيقوا بما يرون وأن يحاولوا إدراك مرامي هذا المخرج وأن يتتبعوا الممثلين فيستمتعوا بالقصة والتمثيل

وممثلو الفرقة ليسوا في حاجة إلى أن أتحدث عنهم، فهم على جانب عظيم من النبوغ

والمقدرة لاسيما الممثل الأول المستر ميكائيل ماك ليمور الذي نال إعجاب النقاد ورواد المسرح في العام الماضي عندما مثل هملت وروميو في روايتي شكسبير وكذلك المستر
هلتن ادواردز الذي أبدا مهارة فائقة في أداء دور الملك في روايات هملت والكابتن شاتوفا في رواية (بيت القلوب المحطمة) لبرناردشو.
وقد ضمت الفرقة إلى مجموعتها السابقة ممثلا كبيرا هو المستر (آنيوماك ماستر) الذي يزور مصر للمرة الأولى وقد اشتغل في أكبر مسارح الوست اند بلندن وقام بتمثيل كثير من الأدوار الرئيسية منها عطيل في رواية شكسبير
هذا وستمثل الفرقة مجموعة طيبة من الروايات التمثيلية لأكبر الكتاب الأيرلنديين والإنجليز والإيطاليين منها: (مدرسة النميمة) لشريدان، (أهمية انتحال اسم إرنست) لأوسكار وايلد (صورة في الرخام) لهازل إليس، (عطيل)، (الليلة الثانية عشرة) لشكسبير، (لابورنم جروف) لبريستلي، (ملاك الموت في إجازة) لالبرتوكاسللي وغيرها.
ملاك الموت في إجازة
هي مهزلة خرافية ألفها الكاتب الإيطالي (البرتوكاسللي) ونقلها إلى الإنجليزية (والتر فريس) فكرته عجيبة وطريفة حببت رجال السينما إلى إخراجها على الشريط وقد عرضت في موسم القاهرة الماضي.
لاحظ ملاك الموت أن الناس يخشونه ويفزعون منه فأراد أن يعرف سر هذا الفزع وسر بغض الناس له وأن يدرك بنفسه ما يحبب الناس في الحياة والخلود.
نزل إلى الأرض كظل أو طيف يرى، وبينما هو يطوف إذ يشاهد قصرا للدوق (لامبرتو) عامرا بالضيوف فيمر بالحديقة ويلتقي بفتاة جميلة تدعى (جرازيا) من اللواتي يعشقن الخيال والجمال والشعر فتفزع منه
ويظهر الموت لرب الأسرة ويفصح له عن حقيقته وأنه سوف يتجسد في صورة إنسان ويأتي إلى القصر باسم الأمير (ساركي) حتى يستطيع في معاشرته للضيوف أن يلمس السر الذي أتعبه وأقلقه كثيرا ويطلب إلى الدوق أن يكتم السر خلال أيام ثلاثة يقضيها بينهم عاطلا لا يموت فيها إنسان ولا تسقط ورقة من شجرة أو تذبل زهرة.
اختلط الأمير ساركي بين الضيوف فأحسوا بشيء من التغيير في حياتهم، فهذا شيخ عجوز أحس بدم الشباب يجري في عروقه وعاد له النشاط والمرح وتذكر الحب، وهذه فتاة تحب الأمير وتختلي به، فلما يحدق فيها وتحدق فيه ترى في عينيه عمقا يفزعها وتكاد تلمس
سره فتصرخ خائفة، فيقول لها إنها لم تحبه وأن كل ما تحس به هي (عاطفة الساعة) وأحب ملاك الموت (جرازيا الصغيرة) وأحبته هي ورأى أنها تختلف عن الفتاة الأخرى تماما. ولما أخبرها أنه سيرحل بعيدا عن هذه البلاد طلبت إليه أن يأخذها معه، فلما بين لها صعوبة ذلك عليه وعليها قالت له إن الحياة بدون الحب لا تساوي شيئا.
ويعرف رب القصر بحبهما ويضطر أن يصرح لضيوفه بالسر الرهيب فيتبدل مظهرهم ويفزعون، وهذا الشيخ المرح قد عادت إليه الكآبة وثقل السنين، وهذه الزهور تذبل، ولكن أم الفتاة والدوق يخشيان أن تذهب الفتاة الصغيرة مع ملاك الموت دون أن تدري حقيقة أمره فيطالبونه أن يصرح لها بالحقيقة كاملة، ولكنه يخشى أن يفقدها إذا هي عرفت ولكن أمام الواجب يفهمها رويدا رويدا ومع ذلك لا تفزع. فيتغير من إنسان إلى طيف فلا ترى فيه هذا التغير وترجوه أن يأخذها معه حتى إلى الفناء وتسير إليه فيفتح لها ذراعيه وتسقط أوراق الأشجار ويستأنف الموت مهمته في الحياة). وهكذا (أراد الموت أن يهزأ من الناس فهزأ الناس منه
استطاع المخرج أن يصور الطيف والظلال التي تسقط على الحجرات في صورة بديعة كان لها الأثر المطلوب في نفوس النظارة، وكانت الإضاءة غاية في السرعة، وقام المستر ميكائيل ماك ليمور بدور ملك الموت فكان بديعا كما أجادت الآنسة شبيلا ماي أداء دور جرازيا في سذاجتها وروحها الشعرية
عطيل
هي تراجيدية شكسبير المشهورة التي نقلها إلى العربية الأستاذ خليل مطران ومثل عطيل الأستاذ جورج أبيض ومثل ياجو أمامه عدد من كبار الممثلين منهم منسي فهمي

وزكي طليمات ويوسف وهبي
والرواية تصور لنا كيف أحب البطل المغربي (عطيل) الفتاة النبيلة (ديدمونه) وكيف استطاع ياجو أن يدوي في أذني عطيل بأن امرأته تخونه ويحيك خطة جهنمية تساعده على الوصول إلى أغراضه فيثور المغربي ويصرخ ويصل في ثورته إلى حد الجنون والقتل
يقتل ديدمونة التي أحبها والتي أحبته وفضلته على كل النبلاء من أهل جنسها وتزوجت منه برغم والدها، وأخيرا وبعد فوات الفرصة يعرف أنها كانت بريئة فيطعن ياجو ويغمد خنجره في صدره ويجود بأنفاسه على قبلة من فم من أحبها)
عمد المخرج إلى طريقته المعروفة في الاعتماد على المنظر الواحد مستعيناً بالإضاءة بين فصل وآخر، وكان موفقا إذ اختار ستارا خلفيا يمثل السماء كان له أثر كبير في توضيح حركات الممثلين كلما كان الضوء خافتا في مقدمة المسرح.
مثل المستر (آنيوماك ماستر دور عطيل فأعطى صورة قوية لهذه الشخصية. كان متطرفا في البدء كعادة المحب ولكنه انقلب في الفصل الثاني إلى رجل هائل ثائر. كان بديعا في إلقائه في حركاته التي تعبر عما يضطرم في نفسه عند كل كلمة يلفظها ياجو، وكان عظيما في ثورته في الفصل الثاني وفي الفصل الأخير بعد ما قتل ديدمونة وأحس أنه فقدها.
ومثل المستر ادوارد دور ياجو فأعطى صورة طبيعية من الشخصية ولم يلجأ إلى المغالاة، وكانت الممثلة (آن كلارك) بديعة في دور ديدمونة
يوسف تادرس
العدد 192 - بتاريخ: 08 - 03 - 1937
جميل صدقي الزهاوي
بمناسبة ذكراه الأولى
من حق الزهاوي على (الرسالة) وهي ديوان العرب وسجل الأدب أن تقف على ذكراه العظيمة الأليمة وقفة الذاكر بالجميل تحي بنثير الورد خلود مجده، وتحي بنثير الدمع مصاب فقده: فلقد ساعد على إنهاض العرب بوثوب فكره. وعلى إحياء الأدب بوميض روحه، وعلى إنعاش (الرسالة) بعيون شعره. ومن حق الزهاوي على صاحب الرسالة أن يقوم في هذه المناسبة فيفرغ في سمع الزمان الواعي هذا الحديث الذي يتسم على ما اضن بخبرة الصديق وثقة المطلع ونزاهة المؤرخ؛ فإني ما ذكرت العراق ألا ذكرت في أول أشيائه فندق (كارلتون)، وفي أول أشخاصه شخص الزهاوي؛ ذلك أن أول مكان لقيت فيه العراق هو هذا الفندق، وأول إنسان سمعت منه العراق هو هذا الرجل!
كنت جالساً في بهو هذا الفندق صباح اليوم الثاني لقدومي بغداد، أروض قلبي على روعة الفراق، وأذني على لهجة العراق، وعيني على غرابة الصور، وإذا بأحد الندل يلقي إلي بطاقة كتب عليها (جميل صدقي الزهاوي)، ولم تكد تلوح في مخيلتي صورة الشاعر التي صورها السماع والقراءة، حتى رأيت على باب البهو شيخاً في حدود الثمانين قد انخرع متنه وثقلت رجله ورعشت يده فلا يحمل بعضه بعضاً إلا بجهد اقبل علي يتخلج على ذراع غلامه وقد انبسطت أسارير جبينه العريض وانفرجت شفتاه الذابلتان عن ابتسامه نضرة عذبة، ثم سلم علي تسليم البشاشة بيد مرتجفة، ورحب بي ترحيب الكرم بصوت متهدج، ثم انطلق يشكو جحود الأمة وإغفال الدولة وكيد الخصوم وإلحاح المرض، وتطرق إلى خصومته عامئذ مع الأستاذ العقاد فذكر - والأسف المر يكسبه لهجة المظلوم وهيئة الشهيد - كيف استغلها من سدد خطاه في الشعر، وارجف بها من تولاه بالرعاية؛ وحمد الله على أني جئت بدله فقد كان وجوده كما كان يظن تأليباً متصلاً على فضله، وإزعاجاً مستمراً لسكنته
لم يدع لي الزائر الكريم فرجة بين كلامه الدافق ادخل عليه منها بالتخفيف والتسرية، فان الزهاوي - كما علمت بعد - ديدنه أن يتكلم، كالبلبل خاصته أن يغرد، والزهر طبيعته أن يفوح؛ فهو في مجلس الصداقة شاك أو شاكر. وفي مجلس الأدب محاضر أو شاعر، وفي
مجلس الأنس مفاكه أو محدث.
كان الشيخ يتكلم أو ينشد ونبراته المؤثرة، وقسماته المعبرة، ولحيته الخفيفة

المرسلة، ووجهه المسنون الأعجف، وشاربه النائم على فمه الأهرت، وعينيه البراقة ترأرئ من خلف المنظار، وشعره اشمط يتهدل على نتوء الصدغ، تخيل إلي أن طيفاً من أطياف الجدود، أو نبياً من أنبياء اليهود، قد انشق عنه حجاب الزمن فجأة في هذا المكان الصامت والنور القاتم والجو الغريب؛ ولكن الحيوية التي تنبض في حركاته، والشبيبة التي تفيض في كلماته، والعزيمة التي تضطرم في نظراته، كانت تطرد هذا الخيال وتجعلني وجهاً لوجه أمام (كتلة) من الأعصاب القوية المشدودة تتكلم وتتألم، وتثور وتهدأ، وتسخط وترضى، وموضوع مقالها وانفعالها لا يخرج أبداً (الأنا) إذا صح هذا التعبير

دأبت (عربانة) الشيخ بعد ذلك على أن تقف أمام منزلي صباح يوم الجمعة من كل أسبوع. فكنت استقبله استقبال العابد المتحنث للكاهن الملهم، ثم نقضي ضحوة النهار معاً يحدثني فاعجب أو ينشدني فاطرب؛ وقد تكون أذني إلى فمه وليس معنا ثالث ولكنه يجاهر بالإلقاء، ويصور المعنى بالصوت والإيماء، حتى يدهش المنزل وينصت الشارع. وهو بين الفترة والفترة يعود إلى شكاته وشكواه، وأظل أنا أمام هذا الجيشان الروحي ساهماً حالماً أفكر في الذهن الذي لا يكل. واللسان الذي لا يفتر. والزهو الذي لا يتطامن، والطموح الذي لا يتقاصر، والقلق الذي لا يسكن، والتمرد الذي لا يهن، والشباب الذي يلبس رداء الشيخوخة. والحياة التي تتخذ هيئة الموت

كنت ألقاه في خلال الأسبوع مع الناس في منتداه بشارع الرشيد. أو على ضفة دجلة جالسا على الدكة الخشبية ينشد الأبيات الرائعة، أو يرسل النكتة البارعة، أو يروي الخبر الطريف، في بشاشة جذابة، وقهقهة ساذجة، ويده المرتعشة لا تنفك تعبث بمسبحته الصغيرة، أو تصعد وتهبط بسيكارته العراقية، أو تمتد (بالآنة) إلى نادل القهوة كلما طلب الشاي إلى

صديق وكنت أزوره في مثواه (بالصابونجية) فأراه في مباذله قاعداً يشكو الوسط لأنه قضى الليل ساهداً يقرأ، أو ذاهلاً ينظم، فالقصص والمجلات منتثرة على سريره وعلى مقعده، والمسودات مدسوسة تحت مخدته أو في ثيابه، فلا يتمالك حين يراني ان يصيح:

انظر كيف أذيب عمري في شعري والأمة تقذفني بالبهتان، والحكومة تخرجني من مجلس الأعيان، والملك يستكثر على أن أكون شاعر البلاط! (إني سأذهب، وستبقى أشعاري معبرة عن شعوري وناطقة بآلامي، فهي دموع ذرفتها على الطرس، وهي خليقة أن تبعث من عيون قارئها دمعة هي كل جزائي من نظمها)

(للكلام بقية)

احمد حسن الزيات

الطين الضعيف

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

سألني صديق عن شيء لماذا افعله أو اتركه - فقد نسيت - فكان مما اذكر أني قلته له أني أعيش الآن كما احب لا كما يجب، فقد جاوزت الأربعين، والذي بقي لي من العمر ستفسده الشيخوخة المتهدمة لا محالة حين ترتفع بي السن فلا يبقى لي حينئذ من لذة الحياة إلا الوجود بمجرده لو إن هذا يفيد متعة، فمن حقي في هذه الفترة - التي أرجو أن تطول قبل أن يدركني الذوى والذبول - أن اعتصر من الحياة كل ما يدخل في الطوق اعتصاره من المتع واللذاذات، فأنا أقرأ ما اشتهي، وأذهب إلى حيث أريد، وأجالس من آنس به، ولا أبالي من غضب ممن رضى، فما في الحياة صحة لمبالاة ذلك؛ وأطلق نفسي على السجية كلما وسعني ذلك، وليس للناس على اكثر من أن أؤدي واجباتي فيما عدا هذا

ودخل علي وأنا أقول هذا لصديقي شاب مهذب فحيا وقال انه يقرأ الآن ديواني، ففزعت ولكني ابتسمت له وقلت (كان الله في عونك. ومن الذي ابتلاك به. .)

فأهمل السؤال وجوابه واقبل علي يسألني: (انك تكتب بسرعة) فقلت (إن الذي اعرفه أني اكتب في غرفة تحيط بها جدران من الحجارة لا تنفذ العين منها على خلاف ما كان يصنع ديماس الذي كان يكتب على ما يقال في دكان فيجيء الناس وينظرون إليه من وراء الزجاج. . أريد أن اعرف يا صاحبي ماذا تعني بالسرعة)

قال (اعني انك تكتب إلى مجلات كذا وكذا وكذا. . وتكتب في صحيفة يومية أيضاً. .

هذا كثير. . فمتى تستطيع أن تكتب كل ذلك. . انه نشاط عجيب. .)
فقلت (جواب السؤال أني اكتب وأنا نائم، فالذي تقرأه لي هو أضغاث أحلامي. . وأما النشاط يا صاحبي فذاك أني مازلت في شبابي)
فتركني وهو يقول انه يدرس ما اكتب وانه ينوي أن ينشر بحثاً، فاستعذت بالله وحاولت أن اصرفه عن هذا العناء الباطل فما أفلحت، فتوجهت إلى الله عسى أن يصرف عني هذا السوء بطريقة ما. . وهل كثير على الله أن يشاء أن تشب النار في كتبي التي عند هذا الشاب، أو تنقلب الدواة كلما هم بالكتابة، أو تجمد أصابعه أو يحدث له غير ذلك من أسباب التعويق والتعطيل.؟
وانفض هذا المجلس، ولكن خاطراً ثقيلاً ألح علي وظل يدور في نفسي، ذلك أن كل من ألقاهم من إخواني يذكرون هذا النشاط. ولا يكتمون تعجبهم. فلم يسعني إلا أن أتعجب مثلهم وإلا أن أسائل نفسي: (أكان هذا يبدو لهم مني مستغرباً لو انهم كانوا يرونني شاباً في العشرين من عمري مثلاً؟ أتراهم يستغربون لأني في ظنهم خلفت شبابي ورائي فالمنتظر من مثلي في اعتقادهم هو الفتور. .) ولم يعجبني هذا التأويل فانه ثقيل على النفس، وآثرت أن أقول انهم هم معدومو النشاط ولذلك يتعجبون لي. ثم أني لا أحس إلا أنى مازلت شاباً. والعبرة بالإحساس لا بهذه الشعرات البيضاء التي يقول عنها ابن الرومي أنها تزيد ولا تبيد فهي مثل نار الحريق. . وما قيمة هذه الشعرات. . لقد ابيضت وأنا في العشرين من عمري، وكنت يومئذ بها فرحاً مزهواً، وكنت أعدها مظهراً للرجولة ومدعاة للاحترام، فماذا حدث حتى صرت حتى ابغضها. . أو لا ابغضها وإنما انظر إليها في المرآة فأزوم، وتقول شفتاي (هممممم). . ثم أني أراني اجلد من أبناء العشرين، واصبر على العناء والجهد، واقدر على العمل والحركة، واحسن تلقياً للحياة، وأسرع استجابة لدواعيها، فما قيمة هذا الذي تطالعني به المرايا؟. وما حاجتي أنا إلى المرايا؟. ومتى كنت انظر فيها حتى انظر فيها اليوم؟. كلا. . إن أمامي بإذن الله حياة طويلة، وليست الحياة أن أظل باقياً في الدنيا والسلام، وإنما هي أن أظل قادراً على العمل وكفؤاً للأعباء، وهذا ما اعتقد انه سيكون شأني فما اشعر بدبيب الفتور ولا أرى أية علامة على ابتداء النضوب.
وضحكت وأنا أقول ذلك فقد تذكرت أني قلت مرة لصاحب كان يحدثني في هذا الموضوع أو يسألني على الأصح (هل تعرف حكاية الذي أراد أن يتزوج بنت السلطان. . لقد زعموا أن رجلاً من الغوغاء زعم انه سيتزوج بنت السلطان، فلما سألوه كيف يتسنى له ذلك، قال أن المسألة بسيطة، فقد رضيت أنا بزواجها ولم يبق إلا أن يرضى السلطان. وكذلك أنا فقد عزمت أن أعيش إلى التسعين والمائة أيضاً وأنا موافق على ذلك وراض بهذه القسمة وليس باقياً إلا أن يمالئني الحظ ويساعفني القدر. . .)
ويتفق لي كثيراً أن أقف بالسيارة حيث يطيب لي الوقوف. ويسرني حين أفعل ذلك أن أنظر إلى الناس وهم يروحون ويغدون وأن أتأمل ما يكون مهم وكيف يمشون وكيف يتحدثون ويميل بعضهم على بعض وكيف يذهلون عما يكون أمامهم لأن ما هم فيه من الحديث يستغرقهم فيصطدمون أو يحدث غير ذلك مما يضحك ويشرح صدر المتفرج. وأنظر أيضاً إلى الفتيات الناهدات وهن يمشين متخلعات متثنيات متقصعات وعيونهن دائرات في الرجال فإذا نظروا إليهن أغضين كأنما كن ينظرن عفواً. إلى آخر ما لا يسع المرء إلا أن يراه في الطريق. فحدث يوماً أني اشتريت شيئاً من دكان ثم دخلت السيارة وقعدت فيها وشرعت أدخن وأجيل عيني في الناس فكان الرجال يمضون ويمرون بي ولا يعيرونني الفاتاً؛ أما الشبان فكانت عيونهم ترمقني خلسة. وأما الفتيات فكن يحدقن في وجهي صراحة، فكنت ابتسم مسروراً بهذه المناظر. فمرت بي فتاتان بارعتا الجمال فلما بلغتا حيث كنت وافقاً مالت إحداهما على الأخرى جداً وهمست وهي تنظر إلي: ده عجوز، ومن الغريب أني سمعت الهمسة الخافتة على بعد مترين، وأحسب أني ما كنت لأسمع ما تقول لو أنها صاحت بأعلى صوت (ما أحلاه وأجمله وأبرع شبابه) وأكبر الظن أن الترام كان يمر حينئذ فيغرق هذا الثناء بضجته فيفوتني ما يسرني. أو تسقط عمارة فيفزع الناس ويذهلون ويشغل الخلف بذلك وأنا في جملتهم. . وأنا أتكلم أولاً ثم أفكر بعد ذلك؛ والأولى العكس، ولكن هذا ما أصنع غير عامد. فلما سمعت الهمسة الثقيلة رأيتني أصيح بالفتاتين (فشرتِ. فشرتما. فشرتن) فضحكتا

وتثنتا وذهبتا تعدوان
ولم يسؤني قول الفتاة إني (عجوز) فما كانت سنها تزيد على الرابعة عشرة وأنا فوق الأربعين بسنوات فهي طفلة بالقياس إلي وليس في وسعها إلا أن تحس هذا الفرق. وغير منتظر أن تدرك أن صباها صبى جسم لا أكثر. وان شبابها الذي تزهى به طراوة ولين ملاسة ونعومة. وعزيت نفسي بلهجة المتشفي به بأنها ستفقد ذلك كله حين تناهز الأربعين وأنها لن تجد يومئذ عوضاً عما فاتها وأن نفسها ستسبق جسمها إلى الذوى. على حين أظل أنا فيما أرجو شاب النفس لا يضيرني أن الزمن يكون قد حفر على وجهي وجلدي أخاديد عميقة. ومن العدل أن تباهي الفتاة وتزهى بما لا عوض عنه وليس من الإنصاف أن أنكر عليها ذلك أو أكرهه منها
ثم رجعت أقول لنفسي ولكن ما قيمة شباب النفس وحده. .؟ ما جدواه إذا فقد الجسم شبابه. .؟ وتذكرت أبياتاً من قصيدة طولية كنت قلتها منذ عشرين عاماً ولم أنشرها - بل نشرت بضع مئات منها في صحيفة أسبوعية -
أيها الطينُ ما ترى بك أبغي ... لستَ - فيما أرى - لشيء كفاء
إن طلبتُ السماء قلت ليَ الأر ... ض - أو الأرض كنتَ لي عصَّاء
إلى آخر هذا الهراء. . ولم يكن هذا الطين يستعصي عليه شيء يومئذ. وما قلت ذلك إلا في ساعة فتور شديد جعلني كاليائس أو انسياقاً مع المعاني التي ولدتها روح القصيدة وأنا انظمها. ولم يكن يخطر لي أني سأذكر هذه الأبيات التي رميتها وأهملتها حتى مرت الفتاتان بعد عشرين عاماً ونظرت إحداهما - وأحلاهما - إلى الشيب في فودي وقالت وهي تميل على صاحبتها (ده عجوز)
إيه يا فتاتي الصغيرة أما والله إني لأشتهي أن أفتح ذراعي وأضم كل فتاة خود مثلك - أضم ملايينكن دفعة واحدة في عناق مفرد كما أراد من نسيت اسمه - نيرون إذا كانت الذاكرة لم تخني - أن يضرب أعناقكن جميعاً بضربة سيف واحدة. . ولعله استسهل هذا واستخف مئونته واستضأل كلفته. وإني لأرفق بكن منه - أو لعلي أقسى فما أدري ولكنكن ملايين والطين ضعيف واه. . وإني لأراني كما يقول ابن الرومي -:
ضعيفاً جباناً - اشتهي ثم أنتهي ... بلحظي جنابَ الرزق لحظَ المجانب
وإني لأحس الحياة ثقيلة الوطأة على كاهل الصبر. . وإني لعود في الليل إلى داري فتقول لي زوجتي ألا تستريح؟ فأقول كلا. . لا راحة لحي. . وأمضي إلى مكتبي وأجلس إليه وأهم بالكتابة فأرى النعاس يثني رأسي على صدري، فأنهض متبرماً، ساخطاً على هذه البلادة، وأقول لنفسي وأنا أرتمي على الفراش أترى لو كنت في مجلس لهو وطرب أكنت أفتر هذا الفتور؟ ويغلبني النوم قبل أن أسمع جواب النفس. . وإني ليكون أمامي الطعام الجيد المشتهى فأمد إليه يدي محاذراً وأتناول منه مترفقاً وعلى قدر مخافة الكظة أو الانتفاخ، ولم أكن أبالي ذلك قبل سنوات. . وإني لأهم بزيارة الصديق فيصدني أن درجات سلمه كثيرة فأرتد وألعن أصحاب العمائر الذي لا يتخذون المصاعد. .
ولم يرضني هذا السخط على نفسي فقلت وأين هذا الفتور؟ ومن ذا الذي لا يكل أحياناً؟. إني أعمل كالحمار بالليل والنهار وأكتب في اليوم الواحد فصولاً ثلاثة أو أربعة لأكثر من صحيفة واحدة. وأقطع بالسيارة أكثر من خمسين كيلو في نهاري، واسهر إلى منتصف الليل، ثم أقوم في الفجر مع الديكة والعصافير وأقصد إلى مكتبي وأروح أدق على آلة
الكتابة حتى لقد غير جاري غرفة نومه لكثرة ما أزعجه وأطير النوم عنه في الصباح الباكر. وأنا أجالس الناس وأحادثهم وأفعل ما يفعله المرء بشبابه ولا أراني أكل أو أهي أو أمل أو أفتر. . وإن رأسي لدائب لا يكف عن العمل في يقظة أو نوم؛ ولو كنت أقيد ما يدور في نفسي لوسعني أن أملأ الدنيا كلاماً، ولكن المصيبة أني لا أقيد شيئاً وأني أنسى، فالذي يبقى لي لا يعدل جزءاً من مائة مما يخطر لي، وإذا كانت لي شكاة فتلك أني لا أفتر ولا أراني أقنع بما أستطيع وما يدخل في وسعي. ولقد قال لي مرة طبيب حاذق شكوت إليه أني لا أهدأ - إن بنائي كله من الأعصاب، وأن جسمي ليس أكثر من شبكة أعصاب ركبت لها العظام لتمسكها ووضع لي هنا قلب وهناك معدة إلى آخر ذلك، ثم كسي هذا كله جلداً رقيقاً ليمكن أن يقال إن هذا جسم إنسان، ولكن المهم هو هذه الأعصاب؛ فإذا كنت أشكو شيئاً في بعض الأحيان فيحسن بي أن أعرف

أنه من الأعصاب ليس إلا (فأرحها حين تتعب تعد كما كانت فإنها متينة. وأكبر الظن أن هذه ليست أعصاباً وإنما هي (جنازير من الحديد) ويكفي أنها تتحملك) كذلك قال.
ودليل صدقه أني لم أشك شيئاً قط مذ سمعت منه هذا؛ ولو كان بي شيء غير هذه الأعصاب لما نفعني كلامه. ولقد خرجت من عنده إلى صيدلة فيها ميزان فوقفت عليه فإذا بي - بثيابي الشتوية لا أزن أكثر من سبعة وأربعين كيلو، فضحكت وقلت: (كم ترى يكون وزني في الحمام. . بغير هذه الثياب. . أو في الصيف الذي يستدعي التخفيف. . صدق الطبيب الحاذق فما هذا بجسم إلا على المجاز. . ولكن هذا البناء الواهي يحتمل النوم على الرمال وتوسد الحجارة. نعم فإني كثيراً ما أخرج إلى الصحراء فأرتمي على رمالها ساعة وساعتين وتحت رأسي حجر صلد كبير. وفي بيتي أترك الفراش الوثير إلى الكراسي الخشنة التي لا راحة لمخلوق عليها. . وأفتح النوافذ واقعد أو أنام بين تيارات الهواء ولا أرى ذلك يضيرني. وأحسب هذا وراثة فقد كانت أمي رحمها الله تنام وأنفها إلى النافذة المفتوحة - صيفاً وشتاء. نعم أزكم أحياناً ولكن الفيل يزكم. .
وساقي مهيضة ولكني لا أتعب من المشي وإنما أتعب من الوقوف. . ولم أتخذ المدافئ قط، فإذا أوقدوا في بيتنا ناراً تركت لهم الغرفة إلى أخرى لا نار فيها. . وما لبست معطفاً إلا في أعقاب مرض وعلى سبيل الوقاية إلى حين. وإني لأرى مناعة جسمي تزداد عاماً فعاماً وأراني كلما علت سني أحس إني صرت أقوى واصح بدناً واقدر
على العمل والحركة والجهد. . فلست بعجوز يا فتاتي الصغيرة وإني وحياتك لأصبى من ابني. وان الذي في عروقي لنار سائلة لا دماء جارية، وقد أحسنت بالانصراف بعد تلك الضحكة الفضية التي ستظل في مسمعي تذكرني بك وتصيبني إلى أترابك. . . .والسلام عليك والشكر لك. والى الملتقى (وأين مني يهرب الهارب؟)
إبراهيم عبد القادر المازني
. . .صعاليك الصحافة - 4
تتمة
للأستاذ مصطفى صادق الرافعي
وجاء أبو عثمان وفي بروز عينيه ما يجعلهما في وجهه شيئاً كعلامتي تعجب ألقتهما الطبيعة في هذا الوجه. وقد كانوا يلقبونه (الحدقي) فوق تلقيبه بالجاحظ، كأن لقباً واحداً لا يبين عن قبح هذا النتوء في عينيه إلا بمرادف ومساعد من اللغة. . . . وما تذكرت اللقبين إلا حين رأيت عينيه هذه المرة.
وانحط في مجلسه كأن بعضه يرمي بعضه من سخط وغيظ، أو كأن من جسمه ما لا يريد أن يكون من هذا الخلق المشوه، ثم نصب وجهه يتأمل، فبدت عيناه في خروجهما كأنما تهمان بالفرار من هذا الوجه الذي تحيا الكآبة فيه كما يحيا الهم في القلب؛ ثم سكت عن الكلام لأن أفكاره كانت تكلمه.
فقطعت عليه الصمت وقلت: يا أبا عثمان رجعت من عند رئيس التحرير زائداً شيئاً أو ناقصاً شيئاً فما هو يرحمك الله؟
قال: رجعت زائداً أني ناقص، وههنا شيء لا أقوله، ولو أن في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين. لوقفوا على عمك وأمثال عمك من كتاب الصحف يتعجبون لهذا النوع الجديد من الشهداء
وقال ابن يحيى النديم: دعاني المتوكل ذات يوم وهو مخمور فقال: أنشدني قول عمارة في أهل بغداد. فأنشدته:
ومن يشتري من ملوك مُخَرّم ... أبعْ (حَسنَاً وابني هِشام) بدِرْهم
وأعطي (رجاءً) بعد ذاك زيادة ... وأمنحُ (ديناراً) بغير تندُّم
قال أبو عثمان:
فإن طلبوا مني الزيادة زدتُهم ... (أبا دُلفٍ والمستطيلَ بنَ أكثم
ويلي على هذا الشاعر. اثنان بدرهم، واثنان زيادة فوقهما العظم الدرهم، واثنان زيادة على الزيادة لجلالة الدرهم؛ كأنه رئيس تحرير جريدة يرى الدنيا قد ملئت كتاباً. ولكن ههنا شيئاً لا أقوله
وزعموا أن كسرى أبرويز كان في منزل امرأته شيرين، فأتاه صياد بسمكة عظيمة فأعجب بها وأمر له بأربعة آلاف درهم فقالت له شيرين: أمرت الصياد بأربعة آلاف

درهم، فإن أمرت بها لرجل من الوجوه، قال: إنما أمر لي بمثل ما أمر للصياد. فقال كسرى: كيف أصنع وقد أمرت له؟
قالت: إذا أتاك فقل له: اخبرني عن السمكة، أذكر هي أم أنثى؟ فإن قال أنثى. فقل له: لا تقع عيني عليك حتى تأتيني بقرينها، وإن قال غير ذلك فقل له مثل ذلك.
فلما غدا الصياد على الملك قال له: أخبرني عن السمكة، أذكر هي أم أنثى؟ قال: بل أنثى. قال الملك: فأتني بقرينها. فقال الصاد عمر الله الملك، إنها كانت بكراً لم تتزوج بعد. . .
قلت: يا أبا عثمان فهل وقعت في مثل هذه المعضلة مع رئيس التحرير؟
قال: لم ينفع عمك أن سمكته كانت بكراً، فإنما يريدون إخراجه من الجريدة وما بلاغة أبي عثمان الجاحظ بجانب بلاغة التلغراف وبلاغة الخبر وبلاغة الأرقام وبلاغة الأصفر وبلاغة الأبيض. . . ولكن ههنا شيئاً لا أريد أن أقوله.
وسمكتي هذه كانت مقالة جودتها وأحكمتها وبلغت بألفاظها ومعانيها أعلى منازل الشرف وأسنى رتب البيان وجعلتها في البلاغة طبقة وحدها. وقبل أن يقول الأوربيون (صاحبة الجلالة الصحافة) قال المأمون: (الكتاب ملوك على الناس). فأراد عمك أبو عثمان أن يجعل نفسه ملكاً بتلك المقالة فإذا هو بها من (صعاليك الصحافة).
لقد كانت كالعروس في زينتها ليلة الجلوة على محبها، ما هي إلا الشمس الضحاية، وما هي إلا أشواق ولذات، وما هي إلا اكتشاف أسرار الحب، وما هي إلا هي. فإذا العروس عند رئيس التحرير هي المطلقة، وإذا المعجب هو المضحك، ويقول الرجل: أما نظرياً فنعم، وأما عملياً فلا، وهذا عصر خفيف يريد الخفيف، وزمن عامي يريد العامي، وجمهور سهل يريد السهل، والفصاحة هي إعراب الكلام لا سياسته بقوي البيان والفكر واللغة، فهي اليوم قد خرجت من فنونها واستقرت في علم النحو
وحسبك من الفرق بينك وبين القارئ العامي: إنك أنت لا تلحن وهو يلحن
قال أبو عثمان؛ وهذه أكرمك الله منزلة يقل فيها الخاصي ويكثر العامي فيوشك ألا يكون بعدها إلا غلبة العامية، ويرجع الكلام الصحافي كله سوقياً بلدياً (حنشصياً). وينقلب النحو
نفسه وما هو إلا التكلف والتوعر والتقعر كما يرون الآن في الفصاحة، والقليل من الواجبات ينتهي إلى الأقل، والأقل ينتهي إلى العدم، والانحدار سريع يبدأ بالخطوة الواحدة ثم لا تملك بعدها الخطى الكثيرة
لا جرم فسد الذوق وفسد الأدب وفسدت أشياء كثيرة كانت كلها صالحة، وجاءت فنون من الكتابة ما هي إلا طبائع كتابها تعمل فيمن يقرؤها عمل الطباع الحية فيمن يخالطها. ولو كان في قانون الدولة تهمة إفساد الأدب أو إفساد اللغة، لقبض على كثيرين لا يكتبون إلا صناعة لهو ومسلاة فراغ وفساداً وإفساداً. والمصيبة في هؤلاء ما يزعمون لك من أنهم يستنشطون القراء ويلهونهم. ونحن إنما نعمل في هذه النهضة لمعالجة اللهو الذي جعل نصف وجودنا السياسي عدماً؛ ثم لملء الفراغ الذي جعل نصف حياتنا الاجتماعية بطالة. وهذا أيضاً مما جعل عمك أبا عثمان في هذه الصحافة من (صعاليك الصحافة) وتركه في المقابلة بينه وبين بعض الكتاب كأنه في أمس وكأنهم في غد.
. . .ودق الجرس يدعو أبا عثمان إلى رئيس التحرير
فما شككت أنهم سيطردونه فإن الله لم يرزقه لساناً مطبعياً ثرثاراً يكون كالمتصل من دماغه بصندوق حروف. . . ولم يجعله كهؤلاء السياسيين الذي يتم بهم النفاق ويتلون، ولا كهؤلاء الأدباء الذي يتم بهم التضليل ويتشكل.
ورجع شيخنا كالمخنوق أرخي عنه وهو يقول: ويلي على الرجل. ويلي من الكلام الظريف الذي يقال في الوجه ليدفع في الفقا. . . كان ينبغي ألا يملك هذه الصحافة اليومية إلا مجالس الأمة، فذلك هو إصلاح الأمة والصحافة والكتاب جميعاً. أما في هذه الصحف فالكاتب يخبز عيشه على نار تأكل منه قدر ما يأكل من عيشه، ولو أن عمك في خفض ورفاهية وسعة، لكان في استغنائه عنهم حاجتهم اليه، ولكن السيف الذي لا يجد عملاً للبطل، تفضله الإبرة التي تعمل للخياط. وماذا يملك عمك أبو عثمان؟ يملك مالاً ينزل عنه بدول الملوك، ولا بالدنيا كلها، ولا بالشمس والقمر، إذ يملك عقله وبيانه. على أنه مستأجر هنا بعقله وبيانه يعقل ما شاءوا ويكتب ما شاءوا

لك الله أن أصدقك القول في هذه الحرفة اليومية. إن الكاتب حين يخرج من صحيفة إلى صحيفة، تخرج كتابته من دين إلى دين. . .
ورأيت شيخنا كأنما وضع له رئيس التحرير مثل البارود في دماغه ثم أشعله. فأردت أن أمازحه وأسري عنه، فقلت: اسمع يا أبا عثمان. جاءتني بالأمس قضية يرفعها صاحبها إلى المحكمة، وقد كتب في عرض دعواه: إن جار بيته غصبه قطعة من أرض فنائه الذي تركه حول البيت، وبنى في هذه الرقعة داراً، وفتح لهذه الدار نافذات، فهو يريد من القاضي أن يحكم برد الأرض المغصوبة، وهدم هذه الدار المبنية فوقها، و. . و. . وسد نافذاتها المفتوحة. . .!
فضحك الجاحظ حتى أمسك بطنه بيده وقال: هذا أديب عظيم كبعض الذين يكتبون الأدب في الصحافة؛ كثرت ألفاظه ونقص عقله. (وسئل بعض الحكماء: متى يكون الأدب شراً من عدمه؟ قال: إذا كثر الأدب ونقصت القريحة. وقد قال بعض الأولين: من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه؛ كان حتفه في أغلب خصال الخير عليه؛ وهذا كله قريب بعضه من بعض
والأدب وحده هو المتروك في هذه الصحافة لمن يتولاه كيف يتولاه إذ كان أرخص ما فيها، وإنما هو أدب لأن الأمم الحية لا بد أن يكون لها أدب. ثم هو من بعد هذا الاسم العظيم ملء فراغ لا بد أن يملأ. وصفحة الأدب وحدها هي التي تظهر في الجريدة اليومية كبقعة الصدأ على الحديد تأكل منه ولا تعطيه شيئاً.
ثم يأبى من تترك له هذه الصفحة إلا أن يجعل نفسه (رئيس تحرير) على الأدباء، فما يدع صفة من صفات النبوغ ولا نعتاً من نعوت العبقرية إلا نحله نفسه ووضعه تحت ثيابه؛ وما أيسر العظمة وما أسهل منالها إذا كانت لا تكلفك إلا الجراءة والدعوى والزعم، وتلفيق الكلام من أعراض الكتب وحواشي الأخبار
وقد يكون الرجل في كتابته كالعامة، فإذا عبته بالركاكة والسخف والابتذال وفراغ ما يكتب؛ قال: هذا ما يلائم القراء. وقد يكون من أكذب الناس فيما يدعي لنفسه وما يهول به لتقوية شأنه وإصغار من عداه، فإذا كذبه من يعرفه قال: هذا ما يلائمني. وهو واثق أنه في نوع من القراء ليس عليه إلا أن يملأهم بهذه الدعاوى كما تملأ الساعة، فإذا هم جميعاً يقولون: تك تك. . تك تك. . . . .
فمن زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل؛ جعل الفصاحة واللكنة والخطأ
والصواب والإغلاق والإبانة والملحون والمعرب، كله سواء وكله بياناً (وكان المكي طيب الحجج، ظريف الحيل، عجيب العلل. وكان يدعي كل شيء على غاية الإحكام ولم يحكم شيئاً قط من الجليل ولا من الدقيق. وإذ قد جرى ذكره فسأحدثك ببعض أحاديثه. قلت له مرة: أعلمت أن الشاري حدثني أن المخلوع (أي الأمين) بعث إلى المأمون بجراب فيه سمسم، كأن مخبره أن عنده من الجند بعدد ذلك، وأن المأمون بعث له بديك أعور، يريد أن طاهر بن الحسين يقتل هؤلاء كلهم كما يلقط الديك الحب؟
قال: فإن هذا الحديث أنا ولدته، ولكن انظر كيف سار في الآفاق. . .
ثم قال أبو عثمان: وقد زعم أحد أدبائكم أنه اكتشف في تاريخ الأدب اكتشافاً أهمله المتقدمون وغفل عنه المتأخرون، فنظر عمك في هذا الذي ادعاه، فإذا الرجل على التحقيق، كالذي يزعم أنه اكتشف أمريكا في كتاب من كتب الجغرافيا. . . .
وما يزال البلهاء يصدقون الكلام المنشور في الصحف لا بأنه صدق ولكن بأنه (مكتوب في الجريدة). . . . فلا عجب أن يظن كاتب صفحة الأدب - متى كان مغروراً - أنه إذا تهدد إنساناً فما هدده بصفحته بل بحكومته. . . .
نعم أيها الرجل إنها حكومة ودولة؛ ولكن ويحك: إن ثلاث ذبابات ليست ثلاث قطع من أسطول إنجلترا. . . . . .!
وضحك أبو عثمان وضحكت فاستيقظت
(طنطا)
مصطفى صادق الرافعي
من التاريخ
المهديون المنتظرون

لأستاذ كبير
قال الأستاذ محمد عبد الله عنان في مبحثه البارع (ضوء جديد على مأساة شهيرة) في الجزء (188) من هذه المجلة: إن رجعة الحاكم قد بنيت على المقالة المهدوية، وذكر ثلاثة من الجماعة المنتظرة. وقد رأيت أن أطرف قراء (الرسالة) أقوالاً موجزة في (المهديين المنتظرين) مما خطه مؤرخو النحل الإسلامية ونقله رجال الأثر. وأنا في ذلك راوٍ لا ينقد مقالة فرقة، ولا يجادل جماعة مذهب، ولا يضيف شيئاً من عنده إلى نقله. وروايتي هي عن هذه الكتب: مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين للأشعري، الفرق بين الفرق للبغدادي، الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم، الملل والنحل للشهرستاني، فرق الشيعة للنوبختي، سنن أبي داود، صحيح الترمذي، المحصل للرازي، شرح مواقف الأيجي للجرجاني. شرح الدرة المضية للسفاريني.

1 - علي بن أبي طالب

قالت السبئية: (إن علياً لم يقتل، ولم يمت، ولا يقتل ولا يموت حتى يسوق العرب بعصاه. ويملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً. وهو المهدي المنتظر دون غيره)

2 - ابن الحنفية (محمد بن علي)

قالت الكربية الكيسانية: (إن محمد بن الحنفية حي لم يمت، وإنه في جبل رضوي، وعنده عينان نضاختان تجريان بماء وعسل، يأتيه رزقه غدوة وعشية، وعن يمينه أسد، وعن يساره نمر، يحفظانه من أعدائه؛ وهو المهدي المنتظر)

3 - عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب

زعمت الجناحية (فرقة من الكيسانية) أن عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر) بن أبي طالب حي بجبال أصبهان لم يمت ولا يموت، ولا بد أن يظهر حتى يلي أمور الناس، وهو المهدي الذي بشر به النبي)

4 - محمد بن علي (الباقر)

قالت الباقرية: إن محمد بن علي (الباقر) هو المهدي المنتظر بما روي أن النبي قال) لجابر

بن عبد الله الأنصاري: (إنك تلقاه فأقرأه مني السلام) وكان جابر آخر من مات بالمدينة من الصحابة، وكان قد عمي في آخر عمره؛ وكان يمشي في المدينة ويقول: (يا باقر، يا باقر، متى ألقاك؟

5 - محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب

قالت طائفة من الجارودية الزيدية: إن محمد بن عبد الله حي لم يقتل ولا مات ولا) يموت حتى يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، وهو مقيم بجبال ناحية الحاجر، وهو المهدي بالحديث الذي يقول فيه: يوافق اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي)

6 - جعفر بن محمد (الصادق)

قالت الناووسية: إن (الصادق) حي لم يمت ولا يموت حتى يظهره أمره، وهو القائم) المهدي. رووا عنه أنه قال: لو رأيتم رأسي يدهده عليكم من الجبل فلا تصدقوا فإني صاحبكم صاحب السيف)

7 - إسماعيل بن جعفر الصادق

قالت فرقة من الإسماعيلية الواقفية والناووسية: إن إسماعيل بن جعفر لم يمت إلا) أنهم أظهروا موته تقية، وعقد محضر وأشهد عليه عامل المنصور بالمدينة، فهو حي لم يمت ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً. فالجماعة منتظرة لإسماعيل بن جعفر)

8 - محمد بن اسمعيل بن جعفر

قالت القرامطة: إن محمد بن اسمعيل لم يمت ولا يموت حتى يملك الارض، وإنه هو) المهدي الذي تقدمت البشارة به، وهو في بلاد الروم وهو القائم المهدي؛ ومعنى القائم عندهم أنه يبعث بالرسالة وبشريعة جديدة ينسخ بها شريعة محمد، واعتلوا في نسخ الشريعة (شريعة محمد) أنه قال: لو قام قائمنا علمتم القران جديداً)

9 - موسى بن جعفر (موسى الكاظم)

قالت الواقفة (الموسوية، المفضلية، الممطورة): إن موسى ابن جعفر لم يمت ولا) يموت حتى يملك شرق الأرض وغربها، ويملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً

(وجوراً. وهو المهدي المنتظر
جعفر بن علي الهادي - 10
غلت النفيسية في جعفر بن علي الهادي وفضلته على علي بن أبي طالب، واعتقدت)
(أنه أفضل الخلق بعد رسول الله، وادعت أنه القائم
محمد بن القاسم - 11
قالت طائفة من الجارودية إن محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين)
(القائم بالطالقان أيام المعتصم) حي لم يمت ولا قتل، ولا يموت ولا يقتل حتى يملأ
(الأرض عدلاً كما ملئت جوراً
يحيى بن عمر - 12
قالت طائفة من الجارودية: إن يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي)
بن الحسين بن علي بن أبي طالب (القائم بالكوفة أيام المستعين) حي لم يقتل ولا
(مات ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً
الحسن العسكري بن علي الهادي - 13
قالت فرقة: إن الحسن لم يمت وهو القائم، ولا يجوز أن يموت ولا ولد له ظاهر. وقد)
ثبت عندنا أن القائم له غيبتان، وهذه إحدى الغيبتين، وسيظهر ويعرف ثم يغيب غيبة
أخرى
وقالت فرقة ثانية: إن الحسن مات لكن سيجيء وهو المعنى بكونه قائماً أي يقوم
(بعده (بعد الموت)
محمد بن الحسن العسكري - 14
قالت الفرقة الثانية عشرة وهي الإمامية: لله في الأرض حجة من ولد الحسن بن)
علي، وأمر الله بالغ، وهو وصي لأبيه. ولا يجوز أن تخلو الأرض من حجة؛ ولو خلت
ساعة لساخت الأرض ومن عليها. فنحن مقرون بوفاة الحسن وأن خلفه هو الإمام من
(بعده حتى يظهر ويعلن أمره. والإمام (عليه السلام) أعرف بنفسه وزمانه منا
لقبه المهدي والمنتظر ... والقائم المكرم المطهر)
أكثر من سبعين شخصاً شاهدوا ... جماله ولاحت الشواهد
وغاب غيبتين (صغرى) امتدت ... وكانت الشدة فيها اشتدت
قريب سبعين من الأعوام ... كان اختفى عن أكثر الأنام
كان له من الموالي سفراً ... إذ غاب واختفى ورام السفرا
وغيبة أخرى إلى ذا الآن ... وأنه لصاحب الزمان
(لكنه لابد من أن يخرجا ... وبعد شدة نلاقي الفرجا
محمد بن عبد الله. محمد المهدي، الفاطمي - 15
روى الترمذي وأبو داود (عن ابن مسعود أن رسول الله قال: لو لم يبق من الدنيا إلا
يوم واحد لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث فيه رجلاً مني، أو قال من أهل بيتي، يواطئ
اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً)
ومن الفرق التي تنتظر رجعة زعيمها فرقة الخلفية من الخوارج. فهم ينتظرون قيس
بن مسعود وقد غرق في واد منهزماً من الخوارج الحمزية
وممن - كانوا - ينتظرون منجدين ومغيثين - وإن لم يسموا بالمهديين - القحطاني
والسفياني. ومصدقو المقالة المهدوية يرتقبون هذين الرجلين وغيرهما (قبل
الفاطمي) مفسدين في الأرض وعائثين لا مغيثين
ومن أقوى علامات خروج المهدي خروج من يتقدمه من الخوارج: السفياني والأبقع)
والأصهب والأعرج والكندي. أما السفياني فاسمه عروة واسم أبيه محمد، وكنيته أبو
عنبة. قال الشيخ مرعي في فوائد الفكر، وفي عقد الدر: إن السفياني من ولد خالد
بن يزيد بن أبي سفيان، ملعون في السماء والأرض، وهو أكثر خلق الله ظلماً. قال
علي: السفياني رجل ضخم الهامة بوجهه أثر جدري، بعينه نكتة بياض، يخرج من ناحية
دمشق، وعامة من يتبعه من كلب فيقتل حتى يبقر بطون النساء، ويقتل الصبيان،
ويخرج إليه رجل من أهل بيتي في الحرم فيبعث إليه جنداً من جنده فيهزمهم، فيسير
إليه السفياني بمن معه حتى إذا جاز بيداء من الأرض خسف بهم فلا ينجو إلا المخبر
عنهم. أخرجه الحاكم في مستدركه وقال هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري
ومسلم ولم يخرجاه. والأبقع يخرج من مصر، والأصهب يخرج من بلاد الجزيرة، ثم

يخرج الجرهمي من الشام، ويخرج القحطاني من بلاد اليمن. قال كعب الأحبار: فبينما هؤلاء الثلاثة قد تغلبوا على مواضعهم إذ قد خرج السفياني من دمشق من واد يقال له: وادي اليابس.

وفي الحديث: لا تحشر أمتي حتى يخرج المهدي يمده الله بثلاثة آلاف من الملائكة، ويخرج إليه الأبدال من الشام، والنجباء من مصر، وعصائب أهل الشرق حتى يأتوا مكة فيبايع له بين الركن والمقام، ثم يتوجه إلى الشام وجبريل على مقدمته وميكائيل على يساره، ومعه أهل الكهف. فيفرح به أهل السماء والأرض والطير والوحوش والحيتان في البحر، وتزيد المياه في دولته، وتمتد الأنهار، وتضعف الأرض أكلها فيقدم إلى الشام فيأخذ السفياني فيذبح تحت الشجرة التي أغصانها إلى بحيرة طبرية (وهناك فرقة تنتظر نبياً (لا مهدياً فقط) عجمياً (لا عربياً) وهي اليزيدية من الخوارج أصحاب يزيد بن أنيسة (قالوا: سيبعث نبي من العجم بكتاب يكتب في السماء وينزل عليه جملة واحدة، ويترك شريعة محمد إلى ملة الصابئة المذكورة في القران)

أحد القراء

داعي الدعاة ونظم الدعوة عند الفاطميين

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كانت الدعاية من اعظم العوامل التي عاونت على ظفر الحلفاء في الحرب الكبرى؛ وللدعاية في عصرنا أعظم شأن في تكوين الرأي العام. وفي توجيهه إلى النواحي والغايات التي يراد توجيهه إليها، ولا يخفى ما للرأي العام اليوم من القوة والنفوذ حيثما تتاح له فرص الظهور والإعراب؛ ففي الأمم الديمقراطية التي مازالت الحريات العامة فيها قائمة مكفولة يتمتع الرأي العام بكل قوته ونفوذه، ويحسب حسابه، ويحدث أثره في توجيه الحوادث والشؤون؛ وحتى في الأمم التي تسودها النظم الطاغية، وتسحق الحريات العامة، ويسلب الرأي العام والخاص كل حرية في القول والإعراب، تتبوأ الدعاية أهميتها كوسيلة قوية لتكوين رأي الكافة، ومحاولة التأثير على الخاصة والمستنيرين، وإخفاء ما يراد إخفاؤه من عيوب النظم الطاغية والإشادة بما تدعيه من الفضائل والمزايا وتحقيق الإصلاح والخير العام؛ وفي سبيل هذه الغاية تعتمد النظم الطاغية على هيئات قوية محكمة للدعاية الشاملة تسيطر على جميع وسائل الدعوة كالصحافة والأدب والراديو والتمثيل والسينما وغيرها مما تلمس أثره في تكوين الرأي العام وتوجيهه وتثقيفه

وتبدو هذه الهيئات المحدثة للدعاية كأنها بدعة في النظم الجديدة، وكأنها ابتكار لم يسبق مثوله في غيرها، وقد بلغت في بعض الدول مرتبة الوزارة الخاصة، وأضحت من دعامات الحكم الجديد التي يحسب حسابها في حشد الرأي العام وفي توجيه حيثما شاءت السياسة العليا. بيد أنا سنرى في هذا الفصل أن تنظيم الدعاية الرسمية على هذا النحو ليس ابتكاراً جديداً، ولم تنفرد به تلك الدول والنظم التي تفاخر به وتعتمد عليه، وأنه قد عرف في الدول الإسلامية قبل ألف عام، واتخذ كما يتخذ اليوم أداة قوية لغزو الأذهان وتوجيه رأي الكافة، وكان دعامة من دعائم الحكم والخلافة أجل عرفت الدولة الإسلامية قيمة الدعاية ولجأت في مختلف الظروف والحوادث لتحقيق غايات الدين والسياسة: بيد أنها لم تدمج في هيئة خاصة، ولم تنظم أصولها ووسائلها بصورة رسمية إلا في الدولة الفاطمية. ففي ظل هذه الدولة القوية المدهشة نجد الدعوة تتخذ وسيلة من أنفذ الوسائل لحشد الأولياء والكافة وتوضع لها نظم هي آية الطرافة والبراعة،

ونجد هذه الهيئة الرسمية التي تضطلع بهذه المهمة الخطيرة ترتفع إلى مرتبة الوزارة، فتجعل الخلافة الفاطمية منها سياجاً منيعاً لإمامتها وزعامتها الدينية

لما استقر الفاطميون بمصر وغدت مصر منزلهم ومثوى ملكهم ودولتهم شعرت الخلافة الفاطمية بالحاجة إلى مضاعفة جهودها المذهبية، ذلك أنها لم تجد في مصر كما وجدت في قفار المغرب الساذجة مهداً خصباً لدعوتها، بل ألفت في مصر مجتمعاً متمدناً عركته الأحداث الدينية والسياسية والفكرية؛ ولم يكن اعتماد الخلافة الفاطمية في بث دعوتها على سلاح التشريع قدر اعتمادها على الدعاية السرية، وغزو الأذهان بطريقة منظمة، لأنه إذا كان التشريع وسيلة لسيادة الكافة وتحقيق الطاعة الظاهرة فإن الدعاية المنظمة هي خير الوسائل لغزو الأذهان المستنيرة وحشدها لتأييد الدعوة

المنشودة. وقد كانت الدعوة السرية أنفذ وسائل الفاطميين إلى تبوء الملك، فلما جنوا ثمار ظفرهم الأولى، كانت الدعوة السرية وسيلتهم إلى حمايتها وتدعيمها، فكان لهم دعاة في سائر الأقطار الاسلامية؛ وكانت مصر منزل ملكهم وخلافتهم منبر هذه الدعوة ومركزها ومجمعها، تنساب منه إلى جنبات الإمبراطورية الفاطمية الشاسعة والى سائر الأقطار الإسلامية الأخرى

وكانت هذه الدعوة المذهبية تتخذ منذ البداية صبغة رسمية، ومذ قامت الخلافة الفاطمية بالقاهرة، نراها تنتظم في القصر الفاطمي وتتخذ صورة الدعوة إلى قراءة علوم آل البيت (علوم الشيعة) والتفقه فيها، وكان يقوم بإلقاء هذه الدروس قاضي القضاة وغيره من أكابر العلماء المتضلعين في فقه الشيعة، وكانت تلقى أحياناً في القصر وأحياناً في الجامع الأزهر؛ وينوه المسبحي مؤرخ الدولة الفاطمية بإقبال الكافة على الاستماع لهذه الدروس والجلسات المذهبية فيقول لنا إنه في ربيع الأول سنة 385هـ جلس القاضي محمد بن النعمان بالقصر لقراءة علوم آل البيت على الرسم المعتاد فمات في الزحام أحد عشر رجلاً، فكفنهم العزيز بالله. بيد أن هذه الدعاية المذهبية الظاهرة التي بدأت في صورة الدروس الفقهية المذهبية، وهي دروس كان يطلق عليها مجالس الحكمة، كانت ستاراً لدعوة أخرى بعيدة المدى، كانت تحاط بنوع من التحفظ والتكتم) هي الدعوة الفاطمية السرية التي كانت الخلافة الفاطمية تجد في بثها وسيلة لغزو الأذهان المستنيرة وحشدها في حظيرتها المذهبية، الدينية والسياسية؛ وكان من عناية الخلافة الفاطمية بتنظيم هذه الدعوة وبثها أن أنشأت لها خطة دينية تضارع في المرتبة والأهمية خطة الوزارة ذاتها؛ وكان هذا المنصب الخطير من أغرب الخطط الدينية التي أنشأتها الدولة الفاطمية وانفردت بها؛ وكان متوليه ينعت بداعي الدعاة وهو أيضاً من أغرب الشخصيات الرسمية التي خلقتها الدولة الفاطمية؛ وكان داعي الدعاة يلي قاضي القضاة في الرتبة ويتزيا بزيه ويتمتع بمثل امتيازاته، وينتخب من بين أكابر فقهاء الشيعة المتضلعين في العلوم الدينية وفي أسرار الدعوة ويعاونه في مهمته اثنا عشر نقيباً وعدة كبيرة من النواب يمثلون في سائر النواحي؛ وكانت هذه الدروس والمحاضرات الخاصة التي يشرف عليها داعي الدعاة، تلقى بعد مراجعة الخليفة وموافقته في إيوان القصر الكبير؛ وتعقد للنساء مجالس خاصة بمركز الداعي بالقصر، وهو المسمى (بالمحول)، وكان من أعظم الأبنية وأوسعها فإذا انتهت القراءة أقبل الأولياء والمؤمنون على الداعي فيمسح على رؤوسهم بعلامة الخليفة ويأخذ العهد على الراغبين في دخول المذهب، ويؤدي له النجوى من استطاع، وهي رسم اختياري صغير يجبى من المؤمنين للإنفاق على الدعوة والدعاة، وكانت ثمة مجالس أخرى تعقد بالقصر أيضاً لبعض الهيئات والطبقات الممتازة من أولياء المذهب - ورجال الدولة والقصر - ونساء الحرم والخاص، ويسودها التحفظ والتكتم، ويحظر شهودها على الكافة؛ وتعرض فيها الدعوة الفاطمية على يد دعاة تفقهوا في درسها وعرضها؛ وكان تلقين هذه الدعوة، هو أخطر مهمة يقوم بها الدعاة، بل كان في الواقع أهم غاية يراد تحقيقها؛ وكان للكافة أيضاً نصيب من تلك المجالس الشهيرة، فيعقد للرجال مجلس بالقصر، ويعقد للنساء مجلس بالجامع الأزهر ويعقد مجلس للأجانب الراغبين في تلقي الدعوة؛ وكان الداعي يشرف على هذه المجالس جميعاً إما بنفسه أو بواسطة نقبائه ونوابه، وكانت الدعوة تنظم وترتب طبقاً لمستوى الطبقات والأذهان فلا يتلقى الكافة منها سوى مبادئها وأصولها العامة، ويرتفع الدعاة بالخاصة والمستنيرين إلى مراتبها وأسرارها العليا

وقد انتهت إلينا وثيقة رسمية هامة هي سجل فاطمي بإقامة داعي الدعاة، وبيان مهمته واختصاصاته وما يجب عليه اتباعه لإذاعة الدعوة، وقد جاء فيه بعد الديباجة شرحاً لمقاصد الدعوة ما يأتي: (وإن أمير المؤمنين بما منحه الله تعالى من شرف الحكمة، وأورثه من منصب الإمامة والأئمة، وفوض إليه من التوقيف على حدود الدين وتبصير من اعتصم

بحبله من المؤمنين، وتنوير بصائر من استمسك بعروته من المستجيبين، يعلن بإقامة الدعوة الهادية بين أوليائه، وسبوغ ظلها على أشياعه وخلصائه، وتغذية أفهامهم بلبانها، وإرهاف عقولهم ببيانها، وتهذيب أفكارهم بلطائفها، وإنقاذهم من حيرة الشكوك بمعارفها، وتوفيقهم من علومها على ما يلحب لهم سبل الرضوان، ويفضي بهم روح

(. . .الجنان وريح الحنان، والخلود السرمدي في جوار الجواد المنان
ومنها في شرح واجبات الداعي وطرق تلقين الدعوة: (وخذ العهد على كل مستجيب راغب، وشد العقد على كل منقاد ظاهر، ممن يظهر لك إخلاصه ويقينه، ويصح عندك عفافه ودينه، وحضهم على الوفاء بما تعاهدهم عليه. . . ولا تكره أحداً على متابعتك والدخول في بيعتك. . . ولا تلق الوديعة إلا لحفاظ الودائع. ولا تلقي الحب إلا في مزرعة لا تكدي على الزارع، وتوخ لغرسك أجل المغارس، وتوردهم مشارع ماء الحياة المعين، وتقربهم بقربان المخلصين، وتخرجهم من ظلم الشكوك والشبهات إلى نور البراهين والآيات؛ واتل مجالس الحكم التي تخرج إليك في الحضرة على المؤمنين والمؤمنات، والمستجيبين والمستجيبات، في قصور الخلافة الزاهرة، والمسجد الجامع بالمعزية القاهرة، وصن أسرار الحكم إلا عن أهلها، ولا تبذلها إلا لمستحقها، ولا تكشف للمستضعفين ما يعجزون عن تحمله ولا تستقل أفهامه بتقبله، واجمع من التبصر بين أدلة الشرائع والعقول، ودل على اتصال الممثل بالممنون؛ فإن الظواهر أجسام، والبواطن أشباحها، والبواطن أنفس. والظواهر أرواحها. . .)
وفي هذه العبارات ما يلقي الضياء على غايات السياسة الفاطمية الدينية والمعنوية وعلى وسائلها في غزو الأذهان وحشدها من حولها؛ ومن المعروف أن الخلافة الفاطمية كانت تتخذ الإمامة الدينية شعارها، ومرجع زعامتها الدينية في العالم الإسلامي، وشرعية ملكها السياسي، فالدعوة الفاطمية التي كانت تلقى في مجالس الحكمة إلى الكافة والى الخاصة متدرجة في مراتب من السرية والتحفظ طبقاً لمكانة الأشخاص وأحوالهم الفكرية والاجتماعية، كانت رغم صفتها الدينية، ترمي في النهاية إلى أغراض سياسية؛ ذلك أن الخلافة الفاطمية كانت ترى أن تحشد جمهور أوليائها ومؤيديها عن طريق الدين، ومتى اجتمعوا في ظل الإمامة وتحت لوائها، استطاعت أن تحركهم وأن توجههم وفق مصالحها
وغاياتها، وأن تعتمد على تأييدهم ونصرتهم كلما اقتضت الظروف والأحوال والدول المحدثة التي تعتمد في عصرنا على سلاح الدعاية ترمي إلى مثل هذه الغاية؛ فهي تتوسل بما لديها من أسلحة حديثة لغزو العقول والأذهان كالصحافة والراديو والسينما وغيرها لفرض مذاهبها السياسية والاجتماعية والدينية أحياناً على جمهور الشعب والحصول على تأييده ونصرته. ولم تكن الخلافة الفاطمية، وهي من دول العصور الوسطى، تتمتع بشيء من هذه الوسائل القوية المحدثة، ولكنها مع ذلك استطاعت أن تنظم دعوتها بأساليب ووسائل مدهشة، وأن تجني كثيراً من الثمرات المادية والمعنوية، بل لقد كان قيام الدولة الفاطمية ذاته نتيجة من نتائج الدعوة الفاطمية. وذيوع هذه الدعوة في قبائل إفريقية البربرية هو الذي جمع كلمة القبائل حول عبيد الله المهدي، وهو الذي مهد لقيام الدولة الجديدة
والخلاصة أن فكرة الدعاية التي تتبوأ في النظم السياسية والاجتماعية الحديثة، ولا سيما نظم الطغيان الفاشستية، مكانة خاصة، وتعتبر من أقوى أسلحة الطغيان في عصرنا، ليست جديدة في ذاتها أو غاياتها، وإن كانت جديدة في وسائلها، وقد عرفتها الدول الإسلامية قبل ألف عام، واتخذت على يد الخلافة الفاطمية أذكى وأبرع وأنفذ أساليبها

محمد عبد الله عنان

في الأدب المقارن

الرومانسية والكلاسية في الأدبين العربي والإنجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

ينشأ أدب الأمة المتبدية ساذجاً بسيطاً صريح التعبير قريب المتناول، مطلق السجية في الإعراب عن الشعور الإنساني، وتظل له هذه السمة حيناً، حتى تتحضر الأمة وينتقل الأدب من جو الطبيعة الطلق إلى حياة المدينة. بما تشمل من وسائل الحضارة المادية وأسباب الثقافة الذهنية، فيرتقي الأدب لذلك كله وتتسع جوانبه وتبعد أغواه، بيد أن الحضارة المادية التي توفرها المدينة لساكنيها ولا توفرها الطبيعة للمتبدين، ربما طغت فأفسدت على القوم حياتهم؛ وكذلك الثقافة العقلية التي في ظلها يرتقي الأدب رقياً عظيماً ربما زيفت على الإنسان شعوره، وتعاونت مع تلك الحضارة المادية على إفساد الأدب بتغليب الصنعة والتكلف فيه على الحساس الصادق، وتكبيله بالتقاليد

والأوضاع، وتضييق حدوده وسد آفاقه، وإيلاء الألفاظ فيه المكانة الأولى دون المعاني
إذا بلغ الأدب هذا الطور الصناعي التقليدي انحط ولم يعد يسير إلا من تدهور إلى
تدهور. وصار الأدب المتبدي على سذاجته أرقى منه واصدق، ولم يعد للأدب الذي
غلبت عليه الصناعة من سبيل للنهوض، إلا الرجوع إلى الطبيعة والاقتباس من الأدب
البدوي المرسل الطبع. والاطلاع على آداب الأمم الأخرى التي لم يرهقها التكلف ولم
تفسدها الصنعة، بهذا وحده يتأتى له معاودة الحياة وأن يعود ترجماناً صادقاً مبيناً لها،
وبغير تلك العوامل الخارجية هيهات أن ينهض الأدب العاثر من سقطته، وإنما يزداد
إمعاناً في التكلف السمج جيلاً بعد جيل، وإغراقاً في اختراع كاذب الأخيلة والأحاسيس
ومزجها بألاعيب الألفاظ، والخروج بكل ذلك عن كل ما يسيغه ذوق أو يقبله عقل
فحياة الطبيعة المطلقة في أعنتها، وحياة المدينة ذات الحضارة والثقافة، تتنازعان
الأدب وتؤثر كل منهما فيه تأثيراً خاصاً، ولكل منهما مزايا هي قادرة على إبداعها
الأدب: تمنحه الطبيعة شتى مناظر جمالها وصدق شعورها وبعيد آفاقها ورائع أسرارها
ومخاوفها، وتمنحه المدينة وسائل التفكير العميق والنظر الثاقب والطموح إلى المثل
العليا، وأسباب الإنشاء الأدبي الفني والجهد الأدبي المتصل، والتفنن في ابتكار صور
الأدب وأوضاعه،
والخير كل الخير أن يأخذ الأدب من كلتا الناحيتين بنصيب، والأدب الذي اجتمع له رحب
الطبيعة وحرارة شعورها وجمالها، إلى ثقافة المدينة ووسائل التوفر الأدبي فيها، أدب
لا شك بالغ من الرقي غاياته؛ أما الدب المتبدي فيظل على صدقه وجماله قاصراً
ساذجاً، وأما أدب المدينة الذي بلغ في الانغمار في جوها وأهمل جانب الطبيعة، فسائر
إلى الفساد والانحلال لا محالة
والرومانسية هي الصفة التي ينعت بها عادة الأدب الذي يؤثر جانب الطبيعة، ويحفل
بمظاهر عبادتها والتأمل في ظواهرها ووصف مشاهدها والسبح في آفاقها، يؤثر كل
ذلك على اللفظ فلا يهتم بهذا إلا بقدر ما يستخرجه في إيضاح أغراضه. وعلى حياة
المدينة فلا تستغرق شؤون السياسة وعلاقة رجاله برجالها ورجال البلاط والحرب كل
جهده والتفاته، ولا يصرفه الحاضر عن الولوع بالماضي والتأمل فيه وفي المستقبل،
ولا ريب إن ذلك لا يعني إهماله لجانب الحضارة والثقافة، بل هو بهما شديد الولوع
ويدرس ماضيهما ومستقبلهما شديد الشغف؛ والكلاسية هي النعت الذي يطلق على
الأدب الذي استغرقته حياة المدينة وشغل بها عن جانب الطبيعة وانغمر فيها رجاله،
في مجتمعها ومنتدياتها ومعاركها السياسية والحزبية والشخصية، وآثر التألق في اللفظ
والشكل الأدبي وكفكف العاطفة فحل محلها الذكاء والبراعة واللباقة، وضيق مجالات
القول وحدد أغراضه، وكل هاتيك صفات ولوازم تعلق بالمجتمع المترف وتنعكس عنه
في الأدب
وقد كانت الصبغة الرومانسية هي الغالبة على الأدب الإغريقي في عهد عظمته، لأنه
ترعرع في مجتمع قريب من البداوة، وفي حياة شديدة النشاط مطردة الحركة،
تجيش بالمغامرة والجلاد، وفي حرية في الفكر والسياسة. أما الأدب اللاتيني فكان
اكثر اصطباغاً بالكلاسية لأنه لم يبلغ ذروته إلا في ظل الملكية المطلقة والإمبراطورية
الموطدة المستقرة. فكان أدب مدينة وثقافة متانقة، واشتهر أعلامه كفرجيل بإحكام
الأسلوب والتشبث بمبادئ وتقاليد أدبية خاصة، وما زالت إلياذة هومير وأنياد فرجيل
موضوع مقابلة من هذه الناحية. وكان أدباء الإنكليزية اكثر احتفالاً باللانينيين وإقتداء بهم
في العصر الكلاسي في الأدب الإنكليزي، كما كانوا في عهده الرومانسي أميل إلى
اليونان واكثر تغنياً بآثارهم، وبعدم اطلاع الأدب العربي على الأدب اليوناني فقد هذا
العصر الرومانسي الذي اصبح في حاجة
إليه، حين انتقل إلى المدينة وشغل بآثار الحضارة والثقافة
وقد كانت الرومانسية هي الصفة الغالبة على الأدب الإنكليزي في العصر الإليزابيثي؛
ففي ذلك العهد كانت البساطة والخشونة تسودان المجتمع والبلاط؛ والحركة والنشاط
والتطلع تتجلى في شتى نواحي الحياة: في العلم والأدب والكشف والمخاطرة
والحرب. كان عهد نهضة تتحفز وتستشرف إلى الجديد وترمي إلى التوسع، لا تقنع
بالقليل الحاضر ولا تقبل القيود والحدود؛ وزمن شباب يولع بالقوة والجلاد ويبرم بالأنيار
والأقياد، فهو لا يرضاها في الأدب؛ ومن ثم جاء أدب ذلك العصر غزير المادة متلاطم

العباب مترامي الأفاق، جياشاً بشتى العواطف والمعاني، حافلاً بمختلف الأوضاع الأدبية والمذاهب الفنية، لم يتقيد رجاله بتقاليد فنية غير معقولة: فعلى حين تقيد أدباء الفرنسية بالوحدات الثلاث التي أثرت عن الدرامة الإغريقية، انتفع الأدب الإنكليزي بخير ما في تلك الدرامة وضرب بتلك الوحدات عرض الحائط؛ ولم يتقيد بألفاظ خاصة في الشعر، مما اصبح فيما بعد يسمى (الألفاظ الشعرية) بل زاد على استعمال كل ما في لغة الكتب أن اقتبس من لغة العامة واصطنع بعض ألفاظ اللغات الأجنبية، واشتق ما راقه من ألفاظ. واخرج هذا العصر الحافل كبير شعراء الإنكليزية شكسبير، وانجب بجانبه أحد كبراء شعرائها سبنسر، وامتد هذا العصر حتى انتهى بظهور علم ثالث من أعلامها هو ملتون

تصرم ذلك العهد المملوء بالحرية والنشاط والجرأة والفتوة، وتلاه عصر كلاسي طويل، بين أواخر القرن السابع عشر وأواخر القرن الذي يليه، خمدت فيه روح المغامرة والتطلع التي كانت متنبهة في عصر إليزابيث، واستراح الناس إلى حياة المدينة ومنتدياتها، وانغمر الأدباء في المعارك الأدبية فيما بينهم، فكان نزاع بين كل من دريدن وأديسون وستيل وديفو وسويفت ومعاصريهم، محتدم حيناً ومترفق حيناً، ومعلن تارة ومستتر أخرى؛ وانغمروا كذلك في المشادات السياسية وانضووا تحت ألوية الأحزاب، وشجعهم رجال تلك الأحزاب على الانخراط في سلوكهم والذود عن مبادئهم بأقلامهم، فكان سويفت في صف المحافظين، وادسون في جانب الأحرار، وكان ستيل يختلف من هؤلاء إلى أولئك. وخلا أدب ذلك العصر أو كاد من ذكر الطبيعة ومجاليها، وحتى أولئك الأدباء الذين كانوا يرحلون إلى الأقطار الأجنبية، لم تكن تحرك نفوسهم مناظرها الجديدة، فكانوا يتناولون في رسائلهم إلى أصدقائهم في الوطن شتى المواضيع ماعداها. واهتم أدباء ذلك العهد باللفظ كل اهتمام وقدموه صراحة على المعنى، وجعلوا للشعر ألفاظاً لا يتعداها ومواضيع لا يتخطاها، واتخذوا للشعر وزناً واحداً مزدوج القافية لم يكد أحد ينظم في سواه، وقلدوا الأقدمين من أدباء الإغريقية واللاتينية ونقادهما. وانصاعوا لمبادئهم انصياعاً أعمى؛ وبهذا كله ضاقت حدود الأدب ضيقاً شديداً، وأرهقه التكلف وفدحته القيود، فسار إلى الانحلال

وزعيم هذا المذهب الكلاسي الذي بلغ اوجه على يديه هو بوب الذي نال الغاية من إحكام اللفظ، وقد قال عنه بعض مترجميه إن شعره ليس إلا نثراً جيد النظم، وذلك حق: فهو يتناول في شعره مواضيع هي أقرب إلى النثر وأبعد عن الخيال والشاعرية؛ وكان يسمي بعض قصائده (مقالات) ومنها مقالته في النقد التي نظم فيها مبادئ المذهب الكلاسي في الأدب ونقده، فظلت مرجعاً لمن تلاه من شعراء المذهب، ومنها يقول: (تعلم إذن التقدير الحق لمبادئ الأقدمين، فمحاكاتها هي محاكاة للطبيعة، فتلك المبادئ القديمة - التي إنما اكتشفت ولم تخترع - إن هي إلا الطبيعة؛ غير أنها الطبيعة منظمة مهذبة)، وقد ترجم بوب إلياذة هوميروس ترجمة قدسها معاصروه، ولكنها قلما تذكر الآن أو يعتمد عليها أو تعد صورة صحيحة لشعر هوميروس، إذ كان من المستحيل على أديب مشبع بالروح الكلاسي أن يخلص إلى روح الشاعر الإغريقي الرومانسي؛ ثم دبت في المجتمع الإنجليزي روح جديدة، وانتعش الأدب الإنجليزي من خموله باطلاعه على آداب الأمم الأخرى الناهضة كالأدب الألماني، والعودة إلى صدر الطبيعة الرحب الحافل بالأسرار والحياة والوحي. تمخض كل ذلك في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل الذي يليه عن نهضة رومانسية جديدة فكت الأدب من عقاله ونبهت الشعر من غفوته، ورحبت آفاقه وبسطت جوانبه، وسبحت به في آماد الكون والطبيعة والإنسانية، وأنجبت هذه النهضة جمهرة أخرى من أفذاذ الأدب الإنجليزي؛ أنجبت وردزورث وبليك وكولردج، ثم بيرون وشلي وكيتس، ثم تنيسوت وبراوننج، عدا من أخرجت من أفذاذ النثر الذين جاء نثرهم حافلاً بمظاهر النهضة الجديدة؛ ولا غرو: ففي العهود الرومانسية يتجلى الروح الشعري حتى في النثر، وفي العصور الكلاسية يفيض الروح الشعري حتى في النظم؛ وما تزال تلك النزعة الرومانسية ملحوظة في الأدب الإنجليزي، على ما داخله من نزعة واقعية. وإقبال على درس مسائل المجتمع كافة

والعصر الرومانسي في الأدب العربي هو ولا شك عصر الجاهلية والعهد الراشدي

وصدر العصر الأموي: في تلك العهود وكان المجتمع العربي أدنى إلى البساطة والتبدي، وكان الأدب مرسل السجية صادق التعبير عن خلجات النفوس: من حزن وطرب ولذة وألم، وحب وبغض وحماسة ووصف، خالياً في أكثر نواحيه من مظاهر التكلف اللفظي أو التعمل في المعنى أو التصنع في الموضوع. وما تزال لحكم بعض الأعراب والأعرابيات ومراثيهم، وحماسيات قطري بن الفجاءة وغزليات جميل وقيس، روعة في النفوس وغبطة شاملة، لصدورها عن طبع سليم وشعور صميم؛ هذا على رغم بساطة ذلك الأدب وخلوه من مظاهر التثقف والتعمق في التفكير

تجرم ذلك العصر بطول عهد العرب بالحضارة والثقافة، ومهدت حضارة المدينة وثقافتها من أسباب القول ودواعي النظم ووسائل التفنن الأدبي ما لم يتوفر في البادية، فنشأ من ذلك أدب جديد يفوق أدب العصر السالف تعدد مواضع وعمق نظرة ووفرة محصول، وتجلى ذلك في خير آثار ابن الرومي والطائي والمتنبي والمعري، والجاحظ والبديع والجرجاني وأضرابهم. على أن الأدب في طوره هذا انغمر في جو المدينة انغماراً تاماً، فكان هذا عهداً كلاسياً صميماً: فيه تزايد ولوع الأدباء تدريجاً باللفظ. واحتفاؤهم به، ثم استعبادهم أنفسهم له وللأوضاع والمبادئ الموروثة عن المتقدمين. وضاقت مواضيع القول رويداً رويداً وكبلها التكلف والإغراب، وتجمع الأدباء حول موائد الأمراء ورجال السياسة والحكم والحرب، وخاضوا غمار مشاحناتهم، وتشاحنوا هم أنفسهم فيما بينهم، وهي مشاحنات تذكرنا بحملات سويفت ودريدن على الوزراء والقواد في عصرهما، وحملاتهما على غيرهما من الأدباء، فمن هجاء الوزراء قول دعبل في وزير المأمون:

أولي الأمور بضيعة وفساد ... أمر يدبره أبو عباد

يسطو على جلاسه بدواته ... فمضمخ بدم ونضح مداد

ومن تهاجي الشعراء قول ابن الرومي في البحتري:

أف لأشياء يأتي البحتري بها ... من شعره الغث بعد الكد والتعب

البحتري ذنوب الوجه نعرفه ... وما عهدنا ذنوب الوجه ذا أدب

وقول المتنبي في معاصريه:

أفي كل يوم تحت ضبني شويعر ... ضعيف يقاويني، قصير يطاول؟

وكم جاهل بي وهو يجهل جهله ... ويجهل علمي أنه بي جاهل

وفي ذلك العصر الكلاسي الطويل أعرض الشعراء إعراضاً يكاد يكون تاماً عن الطبيعة وحديثها ومجاليها، وأقبلوا على حياة المدينة أي إقبال. وما منهم من له عمل أبعد من أن ينال النجاح فيما تهيئه لأبنائها من أسباب اللذة والمتعة والشهرة، فكان منهم طامح إلى الملك كالمتنبي والشريف الرضي، وحريص على الوزارة كالصاحب وابن العميد، وراغب في الولاية حظي بها كالطائي وقصر عنها كابن الرومي، ومغتبط بالحظرة والمنادمة كأبي العتاهية والبحتري، وغير هؤلاء وأولئك ممن سعوا سعيهم ولم ينالوا مثل شهرتهم؛ وممن طمحوا فيما هو دون ذلك من متعات الحياة. ونظير ذلك كله تراه في العصر الكلاسي الإنجليزي سالف الذكر: فقد تقلب دريدن بين الأحزاب وحرص على الحظوة في البلاط. وتدرج أديسون في المناصب حتى صار وزيراً للخارجية، ولم يقنع سويفت بما تولى من مناصب في الكنسية، وكان إخفاقه في مطامعه البعيدة أحد أسباب نقمته وتشاؤمه

وتجلت هذه الصفة الكلاسية في الأدب ذاته: حددت مواضيعه وقصرت على ما اتصل بالحاضر القريب من شؤون الحياة في المدينة، وأهملت المواضع الرومانسية الصبغة، كالالتفات إلى الماضي واستعراض حوادثه الطريفة واتخاذها مادة للنظم والنثر، ومعالجة خرافاته واستلهامها ما بها من معاني الجمال والعظمة والبطولة، وأهملت أحاديث الرحلات وأوصاف البلاد البعيدة والأصقاع المجهولة، ما وجد منها في الحقيقة وما يتخيله الشاعر، وكفكف الخيال ونبذت آثاره من عالم الأدب.

خلا الأدب العربي في ذلك العهد من كل هذه المواضيع، وهي من صميم الشعر ولباب الفن وجوهر الأدب إذا ما تحضر أهلوه وانتفعوا بالثقافة، وإنما تركت هذه المواضيع الجليلة للأدب العامي، فظل الأدب الفصيح أدباً كلاسياً وصار الأدب العامي هو الممثل للرومانسية

دام ذلك العصر الكلاسي الطويل في الأدب العربي طوال عهد ارتقاء الأدب، أي زهاء

ثلاثة قرون، ثم طوال عهد انحطاطه أي إلى العصر الحديث، لم تعقبه خلال تلك الأجيال المتوالية نهضة رومانسية تخفف من غلوائه وتصلح من فساده، وتقيم ما اعوج من مبادئه
الأدبية، وتعود به إلى الطبيعة التي هجرها واستغرق في النوم في أحضان المدينة: لم تنبعث فيه تلك النهضة التي انبعثت في الأدب الإنجليزي في أعقاب القرن الثامن عشر، حين بلغ العهد الكلاسي مداه من التحكم في أساليب الأدب. وبلغ الأدب الدرك من الإسفاف والأمحال؛ ذلك لأن الأدب العربي كانت تعوزه تلك العوامل التي تساعد على النهضة وتعاون على الرجوع إلى الطبيعة وتنبت الميل الرومانسي، فكان استمرار النزعة الكلاسية المحتدمة في الأدب اكبر أسباب تدهوره الطويل.
فالأدب العربي لم يكن على اتصال بآداب أجنبية فيأخذ عنها حب الطبيعة وإيثار البساطة، ويلتفت باطلاعه عليها إلى حقائق الحياة الكثيرة التي أهملها، وهو لم يكن يتنازل فيتصل بآداب العامة وأقاصيص الزراع والرعاة، التي تنسم فيها نسائم الطبيعة والبساطة والشعور الصميم، وهو لم يكن يرجع إلى ماضيه الرومانسي الذي سبقت الإشارة إليه، فينظر فيه نظرة حرة مميزة، تستخلص اللباب وتنظر من خلاله إلى حقائق الحياة، إنما يرجع إليه طلباً للأسلوب واللفظ، دون المعنى والموضوع، كان يعده كنز لغة فصيحة الأساليب والألفاظ لا كنز حقائق منتزعة من الحياة الصميمة. فإذا نظر إلى المعاني حاول حكايتها وتقليدها تقليداً كاملاً على ما هي عليه، أي حاول الأديب أن يحيا في أدبه حياة البدو ويشعرهم بشعورهم كله، وكان الأجدر أن ينبذ ذلك جميعاً، ولا يهتم إلا بصدق تعبير أولئك المتقدمين عن شعورهم، ووجوب صدقه في تعبيره عن شعوره الصحيح، في عصره وحياته المخالفين لما كان قبله
ظل هذا المذهب الكلاسي التقليدي سائداً الأدب العربي، يقلد المتأخر المتقدم ويزيد عليه تقييداً وتضييقاً في مجالات القول وأوضاعه، مادام الأدب محجوباً عن غيره من الآداب بعيداً عما جهله أو تجاهله من حقائق الحياة والأدب، حتى أتيح له الاتصال بالآداب الغربية في العصر الحديث، فصحا من غفوته ونفض عنه تدريجاً غبار التقليد والتقييد اللفظي والمعنوي، وفتن بحقائق الكون ومحاسن الطبيعة التي كان عنها في شغل، وتناول شتى المواضيع التي كان حرمها على نفسه، وبالجملة تقشع عنه عصره الكلاسي الطويل، وأشرق عليه فجر نهضة رومانسية جديدة

فخري أبو السعود

فوائد قياس الذكاء في التربية

للأستاذ علي محمد فهمي

مدرس التربية التجريبية المساعد بمعهد التربية

تقدم قياس الذكاء منذ الحرب العظمى فذاع استعمال المقاييس في المدارس حتى أصبحت ضرورية لكل مدرسة تعنى بجعل التعليم ملائماً للأطفال. وهذه هي أهم فوائد مقاييس الذكاء والتي لها أثر في تعليم الأطفال وإرشادهم: -

أولاً - قياس الذكاء والتعليم المدرسي

تعالج عيوب الامتحانات القديمة بجعلها موضوعية بواسطة المقاييس الدراسية التي تعتبر أحسن وسيلة لقياس معلومات الطلبة وما يحصلونه من العلم والمعرفة. ومقدار التحصيل المدرسي هذا يتوقف إلى حد كبير على الذكاء، يدلنا على ذلك التجربة التي أجراها الأستاذ سيرل برت على 689 طالباً تتراوح أعمارهم بين السابعة والرابعة عشرة لإثبات العلاقة بين الذكاء والتحصيل المدرسي فوجد أن معامل الارتباط بينهما 74 في المائة؛ وهذا معامل عال جداً يدل على شدة الاتصال بين الذكاء والتحصيل. ومن هذا كانت معرفة ذكاء التلميذ من الأمور التي تساعد المختبر على تفهم أسباب تقدمه وتأخره. فإذا فرضنا أن تلميذاً ضعيفاً في دروسه فإن قياس ذكائه يبين لنا إذا كان ضعفه نتيجة غباوة طبيعية أو نتيجة عوامل أخرى كإهمال التلميذ أو عدم ميله للدروس أو عدم ملاءمة البيئة المنزلية للدراسة. الخ
ولأهمية مقاييس الذكاء وضرورتها تستعمل بدل الامتحانات القديمة في بعض الأحيان وتساعد الامتحانات الجديدة في بعض الأحيان الأخرى، وعلى هذا نجد أن مقاييس الذكاء والمقاييس الدراسية يكمل كل منهما الآخر. من أجل ذلك يتحتم على من يريد قياس التلميذ قياساً مضبوطاً ألا يكتفي بقياسه بالاختبار الدراسي فقط بل يقيسه أيضاً

باختبار الذكاء ويبني حكمه على نتيجة هذين الاختبارين فيتعرف أولاً ميول الطفل الطبيعية ثم يقيس ثانياً ما اكتسبه هذا الطفل عن طريق هذه المواهب
على أنه ليس من الضروري أن نقيس ذكاء الطفل في كل مرة نقيس فيها تحصيله الدراسي، بل يكفي أن نقيسه عند أول عهده بكل مدرسة يلتحق بها فتساعدنا هذه المعرفة على الحكم عليه.
ولقد استعاضت بعض كليات الجامعات عن امتحانات القبول باختبارات الذكاء فتستعمل الآن كلية كولومبيا اختبار ثورنديك بدل امتحان القبول الذي كانت تعقده في أول كل عام دراسي للطلبة الذين يرغبون الالتحاق بالكلية. ولقد نجحت هذه الطريقة نجاحاً كبيراً يدل على ذلك ما قاله الأستاذ هوكس عميد الكلية من أن الطريقة الجديدة (تبين بوضوح ودقة أعظم مما عهدناه في أية طريقة أخرى ما إذا كان الطالب سينجح في جامعة كولومبيا أم لا)
ثانياً - التوجيه التعليمي
يرجع ازدياد نسبة فشل الطلبة في الامتحانات لعدة أسباب منها عدم ملاءمة الدراسة لكل الأفراد، إذ أن ما يلائم شخصاً لا يلائم الآخر، ولقد دعت نفس هذه الفكرة في البلاد الأوروبية والأمريكية إلى امتحانات التحصيل المقننة واختبارات الذكاء إذ يمكن من نتائج هذه الاختبارات الحكم على ملاءمة الدراسة للتلميذ أو تغييرها ثم إدماجه في دراسة أخرى أكثر موافقة لمواهبه الطبيعية
وليس هناك شك كما قلنا في أنه يوجد ارتباط وثيق بين مقدار تحصيل الطفل الدراسي وذكائه، فالطفل الذكي هو الذي يستمر في دراسته بنجاح مطرد، بينما الطفل الغبي هو الذي يفشل فيها، ويرجع هذا الارتباط إلى أن الدراسة في الفرق العليا تحتاج لدرجة ذكاء عالية، وهذا مما يجعل الأغبياء في الغالب يقفون عند حد لا يتعدونه مهما حاولوا التغلب وبذلوا من جهد. ولقد قدر الأستاذ ترمان بأن الذين يقل مستوى ذكائهم عن 80 في المائة لا يتمكنون من أن يدرسوا بعد الدراسة الابتدائية، فإذا ما انتقلت هذه الفئة إلى دراسة تحتاج لمستوى ذكاء اكبر من هذا المستوى تكرر فشلهم، وعلى هذا يجب أن يوجهوا إلى دراسات أخرى، وهذا هو السر في بعض حالات لا يتيسر لسوى المشتغلين بالذكاء أن يكشفوها. فكم من طالب مثلاً كان في دراسته الابتدائية ناجحاً لا يفشل في سنة من سنيه الدراسية حتى يعتقد والداه والمتصلون به أنه ذكي، ومثل هذا الصنف من الطلبة إذا ذهب إلى المدارس الثانوية وجد صعوبات كثيرة في الدراسة خصوصاً الدروس المجردة والتي تحتاج إلى تفكير عميق كالجبر والرياضة. الخ إذ في الغالب تتطلب هذه المواد ذكاء اكبر من ذكائه فيتكرر رسوبه ووالداه من ذلك في دهشة، ولكن الاختبارات كفيلة ببيان السر في ذلك
وقد أجرى الأستاذ ترمان اختباراته الكثيرة لتعيين المستويات التي تتطلبها الدراسات المختلفة فوجد أن الدراسة الثانوية تحتاج لنسبة ذكاء لا تقل عن 90 في المائة أما لدراسة العليا فتحتاج إلى نسبة ذكاء لا قل عن 100 % وهناك تقسيم أدق من هذا للأستاذ إسماعيل القباني؛ فمن تتراوح نسبة ذكائهم بين 70 و80 يتأخرون في دراسة التعليم الابتدائي ولا يمكنهم إتمام الدراسة الثانوية، وما بين 80، 90 يمرون في الدراسة الابتدائية في مدة أقل من الفريق الأول ويرجح ألا يمروا في الدراسة الثانوية، وما بين 90 و110 عاديون يتممون الدراسة الابتدائية بسهولة ويستطيعون أن يمروا في الثانوي بصعوبة، وما بين 110 - 120 يمرون في الدراسة الثانوية بسهولة، ومن 120 فأكثر يسهل عليهم الدراسة العليا.
ثالثاً - التوجيه المهني
يجب أن نميز بين الاختبار المهني والتوجيه المهني، فالأول هو اختبار الشخص المناسب لمهنة ما والتوجيه المهني هو اختبار المهنة المناسبة لشخص ما أو هو تسيير الشباب بنين وبنات نحو المهنة التي تتفق أكثر ما يكون ومؤهلاتهم الفطرية، وأهمية هذا التوجيه في تقدم البلاد وإسعادها لا تنكر. وليس معنى التوجيه في المهنة أنه يبدأ عند انتهاء التلاميذ من دراستهم، إذ أن الإرشاد التعليمي هو أول خطوة للتوجيه المهني كما أن ما ينادي به علماء العصر الحاضر هو تدريب الطالب على المهنة التي سيزاولها في المستقبل أثناء مدة الدراسة

قيمة التوجيه المهني والفائدة من وضع الفرد في العمل الذي يليق به وبمواهبه الطبيعية لا تقتصر على الفرد نفسه بل تعود عليه وعلى الأمة بالنفع الجزيل، وإن الحاجة للتوجيه المهني أصبحت حاجة العصر الحديث بعد الاختراعات الحديثة وانتشار الصناعة التي تتطلب الآن صفات خاصة

كيف نقوم بالتوجيه المهني: تختلف المهن من حيث ما تتطلبه من ذكاء كما دلت على ذلك الأبحاث الحديثة فيقسمها الأستاذ ترمان إلى ثلاثة أقسام: (1) مهن تحتاج لمقدار كبير من الذكاء (2) مهن تحتاج لذكاء متوسط (3) مهن لا تحتاج لذكاء. ومن الأبحاث القيمة التي

تهمنا في هذا الموضوع بحث فقد أوجد العلاقة بين مراتب الذكاء المختلفة والمهن المتعددة وقال إن النجاح في مهنة ما لا يتيسر لكل شخص إذا كان الذكاء دون المستوى المعين. ومن هذا يتبين قيمة التوجيه المهني وكيف أنه يعمل لمصلحة الفرد والمجتمع في آن واحد. ولقد اهتم بإيجاد مستويات الذكاء للمهن المختلفة كثير من العلماء. ولقد ذكر الأستاذ ترمان أنه يجب ألا يشجع أي شخص إذا كانت درجة ذكائه أقل من 100 لأن يمتهن مهنة من المهن الراقية التي ذكرها وهي تشمل الأطباء وقادة الرأي والمربين والمهندسين وأصحاب المشروعات والكتاب. فالنجاح في مثل هذه المهن لا يمكن أن يحصل عليه إلا من كانت درجة ذكائهم أعلى من 115 - 125 ولقد أجرى الأستاذ فلاندر عدة تجارب استخلص منها أن من كان ذكاؤهم يتراوح بين 70 و 80 يمكنهم أن يتخذوا الأعمال الآلية مهنة لهم؛ فعلاقة الذكاء بالتوجيه المهني حينئذ تقع في تحديد مستوى الذكاء المهني الذي يمكن الفرد من النجاح. وهكذا نجد أن اختبارات الذكاء تفيد في تحديد العمل الذي يمكن أن يؤديه الشخص على أحسن ما يمكن. على أن هناك أشياء أخرى يجب دراستها لتوجيه الفرد توجيهاً مهنياً وهي: (1) القدرات الخاصة (2) التحصيل المدرسي (3) البيئة المنزلية (4) الميول والمزاج (5) الصحة والقدرات الجسمية (من حيث القوة والسرعة والدقة)

رابعاً - تقسيم التلاميذ إلى فرق وفصول

يقسم بعض نظار المدارس في مصر التلاميذ إلى فصول مراعياً ترتيب أسمائهم حسب ترتيب الحروف الأبجدية، ويراعي البعض الآخر أجسام التلاميذ ويرتبهم حسب أطوالهم فيضع الصغار في فصول والكبار في أخرى، ويقسمهم البعض الآخر حسب ترتيب أعمارهم الزمنية. وقد ظهر فساد هذه الطرق بعد أن قسنا ذكاء عدد كبير من التلاميذ وتبين لنا أن القوة العقلية لبعض التلاميذ في فصل من فصول السنة الثانية الابتدائية كانت تعادل قوة التلميذ المتوسط الذي عمره 13 سنة في حين أن القوة العقلية لتلاميذ آخرين أقل من قوة الطفل الذي عمره 7 سنين. وفي فصل من فصول السنة الثالثة بمدرسة أخرى وجدنا تلاميذ تعادل قوتهم قوة الطفل المتوسط من سن 8 سنوات وآخرين قوتهم العقلية تزيد على قوة التلميذ المتوسط من سن 14 سنة وهكذا في سائر الفصول

ولا يخفى ما في هذا من الأثر السيئ على كل من التلاميذ الأذكياء والأغبياء الذين يضطرهم اجتماعهم في فصل واحد إلى السير إما حسب سرعة الأول ومقدرته فيعجز الأغبياء عن متابعتهم، وإن أجهدوا أنفسهم فلن يستمروا في ذلك طويلاً حتى يضنيهم الإجهاد فتثبط هممهم؛ وإما حسب سرعة الآخرين ومقدرتهم فلا يجد الأذكياء ما يستعملون فيه قواهم العقلية فتثبط هممهم أيضاً، والنزعة الحديثة في التربية تميل إلى جعل المدرسة ملائمة لعقول التلاميذ وكفايتهم فلا يصح أن يجمع في الفصل الواحد تلاميذ أقوياء ومتوسطون وضعاف إذ يلزم أن يكون تلاميذ الفرقة متجانسين حتى يمكنهم أن يقوموا بعمل مجد. وعلى ذلك فخير طريقة لتقسيم التلاميذ إلى فصول أن نقسمهم حسب نسبة ذكائهم: فنقسم التلاميذ إلى قسمين أو أكثر حسب العمر الزمني ثم نقسم كل قسم إلى فصول حسب العمر العقلي، فمن كان عمرهم العقلي متقارباً وضعوا في فرقة واحدة. فإذا عملنا بهذا نقصت نسبة الرسوب في الامتحانات إلى أدنى حد، وبذلك نقضي على أهم عوامل الشكوى. هذا ولنلاحظ أن تقسيم الطلبة إلى فصول مهم جداً في القسم الابتدائي، وتقل أهميته في الثانوية، وهو غير مهم في القسم العالي، وإن كانت نسبة الذكاء شرطاً هاماً في الدخول. ويتخذ التقسيم في القسم العالي حسب الملكات الخاصة.

خامساً - انتقاء ضعفاء العقول
واضح من الأبحاث السيكولوجية أنه إذا اختبرنا ذكاء عدد من الأشخاص نجد ثلاثة أرباع هذا العدد يقع تقريباً في وسط المنحنى العادي ويتوزع الباقي على الجانبين، فالذين على الجانب الأيسر من المنحنى هم ضعفاء العقول والذين على الجانب الأيمن هم الأذكياء.
وضعف العقل يقسم إلى ثلاثة أقسام: (1) عته: وعقلية المعتوه عبارة عن عقلية طفل عادي لا تزيد سنه على ثلاث سنوات (2) بله: والأبله عبارة عن شخص وقف نمو نوعه عند سن 7 سنوات (3) موروث: وهم الأفراد الذين وقف نمو مخهم عند سن 12
ويرجع ضعف العقل إلى: (1) عوامل وراثية (2) وعوامل مكتسبة (3) وعوامل خارجية. والوراثة هي أهم العوامل المسببة لضعف العقل. فمثلاً إذا كان الأب أو الأم مجنوناً فليس من الضروري أن يرث الشخص الجنون، بل يجوز أن يرث رذيلة من الرذائل أو ضعف العقل - ولقد استقصى بعض الأخصائيين ما للوراثة من تأثير في أبناء الأسرة الواحدة، فبذل الأستاذ جودار جهداً كبيراً في تتبع حياة أفراد أسرة واحدة هي أسرة كاليكاك. وقد كان
مارتن كاليكاك شاباً سليم العقل من أسرة كبيرة تطوع في الحرب الأهلية الأمريكية، وكان يتردد على حانة تختلف إليها فتاة ضعيفة العقل توددت إليه فحملت منه سفاحاً وولدت له ولداً ضعيف العقل. وفي سنة 1912 استطاع الأستاذ جودار أن ينتهي من عمله فأحصى أفراد هذه الأسرة فبلغ عددهم 480 فرداً جاءوا من ذلك الزواج غير الشرعي. وتتبع أحوالهم فوجد أن معظمهم (99 % منهم) عاهر أو فاسق أو سكير أو لص. على أن تلك الحرب لم تكد تنتهي حتى تزوج مارتن بفتاة أخرى سليمة العقل شريفة النسب، وتتبع الأستاذ جودار 496 شخصاً من أفراد هذه الأسرة فلم يعثر فيها على شخص ضعيف العقل وإنما وجد أن الأسرة كلها مكونة من أطباء ومحامين ومدرسين ومهندسين وتجار وغيرهم ممن لهم يد عاملة في الحياة.
وضعاف العقول هؤلاء يربكون نظام التدريس في المدرسة ويعطلون سير الدراسة، وذلك لأنهم يختلطون في الفرق المختلفة مع العاديين والأذكياء. أما في المجتمع فقد اتضح لنا من نتائج الأبحاث التي قام بها الأستاذ جودار في إصلاحية الأحداث في الولايات المتحدة بأن سبب سلوكهم الشاذ هو كونهم ضعاف العقول. ومن هنا نجد أن ضعاف العقول يهددون كيان المجتمع، ولذلك يجب أن نهتم بأمر تربيتهم حتى تخف وطأتهم؛ وبقياس الذكاء يمكننا فصل هؤلاء في فصول خاصة وتعليمهم تعليماً يتلاءم مع درجة ذكائهم
ونسبة الذكاء هي الأساس السيكولوجي الذي يبني عليه المربي تعليمه لضعفاء العقول، ويجد على المربي الذي يقوم بأمر تربيتهم أن يعين ذكاء كل واحد حتى يستطيع وضع طريقة تتفق مع قدرة كل منهم العقلية، ويستطيع أن يعين الموضوعات التي يمكن أن يتعلمها ضعيف العقل في هذا العمر المعين
ولا يمكن أن يعلم هؤلاء الضعفاء أي عمل يحتاج إلى درجة من الذكاء أعلى من مستواهم. وقد حاول كثير من المدرسين ذلك فلم يستطيعوا. وكذلك فكرة تعليم هؤلاء الضعفاء حتى ترتقي عقليتهم إلى المستوى العادي فكرة خاطئة، ولكن توصل بعض الأطباء إلى إعادة بعض ضعفاء العقول إلى المستوى العادي، وذلك في الحالات التي لا تنتمي إلى ضعف عقلي وراثي، وإنما ترجع إلى وقوف النمو عندهم بعامل من العوامل الخارجية. ومع كل فإن هذه الحالات نادرة جداً، كما أنه لا يمكن للمربي أن يضيف شيئاً إلى نسبة ذكاء
ضعيف العقل وإنما كل ما يستطيعه المربي من تعليم ضعيف العقل هو تكوين عادات خاصة حتى لا يكون شراً ووبالاً على المجتمع؛ وهنا نجد ضرورة تحديد نسبة الذكاء اللازمة لكل عمل أو موضوع يضعه المربي ليتأكد من أن استعداد ضعيف العقل يتمشى مع طبيعة هذا العمل الموضوع له؛ وقد توصل بعض العلماء أخيراً إلى ذلك.
وعلى العموم يجب أن يكون نظام الدراسة في مدارس ضعاف العقول قائماً على اختيار المواد العملية النافعة والتعليم الحسن، أما العلوم التي تستدعي التفكير المجرد النظري، وفهم الرموز فلا فائدة ترجى لهم منها
سادساً - انتقاء التلاميذ الموهوبين

من النوابغ من إذا وضع في فصول عادية نجدهم متأخرين في عملهم الدراسي؛ ويرجع ذلك إلى أسباب كثيرة: منها الكسل مثلاً، أو عدم الاهتمام بالدروس لسهولة المادة وطول الشرح. والواجب يقضي علينا أن نبحث عن هؤلاء النوابغ وندرسهم درساً وافياً حتى يتسنى لنا تربيتهم بطرق تناسب قواهم العقلية وتهيئة الظروف لهم لإيقاظ نواحي النبوغ فيهم وذلك لأنهم هم الأسس التي تبني الأمة عليها مدنيتها، فمن بين الأطفال النوابغ توجد الأرواح الحية الفعالة التي تتولى زمام المدنية وقيادتها فيما بعد، وعلى ذلك فتربية الطفل النابغة يجب أن تفصل عن غيره حتى نتمكن من توجيهه إلى ما فيه خيره وخير المجتمع الذي سيعيش فيه.

ومقاييس الذكاء هي من الاختبارات التي تكشف لنا عن هذه الفئة فلا يختار لفصول الأطفال النوابغ من كان أقل من 140. ويقول الأستاذ هورن إن التلاميذ النوابغ يحنون كثيراً إذا ما ساروا في كل المواضيع إلى مستوى أعمق وبطرق مفصلة أكثر من التلاميذ المتوسطين، فالنابغة لا يقبل الحقائق والمعلومات كما هي وإنما يحاول أن يرجعها إلى أصولها ومسبباتها والى النتائج المشتقة منها كما أنهم يميلون أكثر إلى المواد المعنوية.

وقد كان الرأي السائد أن الموهوب يكون عادة ضعيف الجسم أو عصبي المزاج أو يمتاز بشذوذ في الناحية الخلقية أو العقلية، ولكن الأستاذ ترمان كان أول من خطأ هذا الرأي بإظهاره أن الأطفال الموهوبين لا يقلون عن إخوانهم العاديين سواء أكان في الصحة أم في الحالة العصبية.

علي محمد فهمي

تاريخ الأدب العربي - 16

للأستاذ رينولد نيكلسون

الجاهلية: شعرها وعاداتها ودياناتها

ترجمة حسن حبشي

ومع ذلك فلا يجرؤ شيوخ العشيرة على فرض أوامرهم فرضاً، أو إنزال العقوبات برجالها، إذ كان كل منهم ولي نفسه وسيدها. وله الحق أن يقتص ممن يناله بسوء:

فإن كنْتَ سَيِّدَنَا سُدتنَا ... وإنْ كنْتَ للخَالِ فاذْهَبْ فَخَلْ

ولم يكن معنى الوفاء عند العربي الوثني الخضوع لرؤسائه، ولكن المساعدة الصادقة لمساويه وأنداده، وكان قوي الصلة بفكرة القرابة، وإن القبيلة أو العائلة التي تشتمل على غرباء عاشوا في ظلها، واستظلوا بحمايتها، فإن الذب عن هؤلاء أفراداً أو جماعات من أقدس الواجبات اللازم احترامها. كما كان الشرف يقضي على الرجل منهم أن يقف بجانب قومه فيما جل من أمرها أو حقر

وَهَلْ أنَا إلا مِنْ غزَيَّة إن غوَت ... غَوِيتُ وَإنْ تَرْشُدْ غزَيَّةُ أرْشُدِ؟

كما يقول دريد بن الصمة الذي تابع عشيرته بالرغم من رأيه المصيب في غزوة كلفته رأس أخيه (عبد الله) وإذا نشد رجال القبيلة العون من أقاربهم فسرعان ما يلبى نداؤهم دون اهتمام بقيمة الأمر الذي يقدّمون من أجله المعونة، فإذا أسيء التصرف فيها تحملوا مغبة ذلك طويلاً قبل أن يعودوا إلى مكانتهم السالفة وإن انتفاعهم بالصداقة ليتضح بجلاء من هذه الأبيات التالية:

فَآخِ لِحَالِ السَّلْمِ مَنْ شِئْتَ وَاعْلَمَنْ ... بأنَّ سِوَى مَوْلاكَ في الحرْبِ أجْنَبُ

وَمَوْلاكَ مَوْلاكَ الذِي إن دعوْته ... أجَابَكَ طَوْعاً وَالدِّمَاءُ تَصَبَّبُ

فلاَ تخذُلِ المَوْلى وإنْ كانَ ظالِماً ... فَإنَّ بِهِ تُثأى الأمورُ وترْأبُ

وبالرغم من ذوقهم الجاف، فليس ثمت ما هو أخص في العرب الجاهليين والمسلمين على السواء من روح الفروسية والتضحية بالنفس لنجدة الصديق حتى ولو لم تكن هناك أية فائدة شخصية من وراء هذه التضحية. ويقدم لنا الشعر القديم البراهين الجمة على أنهم كانوا يمقتون نكث العهد الذي اتفق عليه بين التاجر وعميله. أو الضيف ومضيفه، وأدب العرب زاخر بالشواهد الجمة على صدق هذا الفضل. وأقرب مثال إلى ذلك قصة السموأل الذي يضرب به المثل في الوفاء فيقال هو (أوفى من السموأل) أو (وفاء كوفاء السموأل) ويقال إنه كان صاحب الحصن المعروف بالأبلق، واحتفر فيه بئراً عذبة، وكانت العرب تنزل به فيضيفها، وتمتار من حصنه. ويقال إن امرأ القيس لما

سار إلى الشام يريد قيصر نزل على السموأل ومعه أدراع كانت لأبيه ورحل إلى الشام فوجه ملك الحيرة جيشاً تحت إمرة الحرث بن ظالم ثم قال للسموأل (أتعرف هذا؟) قال نعم هذا بني. قال: (أفتسلم ما قبلك أم أقتله؟) قال: (شأنك. فلست أخفر ذمتي ولا أسلم مال جاري) فضرب الحرث وسط الغلام، فقطعه قطعتين، وانصرف عنه فقال السموأل:

وَفيتُ بأدرع الكندي إني ... إذا ما ذُمَّ أقوام وَفيت
وأوصي عادياً يوماً بألا ... تهدُم يا سَموأل ما بَنيت
بنى لي عادياً حِصناً حصيناً ... وماء كلما شِئت استقيتُ

كما أن المثل البدوي الأعلى للكرم والسخاء هو حاتم طيء، الذي يروى عنه كثير من الأقاصيص المستطرفة، ويمكننا أن نعرف نظرة البدوي إلى هذا الموضوع مما ذكره الأغاني من أن أم حاتم وهي حبلى رأت في المنام من يقول لها: أغلام سمح يقال له حاتم أحب إليك أم عشرة أغلمة كالناس، ليوث ساعة البأس، ليسوا بأوغال ولا أنكاس؟ فقالت حاتم، فولدت حاتماً، فلما ترعرع جعل يخرج طعامه فإن وجد من يأكله معه أكله، وإن لم يجد طرحه، فلما رأى أبوه أنه يهلك طعامه قال له: إلحق بالإبل، ووهب له جارية وفرساً وفلوهاً، فلما أتى الإبل طفق يبغي الناس فلا يجدهم. ويأتي الطريق فلا يجد عليه أحداً، فبينا هو كذلك إذ بصر بركب على الطريق فأتاهم فقالوا: يا فتى هل من قرى؟ فقال تسألونني عن القرى وقد ترون الإبل؟ وكان الذين بهم عبيد بن الأبرص وبشر بن حازم والنابغة الذبياني، وكانوا يريدون النعمان فنحر لهم ثلاثة من الإبل فقال عبيد: (إنما أردنا بالقرى اللبن، وكانت تكفينا بكرة إذا كنت لابد متكلفاً لنا شيئاً) فقال حاتم (قد عرفت ولكنني رأيت وجوهاً مختلفة وألواناً متفرقة، فظننت أن البلدان غير واحدة، فأردت أن يذكر كل واحد منكم ما رأى إذا أتى قومه) فقالوا فيه أشعاراً امتدحوه بها وذكروا فضله فقال حاتم:

أردت أن أحسن إليكم فكان لكم علي الفضل، وأنا أعاهد الله أن أضرب عراقيب) (الإبل عن آخرها أو تقسموها ففعلوا، فأصاب الرجل تسعة وتسعين بعيراً ومضوا على سفرهم إلى النعمان. وأن أبا حاتم سمع بما فعل فأتاه فقال له: يا أبت طوقتك بها طوق الحمامة مجد الدهر

كما نسمع أن ابنة حاتم قد اقتيدت أسيرة أمام الرسول صلى الله عليه وسلم فقالت له: (يا محمد هلك الوالد، وغاب الوافد، فإن رأيت أن تخلي عني فلا تشمت بي أحياء العرب فإني بنت سيد قومي؛ كان أبي يفك العاني ويحمي الذمار ويقري الضعيف، ويشبع الجائع، ويفرج عن المكروب، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ولم يرد طالب حاجة قط: أنا بنت حاتم طي) فأجابها الرسول (يا جارية هذه صفة المؤمن، لو كان أبوك إسلامياً لترحمنا عنه. خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق)

وكان حاتم شاعراً معروفاً، وفي أبياته التالية يخاطب زوجه ماوية:

أيا ابنة عبد الله وابنة مالك ... ويا ابنة ذي البردين والفرس الورد
إذَا مَا صَنَعْتِ الزَّادَ فَالتَمِسي لَه ... أكِيلاً فَإنِّي لَسْتُ آكُلُهُ وَحْدِي
أخاً طارقاً أوْ جارَ بيت فإنني ... أخافُ مذَمَّات الأحاديث من بعدي
وإني لَعَبد الضيف ما دام نازلاً ... وما فيَّ إلا تلك مِن شِيمة العبدِ

(يتبع)

حسن حبشي

شخصية الزهاوي

بمناسبة مرور عام على وفاته

بقلم السيد احمد المغربي

لسنا نقرر شيئاً جديداً إذا قلنا بأن الزهاوي كان شخصية فذة متعددة النواحي، تشهد على مدى نبوغه وعبقريته، ذلك لان الزهاوي لم يكن شاعراً مجدداً، دقيق الحس مفتوح القلب مرهف السمع، متقد العاطفة، ثائر القلب فحسب، بل كان إلى هذا كله فيلسوفاً تعمق في دراسة الفلسفة ونفذ إلى ما وراء المادة والطبيعة، فخبر أحوالها وتفهم ما دق من أسرارها وخفاياها. وكان في فلسفته متأثراً بأبي العلاء المعري، مترسماً خطاه، متبعاً أساليبه؛ ونظرة في ملحمته (ثورة في الجحيم) ومعارضتها برسالة الغفران، تؤيد ما نذهب إليه. ولا غرو فإن كلاً من الشاعرين الفيلسوفين كان

يسخر من التقاليد الموروثة؛ ولماذا نذهب بعيداً والزهاوي نفسه يعترف بتلمذته عليه وإعجابه به وهو يشكو إليه ما أصابه من ظلم وحيف:

وإن أكبرَ شيء فيك يُعجبني ... سُخرية بتقاليد وعصيانُ
وأنكروا فيك إلحاداً وزندقة ... وعلَّ ما أنكروه فيك بُهتانُ
إني تتلمذتُ في بيتي عليك وإن ... أبلَتْ عظامَك أزمان وأزمانُ
أصابني في زماني ما أصابك من ... حيفٍ فما رد هذا الحيفَ إنسانُ

أما شعره فحر طليق، لا يتقيد بالسلاسل والأغلال، ينزع فيه نحو الطبيعة المطلقة، مخترقاً التقاليد التي ورثها الأبناء عن الآباء، خالياً من الصناعات اللفظية والخيالات الوهمية، نزَّاعاً إلى التجدد، ثائراً على النظام، متمرداً على الأوهام

إذا الشعر لم يهززك عند سماعه ... فليس خليقاً أن يقال له شعر
ما الشعر إلا شعوري جئت أعرضه ... فانقده نقداً شريفاً غير ذي خللِ
الشعرُ ما عاش دهراً بعد قائله ... وسار يجري على الأفواه كالمثلِ
والشعرُ ما اهتز منه روحُ سامعه ... كمن تكهرب من سلك على غَفَلِ
فيه إلى اليوم ما قلدتُ من أحد ... وما على غير نفسي فيه متكلي
أفعمته حكماً تعلو، وأمثلة ... تحلو، فسُرَّ به شعب وصفَّق لي
وقد أعود به إبان أنظمُه=إذا تذكرت أيامي إلى الغزل

فالزهاوي كان كالبحتري شديد الزهو والإعجاب بشعره لأنه مرآة حقيقية تنعكس عليه نفسه الشفافة وقلبه الطيب:

إنني إن بكيت أبكي بشعري ... ولقد أهديه إلى الأحقابِ
كل بيت منه إذا عصروه ... دمعة ثرَّة على الآدابِ
بين شعري، وما يجيش بصدري ... من شعور وشائج الأنسابِ
أنا عنه محدث وهو عني ... وكلانا في القول غيرُ محابِ
أما قريضي هذا ... فإنه نفاثٌ
شعر له من شعوري ... والصدق مستنداتُ
وإنما صقلته ... الخطوبُ والنكباتُ

والزهاوي، بالرغم من إعجابه بشعره وأيمانه بأنه شاعر الأجيال وأن شعره خالد لا يموت يعترف بأنه لم يكن دائم التحليق، بل أنه كثيراً ما كان يُسِف تبعاً لحالته النفسية. . .

يا شعرُ أنت سماءٌ ... أطير فيها بفكري
طوراً أسِف وطوراً ... أعلو كتحليق نسرِ
إن لم تصور شعوري ... فلست يا شعر شعري
من بعد موتي بحين ... سيعلم القومُ قدري
فقد وقفت حياتي ... لهم وأفنيتُ عمري

ويكاد يخلو شعر الزهاوي من الغزل التشبيب، والتغني بمحاسن الحبيب، وتبيان ما يقاسيه المحبون من ضروب الآلام والأسقام، ووصف ما يتكبدونه من عذاب الهجر، وألم الحرمان ولوعة الأسى وحلاوة الوصل، وأكبر الظن أنه لم يتح له أن يدخل في شبابه في زمرة المحبين، لانشغاله في نشر رسالته، وأما ما نقرؤه في هذا السبيل فقلما يثير إعجابنا أو يستدر عطفنا ورحمتنا، وإذا ما تغزل بغادته (ليلى) فإنما كان يتغزل بوطنه

ولعل خير قصائده الغرامية هي القصيدة التي يصف فيها الحب. . .

أولُ الحب في القلوب شرَاره ... تختفي تارة وتظهرُ تاره
ثم يرقى، حتى يكون سراجاً ... لذويه، فيه هدى وإناره
ثم يرقى، حتى يكون مع الأي ... ام ناراً حمراء ذاتَ حراره
ثم يرقى، حتى يكون أتوناً ... بحراراته تذوبُ الحجاره
ثم يرقى، حتى يكون حريقاً ... فيه هَلَكْ لأهله وخساره
ثم يرقى، حتى يمثل بركا ... ناً يرى الناس من بعيد نارَه
ثم يرقى، حتى يكون جحيماً، ... عن تفاصيلها تضيق العباره

فأنت تلاحظ أن هذه القصيدة نفسها تغلب عليها روح التحليل العلمي الفلسفي، وما الحب إلا عاطفة هوجاء صاخبة عاصفة، تتبرأ من العلم، وتتهرب من الفلسفة!!

الزهاوي العالم
وناحية أخرى من شخصية الزهاوي تحتاج إلى عنايتنا واهتمامنا هي الناحية العلمية، فالزهاوي كان عالماً عبقرياً شُغِفَ بالأبحاث العلمية، ولاسيما فيما يتعلق بالجاذبية. وله في هذا الصدد نظريات وآراء، إن لم تحُز موافقة العلماء المحدثين، فهي على الأقل تشهد على سعة اطلاعه ومدى نبوغه، ذلك لأن الزهاوي لم ينشأ في بيئة علمية، ولم يتلق العلم في جامعات معروفة بل أن ما توصل إليه، كان نتيجة بحثه وتفكيره. . .
وفي وسعنا أن نوجز رأي الزهاوي في الجاذبية، بأن المادة لا تجذب المادة، بل إن المادة تدفع المادة. وعلى هذا فإن الحجر الذي يسقط على الأرض، لا يسقط لجذب الأرض إياه، بل لدفع الموادِ في السماء إلى الأرض.
وهو يعلل أنواع الجاذبيات بناموس واحد، وهو دفع المادة للمادة بسبب ألكتروناتها التي تشعها بكثرة. وهو يفسر بأن الحرارة والنور في الشموس يتولدان من الأثير المنعكس عن مراكزها، بعد جريانها إليها، حفظاً للموازنة التي لا تزال تختل بطرد الإلكترونات له من بين الجواهر في كل جسم، مبيناً أن هذا الأثير الجاري إلى الأجرام هو الذي يدفع الأجسام إليها: فيزعم العلماء هذا الدفع الخارجي جذباً داخلياً.
ثم يشرح الزهاوي بمبدئه سبب حدوث الزلازل، وحالات ذوات الأذناب فيميط اللثام عن توجه أذنابها إلى خلاف جهة الشمس وعن سبب ابتعادها عن الشمس بعد أن تدور حولها دورة ناقصة، وعن بقاء القوة، وعن حقيقة الشمس وهو ينكر انحلال الشموس إلى السدم منكراً تولدها منها.
فلسفة الزهاوي - تحليل (ثورة في الجحيم)
لعل فلسفة فقيدنا الكبير أظهر ما تكون في ملحمته الشهيرة (ثورة في الجحيم)، وهي تحفة فنية خالدة أثبت فيها آراءه الفلسفية ومعتقداته الدينية ونزعاته الإصلاحية، ولسنا نغالي إذ نقرر بأنها صورة حية صادقة للمبادئ السامية والمثل العليا التي وقف الزهاوي حياته على تحقيقها غير مكترث لما يعترض سبيله من العقبات، بل إن هذه العقبات ما كانت إلا لتزيد عزيمته مضاء وإيمانه إيماناُ بتلكم الرسالة المقدسة التي عمل على نشرها بين قومه.
وتتلخص هذه الرسالة في التحرر من التقاليد البالية والعادات الموروثة التي وقفت سداً منيعاً دون تقدم الشرق العربي فجعلته يرسف في أغلال من الأوهام وقيود من الأحلام، هي ثورة على القديم، وانتصار للجديد في مختلف نواحي الحياة. . . والثورة تتطلب الهدم. . والزهاوي كان ثائراً هداماً
- :ثورة الزهاوي في الجحيم
يتخيل شاعرنا نفسه ميتاً قد احتواه القبر وإذا بمنكر ونكير يوقظانه من رقاده البدي فيعود إليه شعوره ويشاهد أمامه نسرين هائلين تتطاير النار من عيونهما وتبدو ملامح الشرَّة على وجهيهما. لكل منهما أنف غليظ وفم واسع وبأيديهما أفاع غلاظ تتلوى وتدور
فيخور عزمه وتهن قواه ثم ما يلبث أن يستعيد جرأته، ويتمالك جأشه ويجيب على الأسئلة التي كان يوجهها إليه الملكان، فيعترف بأنه لم يأت في حياته أمراً خطيراً فقد مارس الشعر دفاعاً عن الحق وهو يفتخر بأنه كان يخالف جمهرة الناس في الرأي والمعتقد فيثير عليه نقمتهم فيمعنون في ازدرائه واضطهاده حتى إنهم ليهمون مرة بقتله. مع أنه كان يعتقد بالوحي، ويؤمن بالأنبياء والمرسلين ويقوم بما يعرضه الإسلام على المؤمنين من صلاة وصوم وزكاة وحج وجهاد
ثم يسأله أحد الملكين عن الحشر والميزان والحساب والصراط والجنان والجحيم، فيجيبه الزهاوي بأنه كان في شبابه مؤمناً كل الإيمان فإذا بالشكوك تهب تلاحيه فيتعمق في العقائد إلا نفسه لا تزال مضطربة حائرة، فهو تارة مؤمن، وهو تارة ملحد، وهو يخشى الجحيم ولجج النار، ويرجو من الله أن يرفق بعباده فإنهم ضعاف لا حول لهم ولا صبر على العذاب.
وهو يبدي ارتيابه في كل ما عجز العقل عن تأويله إلا أنه لا يشك مطلقاً بوجود الله فهو
في الجبال والوديان، في البر والبحر، وهو واجبُ الوجود وواهب الوجود قد استوى على عرشه في السماء إن أراد شيئاً قال له كن فيكون

فيتهمه الملكان بالإلحاد ويمضانه بالمقامع ضرباً وهو يستعطفهما فلا يعطفان عليه. وهو يسترحمهما فلا يرحمان دمعه الغزير وجسده الدامي بل يصبان فوق رأسه قطراناً فائراً شوى رأسه ووجهه ويطيلان عذابه حتى يغيب وعيه فإذا ما عاد إليه صوابه ألفى نفسه موثق اليدين بحبال مفتولة لا يستطيع حراكاً فيحمله الملكان ويطيران به في الفضاء إلى الجنة حتى يزداد عذاب ضميره من حرمانه إياها، ويبيح لهما رضوانُ دخول الجنة. وهنا تتجلى روعة الزهاوي الشعرية في الوصف الدقيق الجذاب فيحلق في سماء الفن ما شاء له التحليق، ويسمو في عالم الخيال الرفيع سمواً ليس بعده من سمو: -

كلُّ ما يرغبونَ فيه مُباح ... كلُّ ما يشتهونه ميسورُ
وعلى تلكم الأسرة حور ... في حُلى لها ونعمَ الحورُ
ليس يخشين في المجانة عاراً ... وإن اهتز تحتهن السرير
وكأن الولدان حين يطوفو ... ن على القوم لؤلؤ منثور
إئت ما شئته ولا تخش بأساً ... لا حرام فيها ولا محظور
فإذا ما اشتهيت طيراً هوى من ... غصنه مشوياً وجاء يزور
وإذا ما رمت أن يحول لك التين ... دَجَاجاً أتى إليك يطير
ليس فيها موت ولا موبقات ... ليس فيها شمس ولا زمهرير
لا شتاء ولا خريف وصيف ... أترى أن الأرض ليست تدور
ولقد رمتُ شربة من نمير ... فتيممته ففرَّ النميرُ
وكأن الماء الذي شئت أن أش ... ربه بابتعاده مأمور

ويتذكر بأنه مطرود ملعون، لا يحق له أن يتمتع بما وُعد به المؤمنون المتقون، فيرجو من الملكين أن يعودا به من حيث أتيا لأن ما يشاهده من النعيم يثير أشجانه ويهيج أحزانه فيخرجانه من الجنة ويشدان وثاقه ويقذفان به في جوف الجحيم

وكأنَ الجحيم حفرة بركا ... ن عظيم له فم مفغور
تدلعُ النارُ منه حمراءُ تلقِي ... حمماً راح كالشواظ يطيرُ
وأشدُّ العذاب ما كان في الها ... وية السفلى حيث يطغى السعيرُ
الطعامُ الزقومُ في كل يوم ... والشراب اليحمومُ واليحمورُ
ولهم فيها كلَّ يوم عذابٌ ... ولهم فيها كل يوم ثَبورُ
ثم فيها عقاربٌ وأفاعٍ ... ثم فيها. ضراغمٌ ونمورُ
وقدت نارُها تئزُ فتغلِي ... أنفس فوق جمرها وتخورُ
ولقد كانت الوجوهُ من الصا ... لين سوداً كأنهن القيرُ
ولقد كانت الملامحُ تخفى ... ولقد كانت العيونُ تغورُ
لستُ أنسى نيرانها مائجاتٍ ... تتلظى كأنهُن بحورُ
ولقد صاح الخاطئون يريدو ... ن نصيراً لهم وعز النصيرَ
وتساوى أشرافهم والأداني ... وتساوى غنيهم والفقيرَ

ثم يعدد لنا الزهاوي العلماء والشعراء والأدباء والفلاسفة الذين رآهم في الجحيم، فيذكر لنا الفرزدق وجرير والأخطل والمتنبي والمعري وبشاراً وأبا نواس والخيام ودنتي وشكسبير وامرئ القيس.

أما بشار فكان حانقاً ثائراً مهتاجاً وأما أبو نواس فكان كئيباً حزيناً، على أن الخيام لم يشغله عذاب الجحيم عن التغني بالخمرة بصوت شجي يطرب له أهل الجحيم

حبذا خمرة تعين على الني ... ران حتى إذا ذكتْ لا تضيرُ
اسقني خمرة لعلي بها أر ... جع شيئاً مما سبتني السعير
أنت لو كنت في الجحيم بجنبي ... لم ترعني نار ولا زمهرير

وكان سقراط أثبت القوم جأشاً يلقي خطبه على أصحابه وأخدانه وعلى مقربة منه أفلاطون وأرسطو وكوبرنيك الذي أثبت بأن الأرض تدور حول الشمس، ودروين صاحب نظرية النشوء والارتقاء، وهيكل وبجنر وسبنسر ورنان وروسو وفولتير وزرادشت ومزدك والكندي وابن سينا وابن رشد والحلاج وغيرهم كثيرون

لم أشاهد بعد التلفت فيها ... جاهلاً ليس عنده تفكير
إنما مثوى الجاهلين جنان ... شاهقات القصور فيها الحور

وكأن أهل الجحيم قد شعروا أخيراً بما يحيق بهم من العسف والحيف فعقدوا النية على
الثورة لتقويض دعائم الاستبداد، فاخترعوا الآلات المدمرة والأدوات الهدامة واخترق صفوف الملايين أحد الشباب ووقف فيهم خطيباً يبين لهم بصوت جهوري زعزع عاصف ما يقاسونه من الآلام، ويدعوهم إلى مقاومة القوة الغاشمة بالقوة الغاشمة دفاعاً عن حقوقهم المهضومة وذوداً عن كرامتهم المثلومة. فهاج أهل الجحيم وماجوا وعلا منهم الضجيج. فأطفئوا جمرة الجحيم وزحفوا ثائرين هائجين ونشبت حرب ضروس بينهم وبين زبانية النار عاضد فيها الشياطين أهل الجحيم وأنجدت الملائكة زبانية جهنم ورموا بالصواعق والرياح والإعصار، والبروق والرعد، والبحار والجبال والبراكين. وكانت الحرب بادئ ذي بدء سجالاً، إلا أنها أسفرت في النهاية عن انتصار أهل الجحيم، فطاروا على ظهور الشياطين يطلبون الجنان، فاحتلوها وطردوا منها البله المساكين ومن الإنصاف للعلم والحقيقة قبل الإنصاف للزهاوي أن نقرر هنا بأن الزهاوي لم يقصد من ثورته في الجحيم الشك بوجود الله عز وجل كما ظن السواد الأعظم من بني قومه وإنما كان مسلماً قوي الإيمان إلى أقصى حدود الإيمان والأمثلة على صحة ما نذهب إليه وافرة نورد منها ما يتسع له النطاق الذي حددناه لهذه الكلمة:

قال ما دينك الذي كنت في الدنيا ... عليه وأنت شيخ كبير
قلت: كان الإسلام ديني فيها ... وهو دين بالاحترام جدير
قال من ذا الذي عبدتَ فقلت ... الله ربي وهو السميع البصير
مذهبي وحدة الوجود فلا كا ... ئن غير الله القديم القدير
أنا هذا، فلا أبالي إذا ما ... أجمعت ثلة على تكفيري
أهل عصري لا يفقهون حديثي ... حبذا لو أتيت بعد عصور
أنا ما كفرت بكل عم ... ري بالكتاب المنزل
أنا لم أزل أشدو بنع ... تِ للنبي المرسل
يسائلني عن مذهبي وعقيدتي ... فريق من الأشياخ ما أنا منهم
فقلت لهم أما السؤال فبارد ... وأما جوابي فهو أني مسلم
ولكنني ما كنت يوماً مقلداً ... يرى أن حكم العقل في الدين مأثم
فما القلب مني بالسخافات مولع ... ولا الرأس مني بالخرافات مفعم
لا دَرَّ دَر الجاهلين فإنهم ... يرمون بالإلحاد من لا يلحد
إن كان من يبدي الحقيقة ملحداً ... فليشهد الثقلان أنيَ ملحد
أحمد الباري الذي يتساوى ... عنده إيماني به وجحودي
كلنا مؤمن يسبح للرحم ... ن في ظل عرشه الممدود
إنني ما سجدت يوماً لغير الله ... فالله وحده معبودي

(البقية في العدد القادم)

احمد المغربي

دعابة الجاحظ - 5

للأديب محمد فهمي عبد اللطيف

والآن فلننظر إلى الجاحظ في ضحكه، ولقد كان الجاحظ ضحوكاً طلقاً تستخفه . . . النادرة فيقهقه ملء شدقيه، ويقصد إلى الإضحاك فيبلغ من ذلك غايته. وإنك لتجده في ضحكه وإضحاكه - كما كان في تهكمه وسخره - مطبوعاً موهوباً خفيف الروح. لطيف الإشارة، ظريف الأداء، طريف المقصد، فهو في إضحاكه يسلك السبيل اللاحب إلى القلب، ويصل إلى قرارة النفس في ملاطفة وسهولة. وخفة وبراعة، وإنه ليهز المشاعر بالنادرة يبتدعها، ويشفي القلب بالملحة يرسلها، ولقد تصرمت السنون وخلت القرون وما زالت نوادر الرجل ومضاحيكه في بطون الكتب إذا ما وقع عليها القارئ فلا يستطيع الإمساك مهما كان في وقاره، ومهما اعتورها بالنظر ورددها في اللسان. وعلى أن النادرة لا يكون لها في الإضحاك مكتوبة كمثل ما يكون لها إذا ما جرت تحت المعاينة، فإن المكتوب لا يصور لك كل شيء. ولا يأتي لك على كنهه وعلى حدوده وحقائقه. وأما إذا ما أخذ الرجل في الضحك فإنه ينطلق في غير احتشام، ويجري في الشوط إلى أبعد غاية. حدث عن نفسه قال: صحبني محفوظ النفاش من مسجد الجامع ليلاً، فلما صرت قرب منزله وكان أقرب إلى المسجد من منزلي،

سألني أن أبيت عنده، وقال أين تذهب في هذا المطر والبرد، ومنزلي منزلك، وأنت في ظلمة وليس معك نار، وعندي لبأ لم ير الناس مثله، وتمر ناهيك به جودة، فلمت معه فأبطأ ساعة ثم جاءني بجام لبأ وطبق تمر، فلما مددت قال يا أبا عثمان: إنه لبأ وبه غلظة، وهو الليل وركوده، ثم ليلة مطر ورطوبة، وأنت رجل قد طعنت في السن، ولم تزل تشكو من الفالج طرفاً، وما زال الغليل يسرع إليك، وأنت في الأصل لست بصاحب عشاء، فإن أكلت اللبأ ولم تبالغ، كنت لا آكلاً ولا تاركاً وحرشت طباعك، ثم قطعت الأكل أشهى ما كان إليك، وإن بالغت بتنا في ليلة سوء من الاهتمام بأمرك، ولفم نعد لك نبيذاً ولا عسلاً، وإنما قلت هذا الكلام لئلا تقول غداً كان وكان، والله قد وقعت بين نابي الأسد، لأني لو لم أجئك به وقد ذكرته لك، قلت: بخل به وبدا له فيه، وإن جئت به ولم أحذرك منه ولم أذكرك كل ما عليك فيه قلت لم يشفق علي ولم ينصح، فقد برئت إليك من الأمرين جميعاً، وإن شئت فأكلة وموتة! وإن شئت فبعض الاحتمال ونوم على سلامة!! فما

ضحكت قط كضحكي تلك الليلة، ولقد أكلته جميعاً فما هضمه إلا الضحك والنشاط والسرور فما أظن، ولو كان معي من يفهم طيب ما تكلم به لأتى على الضحك أو لقضي علي ولكن ضحك من كان وحده لا يكون على شطر مشاركة الأصحاب فانظر يا رعاك الله إلى أي حد كان يغرق الجاحظ في الضحك والمرح، والى أي حد كانت النادرة تستخف وقاره، وتهيج نشاطه، وتجلب له كل هذا من البشر والسرور. وماذا تقول في رجل لو وجد من يساجله الضحك ويجاذبه السرور لما أمن على نفسه الموت سروراً وضحكاً؟! على أن ما قاله صاحبه لمن يكن ليحمل على كل هذا ولا يدعو إليه، فيا ليت شعري أكان الجاحظ يعيش في الحياة بقلب فارغ من الهموم والمشاغل، بعيد من الأحداث والأوصاب؟ أم كان ذلك الرجل يضحك عن فلسفة وراي، فهو يعتقد أن هذه الحياة الفاجرة أحقر وأهون من أن يسفح الدمع في الحرص عليها، وأن يسجن القلب في سبيل الودادة إليها، وأن يتكلف لها ما يتكلفه بعض الناس من التزمت والوقار، وكزازة النفس، وضيق العطن، أولئك الذين ابتعدوا من المرح لأنهم زعموه ينافي المروءة، وحرموا أنفسهم نعمة الضحك لأنهم استقبحوه بالوقار!! قال الجاحظ ولو كان الضحك قبيحاً من الضاحك وقبيحاً من المضحك، لما قيل للزهرة والحبرة والحلي والقصر المبني كأنه يضحك ضحكاً وقد قال الله جل ذكره: وأنه هو أضحك وأبكى، وأنه هو أمات وأحيا، فوضع الضحك بحذاء الحياة، ووضع البكاء بحذاء الموت، والله تعالى لا يضيف إلى نفسه القبيح، ولا يمن على خلقه بالنقص، وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيماً، ومن مصلحة الطباع كبيراً، وهو شيء في أصل الطباع وفي أساس التركيب، لأن الضحك أول خير يظهر من الصبي وقد تطيب نفسه، وعليه ينبت شحمه ويكثر دمه الذي هو علة سروره ومادة قوته. ولفضل خصال الضحك عند العرب تسمي أولادها بالضحاك وببسام، وبطلق وبطليق. وقد ضحك النبي صلى الله عليه وسلم وفرح. وضحك الصالحون وفرحوا؛ وإذا مدحوا قالوا هو ضحوك السن، بسام العشيات وذو أريحية واهتزاز؛ وإذا ذموا قالوا هو عبوس وهو كالح، وهو قطوب، وهو شتيم المحيا. وهو مكفهر أبداً وهو كريه وبغيض الوجه، وكأنما وجهه بالخل منضوح فالجاحظ إنما كان يقصد إلى الضحك والإضحاك: لأنه ذلك في رأيه (يكون موقعه من سرور النفس عظيماً، ومن مصلحة الطباع كبيراً، وهو شيء في اصل الطباع وفي أساس التركيب، وهو أول خير يظهر من الصبي)، وإذن فليأخذ الجاحظ في الضحك والإضحاك ما استطاع حتى يغتنم هذا الخير فيسر نفسه ويصلح طباعه، وما أحوجه إلى ذلك. ومن ذا الذي لا يضحك على هذا الشرط. ويسبق إلى الإضحاك إذا ما صح عنده هذا الاعتقاد الذي كان يعتقده الجاحظ؟ وكأن الله قد أراد أن يسعد الرجل في هذه الغمرة، وأن يعده لأداء هذه المهمة، فبرأه مرح النفس أو على حد تعبيره - ذو أريحية واهتزاز كما برأه في منظر جهم، وشكل هو المثل السائر في القبح والدمامة، فكان الرجل لا يتورع ولا يتحرج من أن يجعل من ذلك مصدر ضحك وإضحاك، فيتفكه بقبحه ودمامته، ويتندر بما فيه من شذوذ الوضع وجهامة الشكل، بل لقد كان يحلو له ذلك ويتعمده ويسوقه إلى الناس وهو قرير العين، طيب الخاطر، حتى لتحسبه في تلك الناحية ممثلاً هزلياً وقف على الخشبة ليضحك الجمهور، ويدلهم على مواضع الدمامة في شكله، والنقص في خلقته وماذا ترى في رجل يحدث عن نفسه بهذه الصراحة

فيقول: ذكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده. فلما رآني استبشع منظري فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني!!

وقال فيما قال عن نفسه: ما غلبني أحد قط إلا رجل وامرأة فأما الرجل فإني كنت مجتازاً في بعض الطريق، فإذا برجل قصير بطين كبير الهامة طويل اللحية مؤتزر بمئزر وبيده مشط يمشطها، فقلت في نفسي: رجل قصير بطين ألحى! فاستزريته فقلت: أيها الشيخ: لقد قلت فيك شعراً!! فترك المشط من يده وقال: قل فقلت:

كأنك صعوة في أصل حش ... أصاب الحس طش بعد رش

فقال اسمع جواب ما قلت، فقلت هات! فقال:

كأنك جندب في ذيل كبش ... تدلدل هكذا والكبش يمشي

وأما المرأة فإني كنت مجتازاً في بعض الطريق، فإذا أنا بامرأتين رأيت إحداهما في العسكر وكانت طويلة القامة، وكنت على طعام فأردت أن أمازحها فقلت لها: انزلي كلي معنا! فقالت: اصعد أنت حتى ترى الدنيا!! فهو يعرض بطولها وهي تعرض بقصره وأما الأخرى فإنها أتتني وأنا على باب داري فقالت: لي إليك حاجة وأريد أن تمشي معي! فقمت معها إلى أن أتت بي إلى صائغ يهودي وقالت له: مثل هذا!! ثم تركتني وانصرفت،

فسألت الصائغ عن قولها فقال: إنها أتت ألي بفص وأمرتني أن أنقش لها عليه صورة شيطان! فقلت لها ما رأيت الشيطان حتى يمكن أن أصوره، فأتت بك وقالت ما سمعت!!

وقد لا يخجل من أن يتندر على نفسه بالبلاهة وبالغفلة، ومن ذلك ما ذكره عن نفسه إذ قال: جلست إلى المرآة وقد أمسكت بالمقراض أريد أن أقرض من لحيتي ما زاد على القبضة من تحت ولكني نسيت فقرضت ما فوق القبضة، وتلك من اختراعات الجاحظ وتلفيقاته. وللرجل من أمثال هذه كثير، وكلها من هذا الطراز الذي يطل منه الجاحظ صريحاً في الضحك على نفسه، جريئاً في الإضحاك بما يمسه في سمته، فلا يخجله أن يتحدث عن بشاعة منظره الذي أفزع المتوكل فصرفه عن تأديب أولاده، وجعل المرأة تقدمه إلى الصائغ على أنه شيطان، والأخرى تعرض بقصره، والثالثة تخجله بالنادرة، والشيخ يمثله بالجندب في ذيل الكبش. . . فأما إذا ما أخذ الرجل في الضحك على غيره من الإخوان والأصدقاء، والحمقى والنوكى والموسومين والمدخولين، وأهل العي والحصر والنجلاء والأطلة، والمكدين وأصحاب التطفيل، فإنه يكون أصرح وأجرأ، وأحلى، وأملح، وقد عني الرجل بأخبارهم واهتم بالحديث عنهم، وما أعرف له كتاباً يخلو من ذكرهم، وإذا كان من الإطالة أن نسرد ما للرجل في كل ذلك فلا بأس من أن نسرد بعض ما له في مقال آت

(له تابع)

محمد فهمي عبد اللطيف

إلى شباب العرب

للشاعر القروي

ثبْ يا شباب العُرب ثب ... مشت الشعوب وأنت نائم
ثبْ فالعلى نار تأجج ... في العروق وفي العزائم
ورِد المجرَّة بالضر ... اغم تحت أجنحة القشاعم
وأردد مجاهل هذه ال ... أكوان واضحة المعالم
حطمت قيدك فانطلق ... في حلبة العمل العظيم
واستغن بالعز الطر ... يف عن التغني بالقديم
إن لم تجلَّ عن الرميم ... بنهضة تحيي الرميم
ما أنتَ بالخلف الكريم ... لذلك السلف الكريم
اليوم تجني ما سقي ... ت بذروه العلق الثمينا
فاحرص على ما قد وجد ... ت بمن فقد بميسلونا
حاشاك بعد بزوغ مج ... دك أن تخون وأن تهونا
ما نلت الاستقلال إلا ... بعد أن ذقتَ المنونا
الناس حولك للوثو ... ب إذا غفت عين انتباهك
يتراقصون على أنينك ... شاربين كؤوس آهك

لم تغنك الصلوات إن ... سطت الذئاب على شياهك
الحرب من سنن الحيا ... ةِ أأنت أحكم من إلهك
ليس الفتى العربي بالذ ... ئب الخطوف ولا الخروف
لكنه البطلُ الشري ... ف القادر البطلَ الشريف
نحن الأولى فخروا الأنا ... م بكل جبَّار لطيف
لا يستبد بغير طا ... غٍ مستبدٍّ بالضعيف
مازلت في بدء الجها ... د فلا تقل بطلَ الجهاد
اليوم يومك للسبا ... ق اليوم يومك يا جواد
فانهد إلى حوماته ... لا بالمهندة الحداد
بل بالتساهل والمحبَّ ... ة والوئام والاتحاد
عش للعروبة هاتفاً ... بحياتها ودوامها
وامدده يمين الحب با ... لبنانها لشآمها
أنظر إلى آثارها ... تنبئك عن أيامها
هذا التراث يمتُّ مع ... ظمه إلى إسلامها
ما لي أراك برئت من ... دمها ومن أوطانها
أنسيت أنك ليث نه ... ضتها ونسر بيانها
أتقول لست من الشآ ... م وأنت في أحضانها
أتهد ناطحة النجو ... مِ وأنت من أركانها
إن فاتك الرأي السدي ... د فخذ برأي ذوي العقول
ودعِ الغبيَّ يقول ما ... شاء التعصب أن يقول
الحق بشاعرك الأبي ... وفيلسوفك يا جهول
من سار خلف (الديك) يع ... لم أين آخرة الوصول
هلا ذكرت فتوحهم ... بالمشرفيَّة والقلم
أيام هزوا للعلى ... والعلم في الغرب العلم
جمعوا الذكاء إلى الوفا ... ء إلى الإباء إلى الشمم
قهروا العدى نشروا الهدى ... رضعوا الندى بدعوا الكرم
قل لي بربك هل ربح ... ت من الغريب سوى المحن
وفروغ جيبك واليدين ... وقتل روحك والبدن
كانت تدر الشهد أر ... ضك والسلافة واللبن
فغدا الوقوف على ربو ... عك كالوقوف على الدمن
سيجرّ عزرائيل فو ... ق ربوعهم ذيل العفاء
ويطير الشيطان ما اخ ... ترعوا بما اخترعوا هباء
ويطهر الأجواء من ... عقبانهم نسر القضاء
من كان يأباه الحج ... يم فكيف ترضاه السماء
شيد على أنقاضها ... مدنيَّة الخلق المتين
فلأنت بالتمدين دو ... ن الناس أجمعهم قمين
مثل المهند أن يهز ... فإن يهزَّ بك الحنين
فالغصن، فالنسمات، فال ... ورقاء، فالماء المعين
وآهاً على عهد السذا ... جة والحماقات العذابِ
ما ضرَّ لو غادرتهن ... وطرت وحدك يا شبابي
خير الصحاب تركتني ... وتركت لي شر الصحاب
بعد الأماني العذا ... ب أمر ألوان العذاب
عش للتفاؤل يا شبا ... ب وللبشاشة والخلابه
عش للخيال وللجما ... ل وللغرام وللصبابه
عش للطموح وللجها ... د وللمناعة وللصلابه
قيل المهابة للشيو ... خ وأنت أجدر بالمهابة
سر في فتوح الخالدين ... وطرْ إلى أقصى مطارك
الكهرباء على يمي ... نك والبخار على يسارك
طرْ لابساً إكليل غا ... رك رافعاً علم انتصارك

رحب الفضاء فناء دا ... رك والعوالم باب دارك
الشاعر القروي
من العصبة الأندلسية
حديث الأزهار
للكاتب الفرنسي ألفونس كار
- 3 -
زهرة التذكار
وسقطت زهرة من طرتها، فانحنى ليرفعها عن الأرض. استوقفته بنغمة من صوتها الشجي قائلة: - دعها، دع الزهرة التي صدمها الهواء، وخذ هذه، بدلاً عنها.
أخرجتني من بين نهديها وأهدتني لحبيبها.
سمعته ينشد وهو يضمني إلى صدره: أيتها الزهرة المحبوبة
ابقي معي إلى الأبد، أنت زهرة التذكار.
وذهب بي إلى غرفته المنفردة، حيث بللت فمي بكأس البلور.
- :كان ينظر إلي، فيراها. ويهمس في وريقاتي قائلاً
!يا زهرة محبوبتي، ما أقوى عبيرك وما أشد فعله في قلبي
لقد لمستك بيدها وتركت أنفساها تهب على وريقاتك، لو فقدتك بين آلاف الأزهار لما ضل عنك تذكاري.
شربت كثيراً من الكأس البلورية فلم أرتو، ذبلت ككل شيء ينفصل عن أصله، علا الاصفرار تويجي فانحنيت على نفسي، رأيته يتقدم إلي والدمعة في عينيه، يحدجني بنظراته الرائعة، ثم قال: - ما أوجع احتضارك على مشهد مني يا زهرة التذكار!
سيسطو عليك ملك الموت ولكنه لن يدنو من روحك الخالدة روح التذكار الدائم. تعالي لأدفنك في القبر المقدس حيث دفنت آمالي فيضمك وحياتي كفن واحد.
أخذني إلى خزانته وألقاني بهدوء بين أكفان الطروس، بين رسائل من يهوى.
وكان مقري بين النار الكامنة في الكلمات، والكلمات صامتة في الحروف السوداء
لقد زارني مراراً في قبري، فكنت عاكساً أميناً لخياله، تنطبع نضارة تذكراه على اصفرار وريقاتي، ويهب عبير غرامه من جفاف عروقي، فيراني صبية رائعة الشباب تنفخ الفتوة في كهولة قلبه.
وما عدت أراه إلا من حين إلى حين.
ومنذ أيام أخذ كفني دون أن يلقي علي كلماته نظرة واحدة ودفع به إلى اللهيب. ثم لحت لعينيه جافة صفراء فحدجني ملياً كأنه يفتش على ذكر لا يهتدي إليه.
أمسكني بأطراف أنامله وتقدم ببطء إلى النافذة.
شعرت بمصادمة الهواء لوريقاتي النحيلة فارتجفت.
أنكر جميلي وأي إنسان ليس جاحداً؟
أنا الزهرة المأخوذة من بين نهديكن، أنا زهرة التذكار؛ لفح الهواء وريقاتي الجافة فتبددت في الفضاء.
(ف. ف)
أقصوصة
الخداع
مترجمة عن الفرنسية
بقلم الأستاذ فليكس فارس
بين الوهاد والجبال أمام روعة الطبيعة لم تدنسها يد الإنسان كانت العساكر الفرنسية والإنكليزية تتحين الفرصة للهجوم، وكل منها يتوقع الفوز بوفرة عدده وضخامة عدده.
وكان قائد الجملة الفرنسوية شيخاً بلته الأيام فما زادته إلا صلابة وعزماً. وقد ملئ تذكاره بالوقائع الكبرى وعقد له النصر ألوية وسجل له التاريخ صفحات المجد خالدة.
حمي وطيس الحرب فتوالت الهجمات وتفجرت الدماء على تلك الأرض الجرداء مثمرة الترمل والثكل واليتم. وما لبث أن أحاط الإنكليز بأعدائهم إحاطة السوار بالمعصم فكادت تدور على هؤلاء الدائرة لو لم يتدارك القائد الشيخ خطورة الموقف بعزمه وإقدامه
وكان هذا القائد ممتطياً صهوة جواده يفكر في إيجاد وسيلة تمكنه من اختراق صفوف

الأعداء. فشاهد أحد أتباعه يتقدم إليه بخطوات ثابتة. وعندما وصل القادم إلى مقربة منه عرف أنه هنري الذي تبناه بعد أن سقط والده قتيلاً في موقعة كان هو قائدها أيام الصبا. وحاط القائد هذا الطفل بكل رعايته حتى بلغ أشده فاتخذه معيناً له، وكان يستصحبه في جميع معاركه وكان هذا الفتى الجميل قد عاد مرات من الحروب مثخناً بالجراح فضمدتها يد قرينة القائد الشيخ وهي فتاة في ريعان الصبا كانت تزوجته بالرغم من تقدمه في السن وبالرغم من أقوال الناس وتكهناتهم

وحدق القائد بفتاه معجباً بجمال طلعته وبسالته وقال له: - لا خلاص لنا من هذا المأزق إذا نحن لم نخترق دائرة الأعداء المحيطة بنا، فعليك أن تقوم بهذا العمل، اختر من تشاء من الشجعان وسر في مقدمتهم. فالواجب يدعوك إلى التضحية من أجل الوطن والمليك

وانتضى الفتى سيفه ونادى: ليحيى الملك

فرددت نداءه فرقة من الجند لمعت سيوفهم في الفضاء وتقدموا منضمين إلى قائدهم الجديد منتظرين إشارة الهجوم

وارتمى هنري بين يدي مربيه يضمه إلى صدره قبل أن يقتحم المخاطرة الكبرى، فتمازج دمعا الفتى والشيخ وكل منهما موقن بأن لا لقاء بعد هذا الوداع

وفي تلك اللحظة شق الصفوف فارس آت من باريس، ترجل عن فرسه وقد علاه الغبار وأضناه التعب وتقدم إلى القائد الشيخ مقدماً له رزمة رسائل مختومة بالشمع الأحمر حاملة عنوان هنري بأحرف منمقة، ولم يكد يفض القائد الختم ووقعت أبصاره على السطور حتى جمد الدم في عروقه وارتسمت على وجهه أمارات حزن عميق

وحدق في ربيبه ملياً وقد جفت دموعه فجأة بين جفنيه

وكانت الرسائل من عقيلة القائد الشيخ موجهة إلى هنري. في كل كلمة منها شرارة شوق وفي كل سطر شعلة غرام وجنون

وأدار الشيخ وجهه عن ربيبه وسرح أبصاره على ميدان المعركة كأنه يفتش عن هاوية تنفتح فيه فيذهب إليها ببقية حنان كانت تختلج في قلبه لربيبه وبشبح غرام نورت أزهاره على غصن هرم ففاحت منا رائحة القبور

مزق الرسائل الواحدة تلو الأخرى على مهل وهو مصغ من أعماق روحه إلى هتفة ما كان يعلم أمنها أم من روح الوجود مصدرها: - ويل للعقوق، ويل للخائنة

وانتبه الشيخ كمن يستفيق من حلم وقال لهنري: - ابق هنا وقم مقامي، فلسوف أقود مخترقي الصفوف بنفسي

فصاح الفتى: - ولم تريد حرماني هذا الشرف، يا أبي؟

فأدار القائد رأسه ليخفي ما ارتسم عليه من الحنق والألم وقال بهدوء: - ذلك أمر تلقيته الآن

واختنق صوته، فاندفع نحو الخطوط وتبعته فرقة المستبسلين

وعلا دخان البارود وملأ الفضاء أزيز الرصاص، فلم يسمع أحد ما هتف به القائد الشيخ وهو يرتمي قتيلاً عن صهوة جواده.

الفنون

الفن المصري

العمارة - 1

للدكتور احمد موسى

دفع الدين والإخلاص له إلى الفن الذي بدأ به المصريون مبكرين. نظروا إلى السماء فقدسوها والى الشمس فعبدوها، والى النيل فعرفوا أنه مصدر حياتهم فجعلوا منه إلهاً للخير، ورأينا فيما سبق كيف كانت عبادة المصريين لمعبوداتهم، وكيف دفع بهم الدين إلى حضارة هي مثار الإعجاب للدارس الباحث على مر القرون

وإذا كانت قواعد تاريخ الفن تشير بتقسيم التراث المجيد إلى أقسام معينة؛ فذلك لكي نحسن الفهم فيتم التقدير الذي يؤدي بنا إلى الاستمتاع بجمال الوجود، فضلاً عما نستطيع وضعه من أصول نتمكن بها من ربط نهضتنا الحالية بالحضارة القديمة، في انسجام وبغير خروج على الذوق العام.

بنى المصريون المقابر والأهرامات لثقتهم بعودة الحياة إلى الجسد بعد الموت، وبعد حساب عسير، ولن تتمتع بقسط من النعيم إلا بقدر ما قدمت من عبادة وتقديس

للآلهة، فدفعهم هذا إلى تشييد المعابد التي لم يكن مستطاعاً لهم في غيرها القيام بالواجب الأسمى
فكان بناء المقابر والمعابد أول أقسام الفن، وأجدرها بالدرس لمن يريد معرفة الفن المصري من بناء ونحت وتصوير، والوقوف على ما فيها جميعاً من جمال أدى إليه الشعور بالوجدان وسمو المشاعر ونبل العاطفة
استغرق تاريخ مصر عدة آلاف من السنين، وشمل أسرات بلغت الإحدى وثلاثين، ولذلك ينبغي بتقسيم عصر البناء (والفن من نحت وتصوير) إلى أقسام أولها عصر المملكة القديمة، حيث تم تشييد الأهرامات بالجيزة وغيرها. ثم عصر المملكة الوسطى وبعدها المملكة الحديثة
ويرى الدارس للأهرام سر العظمة البنائية متجلياً فيها، كما يلاحظ الأبهة في إخراجها والدقة المتناهية في تكوينها العام، بجانب ما يستطيع الوصول إليه بالفحص والتحليل من
معرفة بعض ما بلغه المصريون في علمي الهندسة والرياضيات، ولا غرابة إذا اعتبر العلماء المعاصرون، الأهرام أعظم نموذج عملي لعلم الهندسة المعمارية إطلاقاً
ولم تدم مرحلة بناء الأهرام طويلاً، بل إنها لم تكن إلا في عهد الأسرات الأولى فقط، أما المعابد فإنها بدأت معها ولكنها ظلت تشيد طوال عصور الحضارة المصرية القديمة وأهم الأهرام ثلاثة، أولها وأعظمها هرم خوفو البالغ ارتفاعه حالاً 137 متراً وطول ضلع قاعدته 227 متراً، كله من الأحجار الضخمة التي استحضرت من محاجر طرة والمقطم ومن محاجر أسوان أيضاً. وبلغ حجمه الهائل حوالي مليونين وثلث مليون من الأمتار المكعبة، له مسالك للسير في داخله والوصول إلى حجرات الدفن، كما أن له منافذ للهواء
أما هرما خفرع ومنقرع فهما أصغر قياساً وحجماً، كما أنهما نسبياً أقل أهمية من الهرم الأكبر. وتوجد بمصر أهرامات كثيرة في أبي رواش وأبي صير وسقارة ودهشور وميدوم وغير ذلك، لبعضها مميزات واضحة منها التدرج (كهرم سقارة المدرج) ومنها عدم استقامة أضلاع الزوايا (كهرم ميدوم) الذي كان في الأصل مكوناً من سبع طبقات بعضها فوق بعض لم يبق منها إلى الآن سوى ثلاث. كل هذه الأهرام كانت مقابر للملوك. ولعل ما تشعر به النفس من رهبة أثناء دخول الهرم الأكبر خير دليل على مبالغة الملوك في الحرص على أجسادهم بعد موتهم الذي نظروا إليه بكل اعتبار وبكل تقدير
أما المعابد فقد اختلفت عن الأهرام اختلافاً ظاهراً واختلافاً معنوياً، فبينما كانت الأهرام مقابر للملوك. كانت المعابد أماكن للعبادة. فضلاً عن اختلاف الوضع والتصميم والناظر إلى المعابد المصرية إجمالاً يرى أنها تنقسم من ناحية طراز أعمدتها التي هي أبرز ما يلفت نظر الزائر لها إلى قسمين: أولهما المعابد ذات الأعمدة الشاملة لقنوات سارت مع طولها، من قاعدتها إلى نهايتها، حيث تحمل السقف مع تجردها من التيجان. وثانيهما ذات أعمدة لها حيناً قنوات وحيناً آخر خالية منها، علاوة على وجود التيجان في أعلاها. أما التيجان نفسها فكانت على هيئة زهرة اللوتس أو زهرة البردي أو على شكل نهاية النخل (العمود النخلي) أو كانت أحياناً عبارة عن مكعب على نهاية العمود الأسطواني حفرت على كل وجه من أوجهه الأربعة رؤوس نساء (ش 6) وبمقارنة المعابد المصرية المهمة بعضها ببعض، يمكن أن نعرف أن عصر نهضة فن بنائها انحصر في عهد المملكة
الحديثة (1555 - 712 ق. م.) وأثناء حكم البطالسة وقياصرة الرومان (332 ق م. وما بعدها)
والدارس لتصميماتها يرى أنها شابهت إلى حد بعيد قصور الملوك والمساكن الخاصة؛ فالمدخل العام للمعبد أنشئ بحيث يؤدي دائماً إلى فناء فسيح غير مسقوف، وجوار ثلاثة جوانب منه وضعت أعمدة تشترك مع الجوانب في حمل السقف، الذي كان بعرض كاف لتظليل الممر أسفله. أما الهيكل حيث اجتمع المصلون حوله لتقديم قربانهم، فقد توسط المعبد. وكان الفناء ينتهي عادة بردهة ذات أعمدة وضعت بنظام يقسمها ثلاثة أقسام، الأيمن والأيسر متشابهين من حيث مساحة الفراغ المحصور بين الحائط والأعمدة، وأما الأوسط فكان عرضه مساوياً لفراغ الاثنين معاً نظراً لأنه طريق

المرور. وفي النهاية ثلاث غرف، الوسطى منها خصصت للإله المعبود، وأما اليمنى واليسرى فكانت لزوجة الإله ولأولاده أحياناً. وكانت هناك غرفة لحفظ أدوات التقديس والأطعمة وما إليها

وأقام المصريون أمام المدخل العام لمعابدهم أعمدة شاهقة ذات أوضاع متناظرة، والى جوارها مسلات وتماثيل، ووضعوا على جانبي الطريق العمومي المؤدي إلى المدخل تماثيل لأبي الهول رابضاً أو تماثيل للكباش

وكثيراً ما أدخل الملوك المتعاقبون تحسينات أو تغييرات كثيرة على مباني المعابد التي شيدها من قبلهم. ولعل خير مثل لهذا معبد الكرنك، فأول من أمر ببنائه سيزوستريس الأول، أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة، حوالي عام 1950 ق. م، خصيصاً لآمون إله طيبة، وكانت مساحته عندئذ ضئيلة، ولم يشمل سوى بعض ردهات وستة أعمدة، كانت خالية من الزخرفة، إلى أن جاء توتموزيس أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة فبنى غرفاً عدة أمام هذا المعبد. وحذا ملوك هذه الأسرة (1545 - 1350 ق. م.) حذوه فأدخلوا على معابد كثيرة شيئاً من التوسع جديراً بالذكر

ونهجت الأسرة التاسعة عشرة على منوال أدق (1350 - 1200 ق. م.)، فأضافت إلى معبد الكرنك الصالة الرائعة، التي بلغت مساحتها مائة متر في خمسين متراً، بأعمدة ارتفاعها اثني عشر متراً وربعاً، علاوة على بناء غرفتين صغيرتين، وفي عهد الأسرة الثانية والعشرين (945 - 745 ق. م) ثم عمل السور العظيم حول هذا المعبد الفذ وأهم وأجمل المعابد المصرية راجع إلى المملكة الحديثة (1580 - 1090 ق. م) تحت إشراف ملوك عظام، لا يزال التاريخ يذكرهم أمثال توتموزيس الثالث والرابع، وأمينوفيس الثاني والثالث والرابع ورمسيس الأول والثاني والثالث، وسيتي الأول. ممن شيدوا القصور والمعابد التي لا يزال بعضها رمزاً لأعظم حضارة وأقدمها.

فمعابد الكرنك ش 2 و3، وأبي دوس، والأقصر ش 4، والقرنة، ومدينة جالو، والدير البحري ش 5، وأبو سنبل ش 6، وفيلا ش 7، ودندرة ش 8، وجرف حسين، كل هذه مشيدات لم تغالب الدهر فحسب، بل تحدث كل ما جاء بعدها عن مظاهر الأبهة والمدنية، ولا تزال إلى اليوم رمزاً خالداً يوحي بالعظمة الجلال. لو كان لشعب غير الشعب المصري لواصل الليل بالنهار للعود بالمجد التالد إلى عالم الوجود

ومهما يكن من شيء، فأني لم أف الموضوع حقه من العناية في سطور ضئيلة قد لا تكفي إلا لإعطاء فكرة شاملة عن المعابد المصرية إجمالاً، غير أن هذا لا يمنع من التنويه بوجوب معرفتنا لآثار بلادنا، تمهيداً لإيصال الحاضر بالماضي، حتى نكون قد أدينا رسالتنا نحو أنفسنا ونحو الوطن، ونكون قد لمسنا بعض ما ببلادنا من نواحي ووجوه للتثقيف والاستمتاع، التفت إليها الأجانب قبل أبناء مصر

احمد موسى

البريد الأدبيّ

الصحافة المصرية في معرض باريس

أذاع مندوب مصر العام في معرض باريس بياناً قال فيه (إنه لما كانت مصر ستشترك هذا العام في معرض باريس الدولي. ولما كان يحرص على أن يكون تمثيل مصر كاملاً من جميع الوجوه، فأنه لم ينس مكانة الصحافة المصرية كدعامة كبرى من دعائم رقي مصر الحديث، ولهذا فقد احتفظ لها بمكان في القسم العام المخصص لمعرض الصحافة وإذا كان لنا أن نلاحظ على هذا البيان بشيء فهو أنه جاء متأخراً، وقد كان يحسن التفكير في أمر الصحافة قبل ذلك كي تستطيع من جانبها أن تستعد للمثول في المعرض بالصورة اللائقة بها. بيد أن الفرصة ما زالت قائمة على أي حال، ولا يزال بيننا وبين افتتاح المعرض زهاء شهرين؛ وهذه فرصة حسنة لتعريف أمم العالم بالخطوات الباهرة التي استطاعت الصحافة المصرية الفتية أن تخطوها في العهد الأخير، خصوصاً وأن التبادل الصحفي بيننا وبين الأمم الغربية يكاد يكون معدوماً من الناحية المصرية، لأن اللغة العربية ليست من اللغات التي يعنى بها في مكاتب الصحافة الأوربية، وبينما تبذل صحافتنا جهوداً متواصلة لتقف قراءها على سير التطورات والحوادث الأوربية، وعلى أقوال الصحف الخارجية بصورة سخية واضحة إذا بالصحافة الأوربية لا تكاد تذكر عن مصر وأحوالها شيئاً مستقى من مصادره الأصلية اللهم إلا ما يبعث به إليها مراسلوها من وقت لآخر: فعلى صحافتنا أن تستعد لانتهاز

هذه الفرصة للمثول إلى جانب الصحافات الغربية الكبرى. والتعريف عن نفسها وعن مكانتها. ويجب عليها أن تنتهز الفرصة لتوثق روابطها مع دوائر الصحافة الغربية بصورة تلفت النظر إليها، وفي أهميتها باعتبارها مصدراً لأخبار مصر والأمم الشرقية ومرآة صادقة لتطوراتها وأحوالها يحسن الاعتماد عليها من جانب الصحافة الغربية والانتفاع بمعاونتها وجهودها

كتاب ألماني جديد عن مصر الفرعونية

ما زالت حضارة مصر القديمة تثير دهشة العالم وطلعته وتحفز العلماء والمنقبين إلى مضاعفة الجهود في سبيل الكشف عن حقائق تلك الحضارة العجيبة وأسرارها. ولعل حضارة من الحضارات العالمية الخالدة لم تظفر بمثل ما ظفرت به حضارة الفراعنة من البحوث والتآليف الجليلة، ففي كل عام تصدر عنها سلسلة حافلة من الكتب في مختلف أقطار الأرض. وقد صدر منذ أسابيع قلائل كتاب جديد بالألمانية عن حضارة مصر القديمة عنوانه (العالم من وادي النيل صور من مصر القديمة) بقلم أدولف ايرمان والدكتور ايرمان من أشهر علماء ألمانيا الأثريين، وهو اليوم في الثمانين من عمره وقد أنفق معظم حياته في المباحث المصرية القديمة ولا سيما قراءة أوراق البردي وحل رموزها وأودع كتابه الجديد الذي وضعه في مغرب حياته خلاصة جهود علمية وفنية شاقة. ويقدم إلينا ايرمان في كتابه عرضاً وافياً لأحوال مصر الفرعونية الجغرافية والتاريخية والثقافية؛ ويبدي دهشته من أن هذه الأرض الفياضة بكنوز الفن القديم والمدنية القديمة لبثت منسية حتى نهاية القرن الثامن عشر؛ ولولا نابليون وحملته لبقيت عصراً آخر في غمارها المجهولة، ويستعرض ايرمان جهود العلماء الأثريين خلال القرن التاسع عشر وما كشفت مباحثهم من الحقائق الجليلة عن حضارة مصر الفرعونية وعن تاريخها المجيد، وعن آثارها وكنوزها المدهشة، ويعني ايرمان بنوع خاص بالنواحي العقلية والاجتماعية لمجتمعات مصر الفرعونية، ويحاول أن يصور لنا هذه المجتمعات في حياتها المنزلية والاجتماعية والدينية، وفي طقوسها ورسومها وتفكيرها، وفي سائر نواحي حياتها المادية والروحية كما يصور لنا الملوكية المصرية القديمة في مواكبها وفي روعتها، في عصور الحرية. وفي عصور السلام ويعتبر كتاب ايرمان من الوجهة العلمية ثروة جديدة في تراث المكتبة المصرية الفرعونية

مجموعة ثمينة من رسائل جيته

تحتفظ مدينة فيجساك الألمانية الواقعة على نهر ويزر بمجموعة ثمينة من رسائل الشاعر الألماني الأكبر جيته كتبها بخطه، وأرسلها جميعاً إلى صديقه نيقولا مايير من أهل مدينة بريمن، وكان مايير قد زار في شبابه مدينة - فينا ودرس في جامعتها، وزار الشاعر مراراً في مقامه في فيمار، وعقدت بينهما أواصر صداقة متينة استطالت زهاء ثلاثين عاماً. واستمرت مراسلاتهما بانتظام إلى ما قبل وفاة الشاعر بنحو عامين فقط، وهذه المجموعة مما كتب جيته إلى صديقه تبلغ وحدها خمسين رسالة، تحتفظ بها مدينة فيجساك في متحفها الصغير، وهناك مجموعة أخرى من الرسائل أرسلها مايير إلى زوجه وولده. وكانت هذه الرسائل تحفظ منذ مدة طويلة في مكتبة شتراسبورج، ولما كان يهم ألمانيا أن تجمع هذه المراسلات كلها في مجموعة واحدة، فقد بذلت على يد سفيرها لدى الحكومة الفرنسية السعي اللازم لاستعارة رسائل مايير من شتراسبورج وكلل سعيها بالنجاح أخيراً، وحملت الرسائل إلى متحف فيجساك

معرض لتاريخ الدخان

مذ عرفت شجرة الدخان في سنة 1550 على يد طبيب ومكتشف أسباني يدعى ريكاردو ديلافونتي، حمله إلى أسبانيا مع النارجيلة التي كان يدخنه فيها الهنود يومئذ، وأمم العالم كلها مقبلة على تدخينه، واليوم يدخنه الشرق والغرب والشمال والجنوب والشبان والشيب، والرجال والنساء، ويرون فيه جميعاً وسيلة للترويح عن النفس ومطاردة الهموم. وقد أقيم أخيراً في باريس معرض شرح فيه تاريخ الدخان منذ اكتشافه إلى يومنا، وهو معرض (جالييرا) ويضم المعرض المذكور في واجهاته الزجاجية طائفة كبيرة من الغلايين المصنوعة من مختلف المواد في مختلف العصور،

وبعضها محلى بالذهب، مما كان يملكه بعض الملوك، ومشاهير السادة، وكذلك مجموعة مختلفة من العلب التي يوضع فيها الدخان، وتشكيلة عظيمة من مختلف السجائر في مختلف أنحاء العالم.

جيل نموذجي في ألمانيا الهتلرية

إن فكرة النسل المختار التي يدعيها ويدعو إليها زعماء ألمانيا النازية لم تعد فقط فكرة نظرية، بل خرجت إلى طور التطبيق العملي، فقد رأت ألمانيا الهتلرية أن تنشئ بالفعل جيلاً نموذجياً من الناس، وتحقيقاً لهذه الغاية أنشأت في مدينة يوناس دورف من أعمال باوتسن في سكسونيا مستعمرة خاصة بالشبان الراغبين في الزواج من أعضاء فرق الحرس الأسود، ومن المعروف أن هذه الفرق تضم الشبان الأقوياء الذين يمتازون ببسطة الجسم وحسن التكوين والملامح، ومن الجهة الأخرى فقد رئي أن ينشأ في نفس الوقت معسكر للبنات النموذجيات اللائي يصلحن ليكن زوجات لهؤلاء الشبان فأنشئ في يوناس دورف مستعمرة من مائتين وخمسين فتاة يشترط فيمن تنتظم فيها أن تكون من الآريات الخلص وأن تثبت أن الدم اليهودي لم يتسلل إلى أسرتها حتى سنة 1800، ويوقع على الراغبات خمسة كشوف طبية متعاقبة للتحقق من سلامتهن وصلاحيتهن للنسل السليم. كذلك يمتحن كل من الفريقين في مبادئ الحزب الفكري ومراميه السياسية والاجتماعية. ويزول أولئك الشابات والألعاب الرياضية المهجدة ويدربن على الأعمال المنزلية وشؤون الأمومة تدريباً حسناً، ويراعى في اختيارهن التناسب في الجسم بينهن وبين الشبان الذين يتقدمون لخطبتهن. والمفهوم أن ولاة الأمر في ألمانيا الهتلرية يفكرون في مضاعفة هذه المستعمرات تدريجياً، تحقيقاً لمشروعهم في ترقية النسل والجيل

إحياء ذكرى حافظ إبراهيم في دار الأوبرا

الآن والرسالة تتهيأ للصدور تقيم لجنة إحياء ذكرى حافظ إبراهيم حفلتها الأولى بدار الأوبرا الملكية في الساعة الثالثة والدقيقة 45 بعد ظهر يوم السبت 6 مارس سنة 1937 تحت رعاية صاحب الجلالة الملك ورياسة صاحب المعالي وزير المعارف وهذا برنامج الحفلة

قرآن كريم الشيخ محمد الصيفي

كلمة الافتتاح لحضرة صاحب المعالي وزير المعارف

1 - حياة حافظ: للأستاذ إبراهيم دسوقي أباظه
2 - قصيدة: للأستاذ أحمد الزين
3 - الاجتماعيات في شعر حافظ: للأستاذ أحمد أمين
4 - قصيدة: للأستاذ أحمد الكاشف
5 - أثر حافظ في القومية: للأستاذ أمين الغريب
6 - قصيدة: للأستاذ حسين شفيق المصري
7 - الغزل والنسيب في شعر حافظ: للأستاذ السباعي بيومي
8 - قصيدة: للأستاذ حليم دموس الشاعر اللبناني
9 - شكوى الزمان: للأستاذ حفني بك محمود
10 - قصيدة: للأستاذ خليل مطران بك
11 - حافظ والنقد: للدكتور زكي مبارك
12 - قصيدة: للشاعر علي محمود طه المهندس
13 - حافظ الكاتب: للأستاذ عباس محمود العقاد
14 - قصيدة: للأستاذ محمد الأسمر
15 - حافظ في السودان: للدكتور سعيد كنعان
16 - ذكريات شخصية: للأستاذ السيد محمد كرد علي بك
17 - قصيدة للأستاذ محمد الهراوي
18 - الوصف في شعر حافظ: للدكتور عبد الوهاب عزام
19 - حافظ العروبة: للدكتور عبد الرحمن شهبندر
20 - قصيدة للأديب محمود حسن إسماعيل
21 - السياسات في شعر حافظ: للأستاذ عبد المجيد نافع

الحفلة الثانية
وهذا برنامج الحفلة الثانية التي تقام في الساعة 3: 45 بعد ظهر يوم الأحد 7 مارس في دار الأوبرا الملكية.
قرآن كريم الشيخ محمد الصيفي
1 - حافظ واللغة: للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني
2 - قصيدة: للدكتور إبراهيم ناجي
3 - الوطنيات: للدكتور محمد حسين هيكل بك
4 - قصيدة: للأستاذ أحمد محرم يلقيها عبد القادر المسيري
5 - شخصية حافظ وفكاهاته: للأستاذ الشيخ عبد العزيز البشري
6 - قصيدة: للأستاذ بشارة الخوري شاعر لبنان
7 - لمحة عن حافظ الشاعر: للأستاذ فؤاد صروف
8 - قصيدة: للأستاذ أمين ناصر الدين الشاعر اللبناني
9 - مزايا شعر حافظ: للأستاذ عيسى إسكندر المعلوف
10 - قصيدة: للأستاذ أبي الإقبال اليعقوبي الشاعر الفلسطيني
11 - حافظ الراوية: للأستاذ محمد هاشم عطيه
12 - المديح والرثاء والتهاني: للأستاذ محمود البشبيشي
13 - قصيدة: للأستاذ فليكس فارس
14 - قصيدة: للأستاذ عبد اللطيف النشار
15 - حافظ القصصي: للأستاذ محمود تيمور
16 - قصيدة: للأستاذ احمد الغزاوي شاعر الحجاز
17 - حافظ الصديق الوفي: للأستاذ محمد فريد وجدي
18 - قصيدة: للأستاذ عزيز بشاي
19 - قصيدة: للأستاذ محمد الشريقي شاعر شرق الأردن
20 - حافظ شاعر الشرق: للأستاذ قدري حافظ طوقان
21 - قصيدة: للأستاذ محمد سعيد العباسي الشاعر السوداني
22 - مختارات لبعض الكتاب والشعراء في مصر والشرق يلقيها الأستاذ ضياء الدين الريس.
الكتب
سبأ ومأرب
رحلة في بلاد العربية السعيدة
تأليف الأستاذ السيد نزيه المؤيد العظم
للدكتور عبد الرحمن شهبندر
لقد قصر الأواخر عن الأوائل تقصيراً معيباً في وضع المدونات الجغرافية ووصف المسالك والممالك وصفاً علمياً مبنياً على ملاحظاتهم الخاصة وقائماً على وجهة نظرهم ولا سيما وصف الأقطار التي يهمنا شأنها ولنا ارتباط بها خاص؛ ومن هذه الأقطار التي تكاد تكون غفلاً من الذكر في مدوناتنا الحديثة القطر اليماني أو العربية السعيدة حتى صرنا إذا أردنا أن نلم بشيء من أخبارها وشؤونها اضطررنا إلى مراجعة ما دونه السياح الغربيون عنها أو إلى مؤلفات كتابنا من أهل القرون الوسطى. لذلك يعد هذا السفر الذي وضعه الرحالة الأستاذ نزيه المؤيد العظم تحفة ثمينة قد سدت ثغرة عظيمة في تاريخ نهضتنا الأدبية السياسية العلمية
والكتاب مكتوب بطريقة قصصية سهلة وبأسلوب سلس خال من التعقيد والتكلف يكاد من يقرأه يظن أن مؤلفه يحادثه وجهاً إلى وجه ولاسيما من عرف المؤلف معرفة شخصية وتعود سماع حديثه والطريقة التي يدلي حججه بها. وهو لم يبسط فيه أحوال اليمن بسطاً حيادياً مجرداً بل يتحين الفرص ليدلي بآرائه الشخصية ونظرياته الدينية والاجتماعية ويشير من حين إلى آخر إلى أغراض الدول المستعمرة في تلك الأرجاء ومما استوقف نظري كثيراً ملاحظة منه سبق لي أن تجرعت منها الصاب وأنا واقف على أسكلة عدن في أوائل سنة 1916، فقد حدث يومئذ أنني كنت قادماً من الهند إلى مصر وكانت معنا في الباخرة سيدة إنكليزية أرلندية ملمة ببعض الشئون السياسية فذكرت لها النهضة العربية وكيف أن العرب يعملون لإعادة مجدهم الغابر واستقلالهم

المنشود، فلما رست باخرتنا على عدن رأيت خليطاً من الغوغاء بألبسة قذرة وأصوات منكرة وحركات همجية مزرية يتقدمون إلينا على زوارق كبيرة لنقل البضائع. فصاح بعض الإنجليز من
على ظهر السفينة (عرب عرب) فجاءتني السيدة الإنكليزية مستفسرة بشيء من التعجب: (هل هؤلاء هم العرب الذين يغارون على مجدهم السابق واستقلالهم المنشود)؟ فبينت لها خطأ التسمية من إطلاق اسم جزء خاص على كل عام وأن حفاة أرلندة - وكانت أرلندة يومئذ تتحفز للثورة - ليسوا كل الأرلنديين. قال الأستاذ نزيه في ملاحظته (ومما يؤسف له أن أكثرية الوطنيين العرب - في عدن - أصبحوا خداماً للأجانب فلا يتعاطون من الأشغال إلا الدنيئة كالخدمة في المنازل وصيد السمك والحماقة ومسح الأحذية ونقل البضائع وخصوصاً الفحم والغاز من السفن التجارية إلى البر؛ وكذلك في مصر من الفرنجة والمتفرنجين من يطلق كلمة (عرب) على هذه الطبقة من الناس
وفي الكتاب ملاحظات قيمة عن الزراعة في البلاد وخصب الأرض وخدمتها والطرق الابتدائية المستعملة في استنباتها وهو يقول أن محصولات اليمن تشمل البن والتنباك والقطن، وذكر لي أن جلالة الإمام استحضر من مصر بزر (السكالاريدس) فنجح هناك نجاحاً ظاهراً ومن أغرب ما جاء في هذا الكتاب مما يخالف المألوف ولا ندري له سبباً أن تضع الحكومة المتوكلية مكساً أو رسماً جمركياً اثنين ونصفاً في المائة على الصادرات ولا تضع شيئاً على الواردات (ص 27)
وأن تعجب فعجب أن تكون اليمن وهي موطن أفخر بن لا تشرب القهوة المعمولة من ثمره وإنما تشرب مغلي قشره مما يذكرني ببلاد النمسا فهي تصنع أفخر الطرابيش لا ليلبسها النمسويون بل لتصديرها إلى بلاد الشرق. واليمنيون إذا أرادوا إكرام ضيوفهم بهذا المغلي سألوهم أتتقشرون أي أتريدون أن تشربوا القشر على قول أتتفكهون
وقد عرفنا قديماً أن نساء اليمن في الأرياف يلبسن القبعات القش ولكن المؤلف رآهن في حفلة عرس سافرات (وبعضهن كن عاريات إلا من مئزر بسيط، وبعضهن كن لابسات أكماماً قصيرة - ديكولتيه - وبعضهن وضعن على رؤوسهن حجاباً أسود، وبعضهن وضعن فوق هذا الحجاب قبعة مصنوعة من قش القمح أو الشعير ذات حجم كبير لترد أشعة شمس تهامة المحرقة وهي من صنعهن، وقد علمتهن الحاجة التي هي أم الاختراع ألا يتقيدن بعادة وقانون بل يلبسن ما يوافق محيطهن واحتياجهن)
ويخيل إلى من يقرأ هذا الكتاب أن البلاد تحت نوع من الأحكام العرفية أو أن أهاليها في
مدرسة ليلية أو في سجن إصلاحي لأن السير في طرقاتها من بعد ساعة معينة من الليل محظور، فقد جاء في الصفحة 49 (وفي هذه الساعة الرهيبة - يعني بعد تناول العشاء - لا يسمع المرء في بلاد اليمن من أقصاها إلى أقصاها إلا نداء الجنود في ثكناتهم وقلاعهم وحصونهم (وامتوكلاه) - على طريقة بادشاهم جوق باشا في الدولة العثمانية - وبعدئذ يضرب بوق النوم فيذهب جميع أهل المدن إلى النوم ويصبح الخروج من المنازل إلى الأزقة والشوارع محظوراً على الجميع عدا الجند)
وأعجبني جد إعجاب إلغاء الرق في بلاد اليمن ومنع الأتجار بالعبيد فلم يجد المؤلف لهذا الوضع أثراً في تلك الأنحاء بل قال في الصفحة 50 (إن الإمام حفظه الله منع هذه التجارة منذ تولى الحكم، وكان عنده عبد يدعى صمصام فأعتقه لوجه الله وزوجه من فتاة كانت في خدمته ووظفه في إحدى الوظائف)
وكل كتاب عن اليمن لا يذكر النبات المخدر الذي يدعى (قاتاً) لا يكون مستوفياً للشروط، فالقات عند اليمنيين لا يقل شأناً عن الوسكي عند الإنكليز والبوزه عند السودانيين، وهو له مجالس خاصة ينهمك المجتمعون فيها بمضغه، وأمام كل واحد منهم رزمة كبيرة منه والى جانبها إبريق من فخار ومبصقة من فضة؛ أما الإبريق فيستعملونه لغرغرة أفواههم من حين إلى آخر، وأما المبصقة فلطرح أوراق القات بعد مضغه. ويدوم هذا المجلس من بعد الغداء حتى المساء، ويسمى هذا النبات بالإنكليزية (كانا أديوس) وفيه مادة مخدرة تؤثر في الأعصاب فيشعر من يمضغه براحة وبسط وانشراح
ثم ذكر الأستاذ نزيه أضراره فقال (أنه يقلل من شهية الإنسان للطعام ويزيد فيه الميل

إلى شرب الماء ويضر بالأسنان ويسودها، وبالمعدة فيقلل من عصيرها وبالنسل فيضعفه. وبالرغم من جميع هذه المضار وبالرغم من علم أهل اليمن بها فهم يمتدحونه وينشدون القصائد في مزاياه ويستعملونه بأجمعهم ماعدا صاحب الجلالة الإمام يحيى فقد منعه طبيبه الخاص من استعماله منذ عدة سنوات ولا يزال جلالته ممتنعاً عنه إلى اليوم)

ومن دواعي الأسف أن يضيع اليمنيون ثروتهم وصحتهم في هذا المخدر الضار حتى أن الذي يشتغل منهم في نهاره كله بفرنك واحد يصرف معظمه على القات. ويغرس شجره كما يغرس البن في الأودية المرتفعة التي لا تتعرض لحرارة الشمس الحادة إلا بضع

ساعات في اليوم، وهو أثمن نبات في اليمن على الإطلاق؛ وتساوي الرزمة الصغيرة من أغصانه نحو ثلاثة فرنكات

ولا يفوتها أن نذكر هنا ما لحظناه من وجود إيطاليين موظفين في الحكومة المتوكلية من أطباء وغيرهم فالأطباء الموجودون هناك الآن من الطليان وقد أتوا إلى اليمن عقب زيارة والى أسمرة السنيور غاسبريني إليها وعقد المعاهدة مع الإمام وهم يتناولون رواتب تبلغ ستين جنيهاً شهرياً للواحد منهم وبيدهم مستشفى الحديدة ومستشفى صنعاء وكذلك التلغراف اللاسلكي في صنعاء فهو بيدهم ومن تأسيسهم بأمر الإمام منذ بضعة أعوام.

وذكر حاخام اليهود الأكبر في صنعاء واسمه يحيى اسحق للمؤلف أنه كان لليهود مملكة عظيمة في اليمن إلى الشرق من صنعاء أسسها سليمان بن داود وربما كانت هذه المملكة في نجران وأن اليهود في صنعاء ذكوراً وإناثاً يبلغون زهاء عشرين ألف نسمة لهم 15 مدرسة و19 كنيساً وهم يمارسون شعائرهم الدينية كما يشتهون ويطبقون شريعتهم الموسوية كما يرغبون ويعلمون أبناءهم العبرية دون العربية.

وعرف المؤلف أن للصهيونيين مخابرات طويلة عريضة مع صنعاء وأن لهم صناديق للإعانة في كل دار من دور اليهود في معظم مدن اليمن والإسرائيلي الذي يريد أن يتصدق بشيء مهما كان زهيداً يضعه في هذا الصندوق، ورب الدار ليس مأذونا بفتحه بل يفتحه وكيل الجمعية في كل شهر ويخرج ما فيه ويرسله إلى صندوق الجمعية الصهيونية في القدس واسمه صندوق الأمة، قال المؤلف: (حبذا لو كان زعماء الحركة الوطنية في الشرق يقتدون باليهود ويأخذون هذا الدرس عنهم.)

هذه لمحة مستعجلة عن الجزء الأول من هذه الرحلة المباركة ولكن العمل الخطير والاكتشاف الأثري العظيم هو في الجزء الثاني حيث يدون المؤلف رحلته إلى بلاد سبأ وسد مأرب فيذكر كيف حصل على الإذن من جلالة الإمام بالسفر إلى تلك الأنحاء المحفوفة بالمهالك والمخاطر ويذكر الجنود الذين ساروا لحمايته من التعدي مما لم يسبق له مثيل ولم يحصل عليه أحد قبله. وكانت بداءة هذه الرحلة إلى مأرب في اليوم السادس والعشرين من يناير سنة 1936 إذ ترك صنعاء وسار مشرقاً فدخل في واد يدعى (وادي السر) ومنه سار إلى قرية (القمعة) فقرية (آل الوزير) فوادي (حريب) فصرواح فقرية تدعى محترجة وهي

آخر قرية يسكنها اليهود في شرق صنعاء وهكذا حتى وصل سد مأرب، ووصف ما رأى في طريقه من آثار ومعادن ونباتات وأشجار فقال عن المعادن مثلاً والحديد من جملتها أنها كثيرة ومتنوعة، ونقل الكتابة الحجرية الموجودة حول جدران قصر (صرواح) بخط يده وعرضها على من ترجمها له من المستشرقين الألمان ومن الأخصائيين المصريين في القاهرة وكان وصوله إلى مأرب في اليوم التاسع والعشرين من يناير سنة 1937 بعد الظهر أي بقي على الطريق نحو أربعة أيام كأن المسافة كلها بين صنعاء ومأرب 120 كيلو متراً، ولما وصل إلى مدينة مأرب هو وعامل الإمام يحيى والجنود استقبلهم الأهلون بالطبول والأناشيد. وبعد ذلك نرى في الكتب صوراً ثمينة للسد وجدرانه القائمة وأبوابه الواسعة والخطوط الموجودة على أحجاره وصفاً دقيقاً لمجاري المياه وكيف تتجمع وتتوزع ومن أين تأتي، والجنتان اللتان كانتا تشربان منه والأشجار الباقية من خمط وسدر وائل مما ينطبق كل الانطباق على ما ورد في القران الكريم

وقصارى القول أن هذه الجولة الأثرية في بلاد مجهولة عندنا هي ذات قيمة علمية من الطراز الأول يهنأ عليها الأستاذ نزيه المؤيد العظم ولا سيما أن بعض الأوربيين الذين

وصلوا إلى تلك الأرجاء لم يتمكنوا من رؤية جزء صغير مما رآه سائحنا العربي بالنظر إلى المخاوف التي كانوا معرضين لها؛ ونعد عمله بادرة من بوادر نهضتنا العلمية العملية المباركة

عبد الرحمن شهبندر

العالم المسرحي والسينمائي

على مسرح الأوبرا الملكي

صورة في الرخام

لناقد (الرسالة) الفني

هي باكورة أعمال الآنسة (هلزل اليس) الممثلة الإيرلندية تنبئ عن مستقبل باهر واستعداد طيب للنبوغ وليست القصة في المستوى العالي من التأليف ولكن حوارها قوي بديع يدل على أن الكاتبة تلم بأمور المسرح إلماماً تاماً وإن كانت بعض الشخصيات غير كاملة التصوير لأن الكاتبة لم تترك إلى جانب شخصية اللورد بيرون فراغاً تكتمل فيه الشخصيات الأخرى

والقصة التمثيلية تصور حياة اللورد بيرون الشاعر الإنجليزي العظيم بين النساء وتشرح بعض نزواته وأخلاقه ونظرته في الحياة وما أحاط باسمه من إشاعات لم يكن يبالي بدفعها عنه بل يترك الأمور تتفاقم حتى يجري اسمه على كل لسان؛ كما تصور حبه لبلاد اليونان التي مات محموماً أثناء الدفاع عن حريتها

موجز القصة

اللورد بيرون ثائر ساخط متبرم بكل شيء لا يعبأ بأحد وأصدقاؤه في بيته يتحدثون عن تصرفاته مع العظماء، فهذا رئيس مجلس اللوردات يأتيه راجياً أن يكتب فيه بيتين من الشعر في عمل مجيد أداه فيرده خائباً لأنه يرى أن الإنسان لا يستحق المديح على واجب أتاه. ويدخل بيرون ويتحدث عن حياته ويقول إنه سوف يجعل اسمه يجري على كل لسان ويحدث أصدقاءه عن بلاد اليونان وعن حبه لها وألمه لأنها لا تتمتع بحريتها. وما يكاد يتم أقواله حتى تأتيه رسالة بموت أحب أصدقائه إلى نفسه فيصدم وينفجر مقهقهاً

فإذا كان المنظر الثاني رأينا حفلة راقصة يغشاها أشهر النساء وأجملهن ويجيء بيرون متأخراً قليلاً ويعتذر، وإذ يقف بعيداً إلى جانب الباب تقدم ربة الدار ضيوفها إليه فيذهب النساء إليه في مكانه كأنه ملك. هذا التصرف يغيظ السيدة (كارولين لامب) التي ما تكاد تتقدم إليه حتى ترتد راجعة فيفهم بيرون كبرياءها ويهمس في أذن إحدى صديقاته بأن سيجعل هذه السيدة تركع عند قدميه قبل انقضاء يوم واحد

ويدخل الجميع يستمتعون بالرقص عدا الليدي كارولين ويعود بيرون إلى لقاعة وتدور مناقشة حادة بين الاثنين؛ وهنا تبرز قوة الكاتبة موهبتها في الحوار وتنتقل من موضوع إلى موضوع، وفجأة يطوقها بيرون بذراعيه ويقبلها فلا تمانع وهكذا يبدأ حب هذه السيدة لبيرون وهو في الحقيقة لا يحفل بها!!

فإذا كان الفصل الثاني رأينا أصدقاء بيرون في بيته يتحدثون عن سلوكه غير المرضي فهو جعل السيدة (كارولين لامب) تجن به حباً وتجري وراءه، ويرى أحدهم أن الذنب ليس ذنبه فهو قد قطع كل علاقة بها ولكنها تلاحقه في الطرقات. ويجيء بيرون فيحدثونه في أمر هذه السيدة فيقول إنه أرسل إليها خطاباً يقطع كل علاقة له بها ويخبرهم أنه نوى الزواج بالآنسة (أنا بل ميلبانك) فيسأله صديق عما إذا كان يحبها فيقول: (ليس حباً عميقاً)

ويجيء الخادم يعلن أن سيدة تصر على مقابلة اللورد فيرفض أن يستقبلها ولكن أمام الإلحاح يخرج إليها ويعود بعد لحظة يرجو أصدقاءه أن ينتظروه في غرفة مجاورة حتى يفرغ من حديثه مع هذه السيدة. وتدخل كارولين لامب وتحاول أن تعيده إليها فيرفض ويصرح لها بأنه ينوي أن يتزوج من الآنسة (ميلبانك) ويطلب إليها أن تذهب إلى بيتها فلا تتحرك وإذ هو يستدعي الخادم ليحضر لها عربة تهجم عليه تريد أن تطعنه بخنجر ولكنه يتمكن من أن يمسك يدها ويثور فيقدم الخادم والأصدقاء

وفي المنظر الثاني نرى زوجة بيرون تشكو إلى صديقة لها سلوك زوجها وأنها تنوي الانفصال عنه فتنصحها هذه بالتريث من أجل ابنتها وأن عملاً كهذا يهدم حياة الشاعر العظيم ويقضي عليه، وتصرح الزوجة بأنها سمعت إشاعة مخزية عن علاقة اللورد

بيرون بأخته (أوجستا) ولكن الصديقة تتمكن من تبديد شكوك الزوجة ويدخل بيرون، وسرعان ما يقوم الشجار بينه وبين زوجه، فتراها تبكي وتنتحب فيتأثر ويتقدم إليها مدللاً وبعد قليل يراجع البريد وتستوقفه رسالة من شقيقته ويخبر زوجه أنها تنوي القدوم إليهما لقضاء بضعة أسابيع فتثور الغيرة في نفس الزوجة وتطلب منه أن يرفض قبولها في بيته فيحاول

أن يعرف السبب فتمتنع أولاً ولكنها تشير في النهاية إلى الإشاعة التي ترد على الألسنة وتطلب إليه أن يكذب هذه الإشاعة فتصدقه. وكعادته يرفض ويجيب بأنه ليس في حاجة إلى تصديقها فتريد الاطلاع على الخطاب فيرفض فتحاول أن تختطفه فيصرخ في وجهها ويحرق الخطاب ويلقيه في المدفأة.

فإذا كان الفصل الثالث رأينا بيرون واقفاً إلى جانب النافذة يرى الجماهير محتشدة أمام بيته ثائرة ويشير عليه أحد أصدقائه بالابتعاد عن النافذة حتى لا تصيبه أحجار الغوغاء ويبدي بيرون عجبه من الشعب فهو لم يؤذه ولم يسئ إليه ومع ذلك يريد هذا الشعب أن يفتك به. ويطلب بيرون إلى الخادم أن يحمل رسالة إلى زوجته في بيت والدها ويذهب الخادم ويجيء أصدقاء بيرون ويقولون أنهم شقوا طريقهم وسط كتل بشرية ويحدثهم بيرون بأن بلاده هي اليونان ويتحدث عن جمالها وعن آماله في أن تثور وتحطم القيود التي تغلها. ويجيء الخادم يقول أن الزوجة رفضت أن تجيب على الرسالة وأنها تطلب من بيرون ألا يحاول مقابلتها أو الكتابة إليها فيصدم بيرون وتسمع بعد قليل أصوات باعة الصحف ويعرف بيرون من خادمه أن اليونان ثارت على تركيا مطالبة بحريتها.

وفي المنظر الثاني من الفصل الثالث نرى بيرون في بيته يستعد للرحيل ويأتي أصدقاءه فيخبرهم بأنه سيسافر إلى اليونان متطوعاً ليحارب في صفوفهم ويتركهم إلى تلك البلاد التي أحبها والتي قضى نحبه محموماً أثناء الدفاع عن حريتها.

الإخراج والتمثيل

لم يعمد المخرج في هذه الرواية إلى الطريقة الإيحائية التي ألفناها منه بل عمد إلى تركيز إخراجه في منظر واحد وجعل أجزاء من حوائط هذا المنظر تتبدل فيتبدل المنظر بها، وهكذا استطاع أن يخلق من المنظر الواحد مناظر متعددة. والإضاءة كانت غاية في الدقة والروعة ولون المنظر أزرق داكن يلتئم مع جو الرواية

مثل المستر ميكائيل ماك ليمور اللورد بيرون فسما به وكان بديعاً جداً، وإنني أعد هذا الدور من خير أدواره التي رأيتها خلال هذا الموسم والموسم الماضي ولقد شاهدت كثيراً من الإنجليز يهنئون الممثل على إجادته، وبين هؤلاء المستر سكيف الأستاذ بالجامعة المصرية فقد كان إعجابه بالتمثيل أكثر من إعجابه بالرواية نفسها. ومثلت الآنسة (ميريل

مور) السيدة كارولين لامب فأدته بنجاح، ووفق بقية الممثلين في تأدية أدوارهم وهكذا رفع التمثيل والإخراج هذه الرواية.

مدرسة الفضائح

ريتشرد برينسلي شريدان وأوليفر جولد سمث من أعلام الكوميدي الإنجليزي القديم وقد رأت فرقة دبلن جيت أن تخرج هذه الرواية لأن مؤلفها إيرلندي ولأنها من أحب الروايات إلى شعب الإمبراطورية. فهي تصور ناحية من نواحي المجتمع الإنجليزي في الربع الأخير من القرن الثامن عشر وكيف كانت المجتمعات بؤراً تفرخ فيها الإشاعات وتنتشر على الألسنة وكيف كانت المخازي والفضائح تدبر وكيف كان الناس يخدعون بالظواهر فالرجل الذي يرون في سلوكه ما لا يرضيهم يعد شقياً سيئ السلوك في حين أن من يأتي النقائص في الخفاء يكون موضع التجلة والإكبار، فالشعب كان يخدع ويحكم على الأمور بظواهرها

والرواية ليست جديدة على المصريين إذ سبق للمسرح المصري أن أخرجها باسم (مدرسة النميمة) في مستهل النهضة المسرحية فلاقت نجاحاً كبيراً. وأعتقد أن مثل هذه الرواية التي تقوم على المفاجئات والمواقف الكوميدية يفسدها التلخيص ويمسخها

أخرج الرواية المستر إدواردز وقام بدور بيتر تيزل فكان خفيف الظل عذب الروح مما جعل رواد المسرح يضجون بالضحك؛ ومثل المستر ماك ماستر دور شارلز سيرفيس

فملأ الشخصية حياة وكان بديعاً في أكثر مواقفه كما أجادت الآنسة (آن كلارك) دور لادي تيزل.

يوسف تادرس

العدد 193 - بتاريخ: 15 - 03 - 1937

جميل صدقي الزهاوي

بمناسبة ذكراه الأولى

(2)

ولد الزهاوي في يوم الأربعاء الثامن عشر من شهر يونيو سنة 1863 ببغداد لأبوين كرديين كريمين تميزت أسرتهما بالدين والفقه والأدب، فقد كان أبوه محمد فيضي الزهاوي مفتياً لدار السلام وأخوه فقيها من فقهائها، فنشأ بين أبيه وأخيه يرتاض عقله ليتثقف، ويرتاش خياله ليطير؛ ولكن أخاه كما حدثني جميل، كان حثر اللسان لا يتذوق الأدب؛ فكان يذوده عن رواية الشعر، ويصده عن دراسة اللغة، ويأبى عناده هو وتسامح أبيه إلا أن يديم النظر في الأدب، ويروض القريحة على القريض. كان هم أخيه وأمل أبيه أن يستقيم على عمود أسرته فيكون صاحب قضاء وفقه، ولكنه استقام على محتوم طريقته فكان صاحب دعوة وفلسفة. والاستعداد الموهوب في الطبع هو مشيئة الخالق في الخلق، جعل من الزهاوي أبا العلاء فقد كان أهله يريدونه أبا حنيفة؛ وجعل من الرصافي أبا نواس وألالوسي رحمه يريد أن يبعث في معروف الرصافة معروف الكرخ!

كان العراق أيام نشأ الزهاوي تركي السلطان سني الحكومة، فالتعليم المدني فيه كان تابعا في لغته وطريقته وغايته لسياسة الأجنبي وهواه، فلم يخرج إلا رجال جيش يخضعون للنظام، أو رجال إدارة يذعنون للحكم. أما التعليم الديني فقد ظل في صحون الجوامع على ما عهده الناس، عربي اللسان حر النزعة طريق الفكرة مستقل الغاية. وطبيعة هذا النوع من التعليم الجدلي المطلق أن يخلق المجاهل لشعور البليد فيظل، ويكشف الآفاق للفكر النافذ فيبلغ، ويساعد الجبلة في الإنسان على حسب الاستعداد فتعلوا أو تهبط؛ فهو يساعد الهمة القاعدة على السقوط، والنفس القانعة على القنوط، والذهن المبطئ على التخلف، كما يساعد العقل الحائر على التزندق، والطبع القلق على التمرد، والإدارة المستقلة على الزعامة. ورجال الثورة والإصلاح في تاريخنا الحديث كانوا جميعا من أهل هذه الثقافة، كالأفغاني، وعرابي، ونديم، ومحمد عبده، وسعد زغلول، والكواكبي، والزهراوي، والزهاوي، ومن إليهم. والنابهون من أهل هذه الثقافة لا ينفكون دائبين على القراءة والتتبع والمشاركة ليدفعوا عن أنفسهم معرة القدم. وهم عسيون إذا جددوا أن يفسروا في التجديد كذا العاهة يدفعه النفور من ذلة الضعف إلى الإفراط في العسف والتجبر.

فالزهاوي الجريء بطبعه، الطموح باستعداده، تثقف بهذه الثقافة، ثم تنفست على أعصابه الشاعرة أمواج العروبة ترسلها على بغداد الصحارى الملهمة؛ ثم نزعه عرق العم والخال من الكردية فجاهد وجالد وغامر؛ والكرد كالعرب إن لم يكونوا من العرب؛ ثم ابتلى وهو في الخامسة والعشرين من عمره بداء في النخاع الشوكي لازمه بقية حياته، ورما بعد ذلك بالشلل في رجله فبرم واكتأب وتشاءم؛ ثم مني من عصره بفساد السلطان واستطالة الجهل وانحلال الخلق، فدفعته هذه العوامل كلها إلى موقف المصلحين من الإنذار والتضحية.

رأى وهو في الأستانة عبد الحميد يلقي الأحرار مغلولين في غيابة السجن أو في قاع البحر فأرسل إليه مع رسبوتينة أبي الهدى قصيدة منها:

أيأمر ظل الله في أرضه بما ... نهى الله عنه والرسول المبجل
فيفقر ذا مال وينفى مبرأ ... ويسجن مظلوماً ويسبى ويقتل
تمهل قليلا لا تغظ أمة إذا ... تحرك فيها الغيضل لا تتمهل
وأيديك إن طالت فلا تختر بها=فإن يد الأيام منها أطول

فسجنه حيناً ثم نفاه.

وسمع وهو عضو في (مجلس المبعوثان) عن بغداد مقرر الميزانية يذكر في وزارة الحربية مبلغاً جسيما من المال جعلوه لقراءة البخاري في الأسطول. فقال: أنا أفهم أن يكون هذا المبلغ في ميزانية الاوقاف، أما في الحربية فالمفهوم أن الأسطول

يمشي بالبخار لا بالبخاري. فثار عليه المجلس وشغب عليه العامة.
ورأى ما تعانيه المرأة من عنت الاستعباد والاستبداد والجهل، فهب لإيقاظها ونصرتها، حتى كتب في (المؤيد) مقاله المشهور: (المرأة والدفاع عنها) فزلزل الناس في بغداد وفي غير بغداد، فسعوا به إلى ولاة الأمر ليعزلوه، وحرشوا عليه دهماء الشعب ليقتلوه، فاضطر إلى لزوم داره.
ونظم في أعقاب عمره (ثورة في الجحيم) ففزع المتزمتون من شرها إلى الملك فيصل؛ فلما كلمه في ذلك قال: ماذا اصنع يا مولاي؟ عجزت عن إضرام الثورة في الأرض فأضرمتها في السماء!
لم يخلد الزهاوي إلى التبطل، ولم يعش على مروءات الناس كأكثر أهل الشعر، وإنما غامر في خطير الأمور، وطمح إلى بعيد المدارك، فملأ حياته بالأمل الدافع والعمل المثمر: عيين في بغداد عضواً في مجلس المعارف، ثم مديراً لمطبعة الحكومة، ثم محرراً للجريد الرسمية، ثم انتخب عضوا في محكمة الاستئناف. ودعاه الخليفة حين نبه ذكره إلى الأستانة فحرك فيها لسان النقد، واقض بها مضاجع الجاسوسية، فانتقض أمره وساء مقامه. فلما أعلن الدستور عين أستاذاً للفلسفة الإسلامية في (المكتب الملكي)، ثم مدرساً للآداب العربية في (دار الفنون)؛ ثم عاد إلى بغداد فعين أستاذاً للشريعة في مدرسة الحقوق، ثم انتخب نائباً عن العراق في مجلس المبعوثان؛ وهو في خلال ذلك كله حركة ذهنية دائرة، وجملة عصبية ثائرة، لا يفتر ليله عن الشعر أو القراءة، ولا يكل نهاره عن الحديث أو الكتابة، حتى غُلب الترك وأديل منهم في بغداد للعرب، فكان الشأن لأصحاب الجيش وأقطاب السياسة؛ أما الزهاوي وأمثاله من رجال الفكر والشعر فاتخذوا طريقهم على الهامش. وكان الشاعر قد ألقى للمجد معاذيره من السراق القوى واستحكام العلل، فبات يرسل الأقباس والأضواء من جسمه المتهدم وقلبه المتضرم حتى خمد.
(للكلام بقية)
أحمد حسن الزيات
أبو حنيفة
ولكن يغير فقه
للأستاذ مصطفى صادق الرافعي
قد انتهينا في الأدب إلى نهاية صحافية عجيبة، فأصبح كل من يكتب ينشر له، وكل من ينشر له يعد نفسه أديبا، وكل من عد نفسه أديبا جاز له أن يكون صاب مذهب وأن يقول في مذهبه ويرد على مذهب غيره
فعندنا اليوم كلمات ضخمة تدور في الصحف بين الأدباء كما تدور أسماء المستعمرات بين السياسيين المتنازعين عليها، يتعلق بها الطمع وتنبعث لها الفتنة وتكون فيها الخصومة والعداوة، منها قولهم: أدب الشيوخ وأدب الشباب؛ ودكتاتورية الأدب وديمقراطية الأدب، وأدب الألفاظ وأدب الحياة، والجمود والتحول، والقديم والجديد. ثم ماذا وراء ذلك من أصحاب هذه المذاهب؟
وراء ذلك أن منهم أبا حنيفة ولكن بغير فقه، والشافعي ولكن بغير اجتهاد، ومالك ولكن بغير رواية، وابن حنبل ولكن بغير حديث. أسماء بينها وبين العمل أنها كذب عليه وأنه رد عليها. وليس يكون الأدب أدباً إلا إذا ذهب يستحدث ويخترع على ما يصرفه النوابغ من أهله حتى يؤرخ بهم فيقال أدب فلان وطريقة فلان ومذهب فلان، إذ لا يجري الأمر فيما علا وتوسط ونزل إلا على إبداع غير تقليد، وتقليد غير اتباع، واتباع غير تسليم؛ فلا بد من الرأي ونبوغ الرأي واستقلال الرأي حتى يكون في الكتابة إنسان جالس هو كاتبها، كما أن الحيَّ الجالس في كل حي هو مجموعه العصبي، فيخرج ضرب من الآداب كأنه نوع من التحول في الوجود الإنساني يرجع بالحياة إلى ذرات معانيها، ثم يرسم من هذه المعاني مثل ما أبدعت ذرَّاتُ الخليقة في تركيب من تركيب، فلا يكون للأديب تعريف إلا أنه المقلد الإلهي.
وإذا اعتبرنا هذا الأصل فهل يبدأ الأدب العربي في عصرنا أو ينتهي؛ وهل تراه يعلو أو ينزل؛ وهل يستجمع أو ينفض؛ وهل هو من قديمه الصريح بعيد من بعيد أو قريب من قريب أو هو في مكان بينهما؟

هذه معان لو ذهبتُ أفصلها لاقتحمت تاريخاً طويلا أمر فيه بعظام مبعثرة في ثيابها لا في
قبورها. . . ولكن موجز مقتصر على معنى هو جمهور هذه الأطراف كلها، وإليه وحده يرجع ما نحن فيه من التعادي بين الأذواق والإسفاف بمَنَازع الرأي والخلط والاضطراب في كل ذلك؛ حتى أصبح أمر الأدب على أقبحه، وهم يورنه على أحسنه، وحتى قيل في الأسلوب أسلوب تلغرافي، وفي الفصاحة فصاحة عامية، وفي اللغة لغة الجرائد، وفي الشعر شعر المقالة، ونجمت الناجمة من كل علة، ويُزَيَّن لهم أنها القوة قد استحصفت واشتدت، ونازع الأدب العربي إلى سخرية التقليد وإلى أن يكون لصيقاً دَعياً في آداب الأمم، واستهلكه التضييعُ وسوء النظر له على حين يؤتى لهم أن كل ذلك من حفظه وصيانته وحسن الصنيع فيه ومن توفير المادة عليه
أين تصيب العلة إذا التمستها؟ أفي الأدب من لغته وأساليب لغته، ومعانيه وأغراض معانيه؟ أم في القائمين عليه في مذاهبهم ومناحيهم وما يتفق من أسبابهم وجواذبهم؟ إن تقل إنها في اللغة والأساليب والمعاني والأغراض، فهذه كلها تصير إلى حيث يراد بها، وتتقلد البليَّة من كل من يعمل فيها؛ وقد استوعبت واتسعت ومادَّت العصور الكثيرة إلى عهدنا فلم تؤت من ضيق ولا جمود ولا ضعف. ثم هي مادة ولا عليها ممن لا يحسن أن يضع يده منها حيث يملأ كفهُ أو حيث تقع يده على حاجته
وإن قلت إن العلة في الأدباء ومذاهبهم ومناحيهم ودواعيهم وأسبابهم، سألناك: ولمَ قصروا عن الغاية، ولم وقعوا بالخلاف، وكيف ذهبوا عن المصلحة، وكيف اعتقمت الخواطر وفسدت الأذواق مع قيام الأدب الصحيح في كسبه مقام أمة من أهله أعراباً وفصحاء وكتَّاباً وشعراء؛ ومع انفساح الأفق العقلي في هذا الدهر واجتماعه من أطرافه لمن شاء؛ حتى لتجد عقول نوابغ القارات الخمس تحتقب في حقيبة من الكتب، أو تُصَندَقُ في صندوق من الأسفار
كيف ذهب الأدباء في هذه العربية نشراً متبددين تعلو بهم الدائرة وتهبط، فكل أعلى وكل اسفل. هذا فلان شاعر قد أحاط بالشعر عربيه وغربيه وهو ينظمه ويفتن في أغراضه ويولد ويسرق وينسخ ويمسخ، وهو عند نفسه الشاعر الذي فقدته كل أمة من تاريخها، ووقع في تاريخ العربية وحدها ابتلاء ومحنة؛ وهو ككل هؤلاء، المغرورين يحسبون أنهم لو كانوا في لغات غير العربية لظهروا نجوما، ولكن العربية جعلت كلا منهم حصاة بين
الحصى. وتقرأ شعره فإذا هو شعر تتوهم من قراءته تقطيع ثيابك، إذ تجاذب نفسك لتفر منه فراراً.
وهذا فلان الكاتب الذي والذي. . . والذي يرتفع إلى أقصى السموات على جناحي ذبابة.
وهذا فرعون الأدب الذي يقول: أنا ربكم الأعلى. وهذا فلان وهذا فلان.
أين يكون الزمام على هؤلاء وأمثالهم ليعرفوا ما هم فيه كما هم فيه، وليضبطوا آراءهم وهواجسهم، وليعلموا إن حسابهم عند الناس لا عند أنفسهم، فالواحدة منهم واحدة وإن توهموها مائة وتوهمها بعضهم ألفاً أو ألفين. ومتى قال الناس: غلطوا فقد غلطوا، ومتى قالوا: سخفاء فهم سخفاء.
وأين الزمام عليهم وقد انطلقوا كأنهم مسخرون بالجبر على قانون من التدمير والتخريب، فليس فيهم إلا طبيعة مكابرة لا إقرار منها، باغية لا إنصاف معها. نافرة لا مساغ إليها. متهمة لائقة بها، طبيعة يتحول كل شئ فيها إلى أثر منها كما يتحول ماء الشجر في العود الرطب المشتعل إلى دخان أسود.
يرجع هذا الخلط في رأيي إلى سبب واحد: هو خلط العصر من إمام بالمعنى الحقيقي يلتقي عليه الإجماع ويكون ملء الدهر في حكمته وعقله ورأيه ولسانه ومناقبه وشمائله، فان مثل هذا الإمام يُخَصُّ دائما بالإرادة التي ليس لها إلا النصر والغلبة، والتي تعطي القوة على قتل الصغائر والسفاسف؛ وهو إذا ألقى في الميزان عند اختلاف الرأي، وُضع فيه بالجمهور الكبير من أنصاره والمعجبين بآدابه، وبالسواد الغالب من كل الفاعليات المحيطة به والمنجذبة إليه؛ ومن ثم تتهيأ قوة الترجيح ويتعيَّن اليقين والشكر. والميزان اليوم فارغ من هذه القوة فلا يرجح ولا يعيَّن ومكانة هذا الإمام تحدُّ الأمكنة، ومقداره يزن المقادير، فيكون هو المنطق الإنساني

في اكثر الخلاف الإنساني: تقوم به الحجة فتلزم وإن أنكرها المنكر، وتمضي وإن عاند فيها المعاند، ويؤخذ بها وإن أصر المصر على غيرها. لن بالإجماع على القياس يَبين التطرف في الزيادة أو التقصير؛ والإجماع إذا ضرب ضرب المعصية بالطاعة، والزيغ بالاستقامة، والعناد بالتسليم؛ فيخرج من يخرج وعليه وَسمُهُ، ويزيغ من يزيغ وفيه صفتُه، ويصرُّ المكابر واسمه المكابر ليس غير وإن هو تكذَّبَ وتأولَّ، وإن زعم ما هو زاعم

ولكل القواعد شواذٌ ولكن القاعدة هي إمام بابها؛ فما من شاذٍّ يحسب نفسه منطلقاً مخلّى، إلا هو محدود بها مردود اليها، متصّل من أوسع جهاته بأضيق جهاتها؛ حتى ما يعرف إنه شاذ إلا بما تعرف به أنها قاعدة؛ فيكون شأنه في نفسه بما تعّين هي له على مكرهته ومحبته

والإمام ينبث في آداب عصره فكراً ورأياً، ويزيد فيها قوة وإبداعاً، ويزين ماضيها بأنه في نهايته، ومستقبلها بأنه في بدايته. فيكون كالتعديل بين الأزمنة من جهة، والانتقال فيها من جهة أخرى؛ لأن هذا الإمام إنما يختار لإظهار قوة الوجود الإنساني من بعض وجوهها ولإثبات شمولها وأحاطتها كأنه آية من آيات الجنس يأنسُ الجنس فيها إلى كماله البعيد، ويتلقى منه حكم التمام على النقص، وحكم القوة على الضعف، وحكم المأمول على الواقع، ويجد فيه قومه كما يجدون في الحقيقة التي لا يكابر عندها متنطع بتأويل، وفي القوة التي لا يخالف عندها مبطل بعناد، وفي الشريعة التي لا يروغ منها متعسف بحيلة. ولن يضل الناس في حق عرفوا حده، فان ما وراء الحد هو التعدي؛ ولن يخطّوا في حكم أصابوا وجهه، فإن ما عدا الوجه هو الخلاف والمراء.

وقد طبع الناس في باب القدوة على غريزة لا تتحول، فمن انفرد بالكمال كان هو القدوة، ومن غلب كان هو السمت، ولابد لهم ممن يقتاسون به ويتوازنون فيه حتى يستقيموا على مراشدهم ومصالحهم، فالإمام كأنه ميزان من عقل، فهو يتسلط في الحكم على الناقص والوافي من كل ما هو بسبيله، ثم لا خلاف عليه إذ كانت فيه أوزان القوى وزناً بعد وزن، وكانت فيه منازل أحوالها منزلة بعد منزلة.

هو إنسان تتخير بعض المعاني السامية لتظهر فيه بأسلوب عملي، فيكون في قومه ضرباً من التربية والتعليم بقاعدة منتزعة من مثالها مشروحة بهذا المثال نفسه، فإليه يرد الأمور في ذلك وبتلوه يتلى وعلى سبيله ينهج، فما من شئ يتصل بالفن الذي هو إمام فيه، إلا كان فيه شئ منه؛ وهو في ذلك متصل بقوى النفوس كأنه هداية فيها لأنه بفنه حكم عليها. فيكون قوة وتنبيهاً وتسهيلا وإيضاحاً، وإبلاغاً وهداية، ويكون رجلا وإنه لمعان كثيرة، ويكون في نفسه وإنه لفي الأنفس كلها. ويعطى من إجلال الناس ما يكون به أسمه كأنه خلقَ من الحب طريقةُ على العقل لا على القلب.

ولعل ذلك من حكمة إقامة الخليفة في الإسلام ووجوب ذلك على المسلمين، فلا بد على هذه

الأرض من ضوء في لحم ودم، وبعض معاني الخليفة في تنصيبه كبعض معاني (الشهيد المجهول) في الأمم المحاربة المنتصرة المتمدنة: رمز التقديس، ومعنى المفاداة، وصمت يتكلم، ومكان يوحى، وقوة تستمد، وانفراد يجمع، وحكم الوطنية على أهلها بأحكام كثيرة في شرف الحياة والموت بل الحرب مخبوءة في حفرة، والنصر مغطى بقبر، بل المجهول الذي فيه كل ما ينبغي أن يعلم.

فعصرنا هذا مضطرب مختل إذ لا إمام فيه يجتمع الناس عليه، وإذ كل من يزعم نفسه إماما هو من بعض جهاته كأنه أبو حنيفة ولكن بغير فقه.

ولعمري ما نشأ قولهم (الجديد والقديم) إلا لأن ههنا موضعا خاليا يظهر خلاؤه مكان الفصل بين الناحيتين ويجعل جهة تنحاز من جهة، فمنذ مات الإمام الكبير الشيخ محمد عبده رحمه الله جرت أحداث، ونتأت رؤوس، وزاغت طبائع. وكأنه لم يمت رجل بل رفع قرآن.

(طنطا)

مصطفى صادق الرافعي

جيلان

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

(ألا تعرفني ما هذا الجديد؟)

ولم يكن كلامنا في الأدب أو الفنون وإنما كانت المساكن والأحياء هي مدار الحديث. وكان الرجل يناهز الستين ولكنه في نشاط ابن العشرين، وأنا آنس به وأسكن إليه، ويسرني أن أجلس بين يديه وأصغي - أو لعل الأصح أن أقول أنظر - إلى عباب حديثه المتحدر فقد كان يذكرني بالبحر ويروعني مثله بمثل فيضه الزاخر

فقلت له (يا سيدي، العارف لا يعرف. . ولكني أستأذنك في أن أقول لك إنكما جيلان - أنت وبنوك - ومن حقك أن تتبرم بهم وتسخط على نزعتهم في الحياة وتستخف مطالبهم فيها وغاياتهم منها. . أنت حر في ذلك ولكن من حقهم أيضا أن يضجروا منك لأنهم ينزعون غير نزعتك وأن يطلبوا من الحياة غير ما تطلب، لأن وجوهها اختلفت. وأظن أن هذا عدل،

فصاح بي: (عدل؟. كيف تقول؟. عدل أن يخرجوني من بيتي ويحملوني إلى حي أنا فيه غريب لا أشعر إلا بالوحشة؟. ويقصوني عن أحبابي وأصحابي وعشراء الصبى وأخدان العمر كله؟. ما عيب بيتنا بالله؟. إني لست متعنتا. . أنت تعرف بيتنا فهل تعرف فيه عيباً؟.)

قلت (كلا. . وأشهد أن لا عيب فيه. . واسع وصحي وأسباب الراحة فيه موفورة. . نعم لا عيب فيه ولكنى أعترف بأني لو كنت ابنك لما فعلت إلا ما فعل بنوك. . أي لخرجت منه)

فقال (أنت كنت تفعل ذلك؟. حاشا. . لله إنك عاقل.)

قلت: (المسألة ليست مسألة عقل. . وإنما هي مسألة حياة تغيرت وجوهها وزمن اختلفت المطالب فيه)

قال: (إني أجادلهم كل يوم. . الكلام في هذا لا ينتهي بيننا)

قلت (وهذا حسن. . وجدتم على الأقل موضوعاً للكلام لا تخشون أن ينضب معينه)

قال: (اسمع. إني رجل كبير وقد أديت واجبي وربيت أبنائي وهم الآن رجال يعتمدون على أنفسهم ولا يحتاجون إلي. . فرغت من هذا الأمر. . وأحب أن أقضي ما بقي من عمري

في بيتي. . بيتي أنا. . البيت الذي ورثته عن أبي وقضيت فيه خير عمري. . بل عمري كله. . وحولي جيراني. . أعرفهم ويعرفونني وأستطيع أن أجدهم عند الحاجة. . لقد رفسني مرة حمار في الطريق فأغمى علي فلما أفقت ألفيتني في بيتي على سريري. . هل تعرف من حملني؟. جيراني. . عرفني أهل الحي فحملوني إلى بيتي. لو وقع لي هذا في الحي الجديد الذي نقيم فيه الآن لجاء الإسعاف وحملني إلى مستشفى .)

قلت (معقول. . أنت تفضل أن يحملك جيرانك وأهل حيك إلى بيتك في مثل هذه الحالة ولكن بنيك يفضلون في مثل هذه الحالة أن يحمل المرء إلى المستشفى. . زمنك لم يكن يعرف المستشفيات فأنت تنكرها وتشفق من أن تحمل إليها ولعللك تتطير من دخول المستشفى، وعسى أن يكون أسم المستشفى مقروناً في ذهنك بفكرة الموت. ولكن الزمن تغير. والرأي في المستشفيات اختلف، وأبناء هذا الزمن الجديد يؤثرون العلاج في دوره المجعولة له على العلاج في البيوت؛ فالذي تعده أنت مزية يرونه هم نقصاً، والذي تراه أنت شراً يعتقدون هم أنه خير. . وهذا بعض الفرق بين الزمنين)

قال: (ولكني كبرت يا سيدي. . ماذا يضرهم لو تركوني أقضي الأيام الباقية لي كما أحب؟)

قلت: (إنه لا يضرهم. وثق إنهم لا يأبون عليك ولا يكرهون لك أن تحيا حياتك على هواك ولكن تيار الزمن حملهم - وحملك معهم - إلى حيث لا تشعر إلا بالقلق وعدم الرضى؛ والذنب للزمن لا لهم)

قال: (إنهم يضحكون مني حين أقول لهم إن بيتنا قريب من المساجد فأنا أستطيع بلا عناء أن أزور السيدة نفيسة أو السيدة زينب وأن أصلي المغرب في سيدنا الحسين ثم أشرب الشاي المغربي البديع هناك في قهوة من القهوات القديمة. وأنتظر حتى أصلي العشاء ثم أعود إلى البيت. . يضحكون يا سيدي ويجعلون هذا موضوعاً لفكاهتهم. . لا يعجبهم إلا جروبي وشارع عماد الدين والسينما. .)

قلت: (أنت محق وهم غير مخطئين. . لقد فرغت من حياتك أو من واجبك فيها، فأنت

تريد أن تفرغ لربك. ولكنهم هم في بداية الأمر وأول مراحل الحياة، ولكل حياة بداية ونهاية؛ ومن العنت أن تفرض عليهم في البداية الحالات النفسية التي لا تكون إلا في النهاية. وأنت لا تشعر بالحاجة إلى السينما مثلا لأنك لم تعتدها إذ لم يكن لها في زمنك وجود، وقد عشت بغيرها أكثر عمرك ففي وسعك بسهولة أن تعيش بقية العمر من غير أن يخطر لك أن السينما لازمة أو أنها ملهاة مستحبة، ولكنهم هم نشأوا في ظلها فصارت من وجوه حياتهم المألوفة، وأحسبهم حين تعلو بهم السن ويفرغون من أمور الدنيا سيظلون يذهبون إلى السينما كما تذهب أنت الآن إلى المساجد للعبادة، ولن يكونوا حينئذ أقل منك زهداً في الدنيا أو انصرافاً عن باطلها أو ابتغاء لرضى الله. ومن يدري؟. . عسى أن تكون هناك يومئذ أشياء جديدة غير السينما يرتادها أبناؤكم فينكر أبناؤك على أحفادك هذا الشغف بالجديد الذي جاء به الزمن كما تنكر أنت اليوم على بنيك كلفهم بالسينما. لكل زمن يا سيدي حكمه، ولكل جيل روحه. . ويحسن بالمرء أن يوطن نفسه على ذلك)

قال: (نعم نعم. . إني لست جامداً ولا متعنتاً بل أنا أدرك ذلك كله)

قلت: (إن الإدراك وحده لايكفي، والمعول في مثل هذه الأمور على العادة لا على الإدراك)

قال: (صحيح. . ولكني مظلوم. . تصور أني لا أشعر برمضان في هذا الحي. . لا نسمع المدفع، ولا يدق الباب علينا أحد ليوقظنا للسحور. . ولا نسمع الطبلة القديمة. . ولا المؤذن. . لا. . لا شيء من ذلك. وقد احتجنا إلى المنبه لنستيقظ على صوته حتى لا يفوتنا السحور. . تصور هذا. . الحق أقول لك إني كنت لا أشعر أن هذا هو رمضان، ولا أكاد أصدق أن صيامي مقبول. . أهذا هو رمضان. .؟ من يقول هذا؟. . أين الأولاد الذين يطوفون بالمصابيح فيها الشموع الموقدة. . أين صيحات فرحهم وسرورهم بليالي رمضان. . أين السهرات اللذيذة. . سهرات الإخوان في البيوت. . إني أحس في هذه الشقة الضيقة التي نسكنها أني يتيم. . صحيح)

قلت: (أو لست يتيما. .)

قال (أعني أني أشعر بوحشة. . والباقي من عمري قليل، وكنت أرجو أن يتركوني أقضيه في بيتي وبعد أن أموت يمكنهم أن يصنعوا ما شاءوا. . وأظن أن هذا عدل)

قلت (عدل؟. . من يدري؟. . هل من العدل أن تفرض على ثلاثة أو أربعة ضربا من الحياة لا يوافق إلا واحد هو أنت؟. . ربما كان العدل أن تحتمل أنت ما يوافق الأربعة. . على الأقل هذا أقرب إلى العدل أو أشبه به. . العدل؟. . من يدري يا سيدي. .)

قال (إني أنظر إلى فائدتهم. . نحن الآن نخسر خمسة جنيهات كل شهر أجر للسكنى، ولو كنا في بيتنا لاستطعنا أن نقتصد هذا المبلغ أو أن ننفقه فيما هو أولى وألزم. . ألست توافقني؟)

قلت (تسألني الآن فجوابي نعم، ولو سألتني قبل عشرين سنة لكان جوابي لا. . الشباب يفعل ما يعجبه لاما ينفعه. . ينفق بلا حساب لأنه يشعر بفيض من الحيوية ولا يشعر بالحاجة إلى التدبير والاقتصاد. . مليونير. . كيف يبالي بالقروش والملاليم؟؟)

قال (ولكن ألا ينبغي أن يفكروا في المستقبل ويعدوا العدة للضعف؟.)

قلت (إن هذا يكون أحجى ولكن الشباب رأسه مثل التليفون. . أعني أنه يستطيع أن يقصي السماعة عن أذنه ويضعها فلا يسمع إذا هم صوت النذير بالكلام الثقيل. .)

قال: (يا شيخ لا تقل هذا. . إنه جنون)

قلت (صدقت. . إنه جنون. . ولكنه جنون القوة. . والشباب ينفض عن نفسه الهموم كما تنفض عن ثيابك التراب بإصبعك. . بلا عناء ولا اكتراث. . في وسعه ذلك لأنه عباب القوة زاخر. . والعقل يجئ. . مع الضعف. . والحساب له وقته. . أوانه، عندما يحس المرء بأنه بدأ ينفق من رأس ماله. . يا سيدي هل تعرف مهندسا استطاع أن يوصد بوابات الخزان في إبان الفيضان. . إنما يكون الخزن ويتيسر التدبير عندما تفتر قوة الماء الدافق ويؤمن شر اندفاعه على كيان الخزان. . كذلك الإنسان. . هل كنت تنفق بحساب دقيق في شبابك؟. .)

فأطرق، فقلت (إنك تنسى أنك كنت كذلك. . لو استطاع الكهول أن يذكروا كيف كانوا في شبابهم ولم يستغرقهم الإحساس بالحاضر وحده. . لعذروا. .)

قال (يعني انك موافق على ظلمي)

قلت (أسمع. . لو كان أبي حيا لما صبرت على معاشرته ولا أطقت الحياة معه في بيت واحد وتحت سقف واحد. . فأبناؤك خير مني ألف مرة)
قال (إن لك أبناء؟)
قلت (نعم ولا أسف ولا سرور. . وسأعنى بأن أدعهم يحيون حياتهم وحدهم وعلى هواهم حين يستغنون عن هذه التكأة التي هي أنا. .)
قال (إني لا أضيق على أبنائي. . أنا معهم كأخيهم)
قلت (ليس في وسعك أن تضيق عليهم. وحسبك أنهم أكرم من أن يضيقوا عليك. . المثل يقول: إنك لا تستطيع أن تأخذ زمانك وزمان غيرك. . ولو استطاع الإنسان ذلك لما كان عدلاً)
قال (صحيح. . بس مشوار من العباسية إلى السيدة)
قلت (ألا تعلم أن الله خلق الترام)
قال (ولكني أحب المشي. . مفيد)
قلت (في وسعك بفضل أبنائك أن تستفيد الآن جداً من المشي)
إبراهيم عبد القادر المازني
البزيع
!أعوذ بالله
للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي
كانت الصحف قد ذكرت أن أحد أعضاء (مجمع اللغة العربي الملكي) أختار (البزيع) لفظة عربية (للجنتلمان) وروت (البزيع) بالذال لا بالزاي - فأمليت هذا القول:
في (قاموس المحيط): (البذع الفزع، والمبذوع المذعور المفزع، وصبح بن بذيع محدث خراساني)
والخراساني (والله) مخيف، وما سمي (بذيع) بذيعاً إلا لأنه كان يبذع الناس، أو جاء يوم قبلته القابلة مشيَّئاً هولة
فهل غزا (عضو مجمع اللغة العربية الملكي) هذه الكلمة المبذعة أم أراد (البزيع) بالزاي وهو الغلام الظريف الذي يتكلم ولا يستحي؟ ففي (اللسان): (بزُع الغلام بزاعة فهو بزيع وبزاُع: ظرف وملح، والبزيع الظريف، قال أبو الغوث: غلام بزيع: أي متكلم لا يستحي، وغلام بزيع وجارية بزيعة ولا يقال إلا للأحداث)
فبزيع ليست لجنتلمان، وإن كان هؤلاء (الجنتلمنات) الإنكليز قد عادوا يقولون ويفعلون ولا يستحون!
أجل، قد جاء في (اللسان) أيضاً: (والبزيع السيد الشريف) لكن ليس من (أدب النفس) أن تسوء الرجل (السرى) أو الكامل أو الفتى المهذب أو السيد الشريف بصفة شركه فيها الغلام الحدث
وفي (تهذيب الألفاظ) لابن السكيت: (البزيع الظريف الحلو المجزئ، والحلو الذي يستخفه الناس يكون خفيفا على أفئدتهم)
وتعريف (التهذيب) - وإن لم يكن فيه قلة حياء - فيه الخفة، ووصف (السرى) - بأنه حلو خفيف - مؤلم مر ثقيل عليه
وما أرى هذه الكلمة البزيعة الباذعة إلا من طغام الكلام ولن يحسبها الأدباء العربيون في قبيل (اللسان المبين) والجزيرة أقاليم، والعربية لغات، والعرب أمم
وبزيع الجماعة يذكرنا بقصة (بوزع) وهي فوعل من البزيع، وقد رواها أبو الفرج في كتابه، والبغدادي في خزانته، وهذا بعضها وهو المهم المقصود في الحكاية:
(قال جعفر بن أبي جعفر المنصور المعروف بابن الكردية لحماد الراوية:
أنشدني لجرير، فأنشده:
بان الخليط برامتين فودعوا ... أو كلما اعتزموا لبين تجزع؟
واندفع ينشده إياها حتى انتهى إلى قوله:
وتقول بوزع:
قد دببت على العصا ... هلا هزئت بغيرنا يا بوزع؟
قال حماد: فقال لي جعفر: أعد هذا البيت، فأعدته، فقال: بوزع إيش هو؟ قلت: اسم امرأة.
فقال: امرأة اسمها بوزع؟ هو برئ من الله ورسوله ونفي من العباس بن عبد المطلب

أن كانت بوزع الأغوالا من الغيلان. تركتني (والله) يا هذا لا أنام الليل من فزع بوزع. .
(. .يا غلمان، قفاه
وإني لو سمعت أعضاء (مجمع اللغة العربية الملكي) يتجادلون في (ديوانهم) في (بزيع وجنتلمان) لصحت: يا قوم، انبذوا (البزيع) وخذوا (الجنتلمان) فما (فلان) وإضراب (فلان) بأقرب إلى مصر والعربية من (جورج لويد) و (برسي لورين)!

محمد اسعاف النشاشيبي

في أفق السياسة الدولية

السلام المسلح

بقلم باحث دبلوماسي كبير

السلام المسلح هو بلا ريب شعار السياسة الدولية هذا العام فالدول العظمى تتسابق كلها في ميدان التسليح بحماسة لم يسمع بها في التاريخ، ومع ذلك فالدول تؤكد نياتها السلمية، وتدعي جميعاً أنها تقوي أهباتها الدفاعية دفعاً للاعتداء وتقريراً للسلم؛ وقد كانت إنكلترا إلى ما قبل أشهر قلائل أقل الدول العظمى تأثرا بهذه الحمى في سبيل التسليح، ولكنها اليوم تنزل إلى نفس الميدان ببرنامج للتسليح يفوق بضخامته كل ما عرف حتى اليوم، وترصد لهذا البرنامج اعتماداً يبلغ ألفاً وخمسمائة مليون من الجنيهات، وهو إسراف لم يسبق أن عرفته الإمبراطورية البريطانية في تاريخها الحافل رغم اهتمامها دائماً بشؤون التسليح والدفاع، وفي نفس الوقت الذي تتقدم فيه السياسة البريطانية بهذا البرنامج العسكري الهائل تتقدم إلى العالم بنفس التأكيدات السلمية التي لم تنقطع عن ترديدها طيلة الأعوام الأخيرة، وتعلن أنها لا تتسلح إلا دفاعاً عن نفسها وحفظاً لكيانها ومصالحها، وتأييداً للسلام العالمي الذي كانت قوة بريطانيا العظمى دائماً عاملا كبيرا في تعزيزه وتأييده

والسياسة البريطانية لا تخفي أنها كانت مسرفة في حسن الظن بالعهود والمواثيق الدولية، وفي الاعتماد على مبادئ السلم وحسن التفاهم بين الأمم، وأنها كانت مقصرة في مجاراة الأمم الأخرى في التسليح بالدرجة التي يقتضيها مركزها الدولي، ومصالحها الإمبراطورية العظيمة، فهي الآن تجري على نفس سياسة السلم المسلح التي جرت عليها الدول الأخرى، بعد أن أيقنت أن التخلف في هذا المضمار يعتبر خطراً على هيبتها الدولية وعلى سلامتها وسلامة إمبراطوريتها المترامية الأطراف، وبعد أن لمست عن قرب هذا الخطر جاثماً يتربص بها ويحاول أن يجد فرصة في نقص أهباتها الدفاعية، وهي تعود اليوم فترى أن الوسيلة العملية الوحيد لاسترداد مكانتها الدولية، وتأييد كلمتها وإرادتها وحفظ سلامتها وطمأنينتها، هي أن تضاعف أهباتها في التسليح حتى تستطيع أن تسحق أية قوة في العالم تفكر في مناوأتها والاعتداء عليها

وليس من العسير أن نستشف بواعث هذا التطور الحاسم في السياسة البريطانية الحالية

وتحولها إلى خطة السلام المسلح، بعد أن كانت تعتمد على المواثيق الدولية والسلامة المشتركة والجهود السياسية، ففي حوادث العام الماضي تفسير شاف لهذه البواعث، وأولها وأهمها بالطبع هي المسألة الحبشية التي فتحت عيون السياسة البريطانية إلى حقائق لم تحسن تقديرها، فقد دبرت إيطاليا اعتداءها على الحبشة عامدة متعمدة، وغزتها واستولت عليها بوسائل عنيفة وحشية هي أدنى إلى القرصنة منها إلى الحرب الحقيقية، ولم تعبأ بالمعاهدات المعقودة والمواثيق المقطوعة ولا بكون الحبشية من أعضاء عصبة الأمم؛ وحاولت السياسة البريطانية أن تحشد دول العصبة ضد إيطاليا في جبهة أدبية اقتصادية تقاومها بالاستنكار والمقاطعة، فلم تحفل إيطاليا بهذا السلاح السلبي وسخرت منه كما سخرت من السياسة البريطانية ومحاولتها، وانتهى الأمر باستيلائها على الحبشة، ووطدت بذلك سلطانها الاستعماري في شرق أفريقية بجوار السودان ومنابع النيل وكينيا وشرق أفريقية البريطاني، ولم يكن موقف السياسة البريطانية يومئذ دفاعاً عن الحبشة ذاتها، وإنما كان وسيلة للدفاع عن مصالح الإمبراطورية، لأن قيام العسكرية الفاشستية في الحبشة على هذه الصورة المتحفزة يهدد سلامة الأملاك البريطانية ويهدد مواصلات الإمبراطورية في البحر الأحمر، وتوطد سلطة إيطاليا الاستعمارية يهدد سياسة بريطانيا البحرية في البحر الأبيض المتوسط، ولم تستطع بريطانيا العظمى يومئذ أن تلجأ إلى سلاح العنف لمقاومة المشروع

الإيطالي. ولم تحاول أن تغلق قناة السويس في وجه القوات الإيطالية لأنها أدركت يومئذ أنها ليست مستعدة للطوارئ تمام الاستعداد، وأن من الخطر أن تدخل مع العسكرية الفاشستية المتوثبة في معركة لا تؤمن عواقبها لهذا كله اكتفت بمراقبة الحوادث، وشهدت على كره منها ومضض ظفر الفاشستية بغزو الحبشة وقيام الإمبراطورية الإيطالية الاستعمارية، وشهدت انهيار سياستها القائمة على تحريك العصبة؛ ولم يخف على السياسة البريطانية ما أحدثه ذلك الفشل من صدع لهيبتها ونفوذها الدولي، ولم يخف عليها أنها كانت قصيرة النظر حينما اعتمدت على فكرة السلامة المشتركة، وتخلفت في مضمار التسليح حتى تفوقت عليها فيه أمم أخرى أصبحت تناوئها الآن وتشاكسها

وفي نفس الوقت الذي نفذت فيه إيطاليا اعتداءها على الحبشة على هذا النحو المثير، أعلنت ألمانيا نقضها لميثاق لوكارنو الذي يكفل سلامة حدود الرين، كما أعلنت نقضها لآخر النصوص العسكرية في معاهدة الصلح المتعلقة بتحريم التسليح في منطقة الرين. وإنكلترا من الدول الموقعة على ميثاق لوكارنو. ومع أنها لم تتأثر بتصرف ألمانيا قدر ما تأثرت فرنسا فإنها رأت في انهيار هذا الميثاق الذي كان يعد ضماناً قوياً للسلام في غرب أوروبا نذيراً سيئاً بانهيار فكرة السلام المشتركة وتقويض صرح السلام الأوربي، ورأت فيه بالأخص ضربة أليمة لشرعية العهود والمواثيق تنذر بانهيار سلطان القانون الدولي، وتبعث إلى الريب في قيمة العهود الدولية، وتحمل على عدم الاطمئنان إليها، ما لم تكن من ورائها القوة الكافية لتأييدها وضمان تنفيذها

ثم كانت المشكلة الأسبانية، وتدخل ألمانيا وإيطاليا فيها إلى جانب الثوار الأسبانيين لإقامة حكومة عسكرية فاشستية في اسبانيا؛ وقد لمحت إنكلترا منذ البداية شبح الخطر الذي يجثم من وراء هذا التدخل، وأدركت في الحال أن قيام حكومة فاشستية في أسبانيا تؤيدها إيطاليا وألمانيا، وكلتاهما تضطرم طموحا إلى الفتوح الاستعمارية. مما يهدد سيادتها في غرب البحر الأبيض المتوسط، وهي سيادة تحرص عليها بالسهر على مدخل هذا البحر من مضيق جبل طارق، وهو توجس لم تلبث أن حققته تطورات الحرب الأسبانية، وتدفق الجنود الإيطالية والألمانية إلى أسبانيا. وما قامت به الدولتان من المناورات الاستعمارية المزعجة في جزر البليار ومراكش الأسبانية

إزاء ذلك كله شعرت إنكلترا بحقيقتين بارزتين، الأولى أن هناك خطرا حقيقيا على سيادتها في البحر الأبيض يتفاقم يوما بعد يوم، وان إيطاليا الفاشستية تبذل جهودا جبارة لتحطيم هذه السيادة؛ والثانية أن سلام أوروبا لم يعد مكفولا، وأن ألمانيا وإيطاليا المدججتين بالسلاح أصبحتا بما لهما من القوة العسكرية تتحكمان في سلام القارة، وتهددانه في كل لحظة بنزاعاتهما وأطماعهما العنيفة، وأنه أضحى من العبث أن تعتمد السياسة البريطانية على سياسة العهود والمواثيق والسلامة الاجتماعية، وأنه لابد من اعتمادها على القوة للدفاع عن سلامتها ومصالحها الإمبراطورية الواسعة؛ ومع أن إنكلترا عقدت في يناير الماضي مع إيطاليا اتفاقا باحترام الحالة القائمة في البحر الأبيض، والاعتراف بالمصالح المتبادلة وهو ما يسمونه باتفاق (الجنتلمان) فان السياسة البريطانية لم تكن ترى فيه على ما يظهر أكثر من وسيلة لتهدئة الحالة وتسكين الأعصاب المضطربة واكتساب الوقت؛ بل يلوح لنا أن

هذا الاتفاق الذي علقت عليه يوم عقدت آمال كبيرة، ينهار اليوم من أساسه، لأن إيطاليا رأت في برنامج التسليح البريطاني، وفي دعوة الحكومة البريطانية للنجاشي إلى حفلات التتويج، ما يسوغ لها الارتياب في موقف السياسة البريطانية، والسير في سياستها العسكرية المطلقة دون تردد أو تقيد

وقد كان لهذا التحول في السياسة البريطانية، والتجاء بريطانيا إلى سياسة التسليح الشامل وقع عميق في ألمانيا وإيطاليا؛ ومما يلاحظ أنه وقع على أثر إثارة ألمانيا لمسألة المستعمرات ومطالبتها بمستعمراتها القديمة بصورة رسمية، ورد إنكلترا على مطالبها بالرفض المطلق؛ وقد أكد مستر ايدن وزير الخارجية البريطانية في عرضه لسياسة بريطانيا الخارجية، إن بريطانيا لا ترمي بالتسلح إلى أية غاية أعتدائية، ولاتفكر مطلقا في تعكير السلم، وكل ما ترمي إليه هو الدفاع عن سلامتها وسلامة أملاكها ومصالحها الإمبراطورية، ولم يخف الوزير أن ما شعرت به بريطانيا من خيبة الأمل في قيمة العهود والمواثيق الدولية وقيمة السلامة المشتركة كان من أعظم بواعث هذه

السياسة، ولم يخف إن إخفاق العصبة في المسألة الحبشية كان صدمة أليمة للعصبة ولجميع الدول التي تؤمن بمبادئها، بيد أن السياسة البريطانية ما زالت تؤمل في مستقبل العصبة ومستقبل مبادئها السلمية الحرة. على أن هذه التصريحات الملطفة لم تخف الحقيقة البارزة في تسليح بريطانيا، وهي أنه رد عملي على تسليح ألمانيا وإيطاليا، ورد القوة على القوة، واعتزام التذرع بالعنف لرد العنف. ولم يستطيع منصف أن يلوم السياسة البريطانية على هذا التحول الذي اضطرت إليه لمثل هذه البواعث الحيوية القاهرة، ولكن برلين ورومة لا تريان هذا الرأي، أما برلين فلا تؤمن بما تقوله السياسة البريطانية في تبرير هذا التسلح، بل ترى فيه تحديا وتهديدا خفيا لها لتأيد السياسة التي ترمي إلى حرمانها من مستعمراتها ومطامعها الاستعمارية والاقتصادية المشروعة، وأما رومة فلا تشك أنه موجه إليها توجيها مباشرا لحرمانها من ثمرات تفوقها العسكري وانتصارها في الحبشة وتهديد سلامة إمبراطوريتها الاستعمارية التي كسبتها بسيفها، ولذلك رأينا المجلس الفاشستي الأعلى يجتمع بسرعة ويقرر مواصلة تسلح دون هدنة أو توقف، وأن يترك فكرة الاتفاق على تحديد التسليح نهائيا، وسيقترن هذا القرار بإجراء مناورات بحرية وجوية كبرى في مياه المضيق الواقعة بين طرابلس وصقلية، وهو المضيق الذي قد تفكر إيطاليا في إغلاقه في حالة الحرب لتقطع المواصلات البريطانية في البحر الأبيض المتوسط وهكذا نرى معركة تسليح تضطرم بين الدول الكبرى. ولا ننس أن فرنسا قد أقرت كذلك برنامجا هائلا للتسليح، وأن روسيا السوفيتية قد دججت سلاحا وأضحت أقوى دول القارة. بيد انه مما لا ريب فيه أن للتسليح البريطاني آثارا يغتبط لها أنصار السلام، ذلك أن بريطانيا لا تطلب مزيداً في السلطان والملك، ولا تفكر في فتوحات أو غزوات استعمارية جديدة، وإنما تريد الدفاع عن إمبراطوريتها القائمة، ومقاصدها الدفاعية ظاهرة لا ريب فيها، وفي وسع بريطانيا متى أتمت تسليحها واستكملت قوتها أن تغدوا بما لها من الكلمة النافذة والقوة المرهوبة عاملا حاسما في استتباب السلم العالمي

(* * *)

في الأدب المقارن

الحرب

في الأدبين العربي والإنكليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

حب الحياة والإقبال على متعاتها والرغبة في التكثر من خيراتها مركب في طبائع الأحياء. وليس لحاجات الحي ورغباته ومطامحه نهاية، بل تبقى له حاجة ما بقى كما قال الشاعر؛ والنزاع بين الأحياء على خيرات الحياة من اجل ذلك متصل لا يفتر، وهيهات يفتر وحب الخلاف والنزاع والجلاد ذاته بعض طبائع الأحياء، والشغف بالقلب والتخايل بالقوة والزهو بالسيادة من اكبر مطامع الأحياء والإنسان خاصة ومن ثم عرف الإنسان الحرب من أول عصوره واشتغل منذ همجيته بمكافحة الأحياء من الوحوش ومن أبناء جنسه، وتم له النصر من قديم على أمة الوحوش، وما تزال معارك الإنسان مع أخيه - أو عدوه - الإنسان متصلة تشب بين حين وحين

وقد كابد الإنسان في شتى العصور أهوال الحروب وعلم علم اليقين عواقبها الوخيمة؛ بيد أنه لم يستطع بعد أن ينبذها، لقيامها على غرائز في طبعه راسخة متأصلة، ولما تليح به أمام عينه من مزايا النصر ومغانمه ومجده ولألائه، ومن ثم كانت مهمة دعاة السلم من أشق المهام ومطالبهم من أبعد المطالب، وقد هبوا في الفترة بعد الفترة ينددون بالحرب وبلاياها ومغباتها. فكانت صيحاتهم تترك صداها في نفوس الكثيرين، ولاسيما في أعقاب الحروب الطاحنة التي أهلكت الحرث والنسل، ثم لا تلبث غرائز الإنسان الفطرية أن تعاوده على أشدها، وتبدأ الأمم سيرتها الأولى من الطمع والتفاني وتحكم القوة التي لا يفصل سواها بين المطامع المتضاربة

وللحرب آثارها المشهودة في أدب كل أمة بلا استثناء. ولتلك الآثار ثلاث نواح: فالحرب أولا من أهم وسائل اتصال الأمم واختلاط الأفكار وتلاقح الثقافات؛ وهي ثانياً وحي الجم الغفير من نظم الشعراء ونثر الكتاب الواصفين لوقائعها وسلاحها ورجالها،

الممجدين لأبطالها وانتصاراتهم، المفاخرين بما كان دحر الأعداء وحماية الدمار وسلامة الشرف
الرفيع من الاذى؛ والحرب من جهة ثالثة أوحت بآثار أدبية شتى في تبغيض القتال، وتسفيه اعتداء الإنسان على الإنسان، والحض على السلم والدعوة إلى الإخاء والصفاء
وأن كان أثر هذه الدعوة في الأدب اقل كثيراً مما فيه من الترنم بمجد الانتصار والتغني بالعز والغلب، ولم تكثر آثار تلك الدعوة في الأدب إلا في العصر الحديث
وكل هاتيك الآثار بينة في الأدبين العربي والإنجليزي، فقد خبت الأمتان وأوضعتا في مجال الحروب. وكان بين كل منهما وبين جيرانها وأعدائها ملاحم ومواقع جسام، وشهد أدبها قيام نهضة حربية عظيمة وتشييد إمبراطورية واسعة، وأنجبت كل منهما عظماء القادة وحازت مشهود الانتصارات، وأذاقت أحيانا مرارة الهزيمة، ووقفت مراراً حيال الأخطار الجائحة التي تهدد كيانها وحريتها وتقاليدها، وشهدت الكثير من أمثال هذا كله يجري بين الدولة المجاورة والأمم المعاصرة لها، وعلى كثرت ما يحتويه الأدب العربي من اكثر، وذلك لأسباب عديدة:
فأولى ارتقى الأدب العربي وتوطد والأمة العربية ما تزال منشقة متناضلة، تتفاخر قبائلها بأيامها وانتصارتها، أما الأدب الإنجليزي فلم يبلغ عظمته إلا في ظل القومية الموحدة، ولم تنشق الأمة على نفسها ويمتشق بعضها الحسام لقتال البعض إلا مرة واحدة في عهد الصراع بين الملكية المطلقة والنظام الدستوري، وهي الفترة التي أنجبت القائد العظيم كرومل، وفيما عدا ذلك يمتاز التاريخ الإنجليزي بحروبه من الحروب الأهلية
وثانيا كانت الحروب اكثر طروءاً في تاريخ العرب منها في تاريخ الإنجليز حتى بعد توطيد الإمبراطورية؛ فان تلك الإمبراطورية ظلت - مادامت لها قوتها - تجالد أعدائها في الدين من روم ووثنيين، حتى إذا ما وهنت قوتها انقسمت على نفسها، وكثرت في داخلها الدويلات والحروب
وثالثا لأن كثيراً من أعلام الأدب العربي كعنترة وقطري بن الفجاءة والمتنبي وأبي فراس، كانوا جنوداً يشهدون الوغى ويمتدحون بمآثرهم فيها، وقلة من أدباء الإنجليزية من كان كذلك، بل لقد ذكر أن المقاتلة في عهد التلاحم بين علي ومعاوية والخوارج كانوا إذا تهادنوا ليلا تقابلوا تقابل الأصفياء يتناشدون الأشعار
ورابعاً كان جل شعراء العربية المتأخرين متصلين بالأمراء والقواد فلم يكن لهم ندحة عن
وصف أعمال ممدوحيهم الحربية
كان العرب في الجاهلية في قتال لا يكاد يهدأ، وكانت بين قبائلهم وأشرافهم ثارات وعداوات لا تكاد تنتهي حتى اضطروا أن يتخذوا لهم موضعاً حراما ووقتاً حراماً ما تهدأ فيه الخصومات وتغمد الصوارم وتتصل أسباب الحياة والتعاون، وبالتمدح بالنصر في تلك الحروب والتفاخر بأيامها والتوعد والتربص، كان أكثر ما قيل من شعر في الجاهلية. وظلت لهذا الباب من الشعر المسمى بالحماسة مكانته بعد انقضاء عهد الجاهلية بطويل، وبه بدأ أبو تمام مختاراته الشعرية وبه سماها، وكثر في الشعر الجاهلي ذكر السيوف والرماح والخيول وغيرها من وسائل الحرب، وكثرت في العربية أسماؤها وأوصافها، وارتقى بين العرب البصر بالحروب وتأصلت فيهم ملكاتها، حتى أخرجت الجزيرة صناديد الإسلام الذين اصطلموا كتائب قيصر وآل ساسان، ومن الشعر الذي يعرض صور حروب ذلك العهد ومعلقة عمرو بن كلثوم الذي يقول منها:
على آثارنا بيض حسان ... نحاذر أن تقسم أو تهونا
وكنا الأيمنين إذا التقينا ... وكان الأيسرين بنو أبينا
وكانت الرسالة النبوية، وكان صاحبها يجمع إلى عبقرياته العظيمة المتعددة التي لم تجتمع لإنسان، البصر بالحرب والبلاء فيها فتخلف من أشعار ذلك العهد ولاسيما شعر حسان أثر ما كان بين المسلمين والكفار من كفاح؛ حتى إذا ما وحد الإسلام قلوب العرب انصرفوا إلى جهاد أعداء الدين، ومن عجب أن عصر الفتوح الباهر الذي تلا ذلك لم يترك في الأدب العربي إلا أثراً ضئيلا. وليس امتلاء النفوس برهبة الدين هو كل السبب في ذلك، بل يرجع ذلك أيضاً إلى جدة الحالة التي وجد العرب بها أنفسهم: من قتال أمم مخالفة لهم في الجنس واللسان والمسكن ووسائل القتال، ولعلهم لم يجدوا

من اللذة والغبطة ودواعي الفخار في اجتياح تلك الجيوش المرتبة، ما كانوا يجدونه في مصاولاتهم البدوية المملوءة بالكر والفر والمساجلات الفردية.

وأهم من هذا وذاك أنهم لم يتعدوا الفخر بالأعمال القومية، التي يشترك في فخارها المضرى واليكري والتغلبي، ولم يتعودوا أن ينضموا القصيد في الفخر على أعجمي، وإنما هم كانوا يترفعون على الأعجمي ترفعاً بديهياً بسيطاً لا يتكلفون له عناء النظم، ولا يحتفون

بالقول، وآية ذلك حكاية الأعرابي الذي سئل: أتحب أن تكون ابن أعجمية ولك قصر في الجنة؟ فقال: لا أحب اللؤم بشيء. قيل: فإن أمير المؤمنين ابن أمة، قال: أخزى الله من أطاعه!

إنما كان الفخر كل الفخر عند العربي في الظفر بعربي مثله، من قبيلة معادية لقبيلته، قد توارثت قبيلتهما العداوة والتراث جيلا بعد جيل. وما هي إلا أن دبت الفتنة من جديد بين العرب حتى ظهر أثرها في الشعر: فمهدد لمعاوية وحزبه، ومناصر لبني هاشم أو مناصب لهم. ومفاخر بكلب أو بتغلب أو معير لهذه أو لتلك، إلى عهد بشار الذي يتمدح - على كونه من الموالي - بل غضب المضرية التي تهتك حجاب الشمس؛ وظل الشعراء الذين يمتدحون الخلفاء والأمراء والقواد ويمدحون بلائهم في الحروب، لا ينسون أن يذكروا مفاخر قبائلهم من قبل وبلائهم في الوغى، فإذا ما مدح الشاعر الحجاج ذكر ثقيفاً أو عبد الملك ذكر أمية، وظل الشعر العربي دائماً يردد ذكر بني مظر وبني شيبان وبني تنوخ وبلاء كل أولئك في الحروب، وكان التساجل بين الشعوبيين وأنصار العربية فلم يكد يترك أثراً في الشعر العربي، وحتى المتنبي يحفل شعره بذكر قبائل من مدحهم على التوالي، رغبة تعصبه للعربية، وطول تألمه من أن يرى عرباً ملوكها عجم

بجانب تلك العاطفة القبلية تمت تدريجا عاطفة أخرى هي الرابطة الإسلامية، إذ تمكن الإسلام من نفوس معتنقيه ومجتمعهم تمكنا احله محل القومية، وترددت تلك العاطفة في أشعار الشعراء الممجدين لبلاء الخلائف والأمراء في دفاع أعداء الملة، وكان للإسلام في أول ظهوره عدوان كبيران: الوثنية وزعيمتها فارس، وقد فرغ من شانها عاجلا، والنصرانية وممثلتها الدولة الرومانية، وقد ظل جهادها دائما من أول مهمات الخلفاء وولاة الثغور، وظلت حربها مكن أهم ما يشغل بال المسلمين ويغذي عاطفتهم المشتركة وشعورهم القومي؛ ويتجلى اثر تلك الحروب بين الدولتين، أو بين الديانتين، في أشعار أبي تمام والبحتري والمتنبي؛ ولما أعيت الدولة الرومانية الحيل استنجدت بغيرها من أمم النصرانية، فكانت الحروب الصليبية، التي ظهر أثرها في شعر شعراء مصر والشام، ومن ذلك قول البهاء في السلطان الأيوبي:

فابلغ رسول الله أن سميه ... حمى بيضة الإسلام من نوب الكفر
وأقسم إن ذاقت بنو الأصفر الكرى ... فلا حلمت إلا بإعلامه الصفر

وبلغ المسلمون المبالغ في الحرب البرية والبحرية وعنهم اخذ الصليبيون، ومن لغتهم نقل الغربيون كلمة الأميرال أو أمير البحر وغيرها من مصطلحات القتال، وحفل شعرهم بوصف المعارك والجيوش وما توقعه بأرض العدو من دمار، كوصف أبي تمام لتخريب عمورية؛ ووصف الاساطيل؛ والمتنبي هو اصدق وصافي الحرب في المتأخرين وأروعهم لأنه كان يصف ما يميل إليه بطبعه وما يمارسه ويشاهده بنفسه، ولا تكاد ترتوي منه لهفته، ومن ثم لا تقل أشعاره الحربية عن أشعار الجاهليين والإسلاميين صدقا وفطانة وتفوق بعضها جزالة وتجويدا، ومن جيدها وصفه لخيل سيف الدولة الذي منه:

رمى الدرب بالجرد الجياد إلى العدا ... وما علموا أن السهام خيول
شوائل تشوال العقارب بالقنا ... لها مرح من تحته وصهيل
كتائب يمطرن الحديد عليهم ... فكل مكان بالسيوف يسيل

ومن جيد وصف الأساطير قول ابن هانئ الأندلسي:

أنافت بها آطامها وسمالها ... بناء على غير العراء مشيد
وليس بأعلى كبكب وهو شاهق ... وليس من الصفاح وهو صلود
إذا فرت غيظا قد ترامت بماوج ... كما شب من نار الجحيم وقود

ولم يقتصر ذكر الحرب على مواضعها الخاصة بها، ومناسباتها بين الحين والحين، بل

كان أمرها من الشمول والاتصال والحضور في أذهان الناس بحيث تسرب ذكرها في شتى أبواب الأدب، واستعيرت صفائها وأحوالها لمختلف الأغراض: ففي النسيب استعيرت السيوف والسهام للجفون واللواحظ، والقتل لشدة التتيم، وبالسيف شبه الممدوح صقلا ومضاء وبه جرت الأمثال فقيل: سبق السيف العذل، وشبه المتنبي المنون بعدو لا تجدي المشرفية والعوالي في قتاله، ولا تجني السوابق المقربات من خببه، وقرن التمدح بالبلاء في الحرب بالتشبيب، كما يفعل عنترة، وكما قال أبو عطاء السندي وهو البيت الذي تمثل به صلاح الدين الأيوبي في بعض رسائله:

ذكرتك والخطى يخطر بيننا ... وقد نهلت منا المثقفة السمر

وفي الأدب الإنجليزي أوصاف رائعة للحروب، وتمجيد شائق لأبطالها، وتفاخر بانتصاراتها وما كسبته الأمة من اعتزاز وهيبة، ولملتون ومارفيل وكامبيل وتينيسون وكبلنج في ذلك أشعار مأثورة. وقد كان مجال القول أمام أمثال أولئك الشعراء ذا سعة: فتاريخ الإمبراطورية حافل بعظائم جنودها. نعم كانت سياسة بناتها دائماً سلمية لا تلجأ إلى الحرب إلا في الحالة القصوى. ولا تندفع إلى ميدان القتال لمجرد الرغبة في الظفر والافتخار. ولكن الدولة دائماً عزيزة في وطنية أبناءها. وقوة اسطولها، وقد كسب لها جيشها وأسطولها انتصارات باهرة خالدة، ودوخ أبطالها أمثال كرومويل وملبرا ونلسن وولنجتون الأمم، واعلوا كلمتها فوق كل كلمة.

ولا يستأثر الشعر دون النبر بحديث الحرب ووقائعها وأبطالها بل هناك كتاب سوذي عن نلسن ومقالات ماكولي عن كليف وهستنجر وفردريك الأكبر، وتاريخه وتاريخ جيبون، كل هاتيك حافلة بالوصف الدقيق البليغ لشتى المواقع والحروب، هذا إلى ما في مختلف القصص من ذلك، ولا يكاد يكون في العربية من مثل ذلك سوى بعض خطب الإمام علي بن أبي طالب، ورسائل في بعض الخلفاء إلى ولاتهم ينهوهم أن يؤذوا المسالمين أو يعيثوا في الحرث والنسل وخطب بعض القواد كتلك المنسوبة إلى طارق بن زياد والتي تفيض بلاغة وشجاعة. ولا غرو فقد كان للشعر دائماً التقديم على النثر، وقد ظل طويلا يستأثر دونه بالحفاوة

ولم يقتصر شعراء الإنجليزية على نظم القصيد في تمجيد انتصارات وطنهم وعظائم أبناءه، بل التفوا - كدأبهم في كل فنون القول - إلى الماضي وإلى الخارج، ونظموا في المواقع التاريخية والخرافية، إرضاء للفن وتسريحاً للخيال وتنشيطا للفكر، فوصف تينيسون آخر معارك الملك آرثر وصفا اصبح من ذخائر الأدب المعدودة وآثاره السائرة، أودعه كل مقدرته على تجسيم الوصف وخلق المنظر الكامل بدقائقه وألوانه وأصواته، ونظم هاردي قصائد شتى في حروب نابليون والثورة الفرنسية، وكان له بحروب نابليون غرام كبير لقرب عهدها منه واشتراك بعض أقربائه فيها، وفي تلك الحروب نظم ملحمته الكبيرة التي تعد اكبر آثار الشعر الإنجليزي الحديث، وفيها ينتقل بين شتى المناظر والأوصاف والنظرات والتأملات

ولم يخل الأدب العربي من ذم للحرب ودعوة إلى الإخاء، ومن آثار ذلك أبيات زهير بن أبي سلمى المعروفة، ومن معلقته حيث يمدح السيدين اللذين اصلحا بين عبس وذبيان بعد ما تفانوا، ويستطرد إلى قوله: (وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم)، غير أن ذلك قليل نادر. وقد كان الجهاد دائماً شعار الدولة الإسلامية، وكان النزاع والغلاب دأب أمرائها، وبذلك تفاخر فرسانها وبه امتدحهم مادحوهم من الشعراء، وظل السيف والرمح والبنود والخيول في شعر الشعراء العربية مرادفات للعز والمجد والغلب والسيادة، ولم يخل الأدب الإنجليزي من محبذين للحرب متغاضين عن مغاباتها كتنيسون الذي كان يرى الحرب وسيلة لا غنى عنها من وسائل العمران وتطهير النفوس من شوائب المادية والترف والأنانية، غير أن الأدب الإنجليزي أغنى بآثار النظرة الإنسانية، التي تغض الحرب وتصور بشاعتها وبلاياها.

ففي قصيدته (البطولة) يقول كوبر معرضاً بملوك فرنسا: (أيها الملوك الذين يستهويكم المجد وتؤيدون بالدم دعواكم، وتهوون بالضربة ثم تبررونها بالدفاع عن النفس، المجد بغيتكم والحق ذريعتكم، تسكن عبر النهر الذي يحد ملككم الحق، ويريكم مدى ما يجوز لكم أن تنشروا عليه حكمكم، أمة لا مطمع لها في تاجكم، حريصة على السلام، سلام جيرانها وسلامها، ولكن يا لشؤم طالع تلك الأمة! ويا شد ما تتقاضاها جريرتها الوحيدة، جريرة مجاورتها إياكم، أما هي إلا أن تنطلق الأبواق حتى

تزحف كتائبكم إلى الخارج شاقة طريقها وسط المحصول الناضج، يطئون في كل خطوة حياة جماهير وخبز أمة، فالأرض أمامهم جنة يانعة، وهي خلفهم يباب بلقع)
وفي قصيدته عن موقعة بلنهايم التي كسبها القائد النابغة ملبرا يصف سوذي شيخاً المانيا جالسا ذات مساء أمام كوخه في أرباض البلدة التي دارت حولها رحى المعركة، بعد جيل من حدوثها وحفيداه يلعبان حوله، فإذا الطفلة ترى أخاها يدحرج شيئا مستديرا قد عثر به بجانب الجدول، فتناول الشيخ ذلك الشيء والطفلان مشرئبان إليه يريدان أن يعلما ما هو، حتى هز الجد رأسه قائلا هذه جمجمة مسكين سقط يوم النصر العظيم، وكثيرا ما أعثر بهذه الجماجم في الحديقة) وحين أحرث الحقل كثيرا ما يثيرها المحراث من التربة، ولا غرو فقد سقط آلاف مؤلفة في ذلك النصر العظيم، فيتساءل الطفلان بفارغ الصبر عن تلك الحرب وسبب تناحر الفريقين، فيقول جدهما: شتت الإنجليز صفوف الفرنسيين، أما سبب
ذلك فلا أعلمه، بيد أن الجميع يقولون أنه كان نصراً عظيما، ويمضي واصفا كيف أحرقت مزرعة أبيه وألجئ إلى الفرار وكيف هلكت الحبالى والرضع، ثم يردف قائلا: ولكن مثل هذه الأشياء يا ابني تحدث في كل نصر عظيم، فالمجد لدوق ملبرا ولأميرنا الطيب بوجين، فتصيح الطفلة: كيف؟ لقد كان ذلك أمراً إداً! فيراجعها الشيخ. كلا يا بنيتي بل كان نصرا عظيما. وكل إنسان أطرى الدوق الذي كسب تلك الموقعة، فيصيح الطفل: وماذا كانت فائدة كل ذلك؟ فيسلم الشيخ تسليم العاجز قائلا: أما ذاك فلا علم لي به، بيد أنه كان نصراً عظيما.
فآثار الحرب وأحاديثها على مختلف ضروبها ظاهرة محسوسة في جوانب الأدبين، ولا ندحة من أن تكون ظاهرة محسوسة فالحرب ناحية من نواحي حياة المجتمع الإنساني جليلة الخطر حاضرة الأهمية دائما، تتصل برفاهية الأفراد ومستقبل الجماعات ومصائر الدول والمدنيات، وبالحرب تتعلق كل معاني القوة والحرية والذود عن الحقيقة، وقد كانت الحرب أحيانا ممهدة لانتشار الحضارة وازدهار الثقافة، كما كانت إذا استفحلت وبالا على العمران وبلاء على الإنسان بيد أنها قد تركت في الآداب تلك الأوصاف الممتعة لملابسات الحروب ومشاهدها وأعقابها، وقد خلدت هذه الآثار الأدبية الرائقة عبرة ومتاعا للألباب، بعد أن غبرت تلك الحروب وهدأت تلك المطامع والثارات، وذهب مسعروها ومن اصطلوا بها واستوى في الترب القاهر منهم والمقهور.
فخري أبو السعود
إسكندر بوشكين
أمير الشعراء الروس
ترجمة الأستاذ عبد الكريم الناصري
في يوم 10 فبراير احتفل الروس في بلادهم وفي خارجها بمرور مائة عام على وفاة شاعرهم الأكبر إسكندر بوشكين
وقبل خاتمته الفاجعة ببضعة شهور كتب يقول: (لقد أقيم لذكرايَ نُصبٌ لم تصنعِهُ يد. . ولسوف يذاع اسمي في كلِّ أرجاء روسيا، ولسوف يجري ذكري على كلِّ لسان، ولسوف يتغنَّى بشهرتي كلُّ روسيّ. . .)
وقد أدهشت هذه النبوءة مريديه والمعجبين به، فما عرفوهُ قطُّ من قبل يتحدث عن نفسه على هذا النحو، وإنما عرفوه حييا متواضعاً على ما أصاب من شهرةٍ ومجد. بَيدْ أنه كان مصيباً في قوله، فإن شعره الآن جزء لا يتجزأ من العقلية الروسية، وشهرته قد تجاوزت حدود بلاده، حتى أن بعض البلدان، كصربيا، وتشيكوسلفاكيا، وفارس، احتفلت رسميا بذكراه المئوية، هذا فضلا عن الاحتفالات التي أقامتها شتى أقطار الأرض. ومع ذلك لم يصب بوشكين في خارج روسيا ما هو حقيق به من الشهرة والتقدير، ولم ينل منهما في إنجلترا ما ناله في فرنسا وألمانيا، بالرغم من أن المجلات الأدبية الإنجليزية ذكرته سنة 1822، ووصلته بقرائها، وبالرغم من أن جماعةً من الشعراء والأدباء، ومنهم جورج بورو، تصدوا لترجمة قصائده
وقد كتب الشاعر الإنجليزي المعاصر (موريس بيرنج) فصولا في تقويم أدبه، وتقدير شعره، تعد من أحسن ما كتب عنه في أية لغة من اللغات بما فيها الروسية، كما أنه ترجم بعض قصائده الوجدانية ترجمة تدعو إلى الإعجاب على الرغم من قوله: (إن التصدِّي لترجمة أشعار بوشكين محاولة فاشلة، وعمل يائس، يشبه تصديك لتمثيل

ألحان موزار بالرسوم والتماثيل، وتحويلها إلى الألوان والأحجار.)
ولد (الكساندر بوشكين) في موسكو، في الثامن من يونيو سنة 1799، وتوفي في بطرسبورج، في العاشر من فبراير سنة 1837، وهو سليل أسرة من الأشراف، كان من شأنها الإعجاب بكل ما يتصل بفرنسا والفرنسيين ولا سيما آدابهم.
وكان الفتى إسكندر يحفظ عن ظهر قلب كثيراً من بدائع موليير وفولتير، ولم يكن الحفظ عسيراً عليه، لما أوتيه من ذاكرة قوية ممتازة، وقد ظل طوال حياته قارئاً نهماً، حتى روي أنه لما حضره الموت شخص ببصره إلى الكتب المرصوفة على الرفوف وقال: (وداعا يا رفاقي الأعزاء).
وأجداد بوشكين من جهة أمه أفريقيون، ويحتمل أنهم أحباش، وقد جُلب جده (أبرام هانيبال) إلى بطرسبورج - من القسطنطينية - هدية إلى البطرس الكبير، ثم صار سكرتيره الخاص، وكان بوشكين يفتخر بجده الأسود، وكان متأثراً بدمه الافريقي، ولعل في هذا الدم يداً في نُضجه المبكر، وفي هذه الحرارة التي تفيض بها أغانيه، على أن هذا التأثير لم يبلغ من الشدة بحيث يظن كثيرا من الناس
وفي سنة 1811 دخل الليسيه في تسارسكوي سيلو، وهي مدرسة داخلية أسسها القيصر المتحرر الفكر إسكندر الأول، وشيد بنايتها في جانب من بلاطه؛ وهناك أنفق بوشكين ست سنوات سعيدات، طبعت أثناءها أولى قصائده، وكان عمره عندئذ أربعة عشر عاماً
ولما ترك المدرسة التحق بوزارة الخارجية، ولكنه لم يحبر قط بلاغا رسميا، وما كان ينتظر منه لك، وما بلغ الثامنة عشرة حتى كان باعتراف شيوخ الأدب، من أمثال كارامازين وجوكوفسكي، زعيما لشعراء عصره، وحتى كان شعره بغية الشبان يدرسونه ويحفظونه
وقد لعبت السياسة دوراً مهما في حياته، فمع أنه لم يكن عضواً في الجمعية السرية التي تشكلت سنة 1818، ثم سحقها الجيش في فتنته التي شبَّ أوارها سنة 1825، فانه عبر في قصائده عن أغراضها - وخلاصتها تأليف حكومة دستورية وتحرير الفلاحين - تعبيراً أقوى وأشد إقناعا من برامجها الطويلة ولكن ما لبث الرأي العام أن اشتد في مطالبته بالإصلاح والتحرير فقلَّ تسامح القيصر وفترت همته الإصلاحية، وكان بوشكين أول من نزلت به عاقبة هذا الخلاف بين الإمبراطور ورعيته وذلك أنه نشر في ذلك الوقت قصيدته الموسومة (بالحرية)، وقصيدتين أخريين في هجو أرا كتشيف فنفي على أثرها إلى جنوب
روسيا
وقد هيأ له منفاهُ - الذي لم يك قاسياً جداً - فرصة لمشاهدة بلاد القوقاس والقرم وبراري صربيا، حيث عاش تلك العيشة التي التمستها بيرون ثم ظفر بها في ألبانيا، وكان بوشكين مسحورا ببيرون، وما سحره منه أسلوبه الشعري، بل بساطته وإخلاصه وعنف عواطفه. وفي سنة 1819، دخلت الترجمة الفرنسية لكتاب بيرون روسيا، فرحب بها هو وطائفة من أصدقائه الأدباء ترحيبا حماسيا، بالرغم من سقمها وركاكتها، وبلغ من إعجاب الشاعر الروسي العظيم بالشاعر الإنجليزي أنه أخذ نفسه بتعليم الإنجليزية ليقرأه بلغته الأصلية، ولكن أسرار النطق الإنجليزي كانت تحيره وتربكه، حتى أن أصدقاءه الذين تعلموا الإنجليزية منذ طفولتهم كانوا إذا سمعوه يقرأ عليهم شكسبير لا يملكون أنفسهم من الإغراق في الضحك لأنه ينطق بالألفاظ الإنجليزية كأنها لاتينية!
تأثر بوشكين ببيرون ولم يقلده - فما كان مقلداً وإنما كان مستعدا على الدوام لأن يتعلم ليس غير - وظهر هذا التأثير في قصيدتيه (سجين القوقاس) و (نافورة باختشيساراي). على أن التشابه قليل والفرق واضح بين الشاعرين: فبوشكين أرق وأودع، وفكاهته النادرة أعمق، في غير إيلام، وفهمه لطبائع الشعوب وخصائص البلدان أوسع وأبعد مدى.
بيد أن تأثير بيرون زايل شاعرنا بالتدرج حتى إذا بدأ بتأليف قصته الشعرية (إفجيني أونيجن) لم يكن بقي منه شئ. وتعد هذه القصيدة أول ما ألف من القصص الروسي الجيد، وكان ترجنيفا يقول إن أربعة أبيات من مقدمتها تفضل آثاره جميعاً، وكان يجد لينين في صفحاتها مريحاً من عناء العمل، وقد سمى القيصر نقولا الثاني ابنتيه

الكبريين - تاتيانا وأولغا باسمي الأختين في الرواية
ومع ذلك كان بوشكين يفضل عليها قصيدته (بوريس جودونوف) (1825). و (بولتافا) (1828)، والأخيرة قصيدة تاريخية تصور النزاع بين بطرس الكبير وتشارلس الثاني عشر ملك السويد
أما الأولى فقد نظمها في (ميخيلو فسكوى) وهي بيعة لأبيه، كان الشاعر نفي إليها بعد عودته من منفاه الأول لوقوع السلطات على رسالة له فيها ما يكرهون. وفي هذه الأعوام اشتد تركيز ذهنه وتمت له السيطرة على صناعته، وقوى فيه الشعور بقيمة اللفظ في
الشعر، حتى كان لا ينشر القصيدة إلا بعد أن ينحى عليها بالتصحيح والتنقيح أعواما كان بوشكين حين نظم (جودونوف) تحت تأثير شكسبير. وهو من أوائل الروس الذين عرفوا شكسبير وقدروه حق قدره. قال في رسالة إلى بعض أصدقائه: (أي رجل شكسبير هذا!! وما أصغر بيرون، كتراجيدي، بالقياس إليه. . إن بيرون لا يقدر أن يصف إلا شخصية واحدة، هي شخصيته. فهو يعطي لهذه كبرياءهُ، ولتلك بغضه، ولأخرى مزاجه السوداوي؛ وهكذا ينتزع من شخصيته القوية النشيطة شخصيات كثيرة لا قيمة لها، وليس هذا من الفن التراجيدي في شئ)
وقد خلصه النفي من الاشتراك في الثورة التي قام بها أصحابه المعروفون بال ولما أذن له القيصر نقولا الأول في العودة من المنفى سنة 1826، واستدعاه إلى موسكو، سأله (ماذا يكون موقفك في يوم 14 ديسمبر في موسكو.) فأجابه بوشكين: (كنت أشترك مع إخواني العصاة)
وكان اجتماع القيصر بالشاعر خطة مدبرة أريد بها التأثير فيه وفي جمعيته التي استثار غضبها إعدام خمسة من الثوار. ولم يكن بوشكين - على قوته العقلية العظيمة - ليختلف عن الطفل في سذاجته وسرعة تصديقه وانقياده، ولذلك لم يجد القيصر صعوبة في اختلابه واجتذابه وإقناعه بأن الهدنة قد عقدت أخيراً بينه وبين الحكومة. ولم يكتشف كيف عبث به القيصر بمساعدة رئيس البوليس - كونت بنكيندورف - إلا بعد سنين
لم يكن بوشكين يتصور وهو في منفاه مدى الشهرة التي نالها بين قومه. فلما عاد إلى الاشتراك في الحياة الاجتماعية أذهلته مقابلتهم له. فقد كتب بعض الكتاب يقول: (موسكو السعيدة تحتفل اليوم بتتويجين: تتويج القيصر وتتويج الشاعر)
وفي الثلاثين من عمره تزوج من فتاة جميلة في الثامنة عشرة تدعى (نتالي جونخاروفا) ولم يجلب عليه هذا الزواج سعادة بل ولا هدوءاً، وما كان بيت الزوجية أكثر من خان باهظ النفقات. كان الشعر آخر شئ تحفل له الزوجة الشابة، على أنها نجحت في المجتمع نجاحاً كبيراً. وفي هذه الفترة من حياة بوشكين ساءت أحواله. فقد تراكمت عليه الديون، وتغير ذوق الجمهور فلم يعد يتحمس ذلك الحماس لروائع آثاره، وتزايد حقد بعض فرق الأرستقراطية عليه، فعزم على الخروج بزوجه وأطفاله الأربعة إلى إحدى ممتلكات والده،
حتى يتفرغ لمشاريعه الأدبية الكثيرة، ولكن القيصر عارض الفكرة. فاضطر إلى البقاء، واستمر في الكتابة فاتر الهمة مكتئب النفس: وحدث أن شاباً فرنسياً جميلا يقال له البارون دانت ' تعرف بزوجته وأخذ يتودد إليها في إلحاح شديد، فدعاه بوشكين إلى المبارزة، فبارزه وجرحه جرحاً بليغاً، أودي بحياته بعد يومين. وبموته تمت نبوءة عراف قال له سنة 1819. إنه سيصير معبود قومه، وينفى مرتين، وبأن عليه أن يحذر رجلا جميلا قد يقتله حين يبلغ السابعة والثلاثين
اعتبر الشعب موت بوشكين رزية وطنية، واشتد حزنه عليه حتى خشيت الحكومة أن يؤدى إلى قيام مظاهرات عدائية فأمرت بنقل الجثمان سرا إلى مقبرة (سفياتيجيورسكي) - القريبة من ميخيلوفسكوي - وهناك دفن
في أول ترجمة ظهرت بالإنجليزية لحياة بوشكين - وهي ترجمة رائعة نشرتها مجلة (بلاكوود مجازين) سنة 1845 - كتب صاحبها توماس أستاذ الإنجليزية في كلية (ليسيه) تسارسكوى سيلو، يقول: (يمكن أن يقال أن قصيدة (إفجيني أونجين) أصبحت جزءاً من لغة الشعب الروسي) ولا يزال هذا القول - وقد تقضت مائة عام - صحيحاً ملموساً إن أسم (بوشكين) يرن في أسماع الروس رنين الأغاني والأغاريد. وقد تأصلت

شخصيته في أعماق العقلية الروسية؛ وإن الروسي ليعجز، إن سألته، عن تفسير حبه لبوشكين، عجزه هن تفسير حبه للبحر أو لنور الشمس وقد يكون جوابه ابتسامة سعيدة يشرق بها وجهه

(بغداد)

عبد الكريم الناصري

جولات في الأدب الفرنسي الحديث

تطور الحركة الأدبية

في فرنسا الحديثة

العلم في القصة - القصة التحليلية العلمية

بول بورجيه 1852 - 1935

التحليل العلمي عند بورجيه، التحليل الحي، المثالية الرواية

التقليدية أو آثار بورجيه الأخيرة

تختلف بيئات الأشخاص - عند بول بورجيه - عن بيئات المدرسة الواقعية، فأرواح أشخاص تكاد تحيا منعزلة عن أجسادها، وهي ليست مختارة من الأشخاص المرضى أو المنحطين. وبالإجمال لا يحيا أشخاصه في بيئة تلك المدرسة. وليس أشخاصه من سواد الناس ولا بموسرين سئموا الحياة، وان منهم النساء الكبيرات والعاطلين، مفكرين أو فنانين. وقد عد أرباب المدرسة الواقعية رواياته من نوع (السنوبينم) لأنها في أجزائها الأولى قد تجسدت من ذلك الأيمان بالعلم الذي كان مذهب زولا وقد علم بورجيه أن أبرز صفة للشباب الحديث هي صفة (القلق العلمي). وهذا القلق هو الذي كان يهيمن عليه يوم كتب رواياته، وكان معلموه منهم (ستندال) الذي قرن فعل الخيال إلى الدراسة النفسية، و (تين) الذي ابتكر علم النفس، والذي بين أن في النفوس بعض أسباب وعلل تجر بالضرورة إلى بعض أفعال، وهذا علم النفس هو الذي وضع لرجال التشريح النفسي مبادئ وقوانين خارقة، وهكذا لم تعد القصة وضعاً ولا تحليلا وإنما أصبحت إيضاحاً

إن الدرس العلمي في إمكانه أن يولد تحليلا جذابا وجدلا عميقا يجعل من صاحبنا مؤلف (تجاريب نفسية حديثة) نقاداً واجتماعيا أكثر مما يجعل منه قصصيا، لان القصة ما هي إلا التعبير عن الحياة، والحياة لا تكون حياة إلا إذا ظلت محافظة على ظواهرها في حريتها واختيارها، أما التحليل العلمي فقد لا يكون إلا ضربا من التشريح، وكما يعلم بورجيه (أن

كل ما يشرح هالك) على أن من حسنات عبقريته أنه وجد في (ستندال) وفي (تين) وفي عبقريته الشخصية شيئا لم يقف عند التنقيب عن الأسباب والأعمال فانه تعلم - من وراء ذلك - حال تركيب العلل والاسباب، وهو القائل (إن العقل المدرسي الذي يجدي في المخاصمة الخطابية يجدب حين يريد أن يخضع لقوانين قوة النمو - المخنوقة والمتبدلة - في الحياة، والدرس العلمي ينبغي له ألا يقنع بتوضيح هذه القوات المشوشة، وإنما ينبغي له أن يعمل على إظهار التبدل فيها، والدوافع والحياة، ومن هذه الناحية وحدها تصبح آثار بورجيه روايات - لا مناقشات - كل شخص فيها عالم مستقل بذاته - عالم لا قانون - هذه خلاصة قصته (قلب امرأة) - وهي خير ما سطره يراعه، لا تقف رواياته على التحليل المنطقي فحسب، وإنما هي توليد وإحضار وبعث للنفوس.

أما المثالية العلمية عند بورجيه فقد اختلفت جد اختلاف عن مثالية (تين) فهو لا يجحد المذاهب العلمية، حتى إذا حاول أن يذود مثلا عن مذاهب سياسية تراه يجرب أن يجعلها قواعد تجريبية ترتكز على أعمال في المجتمع وأعمال في التاريخ ولكنه - في عالم الإيمان - نراه اخذ يتحرى عن شجرة غير شجرة العلم، وعنه يقول النقادة (جول ليمتر): إن رجل اليوم هو عقلية مزيجة من العقل العلمي، والشعور الرقيق الكئيب، والقلق الخلقي، والرقة العطف، والتصوف. الروح العلمية - عنده - لم تنجح إلى عمارة الدين والأخلاق ولكنها تركتهما قليلا قليلا يعملان على فرض قواعد الحياة، وقبل أن يغدوا بورجيه رسول دين وسياسة تحول عن حلقة العلم الضيقة.

وهو القائل: إن إنسان الرغبة والأنانية، الذي لا يحيا إلا ليحلل نفسه، ولو كان من جزاء ذلك تعاسة الآخرين، هذا الإنسان قد مات بنفسه) وهو القائل: (بألا حياة حقيقية إلا في

مثل أعلى للإخلاص والتزهد، مثل أعلى في الدين، إذ لا تمكن الحياة مطلقة تحت رحمة الأهواء وتقلباتها المستمرة.

هنالك فئة من الأدباء حاربت أدب الديمقراطية والاشتراكية حربا عنيفة. ولقد عالج بورجيه في روايته (التلميذ) المذهب المادي، وتطرق إلى قواعد تين وبرتلووريبو. والقصة ترى أن المذهب المادي خطأ، ولا يمكن في كل الأطوار البرهنة على أنه مذهب حق. على أنه إذا كان حقا فلا يمكن نشر ذلك والجهر به، إذ أن هذا التعليم يمكن أن يخلق تلاميذ كهذا

يرتكب جرائم خلقية ثابتة، يكون المعلم فيها هو الضامن الكفيل. فرجل (التلميذ) الآداب والمفكر لا يحق لهما أن يكتبا كل شيء، ولكن واجبهما أن يكونا نافعين. وهكذا تعلم قصص بورجيه أن الفرد ورضا الفرد وإرجاع العدل إلى الفرد كلمات فارغة. إذ يرى أن المجتمعات هي أعضاء منظمة مرتبة، ملاجئها الحية هي الأسرة، فكل ما يضر ببقاء الأسرة وخصبها وتنظيمها يفنيها كما هو الحال في الجرائم التي تودي بالكائن الحي. ومنها الطلاق والانهماك في الفسق والزنى، وهجر الأولاد قبل البلوغ. والمجتمعات حالها كحال الأعضاء في استطاعتها أن تتحرك ولكنها لا تستطيع ذلك إلا ببطء. وكل تبديل فجائي يجر معه المرض والموت. وهذه الأخيلة الباطلة التي تبشر بها المساواة والديمقراطية تؤول إلى هذه التغيرات والفساد، فان الطبقات الاجتماعية لا تجوز (مرحلتها) إلا على مهل، خارجة من الحياة العالمة إلى اكتساب الثقافة العقلية وحسن استعمال الثروة ومعنى السلطة. ومن اجل هذا ينبغي إجلال (سياسة محافظة أرستقراطية) وديانة توحي إلى الإنسان احترام الأسرة واحترام نظامها. وهكذا تبدل بورجيه في نهاية ايامه، واصبح رجل وغظ في السياسة والدين.

فشل العلم

نقد الفلاسفة

كان لبورجيه كما كان لبرتلوتين وغيرهما، إيمان لا يتزعزع بالعلم. . . والعلم وحدة لا يكذب أصحابه، وهو ينطوي على اسمي الآمال، ولكن بورجيه لم يكن وحده حين هجر نبوءته، وهجر الآمال الخادعة التي يذيعها فإن الفلاسفة قبله قالوا: ليس للعلم مستقبل فيما وراء الطبيعة، إذ انه لا يقدر أن يعطي إلا يقيناً علمياً عملياً اصطلاحياً، ولا يقدر أن يعطي اليقين ذاته. وقد قال: (اميل بوتروس) في إحدى مقالاته المنطقية: (إن المذاهب العلمية لا تأتينا واضحة إلا لأن مقاييسنا غير واضحة. ولا توضح الحوادث إلا بحوادث اصطلاحية قد لا تكون صميم الأشياء ولكنها - صك تحكيم - بين العقل والأشياء) على أن هنالك عدداً من الفلاسفة الذين درسوا العلم وقالوا بأنه لا يعطي الحقيقة المطلقة. وهذا (هاملان) دون أن يجحد تأثير العقل قال: بأنه لا يستطيع أن يفهم الحقيقة العميقة إلا إذا أولها وفسرها،

وأخيراً جاءت فلسفة هنري برجسون جاحدة بالفلاسفة والعلم الذي آمن به (تين وبرتلو) من قبل

هنري برجسون

نقد العقل

ولد سنة 1859 واشهر تصانيفه (معلومات الشعور المباشرة، مادة وذاكرة، والقوة المبدعة) ويذهب برجسون في (كتابه الأول إلى القول بأن الشعور المنطلق عن العقل، الشعور الفطري فيه لا يتلاءم أبداً مع ما استخرجه العلماء من العقل المتحول المتبدل - كما أراده وسهلوه -. فالعلماء هم في حاجة إلى قياس الفضاء وهو سهل عندهم، وإلى قياس الزمان وهذا أقل سهولة. لأن قياس الزمان معناه الافتراض بأن الزمان تتألف أجزائه من طبيعة واحدة وأن اللحظات المتتالية على حادث قد تكون من بعض وجوه متشابهة متطابقة، تطابق طول متر مع طول متر آخر. ولكن هذا ما هو إلا افتراض. إذ حين نتأمل نرى أن زمان هؤلاء العلماء هو زمان مجرد أو هو التجريد. أما الذي يوجد فهو الدوام، والشيء الذي يدوم يختلف - في لحظة ملحوظة - عما كان عليه قبل اللحظة السابقة، ولهذا ينطوي هذا الشيء على شئ هو (دوامه). فالدوام هو متألف من أجزاء مختلفة طبيعتها. تختلف عن ذاتها بدون نهاية ولكي ننكر صفة (الدوام) التي قال بها زينون ولم ينكرها عليه أحد، نرى أن الشيء يمكن أن يكون ساكناً ومتحركا في وقت واحد، وأن (أشيل) العادي وراء سلحفاة لا يستطيع - عقلياً -

إدراكها. وهكذا نرى العلم المبني على الاصطلاح لا يمكن أن يكون إلا اصطلاحياً
وقد أتم برجسون في كتابه (مادة وذاكرة) برهانه هذا، فالإنسان - بوهم عميق الجذور
فيه - آمن بأن عقله يبسط له الحقيقة، إن عين الحيوانات ليست موضوعة لتعرف
أصحابها بحقائق الأشياء، وإنما وظيفتها وظيفة عملية تهدي أصحابها إلى الانتظام بين
الأشياء. فلو عاشت هذه الحيوانات على غير الأرض لاختفت لأنها تصبح عديمة النفع.
وكذلك لكي نستطيع أن نحيا بين الحوادث، قادرين على استخدامها على وجهها
الأحسن المستطاع، نجد هذا لا يطلب إلينا أن نعرفها بحقيقتها كما هي. وإنما يطلب
إلينا أن نختار - بصورة عملية
الوجه الأحسن استعمالا وفائدة لنا، لأن عقلنا لا يلمح إلا هذه الناحية العملية. إذ ليس -
هنالك عقل أو عقل شاعر إلا حيث يمكننا أن نمسك جزءاً من الشيء الذي نفكر فيه.
والعقل والفكر الشاعر ليسا بوسيلتين للمعرفة وإنما هما وسيلتنا للعمل. والعلم الذي
أوجداه وشيدا أركانه ما هو إلا نظام جديد لوسائل العمل. وفن مستقيم لاستخدام
الحقيقة في سبيل حاجاتنا. فهو لا يعلمنا الحقيقة ولا يكشف لنا أسرار الوجود كما هو
الحال في أن الأرنب لا يكشف لنا طبيعة السرعة والخفة.

نقد العلماء

وأما العلماء أنفسهم فقد قلبوا وجوه العلم ودققوا مسائله. فانتهوا إلى القول بان
العلم إنما هو مذهب ووسيلة إلى استخدام الاشياء، والعلم لن يصل أبداً إلى (المطلق)
وقد عملت بعض مدارس الطبيعيين على رد علوم الطبيعة إلى مذهب رياضي صرف
غايته الأرقام التي تأتي نتائجها صحيحة. وخلاصة هذا النقد توجز في أبحاث الرياضي
الكبير (هنري بوانكاريه) فهو في كل ما كتبه أعطى الأدلة القاطعة على بيان فضل
العلم. ودافع عن نفسه بأنه رجل شاك. وهو يرى أن التمحيص العلمي ليس عملا عبثاً.
بل إنه عمل اقل عبثاً من غيره من أعمال الإنسان. وهو في الغالب يكون مذهباً
مطلقاً. وكل العلوم - مثلا - هي علوم الحركة، على أن من المحال أن نثبت حركة
مطلقة، وأن نبرهن - بقياس منطقي - على حركة الأرض
وهكذا نجد الفلاسفة والعلماء ينضم بعضهم إلى بعض للاتفاق على هذه الخلاصة، وهي
أن هنالك حقيقة مركبة متحركة بدون انتهاء، وعقلا وعملا - من اجل إدراكها
واستخدامها - على فرض بساطتها واتحاد فكرتها وقوانينها ولكنه بعمله هذا غير الثوب
وأفسد الحقيقة.

الفلسفة الشاكة والنقد الشاك!

رينان في عهده الأخير

جمع رينان عام 1890 كتابه (مستقبل العلم) وأنجز تاريخه في أصل المسيحية. وقد
كان ذلك المعلم الذي يعلم (بألا تقبل الحقيقة في التاريخ الإنساني والعلوم أيضا إلا ما
شهد العقل عليه مرفوقا بالأعمال على انه حقيقة) أما آثاره الأخيرة فقد جاءت تعلمه
بان ليس في
القدرة التثبت من أية حقيقة. وان هذا العجز قد يكون ضروريا في بعض الأحيان. إن
محاوراته الفلسفية تعلمنا أن الحقائق المطلقة، الحقائق الفلسفية، لا يمكنها أن تكون
هدف البراهين! وقد يكون هذا خيراً. إذ من يعلم أن الحقيقة ليست بدافعة إلى الحزن؟
من يعلم أن الأخطاء والأوهام ليست بنافعة أو ضرورية؟ لقد كان الشعب حيوانا ضارياً
مولعا بالاعتقادات الباطلة. فذللت صرامته ومشادته باعتقادات باطلة مثلها. ما عسى
يغدو الإنسان إذا أصبح واقعيا؟ إنه يصبح سيداً صارما أحمق! من يعلم بأن حكمة
سليمان لم تكن على حق، تلك الحكمة القائلة: (كل شئ باطل، باطل الأباطيل، وكل
شئ باطل تحت الشمس) وإذا لم يكن كل شئ باطلا فان الفلسفة الحقيقية قد تكون
فلسفة الصراصير والقبرات التي لم تشك أبداً في أن نور الشمس ليس جميلا، وأن
الحياة ليست هبة سنية، والأرض ليست معقلا حسناً للأحياء. إن خير ما نصنعه على
هذه الأرض هو إلا نستغرق في تعليل الأشياء والتحقيق فيها. وإنما نعمل على محبتها.
فان سر الحياة لا يقف على العلم ولكن على الحب، وبهذا عمل رينان على تهذيب
شكه وتشذيبه، وشهد على أن اكثر الأشياء ضمانا وجداً، مهما ذهب الظن، هو العلم،
وهنالك فئة كبيرة ذهلت من شك رينان الذي غمرها، وكان ذلك لعمر قصير، ولكن
عادت هذه الفئة إلى التأثر بمؤثرات جديدة أخرى

النقد المنفعل
(جول ليمتر) 1853 - 1914
إن رينان قد أكمل دورة العلم قبل أن يناقشه ويحاكمه. وجول ليمتر لم يذهب إلى أبعد من ذلك. إنه أكمل دورة النقد وحده. وقد لقي في المنابر والنوادي والصحف الكبيرة نقداً له فذهب من مزاعمه انه يهذب الرأي باسم الذوق السليم والعقل. فسانت بوف - برغم عبقريته - لم يترك في النقد مدرسته، وتين لم يأخذ عنه النقد إلا دساتيره، وقد ألفى جول ليمتر أن هذا النقد عمله أن يحكم على بولدير وفلوبير وفرلين وهنري بيك وسواهم. ووجد فيه ما يبعث على السأم فشهد على أنه نقد فيه غش ومداهنة لأنه مبني على أصول ومذاهب، ولكي يتم اليقين بهذه المذاهب ينبغي أن تبدل بمذاهب غيرها. وغيرها أيضا إلى ما لا انتهاء. لأن هذه المذاهب ما بين جيل وجيل إما أن ينقض بعضها بعضا، وإما أن
تتلاشى، إذ ليس هنالك في الحقيقة إلا ارتياح أو ضجر، إلا انفعالات وتأثير. وقال أناطول فرانس في كتابه (الحياة الأدبية): الحقيقة هي ما لا تخرج عن نفسها أبدا وفي هذا أكبر بلائنا. فلنتحمل إذن بخلوص نية هذا البلاء، ولا نصدر أحكامنا على الآثار، ولنصدر انفعالاتنا!
لقد كان جول ليمتر صادقا ولكنه كان اقل اهتداء مما راح يزعم، فلقد انتمى في أواخر أيامه إلى مذاهب سياسية، وكان زعيم الحزب الوطني، وهو - في فترات راحته - لا تشعر منه بذلك الرجل الذي يتحدث للتحدث وحده، ولكن تحس ذلك القاضي الذي يحكم ويدين، على انه يبقى رجلا عالمياً ببعض آثاره العالية، ومذهبه الانفعالي قد ترك له مجال الخوض واسعاً. فهو يستطيع أن يخوض حقولا مختلفة في الأدب والفن لا يصرفه عن ذلك شيء، وقد عمل على تجديد الأدب القديم وكانت له فيه محاولات لاستنقاذه من قيود الفصاحة التقليدية المدرسية لكي يندمج مع الحياة الراهنة. وإذا كان النقد الانفعالي لم يجعل همه التحقيق والإقناع فهمه إذن أن يسر، وهكذا أراد جول ليمتر أن يسر! ولقد كان هذا الناقد ممن أوتي روحاً وخفة وفناً ومتزناً مستقيما، فكان تأثيره عظيما وأعظم آثاره (المعاصرون)
ريمي دي كورمون 1858 - 1915
لا يمكن الخوض كثيراً في الحديث عن (ريمي دي كورمون) فلقد كان له قراء أمناء، لكن عددهم قليل. إذ كان يمقت الفوز والجماعات والمجد المدرسي، على أنه كان معلماً، معلم صفوة مختارة من القراء، اتبعت تعاليمه ومذاهبه. وكانت تجد فيها فكرة رائعة متنوعة، لا تقف على الأدب وحده، لقد كان يفتش في الآداب خاصة عن ترجمة صادقة للحياة، وكان يرى أن ليس في الإمكان تفهم الحياة بغير العلماء والفلاسفة، ولذا تناول في بحوثه شخصيات مختلفة، أرباب علم وأدب وطبيعة وطب وأرض واجتماع، وتحدث عنها كما يتحدث عن شعراء وروائيين، ولكنه لم يحمل في كل هذا علم اليقين. إذ لا يقين - عنده - في العقل الذي لم يبلغ إلا ذرة من الحقائق الظاهرة! إلا ذرة واحدة! ولا في القلب الذي لا يمثل لنا إلا فصولا مختلفة، لا هم له منها إلا إلقاء السدول على العقل، ولا في نظريات (ما وراء الطبيعة) ولا في الأديان التي تطفح بعوامل التعصب.! نراه يجنح إلى الشك. لاشك التشاؤم: هنالك فلسفة السعادة. . . ينبغي أن تحيا سعيداً! وأن تكون فوق كل شئ وأن
تحتقر كل شئ وأن تحب كل شئ. وأن تدرك بأنه لا يوجد شئ، وإن هذا اللاشيء في الإمكان أن يكون كل شئ، والحياة بعد هذا كله - مشهد، يكفر ما فيها من اللذة عما فيها من عناء وشقاء، وأن في الجهود المصروفة إلى تعرفها وتفهمها معنى قد يرفع العقل إلى ما فوق حدود الفناء.
وقد وضع في حياته الأدبية سلسلة أفكار قيمة، وقد ظل يؤمن بأن هنالك كتابا صعاليك وهم من يدعون (بالمدرسين)، وكتابا لبقين دأبهم أن يتحروا عن الأساليب الجديدة والتعابير الحية في الفن، وقد حارب بشدة في سبيل المدرسة الرمزية وناوأ خصومها أشد مناوأة.
خليل هنداوي
شخصية الزهاوي
بمناسبة مرور عام على وفاته

بقلم السيد أحمد المغربي
بقية ما نشر في العدد الماضي
الزهاوي والمرأة
الحديث عن المرأة، مهما اختلفت نواحيه وتباينت مناحيه حديث لذيذ يسترعي الأسماع، ويستلفت الأنظار، ويستهوي الأفئدة، وهو حديث، لا نكون بعيدين عن الصواب إذا ما قررنا بأنه يلذ للمرأة اكثر مما يلذ للرجل، ولاسيما إذا كان صادراً عن الرجل نفسه، فهي تتلهف شوقاً إلى الاطلاع على ما يضمره فؤاده وما يكنه ضميره، وهي تبذل ما ملكت يمينها وما لا تملكه يمينها لاستماع حديثه عنها، سواء أكان هذا الحديث مدحاً أم قدحاً، ثناء أم ذماً؛ بل ربما كانت إلى استماع حديث الذم والقدح اشد شوقاً وأقوى رغبة منها إلى حديث الثناء والمدح!
ذلك لأن المرأة كانت ولا تزال، وستبقى ما بقيت المرأة، سراً غامضاً كلما خيل للرجل أنه توصل إلى سبر غوره، واجتلاء حقيقته، أسلمه هذا السر إلى سر آخر، وهكذا حتى يقف مكتوف اليدين، مطأطئ الرأس معترفاً بعجزه مقراً بضعفه.
ومن اجل هذا كان التضارب بين آراء الفلاسفة، والأدباء والشعراء، كل يصفها كما عرفها بنفسه؛ ففريق يقول بأنها ملاك تذيع السلام وتنشر الوئام، وفريق آخر يقول بأنها شيطان تسبب الأحزان والأسقام، وتثير الأضغان والخصام، فينهض الفريق الثالث، فيعارض الاثنين بقوله، إنها بين بين!.
ولقد كان فقيدنا الكبير يعتقد بسمو منزلة المرأة ويؤمن بإخلاصها إخلاصا تاماً يحملك على الإيمان بالسعادة الزوجية التي كانت تهيمن في جو بيته، حتى انه ليؤثر أن يبقى بدون ذرية على أن يجرح عاطفة زوجه بالبناء على غيرها.
والمرأة في اعتقاده، لا تقل عن الرجل ذكاء وفهماً وإدراكا، فهي أهل للحفاوة والتكريم، جديرة بالاحترام والتعظيم.
وهي تجلو بابتسامها الحلو وحديثها العذب، الكآبة والملل عن نفس الرجل، وتخفف عنه آلام الحياة ومتاعبها، وتبث فيه روح الجرأة والإقدام، فيقتحم في سبيلها الاهوال، ويستقبل الأرزاء بوجه باسم ونفس مطمئنة.
ويمثل لك الزهاوي مدى وفاء المرأة في فتاة شاهدها بين أهل الجحيم قد اخضلت عيناها من شدة الأسى ولوعة الجفاء ومرارة النوى، بشعر هو السحر الحلال :-
قلت ماذا يبكي الجميلة قالت ... أنا لا يبكيني اللظى والسعير
إنما يبكيني فراق حبيبي ... وفراق الحبيب خطب كبير
هو عني ناء كما أنا عنه ... فكلانا عمن أحبَّ شطير
فرقوا بيننا فما أن أرى اليو ... م سميراً ولا يراني سمير
ولو أنا كنا جميعاً لخف الخط ... ب في قربه وهان العسير
لا أبالي ناراً وعندي حبيبي ... كل خطب دون الفراق يسير
ولقد وقف الزهاوي حياته على الدفاع عن حقوق المرأة المشروعة والذود عن كرامتها الضائعة، وكان يقصد من مناصرته المرأة، المرأة المسلمة، فصور لنا ما تلاقيه من ضروب الذل والهوان، في بيت أهلها الذي وصفه بالسجن والقبر محرومة من رؤية النور، وبين لنا ما للحجاب من مساوئ فادحة وأضرار بالغة حالت دون تقدم الشرق العربي ودعا إلى السفور حتى يتاح للمرأة أن تعاضد الرجل في تحقيق الأماني والآمال التي تختلج في نفسه.
قال هل في السفور نفع يُرَجَّى ... قلتُ خير من الحجاب السفورُ
إنما في الحجاب شلٌّ لشعب ... وخفاء وفي السفور ظهور
كيف يسمو إلى الحضارة شعب ... منه نِصفٌ عن نصفهِ مستور
ليس يأتي شعب جلائل ما لم ... تتقدم إناثه والذكور
قد عزوْتم إلى السفور غروراً ... طائشاً قد يفضي إلى الهفوات
هل يحول الحجاب بين التي لم ... تتثقف والطيش في الرغبات
بل أرى في الحجاب تسهيل ما تخ ... شونه من نُكْرٍ على الفتيات
وقد تحمل الزهاوي، في سبيل المرأة الأذى والهوان، وعرض حياته لخطر الاغتيال، وذلك

أن قصائده أثارت عاصفة من الاستياء الشديد في العالم الإسلامي، فهاج الناس لها في بغداد واتهموه بتحامله على الشريعة الإسلامية الغراء وطلبوا من وإلى بغداد، ناظم باشا في عام 1326هـ أن يقيله من منصبه، وازدادت نقمة الناس عليه حتى اضطر إلى ملازمة داره. . .

الزهاوي الوطني

لئن عُدَّ احمد شوقي شاعر الإسلام فإن الزهاوي كان، بلا جدال، شاعر العرب. فهو ينزع في شعره نزعة عربية، فيفتخر ببني قومه العرب ويتغنى بذكرهم، ويشيد بمحاسنهم

وهو يدعو إلى نبذ التعصب الديني فهو مدعاة إلى التفرقة، والتفرقة تستتبع الضعف، وهذا العصرُ هو عصرُ القوة، هو عصرُ التنازع على البقاء؛ الضعيفُ فيه مقضيٌّ عليه بالموت

أصلُ العروبةِ قد رسا ... كالطودِ في البلد الحرام
والفرعُ منها في العرا ... قِ ومصرَ يسمو والشآم
بغدادُ منذ تأسستْ ... عُرِفَتْ بعاصمة السلام
عاش النصارى واليهو ... دُ ومسلموها في وئام
في وَحْدَةٍ عربيةٍ ... ليست تُهَدّدُ بانفصام
تبني سعادتها الشعو ... بُ على اتحاد وانضمام
لا خير في شعب يعي ... شُ من التعاسةِ في انقسام
كونوا جميعاً سادةً لنفوسكم ... فالعصرُ هذا سيدُ الأعصارِ
أما تهاونكم فيجرح أمرهُ ... في القبرِ عِزةَ يعرُبٍ ونزارِ
ليس الحياةُ سوى نزاعٍ دائمٍ ... يا للضعيفِ به من الجبار
الفوزُ للجَلَدِ الجريء فؤادُه ... والويلُ كلُ الويلِ للخوَّار

ولقد رافق الزهاوي سير القضية العربية في جميع أدوارها وجاهد في سبيلها جهاد الأبطال البواسل، وكان هذا الجهاد يحذُر العرب من عاقبةِ التهاون والتكاسل، ويبث في نفوسهم روح الجرأةِ والإقدام، ليعيدوا مجد أجدادهم شم الأنوف، أباةِ الضيم: -

والدهر للرجل القوى ... على صلابته ظهيرُ
والدهر يخذل من يني ... والدهر يصفع من يخورُ
إن هدَّمَ العربي حوضَ حدوده ... سخطت عليه يعربُ ونزارُ
لا يرفع الوْطنَ العزيز سوى امرئ ... حرٍ على الوطن العزيز يغارُ
لقد صح أن الضعف ذل لأهله ... وأن على الأرض القويَّ المسيطرُ
وأن اقتحامَ الهولِ أقصر مسلكٍ ... إلى المجدِ إلا أنه متوعرُ
يا قوم إن أذعنتم ... للذل أغضبتم نزارا
أنتم أحق الناس إن ... ترعوا لأنفسكم ذمارا
هل تقبلون لنفسكم ... عاراً وللأعقاب عارا

والاستقلال، في نظر الزهاوي، يؤخذ بالقوة، ولا يعطى. . فعلى العرب، إذن، أن يريقوا دماءهم الزكية ويتقدموا للموت بقلوب لا تهاب الموت، أما اعتمادهم على الوعود والعهود فلن يحقق لهم استقلالهم المنشود!

ذكت دماء لأجل الحق سائبة ... فإنها وحدها للمجد أثمان
وكل شعب على الأوعاد معتمد ... فحظه في عراك الدهرِ خذلان
إن لم تكن قوة للمرء بالغة ... فكل حق به قد لاذَ بُطْلانُ

وهو يدعو الأمة العربي إلى خدمة العلم، إلى رمز الحرية والاستقلال، فهو السياج الوحيد الذي يدرأ عنها الأخطار

وعلى الجند إنه ... كسياج يقي الحرم
وبه يُستقلُ بالرغ ... م من عصبة الأمم
لا يجوسُ العدوُ مم ... لكةً جيشها انتظم

نم قرير العين، يا جميل، فإن في بلادك نفوساً أبية، وأنوفاً شماء، تكره الذل وتأبى الاضطهاد!.

نم هادئ البال، يا جميل، فإن الشباب، يتقد حماساً، وإنه في حماسه ليغلى، ليثور ثورة البراكين. . . أنظره. . . ها هو ذا قد أجاب داعي الوطن، اسمعه. ها هو ذا قد أصاخ

لصوت الله. إن المدرسة ومتاعب المدرسة لم تثنه عن خدمة علمه المفدى. أتعلم أين هم الآن. إنهم يتدربون. إنهم يحملون البنادق.
نم قرير العين، يا جميل، فأن في البلاد مليكا، هو رمز الشباب وأمل الشباب، إنه غازي،
غازي القلوب، ابن فيصل، ابن الحسين!.
أحمد المغربي
الزهاوي
للأستاذ أكرم زعيتر
كنت في عداد اللذين احتشدوا لتأبين الكاظمي الشاعر في بغداد وأرهفوا آذانهم يستمعون إلى الزهاوي الشاعر المتفجع المتوجع.
جاء الزهاوي يومئذ يتوكأ على عصاه في جسم متهدم يصارع العلل ويناجز الأدواء وصعد إلى مرزح الخطابة وجلس على كرسي ووقف خلفه شابان حرصا حين شرع يلقي قصيدته على أن يمسكا بذراعيه إمساك الشفيق الذي يحذر أن تجمح العاطفة بالشاعر فيثور وينهض من مقعده وهو لا يقوى على الوقوف فيصيب الجسم الذي يحذر أن تجمح العاطفة بالشاعر فيثور وينهض من مقعده وهو لا يقوى على الوقوف فيصيب الجسم الذي ترادفت عليه الأسقام أذى شديد
راح الزهاوى يلقي قصيدته بصوته المتهدج، ونغمته التي انفرد بها، واضطرابه الجسماني حتى وصل إلى قوله:
الكاظمي قد اعتني ببلاده ... وبلاده بحياته لم تعتن
فنهض، وهاج، وتلظى قلبه الفتي يوشك أن يودي بجسمه المتهدم لولا حذر الشابين. ثم أنهى الزهاوي نشيده:
يا بلبل الشعراء مالك صامتا ... من بعد تغريد بشعرك مشجن
قد سرت قبلي للردى متعجلا ... ولعلني بك لاحق ولعلني!
وردد الشطر الأخير نشيجاً مؤثراً: ولعلني بك لاحق ولعلني! التفت إلى صديق يجلس بجانبي فإذا بدمعه يترقرق وقلت: أرأيت يا صديقي؟ إن الزهاوي يرثي نفسه في قصيدته، إن هواجسه تنم عن دنو أجله!! قال: صدقت ولكن شعره اليوم فيه فتوة وفيه حياة! قلت: إنها خفقة الذبالة الأخيرة كمنذر بانطفاء السراج؛ أنني مزمع على مغادرة بغداد قريبا وأحس برغبة ملحة تهيب بي إلى زيارته غداً زيرة الوداع الذي لا لقاء بعده. فماذا تقول؟ قال: ذلك ما أبغي
وانطلقنا في اليوم التالي إلى بيت الشاعر، ودخلنا عليه فإذا به جالس على فراش يتكئ على وسادتين، فرحب بنا وسر بزيارتنا؛ وكان أول ما حادثنا سألنا عن وقع قصيدته في
رثاء الكاظمي، فاعربت له عن أثرها فينا وقلت: إنني عائد إلى فلسطين وأود أن أدون في مفكرتي ما يدور في هذه الزيارة من حديث! قال الزهاوي: حسن وهل اطلعت على (الأوشال)؟ كنت أظن أن عظمي رق وان زمني لن يمتد بي كثيراً فسميت مجموعة قصائدي (الأوشال) ولكنني نظمت بعدئذ بعض القصائد وهي آخر ما أنظم، وجمعتها في ديوان صغير سميته (الثمالة)، والثمالة آخر ما أنضم في هذه الدنيا التي أراني تاركها قريبا. قلت: وهل غير الثمالة للأستاذ شعر لم يطبع؟ قال: أجل إنه ديوان في. . . وأحسب أنه لن ينشر في القرن العشرين؟ قلت وما عمر الأستاذ؟ قال: أنا في السنة الثانية والسبعين بالحساب الشمسي وفوق الأربعة والسبعين بالحساب القمري!
وهنا أحس الشعر بالألم وأخذ يئن، فوجمنا، ولكنه قطع وجومنا بقوله: لكل جريح أنة، وصمت قليلا ثم قال: نظمت قصيدة لتتلى في تكريم الدكتور حسين هيكل لمناسبة تأليفه (حياة محمد)، ونادى خادمه فناوله كيساً انتزع منه القصيدة وتلاها علينا ثم أستأنف الحديث: وطالما كنت أنشر قصائدي في السياسة الأسبوعية وحدثني طالب أن مئات النسخ من السياسة كانت تباع في دار العلوم بمصر حين تنشر لي فيها قصيدة؛ وطالما احتدم الجدل وتعارك الطلاب (وتباسطوا) بسبب انقسامهم إلى فئتين: واحدة تؤثر شوقي عليّ، والأخرى تؤثرني على شوقي! قلت:
وتطرق الزهاوي في حديثه إلى بعض أدباء بغداد الذين يحاولون انتقاصه فندد بهم

وحمل عليهم حملة شعواء، ثم تحدث عن صفات الشاعر التي هي في نظره استعداد ذاتي ومادة تتألف من ثقافة ولغة ثم طول ممارسة. وسألته عن خير قصائده فقال: أكو (يوجد) أكثر من أربعين قصيدة كلها (زينات)؛ خذ مثلا قصيدتي (هواي) ومطلعها: أذكرى إذ كنا صغيرين نلعب! وخذ قصيدتي في الغروب وقصيدتي في الطلوع إنهما عصريتان جديدتان، أما التصوير المؤثر الجميل ففي قصيدتي:
ومتى تخر أم لا؟ ومطلعها:
يا ابنة الهم إن عرفتك القل ... ب فلا تخرجي إلى الأبواب
إن هذه القصيدة بديعة، بديعة!
وحدثنا عن رأيه في بعض الشعراء، فإيليا أبو ماضي يحلق أحياناً في السماء عالياً ويهبط
اخرى، أما أحمد محرم فيمتاز شعره بجزالته ولكنه مشوب بالتقاليد، وأما الصافي فحبذا لو أتسع اطلاعه اللغوي وارتقت ثقافته. قلت له: وفي العراق؟ قال: الرصافي ماضيه خير من حاضره بكثير، بكثير؛ والشيخ رضا الشبيبي قل أن يحلق، والجواهري عربيته ضعيفة، ولقد لازمني سنتين أو ثلاثا وكان في أثناءها. . . سامحه الله! ولكن أملا قد يعقد على حسين الظريفي وابن أخي إبراهيم الزهاوي
وسألته عن قصيدته في رثاء الكاظمي فقال: تقرؤها في (الرسالة) ثم تحدث عن صاحبها وقال: والزيات هو الكاتب الذي تقرأ أخلاقه فيما يكتب
ودار الحديث حول المجمع الملكي اللغوي الذي تأسس في مصر فأبدى تشاؤمه منه: وقال إنه لن يدوم اكثر من سنوات لجموده!
وحدثنا عن المرحوم الملك فيصل وإعجابه بشعر الزهاوي ومما قال: ورأى فيصل رسمي وأنا نائم فاعجب به وأمر بتكبيره، فنظمت بيتين كتبا تحت الرسم، وانشدهما الزهاوي، واذكر أن شطرهما الأخير هو: ولكني عن مدحك لا أنام، وودعت الزهاوي وأنا موقن انه الوداع الأخير
(نابلس)
أكرم زعيتر

حديث الأزهار
للكاتب الفرنسي ألفونسو كار
- 4 -
بين القهوة والشاي
خطر يوماً لزهرة البن أن تجتاز الجبال والبحار من سهول الحجاز إلى الصين لتزور أختها زهرة الشاي، فاستقبلت هذه زائرتها بكل ترحاب إلا أنها كانت مغرورة بنفسها تتكلف الود تكلفاً ككل مخلوق لا يعترف بفضل أحد
وكانت ابنة الصين تباهي بحضارة بلادها القديمة وتحسب ابنة الحجاز حديثة نعمة خرجت من قفار لا مدنية فيها ولا مجد
وما كانت ابنة العرب لتخدع بغرور صديقتها فثارت العزة العربية في نفسها فقالت لزهرة الشاي: - أراك مغترة بنفسك يا ابنة الصين وما أنا ممن يتقلد المنة من أحد. جئتك زائرة لا مستجدية فلست اعرق مني نسباً ولا ارفع حسباً
وهزت زهرة الشاي رأسها باحتقار وقالت: - إن حسبي عريق يتصل بمن أسسوا مملكة الصين منذ ستين قرناً
- وما تقصدين بهذا؟
- أقصد تذكيرك بما يجب عليك من احترامي
وكانت الزهرتان تتحدثان وهما جالستان إلى مائدة صفت عليها أواني القهوة والشاي، وكل زهرة تتناول من خلاصتها لتنبه قواها؛ فقالت زهرة البن: - أنت كريهة الطعم، ولو لم تكوني كذلك لما هجرك الصينيون لاجئين إلى الأفيون، فما أنت بالمخدر يفتح أبواب الأحلام الجميلة
فانتفضت زهرة الشاي وقالت: - لقد غزوت الشعب الذي تغلب على الصين فأنا سيدة بلاد الإنجليز
- وأنا أسود بلاد الفرنسيس
- لقد أنزلت الوحي على ولتر سكوت وبيرون

- وأنا بعد أن ألهمت وطني أروع الأفكار ألهمت موليير وفولتير
- أنت سم بطئ قتال
- أنا دواء للهضم
وساد السكوت لحظة، فقالت زهرة الشاي: - أنك لتسمعين من غليان مائي ما يشبه حفيف أجنحة الارواح، وما ظفائر الفاتنات بأجمل من أوراقي، أنا شعر الشمال يتدفق حزناً وحناناً
فقالت زهرة البن: - لي سمرة بنات الصحراء، ولي لفتات عيونهن السوداء، فأنا اخترق الأعصاب باللهب الخفي. أنا سحر الشرق وأنا غرامه
- أنت تحرقين، أما أنا فأستنزل العزاء على قلوب الموجعين
- أنا أعطي القوة، أما أنت فتنزلين الضعف بالجسوم
فقالت زهرة الشاي: - لي القلب
فقالت زهرة البن: - أما أنا فلي الرأس
واحتدم الجدال بينهما دون أن تذعن إحداهن للأخرى، فقررت الزهرتان أخيراً أن تلجأ إلى مجلس محكمين يألفه شاربو القهوة وشاربو الشاي.
قدمت القضية لهذا المجلس ومرت الأجيال والخلاف قائم بين أعضاءه وهو لم يصدر حكمه حتى اليوم
(ف. ف)
تاريخ العرب الأدبي
للأستاذ رينولد نيكلسون
الجاهلية، شعرها، وعاداتها، ودياناتها
ترجمة حسن حبشي
ولندع هذه الناحية برهة قصيرة لنلقي نظرة عابرة نلم فيها بمكانة المرأة ونلتمس أثرها في المجتمع ليرى القارئ كيف كانوا ينظرون إليها في المجتمع الجاهلي، وذلك إنهن كن في مرتبة سامية ذوات أثر ملموس، يخترن أزواجهن بأنفسهن، ويرجعن إلى منازلهن الأولى إذا سيئتْ معاملتهن أو لم يجدن الراحة المنشودة في حياتهن الجديدة، وكن في بعض الأحيان هن اللائي يطلبن الزواج وفي أيديهن العصمة، وما كن جواري أو متاعا بل كن مساويات لأزواجهن يلهمن الشاعر القصيدة، ويثرن نخوة المحارب في القتال، ويبعثنه على الاستماتة والقوة، ولعل اصل فروسية القرون الوسطى يرجع إلى بلاد العرب الوثنية، وإن الفروسية وامتطاء متن الصافنات حبا في المخاطر وتخليص الأخيذات وإغاثة الملهوف والنساء اللواتي أحاقت بهن المصائب، كل هذه الأمور هي من الطبائع الجوهرية للعربي الصحيح؛ وان لفظ (الفروسية) ليشير إلى راكب الحصان ذو الطبع الشريف، كما أنه لا ينال لقب (فارس) إلا من كانت تجري في عروقه دماء النبل. ولكن نبل النساء لا يظهر أثره من احترام الرجال إياهن وبطولتهم من أجلهن فحسب، بل تنعكس صوره أيضاً في الأغاني والأقاصيص وفي التاريخ؛ من ذلك أن فاطمة بنت الخرشب كانت إحدى ثلاث عرفن بالمنجبات، وكان لها سبعة أبناء، ثلاثة منهن يسمون (بالكلمة) وهم ربيع وعمارة وأنس. وفي ذات يوم أغار حمل بن بدر الفزاري على بني عبس وهي القبيلة التي تنتمي إليها فاطمة، ثم أسرها، ولما أخذ بخطام البعير وابتعد بها عن الحي وأهله صاحت به: (أي رجل ظل حلمك، والله لئن أخذتني فصارت هذه الأكمة التي أمامنا بي وبك - وراءنا لا يكون بينك وبين بني زياد صلح أبداً، لأن الناس يقولون في هذه الحالة ما شاءوا. وحسبك من شر سماعه) قال: (إني أذهب بك حتى ترعي إبلي) فلما أيقنت انه ذاهب بها رمت بنفسها على رأسها من البعير، فماتت خوف أن يلحق ببنيها عار فيها. ومن بين الأسماء التي غدت مضرب المثل في الوفاء بين النساء فكيهة وأم جميل، أما عن فكيهة فيروى أن السليك بن السلكة أغار على بني عوار (بطن من بطون مالك) فلم يظفر منهم بفائدة، وأرادوا مساورته فقال شيخ منهم (إذا عدا لم يتعلق به شئ، فدعوه حتى يرد الماء فإذا شرب ثقل ولم يستطع العدو وظفرتم به) فأمهلوه حتى شرب ثم بادروه، فلما علم أنه مأخوذ جاملهم وقصد لأدنى بيوتهم حتى ولج على امرأة منهم وهي فكيهة فاستجار بها فمنعته وجعلته تحت درعها واخترطت السيف وقامت دونه، فكاثروها فكشفت خمارها عن شعرها وصاحت بأخواتها فجاءوا ودافعوا عنها حتى نجى من

القتل ولولا ضيق المقام لكان من أمتع البحوث أن نسرد تفاصيل أوفى عن القصص التي وردت في ذكر نبيلات النساء في الجاهلية، ولقد صورت شعورهن المرهف بالشرف والوفاء، ولكن لعليّ أكون قد وفقت في اختيار أمثلة تصور الشرف العريق والذكاء الحاد والعاطفة العنيفة. وكان الكثيرات منهن ينظمن الشعر الذي ينشد في المآتم ويصغنه قلائد في رثاء موتاهن، ومن أسطع البراهين على سمو أخلاق المرأة في الجاهلية ورفعة نفسها أن ترى أم البطل وأخواته يقضين على أنفسهن بملازمة الحزن عليه والإشادة بمحامده.

أما مدح العاشق لمحبوبته فكانت له لهجة أخرى، وذلك أن القصيدة لا تدع ناحية من نواحي المحاسن الجثمانية إلا وتصفها وصفا شاملا، وقل أن نجد اهتمام أو تقديراً للجمال الخُلقي، ولا يشذ عن هذا سوى مطلع قصيدة للشنفري، أما سير شارلز ليبل الذي يهم كل مشتغل بالأدب العربي التعرف إلى رأيه لعطفه على الشعر العربي القديم ودقته في نقل صوره، فيقول عنها (إن هذه القصيدة أمتع صورة ترسم لنا الأنوثة التي خلفتها لنا الوثنية العربية، وقد رسمتها نفس اليد التي خطت اللامية المنقطعة النظير، وأدت خلالها المثل الأعلى لقوة الرجولة وصلابة البطولة)

لقد أعجَبَتني لا سَقوطاً قِناعُها ... إذا ما مشَت ولا بِذاتِ تَلَفُّتِ
تبِيتُ بُعَيدَ النومْ تهدِي غَبوقَها ... لِجارتِها إذا الهَدِيَّة قَلَّتِ
يَحُل بِمَنجَاةِ منَ اللوم بَيتُها ... إذا ما بُيُوت بالمَذمّةِ حَلَّتِ
أمَيْمَة لا يُجزى نَثاها حَليلها ... إذا ذكرَ النِّسوانْ عَفَّتْ وَجَلَّتِ
إذا هُوَ أمسى آبَ قُرَّة عَينه ... مَآبِ السَّعيد لم يَسل أينَ ظللتِ
فدقت وحلَّتْ واسبكرَّت وأكملتْ ... فَلَو جُن إنسَان من الحُسنِ جُنَّتِ

وإن مثل هذا الخلق لا يمكن أن ينضج إلا في جو طليق حر بعيد عن التكلف والقيود المعدوم أثرها في الصحراء. وإذا نظرنا إلى هذه الأبيات وما توحيه من المعاني تجد أنها كافية في الرد على أولئك الذين يزعمون أن الإسلام قد رفع منزلة المرأة الاجتماعية، وإن يكن من بعض الوجوه قد رفع مستواها الأدبي في الحضارة إلى حد عظيم ولكن يوجد بجانب هذا أمر آخر ذلك أنه في بلاد كهذه حيث القوة هي الحق، وحيث نرى أسلوب الحياة الأولى يحيز للأيد امتلاك ما يريد، ومن استطاع مقاومته احتفظ بنفسه، في مثل هذه البلاد كان عجيباً ألا يندثر الجنس الضعيف (النساء)

أما عادة الجاهلية في وأد البنات أحياء فترجع - كما يظهر لنا - إلى المجاعات الجمة التي كثيراً ما تمنى بها بلاد العرب نظراً لقلة سقوط الأمطار، وكذلك إلى محافظة موهومة على الشرف، وكان الآباء يظنون أن يطعموا أفواهاً ليس لها من قيمة الحياة كما كانوا يخشون أن يجلبن لهم العار إذا سُبين في حرب، ومن ثم كانوا يعدون ولادة الأنثى خطباً كما نتبين ذلك مما ورد في القرآن (ويَجعَلونَ لله البنات سُبحانهُ ولهُم ما يشتَهوُن، وإذا بُشِّرَ أحدُهُم بالأنثى ظَلَّ وَجهُهُ مُسوَداً وهوَ كظيم، يتَوارى منَ القومِ مِن سُوء ما بُشِّرَ بِه، أيُمسكه عَلى هُونٍ أم يَدُسهُ في التَراب، ألا ساءَ ما يَحكمون)

ويقال في أمثالهم (تقديم الحرم من النعم) وقولهم (دفن البنات من المكرمات)

(يتبع)

حسن حبشي

ذكرى حافظ إبراهيم

للعالم الشاعر الرواية الأستاذ أحمد الزين

أفي كل حين وقفة إثر ذاهبِ ... وصوغ دم أقضي به حقَّ صاحِب
أودِّعِ صحبي واحداً بعد واحد ... فأفقد قلبي جانباً بعد جانب
تَساقط نفسي كلّ يوم فبعضُها ... بحوف الثرى والبعض رهنُ النوائب
فيادهر دع لي من فؤادي بقية ... لوصل ودود أو تذكر غائبِ
ودع لي من ماء الجفون صُبابة ... أجيب بها في البين صيحة ناعب
وهل صيغ قلبي أو ذخرتُ مدامعي ... لغير وفاء أو قضاء لواجب
فقارب أخاك الدهر والعيش مسعف ... فسوف تُرَى بالموت غير مقارب
حياة الفتى بعد الأخلاء زفرة ... تَرَدَّدُ ما بين الحشا والترائب
رعى الله فتياناً وفوا حق شاعر ... وفيٍّ على مَض الخطوب الحوازب
وفيّ لمصر لم يدنس قريضه ... بحمد خؤون أو بإطراء كاذب

وفيّ وفاء الرسل بين معاشر ... نصيب الحمى منهم وفاء الثعالب
يدورون بالأمداح يبغون مأرباً ... فياضيعة الأوطان بين المآرب
فبينا ترى حمداً ترى الذم بعده ... يريك فصول العام شِعرَ الأكاذب
فدع عنك شعر الحمد والذم إنني ... نصحت بما قد أقنعتني تجاربي
وكن أمّة لم تُعنَ إلا بأمَّة ... فنفسك لم تخلق لسخر الألاعب
متى تخلص الأقلام للنيل وحدهُ ... فمن شاعر عالي الشعور وكاتب
إذا الشعب بالنواب عز مكانُه ... فشعرك إن تنصفه أبلغ نائب
وهل نائب زكيتموه كنائب ... يزكيه صوت الله أعدل ناخب
وشتّان بين اثنين نائب أمة ... ونائب إنسانية في المصاعب
فهذا إلى وقت من الدهر ينقضي ... وذاك عن الأجيال آت وذاهب
لقد فقدت مصر بفقدان حافظ ... لسانا كوقع المرهفات القواضب
فسل عنه في الموتى (كرومر) إنه ... سقاه بكأس الشعر سمّ العقارب
ألم يرمه في دنشواي بضربة ... سرى وقعها في شرقها والمغارب
أطار صواب اللورد صاعق هولها ... فولى على أعقابه غير آئب
وشد على قصر الدبارة شدة ... تبين منها اللورد سوء العواقب
تداعت بها أركانه وتجاوبت ... مقاصيره تبكي بكاء النوادب
وكاد يقول القصر للورد: أخلِني ... فلو دام هذا القذف لاندك جانبي
ظلمت فما ذنبي تعرِّض ساحتي ... عناد الليث مرهف الناب غاضب
فلو كان لي في ساكني متخيَّرٌ ... لأغلقت بابي دون إيواء غاصبي
وسل بعده غورست ما فعلت به ... بَواتِر أمضى من نصال المضارب
بَواتر صاغتها قريحة شاعر ... من اللفظ لم تحفَل بحشد الكتائب
تمزق من أعراضهم لا جسومهم ... فما القتل أن تعني بحشو الجلابب
وما قتل الأحرار كالهجو إنهم ... يرون أليم الطعن طعن المناقب
ولم أر سيفا كاللسان قرابه ... فم وشباه من قواف صوائب
يُرى شِعرُه بين الصفوف محارباً ... وصاحبه في الناس غير محارب
وسل مجلس الشورى تجبك من البلى ... مواقف صرعى الجاه صرعى المناصب
رآهم لأغراض العميد مطية ... وأن الحي الأشياخ لعبة لاعب
فأوتر قوس النقد غير مصانع ... وسوّد مبيّض اللحي غير هائب
فذاك جلال الشعر لا شعر عصبة ... يطالعنا تجديدهم بالحواصب
هُم جدري الشعر آذوا جماله ... بما ألصقوا في حسنه من معايب
عناوين كالألغاز حيرت النهى ... ومما تحتها معنى يلذ لطالب
دواوين حسن الطبع موّه قبحها ... وهل يخدع النقاد نقش الخرائب
فيا ضيعة الأوراق في غير طائل ... ويا طول ما تشكو رفوف المكاتب
وكم دافعوا عن مذهب العجز جهدهم ... فما غسلوا أسواء تلك المذاهب
وكم ملأوا بالزهر والنهر شعرهم ... بلا طيب مستاف ولا ريّ شارب
وكم يذكرون الأيك والطير صدحا ... عليها فلم نسمع سوى صوت ناعب
وكم لهجوا بالشمس حتى تبرمت ... بهم وتمنت محوها في الغياهب
وكم أقلقوا بدر الدجى في سكونه ... وكم أغرقوا سماعهم بالسحائب
وكم هاتف بالخلد منهم وشعره ... تُوقِّيَ سقطا قبل عقد العصائب
وشاك أذاة الحب أطفأ جمره ... بشعر كبرد الثلج جم المثالب
فأقسم لو يبغي وصالا بشعره ... لَجانبه من لم يكن بمجانب
إذا ما احتفى بعض ببعض فإنهم ... نواضب علم تحتفي بنواضب
أكل متاع كاسد عند غيركم ... يروج لديكم يا بلاد العجائب؟
وكل أخي زيف نفاه سواكمُ ... يرى فيه من أخياركم ألف راغب
لقد راج دجل الشعر عند رجالكم ... كما راج دجل السحر عند الكواعب
تواصت بغبن شيبكم وشبابكم ... وفوضى الهوى ساوت مجداً بلاعب
فأحجم عن ميدانها كل سابق ... جوادٍ وجلى فيه تهريج صاخب
وأمسى زمام الفكر في يد عصبة ... هم المثل الأعلى لسخف المواهب
علام يجيد الفن في مصر متقن ... إذا كان بالتهريج نيل المراتب

فيا جهل واصلنا ويا علم فابتعد ... ويا حمق لازمنا ويا عقل جانب
أرى الجهل نورا في بلاد رجالهم ... خفافيش يعيشها ضياء الكواكب
إذا الشعب بالإهمال أرسب عاليا ... فلا بدع لو يعلو كل راسب
أحمد الزين
حافظ
للأستاذ فليكس فارس
لعمرك ما في الدهر ظلم ولا غدر ... ولكن هي الدنيا مراحلها غمر
يرى المرء ما في يومه وهو لا يرى ... غدا، وغد سر سيتبعه سر
مسالكنا في الأرض خطت سطورها ... إذا ما تلونا السطر لاح لنا سطر
ومعنى الذي نتلو كمين بما تلا ... فما يدرك المعنى ولو ختم السفر
هنا كلمات إن نهجأ حروفها ... ففي العالم المستور آياتها الغر
وإن تهتك الغيب الضمائر ترتضي ... بواقعها فالحق يحجبه الستر
وكم نال منا الأمس حتى إذا انقضى ... تبين منه الخير وانقشع الشر
أحافظ، هل تشجيك في ذلك العلا ... هواتف آلام يرددها الذكر
أتشجيك حرب في الحياة بلوتها ... ويوجعك العزم المكابر والقهر
أتأسف للأيام عجلى ثقيلة ... ولليل عن صبح المكاره يفتر
وللأمل المغرور في مهيع الصبا ... وللحب لا جنى إذا انتثر الزهر
وللعلم مجهولا وللفضل مغفلا ... وللود والإخلاص سادهما الغدر
وللنار تبكي فيك قلبا مولها ... بمصر وقد ذلت بأغلالها مصر
أتبكيك هاتيك الدموع ذرفتها ... قصائد من سوائدها انفلق الفجر
أحافظ، قل، هل كان دهرك ظالما ... وفي ظلمه المكذوب قد كمن النصر
أما نفذت في الخلد روحك روحها ... فلاح بها مما ادَّخرت لها الذخر
وقد ظهرت منك السريرة درة ... على شاطئ الأزمان ألقى بها العمر
فحظك في دنياك أنت أردته ... ومن نفذ المقدور نفسك لا الدهر
بنو الشعر الرسل في الحياة سبيلهم ... إلى الله آلام يمهدها الصبر
فصحتهم سقم وراحتهم عنا ... وعزتهم وهم وإثراؤهم فقر
وسيان فيهم ذو يسار ومعسر ... فذا سجنه كوخ وذا سجنه قصر
مشيت وشوقي واحد صنو واحد ... فخلناكما شفعا وروحكما وتر
وقد كان شوقي حافظا في شقائه ... وحافظ شوقي أمره للعلا أمر
فالمجد والعلياء ما قد نظمتما ... وللخلد في دنيا كما هذه الخمر
ترنح منها الثائرون كأنها ... ألم بهم من كأس شعركما السكر
أحافظ كم نادى بما قلت شاعر ... ولكن ما أطلقته الصرخة البكر
وما سمعت أقطار يعرب قبلها ... هتافا تنادي في مقاطعه القطر
قصائد من وحي الشعوب أنينها ... فناضمها فرد وملهمها كثر
أتيت بها والروع مرخ سدوله ... على كل فج ضاق في رحبه الصدر
تسير بها الأقوام حيرى وليس في ... مطالعها بدر ينير ولا زهر
فأوقدت للسارين قلبك مشعلا ... تفجر من أشعاعه المجد والكبر
رأى القوم أن النور في القلب فاهتدوا ... إلى قلبهم يجري بأعشاره الفخر
وهل في قلوب العرب إلا مشاعل ... من القبس الهادي أضاء به الذكر
خبا نورها حينا فضلت عن الهدى ... ولولا انطفاء القلب ما اظلم الفكر
أحافظ، قد أديت فينا رسالة ... ختمنا بها عصرا فلاح لنا عصر
وحملك الماضي فجيع احتضاره ... فيالك حر نال من روحه الأسر
تحملت لا يرميك بالعجز فاضل ... وناضلت لا يرميك بالسفه الغر
وقد كنت مصريا صميما بلاده ... وأوطانه قلب العروبة والنحر
وما عاش قلب دون جسم يضمَّه ... وما عاش جسم قلبه عنه يزور
ألا رحم الله الذي مد كفه ... على صفحات البحر فانفلق البحر
وسارت على أمن تصافح يعربا ... فصافحها المعمور والمهمه القفر
أشاعرنا، هذي قوافيك ألهبت ... دم الأسد الباكي ففي دمه جمر
وكم من شهيد لو نثرت دماءه ... لفاح على الدنيا به ذلك الشعر

يقولون لو لم يحكم الصمت حافظاً ... ويطوي على غل قوادمه الصقر
لحلّق فوق النيرين جناحه ... وفاض على الشرقيين من روحه السحر
أما والذي أخفى عن النفس كنهها ... فأدرج في أسرارها الجهد والأجر
لكل من الأرواح قسط مقرر ... لها وعليها لا كثير ولا نزر
إذا البلبل الصداح أكمل شدوه ... وبلغ ما ألقى على روعه النشر
إذا الزهرة الملداء نَوَّر تاجها ... وفاح على الأرجاء من نفحها العطر
فقد جاد كل منهما بحياته ... فما تطلب الدنيا وقد نفذ العمر
أحافظ، أي الشعر أنشدت في العلا ... لسعد فمال الحور وارتعش السدر
تردده السبع الطباق مذيعة ... لبشراك أن الشرق في حقه حر
وما كان قبل العهد في أرض يعرب ... سوى صفحات كل عهد بها حبر
وهل يطلق النسر الأسير جناحه ... إذا لم يحرر رأسه ذلك النسر
تنبه هذا الشرق والأفق مظلم ... وقد سادت الدنيا المطامع والكفر
فما يؤمن الإنسان إلا بنفسه ... وقد محيت من لوحه الكلم العشر
جهاداً بني قومي وسيراً على الهدى ... فما بسوى آفاقنا للسرى بدر
وهل للورى نور وسوى نور ربهم ... وفي آيه الأسعاد والمجد والبشر
أحافظ، هذا اليوم يومك إنما ... جدير بذكر الحر موطنه الحر
وفي الأمس كان المجد مجدك أن نرى ... وجوماً فلا إحياء ذكر ولا قبر
كتمنا القوافي ناحبات ذليلة ... إلى أن أطل الفجر وابتسم الثغر
فأطلقت الذكرى لروحك حرة ... وقد غادر في النسيان تذكارك المر
تحييك كف المصطفى في جهاده ... وقد أورقت في الأفق أعلامه الخضر
يحييك من عرش الكنانة عاهل ... تبسم للآفاق فانفلق الفجر

فليكس فارس

الفنون

الفن المصري

النحت - 2

للدكتور أحمد موسى

يكاد لا يختلف اثنان في تقدير الفن المصري القديم وخلود عظمته. بل والتأكيد بأنه أصل الفنون جميعاً؛ ذلك الذي حدا بكثير من علماء الفن والآثار إلى الاشتغال بتحديد الصلة بين الفن المصري وبين ما جاء بعده من فنون الإغريق وغيرهم، والقول بأن الإغريق أول من اقتبس عن المصريين، ويدللون على ذلك بمقارنات قياسية بين تصميم المعابد المصرية، ونظيرها عند الإغريق كما يقارنون بين منحوتات المصريين وبين منحوتاتهم في أول عهدهم، ويحاولون إيجاد الشبه والمخالفة بين الاثنين، ثم تراهم يعرجون بعدئذ على قواعد غاية في الدقة تؤكد صدق قولهم، منها تناسب الأعضاء، وتشابه المجموع الكلي وتناظر الإنشاء الشكلي

كل هذا قد يكون صحيحاً إلى حد كبير، ولكن أهم ما يجب علينا أن نعرفه، هو أن الفن المصري بدأ ونما وازدهر، ثم انحط وانتهى دون أن يصل في مرحلة من مراحله إلى المثل الأعلى بمعناه الفني، لأنه لم يمثل الحقيقة تمثيلا يدل على سمو الخيال وروعة التصور وكان هذا ولا يزال معدودا من القصور الحتمي الذي لم يمكن للتخلص منه بد، لأنه نجم عن طبيعة أرض مصر، ونفسية أهلها، وصفاء سماء بلادهم، وسهولة العيش دون الكفاح الكثير، وبالرغم من أن مرحلة الحضارة المصرية استغرقت حوالي ثمانية أضعاف الوقت الذي استغرقته حضارة الإغريق، فإنه للأسباب الطبيعية المذكورة لم يصل الفن المصري إلى ما وصل إليه الإغريق.

وإذا كنا لا نزال نذكر ما قلته عن بعض منحوتات اكروبوليس أثينا ومعبد بارنتون. وما يحتويه من تلك القطع الرائعة التي مثلت الحياة خير تمثيل، وفي قوة وصلت إلى أقصى ما يمكن أن يصل إليه الفن إطلاقا. أمكننا أن نعرف بالمقارنة مدى ما وصل إليه المصريون في هذا النوع من الفن، معرفة أقرب إلى الحقيقة العلمية منها إلى حشو القول!

لون المصريون كل ما تركوه بمقابرهم وأهرامهم ومعابدهم بألوان صناعية اتخذوا بعضها من الأرض. هذا عندما كانت من الحجر الجيري أو الرملي، أما في الحالات

الأخرى حيث كانت من حجر الجرانيت الوردي أو الأسمر. أو حجر البازلت أو الديوريت أو السربنتين، فإنها تركت بدون تلوين اكتفاء بلونها الطبيعي. على أنه من المناسب أن اذكر شيئا عن الألوان الصناعية وكيفية عملها، فاللون الأبيض كان من الجبس المخلوط ببياض البيض أو العسل، والأصفر من الصنوبر أو الطفل، والأزرق من مسحوق حجر الزبرجد أو من سلفات النحاس، أما الأسود فكان من مسحوق العظام المحروقة.
وإذا وجدت تماثيل خشبية أو حجرية من التي تقبل امتصاص الألوان وكانت غير ملونة؛ فان هذا راجع في الغالب إلى زوال الألوان بمرور القرون، أو لأنها تركت قبل إتمامها لطارئ لم يكن في الحسبان.
من هذا ترى أن الصلة بين النحات أو المثال وبين المصور أو بين المنمق كانت قوية وضرورية لإكمال الإنتاج الفني، وكان هذا من أهم العوامل التي مهدت السبيل إلى وجود شبه عظيم في تكوين كل من التماثيل والمصورات، بل إنك لترى ما هو اكثر من ذلك، إذا قارنت التماثيل بالمصورات من حيث الفكرة والإنشاء، فتقف حينئذ على مدى ارتباط كليهما بالآخر من حيث الناحية الفنية، والمنهجية، نعم كانت المنحوتات والتماثيل مجسمة، على حين كانت المصورات نصف بارزة أو محفورة أو مسطحة، فكان هذا دافعا إلى تصويرها من الجانب، ولعله من الضروري أن أشير هنا إلى حالة شملها النحت النصف البارز والمحفور كما شملها التصوير، ولم تكن تعرف ولم تشاهد إلا في الفن المصري وحده. هذه الحالة التي تعد طابعا مميزاً تتلخص في أن المصور جعل تصويره للإنسان كما لو كان ناظراً إليه من الجانب لمجموع الرأس والساقين والقدمين، وكما لو كان مشاهداً إياه من الأمام للعينين والصدر واليدين، فهذا رغما عن أنه خطأ، إلا أنه استمر طوال أيام الفن المصري كله منذ بدأه حتى نموه وازدهاره الذي أعقبه الانحطاط والانحلال، إلا في بعض الأحيان التي لا يمكن اعتبارها قاعدة للفن من ناحيته العامة، ولم يعرف للآن شيء عن الدافع لهذا اللهم إلا إذا كانت العينان والصدر واليدان أهم ما في جسم الإنسان من أعضاء في اعتبار المصريين إجمالا أو في نظر الفنانين على وجه الخصوص.
أما تاريخ النحت الكامل والنصف بارز فهو وصف شامل لمراحلهما منذ عصر المملكة القديمة، خصوصا في عهد الأسرتين الرابعة والخامسة إلى آخر أيام النهضة المصرية، ولما كان المجال لا يسمح بدرس هذا التاريخ تفصيلا، فإننا هنا نعالج تطور هذين الفنين المرتبطين معالجة اقرب إلى الإجمال منها إلى التفصيل، متخذين من بعض التماثيل نماذج كافية بعض الشيء للتطور والتقدم.
كانت عناية المثال والنحات في عهد الأسرتين الرابعة والخامسة (2720 - 2560، 2560 - 2420 ق. م.) منصرفة إلى الاهتمام بإخراج ملامح الوجه دقيقة التفاصيل صادقة التناسب، أما بقية الجسم فكانت في المرتبة الثانية من حيث الدقة وصدق المحاكاة، بل إن هذه البقية كانت أحيانا كانت رمزية اكثر منها حقيقية.
وأهم تماثيل هذه المرحلة - التي تعد من أهم مراحل النحت المصري مما يناسب المقام هنا، تمثال الكاتب المحفوظ بمتحف اللوفر وبمحتف القاهرة أيضاً.
والمشاهد للثاني منهما، يراه جالسا على الأرض جلسة أقرب إلى تلك التي يجلسها الشيوخ القارئون (ش1)، واضعا قرطاسا على فخذيه، ممسكا بالقلم بيمينه (المفروض هو أن يكون التمثال هكذا) شاخص العينين، تدل ملامح وجهه على سحنة مصرية وتمثال شيخ البلد تجده واقفا في شيء من اليقظة وضخامة الجسم التي يجب أن تتوفر في من يقوم بالشياخة. كما ترى بالجزء الظاهر من هذا التمثال الخشبي (ش2) تناسب أعضاء الوجه وحسن إخراجها إلى حد بعيد، أما ملامح الخلقة فتعطيك فكرة صادقة لمهمة هذا الرجل، فهو بها اقرب إلى الآمر منه إلى المأمور. وتمثاله الكامل (بمتحف القاهرة) واقف وبيسراه عصا طويلة وصل ارتفاعها إلى الكتف، متناسبة من حيث غلظتها مع طولها والطول الكلي للتمثال.
والصورة الثالث تبين تمثالين، الأيمن منها للأميرة نوفرت، والايسر للأمير راحوتب (بالمتحف المصري) من أمراء الأسرة الرابعة. جلسا جلسة متناظرة تكاد تكون متشابه على مقعدين متساويين في الارتفاع، وترى على كلا المسندين على يمين ويسار الرأس كل من الأمير والأميرة كتابة هيروغليفية دلت على شخصيتهما.

انظر إلى الأميرة. وتأمل إلى أي حد بلغت قدرة الفنان المصري في ذلك الحين، فاستطاع
أن يصور لك الاحتشام والجمال بكل معانيها. ولاحظ اختفاء الذراع اليسرى واليمنى. إلا
اليد فهي مبسوطة اسفل الثدي. ولم يخرج بروز الثديين عن حدود أصول الجمال
والذوق والتناسب مع الشكل العام. تجلس الأميرة شاخصة إلى المثال وقد تحلى
عنقها وأعلى صدرها وحول الرأس بجواهر سبق المصريون فيها كل من عاصرهم أو
جاء بعدهم. وعناية الأميرة بشعرها كما يتضح من مظهره، كانت بلا شك فائقة. فتراه
قد استرسل على الآذنين وغطى جزءاً من الجبين، أحاطته من أعلى الرأس بطوق
بديع الصنع ساعد على حفظ تصفيف الشعر كما زاد في تجميل الرأس دون ازدحام.
والوجه جميعه دقيق الإخراج، جميل الوضع، رائع التناسب. أما جلستها مع ضم الساقين
بعضهما إلى بعض فهي وإن كانت من القيود التي أبعدت الحياة عن مجوع التمثال، إلا
أنها تدل إلى حد كبير على نبل الجالسة وسمو شخصيتها.

وجلس الأمير راحوتب في وضع متشابه مع الأميرة، ترى لأول وهلة أنه خالفها لوناً
ومظهراً. فهو لم يغط من جسمه إلا الجزء الأوسط فضلا عن لونه الأسمر على نقيض
الأميرة. ارتفعت الذراع اليمنى عن الصدر قليلا واليد مقبوضة الأصابع. كما تمتد الذراع
اليسرى حتى تتمكن اليد من لاستناد على الركبة وهي مقبوضة الأصابع بشكل يتناسب
وتوفر الإرادة في صاحبتها. والتمثال في مجموعه يعطيك فكرة واضحة لحسن انتباه
الفنان حيث ترى البساطة في الملامح والمجموع الكلي.

وإذا انتقلنا إلى الأسرة الثانية عشر فجأة، فذلك لإمكان إدراك الفوارق بوضوح،
فالتمثال (ش4) يمثل أحد رجال الدولة جالساً بلباس ربما كان مخصصاً لأمثاله في
ذلك الحين، وبالنظر إليه إجمالا تجد الجسم مغطى من أعلى القدمين إلى اسفل
الثديين، كما نرى الرجل قد ترك الشعر مسدلا على الكتفين وقد اكتسب الوجه، علاوة
على دقة تفاصيله شيئاً من الحياة، لاحظ تلك الابتسامة الضئيلة التي ارتسمت على
محياه ثم تأمل في الإنشاء المجموعي ولاحظ مع هذا أن التمثال مصنوع من الجرانيت.

أما طريقة وضع متجاورين، واليدين أعلى الفخذين: فهذه هي نفسها الحالة التي
شاهدناها بالتماثيل السابقة مع الفارق الزمني الفسيح.

ولعل تمثال أمينحوتب (ش5) أشبه بتمثال الكاتب (ش1) من حيث الجلسة، أما اهتمام
الفنان بتقليل طبيعة الجسم البشري من حيث الاجتهاد في إظهار الثنايا اسفل الثديين
وأعلى البطن فهو جدير بالنظر. تأمل ما طرأ على مظهر الرأس وملامح الوجه من
علائم التفكير، والكيفية التي استطاع الفنان بها إظهار العينين والحاجبين. ثم الشعر
وما فيه من تجاعيد زادت في حسنه، كل هذا دليل التطور والتقدم.

وكانت الأسرة الثامنة عشرة غنية بتماثيلها (1555 - 1350 ق. م.) وبالنظر إلى إحداها
(ش6) ترى أن الشكل العام للتمثال اصدق محاكاة، واجمل تناسباً في الأعضاء مما
سبق مشاهدته، والشيء الجديد الذي نلاحظه هنا هو تحلية الرأس بالأفعى المقدسة،
فضلا عن ظهور الجسم على جانب كبير من جمال التكوين، وربما كانت الإذنان من
احسن الأجزاء التي يمكن مقارنتها مع ما شاهدناه في أحد رجال الدولة (ش4) وشيخ
البلد (ش2) إذ تتضح بذلك العناية بمختلفة أجزاء الجسم مما يدل على إدراك أصول
الجمال العام كنتيجة للتقدم العظيم في عهد المملكة الحديثة.

وفي تمثال رمسيس الثاني (ش7) مع ضآلة ما هو ظاهر منه ترى تفاصيل الوجه من
جانبه دقيقة كما يبدو الجسم متناسب الأعضاء أما القدرة التي تجلت في تكوين
القدمين والأصابع فهي جديرة بالاعتبار. والزائر لمتحف القاهرة يستطيع بزيارة
الصالات التي روعي في ترتيب محتوياتها تدرج تاريخي، أن يأخذ فكرة شاملة لفن رائع
جمع إلى القدم، جمالا خاصا ميزه على سار منحوتات غيره من الشعوب.

(لها بقية)

أحمد موسى

البريد الأدبي

مؤتمر دولي للآثار

يعقد الآن بمدينة القاهرة بدار الجمعية الملكية الجغرافية مؤتمر دولي للآثار والمتاحف.
وقد افتتحه وزير المعارف المصرية بخطاب نوه فيه بما لمصر من مركز خاص في

عالم الحفريات الأثرية، وبما بذله العلماء الأجانب لاستكشاف كنوزها الأثرية، وبما تبذله مصر لصون تراثها الاثري؛ وتمنى في خطابه أن تعمل الحكومات المختلفة على حضر إخراج الآثار القومية من وطنها، وأن تحل هذه المسالة الشائكة بما يرضي الفن والأماني القومية.

وبعقد مؤتمر الآثار والمتاحف الآن دورته الرابعة؛ وقد عقد من قبل ثلاث دورات: الأولى في رومة، والثانية في أثينا، والثالثة في مدريد؛ وهو يعنى بالبحث في كل ما يتعلق بالآثار والحفريات الأثرية وصيانة الآثار، والمتاحف وتنظيمها؛ وقد شهدت الدورة الحاضرة زهاء خمسين مندوبا يمثلون عدة من الأمم الغنية بكنوزها الأثرية مثل فرنسا وألمانيا وإيطاليا وإنكلترا وأمريكا وتركيا والعراق ومصر وغيرها.

ولعقد هذا المؤتمر الأثرى بالقاهرة أهمية خاصة، لأن مصر تشكو منذ حين تبدد تراثها الأثري على يد بعض العلماء الذين لا يراعون حرمة العلم وبعض التجار ومهربي الآثار الذي يعملون بلا انقطاع على اختلاس كنوزها الأثرية وتفريقها في مختلف الاقطار؛ والذين زاروا المتاحف الأوربية من المصريين يعرفون كم تضم الأقسام المصرية في المتاحف الأجنبية من آثارنا المفقودة، وكم تضم منها المتاحف والمجموعات الخاصة في مختلف أنحاء العالم. وقد شعرت مصر أخيراً بوجوب التحوط لهذا الاعتداء المتكرر على تراثها الفني؛ وربما كان في مجاهرتها بالشكوى أمام هذا الحفل الكبير من علماء الآثار وممثلي الدول أثره في تحقيق أمنيتها وتقريب وسائل العمل على صون تراثها الأثري.

مجمع اللغة العربية الملكي

اختتم مجمع اللغة العربية الملكي دورته الرابعة في الأسبوع الماضي، وانفرط عقد أعضائه الشرقيين والغربيين، وقفل عدة منهم راجعين إلى بلادهم، وقد امتازت هذه الدورة من المجمع بظاهرتين: الأولى ظاهرة القلق والتكهن حول مستقبله ونظامه الجديد الذي تعنى وزارة المعارف بوضعه منذ حين؛ والثانية ظاهرة النشاط ولا سيما في ميدان الاستنباط

والمصطلحات والألفاظ الجديدة. وقد أثار المجمع ونظامه في هذه الدور كثيرا من الجدل، ووجهت إليه إلى جهوده حملات كثيرة، واضطر المجمع نفسه إلى أن يخوض معركة الجدل للذود عن كيانه وعن جهوده؛ والواقع أن المجمع قد بدأ في هذه الدورة لأول مرة يدرك خطورة مهمته، ويشعر بسهام النقد التي توجه إليه، ومعاول الهدم التي تشهر عليه؛ بيد أن من الإنصاف أن نقول إن المجمع قد أبدى في هذه الدورة نشاطاً يحمد، وإنه إذا كان في تكوينه الحاضر بعض الشذوذ والاضطراب، فليس الذنب في ذلك عليه، وإنما على الذين تأثروا في تأليفه على هذا النحو باعتبارات لا علاقة لها بمهمته الأصلية ورجاؤنا أن يوفق ولاة الأمر إلى إصلاح المجمع وتنظيمه بصورة جديدة تبدو فيها مصريته قوية واضحة، وتمثل فيه الكفايات المصرية التي أهملتها البواعث والأهواء الشخصية، وتحدد مهماته اللغوية والعلمية والأدبية تحديدا واضحا بحيث يغدو بهذا الإصلاح من القوة والهيبة الأدبية في مصاف المجامع اللغوية العريقة.

إحياء ذكرى حافظ إبراهيم

كان يوما السبت والأحد 6و7 مارس الحالي موعداً للاحتفال بإحياء ذكرى حافظ إبراهيم، ففي مساء يوم السبت قصد إلى دار الأوبرا جمهور يبلغ الألفين، وحضر الحفلة صاحب العزة محمد حسين بك مندوب جلالة الملك ومجلس الوصاية، كما حضرها بعض الكبراء.

وافتتح الحفلة بالقرآن الكريم، ثم ألقى صاحب المعالي على زكي العرابي باشا وزير المعارف كلمة الافتتاح، وتلاه الخطباء والشعراء طبقاً للبرنامج الذي نشرناه في العدد الماضي، وكذلك كان في اليوم الثاني.

وقد كانت الحفلتان مظهراً رائعاً للوفاء لحافظ، غير أننا نلاحظ أن كثيراً مما قيل فيها لم يكن معداً لهذه المناسبة، بل كان عهده قبل ذلك، كذلك التضييق في الوقت على الخطباء والشعراء كاد يؤدي إلى الإخلال بالغرض منه، فان عدم إتمام الخطب والقصائد انصياعا لقانون الإذاعة لم يساعد على إيضاح النواحي المختلفة للشاعر المحتفل بإحياء ذكراه - التي يتناولها الخطباء الشعراء، وقد كان أحرى بلجنة الاحتفال أن تختزل الخطباء والشعراء، وأن تقدر لكل خطيب وكل شاعر من الوقت ما يتسع

لإلقاء كلمته
ولعل لنا عودة إلى الكتابة عن الحفلة وما قيل فيها وتناوله بما يعن لنا من النقد
أسبوع الجاحظ في الجامعة المصرية
ستحتفل كلية الآداب بالجامعة المصرية بإقامة أسبوع للجاحظ بمناسبة مرور أحد عشر قرنا على وفاته ابتداء من يوم 25 مارس، وهذه هي موضوعات المحاضرات وأسماء المحاضرين موزعة على أيام الأسبوع:
كلمة الافتتاح:
حياة الجاحظ: للأستاذ عبد الوهاب عزاماليوم الأول
ثقافة الجاحظ: للأستاذ احمد أمين
منهج تفكير الجاحظ: للأستاذ أمين الخولياليوم الثاني
أسلوب الجاحظ: للأستاذ عبد الوهاب حموده
الجاحظ بين النقد والبلاغة: للأستاذ شوقي ضيفاليوم الثالث
الجاحظ المعتزلي: للأستاذ عبد اللطيف حمزة
كتاب الحيوان: للأستاذ كراوساليوم الرابع
البيان والتبيين: للأستاذ السقا
دعابة الجاحظ: للأستاذ إبراهيم مصطفىاليوم الخامس
مآخذ الجاحظ: للأستاذ احمد الشايب
فكاهة الجاحظ: الدكتور طه حسين بك اليوم السادس
مستقبل الكتاب
هذا موضوع يثير اليوم كثيراً من الجدل. ويتساءل أقطاب التفكير الرفيع اليوم هل سيقضي على الكتاب في المستقبل القريب؟ لقد تناقص قراء الكتب القيمة إلى درجة تثير الجزع في جميع الدوائر الأدبية، والإجماع على أن ذلك يرجع بنوع خاص إلى تأثير السينما والراديو والمجلات المصورة، والمجلات الأسبوعية، وذيوع الأدب الغث من القصص البوليسية وغيرها ذيوعا هائلا؛ بيد أنا قرأنا أخيراً فصلا لكاتب فرنسي كبير يذهب فيه في تعليل هذه الأزمة الأدبية مذهباً آخر؛ فهو يسلم بما للسينما والراديو من أثر في إحداثها، ولكنه يقول إن هناك سببا آخر أثرا، وهو أن أقطاب الكتابة في عصرنا لم يفلحوا في الوصول
إلى العاطفة الشعبية، ففي القرن الماضي مثلا كان كتاب مثل بلزاك وفيتكور هوجو وأميل زولا وفرانسو كوبيه، وغيرهم يصلون بسرعة إلى أعماق قلوب الشعب، ولكن هذه الطبقات الشعبية تكتفي اليوم بقراءة الرواية البوليسية أو مشاهدة السينما؛ وكيف لا يكون ذلك وأكابر كتاب العصر، مثل جيد وبروست وفاليري وغيرهم يقصدون بما يكتبون طبقة أو طبقات معينة من الخاصة؟ فالشعب يقرأ في الواقع ما يكتب له، فإذا نأى عنه عظماء المفكرين فهو بدوره ينأى عنهم.
وهكذا يغدو الميدان حرا لرواج الأدب الغث الرخيص، ويفقد الجمهور شيئا فشيئا الرغبة في تذوق الأدب القيم، ولا يطلب إلا نوعا للتسلية وتمضية أوقات الفراغ في المكتب أو المصنع أو قبيل النوم، ويقضي على كل مجهود يبذل لترويج الكتاب القيم بالفشل لأنه لا يلائم ذوق الجمهور ولا يرضي عواطفه.
ونحن نوافق الكاتب في أهمية هذا التعليل النفسي الذي يقدمه شرحا لازمة الكتاب؛ بيد إننا لا نعتقد أنه بتعليل حاسم، وهناك بلا ريب عوامل كثيرة أخرى لها قيمتها؛ ومن المحقق أن الكتاب فقد كثيرا من نفوذه وسحره القديم بفعل التطورات الفكرية والاجتماعية المعاصرة.
الأستاذ لامبير
وفد على مصر في الأسبوع الماضي العلامة المشترع الفرنسي الكبير المسيو ادوار لامبير عميد معهد القانون المقارن بجامعة ليون، بدعوة من كلية الحقوق المصرية ليلقي سلسلة من المحاضرات القانونية، وقد بدأ الأستاذ فألقى بالفعل محاضرته الأولى. وللأستاذ لامبير روابط علمية قديمة بمصر. فقد كان ناظرا لمدرسة الحقوق الخديوية سنة 1906؛ ومع أنه لم يقم اكثر من عام فانه ترك بها أحسن الأثر. ولما عاد إلى جامعة ليون ألتف حوله هنالك في كلية الحقوق جمهرة من الطلبة المصريين الذين تلقوا دراستهم القانونية تحت إشرافه؛ وهو اليوم جمع حافل، بعض أكابر فقهائنا،

ومنهم كثير ممن يشغلون أسمى المناصب. واستمرت العلائق العلمية والودية بين الأستاذ لامبير وبين تلاميذه المصريين من ذلك الحين إلى يومنا؛ وهو يزور مصر لآن بعد ثلاثين عاما، وهو في ذروة نضجه العلمي؛ وقد استقبل الأستاذ من جميع تلاميذه القدماء بالتجلة والتكريم؛ وسيواظب على إلقاء محاضراته (القانون المقارن) وكل ما يمت إليه من المسائل الفقهية والاجتماعية.

مسرحية جديدة لشيلر

المعروف أن الشاعر الألماني الكبير شيلر قد ترك حين وفاته مسرحية لم تكمل، عنوانها (ديمتريوس)؛ وقد لبثت هذه القطعة على نقصها منذ وفاة الشاعر إلى يومنا. وأخيرا عنى الدكتور فيلهلم بإتمامها تمشياً مع فكرة الساعة التي ظهرت من جزئها المكتوب. وقد مثلت فعلا لأول مرة بمسرح ماينتجن، والمنظور أنها تمثل بعد ذلك في جميع مسارح ألمانيا ثم تنقل إلى مختلف اللغات وتمثل في جميع المسارح الأخرى.

المتاحف المتنقلة

وضعت إدارة متحف السويد القومي مشروعا جديدا للثقافة الفنية القومية خلاصته أن تنظم عرض بعض الآثار والتحف الهامة بصورة دورية وأن تتخذ لعرضها عربة من عربات السكة الحديدية، تصنع بشكل بهو فني، ويمكن تسييرها إلى مختلف المدن؛ وتقوم إدارة السكة الحديدة الآن بصنع هذه العربة الجديدة التي سيطلق عليها (عربة الفن) وستغطى نوافذ هذه العربة بألواح ضوئية لكي تعكس اكبر مقدار من الضوء على الداخل؛ وتضاء بعد الغروب بجهاز كهربائي قوي؛ وستجهز العربة أيضاً بجناح خاص لإلقاء المحاضرات الفنية على الزائرين؛ وسيطوف هذا المتحف المتنقل بالمدن والقرى الواقعة على السكة الحديدية والقريبة منها، ويمكث أياماً في كل منها؛ وتعضد الحكومة هذا المشروع وترى فيه وسيلة حسنة لتعريف الطبقات التي لا تسمح ظروفها بزيارة العاصمة بالكنوز القومية الفنية؛ وترقية ثقافتها الفنية.

لونس كارولين راينر إحدى الفنانات البارزات

من الظواهر الفذة في العصر الحاضر اشتغال كثير من السيدات بالفن وبرز بعضهن فيه - والسيدة لوتسي راينر إحدى هؤلاء البارزات جاءت إلى مصر لأول مرة سنة 1929 وظلت دائبة المشاهدة والبحث وراء المناظر الشرقية الرائعة مسجلة إياها على لوحاتها آنا بزيت وحيناً بالباستيل ومرة بالطبع من لوحات اللينو ليوم التي حفرتها بنفسها لمختلف الألوان.

ولعل من الغريب أن تكون السيدة راينر من فنانات الوقت الحالي، ومع هذا لا تتجه بروحها إلى الفن الحديث الذي يعنى بالموضوعات من حيث معناها قبل العناية بتصويرها دقيقة التفاصيل. لأنك تراها محافظة على تعاليم المدرسة النموذجية (كلاسيك) في معظم لوحاتها.

زرت معرضها بصالة نستري، وشاهدته بعض لوحاتها التي دلت على ما لهذه السيدة مقدرة فائقة في صدق المحاكاة وصدق الاختيار. جمال الإخراج وانسجام الألوان.

فأنت تنتقل من منظر لقهوة بلدية إلى منظر يمثل لك جامع الأزهر في الغروب فتقف أمامه مأخوذاً بقوة ألوانه وانسجام تفاصيله وحسن بيانه، ثم إلى لوحة بشارع الحمزاوي وإلى أخرى بباب المتولي فترى أنك أمام مجهود رائع جدير بالتسجيل والإعجاب.

أما لوحاتها للمناظر الشخصية فكانت مع قلتها نسبياً دليل المقدرة والتفوق، ولا نزال نذكر صورتيها الرائعتين للسيدة مدام الدكتور م ومدام ب.

فبالأولى رأينا كيف استطاعت الفنانة أن تجمع في صورة هذه السيدة بين الرقة والجمال وبين حسن التكوين الإنشائي واختيار الألوان. أما القوة التي انبعثت من عيني السيدة المذكورة فإنها حقيقة جديرة بالإعجاب في أدق معانيه، كما لاحظنا في الصورة الأخرى رقة وعذوبة لا يسهل إخراجها بهذه العناية إلا لمن تمكن من الفن.

ولما كانت هذه السيدة النمسوية الأصل ستعرض لوحاتها في معرض الفن الحديث الذي سيفتح قريبا، فإنا نرجو أن يقبل القراء على مشاهدة هذه المجموعة الرائعة إلى جانب ما سيعرض به من أعمال الفنانين الآخرين

الدكتور أحمد موسى

مجمع علمي في ألمانيا يجمع نوادر المخطوطات عن علوم القرآن

يقوم المجمع العلمي في بافاريا منذ سنوات عديدة بجمع الكتب والنوادر المخطوطة باللغة العربية والمؤلفات الخاصة بالقرآن الكريم وعلومه والقراءات وتاريخ القرآن. وقد اقتنى من ذلك مجموعات كبيرة بعضها امتلك أصوله الخطية وبعضها استنسخ منه لوحات فوتوغرافية كاملة. وأسس بهذه المجموعات كلها متحفاً خاصا كبير القيمة. وشرع بعد ذلك يطبع على نفقته بعض الكتب ذوات القيمة منها

وقد فكر المجمع بعد ذلك في أن تقوم جهة من الجهات التي يعنيها أمر هذه العلوم بطبع ما بقي من هذه الكتب وهو كثير. ورأى أن أولى الجهات بتقدير مثل هذه المجموعة هي الأزهر الشريف والحكومة المصرية. فأوفد أحد أعضائه وهو الدكتور برتزل إلى مصر للتفاهم في هذا الأمر.

وقد قدم الأستاذ برتزل إلى رياسة الأزهر مذكرة تفصيلية بما قام به المجمع العلمي في بافاريا في هذا الشأن والقيمة العلمية والأدبية والتاريخية التي تقدر بها مجموعات الكتب التي حصل عليها أو على لوحاتها الفوتوغرافية منها. وشرح لرياسة الأزهر فكرة المجمع في طبعها تحت إشراف الأزهر وعلى نفقته. وما يكون لذلك من الأثر في نشرها وتقديرها وإخراجها في عناية وضبط وإتقان. وشفع مذكرته بقائمة بأسماء الكتب التي حصل عليها المجمع والكتب التي قام بطبعها في ألمانيا.

وقد أحالت مشيخة الأزهر هذه المقترحات والمذكرة الملحقة بها إلى الأستاذ محمد فريد وجدي مدير مجلة الأزهر لدرسها وإبداء الرأي فيها وانتهى الأستاذ وجدي من درسها وأبدى رأيه إلى رياسة الأزهر

وقد قابل الدكتور برتزل أمس صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر في مكتبه قبل ظهر أمس وتباحثا في هذا الموضوع.

وقد أعرب المجمع عن استعداده أن يقدم إلى مشيخة الأزهر بعض الألواح الفوتوغرافية لهذه الكتب ليمكن رياسته أن تحكم على قيمة هذه المؤلفات وأصحابها قبل إقرار طبعها تحت إشراف الأزهر وتحمله نفقاتها. ولذلك أعرب المجمع عن استعداده لان يرسل إليه الأزهر أحد رجاله لبحث هذه المخطوطات أو تصويرها في لوحات خاصة لمشيخة الأزهر لتتمكن بمعرفة الأخصائيين من رجالها من تقرير المجموعة التي يريد المجمع طبعها والتنازل في نظير نشرها عن جميع الحقوق والنفقات التي تكبدها في سبيل الحصول عليها في سنين طويلة.

إلى صاحب رسالة المنبر الأستاذ فليكس فارس

قرأت كتابك (رسالة المنبر إلى الشرق العربي) فما احسن ما أبدعت وما أبدع ما أحسنت، لكأن الشرق هو ألقى حكمته في فمك وأرسل كلمته من قلمك، ثم نصب لك منبره العالي وقال لك - قم فتكلم.

لم أرك انحرفت عن الحقيقة ولا ملت عن وجه الرأي ولا نزعت إلى تقليد ولا جنحت إلى متابعة ولا غرك اسم فيلسوف ولا خدعك اسم كاذب، بل كنت كالسيف لا يعمل إلا عمل حده القاطع ضاربا في كل مرة ضربته في كل مرة.

وفي كتابك أنات هي رعد قلبك الحر، وفي بيانك إشراق هو نور نفسك القوية، فلا جرم كان ما كتبته من الكلام الروحي البليغ الذي يقرأ بالعين ويسمع في النفس في وقت واحد

ولقد أدركت بفطرتك السليمة وروحك الملهمة ما في دين الفطرة من الحكمة الإسلامية البالغة وجئت من ذلك بأشياء كأنها من نبع الوحي، فكنت بعقلك وذكائك وإحساسك النبيل صورة أخرى لحكيم الألمان وشاعرهم (جيته) حين قال: - إذا كان هذا هو الإسلام فكلنا مسلمون.

حياك الله وأدام النفع بك وأمتع بأدبك والسلام!

من المخلص

مصطفى صادق الرافعي

مؤتمر اللاسلكي الدولي

في شهر فبراير سنة 1938 يعقد في القاهرة المؤتمر الدولي اللاسلكي وقد وجهت

وزارة الخارجية الدعوات إلى الدول التي تشترك في أعمال هذا المؤتمر كما وجهتها إلى اللجنة المختصة بجمعية الأمم.
وبهذه المناسبة نذكر أن لمصر مطالب هامة ستعرضها على هذا المؤتمر وأهمها أن يكون لها موجة دولية خاصة بها. وقد سبق أن طلبت مصر هذا الطلب في المؤتمر الذي عقد في لوسرن ولكنها لم تفز إلا بالموجة الحالية التي تشاركها فيها محطة بروكسل ببلجيكا. وقد عدل هذا الطلب أخيراً وجعل بموجتين بدلا من موجة واحدة وهاتان الموجتان المطلوبتان من الموجات القصيرة حتى يمكن أن تنقل الإذاعة اللاسلكية
المصرية بجلاء إلى كثير من الأقطار التي ترغب في الاستماع إلى الإذاعات المصرية وفي مقدمتها القرآن الكريم
وإذا رخص لمصر بهاتين الموجتين أمكن عندئذ إنشاء محطتين للإذاعة بطريق هاتين الموجتين قوة كل محطة من 15 إلى 20 كيلوات بينما المحطة المصرية الحالية وقوتها 20 كيلوات لا تسمع بجلاء تام في بعض الأقطار الخارجية
على أن في النية تقوية المحطة الحالية حتى تبلغ قوتها 100 كيلوات أي خمسة أضعاف القوة الحالية وستخصص للبرنامج العربي، أما المحطة أو المحطتان الأخريان المراد إنشاؤهما فسيخصصان للإذاعات الأخرى
البعثات العلمية
أدرج في الميزانية الجديدة للبعثات العلمية 100. 000 جنيه منها 27800 جنيه لبعثة وزارة المعارف و 39600 جنيه لبعثة الجامعة المصرية و 4200 جنيه لبعثة وزارة الزراعة و 5000 جنيه لبعثة وزارة الصحة و 5400 جنيه لبعثة وزارة المالية و 3300 جنيه لبعثة وزارة الأشغال و 3000 جنيه لبعثة وزارة المواصلات و 900 جنيه لبعثة وزارة التجارة والصناعة و400 جنيه لبعثة وزارة الحقانية و 7300 جنيه للامتدادات و 3000 جنيه للبعثات الصيفية القصيرة المدى و 1500 جنيه نفقة زوجات الأعضاء في الخارج و 3000 جنيه لإسعاف الطلبة الذين يدرسون في الخارج على نفقتهم فيكون المجموع 104400 ولكن المنتظر عدم صرف مبلغ 4400 جنيه فيكون الاعتماد المقرر هو مائة ألف جنيه فقط
أما عدد أعضاء البعثات فيبلغ 290 عضوا منهم 75 عضوا ببعثة وزارة المعارف و144 عضوا ببعثة الجامعة و12 عضوا موفدون من الزراعة و9 أعضاء موفدون من الصحة و 15 عضوا موفدون من المالية و 8 أعضاء موفودون من الأشغال و 4 أعضاء موفودون من المواصلات وعضوان موفدان من التجارة وعضو واحد من الحقانية
الكتب
البدائع
تأليف الدكتور زكي مبارك
للأستاذ يوسف محمد
كل كتاب بعنوان خلاب لم يخدعني فحواه ولم يغرني مرماه ولم يخلف ظني واضعه (كأطباق الذهب) و (نسيم الصبا) بل لما ألقى كتابا عنوانه أخاذ لم يخيب وهمي إلا هذا الكتاب الممتع الذي أنا بصدده، ففي هذه المرة فقط قد طابق عنوان الكتاب الواقع، وطابق باطنه ظاهره فهو على الحقيقة سلسلة نفيسة من الروائع والبدائع خليقة أن تخلد في مجلد
حسبك أن تقلبه حتى توقفك فصوله لطرافتها، وحتى تنفرج لك صفحاته عن معرض. وعن أمتع الأشياء، أو عن حديقة غناء فيها ما فيها من بهيج الأزهار ويانع الثمار حتى لتحار أيها تقطف وأيها تجني لفرط البهر إذ كلها بهي نهى، كأنك صبي فتنته معروضات اللعب المتباينة الأشكال أو شره إزاء لذائذ الصحاف والألوان
الكتاب في جملته أشبه شيء بموسوعة موجزة، دال على ذهن خصب وعقل رصين وقريحة طلقة وسعة اطلاع لا تغيب عنها لا صغيرة ولا كبيرة، أحاط صاحبها بالغابر والحاضر والآجل، فبينا هو يذكرك بماضيك لأنك لا تفهم حاضرك إلا به إذا هو يتابع عصره ويساير النهضة ويساهم فيها ثم يفكر في المصير لأن الأمس واليوم يهيئان الغد فإذا ما تصفحت الكتاب فكأنك تقوم برحلة شائقة تتفتح فيها لذهنك آفاق جديدة وأبواب مغلقة وتنثال عليك آراء لم تكن في حسبانك، فتحس تجدداً في الفكر والشعور

كمن استفاق من نوم عميق معافا مستجما، يخرج بك من حديث أدبي معجب إلى موضوع غزل مطرب، وينتقل بك من نقد رفيق لاذع إلى حديث عن سيرة عظيم بارع، ثم يستدرجك من هذا إلى تفطينك إلى رائع الشعر الدفين ودقيق المعنى الكمين، ثم يتجاوز معك إلى النظر في بعض وجوه الأخلاق والاجتماع وكشف الغطاء عن طلاء بعض الطباع وبعد هذا المطاف يرجع بك إلى الوراء، إلى الماضي البعيد أو القريب فيريك من آياته عجبا، ولعلك تزعم أن هذه الفصول أشتات وتفاريق تعوزها الوحدة المنسجمة، ولكن مهلا: روح الكاتب السارية فيها

جميعا سريان الماء في الأعواد كفيلة بالوصال الوثيق

ومن خصائص هذا الكاتب أنه يملك ناصيته الحاسة الأدبية فيما يكتب، ولو أنه قليل الاستعارات والمحسنات، فإنه يرى الأشياء في دقائقها وجملتها كالمتفنن متأثرا بمفاتنها، مستغنياً عن التصريح بالتلميح وعن العبارة بالإشارة حتى يوحي إليك بالمعاني إيحاء، يصف لك ما رأى وما سمع ولكن لا يريد الوصف للوصف وإنما لإماطة اللثام عن جانب من جوانب نفسية الناس أو يبن خبيثة من خبايا الجماعة لأن الإنسان لا يعنيه إلا الإنسان، وإن غضب أو رضى استرسل في الأسلوب الخطابي الفياض وتدفقت لعناته ومسراته كنهر زخار، أقرأ مثلا (عيد الحرية في باريس) و (أخلاق الناس) و (بين العقل والهوى) تر صدق ما أقول واكثر ما تتجلى فيه هذه الروح الأدبية حين يتناول الشعر بالتحليل والتعليل فإذا تحدث عنه ذوقك إياه تذويق الخبير، وبصرك بروعته تبصير العارف البصير، كأنما تلبس نفس الشاعر ثم عرفك بالصحيح منه والمزيوف كالصيرف الماهر، اقرأ في الكتاب (نقد ديوان شوقي) ثم قصائد المديح في الأدب العربي توقن بما قدمت إيقانا تاما فلا أحد حبذ إليّ الشعر العربي وقد كنت منه نافرا إلا هذا النقاد الحاذق.

ثم يمتاز هذا الكاتب بالصدق والصراحة حيث تمثله كتاباته كل التمثيل وتشف عن عقيلته كما يشف الثوب الرقيق عن الجسم الرشيق، تنم سطوره عن نزوعه إلى القديم القويم الجدير بالرعاية وتشى بمسايرته لعصره، ويشيع فيها الروح الديني الصوفي فهو حين يصور لك سحر باريس وفتنة باريس يصورها في لهف وشوق كمتعبد ربي على الحشمة والوقار وكبت النفس الأمارة بالسوء ثم إذا هو قد لان ووهن وبروعة الجمال افتتن فذهب عقله شعاعا وانتفى وقاره ضياعا، ولعل ما تميز به من وضوح الأسلوب والجلاء ناشئ من الصراحة المتناهية لأن من أسباب الغموض والاستغلاق ميل الكاتب إلى المداراة والتعمية والتنكر، ومن هنا كانت شخصيته قوية عصية على التقليد والفناء في غيرها، فهو لم يتأثر بأحد ممن لازمهم وأخذ عنهم لا في نمط التفكير ولا في طراز التعبير.

ربما ساءلت نفسك مرة أن عددت الجهل مزريا بك: لماذا اقرأ؟ فأنت تقرأ للهو والتسلية ونفي الملال إن كنت من أهل الفراغ ثم لتسر من مصادفتك لما يشبه ما يجول في خاطرك من المعاني ومن لقائك من يشاطرك في مشاعرك ثم لتصلح ما اعوج وفسد من أفكارك

بالقياس إلى أفكار سواك إذ لابد من تصحيح التجارب الشخصية وتوطيدها بالقراءة، ثم لتضيف إلى ما تعلم ما لا تعلم فتزداد ثروة على ثروة ثم لتستوضح على ضوء القراءة ما يقوم بذهنك من المعاني العائمة القلقة الدائرة في شبه الظل ثم لتمرن فكرك وتروضه على التأمل المستمر حتى لا يعلوه الصدأ وتذهب عنه مرونته ومتانته وحتى لا يصيبه الخمود والجمود والركود لأن القراءة ضرب من التفكير إذ فيها محاولة لمتابعة الكاتب في سير تفكيره وإلا استدق عليك واستغلق ثم لترهف ذوقك لأن الذوق الرفيع لا يكتسب إلا بطول القراءة واستدامة الموازنة بين الجيد والرديء والغث والثمين ثم لننبه ما غفا من عقلك وخمد من قبلك فكل هذه تكتسب من كتاب (البدائع) فعليك به تجد فيه المسلاة والمأساة والنور.

منذ انتشار الصحافة واتساع دائرتها ازدهر أول ما ازدهر عندنا من ألوان الأدب ما يسمونه بأدب المقال حيث يسع هذا النوع بوجه عام جميع فنون القول والأغراض والبحوث في فصول ورسائل تطول أو تقصر بحسب ما يقتضي المقام، فيصاغ في هذا القالب من الأدب فصول في النقد ونبذ في التاريخ وأبحاث في الأخلاق والاجتماع وتصب فيه النظرات والخطرات والمشاهدات حتى الأقاصيص الموجزة الصغيرة وقد

كان هذا النوع من الكتابة عاملا مهما في ترقية النثر إلى حد كبير وقد ساهم صاحب كتاب (البدائع) بفصوله في إعلاء شأن أدب المقال كما ساهم في هذا المجهود الجليل غيره من الأدباء الأجلاء أمثال الأساتذة الجهابذة أحمد أمين ومصطفى صادق الرافعي والزيات والمازني وعبد الوهاب عزام سواهم من أئمة الأدب وأساطينه.

إلا أننا نؤاخذ صاحب (البدائع) ونعتب عليه وننكر كل الإنكار ما أدرجه في الكتاب عن طيش ونزق من بعض فصول في الخصومة بينه وبين أحد أعلام الأدب والبيان وكان لزاماً عليه أن يتناساها لا أن يحييها بوضعها في الكتاب فان هذه الفصول الشائنة بين سائرها لهي كالنقط السوداء في الصفحة البيضاء يعافها الذوق واللياقة والكياسة.

يوسف محمد

1

العدد 194 - بتاريخ: 22 - 03 - 1937

جميل صدقي الزهاوي بمناسبة ذكراه الأولى

(3)

كأنما تفتح عقل الزهاوي قبل أن يتيقظ هواه، وحلق فكره قبل أن ينهض خياله، وأدرك علمه قبل أن يولد شعره! فلقد كان يهدف للثلاثين من عمره وليس له من أولمب الشعر وحي، ولا في بَرْناس الشعراء محل؛ إنما كان في صدر شبابه ينظر في العلوم الفلسفية والطبيعية؛ وسبيله إلى ذلك ما تُرجم من المقالات في الكتب والمجلات، لأنه لم يعرف من اللغات غير العربية والفارسية والتركية والكردية، وكلها لا تصل فكر الإنسان بالتطور، ولا تنقع غلة الظمآن إلى المعرفة. ومع ذلك استبطن الزهاوي دخائل هذه العلوم بعقله النافذ حتى ألف كتاب (الكائنات) في الفلسفة، وكتاب (الجاذبية وتعليلها) في الطبيعة، ذهب فيهما مذهباً خالف به أقطاب العلم وجهابذة النظر، كقوله: إن علة الجاذبية ليست جذب المادة للمادة، وإنما هي دفعها لها بسبب ما تشعه من الإلكترونات. وسواء أنهض دليله أم دحض فإنه يدل على النظر الثاقب والفكر المستقل. ورجاحة عقله هي التي حملته وهو في ربيع العمر على أن يشرف على ظواهر الكون وحقائق الوجود من سماء فكره لا من سماء خياله؛ والمعهود في عامة الشعراء أن يكونوا على النقيض من ذلك. فلما هيأته الأقدار الجميلة لرسالة الشعر كان فكره أقوى من خياله وأسمى من عاطفته؛ والفكر والخيال والعاطفة هن ملكات النفس الأدبية الثلاث، يصدر عنهن فيض القريحة، ويَرِد إليهن إلهام العبقرية؛ ولكن الشعر لا يهيمن عليه إلا الخيال والعاطفة؛ أما حاجته إلى الفكر فمحدودة بمقدار ما يضيء لهما الطريق حتى يأمنا الضلالة. فالفكر للعبقرية بمثابة العين، والخيال والعاطفة لها بمثابة الجناحين. فإذا تغلبا عليه كان الشرود والزيغ، وإن تغلب عليهما كان الجفاف والعقم؛ ومن هنا جردوا أكثر ما قال أبو العلاء وأقل ما نظم أبو الطيب من الشاعرية. والزهاوي شاعر من شعراء الفكرة، له البصيرة الناقدة والفطنة النافذة، وليس له الأذن التي (تموسق) ولا القريحة التي تصنع. فاللفظ قد لا يختار، والوزن قد لا يتسق، والأسلوب قد لا ينسجم، ولكن الفكرة الحية الجريئة تعج بين الأبيات المتخاذلة عجيج الأمواج المزبدة بين الشواطئ المنهارة.

الزهاوي عقلية أفاقة وحيوية دفاقة وطبيعة ساحرة؛ وهذا التوثب الحماسي فيه هو الذي جعله يؤثر النظم في تقييد خواطره. وهذه الحماسة قد تنفك أحياناً عن الفكرة لكلالها أو ابتذالها، فيذهب الشاعر، ولا يبقى الفيلسوف، ويكون الزهاوي معك كالآلة تدور مليئة متزنة ما دامت على شيء، فإذا نفذت مادتها على فجأة انطلقت تدور على الفارغ سريعة مضطربة، ذلك لأن الفكرة الفلسفية هي المادة الأصيلة في شعر الزهاوي. وليس الشعر كله فكرة. وإنما هو فضلاً عنها صورة يرسمها الخيال، وشعور تبعثه العاطفة. على أن فكرة الفيلسوف واضحة، وجمالها في هذا الوضوح وفكرة الشاعر خفية، وسحرها في هذا الخفاء. فإما أن تدرس الطبيعة لتعرفها وتشرحها فتكون صاحب فلسفة، وإما أن تدرسها لتقلدها وتصورها فتكون صاحب شعر. أما الخلط بين الفلسفة والشعر لأن الشاعر يدرس ظواهر الكون، فكالخلط بين التصوير والتشريح لأن المصور يدرس بواطن الجسم.

كان الزهاوي كشوقي حريصاً على متابعة العصر ومسايرة التطور؛ ومنشأ هذا الحرص

فيهما طبع مرن يطلب التجدد، وحس مرهف يأنف التخلف. ويزيد الزهاوي أن الفخر يزهاه، والتيه يذهب به، فيحب الثناء ويبغض النقد. فهو لفَرَقه من صفة القدم يسبق الشباب إلى التجديد، ولنفوره من معرة الجمود يذهب بالرأي إلى التطرف، ولطمعه في نباهة الذكر يجاري ميول الخاصة ويعارض هوى العامة. ومن ثم كان أكثر شعره تشنيعاً على الاستبداد بمهاجمة أهل الحكم، وزراية على الجمود بمحاربة أهل الدين، وتحقيراً للتأخر بمصادمة مألوف الأمة.

والزهاوي بعد هذا وفوق هذا كان رسولا من رسل الفكرة الإنسانية، وبطلاً من أبطال النهضة العربية. كان يهزج بأغاريد الفجر على ضفاف دجلة فتتردد أصداؤها الموقظة على ربوات بَرَدى، وخمائل النيل، وسواحل المغرب. وأدب الزهاوي وأمثاله هو الذي وصل القلوب العربية في مجاهل القرون السود بخيوط إلهية غير منظورة، حتى استطاعت اليوم أن تتعارف وتتآلف وتتحالف؛ ثم تسعى لتعود أمة كما كانت، وتقوى لتصبح دولة كما يجب أن تكون.

أحمد حسن الزيات

-

حديث المال

بقلم إبراهيم عبد القادر المازني

جلسنا ثلاثة من الأخوان نتحدث عن المال وكيف ينال - فقد مات زخاروف رجل الأسرار أو الظلام كما يسمونه وصار ذكره على كل لسان ولهجت الصحف بملايينه وأعماله الصحيحة أو الموهومة وأخذ عنها الناس وراحوا يلغطون. وأحسب أن لو كان زخاروف حياً واستطاع أن يسمع ما يروى عنه ويعزى إليه لأذهله ذلك ويكفي أنه ما من ثورة أو حرب شبت في الخمسين سنة الأخيرة إلا وهو فيما يقال مضرم نارها.

وقلت لصديقي: (أما أنا فلست أعرف وسيلة للغنى إلا هذه - أفتح عيني في الصباح وأدس يدي تحت الوسادة لأتناول الساعة وأنظر إلى وجهها فأجد مكانها كوما عالياً من الأوراق المالية الكبيرة. وعلى ذكر هذه الأوراق الكبيرة أقول - ولا فخر - أني ما رأيت ورقة بمائة جنيه إلا مرة واحدة في حياتي. . أم تراها كانت بخمسين فقط. . والله ما أدري. . الحاصل. . أعطيتُها لأبدلها وآخذ منها قدرا معينا وأرد الباقي فوضعتها في جيب البنطلون وأبقيت كفي عليها خوفاً من النشل وذهبت إلى البنك - المصرف كما لا يسمى - ولا أطيل. وحسبي أن أقول أن الرجل كان ينظر إلي نظرة من تحدثه نفسه بأنه يحسن حجزي حتى تجيء (النيابة). . وصار معي عدد كبير من الورق فوضعت حقي في جيب والباقي في جيب آخر اتقاءً للاختلاط والحاجة إلى إعادة العد والحساب. وقد تعلمان كرهي لهذا الحساب أو جهلي به على الأصح. وجاء الليل - وكنت أعمل في ذلك الوقت في جريدة صباحية، فأنا اعمل بالليل وأنام بالنهار - وتذكرت أني على موعد مع صديق في الساعة الحادية عشرة وكنت جائعاً فقلت أذهب إلى محل جديد في شارع عماد الدين وآكل لقمة أو اثنتين من (السندويتش) ثم أذهب إلى موعدي. وكنت قد وضعت الأوراق في المحفظة - على خلاف عادتي - ولم يكن معي من النقود الصغيرة غير قرش واحد. وحدثتني نفسي وأنا آكل أنه يحسن أن أشتري شيئاً من هذه الفاكهة فإن منظرها مغر، فأخرجت جنيهاً ولكن الزحام كان شديداً فكادت روحي تزهق ورأيت أن الأمر سيطول فدسست الجنيه في جيبي وانصرفت ولقيت صاحبي على (القهوة) وعدت إلى البيت فأحسست وأنا أخلع ثيابي أن (الجاكته) خفيفة فنظرت فيها فإذا المحفظة قد طارت. أي والله. قطع النشال الجيب

(. .بسكين أو موسى أو لا أدري ماذا وأخذ المحفظة

وعدنا بعد هذه الذكرى الأليمة إلى زخاروف والملايين فقال أحد الصديقين: (لماذا لا نرى في الشرق ناساً يصبحون أصحاب ملايين كما يحدث في الغرب كثيراً. .)

فقال ثالثنا: (إن الغنى العريض الواسع يستفاد من الصناعة والتجارة لا من الزراعة فإنها محدودة وكل عمل لا يقبل التوسيع والنماء المطردين لا يمكن أن تجيء منه ملايين ولا ما يقرب منها)

فقلت: (ولا تنس يا صاحبي أن الخِطار في حكم المعدوم في الشرق. ولا بد من المغامرة لطالب الثروة الكبيرة السريعة. ولعل إخواننا العرب أعظم منا جرأةً وإقداما

وأكثر استعداداً للمغامرة. والمحقق أن المصريين أطلب للراحة والدعة والاطمئنان على الرزق. وهم يرضون بالقليل إذا كفل لهم الاطمئنان وقد كانوا إلى بضع سنوات يعدون صاحب التجارة أحط مقاماً من صاحب الزراعة وأحسب أن هذا لأن رزق الزارع مكفول ولكن الرزق من التجارة على كف عفريت. واسمعوا هذه الحكاية: لما عدت في العام الماضي من العراق جاءني صديق حميم وذكر لي أن له صاحبا يشتغل بصناعة الجلود وأنه يرجو مني المعونة ليحتكر جلود الأضاحي في موسم الحج في الحجاز فقلت له: إني أعرف أن الحكومة العربية تكره الاحتكارات ولا ترضى أن تظلم رعاياها على نحو ما يبغي صاحبك ثم أني لا أستطيع أن استغل علاقتي بهؤلاء القوم، ولكني أشير بما هو خير من ذلك واجدي على صاحبك إذا كان عاقلاً. . واقترحت عليه أن يؤلف صاحبه شركة مصرية عراقية لإنشاء مصنع للجلود ومدبغة في بغداد وقلت له: إني أستطيع بمساعدة إخواني في مصر والعراق أن أقنع جماعة من العراقيين بالدخول في هذه الشركة. ولصاحبك أن يدخل فيها بالقدر الذي هو في طوقه. والجلود في العراق وفيرة ورخيصة، وجلبها من البلاد العربية إلى بغداد أسهل وأقل كلفة من جلبها إلى مصر، أما الأسواق فعديدة. فهناك أسواق العراق نفسها - والقوم هناك وطنيون عمليون يؤثرون صناعات بلادهم، والحكومة عظيمة التشجيع لها ولا أعتقد أنها تتردد في أخذ حاجة جيشها من هذا المصنع إذا أنشئ ثم أن هناك أسواق جزيرة العرب وأسواق فلسطين وأسواق الشام وفي هذه البلاد كلها يفضل الرجل مصنوعات بلاده فالمشروع ولا شك في حسن عائدته ولا خوف من الخسارة فيه وأنا مستعد أن أطلق الصحافة والأدب وأعمل معه وأقوم له بكل ما يستدعيه الحصول على رأس المال أولا واستيراد الجلود من الجهات المختلفة وتصريف المصنوعات في أسواق الجزيرة والعراق وفلسطين وسوريا، فاقترح هذا على صاحبك وانظر ماذا يرى. . ووقف الأمر عند هذا الحد لأن في المشروع مخاطرة بالمال!!. ولست أدري أين المخاطرة ولكن هذا ما كان. وهكذا ضاعت عليَّ فرصة حسنة للتحرر من رق الصحافة والأدب.)

فسألني أحدهما: (أو تكره الصحافة والأدب؟)

قلت: لا أكرههما ولكن أعمل فيهما كالحمار ولا أفيد منهما إلا العناء. وإذا وسعني أن أهجرهما إلا ما هو خير وأجدى فلماذا لا أفعل؟ وصدقني حين أقول لك إني لا أكف عن التفكير في وسيلة للنجاة منهما. وقد خطر لي أن أتخذ جراجاً (ولكن الجراج) لا يكون إلا محدوداً وأنا أريد عملاً يحتمل التوسيع على الأيام. وخطر لي أن أتخذ مطبعة ولكني رأيت أن المنافسة الشديدة بين أصحاب المطابع توشك أن تؤدي إلى خرابهم جميعاً. وخطر لي أن أكون بائع (طعميه) وهذا لا يتطلب رأس مال يستحق الذكر، واقتنعت بأن هذا خير ما يمكن أن أصنع وأنه أحسن وجه للخلاص من الصحافة، فذهبت أبحث عن محل صالح ولكني كنت كلما عثرت على واحد واهتديت إلى مكان يمكن أن تروج فيه هذه البضاعة أجد أن غيري قد سبقني. . ولكني لم أقنط من رحمة الله. . وما زلت أرجو أن أوفق إلى عمل صالح غير هذا الأدب الذي لا فائدة منه لأحد)

فسألني ثانيهما: (هل تتكلم جاداً؟)

قلت: (أي والله. . لقد قرأت كل ما وسعني أن أقرأ وكتبت كل ما دخل في طوقي أن أكتب، فهل أفدت إلا الغرور والنفخة الكذابة والصيت الفارغ: وإلا العداوات والخصومات التي لا داعي لها. . لا يا سيدي. . وإني لمستعد أن أنزل لك عن نبوغي وعبقريتي وخيالي الخصب ونشاطي الجم ولا أطلب إلا دكاناً صغيرا أقلي فيه (الطعمية) في سيدنا الحسين أو السيدة زينب أو في بولاق. . أقف فيه وأمامي المقلاة وإلى جانبي الزيت - زيت الزيتون من فضلك - والفول المدقوق وعليَّ ثوب أبيض نظيف وورائي الموائد مصفوفة وعليها الأباريق والأكواب. وأصص الزهر هنا وهناك. والأرض مفروشة بالرمل الأصفر، فإني أريد أن أرقي صناعة (الطعمية) وأجعل منها فناً. . نعم، خذ أدبي كله

وخلودي أيضاً إذا كانا يستحقان شيئاً واعطني هذا الدكان الصغير وزرني بعد ذلك وشرفني بالأكل عندي وعلى موائدي الأنيقة الجميلة واحسدني يومئذ)

وقمنا صامتين لأن كلامي لم يعجبهما. . ولو أعجبهما لرجوت أن أقنعهما بهذه المبادلة. . ولكن لا بأس. . لا بأس. . ولا بأس أيضاً فلن أعدم صناعة أخرى أهتدي إليها

في يوم من الأيام. والعمر الطويل يبلغ الأمل كما تقول العامة في أمثالها الحكيمة التي هي عصارة التجارب الإنسانية على الدهور
إبراهيم عبد القادر المازني
قنبلة بالبارود لا بالماء المقطر. . .
للأستاذ مصطفى صادق الرافعي
حياكم الله يا شباب الجامعة المصرية، لقد كتبتم الكلمات التي تصرخ منها الشياطين. . .
- كلمات لو انتسبن لانتسبت كل واحدة منهن إلى آية مما نزل به الوحي في كتاب الله.
- فطلب تعليم الدين لشباب الجامعة ينتمي إلى هذه الآية: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرِّجس).
- وطلب الفصل بين الشبان والفتيات يرجع إلى هذه الآية: (ذلك أطهر لقلوبكم وقلوبهن)
- وطلب إيجاد المثل الأخلاقي لهذه الأمة من شبابها المتعلم هو معنى الآية: (هذا بصائر للناس وهدى ورحمة)
- قوة الأخلاق يا شباب، قوة الأخلاق. إن الخطوة المتقدمة تبدأ من هنا
حياكم الله يا شباب الجامعة؛ لقد كتبتم الكلمات التي يصفق لها العالم الإسلاميُّ كله كلمات ليس فيها شيء جديد على الإسلام، ولكن كل جديد على المسلمين لا يوجد إلا فيها.
كلمات القوة الروحية التي تريد أن تقود التاريخ مرة أخرى بقوى النصر لا بعوامل الهزيمة
كلمات الشباب الطاهر الذي هو حركة الرقيّ في الأمة كلها، فسيكون منها المحرك للأمة كلها
كلمات ليست قوانين، ولكنها ستكون هي السبب في إصلاح القوانين.
قوة الأخلاق يا شباب، قوة الأخلاق. إن الخطوة المتقدمة تبدأ من هنا.
يريد الشباب مع حقيقة العلم حقيقة الدين، فإن العلم لا يعلّم الصبر ولا الصدق ولا الذمة.
يريدون قوة النفس مع قوة العقل، فإن القانون الأدبي في الشعب لا يضعه العقل وحده ولا ينفذه وحده.
- يريدون قوة العقيدة حتى إذا لم ينفعهم في بعض شدائد الحياة ما تعلموه، نفعهم ما اعتقدوه.
يريدون السمو الديني، لأن فكرة إدراك الشهوات بمعناها هي فكرة إدراك الواجبات بغير معناها.
يريدون الشباب السامي الطاهر من الجنسين، كي تولد الأمة الجديدة سامية طاهرة
قوة الأخلاق يا شباب، قوة الأخلاق. إن الخطوة المتقدمة تبدأ من هنا
أحس الشباب أنهم يفقدون من قوة المناعة الروحية بقدر ما أهملوا من الدين
وما هي الفضائل إلا قوة المناعة من أضدادها؟ فالصدق مناعة من الكذب والشرف مناعة من الخسة.
والشباب المثقل بفروض القوة هو القوة نفسها. وهل الدين إلا فروض القوة على النفس؟
وشباب الشهوات شباب مفلس من رأس ماله الاجتماعي ينفق دائما ولا يكسب أبدا.
والمدارس تخرج شبانها إلى الحياة، فتسألهم الحياة: ماذا تعوّدتم لا ماذا تعلمتم؟
قوة الأخلاق يا شباب؛ قوة الأخلاق. إن الخطوة المتقدمة تبدأ من هنا.
وَأَحَسَّ الشبابُ معنى كثرة الفتيات في الجامعة، وأدركوا معنى هذه الرقة التي خلقتها الحكمة خالقة.
والمرأة أداة استمالة بالطبيعة، تعمل بغير إرادة ما تعمله بالإرادة لأن رؤيتها أول عملها
نعم إن المغناطيس لا يتحرك حين يجذب، ولكن الحديد يتحرك له حين ينجذب.
ومتى فهم أحدُ الجنسين الجنسَ الآخر، فهمه بإدراكين لا بإدراك واحد.
وجمالُ المرأة إذا انتهى إلى قلب الرجل، وجمال الرجل إذا استقر في قلب المرأة.

. . . .هما حينئذ معنيان، ولكنهما على رغم انف العلم معنيان متزوجان
لا، لا؛ يا رجال. إنْ كان هناك شيء اسمه حرية الفكر فليس هناك شيء اسمه حرية الأخلاق.
وتقولون: أوربا وتقليد أوربا. ونحن نريد الشباب الذين يعملون لاستقلالنا لا لخضوعنا لأوربا.
وتقولون: إن الجامعات ليست محل الدين. ومن الذي يجهل أنها بهذا صارت محلاً لفوضى الأخلاق؟
وتزعمون أن الشباب تعلموا ما يكفي من الدين في المدارس الابتدائية والثانوية فلا حاجة إليه في الجامعة
أفترون الإسلام دروساً ابتدائية وثانوية فقط؛ أم تريدونه شجرة تغرس هناك لتُقلَع عندكم. . .؟
. . . .لا، لا؛ يا رجال الجامعة. إن قنبلة الشباب المجاهد تملأ بالبارود لا بالماء المقطر
أن الشباب مخلوقون لغير زمنكم، فلا تفسدوا عليهم الحاسة الاجتماعية التي يحسّون بها زمنهم
لا تجعلوهم عبيدَ آرائكم وهم شبابُ الاستقلال إنهم تلاميذكم ولكنهم أيضاً أساتذة الأمة.
لقد تكلم بلسانكم هذا البناء الصغير الذي يسمى الجامعة. وتكلم بألسنتهم هذا البناء الكبير الذي يسمى الوطن.
أما بناؤكم فمحدود بالآراء والأحلام والأفكار؛ وأما الوطن فمحدود بالمطامع والحوادث والحقائق.
لا لا. إن المسلمين الذين هَدَوا العالم، قد هدوه بالروح الدينية التي كانوا يعملون بها بأحلام الفلاسفة
لا لا. إن الفضيلة فطرة لا علم، وطبيعة لا قانون، وعقيدة لا فكرة؛ وأساسها أخلاقُ الدين لا آراء الكتب
من هذا المتكلم يقول للأمة: (الجامعيون لن يقبلوا أن يدخل أحد في شئونهم مهما يكن أمره).
أهذا صوت جرس المدرسة لأطفال المدرسة؟: تِرِن تِرِنْ. . . . فيجتمعون وينصاعون؟
كلا يا رجل، ليس في الجامعة قالب يصَب فيه المسلمون على قياسك الذي تريد.
أن التعليم في الجامعة بغير دين يعصم الشخصية، هو تعليم الرذيلة تعليمَها العالي
(ويستنبئونك أحق هو إي وربي إنه لَحق وما أنتم بمعجزين).
قوة الأخلاق يا شباب، قوة الأخلاق. إن الخطوة المتقدمة تبدأ من هنا.
(طنطا)
مصطفى صادق الرافعي
حمَّام فرعون
للأستاذ حسن جلال
علمت وأنا في مدينة الإسماعيلية بأن جماعة من رواد الجبال سبق لهم القيام برحلة إلى عين كبريتية في جبل من الجبال التي في جنوب مدينة السويس، وأنهم يعاودون التفكير في تكرار هذه الرحلة ويتهيئون لها، فهفت نفسي إلى الاشتراك معهم لهوى قديم بيني وبين تلك الجهات كان يدفعني منذ سنين إلى أن أقضي سحابة يوم الجمعة من كل أسبوع متقلباً بين ربوع جبال القاهرة وضواحيها.
وكانت تلك الجماعة تتألف من:
1 - أحد أعضاء مجلس النواب وشيخين من أقاربه.
2 - ومن تاجر من كبار تجار الإسماعيلية
3 - ومن تاجر آخر من عيون تجار القاهرة
4 - ثم من رجل أجنبي من رجال الأعمال إيطالي الجنسية له مزارع واسعة في حدود مدينة الإسماعيلية.
فأما عضو النواب وقريباه فكانوا يشكون الروماتزم، وكان هذا هو الذي يحفزهم إلى ارتياد تلك العين، فأن لها على ما يقول الناس خواص سحرية في شفاء الأمراض.
وأما تاجر القاهرة فقد سمع بحديث تلك العين من النائب فأغراه ذلك على أن يجرب سحرها في أوصاله.

وأما تاجر الإسماعيلية فكان على ما فهمت رجلاً لا يحتاج إلى الاستشفاء لا بالحار ولا بالبارد، وكل همه في الحياة أن يجلس في آخر النهار في بعض المقاهي ونرجيلته بين ركبتيه يمصها فتقهقه له حتى تنقطع أنفاسها فيخليها لصاحبها ويعود إلى داره راضياً مرضياً، وكانت الأسباب كلها منقطعة بينه وبين تلك الرحلة لولا أن له سيارة جميلة أحب صاحبنا النائب أن يضمها إلى القافلة فدعاه للاشتراك فلبى الدعوة.

وأما التاجر الإيطالي فكان هو عماد الرحلة وبطلها لأنه كان قائدها الذي يدلها على الطريق في وسط الأودية المهجورة والجبال المتشابهة، يعاونه على ذلك دليل بدوي ممن يعملون في مزارعه، ولم يكن له من حافز ظاهر إلى الاشتراك في الرحلة غير ميله إلى الرياضة، أما

أن أمثال هذه الرحلة قد تساعده على تنمية معلوماته عن الصحاري المصرية وطرقاتها فهذا حديث آخر لا محل للخوض فيه الآن، وللقارئ أن يستنتج لنفسه ما يشاء. . .

هؤلاء هم أشخاص الجماعة

أما النبع نفسه فقد سمعت أنه نبع حار يخرج من الصخر، ويصب في مياه البحر الأحمر. وأنه نبع (مكبرت) كالنبع الذي في حلوان والفرق بين الاثنين أن هذا بارد. أما (حمام فرعون) فهو يخرج من بطن الجبل شديد الحرارة حتى لتلقى السمكة في مائه الدافق فتنضج في دقائق معدودات. وعلمت أيضاً أن كهفاً يقوم إلى جانب النبع. إذا دخله الإنسان فإنه لا يطيق البقاء فيه أكثر من ربع ساعة لفرط حرارته وشدة ما يعاني الإنسان وهو بداخله من الوهج الذي يتفصد له الجسم عرقاً. وقيل لي إن من دخل هذا الكهف وهو يشكو (الرطوبة) فإنه لا يلبث أن يخرج منه كما ولدته أمه صحة وعافية. أما العين فإنها وإن خرجت من ينبوعها حارة شديدة الحرارة ألا أنها تجري على شاطئ البحر مسافة طويلة قبل أن تصب فيه. وأنها في مجراها هذا تتفاوت حرارتها. فهي تبدأ حارة لا تطاق ثم تتناقص حرارتها كلما ابتعدت عن أصل النبع، حتى إذا جاءت ماء البحر وصلت وهي فاترة يطيقها كل إنسان. وقال لي من كان يحدثني عنها: وإذا كانت مياه حلوان قد بلغت ما بلغت من الشهرة العالمية وهي باردة يرفعون حرارتها بأنابيب البخار، فلك أن تصور لنفسك مبلغ ما تمتاز به هذه العين وهي تخرج من بطن الأرض حارة حرارة طبيعية لم تتدخل فيها يد الإنسان. وناهيك بحمام من مائها تعقبه خلوة قصيرة في ذلك الكهف الذي يليها. . . إن الإنسان ليدخلها ثم يخرج من الكهف بعدها كما يدخل المنديل القذر في يد (الغسالة) ثم يخرج جافاً ناصعاً من عند (الكواء)!

وكان لي صاحب من ضباط البوليس أرتاح إلى صحبته فعرضت عليه رغبتي في الاشتراك في تلك الرحلة فتولى عني مفاوضة الجماعة في أمر انضمامنا إليهم. وعاد يبشرني بأنهم يرحبون بنا على شرط أن نكون ضيوفهم في الحل والترحال؛ وتذللت بذلك آخر عقبة كنت أتوهم أنها تعترضني في سبيل تحقيق رغبتي لأني لم تكن لي سيارة خاصة. وليست أمثال هذه الرحلة مما يهون فيه الحصول على سيارة بالأجرة. وتحدد موعد القيام بعد يومين من إبرام هذا الاتفاق على أن نجعل قيامنا بعد الفجر بقليل في اليوم

المحدد. ولم يبق أمامي إلا أن أتولى إعداد توافه الأمور التي تركها لي مضيفي كالمناشف التي تلزم لتجفيف عرقي وأنا في داخل الكهف. والغطاء الذي أتدثر به عند مبيتي معهم على شاطئ البحر في العراء. على أني أبيت إلا أن أستصحب معي سراً بعض المرفهات التي أعلم أنها لم تكن لتخطر لزملائي على بال. فدسستها في حقيبتي بغية أن أفاجئهم بها هناك وسط الصخور والجبال. وكانت عندي (ترامس) ثلاثة يسع كل واحد منها لتراً من الماء. فملأتها جميعاً بالماء المثلوج - ونسيت أن أقول إن الوقت كان في بداية الصيف - وعطرتها بماء الزهر وأخفيتها في الحقيبة كما أخفيت معها آلة تصوير لألتقط بها بعض المناظر التي تخلد هذه الرحلة. وقد دلت كل الدلائل على أنها ستكون رحلة عامرة بالذكريات التي تستحق التخليد. ولست أحتاج أن أقول إن زملاءنا كانوا قد صارحونا بأنهم سيحملون عنا مئونة تزويدنا بالماء والطعام. فلما سألتهم عما إذا كانوا سيحملون هذا الزاد من الإسماعيلية أم من السويس قيل لي إن العرب الذين سنصادفهم في الوديان خلال الجبال كلهم رعاة أغنام. ونستطيع أن نحصل منهم على ما نشاء من ضأن وماعز. كما أن البحر هناك مرعى بكر يزخر بألوان السمك. والوديان

لا ينقطع منها الماء الجاري. ورجال البدو لا يلبثوا أن يحتاطوا بنا ويتنافسون في خدمتنا. فكنت أستمع لهذا الحديث وأرسل أحلامي على سجيتها لتتم بألوانها الساحرة بقية تلك الصورة الخلابة التي لبثت يومين كاملين وأنا أسعد بالتقلب بين أعطاف خيالاتها!

وأخيراً حل اليوم الموعود، وكنت على أتم أهبة للرحيل قبل بزوغ الشمس، وأقبلت السيارات تناديني بأبواقها، فنزلت فإذا سرب طويل منها يضم الصحاب جميعاً، فاستقللناها قاصدين إلى السويس؛ والطريق ما بين الإسماعيلية والسويس طريق جميل ممهد أعدته في السنوات الأخيرة شركة قنال السويس ليكون متمماً للطريق القديم الذي يوصل ما بين الإسماعيلية وبور سعيد؛ وهذا الطريق يسير إلى جانب القناة ويتمتع السائر فيه بمناظر بحيرة التمساح والبحيرات المرة الكبرى والصغرى التي تمتد على يساره، بينما تقوم الحقول الخضراء على يمينه وهي حافلة بالأكواخ الصغيرة الساذجة، وبألوان شتى من المواشي والأغنام، وكلها دائبة في رعي تلك المروج الناضرة البهيجة. ووصل الركب محطة (الكوبري) حوالي الساعة السابعة صباحاً. وهذه المحطة تقع في شمال السويس،

وعلى بعد ثمانية كيلومترات منها. وعندها تقع (المعدية) التي ينتقل عليها المسافر من شاطئ القنال الغربي، إلى شاطئه الشرقي - أو من شاطئه الإفريقي إلى قرى شاطئه الآسيوي كما يقولون - فاضطررنا إلى الوقوف هنا ريثما يقوم عامل (الجمرك) بتفتيش أمتعتنا. وقد عجبت لهذا العمل ونحن إنما ننتقل من أرض مصرية إلى أرض مصرية. فلما استفسرت عن السبب علمت أن المنطقة التي نريد أن ندخلها خاضعة لمصلحة الحدود. والنظام الإداري في تلك المصلحة يكاد يكون مستقلاً عن إدارة الحكومة المصرية. وأنه محظور على من يريد دخول الصحراء في تلك الجهة أن يكون معه سلاح ناري تنفيذاً لأمر المصلحة الذي يقضي بعدم صيد الغزال مثلاً في تلك المنطقة. كما أنه من المحظور أيضاً أن يحمل المسافر معه آلة تصوير حتى لا يسجل بها مناظر ترى المصلحة أنه من الواجب المحافظة على سريتها. وكانت النتيجة الأولى لوقفتنا هذه في محطة الكوبري، أني خسرت آلة تصويري، لأني اضطررت إلى تسليمها من تلقاء نفسي، وبذلك ضاعت علي فرصة إحدى المفاجآت التي كنت دبرتها للإخوان. على أن هذه لم تكن خسارتي الوحيدة. فقد بدأ لبعضنا أن يتناول وجبة خفيفة في ذلك المكان تكون بمثابة الفطور لمن فاته الإفطار في منزله. وكنت أنا من هؤلاء. فأردت بعد لقيمات ازدردتها أن آخذ جرعة من الماء فهممت بتناول واحد من (ترامسي) ولكن سبقتني إليه يد أحد الزملاء الكرام يريد أن يبالغ في الحفاوة بي فلا يدعني أقوم بهذه الخدمة الهينة لنفسي فما راعني إلا أن أراه يملأ كوب الترموس من ماءه المعطر المثلوج ثم يهزه في يده هزات يريقه من بعدها على الأرض كما لو كنا نستقي من (زير) بجوار سوق في إحدى قرى الريف، فهو يريد أن يكفل نظافة (الكوز) مما يكون قد علقه به من الغبار! وأردت أن أعوض ما شربته الأرض من مائي العزيز فاقتصدت في الجرعة التي شربتها واكتفيت منها بمصتين لأني كنت أقدر ما نحن مقبلون عليه من الجفاف والجدب. ولكن حلا لبقية الصحب أن يستقوا فأدار الساقي عليهم من أكوابي، ودخلت الصحراء بنصف ما كنت تزودت لها به من الماء. وكانت هذه خسارتي الثانية في مستهل الطريق.

وحملتنا (المعدية) بسياراتنا فنقلتنا إلى الشاطئ الشرقي. وبدأنا عقب ذلك رحلتنا الشاقة في وسط الصحراء حيث لا شيء إلا الحصى والرمال في طريق متشابهة لا أثر فيها لأي نوع

من أنواع الحياة. ولبثنا نضرب في تلك البيداء حتى أدركنا الظهر - ولكنا على كل حال كنا نسمر بمختلف الأحاديث - وكان الذين سبقونا إلى ارتياد هذا الطريق لا يضنون علينا بشرح ما يعرفونه من معالم، وأحياناً أيضاً بشرح ما لا يعرفون استجابة منهم لنداء تلك الغريزة العجيبة التي ركبت في كل نفس والتي تجعل صاحبها يلتذ أن يتظاهر بالعلم أمام من لا يعلم!

وكانت سيارة الإيطالي في مقدمة الركب. وقد قبع الدليل البدوي على مقدمها ليلجأ إليه صاحبه كلما أعوزته المشورة في أمر الطريق. وفي النهاية لاحت لنا أشجار (الطرفاء) التي تزين (وادي الغَرَنْدَل) وهو واد واسع يكثر فيه النخيل ولا ينقطع منه

الماء طول العام. وبدأنا نرى الناس من جديد بعد أن كنا نظن أننا انقطعنا عن العالم - ولكن يا لهم من ناس!. . . لقد كانوا أشباحاً في أثمال. . . أجسام رقيقة مديدة ضمرها الجوع. وعيون فاترة غائرة أطفأها الفقر والجدب. كانوا يحيطون بنا ويعدون إلى جانبنا ويلاحقوننا كما كانت تفعل جنادب الوادي الذي يعيشون فيه. أما سياراتنا فكانت عند اجتيازها لهذا الوادي تجري فوق مياهه. إذ لم يكن أمامنا طريق أخرى غير بطنه، فكانت أشبه بالزوارق البخارية منها بالسيارات. ولقد عانينا كثيراً ونحن نجتاز هذه المرحلة من طريقنا لأن الماء كان يتسرب إلى داخل آلات السيارة كلما أدركنا مخاضة بعيدة الغور نوعاً ما. وكان الويل للسيارة التي يصيبها ذلك، لأن الركب ما كان ليقف لأمثال تلك الأحداث، فكانت السيارة المتخلفة تقاسي كثيراً قبل أن تلحق بالقافلة وتمسك معها بطرف الطريق. وتكررت حوادث فقد الطريق ونحن بالوادي، ذلك لأن الطرق فيه متشعبة فكان المتخلف عرضة لأن يتبع آثار عجلات غير عجلات سياراتنا كلما غابت عن نظره بقية القافلة. وكم وقفنا وأطلقنا أبواقنا ليهتدي على صوتها من نفتقده من الزملاء. وكم كررنا نحن راجعين في مسلك وعر كنا قد تشهدنا عندما اجتزناه، فلما فرغنا منه وجدنا أننا قد ضللنا الطريق.

وأخيراً خرجنا من هذا الوادي وعدنا إلى الصحراء من جديد ولكنها كانت في هذه المرة صحراء نافرة صخرية يكتنفها جبل عظيم أبيض اللون ناصعه تجوس في سفحه عربات صغيرة وتدب معها نمال بشرية تتراءى من بعيد كأنها بعض هوام الجبل أو زواحفه. وسألت فعلمت أن شركة إيطالية قد حصلت من الحكومة على امتياز لاستغلال هذا الجبل

وأنها تحصل منه على نوع من الرخام النادر تصدر معظمه إلى باريس بالذات دون بلاد العالم لكثرة الحاجة إليه في مبانيها الأنيقة الحديثة. وأن هذه الشركة قد أثرت من وراء هذا العمل ثراءً طائلاً. فأحببت أن نقف قليلاً لنصل بعمال هذا الحجر ونتحدث إليهم فنسري عن أنفسنا ونسري عنهم. وفي أمثال تلك البقاع النائية يصدق قول القائل: وكل غريب للغريب نسيب!

وكانت حالة السيارات تقتضي هذه الوقفة أيضاً، فإنها كانت قد شربت كل ما معنا من الماء وكانت في حاجة أيضاً إلى الماء. فترجلنا لنملأ صهاريجها، واتجهت وبعض من معي إلى أولئك العمال فإذا هم جميعاً من أهل الصعيد - تلك الطائفة النبيلة التي شيد أجدادها مجد الفراعنة وخلدوا آثارهم في وادي الملوك وغير وادي الملوك، وها هو ذا الخلف اليوم لا يجد من يستنجد بكتفه وذراعه غير الأجنبي فيلبي دعوة القوت وسط تلك الأصقاع السحيقة القاحلة يقضي عمره ويفني حياته في قطع الرخام وحمله ليجد هو في آخر النهار ما يسد به رمقه. ولينعم حسان باريس بالرونق البهي والرواء الحسن. وليقف المقاول الإيطالي بين الطرفين يستغل جهد المصري وثراء الباريسي في آن واحد.

وأردت أن أعرف من أين يحصل هؤلاء العمال على الزاد والماء - ولعل الباعث الخفي لسؤالي كان حرصي على الاطمئنان على نفسي ومصيرها في هذا القفر قبل أن يكون إشباع حب الاستطلاع فيها عن حالة هؤلاء المساكين - فقيل لي بأن باخرة تقدم من السويس كل شهر تقريباً فتحمل إليهم الزاد والماء الذي يكفيهم حتى موعد الزورة التالية، فبدت عليَّ أنا وزملائي علائم الإشفاق والرثاء. ولكن جرنا الحديث إلى ذكر المنائر التي تقع على شاطئ البحر الأحمر والتي تضم كل واحدة منها ثلاثة من الموظفين المصريين في حالة عزلة تامة عن العالم لمدة تسعة شهور، إذ أن كل منارة من هذه المنائر يديرها أربعة من الموظفين يعمل كل واحد منهم تسعة شهور متتالية في العام ويحصل على إجازة سنوية تستغرق الثلاثة شهور الأخرى. ولذلك فإن ثلاثة منهم فقط يجتمعون في العمل ويكون الرابع في إجازته، حتى إذا عاد هو قام من يكون عليه الدور وهكذا. وأن الواحد من هؤلاء الموظفين متى استلم عمله في فنارة فإنه ينقطع عن العالم وأخباره حتى يحل موعد وصول الباخرة التي تأتيهم بالطعام والماء مرة في كل شهر. وهم من خلال هذا

الشهر لا يقرءون الصحف ولا سبيل لهم إلى معرفة ما يكون قد مر على العالم من أحداث، وما يكون قد طرأ عليه من حروب. وعجبت من شأن الحكومة مع هؤلاء الناس ومن شأنهم هم مع أنفسهم، فإننا أصبحنا اليوم نسمع الراديو في السيارات الخاصة

وهي تسير وسط الطرقات العامرة الزاخرة، ثم ها نحن أولاء نسمع من أمثال هذه المنائر التي تترك بغير جهاز ولا صفير من هذه الأجهزة الكفيلة بأن تنقل أهلها من عزلتهم فتضعهم في وسط العمران والحياة.

كان بيننا وبين (حمام فرعون) ونحن في ذلك المحجر بضع كيلومترات قد لا تزيد على خمسة أو ستة، ولكن ما كابدناه في قطع هذه المرحلة القصيرة فاق كل ما لاقيناه في طول الرحلة منذ بدايتها، ذلك بأن الطريق كان قد انقطع عند المحجر، وأصبح علينا بعد ذلك أن نسير في أرض بكر لا تطرقها السيارات إلا كلما حلا لأمثالنا أن يزور ذلك المكان، وهو نادر قليل، وكانت طبيعة الأرض في تلك الجهة جامحة نافرة، فبينا هي صلبة في بعض نواحيها إذا هي رخوة تغوص القدم في رمالها في نواحيها الأخرى وكان في انتقال السيارة من الصلب إلى الرخو ثم من الرخو إلى الصلب ما فيه من إجهاد للسائق وللراكب وللآلات نفسها، وذلك لما تستدعيه طبيعة كل ناحية من تغيير درجات السرعة وتحريك رافعات السيارة واحدة بعد أخرى بما يناسب حالة الطريق. وقد حدث أننا خسرنا فعلاً إحدى سياراتنا فقد انكسرت بعض آلاتها في هذه التنقلات السريعة المفاجئة، واضطررنا إلى التخلي عنها وسط الطريق بعد أن توزعت حمولتها على بقية السيارات فزادت في عسر حركتها وتعريضها هي الأخرى للتلف، وليس يفوتني أن أقول هنا أن هذه السيارة بالذات كانت سيارة تاجر الإسماعيلية الذي لم يكن من سبب لإشراكه في هذه الرحلة غير سيارته، ولكن هكذا قدر الله في لوحه أن يأتي أجل هذه السيارة في تلك البقعة الموحشة. وصدق الله العظيم و (ما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت) وقديماً قيل:

إذا ما حِمام المرء كان ببلدة ... دعته إليها حاجة فيطير

وقبل العصر بقليل ألقت القافلة عصاها في سفح جبل عال كان يواجهنا، وقيل لنا انزلوا: فهذا هو (حمام فرعون)

وثبتُ من سيارتي فرحاً وقد نسيت أمام بلوغ الهدف كل ما لاقيته خلال الرحلة من مشقة.

ولم أنتظر حتى يتقدمني من له علم بالمكان. لأني لم أكن رأيت في حياتي قط عينا حارة - ولكني كما هو الحال دائماً في أمثال هذه الشئون كنت قد صورتها لنفسي بعين خيالي. وكنت شديد الشغف الآن بأن أقابل بين الحقيقة وبين الخيال. فما كان أشد الفرق بين الصورتين!

كنت أتصور النبع على صورة (الفسقية) ينبثق من وسطها خرطوم عال من الماء له رشاش من حوله ثم يتجمع الماء في حوض حول العين ثم لا يلبث أن يفيض من الحوض إلى ذلك المجرى الطويل الذي حدثونا عنه. وكنت أتخيل هذا المجرى في صورة قناة جميلة وسط صخور صلدة ينساب الماء فيها رائقاً صافياً كتلك القناة الجميلة البيضاء التي ما تزال آثارها باقية في (وادي حوف) بحلوان والتي كنا نتناول فيها غداءنا كلما رحلنا إلى تلك الجهة. فأدرت عيني بسرعة فيما يحيط بي أبحث عن تلك الفسقية أو عن هذه القناة فلم أجد لإحداهما أثراً، فخاب ظني لأول وهلة وأحسست بقلبي يتراجع قليلاً في صدري شأن من يفاجأ بأمر لم يكن يتوقعه. ولكن سرعان ما استغرق بصري ذلك الجبل العظيم الذي كنا نقف في كنفه. فصوبت عيني فيه وصعدتها فأخذتني عظمته. ولمحت في صفحته ثغرة سوداء قريبة من سطح الأرض، فأدركت أنها لابد أن تكون مدخل الكهف الموعود. وكان هذا الجبل يقوم على شاطئ البحر ليس بينه وبين الماء في البقعة التي وقفنا فيها أكثر من خمسين متراً، ثم هو يمتد محاذياً للشاطئ مسافة مائتي متر أو ثلاثمائة متر، وبعد ذلك يتصل بالماء رأساً فيرتطم موج البحر بقدميه ويتحطم على صخوره السوداء. ولفت نظري في ذلك المثلث الرملي الضيق الذي كنا نقف على قاعدته أن قناة ضحلة تجري وسطه فتتبعتها ببصري مسرعاً فرأيتها تبدأ عند قاعدة الجبل ولكن لم أتبين من أين ينبثق ماؤها. فدلفت إليها حتى جئت المكان الذي ينبعث منه الماء فإذا هو ثلمة ضيقة بين صخرين يسيل منها الماء كما يسيل من صنبور متوسط الحجم فيجري على الصخور المجاورة حتى تتسلمه رمال الساحل فتبلع منه ما تبلعه وتترك الباقي ينداح على صدرها حتى يصب في البحر. وكانت رائحة الكبريت ساطعة تملأ الجو، ولكن الماء كان يجري كالبلور المذاب لا يعلوه بخار ولا يبدو عليه أنه حار. فأغراني ذلك بأن أمدّ إليه إصبعي

ولكني ما كدت أفعل حتى سحبتها صارخاً كأنما اندق فيها مسمار. فأثلجت هذه اللسعة صدري. ومنيت نفسي
بالحمام الساخن الذي قطعت من أجله كل تلك القفار، فلست أعرف في متع هذه الحياة ما هو أحب إلى نفسي من الحمام الساخن!
وكان إخواني قد أدركوني وحف بعضهم بالنبع وانطلق بعضهم يساير القناة. أما الإيطالي فإنه اشتغل بنصب الخيام.
وشاءت المصادفات أن يكون الهواء في ذلك اليوم قوياً ثقيلاً فكان يسفي علينا التراب ونحن لا نجد ما نحتمي فيه حتى قامت خيام الإيطالي فآوينا إليها وقد نال منا الجوع، ونشر الخادم بين يدينا علبه ولفائفه وأدار علينا الخبز فالتهمناه بما أصابت أيدينا من جبن وزيتون وقديد وما إلى ذلك مما كان قد أعد لتتبيل أغنام الرعاة المنتظرة وسمك الصيادين الموعود، فأبت علينا المقادير إلا أن نأكله هو متبلاً بالتراب ومحشواً بصغار الحصا، ومع ذلك فقد كنا نتخاطفه ونتنافس في التطويح بما نصيبه منه إلى أفواهنا قبل أن ننفخ فيه ونذروا عنه ما علق به من الرمال، فيا سبحان الله! أهكذا يحلو المر أحياناً في هذه الحياة! وماذا بقي لنا من الحقائق المطلقة في دنيانا وكل شيء فيها اعتباري كما نرى؟ إلا أن الحسن إنما يكون حسناً في ظل رضا النفس، والقبيح إنما يقبح بزوال هذه الحالة عن النفس! والسعادة مهما اختلف الناس في أسبابها فهي من الكثير الغالب من صنع أيدينا وفي القليل النادر من صنع المقادير.
ولم نهجع عقب الطعام بل انتشرنا في المكان نرتاده ونتسلق الجبل وندخل الغار بأطراف رءوسنا ثم نخرجها سراعاً لكثرة ما ألقى في روعنا من أنه شديد الحرارة يذيب نخاع الرءوس. وقضينا على ذلك ساعة وبعض ساعة حتى أوشك النهار أن ينقضي فتأهبنا لأخذ الحمام المرتجى، وانصرف كل واحد منا إلى صخرة توارى خلفها فخلع ملابسه. وارتدى قميص البحر، ولم تكن إلا هنيهة حتى استحال المكان إلى (بلاج) أنيق صغير بأولئك الفراعنة الصغار الذين جاءوا من أقصى الأرض ليحققوا للمكان اسمه ويؤيدوا له لقبه. وكان الأعرابي الذي مع الإيطالي قد احتمل فأساً وقصد إلى أوسع مكان في القناة فعمقه وأبعد غوره كما يتسع لأجسامنا ويصلح للاضطجاع. فنزلناه واحداً بعد واحد وساعدنا ذلك على رفع مستوى الماء قليلاً فما زلنا نتقلب فيه ونتلبط. وهواء المساء البارد يصفع أجسادنا الحارة ونحن نصر على أن نوهم أنفسنا بأننا نأخذ حماماً ساخناً حتى أدركنا أن
إصرارنا سيكون وخيم العاقبة إذا نحن تمادينا في تحدي الطبيعة إلى أبعد من هذا الحد، فخرجنا نتواثب من حفرتنا كجماعة الضفدع دهمها داهم وهي ترتل في مخابئها أناشيد المساء!
ولما نزل بنا الليل كان الهواء الثائر قد سكن، والتراب السافي قد استقر، ولاحت النجوم في السماء زاهية زاهرة. وأشهد أني لم أر السماء طول حياتي كما رأيتها في تلك الليلة. فلقد اعتدنا أن نراها ونحن في المدن من خلال المباني الضاربة في الفضاء، ومن خلال النوافذ الضيقة، فكنا لا نرى إلا قطعاً منها تذهب التجزئة فيها بجمال المجموع. أما في تلك الليلة فقد راقنا أن ننام في العراء فبسطنا فراشنا فوق الرمل وألقينا عليه وسائدنا ثم انطرحنا على ظهرنا واتجهنا بأبصارنا في السماء فراعتنا، وبدت لنا النجوم كما لو كنا لم نرها قط قبل تلك اللحظة. وإني لأذكر الآن كيف أننا جميعاً أصابنا وجوم مشترك أمام عظمة هذا المشهد حتى لقد بقينا فترة لم ينبس فيها واحد منا بحرف. فلما نطق أول متكلم فينا وتحدث بما راعه من منظر السماء اندفعنا جميعاً نكرر معنى واحداً في عبارات مختلفة، وأدركنا أننا في سكوننا كنا تحت تأثير واحد، وأن أحداً منا لم يستطع أن يفلت من جاذبيته!
وفي غداة اليوم التالي تنفسنا مع الصبح جميعاً. ومنا من كانت قد انقضت عليه أعوام وأعوام وهو لا يرى الشمس كل صبح إلا بعد أن ترقى حدود الأفق بزمان طويل. وهببنا من مضاجعنا خفافاً تفيض حركاتنا بالقوة والنشاط، وكانت مفاجأة الصباح التي أعدتها لنا طبيعة المكان أننا أردنا أن نحلق لحانا فامتنعت عن الصابون مياه النبع؛ وعبثاً حاولنا إحداث الرغوة المطلوبة على الرغم من إسرافنا في الدعك والفرك؛ ولم نشأ أن نضحي ببقية مائنا العذب في شؤون زينتنا، فطال ركوعنا على حافة القناة حيث اجتمعنا في شبه (صالون) خشن حقير! وكنا قد أحسسنا في المساء أن ذخيرتنا من

الماء كادت أن تنفد، فاحتلنا في الحصول على مدد فلم نجد إلا صفيحتين فارغتين من صفائح البنزين فبعثنا بهما مع خادم ليملأهما من ماء الوادي فعاد بهما إلينا ونحن نتناول طعام الفطور، فكرعنا من مائهما ما كنا في حاجة إليه، فإذا هو في مذاقه أشد نكراً من ماء النبع فهذا فيه طعم الكبريت. أما ذاك فإنه عبق برائحة البنزين والبترول.
وكنت أزمع العودة مع بعض الصحاب في ظهر ذلك اليوم فرأينا أن نقضي الساعة التي بقيت لنا في جوف الكهف حتى لا يكون قد فاتنا شيء من (متع) المكان قبل أن نبرحه. فعدنا إلى قمصان البحر فارتديناها ونشرنا شيئاً من الفراش في أرض الغار ثم دخلنا فرقدنا فوقها ولكنا لم نلبث أن اعتدنا حرارة المكان الذي استلقينا فيه، فأوغلنا قليلاً فوجدنا فارقاً محسوساً في الحرارة فسرنا ذلك، وبقينا فيه أيضاً حتى ألفناه ثم أوغلنا ثانية، وهكذا حتى أصبحنا في قرار الكهف حيث الظلام الشامل. فما كان أروع منظرنا ونحن نزحف في نواحي المكان كالخفافيش والعالم من خلفنا على باب الكهف ساطع بهيج! وكنا قد احتملنا معنا مناشفنا فلم تكن ترى فينا إلا شبحاً يستوي قاعداً فيأخذ في تدليك جسمه بمناشفه حتى يجفف عرقه فلا يكاد يرقد حتى يقوم إلى جانبه شبح آخر يظل يهزج ويحك ذراعه بذراعه فلا ينتهي حتى يسلم هذه المهمة لسواه، وهكذا حتى أحسسنا بحلوقنا آخر الأمر تكاد تجف من فرط ما عرقنا وأفرزنا من ماء جسومنا فعولنا على الانسحاب. وكان حتماً علينا أن ننسحب متدرجين كما أوغلنا متدرجين حتى لا تقتلنا الطفرة أو يؤذينا الانتقال السريع. فقضينا في هذا الانسحاب زمناً ليس بالقليل ولم نستطع أن نركب سياراتنا إلا بعد أن انتصف النهار. ونسيت أن أقول إننا أتينا بعد خروجنا على ماء الصفيحتين فشربناه وظللنا من بعده يومين ونحن نتجشأ بنزيناً قويا يكاد ريحه يضيء ولو لم تمسسه نار!
انقضت بعد عودتنا أيام رأيت في خلالها بعض الصحاب فكان حديثهم ترديداً لما لاقيناه من وعثاء الطريق، وما قاسينا من سعار الكهف. ثم قابلت صاحبنا الإيطالي فكان حديثه أنه يفكر في الحصول من الحكومة على امتياز لاستغلال النبع وإقامة فندق صغير بجواره وتهيئة بواخر خفيفة تصل بينه وبين السويس حتى تنقلب الرحلة إلى متعة ينعم بها المستشفي بدل أن تبقى كما هي الآن مشقة ينوء بها الرياضي. فهتف في نفسي هاتف: (يعيش الدوتشي!) وقلت لمحدثي: لمثل هذا فليعمل العاملون.
حسن جلال
الألفاظ العربية
الإسلامية، المولدة، المعربة، العربية، العبرانية، السريانية
استعمال لفظة في محلها: (سد بوزك)
للأستاذ محمد اسعاف النشاشيبي
الألفاظ في العربية أقسام:
قسم عربي بحت، وهو الذي وضعته اللغة في (الجزيرة) أو جاء من عند غيرها وخالط ألفاظها فعد كأنه منها، وهو أعجمي تعرب، والعربية عربية قوية، فكان مثل (الهرمزان الذي أسلم وبدَّل ثيابه، وتسمى بعرفطة. .) كما جاء في (الطبقات) لابن سعد.
وقسم إسلامي أظهره الإسلام، وما كان في الجاهلية يعرف، أو كان له معنى فيها غير الذي استجد، وهو مثل: المؤمن، المسلم، الكافر، المنافق، المخضرم، الجاهلية، الدجاجلة، الفاسق؛ قال ابن الأعرابي: (لم يسمع قط في كلام الجاهلية ولا في شعرهم (فاسق) قال: وهذا عجيب وهو كلام عربي، ولم يأت في شعر جاهلي. وفي الصحاح نحوه).
وقسم مولّد محدَث، ولد في غير (الجزيرة) مثل الطنز (أعني السخرية) والكابوس الذي يقع على النائم - وفي هذا الزمان يقع على النائم واليقظان - والمطرمذ وهو الكذاب الذي له كلام وليس له فعل، وما أكثر الطرمذة في الناس! والفشار - وهو الهذيان - وجُلّ الناس أو كلهم - كما يقول بعضهم - فشارون. .
ومن المولد الطرش والتشويش والمخرقة والقازوزة والبحران ومنه (ستي) في قولهم: يا روحي، يا ستي! بمعنى يا سيدتي
وقسم معرب وتعريب الاسم الأعجمي أن تتفوه به العرب على منهاجها تقول: عربته العرب وأعربته
في (الصحاح): المهندز الذي يقدر مجاري القني والأبنية، معرب. وصيروا زايه سينا

فقالوا: مهندس لأنه ليس في كلام العرب زاي قبلها دال
ومن المعرب (قالون) قال الثعالبي في فقه اللغة: (سأل علي شريحاً مسئلة فأجابه؛ فقال له: قالون: أي أصبت بالرومية) وفي (الفائق) للزمخشري (أو هذا جواب جيد صالح. ومنه
حديث ابن عمر (رضي الله عنهما) أنه عشق جارية له (رومية) وكان يجد بها وجداً شديداً، فوقعت يوماً عن بغلة كانت عليها، فجعل يمسح التراب عن وجهها ويفديها، وكانت تقول له: أنت قالون (أي رجل صالح) فهربت منه بعد ذلك فقال:
قد كنت احسبني (قالون) فانطلقت ... فاليوم أعلم أني غير (قالون)
ومن المعرب الشُشقلة وهي أن تزن الدينار بازاء الدينار لتنظر أيهما أثقل، قيل ليونس: بم تعرف الشعر الجيد؟ قال: بالششقلة
ومنه (البوس) بمعنى التقبيل. ومن المعرب (خوداي) أي واجب الوجود وهو الله. وفي كتاب (المدهش) لابن الجوزي: (وقف أعجمي عند الكعبة والناس يدعون وهو ساكت، ثم أخذ بلحيته فرفعها وقال: يا خوداي، شيخ كبير!!!)
ومن المعرب (الخز والديباج) وكون هذين معربين - شيء محقق
ومنه الفالوذج واللوزينج والجوزينج ومن يقدر أن يماري في تعريب ذلك؟؟
ومنه (الدهدر) أي الباطل وهو تعريب (دَهْ دُلِه) أي صاحب عشرة قلوب، والمراد به الرجل المتقلب. (قلت): والرجل المتقلب ذو مائة قلب ومائة وجه
ومنه البشم: التخمة، ولا ريب في أنها معربة فما يجيء البشم إلا من الإفراط في الأكل، ومتى كان الشبع في الجاهلية حتى يكون البشم؟!
وكمه أيضاً: (أيضا) فارسيتها أيدي كما يقول كتاب الألفاظ الفارسية المعربة
ومن المعرب: (شاقرد) أو شاجرد ومعناه متعلم، تلميذ تعريب شاكرد قال الأعشى:
وما كنت (شاجردا) ولكن حسبتني ... - إذا (مسحل) سدّي لي القول - أنطلق
وقال موسى بن عبد الله البختكان:
قد كنت شاكردي فيما مضى ... فصرت أستاذي ولا ترضى
ومن المعرب: التوت أو التوث وهو الفرصاد في العربية الأولى. قال محبوب بن أبي العشنط:
لروضة من رياض الحزن أو طرف ... من القُرَيّة جرد غير محروث
للنوْر فيه إذا مج الندى أرَج ... يشفي الصداع وينقي كل ممغوث
أحلى وأشهى لعيني إن مررت به ... من كرخ بغداد ذي الرمان والتوث
وفي تذكرة الشيخ تاج الدين بن مكتوم بخطه: (قال نصر بن محمد بن أبي الفنون في كتاب أوزان الثلاثي: سين العربية شين في العبرية، فالسلام شلام، واللسان لشان، والاسم اشم)
وقول ابن أبي الفنون يذكرنا بكلام لابن حزم في كتابه (الإحكام في أصول الأحكام) وهو:
إن الذي وقفنا عليه وعلمناه يقينا أن السريانية والعبرانية والعربية التي هي لغة مضر وربيعة لا لغة حمير - واحدة تبدلت بتبدل مساكن أهلها فحدث فيها جرش كالذي يحدث من الأندلسي إذا رام نغمة أهل القيروان، ومن القيرواني إذا رام لغة أهل الأندلس، ومن الخراساني إذا رام نغمتهما
ونحن نجد من سمع لغة أهل (فحص البلوط) وهي على ليلة واحدة من قرطبة كاد يقول إنها لغة أخرى غير لغة أهل قرطبة. وهكذا في كثير من البلاد فإنه بمجاورة أهل البلدة لأمة أخرى تتبدل لغتها تبدلاً لا يخفى على من تأمله، ونحن نجد العامة قد بدلت الألفاظ في اللغة العربية تبديلاً، وهو في البعد عن أصل تلك الكلمة كلغة أخرى، ولا فرق، فنجدهم يقولون في العنب: (العينب) وفي السوط (أسطوط) وفي ثلاثة دنانير (ثلثدا). وإذا تعرب البربري فأراد أن يقول الشجرة قال (السجرة)؛ وإذا تعرب الجليقي أبدل من العين والحاء هاء فيقول (مهمداً) إذا أراد أن يقول (محمداً) ومثل هذا كثير.
فمن تدبر العربية والعبرانية والسريانية أيقن أن اختلافها من نحو ما ذكرنا من تبديل ألفاظ الناس على طول الأزمان واختلاف البلدان ومجاورة الأمم، وإنها لغة واحدة في الأصل
ومن الألفاظ المولدة في العربية لفظة (البوز) التي استعملها الجمهور في مدينة يافا

من أعمال فلسطين منذ أربع سنين حينما كان الوطنيون في دار القضاء (المحكمة) يحاكمون، فقد قال عامل عربي من عمال الشحنة أو الشرطة - البوليس أو البلوص كما يقال في بعض الجهات - فإنه قال كلمة منكرة فاحشة أنكرها الجمع العربي حتى أن النيابة وهي كلمة إنكليزية أنكرتها وقسرته على أن يرجعها فرجعها؛ فلما قالها صاح الناس هناك: (سد بوزك)

وقد ظن بعضهم أن هذه اللفظة عامية والصحيح أنها معربة أو مولودة وهي - إن لم تكن نوحية - ألفية عمرها ألف سنة، وقد استعملها كبار الأدباء، وهذه حكاية أوردها ياقوت في كتاب (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) وقد جاءت فيها اللفظة المذكورة:

حدث غرس النعمة محمد بن هلال قال: حضر يوماً (ابن جني) - الإمام اللغوي - في الديوان يتحدث مع أبي اسحق الصابي، وكان له عادة في حديثه بأن يميل شفتيه ويشير بيديه، فبقى أبو الحسين القمي شاخصاً بصره يتعجب منه فقال له ابن جني: ما بك يا أبا الحسين، تحدق إلي النظر وتكثر مني التعجب؟

قال: شيء ظريف!

قال: ما هو؟

قال: شبهت مولاي الشيخ وهو يتحدث ويقول ببوزه كذا ويده كذا بقرد رأيته اليوم عند صعودي إلى دار المملكة وهو على شاطئ دجلة يفعل مثلما يفعل مولاي الشيخ

فامتعض أبو الفتح بن جني وقال: ما هذا القول يا أبا الحسين (أعزك الله)؟ ومتى رأيتني أمزح فتمزح معي، أو أمجن فتمجن بي؟

فلما رآه أبو الحسين قد غضب قال: المعذرة أيها الشيخ إليك والى الله (تعالى) أن أشبهك بالقرد، وإنما شبهت القرد بك

فضحك ابن جني وقال: ما أحسن ما اعتذرت! وعلم أنها نادرة تشيع فكان يتحدث هو بها دائماً)

ويستعمل بعضهم (البوز) لبرطيل الكلب. فيقول: بوز فلان مثل بوز الكلب وإذا كانت اللغة خصت بها هذا الحيوان فيكون استعمالها لنوع من بني الإنسان مجازياً، والمجاز باب واسع. . .

فقول الجمهور لذلك (الشُّرْطي) حين خرج الذي خرج من فيه، من فمه، من بوزه: (سد بوزك) - استعمال من جهة اللغة في محله. . .

محمد اسعاف النشاشيبي

الروايات الكنسية والنصرانية وقيمتها كمصادر للتاريخ الإسلامي

للأستاذ محمد عبد الله عنان

وفقت دار الآثار المصرية أخيراً للحصول عل نسخة مصورة من أثر كنسي هام له قيمته في تاريخ مصر الإسلامية، هو مجموعة سير بطاركة الكنيسة القبطية منذ نشأتها حتى منتصف القرن السابع الهجري. وقد كان للمجتمع القبطي دائماً شأن في تاريخ مصر الإسلامية، وكان للكنيسة القبطية دائماً علائقها الرسمية مع الحكومات الإسلامية، ومع ذلك فإن الرواية الإسلامية لم تفسح مجالاً كبيراً لبحث هذه العلائق وتمحيصها، ولم تعن بالأخص بأن تشرح لنا وجهة النظر الكنسية في مختلف العصور شرحاً وافياً، ولم تفطن دائماً إلى الاستفادة من الآثار والمصادر النصرانية في تفهم أحوال المجتمع النصراني وزعامته الروحية.

ومن ثم كانت أهمية الآثار النصرانية التي تعنى بعصور من تواريخ الأمم الإسلامية، ففي هذه الآثار نستطيع أن نفهم بوضوح موقف الكنيسة وموقف أوليائها حسبما يصوره لنا كتابها ودعاتها، ونستطيع بمراجعة أقوالهم وتعليقاتهم أن نقف على كثير من الحقائق التي لم تعن الرواية الإسلامية بشرحها واستيعابها، وكتاب سير البطاركة الذي أشرنا إليه من تلك الآثار التي تلقي ضوءاً على موقف الكنيسة القبطية، وموقف الشعب القبطي وأحواله في مصر خلال العصور الوسطى، وهي ناحية لها بلا ريب قيمتها وأهميتها في تاريخنا القومي، وتنقسم النسخة المصورة التي حصلت عليها دار الكتب من الأثر الذي أشرنا إليه والتي نقلتها عن مخطوط باريس إلى قسمين: أولهما كتاب سير الآباء البطاركة الذي وضعه الأنبا سويرس بن المقفع أسقف الأشمونين في عهد المعز لدين الله الفاطمي في تاريخ بطاركة الإسكندرية، وهذا الأثر معروف ومتداول

لأنه طبع منذ أكثر من ثلاثين عاما بعناية الآباء اليسوعيين، وقد عرفته الرواية الإسلامية منذ عصور وانتفعت به أحيانا فيما نقلته من أنباء الكنيسة والبطاركة. وقد كان الأسقف سويرس من أكابر الأحبار والمفكرين أيام الدولة الأخشيدية وأيام المعز لدين الله، وكان أسقفا لمدينة الأشمونين التي كانت من مدائن الصعيد الزاهرة يومئذ، وتشيد الرواية الكنسية بعلمه وأدبه ومكانته الروحية

والاجتماعية، وتحدثنا عن صلاته بالمعز لدين الله ومحاوراته الدينية والكلامية معه، وتعدد لنا كتبه وآثاره الأدبية والتاريخية. ويتناول سويرس في كتابه سير بطاركة الإسكندرية منذ القديس مرقص منشئ هذا الكرسي حتى البطريرك افراهام بن زرعة السرياني الذي رسم بطريركا لليعاقبة سنة 365هـ (975م) في أوائل عصر العزيز بالله. وقد ورد في مقدمة هذا القسم إشارة إلى وضع هذا الأثر وتأليفه نصها: (هذه السيرة جمعها واهتم بها من كل مكان الأب الجليل أنبا سويرس بن المقفع أسقف مدينة الأشمونين. ذكر أنه جمعها من دير أبو مقار ودير نهيا، وغيرهما من الديارات وما وجده في أيدي النصارى منها أجزاء مفرقة أنفق فيها أعواما طويلة حتى بلغ عمره الثمانين)

على أن هذا القسم المتداول ليس هو المقصود بالذات في هذا التعريف والتعليق، وإنما نقصد بالأخص إلى التعريف بالقسم الثاني من الأثر الكنسي، وهو الذي يشغل المجلدين الثالث والرابع من مخطوط باريس الذي نقلت عنه نسخة دار الكتب المصورة، فهذا القسم الذي لم ير الضياء بعد يحتوي على سير البطاركة المصريين منذ أوائل الدولة الفاطمية إلى سنة 635هـ أعني إلى نهاية عصر الملك الكامل. وقد نسب هذا الأثر بجملته في فهرس مكتبة باريس الوطنية إلى سويرس بن المقفع، وهي نسبة ظاهرة الخطأ لأن سويرس توفي في أوائل عهد العزيز حوالي سنة 370هـ، فليس من المعقول إذن أن ينسب إليه ما تضمنه الأثر الكنسي بعد هذا التاريخ: وظهر أثر هذه النسبة الخاطئة جليا فيما كتبه العلامة المستشرق سلفستر دي ساسي، عن الحاكم بأمر الله في كتابه عن الدروز، إذ ينقل كثيرا مما ورد عن عصر المستنصر بالله ولد الظاهر، منسوبا إلى سويرس بن المقفع.

وقد أتيحت لنا فرصة لبحث هذا الأثر الكنسي واستقصاء مصادره ومساق واضعيه، فانتهينا إلى هذه الحقيقة وهي أن الجزأين الثالث والرابع من المخطوط ليس لهما علاقة بمؤلف أسقف الأشمونين، بل هما أثر مستقل بذاته، ذيل بهما الأثر الأصلي لأنهما في نفس موضوعه وهو استئناف سير البطاركة من حيث وقف سويرس؛ ويسمى هذا الأثر الملحق باسم آخر هو (سير البيعة المقدسة). ولم يقم بتأليفه أو وضعه مؤلف واحد بل تعاقب في وضعه وكتابته عدة من الأحبار المتعاقبين، فتولى كتابة القسم الخاص بعصري العزيز

والحاكم مثلا قس معاصر يدعى الأب ميخائيل (كاتب السنوديقا بكرسي مار مرقص) (البطريركية) كما يقول لنا ذلك خلال الكتاب؛ وكتب سيرة الأنبا فيلاتاوس البطريرك الثالث والستين وهو معاصر العزيز ثم الأنبا زخاريا البطريرك الرابع والستين وهو معاصر الحاكم بأمر الله، وأورد الكتاب خلال حديثه كثيرا من الأقوال والروايات الهامة عن الحاكم وحياته العامة والخاصة، وعن حوادث العصر المدهشة. وكتب سير البيعة المقدسة أيام الظاهر والمستنصر قس يدعى (موهوب بن منصور بن مفرج الإسكندراني الشماس) ويقول لنا (إنه جمع سيرهم وكتبها واستخرجها من دير أبو مقار بوادي هبيب وذلك سنة 806 للشهداء الموافقة لسنة 480هـ). وكتب في أيام المستنصر وبعده قس آخر يدعى يوحنا ابن صاعد بن يحيى المعروف بالقلزمي وهكذا حتى أواخر الدولة الفاطمية؛ وهنا يقول لنا كاتب هذا القسم إنه سيتم سير الآباء، وإنه بدأ بما شاهده في عصره وخصوصا أيام زوال الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية، وهنا يميل الكاتب إلى التبسط في سرد أحداث العصر، ولا يتقيد بالناحية الكنسية بل يفيض في سرد الحوادث جملة؛ ويتحدث عن السلطنة وعن سيرها وأعمالها، ويسير في ذلك على ترتيب السنين القبطية أو سني الشهداء، حتى سنة 635هـ، أو نحو سنة 950 للشهداء، حتى نهاية عصر الملك الكامل ناصر الدين

ولقد نوهنا في بداية هذا الفصل بأهمية أمثال هذه الآثار الكنسية في شرح موقف الكنيسة من الخلافة أو السلطنة، وشرح وجهات نظرها فيما يتصل بها من الحوادث

والشؤون، وتبدو أهمية الرواية الكنسية بنوع خاص في العصور التي تضطرم فيها فورات اضطهاد ضد الكنيسة والمجتمع النصراني أو تتجه السياسة الإسلامية إلى الضغط عليهما لظروف وعوامل خاصة، كما حدث في مصر في عصر المأمون، وفي عصر الحاكم بأمر الله وأيام الحروب الصليبية؛ فهنا تبدو الرواية الكنسية متنفساً حقيقياً للتعبير عما يخالج الكنيسة ورعاياها من العواطف والآراء نحو المجتمع الإسلامي؛ وقد تحمل الرواية الكنسية في هذه المواقف على المبالغة والإغراق في أحيان كثيرة، ولكنها تحتفظ مع ذلك بقيمتها وأهميتها في إيضاح كثير من النقط والمواقف التي تغضي عنها الرواية الإسلامية أو ترى فيها آراء أخرى.

ولا تقف أهمية الرواية الكنسية عند ذلك الحد؛ ففي بعض الأحيان، وفي عصور السكينة والسلام، تغدو الرواية الكنسية مصدراً قيماً لاستعراض الحوادث التي تعنى بها. وفي القسم الأخير من مجموعة (سير البيعة المقدسة) يبدو الكاتب مؤرخاً لا غبار عليه، ويتبسط في شرح الحوادث والشؤون العامة في أواخر الدولة الأيوبية، ويقدم إلينا عنها رواية لا بأس بها

ونرى أن نشير بهذه المناسبة إلى أنه توجد إلى جانب هذه الروايات الكنسية التي تعنى بناحية خاصة من تاريخ مصر الإسلامية لم تعطها الرواية الإسلامية دائما حقها من العناية، طائفة من الروايات النصرانية، التي تتبوأ مكانها الحق بين مصادر التاريخ الإسلامي؛ فلدينا مثلاً تاريخ سعيد بن بطريق - بطريرك الإسكندرية الذي يصل في كتابته حتى سنة 326هـ، وتاريخ يحيى بن سعيد الانطاكي الطبيب والمؤرخ، وقد كتبه ذيلا على تاريخ ابن بطريق، ووصل في كتابته حتى أواخر عهد الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمي، وعنى فيه عناية خاصة بأخبار الحاكم وشخصه وحوادث عصره، وتاريخ المكين ابن العميد المسمى بتاريخ المسلمين الذي يستعرض فيه أخبار الخلافة والسلطنة حتى أواخر القرن السادس الهجري؛ وتاريخ ابن العبري المسمى بمختصر تاريخ الدول الذي يصل فيه برواية حتى أواخر عصره أعني إلى أواخر القرن السابع، فهذه الآثار التي كتبها كتاب ومؤرخون من النصارى، وإن كانت تميل في معظم الأحيان إلى أن تخص أخبار الكنيسة والمجتمع انصراني بأعظم قسط من عنايتها، تحتفظ دائما بقيمتها كمصادر لتواريخ العصور التي عنيت بها. وتمتاز هذه الآثار بميزة خاصة، هي أنها تعنى عناية فائقة بتاريخ الدولة البيزنطية باعتبارها حامية الكنيسة الشرقية، وتفيض في تتبع أخبارها وعلائقها بالأمم الإسلامية إفاضة دقيقة ممتعة، وهذه ناحية لم تخصها الرواية الإسلامية دائما بما يجب من عناية، بل هي تعتمد غالبا في تناولها على هذه الروايات النصرانية، مثال ذلك أن ابن خلدون يعتمد على ابن العميد في معظم ما كتبه عن أخبار الدولة الرومانية والدولة الشرقية (البيزنطية)، ويرجع السر في ذلك إلى أن أغلب الكتاب النصارى كانوا يعرفون السريانية واليونانية واللاتينية أحياناً، ومن ثم كان اتصالهم بالمراجع الأجنبية وانتفاعهم بها.

وهكذا نرى أن الروايات الكنسية والنصرانية العربية بوجه عام فضلا عن قيمتها وأهميتها الخاصة في سرد أخبار الكنيسة والمجتمع النصراني، وشرح مواقفهما في مختلف العصور والمناسبات، حقيقة بالدرس والمراجعة كمصادر قيمة لعصور معينة من التاريخ الإسلامي، تلقي ضوءاً على كثير من نواحي الصلة والعلائق بين الشرق والغرب، والنصرانية والإسلام

محمد عبد الله عنان

في الأدب المقارن

الطير والحيوان في الأدبين العربي والإنجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

وحدة الأشياء واشتراكهم في صفات ترفعهم جميعاً عن الجماد وتميزهم بالشعور بالغبطة والألم. كل هاتيك حقائق من الموضوع بحيث اهتدى إليها الأولون قبل أن يحققها العلم الحديث ويفصل دقائقها وخوافيها؛ وتنازع الأحياء البقاء، وعدوان أقواها على أضعفها وفوز القوي بالغلب والبقاء، هذه كذلك أمور واضحة رأى المتقدمون مظاهرها وظهرت لمحاتها في آدابهم؛ وقد كان موقف الإنسان منذ عصوره البدائية من الحيوان غريباً لا يخلو من تناقض وطرافة: كان في أول أمره ينازع السباع البقاء ويفترسها ليتغذى بها، ثم استأنس بعضها وسخره في أعماله تسخير العبيد، وأتخذ

بعضها للزينة والمسرة ثم عاد فقدس بعض عبيده أولئك ورفعهم إلى مصاف الآلهة، لأنهم يدرّون على حياته خيراً وبركة، بينما ظل يتلهى باقتناص أوابد الوحش. ويجرب بأسه وفروسيته باصماء حشاشاتها، والتفريق بين الأمهات منها وبين الصغار واخترع خيال الإنسان في تلك العهود البعيدة عجائب الحيوان وغرائب الأطيار ومخيف الكائنات، كما توهم البابليون وحشاً هائلا يقذف الماء من فيه فيغمر السهل والجبل، وكما تخيل الإغريق الجياد الطائرة والسباع ذوات الرؤوس المتعددة وخلائق شعور رؤوسها أفاع باغية، وتوهموا الأبطال المغامرين منطلقين لقتال تلك السباع والأفاعي، وكما تصور العرب الغول والعنقاء، وزعم السندباد انه سافر على جناح طائر ميمون يدعى الرخ، وكما توهم أوائل الإنجليز سبعاً ضارياً قد ألقى الرعب في مملكة بأسرها، حتى صارعه فصرعه الأمير بيولف في الملحمة المسماة باسمه؛ ولم تكن كل هذه السباع الوهمية التي هذى بذكرها الإنسان في عهوده الأولى، إلا صدى لذكريات الوحوش الهائلة التي كانت تقطن البر والبحر في غابر الأزمان، وكان الإنسان المتوحش على فزع منها وحذر دائبين

فلما بلغ الإنسان طوراً من الحضارة أرقى، أنزل تلك العجماوات التي كان ألهها من محاريب عبادته، ونبذ تلك الخرافات وما بها من سباع وهمية، وعلم العرب أن الغول والعنقاء مستحيلان استحالة الخل الوفي، وظهر من المثقفين ذوي النفوس الرقيقة من انتهوا

ونهوا عن قتل الحيوان والتغذي بلحمه والتلهي بصيده وتعذيبه وسجنه كأبي العلاء الحكيم العربي. وكل المصور الإيطالي ليوناردو دافنسي، الذي كان يبتاع الطيور الحبيسة ليطلقها ويشفي نفسه المتألمة برؤيتها تضرب أجنحتها ذاهبة إلى الفضاء؛ وظهرت آثار تلك العلاقات المختلفة بين الإنسان والحيوان في الآداب: الإغريقي وصف لمغامرات حملة الارغونوت التي خرجت لاستخلاص فراء ثمين يحميه غول فظيع، وفيه وصف لجماعة السيكلوب أو المردة ذوي العيون المفردة، وما كان بين كبيرهم وبين يوليسيز من كفاح، وفي الأدب الفرنسي قطعتان بديعتان تفيضان رحمة وجمالا. تصور إحداهما مصرع غزال والأخرى مصرع ذئب على أيدي الصيادين

والأدب العربي حافل بذكر أنواع الطير والحيوان التي عرفها العرب في باديتهم، كالجمل والحصان والأسد والقطاة والحمامة، وكان من عاداتهم أن يمنحوا بعضاً منها كنايات: فأبو قيس للقرد وأبو خالد للأسد، وكان لبعضهم أسماء في لغتهم عديدة، وبها ضربوا الأمثال فقالوا: أهدى من قطاة وأحذر من غراب وأعدى من ظليم، وسيروا الكنى فقالوا: جبان الكلب ومهذول الفصيل للجواد المضياف، واستعاروا أوصافها للإنسان فقالوا: جيد كجيد الغزال وعيون كعيون الجآذر وشبهوا خوذات المقاتلين ببيض النعام، وتشاءموا بأصوات بعض الحيوانات كالغراب والبومة، وزجروا الطير يتفاءلون بالسارح منها ويتشاءمون بالبارح، وأجروا الأمثال على ألسنتها كقصة الثيران الثلاثة المنسوبة إلى الإمام علي، وكالقصص التي أنطق فيها الحيوان أبن المقفع، والمحاورات التي نحلها إياها إخوان الصفا، واسترعت أحوال الحيوان ومسعاته انتباههم فتدبروها مليا كما في تلك الرسالة البليغة عن النمل المنسوبة إلى الإمام علي أيضاً، وفي التدبر في أحوال كثير من الطير والحيوان والهوام أفاض القرآن الكريم في شتى المواضع، ودعا الإنسان إلى التفكير فيها، وألف الجاحظ كتابه المعروف جامعاً بين العلم والأدب

وقد أطنب أدباء العربية خاصة في ذكر الإبل ووصفها في أشعارهم، ووصف سيرها وحنينها إلى أعطافها استحثاثها ومناجاتها، ولا غرو فقد كانت قوام حياة العربي في حله وترحاله، بل كان لها أثر جليل في تطور الشعر العربي ذاته، إذا صح ما قيل من أن أوزان الشعر اشتقت من مشياتها وتدفعها، وهو قول وجيه؛ وقل شأن الإبل قليلاً حين تحضر العرب، ولكن ظلت لها أهمية عظيمة، وظلت من أهم وسائل الانتقال وحمل المتاجر برا، وحافظ أدباء العربية على تقاليد الجاهليين من الإطناب في ذكر الإبل وتقديمه بين أيدي المديح حتى استقلت الإبل بجانب عظيم من الشعر العربي، ومن خير أوصافها قول طرفة في معلقته:

وإني لأقضي الهم عند احتضاره ... بعوجاء مرقال تروح وتغتدي

تباري عتاقا ناجيات واتبعت ... وظيفا وظيفا فوق هور معبد

وأطنب أدباء العربية أيضاً في ذكر الخيل ووصفها في أشعار الحماسة، وما ذاك إلا لأنهم في جاهليتهم وإسلامهم كانوا أمة جلاد وكفاح، الخيل أول عدتهم في القتال والذود عن حقيقتهم، فكان أعز مكان في الدنى لديهم ظهر سابح كما قال المتنبي، وطالت صحبتهم الخيل واطردت ملازمة الخيل لهم، فكأنما ولدت قياماً تحتهم ما قال المتنبي أيضاً، وكأنما ولدوا على صهواتها، ووصفوا مواقفهم في الحروب ومواقف جيادهم، كما فعل عنترة في معلقته، حيث يذكر كيف ازور حصانه من وقع القنا بلبانه، وكيف شكا إليه آلامه بعبرة وتحمحم، وصار لكلمة الخيل أو كلمتي الخيل والرجل مغزى خاص بالحرب، بعد أن استعملها القرآن الكريم في تلك الآية البليغة: (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل)، وتأنق أبو تمام والمتنبي في وصف الخيل وسماتها وأخلاقها وزحوفها، ومن بديع أوصافها في العربية قول الفرزدق في جواد أغر محجل:

فكأنما لطم الصباح جبينه ... فاقتص منه فخاض في أجشائه

وأبيات أبي تمام التي يقول منها:

وأولق تحت العجاج وإنما ... من صحة إفراط ذاك الأولق

وقول أبي الطيب في وصفه للمعركة التي دارت على ربى حصن الحدث:

إذا زلقت مشيتها ببطونها ... كما تتمشى في الصعيد الأرقم

وفاز الأسد والذئاب باهتمام أدباء العربية، وتركا في الشعر العربي أوصافاً شائقة وقصصاً ممتعا، من ذلك وصف بعض المقاتلة أمام أمير المؤمنين عثمان بن عفان طلوع أحد الليوث عليهم في جلجلة ورهبة زلزلت الأرض وخلعت قلوب الفرسان وجيادهم؛ ومنه أيضاً وصف الفرزدق الأطلس العسال الذي رأى ناره موهنا فأتاه، فقاسمه عشاءه، حتى امتلأ الذئب فتكشر ضاحكا، ولكن الفررزدق حين رأى نيوب الذئب بارزة لم يظن أن الذئب يبتسم، بل جعل قائم سيفه في يده بمكان؛ وتاه على الذئب بما أنا له من قرى بدل أن يرشقه بشباة سنان؛ أما البحتري فلم يكن بهذا المكان من الجود، بل كان يحدث نفسه بصاحبه الذئب، كما كان الذئب يحدث نفسه بصاحبه البحتري، فرمى الإنسان الوحش فأصماه، ونال من لحمه قليلا؛ كذلك يصف المتنبي في أبيات هي غرر الشعر العربي ملاقاة بعض ممدوحيه للأسد، وتعفيره إياه بالسوط؛ وهناك كذلك وصف للبديع في بعض مقاماته لمثل هذا اللقاء الرائع بين فارس مقدام وبين ملك الحيوان، ومنه قوله على لسان الفارس:

وقلت له: يعز علي أني ... قتلت مناسبي جلدا وقسرا

ولكن رمت شيئا لم يرمه ... سواك، فلم أطق يا لليث صبرا

تحاول أن تعلمني فرارا، ... لعمر أبيك قد حاولت نكرا

ولما تحضر العرب وانتشر في عليتهم الترف، تأنقوا في اتخاذ الحيوان للزينة والمتعة، وكان الخروج للقنص من وسائل لهوهم وترويحهم عن النفس، وكثر في الشعر وصف تلك الأفيال التي كان الخلفاء الفاطميون يسيرونها في مواكبهم، والمها التي كانوا وكان غيرهم يزينون بها حظائرهم وقصورهم، ووصف الخروج للقنص وكلاب الصيد، وقد وصف أبو نواس في أبيات مشهورة كأساً له قد صورت عليها مها تدريها بالقسي الفوارس، ووصف المتنبي لبؤة مقتولة وأشبالها حولها جاثمة، وكان قد هيئ ذلك المنظر في حفل استقبل فيه سيف الدولة سفراء قيصر، ولأبن الرومي عينية بارعة في وصف يوم طرد تمتع به في رفقة له، ومن نوادر أبي دلامة أنه خرج مع الخليفة الهدي وعلي بن سليمان للصيد، فأخطأ علي الرمية وأصاب أحد كلاب الصيد فقال أبو دلامة:

قد رمى الهدي ظبياً ... شك بالسهم فؤاده

وعلي بن سليمان ... ن رمى كلباً فصاده

فهنيئاً لهما: كل ... امرئ يأكل زاده

وكان من عادة أدباء العربية أن يمثلوا لأحوالهم بأحوال الحيوان، ويستعيروا صفاته لما هم بسبيل وصفه، فيمثلون لحنينهم بحنين الإبل إلى أعطافها، ولوجدهم بوجد الظبية على خشفها قد صرعته نبال الصائد، أو مزقته براثن السبع الضاري، يصفون مصرع طفلها

وافتقادها إياه وجزعها وتلددها لهلاكه، في أبيات كثيرة يبدءونها بقولهم: (وما ظبية. . .) أو نحو ذلك، ويعقبون عليها بقولهم: (بأوجع مني يوم بانوا. . .) أو ما إليه؛ كما كان من التقاليد المتعبة في أشعار النسيب والوجد مناجاة الحمائم وسؤالها عما يشجيها، ومقابلة شجوها بشجو الشاعر، ووصف تهييجها لذكرياته تجديدها لآلامه ومن محاسن ما قيل في الحمائم قول أعرابي:

وقبلي أبكي كل من كان ذا هوى ... هتوف البواكي والديار البلاقع
وهن على الأطلال من كل جانب ... نوائح ما تخضل منها المدامع
مزبرجة الأعناق غر ظهورها ... محطمة بالدر خضر روائع
ترى طرراً بين الخوافي كأنها ... حواشي برد زينتها الوشائع
ومن قطع الياقوت صيغت عيونها ... خواضب بالحناء منها الأصابع

أما أشد شعراء العربية شغلا بأمر الأحياء وتأملا في أحوالها وذكراً لها في شعره فهو المعري الذي بلغ من نفاذ البصر في شؤون الحيوان وشدة الرحمة له حينا، والإنكار للؤم طباعه حينا، وطوال التأمل فيها تأملا موضوعياً لا ذاتيا، ما لم يبلغه غيره من شعراء العربية فهو تارة ينعى على الضرغام مغادرته غابه لينازع ظبي رمل في كناس، وتارة يسمح للذئب بالشاة علماً بما بالذئب من داء السغب، وتارة يبكي للحمامة البريئة يعاجلها الصقر عن نقرها وهديلها، وطوراً يرميها بمماثلة غيرها من الحيوان في الجور والعدوان، وهو ينهى عن فجيعة النحل في شهدها أو الناقة في فصيلها في حائيته الرصينة من لزوم ما لا يلزم

لا يكاد يوجد في الأدب الإنجليزي شيء من ذكر تلك الأنواع من الحيوان سالفة الذكر، التي احتفى بها أدباء العربية أي احتفاء، وحفل بذكرها الشعر العربي في شتى عصوره، فلا الجمل ولا الحصان ولا الأسد والذئب، ولا الحمائم والظباء، تمثل ذلك المكان الظاهر من موضوعات الأدب وتشبيهاته وكناياته وأمثاله؛ وذلك لاختلاف البيئة الإقليمية والاجتماعية، فتلك ضروب من الحيوان لا تكثر في إنجلترا كثرتها في بلاد العرب، بل لا يوجد بعضها أصلا، والإنجليز كانوا جوابي بحار لا رحالي صحار، ومقاتلة على الماء أكثر منهم على البر، فلا غرو ألا يمروا بتلك الأنواع إلا عرضا، وأن يمتلئ أدبهم بوصف ضروب أخرى من الأحياء غير هذه

إنما يحفل الأدب الإنجليزي بذكر الطيور الجميلة المغردة، ووصفها ومناجاتها، ووصف أغاريدها والاسترسال معها إلى آماد الخيال البعيدة والطيران معها على أجنحة الشعر؛ فالأدب الإنجليزي غني بالشعر الطبيعي الذي قصد به الوصف الطبيعي وحده، وهذا الوصف حافل بوصف الأطيار، والأدب الإنجليزي غني أيضا الوصف الطبيعي لم يقصد لذاته، وإنما يتخلل شتى أغراض القول؛ وهذا مملوء بذكر الطير أيضاً، والشعر الإنجليزي غني فوق ذلك بالقصائد التي كتبت خاصة في مناجاة الطيور وعبادة أصواتها المطربة، ولم يخل الأدب العربي من شيء من ذلك، ومن محاسن ما فيه منه وصف الصابيء للبغاء، وهو من غرر الشعر العربي ومنه يقول:

عدت من الأطيار، واللسان ... يوهمني بأنها إنسان
تنظر من عينين كالغصين ... في النور والظلمة بصاصين
تميس في حلتها الخضراء ... مثل الفتاة الغادة العذراء

بيد أن الشعر الإنجليزي أغزر وأحفل بتلك الآثار. ولكل من وردزورث وكيتس وشلي وتنيسون وسوينبرن قصائد في ذلك بالغة غاية السمو العاطفي والكمال الفني؛ ولم يكتف الشعراء بمناجاة أطيار جزيرتهم الغريدة الكثيرة، فلجأوا على عادتهم إلى الخرافة، وتصور كولردج طائراً عجيبا سماه الألباتروس جلب اليمن والبركة لأصحاب الملاح القديم، ثم جزاه هذا الأخير جزاء سنمار فقتله، فكان ذلك سبب ضلاله وهلاك أصحابه

ومن غرر تلك الأشعار في الإنجليزية قول وردزورث: (أيها القادم السعيد، هاأنذا أسمعك فأطرب، أأسميك طائر أم صوتا ملحقا؟ أنا أسمع هتافاتك المرددة وأنا مضطجع على العشب، ويخيل إليّ أنها تمر من ربوة إلى ربوة، قريبة بعيدة في آن واحد: ترسل أغاريدك في الوادي المكسو بالأزهار وضياء الشمس، فتثير في نفسي رؤى بعيدة، مرحبا بك يا رسول الربيع! يا من كنت إليه استمع إذ أنا صبي بالمكتب.

وطال ما جعلني هتافك هذا أتلفت في كل ناحية بحثاً في الشجيرات والأدواح والسماء، وطالما ضربت في الغابات والأعشاب في نشدانك، وضللت أنت دائماً أملا أو حبا يطول التشوق إليه ولا يرى أبداً، وما أزال أستطيع الاستماع إليك والانبطاح في السهل مصيخا إليك، حتى استعيد في
(مخيلتي ذلك العهد الذهبي

ولجون لوجان من شعراء القرن الماضي مقطوعة عذبة في مناجاة الطائر عينه، قد وقع فيها على بعض معاني وردزورث وتعبيراته، وإن لم يقل عنه جمالا وابتكار، قال:

(مرحبا يا غريب الأراكة الجميل، يا رسول الربيع، هاهي ذي السماء تعد لك مقعدك من الريف، ويردد الغاب صدى الترحيب بك؛ إذا ما رقش الأقحوان العشب أيقنا أن سنسمع صوتك من جديد، فهل لك نجم يهديك السبيل أو يوقت لك دورة العام؟ أيها الزائر المطرب، إني معك أرحب بأوان الأزهار وأسمع الموسيقى العذبة التي ترددها الأطيار في حواشي الخمائل؛ ويسمع صبي المكتب صوتك المنبئ بالربيع الجديد، وهو يطوف في الغاب يقطف آخر زهيرات الشتاء، فيتوقف منصتا ويقلد تغريدك؛ أيها الطائر المطرب: إن خميلك خضراء أبدا، وسماءك أبدا صافية، وليس في أغاريدك شجن ولا في عامك شتاء، فيا ليتني أستطيع الطيران فأحف معك على جناح الحبور، نطوف طوفتنا السنوية حول الأرض، رفيقي ربيع مستمر)

بأمثال هذه الأوصاف الطبيعية الشائقة، والمناجاة الحارة الصادقة يحفل الشعر الإنجليزي، ومثل هذا الولع بالطيور والشغف بمناجاتها ووقف القصائد والمقطوعات على الترنيم بحبها غير شائع في الأدب العربي؛ فالشعر العربي أحفل بذكر الحيوان ولا سيما الضروب سالفة الذكر، والشعر الإنجليزي قليل الاحتفال بها عظيم الحفاوة بالطير؛ ولا غرو: فقد كان العرب رجال مجتمع مقبلين على أسبابه ووسائله، يحمدون الإبل التي هي قوام حياتهم والخيل التي هي عمادهم في معركة الحياة، ويتمدحون بالبأس والشجاعة فيذكرون قتال الأسود وجندلة الذئاب، وفيما عدا ذلك لم يكن لهم كبير التفات إلى الطبيعة، ولا شديد عطف على أبنائها، وأشعارهم في هذا الباب لا تنم عن حب للحيوان أو شغف بحياته؛ وكان حب الطبيعة والهيام بجمالها من أكبر مميزات الأدب الإنجليزي، والطيور أكثر تمثيلا لجمالها وحبورها من الأسود والذئاب، فكثر في الأدب الإنجليزي وصف الطيور كما كثر وصف الأزهار والآجام والأنهار؛ وفي شغف الأدب الإنجليزي بهذه واحتفاء الأدب العربي بتلك رمز وبيان للصبغة الاجتماعية التي ترين على الأدب العربي، والنزعة الطبيعية التي تتجلى في الأدب الإنجليزي

فخري أبو السعود

النفس وخلودها عند ابن سينا

للدكتور إبراهيم بيومي مدكور

مدرس الفلسفة بكلية الآداب

- 4 -

لا نظن بعد الذي تقدم أن الرئيس ابن سينا قد ادخر وسعا في إثبات حقيقة مغايرة للجسم ومتميزة عنه كل التميز، وأن في الكائن الحي شيئا غير لحمه ودمه هو مصدر حركته وحسه وتفكيره. وسواء أكان موفقا في برهنته دائماً أم لا فالمهم أنه أعتمد - كما اعتمد أنصار المذهب الروحي قديما وحديثا - على بعض الظواهر التي لا يمكن تفسيرها ماديا، وأرى أنها تستلزم قوة كامنة ومبدأ خفيا هو النفس. وهذه الظواهر قسمان: جسمية وعقلية؛ ومن الأولى يتطرق الخلل والوهن غالبا إلى برهنته. ففي اللحظة التي يتحدث فيها عن الإحساس أو الحركة زاعما أنها لا تفهم إلا إن سلمنا بقوة روحية تشرف عليها وتنظمها نراه يبعد عن الآراء الحديثة كل البعد؛ أما حين يعرض للشخصية والتفكير والظواهر النفسية في وحدتها واتصالها ويقرر أنها تستدعي أصلا غير الجسم وأمرا مخالفا للبدن فانه يدلي بأفكار تقربه من المحدثين بقدر ما تبعده عن زملائه ومعاصريه. وهذا هو الجزء الذي بقى للخلف من برهنته، والذي يجدر بنا أن ندخره ونحتفظ به. ولسنا ندعي مطلقا أنه أثبت وجود النفس بأدلة هي اليقين وحجج لا تقبل النقض؛ فتلك كانت ولا تزال مشكلة المشاكل وموضوع الخلاف بين الماديين والروحيين. والمهم أنه اهتدى في هذا الباب إلى أكثر البراهين إقناعا وأعظمها وضوحا. والآن وقد فرغ من إثبات وجود تلك الحقيقة المخالفة للجسم فلا بد له من أن يحددها

ويبين ماهيتها ويعين خواصها ومميزاتها. وليس تحديد النفس من الأمور الهينة؛ فقد كان مثار اختلافات كثير بين الفلاسفة الأقدمين، ومبعث أخذ ورد طويلين بين أفلاطون وأرسطو بوجه خاص. ولم يكن ابن سينا بعيدا عن هذه الآراء المتباينة والمذاهب المتفرقة، فإن الباب الأول من كتاب النفس لأرسطو، الذي يعد حجته الأولى ومصدره الرئيسي، موقوف في جملته عليها وخاص بعرضها ومناقشتها. وسيراً على سننه يعقد في كتابه الشفاء فصلا

وفيه يلخص كل ما جاء في (في ذكر ما قاله القدماء في النفس وجوهرها ونقضه) الباب الآنف الذكر. ليبين مذاهب الفلاسفة السابقين، ويناقشها على نحو يشبه كثيراً ما صنعه أرسطو. واختلاف هؤلاء الفلاسفة في رأيه راجع إلى أن للنفس أثرين ظاهرين هما الحياة والحركة من جانب والإدراك من جانب أخر، ففريق بهره الأثر الأول وحاول تجريد النفس بواسطته فقط، وفريق آخر لم يفهم في طبيعتها إلا الإدراك، وفريق ثالث رأى أن يجمع بين هذين الجانبين. ويراد بالفريق الأول كل أولئك الذين عدوا النفس مصدر الحياة والحركة الذاتية، فخلطوا بينها وبين الدم الذي إن سفح كان الموت، أو بينها وبين الجواهر الفردة - أو الهباء كما يسميه ابن سينا - التي كان يظن أنها متحركة دائماً. وأما الفريق الثاني فيعتقد أن الشيء لا يدرك سواه إلا إذا كان مبدأ له ومتقدما عليه؛ ولذلك عدوا النفس واحداً أو جملة من المبادئ التي يختلف نوعها وعددها تبعا للفلاسفة فظنوا أنها نار أو هواء أو أرض أو ماء أو بحار؛ أو جعلوها مركبة من العناصر الأربعة كما ذهب إلى ذلك أبناء دقليس زعما منه أن الشبيه هو الذي يدرك الشبيه، فلا بد أن يكون في النفس جزء من الأشياء التي تدركها وأما الفريق الأخير فيرد النفس إلى العدد لأن الأعداد مبدأ الوجود والحركة والإدراك

واضح أن ابن سينا يشير في كل هذا إلى آراء الفلاسفة السابقين لسقراط في النفس، أمثال طاليس وديمقريط وفيثاغورس وإن كان لم يصرح بأسمائهم. ولم يقنع بتخليص هذه الآراء، بل ناقشها مناقشات طويلة عنيفة نكتفي بأن نسرد أمثلة منها. فيعترض على الفريق الأول أنه لم يفسر السكون، ذلك لأن النفس أن كانت متحركة بذاتها فكيف تسكن. على أنه ليس من السهل على هذا الفريق أن يحدد نوع الحركة الذي تقوم به النفس. ويرفض المذهب الذري الذي أثبت بطلانها في نواح أخرى. ولا يخفى تهكمه بأولئك الذين يزعمون أن الكائن لا يدرك إلا ما صدر عنه ملاحظا أن الإنسان يعلم أشياء كثيرة لم يقل أحد إنه أصل لها. وليس بصحيح مطلقا أن الشبيه فقط هو الذي يدرك الشبيه، لأنه لو سلم هذا كان معناه أن العالم العلوي لا يعرف من أمر العالم السفلي شيئا

ليس هناك شك في أن وقوف ابن سينا على هذه الآراء ومناقشته لها قد هيأت له الفرصة لتخير أحسن تعريف يلتئم مع طبيعة النفس ووظائفها. إلا أن هناك عاملين قويين يقتسمانه.

وصوتين عظيمين يتجاذبانه، وهو بينهما في حيرة واضحة وتردد ظاهر أو تناقض مكشوف أحيانا. فحين يقرأ عبارات أرسطو الأخاذة وتحليلاته المنظمة واعتراضاته المفحمة لا يلبث أن يرددها ويسير وراءها. وحين يسمع أفلاطون ينادي بجوهرية النفس وتميزها التام عن البدن يستولي عليه هذا النداء ويصادف هوى في نفسه وإن كان لا يتفق مع آراء أرسطو. وقد يقف موقفا وسطا بين هذين الطرفين المتقابلين محاولا الجمع والتوفيق.

يبدأ ابن سينا فيلاحظ أن الأجسام الطبيعية مكونة من هيولي وصورة. فأما الهيولي فهي تلك المادة التي يتكون منها الجسم كالخشب الذي يصنع منه الكرسي أو كالحديد الذي يعمل منه السيف. وأما الصورة فهي ما به تتميز الأجسام بعضها عن بعض وتتحدد ماهيتها وتقوم بوظائفها. فالأرض لا تفترق عن الماء بمادتها بل بصورتها، والإنسان إنسان بصورته لا بمادته المكونة من العناصر الأربعة، والسيف لا يقطع بحديده بل بحدته. وبما أن الكائن الحي جسم طبيعي فهو من مركب هيولي وصورة، والأخيرة هي التي تميزه من الكائنات غير الحية إذ أنها مصدر حياته وحسه وحركته. فالنفس إذا صورة الجسم. والصور كمالات كلها وكمالات أولية، لأن وجود الأشياء المختلفة لا يكتمل إلا بها. وليست النفس كمالا أوليا لجميع الأجسام، بل للأجسام الطبيعية فقط التي تمتاز بالحياة عن الأجسام الصناعية وتشتمل على آلات وأعضاء

تقوم بوظائف متباينة. فهي كمال أولي لجسم طبيعي آلي
يخيل إلينا أن القارئ سيدرك على الفور المصدر الذي أخذت عنه هذه الأفكار. فإن ابن سينا لم يصنع شيئاً أكثر من أنه لخص الفصلين الأول والثاني من الباب الثاني من كتاب النفس لأرسطو ولم يكتف بأن يعتنق آراء الفيلسوف اليوناني، بل أبى إلا أن يردد بعض ألفاظه وتعبيراته. فلفظ (كمال) الذي يتشبث به ويبني عليه تعريفه ترجمة صحيحة لكلمة (أنتليشيا) اليونانية، وقوله أن (النفس صورة الجسم) ترجمة أخرى لتعبير أرسطي مشهور فإذا كان التعريف السابق ناقصاً أو معيباً من بعض نواحيه فالذنب في هذا لا يرجع إلى الفيلسوف العربي وحده، وإنما يشاركه فيه أستاذه اليوناني صاحب الفكرة الأولى. وإذا تركنا جانبا لفظة (كمال) أو (أنتليشيا) وما فيها من غموض فإنا لا نلبث أن نصطدم بهذه
الجملة: (النفس صورة الجسم). تعبير رائع أخاذ من غير شك، لكنه لا يقدم كثيراً في تفهم حقيقة النفس وتحديد ماهيتها. وكم عودنا أرسطو هذه التعبيرات الحلوة التي يدمج فيها بعض المشاكل دون أن يحلها وفكرة الصورة من الأفكار الجوهرية في مذهبه إلا أنها في الوقت نفسه من أدق نقطة وأصعبها تلاؤما مع نزعة الواقعية. فان من يقول بالصورة يدنو من المالية الأفلاطونية وإن تحامل عليها. والواقع أن أرسطو لم يأل جهدا في نقد مثالية أفلاطون التي تقول إن النفس حقيقة متميزة من الجسم. ويصرح بأن ما ذهب إليه الأفلاطونيون والفيثاغوريون من أن النفس جوهر روحي أشبه بالخيال منه بالحقيقة؛ ولا يستطيع أن يتصور أن نفسا ما تأتي من الخارج وتحل في جسم ما. وكيف نقبل هذا ومؤداه أن النفس تدخل الجسم كما يوضع مظروف في ظرف خاص؛ ومن المقرر أن المادة غير قابلة للعزل عن صورتها ومع هذا فإن أرسطو يفسر النفس تفسيرا أدخل في باب المثالية من فرض أستاذه؛ فإنه يعتبرها صورة، وليست الصورة شيئا أو مادة بأي شكل من الأشكال. تناقض واضح ومنتظر من كل فيلسوف واقعي لا يزال يحتفظ بقدر من المثالية.
وكأن ابن سينا قد أدرك ما في التعريف السابق من نقص بدليل ما لاحظه من أنه لا يفسر النفس من حيث هي وإنما يعرفها من ناحية صلتها بالجسم فقط. لهذا أخذ على عاتقه أن يتلافى هذا النقص وأن يوضح ذات النفس مميزا إياها بخاصتين رئيسيتين هما الجوهرية والروحية. وفي حديثه عن هاتين الخاصتين يعرب لنا عن جدلي ماهر ومحلل دقيق وباحث عميق. ونحن نعلم أن الجوهر والعرض متقابلان بل ومتناقضان وإن كان تناقضهما غير صحيح، فأن كل ما ليس بجوهر عرض. فإذا استطعنا أن نثبت أن النفس ليست واحدا من الأعراض لزم من هذا أنها جوهر قائم بذاته. ولعل أول شيء ينفي عنها العرضية هو أنها مستقلة كل الاستقلال عن الجسم؛ وهذا الأخير محتاج إليها تماما الاحتياج في حين أنها لا تحتاج إليه في شيء. ولن يتعين جسم ما ويتحدد إلا إذا اتصلت به نفس معينة. وعلى عكس هذا النفس هي هي سواء اتصلت بالجسم أم لم تتصل به. ولا يمكن أن يوجد جسم بدون النفس مع أن هذه تستطيع أن تعيش بمعزل عنه؛ وما دامت هي مصدر حياته وحركته فلا وجود له بدونها. ولا أدل على هذا من أنه يتغير ويصبح شبحا من الأشباح إذا ما انفصلت عنه. فالنفس إذن جوهر قائم بذاته لا عرض من أعراض الجسم.
وهنا يبتعد ابن سينا عن أرسطو بعدا واضحا؛ فإن من المبادئ المسلمة لدى الأخير أن ليس ثمة وجود مستقل للصورة بمعزل عن مادتها.
وليس القول بجوهرية النفس من الآراء التي أبتكرها ابن سينا؛ فقد سبقه إلى هذا أفلاطون وتوسع فيه رجال مدرسة الإسكندرية. غير أن هناك فارقاً بينه بينهم، فبينما هؤلاء يعدون النفس جوهر لا غير يقرر هو أنها جوهر وصورة للجسم في آن واحد، وفي هذا من التعارض ما فيه وإن كان يفسره بأنه جوهر في ذاتها وصورة من ناحية صلتها بالجسم. والسر في هذا التعارض الذي وقع فيه الفارابي من قبل أن الفيلسوفين العربيين متأثران بمصدرين مختلفين؛ فقد أخذ فكرة الصورة عن أرسطو كما أخذ فكرة الجوهر عن أفلاطون؛ ولم يريا أية غضاضة في أن يطلقا هاتين على النفس، خصوصاً وقد ذلل لهما أرسطو ذلك؛ فانه لم يستعمل كلمة (جوهر) في معنى محدود فيطلقها على المادة تارة الصورة أخرى وعليهما معا مرة ثالثة. ومن الغريب أن صاحب كتاب الربوبية الحزاني يفسر عبارة أرسطو المشهورة: (النفس صورة

الجسم) تفسيرا يشبه كل الشبه ما جاء به فلاسفة الإسلام؛ ولعل هؤلاء تأثروا به وخلطوا على نحو ما صنع الأرسطية والأفلاطونية ولكنه لا يفوتنا أن نلاحظ أن ابن سينا كلما بعد عن جو الآراء الأرسطية وخلص إلى نفسه عد الروح جوهرا فحسب ولم يشر قط إلى صورتها. فإذا كان يعرفها في الشفاء والنجاة الذين يحاكي فيهما جماعة المشائين أنها كمال وصورة للجسم فإنه لا يتحدث عنها في كتاب الإشارات الذي يبدو فيه استقلاله وشخصيته إلا باسم الجوهر الروحي القائم بذاته. وفي هذا ما يبين لنا كيف غلبت أفلاطونيته على انتسابه لأرسطو في هذا الموقف.

(يتبع)

إبراهيم مدكور

حديث الأزهار

للكاتب الفرنسي ألفونس كار

- 5 -

قالت الزهرة المائتة للزهرة الخالدة:

- لقد تمتعنا بالحياة معاً على مرج واحد، وغداً تلفحنا نسمات الربيع المودع فتذوي وريقاتي وأموت؛ وتبقين أنت خالدة في الحياة

ستقبلك الشمس مشرقة ومغربة فتشرب من وجنتيك دموع الصباح وأنت مصغية إلى أناشيد الأطيار

ما أحلى الحياة وما أجمل البقاء! ويلاه من قضاء أبرم على حكم الفناء!

فأجابت الزهرة الخالدة: - كل شيء يتغير ويتطور وأنا وحدي أشهد في جمودي نشوء الطبيعة وتحولها

تمر بي لفحات القرّ وتداعبني نفحات الصيف فلا الشتاء يميتني، ولا الربيع يحييني، وأنا أحمل تاجي الأصفر الدائم فلا أخاف الموت ولا أشعر بالحياة

تمر بي أسراب النحل فلا أسمع لها طنيناً، ويجانبني الفراش المتطاير فلا تلمسني جناحاه

يهب النسيم فيمر بي سراعاً دون أن يستوقفه مني أريج يتضمخ به، وتقترب الغادة مني ثم تبتعد وهي تحدجني بلفتات الاحتقار

من يقطف زهرة القبور، زهرة الخلود الصفراء الدائمة الذبول؟

تمايلي على ساقك النظير يا زهرة الربيع، وارفعي أبصارك إلى السماء شاكرة، سقياً لك! فأنك ستحلين رموز الموت بعد أن عرفت أسرار الحياة

أما أنا الضحية البريئة، فلسوف أبقى عرضة لحر النهار وبرد الليل، تضربني شمس يوليه وتعانقني ثلوج يناير، سوف أبقى في الحياة لأسمع في الليل أنين العظام البالية في القبور

ستموتين يا زهرة الربيع فترفع روحك مع زكي عبيرك إلى السماء

اذهبي بسلام واحملي توسلي إلى العلي، قولي للذي خلقنا: إن دوام البقاء على الأرض ضربة لا عطية، توسلي إليه ليدعوني إلى مصدر كل سعادة وكل حياة

(ف. ف)

هكذا قال زرادشت - 13

للفيلسوف الألماني فردريك نيتشة

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

لسعة الأفعى

واستسلم زارا للكرى يوما تحت شجرة التين، وكان الحر شديداً فستر وجهه بساعده فأتت أفعى ولسعته في عنقه فصرخ متألماً وانتفض محدقاً بالأفعى فعرفت عينيه تململت لتنصرف، فقال لها زارا: - (لا تذهبي قبل أن أقدم لك شكري، لأنك نبهتني في الزمن المناسب لأقوم بسفر بعيد)

فأجابت الأفعى وفي صوتها غنة الأسى: - بل سفرك قريب فزعافي قاتل

وابتسم زارا وقال: وهل لزعاف الأفعى أن يقتل تنيناً؟ خذي سمك، إنني أعيده إليك فلست من الغنى على ما يسمح لك بتقديمه هدية لي.

وسارعت الأفعى إلى الالتفاف حول عنق زارا تلحس جرحه.

وقص زارا هذه الحادثة يوماً على أتباعه فقالوا له: وما هو المغزى الأدبي لهذه القصة،

فأجاب: - إن أهل الصلاح والعدل يدعونني هداما للمبادئ الأدبية فقصتي لا تتفق وهذه المبادئ.
إذا كان لكم عدو فلا تقابلوا شره بالخير لأنه يستصغر بذلك نفسه، بل أكدوا له أنه أحسن بعمله إليكم، والأجدر بكم ألا تحتقروا أحدا، تظاهروا بالغضب. وإذا وجهت اللعنة إليكم، فلا يسرني أن تمنحوا البركة، إن ما يسرني هو ألا تأبوا اللعن أنتم أيضا، وإذا ما أنزلت بكم مظلمة كبيرة فبادلوا المعتدي مثلها وأرفقوها بخمس مظالم صغرى، لأنه ما من مشهد أشد قبحا من مشهد من لا يخضع إلا للظلم.
إن اقتسام المظالم بالتساوي إنما هو مساواة بالحق، فهل كنتم تعرفون هذا من قبل؟ من يقدر على إرهاق الناس بظلمه فعليه أن يحتمل هو الظلم أيضا.
لئن ينتقم الإنسان قليلا، فذلك أدنى إلى المعروف وليس من الإنسانية أن يترفع المظلوم عن الانتقام. إنني لأنفر من اقتصاصكم إذا لم يكن عبارة عن حق تؤدونه للمعتدي، وإن من
يسند الخطأ إلى نفسه لأنبل ممن يعلنون في كل آن أن الحق في جانبهم، وأخص من هؤلاء من كانوا حقيقة على صواب. إن أغنياء الروح لا يفعلون هذا.
أنني أكره عدالتكم الباردة، فان في عيون قضاتكم ازورار الجلاد ولمعان سيفه. فأين العدالة تلمح في عينيها الصفاء. أوجدوا لي الحب الذي لا يكتفي بحمل كل أنواع العقاب، بل يحمل أيضا جميع الخطايا.
أوجدوا لي العدل الذي يبرئ الجميع ليحكم على الإنسان الذي يدين.
أتريدون أن أذهب إلى أبعد مما قلت فأعلن لكم أن الكذب نفسه يصبح محبة للإنسانية في نفس من يتوق إلى إقامة العدل.
ولكن هل بوسعي أن أقيم العدل بكل إخلاص. وكيف يمكنني أن أتوصل إلى إعطاء كل ذي حق حقه. أذن، لاكتفين بأن أعطي أصحاب الحق حقي الخاص.
وأخيراً، حاذروا ظلم المنفرد، إذ ليس بوسعه أن ينسى وأن يبادل الظالمين ظلما، وما المنفرد إلا بئر عميقة يسهل على من يشاء أن يلقي فيه حجراً. ولكن من يقدر أن يستخرج هذا الحجر إذا بلغ قعر البئر السحيق؟
احترسوا من إهانة الفرد، وإذا أنتم حقرتموه فأجهزوا عليه بقتله.
هكذا تكلم زارا. . .

الفصل الثاني

الطفل حامل المرآة

ورجع زارا إلى الجبال، إلى عزلة كهفه ليحتجب عن الناس كالزراع ألقى بذوره في أثلام أرضه وبات يتوقع نبتها، ولكنه ما لبث أن حنّت جوارحه إلى أحبابه إذ كان عليه أن يمنحهم بعد كثيرا من الهبات وأصعب ما يلقى الحب اضطراره إلى قبض يده إجابة لداعي محبته وتفاديا للمنة في عطائه.
ومرت على المنفرد الشهور والأعوام وحكمته تزداد نموا فتزيده ألما باتساع آفاقها وأفاق يوماً (من نومه قبل انفلاق الفجر واستغرق في تفكيره وهو ممدد على فراشه وتساءل قائلا:
- لماذا أرعبني هذا الحلم الذي استفقت منه مذعوراً؟ رأيت كأن ولدا (يحمل مرآة) اقترب مني وهو يقول:
- أنظر في هذه المرآة يا زارا
وما نظرت إلى المرآة حتى صرخت وخفق قلبي خفوقا (شديدا). لأن ما أنعكس لي في المرآة لم يكن وجهي بل وجها تقطبت أساريره بضحكة شيطان ساخر
والحق ما يفوتني تعبير هذا الحلم وإدراك ما نبهت إليه فان تعاليمي مشرفة على خطر، والزوان يريد أن ينتحل صفات الحنطة. لقد استأسد أعدائي فشوهوا تعاليمي حتى أصبح أتباعي يخجلون مما وهبتهم.
لقد فقدت صحبي وآن لي أن أفتش عمن فقدت
وانتفض زارا لا كمن استولى الذعر عليه بل كمأخوذ برؤى وكشاعر هزه شيطانه. فوجم نسره وأفعاه وحدقا بوجهه وقد لاحت بوادر السعادة عليه كتباشير الفجر. فقال لهما:
- ماذا حدث لي؟ أفما تريان إنني تغيرت؟ أفما تحسان أن الغبطة قد نزلت عليَّ كأنها

عصفات الرياح؟
لقد جنَّ شعوري بهذه السعادة فلن يسلم بياني من اختلال هذا الشعور، إن سعادتي لم تزل في حداثتها فتذرعا بالصبر معي عليها
لقد أوجعتني سعادتي فليكن سعادتي كل من أرهقتهم الأوجاع
إن في وسعي الآن أن أنحدر إلى مقر صحبي والى مقر أعدائي فقد أصبح زارا قادراً على استطراد القول والإحسان إلى من يحب
لقد آن لحبي أن يتدفق كالذي يندفع من الأعالي إلى الأعماق، ويتجه من الشرق إلى المغرب.
إن نفسي تندفع مرغية مزبدة في الوديان متملصة من الجبال الصامتة تصخب فوقها عواصف الآلام. ولطالما تعللت بالصبر وعلقت أبصاري على بعيد الآفاق، لقد أرهقتني العزلة فما أطيق السكوت بعد
أصبحت وكأنني باجمعي فمٌ أو هدير جدول يتحدر من شامخات الصخور. أريد أن أقذف بكلماتي إلى الأغوار. فيجري نهر حبي في المفاوز البعيدة، ولن يضل هذا النهر سبيله إلى
مصبه في البحار
إن في داخلي بحيرة وحيدة قانعة بنفسها، غير أن نهر محبتي يجتذبها في مسيره ليقطع معها السيول ويترامى وإياها في لجة البحر
إنني أتبع مسالك لم أعرفها من قبل وألهمت بيانا (جديدا) بعد أن أتعبتني اللهجات القديمة التي ترهق كل المبدعين وقد امتنع على فكري أن يقتفي رواشم النعال المقطعة
ما من لغة إلا وأراها بطيئة تقصر عن مجاراة بياني
سأقفز إلى صهوتك أيتها العاصفة فألهبك أنت أيضاً بسوط سخريتي
أريد أن أقطع أجواء البحار كهتفة مسرة وحبور إلى أن أستقر على الجزائر السعيدة حيث يقيم أحبائي، وبينهم أعدائي أيضاً، لشد ما أحب الآن جميع من يتسنى لي أن اوجه إليهم الكلام. وسيكون لهؤلاء الأعداء أيضاً قسطهم في إيجاد غبطتي
عندما أتحفز لاعتلاء أشد جيادي جموحاً لا أجد لي معيناً أصدق من رمحي متكأ أرتفع عليه
هو رمحي أهدد به أعدائي، ولكم يستحقون ثنائي إذا ما تمكنت من طرح هذا الرمح من يدي:
لقد طال اصطبار غيومي بين قهقهة الرعود وقد آن لي أن أرشق الأعماق بقذائف برَدَى.
إن صدري سيتعاظم بانتفاخه حتى يزفر بالعاصفة الهائلة على الشامخات وهكذا سأفرَّج عنه
فان سعادتي وحريتي سيندفعان اندفاع العواصف ولكنني أتمنى لو يحسب أعدائي أن ما يزمجر فوق رؤوسهم إنما هو الشر لا روح سعادة وحرية
وأنتم أيضاً أيها الصحاب سيتولاكم الرعب عندما تنزل عليكم حكمتي الكاسرة ولعلكم تولون هاربين منها كما يهرب الأعداء
ليت لي أن أستدعيكم إليَّ بحنين شبّابة الرعاة، وليت تتعلم لبؤة حكمتي أن تزأر بنبرات العطف والحنان، فلطالما وردنا سويا من مناهل العرفان. ولكن حكمتي الوحشية تمخضة بآخر صغارها في الجبال السحيقة بين الجلامد الجرداء، وهي الآن تطوف بجنونها الصحاري القاحلة مفتشة على المروج الناضرة
إنها لشيخة وحشية هذه الحكمة التي تقصد إنزال أعز ما لديها في مروج قلوبكم الناضرة
هكذا تكلم زارا.
(يتبع)
فليكس فارس
إحياء النحو
للأستاذ عبد المتعال الصعيدي
لا شك في أن نحونا العربي أصبح علماً جافاً يورث النظر فيه السأم والملل. ولا

يسعني مع هذا أن أنكر تلك الجهود الموفقة التي بذلها الأستاذ الجليل علي الجارم في تسهيل النحو وتجميله في كتاب (النحو الواضح) فصارت به دروس النحو الأولى سهلة مقبولة لدى الناشئين، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، وتقرن العلم بالعمل قرنا موفقاً، ولكن نحونا العالي لا يزال في الحالة السيئة التي وصل إليها من يوم أن أخذ من أحضان علم الأدب الذي نشأ النحو في ظله، وترعرع في أرضه الخصبة.

وكان الإمام علي بن عيسى الرماني أول من انتزع النحو من حضنه بين الأدب وعلومه؛ وقد ولد الرماني سنة 276 هـ وأخذ عن الزجاج، وابن السراج، وابن دريد، ثم برع في علم النحو حتى قال أبو حيان التوحيدي: لم ير مثله قط علما بالنحو، وغزارة بالكلام، وبصراً بالمقالات، واستخرجاً للعويص، وإيضاحا للمشكل، مع تأله وتنزه. ودين وفصاحة، وعفاف ونظافة، وكان يمزج النحو بالمنطق، حتى قال الفارسي إن كان النحو ما يقوله الرماني فليس معنا منه شيء، وإن كان النحو ما نقوله نحن معه نحن فليس معه منه شيء - قلت: النحو ما يقوله الفارسي، ومتى عهد الناس أن النحو يمزج بالمنطق، وهذه مؤلفات الخليل وسيبويه ومعاصريهما ومن بعدهما بدهر، لم يعهد فيها شيء من ذلك

على أن النحو لم يزل يبعد عن الأدب بعد الرماني شيئا فشيئا، حتى أصبح العالم بالنحو لا يدري شيئا من الأدب، ولا يستطيع أن يقوم لسانه أو قلمه إذا نطق أو كتب، وحتى أصبحت بعض الشواهد النحوية تروى مغلوطة وتمضي عليها أزمان طويلة فلا يتنبه إلى غلطها، ولا يعرف مع هذا قائلها، وليس هذا إلا من فصل النحو عن الأدب، والعناية بحفظ قواعده ونكاتها الفلسفية، وإهمال صبغته الأدبية التي كانت تراعي في عهد ازدهاره.

وإني أسوق من ذلك هذا الشاهد الذي يذكر في باب التوكيد

لكنه شاقهُ أن قيل ذا رجَبٌ ... يا ليت عِدَّةَ حولٍ كلِّهِ رَجَبُ

برفع كلمة (رجب) في آخر البيت، فهذا الشاهد لا يعرفون قائله إلى الآن، وهم مخطئون في رفع كلمة (رجب) في آخر البيت لأنها من قصيدة رويها على النصب لا على الرفع.

وقد جاء في كتاب الكامل للمبرد وشرحه رغبة الآمل للشيخ المرصفي (ص 214 ج 7) أن عبد الله بن مسلم بن جندب الهذلي كان يؤم بالناس في مسجد الأحزاب بالمدينة، فلما وليها الحسن بن زيد منعه أن يؤم الناس في هذا المسجد، فقال له: أصلح الله الأمير، لم منعتني مقامي ومقام آبائي وأجدادي من قبلي؟ قال: ما منعك منه إلا يوم الأربعاء، يريد قوله:

يا لَلرجالِ ليوم الأربعاءِ أمَا ... ينفكُّ يحدث لي بعد النُّهَى طَرَبَا

إذ لا يزالُ غزال فيه يفتنني ... يأتي إلى مسجد الأحزاب مُنْتَقِبَا

يُخَبِّرُ الناسَ أن الأجر هِمَّتُهُ ... وما أتى طالباً للأجر محتسبا

لو كان يطلب أجراً ما أتى ظُهُراً ... مُضَمَّخاً بفَتيت المسك مختضباً

لكنه شاقه أن قيلَ ذا رجب ... يا ليت عِدَّة حولٍ كلِّهِ رجَبَا

فإن فيه لمن يَبغي فواضِلهُ ... فضلا وللطالب المرتاد ما طلبا

كم حُرَّةٍ دُرَّةٍ قد كنْتُ آلفَهُا ... تسد من دونها الأبوابَ والحجبا

قد ساغ فيه لها مَشْيُ النهار كما ... ساغ الشرابُ لعطشان إذا شربا

يقال شهر عظيمُ الحقّ في سَنَةٍ ... يهوى له كلُّ مكروب إذا كربا

فاخرجنَ فيه ولا ترهَبْنَ ذا كذبٍ ... قد أبطل الله فيه قول من كذبا

وكانت ولاية الحسن بن زيد بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب المدينة سنة 160 هـ في عهد أبي جعفر المنصور ثاني ملوك العباسيين

فإحياء النحو عندي بأن تعاد له صبغته الأدبية التي كانت له وليس إحياؤه بتطويل الكلام في أن الفتحة ليست علامة إعراب كما قرأته في بعض الكتب الحديثة، فإن هذا مما يزيد فيه الطين بلة، ولا يؤدي بنا إلى الإصلاح المنشود له

عبد المتعال الصعيدي

تاريخ العرب الأدبي

للأستاذ رينولد نيكلسون

الجاهلية: شعرها وعاداتها ودياناتها

ترجمة حسن حبشي
وقد وضع الإسلام حداً لهذه الوحشية واستهجنها القرآن ونهى عنها قوله (ولاَ تَقْتُلوا أولاَدَكُمْ خشيْة إمْلاَقٍ نحْنُ نَرْزُقهُمْ وإيَّاكم إنَّ قتْلَهُمْ كان خِطأً كبيراً) وربما كانت الأبيات التالية تفصح عن هذا تمام الإفصاح، وفيها نرى صراعا عنيفاً بين رجل وبين الفاقة، ويحمد الله أن كان مصرع ابنته قبل مصرعه حتى لا تكون تحت رحمة أقاربها:

لولا أُمَيْمَةُ لمْ أجزَع منَ الْعَدَمِ ... ولم أُقاسِ الدُّجَى في حِنْدِسِ الظلم
وَزَادَنِي رَغبْةً في الْعَيْشِ مَعْرِفتِي ... ذُلَّ اليتَيمةِ يَجفُوهَا ذَوُو الرَّحِم
أحاذِرُ الفَقْرَ يَوْماً أنْ يلَمَّ بِهَا ... فيَهْتِكُ السِّتْرَ عن لَحْمٍ على وَضمِ
يهْوَى حَياتي وَأهوى مَوْتَها شغفاً ... والموتُ أكرمُ نزّالٍ على الحُرُمِ
أحشى فظاظَةَ عَمٍّ أو جفاءِ أخٍ ... وكنتُ أبقي عليها من أذى الكلِمِ

ويقول آخر في هذا الموضوع:

لولا بُنيَّاتٌ كزُغب القَطا ... رُدِدنَ منْ بَعضٍ إلى بَعضِ
لكانَ لي مضطربٌ واسعٌ ... في الأرض ذاتِ الطولِ والعرَضِ
وإنَّمَا أولادُنا بينَنَا ... أكبادُنا تمشي على الأرض
لو هبَّتِ الرِّيحُ على بعضِهِم ... لامتنَعَتْ عينِي مِنَ الغْمْضِ

الحب والبغض هاتان الكلمتان هما جماع الآداب البدوية؛ لأنه إذا كان العربي - كما رأينا - صديقاً حميما لخلانّه، فانه عدو لدود لا يهدأ له بال إذا عادى؛ تضطرم نفسه وتتأجج بنيران الحقد والبغضاء، وكانوا يعدون من لا يرد اللطمة التي أصابته جباناً، ويستحيل على الرجل الكريم المحتد منهم أن ينسى ضرراً لحقه حتى يثأر لنفسه وينتقم لها، وأنشد بعض الأعراب، - وقد آلمه أن يغتصب المغير إبله - أبياتاً يقول فيها عن عشيرته التي لم تساعده في استرجاعها:

لكنَّ قومي وإن كانوا ذوِي عدَدٍ ... ليسُوا من الشَّرِّ في شيءٍ وإنْ هانا
يَجزونَ من ظُلِمِ أهلِ الظلمِ مَغفرِةَ ... ومن إساءةِ أهل السوُّء إحسانا

والبيت الثاني الذي قد يسرف في مدح من يتصف به الأخلاقيون المسيحيون والمسلمون ألحق بمن فيهم عاراً لا تمحي آثاره، وإن المنهج البَّين في معاملة الأعداء ليتضح على أتمه من الأبيات التالية:

إذا المرءُ أولاكَ الهوانَ فأولِهِ ... هوَاناً وإن كانتْ قَرِيباً أواصِرهُ
فانْ أنتَ لمْ تَقْدِرْ على أن تهينَهُ ... فَذرْهُ إلى اليَوْم الذي أنْتَ قادِرُه
وقارِبْ إذا مَا لمْ تَكنْ لكَ حِيلة ... وصَمِّمْ إذا أيقنْتَ أنَّك عَاقِرُهْ

وفوق كل هذا فان الدم يدعو الدم، وهذا الارغام يظل يلاحق ضمير العربي الوثني؛ وكان الانتقام عندهم ضرورة طبيعية إذا لم تجب حرمتهم النوم والشهية والصحة، كما كان ظمأ محرقاً لا يطفئ أواره أو يبل لهيبه سوى الدم، ومرضاً من أمراض الشرف يمكن تسميته بالجنون، وإن كان قليلا ما يمنع الرجل من أداء عمله في هدوء وتبصر. وكانوا يثأرون من القاتل إن أمكن أو أحد أقاربه وأبناء عشيرته. وإذا ذاك تستقر الأمور في نصابها ويندمل الجرح، إلا أن هناك حالات كان الانتقام فيها فاتحة قتال دموي دائم، تشتبك فيه القبيلة بأجمعها صغيرها وكبيرها، كما حدث ذلك في مقتل كليب الذي أدى إلى حرب زبون ظلت الرماح فيها مشتجرة زهاء أربعين عاما بين قبيلتي بكر وتغلب، ويقبل أقرب أقرباء القتيل الدية كفدية له وتدفع عادة جمالا وهي تعد مسكوكات الإقليم، وان قبولهم ذلك ليوحي إليهم دائماً أنهم فضلوا اللبن (النياق) وأثروه على الدم، وإن الشعور العربي الحق ليشرئب من خلال هذا البيت الذي يقول فيه الشاعر:

سأغسل عني العار بالسيف جالباً ... على قضاء الله ما كان جالبا

وكانوا يعتقدون أن روح القتيل تظل شاخصة على قبره وتسمى (الهامة) أو الصدى، تصيح: (اسقوني، اسقوني) حتى يؤخذ لها بالثأر ممن اعتدى على صاحبها، ولكن الأفكار الوثنية عن الانتقام كانت مرتبطة بالماضي أكثر من ارتباطها بالمستقبل ولم يكونوا يحسبون للحياة الأخرى قيمة كبرى أو لم يكونوا يعلقون عليها أية أهمية بجانب الذكريات المتأصلة عن الحب الأبوي، والشفقة البنوية وأخوة السلاح.

ومع أن النفس تستهجن هذه الطريقة المتعبة في الانتقام والأخذ بالثأر إلا أن مغبتها إيجابية في صد أولئك العابثين الذين لولا تلك الخطة - لأطلقوا لغرائزهم المجرمة العنان، ولم يكبحوا لها جماحا، إذ لا يخشون إذ ذاك رادعاً أو إلا، ولا يصدهم إرهاب، أما

من وجهة نظرنا نحن فان قيمة هذا الأمر لا تهمنا من حيث هو أحد الأسس الأولية في إقامة دعائم صرح المجتمع العربي بقدر ما تهمنا من أنه يكون عنصرا من عناصر الحياة العربية والأدب العربي، ولذلك فقد اخترت من كتاب الأغاني قصة تنعكس فيها هذه الصور بأكملها، تلك هي قصة قيس بن الخطيم وكيف انتقم ممن اغتالوا أباه وجده.

والقصائد التي يرد فيها ذكر الانتقام والأخذ بالثأر للدم المهراق تكشف القناع عن كل ما هو مستحسن ومستهجن في العربي الوثني، منجده من ناحية يصور لنا شجاعته وعزمه واحتقاره للموت وخوفه من العار وتبجيله الموتى واحترامه إياهم وعطفه الجدّي على ذوي قرباه ومن كانوا من لحمه ودمه، ومن ناحية أخرى نجده يصور نفسه المضطغنة، وقسوته وغدره، وضراوته في تعقب القتلة، وإن القصيدة التي تجسم لنا هذه الصفات كلها هي القصيدة المنسوبة إلى (تأبط شرّاً) وإن كان البعض يزعم أن صاحبها (خلف الأحمر) المنشئ المعروف لقطعة الشنفري، والمقلد البارع الباهر للشعراء القدامى

(يتبع)

حسن حبشي

شاعر الإسلام محمد عاكف

للدكتور عبد الوهاب عزام

- 4 -

نشر محمد عاكف شعره في سبعة أجزاء صغار كلها تحمل اسم (صفحات) ولكل جزء عنوان خاص ما عدا الجزء الأول وهي: -

1 - الجزء الأول وقد وضع عليه بعد العنوان العام: (صفحات) هذا الاسم (برنجي كتاب) أي الكتاب الأول. وفي هذا الجزء أربع وثلاثون منظومة في موضوعات شتى. ويتبين فيها كلف الشاعر بالتخلل في طبقات الأمة، ووصف المعيشة العادية، والواقعات المألوفة يكشفها عما وراءها من عظات، وينطقها بما استسر على الناس من عبر. وحسب القارئ أن يرجع إلى المنظومات: قفة وحصير، والحانة، وقهوة المحلة، ليرى قدرة الشاعر على تصوير الحياة وجلائلها ودقائقها في بيان يجمع يسر النثر إلى جمال الشعر.

وقد عرف قراء الرسالة من منظومات هذا الجزء اثنتين: سيفي بابا، والزامر الأعمى.

2 - والجزء الثاني سماه الشاعر: (في كرسي السليمانية) (سليمانية كرسيسنده). وهو منظومة مزدوجة فيها زهاء ألف بيت يصف فيها جامع السلطان سليمان القانوني أعظم مساجد استنبول، ويتحدث على لسان واعظ سياح اعتلى كرسي الوعظ في هذا المسجد واصفاً ما شهده في سياحته من أحوال المسلمين ويبين أدواءهم وأدويتهم. وقد أختار لهذا الحديث السائح المعروف عبد الرشيد إبراهيم الذي يطوف في أرجاء العالم منذ ستين سنة أو أكثر، والذي قدم مصر مرات آخرها قدومه قبل سنتين في طريقه إلى اليابان؛ وهو اليوم نزيل طوكيو، فعليه منا تحية وسلام.

3 - والجزء الثالث أصوات الحق (حقك سسلري) وهو منظومات في معاني آيات قرآنية مثل قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء الخ. تلك بيوتهم خاوية بما ظلموا. كنتم خير أمة أخرجت للناس.

4 - والجزء الرابع في كرسي الفاتح (فاتح كرسيسنده)، منظومة في نحو ثمانمائة بيت يبدؤها الشاعر بوصف مسجد الفاتح وصفا يذكر القارئ بالشاعر الفرنسي فكتور هيجو في رواية ثم تكلم على لسان واعظ في عقائد المسلمين وأعمالهم كلاما يتجلى فيه سمو الفكر، وصفاء القلب، والبصر بأسرار الدين، والحزن لما أصاب المسلمين.

5 - والخامس (خاطرات) (خاطره لر). وفيه منظومات في معاني آيات القرآن، وأخرى في موضوعات مختلفة، كقصيدته في وصف آثار الأقصر التي أهداها إلى الأمير عباس حليم باشا رحمة الله، ومنظومة (خواطر برلين) وهي طويلة تنتظم زهاء أربعمائة بيت. ويعرف قراء الرسالة من هذا الجزء القصيدة الخالدة (من نجد إلى المدينة)

6 - عاصم: قصة طويلة منظومة في نحو ألف ومائتي بيت بطلها شاب من الذين

جاهدوا في الحرب الكبرى، اسمه عاصم. وهو ابن كوسه إمام تلميذ طاهر أفندي والد الشاعر. وقد أبان فيها عن حال تركيا القديمة والحديثة، ووصف كثيرا من الأمور الأخلاقية الاجتماعية وصفا بليغا دقيقا يتناول أشد الموضوعات استعصاء على النظم فيعرضها في أسلوب مطبوع بيّن لا أثر فيه للتكلف والجهد. وكان الشاعر يوصي بقراءة هذه القصة لما ضمنته من عبر ولما قاربت لغتها، اللغة العامية في تركيا
7 - الظلال (كوركه لر) هي الجزء الأخير الذي نشره الشاعر قبل وفاته بعامين، وقد نظم بعض منظوماته في استنبول وبعضها في أنقرة ومعضمها في حلوان. ومنها قصيدة في الآثار المصرية سماها (مع فرعون وجها لوجه) وأهدها إلى الأميرة خديجة حليم. ومنها قصيدة نشرت ترجمتها في الرسالة بعنوان الفنان يصف فيها صديقه الشريف محيي الدين أكبر الموسيقيين المسلمين ومفخرة العرب في الموسيقى وهو نزيل بغداد اليوم

وقد أهدى الشاعر الجزء الأول من الصفحات إلى أحد تلاميذه (محمد علي)، والثاني إلى صديقه فطين خوجه، والرابع إلى صديقه الشاعر مدحت جمال، والسادس إلى صديقه فؤاد شمس، والآخر إلى الشريف محيي الدين

وقد صدّر الشاعر الجزء الأول من صفحاته بخمسة أبيات لا عنوان لها، وافتتح الجزء الأخير بستة أبيات عنوانها خسران. ويرى القارئ في ترجمة هاتين القطعتين كيف كان فكر الشاعر في أول شعره وآخره:

- 1 -

سلني أيها القارئ الحبيب أنبئك. سلني ما هذه الأشعار المائلة أمامك؟ إنها أكداس من الكلم لا براعة فيها إلا الإخلاص. لست أعرف التصنع لأني لست صانعا. يقال أن الشعر دمع

العين. لا علم لي بهذا، ولكني أرى أن كل ما أسطر هو بكاء العجز. أنا أبكي فلا أستطيع أن أبكي، وأشعر فلا أستطيع أن أبين. وان الشقاء أن يحرم القلب الشاعر لسانا: أقرأ إن كنت تنشد قلبا حساسا - أقرأ فما كتبت كلمتين إلا سطرت هذا القلب

- 2 -

وكتب على الجز الأخير الذي نشره قبل وفاته بعامين أبياتا نظمها في استنبول قبل قدومه إلى مصر:

ما كنت لأقف معقول اللسان أقلّب الطرف فيما حولي. لم يكن لي بد أن أنوح لأوقظ الإسلام. إنما أريد أن تفور القلوب المرهفة الحس، الراسخة الإيمان؛ وأما التفكير الطويل فقد هجرته منذ أمد بعيد. إني أنوح ولكن لمن؟ أين أهل الدار؟ أقلب طرفي فلا أظفر إلا بأمم نائمة

لقد خنقت صرخاتي وحملت نعشها ثم مزقتها تمزيقا ودفنتها في شعري وتركتها وهأنذا أسيل أنيني الذي هم بأن يعم الأودية كالسيل المنهمر، أسيله في غير هدير كالدموع الخفية. لا أجد في هذه القبة الصماء لآلامي أثرا فليئن الخسران الذي في (صفحاتي) دون حس ولا ركز.

عبد الوهاب عزام

في حفلة تأبين الزهاوي

مضى الطائر الصداح

للأستاذ علي الجارم بك

مندوب مصر في حفلة تأبين الزهاوي ببغداد

جفا الروض مغبر الأسارير ماطره ... وغادره قفر الخمائل طائره
ذوى نبيه بعد البشاشة وارتمت ... مصوحة أثمار وأزاهره
تلفت: أين الروض، أين مكانه ... وأين مجاليه، وأين بواكره
وأين الذي لم يطرق الأذان مثله ... إذا صدحت فوق الغصون مزاهره
حمائم ألهاها النعيم عن البكا ... وأذهلها عن عابس العيش ناضره
إذا أرسلت ألحانها في خميلة ... توثب زهر الروض واهتز عاطره
لها صوت داود وحسن رنينه ... إذا ما علت متن النسيم مزامره
إذا بدأت أشجاك أول صوتها ... وأن سكتت أعيا بيانك آخره
وأن هتفت في الدوح مال كأنما ... يسايرها في لحنها وتسايره

تحدت فنون الموصلي وطوحت ... بأنفس ما ضمت عليه بناصره
أولئك أوتار الإله وصنعه ... إذا عزفت فليسكت العود وآتره
ألمت بأسرار النفوس فترجمت ... كما فسر الحلم المحجب عابره
يصيخ إليها أسود الليل باسما ... فتفترعن زهر النجوم مشافره
يود لو أن الغيد ضمت شعورها ... إلى شعره الداجي فطالت غدائره
ويرجو لو أن الفجر عوق خطوه ... وطاش به نائي الطريق وجائره
وزلت بشطآن المجرة رجله ... فطوحه في غمرة اليم زاخره
سل الروض أن أصغت إليك رسومه ... متى روعت أطلاؤه وجآذره
وأين الغدير العذب طاب وروده ... لذي الغلة الصادي وطابت مصادره
إذا فاض بين الزهر تحسب أنه ... يماني برد أذهل التجر ناشره
تأزر من أثوابه الروض واكتسى ... فرقت حواشيه وطالت مآزره
تدور به جم البلابل مطرقا ... ولم تدر أن الدهر دارت دوائره
وتصغي فلا يجتاز سمعك نغمة ... سوى أنة يلهي بها الحزن قاهره
وتدعو فلا تلقى مجيبا سوى النوى ... تطارح مطوي الأسى وتحاوره
وقفت به والقلب يحبس وجده ... فيطغى ودمع العين ينهل بادره
وما وقفتي بين الرياض وقد عفت ... سوى حاجة يقضى بها الحق ناذره
أرى ما أرى إلا غبارا أثاره ... خميس الليالي حينما ثار ثائره
مضى الطائر الصداح فالأفق موحش ... حزين النواحي عابس الوجه بأسره
وأودى (الزهاوي) فانتهى ملعب النهى ... وأطفئت الأنوار وانفض سامره
أقام على رغم النبوغ بحفرة ... وسارت على رغم المنون وسوائره
وغادر عرش اللوذعية ربه ... وخلى ندى العبقرية شاعره
دعوا ذكر إعجاز البيان وسره ... فقد غاب عنه طيلة الدهر ساحره
له خاطر لو سابق البرق في الدجى ... لجلى على برق السموات خاطره
تملك حر الشعر سن يراعه ... فيا عجبا إن حرر الشعر آسره
تمنى العذارى لو تقلدن دره ... ورفت على أجيادهن جواهره
ويزهي العيون الدعج إن سوادها ... شبيه بما ضمت عليه محابره
وما جاشت الصهباء إلا لأنها ... وقد صفقوا مشمولها لا تناظره
تمر به مرا فيسبيك بعضه ... وتقرؤه أخرى فيسبيك سائره
ترى فيه هذا الكون صورة حاذق ... أحاطت بأسرار الحياة بصائره
وتلمح فيه الرأي في بعد غوره ... كما غاص تحت الماء للدر ذاخره
وتلقى به الأذى في ثورانه ... إذا عقله الجبار مارت موائره
له قلم لو لامس الطرس مرة ... تداني له صعب القريض ونافره
لقد كان منظار النفوس فلم يجل ... بنفس هوى إلا وطرفك ناظره
يلوح بعيد الرأي خلف زجاجه ... وحاضر تاريخ الحياة وغابره
براه إله الخلق عزما وجرأة ... تهاب الرواسي حده وتحاذره
وصوره عضا تفر لهوله ... ذئاب الدنايا شرداً وهو شاهره
كأن عصا موسى أعيدت بكفه ... يصاول من يرمي بها ويغاوره
يقول جريئا ما يريد وربما ... يقول الفتى ما لم ترده سرائره
وكم من فتى يقضي بنفسين عيشه ... مظاهره نفس، ونفس مخابره
تراه من النساك في خلواتهم ... وفي الحان قد نمت عليه ستائره
لسان كما طال الجرير مسبح ... رياء ومن خلف اللسان جرائره
إذا لم يكن في الحرب قلبك باترا ... فماذا يفيد المرء في الحرب باتره
حنانا له كيف استقرت به النوى ... وكيف ثوى بعد التلفت حائره
وهل بعد ليل في الحياة مؤرق ... كثير التظني أبصر الصبح ساهره
شققت إليك الطرق والقلب خافق ... تراوحه آلامه وتباكره
تذكر آلافا ألموا فودعوا ... كطيف خيال أرق الصب زائره
ونحن حياة والحياة إلى مدى ... ولولا المنى لم يبذر الحب باذره
وأن المهود الزهر - لو علم الفتى ... وفكر في غايتهن - مقابره
سموت إلى بغداد والشوق نحوها ... يساورني حينا وحينا أساوره

كلانا نأى عن أهله وعشيره ... ليلقاه فيها أهله وعشائره
حبيب إلى نفسي العراق وأهله ... وسالفه الزاهي المجيد وحاضره
ديار بها الإسلام أرسل ضوءه ... فسار مسير الشمس في الأفق سائره
ومدت بها الآداب ظلا على الورى ... تساوت به آصاله وهواجره
تجلى بها عهد الرشيد وعزه ... وزاهر ملك الفاتحين وباهره
إذا شئت مجد العرب في عنفوانه ... فهذي مغانيه، وهذى منائره
أطلت على الدنيا فأبصرت الهدى ... كما لمعت في جنح ليل زواهر
تفاخر بالغازي الذي سار ذكره ... ودوّت بآفاق البلاد مفاخره
هو الملك أمضى من شبا السيف عزمه ... وأغزر من ماء السحائب هامره
نماه بناة المجد من آل هاشم ... فجلت مراميه وطابت عناصره
أعاد إلى عهد البيان شبابه ... فهب فتيا ينفض الترب داثره
يريك به المنصور مأثور حزمه ... وتذكرك المهدي فيه مآثره
ذكرنا اسمه طول الطريق فذللت ... مصاعب متنيه وضاءت دياجره
جميل! نداء من أخ يقدر النهى ... وإن لم يمتع باجتلائك ناظره
عرفتك في آثارك الغر مثلما ... تنبئ عن وجه الصباح بشائره
عرفت (جميلا) في جميل بيانه ... يشاطرني وجدانه وأشاطره
تجاورني في دوحة النيل روحه ... وروحي بأدواح العراق تجاوره
إذا اجتمع القلبان فالكون كله ... مكان، وإن شقت وطالت معابره
لنا نسب في المجد يجمع بيننا ... تعالت أواسيه وشدت أواصره
ألسنا حماة القول في كل محفل ... تتيه بنا في كل أرض منابره
صببت عليك الدمع سحا ومدمعي ... عزيز ولكن أجود الدر نادره
وأرسلت فيك الشعر لوعة موجع ... تئن قوافيه وتبكي صدائره
عليك سلام الله نورا ورحمة ... وغادتك من سيب الإله مواطره
علي الجارم
لبيك نابغة العراق
للأستاذ بشاره الخوري
مندوب لبنان في حفلة التأبين
قولي لشمسك لا تغيبي ... وتكبدي فلك القلوب
بغداد يا وطن الج ... هاد وموضع الأدب الخصيب
غناك دجلة والفرا ... ت قصائد الزمن العجيب
رقصت قوافيها على ... نغم البشائر والحروب
أعراس دارا من مقا ... طعها وخيبة سنحريب
حتى إذا طلع الرشي ... د وماج في الأفق الرحيب
صهر القرون وصاغها ... ناجا لمفرقك الحبيب
بغداد يا شغف الجمال ... وملعب الغزل الطروب
بنت المكارم للعرو ... بة فيك جامعة القلوب
بيت من الأخلاق ضا ... قت عنه أخلاق الشعوب
وسع الديانات السما ... ح وضم أشتات الندوب
زفرات أحمد في رس ... التة وآلام الصليب
بغداد ما حمل السرى ... مني سوى شبح مريب
جفلت له الصحراء وال ... تفت الكثيب إلى الكثيب
وتنصتت زمر الجناد ... ب من فويهات الثقوب
يتساءلون وقد رأوا ... قيس الملوح في شحوبي
والتمتمات على الشفا ... هـ مضرجات بالنسيب
تبكي لها قبل الصبا ... ويذوب فيها كل طيب
يتساءلون من الفتى ال ... عربي في الزي الغريب
صحراء يا بنت السماء ... البكر والوحي الخصيب
أنا لو ذكرت ذكرت أح ... لامي وأنغامي وكوبي
إحدى الشموع الذائبا ... ت أمام هيكلك الرهيب

أنا دمعة الأدب الحزين ... رسالة الألم المذيب
من قلب لبنان الكئيب ... لقلب بغداد الكئيب
لبيك يا نابغة العرا ... ق وحجة الشرق القريب
لبيك معجزة البيا ... ن الحر والقلم الخضيب
حجاج روحك وهي ملء ... الكون تقذف باللهيب
تخبو الشموس وتنطفئ ... وتظل نامية الشوب
حلم سفكت دم الشباب ... فدى لمبسمه الشنيب
حب الخلود وكم أري ... ق عليه من جفن سكيب
لولاه لم تلد الطروس ... الحمر إكليل الأديب
آليت اقتحم الجح ... يم على جواد من ذنوبي
فأغوص في الأبدية الخر ... ساء والأزل القطوب
أتلمس الأشباح والأر ... واح من خلل الحقوب
حتى إذا انكشف الجح ... يم يئز بالضرم الصخوب
سكنت ثائرة الضلو ... ع وكاد يصرعني وجيبي
وسألت عن (دانتي) وعن ... شيخ المعرة ذي الريوب
أحقيقة عرفا لظى ... أم وصف مبتدع نجيب
فيه ما ... شاء التفنن من ضروب (لجميل ليلى)
صور ملونة الجنا ... ح على مخيلة خلوب
آليت اقتحم الجح ... يم على جواد من ذنوبي
آليت. . . لكني أرعويت ... وقلت يا نفسي إهدائي بي
مهما سما عقل الحكيم ... يزل عن حجب الغيوب
يا فيلسوف العرب ... والأيام كالحة النيوب
هلا ذكرت لنا العراق ومج ... د غابره الذهيب
فلك ترصع بالحك ... يم وبالأديب وبالطبيب
يفتر عن مثل ابن سين ... اوالنواسي الأريب
إرث وهبت له الصبا ... وسقيته دمع المشيب
ونشرت أنجمه على بغ ... داد من كفن المغيب
شيخ القريض أبا الرص ... ين الجزل والمرح اللعوب
ما زلت ألمحها على لب ... نان طافرة الوثوب
من معصم النبع الدفي ... ق لمعطف الغصن الرطيب
وأخو الوفا لبنان ير ... فل منه في الثوب القشيب
هو والعراق الحر مه ... د هوى وأيكة عندليب
فجران من مزن السما ... ء ووردتان على قضيب
أسد العراق وما الرياح ... الهوج طاغية الهبوب
أمضى وأنفذ منك إذ ... تثبين للأمر العصيب
قلمت أظفار الزما ... ن ورعت داهية الخطوب
وبنيت بالقلم الحليم ... وبالمهندة الغضوب
ونشدت للعرش المف ... دى آية الفتح القريب
عرش (لغازي) المكرما ... ت لمنتهى حسب الحسيب
نسب تنقل في العُلى ... بين الأشعة والطيوب
عرش الملوك من السلا ... ح وعرشه فلذ القلوب
بشارة الخوري

الفنون

الفن المصري

التصوير والحفر - 3

للدكتور أحمد موسى

يلاحظ الدارس للفن، المحيط بأسراره بعض الإحاطة، أن الفنان المصري عمل مصوراته ومحفوراته البارزة والمنخفضة، مقيدة بقيود ظلت طوال أيام الحضارة المصرية كلها، تلخصت في نظرته للأجسام، لا بحسب مظهرها الطبيعي أمامه؛ بل

بحسب وضعها الأصم الذي ظن أنه يجب أن تظهر به في تصويره وعلى لوحاته، وقد ظن بعض الناس أن هذا متعمد بقصد خلق روح فنية معينة، وظن غيرهم أن هذا نوع من التشويه الفني كما أسموه. وهذا فضلا عن كونه محض افتراء، فانه بعيد عن الواقع وعن التقدير العلمي بعداً شاسعاً. فالفنان المصري لم يتعمد شيئاً معيناً وإنما كان مقيداً بقيود طبيعية. دفعته إلى هذا الوضع وإلى هذا المنهج دفعاً لم يكن له فيه أي قصد، بل ولم يكن ليتخلص منه بأي وسيلة. ولذلك كان إذا صور جماعة من الناس أو الحيوان أو المواد أو منها جميعاً تصويراً إنشائياً، تراه يضعها بحيث يكون بعضها خلف بعض أو إلى جانبه، من غير مراعاة الوضع الطبيعي لها، الذي كانت تظهر به أمام عينيه، وكان هذا هو الحال أيضاً عند ما أراد التصرف بعض الشيء - مثلا - في تصوير مائدة عليها أدوات أو مواد. فتراه يصورها قطعة قطعة، كما لو كانت متفرقة غير مجتمعة على مائدة واحدة، ذلك لأنه لم يكن يعرف بعد أصول تصوير المجسمات.

وعلاقة الحجم والبعد بالتصوير المنظور وكان هذا سبباً جوهرياً في ظهور مختلف المصورات التي مثلت شئون حياته الزراعية والصناعية والدينية والاجتماعية والسياسية وغيرها. كما لو كانت متجاورة بالرغم من أن بعضها كان يجب أن يخفي البعض الآخر بحسب وضعه وراءها

نعم: شاهدنا في بعض المصورات قوة ملاحظة الفنان بجعله الشيء الموضوع خلف شيء آخر غير ظاهر، ولكن هذا كان نادر الحصول بحيث لا يمكننا الأخذ به كقاعدة عامة لروح الفن المصري في التصوير والحفر

والجدير بالملاحظة والمعرفة، هو أن نعلم أن نظرة الفنان لجماعة من الناس بينها شخصية بارزة، دفعته حيناً إلى إظهار هذه الشخصية بمقياس أكبر من المقياس الذي تقيده بتنفيذه في مصوراته، غير ناظر إلى موقع هذه الشخصية من حيث البعد أو القرب منه، أو لوضعها بالنسبة لمجاوريها، فضلا عن نظرته إلى جسم الإنسان على وجه الخصوص، كما لو كان شيئاً ينظر إليه من وضعين مختلفين، فتراه - كما سبق التنويه بذلك في المقال السابق - نظر إلى الرأس والبطن والساقين والقدمين من الجانب على حين نظر إلى العينين والكتفين والبطن من الأمام.

ويرى الزائر للمتحف المصري أنموذجاً صادقاً لهذه الحالة إذا نظر إلى الصورة المحفورة على الخشب. التي تمثل الطحان واقفاً وجالساً، (قطعة رقم 88 - دولاب ب - الصالة أ - بالدور الأرضي)، والتي تبين بوضوح الدقة العظيمة في تصوير الوجه من الجانب

بدأ المصريون بهذه الدقة منذ عهد الأسرة الخامسة. واستمر التقدم حتى بلغ الغاية في منتصف عهد الأسرة الثامنة عشرة (حوالي 1450 ق. م.) وأعقب ذلك التدهور والانحطاط

وإذا قُدر للقارئ المصري أن يعنى بتراث حضارته القديمة واحتمل مشقة السفر إلى الوجه القبلي بضع ساعات حتى يصل إلى الشيخ عبد القرنة (بطيبة بحري راميسيوم). وإلى تل العمارنة القريبة من دير مواس، فانه يستطيع أن يرى أروع تصوير وأدق تمثيل، فيشاهد الحيوانات مرسومة من الجانب بمنتهى ما يمكن من الدقة، فالتناسب بالغ منتهاه، والحياة نابضة فيه، حتى ليخيل إليك أنها صور فوتوغرافية لشدة صدق محاكاتها

أما الإنشاء الكلي لفن التصوير، فقد كان ثابتا على مر القرون، إلا في بعض أحوال معينة، فترى معظم المصورات في عهد المملكة القديمة (3200 - 2270 ق. م.) تمثل ممارسة الناس لإعمالهم اليومية في الحقل والبيت بشكل رائع جميل، فضلا عما يمكن استفادته من هذه المصورات في مختلف إنشائها وأزمانها لمعرفة مدى دقة ملاحظتهم وحضارتهم

وتغير الإنشاء الموضوعي بتغير العصر؛ فترى في عهد المملكة الوسطى (2190 - 1700 ق. م.) أن المصورات شملت مشاهدات في قصور الملوك والأمراء، كما أظهرت لنا طرائف أوضحت كيفية دفن الموتى وما إليها، على أن هذا الاتجاه الاجتماعي الجديد نما وازدهر على وجه الخصوص في عهد الأسرة الثامنة عشرة (1555، - 1350 ق. م.)

عندما بلغت مصر شأواً عظيماً وفتحت بلداناً مجاورة، الأمر الذي ترتب عليه اتساع الأفق الفني أمام الفنان المصري، وشعر الملوك والأمراء بأهمية الفن حتى لتراهم في عهد أمينوفيس الرابع (1375 - 1358) قد اتصل الفنانون بهم، واستطاع الفنان تصوير الحياة الخاصة للعائلة المالكة وللحاشية، وهذا شيء جديد في ذاته، إذ أن اتصال مصور بالعائلة المالكة إلى هذا الحد لم يكن معروفاً طوال أيام الملوك السابقين، لأننا لم نعثر ولا ينتظر أن نعثر على مصورات تؤيد غير ذلك

أما في عصر الأسرة التاسعة عشرة (1350 - 1200 ق. م.)، وكذلك في عهد رمسيس الثالث (1198 - 1167) من الأسرة العشرين، فقد كلف الفنانون بتصوير المناظر الحربية، وتسجيل انتصارات المصريين تصويراً دقيقاً، إذ بهذا يمكن إيقاظ روح الشعب للتعلق بحب الوطن والتفاني في الإخلاص له، كما يسجل المواقع والمذابح الحربية التي بدئ بها في عصر الأسرة الثامنة عشرة، والتي لا تزال شعوب الأرض المتحضرة في أيامنا هذه ناسجة على منوالها. وفي المتحف المصري قطعة مقلدة من الأصل المحفوظ بمتحف فلورنسا، تعد من أروع ما يستطيع الإنسان أن يشاهده لمثل هذه الحالة، تمثل عربة توتموزيس (1420 - 1411) يجدها الزائر تحت رقم 3000 داخل الصندوق حرف ط بالجناح الشرقي بالدور الأعلى

وبدأ فن التصوير ينحط عند انتهاء عصر المملكة الحديثة، فتراه قد عاد من حيث الضعف الفني إلى عهد الأسر الأولى، بحيث أصبح كل ما صور بعد هذا العصر. لا يخرج عن تقليد ضعيف لما سبق تصويره

أما النحت التصويري فكانت أزهى عصوره عند الأسرة الخامسة في المملكة القديمة، وهذا يتفق مع عصر النحت الكامل، وأحسن نماذجه وأروعها يمكن مشاهدتها بسقارة خصوصاً بمصطبة تي وبتاحوتب وكذلك بمعابد الملوك للموتى

على أنه يجب التنويه بأن الفن قد انحط في عهد المملكة الوسطى، وظل كذلك حتى عهد الأسرة الثامنة عشرة، حيث ترى في معابد الأقصر والدير البحري ومقابر الشيخ عبد القرنة دلائل التقدم

أما في عهد البطالسة (332 وما بعدها) فقد تقهقر الفن، وأصبح التناسب ضعيفاً بين المسافات التي كانت تخصص للحفر والتصوير وبين المسافات التي تركت بدونه، كما أصبح توزيع المصورات على المساحات رديئاً، وخلت هي نفسها من كل جمال وانسجام، وطغى عليها ازدحام أبعدها عن الذوق الفني. والمشاهد لتراث هذا العهد يلاحظ التضخم بادياً على المنحوتات الممثلة لجسم الإنسان

ولعلنا بمشاهدة بعض المصورات التي أمكن الحصول عليها لتناسب المقال هنا، يمكننا أن نفهم جيداً المدى الذي وصل إليه المصريون في فن التصوير والنحت والتصويري: فترى في الصورة - 1 - المنقولة عن حائط بمقابر بني حسن، منظراً رائعاً لجماعة من الآشوريين (الساميين) وهم سائرون وراء اثنين من المصريين. ومتجهون جميعاً في طريقهم إلى مصر. فترى على اليمين أحد الموظفين المصريين (باللون الأحمر في الأصل) يرفع بيمينه لوحة أوضحت الغرض من قدوم هؤلاء الأجانب وهو تقديم الولاء لملك مصر (سيزوستريس الثاني - الأسرة الثانية عشرة)، ويعقبه مصري آخر يسير وراءه كمن يرشد الجماعة إلى خط السير؛ ثم ترى الثالث وهو يسير ممسكاً عنزاً من أحد قرنيها بيده اليسرى، والرابع ممسكاً غزالا أحاط عنقه بحبل قبض عليه بيسراه، على حين قبض على القرن بيمناه، أحضرهما كعينة لحيوانات بلادهم؛ وبعدئذ نرى أربعة رجال يسيرون في نفس الاتجاه، والأخير منهم يتجه برأسه إلى الوراء كما لو كان يتحدث إلى من خلفه، يحمل كل منهم السهم والقوس أما الاثنان وراءهما، فأحدهما ينظر إليه والآخر يلاحظ الطفلين اللذين ركبا حماراً وقد قعدا داخل مخلاة أشبه بحاجز يقيهما شر السقوط. وخلف الحمار ولد تعقبه أربعة نساء تركن الشعر منسدلا إلى الكتفين، وخلفهن حمار آخر محمل بالهدايا، ووراءه رجل يعزف على آلة موسيقية آشورية ذات خمسة أوتار، وآخر يحمل نشاباً بيسراه وعصا بيمناه استعداً للطوارئ. وسار المصريون حفاة الأقدام، على حين كان الآشوريون تلبس نسائهم أحذية من الجلد، ورجالهم يحتذون نوعا من الصنادل فضلا عن إمكان تمييزهم بذقونهم الطويلة. والصورة - 2 - تشمل منظرين وجدا بأبي سنبل (القريبة من الدر) الأيمن منهما يمثل رمسيس الثاني على مركبته الحربية التي انتصر بها في حروبه الأفريقية، وهي في

شكلها الكلي واضحة التفاصيل، قوية الإحراج، تسجل الناحية الجديدة في الاتجاه الفني لإثبات
الانتصارات ومظاهر الأبهة والعظمة كما سبق التنويه.
أنظر إلى رمسيس في مركبته الرائعة يجرها حصانان وقد اختفى أحدهما لظهور الآخر من الجانب، وتأمل كيف استطاع الفنان أن يبينه في بساطة، وذلك برسمه خطاً رفيعا موازيا للحصان الظاهر. والمتأمل في صدر رمسيس يلاحظ الكتفين وقد ظهرا من تحت الملبس، مما يدل على أنه كان من قماش رفيع شفاف، كما يراه قابضا على القوس وعلى جزء من لجام الحصان بيده اليسرى، وعلى سهم وسكين باليمنى، أما الحصان فظهر رائعا كامل الزينة مغطى بغطاء جميل الزخرف، وأسفل الحصان ترى أسداً سائراً مع اتجاه العربة الملكية، نقش جلده ببقع أشبه بتلك التي تراها على جلد النمر، قصد به الرمز للعظمة والقوة. يقول ديودور أحد مؤرخي القرن الأول قبل المسيح إن فرعون كان يركب عربته حافي القدمين، ولذلك ترى على الكتف اليسرى لخادمه السائر أمام الحصانين وعلى يسارهما كيسا خصص لوضع حذائه داخله حتى يستطيع بذلك لبس الحذاء بمجرد مغادرة العربة.
والمنظر الايسر مأخوذ عن نظيره بمعبد سيتي الأول (ميمنونيوم) بأبي دوس (بالقرب من البلينا) يبين رمسيس الثاني (تولى الملك بعد سيتي الأول وأكمل بناء معبده) جالساً على العرش في ظل شجرة، والى اليمين ترى إله الكتابة والتحرير يسجل اسم رمسيس بقلمه على ثمار الشجرة، والإله توت كاتب السماء، وإلهة الليل آتمو التي تسجل حظ الفرعون من الخير والمتعة
والصورة - 3 - توضح الكيفية التي تم بها صيد الطيور (وجدت بطيبة). فترى إلى أقصى اليسار رجالا ثلاثا، يجذبون حبلا ربط إلى مجموعة من الشباك، أحاطت بالطيور المصادة بها. أنظر إلى الساقين الأوليين على يمين وعلى يسار شجرة اللوتس ترى على زهرة الأولى منهما طيوراً صغيرة وعلى الأخرى بيضاً. وأما بقية التفاصيل فهي متروكة لدقة ملاحظة القارئ
والصورة - 4 - هي لثلاث لوحات، أولاها إلى اليمين تبين كيفية عصر العنب للحصول على النبيذ - والوسطى لطريقة حلب البقرة، فترى القائم لعملية الحلب ومساعده الذي يحرص على منعها من التحرك - أما اليسرى فهي تريك منظراً جميلا، استطاع الفنان أن
يخرجه إخراجاُ قوياً. انظر إلى البقرة تثني عنقها لمداعبة ابنتها العجلة الصغيرة يشاركها في الرضاعة ولد صغير
والصورة - 5 - ذات موضوع خلاب يهم المشتغلين بتاريخ القضاء، فهي تمثل قاضياً جلس إلى منصة الحكم، وأمامه رجل يقص حادث سرقة ووراءه آخر انتهى من تأدية شهادته. بعدئذ ترى أحد رجال الأمن قابضاً على عنق لص وعلى يده، ثم ترى آخر وقد كبل رجل من يساره بالحديد. وخلف الجميع رجل يجر الماعز المسروقة لإثبات الحادث
والى يسارها صورة تبين كيفية توقيع العقوبة بالجلد، وذلك بطرح المجرم أرضاُ، وضربه على الظهر بعصا، وإذا نظرت إلى أقصى اليسار ترى رجل ممسكاً بقدمي الجاني، أما يداه فقد أمسكهما رجلان قعدا عند رأسه
والصورة - 6 - وجدت ببني حسن، وهي أيضاً طريفة الموضوع، تهم المؤرخ الفني، فهي توضح في جلاء الطريقة التي اتبعها الفنانون في التصوير، فترى الفنان وقد جلس متوسطاً الصورة ممسكاً ريشته بيمناه، وكأس الألوان بيسراه، مستمراً في تكميل تصويره لعجل صغير بعد أن أتم تصوير البقرة. وأمامه جلس مساعده ممسكاً لوحة التصوير
ووراء هؤلاء تشاهد فنانا آخر يلون تمثالا من الخشب أو الحجر، كما كانت عادة المصريين دائماً، وكما سبق التنويه بذلك المثال في الفائت
ومن هذه الصور الست، التي لا تعد شيئاً بجانب المئات التي تركها المصريون على حوائط معابدهم ومقابرهم، يمكننا أن نستخلص أن الفن لا يكون إلا حيث توجد الحضارة. وإن مصر عرفة قيمته وعملت على ترقيته في القرن العشرين قبل الميلاد، ولكنها مع مزيد الأسف لا تعرفه، ولا تعترف بوجوده، ولا تفهم حتى مدى نفعه أو

ضرورته في القرن العشرين بعده؛ ولا أبلغ مما قاله شاعرنا احمد الزين تسجيلاً لهذه الحالة:

علام يجيد الفن في مصر متقن ... إذا كان بالتهريج نيل المراتب
فيا جهل واصلنا ويا علم فابتعد ... ويا حمق لازمنا ويا عقل جانب
أرى الجهل نوراً في بلاد رجالها ... خفافيش يعشيها ضياء الكواكب
إذا الشعب بالإهمال أرسب عاليا ... فلا عجب لو يعلو به كل راسب

احمد موسى

البريد الأدبي

العيد المئوي لوزارة المعارف

تحتفل وزارة المعارف العمومية في التاسع والعشرين من مارس الجاري بمرور مائة عام على إنشائها، وستنظم بهذه المناسبة حفلات رياضية وتمثيلية، ويقام معرض للتعليم والتربية تستعرض فيه مراحل التعليم وتطوراته في مصر مدى قرن، ويوضع كتاب ذهبي يتضمن تاريخ التربية والتعليم في هذا القرن إلى غير ذلك مما ترى وزارة المعارف أن تتخذه للاحتفاء بعيدها المئوي. والواقع أن المناسبات والاحتفالات المئوية في تاريخ مصر الحديث قليلة، ومن الواجب أن يعتني بشأنها وأن يحتفي بها كلما سنحت، تجديداً للذكريات القومية، وشحذاً للهمم، وتوطيداً لبناء المستقبل.

وقد مضت مائة عام كاملة منذ أنشئ (ديوان المدارس) في سنة 1837) أنشأه مصلح مصر الكبير محمد علي، بعد أن أنشأ من قبله عدة من المدارس العالية والخصوصية، وأوفد عدة بعوث علمية إلى أوربا، وبدأت ثمار هذه السياسة المستنيرة تتفتح، ويتسع نطاق التعليم والتربية. وكان ثمة قبل إنشاء ديوان المدارس هيئة تشرف على التعليم تسمي بمجلس شورى، فرؤى أن ينظم مكانه (ديوان المدارس) الذي اصبح فيما بعد وزارة المعارف، واشترك في تنظيم الديوان المذكور عدة من رجال مصر المثقفين الذين تلقوا العلم في أوربا، وانتخب لرآسته مصطفى مختار بك أحد خريجي البعثات فكان أول رئيس أو وزير لديوان المعارف المصرية؛ وشكل للإشراف على أعمال الديوان مجلس مؤلف من عدة من النوابغ الذين يرجع إلى رأيهم في شؤون التربية مثل رفاعة بك الطهطاوي، وكلوت بك وغيرهما؛ وقام المجلس المذكور بوضع لائحة لنظم التعليم، وقرر إقامة عدد كبير من المدارس في مختلف أنحاء القطر، منها عشرات من المدارس الابتدائية الأميرية، في معظم المراكز ومئات المدارس الأولية أو الكتاتيب، وبذا وضعت أسس النهضة التعليمية في مصر الحديثة

ومما يؤثر بالفخر أن التعليم كان يومئذ في جميع المدارس على اختلاف درجاتها وأنواعها مجانيا، وكانت الحكومة تتولى الإنفاق على التلاميذ، وتعنى بإطعامهم وكسوتهم، وتجري عليهم بعض الرواتب المالية، وكان عدد تلاميذ المدارس الأميرية يومئذ يبلغ نحو العشرة آلاف

وتقلب في الديوان المعارف عدة من رجالات مصر الأفذاذ مثل علي باشا مبارك، تولى سنة 1888، وبذل في تنظيم التعليم جهداً عظيما، ولا تزال آثار هذه الغرس زاهرة إلى يومنا

ووقعت وزارة المعارف مدى حين تحت سيطرة الاحتلال، وأخمدت روحها الإصلاحية أيام دانلوب ومعاونيه؛ ولكنها بدأت تتنفس في عهد الاستقلال؛ ولكنها وا أسفاه ما زالت مضطربة الأوضاع والنظم، ولم توفق إلى أن ترسم لها حتى اليوم سياسة ثابتة للتعلم

الصور الهزلية في الفن المصري القديم

أصبحت الصور الهزلية من أبرز نواحي الفن المعاصر، تتخذ أداة للتعبير اللاذع عن وقائع الحياة العامة، وأحوال الأشخاص وتصرفاتهم، وأضحت سلوة الألوف من القراء تثير ابتسامتهم ومرحهم. وقد عرف المصريون القدماء فن الصور الهزلية، وألفوا فيه متنفساً للنقد اللاذع والسخرية العميقة. وتوجد لدينا نقوش وصور هزلية تدل على مبلغ ما انتهى إليه الفراعنة من الافتنان في هذا الباب. فمثلا توجد نقوش على البردي ترجع إلى ألفي عام قبل الميلاد، سطرت بها قصص عجيبة كقصص ألف ليلة وليلة من مناظر سحرية وشياطين وحيوانات تلعب أدوار مدهشة، وتوجد صور هزلية مسلية في

كثير من أوراق البردي المحفوظة في تورينو ولندن، ويبدو فيها شغف المصريين بهذا النوع من تصوير الحياة العامة؛ فالأمراء والوزراء وأكابر الزعماء يمثلون في صور حيوانات مختلفة ترمز إلى معان هزلية. مثال ذلك صورة رسمت بها قطة تسير مضمومة الذراعين إلى جانب ثور مبجل (يمثل كبير البلاط)، وهما يسيران معا للمثول في حضرة خصي قد صور في صورة حمار؛ أو صورة لفرقة الموسيقى الملكية مؤلفة من تمساح يبكي تأثرا، وحمار يعزف على القيثارة، وأسد يعزف على العود؛ أو أسد (يمثل فرعون) وحمار (يمثل وزيره) يلعبان الشطرنج معا؛ وهكذا. وكان للفنانين المصريين شغف بتمثيل مناظر الحياة العامة في صور مضحكة لاذعة، فمن ذلك صورة ذئب يقود الغنم، وهرة تحرس الطير، وكلاهما رمز لفساد الحياة العامة؛ وهذه الصورة التي ترجع إلى بضعة آلاف من السنين تدل على مبلغ ما وصل إليه فن التصوير الهزلي لدى الفراعنة في القوة والروعة. وعلى أن الفراعنة كانوا أيضا في هذا الميدان أول الأساتذة والمبتكرين

كتاب جديد عن الاشتراكية الوطنية

ما زالت الاشتراكية الوطنية أو النظم التي تعيش في ظلها ألمانيا الحاضرة مثار كثير من الجدل، وقد ظهرت إلى اليوم عنها تصانيف كثيرة بين الخصومة والتأييد، ولكن روحها وغاياتها الحقيقية ما زالت موضع الغموض والحدس

وقد ظهر أخيراً بالفرنسية كتاب جامع عن الاشتراكية الوطنية ربما كان أقوى وأوفى مؤلف ظهر من نوعه؛ وعنوانه: (طغيان الفاشستية الألمانية) بقلم الآنسة جريته شتوفل ويمتاز الكتاب، بالوضوح والترتيب، وينم عن دراسة عميقة وفهم شامل للنظم التي تعيش في ظلها ألمانيا الحاضرة. وقد استهلته المؤلفة بمقدمة تاريخية، ثم تناولت سلطات الدولة الأساسية بالتعيين والشرح، ففي شخص (الزعيم) (هتلر) تجتمع كل السلطات، فهو رئيس الدولة ورئيس الحكومة، وهو المتصرف المطلق في جميع نواحيها الإدارية والقضائية والعسكرية، وهو المشرع الأعلى؛ وهو يفوض سلطانه إلى وزراء، ليسوا إزاءه سوى موظفين أصاغر، وأما الريخستاج (البرلمان) فهو أسم على غير مسمى، فهو لاحق له أن يقترح أو يعارض، وليس عليه إلا أن يوافق ويؤيد، والحزب (حزب النازي) يندمج في الدولة، وهو مجمع الشعب، ولا يقوم نظامه حسب قول هتلر الأعلى (السلطة والنظام والمسئولية والخضوع)؛ ومن أدلة هذا الاندماج أن نفس الرجال يديرون الحكومة والحزب معا، ورجال الحزب هم الذين يستولون على الوظائف، وشعار الاثنين واحد وهو (هايل هتلر). بيد أن الحزب لم ينجح في كسب الجيش، ولكن الجيش في يد (الزعيم)

وقد قضت الاشتراكية الوطنية على نظام ألمانيا الاتحادية واستأثرت الحكومة المركزية بكل السلطات، أما النظام النقابي، فيقوم على حشد العمال في جبهة الاشتراكية الوطنية، وتنظيم جميع المهن والحرف في طوائف تحشد في نفس الجبهة. تحدثت المؤلفة بعد ذلك عن الخلاف بين الكنيسة والدولة وعن النظرية الآرية ومراميها الحقيقة، وعن سياسة الاضطهاد الديني والجنسي التي تضطرم بها الآن ألمانيا الهتلرية. وهذا الطغيان الهتلري لا يقوم إلا على الإرهاب والعنف، والقضاء خاضع لخدمة الدولة، والتشريع الجنائي ليس إلا أداة للكفاح لا تعرف الرافة أو العدالة، وتقضي محاكم الشعب دون تحقيق، وتسير في قضائها تحقيقا لأهواء الحزب والزعماء. والخلاصة أن القضاء والبوليس والجيش والهيئات الحزبية تعمل كلها لسحق أعداء النظام وخصومه. ومع أن كل الحريات قد سحقت، فإنه توجد معارضة كامنة. والدولة النازية هي أتم وأوفى أداة للطغيان في عصرنا؛ بيد أنها بوسائلها العنيفة في الكفاح والقمع تنافي كل المبادئ والاعتبارات الأخلاقية والإنسانية

هذه هي الصورة التي تقدمها إلينا المؤلفة عن النظام الهتلري، وهي تقدمها إلينا في عرض بديع حقا مدعم بالأدلة والوثائق والإحصاءات. ويرى النقدة أن كتابها هو أقوى وأوضح بحث من نوعه ظهر حتى اليوم

حرب نيكوبوليس الصليبية

لعل أكبر الحوادث في تاريخ الشرق والغرب هو تلك الحروب التي اصطلح المؤرخون على تسميتها بالصليبية ودامت عدة قرون، تجلى فيها كثير من ضروب الفروسية

والشجاعة مما يرى فيهما القصصيون مادة خصبة لهم. وقد كانت هذه الحروب ولا زالت ميداناً لكبار البحاث المؤرخين، ولكنها مع ذلك لا تزال بحاجة للدرس والتمحيص.
ومن الوقائع الشهيرة في تاريخ العالم الإسلامي موقعة (نيكوبوليس) التي وصل فيها الأتراك إلى قلب أوربا، وأصبحوا على أبواب المجر، وهي مع مالها من أهمية قصوى لم يؤلف فيها أحد المتخصصين في تاريخ العصور الوسطى كتاباً قائماً بذاته، حتى قام بذلك أحد الشبان المصريين الذي اختارته جامعات لندن وليفر بول بإنجلترا، وبون بألمانيا أستاذاً بها، ذلك هو الدكتور عزيز سوريال عطية، فقد أفرد لها كتاباً خاصاً ألم فيه بما مهد لهذه الحرب. ويذهب المؤلف إلى أن الحروب الصليبية لم يكن بدء قيامها أو ختامها ما تألفنا عليه، بل هناك عدة حروب قبلها وبعدها كان الدافع لأوربا فيها على امتشاق الحسام عصبيتها الدينية ضد الإسلام. ولقد أصدرت إحدى دور النشر الكبرى بإنجلترا هذا الكتاب القيم للدكتور سوريال. وبلغ من أهميته أن قرظه أعلام التاريخ في إنجلترا وفرنسا وألمانيا والمجر وأثنوا على صاحبه الثناء الجم، فقالت جريدة التيمس في ملحقها الأدبي: (إن هذا الكتاب دراسة رائعة عن الظروف السياسية والمالية في نهاية عصر الفروسية في أوربا) وختمت الديلي بوست تقريظها له بقولها: (إن مثل هذا الكتاب يكتبه أحد أبناء مصر لشيء يفخر به جميع المصريين. . . إن نهضة مصر في طريقها) وقالت مجلة معهد الدراسات الشرقية
بلندن: (إن هذه الإضافة العظيمة الرائعة للتاريخ هي من غير شك نتيجة بحث عميق وميل قوي للموضوع. . وإنه لينبغي لكل مؤرخ أو باحث لهذه الفترة أن تكون لديه نسخة منه)
وقالت جريدة الجارديان: (. . . تقرير شامل يعتمد على المقارنة الدقيقة لمراجع كثيرة) ووصفه الأستاذ وليم ميللر في مجلة التاريخ الإنجليزي بأنه (كتاب دسم) كما أثنى على مؤلفه وموضوعه كثير من المجلات الأخرى كجريدة الحربية، والجيش الجريدة الأسيوية. وقالت مجلة الثقافة الإسلامية الإنجليزية بالهند: (أن تعمق الدكتور عطية في هذا الكتاب لا يوفيه المديح حقه، وإن التعاليق التي كتبها وإضافته لهي بحث جديد يضاف إلى دراسته النقدية لهذه الفترة) وقالت مجلة (إن الدكتور عطية ملم بكل نواحي الحروب الصليبية، وكتابه قائم على المصادر والمعاصرة لها بل والنادرة أحياناً. . . وإنا لننتظر منه الكتاب الشامل الأكبر في المستقبل) كما امتدحته مجلة (بلغاري) ومجلة الدراسات الشرقية الألمانية فقالت: (إن هذا الكتاب أوفى ما كتب عن هذه الناحية، وأن مؤلفه ليعد حجة في هذا الموضوع) ومع أهمية هذا الكتاب، وتقدير أقطاب التاريخ له ومصرية مؤلفه فأنه لم يترجم بعد.

تمثال شيخ البلد

قرأت بعدد الرسالة الأخير مقال الدكتور الفاضل أحمد موسى في الفن المصري القديم فاستوقفتني تلك العبارة من كلامه عن تمثال (شيخ البلد) المعروف بالمتحف المصري:
وتمثال شيخ البلد تجده واقفًا في شيء من اليقظة وضخامة الجسم التي يجب أن) (تتوفر فيمن يقوم بالشياخة الخ
وقفت متسائل: هل عرف النظام الإداري القديم شيخ البلد كما تعرفه مصر الآن من أقصاها إلى أقصاها؟ وبالتالي هل عرفت هوية صاحب هذا التمثال وعرف عمله في الدولة؟ أم أن الحقيقة هي ما قرأناه في كتب التاريخ من أن عمال الحفر لما أخرجوا هذا التمثال من مكانه راعهم ما وجدوا من شبه قوى بينه وبين شيخ بلدهم فأطلقوا على التمثال (شيخ البلد) ثم لزمته التسمية ولم يغيرها علماء الآثار لما لم يعرفوا حقيقة صاحبه ولم يجدوا به من النقوش أو الكتابات ما يبوح بسره وينم عن جلية أمره؟
وهل الدكتور الفاضل أن يميط اللثام عن حقيقة التمثال المذكور خدمة للعلم والتاريخ فنكون
له شاكرين؟
(م. ح بأسيوط)

الكتب

ملحمة عبقر

للشاعر المطبوع شفيق معلوف

رمى الكثيرون الشعر العربي بالعجز والقصور عن متابعة الشعر الغربي في القصة والملحمة والرواية التمثيلية؛ ولكن ناظم عبقر ضرب لهؤلاء المثل الحي على العيب واقع على عاتق الشعراء أنفسهم لا على اللغة ولا الشعر. ولقد ظلت عبقر مدى العصور تتردد في ألفاظ كثير من الشعراء ولكن لم يفكر واحد منهم في أن يخرج لقراء الضاد قصيدة عنها بقدر ما توحي إليه من خيال؛ كأنها أبت أن تكشف سترها وتميط اللثام عن حقيقتها إلا لهذا الشاعر المحلق في سماء الجمال، فحمله شيطانه إلى عبقر، وأوديتها السحرية؛ وهناك كشف له سر الحياة، فوقف على المجهول من أمرها، حتى إذا عاد إلى دنياه صوره بلغة الأرض؛ فأبدع في ذلك ما شاء له الإبداع، ورسم هذه العوالم الدفاقة بالسحر والخيال وقربها إلى قارئيها فإذا هم يعيشون ويتحركون ويتنفسون فيها، وإذا هم يحيون في مهابط الجن، ويقضون مع حورها لحظات لا يحسون فيها لغب الواقع، ولا تعب الحياة وأوضارها، ولست أدري أيهما خلد الأخر: هل خلق شفيق عبقر، أم هي التي خلقته؟

حمله شيطانه إلى عبقر ذلك الشيطان الذي:

في فمه من سقر جذوة ... يطير منها الشرر الثائر
ووجهه جمجمة راعه ... أنيابها والمحجر الغائر
كأنما محجرها كوة ... يطل منها الزمن الغابر

ويمضي الشيطان بصاحبه إلى عبقر ليريه (جنا من النور جلابيبها) وإذ يهبط الاثنان عبقر، يرى الشاعر (الغمائم الزرق) وفي أبراج المنازل (تثور ضجة بها يضيق الأفق الأوسع) ثم يحيط به الشيطان عند عراقة عبقر فإذا بها عجوز شمطاء طواها الكبر، ولقد أبدع الشاعر أيما إبداع في وصفها بقوله:

تلف ثعبانا على وسطها ... يكمن في نابه كيد القدر
مجامر الصندل من حولها ... تألب الجن عليها زمر
ينبعث الدخان من شعرها ... ويلتظى في مقلتيها الشرر
كأنما الله لدى بعثها ... زودها بكل ما في سقر

وفي حديث العرافة له نرى الوصف المر الأليم للإنسان، وما انطوت عليه نفسه من مكر وخديعة، وترى روح التهكم تنبعث على لسان العرافة ساخرة بكبرياء ابن آدم وقد خال (نفسه أعلى من ربه، وحسب عيبه فضلا) وأية سخرية أشد وقعا مما انطلق به لسانها من أنها:

تخشى على الثعبان ... من شره
في نابه السم كان ... وصار في صدره

وينطلق به شيطانه إلى امرأة قد كورت من حلقات النور أضلاعها تلك هي (الشهوة) وإن وصفه الرائع لها، ليجعل القارئ يخال الشهوة قد جسمت امرأة وهي تضج:

من لي بحب نوره ينبلج ... من شرر محتدم في المقل
من لي بثغر لاهب تنفرج ... ثغرته عن شعلات القبل
يا حامل الجسم ألا أعطنيه ... وخذ إذا شئت خلودي ثمن
وشاحي الناري من يشتريه ... فإنني أبيعه بالكفن.

ويمضي به الشيطان إلى الكاهن سطيح الذي يرى أن الله خلصه برحمته حين استل منه العظام (وملأ الفراغ من حكمته) أما الكاهن شق فقانع بنصفه، وما ضره أن حباه الله بيد واحدة إذ:

هل تنفع اليدان والواحدة ... تهدم ما تشيده الثانية

ويخلص القارئ من مغزى هذه الحكمة أن في النقص كمالا، ولكن الشاعر يهوى به الأسلوب في قوله (والله يهديني سواء السبيل) فهي نابية في موضعها لا تلائم الذوق الشعري، وإنك لتلمح رثاءه للبغايا وألمه لهن خلال وصفه الشعري الجميل لهن فهن:

دسن من الحديد محمره ... ورحن يقحمن البراكينا
يلغن في الجمر ويغببنه ... غبا ويرشقن الشياطينا
زج بهن الله في عبقر ... يبلو بهن العبقريينا

وينتهي بالشاعر المطاف عند رفات العبقريين من الشعراء والأدباء، وفي نشيد جماجم

هؤلاء العباقرة تلمح تقديس الشاعر لهم، فهؤلاء أرواحهم تبني قباب الخلود (بغير أحجار
الورى) وهم في موتهم يعيشون على. . الحب الذي:
إن كانت الأرض جحيما له ... وكان فيها تهنأ الأرض
هذه جولة في عبقر المعلوف، فإذا كان فوزي قد حلق على (بساط الريح) فإن أخاه في عبقر قد تغلغل في ثناياها مع حورها وكهانها وعرافاتها وشيطانها
وإن خيال شفيق لمنسجم مع تفكيره، وهذا سر إبداعه، فلا جرم إذا حلق خياله من شاهق ولم يسف في شعره. ولا عجب إذا طالعنا ذلك الشاعر بنفحات من الشعر الخالد في لفظ متسق، وجمال مطبوع، وبيان عذب فصيح، وخيال لو قيل له اختر صاحبنا لما اختار غير شفيق.
حسن حبشي
العدد 195 - بتاريخ: 29 - 03 - 1937
وزارة المعارف
بمناسبة عيدها المئوي
في الساعة العاشرة من صباح هذا اليوم تحتفل وزارة المعارف بانقضاء مائة عام على مولدها السعيد. ووزارة المعارف لا تزال ناشئة وإن أدركت المائة؛ ولعلها لم تبلغ الرشد إلا منذ أعوام قلائل، فإن القرن في عمر الأمة كالعقد في عمر الفرد، والشباب المهمل وإن طال بلاهة وغفلة - كان يومها الذي أبصرت فيه الوجود من الأيام الغر الوضاء في عهد الأمي العبقري الطموح محمد علي باشا. رأى بعينه الكلوء أن ما بالغرب من حضارة وعمارة وقوة إنما أساسه الجيش والعلم وأدرك بفؤاده اليقظ أن الجنود الألبانية لا تؤمن الخوف ولا تحقق المطامع، وأن الجامعة الأزهرية لا تعلم علوم الدنيا ولا تدرس فنون الحرب؛ وأكبر ما ترك نابليون بمصر من الآثار الصالحة على قصر احتلاله واضطراب حاله، فحصر هذا الرجل النظور همه وعزمه في إنشاء مصر الجديدة على الوضع الذي استقر عليه الزمان الحاضر والإنسان الحديث؛ فأقام المدارس للحرب وما يتصل بها من الطب والصيدلة والبيطرة والهندسة والكيمياء والعلوم والألسن؛ ثم ربط هذه المعاهد المختلفة الدرجات والغايات بإدارة واحدة سماها (ديوان المدارس) وجعل أعضاءه عشرة من المصريين الذي أوفدهم إلى أوربا، والأوربيين الذي أقدمهم إلى مصر، وجعل عليهم الأستاذ مختار الدويدار
كان من ذلك الديوان الصغير ذلك الصور الذي انبعثت على صوته مصر، والنسم الذي تنبهت من نفحته العروبة، والقبس الذي استضاء بنوره الشرق. وكان من الطبيعي يومئذ أن يكون التعليم للحكومة لا للشعب، وللبنين لا للبنات، وللمادة لا للأدب، فكانت الحركة الثقافية تتسع وتضيق تبعاً لحاجة الجيش والإدارة. فلما فترت الوثبة العلوية في عهد عباس وعهد سعيد زاد عرض هذه المصانع العلمية، على طلب الدواوين الرسمية، فوقفت البعوث، وأغلقت المدارس، وكانت ثلاثاً وستين مدرسة ابتدائية، ومدرستين تجهيزيتين، وإحدى عشرة مدرسة عالية، فلم يبق منها إلا ثلاث للحربية والطب والصيدلة
أما إسماعيل فكان رجلاً آخر، لم يكن سياسياً طامعاً كجده، ولا عسكرياً فاتحاً كأبيه، وإنما كان مدنياً باريسياً له ذوق، وبه ترفع، وفيه زهو، فجعل التعليم للتمدين والتثقيف، لا
للتجنيد والتوظيف، وطمح إلى أن تكون مصر جزءاً من أوربا، في مبانيها ومعانيها، ورفاهتها وأنظمتها، ففتح ما أغلق من المدارس وزاد عليها، وأعاد البعوث إلى أوربا، وأقام نظارة المعارف على هذا الوضع المعروف وأنشأ لتغذيتها دار المعلمين، وابتغى الأسباب لتقليل الأمية، وتلمس الوسائل لتعميم الثقافة؛ وسار الأمر على هذا الطريق الواضح حتى دهانا الاحتلال الإنجليزي وكل شيء كان يتحفز للنهوض ويتوثب للرقي، فكأنما صببت ماء في نار، أو أقمت سداً في تيار!
كان التعليم في أواخر عهد إسماعيل واسع النطاق متعدد المناحي شعبي الغرض؛ فالمدارس موفورة العدد، واللغة العربية لسان المعلم ولغة الكتاب؛ فأخذ الإنجليز منذ اغتصبوا السلطان يقطعون أسباب هذه النهضة، ويسيرون بالتعليم إلى وجهة أخرى، فأغفلوا البعوث، وأغلقوا مدرسة الألسن، وأبطلوا المجانية، وأهملوا اللغة العربية،

وجعلوا التعليم كله بالإنجليزية، وقصروه كما كان قبل إسماعيل على تخريج عمال للحكومة لا إعداد رجال للشعب؛ وصار اسم (دنلوب) علماً على نوع من التدريب الاستعماري الآلي تروض به النفوس المتمردة على الضراعة، والألسنة الآمرة على الطاعة، والعقول المستقلة على التبعية. فكان من عواقب هذه السياسة السفيهة أن اتسع التعليم وضاقت التربية، وكثر المتعلمون وقل العلم؛ فتبجحت الجهالة، وانتشرت البطالة، وفسد الأمر في الحكومة، وساء الحال في الأمة. ثم اشتعلت الحرب الكبرى في أنظمة دنلوب وأمثالها في كل دولة فأكلتها أكلاً ذريعاً، ثم خمدت فإذا بقاياها في كل مكان عصيان وطغيان وثورة، وإذا مصر تفلت من ربقة (جون بول) فتطلب الاستقلال، وإذا المعارف تخرج من وصاية (دنلوب) فتبلغ الرشد! ولكن الراشد لا يزال قريب عهد بالقصور، فهو يختلج ليستقيم، ويتذبذب ليعتدل، ويتجمع ليثب. فإذا احتفلنا اليوم بمرور هذا القرن على وزارة المعارف، فإنما نحتفل بعهدها السعيد الذي أقبل، وتطورها الجديد الذي لاح، ومستقبلها الواعد الذي أشرق.

أحمد حسن الزيات

في المرقص

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

جلست في ركن أرى منه الناس جميعاً وذهبت أنتظر صديقي. والانتظار ثقيل ولكنه هنا مما يهون أمره، فقد كان اليوم يوم أحد، وكان المكان غاصاً بالفتيات الجميلات، وكانت الموسيقى لا تكف عن العزف، فالرقص لا ينقطع وحركته لا تفتر، ولا يزال الشبان ينهضون ويتقدمون من الفتيات وينحنون لهن باسمين فترفع الواحدة منهن حاجبيها الدقيقين اللذين يبدوان كأنهما مرسومان وتبتسم وتنهض ويداها على ثوبها لتصلح منه ما أفسده الجلوس. وكان يخيل إلي أن كل إنسان هنا يعرف كل إنسان آخر إلا العبد لله، فما كنت أرى وجه من أعرف. وصفقت فجاء خادم سمين أسود الوجه غليظه فقلت: اسقني شيئاً مما عندك، وكان صوتي خافتاً وقد زادت الضجة خفوته، فمال الرجل علي وهز وجهه الكبير فقلت: (هات أي شيء بارد. . أي شيء. . اذهب) فقد كان يحجب عني الدنيا

وأدرت عيني في المرقص فسرتني المناظر. آه!. . هذه البيضاء ذات الثوب الأرجواني ما أحلاها. . شعرها ذهبي وخصله الجميلة تهتز تبعاً لحركة الرقص وكف زميلها على ظهرها تجعل هيف خصرها واستواء ردفيها أوضح وأوقع في النفس وأسحر للعين، وقد دارا الآن فأنا أرى كيف تمنح صاحبها صدرها. . إن صدرها ليس على صدره. . كلا. . ثديها الأيسر وحده هو الذي أراه على صدره. . ما أحلى هذا!. ليتني كنت مكانه! وأحلى ما فيها إشراق وجهها النضر. . إنها مسرورة تضحك وتثني رأسها راضية مغتبطة، فليت شعري ماذا يقول لها هذا الشاب الحاذق؟. .

واختفيا عن عيني وحجبهما غيرهما من الراقصين والراقصات. آه. . هذه أيضاً حسناء ولا شك. . ثوبها فيما يبدو لي قديم. . ووجها باهت اللون. . والأبيض كثير. . ولكن معارفها حسنة وعينها واسعة حوراء. . أم ترى هذا فعل الكحل؟. . لا أظن. ولكن صاحبها لا يدنيها من صدره وإني لأرى بينهما مقدار شبر. . ولا يحادثها ولا يهمس في أذنها بكلمة. . فهما يدوران في صمت. . خسارة. . كنت أحب أن أرى وجهها وهي مسرورة تضحك. . ذهبت الآن على كل حال. . فلننظر إلى غيرها. .

وراقني فرق ما بين الفتيات وهن يرقصن. . هذه واحدة تقف من صاحبها كالسيف. . خط جسمها مستقيم تماماً. . وتلك التي تلبس هذا الثوب الأخضر تنأى بساقيها عنه وتلقي بصدرها على الفتى، فلو تخلى عنها لكان الأرجح أن تقع على الأرض مكبوبة على وجهها الجميل. . أم ترى هذا ليس إلا وهما؟ ومن يدري؟. . لعلها تتقي أن يغلظ مراقصها فيدوس أصابعها الصغيرة فهي لهذا تبعد بساقيها عنه. . ومن يدري أيضاً؟. . فعسى أن تكون غايتها أن تريح صدرها جداً عليه. . وهذه السمينة التي تحرك جسمها الثقيل ببطء. . صاحبها أسمن منها فهما مسكينان. . ألا ترى كيف يمسح عرقه. . ولكن الغريب أني لا أراها تعرق مثله. . وأحسب أن هذا من فضل الله فلو تصبب عرقها لَتَرَّ على المسحوق ورسم خطوطاً تجعل وجهها كأن فيه أخاديد. . ولكن لماذا وكيف لا تعرق؟. .

وسكتت الآلات وكانت الأرجوانية من جيراني ولكن وجهي كان إلى غير جهتها فلم

أستطع أن أديره إليها. . قاتل الله الشعور بالذات. . لماذا لا أنظر إليها؟. . لن أخطفها أو آكلها. . ولا أظن أن نظري إليها يسوءها كما يسوءها الانصراف عنها كأنما هي لا تستحق نظرة. . وإنها والله لآية. . ولمحت شيئاً عظيماً إلى يميني في مدخل النافذة فالتفت فإذا الخادم الأسود الضخم الجثة فضحكت - في سري فما أستطيع أن أقهقه وأنا وحدي في هذا الحشد - وحدثت نفسي أن الله اختار لي أن يكون هذا الزنجي العظيم زميلي في ليلتي هذه وأنيسي في وحدتي. . وحولت وجهي عه مستعيذاً بالله، ونظرت في الساعة ورجوت أن يحضر صاحبي فيزيل هذه الوحشة وينحى عني هذه العمة الحالكة السواد. . ولكن صاحبي لم يجئ فلا بد أن اعتمد على نفسي فالتفت إليه وطلبت شيئاً لأصرفه عن مكانه فذهب ووسعني أن أجيل عيني مرة أخرى في الجلوس فرأيت فتاة في ثوب داكن الحمرة ذي شقين وفي أذنها قرط هو حبة كبيرة من اللؤلؤ. . المزيف بالطبع. . وهي سمراء فلعلها مصرية. . أعني لا عبرانية ولا أوروبية. . وشغلني من أمرها أني لا أستطيع أن أتبين أهي بدينة أم نحيفة. . وتعجبت لهذا. . ولكن المائدة أمامها وهي متكئة عليها بذراعيها فالبادي منها هو صدرها مضموماً. . ووددت أن تقف. . أعني أن يدعوها أحد إلى الرقص. . ولكني لاحظت أنها لا ترقص أبداً. . ولم أر واحداً من هؤلاء الشبان دنا منها وانحنى لها أو ابتسم أو أشار أو فعل غير ذلك مما تدعى به الفتاة إلى الرقص. . فهل هم يعرفون أنها لا ترقص؟. هي مثلي إذاً. . ولكني مهيض الساق فهل تراها. .؟ لا لا. . إني رجل، فلا بأس ولا ضير علي من كسر يصيب ساقي ولكنها تكون مسكينة حقاً إذا كان الله قد امتحنها بمثل ما امتحنني به. . أعوذ بالله. . كلا. . لا أظن. . وشاء حسن الحظ أن تقوم الفتاة في تلك اللحظة وأن تقبل على جيراني فإذا قدها سخيف جداً . .فانصرفت عنها وحمدت الله الذي أبى أن يشغلني بها عن الجميلات

وأطفئت الأنوار وبقيت بضعة مصابيح حمراء وخضراء وعزفت الموسيقى لرقصة التانجو فقلت هذا أحسن وأمتع. . وإذا بشاب أسود وعلى عينيه نظارة يقترب من الفتاة الهيفاء ذات الثوب الأرجواني ويهز لها رأسه فتنهض مرتاحة مسرورة يا أخي!. . أما أن هذا لغريب!. . من أين عرفها؟. . بل من أين جاء؟ فقد درت بعيني في المكان كله ولم أدع ركناً أو زاوية إلا حدقت فيها؛ ولست أعمى ولا قصير النظر وإن كنت أحمق قليل العقل. . وهززت رأسي مستغرباً. . وقلت لنفسي لولا إن الله ابتلاني بساق لا خير فيها أما كنت أنهض أنا أيضاً لأراقص هذه البنت الجميلة؟. . وزاد عجبي أني رأيته يحسن الرقص وأنها فرحة به ومقبلة عليه. ورنت ضحكتها الفضية فقلت لنفسي يا ملعون!. وظريف أيضاً؟. . إذن أنت تستحق هذه النعمة التي كنت أظنك غير جدير بها. وقد وهبتكها فليس أحق بها منك!. .

وكانت أصابعي تعبث بعلبة الكبريت وتحركها على صوت الموسيقى أراعي الراقصين ولا يفوتني أن أنقد حركاتهم إذا كان قد فاتني أن أشاركهم فجعلت أقول لنفسي. . لا. . هذه الميلة ليست حسنة ولا رشيقة. . كان ينبغي أن يكون الانحراف فيها أقل. . هذا الأحمق يجب أن ينزل بكفه الغليظة إلى الخصر. . ماذا يظن أنه يصنع؟. . ألا يرى أن الفتاة تميل إلى الوراء فكيف يبقي كفه على طرف الكتف؟. أما إنه لمجنون. . وهذا الأبكم ألا يجد كلاماً يقوله لصاحبته فيشيع البشر في محياها؟. . لماذا يدعها كأنما صب وجهها في قالب؟. . في أي شيء غيرها يفكر هذا الأبله؟. . أما لو كنت أنا مكانه؟. . إذن لأريته. . ولكني مع الأسف قاعد أنظر ولا أرقص. وقد خدرت ساقي من طول ما تركتها على أختها فلأرحها قليلاً

وأنزلت ساقي والتفت وأنا أعتدل في مجلسي فإذا الزنجي الضخم واقف إلى جانبي، فقلت يا لها من ليلة سوداء!. ما له لا يتحول عن هذه النافذة؟. . وخطر لي أنه يتوهم أني قد أهرب منها فإنها تؤدي إلى شرفة تنتهي من آخرها إلى السلم، فقلت أعطيه القروش التي لا يستحقها وأريحه وأستريح فقد طلبت شيئاً بارداً فجاءني بشاي سخن. وأحسب أنه لم يسمع أو لعله ظن الشيء شاياً. فما أذكاه!. . وبدا لي أني أظلمه فليس ذنبه أنه أسود وإن جثته ضخمة وإن شكله بغيض، ثم أن له حقاً في الوقوف حيث يشاء مادام لا يزحم المكان؛ وأين بالله يقف إلا في مدخل باب أو نافذة استعداداً لتلبية الطلبات؟ فلندعه على كل حال.

وأردت أن أنهض وأنصرف فقد تأخر صديقي جداً ولم يعد من المنتظر أن يحضر، ولكني استحييت أن أمشي أمام هؤلاء الفتيات الجميلات وضننت بهن أن أعكر عليهن صفوهن برؤية رجل أعرج يظلع أمامهن، وقلت أنتظر حتى يستأنفن الرقص ويشغلن به عني. ولست أستحي من العرج الذي منيت به فما فيه ما يدعو إلى الخجل، لكني أكره الفضول وأستثقل من الناس أن يديموا النظر إلى رجلي كأنها شيء غريب جداً.

وما ركبت الترام قط إلا ضايقني الناس بهذا الفضول. وما أكثر ما رأيتهم يتحدثون ويشيرون إلى ساقي غير عابئين بشعوري. ولهذا رأيت أن اتخذ سيارة لأريح نفسي من هذا الفضول

وودعت الخادم الغليظ وتحريت أن أرضيه فقد ظلمته وإن كان هو لا يدري ولا يعرف ما كان يدور في نفسي كلما وقف إلى جانبي. وخرجت مترنحاً - لا من السكر فما شربت إلا ماء فقد تركت الشاي - وإنما كنت أترنح لأن رأسي كان يدور. ولي العذر فقد يحتمل المرء واحدة جميلة ولكن من العسير أن يحتمل فتنة كل هذا الجمال الراقص

إبراهيم عبد القادر المازني

حافظ إبراهيم شاعر الفخامة

للأستاذ كرم ملحم كرم

حافظ العسكري اقتدى بالبارودي العسكري فجاء شعره قوياً كالأمر دقيقاً كالنظام

ظهر الشعر ضعيفاً في مطلع عهد الانبعاث. فكأنه ليس بالشعر، إن هو إلا كلمات مرصوفة بعجز، لا تدل على معنى سام ولا تزخر بالقوة. وكأن أولئك النظامين يجهلون حسن الصياغة، فنفحونا بشعر مائع في معناه ومبناه، وكل ما رموا فيه إلى الاقتداء بالأقدمين. لا في سبكهم الشعر بل في مواقعهم من ولاة الأمر. فعلموا أن الأخطل كان يمدح معاوية ويزيد ويتمتع برحابة عيد الملك، وأن أبا نواس مدح الرشيد والأمين، وأن المتنبي تغنى بمآثر سيف الدولة، إذاً عليهم أن يمتدحوا الحكام والولاة. عرفوا أن الشعر يبدأ بالغزل وينتهي إلى المدح، فنهجوا هذا النهج اندفاعاً وراء البحتري والمتنبي ومهيار الديلمي ومن جرى مجراهم من شعراء العصر العباسي الأخير

وطالعوا في صفي الدين الحلي الطباق والجناس وتسخير المعنى للألفاظ، فقلدوا صفي الدين فيما أنشدوا من شعر، وما نظموا من قصائد خالية في معظمها من روعة البيان والابتكار

بلى، لقد حاول الشيخ ناصيف اليازجي الخروج عن هذه الدائرة، إلا أنه لم يكن ابن نفسه في معظم ما أنشد. فهو مدين للمتنبي في أكثر قصائده مع كونه شاعراً، على أن الشاعرية لا تنفي التقليد

وأول من برز من الشعراء الأقحاح بعد الشيخ ناصيف اليازجي هو محمود سامي البارودي، فجمع بين حسن الصياغة والمعنى. وإن يكن هذا المعنى غير مبسوط أحياناً ينحصر في نطاق معلوم، فهو خير ما جاد به علينا مطلع عصر الانبعاث. وتكفي تلك الصياغة المشرقة التي اهتدى إليها البارودي ونبذ بها الركاكة الشائعة يومذاك ليكون لهذا الشاعر فضل عميم على القريض. فالشعر العربي نهض بالاستناد إلى البارودي نهضة نشاهد آثارها في شعراء اليوم. وقد تكون نهضته نهضة ألفاظ أكثر منها نهضة معان. على

أن نهضة الألفاظ هذه صقلت الشعر، ونفت عنه الاضطراب، وقادته في طريق سوي انتهى به إلى شعر المعاني الأنيق، البراق الظاهر، الخالي من كل وهن وعيب سواء في لغته أو تركيبه

وحافظ إبراهيم اقتدى بالبارودي في حسن صياغته. فعمد إلى الشعر العالي النفس، المتين القالب، يشد به نفثاته. وكأنما ونحن نقرأه نسمع الفرزدق أو بشاراً، على أن هذا الشعر لم يكن موفقاً في معظم الأحيان بمعانيه مثله بألفاظه

فهناك ألفاظ مختارة تعيد إلى الأذهان عصر الجاهلية وما تلاه من أعصر أشرق فيها الأدب العربي وأزهر. ولا نكير أن الشعر في الجاهلية وصدر الإسلام والأعصر العباسية كان اشد خصباً في المعاني من شعر الانبعاث في مستهله، بيد أن النهضة لا تعتمد على الطفرة في مسيرها بل تمشي وئيداً إلى هدفها الأعلى. ولابد في مطلع كل نهضة

أدبية من هزة لفظية تجتاح القوالب الرثة لتقيم الأدب الجديد على ركن لغوي سليم والهزة اللفظية بدأها اليازجي الكبير والشدياق ونقلها إلى مصر اليازجي الأمين؛ فلا عجب إذا اعتمدها البارودي في بيانه وتلاه حافظ إبراهيم. وحافظ تأثر بالبارودي في شعره ومسلكه، وطمع في أن يرتقي يوما إلى مستوى هذا الشاعر العسكري. فالبارودي تربع في مقعد الوزارة، وحافظ شاقه أن يجلس يوماً في هذا المقعد وان يبلغ شأن زميله. وهو لما كان يرتدي ثوب ضابط في السودان ما انفك عن التودد إلى الشيخ محمد عبده. وكل قصده أن يمهد الشيخ له السبيل إلى الوزارة أو إلى منصب سام في الجيش. بيد أنه لم يقع منه على ضالته. فالشيخ كان يتناول رسائل حافظ ويطويها دون أن يكترث كل الاكتراث لهذا الضابط الوافر الآمال، العاقد عليه رجاءه. فيئس حافظ أو كاد، ودعا إخوانه إلى التمرد على الأوامر العليا، ومال عن الجيش إلى الاشتغال بالأدب في مصر. ومع كل ما لقي من فتور الشيخ محمد عبده ظل له على وفاء وولاء. وانتابته الفاقة وهو يرقب إنصاف الشيخ له وما تولى عمن تولى عنه.

وكان ميدان الأدب يضيق بالفرسان. فهناك شوقي ومطران وولي الدين وأحمد محرم والمنفلوطي. وظهر شوقي في القمة يزاحمه عليه خليل مطران. على أن حافظاً لم يدركه اليأس. فدفع في الحلبة جواده يبغي الوصول إلى القمة شأن شوقي نفسه. على أن ما توفر لشوقي لم يتوفر له. فقد ملك شوقي المال والثقافة معاً. فكان واسع الاطلاع، ناعم البال، يعلم حق العلم أن عيشه مضمون في حاضره وفي غده. على حين أن حافظاً فقد أمله في الحاضر والمستقبل. فكافح الشقاء، غير أن الشقاء أقوى منه. ونظر إلى آتيه وإذا الآتي يبدو مبهماً إن لم يبد فاحماً أسود

في هذه البيئة المضطربة عاش حافظ بين الإفلاس والشقاء والأمل الطعين. فلا يسعفه من اعتمد عليهم ولا ينجده دهره. ولم يبق لديه سوى بيانه. على أن البيان لم يوفر له العيش الرغيد مع كل ما فطر عليه من حسن المخالقة وجلو الحديث ونبل النفس؛ فلم يكن حافظ ممن يتسفلون إلى استجداء اللقمة، بل كان يجتهد ما استطاع في صون كرامته وهو الرجل العسكري الشديد الحرص على شرفه وواجبه

ولمعت قصائد حافظ الأولى. وقام الناس يقارنون بينه وبين شوقي. فأدرك حافظ أنه بلغ القمة التي يصبو إليها، وأن الحجر العثرة في الطريق هو شوقي دون سواه، فإن هو ذلل هذه العقبة هان عليه كل عسير ونال المشتهى. فليس أمامه غير هذا الخصم وعليه ألا ينام عنه، ومما كان يؤلمه أن يلمع شوقي لدى الخديو عباس وأن يؤثره عزيز مصر على الأدباء أجمعين، فلماذا يكون شوقي في تلك المرتبة السامية ولا يترقى هو (حافظ) إلى المكانة نفسها!. . ولقد كان يطمع في مكانة أسمى، فشاء أن يكون شاعر الخليفة العثماني وأن يتفوق على شوقي في أدبه ومنزلته إلا أن الأقدار لم تضمن له ما يرجو.

فنقم على دهره وأبى أن يناصر مذهب شوقي السياسي فدرج على خطى محمد عبده خصم الخديو، ونفخ في بوق الوطنية فكانت قصائده تلهب الحماسة في النفوس فيصفق لها العرب بأجمعهم لكون القوة تتجلى فيها، وغار منه شوقي فنسج على منواله في رثاء مصطفى كامل وفي سقوط أدرنه وفي سقوط عبد الحميد. فكل مأثرة وطنية كانت تجد لها صدى في قريحة الشاعرين، إلا أن صداها في منظوم حافظ أكثر صدقاً منه في منظوم شوقي. فلم يكن منى شوقي إلا أن يتغلب على هذا المزاحم الوثاب. وكيف يزاحمه بسوى إطلاق بلاغته وبيانه؟

والزحام كان جليل الفائدة، فالشاعران جالا فيه على ما يتسع لهما المدى، فبذلا كل ما يملكان من موهبة. وكان حافظ يتفوق حيناً وحيناً شوقي. وأحياناً كانا يتساويان، إلا أن ثقافة

شوقي ساعدته في استنزال المعاني أكثر مما توفر الأمر لحافظ. ولسنا ننفي عن حافظ اصطياد هذه المعاني المبتكرة، إلا أنه لم يكن موفور التوليد فيها. فاللفظ وحسن الصياغة كانا يشغلانه عن المعنى. وهو لو كان يجيد لغة أجنبية، لو اطلع على أدب الغرب مثله على أدب العرب لبات أوسع خيالاً وأشد عمقاً في منظومه، إلا أن جهله اللغات الأجنبية وقف به عند الأدب العربي، فما تفتحت عيناه على آفاق بعيدة يخلو منها أدبنا القديم. فكان يجتهد في الاقتداء ببشار وبالمتنبي في صياغتهما. ويميل

عن كل إسفاف في المبني، وهذا المجهود من حافظ في إنقاذ آثاره من الضعف اللغوي أهاب بشوقي إلى الانعكاف على درس اللغة ليدفع عن قصائده هذا الشين وإن يكن لابد من المقارنة بين شاعرين عاشا في عصر واحد واندفعا في طريق يكاد يكون واحداً في ما نظما وأطلقا من خراطرهما قلنا إن شوقي يتقدم حافظاً في معانيه وموسيقى ألفاظه، فيحلق في جو أسمى من جو حافظ، فكأنه يملك جناحين أوفى انبساطاً، وأشد عزماً، كأنه كتلة من أعصاب تأبى إلا أن تندفع إلى الأعالي تقع فيها على كل جديد، فتري وتلمس ما لا يتفق لسوى من ملك قوتها في اقتحام مسبح الفلك. وحسب شوقي أن يرصع صدر الملعب العربي بتلك الروايات التمثيلية. فشاء بها أن يضارع كبار شعراء العالم أمثال شكسبير وكورناي وراسين وفولتير وفكتور هيغو، فما (مجنون ليلى) غير (روميو وجوليت) لشكسبير، وما (كليوباترة) غير (أندروماك) لراسين

وحافظ لم يخترق هذا الجو، فاكتفى بالديباجة الفخمة، بعظمة الجند، بالشارات العسكرية البراقة، فأنت تحس وأنت تقرأه بأنك أمام شاعر يتقلد سيفاً ويعلن أمراً. فلا محاباة ولا مصانعة، بل قوة جياشة تدعوك إلى الاصغاء بكلام طنان ثابت في مواضعه كأنه صب فيها صباً. والأوامر العسكرية معروفة لا زخرف فيها ولا طلاء بل فخامة وقوة. وهذه الأوامر غلبت على شعر حافظ كما غلبت على شعر البارودي فمالت بهما عن التغريد المتعالي من شعر شوقي والخيال المغلف به منظوم شاعر الأمير إذاً شوقي هو المتفوق. وشوقي روح عصر الانبعاث في مطلع القرن العشرين. فهو مرآة الشعر في هذا الزمن. ومن ينظر في نتاج قرائح شعراء اليوم يقبل على شوقي في الطليعة ومن المحال أن ننسى خليل مطران. على أن المفاضلة تتناول في مبحثنا حافظاً وشوقي

دون سواهما. وحافظ لم يكن خصباً كشوقي ولا متفنناً مثله. وإذا قيل إن شوقي أغار على الأقدمين فليس ينجو حافظ من التهمة. هذا عارض من سبقوه وذاك عارض من سبقوه، إلا أن أبواب الغزو لدى شوقي المطلع على الأدب العربي والغربي معاً أكثر منها لدى شاعر النيل. وهذا سر من أسرار تفوق الأول ووقوف الآخر دونه في الطريق ومما نشاهد أن عطف الناس على حافظ أقوى منه على شوقي. فإن لحافظ في القلوب منزلة لم يبلغها شاعر الأمير، فكل من وقف على بؤس حافظ وإخفاقه في أمانيه وعزة نفسه مال إليه متأثراً وتألم لألمه. والبائس يجد حوله ذوي الرفق، على حين أن القرير العين يصطدم أبداً بالناقمين الكارهين. وهذا هو موقف الشاعرين من أبناء اللغة العربية. أحبوا حافظاً لبؤسه وخفتت في صدورهم محبة شوقي لغناه، على أنهم إذا جاءوا يفاضلون بين الشاعرين آثروا شوقي على حافظ دون ما تردد. وتلك العاطفة الروحية لابد لها أن تتلاشى على ممر الأيام، يوم يفنى هذا الجيل ويبيت أبناء الغد حيال أدب شاعرين يعتمدون في تحليل آثارهما على نور الحقيقة لا على نبضات القلوب

وهذا الإيثار لا يحط من قدر حافظ. فهو من أقطاب الشعر في هذا العصر. وإذا استثنينا شوقي ومطران قلنا إن البلاد العربية لم تنجب حتى الآن من أمثاله. ويسرنا أن تدرك أخيراً مصر قدره وتقيم له المهرجان تلو المهرجان. وكنا نود أن يلقى هذا التكريم وهو في قيد الحياة. فكان بحاجة إلى التقدير بعد كل ما عانى من بؤس وخيبة. والتقدير لا يكفي إذا تهاون المصريون في أمر ضريح الشاعر، فإن لرفات هذا الشاعر الجندي المتوقد القريحة شأناً تاريخياً من حق مصر أن تعتز به، فلن يقوم في كل يوم فيها شاعر كحافظ إبراهيم.

ولقد أثبتت الأقطار العربية الأخرى أنها تحترم حافظاً وتنحني أمام أدبه العالي. فأوفدت ممثليها للاحتفال بذكراه والتغني بمحامده، ولا ريب أن الملوك أنفسهم يشتهون أن ينالوا ما يتمتع به الشعراء بعد موتهم من خلود وتكريم. فالمتنبي والفردوسي لقيا من يحتفل بمرور ألف عام على موتهما. مع أن هذا التقدير العالي لم ينل مثله كسرى ولا هرون الرشيد. وأين الفردوسي والمتنبي من كسرى وهرون الرشيد في إبان حياتهما!. ولكن الأدب أبقى من العروش، والشاعر أبعد خلوداً من الملوك، وحافظ من هؤلاء الخالدين. ومن الراهن أن

مصر تنسى المئات من أرباب التيجان الذين توالوا ويتوالون عليها، ولا تنسى حافظاً وشوقي والبارودي وصبري وولي الدين، وفي ذلك الدليل كل الدليل على أن الأدب وهو وليد النفوس، أوطد أثراً في قلب الدهر من التيجان والصوالجة، وأن الأديب الأديب يرسخ في أذهان الأجيال المقبلة رسوخاً لا يحلم به غير من دوخوا الأرض من أمثال الاسكندر، ويوليوس قيصر، وعمرو بن العاص، ونابليون العظيم. . .!

(بيروت)

كرم ملحم كرم

صاحب جريدة (العاصفة)

من أدب التاريخ

قصة غرام فاطمية

موضوع مسرحية بديعة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تقدم إلينا صحف القصور الإسلامية طائفة من القصص الغرامية الشائقة التي امتزجت بسير الخلفاء أو السلاطين؛ بيد أن هذه القصص المشرقية بالرغم من ألوانها المشجية المؤسية أحياناً لا تحمل دائماً ذلك الطابع الروائي العنيف الذي يبدو في قصص الحب في القصور الغربية؛ ويرجع ذلك أولاً إلى روح العصور، وثانياً إلى تباين الخلال والنظم الاجتماعية؛ ففي القصور الإسلامية كان يغلب دائماً ذلك التحفظ الذي يسبغ ستار الصمت والكتمان على حوادث وسير لا تحمد إذاعتها وتتقى آثارها بين الكافة؛ وكان نظام التسري الذي يعمر قصور الخلفاء والسلاطين بأسراب الجواري الحسان من مختلف الأمم والأجناس يحول دون اضطرام هذه العواطف والنزعات العنيفة التي كثيراً ما تضطرم في قصور الغرب، وتحمل في طريقها عروشاً أو تؤثر في مصاير أمم ومجتمعات؛ ومن النادر أن نرى في التاريخ الإسلامي جارية أو خليلة، حظية خليفة أو سلطان، تسيطر على أقدار الدولة ومصايرها بمثل ما كانت تسيطر غانية مثل بومبادور أو دوباري على أقدار فرنسا في عهد لويس الخامس عشر، أو نرى ملكاً وإمبراطوراً عظيماً كإدوارد الثامن يهجر أعظم عروش الأرض وأجلها قدراً في سبيل حب ليس فيه من الروعة والجمال ما يتناسب مع روعة التضحية التي أقدم عليها بيد أننا نظفر في صحف القصور الإسلامية مع ذلك ببعض السير الغرامية العجيبة التي تطبعها ألوان روائية تذكي الخيال إلى الذروة. ولولا أن الرواية الإسلامية تحجم في كثير من الأحيان عن الإفاضة في تلك السير الشائقة، وتكتفي بإيراد الروايات الموجزة عنها لكان منها تراث روائي ساحر لا يقل في روعته وجماله وتباينه عما تقدمه إلينا قصص الحب الغربية الشائقة

مثال ذلك قصة الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله وحبيبته البدوية فهي في الواقع نموذج

ساحر من ذلك القصص الغرامي الذي يصلح بموضوعه ومناظره وألوانه موضوعاً لمسرحيات من الطراز الأول في سحرها وروعتها

ولي الآمر بأحكام الله الخلافة وهو طفل في نحو السادسة من عمره سنة 495هـ (1102م) رفعه إليها أمير الجيوش الأفضل شاهنشاه وزير أبيه الخليفة المستعلى، وجده المستنصر من قبل، والمتغلب على الدولة، والمستأثر بسلطانها؛ ونشأ الآمر في كنف هذا الوزير الطاغية، كما ينشأ جميع الأمراء الذين ليس لهم من الملك غير رسومه ومظاهره، محجوباً في قصره، مغموراً بأنواع الملاهي والمسرات؛ بيد أنه نشأ مع ذلك طموحاً ينزع إلى السلطان والبطش فلما بلغ أشده، وشعر بوطأة المتغلب عليه أخذ يتربص به حتى استطاع أن يدبر مصرعه، وقتل الأفضل سنة 515هـ؛ وتولى مكانه المأمون البطائحي؛ وقبض مثل سلفه على السلطة بقوة وحزم، فلم يلبث أن لقي نفس مصيره، فقتل في سنة 519هـ، واستأثر الآمر عندئذ بكل سلطة، وأطلق العنان لأهوائه وإسرافه وبذخه؛ وكان الآمر أميراً مرحاً، مضطرم النفس والأهواء، مشغوفاً بحياة اللهو والطرب، وافر السخاء والبذل، يعشق البذخ الطائل؛ وكان يهيم بالجواري والحسان، لا يطيق الحياة دون حب وهوى، وكان يشغف بفتيات البادية بنوع خاص، وله مع إحداهن قصة غرام مؤثرة، تنقلها إلينا الرواية في ألوان ساحرة، فكأنما تقرأ فيها كما تذكر الرواية ذاتها فصلاً من فصول ألف ليلة وليلة، أو ما يشابهها من

القصص العجيب المغرق

كان الآمر يهيم كما قلنا بفتيات البادية، ويرسل في أثرهن رسله وعيونه، يجوبون البوادي والنجوع، ويبحثون عن روائع الجمال الساذج في ثنايا الخيام وفي مهاد البداوة النقية؛ فنقل إليه بعضهم أنه عثر ببعض أحياء الصعيد بجارية عربية هي مثال رائع للجمال العربي آية في الحسن والرشاقة والظرف، أديبة شاعرة، وافرة الذكاء والسحر؛ والى هنا تبقى القصة عادية ليس فيها ما يثير الدهشة؛ بيد أن الرواية تجنح بعدئذ إلى نوع من القصص الرائع، فتقول لنا أن الخليفة الآمر لما سمع بخبر هذه الفتاة البارعة في الحسن وفي الجمال، أراد أن يراها بنفسه قبل أن يتخذ في شأنها أي إجراء، فتزيا بزي الأعراب وغادر قصره بالقاهرة، وسار إلى الصعيد، وأخذ يتجول بين الأحياء حتى وقف على حيها واستطاع أن يتصل بأهلها دون أن يعرفوه وأن يظفر برؤيتها وتأمل محاسنها؛ فما أن رآها حتى اضطرمت جوانحه بحبها، وأسرع بالعودة إلى القاهرة وقرر في الحال أن يخطب هذه الفتاة التي تيمته حباً، وأن يتزوج بها؛ وبعث الآمر إلى أهل الفتاة برغبته، فبادروا إلى تحقيقها فرحين مغتبطين، وأرسلوا بالفتاة إلى القاهرة، حيث حملت إلى القصر، وغدت في الحال زوجة للخليفة، وسيدة البلاط الفاطمي

والى هنا ينتهي أول فصل في القصة، وهو تفصل لا تنقصه عناصر الخيال الممتع؛ ثم إن فتاة البادية العالية - وكان هذا اسمها - بعد أن سكنت إلى حياة القصر الباذخة حيناً، وأفاقت من دهشتها الأولى، أخذت تشعر بثقل هذه الحياة الناعمة على ما فيها من متاع ونعماء وترف مستمرة، وتبدو لها جدران القصر العالية، وأبهاؤه الفخمة كأنها ظلام السجن، وأخت تحن إلى فضاء القفر الشاسع وهوائه النقي الساذج كما تحن الطيور في أقفاصها إلى فضاء السماء، أو كما تحن الأسود المعتقلة إلى أحراجها وأدغالها، رغم ما تتمتع به في سجنها من وافر العناية؛ فلما رأى الخليفة الآمر ما أصاب حبيبته من الاكتئاب والوحشة، دفعه الخيال إلى أن يلتمس لها متعة الفضاء التي تنشد على طريقته الملوكية، فأمر أن تقام لها على النيل في جزيرة الفسطاط (الروضة) متنزهاً عظيماً يضم بستاناً ساحراً وأجنحة ملوكية بديعة، وسمي هذا المتنزه الرائع الذي لبث مدى حين من محاسن الدولة الفاطمية (بالهودج) فكان للتسمية مغزاها في التشبيه بالهودج الذي هو خباء السفر في البادية؛ وأنس روح البدوية الهائم مدى حين إلى الرياضة في (الهودج) والتمتع بمناظره الرائعة ونسماته العليلة بيد أنها لم تنس قط وهج القفر وسحر الفلاة

واليك فصلاً ممتعاً آخر من تلك القصة الغرامية الرفيعة. لقد ظفرت (العالية) بغزو قلب صاحب الخلافة والعرش، وغدت سيدة القصر والبلاط، ولكن ذلك لم يكن منتهى آمالها وسعادتها؛ ذلك لأن قلبها البدوي المضطرم كان يخفق منذ أيام البادية بهوى فتى من بني عمومتها يدعى ابن مياح، ربيت معه في الحي منذ الطفولة، وكان فتى رقيق الخلال وافر السحر، فلما حملت إلى قصر الخليفة لم تخمد في قلبها جذوة حبه، ولبثت في قصرها تتجه بخيالها إليه؛ وفي ذات يوم هزها الشوق إليه، فبعثت إليه من قصر الخليفة بهذه الأبيات

يا ابن مياح إليك المشتكى ... مالكٌ من بعدكم قد مُلكا
كنت في حبي مطاعاً آمراً ... نائلاً ما شئت منكم مدركا
فأنا الآن بقصر موصد ... لا أرى إلا حبيباً ممسكا
كم تثنينا بأغصان اللوا ... حيث لا نخشى علينا دركا
وتلاعبنا برملات الحمى ... حيثما شاء طليق سلكا

تقول الرواية، فأجابها ابن مياح بهذه الأبيات

بنت عمي والتي غذيتها ... بالهوى حتى علا واحتبكا
بحت بالشكوى وعندي ضعفها ... لو غدا ينفع فيها المشتكى
مالك الأمر إليه يشتكى ... هالك وهو الذي قد هلكا
شأن داود غدا في عصرنا ... مبدياً بالتيه ما قد ملكا

ثم تقول الرواية: ووقف الخليفة الآمر على سر هذه المراسلة وقرأ أبيات ابن مياح، فقال لو أنه لم يسئ إليه في البيت الرابع لرد الجارية إلى حبه وزوجها منه

وأثارت هذه القصة نفس شاعر معاصر من بني طيء يدعى طراد بن مهلهل، فنظم

أبياتاً ينحى فيها على الآمر باللائمة ويخاطبه بما يأتي:
ألا بلغوا الآمر المصطفى ... مقال طراد ونعم المقال
قطعت الأليفين عن ألفة ... بها سحر الحي بين الرجال
كذا كان آباؤك الأقدمون؟ ... سألت فقل لي جواب السؤال
فغضب الآمر حينما وقف على هذا الشعر، وقال جواب السائل قطع لسانه على فضوله، وبعث في طلب طراد في أحياء العرب، ففر منه واختفى
ولبث الآمر بعد ذلك أعواماً؛ يطلق العنان لأهوائه، وينعم إلى جانب حبيبته العالية، ويتردد معها إلى متنزه الهودج. وكان الآمر يثير سخط فريق من الزعماء ورجال الدولة بما جنح إليه من تمكين النصارى من مناصب الثقة والنفوذ، وما كان يمعن فيه من اللهو والبذخ والاستهتار بالرسوم والتقاليد، ففي ذات يوم من أيام ذي القعدة سنة 524هـ (1130م) ركب من القصر كعادته إلى الهودج للتنزه، فلما وصل إلى رأس الجسر الموصل إلى الهودج وثب عليه قوم قد كمنوا له. وأثخنوه طعناً بخناجرهم، فحمل جريحاً إلى قصر اللؤلؤة على مقربة من مكان الجريمة، ولكنه لم يلبث أن توفي، ولم يجاوز الخامسة والثلاثين
وكان الآمر بأحكام الله شاعراً مجيداً، وله نظم قوي مؤثر فمن نظمه قوله:
دع اللوم عني لست مني بموثق ... فلابد لي من صدمة المتحقق
وأسقي جيادي من فرات ودجلة ... وأجمع شمل الدين بعد التفرق
تلك هي قصة الآمر بأحكام الله مع حبيبته العالية، وهي قصة تجمع بين حقائق التاريخ ومتاع القصة؛ ولا ريب أن الرواية قد أسبغت عليها حواشي وألواناً خلابة مصدرها الخيال الشائق، بيد أنها تحتفظ مع ذلك بطابعها التاريخي. ولقد عرج كثير من كتاب المسرح عندنا على بعض الوقائع والمآسي التاريخية واتخذوها موضوعاً لمسرحياتهم، بيد أنها قلما تتمتع بذلك الطابع الروائي الخلاب الذي تتمتع به قصة الآمر بأحكام الله مع حبيبته العالية، ألم يقف أحدهم بتلك القصة الفاطمية الشائقة التي وقعت بمصر في ظل خلافة تنثر من حولها آيات الفخامة والبذخ الرائع؟ إن صحف التاريخ الإسلامي تقدم إلينا كثيراً من هذا القصص الرقيق المؤثر، فهلا فكر كتاب المسرح في ورود هذا المنهل الغزير والاقتباس من طرائفه؛ وإن المسرح المصري ليبدو أروع وأبدع، وأوفر سحراً وفتنة إذا استطاع كتابنا أن يتحفوه ببعض هذه المناظر القومية الشائقة التي تبد في ألوانها، وفي روعتها وبهائها كثيراً مما ينقلون إلينا من تراث المسرح الغربي
محمد عبد الله عنان

حول مجمع اللغة العربية الملكي

هل لمجمع اللغة العربية وضع المصطلحات العلمية؟

للأديب مصطفى زيور

نشرت الأهرام في عددها الصادر في السادس من شهر مارس سنة 1937 كلمة للكاتب الفاضل إسماعيل مظهر يناقش فيها حديثاً مع مندوب الأهرام لعميد كلية الآداب الدكتور طه حسين بك بشأن مجمع اللغة العربية ومهمته التي يجب (في رأي الأستاذ العميد) ألا يكون منها وضع المصطلحات العلمية. وما كنت لأزج بنفسي في هذه المناقشات - فلست من المضطلعين بعلم اللغة - لولا ما تبينته في كلمة الكاتب الفاضل إسماعيل مظهر من إغفال حقيقة أولية أخشى أن تكون فاتت أعضاء المجمع المحترمين، بل اليقين إنها فاتتهم لأن موقف المجمع منها يدل على ذلك، فكان في ذلك الخطر وكان في ذلك ما دفعني إلى كتابة هذا.

ساق الكاتب الفاضل إسماعيل مظهر في كلمته رداً على رأي الأستاذ العميد الحجة الآتية التي يستهلها بقوله: (إن حضرة الأستاذ العميد يحاول أن يثبت أن لمجامع اللغة طبيعة واحدة لا تختلف باختلاف الشعوب واللغات وظروف الأحوال فمضى يطبق القواعد التي يجري عليها مجمع اللغة الفرنسي. . . كأن الطبيعة والتاريخ لا حساب لهما في قياس الفارق بين اللغتين وحال الشعبين. . .) إذن ففي رأي الفاضل إسماعيل مظهر أن الظروف الملابسة لمجمع اللغة العربية تختلف عن ظروف المجمع الفرنسي بحيث تجعل مجمع اللغة العربية في حل من أن يتقيد بمسلك المجمع الفرنسي في الإحجام عن معالجة وضع المصطلحات العلمية. أما هذا الفارق في الملابسات فيتلخص في رأي الكاتب الفاضل في أنه إذا كان للفرنسي المشتغل

بالعمل أن يضع الاصطلاح العلمي دون أن يكون لمجمع اللغة في بلده إلا أن يسجل الاصطلاح فذلك لأنه ينشأ في مهده يسمع اللغة الفرنسية الصحيحة ثم هو يدرس بعد ذلك اللغتين اللاتينية واليونانية، فهو إذن قادر على الاشتقاق والنحت واغلب الظن أن المصطلح الذي يضعه لا غبار عليه، هذا بينما نحن في مصر لا نسمع في طفولتنا إلا العامية ولا نحصل من اللغة الفصيحة بعد ذلك في المعاهد إلا قدراً لا يغني ولا يمكن المشتغل بالعلم أن يقوم بذلك العمل الفقهي دون مساعدة المجمع. والنتيجة المنطقية من هذا كله في رأي الكاتب الفاضل كما يقول في مكان آخر من كلمته (إن طبيعة لغتنا والظرف القائم فينا يجعل من أوليات المهام التي يجب أن يباشرها مجمع اللغة العربية النظر في وضع المصطلحات العربية الصحيحة).

ولست أريد أن أناقش هنا هذه الحجة والنتيجة المستخلصة منها، لأنه من الواضح أن هذا القياس كله يقوم على زعم اقتنع به الكاتب الفاضل: وهو أنه إذا اجتمع لمجمع لغة ظروف بعينها فعليه أن يقوم بوضع المصطلحات العلمية، وهذا هو ما أنكره أنكر أن يقوم مجمع لغة مهما يكن وفي أي بلد يكون ومهما تكن الظروف بوضع اصطلاح علمي. ومع احترامي الشديد لأعضاء مجمعنا الموقرين - ومنهم من كان لي أستاذاً بل ومنهم من تربطني به صلات هي أوثق من صلة التلميذ بأستاذه - فإنني لا أخفي أن في إنكاري هذا إنكاراً لمجموع مجهودهم إزاء المصطلحات العلمية؛ فإن ثمة حقيقة أولية هي من الخطر بحيث لا ينبغي السكوت عليها: لا يختلف اثنان في أن مهمة مجمع اللغة العربية هي العناية باللغة العربية - بصرف النظر الآن عن الطريق التي يسلكها إلى ذلك - كما أن مهمة مجمع اللغة الفرنسية هي العناية باللغة الفرنسية، وليس لأحدهما أن يعني بلغة غير اللغة المنوط به أمرها. فإذا كان الأمر كذلك فإن هناك حقيقة أولية هي أن لغة العلم لغة دولية مستقلة لا شأن لها باللغة العربية ولا شأن لها بغيرها من اللغات، هذا هو موضوع كلمتي هذه.

تصفح معجماً فرنسياً متداولاً مثل (لاروس) ثم تصفح معجما إنجليزياً متداولاً مثل (تشيمبرسز) ثم تصفح معجماً ألمانياً متداولاً مثل (سكس فيلات) فلن تجد كلمة (كروموسوم) التي تجنى الكاتب الفاضل إسماعيل مظهر على أساتذة كلية العلوم المصرية بأن المجمع أوجد لها لفظاً عربياً، فإذا أردت الآن أن تتصفح معجماً علمياً مطبوعاً في فرنسا أو إنجلترا أو ألمانيا أو غيرها من البلاد وجدت كلمة (كرومسوم) هي هي يستعملها العالم الفرنسي والإنجليزي والألماني على السواء. هل يريدني الكاتب الفاضل أن أعلق على هذه الحقيقة؟ كروموسوم التي ترجمها مجمع اللغة العربية بكلمة (صبغي) ليست فرنسية ولا ألمانية ولا إنجليزية بل ولا يونانية؛ نعم لا أرسطو ولا معاصروه يعرفونها، ولا سكان اليونان الحاليون من غير المشتغلين بالعلم يعرفونها، هي ربط تحكمي بين أصلين يونانيين قديميين أي لون وأي جسم، ربط

لم يكن الداعي إليه كما زعم الكاتب الفاضل عجز لغة واضع الاصطلاح عن إسعافه بلفظ يؤدي المراد. وإلا فقل لي يا سيدي هل عجزت إحدى هذه اللغات الأوربية عن لفظة تقابل لفظة صبغي؟

يخيل إلي أن القاعدة الأساسية التي قامت عليها حركة اشتقاق المصطلحات العلمية من اليونانية القديمة واللاتينية هي التي فاتنا فهمها في مصر. لم يكن عجز اللغات الأوروبية الحديثة ولكن إرادة التخصيص والتمييز لمعان جديدة بينها وبين الألفاظ المتداولة بعض الصلات هو الدافع إلى خلق ألفاظ إذا كانت أعجمية بالنسبة إلى اللغة العربية فهي كذلك أعجمية بالنسبة لغيرها من اللغات الحية، لقد فهم هذا اليابان والروس فاتخذ علماؤهم هذه الألفاظ العلمية التي لا صلة للغاتهم بأصولها اليونانية أو اللاتينية واستعملوها كغيرهم من العلماء. إذن فليس في انحدار اللغة الفرنسية أو الإنجليزية من اليونانية واللاتينية، وليس تلقي الطالب الفرنسي هذه اللغات القديمة في المعاهد ما يفسر تعميم استعمال هذه المصطلحات في أوروبا، فإن شعوب الأرض قاطبة من المغول إلى الصقالبة إلى الجرمان إلى الانجلوسكسون إلى اللاتين جميعها تقول كروموسوم. فهل يراد بعلماء مصر أن ينفردوا عن سكان الأرض طراً ويقولوا صبغي؟ ألا يفسر لك هذا يا سيدي أن كثيرين من أهل الذكر من العلماء في مصر - كما قلت في كلمتك - لم يكونوا على استعداد للتضحية في سبيل اللغة فضنوا

بمجهودهم على المجمع. ألا ترى أنهم تبينوا أنه تطلب منهم التضحية من حيث لا محل للتضحية لا للغة ولا لغير اللغة.

قلت لابد أن هذه الحقيقة الأولية حقيقة وحدة لغة العلم قد فاتت أعضاء مجمع اللغة العربية المحترمين، فذهبوا يترجمون لا من الفرنسية ولا الإنجليزية بل من لغة العلم إلى العربية! فإذا كان الباعث الرئيسي الذي دفعهم إلى ذلك هو إرادة استبعاد ما سموه بالألفاظ الأعجمية واستبدلها بألفاظ تسيغها عبقرية اللغة العربية فهم لا شك لن يستثنوا من عملية (التطهير) هذه لفظاً دون غيره.

فإذا كان الأمر كذلك وقد ترجموا كروموسوم بصبغي فقد بقي لدينا عدة مصطلحات أخرى كلها مشتقة من الأصل اليوناني فلدينا مثلاً (كروماتين) وهي كما يعرف الكاتب الفاضل

إسماعيل مظهر تلك المادة ذات التلوين القاعدي غالباً الموجود داخل نواة الخلية؛ ثم لدينا (كروم) وهو المعدن المعروف بباهر لون مركباته، ثم لدينا (كروما) وهي وحدة إدراك الألوان في البصريات لا أجهل أن عبقرية أعضاء المجمع المحترمين لن يعوزها ترجمة كروماتين ولكن ما القول في الكروم. أيترجم هذا أيضاً وهو اسم علم لمعدن لم يعرفه العرب؟ إذن يجب ترجمة البلاتين ثم الراديوم والمزوتوريوم إلى آخر سلسلة المعادن ذات الإشعاع، وكذلك الكلور والبروم واليود والبور الخ. ولكن هذه الكيمياء اللعينة لها مشكلة أدهى وأمر: هي المركبات العضوية التي يتألف اسم الواحدة منها من خمسة أصول يونانية أو أكثر كل منها يدل على وظيفة كيميائية يجب ذكرها، ولكني أترك الكيمياء لحظة حتى ننتهي من هذا الحوار حول ترجمة المصطلحات المختلفة المشتقة من الأصل اليوناني ذكرت لك أن وحدة الألوان هي كروما، فهل ينبغي تمشياً مع عملية التطهير ترجمة هذه الوحدة أيضاً كما ترجم بعض أعضاء المجمع المتر والياردة؟! وإذا كان الأمر كذلك فإنه ينبغي أن نترجم الوحدات الفيزيقية الأخرى مثل (دين) و (ديوبتري) ثم (فلت) و (أمبير) و (وات) الخ، ولكن مهلاً! إنك تعرف يا سيدي أن هذه الوحدات الأخيرة هي أسماء لعلماء كانت حياتهم وقفاً على خير الإنسانية، فأراد القوم أن يخلدوهم بتسجيل أسمائهم وحدات عالمية. ولا أخالك تجهل أن أحداً من المشتغلين بالعلم والعارفين فضل هؤلاء العلماء لن يقبل أن يسمع حتى الجدال حول ترجمة هذه الوحدات، بل أثق ولا أشك أنك تثق معي أنه مهما شرع المجمع ومهما صدرت القوانين الصارمة بتحريم استعمال هذه الألفاظ (الأعجمية) فسيكون موقف العلماء في مصر كموقف جاليلي حينما أرغم على القول بأن الأرض ساكنة ثم لم يلبث أن قال (ورغماً عن ذلك فإنها تدور) ,

إذن فلابد لنا - ورغماً عن أنفنا - من ألفاظ أعجمية. ولكن ماذا؟ أيذهب بنا الطهر اللغوي أن نكون ملكيين أكثر من الملك فننسى أن العرب أنفسهم لم يأنفوا من هذه الألفاظ الأعجمية! وإلا فما قولك في مصطلحات مثل فلسفة وكيمياء وقاطيغورياس وكلها يونانية محضة؟ وما قولك في هذا المجمع الفرنسي الذي يقبل ويسجل , , وكلها عربية محضة؟ ثم ما قولك في هؤلاء العلماء الغربيين الذين يقبلون ويستعملون اسم هذا الدواء الذي حضره الأستاذ الدكتور خليل عبد الخالق وسماه فؤادين تيمناً باسم المغفور له فؤاد الأول

وهو اسم أعجمي بالنسبة لهم ولا تزكيه دلالة علمية؟ ثم هذه المصطلحات الألمانية المحضة مثل (ماستزلن) وغيرها المستعملة في علم الأنسجة في فرنسا وإنجلترا. وهذه المصطلحات التي تسمها سمة يابانية و. . . وبعد فإنه مهما يكن من الأصل الذي اشتق منه الاصطلاح العلمي فإنه إذا كتب له البقاء - وليس هذا متوقفاً على صحته من الوجهة الفقهية فهذه كلمة (بكتيريا) ومعناها في اليونانية عصا أي جسم مستطيل ومع هذا فإنهم يقولون بكتيريا مستديرة مثل (ستافيلوكوكاس) وهذه هي وهي مزج يتعارض مع أبسط قواعد الفقه اللغوي بين اصل يوناني أي دم واصل لاتيني أي زراعة - أقول إذا كتب لمصطلح البقاء فإنه يأخذ مكانه في لغة العلم (بوضع اليد) ويفرض نفسه على الاستعمال مهما كان فيه من خطأ فقهي لأنه نشأ عن مبدأ انفردت به لغة العلم وهو التخصيص والتمييز كما قلت آنفاً لمعنى جديد يشترك في بعض صفاته مع معان متداولة، فهم عندما قالوا (أنابولزم) لم تعوزهم كلمة في اللغات الحية تقابل (البناء) التي وضعها مجمع اللغة العربية ترجمة لأنابولزم، ولكنهم لاحظوا أنهم لو قالوا في

الفرنسية أو في الإنجليزية مثلاً فإنه يختلط الفهم بين هذه الألفاظ العامة وبين المعنى الجديد المراد تحديده. بل إن في المصطلحات العلمية معاني تشترك في بعض صفاتها مع مصطلحات أخرى، فهذه (فوتون) ذرة الضوء، وهذه كروما وحدة إدراك الألوان، وهذه ديوبتري وحدة الانكسار في البصريات، لا يخفى ما بينها من العلاقة، ثم ما بين الأولى وبين الذرات الأخرى (إلكترون) و (بوزيترون) الخ، فوجب التمييز والتحديد بالرجوع إلى أصول تجهلها اللغات القائمة.

وليس هذا كل شيء، فهناك أيضاً إرادة مزج معنيين أو أكثر في لفظة واحدة على أن تكون هذه المعاني واضحة تذكرها جميعاً إذا ما ذكر الاصطلاح. ويبدو هذا واضحاً في الكيمياء العضوية وليكن على سبيل المثال المركب وهي (البيراميدون) المستعملة في علم الأقرباذين ضد الحمى؛ فأنت ترى أن هناك خمسة وظائف كيميائية يجب ذكرها جميعاً عند التعبير كيميائياً. وليسمح لي الكاتب الفاضل بشيء من الفضول لأسأله كيف السبيل إلى ترجمة مثل هذه العبارات الفنية إذا بقي لدينا شيء من الإخلاص للعلم.

وهلا يضن أن مثل هذه العبارات ليست أعجمية بالنسبة للغات الأوربية. ولكننا لم نسمع أن مجمعاً من مجامع اللغة في أوروبا أو في غيرها شن الغارة عليها بدعوى أن هناك غزوة ألفاضه أعجمية ضد

اللغات الحية لأنه لم يقل أحد أن هذه المصطلحات لها شأن ما بلغة من اللغات.

وأخيراً فأنا لا أجهل أن لغة العلم لم تصل بعد إلى الوحدة المنشودة لها من العلماء فمازال كثير من المصطلحات يختلف باختلاف اللغات، ولكن أغلب المصطلحات التي من هذا النوع والمستعارة من اللغات الحية رأساً قديم قليل التوفيق يترجم إما عن حركة علمية موضعية وإما عن اختلاف في الرأي العلمي نفسه أو على الأقل عن وجهة نظر مختلفة؛ فهذا شلل الطفولة الفقري يدعى حياناً (تفروميليت) وأحياناً (بوليوميليت) وأحياناً أخرى (مرض هاين مدن) الخ. على أن هناك مجهوداً متصلاً في استبعاد هذه الألفاظ (الأعجمية) عن لغة العلم، ومن أجل هذا تنعقد المؤتمرات الدولية بين العلماء المختصين من البلاد المختلفة؛ وفي هذه المؤتمرات - وفيها وحدها لا في مجامع اللغة - يقترح اصطلاح جديد دولي يحل محل المصطلحات المتعددة بتعدد اللغات، ولا يخفى أن نجاح هذه المصطلحات الجديد متوقف على التقدم العلمي الذي يوحد بين الآراء؛ فهذا هو مؤتمر الكيمياء العضوية قد أقر مثلاً لفظة (جلوسيد) لتحل محل هدرات الكربون ومرادفاتها: المواد النشوية والمواد السكرية، وذلك بعد أن تبين أن جميع هذه المصطلحات التي كانت تختلف باختلاف اللغة قليلة التوفيق بل تعبر عن خطأ علمي، وبالمثل في (ليبيد) التي حلت محل الإنجليزية والفرنسية، ثم (بروتيد) التي حلت محل المواد الزلالية وزميلتها المواد البروتينية الخ. وهكذا فقد أصبحت لغة الكيمياء موحدة في جميع بلاد العالم. وقد تم مثل ذلك التوحيد في لغة العلم في كثير من فروع التاريخ الطبيعي. ثم هذه هي المؤتمرات الدولية يعقدها الفلاسفة وعلماء وظائف الأعضاء لهذا الغرض. ثم المعاجم الدولية في فروع الطب يشترك في تحريرها علماء من البلاد المختلفة للتقريب بين المصطلحات تمهيداً لتوحيدها.

والآن إذا كانت الحاجة ماسة، والرغبة تفي ترجمة الكتب العلمية الأجنبية إلى اللغة العربية ملحة، فلا بأس من ترجمة الألفاظ التي لا زالت تختلف باختلاف اللغات. ولنضرب مثلاً لذلك بالجهاز الذي يحول الشعاع الضوئي إلى تيار كهربائي والمسمى بالفرنسية - وبالإنجليزية - وبالألمانية فأنت ترى أن الكلمة التي تختلف هي , , فيمكننا أن نقول في مصر خلية فوتو ألكتريك؛ ولكن حتى ترجمة مثل هذه الكلمة ليس من شأن مجمع اللغة بل هذا من شأن المشتغلين بالعلم. ولست في ذلك متعنتاً لأن هذه الترجمة تتطلب

مجهوداً علمياً شاقاً إذ أن هذه الكلمات التي تختلف باختلاف اللغات تدل في كثير من الأحيان على اضطراب علمي وانقسام في الرأي بين المدارس المختلفة. وقد رأينا مجمع اللغة العربية يختصر طريقه في ذلك فاعتمد في ترجمته على الكلمات الإنجليزية - ومنها ما بطل استعماله - كما لو لم تكن هناك حركات علمية في غير إنجلترا

أما قول الكاتب الفاضل إنه يذهب (إلى أن من الواجب ألا تجيز وزارة المعارف كتاباً ليدرس في المدارس وعلى الأخص كتب العلم، من غير أن يجيزه المجمع من حيث

اللغة ومن حيث المصطلحات فليس فيه قلب للأوضاع فحسب، بل هو مؤد إذا أخذ بمثل هذا الرأي الذي يفوح برجعية القرون الوسطى - وليعذرني الكاتب الفاضل فقد جاوز قوله هذا كل حد - إلى حالة من الركود والشلل، فسيقفل باب الاجتهاد في وجه العلماء الذين يعرفون مادتهم دون غيرهم أو على الأقل خيراً من غيرهم، وسيرى كل مؤلف نفسه مقيداً بأوضاع من التعبير جامدة هي ما شرع المجمع، عليه أن يصب مادته فيها إذا أراد أن ينال حظوة محكمة المجمع مهما كان في ذلك تشويه لفكره وبعد هذا نعجب كيف يتقدم القوم في أوربا بخطى المارد في سبيل الثقافة والمدنية بينما نحن نتخبط، نتقدم خطوة ونرجع القهقرى خطوات! كلا يا سيدي، ما بهذا يمكن إحياء اللغة والعناية بصفائها، وليس يجيز لك حرصك على ألا تقتل الأعجمية المزعومة ما سميته بأدب العلم أن تلوح بهذه القيود الرجعية، بل أنا زعم أن جريمة القتل هي أن تشرع مثل هذه القيود، وجريمة القتل أن تستبعد لغة العلم من مصر ويستبدل بها ألفاظ لا خير فيها. لست أجهل أن الحرية المطلقة هي نوع من الفوضى ولكني موقن من جهة أخرى أن البقاء للصالح؛ فكل مؤلف وكل وضع من أوضاع التعبير الجديد يحمل في طياته الحكم عليه بالبقاء أو الزوال

فإذا كان الأديب الفاضل إسماعيل مظهر يرى أن المشتغلين بالعلم في مصر غير قادرين على الاجتهاد، لا يصلحون للتأليف، ومهما يكن من حقيقة حكمه هذا، فإن ذلك لا يخول لمجمع اللغة أن ينسى تلك الحقيقة الأولية التي أشرت إليها آنفاً والتي عبر عنها بعض الناس بأن العلم مجموعة من مصطلحات خاصة أشبه بالرموز تكون لغة مستقلة قائمة بذاتها إذا تفهمتها فقد تفهمت العلم. حسن أن يبدو من مجمع اللغة حرصه على تقدمك العلم

في مصر، ولكن الطريق التي يسلكها إلى ذلك هي التي أنكرها عليه، لأن إشفاقه من غزوة الأعجمية المزعومة للغة الضاد إشفاق وهمي، فلن يضيرها أن يكتب مؤلف (سيتوبلازما) بدلاً من حشوة التي وضعها المجمع فيتكلف الناس من المشتغلين بالعلم في مصر استضهار معجم من الألفاظ العربية إلى جانب المعجم الدولي الذي لا يمكن الاستغناء عنه إذا اردنا تتبع العلم في تطوره. وقد درجنا ودرجت من قبلنا ومن بعدنا عشرات الأجيال من الطلبة والأساتذة في المعاهد المصرية على استعمال مصطلحات (ستاتيكا) ودنيابيكا) و (كلور) و (مثيلين) و (بروتوبلازما) وغيرها من المصطلحات الدولية، فكنا نعالج استعمالها في غير شعور بما يسمى بالأعجمية، كما كنا نستعمل ألفاظاً مثل تشيكوسلوفاكيا واستكهلم ومترنيخ سواء بسواء، بل ما كنا نجد في كل هذا من الغرابة ما كنا نجد في تلك الألفاظ التي كانوا يضعونها في حافظاتنا مثل افرنقع وغضنفر واسحنفر وغيرها من الألفاظ التي كنا نستعيذ بالله من وحشيتها. قل ما شئت في قيمة الثقافة اللغوية لخريجي المعاهد المصرية فالعبرة بعد كل شيء في الحكم على صلاحية لفظ أو عبارة بحظها لدى ذوق الجمهور من الخاصة أو من العامة، فهذه مسرة وبرق يعرفهما كل الناس ولا يستعملهما أحد، فتقرأ في أكبر الصحف العربية تلغرافات كذا الخصوصية، وتليفون رقم كذا؛ أقول ذلك لأني لا أومن بأن اللغة غاية في ذاتها بل هي أداة، وهي باعتبارها كذلك لا يمكن أن يكون المرجع فيها إلى مجلس يشرع بل إلى ذوق جمهور يستسيغ أو يعرض

وفي النهاية إذا كان لابد لمجمع اللغة أن يساهم في النهضة العلمية في مصر فليكن ذلك عن طريق ما أنشئ له أو ما كان يجب أن ينشأ من أجله، وأقصد العناية باللغة من حيث هي، ففي كتب العلم شيء آخر غير المصطلحات. هناك العبارة اللغوية والأسلوب، ومهما كانت الأسباب فنهاك حقيقة يعرفها ويتألم لها كثير من المشتغلين بالعلم في مصر، وهي أن العبارة من اللغة الأجنبية التي لم يدرسوها إلا سنوات محدودة بالنسبة للغة العربية تواتيهم في سهولة توئسهم في لغتهم، فليكن سبيل المجمع إلى إصلاح هذا الحال: حال ضعف اللغة العربية عند أهلها. ليكن نشاطه في البحث عما يقوم لسان الكتاب والمؤلفين إذا تكلموا أو كتبوا عن طريق عملي يجعل من اللغة العربية لغة سهلة التناول في مستوى اللغات الحية الأخرى. أما المصطلحات العلمية، وأما لغة العلم فهذه شأنها إلى العلماء

باريس 13 مارس 1937

مصطفى زبور

في الأدب المقارن
الذاتي والموضوعي في الأدبين العربي والإنجليزي
للأستاذ فخري أبو السعود

تتأثر النفس الإنسانية بكل ما تحس من مظاهر الحياة، فإذا ما عبر المرء عن تأثره ذاك نثراً أو نظماً في لفظ نقي، كان تعبيره ذاك أدباً، فالأدب نتاج عاملين: مؤثر هو مظاهر الحياة التي تحفز الأديب إلى الإنشاء، ويتخذها موضوعاً لإنشائه، ومتأثر هو ذات الأديب التي يترجم القول المنظوم أو المنثور عن خوالجها، وليس يخلو عمل أدبي من آثار هذين العاملين ممتزجين، فكل عمل أدبي هو ذاتي وهو موضوعي، غير أن الأعمال الأدبية تتفاوت حظاً من هذا ونصيباً من ذاك، فإذا استرسل الأديب في وصف ما هو بازائه من مظاهر الحياة وشرح أحوالها على علاتها، مكفكفاً من عنان عواطفه محكماً دونها الفكر، كان العمل الأدبي موضوعياً، وإن أرخى الأديب العنان لعواطفه ملماً بالموقف الذي هو حياله إلماماً خفيفاً، كان عمله الأدبي ذاتياً.

فمظاهر الحياة المختلفة هي مادة الأدب لأنها مادة الإحساس والتفكير، وبدونها لا يتصور تفكير ولا شعور، ولا تكون النفس إلا خواء تاماً ولا الفكر إلا فضاء مطلقاً؛ والنفس الإنسانية هي العامل الفعال الذي يعكس صور مظاهر الحياة تلك، ويمنحها من الصفات ما يروق المرء حيناً ويطربه ويحببه فيها، وما يسوؤه حيناً ويؤلمه ويبغضه في بعض تلك المظاهر، والأديب مهما توفر على موضوعه الذي هو بصدده، ومهما كان موضوعه ذاك بعيداً عن نفسه وعن محيطه وزمنه، ومهما حكم فيه الفكر السليم والرأي المنزه، لا يخلو من أن يكون معبراً في عمله الأدبي عن ذاته، مصدراً عن طبيعته، وهي طبيعة يتفق فيها مع الآخرين إلى مدى، ويختلف عنهم في بعض نواحيها.

بل لا يعدو الحق من يقول إن الأديب لا يزيد مدى حياته على أن يعرض نفسه على قرائه، مهما تباينت موضوعاته وتعددت أشكال أدبه، فسواء راح مادحاً أو ذاماً أو واصفاً أو قاصاً، أو ملاحظاً لأحوال الناس أو متأملاً في ماضيهم ومستقبلهم، فهو لا يعدو محيط نفسه وتجاربه وعواطفه؛ بل إن بعض كبار الأدباء إنما بلغوا أوج نجاحهم الأدبي في العمل الأدبي الذي يصف كل منهم فيه قصة حياته، أو أهم تجربة من تجاربه، أو أزمة نفسية

عبرت به، كما قص لامرتين قصة حبه في (رفائيل)، وكما وصف كل من شاتوبريان وأناتول فرانس نشأته في آثاره الأدبية، وكما وصف تشارلز دكنز قصة طفولته في (دافيد كوبر فيلد)؛ وبلغ القصصيون ذروة نجاحهم في قصصهم التي كان أبطالها صوراً من أنفسهم أو من بعض حالاتهم النفسية، كما كان جيته فاوست، وكما كان أناتول فرانس بعض أشخاص كل رواياته

وأناتول فرانس نفسه يقول إننا لا نكتب إلا عن أنفسنا، ويزيد فيقول إننا لا نقرأ حين نقرأ إلا أنفسنا. ولا غرو فالمرء لا يدمن إلا قراءة الضرب الذي يعجبه من القول ويصادف هوى في فؤاده، ولا يصطفي من الكتاب إلا من يشاكله نفساً، وهو حتى حين يقرأ موضوعاته الأثيرة من آثار أدبائه المختارين يصبغ كل ما يقرأ بصبغة نفسه ويؤوله على حسب إدراكه وطبعه، ويستخلص منه ما قد لا يستخلصه غيره، وما لعل المنشئ نفسه لم يقصده، والناس إنما يقرأون الشاعر أو الكاتب وهو يتحدث عن نفسه لأنهم يرون في نفسه صورة من أنفسهم، وفي ذاته صدى من ذواتهم، فإذا ألفوه قد أغرب وباعد بين ما يصف وما يحسون نبذوه واستهجنوه، ولم يعنهم مما يصف من أحوال ذاته التي لا يحسونها في ذواتهم، أكثر مما يعنيهم من أحوال معيشته الخاصة ومطعمه وملبسه

والذاتي في أدب اللغة أسبق ظهوراً من الموضوعي: يبدأ الأدب في عهده الأول بتعبير الإنسان عن خواطره العاجلة وأحاسيسه السانحة وتجاريبه الحاضرة، يرسل ذلك على سجيته وبديهته قولاً سائراً أو أبياتاً شاردة، لم يعد لها العدة ولا تكلف فيها عناء طويلاً، ويرقى الأدب رقياً كبيراً وما تزال الصبغة الذاتية هي السائدة فيه، وتظل له هذه الصبغة مادام قريباً من البداوة غير آخذ أهله بشيء من الثقافة أو مقيدين لآدابهم بالكتابة؛ فإذا ما انتفع الأدب بالثقافة والتدوين ظهر فيه الضرب الموضوعي، إذ تتسع أفكار الأدباء ويمتد أفق نظراتهم ويقصدون التأمل في شؤون الحياة قصداً، غير منتظرين التجارب التي تسنح عرضاً، ويطلبون من مناحي الحياة ومذاهب التفكير

الأبعد فالأبعد، فتزاحم الصفة الموضوعية الصفة الذاتية
فغزارة الضرب الموضوعي في الأدب من لوازم رقيه ووصوله إلى الطور الفني، بيد أن العنصر الذاتي لا يمحى ببلوغ الأدب هذا الطور، بل يبقى ويزداد رقياً وحرارة وعمقاً،
ويظل صدقه وعمقه وحرارته خير مقياس لصدق الأدب ورقيه، ويقترن ضعفه وتلاشيه بضعف الأدب وفتور العاطفة فيه وتغلب اللفظ على الشعور الصحيح؛ ففي عصور تدهور الأدب يسود الضرب الموضوعي، وتنفق موضوعات بذاتها يصطلح الأدباء على طرقها على أساليب مخصوصة لا يعدلون عنها، ويكفكفون عواطفهم الذاتية، فلا يكاد يتميز واحد منهم عن الآخر في السمات والميول؛ فالضرب الموضوعي يظهر متأخراً عن الضرب الذاتي في الآداب، ثم يبقى متخلفاً عنه عند اضمحلال الأدب، يبقى على حال من الضعف والتكلف والإبهام
ولما كان الضرب الذاتي من الأدب أسبق إلى الظهور في تاريخ الأدب، كان مقترناً بالشعر الذي هو أسبق إلى الظهور من النثر الفني فالأدب في عهوده لا يكاد يزد على أن يكون شعراً ذاتياً، فإذا دخل الأدب طوره المتحضر الفني ظهر فيه النثر وظهر الضرب الموضوعي في الشعر والنثر معاً، بيد أن الشعر يظل دائماً متعلقاً بالضرب الذاتي، بينما يستأثر النثر منذ نشأته بالجانب الأكبر من الأدب الموضوعي؛ فالشعر لما له من مزايا الموسيقى والخيال أقدر على التعبير عن الوجدانيات، والنثر لما له من مزايا الرحب والدقة والتحرر من قيود الوزن والقافية أقدر على تتبع الوصف لموضوع الإنشاء، والإسهاب في شرح دقيقه وجليله؛ فإذا جمع أديب بين الصناعتين رأيته يندفع اندفاعاً تلقائياً إلى النظم، إذا حفزته ثورة نفسية متدفقة، وينساق بداهة إلى النثر إذا أراد التأمل الهادئ والتوسع في الشرح والاستقصاء؛ على أن هذا ليس بمانع أن يحتوي النثر أحياناً على بدائع من آثار الضرب الذاتي، وأن يشتمل الشعر على لطائف من آثار الضرب الموضوعي
ولما كان الشعر أشبه بالضرب الذاتي من الأدب، والنثر أقرب إلى الموضوعي، كان الشعراء بطبيعتهم أدباء ذاتيين أو أنانيين كما قد يلقبهم بعض المنكرين عليهم، وكان الكتاب أدباء موضوعيين، يتناولون من مجالات القول ما لا يمس أنفسهم وشخصياتهم إلا قليلاً، بينما لا يكاد بعض الشعراء يخوض في غير شؤون نفسه، من طرب وشجن وغضب ورضى وحب وبغض، حتى تلوح دواوين بعضهم كأنها صخب مستمر مزعج، أو بكاء طفل مدلل وضحكه يتتابعان بلا انقطاع، والبكاء أظهرهما جلبة والسخط والنقمة والشكوى أبين أثراً، فإذا فرغ الشاعر من صخبه وثورانه جاء الكاتب من بعده هادئاً وقوراً، بصرف
في شعره نظر الحكيم الخبير، ويحكم على شعره وخلقه وحياته وفهمه للدنيا حكم القاضي المتمكن، فلا يزال الشعراء يلوحون كأنهم فريق من المتهورين الأغرار، ولا يزال النقاد يظهرون في مسرح الراشدين الأكبر منهم سناً وخبرة بالأمور.
ولا يقتصر التفريق على الشعر والنثر في هذا الصدد، بل هناك أشكال من الأدب هي أصلح للذاتي وأخرى هي أوفق للموضوعي: فالقصة والترجمة والتاريخ والملحمة كلها ضروب موضوعية يتحدث فيها المنشئ عن غيره من رجال الحقيقة أو الخيال، ومن أبناء الحاضر أو الماضي، ويدرس حوادث لم يساهم فيها ولم يختص بها، وإن تكن لذاته في كل ذلك آثار تقل أو تكثر، والرسائل الإخوانية والمذكرات، والتراجم الشخصية والاعترافات وما جرى مجراها، كلها أشكال من الأدب ذاتية يخصصها الأديب لتحليل ذاته وعرض صور من حياته، وإن خالط ذلك شتى النظرات الموضوعية، أما المقالة فيتراوح حظها من كل من الضربين.
وكما تفترق أشكال الأدب وتتميز في هذا الصدد، كذلك تفترق وتتميز موضوعاته: فالوصف والمدح والهجاء والحكمة أقرب إلى الضرب الموضوعي من الفخر والحماسة والنسيب والشكوى، أما الرثاء فيجمع إلى وصف خلال المرثي وهو أمر موضوعي، وصف مشاعر الراثي وهي أشياء ذاتية؛ على أن مواضوعات الأدب هذه قلما ترد في أثر الأديب خالصة مستقلاً ذاتيها عن موضوعيها، بل يتمازج الضربان كما أن الأشكال الأدبية كثيراً ما تختلط، فيتصل بالأثر الأدبي الواحد الترجمة بالقصص مثلاً، ويمتزج الوصف بالنسيب، وتبدأ القصة أو القصيدة بوصف منظر وتنتهي بخواطر وجدانية، ومن

ثم تمتزج الذاتية والموضوعية في أكثر الآثار الأدبية.
ومن التعسف تفضيل ضرب من الاثنين على الآخر: فللذاتي من آثار الأدب محاسنه، وللموضوعي مزاياه، كما أن الشعر لا يفضل النثر ولا الأخير يرجح الأول، بل لكل فضائله ومواقفه ودواعيه؛ فالعمل الأدبي الذي ترين عليه مسحة الذاتية يروع بحرارته وإخلاصه وصراحته، ويشوق بكشفه عن نفس صاحبه وتحديده لشخصيته، كما تحد خطوط المصور شكل الصورة وجوانبها، ويروع بقدرة صاحبه على التأمل في نفسه وتوضيح خلجاتها، والضرب الموضوعي يسر إذ يعكس في صفحة الفن ما نشهد ونحس في عالم
المشاهدة والخبرة ويروع بقدرة الأديب المنشئ على الملاحظة والتقصي والتجرد من أهواء نفسه والتوفر على ما هو بصدده، لكل من الضربين مكانته وروعته ما اتفقت له صفتان: الصدق والعمق.
وكل من الأدبين العربي والإنجليزي حافل بآثار الذاتية والموضوعية في مختلف نواحيه) ترين هذه أو تلك على بعض آثاره أو تغلب على أدبائه، أو تظهر في بعض عصوره، أو تتجلى في أشكال منه وموضوعات دون أخرى، بيد أنه لاختلاف تاريخي الأمتين واختلاف ظهورهما في عصر الحضارة والثقافة، يحتل الطور الذي كان الأدب فيه ذاتياً عهداً مهماً من عهود تاريخ الأدب العربي قبل أن يظهر الضرب الموضوعي ويشيع في الأدب، على حين لم يتخلف في الأدب الإنجليزي من ذلك العهد شيء ذو بال، وإنما يبدأ تاريخ الأدب الإنجليزي الحديث من عهد اليزابث، والضربان الذاتي والموضوعي فرسا رهان في حلبته، بل كاد الضرب الموضوعي أن يستأثر بالصدارة في ذلك العصر.
ففي عهد الجاهلية وحقبة من الإسلام كان الأدب العربي - إذا استثني القرآن الكريم والحديث الشريف - أغلبه ذاتي الصبغة، وكان للشعر فيه المكانة العليا، وكان الشعراء دائبين يبدأون القول ويعيدونه فيما خالج أنفسهم من خواطر، أو مس حياتهم من قريب من حوادث، فامتلأ قصيدهم بالحماسة والنسيب والمنافرة والمهاجاة والفخر والتمدح بكريم السجايا، فلما توطدت الحضارة وشاعت الثقافة اتسعت جوانب الشعر وتعددت مجالاته، وظهر بجانبه النثر الفني، وتناول كلاهما موضوعي الشؤون بجانب ذاتيها، فكان من الفنون التي جدت في الشعر أو توسعت فيه الوصف المسهب والمدح المطنب، وتناول النثر رسائل الأمراء، كما جال الجاحظ والبديع وغيرهما في نواحي الحياة ومذاهب التفكير وأحوال الماضي وخصائص الأحياء وأخبار الأمم ووجوه النقد الأدبي، فغزرت في الأدب العربي منظومه ومنثوره في هذا الطور آثار الذاتية والموضوعية. يتحدث المتنبي مثلاً عن عظمته وفتوته ومطامحه وأشجانه، فيجيء شعره ذاتياً صادقاً رائعاً، ويمدح سيف الدولة أو سواه ويصف مآثره ومواقعه فيميل إلى الموضوعية؛ والأرجح أن الموضوعية كانت أظهر في هذا العصر، لرواج ضربين من القول موضوعيين عج بهما الأدب: عج الشعر بمدح الأمراء، وعج النثر برسائل الدواوين.
ذانك هما الطوران الأولان من أطوار الأدب العربي من جهة الذاتية والموضوعية: الطور الأول هو عهد نشأة الأدب الذي كانت الذاتية فيه غالبة، والثاني طور نضج الأدب الذي فيه اجتمع الضربان؛ أما الطور الثالث هو عهد اضمحلال الأدب تدريجاً، وهو طور تغلب الضرب الموضوعي وتلاشى الضرب الذاتي تدريجاً: جمد الأدب على موضوعات خاصة اصطفاها الأدباء، في مقدمتها المدح والهجاء - وعدوها وحدها مجال الأدب وشغل الأديب، وطرقوها على أساليب خاصة يتنازعهم في ممارستها عاملان الحرص على تقليد الأقدمين، والرغبة في إظهار البراعة بالتلاعب بالألفاظ والمعاني، أما المشاعر الذاتية الصادقة، والخصائص النفسية المميزة، فاختفت من الأدب، وحتى في شرح عواطفه كان أديب ذلك الطور مقلداً، لا يشرح عواطفه إلا على نحو خاص قد جرى به العرف، وحض عليه النقاد، وبذلك جاءت الآثار الذاتية نفسها موضوعية عامة مبهمة
ومن أحسن أمثلة الضرب الذاتي الصريح في الطور الأول قول عنترة:
فإذا ظلمت فإن ظلمي باسل ... مر مذاقته كطعم العلقم
وإذا شربت فإنني مستهلك ... مالي، وعرضي وافر لم يكلم
وإذا صحوت فما أقصر عن ندى ... وكما علمت شمائلي وتكرمي

ومن أمثلة أشعار الطور الثاني التي يمتزج فيها الذاتي والموضوعي قصيدة المتنبي التي يعاتب بها سيف الدولة) ومنها قوله:

مالي أكتم حباً قد برى جسدي ... وتدعي حب سيف الدولة الأمم
فوت العدو الذي يممته ظفر ... في طيه أسف في طيه نعم
صحبت في الفلوات الوحش منفرداً ... حتى تعجب مني القور والأكم

ومن أمثلة أدب الطور الثالث الذي طغت فيه الموضوعات المأثورة وطمست الشخصية الذاتية قول القائل:

وقفت بأطلال الأحبة سائلاً ... ودمعي يسقي ثم عهداً ومعهداً
ومن عجب أني أروي ديارهم ... وحظي منها حين أسألها الصدى

وكان للشعر المكانة الأولى في الأدب الإنجليزي في العصر الاليزابثي، وكان يتناول الضربين الذاتي والموضوعي من النظم، تختص بالأخير الروايات التمثيلية التي ازدهرت إذ ذاك ازدهاراً عظيماً، وتختص بالأول القصائد المرسلة طويلها وقصيرها؛ وفي القرن الثامن عشر هبط فاضمحلت فيه النزعة الذاتية، وأصبح أكثره موضوعياً مبهماً، واحتل مكانه النثر وشمل شتى النواحي الذاتية والموضوعية، ففي الأولى كتب كاولي وأديسون وستميل كثيراً من مقالاتهم، وفي الثانية كتب جيبون وبوزويل ورتشاردسون وديفو وآخرون لا يحصون كتبهم في التاريخ والترجمة والقصص والمغامرات. فلما كانت النهضة الرومانسية عادت للشعر أفضليته، وحفل بشتى الآثار الذاتية والموضوعية، بين وصف الطبيعة وسرد الخرافات الشائقة، ووصف تأثر النفس بهذه وتلك، وتمجيد الجمال وشرح أطوار الحب، ولم يزل الشعر والنثر منذ ذلك العهد فرسي رهان، يطرقان شتى المناحي بين ذاتيها وموضوعيها

بيد أن الذاتية مازالت منذ عهد شكسبير إلى العصر الحاضر تطغى على الموضوعية رويداً، وتستأثر شيئاً فشيئاً بالتفات الأدباء وتفوز بأشكال أدبية جديدة. ففي عهد شكسبير كان الروائي يحرك روايته حول أشخاص تاريخيين أو خرافيين بعيدين عنه بعداً كبيراً وفي القرن الثامن عشر عهد النثر الذهبي كان الأدباء يكتبون القصص يضمنونها من طرف خفي صوراً من حياتهم وجوانب من أنفسهم، فيكتب سمولت الأفاق قصة كونت فاثوم المغامر، ويكتب جولد سمث ابن القسيس قصة قس ويكفيلد التي ليست إلا حكاية عهد نشأته في أسرته، ثم يكتب تشارلز دكنز في القرن التالي قصة صباه في كتابه دافيد كوبر فيلد؛ ثم تزداد الذاتية بروزاً ويرفع الأدباء حجاب التخفي وينبذون الأسماء المستعارة، فيكتبون قصص نشأتهم ومذكرات رجولتهم وينشرونه رسائلهم وتراجمهم الشخصية، والأدب الإنجليزي المعاصر حافل بآثار هذه الذاتية السافرة

وقد امتازت بالذاتية الواضحة، أو الأنانية الأدبية، كثير من الأدباء الإنجليز، كانوا لا يملون التأمل في نفوسهم والتحدث عن ذواتهم صراحة أو تحت غشاء شفاف: فملتون يعرض لكوارثه وعماه ومبادئه السياسية والدينية والاجتماعية في ملاحمه الثلاث، ووردزورث يؤلف المطولات الشعرية في تصوير صباه وخواطره من طفولته إلى كهولته، وبيرون ينظم القصيدة تلو القصيدة ويصور البطل تلو البطل، ولا يزيد أن يتحدث عن نفسه وميوله وآرائه، وشلي يسمي نفسه (اريبل) باسم إله إغريقي، ويكتب عن نفسه تحت ذلك العنوان

أشعاراً، وكل من هازلت ولام يصور تصويراً دقيقاً أميناً ما يحس عند خروجه للرياضة على الأقدام أو حين سماعه النواقيس تتجاوب مؤذنة بانتهاء العام أو نحو ذلك ومن جهة أخرى نرى أدباء من أمثال جراي وكولردج ورسكن يستترون وراء حجاب من الوقار والتفكير الهادئ الشامل ويتحدثون مصورين أو قاصين أو ناقدين، عن غيرهم من رجال التاريخ والأساطير وأعلام الفن والأدب، فأكثر آثار هؤلاء موضوعية، وأكثر مؤلفات الأولين ذاتية؛ كما كان من الأدباء من أخذوا من كلا الضربين بنصيب وافر، ومن برزوا في مجالي الشعر والنثر، ومن أنهوا حياتهم الأدبية بإصدار تراجمهم الشخصية، ومن خلفوا في النقد آثاراً تباري آثارهم في النظم والإنشاء، أو تفوقها، مثل دريدن وماكولي وماثيو ارنولد

ويعد بعض المغالين تزايد هذه النزعة الذاتية في الأدب الإنجليزي علامة ضعف

وانحلال، ولا شك أن غلبة أحد العنصرين الذاتي أو الموضوعي على الأدب من دلائل نقصه، وإنما يكون رقيه مقترناً برقي العنصرين فيه معاً. يدل ما فيه من آثار الذاتية على صدق الشعور وعمق التأمل وتميز الشخصيات. ويدل ما فيه من آثار الموضوعية على شمول النظرة واتساع أفق التفكير وتناول الأدب لمختلف نواحي الحياة؟

فخري أبو السعود

من مشاكلنا الحاضرة

سؤال. . .

للأستاذ علي الطنطاوي

كنت أسمع من أبي والأشياخ من أهلي أه كان في بلدنا - فيما كان فيها من أوقاف كثيرة - وقف على المشتغلين بالعلم والمنقطعين إليه، يفتحون لهم بريعه المدارس الواسعة، ويعدون لهم الغرف المفروشة، ويهيئون لهم فيها المكتبات القيمة، ويقيمون لهم الخدم ويقدمون إليهم كل ما يحتاجون إليه من طعام وشراب وحلية ومتاع، ويفرغون قلوبهم من كل هم إلا هم الدرس والبحث، فكان الناس يرغبون في العلم، ويقبلون عليه ويبرزون فيه. .

ثم ذهب ذلك كله بذهاب أهله، وخلف من بعدهم خلف أضاعوا الأوقاف، وأكلوا . . . أموالها، فتهدمت هذه المدارس، وأمست خرائب وأطلالاً، ثم سرقها الناس فحولوها بيوتاً، وطمسوا آثارها. . .

فأعرض الناس عن العلم وزهدوا فيه، فقلنا: لا بأس، إنها قد تتحول تلك الدارس إلى دور عجزة، وقد تصير أحياناً ملجأ كسالى، ومأوى عاطلين، وعندنا المدارس الجديدة، تسير على منهج مقرر، ونظام معروف، وطريق واضح، فما نحن إلا كمن أضاع درهماً ووجد ديناراً. وأقبلنا على هذه المدارس، إقبال العطاشى على المنهل الصافي. ومنينا أنفسنا بكل جليل وجميل ولكنا لم نلبث أن خرجنا منها. وواجهنا الحياة حتى علمنا بأنها لم تقم بما كان يرجى منها ويجب عليها. . . ووجدنا أننا لا نصلح في هذه الحياة إلا لشيء واحد، هو (الوظيفة)؛ أما العمل الحر، والمغامرة في الحياة فنحن أبعد ما يكون امرؤ عنه؛ ووجدنا سبيل الوظيفة مسدوداً وكراسيها مملوءة؛ وكيف لا تكون كذلك وكل الناس يسعى إليها ويريدها؟ هل يكون أبناء الشعب كلهم موظفين؟ فكنا واحداً من رجلين: إما الغني الموسر فعاش بمال أبيه. وأقام منه سوراً حوله. فلا يرى الحياة، ولا تصل إليه بآلامها ومصائبها. وأما الفقير فيتخبط في لجة اليم: يم الحياة تضربه بأمواجها، فلا ينجو من لطمة إلا إلى لطمة، ولا يخلص من شقاء إلا إلى شقاء

وقد يكون في هؤلاء الفقراء موهوبين، وقد يكون فيهم ذوو الملكات، وفيهم من إذا استراح من هم العيش واشتغل بالعلم برز فيه وبرع، ونفع أمته ووطنه وخلف للأجيال الآتية تراثاً علمياً فخماً كالذي خلفه لنا الأجداد. . . فماذا يعمل هؤلاء؟ ومن أين لهم العقل الذي يدرسون به، والهمة التي يؤلفون بها، وعقولهم ضائعة في البحث عما يملأ معدهم الجائعة، ويستر أجسادهم العارية، وهممهم مصروفة إلى ضمان الكفاف، والحصول على ما يتبلغون به؟

لقد قال الشافعي رحمه الله منذ الزمن الأطول: لو كلفت شراء بصلة، ما تعلمت مسألة. . . فكيف يتعلم ويدرس ويؤلف من يكلف شراء الرغيف، وشراء ثمن الرغيف؟ إني أعرف كثيرين ممن يؤمل لهم أن يبرعوا في الأدب، ويتفوقوا في العلم. قدر الله عليهم الفقر والإفلاس، وعلق بأعناقهم أسراً عليهم إعالتها، والسعي في إعاشتها، فألقوا القلم والقرطاس، ورموا الدفتر والكتاب، وخرجوا يفتشون عن عمل. . . يطلبون وظيفة؛ غير ان الطريق إلى الوظيفة وعر ملتو طويل، لا يقدر على سلوكه، ولا يبلغ غايته، إلا من حمل معه تميمة من ورق (البنكنوت) يحرقها أمام أبواب الرؤساء لتخرج شياطينها فتفتح له الباب. أو صحب معه (الشفيع العريان) وأين من هذين الشاب النابغ المفلس الشريف؟ ثم إنه إذا بلغ الوظيفة وجدها لا تصلح له ولا يصلح لها، وضاقت به وضاق بها!

أعرف كثيرين من هؤلاء يظهرون فجأة كتاباً مجددين، وشعراء محسنين، وعلماء باحثين. فما هي إلا أن تنزل بهم الحاجة وتنيخ عليهم (هموم الخبز) حتى تقطعهم عما هم فيه، ثم تذوي ملكاتهم وتجفف قرائحهم وتتركهم يموتون على مهل، ويموت

بموتهم النبوغ، وأرباب الأقلام وأصحاب الصحف يشهدون مصارعهم في صمت وإعراض، لا يهتمون بهم، ولا يظنون أن عليهم واجباً تلقاءهم، حتى إذا قضوا قاموا يطنطنون بذكرهم ويشيدون بمواهبهم، ويركبون على قبورهم ليقولوا للناس: انظروا إلينا. . .

هذه هي علة الشرق.

إني عهدتك بعد الموت تندبني ... وفي حياتي ما زودتني زادي

ورحم الله القاضي عبد الوهاب المالكي، خرج من بغداد فخرج لوداعه عشرون ألفاً، يبكون وينتحبون فقال لهم: يا أهل بغداد، والله ما فارقتكم عن قلى ووالله لو وجدت عندكم عشاء ليلة ما فارقتكم، وهم يبكون وينتحبون ويصرخون: إنه يعز علينا فراقك، إننا نفديك بأرواحنا، يا شوقنا إليك! يا مصيبتنا بفقدك. . .!

هذه هي المسألة. . . أفليس هناك طريقة لإنقاذ الدماغ من المعدة؟ لإنصاف العلم من المال، لحماية النبوغ من الضياع؟

من يشتغل بالعلم والدرس والكتابة والتأليف إذا كان لفقراء لا يطيقونه، والأغنياء لا يحسونه أكان لزاماً على من يشتغل بذلك أن يموت من الجوع؟ ألا يستحق هذا المسكين بطريقة من الطرق، بقانون من القوانين، عشرين ديناراً، يأخذها موظف جاهل خامل بليد. لا يحسن شيئاً إلا النفاق والالتماسات والوساطات، ولا ينفع الأمة معشار ما ينفعها هذا الذي يذيب دماغه، ويحرق نفسه، ويعمي بصره، وينفق حياته في النظر في الكتب، والخط بالقلم؟

أما في ميزانية الدولة، أما في صندوق الجمعية، أما في مال الجريدة، ما تشترى به آثار هذا الكاتب، وأشعار هذا الشاعر، وبحوث هذا العالم، بالثمن الذي يعدل ما بذل فيها، ليعيش فيصنع غيرها

هذه هي المسألة!

هل يجب أن يموت النابغ لأنه نابغ، ويعيش الأغبياء والجاهلون؟ أم يجب عليه أن يميت نبوغه ليعيش، ويبيع عقله وذكاءه برغيف من الخبز؟

(بغداد)

علي الطنطاوي

الأقلام العربية في المهاجر الأمريكية

للأستاذ يوسف البعيني

لا يجهل أحد في مصر وسائر الأقطار العربية تلك النهضة الفكرية الأدبية التي يقوم بها فريق من خيرة كتابنا وراء البحار، فهنالك خطباء وشعراء وكتاب من الطراز الأول يعززون القومية العربية، ويغذون الجاليات بثقافتها وتاريخها وآدابها.

ولدي رسائل عدة من صفوة الكتاب هنالك يحمدون فيها (للرسالة) دعوتها، ويباهون بنهضتها، ويرونها بحق كتاب الشرق الجديد وديوان العرب المشترك.

ومن هؤلاء الكتاب المعجبين بالرسالة عبقري مجدد ملك آداب الفرنجة فاجتذبها إلى بيانه العربي في حين تخطف هذه الآداب عدداً كبيراً من الناشئة حتى في عقر دارنا.

وهذا العبقري هو الأستاذ يوسف البعيني الذي لا تخلو جريدة أو مجلة عربية في شمالي أميركا وجنوبها من بدائعه، وقد رأى أن يرسل إلي القطعة الآتية لتنشر في الرسالة فاتحة لما سيتبعها من رسائل لإخوان لنا وراء البحار من حقهم أن تخصص لهم صفحة في ديوان العرب المشترك.

والى القراء هذه القطعة الرائعة

ف. ف.

حب وغرام

في كتب الحب وقصص الغرام مقاطع مشربة بالعهود، وصفحات مبطنة بالوفاء. فعندما يصغي الشاعر الحساس إلى رنين ألفاظها وهمس معانيها تطفو عليه موجة مترعة باليأس والحنين. وكثيراً ما يشاهد في قرارتها أحلامه المبعثرة بين فجر الماضي ومسائه

ومن يتفهم مرامي تلك الصفحات الغرامية يعلم أن كاتبيها وضعوها لتكون رمزاً إلى العهود على مدى الليالي والأيام. . . وأروع ما في الحياة عندي هي العهود. . أجل العهود التي تعطينا صوراً جلية عن أسرار القلوب وخفايا الأرواح

فإن أكثر الحفارين عندما أرادوا أن يرسموا المثل الأعلى في الحب لم يجدوه إلا في العهود. . . وهكذا أدرك الشعراء أيضاً أن أجمل ما في الشعر صفحة غرامية تعبر عن الوفاء. . . ومتاحف العالم اليوم طافحة بدمى الحفارين. كما أن قصص الشعراء زاخرة بأخبار الحب والغرام. وفي اعتقادي أن الشاعر في صفحاته، والحفار في دماه، إنما كانت بغيتهما تخليد العهود!!

ولكن هل في الحياة حب مغموس بالوفاء، وغرام منحوت من العهود؟ أم هما موجودان فحسب في أحلام الشعراء ودمى الحفارين؟ من يدري. . . وكل ما أعمله هو شاذ عن أفهام الناس وعن أذواقهم

أنا لا أريد أن أبحث عن صحة تلك الأحلام وعن خطأها، ولا أبتغي البحث عن جمال تلك الدمى وعن عللها؛ وإنما أريد أن أتحدث عما فيها من حب وغرام. وهما أقرب إلى العهود منهما إلى شيء آخر

فلقد قرأت في الكتاب الشعري الأنيق - تهاليل الفجر - الذي أخرجه الكاتب المجدد (بيير لويس) موضوعاً شيقاً عن رسائل الراقصة الروسية الساحرة - إيذادورا دونكان - التي كانت ترسلها إلى حبيبها التعس (إيفان بارشوف) عندما بلغها خبر مرضه وأنه يلهج باسمها فوق سرير آلامه. وإني لمورد في ما يلي هاتين الرسالتين المشبعتين بغرام الراقصة الجميلة وحبها المفعم بالوفاء

- 1 -

أيها الحبيب!

إن زهرة مخدعي التي أبقيت على أوراقها ذكراً يهولني مرآها الشاحب الحزين. . . والسراج الأحمر الذي كنت ألمح في نظراته بهجة وإغراء فيما مضى يروعني الآن منه نوره الواجم الضئيل. . . والبلبل الغريد الذي كان ينبّهني إلى اجتناء اللذات يشجوني نفوره المبهم، وصمته العميق!!

إن روحي تريد أن تستهدي إلى قرارها في ليل شوقها وحنينها فيصدها العذاب. . . عذاب فراقك الطويل الذي أورثني ملة خرساء كسكينة القبور

لقد علمت أنك تقاسي من أجلي آلاماً مبرحة. . . فهل عرفت أيها الحبيب أن في قلبي المعذب شجواً محنظلاً أمر من الموت؟

أحياناً. . . تهفو على مخيلتي أحلام ملولة مزعجة. . . أحلام سوداء مخيفة! فأحجب وجهي

بكلتا يدي وأغيب في غمرة موجعة متمنية بعدها المنية لأنه لا قدرة لي على استماع أناتك وشكاواك!

أضرع إلى الله أن يرحمني بشفائك. وثق أني سأبقى سجينة مخدعي بعيدة عن خلوات أحلامي متجردة من سروري وابتسامي، هاجرة شعاع القمر الشاهد على أويقات حبنا وغرامنا حتى تعود إلى ذراعي حبيبتك

(إذادورا)

- 2 -

يا معبودي الجميل!

الآن وقد أرخى الليل سدوله على البسيطة مغلقاً بأنامله الناعمة أجفان النيام، تمر بي أشباح خفية هامسة في مسامعي اسم ذلك الحبيب الذي أجرى في أودية قلبي جدولاً لا ينقطع خريره، وغرس في حديقة روحي زهرة معطرة لا تموت.

وعلى هذا النغم الشجي المؤثر الذي تلحنه الظلمة فيردده الدجى باكياً ملتاعاً، أسمع نعيباً منذراً بمأساة مرعبة فأمسي كورقة تهب عليها الرياح السافيات.

لقد مات بيننا الحبيب صباح اليوم! مات ضمن قفصه وهو ينظر إلى الأعالي كأنه يرى بين الغيوم خيالاً عجيباً. فبكيته طويلاً وقلت في نفسي هل مات حبنا المقدس بموت هذا الطائر الصغير!

إن نفسي تنفحها الآن نار متلظية، نار محرقة تضرمها أيد مجهولة؛ فمتى تتحول هذه النفس إلى رماد هامد لا يحس؟ إن النفس التي تحس لهي شقية، إذ تحيا هائمة وراء أحلامها الشاردة. ولن أشعر بالراحة إلا عندما تغمرني بقبلاتك الطائشة

(إيذادورا)

وأذكر أنن عندما قرأت هذه الرسائل - وكلها مطلية بالحب والغرام - استولت علي

كآبة خرساء بلا معنى، وأية روح مهما بلغ فهمها لفلسفة الحب لا تشعر بسلطان خفي مجنح يستأثر بها ويحملها إلى أمكنة نائية لا تنطق فيها إلا العهود، ولا يتمايل في أجوائها غير الوفاء

إن هذه القبلة الطافية فوق ألفاظ العاشقة الوالهة، وهذا التوق الملح النابض بأسرار قلبها، وهذا الإيمان الثابت القاطن أعشاش صدرها. . . إن كل ذلك هل تحافظ عليه دون خداع في الحب؛ ولنفرض أن حبيبها حجبه الموت بعد حين فهل تبقى وفية له طول أيامها؟

لقد مات - إيفان بارشوف - بعد كتالة هذه الرسائل بثلاثة أسابيع. فلا أذكر إذا كانت الراقصة المغرمة قد تفجعت عليه تفجعها في رسائلها إليه. ولكني أعلم أنها نسيته سريعاً

فإنها لم تبكه بدمعة

. . .ولم تنثر على ضريحه زهرة ولم تذكره بكلمة

ولم تتلهف على أيامه الماضية

بل كانت، بل أن يجف قبره، تعانق حبيباً جديداً لتنسى في دعابه ومزاحه ذلك العاشق المسكين الذي أسكنه الدهر تلك الحفرة الضيقة الباردة ليقضي فيها زمناً مجهولاً غير عالم بما يجري في هذا الوجود

فالوفاء والعهود كلمتان نجدهما في كتب الشعراء وتماثيل الحفارين. أما في هذا العالم فلسنا نجد إلا حباً كاذباً وغراماً سريع الزوال يعقبه دائماً نسيان أبدي على أثر محو القبلة التي تتبادلها الشفاه!

وهناك حب سريع الزوال، فهو وإن مازجته الدموع وأفعمته التنهدات، تمحوه الحياة كما يمحو شعاع الشمس لهاث الطفل العالق على لوح من زجاج

في أواسط الجيل الماضي تحدث الناس عاماً كاملاً عن قصة غرامية جرت حوادثها بين الغادة الحسناء (المدموازيل إلسيت) وبين الشاعر الجميل - شارل هيكو. والذي عجب له الناس كثيراً هو هيام الحسناء بالشاعر الصغير وتفضيلها إياه على كبار رجال باريس الذين غمروها بالذهب والحلي وأحاطوها بكل أسباب الترف والأبهة والكبرياء

وقد أبقى العاشقان رواية يطرب استماعها، ويشوق موضوعها. فإن الحسناء كانت كلفة كثيراً بالشاعر إلى درجة أنها لم تكن تقوى فيها على فراقه ساعة واحدة وفي ذات يوم كحم على العاشق الفتى أن يبرح باريس شهراً على الأقل فلما عاد إلى ذراعيها صدته عنها بحجة أن قبعته المعجب بها ليست ظريفة. وإن الأشعار التي ينشدها إياها مختلسة من دفتر صغير أسود الغلاف يقبع دائماً تحت وسادة والده الشاعر الكبير فيكتور هيكو

وهذه الحجة الساخرة بما فيها من ضراوة المرأة المستهترة كثيراً ما تتمثل في الحياة. ولا أشك في أن القراء يجهلون تلك القصة الدامية التي تركها الشاعر الإلهي الساحر - دي موسيه - مع جورج ساند وكيف عبثت بقلبه الرقيق لتتعلق بطبيب إيطالي لأنه لا يهمهم في الظلمة. . . ولا يحب الخمرة. . . مثل موسيه!

لقد يطول بي الحديث إذا أنا مررت بكل ما هنالك من شؤون وعبر. ولكنني مكتف الآن بإيراد لمحة وجيزة عن غرام الشاعر المشهور - شارل بودلير - مع حبيبته المعبودة - جان ديفال - التي ألهمته أشجى أشعار الحب والجمال في كتابه الخالد (أزاهير الشر) وهذه الحبيبة التي عشقها طول حياته كانت سوداء!!

وأعتقد أن الشعراء الساخرين ليضحكون من هيام الشاعر اللطيف بامرأة سوداء. نعم قد يضحكون. . ولكنه الغرام. . . الغرام القاهر الذي يستحوذ على القلب الضعيف فيقيده بالسلاسل ويغله بالأصفاد

وعلى الرغم من شغف الشاعر، ولهفة روحه، وثابت وفائه، فقد خدعته حبيبته الماكرة بعد أن نحت لها من غرامه تمثالاً ومن حبه محراباً للعبادة. ولكن هذا الخداع في الغرام. وهذه الخيانة في الحب أغنيا الأدب الفرنسي لأنهما أفاضا دموع الشاعر وأوقدا نار وجده وحنينه!

أنا لا أريد أن أشجب الحب، وأن أهجو الغرام. كلا ما إلى هذا أذهب. . بل أريد إثبات أنهما موجودان وحسب في كتب الشعراء وتماثيل الحفارين. والشاعر والحفار لا يصوران غالباً إلا كل ما سما في فضاء الأحلام وما تمدد على سرير الشعور والإحساس

الرجل الذي يعتقد خلود الغرام ووفاء الحب هو رجل مسكين يستحق الشفقة. . . إذ لا قبلة يبقى طعمها على الشفاه، ولا وعود تظل محفوظة، ولا ذكرى تحيا في القلوب وجل ما هنالك حب كاذب وغرام خادع شبيهان بالخطوط التي ترسمها الأمواج على رمال الشاطئ فإذا لم تمحها العاصفة لا تلبث الأمواج أن تمحوها. فالحب الذي لا تبدده الحياة يبدد نفسه بنفسه، والغرام الذي لا يبعثره الموت يبعثر ذاته بذاته هما حلم يراود الروح في المنام، ولكن اليقظة تشتته ولا تترك منه إلا أثراً دامياً يحنظل الأماني، ويشقي الآمال

(البرازيل)

يوسف البعيني

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

في الجزر السعيدة

ها إن التين يتساقط عن أشجاره عطر النكهة حلو المذاق وقشوره الحمراء تتشقق بسقوطها، وأنا هو ريح الشمال يهب على هذه الأثمار الناضجة. إن تعاليمي تتساقط إليكم أيها الصحاب كمثل هذه الأثمار فتذوقوها الآن عند ظهيرة من أيام الخريف وقد صفت فوقكم السماء.

سرحوا أبصاركم فيما حولكم من خيرات الأرض ثم مدوا بها إلى آفاق البحر البعيد فليس أجمل لمن فاض رزقه من أن يتطلع إلى الأبعاد

لقد كان الناس يتلفظون باسم الله عندما كانوا يسرحون أبصارهم على شاسعات البحار، أما الآن فقد تعلمتم الهتاف باسم الإنسان الكامل

إن الله افتراض وأنا أريد ألا يذهب بكم الافتراض إلى أبعد مما تفترض إرادتكم المبدعة أفتستطيعون أن تخلقوا إلهاً؟ إذن أقلعوا عن ذكر الآلهة جميعاً، فليس لكم إلا إيجاد الإنسان الكامل

ولعلكم لن تكونوا بنفسكم هذا الإنسان الكامل ولكن في وسعكم أن تصبحوا آباء وأجداداً له. فليكن هذا التحول خير ما تعملون

إن الله افتراض وأنا أريد ألا يتجاوز بكم الافتراض حدود التصور، فهل تستطيعون أن تتصوروا إلهاً؟ فاعرفوا من هذا أن واجبكم هو طلب الحقيقة فلا تطمحوا إلى ما يبلغه تصور الإنسان وبصره وحسه، فأمسكوا بتصوركم كيلا يتجاوز حدود حواسكم

يتحتم عليكم أن تبدأوا بخلق ما كنتم تسمونه عالماً من قبل فيتكون عالمكم من تفكيركم وتصوركم وإرادتكم ومحبتكم وعندئذ تبلغون السعادة يا من تطلبون المعرفة. وكيف تطيقون الحياة إذا لم يكن لكم هذا الرجاء؟

على من يطلب المعرفة ألا يتورط في ما يرده العقل من المعميات

لسوف أفتح لكم قلبي فلا تخفى عنكم خافية فيه، فأقول لكم: لو كان هنالك أرباب أكنت أتحمل ألا أكون رباً؟ إذن ليس في الكون أرباب

لقد استخرجت لذاتي هذه النتيجة، وها هي تستخرجني الآن

إن الله افتراض ولكن من له بتحمل كل ما يضمر هذا الافتراض من اضطراب دون أن يلاقي الفناء؟ أتريدون أن تأخذوا من الخالق إيمانه ومن النسر تحليقه في أجواز الفضاء؟

إن الله عبارة عن إيمان ينكسر به كل خط مستقيم ويميد عنده كل قائم، فالزمان لدى المؤمن وهم، وكل فان في عينيه بطل وخداع، فهل مثل هذه الأفكار إلا أعاصير تتطاير فيها عظام البشر وتورث الدوار لشاهدها؟ تلك افتراضات يدور المبتلى بها على نفسه كالرحى حتى يموت

أفليس من الشر والافتيات على الإنسانية كل هذه التعاليم تقيم الواحد المطلق الذي لا يناله تحول ولا تغيير؟

إن الرموز وحدها لا تتغير، وطالما كذب الشعراء، غير أن خير ما يضرب من الأمثال ما يصور الحاضر وآتي الزمان فتأتي حجة لكل زائل لا نقضاً له

ليس في غير الإبداع ما ينقذ من الأوجاع ويخفف أثقال الحياة، غير أن ولادة المبدع تستدعي تحولات كثيرة وتستلزم كثيراً من الآلام

أيها المبدعون ستكون حياتكم مليئة بمرير الميتات لتصبحوا مدافعين عن جميع ما يزول
على المبدع إذا شاء أن يكون هو بنفسه طفل الولادة الجديدة أن يتذرع بعزم المرأة التي تلد فيتحمل أوجاع مخاضها
لقد اخترقت لي طريقاً في ميتات النفوس والأسرة وأوجاع المخاض غير أنني كثيراً ما نكصت على أعقابي لأنني أعرف ما تقطع الساعات الأخيرة من نياط القلوب.
ولكن ذلك ما تطمح إرادتي المبدعة إليه، وبتعبير أشد صراحة ذلك هو المقصد الذي تريده إرادتي
إن جميع ما في من شعور يتألم مقيداً سجيناً وليس غير إرادتي من بشير يؤذن بالمسرة، ويأتي بالإفراج عن الشعور
إن الإرادة وحدها تتحرر، وما بغير هذه الآية من شرعة صحيحة للإرادة وللحرية، على هذا تقوم تعاليم زارا
بعداً وسحقاً لكل وهن وملال يشل الإرادة ويوقف كل تقدير وإبداع
إن طالب المعرفة يشعر بلذة الإرادة والإيجاد وبلذة استحالة الذات إلى ما تحس به في أعماقها، فإذا انطوى ضميري على الصفاء فما ذلك إلا لاستقرار إرادة الإيجاد فيه.
وهذه الإرادة هي ما أهاب بي للابتعاد عن الله وعن الآلهة، إذ لو كان هنالك آلهة لما بقي شيء يمكن خلقه
إن طموح إرادتي إلى الإيجاد يدفعني أبداً نحو الناس اندفاع المطرقة فوق الحجر
أيها الناس إنني ألمح في الحجر تمثالاً كامناً هو مثال الأمثلة أفيجدر أن يبقى ثاوياً في أشد الصخور صلابة وقبحاً
إن مطرقتي تهوي بضرباتها القاسية على هذا السجن فأرى حجره يتناثر
أريد أن أكمل هذا التمثال، إن طيفاً زارني وألطف الكائنات وأعمقها سكوتاً قد اقتربت مني
لقد تجلى بهاء الإنسان الكامل لعيني في هذا الخيال الطارق فما لي وللآلهة بعد:
هكذا تكلم زارا
الرحماء
لقد، بلغني، أيها الصاحب قول الناس: (أفما ترون زارا يمر بنا كأنه يمر بين قطيع من الحيوانات)
وكأن أولى بهم أن يقولوا: إن من يطلب المعرفة يمر بالناس مروره بالحيوانات
إن طالب المعرفة يرى الإنسان حيواناً له وجنتان حمراوان ولم يراه هكذا؟ أفليس لأنه كثيراً ما علته حمرة الخجل؟
هذا ما يقوله طالب المعرفة أيها الصحاب: - إن تاريخ الإنسان عار في عار
ولذلك يفرض الرجل النبيل على نفسه ألا يلحق إهانة بأحد لأنه يستحي جميع المتألمين
إنني والحق أكره الرحماء الذين يطلبون الغبطة في رحمتهم، فإذا ما قضي علي بأن أرحم تمنيت أن تجهل رحمتي وألا أبذلها إلا عن كثب. أحب أن أستر وجهي حين إشفاقي وأن أسارع إلى الهرب دون أن أعرف. فتمثلوا بي أيها الصحاب
ليت حظي يسوقني أبداً حيث ألتقي بأمثالكم رجال لا يتألمون وفي طاقتهم أن يشاركوني
آمالي وولائمي وملذاتي
لقد قمت بأعمال كثيرة في سبيل المتألمين ولكن كنت أرى أن الأفضل من هذا زيادة معرفتي في تمتعي بسروري. فإن الإنسان لم يسر إلا قليلاً منذ وجوده وما من خطيئة حقيقية إلا هذه الخطيئة
إذا نحن تعلمنا كيف نزيد في مسرتنا فإننا نفقد معرفتنا بالإساءة إلى سوانا وباختراع ما يسبب الآلام
ذلك ما يدعوني إلى غسل يدي إذا أنا مددتها لمتألم، بل وإلى تطهير روحي أيضاً، لأنني أخجل لخجله وتؤلمني مشاهدتي لآلامه ولأنني جرحت معزة نفسه بلا رحمة عندما مددت له يدي
إن عظيم الإحسان لا يولد الامتنان بل يدعو إلى إخماد الحقد، وإذا تغلب تافه الإحسان على النسيان فإنه يصبح دوداً ناهشاً

لا تقبلوا شيئاً دون احتراس، وحكموا تمييزكم عندما تأخذون ذلك ما أشير به على من ليس لهم ما يبذلونه للناس
أما أنا فممن يبذلون العطاء وأحب أن أعطي الأصدقاء كصديق؛ أما الأبعدون فليتقدموا من أنفسهم لاقتطاف الأثمار من دوحتي فليس في إقدامهم على الأخذ ما في قبولهم العطاء من مهانة لكرامتهم
غير أنه من اللازب أن يقطع دابر المتسولين لأن في الجود عليهم من الكدر ما يوازي كدر انتهارهم وحرمانهم
وكذلك هو حال الخطاة وأهل الضمائر المضللة فإن تبكيت الضمير يحفز الإنسان إلى النهش وإيقاع الأذى
وشر من كل هذا الأفكار الحقيرة وخير للإنسان أن يسيء عملاً من أن تستولي المسكنة على تفكيره
إنكم تقولون (إن في التفكير الملتوي كثيراً من الاقتصاد في شر الأعمال) وما يستحسن الاقتصاد في مثل هذا
إن لشر العمل أكلاناً والتهاباً وطفحاً كالقروح، فهو حر وصريح لأنه يعلن نفسه داء كما تعلن القروح، في حين أن الفكرة الدنيئة تختفي كالنواحي الفطر وتظل منتشرة حتى تودي بالجسم كله، ومع هذا فإنني أسر في أذن من تملكه الوسواس الخناس: (إن من الخير أن تدع الوسواس يتعاظم فيك لأن أمامك أنت أيضاً سبيلاً يوصلك إلى الاعتلاء)
مما يؤسف له أن يكون جهل بعض الشيء خيراً من إدراك كله؛ غير أن من الناس من يشف حتى تبدو بواطنه، ولكن ذلك لا يبرر طموحنا إلى استكناه مقاصده. ومن الصعب أن نعيش مع الناس مادمنا نستصعب السكوت
إن ظلمنا لا ينزل بمن تنفر منه أذواقنا بل يسقط على من لا يعنينا أمره.
وبالرغم من هذا، إذا كان لك صديق يتألم فكن ملجأ لآلامه ولكن لا تبسط له فراشاً وثيراً بل فراشاً خشناً كالذي يتوسده المحاربون وإلا فما أنت مجديه نفعاً
وإذا أساء إليك صديق فقل له: إنني اغتفر لك جنايتك علي ولكن هل يسعني أن أغفر لك ما جنيته على نفسك بما فعلت؟
هكذا يتكلم عظيم الحب، لأنه يتعالى حتى عن المغفرة والإشفاق علينا أن نكبح جماح قلوبنا كيلا تجر عقولنا معها إلى الضلال.
أين تجلى الجنون في الأرض بأشد مما تجلى بين المشفقين؟ بل أي ضرر لحق بالناس أشد من الضرر الناشئ عن جنون الرحماء؟
ويل لكل محب ليس في محبته ربوة لا يبلغها إشفاقهم قال لي الشيطان يوماً: إن للرب جحيماً هو جحيم محبته للناس
وقد سمعت هذا الشيطان يقول أخيراً: لقد مات الإله وما أماته غير رحمته
احترسوا من الرحمة لأنها لن تلبث حتى تعقد فوق الإنسان غماماً متلبداً: وما أنا بجاهل ما تنذر به الأيام
احفظوا هذه الكلمة أيضاً: - إن المحبة العظمى تتعامى عن رحمتها فإن لها هدفها الأسمى وهو خلق من تحب
إنني أقف نفسي على حبي، وكذلك يفعل أمثالي: هذا ما يقوله كل مبدع، والمبدعون - قساة القلوب.
هكذا تكلم زارا. . .
فليكس فارس
في طريق الوحدة
بين السنة والشيعة (محرم). . .
للأستاذ حسين مروة
أما أن اليقظة الإسلامية قد غمرت دنيا المسلمين على رحبها - فهو مما لا ريب فيه، وأما أن المصلحين من مختلف الأقوام الإسلامية قد خطوا هذا العام المنصرم إلى الوحدة والتقريب بين القلوب خطوة واسعة مباركة - فهو مما لا يخامرنا فيه أدنى هاجس من الشك، ولسنا اليوم بصدد التدليل على هذا كله، ولسنا كذلك نحاول أن نذهب في تصوير الأمر مذهباً يغشى على الحقيقة فنجني الجناية الكبرى على هذا الأمل المشرق الذي نمشي على هداه إلى المثل الكريم الأعلى الذي ننشده

لقد عمل المصلحون في الآونة الأخيرة كثيراً، واستطاعوا أن ينشئوا خلقاً جديداً في المسلمين، خلقاً يقول، إن حوادث التاريخ إذا استحال أن يتغير مجراها فتنقلب عما وقعت عليه فليس من المستحيل أن نغير نحن مجرى أهوائنا المتدافعة، ونقلب هذه الأفكار السائدة علاقات أهل القران رأساً على عقب أو نستبدل بها خيراً منها، فإذا نحن أمة متكتلة تظلها راية الله العليا، تلك راية الإسلام الحنيف، ولكن هنالك خلفاً آخر في المسلمين لما يزل من خلق الأيام الغابرة السوداء، الأيام التي أخذ الناس فيها بالجانب البغيض من صفحتي التاريخ الإسلامي، وأعرضوا عن الجانب الحبيب الأغر اللامع، وهذا الخلق في المسلمين - وهو كثير وآ أسفاه - يجب على المصلحين أن يرحموه، أن يشفقوا على ذهنيته الضيقة الساذجة فلا يوقرونها بما لا تطيق احتماله وهي على هذا الضيق بفهم الأمور، وأن يأخذوا بيده إلى مشارق النور بهوادة ورفق حتى يلمس الحق هو بنفسه، وأن يتملقوا أحاسيسه المختولة المخمورة بأغنيات التعصب - وناهيك بالتعصب ضارباً على وتر الأحاسيس الواهنة - ولا يحسبن القارئ الكريم أنني أدعو إلى اتباع العامة ومجاراة أهواء الدهماء ونزعاتها الهوجاء، فأنا - شهد الله - من أشد الناس نقمة على جماعة العلماء الذين يتملقون السواد، ويهابون اندفاعات الجماهير، ويسترون - من أجل ذلك - الحق خشية من غضب هؤلاء عليهم، فيقطعون معايشهم ويحطمون عروش أمجادهم، ويؤثرون عرض الحياة الدنيا على أن ينطقوا بكلمة الصدق ويقيموا شعائر الحق. غير أني - على ذلك - أخشى هذا الفريق من رجال السوء الذين يستغلون ذهنية الجماهير لأنفسهم ويسخرونها لأهوائهم، فإذا ما تناسى المصلحون شأن الدهماء، وإذا ما أغمضوا أعينهم عما في نفوسها من حقير العواطف وفي عقولها من ساذج الإدراك، فقد يقوم هذا النفر المستغل يدعو بالويل والثبور، ويرفع عقيرته البغيضة نافخاً في الجماهير روح الفرقة، عاملاً على صدع الصف، ضارباً بآمال المصلحين عرض الأفق فتصبح الآمال الحية أشلاء أباديد، فيجب على القائمين اليوم بأمر الإصلاح - والحال هذه - أن يقيموا الأوزان للجواهر قبل الاعراض، وأن يحفلوا باللباب دون القشور، وأما الأعراض وأما القشور فليس من ضير علينا أن ندع للذين يحفلون بهما أمر ما يحفلون به حتى يتبين لهم أن العرض عرض فينبذونه، وأن القشر قشر فيطرحونه؛ وليس من ضير علينا أن نستكفف شر ذلك النفر العائش على تمليق العامة بأن نحسم بعض القضايا التي يتخذها القوم هؤلاء مطية للغرض الأدنى، ووسيلة لإثارة النعرات المفرقة، وهيج العواطف الحانقة.

وفي طليعة هذه القضايا التي يطل رأسها اليوم - ورجالنا المصلحون يجهدون بجمع الشمل ورأب الصدع - قضية تقف بطائفتي المسلمين السنة والشيعة على مفترق الطريق - والعياذ بالله - بعد أن كان يغمرنا موج من الفرح لهذه الظاهرات المباركة الطالعة علينا هنا وهناك ببشائر الوحدة الإسلامية المنشودة، ذلك أننا اليوم - حين نكتب هذه الكلمة - نعيش في شهر من الشهور التي تحمل إلينا من ذكريات الماضي البعيد صوراً ذات ألوان مختلفة. وأشكال متباينة في ظاهر الأمر، وإن هي كانت في الجوهر والروح، وفي نظر الذين يزنون الإسلام بميزانه الصحيح متسقة أحسن الاتساق، منسجمة أكمل الانسجام. إننا اليوم في شهر محرم الحرام، وشهر المحرم هذا ذو صفحتين من الذكرى كلتاهما ذات خطر عظيم، وكلتاهما ذات شأن كبير في نفوس المسلمين؛ ففي إحدى صفحتيه يحمل ذكرى هجرة المنقذ الأعظم، رسول الله، محمد بن عبد الله، عليه صلوات من ربه وبركات، ذكرى هجرته إلى يثرب حيث قامت سوق الإسلام وعمرت، وحيث استفاضت أنوار الشريعة الغراء لألآءة الرواء، ضافية البهاء، ثرة الأضواء؛ ويحمل في صفحته الأخرى ذكرى عاشوراء، ذكرى حادثة الطف الدامية حيث استشهد ريحانة رسول الله صلى الله عليه وسلم: الحسين بن علي مجاهداً في سبيل الحق، وحيث نجم - لأول مرة - قرن الانقلابات الخطيرة، والثورات الداخلية الجياشة.

هاتان صفحتان من الذكريات الإسلامية ذات الشأن يحملهما شهر المحرم، ويطلع بهما على المسلمين، فتستقبله طائفة من ناحيته الأولى فتجعل يوم مطلعه عيداً ميمون النقيبة، محمود الأثر، أغر الجبين، وتستقبله طائفة من ناحيته الثانية فتجعل يوم استهلاله مأتماً قاتم اللون، أغبر الوجه، دامي القلب؛ وتنظر - من بعد - كل طائفة إلى أختها النظر الشزر، وتتباعد وجهة النظر، وتتسع شقة البين، ويطل النفر المستغل

برأسه وينفخ في بوقه؟ وهذا هو الشر المستطير الذي نريد أن نكفكف من عاديته في وجه الحركة الإصلاحية القائمة اليوم، وهذا هو الأمر الجلل الذي نحاول أن يخفف المصلحون من سورته، وهأنذا أضع - في ختام هذه الكلمة - إقتراحاً على رجالنا العاملين في حقل الوحدة الإسلامية، أرجو أن يجدوا فيه حلاً حاسماً لهذه القضية التي يرى القارئ خطورتها. وأرجو إلى إخواننا علماء الأزهر المصلحين أن يقولوا كلمتهم في (الرسالة) الكريمة حول هذا الباب ليرى العالم الإسلامي رأيهم المحترم المرموق بالتقدير:

يجمع المؤرخون - يا سادتي - على أن مقدم الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة كان في اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول، أي بعد أول المحرم بشهرين واثني عشر يوماً، كما جاء في تاريخ الطبري ج2 ص253 باب (ذكر الوقت الذي عمل فيه التاريخ)، وفي مروج الذهب للمسعودي ج1 ص401، وفي غيرهما من مصادر التاريخ الإسلامي الموثوق بروايتها؛ وتدل الروايات في هذا الباب على أن أول من أمر بالتاريخ في الدولية الإسلامية هو الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، وأنه هو اختار هجرة النبي صلى الله عليه وسلم مبدأ للتاريخ الإسلامي، وقال يومئذ كلمته الصادقة الحكيمة حيث جمع الناس للمشورة، فقال بعضهم: أرخ لمبعث رسول الله، وقال بعضهم: أرخ لمهاجر رسول الله، فقال: (لا بل نؤرخ لمهاجر رسول الله فإن مهاجره فرق بين الحق والباطل)، وتدل هذه الروايات نفسها كذلك أنه هو - عمر - اختار شهر المحرم مبدأ لشهور السنة الهجرية قائلاً أيضاً نبدأ بالمحرم (فهو منصرف الناس من حجهم وهو شهر حرام) والحق فيما قال من هذه الناحية، غير أنني أقول الآن:

مادام قد وقع الاختيار على بدء السنة الهجرية بشهر المحرم لهذا الغرض الذي جاء في كلام الخليفة الثاني الكريم، وجرت على ذلك السيرة في عصور الإسلام جمعاء، فلتبق هذه السيرة مستمرة ولا ضير، ولا نريد أن نبدع بدعاً في هذا، أما ذكرى الهجرة نفسها، الذكرى التي هي لا غير مبعث تقديس المسلمين لرأس السنة الهجرية، وهي التي يحتفلون بها، ويجعلون يومها عيداً كريماً مباركاً - أقول: أما هذه الذكرى نفسها، فليس من غضاضة في أن يكون الاحتفال بها، وأن يكون عيدها الميمون في يومها الذي وقعت فيه الهجرة النبوية الشريفة على التحقيق، في يومها التاريخي الصحيح حيث يكون عيداً للمسلمين كافة: يشتركون بأفراحه، ويتبادلون مظاهر السرور، ومجالي الاغتباط. وإذا ما جاء شهر المحرم - من بعد - اشتركوا جميعاً كذلك في مشاعر الألم، وهواجس الحزن للمأساة الإسلامية الرائعة التي تمثلت في طف كربلاء، وكرموا نبيهم صلى الله عليه وسلم بالتأسي به إذ جاء في الأسانيد الصحيحة أنه صلى الله عليه وسلم كان يستشعر الحزن في هذا الشهر: شهر المحرم، فنكون بذلك قد وضعنا حجر الزاوية في بناء الوحدة الإسلامية المرجوة، ولا نكون قد فرطنا في شيء من ما جريات التاريخ، ولا نقضنا شعيرة من شعائر السلف أو حرمة من حرمات الإسلام.

فما قولكم يا سادتي؟؟

النجف

حسين مروة

الزهاوي في أوائل أيامه وأواخرها

للسيد صلاح الدين عبد اللطيف الناهي

كنت في السابعة أو الثامنة من عمري يوم كان يستلفت نظري شيخ هزيل نحيف، مرسل الشعر على الأكتاف، يمتطي صهوة حمار حساوي أبيض ويمشي في ركابه خادم لا يتغير، وكانت سيماء الشيخ ومطيته تدلان على أنه من أعيان بغداد فقد كان الحمار مطية لا تزري براكبها قبل أن تديل دولة (الميكانيك) من دولة الحيوان ومرت فترة من الزمن فهجر الشيخ حماره واتخذ له (عربانة) تقطع به عرض الشارع العام (شارع الرشيد) وهو يطل منها على الناس أو يراقب الطير حائماً فوق مآذن بغداد الشامخة وقبابها الزرق، أو يحرك شفتيه بشعر

وسألت ذات يوم: من يكون هذا الشيخ وما له يهدل خصائل شعره شأن أحبار اليهود؟ فقيل لي إنه فيلسوف. فلم أفهم ما يريدون ولكن كتمتها في نفسي كمن اقتنع

بالجواب
ثم قل اهتمامي به لكثرة ما اعتدت رؤيته بعد ذلك، ولم أكن أقدر أن اعتنائي به سيزداد يوماً من الأيام. ولكن العمر تقدم بي قليلاً فعرفت قدر الشيخ الفيلسوف ورضت نفسي على قراءة ما وقع في يدي من آثاره فبدا لي من أمره ما كنت أجهل وكان الناس يومئذ فريقان فريق يدعو له ويكبر شأنه، وفريق ينكر أمره ويتبرم به ويرميه بالزندقة والإلحاد. وكان هو محور هذا التطاحن العنيف بين هذين الفريقين. وأنك لتلمس في شعره هذا التطاحن إذا قرأته وتلمس تبرمه بجمود الجمهور وجهالة الجمهور، ولكنه لم ييأس ولم يتمثل بقول القائل:

غزلت لهم غزلاً رفيعاً فلم أجد ... لغزلي نساجاً فكسرت مغزلي

بل التزم دائماً سبيل الجهر بآرائه والدعوة لها وأنك لتعجب من بسالة هذا الشيخ المتهدم يوم كان يدعو إلى التحرر والى التجدد ويجاهر برأيه في المرأة:

يرفع الشعب فريقا ... ن إناث وذكور

وهل الطائر إلا ... بجناحيه يطير

ليس يأتي شعب جلائل ما لم ... تتقدم إناثه والذكور

مزقي يا ابنة العراق الحجابا ... واسفري فالحياة تبغي انقلابا

ويجاهر برأيه في الدين:

تحيرت لا أدري أمام الحقائق ... أأني خلقت الله أم هو خالقي

فتضج الناس بالشكوى وتتبرم ويضيق به الأمر فيلزم داره أو يهجر بلده ويودع ليلاه لائذاً بمصر من غضب الناس نادباً لياليه في بغداد ولكنه لم يلبث أن يجهر برأيه هنا وينشد القوم:

وسائلتي هل بعد أن يعبث البلى ... بأجسادنا نحيا طويلاً ونرزق

وهيهات لا ترجى حياة لميت ... إليه البلى في قبره يتطرق

تقولين يفنى الجسم والروح خالد ... فهل بخلود الروح عندك موثق

فتتنزى الشيوخ من الغيظ ويثور الجمهور فإذا بالناس فريقان فريق له وفريق عليه حتى يضيق به الأمر فيعود إلى بلده وقد سكن روع الناس وعز عليهم أن يلجئوا الشيخ إلى الفرار فيناله المكروه في سبيل ذلك وهو الشاعر الذي ينطق بآمالهم وآلامهم ويحفزهم إلى المجد، غير مبال بعوده الذابل وجسمه الذاوي، حتى ألف الناس منه هذه البسالة والجرأة والتف حوله الشباب وهو يدفع بهم إلى الثورة ويلوح لهم بكل جديد في الرأي وطريف في الفكر تلويحاً يدفع به أحياناً إلى تحميل الشعر والأدب ما لا طاقة لهما به فيزج العلم في ساحة الشعر فيمهد بذلك السبيل لخصومه ومنكري شاعريته فيحتجون عليه بمثل قوله:

ليست الشمس من الشر ... ق إلى الغرب تدور

إنما الأرض من الغر ... ب إلى الشرق تسير

وما كان بالعلم من حاجة إلا من ينظمه لنا شعراً إلا حاجة في نفس الشيخ قضاها ولقد كنا نقرا له القصيدة فنلمس وجدان الشاعر الموهوب في ألفاظ الشاعر المطبوع وأفكار الشاعر الفيلسوف فنطرب لها، ثم نقرأ له القصيدة وقد أقحم فيها العلم إقحاماً فنقف ننافح الخصوم عما فيها من نظريات وآراء تلهيهم بذلك عن زلة الشاعر ونخرج بهم من نقد هذه الزلة إلى تأييد الفكرة والبرهان وننعى عليهم جموداً في الرأي وضيقاً في الصدر ولولا تجاوزهم حدود النقد إلى التحامل لما تجاوزنا حدود الدفاع إلى المكر.

وإذا كان في اختيار الألفاظ الجزلة للمعاني السامية ما يدل على صفاء نفس الشاعر وطول باعه ودقة إحساسه وتمييزه وقع الألفاظ وموسيقاها فقد كان شاعرنا في اختيار الألفاظ والنواسي فرسي رهان. وهو الذي يشير إلى ذلك بقوله:

إذا هلكت فخطوا ... جنب النواسي قبري

إني أمت إليه ... وإن تأخر عصري

على أنه يختلف بعد ذلك عن أبي نواس في ميله من الدعابة والعبث إلى الفلسفة والحكمة، فهو يغوص وراءها في كل لجة ويأتي بها بكراً لم تقع العين على مثلها، وهو بذلك يقتفي خطى المعري، وبذلك يقول:

إني تتلمذت في بيتي عليك وإن ... أبلت عظامك أزمان وأزمان
وهو يقتفي أيضاً خطى الشاعر الخيمي لا في مجونه وإنما في حكمته وشكه ويقينه، وحسبك أنه عمد إلى رباعياته فترجمها إلى العربية نظماً
واشتقت مرة أن أحادث الشيخ الفيلسوف وأتعرف به قبل أن تختطفه المنون فلما اجتمعت به أبصرت أمامي هيكلاً من الأعصاب الثائرة يكسوها جلد مجعد، ورأيته يرجحن فوق ساقين هزيلتين ما تنفكان تضطربان من الشلل
وقد أحاول أن أسعي فتمنعني ... رجل رمتها يد الأقدار بالشلل
فهو ينتفض بين الآونة والآونة فيتجهم وجهه ثم تنبسط أساريره ويتمتم قائلاً: أعصابي! ثم ينصرف إلى محدثه فيما كان فيه، وأذكر أنني ما كدت بدأه بالتحية حتى قال لي:
(يا بني تسمع بالمعيدي خير من أن تراه)
ثم لم يلبث أن قرأ لنا قصيدته (إحساساتي) فاجتمعت حوله حلقة كبيرة من مريديه والمعجبين به وقفى ذلك بنكات بارعة وروى لنا أنه قرأ بين يدي جلالة الملك الراحل (ثورته في الجحيم) ومازال بين نكتة وارتجاجة حتى انتصف النهار فودعنا وامتطى (عربانته) إلى داره. ومرت أيام فنعي إلينا الشيخ ووقع ما كنا نخشاه.
مات الشيخ ولكن السبيل الذي كان يدعو إليه هانت صعابه وتطامنت وهاده
وبالرغم مما كانوا يتهمونه به من مروق في الدين فقد قال:
عبدتك لا أدري ولا أحد درى ... أسرك أم صدر الطبيعة أوسع
عبدت اسمك المحمود في الليل والضحى ... إذا الشمس تستخفي إذا الشمس تطلع
فأيقنت أن الكون بالله قائم ... وأنك نور والحقيقة برقع
وقال:
أنا هذا فلا أبالي إذا ما ... أجمعت ثلة على تكفيري
أهل عصري لا يفقهون حديثي ... حبذا لو أتيت بعد عصور
وشيخنا في تقلبه بين الشك واليقين إنما ينحو منحى بعض الفلاسفة الذين مروا في تفكيرهم بأزمات فأنكروا وآمنوا وهو في كل مرحلة إنما سجل ما جاش بنفسه فجاء شعره صدى أطواره في هذه الأزمات.
والمرء يخلق طوراً بعد أطوار
وبعد فإن الصدق في الرواية يحتم علي أن أقول إن ما أثبته هنا من أبيات لم أرجع فيها إلى دواوين الشيخ فقد خلفتها في بغداد، وإنما هي مما علق بالذاكرة، وما أكثر ما تخونني الذاكرة، فأضع كلمة مكان كلمة متى استقام لها المعنى ولو كنت في زمن الرواية والحديث لما أبحت لنفسي أن أوري حديثاً فلتغفر لي روح الفقيد ما أكون قد وقعت فيه وتغمد الله روحه برحمته
صلاح الدين عبد اللطيف الناهي

دعابة الجاحظ - 6

للأديب محمد فهمي عبد اللطيف

وإني لأعجب للجاحظ كيف اتسع وقته واتسع قلبه لكل هذا الضحك والإضحاك من . . . الناس، فكأنه كان رقيباً يرقبهم في كل ناحية من نواحي نقصهم، ليعود من وراء ذلك بالنادرة الطيبة، ويفوز بالفكاهة الضاحكة، وينثني بالملحة البارعة، فهو يتسقط جهد طاقته - حيلة المتطفل، وحجة البخيل، ونحلة الأكول، وخفة الأبله، وسخافة الغبي، وغباوة الأحمق، ووقاحة الدعي، وتقعر المتعالم، وعنجهية الأعرابي، وملحة الأديب، وظرف النديم، فإذا ما أجرى ذلك وأشباهه على لسانه، أو تناوله بقلمه، وأخرجه على طريقته، وطبعه بأسلوبه، وافرغ عليه من روحه وقلبه، فإنه لا شك يستولي على لبك، ويهيج نشاطك، ويدفعك إلى الضحك دفعاً، وينتقل بك إلى روضة أريضة بالبشر والطلاقة، والشواهد لذلك كثيرة في كتب الرجل وفيما تلقفه عنه الأدباء وأهل الرواية.

حدث فيما حدث به عن بخل محمد بن أبي المؤمل وشدة حرصه وإقتاره فقال: واشترى - أي ابن أبي المؤمل - مرة شبوطة وهو ببغداد، وأخذها فائقة عظيمة وغالى بها وارتفع في ثمنها، وكان قد بعد عهده بأكل السمك وهو بصري لا يصبر عنه، فكان قد أكبر أمر هذه السمكة لكثرة ثمنها ولسمنها وعظمها، ولشدة شهوته لها، فحين ظن عند نفسه أنه قد خلا بها، وتفرد بأطايبها، وحسر عن ذراعيه، وصمد صمدها، هجمت عليه ومعي السدري، فلما رآه رأى الموت الأحمر والطاعون الجارف، ورأى الحتم

المقضي، ورأى قاصمة الظهر وأيقن بالشر، وعلم أنه قد ابتلى بالتنين، فلم يلبثه السدري حتى فور السرة بالمبال، فأقبل علي فقال لي يا أبا عثمان: السدري يعجبه السدر! فما فصلت الكلمة من فيه حتى قبض على القفا فاتنزع الجانبين جميعاً، فأقبل علي فقال: والسدري يعجبه الأقفاء، فما فرغ من كلامه إلا والسدري قد اجترف المتن كله! فقال يا أبا عثمان: والسدري يعجبه المتون ولم يظن أن السدري يعرف فضيلة ذنب الشبوط وعذوبة لحمه وظن أنه سيسلم له، وظن معرفة ذلك من الغامض، فلم ير إلا والسدري قد اكتسح ما على الوجهين جميعاً!! ولولا أن السدري أبطره وأثقله وأكمده وملأ صدره غيظاً لقد كان أدرك معه طرفاً لأنه كان من الأكلة، ولكن الغيظ كان من أعوان السدري عليه، فلما أكل السدري جيع أطايبها وبقي هو في النظارة، ولم يبق

في يده مما كان يؤمله في تلك السمكة إلا الغيظ الشديد والغرم الثقيل ظن أن في سائر السمكة ما يشبعه ويشفي من قرمه، فبذلك كان عزاؤه وذلك هو الذي كان يمسك بأرماقه وحشاشات نفسه؛ فلما رأى السدري يضرب القرى ويلتهم التهاماً قال: يا أبا عثمان السدري يعجبه كل شيء، فتولد الغيظ في جوفه، وأقلته الرعدة فخبثت نفسه، فمازال يقيء ويسلح ثم ركنه الحمى وصحت توبته وتم عزمه في ألا يؤاكل رغيباً أبداً ولا زهيدا، ولا يشتري سمكة أبداً رخيصة ولا غالية، وإن أهدوها إليه لا يقبلها، وإن وجدها مطروحة لا يمسها

فالجاحظ في هذه النادرة البارعة يحاول أن يدخل على نفسك من كل جهة، وأن يهز قلبك بالضحك في تهويله وإغراقه، فهو يبسط لك في العبارة، ويرادف الجمل على المعنى الواحد فإذا به يبهرك بصور معروضة لا بألفاظ مسرودة وخذ بالنظر إلى هذه النادرة التي بين أيدينا، فأنت في ضحك بالغ من إغراق الجاحظ في تصوير بخل ابن أبي المؤمل حتى أنه رأى السدري (رأى الموت الأحمر والطاعون الجارف! ورأى الحتم المقضي! ورأى قاصمة الظهر! وأيقن بالشر! وعلم أنه قد ابتلي بالتنين!! وأنت أيضاً في ضحك بالغ من نهاية هذا الرجل تلك النهاية الأليمة: إذ (تولد الغيظ في جوفه، وأقلته الرعدة فخبثت نفسه فمازال يقيء ويسلح!! ثم ركبته الحمى!! وصحت نوبته وتم عزمه في أن لا يؤاكل رغيباً ولا زهيداً، ولا يشتري سمكة أبداً رخيصة ولا غالية، وإن أهدوها إليه لا يقبلها، وإن وجدها مطروحة لا يمسها!!)، ثم أنت في ضحك من صنيع السدري وهو يقور السرة، ويقبض على الفقا، ويجترف المتن، ويكتسح ما على الوجهين جميعاً، ثم وهو يفري القرى ويلتهم التهاماً!! ولقد كان السدري من الأكلة، وهو من الأشخاص الذين أولع الجاحظ بالتنادر عليهم، وأغرق في الضحك منهم، ومع ذلك فكان يجالسه ويحادثه ويجاذبه الرأي والفكاهة، فقال له يوماً: إذا كانت المرأة عاقلة ظريفة كاملة كانت قحبة! فقال السدري: وكيف؟ قال: لأنها تأخذ الدراهم، وتتمتع باللباس والطيب، وتختار على عينها من تريد، والتوبة معروضة لها متى شاءت! !!فقال السدري: فكيف عقل العجوز؟ قال: هي أحمق الناس وأقلهم عقلاً

على أن السدري وهو على ما رأيت من الشره والجشع لم يكن في الأكلة بسباق الحلبة ولا هو بكبش الكتيبة في رأي الجاحظ وتقديره، وإنما كان يقدم في ذلك قاسماً التمار، وكان

قاسم هذا - كما يقول الجاحظ - شديد الأكل شديد الخبط قذر المؤاكلة، وكان أسخى الناس على طعام غيره وابخل الناس على طعام نفسه؛ وكان في مؤاكلته يعمل عمل رجل لم يسمع بالحشمة ولا بالتجمل قط. وكان يجلس على طعام ثمامة بن أشرس فكان لا يرضى بسوء أدبه حتى يجر معه ابنه إبراهيم، وكان بينه وبين ابنه في القذر بقدر ما بينه وبين جميع العالمين، فكانا إذا تقابلا على خوان ثمامة لم يكن لأحد على أيمانهما وشمائلهما حظ في الطيبات، وكان قاسم إلى جانب ذلك سخيفاً مغفلاً غبياً، وقد حفل الجاحظ بأخباره ونوادره فأورد بعضاً من حوادثه في الهجوم على خوان ثمامة وفتكه به في كتاب البخلاء، كما أورد طرفاً من سخافاته وحماقاته في البيان والتبيين وما أطيبه وهو يضحك من جهله إذ يقول في باب اللحن: وقال بشر المريسي: قضى الله لكم الحوائج على أحسن الوجوه وأهنؤها! فقال قاسم التمار: هذا على حد قوله:

إن سليمي والله يكلؤها ... ضنت بشيء ما كان يرزؤها

قال الجاحظ: فصار احتجاج قاسم أطيب وأضحك من لحن بشر!!، ولولا التحرج لأوردنا شيئاً من نوادر الرجل ومضاحيكه التي أحصاها الجاحظ عنه، فإن فيها ما يعف القلم عن ذكره، ولا يصح أن ينشر مطويه في مجلة سائرة! على أنها طيبة تفيض بالضحك وتحمل عليه!!

والجاحظ ولوع ببعض الأشخاص يتعقب أخبارهم في الضحك والعبث، ويذكرهم بأوصافهم في كل مناسبة داعية، فكما أنه يتندر على الكندي وابن أبي المؤمل وسهل في البخلاء، والسدري وقاسم التمار في الأكلة، فهو يذكر كثيراً كيسان مستملي بي عبيدة في أهل البلادة، ولقمان الممرور في أصحاب الغباوة، وريسموس اليوناني في الموسوسين، وأبو حية النميري في المجانين، وريطة بنت كعب في الخرق، ومالك بن زيد مناة في النوكى، وابن فنان في المدخولين. وإنه ليطربك ويضحكك وهو يضحك من مستملي أبي عبيدة في غفلته وبلادته. قال الجاحظ: فكان يكتب غير ما يسمع، ويقول غير ما يكتب، ويستملي غير ما يقرأ، ويملي غير ما يستملى. أمليت عليه يوماً: قلت لمعشر عدلوا ... بمعتمر أبا عمرو!

فكتب أبا بشر، وقرأ أبا حفص، واستملى أبا زيد، وأملى أبا نصر! قلت وإذا كان في هذا الوصف ما يحمل على الضحك، فليس ببالغ من ذلك ما يبلغه وصف الجاحظ أيضاً لغباوة أبي لقمان الممرور إذ يقول: وسأل بعض أصحابنا أبا لقمان الممرور عن الجزء الذي لا يتجزأ ما هو؟ فقال: الجزء الذي لا يتجزأ علي ابن أبي طالب عليه السلام، فقال له أبو العيناء: أفليس في الأرض جزء لا يتجزأ غيره؟ قال: بلى! حمزة جزء لا يتجزأ! قال فما تقول في أبي بكر وعمر؟ قال أبو بكر يتجزأ! قال: فما تقول في عثمان؟ قال: يتجزأ مرتين، والزبير يتجزأ مرتين، (قال: فأي شيء تقول في معاوية؟ قال: لا يتجزأ!!. قال الجاحظ: فقد فكرنا في تأويل أبي لقمان حين جعل الأنام أجزاء لا تتجزأ إلى أي شيء ذهب؟ فلم نقع عليه إلا أن يكون أبو لقمان كان إذا سمع المتكلمين يذكرون الجزء الذي لا يتجزأ هاله ذلك وكبر في صدره وتوهم أنه الباب الأكبر من علم الفلسفة!! وان الشيء إذا عظم خطره سموه بالجزء الذي لا يتجزأ!!) وإذا كان الشيء بالشيء يذكر كما يقولون، فما أشبه أبا لقمان في غفلته وجهله بعبيد الكلابي وقد سأله الجاحظ: أيسرك أن تكون هجيناً ولك ألف دينار؟ فقال: لا أحب اللؤم بشيء! قال الجاحظ: فقلت له: إن أمير المؤمنين ابن أمة! فقال، أخزى الله من أطاعه، فقلت: نبي الله إسماعيل ابن أمة! فقال: لا يقول هذا إلا قدري! فقلت: وما القدري؟ فقال: لا أدري إلا أنه رجل سوء!!

وللجاحظ كثير من المضاحيك السائرة والنوادر الذائعة التي نقلها عنه الرواة؛ فمن ذلك ما رواه أبو بكر بن إسحاق قال: قال لي إبراهيم بن محمود ونحن ببغداد: ألا تدخل على الجاحظ؟ فقلت ما لي وله! فقال: إنك إذا انصرفت إلى خراسان سألوك عنه فلو دخلت إليه وسمعت كلامه؟ فدخلت عليه فقدم لنا طبقاً من الرطب فتناولت منه ثلاث رطبات وأمسكت، ومر فيه إبراهيم فأشرت إليه أن يمسك! فرمقني الجاحظ فقال لي: دعه يا فتى فقد كان عندي بعض إخواني فقدمت إليه الرطب فامتنع فحلفت عليه فأبى إلا أن يبر قسمي بثلثمائة رطبة!!

وقال أبو العيناء: كان الجاحظ يأكل مع محمد بن عبد الملك الزيات فجاؤا بفالوذجة فتولع محمد بالجاحظ وأمر أن يجعل من جهته مارق من الجام، فأسرع في الأكل فننظف ما بين يديه!! فقال ابن الزيات: تقشعت سماؤك قبل سماء الناس يا أبا عثمان؟ فقال الجاحظ: لأن غيمها كان رقيقاً!!

وادعى إلى الضحك من هذا ما حدث به الجاحظ فقال: كان يحضر إلي رجل فصيح من العجم فقلت له: هذه الفصاحة وهذا البيان لو ادعيت في قبيلة من العرب لكنت لا تنازع فيها، فأجابني إلى ذلك! فجعلت أحفظه نسباً حتى حفظه وهذَّه هذّاً، فقلت له: الآن لا تته علينا! فقال: سبحان الله إن فعلت ذلك فأنا إذاً دعي!!

وشبيه بهذا الأعجمي المتفاصح ذلك القاص المتعالم الذي أشار إليه الجاحظ فقال: وكان عندنا قاص أعمى ليس يحفظ من الدنيا إلا حديث جرجيس، فلما أخذ فيه بكى واحد من النظارة فقال القاص: أنتم بأي شيء تبكون؟! إنما البلاء علينا معاشر العلماء!!

فالجاحظ لا شك كان رجلاً ضُحَكة ضُحْكة، ومضاحيكه كما قلنا - تمتلك اللب، وتهتاج النشاط، وتدفع إلى الضحك دفعاً. . .
(له بقية)
محمد فهمي عبد اللطيف
حديث الأزهار
للكاتب الفرنسي ألفونس كار
ترجمة ف. ف.
زهرة مقصوفة
ترطبت أهدابي بدموع الفجر، ففتحت عيني لأوائل أشعة الشمس
مرت بي عند الصباح غادة استوفقها جمالي فحدجتني بنظرات الإعجاب فابتسمت لها وأمرت الغادة يدها الناعمة على وريقاتي فارتعشت، وأسكرتني اللذة، لكنها لم تطل حتى شعرت بعدها بألم هائل اخترق أحشائي، فأحنيت الرأس ذليلة على غصني المقصوف
لم لم تقطفي تويجي، أيتها الغادة، لماذا قصفت غصني فتركتني بين الحياة والموت، وقد كان في إمكانك أن توسديني نهدك فأرقد عليه بسلام.
إن دمي يسيل ببطء من جرحي المفتوح، وصقيع الموت يلوح وريقاتي بالاصفرار. وقد انطبق تويجي منقبضاً على أوجاعه
أتوقف النسيم عن مداعبة الأغصان؟ إنني لم أعد أسمع لأجنحته عليها حفيفاً. وهل صمتت الأطيار؟ فقد انقطع عن مسمعي تغريدها.
أين شعاع الشمس؟ إنني لم أعد أراه. ويلاه! أخبرنني، أيتها الرفيقات، هل تلاشى النور وساد الظلام؟
لا، إن الليل لم ينشر أجنحته بعد، ولكنها أشباح الموت السوداء تنطبق علي، فسوف لا أرى لمعان النجوم في قبة الفضاء ولا أفتح وريقاتي لاقتبال ندى الفجر
ستتساقط بقاياي مبددة على التراب وترتفع روحي إلى الأعالي تاركة أريجي عالقاً بالأثير.
سوف ينتصب شبحي المتألم بوجهك، أيتها الغادة، سوف يثأر لي ضميرك منك فتتألمين لقسوتك علي وإهمالك للضحية البريئة.
غفر الله لك، ووقاك من يد تغشاك بالأمل لتتركك فريسة الإهمال. أبعد الله عنك آلام الزهرة المقصوفة! أيتها الفتاة!
بين حب جديد وسلوة عن قديم
للعالم الشاعر الراوية الأستاذ أحمد الزين
فرغ القلب من عسى ولعلاَّ ... فسلامٌ على غرامٍ توَلَّى
وخلا للهوى الجديد فؤادي ... مرحباً بالهوى الجديدِ وأهلا
ليت شعري هل المُنَى فيه تدنو ... فكفاني ما ذقتُ في الحبّ قبلا
بالقلب ما قَرَّ حتى تداعى ... ولدمعٍ ما غاضَ حتى استَهَلا
فدعي يا حبيبةَ الأمس قلبي ... لوَصُولٍ تجزي المودَّةَ مِثْلا
تعرف الصبّ كيف يقتله الح ... ب فرقَّت ولم تَزِدْ فيه قَتْلا
لم تُطِعْ فيه عاذِلاً وإذا ما ... صدق الحب لم يُطع فيه عَذلا
وإذا ما بذلت غالِيَ حُبٍ ... بذلت من فؤادها الحبَّ أغلى
وإذا ما نما هواها بقلب ... لم تُمتهُ بالصّدّ تيهاً ودَلا
لا كتلك التي إذا نَبَتَ الح ... ب بقلب أذْوَتْه ضَنّاً وبُخلا
تحب الصّدّ والجفاء يزيدا ... ن فؤادي بها غراماً وشُغلا
ما دَرَتْ أنّ صَدَّها وَطَّنَ القل ... بَ على طول بُعدِها فتَسَلى
فاطربا ذكر ذلك العهد عني ... نَهِلَ القلبُ بالسّلُوِّ وعَلاَّ
إيه يا جَفنُ كم تساهِدُ نجمَ اللي ... لِ حتى مَلِلْتَ والنجمُ ملاَّ
إيه يا ليلُ كم حَملتَ من الشكو ... ى وبَثِّ الشجونِ ما شقَّ حملا
فأطلتَ المقامَ ترثي لحزني ... وحشدتَ النجومَ حَوْليَ أهلا
كم تواسي المحزونَ بالدّمع حتى ... تدع الزهر بالنَّدَى مُخْضَلا
فكلانا راثٍ لبَثِّ أخيه ... وكلانا عن عهده ما تَخَلّى

إيه يا دمعُ كم تفيضُ لذكرى ... لمحةٍ لن ترى لها الدهرَ ظلاّ
ذهبتْ كالحباب أو مثلما جفّف ح ... ر الشعاع في الرَّوض طَلاّ
ومضت كالخيال في غفوة العُم ... ر فَهلاّ عَزيتَ قلبَك هَلا
إيه قلبي كم فرقةٍ ذقتَ حتى ... كدت تسلو الهوى فراقاً ووَصلا
غير أن الهوى حياةٌ لقلب ... غُرسَ الحب فيه مذ كان طِفلا
إنّ قلباً لم يُحيه الحب مَيْتٌ ... لا ترى فيه للحياة محلاّ
وإذا الشعر لم يُفِضْه غرامٌ ... يَصْهَر النفسَ بالجوى كان هزلا
فأعزِّي بصادق الحبِّ شعري ... كم أهنت القريض في حب من لا .
وأفيضي عليَّ صفواً من الح ... بِّ أفِضه صفواً من الشعرِ جَزلا
أحمد الزين

نحن والماضي

للأديب عبد اللطيف النشار

قضت أم أوفى، بلل الغيث قبرها ... فعدِّ عن الدراج فالمتثلم
واخلي الفراعين الكرام مقامهم ... لأشبه منهم بالحياة وأعظم
أمن نسل مينا أنت أم نسل جرهم ... إلى أي فرعي دوحة المجد تنتمي؟
يقول حصيف الرأي من نسل آدم ... له صبر مصري وإيمان مسلم
أفخراً بأن راضوا قوياً منعماً ... ولا فخر في إحياء شلو محطم
عفاء على الدنيا إذا كان ما مضى ... نهاية شعب تائق متوسم
مضى ما مضى، الإسلام ورحمة ... سلام وفاء لا نفجع أيم
ولسنا من الماضين أدنى مكانة ... ولا كان أوفى الفضل للمتقدم
ورثت زهيراً شعره ومكانه ... وما مال نسل وارث بمحرم
فما وقف الماضون مجداً ليحبسوا ... على غير أحفاد لهم كل مغنم
ولكن مجدنا ملكهم فهو مجدنا ... ولم يبق منهم غير ذكرى وأعظم
ألا أيها الجاثي على قبر هالك ... تعز فان الدمع أغلى من الدم
تعز يعش ما بين جنبيك قلبه ... فما مات ذو نسل عزيز مكرم
ولا عاش من لا ينطوي في ضلوعه ... سوى زفرات الآسف المتندم
ومن كان ماضيه نهاية جاهه ... يعش في سديم من دجى الهم مظلم
بداية عمر المرء إشراق شمسه ... وكم من شموس ليس يدركها العمي
فخرت برمسيس ورمسيس جثة ... فخارك أن تحيا بعزم مصمم
يفاخر بالأحياء حي ويزدهي ... بمن مات ذو قلب كسير مهضم
لعمري لقد جفت سنابل يوسف ... وحامت على أبقاره أم قشعم
لقد أنقذ الأحرار من رق يوسف ... بما أنشأوا في كل أرض وعيلم
وأسراب طير من حديد محدم ... وغائصة في غائر القاع مظلم
وما الحرب إلا عزة واستطالة ... فلا تنقضوا حكم القضاء المحتم
ولا تحسبوا في السلم غنماً لحالم ... ألا ضل رأي الآمل المتوهم
يراد أخاء دائم وسلامة ... ومن يرج معسولاً من العيش يحرم
بلادي عداك الذم لست بخيلة ... فجودي فإلا تفعلي اليوم تندمي
أنترك للأحلاف أن يدفعوا العدا ... إذا غزيت مصر بجيش عرمرم
معاذ العلا أن يحمي النيل في الوغى ... سوى كل مصري على الموت مقدم
هو العهد عهد الحرب لا كلفاً بها ... ولكن من لا يتق الظلم يظلم
رجال غد لا تطلبوا المال مطلباً ... فما العيش عيش الوادع المتنعم
ولكنما يحيا الذي يرهق العدا ... ومن عاش في أمن من الناس يسأم
ولا تحسبوا الماضي أعز مكانة ... ألا تلك دعوى الخائب المتلوم
يمهد عذراً للهوان بذمه ... بني عصره في كل قول مرجم
بني وطني كونوا قلوباً تكن لكم ... مناعتها من كل عار ومأثم
فما تسلك الأوزار في الناس مسلكاً ... إلى القلب لولا ثغرتا الجيب والفم
أحب الذي أعطيت نسيان موضعي ... لدى كل نهب في الحياة مقسم
عبد اللطيف النشار

الفنون
الفن البابلي الآشوري
للدكتور أحمد موسى
إذا كنا قد عرفنا شيئاً عن الفن المصري من عمارة ونحت وتصوير وفهمنا كيف أن هذا الفن كان إلى حد ما أساساً للفن الإغريقي، وعلمنا أن الحضارات تقاس بالفن، أمكننا أن ننتقل اليوم إلى حضارة فنية أخرى هي حضارة بابل القديمة (3800 - 625 ق. م.) والجديدة (خالديا 625 - 538 ق. م.) وآشور (2250 - 606 ق. م) التي لم تبلغ في مجموعها مستوى عظمة الحضارة المصرية فنياً؛ فضلاً عن أنها لم تكن أساساً اتخذه الإغريق لحضارتهم الفنية، رغماً عن وجود بعض الشبه الضئيل بين النحت البابلي الآشوري وبين الإغريقي، من حيث عدم الاكتفاء بالخطر المحدد للمنحوتات النصف البارزة والمصورات (كما رأينا في الفن المصري)، وإخراجها شاملة بعض تفاصيل أعطت شيئاً من الحياة قربها من النحت الإغريقي.
ويحسن قبل التكلم عن الفن البابلي الآشوري وعن مميزاته أن نعرف شيئاً عن نشأة بابل وآشور اللتين كانتا مصدر حضارة غرب آسيا. ففي الجزيرة المحصورة بين نهري دجلة والفرات التي تعد من أخصب البقاع الصالحة للزراعة، نشأت بابيلونيا من الجنوب وآشور على نهر دجلة من الشمال
وإذا رجعنا إلى التاريخ الذي اعتمد واضعوه على الآثار والدراسات الفنية، فإننا نرى أن الحفريات التي أجريت في مناطق كثيرة من هذه البلاد، دلت على أن أول آثار الإنسان المتحضر نوعاً رجعت إلى حوالي عام 4000 ق. م.
على أنه لا يهمنا هنا أن نعرف إن كان أصل هؤلاء الناس من الآريين أو من الساميين، كما أنه لا يعنينا أن نبحث لتحديد نوعهم، ولكن المهم أن نعلم أن بابل نفسها انقسمت مملكتين شمالية وجنوبية، ثم اندمجتا معاً حوالي عام 2300 (2000؟ ق. م.) في عصر ايري أكو - وكانت مدينة بابل على نهر الفرات (على خط عرض يافا تقريباً) عاصمة لها
أما آشور فهي أقدم كثيراً من هذه، إذ قامت الحضارة فيها عام 2250 ق. م. على أساس
حضارة بابل. وكانت مدينة نينوى لعهد طويل عاصمة لها، وهي واقعة على الضفة الشرقية لنهر دجلة أمام مدينة الموصل الحالية، وفيها ظهر الفن الآشوري الرائع في المرحلة الزمنية المحصورة بين القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد، واستمر التقدم في هذه الفترة حتى تأسيس مملكة آشور، وازدهار الفن في عصر ساراجون (722 - 705) وسانهريب (705 - 681) وأسور بانيبال (668 - 626 ق. م.) ولم يتدهور الفن إلا في عصر نابوبولاسر واتجه بعد ذلك اتجاهاً آخر عندما حكمها كيروس بن قمبيز سنة 539 ق. م. وضمها إلى مملكة الفرس
هذا سرد تاريخي بسيط اقتصرت فيه على ما لا استغناء عنه لمن يود الوقوف بشكل إجمالي على الحالة التي نشأ خلالها الفن البابلي الآشوري، الذي ينقسم إلى عمارة ونحت وتصوير كالفن المصري والإغريقي وغيرهما
ونظراً لقلة الأحجار في هذه البلاد، تجد أن العمارة لم تكن رائعة، فضلاً عن تهدمها جميعها لضعف اللبن الذي استخدم في معظم مبانيها إلى جانب الآجر
وبالدراسة الإجمالية لبقايا العمارة البابلية الآشورية، يمكننا أن نعرف أنها خلت من الأعمدة التي كانت من أهم مميزات الفن المصري والإغريقي، ولذلك تجد أن الحوائط كانت سميكة إلى حد بعيد، فضلاً عن إقامة أكتاف لها من البناء لتساعد على تقوية الحوائط المرتفعة.
إلا أن لبابل وآشور ميزة قد تعادل النقص الناشئ عن عدم إنشاء الأعمدة، وهي القباب التي بنيت على هيئة نصف كرة والقبوات التي أقيمت على شكل عقود نصف دائرية أو نصف بيضاوية، بجانب السقف المسطحة التي كانت فوق أعمدة ارتكزت على أكتاف الحوائط
ودفع التحضر أهل بابل وآشور إلى وجوب زخرفة مبانيهم، فتراهم أحرقوا الطوب وصقلوا سطحه بالحرارة حتى أصبح لامعاً كالصيني، فأعطى لهذه المباني شيئاً من الجمال والبهجة علاوة على الرسوم والتصاوير التي عملت عليها، والتي مكنتنا من

تحديد درجة تحضرهم.
وإذا قارنا معابد بابل وآشور بالمعابد المصرية، نرى أنها أقل فناً منها، ذلك من حيث هندسة البناء، والإنشاء الكلي وجمال الطراز
أقيمت هذه المعابد عادة على مرتفع من الأرض، تعلوه مصطبة بلغ ارتفاعها أحياناً ثلاثة عشر متراً، أو مصاطب بعضها فوق بعض (كهر سقارة المدرج) انتهت بقبة مزخرفة علت الهيكل المقدس وتماثيل وصور الآلهة
هذا بجانب مبانيهم التذكارية كبرج بابل (2300؟) الذي ذكر هيرودوت أنه كان مكوناً من سبع مصاطب , 1: 178 & 3: 158)، والبناء التذكاري المسمى معبد بورسيبا في الجنوب الغربي من بابل أنشأه نيبختنصر (605 - 562) وبيرس نمرود بالقرب من هيلا جنوب بابل.
كل هذا قد تهدم، وبعضه لا يعرف له أثر، كما تهدمت كل المباني العادية إلى حد يصعب معه التعرف على حالتها بدقة، ولكننا إذا نظرنا إلى نتائج أعمال الحفر وبقايا الخرائب نستطيع أن نصل إلى تكوين فكرة تكاد تكون صحيحة عن تصميمات المباني، فالقصور والبيوت كانت مربعة الشكل توسطها صحن يعلوه سقف مفتوح الوسط (كحوش قصر حفر رزباد) أو بدون سقف، تفرعت منه غرف السكن التي كانت سقوفها على هيئة قباب أو عقود نصف دائرية أو نصف بيضاوية كما سبق القول.
أما العصور على وجه الخصوص فكانت في بابل وآشور متشابهة تشابهاً قوياً، فهي مع بساطة تكوينها الإنشائي كانت كثيرة التحلية والتصاوير والمناظر التي كانت بألوان بلغت الستة أحياناً، وكانت الردهات والصالات كثيرة بلغ بعضها من 28 إلى 52 متراً على حين كان العرض من 10 إلى 20 متراً فقط.
وكانت النوافذ غريبة الوضع، فكانت عبارة عن فتحات تركت في أعلى الحوائط وأسفل السقف مباشرة.
من هذا نرى أن العمارة لم تكن عظيمة في بابل وآشور إلى حد يسمح لنا أن نقول لولا المنحوتات والتحليات والزخارف والرسومات النصف بارزة والمحفورة لما سجل تاريخ الفن شيئاً كثيراً لهذه البلاد.
ومجمل التعريف أن المشاهد لبقايا المنحوتات والزخارف والتصاوير الخ، يرى أنها مليئة بالحياة، كما يلاحظ قدرة الفنان وثبات يده في العمل. وقد وجدت رسومات نصف بارزة على لوحات من حجر الباستر المعروف شملت مناظر الآلهة والإنسان والحيوان كما شملت
كثيراً من طراز الملابس التي اعتني بإخراجها عناية شديدة
ولعلنا بمشاهدة بعض الصور هنا نلاحظ الدقة التي وجهت إلى إظهار تموجات الشعر والإكثار من الظل والنور.
ومما تجب ملاحظته أن هناك وجه شبه إلى حد ما، بين ما رأيناه من منحوتات المصريين ومصوراتهم وبين ما نراه الآن من مخلفات بابل وآشور، وذلك بإظهار الأجسام كاملة التكوين والتصوير بحسب ما يجب أن تظهر به أمام المصور في حالة من الجفاف والصمت، ولكنها تميزت باشتمال الأجسام على شيء من خطوط التحديد الذي أظهر تفاصيل العضلات، إلى جانب هذا كان النحت والتصوير الآشوري على وجه الخصوص متقدماً إلى حد يقربه من روح النحت والتصوير الإغريقي.
وما وقع فيه الفنان المصري من الخطأ في تصوير الحمامات؛ وقع فيه الفنان البابلي الآشوري أيضاً، فترى تصويره لها كان كما لو كانت كل قطعة منها قائمة بنفسها لا تتصل بمجاوراتها
ومن ضمن المميزات الفنية ظهور الأسد أحياناً برأس إنسان في معظم المصورات البارزة والمسطحة ظهوراً مستمراً، إلى جانب الأجنحة التي نحتوها أو صوروها عندما مثلوا آلهتهم
وفي المتحف البريطاني ومتحف اللوفر وغيرهما مجموعات كبيرة مما وجده الأثريون من بقايا النقوش والزخارف والتماثيل، وعدد هائل من اللوحات التي قيل إنها تكون مكتبة آسور بانيبال. والفضل في ذلك راجع إلى شخصيات بارزة أمثال أميل بوتا وهنري ليارد وهرمز رسام وجورج سميث وغيرهم، استغل كل منهم في منطقة معينة لا يتسع المجال لإيضاحها وإيضاح نتائجها

ولعلنا بالنظر إلى المصورات التي تشملها هذه المقالة، نأخذ فكرة عامة عن الفن البابلي الآشوري كما أنه يمكننا بالمقارنة أن نعرف إلى أي مدى وصل هذا الفن نسبياً إلى الفن المصري
أنظر إلى الصورة الأخيرة (ش 6) تر أروع ما يستطيع فنان إخراجه، فهي مليئة بالحياة وصدق المحاكاة، إلى جانب دقة التناسب وعظمة الإخراج
فعندما أصيبت اللبؤة بسهمين في نصفها الخلقي انهزمت بهذا النصف، ونلاحظ أن النصف الأمامي لا يزال حياً برغم اختراق السهم الثالث للقلب أو لما يجاوره. أنظر إلى بروز المخلبين الأماميين والى اختفاء نظيريهما من الخلف، ولاحظ ما ظهر على ملامح الوجه من علائم الألم التي تمثلت في التجاعيد الواضحة على الأنف. أما الفم فهو يمثل الاستغاثة بكل معانيها
فهذه إلى جانب غيرها من الأمثلة الصادقة لفن إن لم يكن في مقدمة الفنون القديمة، دليل على أنه من الفنون التي لا يمكن للراغب في فهم الجمال الفني الاستغناء عن معرفتها.
(أحمد موسى)
القصص
الوالد
للكاتب القصصي جي دو موباسان
جان دوفالنوا صاحب لي لا أفتأ أزوره الفينة بعد الفينة. وهو يقيم في قصر له على ضفة جدول في بعض الغياض، وقد لاذ بهذا الكن بعد أن قصف وترف في باريس خمسة عشر عاماً سوية. وقد عرته بغتة ملالة من كل ما في هذه المدينة من مناعم ومآدب ورجال ونساء وملاعب، وجاء يعتزل في هذه الدار التي فيها ولد وفيها نشأ.
ونمضي إليه اثنين أو ثلاثة من الصحب نقضي معه أسابيع معدودات، ولقد كان سروره بنا إذ يلقانا بعد نأي، بالغاً شديداً، وابتهاجه باسترجاع ما أفلت منه من حبور بعزلته إذ نتولى عنه جماً وفيراً.
ولقد وفدت عليه في الأسبوع الماضي فهش وبش. وكنا نقطع الساعات تارة جميعاً وتارة منفردين، والعادة أن يقرأ هو واشتغل أنا بالنهار، وحين تأخذ عين الشمس في الإغتماض نقبل على السمر إلى أنصاف الليل.
وكنا في يوم الثلاثاء الماضي، وكان يوماً حروراً متلظياً، قد جلسنا في جنح ليله نتأمل جريان الماء في الجدول تحت أقدامنا، وكنا نتساجل ما يتوارد علينا من أفكار شديدة الغموض عن النجوم الخائضة في الماء وكأنها بين أيدينا تمرح سبحاً. كنا نتناقل ما تتمخض به أذهاننا من خواطر كثر غموضها واشتد اختلاطها وأفحش إيجازها، ذلك أن عقولنا شديد قصورها، مستفحل ضعفها. بالغ عجزها. أما أنا فقد كنت مشفقاً على الشمس المتوارية في الحجب لدى الطفل، كنا نفكر في هذه الكائنات المبثوثة في هذه العوالم، ومختلف أشكالها العجيبة التي يتقاصر دونها وهم الإنسان، وخواصها التي لا تدرك كنهها الفطن، وأعضائها الخفية المحجوبة. والحيوان والنبات وكافة الأجناس وسائر الجواهر وشتى المواد، مما لا تكاد ترتفع إليه أذهان الإنسان.
وبينما نحن كذلك إذا بصوت على بعد يصيح:
- سيدي، سيدي:
فقال جان:
هلم يا يا تيست
فلما اهتدى إلينا الخادم قال:
- الغجرية يا سيدي
فجعل صاحبي يضحك كمن به مس، وما عهدته يضحك كذلك إلا نادراً، ثم قال:
إنا إذن في 19 يوليو؟
- نعم يا سيدي
- إذن قل لها تنتظر وأعد لها الطعام فإني عائد بعد عشر دقائق.
ولما انصرف الخادم أخذ صاحبي بذراعي وقال:
- فلنمش على مهل، إني قاص عليك قصة هذه المرأة.
منذ سبع سنين أي في السنة التي حللت بها هنا: خرجت في أصيل يوم أطوف في

الغابة. وكان يوماً طلقاً صافياً كيومنا هذا وجعلت أسير متئداً تحت أفنان الدوح أتأمل نجوم السماء من خلل أوراقها، مستجلباً لرئتي بليل نسمات الليل وطيب زهر الغابة.
وكنت قريب عهد بهجري باريس. إذ تملكني سأم شديد وعافت نفسي كل ما رأت عيني وأخذت منه بنصيب من كل سخيف وزري وذميم مدة خمسة عشر عاماً.
وأمعنت في السير وتوغلت في مسالك هذه الغابة ومضيت في فج مها عميق يؤدي إلى قرية جروزي على مدى غلوة من هنا، وإذا بكلبي قد وقف فجأة ونبح، فظننت أنه رأى ذئباً أو وحشاً ضارياً فدلفت متسللاً كظيم الخطو ولكني سمعت بغتة صراخاً علا، صراخ إنسان يستغيث مختنقاً تتمزق له نياط القلوب من رحمة. فما شككت أنه رجل يغتاله مغتال في خميلة فعدوت لنجدته وبيميني هراوة غليظة ضربتها مردية
دنوت ن هذا الصراخ الذي كان ينجلي كلما قاربته ولكنه خفيض مع ذلك مكظوم، كأنه صادر من بيت، وربما من خص حطاب، وكان كلبي بوك يتقدمني على قيد خطوات تارة يعدو، وتارة يقف، ثم ينطلق انطلاق السهم هائجاً حنقاً مسترسل الهرير ولم نلبث أن برز لنا كلب آخر أسود عظيم الهيكل كأن عينيه جمرتان قد كشر عن أنياب عصل يلمع بين شدقيه بياضها
فهممت أن أهوي عليه بهرواتي ولكن بوك سبقني إليه فتلاحما وتصارعا وتجاولا، ومضيت أنا قدماً، وإذا بي أكاد أتعثر بجواد متطرح في الطريق، وإذ وقفت مبهوتاً أتأمل هذه الدابة لمحت عربة أمامي، بل بيتا طائفاً، أحد مساكن هؤلاء الباعة المتجولين
ومن ههنا كان مصدر هذا الصراخ الفظيع المتلاحق. ولما كان الباب من الناحية الأخرى، فقد درت بهذه العربة واندفعت أرقى الدرجات الثلاث الخشبية وأنا أهم بأن أصرع المعتدي بهراوتي
ولكني شاهدت عجباً، والتبس علي الأمر فلم أفقه لأول وهلة شيئاً: هذا رجل قد جثا على الأرض كأنه يصلي، وعلى الفراش الذي استوى في جوف هذه العربة شيء قد جثم لا سبيل إلى تمييزه: بشر نصف عار قد انطوى على نفسه وهو يتلوى كالثعبان لا أرى وجهه، يميد ويضطرب وكأن صراخه خوار ثور
فإذا هي امرأة تعاني آلام الوضع
فما إن أدركت كنه الأمر وتبين لي ما غمض من حقيقة هذا الحادث الذي كان عنه هذا الصراخ حتى أذنتهما بوجودي، فجعل الرجل وهو يشبه أهالي مارسيليا يسألني ملحاً ذاهب اللب أن أغيثه وأغيثها وهو يواثقني بكلام لا آخر له على الوفاء والذكر لجميل، بما أقضي منه عجباً. ولم أك قد رأيت ولادة قط، ولا أسعفت أنثى قط في مثل هذه الأحوال، وذكرت له ذلك في بساطة، وأنا أنظر ذاهلاً إلى هذه التي تصم الآذان جلجلة صراخها في هذا الفراش
ثم سألت الرجل الواهن الحسير وقد استرددت جأشي: ما بالك لا تذهب إلى القرية القريبة؟ فقال إن جواده هوى في حفير فانكسرت ساقه فهو رازح لا يريم
فقلت له: يا هذا لا بأس عليك. الآن نحن اثنان. إنا سنتعاون في جر العربة بامرأتك - إلى بيتي.
ولكنا لم يسعنا إلا الخروج إلى الكلبين. إذ علا هريرهما وما فصلناهما إلا بضرب بالهراوة شديد كاد يخمد أنفاسهما، ثم خطر لي أن أشدهما بين أقدامنا إلى العربة استعانة بهما، هذا يمنة وذاك يسرة وما انقضت عشر دقائق حتى كنا على تمام الأهبة.
وأخذت العربة تسير الهوينا، فترج - باهتزاز عجلاتها فيما تخط في الأرض ممعنة من أخاديد - تلك المرأة المسكينة الممزقة الأحشاء
ويالها من طريق! كنا نسير لاهثين لنا زفير مرتفع، وعرق ناضح، نزلق حيناً، وحيناً نقع، بينما الكلبان المسكينان يزفران بين أرجلنا كزفير النار
وقضينا ثلاث ساعات حتى بلغنا القصر، وإذ دنونا من الباب انقطع الصراخ داخل العربة.
وإذا الأم والمولود في أحسن حال، وأرقدنا الأم وطفلها في فراش وثير. ثم ركبت عربتي لأستحضر الطبيب بينما كان صاحبنا المارسيلي وقد اطمأنت نفسه، يلتهم الطعام في شراهة ويحتسي حتى لا يعي من سكر ابتهاجاً بهذه الولادة السعيدة وكانت بنتاً
وأقام عندي هؤلاء النفر ثمانية أيام، والوالدة وهي السيدة ألمير لها بصر بالغيب عجيب، وقد بشرتني بحياة مديدة ومناعم عديدة

وفي العام الذي بعده وفي مثل هذا اليوم لدى الغسق جاء الخادم الذي حضر من هنيهة يدعونا، وكنت في حجرة التدخين بعد طعام العشاء، يقول: (غجرية العام الماضي جاءت تشكر سيدي)
فأمرت بدخولها، وعرتني دهشة إذ رأيت بجانبها غلاماً بالغاً أشده، ممتلئاً شحماً ولحماً، أشقر اللون من أهالي الشمال، فسلم علي ثم جعل يقول كزعيم لطائفته إنه علم ما كان من إكرامي للسيدة إلمير، وأراد أن لا تمر هذه الذكرى دون أن يفدا للشكر والاعتراف بيدي عليهما
وقد أكرمت مثواهما وأمرت بإحضار الطعام لهما في المطبخ وأوفرت قراهما ليلتهما، واحتملا في الغد
وهكذا في كل عام في نفس اليوم تفد هذه المرأة مع مولودها ذاك، وهي طفلة رائعة الحسن، وفي كل مرة مع. . . رجل جديد. إلا واحداً منهم فقط هو من أهالي أوفرنيا وقد بالغ في شكري وأجزل لي الثناء، حضر معها حولين متتاليين، والصبية تدعوهم جميعاً (بابا) كما نقول (سيدي) عندنا
وكنا بلغنا القصر فلمحنا أما السلم ثلاثة أشخاص في انتظارنا وخطا أطولهم نحونا بضع خطوات وحيانا أحسن تحية ثم قال:
- سيدي الكونت إنما حضرنا اليوم لنبدي لك آيات الشكر. . . أما هذا الرجل فكان بلجيكياً
ثم تكلمت بعده أصغر الثلاثة بتلك اللهجة المدربة المتكلفة في الأطفال إذ يلقون عليك تهنئة
أو ثناء
أما أنا فقد أبديت البساطة وانتحيت بالسيدة إلمير ناحية وبعد حديث قصير قلت لها:
- أهذا أبو طفلتك؟
- كلا يا سيدي
- أمات أبوها؟
- كلا يا سيدي. ما نبرح يلقاني وألقاه أحياناً. وهو من رجال العسس
- عجباً! أليس هو إذاً ذاك المارسيلي الأول صاحب يوم الولادة؟
- كلا يا سيدي، ما كان ذاك إلا وغداً زنيماً سلبني مدخر مالي
- ورجل الدرك والد ابنتك الحقيقي أيعرف ابنته؟
- نعم يا سيدي، بل هو شديد الحب لها، ولكنه لا يستطيع تعهدها، إذ له من امرأته أولاد غيرها

أحمد أبو الخضر منسي

البريد الأدبي

حول تقرير مسيو فابر عن المسرح المصري

أتم المسيو أميل فابر الخبير المسرحي الذي انتدبته الحكومة المصرية لدراسة المسرح المصري والوسائل اللازمة لترقيته - مهمته أخيراً ووضع عنها تقريراً موجزاً أذاعته الصحف، وخلاصة تقرير المسيو فابر، هو أن توجد بمصر نواة صالحة للمسرح ولإنشاء فرقة قومية، وأن توجد بالأخص عناصر قوية للتمثيل الهزلي (الكوميديا) تضارع نظائرها في الأمم الراقية، وأن مصر تنقصها المسارح الحديثة، وأن الاختراع لا يزال متأخراً؛ بيد أن المسيو فابر لم يستطع أن يبدي رأيه في شأن التأليف المسرحي بمصر ولا في شأن اللغة المسرحية التي يحسن اتباعها، وإنما ذكر في ذلك ملاحظات قال انه سمعها من أصدقائه المصريين، وقد سبق أن لاحظنا حينما انتدبت الحكومة المصرية المسيو فابر ليقوم بهذه المهمة أن في هذا الانتداب شيئاً من الشذوذ، وأن مصر قد ذهبت بعيداً في سياسة الاستعانة بالخبراء الأجانب. ذلك أن المسيو فابر رغم مواهبه الفنية البارعة ورغم خبرته المسرحية الفائقة التي جعلته مدى ثلاثين عاماً مديراً لمسرح الكوميدي فرانسيز، هو أبعد الناس عن روح المسرح المصري والظروف الاجتماعية التي تحيط به والخلال الشرقية التي تتصل بمهمته، وقد جاء تقرير المسيو فابر مؤيداً لما لا حظنا، فهو لم يستطع أن يقوم بدراسة عميقة لشئون المسرح المصري لأن هذا المسرح مغلق بطبيعته عليه. وإنما اكتفى بدراسة مظاهره المادية، وقد كان خيراً لو أن الحكومة بدلاً من انتداب خبير أجنبي فكرت في أن توفد مندوباً

مصرياً أو اكثر لدراسة المسرح الحديث في عواصم أوربا دراسة عميقة. والتوفر بعد ذلك على تنظيم المسرح المصري بما أفاد من خبرة ومقارنة، هذا هو الوضع الطبيعي للمسألة، أما انتداب خبير أجنبي لدراسة موضوع شرقي عربي فهو من تناقضات سياسة الاستعانة بالخبراء الأجانب في كل شيء وهي سياسة قد عفت اليوم.

حول العيد المئوي لوزارة المعارف

أشارت وزارة المعارف في بعض بياناتها عن احتفالها بعيدها المئوي إنها اضطرت إلى الاختصار في الإجراءات والحفلات نظراً لأنها لم تبدأ استعدادها لإحياء هذا العيد القومي

في الوقت المناسب؛ وهذا اعتراف يؤسف له، والواقع أننا لم نوفق بعد إلى تنظيم الأعياد والذكريات القومية تنظيماً مرضياً، وفي كل مرة تعرض فيها إحدى هذه المناسبات، نفكر في الاحتفاء بها بعد فوات الوقت. وأحياناً تعرض ذكرى العيد المعين قبل وقوعه بأعوام فيتحمس لها البعض، وتقوم حولها دعاية صحفية واسعة، ولكن الجهات الرسمية تبدي فتوراً مدهشاً. مثال ذلك ما حدث في مسألة الاحتفاء بالعيد الألفي للجامع الأزهر؛ فقد نوه بأهميته واقترابه منذ أعوام، ووضعت مشيخة الأزهر برنامجاً للاحتفاء بهذا العيد؛ ثم حدث تغيير في المشيخة فانهارت كل التدابير السابقة، وجدت كل حركة في هذا السبيل بحجة أن الوقت لا يزال فسيحاً، مع أن الاحتفاء بهذا العيد القومي الجليل يقع في جمادى الأولى سنة 1359 هـ أعني بعد ثلاثة أعوام فقط؛ ولم تتخذ مشيخة الأزهر بعد أي إجراء جدي في هذا السبيل. فمتى تغدو لنا همم وتقاليد صالحة للاحتفاء بأعيادنا وذكرياتنا القومية؟

إبرس أول مكتشف لأسرار الفراعنة

احتفل أخيراً في ألمانيا بمرور مائة عام على مولد القصصي والعلامة الأثري الألماني جورج إبرس ويرتبط اسم جورج إبرس بمصر والفراعنة ارتباطاً وثيقاً، فقد كان هذا العلامة هو أول من وقع على أول ورقة من أوراق البردي المصرية، وأول من استطاع ان يصف أحوال الفراعنة في أسلوب قصصي ممتع. وقد ولد إبرس في برلين سنة 1837، وجالت بذهنه منذ الحداثة أمنية عزيزة هي أن يزور بلاد الفراعنة وما وراءها من البلاد التي تخلب سيرها لبه. وعني بدراسة تاريخ مصر القديم دراسة خاصة، وعين في سنة 1865، مدرساً للتاريخ المصري القديم في جامعة فينا، ثم عين أستاذاً له في جامعة لايبزج سنة 1870؛ وهنا فكر إبرس في تحقيق منيته فسافر إلى مصر والنوبة، وعثر أثناء تجواله بمصر على ورقة البردي الشهيرة التي عرفت باسمه، وهي ترجع إلى نحو ألف وستمائة عام قبل الميلاد وبها معلومات طبية فرعونية، فحملها معه إلى ألمانيا، وأذيعت محتوياتها، فأثارت في الدوائر الأثرية أعظم اهتمام، ونال إبرس شهرة عظيمة، وكان ذلك سنة 1874؛ وعاد إبرس وذهنه يفيض بسحر مصر القديمة، ويتوق إلى التجوال في هذه السير العجيبة ووصفها، وكان قد أصدر منذ سنة 1868 كتاباً عنوانه (مصر وكتب موسى) وكتاباً آخر عنوانه (مصر بالقول والوصف) فرأى عندئذ أن يبدأ كتابة سلسلة كبيرة من

القصص الفرعونية؛ فاستقال من منصبه الجامعي، وعكف على التأليف والكتابة، وأخرج قصته الأولى (ابنة ملك مصري) وهي قصة فرعونية وقعت حوادثها في عهد الملك ابسماتيك، وفيها وصف لنضاله ضد الفرس. ثم أتبعها برواية (وردة) (سنة 1877) ثم رواية (القيصر) (سنة 1881) ثم يسرابيس (سنة 1885) ثم (الأختين) ثم (كليوباترا) (سنة 1894)؛ وقد اشتهرت قصص إبرس الفرعونية وذاعت ذيوعاً عظيماً. وطبعت مؤلفاته مجتمعة في 25 مجلداً سنة 1895، وترجمت إلى معظم اللغات الأوربية. وتوفي إبرس في سنة 1898، بعد أن حقق باكتشافاته وكتاباته في تاريخ الفراعنة فتحاً عظيماً

التسليحات. السباق والأزمة:

صدر أخيراً في إنكلترا كتاب سياسي خطير عنوانه: (التسليحات السباق والأزمة) بقلم كاتب سياسي كبير هو فرنسيس هرست، ومسألة التسليح، والتنافس فيها هي مسألة اليوم في أوربا، وقد بلغت اليوم ذروة التنافس والاضطرام. ويمهد المستر هرست لكتابه بمقدمة تاريخية يقول فيها إن التسابق في التسليح في القرن التاسع عشر يرجع إلى بواعث وهمية والى مخاوف لا أساس لها. وأما الخصومة فيما قبل الحرب

بين إنكلترا وألمانيا فترجع إلى أن اللورد جراي قد تدخل في سلسلة المحالفات الأوربية.

ويستعرض الكاتب بعد ذلك مسابقة التسليح التي تجري منذ سنة 1933، ويقدم عنها بيانات وأرقاماً واضحة، ومن رأيه أن حمى التسليح الحاضرة في أوربا ترجع إلى السياسة الفرنسية فيما بعد الحرب، وهي سياسة زادها الميثاق الفرنسي السوفيتي تعقيداً وخطراً، وإن هذا الميثاق يرمي إلى تفويق ألمانيا. ثم يقول أن نفقات ألمانيا في الأعوام الخمسة الأخيرة على التسليح هي بلا ريب أدنى من نفقات فرنسا، وأدنى من نفقات روسيا، وربما كانت مساوية لنفقات بريطانيا؛ ورخاء ألمانيا الحاضر دليل على أنها تنفق على التسليح أقل مما يذاع. ثم أن ما تعانيه ألمانيا الآن من نقص في المواد الأولية ينذر بأنها لن تستطيع المضي في الإنفاق على التسليح بهذه الصورة. ويبدي مستر هرست على العموم تأييداً لوجهة النظر الألمانية ويقول مثل ما تقول ألمانيا إن تشيكوسلوفاكيا تسودها روسيا السوفيتية، وأن روسيا تنفق على التسليح أكثر مما تعلن أرقامها

ويصور مستر هرست ألمانيا ضحية بريئة لهذا التسابق؛ وهو رأي لا يقره عليه كثيرون؛ وقد كان مستر هرست قبل الحرب من خصوم السياسة البريطانية التي تميل إلى مخاصمة ألمانيا؛ ومن رأيه أن التسليحات الكبرى ليست ضماناً للسلام كما يرى البعض، وأن الحرب لا تتقى بهذه الصورة بل لابد لاتقائها أن تبحث أسباب الخلاف والخصومة ثم تعالج بما يزيلها ويمسحها

في معرض باريس

من العجائب التي سيشهدها زوار معرض باريس الدولي رجل من زجاج من مقتنيات المتحف الصحي الألماني؛ وهو أعجوبة من أعاجيب الصناعة الفنية، وهذا الرجل الزجاجي يعطي بالألمانية كل الإيضاحات اللازمة عن تركيبه وعن أجزائه؛ بيد أنه يراد أن يكون هذا البيان بالفرنسية، ولذلك سيجهز الرجل الزجاجي بالآلات والأجهزة اللازمة التي تجعله ينطق بالفرنسية

كذلك سترسل ألمانيا إلى المعرض مجهر (سايس) الشهير، وسيوضع في مكان خاص به تمكن منه تجربة في رصد الكواكب

تمثال شيخ البلد

يشمل سؤال حضرة م. ح. بأسيوط الفقرات الآتية:

1 - هل عرف النظام الإداري القديم (شيخ البلد) كما تعرفه مصر الآن من أقصاها إلى أقصاها؟

2 - هل عرفت هوية هذا التمثال وعرف عمله في الدولة؟

3 - هل الحقيقة هي ما قرأناه في كتب التاريخ من أن عمال الحفر لما أخرجوا هذا التمثال من مكانه، راعهم ما وجدوا من شبه بينه وبين شيخ البلد، فأطلقوا على التمثال (شيخ البلد)؟

4 - . . . ولم يجدوا لزمته هذه التسمية، ولم يغيرها علماء الآثار؛ لما لم يعرفوا صاحبه. من النقوش والكتابات ما يبوح بسره وينم عن جلية أمره.

5 - هل للدكتور أن يميط اللثام عن حقيقة التمثال المذكور خدمة للعلم والتاريخ؟

إني أشكر حضرة الأستاذ الفاضل لاهتمامه بهذه النقطة، كما أبدي مزيد سروري للصلة الأدبية التي أوجدها حضرته بيني وبينه

فعن الفقرة 1 - أقول نعم عرف النظام الإداري القديم (شيخ البلد) لا من الناحية اللفظية؛ بل من الناحية المعنوية والعملية، أعني أن الذين قاموا بمراقبة تنفيذ أوامر الملوك والأمراء والكهنة، وتقديم المخالفين للمعاقبة أو المحاكمة، كانوا من هذه الناحية أشبه شيء بشيوخ البلدان، كما أن الذين قاموا بملاحظة عمليات بناء الأهرام والمعابد والمقابر والقصور كانت مهمتهم إلى حد ما، مهمة الرئاسة والإشراف وحصر المسئولية التي يمكن اعتبارها - إذا سمح الأستاذ - مهمة شياخة! كما كان الذين جمعوا الأموال والضرائب أشبه شيء برجال الإدارة.

ويمكن لحضرة الأستاذ إذا رغب التوسع الرجوع إلى:

(1) 1925 79 80 ,

(2) , 1923 96 , 97 98 ,

2 - لم تعرف شخصية صاحب التمثال بالضبط، ولكن يجب ألا ننسى أن العلامة ماريت والرئيس روبي - الذي حضر اكتشاف التمثال الخشبي الذين كان ناقص الساقين وقت اكتشافه، وقد أكملا من خشب باللون الطبيعي - ما كانا ليوافقا على هذه التسمية على رغم مشابهة ملامح التمثال لشيخ بلدة سقارة في ذلك الحين، لو أنهما وجداه ممسكاً بمقيض فأس أو قيثارة مثلاً! (راجع وصف التمثال: بدليل التحف المصرية الفاخرة لمدينة القاهرة، تأليف جاستون ماسبرو وترجمة أحمد كمال، الطبعة الأولى سنة 1903 صفحتي 69، 70)

3، 4 - تندمجان في الفقرة السابقة.

5 - إذا كان حضرة الأستاذ الفاضل قد عني بقراءة كتب التاريخ التي استنتج منها عدم وجود نقوش وكتابات تبوح بسر التمثال، فإني أرى أنه بتكليفي كشف اللثام عن حقيقته - ميال إلى المداعبة، وأعترف له بأني عاجز عن إماطة اللثام عن حقيقة لنفس الأسباب التي صادفت أساتذتنا من علماء التاريخ والاجيبتولوجي الذين لا أعتبر نفسي شيئاً مذكوراً إلى جانبهم والسلام.

الدكتور أحمد موسى

أسبوع الجاحظ في الجامعة المصرية

قلنا في العدد الأسبق إن كلية الآداب بالجامعة المصرية ستحتفل بإقامة أسبوع للجاحظ بمناسبة مرور أحد عشر قرناً على وفاته ابتداء من يوم 25 مارس، ونشرنا برنامج المحاضرات لأيام الأسبوع

ونكتب هذا يوم الجمعة إذ كان أمس (الخميس) اليوم الأول من أسبوع الجاحظ، فقبيل الساعة السادسة مساء وفد على قاعة المحاضرات بالجمعية الجغرافية الملكية جمهور كبير من المتأدبين، بينهم طائفة من السيدات والآنسات، وظل الجمهور يتوافد إلى ما بعد ابتداء الحفلة حتى اكتظت بهم القاعة

وفي منتصف الساعة السابعة نهض إلى المنصة الدكتور طه حسين بك عميد كلية الآداب فافتتح الحفلة بكلمة بدأها بأنه يقوم بافتتاح الأسبوع لاعتذار مدير الجامعة لانحراف خفيف، وشكر حضرات أعضاء قسم اللغة العربية لقيامهم بإحياء ذكرى الجاحظ، وقال: (أريد أن تتصل سنتنا هذه كما اتصلت في العام الماضي بحيث تستحيل دروسنا العامة في كل سنة إلى دروس تحليلية لكاتب أو شاعر أو عظيم)

وقام بعده الدكتور عبد الوهاب عزام فتحدث عن حياة الجاحظ وبدأ بطائفة من مأثور الكلم في تقريظ الجاحظ، وذكر سيرة مجملة له، فقال: (ولد الجاحظ بالبصرة ونشأ بها فقيراً، وروى ياقوت عن المرزباني أنه رؤي يبيع السمك والخبز بسيحان، ولكن الرجل المستوقد ذكاء، المولع بالمعرفة لم يكن ليصده شيء عن طلب العلم، فأخذ العلم عن شيوخ تصدوا للتعليم، وأفاد مما قرأه، وتثقف من الأعراب، وحرص على أن يبحث في كل ما يرى ويسأل كل من يرجو عنده علماً في أمر جليل أو حقير حتى صارت معارفه خلاصة المعارف التي أدركها المسلمون في عصره، زيادة على ما أدركه هو واستنبطه، وقد أفاض الأستاذ في التحدث عن نواحي حياة الجاحظ وأشار إلى ما وقع في كتبه من الألفاظ الفارسية فقال: لا أحسب الجاحظ قد حذق الفارسية واستفاد من كتبها.

وتكلم الأستاذ أحمد أمين عن (ثقافة الجاحظ) فقال: (إن الجاحظ أكبر شخص تثقف ثقافة واسعة في العصر العباسي، فقد أحاط بمعارف زمانه تقريباً) وقال إنه ظل يحصل المعلومات المختلفة حوالي القرن فتيسر له بما منحه من الزمن والصبر والحافظة ما لم يتيسر لغيره، وذكر الأستاذ أن الجاحظ تثقف ثقافة اعتزال، وهي أوسع ثقافاته لأنها تتطلب

من صاحبها الإحاطة بالأديان المعروفة في عهده، إلى أن قال: (وقد كانت للجاحظ ثقافة أخرى هي الأخذ عن الكتب، وكان هذا معيباً، وكان صاحبه يسمى (صحفياً)، وبعد أن أفاض في بيان شغفه بالاطلاع والاستقراء قال إن الجاحظ تفرد بالثقافة الواقعية إذ انغمس في الحياة ودرس كل ما وقع تحت حسه، وأنه أبدع في الناحية الاجتماعية فتكلم عن التجار والصناع والجبناء والبخلاء الخ

وانتهى اليوم الأول من أسبوع الجاحظ بانتهاء محاضرة الأستاذ أحمد أمين

وفاة درنكووتر

توفي الأديب الشاعر المؤلف التمثيلي المستر درنكووتر في أثناء نومه بسكتة قلبية. وقد تكلمنا عنه بإفاضة أيام وفد على القاهرة لإلقاء بعض المحاضرات.

العدد 196 - بتاريخ: 05 - 04 - 1937
العام الهجري
عام الإسلام والسلام

هكذا تتعاقب أمواج السنين على ساحل الحياة، فتنفي الخبث وتطرح الغثاء، وتركم الأحداث، وتزيد في سجل التاريخ صفحة بعد صفحة؛ وابن آدم الفاني محمول على غواربها الرعن، تقذف بعضه مع الرمل والزبد، وترجع بعضه إلى العباب واللج! ومن يرجع فسوف يعود؛ ومن عاد فسوف لا يرجع!

هكذا يتحرك الفلك الدوار حركة الطاحون الثقيلة الساحقة، فيلفظ القشر، ويحفظ اللباب، ويصفي أكدار الوجود بالعدم، ويعفي حطام الصيف برياح الخريف، ويجدد ما رث من ديباجة العيش بأفواف الربيع؛ وابن آدم في يد القدر المصرف محراث ومنجل؛ بعضه يزرع الأمان والعمران والخير، وبعضه يقطع السلام والوئام والحب، وبين هاتين القوتين المتكافئتين يسير هذا الكوكب المظلم فلا يقف، ويتدفق هذا الدهر الأتي فلا يركد، ثم لا ينسحق بينهما إلا هذا الغبي الذي سلط نفسه على نفسه!

لله الحمد ولنا المجد! لم تكن أمتنا من شيعة الظلام ولا عصبة الخصام ولا فرقة الهدم؛ إنما كانت خير أمة أخرجت للناس، أمرت بالمعروف، ونهت عن المنكر، وأعلنت كلمة الله، وبلغت رسالة الحق، وحملت أمانة العلم. هذا تاريخنا، تتألق أيامه الغر في ظلام الماضي، كما تتألق الكواكب الزهر في حلك الليل. أرشدنا الضال فاهتدى، وحمينا الذليل فعز، وعلمنا الجاهل فتعلم؛ ثم مكنا في أرضنا الفسيحة ودنيانا العريضة لعناصر الجمال والخير، فقويت في كل نفس، وازدهرت في كل جنس، وانبعثت في كل دين، وانتشرت في كل أفق؛ وحققنا لهذا الإنسان طريد العدوان وعبد الطغيان أحاديث أحلامه وهواجس أمانيه: من الأخوة التي يعم بها النعيم، والمساواة التي يقوم عليها العدل، والحرية التي تخصب فيها المدارك؛ لأن رسالتنا لم يوحها الجوع ولا الطمع، وإنما أوحاها الذي خلق الموت والحياة، وجعل الظلام والنور، وأوجد الفساد والصلاح، ليدرأ قوة بقوة، ويصلح نظاما بنظام، وينقذ إنسانا بإنسان

فلما أدركنا ضعف المخلوق ونقص البشر، ففدحتنا تكاليف الرسالة وأعباء المجد، أغفينا حقبة لنسترفه ونستجم؛ ثم صحونا اليوم نمسح الكرى عن الجفون، وننفض الغبار عن

الأوجه، فإذا العالم يعصف به سعار من الجشع المسلح والطمع الباغي؛ وإذا الدين الشرقي يقلبه المزاج الغربي إلى كلب وغلب: فعبقرية موسى رباً ودسيسة، وروحية عيسى خصومة وحرب؛ وإذا رجل لم تنبته صحراء العروبة، ولم تنفحه عطور الشرق، يطغيه الحديد ويبطره العديد، فيقول وهو يحطم الصليب في الحبشة: أنا حامي الإسلام!

وأذل الإسلام إذا لم يعزه أهله! لا يا سيدي! إن الإسلام قوته فيه ودفاعه منه؛ ولا يزال كتابه في أيدينا يعمر القلوب بالقوة، ويغمر النفوس بالحياة: والقوة قوة الإيمان، والحياة حياة الروح؛ أما قوة الأساطيل على الماء وفي الهواء فعمرها يوم وليلة، ثم لا تكون إلا دخاناً في السماء، وحطاماً على الأرض!.

لا يكون الغرب بغير الشرق إلا كما يكون الجسم بغير الروح. فلابد من تآلف العقليتين وتحالف القوتين لإقرار النظام في الدنيا والسلام في العالم. والإسلام - دستور الديمقراطية الصحيحة، والاشتراكية المنظمة، والاخوة الشاملة - يبسط يده لكل يد تدفع الإنسانية إلى التقدم، وترفع المدنية إلى السمو. وهؤلاء المستعمرون الجياع الذين هالهم سره وراعهم معناه، فحاولوا أن يطفئوه في مشرق نوره، ويخفتوه في مصدر صوته، ليسرقوا الضمائر في الظلام، ويسلبوا الذخائر في الغفلة، قد أخطأنا فهمه وجهلوا قواه. فإن نوره من الله، وسيسطع ما سطعت الشمس؛ وإن صوته من السماء، وسيرتفع ما ارتفع الحق؛ وإن سلطانه من العدل، وسيبقى ما بقى الكون. فإذا انشقت الأرض، وانفطرت السماء، وانكدرت الشمس، عاد إلى مصدره الأزلي باهراً كما صدر عنه، طاهراً كما انبثق منه!

لقد أصابوا أخيرا فخطبوا وده وطلبوا حلفه. ذلك عهد جديد بين الشرق والغرب، أو بين

السلم والحرب، سيقف فيه الحق الصريح أمام الباطل الخداع وجها لوجه. وسيعلم الإنجليز الذين حالفوا العراق ومصر، والفرنسيون الذين عاهدوا سورية ولبنان، أن الإسلام أصد وعدا، وأن العرب أوفى ذمة. ولعل هذه التجربة القريبة ترفع حجب الظنون عن القلوب والعيون فيعيش أولئك أصدقاء في فلسطين، ويعيش هؤلاء حلفاء في المغرب

إن الإسلام روح فهو حياة، وعقيدة فهو قوة، وشريعة فهو دستور، ومحبة فهو سلم. فعاملوه على ذلك تكسبوا عطفه وتغنموا رفده؛ أما الخداع والرياء، أو الشدة والجفاء، فتلك أسلحة مفلولة، إن قطعت قبل بالأمس فلن تقطع بعد اليوم.

أحمد حسن الزيات

في غار حراء

للأستاذ أحمد أمين

في غار حراء - وهو غار يقرب من ثلاثة أمتار في مترين في قمة جبل على يسار السالك من مكة إلى عرفة - كان محمد وهو في سن الأربعين قبيل الرسالة يتجنث كان محمد في هذه الأيام يألف العزلة (لم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده) وكان يخرج إلى شعاب مكة وبطون أوديتها

وكان يقضي شهراً مجاوراً في غار حراء

هكذا تقول كتب السيرة

فيم كان يفكر؟ وما الذي كان يطلب؟ وما هذه الحالة النفسية الجديدة التي استولت عليه؟ وما الذي جعله يهرب من الناس وقد كان بهم أنيساً؟ يسعد بالوحدة، ويسعى إلى العزلة، ولا يطمئن إلا إلى نفسه وتفكيره؟ وما الذي جعله يختار قمة جبل يشرف منه على العالم حوله فتسبح نفسه في التفكير من غير أن يحدها حد أو يقف بها عند غاية

ما هذه الأفكار التي كانت تملأ نفسه شهراً فلا يمل التفكير، ولعله كان يود أن يبقى كذلك أشهراً لولا واجب أهله وواجب عشيرته؟

ولكن هل لنا أن نتساءل هذه الأسئلة؟ وإذا سألناها فهل في استطاعتنا أن نجيب عنها؟ هل في استطاعة الجاهل أن يشرح أفكار الفيلسوف؟ وهل في مكنة من لا يحسن الرياضة أن يتخيل ما يفكر فيه الرياضي؟ وهل للنملة أن تتساءل فيم يفكر الإنسان؟ ولكن ما حيلة الإنسان وقد خلق طموحا إلى أقصى حد وأبعد غاية، لم يقنع في باب المعرفة بشيء، لم يقنع بالأرض ففكر في السماء، ولم يقنع بالظاهر ففكر في الحقائق، بل لم يقنع بآثار الله فأراد أن يعرف ذات الله، وهيهات هيهات!

أكبر الظن أن (محمداً) في هذه الفترة، وعلى الأخص في غار حراء كان في حيرة ما أشدها من حيرة عبر الله عنها بقوله (ووجدك ضالا فهدى)

لقد عرف قومه فلم يعجبه دينهم ولا نوع حياتهم ولا كفرهم ولا إيمانهم ولا أخلاقهم؛ وسافر إلى الشام فرأى فيها مدينة الرومان بمالها وأعمالها التجارية وترفها ونعيمها ودينها الرسمي ومظاهره، فلم يعجبه شيء من ذلك. لقد رآهم يعيشون كما يعيش السمك يأكل بعضه بعضاً،

أو كما تعيش الذئاب والشياه في حظيرة واحدة

رحماك الله! ما هذه الحيرة الشاملة؟ لا البداوة لسذاجتها ونظامها أعجبته، ولا الحضارة بترفها وزخارفها أعجبته. لم يعجبه ما رأى من وثنية، ولم يعجبه ما رأى من نصرانية. فأين الحق؟

لقد اطمأن إلى شيء واحد وهو أن كل ما رأى ضلال؛ وحيره شيء واحد وهو سؤاله أين الهدى

حالة نفسية إذا تملكت نفسا مرهفة وشعورا دقيقا ملكت نفسه وغمرت قلبه؛ فحلا له أن يعتزل الناس لأنهم يحولون بينه وبين تفكيره ويقطعون عليه سلسلة مشاعره

لقد جرب العزلة الساعة واليوم فوجدها تفتح قلبه وتريح نفسه، ووجد فيها مفتاحا لحيرته واتجاه لهدايته فبالغ فيها حتى بلغت الشهر!

إن الناس وضوضاءهم ومناظر حياتهم يضنون نفسه فليهرب منهم، وإن منظر الطبيعة بجمالها وبهائها ورونقها ليحي نفسه فليطمئن إليه. يتعاقب عليه في عزلة الليل والنهار فيجد في كل غذاء نفسه: هذا الليل في أعلى الجبل بسكونه وهدوئه، وسمائه ونجومه،

والعالم حوله كله نائم، وهو يناغي النجم، ويشاطره الاضطراب والحيرة، وهذا النهار - في أعلى الجبل أيضا - يشرف منه على العالم من تحته، فيهزأ بالناس وسخافاتهم هزؤا مشوبا برحمة، واستخفافا ممزوجا بعطف
كل ذلك وأكثر من ذلك كان يخفق له قلب محمد في غار حراء.
لقد عرف الباطل، ويريد أن يعرف الحق؛ وأدرك الضلالة ويريد أن يدرك الهدى؛ ولم يحب ما عليه الناس، ولكن يريد أن يعرف ما ينبغي أن يكون عليه الناس.
هذا الظلام فأين النور؟ وهذا العمى فأين البصر؟ وهذا ما يجب ألا يكون، فأين ما يجب أن يكون؟
لقد طلب الحق - في غار حراء - بعد أن تهيأت نفسه واستعدت روحه، وكملت مشاعره، وتوجت بالحيرة، فكانت حيرته إرهاصا لليقين، وضلاله إرهاصا للهدى
لم يطلب الحق من طريق الشعر؛ فالشاعر يتخيل ثم يخال، والشاعر يخلق ما لم يكن ،ولا يدرك ما يجب أن يكون، والشاعر يغني لنفسه - أولا - ولا باس أن يسمع للناس والشاعر يعيش في جو خيالي يخلقه بنفسه لنفسه. وليس هذا من النبوة في قليل ولا كثير. ولم يطلب الحق من طريق الفلسفة أو العلم، فكلاهما عبد المنطق، عبد الألفاظ، عبد الكتب، عبد النصوص؛ وأحسن أمرهما أنهما عبدان للعقل، والعقل معيب مغرور مضل؛ ولكل إنسان عقله، ولكل إنسان تفكيره، ولكل إنسان منطقه وقضاياه
إنما طلب محمد الحق من طريق أسمى من ذلك كله، وأرفع من ذلك كله: طلبه من طريق القلب، وأعلن أنه لم يطلب علما ولكن طلب إيمانا، فأعلن أنه أمي وفخر بأميته، لأن القلب فوق اللغة، وفوق الكتابة والقراءة، وفوق العلم، وفوق المنطق؛ وهو القدر المشترك بين الناس، لا يؤمن بحدود اللغة والجنس، ولا يؤمن بحدود اللسان والألوان
من أجل هذا لم يذهب - وقد حار - إلى معلم يعلمه الكتاب، ولا إلى مثقف بالكتب والأديان، وإنما فضل على ذلك كله غار حراء حيث الطبيعة على فطرتها مفتوحة أمام قلبه، وحيث يتصل هو وهي بربها وربه
لقد اهتدى إلى الصراط المستقيم، واتجه اتجاه الأنبياء، لا اتجاه الشعراء والعلماء، وتهيأ للأمر العظيم، فلمعت في قلبه الشرارة الإلهية، كما يتهيأ السحاب فيلمع البرق
لقد أضاءت له هذه الشرارة الإلهية كل شيء، وكانت رسالته من جنس هدايته؛ فرسالته أن يبعث الحياة في القلب، ويبعث الضوء إلى النفس، كالقمر يستمد نوره من الشمس، ثم يعكس أشعته الجميلة على الناس، يشترك في الاهتداء به العالم والجاهل، والذكي والغبي، والفيلسوف والعامي، على اختلاف فيما بينهم، لأن لديهم جميعا قدرا مشتركا من القلب صالحا للاهتداء
وليست العقول مسايرة في الرقي والانحطاط للقلوب، فقد يكون مريض القلب صحيح العقل، وقد يكون صحيح القلب مريض العقل، ومقياس صحة الاستفادة من النبوة صحة القلب لا صحة العقل، فلذلك آمن بلال قبل أن يؤمن عمرو بن العاص، واسلمت جارية بني مؤمل قبل أن يسلم أبو سفيان
كانت فترة غار حراء الحد الفاصل بين محمد بشرا، ومحمد بشرا رسولا. لقد صعد إليه إنسانا حائرا، وهبط منه إنسانا نبيا، مهتديا مطمئنا. صعد شاكا. وهبط مؤمنا. لمع في قلبه النور الإلهي فإذا كل شيء حوله شفاف يراه بقلبه ويكشفه بنوره
نزل من الغار يدعو الناس أن يستضيئوا بضوئه، وأن يحيوا قلبهم من حياة قلبه، وأن يسمعوا لصوت الله على لسانه، وأن يروا عظمة الله في كل أثر من آثاره
أي شهر كان هذا الشهر؟ لو وزن به الزمان لوزنه، وأي مكان غار حراء؟ لو فاضل كل مكان لفضله
أحمد أمين
نجم أحمد!
للأستاذ توفيق الحكيم
وقف اليهودي على أحد آطام يثرب ناظر إلى السماء يعلن إلى بني قومه ميلاد النبي في صيحة مدوية: طلع الليلة نجم أحمد! عجبا من العجب! أحقاً لم ير ذلك اليهودي نجم أحمد قبل تلك الليلة؟ يخيل إلي أن الناس في ذلك الزمان كانوا يسيرون مطرقين كالعميان. إن نجم أحمد طالع في كل لحظة يشع نورا من بداية الكون لو أن

للكون بداية، إلى نهاية الزمن لو أن للزمن نهاية. نجم أحمد هو الحق. والحق لا يبدأ ولا ينتهي. ولا يظهر ولا يختفي. أنه موجود

إذن ما الإسلام؟ وكيف ظهر الإسلام بظهور محمد، والمسيحية بظهور المسيح؛ واليهودية بظهور موسى؟ هنا لزم التفريق بين الحق وثوب الحق. بين المعنى والأسلوب. ما الإسلام إلا أسلوب من أساليب الحق. ورداء من أرديته. كذلك المسيحية وكذلك اليهودية. وكذلك كل دين من تلك الأديان السماوية التي تتحد في الجوهر وتختلف في المظهر. وهنا نستطيع أن نفاضل بين الأساليب؛ وهنا فقط يجوز لنا أن نفاخر بالدين الأخير، إذ جاء بأسلوب جامع مانع، سهل ممتنع، محكم الوضع، مصقول التراكيب. فالمفاضلة لا تكون في الجوهر، لأنه واحد أحد؛ إنما المفاضلة في الأثواب وهنا يخطر على البال سؤال: هل تجوز المفاضلة بين الأثواب وهي كلها من صنع الخالق المعصوم الذي لا ينبغي أن يخطئ ولا أن يصحح ما سبق أن صدر عنه. أو أن جوهر الحق وحده من شان الله، أما الأسلوب الذي يعرض به على الناس فهو من شأن الرسل والأنبياء؟ قبل الإجابة على هذا السؤال يجب النظر في قضية أخرى: هل للطبع والمزاج والخلق الذي ركب عليه النبي أو الرسول أثر في أسلوب رسالته؟ هل شخصية الرسول تطبع بخاتمها شكل الدين الذي يدعو إليه؟ وهل لظروف العيش التي نشأ عليها النبي دخل في اتخاذ (القالب) الذي أفرغ فيه (موضوع) النبوة؟ إن أجب على كل هذا بالإيجاب فإن التبعة في (أسلوب) الأديان تقع بلا مراء على كاهل الأنبياء. والنبي إذن مسئول عن الطريق الذي اتبعه للإبانة عن (الحق) مسئولية ملقاة على (شخصيته) التي صبغت الشريعة بصبغتها. وعلى قدر المسئولية تكون العظمة؛ وعلى قدر (الشخصية) ذات الوجود الفعلي

تقاس العبقرية العظمة والمجد الأسمى.

إن صح هذا الكلام فإني أستطيع القول إن النبي أو الرسول لا يصل إلى الحق متجرداً عن شخصيته، بل إنه لا يستطيع الدنو من الحق إلا عن طريق شخصيته. كذلك فعل النبي العربي، وكذلك فعل المسيح وموسى. وكذلك كل نبي لا يستطع أن يرى الحق إلا عن طريق إحساسه وطبعه وعقله، وهي ملكات تختلف باختلاف الأشخاص. وهنا يبدو سر تباين الأساليب التي جرت عليها الأديان في عرض جوهر الحق على الناس.

ولعل محمداً هو أكثر الأنبياء حرصاً على تنبيه الناس في كل مناسبة إلى وجود شخصيته المستقلة، فهو لا يفتر يذكرهم أنه بشر خاضع للقوانين التي يخضع لها البشر، وأنه لا يتصل بالله هذا الاتصال الخاص الذي قصر على الرسل إلا إذ يشاء الله. وأنه في كثير من حياته الخاصة أو العامة حيث لا وحي يهديه السبيل، يتصرف كما يتصرف البشر. هكذا فعل في معارك بدر وأحد والخندق إذ كان يستمع إلى مشورة أصحاب الرأي من رجاله. وهكذا فعل إذ لم يخف ميله إلى الطيب والنساء. بل إنه أعلن ذلك الميل لعلمه أن الميول من مميزات الطبع التي ركبها الخالق في البشر. والنبي الحق أجل من أن يكتم مزاجاً أو طبعاً، وهو يعرف أن المزاج والطبع من مقومات الشخصية.

وهنا تبدو حكمة الإسلام ظاهرة بين سائر الأديان. فهو دين بسيط فطري لم تدخله صناعة. كل شيء فيه صادق خالص صاف، ليس فيه إنكار لقوانين الطبيعة، بل فيه مسايرة حكيمة ومصاحبة رشيدة لكل ما فرضه النظام العلوي على البشر من حيث تركيبهم المادي والمعنوي. ذلك أن أسلوب محمد في إدراك (الحق) كان أسلوباً مستقيما. فهو قد أدرك أن (معنى) الحق إنما هو (السبب) الذي يصدر عنه الناموس الأكبر، وأن روح الوجود هو (النظام) إذ لا يتصور أن تكون (الفوضى) من عناصر الخليقة. بل أن (الفوضى) إذا حلت في نظام الوجود انقلبت نظاماً، لأنه لا وجود بلا نظام؛ بل إن كلمة (الفوضى) لا محل لها إلا في أدمغة البشر يعبرون بها عن كل ما يحدث شيئا من الخلل في ترتيب حياتهم الضيقة المحدودة. أما الكون غير المتناهي فلا يعرف غير النظام، هذا النظام الذي فرض على الإنسان والحيوان والجماد. هل من سبيل إلى مخالفته؟ إن مخالفة النظام الطبيعي للإنسان والأشياء مخالفة لله؛ وكل دين يقف في وجه النظم الطبيعية لا يمكن أن يكون من عند الله،

لأن الله لا يناقض نفسه. كل هذا فهمه محمد ووعاه ببصيرته النورانية النافذة، فجاء أسلوب الإسلام في الإفصاح عن (الحق) واضحاً جلياً؛ لا يأمر بالرهبنة، ولا بالفرار من الدنيا، ولا بتعذيب الجسد من أجل الله لأن الله لا يأمر بتحطيم ما بناه

إنما يريد الله أن تعيش الأحياء طبقاً لقوانين الحياة التي وضعها لها، وأن تجاهد في سبيل هذه الحياة، وأن تتغلب على عناصر الفناء بما هيأه لها من مناعة طبيعية، أو مناعة اكتسابية. والدين هو أداة المناعة الاكتسابية لمكافحة عناصر الفناء المادية والأدبية

فلئن كانت غاية الدين عند البشر توفير أسباب الحياة الصحيحة، والدنيا الصحيحة خير تمهيد لآخرة صحيحة، فإن الإسلام بلا مراء هو دين الصحة في كل شيء. فهو ذو صوت جهير في الدعوة إلى صحة الجسم وصحة العقل وصحة العقيدة. ولئن كان ماضي هذا الدين السليم مجيدا، فإن مستقبله ولا ريب يبشر بازدهار يعم الأرض لو استطعنا أن نجرده من سفسطة الجامدين، وننقيه من ثرثرة المتنطعين، وننقذه من احتكار الجهال المحترفين، وأن نرده إلى مبادئه البسيطة الصافية التي لا تصدم تقدما ولا تعارض التطور الطبيعي للأذهان والأشياء. وقتئذ فقط نستطيع أن نغزو به كل النفوس وكل العقول. فإن الدين (المثالي) هو الدين البسيط. وهل أبسط من الإسلام شريعة وهي لا تعرف (رجال دين) ولا تقر وجود أناس يجعلون من هداية الناس حرفة يأكلون منها ويكنزون، ومن (الدين) مهنة تدر الرزق وتعطي متاع (لدنيا)؟ إن أولئك الذين يجعلون (الدين) سلما (للدنيا) لا (الدنيا) سلما (للدين) قد طردهم الإسلام بعيدا عن حظيرته، وجعل الدين سمحا باسما باسطا ذراعيه لكل الناس لا احتراف فيه ولا احتكار. نعم، إن حاجة البشر كافة قد أصبحت متجهة إلى هذا النمير العلوي الصافي من المبادئ البسيطة المستقيمة التي لا خداع فيها ولا تمويه ولا تناقض ولا تشويه ولا إخلال ولا تدخل في قوانين الطبيعة الأساسية التي وضعها المبدع الأعظم. إذا تم ذلك للإسلام في هذا العصر فلسوف يأتي يوم يقف فيه أهل الأرض أجمعون من كل جنس ولون على آطام بلادهم يصيحون في كل حول صيحة ذلك اليهودي:

(لقد طلع نجم أحمد!)

توفيق الحكيم

الإسلام بعد 1355 سنة

للدكتور عبد الوهاب عزام

مضت خمسة وخمسون وثلاثمائة وألف عام منذ هاجر الرسول وأصحابه إلى المدينة، طوى التاريخ خمسا وخمسين وثلاثمائة وألف مرحلة منذ خرج محمد وأصحابه يحملون دعوة التوحيد والأخوة، وكلمة الحق والعدل والحرية - ركم الزمان على عام الهجرة أربعة عشر قرنا ونصفا ومازال يخرق الحجب نوره، ويلوح من خلال الأجيال سناه.

مضت أربعة عشر قرنا في جزر التاريخ ومده، وغير الدهر وخطوبه. قامت دول وزالت دول، وقويت أمم وضعفت أمم، وحيت مذاهب وماتت مذاهب، والأرض ترجف باعتراك الإنسانية واحتراب الأديان، وتدوي بالآراء تتصادم، والأفكار تتقاتل، ومن وراء هذا خلق يغلب خلقا، وسنة تميت سنة، وآية تنسخ آية، وأثر يبقى على أثر.

فأين الإسلام اليوم من مبتدئه؟ وأين بلغ المسلمون بعد أربعة عشر قرنا؟

قال كاتب أوربي منذ سنتين إن دعوة الإسلام قد انتهت، وإن الإسلام قد وهن، ولم تبق فيه قوة تحرك الأمم وتسير الأجيال.

أحق أن الإسلام قد انتهت دعوته، ودرست آياته، ولم تبق إلا أسماء وأوهام ورسوم وأعلام؟ هل الإسلام اليوم لا تنبض به القلوب، ولا تشق به العزائم، ولا يقيم المثل العليا للعمل في هذه الحياة، أصار الإسلام تاريخا دابراً، وانقلب مجداً ماضيا؟ هل طفئت النار، وأقوت الديار؟

ما هي دعوة الإسلام؟ دعوة ذات شعب تتناول العقائد والأعمال، وتهيمن على العقل والقلب، وتحيط بالجماعة من أقطارها، وتشمل الأمم جميعها، ولكنها في أصولها ترجع إلى أمرين: التوحيد - توحيد الله وتوحيد النفس بتخليتها من الأوهام المتنازعة والخرافات المتهافتة وإقامتها على طريق بينة لا حيرة فيها ولا ضلال؛ ثم توحيد الأفراد في الجماعة بالعدل الشامل والتسوية التامة، وإعطاء كل ذي حق حقه، لا عبد ولا حر، ولا سائد ولا مسود، ولا رفيع ولا وضيع؛ ثم توحيد الجماعات فلا شرقي ولا غربي، ولا عربي ولا عجمي. والأمر الثاني: العمل الصالح: أن يسير الفرد والجماعة والأمم إلى الخير، إلى العمل لإقامة الحق وهدم الباطل، ونشر العدل ومحو الجور - أن تمتلئ القلوب نارا

تحفزها للعمل، ونورا يهديها السبيل، وتسمو النفوس عن الصغائر والدنيا، وتطهر من الأحقاد والضغائن، وتحرر حتى تأبى على القيود، وتتسع على الحدود، وتنطلق في الكمال إلى أبعد غاية

فهل انتهت هذه الدعوة الإسلامية؟ هل أظلم قلب المسلم؟ هل ذلت نفسه؟ هل ذهب الخشوع بآماله؟ هل رده الدهر إلى الصغار، وأنزله اليأس إلى القرار؟ هل يئس المسلم من السيادة ورضى أن يسلم قياده؟

كلا كلا، أن في الإسلام من المثل والأخلاق والفضائل والعزة والإباء والسمو والتاريخ الوضاء ما يملأ المسلمين حياة وآمالا وطموحاً واحتراما. لم تنته دعوة الإسلام ولكنها اليوم تقوى وتعظم، وقد تهيا الزمان لها ومهدت الحادثات سبلها. بدأ الإسلام دعوته منذ أربعة عشر قرناً ولكنها لم تبلغ غايتها وأجدر بها اليوم أن تبلغها

ما تزال النفوس الإنسانية طماحة إلى السمو، نزاعة إلى الخير، مفعمة بحب الحق والعدل، تواقة إلى الأخوة والحرية. فلن تقف دعوة الإسلام. ما يزال المسلم الحق يرى نفسه خليفة الله في الأرض، مكلفاً أن يقيم العدل بين الناس، موكلا بنصرة الخير ومحاربة الشر، أنى كان ومتى استطاع. كل الأرض داره، وكل الزمان وقته. فلن تقف دعوة الإسلام ما يزال المسلم ينطوي على عزة تقهر الخطوب، وأمل يغلب الزمان؛ ونفس لا تسف، وقلب لا يذل، وما تزال سيرة محمد في عقله وقلبه، ولا يزال مجد الإسلام ملء جوانحه، ولا تزال كلمة الحق والعدل ملء ضميره. فلن تقف دعوة الإسلام. إن دعوة الإسلام لا تقف حتى يموت الخلق العلي والقلب الأبي في نفوس البشر.

وقل للذين يزعمون إنهم حماة الإسلام: إن الإسلام في حماية أهله ورعاية تاريخه. ما أذل الإسلام إن ابتغى في غير أولاده حماة! وما أذل المسلمين إن رضوا بغير حماية الله! يا حسرة على الحق إن التمس من الباطل حاميا! ويا خسران العدل إن ابتغى من الظلم ناصراً! وويل لورثة محمد إن لم تحمهم سيرة محمد وخلفائه، ومن أنجبتهم العصور من أئمته وأبطاله!

إن في دين المسلم، وإن في قلب المسلم، وإن في خلق المسلم، ما يربا به عن كل دنية، ويصمد به إلى كل هول، ويثبته في كل كارثة، ويسمو به على كل عقبة.

أيها الحماة الأبرار! لقد أدرتموها على المسلمين حرباً طاحنة في المشرق والمغرب، وغزوتموهم بالسلاح والفتنة والفرية، وكدتم لهم في السر والعلانية، واستبحتم فيهم كل منكر، حتى إذا ظننتم أنهم هانوا وذلوا، ويئسوا وملوا قلتم: هلم أيها الضعفاء، فنحن الحماة الأقوياء!

أيها الحماة: شد ما قسوتم على المسلمين! ثم شد ما رفقتم بهم! أيها الحماة: لقد تعلمون أن بضعة آلاف من بني الإسلام ثبتوا لكم وسخروا بقواكم وفنونكم وأساطيلكم وجيوشكم وطياراتكم أكثر من عشرين عاماً ولم يكن سلاحهم إلا عزة الإسلام ومجد العرب.

سلاحهم عزيمة الجهاد
وقوتهم ما سلبوا الأعادي
يصابرون الأكبد الصوادي
ويأكلون الجوع في البوادي
قد يئسوا يأساً من الأمداد
إلا ثبات القلب في الجلاد
ونصرة الرحمن للعباد
أبت لهم كرامة الإسلام
أي إباء العرب الكرام
أن يسلموا الأوطان دون الهام
منيتهم مشارع الحمام

فلما تكسر في أيديهم كل سلاح، وأعوزهم كل قوت، وضاق على عزائهم كل مجال، خرجوا من ديارهم أنفة أن يروا الصغار في الديار، وإباء أن تجمعهم والمذلة أرض؛ وهم اليوم مشردون في الأقطار، قد نالت الخطوب من أموالهم وجموعهم ونعيمهم ودعتهم ولم تنل من أنفسهم، فكل منهم علم جهاد، وصحيفة فخار، وسجل مآثر،

وشهادة ناطقة بما تتجاهلون من العزة الإسلامية، والأنفة العربية. ألا إن الإسلام لم تنته دعوته، لم تضعف كلمته، وسيبقى كلمة الله في الأرض، ودعوته إلى الحق، وحجة على الخلق، في أمره بالأخوة والحرية، والعمل في الحياة على أقوم السنن، إلى أكرم الغايات.

ألا إن الإسلام دعوة إلى الحياة لا تموت، ودعوة إلى الحرية لا تستعبد، ودعوة إلى العزة لا تذل، ودعوة إلى العمل لا تفتر

ألا إن الإسلام دعوة إلى السلام والإخاء، وإلى الصدق والوفاء. فإن دارت به الأكاذيب، واجتمعت عليه الأباطيل، وسيم الهوان، وقوبل بالعدوان، فهو دعوة إلى العزة والاباء، والصبر على اللاواء، والموت في سبيل الحق، والخلود من وراء الموت.

عبد الوهاب عزام

الدبلوماسية في الإسلام

العلائق بين مصر وبيزنطية في عهد الدول الفاطمية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كانت بغداد محور السياسة الإسلام في المشرق يوم كانت الدولة العباسية في ذروة قوتها وفتوتها؛ وكانت الدولة البيزنطية تتجه يومئذ ببصرها إلى بغداد قلب الإسلام النابض، ترقب حركاتها ومشاريعها، وتتحوط لفوراتها وغزواتها. وكانت المعارك تضطرم بين الدولتين بلا انقطاع تقريبا أيام الرشيد والمأمون والمعتصم؛ ولكن فتوة الدولة العباسية لم يطل أمدها؛ فمنذ أواخر القرن التاسع تسري إليها عوامل الانحلال والوهن، وتخبو فيها فورة النضال والغزو، ويتجه بصر الدولة البيزنطية إلى قوة ناشئة أخرى على مقربة من حدودها الجنوبية. ذلك أن مصر، التي بقيت زهاء قرنين ونصف قرن ولاية خلافية، غدت في ظل الولاة الأقوياء دولة شبه مستقلة، وأخذت تجيش بمختلف الأطماع والمشاريع، وألفت الدولة البيزنطية في قيام الدولة الحمدانية بالشام، وقيام الدولة الطولونية ثم الدولة الاخشيدية بمصر، مواطن جديدة للخطر يجب اتقاؤها. وأخذ ميدان النضال بين الإسلام والنصرانية يتحول من سهول أرمينية وأواسط الأناضول إلى سهول كليكية وشمال الشام. ولما قامت الدول الفاطمية بمصر، رأت الدولة البيزنطية من قوتها وغناها ووفره جيوشها وأساطيلها ما ينذر بتفاقم الخطر، وأدركت أنها تواجه على يد هذه الدولة القوية فورة إسلامية جديدة تضطرم قوة وفتوة وطموحا، وأخذت ترقب حركات الدولة الجديدة ومشاريعها في يقظة وجزع.

وشغلت الدولة الفاطمية مدى حين بخطر القرامطة الذي كان يهددها في موطنها الجديد، ويكاد ينذرها بالمحو والفناء العاجل. وألفت الدولة البيزنطية من جانبها فيما أثارته غزوات القرامطة للشام من الاضطراب والفوضى، فرصة للإغارة على الشام ودفع حدودها إلى الجنوب؛ وكانت الدولة الحمدانية في حلب قد اضمحلت ولم تقو بعد على رد الغزاة من الشمال، ولم تلبث أن انضوت تحت لواء الروم (البيزنطيين) وتعهدت لهم بأداء الجزية استبقاء لحياتها، واتقاء لسطوة الدولة الفاطمية الجديدة. وبينما كان القرامطة يزحفون على مصر، وجيوش المعز الفاطمي تدفعهم عنها، غزا الروم الشام، وعاثوا في سواحله واستولوا

على إنطاكية، وهزموا الجيوش الفاطمية أولا، ثم عادوا فارتدوا أمامها تحت أسوار طرابلس، واختتم عهد المعز لدين الله، والروم يبسطون سلطانهم على قسم كبير من شمال الشام.

وفي عهد العزيز بالله استؤنف النضال بين الدولتين؛ وكان خطر القرامطة قد خبا وتحطم تحت ضربات الدولة الفاطمية. وألفى الفاطميون والروم أنفسهم في سهول الشام وجها لوجه؛ وكانت الدولة البيزنطية تجوز في أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر مرحلة جديدة من القوة والنهوض في عصر الأسرة البسيلية، ولاسيما في عهد الإمبراطور باسيل الثاني (976 - 1025م)، معاصر العزيز بالله وولده الحاكم بأمر الله؛ وكانت السياسة البيزنطية كعادتها تشجع كل عناصر الانتقاض أو الخروج في المملكة الإسلامية؛ فلما همت الجيوش الفاطمية بغزو حلب واستغاث بنو حمدان بحلفائهم الروم، سار الروم لقتال المصريين ونشبت بينهما معركة طاحنة على مقربة من إنطاكية (381هـ - 991م)، فهزم الروم هزيمة شديدة؛ وخشيت السياسة

البيزنطية عواقب هذا الفشل، فسار الإمبراطور باسيل الثاني بنفسه إلى الشام وغزا حمص وأعمالها، وبسط سلطانه على معظم سواحل الشام؛ وارتاعت الخلافة الفاطمية لهذا التطور الخطير في حوادث الشام، وهم العزيز بالمسير بنفسه إلى قتال البيزنطيين، ولكن الموت أدركه في الطريق؛ وخلفه ولده الحاكم بأمر الله طفلا، وتولى تدبير شؤون المملكة وصيه برجوان الصقلى؛ واضطربت حوادث الشام حينا، وشجعت السياسة البيزنطية قيام الثورة في صور، وسار الروم في البر والبحر لمؤازرة الثوار؛ ولكن برجوان كان رجل الموقف، فبعث إلى الشام بجيش كبير، استطاع إن يخمد الثورة، وأن يهزم البيزنطيين في عدة مواقع (378هـ - 998م)، واضطر باسيل الثاني أن يسير بنفسه إلى الشام مرة أخرى. ولكنه ما لبث أن اضطر إلى العودة إلى قسطنطينية ليتأهب لرد خصومه البلغار الذين هددوه بالغزو من الشمال:

وهكذا لبثت الشام مدى حين ميدان النضال بين الدولتين الفاطمية والبيزنطية. كانت السياسة البيزنطية ترى في قيام الدولة الفاطمية وتوطدها بمصر والشام خطرا جديداً عليها، وتحاول أن تغالب هذا الخطر ما استطاعت؛ وكانت الدولة الفاطمية من جانبها تعمل لتوطيد حدودها الشمالية ورد الخطر البيزنطي عنها، ولم تكن تجيش في ذلك بأكثر من

نزعة دفاعية، بينما كانت الدولة البيزنطية تجيش في عهدها الجديد بنزعة إلى الفتح والتوسع. وكانت الخلافة الفاطمية تتوق إلى اتقاء الأحداث والحروب الخارجية لتتفرغ إلى تنظيم شؤونها الداخلية؛ فلما هزمت الجيوش الفاطمية جيوش الإمبراطور في الشام واستطاعت بذلك أن تثبت تفوقها العسكري، انتهز مدبر الدولة برجوان هذه الفرصة ليعقد الهدنة مع الدولة البيزنطية، فبعث إلى الإمبراطور يقترح عقد الصلح والمهادنة، فاستجاب باسيل الثاني لدعوته، وانفذ سفارة إلى بلاط القاهرة؛ واحتفى البلاط الفاطمي بالسفير البيزنطي احتفاء عظيما وزين الديوان الخلافي لاستقباله زينة تنوه الرواية بفخامتها وروعتها؛ وانتدب برجوان اريسطيس بطريرك بيت المقدس وخال الأميرة ست الملك ابنة العزيز بالله وأخت الحاكم بأمر الله للسير مع السفير البيزنطي وتقرير شروط الهدنة مع القيصر وعقد أواصر الصداقة بين الدولتين؛ فسار اريسطيس إلى قسطنطنية، وقام بالمهمة؛ وعقدت بين مصر والدولة البيزنطية معاهدة سلم وصداقة لمدة عشر سنين؛ وأقام اريسطيس في عاصمة بيزنطية أربعة أعوام حتى توفي؛ ولم تحدد لنا الرواية تاريخ هذه السفارة ولكن المرجح أنها وقعت في أواخر سنة 389 أو أوائل سنة 390 (سنة 1000م)

وشغلت الدولة البيزنطية مدى حين بشؤونها الداخلية وحروبها في البلقان وأرمينية. وقنعت من الشام بإنطاكية، وهدأ النضال بين الدولتين حيناً، وتحسنت العلائق بينهما؛ ولكن سياسة الحاكم بأمر الله إزاء النصارى، واشتداده في مطاردتهم، وما اتخذه من الإجراءات العنيفة لهدم الكنائس والأديار، ولاسيما كنسية القيامة (القبر المقدس) ببيت المقدس أثارت حفيظة السياسة البيزنطية، وحفيظة الكنيسة الشرقية التي كانت تعتبر نفسها حامية النصرانية في المشرق؛ بيد أن الدولة البيزنطية لم تستطع يومئذ أن تتدخل في سير الحوادث. وكانت الأميرة ست الملك أخت الحاكم تخشى عواقب هذه السياسة العنيفة وتجاهد في تلطيفها، وكان لها حسبما تؤكد الرواية أكبر يد في تدبير مصرع أخيها وإنقاذ الخلافة الفاطمية من عواقب هذه السياسة الخطرة. فلما انتهت المأساة بذهاب الحاكم، وقام ولده الظاهر في عرش الخلافة بتدبير ست الملك ورعايتها، عادت الخلافة الفاطمية في الحال إلى تسامحها المأثور نحو النصارى، وردت إليهم حرياتهم وحقوقهم، وسمح لهم بتجديد ما درس من كنائسهم، ولاسيما كنيسة القيامة، وألفت ست الملك الفرصة سانحة لتجديد الصداقة والمهادنة

مع الدولة البيزنطية، فبعثت نيقفور بطريرك بيت المقدس سفيرا إلى باسيل الثاني ليعمل على عقد أواصر التفاهم والصداقة بين الدولتين سنة 414هـ (1024م) ويطلعه على ما اتخذه بلاط القاهرة من الإجراءات لتحرير النصارى ورفع الإرهاق عنهم وحمايتهم في أموالهم وأنفسهم؛ ولكن الأميرة ست الملك توفيت قبل أن يستطيع السفير تأدية مهمته، ورده بلاط قسطنطينية بلطف، فعاد أدراجه، ولم يمض قليل حتى توفي باسيل الثاني (1025م).

ولكن الخلافة الفاطمية آثرت أن تمضي في سياستها الودية نحو الدولة البيزنطية؛ ومع أن الجيوش البيزنطية اشتبكت في الأعوام التالية في عدة معارك وحروب محلية في حلب وإنطاكية مع الأمراء العرب المحليين، وهزمت أمامهم غير مرة، فإن حكومة القاهرة لم تشأ أن تتدخل في تلك المعارك ولا أن تنتهز تلك الفرصة لمحاربة البيزنطيين؛ ووقعت المفاوضات بين الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله والإمبراطور رومانوس الثالث لعقد معاهدة صداقة بين الدولتين، واشترط الإمبراطور لعقدها أن يتولى إعادة تعمير كنيسة القيامة وأن يعمر النصارى ما شاءوا من كنائسهم الدراسة، وان يقيم بطريركا من قبله لبيت المقدس، وأن تمتنع حكومة القاهرة من التعرض لشؤون حلب أو مصايرها باعتبارها داخلة في حماية الإمبراطور وتؤدي له الجزية، وأن تمتنع عن نجدة صاحب صقلية المسلم إذا هاجمته الجيوش البيزنطية؛ ولكن الظاهر رفض التخلي عن حلب باعتبارها عاصمة إسلامية جليلة؛ وطالت المفاوضات بين الفريقين، وانتهت بعقد معاهدة صداقة بينهما، سمح فيها للإمبراطور أن يتولى تعمير القبر المقدس، وللنصارى أن يعمروا كنائسهم وأن يعود منهم من أسلم كرها إلى دينه؛ وأن يطلق الإمبراطور سراح الأسرى المسلمين لديه، وأن يعيد مسجد قسطنطينية كما كان ويسمح فيه بالآذان وبالخطبة للظاهر؛ بيد أن الكنيسة الشهيرة لم يجدد بناؤها إلى بعد ذلك بنحو عشرة أعوام في عهد المستنصر بالله

وفي عهد الخليفة المستنصر بالله ولد الظاهر اضطربت شئون الخلافة الفاطمية، واضطربت العلائق بين مصر وبيزنطية، وعانت مصر في أوائل هذا العهد أروع مصائب الغلاء والقحط والوباء مدى أعوام ثمانية تعرف بالشدة العظمى (446 - 544هـ) وأرسل المستنصر بالله إلى الإمبراطور قسطنطين التاسع أن يمده بالغلال والأقوات، وتم الاتفاق بينهما على شروط هذه المعاونة، ولكن الإمبراطور توفي قبل تنفيذ الاتفاق، فخلفته

الإمبراطورة تيودورا، واشترطت لتنفيذ شروطا جديدة أباها المستنصر، واضطربت علائق الدولتين، واشتبك الفريقان في عدة معارك شديدة في البر والبحر؛ وفي سنة 447هـ (1055م) أرسل المستنصر سفيراً إلى تيودورا هو القاضي أبو عبد الله القضاعي ليحاول تسوية العلائق واستئناف الصداقة؛ ولكن السياسة البيزنطية آثرت جانب السلاجقة ورأت أن تتفاهم معهم، وأخفق سعي السفير المصري؛ وكانت فورة السلاجقة قد اضطرمت قبل ذلك بالمشرق، وأخذت تنذر باجتياح الشام، وتطورت حوادث الشام في الوقت نفسه تطورا سيئا، واستولى الزعماء العرب على قواعده وثغوره، فانتزعت حلب من يد الخلافة الفاطمية نهائيا، وكادت دمشق وفلسطين تخرج عن قبضتها، وتضعضعت قوى الدولة في الداخلة والخارج؛ ثم كانت وثبة السلاجقة نحو المشرق واستيلاؤهم على فلسطين ودمشق؛ وأعقبت ذلك فورة من الغرب كانت أخطر ما عرفت الأمم الإسلامية: تلك هي ثورة الحروب الصليبية التي اضطرمت منذ أواخر القرن الحادي عشر، وسرعان ما ظفرت بانتزاع الشام وفلسطين من قبضة الإسلام؛ وحلت المملكة اللاتينية في بيت المقدس مدى حين، وقامت الإمارات النصرانية في الشام حاجزا بين الدولة الفاطمية والدولة البيزنطية، وتحول مجرى العلائق الدبلوماسية بين الإسلام والنصرانية، وافتتح بينهما عهد طويل من النضال المضطرم؛ وانحدرت الدولة الفاطمية إلى مرحلة الانحلال الأخير، كما انحدرت الدولة البيزنطية خصيمتها ومنافستها القديمة إلى مرحلة مماثلة من الضعف والانحلال

محمد عبد الله عنان

ليتني كنت أدري!

للدكتور محمد عوض محمد

1

ليتني كنت أدري!

ما طواه الغيْبُ من نَيْلٍ ووَيْلٍ

وشقاءِ لابسٍ ثوبَ نعيمٍ

وظلامٍ أقْتَم الوجه بهيمٍ

وقضاء مُبرمٍ في جنح ليلٍ

ليتني كنت أدري!

2
ليتني كنت أدري!
يومَ أن سرت على النهج القويمِ،
لم أَحِدْ عنه يميناً أو يساراً
مُثبتاً طرفي وقلبي وجناني،
في طريق ضيِّقٍ، واهي الأديمِ
يملأ الجفن تراباً
. . . . . وشقاءً وغُبارا . . .
أن مِنْ حولي جِنَاناً
وهواءً خالصا. . .
يملأ القلب صفاء وسرورا وفخارا. . .
عالَمٌ قد حُفَّ بالخير العميمِ
ساحر المنظر موفور النعيمِ
ليتني كنت أدري!
3
ليتني كنت أدري!
حينما أُلْبِستُ ثوباً من حديدٍ
ليس يَبْلَى. . . .
كي يقيني حادث الدهر العنيد. .
أنْ سيغدو الجسم مُضْنى
ومُعَنًّى بالقيودِ. .
والفؤاد الحرُّ رهناً
ببلاءٍ وجمودِ
يقتل الروح على الأيام قتلا. .
ليتني كنت أدري!
4
ليتني كنت أدري!
حينما أمسكت كأسي بيميني،
أحتسي منها رحيقا وسُلافا،
شَرِهاً لا يرتوي مني غليلٌ
نَهِماً لا ابتغي عنها انصرافا،
أنني أشرب من داء دفينٍ
أنني أرشفها سما زعافا
ليتني كنت أدري!
صوت الإله!
أَنْصِتي يا جبالُ! قد هدأ الليَّ ... لُ وأَرْخَتْ جفونها الظلماءُ،
ومضى اليوم مُتعْباً ينشُد الأمْ ... نَ وقد كدَّ ظهرَه الإعياء،
وسَرَتْ في الوجودِ لهفة مشتا ... ق لمعنًى ينشق عنه الفضاءُ.
جثم الكون رابضا مُرْهفَ الأذ ... ن لِسِرٍّ توحي به العلياء:
لنشيدٍ يسري إذا سكن اللي ... ل فتَرْوى به النفوس الظِماءُ:
نَغَمٌ يترك النفوس وفيها ... منه نور وروعة وصفاء؛
أنصتي يا جبال! قد هدأ اللي ... ل وأرخت جفونها الظلماء!
أنصتي يا طيور! قد سكن النَّسْ ... رُ وآوت لوكرها العنقاء،
وغطاء الظلماء قد شملَ العا ... لم فالقبح والجمال سواء؛
فاستكني في الوكر أو فاستقري ... فوق غصن تبلُّهُ الأنداءُ
وأقلي الإنشادَ! فالدهر والعا ... لم والليل كله إصغاءُ:
لغناء ينساب كالجدول السا ... حر؛ ما للقلوب عنه غَنَاءُ!
لا تعيه أذن السميع ولكن ... يملأ القلبَ حسنُه والرُّواءُ. . .

. . .أنصتي يا طيور! قد سكن النس ... رُ وآوت لوكرها العنقاء
محمد عوض محمد
الذي نريده
للأستاذ عباس محمود العقاد
ما الذي نريده من حياة جديدة للمصريين والشرقيين؟
الذي نريده كثير جدا من الطمأنينة التي مصدرها الشعور بالقوة، وقليل جدا من الطمأنينة التي مصدرها عدم الشعور
نريد أن نحس ذلك القلق الروحي الذي يحسه الغربيون على أثر كل معرفة جديدة، وفي إبان كل اضطراب جلل، وفي أعقاب كل دولة دائلة وفي مطالع كل مرحلة مقبلة. لأن القلق علامة النمو والحركة؛ والنفس تنمو فيضيق بها كساؤها، وتشعر بالحرج والتقلقل لا تستريح فيه ولا يريحها. وتحاول أن تخلع ما ضاق ورث، وتلبس ما اتسع وحدث. وهذا دواليك مادامت تنمو وتستقبل الأحوال بعد الأحوال والأطوار بعد الأطوار
أما الطمأنينة التي تستقر بصاحبها لأنه لا ينمو ولا يتحرك، فتلك مصاب يرثى له وليست بنعمة يغبط عليها: أرأيت الحيوان الأعجم تفارقه الثقة قط؟ كلا! إنه يشبع ويسمن وينظر إلى الدنيا نظرة الرضى والتحدي كأنه بلغ الغاية وأوفى على الرجاء. . . وهو قد بلغ الغاية حقا ولكنها غاية أقل من البداية، وأوفى على الرجاء حقا ولكنه رجاء أخبث من القنوط. وشر ما يبتلى به المصري والشرقي هذه الثقة وهذه الطمأنينة.
فاللهم كثيرا جدا من القلق، وقليلا جدا من الراحة والركود
الذي نريده كثيرا جدا من الإيمان الذي يسكن بصاحبه لأنه نفي جميع الشكوك، وقليل جدا من الإيمان الذي يسكن بصاحبه لأنه يجهل الشكوك
الذي نريده كثيرا جدا من الخيال الذي لا يزال ينقلنا من واقع حسن إلى واقع أحسن، وقليل جداً من (حب الواقع) الذي لا يخرجنا مما نحن فيه، لأن النوم واقع عند النائمين، والجهل واقع عند الجاهلين، والفقر واقع عند الفقراء، والأسر واقع عند المستعبدين
زعموا أن الشرق مبتلى بداء الخيال والهيام بالأحلام
ألا ليت ما زعموه قد صدقوا فيه! ألا ليت الشرق يحلم ويتخيل، لأن الذي يعرف الحلم والخيال يعرف الأمل والطموح
أن (الطيارة) هي واقع اليوم ولكنها خيال الأمس. وهكذا ينتقل العاملون من خيال إلى واقع، ومن واقع إلى واقع غير الذي كان.
وإن الخبز والمتعة واقع عندنا اليوم، وواقع عندنا بالأمس، وواقع في جميع الأزمان، ولن يزال واقعنا الوحيد حتى نحلم ونتخيل فنطمح ونأمل ونحيا ونعمل، ونسوق الدنيا معنا من حال إلى حال، ونخرج بها في ركابنا من نطاق إلى نطاق
ألف ليلة وليلة ليست عالم الخيال والأحلام، ولكنما هي واقع العاجزين والضائعين، لأن خبزها هو خبز المائدة، غير أنه مفقود ليس بمأكول؛ ولذتها هي لذة المخدع، ومخدعها هو المخدع الذي ينال بالدرهم والدينار، لولا أن الدرهم والدينار ناقصان!! ومن يحقق ألف ليلة وليلة لا يحقق عالماً جديداً ولا فتحاً غريباً، ولكنما يحقق (الواقع) الذي عرفه الناس من أقدم الأيام ولا يستطيعون أن يفقدوا المال والحطام، وهما أيضاً من أوقع الواقع وأحس المحسوسات!!
فلا يقولن قائل إن الشرق يحلم لأنه يكتب ألف ليلة وليلة، بل هو مبتلى بالواقع محبوس فيه لأنه يحلم هذه الأحلام ويتخيل هذا الخيال
ألف شرقي يدين بواقع العاجزين فدى لشرقي واحد يبيع العيش الصغير بالأمل الكبير، ويحلم ويتخيل لينقل الواقع من طبقة إلى طبقة، ومن مجال إلى مجال
نريد كثيراً جداً من (الذوق) الذي مصدره الفهم واليقظة والدماثة.
وقليلا جداً من الذوق الذي مصدره التأنث والسقم والاصطناع
لقد شبع الشرق من ظرف الظرفاء الذين يصرخون من الهباء كما يصرخ الجسم الورم من لمس الذباب
وشبع الشرق من ظرف الظرفاء الذين يتحلون بالتثني والتأوه كما يتحلى بهما النساء
وشبع الشرق من ظرف الظرفاء الذين يبرمون بالجد كما يبرم به الصغار الهازلون
وشبع الشرق من ظرف الظرفاء الذين ليس منهم عامل في ميدان، ولا نافع لبني

الإنسان، ولا مجتهد يحسن الاجتهاد، ولا فكه يحسن الفكاهة، ولا رجل عظيم أو مقبول في زمرة العظماء
شبع الشرق من هذا الذوق، فهو من شبعه هزيل الجسد والروح، وهو من شبعه أجوع ممن صام ألف عام
أما الذوق الذي لم يشبع منه الشرق فهو الذوق الذي يحس الصغائر لأنه يحس كل شيء، لا لأنه على الصغائر موقوف، وفي الصغائر محبوس ومقصور
وهو الذوق الذي ينفذ من (البوتقة) لأنه جوهر حميم، ولا يفرق من وهج النار كما يفرق الزيف والغشاء المصبوغ
الذي نريده كثير جداً من الضحك الذي معناه الإقبال على الدنيا والاضطلاع بالأعباء والقدرة على التبعات
وقليل جداً من الوقار الذي معناه التهيب والرياء واتخاذ المظاهر درعاً يستر ما وراءه من ضعف وهزيمة وعجز عن الكفاح
الضحك ملء الصدور والحناجر خير من الوقار ملء اللحى والتجاعيد؛ والضحك الرنان كأنه موسيقى النصر في ميدان الكفاح خير من الوقار المحجم كأنه مخبأ الهارب من الميدان، وراء غبار الهزيمة وغشاء الدخان.
الذي نريده كثيرا جداً من الحرية التي تعرف الحدود، وقليل جداً من الحدود التي لا تعرف الحرية. فليس من مقياس لحق الحرية أصح وأحكم من قدرة النفس على احتمالها بغير رقيب ولا موجه ولا حسيب
إن الحرية التي يتبعها الرقيب هي منحة من ذلك الرقيب واستعباد فيه السيد وفيه المسود
أما الحرية التي تعرف حدودها فهي حق لصاحبها لا يعطيه أحد ولا يسلبه أحد، لأن الحر الذي يعرف كيف يلتزم الحدود يعرف ولا ريب كيف يحمي الحدود
الذي نريده بين القديم والجديد أن نمتلئ بالحياة، فإذا بالتعبير الصالح الجميل ينبثق من تلك الحياة
فليس القديم بضائرنا إذا حيينا وشعرنا وعمدنا بعد ذلك إلى التعبير
وليس الجديد بنافعنا إذا عبرنا محدثين، ونحن غير أحياء وغير شاعرين
ليست آفتنا أننا نعيش كما يعيش القدماء، بل آفتنا أننا نندب القدماء ليعيشوا بديلا منا!
وليست آفتنا قلة الشعر الجديد، بل قلة الشعور الجديد
وليست آفتنا أن القصة قليلة عندنا، بل آفتنا أن القليل هو الحياة التي تستحق أن تكون قصة، و (الواعية) التي تستوعب تلك الحياة
وليست آفتنا كساد المسرح، بل آفتنا أننا في مسرح الدنيا بلا أدوار ولا فصول؛ ولو كانت لنا في مسرح الدنيا أدوار وفصول لشاقنا أن نراها مروية في أدوار الممثلين، محكية في أقوال المؤلفين
الذي نريده أن نفهم ما نريد وأن ننجز ما نريد، وأن نعرف الفرق بين فهم القول وفهم الإرادة، فإنك إذا قلت لسامعك إنك تريد شيئاً من الأشياء في يوم من الأيام فقد فهم ما تقول، ولكنه لن يفهم ما تريد حتى ينجز ما طلبت في الموعد الذي طلبت، وهذا هو الفهم الأصيل
الذي نريده كثير جداً
وقليل جداً إذا استطعناه، وإننا لمستطيعوه ببركة العزم والإيمان
عباس محمود العقاد
الجزيرة والتاريخ الإسلامي
للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني
منذ بضع سنوات - ست أو سبع - زرت الحجاز وقضيت فيه أياماً أنظر وأسمع وأفكر. فرأيت أني أصبحت أحسن فهماً للتاريخ الإسلامي والأدب العربي وأقدر على تمثيل الصور والحقائق فيهما وإدراكها على نحو لم يكن يتيسر لي قبل ذلك. ولهذا اقترحت على صديقي الأستاذ الدكتور هيكل بك - لما شرع يكتب (حياة محمد) وينشرها فصولا في السياسة الأسبوعية أن يزور الحجاز فليس أعون على كتابة التاريخ الإسلامي من ذلك. والحجاز بلاد متحضرة ولكني مع ذلك اهتديت إلى كثير وسأحاول أن أتخير طائفة من الأمثلة تجلو ما أعني وتبين ما أقصد إليه. فمن ذلك أني دعيت في جملة من دعوا

إلى الغذاء في (وادي فاطمة) وهو واحة جميلة في صحراء جرداء وهناك نصبت لنا الخيام وصفت الموائد وقد وصفت ذلك كله في (رحلة الحجاز) فلا أعيده هنا. ولكنه اتفق أني ذهبت أتمشى بعد الأكل مع بعض الإخوان فلقينا جماعة من البدو فقال لهم أحدنا إن في السرادق آكالا طيبة كثيرة ودعاهم إلى الذهاب فذهب أكثرهم وبقي واحد تخلف معنا معتذراً بأنه (أكل البارحة)، فاستغربت قوله هذا ولكني كنت مثقل الرأس من كثرة ما أكلت فلم أستطع أن أجعل بالي إلى كلامه أو أن أعيره التفاتا. ومضت السنون وجاء إلى مصر صديق من أبناء سورية جاب بلاد العرب وطوف فيها كثيراً ولا يزال يؤثر المقام في الجزيرة، فهو أكثر الوقت مع الملك العظيم ابن السعود، فجلسنا إليه نستمع إلى حديثه الممتع ووصفه البارع لتجاربه ومشاهداته العديدة الدقيقة. وأعني به (خالد بك الحكيم) فتذكرت قول ذلك البدوي في وادي فاطمة (أكلت البارحة) وقلت لنفسي إني قد وقعت على الخبير فلأسأله فلن أجد أدرى منه وأعرف. فقال لي إن هذا معقول، ولو أن البدوي قال (أكلت أول من أمس فأنا لا أستطيع أن آكل اليوم) لما كان ذلك إلا طبيعياً. وذكر لي أن البدوي يذهب في الصحراء ماشيا على قدميه أو راكبا ناقته وعلى رأسه العقال وتحتها اللفافة - ويسمون العقال عقالا لأنه في الحقيقة حبل يعقل به البعير - ويلتف بالعباءة ويتلثم ولا يكاد ينبس بحرف. فأما السكون وقلة الكلام فليدخر كل ذرة من قوته للجهد الذي تتطلبه الصحراء - والكلام جهد فهو إنفاق - وأما التلفف فليحتفظ برطوبة جسمه فيكون أقدر على احتمال الحر والصبر عليه. ويظل ماضيا حتى يبلغ مضارب عشيرة أو قبيلة فيسقى ما شاء من اللبن ويمضي عنها إلى سواها وكلما نزل على قوم بروه وسروه وسقوه اللبن لأن مثله ممن ينحر لهم القوم. ثم يتفق أن يأتي قوما نحروا لضيف كريم فإذا قام الضيف وإخوانه عن الطعام، أقبل على (اللحم والأرز) من هم دونهم مقاما، فيقعد الرجل ويهبر من اللحم ما شاء ومن الأرز ما أحب. قال صديقي (وصدقني حين أقول لك إن هذا البدوي يأكل بعض أقات من اللحم وملء كيلة من الأرز. وهو يأكل كل هذا بعد أن لبث أياما - عشراً أو عشرين أو أكثر أو أقل - لا يجد من الطعام إلا اللبن وقليلا من التمر أحيانا فإذا أكل كل هذا اللحم والأرز وأثقل به معدته بعد ما يشبه الصيام أو فطام النفس كظها واحتاج إلى يوم كامل أو أيام للهضم.

فلم يسعني إلا أن أفكر في أمر هذا البدوي الذي يصبر على الصحراء وحياتها المرهقة ومطالبها المجهدة وعنائها الشديد ولا طعام له سوى اللبن والتمر أحياناً. إن هذا جلد لا أكاد أعرف له مثيلا. ومن كان يحتمل هذه الخاصة ولا يعجز مع ذلك عن مطالب الحياة التي لا رفق فيها من حرب وسعي وأسفار في الفيافي المهلكة فإن مثله يعدل ولاشك ألف جندي من جنود الدولة الرومانية المتخنثة، ولا عجب إذاً كان بضعة آلاف من هؤلاء البدو الأشداء الخشنين المعروقين قد عصفوا بمئات من الآلاف من جنود الدولة الرومانية التي كانت تقيد جنودها وتصفدهم لتمنعهم أن يهربوا ويفروا . .

وأحببت أن أعرف قيمة الحياة فيما يحس العربي - أعني البدوي - فلم أجد لها قيمة. وما عسى أن تكون قيمتها عند من لا يكاد يجد طعاماً أو ماء، ومن لا يكاد يأمن غدر الصحراء وعصف رياحها. أو لم نقرأ عن واقعة الخندق أن الرياح عصفت بجيش المشركين وقلبت قدورهم وهدمت خيامهم حتى يئس أبو سفيان ودعا قومه إلى الانكفاء إلى مكة؟. وحدثني غير واحد ممن لقيت في الحجاز أن المرء - بعد المعركة - يجيء إلى الواحد من هؤلاء البدو فيسأله عن صاحب له أو قريب أو ابن ماذا فعل الله به، ويتفق أن يكون قد قتل في المعركة، فلا يزيد على أن يقول لك (بح) يعني (ذبح) ولكنه يأكل الذال في النطق فلا تسمع منه إلا (بح). . ثم لا دمع ولا أسف ولا حسرة ولا لهفة ولا جزع ولا غير ذلك مما ألفنا أن نقرن به الموت. فكأن حياة البدوي الشاقة تفقدها قيمتها وتسلب الموت لذعه وتفتر وقعه. وما قيمة القتل في حرب أو نحوها والحياة معرضة للبوار والتلف في كل ساعة؟؟ وتصور كيف يكون إقبال مثل هؤلاء البدو على الحرب وقس إليه ما عسى أن يكون من إقبال غيرهم من أبناء المدنية والترف والبذخ على القتال!. إن الذي يقبل عليه البدوي ليس خيراً فيما تحس نفسه من الحياة التي كان يحياها. وإذا أضفت إلى هذا فعل العقيدة والإيمان الراسخ بحياة أخرى أطيب وأعز وأكرم فهل يستغرب أحد أن هؤلاء البدو العراة الحفاة الذين لا يملكون إلا السيف والرمح والإيمان المستغرق،

اكتسحوا دولاً كبيرة وممالك عظيمة، وهدموا بناء كان يبدو شامخاً؟.
ولست ترى في الصحراء قبراً أو صوى منصوبة تدل على أن فلاناً أو علاناً دفن هنا. والناس يعيشون في هذه الصحراء ويموتون فيها ويفنون تحت رمالها ثم لا شيء بعد ذلك، لأنهم لا يعرفون المغالاة بقيمة الحياة إذ كانت لا قيمة لها عندهم. ولو أنهم اتخذوا المقابر وأعلوها ورفعوها وعنوا بها وكانت عندهم مقبرة مثل مقبرة (جنوى) التي يزورها الناس ليعجبوا ببراعة الفن فيها، لما أمكن أن تخرج من جزيرة العرب تلك الأمة التي انحدرت على العالم المتحضر في زمانها كما يتحدر السيل الجارف فأغرقته. ولم تغرقه فقط ولم تفتح البلدان أو تحكمها فحسب، بل قلبتها عربية صرفاً. وقد استطاع الفرس أن يحتفظوا ببعض صفاتهم وخصائصهم وبروحهم القومية - كما لم يستطع البيزنطيون أن يفعلوا فيما استولى العرب عليه من بلادهم - لأن الفرس كانوا أقل تخنثاً من البيزنطيين. ولست مؤرخاً ولكني أظن أن هذا هو السبب، يضاف إليه أن البلاد التي فتحها العرب من دولة الأكاسرة كانت فارسية وأهلها من الفرس على خلاف ما فتح العرب من بلاد الدولة الرومانية، فإنها كانت أجنبية لا رومانية ولا بيزنطية، فبقاء الشعور القومي في بلاد فارس طبيعي ومعقول والفتح لا يمكن أن يقتله، وانعدام مثل هذا الشعور فيما فتحه العرب من أملاك الدولة الرومانية معقول أيضاً. لأنه لم يكن هناك في الأصل، ولهذا بقيت فارس شوكة في جنب الدولة العربية.
وقد زرت العراق وسوريا - أو كما صارت الآن مع الأسف فلسطين ولبنان والشام - كما زرت الحجاز فلم أستغرب أن ينتقل مركز الثقل في الدولة العربية من الحجاز إلى الشام أولا ثم إلى العراق، فإن طبيعة الأراضي الحجازية تجعل من المستحيل عليها أن تكون
مقر دولة مترامية الأطراف عظيمة الرقعة. نعم تستطيع بسهولة أن تحتفظ باستقلالها وعزتها ولكنها لا تقوى على حكم أقطار أخرى بعيدة كالشام والعراق ومصر. وقد بقي الحجاز مقر الدولة العربية في صدر الإسلام وعلى عهد الخلفاء الراشدين ولكن هذا كان زمن التوسع والامتداد، لا زمن الاستقرار والنظام الدائم. فلما انتهت الفتوح أو معظمها وأهمها، وصارت الفتوح بعد ذلك عبارة عن توسع طبيعي لدولة مستقرة تغريها ما أنست من نفسها من القوة والبأس والشوكة بالتوسع والزحف، وتدفعها مقتضيات المحافظة على ما في اليد إلى هذا الزحف، صارت جزيرة العرب لا تصلح أن تكون هي مركز الدولة. أما في زمن أبي بكر فقد كانت الحاجة تدعو إلى توطيد الأمر في قلب الجزيرة أولا قبل إمكان التفكير في غيرها. وأما في زمن عمر فقد كانت الجيوش تزحف فلا يعقل أن تنقل العاصمة قبل أن يستتب الأمر. نعم فتحت البلاد في عهده، ولكن الفتح يستدعي التمكين والتوطيد أولا. ثم إن عمر كان يشق عليه أن يخرج من الجزيرة، وكانت صلته بالنبي عليه الصلاة والسلام أوثق من أن تسمح له بترك الجزيرة، حتى لو كان كل شيء قد استقر وانتظم. ولم يكن قد عاش في الشام أو مصر أو العراق حتى تبدو له مزية التحول بقاعدة الدولة إلى جهة أخرى. وأما زمن علي وعثمان فقد كان زمن اضطراب ونزاع وانقسام، وكان هذا حسبهما شاغلا عن إقامة مركز الدولة إقامة ثابتة نهائية في مكان آخر غير الحجاز. ولما انتهى النزاع بفوز معاوية كان هذا قد أدرك مزية البلاد الأخرى وعرف فضلها كمركز الملك ومقر للدولة التي شادها بفضل ما تولى منها في الفترة السابقة.
وبلاء جزيرة العرب أنها مجدبة قاحلة، فإذا امتدت لها رقعة ملك أسرع أهلها إلى التحول عنها إلى غيرها، لأن الحياة في غيرها تكون أرغد والعيش أطيب. والمرء يحن إلى الراحة والدعة مهما بلغ من اعتياده الخشونة والمشقة والشظف، وفرقٌ بين هجرة تدعو إليها كثرة السكان، وهجرة تدعو إليها الفاقة والمحل. ولابد لبلاد تريد أن تكون مقر دولة كبيرة أن تكون هي ذات موارد كافية إلى حد ما. ولهذا لم يكد العرب يفتحون الأقطار المجاورة حتى كثرت هجرتهم إليها طلباً للرغد والراحة. ومن ألف التنقل وكثرة الرحيل من ناحية إلى أخرى انتجاعاً للرزق لم تشق عليه الهجرة إلى بلاد بعيدة لأنه لم يزل أبداً مهاجراً في قلب بلاده. ومادامت الدولة واحدة في الحجاز ومصر والشام والعراق فأخلق
بهذا أن يكون مشجعاً على الهجرة ومستحثاً على النزوح. وبذلك صارت الجزيرة أخلى من الناس وأقل صلاحاً لأن تكون مركز الدائرة ومقر الدولة. وقد يتغير حال الجزيرة

في المستقبل وقد تظهر فيها موارد ثروة طبيعية تغنيها ولكن محل أرضها عقبة في سبيل الحياة. ومهما يبلغ من غناها في المستقبل فإنها ستظل أحوج إلى غيرها من غيرها إليها - إلى حد بعيد - على أن كلامنا على الماضي الذي لم يكن يعرف البترول والمعادن وما إلى ذلك مما جد في الدنيا لا على المستقبل الذي هو غيب.

إبراهيم عبد القادر المازني

في رأس السنة الهجرية

معنى الهجرة

للأستاذ علي الطنطاوي

مشى (عبد الله) حذراً، يتلفت إلى الوراء خشية أن يراه بعض سفهاء قريش، . . . فيقطعوا عليه سبيله، فلم ير أحداً، وكانت طريق مكة خالية لأن الناس قد أموا الحرم ليجلسوا في مجالسهم كعادتهم في كل مساء فاطمأن وسار قدما، حتى إذا خرج من مكة وجاوز الحجون، واتسع الوادي أمامه وانفرج، صعد الجبل يأخذ طريقه إلى الغار؛ ونظر. . فراقه منظر الغروب. على هذه السفوح والذرى، وأحس بجلال الموقف، وأخذ عليه نفسه هذا الصمت العميق، وهذه الصفرة التي تعم كل شيء، فنسي غايته ووقف ينتظر. . رأى مكة تلوح أبنيتها من فرجة الوادي، وتبدو الكعبة قائمة في وسطها، والأصنام التي تحف بها تظهر على البعد كأنها لطخ سود. . فذهب به الفكر سريعا إلى ذينك الرجلين اللذين تركهما صباحا في الغار. وذهب يتحسس لهما خبر قريش. ويعلم علمهما. ذكر النبي صلى الله عليه وسلم وأباه الصديق. . فخاف أن يكون قد أصابهما شر، فاغمض عينيه عن هذه المشاهد، ومضى في طريقه وهو يتعجب من قريش حين زهدت في المجد والظفر، وآثرت هذه القرية الجاثمة بين هذين الجبلين كأنما هي مخبوءة في صندوق من الصخر، على السهول والجنان والمدائن التي أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يقودها إليها وانصرفت عن الراية التي دفعها إليها محمد، لتسير بها إلى أرض النخيل والأعناب فتركزها في دمشق والإسكندرية، وعلى إيوان كسرى. وفضلت عليها رايتها التي لم تتعود الخفق في سماء المعارك الكبرى، ولا ألفت الاهتزاز على أسوار المدن المفتوحة. . لقد عرض محمد على قريش أن تعطيه هذه الأصنام ليكسرها. ويعطيها بدلا منها ملك كسرى وقيصر، ويعطيها العقل المبدع، والقانون العادل، والعبقرية والخلود، فأبت، وعكفت على أصنامها وتماثيلها. . فما أعجب عقل قريش!

ونظر إلى مكة مرة ثانية، فإذا الظلام قد لفها بردائه، ثم ابتلعها ولم يعد يبدو منها إلا بصيص من النور فخالط نفسه سرور مبهم، وشعر بزوال هذا الخطر القرشي، واستروح رائحة الظفر، فامتلأ قلبه أملا، وجعل يجيل بصره في الأفق الواسع، فيخيل إليه أنه يرى

راية محمد ترقص على هام القصور البلق في الشام، والصروح البيض في المدائن. . . فمضى يتسلق الصخور إلى الغار، وهو يقفز قفزاً، يظن من شدة النشاط وقوة الأمل أنه سيطير!

وكانت الجزيرة يومئذ تتمخض بالموجة الكبرى. . . ولطالما ماجت هذه البرية القاحلة التي تلتهب في أيام الصيف التهاباً، وهذه الرمال التي تسلسل إلى غير ما حد، ففاضت على أرض العراق الشام وكانت منبع الحياة. لقد كان ذلك، والتاريخ جنين في بطن العقل البشري لم يولد بعد، وكان وهو طفل لا يعي، وكان والتاريخ صبي يميز ويدرك، فرآه فسجله في دفتره. . .

رأى وادي النيل، وحوض الرافدين، يمشيان إلى الخراب، قد نضبت فيهما الحياة، فما راعه إلا موجة تنشأ من الجزيرة، من وسط الرمال، فتقذف إلى مصر بـ (مينا) ليكون أول فرعون فيها، وتلقى ببني كلدة إلى العراق، فإذا هؤلاء الوافدين من أعماق القفز، يفتحون حقائب أدمغتهم، فيخرجون منها الحضارة الأولى، (حضارة البابليين القدماء) قبل الميلاد بستة وثلاثين قرناً

ويكر الزمن، وتدور الأفلاك، فتطحن الناس، وتحطم الحضارة وتطفئ الشعلة، فتنادى العراق والشام يطلبان المدد، وتسمع الصحراء فتتهيأ وتتحرك وتموج موجة أخرى فيقذف إلى ساحل البحرين بأنشط (مجموعة بشرية) عرفها التاريخ القديم، ثم تلقي بها إلى ساحل سوريا لتطل على العالم، فلا تلبث أن تغلغل فيه تحمل إليه تجارتها

وحروفها ولا تلبث أن تغدو شريان الحياة في العالم، وتنشئ في كل موضع (مستعمرة فينيقية) هي في الحقيقة مدرسة عالمية، كان من أمهر من تخرج فيها (اليونان)
ولقد ماجت الجزيرة موجات أخرى. . . ولكنها اليوم تتمخض بالموجة الكبرى!
فكر (عبد الله) في هذا وهو يتسلق الصخور، إلى الغار، وكان لطول ما سمع من حديث الإسلام شديد الرغبة في توحيد العرب، وسوقهم إلى إنقاذ أرض الوطن (في الشام والعراق) من الحكم الأجنبي، وكانت هذه الفكرة جديدة لم يعرفها العرب، أثمرتها في رأس (عبد الله) الدعوة التي استجاب لها، وآمن بها، واستسلم عبد الله إلى أفكاره، وأطلق لها العنان، وشمل العالم كله بنظرة واحدة، فرآه ينتظر شعباً جديداً طاهراً لم تدنسه تلك الحضارة الزائفة، حراً
لم تذله تلك الأنظمة الجائرة، أبيا لم يألف طغيان الملوك، وجبروت الأباطرة، ليختم صفحة الماضي السوداء، ويفتح في التاريخ صفحة بيضاء جديدة
إن البناء القديم قد تهدم وخرب، ولم يعد صالحا، ولابد من شعب قوي ماهر، يهدم هذه الأطلال البالية، ثم ينشئ بناء جديدا.
إنه ليس في العالم إلا ثلاث كتل كبيرة. . . كتلتان تتصارعان صراع الديكة، قد أمسكت كل واحدة بعنق الأخرى، فسالت دماء الشعوب، والملوك يضحكون ويفرحون لأنهم سيصبغون بالدم ثيابهم لتغدو قرمزية حمراء، يمتازون بها من (سواد الشعب) وطاحت جماجم الشعوب، والملوك يضحكون ويفرحون، لأنهم سيبنون منها برجا، يترفعون به عن غمار الشعوب
هاتان هما الإمبراطوريتان الفارسية والرومانية، وهناك كتلة أخرى في زاوية الكون نائمة على ضفاف (الكنج) ووراء (همالايا) لا يدري بها أحد. . .
أمم تشقى ليسعد أفراد. شعوب تضنى ليحيا رجال. مدن تحرق لتشعل منها (سيجارة)
إن هذه حال يجب أن يوضع لها حد! فمن هو الذي ينقذ العقل البشري من قيود الجهل والاستبداد! من هو الذي يمحو هذه الأرستقراطية العاتية السخيفة؟ من يهدم هذه الهياكل البالية ليقيم على أطلالها صرح الحضارة؟ من الذي يمهد السبيل للمستقبل المنتظر، لعصر الراديو والطيارة؟ لعصر العلم والفضيلة؟ لعصر الحرية والعدالة والمساواة؟ لعصر السوبرمان. . .
لا أحد!
كل شيء هادي في العالم!
إن القافلة تمشي ببطء في عرض البادية، قد خرس الحادي، ومات الدليل، إنها تمشي نحو الموت!
إن السفينة تتخبط في لجة اليم، تميل وتضطرب، لم يعد لها أمل، قد هبت العاصفة وطغى الموج، وغرق الربان!
يا من يهد القافلة الضالة؟
يا من يخلص السفينة الحيرى؟
يا من ينصر الشعوب المظلومة؟ يا من يحمي العقل المهان؟ يا من ينقذ الفضيلة المعذبة؟
ليس من مجيب، كل شيء هادي في العالم!
بلغ السيل الربى، وعم اليأس، واشتدت المصيبة، فتلفت الناس فلم يجدوا أمامهم إلا البيع والكنائس، فأموا بيوت الله، ونفضوا أيديهم من الدنيا، وجاءوا يبغون فيها الفرج، لقد سدت في وجوههم كل الأبواب، ولكن باباً واحدا لا يزال مفتوحا فوق رءوسهم، هو باب السماء.
وسمعوا الفرج على ألسنة الكهان ورجال الدين، علموا أنه سيبعث نبي جديد، يطهر الأرض، وينشر العدل، فخرجوا فرحين مستبشرين، قد أحيا قلوبهم الأمل
وطفقوا يفتشون عن النبي الجديد، فتشوا عنه على ضفاف الأنهار في سهول العراق الجميلة. . . فتشوا عنه على جبال لبنان الشجراء، وحدائق الشام الغناء، فتشوا عنه في المدن الكبرى، عله يظهر إلى جانب القصور في القسطنطينية والمدائن، مثوى الجبروت البشري، فيهزها ويزلزلها، فتشوا عنه في كل مكان فلم يجدوه، إنه لن يخرج في السهول ولا في الجبال ولا في المدن الكبرى - ولكنه سيخرج من حيث انبثقت الحياة، من حيث بزغ فجرها من حيث خرجت الحضارات الأولى. . . من الجزيرة

تلك هي أم العالم فليلجأ العالم إلى أحضانها، كلما حاق به خطر؟
فتشوا عن النبي المنتظر في كل مكان فلم يجدوه، وازداد عسف الملوك، وظلم الطغاة، واشتد البلاء، وكمت الأفواه، وقيدت العقول، وديس الحق. . . فلجأ الناس مرة ثانية إلى البيع والكنائس. فسمعوا فيها البشارة، وكانت هذه المرة واضحة قريبة. . .
(يا شعوب العالم)!
استبشروا فقد نشأت اليوم الموجة الخيرة التي ستغمر العالم - وتغسله من أدران) الماضي - لقد نشأت من غار عال منقطع. في قمة جبل رفيع، ومشت تقطع الرمال - نحو أرض الثمار والرياحين - نحو أرض المدنيات. . . لقد ابتدأ اليوم أكبر حادث تاريخي: إن ركاب النبي المنتظر، قد تحرك من مكة يسير إلى نصرة الشعوب - إلى (حماية العقل، إلى إنقاذ الفضيلة، إلى إنشاء عصر الحرية والعدالة والمساواة
فخفقت القلوب في كل مكان لذكر النبي المصلح، وعاشت بحبه، وسألت:
- إلى أين بلغ؟ إلى أين بلغ؟
- لقد بلغ الغار، فوقف فيه يودع هذه الجماعة السخيفة، التي جاءها أعظم رجل، بأعظم مبدأ، فلم تفهم منه شيئا، وحسبت أنها تستطيع القضاء عليه، فهي تريد أن ترد النبي فتقتله أو تسجنه، فهي تبعث رسلها، يفتشون عنه في أنحاء البادية، وشعاب الجبال، ومنعرجات الأودية، وينفضونها نفضاً، ولكنهم يعمون عن هذا الغار العالي المكشوف الذي يطل منه سيد العالم
- أهؤلاء يحرمون البشر من العصر الذهبي المرتقب؟ ويقضون على الأمل الوحيد الذي تعيش به ملايين الخلائق؟ يا للمجرمين، يا للجاهلين المغترين!
وتفرق الناس يهتفون في كل مكان باسم المنقذ الأعظم، باسم النبي!
وانتبه (عبد الله) فإذا هو قد تأخر، وضل الطريق، فصحا من ذهوله، وتسلق الصخر مسرعا نحو الغار، لقد فهم معنى الهجرة، التي لم تفهم قريش معناها - وحسبتها سفرا من مكة إلى المدينة، لقد علم أنها انتقال من الماضي الأسود الكئيب، إلى المستقبل المشرق المنير. . . فليقفز إلى الغار قفزا. . .
وبعد، فيا من ينعمون بحضارة القرن العشرين:. .
يا من يعرفون قيمة الفكر البشري، ويستمتعون بثمراته. . .
يا من يقدرون العدالة والحرية والمساواة. . .
لا تنسوا أبداً أن المنار الذي اهتدت به القافلة الضالة، والسفينة الحيرى، إنما خرج من ذلك الغار، فاذكروا دائماً عظمة هذه الغيران غار (حراء) إذ بزغت منه أنوار الديانة التي هذبت العقل الإنساني، وأرشدته إلى أقوم سبل الحقيقة والخير والجمال، وغار (ثور) إذ بدأت منه الموجة التي نسفت قصور الظالمين، وصروح العتاة، وقفت على الماضي السخيف، وحملت إلى العالم أسمى المبادئ وأعلاها، حين حملت إليه تعاليم حراء
إن هذه الغيران كعبة في التاريخ، لا ينبغ عقل ولا يمشي في طريق التفكير الصحيح، إلا بعد أن يطيف بها، ويقف عليها. . .
إن العالم قد سار نحو الكمال، يوم سار محمد (صلى الله عليه وسلم) نحو الغار. . .
إنه لولا الهجرة، ولولا الفتح الإسلامي. . . ما خرج العالم من الهوة، التي دفعته إليها أرستقراطية السادة الأشراف، وجبروت الملوك المستبدين. . . ولا كانت حضارة القرن
العشرين!
هذا هو معنى الهجرة، التي نحتفل اليوم بذكراها، فحق على كل متمدن أن يشاركنا في هذا الاحتفال. . .!
عين التنته - سوريا
علي الطنطاوي
من صفحات البطولة
سلاميش
للأستاذ محمد فريد أبو حديد
قد كان ذلك أثناء الحرب الصليبية التي ثار لهيبها في الشام نحو قرنين طويلين؛ وكانت جنود مصر العظيمة تحاصر مدينة إنطاكية إحدى المدن التي كانت لا تزال باقية في يد

المسيحيين. وكانت جيوش مصر تحارب ببسالتها المعروفة لا يعرف أحد من جنودها ما معنى الخوف بل يهوي بفرسه كالصاعقة وهو يصيح صيحة الحرب فيوقع بعدوه الفشل فيتفرق ويتبدد، ثم يشيط في رماحه وسيوفه.

وكان منظر هذه الجنود مما يروق الأعين ويبهر الأنظار، فقد كان الفرس وراكبه قطعتين من آيات الفن ومبدعات الصناعة، فالفارس في ملبسه الحربي عليه العلامة الصفراء تبرق في شعاع الشمس وفوق جسده الدروع والسلاح يحسبها الناظر إليها من عسجد مصفى وإن كانت من صافي الحديد والفولاذ؛ وكانت ملابسه من تحت تلك الغواشي لا تظهر منها إلا أطراف مزركشة بالذهب أو أذيال من صافي الحرير والقصب؛ وكان الفرس يختال تحت راكبه كأنما هو يزهى بما عليه من زينة وحلية ويفاخر بمن عليه من نجد مغوار

ودافع المحصورون في إنطاكية دفاع الأبطال، لم يتركوا الأسوار حتى لم يبق بها ركن غير مثلوم، ولم يدعوا الضرب حتى لم يبق لمجانيقهم حجر يقذفون به أو نار يلقون بها على أعدائهم. وانتصرت جنود السلطان العظيم بيبرس. ودخلت المدينة في أبهة النصر واختيال القوة. وكانوا وهم يدخلون المدينة لا ينسون أنهم يلجون أكبر معقل بقي للنصارى في الشام بعد أن كانوا قد بسطوا أيديهم على ذلك القطر كله.

كان قائد الجند شابا في مقتبل العمر اسمه سلاميش لو رآه أحد في غير لباس الحرب لظنه أحد أبناء الملوك المنعمين. وجه مشرق إشراق الزهرة اليانعة، وقوام ممشوق كأنه رمح رديني، وعينه تلمع كأنها ريا بفرند سيف دمشقي. ولكنه كان في عدة الحرب عليه اللأمة والدروع وفي يده الرمح وفي منطقته السيف، ودخل على رأس الجنود فوق جواده الكريم ناظراً إلى الأمام معبسا جاداً والجنود من ورائه لا يلتفت أحد منهم إلى يمين أو إلى اليسار، ولا يتخلف أحد منهم عن طاعة الأمر بمقدار همسة هامس أو طرفة عين. وكانوا كلما نظروا إلى قائدهم الشاب زادت قامتهم استقامة، فإن هم بعضهم ببسمة وقفت البسمة على شفتيه حذر أن يطلع عليه إذا هو التفت.

وكان يوم دخول إنطاكية يوماً مشهوداً، فكان نساء المدينة وصبيانها أسرى ينتظرون حكم الفاتح فيهم؛ وكان رجالها وشبانها بين مقيد في الأصفاد، وجريح في مثاوي العلاج، وقتيل طريح على جانب الأسوار أو عرض الطريق، وبلغ القائد وجيشه ميدان المدينة الأكبر وقد احتشد فيه الأسرى والضعفاء يتطلعون جميعاً إلى من في يده الحكم في مصائرهم، وخمدت الأنفاس، وهدأت الأصوات، وأومأ القائد للجيش بالوقوف حول الميدان، فوقف الجند ينتظرون إلى أكوام الغنائم التي سيقسمها السلطان الأعظم بينهم وهي من كل نفيس ونادر من تحف الأمراء والأغنياء وقد وقف حولها جماعات من سبايا الحرب بين صبية وعذارى أو كهول وشبان ينظرون إلى قيودهم حانقين، أو يبكون ويندبون معولين.

وتقدم نحو سلاميش وفد من كبار المدينة وأمرائها حتى إذا ما صاروا منه على بضع خطوات ركعوا له ووقفوا يطلبون الإذن للكلام، فأذن لهم وهو معبس على عادته لا تفارقه تلك النظرة الجامدة التي في عينيه، وجعلوا يتكلمون بلسانهم وقد وقف رجل منهم يترجم ما يقولون. وطلبوا إليه أن يمن عليهم بالفكاك وأن يهبهم نساءهم وذراريهم تقربا إلى الله الذي نصره بعد أن وضعت الحرب أوزارها ودانت المدينة لحكم السلطان الأعظم، وقالوا له فيما قالوا (حسبك من تقتل من شباننا وكهولنا، وما تخرب من ديارنا ومعاهدنا؛ فلئن كانت بنا كبرياء لقد ذلت، ولئن كانت فينا عزة لقد هانت؛ وكفاك من الحرب النصر فلا تضم إليه دموع المساكين، ولهيب الفراق بين الأبناء والوالدين) غير أن سلاميش بقي على تعبيسه ووجومه ولم يجب إلا بإشارة لجنوده أن يعيدوا الأسرى إلى حيث كانوا وأن يستعدوا لنقل الغنائم والأسرى إلى مخازن السلطان أو إلى خيامه، فلم يكن للوفد إلا أن ينصرف والحسرة تأكل قلوبه.

ثم أمر القائد جنوده بالمسير إلى مخيمه وسار في الطليعة يتقدمه لولا أن استوقف نظره جماعة من الجند يجرون شخصا وهو يمانع ويجاهد، فتأمل الشخص فلاح له عن بعد شخص امرأة، فوقف وأمر الجنود بالوقوف، ثم أسرع إلى مكان الجند ليرى ما هناك فوقعت عينه على فتاة بين أذرع جنديين يدفعانها ويترددان في حملها. ولما اقترب منها

رأى شابة نحيلة ممشوقة فارعة، بوجهها صفرة قد غطتها حمرة، وفي عينيها حلاوة قد غشيتها صرامة، وهي تنظر إلى الجنديين مرفوعة الرأس كأنها تزهى، جامدة العينين كأنها تتحدى. وقد تمز ثوبها وتلوث من آثار الوسخ والدماء، لا يكاد يستر من جسمها إلا ما يستر ظل أوراق الشجر من صفحة الجدول.

وقد انسدل على كتفيها غطاء من شعرها الفاحم وهو يلمه في ضوء الشمس الغاربة.

فدخلت الرحمة قلبه برغمه، وتمهدت عبسته ولانت نظرته وأشار إلى جنوده بالكف عنها، ثم نزل إليها وأخذ بذراعها فأسلست له وسارت معه حتى اقترب من شيخ فقيه كان في صحبة الجيش وأمره أن يترفق بها حتى تذهب إلى خيمته. ثم عاد وقد أطرق قليلا حتى علا صهوة جواده. ثم ركض إلى حيث ترك جنوده واستعاد نظرته وعبسته.

وألقى إليهم الأمر بالمسير وقضى سائر اليوم في شغل من أمر جيش حتى أوغل الليل وعلا البدر وحان وقت العودة فآب إلى سرادقه.

وتذكر الفتاة التي كانت أعمال اليوم قد أنسته ذكراها، فأمر غلاما أن يحضرها إليه، وجلس يستعيد صورتها ويتمثلها وهي تناضل على ضعفها وتتكبر على ذلها، ولم يتمالك أن ربت الرقة إلى قلبه، ولم يستطع قهر عبرة ترددت في عينه. وغاب الغلام قليلا ثم عاد وحيدا فنظر إليه سلاميش كأنما يستفهم عما أتى به، فقال الغلام بعد التحية (إنها لا ترد بكلمة ولا ترفع إلي بصرها)، فصرفه سلاميش وجلس هنيهة يفكر، ثم نهض متثاقلا وسار إلى خيمتها حتى إذا دخل ألفاها على الأرض وقد وضعت رأسها بين كفيها.

فدنا منها ووضع يده على رأسها وتبسم ابتسامة ضئيلة وقال: (يحزنني أنهم أساءوا إليك)

فانتفضت الفتاة كأنما لسعتها جمرة، ثم رفعت رأسها وقامت تنظر إليه والحقد مرتسم على محياها، ونار الغضب تضطرم في عينيها، وكانت الملابس الرثة التي أتت بها قد تبدلت وألبست حلة من الحرير الأسود جعلت وجهها المصفر وعليه آثار الدموع يبدو كالزنبقة المبللة بالندى، ودفعت يده التي مدها نحوها وقالت وفي صوتها بحة: (أبعد يدك عني أيها القاتل السفاك. أدر وجهك الكريه عني فأنت قاتل أبي وأخي، وأنت سافك دماء قومي، وأنت المعتدي على وطني، ابعد عني وافعل بي ما شئت من عذاب أو قتل تكمل به وحشيتك وفظاعة جندك).

وكانت هي في ثورتها هذه تقذف بنظراتها إليه كالسهام النافذة، وكان صدرها يعلو ويهبط في هياجها، وشعرها الطويل الاسحم يضطرب بعضه فوق كتفيها وبعض على صدرها أو جوانب جسمها

ودهش سلاميش من قولها ولم تفته فصاحة في لفظها ولا رخامة في صوتها، ولكنه لم يجب بكلمة، بل رفع حاجبيه وانثنى راجعا إلى خيمته يسير في بطء ويثور به شيء يشبه الحزن

وأرسل إلى الشيخ الفقيه يستحضره، وأتى إليه فجعل يسأله عن المدينة وأهلها، وعن تلك الفتاة وبيتها، فلقد كان ذلك الفقيه من أهل المدينة قبل الفتح يعيش بين أهلها ويعاشرهم ويخالطهم، فعلم منه أن تلك الفتاة بنت أكبر أغنياء إنطاكية، وأن أباها كان شديد الولع بتثقيفها، وأنها قرأت أدب العرب كما قرأت أدب الفرس، وكان لها أخ قتل في أثناء الحصار، ومات أبوها يوم الفتح، وكان يدعو قومه إلى المصالحة قبل أن تفتح المدينة عنوة، وأراد أن يحمل قومه على تدارك الأمر قبل انفراطه فاتهموه بالجبن، وصاحوا في وجهه، أنه آثر السلامة، فحملته الحفيظة مع كبر سنه على الركوب في وجه الجيش الفاتح، ومات عند أبواب المدينة تحت سنابك الجيش الظافر

وسمع سلاميش تلك القصة فأفلتت منه زفرة لم يستطع كتمانها، وبات الليلة والأحلام تتخل نومه حتى لاح الفجر، فصحا وهو مضطرب النفس قلق البال

ولكن أعمال اليوم لم تترك له متسعا للتفكير في القناة ولا في همومها، وكان كلما تذكر كلماتها له نازعته نفسه إلى القسوة عليها، ثم لا يلبث أن يلين، وتعاوده رحمته.

حتى إذا انقضى اليوم وعاد في المساء إلى خيمته رأى نفسه يسير نحو مكانها، وتقرب إليها وهو يتردد ويترفق ثم وقف إلى جوارها هنيهة وقال بصوت خفيض:

(لعلك اليوم أهدأ مما كنت بالأمس)

فلم ترفع إليه بصرها، بل بقيت جالسة، ورأسها بين كفيها

والتفت إلى خوان بالقرب منها، فرأى عليه طعاما يمسس. فقال وهو يتكلف الهدوء

والجفاء: (وهل تريدين أن تموتي جوعا؟)
فلم تجب على قوله، بل حاولت كتم نحيبها.
فقرب منها، وحاول أن يضع يده على رأسها ليرفعه وهو محترس متلطف، ولكنه ما كاد
يلمسها حتى نفرت منه وصاحت به قائلة:
(أقول لك اتركني)
فلم يستطع أن يخالفها، فأبعد يده عنها، وتراجع، ناظرا نحوها، ثم تنفس نفسا طويلاً وخرج وفي قلبه حزن وقلق
وقضى ذلك اليوم موزع القلب كئيبا، حتى لحظ أصحابه كآبته، وعجب جنوده لجفائه ونفرته، فكان لا يأمر إلا متبرما غاضبا، ولا يسمع إلا متجهما ساهما، حتى عجب الناس من ذلك الغضب، في عقب الانتصار، ومن ذلك الضجر لمن كان مثله مكللا بالمجد والتوفيق. وما انتهى من عمله حتى أسرع إلى سرادق، ووقف هذه المرة مترددا وجلا، ودخل في رفق وخشوع إلى مكان الفتاة، فأبصرها على ما كانت عليه في الصباح، والخوان لا يزال إلى جانبها، قد تبدل طعامه، ولا يزال كاملا لم تنل منه شيئا ونظر إليها مليا ثم قال برفق: (أما تكلمينني؟ إنني أرجوك أن تنظري إلى وتنطقي بما يجول في نفسك ولو كان قاسيا)
ثم مد يده إلى رأسها ومسح عليه متلطفا - ولكنها هذه المرة لم تثر ولم تغضب. وكأن نبرات صوته قد حملت إليها ما في فؤاده من حزن من أجلها. على أنها بقيت ساكنة، وهي جالسة في مكانة كئيبة.
فجلس إلى جوارها ساعة يحاول محادثتها وهي لا تجيب إلا بدمعة تثور بين حين وحين في عينيها فتمسحها بمنديل ثم تعود إلى وجومها وسكونها، فقال لها ولسان ينم عن مقدار عطفه وحزنه:
(إنني لا أريد إيلامك - لأنني لا أستطيع أن أراك متألمة - ولو كان ذهاب ألمك بإبعادك عني لفعلت. ألك أهل في عكا أو في مدينة أخرى من المدن فأرسلك إليهم؟ أن السلطان لن يرد لي طلبا إذا طلبت منه شيئا)
فلم تجبه حتى أعاد عليها القول راجيا مستعطفا - وكان أول ما قالته له أن هزت رأسها نحوه وقالت: (ليس لي أهل - قد قتلهم جميعا) ثم شهقت بالبكاء واسترسلت في هزة مريرة من الحزن
ولم يملك سلاميش نفسه من أن تجيش بالحزن ولكنه تمالك بعد قليل وهدأ من جأشه وقال
لها:
(أنني أرحمك في حزنك ولكني لا أملك دفعه. فقد كان أهلك أعدائي وكنا معا في ميدان قتال يسعون فيه إلى قتلي كما كنت أسعى إلى قتلهم. وهل للشجعان مصير إلا الموت في ميدان الحرب؟ وهل كان أولى بأهلك أن يشهدوا مدينتهم تحطم وتسلب وهم بين هؤلاء الأسرى؟
أنهم لو كانوا بين هؤلاء الأسرى لما ترددت في افتدائهم من أجلك ولكنهم في غير حاجة إلى ولا إليك. إنني قد رأيتك وبهرني حسنك، ثم رأيت حزنك فآلمني حزنك. ثم تكشفت لي كبرياؤك فقهرت كبريائي، ولو شئت أن تبعدي إلى مكان تختارينه لما رفضت لك مشيئة - وإن أحببت المقام هنا - كنت عندي ولا أقول لي حتى تقولي ذلك أنت)
فنظرت الفتاة نحوه وقد زال من عينها ذلك البرق القاسي الذي كان يلوح منهما كلما نظرت نحوه من قبل، وأطالت نظرتها إليه ثم أغضت بعد أن طبعت في خيالها صورته ولم يذهب سلاميش ذلك المساء إلى خيمته حتى كان قد قاسمها بعض الطعام الذي قدم إليها في ذلك اليوم ولم تنل منه قبل ذلك شيئا
وفي ذلك المساء وفد إلى سلاميش بريد السلطان يحمل إليه أمر الارتحال إلى دمشق بمن معه من الجند. ويأمره فيه بتقسيم الغنائم بين أمرائه وجنوده وبتوزيع الأسلاب من أموال وسبايا. ووهبه نصيبه من ذلك كله جزاء له على بسالته واعترافا له بما كان من نضاله
وبكر سلاميش فذهب في الفجر إلى خيمة الفتاة وهو خفيف الخطوة متهلل النفس إذ

كان قد عزم على خطة أملاها عليه قلبه، فرأى الفتاة راقدة على أريكة قضت عليها الليلة لم تذق للنوم طعما؛ فلما وقع نظرها عليه جال على وجهها طيف ابتسامة واعتدلت في مكانها ونظرت إليه وهو قادم نحوها. ولما حياها تحية الصباح ردت تحيته، ثم جلس قريبا منها ولم يكن عند ذلك على عادته من اعتداده بنفسه وكبريائه، بل كان في حديثه خفيض الصوت مهتز الأنفاس.

قال لها: (قد أمرني السلطان أن أتحرك اليوم إلى دمشق بعد أن انتهى الآمر هنا) فلم تجبه بل نظرت نحوه، كأنما تسأله عن مصير وطنها، ومن فيه من رهطها، وكأنه أحس بما في نفسها من التساؤل فقال: (وقد أراد السلطان العظيم حفظه الله أن يجعل لي حظه من هذه المدينة، فصاحت الفتاة ومدت نحوه يديها: (إذن فالمدينة في يديك) فقال لها:

بل نصيب السلطان منها وسأجعل نصيب من الغنيمة من في المدينة من الأسرى تاركا (للجند أموالها وتحفها

فصاحت الفتاة ووقفت أمامه قائلة (وماذا تفعل بهم؟)

فتبسم سلاميش نحو وقال (هم لك)

فصاحت وصوتها يتهدج من الفرح (هل تفعل؟)

فقام ومد يديه نحو وقال (لقد أكرمني السلطان العظيم بنصيبه، وسيكون أقر عينا إذا علم أين ذهبت به)

فمدت يديها وأمسكت بيديه الممدودتين وقالت (ما اسمك؟) قال باسما (سلاميش) فنظرت إلى وجهه لحظة ثم تركت يديه وأطرقت إلى الأرض فقال (وإنني أود أن أعرف ما تحبين فأنفذه لك فإن دارك هنا لم يمسها أحد من الجنود. لقد عرفت دارك وعرفت أهلك من بعض أهل المدينة وأعدت كل ما أخذ منها إلى مقره، ولك أن ترجعي إلى دارك إذا شئت عزيزة في ظل السلطان العظيم).

فنظرت الفتاة نحوه وترددت قليلا ثم قالت في حياء (وأنت؟)

فقال سلاميش وهو يمانع نفسه من الاضطراب:

(سأذهب إلى دمشق كما أمر مولاي)

فسكتت الفتاة لحظة ثم مدت يديها بحرارة وقالت:

(سلاميش! وأنا كذلك إلى دمشق أسير) ثم ارتمت بين ذراعيه.

محمد فريد أبو حديد

نسيبة

للأستاذ إبراهيم مصطفى

المدرس بكلية الآداب

سيدة من بني الخزرج من أهل يثرب، ولم يكونوا إذ ذاك سموا أنصاراً ولا كان الرسول هاجر إليهم، ولكن حديثه كان يملأ الجزيرة ودعوته تشغل العرب وقرانه يبث بينهم ويتلى، كما كانت الأشعار تنشد وتروى.

وكان أهل المدينة أشد عناية بهذه الدعوة وأحفى سؤالا عنها. فهم أصهار قريش وشركاؤهم في التجارة وحفظة طريقهم إلى الشام وبينهم اليهود أهل الكتاب ورواة المأثور ومجمع الأخبار

وجلست نسيبة في مساء إلى زوجها وولدها يتحدثون في أمر محمد وأنباء دعوته وما حدث في قرآنه، وتلى تال (الر تلك آيات الكتاب الحكيم. أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم، قال الكافرون إن هذا لساحر مبين) وآيات أخرى من كتاب محمد. وعجبت نسيبة للكافرين أن ينكروا على رجل منهم أوحي إليه أن يهديهم وأن يبشرهم وينذرهم، وتساءلت بهذا السحر المبين أين يكون؟ وما هي إلا الدعوة الصالحة والحق الواضح والبيان الجميل. لشد ما ظلم الرسول قومه وبئسما افتروا عليه. واشتاق القوم أن يروا محمداً وأن يستمعوا إلى حديثه ويستزيدوا من قرانه.

وما جاء ميقات الحج حتى كانت القافلة تسير من يثرب إلى مكة في نحو خمسمائة حاج أكثرهم الرجال وقل فيهم النساء ومن بينهم نسيبة. وهاقد أدرك الركب في مكة وتوافى إليها الحجيج من كل فج واستقرت القبائل في منازلها والرسول يسعى إليهم يعرض عليهم دينه ويبين رسالته ويتلو قرانه بل يعرض نفسه أيضاً، لقد ضاق به المقام

في مكة ونبا وآذاه أهله في نفسه وفيمن من آمن به، وبالغوا في الإيذاء والتنكيل حتى عاد بينهم كالعاني الأسير أو أنكد. وما يبغي الرسول؟ إنما يريد من العرب قوماً يسعونه حتى يؤدي رسالته، ويحمونه حتى يبين حجته، ثم يدعون من آمن لإيمانه ومن كفر لكفره. وما من قبيلة رضيت هذا أو انشرحت له صدراً إلا جماعة من أهل يثرب واعدهم الرسول إذا انحدروا

من منى أن يوافوه في الشعب الأيمن بأسفل العقبة وأمرهم ألا ينبهوا نائماً ولا ينتظروا غائباً وأن يستخفوا من قريش ويحذروا عيونهم وأرصادهم، وما وافى الموعد حتى كان بين يدي الرسول سبعون منهم. بينهم نسيبة وسيدة أخرى عاهدهم وعاهدوه أن يسعوه بينهم وأن يحموه حمايتهم لأحدهم حتى يبين حجته ويبلغ رسالته. وراحوا بعهدهم يخفون من قريش ومن الناس أن يعلموه، وعادت نسيبة إلى بلدها سعيدة بإيمانها فخورة بعهدها، وقدرت ما يكلفها هذا العهد نفسها على الرمي بالنبل والضرب بالسيف وأعدت لهذا الجهاد ولديها حبيباً وعبد الله.

ودار الزمن وفر الرسول من مكة وهاجر إلى المدينة وتلقاه الأنصار بالنشيد والترحيب، ثم نشبت الحرب بين الرسول وبين المشركين من قريش في يوم (بدر). وشهدها المهاجرون الأولون والأنصار السابقون ونسيبة منهم تسقى من استسقى وتضمد الجرح من جرح، وتشهد غلبة الحق لأول يوم انتصر فيه. وعظم هذا اليوم على المشركين وهم الأكثرون فأعدوا عدتهم وحشدوا للرسول في (أحد) وشهدته نسيبة أيضاً ومعها زوجها وولداها في يمينها السقاء والضماد، واستعرت الحرب وغلب المسلمون ثم نالتهم هزيمة، فما ارتاعت نسيبة إلا لجموع من المشركين تقصد إلى محمد تريد أن تحيط به وتكاد أن تبلغه والمسلمون عنه في ناحية مثقلون بالهزيمة، فألقت السقاء والضماد وسددت بالسهم ورمت عن الرسول بالنبل، حتى التحم به المشركون فشرعت السيف وجالدت القوم حتى جرحت وخارت وارتمت على الأرض مصروعة. وثبت الرسول وهزم عنه المشركون وانجلى من الغمرة ما انجلى وتساءلوا بنسيبة فإذا هي ملقاة يفور دمها من جرح غار بكتفيها. ضمدوا الجرح وسقوها الماء فما تنبهت حتى سألت: وأين الرسول؟ وما صنع المشركون معه؟ إنه لناج وإنه منك لقريب. وجرحك الغائر ودمك السائل وقوتك الموهنة وولداك الناشئان وبعلك الشيخ - كل أولئك منك دون محمد!؟ أجل دون محمد ودون رسالة محمد، لها خرجنا ومن أجلها قاتلنا، ولها نحيا، وفي سبيلها نموت. وبرئت نسيبة ونسيت الفخر إلا بهذا اليوم، وبالأثر الباقي من ذلك الجرح. (روى ابن هشام عن أم سعد قالت: دخلت على نسيبة أم عمارة فقلت لها: يا خالة أخبريني؛ فقالت: خرجت يوم أحد ومعي وعاء فيه ماء فانتهينا إلى رسول الله وهو في أصحابه، والدولة والريح للمسلمين، فلما انهزم المسلمون انحزت

إلى رسول الله فكنت أباشر القتال وأذب عنه بالسيف وأرمي عن القوس حتى خلصت الجراح إلي، وأرت على عاتقها جرحا أجوف له غور)

وقد أحسنت السيدة نسيبة تربية ولديها حبيب وعبد الله وملأت قلبهما إيماناً وصدرهما شجاعة وسواعدهما قوة، وعرف رسول الله فضلهما وقدرهما، وأحضرهما المشاهد وجعلهما سفراء ورسلا إلى من شاء من رجال العرب ورؤوس القبائل، أرسل عبد الله إلى اليمن مع معاذ، وأرسل حبيبا إلى مسيلمة الجبار البطاش المتنبئ كذبا في قومه بني حنيفة وهم من أكثر العرب عدداً وأغناهم وأقواهم بأساً. أتدري ما صنع الكذاب بحبيب؟ لا يملك القلم أن يقصه عليك، وبأشق الجهد أن يرويه لك، ففي الجزء الأول من أسد الغابة في ترجمة حبيب (أن رسول الله أرسله إلى مسيلمة الكذاب الحنفي صاحب اليمامة فكان مسيلمة إذا قال تشهد أن محمدا رسول قال نعم، فإذا قال تشهد أني رسول الله قال لا أسمع، فيقطع منه عضواً، ففعل ذلك مراراً وقطعه مسيلمة عضواً عضواً) اهـ

وقبض المصطفى عليه الصلاة والسلام لأجله، وزلزل المسلمون لموته وارتدت من العرب أحياء وجموع، وكان مسيلمة أشد الخصوم لددا وأقواهم كيداً وأكثرهم مالا وعدداً، كاثر بقومه بني حنيفة واعتصم بحصونه في (اليمامة) وصمد إليه خالد بن الوليد بجيش فيه السيدة نسيبة وولدها عبد الله؛ واستعصى أمر مسيلمة وكاد يهزم المسلمون، ثم تجمع نفر من المستبسلين، رموا بأنفسهم مسيلمة لا يبالون إلا أن

يبلغوا إليه وينالوا نفسه، وفي هذا النفر نسيبة وولدها عبد الله، أما نسيبة فجالدت بالسيف حتى بتر ذراعها وأما عبد الله فصمد وألح في الهجوم على مسيلمة مستقتلا مستبسلا حتى أدركه وأغمده السيف. مات مسيلمة فماتت الفتنة بموته وتم أمر بني حنيفة مع ابن الوليد صلحاً؛ وعادت نسيبة إلى بلدها بساعد واحد وولد واحد، وهي بما مضى أسعد منها بما بقى. كل إلى فناء، وإنما الفوز والمجد أن يكون في سبيل الحق ذهاب ما ذهب منك

ونسى التاريخ نسيبة وأغمض العين عن بقية أيامها وضن أن يحدثنا بما نحب من ختام جهادها ومواطن مثواها. إلا إن مثواها الجنة، وإن ذكرها في الطيبات لخالد.

إبراهيم مصطفى

من مواقف العروبة

للأستاذ محمد سعيد العريان

من ذلك الفتى الشعاع، يختال في العزم والقوة، والشباب والفتوة، حاسرا عن ذراعه، متقدما على صحابته، قد فرعهم طولا، وبهرهم تماما وحسنا. . .؟

قال أصحاب محمد: (ذلك قزمان المدني. ما نعرف في أصحابه من يفوقه شهامة ورجولة؛ إنه ليعين الضعيف، وينتصر للمظلوم، ويسرع إلى الصريخ؛ لا تني به عزيمته عن أمر يقصد إليه؛ وما تعرف المدينة في فتيانها أغير من على حماه، وأبر منه لأهله. . .!)

قال محمد: (إنه لمن أهل النار. . .!)

واستمع المسلمون لرأي النبي في الفتى الذي اجتمعوا على الإعجاب به والتمدُّح بخلاله، فما راجعوه الرأي ولا ناقشوه العبارة؛ إنهم ليؤمنون بالنبي إيمانهم بكلمة الله؛ وإنهم ليعرفون محمدا أصدق نظراً وأنفذ بصيرة فما تخفى عليه من أصحابه خافية. إنه ليكاد ينفذ إلى سرائرهم جميعا بعينيه الثاقبتين، فيعرف ما تجيش به نفس كل رجل منهم، وإنهم ليعيشون من هذه المدينة في جو من الحذر والتربص، بين المنافقين من أتباع عبد الله ابن أبي بن سلول، وبين اليهود من بني قريظة والنضير؛ فما يسيئون الرأي في واحد بينهم إلا حسبوه عينا وربيئة من عيون المنافقين واليهود؛ فمن يكون (قزمان) بين هؤلاء وأولئك؟ وهل يدري أحد ممن هو وإلى من ينتسب؟ إنه لرجل يعيش في المدينة كما يعش أهل المدينة جميعا، ولكن أحدا منهم لا يعرف عنه أكثر مما يرى منه. . .

وتذامر المشركون من أهل مكة على قتال محمد، واجتمع إليهم من اجتمع من قبائل كنانة وأهل تهامة، يطلبون الثأر لقتلى بدر. وسار جيش الشرك في ثلاثة آلاف مقاتل، ما منهم إلا موتور يحرص على الأخذ بالثأر ولو مات دونه؛ وتطايرت رمال الصحراء تحت سنابك الخيل وأخفاف الإبل، نذيرا بما سيكون في غد بين الطائفتين؛ وسال الوادي يقذف بالزبد رجال على الصهوات تلمع سيوفها تحت الشمس ثائرة مهتاجة؛ وتجاوبت جنبات البادية بحداء الرجال على نواصي الخيل ورنين الدفوف بين الظعائن؛ حتى أشرف الجيش على (أحد) فلتبثوا ينظرون ما يكون من أمرهم وأمر محمد. . .

وخرج محمد وأصحابه سبعمائة رجل إلى لقاء الجيش عند أحد، فما تخلف في المدينة إلا الصبيان والشيوخ والنساء والعجزة. وما انخزل عنه إلا المنافقون من أتباع عبد الله بن أبي، وتخلف قزمان فيمن تخلف بالمدينة. .!

وغدا قزمان يمشي في طرق المدينة لا يصحبه إلا ظله. أين رفاقه وصحابته؟ لقد خرجوا جميعاً إلى لقاء العدو فما تخلف منهم غيره، ففيم بقاءه ولا بقاء لمثله؟ ولكن فيم خروجه وما يؤمن بما يؤمن به صحابته؟ لقد خرجوا دفاعاً عن دينهم الذي يدينون الله عليه، وذياداً عن الحق الذي يذعنون له، بلى، وحفاظاً على الوطن العزيز أن تطأ ثراه نعال الغرباء. . .

وتحدث قزمان إلى نفسه هُنيَّة: (ما مُقامي هنا وأصحابي هناك؟ وَيْ! وماذا تكون مقالتهم عني وليس في المدينة غيري وغير هؤلاء؟)

هؤلاء كل ما هنا لك: شيخ هم يمشي على عصوين، وأعمى ضرير يتوكأ على عكازته، وطفل لدن يركب عصاه يستبق مع لداته، وعجوز عرقتها الأيام جالسة وراء الباب تنتظر ما يأتي به الركبان من أخبار الحرب، وشابة مخضوبة البنان متوارية في الخباء

!. . .وأذنها إلى الطريق تتسمع نبأ عن زوجها الذي خرج للجهاد؛ وهذا الفتى وحده وعاد قزمان يتحدث إلى نفسه: (. . . وماذا يكون من أمري حين يعود أصحابي أو حين تأكلهم الحرب فلا يعودون؟ بل ماذا يكون إن كانت الهزيمة وعجز الأوسُ والخزرجُ أن تدافعا عن المدينة؟ وما مقامي وكيف أكون إن ظفر العدو واستباح الحمى ووطئت نعاله تراب الوطن. . .؟ يا لأحساب قومي، ويا لعزة بلادي. . . ولكن. . .! يا للعروبة! أتغفر لي أن أقاتل في صفوف محمد وما أنا على دينه؟)

وتوزعته الفكرتان لا تسلمانه إلى رأي فيهدأ، ثم لم يلبث أن خلع الفكرتين جميعا إلى خاطر هفت له نفسه. . .

ومضى يحث الخطا إلى داره (سُلافة بنت طلحة)، يلتمس في الأنس بها ساعة من نهار هدوء البال وراحة النفس. منذ كم لم يجتمع قزمان وسلافة تسر إليه ويسر إليها؟ إن لها في نفسه لمكانا؛ وإن له في نفسه لحديثا يسره أن يلقاها فيحدثها به وتحدثه؛ لقد كانت العيون بينهما حائلة، فهاهي ذي الفرصة قد أمكنته ليجلس إليها ساعة في غفلة العيون. . . وطرق الباب. . .

-: (من؟ من يدق الباب؟)

-: (قزمان. . .!)

-: (ويْ. . .! قزمان؟ وما جاء بقزمان الساعة؟)

-: (سلافة. . .)

-: (حسبتك هناك. . .!)

-: (أتظنين يا سلافة؟)

-: (بل أعتقد. . . قزمان لا يكون هنا وقومه هناك!)

-: (ولكني هنا من أجلك يا سلافة!)

-: (وقومك. . .؟ وأهلك. . .؟ ودينك. . . .؟)

-: (أنت قومي، وأهلي، وديني. . .!)

-: (لست منك يا قزمان إن لم تكن من أهلي وقومي وديني؛ لخير لي أن أفقدك في الجهاد وأنت أحب إلي. . .!)

-: (سلافة!)

-: (سلافة لقزمان البطل المجاهد وليست لك. . .!)

وغادر الفتى فتاته وقد اجتمع إليه هم ثالث، وسار بين البيوت مطرق الرأس، تتناوله نظرات الريبة والحدس. وسمع عجوزاً تتحدث إلى جارتها: (أما سمعت يا عاتكة؟)

-: (ماذا؟)

-: (حسيل بن جابر، وثابت بن وقش؛ إنهما من تعلمين: هل يقوى أحدهما أن يحمل نفسه من الهرم والضعف؟ لقد لحقا اليوم برسول الله يرجوان المثوبة في الجهاد أو الشهادة، وما عليهما والله إن بقيا في الآطام مع النساء والصبيان، وما منهما إلا له اخوة أو ولد في الحرب يكفون عنه. .!)

قالت صاحبتها: (بلى، قد علمت يا أختاه! فهل جاءك أن عمرو بن الجموح لم يمنعه من الحرب أنه يمشي برجل واحدة، وأن له بنين أربعة مثل الأسد يشهدون المواقع مع رسول الله؟)

وسمع الرجل ما تتحد به المرأتان، فكأنما كانت ترجمانه بالحجر فما يستطيع أن يتماسك مما ينهال عليه. واستمر يمشي وكأنما تستعر الحرب في رأسه لا في الميدان البعيد

ومرت به (نسيبة بنت كعب)، تحمل سقاء فيه ماء، فاستوقفها يسألها عن خبرها فما أجابت نداءه؛ لقد كانت في طريقها إلى أحد، لتقوم بما تقدر عليه في صفوف المجاهدين. .!

وعاد قزمان يتحدث إلى نفسه: (ويلي! ما أنا هنا والحرب هناك؟ وما يكون من أمري غدا على الحالين: في النصر والهزيمة؟ أفراراً من الموت؟ أنكوصا عن الواجب؟ أكفراً بالوطن والأهل والعشيرة؟ ألا إنه يومك يا قزمان، فليجاهدوا هم في سبيلهم، وليكن جهادي معهم لأجل الوطن. . .!)

وترامت السهام، وبرقت الأسنة، والتفت السيوف، وابتدأت المعركة بين الجيشين وقزمان غير بعيد؛ لقد أدرك الجيش ولما يبدأ النضال، فما فاته أن يشهد المعركة من

البداية
من ذلك الفتى الشعشاع، يختال في العزم والقوة، والشباب والفتوة، حاسراً عن ذراعه والسيف في يده، يحتز الرءوس، ويقطع الأوداج، ويلقي الرعب في قلوب الأعداء؟
إنه قزمان نفسه؛ لقد قاتل في ذلك اليوم قتالا شديداً، وأبلى بلاء حسناً، فما وضع السيف حتى أثخنته الجراحة.
والتف المسلمون حول قزمان يخففون عنه ما ناله من أذى القتال، وما منهم إلا معجب بصبره وقوة بلائه، فهم يقولون: (والله لقد أبليت اليوم يا قزمان فأبشر!) قال: (بماذا أبشر!) فوالله إن قاتلت إلا عن أحساب قومي، ولولا ذلك ما قاتلت. . .
ونظر المسلمون بعضهم إلى بعض ثم انفضوا. . .
هكذا كان يقول عنه محمد. صدق رسول الله (!إنه لمن أهل النار)!
ونظر قزمان إلى نفسه، فإذا هو يتلاشى نفسا في نفس، وذكر صنيعه في ذلك اليوم، فعادت إليه الفكرتان الأوليان تصطرعان في نفسه، لا تسلمانه إلى رأي فيهدأ. أي الخطتين كانت أهدى سبيلا: أن يدع هذا الدين تمزقه أعداؤه وتمزق معه أهله وعشيرته شر ممزق، أو يقاتل في صفوف قومه دفاعاً عن أحسابهم؟
أما إنه لا سبيل إلى ما فات. لقد أدى واجبه لوطنه، ولكن. . . ولكنه غير مستريح إلى ما كان منه. . .
ونزت به نازية، فلم يجد لنفسه خلاصا من عذاب الفكر إلا بالموت، فاتكا على سيفه فأزهق نفسه. . .!
يا لله! لقد نفذت إلى نفسه بارقة من شعاع هدته سبيل الوطنية، ولكن قلبه ظل في ظلمات من الضلال والشرك.
لو عرف ذلك الدين الذي جاهد له يومه الأخير، لأشرق له الدنيا كلها، وانبثق الصبح في قلبه، ولمات يوم مات تشيعه الملائكة وتهزج له أناشيد الخلود!
ليته عرف! ولكن، حسبه أنه كان مثالا في الوطنية، ليت كثيراً يعرفونه. . .!
(شبرا)
محمد سعيد العريان
بين حراء. . . وعرفات
للأستاذ عبد المنعم خلاف
وقف الرجل الذي تلخص فيه مجد الإنسان وتحقق به وشاع منه على عرفات في حجة الوداع، وقد احتشدت حوله في ذلك الرحب الصامت الرهيب الذي فيه أول بيت وضع للناس، الأزمان والدهور وأرواح الملأ الأعلى والرسل والحكماء وأعضاد الإنسانية وحاملي المشاعل على طريقها، وأفواج الخلائق من عالم الذر والبرزخ، وأجساد أولئك المتجردين من لبس المحيط والمخيط من صحابته المخبتين. ومن فوق الحشد الخفي والمستعلن ينظر وجه الله ذو الجلال إلى عبده ورسوله وهو يلقي الكلمة الخاتمة البلاغ الأخير بالآيات المنزلة من حول العرش: (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا). . . ويعلن حقوق الإنسان وواجباته ويسأل الجموع المحشودة: هل بلغت؟ فتردد البطاح والأودية والشعاب التي كان يأوي إليها في طلب الهدى ثم في التخفي بالدعوة ثم في الجهاد لها - الجواب الإجماعي في إقرار وشكران
وما بد من أن الكلمة الأولى: (اقرأ باسم ربك. . .) التي طالعه بها الوحي في (حراء) كانت تتردد على سمعه في تلك البرهة الخالدة، فتتوالى أمام مخيلته عزائم جهاده في الأرض التي كان كل قديس فيها رجسا، وكل بَرَّة فَجْرة، وكل امرئ آثما في عقيدة القلب، خرفاً في رأى العقل، ضارياً في معاملة الخلق، طفلا في طقوس العبادة. . .
أيام أن كان يتخفى بالغار في حيرة وانفراد ورهبة وصمت وشك وفراغ، وأعصاب مرهفة، وقلب مفجوع بالضلالات المعقدة، وعقل عظيم، ولكنه أمي ينظر إلى كون مبهم مختلط نظرا لا يقع إلا على قمم الجبال وصفرة الرمال وأمم تحنو على أصنام من الأناسي والأحجار والأخشاب، ومواكب من النجوم تبدأ كل يوم من الشرق وتروح إلى الغرب في قهر وصمت وطواعية ووجوم. . . وهو ذا الآن على عرفات في استعلانٍ ومعرفة وحشدٍ وطمأنينة وضجة ويقين وامتلاء في العقل من عالم الشهادة،

وفي الروح من عالم الغيب، وفي اليد من أجساد العباد الذين لم يؤمنوا به حتى أحبوه أكثر من نفوسهم التي بين جنوبهم، فهم في يده يقذف بهم على كل أفق وتحت كل كوكب ليكونوا امتدادا منه وظلا من دعوته. . وقد امتلأ قلبه بالأمل الواثق بان الله متم نوره ومعل كلمته. وقد شبع عقله من جوع إلى المعرفة واتصلت به شرارة الوحي، وانتهت إليه ينابيعه فأضاء وصفا وعمق، ففيه لبني الإنسان الهدى والحلي والطهر.

وقد تعوض نظره من رءوس الجبال التي حول حراء، برءوس خاضعة من النساء والرجال الذين رباهم ثلاثا وعشرين حجة في كل يوم بآية من الكتاب أو جملة من بيانه أو فعلة من سلوكه أو إيماءة أو صمت. . حتى صقلوا وصاروا أناسا كالنجوم المصابيح. بين الكلمة الأولى الآمرة المغرية المثيرة لعقله وروحه بقصة خلق الإنسان ذلك الكون العجيب من علق، وقصة القلم ذلك الشيء العجيب الذي يجعل الدنيا كلمات بين البنان واللسان: (اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربُّك الأكرمُ الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم) وبين الكلمة الأخيرة المخبرة الهادئة الممتنة بكمال الدين واختيار الطريق: (اليوم أكملت لكم دينكم. . .). . . دار الفلك ثلاثا وعشرين دورة على محور من ذلك الرجل الذي كان عقله مرآة لما يدور في السماء حول صلاح عمار الأرض. وهاهو ذا يقف معلنا (أن الزمن قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض) وأن حركة بدء واستهلال وولادة ثانية للإنسانية تتمخض عنها الأيام الوالدات. . .

وإنها لكلمة ثقيلة التبعات لأنها حديث عن ابتداء الزمن واستدارته كهيئته في اليوم الأول.! ومنذا الذي يجرؤ على الحديث بها إلا أن يكون نبيا؟

إذاً هو الأب الثاني للبشر ولدت منه الإنسانية ولادة روحية وعلية كما ولدت من آدم بالجسد. ألم يستدر الزمان معه كما بدئ مع آدم؟ ألم تبلغ البشرية به رشدها وتترك طفولتها وسفهها ووقوفها عند المجسمات من الأرباب والمعجزات؟ ألم يسلمها مفاتيح الطبيعة ويهب بها إلى الفكر في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء، وكيف بدأ الخلق؟ ألم يرفع الحجب والشفاعات بينها وبين ربها الأقرب إليها من حبل الوريد؟ ألم يمح الفوارق بين أجناسها وألوانها وأوطانها كما يمحو الأب الحاني الفوارق بين بنيه من الجسد والروح؟ ألم ينهها أن تقفوا ما ليس لها علم وأن تتبع الظن الذي لا يغني من الحق شيئا؟ ألم يدعها إلى أن تؤمن بجميع الرسل والأنبياء وبما أنزل الله من كتاب؟ ألم يعلن حقوقها وواجباتها وأخوتها ومساواتها والعدل بينها؟ (لأن ربها واحد وأباها واحد) ألم يترك لها ميراثاً خالداً منظماً مستوعباً شؤونها وحيوانها في البيت والجماعة والحرب والسلم والعاجلة والآجلة؟

ولم يترك موقفه الأخير منها وهي أمامه في عرفات ممثلة في الحبشي بلال الأسود والرومي صهيب الأصفر والفارسي سلمان الأبيض والعربي في العدد الأكثر إلا وقد أخذ منها قراراً بإبلاغه الأمانة وأدائه الرسالة وأشهد الله على ذلك. ولو سكتوا لنطق الحصى الذي كان يرجم به في بدء الدعوة وحطام الأصنام التي هشمها بيمينه في يوم الفتح. .

أيها الرسول المنقذ! كلمة إقرار بالبلاغ يرسلها القرن الرابع عشر في فجر عام جديد لتلحق بإقرار صحابتك في فجر القرن الأول ويوشك الزمن أن يأخذ هذا الاعتراف من أفواه أهل الأرض جميعاً بعد أن ابتدءوا يعرفونك وينصفونك.

لقد بلغت كتاب الدنيا ورسالة كل شيء، إلى القلوب السليمة الكبيرة فجعلت من كل شيء محراباً تقف فيه لعبادة الله ذي المجد، وحب الحق والخير والجمال. .

ولا يزال صوتك يدوي في الآفاق مخترقاً أربعة عشر قرناً بسرعة الشمس والضوء، ولن يزال كذلك يعلن الكلمة التي أضاءت لها الظلمات وقام عليها صلاح العالم. الحقوق والواجبات التي خصصت حياتك لتقريرها وأعلنتها في الخطبة الجامعة على الحشد الذي لم تلقه بعد كما توقعت. . صارت أبجدية الإنسانية ومزمور أمانيها، حملها العباد الذين كلفتهم حملها ممن شهدوا مقامك وسمعوا بلاغك أو سمعوا به،. حملوها أنهارا تجري من الصحراء أرض الجفاف إلى الوديان والسهول المخصبة بالنبات، الكزة المجدبة من فضيلة الإنسان فأمرعت بالخير والحق والجمال والسلام

وقد ثارت البشرية لهذه الحقوق بعدك ثورات عدة كلما بدأت رءوس الأصنام البشرية

أو الحجرية تتحرك بعد أن قمعتها وحطمتها ببرهانك وفيصلك. . فالثورة الإنجليزية لإقرار الشورى، والثورة الفرنسية لإعلان حقوق الإنسان. . إنما هما صدى يحكى في خفوت وضآلة وبطء وتخلف، ثورتك الكبرى على الأرباب الزائفين والطواغيت وعناصر الدمار والفساد التي تأفك الإنسانية وديعة الله في الأرض وتصرفها عن وجه الله ذي الجلال ومقام الحق ونصاب العدل

وشتان ما بينهما وبينهما! إنها ثورة رجل يهتف في بوق النبوة له قلب فيه مدد من هدى الوحي، وسلام من رحمة الروح، وله يد بريئة من الإثم والجبروت تضرب أحياناً بمبضع الطبيب لإذهاب الألم لا لإحداثه. وكلاهما وبخاصة الفرنسية ثورة دامية قاسية عمياء

ضارية، قامت بها أيد أرضية حيوانية فيها أظافر ومخالب. . تدفعها قلوب فيها أطماع وغل وحقد مؤرث. ومن عماها أكلت الحطب والأيدي التي كانت تقدمه، ولطخت وجه الحرية بمآثم وشناعات لا تزال تغض منها وتثير حول ذكراها سخطا واشمئزارا، والتاريخ ميزان.

(بغداد)

عبد المنعم خلاف

الخلود

للدكتور إبراهيم بيومي مدكور

أمل حلو زاد التعلق به فلبس ثوب الحقيقة، وخيال عذب طاب لنا أن نسبح وراءه فاكتسى بكساء الواقع، وغيب شغفنا بالبحث عنه حتى كدنا نبرزه في مظهر الحاضر، وسلوة نتسلى بها عن الحرمان أو عثور الجد وسوء الطالع، وثار من الموت ذلك الخصم العنيد الذي يحمل الشاب على الرحيل في عنفوان شبابه، ويرغم الشيخ على السير وأن تباطأ به ركابه. فهو إذن عون على الحياة وامتداد لها: عون على ما فيها من بؤس وشقاء والآم وويلات، وكثيرا ما نستطيب شدة اليوم في سبيل فرج الغد؛ ووصلة لأجل وإن طال قصير، وعمر وإن بغل أرذله عزيز، وعيش وإن ساء مرغوب فيه. وربما كان حب الحياة أول ملهم بتجددها، وكانت غريزة الاحتفاظ بها أول دافع للقول باستئنافها. وقد صور الإنسان هذا الاستئناف وذلك التجدد بصور شتى وأشكال متباينة هي في جملتها صدى لرغباته ونزعاته وميوله وأهوائه، أو انعكاس لعالمه الحاضر والحياة التي يحياها. فتصور الهمجيون الذين يعيشون عيشة السلب والنهب والقتل وسفك الدماء الخلود على أنه عودة للإنسان في شكل مارد جبار شيطان رجيم يثأر لنفسه ممن عدا عليه. وظنه بعض المتحضرين ضربا من اليقظة يرفل فيه المرء في حلل السعادة وآيات النعيم، ولهذا أعدوا في القبور وسائل الزينة والزخرف ولذيذ الطعام والشراب. ثم جاءت التعاليم السماوية فصورته في صورة أسمى، وكسته بكساء أفخم، وأغدقت على الحياة المقبلة متنوع الأوصاف بين مادية وروحية وحسية وعقلية كي تقنع العامة والدهماء وترضي المفكرين والعقلاء

كم كنا نود أن يبقى للخلود حلاوة الأمل فنسير وراءه سيرا أعمى، وعذوبة الخيال فنتعلق به في شوق وحرارة راغبين مخلصين، وحرمة الدين فنؤمن به إيمانا جازما لا يساوره شك أو ارتياب ولا يعزوه برهنة أو استدلال. ولكن العقل الذي منحنا إياه وبلينا به في آن واحد يأبى إلا أن يعكر علينا بعض الصفو ويحرمنا من أحلام لذيذة. فيفلسف ما لا صلة له بالفلسفة، ويبحث ويعلل فيما يسمو عن البحث والتعليل، ويقيس ويستنبط فيما لا يخضع لمبادئ القياس والاستنباط. وقد سرت عدواه إلى موضوع الخلود منذ عهد بعيد، فأخذ يتفهم

سره وغايته ويبرهن على إمكانه أو ضرورته. وليس ثمة فلسفة إلا قالت في الخلود كلمتها بالإيجاب أو السلب، بالقبول أو الرفض، وأي فيلسوف لم يتساءل من أين جئنا وإلى أين نذهب ولم يبحث عن المصدر والمرد والمبدأ والمعاد؟

فاليونانيون وإن كانوا قد شغلوا بالكون وتغيراته والحياة الحاضرة وقوانينها لم يفتهم أن يدلوا في هذا الموضوع الخطير بآرائهم. ورجال القرون الوسطى كان لابد لهم أن يبدئوا فيه ويعيدوا ويعترضوا ويجيبوا، فهو من فلسفتهم الدينية في صميمها ونقطة هامة من نقط التوفي بين العقل والنقل التي ملكت عليهم أذهانهم. وفي التاريخ الحديث نرى الروحيين والماديين بين مثبتين للخلود ومنكرين. وإذا شئنا أن نمثل لكل

عصر من هذه العصور برجل فهناك شخصيات ثلاث لا يكاد يذكر موضوع الخلود إلا ذكرت، ولا نظن أن آخرين سواها تمثل عصرها في هذا الباب تمثيلها، ونعني بها أفلاطون، وابن سينا، وكانت.

فأما أفلاطون فهو من غير شك أكثر فلاسفة اليونان اشتغالا بالخلود وأول من حاول أن يبرهن عليه برهنة عقلية منطقية. تحدث عنه عرضا في غير ما موضع، ثم لم يقنع بهذا فوقف عليه محاورة مستقلة مشهورة هي (فيدون). وفيها يجري ذلك الحديث العذب الأخاذ على لسان أستاذه سقراط ومن حوله من الأتباع والتلاميذ. وأفلاطون روائي ماهر وقصصي مبدع يعرف كيف يضع روايته ويرتب قصته ويتخير أبطاله ويرسمهم بريشة المصور الفنان. فهو يدع (سقراط) المتهم البريء الذي يرقب الإعدام بين عشية أو ضحاها، والحي الذي يسعى إلى الموت في خطى حثيثة رزينة راغباً لا راهباً ومختاراً أو شبه مختار، يتحدث عن خلود الروح في آخر يوم من أيام حياته فما أجل المحدث وما أنسب الظرف وما أروع الحديث! ولسقراط سنة معهودة في حواره من استيلاء على نفوس محاوريه وإرشاد إلى سبل القول وهداية إلى مواطن الضعف وافتنان في وسائل الإثبات. وتكاد ترجع برهنته على الخلود إلى نقط ثلاث: برهان التضاد وبرهان المشابهة ثم برهان المشاركة. فنحن نلاحظ أولا أن الشيء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده، وأن الأكبر يتولد عن الأصغر والأحسن عن الأسوأ؛ فهناك تبادل دائم بين الأضداد. ومادام الموت والحياة ضدين فهما متعاقبان. وقديما قالت الأرفيه والفيناغورية بالتناسخ وتداول الأجيال البشرية! وبهذا يخرج الحي من الميت كما يخرج الميت من الحي، وتبقى النفس رحالة متنقلة من جسد إلى جسد دون أن يطرأ عليها عدم أو فناء. ونسلم ثانيا مع أفلاطون أن النفس تدرك المثل والحقائق العامة الأزلية الباقية! والشبيه وحده هو الذي يدرك الشبه. فلابد أن يكون للنفس ما للمثل من ثبوت وبقاء. وأخيراً لنفس مشاركة للحياة بذاتها ومنافية للموت بطبعها، فهي بحسب مدلولها وحقيقتها حياة. ولا يمكن أن يجتمع في ماهية واحدة ضدان! فالنفس حياة فقط ولا تقبل الموت بحال، وأني لأتساءل بعد كل هذا هل وفق أفلاطون في برهنته؟ إذا اختبرنا أدلته لم نتردد في أن نجيب بالسلب، فإن فكرة صدور الصد عن ضده مرفوضة من أساسها، ونظرية التناسخ واضح بطلانها. ولا نظن أن أحدا يسلم اليوم مع الإغريق أن الإنسان لا يدرك إلا ما يشابهه. فإنا لو قبلنا هذا لوقفنا بالمعلومات الإنسانية عند دائرة ضيقة، ولم يبق بين علماء الحياة من يقول بذلك المذهب النفسي القديم الذي كان يعد النفس في آن واحد مصدر الحياة والحركة والإحساس والتفكير. على أن أفلاطون نفسه كان على بينة من حرج موقفه وخطورة مهمته وضعف حجته، فأنه يصرح على لسان سمباسي أن العلم بحقيقة الخلود ممتنع أو جد عسير في هذه الحياة. وجدير ببحث كهذا أن يوضع في قالب القصة وكفى، لا أن يصاغ بصيغة الأقيسة والبراهين

وسواء أوفق أفلاطون في برهنته أم لا فإنه قد سن سنة استمسك بها من جاء بعده، أو نهج نهجا حبب إلى الخلف السير فيه، فأنزل الخلود من السماء إلى الأرض، وأحل فيه منطق العقول محل همس الضمائر والقلوب. وكان من أكبر فلاسفة القرون الوسطى تأثرا به في هذا الصدد ابن سينا الذي قد يردد بعض أدلته أحيانا أو يؤيدها ويدعهما أحيانا أخرى، لاسيما وقد توفر لديه ما لم يتوفر لدى أستاذه! فقد وقف على الوحي الإلهي الذي صير الخلود عقيدة بعد أن كان مجرد أمل ورجاء، وسمع لغة القرآن الصريحة في الحشر والنشر والبعث والقيامة، فرأى لزاما عليه أن يربط هذه التعاليم الدينية بالبراهين الفلسفية، وفي خيال حلو هو أشبه ما يكون بخيال أفلاطون يقص علينا قصة هبوط الروح من عالمها العلوي ومقامها في هذا العالم الفاني ثم عودتها إلى بحر اللانهاية حيث الأبدية والخلود

هبطت إليك من المحل الأرفع ... ورقاء ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة ناظر ... وهي التي سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كره إليك وربما ... كرهت فراقك وهي ذات توجع
إن كان أهبطها الإله لحكمة ... طويت عن الفذ اللبيب الأروع
فهبوطها لاشك ضربة لازب ... لتكون سامعة لما لم تسمع
وتعود عالمة بكل خفية ... في العالم فخرقها لم يرقع

ولا يقف ابن سينا عند هذا الشعر وهذا الخيال، بل يأبى ألا أن يبرهن على خلود الروح برهنة منطقية ويثبته إثباتاً فلسفياً، فيقرر أن النفس وهي جوهر بسيط لا يمكن أن تشتمل على مبدأين متناقضين، وقد ثبت أنها حياة بفطرتها وطبيعتها فلا يمكن أن يكون فيها أي استعداد للفناء. وفوق هذا سواء لديها أبقي الجسم أم فني، فإن صلتها به ليست صلة ارتباط وتلازم متبادل، بل صلة سيد ومسود ومالك ومملوك. ولن يضير السيد في شيء ما قد يلحق عبده من التغير، كما لا يؤثر في شخص المالك ما قد يطرأ على ملكيته من الفساد. فالنفس هي المتصرفة في البدن والمدبرة لأمره، ولن ينقلب الآمر مأموراً ولا المتأثر مؤثراً. بيد أن حظ ابن سينا في هذه البرهنة الفلسفية والأدلة العقلية ليس أعظم من حظ أفلاطون. فإن الجوهر البسيط الذي يفترضه هو موضع البحث والمنافسة ومثار الأخذ والرد، وصلته بالجسم لا تزال حتى اليوم عقدة العقد ومشكلة المشاكل؛ ولم يتوصل أنصار المذهب الروحي على اختلافهم إلى حلها أو الفصل فيها بقول جازم

ولقد تنبه (كانت) إلى هذا التهافت في البرهنة والقصور في الإثبات. فرفض في كتابه (نقد العقل المجرد) الأدلة التي تساق لإثبات خلود الروح وأبان أنها غير موصلة. وما كان للعقل أن يهتدي إلى شيء يقيني في دائرة الأمور المغيبة؛ وفي هذا ما يسمح للنقل أن يحتفظ لنفسه بمكان في جانبه، وما يهيئ للوحي والإلهام الفرصة أن يكملا نقص البحث والنظر. خصوصا والتبعة الأخلاقية لا قيام لها بدون الثواب والعقاب والحساب والمسئولية، والواجب في حاجة ماسة إلى تأييد الدين ونصرته. لهذا نرى (كانت) يعود في كتابه (نقد العقل العملي) فيحاول إثبات خلود الروح عن طريق الأخلاق بعد أن أظهر أنه لا يمكن إثباته فيما وراء الطبيعة. وذلك أن الخير الأسمى الذي ننشده والسعادة الحقة التي نسعى إليها لا سبيل إلى تحقيقهما في حياتنا الحاضرة القصيرة. فإن شئنا أن يكون للواجب الذي ننادي به قيمته وللأخلاق التي ندعو إليها جلالها وحرمتها فلابد أن نجزم بخلود الروح. ولاسيما والعدالة تأبى كل الأباء أن يكون جزاء الفضيلة هو الإعدام، وأن يستوي البر والفاجر في مصير واحد وفناء لا رجعة بعده. وكأني بكانت يردد، هو كذلك، فكرة تنبه لها أفلاطون ويوضح معنى أشار إليه من قبل شيخ الأكاديمي في جمهوريته؟ غير أن هذا البرهان الأخلاقي ليس أكثر إقناعا من سابقيه؛ وكل ما يمتاز به أنه أقرب إلى فكرة الخلود وأكثر تلازما مع طبيعتها وأميل إلى جانب القلب والعاطفة من تلك الأدلة العقلية الصرفة. وما أشبهه بالغرض منه بالبرهان والمبدأ يسلم به احتراما وتقديسا لمبادئ أخرى.

والحق أن الخلود ليس مما يبرهن عليه برهنة عقلية منطقية. وما كان أغنى الفلسفة أن تغامر بنفسها في هذا المضمار وأن تنزلج في هذا المأزق الحرج. في مقدورنا أن نقول إنه ممكن أو محتمل أو ضروري، ولكن لا سبيل لنا بحال أن نقرر اعتمادا على عقولنا وحدها أنه أمر واقعي. وأنى لنا ذلك ومن وصلوا إلى مرتبة الخلود يأبون أن يعودوا إلى حياة قاسوا فيها الأمرين، ولاقوا ما لاقوا من جهد وعناء؟ ولم يصل استحضار الأرواح بعد إلى درجة اليقين وليس في وسائله ما يبعث على الثقة والطمأنينة. وإذا كان العقل عاجزا عن إدعام الخلود وإثباته فهو أعجز عن دحضه وإنكاره. وخطأ أن يزعم أنصار المذهب المادي أن تجربتهم لا تسلم بحياة بعد هذه الحياة، وأن بحثهم يرفض أي وجود بعد هذا الوجود. فإن للتجربة ميدانا لا تتجاوزه، وللبحث العلمي دائرة لا يتعداها؛ ومن العبث أن نتكلم باسم العلم في دائرة تسمو على العلم، وأن نفسر عالم الغيب الفسيح بقوانين عالم الشهادة المحدود. ولن يضير الخلود في شيء أن تعجز عقولنا الضعيفة عن الانتصار له فأنه يستمد جلاله ورهبته من مصدر أسمى ومقام أرفع. ولن يعيبه مطلقا أن تقصر لغة أهل الأرض في بيانه فأنه من خصائص سكان السماء ووقف عليهم. هو أمر خارج عن عالم الفناء وحقيقة مخالفة لما ألفه المحدثون، وما كان لفان أن يدرك إدراكا واضحا ما يتنافى وطبيعته ألا أن عرج إلى سماء الخالدين

إبراهيم مدكور

نتاج العبقرية المنسية

في الحسن بن الهيثم

للأستاذ قدري حافظ طوقان

يفكر الدكتور النابغ الأستاذ مشرفة عميد كلية العلوم للجامعة المصرية في إقامة مهرجان لأحياء ذكرى ابن الهيثم في العام المقبل بمناسبة مرور 900 عام على وفاته ولا عجب إذ فكر العميد في هذا، فابن الهيثم من عباقرة العرب الذين نبغوا في الطبيعة والرياضيات والهندسة وقدموا جليل الخدمات لها، ولولاه ما كان علم البصريات (الضوء) على ما هو عليه الآن

ويؤلمني أن أقول إنه لو كان ابن الهيثم من أبناء أمة أوربية لرأيت كيف يكون التقدير وكيف يذاع اسمه وتنشر سيرته على الناس وتدخل في برامج التعليم ليأخذ منها الأجيال إلهاماً وحافزاً يدفعهم إلى الاقتداء به والسير على طريقته

أليس في عدم معرفة ناشئتنا وشبابنا شيئاً عن ابن الهيثم إجحاف وعيب فاضح؟ أليس إهمالا منا أن نعرف عن بطليموس وكيلر وباكون أكثر مما نعرف عن ابن الهيثم؟ ألا يدل هذا على نقص معيب في برامجنا الثقافية القومية؟ ولا يظن القارئ أن ابن الهيثم وحيد في هذا الإجحاف والإهمال فليس حظ أكثر علماء العرب ونوابغهم وعباقرتهم بأحسن من حظه، فها هي ذي حياتهم ومآثرهم لا تزال محاطة بغيوم الغموض وعدم الاعتناء وهي في أشد الحاجة إلى أناس يتعهدون إزالة الغيوم وإظهار المآثر على حقيقتها للناس. ولاشك أن في إظهارها إنصافاً لهم وخدمة للحقيقة، كما أن في عرضها على الناشئة من العوامل التي توجد فيهم الاعتزاز بالقومية والاعتقاد بالقابلية وشعوراً يدفعهم إلى السير على نهج الأجداد في رفع مستوى المدنية. ولا يخفى ما في هذا كله من قوى تدفع الأمة إلى حيث المجد والسؤدد، قوى تمهد السبل لتقوم (الأمة) بواجبها نحو نفسها ونحو الإنسانية فتساهم في بناء الحضارة وإعلاء شأنها

والآن نرجع إلى ابن الهيثم فنقول إنه ظهر في أوائل القرن الخامس للهجرة في البصرة ونزل مصر واستوطنها إلى أن مات سنة 1038م. وقد عرف الأقدمون فضله وقدروا نبوغه وعلمه فقال ابن أبي أصيبعة: (وكان ابن الهيثم فاضل النفس قوي الذكاء متفننا في العلوم لم يماثله أحد من أهل زمانه في العلم الرياضي ولا يقرب منه، وكان دائم الاشتغال كثير التصنيف وافر التزهد. . .) وقال ابن القفطي: (إنه صاحب تصانيف وتآليف في الهندسة، كان عالماً بهذا الشأن متقناً له متفننا فيه، قيما بغوامضه ومعانيه، مشاركا في علوم الأوائل أخذ عنه الناس واستفادوا. .)

وكذلك عرف الإفرنج قيمة ابن الهيثم فأنصفوه بعض الإنصاف واعترفوا بتفوقه وخصب قريحته فنجد دائرة المعارف البريطانية تقول: (إن ابن الهيثم كان أول مكتشف ظهر بعد بطليموس في علم البصريات. . .)

وجاء في كتاب تراث الإسلام: (إن علم البصريات وصل إلى أعلى درجة من التقدم بفضل ابن الهيثم) واعترف العالم الفرنسي لوتير فياردو بأن كبلر أخذ معلوماته في الضوء ولاسيما. ما يتعلق بانكسار الضوء في الجو من كتب ابن الهيثم. ويقول سارطون (إن ابن الهيثم عالم ظهر عند العرب في علم الطبيعة بل أعظم علماء الطبيعة في القرون الوسطى ومن علماء البصريات القليلين المشهورين في العالم كله. . .)

ولعل الأستاذ (مصطفى نظيف) أول عربي في هذا العصر أنصف ابن الهيثم بعض الأنصاف ووقف على التراث الضخم الذي خلفه في الطبيعة ولاسيما فيما يتعلق ببحوث الضوء. قال الأستاذ نظيف في مقدمة كتابه النفيس الفريد (البصريات) ما يلي:. . (والذي جعلني أبدأ بعلم الضوء دون فروع علم الطبيعة الأخرى أن علماً ازدهر في عصر التمدن الإسلامي وكان من أعظم مؤسسيه شأناً ورفعة وأثراً الحسن بن الهيثم الذي كانت مؤلفاته ومباحثه المرجع المعتمد عند أهل أوروبا حتى القرن السادس عشر. . .) فلقد بقيت كتبه منهلا عاماً نهل منه أكثر علماء القرون الوسطى كروجر باكن وكبلر وليوناردو فنسي وبووتيلو وغيرهم. وكتبه هذه وما تحويه من بحوث مبتكرة في الضوء هي التي جعلت ماكسي وماير هوف يقول صراحة: (إن عظمة الابتكار الإسلامي تتجلى في علم البصريات. . .)

ومن أهم كتب ابن الهيثم وأكثرها استيفاء لبحوث الضوء كتاب (المناظر) ويتبين من

هذا الكتاب أن ابن الهيثم هو الذي أضاف قانون الانعكاس القائل بأن زاويتي السقوط والانعكاس واقعتان في مستوى واحد. وقد أدخل فيه أيضا مسائل مهمة عرفت (بمسائل ابن
الهيثم) اشتهر بعضها كثيراً كالمسألة الآتية: إذا علم موضع نقطة مضيئة ووضع العين، فكيف تجد على المرايا الكرية والأسطوانية والمخروطية النقطة التي تتجمع فيها الأشعة بعد انعكاسها. ويعود سبب شهرة هذه المسألة إلى صعوبات هندسية تظهر في أثناء الحل إذ ينشأ عن ذلك معادلة من الدرجة الرابعة استطاع أن يحلها (ابن الهيثم) باستعمال القطع الزائد. وأجرى تجارب عديدة تبين له منها أن الضوء ينتشر في خطوط مستقيمة أثناء سيره في الهواء أو في وسط آخر، وأن الضوء إذا سار من وسط إلى وسط آخر انعطف عن استقامته. وقاس كلا من زاويتي السقوط والانكسار وبين أن بطليموس كان مخطئاً في نظريته القائلة بأن النسبة بين زاويتي السقوط والانكسار ثابتة، وقال بأن هذه النسبة لا تكون ثابتة بل تتغير ولكنه على الرغم من ذلك لم يوفق إلى إيجاد القانون الحقيقي للانكسار. واستعمل آلة لإيجاد العلاقة بين زاوية السقوط وزاوية الانكسار وهي تشبه الآلة التي نستعملها الآن. وعمل جداول أدق من جداول بطليموس في معاملات الانكسار لبعض المواد. وأتى على تجارب عديدة اثبت فيها انعطف الأشعة عند سيرها من وسط شفاف إلى وسط آخر شفاف. وقد شرح في بعض كتبه الظواهر الجوية التي تنشأ عن الانكسار فكان أسبق العلماء إلى ذلك. ومن هذه الظواهر التي ذكرها وشرحها الانكسار الفلكي أي أن الضوء الذي يصل إلينا من الأجرام السماوية يعاني انكساراً باختراقه الطبقة الهوائية المحيطة بالأرض، ومن ذلك ينتج انحراف في الأشعة، ولا يخفى ما لهذا من شأن في الرصد. فمثلا يظهر النجم على الأفق قبل أن يكون قد بلغه فعلا، وكذلك نرى الشمس أو القمر على الأفق عند الشروق والغروب وهما في الحقيقة يكونان تحته. ومن نتائج الانكسار أن قرص الشمس أو قرص القمر لا يظهر بالقرب من الأفق مستديراً بل بيضوياً. هذه الظواهر وغيرها استطاع ابن الهيثم تعليلها تعليلا صحيحاً واستطاع أيضاً الوقوف على أسبابها الحقيقية. ومن الحوادث الجوية التي عللها الهالة التي ترى حول الشمس أو القمر. وقال بان ذلك ينتج عن الانكسار حينما يكون في الهواء بلورات صغيرة من الثلج أو الجليد فالنور الذي يمر فيها ينكسر وينحرف مع زاوية معلومة، وحينئذ يصل النور إلى عين الرأي كأنه صادر من نقط حول القمر أو الشمس فتظهر الأشعة دائرة حول الجرمين المذكورين أو حول أحدهما. وهو من الذين لم يأخذوا برأي اقليدس واتباع بطليموس القائل
بأن شعاع النور يخرج من العين إلى الجسم المرئي، بل قال بأن شعاع النور يأتي من الجسم المرئي إلى العين. وبحث في كتابه أيضاً في قوى تكبير العدسات؛ ويرى كثيرون إن ما كتبه في هذا الصدد قد مهد السبيل لاستعمال العدسات في إصلاح عيوب العين. وكتب في الزيغ الكرى وفي تعليل الشفق وقال انه يظهر ويختف عند ما تهبط الشمس 19 درجة تحت الأفق، وأن بعض أشعة النور الصادرة من الشمس تنعكس عما في الهواء من ذرات عائمة وترتد إلينا فنرى بها ما انعكست عنه. وبين أن الزيادة الظاهرة في قطري الشمس والقمر حينما يكونان قريبين من الأفق وهمية؛ وقد علل هذا الوهم تعليلا عملياً صحيحاً لم يسبق إليه، بناء على أن الإنسان يحكم على كبر الجسم أو صغره بشيئين: الأول الزاوية التي يبصر منها أو زاوية الرؤية، والثاني قرب الجسم أو بعده من العين. وابن الهيثم أول من كتب عن أقسام العين وأول من رسمها بوضوح تام. وقد اعتمد في بحوثه هذه على كتب التشريح التي كانت في زمانه، ووضع أسماء لبعض أقسام العين وأخذها عنه الإفرنج وترجموها إلى لغاتهم. وتقول دائرة المعارف البريطانية إن ابن الهيثم كتب في تشريح العين وفي وظيفة كل قسم منها. وقد بين كيف ننظر إلى الأشياء بالعينين في آن واحد، وأن الأشعة من النور تسير من الجسم المرئي إلى العينين، ومن ذلك تقع صورتان على الشبكية في محلين متماثلين. ولعل هذا الرأي هو أساس آلة الاستريسكوب
وفوق ذلك هو أول من بين أن الصور التي تنشأ من وقوع صورة المرئي على شبكية العين تتكون بنفس الطريقة التي تتكون بها صورة جسم مرئي تمر أشعته الضوئية من ثقب في محل مظلم، ثم تقع على سطح يقابل الثقب الذي دخل منه النور، والسطح

يقابله في العين الشبكية الشديدة الإحساس بالضوء، فإذا ما وقع الضوء حدث تأثير انتقل إلى المخ، ومن ذلك تتكون صورة المرئي في الدماغ. وله أيضاً معرفة بخاصيات العدسات اللامة والمفرقة والمرايا في تكوين الصور؛ وكتب في المرايا المحرقة وأجاد في ذلك إجادة دلت على إحاطته الكلية بمبدأ تجمع الأشعة التي تسقط على السطح موازية للمحور بعد انعكاسها عنه وكذلك بمبدأ تكبير الصور وانقلابها وتكوين الحلقات والألوان.

ويظن البعض أن ابن الهيثم لم يشتغل في الرياضيات، مع أن الواقع خلاف ذلك فله فيها بحوث تدل على سعة اطلاعه ونضجه العلمي، فلقد بحث في المعادلات التكعيبة بواسطة

قطوع المخروط. ويقال إن الخيام رجع إليها واستعملها. وقد حل كثيراً من المعادلات بطريقة تقاطع المنحنيين وتمكن من إيجاد حجم الجسم المتولد من دوران القطع المكافئ حول محور السينات أو محور الصادات. وتنسب إليه بعض رسائل في المربعات السحرية واستعمل نظرية إفناء الفرق ووضع أربعة قوانين لإيجاد مجموع الأعداد الطبيعية المرفوعة إلى القوى 1، 2، 3، 4. وله بحوث في الهندسة تدل على تعمقه في علوم زمانه. ولقد طبق الهندسة على المنطق وألف كتابا يقول فيه. . . (. . . كتب جمعت فيه الأصول الهندسية والعددية من كتاب أقليدس وابلونيوس ونوعت فيه الأصول وقسمتها وبرهنت عليها ببراهين نظمتها من الأمور التعليمية والحسية والمنطقية حتى انتظم ذلك مع انتقاص توالي اقليدس وابلونيوس. وله مؤلفات أخرى قيمة في الرياضيات والطبيعة منها كتاب شرح أصول اقليدس في الهندسة والعدد وتلخيصه كتاب الجامع في أصول الحساب. وكتاب في تحليل المسائل الهندسية، وكتاب في تحليل المسائل العديدة بجهة الجبر والمقابلة مبرهناً، وكتاب في حساب المعاملات وكتب أخرى في بحوث رياضية عالية. وله غير كتبه في الرياضيات والطبيعة كتب في الإلهيات والطب يربو عددها على الخمسين.

واشتغل ابن الهيثم في الفلك ويعترف بذلك سيدليو فيقول: (وخلف ابن يونس في الاهتمام بعلم الفلك جمع منهم حسن بن الهيثم الذي ألف أكثر من ثمانين كتابا ومجموعة في الأرصاد وتفسير المجسطي. .)

هذا بعض ما أنتجه ابن الهيثم في ميادين العلوم الطبيعة والرياضية يتجلى للقارئ منها الخدمات الجليلة التي قدمها لهذه العلوم والمآثر التي أورثها إلى الأجيال والتراث القيم الذي خلفه للعلماء والباحثين مما ساعد كثيراً على تقدم علم الضوء الذي يشغل فراغاً كبيراً في الطبيعة، والذي له اتصال وثيق بكثير من المخترعات والمكتشفات، والذي لولاه لما تقدم علما الفلك والطبيعة تقدمها العجيب، تقدماً مكن الإنسان من الوقوف على بعض أسرار المادة في دقائقها وجواهرها وكهاربها وعلى الاطلاع على ما يجري في الأجرام السماوية من مدهشات ومحيرات.

والآن نقف عند هذا الحد آملين أن تخرج فكرة الدكتور مشرفة إلى حيز الوجود فيكون بذلك قد أنصف عالما عالميا من أفذاذ علماء الطبيعة والرياضة. ويكون أيضاً قد أدى واجبا

ثقافيا وطنيا هو من أقدس الواجبات، وأضاف مأثرة إلى مآثره العديدة في خدمة الثقافة العربية وبعثها.

(نابلس)

قدري حافظ طوقان

تصحيح نص عربي قديم

وفيه شاهد على تطور العقلية العربية بعد الإسلام

للأستاذ عبد القادر المغربي

جاء في كتاب (طبقات الشعراء) لأبي عبد الله بن سلام الجُمَحي المتوفى (سنة 222هـ) نص يتعلق بأخبار (عقيل بن عُلَّفة) فيه اضطراب وفيه تلفيق أحببنا تحقيقه في هذا المقال.

والنص - عدا ذلك يتضمن فائدة تتعلق بالاجتماع الإسلامي وتصف لنا ناحية من نواحي عقلية العرب وتطورها بعد الإسلام

وعقيل بن علَّفة هذا من أتباع (مدرسة المخضرمين) أو (مدرسة الخضرمة) أن سمح

لنا بهذا التعبير. وهي المدرسة التي تتلمذ فيها طائفة من الأعراب أسلموا ولم يدخل الإيمان في قلوبهم؛ فكانت معرفتهم بآدابه سطحية. كانوا يراعون تلك الآداب حيناً ثم يغلبهم طبعهم الجاهلي فيعودون إلى ممارسة ما اعتادوه في جاهليتهم حيناً آخر. كانوا يتعزون بعزاء الجاهلية. ويحاربون القبائل المعادية لهم عصبية لوشائج الأنساب لا إقامة لحدود الله وشرائع الإسلام. وما كانوا يتورعون من شرب الخمر في بعض الأحايين. ولا من الحنين إلى نزعاتهم الجاهلية: ومنها الفخر والمنافرة والمهاجاة والإفراط في الغيرة. كان فيهم جفاء وغلظة لم تخالطها بشاشة الإسلام وسجاحته ولين جانبه.

ومن أشهر تلاميذ هذه المدرسة (عقيل بن علّفة المري) و (عُلّفة) على وزان (قُبّرة) اسم للواحدة من ثمر الطلح. وهو ثمر أشبه باللوبياء.

كان عقيل أعرابيا جلفا مفرط الغيرة، له نزوع شديد إلى عادات الجاهلية، فخوراً بها، داعيا إليها

هنأ يوما أحد فتيان قريش بزواجه قائلا له: (بالرفاء والبنين والطائر المحمود) فقيل له: يكره أن يقال هذا في الإسلام وإنما هو من تهاني الجاهلية. فأجاب عقيل: يا ابن أخي! (ما تريد إلى ما أحدث؟ إن هذا قول أخولك في الجاهلية إلى اليوم لا يعرفون غيره

(وقد رويت كلمته هذه للزهري فقال إن ابن عُلّفة كان من أجهل الناس

وعدا بنو جعفر على مولى لابن علفة، فعدا هو على مولى لهم ولم يرفع الأمر إلى عامل الخليفة وأنشد:

فلا تحسبوا الإسلام غيَّر بعدكم ... رماح مواليكم فذاك بكم جهلُ

ومن أخبار جفائه ما رواه ابن أبي الحديد في شرح النهج (ج1 ص440) نقلا عن ابن قتيبة. قال:

خطب هشام بن إسماعيل المخزومي والي المدينة (وهو خال الخليفة هشام بن عبد الملك الذي قال فيه الفرزدق بيته المشهور: وما مثله في الناس إلا مملكا الخ)

خطب إلى عقيل بن عُلفة ابنته فرده وقال:

رددتُ صحيفة القرشي لما ... أبت أعراقه إلا احمرارا

يريد أن فيه شبها للعجم وعرقا منهم فلم يزوجه لذلك. وكان هشام أبيض أشقر فهو مظنة أن يكون أعجمي الأصل. والعرب تسمى الأعجمي أحمر، وتجمعه على أحامر. لأن الشقرة تغلب على جنسه ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم (بعثت إلى الأسود والأحمر) يريد إلى العرب والعجم

وروى أبو عبيدة أنه قيل لعقيل: والله ما نراك تقرأ شيئاً من القرآن. قال: بلى والله إني لأقرأ. قالوا: فاقرأ (إنا أرسلنا نوحا إلى قومه) فقرأ (إنا خَرَطْنا نوحا إلى قومه) قالوا: أخطأت والله. قال: فكيف أقول؟ قالوا. تقول: (إنا أرسلنا نوحا) لا (خرطنا نوحا) فقال: أشهد أنكم تعلمون أن (أرسلنا) و (خَرَطْنا) سواء ثم أنشد

خُذا صدَر هرْشَي أوقفاها فإنما ... كلا جانبي هَرشْي لهنَّ طريق

وهذا البيت يتمثل به حين التسوية بين أمرين. و (هرشي) كسكري ثنية قرب الجُحفة في طريق مكة يرى منها البحر ولها طريقان طريق عبر عنه الشاعر بصدر هرشي وطريق عبر عنه بقفا هرشي، وضمير (لهنَّ) يرجع إلى النياق. والخطاب في (خذا) يرجع إلى رفيقي سفره فهو يقول لهما: اسلكا إلى هرشي أي الطريقين شئتما: جهة صدرها أو جهة قفاها فأنتما واصلان إليها.

وهذا المثل الفصيح على حد المثل العامي الشامي (كل الدروب على الطاحون) أي تؤدي إليها. ومعنى (خرطنا) الذي قال عقيل إنه بمعنى (أرسلنا) ما ذكره القاموس في قوله (خرط عبده على الناس إذا أذن له في أذاهم)

قال التاج (شبه العبد بالدابة التي يفسح رسنها وترسل مهملة تفعل ما تشاء) فالخرط اصله

في الدابة ثم نقل إلى العبد، ونقله عقيل إلى نوح عليه السلام، وهذا من عنجهيته وتعنته في جاهليته

ولعقيل شعر يؤثر لفصاحته وبلاغته: من ذلك قوله يرثي ابنه علّفة:

لتمش المنايا حيث شئن فإنها ... مُحلّلة بعد الفتى ابن عقيل

فتى كان مولاه يحل بنجوة ... فحلَّ الموالي بعده بسبيل

يقول: إن حلفاء علفة أو جيرانه كانوا في حياته ينزلون في مرتفع من الأرض حيث هم

مكرمون أو حيث تضيء نيرانهم للمدلجين بما يجود به عليهم علفة من القرى، أما اليوم وقد مات علفة فنزولهم أصبح في قوارع الطرق حيث يمتهنون أو حيث يتكففون الناس طالبين صدقتهم كعامة أبناء السبيل. ونسب إليه بعضهم البيت المشهور:

أعلمه الرماية كل يوم ... فلما اشتد ساعده رماني

وإنه قاله في ابنه عميس والصحيح أن هذا البيت من أبيات لغيره، فلعله استشهد به كما استشهد به علي بن أبي طالب رضي الله عنه فنسب إليه أيضاً.

أما النص الذي روي من أخبار عقيل وفيه اضطراب وتلفيق من جهة، وعبرة اجتماعية إسلامية من جهة ثانية - فهو ما في كتاب (طبقات الشعراء) لابن سلام (صفحة 214) ونصه:

حدثني أبو عبيدة أن يزيد عبد الملك خطب إلى عقيل ابن علفة ابنته وقال: زوجني) فلست بواجد في قومي مثلي. قال عقيل: بلى والله لأجدن في قومك مثلك وما أنت بواجد في قومي مثلي. فحبسه يزيد فضرب عقيل كتف ابنه جثامة وقال زوجه يا بني فأنت أحق باللائمة، فزوجه أم عمرو ابنة عقيل، فلما أهداها تمثل جثامة فقال:

أيعذر لاهينا ويلحين في الصبي ... وهل هن والفتيان إلا شقائق

فرماه عقيل بسهم وقال: أتتمثل بهذا عند بناتي؟ فخرج جثامة مراغماً لأبيه (أي مفارقاً له على رغم منه وكراهة) فأتى يزيد ابن عبد الملك فكتب عقيل إلى يزيد: إنه قد أتاك أعق خلق الله. وكان يزيد قد أعطاه وحباه. فأخذ ذلك منه وحبسه) انتهى نص ابن سلام.

لكن الخبر من عند قوله (فلما أهداها تمثل جثامة الخ لا يلتحم مع ما قبله إذ لا علاقة بتمثل جثامة بهذا الشعر: أيعذر لا هينا الخ مع تزويج عقيل ابنته من الخليفة. فلم يبق إلا أن الخبر مضطرب يحتاج إلى تصحيح. أو نقول هو ملفق يحتاج إلى تقويم وتوضيح.

والتلفيق أصله في الثوب: يعمد إلى ما بلي ورث من وسطه ثم يضم لفقاه (أي طرفاه) أحدهما إلى الآخر ويخاطان.

فالخبر المنقول من طبقات الشعراء ينتهي لفقه الأول عند قوله (فزوجه أم عمرو ابنة عقيل) وبين هذا اللفق واللفق الذي بعده وهو (فلما أهداها تمثل الخ) كلام ساقط سهواً من النساخ يمكننا العثور عليه في معجم البلدان طبعة أوربا (ج4 ص667) عند الكلام على دير سعد. وهذا نص ما في المعجم بعد حذف السند:

خرج عقيل بن علفة وابنه جثامة وابنته الجرباء. (ولعلها غير أم عمر التي زوجها من) الخليفة في الخبر المنقول عن طبقات الشعراء) حتى أتوا بيتاً له ناكحا في بني مروان بالشامات (يعني أن عقيلا كان ناكحا أي متزوجا امرأة في بني مروان وقد أتاه زائراً مع ولديه، والشامات هي بلاد الشام) ثم إنهم قفلوا حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال عقيل:

قضيت وطراً من دير سعد وطالما ... على عرض ناطحنه بالجماجم

ضمير قضت يرجع إلى النياق. وقوله (على عارض) بالعين المهملة ولعل صوابه (على غرض) بالمعجمة مصدر غرض إليه إذا اشتاق إليه.

ثم قال عقيل لابنه: أنفذ يا جثامة (أي أجز البيت بضم بيت آخر أليه) فقال جثامة:

فأصبحن بالمومات يحملن فتية ... نشاوى من الإدلاج ميل العمائم

إذا علم غادرنه بتنوفة ... تذار عن بالأيدي لآخر طاسم

ثم قال عقيل لابنته الجرباء: أنفذي يا جرباء (طاسم بمعنى طامس وكأنه مقلوبه) فقالت:

كأنَّ الكرى سقّاهمو صَرْخَدِية ... عُقارا تمطى في المطا والقوائم

قول الجرباء هذا في وصف الخمرة وتأثيرها في ظهر شاربها وقوائمه راب أباها عقيلا (وجعله يعتقد أن ابنته الجرباء من شاربي الخمرة وإلا لما أجادت وصفها)

فقال عقيل: شربتها ورب الكعبة، لولا الأمان لضربت بالسيف تحت قرطك. أما وجدت من الكلام غير هذا؟

فقال جثامة أخوها (منافحاً عنها): وهل أساءت؟ إنما أجادت وليس غيري وغيرك (يريد جثامة) أنه لا يضر أخته في خلوتها مع أبيها وأخيها إذا قالت الشعر وأجادت في وصف

الخمرة، وإجادتها لوصفها لا يستلزم أن تكون شربتها. وإنما هي أديبة متقنة لصنعة الكلام وقرض الشعر فهي إنما تدل في شعرها على مقدرتها وإجادتها الصناعة لا أكثر ولا أقل. لكن دفاع جثامة عن أخته الجرباء غاظ أباه عقيلا فرماه بسهم فأصاب ساقه وأنفذ الرحل. ثم شد على الجرباء فعقر ناقتها، ثم حملها على ناقة جثامة وتركه عقيراً مع ناقة الجرباء. ثم قال لولا أن تسبني بنو مرة لما عشت (وهذا خطاب لابنه العقير أو ابنته) ثم خرج متوجهاً إلى أهله وقال للجرباء: لئن أخبرت أهلك بشأن جثامة أو قلت لهم إنه أصابه غير الطاعون لأقتلنك. فلما قدموا على بني القين ندم عقيل على فعله بابنه جثامة فقال لهم: هل لكم في جزور انكسرت (يريد ناقة الجرباء التي عقرها) قالوا: نعم. قال: فالزموا أثر هذه الراحلة حتى تجدوا الجزور. فخرجوا حتى انتهوا إلى جثامة فوجدوه قد أنزفه الدم فتقسموا الجزور واحتملوا جثامة وأنزلوه عليهم وعالجوه حتى برىء وألحقوه بقومه، فلما كان قريبا منهم تغنّى:

أيعذر لاهينا ويُلحين في الصِبي ... وما هنَّ والفتيان إلا شقائق

المراد بالصبي اللهو الذي يكون في زمن الصبى عادة: فقال له القوم إنما أفلت (أو صوابه أَبْلَلْتَ) من الجراحة التي جرحك أبوك آنفاً وقد عاودت ما يكرهه. فامسك عن هذا ونحوه إذا لقيته لا يلحقك منه شر وعر (العُر الجرب والعرب يقرنونه بالشر لأنه يتلف أبلهم فكان أبغض شيء إليهم) فأجابهم جثّامة: إنما هذه خطرة خطرت، والراكب إذا سار يغني) انتهى نص المعجم.

فقول جثامة: أيعذر لاهينا الخ. إنما جاء في خبر رجوع عقيل مع ابنه وابنته من عند أصهاره بني مروان المقيمين في الشامات كما هو في معجم البلدان ولم يجيء في خبر تزويج جثامة أخته من الخليفة كما هو نص طبقات الشعراء. وقد تبين من هذا أن نص الطبقات ملفق من الخبرين المذكورين.

وفي الخبر الثاني الذي جاء في معجم البلدان وصف لنفسية عقيل بن علفة الجاهلي الجافي الطبع ونفسية ولديه الناشئين في الإسلام وقد فهما منه (أي من الإسلام) أنه لا يشدد النكير على متبعيه إلا في ارتكاب منكر أو استباحة حرام. أما أن تقول الفتاة المسلمة الشعر وتحسن صنعته وتصف الخمرة بما جعله الله فيها من تأثير في جسم شاربيها فلا يراه ذلك

الفتى المسلم حراما، وإنما الحرام شربها فهو الذي يجب تجنبه، ولذا وقف في جانب أخته ينافح عنها. ويدرأ صولة أبيه الجاهلي عليها ويرفع صوته - كما علمه الإسلام - بان للفتيات الحق في تناول متع الحياة المباحة كما للفتيان. وأنه كما يعذر اللاهي من الفتيان ينبغي أن تعذر اللاهية من الفتيات: فلا يعذرون هم ويلحين هن بغياً وعدوانا إذ ليسوا جميعاً إلا شقائق وإخواناً. وقد جاء هذا الشعر الذي تمثل به جثامة قولا شارحاً للأثر المأثور: (النساء شقائق الرجال).

(دمشق)

عبد القادر المغربي

على ذكر الحرب الأهلية في إسبانيا

نهضة العلوم الطبية في إسبانيا العربية وتأثيرها في أوربا

للدكتور زكي علي

من بين الكتب التي ظهرت أخيراً عن الحرب الأهلية المروعة القائمة في إسبانيا الآن كتاب (الثورة في إسبانيا) قال فيه مؤلفاه هاري جانس وتيودور رابارد في معرض الكلام عن ماضي إسبانيا: (إن طرد العرب من إسبانيا كان كارثة على مدنيتها وقد كان الباعث عليه التعصب للروح الإقطاعية السائدة في أوربا والرغبة في تقويض دعائم الثقافة العربية وتأثيرها)

وقد أعادت الحرب الحاضرة في إسبانيا ذكريات تاريخها الماضي وكيف كان عهد العرب أزهى عصورها، وكثيراً ما أشارت صحف أوربا إلى ذلك الماضي إما بالمقالات أو بالصور. وأذكر أنني رأيت صورتين رمزيتين تبعثان في النفس مزيد الاعتبار إحداهما في صحيفة أمريكية تمثل (عودة العرب) والأخرى على غلاف مجلة سويسرية مصورة تمثل (العرب على أبواب مدريد) إشارة إلى انتظام فرق من عرب المغرب الإسباني في سلك جيش الجنرال فرانكو لفتح إسبانيا، ولكن شتان بين الفتحين، وما أعظم الفرق بين العهدين. ولست بصدد الكلام عن تاريخ الفتوحات والحروب وإنما أحببت

اتخاذاً الأحوال الحاضرة وسيلة للتذكير بما كانت عليه إسبانيا من النهضة على عهد العرب قاصراً الكلام على العلوم الطبية وما كان لها من تأثير ونفوذ في الحركة الفكرية في أوربا في ذلك الحين وهي التي صارت أساس نهضتها فيما بعد.

كان لتألق نجم الثقافة العربية في سماء إسبانيا على أثر الفتح الإسلامي أعظم الأثر في نهضة العلوم الطبية لا في إسبانيا وحدها بل في أوربا بأجمعها. وكان لما أولاه الخلفاء العلوم والفنون من العناية والتشجيع فضل كبير في ازدهار الحركة الفكرية والنشاط العقلي وانبعاث أضواء الحضارة العربية لتسري في سائر أنحاء أوروبا، وسرعان ما أصبحت إسبانيا أسطع درة في سلسلة الثقافة العربية الممتدة من ربوع الهند إلى أقصى غرب أوربا، وعن طريق هذه الحلقات المتصلة من مدنية الإسلام تدفقت الكنوز الضخمة من علوم الأقدمين التي كانت نسياً منسياً قبل أن يبعثها العرب ويضيفوا إليها كنوزاً غنية جديدة

بفضل عبقريتهم وأثر الإسلام في حضهم على البحث وحثهم على الكشف والدرس والتحصيل

وما أتى القرن العاشر للميلاد حتى كان العرب قد أحضروا إلى إسبانيا مجموعة ضخمة من التأليف العلمية والطبية الإغريقية العربية، ووضعوا بذلك أساس الحركة الفكرية التي دامت في عصرها الذهبي من القرن العاشر، إلى الثالث عشر، وجعلت إسبانيا في ذلك الحين، المركز الوحيد الذي يشع على أوروبا النور والعرفان، والذي سرت منه الثقافة العربية، حتى صارت ملموسة الأثر في سائر أنحاء الغرب

ونبغ في هذه الحركة طائفة كبيرة من علماء العرب وشخصياتهم الطبية البارزة، وكان لأعمالهم وتواليفهم أثر مباشر في نهضة العلوم الطبية لاسيما أن الخلفاء أكثروا من تشييد المستشفيات، وكانوا يلحقون بها المدارس الطبية ومدارس الصيدلة والمكاتب العلمية.

وقبل أن نخص بالذكر هنا اشهر البارزين في هذه النهضة نشير إلى ما يدل على مبلغ حضارة إسبانيا وازدهارها تحت حكم العرب، فنذكر أنه في القرن العاشر بلغ عدد سكان قرطبة أكثر من ثلاثمائة نفس، وكان بها خمسون مستشفى وتسعمائة حمام وثمانمائة مدرسة وستمائة مسجد ومكتبة ضخمة تحوي ستمائة ألف مجلد وسبعون مكتبة خاصة. وإذا ما أشرنا في هذا المقام إلى جامع قرطبة الشهير، الذي يعتبر من آيات الفن - لا في العصر الإسلام وحده بل في كل العصور - فإننا نذكر الكلمة الشهيرة التي وجهها شارل الخامس سنة 1526 إلى مجلس الكاتدرائية الكاثوليكية توبيخا لهم على تشييد الكنسية في قلب الجامع العظيم، إذ قال لهم: (قد بنيتم هنا ما تستطيعون، وكل واحد سواكم - بناءه في جهة أخرى ولكنكم خربتم ما كان فريدا في العالم كله)

وفي صدد الحضارة العربية أيضاً يقول الطبيب المؤرخ الأمريكي فكتور روبنصن صاحب (قصة الطب): (كانت أوروبا في ظلام حالك بعد غروب الشمس بينما كانت قرطبة تضيئها المصابيح العامة، كانت أوروبا قذرة، بينما قرطبة شيدت ألف حمام؛ كانت أوروبا تغطيها الهوام بينما كان أهل قرطبة مثال النظافة؛ كانت أوروبا غارقة في الوحل، بينما كانت قرطبة مرصوفة الشوارع؛ كانت سقوف القصور في أوروبا مملوءة بثقوب المداخن، بينما قصور قرطبة تزينها الزخرفة العربية العجيبة؛ كان أشراف أوروبا لا يستطيعون إمضاء

أسمائهم بينما كان أطفال قرطبية العربية يذهبون إلى المدارس؛ كان رهبان أوربا يلحنون في تلاوة سفر الكنيسة بينما كان معلمو قرطبة قد أسسوا مكتبة تضارع في ضخامتها مكتبة الإسكندرية العظيمة.)

والآن نعود لنذكر بين متقدمي المشاهير في النهضة الطبية ابن الوافد الذي اشتهر في أوربا باسم (997 - 1074) وكان طبيباً بمستشفى طليطلة وامتاز بأنه وضع أساس طريقة عقلية للعلاج مرتكزة على النظم الغذائية. وكان أشهر مؤلفاته كتاب الأدوية البسيطة طبع هذا الكتاب بعد ترجمته إلى اللاتينية أكثر من خمسين مرة. ثم هناك أبرز شخصية في النهضة الطبية العربية وفخر الجراحة العربية أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي الذي عرفته أوروبا باسم (1013 - 1106) وإليه يرجع الفضل في النهوض بمهنة الجراحة إلى المركز اللائق بها وكانت قبله قد انحطت إلى الحضيض ولكن

سرعان ما بلغت الجراحة على يد أبي القاسم الزهراوي أعلى مراتبها في ذلك العصر فانه ألف في الطب النظري والعملي كتابه الشهير (التصريف لمن عجز عن التأليف) وبه قسم خاص بالجراحة يقع في ثلاثة كتب استوفى فيها أبو القاسم علوم الجراحة وعملياتها وبين آلاتها بالصور فكان تأليفه هذا أول كتاب موضح بالصور والأشكال في الجراحة. ولا أجد في هذا المقام قولا أدل على مكانة الزهراوي من قول الأستاذ الشهير فورج من أعظم الجراحين الفرنسيين في الوقت الحاضر إذ كتب عنه منذ سنوات: (يعتبر الزهراوي بلا شك أعظم شخصية في الجراحة العربية، وهو الحجة التي كان يلجأ إليها كافة مؤلفي الجراحة العربية، وهو الحجة التي كان يلجئ إليها كافة مؤلفي الجراحة في العصور الوسطى مع أعظم الاحترام. وقد ولد في الزهراء (من ضواحي قرطبة) التي كان فرساي خلفاء بني أمية في الأندلس. ويستحق كتابه في (الجراحة) أن يبقى في تاريخنا كأول تأليف في الجراحة على أنها علم مستقل مؤسس على قواعد التشريح. وصار كتابه فيما بعد مرشد الجراحين منذ ترجمه إلى اللاتينية حول وسط القرن الثاني عشر جيرار دي كريمونا. ومما يبرهن على أن الزهراوي كان الثقة والعمدة في الجراحة والمشار إليه في علومها أن سلفنا العظيم جي دي شولياك جراح مونبلييه استشهد بأبي القاسم في مؤلفاته نحو مائتي مرة!

ولا مراء في أن الجراحة العربية في ذلك الحين تقدمت تقدماً عظيما في الغرب.) ويكفى أن نذكر أنه في أواخر القرن الثالث عشر لما قدم الجراح لانفرانك من إيطاليا ودرس مؤلفات أبى القاسم أصدر رأيه في جراحي باريس لذلك العهد بقوله: (يقومون بالعمليات الجراحية مع درجة من الجهل يكاد لا يوجد معها شخص واحد منهم يمكن أن يعد جراحاً حقيقياً! وقد كان أبو القاسم أول من كتب في علاج الأقواس الضرسية (في طب الأسنان) وتشوهات الفم، وأول من ربط الشرايين قبل امبرواز باريه الفرنسي. وقد وصف عمليات تفتت حصاة المثانة وعملية استخراجها بالشق، وتكلم عن مسألة التقيح ووصف الوضع المعروف باسم (وضع والحز) في التوليد، والشلل عقب كسر السلسلة الفقرية، وتكلم بدقة عن إزالة الأجسام الغريبة من الأذن، وأجرى عملية فتح قصبة الرئة وعالج الخراجات الكبيرة - بشقها وتفريغها تدريجاً، واستعمل محلول الملح في علاج الجروح، ووصف علاج الناسور بالكي. وهو أول من استعمل (السنارة) في استخراج الورم المسمى (يوليبوس) وتكلم في موضوع الولادة عن مجيء الجنين في الأوضاع غير المنتظمة، وعن التوليد بالآلات. وهو أول من أدخل استعمال الحرير وأوتار العود بهيئة خيوط للربط في العمليات الجراحية، وتكلم أيضاً عن وقف النزف بالكي، وقد بقي كتاب أبي القاسم في (الجراحة) أساس التعليم الجراحي ومزاولة مهنة الجراحة في أوربا عدة قرون، ونشرت ترجمته في فينا سنة 1497؛ وفي سنة 1500 كان المعول عليه في تعليم الجراحة في مدرسة البندقية بإيطاليا، وطبع أيضاً في (بال) بسويسرا سنة 1541

وأما أشهر أطباء العرب الاكلينكيين في الأندلس فهو محمد بن مروان بن زهر الاشبيلي وعرف في أوربا باسم (توفى سنة 1162) وهو ينحدر من عائلة عربية عريقة أنجبت كثيراً من الأطباء وذاعت شهرته الطبية في جميع الأنحاء. وهو أول من ثار على طريقة جالينوس وابتكر طرقا جديدة تدل على عبقريته؛ وأهم كتبه (التيسير) وفيه وصف شامل لأمراض عديدة. وكان ابن زهر أول من وصف التهاب التامور المصلي وخراج المنصف الصدري وشلل البلعوم والتهاب الأذن الوسطى. ووصف لبن الماعز في الدرن، ويعتبر أيضاً أول عالم بالطفيليات لأنه أول من أتقن وصف حيوان الجرب.

وأما أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد القرطبي (1126 - 1198) الطبيب الفيلسوف العظيم فمع أنه بلغ ذروة الشهرة كفيلسوف الإسلام وشارح أرسطو فقد كان له أيضاً فضل لا ينكر في تقدم العلوم الطبية؛ وهو الذي هز بناء التعاليم الجالينية من أساسها، وزعزع نظرية صفة الأدوية الكثيرة في التذاكر الطبية، وهو أول من أشار إشارة علمية إلى الدورة الدموية في كتابه (الكليات) فسبق بذلك وليام هارفي. ومن أعظم الشخصيات الأندلسية في القرن الثاني عشر الفيلسوف الطبيب الإسرائيلي موسى بن ميمون الذي صار فيما بعد طبيباً خاصاً لسلطان صلاح الدين، وله مؤلفات

عديدة في الفلسفة والطب ترجمت من العربية إلى اللاتينية ومنها كتباه في (السموم والتحرز من الأدوية القتالة) وكتاب (البواسير) (وترى هنا صفحة من هذا الكتاب الأخير عن نسخة خطية نقلت عن الأصل الذي كتبه ابن ميمون بيده) وكتابا (الوصايا) في التغذية وقانون الصحة و (بيان الأعراض) و (مقالة في الربو) الخ.

ويمتاز ذلك العصر بازدهار فن الصيدلية أيضاً وظهور التواليف العديدة فيه. واسم (أبن البيطار) أشهر من أن يذكر، وقد ولد أبو محمد عبد الله بن احمد بن البيطار في (مالقة) وصار أوحد زمانه في علم النبات وأتقن دراية كتاب (ديسقوريدس) الإغريقي اتقانا بالغاً وكان حجة لا يباري في علوم الأدوية المفردة والحشائش، وأهم كتبه (الجامع في الأدوية المفردة) وهو فريد في بابه إذ يشتمل على وصف دقيق لأكثر من ألف وأربعمائة عقار كان جزء كبير منها جديداً في ذلك الوقت، وصار هذا الكتاب في الواقع المرجع الأساسي في أوروبا للمادة الطبية وعلوم الأغذية.

أما كتب الأدوية المركبة فكانت تسمى الأقرياذين (مأخوذة عن اليونانية) وهو اسم حرف فيما بعد في المحفوظات اللاتينية المترجمة عن العربية إلى كلمة والعرب هم أول من وضع دساتير الأدوية المعروفة الآن باسم (فارماكوبيا) وعنهم أخذتها أوروبا كما أخذت عنهم عادة وضع الأواني الزجاجية الكبيرة المحتوية على السوائل الملونة عند مدخل الصيدليات وكان نظام الصيدلة عند العرب يقضي بالتمييز بين مخازن العقاقير (ويقابله الآن لبيع العقاقير البسيطة بحسب تعريفة محددة وبين الصيدليات (الأجزاخات) لصرف العقاقير المركبة والتذاكر الطبية وكانت كلها موضوعة تحت الرقابة الشديدة بمقتضى القانون. وقد أدخل فردريك الثاني هذا النظام إلى أوروبا وأصدر سنة 1233 قانوناً بقي نافذ المفعول زماناً طويلا في صقلية، كان يكلف الطبيب بمقتضاه أن يبلغ عن أي صيدلاني
يثبت له أنه يبيع أدوية فاسدة (صيدلي)

وقد أخذت أوروبا عن العرب استعمال كثير من الأدوية الجديدة ذات المفعول اللطيف والتي أدخلها العرب في المادة الطبية للعلاج مثل السنا المكي والراوند والتمر الهندي والمسك والقشية والمسن والكافور وجوز الطيب والقرنفل والزعفران والشمر وعرق السوس. وعن العرب أيضا أخذت أوروبا طريقة طلاء حبوب الأدوية بالورق المذهب أو المفضض وتقطير ماء الورد، كما أن أوروبا مدينة للعرب بإدخال الجوز المقيئ في القرن الحادي عشر والأكونيت (خانق الذئب) وشرح تأثير الإرجوت (الجويدار) والحنظل والقنب الهندي والعنبر. وكان دستور الأدوية (الفارماكوبيا الإسلامية) في إسبانيا يحتوي على أكثر من مائتي نبات جديد لم تعرفها أوروبا من قبل. ولا يزال كثير من الكلمات العربية الأصل مستعملة في الصيدلة إلى اليوم منها الكحول والشراب والقلي والنفط والبازهر (بنزهير) والجلاب

ثم كان من مفاخر المدنية الإسلامية إنشاء المستشفيات في معظم المدن الكبيرة مثل قرطبة واشبيلية وغرناطة وطليطلة وبلنسية ومرسية والمرية ومالقة وغيرها، وكان نظام هذه المستشفيات وإدارتها وتجهيزها تجهيزاً وافياً على نسق لم تعرفه أوروبا في ذلك العهد. وفضلا عن أن هذه المستشفيات كانت مراكز لعلاج الأمراض فقد كانت أيضاً معاهد للتعليم الأكلينيكي وأكاديميات للمعارف الطبية، وكانت مجهزة بمكاتب طبية نفيسة. ويعزى إلى العرب أيضا الفضل الأول في إيجاد المستشفيات الخاصة بذوي الأمراض العقلية ومن أهم تلك المستشفيات ما أنشئوه في بلنسية، وقد شهد جميع مؤرخي الطب بأن للعرب فخر معاملة هؤلاء المرضى بالرفق والشفقة والإنسانية بينما كان (المجانين) في أوروبا يعاملون إذ ذاك كالمجرمين يعذبون ويضطهدون. وقد أعاد جوان جيلابرت جوفريه بناء مستشفى بلنسية للأمراض العقلية عام 1410

كذلك لما أراد فيليب الثاني عام 1566 أن يعيد تنظيم المستشفيات في مجريط (مدريد) أقام على أنقاض معهد سان لازاروا (وكان في الأصل مستشفى أسسه المسلمون) مستشفى جديداً باسم سان جوان دي ديوس، وضم إليه مستشفى دي لاباز للأمراض المعدية ولذوي العاهات.

وقد أظهر أطباء العرب في إسبانيا في فهم الأوبئة والعدوى مقدرة وذكاء منقطعي النظير بين كافة أطباء أوروبا في العصر القديم والعصور الوسطى، يدلك على ذلك

إنهم بحثوا منشأ الأوبئة وانتشارها بالعدوى. وقد ألف الطبيب الشهير ابن الخطيب من غرناطة (1313 - 1374) كتاباً نفيساً عن (الطاعون) وصف فيه الطاعون الذي حل بأوروبا في القرن الرابع عشر وذكر فيه أن وجود العدوى تثبته التجربة ثم البحث ودليل الحواس ثم الرواية الموثوق بها عن انتقال المرض بالملابس والأوعية والحلي (كالقرط في الأذن) ومن شخص لآخر في المنزل الواحد وبإصابة ميناء سليم بوصول أناس مرضى من أرض موبوءة. . .!)

وكذلك كتب (ابن خاتمة) (توفي 1369) كتابا عن الطاعون الذي فتك بالمرية في إسبانيا في سنتي 1348 و1349، وهذا الكتاب يفوق في دقته كل ما كتب في أوروبا عن الطواعين من القرن الرابع عشر إلى السادس عشر.

ولا يتسع المقام هنا للإسهاب في ذكر سائر النوابغ من أطباء العرب في ذلك العصر. وإنما ننوه بأنه كان من أهم عوامل بث العلوم الطبية العربية ونشرها في أوروبا إنشاء مدارس الترجمة التي كانت أهمها مدرسة طليطلة التي شيدها في سنة 1130 الأسقف ريموند وازدهرت حتى القرن الثالث عشر.

وكانت جامعات العرب في إسبانيا إذ ذاك قبلة أنظار طلاب العلم من كافة أنحاء أوروبا فكانوا يفدون إليها من كل حدب وصوب لينكبوا على دراسة العلوم العربية وترجمتها ثم نقلها إلى بلادهم فظل النفوذ العربي سائداً في الغرب قروناً عديدة وظلت تآليف الأطباء العرب مدة خمسمائة سنة برنامجا لدراسة الطب في أوروبا.

ومما يدلك على مدى سريان النفوذ العربي وهيمنته على النهضة الطبية في أوروبا أن الطبيب الشهير بطرس ألفونسو (ولد سنة 1062) بعد أن أتقن الطب في مدارس العرب في إسبانيا قدم إلى إنجلترا ليكون طبيباً خاصاً للملك هنري الأول واشترك مع (والحز وبرايور أوف مالفرن) في وضع كتاب في الفلك اعتمد فيه على المصادر العربية، وكانت جهود هؤلاء الثلاثة بمثابة أول أثر للعلوم العربية في إنجلترا ثم لم ينقض بعد ذلك وقت طويل حتى امتاز أديلارد أوف بارت بكونه أول عالم أوربي كبير حضر إلى طليطلة

للتخصص في العلوم العربية، فاتصلت بذلك الحلقة الثقافية بين إسبانيا العربية وإنجلترا. ومن ثم ازداد اهتمام العلماء في إنجلترا بعلوم العرب وتفوق من بينهم ميشيل سكوت (1175 - 1232) وروجر باكون (1214 - 1294)

فأما سكوت فكان طبيبا وفيلسوفا ومتضلعا في العربية، وبعد أن درس في اكسفورد وباريس انتقل إلى بالرمو وبولونيا بإيطاليا، ومن هناك واصل سفره في طلب العلم إلى طليطلة ليروي ظمأه من ينابيع حكمة العرب وعلومهم وفلسفتهم، واشتهر فيما بعد بتآليفه الكثيرة في الكيمياء والفلك والطب وكان أكثر اعتماده على المصادر العربية.

وأما روجر باكون فقد اشتهر في اكسفورد بكونه شارح الفلسفة العربية والارسطوطية وألف في علم البصريات كتابا نقل فيه عن كتب الخازن، وهناك في مكتبة مجلس كاتدرائية كانتربوري نسخة خطية مزخرفة من أواخر القرن الثالث عشر تسمى هي أقدم تفسير معروف لكتاب ارسطو في المنطق ظهر في إنجلترا على أثر إحياء العرب لفلسفة ارسطو، وهي تحمل اسم جون دي لندن الذي أخذ عن روجر باكون العلوم العربية.

ويرجع إلى العرب أيضاً فضل المحافظة على تراث الطب الإغريقي القديم وهناك حقيقة ذات أهمية قصوى في هذا الصدد وهي أن سبعة كتب من (تشريح جالينوس) وصلت أوربا عن طريق ترجمتها العربية أما أصولها الإغريقية فكانت قد فقدت.

وكان أشهر المترجمين للعلوم الطبية من العربية إلى اللاتينية (جيرار دي كريمونا) 1114 - 1187 الذي اشتغل في مدرسة طليطلة معظم حياته وأتم في العشرين السنة الأخيرة منها ثمانين ترجمة بعضها في غاية الأهمية، ومنها كتاب الجراحة لأبي القاسم الزهراوي وقانون ابن سينا، وكتاب المنصوري للرازي، وبعض أجزاء (الحاوي).

ومن أعظم المترجمين والمفكرين من الأوروبيين في العصور الوسطى جربرت دي أوريلاك (930 - 1003) الذي صار فيما بعد البابا سلفستر الثاني فإنه عبر جبال البرانس وأتى إلى طليطلة لتحصيل علوم المسلمين ونقلها إلى أوروبا القوطية، ثم إنه عاد إلى فرنسا وأذاع علوم العرب في مدينة (ريمس) ثم نقل تلك العلوم إلى أنحاء

فرنسا وألمانيا وإيطاليا، ويعتبر أحد واضعي أساس النهضة العملية والأدبية والدينية في أوروبا في القرن الحادي عشر ويقال إنه الذي أدخل إلى أوروبا الأرقام العربية.
ومن بين مشاهير الذين حضروا من إنجلترا إلى طليطلة روبرت أوف إنجلاند) (عاش حوالي 1143) وهو أول من ترجم القرآن ثم دانيل مورلي (1170)
وكان ارنولد دي فيلا نوفا (1235 - 1313) آخر العلماء الأسبان الذين كان لهم نصيب وافر من ترجمة مؤلفات العرب الطبية إلى لغات الغرب، وقد صار فيما بعد طبيبا خاصا لبطرس الثالث ملك أرغون، ودرس الطب في جامعة مونبلييه ونقل عن العرب استعمال الصبغات في الأدوية، وادخلها في دساتير الأدوية الأوروبية، كما أنه ترجم كتاب ابن سينا عن القلب
وقد أنار العرب لأوربا سبيل الدراسة المبينة على التجربة والمشاهدة ويقول مؤرخ مونبلييه الشهير جرمان (الفرنسي) إن بقاء مؤلفات الأطباء العرب في برنامج الدراسة الطبية في مونبلييه حتى ختام القرن السادس عشر خير شاهد على صفات الإيضاح والتنوير وعلى الطريقة التعليمية التهذيبية التي امتاز بها الكتاب العلميون في الأمة العربية)
وتوجد في سجلات كلية الطب بباريس قائمة جرد للكتاب الطبية بها في سنة 1395 تحتوي على اثني عشر مجلدا كلها مؤلفات لأطباء العرب. وكان لويس الحادي عشر دائم القلق على صحته ولهذا كان حريصاً على أن تكون في مكتبته كتب (الرازي) الطبيب العربي الأشهر ولم يكن منها إذ ذاك في مكتبة مدرسة الطب بباريس سوى نسخة واحدة فاستعارها الملك بشرط أن يردها وقد فعل!
وأرى في ختام هذا البحث أن أذكر كلمة المؤرخ (لبري): (لو لم يظهر العرب في التاريخ لتأخرت نهضة العلوم والفنون (الرينسانس) في أوروبا قرونا عديدة).
(جنيف)
زكي علي
الفداء
للأستاذ أمجد الطرابلسي
فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى، قال) يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين. فلما أسلما وتله للجبين. وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين. إن هذا لهو البلاء المبين. وفديناه بذبح عظيم. وتركنا عليه في الآخرين. سلام على إبراهيم)
قرآن كريم
شعَّ من بَسمةِ الصباحِ الضّياءُ ... وأفاقتْ منْ نومها البطحاءُ
وتعرتْ كثبانُها والرَّوابي ... وتغطّتْ هِضابُها السَّمراء
وتبدّتْ ذُكاءُ فانتفضَ الرّمْ ... لُ ابتهاجاً لّما تبدَّتْ ذُكاء
وشَّتِ الأرضَ بالضلالِ فنوناً ... هيَ للطّرْفِ والنهَى إغواء
فمن الشمسِ والرمالِ نُضارٌ ... ومنِ الظلِّ واحَةٌ غَنّاء
السهوبُ الفِساحُ، والأفُقُ الرّا ... هي، وتلكَ الغمائمُ الشَّقراء
والخِضَمُّ المَوَّاج بالماسِ والتب ... رِ المصفّى والقبّةُ الزرقاء
والبطاحُ الغَرْقَى، وسِلْسِلةُ الكُثْ ... بانِ، والرَّمْلُ، والحصَى، والسَّناء
صورةٌ تغمُرُ العيونَ وسِحْرٌ ... عبقريٌ، ومُتعةٌ، ورُواء
وَحشةٌ ملؤها الجمالُ وصمتٌ ... خاشعٌ لا تشينُهُ ضوْضاء
أيها الشاعُر أتئدْ! هل تؤدي ... ما تؤديَّ الطبيعة الخرساءُ؟
إنّ صمتَ الرَّمال عودٌ ومِزما ... رٌ ونأيٌ ومِزهرٌ وحُداء
نَغَم يُفْعِمُ المسامِعَ سِحْراً، ... وغناءٌ، هيهات منه الغناءُ!
مَنْ هوَ السالكُ القفارَ وئيداً ... للأسى في جبينه سماء؟
كاسفَ البالِ ليس يَبْهُرُه الحس ... نُ، ولا يستبيه ذاكَ البهاء
مطرقاً رأسهُ الصديعَ تبدّى ... في أساريرِ وجههِ البأساء
وإلى جنبهِ ابنهُ حائرَ اللبَّ ... م تَنَزّي في صدرهِ الأهواء
يَتأسَّى خُطَى أبيهِ وللْحِمُ ... لانِ بالشاةِ أسوةٌ واهتداء

يسألُ الرَّملَ عن وجوم أبيهِ ... فإذا الرَّمل منصتٌ والفضاء
يسأل الأرضَ والسماء فما تن ... ييهِ أرضٌ ولا تجيب سماء!
وتراه بَهمٌّ يسأل عن ذا ... كَ أباه الحزينَ لولا الحياء
يا إلهي! هذا خَليلُكَ إبرا ... هيم يَغدو لما أرادَ القضاء
وإلى جنبهِ ابنهُ البرُّ إسما ... عيل سلواهُ في الدُّنى والعزاء
جاءه وحيُك المقدَّسُ في اللي ... ل وقد عمَّتِ الدُّنى الظَّلْماء
قال (قرِّبْ إلى السماءِ القَراب ... ينَ، فقد شاقتِ السماء الدماء
(!إنها تبتغي وحيدَكَ ذبحاً ... ليسَ في غَيرةَ لها إرضاء
هبَّ من نوْمِه الشرودِ مُراعاً ... ونأى عن جفونِهِ الإغفاء
!إنما تطلُبُ السماء فتاه! ... ليسَ مما تبغي السماء نجاء
قد قضى الله ما أرادَ وأمضى ... وقضاء اللهِ الرحيم مَضاء
. . .ليكن ما أرادَ سوْفَ يضحَّي ... بابْنِهِ وهو عيشُه والهناء
يا رحيمَ الأكوان! حكمتُك الغرَّا ... ء، حارتْ في كُنهها الحكماء
إنْ أضْرَي الجراحِ يا رب ما عا ... ناهُ في الأرض رسْلُكَ الخلَصاء
!أنت قدَّرتَ أن يعذّب في الأر ... ض نبيٌّ، ويسْعد الأغبياء
طالَ سْيُر الفتى وناءت قواه ... وعراهُ بعد النشاطِ وَناء
أينَ يمضي به أبوه ولا زا ... د لديهِ، وليس في القفر ماء
الفيافي ممتدَّةٌ كالأماني ... لا تناهي وكلها جَرداء
. .فَإلامَ السيرُ الممِضُّ وما للِ ... قَفزِ من أول وليسَ انتهاءُ؟؟
وَتَجَرَّى وقال يَسْتطلِعُ السرَّ ... وقد آده الوّنى والظَّماءُ
:وشجاه الصمتُ الطويلُ، وللصَّم ... ت على القلب غمَّة دكناء
أبتي طالَ سيرنا وعراني ... نصبٌ منه مُرمِضٌ وعناءُ)
أين نبغي؟ لعلنا قد ضَللْنا ... نهْجنا! أينَ قصدُنا والرَّجاء؟
أبتاهُ كلَّت يداي ورجلا ... يَ، وأدمتْ أصابعي الحصباء
(!مِلْ إلى الظِّلِّ نَسْتَجِمَّ قليلا ... فلقدْ هَدَّ قوتي الإعياء
فأجابَ الأبُ الرحيمُ يواسي ... هِ وقد شفّه الأسى والشقاء
:باسماً يمنع المدامع أن تج ... ري، وأن تستَفزَّه البُرَحاء
يا صغيري الحبيبَ، كيف خبا عز ... مُكَ، أين الثبات أين المضاءُ؟)
غايةُ السير ذروةُ التّل هذا، ... وعليه المقيلُ والإرساء
فوقه يا بني تؤسى الجراحا ... ت، وتلقى الجهود والأعباء
(فوقه يا بنيَّ يرقُبنا العطف ... من اللهِ ربِّنا والرّضاء
فاستحى الطفل من أبيهِ وأغضى ... منتهى البثِّ والأسى الإغضاءُ
. . .!ثمَّ سارا وفي الفؤادين نارٌ ... وأحاديثُ جَمَّةٌ وبكاءُ
واستوتْ في سمائها الشمس عجباً ... وتَلَظَّتْ من وقدها الرَّمضاء
وتَغَنَّتْ فيها الجنادبُ فَرحى ... وعليها من الرِّمال خِباء
سكنتْ خطرةُ النَّسائم فالأرْ ... ضُ لهيبٌ والأفق والأجواءُ
وأناخَ الخمولُ كَلْكَلُ المُضْ ... ني، وأغفتْ كالمتْعَب البيداءُ
فبكى الطفلُ لا يحيرُ شكاةً ... والفيافي عن بثه صماءُ
مُطرقا رأسَهُ الصغير ليَخفي ... عن أبيه البُكى، وكيفَ الخفاء؟
وأبوه الساجي يُسارقُهُ اللحْ ... ظَ فَتنزو في صدره الأدواءُ
!مَشْهَدٌ يمنعُ القوافي مِنَ الجر ... ي وَتَعْيا عن وصفه الشعراء
إيهِ دمعَ البنينَ ماذا يُعاني ... ويقاسي مِنْ سكبكَ الآباء!؟
!رحمةً للأب الشّفيق وللأمّ ... م إذا ما تَباكتِ الأبناءُ
مَسَح الطفل أدمعاً فوق خَدَّيْ ... هِ وأهدابهِ لها لألاءُ
:قائلاً والشحوبُ في وجهِهِ با ... دٍ كم قد براه داءُ عَياء
يا أبي قد دنا المكان وفيه ... للمهيَض الهناء والنَّعماءُ)
هو ذا المذبحُ المُقدَّس والحْب ... لُ، وهذي سكينك العَوْجاء
وعلى منكبيَّ مِحرَقَةُ الذَّبْ ... ح، فأين الضّحَّيةُ القَرْناء؟

(أتُرى قد نسيتها أمْ تراها ... سبقتنا بها إليه الرِّعاء؟
صُعِقَ الوالدُ الوجيع وسالت ... عَبرةٌ فوق خَدّه عصماء
وأجاب ابنَهُ مشيحاً بوجهٍ ... غضَّنتْه السِّنون والأرزاء:
يا صغيري هناك يَرْقُبُنا القر ... بان، لا يقعُدَنْ بنا الإبطاء)
(لنحثَّ الخطى إليه سراعاً ... فسيحْلولنا هناك البَقاء
إيه يا موكبَ الجلال الذي ما ... دتْ له من خشوعها الصحراء!
فالروابي ذواهلٌ مطرقاتٌ ... والنُّسَيْمات حوله سَجواء
إنَّ هذي الدموعَ ضجَّت لها الدني ... ا، ورُجَّتْ لسكبها الأرجاء
وأجل الدموع ما يَذرف القل ... ب، وتعي عن حبسِهِ الكبرياء
الفتى خافتُ الأنين صَموتٌ ... قد يَراه طول المدى والحفاء
وأبوهُ يبكي عليهِ حناناً ... يا لَدَمْعٍ تَسُحُّه الأنبياء!
يا لدمْعٍ تهزُّهُ رحمةُ القل ... بِ، فُيبقيهِ مَ الجفون الإباء!
ذاكَ إبليسُ فتنة الشَرِّ والآ ... ثام، مَنْ كلُّ هَمِّهِ الإغواء
ساءَهُ أنْ يفوزَ ما أمر اللَّ ... هُ، وأنْ يُخْذلَ الخنا والرِّياءُ
فأتى هاجَراً يُنَبِّئُها الأمْ ... رَ، وإبليسُ ساعداه النِّساء
قال: (فيمَ النّواءُ يا أُمَّ إسما ... عيلَ، والثُّكْلُ بيِّنٌ والشقاء
لستِ تدرين ما يحيك لكِ المق ... دار نامت عن حظِّها الأشقياء!
قد غدا بابنكِ المحَبَّبِ إبرا ... هيم تحدوهُ جُنَّةٌ هَوْجاء
زاعماً - والإلهُ أعول من أنْ ... تَصْطلي نارَ سُخطِهِ الأبرياء -
أنَّ وحياً أتاهُ، في الليل، والنا ... سُ نيام، والأرض والآناء
ودعاهُ ليذبحَ الطفلَ صبراً! ... تلك رُؤيا كذوبة شنعاء
(. . .أسرعي! أنقذيه! من قبل أن تُر ... وى بقاني دمائه الغبراء
فأجابته وهي تُخفي أساها ... ولَظاها: (لن يكذبَ الإيحاء!
(إن يكن ذاكَ ما أراد إلهي ... فهُوَ الخير كله والهناء
إيه إبليس! خاب فألُكَ يا مِس ... كينُ! ما كلُّ غادةٍ حوَّاء!
وصلَ الوالد الحزين، ولكن ... ودَّ لوْ طالَ سيره والعناء
وابنه من ورائه مُثْقَل الخط ... وِ، تلظَّى في صدره الصعُّداءِ
رازحٌ تحتِ عبئهِ لاهث الصد ... ر، وللظهر كالمسِنَّ انحناء
حطَّ عن منكبيْه وهو يجيل ال ... طّرفَ: أين الخراف، أينَ الظباء!
نظرَ الطفل حوله، فإذا الأر ... ض خلاء من الأضاحي قَواء
وتحرَّى فلم يجد حوله الذبحَ ... ولا هزَّ مسمعيه ثغاء
فرنا ثائرَ الشكوك، وفي عْي ... نيه شوق للسرَّ واستقصاء
وأبوه يحار في فمه النط ... ق، وفي الرزء تبكم البلغاء
شدَّ من حزنه على قلبه الوا ... هي، وعشّتْ عيونه الضرّاء
وتهاوت دموعه مثل ما رفَّ ... ت على زنبق الربى الأنداء
ربَّ رحماك! ما يقول؟ وما يف ... شي؟ وكيف المقال والإفشاء؟
هبْه يا رب من لدنك بياناً ... فلقد يعقد اللسانَ البلاء!
قالَ يا نورَ مُقلتيَّ ويا من ... هو عيشي وسلوتي والرجاء
يا وحيدي! يا مائلي! يا سراجي ... ما تدَجَّتْ همومي الكدراء
طال ما قد كتمتُ عنك من السر ... م وقد شاق سمعك الإصغاء
يا رجائي! ماذا أقولُ؟ وهل للنُّ ... طق في زحمة الدموع غَناء؟
كلما همَّ بالكلام لساني ... أيْبَسَتْه المصيبة السوْداء!
أترى أنتَ إن ذكرتُ لك الأمْ ... رَ مطيعي أم غاضبٌ أبّاء؟
جاءني الوَحْي في المنام بأمرٍ ... ليس فيه دفْعُ ولا إرجاء
قال لي: اذبح غداً وحيدَك، يا لَلْ - هَوْل تنزو لذكره الأحناء
يا بنيَّ! انظرْ ما تراهُ، ولا تأ ... خذُك بي غضْبةٌ ولا استهزاء
(ليت شعري! أذاك أمرُ إلهي ... أم تُرى تلكَ لوثتي الحمقاء؟
فاقْشَعَّر الفتى كما انتفضتْ في ... خَطرة الرِّيح وردةٌ حسناء
وسَرَت رهبةُ الرَّدى في مُحيا ... هُ، ورفّت غمامةٌ صفراء

ودَّ لو يكتمُ الأسى عن أبيهِ ... كيف يخفى عن العيون الداء؟
رعدةُ الموت ما تخلّصَ منها ... فقراءٌ قضوا ولا أُمراء
إنما الموتُ حيثما حلَّ في الكو ... خِ وفي القصر غُمّة وبلاء
هو للشَّيبِ مثلما هو للأط ... فَال، عُوْلٌ، وحيّةٌ، رقطاء
وأجاب الفتى يواسي أباه ... لو يفيد العزاء والتأساء!
أبتاه! هوَّن عليك! فإني ... لستُ ممَّنْ من القضاءِ يُساء)
حبّذَا مصرعي بكفّك إمَّا ... كان فيه لربَّنا إرضاء
أبتاه! افعلْ ما أمرت ولا تأ ... خُذْك بي رحمةٌ ولا أهواء
أنْفِذْ الوحْيَ يا أبي! هل يطيعُ الل ... هَ إلا المعاشر السعداء؟
أبتاه! إن حانَ يومي فهلْ عُنْ ... هُ محيدٌ، أو هل ليومي اتَّقاء؟
أبنا خالد على هذه الأرْ ... ضِ، وما للحياة فيها بقاء؟
لا تهنْ يا أبي هَلُّم فأضْجِعْ ... نيَ من قبل أن يَدِبّ المساء
ثم عصِّب عينيَّ رفقاً بمندِي ... لٍ، فَلِلْمَوْتِ سَحْنة نكراء
واشحذ الْخِنْجَرَ المُظَمَّأَ حتى ... تتلظَّى شباتُه الحَمْرَاء
. . .ثم ضعه على خناقي واذبحِ ... ني كما تُذْبَحُ الظّبا والشاء
فإذا ما ذبحتني وتروَّت ... من دَمي هذه الرمال الظِماء
فاحترس أن يصيبَ كفك شيءٌ ... منه، أو أن يَبَلَّ منك الرداء
وتجنب رَشاشهُ، لا يهنْ أجْ ... ركَ فيهِ، ولا يقلَّ الجزاء
دعْه للرَّمْل ينسربْ في حنايا ... هُ، ففيه لحرِّها إطفاء
دعْه يذهب كما تبَدّدَ عِطْر ... في الفضا أو تغَيّبَتْ أصداء
وإذا ما فرغتَ منِّي وحالت ... بيننا ظلمةُ الرّدى السَّحْماء
وأردت الرجوعَ بعدي إلى الدا ... ر، فلي يا أبي إليكَ رجاء
ذاكَ ثوبي فانْزعْه عنِّي إذا م ... تُّ، وقد خضّبَتْه مِنِّي الدماء
واحيهُ إذ تعود ذِكرى لأمِّي ... فبهِ سَلوَةٌ لها وعزاء
إيه! أمَّاه لو علمتِ مصيري ... وتَبَيّنْتُ ما تريد السماء
!لَتمّليْتُ منكِ لثماً ونقبي ... لاً، ولكن هيهات منّا اللقاء
. . .لستُ آسى إلاّ عليكَ من الدُّني ... ا، ولوْلاكِ لم يرُعْني العفاء
عذب الموت في سبيلكَ يا ربُّ ... وساغَ البلىَ وطاب الفناء
. .فمرور السكّينِ في العنق لثمٌ ... ولهيبُ النيرانِ ظلٌّ وماء
أضجعَ الوالد ابنَه مثلما تُضْ ... جعُ شاةٌ وديعةٌ خرساء
والفتى ساكنٌ كما نام في الَمه ... دِ تغنيه أمُّه الَحسناء
مُغْمِضٌ عيْنَه على الدمع، هل يب ... ديهِ إلاّ الأذِلّة الجُبناء؟
والأب الواله المعذّب تدوي ... ثائراتٍ في صدْره الأنواء
قبَّلَ الطِّفْلَ ثم عصِّب عينيه ... وقد ينْفَع البصير الغطاء
تؤلم المبصرَ الدياجي وتنجو ... من قذاهن مقلة عمياء
وانتضى الخنجرِ الرهيب بكف ... أرعشتها الفجيعة الحمراء
مثلما أرعشت بكأس الحميا ... كف صب مجنونة هوجاء
كاد يردى فتاه لولا هتاف ... في السموات مطرب ونداء
وإذا بالسماء تلتمع الأن ... وار فيها وتسطع الأضواء
. . .وإذا باللحون ترقص في الجوِّ ... حبوراً وتهتف الأصداء
رفع الوالد المعذب عيناً ... ملأتها المدامع العصماء
فإذا بالدموع تضحك في عْي ... نيه بِشراً وتنجلي الضراء
وتهزُّ البشرى الرحيمة كفْي ... هـ فتهوي سكينه الصّماء
ملك في الفضاء يحملِ كبشاً ... قد تعالى في السُّحب منه الثغاء
هبط الأرض مثلما تهبط الروْ ... ض اشتياقاً حمامة بيضاء
فدية للصبي أرسلها الله ... تهادى بحملها البشراء
!رحمة الله كم تداركتِ الخلْ ... ق وقد أعوزتهم الرحماء
يا خليل الرحمن هيا ارفع الطف ... ل فقدْ ردْتهُ إليكَ السماءُ
واذَبحِ الكَبْشَ يا نبيَّ فِداءً ... عظمَ المفتدى وطابَ الفداء

واسجدا خاشعين شكرا لمنعم ... البرايا نداه والآلاء
رحمه الله تغمر المجرم العا ... صي، فكيف الخلائق الأبرياء
إيه شعري قد تَيْمَتْك البطولا ... تُ وأغواك نورُها الوضّاء
غَنِّها فهيَ للجراحات مَلْهى ... وعزاءٌ وبَلْسمٌ وشفاء
وارْوها فالشْبابُ مُصغ لما تن ... شد قد هدَّه الأسى والداء
والزمان الشقيُّ ساد به الشرَّ ... وأخنى على بنيه الشقاء
. . .عُذِّبت في جحيمهِ العبقريَّا ... ت كما فاز بالنّعيم الرِّياء
غنّها ربما تعزّي جريحٌ ... أو تجافتْ عن ذلّها الْجَبَنَاءِ
سِيَرُ الخالدين كمْ شبّ في أح ... ضانها الخالدون والعظماء
دمشق
أمجد الطرابلسي
علم التاريخ عند العرب
للأستاذ عبد الحميد العبادي
التأريخ بالهمز والتاريخ بدون همز، والتوريخ، تعريف الوقت. وهو لفظ عربي أصيل، وقيل بل دخيل مأخوذ من أصل سرياني معناه (الشهر): وكانوا قبل الإسلام يوقتون بالنجوم والأهلة يكبسون الشهور إلحاقاً للسنة القمرية بالسنة الشمسية؛ وكانوا يؤرخون من الحوادث العظام والوقائع المشهورة كعام الفيل وبناء الكعبة ونحوهما. فلما كانت خلافة ثاني الخلفاء أمر عمر الناس فأخروا من عام الهجرة، ومضى الأمر على ذلك حتى يومنا هذا
هذا في اللغة؛ أما في الاصطلاح فالتاريخ عندهم فن يبحث عن وقائع الزمان من حيث توقيتها (وموضوعه الإنسان والزمان. وهو على هذا المعنى قديم عندهم، نما معرفة بسيطة ساذجة من معارف العرب قبل الإسلام، ثم تكمل على الزمن حتى أصبح علماً من أجل علومهم وأعظمها شأناً. فعرب الجاهلية كانوا لغلبة الأمية عليهم يتذاكرون أيامهم وأحداثهم من طريق الرواية الشفوية على هيئة أشعار مقصدة أو أخبار متفرقة؛ وشذ عن تلك الحال من اطرح منهم البداوة ونزل حواضر الجزيرة وخاصة أهل اليمن والحيرة، فقد نقش الأولون بالخط المسند على مبانيهم لمعا من أخبار ملوكهم وشئونهم العامة؛ ودون الآخرون بخطهم أخبار مملكتهم وأودعوها أديار الحيرة وكنائسها
فلما جاء الإسلام، وقامت الدولة العربية ومست الحاجة إلى معرفة سيرة الرسول العربي وأحواله استقصاء للسنة توفر رجال على جمع أخبار السيرة وتدوينها، فكان ذلك بدء اشتغال العرب في الإسلام بالتاريخ، وإن كان التاريخ لم يخرج يومئذ عن كونه نوعا من أنواع الحديث. وأقدم من كتب في موضوع السيرة عروة بن الزبير بن العوام المتوفى عام 93هـ، وأبان بن عثمان ابن عفان المتوفى عام 105هـ، ووهب بن منبه المتوفى حوالي عام 110هـ. ثم انتهى علم السيرة والمغازي إلى رجلين من الموالي هما محمد بن اسحق المتوفى عام 152هـ وقد اختصر سيرته ابن هشام المتوفى عام 218هـ ومختصره هذا هو الذي بأيدي الناس اليوم؛ ثم محمد بن عمر الواقدي المتوفى عام 207، وكثير من روايته مضمن في كتاب الطبقات الكبير لابن سعد المتوفى عام 230هـ هذا إلى كتاب له في مغازي الرسول مطبوع متداول
وفي أثناء ذلك كانت قد تمت الفتوح العربية الكبرى ووقعت الفتن العظمى، ونبض عرق العصبية القبلية، وشاعت بين المسلمين أخبار الأمم القديمة والديانات غير الإسلامية على أيدي رجال مثل كعب الأحبار المتوفى عام 34هـ (؟) وعبيد بن شرية المتوفى حوالي عام 70هـ ووهب بن منبه المتوفى حوالي عام 110هـ فتوافرت أسباب شتى اقتضت جمع وتدوين الأخبار المتصلة بكل ذلك؛ فتدوين أخبار القدماء مثلا دعت إليه رغبة العلماء في فهم إشارات إلى الأمم الغابرة وردت في الكتاب والسنة، وميل بعض الخلفاء كمعاوية والمنصور إلى الإطلاع على سياسات الملوك ومكايدهم؛ هذا فضلا عن حرص الموالي على التنويه بمجد بلادهم القديم. ثم إن تدوين الأنساب وأيام العرب كان مطاوعة لحاجة الشعراء إليها عامة قي مقام الفخر والهجاء، وحاجة الدولة للأنساب خاصة للاستعانة بها في تقدير العطاء للجند. وكان الباعث الأقوى على تدوين أخبار الفتوح رغبة ولاة الأمور في معرفة ما فتح من البلدان صلحا، وما فتح

عنوة، وما فتح بعهد، لأن لكل حكما خاصا من حيث الجزية والخراج. فلما دون ذلك كله وجد إلى جانب السيرة نوع آخر من الرواية التاريخية موضوعه أخبار الماضين، وأحوال الجاهلية، وحوادث الإسلام. وقد أطلقوا على ذلك كله لفظ (الأخبار) وعلى المتخصص في روايته (الأخباري) كما عرف المتخصص في رواية الحديث (بالمحدث). ونلحظ النقلة من الحديث إلى الأخبار في رجال خواص منهم ابن إسحاق والواقدي المتقدما الذكر. والمدائني المتوفى عام 225هـ. فكل من هؤلاء كان محدثا وأخباريا معا. كما نلحظ بداية التخصص في الأخبار في مثل محمد بن السائب الكلبي المتوفى عام 146هـ وكان مقدما في علم الأنساب، وعوانة بن الحكم المتوفى عام 147 وقد جمع أخبار بني أمية، وأبي مخنف المتوفى عام 157، وله كتب في الردة ووقعة الجمل ووقعة صفين وأخبار الخوارج. وسيف ابن عمر المتوفى عام 170 وله كتاب كبير في الفتوح، وهشام بن محمد بن السائب الكلبي المتوفى عام 204 وله في أخبار الأوائل وأيام العرب وأنسابهم وأخبار الإسلام كتب كثيرة أحصاها ابن النديم في كتاب الفهرست، وقد طبع منها حديثا (كتاب الأصنام)

وقد وجد في تلك المرحلة نوع من التخصص المحلي في رواية الأخبار، فكان لبعض الأقطار الإسلامية الرئيسية أخباريون اختصوا بجمع أخباره وتدوينها. قال ابن النديم: قالت العلماء: أبو مخنف بأمر العراق وأخبارها وفتوحها يزيد على غيره، والمدائني) بأمر خراسان والهند وفارس، والواقدي بأمر الحجاز والسيرة، وقد اشتركوا في فتوح الشام)

على أن المحدث كان عند جمهور ذلك الزمان أشرف موضوعا وأسمى منزلة من الأخباري؛ وذلك يرجع إلى شرف موضوع الحديث وإلى أن الأخبار وخصوصا قديمها كانت مظنة الأغراب والتلفيق والاختلاق. ولقد بلغ الأمر بهم أن كانوا يضعفون المحدث إذا مال إلى الأخبار، فقد ضعفوا محمد بن اسحق وكان أصلا رواية للحديث، ثم صار يحمل عن اليهود والنصارى ويسميهم أهل العلم الأول. وربما لم يستحسنوا للفقيه المختص باستنباط الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة أن يتوفر على طلب الأخبار. ذكر ابن خلكان (أن أبا يوسف كان يحفظ المغازي وأيام العرب وأنه مضى ليستمع المغازي من محمد بن اسحق أو غيره وأخل بمجلس أبي حنيفة، فلما أتاه قال له أبو حنيفة، يا أبا يوسف! من كان صاحب راية جالوت؟ فقال له أبو يوسف: إنك إمام؛ وإن لم تمسك عن هذا سألتك والله على رؤوس الملأ أيما كان أولا، وقعة بدر أو أحد، فإنك لا تدري أيهما كان قبل الآخر، فأمسك عنه)

وجملة القول أن أهل السيرة والأخبار قد رسموا في أواخر القرن الثاني الموضوعات الأساسية للتاريخ عند العرب، وهي أموراً أربعة: (1) أخبار الماضين (2) أحوال العرب قبل الإسلام (3) السيرة (4) أخبار الدولة الإسلامية. ومن أوائل القرن الثالث إلى أوائل الرابع يلحظ الباحث زيادة جوهرية في المادة التاريخية ودقة وتحرراً في مصادرها. فقد استقرت دواوين الدولة العباسية وتمهدت قواعدها ولاسيما دواوين الإنشاء والجند والخراج والبريد، وأمكن المشتغلين بالتاريخ أن ينتفعوا بها في بحثهم، كما يؤخذ مما اشتملت عليه تواريخ القرن الثالث من عهود رسمية ومراسلات سياسية وإحصاءات للمواليد والوفيات، ومدد ولاية كبار الدولة من وزراء وقواد وعمال وقضاة وولاة لمواسم الحج ووصف للحروب الداخلية ووقائع الغزو على الحدود صيفاً وشتاء وغير ذلك. ثم إنه في العصر المذكور قويت حركة النقل عن اللغات الأجنبية كالفارسية والسريانية واليونانية واللاتينية. وقد بدأت هذه الحركة من حيث التاريخ بترجمة ابن المقفع عن الفارسية حوالي عام 140 لكتابي خدينامه وآيينامه في تاريخ الفرس وأحوالهم؛ ومن هذا القبيل كتاب عهد أردشير

الذي ترجمه إلى العربية البلاذري المتوفى عام 279، ومنه أيضاً ترجمة تاريخ هيروشيوس وإن كان ذلك قد تم بالأندلس حوالي منتصف القرن الرابع. ثم إن سهولة الانتقال بين أنحاء الدولة الإسلامية حملت كثيراً من طلاب العلم والمؤرخين خاصة على الرحلة في طلب الرواية وأخذها عن الشيوخ، ولرؤية عجائب البلاد ومشاهدة آثارها، فوجد بذلك مصدر هام للمادة التاريخية هو المشاهدة والمعاينة. وعلى الجملة فإن مؤرخي القرن الثالث حددوا بصفة عامة مصادر التاريخ عند العرب فكانت أربعة أشياء (1) كتب السيرة والأخبار (2) السجلات الرسمية (3) الكتب المنقولة عن

اللغات الأجنبية (4) المشاهدة والعيان
وبتعاظم المادة التاريخية وتحرر مصادرها بالقياس إلى ما كانت عليه الحال من قبل لم
ير كثير من أفاضل العلماء وثقات الفقهاء باساً بالتوفر على دراسة التاريخ والتأليف
فيه؛ ومن ثم أخذ التاريخ مظهره الرائع كعلم من أجل علوم المسلمين وأعظمها شأناً،
وأخذ المؤرخون مكانتهم بين علماء الدولة الإسلامية كرجال لهم خطرهم في الحياة
العامة سياسية كانت أو عقلية أو أدبية. وتضاءل مدلول لفظ الأخباري حتى أصبح كما
فسره بعد السمعاني المتوفى عام 562 بقوله: (ويقال لمن يروي الحكايات والقصص
والنوادر الأخباري) نذكر من بين مؤرخي القرن الثالث ابن قتيبة صاحب كتاب المعارف
وقد توفي عام 270، والبلاذري صاحب كتابي فتوح البلدان وأنساب الأشراف وتوفى
عام 279، واليعقوبي صاحب التاريخ المضاف إليه وتوفي عام 284، والدينوري صاحب
الأخبار الطوال والمتوفى عام 290 وابن جرير الطبري صاحب تاريخ الرسل والملوك
والمتوفى عام 310هـ
أخذت الوحدة السياسية التي انتظمت الدولة العباسية تتداعى من منتصف القرن
الثالث، ولم تلبث تلك الدولة أن أصبحت مجموع دويلات عديدة يحكمها متغلبون
مختلفو الأجناس في مشارق الدولة ومغاربها، وجرت اللامركزية السياسية إلى لا
مركزية أدبية. فتوزعت الثقافة الإسلامية على الأمصار بعد أن كادت تكون مجموعة
في حاضرة الخلافة وحدها. ونافست بغداد قرطبة والقيروان ومصر وحلب وأصفهان،
وغزنة والري وبلخ وغيرها، وكثر العلماء في الأمصار كثرة عظيمة. كل ذلك أثر في
كتاب التاريخ عند العرب تأثيراً كبيراً يتضح في كثرة ما ظهر ابتداء من منتصف القرن
الثالث من التواريخ المحلية وكتب
التراجم والطبقات خاصة؛ من ذلك تاريخ فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم المتوفى
عام 257، وكتاب ولاة مصر وقضاتها للكندي المتوفى عام 350 وتاريخ بغداد وأعلامها
للخطيب البغدادي المتوفى عام 463، وتاريخ دمشق وأعلامها لابن عساكر المتوفى
عام 571، والبيان المغرب في إخبار المغرب لابن عذارى (القرن السابع)، ومعجم
الأدباء لياقوت الحموي (626)، ووفيات الأعيان لابن خلكان (681هـ) وإلى جانب ذلك
ظلت سلسلة التواريخ العامة مطردة من حيث انتهى الطبري، فوضع المسعودي
المتوفى عام 346 كتابيه مروج الذهب وأخبار الزمان، وصنف ابن مسكويه (421)
تجارب الأمم، وابن الأثير (630) كتابه الكامل
واستتبع التفرق السياسي وهن القوة الذاتية للعالم الإسلامي فطمع فيه أعداؤه من
وراء الحدود واجترءوا عليه واستباحوا حماه، وبدت مقدمات ذلك في استئساد الروم
وانتقاصهم شمالي الشام في القرن الرابع، ثم أغار الصليبيون في القرن الخامس
والسادس على ملك المسلمين بالمغرب والمشرق، ولم تكد تلك الغمة تنجلي عن
العالم الإسلامي حتى كانت الداهية الدهياء والطامة الكبرى وهي غارة المغول، فقضى
على الخلافة العباسية ودمرت معالم الحضارة الإسلامية في القارة الأسيوية تدميرا
واتضحت عبر التاريخ وصروف الزمن بعد تلك الأحداث الجسام والخطوب العظام،
فكان طبيعيا أن ينحو المؤرخ الإسلامي في التاريخ تلقاء ذلك كله منحى فلسفيا عميقا
فيتعرف علل الحوادث وأسباب قيام الدول وأسباب سقوطها ومظاهر العمران وأصول
الاجتماع ونحو ذلك. وهذا ما صنعه فيلسوف مؤرخي العرب قاطبة عبد الرحمن بن
خلدون المتوفى عام 808 في مقدمة تاريخه التي لم يكتب مثلها في الإسلام على
الإطلاق. ثم لم يلبث علم التاريخ أن نظر إليه على أنه يمكن أن يكون هو نفسه محلا
للتاريخ فوضع في ذلك الصفدي (764) مقدمة كتابه الوافي بالوفيات، والسخاوي
المتوفى عام 902 كتابه (الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ)
فيرى القارئ أنه فيما بين الرواية الشفوية القديمة وفلسفة التاريخ لابن خلدون وتاريخ
التاريخ للسخاوي، قد نما التاريخ عند العرب وتفرع وأزهر وأثمر، فلما نضب معينه
بانحلال الحياة الإسلامية العامة المستقرة جرى عليه ما يجري على الأحياء من حكم
البلى
والفناء متى انقطعت مادة حياتها
ذلك مجمل حال التاريخ عند العرب نشوءاً واكتمالا وهرماً وفناء؛ أما من حيث الطريقة
العلمية التي اتبعوها فالتاريخ ابتدأ عندهم كما رأينا فرعاً من علم الحديث فكان حرياً

أن يتأثر بطريقة المحدثين في جمع الرواية التاريخية ونقدها، فكان أهل السيرة والمغازي والأخبار يجمعون مأثور الروايات ويدونونها مع إسنادها إلى مصدره الأصلي وهو عادة رجل عدل له علم مباشر بالواقعة المروية كأن يكون عاينها أشترك فيها كما هي الحال في رواية أخبار السيرة والإسلام، أو أخذها من بعض مظانها ككتاب قديم ضاع، أو من بعض أهل البادية، وتلك كانت الحال في رواية أخبار الأمم القديمة والعرب قبل الإسلام. فكان النقد عندهم أو الجرح والتعديل كما يسمونه ذاتياً منصباً على الرواة، لا موضوعياً منصباً على المرويات. هذه الطريقة ضمنت لهم إلى حد بعيد صحة الأخبار المتصلة بالقسم التاريخي من السيرة وبحوادث الدولة الإسلامية، ولكنها عجزت عن أن تضمن لهم ذلك في أخبار القدماء والعرب قبل الإسلام والقسم الأول من السيرة. والحق أن هذه الموضوعات الأخيرة هي أضعف وأغمض نواحي كتب التاريخ عند العرب.

وإذا كان الإسناد عندهم أساس نقد الأخبار فقد كان أساس ضبطها هو التوقيت الدقيق بالسنين والشهور والأيام، وهو ضابط انفردوا به عن نظرائهم عند اليونان والرومان وأوروبا في العصور الوسطى قال المؤرخ الإنجليزي (بكل): إن التوقيت على هذا النحو لم يعرف في أوروبا قبل عام 1597. على أن هذا النظام ابتدأ ضعيفا عندهم، فكثير من حوادث الفتوح الأولى قد وقع في توقيته خلط شديد واختلاف كثير. ثم تكمل التوقيت على مر الزمن بتعدد طرق الخبر الواحد وبالأخذ عن المصادر الرسمية التي سبقت الإشارة إليها.

وقد اتبعوا طريقة علماء الحديث كذلك في تدريس كتب التاريخ وتلقيها عن مؤلفيها بالسند المتصل قراءة وسماعا وإجازة؛ فكتاب الأصنام مثلا تتصل سلسلة روايته عن ابن الكلبي من عام 201 إلى قريب من عام 500، ومثل ذلك يقال في مغازي الواقدي وكثير غيره من كتب التاريخ. وتلك مبالغة محمودة في المحافظة على النصوص التاريخية الهامة والكتب المعتبرة أمهات وأصولا.

تلك طريقتهم في جميع الرواية التاريخية ونقدها وضبطها؛ أما عرضهم لها فأصحاب السيرة والمغازي والأخباريون الأوائل كانوا يجمعون الروايات ويرتبونها بحسب موضوعاتها رسائل أو كتباً تشبه أبواب الحديث؛ ثم جاء المؤرخون فسلكوا في عرض الحوادث طريقتين أولاهما وأقدمهما الترتيب على السنين، ويظهر أن أول من صنف على هذا النمط الهيثم بن عدي المتوفى عام 207، ثم اتبعها من بعده الطبري وابن مسكويه وابن الأثير وأبو الفداء، والأخرى الترتيب على العهود، وقد جرى عليها اليعقوبي والدينوري والمسعودي وغيرهم.

ويتصل بعرض الحوادث أسلوب أدائها وتصويرها: أما الأسلوب فكان على وجه العموم سهلا غير متكلف، وأما التصوير فكان فيه وضوح وقوة وحياة كما في العقود الأولى من تاريخ الطبري وفي بعض فصول ابن مسكويه والصولي.

ويمكن تلخيص أوجه النقص في طريقتهم في أمور ثلاثة: ضعف ملكة النقد عندهم بوجه عام، وإدارتهم التاريخ على الأفراد والحروب والسياسة في أبسط صورها، وعدم عنايتهم بالشئون العامة للجماعات أو بتعليل الحوادث والنفاذ إلى أسرارها على أنه مهما قيل في نقص طريقتهم من الناحية العلمية فحسبهم أنهم خلفوا للمؤرخ الحديث ثروة تاريخية طائلة يستطيع أن يتدارك في صياغتها ما فاتهم. وإن العالم الحديث يسجل لهم أنهم أول من حاول ضبط الحوادث بالأستاذ والتوقيت الكامل. وانهم مدوا حدود البحث التاريخي ونوعوا التأليف فيه وأكثروه إلى درجة لم يلحق بهم فيها من تقدمهم أو عاصرهم من مؤرخي الأمم الأخرى، وأنهم أول من كتب في فلسفة التاريخ والاجتماع وتأريخ التاريخ، وأنهم حرصوا على العمل جهد طاقتهم بأول واجب المؤرخ وآخره، وهو الصدق في القول والنزاهة في الحكم

عبد الحميد العبادي

التصوف الفلسفي في الإسلام

للدكتور أبو العلا عفيفي

مدرس الفلسفة بكلية الآداب

سأعرض في هذا البحث للتصوف الفلسفي من ناحية نشأته والعناصر التي دخلت في تكوينه لا من حيث مسائله ولا نظرياته، وإن كنت سأشير إلى بعض هذه النظريات

إشارة سريعة مجملة
ونشأة التصوف الفلسفي في الإسلام متصلة بنشأة التصوف نفسه من جهة، وبنشأة الزهد الذي تقدم التصوف الفلسفي منه وغير الفلسفي
وربما خلط بعض الناس بين التصوف والتصوف الفلسفي من جهة، وبين التصوف والزهد من جهة أخرى؛ أو فهم الثلاثة أنها من المترادفات، وليس هذا بنادر الوقوع. أما الزهد فهو الناحية العملية من الطريق الصوفي؛ أو هو الحياة التي يحياها الصوفي، تلك الحياة البادية في مظهره الخارجي من تقشف في المأكل والمشرب واعتزال للناس وانقطاع إلى الله، والبادية في حياته الباطنة الروحية من خشية من الله وورع وتقوى وعبادة وصوم وصلاة وذكر وتهجد وهجر للدنيا وزخرفها. وأما التصوف فأصدق وصف له أنه طريق لتصفية النفس ومجاهدتها ورياضتها والانتقال بها من حال إلى حال ومن مقام إلى مقام والترقي بها في خطوات بطيئة عسيرة حتى يصل بها صاحبها إلى المقام الذي يطلق عليه الصوفية اسم مقام الشهود أو الوجد أو الفناء - وهو المقام الذي يدرك فيه الصوفي - وفي هذه الحال لا فرق بين صوفي مسلم وصوفي مسيحي أو يهودي أو بوذي - يدرك من الحقائق ما لا سبيل للعقل الإنساني أن يدركه، ويتذوق من المعاني ما يكل اللسان الإنساني عن شرحه
وأما التصوف الفلسفي فهو الأساس الميتافيزيقي أو النظريات الفلسفية التي يحاول بها الصوفيون في وقت صحوهم تفسير أو تعليل ما يجدونه في وقت سكرتهم أو في حالة وجدهم
وقد وجدت هذه الأنواع الثلاثة في الإسلام وظهرت فيه ظهورا تاريخيا متواليا بحيث يمكن اعتبار كل منها دورا من أدوار التصوف هو بمثابة المقدمة المنطقية للدور الذي يليه، فظهر الزهد في القرنين الأولين من الهجرة، وظهر التصوف في القرن الثالث، وظهر
التصوف الإسلامي في القرن الرابع وما بعده، ولم يأت القرن السادس والسابع حتى بلغ التصوف الفلسفي أقصى حده في النضوج ثم ضعف شأنه بعد ذلك تدريجياً
أما الزهد فقد ظهر في الإسلام قويا فتيا بمجرد ظهور الإسلام تقريبا؛ ذلك أن الإسلام دين ورحمة وزهد وتقوى؛ وليس دين دنيا وشهوات ولذات كما يصفه بذلك أعداؤه الذين يحاولون تعليل نشأة الزهد في الإسلام بأنها راجعة إلى عوامل كلها خارجة عن الإسلام، ويخصون بالذكر من بين هذه العوامل المسيحية والرهبنة المسيحية التي كانت منتشرة في صحراء العرب وبلاد الشام ومصر وغيرها من البلاد الإسلامية نعم لم يدع الإسلام إلى الرهبنة، بل هو صريح في إنكارها في القرآن والحديث، ولكنه دعا إلى العبادة والورع والتقوى والتهجد وقيام الليل والصوم والصلاة
نعم لم يذكر القرآن كلمة زهد ولا مادة الزهد إلا في آية واحدة في سورة يوسف في قوله تعالى (وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين) ولم يذكرها هنا على سبيل المدح ولا بالمعنى الذي نتكلم عنه، ولكنه وإن لم يذكر (الزاهد) فقد ذكر العابدين والسائحين والقانتين والمخبتين والركع السجود، وكل هذه من صفات الزاهدين
وإذا كان الزهد طريقة للتقرب إلى الله ومناجاته وذكره فقد وصف القرآن الله بأنه رحيم، وبأنه ودود، وبأنه قريب من عبده، بل إنه أقرب إليه من حبل الوريد، وبأنه سميع مجيب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه
فلا حجة للقائلين بان فكرة الحب الإلهي قد دخلت إلى الزهد الإسلامي عن طريق المسيحية لأن الإسلام قد قضى على كل أمل في الاتصال الروحي بين العبد وربه يوصفه الله بأنه جبار متكبر منتقم الخ
ظهر الزهد في الإسلام إذن داعيا إليه الإسلام كما قلنا وداعيا إليه ظروف أخرى هي الظروف السياسية القاسية التي عاش فيها المسلمون في عهد الخلفاء وعهد بني أمية - فقد كان هذا العصر عصر حروب وفتن مستمرة وقلاقل واضطرابات - وفيه دخلت النظريات السياسية إلى العقائد الدينية، وتدخل الحكام في آراء الناس الدينية ومعتقداتهم، فاضطهدت الحرية وكبت التفكير الحر: فشعر من لم يميلوا إلى اعتزال الناس بضرورة العزلة وزهدوا في الدنيا وزخرفها وفي الحكومة والحكام

أما الرهبنة المسيحية فقد كان لها أيضاً أثرها في الزهد الإسلامي لا من حيث أنها كانت السبب في وجوده، بل من ناحية أنه تسرب إلى طريقة المسلمين في الزهد كثير من تقاليد الرهبان المسيحيين وعاداتهم وطقوسهم

بل إن القرن الثاني لم يكد ينتهي حتى انتظمت حركة الزهد الإسلامي داخل أديرة وصوامع أشبه بأديرة وصوامع المسيحيين: فأسست خانقاه في دمشق سنة 150هـ وأخرى بخراسان سنة 200. ويقول عبد الرحمن جامي في كتابه نفحات الأنس أن أول خانقاه أسست في الإسلام كانت بالرملة بفلسطين أسسها في القرن الثاني راهب مسيحي - وإن كان المقريزي يقول في الخطط إن الأديرة لم تظهر في الإسلام إلا في القرن الخامس الهجري - ولعله يقصد بذلك انتشار الأديرة في البلاد الإسلامية لا مجرد وجود بعضها

وقد امتاز الزهد في القرنين الأول والثاني - ولاسيما القرن الثاني بصدق الورع والتقوى وسلامة الإيمان والخشية الشديدة من الله ومن عذاب جهنم، والأمل الشديد في الحظوة برؤية الله في الدار الآخرة، وكثرة المناجاة والكلام في الحب الإلهي

وقد تغلغل الزهد في نفوس المسلمين العامة والخاصة على السواء، وظهر منهم في القرن الثاني أمثال الحسن البصري المتوفى سنة 110 وهو المؤسس لفرقة الصوفية بالبصرة، وإبراهيم بن أدهم البلخي المتوفى سنة 161، وداود بن نصير المتوفى سنة 165، والفضيل ابن عياض المتوفى سنة 186، ومن النساء رابعة العدوية التي توفيت سنة 135

وكانت رابعة آية من آيات الله في الزهد: زهدت أولا في الحياة الدنيا وزخرفها طمعا في الآخرة وجنتها، ثم زهدت في الجنة طمعا في الفوز بمحبة الله ورضاه

وقد حل الحب الإلهي من قلبها كل مكان فأصبحت لا تناجي سوى الله ولا تتحدث إلا إليه؛ وفي هذا يحكي شهاب الدين السهروردي في عوارف المعارف أنها كانت تقول:

إني جعلتك في الفؤاد مؤانسي ... وأبحت جسمي من أراد جلوسي

فالجسم مني للجليس مؤانس ... وحبيب قلبي في الفؤاد جليسي

ويقول القشيري عنها إنها كانت تقول في مناجاتها (إلهي! تحرق بالنار قلبا يحبك؟)

فهتف بها هاتف: ما كنا نفعل ذلك؛ فلا تظني بنا ظن السوء

أما القرن الثالث فدور انتقال من الزهد إلى التصوف بمعناه الحقيقي. والواقع أن هذا الدور

كان أقرب إلى الزهد منه إلى التصوف. في هذا القرن نجد كلمة (صوفي) شائعة الاستعمال ولم يكثر استعمالها قبل نهاية القرن الثاني خلافا لما ذهب إليه القشيري، فلم يفرق الناس بين زاهد وصوفي لأنه لم يوجد من الزهاد من ينطبق عليه وصف صوفي بالمعنى الدقيق. أما في القرن الثالث فحصل التمييز بينهما فسمى الزاهد زاهدا وسمى الصوفي صوفيا أحيانا وعارفا أحيانا

بل إننا نجد في هذا القرن تحولا في وجهة نظر الزهاد أنفسهم، فإنهم لم يعودوا ينظرون إلى الزهد باعتباره غاية في نفسه، بل نظروا إليه باعتباره وسيلة لتحقيق غاية أخرى هي الكشف: أي أنهم اعتبروا الزهد مرحلة من مراحل الطريق بواسطتها يصل السالك أو المريد إلى تصفية النفس والترقي بها في معارج الحياة الروحية إلى أن يصل بها إلى حالة الفناء التي تنكشف له فيها الحقائق الألهية، فتنعكس هذه الحقائق على مرآة قلبه كما تنعكس صور المرئيات على صفحة المرآة الصقيله المجلوة

وفي هذا القرن أيضاً نجد القوم يكثرون من الكلام في المواجد والأذواق، ويصفون الأحوال والمقامات، ويتكلمون في الصحو والسكر والمحو في الوحدة والسكرة والتفريد والتجريد والفناء والبقاء وغير ذلك من أحوالهم الصوفية

يعرف معروف الكرخي المتوفى سنة 200 التصوف بأنه الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الناس؛ يريد أنه إدراك الحقائق الإلهية بواسطة الكشف والزهد في الدنيا. وهذا تعريف جديد للتصوف لم نسمع به من قبل

ونغمة أخرى جديدة نسمعها من ذي النون المصري الذي كان أول من تكلم في المعرفة الحاصلة بالكشف واعتبرها المقياس الحقيقي لحياة الرجل الصوفي، يقول: إنه بمقدار ما يعرف الصوفي من ربه يكون إنكاره لنفسه. وتمام المعرفة بالله تمام إنكار الذات، وهي الحالة التي عبر عنها غيره بالفناء

وفي هذا المعنى يقول الحسن بن علي بن يزدينار: (يكون العارف بمشهد من الحق إذا بدا الشاهد، وفني الشواهد، وذهب الحواس، واضمحل الإحساس) وهو قول ينسبه بعض الصوفية للشبلي، ونغمة ثالثة نسمعها من أبي يزيد البسطامي (المتوفى سنة 261) في الحال التي يعبر عنها القوم بالفناء: يقول أبو يزيد وقد سئل عن العارف (أي الصوفي):

للخلق أحوال ولا حال للعارف، لأنه محيت آثاره ورسومه، وفنيت هويته (أي شخصيته))

وفي هذه إشارة (لهوية غيره، وعييت آثاره لآثار غيره؛ فالعارف خير والزاهد سيار صريحة إلى التفرقة بين الزاهد والعارف أو الصوفي

في أثناء هذا القرن كان التصوف الفلسفي في دور التكوين؛ فقد توفرت العوامل على ظهوره، وتهيأت النفوس لقبوله، وظهرت بوادره بالفعل في عبارات بعض الصوفية أمثال ذي النون المصري وأبي يزيد البسطامي. ولكن من المغالاة أن نقول إن لأحد من متصوفة القرن الثالث مذهبا فلسفيا خاصا أو عقيدة فلسفية صوفية معينة، على الرغم من أن كثير من أقوالهم يمكن تأويلها تأويلا فلسفيا

ولكن سرعان ما انتهى عصر الانتقال وبدأ التصوف يدخل في دوره الثالث وهو الدور الفلسفي الحقيقي؛ وكان ذلك في القرن الرابع وما بعده، فقد تحول التصوف إلى شكل جديد بدخول النظريات الفلسفية فيه. وربما كان أول السابقين إلى هذا الميدان الحسين بن منصور الحلاج المتوفى سنة 309هـ

لم يقف الصوفية بعد القرن الثالث عند حد الكشف والشعور بالمواجد والأذواق في أحوالهم الصوفية، بل حاولوا أن يفسروا ما يدركون ويؤولوا ما يشعرون به، ويعللوا لما يتذوقونه من تلك المعاني التي هي فوق طور العقل، فكانت نتيجة شرحهم وتفسيرهم وتعليلهم أن وضعوا نظرياتهم الفلسفية. عرفوا الكشف في أحوالهم فحاولوا أن يضعوا نظرية للكشف في صحوهم: أدركوا وحدة الوجود في حالة فنائهم فحاولوا تفسير وحدة الوجود. أدركوا الوحدة في الكشف والتعدد في الصحو فدعاهم ذلك إلى تفسير معنى الوحدة والكثرة، ومعنى الحق والخلق ومعنى الفيض والاتصال، والجمع والتفرقة وغير ذلك

فمجموعة تفسيراتهم لمظاهر الحياة الصوفية هي الذي نعنيه بفلسفتهم التي يمكننا أن نلخصها في ثلاث نظريات: نظريتهم في طبيعة الوجود، نظريتهم في المعرفة، نظريتهم في الإنسان ومركزه في العالم وموقفه من الله

على أن من الصوفية من رجال العصر المتأخر أمثال محي الدين بن عدي، وشهاب الدين عمر السهروردي المقتول، من سلك مسلك الفلاسفة من بادئ الأمر، فكانت لهم وجهات نظر فلسفية خاصة في طبيعة الوجود وفي الإنسان والعالم، فاستعملوا المنهج النظري

الفلسفي وأساليب الفلاسفة واصطلاحاتهم واستدلالاتهم، ثم نظروا إلى التصوف باعتباره مرحلة متممة لمذهبهم، كما نظر الصوفية إلى الزهد باعتباره مرحلة متممة لطريقتهم

والفرق بين هذا النوع من الصوفية والنوع الأول أن الأولين أمثال الحلاج يضعون نظرياتهم الفلسفية في عرض تأويلهم وتفسيرهم لما يشاهدونه في أحوالهم ومواجدهم؛ أما الآخرون فيلجئون للكشف والذوق توكيدا وتحقيقا للنتائج التي يصلون إليها بالنظر العقلي

وهذه الطريقة ممثلة تمام التمثيل في كتب ابن العربي بوجه خاص، فإنه بعد أن يبحث المسائل الفلسفية بحثاً عميقا ويناقشها من جميع وجوهها يحس كأن العقل غير كاف في الوصول إلى درجة اليقين فيها، فيحيل القارئ إلى الكشف والذوق، أو يخبره بأنه هو نفسه قد أدرك حقيقتها كشفا أو ذوقا

صار التصوف الفلسفي بعد ذلك سيراً حثيثا بخطوات واسعة فسيحة وظهرت فيه المذاهب الفلسفية الكاملة، بل والمدارس الفلسفية، وألفت فيه المؤلفات أمثال الأحياء والمشكاة للغزالي والنصوص والفتوحات لابن العربي وحكمة الإشراق للسهروردي والإنسان الكامل لعبد الكريم الجبلي

أما العوامل التي ساعدت على ظهور التصوف الفلسفي فكثيرة متعددة، فقد كانت البيئة التي يعيش فيها متصوفة القرن الثالث وما بعده مزيجا غريبا من الأمم المختلفة

والثقافات المختلفة والديانات المختلفة والفلسفات المختلفة، بل كان الجو الذي يتنفس فيه المسلمون خليطا من هذه العناصر كلها: فلا عجب إذن أن يأتي التصوف الفلسفي في الإسلام ممثل لكل مذهب من المذاهب، حاويا لكل بدعة إسلامية وغير إسلامية، فإن فلسفة التصوف الإسلامي ليست مذهبا واحداً ولا عقيدة واحدة، بل مجموعة من المذاهب بعضها يتفق مع روح الإسلام وبعضها يتعارض مع التعاليم الإسلامية معارضة صريحة

واهم هذه العناصر التي دخلت في التصوف الفلسفي ومنها تركب هي:

أولا - التصوف نفسه بكل ما فيه من وصف للحياة الروحية، وكلام في المقامات والأحوال، وذكر للمواجد والأذواق، وتعبيرات عن خاطر النفس ومحاسبتها ومراقبتها

ثانيا - القرآن والحديث: فإن الصوفية قد اتخذوا كثيراً من الآيات القرآنية أساسا لنظرياتهم فأولوها تأويلات تتفق وروح هذه النظريات، وذلك مثل قوله تعالى: كل شيء هالك إلا وجهه. وقوله: كل من عليها فان، وقوله: الله نور السموات والأرض الخ فقد أولوا الوجه في الآيتين الأوليين على أنه الذات الإلهية الأزلية المقومة لكل موجود؛ وأولوا الهالك والفاني على أنه مظاهر الوجود أو الوجود المتكثر. أما النور ففسره تفسيراً زرادشتيا على أنه الوجود الحقيقي وضده الظلمة التي هي العدم المحض. أما الأحاديث التي يستشهد به الصوفية فأكثرها مدخول على النبي منتحل

ثالثاً - علم الكلام: فقد وصل علم الكلام في إبان ظهور التصوف الفلسفي في الإسلام أقصى حده في النضوج الفلسفي، وتسرب الكثير من نظرياته إلى نظريات الصوفية والمعروف أن عدداً كبيراً من رجال الصوفية في القرن الثالث كانوا من كبار المتكلمين أيضاً أمثال أبو القاسم الجنيدي والحارث المحاسبي وغيرهما والناظر في كتب التصوف أمثال اللمع للسراج والتعرف للكلاباذي والرسالة للقشيري وغيرها يعرف مدى علم الصوفية بمسائل الكلام ومدة مزجهم لها بنظرياتهم. وتكفي الإشارة هنا إلى عقيدة وحدة الوجود التي هي أخص مظهر للتصوف الفلسفي الإسلامي، فإنها فيما أعتقد راجعة في اصل نشأتها إلى تفكير إسلامي كلامي صوفي؛ وليست كما يقول بعض المستشرقين راجعة إلى الفلسفة الأفلاطونية الجديدة أو الفلسفة الهندية؛ فقد بدأ الصوفية يبحثون في عقيدة التوحيد بحثا كلاميا فوقعوا من حيث لا يعلمون في عقيدة وحدة الوجود. بدءوا يبحث الوحدانية فقالوا: الله واحد بمعنى أنه لا شريك له، فنفوا الشريك والند والضد والمثل. وقالوا أهم صفة للإله الواحد وجوب الواجد. ثم بحثوا في واجب الوجود فقالوا الله واجب الوجود بمعنى أن وجوده من ذاته، وغيره ممكن الوجود أي وجوده من غيره، ولكنهم زادوا على ذلك بقولهم إنه واجب الوجود بمعنى أن وجوده هو الوجود الحقيقي وكل ما عداه فوجوده ظاهري أو وهمي. ثم توسعوا في معنى وجوب الوجود فقالوا إن واجب الوجود هو الفاعل لكل شيء والعلة في وجود كل شيء - فانتهوا من بحثهم بنتيجتين:

الأولى: نفى للعلل كلها والقول بأن لا فاعل على الحقيقة إلا الله

والثانية: نفى الوجود المتكثر الظاهر في الكون والقول بأنه وجود زائل متغير - وأن المقوم لكل موجود والحقيقي في كل موجود هو الحق أو الله

وهكذا بدءوا بقولهم: لا إله إلا الله، وانتهوا بقولهم: لا موجود على الحقيقة إلا الله. ثم وجدوا - أو خيل إليهم أنهم وجدوا - ما يعزز دعواهم هذه في الحالة الصوفية التي يعبرون عنها بالفناء وهي الحالة التي يشعر فيها الصوفي بالوحدة المطلقة فلا يدرك فيها فرقا بين حق وخلق - وهي الحالة التي صاح فيها الحلاج بقوله: أنا الحق!

وقد سمى الصوفية عقيدة التوحيد بتوحيد العوام، وعقيدة وحدة الوحدة بتوحيد الخواص، وأوردوا لكل منهما تعريفا خاصا

يقول الجنيد في تعريف توحيد العوام إنه إفراد الموحد بتحقيق وحدانيته. ويقول في تعريف الخواص إنه الخروج من ضيق الرسوم الزمانية إلى سعة فناء السرمدية يعني بذلك الفناء

رابعا - الفلسفة الأفلاطونية الجديدة - لاسيما الأفلاطونية الجديدة المتأخرة التي ظهرت في كتابات برفلس ويميليخوس والكاتب الأفلاطوني المسمى خطأ ديو تسبوس الازيوباغني.

ولا نبالغ إذا قلنا إنه لا تكاد مسألة من مسائل التصوف الإسلامي الفلسفي أو نظرية من نظرياته تخلو من أثر للفلسفة الأفلاطونية الجديدة: فنظريات الصوفية في خلق العالم والفيض أو الصدور عن الواحد الحق، وكلامهم في النفس والعقل والقلب والكشف والمعرفة والشهود، وفي العالم العلوي والعالم المحسوس وفي الإنسان الكامل، كلها مطبوعة بطابع هذه الفلسفة ومستند إليها

خامسا - المسيحية ولا نعني بالمسيحية الديانة المسيحية وعقائدها، بل الحياة المسيحية كما حييها المسيحيون في البلاد التي انتشر فيها الإسلام ممثلة في حياة الرهبان والمتصوفين؛ ولم يأخذ الصوفية عن المسيحيين بعض أساليبهم في الزهد ومظاهر التقشف ولباس الصوف الذي منه اشتق اسمهم فحسب، بل أخذوا عنه بعض نظرياتهم في طبيعة المسيح وفي التثليث: فقال بعضهم بالحلول، مثل الحسين بن منصور الحلاج الذي قتل بسبب هذه العقيدة سنة 309. ومن أبياته في الحلول قوله:

سبحان من أظهر ناسوته ... سرَّ سناً لاهوته الثاقب

ثم بدا لخلقه ظاهراً ... في صورة الأكل والشارب

حتى لقد عاينه خلقه ... كلحظة الحاجب بالحاجب

وقال بعضهم صراحة بالتثليث، وأن التثليث أساس يقوم عليه أمر الخلق كله، ولكنه تثليث اعتباري قائم بالفردية الإلهية. وبهذا المعنى يجهر ابن عربي في غير مبالاة في قوله:

تثلَّثَ محبوبي وقد كان واحداً ... كما صير الأقنام بالذات أقنما

وليست نظرية الصوفية فيما يسمونه النور المحمدي (أو الحقيقة المحمدية) الذي يقولون إنه كان في القدم قبل أن يخلق الله العالم، وأنه بواسطته ومن أجله خلق الله العالم، سوى صورة من صور النظرية المسيحية في المسيح الذي يطلقون عليه اسم (الكلمة) ويقولون أنها كانت في الأزل مع الله، وأنه بواسطتها ومن أجلها خلق الله العالم

سادسا - الفلسفة الهندية التي دخلت الإسلام عن طريق فارس وما وراء النهرين وما جاورهما من حدود الهند، فإن المسلمين لم يفتحوا الهند إلا في القرن الرابع الهجري (في زمن السلطان محمود الغزنوي المتوفى سنة 421)، ولكن الفلسفة الهندية البوذية والتصوف الهندي قد شقا طريقهما إلى بلاد الفرس وما جاورها بل الفتح الإسلامي بنحو ألف سنة، وقد كان كثير من بلاد هذه الناحية مراكز مشهورة بالتصوف غاصة بالإدارة الوثنية القديمة: نخص بالذكر منها مدينة بلخ

ومما هو جدير بالذكر في هذا المقام أن كثيراً من أوائل الصوفية في الإسلام قد جاءوا من بلخ هذه وما جاورها، وبواسطتهم دخل في التصوف الإسلامي كثير من النظريات الهندية والتقاليد البوذية في مجاهدة النفس ورياضتها وتعذيب البدن وما إلى ذلك. من هؤلاء إبراهيم بن أدهم الذي يقول عنه الأستاذ جولدزيهر إن قصته قد حيكت على مثال قصة بوذا من أنه كان من بيت من بيوت الملك فزهد في الملك والدنيا بأسرها وعاش من عمل يده؛ ومثل أبي يزيد البسطامي الذي كان من أصل فارسي زرادشتي تلقى عقيدة الفناء عن أبي علي السندي، كما تلقى عنه الطريقة الهندية المعروفة بمراقبة الأنفاس؟ والفناء الذي يتكلم عنه أبو يزيد والذي شاع بعده في كلام الصوفية جميعهم هو ما يسميه الهنود (زفانا) أي انمحاء الشخصية الفردية والشعور بالوحدة العامة للوجود. ومما يدل على أن عقيدة الفناء هندية الأصل أنها ظهر أول ما ظهرت في كلام الصوفية من الفرس أمثال أبي يزيد البسطامي، وليس لها وجود في عبارات أهل مصر والشام أمثال ذي النون المصري مع أن ذا النون كان من معاصري أبي يزيد

كل هذه العناصر وعناصر أخرى ثانوية الأهمية دخلت التصوف الإسلامي فغيرت من عادته وصورته، وعنها جميعها ظهرت ناحية من نواحي الحياة العقلية الروحية في الإسلام على جانب كبير من الأهمية، لأنها مرآة نرى فيها النشاط العقلي والروحي على السواء، كما نرى فيها وصفا دقيقا لأحوال النفس الصوفية في أرقى درجات صفاتها، ومحاولات فلسفية أراد بها أصحابها وضع نظريات في طبيعة الوجود أو طبيعة المعرفة أو طبيعة الإنسان ومركزه من الله والعالم

ولم يقف الصوفية، كما لم يقف فلاسفة الإسلام من هذه المصادر كلها موقف سلبيا، أي لم يكونوا مجرد نقلة أو مرددين لأقوال غيرهم ترديد الصدى للصوت، بل مزجوا كل

هذه العناصر المختلفة المتباينة مزجا ربما لم يعهده تاريخ الفلسفة ولا تاريخ التصوف في أي أمة أخرى، وخرجوا بعد كل ذلك بمذاهب في التصوف الفلسفي كان لها أثرها ولها خطرها في تطور الفلسفة والتصوف في القرون الوسطى والحديثة، لاسيما بعد أن بلغ التصوف الذروة الفلسفية في مذاهب أمثال محي الدين بن عربي، وشهاب الدين عمر السهروردي المقتول، وعبد الحق بن سبعين الأندلسي، وعبد الكريم الجيلي، والصدر القونوي، وجلال الدين الرومي، وعبد الرحمن جامي وغيرهم من هذا يتبين أن كل نظرية في نشأة التصوف الإسلامي قائمة على فكرة إرجاعه إلى أصل واحد مقضي عليها بالفشل. إذ قد رأيت النواحي العديدة الإسلامية وغير الإسلامية التي استمد منها التصوف مادته.

ولكن بعض المستشرقين إن لم يكن أكثرهم لم يروا حرجا في القول بأن التصوف الإسلامي قائم على أصل واحد أو مستمد من جهة واحد: فذهب الأستاذ فون كريمر ودُوزي إلى أن أصل التصوف الإسلامي هندي أساسه مذهب الغيدانتا؛ وذهب الأستاذ (مركس) إلى أن أصله الفلسفة الأفلاطونية الجديدة؛ وقال الأستاذ برون إنه فارسي في جوهره وإنه نتيجة لرد فعل أحدثه ثوران العقل الآدمي ضد الدين الإسلامي الفاتح. وربما كان الأستاذ نيكلسون أكثر اعتدالا وأوسع نظرا من هؤلاء جميعاً، إذ يعترف أن التصوف الإسلامي ظاهرة معقدة غاية في التعقيد، وأن أصوله متشبعة كثيرة لم يكشف البحث الحديث إلا عن بعضها فقط

والحق أن كل نظرية من هذه النظريات إنما تعبر عن جزء من الحقيقة لا الحقيقة برمتها، وأن الذي دعا هؤلاء المستشرقين إليها قصرهم النظر على ناحية خاصة من التصوف دون

النواحي الأخرى وملاحظتهم لبعض جهات الشبه بين التصوف الإسلامي والأحوال التي قالوا إنه مستمد منها ناسين أو متناسين الثقافة الإسلامية والعقلية الإسلامية التي هضمت كل ما وصل إليها من عناصر الفلسفة والتصوف الأخرى، واستخلصت لنفسها فلسفة وتصوفا جديرين بالبقاء وجديرين بأن يطلق عليهما اسم الفلسفة الإسلامية والتصوف الإسلامي

أبو العلا عفيفي

صديق من صنوف الأعداء

للأستاذ أمين الخولي

- 1 -

مرت القرون تترى، والغرب يرمي الشرق بأفلاذ أكباده، ويرصد لكيده أنفس عتاده، ويهيج لقتله غطاريف أجناده، والشرق صامد باسل، صابر على هذا البلاء النازل. . . يا عجبا! هما يتنازعان قبرا، وإن يكن لسيد الحواريين، وكلاهما يؤمن أنه مرفوع، وفي السماء قار. ليس في الأرض مرقده، ولا بين أطباق الثرى جسده. ولولا دفع الله الناس بعضهم لبعض لفسدت الأرض. حكمة الله وسنة الاجتماع، لتتصل الأسباب، وتتم النواميس، وتنمو الحضارات، وتتواصل المدنيات

في القرن الثالث عشر الميلادي، وهذا الأتون لما يخمد، يؤجج الحقد أواره، ويؤرث البغض ناره، كانت تتدانى قلوب بهذا التباعد، وتتعارف نفوس بالتقاطع السائد، ويأبى الله إلا أن يكون هذا الكون خيراً شيب بشر، وشراً حمل خيراً، وأن تكون الحرب ناراً ونوراً

- 2 -

كان جرمانياً صليبة، أوربياً محضاً، غربياً صرفاً؛ البابا وصيه وهو صغير، والبابا مدبره وهو كبير؛ نشأ في حضن المسيحية، وغذاه حب الكنسية الكاثوليكية، وبورك به طفلا، وفتى وزوجا وأباً، كما توج بها ملكا وأيد منها، فبسط يده أمام المذبح يقسم أن يسير إلى الشرق غازياً، ويخلص قبر المسيح فادياً، ويعز النصرانية في شرقها والغرب: ذلكم فردريك الثاني هو هنشتاوفن، إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة، وملك صقلية - 1212 - 1250م

- 3 -

لكن الشرق الساحر، بسناه الباهر، ومجده الزاخر، وعقله القاهر، وفنه الفاخر، قد فتن الأنبرور على غربيته؛ واستهواه في أوربيته، وأصباه على جرمانيته، فإذا العاهل شرقي

في هواه وميله، شرقي في علمه وفنه، شرقي في مزاجه وذوقه، شرقي في خاصته وجنده؛ وإذا هو لا يبر للكنيسة بقسم، ولا يفي بموعد،. . ثم إذا هو حرب على صاحب مفاتيح
الجنة، ينتهك حرمته، ويحقر قداسته؛ يرفع على رأسه سيفه، بدل أن يحني أمامه رأسه. وإنها لمفارقة سجلها التاريخ دهشا
- 4 -
كان ذوقه شرقيا، في جده ولعبه، في قصره وحاشيته، في مركبه وسلاحه؛ يدبر ذلك من أمره أتباع شرقيون مسلمون، قد حكى في ذلك ما عرف الشرق من قصور الخلفاء، حتى ما أفرد من مقاصير النساء أنس إلى الفن الشرقي صامته وناطقه؛ تجري حياته على أنماط وعادات شرقية تحرسه أجناد من بني الشرق المسلمين يجيد العربية فيما يعرف من لغات حتى يتكلمها ويدرس بها وكم وراء ذلك من مظاهر فنية، وولع شرقي ليس أقل من هذا شانا ولا أيسر خطراً
كان عقله شرقيا، آثر الثقافة العربية على الثقافة اليونانية وعمل على اكتساب غربه من ذلك ما يصل إليه جهده، فمنح التفكير العملي لعصره اتجاها جديداً؛ وكان أقوى وأقدر من عرف الغرب في حركة نقل المعارف عن الشرق في تلك الأعصر؛ وفي كنفه نشط مترجمون من أنحاء أوربا المختلفة، لنقل ما حفظ الإسلام من تراث الإنسانية، وذخر المدنية
ونسى أو تناسى ما بين الشرق والغرب إذ ذاك، من حروب مشبوبة، وعداوة مذكاة، فراسل ملوكه في الود، وفي العلم، يسألهم فتاوى الرياضة، وفنون الحكمة، سواء في ذلك دانى الشرق منه، وقاصيه عنه؛ فكتب إلى علماء سبتة يسألهم في شئون فلسفية، رد عليه فيها ابن سبعين أبو محمد عبد الحق بن إبراهيم الاشبيلي، كما كتب إلى الملك الكامل بمصر في مسائل مشكلة من الهندسة والحكمة والرياضة، ورد عليه الشيخ علم الدين قيصر الحنفي وغيره من علماء مصر: التي كانت تتلقى هجمات الغرب، وتلقنه أصول الحياة في وقت واحد
- 6 -
كان شرقي الوجدان، غمره فيض الشرق الروحي، ونزوعه الصوفي فلم يأسره تلقينه، ولم يعقله تعميده؛ بل كان وراء ذلك كله: دخل بيت المقدس - حفظا لناموسه - برضا الملك
الكامل صلحا فجامله المسلمون بمنع الأذان، وإذا هو يقول: والله كان غرضي في المبيت بالقدس أن أسمع أذان المسلمين وتسبيحهم في الليل. وإذا المسلمون يحسون تسامحه، فيقول مؤرخهم: إنه كانت دهريا، وإنما يتلاعب بالنصرانية. وحقا قد عرفت منه الكنيسة أشد ما عرفت في تاريخها من ثورة ونضال
- 7 -
تلك شخصية خليقة بالدرس الفلسفي والتاريخي، رجل أنقذ العقل إذ الجهل حالك، والظلام قاتم؛ وحرر الوجدان إذ العصبية طاغية باغية؛ وعرف الإسلام وتحبب إليه إذ أنكره الغرب وقاتله جاهداً جاهلا، وأخلص له الصداقة حتى لقبه قومه (السلطان المعمد).
إلا أنه فضل الشرق ومثله لا يجحد، وأنه مجد الشرق ومثله يعشق، وأنه عرف الشرق ومثله لا يجهل
- 8 -
أيها الشبان: تلك فتنة الشرق، فهل فقدها فيكم؟؟
أيها الشبان: تلك روحانية الشرق، فهل خسرها بكم؟؟
أيها الشبان: تلك قوة الشرق، فهل أضلها عندكم؟؟
ألا أجيبوا داعي الزمن المثوب!
أمين الخولي
الجيش والبحرية
في العصر العباسي الأول
للدكتور حسن إبراهيم حسن
أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية الآداب

استمد العباسيون قوتهم من الجيش الذي نما نمواً عظيما على أثر دخول الكثيرين في الإسلام وانضوائهم تحت لوائه، وقد بلغ عدده في عهد الخلفاء العباسيين الأوائل مئات الألوف من الجند، ووصل هذا العدد في العراق وحدها إلى 125. 000 جندي. وكان هؤلاء الجند يكونون الجيش النظامي للدولة تدفع لهم رواتبهم بانتظام. ومن ثم قلت أرزاقهم تبعا لزيادة عددهم. ولما بلغت قوة العباسيين أشدها في بغداد، أصبح الجندي يتقاضى راتباً شهريا قدره عشرون درهما (وكان الدرهم يساوي أربعة قروش تقريبا)، وكانت هناك مع الجنود النظاميين طائفة أخرى من الجند المتطوعة من البدو، وطبقة الزراع وسكان المدن الذين اشتركوا في الحروب مدفوعين بعوامل دينية أو مادية وكان تقسيم الجند تابعاً لجنسية أفراده: فمنهم الحربية وهم الفرسان الذين كانوا يتسلحون بالرماح؛ وهؤلاء من جند العرب. والمشاة وكانوا من الفرس ولاسيما الخراسانيين (وكان من سياسية الخلفاء أن يحكموا عرب الشمال والجنوب بتركهم يحارب بعضهم بعضا)؛ حتى إذا ما انقضى العصر العباسي الأول دخل في الجيوش العباسية عنصر جديد ما لبث أن غدا له النفوذ، وأصبح أشد خطراً من الخراسانيين، وهو عنصر الأتراك الذين كانوا يكونون القسم الرابع من الجيش العباسي. وما انفكت جموع هؤلاء الأتراك تتدفق سنة بعد سنة على أسواق بغداد حتى استطاعوا أن يصلوا من هذه الأسواق إلى بلاط الخلفاء ثم إلى جيش الخليفة أخيراً؛ وقد خصهم الخليفة برعايته أملا في أن يكونوا بذلك أقوى ساعد للخلافة العباسية. ومن ثم أصبحوا حراس الخلفاء، وسرعان ما أضحوا آفة على أهل بغداد الذين عانوا من جراء عنتهم وجورهم شيئاً كثيراً، وما لبث أن امتد نفوذهم إلى الخلفاء الذين غدوا تحت رحمتهم وكان أكبر القواد المعروفين في أول عهد هذه الدولة أبو مسلم الخراساني، وكان تحت

إمرته جند الشرق الخراسانية؛ وعبد الله ابن علي العباسي على جند المغرب، وأكثره عربي من بلاد الجزيرة والشام. فلما خرج عبد الله بن علي على المنصور وانتصر عليه أبو مسلم بجنده الخراساني كان هذا انتصاراً للفرس على العرب، ومن ثم رجحت كفة الخراسانيين في الجيش؛ بيد أن المنصور خشي شر أبي مسلم وشر جنده، فقضى عليه، ورأى عدم الاعتماد على الخراساني، لأن العصبية العربية كانت لا تزال في قوتها، فاصطنع كثيرين من العرب، وسلمهم قيادة جنده، كما استعان ببعض أهل بيته. فمن أعظمهم عيسى بن موسى الذي انتصر على محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن العلوي وأخيه إبراهيم. وقد ظهر من قواد العرب معن بن زائدة الشيباني، وكان من قواد الأمويين؛ واشتغل مع يزيد بن عمر بن هبيرة أمير العراق وحارب معه في واسط، ولما سلم ابن هبيرة اختفى معن حتى كان يوم الهاشمية الذي ثار فيه الراوندية على المنصور، فقاتل عن الخليفة وهو ملثم، وأوقع برجال هذه الطائفة، ثم كشف للخليفة عن نفسه، فأمنه ووصله بعشرة آلاف درهم، وسماه (أسد الرجال) وولاه اليمن ثم سجستان، فبقي فيها حتى قتله الخوارج بمدينة بست سنة 151هـ. ومن قواد العرب عمر بن العلاء وهو أعظم قواد المنصور، وفيه يقول بشار بن برد:

فقل للخليفة إن جَئته ... نصيحا ولا خير في المتهم

إذا أيقظتك حروب العدا ... فنبه لها عمرا ثم نم

فتى لا ينام على دمنة ... ولا يشرب الماء إلا بدم

وقد وجهه المنصور سنة 141هـ لإخضاع أهل طبرستان، وكانوا قد خرجوا عليه، فنازلهم ابن العلاء طويلا، وفتح بلادهم من جديد، ولم يزل ممتعا بعطف المنصور، وابنه المهدي حتى مات في خلافة المهدي

أما الآلات الحربية التي كانت تجهز بها الجنود، فلم تكن تختلف كثيراً عن الآلات البيزنطية. فكان من أسلحتهم القسي والسهام والرماح والسيوف والفؤوس الحربية (البلط)

وكانت ملابس الجند تشمل تلك الملابس القديمة الملائمة لهم والتي كانت في نفس الوقت ذات منظر يدل على ذوق سليم: خوذة، ودرع، ومنطقة، وغيان. وكانوا يعنون عناية خاصة بالسيوف التي كانوا يصنعونها بطريقة فنية، ويحلونها بالفضة. وكانت السروج

مماثلة في شكلها للسروج الإغريقية التي هي من نوع السروج الشرقية تماماً.
وكان عرض الجيش جزءا من تدريب الجند في أوائل عهد الدولة العباسية وبخاصة في عهد المنصور الذي اهتم اهتماماً كبيراً بالمسائل الحربية. وكان يحب أن يعرض جنده وهو جالس على عرشه لابساً خوذته ودرعه، فكانت تصف الجيوش أمامه في ثلاثة أقسام: عرب الشمال (مضر)، وعرب الجنوب (اليمن) والخراسانيون. ومما ذكره المسعودي في كتابه مروج الذهب عن حصار جند المأمون بغداد نتبين وصف الآلات الحربية التي كان يستعملها العباسيون في ذلك العصر. وهاك ما ذكره المسعودي بنصه: (ونصب هرثمة بن أعين على بغداد المنجنيقات ونزل في رقة كلواذا والجزيرة، فتأذى الناس به، وصمد نحوه خلق من العيارين وأهل السجون، وكانوا يقاتلون عراة في أوساطهم السامين والميازر. وقد اتخذوا لرءوسهم دواخل من الخوص سموها الخوذ، ودرقاً من الخوص والبواري، قد قرنت وحشيت بالحصا والرمل. على كل عشرة عريف، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب، وعلى كل عشرة نقباء قائد، وعلى كل عشرة قواد أمير، ولكل ذي مرتبة من المركوب على مقدار ما تحت يده. فالعريف له أناس مركبهم غير ما ذكرنا من المقاتلة، وكذلك النقيب والقائد والأمير، وناس عراة قد جعل في أعناقهم الجلاجل والصوف الأحمر والأصفر، ومقاود قد اتخذت، ولجم من مكاس ومَذاب، فيأتي العريف وقد أركب واحداً وقدامه عشرة من المقاتلة، ويأتي النقيب والقائد الأمير، فتقف النظارة ينظرون إلى حربهم مع أصحاب الخيول المعدة، والجواشن والدروع والتجافيف والرماح والدرق التبتية)
ولما ولي المتوكل الخلافة، أمر كل الجنود بتغيير زيهم القديم، وألبسهم أكسية رمادية، وأمرهم ألا يجعلوا السيوف على أعناقهم، بل يضعوها في مناطقهم حول وسطهم.
ومن أي جهة بحثنا في الجيش فإننا نصادف ما يماثلها في العصر الحديث؛ من ذلك نظام الجاسوسية عند العباسيين، فقد كانوا يستخدمون في ذلك كلا الجنسين من الرجال والنساء الذين كانوا يرحلون إلى البلاد المجاورة متنكرين في أزياء التجار والأطباء وغيرهم، لجمع الأخبار ونقلها إلى دولتهم. ولم تكن الجاسوسية العربية أكثر نشاطا ولا أعم انتشارا في بلد من البلاد منها في الدولة البيزنطية التي كانت لا تزال تنافس الدولة العربية، والتي كان أهلها في الماضي أساتذة العرب في الفنون الحربية ولكي يحمي العرب أنفسهم من غارات الإغريق أقاموا الحصون على تخوم دولتهم وهي الثغور؛ وهذا ضرب من الفنون الحربية التي تدل على نشاط العرب وولعهم بالحروب ونبوغهم الذي كان غريزيا فيهم. وكان حد سورية المقابل لآسيا الصغرى مصدرا للخطر بالنسبة إلى العرب؛ وقد تحاربت القوتان المتنافستان مدة طويلة، فكانت كفة النصر ترجح مرة في جانب العرب وأخرى في جانب الإغريق. لذلك كانت هذه الثغور وهي طرسوس، وأذنة، والمصيصة، ومرعش، ومَلطِية، تقع طورا في أيدي العرب، وطورا في أيدي الروم.
ولما استولى المنصور على المدن الرومية الواقعة على حدود سورية المقابلة لأسيا الصغرى مثل طرسوس وأذنة ومرعش وملطية حصنها وأحكم بناءها من جديد وأطلق عليها اسم الثغور
ولما ولي هرون الرشيد الخلافة أنشأ ولاية جديدة سميت ولاية الثغور، جعل لها نظاما عسكريا خاصا وأقام فيها المعاقل، كما أمدها بحاميات دائمة؛ ومنح الجند علاوة على أرزاقهم أرضا قاموا بتعميرها، وزراعتها هم وأسراتهم، فازدهرت هذه الثغور على الرغم من الحروب المتواصلة، وأصبحت أحوالها في يسر ورخاء إلى أيام الواثق، ثم أخذت بعد ذلك في الأفول، وطالما كان العلماء والشعراء الذين يؤثرون الهدوء يلجئون إلى هذه الثغور والتفرغ للبحث والدرس.
وهناك ناحية أخرى تدل على قوة المسلمين في ذلك الوقت هي الأساطيل الحربية.
ولم يكن العرب يعنون بالحروب البحرية في صدر الإسلام لبداوتهم وعدم ممارستهم ركوب البحر. وكان أول من ركبه أبو العلا الحضرمي والي البحرين في عهد عمر، فقد توجه لغزو بلاد الفرس في اثني عشر ألفا من المسلمين دون إذن الخليفة، وعادوا إلى البصرة محملين بالغنائم بعد أن فقدوا سفنهم التي عبروا بها إلى بلاد فارس. ولما علم بذلك عمر - وكان يكون ركوب البحر - غضب علي أبي العلاء وعزله. ولما فتحت الشام ألح معاوية على عمر في ركوب البحر كي يغزو بلاد الروم لقربها منه، فيكتب

إليه يردعه عن ركوب البحر
ولما ولي عثمان الخلافة ألح عليه معاوية في غزو بلاد الروم، فأذن له على ألا يحمل الناس على ركوب البحر، فاستعمل على البحر عبد الله بن قيس فغزوا خمسين غزوة بين شاتية وصائفة، كما غزا عبد الله بن سعد أبي سرح والي مصر من قبل عثمان البحر، فحارب سنة 34هـ قسطنطين بن هرقل وانتصر عليه في موقعة ذات الصواري. وفي هذه السنة أيضا فتح العرب جزيرة قبرص، كما جردوا حملة لغزو البلاد البيزنطية. ومنذ ذلك الوقت أخذت الحملات البحرية تترى على تلك البلاد
ولما ولي معاوية الخلافة عني بإنشاء السفن الحربية، وفي عهده غزا عقبة بن عامر جزيرة رودس. وفي 53هـ غزا الروم البرلس في عهد ولاية مسلمة بن مخلد (47 - 62هـ)، وقتلوا عددا كبيرا من المسلمين وعلى رأسهم وردان مولى عمرو بن العاص؛ ومن ثم اهتم أمراء مصر ببناء السفن، فأنشئت لأول مرة سنة 54 هجرية دار لبنائها في جزيرة الروضة
أما أن العرب كانوا مدينين في الأصل للبيزنطيين في هذه الناحية من الفنون الحربية فهذا أمر لا سبيل إلى إنكاره؛ إلا أن العرب الذين فطروا على الشجاعة وحب المغامرة وإن تتلمذوا للبيزنطيين في تلك الناحية فترة من الزمن، فانهم قد أصبحوا أساتذة أوروبا في هذه الفنون. يدلنا على ذلك هذه الاصطلاحات البحرية المستعملة في أوربة إلى اليوم، والتي لا تزال محتفظة بعربيتها. وكان أثر العرب في شعوب حوض البحر الأبيض المتوسط بوجه خاص ابعد مدى من غيرهم من شعوب أهل أوروبا. ويقول فون كريمر: (ومما يوضح لنا أن الأسطول العربي القديم كان نموذجا لأساطيل الأقطار المسيحية أن كثيراً من المصطلحات العربية البحرية لا تزال شائعة على ألسن البحارة في جنوب أوربا نذكر منها كلمة المأخوذة عن لفظ (جبل) العربي وكلمة وبالإيطالية المأخوذة عن لفظة (دار الصناعة) وكذا المأخوذة من لفظ (غراب) العربية، والمأخوذة عن لفظة (أمير البحر)
حسن إبراهيم حسن
تبصرة وذكرى
للأستاذ محمد أحمد الغمراوي
ليس خيراً في الاحتفال بذكرى هجرة الرسول من الاجتهاد في إحياء سنته صلوات الله عليه عن طريق التنبيه إلى بعض الأخطار التي تحف بها في هذا العصر الذي تكالبت فيه عليها الميول والشهوات ومختلف النزاعات الناجمة في الغرب، والتي توشك إن لم يجتهد أولو الرأي والدين في صدها وإيقافها عن حدها أن تطمس من نور سنة صاحب الهجرة صلى الله عليه وسلم ونور كتاب الله نفسه، فتعمى قلوب بعد إبصار، وتنشأ ناشئة المسلمين في دياجي الشك بعد أن كان يرجى أن تنشا في نور اليقين وأخطر تلك النزعات الناجمة والشهوات الهاجمة نزعة التشكيك في أحكام الدين من ناحية، وشهوة تأويلها إلى ما يتفق وما يسمونه روح العصر، أو بالأحرى رأي الغرب وحكمه من ناحية أخرى. وأصحاب هذه النزعة حين يذكرون روح العصر أو يدعون إلى اتباع الغرب إنما يريدون تقمص روح الغرب واتباع خطواته في الاجتماعيات، أي في الميدان الذي ما نزل الدين إلا لتنظيمه، وما جاء الرسول إلا لتقويم الحياة فيه. والغرب كما نبهنا في مثل هذا المقام من قبل لم يصب سنن الله إلا في عالم المادة أما في عالم الروح والاجتماع فالغرب لم يصب سنة ولا حكما، بل هو في حيرة من أمره: يضطرب بالنظم المتناقضة، ويعج بالآراء والنظريات، ويميد بالأهواء والشهوات، حتى أصبحت عوامل القوة والأمن التي أصابها من ناحية علومه الطبيعية، هي بذاتها عوامل الخطر والخوف فيه؛ وأصبح من مدنيته هذه المادية المسرفة المغرورة كالساكن على حرف بركان
لكن الذين يدعون إلى الغرب فتنتهم قوته المادية، وجهلوا ضعفه الاجتماعي، فظنوا أن القوة في ناحية معناها القوة في كل ناحية، وأنه لما كان على حق في طبيعياته، فهو على حق في اجتماعياته؛ فسبيل النهوض والقوة في زعمهم هو أن يدع الناس ما هم عليه، ويأخذوا بما هو عليه، لا يبالون ماذا يتركون، ولا يترددون ماذا يأخذون لكنهم نظروا أيضاً فوجدوا أن هذا معناه الدعوة إلى ترك كثير مما أمر به الإسلام والأخذ بكثير مما نهى عنه. والإسلام مهما ضعف في نفوس أهله فقد بقيت من روحه

فيهم ومحبته بينهم بقية لا تؤمن معها عواقب هذه الدعوة على الدعاة من ناحية، ولا يرجى معها من
ناحية أخرى أن يستجيب أهله إلى ما يخالف نظمه وأحكامه التي جرى عليها المسلمون منذ قام صاحب الهجرة صلوات الله عليه فوضح للناس الدين حكما وعملا باسم الله فاطر السموات والأرض وفاطر الناس. هنالك ذهب دعاة الغرب مذاهب، وانقسموا طرائق، فيما يدعون إليه، وكيف يحملون الناس عليه
فمنهم من نظر فإذا القوة بيده، ولاه الناس إياها في ثقة به وغفلة عن نيته، فرآها فرصة سانحة قد لا يؤتيه الزمن مثلها لحمل الناس على ما يريد، وتحقيق ما كان يتمناه من زمن بعيد، فحمل قومه على غير الدين، بنفس القوة التي ائتمنوه عليها للدفاع عن الدين. واشتط حتى كان يشنق في سبيل القبعة، ويحبس ويجلد في سبيل السفور والاختلاط؛ ولم يقف حتى جرد الدولة عن الدين. وحال في أمته بين الإسلام وبين الحكم الذي هو أخص خصائصه، وحتى استبدل بأحكامه أحكام أوروبا في الميدان الذي لم تكن أوروبا لتطمع في غزوه: ميدان الأحوال الشخصية من زواج وطلاق وتوريث. وشاءت رحمة الله ألا يطرد النجاح لهذا الصنف من المفتونين ممن أراد حمل الناس على سنن الغرب بالقوة رغم الدين، فكان من هؤلاء من أفلح قومه في الثورة عليه غضبا لدينهم حتى أنزلوه عن عرشه وشردوه عن بلده، فكان فيما لقيه من الهزيمة والتشريد بعض العزاء للمسلم الذي ينظر إلى ما يجري في أقطار الإسلام الأخرى من بعيد، وشبه إنذار لمن عساه أن تحدثه نفسه بسلوك نفس الطريق. فوقف الخطر من هذه الناحية وإن كان يخشى أنه لم يزل، إذ يخشى أن يكون هذا النوع من الخطر كامنا في بعض الأقطار ينتظر الفرصة ليشب كالنار
على أن مقلدة الغرب والمتحمسين له ليسوا كلهم ممن يستطيع أو يرجو أن يستطيع أن يحمل الناس على خطوات الغرب بالقوة. والذين ليس بيدهم القوة من دعاة الغرب لم يحملهم فقدان القوة على ترك السعي إلى غرضهم، بل هم دائبون ناصبون في سبيله لكنهم يكيفون وسائلهم بما يلائم الظروف. صحيح أن جميع وسائلهم يصح أن تتلخص في (بث الدعوة) لكن سبيل الدعوة معبد لهم ميسر، فإن جميع ما يراه الناس ويسمعونه في ملاهيهم ومتروضهم، وجميع ما يقرأونه للتسلية لا يخلو مما يتألفهم إلى ما ينافي الدين ويبث فيهم روح الغرب الماجن من حيث يعلمون ومن حيث لا يعلمون؛ فالأغاني بألحانها ومعانيها المتهالكة، والراديو بما يذيعه من مهازل المسارح ومماجن الصالات، والسينما بما تعرضه
من روايات صنعت في الغرب لتمثل فيما تمثل نواحي الشهوات فيه بما يغري بها الناس، والمجلات والجرائد بما تنشر من قصص غير طاهر وصور غير نقية منقول أكثرها عن مجلات الغرب وجرائده من غير نظر إلى الشرق وإلى البلاد الإسلامية منه على الأخص - كل هذا وكثير غيره يعمل عمله في النفس المسلمة الناشئة وغير الناشئة فتضعف من روح التدين فيها، وتمهد للغرب ودعاته سبيل الاستيلاء عليها هذه العوامل في ذاتها خطر كبير، لكن لا يزال هناك في المسلمين شعور بأنها خطر، وأن من الواجب مقاومتها والعمل على تلافي آثارها. صحيح أن هذا الشعور أكثره كامن لا يبدو إلا حينا بعد حين، وإذا ظهر قويا فترة عاد إلى مكمنه فترات، لكنه على أي حال شعور سليم، وهو على كل حال موجود منتشر، ووجوده هو معقد الأمل والرجاء أن يصير يوما ما قوة دافعة تدفع هذه الكتل البشرية الإسلامية في طريق الإسلام لتحيا في بلادها حياة مسلمة، ولتقيم على الأرض مرة أخرى دولة لا يكون الحكم فيها إلا لله العلي الكبير
لذلك كان الخطر الأكبر والشر الأعظم هو ما اتجه إليه دعاة ما يصح أن يسمى باللاإسلامية، من تخدير هذا الشعور الإسلامي وإضعافه ثم إطفائه لما أوجسوا منه خيفة، ورأوا في إحساس المسلم بفرق ما بين تعاليم الغرب وتعاليم الإسلام، عقبة العقبات في سبيل دعوتهم التي يبثونها والتي ما فتئوا يوهمون الناس أن الخير كل الخير فيها. فتقت لهم حيلتهم ولطف كيدهم أن ينيموا هذا الشعور ويزيلوا هذا الإحساس فاتخذ كل منهم سبيلا إلى نفس الغاية، أو بالأحرى لم يدعوا سبيلا إلى تلك الغاية إلا سلكوها.
فمنهم من جعل يوهم المسلم المحافظ المتحفز للمقاومة أن المقاومة غير مجدية.

وان روح العصر لاشك غالب. ففيم المغالبة والأمر مفروغ منه والنصر مكتبو لأهل الرأي الجديد من الجيل الجديد؟ وهذه طريقة قد آثرت في كثيرين بل قد أفلحت مع بعض من كان يظن انه اعقل وابصر من أن يجوز عليه هذه الخدعة من أهل القلم من المسلمين، فكتب حديثا ييئس فئة الشباب المتمدين في حركتهم الدينية الحديثة ضد الاختلاط، لا لأن الاختلاط عنده صواب ولكن لأن وقت المقاومة قد فات، إذ الاختلاط قد بدأ منذ خمس عشرة سنة أو يزيد! ولو كانت هذه الحجة على أساس من الحق لما أصابت الدعوة اللاإسلامية شيئا من النجاح، لأن عمرها كله لا يزيد على ربع قرن، ومع ذلك لم ييأس أهلها أن يبدءوها برغم القرون

الكثيرة التي رسخت فيها تلك النظم والتقاليد الإسلامية التي قاموا لمحاربتها: وقد بدأوها بالفعل وأصابوا - لما اغتر المسلمون بقوتهم وضعفها - هذا النجاح الذي أوحى إلى ذلك الكاتب المسلم ما وحى من الكلام.

ومنهم من يحاول إدخال الطمأنينة على قلوب المسلمين المتململين بإيحائه إليهم أن لا ضير ولا خوف على الدين من ترك دعاة ما يسمونه الجديد يبشرون دعوتهم يمينا وشمالا في أذهان الاطفال، وفي عقول النساء والرجال، لأن الحق سيتضح والباطل سينهزم والأصلح سيبقى، وبتركهم يفهمون أن الباطل سينهزم من نفسه، والحق سينتصر على رغم قعود أهله، وأن الدين له رب يحميه؛ وإذن فليس هناك من داع إلى أن يعملوا هم على نصرته أو يكلفوا أنفسهم مشقة الجهاد في سبيله. ويصادف هذا الإيحاء نفوساً تحركها للقيام كتحركها للقعود، فنجنح إلى القعود والراحة مرة أخرى وتترك الميدان خلواً أو شبه خلو لأولئك الدعاة، وهي بذلك تعرض نفسها للهلاك لأن رب الدين حين يحمي الدين يحميه طبق سنته التي خلت في الأولين بإهلاك القاعدين واستخلاف غيرهم من المجاهدين الذين (يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم؛ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء).

وأبلغ في الكيد من هذا إذا أرادوا أمراً وعارضهم حكم الدين أن يشككوا في ذلك الحكم ويزعموا للناس أن ليس في الدين ما يمنع مما يريدون؛ فإذا قيل لهم إن الحكم ثابت عن طريق الإجماع أنكروا الإجماع إن يكون أصلا من أصول الدين، أو طالبوك بأن تثبت انعقاد الإجماع؛ فإذا جئت لهم بالنص على انعقاده تجده في بطون الكتب، جوزوا أن يكون الكتاب قد أخطأ أو أن يكون صاحبه قد كذب، أو احتجوا لرأيهم برأي شاذ لبعض من كان لعله مثلهم في ماضي الإسلام من الخارجين عن جماعة المسلمين. ولو كان الحكم لا يثبت في الدين لرأي شاذ يراه واحد ولو كان من أهل العلم ما انعقدت بيعة أبي بكر، فإن خلاف سعد بن عبادة وهو من كبار الصحابة في أمر تلك البيعة معروف، بل إذا كان الحكم في جماعة ما يمكن تعطيله بمثل حجتهم الواهية هذه ما أمكن تنفيذ حكم أو دستور في أمة من الأمم في هذا العصر أو في أي عصر، ولكان قولهم هذا أبلغ ما يبرر به حكم الفرد، إذ يصير حكم الفرد في هذه الحالة هو البديل الوحيد من الفوضى

فإذا كان في الحكم نص من السنة الكريمة واحتججت للحكم بذلك النص شككوا في السنة

وقالوا إن الذي وضع على الرسول كثير، فلعل هذا من المكذوب الموضوع. فإذا قلت إنه قطعا ليس من الموضوع لأنه وارد في الصحاح، قالوا إن الحديث الصحيح لا يمكن الجزم بأنه ثابت قطعا عن الرسول، فإن ما ثبت قطعاً عن الرسول هو المتواتر وهذا محدود معدود

ويحاولون أن يشككوك في الحديث جملة باستغلال أمانة علماء الحديث ومبالغتهم في التدقيق عند تمييز درجات الحديث، إذ جعلوا الاحتمال العقلي البعيد للسهو أو النسيان أو الخطأ فارقا بين الصحيح وبين ما لا يمكن أن يتطرق إليه إلا ذلك الاحتمال وهو المتواتر مع أن حديث الرسول قد محص بما لم يمحص به حديث أو رأي أو فعل صدر عن بشر كائنا من كان، وأن هذا الحديث الصحيح قد صح عن الرسول بالسند الممحص المنقود فاختبر عن طريق تمحيص السند من بين مئات الآلاف من الأحاديث فلم يتجاوز عدده بضعة الآلاف، منها كثير مشترك. والمبالغة في التدقيق فقط هي التي تجيز عقلا من بعيد ألا يكون مثل هذا الحديث مقطوعا بصدوره عن الرسول برغم ذلك التمحيص الدقيق. ولو كان مثل هذا الاحتمال مسقطا للحديث لسقط التاريخ كله

ولكان من العبث الاعتماد على تاريخ، أو كان هذا الاحتمال يجيز إهمال الحديث فلا يعمل به لجاز إهمال كل ما هو في مرتبة دون مرتبة اليقين في العلم وفي الفلسفة، مع أن العلم يتمسك بالنظرية الراجحة حتى يثبت بطلانها؛ وأولئك المشككون أنفسهم يستندون في تدعيم آرائهم إلى آراء ونظريات هي من ناحية الثبوت في العلم أو الفلسفة دون مرتبة الحديث الصحيح بكثير من ناحية الثبوت في الدين. على أن الإجماع منعقد بين المسلمين على اختلاف مذاهبهم بوجوب الأخذ في الأحكام بالحديث الصحيح، بل إن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يأخذون في أحكامهم بالحديث يثبت عن الرسول عن طريق فرد ذكر أو أنثى، وكانوا يرجعون عما عساهم يكونوا ارتأوه أو حكموا به مما يخالف ذلك الحديث كما ترى توجيه ذلك مفصلا في الرسالة التي كتبها الإمام الشافعي مقدمة للأم في الأصول

ويلتحق بهذا النوع من كيد أولئك المشككة المعطلة ما يحاولونه من تعطيل القرآن وإبطال مفعوله عند المسلم بالتوسع في تأويله وصرف الآي عن وجهه وتخصيص عمومه وتخريجه على نحو يوافق ما يريدون ويعتقدون من آراء الغرب ونظرياته. ولقد لطفت

حيلتهم في هذا حتى وقع في أحبولتها بعض قصيري النظر ممن ينتسبون إلى الدين من المسلمين؛ ووقوع ولو واحداً من رجال الدين في أحبولتهم تلك دليل على مبلغ الخطر الذي يحف بالإسلام اليوم في بلاده وصميم أهله. وإذا لم ينهض المسلمون لدرء هذا الشر ويصدقوا الله الجهاد فيه غير متوانين ولا متواكلين ولا مسوفين، فسيجزيهم بتراخيهم ذلة في الدنيا، ويستخلف من بعدهم قوماً آخرين يؤيد بهم دينه الكريم (ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز).

محمد أحمد الغمراوي

في ظلال الهجرة

غزوة بدر

للأستاذ إبراهيم مأمون

ذكْرى، كما شاء الزمانُ أجالَها ... وخطى نكرتِ العالمين حيالَها
ما المرسَلات وما العواصفُ؟ ويحُها ... هل جزْن بيداً، أو طويْنَ تلالَها؟
وإلاَمَ يحتثّ الهجان حُداتها ... في مهمَهٍ سبقتْ عليه ظلالَها؟
قل للطوائر في الجواءِ حوائما: ... ربُّ السماءِ لغيركنّ أحالَها
للريح. تنتظم الغمام ظعائناً ... وتُمدّ من لُمَعِ الشعاع كلالها
حرم السماء مجالُها، وكأنها ... سفنٌ تخذْن من الغباب مجالها
يَمشْين في حرس السماء، تُديرها ... أيدي الهواء. وما وَعَيْنَ عِقالها
هي آذنت (بدراً) بنصر (محمد) ... وعلى يديه اسْتنزلَتْ آمالها
جاءت (بجبريل السماء ووحيها)، ... وحَدَتْ بآمال العلا (ميكالها)
تلك السماء تَشَقّقتْ بغمامِها ... تولي الرّسالة في (العريش) صِيالَها
أزْجَتْ إلى جيش الحنيف مَلائكا ... لَمس القليبُ طِعانها ونزالها!
مَثلَ الحمام برَفْعها وبخَفْضها، ... وجرى الهوانُ يمنَها وشمالَها!
سائِلْ جلود الشرك عن تبْريحها ... والشركُ يبكيها، ويندبُ آلها
واستَواحِ أشلاءَ القليب. فإنها ... تبْيانُ (بدرٍ) إن أردْت مَقَالها
يا يومَ بدرٍ: والمواقفُ جمةٌ ... فيكَ الحنيفةُ زايلَتْ أسمالهَا
لبست دروعَكَ سابغات في الوغى ... ومضتْ بساحِكَ تستثير رجالها
تلقى (محمداً النبيّ) يقودُها ... ويُعزُّ رايتها، ويُنْهض قالها
ويذودُ عنها العادياتِ بحلمِهِ ... حيناً، وحيناً يستجيبُ قتالَها
ما اللاتُ؟ ما العزُىّ؟ وأينَ مناتهمْ؟ ... غال الحنيف عبادها، وأزالهَا
والشركُ نكسه الجهادُ، فلم يقمُ ... أرأيتَ (هنْداً) مَثّلَتْ أمثالَها؟
تدْعو النساءَ إلى العويل، وتنتضي ... سيفَ المَهانِة لم يغث أبطالها
تُغري الوغَى بملاحمٍ دَمويَّةٍ ... شعواءَ تُنهض بالرماح سَجالها
بعثتْ من البيض الخفافِ رسالةً ... حَلَقَتْ لها يا فوحَها وقَذالها
وجَفتْ غدائرها وألقت قُرطَها ... وتناهبت حسراتُها خَلخالها
تحدو الرجال إلى المواقعِ تارةً ... وتسير أخرى تستفِزَّ خبالها

كوَساوس الشيطان أغرتْ مؤمناً ... فجفا مودَّتها، وعافَ وصالها!
ما غاظها جيشُ السماءِ. وإنما ... جيشُ (المهاجر) يوم بِدْر غالها!
بَرز الَحنيفُ على الحياض إلى الردى ... يرمي الجهالةَ أو يَدُعَّ مِطالها!
وكأنَّ أرضَ اللهِ تقذفُ ما بها ... وسماَءهُ تولى النبيَّ نِضالها!
والكفر في بؤر الخنا متطلعٌ ... للعدوة الدنيا يرى رئبالها!
ويحسّ في كفيه أنفاسَ الوغَى ... تُبْدِي من الصمتِ الرزين مَلالها
ألوى بجيْش الشّرك مَرهُوبَ القنا ... ونَضا قراهُ، وما نضَتِ سِربالها
يا باسطَ الكفين في كنفِ العُلا ... تَدْعو السماَء. وما تركْتَ سُؤالهَا
النصر وافى، واصطفتْك مغانمٌ ... والله قسمَ بينَكم أنفالَها
فلذات مكة في رباك سوَائل ... ترجو نَدَاك وما رجوتَ نوالها!
كانت تريكَ ببطن مكة بغيَها ... أفلا أرتك لدى الوغى استبْسالَها؟
خيرَ البرية: تلك عقبى صابرٍ ... لاحتْه مكة: ظاهرت جُمالَّها
جنباتُ مُلكِ الله فزَّع دُعمها ... دعَواتك اللائي نثرتَ إلا لهَا
والعرشُ حوّم في رحاب المنتهى ... يُصْغي لسدرتها وأنت حِيالَها
ويمدّ أجنحةَ الجلالَ لمنكبٍ ... بادي اللآلئ يجتلى لألَّها
جافته برْدتُك الشريفة مذ رأت ... ملأ العلا يُضفي عليه مثالها
لو يعلم (الصدَّيقُ) عند وقوعها ... ما تَرْتديه لهالهُ ما هالها!
وسبَاه من وادي السَّنا لمحاتُه ... ومَضى إليها يبتغي إمْهالها!
ليرَى تحيتها لوجْهك ضاحياً ... ويَراك توليكَ العُلا إجْلالها!
ويَراك والسبْع الطباقُ خواشع ... ويَراك والدنيا تَراك ثمالَها!
نور الجلالة تحت ثوبك مشرق ... يَهدي السماَء نجومها وهلالَها،
من غير هَدْيك ما تبسم طالع ... في أمة أغْرَى الهوَى إهمالَها!
تلك الخلائق ما محمَّدُ: أعرضتْ ... ورأت حرامَ الراشدين حَلالَها!
رجعتْ بها الأهواءُ عن غاياتها ... وتنَقَّصَتْ في العاجزين كمالها
فُتنتْ بزائفة النهوض، ولو رأتْ ... مَجْدَ الأوائل أكْبرتْ أطْلاْلهاَ
كَفَرتْ على مهْدِ الندى آباَءها ... وجَفَتْ على قرْب المدى أخوالها
جادتْ على وادي السماح برُوحها ... للناهبين، وما رعَتْ إقلالها
جعلت لخاذل دينها تسليمَها ... ولناصريه المتّقين جدالها
ولو إنها التمستْ هداك لصافحتْ ... غُدُوَاتكِ البيض الخطا آصالها
ما اعتزّ من عزّوا بغيرك هاديا ... وبغيرك الدنيا رأتْ إذلالها
خطرتْ تجر القيْد تحسب أنها ... بلغتْ أمانيها أو استُقْلاِلها!
نشوى بحكم الفرْد صاغ من العصا ... قلمَ المؤدّب يحتوي إملالها
تدعو وتنهض في الحياة مُضَلَّلاً ... جعَل المتاحَ من الأمور مُحالها
تتزاحم الشورى على أبوابها ... فتشيح عنها تبْتغي أبطالها!
ويميتْ أكفاء الرجال هداتُها، ... وَيْح المواهب لا ترى اسْتغْلالها!
وأدُوا البنين، كأنّ شرعتك انتهت ... وكأنّ عُدْوانَ الزمانِ أدالها!
وكأنّ بغي الجاهلية لم يزَل ... يُلغِي الحقوق ويَزْدري سَألها!
ولعلَّ من وأد البنات أثابها ... والجاهلية ترتضي إغْفَالها!
يا آسيَ التقوى: جفاها طبُّها، ... بكَ تستجير، فهل ترى ابلالها؟
ذاق الأمَّرين الأساةُ، وأخفقوا؛ ... فمن الذي يشفي العقام عضالها؟
لَّجت بصيحتها المشارقُ لم تجد ... كفا تحلّ بحزمها إشكالها!
نُعلي المعابدَ لا قنوتَ لخاشعٍ ... فيها؛ ولا تَلقى هناك (بلالها)!
ما أكثر الداعين باسم هُداتها ... حتى إذا نُودُوا جَفوا أقوالها!
ورأوْا مبادئها مسبةْ جيلهم ... وكأنها لم تنتظم أجيالها!
هي تلك يا طه شريعة دينهم؟ ... أمْ تلك دنيا يشربون نهالها؟

إبراهيم مأمون
في الأدب المقارن
الشعر والنثر
في الأدبين العربي والإنجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

الشعر أسبق ظهوراً من النثر في عالم الفن الذي يحتفي صاحبه بإنشائه وتنميقه، ويتعمد إيداعه شعوره وأفكاره على نحو جميل يراد له السيرورة والبقاء. فالشعر يظهر ويرتقي والأمة ما تزال متبدية قليلة الحظ من الثقافة وأسباب العمران، أما النثر الفني فلا تدعو الحاجة إليه ولا تتم وسائله إلا في أمة متحضرة مستقرة واسعة الثقافة منتشرة فيها الكتابة الخطية، فالكتابة الخطية تتيح للكاتب أن يتوفر على إنشاء النثر المنمق، الذي يحوي تعميقاً في التأمل واتصالا في المجهود الأدبي وتدبيجاً للفظ، وتتيح أيضاً للنثر الفني أن يبقى ويذيع. أما الشعر فهو غني بموسيقاه ورويه عن تقيد الطروس، وهو أهل للنهوض بحاجة الأمة المتبدية، من التعبير عن عواطفها وأفكارها البسيطة؛ ومن ثم ارتقى الشعر الإغريقي كما يتمثل في ملاحم هوميروس رقياً عظيما، والأمة ما تزال إلى البداوة أقرب، وتطور حتى تفرع منه فن جديد هو فن التمثيل، كل ذلك قبل أن تتوطد قواعد النثر اليوناني، وقبل أن يبلغ مبالغه على أيدي هيرودوت وتيوسيد وأفلاطون.

وكلا الشعر والنثر مدينان في ظهورهما ورقيهما - كسائر الفنون - للدين والدولة بفضل عظيم: ينشأ الشعر مختلطا بالموسيقى مصاحبا للرقص في الحفلات الدينية، التي تحفلها الجماعات الأولى في مواسم آلهتها، وينفصل عن الموسيقى والرقص ويخرج من حظيرة الدين إلى حظيرة الدولة، فيمدح الملوك ويزين قصورهم كما كان يفعل الشعر الإغريقي في عصر الطغاة، وعلى أيدي الكهنة يتألف أول ما تعرف الأمة من مبادئ النثر الفني، من نبؤات مسجوعة وحكم وعقائد مدونة أو شفاهية وقصص عن الملوك والآلهة، ثم ينحاز الكتاب الناثرون كما انحاز الشعراء إلى بلاطات الملوك ودواوينهم، يزجون بضائعهم وينزلون آمالهم؛ ثم يستقل الشعر والنثر عن حظيرتي الديانة والدولة قليلا قليلا، بشيوع الرقي العقلي وانتشار الثقافة وتميز شخصية الفرد عن شخصية الجماعة، فيصبح كل منهما

فناً غايته التعبير الجميل عن شعور الإنسان بالحياة، وعلى قدر تحرر كل منهما من العلاقة بالكهان وبالحكام، وتخلصه من الغرض المادي يكون رقيه الفني وصدقه في أداء رسالة الحياة.

فبانتشار الحضارة والثقافة يرتقي الشعر عما كان عليه في عهد البداوة، ويظهر بجانبه النثر فناً ثانياً مترجماً بالألفاظ عن شعور الإنسان وتفكيره، منافساً له في كثير من مواضعه ومعانيه. فيتقاسمان النهوض بمهمة الأدب، ويظهر من الأدباء من يجمعون بين الفنين، يبرزون في كليهما أو يشتهرون بأحدهما فوق اشتهارهم بالثاني. ويشارك النثر الفني الشعر في كثير من خصائصه، أي خصائص الفنون جميعاً، كالموسيقية، والخيال، والتقابل، والتماثل، والتجاوب؛ بيد أنه وإن تشارك الفنان في شتى الخصائص والموضوعات، فما يزالان متميزين في خصائص، مستقلا كل منهما دون الآخر بموضوعات هي به أشبه وهو على تأديتها أقدر. فللشعر قصب السبق فيما هو أدخل في باب الخيال والعاطفة والشمول والغموض أحياناً، وللنثر ما هو أقرب إلى التفكير والمنطق والدقة والترتيب والاستقصاء، ومن ثم يلجأ الشاعر الناثر إلى الشعر طوراً وإلى النثر تارة

فالشعر والنثر كلاهما قادران على تأديته أغراض الوصف والحكمة والعتاب والاعتذار والفكاهة؛ وربما رق النثر في كل ذلك وتشبع بالخيال حتى صار أشبه بالشعر، لا يميزه عنه سوى انعدام الوزن وإن ساواه في الموسيقية؛ أما الحماسة والنسيب مثلا فالشعر أمهد لهما سبلا وأرحب مجالا، إلا أن يجيء النثر الحماسي خطابة فيكون له من رهبة الموقف وتعبير سيماء الخطيب وهيبة محضره عوض عما يمتاز به الشعر من خيال وروعة واستجاشة للعواطف، ومن ثم كانت الخطابة من أشبه فنون النثر بالشعر؛ وأما في سرد الوقائع التاريخية أو القصص الفردية، أو تقرير الحقائق العلمية والأدبية، فالنثر أرحب بكل ذلك صدراً وأطول باعاً. ومن ثم كان نقد الشعر والأدب عامة وتسديد خطى الأدباء وإظهار محاسن الشعراء من أهم وظائف النثر التي يضطلع بها إذا ما توطد وساير الشعر جنباً لجنب

وقصارى القول أن موضوعات الشعر والنثر يتباعد طرفاها، ويلتقي الطرفان الآخران

حتى يختلطا؛ وإن الروح الشعري قد يكون في النثر الجيد كما قد ينعدم من النظم الرديء؛

ولما كان الشعر والنثر يعبران مشتركين عن شتى خوالج النفس الإنسانية، فمن الطبيعي أن يرتقيا معاً في عصور الرقي الإنساني وينحطا معاً في عصور الانحطاط. بيد أنه يلاحظ بجانب ذلك أن أحدهما ربما ارتقى وفاز باحتفاء الأدباء والثاني في انخذال وقعود، تبعاً لما تميل إليه نزعة الشعب في عصر من عصوره، فكما يختلف الفرد الواحد بين نزعة الخيال والعاطفة والخفة أحياناً، وبين نزعة التأمل الوقور والاستقصاء الهادئ للحقائق أحياناً حسب اختلاف أطوار النفس الإنسانية الخفية الأغوار المنقلبة الأطوار، كذلك تمر الأمم بعصور طموح ومغامرة يزدهر فيها الشعر والنثر الشعري، وبعصور هدوء وركود، وتأمل علمي وفلسفي، يغزر فيها النثر ويلعب دوراً كبيراً ويخفت صوت الشعر

فإذا نحن رسمنا لأطوار الشعر والنثر دورة، كتلك التي رسمها أرسطو لنظم الحكم في المدن اليونانية، بين ملكية وارستقراطيه وهلم جراً، كان أول أطوار تلك الدورة طوراً شعرياً طويلا، يبلغ ذروته بنهضة الأمة بين الأمم، ونيلها نصيباً وافراً من الحضارة والثقافة، يلي ذلك طور نثري يشتغل فيه النثر بنقد ما تجمع لديه من آثار الشعراء المتقدمين، وينخذل الشعر في أثنائه أو عقبه مباشرة؛ فإذا ما انبثت في الأمة روح جديدة جاء طور شعري جديد سابق أيضاً، يليه طور نثري وهلم جراً. ولعل في تاريخ الأدب الفرنسي مثالا لذلك واضحاً: إذ سبق الشعر الفرنسي بالظهور على أيدي التروبادور ورونسار، ثم نهض النثر على أيدي رابليه ومونتين في عهد النهضة الأوربية، ثم نهض الشعر مرة أخرى في عهد لويس الرابع عشر على أيدي كورني وراسين، ثم كان القرن الثامن عشر عهد نثر طويلا ظهر فيه فلتير وروسو، ثم كانت النهضة الرومانسية الشعرية فظهر لامرتين وهوجو، ثم نهض النثر بانتشار الحركة العلمية وذيوع القصة، وظهور القصاصون كبلزاك وموباسان، والنقاد كرينان وتين

يتشارك النثر والشعر - منذ ظهور النثر الفني - في تأدية رسالة الأدب ويتشابكان موضوعات وغايات، ويتراوحان صعوداً وهبوطا مع تعاقب العصور، ويظهر النوابغ في كل منهما، وينال هؤلاء وأولئك حب المثقفين وإعجابهم؛ بيد أن الشعر يظل آثر لدى المثقفين وأكثر استئثاراً بحفظهم وساتشهادهم، ويظل الشعراء أحظى بالرعاية والاهتمام، وآثارهم أحظى بالدرس والنقد. وإلى الشعر والشعراء ينصرف الذهن أول ما ينصرف إذا

تحدثنا عن الأدب أو فكرنا في الأدباء، أو أردنا الموازنة والاستشهاد أو التدليل على صحة نظرية. وبأسماء فحول الشعراء تسمى عصور الأدب المتتابعة في تاريخ الأدب الإنجليزي، كل ذلك لما يمتاز به الشعر من تضمين المعنى الشامل اللفظ الموجز، والنظرة النافذة القول الرصين، وما يتوفر عليه من شرح العواطف والذكريات، والآمال والأشجان والإطراب، ومازال الإنسان أكثر انجذاباً إلى العاطفة منه إلى الفكر، وهو من ثم يؤشر الشعر على النثر.

نشأ الشعر العربي وارتقى في البادية، سابقاً للنثر، إذ بلغ ما بلغه من الرقي على أيدي أصحاب المعلقات وأضرابهم، والنثر لا يتعدى بعد الخطب القصار والحكم المنثورة والأسجاع المأثورة والوصايا المتفرقة. نعم كان للقبائل خطباء كما كان لها شعراء. ولكن العرب كانوا بالشعر أولع حتى عدوه معرض مفاخرهم، وقالوا: (الشعر ديوان العرب)، ولم يقولوا: (الأدب) ولا (الخطابة). ولم تذع كلمة النثر حتى تحضروا وتثقفوا وانتشرت بينهم الكتب. وكان الشعر والنثر معا في بدء أمرهما مختلطين بالدين والدولة، فشاعر القبيلة كان وزير دعايتها بتعبير العصر الحاضر، والشعر والسحر والكهانة والعرافة والتنبؤ والسجع كانت معاني وألفاظا متلاحمة الوشائج. وقد كان للدين بين العرب من أقدم عصورهم مكان، وأخرجت جزيرتهم عدداً من الأنبياء عديداً، وكان الشعر إلى ظهور الإسلام ينشد في المواسم الدينية، وتخاطب به الآلهة، من ذلك قول بعض اليمانيين في طوافهم:

عك إليك عانية ... عبادك اليمانية

ولم يفصم الشعر والنثر العربيان يوما علاقتهما بالدين والدولة، بل ظلا طول عصورهما على اتصال بهما متين؛ بل بفضل الدين احتوى النثر العربي على أثر فني لا يجاري

بلاغة، بل هو نموذج البلاغة الذي ظل يحتذى ويدرس ويقتبس في النثر والشعر معا طول العصور، وهو القرآن الكريم، وبقيام الملك على أساس ديني اتصلت علاقة الأدب بكلا الملك والدين، وظل الشعر يتقرب إلى الحكام بالمدح، والنثر يعمل في دواوينهم، ولم يخرج الأدب العربي خروجا تاما من طور خدمة الملوك، إلى الطور الفني الخالص المنزه عن كل غرض خارجي أو مطلب مادي، وإنما ظل الشعراء والكتاب يعتمدون على رعاية الأمراء، ويسخرون فنهم لخدمتهم

وتوالت أطوار الشعر والنثر في تاريخ الأدب العربي: فسبق الشعر في الجاهلية، وحل محله النثر في صدر الإسلام متمثلا في الكتاب الكريم وخطب الرسول وخلفائه وكتبهم وكتب عمالهم، واستعاد الشعر مكانته في عهد الأمويين على ألسنة جرير والفرزدق والأخطل وجميل وكثير وابن أبي ربيعة وأضرابهم؟ وعند ذلك كان العرب قد تشربوا الحضارة والثقافة، فظهر النثر الفني على أقلام عبد الحميد وابن المقفع والجاحظ والبديع؛ وبلغ الشعر في الوقت نفسه أوجه على أيدي معاصري هؤلاء من الشعراء، كبشار وأبي نواس والطائي والبحتري وابن الرومي والمتنبي والمعري، ثم أفل نجم الشعر بدءا من القرن الخامس وأفسده التعمل، وأعوزته روح الطموح والمغامرة التي غاضت من نفوس الأمة التي أرهقها المتسلطون، وبقيت للنثر بقية من قوة مستمدة من نضج الثقافة الإسلامية، فكان العصر التالي طور نثر طويلا أنجب من النقاد والمؤرخين والكتب أضراب ابن خلكان والنويري والقلقشندي وابن رشيق وابن خلدون، ممن كان هم أكثرهم جمع الآثار الأدبية والتاريخية المتخلفة من العصور السالفة، وتنظيمها والتعليق عليها. ثم لحق الوهن والإسفاف النثر كما لحق الشعر.

فلما كانت النهضة الحديثة، كان الشعر أسبق إلى النهوض والحياة والتخلص من شوائب الصنعة والتقليد، فالشعر أسبق من النثر إلى الازدهار وأسبق منه إلى الذبول.

كان الشعر أسبق إلى الظهور والرقي في الجاهلية، وكان العرب يعدونه ديوانهم، وكانت له لديهم مكانة عظيمة، وقد ظلت له هذه المكانة على توالي العصور، على رغم ظهور النثر الفني ورقيه وحصول الكتاب دون الشعراء على المراتب السامية كالوزارة؛ وظل الشعر أعلق بالنفوس وآثر بالحفظ والذكر، ولم يسايره في الحفظ والسيرورة من آثار النثر إلا القرآن الكريم، وهو مملوء بالروح الشعري حافل بالتشبيهات والمجازات البليغة. ولما ارتقى النثر الفني راح يتتبع خطى الشعر: يقتبس أبياته ويضمن شطراته، ويتناول موضوعاته، ويحاكي موسيقاه ووزنه، فاصطنع السجع والازدواج والجناس، وأصبح السجع في النهاية للنثر لازماً لزوم القافية للشعر. والحق أن الأدب العربي بفنيه الشعر والنثر اتسم دائما بالاحتفاء باللفظ وجرسه وتنميقه، والأسلوب وتقسيمه وتدبيجه، وقد ظل ذلك مستساغا مقبولاً حينا ثم أفرط وسمج.

وظل الشعر العربي شديد الحرص على فخامة الموسيقى ووضوحها واطرادها بلا إخلال، كالإخلال الذي يكثر في الشعر الإنجليزي ويلجأ إليه شعراء الإنجليزية قصداً للتنويع واجتناب الاطراد الممل، وظلت القافية في الشعر العربي كذلك واضحة جزلة مكونة في الواقع من قافيتين صوتيتين، كما في (عانيه) و (مانيه) في البيت السالف الذكر، وهذا ما يعرف في الإنجليزية بالقافية المؤنثة، وقد دخلت الإنجليزية نقلا عن الإيطالية ولكن الشعراء سرعان ما نبذوها، لعدم ملاءمتها لطبيعة اللغة الإنجليزية التي تمج الإفراط في الموسيقية نثراً أو نظما.

ولما ظهر النثر الفني بجوار الشعر، ونبغ فيه الكتاب واحترفوا إنشاء الرسائل الديوانية، وحرصوا على التزود بكل أسباب الثقافة، والتحلي بكل موجبات الفضل، عالج أكثرهم الشعر طبعا أو تكلفا، فأثرت عن الحسن بن وهب وابن الزيات وابن الصولي وسعيد بن حميد وابن العميد وابن عباد والخوارزمي والبديع والجرجاني والعسكري، أشعار قالها بعضهم تظرفا ورياضة للقريحة، وقالها بعضهم جادين في التعبير عن خوالج صميمة وآراء صادقة. وقد قيل إن الجاحظ عالج قرض الشعر طويلا ثم أقلع حين لم يفلح. وكان البديع والحريري يخالفان في مقاماتهما بين شعر ونثر لا يكاد يتميز أحدهما عن الآخر إلا بالعروض، وفيما عدا ذلك يتساويان تنميق لفظ وبلاغة إنشاء، ومن أجمل أشعار الكتاب قول الجرجاني من أبيات هي من غرر الشعر العربي: -

يقولون لي: فيك انقباض وإنما ... رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما

إذا قيل: هذا مشرب قلت: قد أرى ... ولكن نفس الحر تحتمل الظما

وقد كانت المقابلة والمفاضلة بين الشعر والنثر من هم نقاد العربية وكان أكثرهم يميل مع الشعر؛ على أنها مفاضلة لا موضوع لها: فليس الشعر خيراً من النثر ولا النثر خيرا من الشعر، وإنما كلاهما ضروريان وكل منهما جميل في موضعه، زد على ذلك أن أولئك النقاد كانوا يدخلون في حسابهم اعتبارات خارجية لا صلة لها بالفن الصميم، بل هي شؤون اجتماعية أو سياسية أو فردية صاحبت الأدب في بعض العصور، فأصحاب الشعر يستدلون على أفضليته بأن الشاعر يخاطب الأمير باسمه مجرداً وباسم أمه وبصيغة المفرد، وبأن الشعر رفع قبائل كأنف الناقة ووضع أخرى كنمير، وبأن الكذب ومدح النفس يقبلان فيه ولا يستساغان نثراً؛ وأصحاب النثر يؤيدون حجتهم بأن الرسول الكريم لم يقرض الشعر، وأن الشعراء يخدمون الكتاب ويأخذون هباتهم. وأن الكاتب يجلس والشاعر ينشد وهو قائم وهلم جرا.

نشأ الشعر والنثر الإنجليزيان كذلك على صلة بالدين والدولة، وكان مزاولوهما الأوائل أمثال تشوسر وسبنسر وهوكر من رجال السياسة والدين والحرب، أو كانوا على اتصال بالساسة والمحاربين وعلماء الدين. ومن الكنيسة خرج فن التمثيل ذو الصلة الوثيقة بالأدب، فكان قوامه الشعر أولا على عهد شكسبير؛ ثم إنجاز تدريجاً إلى النثر؛ وكان للإنجيل أثر بليغ في اللغة الإنجليزية؛ غير أن الشعر والنثر ما لبثا بعد ذلك أن انسلخا تدريجاً عن الملك والكنيسة والأحزاب والأعيان، واعتمد كلاهما مكان أولئك جميعاً على الجمهور القارئ، ودخلا في طور الفنون الخالصة التي لا غاية لها سوى وصف مشاعر الإنسان وشعوره بجمال الحياة وغبطاتها، وهو الطور الذي لم يبلغه الشعر والنثر العربيان تماماً، بل قام من الأدباء الإنجليزي من ناصبوا الملكية والكنيسة، مثل شلي وبيرون

وكان الشعر الإنجليزي أسبق إلى الازدهار من النثر: فبلغ أوجه في عهد اليزابث في آثار شكسبير ومعاصريه، وتجلت الروح الشعرية حتى في النثر القليل الذي خلفه ذلك العصر الحافل بروح الإقدام، فهوكر مثلا وهو يدرس مسائل دينية يعرج فيصف الموسيقى وصفاً شعرياً زائفاً؛ وتلا ذلك طور نثري طويل في القرن الثامن عشر، بلغ فيه النثر الغاية من السلاسة ورحب الجوانب، ثم كانت هبة قومية جديدة فنهض الشعر في العهد الرومانسي نهضة باهرة، وكان كثير من شعرائها كتابا حذاقا أيضاً تفيض كتاباتهم النثرية بما تفيض به أشعارهم من روح رومانسية؛ ثم ارتقى النثر في أعقاب ذلك مرة أخرى، فظهر من النقاد ماكولي وارنولد، ومن القصصيين ثكري ودكنز، ومازالت القصة في ازدهار مطرد

وبلغ النثر الإنجليزي من الرقي الشكلي والموضوعي ما لم يبلغه النثر العربي: فظهرت فيه المقالة والصورة والترجمة والتأريخ والقصة الفنية. وبهذا كله تهيأ له أن يزاحم الشعر على مكانته، لاسيما بفضل القصة والرواية التمثيلية، بل هو انتزع الرواية التمثيلية من الشعر واستأثر بها. والقصة اليوم تستقل بأسماء أعلام الأدب الإنجليزي، وقد مارسها أكبر شاعرين محدثين: كبلنج وهاردي، بل كانت ممارسة النثر بجانب الشعر دائما من أدب شعراء الإنجليزية، يبسطون فيه آراءهم في النقد الأدبي والأحوال الاجتماعية. فكان دريدن وكارلي وبوب الشعراء مثلا من أوائل من كتبوا المقالات، أما كبار شعراء العربية فقلما روي لهم نثر مطنب

على أن الشعر الإنجليزي وإن زاحمه النثر في العصر الحديث هذه المزاحمة. واستأثر دونه بأكثر احتفال الأدباء والقراء، لم يفقد موضعه الأثير من نفوس المثقفين، وإنما هو يجتاز مثل عصر الركود الذي شهده في القرن الثامن عشر، إذ أن النثر والشعر كما تقدم يتجاذبان النفس الإنسانية على اختلاف العصور، بيد أن الناس حتى في مثل هذا الطور لا ينزعون عن حبهم للشعر. بل يلتفتون إلى الماضي يروون صداهم من عبابه الزاخر، ولا تزال لشكسبير وملتون ووردزورث وشلي منازل في قلوب قراء الإنجليزية، كمنازل ابن الرومي والمتنبي والمعري في قلوب قرائهم، لا يحتل مثلها الكتاب الناثرون في كلا الأدبين

فخري أبو السعود

بين يومي الهجرة والفتح
حمامتان تتناجيان
للأستاذ محمود غنيم

قالت الأولى: هلمي يا أختاه نغادر سطح هذا الغار - غار ثور - قبل أن يدركنا هذا الجيش اللهام، فيغطينا العثير الذي تثيره سنابك خيله. يا لله! إنه ليحث الخطى نحو قومنا - قريش - ولا قبل لقومنا به، عشرة آلاف أو يزيدون - إن صدق حدسي - مع كل منهم سيفه القاطع ودرعه المنيعة، ويقين أقطع من سيفه وأمنع من درعه. يا لله لقريش! من أين أقبل هذا الجيش؟

قالت الثانية: لقد جاء القوم عن طريق يثرب، لكني لا أخالهم جميعا يثربيين. انظري، هذه خيل من سليم، وهذه من مزينة، وهذه من غطفان، هم أمشاج أخلاط، من كل فج وعلى كل لون؛ ولكن شيئا لا أكاد أتبينه، تبدو أنواره على أساريرهم، ويشع بريقه من عيونهم - يؤلف بينهم، ويجعل منهم كتلة واحدة كأنهم بنيان مرصوص

بيد أن شعورا داخليا في نفسي يجعلني لا أرهب هذا الجيش، هذا الجيش، حتى لأكاد أقف على ذباب سيوفهم وفوق شبا رماحهم آمنة مطمئنة، كأنني فوق منبر الحرم، أو على حافة مقام إبراهيم. انظري معي، أنعمي النظر، ألا ترين تلك الكتيبة الخضراء التي تتوسط الجيش؟ ألا ترين هذا الرجل الذي يتوسط تلك الكتيبة الخضراء، يومئ للقوم فيسيرون، ويقفهم فيقفون؟ إن لي عهدا بهذا الرجل - إن لم تخني الذاكرة - آه! تذكرت يا أختاه، أليس هذا صاحبنا بالأمس الذي استضفناه في هذا الغار ثلاثة أيام منذ عشرة أعوام؟ إنه محمد، محمد، محمد، ألا تذكرين؟

قالت الأولى: تذكرت كل شيء، حتى لكأن هجرته بنت الصباح، وكأن مكانه في الغار لا يزال حارا، وكأن جرس صوته يرن في أذني وهو يقول لصاحبه: لا تحزن إن الله معنا) ألم أحدثك يومئذ أن لهذا الرجل شأنا؟ ما الذي أوحي إلينا يومئذ أن نحكم تدبير تلك المؤامرة التي اشتركنا فيها لتضليل القوم وإخفاء محمد عن عيونهم؟ يوم عششنا بفم الغار، وما كان فم الغار لنا بعش، ونسجت العنكبوت خيوطها على بابه، وما كان لها به عهد، وأرسلت الشجرة الجرداء ذوائبها فاعترضت الطريق إليه. لقد تضافرنا على تضليل القوم

حتى ضل القوم، فظلوا يتخبطون في كل مكان، ويهيمون في كل واد، يبحثون عن محمد، ومحمد منهم بحيث لو نظر أحدهم تحت قدميه، لعثر عليه

تذكرت يوم تألب شبان قريش على محمد، وأحاطوا بداره إحاطة السوار بالمعصم، ينتظرون طلوع الصباح، فيعطرون أديم الأرض بأطيب دم جرى في أطهر عروق، ويفصلون أعظم رأس عن اكرم جسد، وكيف أن محمدا تغفلهم في الهزيع الأخير من الليل فأضجع عليا في فراشه، وسجاه ببرده الحضرمي، ليوهم القوم أنه هو ثم انسل من بينهم، والكرى آخذ بمعاقد أجفانهم. كم كان ليلا هادئا ساكنا، لم يقطع عليه سكونه إلا دبيب محمد الخافت، يسير على أطراف أصابعه، وإلا طرقة هامسة من أطراف أنامله على باب صديقه أبي بكر سرعان ما استجاب لها، كأنما كانا على ميعاد، على أنهما لم يأمنا أن يخرجا من باب الدار، فخرجا من فجوة في الجدار، ثم اتجها في طريق اليمن حتى طرقا علينا باب الغار، وقد آذن أن ينبلج النهار، فقابلناهما بالنجلة والإكرام، طيلة ثلاثة الأيام. كم كان يثير إشفاقي وإعجابي ما كان يبدو عليهما من الخوف المركب في طبيعة الإنسان، مقرونا بالثبات الذي تبعثه قوة الإيمان!

نعم تذكرت ذلك كله، وتذكرت كيف كان عبد الله بن أبي بكر يندس بين قريش نهارا، ثم يوافيهما في الغار ليلا، فيسر إليهما ما يأتمرون به، وكيف كان عامر بن فهيرة غلام أبي بكر، يمر بغنم عليهما موهنا فيحتلبان ويذبحان، ثم يعفى بها على آثار عبد الله. وتذكرت يوم اعتزما الرحيل فالتمسا ما يعلقان به الطعام فشقت أسماء بنت أبي بكر - ذات النطاقين - نطاقها شطرين، علقت الطعام بشطر، وانتطقت بشطر. وتذكرت سراقة بن مالك وما كان من أمره يوم جعلت قريش لكل من يقبض على محمد مائة بعير، فخرج يلتمس محمدا، فإذا محمد من عن كثب. لكنه ما كاد يصيح صيحة الظفر، حتى شعر بجواده قد عثر، فأنهضه فكبا ثانية، ثم ثالثة، حتى كأن الحصان فقد قوائمه، أو فقد الأرض التي تستقر عليها قوائمه؛ وإذ ذاك رأى الفارس أن الأرض اثبت ظهرا من حصانه، فترجل ودنا من محمد، لكن لا ليقبض عليه، بل ليعتذر إليه. ألم أخبرك

يومئذ أن الرجل يكتنفه غموض وتحوطه أسرار؟
قالت الثانية: دعيني مما تقولين، أي سر في جواد يكبو بصاحبه، أو في حمامة تبيض، أو
عنكبوت تنسج خيوطها، أو شجرة ترسل أغصانها؟ إنما السر كل السر في تعاليم هذا الرجل التي تنفذ إلى قلوب أصحابه، فتفعل فيها ما لا تفعل خمر الأندرين ولا سحر بابل. لقد هاجر الرجل وهو وحيد طريد، فمن أين جاء بهذا العدد العديد، الغارق في يلب الحديد؟، أتذكرين ما كنت تتنبئين به يومئذ من أن أهل المدينة لن يكونوا أبر به من أهله الذين آذوه وطردوه، ولو تمكنوا منه لقتلوه، ولا من أهل الطائف الذين أغروا به الصغار، فحصبوه بالأحجار؟ أما كنت تقولين: ماذا عسى أن تكون إقامة محمد بين ظهراني أهل المدينة، والمدينة معقل اليهودية التي يناصبها العداء، ومهد الفتن التي لا تهدأ ثائرتها بين الأوس والخزرج، وبينهما ما بينهما من تراث ودماء، يتوارثها الأحفاد عن الأجداد؟
وقد ينبت المرعى على دمى الثرى ... وتبقى حزازات النفوس كما هيا
لقد كنت تقولين ذلك، وحق ما تقولين، فليت شعري ماذا فعل محمد حتى استسل تلك السخائم المستأصلة من نفوس القبيلتين؟ وكيف هادن اليهود، وهم اشد تمسكا بتوراتهم، من أهل مكة بهبلهم ولاتهم؟ بماذا تفسير هذا؟ وما هو هذا الذي يأتي به يسميه قرآنا، فيصبه في الآذان كما تصب الخمر في الأفواه، ويتلوه عليهم كما تتلى الرقى والتعاويذ؟ إن لم يكن خمرا، ولم يكن سحرا، فأي شيء هو؟ لقد سافر محمد في قلة وذلة، لا ينفر منه وحش، ولا تشعر بوطأته أرض، فما باله يعود فتتدكدك الأرض تحت وقع سنابك خيله، وتلوذ الوحوش منه بقمم الجبال؟ كان هو وزميله ودليل عند هجرتهم يسيرون ليلا، ويختفون عن العيون نهارا كما يزور الحبيب الحبيب، عندما يخشى عين الرقيب
أزورهم وسواد الليل يشفع لي ... وانثني وبياض الصبح يغري بي
كانوا لا يأمنون نميمة الشمس، ولا إغراء القمر، ولا وشاية ظلالهم بهم، ولا يطمئنون إلى سلوك طريق معبدة ذلول، فهم أبداً يعوجون ويعرجون ويصدون وينحدرون، فما بالهم الآن يسيرون في وضح النهار، ويكادون يغطون قرص الشمس بما يثيرون من غبار، ويهتكون حجابها بكل صارم بتار؟
لشد ما تغيرت الحال! ولشد ما تدهشني تلك المغناطيسية التي تجذب إليه الرجال!
ولعمري ما رأيت اتباعا أشد تعلقاً بصاحبهم من تعلق أصحاب محمد بمحمد. أو ما تذكرين يوم كانت قريش تطرح بلالا على الرمضاء إذا اشتد الهجير، وتلقي على صدره حجراً ينوء بحمله
البعير، لكيف عن اتباع محمد، فلا يزيد على قوله: أحد، أحد؟ أو ما تذكرين يوم أسرت هذيل زيد بن الدئنة وباعته من قريش لتقتله ببعض قتلى بدر، فتقدم إليه أبو سفيان، وهو واقف على أبواب الأبدية وقال: أنشد الله يا زيد: أيسرك أن محمداً الآن في مكانك تضرب عنقه، وأنت في أهلك؟ فقال زيد: والله ما أحب أن تصيبه شوكة في قدمه وأنا في أهلي. أليس معنى ذلك أن القوم يتفانون في حب محمد ودين محمد، (وهم أشد ما يكونون تفانيا إذا حزب الأمر واشتدت اللازبة وتحرجت المواقف
قالت الأولى: لقد ذكرتني بأبي سفيان وإنني أكاد ألمح شخصاً يشبهه في سواد الجيش، يسير تحت لواء محمد. انظري معي، أنعمي النظر، كأنه هو، عجباً! أترينه هو أيضاً سرى فيه تيار كهرباء محمد وجذبه مغناطيسه فاستجاب له، بعد أن ناهضه من بدء دعوته؟ أليس هو قائد جيش المشركين ببدر، ثم بأحد ثم بالخندق؟ ثم أليس هو زوج هند بنت عتبة التي مضغت كبد عمه حمزة بأحد، وأرادت أن تشفى صدرها بابتلاعها لولا أن شعرت بمرارتها فلاكتها، ثم قذفتها، والتي آلت إلا يطأ فراشها أبو سفيان بعد بدر حتى ينتقم لأبيها وأخيها، والتي جدعت أنوف صرعى المسلمين بأحد، وصلمت آذانهم، واتخذت من كل ذلك قلادة تحلى بها عنقها؟ ليت شعري أترينها هي أيضاً قد استجابت لمحمد فاستجاب بعلها، إنها لأحاجي وألغاز
قالت الثانية: حقا أنني لألمح أبا سفيان يسير تحت لواء محمد بجوار عمه العباس، وليس غريبا أن يكون تيار محمد جرفه كما جرف آلافا من أمثاله. إن تيار محمد جارف، وريحه عاصفة تجتاح كل ما يعترضها في طريقها، ولئن كان أبو سفيان ناهض الإسلام

ضعيفاً لما ضره أن يؤيده قوياً. وما أقل أشياع الضعيف حتى يشتد ساعده فيكثر أشياعه، وينضوي تحت لوائه من أسرف في عدائه. وهل تعتقدين أن كل من ناوأ الإسلام ناوأه مقتنعاً ببطلانه، أو أن كل من أيده أيّده بدافع من وجدانه؟ وهل كان أبو سفيان بدعا في الرجال؟ كم لأبي سفيان من أمثال وأشباه، كانت لهم تجارة وجاه أشفقوا عليهما وعلى أنفسهم من الهوان فصدهم ذلك عن الإيمان. أما وقد تغير مركز محمد فيجب أن يعتدل موقف هؤلاء من محمد. وما يدريك أن أبا سفيان سيجني من وراء إيمانه خيراً كثيراً؟ وما يدريك أنه سيخرج من بين صلب أبي سفيان وترائب هند من يفتح البلاد ويتحكم في رقاب العباد

باسم محمد ودين محمد؟ على أن أبا سفيان ما لجأ إلى الإيمان، إلا بعد ما قاساه من الهوان. أما سمعت ما تحدث به الناس أنه بعد أن نقضت قريش عهد الحديبية جعل قلب أبي سفيان لا يستقر بين ضلوعه خشية محمد وبطش محمد فتسنم راحلته، وتوجه شطر المدينة ليؤكد العهد إن وفق، أو يستشف نوايا محمد إن أخفق، فنزل أول ما نزل على ابنته أم حبيبة زوج محمد، فما كادت تراه حتى طوت فراشا كان مبسوطا أمامها، فقال: أتطوين الفراش رغبة بأبيك عنه، أو رغبة به عن أبيك، فقالت: لا والله إنه فراش رسول الله الطاهر الأمين. أخشى عليه دنس الشرك ورجس الوثنية، فتشاءم الرجل، ونهض مغضباً، ودخل على محمد فازور عنه جانبه، فلجا إلى أبي بكر فطوى عنه كشحا فلاذ بعمر، فكان كالمستجير من الرمضاء بالنار. عندئذ ارتد على عقبه يجر ذيل الفشل وخيبة الأمل. على أنه بعدها لم يغمض له جفن، ولم يهدأ له جأش، وجعل يتوقع غزو محمد لملكه، وإن كان محمد حاط هذا الغزو بالكتمان. ولقد اشتد القلق بأبي سفيان، فخرج منذ حين ليكشف أمر المسلمين. نعم لقد شاهدته منذ حين في نفر من قريش، خرجوا يستطلعون خبر الجيش، فلقد تناقلت خبره الركبان، رغم مبالغة محمد في الكتمان. وكأني بأبي سفيان ما كاد يلوح غبار الجيش لعينيه، حتى سقط في يديه. وكانت في نفسه بقية شك في دعوة محمد، فما هو إلا أن رأى جيش المسلمين، فإذا الشك يقين، وكأنني به وقد مثل بين يدي محمد. فنظر إليه نظرة يكمن فيها شبح الموت، ولسان حال الرسول يقول:

إن على الله أن تبايعا ... تؤخذ كرها أو تجيء طائعاً

فلم يسع أبا سفيان إلا التسليم والإذعان

قالت الأولى: هاهو ذا الجيش قد دنا من مكة حتى صار قاب قوسين أو أدنى، وإنني لألمح أبا سفيان واقفاً بمضيق تمر عليه جيوش المسلمين فيلقا فيلقا، وما أخال هذا إلا من تدبير محمد، حتى يلمس الرجل مقدار ما يستهدف له قومه من الخطر إذا حدثتهم أنفسهم بالمقاومة، فيذهب إليهم نذيرا ينقل ما ألقي في نفسه من الرعب إلى قلوبهم. يا لله لسياسة محمد! إنه يريد أن يتم الفتح بدون أن تتطاير الرءوس، أو تتناثر الأشلاء، أو تراق قطرة من دماء. هل تريده أن تتبيني صدق ما أقول؟ أرهفي أذنيك. أصيخي إلى هذا النداء: (من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن) أسمعت النداء؟ أتحققت صدق

رغبة محمد في السلام؟ وكيف يريد أن يحقن دماء أهل المدينتين: التي ربته وليداً والتي آوته طريداً. هاهو ذا أبو سفيان يتقدم الفاتحين داعيا قومه إلى ترك الكفاح وإلقاء السلاح. وهاهو ذا جيش الفاتحين ينقسم أربعة أقسام، يدخلون مكة من جهاتها الأربع: الزبير بن العوام على رأس فريق، وخالد بن الوليد على رأس فريق، وسعد بن عبادة على رأس ثالث، وأبو عبيدة بن الجراح على رأس الرابع. ولست أظن أن هؤلاء سيلقون مقاومة، وإن كنت أشك في هؤلاء الذين يقيمون بأسفل مكة، وعلى رأسهم عكرمة بن أبي جهل، فما أظنهم يخلدون إلى الاستسلام، بل يأبون إلا امتشاق الحسام. على أن خالدا سوف يعمل فيهم نباله ونصاله، فلا يلبثون إلا ساعة من نهار يلوذون بعدها بأذيال الفرار، وتستطيعين أن تعتبري هذا اليوم في تاريخ مكة فاصلا بين عهدين، خالدا على مر الجديدين. هنيئا لمحمد! لقد غادر مكة آبقاً تحت أذيال الظلام، ثم دخلها دخول القياصرة العظام، فليصدح مؤذنه بالأذان حتى يش اجواز الفضاء، وليقم شعائره في ضوء النهار لا من وراء ستار، وليطف بأرجاء مكة آمنا مطمئنا، وليتفقد منزله إن كانت أبقت أيدي القوم عليه، وليزر معاهد صباه، وليغش حراء الذي كان يتحنث فيه، وليملأ عينيه من أرض مكة وسمائها، وليملأ رئتيه من هوائها، ليتنفس

هواءها الآن نقيا صافيا، بعد أن حرمه عشرة أعوام، وتنفسه مسموما موبوءا ثلاثة عشر عاما. ولتتداع إلى خاطره الذكريات، وليستجمع العمر في لحظات. ويل لهبل ومناة، والعزى واللات، ولتلك الأصنام المشدودة إلى الكعبة بالرصاص. ولتلك الصور التي تمثل ملائكة السموات غواني فاتنات. هذا آخر عهدهن بأستار البيت، لشد ما كان يمقتها محمد. وكأني به يعمل فيها معول التحطيم ويحرم من أجلها على قومه النحت والتصوير، وهكذا تسيء الوثنية إلى الفن كما أساءت إلى الدين، ولكن ما تظنين محمداً فاعلا لقريش؟

قالت الثانية: خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم، إن محمدا ابر بقومه من أن يجد عليهم أو يؤاخذهم بما اقترفوا، وإنه لأكبر من أن يتشفى بالترة عند المقدرة، وقريش يأسرها المعروف كما ترهبا حدة السيوف. ولو أن محمدا أراد الانتقام لرأى من المهاجرين محبذين، ومن الأنصار أنصارا. إن سيوف أولئك وهؤلاء لتظمأ إلى ما في عروق القوم من دماء، أو ما سمعت سعد بن عبادة عندما دخل مكة صاح قائلا: (اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة) فما هو إلا أن سمع محمد صياحه، فتقلصت شفتاه، وقدحت الشرر عيناه، ثم اختطف الراية من سعد، وأعطاها قيسا ابنه. إن الرجل لا يريد بقومه شرا، وإنه ليضرب للعالم بذلك المثل الأعلى في الصفح والمغفرة عند القدرة، وإني لأذكر لمحمد مواقف من هذا القبيل تعتبر مثلا عليا في الصفح الجميل. فلقد سمعت أنه يوم حشد هذا الجيش لفتح مكة، أخذ على الناس المواثيق أن يتكتموا أمره ولا يذيعوا سره، ولكن حاطب بن بلتعة كان له بمكة ولد وأهل أشفق عليهم فكتب إليهم حتى يتجهزوا لقتال محمد؛ بيد أن خبر الكتاب نمى إلى محمد، فسرعان ما أرسل عليا والزبير في أثر حامل الكتاب، وكان امرأة فأدركاها فاعترفت بحرمها وأخرجت الكتاب من بين غدائرها. تعرفين ماذا كان جزاء حاطب وهو من جيش الرسول ومن شهود بدر؟ لقد جوزي على هذه الخيانة العظمى بالصفح والغفران! قال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنقه فإن الرجل قد نافق، فقال الرسول - بعد أن أطرق هنيهة - (دعه يا عمر وما يدريك أن الله قد اطلع على أصحاب بدر يوم بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم)، وهكذا تذكر النبي بجوار هذا الغدر موقف الرجل ببدر فاغتفر الإساءة اللاحقة للإحسان السابق وخالف ما درج عليه الناس، فكل الناس

ينسى من الإحسان طودا قد رسا ... وليس ينسى ذرة ممن أسا

ولقد تمثلت محمدا إذ وقف بأحد بعد أن وضعت الحرب أوزارها فرأى عمه حمزة مبقور البطن مجدوع الأنف ممضوغ الكبد ممثلا به أي تمثيل. فأقسم لئن أظفره الله بقريش ليمثلن بسبعين من قتلاهم؛ فهاهي ذي قريش مطأطئة الرقاب، وهاهي ذي رءوس قريش دانية القطوف، فما يمنع محمدا أن يطفئ من غلته ويبر بأليته؟ إنه المتسامح في اجمل صوره وأعلى أمثلته. على أنني لا أخال محمدا مهما بلغ من تسامحه يعفو عن الحويرث الذي أغرى على زينب ابنته عند هجرتها، أو عن هذين الرجلين اللذين أظهرا الإسلام ثم ارتكبا جريمة القتل بالمدينة ثم ارتدا إلى الشرك، أو عن قينة ابن خطل التي كانت تتغنى وتسمر بهجائه، فهو لابد قاتلهم، ولعلك لا تنكرين ذلك على محمد متناسية أن اللين لابد أن يشوبه العنف وإلا شاه جماله. ولقد كانت لمحمد بجانب تسامحه البالغ صرامة بالغة. ولعلك تذكرين أنه يوم قبل الفداء من بعض أسرى بدر وأطلق بعضا آخر أبى إلا أن يضرب عنق النضر ابن الحارث وعقبة بن أبي معيط، لشدة ما ناله من الأذى على أيديهما قبل هجرته. ولعلك تذكرين أنه ما كادت جنود الأحزاب تتخلى عنه في غزوة الخندق حتى تفرغ لليهود الذين تألبوا مع العدو عليه في ساعة العسرة فأباح دماءهم وأموالهم ونكل بهم شر تنكيل، وكيف أنه كان يعترض لقريش وغير قريش من المشركين يريق دماءهم، ويسلبهم إبلهم وشاءهم حتى يعتصموا بالإسلام، وما كان ذلك تجنيا من محمد، ولكنها الدعوة الروحية يجب أن تؤيدها القوة المادية، حتى ينظر إليها الناس نظرة جدية، وهكذا تمهد السيوف للأقلام، ويتضافر الاثنان على نشر لواء الإسلام

قالت الأولى: ثم ماذا بعد فتح مكة

قالت الثانية: ما يدرينا؟ لقد كان محمد يعد قومه ملك فارس والروم فيتهكم به كفار قريش قائلين: (هذا ابن أبي كبشة - يعنون زوج مرضعه حليمة - سيرث ملك الأكاسرة

والقياصرة)، ولعله لو امتد بنا الزمان بضعة أعوام، شهدنا تحقيق هذه الأحلام
قالت الأولى: لقد احسنا إلى محمد يوم آويناه في الغار، وساعدناه على الفرار.
قالت الثانية: أكبر الظن أننا أحسنا إلى الإنسانية جمعاء: استحدثنا ثقافة، وأقمنا بناء حضارة، وغيرنا مجرى التاريخ.

كوم حمادة

محمود غنيم

مدرس بالمدرسة الابتدائية الأميرية

نفخة شرقية في أدب غربي

للأستاذ عبد الرحمن صدقي

كان شاعر الألمان (جوته) يعنى منذ صباه بتاريخ الشرق وشعره. فدرس العبرانية وأدمن مطالعة التوراة. وكان يهتز لها لما يجده بها من أريحية الشعر، وبخاصة (قصة راعوث) و (نشيد الأناشيد). وهو يعتبر النشيد نسيج وحده في الرقة وحرارة الحب، وكان يستروح منه نسمة دافئة تهب من بقاع كنعان، وتتراءى له فيه حياة الحقول الوادعة ومزارع الكروم ومنبسط الرياض ومنابت الطيوب العاطرة. ويأنس من بعيد زحمة المدن ببني إسرائيل، وفيما وراء ذلك جميعه يتخيل ديوان سليمان وأبهة ملكه.

وينتقل جوته من العهد القديم العبري. إلى عصر الجاهلية العربي. حيث يقع على الكنوز المذخورة في المعلقات. تلك القصائد المطولات التي أحرزت الفوز بميدان النزال الأدبي في أسواق الشعر عند العرب. وهو يتمثل منها أهل البداوة الرعاة المقاتلين، لا يبرحون في غارات إثر غارات، يؤججها ما بين قبائلهم من تراث وخصومات. ويقول شاعر الألمان إن المعلقات تحدثه بأقوى بيان عن العصبية التي تربط أبناء القبيلة الواحدة، وعما الطبع عليه العرب من روح الإقدام والبسالة، والتحرز من العار والاستمساك بدرك الثار، وطلاب المجد، والتماس الفخار. وكيف أنهم كانوا يقدمون النسيب بين يدي هذه الفضائل الشديدة فيلطف عرامها وعنفها، بما يبثه من الأسى والحنين ولوعة الهوى وحسن الوفاء. ويزيد هذه القصائد العصماء قيمة عنده أن لكل منها سمة غالبة يلمسها القارئ ولا ينكرها

على أن الذي شغل جوته أكبر الشغل هو شخصية سيدنا محمد. وغير خاف أن العالم المسيحي كان من أيام الحروب الصليبية سيئ الرأي بطبيعة الحال في صاحب الشريعة الإسلامية. وكانت الكنيسة تتجاهل وجود القرآن وتحرم ترجمته، حتى جاء القرن السادس عشر والسابع عشر، فعمد بعض العلماء إلى نشر تراجم له مشفوعة دائما بدحض ما جاء به وتفنيده. ولعل ذلك منهم من قبيل التقية ودفع الشبهة، وحرصا على تزكية عملهم والتكفير عنه عند أهل ملتهم. ثم بزغ على الأثر عصر الشك، أو ما يسمونه عصر النور. وكان دعاته يحملون على الأديان كافة حملتهم الشعواء، ولا يريدون أن يروا في أصحابها إلا دجاجلة مغررين يزعمون للناس أنهم ملهمون. إلا أن الأحوال تعدلت، وانبرى بعض

المحققين من جهابذة الغرب إلى هدم التخرصات المنسوبة إلى محمد في العالم المسيحي، وكتبوا سيرته الشريفة بروح عالية توفر لها التجرد عن الهوى والاستغراق في الموضوع فانجلى لكل ذي عينين محمد رجل الدين، الثابت اليقين في الله الواحد الأحد، وعرفوا فيه رسولا من رسل العناية لنشر التوحيد من أقاصي الهند إلى ربوع الأندلس. واطلع شاعرنا جوته وقتئذ على سيرة محمد، وحيا فيه النبي العظيم والروح القوي الأمين، حاطم الأصنام الداعي إلى دين الفطرة

وقرأ جوته القرآن وطبع مختارات منه مأخوذة عن الترجمة الألمانية. وظل طويلا يمعن في درسه إمعان الباحثين. وهو يشير إلى أن القارئ الأجنبي قد لا يحبه لأول قراءته، ولكنه يعود فينجذب إليه، وفي النهاية يروعه ويلزمه الإكبار والتعظم

ويستشهد جوته بآيات الكتاب العزيز في بيان تعاليم الدين (ألم. ذلك الكتاب لا ريب فيه، هدى للمتقين، الذين يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة، ومما رزقناهم ينفقون. والذين يؤمنون بما أنزل إليك، وما أنزل من قبلك، وبالآخرة هم يوقنون. أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون. إن الذين كفروا سواء عليم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون. ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة، ولهم عذاب عظيم)

ويقول جوته إن القرآن يردد هذه التعاليم ويكرر البشير والنذير سورة بعد سورة. ولا يرى جوته في هذا الترديد والتكرار ما يراه النقاد الغربيون. لأن النبي لم يرسل للناس برسالة شاعر للتفنن والتنويع في ضروب الكلام، وعرض الصور المزوقة من الأخيلة والأوهام، لاستحداث اللذة وإدخال الطرب على الأسماع والأذهان. بل هو بنص القرآن بعيد عن هذا الوصف. وإنما هو نبي مرسل لغرض مقدر مرسوم يتوخى إليه أبسط وسيلة وأقوم طريق، وهذا الغرض هو إعلان الشريعة وجمع الأمم حولها وانضواؤهم إلى لوائها. فالكتاب العزيز أنزل ليقتضي الناس الخبوت والإيمان، لا لمجرد المتعة والاستحسان، وإذا ما عرض للقصص فليس المقصد الأول هو التاريخ والأخبار، وإنما ضرب الأمثال للموعظة والاعتبار

وقد أراد جوته تأليف قصة تمثيلية عن محمد، وشرع فيها من أيام شبيبته فنظم منها مناجاة للنبي وهو بالليل وحده في الخلاء تحت السماء الساجية السافرة النجوم. وقد اقتبس فيها

هذه الآيات في دحض الشرك: (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة! إني أراك وقومك في ضلال مبين. وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين. فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي، فلما أفل قال لا أحب الآفلين. فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي، فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين. فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي، هذا أكبر، فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشكرون، إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض، حنيفاً وما أنا من المشركين). ثم أدار جوته حوارا بين محمد ومرضعته حليمة. كما أنه وضع نشيداً على صورة مقطعات يتناوب إنشادها (علي) وزوجه (فاطمة) بنت الرسول. وهو تصوير رائع لقوة هذا الإنسان المبعوث من عند الله، ووصف شعري لفيض الإسلام وسرعة ذيوعه ودخول القبائل والأمم فيه أفواجا أشبه ما يكون بالنبع في الجبل لا يزال يتحدر من النجاد إلى الوهاد، ويزخر بما ينصب فيه من الروافد فيتسع مجراه وينتظم البلاد الواسعة والممالك العظيمة حتى يبلغ المحيط الأعظم

ولم تزل فكرة هذه الرواية ماثلة في مخيلة جوته حتى وضع مشروعها. وعلى مقتضاه تبدأ الرواية بنشيد ينشده محمد وحده بالليل تحت السماء الساجية، ويشعر بنفسه العاكفة على التأمل والتفكير يسمو صعداً إلى الله تعالى الذي تستمد سائر الكائنات وجودها من وجوده. ويكاشف محمد بهذا الهدى زوجه خديجة فتؤمن به عن طواعية أول المؤمنين. ثم في الفصل الثاني يقوم النبي يناصره علي بالدعوة إلى دينه بين قومه فيلقى العطف من فريق، والمعارضة من فريق، كل على حسب طبعه وما ركب في جبلته. ويقع الخلف بين القوم وتشتد الملاحاة ويضطر محمد إلى الهجرة. وفي الفصل الثالث ينتصر محمد على خصومه ويطهر الكعبة من الأوثان. وتستوي دعوته دينا مقررا، وتجتمع له أسباب الجهاد قولا وفعلا. ويظهر الرجل السياسية إلى جانب الرجل الديني. وفي الفصل الرابع يتابع محمد مغازيه، ويتخذ لها عدتها ويتوسل بوسائلها. وتدس له السم امرأة من يهود خيبر ثكلت أخاها. والفصل الخامس والأخير يبلغ فيه محمد أوج كماله وتتجلى عظمته الروحية. ثم تعاود عقابيل السم فينتقل إلى جوار ربه. . . غير أن هذه الرواية وقفت عند حد المشروع، مما نأسف له شديد الأسف.

وقد كان جوته في مدينة (ويمار) - وهي الآن تكريما له عاصمة الريخ الألماني - حين جاز بها الروس المسلمون من شعب البشكير على ظهر جيادهم، ونزلوا بها، واتخذوا أحد معاهد البروتستانت مسجداً للصلاة. ولا تسل عن فرحة جوته بهم وحضوره صلاتهم واستماعه إليهم يرتلون آيات القرآن ومقابلته إمامهم وتحيته لأميرهم في المسرح. وهو يذكر في هزة المحبور أنهم اختصوه من رعايتهم بقوس وسهام لم يزل يعلقها فوق موقده طيلة عمره تذكارا باقيا. وبلغ من حب جوته للشرق أنه كان يعالج محاكاة الكتابة العربية ورسم حروفها، ويغتبط وهو يقيمها ويسطرها من اليمين إلى اليسار على عكس كتابة أهل الغرب

فهل وقف جوته عند هذا الذي عرفه وأحبه في الشرق؟

الواقع أن فيما عرفه جوته حتى الآن عن الشرق وفيما أحبه منه مقنعاً وأي مقنع. ولكن الرجل أبت له نفسه الرحيبة ألا يجتمع فيها الشرق السامي والشرق الآري كما

يقولون: شرق العبرانيين والعرب وقد تقدم، وشرق الهند والفرس
فقد أقبل الرجل يتعرف إلى المئات والمئات من آلهة الهند ويشهد في التهاويل والصور وأوثانهم الهائلة المخيفة، واطلع على مطولات أساطيرهم، واحتار بين أتاويه مذاهبهم، وتعجب لاختلاط الشهوات بالقداسات عندهم، والتقاء الحضيض بالسموات في نظرهم. وقد أخرج من ذلك أساطير هندية رائعة منها (الإله والراقصة) و (موبذ البراهمة وزوجه) وغيرهما
وقد أثنى جوته على حكايات الفيلسوف (بيدبا) التي وضعها للملك (دبشليم) على ألسنة الحيوان، ويلاحظ جوته أن الفرس نقلوا هذه دون غيرها عن الهند لعدم اتصالها بالوثنية الهندية الفظيعة، ونفور أذواقهم الدقيقة المهذبة من تلك الفلسفة الدينية العويصة. أما هذه الحكايات عن كليلية ودمنة فهي تقع موقع القبول عند الناس أجمعين، وقد صار لها شأنها الكبير عند الفرس والعرب لما انطوت عليه من الحكمة العملية والخبر بالحياة.
وكان شاعرنا الألماني في ذلك الأوان قد أوفى على الستين، ولكنه مجدد الشباب أبداً كالخالدين. وقد اختار لمطافه الأخير أدب فارس، أدب الجنات والبساتين، أدب الورد والبلابل، والحب الحسي والوجد العلوي. ولقد استغرق جوته في هذا الأدب ونسى عالمه
الخارجي وكان يؤثر واحداً بين شعرائه الكثيرين، وقد اتخذه صاحبه ومرشده الديني في هذا الجو الشرقي المشبع بالمتعة والحنين. وهو شمس الدين محمد حافظ الشيرازي أرق شعراء الفرس الغنائيين.
وزاد اعتزال جوته لما حوله، وأبعد بفكره، أميالا بعد أميال، وارتفع أطباقا فوق أطباق، وتخلص من قيود الزمان والمكان وانفتحت له من ديوان حافظ الشيرازي أبواب الشرق، الشرق مهد الإنسانية، بما فيه من أوضاع للشعر والاجتماع والأخلاق والدين تختلف عما يعهد). فخلص جوته من هذه وتلك إلى صميم الحياة، إلى الوحدة والبساطة.
وكانت أشعار حافظ تكشف لجوته عن حياة تمت إلى حياته بأقرب وشائج القربى. حياة حياها هو أيضاً، حياة نفس تتقبل الوجود بمنتهى الحرية والمتعة، وتناجي الغيب دون أن تقطع ما بينها وبين الأرض. وتواجه التعصب والجمود بالتصوف الحي والإحساس بالشمول. لكأنما هي حياة جوته هذه التي يحكيها حافظ. الممالك تنهار ويقوم الحاكمون في إثر الحاكمين فلا تسمع منها غير الغناء يتحوى نفوسهما وأشجانها الحلوة وأسرارها الخالدة. وكلاهما يقف وجهاً لوجه أمام قاهر طاغية - هذا أمام تيمورلنك، وهذا أمام نابليون، فلا تنخذل عبقرية الأدب في وجه عبقرية الحرب. إن جوته لمأخوذ بهذه المشابهة يهتز لها من أعماق نفسه. فهو يعلم ما لهذه اللحظة من خطر. إذ يتصل فيها الجنسان باتصال نفسين كبيرتين من الجانبين. وهذا هو جوته يحس باستكمال شطره الثاني، يحس بالشرق والغرب يلتقيان فيه. وتضمهما دفتا كتاب واحد يخرجه للناس هو (الديوان الشرقي للمؤلف الغربي).
وأبواب الديوان اثنا عشر باباً؛ وهذه هي بأسمائها الشرقية على الترتيب: كتاب المغني. كتاب حافظ. كتاب العشق. كتاب التفكير. كتاب السخط. كتاب الحكمة. كتاب تيمور. كتاب زليخا. كتاب الساقي. كتاب المثل. كتاب الفرس. كتاب الخلد. وفيما يلي ترجمة القليل من روائع هذه الأسفار:
نشيد الهجرة
(الشمال والغرب والجنوب أقطار تتناثر بدداً، وعروشها تنثل وممالكها تنهار. فهاجر وامض إلى الشرق الطهور، تستروح الطيب من الآباء الطيبين. وبالحب والنشوة والغناء يرد عليك ريعان صباك كأنما نضح عليك من نبع الشباب السرمد الخضر عليه السلام.
(هناك في ظل النقاء والصدق تطيب لي الرجعى إلى نشأة الإنسانية الأولى. إلى الأزمان التي تلقى فيها بنو الإنسان كلمة الحق منزلة من الله بلسان أهل الأرض. فلم يقدحوا فكراً ولم يكدوا ذهنا. إلى تلك الأزمان التي كانوا فيها يبجلون السلف. وينهون عن كل دين غير دينهم
(أريد التملي من عصور الفطرة بأفقها الممدود المحدود: فكر قانع وإيمان واسع)

(أريد معاشرة الرعاة في المنتجعات، والاسترواح في ظلال الواحات، والارتحال مع
القوافل متجرا في الطرح والبن والمسك، طارقاً كل درب من البوادي إلى الحضر
(وسيان أنجدت أو اتهمت، فإن أغانيك يا حافظ تؤنسني في وعثاء السفر، إذ يترنم
المرشد بها على ظهر برذونه مأخوذا طربا، وكأنما يوقظ بها النجوم الوسنى، ويرهب
قطاع الطريق
(هناك في الشرق في ردهات حماماته وبين جدران خانه، أريد أن أذكرك يا مولانا
حافظ وقد رفعت حبيبتي خمارها، وتضوع الطيب من غدائرها المهدلة المضمخة بالعنبر
(وليعلم الذين ينفسون على حافظ جمال حياته وحلاوة شعره، والذين تطوع لهم
نفوسهم التعريض بهتانا بكفره، أن كلمات الشاعر لا تبرح حائمة حول جنة الخلد،
(طارقة في لطف أبوابها تطلب الخلود
تعويذة
(لله المشرق، ولله المغرب، وفي راحتيه الشمال والجنوب جميعا
(هو الحق، وما يشاء بعباده فهو الحق. سبحانه له الأسماء الحسنى، وتبارك اسمه
الحق، وتعالى علواً كبيرا
(ينازعني وسواس الغي. وأنت المعيذ من شر الوساوس. فاللهم اهدني في الأعمال
والنيات إلى الصراط المستقيم
(ومهما تضللنا النزعات وتزين لنا الشهوات. فالنفس التي لا تذهب في الغي شعاعا ولا
تضيع ضياعا، لا تلبث بالادخار والأباء أن تنطلق عارجة إلى أوجه العلاء
(وللناس في ترديد أنفاسهم آيتان من الشهيق والزفير: هذا يفعم الصدور وهذا يفرج
عنها. كذلك الحياة عجيبة التركيب. فاشكر ربك إذا بليت. واشكر ربك إذا عوفيت
منن أربع
لكيما يسعد العرب في البيداء، راتعين في بحبوحة الفضاء، وأولاهم المولى ذو الخير
العميم مننا أربعة:
أولى هذه المنن: العمامة. وهي زينة أروع من التيجان كافة. ثم خيمة يتحملونها من
مكان إلى مكان، حتى ليعمروا كل مكان. ثم حسام بتار هو أمنع من الحصون وشاهق
(الأسوار. ثم القصيد يؤنس ويفيد، ويسترعي أسماع الخرد الغيد
الحرية
(دعوني كما أهوى على صهوة جوادي السابح، وابقوا أنتم في بيوت المدر وخيام الوبر!
إنني لأنطلق جذلان في الفضاء الشاسع، وليس فوق عمامتي إلا النجوم الزواهر
وما زينت السماء الدنيا بمصابيح، إلا هدى للناس في البر والبحر ولتكون متعة
(للناظرين أبد الدهر كما ولوا وجوههم قبلة السماء
عناصر الشعر
(كما العناصر التي يقوم بها القصيد حتى يتملاه العامة ويلذ سماعه الخاصة؟
(إذا قيل الشعر فليكن النسيب المقدم. فإن الحب إذا مازج الشعر زاد نبراته حلاوة
وبعدها فليردد الشعر رنين الكؤوس ولتتلألأ فيه كميت الخمر كالياقوت فإنما العشاق
والندامى هم وحدهم من ترتاح لهم وتهش لمجلسهم
كذلك يطيب في الشعر سماع صلصلة السيوف ودوي النفير ولجب الوغى حتى إذا
انجلى الحظ أبلج أزهر دان الناس للبطل، وغدا بينهم مؤلها بما أصاب من النصر
المؤزر
(ولا معدى للشاعر في آخر الأمر عن التنكر لأشياء شتى والتعرض لها بالهجاء. فما
كان لمثله أن يلقى القبيح المشنوء. بمثل ما يلقى الحسن المستحب
(فإذا اجتمعت للشاعر هذه المقومات الأربعة. فقد أشاع البهجة والحياة بين الورى
أجمعين. إلى أبد الآبدين
أسير:
(هنا كان الطرف الأدعج والثغر الأحوى اللذان حظيت منهما باللحاظ والقبل، قوام
سبط،
وأعطاف بضة لينة، كأنما هي لحورية من جنة النعيم.
(أكانت هنا حقا؟ وأين مضت؟ أجل، هي بعينها التي جادت بهذا كله، هي التي سمحت
(ثم ولت هاربة. لقد تيمتني وتركتني ما حييت أسيرها

كتاب مطالعة:
سفر ما أعجبه بين الأسفار! ذلك سفر العشق. لقد أمعنت في مطالعته. بضع) صفحات من اللذة، وأبواب مستفيضة في الألم. اختص الفراق بجزاء كامل واقتصر اللقاء على فصل وجير. على مقطوعة. وللأشجان مجلدات مذيلة بحواش لا حصر لها ولا آخر)
سلام:
واها! ما أسعدني!. . . كنت أتمشى خلال الحقول فإذا الهدهد يطفر في طريقي،) وكانت بغيتي البحث هنا وهناك عن ودعت متحجرات مما تختلف عن البحر القديم، فاعترضني الهدهد في اختيال ناشرا تاجه متبخترا في هيئة المدل الساخر، وإنه لسخر الحي بالميت. فقلت له: يا هدهد! في الحق إنك لطائر جميل. انطلق يا هدهد وبلغ حبيبتي أني لها وملك يمينها ما حييت. وكذلك كنت يا هدهد من قبل رسول الحب بين سليمان وملكة سبا)
فقال الهدهد: إن التي أنت موفدي لها، قد أودعتني كامل سرها، في نظرة واحدة من) ناعس طرفها. وأنا أغبطك على سعادتك. فأنت محب وأنت محبوب. ودوام الحب الزاهر مقترناً بالقوى الخالدة بقية أيامك قدر لك مقدور وطالع مكتوب)
قارورة العطر
لكي يتحبب إليك المحب بالعطر العبق، ويزيد في انشراحك وبهجتك، يهلك العطار) على النار العدد العديد من أكمام الورد. فلابد له من عالم منها ليستقطر ملء قارورة صغيرة، قارورة مخروطة مستدقة كأناملك لكي تهدي إليك، فهل ترانا نذكر هذه الآلام والعطر يفعم حسنا ويزيد في متاعنا! هيهات. وكم هلكت أنفس لا عداد لها في سبيل عظمة تيمور)
لذة الإحسان
ما أحلى نظرة الجارية ذات الدل وهي تغمر بطرفها. ونظرة النديم تلمح عينه بالرضى وهو يحتسى كأسه. وما أحلى تسليم السيد الآمر بشملك بعطفه. وشعاع الشمس في الخريف
ينعشك بدفئه. فليكن أحلى من هذه جميعاً في نفسك حركة الاستعطاف اللطيفة تمتد بها كف الفقير في طلب الصدقة، وتتلقى منك بالحمد الجميل ما تجود به. فما أحلاها وقتئذ نظرة وما أحلاها تحية وما أحلاها بلاغة في السؤال. تأمل هذا فإذا أنت الكريم الجواد على الدوام.
مثل الإيمان
تحدرت من السماء إلى لجة الخضم قطرة مرتجفة، فأنحت عليها الأمواج خفقاً وضربا. ولكن الله جزاها عن صبر إيمانها خيرا. فوهب لقطرة المطر قوة واعتصاما. فاحتوتها الصدفة في حرز حريز. وأتم الله عليها العز والجزاء الأوفى فهي اليوم على تاج الشاه درة تتألق حلوة اللمح سنية البهاء
الدين
من الحماقة التعصب للدين. وإذا كان الإسلام هو التسليم لله فقد وجب أن نحيا ونموت مسلمين أجمعين.
ونحن نقف من الديوان عند هذا الحد. وان كان في الديوان زيادة للمستزيد. ولكن ضيق المقام يمنع من الإفاضة. وفيما تقدم الكفاية للدلالة على ما انطوى عليه هذا الشاعر الغربي من الروح الشرقي.
والعجيب أن شاعرنا هذا كلما تقدمت به السن وآذنت شمس حياته بالغروب كان يزداد تطلعا إلى الشرق
وهذا عجيب، ولكنه من جوته غير عجيب فإن ذلكم الرجل العامر بالحياة كان حتى ساعة إن حضرته الوفاة مولعاً بكل مطلع للنور حسيا كان أو روحيا. وقد قضى نحبه ويده المرتجفة تشير برفع الأستار، وعيناه إلى النافذة وهو يتمتم بهذه الكلمة العليا والمطلب الأخير: المزيد من النور! المزيد من النور
عبد الرحمن صدقي
علوم القدماء عند العرب
ولاسيما في القرن الخامس للهجرة بمصر

للدكتور يوسف شخت
أستاذ الفلسفة بكلية الآداب

أجمع علماء الشئون الشرقية على أن أحد أركان المدنية الإسلامية راجع إلى المدنية الإغريقية في آخر مراحلها

فلم يكد العرب يشتركون في تدعيم صرح تلك المدنية العظيمة إلا بلغتهم ودينهم. أما معظم المواد الأخرى فهو مأخوذ من ذلك التراث المجيد الذي تركه اليونان والذي قد توطن في البلاد الشرقية منذ عصر الاسكندر ذي القرنين. ثم جاءت الدولة العربية فأكملت توطن العلوم والآداب الإغريقية في الشرق الأدنى، ومكنتها من الإزهار في تلك المنطقة الرحيبة التي احتضنتها في دائرة حدودها السياسية. فنجد إن حركة ترجمة الكتب اليونانية في الفلسفة والعلوم الطبيعية والطب التي كانت قد بدأت في تلك البلاد قبل فتح العرب لها قد نشطت إلى حد بعيد في آخر القرن الثاني وفي القرن الثالث للهجرة. ولما كانت لغة التراجم الأولى هي اللغة السريانية فإنها بهذا الوضع بقيت الوسيط بين تراث اليونان وبين مدنية الإسلام كما كان معظم المترجمين من النصارى النسطوريين وفي مقدمتهم الحكيم الفيلسوف حنين بن اسحق (194 - 260) الذي كان يشتغل (في بيت الحكمة) ذلك المعهد العلمي الذي أسسه المأمون الخليفة العباسي ببغداد لترجمة كتب العلوم. حنين هذا هو الذي خلق المركز الرائع لآراء جالينوس في القرون الوسطى في الشرق ومنه إلى الغرب

ويشهد بالمجهود العظيم الذي بذل في ترجمة الكتب اليونانية أن الخلفاء أنفقوا على الرحلات للبحث عن مخطوطات قيمة، وأن حنينا، كما أوضح بنفسه لم يكتف بأصل واحد وإنما كان يراجع بقدر الإمكان لا أقل من ثلاث نسخ ليستطيع بمقارنتها الحصول على متن صحيح

كانت هذه أي - دورة التراجم - مرحلة استعداد، وتبعها في القرن الرابع والنصف الأول من القرن الخامس الدور العظيم للعلوم الطبيعية والطبية في بلاد الإسلام. وجد علماء المسلمين أنفسهم بعدئذ على أساس متين من العلوم اليونانية مضافا إليها بعض نتائج دراسات الفرس والهنود، وبدءوا يضيفون إلى هذا التراث من مبتكراتهم. وفي الوقت نفسه فقد المسيحيون مركز احتكارهم (أو كاد) لهذه العلوم وارتفع إلى مستواهم المسلمون

إن أبرز ما في ذلك العصر من الشخصيات العملية الفذة ثلاثة: محمد بن زكريا الرازي (المتوفى سنة 311) وهو أكبر أطباء العالم الإسلامي وأحد أطباء الدنيا الخالدين، وحسين بن عبد الله بن سينا (370 - 428) وكان فيلسوفاً وباحثاً طبيعيا له أكبر الأثر في أوربا بصفته وسيطا لنقل الطب الإسلامي إليها بمؤلفه الكبير المسمى بالقانون، وأبو ريحان محمد بن أحمد البيروتي (362 - 440) وهو أكبر الباحثين الطبيعيين في دائرة الحضارة الإسلامية وأبدعهم تفكيراً ومنهجا.

ما أجود ثقافة هذا الرجل الخوارزمي العجيب وإحاطته بمختلف العلوم والفنون من يونانية وعربية وإسلامية، كما يظهر من مقدمة كتابه في الصيدلة إذ يقول:

كل واحدة من الأمم موصوفة بالتقدم في علم ما أو عمل، واليونانيون منهم قبل) النصرانية موسومون بفضل العناية في المباحث وترقية الأشياء إلى أشرف مراتبها وتقريبها من كمالها. ولو كان ذيسقوريذس في نواحينا، وتصرف جهده على تعرف ما في جبالنا وبوادينا، لكانت تصير حشائشها كلها أدوية، وما يجتني منها بحسب تجاربه أشفية، ولكن ناحية المغرب فازت به وبأمثاله وأفازتنا بمشكور مساعيهم علما وعملا. وأما ناحية المشرق فليس فيها من الأمم من يهتز لعلم غير الهند، ولكن هذه الفنون خاصة عندهم مؤسسة على أصول مخالفة لما اعتدناه من قوانين المغربيين، ثم المباينة بيننا وبينهم في اللغة والملة والعادات والرسوم وإفراطهم في المجانبة بالطهارة والنجاسة تزيل المخالطة عن البين وتفصم عرى المباحثة. ديننا والدولة عربيان وتوأمان يرفرف على أحدهما القوة الإلهية وعلى الآخر اليد السماوية. . . وإلى لسان العرب نقلت العلوم من أقطار العالم فازدانت وحلت في الأفئدة، وسرت محاسن اللغة في الشرايين والأوردة، وإن كانت كل أمة تستحلي لغتها التي ألفتها واعتادتها واستعملتها).

لم ينحصر تقدير العلوم اليونانية مثل هذا في فئة معينة من العلماء، بل كان منتشرا بين الجميع طول القرن الرابع.

هاهي ذي بغداد بمدرستها الفلسفية الطبية التي هي خليفة مدرسة الإسكندرية المشهورة، ولا يصعب علينا اقتفاء أثر انتقالها من الإسكندرية إلى بغداد عن طريق إنطاكية وحران. ومن كبار العاملين بها في القرن الرابع المترجم المسيحي أبو بشر متي بن يونان (المتوفى سنة 328)، وأبو نصر محمد الفارابي الفيلسوف الإسلامي (المتوفى سنة 339)، وتلميذه الفيلسوف المسيحي يحيى بن عدي (المتوفى سنة 364)، والباحث المحقق أبو الحسن المسعودي (المتوفى سنة 346)، وغيرهم من الفضلاء. وقد خلد الأديب أبو حيان التوحيدي (المتوفى بعد سنة 400) في مؤلفه المسمى (بالمقابسات) ذكر مجالس أبي سليمان السجستاني المنطقي (المتوفى بعد سنة 391)

فكان القرن الرابع هذا أزهى عصر لدرس العلوم اليونانية في الحضارة الإسلامية، واستمرت تلك الدراسات وازدهرت في القرن الخامس أيضا خصوصا في بغداد، مع امتداد أشعتها إلى بلاد أخرى ولاسيما إلى مصر.

نتمنى أن نبحث ذلك الدور الأخير لنفوذ التفكير اليوناني في الشرق الأدنى بمناسبة مخطوط محفوظ في إحدى مدارس الموصل يشمل مناظرة دارت بين طبيبين فيلسوفين، وإن كانا دون أولئك الفحول درجة إلا أنهما شغلا مكانا جليلا في تاريخ الطب والعلوم الطبيعية في عالم الإسلام. هما أبو الحسن المختار ابن بطلان من نصارى بغداد، وعلي بن رضوان المصري. تتلخص مناظرتهما في أن كل واحد منهما كان يرغب في التدليل على علو كعبه في علوم القدماء، وعلى مقدرته عن الآخر وبروزه فيها عليه. فإنا أن اطلعنا على تراجم حياتهما كما جاءت في تاريخ الحكماء لابن القفطي، وفي عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة، نرى أن شخصية كل واحد منهما ليس بينها وبين شخصية الآخر أي تشابه، حتى ليخال القارئ أنه يستحيل عليهما أن يكونا صديقين؛ على أن تنافسهما ربما يرجع أيضاً إلى غيرة كل منهما من صاحبه في صناعة الطب.

درس ابن بطلان الطب والفلسفة في الكرخ (حي من بغداد) على أشهر الأساتذة، وأكثرهم من النصارى، وتدل مؤلفاته على أنه لم يكن متطببا فقط، بل تبحر أيضاً في الآداب العربية والعلوم الإسلامية، كما قال عنه ابن أبي أصيبعة: (وكان ابن بطلان أعذب ألفاظاً (أي من ابن رضوان) وأكثر ظرفا وأميز في الأدب وما يتعلق به. ومما يدل على ذلك ما

ذكره في رسالته التي رسمها (بدعوة الأطباء). ففي هذا الكتاب يحمل ابن بطلان على الفشارين المدعين بالطب، ويظهر فسادهم ومضارهم الشائعة ذاك الحين.

يغلب على الظن أن ابن بطلان لم يكن شابا عندما ترك بلدته التي حرمت عليه العودة إليها في مستهل شهر رمضان سنة 440 متجهاً إلى رحلة طويلة ماراً بالأنبار فالرحبة فالرصافة فحلب حيث مكث زماناً، ثم واصل السفر إلى إنطاكية فاللاذقية فيافا حتى جاء مصر حيث مكث ثلاثة أعوام تعرف فيها بابن رضوان. ثم غادر مصر بعدئذ إلى القسطنطينية ثم عاد منها في آخر الأمر إلى إنطاكية. قال ابن القفطي: (فأقام بها وقد سئم كثرة الأسفار، وضاق عطنه عن معاشرة الأغمار، فغلب على خاطره والانقطاع فنزل بعض أديرة إنطاكية وترهب وانقطع إلى العبادة إلى أن توفى بها). وكانت وفاته - خلافاً لما زعم ابن القفطي - بعد سنة 455 بزمان لأنه قد أهل لبناء بيمارستان إنطاكية في السنة المذكورة. وعندما كان في مصر أرسل ابن بطلان إلى المؤرخ الكاتب البغدادي هلال بن المحسن الصابئ كتاباً مفصلا عن رحلته، دل على دقة ملاحظته وعنايته بكل ما رآه، كما أنه لا يزال هذا الكتاب مرجعاً جغرافياً تاريخياً مفيداً للنواحي التي زارها ابن بطلان، فلذلك أورد ياقوت الحموي في كتابه المسمى بمعجم البلدان كثيراً من كلام ابن بطلان. ودليل على كل هذا نذكر شيئاً من وصفه لمدينة اللاذقية. قال: (وهي مدينة يونانية لها ميناء وملعب وميدان للخيل مدور، وبها بيت كان للأصنام وهو اليوم كنيسة، وكان في أول الإسلام مسجدا، وهي راكبة البحر وفيها قاض للمسلمين وجامع يصلون فيه وآذان في أوقات الصلوات الخمس، وعادة الروم إذا سمعوا الآذان أن يضربوا الناقوس، وقاضي المسلمين الذي بها من قبل

الروم)
أما ما ذكره من أخبار الروم والمسلمين فهو إيضاح للحالة كما كانت. فهي دورة الانحلال والضعف السياسي للدولة الإسلامية، قد أصبحت البلاد التي كانت تتبع خلافة بغداد مستقلة، وقامت خلافة الفاطميين بمصر، أضف إلى هذا تفشي الوباء والمجاعات بأقطار عديدة وموت كثيرين من رجال العلم أحس الباقون منهم بفقدانهم وبالخلوة من بعدهم. وإنه لمما يسر أن نلاحظ أن تلك البلايا كلها لم تستطع أن تقطع النهوض العلمي العظيم ولا اتصال العلماء بعضهم ببعض برحلات علمية وراء كل الحدود السياسية ولا ارتباطهم بروابط
الصناعة رغما عن اختلاف العقائد الدينية
على أن ابن بطلان النصراني هذا الذي كان محترماً ومقدراً عند زملائه المسلمين قاسى متاعب من المسيحيين أنفسهم؛ فأنه (لما دخل إلى حلب وتقدم عند المستولي عليها سأله رد أمر النصارى في عبادتهم إليه، فولاه ذلك، وأخذ في إقامة القوانين الدينية على أصولهم وشروطهم فكرهوه، وكان بحلب رجل كاتب طبيب نصراني. . . يحمل عليه نصارى حلب فلم يمكن ابن بطلان المقام بين أظهرهم، وخرج عنهم. . . وللحلبيين النصارى فيه هجو قالوه عندما تولى أمرهم) (مختصر من كلام ابن القفطي)
قال ابن أبي أصيبعة: (وتوفي ابن بطلان ولم يتخذ امرأة ولا خلف ولدا، ولذلك يقول من أبيات:
ولا أحد إن مت يبكي لميتتي ... سوى مجلس في الطب والكتب باكيا
كان ابن رضوان على النقيض لابن بطلان في أكثر مزاياه؛ فلم يكن لابن رضوان في صناعة الطب معلم ينتسب إليه، ولم يغادر نواحي القاهرة مرة، وكان معجباً بنفسه طماعا بخيلا، لما فقد ماله ذهب عقله، ولكنه مع ذلك كله لم يخل من خلق وعقل يحملاننا على العطف عليه والإعجاب به. هذا ما يمكننا تأكيد عن سيرة حياته: ذكر ابن أبي أصيبعة شيئاً غير قليل منها.
كان مولد ابن رضوان بالجيزة وكان أبوه فراناً، قال: (فلما بلغت السنة السادسة أسلمت نفسي في التعليم، ولما بلغت السنة العاشرة انتقلت إلى المدينة العظمى وأجهدت نفسي في التعليم. ولما أقمت أربع عشرة سنة أخذت في تعليم الطب والفلسفة ولم يكن لي مال أنفق منه فلذلك عرض لي في التعليم صعوبة ومشقة، فكنت مرة أتكسب بصناعة القضايا بالنجوم، ومرة بصناعة الطب، ومرة بالتعليم. ولم أزل كذلك وأنا في غاية الاجتهاد في التعليم إلى السنة الثانية والثلاثين، فإني اشتهرت فيها في الطب وكفاني ما كنت أكسبه بالطب، بل وكان يفضل عني إلى وقتي هذا، وهو آخر السنة التاسعة والخمسين) أما ابن القفطي فيقول (وكان في أول أمره منجما يقعد على الطريق ويرتزق لا بطريق التحقيق كعادة المنجمين، ثم قرأ شيئاً من الطب وشيئاً من المنطق وكان من المغلقين لا المحققين. ومع هذا تتلمذ له جماعة من الطلبة وأخذوا عنه، وسار ذكره، وصنف كتباً لم تكن غاية في بابها، بل هي مختطفة ملتقطة مبتكرة مستنبطة. فأما تلاميذه فقد كانوا ينقلون عنه من التعاليل الطبية والأقاويل النجومية والألفاظ المنطقية ما يضحك منه إن صدق النقلة).
على أنه إذا اعتبره ابن أبي أصيبعة أطب من ابن بطلان وأعلم بالعلوم الحكمية وما يتعلق بها، فربما صح حكمه بالنسبة لمهارته الطبية، إذ استشاره بعض ملوك مكران كتابة. أما في الفلسفة والأدب فلا تجد سبيلا إلى اعتباره متكافئاً مع ابن بطلان كما يظهر من مؤلفاته، رغماً عما يذكره عن نفسه في قوله: (وأما الأشياء التي أتنزه فيها فلأني فرضت نزهتي ذكر الله عز وجل وتمجيده بالنظر في ملكوت السماء والأرض؛ وكان قد كتب القدماء والعارفون في ذلك كتباً كثيرة رأيت أن أقتصر منها على ما أنصه من ذلك: خمسة كتب من كتب الأدب، وعشرة كتب من كتب الشرع، وكتب أبقراط وجالينوس في صناعة الطب وما جانسها مثل كتاب الحشائش لذيسقوريذس، وكتب روفس وأريباسيوس وبولس، وكتاب الحاوي للرازي، ومن كتب الفلاحة والصيدلة أربعة كتب، ومن كتب التعاليم المجسطي ومداخله وما انتفع به فيه، والمربعة لبطليوس، ومن كتب العارفين كتب أفلاطون وأرسطو طاليس والاسكندر وثامسطيوس ومحمد الفارابي وما انتفع به فيها؛ وما سوى ذلك إما أبيعه بأي ثمن

اتفق، وإما أن أخزنه في صناديق، وبيعه أجود من خزنه)
وجدير بالذكر أن ابن رضوان المسلم اكتفى بذكر الكتب الإسلامية إجمالا وتأدية للواجب بينما فصل ذكر الكتب المنقولة عن اليونانية واحداً واحداً.
لا حاجة لنا بإيراد تفاصيل إطراء ابن رضوان عن نفسه ومديحه لعمله اليومي ووصفه لمحاسن ترتيب بيته، ولكنا نذكر آخر أمره (عن ابن أبي أصيبعة):
(وكان قد أخذ يتيمة رباها وكبرت عنده، فلما كان في بعض الأيام خلا لها الموضع وكان قد ادخر أشياء نفيسة، ومن الذهب نحو عشرين ألف دينار. فأخذت الجميع وهربت ولم يظفر منها على خبر، ولا عرف أين توجهت فتغيرات أحواله من حينئذ و (تغير عقله في آخر عمره)، وكانت وفاة ابن رضوان في سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة.
يدل على تفانيه في حب علوم قدماء اليونان افتخاره برؤية جالينوس في منامه، قال:
(وقد كان عرض لي منذ سنين صداع مبرح عن امتلاء في عروق الرأس ففصدت فلم يسكن، وأعدت الفصد مراراً وهو باق على حاله، فرأيت جالينوس في النوم وقد أمرني أن أقرأ عليه حيلة البرء فقرأت عليه منها سبع مقالات، فلما بلغت إلى آخر السابعة قال: فنسيت ما بك من الصداع، وأمرني أن أحجم القمحدوة من الرأس؛ ثم استيقظت فحجمتها فبرأت من الصداع على المكان)
هذا ما يكفي تعريفاً بابن بطلان وابن رضوان، ونتجه الآن إلى المناظرة المشهورة التي قامت بينهما. قال ابن أبي أصيبعة: (وكان ابن رضوان كثير الرد على من كان معاصره من الأطباء وغيرهم، وكذلك على كثير ممن تقدمه، وكانت عنده سفاهة في بحثه وتشنيع على من يريد مناقشته. وأكثر ذلك يوجد عندما كان يرد على حنين بن اسحق وعلى أبي الفرج بن الطيب (وكان أبو الفرج هذا أستاذ ابن بطلان ببغداد) وكذلك أيضاً على أبي بكر محمد بن زكريا الرازي. ومن هذا النوع كانت مناقشته لابن بطلان. وقال أيضاً: (وكانت بين ابن بطلان وابن رضوان المراسلات العجيبة، والكتب البديعة الغريبة، ولم يكن أحد منهم يؤلف كتاباً ولا يبتدع رأياً إلا ويرد الآخر عليه ويسفه رأيه فيه.
فأول من إبتدأ المجادلة هو ابن رضوان بمناسبة رسالة لابن بطلان لم تكن موجهة ضده إطلاقاً، بل دارت حول مطلب من مطالب العلوم الطبيعية كثر الكلام فيه بين أطباء ذلك العصر، وهو: أيهما أحر طبيعة الفخر أم الفروج؟ وكان ابن بطلان يعتقد - كما اعتقد السواد الأعظم من الأطباء - أن الفرخ أحر من الفروج، ولكن اليبرودي الطبيب الدمشقي الذي قد درس مع ابن بطلان على أبي الفرج ابن الطيب كان عايا أطباء مصر بمسألة ألزمهم بها أن يكون الفروج أحر من الفرخ. فجمع ابن بطلان في مقالته حججا يعضد بها رأي اليبرودي وينقض الرأي الصحيح (بقياس المتعلمين تطريقاً لهم ورياضة. . . وبقياس العلماء أن يظهر فضلهم في حلول الشكوك الغامضة. . . وبقياس المذعنين تبكيتا لهم وهجنة) وأورد في آخرها واحداً وثمانين سؤال تتعلق بالبيض والحضان والفراريج يدعو الأطباء المصريين إلى الإجابة عنها
يظهر أن ابن رضوان ظن نفسه أو بعض تلاميذه مقصوداً بملاحظة من ملاحظات ابن بطلان في رسالته هذه فأجاب عليها بمقالة لم يبحث فيها عن موضع المشكلة نفسها أم يرد على أدلة المعاياة؛ بل نجده فيها أقرب إلى السفسطة والطعن منه إلى أصول الجدل العلمي.
وحسبنا أن نلتقط من مقالة ابن رضوان هذه موضعا يذكر فيه المزايا التي لا يخلو منها الطبيب الكامل، قال: (وقد بين جالينوس أن الطبيب فيلسوف كامل، وأنه من قصر عن ذلك فهو متطبب لا طبيب. والفيلسوف الكامل هو الذي قد حصل على العلم التعليمي والطبيعي والإلهي والمنطقي، فالطبيب هو الذي حصل كل واحد من هذه على الكمال)
لم يقتنع ابن رضوان بهذه المقالة بل ألف رسالة أخرى ضد ابن بطلان يمكننا الحكم ابنها لم تحتو إلا هجاء وذما. فلم يستطع ابن بطلان أن يترك الأمر عند هذا الحد ووجد نفسه مضطراً إلى رد مفصل هو من أظرف الكتب العربية ومن أبدعها سماه (المقالة المصرية) عَرَجَ فيه عروجا علميا فائقا يقصد به فضح آراء ابن رضوان كلية. يشتمل على مقدمة وسبع فصول. يعتذر ابن رضوان في المقدمة إلى خصمه بأنه إنما ألف كتابه هذا امتثالا لرغبة بعض الجهات الجليلة، ويناشده بإله السماء وتوحيد الفلاسفة،

أن يجيبه بقلب طاهر نقي خال من درن الغضب؛ (فثاميسطيوس يقول: قلوب الحكماء هياكل الرب، فيجب أن تنظف كما تنظف بيوت عبادته. وفيثاغورس يقول: كما أن العوام تظن أن البارئ تعالى في الهياكل فقط فتحسن سيرتها فيها، كذلك يجب على من علم أن الله في كل مكان أن تكون سيرته في كل مكان كسيرة العامة في الهياكل). أما الفصل الأول فهو في العلل التي لأجلها صار المتعلم من أفواه الرجال أفضل من المتعلم من الصحف، إذا ما كان قبولهما للتعليم واحداً، وهذا عكس ما زعمه ابن رضوان الذي، كما لاحظنا، لم يدرس هو نفسه على أستاذ بل تعلم بالمطالعة فقط. والدليل السادس منها يوضح لنا جيداً مقدار الصعوبات والمشكلات التي تلقاها أولئك العلماء الناطقون بالضاد عند دراستهم للكتب العلمية اليونانية: (يوجد في الكتاب أشياء تصد عن العلم قد عدمت في تعليم المعلم، وهي اشتراك الأسماء، والتصحيف العارض من اشتباه الحروف بعدم النقط. . . وسقم النسخ ورداءة النقل. . . وذكر ألفاظ مصطلح عليها في الصناعة، وألفاظ يونانية لم يترجمها الناقل وهذه كلها معوقة عن العلم. وقد استراح المتعلم عن تكلفها عند قراءته على المعلم). والبيان السابع ينبني على إجماع المفسرين أن فصلا من فصول أرسطو لو لم يسمعه ثاوفرسطس وأوذيمس من المعلم نفسه لما فهم قط من الكتاب. فأما الفصل الثاني فهو في أن الذي علم المطالب من الكتب علما رديئا ثار عليه باعتقاده أن الحق محال شكوك يعسر حلها. والفصل الثالث في أن إثبات الحق في عقل من لم يثبت فيه المحال أسهل من إثباته عند من ثبت في عقله المحال. أما الفصل الرابع فهو في أن من عادات الفضلاء إذا قرأوا كتابا من كتب القدماء ألا يقطعوا في علمائها بظن دون معرفة الأمر على الحقيقة، يتضح فيه احترام ابن بطلان للعلماء الأقدمين من اليونان ومن بعدهم كل الوضوح. قال: (إن من عادة القدماء إذا وقفت عليهم المطالب، ولاح لهم فيها تباين وتناقص، أن يعودوا إلى التطلب، ولا يتسرعوا إلى إفساد المطلب. فإن أرسطو بقي يرصد القوس الكائن عن القمر أكثر عمره فما رآه إلا دفعتين؛ وجالينوس واظب على تطلب السكون الذي بعد الانقباض سنين كثيرة إلى أن أدركه. . . وشيخنا أبو الفرج عبد الله بقي عشرين سنة في تفسير ما بعد الطبيعة ومرض من الفكر فيه مرضا كاد يلفظ نفسه فيه. وما منهم رحمهم الله إلا من أنفق عمره في العلم طلبا لدرك الحق. هذا والذي في عقولهم مما بالفعل أكثر مما بالقوة، فإن كنا وما بالقوة فينا أكثر مما بالفعل أخلدنا إلى الطعن عليهم ضحك الحق منا وخسرنا أشرف ما فينا. ولذلك يجب على كل نسمة عالمة دونهم في المرتبة إذا رأت أقاويلهم متباينة إلا تقطع بقول فيهم إلا بعد الثقة). ثم أورد المؤلف أمثلة كثيرة من كتب أرسطو وجالينوس وابقراط وأضاف إلى كل هذا مع صغر شانه بقياس تلك الطائفة المعدودة الدفاع عن نفسه في مسألة وصف التدبير المبرد بمصر خلافاً لبغداد، وحجته اختلاف الهواء. يقول في خصائص بغداد: (بغداد بلد شمالي ليس بكدر الماء، ولا مختلف الأهوية، ولا تنقطع عنه الأمطار في الشتاء، بل قد ينزل فيها الثلج من السماء، ويجمد لكثرة البرد شطا دجلة وتزيد مياهها عند زيادة المياه، وتأتي فواكهها وأزهارها في أوانها من فصول السنة، لا يكاد يرى فيهم مقشور ولا جرب، ولا من به ضيق نفس ولا حكة إلا في الندرة. أرضها قطب إقليم قال فيه أرسطو إنه ينبت الأذكياء، قلما اختار أهله للنسل من جلب من البلاد الجنوبية، فلهذا أوجههم على الأكثر ببعض مشربة حمرة، وأخلاقهم طاهرة، وطباعهم كريمة؛ ليست أرضها في وهدة فتحرقها الشمس وتغرقها كثرة المياه وهي من أسباب العفونة نعم، ولا في غربها بحر ولا في شرقها جبل في سفحه مقبرة وتتراقى منها الأبخرة، وتعكسها الريح الغربية إلى المدينة، لكنها في بسيط من الأرض مستو، جهاتها مكشوفة للشمس والرياح الأربع، وأهلها مع هذه الخصال المعددة المضادة لمصر محتاجون من التدبير المبرد أقل مما يحتاج إليه أهل مصر وما والاها. والمصريون محتاجون إلى أكثر منه كثيراً. فلهذه العلل عدلت بهم عن الأشياء الحارة إلى الأشياء الباردة على موجب قانون الصناعة. وإذا كان عذري قد اتضح بأدنى عناية، وبان خطل من عجل في تغليظي من غير ارتئاء، فما ظن الشيخ بأناس يجرون في العالم مجرى الأنجم الزهر، أبصارنا عند بصائرهم تجري مجرى بصر الخفاش عند عيون العقبان في ضوء النهاء، لاسيما المؤيد أبو زيد حنين بن اسحق الذي منح الله

البشر علوم القدماء على يده، فذوو العقول إلى اليوم في ضيافته يمتارون من فضله ويعيشون من بره)

ويزعم ابن بطلان أن عمل خصمه تقليل من ذلك الاحترام الواجب لسلف العلماء كابقراط وغيره من جهابذة الفن، كما أن إهمال كتب الأولين تقود ولاشك إلى هلاك المرضى. يؤيد ابن بطلان قوله هذا بما جرى بينه وبين بعض تلامذة ابن رضوان؛ فلذلك ينبغي لابن رضوان أن يعلم الشبان تعليما صحيحاً ولا يشيع (عند الأحداث تخبط الاسكندرانيين في تفاسيرهم وجوامعهم للكتب الست عشر، ومنه اصطفن ومارينوس وجاسيوس واركيلاوس وانقيلاوس وبلاذيوس ويحيى النحوي المنجد البطل المحب للتعب. ولعل الشيخ يتعذر عليه معرفة أسمائهم على الحقيقة بالعربية. وهؤلاء مفسرو كتب الصناعة الطبية ليت شعري كيف يذمهم في عمل جوامع كتب فسروا فصوصها وعرفوا نصوصها) ثم يجيء الفصل الخامس في مسائل مختلفة، والفصل السادس في تصفح مقالة ابن رضوان الهجائية التي قال فيها على سبيل المباهلة أن يسأله ابن بطلان ألف مسالة ويسأله هو مسألة واحدة. ابن بطلان جواباً عن هذه المقالة إن الخطباء والأطباء والفلاسفة لكل واحدة من تلك الفرق طريقة تسلكها في المحاورة، وأورد لكل واحدة من تلك الطرق أمثلة من تاريخ الآداب اليونانية؛ أما طريق ابن رضوان فهو - كما زعمه ابن بطلان - هجاء محض من غير وزن وقافية.

أما السب بقبح الخلقة الذي قد اجترأ ابن رضوان أن يوجهه إلى ابن بطلان فيرده هذا بأوفى الذكاء والفطانة ذاكراً أقوال سقراط وأفلاطون وجالينوس؛ موردا بعض أعلام الآداب العربية تجردوا من جمال الشكل مثل الجاحظ وعبد بني الحسحاس، وفي النهاية يستفتي ابن رضوان عن خلقه هو نفسه قائلاً: (لو أن رجلاً استفتى بفتوى نسختها: ما يقول الشيخ وفقه الله في رجل أسود اللون، مضطرب الطبيعة والكون، غليظ الشفتين، منتشر المنخرين، جاموسي الوجه، بقري العينين، قليل الأنصاف، محب المراء والخلاف، قلق المشية جهر النغمة، يفتينا في ذلك مأجوراً من الله، للزمه أن يفتي بما نسخته: الجواب ومن الله المعونة: النفس الفاضلة تابعة لأشرف كيفيات الهيولي فهي توجب عن اللون المشرب حمرة وعن التخاطيط الخبيثة الأخلاق الكريمة، وهذه المعددة هي أضداد هذه، فالنفس التابعة لها غير فاضلة، وكتبه علي بن رضوان على مذهب القدماء وبحسب تفسير الصناعة الصغيرة)

وبعدئذ يدافع ابن بطلان عن حنين ابن اسحق فيما يرميه به ابن رضوان، فإن المسألة الوحيدة الجديرة بالاعتبار تتلخص - قال - في اختلاف بين حنين وجالينوس في الظاهر فقط، كما أن الاختلاف بين أبي حنيفة من جهة وبين أبي يوسف ومحمد ابن الحسن من الجهة الأخرى في نكاح الصابئين وأكل ذبائحهم اختلاف الفتوى فقط

أما الفصل السابع والأخير فهو يتضمن فحص مفردات كثيرة من أغلاط ابن رضوان، وينتهي بإنذاره بحساب يوم القيامة (فسأطالبه في الحق إذا جلس الله لفصل القضاء واستغاث المرضى وأشخصوا الأطباء، وحضرت الملائكة الكتبة، وخرست الألسن الناطقة، وشهدت القوارير الصامتة، بدلالتها كأنها على الحالة الحاضرة، وظهر الغلط، واعترف الأطباء بالذي فرط، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. . . وليتحقق أن. . . لنا موقف حساب، مجمع ثواب وعقاب، يتظلم فيه المرضى إلى خالقهم، ويطالبون الأطباء بالأغلاط القاضية بهلاكهم، وأنهم ليسامحون الشيخ كما سامحته. . . ويتحقق أنهم لا يرضون منه إلا بالحق المبين)

لم يتأخر ابن رضوان في الرد على ابن بطلان مرتين. فلما وجد نفسه عاجزاً عن النقض الصحيح لذلك الكتاب رجع إلى أسلوبه الكريه المعتاد. أما الرد الأول فقد عجل تأليفه قبل فحصه كتاب ابن بطلان كله؛ وأما الثاني ففيه تلخيص لكل ما جرى بينهما من وجهة نظر مؤلفه، وغرضه الصريح دعوة أطباء مصر والقاهرة إلى مقاطعة ابن بطلان. يقول ابن رضوان في آخره: (فهذا فيه كفاية في أن تعجبوا من أمر هذا الرجل، وتضحكوا منه وتتركوا مكالمته فيما تستأنفوه منه، ولا تلتفتوا إلى شيء يقوله بل تنزلوه بمنزلة إنسان قد خولط ووسوس، فهو أبداً يهذر ويهذي فلا يستحق أن يرثى له ولا يرحم قط)

هذا غاية ما يسمح لي الوقت به من شرح تلك المناظرة بين الطبيبين الفيلسوفين.
حاصل
القول أن الخصمين مع كل ما لاحظناه بينهما من الاختلاف من جهة النشأة والتربية والبيئة والدين والأخلاق دانا بعلمهما إلى الفكرة اليونانية دينا شديدا كانا به يعترفان ويفتخران، يجتهدان في التشبه بالعلماء الأقدمين، كما أن علوم الأوائل كانت عنصراً لازماً لمدينة البلاد الإسلامية في القرن الخامس. هذا هو العصر الأخير لأثر العقلية اليونانية العلمية في الشرق الأدنى قبل أن تسير إلى الاضمحلال التدريجي حتى تتلاشى. فإن السلاجقة الذين يوافق ابتداء سيادتهم عصر ابن بطلان وابن رضوان لم يعنوا بتجديد النظام السياسي للناحية الشرقية من عالم الإسلام فحسب، بل قاموا أيضاً بتأييد السنة وبمحاربة كل الحركات العقلية التي يعتبرونها مخالفة لها، فكان لعلوم القدماء حظ غير موفور، لأن بعض المحافظين استمروا يسيئون الظن فيها خصوصاً بعد ما أنتفع بها القرامطة والفاطميون في إلباس تعاليمهم الباطنية ظواهر الحقيقة العلمية
ورغماً من هذا فقد جاء في القرون المتأخرة من حين إلى حين بعض علماء مبرزين خلعوا عن أنفسهم تلك الأغلال، وأظهروا الروح العلمية الخالصة غير ملتفتين إلى شكوك من دونهم. من هؤلاء الفيلسوف الأندلسي ابن رشد (المتوفى سنة 595)، والجهبذ موسى بن ميمون (المتوفى سنة 687) والطبيب المصري ابن النفيس (المتوفى سنة 687) مكتشف الدورة الرئوية للدم؛ إلا إنه للأسف بقي أولئك الأفاضل في أوطانهم غرباء منفردين لم تقدر آراءهم ولم تنتشر، على حين كان ابن بطلان وابن رضوان من المعبرين عن الحركة العقلية العامة في زمانهما التي اشتركا فيها مع رهط كبير من معاصريهما. لم تخل العلوم الأخرى غير الطبيعية والطبية من ذلك التدهور العلمي الذي نشاهده ابتداء من القرن السادس؛ وهذا حجة ساطعة لقيمة تأثير الفكرة اليونانية على الأعمال العقلية في كل نواحيها.
ومهما يكن من شيء فإن ما تناولناه في بحثنا هذا يصور لنا صورة واضحة لضحى العلوم اليونانية العربية في بلاد الإسلام
يوسف شخت
العدد 197 - بتاريخ: 12 - 04 - 1937
الزواج
للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني
لا أدري ماذا دها الناس، فإنه يندر أن اسمع في هذه الأيام بزواج موفق؛ فهل صار نظام الزواج فير صالح لهذا الزمن؟ أم العيب في الناس لا في النظام ولا في الزمن؟ ولا شبهة في أن للزواج عيوبه. فما الزمن، يخلو شيء في دنيانا هذه من عيب؛ وان له لمتاعب؛ وإن مسئولياته لعديدة وثقيلة، ولكن النجاة من المتاعب عسيرة في الحياة؛ وانه ليظن حمقا من يتوهم أنه يستطيع أن يحيا ويخلو مع ذلك من المتعبات سواء أتزوج أم أثر الوحدة والاستفراد. واحسب إن كثيرين من الرجال والنساء أيضاً يقدمون على الزواج وهم يعتقدون أنه صفو لا كدرة فيه، ومتعة لا تنقص ولا ينغصها أو يفسدها شيء. وحلاوة لا تشوبها مرارة، فتخيب آمالهم كما لا بد أن يحدث، ويضجرون ويتأففون ويشكون وتتلف أعصابهم فلا تعود تقوى على احتمال ما كان ظنهم ألا يكون. وهذا شأن كل من يتناول الحياة بخفة، وواجهها بغير ما ينبغي من التهيؤ للاحتمال، ومن الاستعداد للتشدد والجلد والمقاومة.
وقد كنت أتكلم في هذا وما إليه مع صديق فقال: الحقيقة إن الزواج نظام ثبت إخفاقه وقلة صلاحه في هذا الزمن، فعذرته لأنه ممن جر عليهم الزواج نكبات كثيرة يشق احتمالها، ولكني لم أر رأيه، فقلت له: (لا تغلط يا صاحبي فان كل زمن ككل زمن، وهذه الاختراعات الكثيرة لم تغير شيئا من حياة الناس وفطرهم، ولم تقلب الحقائق الاجتماعية، وما خلا زمن قط ممن يسعدهم الزواج وممن يشقون به، ولا من الراضين والساخطين على هذا وغيره من أحوال الحياة وما زال الرجل كما كان، والمرأة كما عهدها آباؤنا وأجدادنا عفا الله عنهم ورحمهم، ومع ذلك قل لي ماذا تطلب من الزواج وأنا أقول لك ماذا ينبغي أن تبلغ به أو ما لا بد أن يصيبك من خيره أو شره) قال: (اطلب الراحة والاستقرار. . . ماذا اطلب غير ذلك؟) قلت: (إن الراحة مطلب لا

سبيل إليه في الحياة، وهي لا تكون إلا بالموت على أن هذه لا تعد راحة مادام المرء لا يحسها ولا يدرك أنه مرتاح، ولا يعرف حتى ما صار إليه؛ والاستقرار كذلك عسير لأن حياتك كلها قوامها التحول والتغير، وجسمك ونفسك وخواطرك وآمالك وشهواتك وكل ما

(فيك أو لك يتغير فكيف بالله يكون هذا الاستقرار؟ وأين السبيل إليه؟

قال: (إنما اعني الراحة النسبية والاستقرار بالقياس إلى حياة العزوبة والوحدة)

قلت: (ولا هذه أيضاً. إن الزواج ليس أداة لراحة ولا وسيلة لاستقرار أو غير ذلك مما تتوهم، وإنما هو نظام. فإذا كان يوافقك أن تحيا في ظل هذا النظام فتفضل وأهلا بك وسهلا؛ ولكن يجب حينئذ أن تعرف إن له مقتضيات، وان توطن نفسك على الإذعان لها واحتمالها، كما يخضع الجند للنظام العسكري، ولم يقل أحد إن الجندية سبيل لراحة أو استقرار أو لذة، أو غير ذلك مما يجري هذا المجرى. وإنما هي نظام تقتضيه حياة الجماعة. وكل جندي يقول لنا أنه نظام شاق عسير ثقيل الوطاة، ولكنه لازم ولا بد منه. والفرق بين الزواج والجندي إن الجندي يعلم أنه داخل في نظام لا لذة فيه ولا متعة له منه وانه سيلقى عناء ويكابد متاعب، وانه معرض للجلد والسجن، بل للموت حتى من غير حرب. ولكن طالب الزواج يمنى نفسه الأماني المستحيلة فيلقى خلاف ما كان يقدر، ولو أنه وطن نفسه - كما يفعل الجندي - على التعب والنصب ووجع القلب ومعاناة المنغصات إلى آخر ذلك لسعد بالزواج، ولفاز منه بلذات كثيرة ونعم جزيلة ومتع يضن بها على النسيان. وقد ذكرت الجندية على سبيل التمثيل، ولكن للجندية علاقة وثيقة بالزواج، لأن الزواج غايته تنظيم أمور النسل اللازم للجماعة، أي مد الجماعة بالعدد الكافي من الأفراد للقيام بأعباء حياتها، فهو نظام تمهيدي للجندية. وأنا استعمل الجندية هنا بالمعنى الأعم الأشمل، واعني كل فرد لا الذين يحملون السلاح ويسيرون إلى القتال حين يدعون إلى ذلك - لا اعني هؤلاء وحدهم، فان كل فرد جندي للجماعة وان لم يحمل سيفا ولم يتقلد رمحاً، إذا كان قد بقى في عصرنا هذا من يتقلد رماحاً. والواجب على كل حال أن يدرك المرء أنه بالزواج يكون كالذي يعمل في شركة؛ وللعمل نظامه. والعمل لا تطلب منه اللذة بل الثمرة؛ والعمل لا يفيد الراحة بل التعب؛ ولا آخر للتعب ما دامت الشركة قائمة تعمل وتؤدي ما هو منتظر منها. نعم يستطيع المرء أن يفوز بإجازة، ولكن هذا ميسور في نظام الزواج: خذ إجازة كلما شعرت إنك تعبت، وامنح زوجتك مثل ذلك كلما بدا لك أن أعصابها كلت)

فعجب وسألني: (كيف ذلك. .؟ أن هذا مزاح)

فأكدت له إني جاد، وقلت: (إني أعيش مع زوجتي كأنا صديقان؛ وليس يسعني أن افعل غير ذلك، لأنها إنسان مثلي ولها حياتها المستقلة عن حياتي وإن كنا متعايشين تحت سقف واحد. وأنا احرص في حياتي معها على الاعتراف بهذا الوجود المستقل فلا أحاول أن افني وجودها هذا واجعله يغيب في وجودي؛ ولو تيسر لي هذا لما كان لي فيه أي لذة لأني خليق أن اشعر حينئذ إني أعايش آلة لا إنساناً محسا مدركا يبادلني ما يسرني أن أراه يبادلني إياه من العواطف والاحساسات والخوالج. ولو أفنيت شخصيتها في شخصيتي لانحطت في نظري إلى منزلة الخدم الذين تطعمهم وتنقدهم أجرهم على أن يفعلوا ما تريد ولا يجاوزوا مشيئتك. وليست زوجتي خادما ولا آلة وإنما هي رفيق حياة أي صديق معين. ولست أقول هذا تملقا أو نفاقا بل أقوله لأني لا افهم معنى للزواج غير ذلك. كلا. لست احول أن اغلب إرادتي على إرادتها لأني لا أحس حاجة إلى ذلك؛ وسبيلي التفاهم لا الإكراه، واراني ابلغ بهذا ما لا ابلغ بالقوة والضغط. ومطلبي ما هو أوفق لكلينا، لا ما هو أوفق لي وحدي، فان الشركة لا تصلح بهذا الاستئثار، والزواج شركة على التحقيق، ولا يحسب أحد أن الرجل يضع في هذه الشركة أكثر مما تضع المرأة، وانه لهذا مغبون فيها، فان هذا خطأ، فليس السعي للرزق كل ما تقتضيه هذه الشركة، وان المرأة لتبذل حياتها كلها لا جهدها لإنجاح الشركة؛ وحسبها الحمل والوضع، ولو أمكن أن يحمل الرجل لأمكن أن يدرك هول ما تتحمل المرأة في سبيل هذه الشركة، ولكنه لا يحمل مع الأسف، فهو في الغالب لا يستطيع أن يقدر نصيب المرأة وما يكلفها الزواج وما يعرضها له، ولا كيف تضحي بها الحياة لتملأ الدنيا بمثلى ومثله ممن لا يستحقون هذه التضحية)

فترك هذا وقال: (ولكن ألا يجب أن يكون للبيت سيد. . . إن المركب يغرق إذا كان له

(رئيسان.
فقلت: (آه. . حكاية التركي الذي جرد سيفه ليلة الزفاف وأطار به عنق القطة ليرهب الزوجة المسكينة. . لا يا سيدي. . ليس الأمر أمر سيد أو سيدة، فما ثم محل لذلك. وأين محل هذا ولكل من الرجل والمرأة عمل؟ وأصدقك فأقول إني لا أدري كيف يمكن أن تجور المرأة على الرجل أو يجور الرجل على المرأة. أخل ذهنك من كل فكرة عن السيادة وأخل لها ذهنها أيضاً. . تفاهما معا. . هي لها عملها وواجباتها التي لا تستطيع - حتى إذا
أرادت - أن تشاركها فيها؛ وأنت لك عملك وواجباتك التي يعيبها أن تشاركك فيها؛ وكل منكما يمضي بعد ذلك في طريقه لينهض بأعبائه الموكولة إليه. فأين يكون الاختلاط والاحتكاك والخلاف؟ وإذا حدث خلاف فلماذا لا يكون بالحسنى .. .)
قال: (والغيرة. . أليست بلاء؟)
قلت: (طبعا. . والرجل أيضاً يغار. . أليس هذا بلاء؟. . فلماذا لا تضع نفسك في موضع المرأة وتنظر إلى الأمور من ناحيتها هي أيضاً. . صحيح إن المرأة أسرع إلى الغيرة من الرجل وان غيرتها أحمى، فبلاؤها لهذا اعظم، ولكن هذه طبيعتها ولا حيلة لها في ذلك، لأن الغريزة الجنسية في المرأة أقوى منها في الرجل إذ كانت هي مدار حياتها. ثم إن الواحد منا يتقبل أصدقاءه على علاتهم ويحتمل أمزجتهم التي تخالف مزاجه، ويوفق بين رغباته ورغباتهم - وما اكثر ما تتباين - ويظل مع ذلك صديقهم ويظلونهم أصدقائه، فلماذا لا يكون هذا حال الزوجين. .؟ لماذا لا يحتمل منهما الآخر على العلات وهما بذلك أولى من الصديقين. .؟ المسألة يا أخي إن الرجل يريد أن يسود، وان المرأة تريد أن تحكم، لأن هذا هو (المودة الجديدة. ولو تركا هذا وأهملاه فنزل الرجل عن الرأي الموروث فيما ينبغي أن تكون عليه علاقة الرجل بالمرأة، وتركت هي ما تشير به (المودة) الحديثة من أن الست هي السيدة المطاعة والرجل هو التابع والخادم الذليل - لو تركا هذا وسارا في الحياة سيرة شريكين متعاونين على إنجاح الشركة واحتمال متاعبها والصبر على بلاياها في سبيل مزاياها وفائدتها لارتاحا جداً ونعما بالحياة الزوجية).
فسألني: (هل أنت سعيد؟).
قلت: (إني سعيد لأني لا أطلب من الزواج سعادة، ولو كنت اطلبها لشقيت على التحقيق؛ وقد تزوجت وأنا موطن نفسي على إن هذا واجب أؤديه كما أؤدي واجبي بالعمل في الصحافة وبالاشتغال بالأدب - واجب والسلام. فإذا فزت بمتعة فهذا فضل من الله، وإذا فاتني ذلك فما كنت اطمع فيه أو أرجوه. وقد أدخلت هذا في رأس زوجتي فهي تفهمه حق الفهم، وقد كان على أن افهمها هذا في أول الأمر لأني أردت من البداية أن أجنب سبيل الإخفاق. وقد أفلحت ولله الحمد والشكر؛ فإذا حدثتك نفسك بالزواج مرة أخرى فاصنع هذا).
فصاح: (أنا. . . أعوذ بالله يا شيخ!)
فقلت: (أرني لم أوفق إلى إقناعك. . لا بأس. . المسألة في الحقيقة مرجعها إلى الاستعداد، ولو شئت لقلت إلى العقل والحكمة وسعة الصدر ورحابة أفق النفس)
فقال: (متشكر يا سيدي)
فعلمت انه غضب. ومع ذلك ماذا قلت. . أني لم أزد على إبداء رأي، فإذا كان لا يحتمل هذا بل يعده تعريضا شخصيا به فلا غرابة إذا كان قد أخفق في زواجه

إبراهيم عبد القادر المازني

النجاح في القرن العشرين

لأديب مجهول

في قطعة تعد من اجمل نماذج النثر الإنجليزي يصف الأستاذ السير جيمس فريزر العادة الغريبة التي كانت متبعة في تولية القسس الحاكمين بغاب ديانا القريب من موقع مدينة لارتشيا الحالية بإيطاليا: (فمن يوم إلى يوم، ومن عام إلى عام، في الحر وفي البرد، وفي الصحو وفي المطر، يخرج القسيس من المعبد حذرا يترقب ويجوب الغابة، والسيف مشهور في يده، وأن أغفى إغفاءة فقد يكون ثمنها حياته ويتولى من قتله الحكم مكانه.)
ذلك نوع من النجاح بعد به عنا الزمن، وأنكرته المدنية حتى في عهدها القديم (فإني

اذكر وأنا اكتب الآن إن الإمبراطور كراكرا كان هو الذي ابطل قانون الغابة الذي سلف وصفه) لما تنطوي عليه فكرته من تغليب محض القوة أو الخديعة على كل اعتبار آخر وإباحة التخلص من وجود المنافس كلية بقتله، وقد يكون المقتول انفع لقومه من القاتل، فضلا عن أن لا حياة لمجتمع ما إلا بالتواضع على حد أدنى من الأمن على النفس والمال وما يتصل بهاتين الغايتين من أفكار أدبية ونظم قانونية.

وما زالت معايير النجاح تتغير تبعا لاختلاف الجماعات والعصور حتى أتى هذا القرن وأوضح صفاته وصول التنافس الاقتصادي فيه إلى اشده سواء بين الأفراد أو الأمم، وفي هذه الحالة ما فيها من خطر على المدينة يكاد يرجع بها إلى عهد التناحر الأول، وما استمرار الحرب الهجومية إلى هذا الوقت إلا نذير بما تستهدف له العلاقات الدولية من عودة الإنسان فيها إلى حكم غرائزه البحتة.

نترك هذا الجانب الدولي من الموضوع، فليس هو المقصود ببحثنا الآن فضلا عن مساسه بمسائل هي أدق بكثير مما يتناوله البحث في تنافس الأفراد.

والآن فما مقياس النجاح في عصر الاقتصاد؟ إن اسهل جواب على ذلك القول بأنه هو النجاح المشتق من روح العصر. أي النجاح في الماديات، واسهل جواب ليس هو دائماً فصل الخطاب، بل إن الأمر ليحتاج لنظر أدق وتفكير كثير، فقد كان التنافس في الماضي نضالا بين اثنين أو أكثر يفوز فيه أحسنهم مواهب أو فرصا، فتحول الآن إلى جهاد للتخلص مما أحاط به هذا العصر بنيه من صعوبات نشأت عن انتشار الديموقراطية من

جانب وزيادة السكان من الجانب الآخر. وأكبر أخطار الديمقراطية هو ما نحاول نشره يوميا (خصوصا بالسينما والراديو) من فرص للمساواة المزعومة بين الناس مما يسهل انعدام شخصية الفرد في آلاف يراهم مثله. واكبر أخطار زيادة السكان هو الفقر والعطلة، فالتحول بالأخلاق من ينابيعها الأدبية والروحية إلى غرائز الإجرام الحيوانية الكامنة هي أيضاً في الطبيعة البشرية

ولا ريب في أن الناشئ في هذا القرن يقاسي من هذه الصعوبات مالا عهد للسابقين به، ويتعرض من أخطاره لما لم يعرفه غيره ممن قبله، غير انه لا ريب كذلك في أن إطلاق مبادئ النجاح المادي من عقالها وترك النضال القديم الذي يعترف بحدود الأخلاق والدين إنما هو في الواقع هروب من الجهاد الصحيح إلى عراك آخر رخيص يبيح الصعود بالهبوط، والوصول لنعيم الجسم بفقدان الروح، ولضخامة الكسب بموت الضمير

وسيكون اختيار الناس لهذا النوع أو ذاك من النضال تبع فهم كل منهم معنى الكرامة والحياة، ولا فائدة على أي حال من خطاب من فسدت مقاييسه أو خبث طبعه، ولكن الذي لا بد من بيانه في هذا الصدد أن النجاح برغم كل ما تقدم من وصف صعابه لا يستلزم تغييرا في كيف السعي بل في كمه؛ وبعبارة أخرى هو يستلزم زيادة في الجهد لا ما يدعو إليه المستهترون بالاجتماع السليم من اطراح ما قامت عليه المدنيات من قواعد الشرف والأدب.

فإذا تبين أن سبيل النجاح الآن لا يخرج عما كان في كل آن من انه طلب التقدم بكل وسيلة شريفة بقى أن نبحث عن أهم شروط هذا الطلب فلا نجد غير إرادة النجاح، والإرادة هي إرادة الوسائل وعقد النية على العمل بها لا الإرادة الجوفاء الشبيهة بالأحلام

وباعتبار ما تقدم عنه من امتياز هذا القرن بشدة التنافس الاقتصادي فيه يجب أن نضيف إلى شرط الإرادة شطاً آخر هو القدرة على إنزال المال منزلته الصحيحة من انه وسيلة للحياة المادية، وانه هو الحياة المادية نفسها يجب أن يتخذ وسيلة لأن يحيا المرء حياته الروحية التي هو جدير بها. فإذا عمل عامل بهذه العقلية وتلك الإرادة فداوم على تهذيب نفسه مع السعي لترقية حاله وحافظ على شخصيته في كل الظروف فهذا هو الفضل وهو النجاح.

(* * *)

مصاير الحرب في إسبانيا والصراع بين إنكلترا وإيطاليا

بقلم باحث دبلوماسي كبير

مضت إلى اليوم تسعة اشهر مذ نشبت الحرب الأهلية الإسبانية في أواخر يوليه الماضي، وما زالت على اضطرامها، ونستطيع بعد الذي شهدناه من تطور الحوادث خلال هذه الفترة أن نقول إن هذه المعركة الطاحنة التي تخضب ارض إسبانيا بالدماء وتبسط في جنباتها أعلام الدمار والويل، لم تسفر حتى اليوم عن نتيجة حاسمة؛ بل لا نبالغ إذا قلنا أنها ما زالت حيثما بدأت من حيث أوضاعها الداخلية؛ فالجبهة الثائرة ما زالت تجاهد جهاد اليأس لتنتزع ما تستطيع انتزاعه من المدن والأراضي؛ وجبهة الحكومة أو الجبهة الجمهورية ما زالت تصمد في معظم الميادين وترد هجمات الثائرين؛ وقد أحرزت في الأسابيع الأخيرة نجاحا يذكر في المعارك النى دارت حول مدريد، ولا سيما في وادي الحجارة (جوادي لاجارا) كما أحرزت بعض النجاح في الشمال حول اوفيدو، وفي الجنوب في بسائط قرطبة وغرناطة. وقد لاح مدى حين حينما استولى الثوار على مالقة في أوائل شهر فبراير بمؤازرة الفرق الإيطالية في البر، والمدرعات الإيطالية والألمانية في البحر، إن الجبهة الثائرة تسير إلى نصر سريع محقق، وان الجبهة الجمهورية قد أضحت على وشك الانهيار والتحطم؛ وكان سقوط مالقة في الواقع تعويضا للثوار عما لحقهم أمام مدريد من فشل مستمر؛ وكان المظنون أن الثوار سيتابعون زحفهم إلى المرية ثم إلى بلنسية حيث تقوم الحكومة الجمهورية؛ ولكن سقوط مالقة أذكى في الجمهورية شعور الخطر وأذكى فيها روح النضال، فضاعفت جهودها، واستطاعت أن ترد خطر الثوار في الجنوب؛ واغتر الثوار بظفرهم في مالقة فدبروا مع حلفائهم الإيطاليين هجومهم الجديد على مدريد، واضطرمت حول العاصمة الإسبانية سلسلة جديدة من المعارك الطاحنة، ولكنها أسفرت عي تلك المرة كما أسفرت في كل المرات السابقة عن فشل الثوار الذريع، بل أسفرت فوق ذلك عن إحراز القوات الجمهورية لسلسلة من الانتصارات الباهرة في جبهة وادي الحجارة وفي آفيلا، وعن تمزيق الثوار وحلفائهم الإيطاليين، وردهم بعيدا عن حدود العاصمة وعن طريق مدريد - بلنسية الذي يحاولون احتلاله لقطع العاصمة عن باقي إسبانيا.

وقد كان لهذا التطور الجديد في مصاير الحرب الأهلية الإسبانية أثر عميق في الموقف الدولي، فقد كشفت الحوادث والمعارك الأخيرة عن مبلغ تدخل إيطاليا في الحرب الإسبانية وعن ضخامة الدور الذي تقوم به إلى جانب الثوار، وبالأخص عما ارتكبته من المخالفات الصريحة لاتفاق عدم التدخل إذ تبين أنها أرسلت إلى إسبانيا عدة فرق عسكرية كاملة في أوائل شهر مارس، اعني بعد أن عقد ميثاق عدم التدخل في لندن وتعهدت جميع الدول الموقعة عليه ومنها إيطاليا بان تكف عن تدخلها في الحرب الإسبانية، وان تقطع عن الفريقين المتحاربين كل معاونة عسكرية، وتبين إن معظم القوى التي قامت بالهجوم الأخير على مدريد كانت مؤلفة من الإيطاليين وانه يوجد الآن في إسبانيا إلى جانب الثوار نحو خمسين ألف جندي إيطالي؛ وقد كشفت السياسة الإيطالية عن مبلغ تمسكها بهذا التدخل وتصميمها على معاونة الثوار على تحقيق الغرض الذي ترمي إليه، وهو إقامة حكومة عسكرية فاشستية في إسبانيا تكون خاضعة للنفوذ الإيطالي؛ وقد قررت إيطاليا في لجنة عدم التدخل، على يد سفيرها في لندن، أنها ترفض سحب جنودها في إسبانيا وصرحت صحافتها الشبيهة بالرسمية، بان الجنود الإيطالية لن تغادر إسبانيا حتى الظفر النهائي لزعيم الثورة الجنرال فرانكو، وأن إيطاليا لن تسمح بأي حال أن تقوم في إسبانيا حكومة بلشفية، وهو الوصف الذي تطلقه على حكومة إسبانيا الشعبية الجمهورية. ولنلاحظ أن إيطاليا تقف هذا الموقف العنيف غداة هزيمة جنودها أمام مدريد، وهي الهزيمة الذريعة التي كدرت على موسوليني صفو رحلته الرنانة في طرابلس، وحملته على العودة إلى رومه قبل أن يتم برنامجه.

وهذا الموقف الذي تقفه إيطاليا من المسألة الإسبانية يثير في لندن وباريس مخاوف كثيرة؛ وقد كان موقف ألمانيا إزاء هذه المسألة من قبل يثير مثل هذه المخاوف، ولكن ألمانيا تقف في معاونتها للثوار عند الحد الذي بلغته قبل عقد اتفاق عدم التدخل. ولا تريد الآن على ما يظهر أن تتوسع في تدخلها بعد أن رأت فشل سياستها في المسألة الإسبانية؛ أما إيطاليا فإنها تثير بموقفها صعاباً جمة في سبيل تطبيع سياسة عدم التدخل التي ترى لندن وباريس أنها خير وسيلة لحصر أخطار الحرب الإسبانية

وصون السلام الأوربي من شررها المتطاير. وهنا تبدو الصبغة الدولية للحرب الأهلية الإسبانية وهي الصبغة التي نوهنا
بخطرها وأهميتها مذ نشبت الثورة في إسبانيا. فالعلائق الإيطالية الإنكليزية، والنضال بين إنكلترا وإيطاليا في البحر الأبيض المتوسط، تلعب اكبر دور في تطور المسالة الإسبانية، وفي سير الحوادث الدولية بوجه عام. والمسالة الإسبانية ليست إلا واحدة من مسائل عديدة يثيرها النضال بين الدولتين في هذا البحر؛ وإيطاليا لم تنس موقف إنكلترا في المسالة الحبشية. ولم تنزل عن شيء من أحقادها ومشاريعها رغم عقد اتفاق (الجنتلمان) بينها وبين إنكلترا على احترام الحالة الراهن في البحر الأبيض المتوسط. وإذا كانت إنكلترا تمضي اليوم في تنفيذ برنامجها الدفاعي الهائل فلأنها اعتبرت حوادث الحرب الحبشية، وشعرت بالخطر الذي يهدد سيادتها الإمبراطورية من جراء تفوق التسليح الإيطالي في البحر الأبيض المتوسط وهي تستطيع اليوم بعد أن قطعت شوطا كبيرا في برنامجها الدفاعي أن تقف في وجه السياسة الفاشستية وان تناوئ أطماعها الخطرة. ولم ننس بعد تلك المعركة الصحفية المرة التي أضرمت بين الصحافتين البريطانية والإيطالية، من جراء أقوال (الدوتشي) ومزاعمه المغرقة في طرابلس حول حماية الإسلام والعرب، وما أثارته تلك المزاعم من سخرية لاذعة في العالم الإسلامي.

ولنلاحظ إن هذا النضال بين السياستين البريطانية والفاشستية كما انه يحدث أثره في المسألة الإسبانية أو غرب البحر الأبيض المتوسط، فإنه يحدث أثره العميق أيضاً في شرق هذا البحر ففي الأشهر الأخيرة نشطت السياسة الإيطالية قي البلقان وفي أوربا الوسطى، وأحرزت أخيراً نجاحا يذكر بعقد الميثاق اليوجوسلافي الإيطالي، ومن المعروف أن العلائق بين إيطاليا ومنافستها القوية في بحر الادرياتيك لم تكن على ما يرام، فعقد هذا الميثاق يحسم كثيرا من أسباب النزاع بينهما، ويضمن لإيطاليا حيدة يوجوسلافيا إذا وقع الصدام بينها وبين دولة أخرى، كما انه يضمن ليوجسلافيا مثل هذه الحيدة؛ والظاهر أن السياسة الإيطالية تسعى إلى عقد مثل هذا الميثاق مع المجر حيث تتمتع بنفوذ واضح، ومع تركيا الكمالية أيضاً. فإذا تم عقد هذه المواثيق، فان إيطاليا الفاشستية تسوي بذلك علائقها في شرق البحر الأبيض المتوسط وتأمن غائلة الاعتداء من هذه الناحية، وتستطيع أن تتفرغ لمقاومة السياسة البريطانية في أواسط البحر الأبيض المتوسط وفي غربه أعني في إسبانيا

ولقد نوهنا من قبل غير مرة بخطورة هذا النضال بين إيطاليا وبريطانيا العظمى وشرحنا عناصره الظاهرة والخفية، وليس من ريب في إن هذا النضال يستغرق اليوم كثيرا من نشاط السياستين البريطانية والإيطالية؛ وإذا كانت السياسة البريطانية تبدي كعادتها كثيراً من الأناة وضبط النفس، فإنها مع ذلك لا تخفي اهتمامها بحركات السياسة الإيطالية ومقارعتها. ولقد دللت إيطاليا الفاشستية في العامين الأخيرين على ما تجيش به من الأطماع المتوثبة والنزعات الاعتدائية ولاسيما ضد الإمبراطورية البريطانية؛ فغزو الحبشة والاستيلاء عليها بالعنف، يهدد مركز بريطانيا في السودان وفي شرق افريقية؛ وتحصين جزيرة بانتلاريا الواقعة بين طرابلس وصقلية يهدد مركز بريطانيا في مالطة، ومن ثم يهدد مواصلاتها الإمبراطورية في البحر الأبيض؛ ومد الطريق البري من طرابلس إلى الحدود المصرية يخفي وراءه غايات عسكرية اكثر مما يقصد إلى غايات سلمية وتجارية؛ ونشاط السياسة الإيطالية في المسالة الإسبانية هو مظهر آخر لتلك النزعة التي ترمي إلى تهديد إنكلترا في جميع النقط الحساسة من نفوذها الاستعماري أو سيادتها البحرية.

ولكن السياسة البريطانية مع ما تبدي من ضبط النفس لا تخفي أنها مصممة على سحق جميع هذه المحاولات الفاشستية والاحتفاظ بسيادتها في البحر الأبيض المتوسط، وتدعين نفوذها وسيادتها حيثما يقتضي الدفاع عن إمبراطوريتها الاستعمارية الشاسعة. والمسالة الإسبانية هي أول مظهر من مظاهر النضال بين السياستين؛ فكما أن رومة تحاول أن تدفع تدخلها في الحرب الأهلية الإسبانية إلى النهاية أو حتى يظفر الجنرال فرانكو وتقوم في إسبانيا حكومة فاشستية تخضع لنفوذ إيطاليا، فكذلك السياسة البريطانية تعمل على إحباط هذه المحاولة بتدعيم سياسة عدم التدخل، وعزل إيطاليا عن باقي الدول، وأظهرها بمظهر المعتدي المهدد لسلام القارة، وإنكلترا

تفوز في هذه السياسة بتأييد فرنسا التي تخشى عواقب التدخل الفاشستي في إسبانيا مثل ما تخشاه إنكلترا، وتأييد روسيا السوفيتية التي تناصر الكتلة الديمقراطية، والتي تعاون إسبانيا الجمهورية على مقاومة الثورة الفاشستية منذ نشوبها. ومما يلاحظ أيضاً أن ألمانيا تبدي الآن فتورا ظاهرا في تأييد وجهة النظر الإيطالية مما يدل على أنها قد ملت التدخل في مغامرة لا تؤمن عواقبها؛ هذا إلى أن حوادث الحرب الإسبانية ذاتها تدل على أن الجبهة الثورية الفاشستية قد سرى إليها الضعف والوهن، فانتصارات الجمهوريين الأخيرة حول مدريد وفشل الثوار في جميع هجماتهم الأخيرة، وما أذيع من وقوع التمرد في بعض الوحدات الثورية في المغرب الإسباني، كل ذلك يؤذن بان مصاير الحرب الأهلية تتطور في صالح الجمهورية الإسبانية. ولنذكر أخيراً أن اتفاق عدم التدخل الذي وفقت الدول إلى عقده وتنظيمه، سينفذ بطريقة فعلية في أيام قلائل بحيث يغدو من المتعذر على أحد الفريقين المتحاربين أن يتلقى المدد من أي ناحية. وفي اعتقادنا أن الثورة الأسبانية التي قامت منذ الساعة الأولى بتحريض الفاشستية ومعاونتها المادية ستنهار عندئذ بسرعة، وتحسم هذه المعركة الطاحنة بفوز الديموقراطية الإسبانية، وبذلك يقضي على تلك العوامل الخطرة التي تلوح في الأفق منذ اشهر مهددة سلام أوربا، والتي كان لشهوات الفاشستية ودسائسها المضطرمة اكبر فضل في بعثها وتغذيتها.

(* * *)

النفس وخلودها عند ابن سينا

للدكتور إبراهيم بيومي مدكور
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

- 5 -

ليس تأثر ابن سينا بأفلاطون من الأمور التي تتطلب إثباتا جديداً، فقد فرغنا منه من قديم وأضحى واضحاً وضوحاً لا يقبل الشك. وإذا كان شيخ الأكاديمية قد استطاع أن ينفذ إلى فلاسفة الإسلام جميعا بالرغم من تعصبهم لأرسطو فان أثره في الأستاذ الرئيس اعمق، وملاءمته لتفكيره أتم واكمل. وقد بينا فيما سبق كيف قال ابن سينا بجوهرية النفس على نحو مما ذهب إليه أفلاطون. ونريد اليوم أن نوضح موقفه إزاء روحيتها فنهيئ بذلك فرصة أخرى لإظهار ما اشتملت عليه فلسفته من نزعات وآراء أفلاطونية.

ابن سينا روحي في طبيعته فالتغيرات الكونية ترجع في رأيه إلى قوى خفية تحدثها وتشرف عليها؛ روحي في طبه، إذ يعتبر النفس الإنسانية مهيمنة على كل الأجهزة والعصارات الجسمية؛ روحي في فلكه فإنه يذهب إلى أن الأفلاك والكواكب إنما تستمد قوتها وحركتها من نفوس خاصة موكلة بها؛ روحي في ميتافيزيقاه، ولا أدل على هذا من أن عالم ما وراء الطبيعة في نظره حافل بعقول قديمة أزلية كلها تفكير ونظر وتأمل؛ روحي أخيراً في أبحاثه السيكلوجية، بدليل أن النفس عنده هي كل شيء والجسم والحواس مجرد آلة لها وأداة. ونستطيع أن نقول أن فلسفته كلها تتلخص في مذهب روحاني تتجاذب أطرافه وتتناجى نواحيه وفيلسوف هذه نزعته لا يدخر وسعا في البرهنة على روحية النفس ولا يمل حديثاً كهذا، بل على العكس يعني به ويذهب فيه مذاهب شتى، فيلجأ تارة إلى بعض الأفكار الرياضية مستعينا بما فيه من لباقة ومقدرة جدلية ليحمل القارئ على التسليم بهذه الروحية. ويركن تارة أخرى إلى معلوماته الطبية. وملاحظاته السيكلوجية فيتخذ منها أدلة أخرى لا تقل عن السابق إفحاماً.

فيقرر أولاً أن النفس جوهر يدرك المعقولات والمعاني الكلية ويشتمل عليها؛ وجوهر هذا شأنه لا يمكن أن يكون جسما أو قائما بجسم، ذلك لأنا إن قلنا بجسميته لزم أن تحل المعقولات في مكان، وهذا محال. فإنها أن شغلت حيزا فإما أن يكون قابلا للقسمة أولاً، وما لا يقبل للقسمة هو تلك النقط الهندسية التي يتكون منها الخط والتي لا توجد منعزلة مطلقاً؛ فلا يمكن أن تكون محلا لشيء ما. وعلى هذا لم يبق إلا أن تكون المعقولات حالة في مكان قابل للقسمة. وفي هذا الغرض أيضاً صعوبات كثيرة لا سبيل إلى تذليلها ومناقضات لا نستطيع رفعها، وأهمها أن الكلي يصبح قابلا للقسمة

تبعاً للحيز الذي يشغله فيصير شكلا هندسيا أو كمية عددية بدل أن يكون فكرة عقلية. وإذا قلنا بقسمته فهل هو مكون من أجزاء مكررة متشابهة أو غير متشابهة؟ إن أخذنا بالأول قادنا إلى نتيجة واضحة البطلان وهي أن يتكون الكل المتنوع المميزات من جزء واحد مكرر؛ وإن ذهبنا إلى الثاني كان معناه إن الكلي قابل للقسمة إلى مالا نهاية، شأنه في هذا شأن الجسم الذي حل فيه. ونحن نعلم أن الكليات وان قسمت إلى أجناس وأنواع ينبغي أن تقف عند حد في هذا التقسيم، فهي في ذاتها قابلة للقسمة إلى نهايته، وتبعا للحيز الذي تشغله يمكن تقسيمها عقلا إلى مالا نهاية، وهذا تناقض صريح على أن هناك معقولات بسيطة لا تقبل القسمة بحال فكيف نتصورها شاغلة لحيز قابل للقسمة؟ وإذا بطل كل هذا فالجوهر الذي تحل فيه المعقولات روحاني غير موصوف بصفات الأجسام، وهو ما نسميه النفس. وواضح إن هذه النفس هي التي تجرد الكليات عن الكم والأين والوضع وتستخلصها من الجزئيات فلا يمكن أن تضعها في حيز جديد؛ ولن يصير الكلى كلياً ولا المعقول معقولا بالفعل إلا إذا انتزع من المكان وفهم في ذاته بعيداً عن عوارض المادة هذا هو اعنف برهان يستدل به ابن سينا على روحية النفس؛ ويظهر انه كان معتدا به كل الاعتداد، فإنه ساقه في كل كتبه السيكلوجية التي وصلت إلينا في أشكال وألوان مختلفة بعضها أغمض واعقد من بعض؛ وربما كان أوضحها نسبيا ما جاء في كتاب النجاة. وليس القول بأن المعقولات لا تشغل حيزاً فكرة مبتكرة اهتدى إليها ابن سينا وحده. فأنا نجدها لدى الإغريق من قديم؛ وأرسطو بوجه خاص يفصل الكلام في وجود الكليات مبينا أنها موجودة في الجزئيات بالقوة وفي الذهن بالفعل. والوجود الذهني هو الوجود الحقيقي؛ وإذا كان بينه وبين الوجود الخارجي من فارق فهو انه مجرد عن الماديات. وأنا لنرى بين المسلمين كذلك الفارابي يحاول من قبل البرهنة على روحية النفس محاولة نظن أنها التي ألهمت ابن سينا برهانه الذي نحن بصدده، فهو يلاحظ إن المعقولات تتنافى مع الحيز بطبيعتها، وما دامت النفس تدركها وتشتمل عليها فهي جوهر مفارق للمادة. بيد أن الجديد لدى ابن سينا هو ذلك الجدل المحكم والإلزام المبني على أقيسة اقترائية وقسمة ثنائية لا يلبث المرء أن يسلم أمامها بالمطلوب رضى أم لم يرض. وقد لا نستسيغ نحن الآن كثيرا هذا الطراز من الإثبات، فإنه أشبه بالمناقشة اللفظية منه بالبحث العلمي، إلا أنه كان من مميزات القرون الوسطى عامة، ولابن سينا بوجه خاص فيه فائقة. ومع هذا فلن نعدم الحيلة في إنكار بعض مقدماته أو الطعن في بعض قضاياه، ولكنا لا نحب أن نسترسل في أمر نعتقد أنه قليل الجدوى. ومهما يكن من شأن البرهان السابق فإنه يعتمد على مبدأ لا يزال علم النفس الحديث يقره. فان المحدثين يفرقون بين الظاهرة الجسمية والنفسية بأن الأولى هي التي تشغل حيزا في حين أن الثانية مجردة عن المكان، وكل ما تقاس به هو الزمان الذي تحدث فيه. ولئن فات ابن سينا أن ينمي معلوماتنا السيكلوجية ببرهانه هذا فإنه سيعرض علينا ذلك ببراهينه التالية كم كنا نود أن نجد السبيل إلى ملاحظة النفس في ذاتها لنقف على طبيعتها ومميزاتها. فأما ولا حيلة لنا إلى ذلك فلنلجأ إلى آثارها ووظائفها فإن فيها خير معين على فهم كنهها. وكثيرا ما قام الأثر دليلا على وأعانت الوظيفة على توضيح مصدرها. ومن أهم وظائف النفس والصقها بها الإدراك؛ وأنا لنلحظ فيه ظاهرة غريبة هي أن النفس تدرك ذاتها وتدرك أنها تدرك، وفي هذا دليل قاطع على أن إدراكها مباشر وبدون واسطة. ذلك لأنها لو كانت تدرك بآلة جسدية لا نعدم كل هذا وما استطاعت أن تدرك نفسها ولا أن تكون شاعرة بإدراكها، بل ولا أن تدرك الآلة التي تستخدمها. ويكفي أن نقرن هذا الإدراك العقلي بالأدراكات الحسية أو المتصلة بالجسم لنتبين الفرق بينها. فبينما النفس تدرك ذاتها وتدرك إدراكها لا تستطيع حاسة ما من حواسنا أن تحس نفسها ولا إحساسها ولا العضو الذي يوصل إليها هذا الإحساس، اللهم إلا إن عكس إليها بمرآة ونحوها. وكذلك المخيلة لا تتخيل ذاتها ولا فعلها ولا آلتها، وإنما تتخيل أمرا خارجا عن كل ذلك. وإذن تكون النفس الناطقة من طبيعة غير طبيعة هذه القوى الجسمية. وفوق ذلك فهذه القوى تتأثر بما تقوم به من مجهود. فان عظم مجهودها أو استخدمت زمنا طويلا بدا عليها التعب والإعياء وعز عليها أن تقوم بوظائفها في دقة. فالقراءة الطويلة

تضعف العينين، والضوء الشديد قد يعشيهما فلا تكادان تبصران، والرعد القاصف قد يصم الإذنين. وليس أثر هذه الاحساسات الشاقة بمقصور على وقتها، فقد يبقى بعدها زمنا، فمن ابصر ضوءاً عظيماً لا يبصر معه ولا عقبه ضوءا ضعيفا، ومن سمع صوتا قويا لا يسمع معه ولا على أثره صوتا ضئيلا، ومن ذاق طعما شديد الحلاوة لا يحس بعده خفيف الطعوم، وعلى عكس هذا يزداد العقل نضجا كلما استخدم وقام بوظيفته، وإذا حل مسألة معقدة كان في هذا ما يعينه على حل ما هو اعقد منها حقا انه قد يبدو متعباً أحياناً ولكن هذا راجع إلى ما يتصل به من ظروف عضويه، فإنه يستعين بالمخيلة كثيرا وهي مرتبطة بالجسم ارتباطا وثيقا.

وأخيراً كل أعضاء الجسم تضعف تبعا لتقدم السن، ويبدأ هذا الضعف عادة بعد سن الأربعين. لكن القوة الفعلية تخالف هذا تمام المخالفة، فهي لا تكتمل إلا حين يجاوز الإنسان هذه السن. يقول ابن سينا: (لا شك أن الجسم الحيواني والآلات الحيوانية إذا استوفين سن النمو وسن الوقوف أخذن في الذبول والتنقص وضعف القوة وكلال المنة، وذلك عند الأنافة على الأربعين سنة. ولو كانت القوة الناطقة العاقلة قوة جسمانية آلية لكان لا يوجد أحد من الناس في هذه السنين ألا وقد أخذة قوته هذه تنتقص، ولكن الأمر في أكثر الناس على خلاف هذا، بل العادة جرت في الأكثر انهم يستفيدون ذكاء في القوة العاقلة وزيادة بصيرة؛ فإذن ليس قوام القوة النطقية بالجسم والآلة، وإذن هي هي جوهر قائم بذاته) وأما ما يبدو من نسيان أو ضعف في التفكير أو خطأ في الأحكام أثناء الشيخوخة فليس راجعا إلى نقص أو اضطراب في القوة العاقلة، وإنما مصدره مؤثرات جسمية وعضوية وبيان ذلك أن النفس تؤدي مهمتين متباينتين ومتعارضتين تقريبا: فهي تسوس البدن وتدبر أمره، كما تقوم بالتفكير والتعقل. وكثيراً ما عز عليها الجمع بين هذين الأمرين؛ فيحول الحس دونها والاسترسال في النظر والتأمل، كما يصرفها البحث العميق ولو مدة معينة عن حاجات الطعام والشراب، فما نظمه من ضعف التفكير أو تعطل العقل لدى الشيخ أو المريض منشؤه أن النفس قد شغلت بمهمتها الجسمية، بدليل أنها تسترد كل قوتها العاقلة إذا ما زال المرض.

هذا مجمل البراهين التي يستدل بها ابن سينا على روحانية النفس، وفيها من غير شك ملاحظات سيكلوجية جديرة بالتقدير، فأن إدراك القوة الناطقة لنفسها وإدراكها أنها تدرك أساس موضوع السفور الذي هو من أهم مباحث علم النفس الحديث، ويمكننا أن نسلم إلى حد ما أن القوى الذهنية أقدر على تحمل المجهود من الأجهزة الجسمية. وليس بغريب على ابن سينا وهو الطبيب المعروف أن يقوم بمثل هذه الملاحظات ولا سيما وأستاذه أرسطو قد سبقه إلى بعضها ومهد له سبيل توسعتها. ولكن الغريب هو أن تستخدم أفكار أرسطية في إثبات أمر لا يقف أمامه أرسطو موقفاً واضحاً، فإنه غير صريح صراحة أفلاطون في القول بفصل النفس عن البدن وتميزها عنه، فكأن ابن سينا ببرهنته السابقة ينتصر لأفلاطون في الوقت الذي يزعم فيه أنه يردد آراء أرسطية. وإذا ما شئنا أن نحكم على هذه البرهنة في ذاتها، وخاصة في جزئها الأخير، وجدنا قيمتها موقوفة على تفسير الصلة بين الجسم والروح، وهذا ما سنحاوله في الفرص المقبلة إن شاء الله.

إبراهيم مدكور

-

في الأدب المقارن

الطور الفني في الأدبين العربي والإنجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

مما عرف به الإنسان انه حيوان يتذوق الفن، فحب الفن طبع فيه، تبدو مظاهره حالما يأمن على نفسه ويتوفر له قوته وحاجاته، فإذا ما فرغ من الضروري من أموره التفت إلى الكمالي، وطلب الفن والجمال، ومن ثم تظهر بعض الفنون بدائية بين الجماعات المتبدية، وترتقي بينهما وتتنوع بقدر ما تسمح به بيئتها ودرجتها من الرقي المادي والعقلي. والرقص والموسيقى والشعر من الفنون السابقة إلى الظهور، لقلة ما تحتاج إليه من المواد الأولية، أما التصوير والنثر الفني والنحت والعمارة، فأكثر تأخراً عنها لما تحتاج إليه من تقدم الصناعة والمعرفة بالكتابة والاستقرار في موطن

ومهما بلغ الشعر من التقدم في عهد البداوة فما يزال محدود الجوانب قريب الأغوار متشابه الآثار؛ فإذا كانت الحضارة والاستقرار والثقافة والتدوين اتسعت مواضيع الشعر باتساع جوانب العمران، وبعد غوره باستفادته من العلم، وجاد أسلوبه باستخدام التدوين والتروي، واتصلت الجهود فيه وتكاثر الابتكار بتوفر الوقت للتفرغ والتفنن، وظهر بجانب الشعراء أخوه الأصغر سنا وهو النثر، وظهر بجانب الشعراء الكتاب، وبظهور النثر يمتد مجال الأدب حتى يتاخم مجال العلم أو يتداخل وإياه، وإذ يدون الأدب يطلع عليه أبناء الأمم الأخرى ويطلع أدباؤه، على آداب تلك الأمم فيتأثر بها ويؤثر فيها، بعد أن كان الشعر في عهد البداوة معزولا لا يحس به سواه ولا يعلم هو بوجود غيره، وبتقييد الأدب يتوارثه جيل عن جيل، ويزداد تراثه باطراد، بعد أن كان في عهد بداوته سريعا إلى التلاشي في ضباب النسيان، لا يكاد يذكر منه جيل عن أجداده إلا القليل المحرف غير المستيقن

فحين تتحضر الأمة وتتثقف، يصبح شعرها فنيا ويظهر تجانبه النثر الفني؛ على أن هذا يستغرق زمنا، ولا يجئ الفن إلا متأخراً عن الصناعة وعن العلم. فالإنسان يعمد دائما إلى الضروري حتى إذا ما قضى منه وطره تحول إلى الفن أو تحولت الصناعة ذات الغرض المادي إلى فن لا غرضاً في نفسه خارجاً عن ذاته وهكذا ينشأ التصوير والنحت والعمارة والنثر جميعاً، تكون في أول أمرها صناعات تخدم أغراضا مادية وتسد حاجات الإنسان،

من اتخاذ المسكن وزينته وتدوين المهم من الأحكام والمواعظ والأخبار ثم العلوم، فإذا ما اطرد سلم الرقي تخلص الفن من تلك الأغراض الخارجية وصار غرضا في نفسه ومتعة في ذاته، وتعبيرا عن الشعور خالصاً، وعبادة للجمال منزهة.

إذا ما دخل الأدب هذا الطور الفني، صارت الصنعة الفنية فيه اظهر والتجويد أوضح، وليس يخلو الشعر حتى في بداوته من صنعة ومعالجة وتجويد، وبغير هذه لا يتصور له وجود ولا لسلكه انتظام؛ بيد أن الأديب في الطور الفني يصبح اكثر بصراً بتجويد اللفظ وتنسيق الأسلوب وتجميل المعنى، لما يمتاز به دون شاعر البداوة من ترفه المعيشة ورقة الذوق وسعة القراءة، والاطلاع على الآثار الأدبية والقواعد والآراء، فكلما أمعن الأدب في طوره هذا زاد الأدباء لألفاظهم تخيراً وتسهيلا، ولأساليبهم تقسيما وتذليلا، ولمعانيهم. استقصاء وتوضيحاً

وتزداد موضوعات الأدب اتساعا وبعدا عن أسباب الحياة الشخصية الحاضرة، وتحليقا في عنان الفكر وأجواز الخيال وآفاق الماضي والمستقبل: فعلى حين يكون اكثر ما ينظم من شعر البداوة نتيجة حادث طارئ أو خاطر عابر، يتوفر الأديب في الطور الفني على تقصي غايات التفكير، إرضاء لنزعة التأمل والتفكير في ذاتها وعلى توخي مناحي الفن حبا للفن وحده، ويمسي الأديب ويصبح ولا هم له إلا استقصاء حقائق الحس والمشاهدة وتصويرها في أدبه، وتكثر في الشعر والنثر آثار التأمل الطويل والوصف الفني

وإذا ما تكاثرت الآثار المتجمعة بالتدوين جيلا بعد جيل، وزخر التراث الأدبي بما تجود به قرائح الأدباء من فيض، إذا انقضت سحائب منه أعقبت بسحائب كما يقول الطائي، وكثر نظر الأدباء فيها واستظهارهم لها واحتذاؤهم إياها، لم يعدموا أن ينتبهوا إلى شواهد فيها تتكرر وحقائق تتماثل، وجزيئات تندرج تحت كليات، فاستخلصوا من كل ذلك قواعد يجعلونها نصب أعينهم في الإنشاء، ثم يحتفي بعضهم بجمعها وتبويبها والاستكثار منامثلتها، فتكون من ذلك علوم المعاني والبيان والبديع، وكتب النقد والموازنة والتحليل، وبرغم أن الفن سليقة والأدب ملكة لا اكتساب، والشعر طبع لا تطبع فان تلك العلوم وهاتيك الكتب المستحدثة تترك أثرها في تقويم السلائق، وتوجيه الملكات وتحسين البصر بالأدب وأسبابه وجمع أشتاته ولم أطرافه، ولا يستأثر النثر بهذا التبصر في الأدب بل ينظم الشعراء القصيد في مزايا الشعر وأطواره وأحوال الشعراء.

ومن ذلك التراث الأدبي الزاخر يكتسب الأدب شيئاً آخر: يكتسب على ممر الأجيال لغة أدبية خاصة وألفاظا خاصة للشعر وأخرى للنثر، قد صقلها الاستعمال الطويل ورفعها استخدام كبار الأدباء إياها إلى مرتبة عالية، وارتبطت بمعان سامية مما يجعلها أهلا لما ينزع إلى تصويره الأدباء من عواطف رفيعة فيصير للشعر والنثر من كل ذلك لغة

خاصة متسامية على لغة العصر المستعملة في الكلام الممتازة بسهولتها وإسفافها أحياناً وتطورها المستمر بتطور الحضارة المادية؛ وتظل لغة الشعر والنثر الخاصة تلك في ازدياد كلما أضاف إليها أقطاب الأدب ألفاظا من اختراعهم أو اشتقاقهم أو مما يرفعونه بعبقرياتهم من لغة العامة، أو يقتطفونه من لغات الأمم الأخرى وتتوارث في الأدب بجانب ذلك تعابير خاصة جارية ومجازات وأخيلة وأمثال، يموت بعضها تدريجا ويحيا بعض، ويزداد بمرور الزمان صقلا وانسياغا.

هذا الطور الفني لا شك طور نضج الأدب وبلوغه اشده: فيه يجمح بين حرارة الشعور وعمق الفكرة، وبين طرافة الموضوع وجودة الأسلوب، وفيه يتخلص من أقذاء المادية وشوائب الصناعات، وفي هذا الطور لا في طور البداوة يظهر اكبر أدبائه وفحولة شعرائه؛ وما يزال الأدب في رقيه المطرد وتراثه في ازدياده المستمر، مادامت في الأمة فورة الحياة وصدق الشعور وصحة النظرة، فإذا خمدت النفوس وزاغت النظرات، انقلب الفن صناعة والحرية قيودا، وتمسك الأدباء بالقشور دون اللباب، وبالألفاظ دون الحقائق.

كان أدب الجزيرة العربية في الجاهلية وصدر من الإسلام بدويا: الشعر قوامه والبساطة سمته والقريب الحاضر من شؤون الحياة مادته، محدود المواضيع، غير متسق الأسلوب ولا منظم الأفكار ولا ظاهرا لوحدة في القصيدة. وقد استعاض العرب عن التدوين بالرواية: يروي أشعار كل فحل ناشئ يقوم له مقام الديوان المخطوط، ويقوم الشاعر من راويته مقام الأستاذ يبصره بالشعر ووجوه القول؛ وبطريقة الرواية هذه حفظ من شعر العرب شيء كثير، وبها ترعرعت الصناعة الشعرية حتى بلغت في هذا العصر مبلغا من التقدم يعتد به، وصارت لها تقاليد خاصة في الأوضاع والمعاني والألفاظ، كتصريع البيت الأول من القصيدة وتقديم النسيب في مستهلها، تتجلى كل هذه الميزات في الملعقات، التي

يتحدث صاحب كل معلقة منها في نفس القصيدة، عن أحبابه وشرابه، وحربه واسفاره، وحكمته وأدبه وقبيلته وعزها وهلم جرا

وبازدياد حظ العرب من الرفاهة والتثقف والتهذب، ازداد الشعر تهذيب لفظ واتساق أسلوب كما يتمثل في شعر ابن أبي ربيعة وجميل؛ وظهر النثر يستخدم أولاً في تدوين العلوم ورسائل الأمراء وإجراءات الحكومة، ثم مازال حتى استحال علا أيدي ابن المقفع والجاحظ والبديع، فناً يتطلب الجمال اللفظي والمعنوي ويتوخى نواحي الفن ومذاهب التفكير بعيدة عن النفع المادي والغرض الحاضر. وبلغ الشعر الغاية من الصناعة الفنية والحلاوة اللفظية والتقسيم الموضوعي والتقصي في المعاني والتفنن في الوصف. على أيدي أبي نواس وأبي تمام وابن المعتز ولبن الرومي وغيرهم، وهؤلاء وإضرابهم هم لاشك فحولة شعراء العربية، وإن ظل كثير من الأدباء لنزعتهم من المحافظة يقدمون امرأ القيس وأصحابه من الجاهليين. وظهرت كتب النقد وعلوم البلاغة، ونظم الشعراء القصيد في إطراء فنهم، ودبجوا أشعارهم بالتشبيهات والأمثال يحتفون بطلبها ويكاثرون بعرضها، كقول الطائي:

وإذا أراد الله نشر فضيلة ... طويت أتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيما جاورت ... ما كان يعرف طيب عرف العود

وقد سئل بشار فيما قيل: بم فقت أهل عصرك في حسن معاني الشعر وتهذيب ألفاظه؟ فأجاب: بأني لم أقبل كل ما تورده عليّ قريحتي، ويناجيني به طبعي، ونظرت إلى مغارس الفطن ومعادن الحقائق، ولطائف التشبيهات فسرت إليها بفكر جيد وغريزة قوية فأحكمت سبرها وانتقيت حرها وكشفت عن حقائقها واحترزت عن متكلفها. فهذا قول أديب صناع يروض المعاني والألفاظ ويعرف خطر التروي وأعمال الفكر ولا يرسل القول على عواهنه ولا يطمئن إلى الارتجال الذي كان شيمة الجاهليين ومن أمثلة التدقيق في انتقاء الألفاظ ونقدها ومراعاة تناسب حروفها ومخارجها أيضاً، أن ابن المعتز عاب على أبي تمام تكرار كلمة (أمدحه) مع الجمع بين الحاء والهاء، وهما معا من حروف الحلق، وذلك في قوله:

كريم متى أمدحه أمدحه والورى ... معي وإذا ما لمته لمته وحدي

هكذا يجري تاريخ أدب كل أمة: يبدأ بطور أولي الأدب فيه ظاهر البداوة، يليه طور فني

تابع لتحضر الأمة وأخذها بأسباب الكتابة والعلم، وقد استطال الطور الأول في العربية وغزر ما حفظ من أثاره لظروف خاصة، وإن يكن الكثير مما أثر من ذلك موضع الشك أما الأدب الإنجليزي فلا يحتوي تاريخه على آثار ذات بال تمت إلى الطور الأول المتبدي إلا أساطير وشذوراً اتخذها الأدب فيما بعد مادة لسبحاته الفنية، وإنما يبدأ تاريخ الأدب الإنجليزي الصحيح بعصر اليزابيت الذي كانت الأمة فيه قد تشربت ثقافة اللاتين والإغريق واقتبست كثيرا من حضارة أوربا، وخمدت فيها الفتن واستتب السلام في ظل آل تيودور. ومن ذلك العصر يبدأ الطور الفني للأدب الإنجليزي وهو طور تاريخه تاريخ رقي مطرد للأدب في الأشكال والمواضيع والأفكار والأساليب وتخلص مستمر من شوائب الصناعة وتجرد تام في عالم الفن الصحيح. والأدب الإنجليزي في هذا كله يمثل التطور الطبيعي المعقول لكل أدب: جرى الشعر إلى غاياته وتلاه النثر، وتوسعت جوانب كل منهما تدريجا وتعدد مجالاته وتميزت أشكاله وتبينت أغراضه.

تهيأت لكلا الأدبين العربي والإنجليزي أسباب الدخول في الطور الفني. فازدهرت الحضارة وذاعت العلوم ودونت الكتب وانتشرت الرفاهية وتوفر الوقت للعمل الفني المتصل، بيد أن الأدب الإنجليزي كان ابعد شوطا في مضمار الفن الخالص، واكثر تجرداً من شوائب الصناعة والمادة التي تلازم الأدب أو الفنون عامة في بداءتها، إذ أحاطت بالأدب العربي ظروف حالت بينه وبين التخلص من جميع هاتيك الشوائب. فجاء الأدب الإنجليزي اكثر فنية في الموضوع وفي الأسلوب.

ففي الموضوع احتوى الأدب الإنجليزي من تصوير الطبيعة وسير الأبطال وخرافات الماضين وأوصاف الرحلات وآثار الفنون الأخرى كالتصوير، ما يفيض جمالا وتنسم منه نسمات الفن الخالص والفكر البعيد والإنسانية الشاملة، وكل هاتيك مواضيع لم يولها الأدب العربي مكانة اولى، وفي الأسلوب توفر الأدباء الإنجليز على استخدام اللفظ قدر المستطاع لأداء المعنى وتصوير المنظر مستعينين بجرس اللفظ ونغم الوزن في النظم، في حين اهتم أدباء العربية للفظ في ذاته لا على كونه مجرد وسيلة للمعنى، وظهرت الوحدة الفنية أو الفكرة الجامعة في القصيدة وفي المقالة وغيرهما من أشكال الأدب في الإنجليزية، على حين ظلت القصيدة في العربية وإن أصبحت اكبر تقسيماً وأجود ترتيبا مما كانت عليه من قبل، عديمة الوحدة مختلطة الأجزاء، تثب من قريب إلى بعيد ومن نسيب إلى مديح، ومن مديح للغير إلى فخر بالنفس ومن فخر إلى شكوى.

ولم يتخلص الأدب العربي من شبهات الصناعة المادي قط: إذ ظل اكثر الشعراء والكتاب يخدمون الأمراء ويتوخون مواقع رضاهم. وليس يخرج الأدب من حيز الصنعة إلى عالم الفن الحر مادام ذا غرض خارج نفسه. وذلك ما لم ينكره أدباء العربية أنفسهم فظلوا يسمون الأدب صنعة أو حرفة أو آلة، وكان النقاد يوازنون بينها وبين صناعة المغنين، ويقول ابن رشيق في تعليقه على حكاية شاعر مدح علوياً ثائراً فدفنه المنصور حياً: إن ذلك الشاعر قد جنت عليه حماقته، إذ ما للشاعر وللزج بنفسه في أمثال تلك المآزق وإنما هو (طالب فضل)؟

واحتفى أدباء العربية بالألفاظ احتفاء متزايداً: فنشأ السجع والطباق والجناس والتورية وما إليها في الشعر والنثر معا، حتى بدأ اللفظ منافسا للمعنى مزاحما له على انتباه القارئ وفهمه، بل صارت له في النهاية المكانة الأولى، وتضاءل المعنى بين يديه واختفى، وأصبحت همة الأدباء موجهة لا إلى الغوص على حقائق الوجود وبواطن الشعور. بل إلى اقتناص شوارد الكلم وبارع النكات اللفظية، فعيسى بي هشام مثلا يقول انه كان يطوف البلدان (وقصاراي لفظة شرود أصيدها، وكلمة بليغة أستزيدها) وعيسى بن هشام أيضاً يعيب على الجاحظ انه (قليل الاستعارات قريب العبارات، منقاد لعريان الكلام يستعمله، نفور من معتاصه يهمله فهل سمعتم له لفظة مصنوعة أو كلمة غير مسموعة؟)

وإنما قصر بالأدب العربي عن غايات الفن المطلق، ما قيد به من اتصال بالأمراء، وما أرهق به من تقليد للقديم: أدخلت الأولى فيه التكلف والصنعة وأبقت فيه غرضا خارجا عن نفسه وصرفت الثانية همه إلى اللفظ البليغ والعبارة الطنانة، التي تدل على بصر باللغة وتمكن من آثار فحولها المتقدمين؛ ويتجلى الفرق بين مدى الأدب الإنجليزي من الفنية الخالصة، ومدى الأدب العربي منها، من موازنة حياة الفن الخالص والتأمل

الدائب، والمعالجة المستمرة لأشكال الأدب ومواضيعه، والطرق المتكرر لمذاهبه ومناحيه، التي كان يحياها وردزورث وشلي وتنيسون مثلا، وبين حياة البحتري والطائي والمتنبي المتصلة أوثق اتصال بالأمراء ومنادمتهم وتملقهم، كان الأولون كأنهم كهنة الفن المنقطعون إلى آلهته
في محاريبه المقدسة المصونة وكان الأخيرون يعيشون في جلبة البلاطات وضجة المحافل والمواكب
فالأدب الإنجليزي بعد أن توفرت له أسباب الحضارة والثقافة والتدوين والفراغ، التي لابد منها لبلوغ الأدب أوج رقيه، توفرت له أيضاً مزيتا الاستقلال بنفسه عن إرادة الحكام وخدمتهم ونزعة التجديد والحرية التي لا تقلد الماضي ولا تقف عند حدوده وبهاتين المزيتين إلى تلك الأسباب تجمعت للأدب الإنجليزي كل وسائل التطور الطبيعي وبلوغ آماد الفن الخالص؛ أما الأدب العربي فأعوزته هاتان الميزتان، فقعد به إعوازهما في مجال الفن وأبقى به بعض شوائب الصناعة، ومن ثم أمكن القول بأن الأدب الإنجليزي بلغ طور الفن، أما الأدب العربي في جملته فظل اقرب إلى الصناعة الفنية.

فخري أبو السعود

الجباية في الإسلام

للأستاذ فارس بك الخوري

أستاذ علمي المالية والمرافعات المدنية ورئيس المجلس النيابي السوري

استندت الجباية عند العرب على الأسس الآتية:

1 - على القواعد المستنبطة من الكتاب والسنة؛

2 - على ما استنه الخلفاء الراشدون؛

3 - على ما أخذوه عن الدول التي غلبوها على أمرها

فلم تكن أموال الدولة في أيام الرسول سوى الغنائم يخرجون خمسها للنبي وأهل بيته ويقتسمون الباقي بين المسلمين. وكانت الخزينة في عهده قائمة على ما يجتمع لديه من الصدقات والزكوات من ماشية ونقود وحبوب وعروض يتصرف بها في وجوه المصلحة العامة. ثم عندما اتسع أمر الإسلام عمد إلى وضع الخراج. فجعل على سكان جزيرة العرب من المسلمين خراج مقاسمة على حاصلات أرضهم من العشر إلى نصف العشر بحسب درجة الأرض من الخصب ونصيبها من الري، فكانت أرض الجزيرة بتمامها عشرية ماعدا خيبر فقد صالح يهودها على نصف حاصلات أرضهم. وكان يسم الماشية العائدة لبيت المال بميسم خاص ويتولى ذلك بنفسه؛ وبلغت هذه الماشية في عهده نحو أربعين ألفاً. وبقى خمس الأفياء يعطي لأهل البيت حتى تولى الخلافة عمر بن الخطاب فعين الرواتب لمستحقيها من أهل البيت ومن القائمين بخدمة الخليفة من الحاشية والبطانة وأجراها عليهم شهراً بشهر، ورد الأخماس على بيت المال لتقسم على المسلمين.

وعندما توسع الفتح لإسلامي واستولى المسلمون على بلاد الروم والفرس في العراق والشام اختلف زعماء العرب في الخطة الواجب اتباعها باستحواز الأرض و (العلوج) الذين عليها، فأراد قوم من الصحابة وزعماء العرب أن يقتسموا الأرضين التي يفتحونها غنيمة بينهم ويكون لكل منهم نصيبه منها مع من عليها من السكان فيبقى السكان اقناناً أي أرقاء ملحقين بالأرض يباعون معها وينتقلون بانتقالها. فقال عمر: فكيف بمن يأتي بعدكم من
المسلمين فيجدون الأرض قد اقتسمت بمن عليها وحيزت إرثاً عن الآباء؟ ما هذا برأي. فقال عبد الرحمن ابن عوف: فما الرأي إذن؟ ما الأرض والعلوج إلا مما أفاء الله على المسلمين. قال عمر: إذا اقتسمت ارض العراق بعلوجها وارض الشام بعلوجها فبماذا تسد الثغور وما يكون للذرية؟. وما زالوا به حتى جمع ندوة من المهاجرين والأنصار قوامها عشرون رجلا من أهل الحنكة والعقل واستشارهم في الأمر وقال لهم: سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا إني اظلمهم حقوقهم وإني أعوذ بالله أن اركب ظلماً؛ لئن كنت ظلمتهم شيئاً هو لهم وأعطيته غيرهم لقد شقيت، ولكن رأيت انه لم يبق شيء يفتح بعد ارض كسرى وقد غنمنا أموالهم وأرضهم وعلوجهم فقسمت ما غنموا

من أموال بين أهله وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه، وأنا في توجيهه، وقد رأيت أن احبس الأرضين بعلوجها واضع عليهم فيها الخراج فتكون فيئاً للمسلمين المقاتلة والذرية ولمن يأتي بعدهم. أرأيتم هذه الثغور لا بد لها من رجال يلزمونها؟ أرأيتم هذه المدن العظام كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر لابد لها من أن تشحن بالجيوش وإدرار العطاء عليهم؟ فمن أين يعطى هؤلاء إذا قسمت الأرضون والعلوج؟ فقالوا جميعاً: الرأي رأيك فنعما قلت وما رأيت، إن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال ولم تجر عليهم ما يتقوون به رجع أهل الكفر إلى مدنهم. وكان عثمان وعلي وطلحة بين القائلين بقول عمر. فقال: من لي برجل له جزالة وعقل يضع الأرض مواضعها ويضع على العلوج ما يحتملون؟ فاجتمعوا له على عثمان بن حنيف وقالوا تبعثه إلى أهم ذلك فان له بصراً وعقلا وتجربة. فولاه مساحة ارض السواد من العراق فمسح سواد الكوفة وجباه مائة مليون درهم، وفعل بالشام كما فعل بالعراق فترك أهله ذمة يؤدون الخراج إلى المسلمين. قال أبو يوسف القاضي: إن الذي رآه عمر من ترك الأرض في أيدي أصحابها وفرض الخراج عليها هو توفيق من الله فيه الخيرة لجميع المسلمين؛ ولو لم يفعل ذلك لما شحنت الثغور وقويت الجيوش على السير في الجهاد.

وفي عهده وضعت القاعدة القائلة (أيما دار من دور الأعاجم ظهر عليها الإمام وتركها في أيدي أهلها فهي ارض خراج؛ وإن قسمها بين الذين غنموها فهي ارض عشر. وكل ارض من أراضي الأعاجم صالح الإمام أهلها عليها وجعلهم ذمة فهي ارض خراج) فضرب على الأرض الخراجية مالاً مقطوعاً يستأداه أصحابها العاملون بها في حالتي الخصب والجدب؛ وجعل هذا الخراج يختلف باختلاف خصب الأرض وأسلوب الري والقرب من المدن الحافلة بما في ذلك من العون على كثرة الاستغلال وبيع الغلة؛ وجعل العشر في الأراضي العشرية على ما يشرب من ماء المطر ونصف العشر على ما يسقى بالدلو، وجباه على ما يبقى في أيدي الناس من الغلة الأرضية كالحبوب ووضعه أي رفعه عما لا يبقى كالبطيخ والخضر، كما وضعه عن المسلمين في البلاد التي فتحها وأقطعهم إياها، وقال ليس على المسلمين عشر وإنما العشر على اليهود والنصارى. وقال: يا معشر العرب احمدوا الله الذي وضع عنكم العشور. فهو أول من مسح الأرض ودون الدواوين ووضع أصول الجباية ورقم الداخل إلى بيت المال والخارج منه. وهو الذي رتب الجزية على الرجال من غير المسلمين وكلف غنيهم بثمانية وأربعين درهماً، ومتوسطهم بأربعة وعشرين، وفقيرهم باثني عشر في السنة، وقال درهم في الشهر لا يعوز أحداً. وجعل المعادن لمخرجها على أن يؤخذ منه خمس المستخرج لبيت المال؛ وكذلك ما يخرج من البحر من حلية وعنبر. وهو الذي وضع اكثر القواعد المالية فلم يجرؤ من جاء بعده على مخالفتها، فبقي جانب عظيم منها نافذاً في عهد الأمويين والعباسيين واستمر بعضها حتى الزمن الحاضر.

كانت منابع بيت المال في عهد الخلفاء الراشدين منها المقرر ومنها الطارئ؛ فالمقرر هو الخراج والعشر والصدقات والجزية، والطارئ هو العشور والغنائم والافياء والأموال المستخرجة من العمال وعوائد المصادرة وأمثال ذلك. فالخراج هو ما كان يوضع على الأرض التي استولى عليها المسلمون وتركوها في أيدي أهلها ملكا لهم، فكانوا يجعلونه أحياناً خراجا موظفاً ثابتاً كما جرى في سواد العراق، وأحياناً خراج مقاسمة. وبقيت ضياع البطارقة والأمراء المنهزمين ملكا لبيت المال يقبلها العمال ويستثمرونها لحساب الخزينة العامة. والعشر هو الحصة الشائعة المضروبة على حاصلات الأرض التي اسلم أهلها عليها من ارض العرب أو العجم كالمدينة واليمن، لو ملكها المسلمون عنوة من قوم لا تقبل منهم الجزية كعبدة الأوثان والمجوس؛ ومثلها الأرض التي احتازها المسلمون وقسموها بين الغانمين.

والصدقات هي ما يعطيه المسلمون من أموالهم المنقولة ومكاسبهم؛ وكانت في الغالب بمعدل واحد في الأربعين أي ربع العشر؛ وتجبى على الأكثر من الماشية، فكانوا يعينون لأهل البادية مصدقين يجبون الصدقات ويردونها على بيت المال لتصرف في مصالح الخلافة. ولعل هذا الأساس بقي معتمداً عليه في الإسلام وتجلى في عهد الخلافة العثمانية

بأموال الأغنام والسائمة التي مازالت إلى اليوم تجبى على هذه النسبة نفسها توسعت منابع الجباية بعد ذلك فتناولت مطارح أخرى من ذلك المكوس (الجمارك) التي كانوا يسمونها العشور لأنها كانت تؤخذ بمعدل واحد من العشرة، وأول ظهورها في الإسلام على عهد عمر بن الخطاب عندما كتب إليه أبو موسى الاشعري عامله في العراق يستشيره بما يأخذه الأجانب من تجار المسلمين الذين يدخلون بلادهم لبيع بضاعتهم، فكتب إليه عمر أن خذ أنت منهم كما يأخذون من تجارنا وخذ من أهل الذمة نصف العشر ومن المسلمين ربع العشر بقدر الزكاة المفروضة عليهم فانتشرت قاعدة التعشير في ثغور المسلمين وحدودهم واستمرت طول أيام دولتهم. ليس لدينا إحصاء يعرف منه ما كان يدخل بيت المال في عهد الراشدين من الخراج أو العشور أو الزكوات أو الأخماس أو غيرها من منابع الخزينة، وجل ما نعلمه من هذه الجهة أن الدخول كانت جسيمة جداً وجميعها تنفق في المصالح العامة ولا يختزن شيء منها قدم أبو هريرة على عمر بمال من البحرين فقال له عمر: ما معك؟ قال: (خمسمائة ألف درهم) فدهش عمر لكثرته وقال له: (أتدري ما تقول؟) قال (نعم مائة ألف خمس مرات) فصعد المنبر وقال: (أيها الناس جاءنا مال كثير، فان شئتم كلنا لكم كيلاً، وان شئتم عددنا لكم عداً، وهذا مثال على دهشة العرب بوفرة الأموال التي كانت ترد عليهم من فتوحاتهم ذهبا وفضة وعلى الإسراع في توزيعها بين المسلمين. وكان أبو بكر وعلي لا يقلان عن عمر في الزهد بالمال وتقسيمه بين الناس بالعدل

كان العرب قبل الإسلام يتعاملون بالنقود الكسروية والرومية من الدراهم والدنانير ويقى هذا حالهم إلى عهد عمر فضرب الدرهم وجعل وزنه من الفضة أربعة عشر قيراطاً من قراريط المثقال العشرين، فكانت كل عشرة دراهم من دراهمه تزن سبعة مثاقيل؛ ثم ضرب دراهم أخرى جعل وزن الواحد منها اثني عشر قيراطاً. وكان يضربها على نقش الدراهم الكسروية ويزيد في بعضها عبارات إسلامية كعبارة التوحيد أو عبارة الحمدلة. وضرب بعده عثمان دراهم نقش عليها عبارة التكبير. وحذا الخلفاء والأمراء حذوهما فضربوا

الدراهم والدنانير بعبارات وأوزان مختلفة. وكان أعظم الذين ضربوا النقود معاوية وعبد الله بن الزبير وعبد الملك بن مروان ويزيد بن عبد الملك وغيرهم. وإنما كان عبد الملك بن مران أول من ضرب الدنانير الإسلامية الصرفة بدون نقوش كسروية، فكان وزن ديناره يتراوح من أربعة غرامات وخمس الغرام إلى أربعة غرامات وثلثي الغرام، فهو بذلك يقارب نصف الجنيه الإنكليزي الذي وزنه أربعة غرامات وربع الغرام من الذهب وأما الدرهم الفضي فكان وزنه اقل من ثلاثة غرامات، واكثر عبد الملك من ضرب هذه النقود العربية في أيامه في الشام ومصر والعراق، وانتشر استعمالها فاستغنى العرب بها عن نقود الروم والفرس، وصار للعرب نقود خاصة بدولتهم تم بها استقلالها المالي.

فارس الخوري

نقل الأديب

للأستاذ محمد اسعاف النشاشيبي

ديباجة الكتاب

أهديت إلى الأديب الكبير الأستاذ (خليل مردم بك) مائة نقلة من (نقل الأديب)

فأعطاني - وهو السخي السري - هذه اللؤلؤة العمانية أو الكلمة المردمية

كالروض مؤتلقاً بحمرة نوره ... وبياض زهرته، وخضرة عشبه

وكأنها - والسمع معقود بها -=شخص الحبيب بدا لعين محبه

بل هي فوق القول البحتري ووصفه (أفسحرٌ هذا) أم هو كلام روحاني؟!

قال (الخليل) - وقوله ديباجة الكتاب -: (كنت احسب أن هدية الأستاذ (نقل) كاسمها فإذا هي سحر وخمر ونقل؛ وذلك إن عنوانها يستدرج القارئ ويوهمه أنه نقل فكه ليس غير، وهذا لعمري أول أبواب السحر، فإذا جاز هذا الباب (أو جازت عليه تلك الحيلة) وجد نفسه في روضة فردوسية بين أقداح ونقل فالنقلة تغري بالقدح. والقدح يستدعي النقلة. وهكذا دواليك حتى تستخفَّه نشوة الطرب وتتلاعب بنفسه ولبه:

سقوني وقالوا: لا تغنّ. ولو سقوا ... جبال حنين ما سقوني لغنتِ

فيا ليت شعري كيف يستجيز من حرم الصهباء على نفسه أن يغوى الناس بالخمر،

ويفتنهم بالسحر؟
1 - هذا بلاغ للناس
سئل علي بن عيسى الرماني فقيل له: لكل كتاب ترجمة فما ترجمة كتاب الله؟
فقال: (هذا بلاغ للناس ولينذروا به)
2 - النيل
الأندلسي:
ما اعجب النيل، ما أحلى شمائله! ... في ضفتيه من الأشجار أدواح
من جنة الخلد فياض على ترع ... تهب فيها هبوب الريح أرواح
ليست زيادته ماء كما زعموا ... وإنما هي أرزاق وأرباح
3 - بقية السحر في مصر
ابن المغربي:
أيا ساكني مصر، غدا النيل جاركم=فأكسبكم تلك الحلاوة في الشعر
وكان بتلك الأرض سحر وما بقى ... سوى أثر يبدو على النظم والنثر
4 - الهرمان نهدان
الشهاب الحجازي:
يا هرمي مصر لقد ... حسنتما رباها
عروس حسن قد غدت ... وأنتما نهداها
5 - مراتب الكلام
أبو هلال العسكري في (الصناعتين):
لكل مقام مقال، وربما غلب سوء الرأي وقلة العقل على بعض علماء العربية فيخاطبون السوقي والمملوك والأعجمي بألفاظ أهل نجد ومعاني أهل السَّراة؛ لأن العامي إذا كلمته بكلام العلية سخر منك، وزري عليك كما روى عن بعضهم انه قال لبعض العامة: بم كنتم تنتقلون البارحة؟ (يعني على النبيذ) فقال: بالحمالين. . .
ولو قال له: أي شيء كان نقلكم لسلم من سخريته. فيجيب أن يخاطب كل فريق بما يعرفون، وتجنب ما يجهلون
6 - في هذا مرة وفي هذا مرة
عن أبي بكرة: كنت عند النبي (صلوات الله عليه) وعنده إعرابي ينشده الشعر. فقلت: يا رسول الله، أشعراً أم قرأناً؟
فقال: في هذا مرة، وفي هذا مرة. . .
7 - ظرف الدهر
في تاريخ بغداد لابن الخطيب: حدث النضر بن حديد قال: كنا في مجلس وفيه أبو العتاهية والعباس بن الأحنف وبكر بن النطاح ومنصور النمري والعتابي، فقالوا لمنصور: أنشدنا؛
فأنشد مدائح الرشيد؛ فقال أبو العتاهية لابن الأحنف: طرفنا بملحك فأنشد أبياته:
تعلمت ألوان الرضا خوف عتبه ... وعلمه حبي له كيف يغضب
ولي غير وجه قد عرفت مكانه ... ولكن بلا قلب إلى أين أذهب؟
فقال أبو العتاهية: الجيوب من هذا الشعر على خطر، ولا سيما إن سنح بين حلق ووتر.
فقال بكر: قد حضرني شيء في هذا فأنشد:
أرانا معشر الشعراء قوماً ... بألسننا تنعمت القلوب
إذا انبعثت قرائحنا أتينا ... بألفاظ تشق لها الجيوب
فقال العتابي:
ولا سيما إذا ما هيجتها ... بنان قد تجيب وتستجيب
قال النضر: فما زلت معهم في سرور. وبلغ اسحق الموصلي خبرنا فقال: اجتماع هؤلاء ظرف الدهر
8 - أمسلم هو؟
في (لسان الميزان): مما يذكر من سرعة جواب المتنبي وقوة استحضاره انه حضر مجلس الوزير ابن خنزابة وفيه أبو علي الآمدي الأديب المشهور فأنشد المتنبي أبياتاً جاء فيها:
إنما التهنآت للأكفاء

فقال أبو علي: التهنئة مصدر، والمصدر لا يجمع. فقال المتنبي لآخر بجنبه: أمسلم هو؟ فقال سبحان الله! هذا أستاذ الجماعة أبو علي الآمدي قال: فإذا صلى المسلم وتشهد أليس يقول: (التحيات)
قال: فخجل أبو علي وقام
9 - لا ندعه يبرد
قيل لأعرابي: ما تسمون المرق؟
قال: السخين
قال: فإذا برد؟
قال: لا ندعه يبرد
10 - هل رأيت أحدا يهب ولده
قال جحظة: قال علي بن الجهم لخالد الكاتب: هب لي بيتك الذي تقول فيه
ليت ما أصبح من رقةٍّ (م) ... خديك بقلبك
فقال: يا جاهل هل رأيت أحدا يهب ولده؟!
11 - لئلا يرى في عينها منة الكحل
أبو النصر الزوزني:
ولا أقبل الدنيا جميعاً بمنة ... ولا أشترى عز المراتب بالذل
وأعشق كحلاء المدامع خلقة ... لئلا يرى في عينها منة الكحل
12 - وهوميروس عند الجمهور
في (الكلم الروحانية): سئل ديوجانس عن اشعر اليونانيين فقال: كل واحد عند نفسه، وهوميروس عند الجمهور.
محمد اسعاف النشاشيبي
الديمقراطية
تساوي الفرص لا تساوي الأنصبة
للأستاذ أديب عباسي
ليس بين مسائل الاجتماع ما يسيء جمهور الناس فهمه ويخطئون دلالته كما يسيئون معنى الديمقراطية الصحيح في مختلف مناحيها ونواحي تطبيقها على شؤون الحياة الاجتماع. فهي في رأي قوم تحلل من قيود الاجتماع وخروج على كل عرف وعادة؛ وعند قوم غيرهم هي قسمة عادلة وملك مشاع لكل ما بيد الناس من متاع تالد ومال طريف؛ وعند فئة أخرى لا يكاد يعدو معنى الديمقراطية نطاق السياسة ومجال الحكومة، بل هذا المعنى الأخير للديمقراطية يكاد اليوم يطغى على كل معنى سواه وذلك لكثرة ما يحمل محامل السياسة ويورد مواردها العديدة في هذه الأيام.
أما أن الديمقراطية بمعناها الأعم ودلالتها الأدق ليست على الحصر هذا ولا ذاك مما مر، فشيء يحتاج إلى بعض البسط والبيان؛ فليست الديمقراطية انطلاق النفوس على سجاياها فلا قيود تراعي ولا حدود تلتزم، ولا هي تعني تسليط النوكي والكسالى على جهد المجدين فينالون منه ويصيبون مثل ما يصيب المجد بالعرق الصبيب والجهد الدؤوب؛ ولا هي تحصر في نطاق السياسة الضيق وان وسعته الجرائد وضخمه الساسة ليست الديمقراطية بمعناها الأدق أمراً من هذه الأمور. وإنما هي بدلالتها الصحيحة ومعناها العام تيسير على الناس وتهيئة لهم ليقفوا من فرص الحياة المتاحة موقفا عادلا فيشتركوا شركة متساوية في هذه الفرص المتاحة لا في الأنصبة المحققة ونتائج الجهد المبذول.
وبعبارة أخرى تكون الديمقراطية ديمقراطية المثل الأعلى إذا انصرفت إلى تهيئة الأسباب وتيسير السبل التي تجعل كل فرد من أفراد الأمة ينال على قدر استعداده وكفايته من فرص النجاح ووسائل التوفيق. وإذا شبهنا الحياة بميدان للسباق فالديمقراطية الصحيحة أن ينطلق المتبارون من نقطة واحدة بعد أن يعدوا أعداداً عادلا لهذا السباق، لا أن يكبل البعض أو يحجز عن السباق أو يترك بلا أعداد ثم يحاسب على تخلفه ويلام على إبطائه!
وإذاً فالديمقراطية الصادقة هي ديمقراطية التيسير على الناس لإظهار كفاياتهم واقتدارهم الموهوب والمكسوب. وكل ما يؤدي إلى هذه النتيجة الأخيرة فهو في صميم الديمقراطية

الحق، وكل ما يؤدي إلى عكسها فليس من الديمقراطية في شيء. وفيما يلي شرح لوسائل تيسير الديمقراطية على النحو الذي عرفناها به.

وفي أول هذه الوسائل بل أولها أن يعم التعليم وينتظم التثقيف جميع أفراد الأمة ثم يسار فيه على نهج واضح من الاختصاص والأفراد. وعموم التعليم يجئ في أول وسائل الديمقراطية لأن عصرنا هذا عصر العلم والسرعة والاقتصاد، لإنجاح فيه مضمون إلا لمن توسل للنجاح فيه بوسائل من علم يتقن أو فن يكتسب والأوربيون على أتم الإدراك لهذه الحقيقة فتراهم لا يألون جهداً ولا يدخرون وسعا في تعميم التعليم وتيسيره بحيث ينتظم جميع أفراد الأمة ويصيب كل منه على قدر استعداده وكفايته.

وهم يبالغون ويشددون في هذا التعميم والتيسير فلا يكتفون أن يعدوا وسائل العلم والتثقيف ويتركوا أمر اكتسابها لاختيار الجمهور وهوى الأفراد، بل تراهم يفرضون العلم والثقافة فرضا على جميع أفراد الأمة فلا يستطيع أحد أن يستمر على أمية أو يمضي في جهل حتى لو أراده. والأوربيون بعد لا يكتفون بأن يعمموا التعليم ويفرضوه على جميع الأفراد، بل تراهم ينوعون العلم ويعددون فروع الاختصاص حتى يصيب كل فرد من العلم ووسائل النجاح ما يتلاءم وكفاياته الخاصة ومواهبه الموروثة. وهذا هو الذي من اجله تفتح الجامعات ودور الفن الخاص حيث يستطيع كل فرد أن ينال من العلم والفن كماً وكيفاً خير ما يستطاع نيله. على أن حرص ذوي الشأن هناك على استغلال كفايات الأفراد أحسن استغلال لا يدعهم يتركون الأفراد وهواهم واختيارهم لما يشاءون من العلم والفن بل تراهم في كثير من الأحوال يتدخلون في حرية الأفراد ويحددون اختيارهم ويربطون بنوع ابرز كفاياتهم، فترى المربين وعلماء النفس يتوسلون باختبارات الذكاء العام والخاص، ليدركوا مبلغ قابلية الفرد للعلم وليدركوا في أي نواحي المعرفة والمهارة يستطيع أن يجيد ويبرز نسبيا أو إطلاقا ثم يدفعونه في ناحية ابرز كفاياته فتكون النتيجة خيرا له ولقومه

ولا يكتفي أولو الشأن هناك بأعداد الفرد أحسن الأعداد وتزويده بأحسن زاد من العلم والخبرة، بل تراهم يزيلون من طريقة الكثير من العثرات والعقبات المصطنعة غير الطبيعية؛ فلا مذهب سياسي ولا عقيدة دينية ولا منزلة اجتماعية ولا نفوذ شخصي بمعطٍ فردا فرصة من النجاح لا تؤهله لها كفاياته على وجه الدقة أو التقريب. هذا ولسنا نزعم

أن جميع الدول الأوربية بلغت من فهم الديمقراطية وتطبيقها هذا المبلغ، وإنما الذي نزعمه أن معظم هذه الدول الأوربية تفهم الديمقراطية هذا الفهم ويسعى مخلصا لتطبيقها، ومن هذه الدول من بلغت شأواً بعيدا في التطبيق.

ولا يقف الأوربيون من تحقيق الديمقراطية عند هذا الحد الذي شرحنا، بل تراهم يبذلون قصارى الجهد ليهيئوا لجميع أفراد الشعب جواً روحيا متقاربا لا في دور التعليم وحسب، بل في كل مرحلة أخرى من مراحل الحياة. فترى الحكومات الأوربية تبذل الجهود الكبيرة والأموال الوفيرة لإنشاء الحدائق العامة ودور التمثيل والسينما والمكتبات العامة وخلافها من المؤسسات الاجتماعية الروحية، فلا يكون ميسورا لأفراد دون أفراد سبيل الاستمتاع بما تيسره هذه المؤسسات من متع روحية غالية.

ويدرك الأوربيون العلاقة الوثيقة بين صحة الجسم وبين صحة الفهم وجودة الإنتاج، فترى الحكومات والجماعات غير الحكومية تبذل أقصى الجهد لإنشاء الأطفال نشأة صحيحة سليمة، ولا نزعم هنا انهم بلغوا المثل الأعلى في هذا الشأن وإنما نزعم انهم ساروا شوطاً بعيداً في تحقيق هذا المثل ولا زالوا يسعون ليصلوا نهاية الأمد.

هذا ومعظم الدول الأوربية تسعى للمباعدة بين الأفراد وبين روح الاتكال، وللظن ببذل الجهد أركاناً إلى ثروة تورث أو مال يأتي عن غير طريق السعي والعمل، فتراها تقتطع لنفسها من أموال الإرث مبالغ طائلة، فتقلل بذلك من روح الاتكال في الأفراد الوارثين، وتبذل هذا المال المقتطع في تيسير الكثير من أسباب الثقافة والاستمتاع والصحة لمن تعوزه إليها الوسيلة.

وليس هذا كل ما يفضي إليه فهم الديمقراطية وتطبيقها على النحو الذي أبنا في أول هذا المقال، فمما لا ريب فيه أن الديمقراطية التي تفهم هذا الفهم وتطبق هذا التطبيق تكون الوسيلة التي ليس فوقها وسيلة لتحسين أنواع الإنتاج المختلفة كماً وكيفاً، ولبث روح الرضى والاطمئنان في نفوس الجمهور إذ ليس في الحق ابعث على

الرضى في نفوس الأفراد من شعورهم بأنهم يعملون في أحسن ما اعدوا له من عمل وأن الحكومة والهيئة الاجتماعية قد أعدتا لهم احسن الوسائل الحسية والفكرية والروحية لتوجيه كفاياتهم في خير وجهتها ثم الانتفاع من هذه الكفايات بإبرازها قوية واضحة أحسن الانتفاع.

أديب عباسي

تلخيص وتعليق

أسبوع الجاحظ

لمندوب الرسالة

أتينا في الرسالة (195) على خلاصة ما قيل في اليوم الأول من أسبوع الجاحظ الذي قامت به كلية الآداب، وقد كان هذا غاية ما أدركته الرسالة وهي تحت الطبع، ونعود فنقدم إلى قرائنا إجمال ما قيل في الأيام التي تعاقبت بعد ذلك.

اليوم الثاني

كان القول في هذا اليوم للأستاذين: أمين الخولي، وعبد الوهاب حمودة، وكان على الأول أن يقول في منهج التفكير عند الجاحظ وكان على الثاني أن يقول في أسلوب الجاحظ

وقد ابتدأ الأستاذ الخولي كلامه فقال: يقتضينا منهج البحث والتفكير ونحن نتكلم عن منهج الجاحظ في التفكير أن نعرف هل كان الجاحظ يقول بالمعرفة أم كان سوفسطائياً، لأنه كان يقول بالشيء وضده والحق انه كان يقول بالمعرفة وينتهجها، وله في ذلك من الآثار كتاب المعرفة وكتاب الجوابات وغيرها من الكتب التي لم تصلنا إلا أن موضوعاتها تدل على أن الرجل كان من القائلين بالمعرفة. قال الأستاذ: وطريق المعرفة عند الجاحظ للحواس والعقل على اتهام للحواس واطمئنان للعقل ولا شك أن الجاحظ كان له في الدين والأدب والحيوان وكثير من النواحي، وكان له في كل ناحية من هذه منهج تفكير ينتهجه، فهل كان في كل منهج منها على حظ واحد من الإجادة ودرجة متفقة في السير؟ أننا نرى انه كان في كل مناهج تفكيره متكلما أكثر منه أي شيء آخر، فقد كان الرجل من علماء الكلام، وكان يتخذ الكلام صناعة وتلك كانت شنشنة المعتزلة فإنهم أهل جدل وكلام ومناظرة، وقد أخذ الجاحظ منهجهم واحتذاهم، وقد امعن في ذلك حتى طغى منهجه الكلامي على تفكيره الأدبي. فكان يحفل بالجدل ويعنى باختلافات القوم يسردها وينقدها. ثم عرض لمذهب الرجل في الصدق والكذب وقال: إنه كان يحتج للشيء وضده تطبيقاً على رأيه في الصدق!!

وتكلم على منهجه الرواية فأورد كلامه في كتاب الحيوان عن اصطناع الكتب ثم قال: ومنهج الجاحظ في ذلك مبني على العيان والخبر، ولكنه ينقد ما وصل إليه من الأخبار ويرده إلى اليقين العقلي كما انتقد الخطبة المنسوبة لمعاوية.

وأتى بعد ذلك على منهجه النظري فقال: انه كان يحترم العقل ولكنه مع ذلك لا يرى انه يكفي لسعادة الناس في دينهم ودنياهم؛ ثم هو يحترم أشياء قد جاءت على غير النهج العقلي وإنما هي نظرية سماعية كخلق عيسى وحواء وغير ذلك. وكان يرى أن الشرع إنما جاء حاداً للعقل وكان الجاحظ يشك فلسفياً ولكنه شك المتكلم يكتفي بالظواهر والمظاهر لأنه يعتد بعقله ويحترمه.

قال: وكان الجاحظ يأخذ بالمنهج التجريبي ولكن منهجه في ذلك كان ناقصاً؛ ثم عرض لنظريته في المشابهة بين الإنسان والقرد، وقارن ذلك بنظرية (دارون) ليظهر الفرق بين التجربة الناقصة والتجربة الكاملة الممحصة وضاق الوقت عن أن يتكلم الأستاذ في منهج الجاحظ الفني فاعتذر وقد ختم كلامه بقوله: إن منهجنا في تكريم الجاحظ منهج ناقص، لأن آثار الرجل لم تصلنا كاملة، فلعلنا نعمل على إخراج آثاره للناس فبذلك نكون قد كرمنا الجاحظ حقا وذكرناه وانتفعنا به

وقام من بعده الأستاذ حمودة فقال: إن أسلوب الجاحظ مرآة نفسه وحسه، وصورة عقله ومزاجه، وقد عرف الجاحظ في أسلوبه بخصائص لم يسبق إليها، منها: مزج الفكاهة بالجد، والبرهان المقنع بالتهكم الموجع، وسبب ذلك دمامة شكله، فإن أهل الدمامة قوم تشيع فيهم الدعابة؛ واستدل على ذلك بما كان من حافظ وأمام العبد ونظير واضطرابهم. ثم تتطرق إلى دعابة الجاحظ في شيء من البسط والإفاضة ثم قال: وكان الجاحظ يتخذ التهكم أسلوبا من أساليب النقد والإقناع، ورسالة التربيع

والتدوير نمط من ذلك، وبعد أن قرأ الأستاذ فقرات من هذه الرسالة قال: وكثير من المتأدبين يحسبون أن ابن زيدون هو أول من اتخذ الأسلوب التهكمي في رسالته الهزلية إلى ابن عبدوس، وإنما هو تلميذ الجاحظ في ذلك على إن فنه أشبه بالهجاء وابعد من التهكم والسخر

ثم وازن بين الجاحظ وبين ابن المقفع فقال: إن ابن المقفع حكيم يستمد حكمته من نفسه؛ فتجربة الدنيا هي التي كانت تملى عليه ما يكتب، ولكن الجاحظ كان ينهج نهج من درس خطابة أرسطو فتأثر بها إلى حد بعيد، ومن المشابهة بينه وبين أصحاب الخطابة في

الأسلوب استعماله القياس المضمر وهو ما عرف عند البديعين بالمذهب الكلامي؛ وقد كان الجاحظ أول من قال بهذا المذهب واستخدمه وأنكر وجوده في القُرآن وتابعه ابن المعتز ورد عليه ابن أبي الإصبع. . . . قال وإنما أخذ الجاحظ ذلك من كتاب الخطابة لأرسطو. وهناك دلالة قوية تدل على أن الجاحظ قد انتفع بكتاب الخطابة، ولكن هناك يعترضنا سؤال وهو أن الجاحظ قد أنكر أن لليونانيين خطابة، والجواب: أن الجاحظ حينما قال ذلك قاله وهو يرد على الشعوبية الذين كانوا يقولون إن الخطابة عند كل الأمم تنقصا للعرب، فموقف الرد هو الذي ألجأه إلى ذلك الإنكار والجواب الثاني انه لم يطلع على نصوص خطابية لليونانيين والثالث التراجم والمترجمين وانتقد على الخصوص، كتاب المنطق بأنه قرأه في أسلوب سقيم مترجم!!

فالجاحظ لا شك قد تأثر بكتاب الخطابة لأرسطو كثيراً ومنطقه، ليس كتاب البيان والتبيين إلا صدى لذلك الكتاب. وكان الجاحظ على طريقة أهل الخطابة يستخدم التمثيل إذا أحوجه الدليل وأعوزته الحجة؛ ومن ذلك ما كان في رسالته تفضيل السودان على البيضان. . . ثم قال: ومن خصائص الجاحظ: قصر الفقرات والازدواج، وتعمد السجع دون أن يتكلفه، وكذلك الافتنان في الأسلوب، والتنقل، والاستطراد، والتقصي للمعنى حتى لا يترك فيه بقية. أما الخصائص التي يشركه فيها غيره، فالسهولة والسجع وما إلى ذلك من خصائص الكتابة الشائعة في ذلك العصر. وبعد فأسلوب الجاحظ نتاج عقله وفكره أكثر منه نتاجا لروحه وعاطفته؛ هذا في رسائله العامة، أما في كتاباته الخاصة فقد كان يقصد إلى التنميق والتنويق، ويحفل بالديباجة المشرقة، ويعتد بالشواهد والأمثال يقحمها في ثنايا كلامه

اليوم الثالث

وفي اليوم الثالث تكلم الأديبان شوقي ضيف وعبد اللطيف حمزة؛ فتكلم الأول عن الجاحظ بين النقد والبلاغة فقال: لقد كانت مكانة الجاحظ في ذلك كمكانة أرسطو في الخطابة عند اليونانيين، وكان الجاحظ لا يكتب للخاصة فكان يعرف أن كتاباته في حاجة شديدة إلى التوابل لتقريبها لأذهان الجمهور.

ثم قال: والنقد لم يبدأ كفن إلا في العصر الأموي؛ وقد كانت الشعوبية هي أول حافز على النقد لأنها كانت حركة هدامة تشك في كل شيء، وكانت تشك في بلاغة الأدب العربي،

والشك في بلاغة الأدب العربي شك في بلاغة القرآن!

ثم جاءت بعد ذلك بيئة الأدباء واللغويين في المربد وغيره من أندية الثقافة فأدوا كثيرا في خدمة النقد والبلاغة، وقد اتصل الجاحظ بكل هذه البيئات واخذ عنهم. ونحن يصعب علينا أن نحدد ما للرجل في ذلك وان نميز أقواله من الأقوال التي اقتبسها ومهما سكن من شيء فالجاحظ قد فصل الأدب عن الأخلاق وروى كثيرا من الأدب العاري. وكان يطلب من الكتاب أن يتثقفوا ولكنه لم يطلب من الشعراء ذلك. والحق أن الجاحظ كان ناقدا ممتازا، وكانت له طبيعة في ذلك؛ وكان حر الرأي فلم يقدم القديم لقدمه، ولم يرفض الحديث لحداثته. وكان عربيا ولكنه كان يحترم شعراء الشعوبية ويقدمهم فمدح بشاراً وأبا نواس وأمثالهم. ولقد كان الجاحظ بآرائه حرياً بان يخلق من حوله حركة أدبية حافلة لو أن النقاد تابعوه، ولكنهم انصرفوا عن ذلك واكتفوا بنقد النصوص نقداً لفظياً نحوياً ولغوياً.

وليس كتاب البيان والتبيين فيما أرى صدى لخطابة أرسطو وأنا لا أشك في أن الجاحظ لم يره، وما ذكره ابن النديم لا يفيد ذلك، وأن كان العرب قد وقفوا على شيء من الثقافة اليونانية والجاحظ لم يكن من رجال المنطق. وقد عابه قدامة بأنه لم يذكر

أقسام البيان!!
وقد أثرت آراء الجاحظ فيمن جاء بعده، ولعل أهم هذه الآراء مسألة اللفظ والمعنى وقد أطال الجاحظ القول في هذه المسالة وهي عنده قبل كل شيء مسالة دينية لاتصالها ببلاغة القران. وقد اسقط الجاحظ قيمة المعنى وجعل اللفظ هو كل شيء؛ وقال إن المعاني مطروحة في الطريق لكل الناس يلتقطها العامي وغيره وقد فتن العلماء بعد الجاحظ بهذا الرأي ووافقوه عليه. وقلما نجد فيهم واحدا اهتم بالمعنى والبحث فيه، بل انهم اسقطوا المعنى ولم يروا له فضلا!!
ومن بعد ذلك أخذ الأديب عبد اللطيف حمزة في الكلام عن (الجاحظ المعتزلي) فابتدأ القول في نشأة الاعتزال، فعرض لحركة الحسن البصري في مسجد البصرة وما كان بينه وبين وصل، ثم قال: ومضت الدولة الأموية، واتت من بعدها العباسية، وجاء الفرس بمزاياهم وببلاياهم، وأقول ببلاياهم لأنهم جاءوا بالإلحاد والزندقة ورفعوا لواء الشعوبية ولا شك أن المعتزلة هم الذين استطاعوا أن يردوا هجمات الفرس وان يكبتوا الشعوبيين لأنهم تدرعوا
لذلك بالنقل والعقل والفلسفة والكلام فكان المعتزلة قوة كبيرة تجاه الزنادقة والملاحدة.
وبعد أن أورد الأصول المعتبرة عند المعتزلة وشرحها وحدد العلاقة بينها وبين غيرها من الفرق قال: وكان للمعتزلة مدرستان واحدة في البصرة والأخرى بالكوفة، وقد كان من أقطاب الأولى النظام ثم تلميذه الجاحظ، وكان المعتزلة على مقتضى تعاليمهم يتوارثون حرية الفكر فهم ولا شك جماعة أحرار الفكر كما يسميهم المستشرقون. وكان يطلق على كل اتباع رجل منهم اسم هذا الرجل فيقال النظامية لاتباع النظام والجاحظية لاتباع الجاحظ، ولقد كان لهم بحكم مهمتهم في كل ناحية من نواحي الفكر، فكانت حركتهم كما يقول الأستاذ احمد أمين - إرهاصاً لحركة فلسفية منظمة تولاها الكندي والفارابي وابن سينا وأشكالهم.
ولقد أخذ الجاحظ عن المعتزلة جميع مزاياهم، وكان بوقاً عظيماً لآرائهم يذيعها في الناس ويشرحها وقد ينتقدها ثم أشار إلى آثاره في ذلك فقال: إن اكثر رسائله قد ضاعت في أجواء العصور الخالية، وقد وصلنا بعض نصوص تدلنا على أن الجاحظ كسائر المعتزلة يطعن على أهل الحديث الحشويين وله رسالة في مدح النبي ورسالة في الاحتجاج للنبوة، ورسائل أخرى في الرد على اليهود والنصارى والرافضة وقد كانوا أعدى أعداء المعتزلة ثم له رسالة في فضيلة المعتزلة رد عليها ابن الراوندي برسالة سماها فضيحة المعتزلة وهي التي عنى بدحضها ابن الخياط في الانتصار.
ولكن مهما قيل في الجاحظ المعتزلي وأخذه بحرية الرأي لابد أن يكون له نظر في حرية الإرادة وهي مسألة المسائل بين علماء الكلام ومبعث الخلاف بين الفرق المختلفة، وقد كان الجاحظ كما عرفنا معتزلياً شديد الإخلاص لفرقته واكبر الظن أن الرجل قد وجد حلا لهذه المسالة في نظريه الطبيعيات. والظاهر أن الجاحظ قد طبق هذه النظرية على العالم الأخروي، وقد حمله هذا على الكلام في مسالة المعارف أو المدركات على أن مسألة الطبيعيات لم تكن من ابتداع الجاحظ ولكنه شرحها وبسطها وطبقها، وإنما هي لأستاذه النظام؛ وقد جاءت هذه النظرية عند بعض الفرق الأخرى، حتى نظرية العوارف التي أشرنا إليها قد انتهج الجاحظ فيها نهج أرسطو فالمظاهر التي يتجلى فيها اعتزال الجاحظ تبدو في تعصبه للمعتزلة والدفاع عن آرائهم والإشادة بفضلهم، وخصوصاً بفضل أستاذه
النظام، ثم في الأشياء التي عرف بها وخاصة رأيه في حرية الإرادة، وأخذه بحرية الفكر إلى ابعد حد، فان الدولة كانت لا تشجع على حرية الرأي لغير المعتزلة، ومن ثم نعرف أن الجاحظ لم يضف كثيرا لآراء المعتزلة ولكنه تولاها بالشرح والإذاعة.
(البقية في العدد القادم)
م. ف. ع
جولات في الأدب الفرنسي الحديث
تطور الحركة الأدبية في فرنسا الحديثة
للأستاذ خليل هنداوي
النظرية الفنية للعقل - الرمزية

بينا أخذ المذهب الطبيعي يضمحل ثم ينتصر بعض أعوام في القصة. كان مذهب جديد يذر قرنه في عالم الشعر والفن. هذا هو مذهب شعراء وفنانين كانوا يزعمون انهم لا يعلمون الأدب كله ولكن تأثيره أخذ يمتد، وحدوده بدأت تتسع، حتى اصبح مذهب العقل والحياة الباطنة، يؤثر في كل أشكال الفن، ويعمل في كل حقول الفن. هذا مذهب (الرمزية) الذي نبتت أصوله عند الشاعر (بودلير) وكان تأثيره (بودلير) أخذاً في الانتشار. ومن يجحد ما كان لبودلير من تأثير في شعراء (الرمزية) ولا سيما في الشعر الحديث الذي تهيمن عليه نفحات (بودلير). وهذه الرمزية الخفية تولدت من آثار (فرلين) ومن آثار (رامبو)

- بول فرلين

إحساس فرلين، خياله، فنه، تطوره

إحساس فرلين

لم يكن لفرلين خاصة معلومة من خواص العقل، لأن حياته لم تكد تقاد بتأملات عقله وإنما بغرائزه وإحساسه، ولم تكن لغرائزه من حاجة ولا غاية، وإنما هو الكسل والإخلاد إلى الدعة وطلب اللذائذ التي شغلته حتى لقي حتفه متسماً بالكحول. أما إحساسه فلم يكن عميقا ولم يكن معقداً. فبينما هو ينظم أبياتاً عاطفية على المذهب الوجداني إذا به ينكر الهوى والتشاؤم العاطفي. ولم يكن يتحرى عن السمو فيما ينشده وكان يجهل الدركات التي تنحط فيها الإنسانية في شدتها وفاقتها. يحب الحب ويترنم بالحب. وإذا لم ينشد اللذة البسيطة فهو لم ينشد أيضاً حب الأهواء. إن جد كان حلماً، والغواني اللواتي احبهن كن اقرب إلى الأوهام. وهذه الأوهام كانت عنده ظلالا وأشباحا. أحلامه هي قلق خفيف يتولد من طفولته، وإحساسه إحساس بسيط سرعان ما يسأم. يلبس حينا رداء الصدق وحينا رداء الكذب. فيه حياة وإبهام. وقد يكون اوجه وسطاً لو لم تسم به المخيلة والفن.

مخيلة فرلين

إن المخيلة الكلاسيكية والرومانتيكية هي التعبير عن المعاني بصور فهمها العقل وحللها، ويقدر على تحليلها أما مخيلة. (فرلين) فقد كانت مخيلة صافية أي أنها كانت تأسرها الصورة دون أن تجرب أن تفهم معنى الصورة. والشاعر يحس إن الصورة لها معنى وإنها تعبير عن حالة في النفس ولكن هذا التعبير ما هو إلا (مطابقة لها) إذ يصعب عليه أن يعبر عنها تعبيراً منطقيا. وهكذا تغدو المخيلة المحدودة بالتعابير المنطقية مخيلة تائهة شاردة. والأهواء الشاردة - عند فرلين - لا تغدو قاعدة أو مذهبا أدبيا. فان مخيلته الصبيانية تملك على أحلام صافية تعبر عن صور صافية. وتملك على أحلام أخرى يهيمن عليها نوع من النطق المشوش. وأحلام تلتحم مع أفكار صافية لتضيعها ثم لتجدها. وهكذا يبدو على أسلوبه الخيالي سيماء الأسلوب المدرسي، والأسلوب المتفكك. وليس لهذه المخيلة من قاعدة إلا الهوى والاختيار الباطني. هذه هو مذهب فرلين إحساس متحرك صبياني يلتقي بسرعة مع مخيلة سريعة الالتقاط للأحلام المتبدلة. إذ يرى واجبه أن يعبر عن هذه الرسالات السرية المحسوسة بشدة وحدة وهي تربط هذه الحركة بهذه الأوهام وهذه الانعكاسات بهذه الأشباح، يغمرها كلها ظلمة لا يمشي فيها نور. لأن روحه الشقية وعبقريته يجدان فيها الراحة والحياة وقد دأب فرلين على التأمل في الفن المدرسي وأصحاب هذا الفن، ذاهبا متحريا عن الفن الذي يستطيع أن يعبر عن نفسه لنفسه، وتخاطب نفسه به نفسه

فن فرلين

إن فرلين لم يبتكر كل شيء فقد تحرى شعراء قبله في أوقات مختلفة عن هذا الفن الرقيق، وفرلين نفسه لم يجحد ما كان (لبودلير ومدام ديسيور دفالمور) من تأثير فيه. كما انه تأثر بشعراء من الإنجليز، تلاهم ودرسهم يوم كان في إنجلترا. على إن بودلير ومن ذهب مذهبه كانوا يحاولون أن يقرأهم الناس ويفهموهم. وكانوا - في الساعات التي تتكاثف معانيهم - يصونون الوضوح في التعبير والتركيب والنحو. أما فرلين فقد ذهب غير هذا المذهب إذ أراد أن يكون إنشاؤه خفياً، وأراد أن يضع حجابا على لغته وأوزانه التي تعبر

عن حالات نفسه الخفية، وبهذا تراه - من اجل غايته هذه - خرق كثيرا من القواعد. فأنت ترى بعض عباراته تتقارب وتتلاحق - غنية عن عناء المنطق - بنغمة باطنية من

الهوى الذي يغمرها. وحركتها لا تكون إلا إيقاعا موسيقياً لا يجد فيها الإعراب أسباب جملة صحيحة. وإنما هي جمل موسيقية لا جمل منطقية! على أن عبقرية فرلين تتجلى عي انه عمل على إيجاد أوزان باطنية موسيقية للتعبير عن خطرات النفس الباطنة تحل محل الأوزان الظاهرة وقد كانت عاطفته في ذاك دقيقة مرهفة، وذوقه عميقا في انتقاء الألحان الملائمة المنسجمة التي تعبر عن المعاني، وانك لتجد شعره - سواء كان صافيا أو مبهما - يبدو كأنه يتجرد من كل معنى. وينتهي من وصوله إلى العقل حتى ينسكب في رعشات إحساسنا الرقيقة

تطور فرلين

لقد كان (فرلين) من بدء حياته الشعرية هدفا لأطوار متباينة، ولقد يكون انتقاله من طريق المذاهب المدرسية اقل حركة لو لم يتصل (بالشاعر رامبو) الذي كان تأثيره فيه تأثيراً عميقاً. وقد اتصل به فرلين اتصالا وثيقا طوال سبعة عشر عاما. وهو الذي أوحى إليه بان يزدري هذه الحياة (العاقلة) الفن (العاقل) وهذه التأثيرات الرثة وقد عكف فرلين على شرب الكحول حتى أرعشت قوته، وطوت فتوته، فانتابته الفاقة والشقاء والموت وأصبحت عبقريته الشعرية لا ترسل إلا شعاعا. وأصبحت طريقته الموسيقية، من عهد - تمتمة ضيقة الأنفاس.

ارتور رامبو

نشأ (رامبو) نشأة شعرية، وكتب مقاطيع مختلفة على أساليب مختلفة. وقد حذا حذو (ليكونت دي ليل وبودلير وفرلين قبيل عام 1870 ولكن آثاره كانت تطغى عليها مخيلة محمومة ملتهبة تدفعه دائما إلى المجهول. وسرعان ما تلاشى عنده وجود العالم الحقيقي حتى أمسى عالما لمظاهر باطلة. إن الإحساس الحقيقي هو هو إحساس ابن صدفته وابن حادثه. . . هو الحجر المطروح في الماء،

أما ما هو اكثر اعتبارا فهو تلك الرعشات المترجرجة في الينبوع. هنالك حيث يبصر العقل العادي - على شاطئ قناة مظلمة مصنعا للخمر يؤكد لنا (رامبو) بأنه يجد على ضفة نهر لامع معبداً! هذه الأوهام هي حقيقة الوجود. (وما عسى يغدو الوجود إذا خرجت منه؟) انه في هذا الوجود لغريبة طبيعية، في هذا الوجود الحقيقي وحده لا يبقى للمنطق المعهود إلا العمل. أما السحر الباطني فله طرائقه التي لا تفهم) ولكن الإنسان يحسها ويتبعها بطريقة خفيفة وحاجة خفية كما هو الحال في أجزاء خاتم غير متطابقة نراها طبيعية ضرورية. وإذا أردت الدخول في عالم الشعر فلا تطلب ذلك العالم البالي السائم الكاذب محاولا أن تعبر عن عالم الظواهر العملية، وإنما يجب أن تغادر هذا العالم وتفر منه إلى عالم جديد. فيه تتفتح الحقيقة الشعرية والأحلام الحية. . وقد وجد رامبو إن اللغة العادية عاجزة كل العجز عن التعبير عن هذه الحقيقة . الوهمية، فعمل على تنقيحها تنقيحاً فنيا، فافترض لكل مقطع لونا وحركة، وعمل لكل فعل معنى من معاني الشعر. وبذا تلونت الكلمات وأصبح لها أوقاع خاصة. . . والكلمة عنده أصبحت تتألف من الحان يجب أن ينظر في توقيعها الموسيقي لا في معناها، وهكذا أخذ شعر (رامبو) ينزاح من زمن إلى زمن عن تأثير الصور الواضحة والمنطق، واخذ يغدو كجوقة موسيقية للحلم الباطني بفصل أصوات (كلماته ورناتها.

المدرسة الرمزية

نشأت مدرسة جديد بتأثير (فرلين) (ورامبو) وفلسفة (شوبنهاور) وهذه المدرسة الجديدة اتخذت لها الرمزية اسما. وحقيقة أمر هذه المدرسة أنها نشأت ناقمة على الشعر التقليدي عاملة على خلق شعر جديد. أما تعاليم هذه المدرسة فليست من الواضح والترابط على شيء. وإذا شئنا أن نحلل معنى (الرمز) كما أرادوه لا يصل بنا ذلك إلا إلى كلام لا يغني! وإنما يفهم هذا الرمز ويفسر معناه العميق الحي من خلال آثار هذه المدرسة ونصوصها.

وأما مذهبها العام فهو إن الشعر إنما هو تعبير عن الإحساس لا عن عقل الشاعر. وهو يتجه إلى إحساس القارئ. الشاعر يعروه إحساس ما فيعبر عنه بلغة عقله فيدركه القارئ بلغة عقله بعد أن يكلف إحساسه بالاهتزاز! وفي هذه الأطوار نرى (التأثر) قد تغير وضعف وانعدم. أن الشعر الحقيقي ينبغي أن يكون اشتراكا مباشرا لإحساس مع إحساس. إذ يجب إلا يتوقف على عرضه والتحدث عنه وإنما يتوقف على (التلقين والإيحاء) كالوتر

يرن باللحن الذي يعطيه. ويقول في هذا المعرض الشاعر (هنري دي ريني) (إن الشعر اصبح يهجر أسماله الخطابية القديمة التي ارتداها طويلا. اصبح لا يحلل شيئاً وإنما يلقن ويوحي. . .) ويقول مالارمي (أن تسميتك للشيء تذهب بثلاثة أرباع ارتياح الشاعر، وذلك الارتياح الناشئ عن طربه بالتنبؤ عن الشيء قليلا قليلا، إن التلقين هو الحلم) ولكي يدركوا هذه الغاية ولدوا طرائق مختلفة ففروا من الأشياء الواضحة أو انهم لم يبحثوا عنها، لأن جل الأحاسيس الشعرية في زعمهم مشوشة مفعمة بالصور المبهمة والأحاسيس التي لا يمكن التعبير عنها بجلاء إلا بعناء. ويقول (أنا طول فرانس) (لا شعر بلا معنى خفي) فمهنة الشاعر أن يتغلغل في هذه العوالم الخفية والأسرار المحجوبة، فيقرب هذه الخفقات الحية وهذه المعاني المبهمة. ويقول (دوهامل) في معرض كلامه عن (بول كلودل): (إذا كان كلودل خفياً مكتوماً فذاك لأن أبواب المواضيع التي يلجها إنما تعبر عن سر كبير هائل)؛ ولأجل التعبير عن هذه المعاني الخفية والأسرار المكتومة ذهب الشاعر إلى توليد الرموز؛ وليس الرمز في التشبيه والمجاز، إذا مر التشبيه والمجاز من العقل الذي يولدهما ويقبلهما، وإنما الرمز هو تلك الصورة أو جملة صور متتابعة أخذ بعضها بأعناق بعض يحس الإنسان مباشرة أو يحس ولا يدري سبب إحساسه بان هذه الصور لا تترجم عن شيء ولكنها تعبر - أو بعبارة أوضح تنطوي على الفكرة. والتأثير الشعري كالزهرة التي تفسر الغرسة التي هي منها وهي لا تشبهها.

ثم يغدو هذا الشعر الخفي الرمزي موسيقياً، وقد كان تأثير الموسيقى في الشعراء كبيراً في فرنسا. ولبثت الموسيقى تعد فناً بين الفنون حتى عام 1885، فالموسيقى تستطيع أن تستمد من الشعر، كما أن الموسيقي يغترف من معين وحي الشاعر. ولكنها لم تسيطر على بقية الفنون، ولكنها غدت في ذلك التاريخ الفن العتيد الذي يشرف على كل الفنون. ولقد طغت موسيقى (فاجنر) الجرماني على النوادي الأدبية. وهدت كثيرين من اتباعها إلى القدرة على التعبير الرمزي في الموسيقى. ومن ذلك الحين طفق الشعراء يعملون على ابتكار فن يؤثر رنين الألفاظ فيه تأثير الموسيقى دون أن يفتقر إلى العقل ليترجم معانيها، أرادوا أن يجعلوا من الشعر رقية، وهو لا يرتل ولكنه يرقى. . . وإذا تلوته يغدو موسيقياً.

وقد قال (كلودل) في مقدمته لآثار (رامبو) ملخصاً مذهبه (بكلمات لا ينبغي أن تتحرى عن معانيها وإنما تقنع بتلقينها الصامت) إذ قيمة اللغة - عندنا - فيما تشير إليه اكثر منها فيما تعبر عنه تعبيراً واضحاً. فالكلمات العرضية التي ترقى إلى العقل وترديد جملة دائمة قد تؤلف شيئاً من الرقية، ولكنها تنتهي دائما بتجميد الشعور. وظل الأشياء يقع رأساً على مخيلتنا ثم يأخذ يدور حول نفسه.

وقامت تجربة أخرى هي تجربة (الشعر الحر) فأن الشعر الفرنسي برغم ثورة الرومانتيقيين فقد ظل يرسف في قيوده وأوزانه، فعمل البعض من الرمزيين على الانطلاق والتحرر منها لاسيما الشاعر (غوستاف كاهن). . . المذهب الوحيد هو الموسيقى الباطنة والتعبير الرومانتيقي كان نوعا من هذه الموسيقى. . . وهنالك أنواع أخرى موسيقية يبتكرها التوليد وتخلقها النفس المستوحية.

مثلان من شعراء المدرسة الرمزية

هنري دي ريني

لم يكن (هنري دي ريني) شاعراً رمزياً إلا لأنه عاش في زمن الحركة الرمزية. ورويدا رويدا عاد إلى شعر فيه الروح المدرسية والبرناسية. وبذلك اختلط عليه الأمر وكان في كثير من مقاطيعه فاضحاً للمعاني الرمزية.

نفس الشاعر تنطلق بكليتها نحو حلم، حلم قصيدة من قصائد الرعاة حيث تجتمع أفراح الحواس والقلب والفن وتمتزج في رقة ناعمة صافية. حلم موطن بعيد يعج بالأشكال الإلهية والأفراح الشاعة ولذائذ الحياة. ولكن النفس الإنسانية نفس قلقة مضطربة والإنسان ابتكر الفكر والعلم والهوى والخطيئة. أراد أن يبدل الحياة وأن يستعيدها. فتحرى عن حقائقها المكتومة قي مظاهرها. وعن بقائها في فنائها وعن هم المستقبل في طرب الحاضر. وهذه تجربة عميقة مبتذلة أوحت إلى كثير من الشعراء والشاعر المدرسي عبر عن هذه الخطرات بأسلوب واضح وأفكار منطقية ولكن في

طبيعة هذا الحلم الباطني اضطرابات وتموجات يحس بها قبل أن يبدأ العقل عمله.
فالحلم ينسل بين أمواج الخيالات الباطلة والقلق الراهن، وعواصف الحياة الحقيقية ترفعه من هذه الاضطرابات المفاجئة وتحيطه بظلال سوداء تنزلق. وليس في هذا مطابقات، لأن
هذه الخيالات إنما تصاغ بتأملات مركبة تركيبا سيئاً وهكذا يظل المقطع - بدون انقطاع - مشوشا يتجاذب الخيال الشعري والعقل الشعري، والصورة والرمز، ثم يغدو الشاعر كجنية سكرى بالحياة الناعمة الخالية من الفكر، والإنسان يغدو صديقاً كئيباً لعيون الأحلام والعلم وليس من الضروري أن يتناوب هذان الصوتان فقد يتعالى الصوت الواحد ممتزجاً بصدى مظلم ضجر يمل الصوت الآخر.
إننا لا نقدر أن نعرف هل يتركب الشعر من أحلام مزوقة ملفقة، أو من أخيلة الماضي والذكريات؟ أن ما نراه في مقاطيع الشاعر كائنات غير مثبتة، ليس لها أسماء ولا أوطان، لا هي أرضية ولا هي سماوية هي بعض كائنات، هي عابرات راحلات غريبات، ظلال، وجنيات، لا ندري هل زوقها الشاعر بحياة الأحلام أو بالحياة التي قضاها، ذلك ما لا ندريه ولا يدريه الشاعر. الشعر الرمزي يتولد من هذا الاهتزاز الغير المحسوس ويتم عمله حيث لا تلفيق ولا حقيقة، ولكن حقيقة ملفقة واحدة هي ابنة الحلم الباطني على أن هذا الشعر الرمزي في كثير من الأحيان يتخذ له طريقة التعبير المدرسي وإذا كان تعبيره يظل مائعاً، وفكرته تبقى فكرة تلقين متحركة هادئة فان الصورة تخرج شيئاً فشيئا من الضباب الرمزي لكي تتوقع بأشكال موجزة رقيقة ولوحات جميلة، قصور تتآلف من ضباب وحدائق تغرس من أحلام حيث يخيل إلينا أن يداً مفكرة شالت تماثيل من رخام أواني من البرونز وطاقة من الزهر. ووردة واحدة ساطعة خافقة.
جول لافورج
يختلف تأثير شعر (لافورج) عن تأثير (شعر هنري دي ريني) فهو لا يعمل على أن يحيا في مثل أعلى من البساطة والجمال اليوناني، لقد غره شك يائس قاتم تسرب إليه من الشك الرومانتيقي وملأ قلبه يأساً. وساعد على ذلك ما ابتلى به من صحة معتلة وحظ انكد، لقد كان يطمع في أن يحيط عقله بأسرار هذا الوجود. فدرس كثيراً والتهم الفلاسفة التهاماً ولكنه عاد خائباً لأنه لم يجد في هذه التعاليم التي درسها إلا ظلاماً اتهاماً ومتناقضات! ورسا في ذهنه أن اقرب هؤلاء الفلاسفة إلى عقله هم من علموا (الجهل الإنساني) والوهم الضروري وانسياق الإنسان إلى مقادير عمياء. هؤلاء هم فلاسفة (اللا شعور) والقدرية منهم (هارتمان وشوبنهاور). العاقل يجرب أن يصل إلى التنسك بشعوره بزوال هذه
الاخيلة، وبتأمله هذا العقل المضطرب اضطرابا أبدياً في هذه الجداول من الكواكب.
إن هذا العقل لا يصرفه عن أن يكون شاعرا أي صارف والشعر - بين الأخيلة الباطلة - هو اقل هذه الأخيلة خداعا. وربما هبطت أغنية عليتا لحظة وهزت حظوظنا البائسة السوداء. يمكننا أن نفكر في يساء نواعم، لأن هذه الكائنات حسنة. أو أن نستدعي - كما فعل قيني - الأبواق: الأبواق الكئيبة. بشرط ألا نخدع بأوهامها؛ الشاعر ليس بإله ولا بساحر ولا بكائن يفارق البشر. الشاعر هو موقع، وموسيقي يحسن التوقيع والضرب على القيثار.
كل الشعراء أرادوا أن يترجموا الشعر، واختلفوا اختلافاً شديداً في كنه الشعر ولكنهم ظلوا على أرستقراطيتهم يحقرون الحقيقة لأنها حقيقة الشعب كما انهم خدعوا بالأوهام البهيجة. أما شاعرنا فهو لا يريد أن ينتقي أوهامه انتقاء هو يتقبلها كما هي وكما تتمثل له يتقبل منها على السواء ما ينير فيه كآبته وسامته. وما يذهله عن هذه الحياة في وادي الأحلام. يتقبل منها أوهام الحياة السطحية والأوهام التي تلتف بالكائنات لتسبر أغوارها وتكشف أسرارها
أن (لافورج) قد هدم قاعدة قوية في الفن هي قاعدة وحدة اللهجة الشعرية، وأثر تأثيرا كبيرا في بعض شعراء العصر الحاضر.
اتباع المدرسة الرمزية
تهاوت على المدرسة الرمزية سهام نافذة من النقد ونوزعت نزاعاً عنيفاً وما كاد القرن التاسع عشر ينصرم حتى فقدت هذه المدرسة مذهبها كمدرسة ولكنها مهما ذهب الأمر فيها فقد ساعدت على خلق أجواء جديدة من الفن والشعر تختلف عن

الأجواء التي خلقتها المذاهب المدرسية والإبداعية والواقعية. هؤلاء تحروا عن مثلهم الأعلى في دلائل الحياة والأعمال والتجارب العلمية ووضوح الأشكال الفنية. هب علماء وفلاسفة يعلنون أن اليقين الذي حمله العلم إن هو إلا يقين الاصطلاح وأعمال الظواهر أما الحقيقة فلا تزال مكتومة. لم تنجح كل هذه الأسباب في إزاحة الستار عنها. وبهذا بدأ فشل العلم وبفشله فشلت الحقيقة الظاهرة. ولكي نجد الحقيقة سواء كانت الحقيقة الأخلاقية أو الاجتماعية أو الفنية ينبغي لنا أن نفلت من هذا العالم المحسوس الذي لا فائدة ترجى منه إلا الفائدة العملية هذا العالم الذي طالما خدعتنا مظاهره وبياناته الكاذبة وإذا كان للحقيقة وجود فهي موجودة في عالم خفي . .
وإنما على الفنان أو المبدع أن يذهب متحريا عنها في أطواء هذا العالم الخفي.
ولقد كان للمدرسة الرمزية اتباع وأنصار، اتخذوا الصحف الخاصة والمجلات الخاصة، يذيعون بواسطتها عن مدرستهم وآثار مدرستهم، ويردون بمكرهم مكر خصومهم واكبر هؤلاء الأنصار وأكثرهم ذيوعاً:
غوستاف كاهن: ومن آثاره الشعرية (القصور البدوية) وأغاني الحب ومسكن الجنية وكتاب الصور، وهو أول من كتب بلغة الشعر المنثور وجعل للشعر المنثور حدوداً وقواعد! وظل أسلوبه يغلب عليه الأسلوب المدرسي. وقيمة الرمز في شعره نشأت عن عواطفه التي أراد أن يتغنى بها، والتي تعبر عن ألوان النفس الناشئة كأنها رغبة محيطة مبهمة أو قلب دفين! ولكي يعبر عن هذه الألوان المختلفة لجأ إلى الرموز والتعابير المبهمة وكل ما فرضته الرمزية من أنواع التلقين.
و (جورج رودانياخ) الشاعر البلجيكي وهو ممن غلب على أسلوبهم الأسلوب المدرسي برغم ما تناول أسلوبه من معاني الرمزيين ومن آثاره التي نمت بالمدرسة الرمزية (مملكة الصمت) والحياة المسورة. هي مقاطيع تحف بها غفوات حالمة وهدءآت خفية. ونفوس يؤذيها الضجيج ومناظر قد يزورها الطرب أو الكابة تتمشى خلالها أخيلة النسيان والموت. ولقد كان لهذا الشعر الناحل المتزهد تأثير كبير.
و (بول فور) الذي أبدع (المسرح الفني) صاحب (الارانيم) وصاحب طريقة الشعر المنثور التي عاناها كثيرون قبله، فلم يستطيعوا أن يمرنوا على هذه الطريقة حتى جاء ابن بجدتها والضارب فيها كيف يشاء ولقد اخضع الإيقاع لوحي شعري حيث تتعالى الصور بدون أن تنفد طورا واضحة وتارة سرية محزنة، فيه شيء من الواقعية يمتزج مع التلقين الرمزي فتبقى المقطوعة الشعرية معلقة بين خيال الواقع وخيال الاسم كما أن (الإيقاع) يعلق بين الشعر والنثر.
صاحب ديوان (من صلاة الصبح إلى صلاة المساء) وانتصار (وفرنسيس جامس) الحياة. يغلب على أسلوبه هذا القتام الرمزي حيث ترى الرمز يدخل في السر والظل، ويغيب في الأحلام وجامس يرى الشعر - بخلاف غيره - في الأشياء البسيطة التي يلمحها وفي الحظوظ المتواضعة. وتظهر على شعره آثار الفاقة والمسكنة وها هو ذا يقول:
(الهي! دعوتني من الناس فها نذا جئت!
وكتبت بالكلمات التي ألهمتها أبي وأمي. . .
وقد يسخر القارئ من هذه البساطة في المعاني ولكن (جامس) اكتشف ينابيع حية ندية من الشعر. بساطة عميقة مؤثرة. فهو يحب ويجعلك تحب مثله سلامة السريرة والنفوس الشاقة، والحياة الهادئة الضعيفة للأشياء. والموسيقى الباطنة في وزنه وصورة حية من صوره وكلمة ملونة.
كل هذا تراه يعبر بك عن هذه الرقة التي لا تلمس، وعن الجمال الخفي في كل أثر من آثار المبدع الخلاق.
خليل هنداوي
حديث الأزهار
للكاتب الفرنسي ألفونس كار
زهرة الخشخاش
كنت فيما مضى أرسل عبيري على الأرقين فيرقدون، ولكن النوم لم يعد كافياً للناس في آلامهم، لم يعد الإنسان يكتفي بالوسن فهو يطلب الأحلام. لذلك كنت نسياناً فأصبحت أوهاماً.

لقد احتقر الإنسان عبيري المنوم فطمع بدمي المسكر، فهو يطعن قلبي بالنصال ويسقي من جراحي أشباح سلوانه.
لا تكاد زهرتي ترتفع عن التراب حتى أحس بالمسبر الجارح في قلبي مستنزفاً منه السائل المخدر يسكبه الناس في أحشائهم فيذهب بالأشباح إلى رؤوسهم.
عندما يرتشف الإنسان كأس دمي تستنبت روحه الأوهام أجنحة ترفعه إلى الأوج فإذا هو روح منعتقة من قيودها تقف لحظة في برزخ الحيرة ثم ترجع إلى أدراجها إلى الماضي أو تقتحم حجب المستقبل لترفرف على تذكاراتها أو آمالها.
مضى الزمن الذي كنت القي فيه ببذوري إلى الناس فيجدون بمنقوعها الوسن الهادي بعد منهكات الجهود، ذلك زمان كنت فيه مبعث الأحلام الهادئة الجميلة. ذلك زمان كنت فيه احمل الآمال الباسمة بالإيمان. فأقف إلى جنب فراش الأم لأريها سعادة طفلها. وأحوم حول فراش اليتيم لأريه أمه محنية فوق جبينه تهديه بركتها بقبلة سماوية.
في ذلك الزمان كنت زهرة التعزية أعيش بسكون وانقضي بسلام بعد حياة تنيرها بسمات الربيع.
من هدى الناس إلى دمى يستقطرونه شرابا يقتلهم ويقتلني ولكن على ما احزن. . .
أفليس الشاعر أخي، أفليست أشعاره كدمي كلاهما يقبضان على الروح ويرفعان بها إلى أجواء الخيال.
أن شعر الشاعر ودم الخشخاش كلاهما السم القاتل أمن يجود بهما ولمن يسكر بهما.
لقد كان الخشخاش جالباً للنوم وكان الشعر منزلا للتعزية فما كلاهما اليوم إلا سيال للسكر والجنون.
(ف. ف)
تاريخ العرب الأدبي - 19
للأستاذ رينولد نيكلسون
الجاهلية: شعرها، وعاداتها، ودياناتها
ترجمة حسن حبشي
ومهما يكن من أمر صاحب هذه القصيدة فان أبياتها تنضح بالوثنية، وأسلوبها يدل على ذلك، كما أن أهميتها القصوى تتضح لنا من أنها أثارت جوته بعد أن قرأ ترجمتها باللاتينية فقام بطبع ترجمة لها بالألمانية مع نقد جميل للشعر في (الديوان الشرقي -
وفي هذه القصيدة نرى الشاعر يصور كيف يلج به الثأر لخاله الذي قتله هذلي، ويصف بطولة القتيل وخلقه والغزوة التي قام بها وانتصاره (الشاعر) في النهاية على خصومه وظهوره عليهم فيقول:
إن بالشِّعب الذي عندَ سَلْعٍ ... لقَتيلا دَمُه ما يُطَلُّ
خَلَّف العِبْء عليَّ وولى ... أنا بالعِبْءِ له مستقل
ووراء الثأر مني ابنُ أختٍ ... مَصع عقْدَتهُ ما تُحَل
مُطرِق يَرشح سَماً كما أطْ ... رَقَ أفْعَى يَرْشح السُمَّ صِلُّ
خَبر ما نابَنَا مُصْمَئِلٌّ ... حِلَّ حتى دَقَّ فيه الأجل
بزَّنى الدهرُ وكان غَشوماً ... بأبي جارُه ما يُذَل
شامس في القُرِ حتى إذا ما ... ذَكّتِ الشِّعرَي فَبرْد وظِل
يابسُ الجنبينِ مِن غير بؤس ... وندِي الكفين شهْم مُدِل
ظاعن بالحزْم حتى إذا ما ... حلَّ: حلَّ الحزْم حيث يَحُل
غيث مزْنٍ غامر حيْث يُجدِي ... وإذا يَسْطو فليْث أبل
مسبل في الحيِّ أحْوى رِفِل ... وإذا يغْزُو فسِمْع أزَل
وله طعمان أرْى وشَرْى ... وَكِلا الطعْمَين قد ذاقَ كل
يركبُ الهوْلَ وحيداً ولا يَصْ ... حُبُهُ إلا اليماني الأفَل
وفتُوٍّ هَجِروا ثم أسْرَوْا ... ليلهم حتى إذا إنجاب حلوا
كلّ ماضٍ قد تردَّى بماض ... كسَنا البرق إذا ما يُسل
فأدَّرَكْنا الثَّأرَ منْهُمْ ولمَّا ... يَنْجُ م الحَيَّين إلاَّ الأقلُّ
فاحتْسَوْا أنفاسَ نوْم فلمَّا ... هوَّموا رُعْتُهُم فاشْمَعلُّوا
فَلئِنْ فلَّتْ هُذَيل شَباهُ ... لبما كان هذيْلاً يَفِل
وبمَا أدْرَكَهَا في مَناخٍ ... جَعْجعٍ ينْقُبُ فيهِ الأصَّل

وبمَا صَبَّحَها في ذُرَاها ... منْهُ بعْدُ القتْلِ نَهب وشَمل
صليَتْ منى هُذيْل بِخرْقٍ ... لا يَمل الشَّرَّ حَتى يَمَلوا
يُنْهلُ الصَّعْدَة حتى إذا مَا ... نهِلَتْ، كان لها منهُ عَل
حلتِ الخمر وكانت حرَاماً ... وبلاْيٍ ما أَلَمَّتْ تحُلْ
فاسقِنيها يا سوادَ ابنَ عمرو ... إني جسمي بعد خالي لخَل
تضحكُ الضبْعُ لقتلى هُذيْلٍ ... وترى الذيب لها يَسْتَهل
وعِتاقُ الطيرِ تَغدو بِطَاناً ... تتخطاهم فما تستْقل

ولم تكن الفضائل التي استوعبها العربي عن الشرف معدودة كأنها صفات شخصية فطرية أو مكتسبة، بل إرثاً ورثه الخلف عن السلف منذ القدم، ولا بد له من أن يحافظ عليه تماماً حتى يسلمه إلى أبنائه دون أن تشوبه شائبة ما، ولم يكن الأمل، في الخطوة بخلود النفس هو ما يحفز الشاعر العربي لأن (يقول القول ويفعل فعال الشرف)، بل كان الرغبة في أن يقاسم أسلافه ذكرهم، وينافسهم صيتهم. وهو بهذا ابعد ما يكون عن الفلاح الاسكتلندي، حين يقول في مثله الدارج (الإنسان بشخصه أياً كان اصله) لأنه كان ينظر نظرة الشك والريبة إلى هذه الجدارة التي ليس لها اصل مأثور عند الآباء:

ومَا تَسْتَوِي أحسَابُ قومٍ تُوُرِثَت ... قديماَ وأحسَابُ َنبْتنَ معَ البقْلِ

وإن الحسب عندهم أشبه بحصن حصين قد جد في إقامته الآباء للأبناء أو كجبل شامخ يضرب بقنته في أجواز الفضاء، يرتد عنه مهاجموه بالفشل دون أن ينالوا منه شيئاً، وكان الشعراء يعرفون جيداً المفاخر والمثالب فيتشدقون بالأولى بشرف أجدادهم وكرم أرومتهم، ويتخذون الثانية أداة ينالون بها من أعدائهم دون رعاية أو اهتمام بقواعد الأدب والحشمة.

لقد وجهت عنايتي أن أورد في هذا المجال بعض الصفات الخاصة للشعر العربي إذا ما قورن بالشعر العبري أو الفارسي أو الإنكليزي، ولكن لما كان إيراد الأمثال ذا جدوى غير منكورة فإني أبدأ حالا بالتكلم عن القصائد الشهيرة بالمعلقات التي تحتل مكانة سامية وذروة رفيعة في الأدب العربي.

الأرجح أن كلمة معلقة قد اشتقت من قولهم (عِلق) أي الشيء النفيس الثمين العالي المستوى. إما لأن الإنسان يتعلق بها تعلقا شديدا، أو لأنها تعلق في مكان شريف أو بين واضح كبيوت المال أو في خزائن عامة وعلى مر الزمن تنوسي المدلول الحقيقي لكلمة معلقة، وأصبح من الضروري إيجاد تفسير مقبول منصوب لها وهنا ظهرت الخرافة التي أصبحت فيما بعد مألوفة لطول تكرارها وكثرة استعمالها، والتي تزعم أن تسمية المعلقات بهذا الاسم، راجعة لتعليقها بأستار الكعبة تقديرا لفضلها الذي قضى لها به المحكمون في عكاظ على مقربة من مكة؛ حيث يجتمع الشعراء متنافسين في إنشاد أروع ما دبجته قرائحهم، وأنها كانت تكتب بماء الذهب، على القباطي الواردة من مصر قبل تعليقها على الكعبة.

(يتبع)

حسن حبشي

-

لمحة. . .!

للسيد عمر أبو ريشة

أوقفي الركب يا رمال البيد ... انه تاه في مداك البعيد
ظمئت نوقه وجف فم الحا ... دي وغصت لهاته بالنشيد
والأشداء يلهثون كخيل ال ... غزو عادت من يومها المشهود
عصفت في جفونهم ريحك الهو ... جاء والشمس عربدت في الخدود
والصبايا من الهوادج ينظر ... ن إلى الأفق نظرة المفئود
ليس يبصرن منك غير هضاب ... في هضاب مبعثرات الحدود
غابت الشمس يا رمال وهذا ال ... ركب في قبضة العياء الشديد
وخبا الليل يا رمال ال ... ركب أخنته وطأة التسهيد
فهوى فاقد الرجاء يرى المو ... ت مشيحا بمنجل من حديد
فتراءت إليه نار على البع ... د فكانت إيماءة للشريد

فسرى في سنائها فأطلت ... خلفها مكة الفخار التليد
يا عروس الرمال يا قبس التا ... ئه في مهمه الضلال المبيد
أمَن الركبُ في جمالك فردي ... هـ إلى ذكريات تلك العهود
يوم أرخى على جوانبك الوح ... ي جناحين من سماء الخلود
حاملا آية النبوة ما بي ... ن شفاه علوية التأييد!!
صَباها قبله على فم طفل ... قرشي النجار سامي الجدود!
وحواليه من حمام الفرادي ... س حسانٌ مرنَّحات القدود
ساحبات بيض البرود كما لو ... جمد النور فوق تلك البرود
يتزاحمن وإثبات ويلثم ... ن من الشوق مبسم المولود!
فإذا بالسماء تهمي تسابيح ... وتدوي أصداؤها في الوجود
وإذا الكون بعد عيسى تعرى ... نصب عيني محمد من جديد!!
درج الطفل والهداية تحبو ... هـ بتاج من السناء فريد
في الدير يضرب في ال ... ناقوس بشرى بالسيد المنشود (وبحيرا)
والذؤابات من قريش سكارى ... في هوى الجاهلية العربيد!
هتكت كبرياؤها سنن العق ... ل وصالت بشرعها المردود
كم بنات لم تنفطم وأدتها ... كفُ باغ على القضاء عتيد
كم وراء الجدران في الكعبة العص ... ماء من عابد ومن معبود
جلجلت صرخة النبي فردَّت ... رجع أصدائها أعالي النجود
وأشاحت يسراه بالمعول الصلد ويمناه بالكتاب المجيد!!
فتهاوت تلك الصفوف من الأص ... نام عن أوج عرشها المعقود
وتبارت - الله اكبر تعلو ... من شفاه المؤذن الغريد!!!
أخذت غضبة البداوة تخبو ... بعد إعنات ضلة وجحود
إنها النفس لا تبدل طبعا ... الفته فكيف نفس الحقود
ومن الصعب أن يشاهد أعنى ... قبس الحق في الليالي السود
يوم (بدر) فض النزاع وبث ال ... رعب في كل أشهب صنديد
فقريش مغلوبة وأبو سف ... يان في شبة رجفة الرعديد
والميامين في المدينة يطوو ... ن سيوف السلام طي الغمود
فأتم النبي آيته الكبرى ... على شعبه الكريم الودود
وانطوت تعدها الهيولي فثارت ... فتنة في النفوس ذات وقود
وتلاشت كأنها حلم الذع ... ر بجفن المسهد المكدود!!
الفجاءات كم تزلزل عزماً ... وترد الرشيد غير رشيد!!
دفقت موجة الهدى تغسل الشر ... ك وتروي النفوس بالتوحيد
وتبث الوئام والحب والرح ... مة ما بين سيد ومسود
مذهب ضجت الأعاجم منه ... وتعاموا عن شرعه المحمود
ورأوا فيه ما يدك عروشاً ... شيدوها بالظلم والتهديد
فرمت بالكتائب الخرس (روما) ... وبأبطالها الغزاة الصيد
وطغى الهول والكتائب ماجت ... في خضم من القنا والبنود
فأطلت تلك الفلول من العر ... ب بعزم النبوة المشدود
وانحنت فوق ضمر تعلك اللج ... م وتنزو مجنونة في الصعيد!
وأغارت ترمي الفوارس رمياً ... وتحز الوريد أثر الوريد
كلما انهار حائط من جنود ... اتبعته بحائط من جنود
وضفاف (اليرموك) ترسل منها ... زمزمات الحداء لابن الوليد!!
جولة ترعف الصوارم فيها ... وتصيح الأكف هل من مزيد
جولة كفَّنت بها الروم حلماً ... بين أنقاض صرحها المهدود!!
وكأن اندحارها لم يرد (ال ... فرس) عن نشر بغيها المعهود
سخرت كل فيلق كسروي ... لم يذق قبل نكبة التشريد!
مزقته في القادسية تلك ال ... بيض والسمر في اكف الأسود
إن طود الرمال تحمله الريح ... وتذريه في الفضاء المديد
بسطت كفها الهداية والشر ... ق تفيَّا بظلها الممدود

رافعاً مشعل الحضارة والغر ... ب صريع في غفوة من جمود
إن في الشام من معاوية ... السمح بقايا من الدهاء السديد
وببغداد مسحة من نعيم ... تتغنى بذكريات (الرشيد)
وبغرناطة من الملك النا ... صر آثار روعة (للنشيد)
أمة يعربية تركت في ... مسمع الدهر آية التمجيد؟
إنما عقلها البنون فزجوا ... بالمروءات في بطون اللحود
أسكرتهم لذائذ الترف الأه ... وج عن يقظة القضاء العنيد
وتلوَّت ما بينهم تنفث ال ... سُمّ أفاعي حفائظ وحقود!
وتناسوا ما بثه السيد الأع ... ظم من سنة الوئام الأكيد
وخبت نارهم وصُبَّت عليهم ... عاصفات التعذيب والتنكيد
فإذا جبهة الشموخ لطيم ... تتنزى بالجرح عند السجود
وانتهت سيرة الجدود إلينا ... فجررنا القيود أثر القيود
والتفتنا فلم نجد غير ملك ... مزقته أصابع التبديد
ونهدنا للذود عنه ولكن ... ما حملنا غير الإباء الحميد!
ورجعنا فكم جريحا كئيب ... يتلوا وكم قتيل شهيدا!!
يا عروس الرمال يا قبس التا ... ئه في مهمه الضلال المبيد
نحن في هذه البلاد كذاك ال ... ركب غشى في طالع منكود
انظري فالجموع شاخصة الأب ... صار ترنو إلى ضياك الوحيد
فأمددي الكف للكرام فغبن ... أن تعيش الكرام عيش العبيد!
(حلب)
عمر أبو ريشة
-
هكذا قال زرادشت
للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه
ترجمة الأستاذ فليكس فارس
الطفل والزواج
لي سؤال أخصك به لأسبر أعماق روحك يا أخي:
- أنت في مقتبل العمر وتتمنى أن يكون لك زوجة وولد، ولكن قل لي الست الرجل الذي يحق له هذا التمني؟ أأنت الظافر المنتصر على نفسه، الحاكم على حواسه السائد على فضائله؟ أم أن تمنيك هذا ليس إلا شهوة حيوان أو خشية منفرد أو اضطراب من قام النزاع بينه وبين نفسه؟
إن ما أريده منك هو أن تتوق بانتصارك وحريتك إلى التجدد بالولد إذ عليك أن تقيم الأنصاب الحية لانتصارك وحريتك، فترفع هذه الأنصاب إلى ما فوق مستواك. وهل بوسعك أن تفعل إذا لم تكن منين البنية من رأسك إلى أخمص قدميك؟
ليس عليك أن ترسل سلالتك إلى الأمام فحسب، بل عليك بخاصة أن ترفعها إلى ما فوق فليكن عملك في حقل الزواج منصبا إلى هذه الغاية.
عليك أن توجد جسداً جوهره أنقى من جوهر جسدك ليكون حركة أولى وعجلة تدور لنفسها على محورها، فواجبك إذاً إنما هو إبداع من يبدع.
ما الزواج في عرفي إلا اتحاد إرادتين لإيجاد فرد يفوق من كانا علة وجوده. فالزواج حرمة متبادلة ترسو على احترام هذه الإرادة.
ليكن هذا معنى زواجك وحقيقته أما ما يدعوه الدخلاء الأغبياء زواجاً فأمر أحار في تصريفه؛ فما هو إلا مسكنة روحية يتقاسمها اثنان، ودنس يتمرغ به اثنان ولذة بائسة تتحكم في اثنين، ولكن الدخلاء يرون في مثل هذا الزواج رباطاً عقدته السماء وما أنا بالمرتضي بمثل هذه السماء، سماء الدخلاء أطبقت شباكها عليهم، تباً لهاً وسحقا لمثل هذا، الإله الذي يتقدم متراجعا ليبارك اثنين لم يجمع هو بينهما.
لا يضحكنكم هذا الزواج، فكم من طفل من حقه أن يبكي على أبويه
رأيت رجلا وقورا فحسبته بالغا من النضوج ما يدرك به معنى الأرض، ولكنني رأيت امرأته بعد ذلك فلاحت لي الأرض كأنها مأوى المجانين. أود لو تميد الأرض بي عند ما أرى رجلا فاضلا يتخذ له زوجة حمقاء. من الناس من يتجرد كالأبطال سعياً وراء

الحقائق فلا يلبث حتى يصطاد رباطاً مزيفاً يدعوه زواجاً ومنهم من اشتهر بحذره في علاقاته وبصرامته في اختياره، فإذا هو بين ليلة وضحاها قد افسد حياته ووقف يدعو هذا الإفساد زواجا. ومنهم أيضاً من كان يفتش عن خادمة لها فضائل الملائكة، فإذا هو ينقلب فجأة خادما لامرأة وقد حق عليه أن يتصف هو بالفضائل الملائكية.

فتشت في كل مكان فما رأيت إلا مشترين يقلبون السلع وعيونهم تتدفق مكراً، ولكن امكر هؤلاء الناس لا يتوصل في آخر الأمر إلا إلى ابتياع هرة يدسها في جلبابه.

إن ما تدعونه عشقاً إنما هو جنون يتتالى نوبة بعد نوبة حتى يجئ زواجكم خاتماً هذه الحماقات بالحماقة المستقرة الكبرى. ويا ليت حب الرجل للمرأة وحب المرأة للرجل كانا إشفاقاً يتبادله إلهان يتألمان، ولكن هذا الحب لا يتجلى في الغالب إلا تفاهما بين إحساس حيوانين وما خير الحب لو تعلمون إلا تحول واضطرام في ألم وخشوع إن هو إلا المشعل ينير أمامكم مسالك الاعتلاء وسيأتي يوم يتجه فيه حبكم إلى مقر ابعد وارفع من مستقر ذاتكم لقد بدأتم بتعلم الحب لذلك ترتشفون الآن المرارة الطافية كالحب على كأسه.

إن في كاس كل حب إطلاقا وحتى في كاس أرقى حب مرارة لابد لكم من تجرعها؛ وهذه المرارة هي التي تنبه فيكم الشوق إلى الإنسان الكامل وتلهب فيكم الظمأ إليه أيها المبدعون إذا كان هذا الظمأ هو الذي يدفع بك إلى طلب الزواج يا أخي وإذا كنت تشعر بشوقك يندفع كالسهم نحو الإنسان الكامل فإنني اقدس إرادتك واقدس زواجك هكذا تكلم زارا. . .

تخير الموت

كثير من يتأخرون في موتهم، وكثير من يبكرون. فإذا قال قائل للناس بالموت في الزمن المناسب رفعوا عقيرتهم مستغربين. وزارا يعلم الناس أن يموتوا في الزمن المناسب. ولكن إن لمن يعرف الحياة أن يتخير الموت في أوانه؟

أفما كان خيرا للدخلاء على الحياة لو انهم لم يولدوا ولكن هؤلاء الدخلاء يريدون أن يولي

الناس أهمية كبرى لموتهم، وكم من نواة تباهي بأنها كسرت وهي جوفاء. . . انهم يعلقون أهمية على الموت لأنهم ما عرفوا بهجة الموت فالناس لم يعرفوا حتى اليوم كيف يقدسون أبهج الأعياد. ولسوف أنبئكم بالموت الذي يقدس، الموت الذي يدفع الأحياء ويجتذبهم بحوافزه وآماله إن من اكمل عمله يأتي ظافرا وحوله من يحفزهم الأمل وتنطوي فيهم الأماني. تعلموا أن تموتوا هكذا، ولكن اعلموا أن لا ظفر لمن يموت إذا هو لم يبارك ما اقسم الأحياء بإتمامه.

تلك هي الميتة الفضلى، تليها في المراتب ميتة من يسقط في المعركة وهو ينشر عليها عظمة روحه غير إن ما يحتقره المجاهدون والظافرون على السواء إنما هو ميتتكم الشوهاء التي تزحف لصا وتتقدم أمرا مطاعاً

ما اجمل ميتتي إذا أنا تخيرتها فجاءتني لأنني اطلبها

ولكن متى يجدر بالإنسان أن يطلب الموت؟

إن من يتجه إلى مقصد في الحياة وله وريث وجب عليه أن يتمنى الموت في الزمن المناسب لغايته ولوريثه، لأنه يأنف حرمة لهما من أن يلقي بالأكاليل الذابلة على هيكل الحياة

إنني لا أريد أن احبك الخيوط وانسحب إلى الوراء كمن يفتلون الحبال.

من الناس من لا يتجاوز بأعمارهم الحد اللائق بالحقائق والظفر، وخليق بالفم المجرد عن أسنانه ألا يتناول بيانه جميع الحقائق. على الطامحين إلى الظفر أن يودعوا الأمجاد في الزمن المناسب ليتمرنوا على فن الرحيل عن الدنيا في الزمن المناسب أيضا، ومن واجب المرء أن يتوقف عن عرض نفسه للآكلين عندما يكفون عن تذوقها ولا يعرف هذه الحقيقة إلا من يود الاحتفاظ بمحبة من حوله. ولكن من الأثمار كالتفاح من تقضى طبيعته الحامضة عليه أن ينتظر النضوج إلى آخر أيام الخريف، فإذا هو ماثل للنظر باصفرار الشيخوخة وتجاعيد أساريرها.

ومن الناس من يدب الهرم إلى قلوبهم أولاً، ومنهم من يدب الهرم إلى عقولهم، ومنهم من يشيخون في ربيع الحياة غير أن من يبلغ الشباب متأخراً يحتفظ بشبابه أمداً طويلا.

ومن الناس من ضلوا السبيل في حياتهم، فأضاعوا عمرهم؛ فعلى هؤلاء أن يعملوا على
بلوغ التوفيق في موتهم على الأقل. وهنالك أثمار لا تنضج لأنها سهراء في الصيف ولكنها تبقى معلقة بأغصانها لأن جبنها يصدها عن السقوط هكذا نرى في العالم أناساً يلتصقون التصاقا باغصانهم فهل من عاصفة تهب على الشجرة لتسقط ما عليها من أثمار تهرأت ورعى الدود قلبها؟ ليتقدم دعاة الموت العاجل وليهبوا كالعاصفة على دوحة الحياة غير إنني لا أرى غير دعاة للموت البطيء يعظون بالصبر واحتمال كل مصائب الأرض.
إنكم تدعون إلى مكابرة الأرض ومجالدتها، أيها المجدفون والأرض صابرة عليكم صبرها الجميل.
والحق أن ذلك العبراني الذي يمجده المبشرون بالموت البطيء قد مات قبل أوانه، ولم يزل جم غفير يعتقد بان ميتته المبكرة كانت مقدورة عليه
وما كان هذا المسيح العبراني قد عرف إلا دموع قومه وأحزانهم وكيد أهل الصلاح والعدل، لذلك راودته فجأة شهوة الفناء.
ولو انه بقى في الصحراء بعيدا عن أهل الصلاح والعدل لكان تعلم حب الحياة وحب الأرض، ولكان تعلم الضحك أيضاً.
صدقوني، أيها الاخوة، إن المسيح قد مات قبل أوانه، ولو انه بلغ العمر الذي بلغت، لكان جحد تعاليمه، وقد كان له من النبل ما يكفيه لاقتحام العدول عنها. ولكنه لم يبلغ النضوج، ولم تبلغه المحبة في الشباب، فكره الناس وكره الأرض وهكذا بقيت روحه مثقلة ولم ينشر جناحه المهيض إن في الرجل من الطفولة ما ليس في الشباب، فالرجل الناضج اقل حزنا واقدر على فهم الحياة والموت، لأنه يشعر بحريته للموت وبحريته في الموت، وإذا امتنع عليه أن يثبت شيئاً أنكره.
حاذروا أن يكون موتكم تجديفاً على الأرض والإنسان أيها الصحاب تلك هي النعمة التي استجديها من وداعة روحكم
ليرسل فكركم وفضيلتكم آخر أشعتهما في احتضاركم كما ترسل الشمس الغاربة آخر أنوارها على الأرض، وإلا فأن ميتتكم ستكون فاشلة. إنني هكذا أريد أن أموت ليزداد حبكم للأرض من اجلي، أيها الأصحاب. أريد أن أعود إلى الأرض التي خلقت منها لأجد الراحة في أحضانها.
لقد كان زارا يرمي إلى هدف وقد أطلق سهمه الآن فارموا إلى هذا الهدف بعدي، لأنني من أجلكم أطلقت سهمي الذهبي. فما اشتهي شيئاً اشتهائي أن أراكم تطلقون سهامكم الذهبية أيضاً، ولسوف لبقى على الأرض قليلا لأمتع عيني بهذا المشهد، فاغتفروا لي هذا التخلف إلى حين
هكذا تكلم زارا. . .
القصص
من القصص العربي
حديث سمر
للأديب محمد فهمي عبد اللطيف
على بساط من رمل الصحراء الأحمر، وفي ثنية من ثنايا الجبل السامق نحو السماء، وفي جو رخاء يتموج في جوانبه نسيم العشية البليل، أخذ القوم مجلسهم كالعادة يسمرون ويتفكهون! انهم فتية شبوا في ظلال الخفض والرفاهية، لم يثقلهم من الدهر هم. ولم يشغلهم من الحياة شاغل، فكلهم في بيته سليل المجد، وربيب النعمة وأخو الفراغ والجدة وكانوا من العمر في طور الشباب تغمرهم الأماني الواسعة وتستخفهم الأحلام اللذيذة، فالدنيا ما زالت في نظرهم حلوة خضرة، تتراءى لهم كالعروس قد جلتها يد الماشطة الصناع، فكلها إغراء وكلها فتنة، فتمردوا على العشيرة. وخرجوا على المجتمع، وجمعوا شملهم بالصداقة، وأقاموا الإخاء فيهم مقام القرابة، وشردوا عن أهلهم إلى البيداء، حيث مجال الحرية الواسع ومراد النظر السادر، وميدان الركض الفسيح!
وكان من عادة القوم أن يسمروا في بيدائهم، وكانوا يجرون في سمرهم على نظام متبع، وحياة رتيبة، فهم في كل أمسية حول واجد منهم يسري عنهم بالنادرة البارعة،

ويفكههم بالملحة الشاردة، وكثيرا ما ينثني بهم نحو الماضي المنصرم، فيقص عليهم من ذكرياته الحلوة الطيبة، ومصادفاته الغريبة

وها هم أولاء قد أخذوا مجلسهم على عادتهم في نظام واجد وأنصتوا. انتصب ذاكر منهم كان عليه حق الجماعة، ومن واجبه (حديث السمر) في تلك الليلة فقال: لقد انحدرت مع قومي فيما سلف من الزمن إلى بغداد، فاكترينا داراً شارعة على أحد الطرق المعمورة بالناس، وكنا في عيشنا نجري على طبيعة الدهر من الرخاء والبؤس، فمرة يغمرنا اليسر والرغد وطوراً يشملنا العسر والفاقة! لله تلك النفوس الطيبة يا إخوان؛ لقد كنا لا ننكر أن تقع مؤنتنا على واحد منا إذا أمكنه؛ ولقد يبقى الواحد فينا لا يقدر على شيء فيقوم به أصحابه الدهر الأطول، وكنا إذا أيسرنا أكلنا من الطعام ألينه، وانحدرنا إلى اسفل الدار،

ننتهب اللهو، ونهتاج العواطف بالطرب، فإذا ما عدمنا ذلك انصرفنا إلى غرفة نتمتع منها بالنظر إلى الناس، ولكن لا اعرف أن النبيذ خلا من أيدينا على أية حال.

فأنا لفي يوم من الأيام، صادفنا فيه افتقار القوت، وسعدنا منه بوفرة النبيذ وإذا بفتى يطرق علينا الباب طرقا، فلما صعد إلينا بعد الإذن ألفيناه حلو الوجه سري الهيئة، ينبئ رواؤه عن الخير، ويدل مظهره على النعمة، ابتدأنا بالتحية واستمر يقول: لقد سمعت بمجتمعكم، وحسن منادمتكم وصحة ألفتكم. وعلمت كأنما أدرجتم في قالب واحد، فأحببت أن أكون واحداً منكم فلا تحتشموني، وخذوني بأوضاع الاخوة لا بواجب الضيافة، فكنا في انس بلقياه، ونشوة من حديثه، ولكنا كنا أيضاً في هم وفكر من تدبير القوت له والحصول على الزاد الواجب لغذائه.

ولم يمضي كثير حتى أشار الفتى إلى غلامه فوضع بين أيدينا سلة خيزران فيها طعام المطبخ من جدي ودجاج وفراخ ورقاق وأشنان ومحلب وخلة، وأجبنا صاحبنا إلى ما طلب من حق الأخوة فلم نحتشم طعامه فحططنا فيه، ثم أفضنا في الشراب وأفضنا في الحديث، وانبسط الفتى معنا في الكلام فإذا به أحلى خلق الله إذا حدث، وأحسنهم استماعاً إذا حدث، وامسكهم عن ملامة إذا خولف. ثم أفضينا منه - على طول المقام - إلى اكرم محالفة، واجمل مساعدة، وكنا ربما امتحناه بأن ندعوه إلى الشيء يكرهه فيظهر لنا أنه لا يحب غيره. نطالع ذلك في إشراق وجهه. وانبساط أساريره، فصرنا نغنى به عن حسن الغناء، وشغلنا بأخباره وآدابه، وشغفتنا نوادره وآماليحه، ومع ذلك فما وقفنا على اسمه، ولا حققنا نسبه، وإنما عرفناه بأبي الفضل، وكنا ندعوه بذلك

وجلس في يوم يطرفنا بنوادره ويقص علينا شيئاً من تاريخه فقال: ألا أخبركم بم عرفتكم، ولماذا آثرت صحبتكم؟ قلنا: أنا لنحب ذلك ونطمع فيه، قال: لقد أحببت جارية في جواركم، فشغفت نفسي حبا، وتدله قلبي في هواها! فكنت اجلس في الطريق التمس اجتيازها فاراها! ودمت على ذلك حتى اخلقني الجلوس على الطريق، وأنكرت من نظرات السابلة، ورأيت غرفتكم هذه، ووقفت على خبركم في العيش وأخذكم بالائتلاف والمساعدة، فكان الدخول فيما أنتم فيه اسر عندي من تلك الجارية!

فقلنا: هون على نفسك يا ابن العم، وتمن في تحقيق مأربك، وسنجد في اختداع الفتاة حتى

تصير إليك! فقال: حسبكم يا إخوان: إني والله على ما ترون مني من شدة الشغف والكلف بها ما قدرت فيها حراما قط، ولا تقديري إلا مطاولتها ومصابرتها إلى أن يمن الله بثروة فأشتريها، وبغير هذا لا يكون الوصول إليها مني على بال.

وأمضى الرجل في اخوتنا شهرين فكنا في اغتباط بقربه، وانس من صحبته، ثم خالسنا الفراق على غفلة فنالنا بذلك ثكل ممض، ولوعة مؤلمة، وما كنا نعرف له منزلا فنلتمسه، لا بابا فنطرقه. فوالله لقد كدر علينا بعده بقدر ما طاب لنا بقربه، وجعلنا لا نرى سرورا ولا غما إلا ذكرناه لأفضال السرور بصحبته وحضوره، والغم بمفارقته وغيابه، فكنا فيه كما قال الشاعر:

يذكرنيهم كل خير رأيته ... وشر، فما انفك منهم على ذكر

وتصرمت على غيابه عشرون يوماً وكأنها الدهر، وما لنا مطمع في لقياه ثانية، فأن فترات الصفو محدودة، والحياة ضنينة في إرجاع ما كان، فبينا نحن نجتاز الرصافة يوما إذا به يطالعنا في موكب نبيل، وزي جميل، وما ابصر بنا حتى انحط عن راحلته وانحط غلمانه، وإني ما زلت المحه في أعطاف الماضي وهو مقبل نحونا في لهفة يقول:

والله يا إخواني ما هنا لي بعدكم عيش، ولا طاب لي انس، ولا عرفت في نفسي معنى الصفو، ولست أماطلكم بخبري فإني أتبين فيكم اللهفة إلى ذلك فميلوا بنا إلى المنزل وهو قريب، فملنا معه عن رغبة، ولما تم بنا المجلس قال: لقد آن لي أن اكشف لكم عن نفسي! أنا العباس ابن الأحنف وطبعا سقط لكم شيء من أمري، وكان من خبري بعدكم أني تركتكم اطلب منزلي لحاجة، فإذا بالشرطة في طلبي، وفي كثير من السرعة مضوا بي إلى دار الخلافة ودارة الملك، فصرت إلى يحيى بن خالد فقال لي: ويحك يا عباس؛ إنما اخترتك من ظرفاء الشعراء لقرب مأخذك، وحسن تأتيك؛ وان الذي ندبتك في شأنه لجليل. فأنت اعرف بخطرات الخلفاء، وإني أخبرك أن (ماردة) هي الغالبة على أمير المؤمنين اليوم، وقد جرى بينهما عتب، فهي بدل المعشوق تأبى أن تعتذر، وهو بعز الخلافة وشرف الملك يتعالى على ذلك. فقل شعرا يسهل عليه سبيل الوصل، ويقرب له شقة المعاودة. ثم اطرحني إلى غرفة خالية وقدم القرطاس والدواة وقال هيا يا عباس!!

ولا أكتمكم يا إخوان لقد شرد مني الذهن وتبلد الفكر، فتعذرت على كل عروض ونفرت عني كل قافية، والرسل في كل فترة تعتبني والأمير يستحثني فما زلت أحاول وأداول حتى انفتح لي شيء فجئت بأربعة أبيات رضيتها إذ وقعت صحيحة المعنى، سهلة اللفظ، ملائمة لما طلب مني، وأخبرت عنها الوزير فقال في لهجة المستعجل: هاتها ففي اقل منها مقنع. وفي ذهاب الرسول ورجوعه قلت بيتين من غير الروي، ثم كتبت الأبيات الأربعة في صدر الرقعة وعقبت بالبيتين فقلت:

العاشقان كلاهما متغضب ... وكلاهما متوجد متعتب
صدت مغاضبة وصدَّ مغاضباً ... وكلاهما مما يعالج متعب
راجع أحبتك الذين هجرتهم ... إن الميتم قلما يتجنب
إن التجنب إن تطاول منكما ... دب السلوله وعز المطلب

ثم كتبت تحت ذلك:

لا بد للعاشق من وقفة ... تكون بين الهجر والصرم
حتى إذا الهجر تمادى به ... راجع من يهوى على رغم

فدفع يحيى بالرقعة إلى من حملها إلى الرشيد، فلما وقف عليها قال: والله ما رأيت شعرا أشبه بما نحن فيه من هذا، والله لكأني قصدت به قصداً، ثم أخذ يعاود قراءتها وهو يقول: نعم! نعم! راجع من يهوى على رغم أي والله أراجع على رغمي، لقد تمادى الهجر فلا بد أن أراجع، هات يا غلام النعل، ونهض فوصل ما انقطع وكأن الخليفة قد أذهله السرور، فلم يسأل عن الشاعر الذي اطربه، ومضت فترة الرجاء وحسبت أني نسيت فراودت نفسي بالانصراف وغدوت على يحيى أستأذنه في ذلك فقال: مهلا يا عباس! لقد أمسيت أنبل الناس، إن ماردة لما وصلها الخليفة سألت عما حمله على ذلك فعلمت انه الشعر، وقد همها وهم الخليفة أن يعرفا الشاعر الذي قدم لهما هذه اليد فجاء الرسول يسألني في ذلك فقلت له انه (العباس بن الأحنف) فأمر لك الخليفة بجائزة طائلة، وأمرت لك ماردة بأخرى ولك مني يا عباس الثالثة، وان من تمام اليد عندك ألا تخرج إلا في الزي الجليل، والمركب الفاره!!

فهذا يا إخواني ما عاقني عنكم، فهلموا أقاسمكم ما نلت وأشاطركم ما كسبت فأبينا وأبى، وتمنعنا وأصرّ. ثم ذكر لنا الجارية، وقال هيا نمضي إليها حتى نشتريها، فمشينا إلى صاحبها وكانت جارية حلوة ظريفة لا تحسن شيئاً، اكثر ما عندها ظرف اللسان وتأدية الرسائل، وكانت تساوي على وجهها خمسين ومائة دينار. فلما رأى ميل المشتري أسام بها خمسمائة فلما أجبناه بالعجب حط مائة ثم حط مائة، فقال العباس: مهلا يا إخوان، إني والله احتشم أن أقول بعد ما قلتم، ولكنها حاجة في نفسي. فأكره أن تنظر إلى بعين من قد ماكس في ثمنها، دعوني أعطه الخمسمائة كما طلب، قلنا: وانه قد حط مائتين، قال: وان فعل؛ فصادف ذلك من مولاها رجلا حراً فاخذ ثلاثمائة وجهزها بالمائتين، وحملها إليه! ألا رحم الله العباس وطيب ثراه، فإنه مازال إلينا محسناً يرعى حق الأخوة فينا حتى فرق بيننا الموت!

محمد فهمي عبد اللطيف

البريد الأدبي

العالم الإسلامي اليوم

اطلعنا في بعض الصحف النمسوية الأخيرة على خلاصة آراء ومحاضرات يذيعها الدكتور يوليوس جرمانوس المستشرق المجري في الإسلام والعالم الإسلامي الحاضر؛ وقد جاء الدكتور جرمانوس إلى مصر منذ عامين وقضى نحو أربعة اشهر في تعلم اللغة العربية وحج إلى مكة (لأنه يعتنق الإسلام)، ثم عاد إلى وطنه يلقي المحاضرات ويكتب المقالات العديدة عن العالم الإسلامي، ويعلن في كل فرصة أن أحداً لم يوفق مثل توفيقه إلى دراسة اللغة العربية وشئون العالم الإسلامي قاطبة. بيد أن الدكتور يبدي في معظم الأحيان آراء لا تخرج في جملتها عما نسمعه عن كثيرين غيره زاروا البلاد الإسلامية زيارات طائرة، ثم زعموا انهم يعرفون من أمرها ومن حاضرها ومستقبلها كل شيء فهو مثلا يقول عن اللغة العربية أنها تعتبر بالنسبة إلى اللغات (أو اللهجات) التي تتكلم بها الشعوب العربية مثل اللاتينية بالنسبة إلى اللغات الرومانية التي نشأت عنها، وهذا تشبيه هو ابعد الأشياء عن الحقيقة لأن اللغة العربية لم يصبها في أي عصر من عصور الركود ذلك الموت الذي أصاب اللاتينية ولأنها تكاد تكون بشكلها المصقول لغة الحديث العادي في الطبقات المستنيرة بالبلاد العربية ثم يقول عن الإسلام انه أي الإسلام لا يجوز اليوم نهضة ما، وإنما الشعوب الإسلامية هي التي تجوز مثل هذه النهضة، وان الشباب في جميع العالم الإسلامي يتأثر اشد التأثير بمبادئ مصطفى كمال وإصلاحاته، وأن مصر وسوريا والعراق وغيرها من الأمم الإسلامية ستسير في أثر مصطفى كمال وتنهج منهجه؛ والدكتور جرمانوس يخطئ في هذا الرأي اشد الخطأ فقد أدركت الشعوب الإسلامية منذ بعيد ما تنطوي عليه الحركة الكمالية من الزيف والزيغ والخصومة المضطرمة للإسلام والعالم الإسلامي؛ ولم تبق الحركة الكمالية عنواناً لغير تركيا التي أخرجت من عداد العالم الإسلامي؛ ونستطيع أن نؤكد للدكتور جرمانوس أن مصر لم تتأثر في يوم ما ولن تتأثر بمثل هذه الحركات الإلحادية المفرقة. أما أن العالم الإسلامي لا يجوز اليوم نهضة ما، فكل الدلائل المعنوية والمادية تنم بالعكس عن نهضة إسلامية بعيدة المدى، وهذه حقيقة يقررها كثيرون ممن هم ابعد نظراً واكثر خبرة بشؤون العالم الإسلامي من الدكتور جرمانوس.

وفاة عميد الشعر الإنكليزي

أشارت الرسالة في العدد الماضي إلى وفاة الشاعر الإنكليزي جون درمكوانز، وكانت وفاته فجأة وهو في عنفوان قوته وشاعريته، ولما يبلغ بعد الخامسة والخمسين من عمره، وقد فجع الشعر الإنكليزي حقا بوفاة درنكوانز، ذلك انه يعتبر منذ وفاة توماس هاردي ورديارد كبلنج عميد الشعر الإنكليزي، وكان مولده سنة 1882 وتلقى تربيته في أكسفورد وبرمنجهام، وبدأ حياته كاتبا في إحدى شركات التأمين، وشغف بالمسرح والشعر منذ فتوته وعاون في إنشاء مسرح برمنجهام التوقيعي الذي كان يشرف عليه الفنان الشهير السير باري جاكسون. وظهرت له أول مجموعة شعرية في سنة 1911 بعنوان (الرجال والأوقات) وظهرت في نفس العام أول قطعة مسرحية له موضوعة بالنظم، ومنذ سنة 1914 يوالي درننكوانز إصدار مسرحياته، وقد أحرزت جميعا نجاحا عظيما، منها (الثورة) وهي شعرية، و (السيوف والمحاريث) بيد أن اعظم قطعه مسرحية بلا مراء هي قطعته الشهيرة (ابراهام لنكولن) وقد مثلت لأول مرة سنة 1919، ورفعت شهرته إلى السماكين، وفي سنة 1921 ظهرت قطعته (أوليفر كرومويل)، بيد أنها لم تكن في نجاحها وروعتها كسابقتها (أبراهام لونكن). وفي سنة 1926 نشر درنكوانز رواية توماس هاردي الشهيرة (عميد كستر بروج) في صورة مسرحية. وكتب درنكوانز أيضاً عدة فصول نقدية بديعة؛ ومن أبدعها وأقواها دراسته لحياة صديقه الشاعر روبرت بروك. الذي توفى في اليونان أثناء الحرب الكبرى.

ومنذ عدة أعوام تزوج الشاعر من الموسيقية الشهيرة، ديزي كندي، وهي سيدة بارعة في ثقافتها وفي فنها، درست الموسيقى في فينا وبرعت في العزف على القيثارة براعة مدهشة، وأحرزت شهرة عظيمة في جميع عواصم القارة.

ويذكر القراء أن الشاعر الكبير وزوجته الفنانة البارعة قدما إلى مصر في شتاء 1933، وسحرت ديزي كندي بفنها الرائع المجتمع المصري الرفيع الذي هرع إلى سماع عزفها

في الحفلات التي أقيمت يومئذ.
صاحب الجلالة الملك فاروق يتحدث عن البلاد الإسلامية
قابل مندوب جريدة (ليزانال) جلالة الملك فاروق فأدلى إليه بالحديث التالي:
بدا الملك المحبوب حديثة قائلا:
لقد أصبحنا حلفاء إنكلترا وسنعرف كيف نحافظ على هذا التحالف. إن شعبي يعترف بالجميل، وهو ينسي الماضي، ويعترف بالحاضر، ويفكر في المستقبل! إن مصر كانت ولا تزال (عاصمة الإسلام) في العالم الإسلامي ومركز الحركة الوطنية فيه، وقد كان للعلائق الإنكليزية المصرية الجديدة اكبر أثر في جميع العالم الإسلامي.
- وهل لمصر علاقة سياسية مباشرة مع البلاد الإسلامية؟
- إن علائق المسلمين - ونستطيع أن نقول الشرقيين - هي علائق أخوة وتضامن واتحاد، وإذا كان المصري يهتم بقضيته الخاصة فإنه لا ينسى قط قضايا البلاد العربية الأخرى. وانك لتجد أثر كل حادث يقع في ناحية من أنحاء الشرق بشغل النفوس بسرعة في القاهرة.
- إذن يعتقد جلالتكم بوجود (الوحدة الإسلامية)
- إن هذه الوحدة كما يفهمها الأوربيون ليست موجودة؛ ولكن الشعور بالاتحاد والتضامن يعمر نفوس جميع المسلمين
إن اليقظة التي عمت البلاد الإسلامية - وخاصة البلاد العربية - بعد الحرب العامة، بدأت تظهر بوضوح وصراحة. وسيكون للمسلمين شأن كبير في المستقبل القريب.
- وهل يضمر المسلمون روح (العداء للأجنبي)
المسلمون كثيرو التسامح، وهم لا يضمرون عداء لأحد، ولكنهم يطالبون بحريتهم واستقلالهم، ويبدون استعدادهم لتوطيد علاقتهم الودية مع الأجانب
النقوش الأثرية في الواحات المصرية
كثر تردد العلماء الأثريين في العهد الأخير على الواحات المصرية، فظهر أنها ميدان حسن للبحث والتنقيب، وعثر العلماء فيها على كثير من النقوش القديمة التي ربما كانت ترجع إلى العصر الحجري، وعلى كثير من النقوش الفرعونية قد صورت على الصخور، وعلى جدران بعض الأبنية القديمة التي كشفت عنها الرمال؛ وفيها صور لبعض مناظر الحياة
الاجتماعية القديمة والحيوانات الضارية منقوشة إلى جانب بعض الآلهة المصرية القديمة؛ وعثر المنقبون أخيراً على صور من طراز آخر منها صور تجار من اليونان والرومان، وصور قوافل عربية أو بربرية قديمة، ويقول العلامة الأثري الألماني الدكتور فنكلر انه يستدل من النقوش المكتشفة أن الصحراء الواقعة على جانبي النيل كانت مسكونة منذ نحو ألفي عام من البدو؛ وان هذه القبائل كانت تجري على مثل الفراعنة في عبادة بعض الحيوانات المقدسة، وتوجد صور رجال قد تدلت شعورهم على أكتافهم ورجال قد زينوا رؤوسهم بالريش؛ ويستدل من صور السفن المنقوشة على إن هذه القبائل لم تكن مصرية الأصل، وإنها إنما نزحت من شواطئ البحر الأحمر الشرقية إلى الصحراء؛ ولهذه النقوش أهمية خاصة في الكشف عن أصول الشعوب التي سكنت هذه الوهاد في العصر الغابر.
الكتب
في سنن الله الكونية
تأليف الأستاذ محمد أحمد الغمراوي
عرض وتعليق - رجاء إلى لجنة ترجمة معاني القرآن الكريم
- واجب علمائنا الطبيعيين
للأستاذ عبد المنعم خلاف
تفضل حضرة الأستاذ الجليل العالم المؤمن محمد أحمد الغمراوي المدرس بكلية الطب بالجامعة المصرية والمنتدب للتدريس بكلية أصول الدين من الجامعة الأزهرية فأهدى إلي نسخة من كتابه الحديث (في سنن الله الكونية) فقلت عيني فيه بشوق الذي يعرف علم الأستاذ بالطبيعة وفقهه في الدين، لأني واحد من تلاميذ محاضراته ومحادثاته في العلم والدين في نادي المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين بالقاهره، تلك المحاضرات التي كان لها كبير الأثر في إني صرت (آخذ الإسلام بروح

العلم وآخذ العلم بروح الإسلام) كما يجب أن يكون وكما حققه هو في كتابه القيم، اتباعا لمنهاج القرآن وتلبية لدعوته العقول إلى الطبيعة.
والكتاب في العلوم الطبيعية، وقد درسه الأستاذ لطلاب قسم الوعظ والإرشاد بالأزهر، وقد وازنته بما درسته في دور التعليم وما قرأته في المجلات العلمية من جهة ما فيه من مادة العلم الطبيعي فقط، وأؤكد للقارئ الكريم إنني خرجت منه بأشياء جديدة كثيرة ما عثرت عليها في غيره على كثرة ما قرأت من هذه البحوث التي احبها لأنها تصلني بالحياة وقوانينها وسيرها بالأحياء، في عبارة سهلة مشرقة محبوكة، لأن المؤلف فوق انه عالم طبيعي كبير، هو أديب ضليع ومنطقي يقظ لكل ما يدور حول ما يكتبه. يشهد له بذلك كتاب (النقد التحليلي لكتاب (في الشعر الجاهلي) للدكتور طه حسين بك) الذي بين به أن له قلما سابقا في الأدب كسبقه في العلم. (وفي سنن الله الكونية) يقع في 222 صفحة عدا الفهارس وهو مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب: الأول في العلم والدين، والثاني في المادة
واصلها وخواصها وأحوالها وأنواعها وتغيراتها. . . . الخ، والثالث في الطاقة وأبحاثها وآثارها. . . . الخ.
وأنت واجد في المقدمة إهابة بالمسلمين ومعاهد الدراسة الإسلامية ألا يغفلوا مباحث الفطرة وعلوم سنن الحياة لأن العلم بها جزء من العلم بدينهم وأصل من أصول قرآنهم الذي يتحدث بخمس آياته عن الطبيعة والنظر في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء وكيف بدأ الخلق. . . وان يعلموا أن رجل الدين لا يسيغ العلم إلا إذا قدم له بروح الدين، ورجل العلم لا يسيغ الدين إلا إذا قدم له بروح العلم، وهي حقيقة نفسية يجب أن يلتفت إليها. وفي التمهيد بحث قيم عن موضوع العلوم الطبيعية واثر دراستها في الوصول إلى فاطر الخلق والتوحيد بها بين العقل والقلب والعلم والعبادة.
أما الباب الأول فهو بحث جديد قيم عن العلم والدين، جدير بان يترجم إلى المجامع العلمية، وان يدرس في المعاهد الإسلامية، لان الأستاذ استطاع أن يبين بوضوح قرآنية اسم (العلم) بمعناه المحدود العصري، وقرآنية (موضوعه) وقرآنية (طريقته) ففتح بذلك فتحا جديدا (لعلم الكلام) الذي يجب أن يكون في هذا العصر بعيدا عن منهج النظار والمتكلمين القدماء الذين كانوا يعتمدون على (تجريدات) الفلسفة اليونانية.
إن قوانين العلم التي استخرجها الأستاذ من القرآن الكريم شيء ثمين جداً سيكون له أثر عظيم في تطور الفلسفة الدينية، وفي لفت الأنظار إلى القرآن الذي أتى بذلك قبل أن يأتي به فلاسفة العلم المحدثون بأحقاب وازمان؛ فالبرهان للإثبات، والحذر من تطرق الظني إلى اليقيني، والغرضي إلى الظني، ومنع الخلط بين الأشخاص في المبادئ ومنع التقاليد وتحكيم العقل العام ثم قانون توافق واطراد الفطرة ثم اعتبار أصل المشاهدة واستعمال الحواس، كل أولئك استطاع أن يتبسط فيه الأستاذ المؤلف بالشرح والبيان وان يستخرج مستنداته من القرآن الكريم، وان يحبكه حبكة علمية بإخراج فني أخاذ.
وأضف إلى ذلك انه عقد مقارنة بين العلم القديم والعلم الحديث فيها كثيرا من أغلاط العلم القديم التي جره إليها طريقته وافتراضاته. وقد وقع بعض المسلمين في خطأ كبير وأثم عظيم باعتمادهم على ذلك الأسلوب الفرضي حتى لقد بلغ بهم الأمر أن كانوا يردون القرآن إليه مع إن منهاج القرآن في طرق الإثبات والاستدلال واضح بينهم ينكر عليهم
الشرود والوهم، ثم عقد الأستاذ فصلا بين فيه أدوار النظر العلمي من جمع الحقائق بالتجربة والمشاهدة، ثم استخراج القانون، وبين طرق اكتشاف قوانين الفطرة بالاستقراء والتلمس، ثم ضرب مثلين يوضحان طريقة التلمس، وختم هذا الباب القيم بهذا الكلام البديع: (إن هذه الحقائق الطبيعية التي يكشف عنها العلم ببحوثه إن هي إلا نوع من كلام الله أو هي كلمات الله الواقعة النافذة كما أن آيات القرآن هي كلمات الله الصادقة المنزلة. وقد سمى القرآن حقائق أسرار الخلق كلمات الله في مثل قوله تعالى: (ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله) - (لقمان) (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا) (الكهف). وكلمات الله في هاتين الآيتين

الكريمتين لا يمكن أن تكون كلماته المنزلة على رسله لأن كلماته سبحانه في كتبه المنزلة محصورة محدودة في حين أن كلماته المشار إليها في هاتين الآيتين لا حصر لها ولا نهاية. فلا بد أن تكون هي كلماته النافدة في خلقه والتي يبدو أثرها متجسماً فيما نشاهد من الحوادث وفيما يكشف العلم من أسرار الكون فالإسلام متسع للعلم كله حقائقه وفروضه؛ والمجتهد مثاب أخطأ أم أصاب ما دام يريد وجه الحق، وان كان العلم لا يعرف إلى الآن إن سبيل الحق من سبيل الله)

أما بابا (المادة والطاقة) ففيهما يعرض الأستاذ المباحث الطبيعية عرض المطلع عليها في مراجع العلم القديم والحديث، وفيهما مواقف ناجحة في تطبيق بعض الآيات الكونية في القرآن على حقائق العلم مما يضيف ثروة جديدة لنواحي إعجاز القرآن تمتلئ بها عقول الدعاة والوعاظ؛ ففي مباحث الجاذبية والأثير والظواهر الجوية والتمثيل الخضري والضوء والظل والفيء حقائق أشار إليها القرآن يجدر بكل مسلم أن يعرفها ويجدر بلجنة ترجمة معاني القرآن أن تنتفع بها، فلا تقف عند ما كان يفهمه منها العرب الذين انزل عليهم كما أشارت إلى ذلك فيما وضعته من القواعد الأولية التي تسير عليها في الترجمة، فان القرآن ليس كتاب جيل واحد؛ ولنا أن نفهم منه غير ما كانوا يفهمون وبخاصة الآيات الكونية التي لم يكن علمهم ولا علم البشرية ليساعداهم على فهمها كما نفهمها نحن الآن. ولذلك كان القرآن يقول لهم (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) (فلا اقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم) (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق) وان

في وقوف الأستاذ المؤلف وهو عالم بقوانين الضوء والظل وفي القرن العشرين من قوله تعالى (ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا) ومن قوله (ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً) وقفة العالم أمام حقيقة لا تزال مخبأة. . لشاهداً قائماً على إن في القرآن آيات لم تكن نازلة للجيل الذي شهد نزولها، فلا يصح أن نتحاكم نحن إلى فهمهم فيها مادام الزمن (اكبر مفسر للقرآن كما قال الشيخ حسن الطويل أستاذ الأمام محمد عبده) قد أرانا بسير العلم وجها آخر يحتمله اللفظ ولا يأباه الأسلوب العربي

ولا يضر القرآن شيئا أن تتغير الأوجه العلمية التي يفسر بها كل جيل آياته، ما دامت نصوصه هو ثابتة. وما دام كل جيل جد فيه ما يرضيه فان ذلك من أسرار إعجازه ومن عجائبه، فإذا فهمنا نحن مثلا معنى اللقاح من قوله تعالى (وأرسلنا الرياح لواقح) على انه تلاقح كهربائي بين الموجب والسالب في السحاب كما فسر الأستاذ الغمراوي. وفهمنا سر الاستدلال على البعث من قوله تعالى (الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا) كما بينه الأستاذ فاعتقد انه لا يضر القرآن أن فهم من قبلنا في هذين الموضعين وغيرهما وان يفهم من بعدنا غير ما نفهم نحن الآن. على إن الوجه العلني متى صار حقيقة دخلت في صف الميراث العلمي الثابت، فمحتوم على المفسرين أن يأخذوا به، كما يتحتم عليهم أن يؤولوا النص القطعي إذا لم يتفق ظاهره مع ما يلزمه العقل كتقرير القاعدة الأصولية.

وبعد فقد قرأت في مجلة الهلال عدد مارس سنة 1937 قبل أن أقرأ كتاب الأستاذ الغمراوي ثلاث مقالات عن الذات الإلهية لثلاثة من كبار علمائنا الطبيعيين هم: الدكتور علي توفيق شوشة بك مدير معامل وزارة الصحة، والدكتور احمد زكي بك مراقب مصلحة الكيمياء. والدكتور محمد ولي الأستاذ بكلية العلوم، فإذا بالدكتور شوشة بك يقول: إذا كان هناك أناس أحق بمعرفة الله ودرك عظمته والإقرار بوحدانيته فهم العلماء، ذلك لأنهم اكثر خلق الله اتصالا بالطبيعة وأقربهم إلى لمس غوامضها ثم يقول: إنني كلما جلست إلى المكرسكوب أو انصرفت إلى التجارب في معملي لم ازدد إلا خشوعا أمام تلك القدرة الإلهية

وإذا بالدكتور زكي بك يقول في آخر مقاله الطويل الممتع كأنه قصيدة، المطرب كأنه ترتيلة، المثبت لوحدانية الله بأسلوب عجيب. وبعد فتسألونني: ما صورة الله؟ تلك هي صورته: تلك المشيئة الهائلة العاملة التي لا تنام ولا تغفل، تلك الإرادة الواحدة التي تنتظم العالم جميعا ما عرفنا منه وما لم نعرف، تلك البصيرة النافذة في كل شيء، الشاملة لكل شيء التي هي ملء الأرض السموات التي أنا وأنت من بعضها، تلك الوحدانية الشائعة الجبارة الغامضة، هي الصورة التي شاء الله أن نراها منه)

وإذا بالدكتور ولي يقول (هنالك يشعر الباحث الذي لم يتحيز إلى أي مذهب فلسفي والذي جرد نفسه من المؤثرات التي انكبت عليه أن هنالك سلطة وان هنالك قدرة فوق كل هذه المحاولات، وتنزهت عن كل هذه الصفات التي تعودها في أثناء بحثه واستقرائه) إلى أن يقول: (فالله هو هذه القدرة الباهرة التي تجردت عن الماديات وتنزهت عن كل ما هو مألوف للحواس)

قرأت هذا ثم قرأت كتاب الأستاذ الغمراوي الذي هو حجة من حجج إيمان العلماء، فإذا بي في عجب وأسف من أمر هؤلاء الذين أم يعرفوا من العلم إلا قشوره وزيوفه وهم مع ذلك قد نصبوا أنفسهم دعاة للإلحاد وإنكار الله استنادا إلى العلم! هؤلاء أكثرهم من الأدباء طالبي الشهرة الذين يغرهم ما (يصنعونه) من الألفاظ ويخيل إليهم غرورهم وفتنتهم بما يقولون انهم متى صنعوا جملة من الألفاظ فان مواكب الزمان ستقف عن المسير، وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً، لأن أقلامهم هذه معاول فيما يخيل إليهم، إذا ما أعملوها في أهول الحقائق وأعظمها وأملئها للكون إلا وهي (فكرة الله) فان ذلك سيجعل البشرية تستجيب إليهم تاركة ما في صيغتها وما تنادي به الأكوان والأزمان من الإيمان!

اجل إن أقلامهم معاول ولكنها لا تهدم إلا ضمير الجاهل أو طالب اللذة الذي يريد أن يتحلل من قيود هذه الفكرة، ومن رقابتها.

فهل آن الأوان لأن يجرد علماء الطبيعة - لا علماء الدين - حملة تدعو إلى الإيمان بالله عن طريق العلم، حتى يدحضوا بها حجج أدعياء العلم والفلسفة ممن هم في الواقع أعداء الجماعة وأنصار فوضى الضمائر والأوضاع كالشيوعيين الذين يحاربون الإيمان بالله لأنه في زعمهم منشأ الأوتوقراطية فيجب أن ينزلوه - تعالى عما يصفون - عن عرشه، كما انزلوا القياصرة والمملكين!

إني اعتقد أن ذلك من أوجب الواجبات على علماء الطبيعة الذين يعرفون الله اكثر من غيرهم والذين ما غرر بالناس إلا من طريق الانتساب إليهم. ولن يغني البشرية شيئاً انتفاعها المادي من علوم الطبيعة مادامت لا ترى اليد الجبارة التي تدير قوانينها، ولا تسجد لها طوعا كما تسجد كرها. وها نحن أولاء نرى الإنسانية تستحيل إلى قطعان من الحيوان لها من العلم الطبيعي سلاح لا تلطف وقعه تلك الفكرة الرحيمة التي تستمدها الضمائر من (رحمان) ولا يصده خوف من (جبار) ولا يمنعه خشية (من قيوم) على السموات والأرض، (ديان) للخلائق!

وإذا كان علماء الطبيعة من غير المسلمين لا يعترفون بإله معابدهم لأن له صورة غير صورة الإله الذي يجدون يده في الطبيعة فهم لذلك بعيدون عن محيط الدعوى إلى الإيمان والدين. . . فان من حسن الحظ في الإسلام أن إله الطبيعة الذي وصل إلى الإيمان به علماؤنا عن طريق الطبيعة. . . هو ذاته (الله) كما يصفه القران الكريم الذي ما مجد الطبيعة وظواهرها وما دعا إلى تعرف أسرارها كتاب مثل ما دعا. . . بل لقد بلغ من اعتزازه بها انه لم يترك ظاهرة من ظواهرها إلا اقسم بها. . . فأقسم بالزمان والمكان والحيوان والنفس والفجر، والضحى والليل والنهار والشمس والقمر والرياح والنجم والشفق. . . إلى آخر ما في الدنيا من ظواهر الخلق والأمر. . . أفلا يجب بعد هذا أن يبين علماء الطبيعة المسلمون أسرار هذه الأقسام؟ بلى إن ذلك من أمانة العلم قبل أمانة الدين

(بغداد)

عبد المنعم خلاف

العدد 198 - بتاريخ: 19 - 04 - 1937

حول مؤتمر الامتيازات

منطق الواقع

مصر الآن أمام اثنتي عشرة دولة في (مونترو): تزيف الادعاء بالقانون. وتكفكف الغلواء بالحزم، وتكشف المغالطة بالحجة. وتقول للذين ظلموها وظلموا العدل: هأنذي أمامكم وجها لوجه، وعقلا لعقل، ولسانا للسان؛ أخاطبكم بلغاتكم كأنني منكم، وأجادلكم بعلومكم كأنني فيكم؛ فهل تجدونني أقل منكم فقها لفلسفة التشريع، وعلما بمدنية العدل، وفهما لسياسة الحكم؟ هاهم أولاء بعض أبنائي أوفدتهم إليكم يحملون كلمتي ويمثلون إرادتي؛ فهل رأيتم أروع خطابا من النحّاس، وأبرع برهانا من مكرم،

وأقطع بيانا من ماهر؟ أليسوا هم حجتي العليا على أنكم تدافعون عن نظام لا يجد مساغاً من طبيعة الناس. ولا مساكاً من منطق الأشياء؟
لماذا تخشون أن يكون أمثال هؤلاء قضاة في ديارهم بين مجرميكم، وهم يجرون مع أخياركم في عنان، ولا يتخلفون عن أقطابكم في ميدان؟
لماذا تأبون أن يتساوى الوطني والأجنبي في الحق والواجب وأنتم ترون هذا النهر المبارك يضفي عليكم النعمة، ويميزكم على أبنائه في القسمة؟
ذلك ما تقوله مصر لخصومها (الممتازين) الذين احتشدوا في مونترو يفاوضونها في تنظيم العدوان، ويعارضونها في محو الإهانة. وهذا القول لا عيب فيه إلا اعتماده على الحق الذي زهق في دول أوربا. واستناده إلى المنطق الذي اختنق في كتب الفلاسفة. فلو أنه قيل على أسلوب الزمن الحاضر، وجرى على منهاج المنطق الحديث، لما قابله المكابرون إلا بالتصفيق. والمنطق الحديث منطق الفعل لا منطق القول. وإذا كان مدار المنطق الكلامي على القياس، فإن مدار المنطق العملي على الواقع؛ والواقع في قانون الطبيعة له سلطان الأمر الموجود وقوة الشيء المحكوم به؛ والمفاوضة فيه تختلف عن المفاوضة في النية المكتوبة والفكرة المقترحة.
كان بيننا وبين جيراننا في المزرعة حد جرى عليه الخلاف فلم يتم، فاختلط الحق بالحق
ودخل من ملكنا في ملك الجار مقدار كبير. وفي الأسبوع الماضي ندبت الحكومة مهندسا يبين الحق المشتبه، ويعين الحد المجهول، فمسح الأرض ورد المأخوذ، ودق الحديدة وحرر المحضر، وأمضاه الجيران وفيهم العمدة. وكان الحد بين مزرعتين، ولكن الخلاف بين قريتين، فاتفقنا نحن وهم على أن نقيم الحد في اليوم التالي ونجعله مصفًى ومروًى بينهما طريق. ولكننا علمنا في الليل أنهم طمعوا فيها تحت أيديهم فلا يودون أن ينزلوا عنه. وتعليل هذا التحول يسير على من عرف غرائز الناس وخبر طبائع الريف. وفي الصباح الباكر كانت القرية فريقين: فريق الفأس والعمل وقد ذهب إلى المزرعة، وفريق المنطق والكلام وقد ذهب إلى القرية العنيدة. وانعقد مجلس القريتين في دار العمدة؛ ثم انطلقت الألسنة البليغة تتجاوب بالعواطف الشاعرة تجاوب البلابل في أعشاش الربيع. وكانت قوافي الأغاريد ترن موسيقاها بألفاظ الصداقة والود والمصاهرة والمجاورة والقانون والحق، فتطرب الآذان، وتهتز القلوب، وتشرق الأوجه.
فلما انتهينا إلى أن هناك حدا يجب أن يقام، وحقا يجب أن يُعطى، تكشر الوجه الضاحك وتنكر الصوت الرخيم، وانتفخت لغاديد الشر، فتهور بالكلام وتهدد بالمعارضة؛ وكان فيهم رجل رشيد، فكان يملأ الدلو من حين إلى حين ويفرغه على القوم فتقر الفورة ويهدأ الحديث. وفي فترة من تلك الفترات الساكنة، اقترح أن نجعل لجيراننا الطامعين أجلا متى حل وجب عليهم أن يردوا الحق من غير اعتراض ولا مطل. وارتاح القوم لهذا الحل لأنه يترك لهم العين ويأخذ منهم الأثر، ورضينا به نحن لأنه يحسم النزاع بين القريتين، ويذهب عن النفس المسالمة شعور الهزيمة.
وكان الخلاف أشد ما كان على مدة الأجل فبدأت بشهر وانتهت بخمسة. وكان الذين وضعوا أيديهم على الحق بالباطل أبسط لسانا في الرفض، وأصلب عوداً في القبول؛ أما نحن والقانون والحكومة فكان (ارتكازنا) على خلاء
كتبنا الاتفاق وأمضوه بعد وقفات طويلة على كل نص من نصوصه؛ ثم أخذنا نستعد لنشيد الختام في تمجيد الوئام والسلام، لولا رسول أقبل من الغيط يعلن إن رجال الفأس والكريك لم ينتظروا نتيجة المؤتمر. فحفروا المصفى، وشقوا المروى، وأقاموا الطريق، وحرثوا الأرض، وأنجزوا في ساعتين، ما لا ينجز في يومين.
كان هذا الحبر أضخم الدلاء التي صبت على المؤتمر، فشدهنا نحن، وخجلوا هم. وتذكر الجيران الأعزة حينئذ عواطف المصاهرة والمجاورة فقالوا: هذا هو الحق! ذلك ملككم وما ينبغي لأحد أن ينازعكم فيه!!
كان في قدرة مصر أن تتخذ سياسة الأمر الواقع، فتلغي بإرادتها المطلقة هذه المعرة التي ورثتها عن الترك كما يورث الزهري الإفرنجي عن الأب المريض. ولو أنها آثرت هذه الخطة لوجدت حجتها في القانون لا في القوة، ولكن مصر الكريمة المضيافة لا

تزال تجري على أعراق آبائها الميامين فلا ترفع اليد ما دام يغنيها اللسان
على أن قوة الحق المصري، وقدرة المفاوض المصري، جعلتا القانون الأعزل أرفع صوتا من المدافع، وأبعد نفوذاً من القنابل. وأعجب العجب أن الأمم اللاتينية التي سايرت نهضتنا وعاشرت أمتنا قرناً وثلث قرن، كانت هي وحدها التي تجهل أن مصر دولة من دول البحر الأبيض لا أمة من أمم أفريقيا، وأن لها دينا سماويا يهدي إلى الحق، وتشريعاً مدنياً يرمي إلى الخير، وخلقاً شرقياً يدعو إلى المحبة، وأن رعاياها كانوا قبل الامتيازات وبعدها يتقلبون في خيرات النيل، ولا وزر لهم إلا أخلاق هذا الشعب النبيل

أحمد حسن الزيات

علي بك فوزي

للأستاذ أحمد أمين

لم يتجل لي وفاء المصري وإخلاصه كما رأيته أول أمس في جنازة أستاذي وصديقي علي بك فوزي. فقد استقبل النعش في محطة مصر عدد كبير من أصدقائه وساروا في مشهده يعزي بعضهم بعضا إذ أبى الفقيد أن يكون له ولد ولا مال ولا جاه: فكان أول مشهد عظيم رأيته لله وحده وكان أنبل ما رأيت منظر أحمد باشا شفيق وقد تقدمت به السن وصعب عليه السير يتحامل على صديق، ويسير من المحطة إلى جامع الكخيا، ثم أسلم عليه وأسأله هل تعرف الفقيد فيقول: لا لم أره في حياته: ولكني سمعت بنبل أخلاقه فرأيت وفاء للفضيلة أن أسير في جنازته.

رحمة الله عليه، فقد كان أمة وحده، ولم أر له نظيراً في كل من عاشرت. ولئن كان أكثر الناس نسخاً متشابهة من كتاب تافه مطبوع، فقد كان نسخة خطية من كتاب قيم نادر. متمدن على آخر طراز من طراز المدنية في ملبسه وأناقته وآدابه ولباقته، متصوف إلى آخر حدود التصوف في زهادته واحتقاره للمال والجاه والمناصب. وفوق ذلك كله في روحانيته السامية.

لم يفخر في حياته بنسب؛ على أنه كان جديراً أن يفخر به لو وجد الفخار مدخلا إلى نفسه، فقد كان جد أبيه المملوك الشارد الذي قفز بفرسه من القلعة؛ وناهيك بعظمة المماليك أيام سطوتهم.

ولم يفخر بعلمه وهو الواسع العلم العميق التفكير؛ يجيد العربية إجادة قل أن يكون له فيها نظير؛ ويتكلم الإنجليزية كأحد أبنائها؛ ويحذق الفرنسية والألمانية والتركية. ثم لا ينظر إلى اللغات على أنها مقاصد بل على أنها وسائل للثقافة، فأتخذ هذه اللغات كلها أداة يتعرف بها الثقافات المختلفة ويقف على أحسن ما ألف فيها؛ هذا إلى ضحة في النقد وقوة في الملاحظة وشخصية بارزة لا تخضع لأي مؤلف مهما عظم. ومع هذا كله تجلس إليه إن لم تكن تعرفه فكأنه أمي غبي جاهل بكل شيء، فهو ذهب خالص غطى بقشرة من طين لا تعرفه حتى تحكه وتحكه وتصل إلى باطن نفسه؛ ولا يكون ذلك إلا لتلاميذه وخلصائه، وحتى مع هؤلاء يقدم إليك نتيجة معارفه الواسعة وتفكيره العميق وهو مختف وراء ذلك

يحاول ألا يشعرك بنفسه، وإنما يشعرك بالفكرة نفسها، فكأن كلمة (أنا) لم تكن في معجمه.

عرفته أول مرة أستاذاً لي بمدرسة القضاء يدرس لنا التاريخ الإسلامي؛ وتطاير إلينا قبل قدومه أخبار منثورة عن تاريخ حياته. إنه تخرج في مدرسة المعلمين، ثم سافر في بعثة إلى إنجلترا، ثم عاد منها بعد أن نال إجازة من جامعتها. وهي أوصاف لم نتحمس لها كثيراً. فكنا قد شاهدنا بعض من سافروا إلى أوربا ورجعوا بشهاداتهم الضخمة وألقابهم العديدة وكانوا كالبندقة الفارغة: منظر ولا مخبر، ورواء في العين، ولا شيء في اليدين؛ فقلنا لعله أحد أولئك الذين لم يكسبوا من أوربا إلا اعوجاجاً في اللسان ورطانة في الألفاظ وإنكاراً لعظمة أي شيء مصري، وعصبية لكل تافه أجنبي. وحبسنا أنفاسنا عند قدومه نستطلع طلعته

دخل علينا رجل قصير القامة. يحاول أن يخفي قصره بطول طربوشه وارتفاع حذائه، أسمر اللون في وسامة، واسع العينين في خجل، كبير الرأس في عظمة.

يتأبط كتباً كثيرة العدد لا يتناسب حجمها مع حجمه بين عربية وإنجليزية، ويأبى أن يحملها الفراش عنه كما اعتدنا أن نرى من غيره.

وأكبر ما راعنا منه أنه بدأ درسه بعبارة عربية فصيحة التزمها في كل درسه، وفي كل دروسه بعد، وفي كل أحاديثه معنا في الدرس، لا أعرفه شذ عنها مرة واحدة، في طلاقة وعذوبة واستشهاد بالأدب العربي والشعر العربي، مما لم أعرفه لأزهري ولا لمدرس من دار العلوم. يجيد فهم عبارة الطبري على صعوبتها، وابن خلدون على عمقها، والكتب الإنجليزية العميقة. ويوضح ذلك كله بصياغة شهية لذيذة، ويطبعها كلها بالطابع العربي فلا تسمع لفظة إنجليزية، ولا تستعصي عليه عبارة يريد أن يترجمها من لغة أجنبية.

ومما زادنا إعظاماً له أنه لم يكتف بالدرس بل اتصل أيضا بنفوسنا. فكان يخرج من الدرس أحياناً إلى شرح حالة نفسية أو ظاهرة اجتماعية يصل بها إلى أعماق نفوسنا، وأخذنا بالنظام الشديد، وكان يقدسه كل التقديس، فيشمئز من الكلمة النابية ومن اللفظة تكتب منحرفة قليلا عن موضعها. ومن النكتة إن كان فيها قليل من الشذوذ.

ولا تسل عنه في ورق الامتحان، فقد كان يصحح أوراقنا في دقة غريبة، ويأتي بالأوراق مدونة فيها ملاحظاته في اللفظ والمعنى والأسلوب والخطأ الإملائي والخطأ التاريخي، وينتقدنا انتقاداً لاذعاً لكن طريفاً.

من أجل هذا كان الأستاذ المحبوب والأستاذ الجليل والأستاذ الظريف والأستاذ العالم.

لم تطل دراسته في مدرسة القضاء، وانتقل إلى وظيفة إدارية. ولم يطلب الانتقال لرغبة في مال فهو يحتقر المال، ولا في جاه فهو يحتقر الجاه، ولا رغبة عن التعليم فهو يحب التعليم ويصارحني أن أكبر غلطة أرتكبها أنه تحول من التعليم إلى الإدارة، ولكنه كان شديداً، وكان عاطف بك ناظر المدرسة شديداً، وكان لكل شخصيته القوية.

ولكل آراؤه في سياسة الطلبة، فتصادما تصادماً نفسياً من غير أن ينبس أحدهما بكلمة؛ وكان أن خرج (علي فوزي) من المدرسة آسفين عليه كل الأسف شاعرين أنه لا يمكن أن يعوض، وكان (عاطف) أول من حزن على خروجه بعد أن حاول كل محاولة في استبقائه

وكان حساساً إلى درجة لا تتصور. تجرحه الكلمة الخفيفة لا يشعر بها أحد، والإشارة القليلة تصدر من رئيسه فيظنها بالغة منتهى الشدة، والإيماءة المعتادة فتحز في نفسه وتصل إلى أعماق قلبه.

فكيف يستطيع بعد أن يكون موظفاً؟ لقد تداول عليه وزراء عديدون لا أسميهم، كل منهم جرح نفسه جرحاً بل جروحاً. وأي الرؤساء يتحاشى حتى الهنات الهينات مع مرءوسيه؟ وأي الرؤساء يدرك مقدار السهام المسمومة التي يوجهها إلى نفس كنفس علي (فوزي) وهو لا يرى أنها سهام أصلا بل قد يظنها نوعا من الملاطفة؟ - لقد رآه وزير يكتب خطاباً بالإنجليزية فأعجبته بلاغته فقال له: لعلك تحسن أن تكتب مثل هذا بالعربية! فما كان أشدها وقعاً في نفسه.

ثم هو يعشق العدل المطلق الدقيق، ويؤلمه أشد الألم الظلم الخفيف. وكان كل يوم يرى تصرفات في الوزارات لا تتفق والعدالة التي ينشدها: هذا يحابي المتملقين، وهذا ينصر الأجانب على المصريين، وهذا يمنح ترقيات وعلاوات لغير المستحقين

ثم ما هذا النظام السخيف للدرجات؟ فهذا موظف في الدرجة الأولى وآخر في الدرجة الثانية! إنه يفهم أن يبدأ الموظف بمرتب صغير يزيد على القدم والكفاية، ولكنه لا يفهم تقسيم الموظفين إلى طبقات يعلو بعضها بعضا، ويدل بها بعضهم على بعض لا. لا. ثارت نفسه على كل ذلك، ففي هدوء وسكون، ومن غير أن يشعر أحد من أصدقائه

دبرّ أمره وأعد عدته للخروج من الوظائف الحكومية، وألح في طلب إحالته إلى المعاش، فكان له ذلك. ورضى بنحو خمسة وعشرين جنيها في الشهر على ثمانين وما كان يتبعها من علاوات وترقيات وحسبان معاشات

بل ليست الوظيفة وحدها هي التي يجب الفرار منها، بل يجب الفرار أيضا من مصر، فما مصر هذه التي يحكمها الأجنبي وتستسلم له؟ وما مصر التي يستمتع فيها صعاليك الأجانب بما لم يستمتع به سادة أهلها؟ وما مصر التي تجلس في مقهى من مقاهيها فتشعر أن الرومي الذي يقدم لك القهوة خير منك وأعز منك، ويستطيع أن يحتقرك وأن ينكل بك ولا تستطيع أن تفعل به ما يفعل بك؟ وما مصر التي لم تستطع أن تكون غنية في أطبائها وعلمائها وتجارها وصناعها ولم تزل عالة في كل ذلك على غيرها؟ لابد

إذن من الهرب من الوظيفة ومن مصر معا
خرج من مصر ساخطاً غاضباً آسفاً حزيناً، خرج هائما على وجهه يمثل دور جده. لقد كان جده المملوك الشارد، فكان هو الحر الشارد
خرج إلى أوربا هائما في ممالكها، ولكنه كان فيها مستوحشا، نعم إنه يتكلم لغتها ويفهم مدنياتها ولكن ليس قومها قومه، ولا دينها دينه، ولا روحانياتها روحانياته. ثم ألقى عصاه في الأستانة عقب الحرب واطمأن إليها، فهي هي البلدة المستقلة بين ممالك البلاد الإسلامية؛ وهي هي التي لا تذلها الامتيازات الأجنبية؛ وهي التي يجد فيها غذاء روحه وعواطفه بمساجدها العظيمة ومآذنها التي تشق السحاب. من أجل هذا اختار السكن فيها، وفي الأحياء الوطنية لا الأجنبية، وأتخذ مجلسه في مقهى تركي بلدي تحت شجرة زيزفون بجور حائط مسجد با يزيد
ثم حاول أصدقاؤه جهدهم أن يحولوه عن رأيه ويعدلوا به عن غربته. فذهبت محاولتهم عبثا. عرضوا عليه وظائف مختلفة الألوان كان آخرها مدير دار الكتب. فكان جوابه: متى عرفتم سبب خروجي من الوظيفة وسبب خروجي من مصر لم تعرضوا هذا العرض؛ فالأصل قبل الفرع، والحرية مع الفقر خير من الذل مع الغنى
قد رزق عيناً يرى بها غير ما يرى جمهور الناس؛ فكثيراً ما كان يحتقر من يجله الناس. ويجل من يحتقره الناس، لأن له مقاييس في التقدير تختلف عن مقاييس الناس، ليس في
مقاييسه اعتبار لثروة ولا جاه، ولا منظر، ولا حسب، ولا نسب.
حتى مكانه العام الذي كان يختاره لمقابلة أصدقائه لا يختاره لوجاهته، وإنما يختاره لنظافته، ولأن صاحبه مسلم، ولأنه يتنفس فيه جواً شرقيا لا غربيا، ولأنه ليس فيه امتيازات أجنبية، وهكذا من اعتبارات متعددة لم استطع أن أعرف منه إلا بعضها.
ويفضل أن يزور حلاقا كان زميلا له في المدرسة على أن يزور باشا من الباشوات أو من يعده الناس كبيراً من الكبراء
قد أعظمه في عيوننا صغر الدنيا في عينه؛ فليس للمال عنده إلا وظيفتان: قليله يتبلغ به ويسد حاجاته الضرورية، وكثيرة للمروءة. وأعرف له في ذلك فصولا غاية في السمو، فقد كان حيناً يسكن في أسرة أوربية عميدها فرنسي، وربة الدار ألمانية ولهما ابن وبنت، حتى إذا نشبت الحرب العظمى جند عميد الأسرة، فأحلت الأسرة فقيدنا محله على رأس المائدة.
وكان كثيراً ما يدور الجدال على المائدة في نظريات الحرب وخصوصا الفتى والفتاة، فكان الفتى يذهب مذهب أبيه ويتعصب لفرنسا وحلفائها، والبنت تذهب مذهب أمها وتتعصب لألمانيا وحلفائها؛ ثم كان من الفتى أن طعن تركيا في سمعتها وقيمتها، ولم يكن يعرف عصبية الفقيد لتركيا، فلم يعد علي فوزي يطيق البقاء بعد في البيت، ولكن ماذا يصنع ووفاؤه يقضي بمراعاة هذه الأسرة بعد غياب عميدها، وعصبيته التركية تأبى أن يسكن في البيت بعد ما كان من الفتى؟ لا يحل هذا الإشكال إلا احتقار المال. فقد تظاهر بأنه يأخذ درسا على السيدة الألمانية ودفع ما كان يدفع أيام سكناه لم ينقص منه شيئاً وإن قلل ذهابه بعد ذلك لأخذ الدرس.
وكان منظره في استانبول غريبا: يجلس في مقهى عرفه البؤساء والمحتاجون فهو يمنحهم ما أمكنه وهو الفقير الذي لا دخل له إلا معاشه الخمسة والعشرون جنيها، ينفق منها ثلثها على نفسه وثلثيها على مروءته، وطويل أن نعد مآثره في هذا الباب أحب العزلة وأكثر التفكير. فهو في بيته وحده، إذ لا زوجة له ولا ولد. وفي تروضه وحده غالبا؛ هو وحده في أكثر أوقاته، صديقه الكتاب، ثم ضعفت أعصابه ففقد صداقة الكتاب أيضاً إلا نادراً، وكان تفكيره في العالم حيناً وفي نفسه كثيراً
وهذه حالة تستتبع الوحشة وتستتبع التشاؤم، وتستتبع الحزن والانقباض، وكذلك كان شأنه
غلب عليه الخجل في غلو، والخجل - كما يقول بعض علماء النفس - سببه كثرة تفكير الإنسان في نفسه، فهو إذا مشى ظن أن الناس كلهم ينظرون إليه وينقدون مشيته؛ وإذا تكلم ظن أن الناس كلهم ينصتون إليه وينقدون كلامه؛ وإذا تحرك أو سكن أو تنفس فالناس يعدون حركاته وسكناه وأنفاسه؛ فكان هذا الخلق فيه أكثر شقائه. وبلغت به الحالة أن كان في آخر أيامه إذا جلس في مقهى اختار مكانه وراء عمود،

وإذا سكن في (بنسيون) صحا قبل أن يصحو الناس وعاد بعد أن ينام الناس حتى لا يراه الناس: وإذا عزم على الرياضة فليلا حتى تستره ظلمة الليل، وإذا مشى في الشارع ليلا اختار من الشوارع أخلاها من الناس.

تملكه خلق الرحمة فظهر منه في كل شيء: رحم الناس فخرج لهم عن ماله. ورحم المرأة فأبى أن يتزوج، ورحم الحيوان فعاش نباتيا. وأخيراً رحم نفسه. وويل للإنسان إذا رحم نفسه وأشفق عليها! إنه ليعذب في ذلك عذاباً لا يعذبه أحد. نعمة كبرى أن يرحم الإنسان غيره، وشقوة كبرى أن يرحم الإنسان نفسه، فالرحمة استضعاف للمرحوم، فإذا استضعف نفسه فهناك الألم وهناك والحسرة، وهناك فقدان الثقة بالنفس، وهناك انسحاب من الجهاد في الحياة، وهل الحياة إلا جهاد؟

رحم الله (علي فوزي) فقد عاش غريبا، ومات غريبا، وأخشى أن يبعث غريبا

أحمد أمين

في التاريخ السياسي

الدستور الهندي الجديد

هل يكون نذير ثورة قومية جديدة

لمؤرخ كبير

الهند الآن في مفتتح عهد جديد من تاريخها قد يكون بدء استقرار وسكينة، وقد يكون فاتحة مرحلة جديدة من النضال بين الوطنية الهندية وبريطانيا العظمى. والمسألة الهندية تعود فتشغل الأذهان في الهند وفي إنكلترا، وتستغرق أعظم جانب من اهتمام السياسة البريطانية. ذلك أن دستور الهند الجديد قد بدئ تطبيقه منذ أول أبريل الجاري، وهو الدستور الذي أقره البرلمان الإنكليزي بعد مناقشات طويلة عنيفة، وصدر في يناير سنة 1935 باسم (قانون حكومة الهند) مؤلفا من أربعمائة وإحدى وخمسين مادة، وخمسة عشر ملحقا على أن يبدأ تطبيقه منذ أول أبريل سنة 1937.

وقد اقترن تطبيق الدستور الجديد بحوادث داخلية خطيرة. ذلك أن الانتخابات التشريعية أجريت طبقاً لنصوص الدستور الجديد في شهر فبراير الماضي، في إحدى عشرة ولاية تضم مجالسها التشريعية 1585 كرسياً، فتقدم لها نحو خمسة آلاف مرشح؛ هذا عدا المجالس التشريعية العليا التي تضم 260 كرسيا؛ وبلغ عدد الناخبين نحو ثلاثين مليونا منهم خمسة ملايين امرأة؛ ففاز حزب المؤتمر الوطني وهو أعظم الأحزاب الهندية وحزب الوطنية المتطرفة، وزعيمه الباندت جواهر لال نهرو بالأغلبية المطلقة في ست ولايات من الإحدى عشرة. وكان المفهوم أن الحكومة المحلية الجديدة تؤلف من الأغلبية البرلمانية على قاعدة المسئولية الوزارية طبقاً للدستور الجديد؛ ولكن حزب المؤتمر رفض أن يضطلع بأعباء الحكم في الولايات التي فاز فيها.

فلجأت الحكومة البريطانية إلى اختيار أعضاء الحكومات الجديدة بطريق التعيين حسبما نص عليه الدستور أيضا، بيد أن هذا الإجراء لا يمكن أن يعتبر في بداية العهد الجديد حلا موفقا، بل ربما كان بالعكس نذير مرحلة جديدة من النضال بين الوطنية الهندية والسياسة البريطانية

وترجع هذه المقاطعة من جانب حزب المؤتمر، حسبما صرح وزير الهند اللورد زنلاند في مجلس اللوردات إلى ما طلبه حزب المؤتمر من ضمانات خاصة لتولي أعباء الحكم؛ خلاصتها أن يتعهد الحاكم بأن يتبع مشورة وزرائه وألا يخالف القرارات الدستورية، وألا يستعمل سلطته الخاصة في التدخل أو الضغط على الوزارة، وهي عهود أبى الحكام أن يقطعوها لحزب المؤتمر. وترتب على ذلك أن قرر الحزب التنحي عن قبول أعباء الحكم، فخلق بهذا التنحي موقفا في غاية الخطورة والحرج؛ ويتأهب الحزب الآن ليخوض عن طريق المعارضة البرلمانية نضالا عنيفا لا يمكن التنبؤ بعواقبه.

والدستور الهندي الجديد هو أقصى مرحلة بلغتها السياسة البريطانية في تحقيق الأماني الهندية في سبيل الحكم الذاتي؛ وكان أول خطوة قطعتها السياسة البريطانية في هذا السبيل سنة 1919، غداة الحرب الكبرى، حينما رأت أن تثيب الهند البريطانية عما قدمت لبريطانيا العظمى من جليل المعاونات في الحرب الكبرى. ففي ديسمبر سنة 1919، استصدرت الحكومة البريطانية دستور الهند الجديد المعروف بدستور مونتاجو وشلسفورد؛ والأول وزير الهند والثاني نائب الملك في ذلك الحين؛ وبمقتضى

هذا الدستور منحت الهند لأول مرة بعض الحقوق والمزايا الدستورية المحدودة؛ فألغى المجلس التشريعي الذي كان خاضعا لرأي نائب الملك، وأنشئت مكانه هيئة تشريعية جديدة تضم هيئتين: الأولى مجلس الدولة والثانية الجمعية التشريعية وتؤلف الأولى من ستين عضوا منهم ستة وعشرون معينون، والثانية من مائة وأربعة وأربعين عضوا منهم أربعون معينون؛ واختصت الحكومة المركزية بالنظر في الشئون السياسية والمالية والدفاع الوطني والإشراف على الإمارات وقصرت مهمة الحكومات المحلية (حكومات الولايات) على معالجة الشئون الإدارية؛ ونص في الدستور الجديد على انه مؤقت وأنه تمهيد لإنشاء الحكم الذاتي، وأنه سيعاد النظر فيه بعد فترة انتقالية قدرت بعشرة أعوام

ولكن هذه المنحة الضئيلة كانت صدمة شديدة للأماني الهندية، فاضطرمت الهند من أقصاها إلى أقصاها بفورة قوية من السخط، وظهر مهاتما غاندي في الميدان يذكي ضرام الحركة الوطنية بدعوته إلى المقاطعة السلمية والعصيان المدني، وجازت الهند مرحلة عنيفة من الاضطراب؛ ولجأت السياسة البريطانية إلى وسائل القمع المنظم. وفي سنة 1928 بدأت اللجنة الدستورية أو لجنة الإصلاح الدستوري التي ألفت برياسة السير جون سيمون مهمتها

في درس المسألة الهندية، وكان تألفها تطبيقا لدستور مونتاجو وشلفورد، إذ نص على إعادة النظر فيه بعد عشرة أعوام، وحددت مهمة اللجنة الجوهرية بما يأتي: أن تبحث في كيفية سير الإدارة الحكومية، ونمو التعليم وتقدم النظم النيابية في الهند البريطانية وما يتعلق بذلك من الشؤون، ثم التقرير عما إذا كان يرغب في تطبيق مبدأ الحكومة الذاتية وإلى أي حد، أو ما إذا كان يجب توسيع أو تعديل أو تقييد مرحلة الحكم الذاتي القائمة، ويدخل في ذلك بحث ما إذا كان يرغب في إنشاء قاعة تشريعية أخرى في المجالس التشريعية المحلية. واستمرت اللجنة في طوافها ودراستها بالهند مدى أشهر، وانقسم الرأي العام في الهند إزاءها قسمين، فريق يؤيد التعاون معها، وفريق وهو الأغلبية يدعو إلى مقاطعتها. وفي أواخر سنة 1929 ألقى اللورد ايروين نائب الملك تصريحه المشهور بأن الغاية التي تتوخاها الحكومة البريطانية من الإصلاح الدستوري هي الوصول بالهند إلى مركز الأملاك المستقلة (نظام الدومنيون) فبث هذا التصريح في الحركة القومية روحا جديدا، وأيقنت أنها سائرة إلى الظفر، ونزل غاندي إلى ميدان النضال كرة أخرى، وقام بحملته الشهيرة في سبيل العصيان المدني، وعادت السياسة البريطانية إلى خطة القمع العنيف، وقبض على غاندي وآلاف عدة من أنصاره، ولكن الاضطراب بلغ حدا اضطرت معه السياسة البريطانية إلى التراجع، فتفاوض نائب الملك مع غاندي، وأطلق سراح الزعيم الكبير، واتفق على أن يشهد مؤتمر الهند الذي أزمع عقده في لندن لبحث المسألة الهندية وأن تلغى حكومة الهند جميع إجراءات القمع التي اتخذتها

وفي أثناء ذلك صدر تقرير لجنة سيمون في مجلد ضخم، وفيه بحوث ضافية عن أحوال الهند الاجتماعية والطائفية. وخلاصة رأي اللجنة هو أن تجربة الإصلاح الدستوري مدى الأعوام العشرة ليست كافية لتقرير الخطة الدستورية الملائمة، وإن الشعب الهندي، نظراً لظروفه الجنسية والطائفية، وما يفرق بين عناصره من اختلافات عميقة في الدين واللغة والتقاليد والعادات والخواص، ليس أهلاً للتمتع بحكومة ذاتية مسؤولة؛ وأما فيما يتعلق بالتوصيات، فقد أوصت اللجنة بعدة إصلاحات نظامية وإدارية خلاصتها أن تعتبر الهند البريطانية دولة متحدة قوامها الولايات، وأن تعدل حدود الأقاليم الحالية، وأن يمنح حق الانتخاب لبعض الطبقات بشروط معينة، وأن يستبقى المبدأ الطائفي في توزيع الدوائر

الانتخابية، وأن تفصل ولاية بورما عن الهند لأنها تكون وحدة مستقلة، وبعض توصيات ثانوية أخرى لإصلاح التعليم والنظم الإدارية. وهكذا جاءت توصيات لجنة سيمون ضربة جديدة للأماني الهندية القومية؛ بيد أن الحكومة البريطانية أشارت يومئذ إلى أن توصيات اللجنة لا تخرج عن الآراء الاستشارية، وإن مسألة الهند برمتها ستبحث في المؤتمر الخاص بذلك؛ وعاون اللورد ايروين بتصريحه بأن الحكومة البريطانية تبغي بالإصلاح الدستوري أن تصل بالهند إلى مركز (الدومنيون)، على تهدئة الرأي العام والتمهيد لعقد المؤتمر في نوع من التفاهم والوئام.

وفي أكتوبر سنة 1930 عقد مؤتمر الهند المعروف بمؤتمر المائدة المستديرة في لندن، وشهده غاندي ممثلا للهند مع عدد كبير من الزعماء الهنود يمثلون مختلف الطوائف والأحزاب. ولكن المؤتمر عقد في جو من الاضطراب والخلاف. وانشق ممثلو الهند على أنفسهم في المسألة الطائفية. فرأى غاندي أن يتمسك بالانتخاب المطلق، ورأى المسلمون أن يحتفظوا بالحقوق والنسب الطائفية. ولما اشتد الجدل والخلاف، وعجز المؤتمر عن الوصول إلى اتفاق شامل، أعلنت الحكومة البريطانية أنها ستتناول الأمر بيدها ما دام الهنود أنفسهم لم يتفقوا

وهكذا استعادت الحكومة البريطانية حريتها في العمل، واتخذت تقرير لجنة سيمون ومقترحاتها أساسا لوضع الدستور الهندي الجديد؛ وصدر قانون الهند الجديد في يناير سنة 1935 بعد مباحثات ومفاوضات شاقة بين الحكومة والأحزاب، وبعد مناقشات عنيفة داخل البرلمان وخارجه، وبدئ بتطبيقه في الهند البريطانية منذ أول أبريل سنة 1937 حسبما نص فيه؛ فغدت الهند دولة اتحادية، واستقلت ولاية بورما بشئونها، وأجريت الانتخابات الأولى طبقا للدستور الجديد حسبما قدمنا

وقد شرح نائب الملك اللورد لنلثجو مذ كان رئيسا للجنة الهند قواعد الدستور الجديد في بيان رسمي جاء فيه: (يقضي النظام الحالي بأن تشرف الحكومة المركزية على أعمال الحكومات المحلية وتراقبها. ولكن الدستور الجديد يرفع هذا الإشراف، وتغدو الحكومات المحلية مستقلة في معظم شئونها، ويتمتع السكان بحكوماتهم المسئولة. أما الحكومة المركزية الجديدة فسوف تغدو حكومة اتحادية

بيد أن الحكومة المركزية تحتفظ بالنظر في مسألة الدفاع عن البلاد وفي مسائل) السياسة الخارجية، وليس لوزرائها أن ينصحوها في هذه الشئون. كذلك يعتبر كل حاكم ولاية مسئولا عن حفظ الأمن والنظام في ولايته، وله الحق في أن يتخذ ما يجب من الإجراءات الضرورية دون رأي وزرائه)

وسيتلقى حاكم الولاية التعليمات مباشرة من وزير الهند، كما يتلقى التعليمات من) الحكومة المركزية. وهكذا نستطيع أن نقول أن الولايات الهندية ستحكم طبقا لآراء الوزراء الهنود المسئولين أمام البرلمانات المنتخبة، ماعدا بعض مسائل خاصة تبقى خاضعة لإشراف البرلمان الإنكليزي)

والآن يطبق الدستور الجديد في ظروف دقيقة ويقف حزب المؤتمر الوطني بعد ظفره بالأغلبية البرلمانية المطلقة في الولايات الست موقف المعارضة. ولقد أعلن زعيم الحزب الباندت نهرو قبيل بدء الانتخابات إن حزبه يعارض الدستور الجديد منذ البداية، وإنه يخوض الانتخابات لا لكي يتعاون مع الحكومة، ولكن لكي يستعين على محاربتها بالأغلبية البرلمانية؛ وقد نفذ الحزب وعيده فأبى أن يضطلع بأعباء الحكم في الولايات الست لأنه لم يحصل على الضمانات المطلوبة، واضطرت السلطة التنفيذية أن تقيم حكومات من عندها؛ وبذا يشل تطبيق الدستور الجديد منذ الساعة الأولى. والمعارضة تقوى كل يوم وتشتد؛ فماذا تزمع السياسة البريطانية أن تفعل؟ إن السياسة البريطانية لابد أن تجد لها مخرجا من هذا المأزق سواء بالتفاهم والمفاوضة، أو بالمضي في تجاهل المعارضة وتحديها؛ بيد إنها سوف تؤثر خطة اللين بلا ريب؛ وقد رأت السياسة البريطانية أن تقف في تحقيق الأماني الهندية في سبيل الحكم الذاتي عند هذا الحد المتواضع بعد أن لوحت للهند أبان اضطرام الحركة الوطنية، بأمنية الاستقلال الذاتي. أما اليوم وقد خبت الحركة الوطنية، وسرى إليها التفرق والوهن، فإن الهند لا تستطيع أن تطمح إلى نيل المزيد دون أن تخوض مرحلة جديدة من النضال.

(مؤرخ)

النفس وخلودها عند ابن سينا

للدكتور إبراهيم بيومي مدكور

مدرس الفلسفة بكلية الآداب

قد يكون أنصار المادية المفرطة معذورين في زعمهم أن ليس ثمة إلا الجسم وأجهزته والمخ وآثاره، فإنهم يرجعون الظواهر العقلية على اختلافها إلى مصدر ثابت ومنبع معين. كما إن المثاليين الغلاة يتفادون بعض الصعوبات حين يذهبون إلى أن النفس وحدها هي الحقيقة، وما وراءها صور وأوهام فإن هؤلاء وهؤلاء لا يعترفون غلا بأصل

واحد ماديا كان أو روحياً يبنون عليه تفسيراتهم وحلولهم. أما من يقولون بالجسم والنفس، بالمادي والروحي، بالثنائية على العموم، فإنهم يصطدمون بعقبة لم يجدوا السبيل إلى تذليلها. وكيف يمكن ربط المختلف والتوفيق بين المتنافر وضم أمرين من طبيعتين متغايرتين أحدهما إلى الآخر؟ لهذا كانت الصلة بين الجسم والنفس عقدة العقد ومشكل المشاكل في كل مراحل التاريخ.

فقديما نرى أفلاطون، وهو أكبر ممثل للثنائية لدى اليونان، مضطرباً وغامضاً إزاء هذه المشكلة، فيقول حينا إن النفس متميزة كل التميز من الجسم وإنها الإنسان على الحقيقة، ويظن حينا آخر أنهما على اتصال وثيق وبينهما عراك دائم، فالجسم يصرف النفس عن الفكر ويجلب عليها آلاماً كثيرة بميوله وأهوائه، وهي من جهة أخرى تحاربه وتجد في الخلاص منه، ولكن كيف يتم هذا التفاعل ويلتقي الجسم بالنفس ويؤثر كل منهما في الآخر؟ هذا ما لم يجب عليه أفلاطون. ولعل أرسطو قد حاول التخلص من هذا المأزق حين ذهب إلى أن النفس صورة للجسم؛ والصورة والمادة متصلان ومتداخلان بحيث يكونان شيئاً واحداً. بيد أن هذا الحل غامض كذلك ولا يخطو بنا إلى الأمام كثيراً. ومع هذا فقد قرر له نجاح كبير في القرون الوسطى؛ فإن أغلب الفلاسفة المدرسيين يزعمون أن النفس صورة للجسم في الوقت الذي يقررون فيه أنها جوهر روحي ذو شخصية مستقلة، وهذا تناقض مكشوف.

وفي التاريخ الحديث يعيدها ديكارت جذعة، ويثير هذا الموضوع في شكل حاد، ويقول بجوهرية الجسم والنفس معاً مميزاً الأول بالحيز والثانية بالتفكير؛ وهذه هي الثنائية الأفلاطونية في أجلى مظهر. ولكن عبثاً حاول ربط هذين الجوهرين أو إيجاد علاقة بينهما. ثم طمع أتباعه في أن يتلافوا هذا النقص فلم يكونوا أعظم منه خطأ. وربما كانت فكرة التناسق الأزلي التي قال بها ليبنتز هي أشهر محاولة في هذا الباب، فهو يعتقد أن الجسم والنفس نسقا أزلاً بحيث يتفقان وإن صار كل منهما في طريق خاصة؛ وخضوع الأول لقوانين السببية لا يحول دونه، والارتباط بالأخيرة التي تخضع لقوانين الغائية. وما أشبههما بساعتين محكمتي الصنع تلتقيان في قياس الزمن، وإن كانتا تبينانه بأشكال مختلفة. تصوير جميل ومهارة في التوفيق، شأن ليبنتز في كل فلسفته؛ غير أنه في الواقع توفيق صوري وربط خيالي، فإن مؤداه أن لا صلة بين الجسم والنفس، أو أن الصلة بينهما أنهما لا يتعارضان ولا يتعاكسان.

لم يغفل ابن سينا هذه المشكلة ولم يتردد في حلها وتوضيحها، وكيف يغفلها وهو من أنصار الروحية والثنائية؟ وقد سبق لنا أن لخصنا البراهين العديدة التي يستدل بها على جوهرية النفس وروحانيتها. وفي رأيه أن الجسم والنفس متصلان اتصالاً وثيقاً ومتعاونان دون انقطاع. فلولا النفس ما كان الجسم، فإنها مصدر حياته والمدبرة لأمره والمنظمة لقواه. ولولا الجسم ما كانت النفس، فإن تهيؤه لقبولها شرط لوجودها، وتخصصه بها مبدأ وحدتها واستقلالها؛ ولا يمكن أن توجد نفس إلا أن وجدت المادة الجسمية المعدة لها! فهي منذ نشأتها تواقة إلى الجسم ومتعلقة به ومخلوقة لأجله. وفي أدائها لمهامها الكثيرة تستخدمه وتعول عليه. ويكفي أن نشير إلى التفكير الذي هو عملها الخاص فإنه لا يتم إلا أن أرقدتها الحواس بآثارها. وواضح أن العقلي ذو دخل كبير في الجسمي، فرب فكرة هيجت الجسم وأحدثت فيه انفعالات كثيرة، وللجسمي أيضاً أثر على العقلي، فقد تنتج الحركة فكرة ويبعث اعتدال المزاج على الغبطة والسرور. يقول ابن سينا: (انظر إنك إذا استشعرت جانب الله وفكرته في جبروته كيف يقشعر جلدك ويقف شعرك، وهذه الانفعالات والملكات قد تكون أقوى وقد تكون أضعف، ولولا هذه الهيئات ما كانت نفس بعض الناس بحسب العادة أسرع إلى التهتك أو الاستشاطة غضباً من نفس بعض)

فهناك علاقة إذن بين الجسم والنفس وتأثير متبادل؛ وهذا قدر يتفق عليه كل أنصار المذهب الروحي ولا يعز عليهم إثباته. ولكن المشكلة هي: كيف يتم هذا التأثير وكيف يلتقي الجسمي بالنفسي؟ لكي يجيب ابن سينا على هذا السؤال يلجأ إلى طبه مستمداً منه بعض الملاحظات الفسيولوجية، فيوزع أولاً قوى النفس المختلفة على أجزاء الرأس ويعد لكل واحدة منها مقراً معيناً. فالحس المشترك مثلاً متمركز في أول التجويف المقدم للدماغ، والمصورة في آخر هذا التجويف، والوهم في نهاية التجويف الأوسط، والحافظة في التجويف المؤخر. ويلاحظ ثانياً أنه لابد لهذه القوى من خدم

تنفذ أوامرها ومطايا تحمل آثارها. ومطيتها جميعاً جسم لطيف روحاني منتشر في الجسم، يخرج من القلب ويمتد إلى سائر الأطراف، ولا أدل على هذا من أنه إذا تصلب أو انسدت مسالكه انقطعت الحركة والإحساس. وهذا الجسم هو الروح التي تمد الأعضاء بالحرارة الضرورية للحياة وتربط القوى النفسية بعضها ببعض. فكأن القلب الجزء الرئيسي الذي يلتقي فيه الروحي بالمادي والعقلي بالجسمي. حقاً إن الدماغ يشرف على الجهاز العصبي ويتقبل الاحساسات ويدفع إلى الحركة، ولكنه هو أيضاً خاضع للقلب ومحتاج إلى الحرارة العضوية التي يبعث بها إليه.

هذه الفسيولوجيا تصعد إلى جالينوس وأبقراط وتمت ينسب إلى أرسطو. فإن تركيز قوى النفس في مناطق خاصة من الدماغ أمر عنى به جالينوس، ثم أخذه عنه العرب في شيء من التصرف، فتراه لدى الفارابي كما نراه لدى ابن سينا وأغلب الأطباء والفلاسفة المسلمين. والروح التي تربط القوى النفسية بأجزاء الجسم وتنفذ أوامرها ليست شيئاً آخر سوى الأبنيما التي قال بها اليونانيون الأول. وذلك أن ديوجين الأبولوني يزعم أن التفكير إنما يتولد من ذلك الهواء الذي يسبح في أوردة الجسم وشرايينه. ويقول هيرافليط إن التنفس يغذي النفس بالهواء الذي لولاه ما كانت حياة ولا عقل ومن هنا تولدت نظرية الأبنيما التي لعبت دوراً هاماً في الفسيولوجيا وعلم النفس القديم.

ومعظم أطباء الإغريق لا يرون في الأبنيما مصدر القوة والحرارة الإنسانية فقط. بل يعدونها منبع التفكير، وكثيراً ما يخلطون بينها وبين النفس. والرواقيون بوجه خاص وإن قالوا بجسميتها يصفونها بكل الصفات الروحية. وقد قدر لهذه الفكرة أن تحيا إلى أن استكشفت الدورة الدموية التي قامت على أنقاضها. ويظهر أن قسطا بن لوقا البعلبكي والمترجم المشهور المتوفى سنة 835 ميلادية هو أول من أدخلها في العالم العربي، فقد

كتب بحثاً صغيراً فرق فيه بين النفس والروح فبينما الأولى في رأيه جوهر روحي بسيط غير قابل للفناء إذا بالثانية جسم لطيف يشرف على أعمالنا العضوية والعقلية، وإذا ما توقف عن الحركة كان الموت. فالروح إذن أداة النفس وبواسطتها يتحرك الجسم ويعد للإدراك، وبذا استطاع قسطاً أن يوفق بين الأبنيما التي يعول عليها الأطباء والنفس التي ينادي بها الفلاسفة، وقد سار على سنته من جاء بعده من مفكري الإسلام.

وأما الصلة بين القلب والدماغ وأثرهما في الظواهر النفسية فتلك نقطة خلاف بين أرسطو وجالينوس. ففي حين أن الفيلسوف يرى أن القلب هو مركز القوى النفسية الرئيسية نجد الطبيب يصعد بذلك إلى الرأس ويعتبره المهيمن على كل الحياة العقلية. وابن سينا، وإن كانت منزلته الطبية لا تقل عن درجته الفلسفية، لا يتردد في أن ينتصر لأرسطو. ويصرح، على أي أساس لا أدري، أن الفلاسفة هم أصحاب الرأي والذين يستطيعون الفصل في مثل هذه المسائل، ومع هذا فإنه لا ينكر ما للدماغ وأعصابه من دخل في الحركة والإحساس. ومهما يكن فلعل هذه الآراء هي منبع تعريف العقل المشهور الذي ردده المتأخرون من مؤلفي العرب، فهم يكادون يجمعون على أنه قوة أودعها الله في القلب ولها شعاع متصل بالدماغ.

لا نظن أنا في حاجة إلى مناقشة هذه الفسيولوجيا البائدة فإن كشف الدورة الدموية قد قضى على فكرة الأبنيما وما يتفرع عنها، ودراسة الجهاز العصبي الحديثة لا تدع مجالاً لتلك الآراء التي كانت تعد القلب المركز الرئيسي للحياة النفسية. والنظرية القائلة بتوزيع المخ إلى مناطق نفوذ مستقلة تقوم كل واحدة منها بعمل خاص، وإن كانت قد صادفت أنصاراً عديدين في القرن التاسع عشر، لا تفسر الظواهر العقلية تفسيراً مقنعاً. على أن ابن سينا كان يمزج الفسيولوجيا بعلم النفس النظري، ويخلط المادي بالروحي دون أن يوضح كيف يتفاعلان؛ والصعوبة كل الصعوبة في توضيح هذا التفاعل. فهو إذن لم يوفق لحل مشكلة الصلة بن النفس والجسم ولم يأتنا فيها بجديد؛ وكل ما عمله هو أن ضم أفكاراً أرسطية إلى أخرى جالونيسية على الرغم مما بينهما من تنافر أو تعارض.

(يتبع)

إبراهيم مدكور

في الأدب المقارن
القصص
في الأدبين العربي والإنجليزي
للأستاذ فخري أبو السعود

الميل إلى تأليف القصص والاستمتاع بسماعه طبيعيان في الإنسان، فهو كما يميل تبعاً لغريزة الاستطلاع إلى مشاهده حوادث الحياة تترى أمام عينيه، يميل إلى حكايتها لغيره كما رآها أو تخيلها؛ ويميل إلى الاستماع إلى غيره يرويها له، يشبع بها غريزة الاستطلاع وملكه الخيال من نفسه. والحياة ذاتها ليست سوى قصة متتابعة الحوادث متوالية الفصول. وليس بد لمن شاء وصف بعض مظاهرها أو ظروفها من اللجوء إلى القصص، وإلى القصص يلجأ بداهة كل صديقين تلاقيا بعد طول فراق، وبالقصص يشغف الأطفال أشد الشغف، وبه شغف الإنسان في عهد طفولته التاريخية.

كان القصص أول صور الأدب ظهوراً، بل كان جماع الأدب والعلم والثقافة العامة لدى الجماعات الأولى، يشمل معارفهم بالخلق والطبيعة والتاريخ وعقائدهم وتقاليدهم، فما من شيء من ذلك كله إلا حاكوا له قصة، ولا مظهر إلا اخترعوا له حكاية تعلله، فكان قصص تلك العهود مملوءاً بالخرافات والأوهام، دائراً حول الآلهة والملوك والأبطال والقبائل، وبالجملة كان قصصاً رومانسياً تكثر فيه الخوارق والعظائم والمفاجئات والمخاطرات. وقد تخلف من كل ذلك تراث حافل من نثر وشعر، يتمثل في أساطير الأولين من مصريين وفرس وإغريق ورومان، وبارتقاء الجماعة العقلي يتخلص العلم رويداً رويداً من آثار القصص والخرافة ويختص الأدب بتلك الآثار وتتمثل في شعر الملاحم وما شاكله.

وإذا ما ظهر النثر الفني فقد ولت في آثاره أساطير الأولين تلك، وإن بطل الاعتقاد في كثير منها، وخطا القصص إلى المرحلة الثانية من مراحل تطوره، فاتخذ وسيلة لإسداء المواعظ وإذاعة التجارب وتحبيذ الفضيلة. أو لشرح النظريات العلمية أو الفلسفية ووضع لذلك على ألسنة الطير والحيوان، أو أفواه الأرواح والجان، وصيغ أحياناً في شكل حوار، كما يرى في قصص إيزوب وجمهورية أفلاطون وحكايات لافونتين وكتاب أميل لروسو؛

ويتطور القصص الشعري أيضاً فتظهر الرواية الشعرية التمثيلية، وتحل محل الملحمة، وينفصل التاريخ مستقلاً عن الأدب متخلصاً جهده من الأساطير، وإن ظل الاتصال بين التاريخ والأدب وشيجاً طول العصور.

فإذا اطرد رقي الحضارة ونمو العلم وازدهار الأدب ورواج النثر الفني، خطا القصص إلى مرحلته الأخيرة نحو الكمال، فصار فناً مستقلاً من كل غاية خارجة، غايته الوحيدة غاية كل الفنون، وهي الجمال والشعور وتصوير النفس الإنسانية، وصارت له قواعده وتقاليده المفهومة، وبلغ مكانة ضرب راق من ضروب الأدب كالملحمة والدراما والخطابة، وسامي به النثر الشعر وباراه جولانا في ميدان النفس الإنسانية وأداء لوظيفة الأدب، وظهر في مضماره من فحول الكتاب من يضاهون فحول الشعر منزلة ونبوغاً، بل ظهر من الأدباء من يجمع بين الشعر والقصص، وذهب الوهم الذي كان سائداً من قبل من أن القصص مطلب هين، وقنص شهب البزاة سواء فيه والرخم.

وللقصص، إذا ما بلغ هذا الطور السامي من أطوار رقيه مزايا يختص بها دون غيره من ضروب الأدب منظومه ومنثوره فهو يمتاز برحب المجال رحباً يمكن من يمارسه من تناول أطراف الحياة المترامية، بين جد وفكاهة ووصف وحكمة وعلم وأدب، وهو يفسح للخيال متسعاً بعيد الآفاق، ويمتع اللب بما يعرض من دقائق الحياة وتفاصيلها إلى جانب جلائلها وبعيد أقطارها، وبه يعرض من أحوال الحب وأطواره ما يضيق الشعر نفسه ذرعاً باستقصائه إلى لمحات خاطفة، وقبل القصص كان النسيب وقفاً على الشعر دون النثر، والقصص لسهولة متناوله يذيع في الخاصة والعامة على حد سواء، على حين كان الشعر وقفاً على خاصة المثقفين.

ولذيوع القصص في الخاصة والعامة وجد فيه المصلحون وسيلة عديمة النظير لتر آرائهم ودعاياتهم، بتصوير الحال التي يكرهون وإبراز مساوئها وعرض ضحاياها والتنديد بجناتها وتشخيص سبل ملاقاتها، كل ذلك في أسلوب قصصي شائق تقبله النفس وتسيغه وتقتنع به اقتناعاً كان صعب المنال لو عرض عليها الأمر في صورة النصح أو

الوعظ. ومن أشهر القصصيين الدعاة تولستوي وأبسن وآبانيز وغيرهم ممن كان لهم أكبر الأثر في الفكر الحديث وأعظم الضلع في التطور العقلي والمادي، وهو أثر قل أن يجاريه أثر الشعر في
سالف العصور.

فالقصة ضرب من الأدب مرن، يجمع مزايا الشعر كالخيال والعاطفة إلى مزايا النثر كالرحب والدقة والاستقصاء والفائدة العملية، وهي بهذا تلائم العصر الحديث أكبر ملائمة، وهذا سر ذيوعها حتى كادت تعطل ما عداها من ضروب القول، فقد تهيأت الأسباب من القرن الثامن عشر إلى اليوم لنهوض القصة الفنية، التي تدرس نفس الفرد وحياة المجتمع وتحلل العواطف وتشرح الآراء والمبادئ، وذلك برقي السواد الأعظم من الأمة بعد أن كان هملاً في غابر العصور، وانتشار التعليم العام وبروز شخصية الفرد وذيوع مبادئ الحرية والديمقراطية، هذا إلى ارتقاء الطباعة واعتماد الأدباء على الجمهور القارئ لا على رعاية الأمراء والوجهاء.

ولم تقتصر القصة في رقيها هذا الحديث على أن تميزت واستقلت ضرباً قاتماً من ضروب الأدب، يتوفر على ممارسته بعض أقطاب الأدب، بل تطورت القصة تطوراً داخلياً، وتميزت فيها ضروب من القصص يتوفر على كل منها بعض القصصيين: فهناك القصة التاريخية التي تدور حول الملوك والعظماء السابقين، والقصة البيتية التي تصور المجتمع المتواضع تصويراً شائقاً، والقصة لنفسية التي تحلل بواطن النفوس معتمدة على نظريات علم النفس الحديث أحياناً، والقصة الإصلاحية التي تحاول تحسين حال العامل أو تعديل بعض النظم القانونية أو الاجتماعية، أو تقويم بعض المعتقدات والتقاليد، والقصة المستقبلية التي تتنبأ بما سيصير إليه الإنسان وتحاول تسديد خطاه إلى ما يجب أن ينزع إليه في مستقبله، والقصة البوليسية التي تعرض حيل المجرمين وخطط متعقبيهم من الشرطة، وقصة المغامرات التي تصف أعمال بعض الأفاقين ورحلاته في المجاهل.

هكذا يتطور القصص، من نوادر وأساطير بدائية واهية القصد منتشرة النظام، إلى صور فنية محكمة، ومن أشباح مبهمة وحوادث متضاربة إلى شخصيات ناطقة وسياق منطقي منسجم، ومن الخرافي والخارق والبعيد إلى الواقع والعلمي والحاضر، ومن الماضي بآلهته وأبطاله وعظمائه إلى الحاضر بمشاكله العادية وأفراده المشهودين، ومن اللفظ الطنان والخيال الشارد والعاطفة الثائرة إلى المعنى المتدبر والتأمل الهادئ والوصف المفصل؛ وهذه الصفات التي تكتسبها القصة في طورها الراقي تكتسبها معها أو بعدها الرواية

التمثيلية التي هي أسبق من صاحبتها إلى الظهور، فتهجر الشعر إلى النثر، والخيال إلى الدقة، وتدرس النفس والمجتمع دراسة القصة لهما، لا تكادان تختلفان إلا شكلاً وطريقة تناول. فصاحب الرواية التمثيلية يترك أبطاله يرسمون شخصياتهم وأخلاقهم بأفواههم، وصاحب القصة لا يدعهم يفعلون ذلك إلا إلى مدى؛ ثم هو يتولى عنهم الشرح ويحللهم تحليلاً دقيقاً، ويكون من الأدباء من يجمعون بين كتابة الرواية التمثيلية والقصة المقروءة.

كان للإنجليز قصصهم وأخبارهم وأساطيرهم قبل أن يتحضروا كما كان لغيرهم من الشعوب. وكان كل ذلك يتداول شفاهاً، فلما تحضروا وعرفوا الكتابة كان الشعر كعادته أسبق إلى الرقي، فظهرت فيه قصص تشوسر المسماة حكايات كنتربري، ثم ارتقت الرواية التمثيلية في عصر إليزابث على يد شكسبير ومعاصريه رقياً عظيماً؛ وبدأت القصة النثرية في مرحلتها الثانية، فاتخذت وسيلة لغيرها: اتخذها صاحب كتاب (يوفيواس) وسيلة لشراح آداب الجنتلمان، واتخذها مؤلف (يوتوبيا) وسيلة لتصوير المدينة الفاضلة، واتخذها كاتب (أطلانطس) وسيلة لبسط النظريات العلمية، وفي كل هذه كان الفن هزيلاً والشخصيات مطموسة أو معدومة والسياق متداعياً.

ثم تهيأت الأسباب الاجتماعية والمادية والمعنوية سالفة الذكر اللازمة لدخول القصة طورها الثالث، طور الفن المنسجم المهذب الذي يتوفر على تحليل النفس ودرس المجتمع، وذلك في أوائل القرن الثامن عشر، وقد بدأ ذلك التطور تدريجياً كما هو الشأن في كل تطورات الطبيعة والمجتمع الإنساني، فانسلخت القصة رويداً رويداً عن المقالة الاجتماعية التي كانت منتشرة إذ ذاك في الصحف الدورية على أيدي ستيل

وأديسون: كانت تلك المقالة تهتم بالأحوال الاجتماعية، وتتعرض لشخصيات المجتمع تحللها، وأولعت بشخص واحد يدعى سير رودجر، تتتبعه في شتى المواقف وتنطقه بشتى الملاحظات وتحيطه بمختلف الشخصيات، فكان من مجموع تلك المقالات قصة ذات تصميم وشخصيات وبطل وحوار ووسط اجتماعي وهلم جرا، ولم يبق أمام الكتاب الذين جاءوا بعد أديسون وستيل، إلا أن يزيدوا التصميم إحكاماً والحوار تسديداً والشخصيات بروزاً.

وكان تاريخ القصة بعد ذلك خلال القرنين السالفين تاريخ تطور ورقي مستمرين، أحكمت أوضاعها وتعددت ضروبها وتتابعت أزياؤها، وظهر فيها كبار المؤلفين رجالاً ونساء: منهم

فيلدنج وديفر وسمولت كتاب قصص المغامرات، وجين أوستن وشارلوت برونتتي ومسز جاسكل مؤلفات قصص المجتمع، وسكوت صاحب القصص التاريخية، ودكنز وبتلر أصحاب القصص الإصلاحية، وكونان دويل مخترع القصص البوليسية الذي صير اسم شرلوك هولمز علماً على ذلك الضرب من القصص، إلى غير هؤلاء من القصصيين الذين لا يحصون، وإلى غير تلك من ضروب القصص التي لا تستقصى. وفي تلك القصص تناول القصصيون أطراف الحياة المتباعدة وأمتعوا النفوس وأرضوا الفن، وما زالت القصة في صعود وكأنها لما تبلغ ذروتها.

وفي خلال ذلك الوقت كانت الرواية التمثيلية تتطور وتبعث بعثاً جديداً، على صورة مماثلة للقصة المقروءة، قوامها النثر السهل المرسل والواقع الحاضر، ومرماها درس المجتمع والشخصيات وتحليل الآراء والمذاهب، وظهر في مجالها أرنولد بنيت وبرناردشو وجالزورذي وغيرهم، وإلى الأخيرين يعزى الفضل في كثير من الإصلاح الذي طرأ على النظم الاجتماعية والمذاهب الفكرية في الجيل الأخير، حتى شبه شو بمكنسة كهربائية ذهنية، تنقي أوضار العقول من خرافات وتعصب وحماقات وتقاليد فاسدة.

وكان للعرب في جاهليتهم قصصهم وأخبارهم وأيامهم وأساطيرهم، متداخلاً كل ذلك في شعرهم ونثرهم، مختلطا بثقافتهم ودينهم، وقد تخلف كثير من ذلك بعد ذهاب الجاهلية، وظل مختلطاً بالأدب ممتزجاً بالتاريخ، يظهر في كتابات الجاحظ والأصمعي والطبري والاصبهاني، وغيرهم من الكتاب والمؤرخين على السواء؛ وحيكت نوادر جديدة حول أعلام الحب والحرب، وكابن أبي ربيعة وأبي نؤاس وعنترة ومهلهل؛ وحوى القرآن الكريم طرفاً جليلاً من شائق القصص، وما زالت السور المحتوية على قصص يوسف ومريم ونوح من أقرب سور القرآن إلى نفوس الخاصة والعامة؛ ثم انتشرت الكتابة وذاع النثر الفني، فدخل القصص طوره الثاني: الطور الذي فيه يستخدم وسيلة لغيره، فاتخذ في كليلة ودمنة وسيلة لبث الحكمة، وفي رسالة حي بن يقظان ذريعة لشرح مسائل الفلسفة، ولا حاجة إلى القول بأن خصائص القصة الفنية في هذه الكتب وأمثالها كانت ضعيفة واهية.

ثم تمهدت بعض أسباب دخول القصة في طورها الثالث الفني: باستقرار الحضارة والرفاهة، ونضج الثقافة ورواج سوق الأدب وكان ذلك في القرن الرابع، فبدأت تنمو بذور

القصة الفنية التي تدرس المجتمع وتحلل الشخصية وتهتم بالتصميم الفني والفكرة الموحدة، ويبدو كل ذلك في مقامات بديع الزمان، فهذا الكاتب يمثل في العربية من هذه الوجهة مكان أديسون وستيل في الإنجليزية، وقد أبدى في ثنايا مقاماته من نفاذ النظرة وبداعة الوصف وبراعة الفكاهة وتنوع الموضوعات ما هو جدير بأسمى أنواع القصص؛ واخترع شخصية أبي الفتح الإسكندري فكان على الأرجح المؤلف العربي الوحيد الذي أخترع شخصية شائقة واضحة من صنع الخيال المجرد. ولم تكن شخصيات المقامات التالية فيما بعد إلا نسخاً مكررة منه لا ابتكار فيها، وشخصية أبي الفتح الإسكندري تعين من مراحل تطور القصة العربية نفس المرحلة التي تعينها شخصية سير رودجر ديكفري من تطور القصة الإنجليزية.

فمقامات البديع في الأدب العربي بمثابة مقالات أديسون وستيل في الأدب الإنجليزي: تعين بدء ظهور القصة الفنية الاجتماعية التحليلية، بيد أن تطور القصة العربية وقف عند هذا الحد لا يتخطاه. ولم يبلغ مرحلته التالية، لأن الأسباب اللازمة لذلك لم تكن

مكتملة: فالمقامات ذاتها قد ظهرت متأخرة، ظهرت في أوج رقي الأدب العربي في القرن الرابع. وكان أجدر أن تأتي متقدمة في القرن الثاني مثلاً، فيليها باقي التطور المنشود الذي تلا مقالات أديسون وصاحبه في الإنجليزية. وما ذاك إلا لنزعة الجمود والتقليد التي كانت دائماً مخيمة على الأدب العربي، تمنع المغامرة الأدبية والابتكار والتنويع في الأشكال والموضوعات، وفقدت المقامات بعد بديع الزمان صبغتها الاجتماعية وأصبحت لعباً بالألفاظ والمعاني.

أضف إلى نزعة الجمود تلك استمرار اعتماد الأدب على الأمراء دون جمهور الشعب، قلما يصور رجاله مشاكل الشعب، قلما يصور رجاله مشاكل الشعب أو يحاولون الأخذ بيده وقيادة طريقه: فالحريري مثلاً حين تتابع بديع الزمان وكتب مقاماته لم يكتبها بداع من داخل نفسه يدعوه إلى تناول مشاكل المجتمع ومطامع الشعب بالدرس ولعرض والإصلاح والتوجيه، بل امتثالاً لإشارة بعض الأمراء ممن (إشارته حكم، وطاعته غنم) كما يقول هو في مقدمته ومحال أن ترقى القصة الاجتماعية في مجتمع أدباؤه متنصلون من مشاكل شعبه لائذون بظل أمرائه.

زد على ذلك مكانة المرأة في المجتمع، التي كانت قد بلغت قبل أن يكتب البديع مقاماته حداً من التدهور بعيداً، بعد ما كان من امتداد الفتوح واختلاط الأجناس وتفشي التسري والعبث. فضرب على المرأة الحجاب، وخيم عليها الجهل واعتزلت المجتمع، والمجتمع بغير المرأة لا يخرج القصة الفنية التي تدرس الحب وتقدس الزواج وتشرح العواطف، وإنما ينتج الشعر المستهتر البذيء كشعر بشار وأبي نؤاس. وقد كان إنهاض حال المرأة نصب عيني أديسون وستيل وغيرهما ممن تلاهما من القصصيين كما كان الحب مداراً أكثر القصص، كما كان من النساء جم غفير من القصصيات كما تقدم.

وإلى نزعة التقليد التي كانت تسود الأدب العربي، كان ذلك الأدب ينزع إلى الصنعة اللفظية: فمقامات البديع ذاتها مثقلة بالصنعة والمحسنات، ولا غرو، فإذا كان الأدب قد تخلى إلى حد بعيد عن مشاكل المجتمع، فلم يبق له من مواد القول إلا النذر اليسير، فلما أعوزه الافتنان في المعاني التفت إلى اللاعب باللفظ، وإلى هذه الزركشة اللفظية قصد الحريري أول ما قصد في محاكاته للبديع، ولم يفكر قط في ابتكار جديد من جهة المعاني والأفكار ولم يحاول الزيادة عليه من جهة تناول الموضوعات الاجتماعية، بل اكتفى بالتقليد الشكلي، فجعل في كل مقامة شخصين يروي أحدهما عن الآخر، وتنقسم المقامة بذلك إلى قسمين. دهليز للقصة كما يقول العامة، والقصة ذاتها التي تبدأ بظهور البطل، ولم تجئ شخصية بطله في وضوح شخصية أبي الفتح وتعدد نواحيها.

فحالة المجتمع العربي، ونظام الحكم فيه، ومنزع الأدب العربي، كل هاتيك لم تكن ملائمة لتطور القصص إلى كماله، فوقف عند بدء الطور الثالث، وهو الطور الفني الصميم، فعرف الأدب العربي النوادر والأخبار والسير وما إليها، وعرف الحكايات ذوات المغزى العلمي أو الخلقي، ولم يعرف القصة الاجتماعية والنفسية ذات التصميم المحكم والشخصيات الواضحة، والفكرة الموحدة والغاية المستقلة والموضع الفني، ولم تسم القصة في الأدب العربي إلى منزلة عالية كالتي تمتع بها الشعر والخطابة والنقد، وظل للشعر المكانة الأولى وبقى مستأثراً بأكثر ضروب القول، ولم يظهر في القصة من الأعلام أمثال من ظهر في الشعر والنقد والخطابة، وترك القصص المطول الحافل بالوصف الاجتماعي والخيالي العامة.

فخري أبو السعود

نقل الأديب

للأستاذ محمد اسعَاف النشاشيبي

في النيل - 13

في (حلبة الكميت): ركب الأمير تميم في النيل متنزهاً فمرَّ ببعض الطاقات المشرفة فسمع جارية تنشد شعراً:

نبهتُ نَدماني بدجلة مَوْهناً ... والنجم في أفق السماء معلق

والبدر يضحك وجهه في وجهها ... والماء يرقص حولها ويصفق

فأستحسنهما تميم وشرب عليهما، وما زال يستعيدهما ويشرب حتى انصرف وهو لا يعقل سكراً. فلما أصبح قابلها بهذين البيتين:

شربنا على النيل لما بدا ... بموج يزيد ولا ينقص
كأنَّ تكاثف أمواجه ... معاطفُ جارية ترقص
14 - شهادة. . .
كان أبو عيسى بن الرشيد يقول لعمه إبراهيم بن المهدي:
السكر على صوتك شهادة يا عم. . .
15 - أتكابر إبليس؟
في (محاضرات الراغب): قال أبو نُؤاس: كنت يوماً في الحمام فقلت قصيدة وفيها:
فتمشت في مفاصلهم ... كتمشي النار في الفَحَم
ولم يكن معي أحد فتراءى لي شبح فقال: قطع الله لسانك فإنك لا تفلح! أتقول مثل ما يقول العوام؟ ألا قلت:
فتمشت في مفاصلهم ... كتمشي البرء في السقم
فقلت: هكذا قلت
فقال: أتكابر إبليس؟؟
16 - أحسن الجواب
قال أبو العيناء: قال لي الخليفة المنتصر يوماً: ما أحسنُ الجواب؟
فقلت: ما أسكت المبطل، وحيّر المحق
فقال: أحسنت والله!
17 - بالله ألا رحمت غربتها
في (اليتيمة): حكى أبو الخطاب بن عون الحريري النحوي الشاعر أنه دخل على أبي العباس النامي قال: فوجدته جالساً ورأسه كالثغامة بياضاً، وفيه شعرة واحدة سوداء، فقلت له: يا سيدي، في رأسك شعرة سوداء
فقال: نعم، هذه بقية شبابي وأنا أفرح بها، ولي فيها شعر. فقلت: أنشدنيه، فأنشدني:
رأيت في الرأس شعرة بقيت ... سوداء تهوى العيون رؤيتها
فقلت للبيض إذ تروّعها ... بالله ألا رحمت غربتها!
فقلَّ لبث البياض في وطن ... تكون فيه البيضاء ضرتها
ثم قال: يا أبا الخطاب، بيضاء واحدة تروِّع ألف سوداء، فكيف حال سوداء بين ألف بيضاء؟
18 - المقادير تصير العي خطيباً
قال الطبري في تاريخه:
يحكى أن الحجاج ذُكر عنده رجل بالجهل فأراد اختباره
فقال: أعظامي أم عصامي؟ أراد أشرفت بآبائك الذين صاروا عظاماً أم بنفسك
فقال الرجل: أنا عصامي عظامي، فقال الحجاج: هذا أفضل الناس، فقضى حوائجه. ومكث عنده ثم فتشه فوجده أجهل الناس. فقال له: تصدقني كيف أجبت بما أجبتني به حين سألتك عما سألتك؟
فقال: لم أعلم أعصامي خير أم عظامي، فخشيت أن أقول أحدهما، فقلت كليهما، فإن أضرني أحدهما نفعني الآخر
فقال الحجاج عند ذلك: المقادير تصير العيَّ خطيباً
19 - إذا تمت صارت سياسة
في تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء لهلال بن المحسن الصابي قال أبو الحسن بن الفرات:
أصل أمور السلطان مخرقة فإذا تمت واستحكمت صارت سياسة
20 - بكت رحمة للورى بالدم
قال أبو الأصبع بن رشيد الأشبيلي لما هطلت بأشبيلية سحابة بقَطْر أحمر في يوم السبت الثالث عشر من صفر عام (564):
لقد آن للناس أن يقلعوا ... ويمشوا على السنن الأقوم
متى عهد الغيث (يا غافلا) ... كلون العقيق أو العندم
أظن الغمائم في جوها ... بكت (رحمة للورى) بالدم
21 - اقرأ قرآنك
قال الشاطبي في (الاعتصام):

كان في الزمن القريب رجل يقال له الفزارة أدعى النبوة وأستظهر عليها بأمور موهنة للكرامات والإخبار بالمغيبات، ومخيلة لخوارق العادات، تبعه على ذلك من العوام جملة. وكان مقتل هذا المفتري على يد أبي جعفر بن الزبير.

قال الحسن بن الجباب: لما أمر بالتأهب يوم قتله، وهو في السجن الذي أخرج منه، جهر بتلاوة سورة (يس) فقال له أحد الدعار ممن جمع السجن بينهما: إقرأ قرآنك، لأي شيء تتفضل على قرآننا اليوم؟ فتركها مثلاً بلذوعيته،

22 - تعالوا نتكرم اليوم

قال أبو الحسن القروي يوماً لندمائه: تعالوا نتكرم اليوم

فقالوا: وأي يوم لا يتكرم فيه سيدنا؟

قال: قولي (نتكرم) من (الكرْم) لا من الكرَم

قالوا: وكيف؟

قال: نأكل سكباجة وحصرمية، وحلوى دبسية ونشرب العنبي. ونتنقل بالزبيب، لنكون قد استوفينا مرافق الكرْم ومنافعه

قال بعضهم: ينبغي أن نستوقد بقضبانه أيضاً ليتم التكرم.

فقال: أحسنت وجودت، وأمر بذلك كله وطاب يومهم

23 - إن غبت عنا دخل الصبح

قال القاضي الفاضل:

بتنا على حال يسر الهوى ... وربما لا يمكن الشرح

بوابنا الليل وقلنا له: ... إن غبت عنا دخل الصبح!

24 - صدق الأمير

في شرح (النهج) لأبن أبي الحديد:

ناظر المأمون محمد بن القاسم النوشجاني في مسئلة كلامية، فجعل النوشجاني يخضع في الكلام ويستخذى له، فقال: يا محمد، أراك تنقاد إلى ما أقوله قبل وجوب الحجة لي عليك وقد ساءني ذلك منك، ولو شئت أن أفسر الأمور بعزة الخلافة وهيبة الرياسة لصدقت وإن كنت كاذباً، وعدلت وإن كنت جائراً، وصوبت وإن كنت مخطئاً؛ ولكني لا أقنع إلا بإقامة الحجة، وإزالة الشبهة؛ وإن أنقص الملوك عقلاً وأسخفهم رأياً من رضى بقولهم: صدق الأمير. . .

25 - هناك والله قرارة اللؤم

وقف إعرابي فسأل قوماً فقالوا: عليك بالصيارفة.

قال: هناك (والله) قرارة اللؤم

26 - كبرت

في (نفح الطيب):

قال أبو محمد بن حزم الحافظ: كنت يوماً في مجلس الرئيس الفقيه أبي بكر بن زهر، فدخل علينا رجل عجمي من فضلاء خراسان، وكان ابن زهر يكرمه، فقلت له: ما تقول في علماء الأندلس وكتابهم وشعرائهم؟

فقال: كبرت!

فلم أفهم مقصده، وأستبردت ما أتى به؛ وفهم مني أبو بكر ابن زهر أني نظرته نظر المستبرد المنكر.

فقال لي: أقرأت شعر المتنبي؟

قلت: نعم: وحفظت جميعه.

قال: فعلى نفسك (إذن) فلتنكر، وخاطرك بقلة الفهم فلتتهم، فذكرني بقول المتنبي:

كبرت حول ديارهم لما بدت ... منها الشموس وليس فيها المشرق

فأعتذرت للخراساني وقلت له: قد (والله) كبرت في عيني بقدر ما صغرت نفسي هندي حين لم افهم نبل مقصدك.

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب

- 1 -

هل الفلسفة الإغريقية وليدة الفلسفة الشرقية؟

تمهيد

تشغل الباحثين منذ أقدم عصور التاريخ مشكلة لم يهتدوا إلى حلها حتى اليوم حلاً حاسماً يقف تيار الاعتراضات من الجهات المعارضة. وإن كانت بحوث المستشرقين والمستمصرين في العصر الحديث قد وصلت إلى ترجيح إحدى كفتي الميزان في هذه الفكرة العويصة التي يترتب عليها تغيير اتجاه الحكم على اليونان وعلى الشعوب الشرقية القديمة إلى ناحية غير التي كان يسير فيها قبل ظهور نتائج هذه البحوث. تلك المشكلة هي: هل الفلسفة اليونانية ابتدعت في يونان وليس لها أية صلة بالشعوب الشرقية؟ أو هي تراث نظمه الإغريق؟ وإذا كانت الأولى، فهل يرجع مبدؤها إلى القرن السادس فقط كما زعم (أرسطو) حين قرر أن (تاليس) هو أول الفلاسفة جميعاً؟ أو يمكن اصعاد الفلسفة إلى عصور غابرة إغريقية محضة؟ وإذا كانت الثانية، فما هو أول تلك الشعوب الشرقية الذي نشأت الفلسفة بين ربوعه؟

قرر أرسطو أن الفلسفة نشأت للمرة الأولى في تاريخ العقلية البشرية في تلك المستعمرة اليونانية التي تدعى (أيونيا) والتي سبق أن أسسها قوم من الإغريق القدماء الذين هاجروا في عصور ما قبل التاريخ إلى آسيا الصغرى وأسسوا بها تلك المدن التي لم يلبث الإغريق الأصليون أن احتلوها وبسطوا عليها سلطانهم السياسي والأدبي، فأفسحوا بذلك الطريق أمام العقل الإغريقي الجبار، وحلوا عقاله الذي كان قد أمسكه في آسيا عن الصولان في عصور ما قبل الاستعمار الجديد. وأول من بدأت العقلية الإغريقية القديمة تتمثل فيه هو: (تاليس المليتي) أول فيلسوف في الدنيا. وإذاً، فالفلسفة إغريقية الأصل والعنصر، وهي لا تصعد في رأي أرسطو إلى ما وراء القرن السادس قبل المسيح، ولكن (ديوجين لاإرس) المؤرخ الإغريقي الشهير الذي عاش في القرن الثالث قبل المسيح يحدثنا في كتابه (حياة الفلاسفة) عن فلسفة المصريين والفرس في العصور الغابرة حديثاً ممتعاً يدل دلالة قاطعة على أن الشرق قد سبق الغرب إلى الفلسفة بزمن بعيد. وأنه كان أستاذه في كل ما وراء الطبيعة كما كان أستاذه في العلوم الطبيعية والرياضية بأنواعها، وأن الغرب جلس في الأزمان المظلمة مجلس التلميذ المستلهم من الشرق العالم المستنير.

فأنت ترى تعارض هاتين الفكرتين وتصادمهما منذ أكثر من ثلاثة وعشرين قرناً، وترى كذلك أن لكل منهما أشياعاً ومؤيدين، ففريق يسلك منهج أرسطو فيؤكد أنه ليس للشرقيين فضل في هذه الثروة العقلية العظيمة إلا ما ظهر لفلاسفتهم بعد الإسلام من مجهودات في شرح الفلسفة اليونانية وتوجيهها؛ أما في العصور الأثرية فلم يعرف التاريخ عنهم إلا الدين المقيد بالوحي ولم يحفظ لنا عنهم مجهودات شخصية تشرف العقلية البشرية، بل إنهم نسبوا كل شيء عندهم إلى السماء، حتى تلك المتناثرات الأخلاقية المنتزعة من الفضائل العملية والمصوغة في حكم مقتضبة، ويتخذون دليلاً على هذا ما تزدحم به كتب التاريخ من ازدهار الدين وإجداب الفلسفة في الشرق كل هذا الوقت الطويل الذي تلا العصور الأثرية، ويقولون: إنه لو كان للشرق فلسفة لشملها ناموس التقدم ولشاهد العالم تطوراتها المختلفة كما حدث في بلاد الإغريق. ومن أشهر أصحاب هذا الرأي في العصور الأخيرة (بارتلي سانت - هلير) إذ يقول في مقدمة ترجمته (للكون والفساد) ما نصه: (أما من جهة الفلسفة الشرقية فإننا لا نعرف، بل ربما لن نعرف أبداً من أمرها شيئاً معيناً بالضبط فيما يختص بعصورها الرئيسية وانقلاباتها، فإن أزمنتها وأمكنتها وأهلها تكاد تعزب عنا على سواء. إنها مستعصمة دون إدراكنا مدعاة للشكوك لما يغشاها من كثيف الظلمات، حتى لو عرفنا منها هذه التفاصيل مع الضبط الكافي لما أفادنا ذلك إلا من جهة إرضاء رغبتنا في الاطلاع دون أن يتصل بنا أمرها كثيراً. إن الفلسفة الشرقية لم تؤثر في فلسفتنا مع التسليم بأنها تقدمتها في الهند وفي الصين وفي فارس وفي مصر فإننا لم نستعر منها كثيراً ولا قليلاً. فليس علينا أن نصعد إليها، لنعرف من نحن ومن أين جئنا

ثم قال:

ولقد تصديت فوق ذلك لتبيين أن العبقرية الإغريقية هي التي دانت العالم بهذا النفع العلمي

الجليل دون أن تكون مدينة فيه لغيرها، فإذا كانت الشعوب المجاورة لها آتتها شيئاً من العلم فما هو إلا مدد مبهم غاية في الإبهام. لا مراء في أن المصريين والكلدان والهنود لهم في ماضي الإنسانية مقام كبير، ولكنهم مع ذلك في الفلسفة أو في العلم بعبارة أعم ليسوا شيئاً مذكوراً في جانب الإغريق الذين لم يكونوا ليتعلموا منهم.

وقال أيضاً: (وإن العلم على جميع صوره كان معدوماً في الشرق فأخترعه الإغريق ونقلوه إلينا).

ولهذا الرأي مقلدون في مصر كما هي الحال في كل فكرة تطعن على الشرق.

وفريق آخر يذهب إلى ما نقله (لاإرس) من أن الفلسفة الإغريقية ليست إلا تراثاً شرقياً متغلغلاً في القدم ويستندون في هذا إلى براهين أهمها ما يأتي:

1 - إن جهود المستشرقين قد وضعت أمام أنظارنا مدنيات شرقية ضاربة في التقدم بسهم نفاذ كمدنيتي مصر والعراق مثلاً، وأنبأتنا بأن هذه المدنيات سابقة على مدنية الإغريق بعدة قرون. وأثبتت لنا علائق متينة بين بعض ما تحتويه هذه المدنيات وبين الفلسفة الإغريقية ممثل علاقة نظرية (تاليس) الشهيرة القائلة بأن أصل الكون هو الماء بأنشودة خلق الكون الدينية العراقية التي تصرح بأن كل شيء في الكون منشئوه الماء إذ تقول في مطلعها ما ترجمته: (حين لم تكن السماء العليا بعد قد فازت باسمها ولم تكن الأرض هي الأخرى قد تسمت بهذا الاسم كان أبوهما: (أبسو) وأمهما (تياما) وهما: (الماء) أو جوهر كل شيء ممتزجين امتزاجاً تاماً قصد التناسل والإخصاب).

فإذا لاحظنا أن الأنشودة العراقية كانت قبل (تاليس) بعهد بعيد، وأن سيادتها في القرن السادس قبل المسيح كانت على أتم ما تكون قوة وتغلغلاً في النفوس، ولاحظنا الصلات التجارية والاجتماعية في ذلك العصر بين العراق وأيونيا استطعنا أن نرجح في سهولة كفة تأثر تاليس بتلك الأنشودة العراقية القديمة، بل استطعنا أن نجزم بأن من المستحيل أن يكون تاليس قد ابتدع نظريته في أصل الكون.

2 - إن العلماء المشتغلين بالبحث في الإنسان وخواصه والفروق الموجودة بين طوائفه المختلفة قد قرروا أنهم التقوا أثناء بحوثهم بأدلة قاطعة على أن بعض النظريات الإغريقية لا يمكن أن تكون من أصل إغريقي، لأنها توفرت فيها جميع شرائط العقلية الشرقية وخواصها.

3 - إن الباحثين الأثريين قد عثروا على كلمات: العدالة والفضيلة والنفس الحياة الأخرى في الشرق قبل مبدأ تاريخ وجودها في الغرب بقرون لا يعرف مداها، بل إنهم قد تأكدوا من أن الغرب لم ينطق بهذه الكلمات إلا بعد اختلاطه بالشرق.

4 - إن علماء الرياضة قد فرغوا من تقرير أنه من غير الممكن أن تبنى الأهرام في بلد لم تقطع فيه الهندسة العلمية أشواطاً بعيدة.

وفي هذا رد بليغ على الذين يزعمون أن مصر لم يكن فيها هندسة علمية، وإنما كان فيها هندسة عملية فحسب.

5 - هناك أدلة أخرى لم تصل من القوة العلمية إلى ما وصلت إليه الأدلة السابقة، وإن كان أنصار هذا الرأي يستأنسون بها مثل رحلة تاليس إلى مصر والشرق الأقصى، ومثل وجود العناصر الأولى من منطق أرسطو في المدارس الهندية السابقة لعصره، ومثل وجود الكلام عن الجوهر الفرد في المدارس الهندية كذلك أو وجود فكرة التناسخ عند المصريين والهنود وغير ذلك ممن يسند هذا الرأي الأخير ويقويه.

إذا عرفنا كل هذا وتبينا أن هذه الفلسفة اليونانية العظيمة إنما هي وليدة الأساطير الشرقية. فقد وجب على كل باحث في الفلسفة أن يبدأ بحوثه بفلسفة هذه الشعوب الشرقية، ليكون على بينة من العناصر الأساسية التي تكون منها الجسم المراد درسه غير أن هناك عقبات ومصاعب اعترضت ولا تزال تعترض سبيل دارس الفلسفة الشرقية وتقفهم موقف الحروجة والعسر مثل:

1 - ما يزعمه بعض المتحاملين من المحدثين من أن فكرة بدء الخلق في الشرق تستمد عناصرها من الدين أكثر مما تستمدها من الفلسفة: وإن شئت فقل: إن الدين والفلسفة في الشرق شيء واحد، ولهذا لم يعرف للتاريخ نظرية فلسفية ظهرت في الشرق القديم مستقلة عن الدين، وإنما مهد النظريات الحرة البعيدة عن كل التأثيرات

الدينية من غير استثناء هو بلاد الإغريق. وهذا هو الباعث الأول الذي قلل من أهمية دراسة الفلسفة الشرقية في نظر علماء العصور الحديثة وحط من قيمتها عندهم.

2 - إن المصادر التي وصلت إلينا عن فلسفة تلك الشعوب الشرقية قليلة لا تكفي لإشباع الرغبة العلمية عند الدارس المتقصي الذي لا يرضى من المشكلة بأقل من الإحاطة بجميع نواحيها، وإن كانت هذه الندرة في المراجع لم تحل بين الباحثين المحدثين وبين معالجة هذه الفلسفة الشرقية ووضع المؤلفات الضخمة عنها مثل كتب:

(أ) تأليف (ماسون أورسيل) وقد ظهر في سنة 1923 (هيكل تاريخ الفلسفة الهندية).

(ب) تأليف (أولتترامار) ظهر في سنة 1923 (تاريخ فكرة وحدة الوجود الهندية).

(ج) تأليف (دينيس سورا) ظهر في سنة 1924 (تاريخ الديانات).

(د) تأليف (س. كوسان) ظهر في سنة (الجيوفية القديمة) :(أصول الديانة الإسرائيلية) 1931.

(هـ) تأليف (زانكير) ظهر في سنة 1933 (تاريخ الفلسفة الصينية).

على أن هاتين العقبتين المتقدمتين لا تمنعاننا من أن نعتبر دراسة الفلسفة الشرقية هي أول ما يجب على المشتغل بدراسة الفلسفة الاعتناء به، أما امتزاج الفلسفة بالدين الذي كان من عوامل حروجة دارس موقف الفلسفة الشرقية فسنجتهد في حله بأن نعين مهمة كل من هذين الممتزجين اللذين عقد امتزاجهما الموقف وجعله من المشاكل العويصة.

ولكن قبل أن نعالج هذا الموضوع ينبغي لنا أن نشير إلى أن تلك العقبة الأولى الناشئة عن امتزاج الفلسفة الشرقية بالدين ليس مسلماً بها من جميع العلماء والباحثين المحدثين، إذ يصرح بعضهم بأن هذا الامتزاج ليس خاصاً بالشرقيين في العصور القديمة، وإنما هو طبيعة إنسانية عامة كما وجدت في مصر والعراق في الأزمان الغابرة، كما وجدت كذلك في أوربا في القرون الوسطى. وليس القديس (أوجستان) والقديس (توماس) والقديس (أنسلم) - وهم من مشاهير فلاسفة المسيحيين في أوربا - إلا مظاهر لهذه الفترة البشرية التي نشأت على مزج الدين بالفلسفة، بل إن (ديكارت) و (اسبنوزا) و (كانت) أنفسهم - وهم أعلام فلاسفة العصر الحديث - ليسوا إلا مظهراً آخر من مظاهر هذا الانعطاف الطبيعي. وإذاً، فرمى الشرق القديم وحده بهذه النقيصة - إن صح إنها نقيصة - ضرب من العنت والجور اللذين يجب أن يتنزه عنهما الباحث المحايد.

وسواء أصح الرأي الأول أم الثاني، فإننا سنحاول هنا أن ندرس الفلسفة الشرقية الممتزجة بديانات الشعوب التي ظهرت فيها، عاملين - كما قدمنا - على تمييز الفلسفة من العقيدة ما استطعنا إلى ذلك سبيلا.

وسنبدأ دراستنا بأقدم هذه الديانات الوثنية عهداً، وهي الديانة المصرية التي لم يعرف التاريخ أعرق منها في أغوار الماضي البعيد.

(يتبع)

الدكتور محمد غلاب

-

هتاف الشيطان

للأستاذ عبد المغني علي حسين

كنا في حجرة استقبال، بدار إنجليزية، بإحدى مدائن إنجلترا، والفصل شتاء، والوقت ليل؛ فالستائر مسدلة، ونار الفحم موقدة، ونحن في غمرة من الدفء الشهي، ذلك الموج الخفي. في اللجي الأثيري. وكانت الطبيعة في تلك الليلة غضبى والريح تهب من جميع الجهات إلى جميع الجهات، يجن جنونها فتثب على الشجر المنحف العاري تعركه عركاً وتكاد تمزقه وتشظيه، لولا تلويه، فتختلط زمجراتها بعويل الشجر. كانت الريح في الفينة بعد الفينة تهوي علينا من المدخنة، كأنما تبحث عنا جاهدة، فإذا استعصت عليها الأبواب والنوافذ لم تتحرج أن تأتي البيوت من سقوفها، فتنقض علينا تنفث في وجوهنا السناج والدخان. ثم ترتد من المدخنة لتكر على زجاج النوافذ تحصبه برشاش المطر.

كنا في الحجرة أثنين. أما الثاني فسيدة إنجليزية شقراء أرملة في نحو الخمسين، تنحني على النار فتجيل فيها العود، وتعتدل فتضع ساقاً على ساق، وتنظر إلى اللظى بعينين رماديتين حالمتين حزينتين- هي (صاحبة البيت) كما كنا نسميها- كنا نسمر سمراً متراخياً أكثره سكوت، إذ كان الحس موزعاً ما بين تخدير الدفء وتخويف الطبيعة. إلى أن حدث أمر أيقظ منا الحس. وأهاج النفس، فإذا هياج الطبيعة من هياج النفس كخطر النسيم من لفح الجحيم.

ذلك أنه كان على إحدى حوائط الحجرة لوحة فيها رسم فتى وفتاة كلاهما في نحو العشرين أو دونها، أما الفتى فكان صغير الجرم. في وجهه إشراق الذكاء. وفي هيئته جد وحيوية؛ يبسم للدنيا - الدنيا المخاتلة! وأما الفتاة فكانت ناهداً هيفاء بسمتها الحلوة خليقة أن تمحو مرارة الدهر، وتطرد الحزن من أقطار الوجود. شعرها مكور على رأسها على النمط الفكتوري؛ ثوبها طويل محكم يبدي من سحرها النسوي ما لا أظن العري يبديه؛ وقفتها فيها ميل من الدل والطراوة، وعيناها رماديتان حالمتان كان في الفتاة من سيدة الدار شبه، ولكنه ضئيل جداً.

لاحت منّي إلتفاتة إلى تلك الصورة، فقلت أسائل السيدة عنها وأجعلها موضوع حديث. فما إن فعلت حتى رأيتها وجمت وجوماً انقبض له صدري. قالت: (ألا تعرف من تكون الفتاة؟)

قلت (من؟) قالت (أنا). فلم أقل شيئاً، ولكني عجبت من فعل السنين، لئن كانت تلك هي هذه فإن الزمن لم يترك منها إلا بقدر ما ترك في جسم أبي الهول من شكل الأسد. لابد وأن تكون أهوال ألف عام قد حشدت في عمر هذه السيدة حتى صارت مما كانت إلى ما هي الآن.

قلت فمن الفتى الوسيم؟ قالت (زوجي) واغرورقت عيناها الحالمتان، ومن الغريب أن الدموع لم توقظهما من أحلامهما.

حسبت أنني آلمتها بذكرى هناء ذاهب. وحبيب غير آيب، فقلت متعثراً معتذراً: (أخشى أن أكون أدميت جرحاً عله كان اندمل. فقالت (لا أخال مثل جرحي يندمل. وتلا ذلك سكوت وجدته خيراً من الكلام، ووددت لو أن كلاماً لم يكن.

ثم رأيت السيدة تنظر إلي نظرة فيها حنان الأم، وإذا بها تقول: (أوصيك يا بني ألا تذوق الخمر أبداً، فإن كنت شربتها فلا تقربها بعد اليوم). فدهشت لهذا الكلام المفاجئ وعجبت له. قلت (ما هذا الذي تقولين؟) قالت (لقد كانت حياتي مأساة يؤلمني أن أقصها فأحياها من جديد، ولكنها عبرة نافعة لمن هو في سنك، فسأقصها عليك.

كان زوجي في أول عهدنا فتى جم المحاسن، شديد الحب لي وللأطفال، يهوى العش الذي بنينا، وكان في عمله مثال النشاط، جم الكفايات. وشاء الجد العاثر أن ينقل إلى وظيفة (بالجمارك)، فكانت مهمته تقدير المكوس على الخمر التي ترد من الخارج، ومرت الأيام فإذا بي أشم ريح الخمر في فم زوجي، فأبديت له مخاوفي، فطمأنني قائلاً إنه يسترشد في عمله أحياناً بتذوق عينات الخمر، وإنه إنما يفعل ذلك بحذر وما يتناوله لا يذكر. ومرت الأيام فإذا به يعود إلي يترنح من الشراب ثم لم يعد المحب العطوف البسام، بل صار غضوباً إذا كلمته رفع صوته بالجواب الخشن. ثم ازداد فكان لا يفرغ هراؤه ما دمت بمرأى منه. ثم استغلظ فصار يضربني ويضرب الأطفال. كل ذلك وأنا حافظة عهده، أكتم ما أنا فيه عن الناس ثم حدث ما لم يكن منه بد، ففصل من عمله لقلة كفايته وسوء خلقه، واستعجف عيشنا، فأكلنا ما ادخرنا في العهود السمينة ويعلم الله أننا ما كنا نأكل بمعشار ما كان ينفق في الشراب. ثم ساءت صحته، وألح عليه السعال، فكان يسعل الليل بطوله وأنا معه يقظى حتى الصباح.

وذات صباح انتبهت من غفوة فلم أجده في فراشه، فحسبت أنه بدورة المياه، ثم شممت رائحة غاز الاستصباح، فخفت أن يكون صنبوره بالمطبخ بات مفتوحاً فذهبت إلى هناك. فوجدت باب المطبخ مغلقاً، فعالجته حتى انفتح، وتراجعت إلى الوراء خشية الغاز السام، ثم نظرت أمامي فرأيت- . . ويا لهول ما رأيت. . .) وغطت وجهها بكلتا راحتيها وزلزل صدرها بنهنهة خفت أن تحطمه- قالت: (رأيته ممدداً في أرض المطبخ وقد استنشق من الغاز القاتل حتى قضي الأمر).

ثم كفكفت عبراتها، وهدأ صدرها، وجلسنا واجمين صامتين، كأنما الميت ممدد أمامنا ونحن لجلال الموت في خشوع. أردت أن أقول شيئاً أنفس به عنها فلم أجد ما أقول،

وماذا يقال في رجل قتل عقله بالشراب. وقتل نفسه بالغاز. عمد إلى أنفس ما أعطاه الله، وإلى أقدس ما أعطاه الله فدمرهما، ومرغ معه في رغام التعاسة سيدة فاضلة وأطفالاً بيض الصحائف.

وحان وقتت انصراف السيدة، فجلست وحدي، أنظر إلى نار الفحم، وإنها لأبرد من نار الصدور، وذهب بي الخيال مذاهب عجيبة، حتى لقد خلت أني أرى الشيطان نحيف الوجه مستطيله محروق الجلد طويل الأصابع أحمر العينين، في مجلس من أعوانه، في جوف بركان خامد، أول ظهور الإنسان على الأرض. قرض الشيطان بأنيابه المعوجة وقال: (ماذا ترون في الدمية التي صنع الله؟) مشيراً بإبهامه إلى أعلى حيث سطح الأرض. قال أحد الأعوان: (إن في رأس تلك الدمية) جوهرة تغشى بصري، لو اعتنى بها ذلك المخلوق، وتبع ضياءها ببصره، كاد أن يرى الله جهرة!). فازداد قرض الشيطان بأنيابه وصاح: (أريد جديداً أيها الأبله) فسكت الجميع زمناً ثم عاد الذي تكلم فقال: (والله ما أحسب ذلك المخلوق إلا مفلتاً من أيدينا بجوهرته تلك، فهي خليقة أن تسمو به إلى حيث النور، ولا يبقى في الظلام خائباً منبوذاً إلا نحن). فوثب عليه الشيطان وثبة فر أمامها فأخطاته. ثم عاد الشيطان إلى مقعده والشرر يتطاير من عينيه، وإذا بجني يهبط عليهم من فوهة البركان وهو يصيح: (أحطت بما لم تحيطوا به، وجئتكم بنبأ عظيم) فصاح به الشيطان: (والله لقد كنت أنتظرك أيها الملعون لأقطع أوصاك بعد هذا الغياب الطويل. قل فلعل عندك ما يشفع لك) فشرع الجني يقول: بصرت بقبيل من تلك المخلوقات البغيضة يعيشون في كهوف هذه الجبال، فتخيرت) واحداً منهم قوي الجسم مغروراً، فصرت أزين له الفتك بأقرانه، وفي ذات يوم رأيت امرأته تدق

الحب بالحجر لتطحنه، ثم وضعت الطحن في حفرة بالصخر وذهبت لبعض شأنها، فزينت لأولادها العبث، فحملوا الماء وكفئوه على الطحن، ثم أنسيت المرأة طحنها يومين ليفسد، فتصاعد منه ريح خانق. وفي اليوم الثالث حضر الرجل من الصيد ضمئاً يلهث، ونادى على المرأة لتسقيه ولم تكن المرأة بالكهف، فثار ثائره، وبحث عن ماء فلم يجد فانتهزت الفرصة وأرشدته إلى حفرة الماء والطحن ليشرب مما بها فيتسمم فيموت، فلما بلغ الحفرة نظر فيها وعاف رائحتها فزينت له الشرب منها، وكان ظمؤه بالغاً، فشرب قليلاً وسكت ثم عاد يشرب حتى امتلأ، وأنا أكاد أطير من الفرح، ثم رأيته يقوم مترنحاً يضحك ملء شدقيه، فعجبت، وإذا به يسير بين الكهوف يجري وراء النساء كالمجنون فيهربن منه مذعورات، ثم لقي امرأته فهجم عليها كالوحش وقتلها شر قتلة. ثم أخذ يقتل كل من صادفه من الرجال ويعتدي على النساء. ذلك الذي حسبته سيموت قد ازداد قوة وجرأة، وأخيراً ارتمى فنام، ثم صحا بعد ساعات فرجع إليه صوابه كما كان، فعلمت أن ذلك الشراب يفقد الرجل عقله إلى حين.

عاد الرجل إلى كهفه، فلما رأى الخابية مال عليها يكرع وأعاد سيرة الأمس، وتحدث أهل القبيل بهذا الأمر العجيب فجاء الرجال وكرعوا من الخابية، وجنوا مثل صاحبهم، وقد تركتهم ولا عمل لهم إلا صنع ذلك الشراب والعب منه، وتهتيك النساء، وتقتيل الرجال ولا أحسب قبيلهم بعد قليل إلا صائراً أثراً بعد عين)

فما إن سمع الشيطان هذا الحديث حتى وثب على المتكلم ولكن ليعانقه ويقبله. وتصايح الجمع صيحات الفرح، وأخذوا يرقصون ويقفزون. ثم رفع الشيطان يده فسكتوا فقال: (أيها الإخوان! لقد تجدد أملكم بذلك الشراب العجيب فانفروا إلى سطح الأرض. وانتشروا في المشارق والمغارب، وعلموا العدو الأبله صنع الشراب، وزينوا له شربه، فسيفرح الغبي به، ويذيب منه جوهرته اللعينة، فإذا شربه صار لعبة في أيدينا، وإذا أفاق اشتاق غليه فلا نزال به حتى نهلك منه الروح والجسد جميعاً، قولوا معي أيها الإخوان: لنحيي الخمر.

فتدفقوا وهم يرددون هذا الهتاف، ولا يزال هذا هتافهم إلى اليوم.

عبد المغني علي حسين

على أطلال الماضي

ساعة في. . . (سُرَّ مَنْ رَأى)

(في السنة الآتية يكون قد مر على إنشاء سر من رأى ألف ومائة سنة)

ع

الآن رجعت من التاريخ. إني أرى الدنيا صغيرة خابية لأني كنت في دنيا أكبر منها . . . وأحفل بالنور والعطر: كنت في (سر من رأى)!

جلست أدون رحلتي إلى الحلة (دمشق العراق) ووقوفي على أنقاض بابل (أخت الدهر) وزيارتي السدة الهندية (القناطر الخيرية الثانية) وما أولاني الحليون من ألوان المنن وأنواع الكرم. . . فلم أكد أمضي في المقالة حتى عرضت لي رحلة جديدة إلى سر من رأى. . . ومنذا الذي لا تفتنه سر من رأى؛ ولا تهيج بلابل أشواقه؟ ومنذا الذي نظر في كتب التاريخ أو شدا بشيء من الأدب ثم لا يعرفها ولا يحس أن لها صلة بنفسه؟

رددوا هذا الاسم الجميل عشر مرات بصوت خافت كأنه مناجاة النفس، بطيء كأنه هجس الضمير، وأنتم تنظرون بعيونكم إلى بعيد، تحدقون في غير شيء، فعل من يتذكر أمراً، ثم انظروا كم يثير في نفوسكم من ذكر وحوادث، وفكر وعواطف، أقل ما توصف به، إنها لا توصف، وكيف تحتويها كلمات وهي عالم؟ وكيف تنتظمها لغة الأرض وهي من لغة السماء؟ ومتى كان الإنسان ناطقاً مبيناً؟ إن هذه اللغة رموز ضئيلة، كائنات عظيمة؛ إن العواطف مئات ومئات وما ثم إلا كلمة واحدة. . . وكذلك الجمال والحب والطبيعة. . . لا. إن الإنسان لا يزال طفلا لم يتعلم النطق ولم يحسن البيان!

سر من رأى، وما سر من رأى؟ هي التي نهضت لبغداد لما كانت بغداد عاصمة الأرض. ولما بلغت غاية المجد وابعد الأماني، وبذت كل مدينة، وكان فيها مليونان من السكان، وكان فيها العلم والفن والسلطان. . . نهضت لها تزاحمها وتنافسها، فلم تكن إلا ليال حتى غلبتها وبهرتها، وتربعت على دجلة من فوقها، وسلبتها خلفيتها وأبهتها وحلة أبنائها، وكانت اجل منها وأعظم.

سر من رأى، المدينة الملوكية، التي ولدت فجأة فإذا هي أجل المدن، وإذا في كل ناحية منها عرش، وفي كل بقعة منها عرش، وإذا هي تتشح بالنور وتتضمخ بالعطر، وتنام على الزهر، وإذا هي تبلغ ما لم تبلغه من بعد الزهراء المدهشة، ولا فرساي. . .

ثم ماتت فجأة، فإذا كل ذلك حلم سريع وبرق خاطف. لم تعش إلا نحو خمسين سنة، (838 - 883) وما خمسون سنة في عمر المدن، إلا خمسون دقيقة، أفرأيت الجميلة التي ولدت بأعجوبة، فإذا هي الغادة الفتانة، ثم إذا هي تقضى بعد ساعة؟

لم تكن تزدهر وتستقر حتى نودي فيها بالرحيل والرجوع إلى بغداد، فهب الناس مذعورين، يحملون ما خف حمله وغلا ثمنه وتركوا المدينة العظيمة للرياح والوحوش واللصوص. . .

قرأت ذلك من حديثها، ثم لم أعد أعرف عنها شيئا، لم أدر ما صنع الدهر بها. . . وأين من يسأل عن الآثار ويبحث عنها؟ ومن يعرف اليوم ماذا جرى بالكوفة ومسجدها؟ والبصرة ومربدها؟ أو يعلم صفة القادسية أو اليرموك؟ من يسأل عنها وهذا مسجد بغداد العظيم، مسجدها الجامع، قد أبتلعته الدور وطغت عليه فلم يبق منه إلا منارته التي تقوم منحنية تبكي هذا المجد العظيم وهذا الماضي الفخم، وتنادي لو وجدت سميعاً: وما كان ذنب هذا المسجد، وما كان ذنب هذه الآثار، إلا إننا نحن وارثوها لا الفرنسيس ولا الإنكليز، أولئك الذين لم يدعوا في بلادهم شبراً من الأرض فيه جمال من جمال الطبيعة، أو أثر من آثار الماضي، إلا كتب عنه مؤرخوهم، ووصفه أدبائهم، وصوره مصوروهم، ونحن الذين أضعنا آثارنا الجليلة، وهدمناها بأيدينا لنبني بأنقاضها دورنا الحقيرة!

أسمعتم بالمدرسة النظامية التي درس فيها حجة الإسلام الغزالي والتي كانت من أكبر جامعات القرون الوسطى؟ أتدرون ماذا بقي منها! منارة مهدمة طولها أربعة أمتار، في زقاق عرضه ثلاثة أمتار، عند جامع مرجان في بغداد، والمنارة مائلة قد انحنت تحت أثقال دار قد ركبتها، وربما هدمت المنارة لتقام عليها الدار، فمن يدري؟ وأين من يدرس الآثار ويعنى بها؟ وهذا قصر الخضراء في دمشق، ما بقي منه إلا اسمه تحمله مصبغة، في زقاق القباقيب. يا لعجائب الزمان! صار مثوى التاج ومحط العرش زقاق القباقيب. . . فمن سأل عنه؟ ومن وصفه؟ ومن حفر في أنقاضه؟ أما لو أن هذه الآثار كانت لغيرنا، إذن لحرقت هذه البقاع حرقاً ثم أخرجت كنوزها، ثم ملأت نفوس أهلها

عزة، ثم كانت لهم أجنحة يطيرون بها في معارج العلاء. . . إن تحت هذه الأرض علماً ومجداً وجلالاً، ولكن ليس
فوقها من يحفل العلم والمجد والجلال!

أو ليس من أعجب العجب، يا قومي، أن آثارنا لم يبحث عنها ولم يكشفها إلا هؤلاء الأوربيون؟ إن في دمشق قريتين هما معلولا وجبعدين تتكلمان السريانية منذ خلقتا، فما فكر أحد في درس هذه اللغة ومعرفتها، حتى جاء هذا المستشرق الشاب، رايخ النمسوي من أخر الدنيا ليدرسها. . . بل هذه هي سر من رأى، ما نقب فيها وكشفها للناس إلا هرسفلد الألماني، الذي حفر فيها سنة 1911 كلها وبعض سنة 1913 بإشارة من أستاذه ساره وبنفقة المصرف الألماني وبعض كبار الألمان. بدأ الحفر في قصر المتوكل ثم انتقل إلى الجوسق، وإلى القصر المعروف بقصر العاشق، واستخرج من هذه البقعة الصغيرة كراثم الآثار ونفائس الأعلاق، التي انتقلت إلى ألمانيا، وبقيت لدينا نسخ معدودة من هذا الكتاب الجليل الذي أخرجه هرسفلد في مجلدات كثيرة فيه صور هذه الآثار باهرة مدهشة حقاً؛ وهو يصف في المجلد الأول نقوش الجدران وزخارفها، ويقول أنه لم تكن تخلو دار من هذه النقوش الجصية البارزة الملونة أحياناً؛ وفي الثالث الرسوم والصور، وأكثر هذه الصور مما وجد في حمام الجوسق، وقد حلت هذه الصور مشكلة قصر المشتى الذي كشف سنة 1908، ويتحدث في جزء عن الأواني الزجاجية والخزفية، وقد ظهر أنه كان في سر من رأى معمل الزجاج، ومعمل للأقمشة وجدت بعض قطع ملونة من مصنوعاته.

ومن أهم ما تمتاز به المدينة شوارعها، التي لا تكاد تحوي مثلها (اليوم) مدينة في العالم، فقد كانت كلها مستقيمة متقاطعة بانتظام عجيب، والشارع الأعظم، (وآثاره باقية) يمتد بعرض مائة متر، ودورها التي كان أكثرها كبيراً في خمسون غرفة، وفيه مجار الماء وبرك، ومجار أخرى للماء القذر، وحمامات وسراديب للصيف على نظام يكفل لها حسن التهوية، وكان أكثر الدور على طراز واحد، فهي ذات ردهتين: ردهة حيال الباب تفضي إلى ردهة أخرى مستطيلة، عمودية عليها والغرف من حولهما.

وقد صحب هرسفلد رجل عسكري يدعى (لودلوف) متخصص
برسم المصورات، صنع خريطة للمدينة مفصلة بنسبة
250001 وصحبه رجلان مختصان بالنقوش هما (بارتوس
وبيجر) على أن ما كشفه هرسفلد لا يعد شيئاً، والمتحف
العراقي عامل على موالاة التنقيب في الآثار، وجمعها في
متحف الآثار العربية، وينتظر ظهور أشياء هائلة.

سرنا إلى (سر من رأى) في قافلة مؤلفة من كبار طلاب (دار المعلمين العالية في بغداد) والدكتور كامل بك عياد (أستاذ التاريخ الإسلامي في الدار) و. . . أنا، فجزنا بالأعظمية، وعبرنا النهر إلى الكاظمية، ثم استقبلنا الفضاء.

ولم نقف في الطريق إلا على جسر حربي، وهو جسر قائم في الفلاة ذو ثلاث قناطر. عليه كتابة ظاهرة تدل على أنه بنى في أواخر العهد العباسي على نهر دجيل ليسقي مدينة حربي، فتلفتنا فإذا النهر قد جف والمدينة قد محيت والعهد العباسي قد انقضى، وإذا كل بلاد الله تتقدم وتزداد عمارة، وبلادنا تتأخر وتمعن في الخراب فوقفنا معتبرين. ومضينا مستعبرين.

ولم نسر من بعد إلا قليلاً حتى طلعت علينا (الملوية) وهي منارة جامع المتوكل، عالية تبدو من بعيد كالصرح الهائل، وقد شبهت مكانها من سر من رأى، ببرج إيفل من باريز، فهي علم البلد ورمزه. ثم بلغنا دجلة فعبرناه. ودخلنا (قرية) سامراء نستريح في مدرستها ساعة بعد مسيرة ثلاث ساعات في السيارة. ثم ولجنا حرم التاريخ، يصحبنا معلمو المدرسة الذين أولونا من أياديهم وأرونا من كرمهم وحسن أخلاقهم، ما نذكره لهم بالشكر، فلولاهم ما رأينا شيئاً، ولا عرفنا من أين ندخل أو نخرج في هذا العالم الواسع!

إي والله. هو عالم، وهو شيء عظيم جداً.

سرنا أكثر من خمسة وعشرين كيلاً، وما قطعنا إلا نصف البلد من المسجد الجامع إلى الدور العليا، وإن إلى الدور السفلي لمثلها، وإن هذا كله لنصف المدينة، وعلى الضفة الأخرى مثله.

أنا لا أستطيع أن أتصور كيف كانت هذه البرية الواسعة التي يضل فيها البصر، مدينة عامرة، وكيف كان الناس يقطعونها، وإن بين أولها وآخرها اليوم لمسيرة اثنتي عشرة ساعة على الراكب.

كان أول ما رأينا المسجد الجامع، وهو كبير جداً لو وضعت سامراء الحاضرة فيه لوسعها وفضل عنها، لم يبق منه إلا السور وهو مبني من اللبن مثل سائر الأبنية العراقية، تدعمه من ظاهره أبراج مستديرة، ووراء السور المنارة، وتعرف عند الناس بالملوية أي المستديرة، وهي حلزونية الشكل سلّمها من ظاهرها، مؤلفة من سبع طبقات، ارتفاعها (75) متراً، وتحتها قاعدة مربعة أقيمت حديثاً لتقويتها، طول الضلع من أضلاعها (40) متراً، فصار ارتفاع المنارة قريباً من (85) متراً وقد بنيت على غرارها منارة جامع ابن طولون في القاهرة، ثم تركت هذه الصفة في المآذن واتخذ لها سلم من جوفها.

تركنا المسجد وسرنا في وجهة واحدة، كيلا نضل في وسط هذه الأطلال، وكان حولنا تلال من التراب، كانت قبل ألف ومائة سنة، دوراً عامرة، وقصوراً فخمة، فجزنا بها حتى بلغنا أنقاضاً حولها سور كبير، أخبرنا بها معلم المدرسة أنها أنقاض قصر أم عيسى ابنة الواثق، وعلا بنا على تل عال وقال: انظروا. فنظرت فلم أر إلا برية واسعة. لا شيء فيها. . . فقال: أمعن، أنظر، وحدق في الأرض، ففعلت فرأيت شيئاً أدهشتي، وخفق له قلبي، رأيت تلالاً صغيرة منتظمة، على شكل دوائر متقاطعة على نمط هندسي بديع، تمتد إلى ما لا يدرك البصر آخره. . . فقلت وأنا مشدوه: ويحك ما هذا؟ قال: حديقة!

وأي حديقة هي؟ حسبي أن أقول: إنها شيء هائل!

ومضينا. . . نمر على الأطلال. حتى بلغنا آثار سور كبير جداً كأنه سور مدينة. . . فقال دليلنا: هذا بلاط الخليفة، فترجلنا وسرنا في طريق مبلطة باقية آثارها، ونحن نتخيل كم مر في هذه الطرقات من خلفاء وأمراء، وكم شهدت من جلال وجمال، حتى بلغنا مصيف المتوكل، وهو أول ما استقبلنا من القصور، ونسيت أن أقول إن البلاط بلدة واسعة، فيها عشرات القصور تبدو أنقاضها ناطقة بعظمتها، وفيها مسجد كبير، وفيها البركة المتوكلية المشهورة، بركة البحتري، فولجنا المصيف، وهو قصر كبير تحت الأرض، به غرفة محفورة فيها حفراً، وهي متصلة يفضي بعضها إلى بعض، ولها نوافذ كثيرة، تضمن لها حسن التهوية، وفي وسط القصر بركة. . . وقد كدنا نهلك من حرارة الشمس ونحن فوق الأرض، فلما هبطنا إلى جوف القصر كدنا نهلك من البرد. . .

وكان الصديق الأستاذ كامل بك يسرد فلسفته العلمية ويقص علينا قصة القصر وبناءه، وفنه وقيمته التاريخية ولكن واحداً منا لم يكن يصغي شيئاً أو يفهم شيئاً مما يقول. . . فكف وعلم أن الكلام الآن للقلب وعواطفه الحية، لا للعقل ومقاييسه الجافة، وفلسفته الباردة. . .

كنا نتخيل هذا القصر، وقد كان يعج بالحياة، ويفيض بالحب؛ كنا نسمع الأصوات، ونبصر الألوان، ونشم عبق العطر ونحس كأنا نرى الخليفة ونشهد مجالس الأدب والغناء، وخلوات الحب.

كم عاش في هذا المكان من عواطف! كم خفقت فيه من قلوب! كم امتلأ بالحياة. . . أفيؤدي ذلك كله بمثل هذه السرعة وهذه السهولة، ويشمله العدم ولا يبقى له وجود قط؟

أي امرئ عرف الحب، وكابده وأدرك معناه، ثم يؤمن بأن العدم يقوى عليه! لا. إن ذلك كله موجود! موجود في زاوية من زوايا هذا الكون الفسيح، إنه خالد لا يفنى أبداً، إن في هذا القصر ذكريات جمة، تحتويها هذه الجدران الخرساء، وهذا اللبن البارد، إن فيه صدى تلك الهمسات التي كانت تتناجى بها الشفاه؛ إن فيه خفقات تلك القلوب؛ إن فيه رنات تلك القبل.

إن سؤال الديار، واستخبار الأطلال، أقدم فنون الشعر العربي، فهل ترى الشعراء كلهم مجانين؟ أتراهم كانوا عابثين؟

لا. إن في هذه الأطلال الحياة. . . إن كل شيء في الوجود حي يذكر ويأمل ويشعر ويحلم، ولكنه لا ينطق ولا يفكر. . .

. . .آه. . . لو أن هذه الجدران كانت تنطق، وتتحدث وتصف ما تشعر به وخرجنا من القصر، ونحن نحس كأنا قد خرجنا من أنفسنا وانتقلنا إلى عالم آخر، عالم تمتزج فيه الأحلام بالحقيقة؛ عالم شعري ساحر. . . فمررنا على جب واسع للماء خبرنا دليلنا إن بعض الجاهلين من الإدلاء والتراجمة يدعون بأنه سجن، ويختلقون حوله الأكاذيب. . . وهؤلاء الإدلاء والتراجمة بلاء أزرق، وقد سمعت واحداً منهم يشرح لبعض الإفرنج تاريخ المسجد الأموي في دمشق، فقال لهم ما نصه: (هذه هي المنارة التي بناها الوليد بن هارون الرشيد لسيدنا عيسى، ولذلك سميت منارة عيسى) وهم يكتبون في دفاترهم ما يقول، فينشرونه على إنه كتاب علمي عن الشرق وأهله، وليس العهد ببعيد بتلك الكاتبة الفرنسية التي كتبت كتاباً عن دمشق قالت فيه: ويخرج أهل دمشق كل مساء لزيارة

!!قبر النبي في مكة القريبة من دمشق

أقول إننا سرنا إلى مسجد القصر. وقد حفر فيه هرسفلد واستخرج منه آثاراً رخامية ومحراباً جميلاً حملها إلى ألمانيا ثم انتهينا إلى البركة، ولست أكتم القراء إني كنت أظن أن البحتري يبالغ قي وصفها، على طريقة الشعراء الخياليين وأقرر ذلك في دروسي، وأقول ما عسى أن تبلغ هذه البركة، حتى تظل دجلة كالغيرى منها تنافسها وتباهيها. وحتى تبدو في الليل كان سماء ركبت فيها، وحتى أن السمك المحصور لا يبلغ غايتها لبعد ما بين قاصيها ودانيها! فلما رأيت أنقاضها رأيت شيئاً عظيماً. رأيت بحراً، رأيت ميدان سباق، دائرة قطرها نحو مائتي متر، فأكبرتها وهي جافة فكيف لو رأيتها وهي ممتلئة بالماء، ومن حولها الغرف المفروشة المزخرفة، وقد عقد فيها مجلس الخليفة، إذن لرأيت أكثر مما قال البحتري، فرحم الله الشاعر وألهم شعراءنا تخليد ما يرون من جمال بلادهم، وعظمة مصانعهم، على نحو ما خلد البحتري البركة، والجعفري وطاق كسرى!

ثم سرنا إلى قصر الخليفة الرسمي ووقفنا في إيوانه الكبير، وهو بني على شكل إيوان كسرى، ولكنه أجمل وأصغر، وقفنا صامتين خاشعين تتقاذفنا عواطف وذكريات لا يدرى مداها، نتخيل هذا الإيوان وكم عقد فيه من مجالس، وكم وقف فيه من ملوك، وكم كتب فيه من تاريخ، نبصر المعتصم وقد أخذ كأسه ليشرب فأبلغوه إن امرأة مسلمة أسيرة في بلاد الروم صاحت: وا معتصماه.

امرأة أسيرة، وأمير المؤمنين يشرب كأسه هانئاً؟ امرأة تنادي: وامعتصماه، والمعتصم لا يجيب؟ إن هذا لن يكون

وأرى المعتصم يخرج في الجيش اللجب الذي تضطرب له سر من رأى، وتميد لثقله الأرض، وتصعق لهوله المردة، وترتجف الرواسي حتى يحط على عمورية، فيدكها دكاً ويعود مثقلاً بالمجد والظفر والغنائم.

وأسمع أبا تمام ينشد آيته الخالدة.

السيف اصدق إنباءً من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب
فتح الفتوح تعالى أن يحيط به ... نظم من الشعر أو نثر من الخطب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت ... منك المنى حفلاً معسولة الحلب
أبقيت جد بني الإسلام في صعد ... والمشركين ودار الشرك في حبب
ثم انظر حولي فأرى كل شيء قد تبدل
تغير حسن (الجعفري) وأنسه ... وقوض بادي الجعفري وحاضره
تحمل عنه ساكنوه فجأة ... فعادت سواء دوره ومقابره
إذا نحن زرناه أجد لنا الأسى ... وقد كان قبل اليوم يبهج زائره
كأن لم يقم به ... أنيس ولم تحسن العين مناظره (غدا موحشاً قفراً)
كأن لم تبت فيه الخلافة طلقة ... بشاشتها والملك يشرق زاهر
ولم تجمع الدنيا إليه بهاءها ... وبهجتها والعيش غض مكاسره
فإن الحجاب الصعب حيث تمنعت ... بهيبتها أبوابه ومفاخره
وأين عميد الناس في كل نوبة ... تنوب وناهي الدهر فيهم وآمره

لقد هجر الحياة. ونأى عن النعيم، وجفاه. . . حتى دجلة. . . دجلة أعرضت عن القصر، ونأت عنه وقد كانت تسيل على أعتابه. وجفته وكانت مع الدهر الدوار. . . والزمان الغدار، حتى دجلة التي أفاضوا عليها المجد، ووضعوا فيها الحياة، وأعطوها أكثر مما

أخذوا منها. . . حتى دجلة التي تجري منذ ملايين السنين، فلم تجد اكرم ولا اعز ولا اعظم، من أصحاب هذا القصر وبناته. . .
حتى دجلة نسيت وكانت!!
ثم ودعنا البلاط وسرنا - وقد أودعناه قلوبنا وصببنا فيه نفوسنا ودموعنا. . . سرنا في الشارع الأعظم نصف ساعة في السيارة - وقد رأيناه بيناً، عرضه مائة متر والشوارع تتفرع عنه في نظام عجيب، وهندسة محكمة - والبيت قائمة على الجانبين وقد استحال أثرها إلى تلال من التراب كأنها القبور. . .
فمررنا على معسكر أشناس، وهو أشبه بميدان فسيح جداً حوله سور. حتى انتهينا إلى المسجد المعروف اليوم بجامع أبي دلف وهو أكبر من مسجد المتوكل وفي رواق قائم على خمس قناطر ومنارة كالملوية ولكنها أصغر منها. فوقفنا عليه.
وكانت الشمس قد مالت إلى المغيب، فانتهت الرحلة هنا، وعدنا ونحن صامتون خاشعون. . .
ولقد علمنا لماذا يريدون منا أن نتجرد من ماضينا. لأننا لا نستطيع أن نبني المستقبل الفخم، إلا على أنقاض الماضي الفخم.
(بغداد)
علي الطنطاوي
تلخيص وتعليق
أسبوع الجاحظ
لمندوب الرسالة
بقية المنشور في العدد الماضي
اليوم الرابع
كتابا الحيوان، والبيان والتبيين هما أهم ما للجاحظ من الآثار التي وصلتنا، والتي انتفع بها الكتاب والأدباء، ولقد كان اليوم الرابع للقول في هذين الأثرين الكبيرين، وكان درس الحيوان منوطاً بالأستاذ (كراوس) وكان الكلام في البيان والتبيين على الأستاذ مصطفى السقا.
وقد تكلم الأستاذ كراوس عن الحيوان كلاماً مستفيضاً فوضح غرضه وأهميته، وأهتم كثراً بتحقيق الصلة بينه وبين كتاب الحيوان لأرسطو فقال: إن أبا منصور البغدادي قد ذكر إن الجاحظ لم يعمل شيئاً إلا أن سلخ معاني كتاب الحيوان لأرسطو، ثم ضم إليه ما ذكره المدائني من حكم العرب وأشعارها في منافع الحيوان، وكان البغدادي هذا يطعن على الجاحظ، وكان كثير النيل منه، فقوله قول خصم لا يصح أن نقبله على علاته، ونحن وإن كنا نعتقد أن الجاحظ قد أتصل بالثقافة اليونانية ووقف على آراء أرسطو في الحيوان، إلا أننا نعتقد أنه ألف كتابه ليعارض كتاب أرسطو، وليقيم الدليل للشعوبية على إن العرب أصحاب علم ومعرفة كسائر الأمم، وقد أشار الجاحظ إلى ذلك إذ يقول في مقدمة الحيوان: (وهذا كتاب تستوي فيه رغبة الأمم، وتتشابه فيه العرب والعجم، لأنه وإن كان إعرابياً، وإسلامياً جماعياً، فقد أخذ من طرف الفلسفة، وجمع معرفة السماع وعلم التجربة، وأشرك بين علم الكتاب والسنة. وبين وجدان الحاسة وإحساس الغريزة، ويشتهيه الفتيان كما تشتهيه الشيوخ، ويشتهيه الفاتك كما يشتهيه الناسك، ويشتهيه اللاعب كما يشتهيه المجد، ويشتهيه الغفل كما يشتهيه الأريب)
ولذلك كان الجاحظ يهتم كثيراً بحشد أشعار العرب وأقوالهم وحكمهم في الحيوان، كما كان يهتم بالسخر من أقوال صاحب المنطق والضحك منها، فالبغدادي قد غبن الجاحظ وتجنى عليه وتنقصه بغير حق.
وتكلم الأستاذ السقا من بعد ذلك عن البيان والتبيين فقدم بين يدي الموضوع كلاماً طويلاً يتصل بشخصه أكثر مما يتصل بأمر الكتاب، فذكر أيامه في دار العلوم وهو طالب، وقال: إنه كان يكره البيان والتبيين ويستثقله وينفر منه، حتى حببه إلى نفسه نصيحة أستاذ مخلص، فأقبل عليه وأنتفع به في ثقافته الأدبية، وبلغ من إعجابه به أن كان يعاود قراءته، ثم عرض لموضوع الكتاب وذكر أبوابه وفصوله، وتكلم في أسلوبه وطريقته وأفرغ عليه كثيراً من الثناء والتمجيد، ومن العجب أنه ذكر تعريف الإنسان

الذي نقله الجاحظ عن أرسطو فقال: إنه الحي الميت!! وقد سمعناه يعيده ثانيةً بهذا النص، وإنما هو الحي المبين على ما نعرف، ولكنه نطق التعريف كما جاء محرفاً في الكتاب!!

اليوم الخامس

وكان القول فيه للأستاذين إبراهيم مصطفى وأحمد الشايب، وكان موضوع الكلام للأستاذ إبراهيم مصطفى عن (دعاية الجاحظ)، وقد التبست الدعاية بالدعابة على السامعين، فانتظروا من الأستاذ أن يفيض عليهم من فكاهات الجاحظ ونوادره ولكنهم دهشوا إذ رأوه لا يمس ذلك ولا يقترب إليه، فجاءوا باللوم العنيف على الأستاذ، وقالوا: إنه أهمل موضوعه وخرج عليه وما كان مبعث هذا كله إلا تلك (النقطة) الخبيثة التي أهملتها يد الطابع، فأساء إلى الأستاذ وأساء إلى السامعين!

وقد أبتدأ الأستاذ القول في دعاية الجاحظ بما كان بينه وبين أبي هفان إذ قيل لأبي هفان: لم لا تهجو الجاحظ وقد ندد بك وأخذ بمخنقك؟! فقال: امثلي يخدع عن عقله؟! والله لو وضع رسالة في أرنبة أنفي لما أمست إلا بالصين شهرةً، ولو قلت فيه ألف بيت لما طن منها بيت في ألف سنة!

وعلق الأستاذ على هذه النادرة فقال: ونحن إذا تأملنا هذه النادرة نجد إن أبا هفان الشاعر قد تراجع أمام الجاحظ الناثر، أو بالأحرى نجد الشعر قد أنهزم أمام النثر، ذلك لأن الجاحظ قد نصر النثر على الشعر، فاستخدمه في موضوعات لم تكن له من قبل، وراضه على سبل استعصت على الكتاب السابقين، ثم إن الجاحظ في نثره قد أهتم بالتقرب من الجمهور ما استطاع، فأخذ يطرق الأمور التي تشغل بالهم، ويكتب في المعاني والأغراض التي تحيط بهم في حياته الأدبية والاجتماعية والأخلاقية والدينية، ولما قامت الفتنة بين المأمون والأمين وأندفع الناس في تيار تلك الفتنة، كان ذلك مما مكن الصلة بين الجاحظ والجمهور، لأنه أبتدأ يؤلف لهم في هذا الذي انصرفت إليه عقولهم، فكتب كتاب الإمامة لهم، فوقع عندهم الموقع الحسن، وقد قرضه المأمون وأثنى عليه، وإن تقريظ المأمون في الواقع لأدق وصف لكتب الجاحظ وكتاباته.

على أن الجاحظ في تقربه من الجمهور والعامة لم يكن إلا متبعاً لتعاليم المعتزلة الذين أخذوا يعملون لدفع الجمهور للعلم، وتقريب المعارف من نفوسهم بشتى الوسائل الممكنة، ونحن إذا تأملنا كثيراً من كتبه نجده قد أختار موضوعاتها مما يليق بالجمهور ويروج عندهم مثل كتاب البخلاء

ولقد كان الجاحظ يدخل على نفوس العامة من ناحية أخرى هي ناحية الدعابة والتفكه، فإنه كان يحفل بذلك ويعتد به، ولست أذكر من فكاهات الجاحظ وأساليبه في ذلك ومبلغ قوته في التصوير، فإن من قرأ منكم شيئاً من كتب الجاحظ فقد أدرك ذلك وتحققه، ثم عرض الأستاذ لكتاب التربيع والتدوير فقال: إنه نمط من فكاهة الجاحظ، ولكنه ملأه بالأسئلة عن أشياء لا تصح، وفيها ما يدور في أذهان العامة والجمهور، ولم يعمل الجاحظ على أن يجيب عنها، وقد قال الجاحظ في آخره: فإن أردت أن تعرف الفاسد والصحيح من هذه الأسئلة فألزم نفسك باب داري، وقراءة كتبي

وعرض للجاحظ في موقفه من المرأة فقال: إن الجاحظ لم يتزوج ولم يؤكد علاقته بالمرأة، ولكنه قد دافع عنها وأكبر من شأنها، وله كتاب (الحرائر والإماء) كتبه في مناصرة الإماء والثناء عليهن وتفضيلهن على الحرائر.

ثم تكلم عن أسلوب الجاحظ بما هو معروف، وقال إنه لم يؤثر في أحد من بعده تأثيراً فنياً، وإن ابن العميد الذي كان يتعصب للجاحظ، ويلقب في ألسنة الأدباء بالجاحظ الثاني لم يكن له من خصائص الجاحظ شيء، حتى القاضي الفاضل الذي يقول في كلام له: أما الجاحظ فما منا معاشر الكتاب إلا من دخل في كتبه الحارة، وشن عليها الغارة، وخرج على كتفه منها كاره، لا نعرفه قد تأثر بالجاحظ في قليل ولا كثير، ثم أخذ يقارن بين الجاحظ وبين المبرد في طريقته وأسلوبه، ولم ينس ثعلباً في هذه المقارنة. . وانتهى بعد ذلك إلى القول

بإن الجاحظ كان داعية كبيراً، قد استطاع أن يتصل بالجمهور إلى حد بعيد، وأن يؤدي لنفسه وللمعتزلة من هذه الناحية شيئاً كثيراً، فكان مثله في ذلك مثل الصحفي الماهر في أيامنا الحاضرة.

وقام من بعد ذلك الأستاذ أحمد الشايب للكلام في مآخذ الجاحظ فابتدأ القول بكلام الناس في ثقافة الجاحظ واتساعها وثنائهم عليه من هذه الناحية، وقال إن الجاحظ كان واسع المعارف حقاً، قد اتصل بكل النواحي الفكرية والعقلية في ايامه، ولكن ثقافته كانت ثقافة عامة أو قل ثقافة صحفية يتلقفها من دكاكين الوراقين، وقد كان ذلك مذموما في عصره حتى كانوا يقولون: هو صحفي إذا أرادوا الذم، ونحن نرى أن الجاحظ وإن كان قد ألم بكل شيء ولكنه لم يتبحر في شيء، فثقافته أخذ من كل شيء بطرف كما يقولون.

قال الأستاذ: ولقد أخذت أنظر الجاحظ في كل ناحية من نواحي ثقافته فما وجدته إلا على ما وصفت، ثم أنتقص كلامه في الحيوان، وأورد في ذلك كلام الباحث الفرنسي كارادفو في كتابه (مفكروا الإسلام) وقد كان غاية ما حاوله الأستاذ أن ينتقص جهد الجاحظ وآراءه في الحيوان والنقد والبلاغة، وفي كل ناحية من النواحي التي كتب فيها. وقال إنه كان ينتهب آراء غيره، وكان يخلط بين النقد والبلاغة، على أن هناك فرقاً بين الناحيتين، ولقد كان الجاحظ في مؤلفاته يثير كثيراً من المشاكل ويمس الأمور المعضلة القائمة في عصره فيستطيع أن يشخصها ويكيفها ويلقى فيها الأسئلة القوية، ولكنه كان يتركها عند هذا الحد، فلا علاج يشفي، ولا جواب ينتهي بالقارئ إلى رأي حاسم، ولذلك كان من السهل على الجاحظ أن يؤلف في الشيء ضده وأن يناقض نفسه بنفسه ما دام هو يقف في ذلك عند الآراء الشائعة والمسائل الذائعة في كل فرقة. ولقد روى أن أحد الأمراء أرسل إلى الجاحظ يطلب منه أن يحتج له في رأي، فكتب له الجاحظ بما طلب، فعاد الأمير يقول له: إن الخادم قد غلط في تبليغ الرسالة إليك وإنما أريد أن تكتب في نقيض هذا الرأي، فلم يتورع الجاحظ على أن يكتب له.

قال الأستاذ: وقد كان الجاحظ من المتكلمين، وكان الجدل والكلام في عصره على غاية ما يكون من الشدة، ولكني لم أعرفه قد كتب كتاباً في أصول الجدل أو ألف في علم الكلام كما كانت تقتضيه وظيفته ويقتضيه عصره، ثم أنتقد الجاحظ في تحقيقه، وأورد كلاماً

للمسعودي في ذلك إذ يقول: زعم الجاحظ إن نهر مكران الذي هو نهر السند من النيل. واستدل على إنه من النيل بوجود التماسيح فيه، وهذا تحقيق باطل ناقص، لأن الجاحظ أقامه على قياس منطقي نظري فاسد النتيجة ولو طاوعنا الجاحظ في قياسه لكن كل نهر فيه التماسيح هو من النيل، لأن النيل فيه التماسيح.

وكان من رأي الأستاذ أن غاية ما للجاحظ هو الأسلوب ففيه براعته وشخصيته ومميزاته. . . ثم انتقده بالتكرار الممل، وقال إن الجاحظ كان يستعمل عبارات ثابتة يكررها كثيراً حتى كأنها (كلشيهات) فهو ينقلها من كتاب إلى كتاب ومن موضع إلى موضع، ومثل لذلك بكلامه في اصطناع الكتب إذ أورده في كتابه الحيوان، وأعاده في المحاسن والأضداد، وكذلك كلامه عن الحسد وعبارات كثيرة يدركها كل من وقف على كتبه.

اليوم السادس

أما اليوم السادس وهو اليوم الأخير فقد اضطلع به الدكتور طه وحده، وكان عليه أن يملأ فراغه فمدَّ رواق القول على كثير من نواحي الجاحظ مع أن موقفه في القول كان عند (فكاهة الجاحظ) فتكلم أولاً عن إطراء الأدباء للجاحظ وما يجب أن يكون له من هذا الإطراء؛ ثم تكلم عن دعابة الجاحظ بما تكلم به الأستاذ إبراهيم مصطفى من قبل، فقال إن الجاحظ قد نصر النثر على الشعر وجعله أقرب وأعذب في نفوس الجمهور والعامة، ولقد أشرت إلى ذلك فيما كتبته في تقدمة نقد النثر لقدامة، وقد قلت إن الجاحظ أثر في ابن الرومي من هذه الناحية، فمهد له طريق التقصي في المعنى والإسهاب.

ثم تكلم في فكاهة الجاحظ فقال: ولقد كانت الفكاهة من النواحي البارزة عند الجاحظ، وما كان الرجل يقصد في فكاهته إلى الضحك والإضحاك فحسب، ولكنه كان يقصد أيضاً إلى التصوير، ويقصد التهكم والسخر، ويقصد إلى النقد والهجاء، وأورد في الاحتجاج لذلك كلامه في نقد الخليل بن أحمد. ثم ذكر بعض فكاهاته فذكر من ذلك قصته مع محمد بن أبي المؤمل البخيل، ثم أنتدب الدكتور محمد عوض ليقرأ طرفاً من

رسالة الجاحظ للمعتصم أو للمتوكل يحضه على تعليم أولاده ضروب العلوم وأنواع الأدب، وفيها كثير من ألوان الدعابة والشعر الفكه.

قال الدكتور: وعندي أن الجاحظ كان كفولتير، فكما أن فولتير لم يكن عالماً فحسب ولا أديباً فحسب ولا فيلسوفاً فحسب ولا اجتماعياً فحسب، وإنما كان له في كل هذا وأكثر من هذا، فكذلك نجد الجاحظ له في الأدب والفلسفة والاجتماع إلى آخر ما هو معروف عنه؛ وكما أن فولتير لم يكن في سخره وتهكمه يقف عند حد الفكاهة ولكنه كان يقصد إلى كثير من الأغراض الشريفة، فكذلك كان الجاحظ، فالمشابهة قوية بين الرجلين.

ثم قال: فالجاحظ لا شك من الشخصيات الكبيرة، وأهل العبقريات النادرة، وهو حري بالذكر والتكريم، ونحن إذ نقوم له بهذا الأسبوع بمناسبة مرور أحد عشر قرناً على وفاته، فإنما نحن نؤدي له بعض الواجب، ولا أكتمكم يا سادة إذا قلت لكم إننا في حاجة كبيرة إلى دراسة الجاحظ في كتبه وآثاره دراسة وافية كما تجب الدراسة، فإننا مع الأسف لا نعرف عنه إلا ما هو شائع في المجالس وما يسقط إلينا من نوادره. وكلية الآداب إذا كانت قد فكرت في إقامة هذا الأسبوع فإنها أرادت أن تلفت الأذهان للعناية بالجاحظ، وأن تنبه على وجوب دراسة العبقرية الواسعة الشاملة.

هكذا قال الدكتور الفاضل ولست أدري إذا كانت كلية الآداب لا تعلم عن الجاحظ إلا ما هو شائع في المجالس وما يسقط من النوادر، وإذا كانت لم تقصد إلا لفت الأذهان، فمن الذي يكون عنده العلم بالجاحظ، ومن الذي سيؤدي عنها هذا الحق في النقد والأدب.

م. ف. ع

العاطفة

وهي تحفة في الشعر الوصفي الرائع المبتكر في أغراضه ومعانيه

للشاعر العالم الأستاذ أحمد الزين

خَلَجاتٌ تهفو بقلب الشجَّيِّ ... هي سرُّ الحياة في كل حيِّ
هي والرُّوح في فؤادك صِنْوا ... نِ وفيض من عالَم عُلويّ
هي ذكرى بعد المشيب وسلوَى ... في اكتهالٍ وصبوة للفَتِيّ
ومُنىً للغلام يهفو إليها ... وحنانٍ يحوط مهدِ الصبيّ
رافقتْ رحلة الحياة وآخت ... نِصْوَ أسفارها إخاء الوفيّ
هي للقلب نعمةٌ أو شقاء ... كم سعيدٍ بها وكم من شقيّ
رُبَّ من يبهر العيون رُواءً ... ناء من همها بداء خفيّ
ظاهر منه يخدع العينَ عمَّا ... ضمّن القلبُ من ضنى مطويّ
من غرام مبرّحٍ أو فراقٍ ... أو منىً عُوجِلَتْ بصوتِ النعيّ
باسم بين صَحبِه فإذا يخ ... لو بكى شجوَه بدمعٍ شجيّ
وأخي منظرٍ تراه فَتنْبُو ال ... عَيْنُ عن منظر رَثيث زَريّ
يبصر الناس منه ما يبعث الر ... حمة في قلب شانئٍ وصفيّ
ما دَرَوْا أنه على البؤس يحيا ... بفؤادٍ خالٍ وبالٍ رخيّ
ملأت نفَسه السعادة حتّى ... لا يبالي بمنظرٍ أو بِزيّ
نَزَعاتُ النفوس في كلِّ قلب ... مَيَّزَتْ ببين ساخطٍ وَرضيّ
أسعدتْ آدماً وحوّاَء حينا ... ثم أشقتهما بإفك الغَوِيّ
ورث النسلُ عن أبيه مُيُولا ... لم تَدَعْه في ظِلِّ عيش هنيّ
ونفوساً حَيْرَى تقلّبها الأه ... واء مفتونة بكلِّ طليّ
فهي بين الآمال تمرح نَشْوَى ... ثم تصحو باليأس من كلِّ شيّ
إنّ للعاطفات حُكماً قويا ... ظلمُه عاصف بكلِّ قويّ
كم أذلّت جبارَ قومٍ، وغَلّت ... من طليق، وأسلْسَتْ من أبيّ
كم تولّى جهادَها في قديم الدْ ... هرنُصْحٍ لعالم ونبيّ
جاهَداها بالعقل حيناً وحينا ... سَخَّرَا بعضَها لقَتل البَقيّ
وهي تَقْوَى مع الجهاد فوَيلْ ... للوَرَى من جهادِها الأبديّ
دافعات إلى الغواية أحيا ... نا وحينا إلى الطريق السويّ

كم يواسي بها الفقير وتنجي ... هـ من البؤس رقّة في غنىّ
كم سقيم لولا ترفّق آسٍ ... لقضى نحبَه بداءٍ دَويّ
ومشوقٍ لولا التعلل أودى ... يأسُه بالدم الطهور الزَّكيّ
وجمالٍ لولا العواطف ساوَى ال ... قبحَ في عقلِ أبلَهٍ وذَكيِّ
فبها قُدِّر الجمالُ ولولا ... ها لعاش الوَرَى بقلبٍ خَلِيّ
يا لنفسٍ تعيش بين مُيُولٍ ... أتْعَبتْها ما بين رُشْدٍ وَغيّ
أحمد الزين
يوم عابس
في الربيع الباسم
للأستاذ محمود غنيم
يا لصباح أغبرِ الأديمِ ... قد طعن الربيع في الصميمِ
أمطارُه قد شوّهت آذارهْ ... وريحه قد صوحت أزهارهْ
قد يظفر الباحثُ بالعنقاء ... فيه ولا يرى ابَنَة السماء
فقلتُ: هل ضلَّ صباحُ اليوم ... أم أغرقت شمس الضحى في النوم؟
ويحك يا أيتها الشمس اطلعي ... يا أرضُ غيضي يا سماءُ أقلعي
وقفتُ حيرانَ على الطريقِ ... من غير ماء صرتُ كالغريق
الأرضُ تحتاجُ إلى عوَّامِ ... فكيف بالسير على الأقدام
من رام أن يسعى يمينا أيسرا ... ومن مشى قدَّامَ عاد القهقرى
لكنني شحذتُ غرب عزمي ... وخضتُ موج ذلك الخضمِّ
فلست بالنِّكْس ولا الجبانِ ... إذا دعا الداعي إلى الميْدانِ
مشيتُ كالنشوانِ كلَّ همي ... أنيَ أحفظ اتِّزانِ جسمي
أسأل في الطريقِ كلَّ سابلِ ... كأنني أسيرُ في المجاهل
دمع السماء فوق رأسي هامِ ... والأرض من تحتيَ بحرٌ طامِ
والماءُ قدران على منظاري ... فسرت أهتدي بصوت جاري
وبعد أن كنت على (غياري) ... أخشى من الرشاش والغبار
فرطتُ فيه غاية التفريطِ ... وصرت لا أخشى سوى السقوطِ
وعثرةُ اللسانِ في المقالِ ... دونَ غبارِ الرِّجل في الأوحالِ
وبينما نحن نجوزُ حارةَ ... إذ داهمتنا عندها سيارة
تنطلق انطلاق سهمٍ مارقِ ... سابحة في خفة الزوارق
ينضحُ بالمياهِ جانباها ... على ثيابٍ ليس لي سواها
فطرزتْ إذ ذاك من ثيابي ... ما اخطأته ريشةُ السحابِ
فقلت: ويلٌ للفقير العافي ... من الغنى المترفِ المتلافِ
قال رفيقي: دنت الدروسُ ... وبعد خمس يضربُ الناقوسُ
فقلت: مهلاً أيها الرفيق ... ما يفعلُ المدرسُ الغريقُ؟
قال: (أجيمًا) تبتغي و (سينًا)؟ ... أسرع فلست تجهل القانونا
قلت قوانين البلاد جائرةْ ... إن هي ساوتنا بأهل القاهرةْ
لا تذكر القانون في الأريافِ ... قد وضعَ القانونُ في الجفافِ
حيث الشوارعُ التي لا تنضحُ ... ولا بمكث الماء فيها تسمحُ
وهكذا (نشرب) نحن المطرا ... وساكن المدن به ما شَعَرا
وكل ما في الريف من محامدِ ... يذهب في أمطارِ يومٍ واحدِ
(كوم حمادة)
محمود غنيم
هكذا قال زرادشت
للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه
ترجمة الأستاذ فليكس فارس
الفضيلة الواهبة
- 1 -
وبعد أن ودع زارا مدينة (البقرة الملوَّنة) التي شغف قلبه بها، شيعه عدد غفير مما كانوا يدعون أنفسهم أتباعه حتى بلغوا إلى منعطف الطريق، فقال زارا إنه يريد متابعة

سيره وحده. فودَّعه أتباعه وقدموا إليه عصا قبضتها من ذهب بشكل أفعى ملتفة حول الشمس، فسر زارا من هذه الهدية واتكأ عليها قائلاً لأتباعه:

- قولوا لي، لماذا أصبح الذهب ذا قيمة؟ أليس لأنه نادر ولا فائدة منه، ولأنه وديع في لمعانه، ويبذل نفسه في كل حين؟ لم يبلغ الذهب أسمى مراتب الأشياء القيمة إلا لأنه رمز لأسمى الفضائل، فعين الواهب برَّاقة كالذهب، ووهج الذهب رسول سلام بين النيرين.

إن أسمى الفضائل نادرة ولا نفع منها، فهي تتوهج بنورها الهادئ، وليس بين الفضائل من يطاول فضيلة السخاء.

والحق، إنني شاعر برغبتكم، أيها الصحاب، فإنكم تطمحون مثل طموحي إلى الفضيلة الواهبة، فأنتم تريدون أن تحولوا نفوسكم إلى هبات وعطايا، وإلا لكنتم أشبه بالهررة والذئاب. ولهذا تتعطشون إلى حشد جميع الكنوز في أنفسكم فهي لن ترتقي من جميع الجواهر والكنوز لأنها ظامئة أبداً إلى العطاء. تجتذبون كل ما حولكم ليتسرب إلى داخلكم فينفجر ينبوعكم بها كأنها هبة من محبتكم.

إن المحبة السخية الواهبة تستحيل إلى لص يمد يده إلى جمع الأشياء القيمة، وما أرى هذه الأنانية إلا عملاً صالحاً مقدساً.

غير أن هنالك أنانية أخرى تدهورت إلى أدنى درجات المسكنة في مجاعتها المتحكمة أبداً فيها، تلك هي الأنانية التي تطمح إلى السرقة في كل آن، فهي أنانية المرض بل هي الأنانية المريضة، تحدج كل شيء بنظرات اللص وبنهم الجائع، فتزن لقمات الآكلين من

أبناء النعمة وتدبُّ أبداً حول موائد الواهبين. وما مثل هذه الشهوة إلا عرض الداء الدفين ودليل الانحطاط الخفي، وما الطموح إلى السرقة بمثل هذه الأنانية إلا نزعة من نزعات الجسوم العليلة.

أي شيء نراه أقبح الأشياء، أيها الأخوة، أفليس الانحطاط أقبحها؟ وهل يسعكم إلا أن تحكموا بانحطاط مجتمع لا أثر لروح السخاء والعطاء فيه.

إن سبيلنا يتجه إلى الأعالي، وما نقصده إنما هو الارتقاء من نوع إلى نوع، لذلك نرتعش عندما نسمع الانحطاط يهتف قائلاً: (لي كل شيء)

وهل روحنا إلا رمز لجسدنا وهي تطمح إلى الاعتلاء، وهل الصفات التي ندعوها فضيلة إلا عبارة عن هذه الرموز عينها؟

إن الجسد يقطع مسافات التاريخ بكفاحه، لكن ما تكون الروح من الجسد يا ترى إن لم تكن المزيع لكفاح الجسد وانتصاراته؟ وما الجسد إلا الصوت، وما الروح إلا الصدى الناجم عنه والتابع له. ليست الكلمات الموضوعة للدلالة على الخير والشر سوى رموز فهي تشير إلى الأمور ولا تعبر عنها ولا يطلب المعرفة فيها ومنها إلا المجانين.

انتبهوا، أيها الأخوة، إلى الزمن الذي يطمح فكركم فيه إلى البيان بالرموز لأن في هذا الحين تتكون الفضيلة فيكم، وفيه يبعث جسدكم ويتجه إلى الأعالي مجتذباً عقلكم من سكونه ليدفع به إلى مراحل الإبداع حتى إذا ما سار عليها عرف قيمة الأشياء وأحب فأجاد في كل أعماله.

في الزمن الذي يختلج فيه قلبكم تتكون فضيلتكم لأن هذا القلب يفيض باختلاجه كالنهر العظيم فيغمر القائمين على ضفافه بالبركة كما يهددهم بأشد الأخطار.

إنما تنشئ فضيلتكم عندما يعجز المدح والذم عن بلوغ شعوركم، فتطمح إرادة الرجولة فيكم إلى السيادة على كل شيء

إنما تنشئ فضيلتكم عندما تحتقرون النعم والفراش الوثير وعندما لا تجدون راحة إلا بعيدا عن مواطن الراحة

إنما تنشئ فضيلتكم عندما تنصب إرادتكم على مقصد واحد، وعندما يصبح هذا التحول في آلامكم ضرورة لا يسعكم التحول عنها

أفليس هذا شكلاً جديداً للخير والشر؟ أفما تسمعون بهذا القول خرير الينبوع العميق الذي غربت مسالكه من قبل عنكم؟

إنها لفضيلة جديدة تمنح الإنسان قوة وتبعث فيه عزماً، هذه الفكرة المتحكمة في روح بلغت الحكمة لأنها شمس مذهبة التفت عليها أفعى الحكمة.

وصمت زارا مرسلا نظرات الحب إلى اتباعه، ثم ارتفع صوته بنبرات جديدة قائلا: -
اخلصوا للأرض، يا اخوتي، بكل قوى فضيلتكم. ولتكن معرفتكم خادمتين لروح الارض، انني اطلب هذا متوسلا.
لا تدعوا فضيلتكم تنسلخ عن حقائق الأرض لتطير بأجنحتها ضاربة أسوار الأبدية، ولكم ضلت من فضيلة من قبل على هذا السبيل.
أرجعوا الفضيلة الضالة كما رجعت بها أنا إلى مرتعها في الأرض. عودوا بها إلى الجسد وإلى الحياة لتنفخ في الأرض روحها، روحا بشرية.
لقد تاه العقل وتاهت الفضيلة فخدعتها آلاف الأمور، ولما يزل هذا الجنون يتسلط على جسدنا حتى أصبح جزءاً منه فتحول فيه إلى إرادة.
لقد قام العقل وقامت الفضيلة معه بتجارب عديدة فضلاً على ألف سبيل؛ وهكذا اصبح الإنسان عبارة عن تجارب ومحاولات ألصقت بنا الجهل والضلال. وليس ما استقر فينا من تجارب حكمة الأجيال فحسب، بل جنونها أيضاً. ولكم يتعرض الوارثون إلى أخطار.
إننا لم نزل نصارع جبار الصدف، ولم يزل العته سائدا على الإنسانية حتى اليوم ليكن عقلكم وفضيلتكم بمثابة روح للأرض وعقل لها.
أيها الأخوة فتتجدد بكم قيم الأشياء جميعها، من أجل هذا وجب عليكم أن تبدعوا.
إن الجسد يطهر بالمعرفة، فيرتفع بمرانه على العلم، لأن من يطلب الحكمة يطهر جميع غرائزه، ومن ارتقى فقد أدخل المسرة إلى نفسه.
أعن نفسك، أيها الطبيب، لتتمكن من إعانة مريضك. إن خير ما تبذله من معونة لهذا المريض هو أن يرى بعينه إنك قادر على شفاء نفسك.
!!إن في الأرض من السبل ما لم تطأها قدم بعد، فما أكثر مجاهلها وما أكثر خفاياها اسهروا وانتبهوا أيها المنفردون لأن من المستقبل تهب نسمات سرية حاملة بشائر لا تقرع إلا الآذان المرهفة.
إنكم في عزلة عن العالم، أيها المنفردون، ولكنكم ستصبحون شعباً في آتي الزمان، ومنكم سيقوم الشعب المختار لأنكم اخترتم نفسكم اليوم. ومن هذا الشعب سيولد الإنسان الكامل.
والحق أن الأرض ستصبح يوماً مستشفى للأعلاء، فإن في نشرها عبيراً جديداً هو عبير الإخلاص والأمل الجديد.
- 3 -
وسكت زارا كمن يقف عند كلمة تتلجلج في فمه، وبعد أن قلب عصاه طويلاً بين يديه، أطلق صوته وقد تغيرت نبراته فقال:
- سأذهب وحدي الآن، أيها الصحاب، وأنتم أيضاً ستذهبون بعدي وحدكم لأنني هكذا أريد.
هذه نصيحتي إليكم، ابتعدوا عني وقفوا موقف الدفاع عن أنفسكم تجاهي، بل أذهبوا إلى أبعد من هذا، أخجلوا من انتسابكم إليَّ فلقد أكون لكم خادعاً.
على من يطلب الحكمة ألا يتعلَّم محبة أعدائه فحسب بل عليه أيضاً أن يتعلَّم بغض أصدقائه. وما يعترف التلميذ اعترافاً تاماً بفضل أستاذه إذا هو بقى أبداً له تلميذاً. لماذا لا تريدون أن تحطموا تاجي؟
إنكم تحوطونني بالأجلال، ولكن ما هي الكارثة التي تتوقعونها من إعراضكم عني، إن في رفع الأنصاب لخطراً فاحترسوا من أن يسقط عليكم التمثال المنصوب فيقضي عليكم
تقولون إنكم تؤمنون بزارا، ولكن أية أهمية له؟ تقولون إنكم مؤمنون، ولكن ما أهمية جميع المؤمنين؟ ما كان أحد منكم فتش عن نفسه قبل أن وجدتموني، وهكذا جميع المؤمنين، فليس الإيمان شيئا عظيماً. لذلك آمركم الآن أن تضيعوني لتجدوا أنفسكم، ولن أعود إليكم إلا عندما تكونون جحدتموني جميعكم.
والحق، يا إخوتي، إنني في ذلك الحين، سأفتش عن خرافي بعين أخرى فأبذل لكم حباً غير هذا الحب.
سيأتي يوماً تصيرون فيه أصحاباً لي إذا ما وحد بينكم الأمل الواحد، عندئذ سأرغب في الإقامة بينكم للمرة الثالثة للاحتفاء بأنوار الهاجرة العظمى.

وستبلغ الشمس الهاجرة عندما يصل الناس إلى منتصف طريقهم بين الحيوان والإنسان الكامل، وعندما يرون أملهم الأسمى على منتهى السبيل الذي يقودهم إلى الفجر الجديد
في ذلك الحين يتوارى من يسير إلى الجهة الثانية وهو يبارك نفسه إذ ترتفع شمس معرفته لتتكبد الهاجرة.
لقد مات جميع الآلهة، فلم يعد لنا من أمل إلا ظهور الإنسان الكامل. فلتكن هذه إرادتنا الأخيرة عندما تبلغ الشمس الهاجرة.
هكذا تكلم زارا. . .
حديث الأزهار
للكاتب الفرنسي ألفونس كار
السرو
كنت ولداً لأول مرة جلست فيها تحت ظلك يا شجرة السرو حين كانت أسراب الحمام تفتح أجنحتها للريح فاتبعها من روحي بأطيار تشق الأثير متجهة نحو السماء.
وهأنذا أتقدم اليوم ببطء تحت أغصانك لأطرح على الأرض جسدي المتعب وقد وقفت روحي عن تباع الطيار في اعتلائها. لقد صار الولد شيخاً.
لم تزل تظللني اغصانك أيتها السروة، وقد أصبح جذعك متكأ ليدي المرتجفة، فاقف مستنداً إليه وأجيل أبصاري بين القبور حيث يرقد أجدادي وحيث أرقد أنا غداً.
ما أجملك، أيتها السروة، وأنت متجهة إلى ما فوق كصلاة المؤمنين، وحينما يمر الهواء بين أغصانك يخيل إلى المستغرق تحت ظلالك أنه يسمع ما تسر إليه قلوب أحبابه وقد استحالت إلى تراب في القبور.
لقد مرت على صداقتنا السنون أيتها السروة الهرمة، ومنذ أول عهدي بك لم أزل أتفيأ غصونك لأناجيك مفكراً في زوال الأيام. أنت أعرف مني بحالي، فأنا أستشهدك على إيماني بالخلود واحتقاري لكل مرتجف أمام الفناء.
أحبك أيتها الأغصان القاتمة. أحبك يا زهرة المدافن لأنك رمز الراحة والسكون لمن أتعبته حركة الحياة.
إلى متى تنطلق روحي من أسرها فتجول في الفضاء الفسيح الغير المتناهي كما تجول أسراب الحمام في آفاقها، فيرتفع مثلها فوق المآذن إلى السحاب إلى ما وراء كل منظور.
هنالك السكون بالارتقاء إلى الأوج الأعلى، حيث لا شقاء ولا خداع. تقدم يا ملاك الموت وأطرق الباب فإن وراءه روحاً أهرمها الدهر وهي مستعدة للرحيل.
أيها الهواء الهاب على أغصان السروة القاتمة كأسرار الأبد، كل يوم أنتظر منك مناجاتي بساعة موتي وأنت في أنينك ساكت عنها لأنها في علم الله.
ف. ف
البريد الأدبي
الأزهر والجامعة المصرية في عيد أثينا
في هذا الأسبوع تحتفل جامعة أثينا بعيدها المئوي؛ فقد دعيت جامعتنا المصرية ودعيت والجامعة الأزهرية لشهود هذا الاحتفال العلمي، فلبتا الدعوة؛ وانتدبت الجامعة المصرية مديرها الأستاذ لطفي السيد باشا لتمثيلها، وانتدبت الجامعة الأزهرية أحد أساتذة التفتيش. ومما يلاحظ بهذه المناسبة أن الأزهر قد بدا يتخذ مكانته في هذه المهرجانات العلمية الدولية بعد أن لبث دهرا بعيداً عنها، وهذه هي المرة الثالثة أو الرابعة التي يوفد فيها ممثليه إلى الخارج للاشتراك فيها. وقد نشأت جامعة أثينا منذ مائة عام (سنة 1837) معهدا متواضعا على سفح الأكروبول. وكان قيامها من نفثات الاستقلال الذي كسبته اليونان بدمائها قبل ذلك بأعوام قلائل؛ بيد إنها قطعت خلال هذه المائة العام أشواطاً عظيمة، فأضحت جامعة كبرى تتمتع بهيبة علمية لا بأس بها.
وسيشهد عيد الجامعة الأثينية ممثلو نحو خمسمائة جامعة ومعهد، وسيفتتح الاحتفال الرسمي ملك اليونان ويلقي خطاباً في هذه المناسبة وتمتد حفلات العيد مدى أسبوع من 17 أبريل الجاري إلى 22 منه؛ وقد وضع برنامج حافل يشتمل على خطب وأحاديث علمية مختلفة وعلى حفلات ومآدب اجتماعية، ونزهات ورياضات خلوية مختلفة؛ وسيلقي ممثل الجامعة المصرية وممثل الأزهر - كل كلمته في هذا

المهرجان.
ذكرى مكتشف البلهارسيا:
تستعد الجمعية الطبية المصرية للاحتفال في الشهر القادم بذكرى العلامة الألماني تيودور بلهارس لمناسبة مرور خمسة وسبعين عاما على وفاته: وقد اقترن اسم هذا العلامة إلى الأبد بأحد الأمراض المصرية المتوطنة وهو (البلهارسيا) التي ما زالت تفتك بمئات ألوف من المصريين؛ وكان بلهارس أستاذاً بمدرسة الطب المصرية، فعكف أعواماً على دراسة جراثيم الأمراض المتوطنة، ووفق بعد مباحث طويلة إلى اكتشاف ديدان مرض البلهارسيا وبعض الجراثيم والطفيليات المتوطنة الأخرى، وقد رأت الجمعية الطبية المصرية أن تقوم بواجب الوفاء لهذا العلامة الذي خدم الطب والعلم في مصر، فتكرم ذكراه في حفلة جامعة تقيمها بكلية الطب في مساء يوم الأحد 9 مايو القادم، وسيلقي بعض حضرات الأساتذة
والأطباء المصريين كلمات في ذكرى العلامة الراحل، وفي حياته واكتشافاته الطبية، ومن المحقق أن دوائر العلم الألماني ستحتفي بهذه الذكرى أيما احتفاء، فاشتراك الجمعية الطبية المصرية في هذا التكريم تصرف محمود وعنوان على التضامن العلمي الذي لا يعرف واجباً ولا حدوداً.
جوائز مدينة باريس الأدبية:
من أنباء فرنسا الأدبية أن مجلس باريس البلدي، قد قرر إجابته لاقتراح مسيو رنيه جيوبن أحد أعضائه أن ينشئ جائزة أدبية قدرها خمسة وعشرون ألف فرنك (نحو 230 جنيه) تسمى (جائزة مدينة باريس الكبرى)، وتتولى منحها هيئة محكمين من الكتاب وأعضاء المجلس البلدي؛ وتمنح عاما بعد عام لكبير من الكتاب أو الشعراء أو المفكرين، فتمنح في العام الأول لكاتب (روائي) مثلاً تحوز مؤلفاته قصب السبق؛ ثم تمنح في العام التالي (لشاعر) وفي العام الثالث (لكاتب وصفي أو ناقد)، وفي العام الرابع (لمؤرخ أو فيلسوف) وهكذا، ويمكن منح هذه الجائزة عن مؤلف بعينه أو عن جميع التآليف مجتمعة، كذلك قرر المجلس البلدي أن يرفع الإعانة المقررة (لجمعية الأدباء) من عشرين إلى خمسين ألف فرنك في العام.
وهذه الجائزة الأدبية التي تقررها مدينة باريس ليست إلا واحدة من عشرات بل من مئات من الجوائز الأدبية المختلفة التي تقررها الهيئات الرسمية وغير الرسمية من جمعيات علمية وأدبية وصحف وغيرها لتشجيع العلوم والاداب، ورعاية الحركة الفكرية وإذكاء همم الكتاب والأدباء والفنانين، فأين جوائزنا نحن؟ ومتى تفكر هيئاتنا الرسمية وغير الرسمية في ترتيب الجوائز الأدبية الموقرة التي يمكن أن تسبغ بهيبتها الأدبية على أدبائنا وكتابنا شرفاً يتسابقون إليه، كما تسبغ بقيمتها المادية على جهودهم نوعا من المؤازرة والتشجيع؟
كتاب عن الرحلات القطبية
صدر أخيراً بالإنكليزية كتاب عن المكتشف الأمريكي الشهير روبرت بيري وعن رحلاته القطبية المختلفة عنوانه: ومؤلفه المؤرخ الأمريكي هوبز وقد أشتهر هوبز منذ بعيد بكتاباته عن القطب والرحلات القطبية، فهو من هذه الوجهة أستاذ موضوعه؛ وهو يسرد
في كتابه الجديد رحلات بيري القطبية منذ رحلته الأولى إلى الجزيرة الخضراء في سنة 1886، وهي السنة التي أكتشف فيها رأس الثلج الشهير. وبيري من أشهر المكتشفين والرحل في عصرنا؛ وكان مولده في ولاية بنسلفانيا سنة 1856؛ وألتحق بالبحرية الأمريكية سنة 1881؛ وفي سنة 1886 رحل إلى الأرض الخضراء رحلته الأولى؛ وفي سنة 1891 رحل إليها للمرة الثانية وقطع الجزيرة من جنوبها إلى شمالها على ظهر زاحفة ثلجية، وأنفق في رحلته ثلاثة عشر شهراً واستطاع أن يتحقق من أن الأرض الخضراء جزيرة تحدها الثلوج من الشمال كما تحدها من الجنوب. ثم قام برحلته الثالثة إلى الأرض الخضراء في سنة 1893ومكث في الجزيرة نحو أربعة أعوام؛ وكان بيري يستعين في رحلاته برجال (الإسكيمو) وإليه يرجع الفضل في دراسة خواص هذا الجنس المدهش الذي يعيش بين الجليد الخالد. وفي سنة 1898 قام بيري برحلة جديدة على ظهر الباخرة القطبية (روزفلت) حول الجزيرة الخضراء من الشمال والشرق، ولبث بيري طول حياته يتطلع إلى القطب واكتشافه؛ وفي سنة 1905 قام

بأعظم رحلاته في اتجاه القطب الشمالي، ووصل في سنة 1908 على ظهر السفينة القطبية روزفلت إلى رأس شريدان، وهي أبعد نقطة وصل إليها إنسان، وقضى الشتاء في تلك الوهاد الثلجية؛ وفي أبريل سنة1909، وصل بيري إلى القطب الشمالي وحقق بذلك أمنية حياته؛ وكتب بيري عدة كتب خلابة عن رحلاته؛ ورقى إلى رتبة الأميرال في سنة 1911، وتوفى في واشنطون ستة 1919.

وقد استعرض مستر هوبز في كتابه الجديد حياة بيري ورحلاته بأسلوب شائق واستخلصها من كتبه ومذكراته ومعلوماته الخاصة، فجاء من أبدع الكتب التي صدرت عن الرحلات القطبية.

قضية أدبية غريبة

رفعت إلى محكمة نيويورك العليا قضية أدبية غريبة تشغل دوائر النشر والأدب تدور حول هذا السؤال (هل يحق للعالم الذي أضحت حياته العامة ملكاً للتاريخ أن يتمسك بإخفاء بعض حقائق في حياته لاعتبارات خاصة؟) وخلاصة القضية إن العلامة الباثولوجي الأشهر الدكتور كارلاند شتايز الذي يحمل جائزة نوبل للعلوم، والذي يشغل مركزاً هاماً في معهد روكفلر للمباحث الطبية رفع قضية على شركة نشر قاموس الإعلام يطلب فيها

الحكم على الشركة بأن تمتنع عن نشر صورته وترجمته بقسم (أعلام يهود أمريكا) في طبعتها الجديدة، وأن تدفع له عشرين ألف جنيه تعويضاً عما لحقه من الضرر المحقق في حياته الخاصة وفي مهنته.

وقد ولد الدكتور لاندشتاينر في النمسا من أبوين يهوديين ولكنه نبذ اليهودية وأعتنق الكثلكة في سنة1890 وتزوج من سيدة كاثوليكية، ويقول محاميه أنه، أي الدكتور، يعيش منذ خمسين عاماً في وسط مسيحي، ويغضي عن علائقه الدينية القديمة؛ وحق الخصوصية هنا قائم ويجب أن يحمى. ثم إن للمدعي ولداً في التاسعة عشرة من عمره لا يعرف شيئاً عن أصل والده اليهودي، فإذا وقف على هذه الحقيقة في القاموس المشار إليه فإنه يصطدم لذلك وقد يعرضه للمذلة في الوسط المسيحي الذي يعيش فيه.

ويقول الناشرون إن قاموس الإعلام هذا عمل تاريخي جليل، وإن كل ما يتعلق بحياة المدعي من الوقائع والحقائق إنما هو ملك للتاريخ وإن نشرها له عدوان فيه على حقوقه الخاصة

وهكذا تجد المحكمة العليا نفسها أمام مأزق دقيق.

النقد

إسماعيل المفترى عليه

تأليف القاضي بيير كربتيس

وترجمة الأستاذ فؤاد صروف

لأستاذ كبير

المستر بيير كربتيس القاضي السابق بالمحاكم المختلطة مؤرخ محقق، كتب في تاريخ مصر كتبا قيمة اعتمد في إخراجها على مصادر ووثائق أكثرها لم ينشر بعد، رجع إليها في دار المحفوظات المصرية بتصريح من جلالة الملك الراحل.

ويقول لنا الأستاذ صروف إنه يوشك أن يصدر في تاريخ مصر كتابا آخر. وليس القاضي كربتيس أول رجال الولايات المتحدة الذين كتبوا عن مصر، بل إن للكثيرين منهم على التاريخ المصري فضلا كبيرا. ويمتاز هؤلاء المؤرخون ببعدهم عن التأثر بالمصالح والعواطف السياسية. ولذلك تراهم ينظرون إلى الحقائق نظرة المحايد المحقق الذي يبحث ويتحرى ولا يهمه بعد ذلك لجأت نتيجة البحث وفق ما يحب أم لم تجئ؛ ومن أجل ذلك كانت كتبهم جديرة بأن تلقى من الكتاب المصريين المؤلفين منهم والمترجمين ما تستحقه من العناية.

ولكن يؤسفنا أن نرى هؤلاء المؤلفين والمترجمين لا يعتمدون إلا على مصادر من نوع واحد، ويغفلون المصادر الأمريكية مع أنها من أهم المراجع وأصدقها، ومع أن أصحابها بحكم مراكزهم كانوا ملمين بالشئون المصرية وكان لبعضهم يد في تصريفها.

لذلك اغتبطنا حين أخرج الأستاذ صروف ترجمته لكتاب إسماعيل الخديو المفترى عليه، ونرجو أن نرى في القريب ترجمة لكتاب (إبراهيم) وأخرى لكتاب (فارمن) وثالثة

(لماكون) ورابعة (لإدون ده ليون) وغيرهم من الكتاب المنصفين
وهذا المقام الذي نضع فيه المؤرخين الأمريكيين هو الذي حملنا على قراءة الترجمة العربية لكتاب كربتيس بعد أن قرأنا الأصل الإنجليزي منذ عامين أو أكثر.
ومن أجل هذا أيضا رأينا من الواجب علينا أن نبدي رأينا في الترجمة لأن موضع الكتاب جليل، يفتح في التاريخ المصري فتحا جديداً. ولأن المؤلف قاض نزيه وكاتب كبير، ولأن المترجم من الكتاب المعروفين، ولأن دار النشر الحديث قد بذلت في إخراجه من العناية ما يجعلها جديرة بالثناء العظيم.
وقبل أن نبدأ بالنظر في هذا الكتاب يحسن بنا أن نضع أمام القراء المبادئ الأساسية التي سنسترشد بها في نقدنا، والتي نرى لزاما على كل مترجم أن يراعيها إذا شاء أن تكون ترجمته دقيقة أمينة سليمة.
(1) فأول ما يجب على المترجم أن يكون ملما بموضوع الكتاب الذي يترجمه، وإلا دفع في الخطأ من حيث لا يدري؛ ذلك بأن لكل علم ولكل فرع من علم مصطلحاته الخاصة التي يجب أن يعرفها المؤلف والمترجم. ويصدق هذا على التاريخ كما يصدق على العلوم الطبيعية والرياضية. ففي التاريخ معان وضعت لها مصطلحات اتفق عليها، وأصبح المؤلفون والمترجمون في غير حاجة إلى اختراع ألفاظ جديدة للتعبير عنها، بل أصبح من واجبهم أن يتقيدوا بها إن وجدت، وإلا وقعوا في الفوضى والاضطراب. وقد توجد في الكتاب المترجم أغلاط مطبعية وغير مطبعية، وأسماء الأشخاص وأماكن محرفة وغير محرفة، ولا يستطيع المترجم أن يثبتها على حقيقتها إلا إذا كان عارفا بها أو كان في استطاعته الرجوع إلى المصادر التاريخية التي تمكنه من تحقيقها. وتعريب الأسماء من اللغة الإنجليزية يحتاج إلى كثير من العلم والدقة، وإلا خرج الكتاب مشوها بعيدا عن التحقيق التاريخي قليل القيمة غير مطابق للأصل المترجم.
(2) كذلك يجب أن تكون الترجمة كالأصل من غير زيادة ولا نقص، ولسنا نرمي بذلك إلى الترجمة الحرفية التي يتقيد صاحبها بالألفاظ فيحتم على نفسه أن يأتي لكل لفظ بما يقابله ولكل عبارة بمثلها مساوية لها في الطول وعدد الكلمات: ليس هذا هو المقصود بل المقصود أن يعبر المترجم عن جميع المعاني الواردة في الأصل المترجم بلغة سليمة وأسلوب صحيح، والأمانة في الترجمة تحتم على المترجم أن لا يحذف من الأصل شيئاً إلا إذا اضطر إلى ذلك اضطراراً، ويجمل به مع ذلك أن يذكر سبب هذا الحذف في هامش الكتاب أو في المقدمة إن شاء.
(3) ويتفرع من هذا مبدأ ثالث عظيم الأهمية يتوقف عليه جمال الترجمة وسلاسة الأسلوب، ذلك أن اللغة الإنجليزية تكتب جملا منفصلة قليلة الروابط اللفظية مع أن الفقرة الطويلة تعبر في الغالب عن معنى واحد شامل مرتبط الأجزاء متسلسل الجمل. والفقرات كذلك مرتبط بعضها ببعض. لكن هذه الروابط روابط ملحوظة غير ملفوظة في كثير من الأحيان، ويتوقف إدراك المعنى على فهم هذه الروابط بين الجمل والفقرات، وتختلف اللغة العربية في ذلك عن اللغة الإنجليزية، فالعبارة العربية تحتاج إلى الروابط اللفظية بين الجمل، ومتانة الأسلوب تستدعي حسن الانتقال من فقرة إلى فقرة، وإلا كان هذا الأسلوب مفككا غير فصيح وبعيدا عن الذوق العربي، وكل خطأ في فهم هذه الروابط والتعبير عنها يفسد الأسلوب ويغير المعنى. وربما كان ذلك أصعب شيء في الترجمة، وهو الذي يجعل الكتب المترجمة ركيكة الأسلوب أجنبية في حقيقتها، وإن كتبت بألفاظ عربية. والمترجم القدير هو الذي تقرأ كتابه فلا تشعر أنه مترجم، بل تحس بأنك تقرأ كتاباً عربياً فصيحاً.
(4) وثمة مسألة أخرى ترتبط بالمسألة السابقة وهي الأمثال والتشبيهات ونحوها، وهل تترجم بلفظها أو بمعناها. ونحن نرى أن يترجم معناها. واللغة العربية غنية بالأمثال والحكم والتشبيهات، ولا يعجز الأديب المطلع عن العثور لكل تشبيه أو مثل إنجليزي على ما يقابله في اللغة العربية، فإذا لم يجده فلا ضير عليه أن يترجمه بشرط ألا تكون الترجمة عسرة الفهم ولا بعيدة عن الذوق العربي السليم.
(5) وكثيرا ما يقصد المؤلف أن يؤكد بعض المعاني تأكيداً خاصاً لأهميتها في نظره، وكثيراً ما يسبغ على بعض المعاني ثوباً روائياً أو شعرياً يقتضيه غرضه، وواجب المترجم القدير في مثل هذه الأحوال ألا يغفل عن ذلك في الترجمة ليكون أميناً على معاني المؤلف وروحه معا.

تلك أهم المبادئ التي سنبني عليها نقدنا لترجمة الأستاذ فؤاد صروف وبقدر انطباقها على الترجمة يكون حكمنا عليها وموعدنا بذلك العدد القادم إن شاء الله

الغنيمي

في الكتب

المطالعة التاريخية للمدارس الابتدائية

للأساتذة: محمد رفعت بك وزكي علي ومحمد مصطفى زيادة وأحمد نجيب هاشم والسيد أحمد خليل

للأستاذ أحمد الشايب

هذه أول مرة في تاريخ الحياة المدرسية المصرية يعرض فيها التاريخ على التلاميذ عرضا علميا فنيا جميلا، يحاول به الأساتذة أن يصلوا بين الأطفال وبين العصور الأولى أقوى صلة وأجملها، وأنفعها، وأحبها إلى النفوس الغضة الحديثة العهد بالحياة. وما ظنك بدرس في التاريخ - أو كتاب في التاريخ - يشرك الطفل في بناء الماضي درسا، وقصصا، وعملا، ومتعة، فيستمع به الناشئ إلى أحاديث الملوك السابقين، ويرى آثارهم مصورة، ويدخل إلى منازلهم، ويلعب مع أطفالهم، ويصنع مثل لعبهم، ويتنقل بين الزراع، والصناع، والتجار، في المزارع، والمصانع، والمتاجر، لا مشاهدا ومتحدثا فقط، بل مشاركا، مفيدا من الماضي خير الفضائل وأنبل الصفات. ذلك، وأكثر منه، وخير منه، هو ما قام به هؤلاء الأساتذة الأفاضل مؤلفو كتاب المطالعة التاريخية للمدارس الابتدائية. وقد قرأت جزءه الأول الذي وضع في حياة المصريين القدماء، فإذا به يصور الخطوة القديمة لحياة مصر والمصريين، ولكنها مع ذلك خطوة واضحة، بهية، استطاع واصفوها محتالين متلطفين أن يمزجوها بخطأ الطفولة ومواهبها حتى لقد خشيت أن يستحيل أطفالنا، بهذا الأسلوب الفني الجميل، أبناء فراعنة، وأطفالا تاريخيين.

لترك الباحثين يختلفون حول التاريخ، أعلم هو أم فن، ولنقف عند طور الطفولة وما يلائمه موضوعا وشكلا، فلن نرى - فيما نعرف - خيرا من هذا الكتيب ولا اصلح منه لأبناء المدرسة الابتدائية، سواء في ذلك اختيار المعلومات، وتنوعها، وشمولها، وطريقة عرضها، وسهولة أسلوبها، وما أعقبها من التمارين العملية. . وأما الرسوم والأشكال فهي وحدها مدرسة في إيضاحها وفي جمالها الذي يفتن الأطفال، ويبهر الأبصار.

عرف المؤلفون، أو المربون، طبيعة الطفولة فكان تاريخهم قصصا، سهلا، مشوقا، متصلا

بحياة التلاميذ وما يألفون، وعرفوا غرائز البنين وشغفها بالعمل، فحولوا الدرس من هذا الشكل النظري إلى تمارين عملية تسد هذه الحاجة الغريزية، ولم يقفوا عند هذا المران التقليدي حتى عمدوا إلى قوة الخيال، فاعتمدوا عليها لتجسيم الصور الوصفية، وكلفوا التلاميذ من ذلك قسطا حسنا ينزع بهم إلى هذه العادات العملية المحققة؛ ولحظوا فتنة الأولاد باللعب الصغيرة، والمناظر البهيجة، فيسروا لهم الحصول على العرائس والكرات، وزخرفوا صفحات الكتاب بأجمل ما ترك الفراعنة من صور وأشكال.

وبعد هذا ينتقلون بالطفل بين جوانب الحياة القديمة، آباء عاطفين وأصدقاء مخلصين، فهم به اليوم في النوادي الرياضية يرونه المصارعة. وحمل الأثقال والترامي بالكرات، وغدا يأخذون بيده إلى المدرسة فيشهد زملائه لاعبين كاتبين حاسبين، وبعد غد يعرضون عليه الجيش المصري بأسلحته وعرباته وسفنه يفتح في الأقطار، ويكون الإمبراطورية القديمة. ثم يدخلون معه منزلا لإحدى الأسر الراقية ليشهد مثل النظام، والطاعة، والألفة، وحسن الآداب. وقد يحملونه على سفن الملكة حتشبسوت إلى بلاد الصومال بأفريقية ليعود بالأشجار العطرية، والحيوانات العجيبة. . وهكذا لا يتركون ناحية من هذه البيئة الفرعونية حتى يغرقوه فيها سامعا، مبصرا، عاملاً، خائلاً كأنه يشترك في تمثيل رواية أو حفلة ألعاب.

ليس في الكتاب هذه العبارة الجوفاء، والمبالغات الممقوتة التي يلجأ إليها كتاب التاريخ للأطفال حين تعوزهم المادة الممدودة، وبراعة الأسلوب. ولقد سررت حين رأيت (خوفو) ينتهز فرصة فراغ المصريين من الأعمال الزراعية أيام فيض النيل فيملأ فراغهم وجيوبهم ببناء الهرم الأكبر. كما سررت بهذه الناحية التهذيبية التي تصل بالأبناء إلى غاية الدرس التاريخي، وتحملهم على التعلق بأسباب المجد والفضيلة، فهذا الملك

أحبته الرعية لإخلاصه في خدمتها، والإسكندر المقدوني بكرت إليه إمارات النجابة، فكان ملكا كبيرا، وهؤلاء الرسل أدوا رسالة الإنسانية وصبروا في سبيلها فكانوا البررة الكرام، وهذه مصر المحبوبة العزيزة أصبحت بفضل هذا الماضي المجيد محج السائحين والباحثين من كل الأقطار.

أما بعد، فلو كان لي طفل أو تلميذ في مدرسة ابتدائية، لما تركته ليلة دون أن أتدارس معه في هذا الكتاب، وأفيض على نفسه منه معرفة، وتسلية وتهذيبا. . . ولعل التلاميذ قد ظفروا

من هذا الكتاب بحياة مدرسية حديثة حقا، تجمع بين العلم والفن الجميل.

أحمد الشايب

العدد 199 - بتاريخ: 26 - 04 - 1937

من أحاديث الشباب

حول الديمقراطية

- لا يا عزيزي؛ أنا لا أتابعك على هذا التفسير. إن رأى الإمام محمد عبده جلي صريح. وكلمة (ينهض) في قوله المأثور: (لا ينهض الشرق إلا بمستبد عادل) أساس فكرته وعمود رأيه؛ فإن النهوض لا يكون إلا من القعود؛ والأمة القاعدة أو الراقدة لا يبعثها إلا القرع الشديد والهتاف القوي؛ ولا يمكن أن يكون هذا القارع الهاتف رأيها العام لأنه مفقود، ولا ضميرها الاجتماعي لأنه ميت؛ إنما يكون رسالة من الله على لسان نبي، أو هداية من الطبيعة على يد مصلح؛ وتنفيذ الرسالة الإلهية، أو الدعوى الإصلاحية، يرجع إلى خليفة يحكم بأمر الله، أو طاغية يحكم برأي نفسه. فإذا كانت الأمة قد نهضت بالفعل، كان الاستبداد بأمورها كفاً لنزعاتها عن الطموح، وحبساً لملكاتها عن العمل؛ لأن النهضة معناها غافل أحس وجوده، وخامل فهم نفسه، وجاهل عرف حقه، وعاطل أبصر واجبه، وضال وجد سبيله. والحياة التي تسري في أفراد الشعب الناهض، هي بعينها الحياة التي تجري في أعواد الربيع المنبعث: تتحرك في الأمة على صوت النذير في الغفلة، كما تتحرك في الطبيعة على هزيم الرعد في الشتاء. ومتى نفخ الله من روحه في خمود الحي، سيره على سنة الوجود وبصره بغاية الحياة؛ وهنا يكون المستبد مهما عدل سحاباً يحجب النور الذي أنبثق، وسموماً يصوح الزهر الذي تفتح

فقال صاحبي الشاب وقد ألقى باله لما قلت ففترت حماسته بعض الفتور:

- ولكن المستبد برأيه أو الحاكم بأمره يختصر الآراء في رأيه، ويجمع الأهواء على هواه. فنأمن التشرد الذي يضل، والتردد الذي يعوق، والتواكل الذي يضعف، والتساهل الذي يحابى. فقلت له:

- ذلك يصح والشعب لا يزال قطيعاً من الحيوان الأبله، لابد له حينئذ من الراعي وعصاه. أما إذا أصبح هذا القطيع أمة لكل فرد من أفرادها كرامة وإرادة ورأي ومصلحة، فبأي منطق تلغي هذه العقول الملايين التي جعلت لنفكر، وتنسخ هذه النفوس الملايين التي خلقت لتريد، لتجعل مكانها نفساً واحدة تغصب قوة الشعب لتقوده، وتسرق ثروته لتسوده. ثم يسرف عليها سلطانها فتتخذ الناس عبيداً والبلاد ضيعة؟

أنا أفهم أن المرء يقهر فيخضع، ويؤسر فيسترق، لأن الأمر في ذلك لا يخرج عن قانون الطبيعة من تغلب الأقوى وسيادة الأصلح؛ ولكني لا أستطيع أن أفهم كيف يستأسر شعب بأسره لواحد منه، فيلقى بزمامه إليه، ويعول في جميع أموره عليه، والشعب مهما صغر لا يقل عن شعب، والفرد مهما كبر لا يزيد على فرد. والقوة والثروة والسلطان هي في ذلك الجمع الذي فيه الجندي والفلاح والعامل، لا في ذلك المفرد الذي فيه السرف والترف والبغي؟

لقد مات ذلك الإنسان المغفل الذي كان يجعل إلهه حيواناً يربيه ثم يمجده، أو جماداً يصنعه ثم يعبده

إن الديمقراطية يا صديقي أخلق النظم بكرامة الإنسان وسلامة العالم. هبط وحيها على الإنسان المفكر الحر في أثينا، ثم أصابها ما أصاب رسالات الخير في الأرض من شيوع الجهالة، وبلادة الحس، وأثرة الهوى، وطغيان الحكم، فصارت عروساً من عرائس الخيال كالحق والعدل والحرية، تتمثل في الأحلام، وتتراءى في المنى، وتقتل في سبيلها الأنفس الكريمة، حتى ظفر بها الأوروبي الحديث بطول جهاده وكثرة

ضحاياه ووفرة علمه وقوة شعوره، فأصبح كل فرد بمقتضاها صاحب حق في الوطن، وصاحب رأي في التشريع، وصاحب صوت في الحكم؛ وصار العامل الفقير والصانع الأجير والفلاح المتواضع قادرين على أن يلغوا الوظيفة التي لا تفيد، ويسقطوا الحكومة التي لا تعدل.

الديمقراطية هي المسواة في الحق والواجب، والمشاركة في الغنم والغرم، والميدان الحر للكفايات الممتازة لا يعوقها عن بلوغ الأمد فيه عائق من نسب أو لقب أو ثروة.

فكيف يجري في ذهنك هذا الخاطر وأنت من أصفى الشباب حساً وأنبلهم نفساً وأكثرهم ثقافة؟

لم يجد الشاب في نفسه ما يقوله؛ لأن الواقع في ذهنه هو اضطراب الحيرة لا اختمار الفكرة. فعبر عن كل ما بقي في خاطره بهذا السؤال:

- وماذا تقول في موسوليني وهتلر؟

- أقول أنهما مظهر حاد من مظاهر الديمقراطية. كلا الرجلين يعمل بالشعب وللشعب؛ وكلاهما يمثل قوة الأمة وينفذ إرادة الأمة؛ وكلاهما يعتقد أن اليد التي استطاعت أن ترفع تستطيع أن تضع.

ولباب الأمر أن تعترف للأمة بالسلطان ثم تظهره بعد ذلك في أي رجل شئت، وتحت أي عنوان شئت.

أبتسم صديقي الشاب ابتسامة المقتنع، وحيا تحية المسلّم، ثم قال وهو يضع يده في يدي: إن جهودنا معشر الشباب كانت مسددة إلى غرض واحد هو استقلال الوطن. فلما أسفر الجهاد عن وجوه الفوز اضطربت الجهود وتشعبت الآراء واحتجنا في هذا العهد الجديد، إلى توجيه جديد. فقلت له: ذلك ما ستحاول (الرسالة) علاجه ابتداء من العدد القادم.

أحمد حسن الزيات

حيرة العقل

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

أراني في هذه الأيام لا أكاد أعرف لي رأياً في شئ، لا لأني كففت عن التفكير فلعل الأمر على خلاف ذلك، وعسى أن أكون مسرفاً في النظر والتدبر وفي التماس الوجوه المختلفة للأمر الواحد الذي يعرض لي، وإنما ترجع حيرتي إلى أن إطالة النظر تكشف لي كل يوم عن جديد، وإلى أن تدبر النواحي المختلفة تجعل الجزم عسيراً، وتغري بالتردد، وتدفع إلى الشك، ومن طال وزنه للأمور وتقصيه لوجوهها وتأمله في البواعث والاحتمالات قل بته - وعمله أيضاً - لأن العمل يراد منه الغاية، فلابد من المجازفة والتعرض لعواقب الخطأ من بعض النواحي. وكل رجل عمل يضطر إلى الأخذ بالأرجح فيما يرى، وإلا تعذر عليه العمل بل استحال.

ورجال الحرب والسياسة والمال والتجارة ومن إليهم لا يسعهم إلا المخاطرة لأن غايتهم ليست الاهتداء إلى الحقيقة بل بلوغ الغرض. وكثيراً ما أراني اسأل نفسي لفرط ما أرى من ترددي وحيرتي، (هل أصبحت غير صالح للعمل؟) ولا يسرني ذلك فأروح أقول إن قدرة النفس على التكييف لا حد لها فيما أعرف، وإن العمل الذي يحوج إلى سرعة البت والجزم بلا تردد يضطر المرء إلى النزول على مقتضياته، وما أكثر ما تكون مواهب الإنسان كامنة، فلا يظهرها إلا انتقال الأحوال به، وأنا مع طول ترددي بين الآراء أراني مع ذلك أتصرف في مواقف العمل بسرعة وضبط وإحكام.

وليس هذا من الثناء على النفس، ولكنه من الواقع الذي أعرفه بالتجربة

ومن طول حيرتي بين الآراء أصبحت أثق بخطأي ولا أثق بصوابي، وأقدر الضلال في كل ما انتهى إليه، ولا أطمئن إلى السداد فيه، ومن أجل ذلك لا أزال أراجع نفسي في كل قضية، وأنقض اليوم ما أبرمت بالأمس، ولولا أني معجل في حياتي لكان الأرجح أن أحجم عن المجاهرة برأي مخافة أن أكون قد أخطأت الصواب فيه. وأنا أعزي نفسي - لو أن في هذا عزا - بقول ويندل هولمز - على ما أذكر - إن الحقيقة (كزهر) النرد لها أكثر من وجه واحد، فإذا كنت قد رأيت وجهاً واحداً دون سائر الوجوه فإن لي العذر إذا كان هذا كل ما بدا لي، وأين في الناس من يرى وجوه الحقيقة كلها من كل جانب؟؟

ولهذه الحيرة عللها المعقولة فأنا قد ورثت آراء، وأفدت من مخالطة الناس أراء، واكتسبت من الاطلاع آراء، وكنت أسلم بما ورثت واكتسبت، وأنا في سن التحصيل،

وكنت ربما كابرت بالخلاف فيما أخذته من بيئتي، أما ما كنت أفيده من الكتب فكنت أتلقاه بالإكبار والإقرار، لأني لم أجد من يهديني أو يرشدني. فلا البيت كان لي فيه هذا المعين، ولا المدرسة كنت أجد فيها هذا المعلم الحاذق المرشد. وظل احترامي للكتب على حاله حتى احتجت في سنة أن أبيعها، وشق علي ذلك في أول الأمر، وكنت لا أكاد أطيق أن أدخل الغرفة التي كانت مرصوصة فيها. وظللت أياماً أحس كلما نظرت إلى الرفوف التي خلت مما كان عليها أني فقدت أقرب الناس إلي وأعزهم علي، وأشعر أني مشف على البكاء إذا لم أحول عيني عن هذه الرفوف الخالية. ولم يكن ما أتحسر عليه زينتها، وما أضعته فيها من مال خسرته بالبيع، وإنما كانت الحسرة على فقدان أساتذتي وإخواني. وبقيت بعد ذلك زمناً لا أمر بمكتبة عامة إلا أشحت بوجهي عنها من فرط الألم، وإلا أحسست أن يداً عنيفة تلوي أحشائي وتحاول أن تقتلعها. وكان من غرائب ما حدث أني لبثت أكثر من سنة لا أقتني شيئاً من الكتب كأنما زهدتني الحسرة على ما ضيعت في كل جديد غيره

ومن الغريب أن هذا هو نفس الإحساس الذي عانيته لما توفيت زوجتي، فقد ظللت سنوات لا أطيق أن أنظر إلى امرأة، ثم فتر الألم وخفت وطأته، كما هي العادة. وكنت في خلال ذلك قد احتجت أن أنظر بعيني وأفكر بعقلي فألفيتني أشك في كثير من مما كنت أسلم به ولا أكابر فيه بل ما كان لا يخطر لي أن أعترض عليه، وتغير الأمر، فبعد أن كنت أخذ الآراء من الكتب أو الناس، صرت آخذها من الحياة بلا واسطة، وأعرضها على عقلي بلا مؤثر فاعتدت الاستقلال في النظر، والحرية في التفكير، وخلا تفكيري وإحساسي شيئاً فشيئاً من تأثير الكتب، وسواها، وبرزت نفسي بعد طول التضاؤل؛ ثم أخذت أروض نفسي على التماس الجوانب الأخرى التي تخفى في العادة، فصارت وجوه الحقيقة تتعدد فيما أرى، وألفت ذلك حتى صار هذا ديدني مع الناس، فإذا رأيت من صاحب لي ما يسوءني حاولت أن أضع نفسي في مكانه وأن أنظر إلى الأمر بعينه هو، وأن أتمثل بواعثه واحساساته إلى آخر ذلك، فينتهي الأمر في الأغلب بأن أعذر ولا ألوم، ويذهب الألم أو الغضب أو غير ذلك مما أثار صاحبي بما يصنع.

بل ترقيت من هذا إلى ما هو أرفع، فصار نظري إلى الناس نظراً إلى مادة تدرس لا إلى مخلوقات تعاشر ويصدر عنها ما يسوء أو يسر، ولا شك أن الفعل الحميد يحسن وقعه في النفس، وأن السوء يؤلم أو يغضب، وليس يسعني إلا أن أتلقى ما يكون من الناس بالحمد أو الذم، وبالرضى أو السخط؛ ولست بإنسان إذا لم يكن هذا شأني، ولكني أعني أني لا أعجل بالذم والسخط ولا أندفع مع أول الخاطر، بل أراجع نفسي وأجيل عيني في الأمر لأراه من ناحية غير الناحية التي طالعتني في البداية، فيتحول الموضوع من عمل أو قول باعث على الرضا أو الامتعاض إلى مادة للتفكير، وتذهب عنه الصبغة الشخصية، فكأني أمتحن نظرية ولست أزن صنع إنسان أساء أو أحسن.

ويخيل إلى الآن أني أعيش في معمل، فكل ما ألقاه في الحياة من خير وشر، وما اجدني أو أجد سواي فيه، من جد ولهو، أتناوله بالتحليل والبحث لأستخلص منه ما يتيسر لي استخلاصه من الحقائق، ثم أروح أقيسه إلى تجاربي الأخرى وأقارن وأقابل، ولا أزال أفعل ذلك حتى يهدني التعب، وقلما أهتدي، وكثيراً ما أضل، ولكني لا أسأم ولا أضجر لأن هذا صار متعتي النفسية التي لا أعدل بها متع الدنيا، بعد أن وجدت نفسي، وعثرت عليها تحت طبقات الكتب التي بعتها والحمد لله على ما كنت أتوجع وأذم الدنيا من أجله، فلولا أني بعت هذه الكتب لما وجدت نفسي، ولكان الأرجح أن أظل كالذي يعبد أصناماً.

والشك حيرة ولكنه حرية، وسعة الأفق خير من ضيقه، على الرغم من العناء الذي يكابده المرء من إرسال العين وإدارتها في النواحي الخفية أو البعيدة، وإنه لعذاب، وإن جدواه لقليلة، بالقياس إلى الجهد الذي يبذل فيه، ولكنه خير وأمتع من التحجر الذي يؤدي إليه التسليم، بلا نظر، وحسبك من متعته أنه يريك كل يوم جديداً، وقد يكون ما تهتدي إليه وتحسبه جديداً، قديماً جداً في الحقيقة ولكن المتعة في الجهد نفسه لا في النتيجة، والشأن في هذا كالشأن في الألعاب الرياضية فإن الغاية منها ليست الغلبة أو التفوق أو غير ذلك مما يجري هذا المجرى، وإنما العبرة فيها بما تفيده من التدريب وما تكسبه بفضل الجهد الذي تنفقه فيها، ولذتها في مزاولتها لا فيما تنتهي به من الفوز وإن كان للفوز قيمته ومزيته، ولكنه ليس كل ما تزاول الألعاب من أجله

ومتى صار كل شيء مادة للدرس والبحث فقد صارت الحياة أوسع وأرحب، وصار المرء
كأنه يحلق فوقها وإن كان يخوضها ويعانيها، وهذا ما أروض عليه نفسي الآن أن أكابد الحياة والناس، وأن يسعني مع ذلك أن أقف منها ومنهم موقف الناظر المتفرج، فكأني اثنان لا واحد، أحدهما يعيش ويجرب، ويسعد ويشقى، ويسر ويحزن، ويجد ويهزل، ويفعل ما يفعل الناس غيره؛ وثانيهما يتلقى هذه التجارب وينشرها أمامه، ويعرضها على عقله، ويقارنها ويقابلها، ويفحصها ويضم المتشاكل منها بعضه إلى بعض، ويجمع ما يمكن أن يأتلف، ويعمل خياله فيما يراه ناقصاً ليملأ الفراغ ويسد الثغرة، ويصنع على العموم ما يصنع الكيميائي في معمله الذي يجري فيه تجاربه، ولا يتأثر بالواقع، ولا يعنيه ما عانى منه، وهذا الازدواج عسير ولا شك، ولست أطمع أن أبلغ منه الغاية وأوفي على الأمد، ولكني أطمع أن أوفق في بابه إلى الكفاية مع المواظبة والصبر، ويطمعني في النجاح أن كل إنسان له أكثر من شخصية واحدة وإن كان لا يدري ذلك.
ويثقل على نفسي خاطر واحد يكاد يصدني عن المواظبة، هو ما جدوى ذلك كله؟. . ما آخر هذا العناء الذي أراه باطلا؟. آخر ذلك كله معروف. وهل ثم من آخر سوى الفناء؟. ولكني أعود فأقول لنفسي إن هذا الآخر لا آخر سواه، سواء أبذل المرء الجهد، أم قعد عنه وضن به، فلا فائدة من التقصير، ولا ضير من السعي. والحياة أن تحيا، لا أن تجمد وتركد وتأسن. أما الجدوى فلماذا أعذب نفسي بالسؤال عنها؟ وما جدوى أي شيء في الحياة؟. إن كل ما أعرفه أني موجود، وأني وهبت قدرة على الإحساس والتفكير، فكيف أعطل هذه المواهب وأبطل علمها؟. وكيف يمكن أن أنعم بالوجود وأتمتع بالشعور به وأنا أعطل ما أعطيت؟ ويعرف الجدوى من أعطاني الحياة، فلندع ذلك له فهو أعرف به.

إبراهيم عبد القادر المازني

الأسد

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

جلس أبو علي أحمد بن محمد الرّوذبادي البغدادي في مجلس وعضه بمصر بعد وفاة شيخه أبي الحسن بنان الحمال الزاهد الواسطي شيخ الديار المصرية وكان يضرب المثل بعبادته وزهده، وقد خرج أكثر أهل مصر في جنازته فكان يومه يوماً كالبرهان من العالم الآخر لأهل هذه الدنيا؛ ما بقي أحد إلا أقتنع أنه في شهوات الحياة وأباطيلها كالأعمى في سوء تمييزه بين لون التراب ولون الدقيق، إذ ينظر كل امرئ في مصالحه ومنافعه مثل هذه النظرة بالمس لا بالبصر، وبالتوهم لا بالتحقيق، وعلى دليل نفسه في الشيء لا على دليل الشيء في نفسه، وبالإدراك من جهة واحدة دون الإدراك من كل جهة؛ ثم يأتي الموت فيكون كالماء صب على الدقيق والتراب جميعاً فلا يرتاب مبصر ولا أعمى، ويبطل ما هو باطل ويحق الذي هو حق.

وتكلم أبو علي فقال: كنت ذات يوم عند شيخنا الجنيد في بغداد فجاءه كتاب من يوسف بن الحسن شيخ الريّ والجبال في وقته يقول فيه: لا أذاقك الله طعم نفسك فإنك إن ذقتها لم تذق بعدها خيراً أبداً. قال: فجعلت أفكر في طعم النفس ما هو وجاءني ما لم أرضه من الرأي حتى سمعت بخبر بنان رحمه الله مع أحمد بن طولون أمير مصر، فهو الذي كان سبب قدومي إلى هنا لأرى الشيخ أو صحبه وأنتفع به.

والبلد الذي ليس فيه شيخ من أهل الدين الصحيح والنفس الكاملة والأخلاق الإلهية، هو في الجهل كالبلد الذي ليس فيه كتاب من الكتب ألبتة، وإن كان كل أهله علماء، وإن كان في كل محلة منه مدرسة، وفي كل دار من دوره خزانة كتب، فلا تغني هذه الكتب عن الرجال، فإنما هي صواب أو خطأ ينتهي إلى العقل، ولكن الرجل الكامل صواب ينتهي إلى الروح، وهو في تأثيره على الناس أقوى من العلم إذ هو تفسير الحقائق في العمل الواقع وحياتها عاملةً مرئيةً داعيةً إلى نفسها. ولو أقام الناس عشر سنين يتناظرون في معاني الفضائل ووسائلها ووضعوا في ذلك مائة كتاب، ثم رأوا رجلا فاضلا بأصدق معاني الفضيلة وخالطوه وصحبوه - لكان الرجل وحده أكبر فائدة من تلك المناظرة وأجدى على الناس منها وأدل على الفضيلة من مائة كتاب ومن ألف كتاب. ولهذا يرسل الله النبي مع

كل كتاب منزل ليعطي الكلمة قوة وجودها، ويخرج الحالة النفسية من المعنى المعقول، وينشئ الفضائل الإنسانية على طريقة النسل من إنسانها الكبير.

وما مثل الكتاب يتعلم المرء منه حقائق الأخلاق العالية، إلا كوضع الإنسان يده تحت إبطه ليرفع جسمه عن الأرض، فقد أنشأ يعمل ولكنه لن يرتفع. ومن ذلك كان شر الناس هم العلماء والمعلمين إذا لم تكن أخلاقهم دروساً أخرى تعمل عملا أخر غير الكلام؛ فإن أحدهم ليجلس مجلس المعلم ثم تكون حوله رذائله تعلم تعليما آخر من حيث يدري ولا يدري، ويكون كتاب الله مع الإنسان الظاهر منه وكتاب الشيطان مع الإنسان الخفي فيه

قال أبو علي: وقدمت إلى مصر لأرى أبا الحسن وآخذ وأحقق ما سمعت من خبره مع ابن طولون. فلما لقيته لقيت رجلاً من تلاميذ شيخنا الجنيد يتلألأ فيه نوره ويعمل فيه سره؛ وهما كالشمعة والشمعة في الضوء وإن صغرت واحدة وكبرت واحدة. وعلامة الرجل من هؤلاء أن يعمل وجوده فيمن حوله أكثر مما يعمل هو بنفسه، كأن بين الأرواح وبينه نسباً شابكاً، فله معنى أبوة الأب في أبنائه لا يراه من يراه منهم إلا أحس أنه شخصه الأكبر. فهذا هو الذي تكون فيه التكملة الإنسانية للناس وكأنه مخلوق خاصة لإثبات أن غير المستطاع مستطاع.

ومن عجيب حكمة الله أن الأمراض الشديدة تعمل بالعدوى فيمن قاربها أو لامسها، وأن القوى الشديدة تعمل كذلك بالعدوى فيمن أتصل بها أو صاحبها، ولهذا يخلق الله الصالحين ويجعل التقوى فيهم إصابة كإصابة المرض تصرف عن شهوات الدنيا كما يصرف المرض عنها، وتكسر النفس كما يكسرها ذاك، وتفقد الشيء ما هو به شيء، فتتحول قيمته. فلا يكون بما فيه من الوهم بل بما فيه من الحق.

وإذا عدم الناس هذا الرجل الذي يعديهم بقوته العجيبة فقلما يصلحون للقوة، فكبار الصالحين وكبار الزعماء وكبار القواد، وكبار الشجعان، وكبار العلماء وأمثالهم؛ كل هؤلاء من باب واحد، وكلهم في الحكمة ككبار المرضى

قال أبو علي: وهممت مرة أن اسأل الشيخ عن خبره مع ابن طولون فقطعتني هيبته، فقلت احتال بسؤاله عن كلمة شيخ الري (لا أذاقك الله طعم نفسك). وبينما أهيئ في نفسي كلاماً أجري فيه هذه العبارة، جاء رجل فقال للشيخ: لي على فلان مائة دينار وقد ذهبت الوثيقة

التي كتب فيها الدين وأخشى أن ينكر إذا هو علم بضياعها؛ فادع الله لي وله يظفرني بديني وأن يثبته على الحق. فقال الشيخ: إني رجل قد كبرت وأنا أحب الحلوى، فأذهب فاشتر لي رطلا منها وأمتعني به حتى أدعو لك.

فذهب الرجل فاشترى الحلوى ووضعها له البائع في ورقة فإذا هي الوثيقة الضائعة. وجاء إلى الشيخ فأخبره، فقال له: خذ الحلوى فأطعمها صبيانك لا أذاقنا الله طعم أنفسنا فيما نشتهي. ثم انه التفت إلي وقال لو أن شجرة اشتهت غير ما به صحة وجودها وكمال منفعتها فأذيقت طعم نفسها، لأكلت نفسها وذوت

قال أبو علي: والمعجزات التي تحدث للأنبياء والكرامات التي تكون للأتقياء، وما يخرق العادة ويخرج عن النسق كل ذلك كقول القدرة عن الرجل الشاذ: هو هذا. فلم تبق بي حاجة إلى سؤال الشيخ عن خبره مع ابن طولون، وكنت كأني أرى بعيني رأسي كل ما سمعت، بيد أني لم أنصرف حتى لقيت أبا جعفر القاضي أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ذاك الذي يحدث بكتب أبيه كلها من حفظه وهي واحد وعشرون مصنفا فيها الكبير والصغير. فقال لي: لعلك اشتفيت من خبر بنان مع ابن طولون فمن أجله زعمت - جئت إلى مصر. قلت: إنه تواضع فلم يخبرني وهبته فلم أسأله. قال: تعال أحدثك الحديث.

كان أحمد ابن طولون من جارية تركية وكان طولون أبوه مملوكا حمله نوح بن أسد عامل بخارى إلى المأمون فيما كان موظفا عليه من المال والرقيق والبراذين وغير ذلك. فولد أحمد في منصب ذلة تستظهر بالطغيان. وكانت هاتان طبيعتيه إلى آخر عمره، فذهب بهمته مذهبا بعيدا، ونشأ من أول أمره على أن يتم هذا النقص ويكون أكبر من أصله، فطلب الفروسية والعلم والحديث، وصحب الزهاد وأهل الورع، وتميز على الأتراك وطمح إلى المعالي. وظل يرمي بنفسه وهو في ذلك يكبر ولا يزال يكبر كأنما يريد أن ينقطع من أصله ويلتحق بالأمراء، فلما ألتحق بهم ظل يكبر ليلحق

بالملوك، فلما بلغ هؤلاء كانت نيته على ما يعلم الله
قال: وكان عقله من اثر طبيعتيه كالعقلين لرجلين مختلفين فله يد مع الملائكة ويده الأخرى مع الشياطين، فهو الذي بنى المارستان وأنفق عليه وأقام فيه الأطباء وشرط إذا جيء بالعليل أن تنزع ثيابه وتحفظ عند أمين المارستان، ثم يلبس ثيابا ويفرش له ويغدى
عليه ويراح بالأدوية والأغذية والأطباء حتى يبرأ، ولم يكن هذا قبل إمارته. وهو أول من نظر في المظالم من أمراء مصر. وهو صاحب يوم الصدقة، يكثر من صدقاته كلما كثرت نعمة الله عليه، ومراتبه لذلك في كل أسبوع ثلاثة آلاف دينار سوى مطابخه التي أقيمت في كل يوم في داره وغيرها، يذبح فيها البقر والكباش ويغرف للناس. ولكل مسكين أربعة أرغفة يكون في اثنين منها فالوذج وفي الآخرين من القدور، وينادي من احب أن يحضر دار الأمير فليحضر. وتفتح الأبواب ويدخل الناس وهو في المجلس ينظر إلى المساكين ويتأمل فرحهم بما يأكلون ويحملون فيسره ذلك ويحمد الله على نعمته. وكان راتب مطبخه في كل يوم ألف دينار، واقتدى به ابنه خمارويه، فأنشأ بعده مطبخ العامة ينفق عليه ثلاثة وعشرين ألف دينار، كل شهر
وقد بلغ ما أرسله ابن طولون إلى فقراء بغداد وعلمائها في مدة ولايته ألفي ألف ومائتي ألف دينار وكان كثير التلاوة للقرآن، وقد اتخذ حجرة بقربه في القصر وضع فيها رجالا سماهم بالمكبرين، يتعاقبون الليل نوباً، يكبرون ويسبحون، ويحمدون، ويهللون، ويقرءون القرآن تطريباً وينشدون قصائد الزهد، ويؤذنون أوقات الآذان. وهو الذي فتح إنطاكية في سنة خمس وستين ومائتين ثم مضى إلى طرسوس كأنه يريد فتحها، فلما نابذه أهلها وقاتلهم، أمر أصحابه أن ينهزموا عنها ليبلغ ذلك طاغية الروم، فيعلم أن جيوش ابن طولون على كثرتها وشدتها لم تقم لأهل طرسوس فيكون بهذا كأنه قاتله وصده عن بلد من بلاد الإسلام ويجعل هذا الخبر كالجيش في تلك الناحية ومع كل ذلك فأنه كان رجلاً طائش السيف يجور ويعسف وقد أحصى من قتلهم صبراً أو ماتوا في سجنه فكانوا ثمانية عشر ألفا. وأمر بسجن قاضيه بكار بن قتيبة في حادثة معروفة وقال له: غرك قول الناس ما في الدنيا مثل بكار؟ أنت شيخ قد خرفت؛ ثم حبسه وقيده وأخذ منه جميع عطاياه مدة ولايته القضاء فكانت عشرة آلاف دينار؛ قيل أنها وجدت في بيت بكار بختمها لم يمسها زهداً وتورعاً
ولما ذهب شيخك أبو الحسن يعنفه ويأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر طاش عقله فأمر بإلقائه إلى الأسد، وهو الخبر الذي طار في الدنيا حتى بلغك في بغداد
قال: وكنت حاضراً أمرهم ذلك اليوم، فجيء بالأسد من قصر ابنه خمارويه. وكان هذا خمارويه مشغوفاً بالصيد لا يكاد يسمع بسبع في غيضة أو بطن واد إلا قصده ومعه رجال عليهم لبود، فيدخلون إلى الأسد ويتناولونه بأيديهم من غابه عنوة وهو سليم فيضعونه في أقفاص من خشب محكمة الصنعة يسع الواحد منها السبع وهو قائم وكان الأسد الذي اختاروه للشيخ أغلظ ما عندهم، جسيما، ضارياً، عارم الوحشية، متزيل العضل، شديد عصب الخلق، هراساً، فراساً، أهرت الشدق، يلوح شدقه من سعته وروعته كفتحة القبر ينبئ أن جوفه مقبرة، ويظهر وجهه خارجاً من لبدته، يهم أن ينقذف على من يراه فيأكله.
وأجلسوا الشيخ في قاعة وأشرفوا عليه ينظرون. ثم فتحوا باب القفص من أعلاه، فجذبوه فارتفع؛ وهجهجوا بالأسد يزجرونه فانطلق يزمجر ويزأر زئيراً تنشق له المرائر ويتوهم من يسمعه أنه الرعد وراءه الصاعقة.
ثم اجتمع الوحش في نفسه وأقشعر، ثم تمطى كالمنجنيق يقذف الصخرة، فما بقي من أجل الشيخ إلا طرفة عين. ورأيناه على ذلك ساكناً مطرقاً لا ينظر إلى الأسد ولا يحفل به، وما منا إلا من كاد ينتهك حجاب قلبه من الفزع والرعب والإشفاق على الرجل.
ولم يرعنا إلا ذهول الأسد عن وحشيته فأقعى على ذنبه ثم لصق بالأرض هنيهة يفترش ذراعيه، ثم نهض نهضة أخرى كأنه غير الأسد، فمشى مترفقاً ثقيل الخطو تسمع لمفاصله قعقعة من شدته وجسامته، وأقبل على الشيخ وطفق يحتك به ويلحظه ويشمه كما يصنع الكلب مع صاحبه الذي يأنس به، وكأنه يعلن أن هذه ليست مصاولة بين الرجل التقي والأسد، ولكنها مبارزة بين إرادة ابن طولون وإرادة الله.

وضربته روح الشيخ فلم يبقى بينه وبين الآدمي عمل، ولم يكن منه بازاء لحم ودم، فلو أكل الضوء والهواء والحجر والحديد، كان ذلك أقرب وأيسر من أن يأكل هذا الرجل المتمثل في روحانيته لا يحس لصورة الأسد معنى من معانيها الفاتكة، ولا يسري فيه إلا حياة خاضعة مسخرة للقوة العظمى التي هو مؤمن بها ومتوكل عليها كحياة الدودة والنملة، وما دونها من الهوام والذر.

وورد النور على هذا القلب المؤمن يكشف له عن قرب الحق سبحانه وتعالى، فهو ليس بين يدي الأسد ولكنه هو والأسد بين يدي الله، وكان مندمجاً في يقين هذه الآية: (وأصبر لحكم ربك فإنك بأعْيُنِنَا)

ورأى الأسد رجلاً هو خوف الله، فخاف منه، وكما خرج الشيخ من ذاته ومعانيه الناقصة خرج الوحش من ذاته ومعانيها الوحشية، فليس في الرجل خوف ولا هم ولا جزع ولا تعلق برغبة، ومن ذلك ليس في الأسد فتك ولا ضراوة ولا جوع ولا تعلق برغبة.

ونسي الشيخ نفسه فكأنما رأى الأسد ميتاً ولم يجد فيه (أنا) التي يأكلها، ولو أن خطرة من هم الدنيا خطرت على قلبه في تلك الساعة أو اختلجت في نفسه خالجة من الشك، لفاحت رائحة لحمه في خياشيم الأسد فتمزق في أنيابه ومخالبه

قال: وانصرفنا عن النظر في السبع إلى النظر في وجه الشيخ فإذا هو ساهم مفكر، ثم رفعوه وجعل كل منا يظن ظناً في تفكيره، فمن قائل أنه الخوف أذهله عن نفسه وقائل أنه الانصراف يعقله إلى الموت، وثالث يقول أنه سكون الفكرة لمنع الحركة عن الجسم فلا يضطرب، وزعم جماعة أن هذه حالة من الاستغراق يسحر به الأسد.

وأكثرنا في ذلك وتجارينا فيه حتى سأله ابن طولون: ما الذي كان في قلبك وفيم كنت تفكر؟

فقال الشيخ: لم يكن علي بأس، وإنما كنت أفكر في لعاب الأسد أهو طاهر أم نجس. . . . . .

(طنطا)

مصطفى صادق الرافعي

القاهرة المعزية

وجوب الاحتفاء بعيدها الألفي

للأستاذ محمد عبد عنان

منذ أعوام قلائل احتفلت فرنسا بذكرى إحدى مدنها العتيقة، وهي مدينة قرقشونة (كاركاسون) الرومانية لمناسبة مضي ألفي عام على قيامها؛ ومازلنا نذكر مما أفاضت به الأنباء يومئذ طرافة هذا الاحتفال وروعته وأهميته من الوجهة القومية. وقرقشونة إحدى مدن ولاية (سبتماينا) السبعة، وقد كانت مدى حين معقلا إسلاميا في جنوب فرنسا؛ ومازالت على صغرها وتواضعها شهيرة بآثارها الرومانية وتأريخها الحافل أيام الرومان والقوط والعرب

وان مصر لتستطيع أن تفخر بمدنها الألفية عنوان تراث مجيد وحضارة خالدة؛ ويكفي أن نذكر في هذا المقام عاصمتيها الجليلتين، الإسكندرية ثغرها العظيم التالد، والقاهرة عروس العواصم الإسلامية؛ فقد قطعت الإسكندرية من عمرها المديد أكثر من ثلاثة وعشرين قرنا؛ وأشرفت القاهرة على ألفها؛ وإذا كانت العاصمة الكبرى تقترب من عيدها الألفي بخطى سريعة فإن من بواعث الأسف أن يقترب هذا اليوم التاريخي العظيم دون أن تتأهب مصر للاحتفاء به وإحاطته بما يجب من ضروب الإشادة والتكريم؛ ومن بواعث الأسف إلا يرتفع حتى اليوم صوت رسمي ينبه إلى هذا الحادث القومي الجليل، وينوه بخطورته وأهميته، ويدعو المختصين إلى الاهتمام بأمره

ولقد احتفلت مصر بالأمس بالعيد المئوي لوزارة معارفها، واحتفلت من قبل بالعيد المئوي لمدرسة الطب، والعيد المئوي للمدرسة الخديوية، والعيد الخمسيني لإنشاء المحاكم الأهلية، وغيرها من المواقف والحوادث القومية، وأدركت ما وراء الاحتفاء بهذه المناسبات التاريخية من بعث للماضي، وتكريم للذكريات المجيدة، وإذكاء للعاطفة القومية، ووصل بين مراحل تأريخنا. بيد أن هذه الذكريات والمناسبات الحافلة تبدو ضئيلة متواضعة إلى جانب الاحتفاء بالعيد الألفي للقاهرة

ذلك أن الاحتفاء بالعيد الألفي للقاهرة المعزية يعتبر حادثاً منقطع النظير في تأريخ

مصر الإسلامية. وليس بين عواصم العالم الكبرى سوى مدن قلائل قطعت عمرها الألفي؛
وأشهرها وأعظمها من الوجهة التاريخية هي بلا ريب أثينه والإسكندرية ورومه وقسطنطينية. وإذا كان العالم الإسلامي يضم عدة مدن ألفية أخرى، فإنه ليس بينها من تضارع القاهرة في ضخامتها وجلالها وأهميتها السياسية والفكرية والاجتماعية ألف عام هجرية كادت تنقضي على قيام المدينة الفاطمية المتواضعة، القاهرة المعزية أو قاهرة المعز لدين الله؛ ففي 17 شعبان سنة 358هـ (7 يوليه سنة 969م) دخلت الجيوش الفاطمية بقيادة جوهر الصقلي قائد المعز الفاطمي مدينة مصر أو مدينة الفسطاط غازية ظافرة، وعسكرت عند مغيب الشمس في الفضاء الواقع في شمال غربي الفسطاط؛ وفي نفس الليلة وضع القائد جوهر تنفيذاً لأوامر المعز أول خطة في مواقع المدينة الجديدة التي اعتزم الفاطميون إنشاءها بمصر لتكون لهم منزلا ومعقلا.
وحفر أساس قصر جديد في نفس الفضاء الذي نزل فيه جيشه، فكان هذا مولد القاهرة التي سميت كذلك تفاؤلا وتيمناً بالنصر؛ وقامت المدينة الجديدة بسرعة تتوسطها القصور الفاطمية والجامع الأزهر الذي أنشئ بعد ذلك بأشهر قلائل (في جمادى الأولى سنة 359) ليكون منبراً للدولة الجديدة وملاذاً لدعوتها؛ ولم تلبث أن غدت منزل الخلافة الفاطمية مذ قدم المعز لدين الله إلى مصر بأمواله وأهله وبطانته وتوابيت أجداده، واستقر في عاصمته الجديدة في رمضان سنة 362هـ (يونيه سنة 973م)
ولبثت القاهرة مدى حين ملوكية عسكرية لا تضم سوى القصر الفاطمي ودواوين الحكم وخزائن المال والسلاح ومساكن الأمراء والبطانة ومن إليهم من التباع النازحين في ركب الغزاة؛ ولكن لم يمض جيل واحد حتى واحد حتى اتسعت جنبات المدينة الجديدة ونمت نمواً عظيما وترامت معالمها وأحياؤها إلى ما وراء السور الذي أنشأه حولها القائد جوهر واتصلت بمدينة مصر (الفسطاط) وامتزجت المدينتان وتداخلتا وصارتا تكونان معا مدينة من أكبر وأعظم مدن الإسلام في العصور الوسطى. وكان اسم القاهرة يطلق اصطلاحا على المدينة الفاطمية التي يضمها السور الذي أنشأه القائد جوهر ثم وسعه وأعاد إنشائه أمير الجيوش بدر الجمالي في أواخر عهد المستنصر بالله (سنة 486هـ ـ) وأدخل فيه عدة أحياء ومواقع جديدة: وأما المناطق التي بقيت خارج السور والتي كانت تمتد فيما بين الجامع الطولوني وقلعة الجبل إلى الجهة المقابلة على ضفة النيل، فكانت تعرف بظاهر القاهرة، وكان اسم مصر يطلق دائما على الفسطاط القديمة، ويطلق على المدينتين معا (مصر القاهرة)
ومازالت معالم القاهرة المعزية وحدودها القديمة قائمة يحدها من الشمال موقع باب الفتوح وباب النصر والسور الذي يصلهما وهو بقية من سور أمير الجيوش بدر الجمالي، ويحدها من الجنوب باب زويلة، ومن الشرق سفح الجبل، ومن الغرب موقع الخليج القديم، وما يلي ذلك حتى ضفة النيل، وما يزال الجامع الأزهر قائما وسط المدينة القديمة حيث قام منذ ألف عام تحيط به معظم الأحياء والدروب الفاطمية القديمة بعد أن تغيرت أسماؤها ومعالمها
ولقد شهدت القاهرة في ظل الخلافة الفاطمية ألواناً من العظمة والبهاء والبذخ قلما شهدتها في ظل دولة إسلامية أخرى؛ ومع أنها نمت بعد ذلك نمواً عظيما. واتسعت جنباتها وأحياؤها حتى غدت في القرن التاسع الهجري أضعاف ما كانت عليه أيام الفاطميين، فإنها لم تستطع بمثل ما سطعت في عهدها الأول، ولم تشهد مثل ما شهدت فيه من مواكب الخلافة الفخمة، ورسومها وأعيادها الباذخة ولياليها وحفلاتها الباهرة؛ كانت القصور الفاطمية آية الفخامة والبهاء وإن الخيال ليضطرم إلى الذروة حينما يستعرض تلك الصور الرائعة التي تقدمها إلينا الروايات المعاصرة من عظمة الخلافة الفاطمية وروعتها في مظاهرها العامة، وعن حياة الخلفاء الخاصة داخل القصر وأبهائه وأجنحته المنيفة. وقد كان القصر الزاهر يشرف من الغرب على ميدان شاسع يسع عشرات الألوف من الجند والنظارة يعرف بميدان بين القصرين، وهو اسم شهير في تاريخ القاهرة المعزية شهرة ميدان (القديس مرقص) (سان ماركو) في تاريخ البندقية، وقد سمي كذلك لوقوعه بين القصر الفاطمي الكبير والقصر الصغير

المواجه له وهو المعروف بالقصر الغربي؛ وقد لبث (بين القصرين) أيام الدولة الفاطمية مسرحاً لأعظم المواكب والمظاهرات الخلافية والعسكرية، والحفلات العامة، ولبث بعد زوال الدولة الفاطمية عصراً أعظم ميادين القاهرة، وازخرها عمارة وأشدها احتشاداً، وإنك لتستطيع أن تتبع كثيراً من أخبار الخلافة الفاطمية والشعب القاهري في ميدان ما بين القصرين، كما تستطيع أن تتبع كثيراً من أخبار الجمهورية البندقية في ميدان القديس مرقص، كلاهما امتزج بحياة الدولة والشعب، واتخذ مكانة فيها.

ومنذ بضعة أعوام شعرت بعض الجهات الرسمية بأن الجامع الأزهر يدنو من عمره الألفي. وفكرت في أن تحتفل بهذا العيد احتفالا عظيما يتفق مع روعته التاريخية، ووضع بالفعل برنامج لتنظيم هذا الاحتفال. وانتدبت لجنة لوضع تاريخ شامل للأزهر منذ قيامه إلى يوم عيده، ثم وقف المشروع لأسباب غير معروفة؛ بيد أن الذي يثير الدهشة حقاً، هو أن تخطر للقائمين بالأمر فكرة الاحتفال بالعيد الألفي للجامع الأزهر دون أن تخطر لهم فكرة الاحتفال بالعيد الألفي لمدينة القاهرة، مع أن القاهرة تسبق الأزهر في مولدها بعدة أشهر؛ وقد أنشئ الأزهر في الأصل، لا ليكون جامعة للدراسة، ولكن ليكون مسجداً للعاصمة الفاطمية الجديدة وليكون منبراً للدولة الجديدة ومعقلا لدعوتها فإذا كان مما يحمد أن فكر القائمون بالأمر في تخليد الذكرى الألفية للجامع الشهير، فإن ما يبعث إلى الأسف أن يفوتهم حتى اليوم التفكير في تخليد ذكرى القاهرة الألفية؛ هذه الذكرى الخالدة تدنو بسرعة. فقد وضعت أسس العاصمة الفاطمية كما رأينا في منتصف شعبان سنة 358هـ ففي منتصف شعبان سنة 1358هـ، أعني بعد نحو عامين ونصف فقط تبلغ القاهرة المعزية عمرها الألفي المديد

وبعد أشهر قلائل من ذلك التاريخ، أعني في جمادى الأولى سنة 1359هـ يبلغ الجامع الأزهر عمره الألفي أيضاً، إذا اعتبرنا تاريخ البدء في إنشائه وهو جمادى الأولى سنة 359هـ.

وإنه لمن بواعث الفخر حقاً أن يكون تاريخنا حافلا بمثل هذه الذكريات العظيمة التي هي عنوان تراث قومي مؤثل

فعلينا أن نفكر مليا في الاحتفاء بهذين العيدين القوميين الجليلين وإذا كان قد فاتنا حتى اليوم أن نؤلف للاحتفاء بهما اللجان الخاصة، وأن نضع البرامج اللائقة، فإن ما يزال ثمة متسع من الوقت لتحقيق هذه الأمنية؛ ولقد ارتبط اسم القاهرة المعزية والأزهر دائماً حتى أنه ليكفي أن تؤلف هيئة واحدة للقيام بهذه المهمة، فتضع للاحتفال بعيد القاهرة الألفي برنامجا خاصا وتضع برنامجا آخر للاحتفال بالعيد الألفي للجامع الأزهر، يراعى في كل منهما ظروفه ومناسباته الخاصة؛ ومن الطبيعي أن يحتوي البرنامج على وضع تاريخ ألفي شامل لمدينة القاهرة وتاريخ شامل للجامع الأزهر؛ وأن تنظم في العيدين طائفة من المهرجانات

العلمية والاجتماعية الباهرة وأن يدعى لعيد القاهرة رؤساء البلديات في جميع المدن الكبرى ممثلين لحكوماتهم ومدنهم. كما يدعى لعيد الأزهر ممثلو الجامعات في جميع أنحاء العالم، وأن ينظم بهذه المناسبة حج خاشع إلى معالم القاهرة المعزية وآثارها الباقية ومنها الجامع الأزهر، وأن تقام بها الأعمدة واللوحات التذكارية المختلفة، وأن تفتتح بهذه المناسبة طائفة من المشاريع العلمية والخيرية

وأنه لمما يسبغ على هذه الاحتفالات روعتها وجلالها، أن تقام إلى جانب هذه المعالم الخالدة وفيما بينها.

فهل يحدث هذا النداء المتواضع أثره؛ وهل يبادر أولو الأمر فيتخذوا الأهبة العاجلة لتحقيق هذه الأمنية القومية الرفيعة؛ وهل تشهد القاهرة المعزية، ويشهد الأزهر كلاهما عيده الألفي في فيض من الروعة والجلال؛ أم تغيض هذه الذكريات العظيمة في غمر الجدل والمناقشات العقيمة؟

محمد عبد الله عنان

في الأدب المقارن

أثر المجتمع في الأدبين العربي والإنجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

إنما يقصد الأديب فيما ينشئ إلى التعبير عن شعوره وأفكاره لأنه يحس حافزاً يدفعه إلى ذلك التعبير، ويشعر براحة وغبطة إذا ما طاوع ذلك الحافز، بيد أنه يتأثر في كل ما

يحس ويفكر ويكتب ببيئته الجغرافية ووسطه الاجتماعي وجيله الذي يحيا فيه، لا ندحة له مهما بلغ من استقلال الشخصية والأصالة في الابتكار عن التأثر بكل ذلك، بل لا نغالي إذا قلنا إن عبقرية الأديب ليست إلا مجموعة مؤلفة من تلك العوامل، والأديب الذي يعتزل مجتمعه لا يتأثر به سائر أدبه إلى الاضمحلال وأن يكون سطحيً، وكلما كان الأدب صادقا حيا كانت صلته بمجتمعه شديدة التوثق، وكان هو مرآة لذلك المجتمع واضحة، وإن لم يمنعه ذلك أن يزخر بآثار الفردية القوية والشخصيات المتميزة

فالأديب يتأثر بالمجتمع تأثراً تلقائيا غير مقصود ولا محسوس أحياناً، ثم هو يتأثر به تأثرا واعيا مقصودا، وذلك حين يلجأ الأديب عمدا إلى وصف ما يحيط به من أحوال المجتمع، وما يحمد منها وما يذم، ومن يصادفهم ويخالطهم في المجتمع من أفراد ذوي خلائق متباينة، يلذ للأديب أحيانا عرض كل ذلك في أدبه كما تعرض الصور والدمى في المعارض والمتاحف، ويغتبط أي اغتباط بقدرته على تصوير ما راعه من تلك الحقائق والسلائق على ما هي عليه، وقد يزيد فيجلوها في مجلا الفكاهة والسخرية، أو يزيد فيندد بما يرى من مساوئ ويدعو إلى الإصلاح ويوضح وسائله، ويؤلف لنفسه مبادئ يرضاها في السياسة والاجتماع والاقتصاد والدين وهلم جرا، ولا يعود معبرا عن شعور الفرد فحسب، بل يصبح قائد فكر بين الجماعة كذلك

هكذا يصبح للأدب غرض اجتماعي إصلاحي، ولا ريب أن غرض الأدب الأول هو غرض كل الفنون، من التعبير الصحيح عن صادق الشعور بحقائق الحياة وجمالها، فإذا ما ظهر بجانب ذلك غرض اجتماعي أصبح للأدب غرضان، بيد أنهما لا يتنافران بل يأتلفان في يد الأديب القدير أحسن ائتلاف، ويصوران الحياة أصدق تصوير وأجمله، أما في يد الداعية المتحمس لدعوته الاجتماعية دون كبير احتفال بجمال الفن وروعة الأسلوب، فيوشك أن يخرج الأثر المنشأ من عالم الأدب إلى حيز العلم، فيندرج تحت عنوان الاقتصاد أو التربية أو السياسة أو غير ذلك، أما الأديب الصميم فلا غنى له عن الجمال والصبغة الفنية، ووظيفته الكبرى في بيان الشعور وما اتصل به من أفكار وتدبر أحوال المجتمع ونقد أخلاق بنيه لاشك مجال للأدب رحيب، ومسرح لفن الأديب خصيب، ومهما تغيرت أحوال المجتمعات على تتابع الأجيال، فإن طباع الإنسان المركبة فيه واحدة لا تتغير، ومظاهره من كرم ولؤم ونبل وإدعاء وغرور ونفاق، وولع بالمظاهر وتفاخر بالنعمة المحدثة، كل هاتيك أمور تتكرر ولا تتبدل، وتبدو في شتى الأشكال والأزياء وهي في الصميم سواء، ومن ثم نرى صوراً لها في شتى آداب الأمم على تباعد عصورها ومنازلها: فالمسيو جوردان المحدث النعمة الذي رسمه موليير متعثرا في أذيال ثروته مكاثرا بها في سذاجة، هو أحد (النوابين) المحدثي النعمة الذين أولع بتصويرهم كتاب الدرامة الإنجليز في أواخر القرن الثامن عشر، وهو هو ذلك المحدث النعمة الذي صدع رأس عيسى بن هشام في المقامة المضيرية بتعداد محتويات بيته وأثمانها ومزاياها؛ فالأديب الحاذق يفطن إلى الخطوط الرئيسية في الصورة الشخصية التي يبغي رسمها، فإذا ما صورها لم تكن صورة فرد من الأفراد، بل جاءت صورة ضرب من الناس في شتى الأمم والعصور

وقد ترك المجتمع آثاره الواضحة على تعاقب العصور في الأدبين العربي والإنجليزي، واختلط أدباهما بتأريخهما اختلاطاً شديدا، ولا غرو فالأدب من البين الفنون أشدها بالحياة اليومية والأحوال الاجتماعية والأحداث السياسية ارتباطا، وتبينت في ذينك الأدبين سمات الأجيال المتتابعة، وكثرت فيهما النظرات الاجتماعية كما كثرت التأملات الفردية، وقام فيهما من الآثار ما قوامه تدبر أحوال المجتمع ونقد أخلاق أبنائه، بجانب الآثار التي قوامها نظر الأديب في ذات نفسه وبوحه بأشجانه وإطرابه؛ بيد أن الأدب الإنجليزي كان أبعد في تناول الشؤون الاجتماعية مدى، وكان أدبائه أكثر شغلاً بالدعوة إلى الإصلاح، وإن لم يهملوا التعبير عن خوالجهم الفردية، ولم يقصروا في تصوير شخصياتهم المستقلة

ترى طابع العصر الأليزابيثي في أدب شكسبير ومعاصريه: فهو عهد فتوح ومغامرات، فامتلأت رواياته التمثيلية بذكر الشجعان والأسفار والحماسة الوطنية وتاريخ إنجلترا، وهو

عصر لم تبدد الثقافة بعد أوهام سواد أبنائه، فمسرحياته تعج بذكر الشياطين والسحرة والأشباح والعرافة والتطير، ولم تكن نفوس أبناء ذلك العصر قد رقت ولا أذواقهم قد صقلت، ولذلك تكثر في رواياته المذابح والمبارزات وسفك الدماء؛ وكان عهد تعصب ديني، ومن ثم يسخر أدبائه من أبناء النحل الأخرى كاليهود، ولم يكن الحكم الدستوري قد توطد بعد، وما تزال للملك اليد الطولى والكلمة العليا في السياسة الداخلية والخارجية، ومن ثم ينسج شكسبير لنفسه في رواية هنري الرابع وغيرها نظرية سياسية قوامها الملكية المستبدة العادلة، ويعدها أساس نظام الكون

ونرى أثر عهد الإصلاح الديني في إنجلترا في أدب عهد المطهرين: إذ خفت صوت الأدب وغيره من الفنون التي لا يطمئن إليها عادة المتشددون من المتدينين، وأتصف الأديبان الكبيران اللذان ظهرا إذ ذاك - ملتون وبنيان - بالاهتمام بالشؤون الدينية والتأثر بالكتاب المقدس موضوعاً وأسلوباً؛ ونرى أثر عصر المجون الذي تلا ذلك في مسرحياته المملوءة بالسقاط؛ حتى إذا ما أشرق العصر التالي وقد اطمأنت النظم الدستورية وانتشرت الثقافة والثروة في جمهور الشعب أوغل الأدب في تناول الشؤون الاجتماعية، ولم يقنع بالأشكال الموجودة أصلا، فاتخذ لنفسه شكلاً أدبياً هو أليق لتصوير المجتمع ونقده وهو القصة؛ وفي قصة القرن الثامن عشر وفي شعره يتجلى ما كان يسود مجتمع ذلك العهد من تأنق وتصنع، وحرص على تعلم اللغات وممارسة بعض الفنون، ويجري ذكر خروج الأرستقراط للصيد بخيلهم وكلابهم، ويبدو من ذلك ما كان يتخلل المجتمع من نفاق ورذيلة وإدمان للشراب وإفراط في الطعام وما كان يعصف بالطرق العامة من عبث الأشقياء

اتخذت القصة وسيلة لوصف المجتمع، وقد أدت غرضها ذلك خير أداء، وكيف لا تؤديه والقصة في يد الأديب الحصيف ليست إلا قطعة من المجتمع الحي المتحرك منقولة على القرطاس؟ قطعة من المجتمع طوع بنان الأديب يؤلفها كيف شاء ويرسم بها من الأشخاص من شاء ويبرز بها من الآراء ما يختار، فلا غرو ازدادت القصة الاجتماعية رقياً وذيوعاً في القرن التالي، ازدياد المبادئ الديمقراطية انتشاراً أعقب الثورة الفرنسية، وانتشار التعليم العام، وتعقبه مشاكل المجتمع بظهور الصناعة الكبيرة، وانتشار المذاهب الاجتماعية والاقتصادية الخطيرة كالاشتراكية والشيوعية، ونزاع الرأسماليين والعمال، ونهضة المرأة

ورقي علوم الاجتماع والنفس والتربية، وخاض الأدباء غمار كل هاتيك الحركات والتيارات المتضاربة، ونقلوا في غضون قصصهم صور هاتيك المعارك الفكرية والأحوال المادية، وفي قصص مريديث ودكنز وبنلر وهكسلي وبنيت من آثار كل ذلك ما لا يستقصي، ومن تلك القصص تستخرج صور لتلك الحركات أوضح مما قد تعرضه التواريخ المنظمة

وطمت هذه النزعة الاجتماعية الإصلاحية وهذه الصبغة العلمية التحليلية، في القصة المعاصرة، فأقطاب القصة والدراما المعاصرون أمثال شو وهاردي وولنر وجالزورذي، كلهم متأثرون بالكشوف العلمية الحديثة والنظريات الاقتصادية الجديدة، والأحوال الاجتماعية الراهنة، ولكل منهم مبادئه ودعواته حتى أصبح الأدباء يختلفون ويعتركون، لا على المذاهب الأدبية والآراء النقدية الفنية كما كان الشأن فيما مضى، بل على المذاهب الفكرية والآراء السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وعلى هذه المبادئ لا على مبادئ الفن والأدب ينقسمون شيعاً ومدارس، ويسرف بعض الكتاب كبرتراندرسل في التحمس للدعوة الاجتماعية واطراح الأسلوب الأدبي، حتى تخرج بعض مؤلفاتهم من عداد كتب الأدب، ولا تعد إلا في كتب العلم إن كانت لها قيمة هناك!

كان الشعر العربي في الجاهلية حقاً ديوان العرب كما دعوه: كانوا يقولونه في شرح أحوالهم الفردية، من حب وذكر للديار ومناجاة للمطايا، وفي شرح أمورهم الاجتماعية، من التمدح بالقرى والتفاخر بالبلاء في الحرب والتوعد بالثأر وإباء الضيم، يرسلون كل ذلك على السجية فيجيء رائعاً بصدقه معجبا برجولته، ويصوغونه فيما اتفق من لفظ وعر وأسلوب شديد، فظل شعر ذلك العصر ممثلاً صادقاً له رغم عبث العابثين به، بل لعله كان أهم مصادر تأريخ ذلك العهد حين دون تأريخه، فقد ظل المؤرخون يذكرون ما يذكرون من حوادث وحقائق ويتبعونها أبيات الشعر مستشهدين

وظهر أثر عهد الاستقرار والثروة والنجاح في ظل الأمويين في غزليات ابن أبي ربيعة

وجميل وأضرابهما، ومفاخرات جرير والفرزدق وأشياعهما، ثم ظهر إثر الإفراط في تلك الثروة والفراغ والإسراف في اجتناء لذات الحضارة، في شعر بشار وأبي نواس وأمثالهما، ثم كان العهد التالي بدء التدهور والانحطاط المادي والخلقي: فهوت مكانة المرأة إلى

حضيض من القهر والازدراء والجهالة، وفشت الرشوة والمحاباة والمصادرة بين الحكام، وكثر الفقر من جراء ذلك وإدعاء الفقر والتسول والاحتيال باسم الدين والطب والأدب والعلم، وذاع الفساد وفاحش القول ومبتذل التندر

يبدو أثر كل هذا في تنديد المعري بالمرأة وسخر غيره من الشعراء منها، وتلك الأقاصيص التي أفتن الجاحظ والأصفهاني وابن دريد في جمعها وتأليفها، عن عبث النساء وغدرهن وخيانة الزوجات وجوب تشديد الحجاب عليهن، فكان ابن دريد مثلاً يخترع الحكايات يفسر بها الأمثال السائرة فيتخذ ذلك الضرب من حديث النساء مادة لها. وبدا أثر تلك الحال السالف شرحها أيضاً في مقامات بديع الزمان والحريري، حيث لا يزال بطل المقامات يتنقل من تسول إلى احتيال إلى خديعة، ولا يزال الحارث ابن همام يؤكد حرصه في أسفاره إذا ما هبط بلداً أن يتعرف إلى واليه أو قاضيه أو بعض ذوي الكلمة فيه، يتقي بمعرفته ظلم الغاشمين والمرتشين من عمال الحكومة، ويتحاشى غوائل الإرهاق والمصادرة والسجن. ويقف كاتبا المقامات المذكورة صفحات طويلة على استعراض ضروب الشتائم والبذاء يتقاذفها أشخاص الأقصوصة. ويقول ابن الرومي واصفاً حال الموظفين والتجار وإضرابهم:

أتراني دون الألى بلغوا الآ ... مال من شرطة ومن كتاب

أصبحوا ذاهلين عن شجن النا ... س وإن كان حبلهم ذا اضطراب

وتجار مثل البهائم فازوا ... بالمنى في النفوس والأحباب

هذه لمحة خاطفة إلى آثار أحوال المجتمع المتعاقبة في الأدب العربي، إذ كان من المحال تقصي تلك الآثار الاجتماعية التي تنعكس في الأدب، مادته وأشكاله ومذاهبه وألفاظه، وما يزال الناظر في مخلفات والشعراء والكتاب يطلع من آثار مجتمعهم على جديد. وفي نوادر أبي نواس وفكاهات الجاحظ وحكايات الأصبهاني دلائل متفرقة على شتى نواحي الحياة الاجتماعية في عصورهم. وإذا قرأنا في مقامات البديع مثلا أن أبا الفتح اصطنع فيما اصطنع من حيل لاقتناص الدراهم والدنانير حرفة القراءة، فرآه عيسى بن هشام مرة وسط جمع من الغوغاء يضحكهم بألاعيب قردة، علمنا أن تلك الحرفة التي ما تزال مشاهدة في بعض البلدان حتى عصرنا هذا بعد انتشار حدائق الحيوان، كانت تمارس منذ تلك العهود.

وكذلك نعلم أن أبناء السند وفدوا فيمن وفدوا من أبناء الشعوب إلى مقر الخلافة يبتغون الرزق تارة بالصيرفة إذ يقول الجاحظ أنه لا يكاد يوجد ذو تجارة رابحة إلا وصاحب كيسه سندي؛ وتارة بإضحاك العامة - شأن أبي الفتح الإسكندري - بألاعيب الفيل، وذلك إذ يقول دعبل:

هذا السنيدي لا فضل ولا حسب ... يكلم الفيل تصعيداً وتصويباً

كل هذه الآثار الاجتماعية ما جل منها وما ضؤل، واضحة في الأدب العربي شعره ونثره؛ بيد أن أغلبها قد جاء في الأدب عفواً أو عرضاً، ولم يقصد لذاته ولم تنظم القصيدة أو لم يصنف الكتاب عمداً لوصفه وبيانه، بله نقده وإصلاحه، فأكثر أدباء العربية بعد الإسلام وبعد استتباب الملك كانوا عن مجتمعهم في شغل، قد يرون من أموره ما لا يرضيهم، وقد تكون لهم آراء في السياسة ومذاهب في الدين لا ترضي أصحاب السلطان، ولكنهم كانوا في أغلب الأحوال يكتمون مثل تلك الآراء والنظريات، وكيف يبوحون بنقداتهم وهم بين رجاء لنوال السلطان وإشفاق من غضبه؟ إن النقد الصريح الحر والنظر الاجتماعي الصادق لا يترعرعان بين ذهب المعز وسيفه، إنما كان يجهر الأدباء بالنقد والمعارضة في الجاهلية وصدر من الإسلام، وهما عهد الحرية واستقلال الفرد؛ فلما توطدت الملكية المطلقة خفتت أصوات الأدباء وقطعت ألسنتهم. وكان شعراء الخوارج الكثيرون الذين أطاح الأمويين رؤوسهم عبرة لسواهم من الشعراء وقد مدح سويف الشاعر بعض العلويين الثائرين فوأده المنصور، وثار المتنبي في صباه يبتغي إصلاح الأحوال المتفاقمة فزج به في السجن فالملكية المطلقة قد فرضت على الشعب ألا يراجعها في أمر، وانقلبت بالأمة العربية

بذلك من النقيض إلى النقيض. كان العرب في جاهليتهم مسرفين في الاستقلال والفردية، فصاروا في ظل الملكية مسرفين في الخضوع والاستسلام، وفرضت تلك الملكية على الأدباء أن يعيشوا عالة عليها وعلى المجتمع، لا يشاركون الشعب آماله وأعماله، ولا يقودون أفكاره وحركاته، فلم يكن المجال متسعاً أمام الأديب العربي، كما كان متسعاً أمام الأديب الإنجليزي، لوصف المجتمع ونقد أحواله والدعوة إلى إصلاحه. فإن هو فعل ذلك عرض نفسه للتهلكة ولم يفد المجتمع فتيلا. إنما يؤمل الأديب الإنجليزي أن يفيد مجتمعه
بآرائه، لأنه يخاطب بآثاره الأدبية الرأي العام في بلاده؛ الذي هو فوق الحكومة يملي عليها إرادته؛ أما في ظل الملكية المطلقة في الدولة الإسلامية، فلم يك هناك رأي عام، وكان رأي الحكومة الأعلى
لذلك عاش أدباء العربية طالبي فضل، يمدحون الأمير ويعيشون من عطاياه، وهي السبيل التي ألجئ إليها المتنبي بعد محنة سجنه، وعاش بها حياته على مضض باكياً مما هو به محسود، واستوزروا للأمراء وكتبوا وعملوا لهم، وطلبوا بذلك النجاح الشخصي لأنفسهم لا النفع الشامل لمجتمعهم. أما أدباء الإنجليزية فقل منهم من عاش في ركاب الملوك ومن فضلهم على هذا النحو، وكان أكثرهم أما مثرين غانين عن العمل لكسب القوت متوفرين على فنهم وحده، وأما مساهمين في الحياة العملية بجانب الحياة الفنية، فكان منهم من ضربوا بسهم في السياسة والدين والحرب والكشف الجغرافي وكبار وظائف الدولة، ومن أولئك فيلب سدني وبيكون ورالي وملتون وبنيان وأديسون وبيرون، وكان أكثرهم في صف الشعب وجانب الحرية بل كان من أدباء الإنجليز من عاف الاجتماع الإنساني قاطبة، ونقم على أنظمة الملكية والكنيسة، وكره التقاليد والأعراف السائدة، وحاول إنشاء مجتمع جديد تسوده البساطة والمساواة ومن هؤلاء شعراء عهد الثورة الفرنسية، فالكتاب الفرنسيون الذين مهدوا لتلك الثورة أمثال فلتير وروسو اكتفوا بالعمل النظري وتركوا التنفيذ لغيرهم؛ أما معاصروهم ومن جاءوا بعدهم من أدباء الإنجليز فحاول بعضهم تنفيذ مبادئهم بأنفسهم، ولهذا الغرض أنتقل بركلي إلى أمريكا وشلي إلى أرلندة، يريد كل منهما إنشاء مدينته الفاضلة، وإن كانا قد منيا بالفشل لضخامة المشروع. وعاضد وردزورث الثورة الفرنسية بقوة لمناداتها بمبادئها المعروفة حتى نقم على دولته إعلانها الحرب على فرنسا الثائرة، وكاد ينتظم في أحد أحزاب الثورة، ويركب تيارها الخطر، واستشهد بيرون في حرب استقلال اليونان
ولقد أبدى بعض أدباء العربية في عهد نضج الحضارة والثقافة والأدب شغفاً بتتبع أحوال الناس ومعايشهم وعاداتهم وأخلاقهم وظهر ذلك في كتب الجاحظ؛ على أنه كان يروي الأشياء على علاتها ويخلطها بفكاهاته؛ وفي مقامات البديع، ولم يكن أيضاً يزيد على التصوير المجرد، فإذا ما صرح بسخطه على بعض الأحوال والأحكام والأنظمة، فتصريحاً
سريعاً فيه تسليم واقتناع بعدم جدوى محاولة الإصلاح وعدم إمكان أحسن مما كان. وظهر ذلك الميل أيضاً في شعر أبن الرومي، الذي صور كثيراً من الشخصيات الفكاهية، على أنه كان يتناولها من ناحيته الفردية وينحى عادة على أعدائه الشخصيين؛ وظهر نفس ذلك الميل إلى تتبع أحوال المجتمع في شعر المعري خاصة، وذلك من الأبواب التي تفرد بها أو كاد بين أدباء العربية، وسبق في التصريح بها عصره، وله في ذلك أبيات رائعة ليست إلا خلاصة موجزة لبعض مذاهب السياسة والاقتصاد في العصور الحديثة؛ ومن ذلك اعتباره الحكام خدام الرعية، ونقمته على عدم تساوي توزيع الثروة، وذلك قوله من لزومياته:
مل المقام فكم أعاشر أمة ... أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستباحوا حقها ... وعدوا مصالحها وهم أجراؤها
وقوله
لقد جاءنا هذا الشتاء وتحته ... فقير معرى أو أمير متوج
وقد يرزق المجدود أقوات أمة ... ويحرم قوتا واحد وهو أحوج
على أن الشعر ليس بأصلح المجالات للنقد الاجتماعي والإصلاح الشعبي، وإنما مجال ذلك النثر الذي هو أكثر شيوعاً وأقرب إلى متناول القارئين، والذي هو أرحب صدراً

بالشرح والتفصيل والإسهاب؛ والمقالة والقصة فرسا رهان هذا المضمار، ولكن النثر العربي لم ينهض بهذا العبء، ولم يزد أن خطا الخطوة الأولى في هذا السبيل في كتابات الجاحظ ومقامات البديع؛ وقد جاءت هذه الخطوة متأخرة. ولما جاء الجيل التالي لم تتبعها خطوة أخرى، بل أعقبها تقهقر إلى الوراء، فلم تتطور المقامة إلى قصة فنية اجتماعية تدرس المجتمع وتقوده في سبيل الإصلاح، بل تحولت في يد الحريري وغيره إلى معارض للألفاظ المزركشة والألغاز المعماة والحيل الملفقة، فقد كانت الأمة في طريقها إلى الانحلال، والأذهان في انحدارها إلى الخمود، والحكام يزدادون على مرافق الأمة وطأة، والأدب يتقلص رويداً رويداً، ويهجر لباب الحياة إلى قشور الألفاظ.

فالأدبان العربي والإنجليزي قد تأثرا في مختلف العصور تأثراً كبيرا بأحوال مجتمعيهما، وهو أمر لم يكن منه بد، بيد أن الأدب الإنجليزي كان أكثر بالمجتمع تأثراً وأكثر فيه تأثيراً، وأشد تشابكاً وتفاعلاً معه، لما أحاط به من ظروف مساعدة، مرجعها سيادة الحكم الديمقراطي وانتشار حرية القول والعمل وقوة الرأي العام؛ أما الأدب العربي فلبلوغه أوج ازدهاره في ظل الملكية المطلقة، قد كان يقتصر تأثره بالمجتمع وتأثيره فيه على ما جاء عرضاً غير مقصود، وما تم بحكم الظروف وطبائع الأشياء، وكان تناول أدبائه لشؤون مجتمعهم رفيقاً محدوداً، وفيما عدا ذلك كان كل منهم عاكفاً على وصف خطراته وأشجانه وصبواته، مولعاً بذم أعدائه ومساجلة صحابته، إلى غير ذلك من الشؤون الفردية

فخري أبو السعود

وفاة شاعر تركيا الكبير

عبد الحق حامد بك

1851 - 1937

ولد عبد الحق حامد بك يوم 5 فبراير سنة 1851 بجهة ببك من الآستانة. والده خير الله أفندي من المؤرخين المعدودين. وجده حكيم باشي مُلا عبد الحق

تلقى دروسه الابتدائية في مدرسة (كوليج روبرت) الأمريكية، وتلقى دروسه العربية والفارسية على معلمين خصوصيين وهم الأستاذ بهاء الدين، وسليم ثابت، وخوجا إحسان. وقد ظهرت عليه مخايل النجابة والذكاء من صغره حينما كان يقرأ في المدرسة المذكورة فعرف له ذلك معلموه في المدرسة ومعلموه الخصوصيين

يعرف عبد الحق حامد من اللغات عدا التركية - الإنكليزية والفرنسية والعربية والفارسية معرفة تامة، وله في أدبيات هذه اللغات تعمق ونظر نافذ شهد له به كل من عرفه من أهل تلك اللغات

ولما كان له من العمر ستة عشر عاماً عين والده سفيراً لطهران فذهب معه، وهناك توفي والده فعاد إلى الآستانة ولازم قلم الترجمة في الباب العالي. ثم أخذ ينشر أسفاره وابتدأت شهرته تذيع بين الأدباء فتعرف وهو شاب بسبب شهرته بالأديبين الكبيرين في ذلك الوقت شناسي ونامق كمال الدين؛ عرفا للشاعر مزيته وقدرا نبوغه في ذلك الحين. وكان بالأخص الصديق الحميم لنامق كمال الذي يكبره باثني عشر عاما

عين وهو في الخامسة والعشرين من عمره كاتباً ثانياً بسفارة تركيا في باريس، ثم رقي إلى (باشكاتب) بسفارة تركيا في لوندرا، ثم عين شاهبندراً في بومباي، ثم عاد إلى (باشكتابة) سفارة باريز مرة ثانية؛ وآخر وظائفه الحكومية تعيينه سفيراً في بروكسل 1908. وأخيراً عاد إلى تركيا بعد إعلان الحرب فانتخب عضواً في مجلس الأعيان وتولى فيه نيابة الرياسة مراراً وإلى حين وفاته شغل دورتين في انتخاب مجلس الأمة الكبيرة في عهد الجمهورية 1931، وكان في المجلس المذكور أكبر الأعضاء سناً

آثاره الأدبية

أبتدأ أثناء إقامته في أوروبا (وقد قضى عشرين عاماً في لندرا) ينشر آثاره البديعة متبعاً طريقة جديدة مما أقتبسه من الآداب الغربية فاستحق بما أبدع من التجديد أن يشغل أعظم محل من الأدبيات التركية. وطار صيته وتسنم ذروة الشهرة بما كتب في رثاء زوجه فاطمة التي توفيت أثناء عودته من الهند ودفنت في بيروت. فكان لأثره

المسمى (مقبر) أثر في الأدبيات التركية بلغ درجة الإعجاز. ثم انتشرت مؤلفاته الكثيرة التي منها:

مقبر - أولو - ماجراي عشق - أشبر - ته زاد. صبروتبان - طارق بن زياد - نظيفة - فينتين - ديوانه لكلرم - نسترين - صحرا - عبد الله الصغير - تفيله - طيفلر كجيدي - زينب - ساروانبال - فتنت - آلام وطن - دوهتري هندي - طورخان - ايجلي قيز - روحلر - بالادن برسس. ابن موسى - ارخيلر - غرام - يبانجي دوستلر - وغير ذلك من آثاره النادرة المثال. وقد منع من النشر أكثرها زمن عبد الحميد بدعوى أنها مسممة لروح الشباب، مهيجة للأفكار على حكومة الاستبداد.

ولكنه تبوأ بتآليفه هذه أعظم مكان في نشر الأدبيات الغربية التي بدأ بنشرها قبله شناسي ونامق كمال، ولكن عبد الحق حامد فاقهما وأربى عليهما بما وفق إليه من الأسلوب العذب والصناعة الأدبية الفائقة، فنال عنوان أمام المجددين دون رفيقيه الذين تقدماه. وظل مدة ستين عاماً أستاذاً للأدباء الأتراك فأسدى إلى اللغة التركية والأدب التركي من التجديد والاختراع ما ليس له نظير ولن يكون له نظير فيما بعد.

يقول الأدباء الأتراك: لولا حامد لتأخر انتشار الأدب الغربي في بلادنا عصراً كاملا، ولظل مكان حامد فارغاً كما سيظل الآن خالياً؛ ولكن لله الحمد جاء حامد وأدى ما لم يمن غيره ليؤديه للأدب فكان أدبه حياً ملهماً من شعور الأمة، لا بل الأمة هي التي تستلهم من شعوره الحساس وروحه الفياضة، فهو في شعور الأمة وحياتها من الخالدين إلى الأبد.

وخلاصة ما يقال شعر حامد بك وطريقته الأدبية، أنه لم يتقيد بالمألوف القديم من شعر الدواوين، بل أبتدع طريقة عصرية جديدة، لا يقال أنها اليوم أساس المدرسة الأدبية التركية، بل ستكون في المستقبل أيضاً منبع الإلهام الفياض لآداب الأجيال المقبلة.

كان يرجح الأدب الروائي في مؤلفاته وينتخب موضوعات تاريخية يبرزها في صور شائقة ممتعة (لتقرأ أكثر منها لتمثل) بلغة سهلة ممتعة تدل على براعته واقتداره في صنعته
التي جعلته نسيج وحده.

توفي مساء الاثنين 12 أبريل الجاري عن 86 عاماً قضاها في خدمة وطنه وخدمة الأدب حتى أنه قبل وفاته بيوم واحد استجمع قواه وقام إلى مطالعة كتبه والبحث في تأليفه الأخير الذي يقال أنه سيكون أعظم أثر أدبي عصري، وتذاكر مع الأديب الكبير أحمد فاضل وأنشده بيته الأخير وهو قوله:

ذوق يوق كيجه سنده كوندزنده ... بن نه ايله يم بوير يوزنده

ومعناه تقريباً:

مالي ودنيا كثرت أكدارها ... لا ليلها يصفو ولا نهارها

وكانت وفاته تشابه وفاة شاعرنا الزهاوي من بعض الوجوه. فبينما كان جالساً في نادي الشرق أحس بألم شديد اضطره إلى الذهاب إلى بيته واستدعي إليه الطبيب؛ وبعد فحصه أوصى بألا يخرج من البيت ويلزم الراحة التامة. وبعد ذهاب الطبيب أشتد عليه المرض، وتحسنت صحته في الغد فأحضر له طعام فلم يقبله، وطلب فاكهة أكلها (كما أكل الزهاوي كماة) ثم قام كما قدمنا إلى كتبه وتأليفه ومذاكرة الأديب أحمد فاضل وأنشده بيته الأخير الذي ترجمناه. وفي اليوم التالي أشتد به المرض إلى الظهر، ثم نام نوماً هادئاً إلى الليل، وانتبه مدة ثم نام النومة الأبدية رحمه الله. وخلف عدا بناته من زوجه فاطمة ابنه عبد الحق، حسين وحميد. وقد تزوج بعد فاطمة بالسيدة الإنجليزية نيللي التي عاشرته عشرين عاماً، ثم تزوج بعدها بالسيدة لوسيان البلجيكية التي مات عنها. ولم يولد له من الأخيرتين أحد

وقد شيعت جنازته باحتفال فخم لم يسبق لأديب أن شيع بمثله؛ اشتركت فيه الأمة التركية بدافع المحبة والتقدير لشاعرها الكبير. وأرسل رئيس الجمهورية أحد ياوريه نائباً عنه من أنقرة. ووضعت جنازته على عربة مدفع ملفوفة بالعلم التركي. ودفن في المقبرة العصرية في زنجير لي قويو؛ وهذه المقبرة أنشأتها البلدية حديثاً، وسيكون الشاعر العظيم أول دفين فيها. وسيقام له تمثال في مكان لائق. رحمه الله واسعة

رفيق آطالاي

على هامش كتاب
نظام الطلاق في الإسلام
للأستاذ محمود حمدان

كنت من زمن أرى أن ما تعارف الناس من أمر إيقاع الطلاق جملة، وفي أي مناسبة، ويميناً، وتعليقاً - عبث لا يتفق مع الحكمة، ويجعل أقوى العقود رباطاً، وأقدسها حرمة، وأهمها في الحياة قدراً، أوهن من بيت العنكبوت. فما كان الله ليجعل المرأة الضعيفة تتقاذفها الأهواء كالريشة في مهب الهواء

وكنت قد طلبت الفقه على مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه فما وجدت في الكتب التي بين يدي. ولا عند الأشياخ الذين تلقيت عنهم جواباً عما يخالجني. فكنت أسكت وفي النفس شيء لا أستطيع أن أبوح به. وكنت كلما وقع بيدي مقال لبعض المصريين حول موضوع الطلاق أقرأه بشغف لعلي أجد فيه ضالتي، فلا أجد إلا ثرثرة متحذلق فأطرحه كاسف البال

وبعد أن تركت الأزهر الشريف كان يتاح لي في بعض الأحيان أن أقرأ للمرحوم الأستاذ رشيد رضا مواضيع مختلفة، فصرت ألمس روحاً غير الذي كنت ألمسها في الأزهر: صرت ألمس روح الحرية في الفهم وتحكيم العقل والرجوع إلى القرآن الكريم، فاطمأن قلبي وشعرت بنور الإسلام يغمرني ويكونني خلقاً آخر

قلت أذن لتحل مشاكلنا على ضوء العقل الذي وهبنا الله، ونور القرآن الكريم الذي حفظه الله كما انزل ليكون حجة على الخلق إلى يوم الدين، لا على رأي غيرنا، ولا بمقتضى كتب لم يكتب الله لها العصمة

ورجعت إلى مشكلة الطلاق فاقتنعت بأن الطلاق الثلاث بلفظ واحد لا يقع إلا واحدة ولا يقع ثلاثاً لمخالفة ذلك لمقتضى اللغة ولصريح القرآن وللعقل أيضاً، لأنه حصل فسخ عقد النكاح بقول المطلق: أنت طالق. فلم يبقى محل لإيقاع الفسوخ الأخرى بالوصف العددي، وأفتيت بهذا مراراً. وأثناء اشتغالي بالمحاماة الشرعية أفتيت في حادثة من هذا القبيل لو وصلت إلى المحكمة لقضي بالتفريق بين الزوجين ببينونة كبرى كما يقولون

بيد أنه لم يتح لي دراسة هذا الموضوع دراسة وافية من جميع نواحيه حتى علمت من قراءتي للرسالة الغراء - نفع الله بها وحفظ صاحبها - بصدور كتاب (نظام الطلاق في الإسلام) للعلامة المجتهد الشيخ أحمد محمد شاكر القاضي الشرعي. فقلت: ابن بجدتها، علم غزير، وذكاء وفير، والمهنة مستوجبة للدرس، والظروف مؤاتية.

قرأت الكتاب بشغف قوي وبما يستحق من عناية وإنعام نظر، فرأيته - ولا أريد أن أمدح - نعم الكتاب هو، وافياً بالغرض، قائماً على الحجة القوية من كتاب الله وسنة رسوله مسترشداً بالعقل وقوانين اللغة، بعيداً عن اللغو ومواطن الزلل، ورأيت الإخلاص للحق مماثلاً فيه بدليل توفقه - بأسلوب سهل - للإحاطة بأطراف الموضوع في موجز كهذا (وهو بالنسبة لخطورة الموضوع وجيز) وبدليل بعده عن الخوض في (سب سادات مضوا) شأن كثير ممن يتعرضون للكتابة في مواضيع اختلفت فيها الآراء وتشعبت الأقوال.

ومسأله الكتاب: إخراج الطلاق من حيز العبث الذي أدخله فيه الناس إلى حيز الحكمة التي ابتغاها الشارع الحكيم من مشروعيته، واعتباره علاجا لإصلاح ما قد يطرأ على الرابطة الزوجية من أمراض تنغص العيش، وتذهب بالسكينة المنشودة من الزواج (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها) والذي يجعل لإصلاح العلاقة الزوجية لا يستعمل لقطعها إلا إذا تعذر الإصلاح وكان العلاج هو القطع. ومن هنا أذن الله للرجل في الطلاق وجعل له فيه أداة ومهلة يتروى فيها ويراجع نفسه (لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً) وبهذا تتجلى حكمة الطلاق ويبدو أنه تشريع منظم غاية التنظيم.

وقد حرص المؤلف على تقرير هذا المعنى في المواضيع المناسبة؛ غير أن ما أشترط لصحة وقوع الطلاق غير كافي للحيطة من العبث به وتعجيل الفراق. فقد أشترط في طلاق المدخول بها أن يكون الطلاق في طهر لم يمس فيه وقال: (فإذا رد الرجل مطلقته في عدتها إلى عصمته بالرجعة تجدد العقد بينهما، فكأنه وصله بعد إذ قطعه، فيمكن قطعه وفسخه مرة أخرى، وكذلك الثالثة. ص 72) وهذا كله يتصور في طهر واحد، كأن يطلق في طهر لم يمس فيه ثم يراجع نفسه فيرجعها بشروط الرجعة - ثم

يرى طلاقها فيطلقها في نفس الطهر قبل أن يمس ثم يعود إليه صوابه فيرجعها، ثم يرى طلاقها في نفس الطهر أيضاً قبل أن يمس فيطلق. وحينئذ يقع الفراق الذي لا رجعة بعده في طهر واحد، ويكون قد تعجل الطلاق وخالف الحكمة في تفريقه. وليس فيما حقق الأستاذ ما يمنع المطلق من إيقاع الطلاق على الصورة الذي ذكرنا أو ما يبطل طلاقه لو فعل.

والذي أراه يتمشى مع الحكمة هو التمشي مع نصوص القرآن الكريم، وذلك بعدم إجازة الرجعة التي تترتب عليها صحة الطلاق الثاني إلا عند نهاية العدة لقوله تعالى: (فإذا بلغن أجلهن فامسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف) وقوله تعالى: (وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فامسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف) فإنه رتب الإمساك (وهو الرجعة) على بلوغ الأجل. وبلوغ الأجل في حق الرجعة يراد منه قرب بلوغ الأجل لأن الرجعة لا تصح بعد بلوغه

وحرمان الزوجين من بعضهما مدة العدة أدعى للوفاق بينهما فيما بعد. لأن الزوجة بسبب هذا الحرمان تصلح من شأنها، والزوج بسببه لا يقدم على طلاق آخر إلا إن كانت الضرورة ماسة جداً خلاف ما لو راجع حالا فإنه لا يشعر بشيء يزجره ويذيقه بالفعل خطورة ما أقدم عليه

وقرب بلوغ الأجل، أي نهاية العدة، يكون في الحيض الأخير أو الطهر الذي قبله، فإن حصلت المراجعة في الطهر الذي قبل الحيض الأخير ومست الحاجة للطلاق الثاني طلق إن شاء قبل أن يمس كما في الحديث. وإن حصلت الرجعة في الحيض الأخير صحت الرجعة ويطلق في الطهر الذي بعدها إن شاء قبل أن يمس. وهكذا في الطلقة الثالثة

وبهذا النظام لا تقع الفرقة النهائية إلا في ظرف واسع كاف للتروي ومراجعة الرأي. وهو وقت يقرب من ثلاث عدد. ومن لم يحسن العشرة فيه كان مستحقاً لعقاب الحرمان الأدبي من رفيقه، أو ألا يرجع إليه إلا بعد زوج آخر، وهو ما لا ترضاه النفوس غالباً

بقي: هل يبطل الطلاق في الحيض أو يقع ويحرم؟

رجح المؤلف بطلانه، وهو رأي بعض الأئمة؛ ورجح غيره حرمته فقط، وسمي بالطلاق البدعي. استدل المؤلف بحديث ابن عمر من روايات متعددة ذكرها فيما بين الصفحة 23 والصفحة 28، واحتج القائلون بالوقوع بحديث ابن عمر نفسه من روايات أخرى قال المؤلف عنها: (ليس فيها شيء صريح وألفاظها مضطربة وهي تخالف ما ثبت صريحاً بالروايات الصحيحة، وتخالف أيضاً ما يفهم من ظاهر القرآن)

وأنا أصدق المؤلف فيما قال في الروايات التي تمسك بها خصوم رأيه، ولم أطالعها، ولكنني أقطع النظر عنها وأقول: إن الروايات التي تمسك بها هو لا تساعده على رأيه لأن

قوامها:

1 - ما روى مالك في الموطأ عن نافع (أن عبد الله بن عمر طلق امرأته وهي حائض على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسأل عمر بن الخطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مره فليراجعها، فليمسكها حتى تطهر، ثم تحيض، ثم تطهر، ثم إن شاء أمسكها بعد وإن شاء طلق قبل أن يمس. فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء)

2 - وما روى ابن وهب في كتابه الجامع: (قال ابن أبي ذئب أن نافعا أخبرهم عن ابن عمر أنه طلق امرأته وهي حائض، فسأل عمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فقال: مره فليراجعها ثم ليمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ثم إن شاء أمسك بعد ذلك وإن شاء طلق قبل أن يمس. فتلك العدة التي أمر الله أن تطلق لها النساء. وهي واحدة)

وهذان الحديثان هما من لفظ النبي صلى الله عليه وسلم وقد صرح فيها بقوله فليمسكها حتى تطهر، ثم تحيض، ثم تطهر ثم إن شاء أمسكها بعد وإن شاء طلق. فلو كان الطلاق الأول الذي طلقه ابن عمر غير واقع لم يكن فائدة لقوله فليمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر، بل كان ينبغي أن يقول فليمسكها حتى تطهر ثم إن شاء ثم إن شاء طلقها قبل أن يمس، ولا داعي لتعدد الحيض والأطهار

وأعجب للمؤلف كيف يقول: (فلو كانت الروايات التي يحتج بها القائلون لوقوع طلقة ابن عمر في الحيض صحيحة لكان الأمر بمراجعتها تم التربص بها إلى أن تطهر ثم يطلقها إن شاء الله في الطهر الثاني قبل أن يمس - أمراً بإطالة عدتها زمناً أكثر مما أريد من الرفق بها) أعجب له لأن التربص بها إلى أن تطهر الأطهار المعدودة في الحديث ثم يطلقها إن شاء هو مناط الحكمة في تفريق الطلاق (لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً) وليس لإطالة عدتها بل لاحتمال رجوعه عن إرادة الطلاق فيما بعد. أما الطلاق الأول فقد وقع والتربص عدة حيض وإطهار كما في الحديث دليل على وقوعه، وإلا فهو حر في طلاقها حين تطهر الطهر الأول. وقوله في الحديث وإن شاء طلق قبل أن يمس فيظهر أنه إن شاء طلاقاً ثانياً، ولا ينافيه قوله بعد ذلك (وهي واحدة) لأن الضمير فيها للطلقة الأولى المفهومة من سياق الكلام والتي هي محط السؤال، فلا جرم يكون الجواب عنها بالإضمار ولا يمتنع
ذلك، وهو أسلوب عربي صحيح، ولا نسلم للمؤلف (أنه لا يمكن أن يعود الضمير إليها).
وأما الروايات الأخرى التي أستند إليها المؤلف فاثنتان وهما:
1 - رواية ابن جريج عن ابن الزبير (وقال عبد الله فردها علي ولم يرها شيئاً)
2 - ورواية مسلم والنسائي بحذف كلمة ولم يرها شيئاً
فهاتان الروايتان ليستا من لفظ النبي عليه السلام، بل هما من فهم عبد الله بن عمر بحسب سماع ابن الزبير وفهمه، والأخذ بلفظ النبي عليه السلام أولا من الأخذ بفهم غيره
والرواية الثالثة وهي رواية الأمام أحمد (. . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليراجعها فإنها امرأته) تحتمل على الأقل الوقوع والأمر بالمراجعة وعدم استعمال لفظ المراجعة في القرآن بهذا المعنى لا ينفي استعماله في الحديث
وبعد فهل الروايات التي تمسك بها القائلون بوقوع الطلاق في الحيض، أو بالتالي هل وقوع الطلاق في الحيض يخالف ما يفهم من ظاهر القرآن كما قال المؤلف؟
الجواب عندي أن حديثي مالك وابن وهب الذين تمسك بهما المؤلف يفهم منهما ما يساعد على تأويل القرآن الكريم بما لا يخالف وقوع الطلاق في الحيض
فالذي يفهم من الحديثين أنه أوقع الطلقة الأولى وكانت في الحيض، وأمر بالتريث حيضاً وأطهاراً بين هذه الطلقة وبين إيقاع الطلقة الثانية إن شاء المطلق ذلك وقال (فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء)
فالطلاق للعدة المأمور به في القرآن معناه أن تطلق المرأة الطلقة الثانية بنهاية العدة من الطلقة الأولى، ويكون تفسير أية الطلاق هكذا:
أي الطلاق المعهود في قوله (الطلاق مرتان) من (يا أيها النبي إذا طلقتم النساء) سورة البقرة وهي أول سورة نزلت بالمدينة، (فطلقوهن لعدتهن) أي أوقعوا الطلقة الثانية لعدة الأولى أي بنهاية عدتها كما فسر ذلك الحديث حيث أوقع الأولى وأحصى العدة بتعداد الحيض والأطهار وقال بعد ذلك (فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء)
وليس غريباً أن يكون هذا هو التفسير فالقرآن يفسر بعضه بعضا فالحديث مبين للقرآن (لتبين للنساء ما نزل إليهم)
فمن آيات الطلاق مع الحديث يؤخذ أن الطلاق لا يقع إلا متفرقاً بين كل طلقة وأخرى مقدار عدة، وإن الرجعة لا تصح إلا بنهاية العدة.
وحيث كان الطلاق يختل نظامه إذا لم يراع فيه ذلك فقد أكد الله هذا المعنى بتكريره في آيات الطلاق فقال تعالى في سورة البقرة (وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فامسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف) فرتب الإمساك والتسريح على بلوغ الأجل. وذكر مثله في سورة الطلاق.
والحاصل أنني أستنتج من هذا البحث ثلاثة أمور:
الأول: وقوع الطلاق في الحيض.
الثاني: أن الرجعه لا تصح إلا قرب نهاية العدة
الثالث: وهو مترتب على الثاني - أن الطلاق الثاني لا يقع إلا قرب نهاية العدة من الطلاق الأول، والطلاق الثالث لا يقع إلا قرب نهاية العدة من الطلاق الثاني
وبذلك يصبح نظام الطلاق في الإسلام ثابتاً لا يتسرب إليه الخلل ولا يمكن العبث به

مهما حاول ذلك المحاولون.
فأرجو من فضيلة الأستاذ العلامة الجليل الشيخ أحمد محمد شاكر مؤلف كتاب (نظام الطلاق في الإسلام) أن يتفضل بالجواب عما رآه هذا العاجز سواء بالسلب أو بالإيجاب مع الأدلة الوافية لنستنير برأي الراجح، وله منا جزيل الشكر ومن الله عظيم الثواب
داود حمدان
حديث الأزهار
للكاتب الفرنسي الفونس كار
زهرة الأقحوان
نهضت الصبية مع الصباح وسارت نحو البراري. وكانت العصافير قد فتحت عيونها للنور وبدأت تزقزق وقد أحنت رؤوسها مثقلة بتيجان من لآلئ الأنداء
سرحت الغادة أنظارها على المرج، فاستوقفتها زهرة الأقحوان، زهرة النظارة والجمال، مفتحة عينها الصفراء، محدقة بالسماء
انحنت على الزهرة وقالت لها: سوف تكشفين لي سر الأسرار يا ابنة الأرض والسماء. سوف تعلن لي وريقاتك ما لا يعرفه في الإنسان إلا إله الإنسان، سوف تقولين لي إذا كان يحبني. . . وأخذت الفتاة الزهرة بين أناملها وأخذت تنزع وريقاتها
ودفعت الزهرة بالأنين لأول ورقة سقطت من تويجها على الأرض. وقالت: لقد كنت مثلك أيتها الصبية جميلة ومليئة بالحياة، مثلك كنت سعيدة، وكما أحببت أنت أحببت أنا، وما سال النسيم الذي هام بي عن سر غرامي أحداً، بل كان يمر بي كل ساعة ويحمل من عبيري كلمة الغرام حرفاً فحرفا. كان يقتلع هذه الحروف من قلبي كما تقتلعين أنت اليوم وريقاتي من تويجي بلا شفقة ولا رحمة. لقد سرق مني كل عبيري، وما عبيري إلا شعوري يحيط طهارتي بسياجه المنيع
ذهب الشعور كلمة فكلمة، وبقي قلبي عارياً كما سيبقى تويجي بين أناملك الآن. كنت أتعذب وأتأسف على عواطفي المخلوبة، على وريقاتي البيضاء. . .
ما لي ولك أيتها الصبية؟ دعيني، لا تنزعي وريقاتي، أنا أختك زهرة الأرض يا زهرة العالم، ارحمي الحياة التي وهبنيها الله، فأجود عليك بسر عظيم جزاء على إشفاقك
إن المرأة تأخذ الزهرة وتنضو وريقاتها لنستمع السؤال على جوابها المزدوج: يحبني، لا يحبني. . . .
والرجل يطلب الجواب نفسه من المرأة عندما ينثر وريقاتها البيضاء على الأرض.
أيتها الفتاة، أبقي جوابك في قلبك. . . إن الرجل ليطرحك بعيداً عنه إذا ما نزع وريقاتك البيضاء. . .
(ف. ف.)
نقل الأديب
للأستاذ محمد اسقاف النشاشيبي
27 - جنة في نار
دخل بدوي حماماً فاستطابه فقال لصاحبه:
إن حمامك هذا ... غير مذموم الجوار
ما رأينا قبل هذا ... جنة في وسط نار
28 - على أنه أقبل في الوقت
في (أغاني) أبي الفرج:
قال أبو المستهل: دخلت يوماً على سلم الخاسر وإذا بين يديه قراطيس، فيها أشعار يرثي ببعضها أم جعفر وببعضها جارية غير مسماة وببعضها أقواماً لم يموتوا. وأم جعفر يومئذ باقية. فقلت له: ويحك ما هذا؟!
فقال: تحدث الحوادث فيطالبوننا بأن نقول فيها. ويستعجلوننا ولا يجمل بنا أن نقول غير الجيد. فنعد لهم هذا قبل كونه، فمتى حدث حادث أظهرنا ما قلناه فيه قديماً على أنه قيل في الوقت.
29 - الأذن الشرعي والقياس اللغوي
في (طبقات) السبكي.
دخل رجل على الجبائي يوماً فقال: هل يجوز أن يسمى الله (تعالى) عاقلا؟
فقال الجبائي: لا، لأن العقل مشتق من العقال وهو المانع، والمنع في حق الله محال

فامتنع الإطلاق. قال الشيخ أبو الحسن فقلت له: فعلى قياسك لا يسمى الله (سبحانه) حكيما لأن هذا الاسم مشتق من حكمة اللجام وهي الحديدة المانعة للدابة عن الخروج، ويشهد لذلك قول حسان بن ثابت

فنحكم بالقوافي من هجانا ... ونضرب حين تختلط الدماء

وقول الآخر (جرير):

أبني حنيفة. أحكموا سفهائكم ... أني أخاف عليكم أن أغضبا

أي نمنع بالقوافي من هجانا، وامنعوا سفهائكم. فإذا كان اللفظ مشتقاً من المنع، والمنع على الله محال، لزمك أن تمنع إطلاق حكيم عليه (سبحانه وتعالى). فلم يجد جواباً إلا أنه قال لي: فلم منعت أنت أن يسمى الله (سبحانه) عاقلا، وأجزت يسمى حكيما؟ فقلت له: لأن طريقي في مأخذ أسماء الله الإذن الشرعي دون القياس اللغوي، فأطلقت حكيما لأن الشرع أطلقه، ومنعت عاقلا لأن الشرع منعه، ولو أطلقه الشرع لأطلقته

30 - ما قتل المحب حرام

قال القاضي المقري: سألني ابن حكم عن نسب المجيب في هذا البيت:

ومهفهف الأعطاف قلت له انتسب ... فأجاب: ما قتل المحب حرام

ففكرت ثم قلت: أراه تميمياً لإلغائه (ما) النافية فاستحسنته مني لصغر سني يومئذ

31 - أجد بيانها في قلبي

في (وساطة) الجرجاني:

قال يونس ابن عبد الأعلى: سألت الشافعي عن مسألة. فقال: إني لأجد بيانها في قلبي، وليس ينطلق لساني

32 - بارت قريتك

في (مفيد النعم) للسبكي:

ذكر الزبير ابن عمار أن بعض المتقعرين كتب إلى وكيل له بناحية البصرة: احمل إلينا من الخوزج والكنعد الممقورين، والإوز الممهوج، ولحم مها البيد، ما يصلح للتشرير والقديد

فكتب إليه وكيله: إن لم تكف عن هذا الكلام بارت قريتك، فإن الفلاحين ينسبون من ينطق بهذه الألفاظ إلى الجنون

33 - عبودية الطاعة وأخوة العبد

كتب أبو حيان التوحيدي إلى صاحب له: كنت أعلمتني أنك استحسنت مني هذين البيتين وهما:

إن كنت تطلب فضلاً ... إذا ذكرت ومجداً

فكن لعبدك خلا ... وكن لخلك عبدا

وكان سببهما أن صديق لي ضرب عبداً له، فحضره صديق له، فمنعه الصديق فلم يمتنع، فكتبت إليه بهذين البيتين أذكره بحق الصديق في عبودية الطاعة، وأخوة العبد في حق الإيمان قال (تعالى): (إنما المؤمنون أخوة) هذا مع ما في التسلط على المماليك من الدناءة.

34 - يخاف أن أعلم عليه

في (زهر الآداب) للقيرواني:

قال الفتح بن خاقان: ما رأيت أظرف من ابن أبي دؤاد، كنت يوماً ألاعب المتوكل بالنرد. فاستؤذن له عليه، فلما قرب منا هممت برفعها، فمنعني المتوكل وقال: أجاهر الله بشيء وأستره عن عباده؟ فقال المتوكل لما دخل: أراد الفتح أن يرفع النرد، قال: يخاف (يا أمير المؤمنين) أن أعلم عليه. فاستحليناه وقد كنا تجهمناه

35 - الوجه الحسن والشعر المطبوع

قال أبو عمر بن سالم المالقي: كنت جالساً بمنزلي بمالقة فهاجت نفسي أن أخرج إلى الجبانة، وكان يوماً شديد الحر فراودتها على القعود، فلم تمكنني من القعود، فمشيت حتى انتهيت إلى مسجد يعرف برابطة الغبار، وعنده الخطيب أبو محمد عبد الوهاب بن علي المالقي، فقال لي: إن كنت أدعو الله أن يأتيني بك وقد فعل فالحمد لله، فأخبرته بما كان مني ثم جلست عنده فقال: أنشدني، فأنشدته:

غصبوا الصباح فقسموه خدوداً ... واستوعبوا قضب الأراك قدوداً

ورأوا حصا الياقوت دون نحورهم ... فتقلدوا شهب النجوم عقودا
وتضافروا بضفائر أبدوا لنا ... ضوء النهار بليلها معقودا
صاغوا الثغور من الأقاحي، بينها ... ماء الحياة، لو اغتدى موروداً
لم يكفهم حد الأسنة والظبا ... حتى استعاروا أعينا وخدودا
فصاح الشيخ وأغمي عليه، وتصبب عرقاً، ثم أفاق بعد ساعة وقال: يا بني، أعذرني فشيئان يقهرانني ولا أملك نفسي عندهما: النظر إلى الوجه الحسن، وسماع الشعر المطبوع
36 - أنا لا أسمع لوما في حبيب
في خزانة ابن حجة:
كان صلاح الدين الصفدي، مذهبه تقديم أبي الطيب المتنبي على أبي تمام حبيب الطائي. فأتفق أن صلاح الدين اجتمع بابن نباتة بالديار المصرية، وذاكره في أبي الطيب وأبي تمام، فوجده على مذهبه. واجتمعا بعد ذلك بالشيخ أثير الدين بن حيان وذاكراه في ذلك، فقدم أبا تمام، فلاماه على ذلك فقال:
أنا لا أسمع لوماً في حبيب
37 - كالحسن شيب لمغرم بدلال
لابن الأثير (في المثل السائر):
قال أبو تمام:
خلط الشجاعة بالحياء فاصبحا ... كالحسن شيب لمغرم بدلال
وهذا من غريب ما يأتي في هذا الباب. وقد تغالت شيعة أبي تمام في وصف هذا البيت، وهو لعمري كذلك
الفلسفة الشرقية
بحوث تحليلية
بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين
- 2 -
الديانة المصرية
يجمع الباحثون على أن الديانة المصرية هي أولى الديانات البشرية التي ظهرت على وجه الأرض من غير استثناء. ويؤكد بعضهم تأكيداً قاطعاً بأنه لم تظهر ديانة في الدنيا إلا ولها في عقائد وادي النيل عنصر، وإن كل الديانات الإنسانية ليست إلا فتاتاً متساقطا حول مائدة بلاد الفراعنة الذين سبقوا جميع سكان الكرة الأرضية إلى حمل لواء المعرفة وفتح كثير من مغلقات العالم وحل الغاز الكون. ومن أشهر العلماء الذين يعتنقون هذه الفكرة العالمان الإنجليزيان: (بري) و (أليوث سميث). أما الأستاذ (دينيس سورا) فيؤمن بالفكرة الأولى وهي سابقية الديانة المصرية على جميع الديانات الإنسانية، ولا يستبعد أن تكون جميع التطورات الدينية قد وجدت في مصر من الوثنية المحضة إلى الروحية المغالية في التجردية، بل إلى (اللأدرية) المطلقة، ولكن الذي يعارض فيه هو أن بقية الشعوب القديمة قد تغذت من تساقط فتات المائدة المصرية، كما يقول بعض العلماء؛ وبراهينه في هذه المعارضة هي:
أولاً: أنه لم يثبت عن المصريين أنهم بعثوا بعثات إلى البلاد الأجنبية للتبشير بدياناتهم حتى انتشرت بين ربوع تلك الأمم.
ثانياً: أن الآثار المصرية التي يعتمد عليها العلماء في حكمهم هذا لا تؤيدهم في دعواهم إذا تأملوا في الأمر تأملا دقيقا، لأنها ليست إلا رموزا وطلاسم قصد بها كاتبوها غايات دينية محضة لا تسجيل حقائق علمية ولا إذاعة أسرار الدين وإبانة تطوراته المختلفة. وإذاً، فلا يمكننا أن نعتمد على تلك الآثار في حكمنا، وفوق ذلك فإن أسرار العقيدة المصرية الأصلية لم تذع بين أفراد الشعب إلا في عصور التدهور أي حوالي القرن السادس قبل المسيح.
وبناء على هذا يكون العامة - وهم الذين يحتكون بالأجانب في المعاملات - قد ظلوا جاهلين بحقيقة هذه الديانة حتى القرن السادس أي بعد ظهور كثير من الديانات الشرقية. وبهذا ينتفي تأثير الديانة المصرية على تلك الديانات.
ولا ريب أن البرهان الأول في رأينا برهان ضعيف، لأن الديانة كما تنتشر بواسطة

المبعوثين المختصين، تنتشر كذلك عن طريق الاحتكاكات التجارية والسياسية والاجتماعية، ولا جرم أن هذا كان موجوداً وثابتاً الثبات كله. أما إدعاء أصحاب هذا الرأي جهل الشعب بالعقائد المصرية حتى القرن السادس فهو غير صحيح، لأن الأدب المصري - وهو مرآة الحياة الاجتماعية بما تحتويه من دين وأخلاق وغيرهما - قد أنبأنا في مواضع تجل عن الحصر بكثير من أسرار العقيدة. أضف إلى هذا أن الرسوم والنقوش التي تكتظ بها المعابد تذيع أكثر هذه الأسرار الدينية، وليس سرا ما يعلمه الكهنة والأمراء، ورجال البلاط، وكبار الموظفين، والرسامون والعمال. على أنه إذا جازت سرية ما لدى هؤلاء جميعاً - وهي بعيدة - فلا تجوز سرية ما لدى الأدباء والكتاب الذين افعموا أسفارهم بوصف هذه المعلومات بأسلوب ضاف مسهب. وإذا فالأرجح - أن لم يكن مؤكدا - أن جميع الأمم القديمة من غير استثناء هي تلميذات مصر في الدين كما هي تلميذاتها في العلم والأدب والفن.

غير أنه بالرغم من صحة هذه النظريات القائلة بأخذ الأمم الشرقية دياناتها عن مصر في نظرنا يجب علينا أن نخطو إلى إثباتها خطوات حذرة متبصرة تأتلف مع تلك المعلومات البسيطة التي اكتشفها المستمصرون، منتظرين ما تأتي به المكتشفات المقبلة عن هذه الأمة العريقة التي سمى العلماء بلادها بحق: (أرض الأسرار والعجائب).

قداسة الحيوان وأسبابها عند المصريين

رأى علماء أوروبا في العصور الحديثة، الآثار المصرية مكتظة بالحيوانات المقدسة، ورأوا كذلك بعض الشعوب البربرية المتوحشة في جنوب أفريقيا وفي أطراف أسيا وأمريكا تقدس الحيوانات في هذا العصر الذي نعيش فيه تقديسا لا يقل عن تقديس المصريين إياها في العصور الغابرة، فانخدعوا بهذه المشابهة السطحية وتوهموا أن تقديس المصريين القدماء للحيوانات هو من نوع تقديس المعاصرين المتوحشين لها، وحسبوا أن التقديس المصري

هو: توتيميسم، وهي كلمة تدل على قداسة الحيوان الناشئة عن إعتقاد القبيلة في قرابتها أو صلتها الوثيقة بهذا الحيوان، وهذا (التوتيميسم) موجود حقاً عند المتوحشين العصريين ولاسيما في أطراف أمريكا. وقد عني العلماء باستبطان دواخل هؤلاء المتوحشين، فسألوهم عن هذه الحيوانات المقدسة فأجاب البعض بأنها أجدادهم الأولون، وأنهم حين يقدسون هذه الحيوانات لا يزيدون على أنهم يجلون عنصرهم الأول ويحترمون دماء أسلافهم التي تجري في عروق هذه الحيوانات. ورد البعض الآخر بأنها أقارب أجدادهم، وأكد البعض الثالث أنها من خلفاء أولئك الأجداد، وأعلن الرابع أن الحيوان المقدس عنده إنما هو إله قبيلة.

وقد شاهد العلماء أيضا في بعض الجهات المتوحشة القبيلة تنقسم إلى أربعة بطون: البطن الأول يقدس الكلب، وهو جده الأعلى، والثاني يقدس الخنزير، وهو عنصره الأول. والثالث يقدس الوزغ، وهو مبدؤه الأساسي. والرابع يقدس التمساح، وهو رأس الأسرة الأولى من هذا البطن.

فلما رأى العلماء هذا التقديس للحيوان عند الشعوب المتوحشة ورأوه عند المصريين الغابرين، جزموا بأن أولئك وهؤلاء متشابهون في عقيدتهم وتقديسهم لا يفرق بينهم إلا هذه العصور المترامية الأطراف

وقد أفاض بعض هؤلاء العلماء في هذه الموازنة إفاضة أنزلت أراءهم منزلة خيال الشعراء وأحلام النائمين. وأبرز هؤلاء العلماء الحالمين هو الأستاذ (فرازير) الإنجليزي مؤلف كتاب (الغصن الذهبي)

وقد عارض كثير من العلماء الأدقاء في هذه المشابهة معارضة شديدة وصرحوا بأنها تنقصها الأسانيد العلمية التي يعتمد عليها من ناحية، وبأنها غير متناسقة الجزئيات من ناحية أخرى، واستدلوا بأدلة على أن منشأ تقديس الحيوانات عند المصريين ليس هو (التوتيميسم) وإنما هو سبب آخر سنذكره هنا. وإليك شيئا من هذه الأدلة:

(1) أن المصريين القدماء كانوا يبيحون زواج الأخ من أخته مع أن جميع قبائل التوتيميسم تعد هذا العمل أكبر جرائمها التي تستوجب السخط والغضب، بل أنها مجمعة من غير شذوذ واحد منها على أن زواج الرجل بامرأة من البطن الذي هو منه محرم، وهذا خلاف

واضح يجعل المشابهة بعيدة كل البعد
أنه قد عثر على كثير من القبائل المتوحشة تجهل (التوتيميسم) جهلا تاما ولا تنظر (2) إلى الحيوان إلا بمثل الإغضاء والإهمال الذين ينظر بهما إليه أرقى المتمدنين العصريين إن المصريين القدماء كانوا يعتقدون أن عنصرهم هو السماء فلا يمكن أن ينتسبوا (3) إلى الإنسان العادي فضلا عن الحيوان
أنهم صرحوا في عدة مواضع من آثارهم بأسباب تقديسهم لتلك الحيوانات، ولا (4) يمت أي واحد من هذه الأسباب بصلة إلى تسلسلهم من الحيوان. وإذاً، فلا يمكن أن نسمي تقديس المصريين للحيوان: (توتيميسم) إلا إذا خرجنا بهذه الكلمة عن معناها الأصلي، وجعلناها مرادفة للتقديس فحسب بل مرادفتها للتقديس الناشئ عن البنوة أو القرابة. على أن الذين يوافقون من المستمصرين على تسمية تقديس المصريين للحيوان (توتيميسم) يجمعون على قصر هذه (التوتيميسمية) على عصور ما قبل التاريخ كما يجمعون على وجوب فصل عقائد تلك العصور (التوتيميسمية) عن عقائد العصور التاريخية الراقية.
أما منشأ هذه القداسة فهو يرجع - في رأي العلماء المحققين - إلى أنه قد حدثت حروب بين القبائل المصرية في عصور ما قبل التاريخ تجلت عن انتصار بعض هذه القبائل وانهزام البعض الآخر، فرمز المنتصرون لبلادهم ببعض الحيوانات القوية ولقرى خصومهم المنهزمين ببعض الحيوانات الضعيفة، فبقيت هذه الرموز دالة على معانيها ردحاً من الزمن ثم تعاقبت الأجيال فنسيت الأسباب الأولى وبقيت أسماء تلك الحيوانات عالقة بهاتيك القرى ورامزة لها في شكل خفي غامض. ولما كانت النفوس البشرية مجبولة على تقديس ما تجهله فقد قدست مصر تلك الحيوانات دون تفريق بين قويها وضعيفها.
ولما ارتقت مصر نوعاً، ونظمت بلادها وقسمتها إلى مقاطعات وأنشأ سكان كل مقاطعة على حدة راية خاصة بهم ظل بعض تلك الرموز القديمة باقياً ونقش كل منها على مقاطعته، كما اختفى البعض الآخر الذي لأمر ما لم يصلح للحياة، ولكن ذلك البعض الذي بقي لم يظل جامداً على راية حاله الأولى، وإنما تطور انسجاماً مع المدينة الحديثة مثل البازي الذي كان في عصور ما قبل التاريخ رمزاً لأحد الانتصارات الغابرة ثم أصبح في العصور التاريخية رمزاً للإله (هوروس) إله القوة والخير والبركة، وكالبقرة التي كانت
كذلك في العصور الأولى رمزاً لأحد تلك الانتصارات التي سجلت على القرية المنهزمة ضعفها، فرمز إليها بحيوان صغير كالتمساح مثلاً ثم أصبح رمز البقرة رمزاً للإله (هاتور).
ومع طول الزمن اندمج بعض المقاطعات في البعض الآخر وأصبح الكثير منها تحت إمرة إله واحد كما حدث في الماضي أن أصبح المنهزم تحت إمرة المنتصر، وهذا هو مأتى تقديس الحيوانات في مصر القديمة.
(يتبع)
محمد غلاب
سر مجهول في تحريم لحم الخنزير
للأستاذ عبد المتعال الصعيدي
في التشريع الإسلامي أسرار لا يعلمها إلا من طهر الله قلوبهم لحكمته، وألهمها من العلم ما لا يقاس به شيء عندها. وقد كان الناس يظنون أن الحكمة في تحريم لحم الخنزير تعبدية إلى أن أخذوا في هذا العصر يلتمسون حكم التشريع، ويعنون بالبحث عن فوائده ومزاياه؛ فحينما بحثوا في حكمة تحريم لحم الخنزير ظنوا أنه استثناء من أصل أحل لحمه، فأخذوا يبحثون في تحريمه عن حكمة خاصة به. وقد ذكروا من ذلك أن الخنزير يصاب في كثير من الأحيان بديدان تنتقل منه إلى من يأكل لحمه، وتتربى في جسده، فتكون منها الدودة الوحيدة الخطيرة؛ وذكروا أيضاً أن في الخنزير ديداناً أخرى تتربى في لحمه يقال لها (تريشين)، ومن عادتها أن تكون محاطة بكيس ينتهي أمره بأن يتحجر فتموت تلك الدودة فيه، ولكن هذا لا يكون إلا بعد أن تلد ألوفاً لا تحصى من الديدان، وكل دودة منها ينتهي أمرها إلى مثل ما انتهى إليه أمر الدودة الأولى، فإذا أكل الإنسان لحم الخنزير نزلت هذه الأكياس الحجرية الحاوية لهذه

الديدان إلى معدته، وذابت فيها بتأثير العصارة المعدية، فتخرج منها ديدانها وتتكاثر في جسمه وتسكن في لحمه، وهذا من أقبح الأمراض وأشنعها وناهيك بمرض يكون فيه لحم الإنسان كله مساكن لتلك الديدان المؤذية.

وقد يكون هذا من ضمن الأسباب التي حرم الله بها لحم الخنزير، وإن كان لا يوجد له نظير فيما حرم الله أكله علينا؛ ولكن يبقى بعد هذا أن يقال: هل حرم الله علينا الخنزير لأنه خنزير، أو لأنه من جنس السباع التي حرم علينا أكلها لحكمة عظيمة سنبينها؟ ولقد سألني بعض المخالفين منذ سنين عن الحكمة في تحريم الإسلام لحم الخنزير، فأجبته بأن الله حرمه لأنه سبع من السباع، ثم ذكرت له الحكمة في تحريم لحمها. فسكت سكوت المفحم أو المقتنع، ولم يعقب على كلامي بكلمة تبين لي حقيقة أمره، فاكتفيت منه بذلك وتركته، وهأنذا أفصل هنا ما أجملته في جوابي له:

روي عن أبي هريرة رضي الله عنه النبي صلى الله علية وسلم قال: كل ذي ناب من السباع فأكله حرام. فهذا الحديث يدل على تحريم ما له ناب من السباع، والناب هو السن خلف الرباعية، كما جاء في القاموس، والسبع هو المفترس من الحيوان كما جاء في القاموس أيضاً. وجاء فيه أن الافتراس الاصطياد. وجاء في كتاب النهاية لابن الأثير أن السبع هو ما يفترس الحيوان ويأكله قهرا وقسرا، كالأسد والذئب والنمر ونحوهما.

وقال أبو حنيفة: كل ما أكل اللحم فهو سبع، حتى الفيل والضبع واليربوع عنده من السباع، وكذلك السنور. وقال الشافعي: السباع المحرمة هي التي تعدو على الناس كالأسد والنمر والذئب، أما الذي لا يعدو منها على الناس فهو حلال، كالضبع والثعلب فإذا أردنا بعد هذا أن نعرف أمر الخنزير في ذلك وجب أن نرجع إلى ما كتب في علم الحيوان عنه. وقد جاء في كتاب حياة الحيوان للدميري أن الخنزير يشترك بين البهيمة والسبعية، ففيه من السبع الناب وأكل الجيف، ومن البهيم الظلف وأكل العشب والعلف. ويقال أنه ليس لشيء من ذوات الأنياب ما للخنزير من القوة في نابه، حتى أنه يضرب به صاحب السيف والرمح فيقطع كل ما لاقى من جسده من عظم وعصب وجاء في دائرة معارف البستاني أن الخنزير يمتاز بقوة أنيابه المعوجة، وإن منها نابين في الفك الأعلى ونابين في الفك الأسفل يقدر أن يجرح بها جراحاً غائرة، وهو في الغالب يضرب بها الأماكن الرخوة عند الهجوم عليه، كبطن الفرس والإنسان ونحوهما، وقيل أنه يتغلب أحياناً بأنيابه على الأسد

ثم ذكر أن الخنازير الآبدة أقوى وأضخم من الخنازير المستأنسة، وأنها أشرس منها طباعا، وأعظم أنيابا، وإنها تصطاد بالحمل عليها وهي في كهوفها، وبنصب الفخاخ لها ونحو ذلك، وقد تطارد بالكلاب إلى تقف مصادمة مطارديها، ويكون وقوفها عند رجلي الفرس، وكثيراً ما تتمكن من جرحه في ساقيه بنابيها المخيفين، وقد تأتي إلى جنب الفرس وتطعنه بنابيها في بطنه فتشقه قبل أن يتمكن منها راكبه، وبعض الخنازير في أمريكا إذا حمل إنسان أو وحش على القطيع منها يقف على شكل دائرة، ويدفع بأسنانه الحادة هجمات العدو عليه، وإن كان النمر الأمريكي المشهور بالقوة، وكثيرا ما تقتل هذه الخنازير الكلاب التي تستعمل في صيدها، وكثيراً ما تقتل صيادها أو تجرحه، وكثيراً ما تجاهر الناس العداء بشجاعة لا مزيد عليها، فحمل على الإنسان بدون أن يغيظها، إذا رأت كلباً غير متعود صيدها تحيط به حالاً وتقتله، وهي على العموم شديدة البأس، كثيرة الحمق

وقد ذكر أيضا أن للخنزير ستة أضراس أو سبعة في كل جانب من جوانبه، وأن الأمامية منها تشبه أضراس آكلة اللحوم، أما الخلفية فتشبه أضراس الإنسان، وهذا يدل على أنه يأكل النبات واللحم

وكذلك ذكر الأستاذ أحمد ندى في كتابه (الحجج البينات في علم الحيوانات) أن الخنزير يسكن الغابات ويتغذى فيها بالجذور والثمار، ولكنه إذا فقد هذا الغذاء يصير آكل لحوم، فيفترس الحيوانات الحية، ويأكل من لحومها

وينقسم الخنزير إلى قسمين: خنزير بري وخنزير بحري. ومن الخنزير البحري نوع يسمى عند الفرنجة (بيروسا) أو الخنزير الملاسمي، ويوجد في جزائر الهند الشرقية، وهو شرس الطباع كالخنزير البري، قادر على السباحة طويلا. وقد ذكر الدميري في

كتابه (حياة الحيوان) أن الخنزير البحري هو الدلفين على المشهور، وقد سئل مالك عنه فقال: أنتم تسمونه خنزيراً، يعني أن العرب لا تسميه بذلك، لأنه لا تعرف في البحر خنزيرا

(للبحث بقية)

عبد المتعال الصعيدي

المدرس بالقسم العام بمعهد طنطا

بين القاضي منصور الهروي

والوزير أبو سهل الزوزني

للأديب الفارسي عباس إقبال

ترجمة الدكتور عبد الوهاب عزام

مقدمة:

لما قامت الدولة العثمانية فاستولت على أسيا الصغرى والعراق العربي والشام وجزيرة العرب ومصر وشمال أفريقية تقطعت الأواصر العلمية والأدبية التي جمعت بين العهد العباسي بين المسلمين في الأقطار كلها من بخارى وسمرقند إلى القيروان ومراكش

اشتدت المنافسة الدينية والسياسية بين الصفويين في إيران وسلاطين آل عثمان في البلاد الإسلامية الأخرى وانتهت إلى العداء والحرب، فأقامت سدا منيعا بين مسلمي إيران وإخوانهم في الدين، فتقطع ما بينهم من روابط. فمسلمو الشرق الذين كان اهتمامهم بالفارسية يزيد يوماً بعد يوم بحكم الزمان، والذين كانوا ينصرفون عن العربية لزوال دولها المستقلة سلكوا طريقاً غير الطريق التي سلكها مسلمو الغرب تحت سيطرة الترك العثمانيين ولواء السلطان حامي مذهب أهل السنة والجماعة.

وكانت عاقبة هذا أن الإيراني حرم الاستفادة من المؤلفات التي كانت تكتب خارج حدود بلاده والكتب القديمة التي كانت مدخرة في غير وطنه. وكذلك حيل بين رعايا العثمانيين وبين آثار النهضة العلمية والأدبية في إيران. وزاد تعصب الفريقين هذه الفرقة على مر الزمان. واليوم وقد نهضت أهل مصر والشام لأحياء الآداب والمعارف الإسلامية، لا نزال نرى العلماء والأدباء على براءتهم من التعصب والحمد لله يهملون كل ما كتب بالفارسية - إحدى لغتي التمدن الإسلامي العظيمتين - ويصدفون عما كتبه علماء المذهب الشيعي - أحد المذهبين العظيمين في الإسلام. يتبين من مطالعة الكتب والمقالات التي يكتبها فحول الكتاب والمؤرخين في مصر والشام أنهم متمكنون في الآداب العربية وتاريخ الإسلام، بصيرون بكثير من الحقائق الراجعة إلى الإفرنج وآدابهم. حتى إذا عرض بحث عن إيران والآداب الفارسية، أو مذهب الشيعة كبا جوادهم وكثرت زلات أقلامهم. ونرى بعض هؤلاء الكتاب يحاولون إلى المراجع الفارسية وهم يجهلون لغتها فيتوسلون إليها بالمراجع الأوروبية فيحرفون الأعلام حين ينقلونها من الحروف اللاتينية إلى الهجاء العربي تحريفاً يغير معالم التاريخ والجغرافيا

كتب أحد كتاب مصر (ونمسك عن ذكر اسمه إجلالا لمقام) ترجمة ناصر الدين شاه والوزير ميرزا تقي خان. وكان أخذه عن كتاب إنجليزي فكتب (نصر الدين) و (طاغي خان)، والذي يعرف العربية يدرك الفرق بين ناصر ونصر وتقي وطاغي. وللتحرز من مثل هذا اللبس عني العلماء المدققون من قبل بتأليف كتب مثل (المؤتلف والمختلف) و (والمشتبهات) و (المشترك) وغيرها. واجتهدوا في ضبط الإعلام وتعيين لفظها ورسمها.

وهذا الخلط والمسخ ظاهران في ترجمة دائرة المعارف الإسلامية التي تنشر في مصر الآن فهي مليئة بأغلاط من هذا القبيل لا يتيسر تعدادها.

إنما يريد الكاتب من هذه المقدمة أن يلفت أدباء العربية ومؤرخيها ومحققيها الذين يجتهدون في كشف حقائق التمدن الإسلامي على سنن المحققين من الفرنج، إلى هذه النكتة الدقيقة: وهي أن أمامهم مصدرين عظيمين لتكميل معارفهم في كل ما يرجع إلى التمدن الإسلامي - مصدرين لا يعنى بهما كثير من الباحثين على ما ضمنا من حقائق لا يظفر بها الباحث في الكتب العربية المعروفة. هذان المصدران هما الكتب الفارسية وكتب الشيعية التي ألفت في إيران بالعربية أو الفارسية

أرى كثيراً من فضلاء الشبان في مصر والشام يكتبون رسائل أو كتباً عن حكماء الإسلام وعلمائه ومؤرخيه فلا يستطيعون بلوغ الغاية في التحقيق بما جهلوا الفارسية فحرموا الاستفادة من الكتب في إيران. كيف يستطيع كاتب أن يحقق تاريخ ابن سينا وفلسفته وهو يغض الطرف عن كتبه الفارسية: (دانشامة علائي) و (رسالة نبضية) ومعراجنامه، أو عن اشعاره الفارسية. وكيف يستطيع أن يوفي البحث عن أبي الريحان البيروني وهو يغفل النسخة الفارسية من كتاب التفهيم في صناعة التنجيم وما كتبه عنه مؤلفو الفارسية القدماء مثل أبي الفضل البيهقي في تاريخ آل سبكتكين، ونظامي العروض للسمرقندي في جهار مقاله وفيه حقائق لا تلفى في كتب أخرى؟ ومثل هذا يقال عن كثير من العلماء أمثال الإمام فخر الدين الرازي، والعلامه قطب الدين الشيرازي، والإمام عمر الخيامي، وجار الله الزمخشري، ورشيد الدين الوطواط، ونصير الدين الطوسي.

من ذا الذي يعنى بالتاريخ وما يحتاج إلى كتبه مثل تاريخ قم (وقد فقد اصله العربي، ولم يبق ألا جزء من ترجمته الفارسية) ومحاسن اصفهان لسعد الدين البافروخي، وكتاب الفهرس للطوسي، ومعالم العلماء لابن شهر اشوب، والفهرست للقمي، وكتاب الرجال للكشي، وكتاب الرجال للنجاشي، وكتاب الرجال الكبير للاستراباذي، وروضات الجنات للخونساري، وكلها من أمهات كتب الشيعة؟ أو كيف يغض الطرف عن كتب التاريخ الفارسية مثل جهانكت للجويني، وجامع التواريخ لرشيد الدين فضل الله الوزير، وتجزية الأمصار وتزجية الإعصار اعني تاريخ الوصاف، وزبدة التواريخ للحافظ ابرو، ومطلع السعدين لعبد الرزاق السمرقندي، وظفرنامه للنظام الشامي، وشرف الدين علي اليزدي، وحبيب السير، وروضة الصفا، ومجمع الأنساب، وتاريخ كراميره وكلها ثقة في التاريخ المغول وعصر تيمور؟

كل متأدب في العالم العربي سمع اسم أطباق الذهب لشرف الدين عبد المؤمن الأصفهاني، كتبه على نسق أطواق الذهب لأبي القاسم الزمخشري، وربما لا يوجد في هذه البلاد من يعلم أن شرف الدين المذكور (ويعرف باسم شرف الدين ابن شفروه) واحد من أشهر شعراء الفارسة له ترجمة في كل كتاب فارسي مترجم للشعراء. وكذلك كتاب الفخري لصفي الدين محمد بن علي بن الطقطي طبقت شهرته الأفاق، ولكن قليلا من فضلاء العربية من يعلم أن في الفارسية نسخة من هذا الكتاب اكثر تفصيلا كتبها هندوشاه النخجواني سنة 724، ويؤخذ من هذه النسخة الفارسية أن أسم كتاب الفخري الحقيقي: (منية الفضلاء في تواريخ الخلفاء والوزراء)

أرجو أن يعذرني القراء الكرام في تطويل هذه المقدمة التي يمكن أن يكتب في موضوعها كتاب والتي يرى القارئ فيها وفيما بعدها أن الفرع قد زاد على الأصل. أن عذري في هذه الإطالة رجائي أن يكون فيها بعض الفائدة

ومن أمثلة ما ذكرنا في المقدمة أعني الأمثلة التي تبين أن الكتب الفارسية تعين على إيضاح مسائل تاريخية ودقائق في الأدب العربي أو تتضمن أحيانا فوائد لا تلفى في الكتب العربية، قصة القاضي منصور الهروي أحد الشعراء النابهين في القرن الخامس الهجري

ومن ذوي الصيت الذائع في البلاد الإسلامية الشرقية في هذا العصر.

القاضي أبو أحمد منصور بن أبي منصور محمد الأزدي الدولي، المعروف بالقاضي منصور أو منصور الفقيه، ولي قضاء هرات في عهد الملوك الغزنويين، وكان منصب القضاء وراثة في أسرته. وكان القاضي مع هذا المقام الجليل، يمضي أكثر أيامه في مصاحبة أهل الطرب ومنادمة أخوان اللهو والتمتع بالعيش الرضي، والوجه الجميل، يرى طبعه الشاعر أن الحياة في السرور والطرب، وكأن لسان حاله بيتا شمس الدين محمد حافظ الشيرازي:

صديقان أريبان، ومنوان من الخمر المعتقة، وفراغ، وكتاب وزاوية في المرح، لا أبيع) (هذا المقام بالدنيا والآخرة وأن يكن الناس قد اتخذوني إماما

والقاضي منصور من معاصري أبن منصور الثعالبي مؤلف يتيمة الدهر وتلميذه أبي الحسن الباخرزي مؤلف دمية القصر، وقد أثبت هذان المؤلفان له ترجمة مختصرة ونبذة من شعره في يتيمة الدهر (4 - 243) وتتمة اليتيمة (46: 2 - 53) وفي دمية القصر (في ذيل شعراء خراسان)

وهذه نبذة مما كتبه الباخرزي:
وكان مغرى بالشراب، مغرما بالأطراب، يمناه متوجة بكاس الرحيق، ويسراه مقرطة بعروة الإبريق. وخمرياته مما يحكم له فيها بالفضل على الحكمي، وغزلياته مما يحصل بها مطاوعة الغزال الإبل)
وكذلك في معجم الأدباء طرف من أخباره وقطع من أشعاره (7 - 189 - 191) ويقول ياقوت إن القاضي منصور كان من مادحي القادر بالله (381 - 422) وأنه توفي سنة 440.
وفي تاريخ آل سبكتكين الذي ألفه بالفارسية أبو الفضل محمد بن الحسين البيهقي (385 - 470)، وهو من معاصري القاضي وأصدقائه، فصل ممتع في ترجمته لا يلفى في مصدر من المصادر المذكورة، ولا في غيره من المراجع المشهورة. ونحن نثبته هنا إفادة للقراء وإثباتا لدعوانا في المقدمة (طبع طهران ص599 - 601) يقول أبو الفضل البيهقي:
وكان بهرات رجل يقال له القاضي منصور له قدم في كل علم وفضل قد سكن إلى الشراب
واللهو، واخذ حظه من الدنيا الغادرة وجعل شعاره: خذ العيش، ودع الطيش. وكان ريحانة الأكابر لا يأنسون بمجلس لا يضمه. وكان صديقا لأبي سهل الزوزني قد أحكمت مودتهما أواصر الأدب. وكانا يتلازمان ويعكفان على المدام. بكر القاضي منصور يوماً إلى لهوه وشرابه، وأرسل إليه أبو سهل أبياتا، فأجاب بديهة على رويها؛ وأعاد أبو سهل الكتابة فأجاب أبو منصور ولم يحضر ومضى اليوم.
وهذه هي الأبيات التي كتبها الشيخ أبو سهل الزوزني:
أيها الصدر الذي دا ... نت لغرته الرقاب
انتدب ترضى الندامى ... هم على الدهر كتاب
وأسغ غصة شرب ... ليس يكفيها الشراب
واحضرن لطفا بناد ... فيه للشوق التهاب
ودعا العذر وزرنا ... أيها المحض اللباب
بينك المر عذاب ... وسجاياك عذاب
إنما أنت غناء ... وشراب وشباب
جودك المرجو بحر ... فضلك الوافي سحاب
إنما الدنيا ظلام ... ومعاليك شهاب
فأجابه القاضي في الوقت:
أيها الصدر السعيد ... الماجد القرم اللباب
وجهك الوجه المضيء ... رأيك الرائي الصواب
عندك الدنيا جميعا ... وإليها لي مآب
ولقد أقعدني السك ... ر وأعياني الجواب
في ذرى من قد حوى من ... كل شيء يستطاب
ولو استطعت قسمت الج ... سم قسمين لطاب
غير أني عاجز عن ... هـ وقلبي ذو التهاب
فبسطت العذر عني ... في أساطير الكتاب
وكتب إليه أيضا أبو سهل:
أيها الصدر تأن ... ليس لي عنك ذهاب
كل ما عندك فخر ... كل ما دونك عاب
وجهك البدر ولكن ... بعد ما إنجاب السحاب
قربك المحبوب روض ... صدك المكروه غاب
عذرك المقبول عندي ... أبد الدهر يصاب
أنت إن أبت إلينا ... فكما آب الشباب
أو كما كان على المح ... ل من الغيث الضباب
بل كما ينتاش ميت ... حين واراه التراب
فكتب منصور بعدما أدركه السكر:
نام رجلي مذ عبرت القنطره ... فأقبلن إن شئت مني المعذره

إن هذا الكأس شيء عجب ... كل من أغرق فيه أسكره
(باريس)
عباس إقبال
زهرة في مستهل الربيع
للأستاذ محمود الخفيف
قد بعثْتُ القديم من أحلامِي ... إذ تَبَسَّمْتِ للربيع الجديد
يا ابنْةَ الصبح قد ثكلْتُ غرامي ... وتأسَّيْتُ من زمان بعيد
ما لهذا النّدَى يزيد أوامي ... ويُثير الجوى بقلبي الشهيد!
فيم أحْيَيْت بابتسامك وجدي ... يا عروس الربيع رفقاً بقلبي
كيف أصبْو إلى جمالك وحدي ... أيُّ حُسنٍ يخالج اليوم لبي؟
يتساوى القتاد والزهر عندي ... وتناسيَّ ماضي العيشَ حسي
يوجعُ النفس أن ترى اليومَ حُسناً ... كان بالأمس من بهيجِ رواها
تنظرُ العين لا ترى فيك معنىً ... من معاني الجمال إلا شجاها
أغنْيات المنى تألفن لحناً ... صارَ للنفس من صميم أساها!
صوّرَت لي كآبة العيشْ حولِي ... عند لقياكِ كلّ معنى كئيبِ
ذائب الطل ليسَ عِنْدِي بِطَلٍّ ... هو سَحُّ الجفون عند النحيب
وكأنّ الزمان مسَّكِ مثلي ... بالضنّى كفهُ وبالتعذيب
إنَّ هذا النّماَء يوحي لنفسي ... صوراً هُن من نسيج الفناء
سَوْفَ يُطوَى بهاؤه حين يمسي ... يوْمَكِ الضاحكُ المديد الضياء
كلما زاد قلَّ رونق أمسْي ... يا لموْتٍ رأيته في النَّماء!
هكذا يا ابنْة الربيع حياتي ... غير أني معذَّبٌ بشعوري
حائر النفس بين ماض وآت ... غاب في لُجَّةِ الزمان حبوري
سوْفَ تطوي يد المنية عمري ... بعد أن يُطفئ الزمان شبابي
لِلوَنى والنحولِ في الدهر سيْري ... لا ترى العينُ غيرَ لمع السراب
فسواء صبرْتُ أم رثّ صبري ... وسواء مسرَّتي واكتئابي
فيكِ رمز لكل ما هو فانٍ ... عابر لن يقيم إلا قليلا
يا عروس الربيع كم من معان ... فيكِ زادت غليل قلبي غليلا
يا لقلبي ما طارقات زمان ... لم تذَر لي في الكون معنىً جميلا
أنتِ كالعيش فتنة وغرور ... وأمانيُّ كلها للنَّفاد
أنتِ كالحب نشوة وفتور ... ورُؤى تَمَّحى بلا ميعاد
لمع كلهن مَيْن وزور ... الليالي لهنَّ بالمرصاد
خيلت لي عيناي صورة أنس ... برهة ثم خيلت لي ثبورا
ورأى القلب فيكِ موحش رَمْسٍ ... يضحك الزهر فوقه منثورا
أسواء زينت ساحة عرس ... يا ابنة الصبح أم كسوت القبورا
موْتكِ الباكر المحتم يوحي ... لفؤادي الهموم من كل جنس
كم صبي كالزهر غض صبوح ... كالرياحين عوده طيب غرس
ناعم كالملاك رقة روح ... موته يوجعُ القلوب ويؤسي!
كم فتيٍّ في ضحوة العمر ولى ... مثلما متِّ، نابهٍ عبقريٍّ
ومحيا من ضاحك الزهر أحلى ... قد محاه الفناء قبل الذُّويِّ!
كنت ألقاك في الربيع فألقى ... ألف معنى في سحر ذاك الشباب
يمعن الحس عند مرآك عمقاً ... فأرى الروح من وراء حجاب
وكأني والقلب يسجد خفقاً ... هيكل ليس ينتمي للتراب!
ينجلي فيكِ والزمان نضير ... ومعاني الربيع تملأ نفسي
أمل ضاحك وعيش غرير ... وطيوف تثير كامن حسي
كان لي منك في الصباح بشير ... وأنيس إن غاب طائر أنسي
يا ابنة الصبح كم رأى الصبح مني ... نظرات المتيم المسحور
من بنات الهديل أقبس لحني ... حبذا السجع في صفاء البكور
وسطور الرياض تبهر عيني ... فأملي بوشيهن سطوري
كان هذا الزمان حلماً تقضى ... أي حلم خياله لن يزولا

أي حسن يبقى على الأرض غضاً ... آية الحسن أنه لن يطولا
كم قطعت الرياض طولا وعرضاً ... فرأيتَ النماء ثم الذبولا
يا ابنة الصبح قد ذكرت زماني ... حين أومأت في رواء بديع
كل شيء بعثت إلا الأماني ... أفلا كنت مثل هذا الربيع؟
الخفيف
البَريد الأدَبيّ
مظاهر علمية خطيرة:
تفيض الصحف الإنكليزية في التعليق على موقف الجامعات الإنكليزية من الدعوة التي وجهت إليها من جامعة تبنجن الألمانية للاشتراك في عيدها الذي سيقام في يونيه القادم احتفاء بانقضاء مائتي عام تأسيسها، فقد قررت الجامعات الإنكليزية كلها أن تعتذر عن قبول الدعوة وأن تقاطع هذا الاحتفال، ويقولون إن الجامعات الأمريكية قد تحذو حذو الجامعات الإنكليزية في هذه المقاطعة. وقد كان لهذه المقاطعة العلمية وقع عميق في ألمانيا. وقد شرحت الصحف الإنكليزية موقف الجامعات الإنكليزية، فقالت إنه لا يرجع إلى أية بواعث سياسية، ولا يرجع بالأخص إلى أية خصومة نحو ألمانيا أو الشعب الألماني، ولكنه يرجع إلى بواعث علمية محضة، ذلك أن ألمانيا الهتلرية قد أخضعت العلم للسياسة وبالغت في اضطهاد الفكر، وجعلت من الجامعات الألمانية أدوات للدعاية السياسية والجنسية، وسحقت بذلك هيبة العلم وثلت تراث الجامعات الألمانية، وقد كانت في مقدمة جامعات العالم صيتاً وهيبة؛ ولم تبق الجامعات الألمانية كما كانت قبل قيام الحكم الهتلري منابر الإعلان الحقائق العلمية، بل غدت منابر لبث النظريات العنصرية والسياسية والجرمانية الجديدة وتسخير الحقائق العلمية لخدمة مزاعم سادة ألمانيا الجددَ ومبادئهم المفرقة. وقد علقت مجلة (سبكتاتور) الإنكليزية على هذا الحادث بمقال رنان استعرضت فيه حالة التفكير الألماني الحاضر وما انتهى إليه في ظل الطغيان الهتلري من الانحلال، وأشارت بهذه المناسبة إلى ما صرح به وزير المعارف الألمانية في العام الماضي في الاحتفال بعيد جامعة هيدلبرج، من (أن العلم الألماني الجديد يرفض المبدأ القائل بأن شرف العلم وغايته ينحصران في البحث عن الحقيقة دائماً)؛ وأشارت إلى ما وقع في العهد الحاضر من تخريب الجامعات وتشريد الأساتذة بسبب كونهم من اليهود، أو لأنهم من خصوم النظام الحاضر حتى بلغ ما طرد منهم في الأعوام الثلاثة الأخيرة أكثر من ألف وسبعمائة أستاذ بينهم فطاحل العلم الألماني في كل فن وضرب.
وهذه أول مظاهرة دولية عالمية خطيرة ضد ألمانيا الهتلرية وسيكون لها بلا ريب مغزاها العميق في الحكم على المبادئ والمزاعم المفرقة التي تتخذها ألمانيا النازية شعاراً لها
وخصوصاً في المسائل العلمية التي تعتبر بالإجماع مسائل إنسانية تهم العالم بأسره، ولا يمكن أن تدعي فيها أية أمة أو دولة شيئاً من الاختصاص، ولا يمكن أن تسيرها سوى المباحث والحقائق المجردة عن كل اعتبار قومي أو جنسي أو سياسي.
كتاب عن الواحات المصرية النائية
أصدرت الجمعية الجغرافية الملكية المصرية أخيرا مؤلفا جديدا بالفرنسية عنوانه (الاكتشافات الأخيرة في صحراء لوبية) بقلم الكونت الماسي الرحالة المعروف؛ وفيه يقص المؤلف محاولاته لاستكشاف واحة (زرزورة) وهو اسم كان يجري على الألسن مجرى الأسطورة؛ وكان أول أوربي ذكره هو الرحالة الإنكليزي ولكنسون في كتابه الذي صدر سنة 1835، وهو يصف الاسم بأنه علم على واحة تقع بعيدا فيما وراء الواحات المصرية الغربية؛ وأسفرت الاكتشافات الصخرية في الأعوام الأخيرة عن اكتشاف صحراء (العوينات)، التي لم تكن معروفة في الناحية المصرية من الصحراء؛ وكان عرب الواحات المصرية يعتقدون أنه ليس بعد واحاتهم أي واحة أو بقعة خضراء أخرى تجاه الغرب. ثم اكتشفت واحة الكفرة بواسطة عرب من قبيلة الزاوية التي نزحت من برقة استطاعوا الاتصال ببعض سكان صحراء تيبو المجاورة. وفي سنة 1923 قام البرنس كمال الدين برحلته الأولى إلى العوينات، وتبعه بعد ذلك السير جلبرت كلايتون واكتشف كلاهما بعض الأودية الجديدة. وفي سنة 1933 قام الكونت الماسي برحلة أخرى إلى واحة العيونات، واتصل في واحة الكفرة ببعض زنوج تيبو،

واكتشف بواسطتهم بعض وديان أخرى. ويستعرض المؤلف هذه الرحلات الصحراوية الشائقة، ويورد بعض النصوص والمقارنات التاريخية القديمة من أقوال هيرودوتوس وغيره، ويورد صورا لبعض النقوش العتيقة التي عثر عليها في بعض صخور الصحراء

الفن المصري القديم

صدرت أخيراً طبعة إنكليزية لكتاب الفن المصري القديم تأليف الدكتور هيرمان رانكه العلامة الأثري. وأهمية هذه الطبعة في أنها تسهل على القارئ اقتناء هذا السفر وقد كان من قبل بطبعته الألمانية التي أصدرتها شركة فيدون النمسوية الشهيرة محجوبا عن القارئ

لارتفاع ثمنه إلى بضعة جنيهات للنسخة الواحدة، إذ تعتبر الطبعة الألمانية من حيث الصورة الفنية والتلوين تحفة فنية لا يستطيع اقتناءها سوى الهواة ودور الكتب. أما الطبعة الإنكليزية فمع أنها قد احتوت جميع اللوحات والصور الفنية فإن ثمنها لا يتجاوز ثمانية شلنات

ويحتوي الكتاب على تاريخ للفن المصري القديم بقلم الدكتور رانكه وعلى موجز لتاريخ مصر الفرعونية، وبه 340 لوحة وصورة فنية، منها صورة بديعة لرأس الملكة نفرتيتي تبين بوضوح سحابة عينها اليسرى وهو عيب لا يبدو في الصورة الجانبية، وصور عديدة لأبدع التماثيل والرسوم الفرعونية الشهيرة؛ وفي الاستعراض النقدي الذي يقدمه الدكتور رانكه عن الفن المصري القديم مقارنات وملاحظات قيمة جداً من الوجهة العلمية والفنية

كتاب للمرشال دي بونو عن الحرب الحبشية

شغلت الأوساط السياسية والأدبية في أوروبا هذه الأيام بالكتاب الخطير الذي ووضعه المارشال دي بونو أول قائد عام في الحملة الإيطالية على الحبشة عن هذه الحرب وأسماه (العام الثالث عشر، الاستيلاء على إمبراطورية) وسر الضجة العظيمة التي أثارها هذا الكتاب هو ما حواه من أسرار واعترافات عن تأهب إيطالية للحملة قبل ظهور الذرائع التي تذرعت بها لإرسال جيوشها والاصطدام بالأحباش، ثم ما جاء فيه عن الأساليب التي اتبعها للتمهيد للفوز في الحرب. فقد اعترف بأنه وضع مع السنيور موسوليني خطة الحرب من سنة 1933 وجعلاها سراً بينهما لكيلا يطلع عليها الجمهور فيقاوم الفكرة؛ ثم بين ما دفعته إيطالية الرشى لاشتراء بعض الأحباش والجواسيس الذين بثهم في أرجاء الإمبراطورية فصار يعرف كل كبيرة وصغيرة فيها. وأشار أن إيطاليا أنفقت في هذا الباب بسخاء عظيم وقد أفادتها الدعاية فحرمت الإمبراطورية من حوالي 200 , 000 محارب

ويسهب دي بونو في وصف الاستعدادات العظيمة التي قامت بها إيطاليا قبل الحملة سرا أو كيف زادت قواتها في الإريترية وأنشأت المطارات وأرسلت الطيارات للاستكشاف على الأراضي الحبشية وأخذ الصور.

والظاهر أن إيطاليا كانت متوقعة أن تعلنها بريطانيا بالحرب فقد أشار إلى أن موسوليني أرسل إليه قبيل الحملة يأمره أن يوقف الحرب الحبشية إذا أعلنت بريطانيا الحرب والتزام

الدفاع عن الإريترية.

والكتاب مصدر بمقدمة من السنيور موسوليني نفسه

المبرد

من مزايا ابن خلكان في كتابه ضبط الأسماء وقد قال:

والمبرد بضم الميم وفتح الباء الموحدة والراء المشددة وبعدها دال مهملة وهو لقب) ثم ذكر قصة (المزملة) التي أوردها (عرف به. واختلف العلماء في سبب تلقيبه بذلك ابن الجوزي في (كتاب الألقاب) وان صحت رواية في (إرشاد الأريب) وهي (لما صنف المازني كتاب الألف واللام سأل (المبرد) عن دقيقه وعويصه فأجابه بأحسن جواب، فقال له المازني: قم فأنت المبرد (بكسر الراء) أي المثبت لحق فحرفه الكوفيون وفتحوا الراء - فإن صح ذلك فقد غلب عليه اللقب المحرف على أن ابن خلكان يقول أن الذي لقبه بالمبرد (بفتح الراء) هو شيخه أبو عثمان المازني. مما يثبت قول (وفيات الأعيان) هذه الطرفة: (لقي برد الخيار المغني أبا العباس المبرد في يوم ثلج بالجسر فقال له: أنت المبرد وأنا برد الخيار واليوم كما ترى، اعبر بنا لا يهلك الناس من الفالج

(بسببنا.
أحد القراء
تركية تحي ذكرى الفيلسوف العظيم ابن سينا
نشطت اللجنة التي تألفت أخيراً برعاية جمعية التاريخ التركي وبرآسة نائب سيواس في المجلس الوطني الكبير شمس الدين وعضوية كبار العلماء المشتغلين في جمعية التاريخ التركي في اتخاذ التدابير اللازمة للاحتفال بذكرى وفاة الحكيم الفيلسوف ابن سينا، وذلك في يوم 20 يونيه القادم إذ يصادف ذلك اليوم بلوغ وفاة الفيلسوف الأشهر العام التسعمائة. وستقام هذه الحفلة الكبرى في أبهاء الجامعة التركية بعد إنجاز جميع المعدات
وتشير جريدة قورون التركية إلى هذا الاحتفال الممتاز قائلة:
إن الفيلسوف ابن سينا الذي طبقت شهرته الشرق والغرب، كان أبوه من بخارى،) وأمه من بلخ، فهو ولا ريب كان تركياً؛ بيد أنه لما كانت اللغة العربية على عهده هي لغة الثقافة في العالم الإسلامي قاطبة فقد كتب ابن سينا جميع تآليفه بالعربية باستثناء مؤلفين وضعهما
باللغة الفارسية.
أما تآليف ابن سينا فتقسم إلى ثلاثة أقسام كبيرة: الطب والفلسفة والأخلاق، ويؤلف كل من هذه الأقسام الثلاثة مجلدات ضخمة، وكتابه الموضوع في الطب باسم (القانون) قد ترجم إلى اللغة التركية ترجمه عالم تركي يدعى توقاتلي مصطفى؛ وهذه الترجمة موجودة اليوم في مكتبة بايزيد وهي مكتوبة بالخط وفي مجلدات يبلغ عددها العشرين مجلداً
وإننا لمغتبطون جداً لانصراف الهمة إلى طبع كتاب ابن سينا (القانون) طبعا جديدا لمناسبة الاحتفال بذكراه. وستنشر لجنة الحفلة مؤلفا تضمنه شخصية ابن سينا العلمية والفلسفية تشرف على تأليف طائفة من كبار العلماء المتضلعين في الطب والفلسفة (والأخلاق. وستعرض في الحفلة تآليف ابن سينا المطبوعة والمخطوطة
النقد
إسماعيل المفترى عليه
تأليف القاضي بيير كربتيس
وترجمة الأستاذ فؤاد صروف
- 2 -
ذكرنا في العدد السابق المبادئ الأساسية التي يجب أن يتقيد بها كل مترجم والتي يحكم بمقتضاها على ترجمته. واليوم ننتقل إلى الترجمة نفسها؛ ونحب قبل هذا أن نذكر للأستاذ حسنة من حسناته وهي إصلاحه خطأ مطبعياً وقع في الكتاب. ذلك أن اسم محمود باشا وزير البحرية قد حرف مرة فكتب (محمد باشا) فتدارك الأستاذ هذه الغلطة وذكر اسمه الصحيح
كذلك أصلح الأستاذ غلطة مطبعية أخرى وهي قول المؤلف عند الكلام على امتياز القناة إنه لا يحق لأحد من حملة الأسهم أن يكون له أكثر من صوت واحد فأصلح المترجم ذلك إلى عشرة أصوات كما ورد في الأصل الإنجليزي بعد سطور قلائل
وإذا رجعنا بعد ذلك إلى الكتاب المترجم لم نجد الأستاذ صروف قد وفى بالشرط الأول؛ ولسنا نريد أن نقول إن الأستاذ غير ملم بتاريخ إسماعيل وكل ما يتعلق به. كلا إنا نعتقد أنه ليس في الكتاب المصريين ولاسيما رجال الصحافة من لا يعرف تاريخ إسماعيل، ولكن الأستاذ لسبب ما لم يكلف نفسه عناء البحث عن صحة الأسماء وبخاصة الأسماء التركية فحرف بعضها تحريفاً يضل القارئ ويربكه؛ وبدل أن يرجع إلى المصادر المطولة ليحقق هذه الأسماء وضع بدلها أسماء من عنده كثير منها لا يتسمى به الأتراك.
وقد تكون هذه الأسماء للأشخاص نكرات ولكن هذا لا يعفي المترجم من البحث عنها وضبطها؛ والأتراك في مصر كثيرون ومن السهل على الأستاذ أن يعرف حقيقة الأسماء منهم إذا لم يشأ أن يرجع إلى الوثائق التي وردت فيها أو إلى كتب التاريخ نفسها؛ وبعض هذه الأسماء لرجال شغلوا أكبر مناصب الدولة ولم يكن يليق والحالة هذه أن

تحرف. والى القارئ مثل واحد من هذا النوع يدل على الفرق بين الأسماء الأصلية والأسماء التي
أوردها الأستاذ. ذكر المؤلف اسم أحد الأتراك الفارين من الاضطهاد وكتبه هكذا وبدل
أن يحقق الأستاذ هذا الاسم ليعرف أن صاحبه هو علي سعاوي أفندي، كتبه موافي
أفندي مع أن الحروف الإنجليزية أقرب ما تكون إلى الاسم التركي، وأمثلة هذا كثيرة.
كذلك لم يتقيد الأستاذ بالمصطلحات العلمية الدقيقة الصحيحة واخترع بدلها ألفاظاً من
عنده لا يقبلها الذوق فسمى الدين السائر بالدين العائم وذكر هذا اللفظ الأخير في
مواضع متعددة مع أنه قد استعمل اللفظ الصحيح الأول مرة في الترجمة ولا ندري لم
عدل عنه واستبدل به اللفظ الآخر. وسنذكر هذا كله مفصلا فيما بعد
تنتقل بعد ذلك للأمانة والدقة في الترجمة ومطابقة الكتاب المترجم للأصل فنقول إن
الأستاذ لم يكن موفقا في هذه الناحية أيضاً فلم يحرص على معاني المؤلف بل تناولها
بالحذف والتغيير بغير سبب؛ فالعبارات التي تحتاج إلى شيء من العناية لفهمها أو
التعبير عنها قد حذفها أو بدلها، وكثيرا ما وضع بدلها عبارات تؤدي عكس المعنى
المراد، بل إن كثيراً من العبارات السهلة العادية قد نالها أيضاً ما نال أخواتها الصعبة.
وسيرى القارئ فيما بعد أمثلة من ذلك.
أما أسلوب الكتاب فيختلف باختلاف أجزائه، فالجمل في بعض أجزائه مرتبطة متصلة
وفي البعض الأخر مفككة منقطعة العلاقة، وحروف العطف التي استعملها لربط هذه
الجمل لا تظهر هذه الصلة؛ ويشعر القارئ وهو يطالع الفصول الأخيرة من الكتاب بنوع
خاص أنه يقرأ جملا مترجمة منفصلة لا موضوعا تاريخياً مرتبط الأجزاء.
وأما التشبيهات والأمثال الواردة في الكتاب فقد ترجم الأستاذ الكثير منها ترجمة
لفظية سببت غموض المعنى مع أن اللغة العربية كما قلنا غنية من هذه الناحية،
ويستطيع الباحث أن يجد فيها ما يغنيه عن هذه الترجمة في معظم الأحيان. وبعضها قد
حذفه الأستاذ ولم يترجم لفظه أو معناه هذه كلمة مجملة عن الترجمة ننتقل بعدها
إلى بيان الأغلاط التي وقعت فيها. وكنا نحب أن نقسمها أنواعا ونذكر كل نوع على
حدة، ولكننا وجدنا في ذلك عناء ووجدنا وقتنا أضيق من أن يتسع إلى هذا الترتيب،
ولذلك سنذكر أغلاط كل فصل مجتمعة. وقد أحصينا أغلاط الفصول الأولى من الكتاب
فوجدناها لا تقل عن خمسين في كل فصل لا تدخل فيها عيوب الأسلوب
وسنكتفي بذكر أمثلة منها:
(1) قال الأستاذ صروف مشيراً إلى الفرمان الذي انتزعه محمد علي من السلطان أنه
(يقضي باحترام شعائر الإسلام) بنصه على أن وراثة العرش تكون لأكبر أفراد الأسرة.
وليس هذا من شعائر الإسلام في شيء ولم يقل المؤلف ذلك بل قال إنه يقضي
باحترام التقاليد الإسلامية وفرق بين التقاليد والشعائر
(2) وترجم الأستاذ بالجهل ومعناها الحقيقي الغباوة أو عدم الفطنة
(3) وترجم بقوله أنه كان يكره (كل ما هو غربي) وهذا تعميم لم يقله المؤلف بل قال
أنه يكره الحضارة الغربية
(4) وترجم عبارة برواية هزلية وإذا صح ترجمة هزلية فأين ترجمة وهي تؤدي معنى
جديدا هو الذي ينطبق على هذه المهزلة، وهل غاب عن الأستاذ لفظ مروعة أو رهيبة
أو نحوهما
(5)
اقتصر الأستاذ في ترجمة هذه العبارة كلها على قوله (ووصلا إلى القاهرة من دون أن
يدري أحد بالحقيقة) وإذا فرضنا أن عبارة من دون أن يدري أحد بالحقيقة تؤدي معنى
ما لا نسلم به فأين ترجمة مع رفيقه الصامت يريد جثة الوالي.
(6)
ترجم الأستاذ هذه العبارة بقوله: إن عباسا (أعتاد أن يسير في طريقه لا يلتفت يمنة
ولا يسرة) ولا ندري كيف يستطيع الوالي أن يسير في الطريق دون أن يلتفت يمنة ولا
يسرة. وهل هو جندي في ميدان التمرين؟ وليس في العبارة الإنجليزية من الغموض
ما يعذر الأستاذ معه على هذا الخطأ في ترجمتها بل هي سهلة لا لبس فيها ولا غموض
ومعناها (وساعده على ذلك ما عرف عن سيده من كرهه رؤية الناس إياه)
(7) ,

ترجم الأستاذ العبارة السابقة بقوله (أمر بتصويب مدافعها إلى مدينة القاهرة وكانت تحرسها حامية قوية) والمؤلف لم يقل إن حامية القلعة كانت قوية بل قال إنه (عزز حامية القلعة)
(8) - ' '
ترجم الأستاذ هذا المعنى كله بقوله (وكان الأمير إلهامي هذا ابن عباس باشا الأكبر) ولا ندري لم أغفل الأستاذ كل ما في العبارة الإنجليزية من معان لم يذكرها كاتبها عبثاً وهل صعوبة ترجمتها تبرر هذا الإغفال؟
(9)
قال الأستاذ في ترجمة ذلك (لولا الضغط السياسي الذي أعاد محافظ القاهرة إلى صوابه وأوقع الفشل في فؤاده) فهل هذا هو المعنى؟ أو أن معنى عبارة المؤلف (لولا قوة دبلوماسية (أو سياسية إذا شاء) أشعرت المحافظ الدساس خشية الله.
(10). . , ,
ترجمت هذه العبارة هكذا: وأمر أن يتسلق صاري أحد المراكب. . . ثم يقفز من الصاري إلى الماء ويسبح زمنا! فهل معنى يقفز من الصاري إلى الماء وهل معنى يسبح في الماء؟
(11) '. .
ترجمت هذه العبارة هكذا (ومنعه من زيارة أي منزل من منازل العامة) فأضاف العامة من عنده وجعل القارئ يفهم أنه كان يسمح له بزيارة منازل الخاصة. ثم أين سبب هذا المنع وهو حرص محمد علي على أخلاق سعيد؟
(12). .
لم يترجم الأستاذ أول هذه الجملة وآخرها واكتفى بترجمة وسطها وكلاهما يؤدي معنى؛ فالجزء الأول يشير إلى أن دلسبس وسعيد كانا يمرحان في مسرات الحي اللاتيني بباريس، والثاني يدل على أن برزخ السويس لم يكن قد استرعى نظره.
(13)
قال الأستاذ في ترجمة ذلك (ولبث دلسبس يترقب الفرص) ولكن أين قول المؤلف إنه لم يكن يتولى منصباً أو يقوم بعمل معين. وهل صعوبة هذه العبارة تبرر حذفها؟
(14)
كل ما ترجم به الأستاذ هذه العبارة هو قوله (لكي تصبح فرنسا سيدة البحار) وترك الجزء المهم وهو قول المؤلف (بسيطرتها على هذا الطريق المائي ذي المركز الحربي الخطير)
(15) , -
اقتصر في ترجمة العبارة السابقة على قوله (كانت غايته المباشرة أن. .) وترك الصفات التي وصف بها المؤلف هذه الغاية؟
(16)
قال الأستاذ صروف في ترجمة هذه العبارة وخيل إلي وأنا أنظر إلى السماء أنني أرى قوس قزح ذات جمال باهر.
فهل خيل إليه أنه رأى قوس قزح أو أنه رأى قوس قزح حقا؟ وأين هذه العبارة العربية من عبارة المؤلف المنقولة عن دلسبس نفسه والتي يقول فيها (ثم ظهرت على حين غفلة ندأة في السماء امتدت من الشرق إلى الغرب وكانت ذات جمال خلاب افتتن به ناظري) وكل ما وصف به دلسبس هذه الحادثة في حاجة إلى أسلوب غير الأسلوب الذي ترجمه به الأستاذ صروف.
(17) وصف المؤلف موقف محمد علي من قناة السويس والتجارة الأوربية الهندية بقوله:
-
أي أنه لم يكن من أولئك الذين لا يفعلون الخير ويمنعون غيرهم من فعله وقد ترك الأستاذ العبارة من غير أن يحاول ترجمتها
(18)
قال الأستاذ صروف في ترجمة هذه الجملة (ومرت بمخيلتي صورة ترعة السويس بسرعة البرق) ومعنى العبارة بالضبط (وأخذت أفكاري وأبحاثي عن قناة السويس تمر

بخاطري سراعا)
(19)
عرب الأستاذ بسرقسطة فنقلها بذلك مكان
(20)
قال في ترجمتها وذهب الأستاذ هلبرج مذهبا يتفق وما ذهب إليه القاضي الهولندي)
فأين هذا من عبارة المؤلف التي يقول فيها (إنه يتفق في (الذي تقدمت الإشارة إليه
الرأي مع القاضي المستقيل والأمير المخلوع) ويقصد بالأمير المخلوع سمو الخديو
السابق
(21)
تركها الأستاذ من غير ترجمة
(22) '
ترجمت هذه العبارة هكذا (إنه كان أزهد الناس في العالم). فهل هذا هو معنى العبارة
الفرنسية. أترك الجواب عن ذلك إلى الأستاذ الكبير صاحب الرسالة.
(23)
لم يحاول الأستاذ صروف ترجمة هذه العبارة على سهولتها ووضوح معناها الذي لم
تسبق الإشارة إليه في الكتاب
(24)
ترجم الأستاذ هذه العبارة بقوله (فالحكم عليه يجب أن يكون مع مراعاة هذا الاعتبار)
والمؤلف يقول إن الحكم عليه يحتاج إلى موازين أخرى (غير الموازين التي توزن بها
أعمال دلسبس) فأيهما أوضح؟
(25) , , ,
لم نعثر في الكتاب على ترجمة هذه العبارة فهل هي خالية من المعنى أو أن معناها لا
يستحق الترجمة؟
(26) زاد الأستاذ من عنده على عبارة (وأن رئيس دولة يمنح أحد رعاياه امتيازاً)
المؤلف قوله (أحد رعاياه) وهي زيادة لا مبرر لها أفسدت المعنى ولا ندري ما الذي
دعا الأستاذ إليها وهو الذي حذف من عبارات المؤلف ما حذف
(27)
هل معنى هذه العبارة هو (ويسيء إلى ذكراه بنفسه) كما قال الأستاذ صروف أو أن
معناها هو (ويكشف عن خبيئة أخلاقه) قد يقول الأستاذ صروف إن هذه العبارة هي وما
قبلها (يقضي على طيب أحدوثته) ترجمة لقول المؤلف
وفي هذه الحال يكون قد ترك العبارة الثانية من غير ترجمة
(28)
لم يزد الأستاذ في ترجمة هذه العبارة على قوله (اليوم الذي سبقت الإشارة إليه) فهل
هذه
العبارة الغامضة تؤدي معنى عبارة المؤلف
(29)
لم ير الأستاذ أن هذا المعنى يستحق الترجمة فتركه
هذه طائفة من أغلاط الفصل الأول من كتاب إسماعيل ذكرناها على سبيل المثل
نضعها أمام القراء حتى لا يخفى عليهم ما كتبه المؤلف نفسه؛ ونقول بعد ذلك إنصافاً
للأستاذ صروف أن أسلوب هذا الفصل ليس فيه من التعقيد ما في الفصول الأخيرة
وسنذكر في العدد التالي أغلاط الفصل الثاني إن شاء الله
الغنيمي
الكتب
الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية (1)
تأليف الأستاذ محمد عبد الله عنان
من حديث الشرق والغرب (2)
تأليف الدكتور محمد عوض
للأستاذ محمود الخفيف
هما كتابان، أشعر بكثير من الغبطة إذ أقدمهما للقراء على صفحات الرسالة، ذلك لأني

أرى في كليهما مظهراً من مظاهر الحركة الفكرية الحديثة في مصر، جديراً بالاعتبار والعناية.

أما أولهما فأثر جديد من آثار الأستاذ عنان، والأستاذ عنان كما أعتقد، قد أصبح بآثاره وبحوثه ناحية مستقلة في نهضة التأليف المعاصرة، ذلك أن آثاره تمتاز جميعاً بما تمتاز به الآثار العلمية القيمة، من دقة البحث، مع استقامة النهج ووضوح الغاية، وقوة الأسلوب؛ هذا إلى أصالة وسلامة منطق وبسطة في العلم، تظهر كلها واضحة في تمحيص الروايات المختلفة فيما يعرض الأستاذ من حوادث وفيما يسرد من وجوه الرأي.

عرفنا له تلك الخلال فيما سلف من آثاره، وإنا لنراها اليوم على خير ما يرجى من كتابه هذا، فهو يدور حول موضوع كان ولازال مثار الجدل الشديد ومبعث التناقض والاضطراب؛ ومن ثم فهو موضوع تظهر فيه مدى قوة المؤلف ونشاط ذهنه، وحسبك الحاكم بأمر الله وحوادث عصره، وما اكتنف شخصه من غموض وخفاء.

على أن الكتاب لا يدور كله على الحاكم، بل إن نصيب الحاكم منه لا يزيد على نصفه بكثير. ولقد أحسن الأستاذ صنعا، إذ جعل بقية الكتاب لدراسة أسرار الدعوة الفاطمية وخواص العصر الفاطمي، هذا إلى ما أورده الأستاذ في نهاية كتابه من الوثائق والسجلات الفاطمية.

مهد الأستاذ عنان لبحثه بمقدمة موجزة متينة عن حال مصر قبيل الفتح الفاطمي، ثم بكلمة عن نشأة تلك الدولة في مهدها، وذكر بعد ذلك فتح مصر وأورد طرفاً من سيرتي المعز

والعزيز، كل ذلك في إحكام المؤرخ المتمكن الذي يستطيع على رغم الإيجاز أن يمهد السبيل لموضوعه خير تمهيد.

تناول الأستاذ بعد ذلك سيرة الحاكم، وشرح في جزالة ووضوح خلاله وصفاته وما لجأ إليه من سفك الدماء وما أقام من مراسيم اجتماعية ودينية، وما اكتنف الدولة من الأحداث الخارجية، ثم ما كان من أمر اختفائه، ويعجبك منه في هذا القسم من كتابه مهارة مناقشته الروايات المختلفة ودقة التعليق عليها، تتبين ذلك في مثل شرحه لنسب الحاكم وأخته ست الملك، ثم فيما أورد من روايات عن صفاته ومزاجه وأخيرا في حادث اختفائه.

على أن أهم الأشياء عندي في الكتاب وأولاها بالدرس والاعتبار، هو رأي الأستاذ المؤلف في الحاكم وصفاته، وهو رأي لم يسبقه إليه غيره فيما أعرف، فالأستاذ لا يرى في الحاكم ما اعتاد المؤرخون أن يروا فيه من رجل معتوه أخرق، يبطش لمجرد البطش، ويصدر من الأحكام الغريبة ما يدل على شذوذ وحمق. بل إنه على العكس يراه مصلحاً من كبار المصلحين، كانت أعماله التي اعتاد الناس استنكارها وسائله إلى ما يتوخى من إصلاح لا أكثر من ذلك ولا أقل: نعم كان الحاكم عنده (ذهناً بعيد الغور، وافر الابتكار، وكان عقلية تسمو على مجتمعها وتتقدم عصرها بمراحل، وكان بالاختصار عبقرية يجب أن تتبوأ في التاريخ مكانها الحق)

والأستاذ لا يرسل القول جزافاً، وكيف يقع لمن كانت له مثل متانة حجته وحصافة رأيه أن يجازف برأي؟ وإنما راح الأستاذ يدافع عن رأيه هذا دفاعا قوياً يبهرك ويستميلك. أليس القتل والطغيان هما من أقوى وسائل الديكتاوريات الحديثة في إقامة نظمها؟ ثم أليست سياسة الحاكم هي السياسة الميكيافيلية التي قد يلجأ إليها كثير من الحكومات في شتى الظروف؟ أليس الحد من حرية النساء مما تلجأ إليه اليوم ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشستية من وسائل محاربة الخلاعة والفجور اللذين يؤديان إلى انحلال المجتمع؟ إلى غير ذلك من حجج الأستاذ وآرائه النيرة الظريفة التي تشوقك وتلذك. والأستاذ لا يبرر بها مسلك الحاكم كما استدرك، ولكنه يدفع بها ما اتهم به.

بيد أني وإن أعجبتني تلك الآراء واستمالتني في كثير من المواقف، قد أحسست شيئاً من الصعوبة في أن أحمل نفسي على الأخذ ببعضها. نعم رأيت مشقة في أن أنفي الشذوذ بل

الجنون عن شخص يحرم الجرجير لأنه ينسب إلى السيدة عائشة، والملوخية من أجل معاوية، والمتوكلية من أجل الخليفة المتوكل العباسي؟ وكيف أسيغ تشجيعه الدعوة الإلحادية؟ وعلى أي أساس من العقل أحمل قتله قائده الفضل بعد أن هزم أبا ركوة

الذي احتل مصر؟ بل كيف يجوز في عقل خروجه ليلا إلى الجبل على ظهر حماره في غير قوة تحميه على الرغم مما كان يضطرم به المجتمع يومئذ من الرغبة في الانتقاض عليه والتخلص من طغيانه.

على أن الأستاذ يصرح في نزاهة المؤرخ وإنصافه (أنه ليس يدعي أنه يستطيع أن يعلل كل قوانين الحاكم وإجراءاته وتصرفاته أو أن ينفذ إلى بواعثها وحكمتها جميعاً، فهناك كثير منها مما لا يستطاع فهمه وتعليله)

وقصارى في هذا المجال الضيق أن أعلن إعجابي بهذا الكتاب، وأن أنوه بما أفدته من دراسة أسرار الدعوة الفاطمية ونواحي العصر الفاطمي، ذلك العصر الفذ الذي تجد من آثاره الأزهر المعمور - دراسة لم أظفر بمثلها فيما كتب حديثاً عن الدولة الفاطمية. وكم كان عظيما من الأستاذ عنان ذلك الجهد المرير الذي تستبينه فيما يشير إليه من مراجع مكتوبة وخطية ليس ثمة من يستوعبها إلا من كان له مثل جلده ودأبه وإخلاصه. ولا عجب أن جاء كتابه مظهراً من مظاهر الجد والقوة في نهضتنا الأدبية. وهو مطبوع طبعاً جميلا في دار النشر الحديث ويقع في مائتين وست وسبعين صفحة من القطع الكبير، بآخره ثبت حافل للمصادر، وفهرس أبجدي عام

- 2 -

يأتي بعد ذلك الكتاب الثاني (من حديث الشرق والغرب) للدكتور عوض، وأحب أن أتخطى الكتاب إلى صاحبه برهة فأعرض عليك طرفاً من خلاله، لا أرى مندوحة عن عرضه في مثل ذلك المقام. الدكتور المؤلف بما له من مكانة في حياتنا الأدبية غني عن التعريف، ولكني أذكر لمن لم يعرفه إلا في آثاره أن من أبرز صفاته الذكاء الحاد وعذوبة الروح ومحبة الأدب حباً صادقاً، حتى لو أنه حاول بكل ما في وسعه أن يهجر الأدب لما استطاع ذلك الهجران؛ محدث ماهر طلي الحديث، يميل إلى الفكاهة ولكنها الفكاهة التي يتخللها الجد المرير في غالب المواقف؛ يحب قومه وبلاده حباً مؤكداً؛ مثقف من الطراز الأول في الأدبين العربي والغربي

ذكرت من خلاله ما ذكرت لأمر يعنيني الساعة، ذلك أن كتابه الذي أقدمه لك صورة صادقة من شخصه، وذلك لعمري خير ما يوصف به كتاب لصاحبه مثل هاتيك الخلال. ولا جرم أن الصدق في الآثار الأدبية أكبر عامل في نفاذها إلى القلوب ودوامها على الأيام، وإنك لتجد الصدق في هذا الكتاب في مقدمة فضائله

وبعد فما موضوع هذا الكتاب؟ أهو سلسلة مقالات في شتى الفنون؟ كلا فلست تجد فيه ما تجد غالباً في المقالات من غلظة وثقل يتقاضيانك كد ذهنك والتحامل على نفسك. إذا فهل هو قصة أو مجموعة من الأقاصيص؟ كلا ليس هو من ذلك الفن من فنون الأدب وإن كنت تحس روح القصة وتتمثل شبحها في كثير من مواضعه. ليس الكتاب من أدب المقالة وإن كان موضوعات متفرقة، ولا هو من القصة وإن كان للكثير من موضوعاته شبحها، وإنما هو (حديث) نعم هو (أساطير وخاطرات خطرت ملكت على الفكر سبله فلم يستطع تشريدها أو الفرار منها)

ينتظم هذا الكتاب ما جاشت به نفس صاحبه من معان وخطرات، فإذا عدت إلى ما سردت عليك من خلاله، أمكنك أن تدرك موضوع الكتاب جملة وتلمح شيئا من روحه.

ذكرني هذا الكتاب الطريف الفذ، بآثار الأديبين الإنجليزيين الكبيرين (اديسون) وصاحبه (ستيل). عمد هذا الكاتبان في كثير مما كتبا في مستهل القرن الثامن عشر إلى نقد بعض أحوال المجتمع ودراسة بعض الأشخاص، بطريقة لطيفة هادئة، لا ترى فيها أثرا للهجوم اللاذع ولا التجريح القاسي البغيض، بل ترى الرفق واللين اللذين يفعلان ما لا يستطيع العنف أن يفعل، كل ذلك في خفة روح ورقة دعابة وروعة تصوير

وأنت ترى ذلك واضحا في كتاب الدكتور عوض، وإني أقرر هنا أنه ما قصر به فنه عن فنهما، ولا نزل به أسلوبه عن مستواهما؛ بل لست أغلو أن ذكرت أن بعض قطع عوض قد فاقت عندي بعضا مما قرأت لهما. خذ لذلك مثلا (في طريق البغال) و (الثور في مستودع الخزف) و (معهد الطفيليات)

اقرأ تلك وأمثالها، فلا يسعك إلا أن تسلم معي أنه يحق لأدبنا العصري أن يفخر بها. ثم اقرأ تلك القطعة: (الكائن الممسوخ) وانظر كيف كان الدكتور ماهرا مهارة يستحق عليها

كل ثناء وتقريظ في معالجة هذا الداء الوبيل، داء الاهتمام بكل ما هو غربي في رفق وقوة معا. لقد أعجبتني تلك القطعة بنوع خاص، وأني أدعو شبابنا إلى قراءتها وأستحثهم على ذلك
الكتاب كله كما قدمت صورة من نفس صاحبه، فسواء استمعت إلى الدكتور أو قرأت له، فستجد الأمر سواء. فستظفر بعذوبة روحه في فكاهاته البارعة، وخطرات نفسه في تهكمه الرقيق العميق، كما ستلمس سموه فيما يتوخى من غرض وما يحرص على بلوغه من غاية. هذا وتحملني صراحة الدكتور أن أذكر له قطعتين لم أسغهما كما كنت أحب، هما (عاصفة في قدح) و (عقد من اليشب). ذلك أني لم أجد محلا للملكين في القطعة الأولى، ولا انسجاما في الزمن في القطعة الثانية. ولقد أذكر أيضا أني لم أفهم ما الذي أحال العسل خلا في قطعة (ثم أرادت أن تجعل منه رجلا) فجعل الزوج بغيضا في عين زوجته
وإني لأحس أن أدب الدكتور أعز علي من أن أمر على بعض هنات سقطت إلى أسلوبه دون أن أشير إليها، ذلك أنه يضع في كلامه عبارات معروفة تظهر نابيه حين يوردها في غير مواضع المزاح كقوله (أذن مؤذن الطعام) ثم كنت أعثر على بعض الأخيلة التي لم أسغها، كقوله: (الهواء مغرب في الضحك) و (سنديان الشقاء) و (مطرقة البلاء) و (شمر عن ساعد الفلسفة) وأمثالها.
على أن هذه كما ذكرت هنات ما أشرت إليها إلا لأني رأيتها غريبة وسط هذا الأسلوب المشرق البديع، في هذا الكتاب الذي أحببته وأكبرته، وأعتقد أن القراء سيحبونه مثل ما أحببت، ويكبرونه مثل ما أكبرت.
(الخفيف)
العَالم المسرحيّ والسِّينمائِي
اليتيمة
على مسرح الأوبرا الملكية
إخراج الفرقة القومية المصرية
استأنفت الفرقة القومية موسمها الثاني ابتداء من مساء الأحد الماضي 18 أبريل الجاري، مفتتحة هذا الشطر من الموسم بمسرحية محلية هي (اليتيمة) من وضع الأديب السعيد يوسف موسى
وقد عالج المؤلف في مسرحيته ناحية من نواحي النقص الاجتماعي في البيئة المصرية، إذ جعل من بطل الرواية وبطلتها ضحيتين للتقاليد القديمة الموروثة المتسلسلة في دماء الطبقة العليا في الشعب، الذين لا يزالون يستمسكون بمعتقداتهم في أن الله جعل الناس طبقات في الغنى والجاه والحسب والنسب، وليس في العلم والفضل والقيمة الاجتماعية، ولا يعترفون بعاطفة إلا ما وافق منها تلك العادات البالية.
لهذا نرى صبري باشا يقف حائلا شديد الكثافة بين ولده ووحيده ثابت الطالب الذي يدرس الاقتصاد السياسي في فرنسا وبين ابنة ناظر زراعته المتوفى (أمينة) على الرغم من أنها نشأت في بيت الباشا نفسه وتعلمت وتثقفت كابنته، وعلى الرغم من تعلق ولده بها وولع كل منهما بصاحبه وتعاهدهما على الوفاء والزواج
لا يعبأ الباشا بهذه الاعتبارات، فينتهز فرصة عودة ابنه إلى فرنسا لإتمام دراسته، ثم يرغم حبيبة ابنه على الزواج من أحمد أفندي ناظر زراعته الذي حل محل أبيها ولما كان هذا الزواج بإكراه وإرغام، فقد اعترى الفتاة يأس وأصابها غم، فاستحال بيت الزوجية جحيما، وانقلب نعمى ذلك البيت الوادع بؤسا وشقاء، واستمر الخصام بينها وبين زوجها واتصلت أسباب التشاحن والتغاضب حتى كره الزوج حياته وكره نفسه.
وفي صباح يوم نشبت بينهما مغاضبة اشتركت فيها (أم أحمد) وجعلت تعير الفتاة وتهجوها وتقول إن الناس يتقولون على بيتهم منذ دخلته إذ يزعمون إنها ما زوجت من ناظر الزراعة إلا لأن ابن مخدومه عبث بها ولوث شرفها وفوجئت الفتاة بهذا الاتهام فدهشت له
وأدركها الحزن واليأس.
وجاء الباشا يعلن أن ابنه عاد من باريس وأنه قادم إلى هذا البيت ليرى (أمينة) وهو لا يعلم أنها تزوجت من أحمد أفندي

ويفزع الزوج لهذا الخبر ويجزع من رؤية هذا اللقاء، فيستعفي الباشا ويذهب إلى الدائرة ويأخذ الباشا في تهدئة الفتاة التي تشكو إليه ظلمها وتتضرع إليه أن يعفيها من هذا العذاب

وبينما هما في ذلك إذ يدخل (ثابت) فتهرع إليه الفتاة وتتعلق بعنقه ويكون بينهما لقاء تطرب له قلوب العشاق وتنفطر له مرائر الأزواج الذين يكرهون على مثل هذه الزوجية، ويطول بينهما العناق وتستمر شكواهما حتى يقول الفتى: أحبك إلى الأبد . .فيقول الباشا: حتى ولو كانت متزوجة؟

وينزل الخبر على الفتى نزول الصاعقة ويموت رجاؤه وينفصل عن الفتاة، فترجوه وتبثه آلامها وتقول إنها أرغمت وأكرهت على هذا الزواج، ولكنه يقول إنها لوثت ودنست بالزواج فهو لذلك يتركها ويدفن أماله فيها.

وحين تيأس الفتاة منه تلقي بنفسها من النافذة وتنتهي القصة

وإلى هنا نجد أن المؤلف عالج الموضوع أوفى علاج وكشف عن مستور هذه العلة وبين سوء أثرها في المجتمع موفقا في ذلك أعظم توفيق، ولذلك نعتقد أن الفرقة أنصفت حين اختارت هذه المسرحية وأخرجتها.

أما إخراج الرواية فقد تولاه مخرج الفرقة الأستاذ عزيز عيد وليست لنا ملاحظات على إخراج هذه المسرحية إلا أنه في الفصل الثاني حين استيقظت (أمينة وثابت) وهما في بيت أحمد أفندي ثم جاء الناظر وأمه طلب هذا إلى والدته أن تجيئهم بطعام الإفطار فخرجت لهذا الغرض، ولكنهم لم يذكروا شيئا عن ذلك فيما بعد ولم يحضر الطعام.

وقد أدى (أحمد علام) والسيدة زوزو حمدي الحكيم دوري البطولة في هذه الرواية وبذلا فيه جهدا جبارا كان عاملا كبيرا في نجاح الرواية إلى أبعد الحدود وفي آخر فصل من الرواية أظهرت (زوزو) منتهى ما تصل إليه عبقرية الممثلة

وكان جميع الممثلين يعرفون أدوارهم ويفهمونها تمام المعرفة والفهم، فظهروا بمظهر الإتقان البالغ الذي يستحقون عليه التهنئة الحارة الصادقة.

الحل الأخير

إخراج أستوديو مصر

لم يكن أصحاب شركات السينما الناشئة في مصر يعنون في الروايات التي يخرجونها بالموضوع والمغزى. ولعلهم لا يرون الموضوع عنصراً مهماً في روايات السينما. وبحسبهم العناية بالمناظر والإخراج، وأن يكون الممثلون من الشخصيات المعروفة. فكانت رواياتهم خالية من المغزى أو هي ذات مغزى تافه، وكان ذلك من أهم المآخذ التي تؤخذ عليهم

نذكر هذا أمام التحدث عن رواية الحل الأخير التي عرضت بسينما رويال، وهي الرواية الثانية لاستديو مصر، وهي من الروايات المصرية القليلة التي تتضمن مغزى وتدور حول فكرة، وموضوعها من صميم الحياة. يسرد المؤلف حوادثها في تسلسل طبيعي حتى ينتهي إلى المغزى الاجتماعي الذي يرمي إليه؛ والمخرج صور هذه الحوادث على طبيعتها من غير تهويل ولا خروج عن الحقيقة. وقد فهم الممثلون ما يرمي إليه المؤلف فقاموا بأدوارهم كأنهم أبطالها الحقيقيون لا ممثلون على الشاشة البيضاء، فتم بذلك التعاون بين التأليف والإخراج والتمثيل على تصوير الغرض وإبراز الحقيقة

ولم يجر المؤلف في هذه الرواية على عادة كثير من المؤلفين في وضع الأدوار والمواقف لتناسب أشخاصا معينين، بل وضع روايته كما يقتضي انسجام الحوادث، ثم اختار لها الممثلين الموافقين فجاءت منسجمة متماسكة. وعمل المخرج على إبراز هذه الحقيقة فوجه عنايته إلى تنسيق المشاهد تنسيقا طبيعيا أكسبها روعة وجلالا، وتجنب المواقف المصطنعة أو المناظر المستفزة للمشاعر

وتعد هذه الرواية بحق مثلا يحتذى في روايات السينما المصرية وتدل على اتجاه أستوديو مصر إلى الإتقان في صناعة السينما، وقد تنبه إلى أهم عنصر من عناصر النجاح في الروايات، وهو الموضوع والمغزى، فإنه الأثر الذي تتركه الرواية في نفوس الجمهور؛ والحوادث التي لا تخرج عن مجال الحقيقة الرائعة إلى التهويل والمبالغة تشعر الجمهور بروعة الحياة الطبيعية التي يعيش فيها إحساسه وفكره

فلعل المتصدين لصناعة السينما يلتفتون إلى هذه الحقائق ويعملون بها، متجهين إلى الفن في ذاته، نابذين غير ذلك من الوسائل التي لا تغني ولا تجدي
(ع)
العدد 200 - بتاريخ: 03 - 05 - 1937
إلى الشباب
حول الديمقراطية أيضاً
لأستاذ كبير
لست أدري والله أي يومي (الرسالة) أمجد وأعلى، أهو الأمس وقد قصدت إلى عالي الأدب تنشره. وسامي المثل تضربه؟ أم هو اليوم وقد ضمت إلى ذلك مناجاتها لشباب البلاد وتوجهها إليهم لتحاورهم فيما يمس حياتهم، ولتلتمس معهم سبيل الهداية إلى ما هو أحرى بالقصد وأجدى على الوطن؟
ولقد أصاب مقالها الأخير في الديمقراطية مكاناً من النفس هز أوتارها، فإننا في أول عهدنا بحكم أنفسنا كما تقول وقد تشعبت أمامنا السبل ونشطت الآمال من عقالها؛ ولابد لنا من أن نسترشد في هذا العصر بالعقل الرزين والمنطق المتين، كما لابد لها أن نستلهم الشرف والوطنية، وأن ننأى عن كل مضنات الخطأ أو الإسفاف. وليس أحق من الرسالة بأن تلج هذه المعاني وتعالجها معالجة صريحة قويمة؛ وليس أحق من شباب البلاد بأن يرمي في هذا الحوار بسهمه ويدلي بدلوه، فإن المستقبل للشباب، ومصير البلاد آيل إليهم بعد حين؛ وما يكون اليوم خطأ يكون عليهم في المستقبل حملاً ثقيلاً، بل ربما يكون في سبيلهم عقبة لا يطيقونها ولا يقومون على تذليلها إلا بتضحيات ومشقات. فإذا نحن قلنا إن مصلحة البلاد في توخي هذه السبيل أو تلك فإن الشباب أول من يعنيه هذا القول، وينبغي لهم أن يكونوا أول المصريين اهتماماً للبحث وسعياً وراء المصلحة، لأنهم الذين سيجنون ثمار الخير إن كان خير، أو يحملون أوزار الخطأ إن كان لا قدر الله خطأ.
ولقد ثارت في الأيام الأخيرة كلمة في صحيفة من الصحف، ثم تبعتها كلمة أخرى في صحيفة أخرى، تناول فيها كاتباها موضوع الديمقراطية؛ وهاهي الرسالة تردد المعنى نفسه وتبحث فيه على أسلوبها ونبالة مراميها. وهذا الترديد في نفسه عظيم الدلالة، لأنه يدل على إن في النفوس معنى تحاول أن تستجليه، وذلك المعنى طبيعي لمن كان في عصرنا هذا يعيش بين تيارات مختلفة في مشارق الأرض ومغاربها؛ فبعض البلاد قد أتجه وجهة يسمونها الفاشية أو الدكتاتورية، ويحاول أنصارها أن يدعو لها ويمهدوا لحكمها بكل ما استطاعوا من وسائل الدعاية، ويدعمون حجتهم بأمرين: الأمر الأول إن تلك البلاد تهددها
أخطار جمة من جميع النواحي، فلا قبل لها بمقابلة تلك الأخطار إلا بجمع الشمل وضم الصفوف واتحاد الأفراد تحت إرادة واحدة لا يشذ عنها أحد. والأمر الثاني إن الطغاة القائمين على تلك الدول قد أصلحوا مرافق البلاد وزادوا في مجدها وقوتها ورفعوا شأنها بين بلاد العالم
ولسنا في صدد مناقشة هذه الحجج، ولا نريد أن نبين ما فيها من وجوه المغالطة والمداورة. وحسبنا أن نكرر هنا تلك الكلمة البديعة التي جاءت في افتتاحية العدد الأخير من الرسالة: (أنا أفهم إن المرء يقهر فيخضع، ويؤسر فيسترق، لأن الأمر في ذلك لا يخرج عن قانون الطبيعة من تغلب الأقوى وسيادة الأصلح، ولكني لا أستطيع أن أفهم كيف يستأسر شعب بأسره لواحد منه فيلقي بزمامه إليه، ويعول في جميع أموره عليه، والشعب مهما صغر لا يقل عن شعب، والفرد مهما كبر لا يزيد على فرد)؟
ولعل مصر أبعد بلاد العالم عن فكرة الطغيان ولعل شعب مصر أشد شعوب العالم كرهاً لحكومات الطغاة. ولقد جربت تلك المحاولة مرات في مصر الحديثة، وجربتها من قبل دول فلم تدم تجربتها طويلاً على أساس ثابت. وجربها ساسة فأسفرت تجربتهم عن فشل، وعادوا من التجربة بصفحة شوهاء؛ ولم يفوزوا بما أرادوا من ثبات الحكم بل ضاعت مجهوداتهم في مناضلة روح الشعب الثائرة، ولم يستطيعوا التفرغ لإصلاح ولا لتجديد. وحسب البلاد أنها عرفت إن مآل الطغيان إلى الانهيار، فلا نحسب أحداً يحدث نفسه بتجربة أخرى في ذلك السبيل، ولا نظن أحداً يجرؤ على الدعوة إليها صراحة، لأن الشعب كله يشعر بأن ذلك جرم اجتماعي لا ينبغي له أن يتسامح فيه.

فلذلك لا نرى ثمة حاجة تدعو إلى التعرض لفكرة الدكتاتورية بالنقد أو الهدم إذ قد كفانا الماضي شرها فهدمها في عقائد الشعب وأظهرها له في ابشع صورها وأشنع آثارها

ولكنا مع ذلك نحمد للرسالة الغراء أنها هتفت بذلك الاسم الحبيب إلى النفس وهو (الديمقراطية) لأن الشباب جدير بأن يجعلها قبلته وشعاره. فإن الشعب الذي يحترم نفسه لا يتسامح في أمر حكم نفسه، بل يصر على أن يكون مرجع كل أموره إلى إرادته، ويصر على أن يكون رأي الفرد وإرادة الفرد ومجهود الفرد وحرية الفرد أساساً ثابتاً للمجتمع لا يحد من ذلك كله إلا حد الدستور وحد القانون

ولكن الحكم الديمقراطي لا يكون حقيقياً إلا إذا كان متغلغلاً في كل نواحي الحياة غير مقصور على حكومة الدولة. فجدير بنا في هذا العهد أن نتجه إلى شبابنا نناشده أن يقيم كل حياته في مجتمعاته ومشروعاته على ذلك الأساس الحر الديمقراطي فيكون في مدارسه وفي جمعياته وفي نواديه صادراً عن عقيدة ثابتة في أن الفرد الكامل الحر هو الوحدة الصالحة للمجتمع الصالح الحر. وإن المجتمع الذي يقنع بأن يسير وراء إرادة فرد سيراً أعمى لا عن عقيدة بل عن خمول واستخذاء لن يكون مجتمعاً جديراً بالحياة.

(مصري)

-

ندرة البطولة

للأستاذ أحمد أمين

قالوا - إنا نتلفت يمنة ويسرة فلا نجد في عصرنا بطولة من جنس بطولة العصور الماضية، ولا نجد نبوغا رائعاً قوياً كنبوغ من نبغ في الأجيال السابقة. فتش - إذا شئت - في كل لون من ألوان البطولة، وفي كل ناحية من نواحي النبوغ تجد هذه الحقيقة واضحة

فهل تجد في الشعر أمثال بشار وأبي نواس وابن الرومي وابن المعتز وأبي العلاء؟

وهل تجد في النثر أمثال ابن المقفع والجاحظ وسهل بن هارون وعمر بن مسعدة؟

وهل تجد في قيادة الحروب أمثال خالد بن الوليد وأبي عبيدة؟

وهل تجد في سياسة الأمم أمثال عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز؟

وهل تجد في الغناء أمثال اسحق الموصلي وإبراهيم بن المهدي؟

وهل تجد مؤلفاً في الأغاني كأبي الفرج الأصفهاني؟

وما لنا نذهب بعيداً ويوم فقدنا السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده لم نجد عوضاً عنهما في العلم بالدين والأخلاق والسياسة؟

ويوم فقدنا البارودي وحافظاً وشوقي لم نجد لهم خلفاً في شعرائنا

ويوم فقدنا عبده الحمولي ومحمد عثمان نتبلغ من الغناء بالقليل

ويوم فقدنا الشيخ علي يوسف لم نر من يسد مسده في الصحافة

ومن الغريب أنهم يشكون في أوروبا شكايتنا، ويلاحظون عندهم ملاحظتنا، فيقولون أن ليس عندهم في حاضرهم أمثال فجنر وبيتهوفن، ولا أمثال شكسبير وجوته، ولا أمثال رفائيل ولا أمثال دارون وسبنسر، ولا أمثال نابليون وبسمارك

فهل هذه ظاهرة صحيحة؟ وإن كانت فما سببها؟

قد كانت كل الظواهر تدل على إن الجيل الحاضر أحسن استعداداً وأكثر ملائمة لكثرة النبوغ وازدياد البطولة، فقد كثر العلم وسهل التعلم، ومهدت كل الوسائل للتربية والتثقيف، وكثر عدد المتعلمين في كل أمة، وفتح المجال أمام النساء كما فتح أمام الرجال، فأصبحت وسائل النبوغ ممهدة للجنسين على السواء، وتقطر العلم إلى العامة فأصبحوا يشاطرون العلماء بعض معلوماتهم، وانتشرت الصحف والمجلات تغذي جمهور الناس بالعلم والأدب،

وأتصل العالم بعضه ببعض اتصالاً وثيقاً في المواصلات والعلم والسياسة والاقتصاد وما إلى ذلك

كل هذا يجب أن يكون إرهاصاً لكثرة النبوغ والتفنن في البطولة، لا لقلة النبوغ وندرة البطولة؛ فلم أصيبت الأمم كلها بهذا العقم وكان مقتضى الظاهر أن كثرة المواليد تزيد في كثرة النابغين، وكان مقتضى الظاهر أيضاً أن عصر النور يلد من الأشخاص

الممتازين أكثر مما يلد عصر الظلام
يظهر مع الأسف - إن الظاهرة صحيحة وإن الجيل الحاضر في الأمم المختلفة لا يلد كثيرا من النوابغ، ولا ينتج كثيراً من الأبطال، وأن طابع هذه العصور هو (طابع المألوف والمعتاد) لا (طابع النابغة والبطل)
بقي علينا معرفة السبب في ذلك
من الأسباب القوية على ما يظهر أن الناس علا مثلهم الأعلى في النابغة والبطل، فلا يسمون بطلاً أو نابغة إلا من حاز صفات كثيرة ممتازة قل أن تتحقق؛ وهذا طبيعي، فكلما رقى الناس ارتقى مثلهم الأعلى
قد كنا إلى عهد قريب نعد من يقرأ ويكتب، وبعبارة أخرى (من يفك الخط) رجلاً ممتازاً لأنه نادر وقليل، فكان ينظر إليه نظرة تجلةً واحترام؛ فلما كثر التعليم بعض الشيء كان من أخذ الشهادة الابتدائية شاباً ممتازاً؛ فلما كثرت انتقل الامتياز إلى البكالوريا، ثم إلى الشهادة العليا، ثم إلى شهادات جامعات أوروبا، ثم أصبحت هذه أيضاً ليست محل امتياز، وارتفعت درجة النبوغ إلى شيء وراء هذا كله
والناس - على جملة - استنارت أذهانهم إلى حد بعيد، واكتشفوا سر العظمة، فأصبحت العظمة المعتادة لا تروعهم، إنما يروعهم الخارق للعادة، وأين هو تحت هذه الأنوار الكشافة؟
ثم شعر الناس بعظمتهم هم أيضاً وبشخصيتهم؛ والبطولة تأتي - في الغالب - عندما يسلس الناس زمام نفوسهم للبطل، فهم بطاعتهم له واستسلامهم لأمره وإشارته يزيدون في عظمته، ويغذون بطولته - فإن كانوا هم أيضاً يشعرون بعظمة أنفسهم قلت طاعتهم وقل تبجيلهم وخضوعهم لكائن من كان، وبذلك لا يفسحون للبطل بطولته فلا يكون. فلو وجد اليوم
شخص في أخلاق نابليون وصفاته ومميزاته ما حققوه في عصرنا، ولا كان إلا رجلاً عادياً أو ممتازاً بعض الامتياز؛ فأما أن تطيعه الخلائق هذه الطاعة العمياء وتبيع نفوسها رخيصة في سبيل مجده، وتسفك دماءها أنهاراً لتحقيق عظمته، فذلك ما لا يكون اليوم كما كان بالأمس
قد تضرب لي اليوم مثلاً بموسوليني ومصطفى كمال وهتلر، ولكن الفرق عظيم جداً، فهؤلاء يؤثرون في شعوبهم من ناحية أنهم خدام للشعوب لا سادة لهم، وأن الشعب إذا عظمهم فلأنهم يخدمونه، ويوم يثبت له أنهم لا يعملون لخيره ينفضون يدهم عنه. فأين هذا من الطاعة العمياء التي كانت لنابليون؟ ولهذا نرى كلاً من هؤلاء يتملق شعبه ويحاول أن يقيم البرهان كل يوم على إنه عامل لخيره ساع في سعادته لشعوره التام بأنه إنما يحكم الشعب بإرادة الشعب لا بإرادته هو، فإذا هو لم يتمتع بهذه الثقة سقط من عرشه، وهذا - من غير شك - يقلل شان البطولة
ولهذه الأسباب التي ذكرت أنها كانت تؤذن بكثرة النوابغ هي بعينها التي قللت النوابغ؛ وتعليل ذلك معقول، فكثرة العلم واستنارة الشعب جعلت النبوغ عسيراً لا سهلاً يسيراً ومصداق ذلك أن الأمم فيما مضى كانت تمنح المشعوذين والمخرفين ألقاب البطولة، وتنظر إليهم نظر تفوق ونبوغ؛ من أمثال من كانوا يسمونهم (الأولياء) فيكفي أن يتظاهروا بالجذب ويتصنعوا الصلاح ويدعوا معرفة الغيب ليهرع إليهم الناس ويقبلوا أيديهم ويلتمسوا منهم البركة ويرفعوهم فوق النوابغ والأبطال؛ وأحياناً يلقبوهم (بالأقطاب) فلما فتح الناس عيونهم، وعقلوا بعد غفلتهم، واكتشفوا حيلهم ومكرهم لم تعد لهم هذه المكانة، وحل بعض محلهم المصلحون الاجتماعيون الذين يخدمون أمتهم بعملهم. ومعنى ذلك أن الشعوذة والمخرفة حل محلها مقياس المنفعة وسار الناس في طريق التقدير الصحيح وهو الاحترام والتبجيل على قدر ما يصدر من الشخص من خير عام حقيقي
ومن أجل هذا أيضاً رأينا التيار في هذه الأيام يتجه إلى تقليل شأن البطولة في الأعصر الماضية، فلم يعد البطل القديم في الأدب والسياسة والفن والعلم يقدر التقدير الكبير الذي كان يقدر به من قبل، لأن الناس أخذوا يحللون كل بطل، ويبينون سر بطولته، (ومتى ظهر السبب بطل العجب) ولم يقنعهم ما كان يحيط به من غموض فألقوا أضواء كثيرة

على من كانوا يسمون الأبطال، فأحياناً يؤديهم البحث إلى إنكار بطولة بعض الأشخاص بتاتا، وأحيانا يقللون من قيمة البطل، بل وأحياناً يرون بطلاً من أنكر الناس قديماً بطولته
ذلك لأن مقاييس البطولة تغيرت وأصبحت عند المحدثين خيراً منها عند الأقدمين، ولأن المحدثين رأوا أن القدم نسج لكثير من الناس أثواباً من البطولة لم تكن موجودة أيام حياتهم، وكلما تقدم الزمن منحهم الناس شارة بطولة جديدة - فلما عرض هذا كله للنقد وأزاح أهل العلم الحديث ستائر القدم تبين البطل في صورته الحقيقية أو قريباً من صورته الحقيقية، فأحياناً يرتفع الستار عن لا بطل، وأحياناً يرتفع عن بطل، ولكن دون ما كان يقدره القدماء؛ ونادراً ما يبقى البطل بطلاً كبيراً حتى بعدما ترتفع حجب القدم
ولهذا نجد كثيراً من المعاصرين هم في الحقيقة نوابغ، وهم يفوقون بمراحل بعض نوابغ الأقدمين، ولو كانوا في العصور الماضية لارتفعت منزلتهم فوق ما ارتفعت اليوم، ولكن لم نمنحهم نحن لقب البطولة للأسباب التي أشرنا إليها قبل من أننا رفعنا إلى حد بعيد المثل الأعلى للنبوغ، ولأننا نحلل النابغ ونكتشف سره، وذلك يقلل من تقديره، ولأنه معاصر والمعاصرة أعدى أعداء الاعتراف بالنبوغ
وقد يتصل بهذا إن كثرة النبوغ تصنيع الاعتراف بالنبوغ، فكل أمة راقية الآن لديها عدد كبير من المتفوقين في كل فرع من فروع العلم والفن - في القانون - في الأدب - في الطبيعة - في الكيمياء - في الرسم - في التصوير. فلما كثر هؤلاء في كل أمة أصبح من العسير أن تميز أكبر متفوق منهم لتمنحه صفة النبوغ؛ ومن العسير أيضاً أن تسميهم كلهم نوابغ، لأن النبوغ بحكم اسمه ومعناه يتطلب الندرة، فلما كثر النابغون أضاعوا اسم النبوغ. وعلى العكس من ذلك الأمم المنحطة. لما لم يوجد فيها إلا قانوني واحد أو أديب واحد أو موسيقي واحد كان من السهل أن يمنح لقب النبوغ.
ثم إن الديمقراطية التي سادت الناس في العصور الأخيرة ونادت بالمساواة وألحت في الطلب أوجدت في الشعوب حالة نفسية كان لها أثرها في موضوعنا إذ أصبح الناس لا يؤمنون بتفوق كبير، لا في المال فهم يريدون الاشتراكية، ولا في السياسة فقد يتبوأ الحكم حزب العمال فيدير الأمور كما يديرها الأرستقراطيون في السياسة بل أحسن منهم
فدعتهم هذه الحالة النفيسة إلى أن يكفروا بالتفوق أو بعبارة أخرى يكفرون بالنبوغ؛ وبعيد أن يعترف بنبوغ في جو يكفر به - لقد كان الناس قبل أكثر إيماناً بالفروق في المال والكفاية والعلم فكان هذا الإيمان وسيلة صالحة لظهور النبوغ، فلما جحدوا كل شيء كان النبوغ مما جحدوا
وأخيراً كان من أثر هذه الديمقراطية تعميم التعليم، والبحث في خير الوسائل لنشر العلم، فقامت النظريات المختلفة في التربية والتعليم وأصبح العلم شعبياً بعد أن كان أرستقراطياً
واستخدمت الوسائل المختلفة لتبسيط العلم وتحببه إلى النفوس، وغيرت نظم المدارس، فأنشئت رياض الأطفال مكان الكتاتيب، والمدارس الناعمة بدل المدارس الخشنة، واخترعت البيداجوجيا وسائل لتسهيل الدرس وإيصاله إلى الذهن من أقرب طريق
كان من نتيجة ذلك كثرة المتعلمين وقلة النابغين، واتساع البحر وقلة عمقه، وذلك لأن من كان يتفوق في الماضي كان يصادف عقبات لا حد لعددها ولا حد لصعوبتها، فكان من الطبيعي ألا يجتازها إلا الأقلّون، ولكن من يجتازها تكون لديه الحصانة الطبيعية ويكون قد تعود اجتياز العقبات واحتمل مشقة السير، فكان ذلك سبب النبوغ من ناحيتين، من ناحية قلة من يجتاز العقبات ومن ناحية من يجتازها
أما وقد أصبح التعليم معبداً ميسراً فقد زاد عدد المتعلمين وقل النابغون وأصبح الفرق بين العهدين كبذرة تربى في حديقة بستان وبذرة تنبت في الجبال حيث الرياح العاصفة والشمس المحرقة والمطر الذي لا نظام له. فأين نبت البستان من نبت الجبال، وأين الحيوان المستأنس من الحيوان المستوحش؟

وبعد، فما أحق هذا الموضوع بالدرس، وتناول الكتاب له من وجوهه المختلفة.
أحمد أمين
قرائي الذين يحبونني
للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني
لكل كاتب قراؤه. وما من كاتباً يعدم قارئاً من كل طبقة، ولكن المعول على الأوفياء الثابتين على الولاء، فإن هؤلاء طريق الرزق، ووسيلة الاطمئنان والدعة، ولولاهم لما عرف المرء متى يمكن أن يتاح له أن يأكل، وإن كان لا يجهل كيف يجوع. ولست اعرف ماذا يصنع غيري ليهتدي إلى طبقات قرائه، ولكني اعرف إن مصلحة البريد أغنتني عن عناء السعي ومشقة التفكير في الوسائل المعينة على الاهتداء، فإن رسائل كثيرة تأتيني منها فأستخلص منها العلم الذي اطلبه والمعرفة التي اشتهيها. وما اكثر ما قلت لنفسي أن الجاحظ وأبن المقفع وعبد الحميد الكاتب ومن إليهم من هؤلاء الزملاء والرصفاء، كانوا مساكين. أوه جداً - فما عرفت الدنيا في أيامهم مصلحة البريد. وقد كان من الصعب ولاشك أن يعرفوا مبلغ حب الجمهور لهم وإعجابه بهم وماذا كان يمكن أن يبلغ من رواج كتبهم لو أنها كانت تطبع وتباع في المكاتب، وقد حرمهم هذا الحال الاستقلال عن الأمراء ومن إليهم. ومن الصعب أن يعمل المرء في الظلام. نعم كان الواحد منهم لا يعدم تشجيعاً من الشعب، ولكن هذا كان فلتة لا تحسب ولا يعول عليها. ومن السهل أن يتصور المرء إن الجاحظ مثلاً كان يلقى في الطريق واحداً يتقدم إليه ويقول له: (اسمح لي. . هل أنت الذي يسمى الجاحظ؟.)
فيهز رأسه أن (نعم) وهو راجف القلب لأنه يخشى الاعتراف الصريح المقيد، لئلا يكون هذا السائل من الشرطة
فيقول الرجل: (لقد صدقوا. . اعني أن أسمه في محله. . على كل حال. . ثابر يا بني!. . فأني أتنبأ لك بمستقبل باهر. .)
ويربت له على كنفه ويمضي عنه مبتسماً، وعينه إلى الملك الذي ينبغي أن يكون محتفظاً بمكانة على يمينه، مرهف الأذن مقيماً سن القلم على الدفتر المفتوح ليقيد له هذه الحسنة - حسنة التبرع الكريم بالتشجيع
وإذا كانت الرسائل التي ترد إلي دليلاً على شيء، فأني أكون أحب الناس - أعني الكتاب - إلى ثلاث طبقات: - المرضى، واللصوص، وقد نسيت الطبقة الثالثة. . لا بأس من يدري؟. . ربما تذكرتها أثناء الكلام. وقد عرفت هذا من الرسائل التي يحملها إلي البريد،
كما قلت. وهذا نموذج منها: (. . . . وبعد فإني لم اسمع باسمك من قبل، ولكني مرضت ودخلت المستشفى، وجاءني زائر فترك لي كتاباً أتسلى به، غير إني لم استطع أن أتصفحه في أول الأمر لشدة وطأة المرض، فلما خف قليلاً مددت يدي إليه وبدأت أطالع. وأؤكد إنه سرني جداً. وأنا صحيح الجسم في العادة، ولكن الأمراض لا أمان لها، كما تعرف، فأرجو أن تبعث إلي بمجموعة من كتبك كلها - ومعها جملة ثمنها - استعداداً للطوارئ فإن الحيطة واجبة وإن كان الأمر كله بيد الله
(وتقبل سلام المعجب بك المعتمد بعد الله عليك
وفي وسع القارئ أن يدرك مبلغ حيرتي، فإنه لا يسعني إلا أن أتمنى لمثل هذا الرجل الصحة والسلامة، ولكن المصيبة والبلاء العظيم إنه إذا صح وسلم كان خليقاً أن لا يعود إلى كتبي ليقرأها، فما العمل؟. . هذه هي المسألة - كما يقول هملت - وليس ذنبي إن الأمراض تحبب الناس في كتبي، فإذا كنت أسر حين أقرأ في الصحف إن الملاريا انتشرت فإن لي العذر، فما كان هذا ظني، ولا خطر لي قط على بال، ولكن مشيئة الله جعلتني مثل (الحانوتي) الذي يسره ويفرحه ما يحزن الخلق ويبكي المفجوعين.
ولهذا ترونني إذا سمعت بفشو مرض أدخل مسروراً على أهل بيتي وأقول لزوجتي: (خذي يا امرأة. . (وألقي إليها بكل ما يكون معي، قل أو كثر) خذي وانفقي بلا حساب، فإن ما عند الله أكثر)
فتعجب وتسألني: (ماذا جرى؟. . . هل ربحت ورقة يانصيب؟.)
فأقول منكراً عليها هذا الخاطر: (وهل مثلي يعنى بورق اليانصيب؟ سبحان الله يا امرأة في طبعك!)
فتقول ضاحكة: (ولكن ألا تخبرني؟. . إنني أكاد أموت شوقاً إلى المعرفة)

فأقول وأنا أرمي إليها بالصحيفة التي قرأت فيها خبر المرض المتفشي، وعجز وزارة الصحة عن مكافحته: (خذي واقرأي، وأشكري الله، وقبلي يدك بطناً وظهراً، فلن نجوع أو نفتقر، مادام في الدنيا شيء اسمه مرض وشيء آخر اسمه وزارة الصحة. لقد جعلوها وزارة. . . رفعوها ورقوها ووسعوها. . أليس هذا باعثاً قوياً على الاطمئنان والثقة بالله؟)

وقد بالغت حين قلت إني محبوب من اللصوص وما أردت إلا أن لصاً واحداً - على ما يظهر لي الآن - هو الذي يحبني، فلقد تلقيت مرة كتاباً يذكر لي فيه إنه سمع باسمي وشهرتي، فعرف إني كاتب عظيم جداً، فهو يكتب إلي مستنجداً فقد اتهموه بسرقة كلب. والقضية معروضة على القضاء، وكان محبوساً رهن التحقيق، ثم أفرجوا عنه بالكفالة الشخصية، وهو يحتاج إلى محام يدافع عنه ولكنه لا مال معه فهل أستطيع أن أدله على محام كريم، أو أعينه بطريقة أخرى. .؟ وهو يترك الأمر بين يدي واثقاً من مروءتي وكرمي فإن مثلي لا يخيب من يقصده

هذا هو الزبون الجديد، وقد قلت لنفسي لما تلقيت هذا الكتاب العجيب: (والله نجحت يا مازني!. . بلغت شهرتك أخفى الزوايا وتغلغلت إلى لصوص الكلاب. . ما شاء الله!. أحسب أن اللص حين يخرج إلى السرقة بعد اليوم، ستقول له زوجته أو أمه أو لا أدري من غيرهما:

(هل أنت متأكد إن معك كل ما تحتاج إليه؟)

فيقول: (أيوه. . أيوه)

فتقول: (أحذر أن تكون نسيت الطفاشة!. . العدة كلها معك؟. .)

فيقول: (قلت لك أيوه. . ألا تسمعين؟)

فتقول: (والمازني؟. . هل أخذته معك؟. .)

فيقول: (أوه. . طول الليل وأنا أقرأ كتابه. . وهل أستطيع أن أعمل شيئاً دون أن اقرأه؟. . أتظنينني مغفلاً؟ أم تحسبين أني حديث عهد بالفن؟)

فتقول: (لا. . إنما أردت أن أطمئن. . وأسمع. . أمش بحساب. . والبس القفاز قبل أن تلمس أي باب أو مفتاح أو حائط. . حاذر!)

فيقول: (اطمئني. . كل شيء على ما يرام. . ومعي المازني فلا تخافي ولا تقلقي ويلمس صدره حيث وضع الكتاب تحت ثوبه

ولكل قاعدة شذوذ واستثناء. وقد حدث منذ بضعة أيام ما كاد يغريني بتغيير رأيي في طبقات القراء الذين يحبونني ويؤثرونني على من عداي من كتاب هذا الزمان. ذلك أني كنت مدعواً إلى مأدبة عشاء فأتفق أن أجلسوني إلى جانب سيدة عجوز شمطاء، ودار الكلام على الأكل وكان بعض الذين يخاطبونني يدعوني: (الأستاذ) والبعض يؤثر أن يرفعني درجة فيقول لي: (يا بك) ولكنه لم يعنى باسمي أحد كأنه عيب لا يليق أن يذكر ولاسيما على مسمع من السيدات

ثم التفت إلى العجوز وقالت: (إني سعيدة)

فقلت باختصار: (أهنئك)

فألحت في صرفي عن جارتي الأخرى، وكانت فتاة هيفاء نظيرة الحسن وصوتها كالتغريد

(صحيح. . سعيدة جداً. . كل كتبك قرأناها)

فتركت الفتاة وأدرت وجهي إلى هذه العجوز وسألت باهتمام: (صحيح؟)

فقالت باضطراب رابني: (كلها كلنا)

فقال مردداً قولها: (كلكم؟. . كلها. .؟ شيء جميل؟)

فقالت: (ابني على الخصوص. . إعجابه بك لا حد له)

فأردت أن استوثق وسألتها: (هل هو مريض؟)

قالت: (أعوذ بالله. . إن صحته جيدة جداً)

فقلت لنفسي إن هذا جديد، فيحسن أن أتقصى الأمر وسألتها: (ألم يصبه مرض قط؟)

قالت: (أبداً. . أبدا. . قوي جداً. . كسيد نصير)

قلت: (عجيب هذا. .)

فقالت: (كتبك كلها عندنا تراها في كل غرفة. .)

فسألتها: (أهي حسنة التجليد؟)

قالت: (لا. . كما اشتريناها. . كل بناتي وأحفادي يقرءونها ويحملونها معهم حيثما يكونون)
قلت: (شيء جميل)
فقالت: (أوه. . لشد ما يفرحون الليلة حين أقول لهم إني كنت جالسة إلى جانب تيمور بك)
إبراهيم عبد القادر المازني
. . .أمراء للبيع
للأستاذ مصطفى صادق الرافعي
قال الشيخ تاج الدين محمد بن علي الملقب طوير الليل أحد أئمة الفقهاء بالمدرسة الظاهرية بالقاهرة:
كان شيخنا الإمام العظيم شيخ الإسلام تقي الدين بن مجد الدين بن دقيق العيد لا يخاطب السلطان إلا بقوله: (يا إنسان)، فما يخشاه ولا يتعبد له ولا ينحله ألقاب الجبروت والعظمة ولا يزينه بالنفاق ولا يداجيه كما يصنع غيره من العلماء. وكان هذا عجيباً؛ غير إن تمام العجب إن الشيخ لم يكن يخاطب أحداً قط من عامة الناس إلا بهذا اللفظ عينه (يا إنسان)، فما يعلو بالسلطان والأمراء ولا ينزل بالضعفاء والمساكين، ولا يرى أحسن ما في هؤلاء وهؤلاء إلا الحقيقة الإنسانية.
ثم كان لا يعظم في الخطاب إلا أئمة الفقهاء، فإذا خاطب منهم أحداً قال له (يا فقيه). على إنه لم يكن يسمح بهذا إلا لمثل شيخ الإسلام نجم الدين بن الرقعة. ثم يخص علاء الدين بن الباجي وحده بقوله (يا إمام)؛ إذ كان آية من آيات الله في صناعة الحجة لا يكاد يقطعه أحد في المناظرة والمباحثة؛ فهو كالبرهان إجلاله إجلال الحق لأن فيه المعنى وتثبيت المعنى.
وقلت له يوماً: يا سيدي أراك تخاطب السلطان بخطاب العامة، فإن علوت قلت (يا إنسان) وإن نزلت قلت يا إنسان؛ أفلا يسخطه هذا منك وقد تذوق حلاوة ألفاظ الطاعة والخضوع، وخصه النفاق بكلمات هي ظل الكلمات التي يوصف الله بها، ثم جعله الملك إنساناً بذاته في وجود ذاته حتى أصبح من غيره كالجبل والحصاة، يستويان في العنصر ويتباينان في القدر، وأقله مهما قل هو أكثرها مهما عظمت، ووجوده شيء ووجودها شيء آخر؟
فتبسم الشيخ وقال: يا ولدي إيش هذا؟ إننا نفوس لا ألفاظ، والكلمة من قائلها هي بمعناها في نفسه لا بمعناها في نفسها؛ فما يحسن بحامل الشريعة أن ينطق بكلام يرده الشرع عليه؛ ولو نافق الدين لبطل أن يكون ديناً؛ ولو نافق العالم الديني لكان كل منافق أشرف منه؛ فلطخة في الثوب الأبيض ليست كلطخة في الثوب الأسود. والمنافق رجل مغطى في حياته ولكن عالم الدين رجل مكشوف في حياته لا مغطى؛ فهو للهداية لا للتلبيس، وفيه معاني النور لا معاني الظلمة؛ وذاك يتصل بالدين من ناحية العمل فإذا نافق فقد كذب؛ والعالم يتصل بالدين من ناحية العمل وناحية التبيين فإذا نافق فقد كذب وغش وخان.
وما معنى العلماء بالشرع إلا إنهم امتداد لعمل النبوة في الناس دهراً بعد دهر، ينطقون بكلمتها ويقومون بحجتها، ويأخذون من أخلاقها كما تأخذ المرآة النور، تحويه في نفسها وتلقيه على غيرها فهي أداة لإظهاره وإظهار جماله معاً.
أتدري يا ولدي ما الفرق بين علماء الحق وعلماء السوء وكلهم آخذ من نور واحد لا يختلف؟ إن أولئك في أخلاقهم كاللوح من البلور يظهر النور نفسه فيه ويظهر حقيقته البلورية، وهؤلاء بأخلاقهم كاللوح من الخشب يظهر النور حقيقته الخشبية لا غير وعالم السوء يفكر في كتب الشريعة وحدها، فيسهل عليه أن يتأول ويحتال ويغير ويبدل ويظهر ويخفي، ولكن العالم الحق يفكر مع كتب الشريعة في صاحب الشريعة فهو معه في كل حالة يسأله: - ماذا تفعل وماذا تقول؟
والرجل الديني لا تتحول أخلاقه ولا تتفاوت ولا يجيء كل يوم من حوادث اليوم، فهو بأخلاقه كلها لا يكون مرة ببعضها ومرة ببعضها، ولن تراه مع ذوي السلطان وأهل الحكم والنعمة كعالم السوء هذا الذي لو نطقت أفعاله لقالت لله بلسانه: هم يعطونني الدراهم والدنانير فأين دراهمك أنت ودنانيرك؟
إن الدينار يا ولدي إذا كان صحيحاً في أحد وجهيه دون الآخر أو في بعضه دون بعضه

فهو زائف كله. وأهل الحكم والجاه حين يتعاملون مع أمثال هؤلاء يتعاملون مع قوة الهضم فيهم. . . فينزلونهم بذلك منزلة البهائم تقدم أعمالها لتأخذ لبطونها. والبطن الآكل في العالم السوء يأكل دين العالم فيما يأكله. . .

فإذا رأيت لعلماء السوء وقاراً فهو البلادة، أو رقة فسمها الضعف، أو محاسنة فقل إنها النفاق، أو سكوتاً عن الظلم فتلك رشوة يأكلون بها

قال الإمام وما رأيت مثل شيخي سلطان العلماء عز الدين ابن عبد السلام. فلقد كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شيئاً تصنعه طبيعته كما يصنع جسمه الحياة، فلا يبالي هلك فيه أو عاش إذ هو في الدم كالقلب لا تناله يد صاحبه ولا يد غيره. ولم يتعلق بمال ولا جاه ولا ترف ولا نعيم، فكان تجرده من أوهام القوة قوة لا تغلب. وانتزع خوف الدنيا من قلبه فغمرته الروح السماوية التي تخيف كل شيء ولا تخاف؛ وكان بهذه الروح كأنه تحويل

وتبديل في طباع الناس حتى قال الملك الظاهر بيبرس وقد رأى كثرة الخلق في جنازته حين مرت تحت القلعة: الآن استقر أمري في الملك، فلو إن هذا الشيخ دعا الناس إلى الخروج علي لأنتزع مني المملكة

وكان سلطانه في دمشق الصالح إسماعيل، فاستنجد بالإفرنج على الملك نجم الدين أيوب سلطان مصر؛ فغضب الشيخ وأسقط اسم الصالح من الخطبة وخرج مهاجراً، فأتبعه الصالح بعض خواصه يتلطف بها ويقول له: ما بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وما كنت عليه وأكثر مما كنت عليه إلا إن تتخشع للسلطان وتقبل يده. فقال له الشيخ: يا مسكين أنا لا أرضى أن يقبل السلطان يدي. أنتم في واد وأنا واد:

ثم قدم إلى مصر في سنة 639 فأقبل عليه السلطان نجم الدين أيوب وتخفى به وولاه قضاء مصر وقضاءها. وكان أيوب ملكاً شديد البأس لا يجسر أحد أن يخاطبه إلا مجيباً، ولا يتكلم في أحد بحضرته ابتداءً؛ وقد جمع من المماليك الترك ما لم يجتمع مثله لغيره من أهل بيته حتى كان أكثر أمراء عسكره منهم وهم معروفون بالخشونة والبأس والفظاظة والاستهانة بكل أمر. فلما كان يوم العيد صعد إليه الشيخ وهو يعرض الجند ويظهر ملكه وسطوته والأمراء يقبلون الأرض بين يديه؛ فناداه الشيخ بأعلى صوته ليسمع هذا الملأ العظيم: يا أيوب! ثم أمره بإبطال منكر انتهى إلى علمه في حانة تباع فيها الخمر. فرسم السلطان لوقته بإبطال الحانة وأعتذر إليه

فحدثني الباجي قال: سألت الشيخ بعد رجوعه من القلعة وقد شاع الخبر فقلت يا سيدي كيف كانت الحال؟

قال يا بني رايته في تلك العظمة فخشيت على نفسه أن يدخلها الغرور فتبطره، فكان ما باديته به

قلت: أما خفته؟

قال: يا بني استحضرت هيبة الله تعالى فكان السلطان أمامي كالقط. ولو إن حاجة من الدنيا كانت في نفسي لرأيته الدنيا كلها؛ بيد إني نظرت بالآخرة فامتدت عيني فيه إلى غير المنظور للناس، فلا عظمة ولا سلطان ولا بقاء ولا دنيا، بل هو لاشيء في صورة شيء

نحن يا ولدي مع هؤلاء كالمعنى الذي يصحح معنى آخر، فإذا أمرناهم فالذي يأمرهم فينا

هو الشرع لا الإنسان. وهم قوم يرون لأنفسهم الحق في إسكات الكلمة الصحيحة أو طمسها أو تحريفها؛ فما بد أن يقابلوا من العلماء والصالحين بمن يرون لأنفسهم الحق في إنطاق هذه الكلمة وبيانها وتوضيحها. فإذا كان ذلك فههنا المعنى بازاء المعنى، فلا خوف ولا مبالاة ولا شأن للحياة والموت

وإنما الشر كل الشر أن يتقدم إليهم العالم لحظوظ نفسه ومنافعها فيكون باطلاً مزوراً في صورة الحق وههنا تكون الذات مع الذات فيخشع الضعف أمام القوة، ويذل الفقر بين يدي الغنى، وترجو الحياة لنفسها وتخشى على نفسها فإذا العالم من السلطان كالخشبة البالية النخرة حاولت أن تقارع السيف

كلا يا ولدي! إن السلطان والحكام أدوات يجب تعيين عملها قبل إقامتها. فإذا تفككت واحتاجت إلى مسامير دقت فيها المسامير. وإذا انفتق الثوب فمن أين للإبرة أن تسلك بالخيط الذي فيها إذا هي لم تخزه؟

. . .إن العالم الحق كالمسمار؛ إذا أوجد المسمار لذاته دون عمله كفرت به كل خشبة
قال الإمام تقي الدين: وطغى الأمراء من المماليك وثقلت وطأتهم على الناس؛ وحيثما
وجدت القوة المسلطة المستبدة جعلت طغيانها واستبدادها أدباً وشريعة؛ إلا أن تقوم
بازائها قوة معنوية أقوى منها. ففكر شيخنا في هؤلاء الأمراء وقال إن خداع القوة
الكاذبة لشعور الناس باب من الفساد؛ إذ يحسبون كل حسن منها هو الحسن وأن كان
قبيحاً في ذاته ولا أقبح منه؛ ويرون كل قبيح عندها هو القبيح وإن كان حسناً ولا أحسن
منه
وقال: ما معنى الإمارة والأمراء؟ وإنما قوة الكل الكبير هي عماد الفرد الكبير، فلكل
جزء من هذا الكل حقه وعمله. وكان ينبغي أن تكون هذه الإمارة أعمالاً نافعة قد
كبرت وعظمت فاستحقت هذا اللقب بطبيعة فيها كطبيعة أن العشرة أكثر من الواحد،
لا أهواء وشهوات ورذائل ومفاسد تتخذ لقبها في الضعفاء بطبيعة كطبيعة أن الوحش
مفترس
وفكر إن الشيخ فهداه تفكيره إلى أن هؤلاء الأمراء مماليك، فحكم الرق مستصحب
عليهم لبيت مال المسلمين ويجب شرعاً بيعهم كما يباع الرقيق
وبلغهم ذلك فجزعوا له وعظم فيه الخطب عليهم؛ ثم احتدم الأمر وأيقنوا أنهم بازاء
الشرع لا بازاء القاضي أبن عبد السلام
وأفتى الشيخ أنه لا يصح لهم بيع ولا شراء ولا زواج ولا طلاق ولا معاملة، وأنه لا يصحح
لهم شيئاً من هذا حتى يباعوا ويحصل عتقهم بطريق شرعي
ثم جعلوا يتسببون إلى رضاه ويتحملون عليه بالشفاعات وهو مصر لا يعبأ بجلالة
إخطارهم ولا يخشى اتسامه بعداوتهم، فرفعوا الأمر إلى السلطان فأرسل إليه فلم
يتحول عن رأيه وحكمه
واستشنع السلطان فعله وحنق عليه وأنكر منه دخوله فيما لا يعنيه وقبح عمله
وسياسته وما تطاول إليه وهو رجل ليس له إلا نفسه وما تكاد تصل يده إلى ما يقيمه،
وهم وافرون وفي أيديهم القوة ولهم الأمر والنهي
وانتهى ذلك إلى الشيخ الإمام فغضب ولم يبال بالسلطان ولا كبر عليه إعراضه، وأزمع
الهجرة من مصر فاكترى حميراً أركب أهله وولده عليها ومشى هو خلفهم يريد الخروج
إلى الشام. فلم يبعد إلا قليلاً نحو نصف بريد حتى طار الخبر في القاهرة ففزع الناس
وتبعوه لا يتخلف منهم رجل ولا امرأة ولا صبي، وسار فيهم العلماء والصلحاء والتجار
والمحترفون كأن خروجه خروج نبي من بين المؤمنين به. واستعلنت قوة الشرع في
مظهرها الحاكم الآمر من هذه الجماهير، فقيل للسلطان: إن ذهب هذا الرجل ذهب
ملكك
فأرتاع السلطان فركب بنفسه ولحق بالشيخ يترضاه ويستدفع به غضب الأمة، وأطلق
له أن يأمر بما شاء وقد أيقن أنه ليس رجل الدينار والدرهم والعيش والجاه، ولبس
طيلسان العلماء كما يلصق الريش على حجر في صورة الطائر
ورجع الشيخ وأمر أن يعقد المجلس ويجمع الأمراء وينادي عليهم للمساومة في بيعهم
وضرب لذلك أجلاً بعد أن يكون الأمر قد تعالمه كل القاهرة ليتهيأ من يتهيأ للشراء
والسوم في هذا الرقيق الغالي
وكان من الأمراء المماليك نائب السلطنة فبعث إلى الشيخ يلاطفه ويسترضيه فلم يعبأ
الشيخ به. فهاج هائجه وقال: كيف يبيعنا هذا الشيخ وينادي علينا وينزلنا منزلة العبيد
ويفسد محلنا من الناس ويبتذل أقدارنا ونحن ملوك الأرض؟ وما الذي يفقد هذا الشيخ
من الدنيا فيدرك ما نحن فيه؟ إنه يفقد ما لا يملك ويفقد غير الموجود، فلا جرم لا
يبالي ولا يرجع عن رأيه مادام هذا الرأي لا يمر في منافعه ولا في شهواته ولا في
أطماعه كالذين
نراهم من علماء الدنيا. أما والله لأضربنه بسيفي هذا فما يموت رأيه وهو حي.
ثم ركب النائب في عسكره وجاء إلى دار الشيخ واستل سيفه وطرق الباب
فخرج ابنه عبد اللطيف ورأى ما رأى فأنقلب إلى أبيه وقال له: أنج بنفسك، إنه
الموت، وإنه السيف، وإنه وإنه
فما أكترث الشيخ لذلك ولا جزع ولا تغير بل قال له: يا ولدي! أبوك أقل من أن يقتل
في سبيل الله

وخرج لا يعرف الحياة ولا الموت فليس فيه الإنساني بل الإلهي؛ ونظر إلى نائب السلطنة وفي يده السيف؛ فانطلقت أشعة عينيه في أعصاب هذه اليد فيبست ووقع السيف منها
وتناوله بروحه القوية فاضطرب الرجل وتزلزل وكأنما تكسر من أعصابه فهو يرعد ولا يستقر ولا يهدأ وأخذ النائب يبكي ويسأل الشيخ أن يدعو له؛ ثم قال: يا سيدي ما تصنع بنا؟
قال الشيخ: أنادي عليكم وأبيعكم
- وفيم تصرف ثمننا؟
- في مصالح المسلمين
- ومن يقبضه؟
- أنا
وكان الشرع هو الذي يقول (أنا)، فتم للشيخ ما أراد ونادى على الأمراء واحداً واحدا واشتط في ثمنهم لا يبع الواحد منهم حتى يبلغ الثمن آخر ما يبلغ. وكان كل أمير قد أعد من شيعته جماعة يستامونه ليشتروه. . .
ودمغ الظلم والنفاق والطغيان والتكبر والاستطالة على الناس بهذه الكلمة التي أعلنها الشرع:
. . .أمراء للبيع! أمراء للبيع
(طنطا)
مصطفى صادق الرافعي
القاهرة المعزية
ووجوب الاحتفاء بعيدها الألفي
للأستاذ محمد عبد الله عنان
- 2 -
تقترب القاهرة المعزية من عيدها الألفي دون أنن يثير ذلك في دوائرنا الرسمية أو الأدبية كبير صدى؛ ومن الغريب أن بعض الأجانب الوافدين الذين يكتبون عن بلادنا الفصول والملاحظات الطائرة لم يفتهم أن ينوهوا فيما يكتبونه عن القاهرة بأنها مدينة ألفية، وأنها موطن الجامعة الألفية الوحيدة في العالم؛ ذلك أن هذه الحقيقة التاريخية تشير حقاً أعظم اهتمام من كل أولئك الذين يضطرمون إعجاباً بعظمة التراث الحافل، ويحنون رؤوسهم إجلالاً لروعة التاريخ
وإذا كانت القاهرة ليست هي المدينة الألفية الوحيدة بين حواضر العالم القديم، وإذا كانت أثينة ورومة والإسكندرية وقسطنطينية تشاطرها هذا الفخر وتفوقها في مداه، بل تشاطرها هذا الفخر حواضر إسلامية أخرى مثل بيت المقدس، ودمشق، وبغداد، فإنها مع ذلك تمتاز على هذه الحواضر جميعاً بأنها تمثل أروع عصور التاريخ جنباً إلى جنب؛ فالآثار الفرعونية الباهرة التي تغيض فيما وراء القرون تشرف عليها مجللة بروعة الخلود، وآثار العصور الإسلامية المختلفة تنبث في جنباتها وتسبغ عليها لوناً إسلامياً عميقاً وتزينها بكل ما ازدانت به هذه العصور المجيدة من فن وروعة وبذخ؛ ثم إن بشائر العصر الحديث وإمارات الحضر الناضج، وكل ألوان الحضارة المعاصرة بما فيها من تطور وتجديد وابتكار، تطبعها بطابعها القوي، فهي من هذه الناحية من أجمل واحدث العواصم القديمة، بل هي تفوق من هذه الناحية عواصم العالم القديم: رومة وأثينة وقسطنطينية، ومع ذلك فإن هذا التجدد السريع لم يجردها من جلالها القديم، ولم يخلع عنها تلك الروعة التي يسبغها تعاقب الأحقاب على الحواضر التالدة
وفي وسع القاهرة أن تتيه على عواصم العالم القديم كلها بتراثها الأثري والفني الباهر؛ ذلك أنها فضلاً عما يحتويه متحفها الفرعوني الشهير من الكنوز الرائعة التي لا تضارعها أية
كنوز أثرية أخرى، تحتفظ بأعظم مجموعة من آثار العصور الوسطى يمكن أن تفخر بها مدينة عظيمة ومنها آثار المدينة الألفية القديمة التي مازالت ماثلة إلى يومنا
والقاهرة ليست مدينة عظيمة فقط، وإنما هي كباقي حواضر العالم القديم عنوان حضارة ومجمع تاريخ؛ وتاريخ الأمصار العظيمة من أهم النواحي في تاريخ الحضارات والدول، ولاسيما في العصور الوسطى، حينما كانت حياة المدينة ترتبط أشد الارتباط

بمصاير حضارة أو دولة معينة. وإذا كان تاريخ أثينة والمجتمع الأثيني يعني تاريخ اليونان القديم دولة وحضارة، وإذا كان تاريخ رومة ومجتمعاتها في عصور الجمهورية والإمبراطورية، هو تاريخ الرومان والحضارة الرومانية، وإذا كان تاريخ قسطنطينية في العصور الوسطى، هو تاريخ الدولة البيزنطية وحضارتها، فإن تاريخ القاهرة وتاريخ أسرها الملوكية ومجتمعاتها الرسمية والشعبية هو تاريخ مصر الإسلامية وتاريخ حضارتها في العصور الوسطى

ولا ريب أن العيد الألفي لمصر من الأمصار التالدة أو منشأة من المنشآت الجليلة هو من الحوادث القومية العظيمة التي يحق للأمم أن تفخر بها وتعتز؛ ذلك أن هذه الأعياد الألفية ليست من الأحداث العادية في تواريخ الأمم، بل هي بالعكس أحداث فريدة نادرة، ومثلوها في تاريخ أمة من الأمم دليل على عراقة هذه الأمة في ماضيها وحضارتها ودليل على ما تمتاز به من الحيوية والصفات الأزلية؛ ومصر أمة أزلية بلا ريب، وهي من هذه الوجهة تستطيع أن تتيه على لمم الأرض جميعاً بما حباها الله به من صفات الأزلية والخلود التي ترجع بها إلى ما قبل عصور التاريخ؛ وتتخذ الأمم العظيمة من الإشادة بهذه الذكريات والخواص الأزلية وسيلة للدعاية، وتحيطها بأعظم مظاهر التكريم، وتتبع في ذلك سياسة ثابتة تقوم على تنفيذها هيئات خاصة يقظة لكل ما يجد من هذه المناسبات؛ وقد تضع هذه الهيئات برامجها وتبدأ استعداداتها للاحتفاء بإحدى الذكريات القومية العظيمة قبل وقوعها بأعوام عديدة، فإذا حل موعد الذكرى كانت الاحتفالات العظيمة والمهرجانات الباذخة والمظاهرات القومية الرائعة التي تحج إليها الوفود من كل صوب، والتي تتخذ وسيلة للدعاية الواسعة في سائر الأقطار الأخرى

ولنن يمض سوى القليل حتى تواجه مصر عيدين من أجل الأعياد القومية: هما العيد الألفي

لقيام القاهرة المعزية، والعيد الألفي للجامع الأزهر؛ فماذا فعلت دوائرنا الرسمية والعلمية للاحتفاء بهذين الحادثين العظيمين؛ أكبر الظن أنه لم تتخذ حتى الآن أية خطة رسمية مقررة في هذا الشأن سوى ما رددته مشيخة الأزهر منذ ثلاثة أعوام في شأن الاحتفال بعيد الأزهر، ثم انقطع صداه بعد حين؛ وأكبر الظن أنه سيمضي حين آخر قبل أن توضع برامج أو تتقرر اعتمادات أو تتخذ أهبات في هذا السبيل؛ فإذا وفقت الجهات المختصة إلى اتخاذ أية خطوة عملية كان ذلك بعد فوات الوقت أو في آخر لحظة، وعندئذ يجيء الاحتفال خلواً من الروعة التي يجب أن تحاط بها مثل هذه المناسبات والواقع أن ما تبقى من الوقت بيننا وبين هذين العيدين الجليلين لا يكاد يكفي لاتخاذ أهبات غير عادية؛ فليس بيننا وبين عيد القاهرة الألفي الذي يقع في شعبان سنة 1358 سوى ثلاثين شهراً؛ ويقع العيد الألفي للأزهر بعد ذلك بعدة أشهر في جمادى الأولى سنة 1359؛ بيد أنه مازال ثمة متسع من الوقت يكفي للعمل الجدي المتواصل في سبيل تنظيم الاحتفاء القومي بهذين العيدين في نوع من الفخامة والجلال

ولقد كانت القاهرة المعزية منشأة فاطمية، نمت وترعرعت في كنف الدولة الفاطمية الباذخة، وشهدت في ظلها ألواناً ساحرة من الفخامة والبذخ والبهاء، يقصها عليك المؤرخون المعاصرون مثل المسبحي وابن الطوير وابن المأمون؛ وكان الأزهر غرس الدولة الفاطمية اليانع، بل كان أينع ما غرست دولة إسلامية، وأعظمه قدراً، وأبعده أثراً، وأبقاه على كر العصور؛ ولقد قامت الخلافة الفاطمية بمصر بعد قيام القاهرة والجامع الأزهر بقليل، في رمضان سنة 362هـ (يونية سنة 973م) حينما قدم المعز للدين الله أول الخلفاء الفاطميين بأهله وماله إلى القاهرة عاصمته الجديدة؛ ففي أعوام قلائل يكون قد مضى ألف عام على قيام الخلافة الفاطمية بمصر، وقد كانت هي الخلافة الإسلامية المستقلة الوحيدة التي قامت بمصر الإسلامية، وعاشت في ظلها أكثر من قرنين

أفلا يجمل أيضاً أن نحتفي بذكرى الخلافة الفاطمية منشئة القاهرة والجامع الأزهر لمناسبة مرور ألف عام على قيامها بمصر؟

إن ذكرى الخلافة الفاطمية ترتبط أشد الارتباط بذكرى القاهرة والأزهر حتى إنه ليصعب أن نحتفي بعيديهما دون أن تشغل ذكرى الخلافة الفاطمية مكانتها في هذين العيدين؛ ولن

يكون للإشارة بهذه الذكرى سوى معناها التاريخي الجليل، ولن تحيط بها أي اعتبارات دينية أو مذهبية. ونذكر للتنويه بهذا المعنى التاريخي الجليل، أن إسبانيا النصرانية لم تر بأسا من الاحتفاء بذكرى الخلافة الإسلامية؛ ففي سنة1929 احتفلت جامعة قرطبة بذكرى الخلافة الإسلامية لمناسبة مرور ألف عام على قيامها بقرطبة؛ وقد كان قيام الخلافة الإسلامية في قرطبة كما نعرف سنة 317هـ الموافق لسنة 929ميلادية، وكان أول خلفاء الأندلس من بني أمية عبد الرحمن الناصر، وهذه الذكرى التاريخية الجليلة هي التي احتفلت بها جامعة قرطبة في سنة 1929، وكان لتصرفها أجمل وقع في العالم الإسلامي

ولقد جرت مصر الفتية الناهضة على انتهاز كل الفرص والمناسبات العلمية والاجتماعية الدولية والاشتراك فيها، والإعلان عن نفسها بأحسن ما تعلن أمة حديثة ناهضة؛ وهي تلبي كل عام عشرات الدعوات لشهود المؤتمرات والمعارض الدولية المختلفة والمهرجانات العلمية ولا تبخل في ذلك السبيل بالاتفاق لأنها تقدر كل ما تجنيه من الفوائد المعنوية والمادية من الاشتراك في تلك الاجتماعات الدولية الكبيرة؛ وقد كانت آخر مناسبة من هذا النوع اشتراكها في معرض باريس الدولي، وهو اشتراك اقتضت نفقاته الرسمية منها زهاء عشرين ألف جنيه؛ فهل تبخل مصر بأن ترصد مثل هذا المبلغ بل أن ترصد أضعافه للاحتفال بعيد القاهرة وعيد أزهرها الألفي؟

إن إقامة مهرجان ألفي لمدينة القاهرة تحج إليه وفود الأمم من أنحاء الشرق والغرب يكون أعظم دعاية لمصر التالدة ومصر الفتية الحديثة معاً، وأعظم وسيلة للتعريف عن ماضيها الباهر وعظمتها السالفة؛ وأن إقامة مهرجان ألفي للجامع الأزهر تشترك فيه وفود الجامعات والهيئات العلمية من جميع الأمم يكون مظاهرة إسلامية علمية رائعة للإعلان عن الدور العظيم الذي أدته الجامعة الألفية في تكوين التفكير الإسلامي لا في مصر فقط ولكن في العالم الإسلامي كله، وعن الصرح العلمي العظيم الذي كان الأزهر قوامه والذي لبث ملاذ التفكير الإسلامي والآداب العربية قروناً مديدة ولاسيما في عصور الاستعباد والانحلال الفكري والاجتماعي

تلك دعوتنا المتواضعة نرسلها للمرة الثانية راجين أن تجد صدى قوياً في دوائرنا الرسمية والعلمية، فتعمل على تحقيق هذه الأمنية القومية الكبرى بكل ما يجب لها من روعة وجلال

محمد عبد الله عنان

في الأدب المقارن

الوصف

في الأدبين العربي والإنجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

الوصف من صميم الفن ولباب الأدب وأدل ضروب القول على صدق الشعور وذكاء القلب، إذ أن روائع المشاهدات وطرائف المحسوسات وجديد المرئيات من أشد الأمور تأثيراً في نفس الأديب، واستجاشة له إلى التأمل، ودفعاً له إلى القول؛ وليس خير الوصف ما أحاط بكل حقائق الموصوف وأحصى كل دقائق أجزائه، كما تحصي الصورة الشمسية كل صغيرة وكبيرة منن الشيء المصور، وإنما خير الوصف ما أظهر المهم الرائع من أجزاء تلك الصورة، وأبان عن أثرها في النفس، وما تبعثه فيها من ذكريات وأطياف وأشجان وإطراب، وارتحال الأديب من صقع إلى آخر، ومن بلد إلى سواه ومن دواعي لجوئه إلى الوصف، يعرض فيه ما يتوالى على عينيه وحواسه من آثار ومظاهر؛ ومن ثم كانت الرحلة من أهم الأحداث في حياة الأديب بل من أهم مكونات شخصيته.

والوصف من أشد آثار الأدب إمتاعاً للنفس واستدعاء لانتباهها وإرضاء لغرائزها. إذ هو يرضى من الإنسان غريزة التقليد والحكاية لشتى المرئيات والمحسوسات، ويروي منه الميل إلى الإحساس صدى عواطفه لدى الآخرين. فهو يستريح إلى الأديب الذي يصف من المشاهدات ويروي من الاحساسات ما قد يكون القارئ مر به في مختلف أطوار حياته. والوصف أيضاً يحرك الخيال ويمتعه ويفسح له مجال العمل، ويبعد به وراء حدود الحياة اليومية الحاضرة. ومن ثم نرى البيت أو البيتين يعرضان في القصيدة الطويلة مشتملين على وصف رائع لمنظر أو حادث أو إحساس، فيكونان غرة القصيدة وأحب

أبياتها إلى النفوس.
ولما كان الوصف ضرباً من القول فنياً صميماً، وكان يحتاج لتجويده إلى إطالة النظر وطول التقصي ورياضة الكلام، وكانت موضوعاته أكثر من أن تعد وأوسع من أن تفنى، كان الوصف يبلغ أوج ازدهاره حين يبلغ الأدب طوره الفني، باستقرار الأمة وتحضر مجتمعها وذيوع الثقافة بين أبنائها، واستعمال الكتابة الخطية وتوفر الفراغ للتروي والمعالجة والمعاودة للمنشئات الأدبية فالوصف من أهم أبواب القول التي تتسع وتترقى في طور الأدب الفني ذاك. ومصداق ذلك واضح في الأدب اليوناني قبل ازدهار الحضارة وبعده: ففي أشعار هوميروس لا يأتي الوصف إلا عرضاً ولا يوصف من الأشياء إلا ما دعت إليه الضرورة، وأكثر الاهتمام مصروف إلى القصص؛ فلما جاء شعراء الدراما واستغلوا نفس موضوعات هوميروس أحياناً، وشوها ببديع الأوصاف الفنية المقصودة لذاتها.
وفي الشعر العربي الجاهلي شذرات من الوصف رائعة، إذ كان ذلك الشعر بلغ من الفنية حداً لا باس به؛ وكان لبعض الشعراء إلمام بالموصوفات يبدون فيه ما عرف به العربي من توقد القريحة ونفاذ البديهة وبلاغة الإيجاز؛ ولهم أوصاف حسنة لبعض أنواع الحيوان ولاسيما الجياد والإبل والظباء، وللمواقع والأطلال والأنواء، وفي المعلقات نماذج لكل ذلك ممتعة، حيث يصف كل من عنترة وامرئ القيس جواده ويصف لبيد ناقته، ويصفون جميعاً أطلال ديار أحبتهم
ومن أجود أوصاف الحرب في الشعر الجاهلي قول القائل:
صريف أنيابها صوتت الحديد إذا ... قض الحديد بها أبناؤها الوقر
في جوها البيض والماذي مختلط ... والجرد والمرد والخطية السمر
جاءت بكل كمي معلم ذكر ... في كفه ذكر يسعى به ذكر
لهم سرابيل من ماء الحديد ومن ... نضح الدماء سرابيل لهم أخر
مضاعفات عليهم يوم بأسهم ... لونان جون وأخرى فوقهم حمر
وبانتشار الحضارة وذيوع الثقافة اتسع باب الوصف في العربية أعظم اتساع، ووصف الشعراء مظاهر العمران والترف وقصور الملوك ومواكبهم وحدائقهم وجيوشهم وسفائنهم، ووصفوا الخمر ومجالس الشرب والطرب، ووصفوا الجواري والغلمان، ووصفوا الصيد والسباق، وأولع الجاحظ وبديع الزمان بوصف الأحوال الاجتماعية، فصورا مناظر في الحمام وفي السوق ومواقف التخاصم والتقاضي، وأجريا الحوار بين شتى الأشخاص عالهم وسافلهم. وأشتهر أبو نواس بوصف الخمر، والبحتري بوصف القصور، والمتنبي بوصف
الحروب، وابن الرومي بوصف الفواكه والمآكل وتصوير الشخصيات الهزلية
ولما تغلبت الصناعة وطلبت البراعة اللفظية والنكتة المعنوية والتأنق والتظرف، انعدم الحس أو كاد في الوصف، وتعلق الأدباء بوصف توافه الأشياء كالمحبرة أو الإسطرلاب أو القلم أو الكأس، أو ما شابه ذلك مما هو في غنى عن الوصف، وما وصفه إلا تحصيل حاصل وإضاعة وقت، فإن الأصل في الوصف الفني كما تقدم أن يكون له باعث من شعور صميم، لا أن يكون الغرض منه حكاية تفاصيل باردة فاترة. وقد أولع بذلك الضرب من الوصف النظري ابن المعتز وابن خفاجة وكشاجم؛ فلما أوغل الأدب في التصنع وجانب الأدباء كل ذوق وكل معقول في التعمل والأغراب، انقلب الوصف في أيدي أكثرهم ألغازاً، فألغزوا في أنواع المآكل والأسماء والآلات، وبأمثلة هذا الضرب من الأحاجي السقيمة تمتلئ مقامات الحريري وأشعار ابن نباتة المصري وأضرابه
والأدب الإنجليزي حافل منظومه ومنشوره بمحاسن الأوصاف؛ بيد أن باب الوصف فيه مخالف للوصف في الأدب العربي من وجوه شتى: فهما مختلفان في الموضوعات التي اتخذها كل منهما مادة وأدمن طروقها؛ فقد تناول الأدب العربي - كما تقدم - وصف أنواع من الحيوان، ووصف مظاهر اللهو والرفاهية، وتناول بعد ذلك قليلاً من وصف الطبيعة والمجتمع؛ أما الأدب الإنجليزي فهو أحفل بوصف هذين الأخيرين منه بوصف أي شيء آخر، فالطبيعة كانت قبلة أكبر شعرائه وكتابه وشغلهم الشاغل، ووصفها كان دأبهم أياً طرقوا من موضوعات القول، فامتلأ الأدب الإنجليزي بكنوز من أوصاف الطبيعة، تكاثر ما قيل في أي باب آخر من أبواب الشعر والنثر؛ فالوصف

الطبيعي مادة جانب عظيم من الشعر الإنجليزي، كما إن الوصف الاجتماعي مادة جانب عظيم من القصص والدرامات

وفي الأدب الإنجليزي ضرب آخر من الوصف يستأثر به دون الأدب العربي، على إنه من صميم الفن وأعلق نواحيه بالإنسانية الشاملة والشعور العميق، ذلك هو وصف آثار الأقدمين من عمائر وحصون وتماثيل وصور وأبناء وعظائم، ففي ذلك كله منادح للخيال ومجال للابتداع ومذاهب للفكر، وتأملات في أحوال الإنسان وتقلب العصور والأحداث، وتعظيم لقدرة الإنسان وتقدير للفنون، وكل ذلك يكاد يكون معدوماً في الأدب العربي، والمثل الرائع الفريد في هذا الباب هو سينية البحتري التي لو كثرت مثيلاتها في الأدب العربي لكان أرفع قدراً، وكان أعلامه أسير في العالمين ذكراً

ولم يقتصر أدباء الإنجليزية على آثار التاريخ يستوحونها ما فيها من منادح الوصف الشائق والتصوير المجسم، بل عمدوا إلى الخرافة ولعلها أحفل بذلك من التاريخ، إذ كانت أحفل منه بآثار الخيال وأحلام الإنسانية ومثلها العليا في القوة والجمال والسعادة، فاتخذ الشعراء والقصاصون تلك الخرافات مادة وهيكلا لمنشآتهم، ورصعوها بما شاءت لهم براعتهم من أوصاف ووجدوا في أشعار هوميروس وفرجيل وقصص العصور الوسطى وأساطير الشرق والغرب مجالاً لفنهم، فأعادوا سرد ما راعهم من حوادثها ومواقفها سرداً فنياً مسهب الوصف مشبعاً بجميل المناظر والعواطف.

وكما يختلف الوصف في الإنجليزية عنه في العربية في الموضوع اختلافاً كبيراً، يخلفه في الوسيلة مخالفة معدودة، ففي العربية أوصاف بالغة من الكمال والإمتاع، بيد أنها جميعاً تعتمد على المعنى دون اللفظ، وعلى التشبيهات والمجازات، وتحتوي على كأن أو كاف التشبيه ظاهرة أو مستترة، أما في الإنجليزية فيستعين الشعراء بجنب هاتيك جميعاً على وسيلة أخرى، ليست أقل أداء للغرض وتصويراً للمنظر وإشباعاً للخيال والحواس، تلك هي الملاءمة بين صوت اللفظ وبين المعنى المصوغ فيه

وهذه الطريقة التي يلجأ إليها الإنسان عمداً وعن وعي في طور الأدب الفني، قد لجأ إليها في عهوده البدائية، أيام كان يصوغ ألفاظ لغته ويطلق كلاً منها على كائن من الكائنات، أو صوت من الأصوات، أو عمل من الأعمال، أو غير ذلك. فألفاظ الرشاش والشواظ والسلسبيل والسكون وغيرها، تدل بنطقها على مدلولها لأن الأقدمين إنما اشتقوها من هيئة مدلولاتها، فعلوا ذلك عفواً وبداهة، حتى إذا ما بلغ الأدب الطور الفني واستعان الشعراء والكتاب بالتدوين وأطالوا التجويد لما ينشئون استرعت الألفاظ انتباههم بعد أن كان جل اهتمامهم موجهاً إلى المعاني؛ وعند هذا الحد من التطور افترق الأدبان العربي والإنجليزي في طريقة استخدام الألفاظ. فأما الأدب العربي فجعل اللفظ غاية في ذاته، وجعل التأنق فيه مطمحاً مستقلاً، وأما الأدب الإنجليزي فعالج اللفظ وراضه وتأنق في صياغته، ولكن لا على أنه غاية في نفسه، بل على أنه وسيلة للمعنى لا أكثر

فإذا كان في المنظر المراد تصويره حركة كجريان نهر أو عدو جواد، استخدم الشاعر الإنجليزي بحراً من بحور الشعر يلائم تلك الحركة، وإذا كان به صوت أو أصوات مختلطة كهدير الأمواج أو قصف المدافع، اختار من الألفاظ تلك التي تحتوي على حروف خشنة قوية، وإذا كان يصف منظراً ساكناً وادعاً لم يذكر ذلك في القصيدة ذكراً، وإنما استعمل الألفاظ ذات الحروف اللينة كالسين مثلاً، وهناك عدا هذا وذاك ضروب شتى من الملاءمة بين الصيغة والمعنى يفتن فيها الشاعر الوصاف ما شاء له فنه، ككثرة العطف أو القطع، وتكرار الحروف أو الكلمات أو التراكيب أو الشطور أو الأبيات الكاملة. وقد اشتهر بالتفنن في هذا التصوير اللفظي تنيسون وسبنسر وملتون، بل سائر أقطاب الشعر الإنجليزي، بل جاراهم في ذلك بعض الكتاب مثل ستيفنسن وقد وقع شيء من ذلك في بعض أشعار الوصف في العربية، ولكنه كان إلهاماً محضاً أو اتفاقاً عارضاً ساقت الشاعر إليه الصدفة السعيدة أو السليقة المجيدة، دون أن يتعمده عن وعي أو يتكلف فيه عناء كالذي تكلفه في استخراج ما به من تشبيه ومجاز.

ويتجلى الفرق بين الأدبين في هذا الصدد في علم البديع فيهما: فالبديع في العربية يشمل الجناس والسجع وهلم جرا، وهي محسنات للفظ مستقلاً بنفسه وليست لها علاقة بالمعنى، أما علم البديع في الإنجليزية فيشمل الملاءمة بين جرس الألفاظ وبين المعاني التي تؤديها، ويشمل تشابه الحروف الأولى في جميع ألفاظ الجملة الواحدة

لأداء المعنى بطريق الجرس أيضاً، وغير ذلك من حيل بلاغية ليست لها مصطلحات تترجم إليها في العربية، لأنها لم تكن من مألوف أدبائها
واللغة العربية بغزارة مادتها وتلاطم عبابها وتعدد أوزانها وقوافيها، وجمعها بين وعر الألفاظ ولينها، ودقيق الأوصاف وجليلها، وما لها من مرونة في التراكيب ورحب في الأساليب ومطاوعة لفن الأديب، هي خير معوان له على إبراز شتى الصور من جرس الحروف وتتابع الألفاظ وتجاوز التراكب، وتدفع الأوزان ورنين القوافي. انظر إلى الوزن كيف ساعد على إبراز المعنى في قول بشار في صوت مغنية:
تميت به أرواحنا وقلوبنا ... مراراً وتحييهن بعد هجود
وقول ابن المعتز في خيل السباق:
خرجن وبعضهن قريب بعض ... سوى فوت العذار أو العنان
ترى ذا السبق والمسبوق منها ... كما بسطت أناملها اليدان
ساعدت السليقة المواتية أو الجد الموفق بشارا، فجاء بيته ذاك ببحره الطويل وحروف اللين المتتالية الوئيدة الحركة في (تميت) و (أرواحنا) و (قلوبنا) و (مراراً) و (تحييهن) و (هجود) أصدق مصور لصوت المغنية إذا هي مددته وخالفت بين المدات فيه والقصرات، ويبدو ذلك جلياً إذا قرء البيت على مهل. كذلك حالف التوفيق ابن المعتز فاختار لبيتيه البحر الوافر المتدفق تدفق الخيل في مجالها، وحالفه التوفيق مرة أخرى فذكر العذار والعنان، وفضلاً عن تتابع هذين اللفظين مما يزيد الحركة جلاء فإن ذكرهما مما يزيد الصورة تجسماً، فإن ذكر جزء من الصورة دون بقية الأجزاء كثيراً ما يزيد الصورة وضوحاً، ويبعث من تلقاء نفسه باقي الأجزاء إلى الخيال. ولذلك مثال آخر في قول جميل:
ولما قضينا من منى كل حاجة ... ومسح بالأركان من هو ماسح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ... وسالت بأعناق المطي الأباطح
فذكر الأعناق هنا بلاغة فائقة، فهو يستسيغ إلى المخيلة منظر الإبل والأباطح والركب، ويرسم حركة المطي معا. ومما يزيد الحركة تصويراً اختيار الشاعر البحر الطويل البطيء النغم. وهناك وسائل أخرى لتجسيم الحركة البطيئة، منها كثرة العطف ففيها دلالة على التطاول والتواني، ومنها كثرة الألفاظ القصيرة فإنها تستغرق نفس القارئ حتى يكاد يلهث بعد قراءتها، ومن ثم يشعر بالبطء في المعنى تبعاً للبطء في اللفظ.
ومثال الوسيلة الأولى قول امرئ القيس في تتطاول الليل
فقلت له لما تمطى بصلبه ... وأردف أعجازاً وناء بكلكل
ومثال الثانية قول المتنبي:
خميس بشرق الأرض والغرب زحفه ... وفي أذن الجوزاء منه زمازم
فقد احتوى بيت امرئ القيس على ثلاث جمل معطوفة، واحتوت الشطرة الأولى من بيت المتنبي على خمس كلمات كلها قصير، إذا قرأها القارئ متروياً جاءت بطيئة مشعرة ببطء الجيش أو موحية بضخامته، فلم يذكر المتنبي صراحة ومباشرة أن الجيش كان (ضخماً) فيعتمد على المعنى وحده في إعطائنا الصورة، بل أوحى إلينا بمعنى الفخامة بوساطة كلمات الشرق والغرب والزحف، ولا علاقة لهذه الكلمات في غير هذا البيت بالضخامة
قط، وبذلك استخدم المتنبي اللفظ ونطقه لأداء المعنى وهي هي الوسيلة التي استغلها أدباء الإنجليزية قصداً وعمداً أكبر استغلال وأبدعه. أما الحركة السريعة فيؤديها البحر الكامل المتدفق، وهو لذلك خير ما يصور فيه عدو الجياد، كما في قول المتنبي
أقبلت تبسم والجياد عوابس ... يخبن بالحلق المضاعف والقنا
وقول ابن هانئ الأندلسي:
وفوارس لا الهضب يوم مغارها ... هضب ولا الوعر الحزون حزون
ففي هذين البيتين تصوير رائع لعدو الخيل. وقد ساعد التوفيق الشاعرين في ألفاظهما بجانب الوزن الذي اختاراه، فتكرار حرف الباء في بيت أبي الطيب مما يزيد وقع حوافر الخيل في بيته جلبة ووضوحاً، وتكرار كلمتي الهضب والحزون في بيت ابن هانئ يوحي إلى المخيلة تتابع الهضاب والروابي أثناء عدو الفوارس، حتى يكاد يتخيل الإنسان سيقان الخيل وهي تنهب تتلك الحزون وتقفز من ربوة إلى ربوة. ويكاد البيت يعرض أمامك شريطاً سينمائياً متحركاً، ومتى بلغ الشاعر هذا المدى من دقة التصوير

وروعته، فقد أوفى على الغاية من الفن والشاعرية، كذلك نرى الوزن واللفظ قد اصطلحا على إبراز المعاني في قول مسلم بن الوليد في مفازة:

تمشي الرياح بها حيرى مولّهة ... حسرى تلوذ بأطراف الجلاميد

وقول ابن حمديس:

وراقصة لقطت رجلها ... حساب يد نقرت طارها

وقول المتنبي:

في سعة الخافقين مضطرب ... وفي بلاد من أختها بدل

ففي بيت مسلم تكاد تحس الرياح المحرقة تلفح وجوهنا ونتمثلها تضرب جوانب الصخور؛ وفي بيت الصقلي تتمثل حركة الراقصة السريعة الخاطفة؛ وفي البيت الثالث تتمثل المتنبي على ظهر ناقته وهي تخالف بين أظلافها ممعنة في الذهاب. لما يمتاز به بحر المنسرح من اضطراب الحركة واندفاعها، على حين يمتاز بحر الخفيف بالتؤدة وزنة الحزن، مما يجعله أليق البحور بالمراثي والوجدانيات، وهو من أهم أسباب سيماء الوقار والشجن التي تتسم بها دالية المعري المشهورة التي مطلعها:

غير مجد في ملتي واعتقادي ... نوح باك ولا ترنم شاد

وصفوة القول أن الأدبين العربي والإنجليزي قد احتويا على بدائع من الوصف، هي غذاء اللب ومتاع الخيال؛ بيد إن آثارها في الأدب الإنجليزي أغزر، ونواحيها أكثر تعدداً، ونصيب الطبيعة منها أوفر، ووسائلها أكثر عدداً واختلافاً، وأدباء الإنجليزية كانوا أكثر بصراً بها وأطول رياضة لها، وكان نجاحهم فيها راجعاً إلى المجهود المتبصر الواعي، بجانب الطبع الصادق المواتي على حين كان نجاح أدباء العربية الذي مرت بعض أمثلته راجعاً في أكثر الأحيان إلى عفو الخاطر وهداية البديهة، وما ذاك إلا لأن أدباء الإنجليزية كانوا أكثر عكوفاً على فنهم، وتفرغاً لأدبهم، على حين كان أدباء العربية يولون الأمراء وذوي الهبات من اهتمامهم وتفرغهم ما كان فنهم به أحق، وشاعريتهم به أولى

فخري أبو السعود

ثورة دجلة

للأستاذ علي الطنطاوي

ازدادت دجلة يومي الأربعاء والخميس 3، 4 صفر 1355 زيادة هائلة لم تكن منتظرة،) وغدت بغداد عرضة للغرق بين كل لحظة وأخرى، وسيق الناس كلهم للعمل على إقامة السدود، ولم تغمض في بغداد ليلة الخميس عين. . . وكان شيء عظيم . . .)

كانت تجري في الوادي حالمة سكرى، غارقة في بحر من الحب والشعر، هادئة لا ترى فيها إلا آثار هذه القبل المعسولة التي تطبعها الشمس على وجنتيها الصافيتين كل صباح ومساء، تخطفها منها في غفلة من الطبيعة، فلا يبصرها إلا الشفق الذي يطل من نافذة الأفق يرميها بنظرة الكاشح الحاشد، فيحمر وجه دجلة الفتاة من الخجل. وتغمض عينيها من الحياء ثم تسرع في جريها . . .

وكانت تتلقى بين ذراعيها العاشقين المدلهين، كلما دجا الليل وأطفئ مصباح الكون، وهم في الزوارق ذوات الأجنحة البيض التي تشبه قلوبهم في بياضها وخفقانها، فتحدب عليهم، وتحفظ أسرارهم، وتمنحهم الخلوة الحلوة الآمنة، وتترع نفوسهم بالجمال والشعر، حتى يغيبوا عن الوجود في حلم فاتن بعيد . . .

وكانت تغضي عن هذا النخيل العاشق، وقد تعانق كل زوجين منه، وتلامسا بالشفاه، واستسلما إلى الغيبة الهنيئة، وعن هذه القصور التي تفيأت ظلاله، سكرى بخمرة الجمال، قد ضمت احناءها على حياة لذة وادعة، ملؤها الحب . . .

وكانت دجلة جمال العراق ونعمته وحياته . . .

وكننت أذهب كل مساء، إلى جسر مود، انحدر من الرصافة، أمشي في طريق ضيق، كأني أهبط وادياً منن أودية بلادي الحبيبة، ثم أصعد حتى أبلغ ضفة الكرخ، فأسلك شوارع الصالحية، حتى أصل إلى المطار. . . حيث أبقى ساعة شاخصاً إلى الأفق البعيد أتبصر فيه طيف موطني الأصغر وأتحسس نسمه فأشم فيه شذا الغوطة، وانشق ريا نشرها العطر، وعرف آسها ونسرينها، وفلها وياسمينها، وزنبقها ونرجسها. . . حتى إذا قضيت من ذلك وطراً، عدت وقد خلا الجسر، فحييت دجلة، وصببت في أذنيها آلامي وأحزاني، وأستمنحتها الراحة والاطمئنان، ثم مضت إلى وكري المنعزل، في (الأعظمية) بنفس هادئة

. . .كدجلة مطمئنة كاطمئنانها
وذهبت في مساء الأمس، كما كنت أذهب، فإذا الأرض قد بدلت غير الأرض، وإذا الجسر الذي كان وادياً ننحدر إليه، قد أمسى جبلاً نتسلقه، وصار أعلى من الشارع وقد كان تحته، وإذا الناس يقبلون عليه، فأقبلت معهم وعلى وجهي من الدهشة والحيرة مثل ما على وجوههم من الروعة والفزع، ونظرت فإذا النهر الذي كان يجري في الأعماق هادئاً متطامناً حالماً، يبدو كأنه صفحة المرآة، لا تنداح عليه دائرة، ولا تموج فيه موجة، قد علا وارتفع وعاد ثائراً هائجاً فضاحا، له هدير ودردرة، قد علاه موج كالروابي. . . وإذا هو قد نسي سنه ووقاره. وأضاع حلمه وعلمه، ورجع شاباً مجنوناً أهوج، يقفز ويصرخ، ويقرع الأرض بقدميه، ويضرب بقبضته القويتين المخيفتين أبنية الشاطئ الآمن، ويعبث بهذه الكرات الحديدية الضخمة، التي أقيمت لتثبيت الجسر العائم والتي ترجج بالقناطير، وتزن الصخور الجلاميد، ويقذف بها هنا وهناك كما يقذف الصبي كرته. . . وإذا هو مرعب حقا، يدخل الروع على أجلد الرجال. . .
وكانت الوجوه كالحة، قد ارتسمت عليها سمات الذعر الشديد والماء يرتفع، لم يبق بينه وبين الشاطئ إلا شبر واحد. لقد بلغ عمق المياه خمسة وثلاثين متراً وعشرين معشاراً. . . وخمسين. . . إنه لا يزال يرتفع. . . لقد صاقب الشاطئ. . . إن بغداد في خطر!
وطارت كلمة الخطر على الألسنة، ففزع الشعب، واهتمت الحكومة، ووضع قانون المساعدة الإلزامية، فابتدر الناس الشاطئ، واستبقوا إلى العمل. . . يقيمون السدود، ويضعون للمجنون القيود، ولكن المجنون لا يبالي بقيد الذباب. . . إنه يقتل أمة منها بضربة واحدة. . .
إن النمر يقفز في حبسه ويثب، لقد جن: إنه يريد أن يخرج فينبعث في الأرض، يريد أن يمشي إلى هذه الجنات الظليلة، التي طالما أمدها بالحياة، وحمل إليها النعمة، ليحمل إليها الموت!
وبدأ الصراع المهول بين الطبيعة والإنسان. . . وأمسى المساء على بغداد وهي قائمة على قدم وساق، ليس فيها من يبيع أو يشتري أو يلهو أو يلعب، أو يطعم أو يشرب.،. ليس لها إلا غاية واحدة، هي النجاة من الغرق. . .
وكنت قد بلغت منزلي فصعدت السطح، فانحسرت أمامي صفحة دجلة، وهي تلتوي من حول الأعظمية كالأفعى، تطيف بها كالفضاء النازل، وقد استرخت عند المنحنى وتمددت على الحقول والدور التي هجرها أهلوها، فصار عرضها أكثر من ألفي متر. . . وصارت بحراً خضماً، ولكنه يركض دفاعاً يحمل في طياته الموت والغرق والخراب، وكانت حمرة الشفق تخالط الماء، فيلتهب فيبدو كأنه أتون مستعر، أو كأنه جهنم الحمراء. . .
وبسط الليل ثوبه الأسود على الدنيا، فأخفى تحته ثمانية وأربعين ألف شاب، يشتغلون لينقذوا بغداد من الغرق المحقق، من ورائهم أربعمائة ألف قلب، تحوطهم بالرعاية والحب. . .
واستمر الصراع المهول. . .
وكان الناس من الفزع والذعر كأنهم في يوم القيامة؛ غير أن المرء في يوم القيامة يجد ما يشغله عن أمه وبنيه، وصاحبته وأخيه؛ وهنا أم حائرة مولهة قد ضاع منها ولدها في وسط الزحمة فهي تعدو وتصيح من غير وعي لا تدري أهو في الأحياء، أم أفترسه هذا النمر الجبار. . . وهنا بنت تفتش عن أمها، وولد ينادي أخاه، وأسرة قد هيأت متاعها ووقفت على باب الدار تنظر الساعة الرهيبة التي يطغي فيها الماء فيدك أدوارها وما فيها ويدعها فقيرة مسكينة، مسكنها الشارع. . . وشباب عصفت النخوة برؤوسهم فهم يقدمون، يتسابقون إلى الخطر. . . وتلاميذ قد دفعتهم الحمية فأقبلوا يتبادرون الموت، والجنود يعملون في كل مكان بهمهم الأسود. . .
كان الصراخ يملأ الجو: هتاف الشباب، وأنغام الجند، وصياح النساء، ونداء الأولاد، والنهر فوق ذلك كله يهدر هديره المستمر المرعب، فيكون له في هذا الليل دوي مخيف، والحركة متصلة، والشوارع ممتلئة بالناس. . .
ولكن السلامة توالت. ووقف النهر عن الارتفاع، ولم يقع الشق (أي الكسر) الذي كانوا يخشونه، وكان قد تصرم الهزيع الأول من الليل، فأمن الناس، وتفرقوا إلا قليلاً قاموا

يحرسون النهر، ودخلوا بيوتهم، وولجت داري أستريح، فما لبثت أن ذهبت في رقدة عميقة.
رأيت المياه تنساب في كل جهة، تغني أغنية الرعب، تقتلع البيوت ثم تلقي بها إلى بعيد،
وتلج في باطن الأرض ثم تقلبها بما عليها، وتصعد في الجو، ثم تنزل كالبلاء المصبوب. . ثم انصدع صدع عظيم وهويت إلى قعر الهاوية، وكان حولي مئات من النمور والفهود والأفاعي، وسمعت رعداً شديداً، ورأيت برقاً ومطراً، ثم عادت السيول تجري، تدحرج آلافاً من الصخور.
فتحت عيني. . وإذا الحلم حقيقة، وإذا الصيحة في الحي والقيامة قد قامت، . . . وخفارات الحراس، وأبواق الجنود تصدح باستمرار، والنساء يولولن ويعدون، والأطفال تبكي وتركض في كل مكان، والرجال تصيح طالبة النجدة؛ وتبينت وسط الضجة الكلمة الرهيبة: كسر النهر. . النهر انكسر!
وتدفق سيل العرم!
إن هذا النهر الذي جاء من قمم الأناضول الشاهقة وسلك على السهول الممرعة، والصحاري المجدبة، قد تعب من سيره الطويل المضني. فجاء يستريح على هذه الحقول التي زخرفها الربيع وأزهر فيها النارنج، وفتح الورد والقرنفل والفل، واترع نسيمها العطر. فيحيل ذلك كله إلى صحراء قاحلة. جاء يغرس هذه الحياة الرخية السعيدة بزور اليتم والفقر والنكد.
ولكن الذنب علينا؛ لو أنا أنشأنا له مأوى يستريح فيه وسريراً ينام عليه، لهجع فيه إلى أيام الصيف، ثم لخرج بالبركة واليمن إلى أراضينا وبلادنا!
تركت الدار وخرجت أسبح في هذا الخضم من الناس، أدفع النساء والشيوخ والشباب، لأصل إلى الشاطئ فأعمل عملاً ولست أدري ماذا أعمل؟ ولست أحسن السباحة، ولست أعلم ما الفائدة من ذهابي، ولم أفكر في شيء من ذلك لأن الإنسان لا يفكر في ساعة الخطر، وإنما يعمل. . فلما وقفت على الصدع هالني وأرعبني أن النمر قد أفلت من القفص. وخرج يعدو مجنوناً مستطار اللب، كاشراً عن أنيابه يزمجر ويزأر، ويبرق ويرعد
إن الماء يندفع إلى العلاء بقوة الديناميت، ثم ينزل على الحقول، فيقضي فيها مكتسحاً كل شيء في طريقه، يقتلع الأشجار الضخمة، ويقذف بها كأنما هي عيدان الكبريت، وينسف البيوت كأنما هي علب من الورق، ويتدفق من كل جهة. . . وقد ابتلع صوته المدوي كل ضجة، وملأ الأسماع بترتيلة الموت المستمرة. . . وكان لمنظره في ظلمة الليل صورة لا
توصف. .
وأقدم الناس، يسبقون الماء ليقيموا في وجهه السدود، ليقيدوا هذا النمر الهائج بحمية منقطعة النظير، وحماسة نادرة المثال. . . وأقدمت أخوض هذه اللجة من الناس، لأصل إلى هذه اللجة الطامية من الماء أمشي في ظلمتين: ظلمة هذا الحشد المزدحم. وظلمة الليل البهيم، أتعرض لرهبتين: رهبة الليل وسواده، والسيل واندفاعه. . . أصغي إلى لحنين: لحن الروع على ألسنة الناس، ولحن الهول على لسان النهر. . . ولم أخش شيئاً. . .
إنها ساعة الخطر. . .
بوركت يا ساعة الخطر! أنت لحظة الإنسانية. أنت التي تورق فيك أغصان الحب، ويزهر فيك الإخلاص، ويعود الناس فيك إخواناً متحابين. قد خرجوا من أطماعهم ومات في نفوسهم الحسد والبغضاء وعاش فيها الحب والتضحية والإخلاص والوئام. .
تقدمت إلى الأمام ولكن لم أصل إلى شيء، لأن الناس كانوا يستبقون العمل، ويهرعون إلى الموت، كأن العمل غنيمة، والموت وليمة. . وكانوا يصرخون صراخ الحمية. ويهتفون باسم الوطن والمروءة والشجاعة. . ومرت على ذلك ساعة كاملة والصدع يتسع، والماء يزداد اندفاعاً، فكلت الأيادي النشيطة، وجمدت الصيحات والأناشيد على الشفاه، وخامر الناس اليأس. .
هنالك انتبهت فإذا أنا أسمع النشيد الذي ارتقبه واصبوا إليه، ليس نشيد الوطن والمروءة ولكنه أجل وأقوى، النشيد الذي له قوة السيل، وعظمة البحر، وبهاء

الشمس، وصلادة الصخور. النشيد الذي لا يقوم له شيء، النشيد الذي كان أجدادنا يهتفون به، كلما حاقت بهم ضجة فيدكون به كل حصن ويكتسحون كل عدد، ويخلصون من كل خطر. النشيد الذي يحيل الجبان بطلاً، واليأس أملاً، والطفل رجلا. .

ذلك هو نشيد الرجال والنساء والأطفال بصوت واحد يجري على قرع الطبل، فيشق الليل، ويخشع له كل من يسمعه حتى النخيل والحقول، والسحاب والنجوم، وهذا النمر الثائر

الله أكبر - الله أكبر - لا إله إلا الله

الله أكبر - الله أكبر - ولله الحمد

وبدأ الصراع كرة ثانية. .

وأقبلوا على العمل بهمم لا تثنى، وقلوب لا تلين، وسواعد لا تكل. .

وصب النشيد في عروقهم روح الظفر. . .

فظفروا. . .

وعندما كانت الشمس تطبع أول قبلاتها على جبين الكون كان الموكب الظافر قد رجع، يحمل أجمل أزهار الرياض التي أنقذها وحماها من الغرق. . يمشي فيه الجند والطلاب، بصفوف منتظمة، قرأت فيها أروع شعر الحياة. . . كما تلوت في هذه الجماهير المنثورة في كل مكان أبلغ (نثرها). . .

وكان الإشراق يكسو الوجوه، وغناء النصر يرقص على الألسنة. . .

فوقفت أحيي هذه المواكب الماجدة، حتى غابت عني في طريقها إلى بغداد:

ألف تحية أيها الأبطال الذين مشوا إلى الموت، لينقذوا بلادهم من الموت.

ألف تحية أيها الشعب القوي العامل الجريء.

ألف تحية أيها الطلاب المبرؤون الذين حملوا الفئوس والمعاول، وأقاموا من جسومهم الملساء الناعمة سداً في وجه هذا السيل الطامي. . .

ألف تحية أيها الجنود البواسل، يا حماة الديار، يا من وطنوا نفوسهم على محاربة كل من يريد ببلادهم شراً، سواء لديهم أكان جباراً من جبابرة الإنس، أو عفريتاً من عفاريت الجن، أو قوة من قوى الطبيعة. . .

لكم مني ألف تحية وألف سلام!

(بغداد)

علي الطنطاوي

سر مجهول في تحريم لحم الخنزير

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

- 2 -

ويمكننا بعد هذا أن نحكم بأن الخنزير من جنس السباع مثل الكلب، لأنا إذا جرينا على ما جاء في القاموس من أن السبع هو المفترس من الحيوان فالخنزير يفترس الحيوانات كالسبع، خصوصاً إذا لم يجد ما يأكله من العشب. فإنه يصير إلى أن يكون آكل لحوم، فيفترس الحيوانات الحية، ويأكل من لحومها، كما جاء في كتاب (الحجج البينات في علم الحيوانات)

وكذلك إذا جرينا على ما جاء في كتاب النهاية لابن الأثير من أن السبع هو ما يفترس الحيوان ويأكله قهراً وقسرا، لأن هذا يوجد في الخنزير أيضاً، أما إذا جرينا على ما ذكره أبو حنيفة من أن كل ما أكل اللحم فهو سبع فأمر الخنزير في السبعية عليه أظهر، لأنه لا يشترط فيها الافتراس كما اشترطه فيها غيره، بل يكتفي فيها بأكل اللحم، ولذلك عد الفيل ونحوه من جنس السبع

فأما إذا جرينا على ما ذكره الشافعي من أن السباع المحرمة هي التي تعدو على الناس فإنا نجده ضيق في ذلك بما لم يضيق به غيره، ولكن الخنزير يدخل في السباع على ذلك أيضاً، لأن الخنازير كثيراً ما تجاهر الناس العداء وتحمل على الإنسان بدون أن يغيضها، كما جاء في دائرة معارف البستاني

على أن الحديث الوارد في تحريم (كل ذي ناب من السباع فأكله حرام) يظهر منه أن لأنياب السباع أثراً في تحريمها، بل الظاهر منه أنها هي العلة في هذا التحريم. ولاشك أن هذه العلة في الخنزير اظهر منها في سائر السباع لأن قوة نابه لا توجد في غيره منها، وقد بلغ من أمرها أن يتغلب بها أحياناً على الأسد، كما جاء في كتاب حياة

الحيوان وغيره من الكتب القديمة والحديثة في علم الحيوان
وإذن يكون تحريم لحم الخنزير لسبعيته، وتكون هذه السبعية هي التي جعلت الإسلام ينظر إليه هذه النظرة البغيظة. وإذا كان الإسلام قد أهتم بأمره أكثر من غيره من السباع فأنزل تحريمه في القرآن الكريم، وحكم بنجاسته مع تحريمه ولم يحكم بنجاسة غيره من جنسه،
فإن الجاحظ رحمه الله قد بين حكمة ذلك في كتاب الحيوان (ج4 ص13) وإن كانت هذه الحكمة قد جاءت في الموازنة التي عقدها بينه وبين القرد، لا فيما نحن بصدده من ذلك الأمر السابق؛ وهذا ما قاله في تلك الحكمة: إنما خص الخنزير بالذكر دون القرد مع استوائهما في المسخ لما فيه من قبح المنظر، وسماجة التمثيل، وقبح الصوت، وأكل العذرة مع الخلاف الشديد، واللواطة المفرطة، والأخلاق السمجة. وقد زعم ناس أن العرب لم تكن تأكل القرود، وكان بعض كبار القبائل وملوكها يأكلون الخنزير. فأظهر الله لذلك تحريمه إذ كان هناك عالم من الناس، وكثير من الأشراف والوضعاء، والملوك والسوقة، يأكلونه أشد الأكل، ويرغبون في لحمه أشد الرغبة.
ثم ذكر أن الخنزير يكون أهلياً ووحشياً كالحمامير والسنانير مما يعايش الناس، وكلها لا تقبل الآداب، وأن الفهود وهي وحشية تقبل كلها ذلك، كما تقبله البوازي والشواهين وغيرها، والخنزير وإن كان بهيمة فهو في طباع ذئب
فهذه الخصال التي اجتمعت في الخنزير هي التي جعلت الإسلام يهتم بأمر تحريمه ذلك الاهتمام؛ والمهم منها في نظرنا ما ذكره الجاحظ من شغف كثير من الناس بأكل لحمه واستطابته فإن هذا في الحقيقة هو الذي اقتضى أن يعنى بأمر تحريمه في الإسلام هذه العناية.
وقد أجمع الفقهاء بسبب ذلك على تحريم لحم الخنزير واختلفوا في تحريم لحم غيره من السباع، لأنه لم ينص على تحريمها في القرآن كما نص على تحريمه، ولكن جمهورهم على تحريم لحمها أيضاً، ومن خالفهم في ذلك قال بكراهة لحمها دون تحريمه. وقد اختلفوا أيضاً في تحريم الخنزير البحري، قال الربيع: سئل الشافعي رضي الله تعالى عنه عن خنزير الماء، فقال: يؤكل
وروي أنه لما دخل العراق قال فيه حرمه أبو حنيفة وأحله ابن أبي ليلى، وروي هذا القول عن عمر وعثمان وابن عباس وغيرهم، وقد أبى مالك أن يقول فيه شيئاً، وأبقاه مرة أخرى على جهة الورع. وحكى ابن أبي هريرة عن ابن خيران أن اكاراً صاد له خنزير ماء وحمله إليه فأكله، وقال كان طعمه موافقاً لطعم الحوت سواء. وقال ابن وهب سألت الليث بن سعد عنه فقال: إن سماه الناس خنزيراً لم يؤكل، لأن الله حرم الخنزير
وهذه العلة التي ذكرناها في تحريم لحم الخنزير قد علل بها تحريم لحم الكلب أيضاً، ولا يخفى أن الخنزير والكلب يتساويان في نظر الشارع من هذه الناحية. وقد صرح ابن حميد السالمي الفقيه الإباضي بهذه العلة في تحريم لحم الكلب فقال في باب أحكام صنوف الحيوانات من أرجوزته المسماة (جوهر النظام في علمي الأديان والأحكام)
وما الكلابُ عندنا حلالُ ... ولا السَّنانير كما يقالُ
لأنها من السباع الضارية ... وبعضهم أحلها علاتَيه
وهذه العلة أظهر في الخنزير من الكلب، لأنها تعتمد على وجود الناب الذي يحصل الافتراس به، وقد سبق أن الخنزير أقوى الحيوان ناباً، حتى إنه يتغلب بقوة نابه على الأسد وغيره
أما حكمة تحريم لحم السباع فحفظ الإنسان من صفاتها الوحشية المنافية لبقاء العمران، لأن غذاء الإنسان له تأثير كبير في صفاته وأخلاقه. وقد غالى بعض الشرائع فحرم لحم الحيوان مطلقاً لأنه يورث في نفوس البشر ما يورث من القسوة والغلظة.
والشريعة الإسلامية تنظر إلى لحم الحيوان نظرة معتدلة، فتبيحه في اعتدال ولا تحرمه على أهلها. وقد روي أن من داوم على أكل اللحم أربعين يوماً قسا قلبه. وقيل في ذلك أيضاً (إنما أهلك الناس الأحمران النبيذ واللحم) وعن عمر رضي الله عنه قال: إياكم واللحم فإن له ضراوة كضراوة الخمر وإن الله يكره أهل البيت اللحميين. ولعل

الأيام المقبلة تظهر في تحريم لحم السباع حكماً أخرى غير هذه الحكمة.
عبد المتعال الصعيدي
نقل الأديب
للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي
38 - فمن لها بزياد أو بحجاج
الأبيوردي الأموي:
دهر تذأب من أبنائه نقد ... وأوطئت عرب أعقاب أعلاج
وأينع الهام لكن نام قاطفها ... فمن لها بزياد أو بحجاج
وكم أهبنا إليها بالملوك فلم ... نظفر بأروع، للغماء فراج!
39 - أفضل المناديل
في (الكامل):
قال عبد الملك بن مروان يوماً لجلسائه (وكان يجتنب غير الأدباء): أي المناديل أفضل؟
فقال قائل منهم: مناديل مصر كأنها غرْقئ البيض
وقال آخر: مناديل اليمن كأنها أنوار الربيع
فقال عبد الملك: ما صنعتما شيئاً. أفضل المناديل ما قال أخو تميم (يعني عبدة بن الطيب):
ثمت قمنا إلى جُرْد مسوَّمة ... أعرافهن لأيدينا منادي
40 - كفيت الدعوة
في (مجمع الأمثال) للميداني
أصل هذا المثل: (كفيت الدعوة) أن بعض المجان نزل براهب في صومعته، وساعده على دينه، وجعل يقتدي به، ويزيد عليه في صلاته وصيامه؛ ثم إنه سرق صليب ذهب كان عنده، واستأذن لمفارقته، فأذن له، وزوده من طعامه. ولما ودعه قال له: (صحبك الصليب) على رسم لهم فيمن يريدون الدعاء له بالخير. فقال له الماجن: (كُفيت الدعوة. .) فصار مثلاً لمن يدعو بشيء مفروغ منه
41 - فأرجف في السما
كان ببغداد شخص يقال له ابن بشران، وكان كثير الأراجيف فمنع من ذلك، فقعد على الطريق ينجم، فقال فيه ابن صابر:
إن ابن بشران ولست ألومه ... من خيفة السلطان صار منجما
طُبع المَشُوم على الفضول فلم يُطق ... في الأرض إرجافاً فأرجف في السما
42 - إنك عن لسانه تنطق
في (طبقات الشعراء) للجمحي:
أتى الفرزدق الحسن البصري فقال: إني قد هجوت إبليس فاسمع
قال: لا حاجة لنا بما تقول
. .قال: لتسمعن أو لأخرجن فأقول: إن الحسن ينهى عن هجاء إبليس
. .فقال الحسن: اسكت فإنك عن لسانه تنطق
43 - الشيطان أصلح للشاعر
في (ثمار القلوب في المضاف والمنسوب) للثعالبي:
من ظريف أمر حسان أنه كان يقول الشعر في الجاهلية فيجيد جداً، ويغبر في وجود الفحول، ويدعي أن له شيطاناً يقول الشعر على لسانه - كعبارة الشعراء في ذلك - فلما أدرك الإسلام وتبُدِّل بالشيطان الملك تراجع شعره، وكاد يرك قوله؛ هذا ليعلم أن الشيطان اصلح للشاعر، وأليق به. . .
44 - حتى تجوع ببطن غيرك
في (كتاب القضاة): قال سهل بن علي: كنت ألازم خير بن نعيم القاضي وأجالسه وأنا يومئذ حديث السن. وكنت أراه يتجر في الزيت، فقلت له: وأنت أيضاً تتجر؟! فضرب بيده على كتفي ثم قال: (انتظره حتى تجوع ببطن غيرك) فقلت في نفسي: كيف يجوع إنسان ببطن غيره؟ فلما ابتليت بالعيال إذا أنا أجوع ببطونهم
45 - عمل كل واحد محضرا
قال ابن خلكان: أخبرني ابن مطروح أنه جرى بينه وبين أبي الفضل جعفر بن شمس الخلافة منازعة في هذا البيت:

وأقول: يا أخت الغزال ملاحة! ... فتقول: لا عاش الغزال ولا بقى!
فزعم ابن شمس الخلافة إن هذا البيت له من جملة قصيدة هي في ديوانه، وعمل كل واحد
منهما محضراً شهد فيه جماعة بأن البيت له. وحلف لي ابن مطروح أن البيت له، وكان محترزاً في أقواله، ولم تعرف منه الدعوى بما ليس له

46 - الحظوظ مقسومة

في (معجم البلدان) لياقوت الحموي: رووا عن ابن عباس أنه قال: الحظوظ مقسومة لا يقدر أحد على صرفها ونقلها عن أماكنها. ألا ترى سكة اصطفانوس (في البصرة) كان يقال لها سكة الصحابة، نزلها عشرة من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فلم تضف إلى واحد منهم، وأضيفت إلى كاتب نصراني من أهل البحرين وتركوا الصحابة؟

47 - ما تنكر لله قدرة

في (كتاب قضاة قرطبة)

من المستفيض عن القاضي (أسلم بن عبد العزيز) قوله لرجل من أهل لبلة وقد أتاه وسلم عليه ثم جلس قال:

أتعرفني يا قاضي؟

قال له: لا

قال: أنا قاضي لبلة

فقال أسلم: ما تنكر لله قدرة. . .

48 - أحسن توجيه

في (خزانة) البغدادي:

كان أمير الدولة أبو الحسين بن صاعد الطبيب قاطع (محمد بن حكينا) ثم استماله، وكان ابن حكينا قد أضر بصره وافتقر فكتب إليه:

وإذا شئت أن تصالح بشار بن برد فاطرح عليه أباه. فنفذ إليه برداً واسترضاه فاصطلحا. وهذا أحسن ما سمعت في التوجيه. قوله (بشار بن برد) أي: أعمى (فاطرح عليه أباه) هذه لفظة بغدادية، يقال لمن يريد أن يصالح: اطرح عليه فلاناً أي أحمله إليه ليشفع لك. ولم يتفق لأحد في التوجيه أحسن من هذا

49 - أبن ورد يبغي أباه

مر العالم أبو القاسم بن ورد بجنة لأحد الأعيان، فيها ورد، فوقف بالباب وكتب إليه:

شاعر قد أتاك يبغي أباه ... عندما اشتاق حسنه وشذاه

فلما وقف على قوله علم أنه (ابن ورد) فبادر من جنته إليه، وأقسم في النزول عليه، ونثر من الورد ما استطاع بين يديه

(النقل ممنوع)

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

- 3 -

الديانة المصرية - التأليه في العصور التاريخية

أثرت أقاصيص المعارك التي اشتعل أوارها بين المصريين في عصور ما قبل التاريخ في نفوس أبنائهم المصريين المدنيين تأثيراً دفعهم إلى تحوير هذه الأقاصيص الاجتماعية إلى أساطير دينية فزعموا أن (أوزيريس) - وهو إله الإنبات والخصوبة وبالجملة إله النيل - قد استعان بأخته وزوجته (إيزيس) إلهة الحكمة والتشريع والسحر ورمز الوفاء والإخلاص، وبوزيره (توت) إله العلم والتدبير وبعض الآلهة الآخرين على تكوين مملكة إلهية عظيمة في مصر. وكان لهذا الإله أخ وهو (سيت) إله الشر والقحط والاجداب فحقد عليه من أجل هذا الجلال الباهر الممثل في مملكته العظيمة الصافية، ولأنه لا يستطيع مجابهته وجهاً لوجه رهبة منه وفرقاً أمامه، فقد غدر به إذ احتال عليه بحيلة شيطانية حتى أدخله في تابوت كان قد صنعه خصيصاً لهذه الخديعة بحجة إنه يود أن يعرف سعة هذا التابوت، ثم أقفله عليه وقذف به في النيل فحمله التيار إلى

المصب وسلمه إلى البحر الأبيض فحمله هذا البحر من المصب إلى (بيبلوس). وفي أثناء ذلك افتقدته زوجته الوفية فلم تجده، فأدركت ما حدث له، فصممت على أن تفتش عنه حتى تعيده إلى الحياة وإلا لحقت به، وظلت تجهد نفسها في البحث عنه حتى عثرت عليه وأعادته إلى الدلتا وقبل أن تتمكن من فتح التابوت فاجأها (سيت) وتغلب عليها بقوته ثم مزق جسم أخيه أشلاء عددها اثنان وسبعون شلوا، ألقى بكل شلو منها في مقاطعة من مقاطعات مصر، وكان عددها إذ ذاك يساوي عدد هذه الأشلاء، فلم يفت ذلك في شجاعة إيزيس ولم يضعضع من عزيمتها، بل ثابرت على جمع هذه الأشلاء المتناثرة حتى استكملتها ووضعت كل واحد منها في مكانه الطبيعي، ،ثم تلت عليه بعض ما تعرفه من الرقي والتعاويذ السحرية، فعاد إلى الحياة ولكنها حياة لا تشبه الحياة الأولى، فلم يلبث على الأرض إلا بقدر ما أنسل (هوروس) ثم غادرها واستبدلها بمملكة الأموات العظيمة حيث أصبحت مهمته محاسبة أهل الدنيا ووزن أعمالهم وإصدار الأمر لهم أو عليهم بالنعيم أو بالجحيم

وقد استخلف على مملكة الدنيا من بعده ابنه (هوروس)، ولكن (سيت) عاد إلى مشاكسة هذا الإله الشاب من ناحية القانون فأعلن انه ليس ابن (أوزيريس) لأن (أوزيريس) قد مات منذ عهد طويل، ولأنه من غير الممكن أن ينسل في هذه الفترة الوجيزة التي عاد فيها إلى الحياة على الأرض. وإذاً فليس للعرش الإلهي وارث شرعي إلا هو. وقد رفع بهذه الدعوى قضية أمام محكمة الآلهة فهبت (إيزيس) تدافع عن شرفها، و (هوروس) يثبت بنوته من (أوزيريس) ثم استشهدت الزوجة المتهمة والابن المجحود بالإله اللبق الفصيح (توت) فشهد بشرف الوالدة وشرعية الولد فحكمت المحكمة بالعرش المقدس لذلك الإله الشاب

ومما يلفت النظر في هذه الأسطورة الشيقة هو أن (إيزيس) أثناء طيرانها للبحث عن أشلاء زوجها بكت حزناً عليه فسقطت من عينها دمعة فوق النيل فزاد لساعته، وكان ذلك في شهر بوونة، فظل النيل يزيد في هذا الشهر من كل عام إلى اليوم. ومن الغريب أن يوم بدء هذه الزيادة يسمى في أرياف مصر إلى الآن بـ (يوم النقطة) أي نقطة الدمع التي نزلت من عين (إيزيس). فأنظر كيف أن هذه الثمانية آلاف سنة لم تستطع أن تمحو هذه الأسطورة من صحائف الوجود؟!

روت بعض الأساطير المصرية الأخرى قصة (أوزيريس) و (هوروس) على نحو يخالف ذلك، ولكن هذه الرواية هي أصح الروايات أو بالأحرى هي أكثر الروايات تنسيقاً على نظام الحقائق

ومهما يكن من شيء، فإن أهم الملاحظات العظيمة القيمة في هذه الأسطورة هو أن روح القانون والأنظمة الشرعية كانت سائدة في مصر سيادة تامة حتى في عهود ما قبل التاريخ، ولولا ذلك لما طلب (سيت) عزل (هوروس) عن العرش بحجة إن بنوته من (أوزريس) لم تثبت، ولأن موته سابق على مولد هذا الإله الشاب بزمن طويل. ولولا سيادة هذه الروح القانونية أيضاً لما اضطرت (إيزيس) إلى الاستشهاد بـ (توت) على براءتها وشرعية ابنها وأحقيته في العرش.

ويجمع على هذه الملاحظة كل العلماء الباحثين ويعدونها برهان رقي الحياة الاجتماعية والسياسية والعقلية وإن كانوا يختلفون في موضوع القضية الواردة في الأسطورة فيذهب البعض إلى تأييد الرأي الذي ذكرناه آنفاً، وهو إن الغاية من القضية كانت إثبات بنوة (هوروس) من (أوزيريس) بوساطة زواجه من أخته (إيزيس) ويرجعون زواج الاخوة بأخواتهم عند قدماء المصريين إلى هذه الأسطورة التي يقول البعض: إن (إيزيس) قد ادعتها لتبرر بها موقفها بعد أن ولدت (هوروس) من ناحية، ولتمكن ابنها من الصعود إلى العرش بوسيلة شرعية من ناحية أخرى.

ويؤكد البعض الآخر من الباحثين أن القضية التي أقامتها (إيزيس) أمام محكمة الآلهة لم تكن لإثبات بنوة (هوروس) من (أوزيريس) وإنما قصدت بها إثبات حق ابنها (هوروس) في العرش بحجة أنه ابنها هي، وهي أخت (أوزيريس) الإله الراحل، لأن احترام المصريين القدماء للمرأة كان يجعل الوراثة عن الخال أمراً محققاً؛ ولكن الذي لاشك فيه هو أن هذه الأسطورة على وجهيها تشهد بالشوط البعيد الذي كانت مصر قد قطعته في المدنية حتى في عصر ما قبل تكوين المملكة الأولى.

ظل ذلك النزاع الذي احتدم لهيبه بين (هوروس) وعمه أو خاله (سيت) إله الشر

والغدر رمزا لتلك الحروب العديدة التي كانت تقع من حين إلى آخر بين رؤساء مقاطعات الوجهين القبلي والبحري زمناً طويلاً تطورت بعده إلى فكرة أجرأ من الرمز، وهي أن كلا من الرئيسين المتحاربين أصبح يمثل أحد ذينك الإلهين المتنازعين، ومازال هذا شأنهم حتى هب ذلك الفرعون العظيم (مينيس) أو (مينا الأول) فكان أكثر جرأة وأعظم صراحة، فأعلن في غير مواربة أن الإلهين كليهما قد حلا في جسده، وأن جسمه يشتمل على الجوهر الأساسي أو روح القدس للإلهين جميعاً، وأنهما لهذا قد استخلفاه على ذلك العرش السامي الذي طالما كان موضع نزاع بينهما، وأنه حين يضع فوق رأسه تاج الوجهين: القبلي والبحري ويضمهما تحت إمرته في شيء عظيم من الحزم لا يزيد على كونه منفذاً فعلياً لأمر الإلهين.

وقد تم له ما أراد، إذ أصبح إلهاً حياً جامعاً بين القوتين اللتين ظلتا متفرقتين إلى عهده.

ومنذ هذا العصر أطلق على (مينا) وأعقابه اسم الإله أو مليك القطرين أو اسم: (هوروس)

و (سيت) أو مصدر الخير والشر، والنور والظلمة، والخصوبة والجدب، وأصبحت زوجته تدعى بالملكة التي تحظى في كل ليلة ب (هوروس) و (سيت) ولكن (سيت) كان في الأناشيد والأغاني يظل كامناً في أغلب الأحايين ولا يبرز على مسرح الأساطير المصرية إلا في حالات السخط والغضب، أما في الظروف العادية فلا ترى في الأناشيد إلا فرعون ممثلاً لهوروس، مشيداً بنعمه، شاكراً لآلائه، متحدثاً على لسانه بعظمة مصر وعرشها عنده، كما جاء في هذه الأنشودة الموجهة إلى مصر: (تحية إليك يا مخلوقة (هوروس) التي زينها بذراعيه مجتمعتين والتي لم يسمح لها بأن تخضع لسكان المغرب ولا لسكان المشرق ولا لسكان الجنوب ولا لسكان الشمال ولا لسكان الوسط المركزي، وإنما له هو وحده فحسب، أنت لا تخضعين إلا لهوروس الذي خلقك وأسسك ثم سواك وزينك، وأنت تحملين إليه كل ما فيك من خيرات حاضرة ومستقبلة وتقدمين إليه كل ما يشتهيه قلبه.

(يتبع)

محمد غلاب

رسالة الشباب

إلى أين يتجه الشباب؟

الآن تقف مصر وأكثر بلاد الشرق العربي على مفرق الطرق في تاريخها الحديث، فهي تودع عهداً كان غرضها فيه واحداً استنزف كل ما لديها من حيوية ونشاط، وهو استعادة سيادتها المغصوبة ومجدها المفقود؛ وتستقبل عهد الإصلاح والإنشاء لتعوض ما فات عليها من فرص الإصلاح الداخلي، فتصلح ما أفسده العصر المنصرم، وتنشئ ما يطلبه العصر الجديد.

ومن شأن هذا العهد الانتقالي أن يحمل الأمة على إعادة النظر في أساليب الكفاح، فلكل ميدان عدته، ولكل عهد أساليبه.

والرسالة يهمها في هذا الباب مصير الشباب، فنحن موقنون بأن العهد الجديد سيتناول موقفه بالتغيير وغرضه بالتحديد

حمل الشباب بالأمس علم الجهاد الوطني، فكان جندي المعركة المضحي بوقته ومستقبله ودمه. وسجل في تاريخ الحركة الوطنية صفحات خالدات من الإخلاص والبطولة والتفدية.

أما الآن وقد صمت النفير، وتوارى الخصم المهاجم وراء المعاهدة، وارتدى ثوب الحليف، وآب المجاهدون إلى الزرع الذي تركوه، وإلى الأرض التي أغفلوها، فقد انفتحت للكفاح ميادين جديدة، وأبواب عديدة، وضاق الميدان السياسي عن الجهود الشابة والحماسات الدافقة

فهل يخرج الشباب ممن الميدان السياسي لينكب على تحصيل العلم وجمع الثروة وتنظيم الحاضر وتدعيم المستقبل ثم يتركه لقادة الرأي من شيوخ السياسة ورجال الإدارة؟

أم يبقى فيه ويظل زيته المضيء المحترق على أن يتطور مع مقتضياته الجديدة؟

وإذا أخذ بالرأي الثاني فإلى أي اتجاه يتجه بين مزدحم الآراء ومهب الأهواء في هذا العالم المضطرب الصاخب؟

ذلك ما فتحنا لأجله هذا الباب، مقدرين أن تتبارى فيه مطامع الشباب وتجارب الشيوخ ويهمنا على الأخص رأى الشباب لأننا نريد أن نطلع على انفعالاته واتجاهاته، فنقف منها موقف البستاني من نبت الحديقة، يستأصل أشواكها وزوانها، ويتعهد أورادها وريحانها.

ولابد لنا من كلمة ندخل بها إلى هذا الموضوع؛ فنحن لا نرى الشباب الانسحاب من ميدان الكفاح السياسي، فالجيل الماضي قد أنهكته المعركة الكبرى، وهو الآن يقوم بآخر خدماته فيمهد العمل للجيل الناشئ إذ يتعهده برعايته، ويظلله بحمايته، حتى يشتد ساعده فيترك له الميدان. وطبيعي أن اتجاه الكفاح في ميدان الإصلاح الداخلي، وتعقد مرامي هذا الإصلاح وتشعبها يتطلب شباباً كامل الثقافة صادق العزيمة واسع التجربة، يتخذ موقف المدرس لا موقف المحمس؛ وسيحتاج إلى إقناع الجماهير بالحجة، لا إلى إغرائها بالعاطفة

وأما الاتجاه فميدان الإصلاح الداخلي واسع الجنبات، وحرية اندفاع المثل والكفايات فيه أكثر، وسيتلمس كل فريق الرأي الذي يراه أكثر إسراعاً في تعمير البلاد، فيلتفت الشباب بطبيعة الحال إلى الغرب يسترشد بتجاربه ويستضيء بنوره. وهنا نحذره من أن تغره مظاهر الأمور؛ وهنا نقرع له جرس الخطر، ونصيح به صيحة الحذر فإن أوربا الآن تعج بأفكار خلابة ودعوات أخاذة زادتها الدعاية المقصودة بريقاً وضجة، فعسى ألا يغره هذا البريق، فهذه الأفكار وليدة المحنة، محنة ما بعد الحرب؛ فأوربا الآن محمومة؛ وإذا كان لابد لنا من الاقتداء بها فلنميز بين أسباب الرقي الحقيقية وبين ما أنتجته هذه الحمى من أعراض وهذيان وفوضى. ونقول بصراحة أكثر: - إن في أوربا الآن تطاحناً ظاهراً بين القومية والماركسية، وقد اندفعت الأولى للفاشية. والثانية للشيوعية؛ ولكل منهما مظهرها المتطرف الذي لا ينفع هذه البلدان الناشئة نحن لا يفيدنا الإكثار من قرع الطبول ولا حرب الطبقات، فقد كان كفاحنا في الماضي رزيناً قوياً فنجح لأنه استمد قوته من طبيعة الأشياء، فقاوم العبودية التي يعافها الإنسان؛ ويجب أن يظل في دوره الجديد على هذه الصبغة الأصلية لينجح ربما تبهرنا تلك المظاهر بضجة العمل وسرعة التنفيذ، وتظهر لنا إن العمل الإنشائي في العهد الجديد أبطأ مما تصورناه؛ فإيانا أن ننسب ذلك إلى عيب في نظمنا الأساسية، لأن أشر ما نعانيه هو من أثر التحكم الأجنبي وانشغال الأمة عن تلافي نواقصها ومداواة عيوبها

وهل يعنينا إلا أن يكون الصرح وإن تراخى الزمن في إنشائه متين البنيان يستطيع مقاومة الزعازع التي تنتاب البلدان الناشئة؟

يجب أن نحتفظ بوحدة الصفوف وان نبقى لجهادنا العام صبغة التطوع المشترك من كل طبقاته

إننا نريد أن نبني أمة قوية لا تيتم بفقد فرد، ولا تضل بزوال حزب. نريد أمة توجه ساسة، لا ساسة يوجهون أمة.

وخير ما نختتم به هذه الكلمة أن نخاطب شبابنا بما خاطب به المستر بلدوين قومه بالأمس إذ قال:

(في هذا العصر تستطيعون السير بسرعة ستين ميلاً في الساعة آمنين، فإياكم أن تسيروا بهذه السرعة في طريق التغييرات الدستورية، فإنكم إذا سرتم على هذا المنوال تحطم في يدكم الدستور، وجر في تحطمه الخراب واهراق الدماء. قد تكون الأفكار في بعض الأحيان مجلبة للخطر العظيم، فإن مئات الملايين تحكم الآن في روسيا وألمانيا وإيطاليا بأفكار غريبة عن هذه البلاد، فاتقوا شر الشيوعية والفاشية بينكم بعض من يتحدثون عن التغييرات الدستورية بغير حساب فراقبوهم)

بهذا الخطاب يودع السياسي البريطاني الشيخ ناخبيه وهو مشفق على أمته المسكينة أن تحطمها الآراء المتطرفة. وبمثل هذا نوصي الشاب الناشئ، فالأمم الجديدة أحوج إلى مثل هذه النصيحة. وإن فيما تصنعه الأفكار المتطرفة في إسبانيا عبرة للمعتبرين

(محرر الصحيفة)

رسالة العلم

قصة المكروب كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكي

مراقب مصلحة الكيمياء

الرصاصة المسحورة
- 1 -
بدأنا هذه القصة بلوفن هوك، بهذا الرجل الذي لا يعرف إلا الحقيقة الواقعة يتوجه إليها قدما دون مداورة أو محاورة، وبدأناها به لأنه منذ نحو من مائتين وخمسين عاماً نظر بعين من السحر، نظر بعدسه، فرأى المكروبات أول من رأى. نقول بعين من السحر، وهو لو سمعنا نصف مكرسكوبه بأنه من السحر لشخر ونخر كما قد يفعل اليوم بعض مواطنيه الهولانديين استهزاء بنا واحتقاراً لوصفنا
وهانحن أولاء نختتم هذه القصة ببول إرليش وهذه خاتمة مباركة سعيدة، والخواتيم المباركة السعيدة لابد منها لكل قصة جدية ذات بال. كان صاحبنا رجلاً مفراحاً، وكان يدخن في اليوم الواحد خمساً وعشرين لفيفة من لفائف التبغ الطويلة الثخينة وكان مشغوفاً بشرب كوب من البيرة على الملأ مع خادم معمله القديم، وأكواب كثيرة أخرى مع زملائه من ألمانيين وإنجليزيين وأمريكيين. ومع إنه جاء في العصر الأخير الحديث إلا إنه كان به شيء كبقية من العصور الوسطى، فقد كان يقول: (يجب أن نتعلم صيد المكروب برصاص من عبقر) فضحك الناس منه. وأما أعدائه فصوروه صوراً مضحكة وكتبوا تحتها (الدكتور فنتازس)
على أنه مع هذا قد صنع حقاً رصاصة من عبقر. وكان له مزاج الكيمياويين القدماء الذين يحيلون الرصاص إلى الفضة ويستخرجون من خسيس المعادن الذهب، ولكنه صنع فوق ما حسب هؤلاء أنهم صانعوه: قلب سماً معروفاً مألوفاً يتخذه القتلة المجرمون لإبادة الأنفس، فصيره دواء وشفاء وخلاصاً لتلك الأنفس من داء من شر داءاتها. طبخ الزرنيخ
طبخة ومزجه مزجة أحالته إلى عقار يذهب عن مرضى بني الإنسان بلعنة ذلك الداء الكريه ذي المكروب اللولبي، ذلك الداء القبيح الاسم الذي هو جزاء الخطيئة الكبرى.
وكان لإرليش خيال غريب عجيب مقلوب، لا يتصل بالمألوف في هذه الأرض، ولا بالمعروف في العلم، فأعانه هذا الخيال فدار بصياد المكروب في طرائق البحث دورة جديدة، وطلع بهم وبعلم المكروب في صحراء المجهول طلعة جديدة كشفت لهم من فوق رابية عن وديان من الأرض جديدة، ولكنهم وآ أسفاه لم يدروا إلا القليل منهم ماذا يصنعون بالوديان الخصيبة الجديدة التي حلوها ولهذا السبب سنختتم هذه القصة بأرليش
وليس معنى هذا إن بحث المكروب انتهى وجاء ختامه، فأنا مؤمن، كإيماني بطلوع الشمس غداً، بأن أبحاث المكروب لم يجيء بعد ختامها، وبأن الغد كفيل بخلق قوم كإرليش يأتون من عبقر بمثل رصاصته التي أتى. ولعلهم يكونون كإرليش رجالاً برغم ابتكارهم مفاريح مماريح مهازير مفاكيه، فالأدوية الرائعة لا تستخرج من العمل الجد المتواصل والمعمل البديع وحدهما. . . أما اليوم فلا يوجد من صياد المكروب رجال إذا هم اقتنعوا بالذي يرونه ركبوا رؤوسهم في سبيله واقتحموا كل معارضة لبلوغ مقصدهم منه ولو خالف المألوف واصطدم بالشائع المعروف. فهكذا إرليش، ينظر في عينيك بوسعي عينيه محدقاً محدجاً يريد أن يقنعك بأن الاثنين تضاف إلى الاثنين فتجعل منها خمساً. وولد في سيلسليا في مارس عام 1854 فلما شب أرسلوه إلى المدرسة الثانوية في مدينة برسلاو فسأله أستاذه أن يكتب مقالة إنشاء موضوعها: الحياة حلم.
فكتب هذا الصبي اليهودي الذكي يقول: إن الحياة تعتمد على الأكسدة العادية. . . والأحلام مظاهر من مناشط المخ، ومناشط المخ ليست إلا أكسدة. . . إن الأحلام أشبه شيء بفسفرة مُحِّيَّة!)
وبالطبع كان حظه من هذا الإنشاء رقم خسيس، ولكن هذا لم يعكر عليه صفوه، فقد كان مرن على هذه الأرقام الخسيسة عن أعماله المدرسية. ومن المدرسة الثانوية ذهب إلى مدرسة للطب، بل إلى ثلاث مدارس للطب أو أربع. هكذا كان إرليش وهكذا تعلم. وفي كل مدرسة ممتازة في الطب دخل من استراسبورج إلى فرايبورج إلى ليبزج، ارتأى فيه الأساتذة أنه طالب غير عادي وارتأوا فيه أنه طالب سيئ بالغ أقصى درجات السوء، وذلك لأنه أبى أن يحفظ 10050 كلمة طويلة زعموا أنه لابد من حفظها لعلاج المرضى. كان

إرليش ثائراً، وكانت ثورته جزءاً من الثورة التي بدأها بستور وطبيب القرية كوخ وسأله أساتذته أن يقطع جثث الموتى ويتعلم أجزاءها. ولكنه بدل هذا قطع جزءاً من جثة واحدة، وقطعه سليخة سليخة، وجعل هذه السلائخ غاية في الرقة ثم أكب على تلوينها بشتيت من أصباغ أنلينية بديعة اشتراها أو اقترضها أو سرقها على عين مدرسه ولم يكن يدري هو نفسه لم يفعل هذا. وبقى إلى آخر أيامه يجد متعته الكبرى قي النظر إلى كل لون بهيج وصناعة كل صبغ زاه جميل. أقول متعته الكبرى ولا أذكر تلك المتعة الأخرى التي كان يجدها في الجدل الجموح والنقاش الشرود الذي كان يتعاطاه على مناضد البيرة ومن فوق أكؤسها

وكان يكره التربية الكلاسيكية ويعد نفسه من نصراء الجديد، ومع هذا كان يحسن الإلمام باللاتينية، ومن هذه اللاتينية كان يصوغ تلك الجمل الجامعة المقلمة التي كان يدعو بها كلما خاض غمار حرب، واستعدى العقول في الحملة على الخصماء. فبتلك الجمل الصارخة كان يعنى أكثر من عنايته بالمنطق. كان يصرخ: أي (إن الأجسام لا تعمل إلا بعد تثبيتها) وكان في صرخته يضرب المنضدة بيده حتى ترقص الصحاف التي عليها. فظلت تلك الصرخة بتلك الجملة تقوي قلبه وتحيي أمله في ثلاثين سنة لم يكن له فيها غير الخيبة. وكان إذا حدثك بهذه اللاتينية يلوح في وجهك بنظارته في إطارها القرني وهو يؤكد معناه في نفسك ويقول: (لعلك سامع! لعلك فاهم!)، ولو إنك أخذته بجده لحسبت إن هذا الهراء اللاتيني لا عقله البحاث هو الذي أفضى به إلى النجاح أخيراً. وعندي أنه أفضى بعض الشيء إلى هذا النجاح يقيناً

وكان إرليش أصغر من كوخ بعشر سنوات، وكان يعمل في معمل كنهايم في اليوم الذي عرض فيه كوخ على الناس بشلة الجمرة لأول مرة؛ وكان أرليش زنديقاً لا يؤمن بالله، فلما افتقدت السماء رباً يعبده توجه بعبادته إلى رب في الأرض، فكان كوخ. وبينا هو يصبغ بألوانه كبدا مريضه وقع على جرثومة السل ورآها قبل أن يراها كوخ بزمن، ولكن لجهله، ولقصور ذكاءه عن ذكاء كوخ، ظن تلك القضبان الملونة التي رآها بلورات جامدة، فطاش سهمه بعد أن كاد. ولما جاء مارس عام 1882 وجلس في بعض أمسائه في تلك الحجرة في برلين يستمع إلى كوخ وهو يشرح كيف أكتشف جرثومة السل، أهتز للذي سمع

وأتضح لعينه ما كان غم عليها، ورأى الحقيقة واضحة صريحة. ووصف هذه الحادثة فقال: (إنها أكبر الحوادث أثراً في نفسه في كل ما صادف في حياته العلمية)، قالها بعدها بزمن طويل. وعلى أثرها أعتزم أن يتصيد المكروب هو أيضاً، فذهب إلى كوخ وأطلعه على طريقة بديعة يصبغ بها مكروب السل فيتراءى في العين سهلاً واضحاً - وهذه الطريقة لا تزال تتبع إلى يومنا هذا بلا تغير يذكر. ولزمه وهو يشتغل بمكروب السل حماسه الصاخب، فلوث نفسه من قدمه إلى رأسه بالمكروب، فأصابه السل فكان لابد له أن يذهب إلى مصر ففعل

وكان عمره إذ ذاك أربعاً وثلاثين سنة، ولو أنه مات عندئذ في مصر، إذن لنسي أمره بدون شك، أو إن هو ذكر فإنما يذكر بأنه رجل مِفراح ممراح أحب الألوان وأغرم بالخيالات ثم خاب، وكان كالمولد الكهربائي في جهده الفياض ونشاطه المتواصل. وأعتقد إنه يستطيع الجمع بين صيادة المكروب ومعالجة المرضى. وتعين رئيساً للأطباء في دار للعلاج شهيرة في برلين، ولكنه كان مرهف الحس مضطرب الأعصاب لا يقوى على استماع صراخ المرضى وأنين من يوشك منهم أن يموت بعد أن استعصي دواءهم وعز علاجهم.

نعم علاجهم. علاجهم الحق. علاجهم الشافي لا علاج الظن والتخمين، ولا العلاج بالتأسية الكاذبة والتلطف الفارغ عند سرير المريض ثم ترك الأمر للطبيعة عساها تحل العقدة التي أعجز الطب حلها. وساورته هذه الأفكار وأمثالها فأفسدت عليه صناعة التطبيب فكان طبيباً مخيباً، ذلك لأن المؤاساة ولو كانت كاذبة صفة لابد منها للأساة، أما اليأس من الأمراض ولو موئسة وقطع الأمل وتقطيعه على أسماع المرضى فلا يؤدي بالطبيب إلا إلى الخيبة. وعدا هذا فقد ساء إلريش طبيباً عندما لعبت برأسه لواعب الأحلام: كان ينظر إلى جسم المريض فينفذ ببصره إلى ما وراء جلده وكأنما يستعير لعينه مجهراً بالغ التكبير، فتتراءى له مادة الخلية المرتعشة وقد ارتسمت في

عينه رمزاً كيمياوياً كبيراً لمادة كيمياوية معقدة. وتراءت له حلقات البنزين وسلاسلها الجانبية في تلك الخلايا بمثل ما تراءت له في رموز أصباغه، ونحى جانباً أحدث النظريات في علم وظائف الأعضاء، واصطنع لنفسه كيمياء للأجساد غريبة قديمة فجاءت كالثوب ذي الزي العتيق تلبسه في غير عصره. واختصاراً تستطيع أن تصف إرليش بما تحب إلا أنه مطبب عظيم، ولو أنه كان طبيباً فحسب إذن لحقت عليه الخيبة ولمات ذكره. . . . ولكنه لم يمت!

وصاح إرليش: (إن في اعتزامي أن أصبغ الحيوانات وهي حية، ولم لا وكيمياء أجسامها لا تختلف عن كيمياء أصباغي؟ وصبغها وهي حية قمين أن يكشف لي عن كل شيء فيها) وعلى هذا تناول صبغته الحبيبة، وهي أزرق المثلين وحقن قليلاً منها في وريد بأذن أرنب، وتتبع بعينه انسياح الصبغة الزرقاء في دم الأرنب وجسمه فوجدها تمر بكل جزء منه ثم تنقشع فلا يصطبغ بها شيء إلا أطراف الأعصاب الحية. فعند هذه الأطراف وحدها وقفت الصبغة وصبغتها دون سائر ما مرت عليه فكأنما تخيرتها تخيراً! ألا ما أغرب! ألا ما أعجب! ونسى علمه الأصيل برهة، وأغري بالمداواة وازدهته الطبابة لمحة، فقال في نفسه: (ألا من أدراني، فلعل هذه الصبغة الزرقاء تقتل الألم!) وما نطق بهذا حتى صدق نفسه وأخذ يحقن هذه الصبغة في المرضى وهم يتوجعون. ولعل آلامهم خفت بعض الشيء من جراء هذا، ولكنه ما لبث أن اعترضته في سبيل ذلك صعوبات لو تحكى ما خلت حكايتها من المتعة والفكاهة، فأجفل مرضاه من الصبغة؛ ومن ذا الذي يلومهم؟

خاب إذن إرليش فيما اعتزمه إيجاد دواء يقتل الآلام تواً، ولكنه اهتدى إلى تلك الحقيقة الغريبة عن أزرق المثلين: أنه يقع من أنسجة الجسم ومادته الحية على أشتات مئات مختلفات فلا يتعلق إلا بواحدة منها؛ ومن هذه الحقيقة ابتدع فكرة أشبه بالخيال قادته أخيراً إلى اختراع رصاصته المسحورة.

وتحدث في أحلامه قال: (هذه صبغة بين يدي لا تصبغ من أنسجة الحيوان جميعها إلا نسيجاً واحداً. وإذن فلابد من وجود صبغة لا تصبغ من أنسجة الإنسان شيئاً، ولكن مع هذا يكون من شأنها أن تصبغ المكروبات التي تعدو على الإنسان فتقتلها. وعاوده هذا الحلم خمس عشرة سنة أو تزيد قبل أن تتهيأ له الأمور لتجربة الفكرة التي تضمنها وفي عام 1890 عاد من مصر ولم يكن مات هناك من السل وحقنه كوخ بدوائه الفظيع المزعوم للسل رجاء شفائه، ولكنه لم يمت من هذا أيضاً. ولم يلبث أن بدأ العمل في معهد كوخ ببرلين في تلك الأيام العظمى التي كان فيها بارنج يقتل الخنازير الغينية في سبيل خلاص الأطفال من الدفتريا، وكان فيها كيتا ساتو الياباني يصنع العجاب بالفئران ذوات الكزاز الفكي. دخل إرليش هذا المعهد الذي أثقله الوقار وأناخت عليه الرزانة بكلكلها فكان روحه الحي وفيض حياة ثوارة فيه. وكان له معمل تدخله فلا تكاد تجد سبيلك فيه لشدة امتلائه ولتبعثر الأشياء فيه، تتألق فيه صفوف الزجاجات وتتلألأ وتزهو بالذي فيها من أصباغ كثيرة ضاق وقته عن استعمالها. ويدخل كوخ على تلميذه وهو في هذا الامتلاء وعلى هذا التبعثر ليرى ماذا يصنع، وكوخ ذو سلطان في معهده كسلطان قيصر في دولته. وما كان كوخ يرى في أحلام إرليش عن رصاصته المسحورة إلا أنها بعض أحلام خرفة. أقول يدخل كوخ على إرليش في معمله فيقول: (أي عزيزي إرليش خبرني ما الذي خبرتك به تجارب اليوم). فيأتي الرد من إرليش متدفقاً مضطرباً يفسر هذا ويوضح ذلك في غزارة وتلاحق كأنه عين ماءٍ ثرة تدفعت أمواهها ساخنة إلى السماء. وذات مرة كان إرليش يبحث في الحصانة التي تأتي الفئران ضد السم الكائن في حبوب الششم والخروع إذا هي تعاطته، فلما دخل عليه كوخ فسأله في ذلك تدفع يقول: (إني أستطيع أن أقدر بالضبط مقدار السم الذي يقتل في ثمان وأربعين ساعة فأراً زنته عشرة جرامات. فهذا المقدار دائماً واحد. . . والآن أستطيع أن أخط خطاً بيانياً يرينا كيف تزيد الحصانة في الفأر - إنها تجربة تضارع في دقتها تجارب علم الفيزياء. . . . أملق سيدي سمعك إلي؟ ووجدت أيضاً كيف يقتل السم الفئران. إنه يجبن كرات الدم في شرايينها، وهذا كل تفسيرها. . .) وهو في أثناء ذلك يلوح بأنابيبه الزجاجية وقد امتلأت بدم الفئران المنجمد القاني في وجه رئيسه العظيم مؤكداً له أن مقدار السم الذي جبن هذا الدم هو عينه الذي يكفي لقتل الفأر الذي جاء هذا الدم

منه. ولا يلبث كوخ أن يجد نفسه بين أرقام وتجارب تنصب عليه انصباباً فلا يكاد يلاحقها. ثم إذا هو يقول لإرليش
(ولكن مهلاً يا عزيزي إرليش، فإني أكاد أجاريك. أرجوك أن تزيد تفسيرك وضوحاً).
فيجيب: (على العين والرأس يا سيدي الدكتور فأنا أعطيك المزيد من ذلك فوراً) ولا ينقطع كلامه برهة، بل هو يختطف قطعة من الطباشير ويرجع على ركبتيه ويخط على أرض المعمل أشكالاً هائلة توضح آراءه. ثم ينظر إلى كوخ فيقول: (والآن يا سيدي أفهمت ما عنيت؟ أواضح تفسيري لك الآن؟)
(يتبع)
أحمد زكي
رسالة النقد
إسماعيل المفترى عليه
تأليف القاضي بيير كربتيس
وترجمة الأستاذ فؤاد صروف
للأستاذ الغنيمي
- 3 -
ذكرنا في العدد الماضي طائفة من أغلاط الفصل الأول من الترجمة العربية لكتاب إسماعيل، والآن نذكر طائفة أخرى من أغلاط الفصول التالية. ويظهر أننا سنضطر إلى الاكتفاء بذكر أمثلة قليلة من هذه الأغلاط في كل فصل حتى لا نستأثر وحدنا بباب النقد في الرسالة
اقتضب الأستاذ صروف الفقرة الأولى من هذا الفصل اقتضاباً أفقدها نصف (1) معانيها. أنظر إلى قول المؤلف:
ثم انظر إلى الترجمة العربية: (إلا أن روح التفاؤل التي كانت تملأ صدره ما كانت لتمكنه من التغلب على تلك الصعاب لو أن الوزارة الإنجليزية التي كانت يومئذ في الحكم أفهمت الرأي العام البريطاني أن دلسبس ينوي. . .
(2). .
كل ما ترجم به الأستاذ هذه العبارة هو قوله: (ومهما يكن من أمر الامتياز)
(3)
هل معنى هذه العبارة هو: (كان اسم دلسبس على فم كل إنسان في مصر) كما قال المترجم أو أن معناها: (إن شهرة دلسبس جعلت الناس يذكرون اسم مصر)
ترجم الأستاذ عبارة (بالدين العائم وهو اصطلاح لم نره قبل الآن. والذي نعرفه) (4) أن معنى هذه العبارة الإنجليزية (الدين السائر)
(5) ,
اكتفى الأستاذ في ترجمة هذه العبارة بقوله: (وأخشى أنه يمهد لكارثة) وترك قول المؤلف إنه يفسد كل شيء ولا يكاد يفعل شيئاً
(6)
قال الأستاذ في ترجمة هذه العبارة (وقد أورد أرقاما تختلف قليلاً عن الأرقام التي أوردها لورد كرومر) وقد جاء الأستاذ باسم لورد كرومر من عنده فغير بذلك المعنى، لأن المؤلف يشير إلى السير أوكلند كلفن لا إلى اللورد كرومر
في ص 24 من الأصل الإنجليزي يذكر المؤلف اختلاف المؤرخين في مقدار ديون (7) سعيد باشا ثم يرجع هذا الاختلاف إلى شيئين: الديون السائرة، وديون سعيد الشخصية فيقول:
'. .
اقتضب الأستاذ هذه العبارة اقتضاباً قطع الصلة بينها وبين ما قبلها فقال (وقد بحث الأستاذ. . . وهو من كبار علماء الاقتصاد الألمان في هذا الدين في كتاب له)
(8)
ترجم الأستاذ صروف هذه العبارة بقوله إنه (كان في الجيش المصري في أيام سعيد باشا) ومع إن الأستاذ يعرف إن إسماعيل باشا هو الذي استخدم الضباط الأمريكيين في جيشه وإن الجنرال لورانج لم يكن في جيش مصر أيام سعيد. وعبارة المؤلف صريحة في هذا لأن معناها إنه خدم في الجيش المصري وقت إن كانت ذكرى سعيد لا

تزال ماثلة في الأذهان
(9)
ليس معنى هذه العبارة إنه (لم يكن قوي الجسم) كما قال الأستاذ صروف بل معناها إنه لم يكن حسن الهيئة منظرياً
(10)
اكتفى الأستاذ بترجمة جزئه الأخير فقال (وكان يخيل إلى الناظر إن عينيه نصف مغمضتين) فغير بذلك معناه
(11)
قال الأستاذ في ترجمتها (وكان خلفه مهملاً مغضى عنه) وما أبعد هذا القول عن المعنى الذي يقصده المؤلف وهو إن خلفه رأي من الحكمة أن لا يرى الناس كثيراً
(12)
لم يزد الأستاذ صروف في ترجمة هذه العبارة التي يصف فيها المؤلف أدون دليون وإكرام محمد سعيد لدلسبس على قوله (وذكر هذا الكاتب أيضاً) وأين هذه الألفاظ الأربعة من قول المؤلف (وقد قال هذا الكاتب نفسه الذي كان يرقب الأمور من وراء الستار، والذي كانت مهمته أن يلم بتصاريفها، قال إنه في الوقت الذي كان فيه محمد سعيد يكرم دلسبس أكثر من إكرام عيسو ليعقوب) وإن شاء الأستاذ أن يعرف قصة عيسو ويعقوب فليرجع إلى سفر التكوين من الكتاب المقدس. وإذا جاز للأستاذ أن يترك ما أشر به المؤلف إلى قصة عيسو ويعقوب فهل يجوز له أن يترك ما وصف به أدون ده ليون قنصل أمريكا العام في الإسكندرية والتي أوردها ليدل على سعة إطلاع هذا القنصل وصدق أخباره؟
وهنا نحب أن نرجو الأستاذ المترجم ألا يضيف شروحاً من عنده إلى ألفاظ لا تحتاج إلى شرح، وبخاصة إذا وضع هذا الشرح في صلب الكتاب وكتب إلى جواره لفظ المعرب كوضع كلمة كوبري بعد كلمة جسر؛ واعتقادنا أن ليس في قراء ترجمة الأستاذ صروف كلهم من لا يعرف كلمة جسر
وسنكتفي بذكر هذا العدد من أغلاط الفصل الثاني لننتقل بعد ذلك إلى ذكر بعض أغلاط الفصل الثالث.
(1) 16 , 000 , 000 ,. .
ترجم الأستاذ صروف هذه بقوله: (انفق منه (من 91 , 000 , 000 جنيه) 16 مليون جنيه على قناة السويس وانفق الباقي توديراً وتبذيراً
فهل هذه هي ترجمة العبارة الإنجليزية؟ وماذا أعجب الأستاذ في لفظ تودير الذي كرره في كتابه أكثر من مرة. نعم إنه لفظ عربي في معاجم اللغة ولكن الأذن لا تستسيغه ولدينا بدلاً منه التبذير والإسراف وبسط اليد والإتلاف الخ
(2)
انظر إلى ترجمة الأستاذ لهذه العبارة المقتطفة من كتاب لورد ملنر فقد قال:
إن إسماعيل خير مثال للرجل المبذر عرفه التاريخ أو تصوره مؤلفو الروايات. وما من (مبذر طائش كان له سلطان غير محدود على موارد غير محدودة. فقد ارتقى العرش
ما هي العلاقة التي يستطيع القارئ أن يفهمها بين الجملة الثانية وما قبلها أو بعدها؟
إن لورد ملنر يريد أن يقول: (إن إسماعيل باشا خير مثال للرجل المبذر عرفه التاريخ أو القصص، ولم يؤت أحد مثل ما أؤتي إسماعيل من الطيش والتصرف المطلق من كل قيد في موارد لا حد لها وقد اعتلى عرش مصر الخ.
(3) قال المؤلف يشرح سبب بقاء أدون ده ليون في مصر بعد أن أعتزل منصبه:
, , ,
كلما عنى الأستاذ بترجمته من هذه العبارة هو إنه (أقام عدة سنوات بالقاهرة بعد اعتزاله منصبه) أما سبب مقامه فيها وما كان لوجوده من الأهمية فلم يذكر الأستاذ صروف منه شيئاً.
(4)
قال الأستاذ في ترجمة هذه الجملة: (فالأعمال التي كان يقوم بها على سبيل التسلية قد أصبحت ضربة لازب عليه) فهل كان الخديوي يقوم بأعمال الدولة كلها التي ذكرها المؤلف قبل هذه العبارة على سبيل التسلية أو إنها كانت واجبات يراها فرضاً عليه

ولكنها في نفس الوقت كانت (مصدر سروره وغبطته)
ثم أنظر إلى الفقرة الآتية من قول الأستاذ صروف: (والكاتب لا يقتصر على القول (5)
بأن قصر عابدين بناء وضيع الشكل من الوجه الهندسي بل يضيف إليه قوله إنه بهو
المآدب والحفلات لا يشف مرآه أو أثاثه أو زخرفه عن شيء من العظمة) (واقرأ بعد
ذلك معناه الحقيقي الذي يريده المؤلف (لكنه في كتابته يبدي آراء من عنده إلى حد ما
ولا يقتصر على ذكر الحقائق المجردة حين يصف قصر عابدين (بأنه متواضع البناء)
وحين يقول: (إن حجرة الاستقبال غير فاخرة الأثاث أو بديعة النقش) ولا داعي إلى
ذكر النص الإنجليزي بأن ما أوردناه هنا هو ترجمته الحرفية ونحب أن نقول هنا إن
ترجمة بوضيع كما فعل الأستاذ أكثر من مرة ليست ترجمة دقيقة.
(6)
هذه معان لم يترجم منها الأستاذ صروف شيئاً
(7) ,
وهذه العبارة كلها أيضاً لم يترجمها الأستاذ بأكثر من قوله (وعلى كل يجدر بنا أن
نقتبس العبارات التالية توفية للكلام حقه)
(8)
قال الأستاذ صروف في ترجمة هذه العبارة (أما البيان الذي قدمه القنصل فلم يكن
يراد نشره ولذلك أطلق لنفسه العنان ليقول كل ما يخطر بباله. ونحن نجل هذا
القنصل عن أن يطلق لنفسه العنان ليقول كل ما يخطر بباله ونعتقد إنه (في هذا
التقرير السري الذي كتبه إلى رئيسه والذي لم يكن يراد نشره كان صريحاً كل
الصراحة لا يخفي من الحق شيئاً)
لينظر القارئ معنا إلى هذه الفقرة الطويلة من قول الأستاذ صروف (على إن (9)
إسماعيل لم يكتف بأن صرح بعزمه على إلغاء السخرة، وفي الحقيقة إن كلمة
السخرة كانت على كل شفة حتى إن القنصل الفرنسي العام كتب يومئذ إلى وزارة
الخارجية الفرنسية يقول (إن هذه اللفظة تفرق بين الأعمال الحكومية والمصالح
العامة وهي تنطوي دائماً على إشارة إلى الأعمال الجارية في ترعة السويس بحيث إن
جميع العيون تشخص إلى) وليقل لنا هل يفهم لها معنى؟
ولينظر إلى هذه العبارة الأخرى من ترجمة الأستاذ صروف (وليس ثمة سبب (10)
يحملنا على القول بأن الخديو كان مستعداً أن يسلك تلك الخطة لو لم يكن مقتنعاً
بصوابها. وعلى كل فقد أظهر بمعاداة فرنسا جرأة عظيمة
ألم يكن أسلس من ذلك أن يقول مثلاً (وليس ثمة ما يحملنا على الاعتقاد بأن الوالي
قد فعل ما فعل وهو غير مقتنع بأنه إنما يؤدي الواجب المفروض عليه. وسواء أكان
ذلك أو لم يكن فقد كان وقوفه في وجه فرنسا عملاً جريئاً. أما عبارة المؤلف فهي: -
(11) '
إلى القارئ كيف ترجم الأستاذ صروف هذه العبارة: (وعليه فإن الصدمة التي صدم بها
إسماعيل قنصل فرنسا في مصر تدحض التهمة التي وجهها ملنر إلى إسماعيل). فهل
هناك ترجمة أبعد عن الحقيقة من هذه الترجمة؟
تلك أمثلة من أغلاط الفصلين الثاني والثالث ذكرناها موجزة لكي يتسع لها باب النقد
في الرسالة ولكي يسمح لنا الأستاذ الأديب صاحبها أن نواصل نقدنا حتى نتمه،
وسنسير على هذا الإيجاز في الفصول المقبلة إن شاء الله.
الغنيمي
البريد الأدبي
ملاحظات على التعليم في مصر
نشرت جريدة المنشستر جارديان في أحد أعدادها الأخيرة فصلاً طويلاً عن التعليم في
مصر ومسائل الطلبة المصريين في حاضرهم ومستقبلهم بقلم الدكتور ماكلانهان عميد
قسم الدراسات الشرقية بالجامعة الأمريكية استهله الكاتب بتقديم الإحصاءات الأخيرة
عن عدد الطلبة المتخرجين في مختلف الكليات والمعاهد الفنية والخصوصية، وتبيان
التقدم السريع الذي طرأ على سير التعليم العالي والفني. وفي رأييه أن هذا التقدم
إنما هو نتيجة طبيعية مشروعة لآمال الشباب المصري الذي يرغب في مهن ومراكز
رفيعة في الحياة العملية. بيد أن اضطراد هذا التقدم يثير مشكلة دقيقة، فهل تستمر

مصر على ترك حبل التعليم العالي على غاربه؟ وهل تظل على تخريج هذه الجموع الحاشدة من الشباب الطموح المتعطل؟ أم أنها سوف تتخذ الإجراءات لتقييد بعض أنواع التعليم؟ يرى الكاتب أن مصر ستحذو حذو الأمم الأخرى في الاحتفاظ بحرية التعليم. على أن ما يثير القلق هو أن جماعة الطلبة قد اعتادت في الأعوام الأخيرة أن تأخذ الأمور بيدها وأن تطالب بأمور كثيرة فيما يتعلق بمصاريف التعليم ونظام الدراسة، وما سيكون نصيب الطلبة من إدارة الشؤون العامة ولم يشذ عن هذه القاعدة طلبة الجامعة الأزهرية الذين يبلغون وحدهم أثنى عشر ألفاً وتبدي جماعة الطلبة رغبة قوية في الاشتراك في بحث المسائل السياسية والاقتصادية المصرية، بل يمكن القول بأنها تتأثر في حركتها بالنزعة الفاشستية، وذلك على رغم إرادة الزعماء السياسيين.

وقد اتخذت الحكومة بعض خطوات في سبيل ترقية التعليم التجاري ورفع مستواه، ولكن الشركات والمتاجر الأجنبية تصر على توفر معيار خاص من الكفاية. ومازال على مصر أن تبحث في المستقبل القريب عن حل هذه المشكلة الدقيقة، أعني مشكلة التعليم، وعما إذا كان من الواجب أن تسير في سبيل التوسع في شؤون التربية أم في سبيل تقييدها ولا ينكر أحد ضرورة التعليم كعامل في تقدم الأمة، بيد أنه يجب أن تتخذ بعض التحوطات؛ ويخشى أن يفضي التقدم السريع إلى أزمة. أما إذا كانت مصر قد عولت على السير الحثيث، فسوف يطلب إليها أن تؤدي الثمن. وقد أدركت بعض الدول الأوربية خطر تدخل الشباب

في الشؤون العامة وتأثره بنفوذ الزعامات الشعبية الطافحة، فعملت على تجنبه نقول. وهذه ملاحظات جديرة بالعناية والتأمل من كل أولئك الذين يعنون بتربية الشباب ومستقبله

ثلاثة كتب عن الحرب الحبشية

ظهرت أخيراً عن الحرب الحبشية ثلاثة كتب هامة، أولها وأهمها كتاب المارشال دي بونو وعنوانه: (السنة الرابعة عشرة. فتح إمبراطورية) أعني السنة الرابعة عشرة لقيام النظام الفاشستي في إيطاليا وهي سنة 1936 التي تمم فيها استيلاء إيطاليا على الحبشة، والثاني بقلم الماجور بولسون نيومان المعروف بمؤلفاته عن مصر والشرق الأدنى وعنوانه: (فتح إيطاليا للحبشة) ' والثالث بقلم الصحافي الأمريكي هربرت ماتيوس وعنوانه (شاهد عيان في الحبشة) وكتاب المارشال دي بونو هو بلا ريب أهم هذه الكتب وقد نوهت عنه الرسالة في عددها الماضي؛ فقد كان المارشال كما نعلم أول قائد للحملة الإيطالية على الحبشة، وقد قاد هذه الغزوة في أشهر الحرب الأولى؛ وأهمية الكتاب في أنه يميط اللثام عن حقائق سياسية وعسكرية خطيرة؛ مثال ذلك أن المارشال يعترف لنا في كتابه أن مشروع غزوة الحبشة يرجع إلى سنة 1933 أعني قبل حادث وال وال الذي اتخذته إيطاليا حجة لغزو الحبشة بعامين، وإن موسوليني وضع هذا المشروع خفية مع المارشال، وفكر في تحقيقه أولاً بالعمل على إضرام نار الثورة في الحبشة، ثم التدخل بحجة المحافظة على السلام؛ وقد أنفقت إيطاليا في سبيل هذه المحاولة مبالغ طائلة، ولكن القبائل لم تثر في وجه النجاشي كما أريد وحبط المشروع، فلبث موسوليني وقائده يتربصان بالحوادث حتى وقع حادث وال وال، وزعمت إيطاليا عندئذ أن الحبشة تنوي الإغارة على المستعمرات الإيطالية، ووقع الاعتداء الشنيع على الحبشة وقد عجب الرأي العام حين صدر كتاب المارشال ولم يعترض موسوليني على ظهوره متضمناً لهذه الأسرار التي تفضح مشاريع إيطاليا الاستعمارية ونياتها المبيتة على الاعتداء ولكن الظاهر أن السياسة الفاشستية لم تعد تقييم للرأي الدولي وزناً ولا ترى في لومه أو مؤاخذته عاملاً يحسب حسابه. ومن جهة أخرى فقد اعتبر التصريح للمارشال بإصدار كتابه حراً طليقاً تعويضاً أدبياً عما أصابه من آلام العزل خلال نشوب الحرب وانتداب المارشال بادوليو لإتمامها وفوزه بشرف الظفر

دونه.

وأما كتاب الماجور نيومان فهو كباقي كتبه عرض للحوادث من الوجهة الاستعمارية، وفيه يحبذ افتتاح الحبشة ويعرب عن ثقته بأنها سوف تستقبل في ظل الحكم الأوربي عهداً جديداً، وأن الزمن كفيل بتسوية الأخطاء التي ارتكبت

وأما الكتاب الثالث، فهو كتاب (شاهد عيان في الحبشة) فهو مشاهدات صحفي، صحب الحملة الإيطالية منذ بدء الحوادث وتنقل معها في جميع الميادين. فهو ليس تاريخاً بالمعنى المقصود ولكنه جريدة يومية للوقائع مشبعة بروح العطف على الغزاة.

دار لنوادي القلم في باريس

كان الكاتب الفرنسي الكبير جول رومان رئيس نادي القلم الدولي قد أذاع في إحدى خطبه منذ اشهر إن الحكومة الفرنسية ستنشئ في باريس داراً لأعضاء نادي القلم من كافة أنحاء العالم. وقد تحقق نبأ المسيو جول رومان؛ ففي أنباء باريس الأخيرة أن الحكومة الفرنسية قد اختارت في حي الشانزليزيه داراً عظيمة فخمة، وخصصتها للوافدين على باريس من أعضاء نوادي القلم في أنحاء العالم؛ وستحتوي الدار المذكورة على غرف للنوم، وأبهاء للمطالعة والاجتماعات، وستزود بمكتبة عظيمة؛ وسيكون بها قلم سكرترية دائمة تعاون الضيوف على زيارة معالم باريس وقضاء مهامهم. وللدار المذكورة شرفة عظيمة تسع خمسين شخصاً خصصت لجلسات الصيف؛ وسيقدم طعام الإفطار للضيوف الذين يبيتون في الدار

ولما كان مؤتمر نادي القلم الدولي سيعقد هذا العام في باريس بدعوة من نادي القلم الفرنسي فإنه من المنتظر أن يفد كثيرون من أعضاء نوادي القلم في مختلف أنحاء العالم على باريس لتمثيل هيأتهم في المؤتمر؛ وسيكون نادي القلم المصري ضمن النوادي الماثلة في هذا المؤتمر على يد ثلاثة أو أربعة من أعضائه؛ وسيعقد المؤتمر المذكور، وهو الخامس عشر من نوعه، في شهر يونيه القادم

وهذا الخطوة التي تتخذها الحكومة الفرنسية لتكريم الكتاب الأجانب هي من أثر المساعي الجمة التي يبذلها مسيو جول رومان لتقوية نفوذ هذه الهيئة الأدبية الدولية

اكتشاف مدينة مصرية قديمة

روت الصحف السويدية نبأ اكتشاف أثري هام وفقت إليه البعثة الأثرية السويدية التي تقوم بالحفر في مصر برياسة الدكتور يلمار لارسن؛ وكانت حفائر البعثة هذا العام في منطقة أبو غالب، فكشف المنقبون عن مدينة مصرية قديمة ترجع إلى نحو أربعة آلاف عام؛ وظهر من أحيائها جانب يشمل عدة منازل، ومنها منزل ظهرت به سلالم كاملة، ومخازن للغلال؛ ووفقت البعثة أيضاً إلى اكتشاف عدة آنية وتحف أثرية أخرى؛ بيد أن الحفر لم يكشف عن كل شيء بعد؛ ويرى الدكتور لارسن أن هناك منطقة أثرية هامة سيكشف عنها قريباً، وقد توفق البعثة إلى اكتشافات عظيمة الشأن من الوجهة التاريخية، وتؤمل الدوائر السويدية أن ينال متحف ستوكهولم الوطني شيئاً منن الآثار المكتشفة في قيمة مجموعته المصرية

متحف لحياة الطلبة

من أنباء ألمانيا أن مدينة فرزبورج قد قررت أن تنشئ في قلعتها الشهيرة معهداً لتاريخ الجامعات الألمانية، وسيلحق به متحف هو الأول من نوعه، لأنه سيخصص لاستعراض حياة الطلبة في الجامعة؛ وقد جمعت إلى الآن نحو ألف وستمائة قطعة مختلفة من جامعات ألمانيا من صور وأدوات وأسلحة وغلايين وبرانيط وثياب، مما يستعمل الطلبة في مختلف العهود والفصول؛ هذا إلى كثير من الدفاتر والمحابر والأوراق والقصائد والصور التذكارية، وأدوات اللعب المختلفة نسقت جميعها في أروقة وأبهاء تمثل حياة الطلبة أثناء الدرس وأثناء اللعب والتريض

مشروع معجم للأعلام عن مصر

تصدر شركة إنكليزية قاموساً للأعلام في أوربا الوسطى وأوربا الشرقية بعنوان وهو مرجع الأعلم الوحيد من نوعه. وقد فكرت الشركة الناشرة أخيراً أن تضع ملحقاً لهذا المعجم عن الأعلام في مصر في طبعته القادمة؛ وأوفدت بالفعل أخيراً إلى مصر مندوباً خاصاً لها للمقابلة الشخصيات البارزة في مصر وجمع المعلومات اللازمة عنها لوضع التراجم الخاصة بها

ونظام هذا المعجم على نظام المعجم العالمي الكبير في وضع تراجم موجزة تدرج بها أهم الخواص عن الشخص مثل تاريخ ميلاده، وشهاداته، ووظائفه وعنوانه الدائم

المبرد

كنت أخذت على الأستاذ إبراهيم مصطفى في أسبوع الجاحظ أنه نطق المبرد بالفتح،

فكتب (أحد القراء) الكرام إلى الرسالة ينتصف فيها إلى الأستاذ وينصره، الواقع أن هذا خطأ شائع في ألسن الناس حتى في الألسن المثقفة، وإني لأجعل الحكومة في هذه القضية لحجة اللغة والأدب أستاذنا المرصفي إذ يقول في تقدمة كتابه رغبة الآمل في شرح الكامل: (كثيراً ما يتساءل الناس عن كلمة المبرد، أبكسر الراء أم بفتحها؟ والقول الثابت عندنا ما ذكره ياقوت في كتابه معجم الأدباء قال: وإنما لقب بالمبرد لأنه لما صنف المازني كتاب الألف واللام سأله عن دقيقه وعويصه فأجابه بأحسن جواب فقال له المازني: قم فأنت المبرد بكسر الراء أي المثبت للحق، فحرفه الكوفيون ففتحوا الراء؛ وعن السيوطي في مزهره أن شيخه أبا عثمان المازني سأله عن عويصة فأجاب بجواب برد به غليله) فقال له: قم فأنت المبرد، فهو الذي لقبه به، وكان الكوفيون يفتحون الراء تهكماً به!

قلنا: ولذلك كان الرجل يقول: برد الله من بردني، والرجل أدرى بحقيقة لقبه، ونعوذ بالله أن تحق فيينا كلمته فنكون من المبردين

محمد فهمي عبد اللطيف

إحياء ذكرى المنفلوطي

لجنة إحياء ذكرى المنفلوطي تناشد أساطين الأدب وأعلام البيان العربي باسم الوفاء لفقيد اللغة والأدب المرحوم السيد مصطفى لطفي المنفلوطي أن يتفضلوا بالكتابة عن أدبه الخالد من شتى نواحيه بمناسبة مرور ثلاثة عشر عاماً على وفاته وتمهيداً لإقامة مهرجان أدبي لإحياء ذكراه في 16 يوليو القادم

وترجو حضرات الكتاب والأدباء أن يعدوا مباحثهم الأدبية التي سيلقونها في مهرجان إحياء الذكرى وليتكرموا بمخابرتنا بمصر بشارع ذهني رقم 8 بالظاهر. وسنعلن فيما بعد عن المكان الذي سيقام فيه الاحتفال في الموعد المحدد علنا نكفر عن تقصيرنا في حق الفقيد الراحل ثلاثة عشر عاماً

سكرتير اللجنة

متولي حسنين عقيل

كتب الرحلات

كتب الرحلات من الأسفار التي يعنى الأوربيون بالإكثار منها لأنها وسيلة من وسائل إيقافهم على مجرى أساليب الحياة في الأقطار الأخرى، ولعل أكثر الأمم اهتماماً بذلك الشعب الإنجليزي، فقد جبل على حب المخاطرات والتنقل بين بلدان الشرق والغرب، وهذان كتابان أصدرتهما مطبعة في الشهر الماضي أما الأول فهو رحلة إلى سمرقند وبعض البلدان الأسيوية لسيدة إنجليزية هي إثيل مانين وهي تذكر في كتابها هذا ما لاقته من صعاب البيروقراطية الروسية في منعها من الدخول هناك، وتقص كيف تمكنت من عبور الحدود ودخول تركستان الروسية من (كراسنوفدسك) الواقعة على بحر قزوين ثم منها إلى تاشقند، وذلك ففي أسلوب يستهوي القارئ وتصف معيشة أهل السهوب والقفار وتقول في سياق حديثها (وفي القوقاز، كنا أول سيدات إنجليزيات يزرن هذه البلدة الألمانية الصغيرة جراندنبرج، تلك الواحة المنسية في بحر مترامي الأطراف من العشب) كما تلم بعادات القبائل الكردية والفارسية والقوقاز، والأزْبك والتتار، وتصف حياة النساء مما يدل على أنها تغلغلت بين طبقات هذا المجتمع الذي يعد حلقة اتصال بين البداوة في صورها الأولى والحضارة الغربية وتقول إن الحرية التامة متوفرة بين هذه الشعوب الشرقية، وإن الحضارة الأوربية إنما تفقدهم الكثير من صفاتهم الجميلة ولكنها لا تصيرهم غربيين.

أما الكتاب الآخر فعن ألمانيا الهتلرية وعنوانه ألفه شاب إنجليزي حدث يدعى سمع الكثير عن ألمانيا النازية من مدح وقدح فأحب أن يلمس ذلك عن قرب فسافر إليها، وفي الفصول الأولى تقدمة تاريخية عن ألمانيا منذ أواخر القرن التاسع عشر ويصف فيه محاسن النازية ومثالبها، وإن كان يميل في الغالب لاستحسان أعمالها على وجه الإجمال

حفلات غنائية هائلة

تقام في شهر يولية القادم بمدينة برزلاو بألمانيا حفلات غناء هائلة يشترك فيها مائة وعشرون ألف مغني؛ وتنظم فيها جماعات للغناء والنشيد المشترك تضم الواحدة ثلاثين ألفاً

أو أربعين ألفاً من المغنين؛ وهذه أعداد ضخمة لم يسمع باجتماع مثلها من قبل في حظيرة واحدة للغناء؛ ولهذا اتخذت إجراءات غير عادية لتنظيمها وتدريبها، ومهدت لها أبهاء فسيحة يجري إعدادها منذ أعوام؛ وقد تم منها بهوان عظيمان أحيط أحدهما بالمنابر وبلغ مسطحه 140 ألف متر مربع، ويمكن أن يتسع لأربعمائة ألف وعشرين ألفاً من الناس، وأقيمت في البهو الثاني منصة هائلة تتسع لثلاثين ألفاً من المغنين؛ وإنه لمن الصعب أن يتصور المرء كيف تجتمع هذه الألوف الحاشدة من الفنانين في حظيرة واحدة، وكيف ترتفع هذه الأصوات بالغناء المنسق المنتظم؛ ولكن عصرنا أضحى أهلاً لكل أعجوبة وكل مدهش

كتاب عن الرهبنة

ظهر أخيراً بالإنكليزية كتاب عن الرهبنة والرهبان في إنكلترا عنوانه (الرهبان الإنكليز وإلغاء الأديار) بقلم المستر جوفري باسكرفيل وهو كتاب شائق في موضوعه وفي أسلوبه، وقد لعبت الأديار في العصر القديم دوراً هاماً في تاريخ إنكلترا كما لعبت دورها في تواريخ الأمم الأخرى؛ ومن ثم كانت أهمية هذا الكتاب؛ ولدينا نحن بالعربية أكثر من كتاب عن تاريخ الأديار والكنائس

الكتب

عالم السدود والقيود

تأليف الأستاذ عباس محمود العقاد

للأستاذ كامل محمود حبيب

أهو كتاب أدب؟

أهو بحث فلسفي اجتماعي؟

اهو نقد يراد به إصلاح ناحية خاصة؟

أهو سرد حوادث مرت على عيني الكاتب فسجلها يراد المتعة وإزجاء الفراغ؟

أهو صرخة من أعماق قلب رجل طوحت به الأيام إلى قرارة سجن. . . فتلمس فيها الثورة والحنق. . .؟

. .أم هو ماذا؟

لقد كفانا الأستاذ - وهو يقدم لكتابه - مئونة التخبط بين هذه الأسئلة فقال: (لست أعني بها (الصفحات) أن تكون قصة، وإن كانت تشبه القصة في سرد حوادث ووصف شخوص؛ ولست أعني بها أن تكون بحثاً في الإصلاح الاجتماعي، وإن جاءت فيها إشارات لما عرض لي من وجوه الإصلاح؛ ولست أعني بها أن تكون رحلة، وإن كانت كالرحلة في كل شيء إلا إنها مشاهدات في مكان واحد؛ ولا أستقصي كل ما رأيت وأحسست وإن كنت أقول بعد هذا أن الاستقصاء لا يزيد القارئ شعوراً بما هناك، لا فرق بينه وبين الخلاصة إلا في التفصيل والتكرار. .)

نعم، لم يرد المؤلف شيئاً من هذا وإنما أرادها جميعاً، فجمع بين أشتاتها وألف بين أطرافها ثم زاد عليها نقداً في سخرية، وتهكماً في مرارة، بثهما في أعراض هذا السفر الصغير فهو قد قال في باب (المنع والترخيص). . (فإذا أبيح الشيء مرة فإنما يباح في حالة لا تسري إلى غيرها، وفي وقت لا يمتد إلى ما بعده. . الخ الخ) وفي قصة الفجل والجرجير ص52، ص53 نوع من هذا التهكم اللاذع

ولا يبرح الأستاذ العقاد في كتابه يطرفنا بنكتة مستملحة أو حادثة ممتعة منذ دخل في عالم

السدود والقيود إلى أن خرج منه، ففي باب (الليلة الأولى في السجن) وكذا في باب (أحمد حمزة) من الدعابات ما لا يستطيع معها القارئ أن يمسك عن الانفجار ضحكاً وقهقهة كأنه أراد أن يزيل عن القارئ بعض ما يسيطر عليه من الجد وهو يقرأ، أو كأنه أراد أن يستحث القارئ فيدفعه إلى آخر صفحة من الصفحات، أو كأنه نسى بعض ما قاسى في السجن وهو يكتب .!

وقد يجول بالخاطر أن الإجرام ينزع عن الإنسان إنسانيته فيبدو حيواناً مفترساً يفر منه الناس، خوف التعدي وخشية الضرر، غير إننا نرى في الكتاب براهين وأدلة تأتي على هذه الخاطرة من أساسها، نراها في الصفحات (73 - 80) وفي صفحة 197. . . وقد تدفع الضرورات رجلاً دمثاً إلى اقتراف جرم محظور، فيكشف ويناله الجزاء، إلا أنه لا يندر أن يظل بعدد ذلك رجلاً دمثاً كما كان. . .

وإذا كان (السجن إصلاح وتهذيب) كما يقولون؛ فلم لا نرى أثر ذلك في سجوننا لما ينال السجين من ظلم وإعنات وتحقير ومهانة واستصغار. وإذا كانت هذه الشدة تفيد في قليل من الحالات فما لا ريب فيه أنها تبذر الحنق والضغينة والحفيظة في نفس السجين إن كان دمثاً، وتغرس فيه الثورة والجموح إن كان شريراً. ولقد أشار المؤلف إلى نظام السجون الأوربية لنرى ما بيننا وبينهم من بون شاسع في هذه الناحية، وإن كان بعض الأمم قد جاوز الحد فيما خولوا السجين من حرية وتسلية. ولقد هفت بي نفسي نحو سجون موسكو - وأنا أقرأ بعض ما كتبه جيمس برفن ستيوارت ص210 إلى ص214 - لأستمتع بما يستمتعون به بعيداً عن عناء العمل، وعناء الأمل، وعناء الفكر، إلا أنني - واستميح الأستاذ عذراً - لا أستطيع أن أعمل ثماني ساعات كل يوم تتخلها ساعة واحدة للطعام. . .

ولقد رأيت في الكتاب هدوء من يقص قصة لا تضطرب حوادثها في نفسه، ولا تلمس مفاجآتها قلبه، فعجبت - بادئ ذي بدء - غير أني عدت إلى نفسي فقلت: لعله النسيان قد محا كثيراً من الذكرى، أو لعله الاطمئنان إلى كل ما يجيء به القدر، أو لعله الإيمان بالتضحية، أو لعلها حكمة الشيوخ ورزانتهم لا تعبأ. .

هذه كلمة إن لم يكن فيها الاستقصاء ففيها التعريف بالكتاب وليس بالمؤلف.

كامل محمود حبيب

أحسن القصص

للأساتذة: محمد عطية الأبراشي، محمود السيد عبد اللطيف،

حسن محمد جوهر

القصة ضرب من الأدب الرفيع تتجمع بين رقيق النثر ورشيق الشعر، فلها من الشعر سحره وجماله، ومن النثر ترسله وانسجامه، يسير سلساً كالماء ساعة الأصيل رقراقاً كالنسيم العليل، لا تقف في طريقه جنادل الأوزان، ولا يغل بأغلال القافية، وقد صيرت وزارة المعارف القصة أساساً من أسس التعليم في منهج المدارس الابتدائية ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، وتنافس الكتاب في إصدار القصص، فهذه قصة تاريخية، وتلك جغرافية والأخرى أدبية، والتلاميذ يستسيغون جميع ذلك

وبينا نحن نتمنى للقصة (في أفق المدارس) الكمال والسلامة من زيف الخيال، وزيغ المطابع والأقلام برزت الحلقة الأولى من حلقات (أحسن القصص) لأساتذة أمجاد بارعين فإذا هي مزيج من الأدبين العربي والإفرنجي، وصلة بين الخيالين الغربي والشرقي في أسلوب هو - كما يقولون - السهل الممتنع، والقريب البعيد، وإذا كان هذا أول الغيث، فإنه غيث ممرع، وصيب بالخير مترع، فالحلقة خالية من التكلف والصنعة مفعمة بالروعة والمتعة، قد أنفق عليها مؤلفوها عن سعة إيماناً بفنهم واطمئناناً إلى آثارهم، فالغلاف جميل أنيق يحدثك دون قراءة عنوانه أنه قصة، وتنطق ريشة المصور بأنها ساحرة، والورق ناصع، والطبع صاف دقيق والصور خلابة، وإن بدأ القارئ أن الكتاب في غنية عن التصوير؛ فقلم كاتبه أفصح من ريشة مصوره، وسحر عبارته آخذ من دقائق صورته.

يشتمل الكتاب على أربع قصص: قصتين عربيتين وأخريين مصريتين، تلمس في الأولى حياة العرب في حضارتهم وجدهم في دعتهم، ومزحهم في حكومتهم، وسماحتهم في ضيافتهم، وتقرأ في الثانية مثلاً لحقد المرأة، وآخر للحب الظافر، وفي الثالثة وصف محكم للصحراء وجوها وللواحات وثمراتها، ولصبر البدو وعزمهم ووثباتهم على العقبات في جلد وصرامة، وتنتظم الرابعة مواقف محرجة سهلة الابتداء عسيرة الانتهاء، وفيها مثل نبيلة للحنو والعطف.

وإذا كان على الناقد أن يتقصى الحسنات والسيئات فأنا لا نكاد نلفي في هذه الحلقة سيئات تذكر، اللهم إلا هنات تبدو كالكلف في جبين الحسناء، من ذلك أن صورة الغلاف لا تمثل منظراً في الكتاب، والرقصة الموصوفة بأنها عربية في (خليفة في الخيال) لا تمت إلى العرب من قريب أو بعيد، كما أرى وجوه الراقصات وجوهاً غير عربية، فالوجه العربي مستطيل غالباً، وأرى أن توضيح الصور بالكتابة تحت الرسم تزييف لها، فللرسم لغته، وهو غني عن الكلام، وإلا عد دليل الضعف والقصور، وتسمية القصة الثالثة (عزة في الصحراء) تسمية غير موفقة إذ مكانتها في القصة ثانوية ولا يرفع من منزلتها أنها وحيدة أبيها، ولفت نظري تكرار عبارة (حباً وكرامة) في روايتين

عربية وإفرنجية، وحبذا لو نوعت العبارة ولدى المؤلفين من أفانين القول معين لا ينضب، على أن الكتاب مع ذلك طاقة يانعة من أزاهير الجمال

المعادي

عبد العظيم علي قناوي

العدد 201 - بتاريخ: 10 - 05 - 1937

بعد مؤتمر الامتيازات

الآن يبدأ الاستقلال!

كان يوم السبت أول أمس آخر أيام المؤتمر، فغابت في أقصى الحلوق الألسنةُ التي كانت تجادل وتقاتل للمنفعة، وانبسطت من القلوب ألسنة معسولة كانت تجامل وتدامل للعاطفة. وجدوى المدنية على الإنسان، أنها خلقت له لسانا مع اللسان، إذا جرح هذا، لعق دم جرحه ذاك. وجملة القول في المؤتمر أنه ألغى الامتيازات إلا ذيلا سينسحب في ردهات المحاكم المختلطة اثني عشر عاماً ثم ينقطع. ومصر التي كابدت رهق هذا النظام المهين في الأعمال والأموال والأنفس، تدرك أن هذا الاتفاق المدني مع الدول الممتازة، أبلغ شانا وأبعد مدى من ذلك الاتفاق العسكري مع الدولة المحتلة؛ فإن الاحتلال الإنجليزي كان محصوراً في ثكنتين وقلعة، يطل من نوافذها الضيقة إطلال المتقحم الغاصب، فلا يرى إلا النظر الشزر، ولا يسمع غير الهتاف العدو؛ وكان وجوده الباطل تحدياً لرجولة الشعب فتيقظت فيه عواطف الوطنية والقومية والحرية، فدافع بمواهبه حتى نضجت فيه الكفاية، وضحى بدمائه حتى نبغت فيه البطولة. وأما الاحتلال الدولي فقد كان معتمداً على اتفاقات موروثة ومساومات مكتوبة وامتيازات مكتسبة، فتدخل في كل عمل، وتغلغل في كل مكان. وأخذ على الأهلين سبل العيش وموارد الرزق فتعطلت في نفوسهم الملكات المنشئة، وسكنت في رءوسهم النوازي الحافزة، ورضوا من بلادهم بالنصيب الأخس ضراعة وذلة؛ وكان نظام الامتيازات الذي استتبع هذا التفاوت في نظام الحياة، إيحاء ملحاً بأننا دون الأجنبي في القوة والقدرة والخلق، فخضعنا خضوع التابع، وقنعنا قنوع المحروم، وتأخرنا في ميدان الاقتصاد بقدر ما تقدمنا في ميدان السياسة. فإذا أنقذ الوفد بهذا الاتفاق كرامتنا من الذل، وسيادتنا من العجز، وثروتنا من الغبن، واستقلالنا من النقص، كنا أحرياء بأن نفخر بسمائنا التي لا تعبس، وبأرضنا التي لا تيبس، وبنيلنا الذي لا يُحلف الآن يبدأ الاستقلال؛ لأن الاستقلال الصحيح أن تقول صادقاً في وطنك: أنا السيد؛ وفي محكمتك: أنا القاضي؛ وفي أرضك: أنا المستغل؛ وفي مالك: أنا المتصرف. على أن (بَدَأَ) ليس معناها (تم)؛ وتسجيل الاستقلال عمل من أعمال الحكومة، ولكن تثبيته عبء من أعباء الشعب؛ وإذا كان المدافع عن جهته السياسية جنود الدولة، فإن المدافع عن جهاته

الأخرى شباب الأمة. هذه ميادينا الحيوية تعج بالجيوش الغربية، ليس لنا من بينها جندي ولا قائد، وليس لنا من ورائها فخر ولا مغنم إنما يتنافسون ونحن الخصوم ويتقاتلون ونحن القتلى. فمن الذي يحتل هذه الميادين المغصوبة، ويغزو هذه الجيوش الغاصبة؟ وهذه طبقاتنا العاملة تفتك بنشاطها الفطري جراثيم الجهل والفقر والمرض؛ فمن الذي ينبه عقولها بالعلم، ويشد أيديها بالمال، ويمسح على أبدانها بالعافية؟ الشباب هم الجواب عن هذين السؤالين وعن غيرهما من كل ما يخطر بالبال من مسائل الاستقلال ومشاكل البلد

ستقرأ في (رسالة الشباب) من هذا العدد كلمة لشاب كريم يقترح فيها على إخوانه التجنيد المدني لزحف اجتماعي عام يهاجم عوامل الضعف في العلم والأدب والسياسة والاقتصاد والأخلاق والنظم، وجعل لهذه الغزوات الأدبية خمسة أعوام تحشد فيها الجنود وتنصب القادة وتوضع الخطط وتوزع الفرق وتعين الميادين ويتم النصر، وليس أجدى ولا أجدر في الحال التي نحن فيها من هذه الفكرة. فقد وقفنا طويلا نقنع المكابرين أننا أمة لها وجود مستقل، ودولة لها سلطان سيد، فجر علينا هذا الوقوف أن تخلفنا عن الأشباه تخلفا لا يسوغه مجد الماضي ولا طموح الحاضر. فسبيلنا إلى اللحاق أن نتهالك في السير لا نتراخى ولا نتريث، نبصر هدانا على رأى الشيوخ، ونحمل ضعفنا على قوة الشباب، ونستمد حوافزنا من الذكرى، ونرسل مطامعنا مع الأمل.

هذا الاقتراح طبيعي تقتضيه الحال بعد أن فرغنا من الإنجليز بمعاهدة الزعفران، ومن الدول باتفاق مونترو، فلم يبق ما يشغل الرءوس والأيدي إلا أمورنا الداخلية، ومشاكلنا الاجتماعية. فكيف السبيل إلى تحقيق هذا المقترح؟ أنكتفي بجهاد الطلاب من الشباب في أوقات الفراغ وأيام العطلة، يزورون المدن ويرودون القرى فيثقفون العامل ويعلمون الفلاح وينفثون من روحهم الوثابة حياة في النفوس، وصحة في الجسوم ويقظة في المدارك؟ أم نؤلف فرقا دائمة من الشباب المتخرج يكون فيها المعلم والطبيب والمهندس والزراعي والواعظ، فيسيرون بعتادهم وخيامهم (روادا) يغشون القرية بعد القرية، يدرسون أحوالها، ويكشفون أدواءها، ويعالجون كل شيء بما يساعد على صلاحه، أو يعين على نجاحه؟ أم نعبئ جيشاً سلمياً نظامياً من المتعلمين المتعطلين نُعدهم إعداداً خاصا للدعاية والإرشاد والدفاع، ونمدهم بالكفاف من المال، ونجعل بعضهم مع الزراع، وبعضهم مع العمال،

وبعضهم مع الطلبة، يروضون جسومهم على الدفاع المنظم، ونفوسهم على الخلق الصالح، وأيديهم على الإنتاج الصحيح؟ ثم ماذا تكون صلة هذه الفرق بالحكومة والأمة؟ لمن القيادة؟ على من النفقة؟ أللحكومة؟ أعلى الأمة؟ أم لهما وعليهما معا؟

ذلك اقتراح جدير بأن يقسَّم فيه الرأي ويُحكم له التدبير؛ وقد عرضه صاحبه هناك وعرضناه نحن هنا لنستعين على تمحيصه بأقطاب الرأي، وعلى تنفيذه بأرباب العزيمة.

أحمد حسَن الزيات

الذي نعمله

للأستاذ عباس محمود العقاد

جاءتني من الأديب صاحب الإمضاء رسالة يقول في ختامها:

(. . . قد رأيت بما لي من حق طالب العلم على أستاذه أن أطلب إلى سيدي الأستاذ أن يتبع هذا المقال بنفحة أخرى تبين لنا ما نعمله لنبلغ من أمرنا ما نريد، وأرجو ألا يعتبر مني هذا اقتراحا أو ما في معناه وإنما هو محض استزادة من خير علمك العميق النظيف. . . .)

أحمد حنفي نصار القوصي

وهذا سؤال حقيق بأن يسأل، وكنت أود أن يسأل، فهو حقيق بأن يجاب وجوابي للأديب أن حاجتنا الكبرى إنما هي أن نعلم كيف نريد لا أن نعلم كيف نعمل. فإذا أردنا عملنا؛ وكل مريد عامل وعارف بوسيلته إلى إنجاز مراده

مضى زمن والناس يتحدثون عن الإرادة والعمل كأنهما قدرتان مفصولتان، وعن العاطفة والفكر كأنهما شيئان لا يتلاقيان، وعن الخيال وفهم الواقع كأنهما ملكتان نقيضتان، إلى آخر ما يفرقون ويقابلون بين ملكات الطبائع وخصائص الأذهان. وهذا خطأ في تصوير الحقائق يتبعه لا محالة في تصوير العلاج والإصلاح

ليست الإرادة والعمل ولا غيرهما من الملكات والطبائع خطين متلاحقين يبدأ أحدهما عند نهاية الآخر، أو جسمين متحيزين لا يجتمعان في مكان واحد، وإنما هما مظهران من قوة النفس يصدران عن معين لا يتجزأ ولا ينفصل بالحدود والمعالم. فإذا امتلأت النفس بالقدرة على الإرادة فقد امتلأت بالقدرة على العمل في وقت واحد وفي صورة واحدة؛ ولن يفشل في عمله - وقد تهيأت للعمل أسبابه - إلا لأنه ناقص الإرادة

أرأيت إلى الناس وهم يطلبون السيادة ولا يبلغها منهم إلا قليل؟ ما بال قوم منهم يبلغونها وأقوام ينكلون عنها خاسئين؟

إنما يبلغها من بلغ لأنه أرادها ولم يرد غيرها. فهو سيد وإن تراخى الزمن دون الإقرار له بالسيادة؛ وهو سيد لأنه لن يكون عبداً وإن أخطأته الذرائع إلى حين

أما الذي يبغي أن يسود ولا يأبى أن يكون عبدا فأين هو من إرادة السيادة؟

وأما الذي يبغي أن يسود ولا يختلف عنده مقام السيد الرفيع ومقام العبد الذليل فأين هو من إرادة السيادة؟

وأما الذي يبغي أن يسود ويحسب أن الناس يسودونه قبل أن يسود عليهم فأين هو من إرادة السيادة؟

قل إنه يتمنى أن يسود، أو قل إنه يحلم بأن يسود، أو قل إنه لا يكره أن يسود؛ فأما أنه يريد فمعاذ الإرادة أن تجتمع ونقيضها في عزيمة واحدة؛ ومعاذ الإرادة أن تجتمع ولا يتبعها عمل ولا يتبع العمل نجاح.

لماذا لا نعمل؟ لأننا لا نريد! ولماذا لا نريد؟ لأن زادنا من الحس والوعي والخيال قليل ومع هذا نحن لا نُزهي بشيء كما نزهي بفرط الحس وفرط الوعي وفرط الخيال. . !فهل رأيت إلى بعد ما بين الحقيقة والدعوى، وبعد ما بين وصف الداء ووصف العلاج؟ إملاء النفس بالحس والوعي والخيال تملأها بالحركة والإرادة غير منفصلين. وانظر إلى الطفل الدارج لماذا لا يهدأ؟ ألانه قرأ الفصول والمباحث في فضل الحركة والنشاط؟ ألأن أحداً أمره أو أحداً أغراه؟ كلا! ولكنه يتحرك وينشط لأنه شبعان من الحس شبعان من إرادة العمل الذي يهواه. ولو سبب غير ذلك دعاه إلى الحركة والنشاط لما استجاب. إذا أحسسنا لم نصبر على الركود، وإذا نفضنا الركود فماذا أمامنا غير الحركة والعمل؟ وماذا أمامنا غير الظفر والفلاح؟

لننس كل النسيان وأشد النسيان أننا - معاشر الشرقيين قوم مصابون بفرط الحس والوعي والخيال. فإننا لأبرأ الناس من هذا المصاب إن كان مصاباً. وإننا لأحوج الناس إلى هذا الشفاء، وهو شفاء

وآية ذلك أن نسأل كم عدد المعبرين عن الحس والخيال في الشرق كله؟ وكم عدد هؤلاء في أمة واحدة من أمم الدنيا المريدة العاملة؟

كم في أمة واحدة من أمم الدنيا المريدة العاملة السيدة الأيدة من مصورين ومثالين؟ وكم فيها من موسيقيين ومنشدين؟ وكم فيها من ممثلين ومخرجين وكتاب روايات وشعراء وأدباء؟ وكم فيها من متاحف وتماثيل؟ وكم فيها من باعة أزهار وأساتذة تجميل؟ وكم فيها من مغامرين مقاديم يبيعون الواقع بالخيال، ويستغنون عن الممكن الميسور بما يلوح للعاجزين

كأنه محال؟

كم من هؤلاء في أمة واحدة وكم منهم في الشرق كله هذا الزمان وأخشى أن أقول في جميع الأزمان؟

إن لم تكن الحقيقة أن الشرق مسكين غاية المسكنة مدقع غاية الادقاع في ازواد الحس والخيال، فالأسطورة الكبرى ولا ريب هي أنه مسرف في حسه وخياله، مفرط في شطحاته وآماله.

فما بالنا نحار كيف نعمل، وأولى بنا أن نحار كيف نحس ونتخيل؟ وما بالنا ننشد أسباباً للحركة والعمل غير أن نملأ نفوسنا بالإحساس كأنما هذا وحده غير كاف؟ وكأنما نحتاج بعد الإحساس إلى مزيد؟

إن الإنسان ليثور من السخط والغضب حين ينظر إلى فقرائنا العجزة المعدمين وهم يتيهون من الغنى الموهوم، ويتغطرسون بالثراء المعدوم. واسمعهم يتغنون بالحب مثلا والحب فيض في الشعور واتساع في آفاق الوجدان؛ واسمعهم يتغنون به وهو صنوف صنوف لا تنحصر في معنى واحد ولا في نمط فريد: حب الناشئين غير حب الكهول، وحب التفاهم والتعاطف غير حب المتع والشهوات، وحب المرأة المطواع اللعوب غير حب المرأة العصية الشموس، وحب المنكوب اللاجئ إلى حرم العاطفة غير حب السعيد الناعم بما في يديه، وحب الواثق غير حب المرتاب، وحب الوسيمة القسيمة غير حب الرشيقة الظريفة، وحبك الأول غير حبك بعد تجربة ومراس، وصنوف غير ذلك تتعدد بعداد الرجال والنساء وعداد الأحيان والأعمار والمناسبات.

اسمعهم يتغنون بهذه العاطفة الشاملة الداوية العميقة الرحيبة التي لا عداد لها بالألوان وإن عدت باللفظ في كلمة واحدة، وقل لي ماذا تسمع غير نغمة واحدة معروضة في شتى أساليب؟ ماذا تسمع غير أن حبيبة هاجرة أبدا وحبيبا سيموت أبدا وفوق ذلك قطرات هنا من دموع وشهقات هناك من أنين؟

ودع هذا واسمع المنشد أو المنشدة لا يكادان يفرغان من نغمة مبدوءة حتى يتبعهما ضجيج وزعيق وقرع وخبط وتصفيق كله نشوز واختلاط ومنافاة أبعد المنافاة لسماع الألحان والأنغام. وقل لي: هل تصدق أن هؤلاء السامعين يستمعون إلى موسيقى ويصغون إلى فن

وينعمون بتعبير جميل وتنسيق لا يطيق الاختلال؟

فأما الموسيقى والنشوز والخبط والزعيق فمحال أن يجتمع هواها في أذن واحدة في لحظة واحدة؛ وأما الذي يجتمع مع النشوز والخبط والزعيق فهو تخبط الجسد المحموم بحمى البهيمية لا تمييز فيه ولا ذوق ولا خيال

علم الله ما أصغيت إلى جمع من هؤلاء الناعقين الناهقين ولا توسمت ما يزهون به من (حساسة) وظرافة إلا تلمست في يدي موضع السوط ألهب به تلك (الحساسة) وأطير به تلك (الظرافة) وأثبت لهم بالسوط وحده - ولا إثبات بغيره لأمثال هؤلاء - أنهم بلداء بلداء بلداء، وإنهم يغثون النفوس من فرط كونهم بلداء غارقين في بلادة لا تفيق
!لا يا أساة الشرق الحزين والمشفقين عليه
داووه من نقص الإحساس لا من فرط الإحساس؛ وداووه من ضنانة الخيال لا من سرف الخيال
وعلموه أن يحس تعلموه أن يريد؛ ومتى تعلم أن يريد فلا حاجة وراء ذلك إلى تعليم
ولقد يسأل السائل من جديد: ومن لنا أن نثبت فيه الحس المأمول؟ وجواب ذلك سهل في التعبير، ولا أزعم أنه سهل في الإنجاز والتحقيق
جواب ذلك أن الحس لا يخلق خلقاً ولكنه يتعهد بالحث والإيقاظ إن أصابه جمود ورانت عليه ثقلة الكسل والجثوم
وليس أنجع في الحث والإيقاظ من تصحيح الأجسام وتصحيح الأذواق: تصحيح الأجسام بالرياضة الصالحة القوية، وتصحيح الأذواق بالفنون الجميلة الرفيعة؛ ومن صح جسده وحسن ذوقه فلن يفوته الشعور بما حوله؛ ومن شعر بما حوله فماذا يبقى له إلا أن ينشط ويعمل، وإلا أن يريد وينجز ما يريد؟
عباس محمود العقاد
جلسة عائلية
للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني
(!.عمي)
فلم أجب، ولم ألتفت، فكأن النداء كان لغيري، ومضيت في كلامي مع صاحبتي، وكان الهواء طول النهار راكداً، والحر شديداً، ثم بدأ الجو يطيب، والجلسة تحسن، في هذه الصحراء النائية التي لم يكن يخطر لي أن يهجم علي أحد فيها من أهلي.
(. . .عمي)
فأبيت أن أشعر أن النداء لي؛ فقالت صاحبتي: (ألا تسمع؟)
ولم يكن ثم شك في أني أنا العم المقصود، فقلت: (سامع، وفاهم. . .)
(عمي. أنت هنا؟ من الصبح أناديك)
فوقفت - فما بقي من هذا بد - والتفت إلى الصغيرة التي بح صوتها وقلت: (هل سمعتك تنادين عمك؟)
قالت: (طبعاً. . لي نصف ساعة وأنا أفعل ذلك)
قلت: (هل تريدين مني أن أبحث لك عنه؟. . أناديه معك؟ إن صوتي مع الأسف خافت. خفيف جدا. . . لا يذهب إلى أكثر من متر. يصلح للهمس فقط. في الأذن) فضحكت الصغيرة وقالت: (ماذا تقول يا عمي؟ لماذا تتكلم هكذا؟)
قلت: (عمك؟ أنا؟ أنا عمك؟).
قالت: (بالطبع. . ألا أعرف عمي؟) وضحكت.
قلت: (واثقة؟).
قالت: وهي لا تزال تضحك وقد راقها كلامي: (جدا).
قلت: (ولا شك عندك)؟
قالت: (أبدا).
قلت: (ولا رغبة في الشك؟)
قالت: (كلا).
قلت: (يعني أن لي أخا أنت بنته فأنا عمك؟)
قالت: (آه).
قلت: (بهذه السهولة؟ بلا تردد أو مناقشة أو بحث؟. وا أسفاه!. ألحق أن روح البحث العلمي ينقص الجيل الجديد)
قالت: (ماذا تعني؟)
قلت: (يا بنت أخي - أظن أنه لاشك عندك في هذا - إن الذي أعنيه هو أن المسألة تحتاج إلى تمحيص قليل، وأن التسليم بهذه السهولة ليس من أخلاق العلماء. تفضلي واجلسي فإن الجلوس أعون على البحث السديد).

فجلست وطلبت لها شيئاً من عصير البرتقال، فهو خير ما يشرب في هذا المكان وفي مثل ذلك الجو وعرفتها بصاحبتي ثم قلت لها:
(نعود الآن إلى عمك)
فقالت: (ما له؟)
قلت: (لاشيء به. كان الله في عونه. هل تعرفين ابن الرومي؟)
فابتسمت صاحبتي وقالت الصغيرة (ابن الـ؟ ابن إيه؟)
قلت: (مسكين ابن الرومي!. ألم تسمعي به قط؟)
قالت: (لا. . أبداً. . أين هذا؟)
قلت: (مات من زمان).
قالت: (وكيف أعرفه وقد مات من زمان؟)
قلت: (صدقت، الذي يموت لا يعرفه أحد، يكون ذنبه على جنبه. خازوق!)
قالت: (ما هو؟)
قلت: (أن يموت. . أ. . أ. . إن ابن الرومي مات)
وقالت صاحبتي: (دع الموت والموتى بالله. حسبك الأحياء فأركبهم بما شئت من هزلك)
وقالت الصغيرة: (من هو ابن الرومي يا عمي؟. إني أراك تعطف عليه)
قلت: (صحيح. . مسكين،ـ ابن الرومي هذا يا ستي كان رجلا له لحية. . كان ينبغي أن يظل وجهه أمرد، أملس ناعما فقد كان جميلا في صباه، ولكنه كان مع الأسف رجلا، والرجال مصابون باللحى. . آه لو كانت اللحى تنبت للنساء! ولكن الله أعفاكن من هذا البلاء. . ومن حسن حظ ابن الرومي - أو من سوء حظه، لا أدري - أن الناس في زمانه كانوا لا يحلقون لحاهم كل يوم كما نفعل نحن تقليداً لكن يا بنات حواء. . غريب! ينفر الرجال من مظاهر الرجولة ويدأبون على محوها كل يوم!. . . ولا نرى المرأة تحاول أن تكون لها لحية كالرجل!. . لا تخافا فلست أنوي أن ألقي محاضرة عليكما، ولكنه يخطر لي الآن أن من غير المقبول من الرجل أن يتجّمل ويحاكي المرأة ويحاول منافستها في مزيتها فهل هذا يا ترى تخنث منه؟ أم هو من الرغبة في أن يتسلح للنضال بكل سلاح؟. . ما علينا!. . فلنرجع إلى ابن الرومي: كان هذا يا ستي ذا لحية خفيفة قليلة الشعرات، ولكنها لحية على كل حال؛ وكان يأسف لأن (السيفتي ريزور) - (. .آلة الحلاقة الحديثة - لم تكن قد اخترعت في زمانه
فقالت الصغيرة محتجة: (يا عمي ما هذا الكلام؟. . كيف يمكن أن يأسف على شيء لم يكن يعرف أنه سيكون؟)
قلت: (والله ذكية يا ملعونة!. . نهايته. . الحق معك. . فهل الأصح أن أقول إنه لم يكن يأسف على عدم اختراع السيفتي ريزور؟. . سيان؟. . هيه؟. وكان يا ستي يخاف من البرد جداً، فكان إذا دخل الحمام - أعني إذا أراد أن يستحم - يوقد فيه النار ليضمن لنفسه الدفء حين يكون فيه ويملأ الطشت بالماء الساخن، ويعد الليف والصابون النابلسي الجيد - أم ترى هذا لم يكن معروفاً؟. . لا بأس - ويطلق البخور ثم يدخل متوكلاً على الله، متوسلاً إليه تعالى أن يحرسه في الحمام، وأن يخرجه منه بخير وسلام. .)
فقالت الصغيرة: (أكان يخاف إلى هذا الحد؟. . لماذا؟ مما كان يخاف؟)
قلت: (أوه، لا أدري!. يظهر أن كلباً كلباً - مسعوراً - عضه في طفولته ولم يشف قط، أو لم يشف تماماً. . كووه بالنار أو لا أدري ماذا فعلوا به. . ولكنه لم يشف)
فقاطعتني سائلة: (صحيح يا عمي؟. . مسكين!)
قلت: (لا أدري. . هذا تخمينـ. . وإلا فلماذا كان يخاف من الماء كل هذا الخوف حتى ليقول:
وأيسرُ إشفاقي من الماء أنني ... أمرُّ في الكوز مر المجانب
وأخشى الردى منه على كل شارب ... فكيف بأمنيه على نفس راكب؟
فقالت صاحبتي: (يا شيخ حرام عليك!. . اتق الله!. . لا تصدقيه)
فتلفتت الصغيرة منها إليَّ، ثم قالت بعد تردد: (هل كان شاعراً؟)
قلت: (لا. . لم يكن شاعراً. . وإنما كان يغني في الحمام فيخرج الكلام موزوناً وهو لا يدرى. . ولكن الناس لا يتركون أحداً مرتاحاً. . ويظهر أن بعضهم كان يسترق السمع

وراء باب الحمام، ويقيد كل ما يسمعه من ابن الرومي وهو يغني نفسه ويتسلى في الحمام. ثم جمع كل ما سمعه، ودفعه إلى الناس وقال هذا شعر ابن الرومي.، الناس ملاعين. . أشقياء. . لا يدعون أحداً مرتاحاً. . الرجل كان يسلي نفسه في الحمام فمالهم هم؟. . إيه!ـ . هكذا الناس يحشرون أنفسهم فيما لا يعنيهمـ . فضول ورزالة. . نهايته. . وكان مما يغني به وهو ينظر في المرآة إلى لحيته، ويمشط شعراتها القليلة ويفتل أطرافها لتكون كالقلم الرصاص المبري هذا البيت:

أصبحت شيخاً له سَمْتٌ وأبهة ... يدعونني الغيد عماً - تارة - وأبا

كان يتحسر على شبابه، ويأسف لأنه صار ذا لحية. . ويظهر أن الغيد الحسان من أمثالكن يغلطن فتارة يقلن له يا عمي، وطوراً يقلن له يا أبي. . غريب ألا يعرفن أهو أب لهن أم عم؟. . ولكنك أنت لا تغلطين. . أنا عمك فقط. . متأكدة أني لست أباك أحياناً؟)

فقالت صاحبتي: (أعوذ بالله منك!)

وقالت الصغيرة: (متأكدة جداً. . عمي بالطبع. كيف يمكن أن تكون أبي؟)

قلت: (معقول ألا تغلطي. . لسببين: الأول أني لا أرسل لحيتي كما كان ابن الرومي مضطراً أن يفعل لأن الله خلق السيفتي ريزور في زماني والحمد له، أعني لله، بالطبع، لا للموسى؛ والثاني أن أباك المحترم مقبل علينا يتهادى في مشيته. . أحسبه يفخر بأن له بنتاً مثلك. . له الحق!)

وجاء الأخ الفاضل وقمت بواجب التعريف الذي لا مهرب منه، واتضح لي - بعد أن تجشمت عناء القيام بهذا الواجب أنه كان يسعني أن أريح نفسي، فقد سبق لأخي أن عرف صاحبتي في بيتنا.

وجلسوا. وجلست وأنا أتنهد وأنظر إلى صاحبتي وأقول:

معذرة. ليس هذا ذنبيـ وأنت ذكية، وتستطيعين أن تدركي بسهولة أنه لا مهرب من الأهل. لقد جئنا إلى آخر الدنيا من ناحية الشرق، ولو أنصف الزمان لذهب أخي الفاضل إلى آخر الدنيا من ناحية الغرب مثلا، أو الجنوب أو الشمال؛ ثلاث جهات كان يمكنه أن يذهب إليها، ولكن جاذبية الدم تصرفه عن الجهات الثلاث وتدفعه إلى هذه الجهة فيدركنا ويملأ علينا الدنيا، ويشعرنا بأنها في الحقيقة أصغر مما كنا نظنها. ويؤنسنا طبعاً. أظن أن في وسعنا أن نغتفر له هذا من أجل بنته، من أجل عينيها اللتين وقعتا علي بسرعة البرق، نصفح عن أبيها ونرحب به. تعال يا جرسون والأمر لله. وحسبي الله)

إبراهيم عبد القادر المازني

في تبويب الكتب

للدكتور محمد عوض محمد

لقد تجري في حياتنا الأدبية الهادئة حادثات ونوادر طريفة تستحق أن تُسَّجلَ وتُثْبتَ؛ ومن ذلك هذه الرسالة التي كتبها صديقنا الأديب إسماعيل بن زيد إلى صديقه الفاضل الأستاذ طه حسين، مُستفَتْياً ومداعباً

وصاحبنا إسماعيل يزعم أنه قد تكدست لديه المؤلفات القيمة، ولكنه لا يعرف كيف يقسم كتبه إلى أبواب وفصول، ولذلك لم يستطع نشر شيء من مؤلفاته إلى اليوم. وهو يزعم في هذا أن عناء التأليف والتصنيف ليس بشيء يذكر إلى جانب عناء التبويب والتفصيل.

فلم يكد يطالع في كتاب للأستاذ حسن إبراهيم حسن قِطعةٌ يصف فيها الأستاذ طه حسين بأنه (لا يشق له غُبار في تبويب الكتب) حتى تناول قلمه الرشيق، وأرسل إليه هذا الكتاب، الذي عثرنا عليه بمحض الصدفة، والذي نثبته هاهنا بنصه وفصه:

استفتاء

إلى العميد العظيم طه بن حسين!

نَعِمَ صباحُك أيها العميد!

وبعد فإني أريد أن أستفَتْيِكَ في أمر شهد لك فيه صديقنا حسن إبراهيم حسن بالتقدم والبراعة، حيث قال في غير موضع من رسائله الممتعة إنك لا يشق لك غبار في تبويب الكتب

ولدي أيها العميد العزيز رسائل عديدة في موضوعات جليلة، حرت في أمري وفي

أمرها: كيف أجعل لها أبواباً ونوافذ وشبابيك. . . وهي رسائل - وحقك - ذات خطر عظيم وشأن جليل؛ أريد أن أتقدم بها إلى بعض معاهد العلم لكي أحصل بها على ألقاب فخمة، وأسماء ضخمة. .

وما خيرُ حياة، يعيش صاحبها من غير ألقاب ولا أسماء؟ ولقد حدثني من أثق بشهادته أن الألقاب أعظم شيء في الحياة، وأنه أفضل لابن آدم أن يكون له لقب، من أن يكون له أدب. وأن يكون له اسم، من أن يكون له جسم. والألقاب مثلها كمثل الأثواب تستر الهنات، وتكسب الفخامة والجلال.

ألا ترى أن الكُرُنب وهو نبت قليل الخطر، حقير الجوهر، قد سما على سائر النبات، وشمخ بأنفه، ومال بأعطافه؛ وليس له من فضيلة يُدِلّ بها سوى أنه يتألف من ثياب بعضها فوق بعض، فإذا نزعت عنه ثيابه لم تجده شيئاً.

. . .ومثل هذا يقال في الخس والجرجير، وهما الغذاء الأساسي لكبار الكتاب والشعراء صدقني، أيها العميد! إن الثياب والألقاب هي كل شيء في الحياة.

والآن لابد لك - إن كنت ترعى للمودة حرمة، وتستجيب لداعي الإخاء والصداقة - أن تُفْتِيني كيف أرتب الأبواب لهذه الأسفار التي أريد أن أتقدم بها إلى رجال العلم، إن كنت حقاً لا يشق لك غبار في تبويب الرسائل والأسفار.

فأما الرسالة الأولى فهي (في صيد الضفادع: كيف يكون ومتى يكون) فقد حرْت كيف أبوّب هذه الرسالة. هل يكون الباب الأول منها في الضفادع أم في الصيد. . وقد تراءى لي أن أتحدث عن هذه الكائنات العزيزة؟ هل هي من حيوان البر أم من حيوان الماء؟ وهل نقيقها خارج من الحنجرة والبلعوم أم من الحلق والخياشيم؟ وهل هي أسرع حين تسبح في الماء، أو حين تثب على أديم الغبراء؟ وهل غذاؤها الطحلب الحامض أم الحلو؟ والعشب اليابس أم الطري؟ وهل أرجلها أطيب في المأكل أم أيديها؟ وهل يُمَهَّدُ لصيدها بأناشيد وأغانٍ غربيَّة على طريقة شوبرت، أم بأناشيد شرقية مثل نغمات معبد في الثقيل الأول على مدار البنصر؟ وهل تستطيع ضفدعة أن تسبح في الماء إذا استلقت على ظهرها من شدة الضحك مثلا؟ فإن كانت عاجزة عن السباحة وهي في هذه الحال. جاز لنا أن نفكر جدياً في صيدها وهي تضحك حين نتلو عليها رسالة للجاحظ، أو قطعة لموليير.

كذلك يجب أن تفهمني في أي بابٍ أضع ما كان بين الضفادع ومسيلمة الكذاب، وهل انخدعت بأكاذيبه كما ينخدع الناس بأحاديث الكذابين في كل مكان وزمن. ومتى كانت الضفادع ممن يؤخذ بالأكاذيب؟ فهل يجوز استخدام هذه الحيلة في صيدهن والاستيلاء عليهن؛ أم تلك خدعة لا تليق بالصياد الشريف والباحث العفيف؟

فهلم يا مُبَوِّبَ الكتب! ضع أبوابا ونوافذ ودهاليز لهذه الرسالة ولا تبطئ علي فإني مستعجل.

أما الرسالة الثانية فموضوعها (تعليم الجراد مبادئ الفلسفة) فقد أنبأنا عالم فاضل أن هذه

خير وسيلة لتحويل الجراد عن حياة النهب والسلب، إلى حياة الشرف والاستقامة. . وتحولُ عقبات كثيرة دون تثقيف الجراد بهذه الثقافة الفلسفية المنشودة، ذلك أن الجراد لا يستقر لحظة في مكان، فلا تكاد تتحدث إليه عن أفلاطون وتأخذ في شرح القواعد التي تقوم عليها جمهوريته، حتى تستهويه سنبلةُ قمح أو كوز من الذرة، فيتركك في فلسفتك العلوية وينطلق إلى عالمه السفلي. ولقد تظن أنه سيقف على كوز الذرة زمناً طويلاً يمكّنك من أن تشرح له كتاب الأخلاق لأرسطو، لكنك لا تكاد تفرغ من الفقرة الأولى من الفصل الأول حتى يكون المجرم قد سئم الكوز الأول، ووثب يلتمس كوزا سواه.

غير أن العالِم الجرادي الألماني ميلر قام بعدة تجارب تدل على أن في الجراد ميلا إلى فلسفة ماكيافلي ونيتشه، ولابد من أن نفرد باباً خاصاً لتحقيق هذا الأمر.

وهناك عقبة أخرى تجعل من الصعب إدخال الفلسفة في رأس الجراد، ذلك أنني قد كشفت في ساعة من ساعات الإلهام أن الجراد لا يفهم بعقله، بل بفمه وبطنه. فهل الفلسفة من المواد التي يمكن استيعابها عن طريق البطن والمعدة؟ هذا أيضا باب مهم أرجو أن تفتيني في أي جزء من الكتاب أجعله، وأي الأقسام تليق به ويليق بها، ولابد كذلك من بحث عميق في عادة النهب والسلب عند الجراد: هل ترجع إلى البيئة،

أو ترجع إلى الوراثة والغريزة؟ فإن كانت أصيلة في النفس، مغروسة في الطبع، فبأي الوسائل نحتال إلى إدخال الفلسفة في نفوس طبعت على الانتهاب والاختطاف؟
هلم أيها العميد وشمر عن ساعد التبويب، ولا تدعني في حيرتي طويلا!
أما الرسالة الثالثة فهي: (في استخراج أشعة الشمس من قشر الخيار). وهذا موضوع قد أشار إليه الأستاذ (سويفت) ولكنه قصر في متابعته واستقصائه. وفي نظري قد آن لهذا الموضوع أن يقتل بحثا وتمحيصا، حتى لو استنفدنا في سبيل ذلك كل ما في الأرض من خِيارٍ وقثّاء.
إن أشعة الشمس ضرورية للإنسان والحيوان على السواء؛ فقد حدثنا من نثق بعلمه أن القليل منها إذا أخذ في فنجال على الريق كل صباح يشفي من الأمراض، ويحدث في البليد ذكاء وفي الغبيِّ فَهْما؛ وناهيك بما في هذا من فائدة في زمان ضعفت فيه الأحلام، وصغرت فيه الأفهام. ولئن اعترض معترض بأن هذا الموضوع لا يهمنا لأن بلادنا غنية بأشعتها،
فليس في هذا وجاهة؛ لأن الباحث لا يختص ببحثه أرضا ولا بلداً؛ وفي العالم أقطار كثيرة قد حرمت هذه النعمة، ولابد من تزويدها بأشعة مستخرجة من قشر الخيار، ومع هذا فإن هنالك شكا كبيراً في أن الأشعة التي تتأثر بها وتتعرض لها هاهنا، هي من ذلك النوع الخياري الممتاز، وإلا لما انتشرت البلادة في وادي النيل السعيد كل هذا الانتشار. فلقد بات من الثابت المعلوم أن للخيار مقدرة فذة يمتاز بها على سائر الكائنات في استخلاص الأشعة النقية - فوق البنفسجية وتحتها - وتثبيتها في ثنايا قشوره
هذا بحث طويل عريض عميق أرجو أن تسلط عليه غبارك الذي لا يشق، من أجل تبويبه وتفصيله وترتيبه.
بقي البحث الرابع الذي أرجو أن يكون شهياً مُمتعا، وهو (في أثر الموسيقى في طول الأنف وعرضه وارتفاعه) فقد تعلم غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر أن الأنف أشرف الأعضاء وأمثلها، وأن العرب كانت لا تجد مدحا أسمى ولا شرفا أعلى من أن يكون الرجل أشمَّ العِرْنين، ولم تنحط الزَّنج عن سائر الشعوب والأجيال، ولم يستعبدهم الناس استبعادا إلا لما في أنفهم من الفطس. والذين زعموا أن فطس الأنف عند الزنج راجع إلى بيئتهم لم يأتوا بشيء؛ والصحيح عندنا أن هذا راجع إلى موسيقاهم وغنائهم المنحرف كما وصفه ابن خلدون. ودليلنا في هذا محسوس وملموس، ذلك أن الشعوب المتمدنة من أهل أوربا وأمريكا، منذ اتخذوا موسيقى الزنج للهوهم ورقصهم قد استعرضت أنوفهم، واستولى عليها الفطس، كأنما القوم يجلسون على أنوفهم إذا جلسوا لا على مقاعدهم. وقد قام بعض الباحثين المحققين بقياس سعة الأنف وارتفاعه، فبدا له انخفاض محسوس في الأنوف اليوم، بالنسبة لما كانت عليه في أواخر القرن الماضي وخرج من هذا البحث إلى نظريته المعروفة بأن العالم سائر كله إلى الفَطَس، وأن الكبرياء والشمم محكوم عليهما بالفناء وهو يزعم في هذا كله أنه راجع إلى كثرة البُقع في وجه الشمس؛ وهو في تعليله هذا جدُّ واهم، والصواب ما ذكرناه من أن هذه الظاهرة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بانتشار موسيقى الزنج والإقبال الشديد عليها.
كذلك أخطأ نهج الصواب ولم يوفق في بحثه ذلك العالم الذي أرجع هذه الظاهرة إلى انتشار عادة الحكِّ على المناخير التي كانت سائدة أيام الحرب الكبرى وما بعدها، فقد ثبت انتشار
هذه العادة في أزمنة أخرى مثل عصر نابليون، فلم يكن لها في المناخير تأثير يذكر. والراجح ما ذكرناه من اتصال هذا بالموسيقى. والله سبحانه وتعالى أعلم.
والبحث في هذا الموضوع متشعب الفروع والغصون، متعدد المخارج والمداخل، وأريد منك أن تبوِّبه تبويباً يلُمُّ شعثه، ويجمع بين شوارده ونوافره؛ ويجب أن يكون تبويباً مَرِناً نستطيع أن ندخل فيه أية دراسة أنفية جديدة قد تبدو لنا في أثناء التأليف والتصنيف
هذا بعض ما لدينا من الرسائل التي نرغب منك أن تساعدنا في تبويبها. فهلم أيها العميد، واجلس في كرسيك المعهود، ممسكا في يمينك سُبحْتك التي تستعين بها على التسبيح، وربما كانت لك فيها مآرب أخرى - وممسكاً في يسارك سيجارة تبعث الوحي وتفتح أبواب التبويب.

فان فعلت أسديت إلى البحث العلمي يداً يعمل بها ورجلاً يمشي عليها. هداك الله إلى محجة الصواب، وإليه المرجع والمآب
أخوك المخلص: إسماعيل بن زيد
طبق الأصل
محمد عوض محمد
في التاريخ السياسي
الدبلوماسية الأوربية في طورها الجديد
بقلم باحث دبلوماسي كبير
اجتازت الدبلوماسية الأوربية منذ نهاية الحرب الكبرى ثلاث مراحل: الأولى مرحلة التصفية وهي التي شغلت فيها الأمم الظافرة والمهزومة معا بتصفية التركة الفادحة التي خلفتها الحرب، واحتملت الدول المهزومة معظم تبعاتها وأعبائها. والثانية يمكن تسميتها بمرحلة عصبة الأمم ولوكارنو، وهي المرحلة التي اشتد فيها ساعد العصبة بمؤازرة الدول الظافرة وانضمام ألمانيا المهزومة إليها لأول مرة بعد أن قامت بتأدية معظم الأعباء والمغارم التي فرضت في معاهدة الصلح؛ وفي أثنائها أيضا تقدمت فكرة السلامة المشتركة تقدما عظيما، فعقد ميثاق لوكارنو لتأمين سلامة حدود الرين بين ألمانيا وفرنسا وبلجيكا، وعقد مؤتمر نزع السلاح واستمر حيناً يباشر أعماله، وعقد ميثاق تحريم الحرب الذي اقترحته أمريكا على دول العالم، وقد استمرت هذه المرحلة حتى سنة 1932. والمرحلة الثالثة، مرحلة السياسة القومية العنيفة، وعود الدبلوماسية الأوربية إلى أساليبها القديمة من عقد المحالفات والمواثيق العسكرية الظاهرة والخفية، وتكوين الجبهات الخصيمة، والتسابق في التسليح، وهذه هي المرحلة التي تجتازها أوربا اليوم.
ولاشك أن هذه المرحلة هي أخطر وأدق مرحلة انتهت إليها الدبلوماسية الأوربية مذ عقدت معاهدة الصلح (معاهدة فرساي) ولاشك أيضاً أنها تسير بأوربا إلى موطن الفصل
وتنقسم أوربا اليوم إلى معسكرين واضحين هما معسكر الدول الفاشستية التي تتخذ شعارها القومية المتطرفة والعسكرية المتوثبة والتسليح الشامل، وقوام هذه الكتلة إيطاليا الفاشستية وألمانيا النازية. ومعسكر الدول الديمقراطية إذا صح التعبير، وشعارها السلام المسلح، والاستعداد لدفع الاعتداء الذي قد يقع عليها من الدول الفاشستية، وقوام هذه الكتلة إنكلترا وفرنسا تؤازرهما روسيا السوفيتية.
وهذا التطور الحاسم في سير الدبلوماسية الأوربية، وتحولها من ميدان التعاون السلمي الذي عملت فيه من قبل إلى ميدان التنابذ والخصومة المسلحة يرجع قبل كل شيء إلى عنف الفاشستية الإيطالية والألمانية والى شهواتها وأطماعها المغرقة وإلى اعتدادها بالقوة المادية
الغاشمة؛ بيد أن الفاشستية تلقي التبعة في ذلك على الدول الديمقراطية وعلى ما أبدته من الأثرة في استخلاص المغانم الاستعمارية والاقتصادية لنفسها دون إيطاليا وألمانيا، ودفعهما بهذا التصرف إلى خطة العنف واليأس التي تلجأن إليها
وتستقبل الدبلوماسية الأوربية عهدها الجديد بسلسلة من الأحداث والظواهر الجديدة؛ أولها وأهمها انهيار ميثاق لوكارنو نهائياً، بعد أن نقضته ألمانيا من جانبها في العام الماضي؛ وانحلال التحالف الصغير في شرق أوربا بعقد الميثاق الإيطالي اليوجوسلافي؛ وتوثق العلائق بين السياستين الفرنسية والبريطانية؛ وفتور العلائق بين تركيا وروسيا السوفيتية، وتقدمها في الوقت نفسه بين تركيا وإيطاليا وتقوية الجبهة الإيطالية الألمانية واشتداد ضغطها في وسط أوربا وفي شرقها
وقد كان عقد الميثاق الفرنسي الروسي في أوائل العام الماضي أول نذير بانهيار الأوضاع القائمة، ففي 7 مارس سنة 1936، أعلنت ألمانيا نقضها لآخر الشروط العسكرية التي فرضت عليها في معاهدة الصلح وهي الخاصة بتجريد منطقة الرين من التسليحات والتحصينات، وأعلنت في نفس الوقت نقضها لميثاق لوكارنو، بحجة أن الميثاق الفرنسي الروسي قد عقد بقصد تهديدها وتطويقها وأن عقده مخالف لما كفلته نصوص ميثاق لوكارنو من سلامة الحدود الألمانية الفرنسية على الرين؛ وكان تصرف ألمانيا ضربة قاضية لهذا الميثاق الذي علقت عليه أوربا والعالم كله يوم عقده

أعظم الآمال، ولم تلبث بلجيكا وهي إحدى الدول الموقعة عليه، والتي تستمد سلامة حدودها من نصوصه، أن رأت أيضاً أن تتحرر من تبعاته، فأعلنت سياسة الاستقلال والحياد الجديدة التي انتهت أخيراً بصدور تصريح بريطاني فرنسي يحررها من تبعاتها المترتبة عليها في ميثاق لوكارنو، مع استبقاء تعهد فرنسا وبريطانيا من جانبهما بالدفاع عن البلجيك في حالة الاعتداء عليها؛ وهكذا انهارت دعائم هذا الميثاق الذي كان دعامته السلام في غرب أوربا، وحلت مكانه حالة جديدة لم يتضح مداها بعد؛ على أن هنالك حقيقة لا ريب فيها، هو أن، انهيار ميثاق لوكارنو، وما اقترن به من مضاعفة التسليح الألماني، وتقدم التفاهم بين ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشستية كان عاملاً في إذكاء استعدادات فرنسا وبريطانيا العسكرية، وفي توثق العلائق بينهما

وكان للمسألة الحبشية أثرها القوي في التقرب بين إيطاليا وألمانيا، وتوجيه الأوضاع الجديدة للدبلوماسية الأوربية، فقد رأت إيطاليا بعد الذي لقيته أثناء اعتدائها على الحبشة من خصومة بريطانيا، أن تنسلخ نهائياً عن كتلة الدول الغربية، وأن تتقرب إلى ألمانيا النازية التي تؤمن بمثل مبادئها العسكرية العنيفة، والتي أيدتها وآزرتها خلال الأزمة الحبشية لأنها تجيش بمثل مطامعها الاستعمارية. وقد أثمر هذا التقرب بين الدولتين الفاشستيتين ثمرته في أوربا الوسطى وأوربا الشرقية؛ وتبدو نتائج هذا التطور واضحة في موقف إيطاليا نحو النمسا ومسألة انضمامها إلى ألمانيا (الآنشلوس)، فقبل التقرب الألماني الإيطالي، كانت إيطاليا تعارض هذا الانضمام بكل قوتها، وتعلن أنها مستعدى لتأييد الاستقلال النمسوي بالقوة المادية إذا اقتضى الأمر، ومازلنا نذكر موقفها في سنة 1934 حينما وقعت الثورة النازية في النمسا، فقد حشدت بعض قواتها على الحدود النمسوية استعداداً لمقاومة أي حركة تقوم بها ألمانيا في سبيل الاستيلاء على النمسا. أما اليوم فإن السياسة الإيطالية حسبما تبين من مباحثات الدكتور شوشنج المستشار النمسوي والسنيور موسوليني، لا تريد أن تذهب في سبيل تأييد النمسا إلى هذا الحد، خصوصاً وأنها ترى مسألة الضم إلى ألمانيا بعيدة الحدوث في الوقت الحاضر؛ وتحاول السياسة الإيطالية فوق ذلك أن تباعد بين النمسا وتشيكوسلوفاكيا التي تربطها بروسيا علائق وثيقة. ومن جهة أخرى فإن التحالف الصغير المكون من تشيكوسلوفاكيا ورومانيا ويوجوسلافيا قد تصدعت أسسه من جراء التقرب بين يوجوسلافيا وإيطاليا وارتباطهما بميثاق صداقة وتفاهم؛ وهذا الميثاق الجديد فضلاً عن كونه يلطف حدة التنافس بين الدولتين، يمهد لنفوذ إيطاليا في البلقان؛ وهنا تصطدم جهود السياسة الفاشستية والسياسة النازية، ذلك أن ألمانيا تريد أيضاً أن تمكن لنفوذها في البلقان، وأن تستأنف زحفه القديم نحو الشرق؛ ولكن إيطاليا استطاعت أن تسبقها في هذا الميدان على ما يلوح، وذلك بعقد الميثاق اليوجوسلافي، والتقرب إلى تركيا الكمالية تقرباً ربما أسفر في القريب العاجل عن عقد ميثاق بين الدولتين؛ كذلك تتودد إيطاليا إلى اليونان وتعمل على توثيق العلائق معها

وهكذا تنشط السياسة الفاشستية للعمل السريع الحاسم في حوض الدانوب وفي شرق أوربا؛ وتعمل السياسة النازية من جانبها، في نفس الميدان، في الحدود التي خصصت لنفوذها فيما يسمونه (محور برلين رومه)، وتعمل بالأخص في المجر ورومانيا، هذا عدا محاولاتها في النمسا؛ وترمي إيطاليا بهذه الجهود الدبلوماسية المتواصلة إلى تأمين مكانتها وسلامها في شرق البحر الأبيض المتوسط لكي تتفرغ إلى العمل في هذا البحر، ضد بريطانيا العظمى وضد ما تدعيه لنفسها فيه من السيادة البحرية، ولتحقق ما تزعمه لنفسها من الأطماع الاستعمارية؛ وترمي ألمانيا النازية بالعمل في شرق أوربا وفي البلقان إلى تكوين جبهة موحدة ضد روسيا السوفيتية بيد أنه يشك كثيراً فيما إذا كانت ألمانيا تفيد من هذه الجهود ضد المارد الروسي العظيم

ويجب أخيرا ألا ننسى المشكلة الأسبانية الشائكة، وما كان لها من أثر في هذا التطور الجديد في سير الدبلوماسية الأوربية؛ وسيكون لنتائج الحرب الأهلية الأسبانية متى استقرت نهائياً أثرها العميق أيضاً في توجيه الأوضاع السياسية الجديدة في غرب أوربا وقد أدركت الدولتان الغربيتان الكبيرتان، أعني بريطانيا العظمى وفرنسا، ما تقتضيه هذه العوامل والظروف الجديدة من تغيير عميق في سياستيهما، وخصوصاً إزاء ما

تبديه الدولتان الفاشستيتان أعني إيطاليا وألمانيا من نشاط متواصل في الاستعدادات العسكرية؛ فأما فرنسا فقد اقتنعت بأن المواثيق والعهود الدولية لم تبق لها قيمة يعتمد عليها وأن ألمانيا النازية بعد أن حطمت كل ما تبقى من عهودها في معاهدة الصلح وفي لوكارنو، وأخذت تستأنف قواها العسكرية القديمة، لا يمكن ردها وكبح جماح عدوانها وأطماعها إلا بمضاعفة الاهبات العسكرية، وهذا ما تفعله اليوم هي وحليفتها روسيا السوفيتية التي تحذر من عدوان ألمانيا مثل ما تحذر فرنسا؛ وأما بريطانيا العظمى، فقد اقتنعت بعد مأساة الحبشة بانهيار فكرة السلامة المشتركة وعبث الاعتماد عليها في رد الاعتداء المدبر، وأدركت ما يهدد سلامة الإمبراطورية البريطانية من جراء ظهور الفاشستية الإيطالية بمظهر الظافر المتحفز؛ فأخذت تستدرك بسرعة مدهشة ما فاتها من الاهبات العسكرية، ووضعت برنامجاً هائلاً للتسليح يكفل لها تفوقها القديم في البحر والهواء ويمكنها من أن تعود فتملي كلمتها وإرادتها على أولئك الذين يتحرشون بها ويحاولون تحديها ومنافستها، وتزداد العلائق توثقا بين الدولتين الغربيتين الكبيرتين، يجمع بينهما الخطر المشترك، والمصالح المشتركة، وروابط الديموقراطية

وهكذا تعود أوربا إلى ما كانت عليه قبل الحرب: معسكران خصيمان يعمل كل منهما لإحراز التفوق في الاهبات العسكرية، ويسيطر كل منهما بنفوذه على عدد من الدول الصغيرة؛ وهذان هما معسكر الفاشستية، تقوده ألمانيا وإيطاليا، ومعسكر الديموقراطية تقوده بريطانيا وفرنسا؛ وهكذا تعود الدبلوماسية الأوربية إلى وسائلها القديمة من عقد المحالفات العسكرية والمعاهدات السرية والاعتماد على القوة الغاشمة

(* * *)

في الأدب المقارن

الخيال في الأدبين العربي والإنجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

الخيال، أو القدرة على انتزاع شتى الصور الذهنية من الواقع واستحضارها والتصرف فيها، من المواهب التي يمتاز بها الإنسان على سائر الأحياء، ويمتاز بها النابغة على سائر الناس. رقي العلم رهين برقيه، واتساع الأدب متصل باتساعه، وهو بين الجماعات الأولى مصدر تلك الأساطير والأوهام التي تسود بينهم، كما أنه مصدر ما تغص به اللغات من مجازات وتشبيهات، بها تتسع جوانب اللغة وجوانب التفكير معاً أيما أتساع، ولولا الخيال لالتزم الفكر الإنساني الواقع المتحجر أي التزام

والخيال قوام جانب عظيم من الأدب، إن لم يكن قوام الجانب الأرقى فيه، إن لم يكن قوام الأدب جميعاً: فبالمجازات والتشبيهات يتأتى للأديب أن يصور شعوره ويبرز تفكيره، إذ يمثل لنضرة الخد بنضرة الورد، ولطلعة البطل بهيبة الأسد، ولجيشان المعركة بتدافع الآذى، وهلم جرا. وبالخيال يستطيع الأديب أن يسبك موضوعه ويجمع أطرافه، وينبذ ما لا حاجة به إليه من تفصيلات قد تشوه ما هو بسبيله، ويضفي ثوباً من الجمال والانسجام على ما ينشئ. والخيال أظهر ملكات الشاعر وأول مميزات الشعر التي تفرق بينه وبين النثر

وارتقاء الخيال واتساعه وكثرة آثاره أهم ظواهر دخول الأدب في طوره الفني: فإنه إذا خرجت الأمة من بداوتها وعزلتها وبسطت سيادتها واتصلت بجيرانها القريبين والبعيدين، وتحضرت وتثقفت، اتسعت أذهان أبنائها وترامى خيالهم وتصوروا من الحقائق والمعاني والممكنات ما لم يكونوا يتصورون، وغزر المعين الذي يستمدون منه التشبيهات والاستعارات، وينتزعون منه الحكم والأمثال، ويتوفر الفراغ ويتسع للمجهود الأدبي المتصل، فتظهر القصة والدرامة والقصيدة الطويلة، ويحلق الأدباء في أجواز الخيال وآماد الماضي والمستقبل، مبتعدين عن دواعي الحاضر الحازبة ومجالاته الضيقة، ولا يبلغ الأدب أوج رقيه حتى يرتقي الخيال فيه هذا الارتقاء وحتى يشغل أكثر جوانبه

وللخيال في الأدب الإنجليزي مكان رفيع وأثر بعيد شامل يتمثل في موضوعات الأدب وأشكاله وطرائق تناول الأدباء لما هم بسبيله: فالأديب الإنجليزي غزير العاطفة، إذا جاشت أطلق لها العنان واسترسل مع خياله، وأثار به منظر طبيعي أو غناء طائر أو

ذكرى طارئة أو أثر من آثار الغابرين أو أسطورة من أساطيرهم شتى الأحلام والأطياف، وتناهت به عاطفته إلى حدود الأماني وآفاق الماضي والمستقبل، وهذا الاسترسال مع الخيال إذا أثارته فكرة رئيسية هو مرجع وحدة القصيدة في الإنجليزية وهناك عدا هذا الخيال المنبث في كل مناحي الأدب أشكال خاصة من الأدب قوامها الخيال، ينهض بكيانها ويوثق وشائجها. وهذه هي الملاحم الطوال في الشعر والقصص الممثلة أو المقروءة شعراً أو نثراً، ففي هذه لا يلتزم الأديب الواقع المجرد بل يفترق عنه افتراقاً جسيما، ويؤلف من شتى أفكاره وتجاريبه وأمانيه وصور الحياة التي مرت به، عالماً يجيش بالحياة والحركة ويموج بالعواطف والنوازع ويفيض بالجمال والإمتاع؛ بهذه الضروب القائمة على أساس من التخيل المحض يحفل الأدب الإنجليزي فقد عالج الملاحم والمطولات من القصائد ملتون وسبنسر وهاردي ووردزورث وكثيرون غيرهم. وأشعار الملاحم تعج بالمردة والجبابرة والآلهة، وتحفل بخوارق الأعمال وجسائم البطولة، وهي على رغم هذا لا تخرج عن عالمنا الإنساني ولا تغفل النفس الإنسانية، بل تظل نوازع تلك النفس ومشاغلها هي الهدف الوحيد الذي يرمي إليه ناظموها: إذ فيها يتخذ أولئك الأرباب والجبابرة طبائع الناس وميول الأفراد، وإن فاقوا البشر قوة وعظما؛ ومن هنا يتأتى للشاعر أن يبسط آراءه في ميدان متسع وإلى مدى فسيح، فيستعرض مشاغل عصره ويبث خوالج نفسه، فالخيال هنا لا يعدو الحقيقة وإنما يوضحها أحسن توضيح، فضلاً عما يمتع النفس به من قصص متسق وجمال وجلال

وفي الأدب الإنجليزي ما لا يعد من قصص في الشعر والنثر ممثلة ومقروءة، وقوام القصة بطبيعتها الخيال، وإن تراوح نصيبها منه، فهناك القصص التي ترمي إلى أغوار الماضي وتدور حول عظماء التاريخ والأساطير، من طموح يبيع نفسه للشيطان كي يعينه الشيطان على إدراك مطامحه، إلى دائن يتقاضى دينه من لحم غريمه ودمه، كما في روايات مارلو وشكسبير. وهناك القصص الواقعية التي تلتزم الحقيقة إلى حد بعيد، وتصور المجتمع الحاضر تصويراً دقيقاً لا يدع شاردة ولا واردة، كقصص هاردي، ودرامات جالزورذي،

ولكل من الضربين متعته

ولشغف الإنجليز بسبحات الخيال، وميلهم إلى إطلاق الفكر في أجوازه، لجأوا في شعرهم ونثرهم إلى تصوير حوادث التاريخ وغرائب الأساطير، فاستقى شعراؤهم وكتابهم عذب القصص وممتعه من تاريخ إنجلترا وتواريخ اليونان والرومان وبني إسرائيل وغيرهم، واتخذوا من خرافات الأمم مجالاً لفنهم، فعرض سبنسر وتنيسون وكولردج وغيرهم تلك الخرافات عرضا شعريا رائقا مرصعا بجميل الوصف وبدائع المناظر الطبيعية، وشائق مواقف الحب والبطولة.

ومن ثم امتلاء الأدب الإنجليزي بأسماء الشخصيات الخيالية التي اخترعها الأدباء من مخيلاتهم ولم يكن لها قبلهم وجود أو كان لها وجود مبهم في عالم الخرافة فأخرجوها بعبقرياتهم إلى عالم النور والوضوح، وألبسوها ثوباً من الجمال والجاذبية، وأصبح بعض هؤلاء الأشخاص الخياليين الذين امتلأت بذكرهم وأخبارهم الملاحم والقصص والشعر والنثر، أعلاماً على طبائع في الإنسان معروفة، ورموزاً على حقائق في النفس البشرية مشهودة، فشكسبير مثلا لم يكن يدع خلقاً إنسانياً نبيلا أو وضيعاً إلا صوره في رواياته وخلق ما لا يعد من الشخصيات الحية، مثل هملت وروميو وجولييت وياجو وشيلوخ، وغيرهم ممن صار لهم وجود قائم في عالم الأدب كوجود أعلام الماضي في عالم التاريخ

لم يجر الأدب العربي إلى هذا المدى من الخيال، فلم تكن فيه ملاحم ولم تكن المطولات من هم شعرائه، ولم يرتق فيه القصص ولم يحتو على شخصيات متخيلة من خلق الأدباء، وظل الحاضر القريب والواقع المحقق ديدن أدبائه، فالأديب العربي كان شديد الإيجاز في مقاله وتعبيره عما يحس، يعبر عن أفكاره أشتاتا كلما عن له حافز إلى الكتابة، لا يدخر أفكاره ولا يربط منها حاضراً بماض، بل يرسلها الشاعر على السجية أبياتاً محكمة النسج موجزة البيان، ويرسلها الكاتب روايات قصيرة متتابعة منسوبة كل رواية منها إلى صاحبها أو راويها أو شهودها؛ فأحسن أشعار المتنبي حكم موجزة متتابعة مستقل كل منها ببيت لا تكاد تجمعها علاقة؛ وقوام كتب كثيرة

كمؤلفات الجاحظ والثعالبي وابن عبد ربه روايات وشواهد متتابعة، لا يكاد يكون للأديب فضل غير جمعها وتبويبها

كان الشعر الجاهلي محدود الخيال قريب المأخذ لمكان أربابه من البداوة وبعدهم عن الثقافة، فلما تحضر العرب وتثقفوا واختلطوا بالأمم واطلعوا على أحوال الأقطار البعيدة، أتسع من جراء ذلك خيالهم وبان أثره في شعرهم ونثرهم، فالمحدثون من الشعراء لاشك أبعد خيالاً وأكثر تفنناً في التشبيهات من الجاهليين. وظهر ضرب من القص الخيالي يتجلى في مقامات بديع الزمان، ورسالة الغفران، ففي هذه وتلك مواقف وحوادث كلها من اختراع الخيال؛ ثم هناك الروايات والأخبار العديدة التي كان يخترعها الرواة والكتاب، يطلبون الأغراب والتطرف والرواج، أو يؤيدون الحجج والمذاهب.

بيد أن هاتيك جميعاً آثار ضئيلة الشأن، وهي إذا قيست بما في الإنجليزية من سبحات الخيال، لم تكن إلا شبيهة بطيران الدجاجة الخفيف مقيساً بتحليق البازي الكاسر؛ ورسالة الغفران على جمال فكرتها ومشابهتها لما في آداب الأمم الكبيرة في جريان حوادثها في عالم الخلد، وامتلائها بممتع المواقف والمحاورات، مكتظة بمسائل النحو والأدب النظرية العقيمة، التي كان كثير من الأدباء ينفقون أعمارهم في غياهبها غافلين عما هو أهم منها من حقائق الحياة وجمالها، ولم يكن الخيال ولا الجمال ولا القصص غرض المعري الصحيح حين أملاها، وإنما كانت تلك المسائل اللغوية هي مقصده الأول؛ ومقامات البديع على جمالها واهتداء البديع إلى اختراع شخصية أبي الفتح فيها، مكتظة كذلك بالألاعيب اللفظية والبراعات اللغوية؛ فالمقامات ورسالة الغفران جميلتان على أن تكونا خطوتين إلى ما بعدهما، ومرحلتين في طريق نمو القصص الصحيح وازدهار الخيال الراقي؛ بيد أن ذلك النمو لم يطرد وذلك الرقي وقف في أول الطريق. وإن من العجائب حقاً أن يكون أعظم أثر خيال في الأدب العربي من صنع شاعر كفيف محجوب عن آفاق الحياة ومباهجها

فكبح عنان الخيال كان دأب أدباء العربية حتى بعد دخول الأدب عصره الفني، فالفكرة التي تخطر للأديب الإنجليزي فيحوك حولها قصة تموج بشتى الصور المنتزعة من الحياة، أو ينظم حولها قصيدة طويلة تجمع أشتات الأفكار والمعاني، يكتفي الأديب العربي بصوغها في بيت شعر محكم يذهب مثلا ويروع بإيجازه وشموله، لا بتقصيه واستيعابه، فكل بيت من أبيات المتنبي السائرة يحوي نظرة نافذة إلى حقائق الحياة، هي بنفسها محور صالح أن تدور حوله قصة أو درامة، بينما الأديب العربي قد أودعها أوجز لفظ وأعمه

وقد نظم شلي قصيدة في قرابة مائة بيت، حين استرعى تفكيره هبوب ريح الشتاء الباردة في إيطاليا، فصور عصفها بالأوراق الجافة، ودفعها البذور إلى حيث تنام في التربة حتى ينبهها الربيع بدفئه وطيب أوانه، وشبه ثوران عاصفتها على الأفق بالشعور المتهدلة عن رأس ما يناد إحدى العرائس الخرافية، ووصف اقشعرار النبات المائي في قاع المحيط لدى إحساسه مرور تلك الرياح، ثم طلب إلى الريح أن ترفعه كما ترفع تلك الأوراق وتدفعه كما تدفع تلك البذور، وتنفخ فيه من قوتها، وتتخذه ناياً لها، عله يستطيع أن يطير بأجنحتها، ويبذر بين الخلق بذور أفكاره الإصلاحية التي كان أميناً لها طول حياته. ولشكسبير مقطوعة عن ريح الشتاء أيضاً في رواية (كما تشاء)، يسترسل فيها في التأمل على ذلك نحو؛ أما الشاعر العربي فإذا استرعى انتباهه هبوب الريح فيودع خاطره أوجز لفظ، واصفاً تهييج الريح لذكرياته أو محملاً إياه سلامه إلى أحبائه، كما قال بشار:

هوى صاحبي ريح الشمال وإنما ... أحب لقلبي أن تهب جنوب
وما ذاك إلا أنها حين تنتهي ... تناهى وفيها من عبيدة طيب

والغريب أنه برغم غنى الأدب الإنجليزي بآثار الخيال وندرة تلك الآثار في الأدب العربي، ترى كلمات الخيال وخيال الشعراء والمخيلة وغيرها كثيرة التداول في العربية نادرة الورود في النقد الإنجليزي؛ وإنما كان نقاد العربية يطلقون اسم الخيال على أبعد الأقوال عن مجال الخيال الصحيح، يطلقونه على ما درج عليه الشعراء المداحون من اختراع مواقف الغرام في استهلال قصائدهم، وتلفيق صفات الجود والبأس لممدوحيهم، ومن ثم اشتهر البحتري بالخيال، لا لأنه دبج القصص المحكم أو نظم

المطولات الرائعات بل لأنه كان من أمضى الشعراء في بابي المديح والغزل الاستهلالي، ومن أكثرهم ذكراً للأطياف والوداع واللقاء، وليس تحت مثل هذا الخيال طائل، إذ قوامه التكلف والمحال والإيغال في البعد عن حقائق الحياة والشعور، بينما أخص خصائص الخيال الفني الصحيح صدق البيان للشعور الصحيح في أعمق أعماقه وأرحب آفاقه

فإذا قال بشار إن الجود من كف ممدوحه يعدي، وقال أبو تمام إن ممدوحه لا يستطيع قبض أنامله لأنه تعود بسطها بالعطاء، وقال المتنبي إن أسنان صواحبه برد خشي أن يذيبه من حر أنفاسه فكان هو الذائب من حر أشواقه، وإذا شبه ابن المعتز الهلال بمنجل يحصد

نجوم الليل حصداً، أو شبه ابن خفاجة النهر وعشب ضفافه بهدب يحف بمقلة زرقاء، فقد باعدوا جميعاً وأغربوا وخالفوا حقائق المنطق والشعور، وجاءوا بما هو أشبه بعبث الصبيان وهذر المخمورين، وكان قولهم أبعد الأشياء عن الخيال، فالخيال ليس هو تجاهل حقائق الحياة وتحديها والتفنن في مناقضتها، وإنما هو قدرة الفكر على استيعابها والاشتمال على قريبها وبعيدها، والتصرف فيها والتفنن في عرضها، ولا غرو إذ كانت تلك نظرة نقاد العربية إلى الخيال أن قالوا إن أعذب الشعر أكذبه، والحق أن أعذب الشعر أصدقه، وأجود الخيال أكثره اشتمالاً على الحقيقة

وغزارة آثار الخيال في الأدب الإنجليزي ترجع لاشك إلى اختلاف مناظر الطبيعة في إنجلترا وتعددها وتقلب أحوال الجو، ثم هي ترجع إلى اتساع أذهان الإنجليز باقتباسهم حضارة أوربا ومساهمتهم فيها، وإلى الكشوف الجغرافية العظيمة التي عاصرت نهوض الأدب الإنجليزي، وهي ترجع أيضاً إلى اطلاع الإنجليز على الأدب اليوناني الحافل بروائع الحوادث والأساطير، المملوء بأشعار الملاحم والدرامات، فقد كان لشعراء الإنجليزية وكتابها من ذلك معين لا يفنى، وكان الاطلاع على التراث الكلاسي بمثابة كشف جغرافي آخر واطلاع على عالم ثان غير هذا العالم المعهود، مما أطلق الأذهان إلى غايات الخيال، وكان للأدب العامي في ذلك أثره أيضاً

وترجع ضآلة حظ الأدب العربي من الخيال الصحيح السامي، وكثرة ما به من آثار التخيل الزائف، إلى نزعة الجمود التي كانت تسوده وتقره دائماً على محاكاة الأقدمين واحتذاء الأدب الجاهلي، وهذا بطبيعته المتبدية وبيئته الصحراوية التي ترعرع فيها، أدب أولى قليل الحظ من الخيال كثير الالتزام للواقع الحاضر؛ هذا إلى اشتغال الأدباء بمدح ذوي السلطان واجتهادهم في تخيل كل منقبة وإضافتها إليهم؛ أضف إلى ذلك أن الأدب العربي لم ينتفع كما انتفع الأدب الإنجليزي بأدب الإغريق، فحجبت عنه تلك العوالم الزاخرة بالحقائق والخيالات. وقد اطلع العرب على فلسفة الإغريق فحاكا غير واحد من فلاسفتهم جمهورية أفلاطون بتخيل المدينة الفاضلة، ولو اطلعوا كذلك على أدبهم لاستفادوا منه فائدته المحتومة

ظل الأدب العربي مكبوح الخيال ملتزماً للواقع مؤثراً للإيجاز متشبثاً بالرواية التاريخية المسندة، وترك الخيال الواسع للعامة يسبحون في عوالمه التي تستهوي النفس الإنسانية،

فجالوا في نواحي القصص يودعونه أفكارهم على ما بها من قصور، وآمالهم على ما بها من سذاجة وما يشوبها من شهوات الحس، وثقافتهم على ما يخالجها من جهل واضطراب، وجاء الأدب العربي الفصيح في أزهر عصوره مشتملاً على ضروب من التخيل الفج لا يستسيغها لب، ولا يقرها فن، مشتملاً بجانب ذلك على وجدانيات صادقة وحكم وأمثال رائعة موجزة، هي خير ما في الأدب العربي من لباب الفكر والشعور، فالأدب العربي يبلغ قمة مجده بما فيه من آثار الحكمة، لا بما يحويه من صور الخيال

فخري أبو السعود

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

إن ذيوع عقيدة تأليه الملك أو حلول روح القدس في جسده الذي حدثناك عنه في الكلمة السابقة قد خلق أمام العقل المصري مشكلة معقدة عويصة يمكن أن تعتبر اللبنة الأولى من بناء الفلسفة المصرية، وأن تعد محاولة حلها أقدم المحاولات الفلسفية التي عرفها تاريخ العقل البشري. لأن عهدها يصعد في سلم الماضي أكثر من ستة آلاف سنة، وأين من هذه الفلسفات الأخرى التي لا يتجاوز أقدمها بضعة عشر قرنا قبل المسيح؟ تلك المشكلة التي نشأت عند المصريين من تأليه الملك هي: (إننا نشاهد أن الملك يموت كما تموت عامة الناس فكيف يموت الإله الذي أولى صفاته الخلود؟!).

لم تكد هذه المشكلة تأخذ مكانها في الحياة الفكرية المصرية حتى وجد المتفلسفون الأولون لها حلا وهو أن فرعون لا يموت كما يموت الناس، وإنما حين يعجز جسمه المادي عن النشاط العملي يخرج منه السر الإلهي أو الروح القدس، ليحل في جسم ابنه الشاب الممتلئ قوة ونشاطاً. وإذاً فروح (هوروس) هي التي تحكم في كل هذه الأجساد المختلفة المسماة بالفراعنة والتي أطلق على كل جسد منها اسم خاص في الظاهر فحسب، ولكن هذا الجواب لا يشفي غليل المتفلسفين الباحثين عن خفايا الكون وأسرار الوجود، لأنهم لا يكادون يتلقون هذا الجواب حتى يصطدموا بالتقاليد الدينية التي تصرح بأن فرعون وهو في قبره يعين ابنه على الحكم وينصحه في المواقف الحرجة. ومن هذا تنشأ مشكلة فلسفية أخرى وهي (كيف تقولون إن روح (هوروس) تغادر جسم فرعون المائت بعد عجزه عن النشاط إلى جسم ابنه الشاب النشيط ثم تعودون فتقولون: إن فرعون بعد رحيله إلى العالم الآخر يظل متصلاً بابنه يعاونه وينصحه؟ فالتصريح الأول يفيد أنه ليس هناك إلا شخصية روحية واحدة تغادر الجسم الضعيف العاجز إلى الجسم القوي النشيط، والتصريح الثاني يفهم منه أن فرعون بعد موته تبقى له شخصية روحية مستقلة تنصح الملك الجديد وتعاونه.

ولا ريب أن هذا تناقض ظاهر يدعو العقول الفلسفية إلى البحث والتنقيب، وهذا هو الذي كان بالفعل، إذ بدأت الروح الفلسفية تسري بين البيئات المصرية المفكرة منذ ذلك العهد المتغلغل في غيابات الماضي فاهتدت إلى حل خيل إليها أنه مقبول من الوجهة العقلية، وهو أن (هوروس) له عدة شخصيات إحداها الشخصية الدنيا التي تتقمص جسد فرعون؛ وثانيتها الشخصية العليا الحاكمة في عالم الآخرة؛ وثالثتها الشخصية الوسطى وهي التي تقوم بنصيحة الشخصية الدنيا في جسدها الجديد، وبهذا تنحل المشكلة ويزول التناقض.

لم يكن المصريون كغيرهم من الأمم القديمة يعتقدون أن الجسم الفرعوني بعد مغادرة الروح إياه يصبح جيفة كأجسام بقية البشر والحيوانات، وإنما كانوا يرون أن حلول روح القدس فيها تكسبها شرفا خالدا وبركة أبدية. ولهذا فبقدر ما يبقى جسم الملك محفوظاً في قبره تنتشر السعادة ويعم الخير في مصر، وهذا هو الإدراك الأول الذي كان يعاصر مبدأ الملكة القديمة، أما بعد هذا العهد بقليل فقد أنتقل تقديس الروح من دائرة الملوك الضيقة إلى جميع الأرواح البشرية وأخذ المفكرون يترقون في الروحية حتى بلغوا فيها الأوج الذي سنشير إليه فيما بعد.

وقد كانت الروح تعنى بأن يترك في الجسم فرجة، لتستطيع العودة إليه منها متى شاءت الرجوع من عالم (أوزوريس) إلى عالم الدنيا، ولكن هذه العودة لم تكن محبوبة عند الروح إلا إبان صلاحية الجسم لها، فإذا يبست (المومياء) وتقلص جلدها وانكمشت أعصابها وفقدت هذه الصلاحية تأخرت الروح عن المجيء إلى الجسم، وهذه خسارة كبرى كانت أحد الدوافع التي حملت المصريين على الدقة في صنع التماثيل بعد التحنيط.

وكان عالم (أوزيريس) في أول عهد المصريين بهذه العقيدة عالماً قاسياً محفوفاً بالأشواك والمخاطر حتى على فرعون نفسه، إذ كانت روحه لا تمر إلى مملكة (أوزيريس) إلا بعد أن تجتاز عدة عقبات ومصاعب تنشأ من أسئلة دقيقة ومحاسبات عسيرة يوجهها الحارس المكلف بمحاسبة المارة، وكانت هذه المملكة في عقيدة المصريين تحت الأرض وكان يجب أن يمر إليها الفراعنة، ومن في حكمهم، ليستمتعوا بعد اجتياز عقباتها بالنعيم المقيم في عالم

الخلود.
ولما رأى الكهنة أن فرعون يقاسي قبل الوصول إلى إمبراطورية (أوزيريس) أهوالا صعابا أشاروا بأن تتلى عند دفن المومياء الملكية التعاويذ التي تلتها (إيزيس) على جسم زوجها أوزيريس فأعادته إلى الحياة، أو أن تكتب هذه التعاويذ وتوضع مع المومياء في مقرها الأخير، ليعود فرعون في سهولة إلى الحياة ليجتاز العقبات إلى مملكة الآخرة

ولما ارتقت الديانة المصرية تطورات هذه الشعيرة فانتقل فرعون من مملكة (أوزيريس) إلى مملكة (رع) كبير الآلهة وترك الأولى لأفراد الشعب الذين يجب أن يجتازوا الصراط جميعاً إلى المملكة وأن يمر بهم ما كان في العهد القديم خاصاً بفرعون

أما فرعون فقد أصبح في العقيدة الجديدة قميناً بأن يذهب إلى المملكة الساطعة كما كان يسمونها، وكان يستعين على الصعود إليها في السماء تارة بجناحي (هوروس) وأخرى بجناحي (توت) وثالثة بسلم يحضره إليه الآلهة، وهو سلم طويل يتصل أوله بمملكة (أوزيريس) تحت الأرض وتلامس قمة مملكة (رع) في السماء فإذا وصل إلى هذا المقر الإلهي ظل فيه زمناً يحمل أسم (هوروس) ويستمتع بامتيازاته، ثم ارتقى بعد ذلك إلى منزلة (رع) نفسه وامتزج به واتحد فيه اتحاداً كلياً. ومنذ أن ظهرت في الديانة المصرية هذه الصلة بين (رع) وفرعون حصل فيها تطور وانقلاب عظيمان إذ أصبح (رع) هو الذي يطوف بالملكة ليلاً ثم يتغشاها قبل حملها بالملك المقبل. وهكذا اصبح (رع) هو الأب المباشر لفراعنة الدنيا وهو الكل الأعظم الذي يتلاشون فيه في الآخرة

هل نشأ التطور الديني الجديد من الفلسفة أو الفلسفة هي التي نشأت من هذا التطور؟

إختلف الباحثون من العلماء في هذه النقطة في الإجابة على هذا السؤال اختلافاً شديداً، فأجاب الفريق الأول وهم الأكثرية العظمى من الباحثين بأن الأصل هو التطور الديني وأن الفلسفة ناشئة عن هذا التطور ووليدة احتكاك الأفكار حوله كما حدث في مسألة تعدد شخصيات روح (هوروس) التي أسلفنا لك الحديث عنها. وأجاب الفريق الثاني إجابة مباينة لرأي الفريق الأول تمام المباينة فقرروا أن التفكير الحر هو الذي سبق إلى إنشاء نظريات فلسفية لم يجد الدين بداً من أن يتجه نحوها ويصبغها بلونه. وإليك بيان هذين المذهبين:

المذهب الأول

لما سرت عقيدة امتزاج الآلهة التي ترجع بالتعدد إلى أصل واحد وقالت بالثالوث المكون من: (أوزيريس) و (إيزيس) و (هوروس) الثلاثة الراجعين إلى واحد، ثم تطورت من التثليث الموحد إلى التتسيع الموحد كذلك، فقالت بتسعة آلهة يرجعون في النهاية إلى إله واحد، حدث اضطراب في الأفكار، وتناقضت العقيدة مع العقل وكاد يحدث بينهما تناقض خطير لولا أن أخذ المفكرون يفلسفون ويسلكون الممكن والمستحيل من السبل ليوفقوا بين العقل والعقيدة ولكنهم أخضعوا العقيدة للعقل، بل وللعقل الواقعي أو الطبيعي حيث قرروا أن الماء هو (الكاؤوس) المبهم أو العنصر الأول المشتمل على جميع ما في الكون من عناصر، وأنه كان ولا شيء معه لا آلهة ولا أناسي، وأول من ظهر من الماء هو (رع) الذي لم يلبث أن تمركز وكون الشمس، ذلك الكوكب العظيم الذي من فعله ظهر إلهان عظيمان هما: (سو) أي الهواء و (تيفنيه) أي الفراغ. ومن اجتماع هذين الإلهين تولد إلهان آخران هما: (جيب) أي الأرض و (نوت) أي السماء، ومن اجتماع هذين الإلهين أيضاً نشأ أربعة آلهة كل اثنين منها على طرفي نقيض من الآخرين، فأما الزوج الأول فهو (أوزيريس) أي النيل، و (إيزيس) أي الأرض المخصبة؛ وأما الزوج الثاني، فهو (سيت) أي الصحراء، و (نيفتيس) أي الأرض القاحلة، وهذه هي الآلهة التسعة الراجعة إلى واحد والتي كان المصريون يطلقون عليها: , أي المتسع أو التاسوع المقدس. ولم يكن هذا التاسوع هو كل ما عند المصريين من آلهة وإنما كان هيئة رياسة عليا لجمهور كبير من صغار الآلهة وأنصافها

المذهب الثاني

ذهب جماعة من العلماء نخص منهم بالذكر الأستاذ (ألكسندر موريه) المستمصر الكبير إلى أن التاسوع لم يكن هو الأصل كما فهم العلماء الآخرون، وإنما اكتشف العقل

المصري القوي المتمدين تسع قوى من قوى الطبيعة هي الشمس والهواء والفراغ والأرض والسماء والنيل والخصوبة والجدب والصحراء ثم أسندوا إلى هذه القوى كل أفاعيل الكون، ولما رأوا أن هذا التفكير الفلسفي ليس في متناول أذهان العامة لم يسعهم إلا أن يؤلهوا هذه
القوى، وأن يطلقوا عليها أسماء مقدسة لتفهمها الجماهير هي نفسها حين رأت هذا التقدير العظيم من جانب العلماء لتلك القوى أولته تأويلاً دينياً يتفق مع عاطفتها الفطرية التي لا تقدس إلا المعبودات؛ وفي كلتا الحالتين يكون العقل المصري العلمي هو الذي أوجد التاسوع، لا التناسوع هو الذي أوجد التفكير في قوى الطبيعة كما يذهب الفريق الأول)

(يتبع)

محمد غلاب

مدخل الفردوس المفقود

لملتون

ترجمة الأستاذ زكي نجيب محمود

يا ربة الشعر أنشدينا:
كيف كان من الإنسان أول العصيان؟
ما تلكم الشجرة الحرام وما جناها؟
فقطفها الفاني أورَدَ الأرضَ الفناء،
وأضعنا به عَدْناً، وعانينا ما نلاقي من عناء.
وهكذا نظل حتى يبعثنا نبي عظيم، فيسترد لنا دار النعيم،
غردي! يا من أوحيت إلى موسى،
في جنح الذُّرى من (حوريب) أو (طور سينين)
فألهمت ذيَّاك الراعي، الذي عَلَّم القبيل المصطفى
كيف استقام في الأزل العماءُ، فجاءت منه الأرض والسماء.
فإن استطبتِ سماوة (الصهيون)،
حيث غدير (سلوى) تدفق واثباً حيال بيت الله،
فإياك ثمت أستعين على نشيدي العصيب
الذي اعْتَزَمَ ألا يلوى في تحوامه
حتى يحلق صاعداً فوق سامق (أونيا)
ينشد غاية لم يحاولها قبلُ نثرٌ ولا قصيد.
أنت على الخصوص يا ذا (الروحُ) إليك أنحو!
يا من يؤثر على جلاميد المعابد طهر القلب والتقوى،
فَأتني العلم إنك أنت العليم.
قد شهدتَ الوجود منذ فاتحة الوجود،
وجَلسْتَ في وداعة الورقاء، باسطاً جناحيك العاتيين،
تأمَّلُ (المهوى) الرحيب، حتى أثقلته فكراً وشعراً.
فاجلُ يا ذا الروح قاتمي، وارفع وطئ دعائمي،
عَليّ بهذا المقال الجليل أبلغ شأواً،
فأكون (للحكمة السرمدية) ترجماناً
ولرحمة الله بالإنسان برهاناً.
ألا حدثينا - فليست تخفى الجنة عنك شيئاً، كلا، ولا مهوى الجحيم السحيق - حدثينا
عن أبوينا الأوَّلين: ماذا دعاهما، إذ هما يرفلان في ذاك النعيم،
وإذ هما عند الله أقرب المقربين، ماذا دعاهما
أن يهجرا (الباري) فيهويا؟ وأن يعصيا مشيئة الله
لمحظور واحد، لولاه لسيطرا على العالمين؟
من ذا أغواهما بديّاً بذاك العقوق الذميم؟
إنه (الأرقم) الرجيم ثارت غيلته
حقداً ووتراً، فمكر بأم البشر
حين ألقاه الغرور من الفردوس طريداً،

وفي أعقابه عصبة الملائكة الثائرين.
فتطاول أن يَفْصُل في السلطان سائر الأخدان
وطمع بعونهم أن يضارع (العلي العظيم)
أن عصاه؛ ثم دعاه الأمل الطامع في العرش والملكوت أن يثير في الجنة حرباً وقودها الغرور والفجور
فخاب الرجاء؛ إذ طوح به الله ذو الجبروت
فهوى من علياء السماء يتقد لهيباً،
يروع القلب منه ما احترق وما انحطم؛
وتردى في هاوية ما لها من قرار، بها يأوي
مغلولا بصم السلاسل يصطلي النار جزاء
بما حدثته النفس أن يناجز (القوي القدير)
وفي قرارٍ مهواه تسع فضاوات
مما يذرع به الأناسي خطو الليل والنهار
تردى الأثيم هزيلاً بصحبة شيعته
يتقلب في حمأة الجحيم، لعيناً خالداً في لعنته؛
ثم قضى نحسه أن ينال من غضب الله المزيد
فأخذت تضنيه لوعة النعيم المفقود، وتشقيه لذعة العذاب الموجود، وطفق يجيل البصر
الذي يقدح الشرر
والذي شهد ما شهد من أليم الكرب والكدر
وفي نظراته الغرور العنيد والمقت الشديد
- فسرعان ما رأى - ما وسع الملائكة النظر
رأى ما حوله موحشاً قفراً يباباً
ورآه في جب مخيف التهبت جوانبه التهاباً
كأنه أتون سحيق مستعر، ناره لا تبعث النور،
فإن هو إلا ظلام منظور كأنما أضيء ليضيء
مشاهد الغم ومطارح الهم وأشباح الأسى
حيث الدعة والسلام لا يجدان مقراً
وحيث لا يشرق الأمل الذي يشرق على العالمين أجمعين،
فهو ما ينفك يصلى عذاباً مقيما وطوفاناً من حميم
تغدو لظاه شواظ أبدا تذكو ولا تخبو
فذلك مستقر أولئك العصاة كما أراده عدل الإله
حيث أعِدَّ لهم سجن محلولك داج
مُقامهم فيه ينأى عن الله وعن نور السماء
ثلاثة أمثال ما ينأى قلب الأرض عن قطبها الأقصى
فيا بعد مأواهم عن الذي كان منه مهواهم!
وهنالك سرعان ما شهد الأثيم رفاق هُوِيه
يحتويهم الطوفان وتغمرهم الأعاصير ونار السعير؛
ورأى إلى جواره يتلوى من يتلوه سلطاناً وعصياناً
ومن عرفته أرض القدس بعدئذ باسم (إبليس)
فاتجه إليه كبير أعداء الله:
من سُمّي في السماء منذ ذلك الحين (شيطانا)
وألقى عبارة جريئة دوت في ذلك السكون الرهيب، فقال:
(- أفأنت هو؟ - إذن يا ويلتاه! لشد ما زللت وما تبدلت!
ألا إن كنتَ مَنْ في دار النور والنعيم
كان متشحتً بهالة من سنيِّ الضياء
- أخمدت بسناها الألوف من مشرق الوجوه
لئن كنتَ من وشجني به يوما
تبادل العهد، واجتماع الرأي والكلمة، واتحاد الأمل،

وآصرتنا غمرات هذا المطلب الجليل،
فهاهي ذي أواصر الشقاء توشج اليوم بيننا، فتوُحدُ هلكنا.
أفرأيت إلى أي هاوية أوينا، ومن أي الذرى هوينا؟
ألا إن الله في غضيته، ساق الدليل على رجحان قوته؛
فَمنْ قبلئذ كان يدري كم تبطش تانك الذراعان العَتِيَتان؟
ولكنيِّ على ذاك لست بنادم، وإن صَبَّ علينا (الظافر) القادر
ما استطاع في سورته من صنوف العذاب
فعزمي الصمم لن يحول، وإن حال مني رونق الإهاب؛
ولن أبدل ما أثاره حقي الهضيم في نفسي من أبي الكبرياء
التي سموت بها فنازلت (أقوى الأقوياء)
واستَعْدَيْتُ معي في النزال عرمرما
من (الأرواح) شاكي السلاح
الذين استبسلوا فكانوا على حكم الله مارقين،
وآثروني من دونه، ثم قارعوه جبروتا بجبروت
حتى زلزلوا قوائم عرشه
في حرب كانت في حومة السماء سجالا
وماذا أنْ فاتنا النصر في حومة الوغى؟
- فأنا بذلك لم نفقد كل شيء
وهل يكون هزيما، من له هذا العزم الحديد
والثأر السديد والمقت الذي لا يزول؟
ومن له هذا الجنان الذي لا يلين ولا يحول؟
ذاك نصر لن يسلبنه الله بسورته أو صولته
فما كان أخسها ضعة،
لو أني جثوت له مسترحما وركعت ضارعا،
أو أني خشعت لصولته،
وهو الذي ارتاع لهذي الذراع منذ هنيهة
حتى ارتاب في دولته!
أما وقد شاء القضاء لسطوة الآلهة ألا تدول،
ولهذه الجحيم ألا تزول،
وبعد أن عجمتنا خطوب هذا الحدث الجسيم،
فازددنا به رشادا وما فُلَّ لنا سلاح
وما يزال يحدونا زاهر الرجاء،
فلنُثِرْها على عدونا الألَدَ - بالقتل أو الختل - حربا عوانا،
إنه أصاب النصر فانتشى جذلا
(أَنْ رآه طليق الحكم، فطغى في السماء
هكذا قال (الملكُ) الكافر، برغم ما يشقيه من العذاب
مختالا يصول، وإن يكن حطيم النفس باليأس العميق،
- فلم يلبث رفيقه الجريء أن أجاب:
مولاي! وأنت زعيم العديد من العتاة متوجين)
قدتَ إلى الوغى تحت لوائك (السيروفيم) مدججين
وتهددت رب السماء الدائم بالخطر
فأقمت الدليل على رفيع جلاله
سواء أكان بالحق أم بالحظ أم بالقدر.
يا ويح نفسي أن ترى جليا هذا الخطب الرهيب
الذي طوَّحَنا فأشجانا وهزمنا فأردانا
وأضاع منا الجنة، وهوينا به إلى هذا الحضيض
يهدنا، ونحن المعشر القوي، هلاك مبيد
ما بادت الأرباب وكائنات السماء:
فلا يزال الروح والعقل منا عن الهلك في حرز حريز

وسرعان ما نسترد العنفوان المفقود، وأما المجد فلن يعود
وسالف النعيم قد استأصله الشقاء الموجود.
ولكن لم لا يكون الله هو لنا (قاهر)
فقد آمنت أنه على كل شيء قادر)،
(إذ ما كان يستطيع أن يدك قوانا سوى مطلق قدرته
لم لا يكون الله قد أبقى على نفوسنا وقوانا،
فلم ينتقصها ليشتد أذاناً ونضطلع بمر العذاب
لكي يُرضي فينا غيظه الناقم
أو ليأمرنا بما شاء من فادح الأعمال، فنستطيع الأداء؟
فقد أمسينا له بحق النصر عبيدا أرقاء،
إن شاء اصطلينا النار في قلب الجحيم
وإن شاء سَخّرنا في اللج البهيم
فإن أحسسنا بالقوة موفورة، فأين في ذلك الغَنَاء؟
(وهل أجدى علينا خلود البقاء إلا دوام الشقاء؟
زكي نجيب محمود
هكذا قال زرادشت
للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه
ترجمة الأستاذ فليكس فارس
أحقاد
أفتقيمون للحق دليلا من اقتحام أحد الناس للهب في سبيل تعاليمه؟ وهل لمثل هذا التعليم ما للعقيدة التي تتولد متقدة من لهبها نفسه. إذا ما تلاقي رأس بارد بقلب مضطرم نشأت من التقائهما تلك العاصفة التي يدعوها الناس مخلصا. ولكم وجد على الأرض من رجل أعرق منشأ وأرفع مقاماً ممن يدعوهم الشعب مخلصين، وما كان هؤلاء المخلصون إلا عاصفات كاسحات تهب متوالية على الأرض
إذ ما كنتم تنشدون سبل الحرية، أيها الأخوة، فعليكم أن تنقذوا أنفسكم حتى ممن يفوقون هؤلاء المخلصين عظمة ومجداً. فإن الإنسان إنسان ألمانيا الكامل لم يظهر على الأرض بعد. لقد حدقت بأعظم رجل وبأحقر رجل عن كتب وهما عاريان فظهرا لعياني متشابهين، بل رأيت أعظمهما أشد توغلا في المعائب البشرية من الآخرين.
هكذا تكلم زارا. . .
الفضلاء
لا ينبه الشعور الغافل إلا الإرعاد والأبراق، وما تكلم الجمال إلا بنبرات هامسة لا تنفذ إلا أشد الأرواح انتباهاً
أسمعتني عصمتي اليوم ضحكة تعالت فيها قهقهة الجمال السامية. فجمالي يسخر بكم، أيها الفضلاء، إذ سمعته يقول: - إنهم يطلبون لفضائلهم ثمناً.
إنكم تتقاضون ثمن فضيلتكم وتطالبون بالجزاء، أيها الفضلاء، طامحين إلى امتلاك أماكن في السماء، بدلا من أماكن في الأرض، والى الظفر بالأبدية بدلا من الدهر الزائل.
إنكم لتحقدون علي لأنني أعلم الناس أن ليس هنالك لا حسيب ولا مثيب، والحق أنني أمتنع عن القول بالثواب بل أذهب إلى أبعد من هذا فأقول أن ليس للفضيلة ما تجزي به نفسها جميل الجزاء.
إن ما يؤلمني هو أن العقاب والثواب قد دسا دساً في غاية كل أمر، بل حشرا حشراً في أعماق نفوسهم، أيها الفضلاء. ولكن لكلمتي أن تشق أعماق هذه النفوس ذاهبة فيها كقرن الوعل وكالسكة تشق الأرض لتحرثها. فلتتكشف نفوسكم عن خفاياها أمام النور، لأن الحقيقة لن تنفصل عن الضلال فيكم حتى تنطرحوا عراة تحت شعاع الشمس. ذلك لأن حقيقة ذاتكم إنما هي أطهر من أن تسمح بتدنسكم بكلمات الانتقام والعقاب والمكافأة والمقابلة بالمثل.
إنكم تحبون فضيلتكم كما تحب الأم طفلها، وهل سمعتم أن أما طلبت مكافأة على عطف الأمومة فيها؟
هل فضيلتكم إلا ذاتكم نفسها وهي أعز ما لكم؛ وما أمنيتكم إلا أمنية الحلقة التي لا

تلتوي وتستدير إلا ليصبح أخرها أولا لها.
إن كل عمل ينشأ عن فضيلتكم إنما هو بمثابة نور كوكب يعروه الانطفاء، فما يزال نوره يخترق مجراه في الأفلاك، وليس من حد ينتهي سيره إليه. وهكذا لن تزال أشعة فضيلتكم سائرة في سبيلها حتى بعد انتهاء عملها وتواريه في عالم النسيان، لأن إشعاع الفضيلة مستمر لا يعروه زوال.
لتكن فضيلتكم تعبيراً عن ذاتكم وما تلك غريبة عن هذه فلا تحسبوا أنها جلد ورداء هذه هي حقيقة روحكم الكامنة، أيها العقلاء. ولكن من الناس من يخيل له أن الفضيلة عبارة عن تشنج تحت السياط الجالدة، ولطالما سمعتم صياح هؤلاء الواهمين.
ومن الناس من يرى الفضيلة في الكسل والرزيلة، وما بنتبه عدلهم إلا عند ما يتثاءب حقدهم وحسدهم؛ عندئذ يفركون أجفانهم وقد أثقلها النعاس.
من الناس من تشدهّم شياطينهم إلى أسفل فكلما تدهورا على الدركات زادت أحداقهم توهجاً وتزايد شوقهم إلى ربهم. إن صوت هؤلاء المتدهورين يبلغ آذانكم.
أيها الفضلاء وهم يصيحون: - إن كل ما هو خارج عن كياني إنما هو الله وإنما هو الفضيلة.
وهنالك آخرون يتقدمون مثقلين مقرقعين كأنهم عجلات تحمل صخوراً إلى الوادي، وهؤلاء الناس لا ينون يتكلمون عن الفضيلة، وما الفضيلة في عرفهم إلاّ عبارة عن كابح عجلاتهم.
وهنالك قوم أشبه بالساعات يربط زنبركها فتسمعك تكتكتها وهم يريدون أن تدعى حركتهم الآلية فضيلة. إنني ألهو بمشاهدة مثل هذه الساعات لأنني ما صادفتها مرة إلا ربطت زنبركها بتهكمي وأكرهتها على تحريك رقاصها.
وهنالك المغترون بذرة من العدل ترتفع فيهم على جبل من الدعوى فتراهم يجدفون على كل شيء إلى أن يغرقوا العالم بظلمهم؛ وما تخرج كلمة الفضيلة من أفواه هؤلاء الناس إلا وتحسب أنهم يتجشأونها، وإذا قال أحدهم: - لقد عدلت، فكأنه يقول: - انتقمت.
هؤلاء من يريدون أن يفقئوا أعين أعدائهم بفضيلتهم وما يطلبون من الاعتلاء إلا إسقاط سائر الناس.
وهنالك أيضاً من يدب إليهم الفساد كأنهم ماء آسن في المستنقعات، يختفون بين المناصب منادين بالفضيلة كأنها جمود في المستنقعات. فهؤلاء الناس يعلنون أنهم لا ينهشون أحداً ويتحاشون الالتقاء بالناهشين، فإذا عرض عليهم أي رأي أخذوا به تفادياً لكل أخذ ورد.
وهنالك عشاق الحركات المعتقدون بأن الفضيلة نوع من الأيمان فتراهم في كل حين جاثين على ركبهم وقد قبضت إحدى راحتيهما على الأخرى تمجيداً للفضيلة وما يدرك قلبهم منها شيئاً.
وهنالك من يرون الفضيلة في القول بلزوم الفضيلة وهم لا يعتقدون إلا بلزوم ردع الشر بالقوة.
وبعض من امتنع عليهم أدرك ما في الإنسان من صفات عليا لا يذكرون الفضيلة إلا عند ما يحدقون بما فيه من دنايا وهكذا لا تنشأ فضيلة هؤلاء القوم إلا من عيوب عيونهم.
من الناس من يطلب المعرفة وتقويم ما التوى فيه فيدعو هذه النزعة فضيلة؛ ومنهم من يطلب قلب كيانه رأساً على عقب فيدعو هذه الرغبة فضيلة أيضاً، وهكذا ترى الجميع يعتقدون بوجود الفضيلة في ناحية من نواحي كيانهم وتراهم يتجهون إلى معرفة ما فيهم من خير وشر. غير أن زارا قد جاء إلى جميع هؤلاء المخادعين وإلى جميع هؤلاء المجانين ليقول لهم إنهم لا يعرفون عن الفضيلة شيئاً وإن ليس في وسعهم أن يعرفوها.
ما أتى زارا إلا ليشعركم بأنكم تعبتم من تكرار الأقوال القديمة التي علمكم إياها المخادعون والمجانين، فينفركم من كلمات المكافأة والمقابلة بالمثل والعقاب والانتقام في العدل ولتقلعوا
عن القول بصلاح الأعمال عند تجردها عن الغايات
لتكن ذاتكم متجلية في عملكم كما تنجلي الأم في طفلها وليكن هذا التعبير ما تعرفون الفضيلة به.

والحق، أنني انتزعت منكم كثيراً من أقوالكم وسلبتكم أعز ما تتلهون بمضغة عن الفضيلة، ولذلك أراكم تزورون كالأطفال. وقد كنتم مثلهم تتسلون بألعابكم على الشاطئ فطغت موجة انتزعتها من بين أيديكم وحملتها إلى العباب، فها أنتم تعولون الآن كهؤلاء الأطفال، غير أن الأمواج ستكر راجعة حاملة إليهم ألعاباً جديدة ناثرة بين أيديهم الأصداف المخططة، وأنتم أيضاً أيها الصحاب ستسلمون مثلهم حين تأتيكم التعزية ناثرة بين أيديكم الأصداف المخططة.

. . .هكذا تكلم زارا

شاعر الإسلام محمد عاكف

للدكتور عبد الوهاب عزام

تتمة

عرف قراءة الرسالة الموضوعات التي عالجها الشاعر الكبير في ديوانه (الصفحات) كما عرفوا من قبل مثلا من شعره. واليوم أقدم لهم مثالاً من شعره الاجتماعي الذي يصور فيه الواقعات الصغيرة والحادثات الجارية التي لا يأبه لها الناس كثيرا، وهي قطعة من الجزء الأول من الصفحات.

وينبغي أن يذكر القارئ ما ينال الشعر حين يترجم منثوراً فيفقد كثيراً من روعته، ولاسيما نظم عاكف الذي يذهب مثلا في انسجامه وقدرته على تذليل كل موضوع أبي وكل معنى شامس.

كان أنصاره وخصومه مجمعين على أنه أوتى في النظم قدرة تأبى على المحاكاة. وكان دعاة الأوزان التركية وأعداء العروض العربي يقولون لا يهزم هذا العروض حتى يقتل محمد عاكف فهو حجة دامغة تفحم كل معارض. وما ظنك برجل يصف مصارعة فينطق الشعر بحركات المصارعين وأقوالهم في بيان سلس ونظام لا شية فيه من التكلف

السفط

قبل خمسة عشر يوماً غدوت على عادتي من داري مبكراً ومحلتنا في أطراف استانبول فليس يستطيع السير في أزقتها إلا من يحسن السباحة، ما تزال تعترض سبيله بحيرة مائجة بعد أخرى. فإذا أظلم الليل فليس إلا الصبر على اللأواء، واحتمال ما يرمي به القضاء. لابد من قنديل في إحدى اليدين واسقنديل في الأخرى. هذه سبيل النجاة لا سبيل سواها

وكانت في يدي هراوة أتحسس بها الطريق إن أصابت جزيرة وقفت، وإن لقيت بحراً وثبت.

ويأوي دليلي الأمين إلى أطناف الدور العتيقة المتداعية ويلوذ بجدرانها فيصدم شيئاً ضخماً. نظرت فإذا سفط كبير قديم. قلت سفط حمال. لمن هذا ليت شعري؟ ويقبل غلام في الثالثة

عشرة عامداً إلى السفط بعصا غليظة، فمازال يرفع عصاه جاهداً ويهوي بها حرداً حتى تدحرج السفط خائراً منهوكاً

وبرزت من دار !!(قد مات أبي تحتك وأنت لا تزال في وسط الزقاق جاثماً متعجرفاً) - أمامنا امرأة نّصَف:

ويلك يا بنيَّ! هلمَّ اليّ، كفّ. إياك أن تحطمه. مالك وللسفط يا بني؟ إنه أخرس لا فم - له ولا لسان. لقد ارتفق به أبوك سنين ثمانيا، وكان يقول إنه سفط مبارك، قلما بقيت تحته بغير حمل. وقد ذهب أبوك فهو اليوم كاليتيم. وستعول به أمك وأخاك. أطفل أنت؟ ألا تعرف ما عليك؟

قلت: - استمع يا بني إلى أمك

- :فصاح الصبي متجهماً

يا ذا اللحية ألا عمل لك؟ اذهب من هنا إلى جهنم. اذهب ما وقوفك هنا هاذيا في هذه) الغداة؟ إن قلبي يشتعل. قد ذهب أب لي كالجبل

- ماذا تبغي الآن من رجل في مقام أبيك؟ اسمع يا بني. .

- دعيه يا سيدتي إنه طفل، أنا لا أبالي ما يقول.

- ما اسمك يا بني؟

- حسن

- أصغ يا حسن. إنك ستضير نفسك فهذه الحدة. لقد احترق قلبي يا بني حين عرف مصيبتك، ولكن أباك قد أوصى إليك وذهب. فانظر كيف جاهد هذه السنين الطوال ورباك بعرق جبينه! وكذلك عليك ألا تترك أخاك يتيما. عليك أن تربيه.
- بالسفط؟ أكذلك؟
- نعم نعم. ما هذا الكلام يا بني؟ أعار أن تعمل؟ ثم أن تحمل الأعباء؟ إنما العار الاستجداء، إنما العار أن تسأل الناس ولك يد ورجل
- ما أصدق ما قال عمك يا ولدي. قبل يا بني يد عمك.
- أنسيت سريعاً ما قالته امرأة جارنا؟ ألم تقل: (يا حسن خالي ضابط في إحدى المدارس. ولو كلمناه مرة لأخذك إلى المدرسة. انتظر سأكلمه)
فلا تعلميني أنت واجعليني في هذه السن حمّالا!!
عرفت أن الحديث طويل وأنه سيزداد طولا وكانت مشاغلي كثيرة ذلك اليوم فتركتهما.
ليت شعري ما خطب حسن المسكين اليوم؟
لي بنية عرمة لا تستقر في الدار. خرجت بها إلى الفاتح، بعد العصر بقليل. فبينا ندخل من باب الفحامين راق البنية منظر الجمل، تعجب من هذا البدن المعوج، وذلك العنق المفرط في الطول. وهذه الأرجل، وهذا الذيل المعلق من خلفه - هذا الذيل أليس هذا كله عجيبا؟
التفت ورائي فإذا على خطوات منا شيخ ربعة، وضاء الوجه مشرق السيما. قد لف على وسطه شالا، وعلى رأسه يابانية، وبجانبه صبي ينوء تحت سفط كبير. أقبلا يمشيان الهوينى. فوا عجبا! هذا هو الصبي الذي رأيته ذلك الصباح. . أي مرأى! مرأى يذيب القلب ويذهب باللب: رجلان هزيلتان عاريتان إلى الركبتين، وبدن يرعد تحت ثوب رقيق يكاد ينجمد من البرد. وقدم حافية، ورأس حاسر. لم تكن نفسا هذه اللهثات ولكن أنينا مديدً، ولم تكن نظراً هذه اللمحات ولكن بكاء شديداً، يا له بؤساً حافياً حاسرا. وإنه لحسرة ذلك الجبين المجعد في الثالثة عشرة.
ويخرج من المدرسة الرشدية أفواج من الطلبة قد انتظموا صفوفا، وساروا قليلاً ثم وقفوا. ما أقسى هذا المنظر على قلب حسن التعيس! أجل غلمان تفيض منهم نغمات النعمة والشباب يطير كل منهم إلى عشه السعيد. وسيفرغون للعب عما قليل، هؤلاء سعداء، وأما حسن فسيحمل أبدا على كتف الفاقة هذا السفط المشئوم الذي ورثه عن أبيه - السفط الذي أراد أن يحطمه حين بصر به في طريقه.
ليس هذا حملا ولكنه عقاب القدر لهذا البريء
وا حسرتاه، ما ذنبه، ما ذنب هذا المعاقب الذي لا يدري ما ذنبه؟
عبد الوهاب عزام
نقل الأديب
للأستاذ محمد إسعَاف النشاشِيبي
50 - الطبيب أبو المنذر نعمان
قال ابن فارس: سمعت أبا الحسن السروجي يقول: كان عندنا طبيب يسمى نعمان ويكنى أبا المنذر فقال فيه صديق لي:
أقول لنعمان وقد ساق طبُّه ... نفوساً نفيسات إلى باطن الأرض
(أفنيتَ فاستبق بعضاً ... حنانيك بعض الشر أهون من بعض (أبا منذر!)
51 - قبل أن تكدره الخلائق بأنفاسها
قال الأصمعي: كانت امرأة من العرب تأتي بصبية لها كل يوم قبل الصبح، فتقف بهم على تل عال وتقول: أيْ بنيَّ، خذوا صفو هذا النسيم قبل أن تكدره الخلائق بأنفاسها
52 - لو رقد المخمور فيه لصحا
قال الثعالبي في (اليتيمة):
قرأت في بعض الكتب عن ابن حمدون قال: كان الفتح ابن خاقان يأنس بي، ويطلعني على الخاص من سره، فقال لي مرة: أشعرتَ يا أبا عبد الله، إني انصرفت البارحة من مجلس أمير المؤمنين فلما دخلت منزلي استقبلتني فلانة (يعني جارية له) فلم أتمالك أن قبّلتها، فوجدت فيما بين شفتيها هواء رقد المحموم فيه لصحا
فكان هذا مما يستحسن ويستظرف من كلام الفتح. وكأن الوأواء قد سمع ذلك فنظمه في قوله:

سقى الله ليلا طاب إذ زار طيفه ... فأفنيته حتى الصباح عناقا
بطيب نسيم منه يُستجلب الكرى ... ولو رقد المخمور فيه أفاقا
53 - الجندي العربي المجهول
في (عيون الأخبار):
حاصر مسلمة بن عبد الملك حصنا فندب الناسَ إلى نَقْب منه فما دخله أحد. فجاء رجل من عَرْض الجيش فدخله ففتحه الله عليهم، فنادى مسلمة أين صاحب النقب؟ فما جاءه أحد.
فنادى أني قد أمرت الآذن بإدخاله ساعة يأتي فعزمت عليه إلا جاء. فجاء رجل فقال استأذن لي على الأمير
فقال له أنت صاحب النقب؟
قال أنا أخبركم عنه
فأتى مسلمة فأخبره فأذن له، فقال له. إن صاحب النقب يأخذ عليكم ثلاثاً:
(1) ألا تسودوا اسمه في صحيفة إلى الخليفة
(2) ولا تأمروا له بشيء
(3) ولا تسألوه ممن هو
قال: فذاك له
قال أنا هو
فكان مسلمة لا يصلي بعدها صلاة إلا قال: اللهم اجعلني مع صاحب النقب
54 - لا تظنوا أنني أسلو
أبو الوليد بن الجنان محمد بن الشرف من شعراء الملك الناصر صاحب (مصر والشام):
أنا من سكر هواهم ثمل ... لا أبالي هجروا أم وصلوا
فبشعري وحديثي فيهم ... زمزم الحادي وسار المثل
إن عشاق الحمى تعرفني ... والحمى يعرفني والطلل
رحلوا عن ربع عيني فلذا ... ادمعي عن مقلتي ترتحل
ما لها قد فارقت أوطانها ... وهي ليست لحماهم تصل؟
لا تظنوا أنني أسلو فما ... مذهبي عن حبكم ينتقل
55 - الأب والابن والروح القدس
كان أبو نواس جالسا وفي يده كأس خمر، وعن يمينه عنقود، وعن يساره زبيب. فقيل له ما هذا؟
فقال: الأب والابن والروح القدس
56 - ويرحم القبح فيهواه
قال جعفر بن قدامة: كنا عند ابن المعتز يوما ومعنا النميري، وعنده جارية لبعض بنات المغنين تغنيه وكانت محسنة إلا أنها كانت في غاية من القبح، فجعل عبد الله (أي ابن المعتز) يجمشها، ويتعلق بها. فلما قامت قال له النميري: أيها الأمير، سألتك بالله أتتعشق هذه التي ما رأيت قط أقبح منها؟
فقال عبد الله وهو يضحك:
قلبي وثاب إلى ذا وِذا ... ليس يرى شيئاً فيأباه
يهيم بالحسن كما ينبغي ... ويرحم القبح فيهواه
57 - يا كذاب!
قال رجل لامرأة: قد أخذت بمجامع قلبي فلست أستحسن سواك
فقالت: إن لي أختا هي أحسن مني وهاهي خلفي. فالتفت الرجل فقالت: يا كذاب! تدعي هوانا، وفيك فضل لسوانا
58 - هذه أنفاس ريا جلقا
قال ابن الكتبي في (فوات الوفيات):
قال بعضهم: مررت يوما ببعض شوارع القاهرة وقد ظهرت جمال حمولها تفاح فتحي من الشام، فعبقت روائح تلك الحمول، فأكثرت التلفت لها، وكان أمامي امرأة سائرة ففطنت لما دخلني من الإعجاب بتلك الرائحة فأومأت إلي وقالت:
هذه أنفاس ريّا جلّقا

59 - يا نسيما هب مسكا عبقا
قال السلمي الدمشقي المعروف بالبديع (وقد اشتهرت هذه الأبيات، وغنى بها المغنون):
يا نسيما هب مسكا عبقا ... هذه أنفاس ريا جلقا
كفّ عني (والهوى) ما زادني ... برد أنفاسك ألا حُرَقا
ليت شعري نقضت أحبابنا ... (يا حبيب النفس) ذاك الموثقا؟
يا رياح الشوق، سوقي نحوهم ... عارضاً من سحب عيني غدقا
وانثري عقد دموع طالما ... كان منظوما بأيام اللقا
60 - لأجل هذا البيت الواحد
وفد أبو الفضل بن شرف بن برجة على المعتصم (صاحب المرية) يشكو عاملا ناقشه في قرية يحرث فيها وأنشده الرائية التي مطلعها:
قامت تجر ذيول العصب والحبر ... ضعيفة الخصر والميثاق والنظر
إلى أن بلغ قوله:
لم يبق للجور في أيامهم أثر ... غير الذي في عيون الغيد من حور
فقال له: كم بيتا في القرية التي تحرث فيها؟
قال فيها خمسين بيتا
قال: أنا أسوغك جميعها لأجل هذا البيت الواحد، ثم وقع له بها، وعزل عنها نظر كل وال
رسَالة الشِّعر
وحي الربيع!
للسيد حلمي اللحام
فتنة الغوطة:
ماجتِ الغوطة الأنسية بالحس ... نِ وفاضت شذاً، وسالتْ غِناَء
غمغْماتٌ بين العشاش، وهمس ... في زوايا الغصون يَنْدى ولاء
ليت شعري ماذا تتمتْمُ هذي الطي ... رُ، فوْق الربا، صباحَ مَساء!
أترى أرْسلَ النسيمُ نداء الح ... بِّ في سرها، فخنَّتْ وفاَء؟
أم سرى العِطر فاغماً فانْتَشت من ... هُ وناحَتْ، رياضَه الغَنَّاء!
أمْ حباها الرَّبيعُ أحلى معان ... يهِ، فراحَت تعيدها أصداء؟!
وعلى أفيح المروج عذارى ... يرْتشفْن الأظلالَ والأنداء
ويُصوِّرن في الضمائر أطْيَا ... ف هوى تترع الوجود رواء
ويغَنينَ هائمات نشاوى ... فَيَميد الروض الأغن اشتْهاء!
ويدَغدِغن ذكريات أخي الح ... ب، فيهوِي فؤادُه إعياء. . .
دنيا الشاعر:
شاعرٌ مُرهف الشعورِ، حنون اللحْ ... نِ، يهْوَى الخيَالَ والأوهاما
عَينْه ترْمقُ السماء فهل فا ... رَقها حلمُها، فهامتْ هياما؟
أم سَبي عَالَمُ الأشِعةِ جفَنْيْ ... ها، فحامَتْ ترْتاءُ فيه مقاما!
قَلْبهُ جذْوة من الحقَّ والنو ... ر تشع الهْدى، وتجلو الظلاما
إن غفا المْجَد أشْعَلَ الثورْة الح ... مراء، كالشَّمس، أو يذيب القتاما
أو تدجَّى الفضا فتانِكَ عَينا ... هُ تكادانِ ترْشفان الغماما
روحه مِزْهرٌ ينامُ على الأف ... قِ كزَهرٍ لم ينفض الأكماما
كلما مسَّتِ النسائمُ منه ... وتراً راحَ يرْسل الأنغاما
أيها الشاعر الطروب إملاء الدني ... احُبوراً وبهجْة وابتساما
واسكبِ اللحنَ في النفوس كما يَس ... رب فيها صَوْت الحبيب مداما!
عالم الحبيب:
يا حبيبي أطِلَّ من كوَّة الغيْ ... ب وأشْرِقْ على الوجود صباحا
واسْرِ في مقلتيَّ حُلماً ضَحُوكا ... واهمْ في مهجتي ندى وسَماحا
وادْ وفي خاطري نشيداً مُرِناً ... وابْقَ في خافقي سناً لمَّاحا
وأثرْ غافِيَ الصبَّابات، وانكأ ... ذكريات الصبِّا، وأدم الجراحا
لا يَسيلُ الغْناءُ من مهجة الش ... اعر إلا إذا استحرَّ نواحا

والأماني لا تجنحُ إلا ... بشجون الغرام: عزَّت جناحا
واسقِني من دم ابنْةِ الكرم، واسكب ... في دمي من صدى غِنائِك راحا
وأرقَ من شعاع عينيكَ في رو ... حي ضياء، ونشوة، ومرحا
زرْقة يسبغ الصفاءُ عليها ... من غلالاتِهِ الرِّقاق وشاحا
أنا منها في زورق يَمخْرُ الْيَ ... مَّ، وبدر السماء في الأفق لاحا
ضحكة الربيع:
يا حبيبي تعال نغنم صِبا العم ... ر، ونكرع كؤوسه والدِّنانا
ونغن الشباب أعذبَ ألحا ... ن التصابي، ونطرب الأكوانا
ما ترى ضحكة الربيع على السه ... ل، وزهو الجواءِ، والألوانا
نبضت بالحياة خضر التعاشي ... ب، ورفَّ الندى عليها جمانا
ألقى يبهر العيون سناهُ ... ورؤى حلوة تفيضُ حنانا!
أي كفٍّ سمحاء نضَّرت الأفـ ... ق ووشَّتْ وجه الثرى العريانا
أي سر في الزهر يبتعث الح ... ب ويحيي المنى ويذكي الجنانا
هو في مرشف المحب كثغر الح ... ب، يرمي فؤاده نشوانا
وهو في ناظريه صورة طيف ... علق الطرف لحظة ثمَّ بانا
ليتنا بلبلان يغمرنا الصف ... وُ، ويوحي الهوى لنا الألحانا
غناء الحب:
أيها الحبُ أنت فيض من الخل ... د يحيل الأسى الممضَّ رغابا
أنت ومْض الهدى على مهمة العي ... ش، يضيء الشعاب والأسرابا
أنت لحن الحياة إن رَقرق الشد ... وعليها زهت وطابت رحابا!
غنِ هذي العِشاشَ تندَ صبابا ... ت، وتنسج من الضحى جلبابا
وتردْ فيها الحمائمُ والطي ... رُ أغاني الهوى رخاماً عذابا
غَن هذي الحقولَ تخضل أفيا ... ءً، وتهتز دَوْحة وجنابا
غن هذي الأزهارَ تّطرح الأكم ... امَ عنها، وتنشر الأطيابا
عن هذي القلوبَ حتى تحس الش ... عرَ، والحسن والمنى والشبابا
كل نفس لم ترْتشفْ من حُمَيَّا ... ك تخالُ الحياة سمّاً مذابا
كل قلبٍ لم تجْرِ فيه ينابيع ... كَ يَبقى، على الزمان، يبابا
حلمي اللحام
أخرس. . .!
للأستاذ عمر أبو ريشة
رفع الرأس للسماء وصلَّى ... بدموع ترجرجت في هدبهْ
بين شَدقيه مضغة عقلتها ... يوم ميلاده أنامل ربه!!
جرَّدت عن لسانه لذَّة النط ... ق وبثَّت إعجازه في قلبه
فإذا حبه يصول عليه ... وإذا بؤسه يعيث بحبه!
أخذت ثورة الكآبة تطغى ... بين حالي فؤاده ولسانهْ
ليس يستطيع أن يبث خليلا ... ما تقول الدموع في أجفانه!
حمل العبء وجده كغريب ... ضلَّ عن أهله وعن جيرانه
تتهاوى أشلاء آماله الغرّ ... تباعاً على خطا أحزانه
كيف يطوي سفر النعيم كئيباً ... والشباب الشباب في ريعانه؟!
صفقت قبضة الذهول حجاه ... فانثنى في الحياة حيران تائه
أشعث الشعر لوَّح السهد خَدَّ ... يه وهزَّ الشقاء من كبريائه
تلمح الفقر هادئاً في زوايا ... مقلتيه وثائراً في ردائه!
يسحب الساق متعباً كعليل ... هجر الدار قبل يوم شفائه!
كلما جاشت اللواعج فيه ... أطرق الرأس غارقاً في شقائه!
وقف العاشق الكئيب حزيناً ... يرقب الغادة الطهور إزارا
فتراءت إليه من بعد لأي ... فهفا لوعة وضج اصطبارا
فجئنا باسطاً يديه إليها ... شاكياً بالدموع حباً مثارا
فرمته. بدرهم. . وتوارت ... وسنا ثغرها يشع افترارا

رفع الرأس للسماء وأرغى ... في أبدي (ما لست أدري) وسارا!
عمر أبو ريشة
القبرة
للأستاذ إبراهيم العريض
تُحوِّم في أفق السماء أصيلا ... كنجم تراءى للعيون ضئيلا
فيتخذ الصوت الذي تستجدُّه ... مع الريح في رحب الفضاء سبيلا
يدق على الأسماع خافتُ جرسه ... فإن أعلنته الريح جاوزَ ميلا
وتدركه شيئاً فشيئاً غشاوة ... من الحزن حتى يستحيل عويلا
أقبرة! هل أنتِ في الجوِّ قطعة ... من الحسِّ سالت باللحونِ مسيلا
تغالين في الألحان حتى إذا انتشت ... بها روحكِ الولهى خفتِّ قليلا
كما تخفتُ الأوتار بعد رنينها ... ويبقى صداها في النفوس طويلا
فقد برأ الله الطبيعة - وهي لا ... تحس به - حتى بعثت رسولا
فأحسنت في الترتيل حتى كأنما ... بآيكِ ظلُّ الروض صارَ ظليلا
ولقَّنتنا سرَّ الجمالِ ولم نكن ... لندُركَ لولاكِ الوجودَ جميلا
فما زهرة في الروض تفتح جفنها ... على الدمع إلاّ وهي تنشد سولا
فتغرينها في شجوِها بابتسامةٍ ... بِبَثكِ معنى للخلود جليلا
(البحرين)
إبراهيم العريض
رسالة الشباب
الزحف الاجتماعي
لم نكد نفتح هذه الفرجة لآراء الشباب نرى منها اتجاه موجاته ومنزع خلجاته حتى انثالت علينا رسائله الفتية تعرض مسائله، وتبحث مشاكله، وتصور هواه. وسننشر منها ما يستحق النشر، ونناقش ما يستوجب المناقشة، عسى أن يكون من وراء ذلك الطريقُ الذي يستقيم عليه الجهاد ونوفي منه على الغاية كتب (شاب) مكتمل الشباب ناضج الفكر يقول:
قرأت مع الإعجاب كلمتكم البليغة في مجلة الرسالة المحبوبة تعلنون فيها أنه يهمكم على الأخص أن تعرفوا رأي الشباب وتطلعوا على انفعالاته واتجاهاته وتبدون فيه رأيكم، في أن واجب الشباب أن يستمر على صياله في ميدان الكفاح السياسي.
ولسنا معشر الشباب نوافق على رأيكم في أن الجيل الماضي قد أنهكه النضال في المعركة الكبرى، ونعتقد أن قولكم هذا ناشئ من تواضع طبيعي، إذا أنكم من ذلك الجيل الماضي فلستم تريدون أن تستأثروا بالمفاخر كلها فتنازلتم عن المجد طواعية واختيارا. فأنا نرى أن ذلك الجيل الماضي قد أخذ على عاتقه أمانة قومية ثقيلة الحمل، ولا يزال قادرا على المضي في سبيله رافعاً علم البلاد موفقا إن شاء الله. ولا نزال نرى رجال هذا الجيل أمثلة نحتذيها ونسير في آثارها إذ لابد للمعركة من قواد وجنود، فإذا كانوا هم القواد ونحن الجنود فليس ذلك بمنقص من مقدار جهادهم، لأن جهاد القواد لا يقل في عظمته ومجده عن جهاد عامة الجند. وإننا ندخر لمستقبلنا أن نكون في آخر عهدنا بالجهاد قوادا عندما يجيء الوقت الذي يكون علينا القيام بالقيادة - وإنه ليقر أعيننا أن نتصور أننا نكون عند ذلك جديرين بالثقة والتقدير، ينظر إلينا شبان عهدنا فيجدوننا لا نزال إخوانا مجاهدين متضامنين معهم في القيام بالواجب
نرى أن الشباب يستطيع أن يؤدي واجبه الوطني في ناحية لا يستطيع أن يجول فيها رجال الجيل الماضي، فإننا أقدر على الاتصال بجمهور الشعب وأخف حركة وأقوى على
احتمال المجهود الجسماني الذي تطلبه الحركة المستمرة، ولهذا نرى أن من واجبنا هذا الاتصال بالجمهور لكي نعمل على نشر المبادئ السياسية السامية والعمل على تنوير الشعب وتثقيفه وتنظيم ما يحتاج إلى التنظيم من حياته العامة.
ويستطيع شبان البلاد ولاسيما طلبة المدارس والكليات أن ينتشروا في الريف والمدن في أثناء العطلة الصيفية ويقوموا على إنفاذ برنامج وطني شامل، وأقترح لهذا أن تقوم دعوة واسعة على تكوين جمعية منظمة من هيئات الطلبة والشبان لتنظيم

البرنامج الذي يقوم الشبان على انفاذه؛ وأعتقد أن شباب البلاد إذا تضافر في مدى خمسة أعوام يسميها (أعوام الزحف العام الاجتماعي) على أن يغزو أطراف الريف والمدن بدعاية تهذيبية واقتصادية قوية أمكن أن تخرج البلاد بعد تلك الأعوام الخمسة بفائدة عظمى تساعد أكبر المساعدة على جعل استقلالنا حقيقياً بكل معنى الكلمة، ونكون عند ذلك قد قمنا بحمل الواجب مع الكتلة الوطنية المخلصة.

فأرسل إليكم هذه الدعوة لعلها تصادف قبولا عند إخواني الشبان وأسأل الله أن يوفقنا جميعاً إلى خدمة بلادنا التي نرجو أن تتضامن على خدمتها كل الصفوف وكل الأجيال

(شاب)

اعتراض الشاب الفاضل وجيه واقتراحه أوجه؛ ورأيه يستحق النظر المتقصي والبحث المفصل. وسنعود إليه في العدد المقبل فنناقش الوسائل إلى تنفيذه

السياسة فتوة هذا العصر

وكتب إلينا الأديب صاحب الإمضاء يقول:

. . . يظهر مما كتبتموه في العدد الماضي أنكم ترون دخول الشبان في الميدان السياسي، وفي هذا على ما أظن توجيه لجهوده في طريق غير مأمون ولا موصل. إذا كان واجبنا الأعظم في الحياة أن نقدم للمجتمع خير ما نستطيعه من إنتاج فلماذا لا نصرف هذا النشاط المتدفق إلى ميادين العلم والأدب والفن والاقتصاد فيؤتي أكله وينتج ثمره، وندع السياسة لأهل الرأي من شيوخ الأمة الذين مارسوها واضطلعوا بها وعرفوا مداخلها ومخارجها؟ - إن السياسة حطمت كثيراً من المواهب الصالحة، وجرف تيارها كثيراً من العناصر النافعة،

فهلا ترون أن يكون شباننا كشبان إنجلترا لا يسمعون بالسياسة إلا بعد أن يقطعوا أكثر مراحل الحياة وتمرسوا بكل عمل من أعمال الأمة؟ إن الموضوع في نظري يحتاج إلى إثارة المناقشة ومعاودة البحث فلعلي أكون المخطئ، ولعلي أكون المصيب. . .

العباسية

محمد زهدي ناصر

ربما كان رأي الكاتب الفاضل يستقيم إذا كانت مصر كإنجلترا في شدة بنيانها وثبات دعائمها وقوة مجتمعها ونضوج أحزابها واطراد سياستها، ولكننا نعيش في شعب ناشئ لا يزال يصارع أطماع القوة من الخارج، وعوامل الضعف من الداخل؛ ومادامت القلوب خانعة والنفوس قانعة والطرق وعرة والأحداث راصدة، فإن العمل السياسي أو التوجيه القومي يبقى أول الواجبات وأنبل الأعمال على الشباب. أن الشاب هو أجلد على انتجاع الطريق المخوف، واكتشاف الموضع المجهول، ومواجهة العدو الكامن، وإيقاظ الشعور الخامد؛ ولا يهمه أن يحترق وهو يضيء، ويغتال وهو يهدي، ويسقط وهو يدافع. ولا ريب أن الشيوخ أنضج رأيا وأنفذ بصيرة وأوسع ثقافة ولكن الشباب هم الأيدي التي تنفذ، والروح التي تنشط، والأجنحة التي تطير، على أن السياسة التي نريدها للشبان أوسع وأشمل مما يتصوره الكاتب الفاضل؛ فالسياسة دعوة وتدبير وقيادة، وقوى البلد المادية والأدبية معطلة من طول الإغفاء والترك؛ والإحساس الشاب هو وحده الذي يستطيع أن يحرك في طبقات الشعب هذا الجمود المزمن بالدعوة الصارخة، والإرشاد الصالح، والقدوة الحسنة، إن السياسة هي فتوة العصر الحديث في الأمم الحديثة؛ وإن الأمم الأوربية التي أضعفها انحلال الخلق، أو فتكت بها أدواء الحرب، لا يجدد الآن ما رث منها ولا يحيى ما مات فيها إلا الشباب

قد يكون صحيحاً أن الشباب لو انصرف إلى الاختصاص في العلم لجاء بأعظم المخترعات ودون خير المؤلفات؛ ولو كتب في الأدب لخلد اسمه بين أعلامه؛ ولو مارس الفن لتألق نجمه في سمائه، ولكن أي علم يفيد أكثر من هذا الذي تنير به للشعوب المغلوبة طريقها إلى الحرية والمجد؟ وأية قصة تكتبها أروع من هذه التي تكون أنت أحد أبطالها؟ وأية

قصيدة تنظمها أبلغ من أن تكون مثال التضحية؟ وأية صورة ترسمها أجمل من هذه الجموع البائسة تعمل على نقلها من حال البؤس إلى حال النعيم؟ وأي طب أنفع من طب الجموع؟ وأي تدوين للتاريخ أتم من أن تصنع التاريخ! قل معي: حيا الله السياسة وأدامها فتنة للشباب!

رسالة العلم
قصة المكروب كيف كشفه رجاله
ترجمة الدكتور أحمد زكي
مراقب مصلحة الكيمياء

كان حظ ارليش من التوقر والرزانة حظ الفقير المعدم، وذلك من حيث سلوكه ومن حيث آراؤه سواء سواء. أما من حيث سلوكه فكان يرسم صوراً من نظرياته في أي مكان اتفق على كم قميصه وعلى نعل حذائه؛ وكان يرسمها على صدر قميصه فستصرخ زوجته، أو على صدر قميص صاحبه إذا خان الحظ هذا الصاحب فلم يستطع أن يفلت قبل أن تقع الواقعة. انعدام فيه الحس بالذي يليق والذي لا يليق فكان كولد صغير أولع بالأذى. أما من حيث آراؤه فكان يقضي الأربع والعشرين ساعة التي يحتويها اليوم يتخيل الأسباب الغريبة المستحيلة ليفسر كيف يتحصن الإنسان من الأدوء، أو كيف نقيس الحصانة، أو كيف تنقلب الصبغة إلى رصاصة مسحورة؛ وخلف وراءه صوراً من هذى الخيالات تجدها في كل بقعة وناحية

وبالرغم من هذا كان أدق الناس في التجارب التي يجربها وكان أول من رفع عقير بالتسخط على صُيَّاد المكروب لتخبطهم في طرائق للبحث مهوشة ولتوقعهم كشف الحقائق العاصية بمجرد سكب شيء من هذا على شيء من ذاك. وفي طلب الدقة قتل إرليش في معمل كوخ في تجربته خمسين فأراً حيثما كان يكتفي من قبله بقتل فأر واحد، وذلك لاستخلاص قوانين بسيطة سهلة تتعبر بالأرقام في سهولة خال أنها تفسر لغز الحصانة وسر الموت والحياة. وهذه الدقة التي لم تنفعه في حل هذه الطلاسم أعانته أخيراً على اصطناع رصاصته المنشودة

هكذا كان إرليش مرحاً فرحاً متواضعاً لا يفتأ يجد النكتة عن نفسه، ويولد الفكاهة من سخافته فينطلق بها لسانه غير باسم ولا هازل، وبهذا كسب الأصدقاء كسباً هينا. وكان ماكرا، فقصد إلى أن يكون بعض هؤلاء الأصدقاء من ذوي الجاه والنفوذ ولم يلبث أن صار في عام 1896 مديراً لمعمل استقل به وحده؛ وكان اسمه المعهد البروسي الملكي لامتحان الأمصال ومكانه في استجلتس بالقرب من برلين؛ واحتوى على حجرتين صغيرتين كانت إحداهما مخبزاً وكانت الأخرى اصطبلا. قال إرليش: (إننا نخيب لأننا لا نتوخى الدقة في أعمالنا)، يشير بذلك إلى خيبة بستور الصغرى في ألقحته، وخيبة بارنج الكبرى في أمصاله. وألح يقول: لابد من وجود قوانين رياضية تجري على سننها هذه الأمصال وهذه السموم وأضدادها). وظل هذا الرجل يضطرب مع خياله غادياً رائحاً في هاتين الحجرتين المظلمتين مدخناً مفسراً مجادلاً معاتباً مدققاً في القياس ما أمكنته الدقة، بين قطرات من أحسية مسمومة وأنابيب مدرجة مقدرة من أمصال شافية

نعم لابد من قوانين! ويقوم على تجربة يؤديها. ويخرج من التجربة على نتيجة باهرة، فيقول: (أتعلمون لم كانت هذه النتيجة هكذا؟) وإذا به يخطط صورة غريبة للسم تخبر عن مظهره كيف يكون، وإذا به يخطط صورة أخرى لخلية الجسم تنبئ عن مظهرها الكيماوي كيف يجب أن يكون. ويستمر يعمل، وتستمر ألوف الخنازير الغينية تسير إلى موتها صفاً صفاً ويجد أن ما يختلف مع نظريته البسيطة من النتائج أكثر مما يأتلف بها، فلا تروعه هذه الاستثناءات لقاعدته، ويَدِرْ عليه خياله الخصب فيخترع قواعد أخرى تتولى أمر هذه الاستثناءات. ويخطط في سبيل الشرح صوراً أغرب وأعجب. إلى أن وصل إلى أن وصل إلى نظريته الشهيرة عن الحصانة المعروفة بنظرية السلسلة الجانبية فصارت أحجيةٌ مغلقة لا تكاد تفسر شيئاً ولا تَقدر على التنبؤ بشيء. وظل إلى آخر أنفاسه يعتقد بصدق هذه النظرية السخيفة. ودقها النقّادون دقا من كل جانب وفي كل بقعة من بقاع الأرض، وظل متشبثاً بها. وإذا أعوزته التجربة في الرد على منتقديه وإفحامهم بالحجة لجأ إلى المكابرة والمماحكة، وكان يدفع عن نظريته في المؤتمرات الطبية فينهزم فيها فيخرج منها يسب خصومه علانية وهو في طريقه إلى البيت، وفي الترام يرفع عقيرته بالسباب وهو فرح منبسط، فيغصب الكمساري فيعيد السباب تكراراً يتحداه به أن ينزله من الترام إذا هو استطاع

ولما جاءت سنة 1899 كان إرليش بلغ عامه الخامس والأربعين. فلو أنه مات عندئذ

لأدخله التاريخ في زمرة الخائبين. فكل المجهود الذي بذله في البحث عن قوانين تجري
عليها الأمصال لم يجئه إلا بصور من نتاج الخيال لم تقنع أحداً، وهي على كل حال لم تفد شيئاً في سبيل تقوية أمصال ضعيف أثرها في العلاج، خاب إرليش فما الذي هو صانعه بعد هذا؟ وفكر وخطط، ثم اتصل ببعض من عرف من رجال ذوي جاه وسلطان، فمالقهم وداهنهم وسلب ما أراد من عقولهم، وإذا بك تجد خادمه الأمين الثمين، السيد المحترم قدريت، قضَّاء الحاجات من كل ما هب ودبَّ، إذا بك تجده قائماً في معمل سيده في استجليتس يحل أجهزته للرحيل عن برلين ومدارسها الطبية وجلبتها العلمية إلى مدينة فرنكفورت على نهر المين. وتسألني ما الذي جذبه إلى هذه المدينة؟ إن الذي جذبه إليها أن بقربها تلك المصانع الشهيرة التي يخرج فيها أعلام الكيمياء تلك الأصباغ الجميلة الشتيتة العديدة عدا لا يناله الحصر، الجميلة جمالاً لا يؤديه الوصف، فكأنها باقات الزهر ازدهاراً وابتساما. وجذبه إليها أن بها أغنياء من اليهود عُرِف عنهم حب المجتمع وسهولة بذل الذهب في خيره. والذهب والذكاء والحظ والصبر أمور أربعة يراها إرليش لازمة لنجاحه فيما قصد إليه. وإذن جاء إرليش إلى فرنكفورت، أو على حد قول السيد المعظم المحترم النافع قدريت: (جئنا إلى فرنكفورت): ويعلم الله ما عانى قدريت في نقل تلك الأصباغ والمجلات الكيماوية المتناثرة بما فيها من هوامش كتبها إرليش وما بصفحاتها من طيات كان يطويها عليها ليرجع بها إليها

أظنك أيها القارئ تخرج من قراءة قصة المكروب هذه على أن صيادة الميكروب القويمة لا يصلح لها إلا نوع واحد من البُحَّاث، باحثٌ يعتمد على نفسه وحدها كل الاعتماد، باحث لا يلقى بالا إلى ما يجده غيره من البُحَّاث، رجل يقرأ الطبيعة ويعاف الكتب. إذن فاعلم أن إرليش لم يكن هذا الرجل، فإنه قل أن نظر في الطبيعة إلا أن تكون ضفدعته المختارة التي حفظها في جنينته فأعانته باختلاف مناشطها على التنبؤ بالجو ما سيكون - وهذه الضفدعة تولى أمرها السيد قدريت. فكان أول واجباته أن يأتيها بكثير من الذباب. . . . . لا، لم يكن إرليش يقرأ الطبيعة بل يقرأ الكتب ومن هذه جاء بكل أفكاره

عاش بين الكتب العلمية، واشترك في كل مجلة كيماوية تخرج في لغة يقرؤها، وفي مجلات أخرى تخرج في عدة لغات لم يكن يقرأها. وتبعثرت الكتب في معمله وانتشرت، فكان يجيئه الزائرون فيقول لهم: (تفضلوا فاجلسوا) فإذا نظروا حولهم لم يجدوا موضعاً

يجلسون فيه. وكانت المجلات تطل من جيوب معطفه - هذا إذا تذكر ولبس معطفاً، وتدخل الخادمة بالقهوة إليه في الصباح فتتعثر في أكوام من الكتب لا تفتأ تكبر يوماً عن يوم. فهذه الكتب والسجائر الكبيرة الغالية استعانت جميعاً على إفقاره. وتراكمت الكتب أكواماً على أريكة مكتبته فعششت الفئران فيها. وكنت تجده إما قائماً في تلوين باطن حيواناته بأصباغه وتلوين ظاهر نفسه بها، وإما قاعداً ينظر في هذه الكتب. وكل ذي بال تجده في هذه الكتب تجده في رأس إرليش ينضج ويختمر ويستحيل إلى تلك الآراء الغريبة البعيدة، ثم تظل مخزونة هناك حتى تستخرجها الحاجة. هكذا كان إرليش يأتي بآرائه. وإنك لن تستطيع أن تتهمه بسرقتها من آراء غيره، فإنها بين دخولها رأسه وخروجها منه تنطبخ انطباخاً يفقدها كل معالمها الأولى

وجاء عام 1901 فبدأ العام الأول من أعوامه الثمانية التي قضاها يبحث عن رصاصته المسحورة. ففي هذا العام قرأ أبحاث ألفنس لفران وهو إن ذكرت الرجل الذي كان اكتشف مكروب الملاريا. وكان لفران أخذ في هذه الأيام الأخيرة يشغل همه بالأحياء الحيوانية الصغيرة المسماة بالتريبنسومات وكانت تدخل إلى الخيول فتعيث في مؤخرها وتصيبها بالداء المعروفة بمرض الورك وكان لفران حقن هذه الشياطين المزعنفة في الفئران فوجدها تقتل من المائة مائة. وجاء ببعض هذه الفئران وهي تعاني المرض فحقنها بالزرنيخ تحت جلدها فوجد الزرنيخ قد أفادها بعض الشيء وقتل كثيراً من التريبنسومات التي تعيث بالفساد فيها ولكنه مع ذلك لم ينج منها فأراً واحداً. وإلى هذا الحد وقف لفران

وما عتم إرليش أن قرأ هذا حتى صاح: (هذه فرصة عظمى، هذا مكروب أنسب ما

يكون للبحث، فهو كبير يرى في سهولة، وهو يربى سهلاً في الفئران، وهو يقتلها دائماً فلا يخيب مرة واحدة. فأي مكروب خير من هذا في البحث عن الرصاصة المسحورة التي تقتله! فمن لي بصبغة تقدر على شفاء فأر واحد لا أكثر شفاء شاملا كاملا!)

(يتبع)

أحمد زكي

القصَصُ

من القصص العربي

ثقيل ما أظرفه

للأديب محمد فهمي عبد اللطيف

قال الفتى لصاحبه وهو يقص عليه تاريخه ويروي له من حوادثه: لقد نشأت يا صاحبي في البصرة، وقد كان والدي من أمجاد البادية، وأجواد العرب، قضت عليه شؤون الدنيا بالنزوح إلى ذلك المصر، يوم أن شب على جدرانه النعيم، وأشرقت في محلاته أنوار الحضارة، فنسلت إليه صنوف الناس من كل حدب، وفيهم طالب الكسب بالتجارة، والراغب في العلم بالتعلم، والطامع في الصلة بالشعر، والحريص على متاع الحضارة بالبذل، ولست أدري لأي أمر من هذه الأمور نزح والدي عن موطنه، ولكني أدري أنه ما كان في حاجة إلى مال، ولا هو من أهل الرغبة في العلم، فلعله كان لا يطمع إلا في نعيم الحضارة الوارف، يروي به جسمه ويمتع به نفسه. على أني سمعت بأنه كان مطلوباً بدم في إحدى القبائل فربما كانت هجرته فراراً من العدو وخوفاً من الانتقام وليس تحقيق هذا مما يعنيني، وإنما أريد أن أقول لك: إن والدي لم يعرف للحضارة أساليبها، فعاش في حياته الجديدة على أوضاع الحياة القديمة، فالامتهان في نظره مهانة، والعمل في تقديره ذلة، والمال في يده شيء حقير تافه يبذره باسم الجود، ويسرف فيه بلفظ الإنفاق، ففي كل عشية له مجلس عامر بالغناء والشراب، وفي كل ضحوة سامر حافل بالإخوان والأصحاب، وبين هذه وتلك موائد ممدودة، وولائم قائمة، كأن أيام عندنا عرس دائم، فكان أن درجت في أعطاف هذا البذخ، ومررت على هذه الحياة اللاهية المسرفة حتى كنت فتى يافعاً ولم تعرف الأيام مني غير اللهو المسرف، والتبذل المفرط، والبطالة المستهترة. ليس في تفكيري أن أعمل، بل ليس من همي إلا أن أشبع الجسد من لذائذ الحضارة ومتاعها الموفور

ومضت السنون بعضها في أعقاب بعض، ونحن على هذه الحال من السرف والبطالة، وكان لابد للمعين أن ينضب، فقل المال كثير، وتضاءلت الثروة الضخمة، ولم يلبث والدي أن مات بعمره، وإذا كان لي أن أنسى فلن أنسى ما حييت يوم أن عدت من قبره أتكسر على نفسي كما يعود القائد المخذول من ساحة الحرب، أحصي المال المتروك فلا أقع على شيء، وأتلمس الأصحاب فلا أقف لهم على ظل، وأنظر إلى نفسي فأجدني كالآلة المعطلة لا أصلح لشأن من شؤون الحياة، حتى ليرهقني سد الرمق في مجتمع صاخب عجاج يتدافع أهله بالمناكب في طلب الرزق، ويقتتلون على الفوز باللقمة الحقيرة، وأن من الصعب على نفسي أطلب العيش من مروءات الناس، وأن أقيم الأود من فضلهم ومعروفهم. لأن ذل السؤال صعب على نفس يجري في عنصرها إباء البادية، وتكنفها كرم النشأة، وقد قيل: إن من طبع الكريم أن يخفى عسرته ويكتم شدته:

يحني الضلوع على مثل اللظى حرقا ... والوجه غمر بماء البشر ملآن

ويعلم الله لقد كتمت ما استطعت، وصبرت حتى أرهقني الصبر وكنت كل يوم أؤمل في غد فلا يكون الغد إلا أشد. آه يا صاحبي لشد ما ضمني الدهر ضماً لا رحمة ولا شفقة! ولشد ما عركتني الأيام عرك الرحى بثفالها كما يقولون! ولا أكتمك أني فكرت في الخلاص من ذلك بالموت، ولكني خفت أن يقول الناس في شأني: جبان فر من معركة الحياة، ومارق تمرد على حكم القدر؛ وعملت على أن أصل نفسي بموطن العشيرة في البادية، ولكني تذكرت الدم الذي كان مطلوباً به والدي فخشيت الهلاك من تلك الناحية، لأن البدوي حريص على ثأره مهما طال به الزمن، حتى ليطلبه في الأجيال المتعاقبة

فلما اضطرب بي الفكر، وتبلبل مني الخاطر، سألت صاحباً من أهل الرأي لعله يشير

بما ينفع، فقال لي: لو ذهبت فتسببت. فقلت: ما لي صناعة، ولا عندي بضاعة! فقال: على كل حال: انك امرؤ فيك ظرف، ولك لطف، وانك لو انحدرت إلى بغداد لا تعدم لك في مجالسها السامرة، وأنديتها الساهرة. فرأيتها نصيحة نافعة من الرجل، وقلت لعل الأخذ بها يجدي، فأني أحفظ عن والدي شيئاً من طرائف الأعراب وقصص البادية. ولقد أكسبتني الحياة السالفة دراية بأداء الحديث، اختار له موضعه، وأخرجه مخرجه، وأعرف كيف أصل به إلى نفس السامع، وأستطيع أن أجري النادرة الطيبة فأهز القلوب وأحرك المشاعر. على أني قدرت في ذلك السفر منأى يسترني عن أخوان أكتم عنهم حالي، ويخجلني أن يروني أتدنى في طلب الرزق، فعزمت على تحقيق الفكرة، ولم يبخل على
الرحل بزاد السفر، وسرعان ما كنت في الركب السائر والقافلة الراحلة.
هبطت بغداد يا أخي أجهل ما أكون بمسالكها ومحلاتها، فأخذت في السير على هدى السابلة، وإرشاد المارة، حتى انتهيت إلى دارة الخلافة، ونزلت بدار الضيافة، وكأن نحس الطالع قد سبقني إلى ذلك البلد الأمين، إذ علمت أن الخليفة المأمون قد حرم الغناء وشدد فيه، وأمسك على الناس أبواب اللهو والاستهتار، فانفضت الملاعب والمشاهد، واعتمت الأندية والسوامر، وصار ليل المدينة ليلاً محلولكاً مملولا، لا يرن به طاس ولا يحن فيه مزهر، فأيقنت بنحس السفرة وحبوط المسعى، وتمثلت لي الدنيا في مثل كفة الحابل، وهانت علي النفس العزيزة، إذ لم أجد أمامي طريقاً للعيش غير التساقط على بيوت أهل الفضل والخير، أتدسس إلى موائدهم، واتقحم على ولائمهم، وأنف في طريقهم، وأجري في ركبهم، فلم تمض أيام حتى كنت قد وقفت على جميع أعيان المدينة ووجوه القوم، وعرفت مراتبهم في الجود والخير، وتبينت أساليبهم في الحياة ونظام العيش، وعرفوني هم كذلك متطفلا بغيضاً وفضوليا ثقيلا!
فأني لفي يوم خرجت فيه إلى الجسر، علني أجد أميراً أتبعه، أو كبيراً أمتاح من فضله، فلم أذهب غير بعيد حتى رأيت إسحاق الموصلي يتحدث إلى علي بن هشام بكلام يخفيه، فأرهفت أذني أتسمع فسمعته يقول: لقد زارتني اليوم فلانة يا علي، وهي كما تعلم من أحسن الناس غناء، وأطيبهم محضراً، فبحياتي إلا كنت اليوم عندي، فنجلو السمع ونمتع القلب، وننتهزها فترة من فترات العمر التي حرمناها، ونعيدها ذكرى من ذكريات الأيام الماضية، فوعده بالحضور ومضى كل لسبيله. فقلت في نفسي: يا لها من فرصة سانحة لابد أن أحتال في اغتنامها! وأخذت أفكر وأقدر، وأسعفتني الفكرة بالحيلة النافذة، فملت إلى من أعارني الزي النبيل والمركب الفاره، ومضيت إلى منزل علي بن هشام فقلت لحاجبه: عرف الأمير أن رسول صاحبه إسحاق الموصلي بالباب، فدخل الحاجب وخرج مسرعا يحمل الأذن بالدخول، فدخلت على علي فرحب بي أجمل ترحيب، فقلت له: صاحبك إسحاق يقول لك إنك تعلم ما اتفقنا عليه فلم تأخرت عني؟ فقال: الساعة وحياتك نزلت من الركوب، والساعة أغير ثيابي وأوافيه، فأمهله قليلاً وإني على أثرك.
فاستويت على دابتي، ووافيت منزل إسحاق، فقلت للحاجب عرف الأمير أني رسول علي
بن هشام، فدخل الحاجب وخرج مسرعاً يقول: ادخل يا سيدي جعلت فداك، فدخلت فسلمت، فنهض إلي إسحاق في بشاشة، فقلت: أخوك علي يقرئك السلام، ويقول لك الساعة نزلت من الركوب، وقد غيرت ثيابي وتأهبت للمسير تحقيقاً لوعدك فما ترى؟ فقال: قل له يا سيدي قتلتنا جوعاً، ونحن من انتظارك على أحر من الجمر، فبحياتي إلا ما أسرعت
فعدت إلى منزل علي، وقلت للحاجب عرف الأمير أن صاحبه أمرني أن لا أبرح أو يجيء، فقد طال عليه الانتظار، وأضر به الجوع. فأسرع علي فغير ثيابه، وركب دابته، وسار وسرت من خلفه، حتى نزل بباب إسحاق فنزلت معه، وبعد السلام أخذنا مكاننا على المائدة. وإسحاق لا يشك أني أخص الناس بعلي، وعلي لا يشك أني أخص الناس بإسحاق، فبالغ كل في إكرامي وإيثاري باللقمة الشهية، والهبرة الوثيرة. ولما قضينا حق الخوان أو حق البطن انصرفنا إلى الشراب، وخرجت إلينا جارية كأن بشاراً كان ينظر إليها من وراء الغيب إذ يقول:
تلقى بتسبيحة من حسن ما خلقت ... وتستفز حشا الرائي بأرعاد

كأنما صورت من ماء لؤلؤة ... فكل جارحة وجه بمرصاد
ولم تلبث أن حملت عودها وغنت صوتاً فعلت فيه ما أحل الله وحرم، ودارت الأقداح، فشعشعت القلوب، وأيقظت العواطف وأفعمت النفس بالصفو والأنس، وبقينا في هذا حتى هم النهار بالتصرم، وألح علي البول فنهضت إلى الخلاء، فسمعت علياً يقول لإسحاق: ألا ما أخف روح هذا الفتى يا سيدي وما أطيب نوادره! فمن أي وقت كان لك؟ فقال إسحاق: أو ليس هو بصاحبك؟! قال: لا وحياتك ولا أعرف أني رأيته قبل اليوم، وأنه جاءني برسالتك يستعجلني للحضور وقص قصته في ذلك، وقص إسحاق مثلها، وداخله من الغيظ ما لم يملك معه نفسه، فقال: أنها لكبيرة يا صديقي على النفس، طفيلي يستجرئ على فيستبيح النظر إلى حرمي والدخول إلى داري! أبلغنا من الهوان إلى هذا الحد، وبلغت الصفاقة بهذا وأمثاله إلى هذا القدر؟ والله لا بد أن أنتقم. وسأعرف كيف أصون بيتي من كل رذل ثقيل. يا غلمان! السياط والمقارع. أعدوا عدتكم، واحشدوا جمعكم. وقامت في الدار جلبة ارتجت لها الجدران، وارتاعت لهولها الجيران، وكل هذا وأنا في الخلاء أفكر وأقدر؛ وكانت عزيمة صارمة، إذ خرجت على القوم في ثبات واطمئنان، كأني لا أعبأ
بأمرهم، ولا أحفل بشأنهم، وأقبلت على إسحاق فقلت: وماذا بقي من جهدك بعد ذلك؟ ألا ويل لك يا رجل ثم ويل! لقد كان أولى بك أن تعرفني قبل هذا كله، فكنت هونت على نفسك هذا كله؟! قال: ومن تكون؟ قلت أنا - كما تقول - الثقيل البغيض المتطفل الذي اجترأ على بيتك واستباح النظر إلى حرمك. لا: بل أنا الذي أعددت له السياط والمقارع، وانتدبت لضربه الجلادين، وأقسمت بكل محرجة ألا تتركه إلا لحماً من غير دم، وعظماً من غير لحم، ولو علمت الواقع لعلمت أني أنا القادر الذي عفوت، والقوي الذي سامحت، وأني لا أستطيع أن آخذك بجرمك فأدفعك إلى الهلاك أنت وصاحبك دفعاً. فشده الرجل بما سمع، فقال: ولكن بربك ألا أخبرني من أنت؟ قلت. أنا صاحب خبر أمير المؤمنين وعينه والأمين على سره، ووالله لولا تحرمي بطعامك، وممالحتي بحديثك، وأني أعرفك أنت وصاحبك على الإخلاص للخليفة والطاعة له، لتركتكما في عمى من أمري حتى كنت تعرف عاقبة حالك، وإقدامك على ما فيه هلاكك. فنهض إلي الرجلان يسكتاني في استعطاف، ويعتذران في انكسار. وقال إسحاق: فديتك يا سيدي! إنّا لم نعرف حالك، ولم نتبين أمرك، فلنا العذر، ونسألك الصفح، ونضرع إليك في كتمان ما كان، وأنت بنا المحسن المجمل. فوعدتهما بالخير وقلت: لا يخون العهد إلا لئيم وحاشاي. وجاء وقت الانصراف فخلع علي إسحاق ثياباً فاخرة، وأمر لي بمركب نبيل، ودفع إلي بصرة فيها ثلاثمائة دينار، ونهض في وداعي حتى مضيت.
فلما كان من الغد دخل علي بن هشام على المأمون فقال: كيف خبرك يا علي في أمس؟ قالها على حسب ما يجري في السؤال وقد كانت عادته، ولم يفطن لها علي فتغير لونه، وانخذلت به رجلاه، إذ لم يشك في أن الحديث قد رفع إليه، فأكب على البساط يقبله ويقول: يا أمير المؤمنين العفو! يا أمير المؤمنين! الصفح الجميل! يا أمير المؤمنين الأمان! فوالله لن تعود، قال: لك الأمان ولكن بماذا جئت يا علي؟ فأخبره الخبر، فضحك المأمون حتى كاد أن يغشى عليه، وقال: إنه (لثقيل ولكن ما أظرفه)، وأرسل في طلب إسحاق فلما حضر قال: هيه يا إسحاق؟ كيف كان خبرك أمس؟ فأخبره كخبر علي بن هشام، والمأمون يضحك ويصفق من العجب، ثم قال بحياتي ما في الدنيا أملح من هذا، فاطلب الرجل وجئني به. واجتهد إسحاق في ذلك حتى وجدني، فكنت على ما ترى يا صاحبي في المقدمين من ندماء المأمون، والأخيار من أصفيائه، ولا تنس أن هذه قد حملت المأمون على أن يرد على الناس حريتهم، فأباح لهم الغناء، وتركهم يأخذون بأسباب الأنس والسرور

محمد فهمي عبد اللطيف

البَريدُ الأدَبيّ

الجمعية الطبية ومشكلة تحديد النسل

عقدت الجمعية الطبية المصرية عدة اجتماعات لبحث مشكلة تحديد النسل. كان آخرها اجتماع يوم الثلاثاء الماضي (4 مايو)، وقد اهتمت الجمعية الطبية بإثارة هذا الموضوع وبحثه مذ ظهر رأي شرعي لفضيلة مفتي الديار المصرية خلاصته أن تحديد

النسل بالوسائل المشروعة جائز في بعض الأحوال والظروف القاهرة؛ ورأت الجمعية الطبية أن تأخذ البحث بيدها وأن تنيره لا من الوجهة الطبية فقط بل من جميع نواحيه الأخرى الاجتماعية والاقتصادية؛ ولهذا الغرض عقدت أربع جلسات كبيرة، ألقى فيها عدد كبير من الأطباء والمفكرين والاقتصاديين والاجتماعيين آراءهم؛ وكان اتجاه هذه المباحث يرمي إلى وجه العموم إلى تبرير تحديد النسل نزولاً على الضرورات الصحية أو الاقتصادية أو الاجتماعية التي لا مفر من الخضوع لمقتضياتها. وقد ظهر من الإحصاء الأخير أن سكان مصر في زيادة مضطردة مؤكدة وأنه إذا لم توفق البلاد إلى تنمية مواردها الزراعية والإنتاجية بسرعة توسيعاً يتفق مع نمو السكان، فإن مصر ستواجه في المستقبل القريب مشكلة اقتصادية واجتماعية خطيرة؛ ومن جهة أخرى فإن مقتضيات الحياة العائلية توجب أحياناً أن يقف إنتاج النسل عند حدود معينة، وإلا كان مستقبل العائلة مهدداً بالأزمات الاجتماعية هذا؛ إلى مقتضيات العوامل الصحية، وظروف الحياة الجديدة التي تجعل من المرأة أكثر من آلة للإنتاج البشري. هذه خلاصة الآراء والنظريات التي عرضت وشرحت في الجلسات المذكورة؛ وستعنى الجمعية الطبية بجمع كل ما قيل وكتب عن هذا الموضوع الخطير ونشره في كتاب خاص وهي عناية تشكر عليها

جائزة مختار

كانت لجنة جائزة المرحوم مختار مثال مصر الكبير قد جعلت موضوع جائزتها هذا العام (الفلاحة) فتقدم إلى المباراة أكثر من عشرين مثالاً من الفنانين الشبان، وقدموا تماثيلهم إلى اللجنة، وكلها تعبر عن الفلاحة المصرية بأشكال ومواقف مختلفة. وقد اجتمعت اللجنة أخيراً في قاعة جمعية المهندسين الملكية برآسة معالي محرم باشا وزير الأشغال وحضور السيدة هدى هانم شعراوي رئيسة اللجنة الفخرية والعاملة الحقيقية لتأسيسها؛ واستعرضت اللجنة التماثيل المقدمة وانتهت إلى منح الجائزة الأولى وقدرها 15 جنيهاً إلى المثال فتحي محمد علي، والجائزة الثانية وقدرها 10 جنيهات إلى المثال أحمد محمد صدقي أفندي. ومنحت ثلاث جوائز صغيرة أخرى إلى ثلاثة من المتقدمين. وفي بقاء هذه اللجنة وقيامها بمهمتها النبيلة إلى اليوم وهي العمل على إحياء ذكرى مثال مصر الكبير مختار وتشجيع الفن الذي نبع فيه، وتعهد الغرس الذي غرسه ما يبعث على الغبطة، ويحمل على الثناء والتقدير لعواطف الوفاء التي أحاطت اللجنة بها ذكرى المثال الراحل

ذكرى تيودور بلهارس

سبق أن أشرنا إلى ما اعتزمته الجمعية الطبية المصرية من تكريم ذكرى العلامة الألماني تيودور بلهارس، مكتشف ميكروب البلهارسيا لمناسبة مرور خمسة وسبعين عاماً على وفاته؛ وذلك في التاسع من الشهر الجاري. ونذكر الآن بهذه المناسبة كلمة عن حياة هذا العلامة الراحل؛ فقد ولد في سنة 1825 في سجمارنجن (بألمانيا) ودرس الطب في فريبورج وتبنجن - وعين في سنة 1849 أستاذاً بجامعة فريبورج. وفي العام التالي قدم بلهارس إلى مصر برفقة أستاذه الدكتور جريزنجر الذي انتدب طبيباً لوالي مصر، وعهد إليه بوضع نظام طبي لمصر. وفي سنة 1852 استقال جريزنجر من منصبه وخلفه بلهارس كرئيس للقسم الطبي بالداخلية. وفي سنة 1855 انتدب أستاذاً بمدرسة الطب، وبعدئذ بعام تولى كرسي التشريح بالمدرسة. وفي أثناء ذلك عكف بلهارس على درس جراثيم الأمراض المتوطنة، ووفق في سنة 1856 إلى اكتشاف مكروب المرض الذريع الذي يفتك بملايين المصريين وسمي (البلهارسيا) وبعد ذلك بثلاثة أعوام نشر بلهارس رسالة عن مسألة الأوبئة بمصر. وكان بلهارس أثناء ذلك يعاني من جراء الطقس وشدة الحرارة. وفي أوائل مايو سنة 1862 أصابته نزلة معوية قوية، فتوفي في التاسع من هذا الشهر ودفن بمصر القديمة بمقبرة الآباء الفرنسيسكان، وفي سنة 1930 عثر الدكتور كايمر على قبره بعد أن اختفى زمنا، وتعاون مع بعض زملائه ولاسيما الدكتور مكس مايرهوف على نقل رفاته وإيداعها كنيسة المقبرة

المبرد أيضاً

منقول الأستاذ (المرصفي) هو رواية ياقوت في كتابه (إرشاد الأريب) وقد أشرت إلى ذلك. وأضيف إلى تحقيق ابن خلكان، وحكاية (برد الخيار) - وقد رواها كثيرون منهم القيرواني في كتابه (جمع الجواهر في الملح والنوادر) - هاتين الروايتين:

قال ابن عبد ربه في كتابه (العقد)

سوء الاختيار أغلب على طبائع الناس من حسن الاختيار؛

ألا ترى أن محمد بن يزيد النحوي - على علمه باللغة ومعرفته باللسان - وضع كتاباً سماه بـ (الروضة) وقصد فيه إلى أخبار الشعراء المحدثين، فلم يختر لكل شاعر إلا أبرد ما وجد له، فما أحسبه لحقه هذا الاسم (المبرد) إلا لبرده، وقد تخير لأبي العتاهية (أشعاراً تقتل من بردها

وفي (تاريخ بغداد) لابن الخطيب:

قال أبو الفضل بن طومار: كنت عند محمد بن نصر بن بسام فدخل عليه حاجبه فأعطاه رقعة وثلاثة دفاتر كباراً، فقرأ الرقعة فإذا المبرد قد أهدى إليه كتاب (الروضة) وكان ابنه عليّ حاضراً فرمى بالجزء الأول إليه، وقال له: انظر يا بني، هذه أهداها إلينا أبو العباس المبرد، فاخذ ينظر فيه، وكان بين يديه دواة، فأخذها عليّ ووقع على ظهر الجزء شيئاً وتركه وقام. فلما انصرف، قال أبو جعفر (محمد بن نصر) أروني أي شيء قد وقع هذا المشئوم! فإذا هو:

لو برا الله المبرَّدْ ... من جحيم يتوقَّدْ

كان في (الروضة) حقاً ... من جميع الناس أبردْ

وعصر ابن عبد ربه وعصر ابن الخطيب هما أقرب إلى زمن المبرد من وقت ياقوت. وذلك اللقب المشهور هو الذي جلب في قولي ابن عبد ربه وعليَّ تلك الدعابة.

وأن هذا الإمام العظيم لخليق بأن يشغلني ويشغل حضرة الأديب (محمد فهمي عبد اللطيف). وصاحبُ (الكامل والاقتضاب) وغيرهما جدير بأن يذكر - في كل وقت - بخير أو شر. . .

(أحد القراء)

وفاة الأب لامنس

توفي أخيراً المستشرق البلجيكي الأب هنري لامنس، وكان هذا الحبر العلامة من خيرة المستشرقين الذين انقطعوا لدراسة العصر الأموي، وله فيه عدة مؤلفات قيمة. كان مولده في البلجيك سنة 1862، وقد نزح منذ حداثته إلى لبنان واعتنق الرهبنة وانتظم في سلك الأباء اليسوعيين ودرس العربية وعلومها دراسة مستفيضة

ولعلنا نوفق في عدد تال إلى الإفاضة في تاريخ حياته ووصف مؤلفاته

رسَالة النقد

إسماعيل المفترى عليه

تأليف القاضي بيير كربتيس

وترجمة الأستاذ فؤاد صروف

للأستاذ الغنيمي

- 4 -

نحب أن نبدأ هذه الكلمة بالإشارة إلى غلطة هامة من أغلاط الفصل الثالث وهي قول الأستاذ صروف إن إسماعيل كان (يستقبل ولديه وأحدهما الآن رئيس المجلس الخاص والآخر وزير المالية والحربية والأشغال العمومية، وبذلك جعل لإسماعيل ولدين وهو غير صحيح، وجعل واحداً منهما رئيس المجلس المخصوص، وجعل الثاني وزيراً للمالية والحربية والأشغال العمومية مجتمعة، فهل تأكد الأستاذ صروف حين كتب ذلك أن وزارات المالية والحربية والأشغال كانت كلها مجتمعة لوزير واحد من أبناء إسماعيل؟

إذا كان البحث قد دله ذلك فأراد أن يصحح قول المؤلف فلماذا لم يشر إلى ذلك صراحة وإذا لم يكن فلماذا غير قول المؤلف

, ,

ولو كانت وزارات المالية والحربية والأشغال العمومية اجتمعت كلها لوزير واحد من أبناء إسماعيل لما قال المؤلف بصيغة الجمع ولعله ظن أن لفظ لا يستعمل إلا للإشارة إلى اثنين ونحن نقول إنه للإشارة للجمع كما يستعمل للإشارة إلى المثنى.

ننتقل بعد ذلك للفصل الرابع فنقول إن حظه من الحذف والتغيير كحظ الفصول الثلاثة

السابقة. ولقد أحصينا فيه أكثر من خمسين غلطة مختلفة الأنواع نكتفي بذكر أمثلة منها:

(1) قال المؤلف يصف موقف وزارة الخارجية البريطانية من مشروع قناة السويس:

, ,

لم يترجم الأستاذ صروف هذه العبارة كلها إلا بقوله: (وعليه شرعت وزارة الخارجية البريطانية في تحريض الباب العالي واستفزاز همته) وأين هذا من قول المؤلف (وكذلك أخذت دوننج استريت تضغط على الباب العالي مدفوعة إلى ذلك بهذا الباعث الذي ذكرناه وإن كانت في الوقت نفسه قد بقيت مخلصة كل الإخلاص لإسماعيل لأن العمل الذي قامت به يتفق مع خططهما المشتركة

(2) وقال المؤلف عن فرديناند دلسبس:

ولكن الأستاذ صروف أغفل الجملتين وأولاهما على الأقل ذات معنى جديد لم يشر إليه من قبل وهو إن حبه فرنسا مما يشرفه ويعلي من قدره.

(3) وقال المؤلف يصف الوزير المصري نوبار باشا:

,

فقال الأستاذ صروف مترجماً هذه العبارة (على أن نوبار باشا لم يكن ممن يسهل إهانتهم وعدم الاعتداد بهم، وبذلك أضاف من عنده لفظ الإهانة وهو عمل لا يليق وحذف في نظير إضافتها الجملة الثانية كأن المترجم يجوز له إذا أضاف من عنده عبارة أن يحذف في نظير ذلك عبارة أخرى. ومعنى العبارة الإنجليزية: (أن الوزير المصري لم يكن ممن يسهل إغفالهم (أو الاستهانة بأمرهم إذا شاء) من غير أن يقابلوا هذا العمل بمثله فلم يسعه إلا أن يهاجم خصومه كما هاجموه).

(4) وقال المؤلف:

. .

فترجم الأستاذ صروف هذا كله بقوله (وعليه)

(5) وقال المؤلف يصف ما لقيه إسماعيل من الصعاب في موقفه بين فرنسا وإنجلترا:

. .

فترجم الأستاذ صروف ذلك بقوله (وكان سمو الخديو. . . مضطراً إلى السير بحكمة بين رغبات فرنسا التي كانت تدافع عن امتياز دلسبس) نحن لا نحتم على الأستاذ أن يترجم إلى قراء العربية ولا نحتم عليه أن يشير إليهما إشارة بسيطة في هامش الكتاب، ولو فعل لجمل بذلك ترجمته لأن القصص اليوناني القديم أصبح قصصاً عالمياً ولا مانع من أن يشار إليه في الكتب العربية، ولكننا كنا ننظر منه أن يترجم العبارة الأخيرة التي وصف بها المؤلف الامتياز. ولو قال (وكان على الوالي أن يتبين طريقه بين ثلاث قوى شديدة الخطر أولها فرنسا التي كانت تناضل عن امتياز أسس على الصداقة القوية بين سعيد ودلسبس فكان لذلك مجحفاً بحق مصر. . . الخ

لم ير الأستاذ صروف في هذه العبارة ما يستحق الترجمة وإلا فلماذا أغفلها؟

(7) وقال المؤلف مشيراً إلى بيع حصة مصر في أرباح القناة

قيل في ترجمة هذه العبارة من أولها إلى آخرها (وكان المسيو بلنيير والماجور بارنج هما الموكول إليهما تصريف الأمور في مصر عندما جمعت مصر) فهل هذا هو كل ما قاله المؤلف، أو أن الباقي لا يستحق أن يترجم؟

ومن العبارات التي اقتضت أو لخصت بعض معانيها كل الفقرة الواردة في ص61 (8) من كتاب الأستاذ صروف وفي ص59 من الأصل الإنجليزي. وقد تركت من هذا التلخيص عدة معان. ولما كان إيراد الأصل والترجمة يشغل نحو صحيفة من صحف الرسالة فأنّا نكتفي بالإشارة إليها ليرجع إليها القارئ إن شاء

(9) ثم نرجو أن ينظر القارئ معنا إلى العبارة الإنجليزية الآتية والى ترجمة الأستاذ صروف ليرى الفرق بين المعنيين قال المؤلف

, , , - , ,. .

وقال الأستاذ صروف في ترجمتها (ولو أدركها يومئذ ما أتهم إسماعيل بأنه لم يترك لمصر عند تنزله عن العرش أية حصة من أرباح ترعة السويس. والشيء الوحيد الذي

كان يحق لملنر أن يفعله هو أن يقف بيانه وعارضته على أن. . .) أن الجملة الأخيرة
في هذه العبارة وهي قول الأستاذ صروف (والشيء الوحيد الذي كان يحق لملنر أن
يفعله) بعيدة كل البعد عن الأصل الإنجليزي الذي معناه (ونظن أنه لو وجه نظره إلى
ذلك لوقف بيانه وعارضته على إثبات أن. . .) ويظهر أن الأستاذ صروف قد فاته أن
هذه الجملة هي جواب ثان للشرط الوارد في أول الجملة الأولى وهي ولو نبه اللورد
ملنر إلى ذلك أو ولو
أدركها كما يقول المترجم. فليس هناك إذن شيء يحق لملنر أن يفعله.
(10) وهذه الغلطة نفسها أي عدم انتباه الأستاذ صروف إلى وجود جواب شرط ثالث
جعله يقطع الجملة الآتية من سابقاتها ويغير معناها تغييراً كلياً قال (على أن الهفوة
التي ارتكبتها تلك اللجنة في مارس سنة 1880 كانت عظيمة جداً إلى حد أنها لم تجد
مناصاً من إلقاء اللوم على الخديو المعزول) مع أن معنى هذه العبارة الحقيقي: (ولو
وجه نظره إلى ذلك لحاول من غير شك محاولة جدية أن يلقي اللوم على الأمير
المنفي لأن الغلطة التي ارتكبت في مارس سنة 1880 كانت غلطة شنيعة) ولذلك
قلنا في مقالنا الأول إن إدراك العلاقة القائمة بين الجمل الإنجليزية شرط أساسي
للترجمة الصحيحة.
(11) وإلى القارئ مثال صغير من عدم التدقيق. قال المؤلف على لسان إسماعيل
فأضاف الأستاذ لفظ والأرجح في ترجمته لهذه العبارة مع أن المؤلف يقول (إن هذه
الأسهم لن تدر على أي ربح) بصيغة التأكيد. إن لفظاً واحداً يزيد أو ينقص يكفي في
بعض الأحيان لتغيير المعنى.
(12) قال المؤلف ينتقد عمل المراقبة الثنائية
, ,
فلم ير الأستاذ في هذا المعنى شيئاً يصح أن يترجم
(13) قال الأستاذ في ص65 من الترجمة (وعند ما أرغم ذلك العاهل على التنزل عن
عرشه في سنة 1879 كان الماجور يارنج هو المراقب البريطاني العام وصاحب
السلطة المطلقة في لجنة المراقبة الثنائية.)
وكلمة كان في هذه الجملة كلمة مشئومة أفسدت المعنى لأن تارنج لم يكن مراقباً
عاماً وقت خلع إسماعيل والمؤلف يقول:
. . 1879
ولقد كان عدم الدقة في ترجمة كلمة هو السبب في هذا الخطأ التاريخي
(14) قال المؤلف تعليقاً على التهم التي وجهها ملنر إلى إسماعيل باشا
فترجم الأستاذ صروف ذلك بقوله:
فهذا القول يدل على أن للمسألة وجهة أدبية. والمعنى الحقيقي لهذه العبارة هو (أن
هذا الاتهام يطرح الأمور المالية جانباً ويضع أمامنا مسألة أخلاقية)
(15) يشير المؤلف في ص65 في الأصل الإنجليزي إلى ما استخلصه إسماعيل من
شركة القناة وما أنفق من مال للدفاع عن الفلاح ويقول أنه لو وجد ناقد لكتاب لورد
ملنر لتجلت للناس حقيقة هذا العمل المجيد.
ولو وجد هذا الناقد أيضاً للفت نظر الناس إلى أن استرداد ستين ألف هكتار من أرض
مصر الزراعية من براثن شركة القناة لم يكن من الأعمال المزرية. . . الخ)، ولكن
الأستاذ صروف قد فاتته هنا أيضاً ارتباط الجمل بعضها وإن الجملة السابقة هي أيضاً
جواب شرط ثان للجملة التي قبلها في آخر الفقرة السابقة
فقال في ترجمتها (وكان يجدر باللورد ملنر أن يذكر حسنة أخرى من حسنات
إسماعيل وهي استنقاذه ستين ألف هكتار من الأراضي الزراعية من بين مخالب
الشركة وهي مجمدة لا يجوز إغفالها) والفرق شاسع بين ما قاله المؤلف وما قاله
الأستاذ صروف لأن المؤلف يقول:
نقول مرة أخرى أن إدراك العلاقة بين الجمل شرط أساسي للترجمة الصحيحة.
(15) 16 , 000 , 000 , 10 , 000 , 000
هذه المسألة الحسابية لم يعن الأستاذ بترجمتها
(16) وإلى القارئ مثل من الاضطراب في العبارة يحار بسببه القارئ في فهم المعنى.
قال الأستاذ صروف:

فإذا نظرنا إلى ذلك الامتياز باعتبار الأراضي الخصبة الآهلة بالسكان التي نشأت على) ضفافها وباعتبار أنها تقوم بحاجات المدن ومقتضيات الري كانت قيمتها أعظم مما قدرت به يومئذ بحيث إذا أردنا أن نحكم على إسماعيل من وجهة علاقته بشركة السويس حكماً منصفاً لم يكن لنا بد من تقدير هذه القيمة. على أن محاسبتنا لإسماعيل في هذا المقام هي من الوجه الأدبي، وعليه فيكاد يكون من المعتذر تقدير الخدمة التي أسداها ذلك العاهل إلى
بلاده.

أيدري القارئ حقيقة ما يريد أن يقوله المؤلف. أنه يريد أن يقول: (وهذا الامتياز وهو حق الشركة في أن تورد الماء إلى مجتمع غني كبير العدد مطرد النماء ليستخدمه في حاجات المدن وفي شؤون الري، هذا الامتياز يساوي الآن أضعاف المبلغ الذي يقوم به.

ولو كنا نريد أن نضع أمام القارئ الحساب الختامي لعلاقة إسماعيل المالية بقناة السويس لوجب علينا أن نضع بدل هذا القدر المجهول رقماً حقيقياً معلوماً، لكن بحثنا الآن مقصور على تلك الآثار التي لا تدركها الحواس والتي تسمى بالعوامل الأخلاقية، فإذا نظرنا إلى المسألة من هذه الوجهة كان من المستحيل أن نغلو في تقدير فضل إسماعيل في الاحتفاظ بهذا المرفق العام الخطير خالصاً لمصر).

ونكتفي بهذا عن ذكر العبارة الإنجليزية لأنها طويلة تشغل كثيراً من فراغ هذه الصفحات القليلة التي تسمح لنا بها هذه المجلة. ونحن نؤكد للقراء أن هذه الترجمة الأخيرة تكاد تكون ترجمة حرفية للأصل الإنجليزي.

قال المؤلف عن النزاع القائم في الولايات المتحدة بين مصلحة الأمة والمصالح (16) المكتسبة لشركات الاحتكار

فترجم الأستاذ صروف ذلك بقوله (فالكفاح ضدها هو كفاح في سبيل الخير العام)

والمؤلف يقول: أن (الكفاح القائم هناك كفاح بين الصالح العام والحقوق المكتسبة)

نكتفي اليوم بهذا القدر لنبدأ بذكر أغلاط الفصل الخامس في العدد القادم إن شاء الله

(الغنيمي)

العدد 202 - بتاريخ: 17 - 05 - 1937

مصطفى صادق الرافعي

شديد على الرسالة أن تنعى الرافعي إلى ديار الحنيفة وأقطار العروبة بدل أن تزف إليها كعادتها درة من غوص فكره وآية من وحي قلمه! وعزيز على هذه القلم أن يتقطر سواده على الرافعي وهو نوره في مداده وسنده في جهاده وصديقه في شدته!

وعظيم على العالم الأدبي أن يرزأ في الرافعي وهو الطريقة المثلى لغاية الناشئ، والمثل الأسمى لطموح الأديب، والحجة العليا على قصور القاصر!

يا لله!! أفي لحظة عابرة من صباح يوم الاثنين الماضي يلفظ الرافعي نفسه في طوايا الغيب كومضة البرق لفها الليل، وقطرة الندى شربتها الشمس، وورقة الشجر أطاحها الخريف؛ ثم لا يبقى من هذا القلب الجياش، وهذا الشعور المرهف، وذلك الذهن الولود، إلا كما يبقى من النور في العين، ومن السرور في الحس، ومن الحلم في الذاكرة!!

كان الرافعي يكره موت العافية فمات به: أرسل إلي قبل موته الفاجئ بساعات كتابه الأخير يشكو فيه بعض الوهن في أعصابه، وأثر الركود في قريحته؛ ويقترح علي نظاماً جديداً للعمل يجد فيه الراحة حتى يخرج إلى المعاش فيقصر جهده على الأدب؛ ثم يسرد في إيجاز عزائمه ونواياه، ويعد المستقبل البعيد بالإنتاج الخصب والثمر المختلف؛ ويقول: (إن بنيتي الوثيقة وقلبي القوي سيتغلبان على هذا الضعف الطارئ فأصمد إلى حملة التطهير التي أريدها. . .)

كتب الرافعي إلي هذا الكتاب في صباح الأحد، وتولى القدر عني الجواب في صباح الاثنين: قضى الصديق العامل الآمل الليلة الفاصلة بين ذينك اليومين على خير ما يقضيها الرخي الآمن على صحته وغبطته: صلى العشاء في عيادة ولده الدكتور محمد؛ ثم أقبل على بعض أصحابه هناك فجلا عنهم صدأ الفتور بحديثه الفكه ومزحه المهذب؛ ثم خرج فقضى واجب العزاء لبعض الجيرة؛ ثم ذهب وحده إلى متنزه المدينة فاستراض فيه طويلا بالمشي والتأمل؛ ثم رجع بعد موهن من الليل إلى داره فأكل بعض الأكل ثم أوى إلى مضجعه

وفي الساعة الخامسة استيقظ فصلى الفجر وهو يجد في جوفه حزة كانت تعتاده من حموضة الطعام. فلما فرغ دخل على ولده الطبيب فسقاه دواء، ثم عاد فنام. وهب من نومه في منتصف الساعة السابعة، وخرج يريد الحمام فسقط وا حسرتاه من دونه سقطة همد فيها

جسده فلا صوت ولا حركة! وذهب الرافعي ذو اللسان الجبار والذكر الدوار والأثر المنتشر، ذهاب الحباب كأنه لم يملأ مسامع الدهر، ولم يشغل مدارك الناس زهاء أربعين سنة!

كان آباء الرافعي شيوخ الحنفية في مصر، تولوا قضاءها وإفتاءها وإقراءها حقبة طويلة من الدهر؛ فدرج هذا الناشئ الصالح في حجور أربعين قاضيا من قضاة الشريعة كانوا من أهل بيته، وقد نوه بهم اللورد كرومر في بعض تقاريره. وكان أبوه الشيخ عبد الرازق الرافعي قد جرى على أعراق هذه الأسرة الكريمة من ورع القلب وصحة الدين وسلامة الضمير؛ ثم تميز في قضائه بمرارة الحق وصلابة الرأي وثبات العقيدة، فجاء مصطفى في كل ذلك صورة أسرته وسر أبيه

لم يذهب الرافعي إلى الأزهر، فقد كان في أزهر من قومه؛ وإنما نشأ في مغداي ومراحي بين طلخا والمنصورة أفندياً يتلقى معارفه الأولى بمدرسة الفرير، ويتخرج في علوم اللسان والشريعة على أبيه، حتى حذق العربية وفقه الدين وثقف الأدب وأصبح فارسا في الحلبتين ولما يعد العشرين. فلما بلغ ربيع العمر ختم الله على سمعه بالصمم الشديد، فكان منذ شبابه الأول بنجوة من لغو الناس ولغط المجتمع، فسلم عقله من السخف، وبرئ ذوقه من التبذل؛ وعاش في عالم الخيال ودنيا الكتب، فاتسع أفق تفكيره، وارتفع مقياس فنه. وظلت طبيعته البشرية على الكهولة نقية حرة كطبيعة الفتى الشابل، فيها الغضب الحاد، والرضى الهش، والدلال المتعظم، والهوى الجموح، والفتوة الأبية. فهو يخلص في الحب ويصدق في البغض، فلا يداور ولا يداري، ولا يحقد ولا يحسد

عملت في الرافعي عوامل الوراثة والبيئة والدراسة والعاهة؛ واتفق له من كل أولئك ما لم يتفق لغيره، فكان أفقه العلماء في دينه وأعلم الأدباء بلغته، وواحد الآحاد في فنه. والدين واللغة والأدب هي عناصر شخصيته وروافد عقليته وطوابع وجوده. لذلك كان يقظ الرأي شاهد الحس لما يعلق بثلاثتها من أباطيل وشبه. وعبقريات المصطفى إنماكانت تتنزل على قلمه المرسل حين تمتد الأفيكة إلى كتاب الله أو إلى لغة العرب أو إلى أدب الرافعي

الرافعي أمة وحده لها وجودها المستقل وعالمها المنفرد ومزاحها الخاص وأكثر الذين كرهوه هم الذين جهلوه: كرهه الأدباء لأنه أصحر لهم بالخصومة فانفرجت الحال بينهم وبينه. وكرهه المتأدبون لأنه رفع مقياس الأدب فوسمهم بالعجز عنه. وأنكره العامة لأن الأمر بينهم وبينه كالأمر بين العمى والنور! إنما يحب الرافعي ويبكيه من عرف وحي الله في قرآنه، وفهم إعجاز الفن في بيانه وأدرك سر العقيدة في إيمانه.

ذلك بعض الرافعي الإنسان؛ أما الرافعي الفنان فموعدك به خمود الحزن وانكسار المصيبة.

أحمد حسن الزيات

كتاب الإرشاد

إلى فلسفة الجراد

للدكتور طه حسين بك

عميد كلية الآداب

صديقي العزيز المجهول إسماعيل بن زيد حفظه الله وأكثر من أمثاله.

تحية طيبة تلقاك حيث كنت، فإني لا اعرف أين تكون، كما إني لا اعرف من تكون.

أما بعد فقد قرأت كتابك في (الرسالة) منذ أيام، ولست ادري أين ظفر به صديقنا الدكتور عوض، فإني لم أتلقه قبل نشره، ولو قد وصل إلى لما أبطأت في الرد عليك

برغم كثرة العمل واشتغال النفس بأشياء يراها الناس خطيرة بعيدة الأثر في حياة الأفراد والجماعات، وأراها أنا كما تراها أنت أهون شأناً وأقل خطراً من صيد الضفادع، وتثقيف الجراد واستخراج أشعة الشمس من قشر الخيار. واكبر الظن انك رجل رؤوف بالأصدقاء شفيق على الإخلاء خطر لك أن تستفتيني فيما عرض لك من الأمر

فسطرت كتابك وهممت بإرساله إلي، ثم عرفت إني مجهود مكدود فرحمتني ورفقت بي وأجلت إرسال كتابك إلي حتى ينقضي العام وافرغ لمثل هذه الموضوعات الجليلة القيمة. ولكن كتابك وقع إلى صديقنا عوض على أي نحو من هذه الأنحاء التي تقع بها الكتب إلى الناس أو يقع بها الناس على الكتب وعوض رجل فيه مهارة العفاريت ولباقة الشياطين اكتسبهما في اكبر الظن من ترجمته لقصة فاوست ومن طول عشرته لشيطان الشاعر الألماني العظيم. فلم يكد يقع الكتاب إليه أو لم يكد هو يقع على الكتاب، حتى أسرع به إلى الرسالة يكيد بنشره لك ولي جميعاً.

يكيد لك لأنه يحسب أن الناس سيضحكون حين يظهرون على هذه الموضوعات الغريبة التي تفكر فيها وتنفق في درسها وقتك وجهدك، ويكيد لي حين يطلب إلي باسمك على ملأ من قراء الرسالة أن أبواب لك الكتب التي تريد أن تذيعها في هذه الموضوعات.

وليس عوض شيطانا ولا عفريتا ولا مترجماً لفوست ولا معاشرا طويل العشرة لمفستو فيليس انقضى يومه وليله دون أن يجد ويكد ليغيظ إنسانا من الناس ويعبث بصديق من

الأصدقاء، واحسبه أن أعياه الظفر بمن يغيظه أو يعبث به لا يتردد في أن يغيظ نفسه أو يعبث بها، وله في الحطيئة قدوة سيئة وأسوة قبيحة. ولابد من أن يوجد في الأرض من يدعو الناس إلى الشر ويدفعهم إلى البغي كما يوجد في الأرض من يدعو الناس إلى الخير ويهديهم إلى البر والرشاد.

وقد هممت أيها الصديق العزيز المجهول أن اعرض عن هذه الرسالة التي لم أتلقها أو أن أؤجل الرد عليها كما أجلت أنت إرسالها ولكني - ولا أكذبك - لم أكد أتم قراءتها حتى استرحت إليها ونعمت بها لأنها صادفت هوى في نفسي ولاءمت بعض ما كان يضطرب في رأسي من الخواطر والآراء. فلم أجد بدا من أن أرد عليك في (الرسالة) لأني لا اعرف عنوانك ولأني قرأت كتابك في الرسالة وتلقيته من طريقها، ولأني لا آمن هذا العفريت الذي نسميه عوضاً ونكل إليه تعليم الجغرافيا في كليتين من كليات الجامعة أن ينالها بقليل أو كثير من التبديل والتغيير، وأنت تعلم أن من العسير جدا أن أجيبك في فصل واحد إلى تبويب هذه الكتب الأربعة التي ألفتها غير مبوبة، فذلك يحتاج إلى وقت وفراغ لا أملكهما في هذه الأيام أيضاً؛ وذلك يحتاج بعد هذا إلى مكان من الرسالة قد لا تستطيع أن تخصصه لنا دون أن تظلم واحداً أو اثنين من كتابها الأدباء. ولست اذكر الرفق بالقارئ ولا الترفيه عليه، فالقارئ آخر من أفكر فيه؛ وليس يعنيني أن يغضب أو يرضى، وليس يهمني أن يقرأ أو يعرض عن القراءة، فإني لا اكتب له وإنما اكتب لك. وأنا لا اكتب له لأن هذا الموضوع اعمق وأدق من أن يكتب للقراء؛ إنمايكتب للقراء في فلسفة أفلاطون وأرسططاليس ونيتشة وأمثالهم من أصحاب العقول الجبارة؛ فأما فلسفة الجراد فإنها الطف وأخفى وأرق من أن تبلغها عقول المثقفين أو تنفذ إليها بصائر المستنيرين؛ لهذا أفكر فيك أنت ولا أفكر في القراء؛ ولو فكرت فيهم لما كتبت شيئا، لأني لا احب أن ألقاهم بما يكرهون لا سبيل إذن إلى أن أتحدث إليك في هذه الموضوعات الأربعة التي ألفت فيها كتبا غير مبوبة، وإنما أتحدث إليك في موضوع واحد منها اختاره ليكون نموذجا لغيره من الموضوعات التي ألفت فيها والتي يمكن أن تؤلف فيها؛ فإن أبيت إلا أن أبوب لك هذه الكتب الأربعة فقد نستطيع أن نصنع ذلك في مجالس خاصة نلتقي فيها بين حين وحين لهذا العمل الجليل، نلتقي فيها لنتحدث على مهل وفي حرية دون أن يشاركنا في الحديث هؤلاء القراء الذين لانا منهم أن يذهبوا فينا المذاهب وان يطلقوا فينا الألسنة وان يظنوا بنا الظنون.

وقد اخترت تعليم الجراد أصول الفلسفة موضوعا لهذا الحديث. وأول ما ألاحظه أيها الصديق العزيز المجهول انك أهملت عنوان الكتاب الذي ألفته إهمالا شديدا، واكبر الظن أن إهمالك للفنون هو الذي حال بينك وبين تبويب الكتاب على ما تحب.

ولست ادري أصحيح ما قال القدماء من أن الكتاب يعرف بعنوانه، ولكني اعتقد أن عنوان الكتاب يبوبه وينظمه، ويلائم بين أجزاءه ويشيع فيه هذه الموسيقى التي تحببه إلى النفوس وتغري به عقول القراء. وأول ما يجب العناية بالعنوان فيما أرى أن نذهب به مذهب القدماء الصالحين، فلا نرسله إرسالا ولكن نقيده بالسجع، لأن إرسال الأشياء

في غير قيد يمكنها من أن تهيم على وجهها وتنطلق في غير وجه، وتكون كالجراد هذا الذي لا يستقر على سنبلة أو كوز إلا ريثما ينتقل إلى سنبلة أو كوز. فإذا أردت يا صديقي أن تضع كتاباً فلا تفكر في موضوعه ولا في أجزائه ولا في أبوابه وفصوله ولا في غاياته وأغراضه، فهذا كله يأتي وحده دون أن تدعوه أو تلج في دعائه بالعناية أو التفكير، إنما الشيء الذي يجب أن تقف عليه جهدك، وتنفق فيه وقتك، وتستنفد فيه قوتك، هو العنوان، والعنوان المقيد المسجوع. ويشهد بذلك تراثنا الأدبي العظيم الذي أن أحصيته وجدت أكثره قد قيد بهذه العنوانات المسجوعة؛ ويشهد بذلك صديقنا الزيات فقد كانت لنا معه جولات قيمة خصبة أيام الشباب في هذا الفن الذي لا يحسنه إلا اقلون؛ ويشهد بذلك صديقنا محمود حسن زناتي الذي كان أستاذنا في هذا الفن العجيب. لذلك لم أكد اختار هذا الموضوع للحديث حتى فكرت قبل كل شيء في عنوان الكتاب الذي ألفته ولم تنبئني منه إلا بطرف يسير قصير. وقد سميت هذا الكتاب كتاب الإرشاد إلى فلسفة الجراد وأخص ما يمتاز به العنوان البارع أن يراه القارئ فيظنه واضحا جليا، فإذارآه الأخصائي تبين فيه ألوانا من الغموض وفنونا من الغرابة تحتاج إلى الشرح والتفسير، والى الحاشية والتقرير ولاشك في أن المثقفين من قراء الرسالة سيرون هذا العنوان سهلا سائغا وقريبا دانياً. ولكن أصحاب البيان والراسخين في علم التأويل سيلاحظون أن كلمة الفلسفة هنا قد استعملت في غير معناها الحقيقي المعروف؛ فليس للجراد فلسفة؛ والدليل على ذلك انك تريد أن تعلمه الفلسفة، وإذن فقد يقال أن في هذه الكلمة مجازا مرسلا لأن المؤلف أراد فلسفة الجراد باعتبار ما سيكون، لأن الجراد إذا قرأ كتابك أن شاء الله تهذب وتأدب وصارت له فلسفة. ولكن ليس هذا هو الذي أراده المؤلف، فقد يكون أراد شيئا آخر، وهو أن للجراد الآن فلسفة جرادية يراد أن يعدل عنها إلى الفلسفة الإنسانية. وقد يكون المؤلف أراد بالفلسفة المصدر أي جعل الجراد فيلسوفا يقال فلسفت الشيء جعلته فلسفيا، وفلسفت الإنسان جعلته من أصحاب الفلسفة، وفلسفت الجراد جعلته مفلسفا. ولا تبحث عن هذه الكلمة في المعاجم العربية القديمة، فقد لا تظفر في هذه المعاجم بشيء، ولكن ابحث عن هذه الكلمة عند الفلاسفة في كلية الآداب فهم الذين يلائمون بين القديم والجديد، وهم الذين يرجع إليهم في مثل هذه المشكلات.

أرأيت أن كلمة واحدة من هذا العنوان قد أثارت كل هذه الأبحاث التي أومأت إليها إيماء، فكيف بكلماته الأخرى إذا لوحظت مفرقة وإذا لوحظت مجموعة. والشيء الذي ليس فيه شك هو أن هذا العنوان سيضمن لك شيئين: الأول انه إعلان سيعجب القراء ويروقهم، بل سيبهرهم ويروعهم، وسيدعوهم إلى شراء الكتاب والترويج له عند الأصحاب والأصدقاء. ولعله يروق في وزارة المعارف وأنت أعلم بما وراء ذلك من المنافع التي لا تحصى. والشيء الثاني أن هذا العنوان سيرسم لك برنامج الكتاب ويمكنك من تبويبه في غير مشقة ولا عسر. ولا تكلف نفسك تروية ولا تفكيراً، ولكن خذ كلمات هذا العنوان واجعل منها عنوانات لأبحاثك فسترى أن كتابك قد بوب بإذن الله. فليكن موضع الباب الأول إذن هو البحث عن كلمة الكتاب مما اشتقت، ومن أين أخذت، وما معانيها المختلفة النى دلت عليها في العصور المختلفة والبيئات المتباينة.

ولا تخف أن يقال لك أن هذا استطراد وإطالة وتزيد في القول، فلولا الاستطراد والإطالة والتزيد في القول لذهب أكثر العلم أو أكثر الأدب على الأقل. ولك في الجاحظ أسوة حسنة فهو قد أطال في ذكر الكتاب حين أراد أن يؤلف في الحيوان.

وقد ألف أرسططاليس من قبله في هذا الموضوع فآثر الإيجاز واجتنب الاستطراد وكانت النتيجة أن الناس جميعا يقرءون كتاب الجاحظ وليس منهم من ينظر في كتاب أرسططاليس، لأن كتاب أرسططاليس علم وقد غير علم الحيوان، وكتاب الجاحظ أدب

وقلما يتغير الأدب، ولاسيما حين يمتاز بالإطالة والاطراد. ونحن في كلية الآداب لا نبدأ دروس الأدب حتى نعلم الشبان علما كثيراً عن لفظ الأدب ومعانيه، فسر سيرتنا ولا بأس عليك. وإذا فرغت من هذه الأبحاث القيمة التي لا تتصل ولا يجب أن تتصل بالموضوع، فخذ بعد ذلك في بحث يكون صلة بينها وبين الموضوع وهو إضافة الكتاب إلى الإرشاد والصلة بينه وبين الجراد. وكيف تختلف الكتب باختلاف أصناف الناس، وكيف تختلف الكتب باختلاف أنواع الحيوان، لا من جهة موضعها وأسلوبها فحسب، بل

من جهة أحجامها وقطعها أيضاً ومن جهة مادتها التي تطبع وتذاع فيها، ومن جهة الخط والحروف التي تستخدم في هذا الطبع؛ فأنواع الطبع تختلف باختلاف القراء في القدرة والذوق، وكذلك الأحجام، وكذلك مادة الورق والغلاف؛ ويجب أن يطرد هذا بالقياس إلى الحيوان وبالقياس إلى الجراد خاصة، وواضح جدا أن هذا سيذهب بك في ألوان من البحث الطريف الذي لم تسبق إليه؛ فإذافسرت آراءك ببعض الصور فثق بأنك ستحدث في عالم التأليف حدثا عظيما، وثق بأنك ستفتح للجنة الترجمة والتأليف والنشر أبوابا لن تتردد في ولوجها ولكنها لن تعرف كيف تخرج منها.

ثم دع هذا الباب إلى الباب الثاني واجعل عنوانه الإرشاد واسلك في هذا الباب مسلكك في الباب الاول، فاخضع لفظ الإرشاد ومعانيه لكل هذه التجارب التي أخضعت لها لفظ الكتاب ومعانيه، ثم ابحث عن إرشاد الجراد كيف يكون فاعقد فصلا تصور فيه مذهب الذين يرون أن الجراد يفهم بالعقل وبين كيف يكون إرشاده على هذا النحو، واعقد فصلا آخر تصور فيه رأي المحدثين الذي يرون أن الجراد يفهم بالفم والبطن وبين فيه كيف يكون إرشاد الجراد من طريق الأفواه والبطون. والناس كما تعلم يختلفون في هذا الموضوع، ومنهم من يرى أن تكتب أصول الفلسفة على أوراق الأشجار والنجوم والزرع التي يحبها الجراد ويميل إلى أكلها ويقولون أن الجراد إذا أكل هذه الأوراق المفلسفة فهم العلم ووعى الحكمة واصبح فيلسوفا بإذن الله.

ثم اجعل الكلمة الثالثة عنوانا للباب الثالث وهي إلى. ولابد من أن تبحث عن السبب في أن الإرشاد يتعدى بالى ولا يتعدى بغيرها من حروف الجر؛ ولم لا يقال كتاب الإرشاد لفلسفة أو بفلسفة أو في فلسفة أو من فلسفة أو عن فلسفة أو على فلسفة الجراد. وواضح أن كل

حرف من هذه الأحرف سيحتاج إلى فصل مطول جدا وستجد في كتاب المغني لابن هشام ما يعينك على تحرير هذه الفصول. ولا تخف من هذه الإطالة فإنها هي التي ستنفعك وتروج كتابك عند أصدقائنا الأزهريين. ثم إذا أردت أن يروج كتابك عند الجامعيين وفي كلية الأدب خاصة فاحسن عنايتك بالباب الرابع وهو باب الفلسفة وهو اللب الأول للكتاب، لأن الأبواب التي سبقت كانت قشوراً ولكنها كانت قشورا لابد منها، فكل لب محتاج إلى قشر وإلا لما كان لبا. فابحث الآن عن الفلسفة وعن أصل لفظها وأحذر أن تقول إنه يوناني فقد يكون هذا مطابقاً للحق، ولكن الحق في هذه الأيام لا يغني عن البدع شيئا. والبدع في هذه الأيام إن تخرج الأشياء عن أصولها وتوضع في غير مواضعها وترد إلى غير مصادرها. والظاهر أن كلمة الفلسفة ترجع إلى أصل سأمي عربي، وما أشك في أنك ستجد في شعر قضاعة بيتا يثبت لك وللناس جميعا أن العرب قد عرفوا الفلسفة واستعملوا لفظها قبل أن يولد سقراط. ولابد أن تعرض معاني الفلسفة ومذاهب الفلاسفة في العصور المختلفة وتبحث عن أيها أدنى إلى الجراد، إلى عقله إن كنت من أنصار العقل، وإلى بطنه إن كنت من أنصار البطون. فإذا فرغت من هذا البحث الهائل المخيف وصلت إلى الباب الأخير الذي هو نتيجة النتائج وجوهر الجواهر وأصل الأصول وفصل الفصول وخلاصة الكتاب ولب الألباب وهو باب الجراد الذي وجه إليه الإرشاد.

وهذا الباب معقد بطبعه فلابد من أن تبحث عن لفظ الجراد من أين جاء والى أين انتهى، ولابد من أن تبحث عن منزلة الجراد بين أنواع الحيوان، ولابد من أن تبحث عن محاسنه وعيوبه، ثم لا بد من أن تبحث عن عقله وما يكونه من الملكات وعن بطنه وما يمتاز به من الخصال في الاستيعاب والهضم وتصريف العلم والفلسفة إلى أجزاء الجسم وأطرافه والوصول آخر الأمر إلى أن يسير الجراد سيرة فلسفية صالحة. فإذاوصلت إلى هذا الموضع من كتابك وخيل إليك أنك قد انتهيت به إلى غايته وأفدت العلم فائدة محققة تمكنك من نيل الدكتوراه من كلية الآداب فعد إلى منهج ديكارت وألغ هذا الذي كتبته كله إلغاء، وافترض انك لم تكتب شيئا ولم تعلم شيئا واستأنف التحدث من جديد فسترى أنك قد أضعت وقتك في غير نفع، وأنفقت جهدك في غير طائل، واستهلكت راحتك وورقك وحبرك وأقلامك في غير غناء، لأن الجراد ليس في حاجة إلى أن يتعلم الفلسفة الإنسانية

الآن، فقد تعلمها منذ عهد بعيد؛ فهو أن كان ناهبا سالبا ومغيراً محاربا فقد أخذ ذلك عن الإنسان. وهل زاد الإنسان على أنه حيوان قوام حياته السلب والنهب والحرب؟

وهو إن كان خفيفا سريعا متنقلا لا يستقر على حال من القلق فقد أخذ ذلك عن الإنسان. وما أظن أنك تستطيع أن تلقى جرادة تجهل قول الشاعر القديم:

تنقل فلذات الهوى في التنقل

وهو إن كان مفتنا في الخفة والتنقل فقد أخذ هذا الافتنان عن الإنسان، لأنه يراقب الحضارة وتطورها، ويراقب المبادئ وتلونها، ويراقب اضطراب الناس في آرائهم وأهوائهم ومذاهبهم ومبادئهم، ويراقب الضمائر التي تباع، والعقول التي تمتهن، والحريات التي تزدرى، والأصول التي تتخذ تجارة ووسيلة إلى الربح وتحقيق المنافع الدنيئة. وقد هم الجراد أن يقلد الإنسان في هذا فأدركته بقية من عقله أو من بطنه الذي تستقر فيه الفلسفة وامتنعت به عن أن ينحط إلى هذه القرارة الحقيرة الموبوءة التي انحط إليها الإنسان الحديث، فظل حيث هو يغير كريما ليأكل من ثمرات الأرض ما يستطيع أن يصل إليه، ويعود كريما أن استطاع العودة أو يموت كريما بما يسلط عليه الإنسان من ألوان البأس وضروب الفناء. وأنت حين تصل إلى هذه النتيجة بين اثنتين: فإن كنت من أنصار الفساد وعشاق الانحطاط الذين يرون أن الإنسان قد وصل في هذا العصر إلى أرقى أطوار الحضارة فاستأنف العمل لتبحث عن طريق تهدي بها الجراد إلى تقليد الإنسان في الانحدار إلى هذه القرارة، وإن كنت من المحافظين الذين يكرهون التطور الحديث ويمقتون نتائجه فادع الإنسان إلى أن يتعلم فلسفة الجراد وضع في هذا كتابا اسمه: (التبيان عن تجرد الإنسان) والتجرد هنا مشتق بالطبع من الجراد. وتقبل أيها الصديق العزيز المجهول اخلص تحياتي

طه حسين

ظاهرة وتعليلها

للأستاذ أحمد أمين

أعرفه غزير العلم واسع المعرفة، ولكنه يأبى أن يجالس أمثاله من العلماء، ولا يلذه إلا أن يجالس لفيفاً من صغار الناس في مهنتهم وعقليتهم؛ وليس الشراب هو الذي يجمعهم ويؤلف بينهم كما هو الشأن في كثير من الأحيان.

واعرفها فتاة على جانب من الجمال، ولكنها لا تؤمن بجمالها، لأن أهلها ادخلوا في روعها من صغرها أن الجمال في البياض والحمرة والشعر الأصفر، وهي سمراء شديدة السمرة وليس في وجهها حمرة ولا في شعرها صفرة، فهي في اعتقادها ليس لديها من الجمال شيء، وأراها تصاحب فتاتين ليس فيهما من الجمال شيء، وتأبى أن تصاحب جميلة، وخاصة إذاكان جمالها في لونها الأبيض المشرب بحمرة.

وأعرفه فناناً كبيراً، ولكنه يأبى أن يجالس الفنانين الكبار أمثاله ويفضل أن يجلس إلى مبتدئي الفن يعلمهم ويصلح من أخطائهم، وهم من جانبهم يتملقونه، ويفيضون عليه من ألقاب الثناء ما يملؤه غبطة وسروراً.

وأعرف عشرات من هذه الأمثلة أشاهدها كل يوم، وأسمع بها كل حين وأقرأها في وصف كثير من الرجال والنساء، فما سرها؟

سرها عندي أن من طبيعة الإنسان أنه يكره (الضعة) ويكره كل ما يشعره بالضعة، ويحب العظمة ويحب كل ما يشعره بالعظمة.

من أجل هذا تراه - في العادة - يكره أن يجالس من هو خير منه في علمه وفنه وأدبه، لأن ذلك كله يشعره بصغر نفسه؛ وهو أقل كراهية لمجالسة من هو مثله، لأنه لا يحط من شأن نفسه؛ وهو أشد حبا لمجالسة من دونه لأن ذلك يجعله أكثر شعوراً بعظمة نفسه

ويمكن تطبيق ذلك على كثير من الأحداث اليومية والمشاهدات المألوفة. ألست ترى أن (حلبة الكميت) أو جمعية الشراب تكره كل الكراهية أن يكون بينهم وقت شرابهم من لا يشرب، ويستثقلونه مهما ظرف، ويستسمجونه مهما لطف، لأنه يذكرهم بالفضيلة حين ارتكابهم الرذيلة، ويشعرهم بأنهم الوضعاء وهو الرفيع، وأنه العين الناقدة وأنه الرقيب عليهم، وأنه العاد لسقطاتهم، وأنه المحتفظ بقوة إرادته عن ضعف إرادتهم؟ كل هذا يشعرهم

بالضعة فيكرهونه، ويبدءون بالإلحاح عليه أن يشرب لا حباً فيه ولكن حباً لأنفسهم، وإبعاداً لشعورهم بضعتهم، ولا يزالون يستحلفونه حتى إذانجحوا أمنوا الشعور بالضعة، وإذا فشلوا مقتوه ومقتوا جلوسه بينهم، لأنه نغص عليهم بهجتهم - ومن أجل هذا أيضاً

أحبوا أن يسمعوا أدب الخمر، وأحبوا أن يسمعوا من يفلسف لهم الحياة وأنها ليست إلا متعة الساعة وشهوة الوقت. فإن تجاوز المحدث ذلك إلى أنه لا يعبأ بحرام ولا حلال، وأن يقول كما قال أبو نواس:

فإن قالوا حرام قل حرام ... فإن لذاذة العيش الحرام

فذلك عندهم أظرف وأفكه لأنه اجتث الشعور بالضعة من جذوره.

هذا هو سبب العداء دائما بين الفضيلة والرذيلة أو بين الفاضل والرذل، وهذا هو السبب في أن الرذل يكره الفاضل أكثر مما يكره الفاضل الرذل. لأن الرذل هو الذي يشعر بالضعة من رؤية الفاضل.

وهو السبب في أن الفقير يكره الغني أكثر من كره الغني للفقير. لأن الفقير هو الذي يشعر بالضعة إذاقاس نفسه بالغني

وكثيراً ما يكون سبباً في فساد الحياة الزوجية، أن تكون في أحد الزوجين صفات راقية ليست في الآخر، فيشعر هذا الآخر بالضعة عند قياس نفسه بنفس قرينه فتسوء الحياة ويجهل السبب.

بل أرى أن في هذا القانون تفسيراً لكثير من الرجال والنساء الذين يحبون العزلة وينفرون من الناس.

فتفسير هذا أنهم يشعرون بنقص فيهم من ناحية من النواحي الخلقية أو العلمية أو الاجتماعية

كأن يشعروا أنهم لا يحسنون حديث المجالس، أو أن في جسمهم عاهة من العاهات، أو أنهم إذاجودلوا أفحموا، أو إذا نيل منهم لم يستطيعوا أن يأخذوا بحقهم. فتراهم يفضلون العزلة ويتغنون بمدحها، ويصبون جام غضبهم وسخطهم على الناس ويطنبون في ذم الأخلاق وسوء المجتمعات - والسير وراء ذلك كله، وهو نقص في محب العزلة جعله يشعر بضعة نفسه في المجتمعات؛ وهو يكره الضعة ويكره كل ما يسببها، وهو لا يحب أن يلوم نفسه

وهي السبب، لأن في هذا ضعة أيضاً، فيلوم الناس ويلوم المجتمعات، ويكون مثله مثل من عجز من أن ينتقم من عدوه، فانتقم من صديقه

أتدري السبب في أن الشباب لا يودون كثيرا أن يجالسوا آباءهم ولا اخوتهم ولا أقرباءهم ويفضلون - غالبا - أن يجالسوا الغرباء؟

هو أيضاً - هذا القانون، فإن آباءهم واخوتهم وأقرباءهم يعلمون نشأتهم وكل شيء فيهم، وكل شيء حولهم، وفي ذلك عيوب عرفوها، وزلات وقعت تحت أعين الآباء ومن إليهم، فالشباب يشعر بهذا التاريخ كله إذاجلس إليهم، وهذا يشعره بالضعة. فهو يفضل عليهم صداقة الغرباء، لأنهم يجهلون تاريخه، ويجهلون زلاته فهو عندهم لا يشعر بنقص، ولا يشعر بضعة، فكان إليهم أميل، وبهم آنس؛ والمثل العربي يقول (برق لمن لا يعرفك) ومعناه تبجح وهدد من لا يعرفك، لأن من عرفك لا يعبأ بك

لقد كان لي أستاذ في سن الخمسين وكان جلساؤه أقلهم في سن الستين، فسألته في ذلك فقال: إني اخترتهم لأني اشعر وأنا معهم أني شاب

بل هذا هو السر في أن الرذيلة في كثير من الأحيان توثق الصداقة بين أصحابها، فالمقامر أقرب إلى صداقة المقامر، ومدمن الخمر إلى مدمنها، والغزل إلى الغزل، واللص إلى اللص، وقل أن ترى ذلك في الفضيلة فالصدق قل أن يؤلف بين اثنين لصدقهما، والعدل إلى العدل، ولا الصريح إلى الصريح

والسبب في هذا أن ذوي الرذيلة يشعرون بالضعة من رذيلتهم فيهربون إلى الأراذل مثلهم حتى يتجردوا من هذا الشعور؛ أما الشعور بالعدل أو الصدق فليس فيه هذا الألم فلا يحتاج صاحبه إلى البحث عن مهرب - وهو السبب في احتياج أصحاب الرذيلة إلى مخبأ، فحجرة المقامرة مستورة، ومجلس الشراب في مخبأ، والغزلون يتسترون، ومحال الحشيش والكوكايين في حرز الخ، وليس السبب في ذلك فقط أن رجال الأمن يطاردونهم. بل أكاد أوقن أن هذه الأمور لو أبيحت من رجال الأمن لتستروا أيضاً لأنهم يريدون أن يهربوا بأنفسهم من الشعور بالضعة أمام من لم ينغمسوا في الرذيلة انغماسهم

ألست ترى معي أن الرجل الملتزم للأخلاق المتشدد فيها أقل الناس أصدقاء واشد

الناس وحشة، وكلما اشتد في تزمته اشتد الناس في كراهيته، وأن الرجل كلما سما عن عقله بعد عن
الناس وبعدو عنه وأنهم قد يجلونه ولكن لا يحبونه، لأن سموه إعلان لضعفهم، وعلوه رمز لضعتهم؟
ولعل كثيرا من صفحات التاريخ المملوءة باضطهاد العظماء وقتل النبغاء، واغتيال الأبطال، تستر وراءها هذا السر الكامن الخطير، وهو أن الاضطهاد والقتل والاغتيال كان سببه الخفي شعور المدبرين بضعتهم أمام هؤلاء العظماء فتخلصوا من الشعور بالضعة بالقضاء على من كانوا سببه - فلما انمحوا من الوجود كان لا بأس عند من قتلوهم أن يمجدوهم، وأن تمجدهم القرون بعدهم، لأن الحقيقة الواقعة اشد أشعارا بالضعة من الذكرى الماضية
وبعد فلا يستطيع الناس أن يتغلبوا على هذه الرذيلة وأن يجلس عالمهم إلى من هو أعلم منه، وفنانهم إلى من هو أفن منه، وفاضلهم إلى من هو أفضل منه، يستفيد منه ويأخذ عنه في غير حقد ولا ضغن إلا بكثير من مجاهدة النفس وهيهات ثم هيهات
أحمد أمين

لعب الطاولة

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

ليس لي شغف بالألعاب، فإن حياتي كلها لعب؛ فما حاجتي إلى لعبة معينة على الخصوص. ولكن لي إخواناً ألقاهم في حيث ألفوا أن يكونوا - أي في القهوات - وليس من العدل أن أكرههم على أن يلقوني في حيث أحب أنا وأوثر. ولأن ينتقل واحد إلى جمع أيسر من أن ينتقل جمع إلى واحد. ولست اعرف عملا لرواد القهوات إلا أن ينظروا إلى المارة وهم مقبلون ومدبرون فإذااتفق أن كانت الصفوف الأمامية مزدحمة ولا محل لطالب الجلوس إلا في الداخل، فماذا يمكن أن يكون عمله إلا قراءة الصحف - إذا كان وحده - أو تدخين (الشيشة) - أو كما تسمى أيضاً (الأرجيلة) و (النرجيلة) -
ولعب الطاولة أو الشطرنج أو (الدومينو) فأما الشطرنج فيحتاج إلى عقل يكده اللاعب، وهو لم يجيء إلى القهوة ليتعب بل ليتسلى. وأما (الدومينو) فآفتها الحساب، فلم يبق إلا الطاولة يفتحها الصديقان ويقبلان عليها ليخرجا بها من الصمت الثقيل، وليختصرا الوقت الذي يربانه أطول من أن يحتمل وإن كانت شكواهما - كغيرهما - أن العمر في هذه الدنيا قصير، أو ليتقيا الحديث في أمر نافع أو جدي.
ولم أجد إلى الآن لاعباً للطاولة استريح إلى منازلته، وأفيد متعة من ملاعبته، فهذا واحد لا يحلو له أن يروي لك قصة حياته إلا وهو يلعب! وتكون قد حمست وكبر أملك في الفوز، فتضطر أن تضطجع وتصغي، أي أن تدع حماستك تفتر ودمك يبرد. وليته مع ذلك يقص حكايته ويفرغ منها فإن البلاء أنه يقطع الحديث ويقول لك: (دوري يا سيدي. شيش بيش. . خذ) ويلقي إليك حجراً (مضروبا) أو يضعه لك في كفك تأكيداً لاغتباطه بسوء حظك. فتتمنى لو وسعك أن تقذف بالحجر. . فلا أنت سمعت القصة، ولا أنت مضيت في اللعب بالروح التي كانت مستولية عليك. وليس هذا لعباً وإنما هو. . هو. . لا أدري ماذا أسميه، أو كيف أصفه، فقل أنت فيه ما تشاء!
وثان لا يلاعبك إلا برهان، وهذا ضرب من القمار لا أطيقه، وقد حاول كثيرون من إخواني أن يعلموني لعب الورق فأخفقوا - أو أخفقت أنا على الأصح - وماذا عندي مما يمكن أن أقامر به غير حياتي؟ وأقول لصاحبي (هذا قمار فالعب بغير رهان) فيقول: قمار؟ استغفر الله. هذه تسلية. زيادة تصلح بها روح اللعب، فيصبح أحمى وأمتع فأصر) وأقول (كلا. إذاأردت اللعب فليكن بغير رهان) فلا ينهزم ويقول (قرش واحد!) فأقول: (ولا مليم) فيهز رأسه آسفاً ويقبل
ونشرع في اللعب ويتفق أن يؤاتيه الحظ فيضيق علي الخناق ويعظم أمله في النصر فيميل على الطاولة ويقول (ما رأيك؟. هذا الدور لي أم لك؟) فأدير عيني في مواضع الحجارة فلا أرى داعياً لليأس فأقول (إني أرجو أن يكون الدور لي) فيقول (حسن. . تراهن؟) فأقول محتجاً (رجعنا؟. لا يا سيدي) فيقول (إذا كنت واثقاً من الفوز فماذا يمنعك أن تراهن؟) فأقول (لست واثقاً. . ثم إن الأمر عندي مرجعه إلى كراهتي للقمار، لا للخوف من الخسارة (فيتنهد أسفاً على الفرصة التي أضعتها عليه ببلادتي وجمودي

وثالث لا يترك الأمر للحظ كما هو الواجب في لعبة كهذه بل (يقرص كما يقولون - أي يسوي) (الزهر) واحداً فوق الآخر ثم يلقيهما برفق وتؤدة لتجئ الأعداد أو الأرقام التي يطلبها، وهذا شيء لا يليق لأن مؤداه أن ملاعبك قد وثق من الفوز بالغة ما بلغت قدرتك ومهارتك وبراعتك في اللعب. ولا ادري أية متعة يستفيدها المرء من (القرص) إلا إذاكانت المتعة هي التنغيص عليك

وأعوذ بالله من لاعب لا يزال يحوجك إلى النهوض عن كرسيك لتبحث عن (الزهر) الذي قذف به لا تدري أين وتمضي دقائق في البحث والتحديق - وأنت منحن - تحت الكراسي وبين أرجل الناس الذين لا تعرفهم. وكثيراً ما يتفق أن يكون (الزهر) الضائع في طية البنطلون. وليس بالنادر ألا تجده لا أنت ولا صاحبك فتصفق ليجيئك عامل القهوة (بزهر) جديد. وقد يكون العامل سمجاً أو قليل العقل فيروح يبحث أولاً، وتنقضي دقائق أخرى وأنت تتبعه بعينيك. ثم يجيء (الزهر) الجديد فيتناوله صاحبك - لأن هذا دوره ويقلبه في كفيه ويقول (لا. هذا كبير.) أو لا. هذا صغير (فيضيق صدرك وتقول (يا أخي العب. كله زهر) وتستأنفان اللعب فتزهق روحك لأن صاحبك ممن يأبون إلا أن يقدروا كل احتمال، ويحسبوا كل حساب، ويحتاطوا لكل أمر، كأنما صار مصير العالم رهناً بهذه اللعبة، فينفد صبرك وتقول له (يا أخي العب) فيقول (حلمك يا سيدي. . بقي أن سحبنا هذا (القشاط)؟. من يدري؟. ربما ضربنا وعطلنا. طيب. . وإذا خرجنا فماذا يكون؟. والله هذا أحسن. .

أقول لك. . ننتظر ولا نخرج. . نسد عليه هنا. . لا والله. . الخروج أحسن. . لكن يمكن يساعده الحظ فماذا يكون العمل؟.) وهكذا إلى غير نهاية

وشر من هذا الذي يعقب على كل لعبة منك بالاستحسان أو الاستهجان ولا ينفك يقول لك (كان أولى أن تصنع كيت وكيت) فتقول (وما لك أنت؟. أنا المسئول عن لعبي وأنا الذي يخسر لا أنت) فيقول (لا يا سيدي، المسألة هي أن اللعب مع غير الحاذق لا لذة فيه)

وقد لا يكتفي بالتعليق والتعقيب بل يحاول أن يلعب لك لعبك. ويردك عما تريد، أو ما تهم به، من تنقيل الحجارة على الوجه الذي يبدو لك، وينقلها هو لك على هواه وأولى بمثل هذا أن يلاعب نفسه، ولكن لذته هي أن يفرض عليك إرادته، مدعياً أن هذا هو ما يقضي به الفن، وأن الغيرة على الفن لا تسمح له بالتساهل، ويتركك تخلط وتغلط وتخالف الأصول.

وآه لو وقعت مع واحد من المبتدئين لا يزال يعد - ويشير أيضاً - بإصبعه في كل لعبة. . وآه وآه وآه - ثلاث آهات طويلة يمتد بها النفس إلى الليلة التالية - من المغالط الذي يدعي أن الرقم خمسة وأربعة، على حين رأيته بعينيك ثلاثة وستة. ويزعم أنه جاء بالحجر من هنا وهو قد جاء به من آخر الدنيا، وتراه (أكل) أربعة، فتنظر إليه عاتباً فيبتسم، ولا يتلعثم، ويرفع بين إصبعيه حجراً ويقول لك (والله ما أكلت إلا واحداً فقط) فلا تستطيع أن تقول له أنه كاذب ويعييك أن تدرك الباعث على هذه السرقة في لعبة يراد بها التسلية وتزجية الوقت ليس إلا.

وأحياناً يحلو لصاحبك أن يمازحك. . . ولكن أي مزاح فيتلف لك أعصابك ويطير عقلك. . . لأنه يزيغ بصرك بكثرة عبثه (الظريف). ويا ويلك ممن يغضبه أن يرى نفسه مشفياً على الهزيمة فيعيث بيديه في الحجارة ويفسد نظامها وترتيبها، ويغلق الطاولة في وجهك، ثم يوليك ظهره أو جنبه، ويضع رجلا على رجل - أعني ساقا على ساق - وهو لا يبرطم بما لا يسرك أن تسمع، وقد ينهض ويتركك بلا كلام أو سلام

ومن بلاء الطاولة أنها تجمع عليك الناس، ويندر أن يكونوا ممن تعرف، فتراهم قد التفوا بكما - والبعض جالس والبعض واقف سينظرون ولا يسكتون ليهون احتمالهم، بل يستجيدون لعبك أو يستضعفونه، بصوت مسموع، وقد يراهنون عليكما كأنما أنتما جوادان في ميدان السباق. . . . . .

فتسمع أحدهم يقول (أنا أحط على هذا (ويشير إليك فما يعرف اسمك) ريالا. . . تجي يا الفريد؟)

فتسمع الفريد يقول (يكفي نصف ريال. . .)

فيلتفت الأول إلى غيره ويقول (تجي يا جاك؟)

فيمط جاك بوزه ويقول: (لا ما يستاهل)

فتعلم انك لا تساوي مليما في رأي جاك، وأنك من الجياد التي لا تستحق المخاطرة عليها بمال ولو قل.
ومن المستحيل أن يستطيع أحد أن يصف لعب الطاولة، وكيف كسب دوراً أو خسره (ولكن بعضهم يتكلف ذلك ويحاوله ويقول لك كلاما لا يمكن أن تفهم منه شيئا، أو تعرف له مدلولا. وأمثال هذا ليس من سوى الإلحاح في المقاطعة، واللجاجة في إسكاتهم بما أقول أنا. يبدأ الواحد منهم وصفه الذي لا يصف شيئا فأشعر - سلفا - أن رأسي تحطم فأقول (اسمع. . حدث أمس شيء غريب)
فيقول (وبعد ذلك ضربته وهربت وسددت عليه. . .)
فأقاطعه وأقول (كنت راكبا الترام رقم 70 (وليس ثم ترام بهذا الرقم ولكن هذا لا يهم لأن المراد هو أن أتكلم بأي كلام والسلام) فجاءت فتاة صغيرة لاشك أنها من تلميذات المدارس فقد كانت تحمل حقيبة. .)
واسكت لآخذ نفس، فيغتنم الفرصة ويقول (ثم يا سيدي بدأت الأكل. . أكلت. . أكلت. .) فأعود إلى المقاطعة وأقول (وكان الترام مزدحما فوقفت لها لتجلس في مكاني. . الأدب واجب، أليس كذلك)
فيقول (وظللت آكل حتى. .)
فأسرع فأقول (فشكرتني برقة. الحقيقة أنها فتاة مؤدبة. هنا حدث شيء عجيب فقد وفق الترام في محطة اختيارية من غير أن يطلب ذلك أحد من الركاب ولا من الواقفين على الرصيف)
ويشعر هو أن لا فائدة في محاولة التغلب عليّ فيضطجع وينظر إلى شزرا ويخرج سيجارة ويشعلها ويروح يدخن غير ملتفت إلي، أو عابئ بي، ولكني لا أدعه يهملني مخافة أن
يستأنف الوصف الذي قطعته عليه، فأقول (سامع؟. حدث شيء أغرب. سار الترام بسرعة ومررنا بمحطات كثيرة لم نقف عليها لا بل وقعنا فيها كلها وأخيراً وصلنا إلى الموسكي. . أعني المغربلين. . بعد ربع ساعة من قيامنا. . أليس هذا جميلا؟. ما قولك؟. ألا تقول شيئا؟
فيقول (شيء بديع جداً)
فأقول (أشكرك. . ليلتك سعيدة)
فيقول وهو معبس (سعيدة)
وأنهض منصرفا وقد نجوت من الوصف.
كلا. لن ألاعب أحداً الطاولة. وإذا شاء إخواني أن ألقاهم فليكن ذلك في مكان لا طاولة فيه

إبراهيم عبد القادر المازني

في التاريخ السياسي

مصر والامتيازات الأجنبية

كيف ألغيت الامتيازات في مونترو بعد أربع قرون على قيامها

لباحث دبلوماسي كبير

انتهت المفاوضات التي تجري بين الحكومة المصرية وبين الدول منذ الثاني عشر من شهر أبريل في مونترو - في مسألة إلغاء الامتيازات الأجنبية بعقد اتفاق جديد بين مصر والدول حققت فيه مصر أمنيتها الكبرى، وهي إلغاء الامتيازات الأجنبية.
والامتيازات الأجنبية التي وفقت مصر إلى إلغائها في مونترو هي من تراث الدولة العثمانية الذاهبة، وترجع إلى أوائل القرن السادس عشر، حينما بدأ السلطان سليمان بعقد معاهدة مع فرانسوا الأول ملك فرنسا، منحت فيها للرعايا الفرنسيين الذين يقيمون في أراضي الدولة حقوقاً ومزايا خاصة؛ واستطاعت معظم الدول الأوربية بعد ذلك أن تحصل تباعا من سلاطين تركيا على منح مماثلة لرعاياها؛ ولم يأت القرن الثامن عشر حتى كانت هذه الامتيازات التي اتخذ منحها في البداية صورة التفضل والمنحة الاختيارية قد غدت بالنسبة للأجانب حقوقاً مكتسبة تغل سلطة الباب العالي نحو الأجانب في كثير من الشؤون المالية والقضائية
ولما كانت مصر بحكم خضوعها للدولة العثمانية في تلك العصور تخضع لنظام الامتيازات الأجنبية الذي يطبق في جميع الأراضي التابعة للدولة، فقد بقي هذا النظام

سارياً فيها حتى بعد أن حصلت على استقلالها في عصر محمد علي، ولم تستطع أن تتحرر منه بعد أن رسخت جذوره على كر العصور وغدا معقلا لرعايا الدول الممتازة يحتمون به، ويتمتعون في ظله بكثير من الحقوق وضروب الإعفاء القضائية والمالية وكانت الدول تعمل تباعا على توسيع هذه الحقوق والامتيازات حتى غدت في النهاية عبئاً ثقيلا على كاهل مصر يحد من سيادتها في كثير من النواحي، ويعرقل حريتها وتقدمها، ويحدث الخلل والاضطراب في شؤونها القضائية والمالية والإدارية. وتفاقمت هذه الحالة في عهد الخديو إسماعيل ففكر وزيره نوبار باشا في مفاوضة الدول في إنشاء نظام خاص
ومحاكم خاصة للأجانب، وانتهت هذه المفاوضات إلى إنشاء المحاكم المختلطة في سنة 1875، لتختص بالفصل في قضايا الأجانب المختلفي الجنسية والأجانب والمصريين، وجعل أغلبية قضاتها من الأجانب، ووضعت لها لوائح وقوانين جديدة مستمدة من القانون الفرنسي؛ والدول ذوات الامتيازات التي عقدت مع مصر هذا الاتفاق هي: بريطانيا العظمى؛ الولايات المتحدة (أمريكا)، فرنسا، ألمانيا، النمسا والمجر، إيطاليا، الروسيا، السويد والنيرويج، إسبانيا، البلجيك، اليونان، هولنده، الدنماركة، البرتغال.
وهذه خلاصة القواعد الأساسية لاختصاصات المحاكم المختلطة.
أولاً - تختص بالفصل في المنازعات المدنية والتجارية بين المصريين والجانب، سواء في المسائل العقارية أو المنقولة
ثانياً - تختص بالفصل في المنازعات المدنية والتجارية بين الأجانب المختلفي الجنسية؛ وكذلك بين الأجانب المتحدي الجنسية في المسائل العينية العقارية فقط.
ثالثاً - إذا وجد رهن عقاري لأجنبي على عين ثابتة تختص المحاكم المختلطة بالفصل في صحة الرهن وكل ما يتعلق به ويترتب عليه.
رابعاً - تختص بالفصل في التعويضات التي يطلبها الأجانب من الحكومة المصرية عن الضرر الناشئ عن أعمال الإدارة إذا مست هذه التصرفات حقوقا مكتسبة أو مقررة.
خامساً - أما في المواد الجنائية فلا تختص المحاكم المختلطة إلا بالفصل في بعض الجنح والمخالفات البسيطة، وبالأخص الجرائم التي تقع على قضاة المحاكم المختلطة وموظفيها
وإلى جانب المحاكم المختلطة بقيت المحاكم القنصلية مختصة بالفصل في المواد الجنائية المتعلقة بالأجانب، وفي المنازعات المدنية والتجارية المنقولة بين الأجانب المتحدي الجنسية وفي قضايا الأحوال الشخصية، كل قنصلية بالنسبة للرعايا التابعين لها.
وهذا كله إلى جانب ضروب الإعفاء والحصانة التشريعية والمالية والبوليسية التي يتمتع بها الأجانب، فليس في وسع الحكومة المصرية أن تصدر تشريعاً يسري عليهم إلا بموافقة دولهم، وفيما بعد بموافقة الجمعية العمومية لمحكمة الاستئناف المختلطة؛ وليس لها أن تفرض عليهم أية ضريبة إلا بموافقة دولهم، وليس للبوليس أن يهاجم منازلهم أو محالهم في المسائل الجنائية أو يفتشها إلا في حالة التلبس أو بموافقة القنصل، وليس له أن يقرر إبعاد
أجنبي غير مرغوب فيه لا بموافقة القنصلية التابع لها.
وقد كان الأمل معقوداً بأن يكون إنشاء المحاكم المختلطة خطوة موفقة في سبيل الإصلاح، وفي سبيل تخفيف الأغلال التي تحد من السيادة المصرية، ولكن ظهر بمضي الزمن أن المحاكم المختلطة جاءت بالعكس عبئا باهظاً على السيادة المصرية وإنها ذهبت في أحكامها، وفي تفسيراتها القضائية وفي مزاعم اختصاصها إلى حدود غير معقولة حتى غدت أشبه بدولة داخل الدولة، وغدت حصناً للنفوذ الأجنبي، وسياجا منيعا لحماية المصالح الأجنبية؛ وابتدعت المحاكم المختلطة نظرية الصالح المختلط، فادعت الاختصاص في كل قضية وكل نزاع فيه صالح أو شبة صالح لأجنبي، وتوسعت في تفسير كلمة أجنبي بحيث شملت كل الأجانب التابعين للدول الممتازة وغير الممتازة والرعايا المحميين وغيرهم، وأضحت رقيبا على السلطة التشريعية فيما تصدره من قوانين يراد سريانها على الأجانب مهما كان نوعها وغرضها.
وشعرت الحكومة المصرية وشعرت مصر كلها بفداحة هذه الأغلال المرهقة التي تقيد

سيادتها وسلطاتها من جراء هذا النظام الشاذ الذي فرضته عليها الامتيازات الأجنبية، والذي غدا بما يسبغه على الأجانب من الحقوق والمنح الاستثنائية، وصمة في جبين الأمة تؤذي شعورها وكرامتها؛ هذا فضلا عن كونه قد غدا بما يسبغه على سفلة الأجانب وأفاقيهم من ضروب الحماية غير المشروعة، وما يمكن لهم من ضروب العيث والفساد والإجرام الدنيئة - خطرا على الأمن والنظام والصحة والأخلاق العامة. لذلك لم تنس البلاد، منذ اضطرمت بحركتها الوطنية الكبرى أن تعتبر قيام الامتيازات الأجنبية كارثة قومية لا تزول إلا بزوال هذه الامتيازات.

- 2 -

ولما وفقت مصر بعد طول الكفاح إلى التفاهم مع بريطانيا العظمى واستطاعت أن تفوز منها بوثيقة استقلالها بعقد المعاهدة المصرية الإنجليزية في أغسطس الماضي، كانت مسألة الامتيازات الأجنبية ضمن المسائل الجوهرية التي تناولتها، ووضعت قواعد خاصة لحلها.

فقد نص في المعاهدة المصرية الإنكليزية في المادة الثانية عشرة على ما يأتي:

(يعترف صاحب الجلالة الملك والإمبراطور بأن المسئولية عن أرواح الأجانب وأموالهم في مصر هي من خصائص الحكومة المصرية دون سواها، وهي التي تتولى تنفيذ واجباتها في هذا الصدد).

ونصت المادة الثالثة عشرة على ما يأتي:

(يعترف صاحب الجلالة الملك والإمبراطور بأن نظام الامتيازات القائم بمصر الآن لم يعد يلائم روح العصر ولا حالة مصر الحاضرة.

ويرغب صاحب الجلالة ملك مصر في إلغاء هذا النظام دون إبطاء.

وقد اتفق الطرفان المتعاقدان على الترتيبات الواردة بهذا الشأن في ملحق هذه المعاهدة).

وخلاصة الملحق المشار إليه، هو أن مصر ترمي إلى اتخاذ التدابير التي تمكنها من إلغاء نظام الامتيازات وما يترتب عليه من القيود التشريعية والمالية بالنسبة للأجانب في أقرب وقت وإقامة نظام انتقال لمدة معقولة لا تطول بلا مبرر تبقى فيها المحاكم المختلطة وتباشر الاختصاص المخول الآن للمحاكم القنصلية في المواد الجنائية والمدنية فضلا عن اختصاصها الحالي ثم تلغى نهائيا بانتهاء فترة الانتقال، ولتحقيق هذه الغاية تتصل الحكومة المصرية بالدول ذوات الامتيازات للاتفاق على ما تقدم. أما فيما يتعلق ببريطانيا العظمى، فإنها بصفتها من الدول العظمى، وبصفتها حليفة لمصر لا تعارض مطلقاً في التدابير المشار إليها، وتعد فوق ذلك بان تعاون مصر على تحقيق غايتها وذلك باستعمال نفوذها لدى الدول الممتازة، فإذاتعذر وصول مصر إلى غايتها بطريق التفاهم مع الدول، فإنها تحتفظ بحقوقها كاملة إزاء نظام الامتيازات والمحاكم المختلطة، أو بعبارة أخرى تصبح حرة في إلغائها من تلقاء نفسها.

وينص الملحق المذكور فوق ذلك على بعض المبادئ العامة التي اتفق على اتخاذها أساساً لوضع الاتفاق المذكور، ومنها أن أي تشريع مصري يطبق على الأجانب يجب إلا يتنافى مع مبادئ التشريع الحديث ويجب ألا يتضمن تمييزاً مجحفاً بالأجانب، وأن تبقى مسائل الأحوال الشخصية الخاصة برعايا الدول الممتازة من اختصاص المحاكم القنصلية لمن ترغب ذلك من الدول، وأن يعاد النظر في القوانين الحالية وأن يصدر قانون جديد لتحقيق الجنايات.

وقد بادرت الحكومة المصرية مذ أبرمت المعاهدة المصرية الإنكليزية في ديسمبر الماضي،

إلى اتخاذ الخطوات لسريعة لتنفيذ هذا البرنامج. ففي السادس عشر من يناير سنة 1937 وجهت الحكومة المصرية إلى الدول ذوات الامتيازات مذكرة أولى تدعوها فيها إلى المثول في المؤتمر الذي اعتزمت عقده للبحث في مسألة إلغاء الامتيازات الأجنبية في مدينة مونترو بسويسرا في 12 أبريل. وفي الثالث من فبراير وجهت إليها مذكرة أخرى تفصل فيها المبادئ التي ترى مصر من جانبها أن تتخذها أساساً للاتفاق المنشود، وخلاصتها أن يحال اختصاص المحاكم القنصلية سواء الجنائية أو في منازعات الأجانب المتحدي الجنسية إلى المحاكم المختلطة، وأن لا يشمل اختصاص هذه المحاكم سوى الأجانب الذين هم فعلا رعايا الدول ذوات الامتيازات، وأن يلغى التوسع

الصوري الواقع في تفسير كلمة أجنبي وفي مسألة الصالح المختلط، وأن يكون للمحاكم الأهلية أن تنظر في قضايا الأجانب الذين يرغبون في اختصاصها، وأن تمتنع المحاكم المختلطة عن النظر في القضايا الخاصة بسيادة الحكومة وألا تفسر أو تفصل في صحة أي قانون أو أمر أداري، وألا يكون هناك تمييز بين القضاة الوطنيين والأجانب في مسالة تنظيم الدوائر ورياستها، وأن تحرر الأحكام باللغة العربية مع إحدى اللغات الأجنبية المقررة. . . الخ

وقد قبلت الدول الممتازة دعوة الحكومة وأبلغتها في الوقت المناسب أسماء مندوبيها في المؤتمر؛ وهذه الدول هي بريطانيا العظمى، فرنسا، والولايات المتحدة (أمريكا) وإيطاليا، والسويد، والنرويج، وأسبانيا، والبلجيك، واليونان، وهولنده، والدنماركة، والبرتغال. أما ألمانيا فقد فقدت امتيازاتها بمقتضى معاهدة فرساي في سنة 1919، وتعاقدت فيما بعد بمعاهدة صداقة مع مصر منحت فيها بعض الامتيازات المؤقتة لحين إلغاء الامتيازات، وكذلك فقدت إمبراطورية النمسا والمجر (وهي الآن مكونة من النمسا، والمجر، وتشيكوسلوفاكيا) امتيازاتها بمقتضى معاهدة سان جرمان (معاهدة الصلح أيضاً)، ولكن النمسا عقدت مع مصر معاهدة صداقة منحت فيها امتيازات مماثلة لامتيازات ألمانيا؛ وكذلك فقدت روسيا السوفيتية امتيازاتها نهائيا، ولم تعترف الحكومة المصرية بها إلى اليوم

وعقد مؤتمر مونترو في موعده المحدد أي في الثاني عشر من أبريل سنة 1937؛ وكان وفد مصر مؤلفا من مصطفى النحاس باشا رئيس الوزارة، والدكتور أحمد ماهر رئيس مجلس النواب، وواصف غالي باشا وزير الخارجية، وعبد الحميد بدوي باشا رئيس أقلام

قضايا الحكومة؛ واستمر المؤتمر منعقدا حتى اليوم الثامن من مايو حيث تم توقيع الاتفاق الذي انتهت إليه مصر والدول؛ وكانت فرنسا اشد الدول صلابة وتمسكا؛ وقد دافعت مصر عن وجهت نظرها ما استطاعت، وتمسكت بالأخص بالنقط الأساسية التي تتعلق بالسيادة المصرية؛ بيد أنها اضطرت إلى التساهل في بعض التفاصيل والضمانات الخاصة بفترة الانتقال؛ وجاز المؤتمر كثيرا من الأزمات الدقيقة التي أثارتها فرنسا بتشددها وفداحة مطالبها. وهذه خلاصة للمبادئ الهامة التي تم الاتفاق عليها:

أولا - وافقت الدول على إلغاء الامتيازات الأجنبية وكل ما يترتب عليها من الحقوق والمزايا الخاصة إلغاء تاماً شاملاً

ثانيا - ألغيت جميع القيود التي كانت قائمة في سبيل التشريع المصري بما ذلك التشريع المالي على الأجانب، واصبح من حق مصر أن تطبق على الأجانب جميع القوانين التي تطبقها على الوطنين، وألغى حق الإشراف الذي كانت تزاوله المحاكم المختلطة في تطبيق هذه القوانين وفي الحكم بصحتها

ثالثا - رضيت مصر بتنظيم فترة للانتقال حددت مدتها باثني عشرة عاما، يحتفظ خلالها بالمحاكم المختلطة، ويضاف إلى اختصاصها اختصاص المحاكم القنصلية في المواد الجنائية والمدنية؛ وكذلك في مواد الأحوال الشخصية بالنسبة للدول التي ترغب في نقل الأحوال الشخصية إليها

رابعا - يقتصر اختصاص المحكم المختلطة أثناء هذه المدة على رعايا الدول ذوات الامتيازات، وكذلك رعايا الدول الآتية: ألمانيا، النمسا، تشيكوسلوفاكيا، المجر، يوجوسلافية، سويسرا، بولونيا، رومانيا؛ ويتناول اختصاصها الرعايا المحميين أيضاً في المواد الجنائية. أما في المواد المدنية فلهؤلاء الرعايا أن يختاروا بين المحاكم الأهلية والمختلطة. وفي الأحوال الشخصية بالنسبة للرعايا الذين ينتمون إلى طوائف دينية معينة يبقى الاختصاص الطائفي. ولا امتيازات لرعايا سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن

خامسا - يحظر على جميع المصريين أن يلجئوا إلى حماية أية دولة أجنبية

سادسا - في نهاية فترة الانتقال تلغى المحاكم المختلطة وذلك في 12 أكتوبر سنة 1949، كما تلغى المحاكم القنصلية ويخضع جميع الأجانب المقيمين بالقطر المصري للقضاء المصري في جميع الأحوال المدنية والجنائية والشخصية

هذه هي المبادئ الجوهرية التي انتهى إليها اتفاق مونترو بين مصر والدول لحل

مشكلة الامتيازات الأجنبية

ويعتبر اتفاق مونترو بالنسبة لمصر حادثا عظيما في تاريخها لا يقل في أهميته عن المعاهدة المصرية الإنكليزية ذاتها؛ وقد تحطم صرح الامتيازات الأجنبية بعد أن لبث زهاء أربعة قرون كابوسا مرهقا، يحد من سلطان مصر وسيادتها حدا أليما، ويجعل الأجانب سادة في أرضها يتمتعون بحقوق ومنح لا يتمتع بها أبناء البلاد أنفسهم. نعم أن مصر اضطرت نزولا على مقتضيات الظروف الدولية أن تقبل فترة انتقال يبقى فيها هذا النظام أثنى عشرة عاما أخرى تستعد المصالح الأجنبية فيها لاستقبال العهد الجديد؛ ولكن نظام الانتقال يعتبر بصورته التي بسطناها نظاما مخففا معقولا بالنسبة للامتيازات القديمة، ولا يحد من السياسة المصرية حدا خطيرا، هذا فضلا عن أن أثنى عشرة عاما ليست شيئا مذكورا في حياة الأمم

(* * *)

من الأدب التحليلي

أنا. . .

للأستاذ علي الطنطاوي

- 1 -

قال لي أهلي: لقد جئت إلى هذه الدنيا عاريا بلا أسنان، لا تحسن النطق، ولا . . . . . تعرف شيئاً. . . فضحكت ولم أصدق. فأعادوا ذلك علي وألقوه كأنه قضية مسلمة وأمر واضح لا يحتمل الشك، وعجبوا مني حين أكذبه وأرده. . . ولكني بقيت على رأيي الأول، لم استطع مطلقاً أن أصدق ما يقولون، لأني أعرف بنفسي منهم، ولأني أذكر ماضي كله: أذكر أنني فتحت عيني ذات يوم فجأة ونظرت. . . فوجدت نفسي، ورأيت أن لي أسناناً وعلي ثياباً، وبي قدرة على المشي والنطق، ورأيتني شخصاً مستقلا عن أبي وأمي وسائر أهلي، أحب أشياء لا يحبها أحد منهم، وأكره أشياء لا يكرهونها، ولا يميزني منهم إلا إني كالطبعة المختصرة من الكتاب، فيها كل الأبواب والفصول بيد أنها بالقطع الصغير . . .(موجزة و

أفيعقل أن أكون موجوداً قبل ذلك اليوم، وأنا لا اعرف نفسي؟

مستحيل!

وأستقر في ذهني من يومئذ، أولدت وأنا في الرابعة من عمري!!

- 2 -

وصرت أرى هذا الطفل دائما، أبصر صورته في المرآة وأسمع صوته بإذني، وأصغي إلى حديث أمي عنه بشغف وسرور، فكنت أشعر بميل غريب إليه، حتى إني لأعترف الآن بأنه كان أحب إلي من أمي، التي لم أكن أعدل بها أحداً ولا اقبل كنوز الأرض بدلا من امتصاص ثديها والنوم على صدرها. . .

ذلك الطفل الباسم، ذو العينين السوداوين، والشعر. . . يا للأسف! إني لا أستطيع أن أتخيل شعره، لقد محيت صورته من ذاكرتي، لقد اختفى من الدنيا منذ ربع قرن، لقد ذهب إلى حيث لا أدري؟ فهل كنت أنا ذلك الطفل؟ هل تجيء يده الصغيرة الغضة في يدي الخشنة

التي اخط بها هذا المقال؟ فأين ذهب إذن؟ ومن أين جئت أنا؟. . . إنني لست ذلك الطفل ولست غيره. . . فكيف يعقل هذا؟

هذا يحيرني دائما، ولا اعرف له حلا، بل إن مجرد التفكير فيه يدفعني إلى الجنون. . .

- 3 -

ونظرت يوما من الأيام - فإذافي مكان ذلك الطفل اللاهي اللاعب - العابث بكل شيء، الذي يحطم كل ما يصل إليه، ويقبض على الجمرة المشتعلة بيده كما يقبض على البرتقالة الحمراء، ويعبث بلحية القاضي إذا هو بلغها، كما يعبث بشعر الهرة. . . إذ أتى مكانه تلميذ يقرأ مكرهاً، ويكتب مضطراً ويحمل هم المدرسة التي يذهب إليها كل يوم كالذي يساق إلى الموت، لا يعرف لوجوده فيها معنى، ولا يدري فيم يدع عطف أمه، والأنس باخوته، ولم يترك بيته وما فيه من الدفء في الشتاء، والظل في الصيف، ليذهب إلى هذه الدار التي يحشد فيها الأطفال الأبرياء المساكين، لتحشى أدمغتهم بمسائل لا يدركون معناها، وشروح لا يعرفون مغزاها، وتنال من أبشارهم وظهورهم عصا المعلم الغليظة، وتقذى عيونهم برؤية طلعته البغيضة، لا المعلم يبسم لهم،

ويدعوهم إلى حبه، ولا أهلوهم يستمعون شكواهم وينصفونهم. . . لقد كان في هذه المدرسة كالمحكوم عليه بالسجن ظلماً. . .
يا لهذا التلميذ البائس الذي لم يكد يفتح عينيه على الدنيا حتى أبصر الشقاء والألم. لقد مات كمداً، ومضى مسرعا في طريق الفناء. . . مسكين. . . إنه لم يكن إلا أنا، أنا الذي ولدت ومت مائة مرة، حتى صرت الآن. . . (أنا)

- 4 -

وكان يوم آخر، فإذا (الفلم) ينكشف هذه المرة عن منظر جديد: اختفى التلميذ الجميل، ذو السراويل القصيرة، والقميص الأحمر، والحقيبة الزرقاء الصغيرة، وذهب بجسمه ونفسه وميوله وأفكاره، وظهر الشاب الحليق الوجه، ذو (الربطة) الطويلة، والحقيبة السوداء الواسعة. . . ظهر في الثانوية طالباً متحمساً، كأنما ركبت أعصابه من الديناميت، وصنع فمه على مثال فوهات الرشاشات، فلا يكاد يقع في المدرسة حادث، أو تقوم في البلدة ضجة، إلا انفجر الديناميت وانطلق الرشاش، وقام في الطلاب خطيبا ثائراً مثيراً، فحطموا
الباب وخرجوا. . . كان ينتقم بهياجه وثورته لذلك التلميذ الهادئ الحي المظلوم. . . ولكن الامتحان لم يلبث أن كشر له عن أنيابه وجاء ينتقم منه. . .
هذه هي البكالوريا. فتهيأ لها. إن مستقبلك معلق عليها. . . ولم يكن قد فكر في المستقبل. أو حسب له حساباً فلما سمع به وقف وتردد وكبح من جماح نفسه. . . يجب أن يضمن المستقبل. ليصل إلى آماله. آماله الكبار التي كانت تملأ نفسه ولا يشك في بلوغها. . . وكان قد بدأ ينشر في جرائد البلد فهو يجب أن يكون كاتباً كبيراً منتجاً يخدم بقلمه وطنه. ويدافع به عن الحق والفضيلة. ويقاتل به خصومها وأعداءها ويساهم في تحرير وطنه. ويكون له في (الإصلاح الشعبي) أثر يذكر. فليسع إذن لنيل الشهادة، فإنها تبلغه كل أمل. وتوصله إلى أبعد غاية. أن الدنيا كلها ترتقب نجاحه في (البكالوريا). فإذانجح فتحت له الأرض كنوزها. وحمله الناس على أعناقهم إلى سدة المجد. وقاموا بين يديه قيام الخدم بين أيدي الملوك. . .
تلك كانت أحلام الصبا. . . فيا رحمة الله على عهد الصبا!

- 5 -

حرم الشاب على نفسه كل متعة من متع الدنيا، فلا نزهة ولا راحة، ولا حظ له في النوم العميق، ولا الطعام الهنيء ولا شغل إلا شغل المدرسة، حبس نفسه بين كتبه ودفاتره يقرأ أناء الليل وأطراف النهار، ينتقل من هذيان الأدباء إلى طلسمات الرياضيين والعلماء، وحساب الجيب والمماس، إلى شعوذات الطبيعيين وأصحاب الكيمياء، ودرس الملح والحامض والضياء والكهرباء، إلى خرافات الفلكيين وجغرافية السماء، يدس هذا الهراء كله في دماغه ليصبه يوم الامتحان في ورقة الفحص، ثم يلقيه في مكانه، ويخرج من المدرسة فارغ الرأس كما دخلها أول مرة. . .
كان يخشى أن يثأر منه المدرسون الذين جرعهم الصاب وسقاهم الحنظل باعتراضاته ومناقشاته وثوراته فيسقطوه في الامتحان، فجد كل الجد، ولم يدع في كتب المدرسة حاشية إلا حشاها في رأسه، ولا تعليقة إلا علقها في ذاكرته، ثم دخل الامتحان بعقل من سطوح وأجسام، وخطوط وأرقام، وخرافات وأوهام، فنجح أعظم نجاح. . .
وهل ينجح في الامتحان إلا من حفظ ولم يفهم؟ وهل تدل هذه الامتحانات إلا على قوة الذاكرة، وشدة الحفظ وإتقان المنهج المقرر؟
نجح، فوثب فرحا، وتهيأ لخوض معركة الحياة، فقالوا له: مهلا! قال: ماذا؟ قالوا: لابد من شهادة عالية، أن المستقبل لا يضمن إلا بشهادة عالية!
قال: ويحكم! وهل يبنى المستقبل على (الورق)؟
وانطلق يلعن هذا المستقبل، الذي حرمه عبث الطفولة ومتعة الشباب، ونغص عليه حياته، ولم يتركه يستريح إلى حاضره يوماً واحداً، كان أبداً يدفعه إلى الأمام، فيعدو كالفرس المحموم، فيتعب من العدو، ولا يصل إلى منزل!

- 6 -

راح الشاب يدرس الحقوق لينال الشهادة، ويضمن المستقبل، ويشتغل بالأدب، ليستجيب للرغبة، ويحظى بالمتعة ويعمل في الجريدة، ليضمن العيش، ويعول الأسرة. . . واستمر على ذلك حتى نال (الليسانس) فربح بقربه من الأدب البعد عن الناس،

والجهل بالحياة، وكسب بميله الأدبي وطبعه المستوحش، وجهله بالحياة، خصومة الناس، ومضادة الكبراء وعداوة المال. . .

- 7 -

نزل الشاب إلى ميدان الحياة، برأس مترع بالعلوم، والمبادئ السامية، ويد مثقلة بالشهادة الابتدائية والثانوية والعالية، وجيب خاوٍ خالٍ.

فلم تكن إلا جولة واحدة، حتى ولى منهزماً!

ذلك لأن سلاحه، من (طراز قديم) لم يعد يصلح اليوم في معركة الحياة!

ولقد خدعته المدرسة، وكذبت عليه، وصورت له الحياة على غير حقيقتها:

قالت له المدرسة: العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، فرأى أن المال في الحياة خير من العلم، العلم لا ينال إلا بالمال، فلو أن شابا كان أذكى الناس، وأنبه الناس، وكان مفلساً لا يملك أجور المدرسة، وأثمان الكتب والثياب، لما قبل في جامعة ولا حصل علما - والعلم لا يثمر إلا بالمال، فلو أن اعلم أهل الأرض، كان مفلساً، يفكر في خبزه من أين يأتي به، وبيته كيف يستأجره، لما بقي له عقل يفكر، وذكاء ينتج، ورأى أن أصحاب الأموال الجاهلين، تبيحهم الحياة أجمل ما تملك من متع ولذائذ ومجد وجاه، والعلماء الفقراء محرومون من كل شيء.

نعم أن المدرسة كانت تكذب عليه!

وقالت له المدرسة: (الأخلاق أساس النجاح) وضرب له المعلم مثلا سيئا طلابا لا أخلاق لهم ولا عفاف. وضرب له مثلا عالياً طلاباً كانوا نموذج الطهر والاستقامة والشرف، فرأى أن الأولين قد بلغوا أعلى المراتب وأسمى المناصب والآخرين تحت تحت. . . على العتبة. . .

فعلم أن المدرسة كانت تكذب عليه!

وقالت له المدرسة: أن الحق فوق القوة. القوة للحق وليس الحق للقوة، فآمن بذلك وصدقه، وتسلح بسلاح الحق، فما راعه إلا اللص يضع مسدسه في صدغه يطلب ماله وثيابه، فألقى عليه محاضرة في الحق، جمع فيها كل ما تعلمه من أساتيذه، وأضاف إليه ما انشق عنه ذهنه فرد عليها اللص بقهقهة مروعة. . . وذهب بأمواله وثيابه ورجع هو عارياً. لم يبق له إلا فكرة سخيفة لا تسمن ولا تغني من جوع ولا تنجي من برد. . . ورفع شكواه إلى القاضي، فلم ير عند القاضي حقا يقهر القوة، ولكن وجد عنده قوة تصنع الحق، وجد قوة الجنود، فأين يبقى الحق إذاثار اللصوص على الجند أو فتكوا بهم؟

هذه هي سنة الحياة، وليس على الحياة ذنب، فهي سافرة لن تستتر ولم تخدع أحداً عن نفسها، ولكن الذنب على الأدباء والمدرسين الذين وضعوا عيونهم في أوراقهم، وحبسوا أنفسهم في مكاتبهم، وأرادوا أن يدرسوا الحياة فلم يفهموا منها شيئاً. . .

- 8 -

وجلس الشاب (الليسانسيه في الحقوق) يدون آراءه تلك في كتاب، فلما انتهى منه حمله إلى الناشر، وكله زهو وإعجاب بنفسه. . . فقلبه الناشر العامي وصفحه، فلما رأى اسم صاحبنا عليه لوى شفتيه، وقوس حاجبيه وقال له:

- إن الناس لا يقرءون الآن ما تكتب، ومتى صرت (في المستقبل) كاتباً مشهوراً ننشر لك آثارك

فخرج متعثراً بأذيال الخيبة. . . يلعن المستقبل لعناً

ما هو هذا المستقبل؟ وهل اقتربت منه شبراً واحداً وأنا أركض وراءه منذ سبعة وعشرين عاما؟ فمتى أصل إليه؟ وأين هو؟ أهو في العام الآتي، أهو فيما بعد خمس سنين؟ وهل يبقى مستقبلا إذاأنا بلغته أم يصبح حاضرا، ويكون على أن أبلغ مستقبلا آخر؟. . أيكون مستقبلي القبر؟ لقد طوفت في الآفاق، وشرقت وغربت، وأنجدت وأعرقت. . . فما رجعت إلا بالخيبة والتعب والإفلاس. فأين أجد الهدوء والراحة من هموم العيش، حتى أنصرف إلى ما خلقت له من الدرس والمطالعة والكتابة والتأليف؟

وذهب الشاب (الليسانسيه في الحقوق) يفتش عن الخبز فلم يجده عند ناشر الكتاب، ولا في إدارة الجريدة ولا في مكتب المحامي ولم يجده إلا في مدرسة القرية، فصار (معلم صبيان) فيها، يقرئهم ألف باء، ثم ارتقت به الحال قليلا، فصار يدرس سير

الأدباء وأشعار الشعراء. . . يكد ويتعب، في الليل والنهار يحمل آلام الغربة، وعناء العمل، ثم لا ينتج أثراً أدبياً، ولا يفيد علماً ولا يحفظ في جيبه درهما واحداً. . .
. . . . . إنه يشتغل من اجل المستقبل.

- 9 -

أين ذلك الطفل الذي كان يكره المدرسة، ويبغض المعلم القاسي - من هذا المعلم الفظ، الذي يرهق الأطفال ويهز عصاه في وجوههم، ويقرع بها جنوبهم. . . من يستطيع أن يتصور أن هذا هو ذلك؟ وأي شبه بينهما؟ إنهما مختلفان في الجسم والشكل والطبائع والميول، فلن يكونا شخصا واحداً!

أين ذلك الطالب المتحمس الذي كان يقود الطلاب إلى المظاهرات، ويخطب في المساجد والمجامع والأسواق؟ من هذا المدرس الخامل الذي يلقي دروس الأدب على هؤلاء الطلاب، ويبدو فيهم كشيخ هم في الثمانين؟ هل هما شخص واحد؟

إن ذلك الطالب لو رأى هذا المدرس لأبغضه وكرهه ولما تردد في البطش به!

وأين ذلك الشاب الذي تفيض نفسه بالآمال الكبار؟ من هذا اليائس القانط الذي لم يعد يأمل في شيء، لأنه جرب فلم يصل إلى شيء؟

- 10 -

وبعد. فلم أفكر في هذا؟ إنني لا ادري من أنا، ولا أعرف كيف وجدت، ولا أعلم ما هي صلتي بذلك الطفل الذي نسيت حتى صورة وجهه، وذلك التلميذ الذي لم اعد اعرفه إلا بالتخيل، وذلك الطالب الذي احبه وأتشوق إليه، وذلك المعلم الذي أرثي له وأشفق عليه؟

هل أنا كل هؤلاء؟ وماذا بعد؟

يا الله! إني أحس كأني جننت حقاً!

(بغداد)

علي الطنطاوي

تحية للرافعي

للأستاذ منصور فهمي بك

مات مصطفى صادق الرافعي، وما لقيته إلا مرات قليلة قد لا تتجاوز أصابع اليد عدا، ولم ترتبط بيني وبينه عقدة الصداقة الخاصة التي طالما يكون من شأنها أن تؤلف بين قلوب الناس على الأنس والمودة في الحياة، وطالما يكون من شأنها في الممات أن تؤوي الأسى في القلوب.

على انه إذاكان قد قل لقائي بالرافعي في الحياة، ولم تربطني به علاقة وثيقة من حقها أن تدفع القلم في سبيل الرثاء فإن في حق الوفاء لما قدم الرافعي من خير متسعاً يفسح لقلمي ولغيره من الأقلام الوفية أن تذكر ذلك الراحل العظيم.

وعظمة الرافعي التي أنوه بها الآن على عجل إنما مرجعها اتصاله الوثيق بتراثنا الأدبي القديم دون غيره فنهل من شرابه العذب، وتغذى من خلاصاته القوية الصالحة، فإذا بها تتمثل في أسلوبه، وتتغلغل في أدبه وتهذيبه، وتتمازج في تفكيره وتعبيره، وتندمج في تقديره وتدبيره، فاستطاع أن يشق للأدب القديم التليد، سبيله في الأدب الحديث العتيد.

فأي إنسان يرى في التراث الماضي نبل هذا التراث ولا يألم حين يفتقد حارساً يقظاً لهذا التراث وداعياً له عليما، ومعرفاً به حكيما؟ وأي وريث لثقافة العرب لا يجزع حين يموت أديب عربي كبير كان يعرض في أدبه للخلف، جميل ما جادت به نفوس السلف؟ وأي أسف لا يستولي على النفوس بموت الرافعي النابغة الأديب حين يمر على الخاطر أن الناس قد فتنوا بالحاضر، فنسوا وعقوا محامد الغابر؟

وإذا كان من حق الآثار الصالحة أن تبعث من قبورها، أفلا يحق على الناس أن يأسفوا على من كان يعمل على نشرها من مراقدها؟

وا أسفاً على الرافعي، ثم وا أسفاً على الرافعي!

فإلى الأدباء إذن وإلى الشعراء، وإلى آل الرافعي جميل العزاء، وعليهم جميعاً للرافعي الأديب الكبير بعد ذلك حق الوفاء.

منصور فهمي

في الأدب المقارن
التاريخ في الأدبين العربي والإنكليزي
للأستاذ فخري أبو السعود

التاريخ قصة الإنسانية وحكاية ماضيها، يصف حياة الإنسان من قديم عهوده، وتقلب أحواله على مرور العصور، وكفاحه في سبيل التقدم والسعادة، ويعرض أعمال الأمم وعظائم الأفراد وتعاون الشعوب حينا وتعاديها أحيانا، ويشرح سريان الحضارة والثقافة من صقع إلى صقع، ومن جيل إلى جيل، ومن أمة إلى أخرى، وما أضافته إليهما عبقرية كل شعب، من مستحدثات العلوم والفنون والصناعات؛ فالتاريخ سجل مليء بالعظات والدروس، حافل بالمتعات والطرائف، يمتع اللب سياقه القصصي، وينبه الخيال بعده الزمني، ويملا النفس أحيانا بالفخار الوطني، ويثقف الإنسان في حاضره ويبصره بما بين يديه، حين يعرض عليه أنباء الماضي ووقائعه

ولا يستمد التاريخ مما دونه المؤرخون في طروسهم فقط، بل يستمد بجانب ذلك من آثار الفنون المتخلفة عن الأمم، من عمارة ونحت وتصوير وأدب، ففي كل هاتيك صور من عقلياتها ومذاهبها ومجتمعاتها ومنازعها؛ فتاريخ الحضارة المصرية القديمة لا يستمد إلا أقله مما دونه المصريون أنفسهم أو من جاء بعد عهدهم من مؤرخي الأمم التالية، أما أكثر ما يعرف عن حياتهم الاجتماعية وتقاليدهم وديانتهم وعلومهم، فمستقى من مخلفاتهم في عالم البناء والنحت والنقش والصناعة، وقل مثل ذلك في تاريخ اليونان والرومان، وغيرهم من الأمم التي أنشأت الحضارات وكان لها في العلم والفن شأن يذكر

فتاريخ الأمة وفنونها متصلان أوثق اتصال، فالعوامل النفسية التي تسيطر على المجتمع والحكومة وتؤدي إلى الأحداث والتطورات السياسية والاقتصادية، هي هي العوامل النفسية التي تسيطر على فنون الأمة، فيميل أبناءها إلى فنون دون أخرى، وينحون بفنونهم أنحاء خاصة دون غيرها؛ فقدماء المصريين الذين كانوا يخضعون لملكية مطلقة دينية الصبغة ويؤلهون ملوكهم، نبغوا في علم العمارة في بناء المعابد والمقابر دون القصور، ونحتوا التماثيل للملوك والآلهة، لا للأبطال والزعماء والخطباء والرياضيين كما فعل الإغريق ولم يرتق فيهم الأدب الذي يترجم عن مشاعر الفرد، ويعبر عن خوالج المجتمع

والأدب أشد الفنون اتصالا بتاريخ الأمة وارتباطا بتطورات المجتمع، إذ كان صدى ناطقاً دقيقاً لما يحس به الفرد والمجتمع، بل الأدب مصاحب في بدئه للتاريخ في ظهوره، يتمازجان لدى الجماعات البدائية في محاولتها تفسير ظواهر الكون والتغني بمفاخر أسلافها، ويشاب كل ذلك بالخرافات، ويظل الأدب والتاريخ مختلطين على ذلك النحو مادامت الأمة في عهد بداوتها، فإذا ما تحضرت ودونت الكتب بدأت العلوم تتفرق وتتميز ويستقل كل منها بنفسه، فظهر المؤرخون واستقلوا بأمرهم عن الأدباء، بيد أن الصلات بين الأدب والتاريخ تظل محكمة، إذ كان كل منها مرآة للمجتمع تعكس صورته من زاوية مختلفة

فالأديب لا غنى له عن درس تاريخ الماضين والتبصر في تاريخ عصره، كي يتثقف عقله ويحصف فكره لأحوال البشر، والمؤرخ لا غنى له عن النظر في كتب الأدباء ليفهم روح العصر الذي يؤرخ له ومثله العليا، ولا غنى له إذا أراد أن يجيء تاريخه كاملا عن أن يفرد جانباً منه لدرس الحياة الأدبية لذلك العصر، والمؤرخ للأدب لا ندحة له عن درس التاريخ السياسي للعصور الأدبية، والبيئات السياسية والاجتماعية التي عاش فيها الأدباء الذين يترجم لهم؛ وقد كان من عظماء اليونان والرومان أمثال ديموستين وتيوسيديد وقيصر وشيشرون من جمعوا بين البلاغة الأدبية والتأليف التاريخي، أو بين حرفة الأدب وحرفة السياسة وصنعة الحرب

إذا ما بلغت الأمة طور الحضارة والاستقرار والثقافة، ودخل الأدب في طوره الفني، تميز التاريخ وقام علما مستقلا بنفسه كما تقدم والتفت إليه الأدباء فوجدوا به مجالا لفنهم رحيباً ومرتعاً لابتكارهم خصيباً، فهم لا يكتفون باستيعاب حقائقه واجتناء فوائده، بل يتخذون من مشاهده وأحداثه ورجاله مادة وغذاء لأقلامهم، ومسارح لخيالهم ومنادح لبيان آرائهم في الإنسان والحياة، وشواهد لتدعيم حججهم في المذاهب والمشاكل، فيتخذ منه الشعراء موضوعات لقصيدهم، والقصصيون هياكل لقصصهم، ويجدون في

عوالمه البعيدة وحوادثه القريبة وعظمائه النابهين مهربا للنفوس من عقال الحاضر القريب، وأحداثه العادية
كان الشعر في الجاهلية ديوان العرب لأنه - هو والقصص - كانا يحويان أخبار العرب، ويحفظان مشهور حوادثهم وأيامهم، ويحكيان أخبار رحلاتهم واستقرارهم، ويشيران إلى ما
وراء ذلك من عوامل اقتصادية واجتماعية وعصبية، فلم يكن العرب إذ ذاك يعرفون من التاريخ إلا حفظ الأنساب، فلما تحضروا واستقروا في المدن تضاءل شأن النسابة وظهر التاريخ المدون، ظهر أولا لغرض عملي شأن كل العلوم والفنون، لحفظ أخبار الفتوح وسيرة النبي الكريم شيئاً فشيئاً وصارت له أغراض غير هذه وتناول موضوعات أخرى أرحب وأعم
بيد أن التاريخ لدى العرب - كالأدب - ترعرع في ظل الملكية المطلقة، فجاء كلاهما مشتملا على نفس النقائص: احتفى كلاهما بأمر الملوك وأغفل جانب الشعوب، واهتم بالأحداث السياسية والحروب وتجاهل التطورات الاجتماعية والاقتصادية، واتسم كلاهما بالمحافظة والتقليد والنقل في غير نقد، لأن وطأة الملكية كانت تضطر كلا منهما إلى الإطراق والإغضاء والتغافل عن مواطن الضعف ودواعي الإصلاح، وكما كان الشعراء يقرضون الشعر ليتقدموا به إلى الأمراء متزلفين، فيملأونه بالمدح المغالي فيه، كان بعض المؤرخين يصنفون أسفارهم ليرفعوها إلى بعض الخلائف والسلاطين بغية الثواب والحظوة، فيملأونها بمدحه ومدح أسرته وتعداد مآثره ومفاخر دولته، ويؤيدون دعواه وينحون على عداه، ويتغاضون عما عدا ذلك
وقد ظل الاتصال قائما بين الأدب والتاريخ بعد تدوين الكتب واستقلال علم التاريخ بنفسه، فظلت كتب الأدب تحوي كثيراً من أخبار الجاهلية والاسلام، بل كانت تلك السير والإخبار والشذرات والنوادر من أهم مواد كتب الأدب العربي، ووردت في أشعار الشعراء شتى الإشارات إلى أحداث الماضي ورجاله، كما أن المؤرخين وكتاب التراجم والمعاجم كثيراً ما كانوا يلجأون إلى الشعر مستشهدين لما هم بصدده من تحقيق حادثة، أو تصويب رواية؛ وكان بعضهم يعيرون الشعراء اهتمامهم فيترجمون حياتهم ترجمة موجزة، وكان بعض الشعراء ينظم في أحداث جيله، كما فعل ابن الرومي في ثورة الزنج وفي مقتل بعض العلويين الخارجين. وكان كتاب الأمراء يتناولون مسائل السياسة في رسائلهم، فيندرج أشعار أولئك وكتابات هؤلاء في تراث التاريخ اندماجها في كنوز الأدب
بيد أن الأدب العربي الذي أغفل كثيرا من موضوعات القول التي يتهافت عليها الأدب إذا ما بلغ طوره الفني، أهمل التاريخ إهمالا كبيرا، فلم يتخذ من حوادثه وحيا للنظم، ولا من
أعاجيبه مدارا للقصص، ولا من أبطاله أمثلة للتمجيد، فليس من بين أدباء العربية الكبار من استهزه حادث تاريخي قرأه، أو أثر تاريخي وقف به، إلى نظم قصيدة أو إنشاء رسالة يستجلي فيها عبر التاريخ ويمجد قوة الإنسان، أو يندب ضعف حيلته إزاء جبروت المقادير. وليس من كتاب العربية ذوي الأساليب الجزلة من شمر عن ساعد الجد والبحث والاطلاع حتى كتب تاريخاً رفيعاً لبعض العصور أو الرجال، تاريخاً يعد تحفة في عالم الأدب كما قد يعد مرجعاً في عالم التاريخ، وإنما كان بعض الشعراء يتنصلون من الشؤون الاجتماعية والسياسية، ويتبرؤن من الاشتغال بمسائل التاريخ، كما قال ابن المعتز:
قليل هموم القلب إلا للذة ... ينعم نفسا آذنت بالتنقل
ولست تراه سائلا عن خليفة ... ولا قائلا: من يعزلون؟ ومن يلي؟
ولا صائحا كالعير في يوم لذة ... يناظر في تفضيل عثمان أو علي
أما في الإنجليزية حيث كان الأدباء والمؤرخون كغيرهم من أفراد الشعب يشاركون في الحياة الاجتماعية والسياسية بآرائهم ومذاهبهم، بل بأعمالهم ومساعيهم، فقد جاء كل من الأدب والتاريخ أكثر حرية وأقرب إلى جانب الشعب، وأكثر طروقاً لمواضيع المجتمع ومشاكل بنيه، وجاء الاتصال بين الأدب والتاريخ شديد التوثق، وجاء الأدب الإنجليزي أحفل بآثار المجتمع الذي قيل فيه من الأدب العربي، ومن ثم تدرس النصوص الأدبية الكثيرة في أثناء دراسة التاريخ في الجامعات، فتدرس آثار ملتون مثلا

عند دراسة عهد المطهرين في إنجلترا
ووجد أدباء الإنجليزية في التاريخ مجالا واسعاً لفنهم وابتداعهم، فجال فيه شكسبير ومعاصروه جولات عديدة، واتخذوا مشاهد رواياتهم في بلاد اليونان أو إيطاليا أو دانيمركة أو إنجلترة القديمة، واشتق ملتون ودريدن موضوعات كثيرة من قصيدهم من تاريخ اليهود وأبناء ملوكهم وأنبيائهم. فلما ظهر النثر الفني بجوار الشعر لم يغفل التاريخ ولم يكن أقل لموضوعاته طرقا من الشعر، بل كان أحرى أن يشتمل على حقائقه ودقائقه ويعالج مسالكه ودروبه. بما يمتاز به على الشعر من رحب جوانبه ودقة تعبيره) فعالج جيبون وهيوم وآدم سميث وكارليل وغيرهم التاريخ والاجتماع وفلسفتيهما في أسلوب أدبي شائق، وجمع بعض الأدباء أمثال ماكولي وأرنولد بين الكتابة في الأدب والتأليف في التاريخ فكان الأدب والتاريخ لديهم كلا واحدا يجولون في نواحيه بلا تفريق، وبقيت كتاباتهم يدرسها طلاب الأدب كما يدرسها باحثو التاريخ
بل بلغ غرام بعض الأدباء بالماضي، وشغفهم بتقاليده وأزيائه ومحبتهم لأفذاذه وعظمائه حداً بعيدا، وقد كان سكوت من ذلك الضرب الذي يحيا في الماضي وبجلائله ولألائه وبطولته، ولا يكاد يلتفت إلى الحاضر أو يعنى بالمستقبل، وفي ذلك العالم السالف كتب سكوت أحسن قصصه. وممن كتب في الروايات والقصص التاريخية أيضا تنيسون وبروننج ودرنكور تروشو، وقد نرى موضوعاً تاريخياً حديثا كالثورة الفرنسية، وقد تناوله المؤلفون الإنجليز من شتى النواحي، فمحلل لحوادث الثورة وشخصياتها ككارليل، ومندد بمبادئها كبرك، ومرحب بتلك المبادئ مترنم بها كوردزورث، ومتخذ من قصة وليد تلك الثورة نابليون موضوعا لملحمة طويلة كهاردي، وهكذا تحيا حوادث التاريخ في أذهان مطالعي الأدب مصورة من شتى النواحي
ولا شك أن هذا التاريخ الأدبي. إذا سميناه كذلك، أجدر بالقراءة وأحق باهتمام المثقف من التاريخ المجرد، إذ في آثار الأدباء تحيا حقائق التاريخ وتدب فيها روح إنسانية جديدة وتمتلئ بالإمتاع، ويعود التاريخ والأدب وكلاهما مظهر لحياة الإنسان المطردة التطور والتغير، وتفكيره الدائب الحركة والتقلب، وفي هذا التاريخ الأدبي يرتبط الحاضر بالماضي، والقريب من الأمم بالبعيد، وتتقاصر مسافات الزمان والمكان، ولا يبقى إلا الإنسانية الشاملة، وهذه الإنسانية هي مجال كل فن صميم
هذا التاريخ الأدبي لم يعرف في العربية) فكان هناك المؤرخون وكان هناك الأدباء، ولكن كلا منهما كان مستقلا عن الآخر استقلالا كبيراً، ولم يكن الأدباء يعدون التاريخ مجالا من مجالات أدبهم، أو مطمحا من مطامح فنهم، يبتكرون في مجاله وينشئون، وما ذاك إلا لانشغالهم بالقريب الحاضر من شؤون العيش، عن البعيد المترامي من أمور الحياة وآفاق الفكر، لأن الأدب ظل أكثره بلاطياً يمدح الأمير ويحرر رسائله، وكان الفوز بتلك الخطوة مطمح الأديب ووسيلته الكبرى إلى الظهور فإذا ما بلغ ذلك المكان لازم ذلك الضرب الوحيد من القول، ولم يصرف أدبه إلى التأمل في شؤون الماضي والمستقبل، وهكذا أغفل الأدب العربي التاريخ فيما أغفل من موضوعات هي صميم الفن، لوثيق صلتها بالإنسانية
فخري أبو السعود
ضوء جديد على الدين الدرزي
الحياة والمعيشة الدرزية
للأستاذ محمد خالد ظاظا
يقول الأستاذ (عنان) إن كافة الرواة أجمعوا على أن الحاكم ذهب (ضحية المؤامرة والجريمة المدبرة) مع أن أنصار الحاكم ومؤيدي مذهبه يدعون أن الحاكم ارتفع إلى السماء امتحاناً للمؤمنين ولم يقتل أبداً، وعن قريب سيعود من البلاد الصينية ومعه الجيوش الجرارة فيفتح هذه البلاد جميعها ويعيد الحالة إلى ما كانت عليه؛ وسوف لا يبقى إلا الديانة الدرزية الحقة. لأنه بحكم الواقع تلغي جميع الأديان عند قدومه. وهؤلاء المؤمنون نزحوا من البلاد المصرية وقطنوا البلاد الشامية في الجبال الشرقية منها، وأسسوا مدناً وقرى اشتهر منها السويداء ومجدل شمي وبعقلين. وقد كانت لهم هذه الجبال معاقل تصد عنهم غارة الأمم الفاتحة حتى أصبح يخشى بأسهم وشدتهم، ولم يختلطوا مع الأقوام السورية، بل تجنبوهم حتى أنهم لبثوا ليومنا هذا محافظين على

تقاليدهم وعاداتهم برغم تطور الزمان وانقلاب السلطان، وبقيت هذه الديانة سراً مدفوناً إلى حين نشوب الثورة السورية في عام سنة 1926 فأذاعت من أسرارهم وديانتهم ما خفي طيلة هذه الأعوام الماضية. فالدروز ثاروا ودافعوا عن بلادهم وساهموا بقسط وافر من الوطنية، واضطروا بحكم الشدة أن يتركوا بلادهم تفعل بها نيران القنابل والمدافع فعلها، فلعبت الأيدي بكتبهم المقدسة وتراثهم المدفون وانتقلت هذه الكتب إلى أيدي الكثيرين

وقد أكد لي أحد رجال الدروز العقل أن كتابهم المقدس الذي يسيرون بموجبه ويتبعون أثره هو خلاصة عدة كتب مقدسة، أو بالأحرى خلاصة جميع الكتب الدينية ويزاد عليه بعض الحكم والنصائح. ويندر وجود هذا الكتاب عند كل درزي لأنه ينسخ ويخبأ عند رئيس الدين الأكبر لا يقرأ به إلا في الخلوة - أي الجامع. وكيفية قراءته أن الشيخ يجلس في صدر المكان ويلتف حوله السامعون بشكل حلقة مكتفي الأيدي، مطأطئي الرءوس والأبصار، خاشعي البصائر، يسمعون ما يقوله، ويفعلون ما يأمرهم به. ولا يدخل في هذه الخلوة إلا من استكملت به درجة الرجولة التامة، وبلغ مبلغ الرجال العقل، وهم بحسب ديانتهم ينقسمون إلى درجات ثلاث:

الدرجة الأولى: الجهال وهؤلاء لا دين لهم ولا يعلمون شيئاً من أمور الديانة الدرزية، وهم على الأغلب دون الثلاثين

الدرجة الثانية: العقل ولا يصل الرجل منهم إلى هذه المرتبة إلا بعد أن يبرهن أمام القوم أنه أخلد للسكينة وترفع عن الأفعال الدنيئة. وعليه قبل أن يصبح عاقلا أن يحلق رأسه بالموسى ويترك لحيته تسترسل في نموها نحو الصدر وكلما طالت كان أجره عظيما، وثوابه جزيلا. وعلية أن يتعمم بالعمة البيضاء الكبيرة.

الدرجة الثالثة: الأجاويد، وهذه الطبقة هم الأكثر تقشفاً والأعظم أجراً، وهم رؤساء الديانة الدرزية ومشايخ المؤمنين الموحدين وبيدهم الأمر والنهي، فإذا ما وجدوا أمراً ساءهم من أحد العقل طردوه من الخلوة وأخذوا الدين منه. وبذلك يصبح المطرود لا دين له، فلا يحق لهم الجلوس معه ولا السلام عليه ولا الأكل والشرب قربه، يفر منه كل من يراه، حتى أن عائلته تنفر منه وتكرهه؛ وإذا مات في هذه الأثناء يموت مسلماً وتنتقل روحه إلى كلب أو نصراني أو يهودي أو أي حيوان آخر. وأما إذا مات درزياً ومعه الدين فينال الحسنات وتنتقل روحه إلى درزي آخر أو تذهب إلى بلاد الصين، وهناك تعيش قرب الحاكم بأمره والأخوان الصالحين. ويعتقد الدروز بالتقمص ويقولون أن الروح تنتقل من رجل إلى آخر كما أسلفنا.

والمرأة الدرزية حكمها في الدين حكم الرجل، ولها ثلاث درجات بخلاف مذهب النصيرية الذين يعطون للمرأة ديناً مطلقاً، والدين عندهم من خصائص الرجال دون النساء. والدروز لا صلاة ولا صوم مفروض عليهم، ولا يعرفون شيئاً من أنواع الطرب لأنها معدودة عندهم من المنكرات المحرمة في الدين. وأقسامهم المغلظة هي: بالنبي شعيب واليعفوري، والحدود الستة، والحكمة المقدسة.

وللنبي شعيب احترام عظيم في نفوسهم ولا يعتقدون إلا بنبوته دون كافة الأنبياء. وأما اليعفوري فهو أحد أوليائهم الصالحين ذوي الكرامات له مقام يقع بين قرية مسعدة وقرية مجدل شمي في القسم الجنوبي من سورية. ويقصده الدروز من أماكن بعيدةللتبرك به والدعاء له. ولعل أغرب ما في مذهبهم أنهم لا يتزوجون من المسلمين ولا يزوجون بناتهم منهم بحجة أنه يسمح للمسلم أن يتزوج بنصرانية أو يهودية، أو يحق لمن يدخل في الدين

الإسلامي أن يتزوج مسلمة مهما كان شأنها، ولا يقبلون أحداً أن يدخل في دينهم مهما كان شأنه، ولا يسمحون لأحد منهم أن يترك دينه ويدخل في دين آخر وإن فعل ذلك عرض نفسه للقتل المحتم. وإذا خطفت فتاة منهم يتحرون عنها حتى يجدوها فيقتلون الخاطف والمخطوفة خوف إفشاء السر - هذا إذا علموا مكانهما.

والدروز ذو أجسام كبيرة وقامات طويلة ووجوه دموية يغلب عليهم الشجاعة، يسترون رؤوسهم بالعمائم الكبيرة البيضاء ويحتذون الزربول ويلبسون السروال والصدرية والعباءة ذات الأكمام القصيرة، ديانتهم عندهم إلى التقشف في كل شيء في الحياة رغبة في نوال الآخرة والجنة المعهودة.

وتحرم عليهم تعاطي المسكرات والملذات وشرب الدخان ومن فعل ذلك منهم يطرد

كما أوضحنا سابقاً. وأما النساء فيتلثمن بالشاشة البيضاء ولا يظهرن من وجوههن إلا عيونهن ويرتدين الثياب الطويلة حتى الأرجل، والشرف هو الواجب الأول عندهن - وهن على العموم يتمسكن بأهداب الفضيلة وترك الرزيلة. . .

محمد خالد طاظا

إلى الأستاذ المازني

من الأستاذ محمود تيمور

سيدي الأستاذ الأجل:

أشرت إليّ في حديثك الطريف المنشور بالعدد 200 من الرسالة الغراء، إشارة تنطوي على دعابة من دعاباتك اللطيفة التي تعودنا أن نسمعها منك. فقد ذكرت أنك كنت مدعوا إلى مأدبة عشاء، واتفق أن أجلسوك بجانب سيدة (وقور) ظنتك إياي. فانطلقت تمتدحك وتمدح مؤلفاتك، وتخبرك مسرورة أن أولادها يقرؤون كتبك (أي كتبي ولا مؤاخذة) وأنهم جد معجبين بك.

أشكرك يا سيدي الأستاذ على نشرك هذا الخبر. وسواء أكان من مبتكرات خيالك أم هو حقيقة واقعة لا شأن للخيال فيها، فإني أرى فيه دعاية طيبة لي ولمؤلفاتي، خصوصاً وأني اعد في هذه الآونة مجموعة جديدة. ولعلك قد علمت بخبر هذه المجموعة فتطوعت، من تلقاء نفسك، حبا في مساعدة زملائك الصغار (الصغار في المنزلة، وليس في السن طبعا) والأخذ بيدهم في معترك هذه الحياة الأدبية العابسة. أشكرك على طيبة قلبك؛ فأنت حقا زميل نافع لزملائه. وإني أخشى أن يفطن الأستاذ الزيات إلى هذه الطريقة المخادعة التي لجأنا إليها - أنت وأنا - فاستغللنا بضع أعمدة مم رسالته في الإعلان عن أنفسنا ومؤلفاتنا. فتكون العاقبة غير حميدة!

لا أدري، أي شيطان أجلسك بجوار هذه السيدة الوقور، فصرفتك بحديثها الثقيل عن مغازلة - بريئة أو غير بريئة - لجارتك الأخرى، تلك الغادة الهيفاء التي صوتها كالتغريد (على حد تعبيرك). لو علمت هذه السيدة الوقور أي خسارة لحقت بأدبنا العربي، بصرفها إياك عن غادتك الهيفاء، لتركتك على الفور طليقا تنعم بحريتك مع فتاتك، تستمتع بتغريدها العذب، ولفاز أدبنا بقصة رائعة من قلمك، تصف لنا فيها مغامرة جديدة من مغامراتك الغرامية، تلك المغامرات التي سيكون لزوجك (الخيالية) أثر كبير فيها، فنسمعك تقول لها: يا امرأة، ما شأنك أنت وهذه الغادة الهيفاء التي صوتها كتغريد الطيور. . . .؟ فلا تكاد تتم جملتك حتى تشعر بيد قد استولت على إذنك، وأخذت تعركها عرك أستاذية عريقاً. . .!

ولكن ما لنا ولهذا؟ إني أراهن أن هذه السيدة الوقور لم تقرأ سطراً واحداً من مؤلفاتي وإلا لما تركتها بين يدي صبيانها (فتيان وفتيات) يقرءونها بلا تحرج. هذه المؤلفات يا سيدي الأستاذ لا تخلو - كما تعلم أو لعلك لا تعلم - من قطع نعتها البعض بأنها من الأدب المكشوف. وإني شخصيا لا أميز بين هذه القطع وبين غيرها؛ فالأدب ليس له عندي غير اسم واحد هو الأدب بمعناه الواسع؛ وليس له إلا هدف واحد: هو الفن، أو على الأصح هذا ما نزعمه - والله أعلم!

فهل لك يا سيدي المحترم أن تبادر إلى هذه السيدة، وتعلن لها تلك النتيجة المحزنة، ثم تدعوها باسم الفضيلة والأخلاق أن تسلمك هذه المؤلفات الموبوءة لتطهر البيت منها؟ ولك أن تقترح استبدالها بغيرها مما يعنى بالتربية والتهذيب، وزرع الفضيلة في النشء الصغير. وكنت أود أن تحل كتبك محل كتبي، ولكني أشك في صلاحيتها لهذا الأسرة المحترمة؛ إذ أن مغامراتك الغرامية المنقطعة النظير، وهذا الشجار العائلي القائم على الدوام بينك وبين أهل بيتك (في عالم الخيال طبعا)، خطر لا يقل في نظري عن الأدب المكشوف. إذن، عليك أن توجه نفسك شطر مكتبة الأطفال. وليس أمامك إلا صديقنا الأستاذ كامل الكيلاني، فهو خير من يزودك بما تشتهي وتحب.

إن ذكر الأدب المكشوف والمغامرات الغرامية والشجار العائلي، سيدعو الفتيان والفتيات، من الأدباء وغير الأدباء، إلا أن يلتفتوا بنوع خاص لهذا النوع الجديد من الأدب، فيهرعوا إلى المكاتب متزاحمين. . . ومن ثم ينهال علينا وافر الربح. . .

وبعد هذا، ألا ترى أننا مازلنا نستغل طيبة الأستاذ الزيات في سبيل الدعاية لأنفسنا؟ إذاً فلنختصر ولنقفل الباب

والشكر الوافر والتحية القلبية من المعجب بأدبك
محمود تيمور
الرافعي
للأستاذ محمود محمد شاكر
رحمةُ الله عليك! رحمةُ الله عليك!
رحمة الله لقلبٍ حزينٍ، وكبدٍ مصدُوعة!
لم أفقدك أيها الحبيب ولكنّي فقَدتُ قَلْبي.
كنتَ لي أملاً أستمسِكُ به كلما تقطَّعَتْ آمالي في الحياة.
كنتَ راحة قلبي كلما اضطرب القلبُ في العناء.
كنتَ اليَنْبُوع الرَّويَّ كلما ظَمِئَ القلبُ وأحرقه الصَّدَى.
كنت فجراً يتبلَّج نورُهُ في قَلْبي وتتنفس نسماته،
فوَجدتُ قلبي. . . إذ وجدت عَلاقتي بكَ.
لمْ أفقدكَ أيها الحبيبُ ولكني فقدتُ قلبي
جزعي عليك يمسك لساني أن يقول، ويرسل دمعي ليتكلم.
والأحزان تجدُ الدمعَ الذي تذوب فيه لتهونَ وتضَّاءَل،
ولكنَّ أحزاني عليك تجد الدمع الذي تروَى مِنْه لتنمو وتَنْتَشر.
ليس في قلبي مكان لم يرفَّ عليه حبي لك وهوَايَ فيك،
فليس في القلب مكان لم يحرقه حزني فيك وجَزَعي عليك.
هذه دموعي تُتْرِجم عن أحزان قلبي،
ولكنها دموع لا تُحْسِنُ تَتَكَلّم
عشتُ بنفسٍ مُجْدِبةٍ قد انصرفَ عنها الخصب،
ثم رحمَ الله نفسي بزهرتين تَرِفَّان نضرة ورواء.
كنتُ أجدُ في أنفسهما ثرْوة الروضة الممْرعة فلا أحسُ فقر الجدْب!
أما إحداهما فقد قطفتْها حقيقةُ الحياة،
وأما الأخرى فانتزعتها حقيقةُ الموت،
وبقيت نفسي مجدبة تستشِعرُ ذلَّ الفقر
تحت الثرى. . . عليك رحمة الله التي وسعتْ كلَّ شيء،
وفوق الثرى. . . عليَّ أحزان قلبي التي ضاقت بكل شيء؛
تحت الثرى تَتَجَدَّدُ عليكَ أفراحُ الجَنة؛
وفوق الثرى تتقادمُ عليَّ أحزان الأرض!
تحت الثرى تتراءى لرُوحك كلُّ حقائق الخلود
وفوق الثرى تتحقَّقُ في قَلبي كلُّ معاني الموت.
لم أفقِدْك أيها الحبيب ولكنّي فقدت قَلْبي
حَضَر أجلك، فحضرتني همومي وآلامي.
فبين ضلوعي مأتم قد اجتمعت فيه أحزاني للبكاء؛
وفي روحي جنازة قد تهيَّأتِ لتَسير؛
وعواطفي تشيِّعُ الميت الحبيب مُطرقة صامتة؛
والجنازة كلها في دمي - في طريقها إلى القبر
وفي القلب. . . في القلب تُحفَر القبور العزيزة التي لا تُنْسَى
في القلب يجد الحبيب روحَ الحياة وقد فرغ من الحياة؛
وتجد الروح أحبابها وقد نأى جُثْمانها.
في قلبي تجد الملائكة مكاناً طهرَّته الأحزان من رجس اللذات.
وتجِدُ أجنحتها الروح الذي تهفهف عليه وتتحفَّى به.
هنا. . . في القلب، تتنزَّل رحمة الله على أحبابي وأحزاني،
ففي القلب تعيش الأرواح الحبيبة الخالدة التي لا تَفْنى،
وفي القلب تُحْفَرُ القبور العزيزة التي لا تُنْسى
لم تُبْقِ لي بَعدَك أيها الحبيب إلا الشوقَ إلى لقائكِ.
فقدتُكَ وَحْدِي إذ فقدك الناس جميعاً
سَمَا بكَ فرحك بالله، وقعدت بي أحزاني عليكَ.

لقد وجدتَ الأنْسَ في جوارِ رَبِّك، فوجدتُ الوحشة
في جوار الناس
لم أفقدك أيها الحبيب ولكني فقدت قلبي
لم تُبق لي بَعدَك إلا الشوق إلى لقائك
رحمة الله عليك، رحمة الله عليك!

محمود محمد شاكر

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

- 5 -

الديانة المصرية - التوفيق بين الديانة والفلسفة

أشرنا في الكلمة السابقة إلى الخلاف الذي وقع بين المستمصرين حول التطور الديني المصري وهل هو وليد الفلسفة أو الفلسفة هي وليدته. ولما كنا قد تناولنا بهذه المناسبة الكلام على (رع) وتاسوعه، فقد وجب علينا إتماما للموضوع أن نشير إلى آلهة أخرى لا تقل عن السابقين أهمية، وهي (مآت) ابنة (رع) العظيمة ليست هذه الآلهة من التاسوع، لأنها روحه كله، وبدونها لا يحيا أي واحد من الآلهة، لأنها هي: (الحقيقة والعقل والعدالة). وهل يمكن أن يحيا أي إله بدون الحقيقة والعقل والعدالة؟ وتمتاز هذه الآلهة بأنها تجيء إلى الأرض يحملها فرعون ويتولى تطبيق صفاتها وإبرازها إلى حيز الوجود بطريقة عملية ويظل حارسها الأمين إلى أن يموت فتعود إلى السماء وتبقى فيها ريثما يصعد الملك الجديد على العرش فيوكل إليه أمر حملها وحراستها كسابقه. ولهذا كان كل فرعون يعنى بأن يكتب على آثاره أنه لم يدخر وسعا في حماية الحقيقة والعدالة وفي إعلاء شأن العقل، لكي يثبت بهذا أنه قام بواجبه في حمل (مآت) إلى الأرض ورعايتها خير قيام. وهاك ترجمة شيء مما يخاطب به فرعون (رع) كبير الآلهة فيقول: (هاأنذا أتيت نحوك، وذراعاي مجتمعتان لحمل مآت التي أنت موجود، لأنها موجود؛ وهي موجودة، لأنك موجود؛ والتاسوع يناديك أنك أنت الإله العظيم الذي انتصرت منذ ملايين السنين. وان مآت هي وحيدتك)

ولاشك في أن لمرادفة مآت ابنة رع للحقيقة والعقل والعدالة أهمية فلسفية وأخلاقية عظيمة، إذ منذا الذي لا يبحث عن الحقيقة ولا يحترم العقل ولا يطبق العدالة مع علمه بأن هذه الأشياء الثلاثة هي مرادفة لابنة رع، وهي روح التاسوع المقدس كله. وإذن، فقد كانت هذه الأسطورة عاملاً قويا في تحفيز الهمم على البحث عن الحقيقة وعلى احترام العقل وعلى إجلال فضيلة العدالة كما سنذكر ذلك فيما بعد. وهل الفلسفة النظرية الإغريقية شيء آخر غير البحث عن الحقيقة؟ وهل الفلسفة العلمية شيء غير تطبيق الفضائل التي - أهمها بعد الحكمة الناجمة عن احترام العقل المشروط في الفلسفة المصرية - هي فضيلة العدالة التي استقامت بها كفتا ميزان السماء والأرض؟

تعقل العامة

كان كل ما أسلفناه لك من تطورات دينية ومن محاولات قوية في التوفيق بين الدين والعقل هو تعقلات الخاصة والمستنيرين. أما العامة فكان لهم تعقل يخالف هذا مخالفة طفيفة حينا وشديدة حينا آخر، فهم لما وجدوا (أتوم) الممتزج عند الخاصة برع لا زوجة له ولم يستطيعوا أن يعقلوا أثره الذي سماه الخاصة (فعل الشمس) ونسبوا إليه نشوء الفراغ والهواء زعموا أنه ولد طفلين بطريقة لا ترضى عنها الأخلاق، وهما الهواء والفراغ، فتزوج ذكرهما أنثاهما فولدت له السماء والأرض، وهذان الأخيران أيضا قد تزوجا بدورهما) ولكنهما التصقا ببعضهما التصاقا محكما يحول بينهما وبين تحقق وجود الكائنات؛ فلما رأى الهواء ذلك اجتهد في تفريقهما فسعى حتى مر من بينهما ففصلهما ورفع السماء إلى أعلى فوق ذراعية، فغضب الزوجان من هذه الفرقة غضبا شديداً ومازالا يجتهدان في أزالتها حتى الآن.

وما الجبال الشامخة التي تحاول الوصل بين الأرض والسماء إلا من نتائج هذه المجهود الذي يحاوله الزوجان. غير أن هذه الفرقة التي آلمت الزوجين إيلاما شديداً كانت

سعيدة، لأنها سمحت للكائنات الحية بالوجود فوق الأرض كما سمحت للشمس بأن تظهر من السماء، ولكن سكان (هيليو بوليس) الذين كانوا على وفاق هي هذه الأسطورة يبدءون بعد هذه النقطة يختلفون، فيذهب بعضهم إلى أن (نوت) الذي هو عند الفريق الأول أحد الزوجين المتفرقين إنما هو البقرة العظمى الخالدة التي تنسل كل يوم عجلا هو شمس ذلك اليوم؛ أما زوجها فهو رع نفسه، ولذلك أصبح رع في نظر هذا الفريق متزوجا وترك حياة العزوبة القاحلة. وهناك فريق ثالث تفرع من الفريق الثاني وذهب إلى أن هذه البقرة الخالدة هي (نون) التي هي أصل العناصر جميعها والتي منها نشأ رع نفسه

غير أنه ينبغي أن نلاحظ أن البقرة الخالدة التي هي عند بعض العامة زوجة رع وعند البعض الآخر منهم أمه ليست إحدى هذا البقر الذي يدب على الأرض، وإنما هو تصوير لكائن عظيم كثير الخصوبة والإنتاج لا أكثر ولا أقل. وهذا الفريق الأخير الذي يرى أن البقرة الخالدة هي أم رع يعتقد أنها واقفة في الجو، وأن رع يتنزه في فلك من الذهب يسبح فوق ظهرها كل يوم من الشرق إلى الغرب على مرأى من الناس جميعاً. ولما أدركته الشيخوخة، وكانت أعضاؤه من ذهب، وعظامه من فضة، فقد طمع البشر في أن يستولوا عليه وأخذوا ينظرون إليه بعين الشراهة، فشاكته منهم هذه الجرأة الوقحة وصمم على عقابهم، ولكنه أبى أن يستبد بإصدار هذا العقاب فدعا مجلس الآلهة للانعقاد وعرض عليه هذه القضية، فأشارت عليه أمه بأن يبعث فيهم الآلهة (هاتور) تريق دماءهم وتقطع أعناقهم جزاء وفاقا لوقاحتهم وطمعنه في الآلهة؛ وقد كان، فنزلت الآلهة هاتور مقتلة مدمرة حتى ملأت سطح الأرض دماء، وكانت ستظل على هذه الحال حتى تبيد جميع العنصر البشري لولا أن أخذت الإله الشفقة على الإنسان من جديد، فصمم على العفو عنه، ولكنه لم يستطع إقناع (هاتور) الجبارة بالعدول عن خطتها التي كلفها بها مجلس الآلهة فاحضر لها عصيراً أحمر من بعض الفاكهة وأنباها بأنه من دماء البشرية التي تحقد عليها فشربته مسرورة ولم تعد تميز شيئاً، وبهذا وقف القتل والتدمير

وبعد أن كف رع حركة القتل عن بني الإنسان أحس بتقزز من استمراره في الحكم مع هذه الشيخوخة فاعتزل السلطة آسفاً محزوناً على الشباب وقوته. وقد انتهزت (ايزيس) هذه الفرصة الذهبية فاتجهت إلى رع وأنبأته بأنها تستطيع أن تعيد إليه الشباب على شرط أن يكشف لها عن اسمه الأعظم الذي لا يعرفه إلا هو. وما زالت به تغريه حتى حصلت على بغيتها التي كانت تعلم أنها تنيلها كل فرصة، للتصرف في الكون ثم مرت هذه السلطة بالتتابع إلى الآلهة (سو) فـ (جيب) فـ (أوزيريس) فـ (هوروس) ففرعون؛ وبهذا استطاع الشعب أن يؤول عقيدة الخاصة في ألوهية فرعون (ولعل القارئ لا تخفى عليه فطنة أولئك العامة الذين حينما رأوا الخاصة يؤلهون فرعون، ابتدعوا لذلك مبررات لبقة تسير في طريق منسق من رع إلى فرعون

نظرية الفكر المصرية أو أصل المثل الأفلاطونية

كان المصريون يعتقدون أن الاسم هو كل شيء في الكائن وأنه لا كائن بدون اسم، أو أن الاسم هو الفارق الأوحد بين العدم والوجود. لهذا تقول الآية المصرية القديمة: (أن جميع الآلهة قد خرجوا من فم رع وأن رع هو الذي خلق كل عناصر الطبيعة). ومعنى هذا أن (رع) هو الذي سمى الآلهة والعناصر، وكان أول من نطق بأسمائها جميعاً ومن حيث إنه كان إذ ذاك وحده. فيكفي لإيجاد الإله أو العنصر أن ينطق باسمه فيما بينه وبين نفسه أو أن يفكر فيه لأن نطق الاسم باللسان ليس إلا تعبيراً عن المسمى الموجود أو الفكرة التي يحتويها القلب والتي هي جوهر الأشياء جميعاً وبدونها لا يفوز موجود بالكينونة. وقد ذهب كهنة (هيليو بوليس) أو مدينة الشمس إلى أن الفكرة لا تمنح الكائن الوجود فحسب. بل أنها هي التي تحفظ عليه وجوده الدائم، فإذا قدر على أي كائن ما أن يزول اسمه من فكرة الإله، فأنه يهوى في الحال إلى العدم المطلق.

ولا احسب أن من العسير على الباحث المتقصي أن يستكشف عناصر (المثل الأفلاطونية) واضحة جلية في هذه الفلسفة المصرية التي سبقت أفلاطون بأكثر من ثلاثة آلاف سنة، لأن أفلاطون يعتبر جميع هذه الكائنات المادية التي تدب على الأرض خيالات لا حقائق، ولا يعترف بوجود حقيقي إلا لعالم (الفكر) المجرد عن علائق المادة وغواشي الطبيعة. أما هذه الوجود المشاهد بالمدركات الدنيا، وهي الحواس، فهو لا

يزيد على أنه ظلال لعالم الحقيقة الذي لا تدركه إلا قوه البصيرة التي تخلص صاحبها من الشهوات الحيوانية؛ وأما هذه الظلال المشاهدة، فوجودها لا يحقق حقيقة الكائن لأنه وجود مؤقت فوق أنه خيالي. وإذاً، فلست أظنني في حاجة إلى إيضاح الرابط المتين الموجود بين نظرية أفلاطون هذه وبين قول المصريين: (إن الفكرة لا تحقق للكائن وجوده فحسب، بل هي وحدها التي تضمن له دوام هذا الوجود) أو قولهم: (إن جميع الموجودات قد خرجت من فم (رع) وإنه يكفي لإيجاد الكائن أن يجري اسمه على لسان (رع) بعد أن مر مسماه بقلبه، لأن اللسان ليس إلا معبراً عن الجنان) أليس في تعبيرهم بأن الفكرة وحدها كافية لتحقيق الوجود وخلوده تصريح واضح بأن كل ما عدا الفكرة في الكائن لا يؤبه له؟ ثم أليس في قولهم: أن الموجودات كلها خرجت من فم (رع) إيذان بأن المادة المحسة لا يستحق منها بالوجود إلا فكرتها التي خطرت لرع وأن المحس منها لا قيمة له؟

لا ريب أن في هذا الاكتشاف الذي أسجله اليوم على صفحات هذه المجلة رداً جديداً على أرسطو و (سانت هلير) ومقلديهما وإذنابهم القائلين باستقلال الفلسفة اليونانية وعدم تأثرها بالفلسفات الشرقية، كما أن فيه رداً بليغاً على ذلك الفريق الذي يحط من شأن العقلية الشرقية، لأن مذهب (المثل) - وهو أسمى ما أنتجته العقلية الغربية - هو مشيد على أساس هذه النظرية المصرية ما في ذلك لبس ولا ارتياب. وكما أن الفكرة هي التي تمنح الوجود للحوادث وتحفظه عليها، هي تحفظ الوجود الكامل كذلك على (رع) نفسه ولهذا السبب أهتم بأن يخلق العالم، لكي يظل اسمه حيا منبثاً في جميع عناصر الطبيعة، مذكوراً على السنة أفراد المخلوقات حتى يضمن لنفسه وجوداً كاملا من كل الوجوه، لأن تعقله هو لذاته لا يكفي في تحقيق الوجود الكامل إلا إذا خلا الكون من جميع ما سواه؛ أما وفي الوجود كائنات أخرى، فلا يتحقق له الوجود الأكمل إلا بتغلغل فكرته في كل قلب وجريان اسمه على كل لسان.

ومن هذا التغلغل نتج دور تفكيري عجيب، وهو أن الإله ضروري للإنسان بحيث لا يمكن وجوده إلا به، وأن الإنسان ضروري للإله بحيث لا يمكن استمرار وجوده الكامل إلا بتغلغل الإنسان إياه وتفكيره فيه ونطقه باسمه. ولا ريب أن هذه الدائرة قد أعلت من شأن الكهنة، لأنهم هم أكثر الناس ذكر للأسماء المعبودات، وبالتالي هم أكثر الناس تأثيراً في احتفاظ الآلهة بوجودهم الكامل.

(يتبع)

محمد غلاب

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فردريك نيتشة

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

الوغد

ما الحياة إلا ينبوع مسرة. ولكن أيان شرب الوغد فهنالك جدول مسموم. أحب كل ما هو نقي، ولكنني لا احتمل رؤية الأشداق تتثاءب معلنة ظمأ الأرجاس، وقد جاؤا يسبرون أعماق البئر بأنظارهم فانعكست في قرارتها ابتسامتهم الشنعاء توجه سخريتها إلي.

لقد دنسوا المياه المقدسة بأرجاسهم، وما تورعوا فدعوا أحلامهم القذرة سروراً فدسوا سمومهم حتى في البيان. أن اللهب يتعالى مشمئزاً عندما يعرضون قلوبهم المائعة عليه، والروح نفسها تغلي وتتصاعد بخاراً عندما يقترب الأوغاد من النار، والأثمار نفسها يفسد طعمها وتتراخى عندما يلمسونها بأيديهم، وإذا ما حدجوا بأنظارهم الأشجار المثمرة فإنها لتجف على أعراقها.

لكم من معرض عن الحياة لم ينفره منها سواء الوغد الزنيم، فعافها إذ لم يشأ أن يقاسم هذا الوغد ما عليها من ماء ولهب وأثمار.

لكم من شارد لجأ إلى الصحراء متحملا السعار عائشاً بين الوحوش كيلا يجلس إلى بئر يدور بها حداة العيس بما عليهم من أقذار.

ولكم جاء الأرض من مكتسح أشبه بالبرد المتساقط من السحاب ولا أمنية له سوى ضرب قدمه في أشداق الأوغاد ليسد حناجرهم.

ما صعب عليّ الاعتقاد باحتياج الحياة إلى العداء والقتل والاستشهاد كما صعب عليّ

التسليم بضرورة وجود الوغد الزنيم فيها.
أمن ضرورة الحياة هذه الينابيع المسممة والنيران المشبوبة تفوح بالروائح الكريهة وهذه الأحلام الرجسة وهذه الديدان ترتعي في خبز الحياة؟
ليس العداء ما قرض حياتي بل الكراهة والاشمئزاز. ولكم استثقلت الفكر نفسه عندما رأيت شيئاً من الفكر في رأس الوغد الزنيم.
لقد وليت ظهري للحاكمين عندما أدركت معنى الحكم في هذه الأزمان وتأكدت انه إنجاز بالقوة ومساومة الأوغاد عليها.
استولى اليأس عليّ فاجتزت مراحل الماضي والمستقبل وأنا أسد أنفى إذا انتشرت عليّ منهما روائح البيان السخيف
لقد عشت طويلا كالكسيح أصابه الصمم والعمى والخرس كيلا أعايش أوغاد السلطة وزعانف الأقلام والمسرات
ارتفع فكري درجة فدرجة وهو يعاني من حذره ما يعاني ولا عزاء له إلا بالغبطة؛ وهكذا مرت حياة الأعمى وهو يتوكأ على عصاه.
ما حدث لي يا ترى؟ وما الذي أنقذني من اشمئزازي وأعاد النور إلى عيني؟ وكيف تمكنت من ارتقاء المرتفعات حيث الينبوع الذي لا يحيط به الأوغاد؟.
أهي الكراهة نفسها استنبتت جناحي وأوجدت لي القوة للاهتداء إلى مفجر الينابيع؟ والحق أنني ارتقيت الذروة، ولو لم ابلغها لما وجدت ينبوع الغبطة والسرور.
لقد وجدته، أيها الأخوة، فرأيته يتدفق على الذروة غبطة وحبوراً، فاهتديت إلى المكان الذي يتاح فيه للإنسان أن يروي ظمأه دون أن يعكر عليه الأوغاد الأدنياء.
أنك لتسيل بشدة، أيها الينبوع المتفجر بالغبطة فتفرغ الكأس التي تملأها دهاقا، عليّ أن أتمرن على الاقتراب منك بتؤدة، أيها الينبوع فإن قلبي يندفع بعنف إلى مسيلك. لقد استولى اليأس مع الحبور على هذا القلب الذي تمر عليه بحرها أيام صيفه فهو يتشوق إلى مياهك تنزل عليه برداً وسلاما.
لقد انقضت أحزان ترددي في الربيع وأذاب الصيف ثلوج نقمتي، فأصبحت وكل جوارحي تتوق إلى الاصطياف. أن خير الراحة ما تنتجع في أعالي الجبال قرب الينابيع الباردة. إليّ أيها الأصحاب لنحول هذه الراحة إلى غبطة وحبور فهذه ذروتنا، وهنا موطننا حيث نعتصم بالصخور فلا يبلغها الأرجاس ولا يصل إليها عطشهم المدنس.
أرسلوا أنظاركم الطاهرة على ينبوع مسرتي، أيها الأصحاب، فإنها لن تعكره بل تبقى على نفائسه فيبتسم لكم.
هنا تتعالى دوحة المستقبل. فلنبن لنا عشا بين أغصانها فتجيء إلينا العقبان حاملة لنا الغذاء، نحن المنفردين.
ذلك غذاء لا يستطيع الأرجاس مقاسمتنا إياه فهو النار تحرق أشداقهم. وما نعد هنا مساكن للمدنسين، فإن سعادتنا تلفح أجسادهم وأرواحهم. ونحن نريد أن نحيا فوقهم فنهب كالرياح في مسارح العقبان ومطالع الشموس.
أنني سأعصف كالريح الصرصر على الأرجاس فاخمد أنفاسهم بأنفاسي، ذلك هو المقدور. فما زارا إلا ريح عاصفة ترهق الأعماق، وهو ينصح أعداءه وكل متفيئ نافث بألا يبصقوا في وجه الرياح.
هكذا تكلم زارا
رسالة الشباب
السياسة والروح العام
جاءنا من الأستاذ محمد فريد أبو حديد هذا الكتاب تعليقا على كتاب الأديب محمد زهدي ناصر وتوضيحا لتعقيبنا عليه ننشره شاكرين للأستاذ مساهمته الحرة في دعوة الرسالة
اطلعت في مجلتكم الغراء على مقال للأديب محمد زهدي ناصر ذهب فيه إلى أن دعوة الشباب إلى الاشتغال بالسياسة فيه مضيعة لجهودهم وفيه إقحام لهم في ميادين لا يستطيعون اقتحامها ولا يحمل بهم التلوث بما فيها من الأدران وهم لا يزالون في سن البراءة والإخلاص، وأنه أجدى بهم أن ينصرفوا إلى العلم والدرس حتى يستطيعوا أن يستفيدوا بوقتهم أكبر استفادة.
والحق أن الأديب على حق في رأيي إذا كان المقصود هو اشتغال الشباب بالسياسة

العملية، فإن تلك السياسة أشد تعقداً وأوعر مرتقى من أن نجازف بشبابنا فندخله في ميدانها. ولقد كان رد الرسالة على حضرته رداً صائباً، ولكني أخشى أن يكون المحرر الأديب الذي كتب ذلك الرد لم يوضح التفريق بين السياسة والروح العام إذ قال: (على أن السياسة التي نريدها للشبان أوسع وأشمل مما يتصوره الكاتب الفاضل؛ فالسياسة دعوة وتدبير وقيادة؛ وقوى البلد المادية والأدبية معطلة من طول الإغفاء والترك؛ والإحساس الشاب هو وحده الذي يستطيع أن يحرك في طبقات الشعب هذا الجمود المزمن بالدعوة الصادقة والإرشاد الصالح والقدوة الحسنة) فالأستاذ المحرر يريد أن يفرق بين أن يعمل الشباب في ميدان السياسة العملي وأن ينغمر في تيار الاختلاف الحزبي، وبين أن يكون الشباب عاملا حياً تتوثب فيه الحماسة إلى ما فيه خير المجموع وتتقد في الروح العامة التي تتجه إلى إعلاء الوطن ورقي أهله من كل الوجوه. فهذا الروح العام الذي يتجه نحو المثل الأعلى جدير بأن يملأ قلوب الشباب، وليس فيه ما يشغل عن الدرس والعلم، بل إن قلب الشاب الذي يخلو من الاهتمام بأمور وطنه العام ولا يثور إلى الرغبة في خير مواطنيه ورفعة شأنهم لهو قلب فاتر قليل الخير. إ سي، ذلك هو المقدور. فما زارا إلا ريح عاصفة ترهق الأعماق، وهو ينصح أعداءه وكل متفيئ نافث بألا يبصقوا في وجه الرياح.

. .هكذا تكلم زارا

رسالة الشباب

السياسة والروح العام

جاءنا من الأستاذ محمد فريد أبو حديد هذا الكتاب تعليقا على

كتاب الأديب محمد زهدي ناصر وتوضيحا لتعقيبنا عليه

ننشره شاكرين للأستاذ مساهمته الحرة في دعوة الرسالة

اطلعت في مجلتكم الغراء على مقال للأديب محمد زهدي ناصر ذهب فيه إلى أن دعوت الشباب إلى الاشتغال بالسياسة فيه مضيعة لجهودهم وفيه إقحام لهم في ميادين لا يستطيعون اقتحامها ولا يحمل بهم التلوث بما فيها من الأدران وهم لا يزالون في سن البراءة والإخلاص، وأنه أجدى بهم أن ينصرفوا إلى العلم والدرس حتى يستطيعوا أن يستفيدوا بوقتهم أكبر استفادة.

إإإإن أعز ذكريات الشباب التي نحملها هي تلك الرغبة المتوقدة في خدمة الوطن، وهي تلك الأماني التي كنا نسعى جهدنا إلى تحقيقها، إذ كانت الأماني لا تزال طليقة، وإذ كان القلب لا يزال قوي النبضات. . . .

محمد فريد أبو حديد

جمعية الانبعاث القومي

وجاءنا من الأديب صاحب الإمضاء ما يأتي:

حيا الله (الرسالة) في عهدها الجديد: عهد توجيه شباب مصر إلى واجبه الأسمى نحو مصر.

وبارك الله في أستاذنا الكبير صاحبها، وجعله نبراساً ساطعاً للعاملين المخلصين من أبناء مصر، في سبيل مجدها ونهضتها.

وبعد: فلي كلمة متواضعة. من حقي أو من واجبي - كشاب - أن أدلي بها في موضوع الاقتراح الناضج الذي نشر في العدد السابق من الرسالة. تحت عنوان (الزحف الاجتماعي). أرجو - مخلصاً - أن يكون لها أثرها المفيد عند تنفيذه.

اقتراح لا أخالني أجانب الصدق إذ أقول انه اقتراح شباب مصر جميعاً، قام بواجب التبليغ عنهم أحدهم وأدى رسالته أميناً مشكوراً.

أرى، لضمان نجاح هذا المشروع القومي الجليل. وتمشيا مع ظروفنا الحاضرة، أن تتوفر لتنفيذه على الوجه الأكمل الشروط الآتية وهي:

أولا: - تضامن شيوخ الأمة مع شبابها.

ثانيا: - أن تكون قيادة المشروع للأمة وحدها. وتؤلف لهذا الغرض جمعية، اسميها (جمعية الانبعاث القومي). من عناصر قوية بارزة تمثل كلا من الجامعة الأزهرية والجامعة المصرية، والصحافة المصرية والمؤسسات المصرية وعلى رأسها بنك مصر

ثالثا: - على الحكومة فقط تعبيد الطريق للعاملين دون التدخل فضلا عن الرقابة، إلا في حدود القانون.

رابعا: - أن يكون عنصر الرواد من الجنسين، ويشترط فيهم الكفاية والأهلية، ويعطي تشجيعا للمتعطلين منهم مكافآت مالية ثابتة.
خامسا: - إدماج الجمعيات الخيرية والعلمية والثقافية الموجودة حالا تحت لواء جمعية الانبعاث القومي توحيداً للجهود والأغراض
سادسا: - أن تقوم بالنفقة الأمة وحدها في شخص الأغنياء من جميع الطبقات ومتوسطي المعيشة من أفراد الأمة، عن طريق الإعانات الدورية، والاشتراكات الشهرية
سابعا: - الاحتفاظ بقومية المشروع من المبدأ إلى المنتهى
سيد عويس
عبرة الشباب من حفلة التتويج
شهد الأسبوع الماضي في لندن مهرجانا قلما يجود الدهر بمثله. ذهلت فيه إنجلترا عن مشاغلها ومشاكلها، في خارجها وفي داخلها، ثم راحت تخرج تاريخها الرائع الساطع من كنوز ماضيها الجليل الأثيل لتجعل منه الدرة الكبرى لتاجها الماسي الذي تضعه من جديد، على مفرق ملكها الجديد.
سمع الناس وصف المهرجان في الراديو ورأى الناس مناظر المهرجان في السينما، فتمثلت
لهم عظمة هذه الأمة العريقة على أروع ما يتصوره الخيال ويدركه الحس: تقاليد الماضي العتيقة في جدة الحاضر الطريفة؛ وقرع النواقيس بجانب قصف المدافع؛ ومظاهر الأرستقراطية النبيلة في وسط الديمقراطية الأصيلة؛ وملك أثقلوه بالماس والذهب، وقلدوه السيوف والصوالج، وألبسوه الحلل والمعاطف. وضمخوه بالزيت المبارك، أجلسوه على كرسي متآكل فوق حجر منسوب إلى يعقوب وأركبوه مركبة بالية نابية طافت به شوارع لندن؛ ثم رئيس الأساقفة في طقوسه الغربية، وكبار النبلاء في أرديتهم العجيبة! وهذه القوى الثلاث: قوى الملك والدين والنبل هي التي كانت تحكم الدنيا الغربية أيام كان الزمان غير الزمان، والإنسان غير الإنسان، فأصبحت اليوم من عبر التاريخ التي تعرضها إنجلترا على أعين الأمم الحاشدة في لندن وهي تقول لهم: انظروا ماذا كافحت الأمة الإنجليزية حتى ظفرت بالحرية والديمقراطية والدستور! هل منعنا احتفاظنا بالتقاليد من أن نكون أمة التجديد، واحترامنا للدين من أن نكون أمة المدنية، وإخلاصنا للملك من أن نكون أمة البرلمان؟
في هذا الذي تسمعه وتراه من أمس الإنجليز ويومهم جواب مفحم لأولئك الغلاة الذين يريدوننا على أن نتجرد من الماضي العظيم، ونتخلى عن التراث الكريم، ونخرج إلى العالم كما تخرج اللقطاء إلى الوجود، لا تليد يغذي الطريف ولا نسب يرفع الحسب.
إن شخصية الفرد هي مجموعة مزاياه الخاصة في التفكير والخلق والتصرف، وشخصية الأمة هي مجموعة تقاليدها الصالحة من العادات والاعتقادات والنظم. والشخصية هي حافزة الفرد على النهوض، ودافعة الأمة إلى الاستقلال؛ فإذا عبث بها عابث من النزق أو الضعف انمحى طابع الفرد فشاع، وفنيت قومية الشعب فخضع.
وإذا قال لنا الإنجليز أقوى دول الغرب، واليابان أقوى دول الشرق، إن الحاضر الثابت لا يقوم إلا على الماضي الراسخ، وإن الحوافز الشخصية لا يقويها إلا السنن القومية، كان شبابنا أحرياء بأن يقولوا لأولئك الناعقين: لا تحجلوا حجل الغراب، ولا تنصبوا مضختكم على السراب!
رسالة العلم
قصة المكروب
كيف كشفه رجاله
ترجمة الدكتور أحمد زكي بك
مدير مصلحة الكيمياء
- 4 -
وفي عام 1902 انبرى إرليش يطلب غايته، فأخرج كل ما لديه من الأصباغ وسواها صفاً صفاً فلمعت وبرقت واختلط لألاؤها. وتقاصر متقرفصاً أمام قمطراتها فتراءت زجاجاتها على رفوفها كالفسيفساء الرائعة في اختلاط ألوانها. فصاح لما جرت عينه عليه: (ألا ما أجل وأجمل!). ثم اقتنى لنفسه طائفة كبيرة من أصح الفئران. واقتنى

لنفسه معها دكتوراً يابانياً مخلصاً غاية الإخلاص في عمله، صبوراً غاية الصبر فيه؛ وكان اسمه شيجا وكان عمله ملاحظة هذه الفئران وقص قطع من أطراف ذيولها ليأتي منها بنقطة من الدم يبحث فيها عن التريبنسومات، أو قص قطع أخرى من نفس الذيول ليأتي منها بنقطة دم يحقنها في دم الفأر السليم التالي وهلم جرا - واختصاراً كان واجبه أن يقوم بكل الأعمال الثقيلة الطويلة التي لا ينهض بها إلا جهد الياباني وصبره. وجاءت التريبنسومات اللعينة إليه أولا من معمل بستور بباريس في خنزير غيني حق عليه الفناء. ومن هذا الخنزير أخذها وحقنها في أول فأر، ومن ثم بدأ الطراد وجربوا في هذه الفئران نحوا من خمسمائة صبغة! تجارب اعتباط وخبطات عشواء لا تمت بسبب إلى الأسلوب العلمي، ولكن هكذا كان إرليش في بحثه. كان كأنه البحار الأول يبحث بين أخشاب الشجر عن أوفقها لصناعة مجاذيفه. كان كالحداد الأول ينكش معادن الأرض يتحرى أنسبها لسبك سيوفه. كانت في اختصار طريقة بدائية هي أقدم طرق الإنسان للوصول إلى المعرفة، طريقة المحاولة الطويلة والعرق الكثير في سبيلها. وتقسماها بينهما، فقام إرليش بالمحاولة الطويلة، وقام شيجا بالعرق الكثير. وتلونت أجسام
الفئران ألوانا كثيرة، فمن الأحمر ومن الأصفر ومن الزرق، ولكن التريبنسومات اللعينة تكاثرت وازدحمت ورقصت في دمائها ثم قتلت الفئران جميعا مائة في المائة وزاد إرليش في سجائره الأجنبية الغالية تدخينا، حتى في الليل كان يقوم ليدخن منها. وزاد شربه المياه المعدنية. وقذف بالكتب إلى رأس قدريت المسكين، وعلم الله ما كان مثله ليلام على جهله السبب في أن هذه الأصباغ لا تقتل هذه المكروبات. ونطق إرليش باللاتينية جملا رنانة، وابتدع أغرب النظريات يشرح بها ما ينتظر من هذه الأصباغ أن تفعله، وابتدع منها أعدادا لم يسبقه باحث إلى ابتداع مثلها من نظريات كلها خاطئة. ولكن في عام 1903 جاءت إحدى هذه النظريات الخاطئة تأخذه بيده فتهديه سواء السبيل
فذات يوم كان إرليش يمتحن ما تصنع أصباغ فصيلة البنزو بربورين - في الفئران، وهي أصباغ معقدة التركيب جملة، فوجد أن الفئران لا تحفل بها وتموت في تواصل مسئم لا انقطاع فيه. فتقطب جبين إرليش وقد كان مقطبا خلقة من هموم عشرين عاما لم يجد فيها النجاح إلى أعماله سبيلا. فقال لشيجا: -
إن هذه الصبغة لا تنتشر إنتشارا مرضيا في جسم هذا الفأر، فلو أننا يا عزيزي شيجا) غيرنا تركيب هذه الصبغة قليلا؛ لو أننا ومثلا أضفنا إلى جزيئها المجموعة الكبريتية - فلعلها عندئذ تذوب في دم هذا الفأر وتنتشر بذلك فيه. وتقطب جبين إرليش ولم تكن يد إرليش بيد الكيميائي الصناع، ولكن رأسه كان مستودعا عظيماً ودائرة معارف واسعة لعلم الكيمياء. وكره الأجهزة المركبة بمقدار ما أحب النظريات المعقدة. ذلك أن لم يكن يدري ماذا يصنع بالأجهزة. وإذا هو تناول الكيمياء بيده فإنما يتناولها للهو تناول اللاعب في الماء يخوض في الشاطئ الضحل ويخشى التعمق فالغرق. يبدأ ألف بدء بألف تجربة في أنابيب اختباره، فيلقي من هذه المادة على هذه، ومن هذه على تلك، وينظر ما أثر هذا في تغيير لون الصبغة؛ ثم هو يخرج متدفعا من معمله ليرى أول شخص يلقاه جمال ما وجد، ملوحا بالأنبوبة في وجهه صارخا فيه: (أنظر أي جمال! أنظر أي بدع!). أما التركيب الكيماوي الدقيق وخلق المواد الكيماوية بعضها من بعض فعمل لم يكن له إلا أساتذة الكيمياء وأبطالها.
وصاح إرليش: (لابد من تغيير تركيب هذه الصبغة قليلا، وإذن تنفع حيث لم تنفع من قبل!) وكان كما تعلم رجلا مفراحا ممراحاً، وكان من أظرف الرجال واحبهم إلى الناس، فلم يلبث أن عاد من مصنع الأصباغ القريب وفي يده تلك الصبغة المذكورة وقد ألصقوا بجزيئها المجموعة الكبريتية المطلوبة فتغير تركيبها التغير (القليل) المطلوب
وضرب شيجا بمحقنه تحت جلد فأرين يطلق فيها تريبنسومات داء الورك. ومضى يوم؛ ثم أعقبه يومان، فأخذت عيون الفأرين تلتحم جفونها بهلام الموت، وقف شعرهما وتعامد هلعا من الفناء المنذر، ولم يبق إلا يوم واحد حتى ينتهي أمرهما جميعا. . . ولكن صبرا! فتحت جلد أحدهما ضرب شيجا محقنه يطلق في جسمه تلك الصبغة الجديدة الحمراء التي تغير تركيبها (قليلا). وشهد إرليش ما صنع شيجا، واخذ يتمتم

ويدمدم ويقيس الأرض بخطى ذاهبة آيبة، ويضرب بيديه ورجليه. وما هي إلا دقائق حتى أخذت إذنا هذا الفأر تحمران وانفتحت عيناه بعد انغلاق، وأخذ بياضهما يستحيل إلى لون الورد فيزيد في احمراره على حمرة إنسانيهما. هذا يوم إرليش الأسعد. هذا اليوم الذي خبأته له الأقدار طويلا وخبأت فيه مجده. فتلك التريبنسومات ذابت بدم الفأر ذوبانا في وجه هذه الصبغة كما ذوب ثلج الأرض إذا طلعت عليه شمس إبريل الدافئة. تساقطت كل هذه المكروبات واحدة بعد واحدة حتى أخيرة الوحدات، أسقطتها تلك الصبغة المسمومة، تلك الرصاصة المسحورة التي طلبها طويلا حتى وجدها أخيرا. والفأر ماذا كان منه؟ انفتحت عيناه بعد انغلاقها وأخذ يجوس بمنخره في سقاطة الخشب بقاع قفصه حتى جاء يتشمم جثة زميله الذي لم يعالج بالصبغة وقد ارتمت هامدة باردة يرثى لها.

هذا أول فأر على ظهر هذه الأرض نجا من شِرّة هذا المكروب. أنجاه إرليش بفضل المثابرة والحظ، وبفضل الله، وبفضل صبغة أسموها (أحمر التريبان وأما اسمها الكيماوي فيطول. كثيرا وما أنجاه حتى زاد جرأة على جرأته، وزادت أحلام هذا اليهودي الألماني توثبا. قال يحلم: (ها قد وجدت صبغة تشفي فأرا فلأجدنّ أخرى تشفي ألف ألف رجل)

ولم يتحقق رجاؤه بالسرعة التي تمنى، واستمر شيجا يضرب أحمر التريبان في أجسام الفيران في جلد شنيع، فشفيت بعضها وساء حال بعضها. وقد يظهر على أحدها أنه برئ فيلعب ويمرح في قفصه، ثم يمضي عليه ستون يوماً فيطلع عليه الصباح بسوء المزاج، فيأتي شيجا فيقص قطعة من ذيله ثم يدعو إرليش ليريه المكروب الحي الفظيع وقد كثر في

دم الفأر حتى تلبد. ما افظع هذه التريبنسومات، وما اخدعها وما أصلب عودها! إن كل المكروبات الفظيعة عودها صليب؛ وإنك لواجد هذا المكروب أصلب المكروبات عوداً. وكيف لا وهذا هو قد اجتمع عليه ألماني وياباني فقذفاه بتلك الصبغة الزاهية فلعقها واستمرأها. وقد يتراجع عنها في حذر وتبصر وينتحي لنفسه منجى عن السوء في بعض نواحي الفأر ولكنه يتربص الفرص ليخرج ويتكاثر مرة أخرى.

فأرليش لم يكد يستمتع بنجاحه الأول القليل حتى توالت عليه ألف خيبة وخيبة. فالتريبنسوم الذي وجد داود بروس أنه سبب مرض الناجانا وكذلك التريبنسوم الذي يسبب مرض النوم كلاهما برقا لأحمر التريبان وهزءا منه وضحكا عليه وأبيا كل الإباء أن يقرباه، كذلك وجد إرليش أن الصبغة التي نجحت نجاحاً باهراً في الفيران، أخفقت كل الإخفاق لما جربت في الفيران البيضاء والخنازير الغينية والكلاب. له الله ما كان أكثر جلده على مشقة مثل هذا العمل الطويل المسئم الذي لم يكن لينهض به إلا رجل ملحاح مثله رأى بشائر النجاح في شفاء فأر واحد فتشبث بأن النجاح سوف يأتي كله ولو امتد به الزمن واشتد عليه العمل.

إنك لو عرفت كم قتل إرليش من الحيوانات في تجاربه لقلت: (يا خسارتها)، وأنا مثلك كنت شديد الإيمان بالعلم معتزاً به وبسرعة إنتاجه اعتزازاً بلغ حد الغرور والغباء، فكنت مثلك أقولك: (يا خسارتها). ولكن لا. أو أن شئت فقل إنها خسارة كبرى، ولكن اعلم إلى جانب هذا أن الطبيعة ذاتها كثيراً ما تجود بأبرع أنتجتها ولكن بعد أن تبذل وتسرف في البذل في سبيلها عن سعة عظمى. ومع هذا فلابد أن تذكر أن إرليش تعلم من هذه الخسارة درساً قيما: هات صبغة لا نفع فيها إلا ازدهاؤها وجمالها، وغير تركيبها الكيماوي قليلا، تستحل إلى دواء ذي شفاء. فهذا الدرس نفع إرليش وملأه بالثقة وهو الواثق المعتز بنفسه دائماً أبدا

وزاد معمله على الزمن اتساعاً، وزاد نصيبه من محبة الناس واحترامهم. واعتقد أهل المدينة فيه العلم وفهم كل خفية من خفاياه وحل كل طلسم من طلاسم الطبيعة. وعلموا فيه النسيان فأحبوه لهذا النسيان. وتحدثوا فيما تحدثوا أن السيد الأستاذ الدكتور إرليش كان يعلم من نفسه النسيان، فتحين أحيان الأفراح في بيته فيضرب لها الموعد للاحتفال بها، فيخشى

أن ينسى المواعيد فيكتب لنفسه بنفسه خطابات في البريد يذكر نفسه بها. قالوا: (ما اسماه إنساناً!). وقال الحوذيون الذين اعتادوا حمله كل يوم إلى معمله: (ما أعمقه مفكراً) وقال لاعب الأرغون في الشارع، وكان إرليش يتحفه بالحلوان الطيب كل

أسبوع ليضرب له بموسيقى الرقص في البستان بجوار معمله. قال: (لابد أن هذا الرجل عبقري!). وكان إرليش يكره الأرستقراطية في الموسيقى والآداب والفنون، ويرى أن موسيقى الرقص تدر عليه أحسن أفكار. وقال أهل المدينة الأخيار: (ما أكثر ديمقراطيته في الحياة إذا هي قورنت بأرستقراطيته في العلم،) وسموا شارعاً باسمه في فرنكفورت. ولم يبلغ سن الكبر حتى قالوا فيه ما قالت أساطير الأولين ثم عبده أثرياء القوم. وفي عام 1906 نزل عليه السعد من السماء، فوهبته امرأة تدعى فرنسسكا إسباير وكانت أرملة لصاحب مصرف ثري مبلغاً عظيما من المال ليبني معملا يسميه (جورج إسباير)، وليشتري حاجته من الأدوات الزجاجية والفئران، وحاجته من حذاق الكيمائيين الذين يستطيعون بتلويحة يد أن يخلقوا كل صبغة حبيبة إليه، وان يركبوا كل العقاقير الكيمائية التي يركبها هو تخطيطاً على الورق ولولا هذه الهبة من هذه السيدة ما استطاع إرليش أن يصنع رصاصاته المسحورة أبداً، فلصنعها احتاج إلى مجهود هذا المعمل الكبير، هذا المصنع المليء بالبحاث وفي هذا البيت ترأس إرليش على بحاث كيمائيين وسادة مكروبيين فكان كرئيس شركة تخرج في اليوم آلاف السيارات، ولكنه في الواقع كان رئيساً عتيق الطريقة فلم يجر على أسلوب رؤساء الشركات الحدثين من دق الأجراس وإصدار الأوامر من كرسيه في حجرة الرياسة. بل كان دائم الحركة جوالا يدخل في هذا المعمل، ثم في هذا، ثم في هذا، في كل وقت من أوقات النهار، ينظر ما يصنع أعوانه بل أرقاؤه وعبيده لكثرة ما يهيل عليهم من الأعمال. يدخل إلى هذا فيوبخه، ويدخل إلى هذا فيلاطفه ويربت على ظهره، ثم آخر يحكي له عن أخطاء صارخة آتاها هو نفسه من قبل

(يتبع)

أحمد زكي

رسالة الفن

ليوناردو دافينشي

الرجل الكامل

للدكتور أحمد موسى

- 1 -

من أزهى عصور الفن في أوربا عصر الرفعة الإيطالية الذي اتجه فيه الفن منذ بدء القرن السادس عشر اتجاهاً مثلياً سواء في التحت أو التصوير.

وكان الميل كله منصبا على التعبير عن المثل الأعلى في النحت، وكان العطش نحو الكمال الفني بالغاً أشده، الأمر الذي ترتب عليه اتجاه الفنانين إلى الجمع بين الجمال السامي وبين المشاهد الحية:

فعمل الفنانون العارفون على دراسة الفن الإغريقي والتبحر فيه والغوص إلى أعماقه، مستلهمين منه الوحي، ساعين وراء درره الفذة، التي لولاها لما أمكن وصول الفن في عصر الأحياء إلى ما وصل إليه، مما يحار المشاهد في تعليل المقدرة الهائلة التي ذهبت به إلى هذه الناحية العالية، التي كانت ولا تزال رمزاً يتجه إليه الفنانون والعاشقون بكليتهم وبوجدانهم.

وعلى ذلك لا مناص من اعتبار عصر الرفعة عصر إحياء للفن الكلاسيكي في جوهره، واقتباس منه في مظهره، ورجوع إليه في أساسه، واستلهام منه في خياله.

ويرى المشاهد لما تركه أساطين الفن في القرن السادس عشر بإيطاليا، أن الغاية كانت الوصول إلى أسمى واكمل تكوين كلي، وأرفع وأجمل مجموع إنشائي، كما يلاحظ أن التصوير الزيتي أصبح تصويراً تاريخيا أكثر منه اجتماعيا أو منظرياً.

ولم يفز بدرجة الوصول في القرن السادس عشر إلا ثلاثة هم: ليوناردو، وميكيلانجلو، ورفائيل.

وإذا كنا قد تخيرنا اليوم ليوناردو دافينشي، فإن ذلك راجع إلى أنه المؤسس لهذا الاتجاه

العظيم. فكان بذلك النابغة الفذ، الذي لم يماثله في نبوغه أحد من معاصريه، فقد جمع إلى القدرة الفنية، الإحاطة بالهندسة والرياضة والعلوم الطبيعية والميكانيكا التطبيقية والموسيقى والشعر، كما كان مهندساً معمارياً قديراً ومثالا ومصوراً.

وعرف عنه أنه كان جميل الخلق جميل الطلعة نبيل الأصل، فلا غرابة إذا أطلق عليه

المؤرخون (الرجل الكامل. كتب في كثير من الأبحاث، وله فيها آثار جليلة، من أهمها لتاريخ الفن كتاباه البديعان (قواعد علم التصوير)، و (الصناعة والجمال). ولكن جوهر حياته، وأعظم ما أنتج ووصل إلى الذروة فيه كان التصوير الذي اتخذه مهنة له عاش من أجله لتأدية رسالته فيه.

أما مميزاته الفنية فكانت المعرفة والمقدرة والخلق إلى أبعد حدود معانيها كلها. أما المعرفة فقد وصل فيها إلى حدود الدهشة فأحاط بالطبيعة إحاطة غريبة، لاسيما إلمامه بطبيعة الإنسان من الناحية التشريحية والفسيوجنومية، أعن ما يفهم من إشارات الأيدي وأوضاعها، وما تعبر عنه كل إشارة وما يقصد بكل وضع لها، ودرس حياة الحيوان وحياة النبات، وأخيرا المناظر الطبيعية الشاملة لكليهما، فضلا عن محبته العظيمة للحيوانات، ورغبته البالغة في مراقبتها ودراستها.

كان له الفضل في تأسيس منهج جديد في التصوير فجعله نابضا بالحياة، كما خلق فيه الظل والنور الممزوجين كالدخان فخلا كلاهما من خطوط التحديد، وأصبح النور مندمجاً في الظل متداخلا فيه لا يستطيع الناظر إليه أن يحدد موضع الفصل بينهما.

ووصل بتسجيله للواقع إلى أبدع ما يمكن الوصول إليه وهو المثل الأعلى في الجمال، وكان التكوين الكلاسيكي مذهبه، كما كان الانسجام روح هذا المذهب.

وتوفر معنى الأستاذية في الإنشاء الموضوعي لكل لوحاته، لعمق بحثه، ورقة تأثره، وبعده عن العنف التكويني إلا في بعض لوحاته التي أصدرها في المرحلة الأخيرة من حياته، فخلق بريشته شعراً منثوراً، يذهب بالمشاهد إلى استماع العاشق بالقرب عن معشوقه، كما لا يحرم المعشوق من كل معاني المديح والإطراء، فتراه يظهر أجسام النساء جميلة صحيحة منسجمة التكوين بعيدة عن التكلف أو التعمد.

ولد ليوناردو سنة 1452 في فيلا فينشي في حدود مقاطعة فيرنزا (فلورنسا)، جاء صغيرا
مع أبيه بيرو دافينشي إلى فلورنسا العاصمة، وتربى تربية علمية إلى أن التحق بالعمل عند اندريا فيروتشيو، واستمر لديه حتى سافر إلى روما في مارس سنة 1480، وأقام فيها إلى يوليو سنة 1481 ثم عاد إلى فلورنسا.

على أن لوحات ليوناردو الأولى ليست معروفة كلها، وقد أحاط بها شيء من الغموض لا يمكننا من تناولها جميعها بالفحص الوصف. ولكن هذا لا يمنع من أن نذكر أهم لوحتين له في مرحلته الفنية الأولى، وكلتاهما تمثل (التبشير)، توجد الأولى باللوفر ومؤرخة سنة 1470، والثانية بالجاليري أو في فيتزي بفلورنسا مؤرخة سنة 1472، وفيها ترى العذراء جالسة إلى مدخل بيتها وعلى يسار اللوحة ركع ملاك يبشرها بالمسيح، وفي مؤخر المنظر مجموعة أشجار ذات لون طبيعي جميل.

وله أيضاً جزء من لوحة معلمه فيروتشيو (تعميد المسيح)، قام ليوناردو بتصوير الملاك عليها، وهي محفوظة بأكاديمي فلورنسا وصورة العذراء مع الطفل (متحف ميونيخ) 1478، وقيامة المسيح مع القديس ليوناردو والقديسة لوتشيا (جاليري برلين) وصلاة الملوك الثلاثة للمسيح، وهي صورة لهيكل كنيسة عملت لوضع الفكرة والتصميم باللون الأسمر (جاليري الفاتيكان). ولعل آخر صورتين للمرحلة الأولى في خلقه الفني هما الصورتان المتشابهتان اسما وموضوعا (الماذونا في المغامرة)، الأولى من ناسيونال جاليري بلندن والثانية ش1 - باللوفر. والناظر إلى هذه اللوحة تأخذه لأول وهلة روعة القوة الإنسانية، وإحاطة ليوناردو بالمظاهر الطبيعية والتأثر بها؛ فالمغامرة الجميلة مجسمة صادقة المحاكاة، وأوراق الشجر حية دقيقة التفاصيل، هذا إلى جانب تصويره لطبقات الأرض على شاطئ الغدير فجعلها تحاكي النظرية الجيولوجية محاكاة علمية.

انظر إلى ركعة العذراء، وإلى الطهارة المتجلية في ملامح وجهها، ثم تأمل قوة الإخراج الرائعة لملابسها، وشاهد الظل والنور الذي تخلل انكسار هذه الملابس، ولاحظ الطريقة الفذة التي أخرج بها اليد اليسرى للعذراء وهي تشير للملاك، ثم تأمل إلى جانب هذا، الحنان الفائق الذي يتمثل في الكيفية التي أمسكت العذراء بها الطفل الجالس إلى يمينها.

وقف الملاك راكعا خلف المسيح الطفل يشير بيمناه إلى طفل آخر يصلي أمامه،

والمتأمل لوجه الملاك لا يستطيع إلا أن يرى فيه سحرا يبعث في النفس كل معاني التقديس
للملائكة، ولعلك إذا قارنت بين نظرة العذراء إلى اسفل، ونظرة الملاك إلى المشاهد ترى أنك لا تعرف أيهما أروع، فأنت تحار في هذه القوة الخارقة التي وهبها ليوناردو والتي لم تكن لغيره من معاصريه.
انظر إلى اللوحة نظرة محيطة، واجتهد أن تتذوق ما فيها من تفاصيل، وارجع بفكرك إلى علم النبات، تر أن الفنان قد أعطانا فكرة رائعة عن جمال الأشجار من كبيرة وصغيرة، تأمل أوراق الشجر تر أنها كلها مع صدقها في محاكاة الطبيعة مختلفة التكوين والشكل، وهذا دليل على التفوق والإحاطة
(له بقية)
أحمد موسى
البريد الأدبي
الفن المصري في حاجة إلى الرعاية
ارتفع صوت الفنانين المصريين بالشكوى من موقف الحكومة معهم وضنها عليهم بالتشجيع والرعاية. بينما هي لا تضن بتشجيعها ورعايتها على الفنانين الأجانب الذين يهبطون مصر ويجدون فيها سبيل العيش خصبا موفورا في ظل هذه الرعاية. وفي مصر الآن طائفة لا بأس بها من الشباب الذين برعوا في الفنون الجميلة وتلقوها في أحسن المعاهد الأوربية، وقد ظهرت هذه البراعة ماثلة في كثير من المعارض التي عرضت فيها صور وتماثيل من صنع الشباب المصري؛ ولكن الحكومة المصرية أو بالحري وزارة المعارف لم تحفل كثيرا بمجهود أولئك الفنانين الشبان، وقلما عنيت بشهود معارضهم، بينما لا تتوانى عن شهود معارض الفنانين الأجانب سواء بحضور الوزير ذاته أو بعض أكابر الموظفين، أو شراء بعض اللوحات والقطع المعروضة. ومنذ أعوام قلائل أنشأ الفنانون المصريون لهم رابطة لتعنى بشؤونهم، فلم تولها الجهات الرسمية أية رعاية، ولم تتكرم عليها بأية معاونة. وهذه سياسة تحمل على التساؤل. ونحن لا نأخذ على وزارة المعارف أنها تشجع الفن والفنانين من أي الجنسيات؛ ولكن الذي يحز في نفس كل مصري أن يبقى هذا التشجيع كأنه وقف على الفنانين الأجانب؛ وأن يترك الفنانون المصريون بلا رعاية رسمية تذكي عمهم وتحقق أمانيهم. وقد آن الوقت الذي يحسن أن تعدل فيه وزارة المعارف خطتها، وأن تشمل الفنانين المصريين بسابغ رعايتها
مؤتمر القلم الدولي وبرنامجه:
يعقد المؤتمر الدولي الخامس عشر لاتحاد نوادي القلم في باريس في يوم الأحد 20 يونيه، ويستمر انعقاده إلى الرابع والعشرين وتقام حفلة الافتتاح في معهد التعاون العقلي، ويشمل البرنامج عدة حفلات واستقبالات ومآدب منها حفلة استقبال يقيمها رئيس الجمهورية للمندوبين، وحفلة ساهرة تقام في الكوميدي فرانسيز، وزيارات لمعالم باريس وفرساي، وحضور اللوار، ومعرض باريس الدولي. ويشمل برنامج العمل فضلا عن بحث الاقتراحات المختلفة مناقشة عدة مسائل أدبية هامة منها:
(1) هل يوجد أسلوب معاصر للأدب العالمي؟
(2) كيف يمكن التوصل إلى جعل الثقافة عالمية بغير طريق الترجمة؟
(3) وكيف يمكن تنظيم التبادل في مسألة العقد الأدبي بين مختلف الأمم وإنشاء نقد أدبي دولي؟
(4) الوسائل التي يمكن بحثها للتعبير المشترك في أدب الجيل الحاضر والمستقبل.
(5) مستقبل الشعر في العالم الحديث.
وسينزل المندوبون ضيوفاً على لجنة تنظيم المؤتمر أيام المؤتمر الرسمية. وقد سبق أن أشرنا إلى أن نادي القلم المصري سيشترك في هذا المؤتمر على يد وفد من أعضائه برياسة الدكتور طه حسين بك عميد كلية الآداب، وقد ينتهز ممثلو مصر هذه الفرصة فيقدمون الدعوة إلى لجنة تنظيم المؤتمر بعقد أحد المؤتمرات لا قريبة المقبلة لنوادي القلم بمدينة القاهرة؛ على أن ذلك لا يمكن أن يكون قبل سنة 1940.
استعمار المناطق القطبية
لفتت روسيا السوفياتية في الأعوام الأخيرة أنظار العالم بالجهود الجبارة التي تقوم بها

في سبيل إصلاح المناطق القطبية واستثمارها وتعميرها. والمناطق القطبية كما هو معروف بسائط شاسعة لا نهائية من الجليد، وتكاد تكون قفراً من البشر. وروسيا تسيطر على مساحات عظيمة من هذه المناطق سواء في سيبيريا أو في الجزر الشمالية القطبية مثل نوفازمبلا وستبزبرجن. وقد صدر أخيراً كتاب عجيب عن الجهود التي تبذلها روسيا لتعمير هذه الوهاد الثلجية الهائلة، وفيه بحوث هامة عن (المعهد القطبي) الذي أقامته الحكومة الروسية في لنتجراد وزودته بجمع عظيم من العلماء في مختلف الفروع التي تعاون على تحقيق هذه المهمة الاستعمارية العظيمة مثل الجيولوجيا والمترولوجيا والكيميا وعلوم المحيط والبولوجيا والتحليلات وغيرها. وعدد هؤلاء الأخصائيين ثلاثمائة وخمسون، وهم يبذلون جهوداً تدعو إلى الإعجاب في الكشف عن أسرار هذه الأنحاء القطبية. وعنوان الكتاب المذكور هو: (أربعون ألفاً ضد المحيط المتجمد) ومؤلفه كاتب خبير بشئون روسيا هو هوسمولكا. وقد يتعرض المؤلف جهود روسيا في سبيل اكتشاف المناطق القطبية وتعميرها، وذكر أن هذه المهمة تكاد تكون اليوم وقفاً على روسيا؛ وروسيا تقوم فيها بأعظم قسط من الجهود الإنسانية وربما كانت جهودها في ذلك أعظم ما قدمته في العصر الأخير للعالم وللإنسانية. ويصف الكاتب أعاجيب (المعهد القطبي) وجهود علمائه وما وفقوا إليه من الاكتشافات العلمية والعمرانية، كل ذلك في فصول قوية شائقة بما تحويه من مختلف المعلومات الغريبة عن الحياة في تلك الأصقاع المتجمدة

جوائز أدبية أمريكية

من أنباء نيويورك أن جائزة الأدب الكبرى المعروفة بجائزة (بولتزر) وقدرها ألف دولار (مائتا جنية)، وهي المخصصة لأحسن رواية، تصدر في العام قد منحت بواسطة جامعة كولومبيا التي تتولى أمرها، إلى الكاتبة الأمريكية مس مرجريت متشل من أجل روايتها (ذهبت مع الريح) التي بيع منها في أقل من عام نحو مليون ونصف نسخة

ومنحت نفس الجائزة عن أحسن قطعة مسرحية تصدر في العام إلى الكاتبين المسرحيين جورج كاوفجان وموسى هارت من أجل مسرحيتيهما (لن تستطيع أخذها معك)، وهي تمثل الآن على جميع المسارح الأمريكية الكبرى

ومنحت جائزة (بولتزر) أيضاً عن الصحافة لمستر جون ومن محرر جريدة (شمس بلتيمور) لأنه نشر أبدع مقال افتتاحي في سنة 1936

بحث عن البغاء

صدر أخيراً في فرنسا كتاب اجتماعي خطير عنوانه (بحث عن البغاء) بقلم الكاتب الكبير جان جوسي فرابا، وهو عبارة عن صور قوية مؤثرة مما شهد الكاتب وبحث بنفسه سواء في أماكن البغاء العلنية، أو في الشارع، أو في المنازل السرية الرفيعة، أو في أوكار البؤس المروعة. وقد قضى الكاتب في بحثه أعواما يجوس فيها أعماق باريس، ويحقق حالها الاجتماعية الخطيرة، وهو يتوجه فيه بالدعوة الحارة إلى الحكومة والبرلمان والأمة الفرنسية أن يعملوا جميعا لإنقاذ الإنسانية من هذا الوباء الاجتماعي الجارف وقد أثار الكتاب منذ ظهوره كثيراً من الاهتمام.

موقع طروادة

لبثت إلياذة هوميروس حتى العصر الحديث تعتبر قطعة من الخيال المحض، ولبثت مدينة طروادة التي اتخذت مسرحا لحوادث الإلياذة مدينة خيالية؛ ولكن مباحث العلامة الأثري شليمان في منطقة (حصارلك) في غرب الأناضول كشفت عن موقع مدينة مسورة، عليها آثار الغنى والفخامة، ودلائل تدل على أنها احرقت؛ فقيل عندئذ أن هذه ليست سوى مدينة طروادة، وأن هوميروس حينما تحدث عن حصار طروادة حديثه الرائع لم يكن يروي سوى واقعة تاريخية؛ وحاول كثير من العلماء أن يطبقوا أوصاف الإلياذة على المدينة المكتشفة؛ بيد أن الحفر المتواصل في هذه المنطقة كشف عن سبع مدائن قديمة. فأيها في الواقع طروادة؟ ولاحظ بعض العلماء من جهة أخرى أن هذه المدن المتواضعة لا تتناسب مع الأوصاف الرائعة التي يسبغها الشاعر على (طروادة). وقد ظهر أخيراً كتاب بالفرنسية عنوانه (الجدل حول طروادة). بقلم العلامة الفرنسي شارل فلاي، يستعرض فيه مختلف الفروض والنظريات التي تنطبق على طروادة وظروفها. ذلك أن المعروف أن طروادة قد خربت وأبيدت، فكيف يرجو المنقبون أن

يقفوا على أطلالها كاملة؟ ومن جهة أخرى فليس من المحقق أن هوميروس كتب عن علم دقيق بالجغرافيا والمواقع، وقد يكون للخيال شأن كبير في الأوصاف التي يقدمها ألينا عن المدينة الشهيرة، ويحاول المؤلف أن يناقش هذه الآراء كلها، وأن يستخلص أوضح النتائج التي تؤيدها الأسانيد التاريخية والجغرافية والأثرية عن موقع طروادة، وعن مصايرها منذ التاريخ القديم

الخطابات الغفل

ذاع في العهد الأخير في فرنسا توجيه الخطابات القاذفة الغفل من التوقيع، وضبطت لهذه الخطابات عدة وقائع رنانة؛ وكتب الكتاب والعلماء بهذه المناسبة يبحثون عن أعراض هذه العلة وأسبابها؛ ويقول الدكتور لوكار في مقال نشرته جريدة الجورنال الباريسية أن كتابة الخطابات الغفل ترجع إلى بواعث ثلاثة هي المصلحة والانتقام والحسد، فهذه البواعث الثلاثة هي التي تحمل الشخص العاقل على عدم توقيع ما يكتبه. بيد أن هناك أشخاصا تنتابهم أزمات عقلية وعصبية معينة فيكتبون مئات الخطابات الغفل، وهنا تبدأ أعراض المرض ذلك لأن شهوة الخطابات الغفل مرض حقيقي؛ وربما كانت أهم أسبابه راجعة إلى عوامل جنسية، ومن النادر أن تجد الخطابات الغفل مكتوبة باتزان أو لغة محتشمة، فهي في الغالب مصوغة في لهجة فاحشة. ولكنها تدل أيضاً على جهل كاتبيها بهذه الصيغ القاذفة لأنهم في الواقع ينتمون إلى بيئة رفيعة.

وكثير من العذارى اللائي تقدمن في السن. أو أرهقهن الضغط الاجتماعي يجدن متنفسا في كتابة الخطابات الغفل؛ وقلما تصدر هذه الخطابات من شخص - رجل أو امرأة - يتمتع بحياة جنسية منتظمة

ومن خواص كاتب الخطاب الغفل إلا يعترف أبداً. وكثير من النساء يضبطن وهن متلبسات بالكتابة ومع ذلك ينكرن عملهن.

والخلاصة أن شهوة الخطابات الغفل مرض؛ والمصاب بها يمكن أن يعتبر شخصا غير عادي إذا لم يكن مجنونا في الواقع

رسالة النقد

إسماعيل المفترى عليه

تأليف القاضي بيير كربتيس

وترجمة الأستاذ فؤاد صروف

للأستاذ الغنيمي

- 5 -

نستطيع أن نفهم أن المترجم قد يخطئ في عبارة صعبة غامضة المعنى، ولكن الذي لا نستطيع أن نفهمه أن يعمد المترجم إلى عبارة سهلة واضحة المعنى فيستبدل بمعناها معنى آخر من عنده بعيد كل البعد عن المعنى المراد

أنظر إلى قول المؤلف عن موقف إسماعيل من السخرة (1)

'

فهل في هذه العبارة غموض يجيز للأستاذ صروف أن يترجمها بقوله: (إن موقف إسماعيل بازاء السخرة لم يكن يقصد منه التظاهر) من أين جاء الأستاذ بالتظاهر. أن المعنى الذي لا يخفى على إنسان هو لم يقف إسماعيل موقفه من السخرة لفكرة (عارضة زائلة)

ومن هذا النوع أيضاً العبارة الآتية التي تبين الأثر الذي انطبع في ذهن إسماعيل (2) حين رأى صمويل بيكر لأول مرة

والتي ترجمها الأستاذ صروف بهذه العبارة الغامضة (وقع عنده موقعا حسناً) فأين ذلك من قول المؤلف أن إسماعيل قد اعجب بشخصيته القوية أو أثرت فيه شخصيته القوية

ولا يختلف عن ذلك ما ترجم به الأستاذ صروف وصف المؤلف لحملة بيكر الذي (3) يقول فيه

فقد ترجمه الأستاذ صروف بقوله (أنها كانت عملا ذا شان خطير) أما سبب هذا الخطر وهو طبيعتها وصفتها الرسمية فلم يعن المترجم بيانه كما بينه المؤلف

ومن العبارات التي أغفلها المترجم قول المؤلف في موقف إسماعيل من السير (4)

صمويل بيكر
, ' ;
وكل هذه معان لها قيمتها لم يذكرها المؤلف عبثاً، وليس فيها شيء من الصعوبة، ولكن الأستاذ حذفها كلها
وترجم الأستاذ عبارة بقوله التجارة المنظمة مع أن معناها التجارة المشروعة؛ (5)
والفرق بين المعنيين كبير لأن النخاسة قد تكون تجارة منظمة. أما التجارة المشروعة أو المباحة فلا يمكن أن تشمل تجارة الرقيق
ثم لينظر القارئ معنا إلى هذه العبارة التي يصف بها المؤلف عمل المراجعين (7)
الذين جاءوا لفحص حسابات إسماعيل
; ; ; ; ; , ;
ولينظر بعد ذلك إلى ترجمة الأستاذ صروف التي يقول فيها (إن فاحصي الحسابات (المراجعون) لا يهمهم عادة إلا فحص ما يقدم إليهم من سجلات ودفاتر ومن مستندات الديون التي هي للغير أو على الغير)
ونحن إذا تجاوزنا عن أسلوب هذه العبارة نرى أنها لم تؤد إلا جزءا يسيراً من معنى العبارة الإنجليزية. قد يكون في هذه العبارة الإنجليزية شيء من الصعوبة ولكن هذه الصعوبة هي محك القدرة على الترجمة وإلى الأستاذ ترجمة لهذه القطعة جامعة لكل ما فيها من المعاني:
إن المحاسبين في العادة لا قلب لهم، وليس لهم شأن بإحساس الناس وعواطفهم،)
ولا يضعون نصب أعينهم إلا غرضا واحدا هو البحث والتدقيق، لا تأخذهم فيه هوادة.
وكل ما يعنون به هو ما للشخص وما عليه سواء أكان ذلك حقيقة حاضرة أم تقديرا مستقبلا
هل يصدق القارئ أن الأستاذ صروف قد ترجم (7)
بقوله (قبل مغادرته السودان في مهمته الأولى) وهل يمكن أن لا يعرف الأستاذ صروف أن
معناها (سافر إلى) لا غادر؟ وأين كانت مهمة غردون الأولى التي سافر إليها من السودان؟
إنا لا نكاد نصدق أن الأستاذ صروف قد ترجم هذه العبارة أو اطلع عليها وعلى الأصل بعد الترجمة
قال المؤلف في الأموال التي أنفقها إسماعيل في حرب الرقيق
فقلب الأستاذ صروف معنى هذه العبارة إذ قال: (ومع أن الاعتبارات المار ذكرها قد تسوغ إنفاق إسماعيل للمال الخ) مع أن الترجمة الصحيحة هي: وحتى لو كانت هذه الاعتبارات كلها تبرر إغفال الأموال التي أنفقها إسماعيل وتجيز محوها مسجل أعماله الأدبية الخ) وما اكبر الفرق بين المعنيين!
وقال المؤلف في تقديره الأموال التي أنفقها إسماعيل في محارة النخاسة (8)
فلم ير الأستاذ صروف أن يترجم هذه العبارة بأكثر من قوله (ولا يعزب عن البال) والأستاذ مولع بمثل هذه العبارة المبهمة فقد تكررت هي ولفظ (وعليه) أكثر من مرة بدل جمل طويلة ذات معان كثيرة في الأصل الإنجليزي
ويقول القاضي كربيتس إن قناصل أوربا وأمريكا كانوا يجمون تجارة الرقيق، وأن (10)
السفن التي كانت تحمل العبيد كانت ترفع الراية الأمريكية ثم يقول بعد ذلك:
فقال الأستاذ صروف في ترجمتها إنهم كانوا بمأمن من تعرض قناصل أوربا وأمريكا)
مع أن المعنى الحقيقي أن (قناصل أوربا وأمريكا كانوا يحمون هؤلاء التجار من أن يتعرض لهم أحد. ذكر المؤلف ذلك في الفقرة السابقة لهذه العبارة المنقولة من كتاب السير صمويل.
هل سمع القارئ أن كلمة (9):
معناها (القرية المقصودة) هذا ما ترجمها به الأستاذ صروف بدل القرية الآمنة أو الغافلة عما يراد بها.
وقال المؤلف عن العقد الذي كان بيكر وإسماعيل باشا (10)
أليس المعنى الذي يفهمه كل إنسان من هذه العبارة هو: ويلوح أن (السير صمويل بيكر) هو الذي كتب صورة العقد الذي يحدد علاقته بالوالي. لكن الأستاذ لم يفهمها

كذلك بدليل أنه قال في ترجمتها (ويظهر أنه كان بينه وبين الخديو عقد لتنظيم علاقته به) وهذا ما لم يقله المؤلف، فإن وجود العقد لاشك فيه كما قال ذلك بصريح العبارة بعد سطر واحد من هذا الكلام ولكن الذي لم يتأكد منه هو أن كاتب هذا العقد هو السير صمويل بيكر.

وقال المؤلف يصف صعوبة نقل المؤن والذخائر والسفن من مصر إلى السودان (11) -

فترجم الأستاذ صروف ذلك بقوله (كان يجب نقلها مسافات شاسعة جدا) وأين بقية المعاني؟ أين طرق نقلها - البواخر البحرية والقوارب النهرية وظهور الإبل؟ نكتفي بهذه الأغلاط من الفصل الخامس لننتقل إلى الفصل السادس لنبدأه بهذه الغلطة التي لا يصح أن يقع فيها مترجم.

قال المؤلف عن الرجال الذين صحبوا بيكر في رحلته (1)

, ,

أيدري القارئ ماذا قال الأستاذ صروف؟ قال: (أبطالها السير صمويل بيكر نفسه وابن أخيه واتباعه عبد القادر ومسلم ومنصور ورجل قبطي وطائفة من الاتباع والأنصار). أننا كلما أمعنا في قراءة الكتاب زادت شكوكنا في أن الأستاذ صروف قد ترجمه بنفسه أو اطلع على الترجمة، وإلا فهل كان يخفي عليه أن معنى العبارة هو: (أبطالها السير صمويل بيكر وابن أخيه وعبد القادر المسلم ومنصور القبطي وكل رجل من هذه الطائفة المصطفاة): قد يظن الأستاذ صروف أن الشولات تجيز له أن يفهمها كما فهمها ولكن ذلك ظن غير صحيح فعبد القادر هو المسلم ومنصور هو القبطي مهما وضع بينها من شولات

وقال المؤلف في هذا المعنى نفسه (1):

فقال المترجم (لصوصها الذين تحولوا إلى الشهامة) وهي عبارة لا معنى لها ولا ندري لم لم يترجمها الأستاذ كما هي ليفهمها الناس فيقول (لصوصها الذين عدوا (أو اصبحوا) فيما

(بعد قديسين

وقال المؤلف يصف حفلة رفع العلم المصري على البلاد التي فتحها بيكر (3).

فقال الأستاذ صروف (ووقف الجنود بشكل ثلاث أضلاع من أضلاع مربع مستطيل) ولا ندري ما هو هذا المربع المستطيل ولا من أين جاء الأستاذ صروف بلفظ مستطيل التي أفسدت المعنى

وقال إسماعيل في عهده إلى السير صمويل بيكر وهو ذاهب لمحاربة الرق (3)

فقال الأستاذ صروف في ترجمة الجملة المنقولة عن وثيقة رسمية عظيمة القيمة: (فتجذب إليك القبائل) فأين هذا من معناها الحقيقي وهو أنك لا تلبث أن ترى الأهليين (يستبدلون بعملهم المحرم عملا مشروعا

وقال المؤلف عن غردون وإسماعيل (4)

ومعنى ذلك أنهما (من أشراف الإنجليز الذين يضنون بصداقتهما وثقتهما على أشرار الناس) ولكن الأستاذ صروف يترجم ذلك بقوله (وما كانا ليفرطا في صداقته) هل معنى (بعض الأرباح) أو معناها أرباحاً عظمية (4)

وقال المؤلف في معرض كلامه عن الضابط الأمريكيين الذين استخدمهم (5) إسماعيل.

وهي عبارة معناها (لا توجد كتاب زرقاء تؤيد هذه الأقوال ولكن المترجم لسبب ما ترك هذه العبارة من غير ترجمة

وقال إسماعيل في خطابه إلى رئيس الضباط الأمريكيين (6).

معناها أني أعتمد على حكمتك وإخلاصك وغيرتك) ولكن الأستاذ ظن أن مشتقة من لفظ فترجم العبارة كلها بقوله: (إني أعتمد على حبكم وإخلاصكم ومراعاتكم لشروط الكتمان) فغير بذلك المعنى وأفسد الأسلوب

وقال المؤلف يعلق على تعيين الجنرال استون رئيسا لهيئة أركان حرب الجيش (7) المصري

. . .

وهي عبارة طويلة ترجمتها بالضبط (وكان لهذا التعيين معنى أبعد من مجرد! اختيار

مت، ولورنج، وسيلي فجيش الوالي كان نحوي كثيرا من الضباط الأجانب. لقد كان اختيار هذا الضابط الأمريكي لذلك المنصب ثم اختيار عدد كبير من بني وطنه معه ذا معنى خاص. كان إيذانا بانقضاء عهد السيادة الفرنسية على مصر ولم يكن معناه أن إنجليزيا سكسونيا قد خلف غاليا (فرنسيا) أو أن الصقلي والتيوتوني قد ضعف آمرهما معا. لم يكن معناها ذلك بل كان معناه أن عهدا جديدا قد طلع على مصر وأن إسماعيل قد حرر بلاده من القيود الأجنبية واعتزم أن لا يكون لأحد سلطان عليه: نعم أنه استعان بالأمريكيين ولكن أحداً لا يجهل أن الولايات المتحدة لم يكن لها مطامع استعمارية في مصر أو في أفريقية

ثم انظر بعد ذلك إلى ترجمة الأستاذ (وكان لهذا التعيين مغزى ابعد من تعيين سائر الضباط الأجانب في جيش الخديو إذ كان نذيرا بانتهاء السيادة الفرنسية وببدء عهد جديد تتمتع فيه مصر باستقلالها ويصبح فيه الخديو سيد نفسه. ومما أعان على تحقيق ذلك ما يعرفه الخاص والعام من أن الولايات المتحدة كانت منزهة عن كل غرض استعماري أو غاية إمبريالستية في مصر وأفريقيا.)

لو أن الأستاذ كان يلخص الكتاب لجاز له أن يقول هذا القول على ما فيه من تغيير واختلاف عن قول المؤلف؛ أما الترجمة فلا يجوز فيها هذا. وقد حذفنا أصل هذه الفقرة الإنجليزي لأنه يشغل عمودا كاملا من الرسالة فليرجع إليه القارئ أن شاء ونؤكد له انه يطابق ترجمتنا مطابقة تامة

هل يصدق القارئ أن الأستاذ صروف يقول (وفي وسعنا أن نخمن على تلك (8) الأعمال) ترجمة لقول المؤلف.

الذي معناه (إننا نستطيع أن نتصور مجموع هذه المبالغ بوجه التقريب الخ)

ولنكتف بهذا القدر اليوم وموعدنا العدد القادم أن شاء الله

الغنيمي

العدد 203 - بتاريخ: 24 - 05 - 1937

الرافعي

للدكتور عبد الوهاب عزام

قال قائل: (مات سنائي!))

إن موت مثل هذا العظيم ليس خطباً أمماً. لم يكن تبنة ذهبت بها الريح، ولا كان ماء جمد في الزمهرير، ولا كان مشطاً كسرته شعرة، ولا كان حبة سحقتها الأرض؛ إنما كان كنزاً من الذهب في هذا التراب لا يزن العالمين بمثقال ذرة.

(لقد رمي القالب الترابي إلى التراب، وحمل الروح والعقل إلى السموات

ذكرت هذه الأبيات: أبيات جلال الدين الرومي حينما قرأت نعي الرافعي، واعجباً! أنضبت هذه النفس الفياضة؟ أذبل هذا الخلق النضير؟ أخمدت هذه الجذوة؟ أطفئ هذا المصباح؟ أكلت هذه العزيمة الماضية؟ أفترت هذه الهمة الدائبة؟ أأظلم هذا القلب الذي يملأ الدنيا ضياء؟ أوقف هذا الفكر السيار؟ أوقع هذا الخيال الطيار؟ أسكن هذا القلم المصور الذي يصبغ العالم كما يشاء، يضحكه ويبكيه، ويسخطه ويرضيه، والذي إذا شاء صور أحزانه مواسم، ورد أعياده مآتم؟

أمات الرافعي في وقدة جنانه، وشعلة بيانه، وعزة قلبه وسلطانه؟ أطوي القلب الذي وسع الدنيا وما وسعته، وحقرها وأكبرته؟

كلا كلا! إن مولد الحر في الدنيا قليل؛ وإن موت الحر مستحيل. إن مولد الحر تتمخض عنه الأجيال بعد عناء، ويمهد له الزمان بعد جهاد، ليولد على الأرض تاريخ أو فصل من تاريخ، فإذا انقضى عمله وجاء أجله فهو تاريخ لا يمحى، وذكرى لا تموت!

إن الحر ليولد على هذه الأرض كما يولد النجم في أطباق السماء فلا يزال وضّاء هادياً، أو كما يولد النهر في سفح الجبل فلا يفتأ جارياً ساقياً، أو كما تولد الحقيقة في أفكار البشر ثم لا تموت.

إن الحر الكريم قطرة صافية تستمد الله، فلا يحول عنها نوره؛ ولا يتحول عنها وجيه، وهي في خلق الله سنة لا تتبدل فلا تستعبد الحر الأهواء، ولا تذله المطامع؛ وهو يأبى على الحدود، وينفر من القيود، ويكبر على الزمان والمكان، إن خلق الناس زمانهم خلق هو زمانه، وأن حد الناس مكانهم حد هو مكانه؛ فإذا ساق الناس التقليد أو قادهم، وإذا خيل

إليهم الباطل حقاً والحق باطلاً؛ وقف هو هازئاً أبياً يستوحي ربه، ويستفتي قلبه؛ وإذا جرف التيار الخاصة والدهماء، فاضطربوا في موج الحادثات كالغثاء، ترمي بهم كل شط، وتنفر من كل أرض، ثبت الحر كالطود الأشم في البحر الخضم:

يضل كالطود يجري حوله نهر ... من الخطوب له بالناس طغيان
فاتت مآرب أهل الذل قمته ... فما يذلّله نيل وحرمان

إن الرجل الحر صفحة في التاريخ جديدة، وخطوة في سير البشرية متقدمة، على حين لا يظفر التاريخ بجديد في آلاف المواليد، ولا يخطو خطوة إلى الأمام في كثير من الأعوام. وهل التاريخ كما قالوا إلا إعادة وتكرار؟

ولقد أوتي الرافعي من الحرية الإلهية نصيباً، ومن النور الإلهي قلباً، ومن الفيض الإلهي ينبوعاً، فلبث دهره نسيج وحده، وظل حياته ينير للسالكين، ويسقي الظامئين. ولقد أوتي من العزة الإسلامية ما تخر له الجبال، ومن الهمة القرآنية ما تنشق له الأهوال. ولقد أوتي من الإيمان ما أصغر الدهر في سطواته، ومن نور الإيمان ما شق على الزمان ظلماته.

كان الرافعي نوراً وسلاماً، ومحبة ووئاماً، فإذا سيم الدنية في دينه أو في أمته؛ وإذا تجهم الباطل لحقه، أو تطلعت المذلة إلى خلقه، ألفيت النور ناراً تلظى، والسلم حرباً تهيج، والحب بغضاً ثائراً، والرحمة شدة حاطمة.

لبثت سنين طوالا أقرأ للرافعي ولا أراه، وأحبه ولا ألقاه، وأتحدث عنه معجباً ثم أقول لمحدثي: هذا وجه ما سعدت برؤياه، حتى لقيته العام في لجنة التأليف والترجمة والنشر وكأنا صديقان قديمان. ثم أتاحت الفرص لقاءه مرتين أو ثلاثاً كانت آخرتها في دار (الرسالة) بعد أن كتبت مقالتي عن كتابه وحي القلم. ثم افترقنا وما علمت أنه آخر العهد وفرقة الدهر!

وإني لأعترف للقارئ في غير تزيد ولا تصنع أني أجد في نفسي وقلمي تهيباً للكتابة عن الرافعي؛ وأرى جوانب تتسع ثم تتسع حتى يضيق المجال. ولقد حاولت أن أنظم فكنت كلما أخذت القلم تذكرت هذه الأبيات من منظومتي (اللمعات) فقلت إنها تمثله. إنها تمثل الرجل الحر حيث كان

حبذا الصوت فمن هذا البشير؟ ... ومن الهاتف بالقلب الكسير؟
ومن البارق في هذي الغيوم؟ ... ومن المسعد في هذى الهموم؟
ومن الهابط في نور السما ... هادياً في الأرض جيلاً مظلماً؟
ومن السائق شطر الحرم ... وإلى الأصنام سير الأمم؟
ومن القارئ في بيت الصنم ... سورة الإخلاص في هذا النغم؟
ومن الحر الذي قد حطما ... من قيود الأسر هذا الأدهما؟
ومن الآبي على كل القيود؟ ... ومن القاطع أغلال العبيد؟
ومن الباعث في ميت الأمم؟ ... ثورة العزة من هذي الهمم؟
لاح كالغرة في هذا السواد ... بص كالجمرة في هذا الرماد؟

إنه ليصدق من يجيب كل سؤال في هذه الأبيات بهذا الاسم الكبير: (مصطفى صادق الرافعي).

عبد الوهاب عزام

بل ضرورية جداً

للأستاذ عباس محمود العقاد

تعودنا أن نسمع أن الفنون الجميلة من الكماليات التي يأتي دورها بعد العلم والصناعة في الأهمية، وفي مقالكم المشار إليه تقولون إن علينا أن نبدأ بالفنون الجميلة والرياضة لنتعلم الإرادة والعمل، فهل لكم أن تنيروا الطريق لنا بالتوفيق بين القولين. .

الإسكندرية

صالح شحاته

الحق يا صاحبي أننا في عصر نحتاج فيه إلى غربلة وافية لجميع الألفاظ التي لهجنا بها زمناً في مطلع نهضتنا الحديثة، ومنها ألفاظ الضروريات والكماليات وتقديم الأهم على المهم والمفاضلة بين العلوم والفنون، وسائر هذه المحفوظات التي خلت من المدلول لكثرة تكرارها واكتفاء الآذان بسماعها دون التفكير فيها.

فمن الواجب (أولاً) أن نفرق بين الفرد والأمة فيما هو من الشؤون الضرورية وما هو من الشؤون الكمالية.

فالفرد لا يشترط فيه أن يستوفي جميع المزايا الإنسانية والملكات الحية، وليس من اللازم ولا من المستطاع أن يكون قوياً وذكياً وجميلاً وعالماً وشاعراً وصانعاً وغنياً وسائساً زعيما ومفكراً مقتدى به وإماماً متبعاً في مطالب الحياة كافة.

ولكن إذا اجتمع عشرون مليون فرد في قطر واحد فمن الضروري - وليس من الكمالي - أن تتوافر بينهم جميع المزايا الإنسانية والملكات الحية التي تتفرق في الأفراد، وإلا كان النقص دليلاً على مسخ ذريع في التركيب وعجز شائع في عناصر الطباع. ويستوي هنا أن يكون الناقص لعباً أو جداً، وفناً أو علماً، وخلقاً أو رأياً، فإنما المهم أن الملايين العشرين يتسعون لكل مزية عرفت في بني الإنسان، وإلا كانوا ناقصين في الضروريات للأمة وإن كانت معدودة بالقياس إلى الفرد من الكماليات والنوافل.

ومن الواجب (ثانياً) أن نقلع عن تقويم المطالب القومية بمقدار الحاجة إليها والاستغناء عنها، فان ذلك تقويم غير صالح وغير صحيح.

فنحن نستطيع أن نعيش بغير ملكة النظر وبغير ملكة السمع أو الكلام سبعين سنة دون أن نهلك من جراء ذلك.

ولكننا لا نستطيع أن نعيش بغير الرغيف وما إليه سبعين سنة ولا سبعين شهراً ولا سبعين يوماً إلا هلكنا هلاكاً لا ريب فيه؛ ولم يقل أحد من أجل ذلك إن الرغيف أغلى من البصر، وإن ملكات الحس لا تستحق المبالاة كما يستحقها الطعام والشراب.

وندع تقويم الفكر إلى تقويم السوق، فأنا واجدون أن الرغيف أرخص من الكتاب، وأن التمثال أغلى من الكساء، وأن الحلية أقوم من الآنية الضرورية، وأن قيمة الشيء لا تتعلق بمقدار الحاجة إليه والاستغناء عنه، بل بمقدار ما نكون عليه إذا حصلناه. فنحن إذا حصلنا الرغيف فأقصى ما نبلغه في تحصيله أن نتساوى وسائر الأحياء في إشباع الجسد وصيانة الوظائف الحيوانية. ونحن إذا حصلنا الفنون الجميلة فما نحن بأحياء وحسب، ولا بأناسي وحسب، ولا بأفراد وحسب؛ بل نحن أناسي ممتازون نعيش في أمة ممتازة، تحس ما حولها وتحسن التعبير عن إحساسها.

إن الضروريات توكلنا بالأدنى فالأدنى من مراتب الحياة، أما الذي يرفعنا إلى الأوج من طبقات الإنسان فهو ما نسميه النوافل والكماليات، أو هو ما نستغني عنه ونعيش ولكن كيف نعيش؟!

هذا هو موضع السؤال الصحيح. فان كنا لا نبغي إلا أن نعيش كما تعيش الأحياء كافة فحسبنا الضروريات المزعومة إلى حين: حسبنا الخبز حتى يجيئنا من ينزع منا الخبز أيضا ونحن لا نقدر على دفاعه، ولا نطيق غير الخضوع له والصبر على بلائه.

وإن كنا نبغي أن نعيش (أكمل) العيش فلا غنى إذن عن الكماليات لبلوغ الكمال، ولا معدي إذن عن اعتبار الكماليات من ألزم الضروريات.

ومن الواجب (ثالثاً) أن نذكر ما هو (العلم) الذي يفوقنا به الغربيون قبل أن نعقد المقارنة بين العلوم والفنون.

فالغربيون لا يفوقوننا بالعلم (المصنوع) علم الطيارات والسيارات والسفن والدبابات والمناسج والمنسوجات.

كلا! لا يفوقنا الغربيون بهذا، فان الشرقي ليحذق صناعة الطيارة إذا رآها كما يحذقها الغربي الماهر في عمله، ولعله يبذه ويسبقه في الوقت والبراعة.

إنما يفوقنا الغربيون بالعلم الملحوظ لا بالعلم المصنوع: يفوقوننا بعلم الملاحظة والابتكار والاختراع؛ يفوقوننا بالعلم الذي يحتاج إلى عين لا تفوتها الرؤية، وبديهة لا يفوتها الإدراك، وخيال لا يفوته تركيب الصغائر وضم الأجزاء إلى الأجزاء حتى يتألف منها المصنوع الجديد.

وما هذا الذي يفوقوننا به غير ملكة الحس والتخيل التي يترجمها المصور تمثالاً والموسيقي لحناً والشاعر قصيداً والمخترع صناعة حديثة؟ ما هو غير أن نحس ما حولنا ونقرن بين إحساس وإحساس حتى نستخرج منها جميعاً صورة كاملة في عالم العلم أو في عالم الفن أو في عالم التجارة؟

فليست المقارنة بين العلم والفن مقارنة بين طيارة تنفع في التجارة والحرب وتمثال

لا ينفع لغير الزينة، بل هي مقارنة بين ملكة مستنبط لا تتم بغيره الحياة، وملكة مستنبط لا تتم بغيره الحياة!

وإذا فقدنا الفنون الجميلة فليس كل ما نفقده إذن هو تمثال الرخام الذي لا يصلح لغير الزينة، بل نحن فاقدون جزءاً من حياتنا وجزءاً من العلاقة بيننا وبين الدنيا، وعائشون عيشة الممسوخ الأبتر المحجوب عن جوانب دنياه.

إن الرجل البصير يرى الحجر كما يرى الجوهرة، ولكنه إذ عجز عن رؤية الحجر وهو أمامه فليس الحجر وحده بالمفقود في نظره، بل المفقود كل شيء يتراءى لعينيه.

لقد حيينا في خدمة غيرنا عصوراً طوالاً حتى أوشكنا إذا قيل لنا: (اشعروا بالحياة) أن نطلب أجراً على حياتنا

فالرجل الذي يسأل: ما فائدة الفنون الجميلة؟ هو كالرجل الذي يسأل: ما فائدة العين؟ وما فائدة الأذن؟ وما فائدة الشعور؟ وما فائدة الحياة؟

وإن الإنسان لينظر إلى الروضة ولا يبسط يديه بعدها إلى أحد يعطيه أجراً على ما رآه، فلماذا يحس الجمال وهو يسأل عن فائدة الإحساس؟ ولماذا يعبر عن الجمال وهو يسأل عن فائدة التعبير؟ ولماذا يقتني التمثال وهو يسأل لماذا تقتنيه؟ ولماذا يسمع الغناء وهو يسأل لماذا أصغي إليه؟

إنه ينبغي أن يصنع ذلك لأنه يحس، وإنه يحس لأنه يحيا فمن يا ترى يريد أجراً على الحياة! إن كان عبداً فمن سيده فليطلب أجره لو كان سيد يعني بتهذيب عبيده؛ وإن كان هو سيداً فهو مالك حياته وكفى أنه يحيا تعليلاً لكل عمل وترغيباً في كل مطلب وتقويماً لكل عزيز نفيس.

ولقد يخطئ بعض الفلاسفة المصلحين في تقويم الفنون فيستكثرون ما أنفقت عليها الدول والملوك الثروات من مال وفير وجهد عنيف. كذلك أخطأ تولستوي في كتابه عن الفن الجميل وهو نفسه قد أنفق عمراً مديداً في خدمة الفن الجميل.

على أن خطأهم قريب المأخذ سهل المراجعة من ناحية الحساب، إذ ليس القياس في هذا الصدد أن ننظر إلى مدينة مثل (هليوود) كم تنفق من الملايين على الروايات والممثلين! وإنما القياس أن ننظر إلى مدن العالم كم عددها بالقياس إلى (هليوود) وحدها أو كل مدينة جرت على مجراها.

وليس القياس أن ننظر إلى الموسر كم يبذل من الألوف في تمثال واحد، وإنما القياس أن ننظر إليه والى كل فرد كم ينفق على خبزه وكسائه وسكنه وراحته، وكم ينفق على الفنون الجميلة التي يهواها من تماثيل وأغان وأشعار؟ ومتى نظرنا هذه النظرة علمنا أن الكماليات لا تجور على الضروريات، وأن قياس النفقات على ما يسمى بالكماليات والنفقات على ما يسمى بالضروريات أقل من قياس الآحاد إلى المئات.

إلا إننا نعود فنقول إن الفنون الجميلة ضروريات في الأمم وإن عدت نوافل في آحاد الناس، وإنها ضروريات لمن ينشد (العيش الأكمل) ولا يقنع بكل عيش بأنها ضروريات لمن يسأل: كيف نسود؟ وإن كانت هباء عند من يسأل: كيف نعيش؛ وأحرى به أن يسأل: كيف نموت؟ فعيش هذا وموته سواء.

عباس محمود العقاد

فائدة هندسية

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

كيف تقيس المسافة بين نقطتين؟ أما أنا وأنت - أو أنت وأنا، كما يقضي الأدب الحديث أن أقول - فان الواحد منا يقف ثم يروح يخطو بين النقطتين كالجندي الحديث العهد بالتدريب العسكري، ويقول وهو يفعل ذلك: (واحد. . . اثنين. . ثلاثة. . الخ) ثم يضرب عدد الخطوات في طول كل خطوة فيكون الناتج هو المسافة التي يراد قياسها. أو يفعل شيئاً آخر: يجئ بحبل ويمده بين النقطتين ثم يعقد عقدة في كل ناحية، ثم يجئ بمقياس كالمتر ويقيس به ما بين العقدتين، فإذا لم يكن ثم متر، فان المسافة بين أنامل يمناك - حين تمد ذراعك - والكتف اليسرى طولها متر.

ولكن لي صاحباً يعرف طريقة أخرى في قياس المسافات المستقيمة أبرع مما نعرف، وقد حدثني بها ووصفها لي. ونحن نتغدى منذ أيام قال:

(لا علم كالهندسة. . . أعني أنها علم مضبوط لا موضع للخطأ فيه)

وأنا - كما يعرف القارئ - لا علم لي بالهندسة ولا بسواها مما هو منها بسبيل. ولست ادري إلى هذه الساعة كيف أمكن أن أجتاز الامتحانات المدرسية التي كانت تعقد لنا في المدارس، أو في السرادقات، وقد كان مما نمتحن فيه الهندسة - بأنواعها، فإنها كثيرة - والجبر والحساب وحساب المثلثات إلى آخر هذا الذي نسيت حتى أسماءه. وأحسب أن الذين كانوا يراجعون أوراق الإجابات كانوا يقولون إن هذا المازني سيكون أديباً كبيراً، والأدب لا يتطلب العلم بالرياضة، ومن الخير للأدب أن ندعه يخرج بشهادته وأن لا نعطله بالرسوب. فإلا يكن هذا هكذا، فليقل لي من يدري كيف أمكن أن أجتاز هذه الامتحانات في علوم الرياضة والكيمياء أيضاً والطبيعة كذلك؟ فإني أذكر - الآن - أني كنت أملأ أوراق الإجابة عن أسئلة الرياضة وما إليها من المعارف المستحيلة بالرسوم والتصاوير: رسوم فتيات وطيور وبقر وجمال، وكنت أفرد الصفحة الأخيرة من ورقة الإجابة لأساتذتي في علوم الرياضة، فأرسم بضعة خطوط هنا، وأكتب تحتها (المستر فلان) معلم الحساب، وخطوطاً أخرى تحتها وأكتب إلى جانبها (المستر علان) مدرس الجبر وهكذا ومن يدري؟. لعل رسمي لأساتذتي كان يرضيهم ويعجبهم، فيدعون جواب المسائل ويمنحوني الدرجات
على الرسم الجيد من الذاكرة!
وقلت لصاحبي: (يا سلام!. صحيح؟)
فقال (بالطبع. . . اسمع. . . كيف تقيس المسافة بين شاطئ النيل؟)
قلت: (أوه. . المسألة لا تحتاج إلى هندسة أو غيرها. . أمشي على كوبري قصر النيل وأعد خطاي ثم أضرب العدد في طول الخطوة. . . مسألة بسيطة جداً)
فقال: (لا لا لا لا. افرض أنك تريد أن تقيس المسافة بين الشاطئين حيث لا كوبري ولا شبهه)
قلت: (آه. . . هذه مسألة أخرى. . أقول لك. . أركب زورقاً ومعي حبل أثبته على شاطئ وأدليه في الماء ونحن نمرق حتى نبلغ الشاطئ الآخر ثم نقيس الحبل)
قال: (يا أخي ألا تعرف أن الزورق لا يستطيع أن يمضي من شاطئ إلى شاطئ في خط مستقيم؟)
قلت: (صحيح. . والله فاتتني! طيب! وما العمل؟ أما أنا فلا أرى طريقة أخرى فيحسن بالنيل أن يقنع بأن يبقى بغير قياس لعرضه. . يكفي طوله)
قال: (لا تمزح. .)
قلت مقاطعاً: (والله إني أتكلم جاداً. . ثم إني لا أدري لماذا أتعب نفسي وأكلفها أن تقيس النيل؟)
قال: (اسمع. . أنا أعرفك الطريقة. . ألم تتعلم في المدرسة أن ضلعي المثلث المتساوي الضلعين أكبر من الضلع الثالث أي القاعدة؟)
قلت: (جايز)
قال: (جائز؟ ماذا تعني؟ هذه حقائق)
قلت: (جائز! الحقيقة أني تعلمت أشياء كثيرة في المدارس ولكني لا أذكر الآن شيئاً منها فأنا مضطر أن أصدقك. . . ولكني أخشى أن يكون غرضك أن تضحك مني، ولهذا أؤثر الحذر وأقول لك جائز. . على كل حال تفضل)
قال: (حسن. . أسمع. . هذه حقيقة لا شك فيها. . ضلعا المثلث المتساوي الضلعين أكبر من القاعدة. . فكيف ينفعنا هذا في قياس عرض النيل؟. . أنا أقول لك. . . تأخذ ثلاثة
أوتاد، وثلاثة حبال، وتذهب إلى أحد الشاطئين وتثبت فيه - على الأرض - وتدين. . تدقهما دقاً قوياً ليثبتا ولا يتزعزعا. . . وتذهب إلى الشاطئ الآخر، وتدق هناك الوتد الثالث. . . هذا الوتد الثالث هو رأس المثلث. . . وما بين الوتدين الآخرين على الشاطئ الآخر هو القاعدة. . فاهم؟ ثم تصل الأوتاد بالحبال. . . مسألة سهلة جداً. . . (ثم تقيس وتحسب فتجئ النتيجة مطابقة للحقيقة
قلت: (غريب!. ولكن أسمع. . ما العمل في المراكب والزوارق التي تمخر؟ هل تؤخرها حتى تفرغ من الحساب أليست هذه مشكلة عسيرة الحل؟. أم لها يا ترى حل هندسي أيضاً؟)
قال: (يا أخي لا تمزح. . لقد فعلت ذلك مرات كثيرة)

قلت: (صادق. . صادق. . والله إن هذا لذكاء!. لو كان الذي اهتدى إلى الحقائق الهندسية يعرف أنك ستستغلها على هذا النحو العلمي المفيد. .؟)
قال: (لقد ورثت هذه الدقة عن أبي. . ولكني لم أبلغ مبلغه مع الأسف. . . مع التدرب آمل أن أكون مثله. . إن حسابي الآن - طبقاً لهذه الحقيقة الهندسية لا يجئ مخالفا للواقع إلا بمقدار خمسين أو على الأكثر سبعين متراً فقط. . شيء تافه كما ترى!)
قلت: (ولكن هل من الضروري أن يكون المثلث متساوي الضلعين أو لا أدري ماذا تسميه؟)
قال: (لا. . أبداً. . ليس هذا ضرورياً. .)
ثم شردت نظرته وعلا وجهه السهوم، فتركته لخواطره ولم يلبث أن رد عينه إلى وقال:
أبي لا يكاد يخطئ. . . صياد ماهر جداً. . . وأغرب ما في الأمر أنه يستطيع أن يقول لك إنه أخطأ الهدف بمقدار متر أو نصف متر أو سنتي. . . خرجنا مرة إلى الصيد فأدهشني بدقته وإحكامه. . . أطلق البندقية على بطة ثم نظر إلى وقال: يا فريد! الطلق مرّ من تحتها على مسافة ثلاثة سنتيات. . ثم رمى أخرى وقال يا فريد: الطلق مر من فوقها على مسافة ملليمترين؛ ورمى ثالثة وقال آه يا فريد! هذه طلقة لا مثيل لها. . شعرة فقط بينها وبين البطة!. وهكذا يا أخي. . فهل سمعت بمثل هذه البراعة العجيبة؟. . مقدار شعرة فقط، لا أكثر ولا أقل؟ تصور الشعرة ماذا يبلغ من سمكها؟. ومع ذلك عرف! استطاع أن يقدر المسافة بين الطلق والبطة على هذا البعد العظيم ما قولك؟. . أليس آية؟)
قلت: (والله شيء مدهش حقيقة. . . ومن أين جاءته هذه البراعة؟)
قال: (العلم نور يا أخي. . وما فائدة العلم إذا كان الإنسان لا يطبقه ولا ينتفع به في حياته؟)
قلت: (صدقت. . ولكن هل أبوك يعرف المسافات بين الطلقات وبين الطيور التي لا يصيدها بالهندسة - أعني بواسطة المثلث المتساوي الضلعين أو غير المتساوي الضلعين؟)
قال: (وهل هذا كل ما في الهندسة؟ يظهر أنك نسيت دروسك)
قلت: (كل النسيان. . نسيتها قبل أن أحفظها)
قال: (صحيح. . هذا يحدث كثيراً)
قلت (إنه يحدث دائماً)
قال: (لا. أنا لم أنس دروسي قبل حفظها. . ولا بعد الحفظ)
قلت: (أنت أعجوبة. . وهل في الناس اثنان مثلك؟)
فصار وجهه كالحمرة من شدة الحياء والخجل من سماع المدح، وكأنما أراد أن يصرفني عن نفسه.
فقال: (ولكن أبي ليست له مثل هذه الدقة حين تكون الحيوانات أليفة والطيور داجنة)
قلت: (وكيف كان ذلك؟)
قال: (إن نظره بعيد جداً يبصر كل شيء - أي شيء - على مسافة ميل، ولكن إذا كان الشيء قريباً منه، صعبت عليه الرؤية الدقيقة. . وأذكر أنه قام بيني وبينه خلاف على المسافة بين رجلي الدجاجة)
فصحت به: (إيه؟)
فقال: (لا تصح هكذا. . إننا في مطعم. . فهل تريد أن يلتف حولنا الناس؟)
قلت: (معذرة. . لقد نسيت أن ههنا ناساً. . الحق أن كلامك استبد بعقلي. تفضل)
قال: (أشكرك. . نعم اختلفنا على المسافة بين رجلي الدجاجة. . هو يقول إنها خمسة سنتيات وأنا أقول إنها أقل بكثير. . وأخيراً اتفقنا على قياسها بالضبط والدقة، فقال أبي هات الدجاجة، فجئته بها. . تناولتها من رجليها فقال كيف تريد أن تقيس وقد ضممت رجليها. فتناولتها من عنقها، فصارت تلعب وتحاول أن تفلت وتضرب برجليها فاستحال قياس ما بينهما، ثم سكنت ولكن رجليها بقيتا مضمومتين فاتفقنا على تركها على الأرض، وحاولنا أن نغريها بالسكون بقليل من الحب رميناه لها لتلقطه، ولكنها يا أخي (لا تسكن أبداً. . حركة دائمة

قلت: (لماذا لم تنتظر حتى تنام وحينئذ يتيسر القياس كما تشاءان؟)
قال: (والله فكرة)
قلت: (هل تعني أن تقول إنك لم تعرف إلى الآن أيكما المصيب وأيكما المخطئ؟)
قال: (بالطبع أبي هو المخطئ. . ألم أقل لك إن نظره بعيد؟)
قلت: (آه صحيح. .)
قال: (طبعاً)
قلت: (طبعاً)
وكانت هذه نهاية الحديث في يومنا ذاك، فعدت إلى البيت وقيدته لئلا أنساه.

إبراهيم عبد القادر المازني.

في الأدب المقارن

بيئات الأدباء في الأدبين العربي والإنجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

أثر البيئة في الإنسان ومجتمعه وعلومه وفنونه من النواميس التي اهتم العلم الحديث بكشفها وتتبع مظاهرها والرجوع إليها في شتى الدراسات. وأثر البيئة في أدب كل أمة على إطلاقه واضح مشاهد؛ بيد أن لكل أديب بيئة خاصة داخل البيئة العامة التي تحيط به وبغيره من أدباء أمته، ولهذه البيئة الخاصة أثر بعيد في تكييف عبقريته وتوجيه ميوله وصبغ نظرته إلى الحياة وتكوين فهمه للأدب، ولهذه البيئة في أكثر الأحايين فضل توجيه عبقريته إلى الأدب دون غيره من الفنون والحرف الإنسانية.

فالوراثة لها أثر في فن الأديب، لاشتراكها في تكوين مزاجه وميوله، وذلك الأثر الوراثي ملحوظ في أدب شلي وبيرون من شعراء الإنجليز، بل في حياتهما إذ عاش كل منهما ساخطاً قلق المقام مضطرباً بين البلدان مساجلاً المجتمع حرباً لا تهدأ، وقد كان كلاهما منحدراً من أسرة أرستقراطية عرفت صفات الجماح والتمرد في غير واحد من أسلافها. وللوراثة أثرها الواضح في أدب ابن الرومي الذي جاء لانتمائه إلى الروم مخالفاً أدب غيره من فحول العربية، في النظرة إلى الحياة والطبيعة، وفي استقصاء المعاني وتوليدها.

ولتكوين جسم الأديب، بين الصحة والمرض والكمال والنقص والوسامة والدمامة أثره كذلك في أدبه، فالأديب السليم الجسم يكون صافي المزاج معتدل النظرة إلى الحياة، والآخر المعتل الصحة المنهوك بالأوصاب، كالمعري وابن الرومي في العربية، وبوب وسويفت وجراي في الإنجليزية، يكون ضيق العطن أوقاتهم النظرة إلى الحياة أو كثير النقمة على معاصريه شديد الشغب معهم. وقد قيل قديماً إن للأدب ضريبة على محترفه يتقاضاه إياها من ذات جسمه أو ذات نفسه، فلا تكاد ترى أديباً إلا محروباً أو شقياً أو معسراً، ولعل فقدان الأديب لبعض ما يتمتع به سواه من بهجة الحياة من دواعي إرهاف حسه وصرفه إلى التأمل وعطفه إلى الأدب، ولعل المعري لولا عماه وانحباسه عن متعات الدنيا على ذلك الوجه، لما حفل بالتفكير في الأرض والسماء وأصل الخلق ومصير الإنسان وهلم جرا.

وللتربية والنشأة المنزلية أثرهما في تكوين الأديب، فكثيراً ما تتجه عبقرية الناشئ إلى الأدب لأن أباه أو كافله مشتغل بالأدب، وقد كان ذلك شائعاً بين العرب، إذ كان الآباء يقومون بتأديب أبنائهم، فنشأ كثير من الأدباء كالصاحب وابن العميد وابن المعتز وابن زيدون في بيوت فضل وأدب. وقال ياقوت في ترجمة المعري: (وكان في آبائه وأعمامه، ومن تقدمه من أهله وتأخر عنه من ولد أبيه ونسله، فضل، وقضاة وشعراء، أنا ذاكر منهم من حضرني لتعلم نسبه في العلم). ولحظ البيئة المنزلية من الرقي أو الحطة أثره كذلك في أخلاق الناشئ ومنازعه، ومن ثم يتسم أدب الشريف الرضي في العربية وتنيسون في الإنجليزية بنزعة التسامي والتدين، لانتمائهما إلى أرومة شريفة دينية، بينما تبدو لوثة العامية والتبذل في أشعار بشار وأبي نواس.

ولنصيب الأديب من الغنى أو الفقر أثر بعيد في حياته وعقليته وأدبه، فلا بد للأديب من حظ من المال يستطيع معه أن يتفرغ إلى فنه أو يتفنن في ابتكاره، أما إذا كان لا يكسب رزقه إلا بجهد جهيد فهيهات أن يوفي الأدب حقه. والأديب المعسر المخفق كابن الرومي لا ينفك شاكياً في شعره متحرقاً؛ ولا يشكو هذه الشكوى أديب نشأ في بيت نعمة كابن المعتز أو نجح في أدراك الغنى كالبحتري، فشعر هذين أكثر امتلاء

بوصف اللذات وأوقات الصفاء. وقد وجد أبن الرومي على البحتري وهجاه حسداً وغيظاً، فرد عليه البحتري رداً هادئاً وأتحفه بهديه، فعل المطمئن إلى نفسه الراضي في بحبوحته، ولم يطلب الطغرائي شططاً حين قال أريد بسطة كف أستعين بها على قضاء حقوق للعلى قبلي.

ولنوع الثقافة التي يتلقاها الناشئ، والأدب الذي يقرأ، والأستاذ الذي يأخذ عنه، والأديب الذي يقدمه ويشغف بآثاره، والأدب الأجنبي الذي يدرسه، لكل ذلك أثره في توجيه أدبه وفلسفته في الحياة. فأراء المتزندقة التي فشت في صدر العصر العباسي ظاهرة الأثر في شعر بشار وحماد وأبي نواس، والآراء الفلسفية التي ذاعت بعد ذلك ظاهرة في أشعار الطائي والمعري والمتنبي؛ ولم يتأثر أدباء العربية بأدب أجنبي تأثراً ذا بال، أما أدباء الإنجليزية ففضلاً عن اغترافهم جميعاً من مناهل الأدب اليوناني، كان منهم من تأثر بالأدب الإيطالي كسبنسر، وبالألماني كشلي وسكوت وكارليل، وبالفرنسي ككثير من كتاب القرن الثامن عشر وشعراء القرن السابع عشر؛ وكما أثر مذهب أبي تمام الشعري في تلميذه البحتري وفي المتنبي وغيرهما، كان لملتون أثر بعيد في كثير من شعراء الإنجليز منهم وردزورث وتنيسون.

ولجيل الأديب، بسياسته وأدبه وأخلاقه وأزيائه وفنونه، أعظم أثر في أدبه: فبعض الأدباء ينحاز إلى حزب سياسي ويخصص جانباً من كتاباته للدفاع عنه، كما كان الكميت ودعبل وعمارة اليمني شيعيين ينتصرون لآل البيت؛ وكما كان بشار عقيلياً بالولاء ينتصر لمضر ويفخر بغضبتها إلى تهتك حجاب الشمس؛ وكما كان أبن الرومي علوياً بالولاء أيضاً. وكان أدباء الإنجليزية أكثر اتصالاً بشؤون المجتمع والسياسة وتأثراً بها، فعرضوا لمشاكل عصورهم في أشعارهم وقصصهم، وحين ملأ دكنز قصصه بوصف أحوال الطبقات العاملة، إنما كان متأثراً بأحوال عصره الصناعي، وإذا امتلأ شعر المتنبي بذكر القنا والصوارم والفتكة البكر وتضريب أعناق الملوك، فإنما كان ذلك صدى عصر التناحر والقلاقل الذي عاش فيه.

وتؤثر حرفة الأديب كذلك في أدبه، موضوعه ولغته وتشبيهاته: فالأديب الجندي كعنترة وأبي فراس لا يكاد يخوض في غيره حديث النجدة والعزة والبأس وإطاحة الرؤوس عن الأجسام؛ والأدباء الوزراء الذين عرفوا في الدول الإسلامية تتعلق خير كتاباتهم بالسياسة والولاية والعزل وهلم جرا؛ والشاعر المداح كالبحتري لا ينفك عن ذكر أحوال الملك ومظاهر أبهته؛ وتوماس هاردي الذي كان مهندساً معمارياً مشغوفا بفن العمارة لا يزال يبدي ويعيد في وصف العمائر والصروح في شعره وقصصه، ويستخدم في ذلك من المصطلحات العلمية ما لا يكاد يفقهه إلا خبير مثله بتلك الشؤون؛ أما الأديب المنقطع إلى الأدب فلا يكاد يخوض في غير شؤون الأدب وسير الأدباء.

وقد أورد الجاحظ هذه الحقائق مورد الفكاهة في رسالة صناعات القواد، إذ جعل الطبيب والخياط والخباز والمؤدب وصاحب الحمام وغيرهم، يتحدثون في الأدب وينظمون الشعر فيستخدم كل منهم مصطلحات حرفته في استعاراته وتشبيهاته.

وللإقليم الذي يختاره الأديب مستقراً ومقاماً، والأقاليم التي يرحل إليها في أدوار حياته، أثر عظيم في موضوعاته وأسلوبه: إذ هو يشتق أسباب القول مما يحيط به في حله وترحاله، ولا ريب أن الأديب الكثير الرحلة يكون أوسع أفقاً وأغزر مادة وأعمق فكرة من الأديب القاعد، إذ كان من يعيش يرى ومن يسير يرى أكثر كما يقول المثل العامي. وقد كان وردزورث يقطن مقاطعه البحيرات في إنجلترا وكان كثير التجوال بين الجبال والروابي، فجاء لفظة مجرداً عارياً عري الصخور وتجردها، وكثرت فيه ألفاظ الوحشة والوحدة وهلم جرا. ونشأ كبلنج في الهند فامتلأ شعره وقصصه بوصف غياضها وأدغالها، وحفل بالتعصب الجنسي المتطرف؛ وتركت رحلات المتنبي بعض الآثار في أشعاره، من وصف الطبيعة كوصف بحيرة طبرية وشعب بوان، إلى وصف الأحوال السياسية في مثل قوله:

بكل أرض وطئتها أمم ... ترعى بعبد كأنها غنم

فإلى البيئة إلى ينشأ فيها الأديب وتضطرب في محيطها حياته، مرد ما يمتاز به أدبه من اتجاه خاص وطرق موضوعات دون غيرها، وتناول لها على نحو خاص، وما يتصف

به من سمو أو ضعة، وورع أو استهتار، وفكاهة أو انقباض، وتفاؤل أو تشاؤم، وعمق أو سطحية، يختلف حظه من كل ذلك عن حظوظ أبناء أمته بل أبناء جيله بل أصحابه وخلفائه؛ وبسبب عوامل البيئة تلك يختلف عنترة وعمر بن أبي ربيعة والشريف الرضي والمتنبي في العربية في الموضوع والنزعة واللفظ والاسلوب، كما يختلف وردزورث وبيرون وسكوت وشلي في الإنجليزية، حتى يستغث الثاني شعر الأول أي استغثاث، ويجمل الثاني رأيه في الأخير في قوله: ذلك الملحد شلي! وما ذاك إلا لاختلاف ما يحمل رأس كل منهم من أثار الوراثة والثقافة والعقيدة والتربية والنشأة، على تعاصرهم وتشاركهم في وجوه أخرى، وعلى كونهم يعدون اليوم أبناء مدرسة واحدة.

على أن اختلاف بيئات الأدباء أشد ظهوراً في الإنجليزية منه في العربية، لأن أدباء الإنجليزية أكثر اضطراباً في المجتمع وإدخالاً له في أدبهم وأكثر ارتحالاً في البلدان وذهاباً في آفاق الفكر وإعراباً عن أفكارهم الصميمة وأثار تجاربهم، ولأن المجتمع الإنجليزي تغير وتجدد على توالي العصور من عهد اليزابث إلى الوقت الحاضر ما لم يتغيره المجتمع الإسلامي، والثقافة الإنجليزية تطورت بتقدم العلوم ما لم تتطوره الثقافة العربية، فالمحافظة كانت أغلب على المجتمع والفكر العربيين، وهي أيضاً كانت سمة الأدب العربي وديدن أدباء العربية، ومن ثم تشابهوا كثيراً في الموضوعات والأساليب على تباعد المواطن والعصور.

فأدباء العربية بعد قيام الدولة الإسلامية ودخول الأدب طوره الفني الراقي، كانوا يأخذون أنفسهم بضروب من القول يطلبون بها البراعة الفنية أو الشهرة أو الحظوة والنجاح، كالتمدح بجليل الصفات والتفاخر بتالد المجد ومدح الأمراء، وجروا في ذلك على سنن مألوفة وأغترفوا من مناهل مطروقة، حتى تشابه أولهم وأخيرهم وبعيدهم وقريبهم. فإذا قرأت مئات القصائد التي نظمها مروان بن أبي حفصة وبشار وأبو تمام والبحتري وغيرهم في مدح الخلفاء، كي ترى أثر البيئة الخاصة للشاعر في كل ذلك فلن تظفر بطائل، لأنهم إنما نظموها لأغراض مادية وعلى أنماط مأثورة، لا دخل للنفس ولا لتراثها الفكري فيها. وإذا قرأت قول أبي نواس:

ومستبعد إخوانه بتراثه ... ليست له كبراً على الكبر
لقد زادني تيهاً على الناس أنني ... أراني أغناهم وإن كنت ذا فقر
فوالله لا يبدي لساني حاجة ... إلى أحد حتى أغيب في القبر
فلا يطمعن في ذاك مني سوقة ... ولا ملك الدنيا المحجب في القصر

كدت تحسب قائل هذا الشعر شريفاً حسيباً عفيفاً، يزهد في غرور الدنيا ويقنع بالقليل استمساكاً بالأنفة والكبرياء، ولم تعز هذا الفخر المغرق إلى ذلك المداح السال الذي أنفق العمر في اجتداء عطايا الحكام ليبذرها في انتهاب اللذات الجسدية، وما ذاك إلا أن أبا نواس اقتفى في نظم هذا الشعر الطنان أثر أشراف الجاهلية الذين كانوا يتمدحون بالأنفة، وأراد أن يظهر أنه لا يقصر عن شأوهم في ذلك الباب من أبواب القول. والأدب العربي حافل بهذا الضرب من الإنشاء التقليدي الذي لا أثر فيه يذكر للشخصية المستقلة والبيئة الخاصة

هذا، ونشأة كثير من أدباء العربية مجهولة، وبيئتهم الأولى غامضة، وأكثرهم لا يظهرون في ضوء تاريخ الأدب إلا حين يصلون إلى ذرا الأمير، وقد كان ذلك الوصول غاية أكثرهم؛ ومن ثم نرى في تاريخ الأدب العربي بيئتين كبيرتين تتلو إحداهما الأخرى وتشملان أكثر أعلام الأدب العربي: الأولى بيئة القتال التي كانت بيئة الجاهلية، وكان الجلاد فيها هم الأشراف، والتمدح بالبلاء في الوغى هم الشعراء، وكان الأشراف في كثير من الأحوال هم الشعراء وهم الخطباء الفحول، يشفعون بلاءهم في الهيجاء ببلاغتهم في

القصيد والارتجال؛ والبيئة الثانية بيئة البلاط التي اضطرب في محيطها أكثر الشعراء والكتاب بعد الإسلام وقيام الدولة، وتأثروا بها ونظموا فيها ونثروا.

فبيئات أدباء العربية المادية والذهنية كانت كثيرة التشابه من وجوه، والبيئات الأولى التي شب فيها كثير منهم مبهمة غامضة، وقد كان نقاد العربية قليلي العناية بأمر البيئة وأثرها في تكوين الأديب، إنما كانوا يعرضون لبعض التواريخ الجافة المتعلقة بمولد الأديب ووفاته ورحلته إلى بعض العواصم واتصاله ببعض الحكام، ويستحسنون بعض ما أنشأ أو يستهجنونه، ويفضلونه أو يفضلون عليه ما قال أديب غيره في نفس الباب؛

ولهم في ذلك بعض العذر، إذ كانت للقول كما تقدم أوضاع وأنماط معروفة، يأخذ الأديب بها نفسه ما استطاع، ويحاكي الأقدمين فيها ما أمكنته براعته. أما بيئة الخاصة وتراثه الذهني والنفسي، فيذره جانباً وقلما يدخله في أدبه.

ولا يرد ذكر البيئة وأثرها في كتب النقد العربي إلا عرضاً، كالذي ورد أن أبن الرومي سئل لم لا يشبه كتشبيهات أبن المعتز، فقال لسائله: أنشدني شيئاً من قوله الذي استعجزتني عن مثله، فأنشده بعض أشعار أبن المعتز التي يشبه فيها النجوم والزهور بالفضة والعنبر ومداهن الغالية وهلم جرا، فصاح أبن الرومي: واغوثاه! لا يكلف الله نفساً إلا وسعها! ذاك إنما يصف ماعون بيته، وأنا أي شيء أصف؟ ووضع الجاحظ رسالته سالفة الذكر على لسان أرباب المهن، فأجرى القول فيها مجرى الدعابة والمغالاة، وكان أولى لو عرض للأمر من ناحيته الجدية. وأستعرض بديع الزمان في بعض مقاماته عدداً من فحول الشعراء المتقدمين، فقال إن أحدهم أشعر الناس إذا غضب، والآخر أشعرهم إذا رهب، والثالث إذا شرب وهلم جرا، فلم ير إلا أن هذه جبلتهم التي فطروا عليها، ولم يتخيل لبيئة كل منهم في ذلك أثراً.

أما في الأدب الإنجليزي، ولا سيما في العصر الحديث، فدرس أثر البيئة وعواملها من وراثة وتربية وثقافة وعقيدة، أساس كل دراسة أدبية وكل نقد وترجمة، والوسيلة الأولى لفهم الأديب وقدر آثاره حق قدرها، وما ذاك إلا نتيجة ارتقاء العلوم والاجتماعيات في العصور الحديثة، واستفادة الأدب الإنجليزي بمجهودات أدباء الأمم الأخرى، كأدباء الإيطالية الذين ارتقوا بعلم تاريخ الأدب، وأدباء الفرنسية الذين هذبوا أصول النقد، وقد

درس الأدب الإنجليزي وترجم أدباؤه على ضوء هذه القواعد والأصول، فبلغ من الوضوح والترتيب ما لم يبلغه تاريخ الأدب العربي بعد.

فخري أبو السعود

بمناسبة ذكرى المولد

للأستاذ علي الطنطاوي

احتفل العالم الإسلامي كله أول أمس بذكرى مولد سيد العالم وخاتم النبيين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، وهذا الاحتفال يعد فرصة سانحة من فرص الدعوة إلى الإسلام، والسعي في سبيل الإصلاح، تفيدنا فائدة كبيرة إذا نحن عرفنا طريق الاستفادة منها ولم نجعلها قاصرة على إقامة السرادقات الفخمة، وإيقاد آلاف من المصابيح الكهربائية، وإطلاق البارود في الجو، والاجتماع على ترتيل قصة المولد والتطريب فيها، وتلاوة الأغاني والأناشيد، وأكل الحلويات والأنقال، والتسلي واللهو والطرب، وإضاعة الأموال بلا حساب.

وطريق الاستفادة منها، أن يبحث الخاصة من رجال وأولياء الأمر، في مجالسهم واحتفالاتهم أدواء المسلمين اليوم، ويصوروها ويفتشوا عن أدويتها، وأن يضعوا خططاً جديدة للدعوة، ومناهج للعمل المثمر، وأن تشرح السيرة النبوية للعامة في مجامعهم واحتفالاتهم، وينبهوا إلى مواطن العبرة فيها، لأن ذلك هو المراد من الاحتفال بالمولد، لا سرد الأخبار الموضوعة، والعجائب والخرافات، واللهو والطرب، وأن تبين لهم مزايا الإسلام وفوائده، وأصوله ومبادئه، لأن الكثيرين من المسلمين لا يعرفون من الإسلام إلا أسمه، ولا يفرقون بين طبيعة الإسلام وطبائع الأديان الأخرى، ولا يعلمون أن الأديان كلها أديان فقط، بمعنى أنها جاءت بعقائد وعبادات وأخلاق، أما الإسلام فهو دين، وهو تشريع، وهو سياسة، وهو أدب. وانظر في أي مسألة من مسائل الفكر الكبرى، أو أي أمر من أمور الحياة، تر للإسلام رأياً فيه وحكماً، فالتشريع الإسلامي أغزر أو من أغزر وأصفى المنابع التشريعية في العالم. والإسلام قد أقر الحرية الفكرية، ووضع أصول البحث العلمي، بما أمر به من دراسة الكون، والنظر في ملكوت السموات والأرض، والإسلام قد وضع أسس السياسة العامة، والشرع الدولي، والإسلام وحده هو الذي يحل المشكلة الاجتماعية والاقتصادية الكبرى، وينقذ الإنسانية من استبداد المتمولين، وجحود الفرديين، ومن خيالات الاشتراكيين، وبلاء الشيوعيين، بما جاء به من قواعد حكيمة عادلة للزكاة والمساواة ونظام الحكم. وللإسلام بعد ذلك كله حكمه في كل عمل من أعمال الإنسان، فلا يخلو عمل على

الإطلاق من أن يكون له حكم في الدين وللدين دخل فيه، فيكون مباحاً أو مندوباً أو واجباً أو مكروهاً أو حراماً، ولا يستطيع المسلم أن ينسى الإسلام لحظة أو يمشي بدونه خطوة.

ثم إن هذه الأحكام كلها مساوقة للعقل - موافقة له - سائرة مع العلم. والإسلام يقدر العقل حق قدره، ويجعله الموجب الأول، ويربط المسؤولية والتكليف به، ويخاطبه دائماً ويعتمد عليه ولا يخالفه أبداً. ولم يستطع أحد إلى اليوم ولن يستطيع في الغد أن يجد قضية شرعية قطعية، تناقض قضية عقلية قطعية، فلا يثبت الشرع محالاً في العقل ولا يحل ثابتاً، ولا يخالف أصلاً من الأصول الثابتة في العلم. وأعني بالأصول الثابتة الحقائق والقوانين العلمية، لا الفروض والنظريات وأيسر نظرة يلقيها العاقل البصير على كتب الدين، وأقل إلمامة بعلومه، تثبت هذا الذي ذكرنا.

فإذا كان هذا هو الإسلام، وهذه منزلته من العلم والمدنية فلماذا ينصرف عنه أكثر الشباب؟ إنهم منصرفون عنه لأنهم لا يعرفونه. ومن أين يعرفون وهم لا يدرسون منه في المدارس إلا شيئاً تافهاً لا يحل حلالاً ولا يحرم حراماً، ثم إنهم لا يجعلونه ولا يحلونه إلا دون الدروس كلها. وسبب ذلك أن الطلاب إنما يقرءون ويجدون ابتغاء النجاح في الامتحان والدين لا يدخل في امتحان رسمي أبداً لا في الشام ولا مصر ولا العراق. وهذه مناهج الكفاءة وما دونها، والبكالوريا وما فوقها، فيها كل علم إلا علوم الدين.

وليس الغرض من حذفها والمانع من إثباتها وجود طلاب غير مسلمين في هذه الامتحانات، فإن ذلك يمكن تلافيه، بأن يمتحن كل طالب في دينه. وتدعى كل أمة إلى كتابها، ولكن ذلك شيء تعمده الأجانب يوم كانت سياسة البلاد وإدارتها ومناهجها في أيديهم وكان أمضى سلاح حاربونا به في ديننا وأبنائنا، فكيف نبقى عليه وقد انتقلت سياسة البلاد ومناهجها إلى أيد وطنية يريد أصحابها الخير لبلادهم والصلاح؟

ثم إن هؤلاء الطلاب إذا خرجوا من المدرسة، وبقي فريق منهم على شيء من التدين وأحبوا أن يطالعوا علوم الإسلام، لم يجدوا كتاباً سهلاً جامعاً بين دفتيه خلاصة ما يجب على الشاب المسلم أن يعرف من أصول الدين وفروعه، وإنما يجدون كتباً في علم الكلام مشحونة بالمجادلات الجوفاء. والرد على ملل قد بادت ونحل قد نسيت منذ مئات السنين، وعرض شبهها وضلالاتها؛ وكتباً في الأصول معقدة غامضة، لا يفهم الشاب شيئاً منها،

وكتباً في الفقه مملوءة بالمناقشات اللفظية والفروض البعيدة والاحتمالات الغريبة، لا تكاد تخلو من اختصار مخل أو تطويل ممل، وكتباً في التفسير مطولة ومختصرة فيها كل شيء من نحو وصرف ولغة وبلاغة وتاريخ وفلسفة وإسرائيليات ولكن ليس فيها تفسير واحد يرضي الشاب وينفعه ويجد فيه المراد من الآية ويعينه على التدبر الذي أمر الله به، وكتباً في الحديث مرتبة على غير حاجة العصر مبوبة بحسب أبواب الفقه أو أسماء الرواة، ينصدع رأس الشاب ويفنى صبره قبل أن يصل إلى حديث واحد يفتش عنه ويطلبه، ورسائل في علم المصطلح غامضة فيها تعقيد، وقل مثل ذلك في سائر العلوم. . . وهذه الكتب مؤلفة على طريقة لا تخلو من غرابة وشذوذ، فالكتاب الواحد متن وشرح للمتن، ومختصر للشرح، وشرح للمختصر، وحاشية على شرح المتن، وتقرير على حاشية الشرح. . . . . ولست أفهم لماذا ارتقت أساليب الكتابة في كافة العلوم وأخذت شكلاً جديداً، ولماذا يؤلف اليوم الكتاب في الأدب على غير ما كان يؤلف عليه قبل خمسين سنة ولا تزال هذه الكتب على ما كانت عليه منذ مئات السنين لم تصل إليها موجة الحياة؟ ولماذا نجد في علماء كل فرع مؤلفين مجددين ولا نكاد نجد في علماء الدين إلا مقلدين مرددين؟ فماذا يصنع الشاب الذي لم يدرس الإسلام في مدرسة ولم يفهم كتبه؟ أيسأل المشايخ؟ إنه إن فعل لم يجد أكثرهم إلا مجلدات تمشي، ليس في ثيابهم وتحت عمائمهم إلا أوراق الكتاب، فهم يسردون عليك ما حفظوا كأنهم يتناولونه من مستودعات أدمغتهم باليد؛ ومن كان منهم ذا فكر جوال، وعقل باحث كان في كثير من الأحيان ضعيفاً في مادته العلمية، فهو يخالف الأولين والآخرين، ويتنكب سبيل الدين. وقليل منهم من جمع إلى العلم، سرعة الفهم، وفهم روح العصر، وحسن مخاطبة الناس. ثم أكثر هؤلاء المشايخ بعيدون عن الأدب ليس لهم في صناعة البيان يد، قل أن ترى فيهم من يعد كاتباً مجيداً، أو لسناً مفوهاً. على أننا بعد هذا كله نخشى أن ينقرض هؤلاء المشايخ ولا نجد لهم خلفاً؛ وعلى أنني لا

أحملهم الذنب وحدهم، فالذنب على المسلمين كلهم وليس في الإسلام (رجال دين) مسئولون عنه، وقائمون به، ووكلاء عليه، ولكن رجال الدين عندنا هم كافة أهله وأتباعه، لا فرق في ذلك بين شيخ الإسلام، وأخر مسلم في أفريقيا الوسطى، أو القطب الشمالي. ولو أن أكبر شيخ في حلقته، أو خطيب على منبره، أخطأ في حكم، أو حرف آية،
لرد عليه من يحفظ الآية، ويعرف الحكم ولو كان طفلاً صغيراً، أو امرأة. . . وما هذه المرأة بأقل من تلك العجوز، ولا هذا الخطيب بأجل من عمر؟
ثم إن الشبان المسلمين كلهم يذكرون الإعجاز ويعتقدون به، ولكن من منهم يعرف أوجه الإعجاز على حقيقتها. وإذا أراد أن يفهمها ففي أي كتاب يجدها؟ بل من منهم يفهم القرآن فهماً صحيحاً يتجاوز التفسير العادي؟ بل كم من الناس يعرفون تفسيره العادي، وكم منهم يسمعه ليعتبر ويتدبر؟ ألا يسمع أكثر المسلمين القرآن ليطربوا بنغماته وأصوات تلاوته؟
وكلنا يعتقد بأن الإسلام صالح لكل زمان ومكان، ولكن أي دولة بل أي جمعية إسلامية حاولت أن تستخلص من كتب الفقه ونظريات الفقهاء قانوناً مدنياً ينطبق على عصرنا الحاضر؛ ويكون تتمة العمل الكبير الذي بدأ بوضع (مجلة الأحكام الشرعية) وفي الفقه متسع لهذا العمل، وفي إنجازه إنقاذ البلاد الإسلامية من الحكم بغير ما أنزل الله، والتعرض لما ورد في ذلك من الوعيد الشديد، فضلاً عما فيه من المس بالكرامة الوطنية، والسيادة القومية؟
ومن حاول أن يؤلف في بيان رأي الإسلام في الاشتراكية وموقفه منها، وحكمه في الديمقراطية وأساليب الحكم المعروفة؟
أليس اغتنام فرصة ذكرى المولد الشريف للبحث في هذا وشبهه جزءاً من هذه الحفلات التي لا معنى لها، والمظاهر التي لا طائل تحتها؟
وإني لأرجو نمن الله - لما أرى من انصراف مصر علمائها وأدبائها وشبابها المثقف إلى الإسلام وإقبالها عليه - أن يكون يوم ذكرى المولد من هذا العام، فاتحة عهد جديد في تاريخ الإسلام، كما كان يوم المولد الشريف، فاتحة عهد جديد في تاريخ العالم.
(بغداد)
علي الطنطاوي
خاتمة المأساة الأندلسية:
الصراع الأخير
بين الموريسكيين وأسبانيا
للأستاذ محمد عبد الله عنان
- 1 -
حدث أثناء المفاوضات التي جرت في مونترو بين مصر والدول لإلغاء الامتيازات الأجنبية أن تقدم الوفد الإسباني بطلب يختص باليهود (السفرديم) المقيمين بمصر، هو أن يعاملوا كالرعايا الإسبانيين وأن يمنحوا مزية التقاضي أمام المحاكم المختلطة أثناء فترة الانتقال، وشرح أحد أعضاء الوفد بواعث هذا الطلب لممثلي الصحف، فقال: إن هؤلاء اليهود (السفرديم) هم من ذرية اليهود الإسبانيين الذين طاردتهم مجالس التحقيق (محاكم التفتيش) في القرن السادس عشر وشردتهم عن وطنهم في مختلف البلاد، وأن إسبانيا الجمهورية التي تحررت من نزعات التحامل والتعصب تريد أن تقدم ترضية لسلالة هذه الطائفة التي نكبت في عصور الظلم والتعصب والطغيان.
وهذه الملاحظة تثير الشجن، ذلك أن إسبانيا النصرانية تعترف بعد أربعة قرون بزلتها التاريخية الكبرى، وتلعن مع التاريخ ذكرى ديوان التحقيق. بيد أن هذا الاعتراف ليس إلا لمحة بسيطة من الحقيقة المروعة؛ ذلك أن إسبانيا النصرانية ما كادت تظفر بتحقيق سياستها الوطنية القديمة في سحق إسبانيا المسلمة والاستيلاء على تراثها كله والظفر بغرناطة آخر معاقلها، حتى وضعت برنامجها الشائن لمحو تراث الأندلس، وسحق الإسلام وكل ذكرياته وآثاره، وإبادة هذه البقية الباقية من سلالة المسلمين والعرب الذين لبثوا سادة في الجزيرة زهاء ثمانية قرون؛ وكان اليهود الذين عاشوا وازدهروا في ظل الدولة الإسلامية، كالمسلمين ضحايا هذه السياسة البربرية؛ وكانت محاكم التحقيق تنشط لمطاردة الضحايا، وكانت محارقها تسطع في مختلف القواعد

الأندلسية القديمة حتى قبل سقوط غرناطة؛ وكان سقوط غرناطة في فاتحة سنة 1492م نذير المأساة المروعة التي لم تستطع إسبانيا النصرانية في حمى الظفر وغلوائه أن تقدر عواقبها المخربة؛ وكان المسلمون المغلوبون قد أخذوا على الظافرين قبل التسليم كل ما يستطيع أن يأخذه الضعيف على القوي من العهود النظرية، لتأمين النفس والمال والعرض، والدين والتراث القومي؛ ولكن هذه العهود التي لا سند لها إلا إرادة الظافر، لم تكن شيئاً مذكوراً في نظر إسبانيا النصرانية؛ فلم تمض سوى أعوام قلائل، حتى كشفت إسبانيا النصرانية عن سياستها ونياتها الحقيقية فسحقت العهود المقطوعة وأرغمت المسلمين على التنصر، ولم تدخر وسيلة من الوسائل البربرية، من سجن وحرق وتشريد وتعذيب إلا استعملتها لتحقيق هذه الغاية، وسطعت محارق ديوان التحقيق في غرناطة كما سطعت من قبل في غيرها من قواعد الأندلس لتلتهم المخالفين والمارقين، وغدا أبناء قريش ومضر نصارى يشهدون القداس في الكنائس ويتحدثون القشتالية، واختفت آثار الإسلام والعربية بسرعة، واستحال الشعب الأندلسي إلى مجتمع جديد هو مجتمع الموريسكيين أو العرب المنتصرين.

ولقد كان استشهاد الموريسكيين من أروع مآسي التاريخ، وكان هذا الشعب المهيض الذي أدخل قسراً في حظيرة النصرانية، والذي أنكرته مع ذلك إسبانيا سيدته الجديدة وأنكرته الكنيسة التي عملت على تنصيره، يحاول أن يروض نفسه على حياته الجديدة، وأن يتقبل مصيره المنكود بإباء وجلد؛ ولكن إسبانيا النصرانية كانت ترى في هذه البقية الباقية من الشعب الأندلسي المجيد عدوها القديم الخالد، وتتصور أن هذا المجتمع المهيض الأعزل، الذي أحكمت أغلالها في عنقه مصدر خطر دائم على سلامها وطمأنينتها، وتشتد في مطاردته وإرهاقه بمختلف الفروض والقوانين والمغارم، وتمعن في انتهاك عواطفه وحرماته وفي تعذيبه وتشريده، وتنكر عليه أبسط الحقوق الإنسانية؛ وكانت محاكم التحقيق تحمل هذه الرسالة الدموية المخربة، وتعمل على تنفيذها بوحشية لم يسمع بها؛ واستطالت هذه الوندالية منذ سقوط غرناطة أكثر من قرن. بيد أن الموريسكيين يحملهم اليأس العميق، وغريزة الدفاع عن النفس ولمحة باقية من عزم النضال القديم، لم يخلدوا إلى هذا الاستشهاد المؤسي، دون تذمر، ودون انتقاض، فقد ثاروا غير مرة على الطغاة والجلادين، وحاولوا مقاومة هذه السياسة الوندالية والخروج على فروضها؛ ولكن يد الطغيان القوية مزقتهم وسحقتهم بلا رأفة، وتركتهم أشلاء دامية.

وكانت أعظم ثورة قام بها الموريسكيون في وجه إسبانيا النصرانية سنة 1569م. أعني بعد سقوط غرناطة بثمانية وسبعين عاماً؛ وكان التنصر قد عم الموريسكيين يومئذ وغاضت منهم كل مظاهر الإسلام، ولكن قبساً دفيناً من دين الآباء والأجداد كان لا يزال يجثم في قراره هذه النفوس الأبية الكليمة؛ ولم تنجح إسبانيا النصرانية بسياستها البربرية في اكتساب شيء من ولائها المغصوب، وكان الموريسكيون يحتشدون في جماعات كبيرة وصغيرة في بسائط غرناطة وفي منطقة البشرات الجبلية تتوسطها الحاميات والكنائس، لتسهر الأولى على حركاتهم، وتسهر الثانية على إيمانهم وضمائرهم، وكانوا يشتغلون بالأخص بالزراعة والتجارة، ولهم صلات تجارية وثيقة بثغور المغرب.

وكانت بقية من التقاليد والمظاهر القومية لازالت تربط هذا الشعب الذي زادته المحنة والخطوب اتحاداً وتعلقاً بتراثه القومي والروحي؛ وكانت الكنيسة تحيط هذا الشعب العاق الذي لم تنجح تعاليمها في النفاذ إلى أعماق نفسه بكثير من البغضاء والحقد؛ فلما تولى فيليب الثاني الملك ألفت فرصتها في أذكاء عوامل الاضطهاد والتعصب. وكان هذا الملك المتعصب حبراً في أعماق نفسه، يخضع لوحي الأحبار والكنيسة، ففي سنة 1563 ظهرت بوادر السياسة الجديدة إذ صدر قانون جديد يحرم حمل السلاح على الموريسكيين إلا بترخيص الحاكم العالم؛ فأثار صدوره سخط الموريسكيين؛ بيد أنه كان مقدمة لقانون بربري جديد أعلن في غرناطة في يناير سنة 1567 وهو الشهر الذي سقطت فيه غرناطة واتخذته إسبانيا عيداً قومياً تحتفل به كل عام وكان القانون الجديد يرمي إلى القضاء على آخر المظاهر والتقاليد التي تربط الموريسكيين

بماضيهم وتراثهم القومي، فحرم عليهم أن يتكلموا العربية أو يتعاملوا بها، وأن لا يستعملوا سوى القشتالية في التخاطب والتعامل وذلك في ظرف ثلاثة أشهر من صدور القانون، وألا يتخذوا أسماء عربية، أو يرتدوا الثياب العربية، وحظر التحجب على النساء وألزمن بارتداء الثياب الأوربية المكشوفة وذلك في ظرف عام، وأن تبقى بيوتهم مفتوحة أثناء حفلات الزواج وغيرها ليستطيع القسس ورجال السلطة أن يروا ما يقع بداخلها من المظاهر والمراسيم المحرمة، وألا ينشدوا الأغاني العربية أو يزاولوا الرقص العربي، وفرضت للمخالفين عقوبات فادحة تختلف من السجن إلى النفي والإعدام.

أعلن هذا القانون في غرناطة في ميدان باب البنود أعظم ميادينها القديمة في يناير سنة 1567؛ ونستطيع أن نتصور وقعه لدى الموريسكيين فقد فاضت قلوبهم سخطاً وأسى ويأساً، وحاولوا أن يسعوا بالضراعة والحسنى لإلغائه أو على الأقل لتخفيف وطأته، فاجتمع أعيانهم وقرروا التظلم للعرش، وحمل رسالتهم إلى فيليب الثاني والى وزيره الطاغية اسبنوسا، سيد إسباني نبيل من أعيان غرناطة يدعى الدون خوان هنريكس، وقد كان يعطف على هذا الشعب المنكود ويرى خطر السياسة التي اتبعت لإبادته؛ ولكن وساطة ذهبت عبثاً وحملت سياسة العنف والتعصب وكل شيء في طريقها، ونفذت الأحكام الجديدة في المواعيد التي حددت لها، وأحيط تنفيذها بمنتهى الصرامة والشدة.

عندئذ بلغ اليأس بالموريسكيين ذروته، فتهامسوا على المقاومة والثورة والذود عن أنفسهم إزاء هذا العسف المضني أو الموت قبل أن تنطفئ في قلوبهم وضمائرهم آخر جذوة من الكرامة والعزة وقبل أن تقطع آخر صلاتهم بالماضي المجيد والتراث العزيز.

- 2 -

وهنا يبدأ الصراع الأخير بين الموريسكيين وإسبانيا النصرانية؛ ومن الأسف أننا لم نتلق عن هذا المرحلة المؤسية من تاريخ إسبانيا المسلمة شيئاً من الروايات العربية، وكل ما انتهى إلينا منها عن المأساة أثر صغير يسمى (أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر) كتبه فيما يظهر مسلم أو موريسكي من أشراف غرناطة وذلك سنة 947هـ (1542م) أعني بعد سقوط غرناطة بخمسين سنة. وفيه يصف حوادث سقوطها وما تلا ذلك من إرغام المسلمين على التنصر، ومن مطاردتهم وإرهاقهم وتعذيبهم، ويجمل لنا مأساة التنصر في هذه الكلمات المؤثرة.

ثم بعد ذلك دعاهم (أي ملك قشتالة) إلى التنصر وأكرههم عليه وذلك في سنة أربع وتسعمائة، فدخلوا في دينهم كرهاً، وصارت الأندلس كلها نصرانية، ولم يبق فيها من يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله، إلا من يقولها في قلبه وفي خفية من الناس، وجعلت النواقيس في صوامعها بعد الآذان، وفي مساجدها الصور والصلبان بعد ذكر الله وتلاوة القرآن. فكم فيها من عين باكية وقلب حزين، وكم فيها من الضعفاء والمعذورين لم يقدروا على الهجرة واللحوق بإخوانهم المسلمين قلوبهم تشتعل ناراً، ودموعهم تسيل سيلاً غزيراً، وينظرون أولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان ويسجدون للأوثان ويأكلون الخنزير والميتات

ويشربون الخمر التي هي أم الخبائث والمنكرات، فلا يقدرون على منعهم ولا على نهيهم ولا على زجرهم، ومن فعل ذلك عوقب بأشد العقاب وعذب بأشد العذاب، فيا لها من فجيعة ما أمرها ومصيبة ما أعظمها وطامة ما أكبرها.

بيد أن هذه الرواية العربية الوحيدة تقف في تتبع حوادث المأساة عند هذا الحد؛ وإذن فليس لدينا لتتبع حوادث هذا الصراع الأخير بين الموريسكيين وبين إسبانيا النصرانية سوى المصادر القشتالية؛ وإذا كانت هذه المصادر النصرانية، تتأثر في كثير من المواطن بالعوامل الدينية والقومية، فإنها مع ذلك تعرض هذه الحوادث المؤسية في أسلوب مؤثر، ولا تضن في بعض المواطن والمواقف بعطفها وأحياناً بإعجابها على ذلك الشعب الباسل الذي لبث يناضل حتى الرمق الأخير عن كرامته وعن تراثه الروحي والقومي.

(للبحث بقية)

(النقل ممنوع)
محمد عبد الله عنان
الفلسفة الشرقية
بحوث تحليلية
بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين
- 5 -
الديانة المصرية - قداسة الحيوان عند الخاصة
بقي علينا قبل أن نغادر فصل الألوهية عند قدماء المصريين أن نبين حقيقة علمية ظلت مستورة وقتاً طويلاً يكتنفها الغموض ويحوطها الإبهام من كل جانب، وظل العلماء والباحثون يتخبطون في حل مشكلتها مدى بعيداً. تلك المشكلة هي عبادة المصريين للحيوانات التي طالما كانت موضع الحيرة من المستمصرين الذين يدينون بمدنية مصر الفائقة ورقي عقليتها الممتاز الذي لا يتفق مع عبادة الحيوانات تحت لواء منطق مستقيم
وها نحن أولاء نبين رأي الخاصة المتفلسفين في عبادة الحيوان بعد أن أبنا في الكلمات السابقة منشأ عقائد العامة الذين كانوا يعبدون تلك الحيوانات دون أن ينشغلوا بأسباب هذه العبادة. وقد ذكرنا لك فروض العلماء التي تمحلوها في هذا الشأن؛ أما الخواص من المصريين فمبررات عبادتهم للحيوان تتلخص فيما يلي:
كان المصريون يعتقدون أن الروح تعود بعد الموت فتقطن في المومياء المحنطة وفي التمثال الحجري على ما سنبين ذلك في بابه، ثم تدرجوا إلى أن للإنسان عدة شخصيات بعضها مادي وبعضها روحي، وأن كل شخصية من هذه الشخصيات يمكن أن تستقل بنفسها في مأوى خاص وإذا كان هذا شأن الإنسان فأحر بالإله - وهو الأعظم روحانية - أن يكون له عدة شخصيات تحل كل واحدة منها في مأوى، ثم فكروا فهداهم تفكيرهم إلى أن مأوى شخصيات الإله لا يصح أن تكون ميتة كالمومياء ولا حجراً بارداً كالتمثال، وإنما يجب أن تكون مستحوزة على الحياة الواقعية وأن تكون غير إنسان، فأخذوا يحلون الإله تارة في ثور وأخرى في تمساح وثالثة في قط، ورابعة في طائر، ثم يتبعون هذا الحلول بتقديس ذلك القط أو ذاك الثور أو هذا الطائر، ويقدمون إلى هذه الحيوانات أنواع العبادة
والإجلال، لا على أنها معبودات لهم، ولكن على إنها ظروف قد حلت فيها شخصيات الإله الأعظم التي لا تتناهى.
وكانت هذه العبادة في أول الأمر مقصورة على فرد واحد من أفراد كل نوع من الحيوانات ينحصر فيه الاختيار من بين جميع أفراد نوعه لميزة لا توجد في غيره، ثم تطورت هذه العقيدة فأخذت تشمل أفراد كل نوع عبد منه فرد واحد في الماضي.
وقد شاهد (هيرودوت) في مصر هذه الحالة فنبأنا بأن حريقاً شب في مصر فوجه السكان جميعهم عنايتهم إلى نجاة القطط قبل أن يفكروا في إطفاء النار، وهو ينبئنا كذلك بأن موت بعض الحيوانات كالقطط والكلاب كان يعقبه في مصر حداد شامل وألم عميق. وليست رواية هيرودوت وبأغرب مما يحدثنا به الأدب عن الحيوانات، إذ ينبئنا أن المصريين كانوا يعتقدون أنها مشتملة على كثير من أسرار الكون الخفية، فهي مثلاً تعلم الغيب وتحيط بما في المستقبل الغامض على الإنسان، ولكنها تحتفظ بهذه الأسرار ولا تبوح بشيء منها إلا للمقربين الذين اصطفاهم الإله أو سيصطفيهم عما قريب. وهاهي ذي الأساطير المصرية تحدثنا في قصة (الأخوين) أن (بيتيو) أحد الشقيقين اللذين وشت بينهما زوجة أكبرهما كان عند مواشيه، وهو لا يدري تربص شقيقه به، فهتفت به إحدى البقرات قائلة: هاهو ذا أخوك يريد قتلك بسكينة فانج بنفسك من أمامه. ولم يكن الحيوان وحده هو موضع هذا الحلول الإلهي ومقر تلك الأسرار الكونية، وإنما كان النبات كذلك. ولهذا فكثيراً ما يصادفك في التاريخ المصري: حقائقه وأساطيره، آثار أو قصص تتحدث عن الأشجار المقدسة الحائزة لغوامض الأسرار. فمن ذلك ما ينبئنا به كتاب (الأدب المصري القديم) من أنه بينما كان فرعون جالساً ذات مرة مع زوجته التي كان يحبها حباً جماً تحت إحدى الشجرات المقدسة في سرور وسعادة، وإذا بالشجرة تنحني على الملك وتسر في إذنه أن زوجته خائنة؛ إلى

غير ذلك مما لو تعقبناه لطال بنا البحث.
ارتقت بعد ذلك هذه العقيدة وسارت إلى الفلسفة بخطوات واسعة فقررت أن الإله حال في كل كائن حي، بل في كل جزئية من جزيئات الطبيعة، وأنه ذو مظاهر مختلفة، فهو مرة روح في جسم حي، ومرة روح مجردة، وثالثة قوة من قوى الطبيعة في الجو أو على الأرض أو في أعماق البحار؛ وهذا الحلول الديني أولاً، والفلسفي ثانياً، هو سر عبادتهم
للحيوان والنبات.
النفس عند قدماء المصريين
يرى بعض العلماء أن المصريين في أول عصورهم الفكرية لم يكونوا يعنون بالروح أو بعبارة أدق لم يكن عندهم عن الروح فكرة واضحة. ويعللون هذا بأن المصريين كانوا يعتقدون في تلك العهود السحيقة أن الجسم نفس حي يستمتع في القبر بكل مميزات الحياة. ولكن هذا الرأي عندي غير صحيح، إذ أن المعروف عند قدماء المصريين أنهم كانوا منذ أقدم عصورهم يدينون بوجود كائن أجنبي عن الجسم، وأنه أثناء وجود الجسم في القبر يختلف إليه من حين إلى أخر، وأنهم لهذا كانوا يتركون في بناء القبر ثغرة بسيطة تمر منها الروح جيئة وذهاباً، وأنه لكي تظل الروح حية يجب أن يبقى مأواها وهو الجسم سليما من الخدوش والجروح، ولا يضمن سلامة الجسم إلا التحنيط، فابتدعوه مدفوعين إلى ذلك باحتياجهم إليه، (والحيلة بنت الحاجة كما يقولون)؛ ثم أخذ المحنطون الفنيّون يتنافسون في هذه الصناعة، ويبرهن كل واحد منهم على أنه أقدر من صاحبه على حفظ الجسم سليما زمناً طويلاً. غير أنهم اقتنعوا بعد ذلك بأن الجسم مهما كان تحنيطه متقناً سيلحقه البلى على كل حال. وهنا تتعرض الروح للخطر، فلا مناص إذاً من أن يصنعوا لها مأوى آخر تقيم فيه إذا ما بلى الجسم فاخترعوا فن النحت. ولما كانت الأسطورة الدينية تشترط أن يكون هذا التمثال المحنط شبيهاً بالجسم الأصلي في كل تقاطيعه وملامحه دفعتهم هذه الوسوسة إلى الإجادة والإتقان في النحت بهيئة تعجز أكابر فناني العصور الحديثة.
عدد المصريين بعد ذلك التماثيل للشخص الواحد حتى جاوزت في بعض الأحيان مائة تمثال للدفين الواحد. وكان لهذا التعديد سببان: الأول الوسوسة الدينية التي كانت تقض مضاجعهم وتنذرهم بالأخطار المرعبة التي تتعرض لها الروح إذا أخطأ المثال في شئ ولو يسيراً من تقاطيع الجسم أو ملامح الوجه، فكان الإكثار من التماثيل يقيهم شر هذا الخوف المتسيطر. أما السبب الثاني فهو أن تكون الروح في عالم الآخرة غنية سعيدة بالتنقل من تمثال إلى تمثال ولكن منشأ هذا التعديد قد نسي بمرور الزمن ثم تطرقت إليه التأويلات المختلفة التي تلحق عادة كل عقيدة نسي اصلها. وكان أحد هذه التأويلات الكثيرة أن هذه التماثيل لم تصنع عبثاً، وإنما صنع كل تمثال منها لروح خاصة، لأن كل شخص يشتمل
على عدة أرواح تسمى إحداها: , أي الروح، والثانية: , أي النفس أو العقل. والثالثة (دوبل) وهي صورة صيغت من مادة أدق من مادة الجسم، ولكنها على هيئة الجسم تماما والرابعة: (الكا) وهي الجوهر الخالد الموجود في الإنسان وفي كل إله، وهو سر الحياة وسر السمو.
وتمتاز (الكا) عند المصريين عن بقية شخصيات النفس بأنها تظل في عالم السماء ما دام الإنسان في الحياة، فإذا مات اتصلت به اتصالاً وثيقاً يجعله غير قابل للزوال. أما الروح فإنها تظل مترددة على الجسم في قبره كما أسلفنا. حتى إذا ما فاز الميت برضى (توت) انكشفت أمامه كل أسرار الحياة وأصبح لا فرق بينه وبين الأحياء إلا انهم يسيرون على الأرض وهو نائم في قبره. ومن أسباب هذا الرضى أن يتعبد الشخص في حالة حياته بتلاوة كتاب توت وأن يوصي بوضعه معه في قبره إذا أمكن ذلك، وفي هذا المعنى تقول الأسطورة المصرية (أن كتاب توت الذي كتبه الإله بيده، والذي لا يحتوي إلا على عزيمتين اثنتين والذي اشتمل على جميع كلمات الخلق والتكوين المقيدة للآلهة أنفسهم، إذا حصلت عليه ثم تلوت القسم الأول منه سحرت السماء والأرض وعالم الليل والجبال والبحار وفهمت لغة الطير واستطعت أن ترى الأسماك في أغوار الأنهار، لأن قوة خفية تصعد بها على وجه الماء؛ وإذا تلوت القسم الثاني من هذا الكتاب فانك بعد أن تصير في القبر تعود إلى شكلك الذي كنت عليه في حال

الحياة وترى الشمس حينما تشرق والقمر حينما يظهر).
وكان المصريون يعتقدون أن الروح وهي في عالم الآخرة تظل مفتقرة إلى ما يقدمه إليها الأحياء من طعام وشراب في الضحايا والقرابين، وأنها إذا تركت بدون هذه الضحايا يؤلمها هذا الإهمال كما يؤلم الأحياء. ولا ريب أن هذه العقيدة تدل للوهلة الأولى على مادية المصريين. وقد استند بعض الباحثين إلى هذه الأسطورة ومثيلاتها من ترك المصريين ثغرة للروح تمر منها، ومن قولهم بافتقار الروح إلى مأوى مادي تقيم فيه كالمومياء والتمثال، فجزموا من كل هذا بأنه إذا كان للمصريين فلسفة فأنها مادية ساذجة؛ وهو قول بعيد عن الصحة بعد العدم عن الوجود، لأن للنفس عند المصريين عدة شخصيات، فإذا كانت إحدى هذه الشخصيات مادية تأكل وتشرب بعد الموت من الضحايا والقرابين وتحتاج
إلى مأوى تقيم فيه وثغرة تنفذ منها، فلا ينزل ذلك بفلسفتهم إلى المادية، لأن قولهم بوجود الشخصية الأخرى التي هي جوهر الأسرار الإلهية يصعد بهذه الفلسفة إلى أسمى أوج الروحانية. على أني لا أدري كيف يجرؤ هذا البعض من العلماء على أن يرموا فلسفة المصريين بالمادية الساذجة من أجل قولهم بافتقار الروح إلى الأكل والشرب والمأوى ثم هم يسوغون لأنفسهم أن يشيدوا بفلسفة (تاليس) و (أنا كسيماندر) و (أنا كسيمين) و (ديوجين) وهم لم تخطر لهم الروح ببال؛ أو بفلسفة (ديموقريت) و (إيبيقور) اللذين - وإن قالا بالثنائية - لا يميزان الروح عن المادة إلا بنفس الميزة التي ميز بها المصريون من قبل (الدوبل) عن الجسم، وهي كما نص (ديموقريت) و (إيبيقور): (إن النفس من ذرات أدق وأكثر شفافية من ذرات الجسم، وهذا هو كل ما بينهما من فرق) أضف إلى هذا أن (أفلاطون) نفسه - وهو ثاني أجلاء فلاسفة اليونان الروحانيين - يرى أن النفس مكونة من ثلاث قوى: إحداهما جوهرية خالدة، والاثنتان الأخريان ماديتان قابلتان للفناء، فهل عيب التفكير المصري هو أنه سبق غيره إلى النظريات الراقية بأكثر من عشرين قرنا؟!
مما هو جدير بالذكر عند قدماء المصريين أن الروح كانت عندهم تتصل بعالم الأحياء فتذكره بعظات الماضي وتنبئه بأسرار المستقبل وتنصحه بعمل شيء وتحذره من عمل آخر إلى غير ذلك مما تفيض به الأساطير.
(يتبع)
محمد غلاب
ذكرى المولد النبي
من مشاهد عكاظ المؤثرة
للأستاذ سعيد الأفغاني
استيقظت مكة ذات صباح، بعد عام الفيل بأربعين، على جرس حلو ساحر، يرسله محمد الأمين داعياً قومه إلى الله وحده، وأن ينبذوا ما هم فيه من عبادة أصنام ووأد بنات وقتل أولاد، وأن يقبلوا على ما يشيع فيهم المحبة والسعادة ويوطد لهم المجد والعزة في العالمين.
استمع مشركو مكة إلى هذا الرجل الذي كان حبيباً إلى قلوبهم، عظيم المنزلة في صدورهم، مضرب المثل بينهم في علو الخلق وطهارة السيرة وصفاء السريرة، فنظر بعض إلى بعض مكبرين ما أتي به ابن عبد المطلب سيد فتيان هاشم ورجل مكة المنتظر.
ونزت في تلك الرءوس حمية جاهلية استعصى قيادها على البيان الساحر والعقل الوافر والحرص المخلص، فعظم عليها أن تترك ما ألفت، وتألبت قوى أهل مكة جيوشاً متضافرة تكيد لهذا الداعي إلى الخير ولأولئك القانتين المخبتين من الضعفاء والنساء والصبيان، الذين ملكت عليهم الدعوة الجديدة شعورهم وتغلغل صوت الإله في أعماق نفوسهم فصفاها وأخلصها، ليكون منها الهدف الأول الذي يصمد في سبيل العقيدة الحق للأذى والتشريد والتجويع والتعذيب بصبر عجيب وإيمان صليب واغتباط متزايد، كأنما يجدون في هذه الآلام نعيماً ولذائذ. فكانت مصابرتهم وثباتهم خير ما ضمن نجاح الدعوة وتقاطر الناس عليها فيما بعد.
إلا أن الأذية عظمت، وأنى المشركون إلا إصراراً واستكباراً وصداً عن سبيل الله من آمن به، وكادت تتسرب شوائب من يأس إلى بعض تلك النفوس العظيمة، لولا بارقة

أمل لاحت لهم في قصد قبائل العرب بالمواسم في عكاظ ومجنة وذي المجاز.
وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد مبعثه بثلاث سنين في عكاظ، يدعو الناس إلى الخير والهدى والسعادة. وقد لزمه منذ قيامه بالدعوة حزن عميق على قومه الذين كفروا بنعمة الله، وآلمه ألا يراهم مسارعين إلى ما به صلاحهم، فعزم ليقصدن المواسم وليأتين فيها القبائل، كل قبيلة بمنزلها، وكل جماعة في حيهم، يعرض عليهم هذا الدين الجديد. ولقد حرص الحرص كله على أن يهتدوا، وكان أسفه يشتد كلما ألح قومه بالصد.
قام في عكاظ يقول:
(يا أيها الناس: قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتنجحوا)
ويتبعه رجل له غديرتان كأن وجهه الذهب وهو يقول:
(يا أيها الناس، إن هذا ابن أخي وهو كذاب فاحذروه.)
فعرف الناس أن هذا (الصاد عن سبيل الله) هو عمه أبو لهب ابن عبد المطلب، يكذبه كلما قال كلمة الحق.
عاود والرسول الدعوة مراراً فلم يجب ولم ييأس، ورجا أن يجد فيهم الحامي والمجير على الأقل إذ لم يجد المجيب، فكان يقول للحي في موسم عكاظ:
(لا أكره منكم أحداً على شيء: من رضي الذي أدعوه إليه قبله، ومن كرهه لم أكرهه؛ إنما أريد أن تحوزوني مما يراد بي من القتل، فتحوزوني حتى أبلغ رسالات ربي ويقضي الله لي ولمن صحبني بما شاء.)
كان الناس يعجبون من أمره وأمر عمه، وهم بين راض وغاضب، ومتعجب يرى بعينه ثم يمضي كأن الأمر لا يهمه. منهم من لا ينكر ما يسمع، ومنهم من يرد أقبح الرد، ومنهم من يقول: قومه أعلم به.
كان هذا دأبه أبداً، يوافي به القبائل سنة بعد سنة، حتى إن منهم من قال له: (أيها الرجل، أما آن لك أن تيأس؟!) من طول ما يعرض نفسه عليهم.
انتهى رسول الله في تطوافه على القبائل في عكاظ، إلى بني محارب ابن خصفة، فوجد فيهم شيخاً ابن عشرين ومائة سنة، فكلمه ودعاه إلى الإسلام وأن يمنعه حتى يبلغ رسالة ربه؛ فقال الشيخ: (أيها الرجل قومك أعلم بنبئك. والله لا يؤوب بك رجل إلى أهله إلا آب بشر ما يؤوب به أهل الموسم. فأغبن عنا نفسك.) وإن أبا لهب لقائم يسمع كلام المحاربي.
ثم وقف أبو لهب على المحاربي فقال:
(ولو كان أهل الموسم كلهم مثلك لترك هذا الدين الذي هو عليه، إنه صابئ كذاب.)
قال المحاربي: (أنت والله أعرف به، هو ابن أخيك ولحمتك.)
ثم قال: (لعل به يا أبا عتبة لمماً، فإن معنا رجلاً من الحي يهتدي لعلاجه.) فلم يرجع أبو لهب بشيء.
روى عبد الرحمن العامري عن أشياخ من قومه قالوا: أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بسوق عكاظ فقال:
- ممن القوم؟
قلنا: - من بني عامر بن صعصعة.
- من أي بني عامر؟
- بنو كعب بن ربيعة.
- كيف المنعة فيكم؟
- لا يرام ما قبلنا ولا يصطلى بنارنا.
فقال: إني رسول الله، فإن أتيتكم تمنعوني حتى أبلغ رسالة ربي ولم أكره أحداً منكم على شيء؟
قالوا: - ومن أي قريش أنت؟
- من بني عبد المطلب.
- فأين أنت من بني عبد مناف؟
هم أول من كذبني وطردني.
(قالوا: - ولكنا لا نطردك ولا نؤمن بك، ونمنعك حتى تبلغ رسالة ربك.)
فنزل إليهم والقوم يتسوقون، إذ أتاهم بجرة بن قيس القشيري فقال:

- من هذا الذي أراه عندكم أنكره؟
قالوا: - هذا محمد بن عبد الله القرشي.
- ما لكم وله؟
- زعم لنا أنه رسول الله، يطلب إلينا أن نمنعه حتى يبلغ رسالة ربه.
- فماذا رددتم عليه؟
- قلنا في الرحب والسعة، نخرجك إلى بلادنا ونمتعك مما نمنع به أنفسنا.
قال بحرة: - ما أعلم أحداً من أهل هذه السوق يرجع بشيء أشر من شيء ترجعون به. بدأتم لتنابذكم الناس وترميكم العرب عن قوس واحدة. قومه أعلم به، لو آنسوا منه خيراً لكانوا أسعد الناس به. تعمدون إلى رهيق قوم قد طرده قومه وكذبوه فتؤوونه وتنصرونه؟
فبئس الرأي رأيتم.
ثم أقبل على رسول الله فقال: (قم الحق بقومك، فوالله لولا أنك عند قومي لضربت عنقك).
فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ناقته فركبها، فغمز الخبيث بجرة شاكلتها فقمصت برسول الله فألقته. وعند بني عامر يومئذ ضباعة بنت عامر بن قرط، كانت من النسوة اللاتي أسلمن مع رسول الله بمكة، جاءت زائرة إلى بني عمها فقالت: (يا آل عامر ولا عامر لي! أيصنع هذا برسول الله بين أظهركم لا يمنعه أحد منكم؟)
فقام ثلاثة نفر من بني عمها إلى بحرة، وثلاثة أعانوه، فأخذ كل رجل منهم رجلاً فجلد به الأرض ثم جلس على صدره، ثم علقوا وجوههم لطما، فقال رسول الله: (اللهم بارك على هؤلاء، والعن هؤلاء).
فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم قد كان أدركته السن حتى لا يقدر أن يوافي معهم الموسم، فكانوا إذا رجعوا إليه حدثوه بما يكون في ذلك الموسم، فلما قدموا عليه سألهم عمن كان في الموسم فقالوا:
(جاءنا فتى من قريش ثم حدث أنه أحد بني عبد المطلب يزعم أنه نبي، يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به معنا إلى بلادنا).
فوضع الشيخ يده على رأسه ثم قال: (يا بني عامر: هل لها من تلاف؟ هل لذناباها من تطلب؟
فوالذي نفس فلان بيده، ما تقولها إسماعيلي قط؟ ألا إنها الحق؛ فأين كان رأيكم؟.
هذه الأسواق الثلاث: عكاظ ومجنة وذو المجاز، التي كانت تقوم في أيام الحج ويؤمها العرب قاطبة من كل حدب وصوب، شهدت إلى جانب مناظر البيع والشراء والمفاخرة والإنشاد، مشهداً من أفظع مشاهد الجفاء والتنكر والأذى لصاحب الشريعة الإسلامية صلى الله عليه وسلم. وابتلعت تلك الأصوات بضجيجها وما كانت تعج به من حوادث، صوت الدعوة الإسلامية فيما ابتلعت من دعوات، وغاب صوت صاحبها في ذلك الصخب والزحام؛ فلقد مكث الرسول بمكة مستخفياً ثلاث سنين، ثم أعلن في الرابعة ودعا الناس إلى الإسلام عشر سنين يوافي فيهن المواسم كل عام، (يتبع الحاج في منازلهم بعكاظ ومجنة وذي المجاز يدعوهم أن يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربه، فلا يجد أحداً ينصره أو يجيبه، حتى إنه ليسال عن القبائل ومنازلها قبيلة قبيلة فيردون عليه اقبح الرد، ويؤذونه ويقولون له: قومك أعلم بك)
كان قاصد هذه الأسواق أيام الحج موزع السمع بين داع إلى ثأر وناشد ضالة، ومنشد قصيدة، وخطيب، وعارض بضاعة، وحامل مال لفك أسير، وقاصد شريف لإجارة أو حمالة، وداع إلى عصبية، وآمر بمنكر. . .، فيجد شيئاً معروفا قد ألفه منذ عقل وأبصر الدنيا. لكنه بعد عام الفيل بثلاث وأربعين سنة يجد أمراً لم يألفه قط، ولا سمع بمثله: رجلاً كهلاً وضيئاً عليه سمات الوقار والرحمة والخير، يسأل عن منازل القبائل قبيلة قبيلة: هذه بنو عامر بن صعصعة، وهذه محارب، وتلك فزارة، والرابعة غسان، وهناك مرة وحنيفة، وسليم، وعبس، وهنا بنو نصر وكندة، وكعب، وعذرة، وهؤلاء بنو الحارث بن كعب وأولئك الحضارمة. . . الخ.
يؤم منازل كل قبيلة، ويقصد إلى شريفها يدعوه بالرفق إلى الله وفعل الخير فيتجهم له هذا ويعبس ذاك، ويجبهه ذلك، ويحقره آخر. . فيلقى من الصد ألواناً يضيق ببعضها

صدر الحليم، فلا يؤيسه ما لقي، ولا يكفه ما أوذي، فيمضي متئداً حزيناً إلى قبيلة أخرى وشريف آخر. يعرض عليهم نفسه ويقول:
(هل من رجل يحملني إلى قومه، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي. فلا يجد مجيباً، حتى تدارك الله نبيه بوفد الأنصار.
هذا ما حفظته لنا كتب السيرة من مشاهد مؤثرة، فرأينا أن تلك الأسواق لم تخل من دعوة إلى خير، فقد تردد في أجوائها الصوت الضعيف الخافت، يطلب حماية وإجابة. ولئن صدف عنه الناس وأزوروا في أسواق الجاهلية، إنه ملأ فيما بعد ما بين المشرق والمغرب، وطبق الخافقين بآثاره التي بثها في العالمين رحمة وعدلاً وعلماً، وإنسانية وسعادة ومثلاً عليا.
وما زال يستجيب لهذا الصوت كل يوم أفواج من أمم الحضارة والعرفان، في أسيا وأوروبا وأمريكا. صد عنه قديماً أجلاف البادين، وهرع إليه اليوم زمر المتحضرين، من كل عالم ومخترع ومصلح وأديب وسياسي ومفكر. . من يستضيء بعلمهم وفكرهم الملايين من الخلق.
فلنأخذ من هذه الأسواق العبرة، ولنحفظ هذا الدرس؛ فأن الحق مهما بدا ضعيفاً وبدا خصيمه الباطل قوياً صائلاً، لا بد أنه ظافر في النهاية عليه. فليس في الدنيا شيء يصمد للحق، لا الجيوش ولا الأساطيل، ولا النار ولا الحديد، لا شيء له العقبى إلا الحق. وأهون بعد ذلك بالمعاهدات والمراسيم وصكوك الانتدابات وسائر القصاصات من أوراق الزور. كل أولئك يضمحل ويذوب متى سلط عليه الإخلاص والثبات وصلابة العقيدة والإيمان. وما نرى في أيامنا هذه من استضعاف الباطل المعتز بالصولة، لأناس وقفوا يدعون النضال في سبيل الحق، واستخذاء هؤلاء له، وطواعيتهم في يديه، ناشئ من فقدان الإخلاص والعقيدة فيما يضمرون. ولعل كثيراً منهم يظهر دفاعاً عن حق، ويبطن سعياً إلى منصب أو استدراراً لمال. وما أسرع ما ينزع الزمان الأثواب المزورة عن هذا الفريق فيظهر للناس ما يخفون.
ولنعلم بعد أن اليأس لا ينبغي أن يجد سبيلاً إلى قلب المؤمن، وأنه: (لا ييأس من روح الله إلى القوم الكافرين)
(دمشق)
سعيد الافغاني
عبرة وفاء
الرافعي
للأستاذ كامل محمود حبيب
أليس الحق أن العيش فان ... وأن الحي غايته الممات
(شوقي)
فقدتك - يا رافعي - ففقدت صديقاً، والأصدقاء قليل؛ وأخاً كبيراً طيب القلب، والقلوب هواء؛ وأباً شفيقاً فيه الرحمة والحنان؛ وأستاذاً غمرني نور علمه ونور أدبه كنت وكنا. . . ففتحت على عينيك مغاليق نفسي، فأحسست كأني ألمس روحك تتدفق في روحي، فهفوت نحوك أجد في حديثك اللذة والمتعة. وأجد في نصيحتك الهداية والنور. . . فلما فقدتك فقدت قلبي، وأذهلتني الصدمة فخرجت عن صبري إلى حزني؛ . . .وكدت أشق عليك الجيب، وألطم الخد. ولكن الإيمان يا رافعي. . . ولكن الإيمان وانطويت على نفسي ألتمس في عبرات حرى أسكبها، أشيعك بها إلى الدار الأخرى. . . ألتمس فيها بعض ما يخفف عني برح الشوق، وألم الفجيعة؛ فما وجدت فيها سلوة ولا وجدت عزاءً، فاستحوز علي الأسى والشجن، ونسيت ما كنت تقوله حين تزعزعني الأيام: (الإيمان، يا بني، الإيمان. . .)
وخرجت إلى الناس فرأوا في أثر الحزن والضنى في سواد لبسته، وفي تجهم وعبوس اكتسى بهما وجهي، وفي عبرة تترقرق في محجري أجهد أن أكفكفها لأخفي ضعفي، وفي جفوني قرح من أثر البكاء والسهر؛ فما استطاع واحد أن يقول شيئاً، غير أن نظراتهم كان فيها الرثاء والشفقة. . . ثم انطووا عني جميعاً، وخلفوني وحيداً، أحس ألم الوخزة في قلبي. . . قلبي وحده.
ومر رجل يبسم وعلى وجهه سمات الفرح فهاجت في نفسي الذكرى فبكيت ونظر هو إلى حزني ثم استغرق في الضحك، لا يرعوي ولا يرحم؛ فقلت لنفسي (ويل للشجي

من الخلي!)
وجاء صديق يريد أن يرفه عني، ويطمع في أن ينزعني من آلامي، بعبارات فاترة ثقيلة لا
معنى فيها ولا روح؛ ولكنها أثارت شجوني، فانتفض قلبي، وارفض جبيني عرقاً، وانهمرت عبراتي؛ فانطلق وهو يرثى لحال صاحبه. . . صاحبه المسكين الذي لا يسمع ولا يعي. . . وماذا يعزيني عنك يا رافعي وأنت. . . في دمي وفي روحي؟
وجلست إلى كتاب من كتبك أنشق عبير روحك الطاهرة، وأتنسم من ألفاظك روح قلبك الخالص؛ فارتدت الذكرى تبعثك في خيالي، فتوقظ في نفسي الألم والحسرة لأنني استشعرت فقدك في قلبي.
إن في النفس عواطف لا يرقى إليها القول، وفي الفؤاد نوازع لا يستطيع أن يكشف عنها المنطق، أحس بها جياشة ثائرة فأنطوي على أحزان تأكل قلبي وتضطرم في جوانحي. . . ثم لا أجد عاصماً سوى الدمع. . .
وجاء النعي يقول: إنك بت تحت الثرى، وإن تاريخك على الأرض قد تم، فوجمت، وجاء الظلام يترع أيامي في وقت رف علي فيه الأمل الحلو حين خيل إلي أني أنتظر لقياك، ولكن. . . فجعت مرتين: فيك وفي أملي. . .
وطال بعدك ليلي حين لج بي الأسى، ونأت عني مسراتي حين لازمتني أشجاني، وغدوت إنساناً غيري فيه اللوعة والأسف.
لقد عرفتك فبعثت في روحي الحياة والنور، ونفثت في قلبي الإيمان والسمو؛ والآن. . . الآن رانت على حياتي ظلمات وظلمات فما أستطيع أن أهتدي، والبحر يزخر حوالي فلا أرى الشاطئ الأمين، فأين يدك تجذبني إليه، وأين قلبك ينير لي الطريق. . .؟
تركتني وأتراحى، وفي القلب شوق، وفيه شكاية، فمتى تغسل دموعي هذه الأشجان لأبدو للناس رجلاً فيه الصبر والسلوان.
لفتك يد المنون في كفن لتنشر في الأفئدة اللوعة والأسى وأودعتك رمساً لتوقظ في النفوس الهموم والشجن.
وأطفأت السراج المنير لينقلب ناراً تتسعر بين الضلوع.
ونزعتك من بيننا لتشعرنا الوحدة والفراغ.
فلنا الله. . . لنا الله بعدك يا رافعي.
آدنى هذا الأمر فانشق له قلبي.
وتفطر فؤادي حين لفحني أواره.
وفقدت الآسي وقد فزع عني الصديق والخليل
فظللت وحدي أذرف الدمع السخين.
فوا حر كبدي. . . واحر كبدي مما أقاسي بعدك يا رافعي!
كامل محمود حبيب
بعد الموت ماذا أريد أن يقال عني
بقلم المرحوم الأستاذ مصطفى صادق الرافعي
سأله محرر الدنيا منذ شهرين هذا السؤال فكتب إليه هذا المقال:
ما هي الكلمات التي تقال عن الحي بعد موته إلا ترجمة أعماله في كلمات؟ فمن عرف حقيقة الحياة عرف أنه فيها لهيئ لنفسه ما يحسن أن يأخذه، ويعد للناس ما يحسن أن يتركه، فأن الأعمال أشياء حقيقية لها صورها الموجودة وإن كانت لا ترى.
وبعد الموت يقول الناس أقوال ضمائرهم لا أقول ألسنتهم، إذ تنقطع مادة العداوة بذهاب من كان عدواً، وتخلص معاني الصداقة بفقد الصديق، ويرتفع الحسد بموت المحسود، وتبطل المجاملة باختفاء من يجاملونه، وتبقى الأعمال تنبه إلى قيمة عاملها، ويفرغ المكان فيدل على قدر من كان فيه، وينتزع من الزمن ليل الميت ونهاره فيذهب اسمه عن شخصه ويبقى على أعماله.
ومن هنا كان الموت أصدق وأتم ما يعرف الناس بالناس، وكانت الكلمة بعده عن الميت خالصة مصفاة لا يشوبها كذب الدنيا على إنسانها، ولا كذب الإنسان على دنياه وهي الكلمة التي لا تقال إلا في النهاية، ومن أجل ذلك تجئ وفيها نهاية ما تضمر النفس للنفس.

وماذا يقولون اليوم عن هذا الضعيف؟ وماذا تكتب الصحف؟
هذه كلمات من أقوالهم: حجة العرب، مؤيد الدين، حارس لغة القرآن، صدر البيان العربي، الأديب الأمام، معجزة الأدب، إلى آخر ما يطرد في هذا النسق، وينطوي في هذه الجملة. فسيقال هذا كله ولكن باللهفة لا بالإعجاب، وللتاريخ لا للتقريظ، ولمنفعة الأدب لا لمنفعة الأديب. ثم لا يكون كلاماً كالذي يقال على الأرض يتغير ويتبدل، بل كلاماً ختم عليه بالخاتم الأبدي، وكأنما مات قائلوه كما مات الذي قيل فيه.
أما أنا فماذا ترى روحي وهي في الغمام وقد أصبح الشيء عندها لا يسمى شيئاً؟ إنها سترى هذه الأقوال كلها فارغة من المعنى اللغوي الذي تدل عليه لا تفهم منها شيئاً إلا معنى واحداً هو حركة نفس القائل، وخفقة ضميره. فشعور القلب التأثر هو وحده اللغة المفهومة بين الحي والميت.
سترى روحي أن هؤلاء الناس جميعاً كالأشجار المنبعثة من التراب عالية فوقه وثابتة فيه،
وستبحث منهم لا عن الجذوع والأغصان والأوراق والظاهر والباطن، بل عن شيء واحد هو هذه الثمرة السماوية المسماة القلب. وكل كلمة دعاء وكلمة ترحم وكلمة خير. ذلك هو ما تذوقه الروح من حلاوة هذه الثمرة.
مصطفى صادق الرافعي
من كلام الرافعي
قيل له رحمه الله: هل تكره الموت؟ فقال لا بل أكره ذنوبي، أما الموت فهو اكتشاف العالم الأكبر، نسأل الله حسن الخاتمة. وقيل له ما هي وصيتك إذا حضرتك الوفاة؟ فقال: هي تكرار المبدأ الذي وضعته لأولادي:
النجاح لا ينفعنا بل ينفعنا الامتياز في النجاح
مات الرافعي
بقلم السيد محمد زيادة
إذن فقد مات مصطفى، وانطفأ السراج الوهاج. . .
وهدأت الروح النبيلة الرفافة التي ما خلقت لتهدأ. . .
وفرغ الوجدان الفضفاض من هموم الإنسانية وآلام الناس. . . وسكن القلب الصخاب المتكلم، المحلق في أجواء السمو، الخافق خفقات الهوى العفيف. . .
وغربت النفس الأبية الملهمة الجائشة فيها خواطر الغيب وأسرار الكيان. . .
ونام العقل الجبار الحر النافذ شعاعه إلى كل سماء يستطلع الحقائق، المرسل سناه على كل أرض يطلع الناس. . .
وانطفأ السراج. . . انطفأ السراج الوهاج. . .
إذن فقد مات مصطفى وخلا من الحياة مكانه ليظل خالياً لا يجد الكفء الذي يملؤه. . .
وجنحت الشخصية الحبيبة المرموقة إلى العزلة. . . عزلة الأبد
وعدمت الموهبة المخلوقة للكفاح والإصلاح. . .
وانهدت القوة الفعالة المبدَعة المبدِعة. . .
وانحصر الميدان الآهل بعرائس الخيال الفاتنة بين جدران قبر ضيق. . .
وتهيأ الأدب العريق الفتي ليزول أو زال. . .
وانطفأ السراج. . . انطفأ السراج الوهاج. . .
إذن فقد مات مصطفى، ورحلت البارقة الهفافة من أفق الدنيا إلى آفاق الآخرة. . .
وشال الطائر الغريد عن الحمى يرف بجناحيه رفيف الوداع، وخفقت القلوب، وتباكت العيون، وذابت قطع من النفوس، وسرى في جو الأدب برق ورعد هز كيانه. . . ثم أعقبه
غبار ودخان لاح فيه سواد المصيبة. . .
ووجمت الحياة من روعة ما جد فيها. . .
وشاع في العالم العربي أن الرافعي قد مات. . .
وانطفأ السراج. . . نطفأ السراج الوهاج. . .
مصطفى. . . أأناديك يا أبي أم يا أخي أم يا صديقي؟!.
إنك والله كنت الثلاثة. . . كنت الوالد في حنوك عليّ، واهتمامك بي. . . وكنت الأخ في

استبشارك بلقياي وانتصارك لي. . . وكنت الصديق في إخلاصك النادر، ووفائك المعجب، وحبك النقي وعطفك الكريم
فأين بعدك الصديق؟. . وأين مثلك الصديق؟.!
وكيف بعدك الحياة وأنت كنت العون في الملمة، والفرج في الضيق، والسراء في الضراء؟!
لقد فقدت بفقدك ركن حياتي الثابت المدعم؛ وشيعت في تشييعك مسرة النفس، وراحة الفؤاد، وأمان العيش؛ وقبرت معك أملاً من آمالي كان أنظرها. . .
مصطفى. . . لقد ذهبت فلم توص ولم تودع. . . فهل من كلمة أو همسة تسر بها إلي هابطة من روحك في السماء إلى روحي على الأرض؟. . .
هل من إشراقة عطف يطل بها وجهك الصبوح من عليائك على صديقك الشاعر في فقدك بفقد نفسه، الحامل لك في أعماقه شوق الولهان وحسرة السجين، الواجد من بعدك كل هم وعناء؟
هل من بسمة ود تسطع على شفتيك فتنير وحشة النفس في ظلام الوحدة بعد أن حرمتك وحرمت كل حبيب؟. . .
السيد محمد زيادة
تاريخ وفاة الرافعي بالتركية
أم دنيا بي وفا دنيا قدر فضل أهلنه،
ئولدي داهىء أدب، صور: نه يدى رسمى موقعى؟
آلدم ابواب جناندن مصرع تاريخنى:
قدريكي بيلسين ملكر آسمانده رافعى!
344 162 320 161 361
المجموع 1348
مضافة إلى المجموع مقتبسة من عدد أبواب الجنة الثمانية المشار إليها في 8 المصراع الثالث
—
1356
ترجمة البيتين:
إن أم الدنيا كالدنيا في عدم وفائها لذوي الفضل والأدب فقد مات أكبر الكتاب وهو من صغار الموظفين في الحكومة! فاستعرت مصراعاً لتاريخ وفاته من أبواب الجنة الثمانية وقلت: ليقدر الملائكة قدرك في السموات أيها الأستاذ الرافعي.
إبراهيم صبري
نجل شيخ الإسلام السابق للدولة العثمانية
أقوال العظماء في الرافعي
إن الناظم لم يتجاوز الثالثة والعشرين من سنه، ولا ريب أن من أدرك هذه المنزلة في مثل هذه السن سيكون من الأفراد المجلين في هذا العصر، ومن سيحلون جيد البلاغة بقلائد النظم والنثر. . .
إبراهيم اليازجي
اسأل الله أن يجعل للحق من لسانك سيفاً يمحق به الباطل وأن يقيمك في الأواخر مقام حسان في الأوائل.
محمد عبده
سيأتي يوم إذا ذكر فيه الرافعي قال الناس: هو الحكمة العالية مصوغة في أجمل قالب من البيان.
مصطفى كامل
في جريدة اللواء
بيان كأنه تنزيل من التنزيل أو قبس من النور الحكيم
سعد زغلول
ثق أني أسافر مطمئناً وأنت بقيتي في مصر
عبد المحسن الكاظمي
وهو مسافر إلى الأندلس

أراك وأنت نبت اليوم تمشي ... بشعرك فوق هام الأولينا
وأوتيت النبوة في المعاني ... وما جاوزت حد الأربعينا
حافظ ابراهيم
لو كان هذا الكتاب في بيت حرام إخراجه للناس منه لكان جديراً بأن يحج اليه، ولو (عكف على غير كتاب الله في نواشئ الأسحار لكان جديراً بأن يعكف عليه)
شكيب أرسلان
في كتاب تاريخ آداب العرب
لقد جعلت لنا شكسبير كما للإنجليز شكسبير، وجوته كما للألمان جوته، وهوجو كما للفرنسيين هوجو
أحمد زكي باشا
في كتاب المساكين
هكذا قال زرادشت
للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه
ترجمة الأستاذ فليكس فارس
العناكب:
هذا هو العنكب، فإذا كنت ترغب في مشاهدته فالمس نسيجه ليتحرك ويسرع بالظهور، أهلا بك أيها العنكب، إنني أرى على ظهرك شعاراً أسود مثلث الزوايا، وما يخفى عني أيضاً ما تضمر من النقمة في سريرتك.
أن للسعاتك بقعاً فاحمة على الجلود ولها سمها المضلل في النفوس، أيها العنكب، فأنا أخاطبكم بالرموز، أيها العناكب المضللون المبشرون بالمساواة. فما أنتم في نظري إلا مستودع لعواطف الانتقام
سأكشف عن مكانكم وأنا أواجهكم بقهقهة تسقط عليكم من الذرى التي أتسنمها.
وهأنذا أمزق نسيجكم حتى إذا تملككم الغضب خرجتم من مغاور أكاذيبكم وتدفقت نقمتكم بكلمة العدل التي تتفوهون بها.
لقد وجب علي أن أنقذ الإنسان من عاطفة الانتقام، وهذا الواجب هو المعبر المؤدي إلى اشرف الآمال ينتصب فوقه قوس قزح بعد هبوب العواصف الكاسحات. ولكن إرادة العناكب لا تتجه إلى هذه الغاية، فهم يتناجون فيما بينهم قائلين: لا عدل إلا في عواصف انتقامنا تهب على العالم لتلقي العار على كل من ليس منا.
وهم يقولون أيضاً: ما من فضيلة إلا في طلب المساواة، فلنرفع عقيرتنا ضد كل سلطان.
آي كهان المساواة! لقد تسلط عليكم جنون عجزكم، فهتفتم بهذه المساواة وقد كمنت شهوة عتوكم واستبدادكم وراء ما تعلنون من الفضائل.
إنني أرى فيكم الغرور المتمرمر والحسد المقيم، ولعل الحسد الذي رعى قلوب أسلافكم يتعالى منكم الآن لهباً يندلع بجنون الانتقام، وما الأبناء إلا مظهر ما أضمر الآباء. ولكم أفشى الابن سر أبيه!
إن لهؤلاء الناس مظهر المتحمسين، وما تلهب حماسهم المحبة بل الانتقام. وإذا، وإذا ما
بدت لك منهم رصانة ومرونة، فما مصدرهما فيهم العقل بل الحسد. وهو الدافع لهم إلى التفكير. ودليل حسدهم هو أنهم يندفعون دائماً إلى أبعد من مراميهم فيطرحهم العياء على وساد الثلوج.
وما تسمع لهؤلاء الناس أنيناً يخلو من نبرات الانتقام، فكل ما يصدر عنهم من مديح ينطوي على أذية، فهم يرون منتهى السعادة في إقامة أنفسهم قضاة على العالمين.
فأصغوا إلى نصيحتي، أيها الأصدقاء: احذروا من تغلبت عليهم غريزة إنزال العقاب. لأنهم متحدرون من أفسد الأنواع وعلى وجوههم سيماء الجلادين.
إحذروا من لا ينقطعون عن ذكر عدالتهم فان نفوسهم خالية من كل صفة حميدة، وإذا ما هم ادّعوا الصلاح والأنصاف فلا تنسوا أنهم لم يتخذوا بين الفرنسيين مقامهم إلا لما يشعرون به من عجز
إنني أربأ بنفسي، أيها الصحاب، أن تنزلوها بين هؤلاء الناس فلا تميزون بيني وبينهم.
فهنالك من يذيعون تعاليمي عن الحياة وهم في الوقت نفسه ينادون بالمساواة

وينتمون إلى العناكب المسمومة، هم يدافعون عن الحياة ولكنهم يعرضون عنها قابعين في مغاورهم ليتمكنوا من اجتراح الشرور والإيقاع بمن يقبضون على زمام السلطة في هذا الزمان، وقد تعودوا إنذارهم بالسقوط، ولو أن السلطة كانت في يد العناكب، لكانت تعاليمهم تتخذ شكلاً آخر، لأنهم عرفوا فيما مضى، أكثر مما عرف غيرهم، كيف يوقدون المحارق ويرهقون مخاليفهم اضطهاداً وتعذيباً.

لا أريد أن أحسب من هؤلاء المنادين بالمساواة لأن العدالة علمتني: (أن لا مساواة بين الناس) وإنه من الواجب ألا يتساووا؛ وليس لي أن أقول بغير هذا المبدأ وإلا فان محبتي للإنسان تصبح ادعاء ومينا. . .

على الناس أن يسيروا على آلاف الطرق وآلاف المعابر مسارعين نحو آتي الزمان فتنشأ بينهم الحروب وتتسع شقة التفاوت بينهم على ممر السنين، ذلك ما ألهمني إياه حبي العميم.

يجب أن يقيم الناس في أعماق سرائرهم مثلاً علياً وأشباحاً يجاهدون في سبيلها فيسير الصالح والطالح والغني والفقير والرفيع والوضيع إلى التصادم بجميع ما في الأرض من نظم فتضطرم الحروب سلاحاً لسلاح ورمزاً لرمز لأن على الحياة أن تتفوق أبداً على ذاتها.

إن الحياة تتجه إلى الارتقاء بدعائمها ودرجاتها، فهي تتطلع إلى الآفاق البعيدة ما وراء الجمال المقتعد عرش غبطته، لتبلغ مستقرها في أعالي الذرى

وبما أن الحياة بحاجة إلى ارتقاء المرتفعات، فهي لا غنى لها عن الدرجات والدركات ليعارض المنخفضون المرتفعون، إنها لفي حاجة إلى التفوق على ذاتها وهي متجهة إلى الارتقاء

انظروا، أيها الصحاب، هاهي مغارة العناكب وقد لاحت فيها خرائب هيكل قديم فأرسلوا عليه نظرات المستلهمين.

والحق أن من جميع أفكاره قديماً ليرفعها صرحاً من الصخر ينطح السحاب كان كأحكم الحكماء عارفا بأسرار الحياة

إن الجمال نفسه ليقوم على التفاوت والمجالدة في القوة والتفوق، وهذا ما يعلمنا إياه هذا الحكيم بأشد الرموز إشرافاً

هنا تتدافع القباب والنوافذ في عراك جلل فتهاجم الظلمة النور ويهاجم النور الظلمة كأنهما إلهان ينازل أحدهما الآخر اقتدوا بهذا الرمز، أنتم أيضا في مجال الجمال والثقة بالنفس. لنكن نحن أيضاً أعداء فيما بيننا أيها الصحاب

وليحشد كل منا قواه ليحارب الآخرين

ويلاه، لقد أصبت أنا أيضاً بلسعة العنكبة عدوتي القديمة فقد توصلت بثقتها بنفسها وبجمالها الإلهي إلى نوال بناني بلسعتها، وهاهي تقول الآن: لا بد من إنزال العقاب، لا بد من أن يأخذ العدل مجراه، فأنك تعنيت بعظمة السرائر، فلن يذهب إنشادك جزافاً. أجل لقد انتفعت، ويلاه إنها ستوجه نفسي إلى عاطفة الانتقام.

تقدموا أيها الصحاب وقيدوني بهذا العمود كيلا أتحول عن مبدئي، فخير لي أن أصبح تمثالاً جامداً من أن أهب كعاصفة منتقمة.

. . .لن يكون زارا عاصفة وإعصاراً، فما هو إلا رقاص ولكنه ليس رقاص عناكب

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

61 - عجيبة. . .

في (طبقات الشافعية الكبرى) للسبكي: عجيبة هي مغنية كانت بمصر على السلطان الملك الكامل بن أيوب، ويذكر أن الكامل كان مع تصميمه بالنسبة إلى أبناء جنسه تحضر إليه ليلاً، وتغنيه بالجنك على الدف في مجلس بحضرة ابن شيخ الشيوخ وغيره، وأولع الكامل بها جداً، ثم اتفقت قضية شهد فيها الكامل عند عين الدولة، وهو في دست مملكته. فقال ابن عين الدولة: السلطان يأمر ولا يشهد. فأعاد عليه السلطان الشهادة، فأعاد القاضي القول. فلما زاد الأمر وفهم السلطان انه لا يقبل شهادته، قال: أنا أشهد، تقبلني أم لا؟

فقال القاضي: لا، ما أقبلك. وكيف أقبلك وعجيبة تطلع إليك بجنكها كل ليلة، وتنزل

ثاني يوم بكرة، وهي تتمايل سكراً على أيدي الجواري، وينزل ابن الشيخ من عندك أبخس مما نزلت!
فقال له السلطان: يا كنواخ! (وهي كلمة شتم بالفارسية)
فقال القاضي: ما في الشرع يا كنواخ. أشهدوا على أني قد عزلت نفسي ونهض.
فجاء ابن الشيخ وقال: المصلحة للملك إعادته لئلا يقال لأي شيء عزل القاضي نفسه؟ وتطير الأخبار إلى بغداد، ويشيع أمر عجيبة. فقال له قم إليه، فنهض إلى القاضي وترضاه، وعاد إلى القضاء.
62 - السكير، النفط
كتب عبد الصمد بن المعذل إلى صديق له ولي النفاطات فأظهر تيهاً:
لعمري لقد أظهرت تيهاً كأنما ... توليت للفضل بن مروان عكبرا
دع الكبر واستبق التواضع إنه ... قبيح بوالي النفط أن يتغيرا
من أجل عيون النفط أحدثت نخوة ... فكيف به لو كان مسكاً وعنبرا
63 - كيف ترى هذا الفقه
في (تلبيس إبليس) لابن الجوزي:
قال عبد الرحيم بن جعفر السيرافي الفقيه: حضرت بشيراز عند قاضيها أبي سعيد بشر بن حسن الداودي وقد ارتفع إليه صوفي وصوفية (وأمر الصوفية هناك مفرط جداً حتى يقال إن عددهم ألوف) فاستعدت الصوفية على زوجها إلى القاضي. فلما حضر قالت له: أيها القاضي إن هذا زوجي ويريد أن يطلقني وليس له ذلك، فإن رأيت أن تمنعه. فأخذ القاضي يتعجب، وحنق على مذاهب الصوفية ثم قال لها: وكيف ليس له ذلك؟ قالت: لأنه تزوج بي ومعناه قائم بي، والآن هو يذكر أن معناه قد انقضى مني، وأنا معناي قائم فيه ما انقضى فيجب عليه أن يصبر حتى ينقضي معناي منه كما انقضى معناه مني.
فقال لي القاضي: كيف ترى هذا الفقه؟! ثم أصلح بينهما وخرجا من غير طلاق.
64 - أما بشرع محمد من أين لك؟
قال هبة الله بن الفضل في يحيى بن المظفر بابن المرخم:
يا ابن المرخم، صرت فينا قاضياً ... خزف الزمان تراه أم جن الفلك؟
إن كنت تحكم بالنجوم فربما ... أما بشرع محمد من أين لك؟!
65 - أفلا يزول هذا التوهم؟
في (إرشاد الأديب) لياقوت الحموي:
سأل بعض الأكابر من بني طاهر أبا العباس ثعلباً أن يكتب له مصحفاً على مذهب أهل التحقيق فكتب: (والضحي) بالياء. ومذهب الكوفيين أنه إذا كانت كلمة من هذا النحو، أو لها ضمة أو كسرة كتبت بالياء - وإن كانت من ذوات الواو. والبصريون يكتبون بالألف. فنظر المبرد في ذلك المصحف فقال: ينبغي أن يكتب (والضحى) بالألف لأنه من ذوات الواو. فجمع أبن طاهر بينهما. فقال المبرد لثعلب: لم كتبت والضحى بالياء؟ قال: لضمة أوله.
قال: ولم إذا ضم أوله - وهو من ذوات الواو - تكتبه بالياء؟
قال: لأن الضمة تشبه الواو، وما أوله واو يكون آخره ياء، فتوهموا أنه أوله واو.
فقال المبرد: أفلا يزول هذا التوهم إلى يوم القيامة؟!
66 - سرة الدنيا، العروة الوثقى
في (البدر الطالع) للشوكاني:
خرج بيبرس العثماني الجاشنكير الملك المظفر للحج بعد سنة (701) وصحبة كثير من الأمراء، فحج بالناس فصنع من المعروف شيئاً كثيراً. ومن محاسنه أنه قلع المسمار الذي كان في وسط الكعبة وكان العوام يسمونه (سرة الدنيا) وينبطح الواحد منهم على وجهه، ويضع سرته مكشوفة عليه. ويعتقد أن من فعل ذلك عتق من النار وكان بدعة سيئة، وكذلك أزال الحلقة التي يسمونها (العروة الوثقى).
67 - وكيف لا تطرب عوديه
القيراطي:
تنفس الصبح فجاءت لنا ... من نحوه الأنفاس مسكيه
وأطربت في العود قمرية ... وكيف لا تطرب عوديه؟

الطبع والتمرين - 68
في (الخصائص) لابن جني:
قرأ السجستاني: قرأ عليّ أعرابي بالحرم: (طيبي لهم وحسن مآب) فقلت له: طوبى، فقال: طيبي، فقلت: طوبى فقال: طيبي. فلما طال على قلت: طو طو، فقال طي طي
أفلا ترى إلى هذا الأعرابي وأنت تعتقده جافياً ركزاً، لا دمثاً ولا طيعاً كيف نبا طبعه عن ثقل الواو إلى الياء، فلم يؤثر فيه التلقين، ولا ثنى طبعه عن التماس الخفة هز ولا تمرين
والقوم أغصان - 69
حضر الشاعر أبن القيسراني مرة في سماع، وكان المغني حسن الغناء، فلما طربت الجماعة وتواجدوا قال:
والله لو أنصف العشاق أنفسهم ... فدوك منها بما عزوا وما هانوا
ما أنت حين تغني في مجالسهم ... إلا نسيم الصبا والقوم أغصان
الخبز والبقل - 70
في (فتوح البلدان) للبلاذري:
قال كثير بن شهاب يوماً: يا غلام، أطعمنا.
فقال: ما عندي إلا خبز وبقل.
فقال: وهل اقتتلت فارس والروم إلا على الخبز والبقل؟؟
ميلاد الرسول
للأستاذ محمد الأسمر
فجرٌ أطلّ على الوجود فأطلعا ... شمسين: شمسَ سناً، وشمس هدىً معا
ظلَّتْ مطالع كل شمس لا ترَى ... من بعدِه شيئاً كمكةَ مطلعا
قبس من الرحمنِ لاح فلم يَدعْ ... لألاؤه فوقَ البسيطة موضعا
ما كان ميلادُ الرسول المصطفى ... إلا الربيعَ نضارة وتَضوعا
يوم أغر كفاكَ منه أنه ... يوم كأن الدهر فيه تجمعّا
ويكادُ غابرُ كل يومٍ قبله ... يثني إليه جيدهُ متطلعا
فلو استطاع لكرَّ من أحقابه ... وثْباً على هام السنين ليرجعا
يكادُ مُقبلُ كل يوم بعده ... ينسل من خلف الزمان ليسرعا
فلو استطاع لجاء قبل أوانه ... وأنساب يخترق السنين وأتلعا
تتنافس الأيام في الشرف الذي ... ملأ الوجود فلم يغادرْ أصبعا
خير أفاض الله منه على الورى ... أنّى جرى ترك الجناب الممرعا
وسناً جلاه لتعمُرَ الدنيا به ... من بعد ما كانت خراباً بلقعا
وافى وليلُ الجاهلّية مُطبق ... فانجاب عن جنباتها وتقشعا
وكذا الهداية إن قذفتَ بها على ... ركن الغواية والضلال تصدعا
نادى إلى الحسنى فلما أعرضوا ... واستكبروا شَرع الرماح فأسمعا
والحقُّ أعزلَ لا يروعُ فأن بدا ... مستلئماً لاقى الطُعاة فروَّعا
والحقُّ أخفى ما يكون مجرداً ... وتراه أوضحَ ما يكونُ مُدرَّعا
والحقُّ ليس بمعتدٍ لكنّه ... إن دافعته يَدُ الضلال تدفعا
مثل الرياحِ جَرت رُخاء ثم لم ... تلبثْ فهبَّتْ بعد ذلك زعزعا
بعض الأنام إذا رأى نور الهدى ... عَرَف الطريقَ ولم يضلَّ المهيعا
ومن البريَّة معشرٌ لا ينتهي ... عن غيِّه حتى يخاف ويفزعا
إن الرسولَ محمداً صبحٌ بدا ... من راح يعثُر في سناهُ فلالعا
وافى بها بيضاَء عدل كلها ... لا تلفينَّ بها الضعيفَ مُضيَّعا
الناسُ كلهمُ سواسية بها ... لا (قيصراً) تلقى بها أو (تُبعّا)
دخلت على الجبروت وهو مُقَطِّب ... صَلَفاً فأبصر وجهها فتفزعا
وأبى له حبَّ البقاء وطَبعهُ ... إلا الِصيالَ فصاولت فتضعضعا
و (الرومانُ) لم يعصمهما ... مُلْكُ الممالك كلها أن يُصرَعا (الفرسُ)
من لم تزعزعه العواصف قبلها ... بعثت له بنسيمها فتزعزعا
ثلت عروش الظالمين ومُلكهم ... وبنت لعرش العدل مُلكاً أوسعا

وجرى العباد على السجيَّةِ سُجدا ... لله، لا لمُسخِّريهم، رُكعا
وتراهمُ حول النبيِّ فلا ترى ... مُتملقاً أو خائفاً متخشِّعاً
دينُ المساواةِ الصحيحة دِينه ... يرعاهمُ في الله أشفق من رعى
جاءت له الدنيا فأعرض زاهداً ... يبغي من الأخرى المكان الأرفعا
ما جرَّ أثواب الحرير ولا مشى ... بالتاجِ من فوق الجبين مُرصعَّا
من ألبس الدنيا السعادة حُلّة ... فَضفْاضة، لبِس القميص مُرقعا
وهو الذي لو شاء نالت كفه ... كلَّ الذي فوق البسيطة أجمعا
لم يبغها مُلكاً عضوضاً بل دعى ... لله لا لسواه أفضل من دعى
يا مصطفى أدعوكَ دعوة شاعر ... وأفي إليك بشعره متشفعا
هب لي من النفحات ما أشفي به ... نفساً معذبة وقلباً موجعاً
فلعلَّ صدراً أن تزول همومه ... وعليلَ قوم أن يصح وينفعا
ولعل ذابلة الرجاء ينالها ... بلل من الغيث العميم فتينعا
صلى عليك الله جل جلاله ... دينا وأخرى شافعاً ومشفّعا
محمد الأسمر
هدية الشاعر للشاعر
أهدى الأستاذ عبد الله حبيب إلى صديقه الأستاذ أحمد رامي زهرة ومعها هذان البيتان:
قطفتها في صبحيَ الباكر ... هدية الشاعر للشاعر
فأنعم بها إذ أنت أولى بها ... من كل من مر على خاطري
فتقبلها شاعر الشباب وأجابه بهذين البيتين:
يا مهدياً من زهرك العاطر ... آنست روحي بالجنّي الباكر
ذكرتني والصبح في مهده ... وأنت مرسوم على خاطري
رسالة الشباب
شبابنا والسياسة
تدعو الرسالة الشباب دعوة حرة جريئة إلى العمل السياسي، وقد يعجم على بعض الناس غرض الرسالة من دعواتها، وينبهم عليهم وجه الحق والمصلحة فيها.
وإنما تريد الرسالة ونريد معها شباباً مطبوعاً على الوطنية قد سرت في دمه مسرى الدم الحار في عروقه، وتشبعت بها روحه واستبطنتها نفسه، فصارت جزءاً منها لا وطنية مصطنعة زائفة تلبس وتخلع كالرداء.
نريد شباباً غزلاً كلفاً صباً لا بالحور الحسان والخرد الغيد، ولكن بحب مصر. نريد منهم وطنية تفيضها الغريزة لا تكلف فيها ولا تعمل، تنتقل بقانون الوراثة من الأجداد إلى الأحفاد كما تنتقل مميزات الشعوب الراقية من السلف إلى الخلف: أي نريدها خلقاً لا حرفة.
نريدها وطنية طاهرة نقية كنفوس الشباب لم تلوثها جراثيم المنفعة ولا أرجاس الأهواء والشهوات، تسمو سمو المثل العليا لا تسف بالتطبيق المحرف الخاطئ.
نريدها وطنية عامة شاملة تسع الدولة والمواطنين وتسوي بينهم، لا وطنية ضيقة العطن محدودة المدلول محصورة بالأحزاب والأشخاص. يجب أن ينبلج الصبح على أعين نفر من النفعيين يحرمون على الشباب الاشتغال بالسياسة كأن السياسة حرفة لا تحترف إلا بترخيص. يجب أن تحشد جميع قوى الأمة لمصلحة الأمة فيعمل الكل في حقل الوطن لينتج للوطن.
إن الحياة صراع وغلاب ولا سيما في عصر الكهرباء والكيمياء واللاسلكي، فليس من سداد الرأي ولا من بعد النظر أن تحيا الأمة عالة على زعمائها؛ وليس معنى هذا ألا يكون للشعب زعماء، ولكننا ندعو كل فرد أن يكون بنفسه دائرة كهربائية تامة، فإذا ما وصل بينها واجتمع شتيتها ووجهتها زعامتها الرشيدة كانت قوة لا تغلب.
إن نظرة فاحصة إلى ألمانيا وإيطاليا وتركيا تؤيد ما نقول، فانك لا تسمع اسم إحداها إلا وتصورتها كتلة واحدة من القوة مندفعة نحو غايتها كأنها قنبلة انطلقت من فوهة مدفع، وإن دخانها وجلجلة صوتها وصخب قصفها لكاف في شق طريقها وتعبيد مسراها بله كتلتها

وجرمها.
نريد شباباً يفهم ما يريد، ويعمل ما يفهم، ويحمي ما يعمل، ويحب ما يحمي، ويضحي بدمه وروحه في سبيل ما يحب.
نريد هذا الشباب الذي يحول التاريخ إلى الوجهة التي يجب أن تكون وجهه العز والكرامة، الشباب الذي يعمل تاريخ جيله بقصد وتعمد، لا الشباب الذي يقف من تاريخ جيله على الحياد ويدع الظروف والمؤثرات تكتب هذا التاريخ.
نريد جيلاً صلباً متعصباً سليماً من المرونة والرخاوة يقف كالشلال، لا جيلاً خفيفاً كالخشبة الطافية على سطح الماء يقذف بها أنى يشاء وكيف شاء. نريد أن نكتب كما كتبنا أسطع السطور في سجل تاريخ الإنسانية الخالد!
عبد العزيز بيومي غفاري
بالقايات
واجب الكتاب والمفكرين
رئيس تحرير الرسالة . . . . . .
أشكر للرسالة الغراء اهتمامها بتوجيه الشباب إلى الغاية المثلى في عهدنا الحديث، وأؤيد بقلبي ويدي أخي الشاب الذي اقترح (زحف الشباب الاجتماعي) ولكني أشعر بأن الشباب حين يبدأ العمل سيعمل من غير خطط ولا رسوم ولا تقارير ولا أدلة. فقد كان من الواجب على الكتاب والمفكرين وهم الأطباء الاجتماعيون أن يشرحوا أدواء الأمة شرحاً دقيقاً في كل ناحية من نواحي الحياة، ثم يصفوا العلاج ويجعلوا التمريض والتنفيذ على عواتق الشباب. فأننا إذا استثنينا الفصول التي تكتبها الآنسة الأديبة (ابنة الشاطئ) في أحوال القرية وبؤس القرويين لا نكاد نجد كاتباً واحداً درس حالة من أحوال الأمة. ليقم الطبيب والمهندس والزراعي والأديب بدرس هذه الأحوال كل في دائرة اختصاصه حتى يعمل العامل عن خبرة، ويتقدم الدليل عن هداية، وبذلك تقوم الجهود على أساس قوى ومنهاج واضح ونظام صحيح. . .
مصطفى كامل
المحامي
(المحرر) ملاحظة الأستاذ الكاتب سديدة، فأن نهضتنا الأدبية قد بدأت بإحياء آثار السلف فعرفنا عن القديم أكثر مما نعرف عن الحديث؛ ثم انصرفت إلى النقل عن الغرب فعلمنا عن أوربا أكثر مما نعلم عن مصر؛ وظلت قوانا مجهولة لم تكشف وعللنا مدفونة لم تعرف. وأقتصر كتابنا على معالجة بعض المسائل السهلة من طريق القصة أو الصورة، ووقف زعماؤنا عند المقالات الصحفية التي تنطوي مع اليوم والخطب السياسية التي تذهب مع الساعة. أنا نريد كما قال الكاتب الفاضل كتباً تعالج المسائل العامة عن اختصاص ودرس، وترسم المناهج الإصلاحية عن دراية وتبرز ما دق عن الشعور من آفات المجتمع في جلاء وصدق. فهل تتجه أفكار الكتاب، إلى ما اتجهت إليه رغائب الشباب؟
اهتمام الشباب بالشؤون العامة
محرر صحيفة الشباب . . .
كان لما كتبتموه في هذه الصحيفة عن ضرورة اهتمام الشباب بالشؤون العامة أثره البليغ في نفسي. فقد حملني ذلك على أن أفكر في غفلة الشعب عن الأمور العامة وحصره كل أفكاره وأعماله في دائرة عمله اليومي، فوجدت أن واحداً في الألف هو الذي يتتبع مجاري الأمور، ويعني بشؤون مواطنيه وسياسة وطنه، وربما تجد قرى بأسرها لا تقرأ جريدة ولا تتصل بالعالم. وكل ما يهم الفلاح هو زراعة أرضه وأسعار محاصيله. ومن الصعب أن يتكون في الأمة رأي عام محترم إذا بقي حال الأفراد على هذه الحال فدخول الشباب المثقف في الميادين الاجتماعية والاقتصادية بالدعوة والإرشاد يفتح عيون العامة على الحياة الصحيحة فتتسع أفكارهم، وتبعد آمالهم، وينشأ فيهم الطموح إلى الأحسن. والنزوع إلى الأكمل، والشعور بأن الوطن وطنهم والحكومة حكومتهم، فإذا قدموا أبنائهم إلى العسكرية قدموهم مغتبطين لأنهم يدافعون عن أنفسهم؛ وإذا أدوا الضرائب أدوها راضين لأنهم ينفقون على مصلحتهم.
وقد لمست أثر دعوتكم في نفسي فأصبحت أقرأ صحيفتي اليومية بروح جديدة واهتمام قوي.

كنت آخذ الصحيفة فأمر على عناوينها مراً لأتخير ما يستفز اهتمامي من أمور قد لا تتعدى مسألة اليوم وأخبار الملاهي والسينما، وهأنذا اليوم أحرص على تتبع الشؤون الداخلية كرجل ذي علاقة وثيقة بها، فأصبحت أقرأ أخبار المصالح المختلفة وكأنها تهمني مباشرة، وأمسيت أتتبع مناقشات البرلمان. ولا أكتمك أني حين قدمت الميزانية إلى المجلس كنت وأنا أقرأ مقدمة وزير المالية أتخيل نفسي زعيم المعارضة فأقرأها وأناقشها، فلما قرأت رد المعارضين تصورت نفسي وزير المالية فرحت أحاول الرد عليها وتبرير موقفي. وهكذا حالي مع كل ما يجد في البلد من أحوال وأخبار هذه آثار دعوتكم في نفسي ولعل أثرها يكون في أخواني الشباب أبلغ مدى وأعمق أثراً. . . . . .

(الجيزة)

مختار يونس

رسالة العلم

قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكي بك

مدير مصلحة الكيمياء

وكان يضحك كلما جاء النبأ بأن بعض أعوانه يقول عنه إنه مخبول، كان في كل حجرة من هذا البيت وفي كل مكان، ولكنك دائماً مستطيع معرفة مكانه وحصره في الناحية التي هو فيها وذلك من صوته الذي لا يفتأ يتردد ينادي في الردهات: (يا قدريت. . . يا قدريت! أين سجائري. . . هات مائي المعدني. . .!)

- 5 -

وخاب أمر الأصباغ خيبة كبرى، وجرى الحديث تمتمه بين الكيميائيين أن إرليش رجل غبي لا يفهم، ولكن يجب أن تذكر دائماً أن إرليش كان يقرأ الكتب، فذات يوم كان جالساً في مكتبه على كرسي خلا مصادفة من الكتب التي تراكمت عليه وعلى غيره. وكان يقرأ في المجلات الكيمياوية كبعض قدماء الحكماء يبحثون عن حجر الفلاسفة، فإذا به يقع على عقار من أخبث العقاقير. وكان اسمه أتكسيل ومعناه غير السام، وكان هذا العقار شفى الفئران من مرض النوم، أو كاد؛ وكان قتل فيراناً ليس بها مرض النوم؛ وكان قد جرب في بعض أهل السواد في أفريقا عسى أن يشفيهم من مرض النوم فلم يشفهم، بل أصاب عدداً وفيراً منهم بالعمى فتم عماهم قبل أن يدركهم الموت من دائهم. فهذا عقار مروع لو أن مركبه كان حياً لأختزى منها وأستبرأ. وكان تركيبه من حلقة بنزين، وهي مكونة من ست ذرات من الكربون قامت في حلقة كالخاتم كأنما يطارد بعضها بعضاً في دائرة كالكلب يدور حول نفسه يريد أن يعض ذيله؛ ويتركب عدا ذلك من أربع ذرات من الأدروجين، وشيء من النشادر، وبعض أكسيد الزرنيخ، وهذا الأخير يعلم الناس أنه سم زعاف.

قال إرليش: (علينا أن نغير من تركيب هذا العقار قليلاً) قال هذا وهو يعلم أن الكيميائيين

الذين ابتدعوه قالوا إنه تركب بحيث أن أي تغيير يلحقه يفسده؛ ولكن إرليش لم يستمع لما قالوا، وظل يقضي بعد ظهر كل يوم في معمله وحده يبذل في العمل كل نشاطه. وكان معملاً ليس كمثله معمل في الدنيا فلم يكن به معوجات ولا كؤوس ولا قنينات ولا ترمومترات ولا أفران. حتى ولا ميزان واحد. كان في فقره كمنضدة صيدلاني بقرية يمزج عليها ما يطلب إليه من بسائط الأدوية عند فراغه من مكتب البريد الذي يتولى إدارته أيضاً. فان كان بينهما فرق فهو في أن معمل إرليش كانت في وسطه منضدة كبيرة جداً ترصصت عليها صفوف وصفوف من قنينات، قنينات عليها أسماء أوراق باسمها، وقنينات ليس عليها أسم لها، ثم قنينات عليها أسماء لا تقرأ من سوء ما كتبت أو مما سال على ظواهرها من بواطن القنينات من أصباغ قرمزية طمست أسماءها. ولكن إرليش وعى كل تلك الأسماء برغم هذا. ومن وسط أحراج الزجاجات هذه خرج رأس مصباح بنسن واحد يبعث فوق أرؤسها بلهبه الأزرق. فأي كيميائي لا يضحك من هذا المعمل؟

وفي هذا المعمل لعب إرليش بعقاره اتكسيل. وكم صاح وهو يبعث به: (هذا جميل)!

(هذا بديع)، (هذا فوق التصديق)، وهو أثناء ذلك يملي على الآنسة مركرت ويا طول ما صبرت، أو يصرخ إلى السيد قدريت في طلب هذا أو ذاك. وشاءت الأقدار أن تمنحه ذكاء كيماوياً شاذاً تمنحه البحاث أحياناً ممن ليس في مقدورهم بالطبع أو بالتطبع أن يكونوا كيماويين، فإذا به يجد أن هذا العقار قابل للتغيير، لا قليلاً بل كثيراً، وأنه يمكن تشكيله أشكالاً عدة لم يسمع بها من قبل، دون أدنى مساس بما بين الزرنيخ وحلقة البنزين.

وخرج يهلع بلا قبعة ولا معطف إلى معمل برتهايم .(أنا أستطيع أن أغير الأتكسيل) معمل كيميائيه الأول أو رئيس أرقائه، وصاح فيه: إن الأتكسيل يمكن تغييره؛ ولعلنا نستطيع تغييره إلى مائة مركب، أو إلى ألف مركب من مركبات الزرنيخ. وهاك كيف يكون هذا (يا عزيزي برتهايم). وأخذ يشرح ألف طريقة لإحداث هذا التغيير. فماذا صنع برتهايم؟ بالطبع انصاع، وكيف يستطيع أن يقف جامداً أمام (يا عزيزي برتهايم)؟

وجاءت سنتان أشتغل فيهما كل من في المعمل من ألمانيين ويابانيين، ومن بعض اليهود، وكل من فيه وما فيه من رجال وفئران، غير ناسين الآنسة مركرت ولا الآنسة ليوبلد وغير ناسين السيد قدريت بجلال قدره. اشتغلوا جميعاً وكدحوا كدحاً، وأجهدوا أنفسهم

إجهاداً، في مثابرة ومصابرة، حتى صار المعمل كبعض مصاهر الجن يعمل فيها كل عفريت مريد. وفيه جربوا هذه المادة، ثم هذه، حتى بلغ ما امتحنوه من مركبات الزرنيخ 606 مركب وقعوا جميعاً تحت تأثير عفريتهم الأكبر، فلم يفرغ أحدهم ليفكر في بطلان ما يصنعون، وفي استحالة ما يطلبون، وهو قلب الزرنيخ من سم معروف محبب لدى كل مجرم قاتل، إلى دواء وشفاء لم يجزم أحد بجواز وجوده، لداء لم يحلم إرليش أبداً بجواز شفائه. نعم وقع هؤلاء الأرقاء جميعاً تحت تأثير إرليش فكدحوا على نمط لا يجري عليه الرجال في كدحهم إلا إذا حفزهم إليه رجل متعصب عصي مثله، رجل خدد العزم جبهته ورقق حب الخير من عينيه.

وغيروا الأتكسيل! واشتقوا من تركيبه مركبات زرنيخ عجيبة شفت الفئران فعلاً. ويكادون يصيحون صيحة الفرح والنصر، ولكن الحظ يدير لهم ظهره فيجدون أن المكروب الفظيع، مكروب داء الورك، يذهب حقاً من الفئران، ولكن الزرنيخ يحيل دماءها الثخينة إلى سائل رقيق، أو هو يصيبها بالصفراء فتقتلها. . . . . ومن أدوية الزرنيخ هذه ما جعل الفئران ترقص رقصاً، فهل تصدق هذا يا صاحبي! نعم جعلتها ترقص رقصاً، ولم ترقص دقيقة ثم تسكن، بل تدور ثم تدور، وتنط ثم تنط طول حياتها. عذاب مرير لها بعد شفائها من دائها ما كان يخطر على بال الشيطان لو أراده. ضاع الأمل في الدواء الكامل، وأي أمل لا يضيع بعد الذي كان. إلا أمل إرليش. كتب يقول: أنه ليسرنا أن نجد أن الضرر الوحيد الذي أصاب الفئران من الدواء أنه قلبها فصارت فئراناً راقصة. والذين يزورون معملي سيدهشون لكثرة ما يجدون فيه من الفئران الراقصة. . .) فأي رجل ملئ بالأمل والحياة!

واصطنعوا مركبات لا حصر لها؛ وكان جهادهم في كل هذا جهاد المستيئس المستبسل حين لا أمل ولا رجاء. وطلع لهم فيما طلع أحجية غريبة: وجد إرليش أن جرعة الزرنيخ الكبيرة يعطاها الحيوان دفعة واحدة تكون خطرة على حياته فجزأها إلى أجزاء صغيرة وأعطاها إياه ورجا الخير من بعد ذلك، ولكن النحس تبعه بالخيبة، فالتريبنسومات اعتادت بالتدرج على الزرنيخ فتمنعت عليه ورفضت أن تقتل به. والنتيجة أن الفئران مشت إلى فنائها أفواجاً أفواجا.

فهذا ما كان مآل المركبات الكيمياوية الزرنيخية الخمسمائة والخمسة والتسعين الأولى،

تتابعت جميعاً يحدوها الرجاء وانتهت جميعاً إلى نهاية واحدة متكررة فاشلة تسقط لها القلوب في الصدور، ولكن بول إرليش ثبت على أبتسامته، وظل ينعش نفسه بأقاصيص يخترعها عن دواء جديد مؤمل منشود. وعلم الله وأكدت الطبيعة ما كانت إلا أقاصيص أكاذيب لا تحتمل نقداً ولا تجيزها طبائع الأمور. وأخذ يرسم الرسوم لبرتهايم ورجاله، رسوماً خيالية لمركبات زرنيخية علموا في قرارة أنفسهم وهم الخبراء أنها لن تكون. وظل يرسم لهم ثم يرسم، وهم يعلمون من الكيمياء فوق ما علم حتى ملأ بمخطوطاته أوراقاً لا عد لها. ورسم لهم في المطاعم على جداول المأكولات، وفي

الخمارات على جداول المشروبات. وهال رجاله فقدانه الحس بما بين الممكن والمستحيل، ولكنهم عدتهم حماسته التي لا تحد، وجموحه الذي لا يرد، وعناد البغال الذي لا تنفع معه مجادلة أو مسايسة. قالوا: (ما أجمل تحمسه وتحرقه!)، وتحرقوا مثله. وانتهى إرليش بأن استنفد كل ما عنده من جهد، وأحرق شمعته من طرفيها، حتى بلغ أمله المنشود، وطلع عليه يومه الأسطع المأمول، وذلك في عام 1909.

- 6 -

أشعل شمعته من طرفيها، وفعل ما فعله طارق حين حرق سفائنه، لأنه كان قد فات الخمسين ربيعاً ولم يبق من عمره غير القليل القصير. وبذلك عثر على المركب الشهير برقم 606. وأعلم أنه ما كان بمستطيع إيجاده لولا معونة خبيره العالم برتهايم. وهو مركب استخدم في تركيبه كل حذق الكيمياء، وركب في جو مخطر لكثرة ما يملؤه من أبخرة الأثير، وهي أبخرة تنذر في كل وقت بالتفرقع والحريق. وهو عدا هذا مركب حساس سريع التلف يحيله القليل الذي يمسه من الهواء من دواء معتدل التأثير إلى سم بالغ المفعول قتال.

هذا هو المركب الشهير رقم 606، وهو يستمتع باسم طويل: فاني أكسي ثاني أمينو أرسينو بنزول ثاني هيدروكلوريد. وكان غلوه في الفتك بالتريبنسومات كغلوه في الطول، فحقنة واحدة منه تكسح دم الفأر كسحاً من كل ما به من تريبنسومات داء الورك فلا تترك واحدة منها تحكي للخلف أخبار السلف.

وهو عدا ذلك كان مأموناً جداً برغم انه مثقل بالزرنيخ، ذلك السم المختار المحبب إلى كل قاتل أثيم. وهو لم يعم الفئران، ولم يحل دمهم فيرق، ولم يرقصهم رقصة العذاب المذكورة، واختصاراً كان عقاراً مأمون الضرر محقق النفع

قال قدريت بذكر هذه الأيام بعد فواتها بزمن طويل: (تلك كانت الأيام) وما كان بالشاب عندها، فقد كان سبق الكبر إليه فصلب من دعوه، وذهب بالمرونة من عضلاته، ولكنه ظل يدب وراء (الأستاذ) يعنى به ويسد من طلباته. قال قدريت (تلك كانت أيامنا أيام كشفنا عن رقم 606) وأي والله تلك كانت الأيام! وأي أيام أصابتها ما أصابت هذه من الحمى، وأي أيام حظيت من الجنون والعمل الخابط الراقع الجموح بمثل ما حظيت به هذه؛ اللهم إلا أيام بستور وصار رقم 606 يشفى من مرض الورك فتطيب منه الفئران وأعجاز الخيول، ولكن ماذا بعد هذا؟ وهنا يدخل الحظ في تسيير الأمور، فيذكر إرليش نظرية قديمة خاطئة كان قرأها لرجل ألماني عالم في الحيوان أسمه شودين قرأ إرليش في عام 1906 أن شودين اكتشف مكروباً لولبياً رفيعاً باهتاً أشبه ببريمة الفلين، ولكن دون يدها؛ وكان اكتشافاً باهراً هذا الذي اكتشفه شودين. ووددت لو أتسع المقام لأحدثكم عن هذا الرجل وعن تعصبه وعن شربه الخمر وإسرافه حتى تتراءى لعينه غرائب الأطياف والخيالات. وسمى هذا المكروب إسبيروشيتا باليدا وأثبت أنه سبب الداء الرذيل المعروف بالزهري.

لم يفت إرليش، وهو القارىء كل شيء، أن يقرأ هذا الاكتشاف، ولكن رسخ في ذاكرته أكثر من كل شيء أن شودين قال: (أن هذا المكروب الباهت يدخل في نطاق المملكة الحيوانية، فهو ليس من مملكة النبات كالبكتريا. والحق أنه قريب الصلة بالتريبنسومات، وقد ينقلب إليها أحياناً

بالطبع هذا لم يكن غير حدس وتخمين رمى به خيال شودين رمياً، ولكنه فعل بعقل إرليش الأفاعيل. قال إرليش: (إذا كانت الاسبيروشيتات بنات عمات التريبنسومات إذن فمركب رقم 606 لا بد قاتل الأخيرة كما قتل الأولى).

ولم يعن إرليش أقل عناية، أو يعكر صفو مزاجه أقل تعكير، تلك الحقيقة الواقعة وهي أن أحداً من الناس لم يثبت قط أن هذه المكروبات بنات عمات، وما مثله من يعنى بمثل ذلك. . . ومن هذا مشى قدماً إلى يوم مجده الأكبر.

(يتبع)

احمد زكي

رسالة الفن

ليوناردو دافينشي

الرجل الكامل

أما المرحلة الثانية من حياته فقد بدأت عندما استدعاه الدوق لودوفيتشو سفورزا للتوجه سنة 1483 إلى ميلانو. وهناك استمتع بأجمل أيام حياته، لأن الدوق نظر إليه نظرة الرجل المؤثر الذي يقدر الفن ويجله، نظرة الرجل الذي يعلم بأنه لا معنى للحياة بدون الفن، فإذا كان الدوق غنياً ومقدراً للفن، فهذا معناه أن ليوناردو قد وفق إلى وجود الشخصية التي تعمل على تشجيعه ومعرفة قدره، فعمل بكل قواه على إظهار مواهبه، فكان معمارياً ومهندساً وعالماً ومشجعاً للأكاديمية كما كان نحاتاً ومصوراً.

وله في هذه المرحلة لوحات رائعة منها صورة الدوق وصورة لعائلته، ولوحات لبعض رؤوس غاية في القوة والجمال.

وأهم أعماله في هذه المرحلة، بل وفي حياته كلها صورته المعروفة (العشاء الأخير) والمحفوظة بدير القديسة ماريا في ميلانو. صورها في سنتين، وهي للأسف في حالة غير مرضية الآن، ولكن لحسن الحظ أن منها جملة لوحات مقلدة متقنة ومعاصرة لها.

وهذه اللوحة تمثل المسيح، وقد توسط تلامذته الإثني عشر مجتمعين حول مائدة بعضهم جالس والبعض الأخر واقف، وأمامهم الخبز والأطباق وأكواب الشراب. قال المسيح لتلامذته: (إن أحدكم سيسلمني) فما كان من تلاميذه إلا أن أتجه بعضهم إليه وبعضهم إلى بعض متسائلين مستفسرين، متألمين خائفين، تمثل الوجد على وجه كل منهم، فبعضهم أشار بأصبعه، والبعض أشار بيديه.

أنظر إلى ش - 2 - وتأمل القوة الإنشائية والإخراج العظيم ترى الوجوه الثلاثة عشرة مختلفة الوضع والتفاصيل والتكوين الكلي، والحركة البادية والمعنى الذي يعبر عنه كل منهم في منتهى الرقة والحسن.

أما التوازن البادي على مجموعهما الشكلي والوضعي فهو عظيم وأما اختلاف التكوين الجسماني لكل منهم، واختلاف الطريقة التي يجلس أو يشير بها، فهي رائعة، لأن هذا الاختلاف لم يذهب بك إلى منتهى حسن الانسجام وكمال الاندماج.

أنظر إلى الأيدي، وتأمل الأكف التي استطاع بها ليوناردو إخراج ست وعشرين يداً، لا ترى منها واحدة تشبه الأخرى، أليس هذا منتهى ما يطمح إليه فنان؟ لم يترك ليوناردو الحوائط دون تحلية، ولم يفته أن يصور لك منظراً ظهرت بعض أجزائه من خلال الباب والشباكين في مؤخر للصورة. فكأن هذه القطعة لم تخلد مجد ليوناردو فحسب؛ بل هي لوحة من اللوحات الخالدة الفذة في تاريخ الفن كله.

وبدأت المرحلة الثالثة من مراحل حياته عندما غادر ميلانو سنة 1499 متنقلا حتى وصل البندقية (1503 - 1506) ثم فلورنسوا (1506 - 1516) ثم غادرها إلى فرنسا لخدمة الملك فرانس الأول سنة 1516 وعاش في قصر كلو حتى وفاته في 2 مايو سنة 1519 بعد بلوغه السابعة والستين.

وقد أنتج في هذه المرحلة لوحات كثيرة أيضاً، منها لوحة القديسة أنا، والقديسة مريا، وعيسى ويوحنا بأكاديمية لندن، وكلها برؤوس هائلة رائعة، امتزج فيها الظل بالنور امتزاجاً لا يستطيعه إلا ليوناردو. وبعض هذه الصور كان على الكرتون الذي خصصه لتصميم رسم لعمل الفسيفساء في بيت البلدية بفلورنسا منها قطعة أسماها مذبحة انجيارى. وقد فقدت هذه الكارتونات ماعدا القطعة الوسطى منها التي مثلت المقاتلة على العلم، وهذه القطعة ش - 3 - قد نقلها الفنان روبنز (راجع الرسالة بتاريخ 3 يناير سنة 1937) عن الأصل وهي محفوظة باللوفر.

والناظر إليها يرى العنف والشدة يتمثلان في كل جزء من أجزائها، ولعلنا نستطيع أن نعرف أثر الفن الإغريقي في ليوناردو وعندما نتذكر تلك الصور التي شملها مقالنا عن منحوتات معبد بارتنون (أكروبوليس أثينا).

وله لوحة هي أجمل ما صوره دون منازع، ألا وهي (موناليزا) محفوظة باللوفر، ولا يمكن مهما حاولنا الوصف أن نقدر جمال هذه القطعة ش - 4 - دون مشاهدتها في الأصل بألوانها الطبيعية الخلابة التي تمثل الجمال الإيطالي في أسمى مظهر له انظر إلى ابتسامتها

الساحرة الخالدة التي تجذب إليها المشاهد الراغب في الجمال النبيل.
وله غير ذلك لوحات فذة إلى جانب لوحاته الخطية بالقلم الرصاص وهي أيضاً من أروع ما يمكن تصويره إطلاقاً، منها جزء محفوظ باللوفر وفينيسيا وميلانو.

احمد موسى

البريد الأدبي

معهد للدراسات الإسلامية بالجامعة المصرية

قرر مجلس إدارة الجامعة المصرية أن ينشئ معهداً جديداً للدراسات الإسلامية يلحق بكلية الآداب: وقد نص في مشروع تنظيم هذا المعهد الجديد أن الغرض من إنشائه (تمكين الأساتذة والطلاب من العناية المنظمة بالعلوم الإسلامية من طريق الدرس والبحث ونشر النصوص القديمة. ومن طريق التأليف والترجمة أيضاً. وتبيين مدى ما كان من صلة بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية): وأما العلوم التي ستدرس في هذا المعهد فهي القرآن الكريم وما يتصل به من العلوم، والحديث وما يتصل به، والفقه وأصوله، والتاريخ الإسلامي وعلومه، واللغة العربية وعلومها وصلتها بالدين الإسلامي، واللغات الشرقية الإسلامية وآدابها من حيث صلتها بالدين الإسلامي وسيعتبر المعهد من المعاهد العالية ولا يلتحق به إلا من يحمل ليسانس الآداب، أو ما يعادلها. ومدة الدراسة فيه سنتان. وسيجري على قاعدة التخصص، فيتخصص الطالب في إحدى المواد المذكورة ويتقدم إلى نيل الدبلوم برسالة في مادته.

وهذه خطوة موفقة في الواقع. فقد كانت الدراسات الإسلامية في الجامعة إلى اليوم مشتتة مبعثرة، ولم تكن برامج كلية الآداب المقتضبة لتسمح بالتوسع في هذه الدراسات إلى الغاية المقصودة؛ وكان مما يبعث على الأسف أن نجد في كثير من الجامعات الأوربية الكبرى معاهد خاصة بالدراسات الإسلامية ولا نجد لها في جامعتنا المصرية نظيراً. نعم إن العلوم التي ستدرس في المعهد الجديد يدرس معظمها في الجامع الأزهر، ولكن الدراسة الأزهرية لهذه العلوم لا تجري على القواعد العلمية الحديثة ولم تحقق حتى اليوم آمال أنصار الثقافة الإسلامية في ميدان التخصص المستنير والتحقيق العلمي الصحيح.

الأستاذ ليفي بروفنسال

وفد على القاهرة منذ أيام العلامة المستشرق الأستاذ ليفي بروفنسال عميد معهد الدراسات الإسلامية برباط المغرب ليقوم ببعض بحوث في مخطوطات بدار الكتب المصرية. والأستاذ بروفنسال من أكبر الأخصائيين في عصرنا في تاريخ الأندلس والمغرب أو كما يسميه تاريخ الغرب الإسلامي. وهو منذ ثلاثين عاماً يحقق وينقب في هذا الميدان؛ وله فيه

عدة مؤلفات نفيسة منها بالفرنسية (تاريخ أسبانيا المسلمة في القرن العاشر) و (النقوش العربية في أسبانيا). وقد أصدر طبعة جديدة بالفرنسية لتاريخ العلامة دوزي (تاريخ دولة المسلمين في أسبانيا لغاية الفتح الرابطي) مقروناً بهوامش ومذكرات نفيسة. وأصدر فهرساً جديداً بالفرنسية للمخطوطات العربية في الإسكوريال. ونشر عدة مؤلفات عربية قيمة في تاريخ الأندلس والمغرب منها الجزءان الثالث والرابع من كتاب البيان المغرب لابن العذري المراكشي، وقطعة من تاريخ ابن حيان، وكتاب لأبن البيدق عن أبن تومرت. هذا عدا بحوث عديدة في هذا الباب في المجلة الأسيوية، وفي دائرة المعارف الإسلامية. وقد وفق الأستاذ بروفنسال أيضاً إلى العثور في مكتبات المغرب على عدة مخطوطات نفيسة عن تاريخ المغرب والأندلس منها كتاب (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) لابن بسام، ولديه الآن منه نسخة كاملة؛ ومنها الجزء الرابع الذي يحتفظ منه بنسخة وحيدة. ويعني الأستاذ الآن بالعمل لإخراج هذا الأثر النفيس، وقد أعد بالفعل أصول الجزء الأول منه، وربما قرر طبعه بمدينة القاهرة ويعاونه في هذه المهمة الجليلة عدة من الزملاء الأعلام.

لجنة تأبين الرافعي

لبى دعوة الأستاذ محمود بك بسيوني رئيس مجلس الشيوخ بصفته رئيساً للرابطة العربية، لفيف كبير من أئمة الأدب والبيان وأعلام الفكر والقلم للنظر في تأليف اللجنة التي تؤدي واجب الرثاء والذكرى لفقيد العروبة والأدب السيد مصطفى صادق الرافعي. ولما أكتمل عقد الاجتماع طلب سعادة الرئيس وقف الجلسة دقيقتين حداداً

على الفقيد الكريم وبعد ذلك شرع في تكوين اللجنة فتم تأليفها على النحو الآتي:
سعادة الأستاذ الكبير محمود بسيوني رئيساً، والأستاذ كامل زيتون سكرتيراً، وحضرات أصحاب العزة والسيادة الدكتور محمد حسين هيكل بك والدكتور منصور فهمي بك وخليل ثابت بك وأنطون الجميل بك وميرزا مهدي رفيع مشكى بك والأستاذ احمد الإسكندري وعبد الحميد سعيد بك والأستاذ محمد توفيق دياب ومصطفى عبد الرازق بك وعلي الجارم بك ومحمد احمد جاد المولى بك وخليل مطران بك والأستاذ محمد مسعود والدكتور محجوب ثابت والأستاذ احمد فريد رفاعي بك والأستاذ احمد أمين والأستاذ أحمد حسن الزيات والسيد محمد الخضر حسين والدكتور زكي مبارك والدكتور احمد نشأت وصالح
جودت بك والأستاذ محمد عبد اللطيف دراز والأستاذ سامي السراج والأستاذ خير الدين الزركلي والأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني والأستاذ عبد الله عفيفي والسيد عبد المقصود خضر والأستاذ محمد الهراوي والأستاذ محمد الأسمر والأستاذ احمد الزين والأستاذ حسين شفيق المصري والأستاذ حافظ محمود والأستاذ رمزي نظيم أعضاء.
ثم قررت اللجنة ما يلي:
1 - أن يكون موعد الحفلة في أكتوبر المقبل مراعاة لفصل الإجازات الصيفية حتى يتمكن عارفو فضل الفقيد ومحبو آثاره من الاشتراك في هذا الواجب المقدس.
2 - مخاطبة حضرة صاحب المعالي وزير المعارف العمومية في شأن التصريح بإقامة الحفلة بدار الأوبرا الملكية.
3 - توجيه الدعوة إلى حضرات الأدباء والشعراء بمصر والأقطار العربية الكريمة للاشتراك في تأبين الفقيد وإرسال ما تجود به قرائحهم باسم سكرتير اللجنة الأستاذ كامل زيتون بعنوان الرابطة العربية بحدائق القبة شارع الملك رقم 112.
4 - تكوين لجان من بين حضرات الأعضاء للشعر والنثر والتنظيم والنشر وتفويض كل لجنة في أن تضم إليها من ترى في اشتراكهم تحقيقاً لأغراضهم.
5 - تمثيل الأقطار العربية في لجنة التأبين بقدر المستطاع حتى يقوم الناطقين بالضاد بما يجب عليهم نحو الفقيد الكريم.
6 - تحديد الموضوعات النثرية التي سيتناولها الأدباء لبحثها والكتابة فيها وهي:
(1) تاريخ حياة الفقيد ومؤلفاته.
(2) مكانة الفقيد في الشعر.
(3) المعركة بين القديم والحديث.
(4) أدب الرافعي الديني.
(5) الجوانب الوجدانية في أدب الرافعي.
(6) القصص التاريخي في أدب الرافعي.
(7) أسلوب الرافعي في الكتابة والنقد.
ثم أنفض الاجتماع على أن تكون الجلسة المقبلة في الأسبوع الأول من شهر يونيو المقبل.
سكرتير اللجنة: كامل زيتون
تأبين الرافعي في حمص:
لقد عزم فريق من أدباء الشباب الحمصي على أن يقيم حفلة تأبينية كبرى لفقيد البيان العربي المرحوم مصطفى صادق الرافعي، وستكون الدعوة للاشتراك في هذه الحفلة عاماً تضم نخبة ممتازة من أدباء سوريا وشعرائها نخص بالذكر منهم الأساتذة: معروف الأرناءوط، عمر أبو ريشة، سامي الكيالي، رفيق فاخوري، أنور العطار، محمد روحي فيصل، عبد القادر جنيدي، محي الدين الدرويش، رضا صافي، برهان الأتاسي، نذير الحسامي، فؤاد الخوري، بدر الدين الحامد، أحمد نورس، عبد الرحمن أبو قوس.
سكرتير اللجنة: عبد القادر جنيدي
الطب المصري القديم
في سنة 1873 نشر العلامة الأثري الألماني جورج أبرس وثيقة مصرية من البردي وفق إلى العثور عليها، فكان لها وقع عميق في جميع الدوائر العلمية إذ ظهر أنها تحتوي على خلاصة كبيرة من طب المصريين القدماء؛ وهذه الوثيقة التي هي أكبر

وثيقة من نوعها ترجع إلى سنة 1550 ق. م. ومن ذلك الحين عثر المنقبون على عدد آخر من الوثائق الفرعونية الطبية، منها وثيقة كاهون التي ترجع إلى سنة 1800 ق. م ووثيقة أدوين سميث التي ترجع إلى سنة 1600 وهي خاصة بالجراحة الفرعونية، ومجموعة برلين الطبية وغيرها. وقد ظهر أخيراً كتاب عن وثائق الطب الفرعونية ولا سيما وثيقة أبرس عنوانه (بردى أبرس بقلم ثلاثة علماء دنماركيين هم: أيبل ولفين ومونكسجارد.

وفي هذا الكتاب شرح واف لوثيقة أبرس وبسط لمحتوياتها الطبية وهي فيما يبدو أثمن مجموعة من نوعها. والظاهر أنها بمثابة شرح عام لقواعد الطب الفرعونية؛ ومعالجة الأمراض المختلفة، وبها عدة أقسام، فمنها مثلاً قسم يتعلق بعلاج الأمراض الباطنية، وآخر بفن الجراحة، وقسم للعقاقير الشافية؛ والظاهر أيضاً أن ما فيها من المعلومات يرجع إلى عصر متأخر عن الذي كتبت فيه. ويقول الدكتور أيبل إن كثيراً من المعلومات تدلل على مبلغ ما وصل إليه الفراعنة في فن الطب والعلاج من البراعة والمقدرة؛ ثم إن كثيراً من العقاقير والعلاجات التي وصفت الأمراض خاصة تدلل على تقدم فن الكيمياء والصيدلة لديهم وعلى وقوفهم على أسرار كثير من الجواهر والعناصر العلاجية المفيدة.

تنظيم أوراق البردي المصرية.

قرأنا في البريد الألماني الأخير نبأ لم يرد في الصحف المصرية، وهو أن الحكومة قد استدعت العلامة الأثري الألماني الدكتور هوجو أبشر مدير قسم المحفوظات الكتابية بمتحف برلين إلى مصر ليقوم بتنظيم أوراق البردي المصرية بالمتحف المصري وقراءة رموزها واتخاذ التحوطات الكيماوية لحفظها. والدكتور أبشر أعظم حجة في قراءة أوراق البردي الفرعونية، وله فوق ذلك مقدرة فنية خاصة في فصلها واستخراجها من رزمها الملصقة، ومن بين لفائف الموميات. ذلك أن أوراق البردي توجد أحياناً ملتصقاً بعضها ببعض بحيث يتعذر فصلها، ولما كانت تكتب غالباً من الجانبين، فإنه يجب بذل جهود فنية دقيقة لفصلها دون أن تمزق. وهذا هو فن الدكتور أبشر فهو يتولى فصلها وجمع قطعها ثم قراءتها.

وقد أشتهر الدكتور أبشر بالأخص بتنظيم مجموعة البردي الخاصة بالفيلسوف ماني، والتي وجدت بالفيوم منذ أعوام وتسربت إلى خارج مصر. واستطاع تصنيفها واستخراج صحائفها سليمة، ومنها كتب بأسرها من كتب ماني. والمنظور أن يقضي الدكتور أبشر بمصر ثلاثة أشهر ليقوم بمهمته العلمية والأثرية الدقيقة؛ لأن مصر تحتفظ بثروة طائلة من هذه الأوراق الأثرية النفيسة.

ذكرى الموسيقي فاجنر.

تحتفل مدينة لايبزج في العام القادم بذكرى الموسيقي الشهير ريخارد فاجنر لمناسبة مرور مائة وخمسة وعشرين عاماً على مولده ومرور خمسة وخمسين عاماً على وفاته؛ وبهذه المناسبة ستمثل في مسرح لايبزج جميع أوبراته الشهيرة، وستقوم بتنفيذها فرقة تحرص على تقاليد الموسيقي الكبير وسيحتفل في نفس الوقت بإزاحة الستار عن أثر عظيم لفاجنر.

رسالة النقد

إسماعيل المفترى عليه

تأليف القاضي بيير كربتيس

وترجمة الأستاذ فؤاد صروف

للأستاذ الغنيمي

- 6 -

عرضنا على القارئ في المقالات الخمس السابقة أمثلة من الأغلاط التي يجدها القارئ في ترجمة الأستاذ صروف، ولقد وصلنا في نقدنا إلى الفصل السادس من الكتاب ونظن أن الأمثلة التي ذكرناها تكفي لأن تعطي القارئ فكرة صحيحة عن هذه الترجمة؛ وقد كانت معظم الأغلاط التي ذكرناها إما عبارات محذوفة رغم أهميتها، وإما عبارات أضافها المؤلف من عنده غيرت المعنى، وإما جملاً ترجمت ترجمة خاطئة أفسدته. وقد ذكرنا مثلاً أو مثلين من العبارات الغامضة التي لا يستطيع القارئ أن يفهم لها معنى. وسنلقي نظرة عاجلة على الفصول الباقية من الكتاب ونمر بها مراً

سريعاً وسنضرب صفحاً عن العبارات المحذوفة أو المضافة ونكتفي بذكر أمثلة قليلة من العبارات التي ترجمت على غير حقيقتها فغيرت المعنى تغييراً كبيراً، وذلك لكي نصل إلى الفصول الأخيرة من الكتاب فننقل للقراء نوعاً جديداً من الأغلاط هو تحريف الأسماء وتغييرها. وليس أضر على الكتب التاريخية والجغرافية من تحريف الأسماء لأن ذلك يفقدها قيمتها.

فمن العبارات التي ترجمت على غير حقيقتها.

'

وقد ترجمها المؤلف بقوله (رئيس أركان حرب الجنرال غردون) وليس معنى - أركان حرب ولا رئيس أركان حرب بل معناها (ياور) وقد ظننا أول الأمر أن القاموس لم يذكر هذا اللفظ - وإن كان هذا لا يجيز للأستاذ صروف أن يخطئ فيه - ولكننا وجدناه مشروحاً شرحاً وافياً لا لبس فيه ولا غموض فقد فسر هذا اللفظ هكذا.

(1) الضابط الذي ينقل أوامر القائد في ميدان القتال ويأتيه بالأخبار. فهل هذا عمل رئيس أركان حرب الجيش. إن الأستاذ صروف نفسه قد ترجم في ص113 من الكتاب برئيس أركان حرب ولا ندري لماذا لم يتنبه بعد ذلك إلى إصلاح خطئه السابق.

(2) ثم أنظر إلى هذه العبارة الغامضة التي لا يستطيع الإنسان أن يفهم لها معنى (أما الشأن المعزو إلى عمل الكولونيل ماسون فراجع إلى كونه اكتشف نهيراً يخرج من بحيرة ألبرت). وإن وضوح المعنى هو أول ما يجب أن يحرص عليه المترجم.

(3) وهاك مثلاً آخر من الغموض الذي يجير القارىء، ذلك هو قول الأستاذ صروف في وصف إبراهام بك (رقيب) إسماعيل باشا في الآستانة (ولكنه مع سيطرته على سياسة الباب العالي وعدم إخفائه نوره تحت مكيال تمكن من أن يجتنب الشهرة الصحفية) فهل لأحد القراء أن يدلنا على معنى) وعدم إخفائه نوره تحت مكيال)؟ أو على معنى (تمكن من أن يجتنب الشهرة الصحفية؟)

إن الذي يعجب له كثيراً أن الأستاذ صروف في بعض الأحيان يترجم عبارات المؤلف كلمة كلمة وإن لم يؤد ذلك إلى معنى، وفي البعض الآخر يغفل عبارات المؤلف ويأتي هو بعبارات من عنده مع أنه لو لم يتصرف فيها وترجمها ترجمة حرفية لجاء بالمعنى المراد.

(4) ولا يختلف عن هذا قول الأستاذ صروف (وعرض على المقترح التالي حبراً على ورق) والمعنى الوحيد الذي أفهمه أنا ويفهمه القارئ من لفظ حبر على ورق هو (أنه شيء لا قيمة له أو لا يراد له بقاء) ولكن المؤلف يريد إن يقول إن صاحب الاقتراح عرضه (كتابة)

(5) ثم أنظر معي أيها القارئ كيف ترجم الأستاذ صروف العبارة الآتية :-

فقال (ولما كان النظر في هذا التبادل متوقعاً في المستقبل) وهو كلام ليس له معنى: والمؤلف يريد أن يقول (ولما أوشك المال أن ينتقل من يد إلى يد)

(6) وأنظر أيضاً إلى العبارة التالية من قول المؤلف

, , '

وإلى ترجمة الأستاذ صروف وهي:

وعندي أنه كان يعلق امتيازاً - في رأيه على الأقل - على التمييز بين تلقيبه بلقب خديو بدلاً من وال.

ومعنى هذه العبارة هو (ولهذا أعتقد أنه هو على الأقل كان يرى أن ثمة فائدة حقيقية في تغيير لقبه الرسمي من وال إلى خديو)

(7) وهاك مثلاً آخر لا يقل عن الأمثلة السابقة في تغيير المعنى قال المؤلف نقلاً عن رسالة إلى سمو الخديو

7 500 1 , 100

فقال الأستاذ صروف (أن سموكم تتيحون لجلالته فرصة للاغتباط إذا تبرعتم بمبلغ 7500 جنيه مضافاً إليه 1100 للحجرات الملكية في السفينة) فجعل الأستاذ عبارتي - شيئاً واحداً ثم ترجمها ترجمة خاطئة بقوله الحجرات الملكية في السفينة، والمعنى الحقيقي هو (الحاشية السلطانية ورجال السفينة أو بحارة السفينة، ويريد بهما الحاشية التي صحبت السلطان إلى مصر وبحارة السفينة التي أقلته إليها في هذه الزيارة.

وقال المؤلف أنه كان يفهم أن فقال الأستاذ صروف في الترجمة (ما ينفق على (8)
بعض الباشوات والبكاوات كان أقل مما ينفق على الطيور والكلاب)
لا ندري لماذا استبدل الباشوات بالصحفيين مع أن أولئك الصحفيين الذين يشير إليهم
المؤلف كانوا كلهم من الأجانب وليس منهم باشا واحد.
وهذه عبارة أخرى أخطأ المترجم في فهمها فقلب معناها: أرسل إبراهام إلى (9)
الخديو يبلغه أنه قابل الصدر الأعظم وحادثه في شأن المبلغ الذي طلبه هذا وهو
150000: جنيه وشرح له وجهة نظر سمو الخديو ثم يقول
, ,
والمعنى الذي يفهمه كل إنسان من هذه العبارة هو أن الصدر الأعظم يوافق على
اقتراح سمو الخديو ويشكر له اقتراحه ويقبله ولكن الأستاذ صروف يقول في ترجمة
هذه العبارة: (وهو يوافق عليها كل الموافقة، ويعرب لكم عن شكره لسموكم لأنكم
اقترحتموها
وقبلتموها) وبذلك جعل سمو الخديو هو صاحب الاقتراح وهو الذي يقبله وهو كلام غير
معقول ويخالف النص الإنجليزي كل المخالفة، فالخديو هو الذي أقترح والصدر الأعظم
هو الذي قبل الاقتراح.
ومن العبارات التي لا يستطيع إنسان أن يفهم معناها قول الأستاذ صروف عن (10)
ديون إسماعيل (إن هذه الأرقام تدل على أن أصحاب البنوك ابتزوا من إسماعيل مبلغ
23 , 247 , 800 جنيه على قروض مجموعها 41 , 957 , 000 وأما هذا المبلغ بخصم
كبير ولا سيما لأن جميع هذه القروض ما عدا قرض سنة 1865 كانت بفائدة 7 في
المائة.
ولا ندري ماذا يريد الأستاذ بقوله وأما هذا المبلغ بخصم كبير الخ وبهذه المناسبة نقول
إن الأستاذ صروف أستبدل برقم 65 , 204 , 000 جنيه الذي ذكره المؤلف رقماً جاء
به هو، وذلك الرقم هو 41 , 957 , 000 لسبب لا نعرفه.
هل يصدق أحد أن نفقات حملات إفريقية الوسطى كانت أكثر نسبياً من نفقات (11)
الحرب العظمى الماضية؟
ذلك ما يقوله لنا الأستاذ صروف في ص 115 من ترجمته مع أن كل ما يقوله المؤلف
هو
إن عدم الدقة في الترجمة يفسد كل شيء على المترجم.
(يتبع)
الغنيمي
العدد 204 - بتاريخ: 31 - 05 - 1937
من أيامنا المشهودة
مصر في جمعية الأمم
دخلت مصر يوم الأربعاء الماضي عضواً في جماعة الأمم فكانت تحية دخولها نشيداً
من أناشيد النصر هتفت به خمسون دولة من دول التمدن، تمجيداً لأول أرض رأت
الحضارة، وأقدم أمة عرفت المدنية، وأعرق دولة قدست المعرفة؛ وكان يوم دخولها
عيداً من أعياد الحرية خفقت له القلوب الرزينة ابتهاجاً بظفر الحق بالعدالة، وضمان
الاستقلال بالقانون، وتوكيد السيادة بتحقيق المساواة؛ وكان حادث دخولها الفصل
الختامي من ملحمة الجهاد المقدس في سبيل الحرية المقدسة، فصفقت له أكف
الساسة في العالم، وارتفعت له ألوية السلام في جنيف، وخطب ثمانية وعشرون
خطيباً في مجلس العصبة فقالوا في مصر بعض ما قال التاريخ المتحجر الماثل على
جبهة الدهر، فما احتك في الصدور شبهة من صرف الحديث ولا زور المجاملة. قال
السنيور كيفيدو الأمريكي: (إن الدولة التي تطرق بابنا اليوم تمثل العالم بقدمه وجدته.
ولكن هذه المظاهر على تنافرها تتسق فيها فتؤلف شيئاً واحداً كاملاً له قيمة تكاد
تكون رمزية بالنسبة إلينا جميعاً. فمصر تدخل بيننا مكللة الجبين بمجد لا نظير له، لأنها
البلاد التي نبت فيها كثير من المدنيات، وحفظت على أرضها كثيراً من الشواهد الرائعة
على عبقرية بلغ من اتساع مداها أن رفدت كل فن وأمدت كل حضارة. إن مصر
صاحبة هذا الميراث العريق في القدم الحافل بالروائع، تتقدم إلينا اليوم في مظهر
دولة في ريق الشباب ونضرة العمر وطدت مكانتها على التدريج في المجتمع الدولي،

وحصلت على استقلالها بفضل جدارتها الخاصة ونضجها الكامل، ثم قال السيد رشدي آراس وزير خارجية تركيا: (إن هذه البلاد ذات الخطر العظيم بين أمم البحر الأبيض المتوسط. . . قد استطاعت في زمن يسير أن تقطع المراحل المتتابعة في تطورها السلمي المجيد. وإني لأذكر حادثاً تاريخياً يتعلق بروابط مصر القديمة بأحد شعوب آسيا الصغرى، فقد ثبت من الأدلة الأركيولوجية أن أقدم صك دولي، أو أقدم معاهدة سياسية، هي التي عقدت بين المصريين والحيثيين) وقال المستر إيدن وزير إنجلترا: (إننا هنا خمسون دولة ليس بينها من لم يكن مديناً إلى حد ما لحضارة مصر السامية. فقد أن تخرج بعض الأمم التي نمثلها من مجاهلها الأولى بزمن طويل، كانت مصر قد منحت الجنس

البشري هبات من العلوم والآداب فوق كنوز الفنون التي لا تبارى ولا تزال إلى اليوم مصدراً للإعجاب والعجب؟) وقال المسيو بوليتيس وزير اليونان: (إذا كانت أثينا أم المدنية الحديثة في أوربا، فإن مصر جدتها على التحقيق، فقد أثبتت الكشوف الأثرية أن مصر أفاضت على العالم من علمها وفنونها وآدابها وفلسفتها، وأنها كانت مدرسة للإغريق أنفسهم، حتى أن الأدب الإغريقي الخالد قد اقتبس من الأدب المصري كما دلت على ذلك المقارنة).

وكلام البقية من الخطباء الوزراء مضروب على هذا الإيقاع، مطرود على هذا النسق فلم تشهد القاعة الدولية حفلاً كهذا الحفل، ولا قولاً كهذا القول.

كان مجد مصر ونبل مصر وعبقرية مصر أمثالاً مضروبة على لسان التاريخ، وتماثيل منصوبة على وجه الأرض، تُعقد عليها الكتب، وتطوى إليها المراحل، ولكنها في أيام جهادنا الدامي العنيف كانت شهادة لا تدل وأثراً لا يذكر، فكنا نحن المتمردين على ضراعة الذل واستكانة الرق نُدعى: (آراب) و (أنديجين) ثم لا يرفعنا نسب عمرو، ولا تغنينا قرابة (مينا). فلما انتهى أمر الدولة المحتلة بالمعاهدة، وأمر الدولة الممتازة بالاتفاق، لم تبق إلا كلمة الحق؛ ولا يضر كلمة الحق أن تقال في الآخر، فإن من الحق أيضاً أن عظمة الأجداد وآثار الأمجاد تظل سطوراً في الصحف، أو صخوراً على الثرى، حتى تتاح لها من الأبناء ألسنة فتذكرها وأيد فتنشرها وأعمال فتحييها

لا ريب أن ماضي مصر المجيد كان له أثر ظاهر في هذه المظاهرة الدولية، ولكن براعة المفاوضين وكفاية الممثلين كانتا شاهد هذا التاريخ وباعث هذا المجد. فإذا فخرت مصر بآبائها الذين أشاد بفضلهم أقوى أمم الدهر، كانت حرية أن تفخر كذلك بأبنائها الذين جروا في عنان مع أسبق أمم الأرض

قال وزير خارجية فرنسا في خطبته: (إن مصر ستفد إلى جنيف بتجارب الشرق، ولكنها حين تحمل الغرب على الاستفادة من حكمة الشرق. ستحمل هي نفسها على تجديد حضارتها بحضارة الغرب)

وهذا كلام لا يحتاج حقه إلى شاهد؛ ولو طبق على معناه ومغزاه لكان خليقاً أن يفتح للعصبة باب عهد جديد. فقد دأب الغرب لقوته على أن يعطي، ودأب الشرق لضعفه على

أن يأخذ. وليس ما عند القوي خيراً كله، ولا ما عند الضعيف شراً كله؛ وأولى المؤسسات الغربية بالأخذ عن الشرق هي عصبة الأمم، فإن مبدأها السلام وغايتها السلام؛ وليس لدين الشرق وحكمة الشرق إلا هذه الرسالة.

فلعل مندوبي مصر والعراق وإيران وأفغانستان والهند وتركيا أيضاً، يحملون عن مطلع الشمس إلى مغربها هذه الأمانة، فيسطعون في جو الجمعية سطوع النور، ويرفون في جوانبها رفيف الروح، فيكون من أصواتهم الندية للعالم الشارد المجهود سلام ووئام ورحمة

امتيازات من نوع آخر

للأستاذ احمد أمين

هل لاحظت أنك إذا استعرضت مقاهي مصر وفنادقها رأيت أن أعظمها بناء، وأحسنها نظاماً، وأغناها رواداً، وأجملها موقعاً، وأشدها إتقاناً للخدمة، وأكثرها تفنناً في إدخال الراحة والسرور على زوارها، وأمهرها في استدرار مال الجمهور عن رضى واختيار، إنما هي لسادتنا الأجانب؟

وأن أحقرها مكاناً - وأفقرها سكاناً، وشرها موقعاً، وأسوأها خدمة، وأرخصها سعراً،

وأكثرها تفنناً في إقلاق راحة زوارها، لا يغشاها إلا من هزل جيبه، أو فسد ذوقه، أو اضطرته حاجة ملحة، أو ضحى براحته ولذته وسعادته لفكرته الوطنية ونزعته القومية، إنما هي لإخواننا المصريين؟

ثم هل لاحظت أن المقاهي والفنادق الأرستقراطية وما يشبهها وما يقرب منها، صاحبها أجنبي، ومديرها أجنبي، والمشرف على ماليتها أجنبي، والذي يقدم إليك الخدمات الرفيعة أجنبي، ومن يقبض ثمن ما قدم ويأخذ منك (البقشيش) أجنبي؛ ثم من يمسح الأرض مصري، ومن يتولى أحقر الأعمال مصري، ومن يمسح لك حذاءك في المقهى أو الفندق مصري، ومن يجمع أعقاب السجاير مصري؛ وأن الأجنبي له الخيار في الأعمال، فما استنظفه عمله بنفسه، وما استقذره كلف به مصرياً؛ ثم أنت لا تجد العكس أبداً في المقاهي المصرية والفنادق المصرية. فلا تجد رئيساً مصرياً ومرءوساً أجنبياً، ولا تجد الأعمال الرفيعة لمصري، والأعمال الوطنية لأجنبي؛ وإذا كان لكل قاعدة استثناء كما يقولون فقد ظفرنا في هذه الحال بقاعدة لا استثناء فيها وهل تتبعت الصناعات في مصر فرأيت أن كل صناعة رأسها أجنبي وقدماها مصريتان؟ فخير ميكانيكي في مصر أجنبي والحثالة مصريون. وقل مثل ذلك في أعمال الكهرباء والنجارة والحدادة والخياطة، وما شئت من صناعة، حتى لقد زاحمونا في مصنوعاتنا الوطنية، ونشأت فرقة من الأجانب تجيد عمل (الطعمية) و (الفول المدمس) وبزت فيهما المصريين، وأصبحت الطبقة المصرية الأرستقراطية تشتهيهما من يد الأجنبي أيضاً وتفضل ما يصنعه على منتجات (أبي ظريفة) (والحلوجي) ومن إليهما؟

فالصناعات في مصر - على العموم - تتخذ شكل هرم، قاعدته التي تلامس الأرض للمصريين، وقمته التي تناطح السحاب للأجانب.

وهل بلغك أن في بور سعيد - المدينة المصرية - حيين يسمى أحدهما (حي الفرنج) ويسمى الآخر (حي العرب)؟ فأما البناء الجميل، والنظافة والأناقة والعناية بالوسائل الصحية ومظهر الغنى والنعمة، ومظهر المدنية والحضارة، فلحي الفرنج؛ وأما مظهر الفوضى والإهمال والبؤس والفقر وسوء الحالة الصحية ومأوى الفقراء ومسكن التواضع والرضا بما قسم الله فلحي العرب؟

أو هل سمعت أيضاً أن (مصر الجديدة) - وهي ضاحية من ضواحي القاهرة - يسكنها كثير من الأجانب فينعمون بشوارعها الفسيحة، وبيوتها الضخمة الأنيقة؛ ثم في ركن متواضع من أركانها ناحية تسميها الشركة (عزبة المسلمين) فيها كل ما لا يخطر على البال من تكدس السكان في حجرة واحدة ومن إهمال ومن أمراض ومن فقر وبؤس، يفر منها من يسكنون بجوارها هرباً بأنفسهم وبصحتهم، وهرباً بعيونهم عن مناظر القبح، وبآذانهم عن ألفاظ الهجر، وبأنوفهم عن كريه الريح؟

أوليس ما يثير عجبك، ويبعث دهشك، أن كلمة (الأحياء الوطنية) في مصر تحمل من المعاني كل أنواع السوء والفوضى والإهمال وكان يجب أن تحمل كل معاني العناية والنظافة والنظام؟

ثم هل رأيت الأجنبي في وسط الفلاحين في العزبة، هو وحده النظيف في ملبسه ومسكنه ومأكله. وهو الذي له عقل يدبر ماله ويعرف كيف يستغله، وهم المغفلون الذين لا يعرفون كيف يحسبون دخلهم وخرجهم، ولا يعرفون حساب أموالهم ولا يعرفون كيف يديرون شؤون حياتهم، فخضع هذا وهؤلاء لقانون الانتخاب الطبيعي وبقاء الأصلح؟

ثم هل علمت أن امتيازات أخرى بجانب هذه الامتيازات المادية، هي امتيازات عقلية أو نفسية؟

فإن غلبة الأجنبي في الصراع بينه وبين المصري في مرافق الحياة المادية أوجدت حالة نفسية شراً من الحالة المادية، مظهرها قلة وثوق المصري بنفسه وقوة وثوقه بالأجنبي. فإذا تعسرت حالة مرضية اتجه أهل المريض إلى الطبيب الأجنبي، وإذا أراد رب مال أن ينجح في إدارته قصد إلى مدير أجنبي، وإذا تعقدت مسألة حكومية أو أهلية اختير لها خبير أجنبي، وإذا اختلف الباحثون في مسألة علمية كان الحكم الفصل قول المؤلف الأجنبي، وهكذا في كل شأن من شؤون حياتنا؟

واستتبع هذا تقويمنا للأجنبي قيمة غالية، ودخل في التقويم أجنبيته أكثر مما دخل في

التقويم فنه أو علمه
ألم يبلغك الحادث الطريف الذي حدث بالأمس من مدرس ثانوي للغة الفرنسية يتقاضى أمثاله في وزارة المعارف فوق الثلاثين جنيهاً، فكان من سوء حظ هذا المدرس أن تجنس بالجنسية المصرية قبل أن يبت في مرتبه، فلما طبقت عليه القوانين المصرية والحوائج المصرية، كان نتيجة ذلك أنه لم يمنح إلا اثني عشر جنيهاً؟
أو لم يبلغك المصري الذي اخترع بالأمس نوعاً من طوب البناء فعرضه على الجهات المصرية فخاب أمله، ثم عرضه في إنجلترا فأقرت قيمة اختراعه، ثم تأسست شركة إنجليزية برأس مال إنجليزي لاستغلال هذا المخترع المصري؟
والأمثلة على ذلك كثيرة تحدث كل يوم، فيكاد يكون مغروساً في أعماق نفوسنا أن القبعة لا توضع على رأس سخيف، وأن الطربوش لا يمكن أن يلف رأس نابغ
إن كان في مصر دائن ومدين، فالدائن الأجنبي والمدين المصري.
وإن كان في مصر غنى وفقر، فالغنى للأجنبي والفقر للمصري.
وإن كان في مصر ذكاء وغباوة، فالذكاء للأجنبي والغباء للمصري.
وإن كان في مصر نعيم وبؤس، فالنعيم للأجنبي والبؤس للمصري.
هذه الامتيازات في المادة والعقل والنفس شر مما اصطلحنا على تسميته بالامتيازات الأجنبية
ومن الأسف أنها لا تحل بمؤتمر كمؤتمر مونترو، ولا باشتراك الدول ومفاوضتها، ولا بمعاهدة، ولا بقانون
إن حلها أصعب من ذلك كله
إنها تحتاج إلى عقول جبارة، وإرادات من نار، وحمية لا حد لها، ووطنية قوية وثابة
إنها تحتاج إلى مؤتمرات لا من جنس مؤتمر مونترو، إلى مؤتمر يتكون من فطاحل في التربية يعرفون كيف فشا فينا مرض العبودية حتى حبب إلينا العمل الدنيء وبغض إلينا العمل الرفيع، فرضينا من المقهى والفندق بمسح البلاط ولم أعقاب السجاير. ورضينا دائماً بفتات الموائد، ولم نستطع أن نكون العمل الرفيع ونجلس في صدر المائدة؟
ويعرفون كيف يقضون على أخلاق العبيد من ذل ومكر وخنوع واحتيال ودسائس، ويحلون محلها أخلاق السادة من عظمة، وصراحة، وحب للعمل، وطلب للمجد، وعشق للصدارة؛ ويعرفون طبيعة المصري، وتاريخه، وبيئته، وأنواع الأسلحة العلمية والعقلية والخلقية التي يحتاج إليها ليستطيع الكفاح في الحياة والسير مع الأجنبي على قدم المساواة
فهذا خير ألف مرة من لجان تؤلف وتؤلف لزيادة حصة في الحساب ونقص حصة في الجغرافيا
ونحتاج لمؤتمر من القادة تكون مهمته العظمى إبادة روح المذلة الفاشية، وبذر روح الغيرة النادرة، وتعهدها بالتقاليد الجديدة التي ترعاها وتضمن نموها
نحتاج إلى مؤتمرات عديدة من هذا القبيل تغير وجه الحياة المصرية، وتخلق قلب المصري خلقاً جديداً، فلا يخاف مرءوس رئيساً، ولا يخاف مصري أجنبياً، ولا يخاف محكوم حاكماً
نحتاج إلى مؤتمرات تبيد الخوف إلا الخوف من الذل والعار، وتبيد السيطرة إلا احتراماً لخلق أو قانون
ما أصعب هذه المؤتمرات وما أشقها وما أحوجنا إليها! أنها تتكون من رجال من أمة واحدة، ولكنها أصعب من مؤتمر مثلت فيه كل الدول، لأنها مؤتمرات لا تلغي قانوناً موضوعاً، ولكنها تلغي أخلاقاً موروثة، وتقاليد سمرها الزمان، وتحطم أوتاداً سهر عليها الحاكم الظالم المستبد حتى صلبت الأرض عليها
لست أومن بنظرية العمال العاطلين حتى يصعب على الأجنبي والمصري الحصول على العيش الرغد على السواء. فأما إن سهل تحصيل العيش على الأجنبي وصعب على المصري فليست النظرية - إذن - نظرية عمال عاطلين، ولكنها نظرية فقر في الأخلاق، وجهل بفن الحياة
فهل لنا وقد نجحنا في مؤتمر الامتيازات الأجنبية أن نوجه هممنا لمعالجة أختها الامتيازات

التي هي من نوع آخر علنا ننجح أيضاً؟
احمد أمين
الخادمة
للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني
وقفت نعيمة أمام المرآة تنظر فيها، وتتأمل نفسها بادية في صقالها، وفي يدها منفضة من الريش الناعم، ثم صوبت عينها إلى أدوات الزينة المرصوصة. . لقد صارت الآن خادمة وصار عملها أن ترتب هذه الغرف الوثيرة الأثاث. . فلشد ما انتقلت بها الأحوال!! منذ سنتين اثنتين، لا أكثر، كانت تنام على مثل هذا السرير. . وكان لها خدم، وحولها حشم. . وكانت قلما تقوم قبل الضحى. . كانت تفتح عينيها، وتتمطى، وتتثاءب، وتنظر إلى الساعة الدقيقة على معصمها فتعلم أن الشمس قد ارتفعت؛ وأنه آن لها أن تنهض. وتمد يدها إلى الزر، وتضغط فتجيء الخادمة - بهية - وتسألها (نعم يا ستي؟) فتقول لها أعدي الحمام، فتفعل وتجيئها قبل ذلك بالشاي وتنحي الستاير. . . وتهم بهية بالخروج فتناديها وهي تتقلب على السرير من الكسل، (والنبي يا بهية دوسي لي على كتفي. . .) كان هذا منذ سنتين. . كأنه حلم!. . زالت النعمة كلها وأفلس أبوها (إفلاساً بتدليس). . وانتحر. . . وتركها تملك قوت يومها. . استطاعت أن تحيا، على نحو ما، بضعة شهور، ثم لم يبق بد من ابتغاء الوسيلة إلى القوت. . وهذا أول بيت غريب دخلته لتعمل فيه
وانتقلت نعيمة إلى السرير، وتناولت الوسائد الصغيرة المبعثرة عليه، لتصلحها وترتبها، فأوحى إليها منظر السرير الواطئ اللين الشعور بالحاجة إلى التمطي. . أن تستلقي عليه وتمد رجليها وتفتح ذراعيها وتتثاءب وتقول (آ. . الخ). . . ولم لا؟. . إن هذا الجناح من البيت ليس فيه أحد. . وقد خرج سيدها منذ ساعة، وهي الموكلة بهذه الناحية. . وليس هناك من تخشى أن يفاجئها سوى (حسن). . ما أثقله!! هو رئيس الخدم. يدخل في رحمته من يشاء ويخرج منها من يشاء. لم يكن في بيتها هي أيام النعمة رئيس للخدم. كانوا جميعاً خداماً، وكانت هي الرئيسة دون سواها. . أمها ميتة. وأبوها يدع لها هذه الأمور. . ولكن جميل بك يؤثر نظاماً غير هذا. . ولاسيما بعد أن فسد ما بينه وبين زوجته فخرجت من البيت
وجلست على السرير، وهي تحدث نفسها بأنها لاشك تستطيع تسمع وقع قدمي حسن، إذا خطر له أن يجيء إلى هذه الناحية. فإنه ضخم غليظ ثقيل. . ومشيه دبدبة. ومالت على
السرير، وأراحت جسمها البض على فراشه اللين، وحدثت نفسها، وهي تحس أن جسمها يسترخي، أنها خليقة أن تحمد الله على التوفيق إلى العمل، في بيت كهذا، بعد الذي نزل بها، وإنها إذا كانت لا تنام على السرير فإن من بواعث سرورها أن يكون أمره موكولاً إليها، وأن يكون في وسعها أن تروح وتجيء في هذا البيت الحسن، وأن تكون في خدمة هذا السيد الكريم الوديع المهذب. . الحمد لله على كل حال.
ولو أن سيدها رآها، وهي راقدة على سريره، وأخذت عينه هذا المنظر الفاتن، لكان الأرجح أن يقف مفتوح الفم من دهشة الإعجاب ولسحره؛ وسمره في مكانه، هذا الخط المتموج الذي بدأ من فخذها الأملس، ويرتقي ويستدير مع ردفها، ثم ينحدر في لين مع خصرها، ثم يعود فيرتفع حتى يبلغ الحلمة الحوة الناشزة من ثديها الراسخ. . وكان شعرها الذهبي مرسلاً، كأنه أمواج من النار على الوسادة. وأسندت نعيمة خدها الأسيل على الحرير الناعم، وتنهدت، وخطر لها أن حظها على كل حال خير مما كان يمكن أن يكون. . كل شئ هنا حسن (إلا حسن). . . فإنه دميم غليظ، وثقيل الدم بارده. وفظ شرس. . . ونظرته أعوذ بالله منها!. . . إنها لتتعلق بصدرها، فتحس أنها نفذت إلى ما تحت ثيابها، فكأنها واقفة أمامه عارية لا كاسية!. . . وما أكثر ما يلمس كتفها، وهو يحدثها، أو يدعوها إلى الوقوف،. . فتسري الرعدة في بدنها. . وأصابعه؟. . يا حفيظ!. . قصيرة، غليظة، مبططة!
وأغفت نعيمة، وهي تفكر في هذا وما إليه من مظاهر حياتها الجديدة، ثم انتفضت قائمة وفي يقينها أن بعضهم ينظر إليها. ولكنها لم تر في الغرفة أحداً، فلاشك أنها كانت تحلم أو لعل هذا ضميرها يزجرها عن الاجتراء والتسحب بهذه الطريقة
ووقفت نعيمة وأجالت عينها فيما حولها، فلمحت زجاجة عطر صغيرة، فقد كانت فيما

مضى تتخذ مثلها، بل كان هذا هو العطر المفضل عندها. واضطربت يدها، وهي تتناول الزجاجة. وترفع عنها الغطاء. . وأدنتها من أنفها الجميل، لتشم، وتنعم بالأرج المفتر. . وإذا كان لا تسعها الآن أن تتعطر، فلا أقل من متعة الأنف. . وما البأس. . وأحست وهي تنشق العطر الخفيف بالحنين إلى الأيام السالفة. . وتفلتت الزجاجة من بين أصابعها فارتفعت كفها الرخصة، بسرعة، إلى فمها، لتكتم صرخة جزع حين رأت الزجاجة تهوي
على السجادة، وقد حمتها السجادة أن تتكسر ولكن ما فيها أريق كله، وملأ الغرفة بأرجه، فصار المكان كأنه بستان زهر. وصوبت عينها إلى السجادة فرأت العطر قد رسم دائرة كبيرة داكنة على النقوش الفارسية الجميلة، فانحنت والتقطت الزجاجة الفارغة، وردتها إلى مكانها. وسمعت في هذه اللحظة صوتاً فريعت ودارت على عقبها، فإذا حسن أمامها يتئرها النظر كأنما يريد أن يأكلها بعينيه، وكان قد دخل كالقطة، وساعده لين السجادة السميكة على إخفاء صوت قدميه الغليظتين
وكان حسن ينهج كأنما يجري، وكانت أنفاسه تروح وتجيء بسرعة، وعيناه كالجمرتين، ونعيمة ترى هيئته، وترعد كأنها في ثلاجة، وقد أيقنت أنها فقدت عملها. . وهل يبقيها حسن وقد رأى ما صنعت؟؟. . ربما. . فما صنعت شيئاً في الحقيقة سوى أن زجاجة عطر سقطت من بين أصابعها؛ ولكن الرجل فيه جفوة وغطرسة، وهو قاس، وقد أطغاه أن سيده ترك له أمر الخدم. . فهل يطردها. . أم تراه سيترفق بها ويعفو عنها؟.
.
ولم تمض في تفكيرها، فقد مد حسن يديه إليها، بغتة، وتناول كتفيها - أو على الأصح ثوبها على كتفيها - وهزها وقال لها (سيكون هذا آخر لعبك هنا)
فتوسلت إليه، وأقبلت عليه تستعطفه، وتقول له إنها محتاجة إلى البقاء، وأين تذهب إذا طردها؟. .
فقال بجفوة (تريقين زجاجة ثمنها ثمانون قرشاً وتظنين أن في وسعك أن تبقي؟)
فأيقنت نعيمة أن هذا آخر عهدها بالبيت الجميل، والسيد الوديع الظريف، وصار صدرها يعلو ويهبط.
ولم تفت حسن حركة صدرها المغرية، فدنا منها وقال: (ثم إني رأيتك راقدة فوق هذا السرير أيضاً)
فكادت نعيمة تسقط على الأرض، وأحست أن رجليها تخذلانها. . ستفقد الآن عملها على التحقيق!! ومن ذا الذي يستخدم مثلها وهي حديثة عهد بالخدمة؟. وكانت يدا حسن لا تزالان على كتفيها فشد بهما على جسمها، حتى لقد أحست نعيمة أن أصابعه انغرزت في لحمها، وشعرت بأنفاسه الحارة على وجهها وسمعته يقول (إذا أردت البقاء فليس هناك إلا طريقة واحدة)
وكانت نعيمة تعرف أن له أن يخرج الخدم، فقالت وهي ذاهلة (كيف؟ ماذا تعني؟)
وكانت تعلم ماذا يعني، وتقرأه في عينيه، ولكنها كانت تؤثر الطرد والجوع على هذا. . كلا. . أبداً
فقال (إنك تعرفين ما أعني. . لقد رقدت على هذا السرير مرة. . ارقدي عليه مرة أخرى)
ففزعت وإن كانت تعلم مراده، وصاحت به (أبداً. . مستحيل)
ولكن حسن حملها كالدجاجة بين ذراعيه، وألقاها على السرير، وركع أمامها، وأهوى بشفتيه الغليظتين على غلالتي شفتيها الرقيقتين، وكانت يداه قاسيتين، وكانتا تجرحان جسمها الغض، وهي تحاول أن تتفلت منه، وهو يشد عليها؛ وهمت بأن تصرخ فوضع كفه على فمها، وأخرسها، ثم تناول ثوبها عند صدرها وجذبه فتمزق وتعرى صدرها فأكب عليها كالمجنون، فلم تعد تطيق الصبر، وفضلت أن تخسر عملها، وأن تتضور وتتسول في الطريق، وأطلقتها صيحة مجلجلة خليقة أن تجمع عليهما كل من في البيت فانتفض حسن قائماً وصاح بها بدوره (إنك مطرودة. اخرجي)
وشرع يخرج من الغرفة بسرعة قبل أن يجيء أحد على صوتها، وإذا بسيده في الباب. وقال جميل بك (ما هذا)؟
فقال حسن: (سيدي. . لقد رأيت نعيمة ترقد على هذا السرير؛ ولم يكفها هذا، بل أراقت زجاجة العطر. .)

ولكن جميل بك لم يكن يسمع شيئاً مما يقول حسن، وإنما كان ينظر إلى نعيمة، وهي واقفة في هذا الثوب الذي صار هلاهيل، وكانت تجمعه بيديها على صدرها لتستره. ولكنها لم تستطع أن تستر منه إلا قليلاً. . والتفت جميل بك من نعيمة المطرقة المتقدة الوجه من الحياء إلى هذا الخادم النذل وصاح به: (اخرج فإنك أنت المطرود. .)

فخرج وظهره مقوس

ثم التفت جميل بك إلى نعيمة وقال (إني آسف لما حصل. لم أكن أتصور أن هذا الرجل الذي ائتمنته وحش. . . فلننسه. .)

فأدارت نعيمة وجهها إلى حيث أريقت الزجاجة وقالت (لقد سقطت مني. . أريقت كلها ولم يبق فيها ولا قطرة)

فقال جميل بك ببساطة: (لا بأس. . لا بأس. . إذا كنت تستحقين عقاباً، فقد لقيت فوق ما تستحق أية مجرمة صغيرة مثلك)

فابتسمت نعيمة، وكانت لا تزال تحاول عبثاً أن تضم طرفي الثوب الممزق الذي أصارته يدا حسن كالعباءة لولا ضيقه. ومشى جميل بك إليها وقال لها وهو يلمس الثوب (لم يعد هذا يصلح) وأشار إلى خزانة الثياب وقال (اخلعيه وخذي شيئاً من هنا بدلاً منه) ولم يتركها تفعل ما أمرها به، بل نزعه عنها فصارت أمامه في ثيابها التحتية، وهي كافية للستر، ولكنها تظهر من الصدر والكتفين أكثر مما يكشف في العادة. على إن جميل بك لم يكن ينظر إلى ما بدا له من جسمها، بل إلى نفاسة الحرير الذي تلبسه تحت هذا الثوب الممزق، فقد هز رأسه كالمتعجب، ومضى إلى الخزانة فجاء منها بثوب من أثواب زوجته ألقاه إليها ومشى إلى النافذة. ولم يخف على نعيمة معنى النظرة فقد كانت صريحة فارتدت الثوب وقالت (هذه الثياب التحتية بقية من زمن النعمة وقد اشتريتها بنفسي)

فدار وقال (إيه؟)

فقالت ببساطة وابتسام (لقد كنت أستطيع أن اشتري ما أريد. . قبل الكارثة)

فذهب إلى السرير وقعد عليه وقال وهو مقطب: (ما اسمك؟ اسمك كله)

فذكرته له فقال (اسمعي. . . هل كان أبوك تاجراً في الحمزاوي. . .؟)

قالت (نعم)

قال (وماذا صنع الله به حتى احتجت إلى هذا؟)

قالت (مات. . . انتحر. . .)

فقال (امممممم!. . . إني آسف. . .، لم أكن أعرف هذا. . . لو كنت أعرفه لما تكلمت بهذه اللهجة عنه)

فابتسمت ولم تستطع أن تقول شيئاً. فقال وجذبها إليه وأجلسها بجانبه على السرير: (اسمعي. . . أن مثلك لا يجوز أن تعمل كخادمة)

فقالت بإخلاص (إني مسرورة. . . وجودي هنا خير مما كنت أنتظر. . . والآن اسمح لي أن أذهب وأغير الثوب وأرد هذا)

وأشارت إلى الثوب الذي كساها فقال (خله لك. . . وغيره أيضاً. . . كل ما في الخزانة خذيه)

فقالت (سيدي. . . لم أعتد أن آخذ شيئاً من أحد)

قال وهو ينهض (أوه. . . هذه مسألة يسهل أن نسويها فيما بعد. . .)

وكانت هي قد نهضت أيضاً فوقفا متقابلين. وقد يكون الأرج المتضوع في الغرفة أو غيره هو الذي أدار رأسيهما فقد مال عليها فلم تبعد، ولثم فمها. وكانت القبلة في أول الأمر خفيفة - لمساً لا اكثر - ولكن الأيدي ارتفعت إلى الأكتاف فكان عناق طويل وقال جميل بك (نعيمة. . . إنك ساحرة. . . كان دائماً يخطر لي أنك لست من الخدم. . ويخيل إليّ أنك ستبقين هنا. . . سيدة. . .)

وكان قلب نعيمة يخفق بشدة فنأت عنه قليلاً وهي تفكر في معنى ما سمعت ثم قالت (ولكن الست؟)

قال (لا تقولي الست كأنك مازلت خادمة)

قالت وهي تضحك (زوجتك إذن؟)

قال (آه. . . نسيت أن أخبرك أننا اتفقنا - أبوها وأنا - على فض الإشكال بالحسنى. . .

لا محاكم ولا شئ. . . طلقتها اليوم وانتهى الأمر)
قالت: (ألست آسفاً؟)
قال (كلا. . . كان هذا أحسن حل. . . حياتنا مستحيلة. . . لا وفاق)
ولأول مرة منذ سنتين شعرت نعيمة أن لها بيتاً، ونظرت إلى السرير - سريرها الآن، أو هو سيصبح سريرها بعد العقد. . . ثم ردت عينها إلى جميل بك فالتقت الشفاه مرة أخرى في قبلة معسولة

إبراهيم عبد القادر المازني

خاتمة المأساة الأندلسية

الصراع الأخير بين الموريسكيين وأسبانيا

للأستاذ محمد عبد الله عنان

(2)

سرى إلى الموريسكيين يأس بالغ يذكيه السخط العميق فعولوا على الثورة مؤثرين الموت على ذلك الاستشهاد المعنوي الهائل. ونبتت فكرة الثورة أولاً في غرناطة حيث يقيم أعيان الموريسكيين، وحيث كانت جمهرة كبيرة تحشد في ضاحية (البيازين)؛ وكان زعيم الفكرة ومثير ضرامها موريسكي يدعى فرج بن فرج؛ وكان ابن فرج صباغاً بمهنته،؛ ولكنه حسبما تصفه الرواية القشتالية كان رجلاً جريئاً وافر العزم والحماسة، يضطرب بغضاً للنصارى، ويتوق إلى الانتقام الذريع منهم؛ ولا غرو فقد كان ينتسب إلى بني سراج وهم من أشراف غرناطة وفرسانها الأنجاد أيام الدولة الإسلامية. وكان ابن فرج كثير التردد على أنحاء البشرات، وثيق الصلة بمواطنيه؛ فاتفق الزعماء على أن يتولى حشد قوة كبيرة منهم تزحف سراً إلى غرناطة وتجوز إليها من ضاحية البيازين، ثم تفاجئ حامية الحمراء وتسحقها وتستولي على المدينة، وحددوا للتنفيذ (يوم الخميس المقدس) من شهر أبريل سنة 1568 إذ يشغل النصارى عندئذ باحتفالاتهم وصلواتهم؛ ولكن أنباء هذا المشروع الخطير تسربت إلى السلطات منذ البداية فاتخذت التحوطات لدرئه، وعززت حامية غرناطة، وحاميات الثغور، واضطر الموريسكيون إزاء هذه الأهبة أن يرجئوا مشروعهم إلى فرصة أخرى واستمر الموريسكيون على عزمهم وأهبتهم، ووجهوا بعض الكتب خفية إلى أمراء الثغور في المغرب يطلبون إليهم الغوث والعون؛ فوقع كتاب منها في يد حاكم غرناطة؛ وتقول الرواية القشتالية أنه كان موجهاً من أحد زعماء البيازين إلى مسلمي الثغور المغربية يستحلفهم فيه الغوث بحق روابط الدين الدم ويقول: (لقد غمرتنا الهموم، وأعداؤنا يحيطون بنا إحاطة النار المهلكة. إن مصائبنا لأعظم من أن تحتمل، ولقد كتبنا إليكم في ليال تفيض بالعذاب والدمع، وفي قلوبنا قبس من الأمل، إذا كانت ثمة بقية من الأمل في أعماق الروح المعذب). ولكن الحكومات المغربية كانت مشغولة بمشاكلها الداخلية، فلم يلب داعي الغوث سوى جماعة من المتطوعين الذين نفذوا سراً إلى إخوانهم في البشرات، ومنهم كثيرون من البحارة المجاهدين الذين كانوا حرباً عواناً على الثغور والسفن الأسبانية في ذلك العصر

وفي شهر ديسمبر سنة 1568، وقع حادث كان نذير الانفجار؛ إذ اعتدى الموريسكيون على بعض المأمورين والقضاة الأسبانيين في طريقهم إلى غرناطة ووثبت جماعة منهم في نفس الوقت بشرذمة من الجند كانت تحمل كمية كبيرة من البنادق وفتكت بهم جميعاً. وفي الحال سار ابن فرج على رأس مائتين من أتباعه ونفذ إلى المدينة ليلاً، وحاول تحريض مواطنيه في البيازين على نصرته ولكنهم أبوا أن يشتركوا في مثل هذه المغامرة الجنونية وقد كان موقفهم حرجاً في الواقع لأنهم يعيشون إلى جانب النصارى على مقربة من الحامية وهم أعيان الطائفة ولهم في غرناطة مصالح عظيمة يخشون عليها من انتقام الأسبان؛ بيد أنهم كانوا من وراء الثورة يؤيدونها برعايتهم ونصحهم ومالهم فارتد ابن فرج على أعقابه واجتاز شعب جبل شلير (سييرا نفادا)، إلى الهضاب الجنوبية فيما بين بلش (فيليز) والمرية، فلم تمضي بضعة أيام حتى عم ضرام الثورة جميع الدساكر والقرى الموريسكية في أنحاء البشرات، وهرعت الجموع المسلحة إلى ابن فرج ووثب الموريسكيون بالنصارى القاطنين فيما بينهم ففتكوا بهم ومزقوهم شر ممزق

اندلع لهيب الثورة في أنحاء الأندلس ودوت بصيحة الحرب القديمة وأعلن الموريسكيون استقلالهم واستعدوا الخوض معركة الحياة والموت، وبدأ الزعماء باختيار أمير يلتفون حوله، ويكون رمز ملكهم القديم فوقع اختيارهم على فتى من أهل البيازين يدعى الدون فرناندو دي فالور؛ وكان هذا الاسم النصراني القشتالي يحجب نسبة عربية إسلامية رفيعة ذلك أن فرناندو دي فالور كان ينتمي في الواقع إلى بني أمية وكان سليل الملوك والخلفاء الذي سطعت في ظلهم الدولة الإسلامية في الأندلس زهاء ثلاثة قرون، وكان فتى في العشرين تنوه الدواية القشتالية المعاصرة بوسامة محياه، ونبل طلعته؛ وكان الأمير الجديد يعرف خطر المهمة التي انتدب لها، ولكنه كان يضطرم حماسة وجرأة وإقداماً، ففي الحال غادر غرناطة سراً إلى الجبال ولجأ إلى شيعته آل فالور في قرية بزنار، فهرعت إليه الوفود والجموع من كل ناحية، واحتفل الموريسكيون بتتويجه في احتفال بسيط مؤثر، فرشت فيه على الأرض أعلام إسلامية ذات أهلة فصلى عليها الأمير متجهاً صوب مكة، وقبل أحد أتباعه الأرض رمزاً بالخضوع والطاعة، وأقسم الأمير أن يموت في سبيل دينه وأمته، وتسمى باسم ملوكي عربي هو محمد بن أمية صاحب الأندلس وغرناطة. واختار محمد عمه الملقب (بالزغوير) قائداً عاماً لجيشه، وقد كان صاحب الفضل الأكبر في اختياره للرياسة، وبعث ابن فرج على رأس بعض قواته إلى هضاب البشرات ليجمع ما استطاع من أموال الكنائس، واتخذ مقامه في أعماق الجبال في مواقع منيعة، وبعث رسله في جميع الأنحاء يدعون الموريسكيين إلى خلع طاعة النصارى والعودة إلى دينهم القديم

ووقعت نقمة الموريسيكيين بادئ ذي بدء على النصارى المقيمين بين ظهرانيهم في أنحاء البشرات ولاسيما القسس وعمال الحكومة؛ وكان هؤلاء يقيمون في محلات متفرقة سادة قساة يعاملون الموريسيكيين بمنتهى الصرامة والزراية، وكان القسس بالأخص أس بلائهم ومصائبهم؛ ومن ثم فقد كانوا ضحايا الفورة الأولى. وانقض ابن فرج ورجاله على النصارى في تلك الأنحاء فمزقوهم تمزيقاً. وقتلوا القسس وعمال الحكومة، ومثلوا بهم أشنع تمثيل، وكانت حسبما تقول الروايات القشتالية مذبحة عامة لم ينج منها حتى النساء والأطفال والشيوخ؛ وذاعت أنباء المذبحة الهائلة في غرناطة فوجم لها الموريسيكيون والنصارى معاً، وكل يخشى عواقبها الوخيمة، وكان الموريسكيون يخشون أن يبطش النصارى بهم انتقاماً لمواطنيهم، وكان النصارى يخشون أن يزحف جيش الموريسكيين على غرناطة فتسقط المدينة في يدهم وعندئذ يحل بهم النكال الرائع. بيد أن الرواية القشتالية تنصف هنا محمد بن أمية فتقول أنه لم يحرض على هذه المذابح ولم يوافق عليها، بل لقد ثار لها وعزل نائبه ابن فرج عن القيادة، فنزل عنها راضياً واندمج في صفوف المجاهدين، وهنا يختفي ذكره ولا يبدو على مسرح الحوادث بعد

وكانت غرناطة في أثناء ذلك ترتجف سخطاً وروعاً؛ وكان حاكمها المركيز منديخار يتخذ الأهبة لقمع الثورة منذ الساعة الأولى، بيد أنه لم يكن يقدر مدى الانفجار الحقيقي، فغصت غرناطة بالجند، ووضع الموريسكيون أهل البيازين تحت الرقابة رغم احتجاجهم وتوكيدهم

بأنهم لا علاقة لهم بالثائرين من مواطنيهم؛ وخرج منديخار من غرناطة بقواته في 2 يناير سنة 1569 تاركاً حكم المدينة لابنه الكونت تنديلاً، وعبر جبل شلير (سييرا نفادا) وسار تواً إلى أعماق البشرات حيث يحتشد جيش الثوار؛ وكان محمد ابن أمية متحصناً بقواته في آكام بوكيرا الوعرة، وكان الموريسكيون رغم نقص مواردهم وسلاحهم قد حذقوا حرب الجبال ومفاجآتها. فما كاد الأسبان يقتربون منهم حتى انقضوا عليهم، ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة، ارتد الموريسكيون على أثرها إلى سهول باترنا، وتخلف كثيرون منهم ولاسيما النساء، ففتك الأسبان بهم فتكاً ذريعاً، وحاول منديخار أن يتفاهم مع الثائرين على العفو وأن يخلدوا إلى السكينة، وبعث إليهم بعض المسالمين من مواطنيهم، وكان محمد بن أمية يميل إلى الصلح والتفاهم، ولكن المتطرفين من أنصاره ولاسيما المتطوعين المغاربة رفضوا الصلح، فاستؤنفت المعارك، ورجحت كفة

الأسبان وهزم الموريسكيون مرة أخرى، وفر محمد بن أمية وأسرت أمه وزوجه وأخواته؛ وأصيب الأسبان بهزيمة شديدة في آكام (جواخاريس) ولكن الموريسكيين آثروا الارتداد؛ وقتل الأسبان من تخلف منهم أشنع قتل. وكان ممن تخلف زعيم باسل يدعى (الزمار) أسره الأسبان مع ابنته الصغيرة وأرسلوه إلى غرناطة حيث عذب عذاباً وحشياً إذ نزع لحمه من عظامه حياً، ثم مزقت أشلاؤه؛ وهكذا كانت أساليب الأسبان ومحاكم التحقيق أزاء العرب المنتصرين

واختفى محمد بن أمية مدى حين في منزل قريبه (ابن عبو) وكان من أنجاد الزعماء أيضاً. وطارده الأسبان دون أن يظفروا به. على إن هذه الهزائم الأولى لم تفل عزم الموريسكيين فقد احتشدوا في شرق البشرات في جموع عظيمة وأخذوا يهددون المريه، فسار إليهم المركيز (لوس فيليس) على رأس جيش آخر، ووقعت بين الفريقين عدة معارك شديدة قتل فيها كثير من الفريقين، ومزق الموريسكيون، وفتك الأسبان كعادتهم بالأسرى وقتلوا النساء والأطفال قتلاً ذريعاً

وقعت في نفس الوقت في غرناطة مذبحة مروعة أخرى فقد كان في سجنها العام نحو مائة وخمسين من أعيان المريسكيين اعتقلوا رهينة وكفالة بالطاعة فأذاع الأسبان أن الموريسكيين سيهاجمون غرناطة لإنقاذ السجناء بمؤازرة مواطنيهم في البيازين؛ وعلى ذلك صدر الأمر بإعدام السجناء فانقض عليهم الجند وذبحوهم في مناظر مروعة من السفك
الأثيم

وكان لهذا الحادث الأخير أثره في إذكاء نار الثورة، وكان نذيراً للموريسكيين بأن الموت في ساحة الحرب خير مصير يلقون. فسرى إليهم لهب الثورة بأشد من قبل وطافت بهم صيحة الإنتقام فانقضوا على الحاميات الأسبانية المبعثرة في أنحاء البشرات ومزقوها تمزيقاً وهزموا قوة أسبانية تصدرت لقتالهم واحتشدت جموعهم مرة أخرى تملأ الهضاب والسهل؛ وعاد محمود بن أمية ثانية إلى تبوأ عرشه الخطر، والتف حوله الموريسكيون أضعاف ما كانوا، وبعث أخاه عبد الله إلى القسطنطينية يطلب العون من سلطانها، ولكن سلاطين قسطنطينية لم يلبوا ضراعة الموريسكيين برغم تكرارها منذ سقوط غرناطة ولم يلبها غير إخوانهم المجاهدين في أفريقية، فقد استطاعت جموع جريئة مخاطرة منهم أن تجوز الشواطئ الأسبانية ومنهم فرقة من الترك المرتزقة وأن تهرع إلى نصرة المنكوبين

وهكذا عاد النضال إلى أشده، وخشي الأسبان من احتشاد الموريسكيين في البيازين ضاحية غرناطة، فصدر قرار بتشريدهم في بعض الأنحاء الشمالية، وكانت مأساة جديدة مزقت فيها هذه الأسر التعسة وفرق فيها بين الآباء والأبناء والأزواج والزوجات في مناظر مؤثرة تذيب القلب، وسار المركيز لوس فيليس في نفس الوقت إلى مقاتلة الموريسكيين في سهول المنصورة على مقربة من أراضي مرسية، ونشبت بينه وبينهم عدة وقائع غير حاسمة، ولم يستطع متابعة القتال لنقص في الأهبة والمؤن وكان بينه وبين زميله منديخار خصومة ومنافسة كانتا سبباً في اضطراب الخطط المشتركة، واتهم منديخار بالعطف على الموريسكيين فاستدعي إلى مدريد، وأقيل من القيادة، واتخذت مدريد خطوتها الجديدة الحاسمة في هذا الصراع الذي لا رحمة فيه ولا هوادة

(للبحث بقية)

(والنقل ممنوع)

محمد عبد الله عنان

في الأدب المقارن

المعنى والأسلوب في الأدبين العربي والإنجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

المعنى الصادق الرفيع والأسلوب المحكم الجميل هما قوام كل أدب خليق بهذا الاسم، لا يغني أحدهما إذا غاب الثاني؛ فلابد من شعور عميق، أو تفكير ثاقب جدير بعناء الإنشاء والقراءة، ولابد بجانب ذلك من عبارة منسجمة جميلة تعرض المعنى على أحسن وجه وأحبه إلى النفوس؛ وكبار الأدباء في شتى الأمم يجمعون دائماً بين الفكر الواسع المتصرف في شؤون الحياة، وبين المقدرة اللغوية التي تذلل لهم أعنة البيان،

ويتصرفون بها في الألفاظ والتراكيب، ويكون لكثير منهم فضل ترحيب جوانب اللغة وإكساب تعبيراتها جدة ومرونة، وإعطاء بعض ألفاظها منزلة سامية لورودها مورداً حسناً في بعض آثارهم، وشأن الأديب الكبير في ذلك شأن غيره من رجال الفنون، فالمصور مثلاً لا يبلغ الذروة في فنه حتى يجمع إلى خصب مشاعره بصراً بتأليف الألوان والأصباغ، وكل فنان لابد له من الجمع بين رقة الشعور وبين البصر بالآلات التي يكون بها أداء ذلك الشعور

والفكر واللغة، أو المعنى واللفظ، شديدا التوثق والتوشج، فلا ندحة للأديب عن التأثر بروح اللغة التي يكتب فيها وتراثها على مدى الأجيال، ولا سبيل له إلى الإنشاء والنظم فيها حتى يختلط بروحها، وتمتزج أفكاره بالمفردات والأساليب التي تهيئها له اللغة؛ والأديب الصناع يختار من المفردات تلك التي تنهض بأفكاره ومشاعره في أوجز لفظ وأحكمه وأوضحه بياناً، بما تمتاز به تلك المفردات من أجواء من المعاني رحيبة تجمعت حولها على مرور الأجيال وتوالي الاستعمال، حتى غدت يثيرها مجرد ذكر تلك المفردات على نحو خاص، وذلك ما يجعل آثار بعض الأدباء المفتنين والشعراء المجودين متعذرة الترجمة إلى غير لغتها، لتعذر نقل هذه الأجواء المعنوية برمتها من لسان إلى لسان، بل يتعذر أحياناً التفريق بين المعاني والأساليب التي هي مفرغة فيها، لتمازجها تمازج الروح والجسد

ويبلغ الأدب كماله حيث يسود القصد والاعتدال بين اللفظ والمعنى، فإذا استبد المعنى بالأهمية كلها وتحيف اللفظ خرج الأثر المنشأ من حظيرة الأدب إلى حيز العلم؛ وإذا تحيف اللفظ المعنى وصار غاية في ذاته هبطت قيمة الأثر الأدبي، وأصبح أشبه بالزخرف

والصناعة منه بالفن السامي. ويغلب الاحتفاء بالزخرف اللفظي في عهد طفولة الأدب، إذ يكون الشعر مجرد أهازيج وقواف موسيقية تافهة المعانى، وفي عهود انحطاط الأدب حين ينصرف الأدباء عن لباب الحياة إلى القشور؛ وبالزخرف اللفظي والبراعة اللغوية والأسجاع والإيقاع الموسيقي يكلف الأديب الناشئ أول عهده بالأدب، وكلما نضجت نفسه وحصف ذهنه بتجربة الحياة واستيعاب المعارف تحول اهتمامه إلى المعاني والحقائق والتزم اللفظ في آثاره منزلته الصحيحة، وهي كونه وسيلة للمعنى لا غاية في ذاته

وقد عرف أقطاب الأدب الإنجليزي بواسع بصرهم بأسرار لغتهم، وإليهم يرجع فضل توطئة جوانبها وتعبيد مسالكها، ولكل منهم في هذا الباب أثر: فشكسبير قد استخدم في رواياته أكبر عدد من مفردات اللغة استخدمه أديب، وصرف تلك المفردات على شتى الوجوه؛ وسبنسر أعنى اللغة بما أدخل فيها من ألفاظ جديدة لم تعرفها قبله؛ وملتون أصبح اسمه علماً على ضرب من النظم عذب الموسيقى فخم الرنين؛ وبوب بلغ الغاية من إحكام الصناعة وجزالة الأسلوب؛ ووردزورث كان دائم التجارب في الأساليب يحاول أن يشق للشعر أسلوباً جديداً؛ وتنيسون تفنن في استخدام الألفاظ وتحوير التراكيب يؤلف بها روائع الصور الشعرية، ولا تزال مخطوطات بعض أولئك الأدباء موضع دراسة النقاد والأدباء، يتفقهون بها في أسرار اللغة ويزدادون بصراً بخصائص الألفاظ والتراكيب، ويرون كيف يحل لفظ محل لفظ فتشرق به ديباجة البيت من الشعر ويسفر به وجه المعنى جميلاً بعد خفاء والتياث

على أن أولئك الأدباء برغم احتفائهم بالأسلوب ذلك الاحتفاء لم يغلبوه على المعنى ولم يجعلوه غاية في ذاته، ولم يصبح الأدب في أيديهم براعة في اللفظ وتأنقاً في النسج، بل ظل اللفظ لديهم دائماً خادماً للمعنى، وظل غرضهم الأول من الإنشاء الإفصاح عن الفكر والشعور. ولم يسرف الأدباء في الاحتفاء باللفظ إلا في عهد انحطاط الشعر في بعض القرن الثامن عشر، في حقبة لم تنجب شاعراً كبيراً، ولم يحض بالشهرة في حياته والذكر بعد موته من أدباء الإنجليزية إلا من أهلته لذلك نظرة في الحياة صادقة عميقة، ولم تكن كل بضاعته أسلوباً مزخرفاً، منمقاً، بل عرف من كبار الشعراء من لم يكن يولي أسلوبه كبير احتفاء، ومع ذلك رفعه فكره الجوال في آفاق الحياة، ونفسيته الجياشة بأشتات

الأحاسيس إلى قمة المجد، فبيرون كان كما قال عن نفسه لا يعاود النظر في بيت شعر خطه، ووردزورث نظم كثيراً من بدائع شعره في أبسط لفظ يستعمل في النثر

والتحدث، وهاردي لم يكن شعره إلا نثراً جيد النظم عارياً مجرداً من تلك الألفاظ الشعرية ذات الأجواء المعنوية، ومن ثم لا يسمو به النقاد إلى طبقة الفحول كشكسبير وملتون، بل ينزلونه الطبقة الثانية بين الشعراء، وهذا الأسلوب العاري المجرد يزداد شيوعاً في العصر الحديث

أما في العربية فكان الأمر على نقيض ذلك: فلم يكد يكون بين كبار أدبائها بعد دخول الأدب طوره الفني من أهمل الأسلوب واحتفى بالمعنى وحده، وإن كان أكثرهم ليقدم الأسلوب على المعنى ويحتفي للفظ ورنينه أي احتفاء وإن تضاءل المعنى وتفه، فإذا كان النثر العربي يبلغ ذروته من الكمال على أيدي ابن المقفع والجاحظ، والشعر العربي يجري إلى غايته في آثار المتنبي وابن الرومي والمعري، حيث يجتمع صدق النظرة وجمال الأسلوب فإن غيرهم من مشهوري أدباء العربية إنما نبه ذكرهم لبلاغتهم اللفظية، لا لفلسفة في الحياة معدودة، ولا لرسالة في الأدب عتيدة. ومن أولئك البحتري ومن نحا نحوه من الشعراء والمداحين، والصاحب ابن عباد ومن سلك دربه من المنشئين المسجعين؛ فالناظر في الأبيات الآتية من نظم أشهر شعراء العربية، يرى أن حظها من المعنى ضئيل ونصيبها من جزالة الأسلوب ورنين اللفظ وعذوبة الموسيقى كبير، قال أبو نواس في مدح بعض الوزراء:

عباس عباس إذا احتدم الوغى ... والفضل فضل والربيع ربيع

وقال البحتري في النسيب:

لما مشين بذي الأراك تشابهت ... أعطاف قضبان به وقدود

ومتى يساعدنا الوصال ودهرنا ... يومان يوم نوى ويوم صدود

وقال أبو تمام في رثاء طفلين:

مازالت الأيام تخبر جاهلاً ... أن سوف تفجع مسهلاً أو عاقلا

بدران شاء الله أن لا يطلعا ... إلا ارتداد الطرف حتى يأفلا

إن الفجيعة بالرياض نواضرا ... لأجل منها بالرياض ذوابلا

نصيب هذه الأبيات جميعها من الفكرة البعيدة أو النظرة المستقلة أو الشعور الصميم ضئيل. وماذا في قول أبي نواس إن العباس عباس والفضل فضل والربيع ربيع، إلا إنه ظرف وأحسن نظم تلك الأسماء مزدوجة في سلك البيت؟ وأي الناس لا يعبس إذا احتدم الوغى؟ ولو قال: عباس بسام لكان وصفه بالشجاعة التي لا تحفل بالموت المحدق. ثم ماذا من جديد في جمع البحتري بين الغصون والقدود وشكواه النوى والصدود، أو في تشبيه أبي تمام للطفلين بالبدرين الآفلين مرة وبالروضين المصوحين أخرى؟ إنما فضيلة هذا الشعر كله حسن اختيار اللفظ النقي وجمال الموسيقى ولطافة التقسيم والمقابلة، أما المعنى فلا عمق فيه ولا ابتكار

فالاحتفاء باللفظ ولو على حساب المعنى قد تزايد في العربية تدريجاً مع دخول الأدب طوره الفني، طور التدوين والتجويد، وتزايد الولع بالتسجيع والمطابقة وغيرهما من المحسنات اللفظية. وكاد الولع بالسجع عند الصاحب بن عباد فيما روي يبلغ حد الجنون، حتى قيل إنه عزل قاضياً بناحية يقال لها (قم) لأنه أراد أن يتم سجعة فقال: أيها القاضي بقم، قد عزلناك فقم. وتكلف في بعض أسفاره كما حدث عنه ابن العميد أن يذهب إلى قرية غامرة ذات ماء ملح يقال لها النوبهار لا لشيء إلا ليكتب إليه: كتابي هذا من النوبهار، يوم السبت نصف النهار، ومازال اللفظ يستبد باحتفال الأدباء ويطغى على المعنى، حتى ارتد الأدب في عصور التدهور زخرفاً لفظياً صرفاً، ولم يبق من المعنى إلا هذيان كهذيان المخالطين

فلا نبالغ إذا قلنا إن المعنى كان في أزهر عصور الأدب العربي يحتل المكان الثاني بعد اللفظ، وهذا واضح في أقوال النقاد. قال الآمدي في موازنته بين الطائيين: (وليس الشعر عند أهل العلم به إلا حسن التأني وقرب المأخذ واختيار الكلام ووضع الألفاظ في مواضعها. . . . فإن اتفق مع هذا معنى لطيف أو حكمة غريبة أو أدب حسن فذلك زائد في بهاء الكلام، وإن لم يتفق فقد قام الكلام بنفسه واستغنى عما سواه). وقال الخليلي في سياق حديث له أورده ياقوت في ترجمة الصاحب بن عباد: (الشاعر يطلب لفظاً حراً ومعنى بديعاً ونظماً حلواً وكلمة رشيقة ومثلاً سهلاً ووزناً مقبولاً)، فكل الاهتمام هنا موجه إلى لطافة النسج والتجويد لا إلى عمق الفكرة والشعور

كان الشعراء في الجاهلية وصدر الإسلام يرسلون القول على سجيته في نسج محكم يرمون به إلى بيان أفكارهم وشعورهم على أقصد سبيل وأقربه، فلما كان عهد التحضر والتثقف أحاطت بالأدب عوامل أدت إلى تقديم اللفظ على المعنى، منها فساد اللغة بمخالطة الأعاجم فاشتد الحرص على طلب اللغة الصحيحة وإتقان أساليب العرب الأقحاح وتقليد فحول المتقدمين. وزاد هذا الحرص شدة اشتغال الأعاجم أنفسهم بالأدب وجدهم في تحصيل لغة العرب ولسان الكتاب المنزل، وسبقهم في العلوم والتأليف، وتفاصحهم بمحاكاة أدب الجاهلية وصدر الإسلام، وتظاهرهم بالقدرة على التصرف في الألفاظ والتراكيب، فكان همهم صحة التعبير وبلاغته قبل صدق المعنى وعمقه

ومما زاد الأدباء انصرافاً إلى اللفظ وتجويده واختيار الأسلوب والافتتان في صياغته وتحويره، انتشار المدح والتكسب بالأدب، فإنه لما كانت الفضائل الإنسانية، ولاسيما تلك التي كانت مشهورة مطلوبة في المجتمع الإسلامي، محدودة معروفة، كان مجال القول فيها محدوداً ومجال الابتكار ضيقاً، فطلب الشعراء المداحون السعة في جانب اللفظ، يتأنقون في تزويقه وترصيعه، ويعتاضون عن الابتكار في المعاني بالأوزان الرشيقة والقوافي الرخيمة والتشبيهات اللبيقة، والتقسيم والمقابلة والسجع والتجنيس. وبهذه المحسنات البديعية - ما راق منها وما سمج - تحفل مدائح أبي نواس وأبي تمام والبحتري والمتنبي وابن الرومي، إذا جردت من زيناتها اللفظية لم يبق من نسيبها الاستهلالي ومدحها المغرق شئ ذو بال؛ من ذلك قول أبي تمام في مدح بعض القواد، ولا داعي لذكر اسم ذلك القائد أو صفته، فما كان لكل ذلك أي دخل في نظم مثل ذلك القصيد:

وجرد من آرائه حين أضرمت ... به الحرب حداً مثل حد المناصل

وسارت به بين القنابل والقنا ... عزائم كانت كالقنا والقنابل

وقد ظللت عقبان أعلامه ضحى ... بعقبان طير في الدماء نواهل

فكل هذه المعاني الدائرة حول شجاعة القائد وأمرائه التي تفوق الجيوش، وعزائمه التي تفل السيوف، والعقبان التي تتبع أعلامه لتنهل من دماء أعدائه، كل هذه المعاني مطروقة من قبل أبي تمام، مذكورة بعده في ميمية المتنبي المشهورة وغيره من مدائحه لسيف الدولة، ولا غرو فقد غدت أكثر معاني الأدب في أبواب المدح والهجاء والفخر والوصف والحكمة

وغيرها، تراثاً متداولاً بين الشعراء من جيل إلى جيل، إذا تفنن الشاعر صاغ بعضه صياغة جديدة أو ولد منه بعض التوليد، فإذا اتفق له أن صاغ معنى قديماً صياغة جديدة يفوق صياغة صاحبه الأول صفق له النقاد وقالوا سرقة مغفورة ولص ظريف هو أولى بالمعنى من صاحبه لأنه أجود لفظاً، كما قيل في بيت البحتري في مدح المتوكل:

فلو أن مشتاقاً تكلف فوق ما ... في وسعه لمشى إليك المنبر

أخذه وتصرف فيه من قول أبي تمام:

تكاد مغانيه تهش عراصها ... فتركب من شوق إلى كل راكب

كان الشعراء إذا صرفوا القول إلى المديح أتوا بالمعاني الجوفاء الهزيلة، واحتفوا باللفظ يدارون بزخارفه ركاكة المعنى، وكان أكبر شعراء العربية في طور الأدب الفني مداحين، فامتلأ الأدب العربي بذلك الضرب السقيم المعاني الطنان الألفاظ؛ وإنما كان الشعراء يبتكرون المعاني الجيدة يلبسونها من اللفظ أجمل لبوس حين ينظمون في غير المديح من الوجوه التي يدفع إلى النظم فيها شعور صحيح وفكر ثاقب، فكانت من ذلك حكم المتنبي وأوصاف ابن الرومي ونظرات المعري، كما ظهرت في الأدب العربي تلك الظاهرة الفريدة، وهي أن أشعار كثير من المقلين وممن يعدون في الطبقة الثانية من الشعراء كالصولي والإمام الشافعي، تروع النفس بصدقها وحصافتها، أكثر مما تروعها أشعار المكثرين المشهورين، لأن أولئك المقلين كانوا لا ينظمون الشعر إلا تلبية لحافز نفسي، وهؤلاء المكثرين كانوا ينظمون ابتغاء التوال

ومن عوامل احتفاء أدباء العربية باللفظ أيضاً، أن الأدب العربي في ظل الدولة الإسلامية كان أكبره أدباً بلاطياً وأرستقراطياً، مكفوفاً عن شؤون المجتمع، منزوياً عن أكثر مواضيع القول ومجالات الفن ومسارح الأدب، من وصف الطبيعة والتأليف التاريخي الفني ووصف آثار الأقدمين في عالم الحضارة والفنون، وسبحات الخيال في

عوالم الحقيقة والخرافة، وتصوير آثار الرحلات والمغامرات، فلما حرم الأدب طرق هذه المواضيع الجمة الخصبة الحافلة بمنادح التفكير والشعور والقول، لم يبق لديه كبير مجال للابتكار في المعاني، فتوفر على الافتنان في الألفاظ يدور بها في مجالاته المحدودة الموروثة عن المتقدمين.

وزاد مجال القول ضيقاً حرمان الأدب العربي من الاطلاع على الأدب اليوناني؛ فلو كان على اتصال مستمر بذلك الأدب، لتمهدت أمامه منادح للقول من جهة، ولانصرف اهتمامه من جهة أخرى إلى المعاني دون الألفاظ، لأن المعاني دون الألفاظ هي التي تتشارك فيها آداب الأمم المختلفة، أما أدباء العربية الذين لم يطلعوا على أدب أجنبي راق، فكان اعتدادهم بتفوق اللغة العربية على اللغات شديداً، وكانت ألفاظها وتعبيراتها تقوم في مخيلتهم مقام الحقائق المتحجرة، وكان التجويد في استخدام تلك الألفاظ والتعبيرات في الأبواب المطروقة من قديم غاية الأديب، فظل بيت زهير بن أبي سلمى الذي قاله في عهد البداوة، يصدق على شعراء العربية في أوج عهد الحضارة والثقافة:

ما أرانا نقول إلا معاراً ... أو معاداً من قولنا مكروراً

ثم لاشك في أن حياة الترف وزخارف العيش التي انغمس فيها العرب بعد الفتوح، وأبهة البلاط التي كان الأدباء يحومون حولها ويتزاحمون في مواكبها، كانت من أسباب شيوع الزخرف في الأدب الذي هو مرآة للحياة المحيطة به، فإذا كان الأدب الفارسي قد كان في ذلك العهد من الضآلة بحيث لم يؤثر كثيراً في أدب العرب، فقد أثر الفرس في الأدب العربي بمظاهر الترف والبذخ المادية التي نقلها عنهم العباسيون وتركت آثارها في الأدب، وهذا الترف الأدبي كالترف المادي دليل الرخاوة والضعف، والسير إلى الانحلال.

وقد ساعدت طبيعة اللغة العربية ذلك الميل الذي غلب على أدبائها، الميل إلى التأنق في اللفظ، وتثقيله بالمحسنات التي ينوء المعنى تحتها ويتضاءل، وذلك لما للغة العربية من بلاغة أصيلة وموسيقى فخمة، وما لألفاظها وتراكيبها في النفوس من روعة وبهاء، وما لأوزان الشعر العربي وقوافيه من رصانة وجلال، وما للغة من ثروة طائلة وغنى بطرق الاشتقاق وامتلاء بالمترادفات، واتساع لصنوف التشبيهات والمجازات، بحيث يستطيع المتمكن من كل هذا أن يجمع حوله المستجيدين ويستولي على الألباب، دون أن يبتدع في المعنى أو يتعمق في الشعور. كما تصرفك عذوبة اللحن الموسيقي عن تفاهة المعنى المتغنى به؛ وقد استغل كتاب العربية كابن العميد والصاحب والبديع والحريري ثروة اللغة هذه أبعد استغلال، وجاءت رسائلهم ومقاماتهم معارض مائجة بتلك الكنوز العظيمة

ففي الأدبين العربي والإنجليزي آثار بالغة حد الفن من الصدق والعمق والجمال، تجمع بين حرارة الشعور وجودة الأسلوب؛ غير أن الأدب العربي لإحاطة تلك الظروف والعوامل به،

أحفل من الأدب الإنجليزي بالآثار التي يغلب فيها اللفظ على المعنى، وتظهر الصنعة على الطبع، وتبدو في دلائل الاحتفاء بالأسلوب واضحة، حتى في مخلفات أكبر أدبائه وأعظمهم حظاً من النبوغ والشاعرية. ويعد بين أقطابه أفراد لم تؤثر عنهم فلسفة في الحياة خاصة أو شخصية مستقلة، ولم يرفع ذكرهم إلا اقتدارهم على تصريف الكلام، ويمتلئ الأدب بآثار أولئك الأدباء التي تعجب بحلاوة أسلوبها وإن لم تعجب بعمق فكرتها، فلسنا نسرف إذا قلنا في الجملة إن الأدب العربي كان أدب أسلوب، والأدب الإنجليزي أدب معنى

فخري أبو السعود

الحياة على الكواكب

للأستاذ قدري حافظ طوقان

لقد خطا علم الفلك خطوات فسيحة أنارت للإنسان وأثارت دهشته وأذهلته وأصبح بفضل ما اخترعه من الآلات الدقيقة ومن جمعه بين مبادئ العلوم الطبيعية والكيماوية واستعانته بالرياضيات ومعادلاتها من معقدة وغير معقدة، أقول بفضل هذا كله استطاع العلماء أن يجلوا بعض المشكلات وأن يتفهموا بعض أسرار الكون.

من كان يتصور أن الإنسان يستطيع أن يعرف شيئاً عن تريب الشمس والأجرام

السماوية، حتى الفيلسوف (كنت) وهو العالم ذو النظر الواسع والبصيرة النافذة لم يخطر على باله أن الإنسان سيصل إلى ما وصل إليه في علم الأفلاك فقال: (سيبقى الإنسان جاهلاً حقيقة تركيب الشموس ومعرفة عناصرها.) أما الآن فبفضل المختبرات والمراصد وما تحويه من آلات ومعدات عرف الإنسان بعض الشيء عن النجوم والكواكب والعناصر التي تتألف منها ووقف على خصائصها وقاس حرارتها.

لقد ثبت للعلماء من دراساتهم للأجرام السماوية أنه ما من عنصر موجود في تركيب هذه الأجرام إلا وفي الأرض ما يقابله، وأن الذرة بكهاربها وبروتوناتها وحركات هذه حول بعضها وحول الكهارب تشبه النظام الشمسي والنظم الشمسية الأخرى، أي إن الكون الأعظم يتألف من أكوان أخرى متشابهة في التركيب والبناء، وأن هناك تناسقاً ووحدة مادية كونية، فالنجوم والجزر الكونية، والشهب والنيازك والمذنبات وغيرها - كل هذه تتركب من العناصر الكيمياوية التي نعرفها وأن هناك قوانين تسودها ونواميس تسيطر عليها وعلى حركاتها، وأنه ما من شئ إلا يسير في دائرة من الأنظمة لا يتعداها ولا يشذ عنها؛ ولكن على الرغم من هذا كله ومن وقوف الإنسان على بعض الحقائق عن الكون لا يزال هناك أبواب مغلقة يحتاج فتحها إلى تعمق وجهود متواصلة. ومن الغريب أن الإنسان كلما تقدم في البحث انفتحت أمامه أبواب جديدة من المعرفة وزاد اعتقاداً بضآلته وإيماناً بأنه لا يزال على عتبة اليقظة العقلية.

وهناك أسئلة لم يستطع أحد الإجابة عليها؛ ويظهر أن أمام هذه الأسئلة صعوبات وعقبات لا يزال العلماء يجاهدون للتغلب عليها واقتحامها بما يكتشفونه من قوانين ونواميس، ومما يخترعونه من آلات وأدوات. وقد يكون السؤال الآتي من أكثر الأسئلة التي شغلت الناس وعلماء الفلك على السواء. هل يوجد في الأجرام السماوية أو في بعضها حياة كحياتنا؟ أم هل في الكون عوالم مسكونة غير الأرض؟ وعلى الرغم من معرفة الإنسان كثيراً عن خصائص الكواكب والنجوم فإنه لم يستطع أن يصل في مسألة (سكنى الكواكب) إلى نتيجة قاطعة. ويعود السبب في ذلك إلى عوامل عديدة أهمها: عدم تمكن الإنسان من اختراع آلات يستطيع أن يعرف بوساطتها وجود حياة على الأجرام السماوية. فقد يكون في بعض الأجرام حياة، وقد لا يكون؛ وقد تكون الحياة عليها من نوع لا نعرف كنهه أو ندرك حقيقته. وبحثنا الآن يدور حول الحياة على الكواكب التابعة للنظام الشمسي؛ ونعني بالحياة الحياة التي تماثل الحياة على سطح الأرض ولا شأن لنا بغيرها إن كان في الوجود أحياء أو حياة من طراز آخر. فالأرض كما لا يخفى هي بنت الشمس وهي أحد أفراد الأسرة الشمسية تدور حول أمها (الشمس) كما يدور أيضاً بقية شقيقاتها (السيارات).

وهذه السيارات، بما فيها الأرض، انفصلت عن الشمس ثم كونت كل واحدة منها فلكاً تدور عليه. وقد مرت ملايين السنين قبل أن أصبحت الأرض في حالة صالحة لظهور الحياة عليها. ولابد أن التطورات التي مرت عليها الأرض مرت (وتمر) على سيارات أخرى، وقد أدت (وتؤدي) إلى نفس النتيجة على غيرها من الأجرام، ولكن باستطاعة العلم من دراسة بعض السيارات أن يجزم بأن التطورات عليها لم تصل إلى درجة يصلح معها ظهور حياة أو أحياء.

فإذا أخذنا عطارد وهو أقرب السيارات إلى الشمس نجد أنه لا يحيط به جو وكذلك للسيار بلوتو (وهو أبعد السيارات المعروفة عن الشمس) لا يحيط به جو. وهذان السياران صغيرا الجرم إلى درجة أن جاذبيتهما لا تستطيع أن تحتفظ بالذرات الهوائية التي تفلت وتخرج إلى حيث الجاذبية أقوى. وينتج عن هذا عدم وجود أجواء على الأجرام الصغيرة.

أما المشتري وزحل فحول كل منهما غلاف جوي يمتد إلى آلاف الأميال؛ ويحدث هذا الغلاف ضغطاً عظيماً إلى درجة أن الغازات لا تستطيع تحت تأثيره أن تبقى في حالة غازية بل لابد لها من أن تتميع.

ويرجع السبب في وجود هذا الغلاف الجوي حول هذين الكوكبين وحول أورانوس ونبتون أيضاً إلى كبر أجرامهما. فكلما كان جرم الكوكب كبيراً استطاع (بفضل قوة جاذبيته) أن يحتفظ بالغازات حوله ومنعها من الانفلات.

وعلى ذكر أورانوس ونبتون نقول إن البرودة عليهما أشد من البرودة على زحل والمشتري، ويحتوي غلافهما الخارجي على غاز المستنقعات أكثر مما يحتوي على غاز النشادر. ويعلل العلماء ذلك بأن النشادر لا يبقى في حالة غازية في برودة كالبرودة الموجودة على أورانوس ونبتون.

يتبين مما مر أنه لا يمكن أن تكون بيئة هذه الكواكب الستة صالحة لظهور الحياة عليها، إذ كيف يمكن أن تكون صالحة وبعضها خال من الهواء والبعض الآخر محاط بالأجواء التي تمتد إلى آلاف الأميال محدثة من الضغط ما يستحيل معه وجود أحياء أو حياة. بقي علينا أن نبحث عن الزهرة والمريخ وهما الكوكبان اللذان نجد فيهما بيئة أصلح من غيرهما لظهور الحياة أو لسكنى الأحياء على سطحهما. فالزهرة يحيط بها جو ملئ بالغيوم حتى يصعب رؤية سطحها من ورائه؛ ولم يستطع العلماء أن يتأكدوا من وجود أوكسجين أو بخار ماء؛ ولكن ثبت لديهم وجود ثاني أوكسيد الكربون بكميات كبيرة تفوق الكميات الموجودة في جو الأرض. وثبت للفلكيين من دراسة هذا الكوكب أنه أصلح من غيره من حيث إمكان ظهور حياة عليه، فليس هناك من العوامل الطبيعية والجوية ما يجعل عليه الحياة مستحيلة.

وأما المريخ فقد شغل الناس وشغل علماء الفلك أكثر من أي جرم سماوي آخر؛ واختلفت الأقوال فيه وفي خصائصه ومميزاته، وكثر التحدث عن هذه الأقوال، وراحت الصحف والمجلات تكتب عنه كأنه مسكون، وراحت تصف سكانه وأحوال معيشتهم فقال بعضهم إن سكانه احتفروا ترعاً لري مزروعاتهم، ترعاً هي في الإتقان غاية في البناء آية يعجز أهل الأرض عن محاكاتها وعن الإتيان بمثلها ولو اجتمعوا لذلك والمريخ أكبر من القمر وأصغر من الأرض، تشرق عليه الشمس كما تشرق على الأرض وتعطيه نوراً وحرارة. ويقول السر روبرت بول: (إن صغر كوكب المريخ يزيد صلاحيته لإقامة الأحياء التي لها حركات مستقلة؛ فثقل الأجسام على سطح المريخ أقل من ثقلها على الأرض، حتى إذا أردت الطيران مثلاً لم تجد فيه من الصعوبة ما تجده فوق سطح الأرض) وهو الذي يقول أيضاً (والمريخ من حيث جرمه ليس فيه ما يمنع كونه داراً للأحياء. . .) وعلل البعض الظاهر التي تحدث في فصل الشتاء بأن بقعاً بيضاء تتكون على كل من قطبيه ثم تضيق هذه البقع بالتدريج حينما يقرب فصل الصيف. وقال آخرون إن في المريخ ماء، وإن هذا الماء يتجمد ويصير ثلجاً عند القطبين. وهناك من العلماء من ينفي هذه الأقوال ويقول إنها من وحي الخيال.

وليس في المريخ بحور واسعة كبحور الأرض، فسطحه بر لا بحر فيه، يتعاقب عليه الليل والنهار كما يتعاقبان على الأرض؛ ويومه أطول بقليل من يوم الأرض، وله غلاف من الهواء يحيط به، ولكنه لطيف جداً بالنسبة إلى هواء الأرض، وهو يتركب من الأوكسجين وبخار الماء، ولاشك أن كمية الأوكسجين الموجودة في جو المريخ أقل بكثير من الكمية الموجودة في جو الأرض. وقد يتبادر إلى ذهن القارئ أنه مادام الأمر كذلك (أي قلة الأوكسجين) فلا مجال لظهور الحياة عليه، ولكننا نقابل ما تبادر إلى الذهن بالقول أن الأحياء الأرضية وجدت الأكسجين فاستخلصته بالانتخاب الطبيعي لأنه أصلح من غيره لتوليد القوة باتحاده مع الكربون، أي أن الأحياء تهيئ نفسها للأحوال التي توجد فيها، وعلى هذا فلسنا في وضع نستطيع معه الجزم بأن كمية معينة من الأوكسجين، أو أن الأوكسجين ضروري للحياة لا غنى لها عنه، فقد تكيف هذه الأحياء نفسها إلى الوضع الذي توجد فيه، وتستخدمه لما فيه نفعها واستمرار حياتها ويقول الأستاذ (لول) وهو الذي درس المريخ أكثر من غيره وإليه ترجع أكثر معلوماتنا عنه - يقول إن سكان المريخ أرقى من سكان الأرض، ويستدل على ذلك بهندسة الأقنية العجيبة (الموجودة على المريخ)، ويجد في صنعها المثير للإعجاب ما يؤيد رأيه وأقواله

وعلى فرض وجود أحياء على سطح المريخ فصغر جرمه وما ينتج عن ذلك من ضعف للجاذبية - كل هذا يقضي بأن تكون تلك الأحياء كبيرة الحجم بالنسبة إلى الأحياء الموجودة على سطح الأرض، كما إن كبر جرم الكوكب يقضي بوجود أحياء (إن كان ثمة حياة) صغيرة الجرم. . .

وعلى العموم فالزهرة والمريخ أصلح الكواكب لسكنى الأحياء عليهما، وليس هناك من العوامل ما يمنع وجود حياة كحياتنا على سطحهما؛ وحالة الزهرة الآن هي الحالة التي كانت عليها الأرض قبل ملايين السنين، كما إن حالة الأرض بعد ملايين السنين ستكون مشابهة لحالة المريخ الآن؛ إذ يقل الأوكسجين وتقل الحرارة التي تأتيها من الشمس.

وقد يكون هذا هو السبب في تعليل تفوق سكان المريخ (إن كان في المريخ حياة) على سكان الأرض؛ وقد يكون أيضاً هو السبب الذي دفع البعض إلى تعليل تقدم سكان المريخ في الحضارة ووسائل الرفاهية والمهارة في البناء والإنشاء.

والآن. . . وقد أنهينا الكلام عن الكواكب التابعة للنظام الشمسي نقول إن في الكون نجوماً وشموساً لا عدّ لها، ولهذه كواكبها وما يتبعها من مذنبات وشهب ونيازك. ولقد دلت المراصد على وجود 75 مليوناً من العوالم التي تشبه عالمنا، وآلاف الملايين من النجوم. وكلما تقدم الإنسان دقة في آلات الرصد تجلى له اتساع الكون بصورة أوضح وأجلى، وثبت له أن ما كشفه من الكون إن هو إلا جزء ضئيل جداً مما لم يستطع اكتشافه بعد. فكون هذه حالته وهذا اتساعه لمن الطبيعي أن يكون في من الكواكب ما اجتاز (ويجتاز) الأدوار التي مرت (وتمر) على الأرض. ومن المحتمل جداً أن تكون بيئة بعض هذه الكواكب صالحة لسكنى أحياء أو ظهور حياة عليها

وأخيراً إذا سئلت عن رأيي في مسألة الحياة على الكواكب لاكتفيت بالجواب الآتي: ليس الغريب أن تكون بعض الأجرام السماوية مسكونة وعامرة بالأحياء، بل الغريب ألا تكون كذلك

قدري حافظ طوقان

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

الديانة المصرية - الحياة الآخرة

اعتقد المصريون منذ أقدم عصورهم بخلود الروح وبأن هناك حياة آخرة يجازى فيها المحسن على إحسانه والمسيء على إساءته. والمنطق الذي استندوا إليه في هذه العقيدة، هو أن هذه الحياة الدنيا مزيج من الخيرات والشرور، وأن المشاهد أن هذه الفترة القصيرة التي يعيشها الإنسان على الأرض، ليست جديرة بتحقيق مكافآت الأخيار، ولا عقوبات الأشرار. وإذن فالمنطق يقفنا أمام أمرين لا ثالث لهما، وهما: إما أن تكون هناك حياة أخرى يوفى فيها الأخيار والأشرار جزاء أعمالهم في دقة وعدالة، وإما أن ينتهي كل شئ بمجرد انتهاء هذه الحياة. وفي هذه الحالة الأخيرة لا يتحقق تقدير الفضيلة والرذيلة، ولا يمتاز الخير عن الشر بأية ميزة. وبذلك تنتفي عن الإله صفة العدالة، وما انتفت عنه هذه الصفة لحقه النقص، ومتى لحقه النقص فقد انهارت ألوهيته من أساسها، وإذن فالحياة الأخرى من لوازم الألوهية نفسها

أما طريق معرفة الخيّر من الشرير فهي أن يؤتى بأعمال كل منهما الدنيوية المقيدة في سجل أمين لم يدع منها كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها، ثم يجلس المسئول أمام محكمة (أوزيريس) الذي نكتفي أن نسوق إليك في وصفها ما كتبه الأستاذ (بريستيد): (وتتكون محكمة أوزيريس في عقيدة القوم من اثنين وأربعين قاضياً يجلسون أمام المعبود كالزبانية يمثل كل منهم قسماً من أقسام مصر، فإذا دخل المتوفى أمام المحكمة وأنكر أمام كل قاض إثماً من آثامه، يوزن قلبه في ميزان مقابل ريشة العدالة، للتأكد من صدق قوله، أما الآثام التي يتبرأ منها الميت أمام محكمة أوزيريس فهي بعينها الآثام المستهجنة في عهدنا هذا. وهاك بياناً موجزاً لتلك الآثام: السرقة، والقتل، والاختلاس (وبالأخص السلب)، والكذب، والخداع، وشهادة الزور، والرياء والتنابذ بالألقاب والتجسس، وعدم الاعتدال في الأمور الجنسية، وامتهان كرامة المعبودات أو الأموات كالكفر بهم، وسرقة أمتعة الموتى.

ومن هذه القائمة يستدل على عظم الرادع النفسي عند المصريين وقتئذ استنكاراً للمنكرات. وعليه فالمصريون هم أول قوم اعتقدوا برتب الحياة الأخروية على الحياة الدنيوية. ويرجع هذا الاعتقاد في الحقيقة إلى المملكة القديمة. والغريب أن هذه العقيدة انحصرت في المصريين أكثر من ألف سنة في حين أن البابليين والإسرائيليين

اعتقدوا أن انتقال الموتى عموماً إلى سقر المعرفة باسم (شول) واعتقد المصريون أن الأموات الذين تحكم عليهم محكمة أوزيريس بالإجرام يعرضون للجوع والعطش ويحجزون في أماكن مظلمة لا يبصرون فيها ضوء الشمس. وفي المحكمة طريق أخرى للقصاص، منها حيوان بشع له رأس تمساح ومقدم أسد ومؤخر دب البحر يفترس المجرمين الآثمين. وأخذت آراء القوم في عهد المملكة الوسطى تحوم حول تطهير النفس من المعاصي والمظاهر التماساً للبراءة بعد الوفاة وتجنباً للعقاب الأليم، فأصبحت ترى الكثير من نقوش شواهد القبور شديدة الشبه بما ألمعنا إليه في عهد المملكة القديمة، وهي تتلخص في أن الميت يطعم الجوعان ويروي الضمآن ويكسو العريان وينقل في سفينته من ليس له سفينة. وجاء على بعض الشواهد أن المتوفى كان أبا اليتيم وزوج الأرملة وملجأ الذي لا ملجأ له مما أشرنا إليه حين تكلمنا على كرم وسخاء حكام الأقسام والشخص الذي تبرئه الحكمة أوزيريس تلقبه بالرجل الطاهر (العادل أو صادق القول أو المنتصر

فإذا فرغ (توت) - وهو الذي تصوره لنا الآثار حاملاً الميزان في يده - من مهمته أمر بهذا المسئول فيساق إلى ذلك الصراط المخوف الذي مد فوق الجحيم والذي إذا اجتازه الشخص نجا وارتقى إلى جوار الآلهة والفراعنة الأبرار، وإذا هوى من فوقه سقط في واد سحيق ممتلئ بالأفاعي والحيات التي تتولى تعذيبه بقسوة حتى ينال قسطه من الجزاء

ومن الغريب أن المصريين مع إيمانهم بهذه العدالة الصارمة في الحساب ووزن الأعمال كانوا يعتقدون أن تلاوة الرقى والتعاويذ وكتابتها على تابوت الميت أو على حوائط قبره تستطيع أن تنفعه أمام محكمة أوزيريس فتزيد في نعيمه وتخفف من عذابه، وهذا هو معنى قول المحدثين: (الرحمة فوق العدل). وقد كتبت هذه التعاويذ في كتاب (الموتى) وكتاب توت الذي ألمعنا إليه آنفاً.

عقائد وطقوس دينية

اعتقد المصريون - كما أسلفنا - بالبعث والحشر والحساب على الأعمال والميزان والصراط والنعيم والجحيم، وآمنوا كذلك بأن هذا النعيم درجات، أدناها المتع المادية، وأعلاها الذهاب إلى جوار الآلهة أو الصعود بواسطة السلم الإلهي من مملكة الموتى إلى مملكة (رع) حيث يقيم الصالحون والمقربون مقاماً أبدياً لا مرض فيه ولا تعب ولا موت ولا فناء. واعتقدوا أن في الجحيم كذلك درجات بعضها خفيف وبعضها قاس، وأن بها ثعابين وحيات وتنينات تتولى تعذيب الآثمين بقدر ما يرسم لها إله الجحيم.

هذا كله في الآخرة، أما في الدنيا فمن طقوسهم الدينية أنه إذا مات الميت يجب أن يغسل بالماء النقي وأن يكفن ويدفن بعد أن يلقنه الكاهن ما كانوا يسمونه بالرقى المنجية التي تحميه في القبر من الأرواح الشريرة وتكفل له في الآخرة رحمة الآلهة، وأن تكتب تعاويذ (توت) على تابوته وجدران قبره إن كان من ذوي الحيثيات كأن يكون ملكاً أو أميراً أو كاهناً أو وزيراً أو موظفاً كبيراً أو أديباً أو طبيباً مثلاً، أما إن كان من أبناء الطبقات الدنيا، فإن هذه التعاويذ تكتب على كفنه أو في ورقة بردية تدفن معه.

ومن هذه الطقوس أيضاً تضحية الحيوانات على قبر المائت ووضع بعض لحومها مع الخبز والماء والفاكهة والنبيذ في داخل القبر، وأن يتولى تقديم هذه الضحايا أحد الكهنة، ليتقبلها أوزيريس فيضمن أهل الميت بهذا القبول لمتوفاهم الرحمة والغفران

رأى بعض الباحثين الغربيين أن هذه العقائد الفرعونية من: بعث وحشر ووزن وثواب وعقاب ونعيم، بعضه مادي وبعضه معنوي، وعذاب يتفاوت بتفاوت درجات الآثام والشرور، وأن تلك الطقوس الوثنية من: غسل الميت وتكفينه وتلقينه ودفنه ونحر الضحايا بمناسبة موته، كل هذا يوجد بحذافيره في بعض الديانات التي تدعي لنفسها السماوية فرموا هذه الديانات الأخيرة باستقائها عقائدها وطقوسها من تلك الديانة الوثنية لا من عند الله كما تدعي

ولست أدري كيف يستسيغ أولئك الباحثون هذا المنطق العجيب مع اعترافهم بالجهل التام للأصول الأولية في الديانة المصرية؛ وما المانع من أن يكون مصدر هذه الأصول المجهولة لديهم هو: السماء، وأن يكون التوثن والتعدد عارضين لها بعد التأليه والتوحيد؟

وفي هذه الحالة يكون من الطبيعي أن تتفق مع الديانات السماوية في جميع العقائد والطقوس التي لم ينلها التحريف؛ ثم ما المانع كذلك من أن تكون تلك الطقوس مستحدثة في الديانة المصرية لا يصعد مبدؤها على سلم التاريخ إلا إلى العهود التي اختلط فيها المصريون بالساميين واقتبسوا منهم بعض طقوسهم الدينية؟ هذه كلها احتمالات جائزة الوقوع، ولكن الذي لاشك فيه هو أن اتفاق ديانة وثنية مع أخرى سماوية لا يقوم برهاناً على أخذ الثانية من الأولى، ولا يصح الاستناد إليه في الحيلولة بينها وبين سماويتها

الأخلاق

آمن المصريون - كما قدمنا - منذ عهود تقصر عن إدراكها مجهودات التاريخ بأن لهذه الأكوان منشئاً أو منشئين خلقوها ونظموها وهم يتولون تصريف شؤونها بحكمة واقتدار وعدالة وإنصاف. ولأمر ما، اقتنع المصريون منذ أقدم عصورهم بأن هؤلاء الآلهة المتصرفين في الأكوان اختاروا في مبدأ الدنيا عرش مصر واتخذوه مقراً لهم يصدرون من فوقه أحكامهم وأوامرهم النافذة التي لا يجرؤ أي فرد من أفراد الوجود على التمرد عليها أو عدم الانصياع لها؛ ثم عن لهؤلاء الآلهة أن يغادروا عرش مصر إلى عرش السماء ففعلوا، ولكن بعد أن استخلفوا على هذا العرش العزيز أبناءهم وأحفادهم الفراعنة العظماء وزودوهم بكل ما يحتاجون إليه في حكمهم للبلاد وسياستهم للدولة وقيادتهم لجميع أنحاء النظم الاجتماعية والأخلاقية التي لا تسير بالبلاد إلا إلى التقدم والعمران، وأن أولئك الآلهة سيلحظون الحاكمين والمحكومين بعنايتهم ويكلئونهم بعين رعايتهم ماداموا يقومون بواجباتهم نحو أولئك الآلهة المحسنين. وكان هذا القيام بالواجب يتلخص في الشعائر الدينية وفي الاتصاف بالفضائل الأخلاقية، وأولها الولاء للعرش والعدالة والصدق والأمانة والرحمة والإحسان وأشباهها

ولا ريب أن هذه الأسطورة - على بطلانها - كانت أقوى العوامل وأهم الأسباب في رقي مصر العمراني، وتماسكها الاجتماعي وجلالها السياسي، وسموها الأخلاقي، واطراد تقدمها في العلم والأدب والفنون الجميلة والصناعات النافعة.

ومن الطبيعي أن الأمة التي تعتقد أن نجاحها في الدنيا وفوزها في الآخرة مترتبان على الفضائل لا تألو جهداً في أن تكون أمة فاضلة خيّرة، وهذا هو الذي حدث بالفعل، فقد انتشرت الفضائل في وادي النيل انتشاراً قوياً وعظم الخاصة والعامة معتنقيها وكافأهم الملوك على حسن سلوكهم بجلائل النعم وأعاظم المنح كما ضرب على الرذائل والشرور بأيد من حديد، وأصبح أفراد هذه الأمة جميعهم يفخرون بالفضائل ويتبرءون من الرذائل لا فرق في ذلك بين فرعون على جلاله وبين الفلاح أو العامل الحقير.

وإليك شيئاً من نصوص تصوير هذا العصر الغابر، ومقدار تمسكه بالفضائل وأثر ذلك التمسك في حياته: (واعتقد القوم إن الوصول إلى حقول الخيرات الأخروية يكون بالاهتمام بالشعائر الدينية والاعتناء بها، وبتوالي الأيام اعتقد الناس أن النعيم الأخروي يكافأ به من يحافظ على طهارة الذمة والشرف والأعمال الصالحة في الدنيا. من ذلك ما ورد في مقبرة أحد أمراء الأسرة الخامسة مترجماً: (لقد شيدت مقبرتي بغاية العدل والحق فلا شئ فيها يستحقه غيري، وأنا لم أوذ أي شخص). وما ورد أيضاً من النقوش على جدر مقبرة لأحد أبناء تلك العصور مترجماً: (أنا لم أعاقب قط في حياتي أمام رجال الحكومة ولم أسرق شيئاً من غيري؛ بل فعلت كل ما يرضي غيري). ولم تقتصر نقوش مقابر تلك العصور على إنكار السيئات، بل شملت أيضاً فعل الخيرات كما ورد على جدار مقبرة وجيه في الأسرة الخامسة مترجماً: (كنت أقدم الخبز لفقراء إقليمي، وأكسو عراته، ولم أوذ أحداً طمعاً في أملاكه حتى اشتكاني إلى معبود بلده، ولم أسمح لضعيف أن يخشى بأس قوي فيتظلم من ذلك للإله).

ومما ورد في موضع آخر تعزيزاً لما قدمناه ما يلي: (ومنه يتضح أن القوم وقتئذ أخذوا يعتقدون بوجود محاكمة في الآخرة أمام (أوزيريس) وأن هذه العقيدة أحدثت تأثيراً أدبياً عظيماً في نفوس المصريين، فإنهم وإن كانوا حقيقة منذ قديم الزمن ذوي ضمائر ونفوس رادعة إلا أنهم كانوا في احتياج إلى زجر قوي كالوارد في عقيدة أوزيريس. لذلك نشاهد بين نقوش دهاليز أهرام أمراء الأسرتين: الخامسة والسادسة تحذير كل

من يستولي على مقابرهم بأنه سيحاكم على أفعاله أمام المعبود الكبير، كما ورد في مقبرة أخرى ما يشيره إلى تجنب الكذب كلية رغبة في رضاء المعبود وقت الحساب.
كل هذه الحقائق وجدت مدونة بين أقدم نصوص الموتى المعروفة الآن بمصر
ومما لاشك فيه أن اتصاف المصريين بالفضائل والخيرات يرجع إلى أوائل عهدهم بالتعقل
والتفكير. ونحن بهذه المناسبة لا نوافق الأستاذ (بريستيد) على قوله: إن الواجب الديني كان في أول أمره مقصوراً على الشعائر ثم تحول بعد ذلك إلى تناول الفضائل. فهذا القول غير صحيح البتة، لأن المصريين لم يعرفوا الحياة يوماً واحداً بدون اعتناق الفضائل والأخلاق وإيمانهم بأنها أوامر الآلهة كانوا ينشرونها بين الناس إبان اتخاذهم عرش مصر مقراً، أي قبل صعودهم إلى السماء في الأزمان السحيقة. ولو كان قول بريستيد صحيحاً للزم أن يكون الآلهة قد شغلوا زمناً عن الأمر بالفضائل ولم يهتموا إلا بشعائرهم الدينية، وهذا منقص لشئونهم، حاط بعظمتهم مما لم يشعر به المصريون يوماً واحداً
(يتبع)
محمد غلاب
دالت دولة الشعر
للأديب هلال احمد شتا
تصاحب هذه الحقيقة المرة رأسي منذ زمن بعيد، ويقوم بيني وبين نفسي من أجلها جدال عنيف؛ فلا أنا قادر على أن أفلتها لتجد لها مكاناً عند غيري، ولا على أن أدعها تقض مضجعي وتلهب رأسي. . وليس شك في أني تركتها تؤرقني طوال هذا الزمن، فلم أفض بها إلى مثل هذه السطور، خوفاً على نفسي وإشفاقاً وفرقاً. . فكلما تمثل في خيالي وصح في ذهني أن مئات من الناس يبقون على هذه الصناعة - صناعة الشعر - ويخلصون لها، ويؤمنون بها، ترددت في الكتابة، ثم أحجمت. .
على أنني - وقد آمنت بهذه الحقيقة منذ كان شوقي قائماً بيننا يملأ الدنيا صدحاً وتغريداً، ومنذ كان غيره من فحول الشعر لا يزالون في الميدان صوالين جوالين - أحسبني اليوم قادراً على أن أبوح بما آمنت به، بعد أن خلت عرائن الأسود إلا من الأشبال، وبعد أن تقدم بنا العصر بضع خطوات كفيلة بأن تقصي على دولة الشعر أي قضاء. .
ذلك أن الشعر لم يصبح مما يسيغه ذوق عصرنا هذا، ولا أصبح قادراً على أن ينهض على قدميه أو يواصل سيره في سبيل البقاء. وسأحاول على هذه الصفحات على أن أبسط ذلك بعض البسط، مترفقاً في محاولتي عازفاً عن المبالغة. وفي يقيني أنني سأخرج من هذه الكلمة الهادئة، وإلى جانبي غير قليل من القراء الكرام. . فأما الشعراء والمؤمنون بهم، فلست أخشى اليوم نقمتهم أو أشفق مما عساهم يفعلون. ولقد يدرك القارئ أني لا أحاول أن أنتقص من قدر الشعر القديم أو أكفر برسالته، فأنا عن مثل ذلك عزوف عفيف. . ولكن الذي أقول: هو أن رسالة الجمال والفن في ذلك الشعر القديم ليست خالدة ولا باقية على الأيام؛ وبحسب الشعراء الأقدمين أنهم قاموا على تأدية هذه الرسالة في عصورهم وأزمانهم، وأنهم صوروا بشعرهم صوراً بهرت نفوس ذويهم وأقوامهم ومعاصريهم؛ بل إن تقدير الزمن قد امتد بآثارهم عصوراً أخرى غير تلك العصور. . ولكن نتاجهم هذا لم يعد راوياً لظمأنا نحن إلى الجمال، مصوراً في صور تهز نفوس أبناء هذا العصر الحديث الناظرين إلى الحياة بغير منظار السادة الأولين. . وكل ما بقي لنا من آثار ذلك السلف الكريم لا يعدو أن يكون ثروة لفظية ولغوية تقوم منا اللسان
وتبسط أمامنا سبل الحديث المستقيم، ولا يعدو أن يكون موضوعاً لدراسات أدبية، أو اجتماعية، أو نفسية، يفيد منها التاريخ، ويفيد منها رواد الأدب والباحثون في حياة الجماعات الأولى. . كيف كانت، وكيف سارت بها السنون نحو الرقي والكمال، أو نحو التدهور والقعود
وهذه اللغة العربية التي جمعت على هيكلها شعوباً وقبائل في شبه الجزيرة، كانت في حاجة إلى الشعر وهي ما زالت طفلة تحبو، شأنها في ذلك شأن كل اللغات اليافعة القريبة المولد؛ فالشعر يكاد يكون هو المظهر الأوحد للأدب أو الفن في البيئات الأمية

التي تتقطع فيها أسباب الكتابة والتدوين. وكل جماعة من الجماعات الأمية محتاجة أشد الحاجة إلى وسيلة تسجل بها خواطرها المشتركة، وتعبر عن مشاعرها، وتتحدث بمفاخرها؛ ولابد من أن تكون هذه الوسيلة قادرة على إذاعة رسالتها بين الأفراد، وحثهم على أن يتلقنوها؛ ولا يستطيع كل ذلك إلا الشعر، فإن اتزانه، وتقفيته، وموسيقاه، تسوقه إلى ذاكرة سامعيه من أيسر طريق وأقصد سبيل

ولاشك في أن علم الناس بالقراءة والكتابة - بعد ذلك - يحمل عن كاهل الشعر بعض هذه الأعباء، ويحد كذلك من سلطانه شيئاً، ويسلبه بعض نفوذه العريض، ولكنه يوجهه توجيهاً سامياً نحو الفن الرفيع، وتلمس ألوان الجمال، التي تختفي في ثنايا الوجود، وتتوارى وراء أغشية الجمود

على أن الشعر لا يمكن أن يكون متفرداً بهذا التوجيه الجديد الذي دفعته إليه معرفة الناس القراءة والكتابة، لأن هذه المعرفة خلقت النثر الواسع الأجواء، الذي يلعب بسائر فنون القول، والذي أصبح بعد قليل أقدر عليها من الشعر وأقوى ساعداً. ولست بحاجة إلى أن أثبت قدرة النثر على التعبير، وتفوقه على الشعر في هذا السبيل، فذلك أمر بديهي؛ ولن يجد الكاتب الذي يسجل خواطره، أو يترجم أحاسيسه، أو يعبر عما يختلج في ذهنه من المعاني - أفسح من النثر مجالاً، ولا أوسع ميداناً لقلمه الجوال. ولن يتقيد فيما يكتب بوزن يتحتم عليه أن يرعاه، ولا بقافية تأخذ بخناق قلمه أخذاً وأخشى أن يتحدث المفتونون بالشعر - في هذا المجال - عن روحانية الشعر، وسمو أجوائه، وروعة أخيلته، وفتنة موسيقاه، وما إلى ذلك مما يجيدون في الحديث؛ وألا يدركوا

أن روحانية المعنى، وسمو الجو، وروعة الخيال، ليست قاصرة على الشعر ولا هي وقف عليه؛ فما أجمل ما يكتب الناثرون أصحاب النفوس الشاعرة، وما أروع ما ينتجون. . وفي جنبات سطورهم المنثورة تسفر الفتنة الخالدة التي تلعب بالمشاعر لعباً. . ولن يسيء إلى هذه الفتنة الرائعة أنها محاطة بجلال الصمت، وأنها عارية عن موسيقى الشعر التي لم تعد إليها بحاجة، فلقد كانت هذه الموسيقى تهز النفوس يوم كانت النفوس لا تزال على فطرتها طفلة رخوة؛ ولكنها اليوم لم تهز نفوساً تنصت كل يوم لموسيقى الأوتار.

لقد دار الزمن دورة قصيرة المدى، فإذا الشعر يصبح قاصراً عن أداء رسالة الفن والجمال، التي وجهه إليها علم الناس بالقراءة والكتابة؛ وليس عمر الشعر العربي الصحيح الذي أدى رسالته هذه فأحسن الأداء سوى لمحة خاطفة من عمر الزمان، فلقد وقف بعد ذلك حيناً فأطال الوقوف، ولم يخط إلى الأمام خطوة واحدة، بل إنه سار إلى الوراء خطوات وخطوات، ليصبح ترديداً معوجاً لما قال الأقدمون

ولقد ذهب الباحثون يتلمسون أسباب وقفته، ويخلقون المعاذير، وراحوا يوغلون في مسالك من القول متشعبة لا تنتهي إلى مصير؛ يضرب الأكثرون منهم على وتر واحد هو وتر الخطوب السياسية التي هدت كاهل العرب والعربية والتي طوحت بآثارهم إلى مهاوي الفناء. . ومهما يكن في ذلك من الصدق أو سلامة المنطق، فإنه لا ينهض سبباً لوقفة الشعر العربي في أيامنا هذه التي شملتنا فيها موجة من الرقي في مناحي التفكير جميعاً، إلا ناحية الشعر. . والتي بلغ نثرنا فيها مكاناً فوق مكان الأولين

وفي يقيني أن وقفة الشعر هذه، وتخاذله، وسيره نحو الفناء، لا سبب له سوى أنه قد أدركته الكهولة، فلم يبق ثمة أمل في شفائه من أهوال السنين التي تستشري اليوم في عظامه وخلاياه، والتي سوف تحيله أثراً وذكرى. فليست عقولنا كهلة ولا مريضة، وإنما الشعر هو المريض المهيض؛ وما أجدبت منا القرائح ولا زايلتنا خصوبة الخيال، وإنما الشعر هو الذي يضيق عما خلفت قرائحنا المصقولة بمعول التفكير الحديث من آفاق واسعة ممدودة الأطراف. وهاهم الأوربيون - وهم من تتحدث معجزات العصر بعبقريتهم ونبوغهم في شتى جوانب التفكير، وسائر ضروب الفن الجميل - قد أدركوا منذ زمن بعيد قصور الشعر وضيق ذات نفسه، وتوجه شعراؤهم إلى ألوان من القصة والمسرحية

وغيرهما. وهاهو شعرهم آخذ سمته نحو الهزيمة القاتلة والفناء الذريع.

ويلوح أن شعراءنا المحدثين قد آمنوا بهزيمة الشعر فيما بينهم وبين أنفسهم - ولو من حيث لا يشعرون - ويلوح كذلك أن جهود شوقي الأخيرة في سبيل المسرحية الشعرية

كانت مظهراً من مظاهر هذا الإيمان. وإننا لنلمس أن النثر في نتاج العقاد عشرة أضعاف الشعر أو يزيد، وأن القصة وحدها والمقالة القصيرة هما قبلة جهود المازني - جميعاً - وقد كان شاعراً

وأحمد الله على أن شعراءنا الشبان، أمثال: ناجي، والخفيف، وفتحي موسى، والطرابلسي، وغيرهم، قد وجهوا عنايتهم إلى القصة وما إليها من فنون الكتابة والبحث، قبل أن يبعثر الشعر أيامهم الغر، وهي أعز علينا من أن تلقى في الهراء. .

ولا حاجة بعد هذا القول بأن دولة الشعر قد دالت، فذلك ما انتهيت إليه، وما أظن القراء إلا منتهين إليه أيضاً. . وإذا كان الشعر قد استطاع أن يحافظ على بقائه طوال هذه السنين، وأن يعارك الزمن فتياً وكهلاً، فلن يستطيع البقاء في عصر الطباعة والصحافة، ولن يستطيع البقاء في عصر القصة - وقد سلبته ما تبقى له من بعض الفتنة والجمال. ولكنني لن أنسى أن أقول أن نوعاً واحداً من الشعر لا يزال قادراً على البقاء، هو شعر الغناء، ليكمل جانباً من فن الموسيقى، كما يكمل أدب المسرحية فن التمثيل.

ويستطيع الشعراء بعد ذلك أن ينظموا لأنفسهم ما يشاءون، وأن يقرءوا لأنفسهم كذلك ما يشاءون. . فأما المجد الأدبي، وأما رسالة الجمال والفن، فليبحثوا عنها من طريق غير هذا الطريق. .

هلال احمد شتا بمجلس الشيوخ

مات كاتب البعث!

للأستاذ عبد المنعم خلاف

ما أدركت روحي موته لأول منعاه لأنه يملؤها ويدفعها على محور من قلمه، ولا يزال شفق شمسه على آفاقها يسحب ذيوله في بطء، ولذلك استطعت أن أتلقى منعاه تلقي الخبير بالموت العالم بأنه شئ عادي يجب ألا تضج منه الأحياء بالشكوى والتفجع.

ثم أفقت دفعة واحدة منزعجاً على ضجة روحي وهي تتنزى من الألم وتتلوى تحت هول الفجيعة. . فجيعة قلبي في صاحب حديثه، الكاتب الأصم الذي كان يسمع من هناك. . . مما وراء الأبعاد والحدود.، ثم يحدث

وفجيعة نفسي التي كانت تغتسل كل أسبوع بمداده الأسود المنير. . . وفجيعة قلمي العاجز في صاحب القلم المعجز الذي كان في يده كعصا سحرية يلعب بها تارة فيخايل (بالسحاب الأحمر) و (حديث القمر) ويكتب بها على (أوراق الورد)، ويضرب بها على قسوة القلوب فتنبجس للمساكين، ويسوق بها (تحت راية القرآن) نحو هدف الشرق الإسلامي أجيالاً جديدة هي مدينة له لا ريب بجزء كبير من الروح الذي يملؤها بفتنة المجد وسحر العزة ومرارة الجد، وبعث تاريخ الأبوة، والإيمان بالشرق والعروبة والإسلام إيماناً يحمل عليه الفن الساحر والروح الغامر الذي يستولي على القارئ ويتركه في غمرة لا يفيق منها إلا وقد انتقل إليه سر الكاتب، وسحر المكتوب.

وابتدأت جراح روحي تتسع وتستدمي وتنغل حتى توجعت واضطربت وراب أصدقائي من أمري شئ غريب، وصاح الألم ينادي القلم ليسعفه بالبلسم فيشيع الراحل العظيم ويسعى في جنازته الروحية على صفحات (الرسالة).

ولكن العاطفة إذا ثارت وفارت وهاج هيجها شلت جميع قوى العقل. وهاأنذا أجلس ساعتين لأكتب الكلمة التي أخفف بها عن نفسي، فلا أستطيع! مع إني ممتلئ بميراث الرجل وشخصيته وأدبه وحبه وأخباره.

وأشهد أن جميع ما في نفسي من الحزن يختفي حين أريد أن أدفعه عني في أجساد وصور من كلمات، وأن ما أريد أن أقوله يروغ مني وتزيغ حواسي دون مكمنه فلا أراه ولا أدركه. . . والأمر بعد للصمت وإن أتلف، وللدمع وإن أسعف.

وقدرت أن مناحة ستقام بمصر على كاتب البعث فانتظرت حتى بكوا وكتبوا، فقرأت بعض الكلمات، وشربت بعض العبرات. . ورأيت مكان قلمه خالياً في (الرسالة) فراعني وحدثني أن أعلام الأدب الإسلامي التي كانت تخفق على نصاب من قلمه قد طويت إلى يوم النشور. . . وأن البيان الهدار الرجاف الجارف قد غاض. . . وأن القلب الذي كنا نسمع لغته بين السطور قد تقطعت أوتاره. . . وأن الحركة الدائبة المجاهدة الناصبة لغاية الشرق الإسلامي والاعتزاز به والدفاع عن محاسنه وجلوة آثاره والصمود بها أمام الزلزلة التي أصابت الشرقيين غداة صحوا على قصف القوة الغربية وفتنة

مباهجها صموداً ترك كثيراً من الشبان متماسكين مؤمنين بأنفسهم وبلادهم وميراثهم على رغم ما أتى به الغرب من تخانيث المدنية وزيغ الحواس بها. . هذه الحركة قد ركدت إلى الأبد في وادي السكون. . .

ثم قرأت قصة موته بقلم صديقه وأستاذنا صاحب الرسالة فعجبت لذلك القلب الكبير الذي يأبى أن يموت إلا على نية عمل عظيم للحياة.! يريد أن يطهر. . إنها وصيته إلى تلاميذ مدرسته فلينفذوها فإنها رغبة التاريخ حدث بها على لسان حي ميت

وهكذا تنتهي حياة المجاهد لا يموت في فراشه إلا على نية الجهاد، لأن أشواق روحه وأوطارها دائماً في حياة الميدان. .

وهكذا تسلم حياة الطهارة إلى تلك الخاتمة السعيدة بالنية العظيمة كما تسلم حياة الإثم وخيانة الميراث الإنساني والأمجاد القومية إلى أن يموت أحدهم وهو في ضجة من شهوات النفس. ولكن هل يستويان مثلاً؟ لا والذي جعل الحياة واجباً حملناه غير مخيرين ولابسناه على كره منا! وجعل الأرض ميداناً للكفاح، لا وليمة للتشهي! وجعل من التاريخ كيراً لابنى ينفى الخبث!

قصة حياة الرافعي العظيم هي قصة الكفاح بين أولئك الذين أرادوا أن يجمعوا للشرق بين الحسنيين من الطريف النافع والتالد الخالد الثابت الذي لا يمكن أن يتغير بتغير العصور، فإغفاله ضلال في الحاضر وعقوق للماضي وتضييع للمستقبل وإفناء للشخصية؛ وبين أولئك الذين أرادوا على حد تعبيره أن يترجموا أمم الشرق إلى أمم غربية برغم الدم والاستعداد وطبيعة المكان ووحي التاريخ. وقد بدأ رحمه الله أن يأخذ مكانه في صفوف

الفريق الأول منذ عهد الإمام محمد عبده، ولذلك دعا له بهذه الدعوة التي تعتبر نبوءة صادقة من الإمام قال له: (أقامك الله في الأواخر مقام حسان في الأوائل)

ومازال الرافعي حجة من حجج الشرق والإسلام في عصر فقير من الأقلام المجاهدة الذائدة؛ وقد أتى عليه زمن أوشك فيه أن يكون وحده آخذاً جهة في الميدان وجميع الكتاب في جهة مضادة، وكان هذا في الزمن الذي أعقب الثورة المصرية سنة 1919 والذي طغت فيه على مصر موجة هدامة تطرقت حتى إلى أقدس مقدساتنا وهو القرآن الكريم، ولم تنحسر هذه الموجة إلا بعد سنة 1930 حيث تعرف الناس بفضل الجمعيات الدينية إلى أمجاد دينهم وتاريخهم. وقد أمد الرافعي هذه الجمعيات ببيانه المترجم عن النزعات العربية الإسلامية في زمن كانوا أحوج ما يكونون فيه إلى مثله.

ولم ينته عصر المقاومة بين الفرقين إلا وقد ظهرت في الميدان أقلام تبني وتترجم وتكشف عن المدخرات في ميراثنا وكان لها من قلم الرافعي لواء وروح وموسيقى. . . ثم أعقب ذلك هذه الموجة الدينية العربية التي تغمر روح الشباب المصري وتدفعه إلى الثورة في سبيل تعميم التعليم الديني حتى في كليتي الطب والهندسة!

أليس هذا نصراً عزيزاً للرافعي وأمثاله ممن سلخوا ثلاثين عاماً وهم في شبه وحدة في الميدان؟ أليست مقالته القريبة (قنبلة بالبارود لا بالماء المقطر) نشيد النصر وأهازيج الظفر بخصوم عتاة؟

فليت شعري ماذا كان يريد بعد ذلك من حركة التطهير؟

إن الرافعي ليتسامى إلى حيث لا يبلغه أحد حين يضع نشيداً دينياً أو وطنياً. ويخيل إلي أنه حين كان ينظم أناشيده يستجمع حاسته السادسة التي تعوض بها من حاسة السمع، ويجلس على جناحي الزمن: التاريخ والغيب، ثم يضرب على أوتار القلوب بألحانه التي كان يسمعها من ذكريات الأصوات والأنغام، ومعانيه التي كانت لا تتنزل إلا له وحده

واقرأ إن شئت برهاناً على ما نقول النشيد الذي وضعه لجمعيات الشبان المسلمين، أو نشيد سعد زغلول، أو نشيد الوطن، أو النشيد الوطني الذي وضعه أخيراً، لترى هل يستطيع غيره أن يصل إلى ما وصل إليه هو من بيان واجبات الشاب ونجواه لمجده ودينه ووطنه

إن الرافعي لم يكن كاتباً يكتب للفن وحده، ولكنه كان صاحب رسالة وأهداف سار إليها منذ

أن شب عن الطوق في دولة القلم
وإن شعوره برسالته تلك استولى عليه في كل ما كتب حتى فيما كتبه يعاجز به أدعياء التجديد الذين كانوا يخوضون منه في ساحل ضحضاح ويضرب هو في عبابه وأعماقه ويخرج بالدرر اليتيمات، فهو لم ينس غايته فيما كتبه من أحاديث الحب والمراقص والسوامر
ولم تخدعه عن غايته فتنة الشهرة وتملق الجماهير بادعاء الإلحاد وزعم التجديد فيدلي بالكلمة الكافرة والرأي الآثم، بل فرض نفسه وفكره فرضاً. وكان ينعى على الأدب الصحفي الذي يسير فيه (صعاليك الصحافة) وراء الجماهير حتى أسلمهم الحال إلى أن يكونوا مقودين لا قادة كما يجب أن يكون وكما تملي عليهم مهمتهم
لقد حظي الرافعي بشرف المبالغة من مؤيديه ومعارضيه، شأن كل عظيم رأته الأرض؛ غير أن حظه من شهادات المقدرين لأدبه في حياته من أوفر حظوظ الأدباء. فقد ظفر بنبوءة الأستاذ الإمام وتقدير الزعيم الأكبر سعد زغلول لبيانه الذي (كأنه تنزيل من التنزيل أو قبس من نور الذكر الحكيم) وتلقيب أمير البيان الأمير شكيب أرسلان له بحجة العرب ونابغة الأدب. وقول المغفور له احمد زكي باشا (لقد جعلت لنا شكسبير كما للإنجليز شكسبير وهوجو كما للفرنسيين هوجو، وجوته كما للألمان جوته) وإجماع الناس على أنه أوحدي في فنه اللفظي وتوليد معانيه مما وراء حدود الكتاب والمنشئين، مما سما بنثره إلى درجة تعلو الشعر في موسيقاه وترجيعه. وأذكر أنه محرر مجلة الهلال كتب عنه كلمة: بمناسبة ظهور الطبعة الثانية من كتابه (المساكين) قال فيها ما معناه (إن من يقرأ للرافعي يؤمن بأن البلاغة حاسة سادسة)
وقد سمعت منذ ثلاثة أشهر من أحد كبار من أثق بعقلهم ونقدهم وممن كانوا يسخطون على طريقة بيان الرافعي قبل أن تجلوه (الرسالة) يقول: (إن الرافعي يصل في بعض الأحيان إلى مرتبة الإعجاز. . .)
وأذكر أيضاً أني قرأت في مجلة الزهراء التي كان يصدرها الأستاذ الكبير محب الدين الخطيب منذ عشر سنوات أو تزيد أن أحد المعجبين به من أدباء المهجر كتب إليه يقول إن لولا (الجملة القرآنية) لكان أبلغ من كتب بالعربية في جميع عصورها. . .
والذين لا يقدرون أدب الرافعي هم الذين يقرءون للتسلية وتزجية الفراغ لا للدرس ولا (لتمثيل) المعاني؛ لذلك كان يؤودهم ويجهدهم أن يتابعوا سمو عقله وأن يكثروا مما على موائده الدسمة.
أما الذين كانوا يقرءونه للمتاع بمعانيه الخارقة فكانوا لا يكتفون بقراءته مرة أو اثنتين أو أكثر إذا أحوج الأمر، وهم الكاسبون لأنهم قرءوا (قراءة عريضة) لا (قراءة مستطيلة) ليس وراءها غناء
وأذكر أني قرأت خطرة من (خطرات نفس) للدكتور منصور فهمي بك التي كان ينشرها في الأهرام منذ 13 سنة يقرظ (رسائل الأحزان) للرافعي قال فيها ما معناه: (إنك كالموسيقي الألماني فجنر الذي كانت ألحانه لا يفهمها البشر، حتى قال الناس إنه يطرّب للملائكة. ورجاه أن ينزل من مستواه قليلاً حتى يفهمه الجمهور. وهو نقد لبق يعترف للرافعي بالسمو وإن كان يأخذ عليه غلوه فيه في بعض الأحيان. . ولكن للرافعي عذره من قوة جناحيه وقد كان يحملانه إلى جوه الذي فيه سر عبقرياته. . .
ويخيل إلي أنه كان يكتب كما يتنفس. . كما عبر واصف بلاغة جعفر بن يحيى البرمكي (وأنه لم يكن يقصد إلى الإغراب وإنما هو عفو الخاطر. على أن تلاحق السعي من قلمه في (الرسالة) قد خدمه أجل خدمة، وبه استطاع أن يخترع ذلك اللون الجديد من أدب البعث فيما يشبه القصة
حاولت أن أرثيه بكلمات شفافة طائرة تليق بروحه وبيانه فإنه لا يليق به أن يرثى بهذا الكلام الجسماني. . . وحاولت أن أصنع ريشاً يرفعني إلى السماء التي كان يأخذ من كواكبها نور قلمه، فأعددت جو الذكرى وأحرقت البخور واستجمت أطرافي للوثبة، ولكن كثافة النفس وخفوت الطبع قعدا بي فاجتزأت بوصف عجزي. . .
سأقرأه في لباس التاريخ وروح الذكرى بعد أن مات وصار كلمة
وسأضع أذني على قبره دائماً لأسمع نداء قلبه بهذه (العقدة الروحية) التي دعا إليها في مقالته (في وحي الروح). . .

. . .وسأجعل من شعلة روحه شمعتي
ومن وحي قلمه غاسولاً لحوبتي:
. .ومن أناشيده موسيقى همتي
جعل الله ميراثه للخلود، وجهاده للنصر، وروحه إلى الجنة.
(نزيل بغداد)
عبد المنعم خلاف
دمعة خالصة من النجف على الرافعي
فقيد البيان الرفيع
للأستاذ حسين مروة
إننا - علم الله - لنشعر بالتياع حزاز في قرارة النفس إن لم تؤآتنا الفرصة للجهر برأينا في أدب المغفور له الأستاذ مصطفى صادق الرافعي إلا في هذه الساعة الرهيبة إذ تفجؤنا أنباء وادي النيل بنعي الرجل راحلاً إلى دار الله الباقية، ملقياً عن نفسه هذا العبء الذي كانت تضطلع به في سبيل الله، وفي سبيل الفصحى الكريمة لغة القرآن الكريم، وفي سبيل البيان الرفيع اللهجة، العلي النغمة، النبيل المعنى والقصد والأداء.
وإننا لنشعر بالألم يشيع في أحناء الصدر أن رزئت دولة الأدب والبيان العربي هذه الرزيئة بفقد علم خفاق من أعلامها لم يطل به عهد الجهاد في سبيلها، ونكسته يد القدر قبل أن يؤدي رسالته العالية، وإن هي إلا الرسالة التي تنتظرها الروح العربية الناشطة من عقال الخنوع والاستعباد، والنهضة الإسلامية الطالعة اليوم من كل فج وواد؛ بل هي الرسالة التي تتحرق الإنسانية كلها شوقاً إلى سلسلها العذب وخمرتها العلوية الخالدة؛ فلقد كان الرافعي الراحل كياناً أدبياً شامخ السمك رفعته يد العناية في هذا الجيل ليبث فيه عبق الفصاحة العربية التي أسنت في آنية الزمن حتى كادت تستحيل على أسلات الأقلام الناشئة المتأدبة في هذا العصر ريحاً غريبة ما تكاد تتبين فيها نفحة العروبة أو عذوبة الضاد، أو شمائل الأجداد. ولقد كان الرافعي الراحل كلمة إسلامية جامعة تتلخص بالدعوة الصارمة الصارخة الصادقة إلى فضائل الإسلام في زمن كادت تتقلص فيه عن هذه الأرض الواسعة ظلال الفضيلة وخلائق الخير ومثل الإنسانية العليا. ولقد كان - إلى هذا - فكراً تتدفق في مطارحه أشعة الحقائق الإسلامية، وقلباً يطفح بفيوض الإيمان بعبقرية هذا الدين الحنيف، فكان من أجل هذا وذاك أنطق ناطق في التعبير عن (الإشراق الإلهي) الذي يطفو على وجه هذه الشريعة السمحة الغراء في كل قضية من قضاياها التشريعية أو الروحية العبادية الخالصة؛ وكان من أجل هذين أيضاً أبرع بارع في تفسير (النبوة) على ما يريد الله منها في بعث الرسل إلى الخلق وبث النبوات في الكون؛ وكان أقوم لسان في حكاية (فلسفة الإسلام) على وجهها الذي ينبغي أن ندين الله به.
هذا هو الرافعي في أدبه من الوجهة الروحية كما فهمته في جملة ما قرأت له من كتب ومقالات؛ ولاسيما هذه المقالات التي كان يكتبها (للرسالة) في المناسبات الإسلامية التي جرت (الرسالة) على الاعتداد بها، وعقد الفصول حولها، وتخصيص بعض الأعداد لها؛ ولكن المصيبة في أمر الرجل أن الجيل الناشئ يتجافى عن أدبه، وينقبض عنه انقباضه الهازل اللاهي السادر في هزله ولهوه، إذا ما جئته بالأمر الجد ولوحت له بشأن من الحق. ولعل كثيراً من المؤمنين بعظمة الرافعي من هذه الناحية ما كانوا يستطيعون الجهر بإيمانهم هذا خشية أن يرميهم جمهرة من الناس لها شأنها في هذا الجيل بهذه الرمية التي اتخذت سبيلاً إلى غل الأفكار عن البوح بما تفكر فيه، هذه هي ما يسمونها (الرجعية) كما اتخذ غير هذه الكلمة سبيلاً إلى ذلك عند جمهرة أخرى من الناس لها شأنها كذلك، تلك هي ما يسميها الجامدون (هرطقة) أو (كفراً)، أو (عصرية). . .؛ والويل لنا من هاتين الفئتين . . .
أما رأيي في أدب الرافعي الذي فصل الموت بين عالمنا هذا وبينه في عالم الآخرة - أما رأيي في أدب الرجل من الوجهة الفنية، فهو رأي كونته لنفسي منذ بدأت (الرسالة) تنشر له أدبه، وقد كان قبل ذلك يشرف على الناس من كوة ضيقة؛ وكان يتلهى في الأدب تلهياً، وكان يعبث فيه عبثاً؛ وكانت الفصاحة اللفظية كل همه فيما ينشئ من مقالات أو كتب أدبية، وكانت الصناعة الظاهرة والزينة والبهرج كل ما يطمح إليه. وقد كنت أرغب عنه يومئذ كما يرغب عنه اليوم كثير من ناشئة المتأدبين وقراء

الأدب؛ وقد انقطعت عن قراءته من أجل ذلك زمناً؛ ثم قامت في مصر مجلة (الرسالة) وأقبلنا عليها في كل دار من ديار العروبة، وكانت لي رغبة حينئذ في أن أجدد عهدي بالرافعي، وقد جاءت هذه المجلة الجديدة به إلى حظيرتها فأقبلت عليه بعد موقف قصير ترددت فيه بين عقل مستطلع ونفس تطلب اللذة السهلة الميسورة؛ وما طال عهدي معه في هذا الدور حتى أصلحت رأيي فيه، وكونت لي هذا الرأي في أدبه من الوجهة الفنية. . . هذا الرأي الذي قلت في مستهل الحديث أنني أشعر بالتياع حزاز في قرارة النفس أن لم أجهر به إلا في هذه الفرصة الأليمة إذ رحل الرجل إلى دار الخلود الحق

ورأيي هذا في أدب الرافعي هو أن الفصاحة العربية الخالصة وإن كانت أولى مطامحه حين يجلس إلى كتابة المقالة، ولكنه يأبى الإباء كله أن يضع جملته الفصيحة المشرقة قبل أن ينحت لها المعنى الدقيق العالي. وأشهد أنه ينحت هذا المعنى من قلب الحياة أحياناً، وقد يستأسره بلباقة من أرحب أجواء الخيال الشعري الصافي؛ فإذا امتلك عنانه وصار قيد قريحته الخصبة كساه هذه الأجنحة الطاووسية الأخاذة، ونفحه بريح طيبة من نفس العروبة الشذى الأفيح. وإذا كان في بعض ما يقرأ له الناس ما يسمونه تعقيداً فليس هو - في رأيي - بتعقيد؛ ولكن هذا الجهاد الفكري الذي يلقى نفسه في غمراته كي يقتلع المعنى من قلب الحياة، أو يستأسر الصور الجميلة من جو الخيال الشعري، ثم هذا الترفع الذي يطلبه في (الكسوة) اللفظية، وهذه النفحة العذبة التي يقصدها في مهابها من الأدب العربي القديم؛ كل هذه مجتمعة تعمل في إنتاجه هذا العمل الذي يخيل للقارئ البعيد عن روحه أنه تعقيد. ولو كان الصبر والجلد مما يسره الله لنا في طبيعتنا واستعملنا هذا الصبر والجلد في مرافقة الرافعي قليلاً لأنست به أذواقنا الفنية وأرواحنا، ولأفدنا من فصاحته العالية الشيء الثمين الغالي؛ ولكن مصيبة الرجل في هذا الجيل كما قلت لك هي مصيبة الجاد بالهازل، مصيبة من يطلب الحق بمن لا يطلب إلا موارد اللهو الميسور الرخيص. ومن الحق أن نقول - آخر الأمر - إن ضآلة ما يحمل الرجل من ثقافة أبناء الجيل الحاضر هي الأخرى من جملة العوامل على ضيعته فيهم، وذهابه عن دنياهم قبل أن يفيدوا من رسالته ما هم في أشد الحاجة إليه. ولعل هذا الجهد العظيم الذي يجهده حين يكتب فيخيل لقرائه أنه يقصد إلى التعقيد - لعل هذا يرجع إلى قلة بضاعته من الثقافة الحديثة. ولعل من آثار هذا الأمر ما نرى من عنايته في إخراج الجمل قوية دون أن يعنى، أو دون أن يستطيع العناية، بوحدة المقالة وجعل الموضوع وحدة كاملة متماسكة.

وبعد فإن الرافعي الراحل هو - في عقيدتي - بنيان أدبي شامخ ينهار قبل أن يصل إلى أهدافه السامية. رحمه الله رحمة واسعة، وعوض الأدب العربي خير العوض عن هذه الخسارة الجسيمة.

(النجف)

حسين مروة

رسالة الشباب

رسالة الشباب في الحاضر

مهداة إلى الشباب المصري المتوثب

للأستاذ خليل هنداوي

يسرنا جداً أن تعلن (الرسالة) في جملة رسالاتها رسالة الشباب، وتقوم بها في جيل عرف قيمة الشباب وعظمة مقامه في حياة أصبحت دعائمها ترتكز عليه، وهو الجيل الذي قضى على ثرثرة الشيوخ وترددهم، وأثبت لهم أن الأمة في استطاعة شبابها أن يمشوا بها إلى المورد العذب، والغاية المثلى؛ وفي تنظيم فئات الشباب في كل أمة واعتماد الدولة على هذه الفئات المنظمة آية بل آيات لمن كفر بمعجزة الشباب. وقد كانت رسالة الشباب - قبل إنجاز المعاهدات سواء في مصر وسورية والعراق - رسالة تيقظ وتدمير، وخلق للفوضى؛ لأن الفوضى وحدها - في عصر الجمود - تحرك الذرات الواقفة، وتخلق الوعي والشعور في الأنفس الهامدة.

ويظهر أن رسالة الشباب بدأت - في هذه الأصقاع واحدة، ويظهر أنها سائرة إلى هدفها على طريق واحد. . . بدأت برسالة التهديم، والتهديم وسيلة لا غاية، وذريعة إلى بناء جديد، ولا يقوم هذا البناء إلا على كواهل من خربوا وهدموا القديم وحاربوا الذل

والقيد! وإن مما يستوقف المفكر أن يفكر في رسالة البناء؛ والبناء صفة أدق من التهديم، لأنها تحتاج إلى دقة ونظام واستقامة في العمل. والهندسة قبل البناء، توفر كثيراً من العناء! فما هي رسالة البناء؟ وما هي حدود هذه الرسالة التي يجب أن يقوم بها الشباب؟

أصبحت لا أخاف على شبابنا بعد أن عرفوا التطرف؛ وكيف يبلغ القمة من لم يتطرف! وأصبحت لا أخشى خوراً ينفذ إلى نفوسهم، أو سكوناً يطغى على حركتهم، بل إنني أصبحت أخشى أن تصرفهم لذة التهديم عن لذة البناء، لأن لذة الشباب وهواه في الطفرة والتطرف. . . ولكن لا أريد أن يقوم هذا البناء إلا على سواعد الشباب مهما شابته الأهواء ومهما داخله فساد. . . لأنني أريد أن يلم الشباب بالبناء وأن يلموا بأمر عظيم ما تلقى عليهم تبعاته، وبهذا نعيد لشبابنا حاسة العمل التي عطلتها التقاليد وأثرة الشيوخ. ويقيني أن الشباب لا يهدأ نضاله ولا يصرفه عن عمله كلل أو فشل! وكيف نريد أن نحرم الشباب لذة العمل في هذا الانقلاب وهم كانوا يده المتصرفة وقلبه الذي ينزف دماً!

لعل الشباب يزعمون أنهم قد انتهى عملهم بعد أن انتهى الفوز لهم؛ ولعل الشباب يقولون: لنسترح الآن فقد تم جهادنا؛ ولعل الشباب يظنون أن العهد الذي جاهدوا فيه في سبيل الحرية قد انقضى. على أن عملهم الحقيقي قد (بدأ الآن) لأنهم هم الذين خلقوا العهد الجديد وهم الذين ينبغي أن يكونوا دعائمه.

بلى! يا شبابنا، ومصابيحنا في طريقنا! لم ينته عملكم وإنما عملكم ابتدأ الآن، لأن العبودية السياسية التي تحررتم منها لا يزال خلفها عبوديات مختلفة ليست بأقل خطراً منها. ومن ذا يعمل على التحرر من هذه العبوديات إلا الذين لا يعرفون الوهن في العزم ولا التردد في الإقدام، وهم الشباب!

أنقذتم أنفسنا من العبودية السياسية فأنقذونا من العبودية الروحية التي أورثت أرواحنا الذل وأورثتنا مع الذل الضعف والجبن حتى أصبحنا إذا طلبنا حقنا طلبناه سائلين.

أنقذوا نفوسنا من العبودية العقلية التي غادرت تفكيرنا رياء، وتظاهرنا بالتقاليد رياء. وهل كان الرياء إلا ثوباً من أثواب العجز؟ وهل كانت العبودية العقلية إلا شر من العبودية السياسية؟

أنقذوا نفوسنا من عبودية الألقاب الفارغة، والتقاليد البالية، التي نشهد بها على حقارة أنفسنا بأنفسنا. وكونوا مثال العزة والكرامة التي لا تكرم إلا الكرامة.

هنالك عبوديات كثيرة تقف في طريقكم، وعقبات كثيرة تريد وقف سيركم المبارك، ومن لها إلا الشباب؟ إلا الذين يسعون إلى الحرية لتقتلهم الحرية، وبقتلها إياهم يعتزون وينتصرون، ومن لها إلا الشباب الذين يرى فيهم الجامدون خطراً على المجتمع لأنهم متطرفون متهورون يجمح بهم طموحهم كثيراً. فأي شئ يخاف هؤلاء الجامدون من خطر يريد أن يقلب مجتمعاً تراكم الفساد فيه على الفساد؟ أي شئ يخاف هؤلاء البالون من تهور على طريق الحرية وحدها! وأي شئ يخاف هؤلاء الجبناء من طموح يريد أن يصعد ويصعد!

ها قد جاء عهدكم أيها الشباب! العهد الذي يعطيكم الحرية ويفتح لكم آفاق الأمل فيما تحلمون! وهذا العهد ليس بالخفيف عهده، ومتى كان عهد التحرر خفيفاً؟

هذا عهد تريد فيه أمة أن تخلق

هذا عهد تريد فيه أمجاد قديمة أن تزحف

هذا عهد تريد فيه كبرياء شعب أن تتيقظ!

هذا عهد تريد فيه حضارة ساهمت في الحضارة الإنسانية أن تسطع منارتها وأن تتم رسالتها!

ومن لهذا العهد إلا الشباب الذين لا يقولون (القناعة كنز لا يفنى) لأنهم لا يعرفون القناعة. . . إلا الشباب الذين لا يقولون ما يقول ذوو النفوس الحقيرة: (كلب جوال خير من أسد رابض) لأنهم يعلمون أن روح الأسد لا تنوب عنها أرواح الكلاب مجتمعة. والربوة التي يحميها أسد رابض لا يقدر على حمايتها ألف كلب جوال. . وهو بعد ذلك أسد لا يربض، لأن الأسد لا يعرف الربوض

إلا الشباب الذين يقولون ما قال أبو حمزة الخارجي عندما عيره أهل مكة بأصحابه: (تعيرونني بأصحابي! تزعمون أنهم شباب، وهل كان أصحاب رسول الله إلا شباباً!)

هذا العهد ينادي إليه الأرواح الجبارة لترافقه ولا ينادي جثثاً خالية من الإحساس يحملها على ظهره. لأنه يريد رفاقاً يحسون ويلتهبون، قد أدرعوا الإرادة وساروا يقتحمون كل شئ كالسيل الجارف، يثبون فوق القمم وثباً ولا يزحفون زحفاً، في نفوسهم عقيدة تفيض حماسة وقوة، يفرضونها فرضاً على الزمان ولا يجد الزمان إلى إخفاقها سبيلاً.
هؤلاء الرفاق يستطيعون أن يمشوا معه لا تثنيهم عقبة ولا يحول بينهم وبين بغيتهم حائل. ومن هم هؤلاء الرفاق الأشداء إلا الشباب؟ روح الأمة ولون وردها الأحمر المشتعل، وعزيمتها التي لا تكل.
تحررتم أيها الشباب من العبودية السياسية، فلتتحرروا من كل عبودية. وليكن هدفكم التحرر في كل شئ. وكره العبودية في كل شئ.
شباب قنع لا خير فيهم ... وبورك في الشباب الطامحينا
(در الزور)
خليل هنداوي
سيدي الأستاذ رئيس تحرير مجلة الرسالة الغراء
أقرأ باهتمام فصلكم الذي عقدتموه للشباب تدونه في إلى الاهتمام بالأمور العامة. ويسرني أن أوجه إليكم هذه الكلمة لغرضين: الغرض الأول أن أبين أن شبابنا يستطيع أن يؤدي للبلاد خدمة جليلة بأن ينتشر في أثناء العطلة الصيفية وهي على وشك الحلول فيذهب كل شاب إلى قريته أو منزله في المدينة ويضع نصب عينيه أن يترك الدائرة التي هو فيها في آخر الصيف خيراً مما وجدها في أوله. ويمكنه أن يعمل في أحد المقاصد الآتية:
(1) تعليم أهل الجهة القراءة والكتابة والأخلاق ومبادئ التربية الوطنية في قسم ليلي يفكر هو وجماعة من إخوانه على إنشائه ويختارون له محلاً يتبرع به أحدهم ممن يستطيع ذلك
(2) توجيه أهل جهته إلى العناية بالرياضة البدنية والاشتراك معهم في ذلك السبيل اشتراكاً فعلياً
(3) التعاون مع إخوانه على عمل محلة كمحلة الرواد تكون مركزاً لثقافة الصبيان الفقراء وهدايتهم وإدخال الفرح عليهم
(4) إرشاد أهل جهته إرشاداً صحياً في محاضرات يقوم بإلقائها من يستطيع المحاضرة من الشبان.
الغرض الثاني أن أقترح عقد اجتماع تشرف مجلة الرسالة على الدعوة إليه قبل بدء فصل الإجازات الصيفية لتنظيم حركة الزحف الاجتماعي. وتفضلوا بقبول عظيم شكري وتقديري لمجهودكم النبيل
(مصري)
جاءتنا رسائل الشباب في هذا الباب تترى، وكلها (الرسالة) آراء سديدة ومقترحات قيمة سننشرها أو نلخصها تباعاً في الأعداد القادمة.
رسالة العلم
قصة المكروب كيف كشفه رجاله
ترجمة الدكتور احمد زكي بك مدير مصلحة الكيمياء
وزادت أوامر إرليش وكبر مقدارها، وتزايدت السجائر الحامية التي عكف على تدخينها يوماً فيوماً. وما لبث أن دخلت طوائف كبيرة من الأرانب الذكور بيت جورج اسباير كأنها ألوية الجيش تتابعاً وكثرة، ودخل في زمرتها إلى هذا البيت رجل صغير قصير ياباني صياد مكروب لا يألو في بحثه جهداً. وكان اسمه هاتا. وكان قديراً وكان دقيقاً. وكان له جَلد واسع وصبر على التجريب طويل، فهو يحتمل التجربة الواحدة يعيدها عشر مرات ولا يكلّ. وكان خفيف الحركة جمّ النشاط متزنه، فهو يقوم بعشر تجارب في آن واحد. فوافق هوى إرليش، وهو كما تعلم دقيق يحب كل دقيق
فبدأ هاتا يجرب مركب رقم 606، لا على مكروب الزهري نفسه. بل على مكروب من نوعه ولكن أقل منه امتقاعاً في اللون وشرة في الأثر، ذلك اسبيروشيتة الدجاج وكانت تقتل الدجاج قتلاً. فماذا كانت نتيجة هذه التجارب العديدة الطويلة؟ صاح إرليش: (باهرة!. . . خارقة!. . . لا تكاد تصدق!) فهذه الدجاجات الكبيرة والأفراخ الصغيرة

امتلأت دماؤها بهذا المكروب امتلاء، فما هي إلا أن حقنت برقم 606 وأصبح عليها الصباح حتى كانت تسير مرفوعة الرأس تقوّق وتتخطر ناعمة بالصحة والحياة. فهذه نتيجة لاشك مجيدة. ولكن ما الذي كان من أمر نسيبه المكروب الآخر مكروب الداء الإنساني الذميم؟

في اليوم الحادي والثلاثين من أغسطس عام 1909 وقف إرليش وهاتا أمام قفص به أرنب ذكر جميل سليم من أية وجهة نظرته، إلا صفنه، فقد كان شوهه قرحتان فظيعتان كلتاهما أكبر من ربع الريال سببهما دبيب هذا المكروب اللعين الذي يأتي الإنسان جزاء الخطيئة الكبرى.

وكان هاتا وضع هذا المكروب تحت جلد هذا الأرنب من شهر مضى. ووضع هاتا قطرة صغيرة من ماء هاتين القرحتين الكريهتين تحت مكرسكوب صنع خصيصاً لرؤية أمثال هذه المكروبات الخبيثة الرفيعة الشاحبة. وضعها ونظر فرأى في ظلام المجال لهذا المكرسكوب الخاص، رأى تلك المكروبات ألوفاً تتلألأ في شعاع نور قوي سلط من الجانب

عمداً عليها. وتراءت له كأنها ألوف من خرامات الحدادين ومثاقيب النجارين تطير في المجال رائحة غادية. منظر جميل يستوقفك الساعات، ولكنه مروع، فأي المكروبات يجر على البشر من البلاء والويلات ما تجر هذه؟!

ومال هاتا عن المكرسكوب يمنة لينال إرليش من هذا المنظر نظرة. فلما رآه نظر إلى هاتا، ثم نظر إلى الأرنب ثم قال: (دونك فاحقنه) وجرت الحقنة في ورید أذن الأرنب، ودخل المركب 606 في محلوله الأصفر إلى دم الأرنب يلقى مكروب الزهري ويقاتله لأول مرة في تاريخ هذه الدنيا.

وفي الغد لم يبق في صفن الأرنب من لوالب هذا المكروب لولبة واحدة. والقرحتان؟ سبق إليهما الجفاف وأخذت جلبة تتكون عليهما. ولم يكد يمضي على هذا شهران حتى لم يبق من الجُلبة غير جليبة صغيرة. شفاء هو السحر أو كشفاء المسيح بن مريم.

واستطاع إرليش أن يكتب بعد ذلك بقليل:

ويتضح من هذه التجارب أن هذا المكروب يفنى عن آخره تواً إذا حقن الحيوان حقنة (كبيرة كافية)

وإذن جاء يومه الكبير المنظور؛ فهذه رصاصته المسحورة، فما أسرع قتلها للمكروب! وهي مع هذا سليمة مأمونة على الحيوان. وإن شككت في سلامتها فانظر إلى هذا العدد العديد من الأرانب البارئة، فهل نالها مثقال ذرة من سوء لما ضرب هاتا محقنه في آذانها بجرعة هذا الداء، برغم أنها جرعة كبيرة كانت ثلاثة أضعاف الجرعة اللازمة الكافية لمحو الداء محواً محققاً سريعاً؟ لقد نال إرليش بهذا الكشف فوق بغيته، وأطلق من هذا المحقن على الداء رصاصة أروع من رصاصته. وضحك بُحاث ألمانيا بالأمس من أحلامه، فجاء دوره اليوم في الضحك فضحك وُسع فيه. صاح إرليش: (إنها رصاصة مأمونة. إنها سم للداء، وللحي فيها البرء والشفاء) وتستطيع أن تتصور أي الأطياف كانت تطوف بخيال هذا الرجل المستوثق بنفسه استيثاقاً لا يقصر منه حد. وصاح في وجه كل أحد: (إنها مأمونة! إنها سليمة!) ولكن في ليلته ولياليه جلس في مكتبه وقد تعبأ جوه بدخان السجائر حتى ضاقت به الأنفاس؛ جلس بين أكوام الكتب وركام المجلات وقد ارتمت ظلالها حوله متراكبة غريبة؛ جلس وحده وبين يديه تلك الكراسات الزرقاء الخضراء

البرتقالية الصفراء التي كان ينقش عليها كل ليلة في انبهام كل ما يخطر بباله مما سيصدره إلى رجاله وعبّاده من الأوامر في الصباح الطالع. ففي هذه الحجرة خلا إرليش لنفسه فسألها في خفوت: (أحقاً أنها سليمة مأونة؟)

إن الزرنيخ سم محبب إلى السمامين. . .؟! قال إرليش محتجاً: (ولكنا تناولنا طبيعته بالعجب العجاب فغيرناها)

وهذا الذي شفا الفئران والأرانب قد يقتل الرجال. .؟! قال إرليش مجيباً: (إن النقلة من الأرانب والفئران نُقلة خطيرة، ولكنها خطوة لابد منها)

وطوى الليل رداءه الأسود، وانبلج الصباح وبعث شعاعه الأبيض إلى المعمل ينشر فيه مع النور الأمل والثقة والإقدام. ودخله إرليش فنظر فوجد الأرانب التي برئت، ولقي عونه برتهايم، هذا الرجل الساحر الذي لوى الزرنيخ الفاتك ثم لواه ستاً وستمائة مرة

حتى عاد حربه سلاماً. وتشمم إرليش فسطعت في أنفسه رائحات مائة مخلطات طيبات لمائة من حيوانات تجريبية، ورائحات ألف مختلطات طيبات لألف من مواد كيماوية، وتلفت إرليش يمنة ويسرة فوجد كل هذا الجمع من أعوانه رجالاً ونساء يؤمن به ويثق فيه. إذن فما التشكك وما التردد؟ وهيا أيها الأعوان إلى هذه الخطوة الأخيرة نخطوها ولو خطيرة فقد والله خاب من أحجم

كان إرليش في قراءة نفسه مقامراً، ومَن من كبار صادة المكروب لم يكن مقامراً؟! وقبل أن يزول تقرّح صَفَن الأرنب بتمامه، وقبل أن تسقط عنه أخيرة جلباته، كتب إرليش إلى صديقه الدكتور كنراد ألْت يقول: (فهل لك أن تتكرم فتجرب هذا المركب الجديد رقم 606 في مرضى الزهري من بني الإنسان؟)

فأجابه الدكتور ألت: (بالطبع نعم). وأي ألماني لا يجيب بهذا وهم قوم غلبِ صعاب؟ وجاءت سنة 1910 فكانت سنة إرليش الكبرى. ففي يوم من أيام هذه السنة انعقد المؤتمر العلمي في مدينة كونجزبرج

فلما دخله إرليش دوى المكان بالتصفيق الشديد وزاد وحمي حتى خيل أن الناس أصابتهم الحمى، وطال حتى خيل أن إرليش لن يقوم فيُلقي في القوم مقالته. وقام أخيراً فحكى لهم كيف تمهدت السبيل بعد لأي إلى وجدان الرصاصة المسحورة، ووصف لهم داء الزهري

اللعين، وقص لهم قصة الرجال الذين انتهى بهم المآل إلى تشوه قطيع ثم موت قبيح، أو انتهى بهم الحال إلى ما هو شر من هذا - إلى مستشفى المجاذيب. لم ينفعهم الزئبق، الزئبق الذي أطعِموه والزئبق الذي دلكوا به والزئبق الذي حُقنوه حتى كادت أسنانهم أن تسقط من لثاهم. حكى لهم حكاية هؤلاء المناحيس وقد انقطع الرجاء منهم، ثم ما هي إلا أن دخلت فيهم إبرة المِحقن واندفع فيهم محلول رقم 606 وانتشر في دمهم حتى نهض المريض وانتصب الراقد. وزادوا في الوزن ثلاثين رطلاً وتطهروا من نجسهم فلم يتحاشاهم الأصدقاء. . . . . .

وقص عليهم قصة رجل جاءه الشفاء كالمعجزة جاء بها بعض الأنبياء: قصة رجل منكود قرض المكروب بلعومه قرضاً وأكل منه أكلاً حتى لم يعد مدخلاً صالحاً للطعام فأطعموه بأنبوبة أطعمة سائلة كي تجري فيها. ومرت به أشهر على هذه الحال. ثم ما هي إلا حقنة واحدة من مركب رقم 606 حقنها في الساعة الثانية بعد الظهر حتى استطاع في العشاء أن يأكل ويزدرد سندتشاية من (السجؤ). ولم تكن الحال قاصرة على الرجال، فمن النساء المساكين زوجات بريئات أصابهن الداء من أزواج ولغوا في الخطيئة. فمن هؤلاء امرأة ألحت عليها الآلام، وبلغت منها العظام، ولازمتها سنين لم تنم لياليها بعض النوم إلا بالمرفين. فهذه عولجت بحقنة واحدة من هذا الدواء فنامت في ليلة ذلك اليوم نوماً هانئاً عميقاً من غير مرفين. معجزة والله وأي معجزة! أي عقار وأي عشب وأي وصفة وصفها العجائز والكنائس وأطباء الدهور منذ الأزل بلغت من الشفاء ما بلغه هذا الدواء! وأي مصل وأي لقاح مما ابتدعه المحدثون من صادة المكروب يبلغ ما بلغه هذا المركب في قتل الجراثيم، أو يقارب في الفتك بها بعض ما فعلته هذه الرصاصة المسحورة الساحرة من القضاء عليها قضاء كأنه تنزل من السماء؟

وهتف الناس لإرليش هتافاً لم يهتفوه لأحد. وهتفوا له هتافاً لم يستحقه استحقاقه أحد. دع عنك ما أثاره في الناس من قبل من آمال كواذب، وتناس ما تلا ذلك من متاعب ومصاعب، واذكر الساعة أنه بكشفه هذا مشى بجماعة البحاث في طريق جديد لفتح مجيد.

تقول علوم الجوامد: لكل فعل رد فعل يساويه ويذهب في ضد اتجاهه. وما يصدق في عالم الجوامد يصدق في عالم الأحياء، وهو يصدق في حياة الرجال من أمثال إرليش. فما كاد

يشيع في الناس ما جرى، حتى تجاوبت أرجاء المعمورة تصرخ في طلب هذا الدواء: في طلب المركب رقم 606. فهكذا أسماه إرليش اسماً ضخماً يملأ السمع ويبهر الحساب فلنغفر له طلب الضخامة وحب الفخامة. فقام برتهايم ومساعدوه العشرة في بيت إسباير يصنعون مئات الألوف من جرعات هذه المادة البديعة، ولم يقعدهم أنهم كانوا متعبين منهوكين من طول ما كدوا وجهدوا. وقاموا في هذا البيت الصغير

بصناعة مقادير لا ينهض بها إلا المصنع الكبير. وصنعوها في جو مخطر ملئ بالأثير. وصنعوها في خشية من زلة قليلة تحدث في التركيب فتقضي على العدد الكثير الوفير من الرجال والنساء. فالسلفرسان سيف له حدان: حد لقتل الجراثيم، وحد لقتل الإنسان. وإرليش، فما الذي كان من أمره؟ أصبح جلدة على عظمة، وزاده داء السكر سوء. ولم ينقطع عن شرب سجائره الكبيرة وليته لم يفعل. فهذا ما كان من أمره: بالأمس أحرق شمعته من طرفيها، واليوم هو حارقها من وسطها أيضاً

(يتبع)

احمد زكي

رسالة الفن

ميكيلانجلو العبقرية الملهمة

للدكتور احمد موسى

عرفنا من المقال السابق كيف بدأ القرن السادس عشر بشخصية الرجل الكامل ليناردو دافينشي، وكيف كانت الرغبة أكيدة في إحياء علوم الإغريق وفنونهم، وعلمنا مدى أثرهما على ليوناردو

واليوم نعالج عبقرية ملهمة، وشخصية فذة. اعتبرت ولا تزال معتبرة من أبرز شخصيات الفن إطلاقاً، ألا وهي شخصية ميكيلانجلو، النحات القدير، بل قائد النحت الحديث، والمعماري العظيم، والمصور الهائل

وكم كنت أود أن أدرس مختلف نواحيه الفنية. لولا أن هذا قد يذهب بنا إلى تفاصيل قد لا تؤدي إلى ما نرمي إليه من تزويد القارئ بمعرفة شئ مبسط عن الفن وعن تاريخه، بقصد السمو بذوقه، وفتح ناحية من الاستمتاع النظري أمامه، لا تقل روعة عن نواحي الاستمتاع النفساني الأخرى؛ بل قد تزيد أهمية، نظراً لقلة ثقافتنا الفنية بوجه عام

هذا يرغمني على أن أحاول الجمع بين غايتين مختلفتين: الأولى الاقتضاب حتى لا يمل القارئ، والثانية الإيضاح الصادق حتى يعلم أهم ما تجب معرفته عن شخصية من أبرز شخصيات الفن إطلاقاً

ولعل أهم ما تجب معرفته مبدئياً هي مميزاته الفنية، والطابع الذي طبع به إنتاجه. أما مميزاته فقد يمكن فهمها عند ما يشاهد ما تركه من تراث مجيد، فعندئذ نرى أنه كان سامي الخيال باحثاً وراء المثل العليا في خلقه؛ وأما طابعه فهو يتلخص في أنه استطاع أن يخلق لنفسه عالماً فنياً خاصاً، جال فيه ثم ارتفع حتى أصبح مضرب الأمثال في الجمع بين سمو الخيال وجمال الاقتباس، وبين القوة والعنف، هذا إلى جانب روعة الإنشاء التي كانت له دون غيره

وموضع الدهشة والحيرة في خلق هذا الفنان العبقري أنك عندما تشاهد إنتاجه لا تستطيع

أن تتصور أنه مستمد من الواقع الملموس أو مشابه له؛ بل ترى دون شك أن هذا الإنتاج يعبر عن المثل الأعلى في الجمال، ولكنه مع هذا ملئ بكل مظاهر الحياة لا ينقصه شئ منها إلا النبض

كانت الغاية عن ميكيلانجلو أن يظهر الجسم البشري إظهاراً جميلاً سامياً، مليئاً بالقوة نابضاً بالحياة، وهو في هذا المجال أول وأعظم فنان أنجبه الدهر في المدرسة الحديثة دون منازع

وقد وصل في المعرفة بأصول علم التشريح إلى درجة لا مثيل لها مطلقاً، وهذه المعرفة تتضح عندما نشاهد ما غلب على إنتاجه من مظاهر الحركة بمختلف أوضاعها وإذا قارنا خلقه بتراث الإغريق الخالد؛ وجدنا الفارق يتلخص في عنف ميكيلانجلو في الإخراج، لأنه تخير المواقف التي تكاد تكون مستحيلة، كما فضل مواقف الضغط والاضطرار راغباً من وراء ذلك في إظهار جمال التكوين الجسماني الإنساني طامحاً وراء البناء الهرقلي (نسبة إلى هرقلس)، فكان بما ملك من القوة، فذاً في الإخراج، عظيماً في الوضع، إماماً لكل فنان طامح، ملك الجمال بمعناه الفلسفي، وبعد كل البعد عن الجمان المثير، فكان نقياً في اختيار موضوعاته لا يهتم فيها إلا بالعظائم.

كان بشخصه يقوم بنحت تماثيله الرخامية من أبسط شئ فيها إلى أكبر وأهم جانب منها، سائراً في ذلك تبعاً لرسومه الخطية التي كان يرسمها لتكون بمثابة المنهج الدراسي قبل البدء في النحت.

ولد ميكيلانجلو يوم 6 مارس سنة 1475 في كابريزه، وتلقى أول دروسه في التصوير منذ سنة 1488 عند المصور المعروف دومينيكو جيرلانداجو الذي كان بارزاً في فلورنسا في ذلك الحين.

ولكنه بجانب درسه للتصوير، عرج كثيراً على دراسة النحت الإغريقي، ووجد في الغاية. وكانت التماثيل الموجودة بحديقة مديتشي في سان ماركو خير مدرسة له. ولم تنقض مدة طويلة حتى لاحظ لورنسودي مديتشي استعداد ميكيلانجلو للنحت؛ فأخذه ليتتلمذ في بيته على النحات برتالدو، الذي كان تلميذاً لدوناتيللو المعتبر من أحسن نحاتي عصره

وأول منحوتاته قطعة (نصف بارزة) أسماها (المادونا جالسة إلى جوار السلم) ش - 1 - ،

وبالنظر إليها نرى الكيفية التي تمكن بها، وهو حديث عهد بالنحت، من صبغ ما نحته بشيء كثير من الحياة، يتضح من تأملنا نبل وجه العذراء، وكثرة الثنايا التي تخللت ملابسها، إلى جانب القوة التي بدت في نحت الأيدي. كذلك من الطريقة التي جلست بها العذراء على ذلك المقعد الرخامي الواطئ، والمنهج الذي سار عليه في إخراج الملابس، ثم جلسة الطفل في حجر أمه، والأطفال الصغار الذين يلهون على السلم وقطعته الثانية نصف بارزة أسماها (مذبحة كنتاور) وهي تمثيل لقصة إغريقية خرافية، أبطالها مخلوقات نصفها الأعلى كإنسان والأسفل كحصان ش - 2 - ، وهي من أهم الأدلة على اتجاه الفنان إلى الإغريق وتأثره بهم.

انظر إلى القطعة نظرة شاملة، وتأمل كيف استطاع إظهار كل من الأجسام في حالة حركة مملوءة بالحياة، تناسبت كل التناسب مع موضوع القطعة من الناحية الإنشائية، فترى العضلات بارزة، مع اختلاف التكوين الكلي وملامح الوجه لكل منهم، فضلاً عما تعبر عنه بعض هذه الأجسام والوجوه من المقاومة والعنف، على حين يعبر البعض الآخر عن الاستسلام أو الخوف. أما التفاصيل التشريحية فهي في غاية الكمال، فالثنايا والعضلات والانحناءات كلها على غاية الدقة

تأمل الرجل العجوز الواقف إلى أقصى اليسار وهو يحمل حجراً بيديه، يريد الإلقاء به على أحد المغضوب عليهم، ثم قارن بين مظهره الكلي وشكله التكويني، وبين وجوه الواقفين إلى أقصى اليمين، فإنك تلاحظ اختلاف التعبير في ملامح الوجوه، لأن حالة الدفاع وما ترسمه على ملامح الوجه تخالف حالة الاعتداء

تأمل الأذرع والأيدي وكيفية انثنائها وامتدادها وانقباضها، وسر بنظرك خلال أجزاء هذه القطعة الفذة التي شملت أكثر من عشرين رأساً، لا ترى منها واحدة شابهت الأخرى، وفكر قليلاً واذكر أن ميكيلانجلو بدأ المرحلة الأولى من حياته الفنية بهذه القطعة

فر هارباً إلى بولونا عندما علم أن الحزب المعارض لبيت المديتشي قد انتصر عليه. وفي بولونا نحت تمثالاً من الرخام لملاك، بقصد التحلية لمقبرة دومونيكوس، وكذلك تمثال يوحنا الصبي حاملاً لقرص شمع العسل ش - 3 - بمتحف برلين، وإذا نظرنا إلى هذا التمثال فإننا نرى عليه مسحة البراءة، إلى جانب جمال التكوين العام وسماحة الوجه. انظر إلى

العنق والذراعين والساقين والقدمين، ثم قارن بين التكوين الكلي لهذا التمثال وبين ما سبق أن شاهدته بالقطعة الفائتة واجتهد أن تتعرف بعض الفوارق.

(له بقية)

احمد موسى

البريد الأدبي

الاضطراب في نظم التعليم

لا تزال برامجنا التعليمية بعيدة عن الاستقرار، فهي منذ أكثر من عشرة أعوام في اضطراب دائم؛ وفي كل عام توضع مناهج وخطط جديدة، ثم لا يكاد يبدأ في تنفيذها حتى تطرأ عليها تغييرات جديدة؛ وهذا الاضطراب لا يشمل المناهج التفصيلية فقط، ولكنه يشمل أيضاً مدد الدراسة وأنواع التعليم وغاياته واتجاهاته، وقد أصاب هذا التردد سير التعليم في الأعوام الأخيرة بأضرار ظاهرة، ولوحظ أن مستوى التعليم في هذه الفترة قد ضعف، وأن مستوى الثقافة بين الشباب في

انحلال، هذا فضلاً عن قصورهم الظاهر في مجاراة الحياة العملية.
والآن تعيد وزارة المعارف نفس العملية التي تكررها في كل عام، وتضع للتعليم مناهج ونظماً جديدة متينة، فإلى متى يستمر هذا التردد الخطير؟ لقد عالجت وزارة المعارف والجامعة المصرية في الأعوام الأخيرة هذا المشكل غير مرة، واستقدمت الحكومة المصرية خبيرين شهيرين في مسائل التربية هما الأستاذان مان وكلاباريد، ووضعا تقريرهما المعروف، فلم يعاون على حل المسألة. وفي كل عام تعرض آراء واقتراحات جديدة. ومن الأسف أن وزارة المعارف لم تضع لها حتى اليوم سياسة عامة مستقرة للتعليم والتربية، وفي كل تغيير وزاري جديد نراها تتجه وجهة جديدة، وفي هذا على مستقبل التعليم ما فيه من الخطر؛ ذلك أن التعليم يجب أن يتخذ وجهة قوية ثابتة، وأن توضع الأسس المستقرة لسياسته العامة، وأن تترك التفاصيل وحدها عرضة للتغيير والتبديل. ومصر اليوم في مفترق الطرق بالنسبة لمستقبل التعليم والثقافة فعلى وزارة المعارف أن تعجل بوضع الخطط المستقرة الثابتة لتعليم الشباب وإعداده في العصر الجديد

من آثار التشكيك

ظهر أخيراً كتاب ديني عنوانه (المصاحف) قام على نشره المستشرق المعروف الدكتور إرثر جفري الأستاذ بالمعهد الشرقي بالجامعة الأمريكية. وكتاب المصاحف هذا هو الكتاب الذي ألفه عبد الله بن داود السجستاني، وهو من آثار التشكيك التي أنكرها العالم الإسلامي منذ صدورها؛ وهو يقوم في الواقع على فكرة التشكيك في القرآن الكريم على ما جمعه الخليفة عثمان، وفي أنه وقع بالكتاب الكريم كثير من الحذف والزيادة في مواطن كثيرة ينوه بها مؤلفه ويورد عليها أمثلة عديدة. بيد أن علماء القرآن والمتكلمين المسلمين لم يحفلوا بهذه المزاعم، فبقي كتاب المصاحف مطموراً في أقبية بعض المكاتب العامة والخاصة حتى فكر المعهد الشرقي بجامعة (منشن) (ميونخ) أن يقوم بنشره؛ ونشره الأستاذ جفري عن نسخة في المكتبة الظاهرية بدمشق، ومهد له بمقدمة طويلة بها كثير من المغامز التي تؤيد غايته من نشر الكتاب. والمعروف أن المعهد الشرقي في جامعة منشن يهتم منذ أعوام بدراسة القرآن ولهجات القراءات المختلفة، وأنه أوفد إلى مصر بعض أعضائه ليدرس هذا الموضوع في مواطنه المختلفة، ولكن يلوح لنا أن هذه العناية تنحرف عن غايتها العلمية بنشر مثل هذا الأثر الذي أنكره العالم الإسلامي

معرض باريس

افتتح معرض باريس للصناعات والفنون في الموعد الذي حدد لافتتاحه وهو 24 مايو الجاري. بيد أن معظم الأقسام مازالت في طور الإنشاء ولم يكتمل بناؤها وإعدادها. وقد اشتركت في المعرض اثنتان وأربعون دولة منها مصر، وأنفقت مصر في سبيل هذا الاشتراك عشرين ألف جنيه. ومعرض باريس هو بلا ريب أعظم وأحدث المعارض الصناعية والفنية؛ وهو بذاته مدينة عظيمة أقيمت على ضفاف السين في ساحة التروكاديرو، وخطت فيها شوارع كبيرة، وأقيمت طائفة كبيرة من البنايات الضخمة والمسارح والملاهي المتعددة من شرقية وغربية. ويقدر الخبراء أن زوار المعرض في مدة الافتتاح وهي تمتد إلى نوفمبر القادم قد يبلغون عشرين مليوناً؛ ولكن الظاهر أن هذا التفاؤل مبالغ فيه فالحكومة الفرنسية لم تقدم لزوار المعرض أية تسهيلات خاصة، ولم تقرر أي تخفيض في أجور السفر لا في البر ولا في البحر سوى ما تمنحه مصلحة السياحة كل عام من تخفيض 50 % على خطوط السكك الحديدية، وهي مسألة لا جديد فيها. وقد ارتفعت تكاليف المعيشة في باريس إلى حدود مروعة، وزادت الأثمان زيادة تفوق كل ما يستطيع الزائر أن يفيده من تخفيض سعر الفرنك. وسياسة فرنسا إزاء المعرض تخالف السياسة الدولية المتبعة في مثل هذه الظروف لأن الحكومات المختلفة اعتادت أن تمنح أثناء إقامة هذه المعارض تسهيلات عظيمة للزوار خصوصاً في أجور السفر في البر والبحر

هذا وسيفتتح القسم المصري بمعرض باريس في 16 يونيه. وسيتولى افتتاحه جلالة الملك فاروق الذي سيكون في باريس في هذه الفترة

بعثة علمية كبيرة إلى القطب

طارت في الأسبوع الماضي من موسكو بعثة علمية روسية إلى القطب الشمالي تتألف من 42 عالماً برياسة العلامة الأستاذ أوتو شميت؛ وقد وصلت إلى القطب بالفعل وطارت فوقه ونزلت سالمة على جبل من الثلج يقع على بعد عشرين كيلو متراً من القطب؛ وسيقضي أربعة أعضاء من البعثة برياسة العلامة شميت عاماً في هذا الجبل الثلجي يقومون بالمباحث العلمية اللازمة حتى يبدأ ذوبان الثلج. وقد نظمت المواصلات اللاسلكية بين طيارة البعثة ومركز اللاسلكي في جزيرة رودلف التي اتخذت مركزاً لقيام البعثة وتموينها، وهي تبعد بالطيارة عن القطب نحو سبع ساعات. وستقيم البعثة لها منزلاً من المطاط وتقوم الطيارات بإمدادها بالمؤن والملابس، وذلك بواسطة إلقائها من الجو بالمظلات. وستعنى البعثة خلال إقامتها ببحث عوامل المغنطة في القطب وحركة الثلوج وأعماق المياه في تلك الأنحاء، والبحث عن تيارات الهواء الدافئ على مقربة من القطب. والأستاذ شميت رئيس البعثة علامة مشهور في المسائل القطبية، وقد كان في الأعوام الأخيرة خير معوان على ارتيادها وكشف مجاهلها. والمظنون أن المعلومات التي تجمعها البعثة قد تفيد فائدة عظيمة في تسهيل إنشاء المواصلات الجوية بين روسيا وأمريكا عن طريق القطب الشمالي؛ بيد أن غاية موسكو الجوهرية من تجهيز هذه البعثات هو على ما يظهر تمهيد الوسائل اللازمة لاستعمار الأنحاء القطبية بصورة عملية، والعمل على استثمار ثروتها الدفينة بتذليل العقبات الجوية والإقليمية؛ وقد بذل العلماء الروس في العهد الأخير في هذا السبيل جهوداً تدعو إلى الإعجاب

المبرد أخيراً

أحب أن أقول (لأحد القراء) الكرام: أن المسألة ليست مسألة روايات، ولكن الأمر في التمييز بينها، والوقوف على مرماها في إفادة المطلوب، وهذا الضبط الذي ذكره ابن خلكان إنما جاء على ما هو شائع في ألسنة الناس، وهذه الرواية المذكورة عن برد الخيار مقصود بها إلى النكتة والفكاهة؛ وما ذكره ابن عبد ربه قائم على الحدس والحسبان لأنه يقول: فما أحسبه. . . الخ، ورواية ابن الخطيب في تاريخ بغداد إنما جاءت في مقام الزراية على الرجل.

ولقد قلت للأديب الفاضل من قبل إن المبرد بالفتح خطأ شائع في ألسنة الناس حتى في الألسنة المثقفة وأصل اللقب في وضعه كان بالكسر ثم فتحه الكوفيون؛ قد يكون استهزاء بالرجل أو قد يكون لأنه كتب كتاب الروضة بارداً كما روى ابن عبد ربه وابن الخطيب؛ وعلى كل حال فليس من المروءة أن نمسك على الرجل هذا النبز، وليس من الصواب أن ننصرف عن الخير إلى الشر. ولقد كان يكفيني ويكفي الأديب الفاضل قول الرجل نفسه: برد الله من بردني، فإن لرجل أدرى بحقيقة لقبه من أي كاتب آخر.

هذا ولا يحتج علينا الأستاذ بقرب عصر ابن عبد ربه وابن الخطيب لأن ما رواه ياقوت هو عن المازني، والمازني معاصر للمبرد وألصق به، كما أن ياقوت هو سيد الكتاب وعمدتهم في تحقيق الأعلام، وليس ثمة من يجاريه في هذه الحلبة، والله نسأل أن يوفقنا للصواب، وأرجو أن يكون في هذه ما يقنع الأستاذ

محمد فهمي عبد اللطيف

ديوان حافظ إبراهيم

أخرجت وزارة المعارف العمومية الجزء الأول من ديوان حافظ في 318 صفحة من القطع المتوسط مشتملاً على المدائح والتهاني والأهاجي والإخوانيات والوصف والخمريات والغزل والاجتماعيات. وقد ضبطه وصححه وشرحه ورتبه الأساتذة احمد أمين، واحمد الزين، وإبراهيم الأبياري. وصدره الأستاذ احمد أمين بمقدمة جليلة ممتعة في 43 صفحة تناول فيها حياة حافظ وشعره بالتحليل البصير والنقد الكاشف والحكم الموفق. وإخراج الديوان على هذا الوضع المحكم، والطبع الجميل، والتصحيح البالغ، يد لا ينساها الأدب الحديث للأساتذة الأجلاء ولوزارة المعارف. والديوان مطبوع في دار الكتب المصرية وهو يباع فيها

وفاة شاعر مجري كبير

في الأنباء الأخيرة أن شاعر المجر الكبير يوليوس يوهاش قد توفي في نحو الرابعة

والخمسين من عمره؛ وكان مولده في مدينة شيجيد سنة 1883، وتلقى تربيته في جامعة بودابست، وظهر منذ الحادثة بحسن نظمه، بيد أنه مال في أول أمره إلى النظم القوي العنيف ثم تدرج بعد ذلك إلى النظم الرقيق الهادئ، وظهرت أول مجموعاته الشعرية في سنة 1907 ثم تلاها مجموعة أخرى اسمها (قصائد جديدة) في سنة 1914، وظهرت له بعد ذلك دواوين أخرى منها: (هذا دمي) و (لا تنسني) و (وصيتي) وغيرها

وقد فقدت المجر منذ أشهر قلائل شاعراً كبيراً آخر هو ديزو كشتولدني الذي توفي في نوفمبر الماضي وبذلك فقدت المجر أعظم شاعرين من شعرائها المعاصرين الذين جمعوا بين العهدين القديم، وهو عهد الإمبراطورية، والحديث وهو عهد ما بعد الحرب

رسالة النقد

إسماعيل المفترى عليه

تأليف القاضي بيير كربتيس

وترجمة الأستاذ فؤاد صروف للأستاذ الغنيمي

تتمة

وقال المؤلف يصف القلق الذي كان سائداً في مصر في آخر أيام إسماعيل باشا (12)

فقال الأستاذ صروف في ترجمتها (في هذه الديار نوع من الاختمار الفكري. ولو كان هذا الاختمار طبيعياً لأوجد في النفس قلقاً) ونحن أولاً لا نستحسن ترجمته كلمة في هذا الموضع باختمار لأن فيها غموضاً كثيراً وكان الأفضل أن تترجم بكلمة (قلق) وثانياً وهو الأهم أن الجزء الأخير من الجملة هو عكس المعنى الذي أراده المؤلف وهو ولو كان هذا القلق طبيعياً (غير مفتعل) لعددناه من دلائل الخير. فأين هذا من قول المؤلف (لأوجد في النفس قلقاً).

ومن أمثلة عدم الدقة في اختيار الألفاظ المناسبة قول المترجم عن رفض (13) ضباط الجيش في عهد الوزارة الأوربية (هذا التدبير كان فظاً) فهل يوصف التدبير بالفظاظة؟

وقوله أيضاً عن الضباط المفصولين (جمع ألفاً وخمسمائة ضابط في حالة الغليان) وتلك أيضاً عبارة ثقيلة على السمع

وقوله عن الناظرين الأوربيين في وزارة نوبار باشا (وأهانا الشعب برفضهما التزني بالوشاح الوطني) يريد أنهما أساءا إلى الشعب أو جرحا عواطفه بعدم لبس الشعار القومي (الطربوش)

وقوله عن إسماعيل باشا (يمكن الاعتراف بأن إسماعيل كان كبش التضحية على هيكل الأنظمة الاقتصادية) وهي عبارة لا يقبلها ذوق. مثلها في ذلك مثل قوله الآخر (15)

وقوله (فإسماعيل كان واقفاً وظهره إلى (وقفز إسماعيل من المقلاة إلى النار) (15) الجدار) يريد أن إسماعيل سدت في وجوهه السبل أو أظلم يومه أو نحو ذلك

ومن أمثلة العبارات التي يحار القارئ في فهم معناها لغموضها أو ضعف أسلوبها (14) قوله عن وزارة نوبار باشا (ونظاره يحكمون تحت سيطرة الإلغاء من ولسن وبلنيير)

وقوله عن مقتل إسماعيل صديق باشا (فالذين يجهلون مصر كذبوا الخبر بحملته والذين يعرفونها صدقوه ورأوا فيه خاتمة غير فجائية ولا فاجعة لما بد مهزلة وانتهى إلى مأساة) وإذا فرضنا أن بد الواردة في آخر الجملة غلطة مطبعية صوابها بدأ فإن الجملة بعد هذا التصحيح تظل غامضة

ومن الجمل التي تغير معناها لخطأ في ترجمة إحدى كلماتها قول الأستاذ صروف (15) عن تقرير لجنة التصفية (وقد وضع نصفه الأول لورد كرومر) مع أن المؤلف يقول (وقد وضع صورته الأولى أو مسودته لورد كرومر)

وقوله (ولقد حان الوقت حقاً لحل مجلس النواب القديم) يريد مجلس النظار

ومن أمثلة الأسلوب الضعيف قول الأستاذ صروف في وصف سفر الخديو (15) إسماعيل باشا على ظهر المحروسة (فكل) مفكر راقب المحروسة تبحر من مرفأ الإسكندرية بعد ظهر ذلك اليوم في الصيف تنهد بطبيعة الحال أمام مشهد بارز في (أفق العالم للفرص الذهبية تسنح وتلمع ثم تضيع

فهل هذا وصف يمثل لخيال القارئ صورة ذلك المشهد الرهيب؟

ومن الأشياء التي لا نستطيع أن نفهم لها سبباً حرص الأستاذ صروف حرصاً (16) شديداً على أن يترجم كلمة دائماً أو في معظم الأحيان بكلمة مجلس نظر حتى ولو أدى ذلك إلى غموض المعنى وضعف الأسلوب فيقول مثلاً:

فقد مجلس النظار ثقة البلاد بدل أن يقول فقدت الوزارة ثقة البلاد ويقول، فقرر مجلس نوبار (يريد قررت وزارة نوبار) دفع جانب من المتأخرات ويقول فتألف مجلس نظار مصري (يريد وزارة مصرية) ويقول وعندما ألف نوبار مجلس نظاره ويقول انتدب نوبار لتأليف مجلس النظار، وكتب الخديو إلى نوبار يفوض إليه تأليف مجلس نظار وهكذا

وربما كان السبب أن الأستاذ صروف يظن أن كلمة وزارة لم تكن تستعمل في ذلك الوقت والحقيقة أنها كانت مستعملة وقد استعملها الأستاذ صروف في بعض المواضع يخيل إلينا أن الذي ترجم الجزء الأخير من الكتاب ليس هو الذي ترجم الجزء الأول منه

قال المؤلف في معرض تبرير الرشا التي كان سمو الخديو يدفعها إلى رجال (17) السراي

وهي عبارة معناها (إذا كان العالم لا يرضى عن تشجيع الرشوة) ولكن الأستاذ صروف ترجمها بهذه العبارة الغامضة التي لا يفهم لها معنى وهي (إذا كان العالم لا يرضى عن تشجيع ما يثير)

ولينظر القارئ أيضاً إلى العبارة الآتية التي يذكر فيها المؤلف ما أنفقه سمو (18) الخديو على التعليم

ومعنى الواردة في هذه العبارة هو إطعام التلاميذ الفقراء وهو معنى عادي لهذه الكلمة ذكر في القاموس صراحة بلفظ ومعنى العبارة إذن هو (نعم إن كثيراً من هذا المال ينفق على طعام التلاميذ الفقراء ولباسهم) ولكن الأستاذ صروف غفل عن ذلك فترجمها (المجلس) وأفسد معنى العبارة إذ قال (نعم إن جانباً كبيراً من هذه المبالغ استنفده المجلس) ولا ندري أي مجلس يريد. ولماذا لا يرجع الأستاذ للقاموس ليعرف معنى العبارات التي يشك فيها؟

ننتقل بعد هذا إلى أسماء الأعلام الواردة في الكتاب فنقول إن الأستاذ حرفها بل بدلها تبديلاً لم نر له نظيراً في كتاب من كتب التاريخ

إن أكثر ما يؤلم المصححين والمراجعين في دار الكتب المصرية عندما ينشرون كتاباً من الكتب العربية القديمة المخطوطة هو ما يجدونه في أسماء الأعلام من تحريف؛ وإذا علمت أن معظم هذا التحريف الذي يلاقونه إنما ينشأ من اختلاف في وضع نقطة على حرف بدل حرف أو حذفها أو نحو ذلك وأنه مع هذا يسبب لموظفي هذه الدار عناء ليس بعده عناء لأنهم يريدون أن يخرجوا للجمهور كتباً صحيحة مضبوطة، إذا علمت ذلك أيقنت أنه من حق القراء على الكتاب والمترجمين أن يتحروا الحقيقة فيما يكتبون وأن يتأكدوا من صحة الأسماء التي يكتبونها لهم. إن الأشخاص في التاريخ هم المحور الذي تدور حوله الحوادث وهم بمنزلة أحجار البناء فيه، فإذا كانت أسماؤهم خاطئة وبعيدة كل البعد عن الصواب فسد البناء كله. والأستاذ صروف لسبب ما لم يتجر صحة الأسماء فأخطأ في كثير منها خطأ لا يصح أن يقع فيه

فعالي باشا الصدر الأعظم في عهد الخديو إسماعيل وقبل إسماعيل الذي ظل (1) يتناوب هو وفؤاد باشا منصبي الصدارة ووزارة الخارجية قد سماه الأستاذ (علي باشا) لأنه ترجم الحروف الإنجليزية دون بحث عن الحقيقة

وسرور باشا الذي تولى وزارة الخارجية في وزارة محمود نديم باشا الأولى بعد (2) وفاة عالي باشا ثم تولاها مرة أخرى بعد ست سنين من ذلك التاريخ قد سماه الأستاذ (سيور). وليس خطأ المؤلف في هذا مما يبرر خطأ المترجم لأن واجب المترجم أن يحقق ويراجع لا أن ينقل ألفاظاً وحروفاً

وهاك غلطة ثالثة من هذا النوع: من الأشخاص الذين كانوا يأخذون المال من (3) إسماعيل باشا شخص يدعى (رشدي باشا الصغير الأقياني) وهو من إقليم يدعى أقيان أو أكيان قريب من أرضروم كتبه المؤلف فكتبه الأستاذ رشدي باشا المكنى بأقيان وليست أقيان كنية لرشدي باشا ولا لقباً له بل هي اسم الإقليم الذي ينتسب إليه. فإذا قلنا فليس معنى هذا الغنيمي المكنى بأسيوط بل الغنيمي الأسيوطي وهكذا

ولا يقل عن هذا استبدال الأستاذ صروف (موافي) أفندي باسم سعاوي أفندي (4)
الذي ذكره المترجم وكتبه هكذا وهو أحد الفارين من وجه الاضطهاد التركي واسمه
الكامل علي سعاوي أفندي وقد كرر الأستاذ هذا الاسم المحرف مراراً دون أن يفكر
في البحث عن حقيقته
ومثله أيضاً الشخص الذي يسميه الاستاذ صروف كربجي باشا مرة أو مرتين (5)
وكبريجي باشا مرة أخرى وليس هو كربيجي ولا كبريجي باشا بل هو القبرصي باشا أو
القبرصلي باشا إذا شئت أن تذكره بصيغة النسب التركية. وقد أخطأ المؤلف في
الاسم فاستبدل بحرف حرف ولكنه عاد بعد ذلك في صفحة 185 من الأصل الإنجليزي
فصحح الخطأ
ولا يختلف عن هذا أيضاً الشخص الذي يسميه الأستاذ صروف (تاجي كاتب أمين بك)
وهو اسم لا وجود له ولا الشخص الآخر الذي يسميه سعيد بك ولا خليج مميار ولا
سمعان بك الخ
وبعد فأظننا بهذا قد أعطينا القراء فكرة عن ترجمة الأستاذ صروف لكتاب إسماعيل
المفترى عليه، ولم يبق إلا أن نقول إن أسلوب الكتاب كله وبخاصة أسلوب فصوله
الأخيرة معقد مفكك ملتوي العبارات تحس وأنت تقرأه إنك تقرأ عبارات مترجمة لا
رابطة تجمعها. ويستطيع القارئ أن يلمس ذلك بيده في هذه الفصول
ولا ندري لماذا أغفل الأستاذ صروف دليل الكتاب أو فهرس الأعلام الذي عني به
المؤلف فذكر الاسم والصفحات التي ورد فيها. أغفله الأستاذ ووضع بدله دليلاً ناقصاً
من عنده لم يذكر فيه الصفحات، مع أن الدليل جزء لا غنى عنه في كل الكتب الحديثة
لأنه يسهل على القارئ البحث والمراجعة
ونحب قبل أن نختم هذا النقد أن نعتذر إلى القراء وإلى الأستاذ صروف عن عبارة
ذكرناها في المقال السادس على أنها غامضة المعنى تلك هي جملة (يخفي ضوءه
تحت مكيال) وهي في الحقيقة غامضة إلا لمن درس الكتاب المقدس دراسة وافية
وكان على الأستاذ أن يشير إلى مصدرها
ثم نورد هذه الفقرة من خاتمة الكتاب التي كتبها الأستاذ صروف من عنده وهي:
ولقد توخينا في الترجمة أن تجمع بين سلامة الأسلوب العربي والدقة في متابعة)
الأصل الإنجليزي. ولما كانت القواعد التي وضعها مجمع اللغة العربية الملكي لتعريب
أسماء الأعلام الأجنبية لم تظهر بعد فقد عربتها كما تعرب عادة في مصر. وإذا وجد
القارئ اسم غوردون بالغين على الأكثر وبالجيم على الأقل، أو لفظ الخديو بغير الياء
على الأكثر وبالياء على الأقل، ولفظ الأمريكي بتقديم الياء على الكاف على الأكثر
وبتقديم الياء على الراء على الأقل، فما ذلك إلا من هنات الطبع. . . الخ
هذا كل ما يعتذر عنه الأستاذ. أما تحريف الأسماء وحذف الجمل وقلب المعنى
وغموض العبارة وعدم سلامة الأسلوب فلا اعتذار عنه، بل ليقبله القراء وأنوفهم راغمة
إن في استطاعتنا أن نملأ بأغلاط الكتاب صفحات بل أعداداً من مجلة الرسالة لأن ما
تتبعناه من فصوله هو الستة فصول الأولى وبعض أغلاط من فصوله التالية. لكننا آثرنا
أن نترك الباقي لمن هو أقل منا عملاً أو أوسع منا وقتاً. على أننا قد نعود إلى الكتاب
مرة أخرى إذا أمكنتنا الظروف

الغنيمي

العدد 205 - بتاريخ: 07 - 06 - 1937

الطربوش والقبعة

بمناسبة فوزنا الجديد

كان للطربوش امتياز على العمامة أيام كان الأمر للترك والأرناءود، لأنه كان يومئذ تاج
السلطان، وشعار الحكم، ولباس الجيش، ورمز البطش، وعلامة الخطر؛ فكان يكفي
أن يكون في الحي أو في الناحية (جندي) واحد لتخشع النفوس وتخضع الرءوس
ويمحى القانون وتنتفي الحكومة، فلا يمر أحد وهو واقف، ولا يشتجر اثنان وهو موجود،
ولا يعرف الناس من وراء بيته شرطة في قسم، ولا قضاة في محكمة
وكان للقبعة امتياز على الطربوش أيام كان الشأن لاحتلال الإنجليز وامتياز الدول؛ لأنها
كانت حينئذ شارة الغلبة وبراءة الإجرام وصك الغصب وجواز المرور وإشارة الثراء
وأمارة التفوق؛ فكان يكفي أن نرى (الخواجة) لنرى الغانم الذي لا يغرم، والمتصرف

الذي لا يحاسب، والضارب الذي لا تقدر أن تغل يديه، والسفيه الذي لا تستطيع أن ترد عليه، والمدير الذي يملك المصارف والمصانع والمتاجر والشركات والبارات والمقاهي والملاهي والفنادق، ومن ورائه (المحكمة المخصوصة)، والمحاكم القنصلية، والمحاكم المختلطة، والتبجح الأشر والدعوى العريضة والبأو السليط. فكان الطربوش عنواناً على ذلك الإنسان الذي أفسدت فيه العبودية والجهالة مزايا الإنسانية فجعلتاه حياً تعافه الحياة، ووطيناً ينكره الوطن، ووريثاً يأنف منه التراث، وخلفاً يعرض عنه التأريخ؛ وكانت القبعة سمة على ذلك الأجنبي المتقحم بقوته على الضعف، وبقدرته على العجز، وبصحوته على الغفلة؛ فالتمايز في واقع الأمر كان بين ناس وناس، لا بين لباس ولباس. فأنك إذا وضعت الطربوش على جبهة الأسد كان مفخرة، وإذا وضعته على رأس القرد أنقلب مسخرة؛ وهل تصنع القبعة في الرأس الذليل إلا أن تجعل منه زنجياً في أمريكا، وحبشياً في أفريقيا، وصعلوكاً في كل قارة؟

أما نحن اليوم فخلق جديد في دنيا جديدة: تنبهت فينا ملكات الجنس فثرنا على الخسف، وتمردنا على الأذى، وزاحمنا الناس بالمناكب العريضة على مكاننا الخالي منذ قرون في صدارة الأمم، فانفتح الطريق البشري من خلفنا على المجد الأول، ومن أمامنا على النصر الأخير، وأصبح في وضع الطربوش على جباهنا مواح من سمو الشمس وشموخ الهرم،

وفي حمرته معان من أشعة الشروق، ودماء التضحية، وأوراد الربيع. وأضواء اللهب. فالتبرم به اليوم لا يجد له فيما أظن مساغاً من العقل مادام الرأس الذي يحمله قد أرتفع وامتلأ واتزن.

لا أريد أن أدخل بين الطربوش والقبعة، ولا أن أدعو إلى ذاك أو إلى تلك؛ وإنما أريد أن أقول إن ضعفنا هو الذي ظلم الطربوش كما ظلم اللغة والعلم؛ فإذا سوغ المنطق أن نترك الطربوش لأنه لا يطاول القبعة، سوغ كذلك أن نهجر العربية لأنها لا تنتشر في كل أرض، وأن نخرج على العلم لأنه لا يخفق في كل سماء. ولن تجد أهون على الناحية من رجل يأنس في نفسه الضعة فيحتال على العظمة بارتداء ثوب العظيم ماذا يضرك الطربوش إذا كان لك طوائر تئز في السحاب، وبواخر تمخر في العباب، ومدافع ترعد في البر، وغازات تسطع في الجو، ومجلس ظاهر في العصبة، وقول نافذ في السياسة، ورأي مسموع في العلم، ومذهب متبوع في الأدب، ووطن يدبره حكمك، ويستثمره علمك، ويستقل بخيره وميره بنوه؟

وماذا تنفعك القبعة إذا قنعت من استقلالك بالإقرار به، ومن وطنك بالقرار فيه؛ ورضيت أن تعيش حميلة على قوة الحليفة، وصنيعة على رحمة الدول؛ واكتفيت بمظاهر التمدن من اللباس والرياش والترف واللهو؛ وظللت على الغرائز الجافية والحس البليد، تكذب لتمزح، وتغش لتربح، وتناقش فيفرط عليك صوتك ولسانك ويدك، وتحضر مجلس السماع فتجعله من التأوه والأنين والصخب والعربدة ماخوراً في مستشفى؛ وتسير في الطريق مرحاً أو ذاهلاً فتصدم المار فيلتفت إليك التفاتة العاتب ترضيه ابتسامة عاذرة، فتهجم أنت عليه بالنظرة الشزراء والكلمة الفاحشة؛ وتصعد الترام فتخطو بنعليك على أقدام الراكبين حتى تبلغ محلك فتنحط فيه كاشر الوجه غير ملتفت، أو ضاحك السن غير مكترث؛ وتمر بك الآنسة الخفرة أو السيدة الحاصن فتخز حسها بالنظر الفاجر، وتؤذي سمعها بالمنطق الخطل، ولا ينبهك ضميرك الأغلف إلى أن للأسرة حرمة وللمجتمع كرامة؟

طهر رأسك يا سيدي من درن هذه الخلال ثم ضع عليه طاقية أو لبدة أو أي غطاء شئت، ترتفع منزلتك في كل عين، وتقر هيبتك في كل صدر؛ فأن قيمة ذلك في الرأس الذي يحمله، والشعب الذي يمثله، لا في أصله ولا في شكله ولا في لونه؛ والثوب كما يقول

الفرنسيون لا يصنع الراهب

أي شرف أرفع للرأس، وأي فخر أملأ للفم، من أن تذهب اليوم بشرقيتك ومصريتك وطربوشك فتقول للذين غمطوك بالأمس: أرأيتم إلى الجوهر الحر والمعدن الكريم، كيف طمرته القرون، وصهرته الأحداث، وتناهبته الأطماع، ثم خرج من عرك العبودية ومعركة الحرية، باهر اللون، متميز الشكل، كامل الخصائص، حر الوجود، لا هو ماسة

في خاتم ولا درة في تاج!!
أحمد حسن الزيات
ندرة البطولة
للأستاذ عباس محمود العقاد
العالم الفاضل الأستاذ احمد أمين يروي ما يتحدث به فريق من المتشائمين حين ينعون على العصر الحديث ندرة البطولة وقلة النبوغ، ويسأل معهم: (هل تجد في الشعر أمثال بشار وأبي نواس وابن الرومي وابن المعتز وأبي العلاء؟ وهل تجد في النثر أمثال ابن المقفع والجاحظ وسهل بن هرون وعمرو بن مسعدة! وهل تجد في الغناء أمثال اسحق الموصلي وإبراهيم بن المهدي؟) وقس على ذلك بطولة الحرب والسياسة والزعامة وسائر البطولات
ثم يعقب الأستاذ على ذلك قائلا: (يظهر لي مع الأسف أن الظاهرة صحيحة، وان الجليل الحاضر في الأمم المختلفة لا يلد كثيراً من النوابغ ولا ينتج كثيراً من الأبطال، وإن طابع هذه العصور هو طابع المألوف والمعتاد، لا طابع النابغة والبطل)
ثم يستعرض الأسباب ويختمها بقوله: (ما أحق هذا الموضوع بالدرس وتناول الكتاب له من وجوهه المختلفة)
والموضوع كما قال الأستاذ النابه حقيق بالدرس والتناول من وجوه مختلفة، وليس له أو أن يفوت بفواته. فإذا شغلتنا موضوعات أخرى عن تناوله في الأيام الماضية فليس ما يمنع اليوم أن نبدي الرأي فيه
ورأينا إننا نخالف الأستاذ مخالفة النقيض للنقيض؛ ونعتقد أن العصر الحديث أغنى بالبطولة والنبوغ من كل عصر سلف بغير استثناء ولا تحفظ ولا تغليب للظن والاحتمال. وإنه ليس اسهل ولا اقرب من ظهور خطأ المتشائمين فيما وصلوا إليه من نتيجة، لأنه ليس أسهل ولا أقرب من ظهور الخطأ فيما اعتمدوه من قياس
إن الوجه في المقارنة بين جيل وجيل أن نحصر الزمن وأن نحصر المزايا، وأن نحصر العناصر التي تقوم عليها شهرة الأدباء أو الأجيال
وهذا الذي ينساه المفاضلون بين عصرنا الحديث والعصور الغابرة كل النسيان فمن أمثلة ذلك سؤالهم. (هل تجد في الشعر أمثال بشار وأبي نواس وابن الرومي وابن المعتز وأبي العلاء؟)
فالذين يسألون هذا السؤال يحسبون الماضي كله عصراً واحداً يقابله واحد من الحاضر هو
العصر الذي نعيش فيه
وينسون أن الزمن الذي نشأ فيه بشار والمعري يمتد من أواسط القرن الثاني للهجرة إلى أواسط القرن الخامس، أي نحو ثلاثمائة سنة!
وينسون أن المكان الذي نشأوا فيه يمتد من العراق إلى الشام، ومن الحضر إلى البادية
وينسون أن العصر الحاضر الذي نعيش فيه لا يمتد إلى اكثر من أربعين أو خمسين سنة وهو الزمن الذي يبدأ بفتوة الشاعر وينتهي بوفاته
وإنما الوجه أن يحصروا أربعين أو خمسين سنة من العصر الحديث ثم يحصروا أربعين أو خمسين سنة من العصور القديمة، ثم يعقدوا المقارنة بين هاتين الفترتين، فإنهم ليدركون إذن حقيقة التفاوت بين عصرنا الحاضر وبين كل عصر من تلكم العصور
كذلك ينسى النعاة على المحدثين أن يسألوا أنفسهم: ما هي المزية التي كان بها النابغ القديم (أنبغ) من قرينه الحديث؟
فلا يسألون مثلاً: ما هو كتاب الجاحظ الذي يستعجزون أبناء عصرنا عن الإتيان بنظيره؟ فإن لم يكن كتاب فما هو الموضوع؟ وإن لم يكن موضوع فما هو المقال أو الجملة أو العبارة!
ولو كلفوا أنفسهم سؤالاً كهذا لمالت معهم كفة الميزان وعلموا أن الجاحظ ومن هم أكبر من الجاحظ يحتاجون إلى أن يتتلمذوا على أناس من المتخلفين، وقلما يعتزون بمزية واحدة لا يعد لها نظير من مزايا المتأخرين
وأعجب من ذلك حديثهم عن الموصلي وإبراهيم بن المهدي ومن جرى مجراهما من المطربين في العصور الأولى. فماذا سمعوا من هذا أو ذاك؟ ومن أين لهم إن

الموصلي يبلغ شأو سلامة حجازي أو السيد درويش أو أم كلثوم فضلاً عن السبق الذي لا يجارى والبون الذي لا يدرك؟

أما أنا فاغلب الظن عندي أن الأمر معكوس، وإن ألحان الموصلي لا تعدو أن تكون مزيجاً من تنغيم البدو وصيغة الحضارة المستعارة والآلات الناقصة، وكل ما يأتي على هذا النمط معروف الأصول معروف النطاق، وإن لم يكن معروفاً بحروف النوطة وأصوات السماع

كذلك ينسى المتشائمون أن يتقصوا عناصر الشهرة في العصور القديمة قبل أن يعقدوا المقارنة بينها وبين نظائرها في العصور الحديثة

فدع أنهم ينسون أن يرجعوا إلى وقائع قائد مثل يوليوس قيصر أو الاسكندر المقدوني أو جنكيز خان قبل أن يرجحوهم في فنون الحرب على فوش وهند نبرج ومصطفى كمال ولو انهم رجعوا إلى تلك الوقائع لما أكبروا من شأن الانتصار فيها كل ذلك الإكبار ودع أنهم ينسون أن كل حرب لابد فيها من ظافر ومن مهزوم، وإن الظفر وحده ليس بشيء إن لم ننظر معه إلى عوامله ودواعيه وتتبين أنها صالحة للتكرار في كل وقعة وكل حين

ودع أنهم ينسون أحكام المصادفات والعوارض وأنها تندر في الزمن الحديث وتكثر في الزمن القديم

دع هذا جميعه فقد يكون في نسيانه بعض أعذار لمن ينسونه، ولكن كيف تراهم يجارون الأقدمين في مبالغاتهم عن هؤلاء العظماء وهي قائمة على دعاوي وأكاذيب نحن على يقين من بطلانها كل البطلان؟ ألم يكن هؤلاء العظماء أربابا وأنصاف أرباب وقديسين في رأي الأقدمين؟ فكيف نقابل بينهم وبين خلفائهم في عصرنا قبل أن نسقط في الميزان تلك المبالغات وتلك الدعاوي والأكاذيب؟ إن هذا لخليق أن يضيف إلى فضل المتأخرين لا أن يغض منه ويحيف عليه، لأنهم وهم آدميون ليس إلا يوضعون في الميزان أمام أرباب وأنصاف أرباب!

ليس في تاريخ بني الإنسان منذ بدايته إلى يومنا هذا عصر يعرض لنا من عجائب الحوادث والأمم والأفراد مثال ما يعرضه لنا العصر الذي نحن فيه

ليس في تاريخ بني الإنسان عصر برز فيه من البطولة والمغامرة والدهاء والقدرة والصبر على النصر والهزيمة مثل ما برز أمامنا في الحرب العظمى

وليس في تاريخ بني الإنسان عصر تولى فيه عروش القياصرة والخواقين والأكاسرة وقبض فيه على أعنة السلطان رجال من (أبناء الشعب) كمصطفى كمال ورضا بهلوي وستالين وموسليني وهتلر وكابللرو وكارديناس. فماذا عندنا من الأدلة على إن العصاميين في الزمن القديم كانوا أعجب وأدنى إلى البطولة في صنيعهم من هؤلاء؟

وليس في تاريخ بني الإنسان عصر واحد عرض لنا من نخوة الحب وفروسية العاطفة مثل

ما عرضه لنا العصر الحاضر في غرام ملك الإنجليز السابق وصديقته السيدة سمبسون. فماذا عندنا من الأدلة على إن غرام هيلانة في طروادة المزعومة كان أعجب وأدنى إلى البطولة من هذا الغرام؟

وليس في تاريخ بني الإنسان عصر واحد عرض لنا من أطوار الشعوب ما عرضته لنا الثورة الأسبانية والثورة الروسية من قبلها وعرضته معها الثورات في مصر والهند والصين. فماذا عندنا من الأدلة على إن عصر الثورة الفرنسية أو عصور ثورات اليونان والرومان كان لها نصيب من العجب وجلائل الخطوب أوفى من هذا النصيب الذي شهدناه؟

وليس في تاريخ بني الإنسان عصر أنجب في كل أمة نموذجاً يمثلها كما أنجب عصرنا سعد زغلول وغاندي وسون ياتسن وشيان كاي شيكر وفيصلاً وابن سعود

وليس في تاريخ بني الإنسان عصر فيه ما في عصرنا من الحقائق التي تشبه الخيال، والعبر التي تشبه نوادر الأمثال، والشواهد التي تتعدد على كل ملاحظة من ملاحظات النفس الإنسانية والبواعث القومية والطوارق السياسية. فعندنا وعلى مسمع ومشهد منا مصداق كل رأي حام في ذهن فيلسوف، وتطبيق كل مذهب دعا إليه داعية قديم أو حديث في عالم النظريات

وليس في تاريخ بني الإنسان مخاطرات أهول ولا أنبل من مخاطرات ركاب الطيارات والمظلات والغواصات المتفجرة والسفن المدمرة التي يقع فيها الخطر كل يوم ويقع فيها الإقدام كل يوم، ولا مبالاة بالموت ولا بالخطر كأنهما رياضة من اللهو أو لعبة من العاب الرهان

فإن كنا لا نسمي ما نبصره ونسمعه عجائب وروائع ولا نحسبها معارض للبطولة والنبوغ فقد غيرنا الأسماء وقد بدلنا اللغة، وقد أصبحنا مطبوعين على النظر إلى البعيد دون النظر إلى القريب

نعم إننا ننظر حولنا إلى عظيم في الشعر من طراز شكسبير فلا نرى له نداً بين الشعراء المعاصرين. ولكن النوابغ من طراز شكسبير تتساوى فيهم جميع العصور ولا يستأثر بهم القرن الذي نبغوا فيه، وهكذا كان أبناء القرن السادس عشر خلقاء أن يبحثوا في زمانهم

عمن يضارعون نوابغ القرن العشرين في العلم والاختراع والموسيقى والفن كافة فلا يجدوا بينهم أنداداً لهم يضارعونهم كثرة وقيمة؛ وإن العصر الحديث مع هذا ليفهم قصائد شكسبير خيراً مما فهمها معاصروه، ويقدره خيراً مما قدروه، ويمثل رواياته أكثر وأجمل وأبرع وأكفل بالإقبال والإعجاب مما كانوا يمثلونها في حياته

أذكر أنني رأيت منذ سنوات في إحدى الصحف الإنجليزية صوراً لبعض العظماء الغابرين في أزياء العصر الحديث، شفعتها الصحيفة بهذا السؤال: هل تعرفهم؟

وحق للصحيفة أن تسأل سؤالها الآن. لأن الصور التي رأيناها لأولئك العظماء قد سلبتهم كثيراً من الهيبة وبددت ما حولهم من هالات الفوارق والمسافات التي يوحيها اختلاف المظاهر والأزياء.

وإن حاجتنا اليوم لشديدة إلى متحف يستعرض لنا عظماء الأمس في أزياء اليوم، وعظماء اليوم في أزياء الأمس، لنعرف مقدار ما تضيفه إلى الغابرين من هيبة الفوارق والمسافات ومقدار ما نسلبه المعاصرين من جراء الألفة والمقاربة

فإن تعذر علينا أن نرسم ذلك المتحف عيانا فلنرسمه بالظن والتقدير. ولنرجع إذن إلى مقاييسنا وموازيننا نلمس مواضع الزيادة والنقصان فيها، ونصلح جوانب الغلو والبخس في كفاتها، ونغنم تصحيح الميزان في الحكم على الرجال والأزمان، لأن هذا التصحيح غنيمة أنفس وأجدى من تفضيل نابغ على نابغ أو ترجيح جانب على جانب. إذ لا ضرر ولا قصور في اختلاف التفضيل والترجيح متى صحت النظرة واستقام القياس. تلك هي الحقيقة فيما يقال عن ندرة البطولة والنبوغ بيننا كما أراها

أما تواتر القول بندرتها بين جماعة من الناقدين منهم أناس فضلاء محبون للإنصاف فله أسباب قد نعود إلى تفصيلها ومناقشتها

عباس محمود العقاد

الزمن

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

حدث مرة أني سافرت فجأة إلى أوربا من غير أن يعرف أحد من أهلي وأصحابي - عزمت على ذلك وأمضيت العزم فكانت هذه الرحلة التي لم تكن لي في حساب قبل يومين اثنين. وأسباب ذلك كثيرة يطول شرحها. وركبنا الباخرة فما كان يمكن أن اذهب إلى أوربا سابحاً، ومضى يوم وثان وإذا بفتاة ممن عرفناهن على ظهر السفينة مقبلة علي تقول:

(هل ضبطت الساعة؟)

ونظرت إلى ساعتها الصغيرة على معصمها ثم رفعتها إلى إذنها فقلت: (دعي هذا لي فإني حاد السمع مرهفه. . هاتي يدك واسمعيني)

قالت: (يظهر انك لا تسمع إلا ما تريد. . لقد سألتك الآن هل أصلحت ساعتك؟)

فقلت وأنا أتعجب: (أصلحتها؟. . ومن الذي قال إن ساعتي خربت؟. إني أؤكد لك أنها من أحسن الساعات. . كانت لرجل ممن يكثر المال في أيديهم يوماً فيذهبون يشترون كل ما يخطر لهم على بال، ويصبحون في اليوم الثاني وقد صفرت أكفهم فيرهنون ما اشتروا أمس أو يبيعونه. . صاحب هذه الساعة شاء أن يرهنها، ثم لم يؤد ما اقترض عليها، فاضطر الصائغ اليهودي أن يبيعها. . ولا أحتاج أن أقول إنك ترين الرجل الفاضل الذي اشتراها منه)

فألقت إلي ابتسامة عذبة أدارت رأسي دورة جديدة - وأقول الحق إنها هي التي كانت سبب سفري إلى أوربا فجأة - وقالت: (لاشك أنها ساعة معرقة في الفخار. . ولكنها تحتاج الآن إلى إصلاح)

فقلت ببساطة: (أبداً. .)

فقالت: (أسرع. . رد العقربين)

فدهشت وقلت: (أردهما؟. . لماذا؟. .)

قالت: (نعم. . . ردهما. . . أخرهما ساعة. . . لو كنا في الشتاء لوجب أن تؤخرهما ساعتين)

قلت: (اسمعي. . . لو أمرتني أن أرتد طفلاً، وكان هذا في وسعي، لفعلت بلا تردد، وبلا شرط سوى أن ترتدي معي طفلة لنلعب معاً. . . ونكبر معاً. . . ونعوض على العموم ما فاتنا - ما فاتني أنا على الأصح - ليس عليك إلا أن تأمري فإذا الذي تشائين كائن - ولكن من المجانين الذين يحبون أن يعلموا لماذا يصنعون ما يصنعون)

قالت: (لا أدري سوى إن كل الناس هنا ردوا عقارب الساعات وأرجعوها ساعة. . . حساب الوقت بعد هذا الخط يتقدم ساعة)

قلت: (تعنين يتأخر)

قالت: (كلا. . . بل يتقدم) قلت: (لن نحل هذا الأشكال قط فيحسن أن نتركه. . . ولننتقل إلى سواه فهل تعنين إننا كنا سائرين إلى الوراء؟. كنا نرتد في الزمن؟)

قالت: (لا أدري. . . هكذا يقولون. . . فأصلح الساعة وتعال إلى فوق فإن الجو جميل)

قلت: (أفهميني أولاً كيف كنا نرجع القهقرى في الزمن)

فلم تستطع أن تفهمني - ولها العذر، وكيف بالله تستطيع أن تفهم إنك تمشي إلى الوراء وأنت تمشي إلى الأمام؟ - وأصررت أنا على ترك ساعتي كما هي، وقلت لها: (إنك ولا مؤاخذة مثل مدرس الجغرافيا الإنجليزي في المدرسة الخديوية)

قالت: (ماله؟)

قلت: (كان يقول لنا، لنفرض أنكم في استراليا - ولا أدري لماذا اختار استراليا ولكن هكذا كان يقول - وإني أنا - يعني نفسه - في لندن. . . فماذا يحدث؟. . . فلا نعرف ماذا يمكن أن يحدث، فيقول. . . اسمعوا في يوم من الأيام، وليكن الجمعة، فأعترض وأقول: إن يوم الجمعة فيه ساعة منحوسة، فيقول: حسن، إذن ليكن اليوم يوم الأحد وليكن الوقت الصباح. . . ولنفرض أيضا أن المخاطبات التليفونية ممكنة بين استراليا ولندن فيدق لي أحدكم التليفون ويقول صباح الخير. . . مفهوم؟. . . فنقول جداً: فيسألنا ماذا ينبغي أن أقول أنا في رد التحية التي وجهها إلي من باستراليا؟ فنقول له تقول صباح الخير، أو عموا صباحاً يا أولاد كما تقول لنا هنا، فيقول كلا!. . . في هذا تخطئون لأننا في لندن نكون في ذلك الوقت في مساء السبت بينما تكونون انتم في استراليا في صباح الأحد، فأنا أرد على تحيته بقولي له (عم مساء) فتقولون لي مستغربين كيف هذا؟. . . إننا مازلنا في الصباح، فأقول إن الوقت الآن في لندن الثامنة مساء، وقد تناولت عشائي منذ لحظة قصيرة؛ فتقولون كلا، بل الساعة الآن الخامسة صباحاً، ونحن لم نفطر فألتفت إلى الذين معي وأقول اسمعوا. . . إن لفيفاً من تلاميذي في استراليا استيقظوا - بصيغة الماضي من فضلكم - صباح غد فيسألني إخواني كيف يمكن أن تعرف ما عسى أن يفعلوا غداً صباحاً؟ فأقول إني اعرف ما عسى أن يفعلوا غداً صباحاً لأنهم أنبأوني إنهم فعلوه فيقول إخواني لي إنك مجنون - أو كلاماً آخر كهذا - لأنهم لا يستطيعون أن يتصوروا أن يكونوا هم في الساعة الثامنة مساء من يوم السبت على حين يكون غيرهم في نفس الوقت في الساعة الخامسة صباحاً من يوم الأحد، فنهز نحن التلاميذ رؤوسنا الصغيرة ونقول، ولا نحن نفهم هذا، فيقول المدرس اسمعوا. . . لنفرض إن لي طيارة سريعة تقطع المسافة بين القاهرة واستراليا في أربع ساعات أو خمس. . . اركبها من القاهرة يوم السبت وأفطر في استراليا صباح الأحد وأرجع إلى القاهرة مساء السبت - أرجع إليها قبل الوقت الذي غادرتها فيه - فما قولكم؟. . . أليس هذا واضحاً؟. . . فنضع أصابعنا في الشق، ونريح أنفسنا من العناء الباطل، ونقول إن الأمر واضح جداً.

وأزيد أنا على هذا إن من الواضح من كلامك أن في وسعك أن تقوم من القاهرة يوم

السبت وتكون في استراليا - أو حيث شئت غيرها - يوم الاثنين، لا الأحد فقط، ثم ترجع إلى القاهرة يوم الجمعة، الذي هو قبل السبت الذي سافرت فيه. . . معلوم!. . الأمر واضح جداً!. . فيحسب المدرس أني أسخر منه، ويعاقبني بالحبس ساعة، آخر النهار. . هذا يا ستي ما كان مدرسنا يعلمنا. . لقد ضاع علينا والله ما أنفقناه في التعلم. . والآن بعد أن استرحنا من المدارس والمدرسين المخرفين نركب هذه الباخرة الجميلة ونحن نعتقد أن الدنيا بخير، وأن العقول لم تطر من الرؤوس وإذا بهم يقولون لنا ردوا عقارب الساعات لأنا رجعنا ساعة؟؟ والذي يدهشني هو أن تصدقيهم

فتقول فتاتي: (ولكن هذا صحيح)

فأصيح بها - برغمي -: (كيف تقولين هذا الكلام؟. . هل تريدين مني أن أقول إن الساعة الرابعة حين تكون الخامسة؟. إنك تكلفينني شططا)

فتقول: (لقد كسبنا ساعة)

فأقول: (أرجوك!. أرجوك!.)

فتقول: (صحيح والله)

فأقول: (يا بنت الحلال كيف يمكن أن نكون قد كسبنا هذه الساعة وهي قد ولت؟. ثم إني لم أكن معك فيها، لأني كنت نائماً فالخسارة مضاعفة)

فتضحك وتقول: (كسبناها لأنا استرجعناها)

فأقول: (إيه؟ استرجعنا الساعة التي ولت؟. مدهش!)

فتقول: (ألا تصدق؟)

فأقول: (يا حبيبتي، يا روحي، يا عقلي. . أرجوك!. ألف راء جيم واو الخ الخ.)

فتضحك فأقول: اسمعي إني لا أحب أن يبقى هذا الخلاف بيننا، وأنا من أجل عينيك النجلاوين أفعل ما تريدين - لاعن اقتناع، بل إرضاء لك - وأنا مستعد أن أقول إننا رجعنا إلى العام الماضي. . والله فكرة! تعالي نرجع طفلين ونلعب.)

فتذهب تعدوا ضاحكة وأعدوا وراءها حتى أدركها.

إبراهيم عبد القادر المازني

خاتمة المأساة الأندلسية

الصراع الأخير بين الموريسكيين وأسبانيا

للأستاذ محمد عبد الله عنان

بينما كانت هذه الحوادث والمعارك الدموية تضطرم في هضاب الأندلس وسهولها وتحمل إليها أعلام الخراب والموت، إذ وقع في المعسكر الموريسكي حادث خطير هو مصرع محمد بن أمية؛ وكان مصرعه نتيجة المؤامرة والخيانة؛ وكانت عوامل الخلاف والحسد تحيط هذا العرش بسياج من الأهواء الخطرة، وكان محمد بن أمية يثير بين مواطنيه بظرفه وفروسيته ورقيق شمائله كثيراً من العطف، ولكنه كان يثير بصرامته وبطشه الحقد في نفوس نفر من ضباطه؛ وتقص علينا الرواية القشتالية سيرة مقتله، فنقول انه كان ثمة ضابط من هؤلاء يدعى ديجو الجوازيل له عشيقة حسناء تسمى (زهرة) فانتزعها محمد منه قسراً، فحقد عليه، وسعى لإهلاكه بمعاونة خليلته، فزور على لسانه خطاباً إلى القائد العام (ابن عبو) يحرضه على التخلص من المرتزقة الترك، وكان ثمة منهم فرقة في المعسكر الموريسكي، فعلم الترك بأمر الخطاب، واقتحموا المعسكر إلى مقر محمد بن أمية. وقتلوه بالرغم من احتجاجه وتوكيد براءته؛ واستقبل الجند الحادث بالسكون؛ وفي الحال اختار الزعماء ملكا جديدا هو (ابن عبو) فتسمى بمولاي عبد الله محمد، وأعلن ملكاً على الأندلس بنفس الاحتفال المؤثر الذي وصفناه. وكان مولاي عبد الله اكثر فطنة وروية وتدبراً، فحمل الجميع على احترامه؛ واشتغل مدى حين بتنظيم الجيش واستقدم السلاح والذخيرة من ثغور المغرب، واستطاع أن يجمع حوله جيشاً مدرباً قوامه زهاء عشرة آلاف بين مجاهد ومرتزق ومغامر

وفي أواخر أكتوبر سنة 1569 سار مولاي عبد الله بجيشه صوب (أورجبة) وهي مفتاح غرناطة واستولى عليها بعد حصار قصير، فذاعت شهرته، وهرع الموريسكيون في شرق البشرات إلى إعلان طاعته، وامتدت سلطته جنوباً حتى بسائط رندة ومالقة؛ وكثرت غارات الموريسكيين على فحص غرناطة (لافيجا)، وقد كان قبل سقوطها ميدان المعارك الفاصلة بين المسلمين والنصارى. وكان فيليب الثاني حينما رأى

استفحال الثورة الموريسكية وعجز القادة المحليين عن قمعها؛ قد عين أخاه الدون جون (خوان) قائداً عاماً
لولاية غرناطة؛ ولما رأى الدون جون اشتداد ساعد الموريسكيين، اعتزم أن يسير لمحاربتهم بنفسه، فخرج في أواخر ديسمبر على رأسي جيشه، وسار صوب (وادي آش)، وحاصر بلدة (جاليرا) وهي من امنع مواقع الموريسكيين، وكان يدافع عنها زهاء ثلاثة آلاف موريسكي منهم فرقة ترية، فهاجمها الأسبان عدة مرات، وصوبوا عليها نار المدافع بشدة، فسقطت في أيديهم بعد مواقع هائلة أبدى فيها الموريسكيون والنساء الموريسكيات اعظم ضروب البسالة، وقتل فيها عدة من أكابر الأسبان وضباطهم، ودخلها الأسبان دخول الضوارى المفترسة وقتلوا كل من فيها، ولم يفروا النساء والأطفال، وكانت مذبحة رائعة، (فبراير سنة 1570) وتوغل الدون جون بعد ذلك في شعب الجبال حتى سيدون الواقعة على مقربة من بسطة، وكانت هنالك قوة أخرى من الموريسكيين بقيادة زعيم يدعى (الحبقي) تبلغ بضعة آلاف، ففاجأت الأسبان في سيدون ومزقت بعض سراياهم، وأوقعت الرعب والخلل في صفوفهم، وقتل منهم عدة كبيرة، ولم يستطع الدون جون أن يعيد النظام إلا بصعوبة، فجمع شتات جيشه، وطارد الموريسكيين، واستمر في سيره حتى وصل إلى اندرش في مايو سنة 1570
وهنا رأت الحكومة الأسبانية أن تجنح إلى شئ من اللين خشية من عواقب هذا النضال الرائع، فبعث الدون جون رسله إلى الزعيم الحبقي يفاتحه في أمر الصلح، وصدر أمر ملكي بالوعد بالعفو التام عن جميع الموريسكيين الذين يقدمون خضوعهم في ظرف عشرين يوماً من إعلانه، ولهم أن يقدموا ظلاماتهم فتبحث بعناية، وكل من رفض الخضوع ماعدا النساء والأطفال دون الرابعة عشرة، قضي عليه بالموت؛ فللم يصغ إلى النداء أحد. ذلك أن الموريسكيين أيقنوا نهائيا بأن أسبانيا النصرانية لا عهد لها ولا ذمام وإنها غير أهل للوفاء، فعاد الدون جون إلى استئناف القتال والمطاردة وانقض الأسبان على الموريسكيين محاربين ومسالمين يمعنون فيهم قتلاً وأسراً؛ وسارت قوة بقيادة دوق سيزا إلى شمال البشرات واشتبكت مع قوات مولاي عبد الله في عدة معارك غير حاسمة وسارت مفاوضات الصلح في نفس الوقت عن طريق الحبقي؛ وكان مولاي عبد الله قد رأى تجهم الموقف ورأى اتباعه ومواطنيه يسقطون من حوله تباعا، والقوة الغاشمة تجتاح في طريقها كل شئ، فمال إلى الصلح والمسالمة، واستخلاص ما يمكن استخلاصه من براثن القوة
القاهرة؛ واتفق المفاوضون على أن يتقدم الحبقي إلى الدون جون بإعلان خضوعه وطلب العفو لمواطنيه، فيصدر العفو العام عن الموريسكيين، وتكفل الحكومة الأسبانية حمايتها لهم أينما ارتأت إقامتهم، وفي ذات مساء سار الحبقي في سرية من فرنسا إلى معسكر الدون في اندرش وقدم له الخضوع وحصل على العفو المنشود ولكن هذا الصلح لم يرض الموريسكيين، ولم يرض بالأخص مولاي عبد الله وباقي الزعماء، ذلك لأنهم لمحوا فيه نية أسبانيا النصرانية في نفيهم ونزعهم عن أوطانهم؛ ففيم كانت الثورة إذاً، وفيم كان النضال؟ لقد ثار الموريسكيون لأن أسبانيا أرادت أن تنزعهم لغتهم وتقاليدهم، فكيف بها إذ تعتزم أن تنزعهم ذلك الوطن العزيز الذي نشأوا في ظلاله الفيحاء، والذي يضم تاريخهم وكل مجدهم وذكرياتهم؟ أنكر الموريسكيون ذلك الصلح المجحف، وارتاب مولاي عبد الله في موقف الحبقي إذ رآه يروج لهذا الصلح بكل قواه، ويدعوا إلى الخضوع والطاعة للعدو، فاستقدمه إلى معسكره بالحيلة؛ وهنالك اعدم سراً
ووقف الدون جوان على ذلك بعد أسابيع من الانتظار والتريث، وبعث رسوله إلى مولاي عبد الله، فأعلن إليه انه يترك الموريسكيين أحراراً في تصرفهم، بيد انه يأبى الخضوع ما بقي فيه رمق ينبض، وانه يؤثر أن يموت مسلماً مخلصاً لدينه ووطنه على أن يحصل على ملك أسبانيا بأسره؛ والظاهر أن مولاي عبد الله كانت قد وصلته يومئذ أمداد من المغرب شدت أزره وقوت أمله؛ وعادت الثورة إلى اضطرامها حول رندة، وأرسل مولاي عبد الله أخاه الغالب، ليقود الثوار في تلك الأنحاء؛ وثارت الحكومة الأسبانية لهذا التحدي، واعتزمت سحق الثوار بما ملكت؛ فسار الدون جوان في قواته إلى ودي آش، وسار جيش آخر من غرناطة بقيادة دوق ركيصانص إلى شمال البشرات، وسار جيش ثالث إلى بسائط رندة، واجتاح الأسبان في طريقهم كل شئ

وأمعنت في التقتيل والتخريب، وعبثاً حاولت السرايا الموريسكية أن أن تقف في وجه هذا السيل فمزقت تباعاً، وهدم الأسبان الضياع والقرى والمعاقل، وأتلفت الأحراش والحقول حتى لا يبقى للثائرين مثوى أو مصدر للقوت، وأخذت دعائم الثورة تنهار بسرعة وفر كثير من الموريسكيين إلى إخوانهم في أفريقية، ولم يبقى أمام الأسبان سوى مولاي عبد الله وجيشه الصغير؛ بيد إن مولاي عبد الله لبث معتصماً بأعماق الجبال يحاذر الظهور أمام هذا السيل الجارف

وفي 28 أكتوبر سنة 1570 اصدر فيليب الثاني قراراً بنفي الموريسكيين من مملكة غرناطة إلى داخل البلاد. ومصادرة أملاكهم العقارية وترك ملاكهم المنقولة يتصرفون فيها؛ ونفذ القرار الجديد بمنتهى الصرامة والتحوط، وجمع الموريسكيون في الكنائس أكداساً، يحيط بهم الجند في كل مكان، ونزعوا من أوطانهم وربوعهم العزيزة، وشتتوا داخل الأقاليم الأسبانية، وانهار بذلك المجتمع الموريسكي في مملكة غرناطة

ولم يبق إلا أن يسحق مولاي عبد الله وجيشه الصغير؛ وكان هذا الأمير المنكود يرى قواده وموارده تذوب بسرعة وقد انهار كل أمل في النصر أو السلم الشريف؛ بيد انه لبد مختفياً في أغوار الجبال مع شرذمة من جنده المخلصين، وفي مارس سنة 1571 كشف بعض الأسرى سر مخبئه للأسبان فأوفدوا رسلهم إلى معسكره في بعض المغائر وهناك استطاعوا إغراء ضابط مغربي من خاصته يدعى (الزنيش) أغدقوا له المنح والوعد إذا استطاع أن يسلمهم مولاي عبد الله حياً أو ميتاً وزودوه بالعفو الشامل؛ فدبر الضابط الخائن خطة لاغتيال سيده؛ وفي ذات يوم فاجأه مع شرذمة من أصحابه فقاوم مولاي عبد الله ما استطاع ولكنه سقط أخيراً مثخناً بجراحه فحمل الخونة جثته إلى غرناطة؛ وهناك رتب الأسبان موكباً أركبت فيه الجثة مسندة إلى بغل كأنما هي إنسان حي، ثم حملت إلى النطع وأجري فيها حكم الإعدام، فقطع رأسها ثم جرت في شوارع غرناطة مبالغة في التمثيل والنكال، وبعد ذلك أحرقت في الميدان الكبير

وهكذا انهارت الثورة الموريسكية وسحقت وخبت آخر جذوة من العزم والنضال في صدور هذا المجتمع الأبي المجاهد وقضت المشانق والمحارق والمحن المروعة على كل نزعة إلى الخروج والنضال، وهبت ريح من الرهبة والاستكانة المطلقة على ذلك المجتمع المهيض المعذب، وعاش الموريسكيون لا يسمع لهم صوت، ولا تقوم لهم قائمة، في ضل العبودية الشاملة والإرهاق المطبق حقبة أخرى

على أن أسبانيا النصرانية لم تطمئن مع ذلك إلى وجود هذا الشعب المستكين الأعزل الذي مازال رغم ضعفه وذلته يملأ جنباتها بفنونه ونشاطه المنتج؛ وكانت الكنيسة مازالت تنفث إلى الدولة تحريضها البغيض على مجتمع لم تطمئن إلى صحة إيمانه، وكانت الدولة ذاتها

تلتمس المعاذير لاضطهاد هذا المجتمع ومطاردته. فهي تخشى من أن يعود إلى الثورة، وهي تخشى من صلاته المستمرة مع مسلمي أفريقية، وكان التنصر المطبق قد عم الموريسكيين وغدا أبناء قريش ومضر بحكم القوة والتطور نصارى وقشتالين، يشهدون القداس، ويتكلمون القشتالية؛ غير انهم لبثوا مع ذلك في معزل تلفظهم أسبانيا النصرانية وتحيطهم بريبها وبغضها؛ وكانت ثمة منهم جموع كبيرة في بلنسية ومرسية؛ ففي عهد فيليب الثالث اتخذت أسبانيا النصرانية خطوتها الحاسمة، وأصدرت قرارها الشهير في صحف الاضطهاد، بنفي الموريسكيين أو العرب المنتصرين من أسبانيا، وإخراجهم نهائياً من جميع الأراضي الأسبانية (سنة 1609م - 1017هـ) وحشدت السفن لنقل من كان منهم في الثغور إلى أفريقية، ونزح سكان الشمال منهم إلى فرنسا حيث استقروا في لانجدوك وجويان، وبذلك انتهى الفصل الأخير، من مأساة الموريسكيين وطويت صفحة شعب من امجد عصور التاريخ وحضارة من اعرق حضاراته

ولكن فلك التاريخ يسير بلا هوادة؛ فقد كانت مأساة الموريسكيين ضربة لأسبانيا النصرانية ذاتها، وكانت بدء عصور التدهور والانحلال التي مازالت تتخبط أسبانيا في ظلماتها

وهل يكون من عدالة الله في أرضه وبين شعوبه أن تجتاح أسبانيا النصرانية اليوم

موجة مدمرة من الحديد والنار تحصد أبناءها وحضاراتها حصداً؟ وهل تكون الحرب الأهلية الأسبانية نقمة الموريسكيين تلحق أسبانية بعد أربعمائة عام؟
(تم البحث)
(النقل ممنوع)
محمد عبد الله عنان
في الأدب المقارن
أثر الأخلاق في الأدبين العربي والإنجليزي
للأستاذ فخري أبو السعود
التخلق من صفات الإنسان الذي يحيا في الجماعة، تضطره الحياة الاجتماعية إلى تعديل كثير من طباعه الفطرية التي يجبل عليها، وكبح ما يتنافى منها مع مصلحة المجتمع، الأخذ بما فيه تلك المصلحة، فالأخلاق الحسنة أو الفضائل هي الصفات التي بها يكون صلاح الفرد والمجتمع، ومن أجل هذا الصلاح يحمد الصدق والشجاعة والعفة، ويذم الكذب والجبن والفجور؛ وهذه الأخلاق الحسنة التي هي مزيج من طباع الإنسان المركبة فيه، ومقتضيات المجتمع التي يفرضها عليه، تكاد تتفق بين جميع الأمم في شتى الأصقاع والعصور، فما من أمة لا يحمد فيها الكرم والإيثار والقناعة وتذم الرذائل المضادة لهذه الفضائل، معايير الأخلاق هذه يكاد يتحد فيها الجميع، إنما تختلف الأمم والأفراد في مدى مراعاتها حقاً واتباعها عملاً، باختلاف الجبلات والأوساط الجغرافية والاجتماعية.
وللأخلاق أثرها المحقق آداب الأمة وأدب الفرد. تنعكس الأخلاق في مرآة الأدب كما تنعكس العقليات، ويكون ظهور آثارها في الأدب أحياناً بدهياً تلقائياً غير مقصود، كما يكون أحياناً مقصوداً معنياً، إذ يلجا الأديب إلى تصوير أخلاقه الذاتية وأخلاق غيره من أفراد مجتمعه، وتختلف صبغة أدب الأمة الأخلاقية من جيل إلى جيل، حسب ما يتوالى على المجتمع من عوامل الفضيلة والرذيلة، ومتانة العقيدة الدينية أو انحلالها، وارتفاع المثل العليا التي يتوخاها المجتمع أو انحطاطها، اثر كل ذلك واضح في آداب الأمة المكتوبة وفي أقاصيصها الشعبية وأناشيدها المتداولة.
وفي الأخلاق الفاضلة كما تقدم صلاح المجتمع، بيد أن تحبيذ الفضيلة وذم الرذيلة ليسا وضيفة الأدب الأولى، إنما وضيفته تصوير الجمال ووصف الشعور وبيان الحقائق على ما هي عليه غير مموهة، والعبقرية الفنية والفضيلة ليستا دائما توأمين، بل ربما كان الكثير من رجال الفن أميل إلى الإفراط والتفريط في حياتهم، وابعد عن القصد والاعتدال من عامة الناس، وقد ترقى الفنون وتزدهر في عصور الأدبار الخلقي، كما كانت الحال في إيطاليا في عهد النهضة الأوربية؛ على إن الأدب وان لم تكن غايته نشر الفضيلة، ولا
وضيفته ترقية الأخلاق، إن هو إلا مظهر من مظاهر رقي الإنسان وتحضره، وناحية من نواحي حياته الاجتماعية يجب عليه أن يخضع لما يخضع له سائر مناحي تلك الحياة من مقاييس خلقية فيها صلاح المجموع
فإذا لم يكن واجب الأدب الوعظ والإرشاد إلى الخلق القويم فواجه الذي لاشك فيه ألا يصادم الخلق القويم ولا يتحدى تقاليد المجتمع الصالحة، وواجبه أن يتجه ما استطاع وجهة الخير ويتنكب مواضيع الفساد ودواعي التبذل، وكل اثر أدبي مهما بلغت براعته وصدقه ودل على عبقرية صاحبه، إذا خالطه الفجور والإفحاش واتسم بالاستهتار وتوخي الهنات والسوءات، لابد أن يمجه الذوق السليم وينفر منه الطبع الكريم، لما فيه من منافاة للأخلاق السامية التي يأخذ نفسه بها كل متحضر متهذب متثقف ويدرج عليها حتى تتأصل فيه وتصير له طباعاً ثانية
كانت للعرب في الجاهلية أمثلة عليا من الأخلاق الفاضلة التي تمليها حياة البادية، كالشجاعة والذود عن الذمار والدفاع عن الحريم والجود والقناعة وإجارة المستجير؛ وحول التمدح بتلك الأخلاق يدور جانب عظيم من الشعر الجاهلي، يعزو الشاعر تلك الفضائل إلى نفسه تارة كما فعل عنترة في معلقته، وإلى قومه عامة كما فعل عمرو بن كلثوم ولبيد والسموأل، وإلى ممدوحه كما كان يفعل زهير والأعشى، ولبعض أشراف الجاهلية كالأفوه الأودي وحاتم الطائي وذي الإصبع العدواني، وآثار في ذلك رائعة ببلاغتها وقوة أسرها وسمو منزعها، ويرسلها بعضهم قصيداً رصيناً، وبعضهم

يرسلها نصائح للمخاطب، ويصوغها بعضهم وصايا إلى أبنائهم، وبعضهم يجعلها حواراً بينه وبين زوجه على تلك الطريقة العربية الجميلة؛ وطلب العرب حسن الأحدوثة وطيب الأثر، ولم يدخروا في ذلك قولاً أو فعلاً، قال حاتم الطائي:

وتذكر أخلاق الفتى وعظامه ... مغيبة في اللحد بال رميمها

وبديهي إن التمسك بكل هاتيك المثل العليا الخلقية لم يكن ديدن جميع العرب ولا التغني بها دأب جميع الشعراء، بل كانت أسباب الشر والفجور موفورة، ودواعي المجون والخلاعة عديدة، تتجلى في سيرة امرئ القيس الذي لم يكن يكاد يفيق غراماً أو خماراً، وحياة طرفه التي صورها في معلقته، حيث وصف ثلاث حاجاته في الحياة، فمنهن سبقه العاذلات

بشربة كميت، وتقصير يوم الدجن ببهكنة تحت الخباء المعمد، وكره إذا نادى المضاف محنباً، وكان ذيوع المفاسد قبيل ظهور الإسلام سبب ظهور كثير من الحكماء الذين اخذوا أنفسهم بالزهد ودعوا إليه، كما اخذ كثير من أشراف العرب أنفسهم بمجانبة الخمر والقمار ونحوهما، ومن أولئك عامر بن الظرب الذي يقول وقد حرم في جماعة من السادة الخمر على أنفسهم

أقسمت بالله اسقيها واشربها ... حتى يفرق ترب القبر أوصالي

مورثة القوم أضغاناً بلا إحن ... مزرية بالفتى ذي النجدة الحالي

وظل أكثر المثل العليا الأخلاقية في الإسلام كما كان في الجاهلية، بعد أن هذب الإسلام من حواشيها وكفكف من غلوائها، فتمدح شعراء الإسلام بالفضائل كالكرم والوفاء وحسن الجوار وكتمان السر والحلم عن السفيه والتصون عن الفحشاء والترفع عن المماراة والمجازاة بالحسنة عن السيئة، كما فعل مسكين الدارمي وأوس بن معن، والمقنع الكندي والشريف الرضي، وتفاخروا بالبلاء في الحروب والإباء على الضيم والتعالي على الجهال وطلب السيادة والمعالي، كما فعل أبو فراس والمتنبي، ومدح الشعراء ممدوحيهم بهذا وذاك، ورموا مهجويهم بأضداد تلك الفضائل، وتهكموا في مداعباتهم بالبخلاء والجبناء والمنهزمين والأدعياء والمتطفلين. ومن محاسن أشعار امتداح الخلق الكريم قول سالم بن وابصة الذي يتمثل فيه الروح الإسلامي:

أحب الفتى ينفي الفواحش سمعه ... كأن به عن كل فاحشة وقرا

سليم دواعي الصدر لا باسطاً أذى ... ولا مانعاً خيراً ولا قائلاً هجرا

إذا ما أتت من صاحب لك زلة ... فكن أنت محتالاً لزلته عذرا

وقول الشريف الرضي:

يصول عليّ الجاهلون وأعتلي ... ويعجم في القائلون وأعرب

لساني حصاة يقرع الجهل بالحجى ... إذا نال مني العاضه المتأوب

ولا أعرف الفحشاء إلا بوصفها ... ولا انطق العوراء والقلب مغضب

وكأن احتواء الشعر على تلك الآداب النفسية من أسباب ضن العرب الشديدة به، وتسميتهم إياه ديوانهم، وأخذهم أبناءهم بحفظه. وكانت دراسة آثار أبطال العرب وأشرافهم تلك تقوم

في التربية العربية مقام دراسة أشعار هوميروس في التربية اليونانية القديمة، كل منهما تقدم للناشئ نماذج من الفضيلة وأمثلة من الشخصيات العظيمة يحاكيها ويتشبه بها، وهذا الباب من اكرم أبواب الشعر العربي واجمعه لخير ميزات الأدب العربي، ومن البلاغة والصراحة والإيجاز ونفاذ النظرة

على انه بجانب هذه النزعة الخلقية السامية المتخلفة عن أشراف الجاهلية، والتي رفعتها فضائل الإسلام درجات من الرقة والسمو ظهرت رويداً رويداً نزعة مضادة لها كانت ذات اثر في الأدب واضح وضوح نزعة التسامي تلك أو هو أوضح، وتلك هي نزعة الاستهتار والمجون والإباحة التي كانت نتيجة محتومة لاتساع الفتوح واختلاط العرب بأشتات الأجناس واستفحال الترف واتساع الثروة وتفاقم دواعي الشهوات؛ ثم انحطاط مكانة المرأة من جراء ذلك واختفائها من المجتمع. حتى ذاعت فيه الآداب الخشنة والألفاظ الفاحشة، بدل أن يتهذب مع الحضارة، ويتخلص من جفوة البداوة الجاهلية

وانعكس أثر كل هذا الفساد في الأدب العربي، فجاءت كتب الأدب محملة بالحكايات المخزية والعبارات النابية والإشارات المندية، وشبب الشعراء بالذكور، وتمدحوا

بالتسلل إلى الخدور، وتفاخروا بالإسراف في الشراب والعكوف على سماع الألحان، وجاهر بعضهم بالزندقة وتهكموا بعقائد المجتمع الدينية، ووقع بعضهم في خصومهم بأفذع الهجاء وتهجموا على أعراضهم واتهموا حلائلهم. وفي أشعار جرير والفرزدق وبشار وأبي نواس والمتنبي وابن الرومي من ذلك الشيء الكثير

أوغل الشعراء في تلك الأبواب إيغالاً لا يكاد يصدقه العقل، ومن العجيب أن الطريقة التقليدية التي يجري عليها تاريخ الأدب العربي لا تزال تعد من فحول العربية شعراء لم يكد يؤثر عنهم مقال في سوى تلك الأغراض الحيوانية. ومن البديهي انه مهما تفنن الناظم في وصف الخمر وتصوير الشهوات، فلن يرفعه ذلك إلى مصاف الشعراء العظام. ودواوين ابن أبي ربيعة وبشار وحماد وأبي نواس وأمثالهم إن هي إلا استهتار وتمدح بالمخازي ومجاهرة بالفسوق محكمة الديباجة بارعة النظم؛ فإذا كان هؤلاء من فحول الأدب العربي فما أقصره عن بلوغ المثل الأعلى للأدب الراقي. ومن ايسر مجون أبي نواس قوله:

ألا فاسقني خمراً وقل لي: هي الخمر ... ولا تسقني سراً إذا أمكن الجهر

فهو لا يقنع أن يفرط في الشراب ما شاء، بل يأبى إلا الإمعان في الفجور وإلا أن يتم لذته بالجهر بالعربدة

ولئن حمدت الحرية الفكرية التي كان يتمتع بها الفلاسفة والعلماء في كثير من الدول الإسلامية، فما كذلك هذه الحرية التي استباحها المجان من الأدباء، الأولى حرية تساعد تقدم الفكر ورقي العلم، والثانية تؤدي إلى انحطاط الخلق وتضرب في دعائم المجتمع. الأولى حرية فكرية نافعة، والثانية إباحية خلقية ضارة، والأدب يرسم للمجتمع - وان لم يقصد - مثلاً عليا يتوخاها، فإذا تمادى في تصوير دنئ النوازع فانه يهبط بالنفوس إلى مستوى منحط لا تريد عنه ارتفاعاً. وليس شك في إن أشعار أبي نواس ومثاله كانت من اكبر أسباب انحطاط المجتمع الإسلامي، وقد كانت حياة الصعلكة التي كان يحياها، وأشعار العربدة التي نظمها، نموذجا للأدباء في عصور الأدبار، فكان الأدب والصعلكة وإدمان الشراب ووصف الخمر فبنظرهم توائم لابد أن تجتمع

ففي الأدب العربي آثار من الخلق الكريم وتمدح بالفضيلة، بجانبها آثار من الأخلاق المنحطة ومجاهرة بالاستهتار؛ وفي الإنجليزية طرف من هذه وطرف من تلك أيضاً: فقد تأثر بعض شعراء الإنجليزية بالمثل العليا الأخلاقية التي سنتها المسيحية، بجانب تلك التي أثرت عن الوثنية، وظهر اثر ذلك في أشعار سبنسر الذي جعل كل فارس في ملحمته (الملكة الحسناء) عنواناً على فضيلة من الفضائل المسيحية. وبدا ذلك أيضاً في أدب عهد المطهرين، ففي كتاب (رحلة الحاج) لبنيان تتشخص الفضائل والرذائل على ذلك النحو، ثم كان تنيسون وكبلنج يمزجان النزعة المسيحية بالنعرة الوطنية؛ وظهرت في الأدب الإنجليزي بجانب ذلك نزعة الاستهتار والمجون في بعض الفترات، كما حدث في بعض القرن السابع عشر من جراء التأثر بالبلاط الفرنسي المترف، وفي أواخر القرن التاسع عشر من جراء التأثر بالأدب الفرنسي أيضاً، إذ نزع بعض القصصيين الإنجليز كأوسكار وايلد إلى ذلك الضرب التحليلي من القصص الذي يسرف في تصوير الذات، واستكناه دنئ العواطف وخسيس النزعات

على إن كلا الأمرين - اعني التمدح بكريم الأخلاق والمجاهرة الاستهتار والتبذل - كانا ضئيلي الأثر قصيري العمر قليلي الاتباع في تاريخ المجتمع والأدب الإنجليزي، فالتشدق بالمحامد والمكارم ليس يعجب الذوق الإنجليزي الذي يؤثر الصمت ويفضل العمل على القول، ومن ثم لم تنفق أخلاقيات تنيسون وإضرابه بين صفوة المثقفين، بل كانت من أسباب خمول ذلك الشاعر بعد وفاته؛ والتمادي في التحدث بالشهوات بعيد كذلك عن طبع الإنجليزي والاجتراء على قواعد الفضيلة ومراسيم الحشمة وتقاليد المجتمع لا يحظى منه بغير الإنكار والإعراض، ومن ثم ثار بالمتهورين من الشعراء والكتاب أمثال بيرون وشلي واوسكار وايلد، فالجأ الأولين إلى حياة المنفى وزج الثالث في غيابة السجن، ولم تشفع لهم لديه مواهبهم الممتازة ولا صيتهم خارج إنجلترا. بل قد يغلوا المجتمع الإنجليزي في الغيرة على تقاليده إلى حد يسميه بعض الناس نفاقاً اجتماعياً، فيغضب على أدباء كرام سليمي الطوية، كما غضب على هاردي ولورانس من القصصيين المحدثين

فالطبع الإنجليزي يأبى أن يكون الأدب مطية للتفلسف الخلقي والفخر الطنان، كما

يأبى أن يكون الأدب معرضاً للتبذل والتوقح، وإنما رسالة الأدب الإنجليزي التي ورثها عن الأدب الإغريقي هي الجمال والشعور الصادق، يحوط ذلك جو من الوقار والتسامي كان يعوز حتى الأدب الإغريقي ذاته أحياناً؛ وإنما احتفظ الإنجليز بصفات الرجولة والرزانة تلك لأنهم - فضلاً عن طبيعتهم الهادئة التي هي وليدة جوهم البارد - لم ينساقوا في تيار من الترف الموبق بانتشار فتوحهم وترامي أملاكهم، كما فعل غيرهم من الأمم التي شادت الإمبراطوريات في عصور التاريخ، لان تشييد الإمبراطورية البريطانية جاء تدريجياً هادئاً كالنمو الطبيعي، وبنجاة الإنجليز من مفاسد الترف والثروة المفاجئة سلمت لهم أخلاقهم القويمة.

أضف إلى ذلك تمتعهم بالحكم الديمقراطي، أي بحكمهم أنفسهم وخضوع الشعب لمشيئة الشعب وحدها، مما جعل للرأي العام الكلمة العليا في المحافظة على الأخلاق والذب عن تقاليد المجتمع إذا تحداه متحد وقع عليه الغرم المادي والأدبي وطاشت دعوته قبل ان يتأثر بها سواه؛ على حين كان الرأي العام في الأمم الإسلامية ضعيفاً مستخذياً أمام جبروت الملكية المطلقة، فكان أفاضل القوم ينقمون على حركات الاستهتار في المجتمع وآثار المجون في الأدب، ولكنهم كانوا مغلولي الأيدي لا يستطيعون عن عقيدتهم دفاعاً، وألف بعضهم حيناً جمعيات للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والضرب على أيدي العابثين

فأصابهم من بطش السلطان وتعقبه ما لم يصب أولئك العابثين.

وكانت الملكية في الدول الإسلامية أحياناً تشجع التهاجي بالمقذغات بين الشعراء شغلاً لهم وللجمهور عن شؤون السياسة وظل بشار يتحدى عقائد الناس ويسخر من فضائلهم وينال من أعراضهم وهو آمن معافى، حتى تطاول على عرض الخليفة ذاته فكان في ذلك تلفه. ولما لم يكن للناس من قوة الرأي العام حارس ومدافع، عمد من استطاع منهم بحول أو مكيدة إلى الانتقام بنفسه ممن تعرض له بالفحش، فلقي كل من المتنبي وابن الرومي حتفه على يد مهجوه. هكذا استفحل المنكر في المجتمع والإباحة في الأدب من اثر ذيوع الترف وتحكم الملكية المطلقة، رغم أن المجتمع كان مجتمعاً إسلامياً والدولة كان أساسها دينياً، وكان الأجدر أن أدباً يزدهر في ظل الدين الإسلامي الحنيف، يكون اعف الآداب لفظاً وأشرفها قصداً.

وقد تقدم القول إن سريان ذلك الفساد في كيان المجتمع الإسلامي عقب الفتوح أدى إلى انحطاط المرأة واختفائها من المجتمع، وكان ذلك من دواعي انتشار هجر القول في الأدب فان وجود المرأة في المجتمع عامل تجمل وتوقر وتعفف في المسلك والمقال، وهو عامل سعد به الأدب الإنجليزي فكان من أسباب تساميه الخلقي، وظلت النظرة إلى المرأة في الإنجليزية سامية عفيفة، وظلت صحبتها منبع وحي وداعية تكرم لدى الأدباء، وقد قال ستيل عن صاحبة له فاضلة إن محادثتها هي ثقافة قائمة بذاتها فالأديب الإنجليزي لا يتمدح بالمحامد ولا يجاهر بالمباذل، لأن طبعه لا يستسيغ هذا ولا ذاك، ومجتمعه لا يقبلهما منه، ثم هو لا يهجو غيره ولا يفحش في الهجاء. وإنما يصور أخلاق أفراد المجتمع بما فيها من فضائل ومعايب، ويتهكم بالمنشدقين بالفضائل والمتظاهرين بالعلم أو بالثروة أو بالعظمة، أي بالمسرفين في كل شئ المجاوزين حد القصد والاعتدال، والتوسط الذي هو خير الأمور، فالاعتدال شعار الإنجليزي في مسلكه وفي أدبه، والتطرف يثير سخره واحتقاره، وهذا الميل منه واضح في مواضيع الأدب الفكاهية، وضوحه في أغراضه الجدية

فخري أبو السعود

ذكريات. . .

للأستاذ علي الطنطاوي

هما موقفان لا أزال اذكرهما، أو تغمض عيني كف الغاسل:

أما الأول فعلى ضفاف بردى، في الثامن والعشرين من سبتمبر 1936

وأما الثاني فعلى شاطئ دجلة في الخامس من مايو 1937

كان بردى يخطو على مهل، متهللاً منطلق الوجه، يرد على الشمس الوليدة أول تحياتها، وهي تغمره برشاش من عطر أشعتها الحمراء. . . وكنت في السيارة الفخمة، انظر إلى جموع المودعين من الصحب والرفاق، الذين خرجوا من بيوتهم في هذا الصباح، ليودعوني قبل نزوحي إلى العراق فأقلب النظر في وجوههم، شاكراً لهم

فضلهم، حزيناً لفراقهم، ثم أتأمل بردى صديق الصبا وسمير الوحدة ونجي النفس، فأبصر في خلاله ظلال الحور والصفصاف تميس دَلاً وتيهاً، وارى ظلال المآذن البعيدة السامقة تضطرب في الماء فابصر فيها ذكرياتي حية تطالعني وتحدثني، وتعيد على مسمعي قصة حياتي، وتتلو علي تاريخي فأحس بلوعة الفراق، وأشعر في تلك الساعة باني احب دمشق. . . دمشق مثوى ذكرياتي، ودنياي من الدنيا، وغاية أملي في حياتي. . . ثم يطوي المرج هذه الصور كلها، ولا يدع حيال عيني إلا صور اخوتي، فأتأملها بعين دامعة وقلب واجف خائف من الفراق، ثم تجتمع كلها في وجه واحد، هو احب الوجوه إلي وأدناها إلى قلبي. . . والمح في الماء مشهداً طال عليه العهد ونأى به الزمان. . . .فأراه ينفض عنه غبار السنين العشر، ويعود حياً جديداً

رأيتني في محطة الحجاز، آية الفن الحديث في دمشق، والمحطة مائجة بأهلها . . . كما يموج البحر بمياهه، فمن مسافر عجل، ومن مودع باك، ومن بائع يصيح. . . ومن آت وذاهب، وطالع ونازل. . . وكنت منزوياً في ركن من أركان القطار المسافر إلى حيفا، وإلى جانبي أختي الصغيرة. . . انظر إلى بعيد، فأرى هناك، في أخريات الناس امرأة تمسك بيديها طفلين، ملفعة بملاءة لا تبدي منها شيئاً، ولكن وراء هذا القناع الأسود عينين تفيضان بالدمع عالقتين بمكاننا من القطار. وخلال تلك الضلوع قلباً يخفق شوقاً، ويسيل دمعاً، ووراء هذه الوقفة الساكنة الهادئة ناراً تضطرم في الجو، وزلزالاً شديداً يدك نفسها

. . .دكاً

وصفر القطار الذي يحملنا إلى مصر، فازداد قلبنا خفقاناً واضطراباً، ثم قذف إلى الجو بدخانه كأنما هو حي قد اخذ بموقف الوداع، فزفر زفرة الحزن الدفين، والألم الحبيس ثم هدر وسار وراحت المحطة تبتعد عنها وعني عالقة بيد تلك المرأة التي تلوح لي . . .بمنديل أبيض، حتى غاب عني كل شئ

هنالك تلفت فرأيتني وحيداً، ورأيت القطار يجد لينأى بي عن أهلي وبلدي، فهممت بإلقاء نفسي من نافذة القطار - لولا أن تعلقت بي أختي التي كانت على صغرها اكبر مني، وعلى أنوثتها أقوى واجلد. . .

أردت أن القي بنفسي لأني لم اكن أتخيل أن في استطاعتي الحياة يوماً واحداً بعيداً عن أمي التي كان تعلقها بنا، وتعلقنا بها لا يشبه ما نرى من الأمهات والأبناء، وكان. . . آه ماذا تفيد (كان)، وقد كان ما كان؟. . .

تلك هي أمي، التي مر على (غيابها) عني سنوات طوال، ولكني أحس كان الحادثة كانت أمس - فتحز في نفسي ولا أطيق أن اكتب عنها حرفاً

تلك هي أمي التي كانت لي أماً وأباً، بعد أبي رحمهما الله، وكانت حبيبة وكانت أستاذة، وكانت دنياي وكانت آخرتي. . . وكانت أمي!

تلك هي أمي التي فوجئت كما تفاجأ الشجرة الغضة الفينانة في ربيعها الزاهر، حين تعصف بها العاصفة فتدعها جذعاً مقطوعاً جافاً. . .

تلك هي أمي التي ما نسيتها - علم الله - أبداً، ولم اذكرها أبداً، كأنها تملأ نفسي ولكني لا اجري ذكرها على لساني. أراها في أحلامي حية فاشعر كأني عدت حياً، وأهم بعناقها وافتح عيني فأجد على وجهي حر لطمة الدهر الساخر، ولكني احمل اللطمة. وأغضى على القذى، ولا اخبر اخوتي بشيء، لئلا اذكرهم ما هم ناسون، أو اجدد لهم بالمصيبة عهداً، فأهمل ذكرى أمي ويهملونه. . . ولعل كل واحد منهم يحس مثلما أحس ويكتم مثلما اكتم!

ذكرت ذلك ساعة الوداع، لأني كنت متألماً، وليس لآلامي كلها إلا معنى واحد هو إني اذكر وفاة أمي، ذلك هو الألم عندي لا ألم سواه

فلما صحوت نظرت في وجوه المودعين فلمحت وجه أمي مرة ثانية، ولكني لمحته حياً

ماثلاً في وجوه اخوتي الأحباء. فودعته بدمعة من العين، وابتسامة على الفم، وإشارة بالكف، ثم سارت بنا السيارة تطوي الأرض وتستقبل الصحراء. . .

ذلك هو الموقف الأول!

أما الموقف الثاني فقد كان على شاطئ دجلة في الهزيع الأول من الليل؛ وكانت محطة بغداد الغربية زاخرة بعشرات من خير شباب بغداد وزهرة فتيانها تركوا

دروسهم وامتحانهم القريب وخرجوا من دورهم في هذا الليل ليودعوا صديقاً احبهم وأحبوه، واخلصوا له الحب واخلص لهم. . . ذلك الصديق هو أنا، وأولئك هم تلاميذي بل اخوتي، جاءوا يودعونني لا قياماً بواجب رسمي، ولا رغبة في ثواب ولا رهبة من عقاب، ولكن وفاء وحباً. والحب اجمل ما في الوجود؛ والوفاء اقدس ما فيه بعد الإيمان. . .

وكنت مستنداً إلى نافذة القطار الذي سيحملني إلى البصرة، أصغي إلى خطبهم وأشعارهم التي صبوا فيها عواطفهم، وكتبوها بمداد قلوبهم، أتأمل فلا أرى (والله) إلا بردى ودمشق واخوتي

وغبت عني في شبه ذهول، فما انتبهت إلا وأنا وحيد في القطار، أضم إلى قلبي هذه الهدية التي قدمها إلي تلاميذي. وأطللت من النافذة فلم أجد إلا الظلام. . .

لما دخلت عليهم الصف أول مرة كنت مشتاقاً إلى بلدي كارهاً لغربتي متألماً ملتاعاً، فلم أر في الصف إلا عيوناً جامدة وقلوباً معرضة وأفواهاً مغلقة، وكانوا عندي من العدم لأنه لم يكن لهم في ذاكرتي وجود. ولكن لم ألبث أن وضعت بين أيديهم قلبي فأحببتهم كما يحب الأخ أخاه، (احبهم في مجموعهم لا احب واحداً منهم. . .) واخلص لهم، واحرص على رضاهم وأحس الفرح يغمر نفسي إذا قدمت لواحد منهم خيراً. أو درأت عنه شراً ويتصدع فؤادي إن وجدت أحدهم متألماً، فلا أني اخفف ألمه. وادفع عنه حزنه؛ وكنت أعيش بهم ولهم ومعهم

ووضعت بين أيديهم رأسي أطلعهم على كل ما اختزنته فيه هذه السنين الطوال.

استغل اضعف المناسبات لأطلعهم على جمال الأدب العربي، وعظمة التراث الإسلامي، وقيمة التفكير الحديث، واتجاه النقد الجديد، وأعلمهم الاستقلال الفكري، واحفزهم إلى المناقشة، ولا استعمل في إقناعهم سلطة المدرس لان ذلك ضعف، ولكن استعمل قوة المحق ولسن الجدل النظار. واعترف لهم بالحق إذا ظهر على لسانهم؛ واقر باني لا ادري ما لا أكون

. . .أدريه. . . وابعث في ملكاتهم المهملة، وأشجعهم على الإنتاج والنشر

وكان زملاؤنا المدرسين يحذرونني عواقب هذه الطريقة لان الطلاب (في رأيهم) لا يقدرون قيمة الحرية واللطف، ويحسونها عجزاً وضعفاً ويتخذونها سبيلاً إلى الشغب ولكني وجدتهم يقدرون قيمتها، ويحترمون المدرس العادل العالم اللطيف، أكثر مما يحترمون المدرس الجبار العنيف، ووجدت هذه الطريقة قد أجدت جدى كبيراً، فاقبل الطلاب على الأدب وقد كانوا عنه منصرفين، وصار احب الدروس إليهم وقد كانوا يكرهونه، ونشأ فيهم كتاب وشعراء ونقاد يؤمل منهم بعث الحياة الأدبية في العراق في بضع سنين. . .

وضعت بين أيديهم رأسي وقلبي، فلما أثمر الثمرة ولما تحركت هذه العيون بالإخلاص، وأقبلت هذه القلوب بالحب وتفتحت هذه الأفواه عن اجمل أحاديث العلم والأدب والود. . . ولما محيت تلك الفروق كلها. وزال التكلف بين المدرس والطلاب، ولم يبق إلا اخوة يعيش الواحد منهم للجميع، ويعمل الجميع للواحد. . . جاء الأمر بنقلي إلى البصرة. . .

وهأنذا الآن في البصرة في هذه الغرفة الصغيرة اذكر مجالسنا على شاطئ دجلة فيخفق قلبي خفقاناً شديداً، وأتمثل أمامي صورة أخي الشاعر وهو ينشدنا أعذب أشعاره التي تشبه في رقتها نسيم الماء الرخي اللين، وفي انسيابها دجلة التي خلع عليها الغروب ثوباً منسوجاً من خيوط النور فيه مائة لون. . . واذكر (ليلة المطر). . .

ليلة جلسنا في هذه الحديقة التي تنبسط وراء المطار المدني في بغداد، وأمامنا الفضاء الذي يمتد إلى. . . إلى دمشق، لا يحجبه شئ؛ وكان مصباح المطار الأحمر القوي يريق ضوئه على الحديقة ومن فيها فيجعلها كأنها بقعة من عالم مسحور، لا يشبهه شئ، ولكنه جميل أخاذ يملأ النفس نشوة وسكراً؛ وكانت الطبيعة تبدو أمامنا كأنها لوحة خطتها ريشة ابرع المصورين؛ فهذه الحمرة العجيبة، وزرقة السماء الصافية، وسواد الليل عند الأفق، والنساء بثيابهن الملونة المبرقشة، والنادبون بقمصهم البيض، يمشون على الحشائش. لا يسمع لهم صوت، يتكلمون همساً. . .

وكان النسيم رخياً ناعشاً، تميل منه الأزهار فتفوح من أثوابها رائحة العطر، فتطفو على هذا النسيم والأضواء البعيدة - كأنها تائهة في الظلام فهي ترتجف من الخوف،

وقد جمعت الطبيعة في تلك الليلة سحرها كله: صفاء السماء، وسكون الليل: والربيع الذي زخرف هذه
الحديقة ورصعها بالورد والزهر، ووضع فيها خلاصة فنه ونتاج عبقريته
وكان كل شئ عاشقاً قد سكر بخمرة الجمال، وراح يحلم. فالصحراء الواسعة قد سكرت وتغلغلت في الظلام منفردة تحلم بالظل والماء، والسهول المجاورة راحت تحلم بربيع دائم، وعاد الأمس حياً حالماً بالخلود، واطل الغد نشوان يحلم بليلة مثل هذه الليلة. . .
وكنت احلم. . . فما راعني وهبط بي من سماء أحلامي إلا ضحكة عذبة رقيقة كأنها رنين الذهب، لم اسمعها بإذني ولكني رايتها بعيني تتدحرج طافية على وجه النسيم الأحمر حتى غاصت في الظلام الساكن، وعاد الصمت. . . وكانت ضحكة عاشقين قد نسيا الوجود وما فيه، وغابا في حلم حي يقظان!
فهاج ذلك صديقي الشاعر فانحنى علي، وألقى في أذني إحدى أغانيه (الجديدة)
زرعت روض شفتي بالقبل فأزهر واينع، ولكن لم يقطفه أحد فذوى وجف)
وأعددت سرير الحب في قلبي وضمخته بالعطر، ولكن لم يهجع عليه أحد فعلاه الغبار)
كأن الناس لما خلقوا قسموا أنصافاً، ثم نثروا في الحياة، فمن وجد نصفه صار إنساناً،)
ومن وجد غيره كان مسخاً، ومن لم يجد بقي نصف إنسان
فأين أنت يا نصفي الآخر؟)
لقد ضاع النصف الذي فيه قلبي، فمن هي التي يخفق قلبي في صدرها)
من هي التي تنظر بعيني، وتسمع بأذني؟)
ومن هي التي لم أرها أبداً، ولا أرى غيرها أبداً؟)
شعرت بأن أغاني الشاعر قد سمت بي إلى عالم كله خير وجمال، وشعرت بنشوة عجيبة وعلمت أن ما أنا فيه غاية السعادة ونهاية السمو، وإذا أنا اسمع نغمة موسيقية فاتنة عادت تسمو بي، حتى رأيت ما كنت فيه أرضاً وهذي سماء، فذكرت كلمة فاجنر: (تبدأ الموسيقى حيث ينتهي الشعر)
واختلط علينا الجمال، فصار باقة واحدة، قد اجتمع فيها همس الحب وألحان الموسيقى بعبق الزهر، وأريج العطر؛ بخيوط الأشعة، وروعة الألوان، فصرنا نسمع ما يرى، ونشم ما يسمع، وصارت الحواس كلها حاسة واحدة. . . هي حاسة الجمال!
وهأنذا اذكر مئات من الذكريات، وأتمثل طلابي كلهم أمامي حتى إني لأمد يدي أصافحهم
فلا تقبض يدي إلا الهواء فأرتد مذعوراً واجلس يائساً. . . لقد غدا هؤلاء الفتيان جزءاً مني لأنهم عاشوا في نفسي ذكريات. . . كما عشت في نفوسهم ذكرى، فنحن مجتمعون ولو نأت بنا الديار. . .
وهأنذا آلف هذا البلد الذي كرهته واجتويته، وأصبر على شظف العيش فيه من اجل هؤلاء الطلاب الذين أحبوني هم أيضاً و. . . أحببتهم، وتعلقوا بي، فلا يأتون المدرسة إلا لسماع درسي، فإن لم يكن لي درس أقاموا في بيوتهم يجدون ويستعدون للامتحان، ولا يدخرون وسعاً في إسداء يد إلي أو دفع الألم عني. . . ويحرصون على راحتي اكثر من حرصهم على نجاحهم في امتحانهم، ويفضلون كلمة مني على كلمة تقولها القانون. . .
اصبر من اجل هؤلاء الذين اغرس الآن حبهم في قلبي لانتزعه منه غداً وادعه جريحاً. .
أفهذه حياة المعلم؟ ماذا يبقى من قلب في كل مدرسة منه قطعة؟ .
هنيئا لمعلم ليس له قلب. . . . . .
ويا ويل المعلم إذا كان إنساناً. . . . . .
(البصرة)
علي الطنطاوي
الإسلام والديمقراطية
للأستاذ عبد المجيد نافع
أحببت أن أتكلم عن الإسلام والديمقراطية لأني رأيت بعض الصحف الأجنبية كلما تعرضت للنظم في مصر قالت: ليست الديمقراطية مادة للتصدير! وهي تقصد أنها لا تصلح لنا ولا نصلح لها. وما علمت أن قوما يدينون بالإسلام حرام أن تضيع الديمقراطية

بينهم
وإذا ناديت أن الإسلام دين الديمقراطية فإني استوحي التنزيل الحكيم، وأستلهم الحديث الشريف، وأستهدي المأثور من أقوال أعلام الإسلام، واحكم في ضوء الأعمال الخالدة في تاريخ الإنسانية، ليتم لي القول أن دين محمد قد كتب للحرية أجل الصفحات وأروعها، وقرر من مبادئ الأخاء أسماها، ومن قواعد المساواة أعلاها. فكان دين الديمقراطية من الوجهتين النظرية والعملية، وكانت خير ديمقراطية أخرجت للناس
إذا اعتبرنا ميلاد الديمقراطية الغربية إعلان حقوق الإنسان في الانقلاب الفرنسي الكبير عام 1789 فان الإسلام قد سجل مبادئها قبل مولدها في أوربا بأكثر من ألف ومائتي عام. وإذ كان الفضل للمتقدم، فالفضل للإسلام في تحرير الإنسانية من ربقة الاستبعاد، وخلاصها من أغلال الأوهام
جاء الإسلام فوضع قواعد الديمقراطية في غير جلبة ولا ضوضاء، ودون أن يحدث هزة عنيفة في كيان الأمة العربية، بل دون أن يريق قطرة واحدة من الدماء. على حين أن الروح الديمقراطي لم يستطع أن يتنفس في جو أوربا، وبذور المساواة لم تنبت في البيئة الغربية، إلا بعد قرون ثلاثة حافلة بالثورات، وصراع دموي بين طبقة الأشراف وطبقات الشعب، صبغ ارض أوربا بالدماء
وسترون إن الإسلام جاء بالأخاء الصحيح، والمساواة الحق في حين أن الديمقراطية العصرية، باعتراف أنصارها وخصومها على السواء، لم تبرأ من شوائب النظم البالية العتيقة
الديمقراطية، في اصطلاح العلوم السياسية، هي النظام الذي يحكم الشعب فيه نفسه بنفسه، أما مباشرة أو بواسطة ممثلين يختارهم عنه
على إني أسارع إلى القول بان مدلول عبارة الديمقراطية قد اتسع اليوم نطاقه بحيث اصبح يشمل النظم الاجتماعية والاقتصادية فوق اشتماله على النظم السياسي. ولو شئنا أن نستغني بالأجمال عن التفصيل، لقلنا في كلمة: إن الديمقراطية هي النظام أو مجموعة النظم التي تحقق مبادئ الحرية والمساواة بين الناس بقدر ما يمكن أن يكون الإنسان حراً، وبالقسط من المساواة الذي لا يصطدم مع النواميس الطبيعية
ورأيت الناس مشغوفين كلفين بالديمقراطية حتى لأجدهم يسرفون في استعمالها فيقولون الأدب الديمقراطي، والفن الديمقراطي؛ بل أراهم لا يقتصون في التبرع بها حتى يخرجوا بها عن معناها الأصلي، فالرجل المتواضع في عرفهم رجل ديمقراطي، وان كان للديمقراطية من ألد الخصام
عرف أرسطو الديمقراطية بأنها نظام الحكم الذي تنتقل السلطة فيه إلى أيدي طائفة من المواطنين الأحرار المتساوين عند طبقة الأرستقراطية
يخلص لنا من هذا التعريف إن الحرية والمساواة هما الدعامتان اللتان يقوم عليهما صرح الديمقراطية.
إن من ينعم النظر في أقوال أرسطو يجد إن حكيم اليونان كان متبرماً بالنظام الديمقراطي في عصره، لا لأنه كان يتنكر لمبادئ الحرية، أو يخاصم تعاليم المساواة، أو يضيق صدراً بتوسيع دائرة اشتراك الشعب في إدارة شؤون الدولة، بل لان النظام الديمقراطي في عهده قد ساء حتى تردت اليونان في هاوية الفساد والفوضى كلما اتسع أفق المعارف الإنسانية، شعر الناس بالكرامة وأحس العقل البشري بالعزة، فتطلعوا إلى تحقيق المثل العليا، وطمحوا إلى توسيع قاعدة اشتراكهم في إدارة دفة الشؤون العامة، والهيمنة والإشراف على أمور الدولة، لذلك كان النضال حاداً عنيفاً بين الشعوب الطامحة إلى الحرية، والطغاة المستبدين الذين يصدونهم عن سبيلها، والتطاحن شديداً بين طبقة الأشراف التي تنعم بالامتيازات، وطبقات الشعب التي تتطلع إلى تحقيق مبادئ المساواة. وإذن فمن الحق أن يقال: إن تاريخ الديمقراطية هو تاريخ الحضارة الإنسانية
وما انصف كارل ماركس الحقيقة والتاريخ حين صاح بان البطون هي مصدر الانقلابات في كل أدوار التاريخ، وان الناس حين هبوا يسفكون دماءهم، ويزهقون أرواحهم، فإنما كانت هبتهم للخبز لا للحرية، وفورتهم في سبيل أغراض مادية لا لتحقيق المثل العليا والسعي وراء الكمال الإنساني

وما انصف من قبله بعض قادة الفكر في روما حين قالوا بان الشعب الروماني يجتزئ بالخبز والملاهي عن الحرية السياسية والاشتراك في تسيير أداة الحكم
وإذا كان قد أتيح لفريق من الرومان أن يقولوا ساخرين متهكمين: لدى الشعب أصوات انتخابية وليس لديه خبز؛ فقد كان ذلك من جراء فساد النظم، وانحطاط أداة الحكم، لا من جراء مسخ الطبيعة البشرية
تميز تاريخ روما القديمة بسلسلة من المناضلات متصلة الحلقات بين جماعة الأشراف وطبقات الشعب لتحقيق مبادئ المساواة
على أن تربة روما لم تكن صالحة لنمو بذور الديمقراطية، وكلما اتسع ملك الرومانيين وبسطوا سلطانهم في الأرض طلقوا مبادئ الديمقراطية واعتنقوا روح الاستعمار، وأقاموا بناء إمبراطوريتهم على الغلبة والقهر، وأصبحت الأمم المغلوبة على أمرها أسلاباً تقتني وضياعاً تستغل
كان المسلمون إذا فتحوا أمة تركوا لأهلها حرية العقيدة وحرية العبادة وخلوا بينهم وبين أملاكهم، وضمنوا لهم أمنهم وأرواحهم وسووا بينهم في المعاملة وهتفوا فيهم بذلك المبدأ القويم: لهم مالنا وعليهم ما علينا
وكذلك كان الإسلام كلما دخل أمة حمل معه بذور الإخاء والمساواة.
أود أن أضع تحت الأنظار صورتين متباينتين لامة اليونان القديمة، وأمة العرب قبل بزوغ فجر الإسلام، لتروا بأعينكم وتلمسوا بأيديكم، إلى أي حد وفق دين الهدى والحق إلى صبغ جزيرة العرب بالصبغة الديمقراطية وطبع أهلها بطابع المساواة
كانت اليونان القديمة بطبيعة تكوينها ومزاج أهلها مهداً صالحاً للديمقراطية، فقد كانوا يقيمون بالمدن ولا مشاحة في أن المدن هي مواطن الديمقراطية. وكانت ميول اليونانيين متجانسة، ومشاعرهم منسجمة، ومصالحهم متحدة، غير متنافرة تجمعهم ذكريات تاريخية مشتركة، وتؤلف بين قلوبهم مثل عليا واحدة
على النقيض من ذلك تماماً تجد سكان الجزيرة: فقد كان العرب يسكنون مضارب الخيام،
وانقسموا إلى شيع وقبائل. وكانت أهواؤهم متفرقة، ومصالحهم متنافرة. بل كانت المنازعات بينهم سلاسل متصلة الحلقات، والحروب متواصلة الضروب
ومن ينكر اعتزاز العرب بالعصبية؟!
ومن ينسى تطاولهم بالأحساب والأنساب؟!
ومن ذا الذي لم يملأ سمعيه بأخبار مفاخرتهم ومكاثرتهم ومنافرتهم؟!
فأنت ترى من هذه الصورة أن جزيرة العرب لم تكن المهاد الصالح لنموا شجرة الديمقراطية، والعرب لم يكونوا القوم المستعدين لإساغة تعاليم الديمقراطية وهضمها وجاء الإسلام فنشر راية الديمقراطية، وبث مبادئ الأخاء والمساواة، لا لأن الجو كان مهيئاً لها، ولا لأن العقول كانت مستعدة لهضمها، ولا لأن الإسلام شاء ان يتمشى مع العرب في رغباتهم، ومنازع نفوسهم ليصم الأولياء، ويكسب الأنصار، ولكن الإسلام جاء فألقى بذور الديمقراطية، لأنه دين الفطرة، لأنه دين الإنسانية الطامحة إلى الكمال، لأنه الدين الذي اخذ نفسه ببث احكم المبادئ، وغرس أقوم الأحكام.
اجل، لقد حمل الإسلام راية الأخاء وأهاب باتباعه: إنما المؤمنون اخوة. والمؤمنون بعضهم أولياء بعض: وعبيدكم الذين هم ملك يمينكم إخوانكم في الدين.
نعم، لقد رفع الإسلام لواء المساواة، وأذن في أنصاره: لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى، والناس سواسية كأسنان المشط.
ولم يقف الإسلام عند حد تلقين اتباعه مبادئ الإخاء والمساواة نظرياً، بل راضهم عليها عملياً، فشرع لهم الأحكام القائمة على الإخاء والمساواة، واراهم القدوة الصالحة، والأسوة الحسنة، فطبعت قلوبهم على الإخاء، وأشربت نفوسهم حب المساواة، حتى صاح أعرابي في وجه عمر صيحته التاريخية الخالدة، ولم يتعثر، ولم يتلجلج: لو وجدنا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا.
انطفأت شعلة الديمقراطية في عصور الظلمات في أوربا، وخبا نور الحرية، واندثرت معالم المساواة، وانشطر المجتمع الأوربي إلى ثلاث طبقات: فريق الأشراف، وجماعة الاكليروس، وطبقة الشعب. وكان التاريخ الغربي صفحة دامية من النضال بين

الشعوب المهضومة الحقوق والطغاة المستبدين الذين يتنكرون لتلك الحقوق فينكرونها. واتصل
التطاحن بين الطبقات؛ فأما الأشراف فكانوا يحرضون على امتيازاتهم، وأما رجال الدين فكانوا يضنون بأنفسهم أن يهبطوا إلى مستوى الشعب، وأما الشعب الطامح الطامع في رد اعتبار الكرامة البشرية، ووضع حد لامتهان العقل الإنساني؛ فلم يضن بأية تضحية يبذلها في سبيل الحرية والمسواة، فبذل دماء المجاهدين بسخاء
كانت الحرية السياسية منعدمة، والحرية الشخصية كلمة جوفاء، والحرية الدينية خيالاً متلاشياً، والمساواة عبارة ذاهبة في الهواء. وكان الملوك المستبدون يستمدون عناصر طغيانهم مما أسموه (الحق الإلهي). وكان الأشراف يلتمسون أسباب تميزهم من اختلاف المولد، ورجال الدين يتوسلون إلى التمتع بالامتيازات بما تأولوه من نصوص الدين، وصبرت الشعوب وصابرت حتى عقد النصر بلوائها على تلك القوى مجتمعة.
وشاورهم في الأمر: وأمرهم شورى بينهم: وكذلك وضع الإسلام قاعدة الحكم النيابي.
وما كان على الإسلام ان يضع غير الأصول والكليات والقواعد العامة؛ فأما الصور والأشكال التي يتحقق بها معنى الحكم النيابي فمن الطبيعي أن يترك اختيارها للقائمين بالتنفيذ.
ولا تحسبوا أن الحكم النيابي لا يوجد إلى حيث يوجد مجلس نواب ومجلس شيوخ. ففي مدن اليونان القديمة كان الشعب يحكم نفسه بنفسه مباشرة بغير واسطة نواب أو ممثلين. وكذلك الشان اليوم في بعض المقاطعات السويسرية حيث يحصل استفتاء الشعب في جميع الشؤون التي تمس حياته العامة. ولقد يوجد التمثيل النيابي وعلى الرغم من وجوده تنعدم سلطة الأمة وتصبح خيالاً متلاشياً. ثم ألا ترى أنصار الحكم النيابي وخصومه على السواء في أوربا يشكون من اضطهاد الأغلبيات للأقليات وتراهم يحاولون أن يطبوا لهذا الداء بواسطة التمثيل النسي؟
الشورى إذن هي قوام الحكم النيابي وهي دعامته وروحه دون اعتبار بالصور والأشكال.
في الصدر الأول من الإسلام كان يطبق مبدأ الشورى تطبيقا دقيقاً.
أيقن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأنه لم تعد للمسلمين مندوحة عن حرب الفرس، وانه إذا دانت لهم تلك البلاد خفقت راية الإسلام في ربوع الشعوب.
لم يشأ ابن الخطاب أن يستبد بالأمر أو يستأثر بالرأي وهو من تعلم بعد نظر وصواب فكر
وقوة حزم وعزم، بل أراد أن ينزل على رأي المسلمين فيمن يصلح لتولي القيادة؛ وأراد أن لا يضيق دائرة الاستشارة أو يقصرها على فريق دون فريق، فاستشار العامة والخاصة معاً، فأما العامة فأشاروا عليه أن يكون بنفسه على رأس الجيش إذ كان الناس اشد تعلقاً به، واكثر طاعة له. وأما الخاصة فأشاروا عليه بان يسلم القيادة لغيره وان يبقى هو بالمدينة ضناً بحياته وحرصاً على بقائه يدير دفة الشئون. ثم ارتأوا أن يكون سعد بن أبي وقاص على رأس الجيش، فنزل عمر على إرادتهم وولاه القيادة.
وضع الإسلام دعائم الحكم النيابي وطبق أبو بكر وعمر مبدأ الشورى تطبيقاً دقيقاً.
لكن وا أسفاه ما لبثت دولة بني مروان أن احتك خلفاؤها بالفرس والروم فرأوا مبلغ تسلط الحكومة على الرعية، وإذعان المحكومين لسلطان الحاكمين، فجنحوا للاستبداد، وضربوا بمبدأ الشورى عرض الأفق، ذلك بان النفس البشرية نزاعة إلى الاستبداد بفطرتها، وللبيئة في طبع النفوس بطابعها اثر أي اثر.
ولو أن بني مروان لم ينزعوا إلى الاستبداد لما وجدت دعاية بني العباس ضدهم سميعاً ولا مجيباً
كان النبي صلى الله عليه وسلم في سفر فأمر بإصلاح شاة، فقال رجل: يا رسول الله عليّ ذبحها، وقال آخر: عليّ سلخها، وقال ثالث: عليّ طبخها. فقال صلى الله عليه وسلم: وعليّ جمع الحطب. فقالوا: يا رسول الله نحن نكفيك ذلك، فقال قد علمت ولكني اكره أن أتميز عليكم، فان الله يكره من عبده أن يراه متميزاً بين أصحابه؛ وقام فجمع الحطب
ولا أريد أن اشوه جلال هذا المثل الرائع بمحاولة التعليق عليه ولما استقرت الخلافة

إلى أبي بكر، وذلك سنة إحدى عشرة صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم، فان أحسنت فأعينوني وان أسأت فقوموني ومما يروى عن زهده ورضاه بالكفاف من العيش إن زوجته اشتهت حلواً. فقال: ليس لنا ما نشتري به. فقالت: أنا استفضل من نفقتنا في عدة أيام ما نشتري به. قال: افعلي، ففعلت ذلك، فاجتمع لها في أيام كثيرة شئ قليل، فلما عرفته ذلك ليشتري به حلواً أخذه فرده إلى بيت المال. قال: هذا يفضل عن قوتنا، واسقط من نفقته بمقدار ما نقصت كل يوم وغرمه لبيت المال من ملك كان له

ولما ولى الخلافة رأى أن يستمر على استغلال ملكه والارتزاق من وراء عمل يده ولا ينفق على نفسه من بيت مال المسلمين شيئاً واصبح يوماً وعلى ساعده أبراد وهو ذاهب إلى السوق فلقيه عمر فقال: أين تريد؟ قال: إلى السوق. قال: أتصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين؟ قال: فمن أين أطعم عيالي؟ فقال: انطلق يفرض لك أبو عبيدة، فانطلقاً إلى أبو عبيدة فقال: افرض لك قوت رجل من المهاجرين ليس بأفضلهم ولا بأوكسهم كسوة الشتاء والصيف، إذا أخلفت شيئاً رددته وأخذت غيره، ففرضا له كل يوم نصف شاة وما كساه في الرأس والبطن

واخرج ابن سعد عن ميمون قال: لما استخلف أبو بكر جعلوا له ألفين فقال: زيدوني فان لي عيالاً وقد شغلتموني عن التجارة، فزادوه خمسمائة

وخطب عمر بن الخطاب يوماً فقال: أيها الناس من رأى منكم في اعوجاجاً فليقومه. فقام رجل فقال: والله لو وجدنا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا. فقال عمر: الحمد لله الذي أوجد في المسلمين من يقوم اعوجاج عمر بسيفه

أراد أحد ملوك الروم أن يتعرف شخصية عمر العظيمة ويتبين العوامل التي جعلت حفنة من العرب تدوخ الممالك وتبسط سلطانها على الإمبراطوريات الضخمة العظيمة، فبعث برسول فتلمس الرسول طريقه إلى عمر، وإذ سأل الناس عنه أشاروا إلى رجل نائم إلى جانب جدار وهو يتوسد عصاه. فقال: عدلت فأمنت فنمت يا عمر.

ولما سير العرب جيوشهم على مصر وعلى رأسها عمرو بن العاص أرسل ملك مصر من يستطلع طلع تلك الحملة. فما راعه إلا أن يرى عمراً القائد للجيش يتبسط في تناول الطعام مع جنوده على الأرض. فلما ارتد الرسول فأعطى الملك تلك الصورة الرائعة قال: إن قوماً ذلك شأنهم، وتلك حال كبارهم مع صغارهم، محال أن تجد الهزيمة إلى صفوفهم سبيلاً.

يجترئ خصوم الإسلام على الدعوى بان مجد الإسلام قام على السيف. وتلك دعوى باطلة تضافر العدل والحق على هدمها من أساسها.

وكيف يجوز في عقل عاقل أن حفنة من الرجال تقوى على هدم إمبراطوريتي الرومان والفرس إذا لم تكن عدتها إلا السيف؟

أين قوة العرب المادية من قوة الفرس والرومان؟ وأين مواردهم من مواردهم؟ وكيف استطاع المسلمون أن يفتحوا في ثمانين سنة ما فتحه الرومان في ثمانمائة؟ فامتد رواق الملك العربي من الأندلس إلى حدود الهند، وخفقت راية الإسلام فوق تلك الربوع جميعاً؟

عندي أن المبادئ الحقة العادلة هي التي مهدت للمسلمين السبيل إلى بسط ملكهم في الأرض.

ثلاثة قرون كاملة حفلت بالثورات الدموية في سبيل تقرير قواعد الديموقراطية العصرية في أوربا. شهدت إنجلترا انقلابين في سنة 1642 و1688. وفي عام 1766 وقعت حرب استقلال أميركا لخلع نير الاستعباد البريطاني. واضطرمت نيران الثورة في فرنسا عام 1789. وكأن شجرة الحرية كانت لا تزال في حاجة لدماء لترويها، والديموقراطية لضحايا وشهداء لتغذيها، فتأججت نيران الثورة في 1830 و1848. وتواصلت الثورات في أوربا بين 1906 و1920

فأنتم ترون أن النصر لم يعقد بلواء الديمقراطية إلا في القرن التاسع عشر وفي أواسط القرن الثامن عشر في فرنسا لم تكن حرية سياسية ولا مساواة اجتماعية. حتى هب فولتير وروسو يبشران بمبادئ الحرية والمساواة. وتشبع لافايت بتعاليم الديمقراطية، فلما عاد ورفاقه إلى فرنسا حملوا إليها بذورها الصالحة وجعل روسو براعة الاستهلال في كتابه (العقد الاجتماعي) ولد الإنسان حراً على أنا

نراه في كل مكان يرسف في القيود
وأعلنت الثورة الفرنسية حقوق الإنسان في عام 1789 وجرت المادة الأولى من إعلان الحقوق: يولد الناس أحراراً ويبقون أحراراً ومتساوين
رأيتم أن الحرية والمساواة هما الدعامتان اللتان يقوم عليهما صرح الديمقراطية.
ولقد جاء الإسلام فأعلن حقوق الإنسان قبل الثورة الفرنسية بأكثر من 1200 سنة
أتى رجل من أهل مصر إلى عمر بن الخطاب فقال يا أمير المؤمنين عائذ بك من الظلم. قال: عذت معاذاً: قال: سابقت ابن عمرو بن العاص فسبقته فجعل يضربني بالسوط ويقول أنا ابن الأكرمين. فكتب عمر إلى عمرو يأمره بالقدوم عليه ويقدم بابنه
عليه فقدم: فقال عمر: أين المصري؟ خذ السوط فاضرب، فجعل يضربه بالسوط ويقول عمر اضرب ابن
الأكرمين. ثم قال للمصري: ضعه على صلعة عمرو، قال: يا أمير المؤمنين إنما ابنه الذي ضربني وقد اشتفيت منه فقال عمر لعمرو: مذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟ قال: يا أمير المؤمنين لم أعلم ولم يأتني. يعني المصري.
(يتبع)
عبد المجيد نافع المحامي
نقل الأديب
للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي
71 - فما يبلغ السيف المهند درهماً
في (نقد الشعر) لقدامة:
قد أومأ السمط بن مروان بن أبي حفصة في مدحه شرحبيل بن معن بن زائدة إيماء موجزاً ظريفاً أتى على كثير من المدح باختصار وإشارة بديعة فقال:
رأيت ابن معن أفتن الناس جوده ... فكلف قول الشعر من كان مفحما
وأرخص بالعدل السلاح بأرضنا ... فما يبلغ السيف المهند درهما
72 - نقنع منه ببعضه
في (غرر أخبار الفرس وسيدهم) للثعالبي:
رُفع إلى أبرويز إن بعض العُمال استدعي إلى الباب فتثاقل عن الإجابة فوقع: إن ثقل عليه المصير إلينا بكله. فأنّا نقنع منه ببعضه، ونخفف عنه المؤونة فيحمل رأسه إلى الباب دون جسده
ومن معنى هذا التوقيع أخذ المنصور قوله في توقيعه إلى قائد ركب محظوراً: يا هذا إن كان رأسك قد أثقلك خففناه عنك
73 - لم تبق رتبة لمستحق
في (تاريخ الوزراء) لهلال بن المحسن:
بلغني أن بعض خواص (المقتدر بالله) سأل علي بن عيسى الوزير زيادة أحد العمال المتقدمين، في خطابه. وكان يخاطبه بـ (أعزك الله) فامتنع عليه امتناعاً شديداً وعاوده حتى وعده وكتب إلى الرجل بـ (أعزك الله) ممدود ما بين العين والزاي فقال: ألم يعدني الوزير بالزيادة؟ قال: قد فعلت. قال: في أي شئ؟ قال: كنت أجمع بين العين والزاي وقد مددت بينهما مدة، وهي الزيادة
فكان القوم على هذه الصورة من المناقشة ليبين الترتيب فيها. فأما عصرنا هذا فقد اختلفت الرسوم فيه، وقلت المراعاة لما كانت موكولة به. لا جرم أن الرتب قد نزلت لما تساوت
ولم يبق لها طلاوة يشار إليها حتى لقد بلغني عن مولانا الخليفة (القائم بأمر الله) أنه قال لم تبق رتبة لمستحق.
74 - إذا تقاربت الآداب
كتب البحتري إلى صديقه ابن خرداذبة الأديب المشهور:
إن كنت من فارس في بيت سؤددها ... وكنت من محتدى بالبيت والنسب
فلم يضرنا تنائي المنصبين وقد ... رحنا نسيبين في علم وفي أدب
إذا تقاربت الآداب والتأمت ... دنت مسافة بين العجم والعرب
75 - ما عندكم في المرية غير الدجاج
في (نفح الطيب): كان المعتصم ابن صمادح قد أحسن إلى النحلي البطليوسي ثم إن

النحلي سار إلى إشبيلية فمدح المعتضد ابن عباد بشعر قال فيه:
أباد ابن عباد البربر ... وأفنى ابن معن دجاج القرى
ونسي ما قاله حتى حل بالمرية فأحظره ابن صمادح لمنادمته، وأحضر العشاء موائد
ليس فيها غير دجاج، فقال إنما أردنا أن نكذبك في قولك:
وأفنى بن معن دجاج القرى
فطار سكر النحلي، وجعل يعتذر فقال له: خفض عليك إنما ينفق مثلك بمثل هذا، وإنما
العتب على من سمعه فاحتمل منك في حق من هو في نصابه ثم أحسن إليه
وخاف النحلي ففر من المرية ثم ندم فكتب إلى المعتصم:
رضا ابن صمادح فارقته ... فلم يرضني بعده العالم
وكانت مريته جنة ... فجئت يما جاءه آدم!
فما زال يتفقده بالإحسان على بعد دياره
76 - تمثال شبديز وابرويز
شاعر:
منحوت صخر بعد بهجته ... للناظرين فلا جري ولا خَبَبُ (شبديز)
عليه (برويز) مثل البدر منتصباً ... للناظرين فلا يجدي ولا يهب
وربما فاض للعافين من يده ... سحائب، ودقها المرجان والذهب
فلا تزال مدى الأيام صورته ... تحن شوقاً إليها العرب والعجم
أبو عمران الكردي:
وهم نقروا (شبديز) في الصخر عبرة ... وراكبه (برويز) كالبدر طالع
عليه بهاء الملك والوفد عكف ... يخال به فجر من الأفق ساطع
تلاحظه (شيرين) واللحظ فاتن ... وتعطو بكف حسنتها الأشاجع
يدوم على كر الجديدين شخصه ... ويلقى قويم الجسم واللون ناصع
77 - ثم أتوب
في (أمالي) القالي:
دخل أعرابي على بعض الأمراء وهو يشرب فجعل يحدثه وينشده ثم سقاه، فلما شربها
قال: هي (والله) أيها الأمير (أي هي الخمر) فقال: كلا، إنها زبيب وعسل، فلما طرب
قال له: قل فيها فقال:
أتانا بها صفراء يزعم أنها ... زبيب فصدقناه وهو كذوب
وما هي إلا ليلة غاب نجمها ... أواقع فيها الذنب ثم أتوب
78 - ما فاته من الدنيا . . .
في (روضة المحبين) لابن قيم الجوزية:
عن عبد الله بن شوذب: دخلت امرأة جميلة على الحسن البصري فقالت: يا أبا سعيد
ينبغي للرجال أن يتزوجوا على النساء؟
قال: نعم
قالت وعلى مثلي؟ ثم سفرت عن وجه لم ير مثله حسناً وقالت: يا أبا سعيد لا تفتو
الرجال بهذا ثم ولت
فقال الحسن: ما على رجل كانت هذه في زاوية بيته ما فاته من الدنيا!
79 - مهرها إسلامه
في طبقات ابن سعد:
جاء أبو طلحة يخطب أم سليم بن ملحان، فقالت: إنه لا ينبغي لي أن أتزوج مشركاً،
أما تعلم يا أبا طلحة. إن آلهتكم التي تعبدون ينحتها عبد آل فلان النجار، وإنكم لو
أشعلتم فيها ناراً لاحترقت فانصرف عنها وقد وقع في قلبه من ذلك موقعاً، وجعل لا
يجيئها يوماً إلا قالت له ذلك. فأتى يوماً فقال: الذي عرضت عليّ قد قبلت
فما كان لها مهر إلا إسلام أبي طلحة

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

الديانة المصرية

العلم والأب والفن والقانون
رأى رجال الدين أن الشعب لا يتبع التقاليد الدينية إلا إذا امتزجت تعاليمها بنفوس أبنائه امتزاجاً قوياً، وهذا لا يتيسر إلا إذا بشر بالدين رجال مثقفون فصحاء يملكون أعنة البلاغة ويستولون على أزمة البيان. وإذاً، فهم مضطرون قبل كل شيء إلى أن يفسحوا في مدارسهم للأدب أمكنة واسعة وأن ينزلوه بين معارفهم منزلة عالية وقد فعلوا، فكان من نتائج هذه العناية الفائقة بالأدب أن ظهر كتاب (أفتاح حتب) وزير الملك (إيزيس) الذي هو أقدم كتاب في الدنيا والذي يرى فيه القارئ من الحكم والنصائح والأمر باحترام المرأة وإعزازها والتحذير من إغضاب الملوك والرؤساء والحث على طلب العلم واعتباره أهم ضروريات الحياة وألزم واجبات الأشخاص من كل الطبقات إلى غير ذلك من وصف حلاوة الشباب ولذة القوة ومرارة الشيخوخة وانكسار النفس في أيامها وانطفاء مصباح الآمال والأحلام إلى آخره إلى آخره، مما يجعل من غير الممكن أن يكون كتاب هذا شأنه من منتجات عقول شابة في الأدب، ناشئة في الكتابة والتأليف.
ومن الطبيعي أن الأمة التي يصل فيها الدين والأدب إلى هذه المرتبة الرفيعة تسمو فيها الحالة الاجتماعية سمواً عظيماً يتبعه تقدم في جميع نواحي الحياة، لأن الأمة تنبغ في المخترعات وتبرع في الفنون بمقدار حاجتها إليها، وهذه الحاجة تتعدد تبعاً لتقدم المدنية التي هي أولى مظاهر السمو الاجتماعي. وإذن فالدين يتطلب سمو الأدب، والأدب عامل أساسي في الرقي الاجتماعي، والمدنية أولى مظاهر هذا الرقي، والحاجة إلى الاختراع والفن طليعة نتائج تلك المدنية. وهذه هي الدرجات التي صعدت عليها الدولة المصرية القديمة حتى وصلت إلى قمة سلم الحياة العالية فارتقت فيها الفنون الجميلة على اختلاف
ألوانها حتى وصلت إلى درجة حيرت كبار الفنيين في العصر الحديث.
لم تكن معارف المصريين إبان الدولة القديمة ناشئة ولا في أول عهدها بالحياة كما يزعم الجاهلون، ويدل على ذلك أنه في أواخر القرن الماضي اكتشف عالم من كبار المستمصرين الفرنسيين خلف الهرم الغربي جثة موظف كبير من موظفي الإمبراطورية الأولى كتب على تابوته العبارة التالية: (هذه جثة الحارس الأكبر لدار الكتب الملكية).
وقد علق الأستاذ (ماسبيرو) على هذه العبارة في كتابه (تاريخ الشرق القديم) طبعة أولى بأن هذه المكتبة التي كان هذا الموظف الكبير مديرها أو حارسها كانت تحوي بين جدرانها كثيراً من الكتب في الأدب والفلسفة والأخلاق والتاريخ والاجتماع والقانون والسياسة والطب والحساب والهندسة والفلك والسحر والتنجيم
ويؤكد الأستاذ (ماسبيرو) أن هذه المواد التي كانت موجودة في أدمغة العلماء ومسطرة في أوراق البردي لم تكن أثناء الدولة القديمة في عهد الحداثة والتكوين، بل كانت قد نضجت نضوجاً تاماً وأصبحت في دور الإنتاج العملي المفيد، إذ أن من المستحيل أن تبنى الأهرام في عصر بادئ في الهندسة لم يتعمق أهله - أو العلماء منهم على الأقل - في غامض النظريات ومعقد الرسوم؛ وكذلك من المستبعد عقلاً أن نتصور أن المحاكم التي لا تحكم على المجرم إلا بعد سماع المرافعات الشفوية الطويلة، وقراءة المذكرات التحريرية المقدمة من المتهم يكون قضاتها ومستشاروها حديثي عهد بالقوانين المدنية والجنائية
وإنني أنتهز فرصة هذه المناسبة فأذكر لك مثلاً من أمثلة استقلال هذا القضاء وعدالة الملوك في تلك العصور الغابرة التي نتصور أنها كانت مفعمة بالظلم والاستبداد:
حاولت زوجة (باتوو) الخائنة قتل زوجها عدة مرات قبل أن يجلس على عرش مصر، فلما تولى المملكة لم يشأ أن يقتلها دون تبرير هذا القتل بحكم المحكمة، ولم يكن شئ أسهل عليه من أن ينتقم بالقتل من زوجة مجرمة أثيمة، ولكنه أعلنها بالحضور أمام المحكمة التي تألفت من أكابر رجال القضاء في الدولة، ووقف جلالته خصماً نزيهاً لهذه الخائنة، وتلا مذكرة الاتهام على مسامع القضاة ثم ترك لهم الكلمة، فطلبوا إليها أن تدافع عن نفسها، ولكنها حنت رأسها مشيرة إلى الإفلاس من البراهين وإلى التسليم بالإجرام، فأصدر القضاة حكمهم عليها بالإعدام

فأنت ترى هذه الصورة العادلة التي صور بها مؤلف القصة فرعونه العظيم. وقد تكون هذه القصة خيالية، ولكن الذي لاشك في هو أن الكتاب في كل عصر يستمدون مؤلفاتهم مما يقع حولهم من الحوادث ولو في شئ من المبالغة والمغالاة فنحن نستطيع أن نؤكد أنه كان في تلك العصور الغابرة قضاة يستندون في أحكامهم إلى قوانين مدنية وجنائية، وأنهم كانوا يسمعون ويقرأون دفاع المتهمين وشهادة الشهود، بل يبالغ الأستاذ (نوباري) المستمصر الألماني فيؤكد لنا أن القضاء في تلك العصور كان لا يقل عنه في عصرنا الحاضر بحال

وإذا غادرنا القضاء وعنايته بالقوانين وتوجيه العدالة والإنصاف واهتمامه بأنواع الدفاع وضروب المرافعات ثم اتجهنا إلى الطب ألفيناه قد بلغ حد النضوج ووصل إلى درجة توشك أن تلحق بالكمال. ويبرهن على ذلك ثقة الأطباء بأنفسهم وتحققهم من معارفهم إلى درجة المجازفة بحياتهم في سبيل توطيد تلك المعارف، فقد كان الطبيب إذا اخترع نوعاً جديداً من الدواء لم يكن قد سبقه إليه طبيب آخر يرفع اختراعه إلى هيئة الاختصاص حتى إذا نظرت فيه استدعته أمامها وتلت عليه نص الشرط الذي نلخصه فيما يلي: - (للطبيب أن يعالج مريضه بهذا الدواء الذي اخترعه، فإذا شفي وثبت بالكشف الطبي بأن شفي بسبب هذا الدواء، منح مكافأة مادية قدرها كذا وكذا. وأخرى معنوية، وهي تدوين اسمه واسم دوائه في الدواوين الرسمية والكتب العلمية المقررة، وإذا مات المريض مسموماً بدوائه حكم على الطبيب بالإعدام).

فإذا قبل الطبيب هذا الشرط وأخذ منه توقيع بالقبول أمام شهود عدول صرح له بالابتداء في تجربة الدواء.

وفي رأينا أن هذا النظام المصري القديم أدق وأحرص على سلامة الجمهور من نظام القرن العشرين الذي لا يتحرز فيه الأطباء من العبث بأرواح المرضى الذين أصبحوا لهم عبيداً يأتمرون بأوامرهم التي لا يلاحظ فيها قانون ولا تترتب عليها أية مسؤولية رادعة، بل لا يترتب عليها سؤال بسيط من قبل القضاء وضحايا الأطباء والصيادلة الذين لا يعنون العناية الكافية بتركيب الدواء لا تندرج تحت حصر، ومهما يكن من الأمر فهل تتصور أن أطباء ناشئين في الطب أو مبتدئين في الحكمة لم يقتنعوا بعد بتجاربهم العلمية يقدمون على تعريض حياتهم للخطر؟

أحسبك بعد أن صورت لك هذه المنزلة العالية التي ارتقى إليها الطب المصري في العصور القديمة توافقني على أن الآراء القائلة بأن الطب المصري كان نوعاً من الرقي والتعاويذ السحرية أو مشوباً بها كما صرح الأستاذ أمين الخولي في مذكراته صفحة 44 هي ضرب من الخرافات التي ليس لها من الأدلة العلمية مستند ولا دليل وإذا ألقينا نظرة متأملة على الرسم مثلاً وجدناه لا يقل روعة وجلالاً عن بقية الفنون والعلوم الأخرى التي أسلفنا لك أنها كادت تصل إلى مرتبة الكمال

وأخص ما يمتاز به الرسم المصري هو ما يشاهده عليه الرائي من الحياة لأنك حين تنظر إلى ما يرسمونه من صور لا تشك في أنها حية تستمتع بالحركة والإحساس وذلك لإتقان رسمها وإجادة الفن فيها.

ولقد بلغ هذا التصوير درجة جعله يعم المعابد والمقابر ثم يتخطاها إلى المنازل والمنتديات، والحدائق والمتنزهات والمحاكم والدواوين وينقش على الحوائط والأسوار والسقوف والأراضي وفي غرفة النوم وحجر الاستقبال وقاعات المائدة وفي كل مكان. وإليك ما قاله الأستاذ (بريستيد) في هذا الشأن:

وبلغت الفنون الجميلة درجة قريبة من الطبيعة. بعيدة عن الأوهام لم تبلغها أية بلدة) إلى أن يقول: (بل كان المصري مغرماً بمظاهر (أخرى في تلك العصور القديمة الطبيعة الأصلية فقط كما يراها داخل منزله وخارجه، ولذلك نقش زهر (اللوطس) على أيدي ملاعقه وشرب النبيذ في أقداح زرقاوية اللون على شكل برعوم اللوطس، وصنع أرجل سريره بهيئة أرجل الثيران القوية العضلات ولبسها بالعاج، ورسم سقف منزله بهيئة سماء تبدو منها النجوم ورفعها على عمد شبيهة بالنخيل الباسقة الأغصان أو بسيقان اللوطس المنتهية أعاليها ببراعيم ذلك النبات، وكثيراً ما زين المصري سقوف حجراته برسوم الحمام والفراش الطائرة بين الأشجار. وكان يحلي أرض منزله باللون الأخضر على شكل مستنقعات يسبح بين أعشابها السمك ونشاهد بها أحياناً ثيراناً وحشية طاردة للعصافير المحلقة فوق الأعشاب المائلة، ويرى الناظر أن هذه

الطيور تسعى في الوقت نفسه لخلاص صغارها من ابن عرس الذي يريد افتراسها.
أما الأدوات المنزلية المستعملة يومياً في منازل الأغنياء فجميلة متناسبة الأجزاء تشاهد
(على أبسطها صنعاً مناظر الطبيعة وجمالها المرئيات في خلال القطر المصري.
وليس هذا هو كل شئ في رقي الصناعات العملية في مصر بل إن هناك خوارق ومعجزات ظهرت على أيدي أولئك الصناع المهرة البارعين، فالتاريخ يحدثنا بأن الصائغين قد بلغوا في صناعة الحلي دقة لم يسع فنيي مصر الحديث إلا أن يعترفوا أمامهم بعجزهم الكامل عن مجاراتها، وهو ينبئنا كذلك بأن صناع الكؤوس والأكواب قد وصلوا في صناعتهم إلى حد أن يبتدعوا أكواباً من الصوان تشف عما في دخلها فيرى في وضوح كما يرى ما هو في داخل الزجاج سواء بسواء، وأن النساجين توصلوا إلى صنع غلائل من الكتان شفافة لا تحجب ما وراءها ولا ريب أن هذا هو في الصناعة أعلى مراتب الإعجاز.
ويحدثنا الأستاذ (بريستيد) في صفحة 66 من كتابه (أن مهندسي العمارة والبنائين عرفوا شيئاً كثيراً من علم رفع الأثقال (الميكانيكا) كما يستدل من قبو مقبرة ببيت الخلاف يرجع تاريخها إلى القرن الثلاثين قبل الميلاد وغير ذلك مما يبرهن على أن العلوم العقلية والعملية كانت قد وصلت في مصر إلى أبعد مدى تستسيغه تلك العصور.
هذا، ولما كانت الفلسفة الهندية هي أهم الفلسفات الشرقية جميعها بعد فلسفة مصر من ناحية وأقدمها إلا الفلسفة المصرية من ناحية أخرى فقد آثرنا أن نثني بها بعد أن بدأنا بفلسفة وادي النيل التي هي مبدأ الجميع في رأي أدق العلماء والباحثين.
(يتبع)
محمد غلاب
هكذا قال زرادشت
للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه
ترجمة الأستاذ فليكس فارس
مشاهير الحكماء
جميعكم أيها الحكماء المتمتعون بالشهرة، قد خدمتم الشعب وما يؤمن به من خرافات، ولو أنكم خدمتم الحقيقة لما كرمكم أحد، ومن أجل هذا احتمل الشعب شكوكم في بيانكم المنمق لأنها كانت السبيل الملتوي الذي يقودكم إليه. وهكذا يوجد السيد لنفسه عبيداً يلهو بضلالهم الصاخب. وما الإنسان الذي يكرهه الشعب كره الكلاب للذئب إلا صاحب الفكر الحر عدو القيود الذي لا يتعبد ولا يلذ له إلا ارتياد الغاب إن ما حسبه الشعب في كل زمان روحاً للعدل إنما هو العدو الكامن المترصد لروح الحرية يستنبح عليها أشد كلابه افتراساً وقد قيل في كل زمان (لا حقيقة إلا في الشعب فويل لمن يطلبها خارجاً عنه)
لقد أردتم أن تؤيدوا الشعب في ما يبدي من خشوع وإجلال، فدعوتم هذه المذلة (إرادة الحق) فيالكم من حكماء
غير أنكم كنتم تقولون في أنفسكم لقد نشأنا من الشعب وصوت الشعب هو صوت الله فكنتم كالحمار الصبور المراوغ تعرضون وساطتكم على الشعب، ولكم من ذي سلطان أراد أن توافق عجلته ذوق الشعب ففطر لجرحها حماراً صغيراً، حكيماً مشهوراً. . .
فيا مشاهير الحكماء، إنني أطلب منكم أن تخلعوا عنكم ما تتلبسون به من جلود الأسود وجلود الوحوش الكاسرة المخططة وفراء المستكشفين للمجاهل والفاتحين.
إذ لا يسعني أن أؤمن بالحقائق التي تنادون بها ما لم تقلعوا عن بذل التبجيل والتعظيم، فما رجل الحق إلا الضارب في القفار ولا إله له لأنه حطم بين جنبيه قلب التبجيل والتعظيم وإذا هو تلفت ورمال الصحراء تحرق قدميه إلى الواحات حيث يتدفق الماء الزلال، ويمتد وارف الظلال، وترتاح الحياة ملقية عصا الترحال، فلا يقتاده الظمأ إلى الاتجاه نحوها طلباً للاغتباط بين المغتبطين لأنه يعلم أنه لكل واحدة أصنامها، وما يريد الأسد إلا الانفراد

محرراً من عبودية الأرباب ومن سعادة المستبدين، بعيداً عن الآلهة والمتعبدين وعن الخوف ومنزليه في القلوب، ذلك ما يصبو رجل الحق إليه. وما عاش رجال الحق إلا في القفار يسودونها بانطلاق تفكيرهم في مجالها الوسيع. وهل في المدن إلا مشاهير الحكماء يتناولون خير الغذاء كذوات الضرع تغذى لتحلب. ويجرون عجلة الشعب وقد كُدنوا بها كالحمير

وما أنا بالناقم عليهم ولكن ليعلموا أنهم خدم مشدودون إلى عجلة وما يرفع من ذلهم توهج الذهب على العجلة التي يجرونها

ولطالما أخلص هؤلاء الناس في خدمتهم فاستحقوا الثناء لأن الحكمة تقضي بأن يفتش الخادم عن سيد يستفيد من خدماته

لقد وجب أن يتسامى عقل سيدك وتعلو فضيلته لأنك بهما تعلو أنت

والحق أنكم قد علوتم بارتقاء عقل الشعب وفضيلته، أيها الحكماء الخادمون للشعب كما اعتلى هو بكم. وما أعلن هذا لتمجيدكم، فإنكم قد بقيتم أنتم شعباً حتى في فضائلكم، وما تزالون شعباً لا بصيرة له، ولا يدرك للعقل معنى

إنما العقل حياة تمزق الحياة تمزيقاً، وما تزداد الحياة معرفة إلا بما تتحمل من آلام، فهل كنتم لهذه الحقيقة عارفين؟

لا يسعد العقل إلا إذا مسح بالدموع وتوج بالتضحية فهل كنتم لهذه الحقيقة عارفين؟

إن عماء الضرير وتلمسه لطريقه إنما هو شهادة لقوة الشمس، التي حدق بها فهل كنتم لهذه الحقيقة عارفين؟

على طالب المعرفة أن يتعلم البناء باستخدامه الجبال حجارة لإقامة صرحه، وما يصعب على العقل أن ينقل الجبال، فهل كنتم لهذه الحقيقة عارفين؟

إنكم لا تلمحون من العقل إلا ما يقذف به من شرر، فلا تعرفون، أي سندان هو هذا العقل، ولا تعرفون أيضاً قساوة المطرقة التي تتهاوى عليه

والحق أنكم تجهلون كبر العقل ويصعب عليكم احتمال تواضعه لو أراد تواضع العقل أن يعلن حقيقته

إنكم ما تمكنتم في أي زمان من إرسال عقلكم إلى مهاوي الثلوج، فما بكم الحرارة الكافية

لاقتحامها، ولذلك لا تدركون لذة من تنعشه لفحات هذه المهاوي، غير أنني أراكم بالرغم من هذا تقدمون على مداعبة التفكير، وقد جعلتم الحكمة ملجأ ومستشفى للمتشاعرين. . .

لستم عقباناً أيها الحكماء المشتهرون، فأنتم إذاً لا تدركون ما يلد العقل من لذة في ارتياعه، فلا يحق لغير المجنح أن يخترق الهواء فوق الوهاد

ما أنتم إلا فاترون أيها الحكماء، وفي كل معرفة عميقة يهب تيار من الصقيع لأن ينابيع العقل الخفية باردة كالثلج ولا تلذ ببردها غير الأيدي الملتهبة بحرارة جهادها

إنني أراكم أمامي أيها الحكماء المشتهرون ملفعين بقساوتكم جامدين على غروركم فما للريح أن تدفعكم ولا للإرادة أن تهيب بكم إلى الإقدام

أما رأيتم على مضطربات الأمواج شراعاً خفاقاً يندفع وقد عصفت في ثنياته هوجاء الرياح. إن حكمتي تجتاز العمر خافقة كهذا الشراع وقد ملأتها عواصف التفكير، تلك هي حكمتي الشاردة النفور. فهل لكم أن تجاروني في اندفاعي أنتم يا من تخدمون الشعب، أنتم مشاهير الحكماء

هكذا تكلم زارا. . .

نشيد الليل

لقد أرخى الليل سدوله فتعالى خرير المياه المتدفقة، ولنفسي أيضاً ينبوعها المتفجر

لقد أرخى الليل سدوله فتعالت الأناشيد من أفواه جميع المغرمين، وما روحي إلا نشيد من هذه الأناشيد. إن في داخلي قوة ثائرة تريد إطلاق صوتها وهي شوق إلى الحب بيانه بيان المغرمين. أنا نور وليتني كنت ظلاماً، وما قضي عليّ بالعزلة والانفراد إلا لأنني تلفعت بالأنوار. ولو أنني كنت ظلاماً، لكان لي أن أتعلق بإسداء النور فأنقع من درها غلتي، لكان لي أن أرسل بركتي إليك أيتها النجوم المتألقة كصغيرات الحباحب في السماء إذ أتمتع بما تذرين عليّ من شعاع. غير أنني أحيا بأنواري فأتشرب اللهب المندلع من ذاتي وقد حرمت لذة الآخذين، وقد خطر لي مراراً أن في السرقة من

اللذة ما ليس في الأخذ.
إن يدي لا تقف عن البذل وذلك هو فقري فأنا أنظر أبداً إلى العيون يملأها الانتظار وإلى الليالي تلهبها الأشواق، وذلك هو الحسد الذي يقض مضجعي
يا لشقاء الواهبين. . يا لظلمة شمسي ويا لشوقي إلى الاشتياق ويا لشدة المجاعة في
شبعي
إنهم يأخذون ما أهبهم ولكنني أبقى بعيداً عن أرواحهم فإن بين الباذل والآخذ هوة عميقة، ولعل أقرب الأغوار قعراً أصعبها ردماً
إن نوعاً من الجوع ينشأ في أحشائي فيحفزني إلى إيلام من أرسل إليهم أنواري. فأتوق إلى سلب من أغدق عليهم هباتي وهكذا أتعطش إلى إيقاع الأذية فأرد يدي بعد أن أكون مددتها وأتردد تردد الشلال في تدفقه نحو مراميه
إن مثل هذا الانتقام يراود عظمتي، ومثل هذا المكر ينشأ من عزلتي
لقد فقدت السعادة في العطاء لوفرة ما أعطيت وقد زهقت فضيلتي من نفسها ومن جودها، إن من يستمر على بذل الهبات مهدد بفقد الحياء. ولابد أن تتصلب راحته ويتصلب قلبه.
لم تعد مآقيّ تذرف الدموع على خجل المسترحمين وها إن يدي قست حتى امتنع عليها أن تشعر بارتعاش الأيدي إذا امتلأت.
أين هي دموع عيني وأين رقة قلبي. فيا لوحدة جميع الواهبين ويا لصمت كل متلفع بالسناء.
إن شموساً لا عداد لها تدور في قفار الأجواء مخاطبة بإشعاعها لبدات الظلام وأنا وحدي محروم من حديث هذه الشموس وبيانها.
ويلاه! أية علاقة يمكن أن تربط الأنوار بالأجرام المنيرة من نفسها؟ فإن الأنوار تمر عليها وهي تحدجها بلفتات الجفاء وتمضي ذاهبة في سبيلها، وهكذا تسير جميع الشموس في أجوائها نافرة من كل جرم منير باردة لا تحس أخواتها بحرارتها.
إن الشموس تندفع كالعاصفات في أبراجها متبعة ما اختطته إرادتها الجبارة وفي ذلك كتمان حرارتها وبرودتها.
هل غيرك أيتها الأجرام الملفعة بظلام الليل من يخلق حرارة من اللمعان؟ أنت وحدك ترضعين أفاويق القوة من أنداء النور.
ويلاه إن الصقيع يدور بي ويدي تحترق من لفحات الجليد، فأنا مشتعل بسعار لا يطفئ أواره غير عطشكم، لقد سادت الظلمة فلماذا قضي عليّ أن أكون نوراً منفرداً متعطشاً إلى الظلام؟
لقد سادت الظلمة فتدفقت كالجداول أشواقي وهي تريد أن تهتف بما تضمر.
لقد أرخى الليل سدوله، فتعالى خرير المياه المتدفقة، ولنفسي أيضاً ينبوعها المتفجر.
لقد أرخى الليل سدوله فتعالت الأناشيد من أفواه جميع المغرمين، وما روحي إلا نشيد من هذه الأناشيد.
هكذا تكلم زارا. . .
ساعة في هياكل الشعراء
طاغور
شعره، تأمله وتساؤله، مناجاته، الشرق والغرب
للأستاذ يوسف البعيني
كأني بالقارئ وقد أثاره حب الاستطلاع فقال يطالبني بشوق واهتمام قائلاً: أراك قد اخترت - طاغور - موضوعاً لبحثك وحديثك دون سواه من الشعراء اللامعين على كثرتهم وتعدد نواحي الاستقراء في شؤونهم وشجونهم. وأنا حتى أجيبك إلى طلبك وأبين لك الغاية من اختياره لحديثي هذا، أريدك أن تعلم أن طاغور هو شاعر عبقري متصون ذو خيال رقيق تسربل بالرشاقة والفخامة والتوت عنه عواتير العقم والخشونة. وهذه مزية سامية لم يتصف بها شاعر من شعراء هذا العصر
على أن إذاعة البحث في شاعرية طاغور تتطلب أمراً هاماً وهو أن نلقي نظرة بعيدة على شخصيته لنعلم ما إذا كان مثالاً صادقاً للعصر الذي يعيش فيه، وما إذا كان مرآة صافية لأخلاق البيئة التي ترعرع فيها. أم هو شاعر محلي محصور الثقافة والإحساس

لا ينقل لقرائه سوى أصداء أوهامه، ولا يرسم شعره إلا المواضيع التافهة والصور الباهتة فحسب
أما أنا فأرى أنه يمثل عصره تمام التمثيل لأنه يعيش في عهد التجديد ونهوضه وبعثه، وفي عهد يقظة الروح بالشرق الأقصى وإذاً فأحلامه التي تلمع في شعره هي أحلام الجيل الذي يعاصره، ذاك الجيل الذي روعته الثورات والحروب، وأبهضته مخاوف الألم والموت
شعره
قرأت لطاغور كثيراً من شعره، وكنت قبل أن أقرأ ذلك الشعر أعتقد أن الشاعر الحقيقي هو من يحسن حبك القوافي وسبك الألفاظ وتحكيم الأوزان. ولكن بعد أن قرأته وتذوقت أقواله وتصوراته أصبحت أعلم أن الشاعر هو ذلك المفن المتقد الإحساس الذي يحرق نفسه بخوراً فوق محاريب البشرية لينير تلك الأرواح العامهة في دياجي آلامها وبلاياها
وتأكدت أن الشاعر هو من يرهف أذنيه لاستماع خشخشة العبودية تجرها الأقدام الدامية في سيرها إلى أعماق السجون، ونحو أعواد المشانق!
. . .هو من تحزنه الزهرة الذابلة، وإنه يشاهد في ذبولها صفحة حياته البالية
. . .هو من يخيفه قصف الرعود لأنه يعيد إلى ذهنه ذكرى الحروب والثورات
بلى. . . في شعر طاغور شاهدت كيف يحرق الألم نفس الشاعر، وسمعت زفرات قلب متفطر ينسحق في قبضة الأسى والحنين، ويتبعثر بين غمائم التذكار والكآبة!
وطاغور شاعر متفنن ذو رقة لذيذة وخيال طافح بالعذوبة، وأنت إذا قرأت قطعة من شعره فكأنك تقرأ روحاً تذوب في مرجل آلامها وحسراتها، أو تشرب كأساً من الدموع المريرة
إذا حدثك عن حب مستتر في كهوف الماضي، فأنت ترى ذلك الحب بعينيك. وإذا رسم لك ما ينهش قلبه من أسى وحنين فتكاد تسمع ذلك بأذنيك فتحترق شفقة عليه!
يداعب ميولك ومشاربك فتحس به قد دخل عليك واحتل ذاتيتك، فتتعشقه راكضاً وراء الفراشة في الحقل، أو صاعداً إلى النجوم على سلم منسوج من ضوء القمر وهو خيالي. . . ولكن ياله من خيالي رائع يحاول أن يملأ كأسك من عصير روحه الساحرة. لكنه يعترف لك بأن هذا الذي يرشحه في مراشف سطوره وتعابيره ليس سوى أنداء هابية سكبتها الطبيعة في روعه الخافق ليفرغها في محاجر الإنسانية التي تريد التملص من قيودها وأغلالها
فمن هذا يستدل القارئ على بعد غور شاعريته، وصفاء مصدره، وصدق عقيدته، ورحابة آفاق تأملاته وأحلامه!
تأمله وتساؤله
لم يعرف الأدب العالمي في أوائل هذا الجيل شاعراً كثير التأمل والتساؤل إلا - بيير لوتي - الأديب الفرنسي المشهور، هذا الشاعر الحساس أخرج للناس طائفة من القصائد والقصص هي غاية في الاستغراق والتحالم بينها كتاب (موت أنس الوجود) الذي رسم فيه ليالي مصر المقمرة البيضاء رسماً يغمر القلوب بموجة من السحر والجمال، وينبه في سراديبها المظلمة أشباح الشجن والحنين، ويعلم الناس أن بيير لوتي لم يفعل ذلك إلا ونفسه مستبشرة بنور الفن، ثملة بلذة المذهب الوجداني وفتونه. ولكن طاغور، أي حافز، بل أي داع دفع به إلى اجتناء تلك الزهرة اليانعة وهو رجل يعيش في معترك بعيد من الفن والنضج والألمعية. إذا لم يكن ذلك دليلاً واضحاً على أن الروح العظيمة، الروح المستنيرة
بنور الآلهة، لا يقعدها المحيط الصاخب عن تغريدها، ولا تؤثر بها عوامل الحياة ولكي يقف القارئ على صحة ما أقول، أورد له مثالاً من تأمله وتساؤله. قال في قصيدة جزلة مؤثرة تحت عنوان (المنشأ) أنالته مع غيرها جائزة (نوبل) في عام 1914:
سأل الطفل أمه ذات مرة: أين كنت يا أماه، وفي أي مكان كنت تحتفظين بي؟)
فارتعشت عواطف الأم حنواً وضمت طفلها إلى صدرها وأجابت:
كنت يا حبيبي مستتراً في أعماق فؤادي، بل كنت ماثلاً بين ألاعيب طفولتي. . فعندما كنت أنهض في الصباح لأجبل مثال الله العجيب من الطين لم أكن أجبل سواك

كنت يا بني في هيكل بيتنا المقدس سراً أعبده فأعبدك فيه. وهكذا نشأت في حياتي وحياة أمي من قبلي. فبآمالي ورغائبي كنت أغذيك، وبحرارة الروح الكامنة فيّ كنت أهيئك للحياة!

وبينما كنت لا أزال عذراء، كانت روحي تفتح كمائم زهرتك المزممة لتلفك بعبير الشوق والحنين. يوم ذاك كنت يا بني نوراً ضئيلاً يلمع في أحشائي كسنا الشمس عندما تنحسر عنه سجوف الظلام.

فيا حبيب السماء ووليد الصباح المشرق في وهاد قلبي: إني كلما تأملتك يغمرني فيض من العاطفة فأحس أنك لي وحدي، وأننا متحدان دائماً بالشعور والعاطفة

ولكن ليت شعري، أي القوى هي تلك التي جعلتني أحتفظ بك أيها الكنز الثمين؟

وفيما هو مصغ إليها، دب الموت في فؤاد الطفل فقال متمتماً:

- ها قد دنا الموت يا أماه ليذهب بي حيث يذهب الموتى أجمعون. . ولكن عندما يأتي المساء وتمدين يدك لكي تطبعي على شفتي قبلة ناعمة يمازجها العطف والحنان سيهتف بك هاتف من الظلام مغمغماً بأن لا تجديني ههنا!

ولكن ثقي يا أماه بأني سأتحول نسيماً يقبل ثغرك كل حين، أو نوراً يضيء مأواك في الليالي الداجية المفعمة بعويل العواصف وأنين الرياح

وفي الليل، في ذكرياتك المحرقة عندما تناجين طفلك الحبيب، سأقول لك نامي يا أماه ولا تذكريني. فإني عندما يمسي البدر هلالاً أسيل مع الشعاع لأنام في حضنك الأمين!

وسأغدو حلماً يدخل من فتحات عينيك لأنزع من قلبك حزنه القاتل الساحق. ولكن إذا أفقت

مذعورة ترين حولك فراشة بيضاء تؤنسك بطنين أجنحتها الصغيرة

ومتى أقبل عيد (جايا) وترنحت عذارى الهيكل مخففات بأنغامهن العذبة وحشة حياتك، سأهربق نفسي في تلك الأنغام حتى إذا لامست قلبك محت عنه كل الأحزان

وإذا جاءتك خالتي حاملة إليّ هدية جميلة وسألتك أين طفلك يا أختاه فإني أذوب شوقاً إليه. . . فأجيبي أختك يا أماه بأني توسدت عينيك، وامتهدت روحك التي لا يستطيع أن يلحدها الموت)

أجل. . . إن في هذه القطعة الفاتنة التي يسأل فيها - رابندرانات طاغور - أمه الطبيعة عن كيفية مجيئه إلى هذا العالم

نعم إن فيها عصارة من جيد الشعر لا تأتي بمثلها إلا نفس انحدرت إلى قلب الحياة حيث التقطت كل ما فيها من ألم وبؤس، وفرح وسعادة، وابتسامات ودموع. . .

ولعمري إن نفساً تنتهي بك إلى هذا الحد العميق لهي نفس جبارة تجابه الدهر بشعاعها الوضاح، فتملأ الأيام هيبة وجمالاً، والليالي سحراً ونوراً!!

مناجاته

وطاغور شاعر عالمي قبل كل شئ. فإن آراءه أصوات مرتلة تلعب بالقلوب والمشاعر، وتحمل الإحساس على أجنحة من الخيال، فترود به معالم الخلود وتغذيه بمواد الجمال الأزلي، وتطبعه بطابع الجمال الإلهي

ومما يمتاز به طاغور هو أنه شاعر متصوف كثير التأمل، عميق المناجاة. وإن الإنسان لبحار عندما يقرأ قطعة له فيرى المعاني موشحة بغلاف رقيق من الفلسفة الوجدانية.

وقد نجح تصوفه أخيراً إلى حد أصبح يحب فيه أن يرى الله في كل مكان تحتضنه عيناه، فهو يود أن يشاهده في الوردة الخضراء، وفي طلعة الفجر، وفي مغرب الشمس، وفي سكون الليل، وفي سر الموت والحياة

نجوى

(ألا شرفني يا إلهي، وجرد حياتي من تلك المساوئ المعيبة التي تسود دائماً ابن الطينة. ضعها تحت رعايتك، وأخبئها بين ظلال الموت والنور، أو في مكمن الليل بين نجومك. ثم أطلقها في الصباح بين الزهور لتشدو كالبلابل بتسابيحك وترانيمك!!)

حنين

إيه أيها القدر العاتي! لقد حجبها القبر عني فما اكتأبت. ولكن أبت إرادتك إلا أن تبقى ساقية حبها سارية في أودية قلبي لا ينضب لها معين، ولا ينقطع لها خرير

ولكن الزمن قاس جداً، فهو لا يحنو على النفوس المعذبة. وإنه ليهزأ من ألم القلوب كلما لج بها تذكار الماضي الدفين

آه!! إني أذكر. . . ولكن الحياة كلها نسيان. إنها سريعة الخطى نحو الموت. . . إنها تختفي ولكنها تترك للخيال مرارة الذكرى وتباريح الشوق والحنين

وفي اعتقادي أن هذه المقاطع هي من أروع المناجاة. وأنت إذا قرأت باقي مناجاته ترى رجلاً حائراً مرتعشاً قد شمله ظلام ليل الأسى. فهو يبكي، وهو يرجو (القدر) أن يرحمه في دجى الليل البهيم بخلود ذكرياته الماضية. ويالها من ذكريات رقيقة عارية من أثواب الادعاء والكبرياء، حافلة بمعاني اللوعة والحزن هي ذكريات الشاعر الحنون والحقيقة أنك لا تكاد تقرأ هذه المناجاة حتى تجري الدموع من عينيك ويغمرك سكون رهيب طافح بالجبن والكآبة، وحتى يأخذك شئ من اليأس والسخط على الحياة والاستمساك بها!!

الشرق والغرب في نظر طاغور

ولطاغور رسالة قيمة يبشر فيها بانتشار السلام والمحبة بين الناس على اختلاف مشاربهم ومنازعهم وميولهم. وهذا لعمري عمل جليل يدل على عظمة هذا الشاعر الجبار. فهو رجل عالمي جامع، وبخلاف (كتابنا وشعرائنا) الذين يكتبون للدين والأحزاب والجنسية أو لفئة جاهلة متعصبة من الناس. . . ومن المضحك أن هؤلاء الأدباء المزيفين الذين يقلقون الشرق العربي بكتاباتهم وأشعارهم ينعون على البشرية عدم اكتراثها بهم. . .

لقد قرأت كثيراً من مؤلفاته. ففي كتابه - سيد هانا - يتغنى بالمحبة ويدعو الناس إلى اعتناقها. ولطالما نادى بتوثيق عرى الحب ليعيش العالم في سعادة وهناء. ومن قوله:

(إذا كانت الأمهات يلدن والقبور تبتلع، فلماذا الحروب والثورات التي تدمي فؤاد الإنسانية

وتقلق روعها؛ ولماذا لا يعيش الإنسان تلك المدة القصيرة في حب وسلام؟)

فمن هذه الجملة الوجيزة يستخلص القارئ صورة صحيحة لنفسية طاغور

وأما الشرق والغرب فهما في نظره أخوان توأمان يجب عليهما التقيد بقانون العدل والمساواة. وأنه ليس حقاً أن يظل الشرق عبداً للغرب كما هي الحال اليوم، فيسومه جميع أنواع الذل والعبودية

في عام 1920 طاف طاغور في أنحاء العالم، ثم عرج أخيراً على - نيويورك - المدينة المنتعلة أجنحة الروح، والهازئة أبراجها الحديدية الصماء بأحلام الشرق وعوائده القديمة. . . فألقى هناك محاضرة فخمة عن مدينة الشرق وطابعها الفلسفي جاء فيها ما يأتي:

(الغرب يكون للشرق عوامل الحياة الراحلة، والشرق يعطي الغرب تعاليم الروح الخالدة. فيالله انظر أيها الغرب وتأمل. ألا يستطيع الشرق المستعبد أن يقدم لك غير أرضه ورقاب أبنائه؟

فإلى متى ينظر الغرب إلى الشرق نظرة السخرية والاحتقار، ومتى يستيقظ الغرب من نشوته العمياء؟

لا تصدق يا غرب عنا كل ما تسمعه من دعاة الاستعمار، فإن هؤلاء يصورون لك الشرق صورة متناقضة ينهش حقائقها التعاظل الممقوت. بل تعال أنت أيها الغرب الحر المتسامي، غرب أجناد الحق وأبناء الخلود، وادرس حياة الشرق الجميل. . . تعال بروح الحرية التي بنيت عليها حضارتك الأولى، فترى حينئذ كما نرى نحن أن الشرق الضعيف أهل للحرية، وأن في أعماق أخلاقه ومبادئه وميوله حكمة خالدة أسمى من الحياة المادية)

وكأني هنا - بطاغور - وقد رأى بعينيه جشع الغرب وتكالبه على امتلاك قطعة من الأرض، وشاهد انتحار الفضيلة فيه، واستيلاء الحياة المادية على عقول أبنائه، وتقلص الشعور من النفوس، وتلاشي حرارة الشعر، وتمشي الأطماع والأكاذيب في سننه وقوانينه فهو يقول (إن في أعماق روح الشرق وميوله جمالاً أسمى من الحياة المادية التي يعيشها الغرب) وإن ذاك الذي تضمه روح الشرق ومبادئه ليس سوى الوداعة المستحكمة من قلوب أبنائه، والطهارة الناشرة أجنحتها فوق قصوره وأكواخه،

والنجوم التي تنير حقوله ووهاده. . . فتبدو الحياة في ذلك الشرق الشعري الخالب كأنها حلم من الأحلام الرائعة.
وفي الحقيقة أن طبيعة الشرق لهي عرس من أعراس الحياة. فعلى الشواطئ تمرح عذارى الحب والجمال، وفي الكهوف تمرح تخيلات الدهور والأجيال
إن في روح هذا الشاعر الهندي المتصوف الذي نشأ في ظلال الشرائع الشرقية القديمة مالئاً قلبه من عصير (النرفانا) وكتب أجداده الخالدة خيالاً يقظاً سوف يصغي الدهر إلى همسه المسكر مستمهلاً في فراره بين أكوام الموتى وساحات الحروب. . .
ولكن إنسانية اليوم لن تصغي إلى حفيف أجنحة أطيافه، ولن تلمح ما في حكمته من نور، ولن تجرع ما في كآبته الصاحية من كوثر حي، لأنها إنسانية ثملة بأبخرة الدماء، وعبق البارود، وهزيم المدافع، وقلقلة القيود
ستبقى ثملة. . . وسوف لا تستفيق من نزواتها وخيلائها حتى تقتلها النزوات وتقهرها الخيلاء فتبصر عندئذ نجمة الحق لامعة في أفقها المعلى حيث تلتقي الأزلية والأبدية، وحيث يتعانق فجر الحياة ومساؤها.
(البرازيل)
يوسف البعيني
رسالة العلم
قصة المكروب
كيف كشفه رجاله
ترجمة الدكتور احمد زكي بك مدير مصلحة الكيمياء
ظل يغدو ويروح بين عماله في هذا البيت فلا يستقر به مكان، وظل يشرف فيهم على تركيب مركبات جديدة رجاء أن تكون أكثر إبداعاً من المركب الذي كان، ودار في كل حجرة وسار إلى كل ركن فلم يستطع أحد حتى قدريت أن يتتبع أثره. وأملى كاتبته الآنسة مرثا مركرت مئات من الكتب اتسعت لكثير من حماسته وحرارته، وقرأ آلافاً من الكتب جاءته من كل ركن من أركان الأرض، واحتفظ بتقرير دقيق عن كل حالة بل عن كل جرعة من الجرعات الخمس والستين ألفاً من السلفرسان التي حقنها الحاقنون في بقاع الدنيا في عام 1910. وكان احتفاظه بها على مثال هذا النظام الغريب الذي تأصل في هذا الرجل: كتبها جميعاً على صحيفة ورق كبيرة دبسها في باطن باب القمطر الذي كان في مكتبه، وغطت الصحيفة باطن هذا الباب من أعلاه إلى أسفله فكان كلما طلب شيئاً في أسفل الصحيفة تقاصر وتقرفص، وكلما طلب شيئاً في أعلاها تطاول على أصابع رجليه وتمدد، وكان في كلتا الحالتين يركز بصره تركيزاً. ويعمله إعمالاً ليقرأ سطورها وهي خطوط دقيقة مهملة معماة.
وتزايدت التقارير فجاءت بأنباء عن حوادث للشفاء غريبة بديعة حبيبة تلذ قراءتها، ولكنها تضمنت كذلك أنباء مسيئة متجهمة تتحدث عن فواق وقيء ثم تصلب في الأرجل وتشنج في الجسم يعقبه الموت. وجاءت الأنباء الفينة بعد الفينة بموت مرضى كان يجب ألا يموتوا، وجاء موتهم عقب حقنهم بالدواء.
ألا ما أشد ما اشتغل إرليش ليفسر هذه الأحداث! ألا ما أشد ما قسى على نفسه ونحل من جسمه ليتجنب هذه الأرزاء، فما كان إرليش بالرجل الجامد الذي لا تهزه مصائب الخلق ولا تؤلمه آلام الناس، فأجرى التجارب العديدة، وكتب الكتب الكثيرة يستفسر عن تلك الرزايا كيف وقعت، وعن المحاقن كيف ضربت، وكان يجلس في الأمساء يلعب الورق
وحده، فيغلبه الفكر في تلك الحوادث، فيأخذ يكتب على هوامش الورقات ما يعن له من تفسيرات، أو هو يكتبها على ظاهر مجلات قصصية تحكي عن فظائع وجرائم بوليسية كان يفزع دائماً إلى قراءتها ظناً منه أن فيها دون سواها راحة البال المكدود ورياضة النفس المريضة، ولكنه ما استروح قط ولا استراض، وكيف يفعل وهذه البلايا تتقفى أثره فتذهب بالذي كسبه من مجد عظيم.
وزادت أسارير جبينه تغضناً، وازدادت تعمقاً، واسود ما تحت عينيه الزرقاوين، وبقيت فيهما بقية ما فتئت ترقص من تلك الفكاهة الهادئة المستحية.
فهذا المركب رقم 606 نجى آلافاً من الموت، ونجى آلافاً من الجنون، وخلص آلافاً آخرين مما هو شر من الموت: من قطيعة المجتمع إياهم لما ضرب المكروب في

أجسامهم ضرباً، وأكل منها أكلاً، حتى صارت مناظرهم في العين قذى وفي الأنفس تهوّعاً. ولكنه بعد تنجيته المرضى بهذه الآلاف أخذ يقتل منهم بالعشرات، وأخذ إرليش ينهك جسمه الناحل أو ما تبقى له من جسم، حتى أصبح خيالاً، وذلك ليفسر أحجية عز على الحكماء تفسيرها. ولقد مضى الآن على آخر سيجارة دخنها إرليش عشر سنوات، والأحجية ما زالت أحجية. فترى من هذا أن النجاح العظيم الذي كسبه إرليش كان أكبر حجة على بطلان نظرياته. قال: (إن المركب رقم 606 يتحد اتحاداً كيميائياً بالمكروب فيقتله، وهو لا يتحد مع الجسم فهو لا يناله بسوء). هذه نظرية من نظرياته فأين هي مما جرى؟

إن المركب رقم 606 مركب ذو كيمياء معروفة، ولكن تفاعله مع الجسم تفاعل خاف مجهول، وأخفى منه كيمياء هذا الجسم الإنساني العجيب، هذه المكنة الحية الغريبة، هذا الطلّسم الذي لا نفهم إلى اليوم منه وأسفاه كثيراً. ولقد أخطأ إرليش ونال عاقبة خطأه، لأنه لم يدرك إلا بعد فوات الأوان أن رصاصته المسحورة يطلقها آلاف المرات فتصيب غايتها من المكروب آلاف المرات، ولكنها قد تطيش أحياناً فتصيب غير غايتها فتقتل العدو والصديق. على إنه لا تثريب اليوم عليه ولا ملامة، فإن يكن أردى العشرات فقد رد الصحة والسلامة على الألوف. وصادة المكروب العظام ماذا كانوا سوى سادة مقامرين، إذن فلنذكر إرليش بالحمد، ولنذكره بشجاعته وجرأته ومخاطرته، ولنذكره بما دفع من البؤس عن ألوف كثيرين

ولنذكر بأنه أنار سبيلاً جديدة سيسلكها صادة المكروب لا محالة من بعده يبحثون فيها مثله عن رصاص جديد يطلقونه على مكروب جديد

وليس هذا بالأمل البعيد أو الأمنية الخائبة. فقد بدت فعلاً تباشير ما نرجوه من بعد إرليش. فإن قوماً بحاثاً من غير ذوي النباهة وذائعي الصيت قاموا في مصانع الأصباغ بمدينة إلبرفلد يترسمون خطى الأستاذ الأكبر، وبعضهم من أعوانه الأقدمين، فكدوا وكدحوا كما كانوا في خدمته يكدون ويكدحون، حتى وقعوا على عقار جديد غريب أبدعوه إبداعاً. وقد احتفظوا بسر تركيبه، وأسموه (باير رقم 205) 205. وهو مسحوق عادي المظهر لا يهولك منه شئ، ولكنه يشفي من مرض النوم الذي ينتهي دائماً بالموت في بلاد روديسيا وبلاد نياسا بأفريقيا. وإن كنت لا تزال تذكر فهو الداء الذي كافحه الرجل الجلد دافيد بروس آخر كفاح في حياته، وارتد عنه مغلوباً. فهذا العقار يفعل في خلايا الجسم وسوائله أفعالاً لو سمعتها لحسبتها خرفاً أو خيالاً. ولكن أحسن ما في الحسن منها أنه يقتل المكروب قتلاً، وأنه يقتله قتلاً دقيقاً جميلاً كاملاً شاملاً لو سمع به إرليش لتحركت أشلاؤه في قبره سروراً واغتباطاً. فإن كان في المكروب ما لا يقتله، فهو على الأقل يحُد من نشاطه ويقلم من أظفاره فيجعله أنيساً مأموناً. على أن حكاية هذا العقار لم تختتم بعد فلندع للأيام ختامها

وإني لواثق وثوقي بطلوع الغد بأن المستقبل كفيل بخلق صادة للمكروب غير من ذكرنا يطلعون على الناس برصاصات غير ما وصفنا، ستكون أكثر سلاماً على الإنسان وأشد حرباً على المكروب وأفتك بكل جرثوم خبيث شديد المراس. حكينا حكايته في هذه القصة فلنذكر إرليش بأنه فاتح هذا الباب وأول سالك لهذه الطريق

وقبل أن أختم هذه القصة أجد في صدري سراً لابد من فضحه قبل الختام: ذلك أني أحب صادة المكروب هؤلاء، من لوفن هوك إلى إرليش، ليس على الأخص للكشوفات التي كشفوا، ولا للنعم الجليلة التي بها على البشرية أنعموا، ولكني أحبهم على الأكثر لأنهم رجال أي رجال، أحبهم لرجولة جميلة فيهم سأظل أذكرها لكل فحل منهم ما استطاعت ذاكرتي وعياً

ولهذه الرجولة الجميلة أحببت إرليش. كان إرليش رجلاً مِغراماً ممراحاً يحمل أوسمته معه

في صندوق أخلاطاً أملاطاً لا يدري في أي المحافل والمآدب بأيها يزدان. وكان رجلاً قليل التؤدة فزاعاً يخطر له الخاطر فيفزع فجاءة إليه وينسى ما هو فيه. جاءه رجل من إخوانه بحاث المكروب ليخرج به العشية على شراب، وكان إرليش في بيته في حجرة نومه يلبس ويتهيأ للخروج، فما علم بمقدمه حتى خرج في قميصه يحييه وكان رجلاً صموتاً معتكفاً. قال له بعض عباده يشير إلى المركب رقم 606: (إنه عمل رائع من خلق عقل جبار. إنه كشف من كشوفات العلم الرائعة). فقال له إرليش

معيداً: (عمل رائع من خلق عقل جبار، وكشف رائع من كشوفات العلم!؟ لا يا زميلي العزيز، بل هي فلتة واحدة من فلتات الحظ جاءتني بعد سنوات لم أعرف فيها إلا إلى الخيبة سبيلاً)

احمد زكي

رسالة الفن

مكيلانجلو

العبقرية الملهمة

للدكتور احمد موسى

- 2 -

وعاد من بولونا إلى فلورنسا في صيف سنة 1495 بعد أن نحت فيها بعض القطع التي نذكر أهمها (الملاك الراكع) و (القديس بطرونيوس). أما في فلورنسا فقد عمل تمثال (يوحنا الصبي)، وهو التمثال الذي أتمه سنة 1495 كما سبق القول وهو محفوظ ببرلين

وله أيضاً تمثال مشكوك في صحة انتسابه إليه يسمى (أودونيس الميت) لا يزال محفوظاً بمتحف ناسيونال في فلورنسا

وسافر في يونيو سنة 1496 إلى روما لأول مرة، وأقام فيها إلى يونيو سنة 1501، وهناك أنتج أبرز عمل في مرحلة حياته الأولى بناء على طلب أحد الفرنسيين سنة 1499 لعمل مجموعة منظرية تمثل المادونا حاملة جثة المسيح على فخذيها وهي موجودة بكنيسة بطرس بروما. والناظر إليها يرى إشعاع المثل الأعلى ممثلاً خير تمثيل في كل أجزائها، فضلاً عن رجوعها إلى الفن الإغريقي من الناحية المجموعية، إلى جانب حداثتها في قوة الإخراج، وحسن التكوين، والألم والجزع الذي ارتسم على وجه المادونا بالغ حد الإعجاز لغيره

وله أيضاً قطعة أسماها باخوس (إله الخمر) (ش 1) عملها تنفيذاً لطلب السنيور جالي أحد مشاهير النجار في عصره، وبالنظر إليها يتضح الإبداع في التكوين الجسماني الرقيق، كما تظهر لنا الكيفية التي أخرج بها الوجه والشعر المحاط بعناقيد العنب ظهوراً جلياً وبهذا يتم الانسجام المعنوي للتمثال، انظر إلى اليد اليمنى وكيف حملت وعاء الخمر، وتأمل إلى أي حد بلغت رقة إله الخمر في طريقة حمله هذا الوعاء، ثم شاهد الولد الصغير الجالس إلى

يمين باخوس حاملاً عناقيد أخرى غطاها بلباسه في شئ كثير من الحرص أشبه بمن يطوق حاجة عزيزة عليه. وقد كون ميكيلانجلو الساق على هيئة ساق الخيل إكمالاً للتعبير عن قصته الإغريقية

وله غير ذلك تمثال كيوبيدو (أو أبولو) محفوظ بمتحف لنسنجتون بلندن

ومن يونيو سنة 1501 إلى مارس سنة 1505 أقام في فلورنسا واتصل فيها بليوناردو دافينشي، بالرغم من اختلاف مشارب كل منهما؛ إلا أنه تأثر به إلى حد بعيد. وله في هذه الفترة تمثال (داود) (ش 2) وهو منحوت من قطعة واحدة من الرخام ومحفوظ بأكاديمية فلورنسا

ولعلك تلمس الفارق الشديد بين تمثال باخوس وبين هذا التمثال من الناحية المجموعية والتكوينية والتفصيلية، وبذلك تستطيع أن تقرر أن هذا العبقري الملهم قد أدى رسالته بأقصى ما يمكن الوصول إليه من النجاح.

وتمثاله (صبي الراعي) لا يقل عن هذين التمثالين روعة، وهو لصبي طويل حسن التكوين إلى أبعد حد، ارتسمت على وجهه مسحة الصلابة والأنفة الريفية. وغير ذلك خمسة تماثيل صغيرة عملها لتحلية هيكل كنيسة سينا والمادونا مع يسوع الطفل بكنيسة لييفراون في بروجه، وهي ويسوع بالحجم الطبيعي تقريباً، وقد جعل ملامح المادونا على غاية البهاء والتناسب

هذا وله منحوتات نصف بارزة مستديرة الشكل للمادونا مع الطفل القارئ ويوحنا، وهي محفوظة بفلورنسا وبأكاديمية لندن

إلى هنا تكون مرحلة إنتاجه في شبابه قد انتهت. ويستقبل مرحلة الرجولة من سنة 1505 عندما استدعاه البابا يوليوس الثاني إلى روما ليشرف على تشييد ضريحه. وقد صادفته عقبات جمة حالت دون تنفيذ هذا المشروع الفني، وقاسى الأمرين. أهمل

التصميم الذي وضعه لهذا الضريح بعد المجهود الهائل الذي استنفده. ولم ينفذ إلا بعد انقضاء أربعين سنة بعد كثير من التعديلات والبتر. وأول خطوة لهذه المأساة بدأت عندما أهمل البابا نفسه تصميم ميكيلانجلو مدة سنة كاملة، ولم يطق العبقري هذا التسويف فرحل إلى فلورنسا، لأنه لم يكن قد حضر إلى روما إلا بناء على استدعاء البابا.

وشاءت المصادفة أنه كان يوماً في بولونا، وإذا به يواجه البابا ويصافحه، فطلب إليه ترميم تمثاله البرنزي في هذه المدينة؛ وهو تمثال قيم كان قد أصيب بالعطب من جراء التخريب الذي قام به البولونيون فيها. وبعد انتهائه من العمل عاد إلى روما في ربيع 1508، وهناك كلفه البابا تعديل مصورات السقف ذي الستة عشر حقلاً بالفاتيكان، وفيه انهمك عاملاً أربع سنوات من 1508 إلى 1512.

وبعد موت يولويس بدأ ميكيلانجلو في تنفيذ مشروع الضريح من سنة 1513 إلى 1516، وما قارب الانتهاء حتى فاجأه ليو العاشر خليفة يوليوس بوقف العمل.

وانقضت الأيام وتعاقبت الشهور، فاستأنف ميكيلانجلو العمل في الضريح الشامل لبناء أرضي مربع الشكل ينتهي أحد أضلاعه إلى حائط مجاور؛ كله من الرخام وله ستة نوافذ مستعارة كل منها أشبه بقبلة أقام فيها تمثالاً لإحدى آلهات النصر وجعل السقف محمولاً على رؤوس الأسرى كما هو واضح بالنظر إلى الصورة. هذا عدا التماثيل الحاملة للتابوت، والمحيطة به، منها ستة جالسة وأربعة واقفة، وعدا تمثال البابا نفسه راكعاً أعلى التابوت.

وللبناء الأرضي لهذا الضريح تمثالان لعبدين (محفوظان باللوفر) وفيهما تمثل ألم العبودية تمثيلاً رائعاً، كما أن له تماثيل أخرى لمساجين وهي أيضاً عظيمة.

ولابد لنا من ذكر تمثاله (النبي موسى) وهو الجالس في الوسط (ش 3) وهو تمثال معروف في العالم كله بعظمة إخراجه وقوة إنشائه، ولذلك يعتبر دون حاجة إلى تدليل أعظم تمثال مفرد في مدرسة النحت الحديث. انظر إليه تره جالساً وقد ارتسم على وجهه ألم التفكير في مصير بني إسرائيل، وظهرت بوادر الغيظ على وجه النبي، مما دفع به إلى وضع يده اليسرى على بطنه، وأسند اليمنى على كتابه، مداعباً شعر لحيته الطويل بأصابعه، ألا ترى أن ميكيلانجلو بهذا النحو قد وفق إلى إخراج آية من آيات الفن الخالدة؟ وهل تظن أنه مهما أوتي فنان من سعة الخيال وقوة الإخراج، يستطيع أن يعبر لك عن نبي طائفة من الناس دون وطن معين، بأحسن مما أخرجه ميكيلانجلو؟ تأمل الكيفية التي أخرج بها التمثال العظيم الذي يعد في نظر الدارس معجزة فنية لا يستطيع إنسان أن يأتي بمثلها! ثم انظر إلى اللحية وإلى طول الشعر والبعثرة التي أصابته من مداعبته له بأصابع يمينه كما قلت.

هذا كله لا ينسينا التنويه بعظمة الإخراج الكلي للضريح، الشامل لنقوش على غاية الدقة والانسجام المعاصر

ترك روما إلى فلورنسا في صيف سنة 1517 للشروع في عمل الواجهة البنائية (لسان لورنسو) التي قرر أن يكون لها ثمانية أعمدة واثنا عشر تمثالاً كلها من الرخام، وستة تماثيل نحاسية، وتسعة عشر منظراً نصف بارز، وصادفته صعاب لا تقل عن سابقتها، إلا أن نظرته إليها لم تكن بالحدة الأولى.

ظل مقيماً في فلورنسا، وهناك أتم في سنة 1521 إخراج التمثال الرخامي للمسيح، والذي كان قد وضع منهج العمل فيه سنة 1514 ولعل هذا التمثال أعظم قطعة تمثل فيها النبل والترفع في الإخراج

وله أيضاً في هذه الفترة تمثال مشهور لأبولو، تركه دون إكمال وهو لا يزال محفوظاً بفلورنسا.

أما ثاني إنتاج رائع في حياته، فهو وضعه لتصميم مقابر المديتشي وتنفيذه لما جاء فيها من فن الإعجاز، وهو ما سنتناوله بالدرس في المقام القادم

احمد موسى

البريد الأدبي

مجلس التنظيم وعيد القاهرة الألفي

يظهر أن الدعوة التي وجهت منذ حين على صفحات الرسالة إلى السلطات المختصة للعمل على إحياء عيد القاهرة الألفي بما يليق بهذه المناسبة التاريخية من الاهتمام

والتكريم قد لقيت صدى ضعيفاً في بعض الدوائر، فقد نشرت الصحف أخيراً أن مجلس تنظيم القاهرة قد رأى لمناسبة حلول العيد الألفي للقاهرة المعزية أن يطلق اسم القائد جوهر الصقلي منشئ العاصمة الفاطمية (القاهرة) على قسم من شارع السكة الجديدة، وأن يطلق اسم الخليفة المعز لدين الله الذي أمر قائده جوهر بإنشاء المدينة، وإليه تنسب (القاهرة المعزية) على شارع المغربلين. ومجلس التنظيم يرى بذلك أن يكرم ذكرى الرجلين العظيمين اللذين يرجع إليهما قيام هذه العاصمة الألفية الجليلة. بيد أننا نلاحظ أن اختيار هذين الشارعين لإطلاق الاسمين عليهما ليس اختياراً موفقاً، بل هو ينم عن التقتير والضن؛ إذ بينما نرى أسماء تاريخية أقل أهمية ورنيناً وأقل جدارة واستحقاقاً تطلق على شوارع عظيمة من شوارع العاصمة، نرى مجلس التنظيم يكتفي بهذين الشارعين تكريماً لمنشئ القاهرة. وإذا كان مجلس التنظيم يريد بهذا الاختيار أن يحافظ على المناسبات التاريخية، فيحسن به أن يختار شارع الأزهر الجديد ليطلق عليه اسم القائد جوهر، فجوهر هو أيضاً مؤسس الجامع الأزهر، وفي وسعه أن يطلق اسم المعز على شارع الموسكي ثم امتداده من السكة الجديدة حتى الدراسة، أو على الشارع الممتد من باب الفتوح حتى السكة الجديدة، ثم امتداده حتى باب زويلة، فهذان الشارعان هما في الواقع قطر المدينة الفاطمية القديمة. أما إذا لم يكن للخطط التاريخية دخل في هذا التكريم، وإذا كان التكريم مقصوداً لذاته فليطلق اسمي جوهر والمعز إذن على شارعين من أعظم شوارع القاهرة، لا على شارعين من أحقر شوارعها

النيل في مصر لأميل لودفيج

ظهر أخيراً الجزء الثاني من كتاب النيل لأميل لودفيج وعنوانه (النيل في مصر) أما الجزء الأول وعنوانه (النيل من المنبع إلى مصر) فقد صدر منذ بضعة أشهر حسبما ذكرنا في هذا المكان من الرسالة، وهو يتناول وصف النهر العظيم من منابعه حتى حدود مصر الجنوبية، ووصف الحيوانات والجماعات التي تسكن هذه المناطق. أما الجزء الثاني فقد خصص للقسم الممتد داخل مصر، وفيه وصف ضاف لهذا القسم ولمصر التي عاشت من مائه منذ القرون الغابرة حتى الوقت الحاضر. ومن رأي الكاتب أن النيل كانت له دائماً في هذا القسم العامر من مجراه مؤثراته العميقة على الشعوب التي سكنت واديه، وكان لهذه الشعوب بلا ريب نفوذها وإرادتها في تكييف مجرى النهر والانتفاع بمائه. ويتناول لودفيج وصف هذه المرحلة التي يبلغ طولها ستمائة ميل، كما يتناول وصف مصر منذ الفراعنة، وعصر المسيح والقديسين، ثم مصر الإسلامية، ومصر أيام عصر الانحلال التركي؛ ثم يصف مغامرة نابوليون القصيرة، وحفر قناة السويس وتدخل إنكلترا، ثم يتناول حركة مصر القومية في أسلوب حماسي مشبع بالعطف. ويتبع لودفيج في الكتابة والوصف أسلوباً جديداً لم يسبق لمن طرق نفس الموضوع أن اتبعه، فالنيل ليس في نظره وحدة جغرافية فقط توصف من الناحية الطبيعية، بل هو كائن حي له خواصه الإنسانية كما أن له خواصه الجغرافية والطبيعية، ولهذا يعامله لودفيج كأنه شخصية تترجم كما يترجم الرجل العبقري. وفي مواقف كثيرة ترى لودفيج شاعراً يتبع الوصف الخيالي؛ وإذا كان يبدو محققاً في بعض الحقائق والوقائع التاريخية، فهو يبدو أحياناً سطحياً يكتب كما يكتب السائح الطارئ. ومن جهة أخرى فقد وجه النقد المر إلى الأسلوب الذي أخرج به الكتاب بالإنجليزية (لأنه كتب أصلاً بالألمانية) وقيل إن فيه كثير من النقص والتشويه

كتاب خطير عن روسيا السوفيتية

ظهر أخيراً كتاب خطير في روسيا السوفيتية بقلم زعيم كبير من زعمائها القدماء هو ليون تروتسكي أحد مؤسسي روسيا البلشفية؛ ويقدم إلينا تروتسكي كتابه الجديد بعنوان (خيانة الثورة. ما هو الاتحاد السوفيتي وأين يسير) ونحن نعرف أن تروتسكي لبث من سادة روسيا وزعمائها حتى سنة 1927، وعندئذ بدأ الخلاف بينه وبين ستالين وعصبته، وانتهى الأمر بتغلب ستالين ونفي تروتسكي وتمزيق عصبته. ومن ذلك الحين يعيش تروتسكي في منفاه متتبعاً أحوال روسيا وتطوراتها. ولكن تروتسكي يخلف وراءه عدداً كبيراً من الزعماء القدماء الذين يناصرونه ويخاصمون النظام الجديد،

ولهؤلاء أنصار كثيرون في روسيا. وينعى تروتسكي على ستالين سيد روسيا الحالي أنه خان قضية العمال، وبدد تراث
لينين، واتبع سياسة رأسمالية، وأنه أقام نظام إرهاب شامل. ويقول تروتسكي في كتابه المذكور: (إن الثورة قد غدر بها القائمون بالأمر، ولكن لم تسحق نهائياً). هذا هو ملخص نظريته وهو يشرح بعد ذلك مساوئ النظام القائم، ويدلل على أن ستالين يسير بوحي الدول الرأسمالية، ويرغم روسيا على الخضوع لها؛ ويشهر بسياسة الإرهاب القائمة، وذيوع الجاسوسية الشنيعة. وتدبير المؤامرات ضد الأبرياء من الزعماء المخالفين. ولا ريب أن تروتسكي هو اليوم أعظم حجة في شؤون روسيا السوفيتية. ويقال إن لديه مستندات هامة تلقي الضياء على أعمال العصبة التي تسيطر اليوم على مصاير روسيا؛ وسوف يثير كتابه اهتماماً جديداً بأحوال روسيا وشؤونها
ومما يؤثر عن تروتسكي أنه فضلاً عن الدور العظيم الذي لعبه في قيام الثورة البلشفية وسحق حكومة القياصرة، يعتبر من أعظم كتاب روسيا المعاصرين؛ وهو يكتب بعدة لغات بمقدرة مدهشة.

حديث جديد عن المسرح المصري:

قرأنا في بعض الصحف الفرنسية الواردة في البريد الأخير حديثاً جديداً لمسيو أميل فابر عن المسرح المصري. ويذكر القارئ أن مسيو فابر، وهو من أكبر الفنانين الفرنسيين، وكان مدير المسرح الكوميدي فرانسيز، قد انتدبته الحكومة المصرية في الشتاء الماضي لدراسة المسرح المصري، واقتراح ما يجب اتخاذه لإنهاضه وإصلاحه، وأنه قام بهذه المهمة، ولا يزال تقريره بين يدي ولاة الأمر في وزارة المعارف. ويقول مسيو فابر في حديثه الجديد إن المسرح المصري يرجع نحو أربعين سنة، ولكنه يعيش منزوياً على هامش الحوادث؛ بيد أن المسرح العربي جدير بأن ينهض وأن يتسع نطاق عمله، فاللغة العربية هي لغة مصر وشمال أفريقية، فضلاً عن البلاد العربية، بل هي ذائعة في أمريكا الجنوبية حيث يوجد ثمانون ألف سوري في المهجر.
والمسرح المصري ينقصه التأليف المسرحي وتعوزه الأبهاء والزخارف. وهنالك ممثلون للكوميديا ولا توجد لها ممثلات، حتى أن أدوار النساء يقوم بها الرجال. ومن الأسف أن المسرح المصري لا يملك الآن غير دار الأوبرا؛ وهذه الدار تحتلها في معظم الفصل فرق أجنبية مختلفة؛ وفي وسع الحكومة أن تشتري مسرح الأزبكية، فهو يصلح لتمثيل القطع
الكوميدية. والمسرح المصري فقير في المناظر حتى أنه يصعب فيه تمثيل القطع المنوعة. أما عن التأليف المسرحي فلا يوجد بمصر، وكل ما هنالك قطع مترجمة عن الإنكليزية والفرنسية والألمانية. وليست هنالك قطع أصيلة مكتوبة بالعربية. وأخيراً توجد مشكلة اللغة، فالحكومة ولجنة الفرقة القومية تريدان استعمال اللغة العربية الفصحى، وهذه لا يفهمها كثير من رواد المسرح.

راء (المبرد) مرة أخرى للأستاذ إبراهيم مصطفى

لقي اسم المبرد من عناية الرسالة وعناية الأدباء الباحثين حظاً حسناً. وكان مثار الخلاف أني قلت (المبرَّد) بالفتح في محاضرة ألقيتها بالجمعية الجغرافية فنقدني أديب وتصدى له أديب وامتلأ الحوار بالحجة وبقيت أقرأ مستفيداً شاكراً. وحق عليّ من بعد، أن أذكر ما من أجله فتحت هذه الراء
لقد تلقيت هذا الاسم بالكسر عن الشيخين اللغويين الشنقيطي والمرصفي. وسمعنا من الشنقيطي شعراً أو نظماً في ذم من فتحها ليس يخلو ذكره من تفكهه وهو:
والكسر في راء المبرَّد واجب ... وبغير هذا ينطق الجهلاء
وكان رحمه الله يلقي القول يفخمه ويمط البيت عند آخره. أما شيخنا المرصفي فلم يكن متشدداً في الكسر تشدد الشنقيطي، ولكن كان يفضله ومن هنا غلب على لسان الأدباء كسر الراء وتلقيناه ولقيناه كذلك. ثم تبين لنا أن الصواب هو الفتح لما رأينا أن هذا الاسم إنما وضع نبزاً للعيب لا لقياً للمدح. وكان من عادة ذاك الزمن أن يكون تكريم العلماء بالكنية؛ ويكثر أن تغلب عليهم ألقاب تحمل نبزاً وعيباً؛ وقد يبدو ذلك غريباً ولكنه أمر واقع. فأبو العباس محمد بن يزيد (المبرد) شيخ النحاة بالبصرة، وأبو العباس احمد بن يحيى (ثعلب) شيخ النحاة بالكوفة في زمنه يعاصره وينافسه؛ وثعلب

والمبرد نبزان، وكذلك أمام الأدباء في ذات العصر أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ.
والجاحظ نبز بلا ريب. ومن ألقاب العلماء في ذاك الزمن قطرب وعجرد والجعد والبغل والحامض والأخفش والأعمش والأعور والأعمى والأثرم والأشعث والفراء والزجاج والرؤاس (بائع الرؤوس) ولكل كنية لا يدعى إلا بها ولا يحب أن يتسمى بغيرها.
ولو كان في هذه الأسماء مثار للخلاف واحتملت أنبازهم الفتح والكسر كالمجحظ والمخفش
والمعور لرأيت من يدعى لها ويقربها من المدح بوجه ما (كالمبرد) وينسى أصل النبز وعادة العصر ولولا سعة صدر الجاحظ لقال أيضاً جحظ الله من جحظني. وقال الأخفش خفش الله من خفشني كما قال المبرد: برد الله من بردني - على أن السعي لتجميل ألقاب العلماء عاطفة جميلة، ولكنها تباعد التاريخ وتخفي الحق؛ فقد رأيت لم خالفنا ما روينا عن الشيخين. ولعمري لو أنهما شهدا وهدي إليهما ما قدم في الرسالة من النصوص لما رأيا إلا الفتح، ولشكراً للأديب العالم الذي تسمى (أحد القراء) فطوى اسمه ونشر علمه. فما كان لهؤلاء العلماء من التشدد في الحق إلا ريثما تنكشف لهم الحجة في غير ما بأيديهم؛ فهم أتباع الحق أبداً. ولقد ذكرت بهذا قصة للمرحوم الشيخ الشنقيطي كان يقرأ عليه الأستاذ الخضري شعراً فيه كلمة (الخرامي) بالراء المهملة، فقال الشنقيطي هي الخزامي بالزاء أصلحها، فحدثنا الشيخ الخضري أن نفسه تطلعت أن ينظر القاموس ليرى الكلمة وكان قريباً منه فنظره وإذا في القاموس الخزامي والخرامي بالزاء وبالراء وكل منهما نبت بالصحراء، فقرأ على الشيخ ما وجد. قال الشيخ: أعدها بالراء وأستغفر الله. قال الخضري: كنت أظن أن القاموس أدنى علم الشيخ من اللغة. فضحك الشنقيطي وقال: (دون هذا وينفق الحمار) فتلك منزلة العلماء من الحق إذا تبين وما التوفيق إلا بالله

إبراهيم مصطفى

القصص

بل ضرورية جداً

للسيدة كرم حسن فهمي

(إلى أستاذي الجليل عباس محمود العقاد)

عادت خضرة وقد أنهكها التعب من جمع القطن تحت أشعة الشمس المحرقة في الحقل
عادت خضرة إلى الدار ذات الحيطان السود والسقف المتداعي وجلست بجانب أخيها حسن على الحصير البالية وسألته:
ألم تجد عملاً في القاهرة؟ . . .
لم أجد . . .
ألم تذهب إلى عمك؟
لا فائدة . . .
تذكرت خضرة زيارات عمها الغني للقرية وكيف كان يستقبله القرويون وما استدانه والدها الفقير مبالغة في إكرامه
بل تذكرت كيف كان حديث عمها لا يدور إلا عن نفسه وأملاكه ومركزه الرفيع في الجيش وعن قصره وما يحويه من تحف وصور وتماثيل
وتذكرت خضرة أن عمها عرض على والدها قبل وفاته أن يستصحبها معه إلى القاهرة ورفض والدها إذ ذاك
فاليوم وقد مات أبوها وماتت زوج عمها المخيفة التي ورث عنها كل هذه الثروة فلِمَ لا تذهب؟
ألا تأخذني معك يا حسن إلى قصر عمي . . .
إنك لم تذهبي إلى القاهرة قط . . .
أرجو يا حسن! ربما كان لي من التأثير على عمي ما ليس لك فيهتم بشأنك . . .
سافرا إلى القاهرة وأدهشت حركة المدينة الكبيرة الفتاة وبلغت أخيراً قصر عمها وتساءلت عن محتوياته في دهشة والعم يشرح:

هذا البساط النادر ثمنه مائة جنيه. فخلعت الفتاة خفيها ووضعتهما تحت إبطها خشية تلويثه
العم: وهذه السجادة الفارسية الأثرية ثمنها ثلاثمائة جنيه.
فتحسستها الفتاة وقالت: لكنها قديمة يا عمي، فقهقه صاحب القصر وأجابها: لهذا كانت ثمينة، فإنها أثرية منذ ألف سنة
انظري هذا التمثال النصفي البديع! صنعه أكبر مثال فرنسي معاصر . . .
وهذه صورة زوجتي بريشة الرسام سوسانت كلفتنا مائة جنيه . . .
قالت الفتاة: هل هي أثرية أيضاً أي منذ ألف سنة؟
فقهقه العم مرة أخرى لسذاجتها
وفي المساء نامت الفتاة تحلم بالقصر البديع الذي يقطنه عمها وحيداً لا يشاركه فيه إلا خادمه العجوز وإلا هذه التحف والتماثيل. ونام أخوها حسن وهو يدبر أمراً
في مساء اليوم التالي عاد حسن إلى القصر بعد أن جال في شوارع العاصمة وقال لعمه:
عثرت اليوم يا عمي على صورة فنية بديعة للرسام الشهير ج. س
قال العم: يا لشوقي لصورة من ريشته!
حسن: رفض الإيطالي العنيد أن يبيعها
العم: أغره بالمال، هذه ألف جنيه؛ وإذا طلب أكثر فأنا مستعد
وعاد حسن في صباح اليوم الثالث يحمل إطاراً كبيراً أسدل عليه ستار من الحرير الأزرق حجب الصورة، ووضع الإطار بصورته الغامضة في صدر قاعة الاستقبال الكبرى بقصر عمه
وفي المساء حضر صاحب القصر ومعه رهط من الغواة والفنانين والمعجبين بالفنون ووقف حسن بجانب الإطار ورفع عن الصورة الستار وتكلم:
أيها السادة. ترون الآن صورة (فانتين البائسة) صورها هوجو بقلمه كلاماً، وعربها حافظ بلاغة، ورسمها ج. س الرسام الإيطالي الشهير صورة ناطقة
كم أتقن الفنان تصويرها وتصوير البؤس فيها! ألا تعد آية من آيات الفن؟ كم تقدرون ثمناً لها؟
العم: ألف جنيه
بعضهم: وأكثر
واستطرد حسن يقول: يجب أن نقدر الفن فالفن ضروري للحياة (بل ضروري جداً) فمن الواجب أن نقلع عن تقويم مطالبنا بمقدار الحاجة إليها، فإن ذلك التقويم غير صحيح، فنحن نستطيع أن نفقأ أعيننا بأصابعنا أو نقطع ألسنتنا ونعيش بغير ملكة النظر والكلام سبعين سنة ولا نستطيع أن نعيش بغير الخبز. . .
وندع تقويم الفكر إلى تقويم السوق، فالحلية أقوم من الآنية الضرورية، ولأن نشيد قصراً بديعاً ينحت فيه عشرة مثالين فينتجون تماثيل للزينة خير ألف مرة من بناء مصنع أو سفينة يعمل فيهما الآلاف فينتجون. . .
وكأس الويسكي أغلى من طن الماء، والطباق أغلى من (والتمثال أغلى من الكساء) الهواء.
وأقصى ما نبلغه في تحصيل الخبز أن نتساوى وسائر الأحياء، ونحن إذا حصلنا الفنون) نعيش (الجميلة فما نحن بأناسي فحسب بل أناسي ممتازون نعيش في أمة ممتازة في أكواخ من اللبن والطين
حتى تأتي (فإن كنا نبغي أن نعيش كما تعيش الأحياء فحسبنا الضروريات المزعومة) الكماليات فتلاشيها (وحتى يأتي غيرنا) فينزع هذه وتلك.
فليس هو التجارب (ومن الواجب ثالثاً أن نذكر ما هو العلم الذي يفوقنا به الغربيون) العويصة في مصانع السيارات، ولا الاختبارات والمخاطرات الشاقة في عالم الطيارات والسفن والدبابات، كلا، لا يفوقنا الغربيون بهذا فإن الشرقي ليحذق صناعة الطيارة. . . إذا. . . (فتأملوا من فضلكم إذا).
أيها السادة! في علم حسابنا أن القصيدة الغرامية تساوي طيارة، وفي نحونا أن التمثال يعني سفينة أو سيارة، وقال أمين الريحاني: يا من يبيعني فلسفة بطيارات فلم يعبأ به أحد.

ولقد يخطئ بعض المصلحين في تقويم الفنون فيستكثرون ما أنفقت عليها الدول) وأخطأ اللورد بافرلوك لما قال (إن المقتصدين أسياد العالم) ورو (والملوك والسروات .كفلر مجنون إذ رفض رسم صورته نظير ثلثمائة جنيه بريشة أكبر رسام أمريكي
أيها السادة! قدرتم ألف جنيه لصورة (فانتين البائسة) فكم تقدرون لها الآن إذا عرفتم أنها
بائسة حقيقية من اللحم والدم؟ (تتحرك الصورة وتخرج من الإطار لأنها امرأة حقيقية) كم تقدرون لها الآن؟
أصوات - لا شئ
أيها السادة. . . هكذا نقوم الحقيقة. وهكذا نقوم الخيال، وهكذا نبيع نصف عقولنا ونخسر نصف أعمارنا وننفق نصف أموالنا لنظهر بمظهر الامتياز واللباقة والتهذيب أيها السادة. . . تلك أمم بلغت شأوها ونالت الضروريات ثم التفتت إلى الكماليات، ونحن أمة لا نزال في أشد الحاجة إلى الضروريات، والضروريات القصوى أولاً
كرم حسن فهمي
حرم ناظر محطة م. أ
العدد 206 - بتاريخ: 14 - 06 - 1937
أدب السندوتش
لعلك تقول لنفسك سائلاً أو هازلاً ما علاقة الأدب بالسندوتش؟ ولو كنت أريد الأدب الذي تعارفه أولو الجد من الناس لأعيا نفسك وأعياني أن ندلك على هذه العلاقة. ولكنني أريد الأدب الذي تتأدبه ناشئة اليوم؛ والسندوتش أو الشطيرتان بينهما الكامخ كما يريدون أن نقول، لقيمات ،تشتريها وأنت واقف في المطعم، وتأكلها وأنت ماش في الطريق وتهضمها وأنت قاعد في المكتب، فلا تجد لها بين ذهول العجلة وتفكير العمل هناءة في ذوقك ولا مراءة في جوفك. وهذا الضرب من الطعام القائم على القطف والخطف جنى على الأسرة فحرمها لذة المؤاكلة ومتعة المنادمة وأنس العشرة؛ وجنى على المائدة فسلبها فنها الطاهي وذوقها المنظم وجلستها البهيجة؛ وجنى على الصحة فأضعف الشهوة وأفسد الهضم ونقص العافية. والثقافة الأدبية اليوم لاتختلف في سرعتها وتفاهتها وفسادها عن هذا النوع الجديد من الأكل، فهي نتفات من الكتب، ولقفات من الصحف، وخطفات من الأحاديث، ومطالعات في القهوة أو في الترام أو في السرير يلقط الكلم فيها النظر الخاطف، كما يلقط الحب الطائر الفزع، ثم نتاج مختصر معتسر كجنين الحامل أسقطته قبل التمام، وصراخ مزعج في أذني هذا السقط ليستهل وهو مضغة من اللحم المسيخ لا تشعر ولا تنبض، وأصبح مآل غرفة المكتب في البيت كمآل غرفة الطعام وقاعة الجلوس فيه، بغى عليها سندوتش الصحيفة كما بغى على هاتين سندوتش البار والقهوة
يقول أنصار السندوتش في الحياة: إن المائدة لا تتفق مع الزمن الدافق والعمل المتصل
والتطور المستمر والحركة السريعة؛ فان في طول الجلوس إليها، وقواعد الأكل عليها، وتعدد الألوان فيها، واحتفال الأسرة لها، إضاعة للمال والوقت، وقتلاً للنشاط والحركة، وجلباً للسقام والمرض.
ويقول أنصار السندوتش في الأدب: إن قواعد اللغة قيود لا توافق حرية العصر، وأساليب البلاغة عوائق لا تجاري قراءة السرعة، وبدائع الفن شواغل لا تساعد وفرة الإنتاج. والحق الصريح أن آكلي السندوتش أعجلتهم محاقر العمل ومشاغل الرزق عن النعيم الآمن، والجمام الخصب، والبيت المطمئن، فجعلوا صعلكة المطاعم نظاماً وفلسفة؛ وأن قارئي السندوتش صرفتهم وعوثة الطريق وتكاليف الغاية عن اكتساب الملكة، وتحصيل الأداة وتوفير المعرفة، فقنعوا بهذا الفتات المتخلف ثم تجشئوا من غير شبع، وتشدقوا من غير علم، وطلبوا محوا القيود والحدود والمقاييس ليصبح الأدب كوناً عاماً والفن حمى مباحاً، فيسموا راوي الأقاويل قصصياً، ووزان التفاعيل شاعراً، ونهاش الأعراض ناقداً، وسلاب القرائح نابغة؛ ولكن الطبيعة التي تحفظ سر الكمال،

وتحمي ندرة النبوغ، وتبغي بقاء الأصلح، تأبى إلا أن يظل قراء السندوتش وآكلو السندوتش فقراء ذوي عمل، أو أغنياء ذوي لهو، لا تهيئهم الحياة المضطربة إلى زعامة في أمر ولا إلى نبوغ في فكرة

أثار هذا الموضوع في ذهني طائفة من الرسائل النقدية تلقيتها من أقطار العربية تستنكر بعض ما تظهر المطابع المصرية من لغو الكهول وعبث الشباب، وتشدد النكير على بعض الأحاديث الأدبية التي تبثها الإذاعة اللاسلكية، وبعجب فاضل من بغداد وأديب من حلب كيف تمتهن مصر كرامتها فترفع صوتها الأدبي في العالم من فم شاعر له ديوان مطبوع وذكر مرفوع ثم لا يدري شيئا في قواعد اللغة ولا ضوابط العروض، فكان يقرأ النثر ولا يقيم لسانه، وينشد الشعر ولا يضبط ميزانه، حتى قالوا والعهدة عليهم إنه أنشد قصيدة ابن سعيد المغربي، وهي من بحر السريع على روي الكاف الساكنة، ففتح الكاف وجعل صدور الأبيات من بحر وأعجازها من بحر آخر!

الواقع الأليم أن الذين درسوا لغتهم وفقهوها من الأدباء النابهين نفر قليل، فإذا استثنيت هؤلاء الستة أو السبعة وهم من الكهول الراحلين، وجدت طبقة الأدباء كطبقات الصناع والزراع والتجار يأخذون الأمور بالتقليد والمحاكاة لا بالدرس والمعاناة؛ وكما تجد في

هؤلاء من ينشئ المتجر ثم يكله إلى أجنبي ينظمه ويرتبه، تجد في أولئك من يؤلف الكتاب ثم يدفعه إلى نحوي يعربه ويهذبه. ولا نجد في تاريخ العربية قبل هذا العصر، ولا في تاريخ اللغات في جميع العصور، من يحسب نفسه أديباً في لغة وهو لا يعرف منها إلا ما يعرفه العامي الألف. والغرور المتبجح والادعاء السفيه لا يستطيعان أن يحملا الناس على أن يقرءوا السخف، ولا الزمن على أن يبقي على الضعيف.

إن رسالة الأدباء كرسالة الأنبياء فيها عبقرية وجلالة وسمو. فإذا لم يكن الكاتب أو الشاعر خليقاً أن يسيطر على العقول والميول بمكانه في العلم وسلطانه في الأدب ورجحانه في الرأي كان أشبه بمن يدعي النبوة في مكة، أو بمن يمارس الشعوذة في لندن!

إن المدارس المصري تعلم اللغة على منهاج غير واضح، والجامعة المصرية تبني الأدب على أساس غير صالح، والجامعة الأزهرية لا تزال تنفض البلى عن كتب ملتاثة التعبير من مخلفات العجمة، إن صلحت لشيء فلن تصلح لتعليم البلاغة. فليت شعري إذا خلت أمكنة هؤلاء النفر الذين نبغوا بالاستعداد والاجتهاد كيف تكون حال الأدب الرفيع في مصر؟ أيذهبون وبُطئان ما يُعوضون على رأي الأستاذ احمد أمين، أم يذهبون وسرعان ما يُخلفون على رأي الأستاذ العقاد؟

أحمد حسن الزيات

ندرة البطولة

للأستاذ أحمد أمين

كتب الكاتب القدير الأستاذ عباس محمود العقاد مقالاً رد فيه على مقالتي في (ندرة البطولة)؛ وأنا سعيد حقاً بهذا الرد الممتع، فقد أبان فيه جانباً من جوانب الموضوع، وأوضحه أيما إيضاح، ودعمه بالحجج والبراهين القوية

وحبذا لو اتخذ هذا المقال مثلاً للناقدين، فيناقشون ما يعرض من الأفكار في هدوء وجد وتفكير عميق وأسلوب مهذب، ولا يكون لهم غرض إلا الوصول إلى الحق وتجليته ثم نعود بعد إلى موضوعنا، فيخيل إلي أن ليس بيني وبين الأستاذ العقاد خلاف إلا في مسألة واحدة متى حددت ظهر وجه الصواب وانكشف جانب الحق

تلك هي تحديد ما نريد بالنابغة أو البطل، وما نريد بالمقارنة بين العصر الماضي والعصر الحاضر.

مقياس النابغة في نظري أن يفوق أهل زمانه ويسبقهم في فنه أو علمه أو أدبه حتى لا يدركوه إلا بعد أزمان؛ وعلى مقدار هذا السبق يكون النبوغ. فسيبويه نابغة في النحو لأنه رأى من قواعده ما عجز أهل زمانه عن النظر إليه، وفاقهم في ذلك بمراحل؛ واسحق الموصلي نابغة لأنه ابتدع من الفن ما لم يعرفه فنانو عصره، وكان في ذلك هو السباق وهم المقلدون. وقل مثل ذلك في الجاحظ وأبن الرومي وشكسبير وجوته.

فأما إن هو عرف ما يعرفه أهل زمانه، أو أتى من الفن بما يأتيه أهل زمانه، فلسنا نسميه نابغة وإنما نسميه عالماً أو فناناً

هذه مسألة، والمسألة الأخرى أننا إذا أردنا أن نقارن عصراً بعصر في كثرة النبوغ وندرته، فلا نقارن معلومات عصر بمعلومات عصر، ولا فن عصر بفن عصر، إنما نقارن مسافة البعد بين النابغين في عصر وبين عامة المتعلمين فيه؛ ونفعل مثل ذلك في العصر الذي نريد أن نقارن به. فإذا أردنا المقارنة بين العصر العباسي الأول - مثلا - وبين عصرنا الحاضر في الأدب، وازنا بين ابن المقفع والجاحظ وبشار وأبي نواس، وبين الكتاب العاديين والشعراء العاديين في ذلك العصر، وقسنا مسافة البعد بينهم؛ ثم فعلنا مثل ذلك في عصرنا الحاضر، فإن كانت مسافة البعد بين البارزين والعاديين في العصر
العباسي أطول منها بين البارزين والعاديين في عصرنا حكمنا بأن البارزين في العصر العباسي أنبغ
هذا في رأيي أعدل في الحكم، وأقرب إلى الصواب؛ وإلا لم يعد أي نابغة من نوابغ العصر الماضي نابغة؛ فتلميذ المدارس الثانوية اليوم يعرف من قواعد النحو ما لم يكن يعرفه سيبويه، ويعرف من الطبيعة ما لم يكن يعرفه (نيوتن)؛ وتلميذ الهندسة اليوم يعرف من نظريات الهندسة ما لم يكن يعرفه إقليدس، ويعرف من الهندسة التحليلية ما لم يكن يعرفه ديكارت؛ وقد يكون من كتابنا اليوم من يجيد الكتابة خيراً من ابن المقفع والجاحظ، ولكن قيمة سيبويه ونيوتن وإقليدس وديكارت وابن المقفع والجاحظ ليست في مقارنتهم بأمثالهم في عصرنا، ولكن بمجموعة المتعلمين في عصرهم، ثم بموازنة ذلك في عصرنا على هذا النمط وهذا المنهج. فنقطة المقارنة هي مسافة البعد، لا مجموع المعارف ولا المقدرة الفنية أو السياسية أو الحربية. هذه هي نظريتي، فأنا أدعي أن العصر الحاضر تندر فيه البطولة ويقل فيه النبوغ بهذا المعنى
فلا يسألني الأستاذ بعد ذلك (ما كتاب الجاحظ الذي يعجز أبناء عصرنا عن الإتيان بمثله؟)
ولا يقل: (إن الموصلي وإبراهيم بن المهدي لا يبلغان شأو سلامة حجازي والسيد درويش وأم كلثوم)
ولا يذكر أن فوش وهندنبرج ومصطفى كمال أتوا من الواقع ما يفوق ما أتى به يوليوس قيصر وإسكندر المقدوني وجنكيزخان. . . الخ
فكل الذي ذكره الأستاذ حق، ولكنه لا ينقض ما ادعيت. قد كان ينقضه لو أنني ادعيت أن النبوغ هو إتيان الآخر بخير مما أتى به الأول؛ ولو ادعيت ذلك لكانت دعوى ظاهرة البطلان، ولكان ابني في المدارس الثانوية خيراً من رياضيي القرون الوسطى، فهو يعرف ما لم يعرفوا، وأنبغ من كل علماء البلاغة في العصر العباسي الأول لأنه يعرف من مصطلحات البلاغة ما لم يعرفوا؛ وهكذا في كل علم وكل فن
أخشى أن أكون في مقالي السابق لم أوضح القصد، ولم أجلِّ الغرض؛ أما الآن فأظن أن الأستاذ يوافقني بعد هذا التحديد على نظريتي؛ فعندنا كتاب قديرون يفوقون الجاحظ في كتبهم وفي تأليفهم، ولكنهم مع ذلك لم ينبغوا نبوغ الجاحظ، فقد كان بصيراً بين عميان،
وصاحياً بين سكارى، وفي القمة ومن حوله في القاع؛ ولكن كتابنا إن فاق منهم عدد قليل فحولهم كثير مقاربون؛ وإن نبغ في عصرنا قانوني فليس هو في السماء ومن عداه في الأرض كما كان الشأن في القرون الماضية، ولكنك ترى قانونيين مثله أو قريبين منه ومسافات البعد ليست واسعة
والعالم الآن متخم بالعلماء المتبحرين، والساسة الماهرين، والفنانين المبدعين، والحربيين القادرين، والصناع الحاذقين، ولكن من العسير جداً أن تعد منهم نوابغ لأن كل طائفة منهم تكاد تكون كأسنان المشط في الاستواء، وإن فاق واحد منها فتفوق قليل
ظهر نابليون فاستعبد الناس، وأجرى الدماء أنهاراً، وقلب الممالك رأساً على عقب، ودوخ الدنيا، فكان نابغة حقاً في ناحية؛ وبيننا الآن في عصرنا من هم أعلم منه بفنون الحرب ومن هم أقوى منه إرادة، وأبعد نظراً، ولكن من الصعب أن نسميهم نوابغ، لأن الناس ليسوا مغفلين كما كانوا أيام نابليون، ولأنه وحده كان هو القاهر المريد ومن حوله كانوا هم المنفذين المأمورين، فظهر ولم يظهروا، ونبغ ولم ينبغ بجانبه إلا قليل
لقد أتى عصرنا بالعجائب - كما يقول الأستاذ - (وأتى بالحقائق التي تشبه الخيال،

وبالعبر التي تشبه نوادر الأمثال) ولكن كل ذلك - مع الأسف - لا يسمى نبوغاً بالمعنى الذي نقصده، لأنها قد كثرت حتى صارت مألوفة معتادة. هل إذا كثر الصناع الماهرون في بلدة سميتهم كلهم نوابغ؟ أم هل إذا كثر القانونيون البارعون في فرنسا سميتهم كلهم نوابغ؟ أو هل إذا كثر الفلاسفة المتعمقون في ألمانيا كانوا كلهم نوابغ؟ كلا ليس هذا هو مصطلحنا في الحياة، فالبلدة التي يكثر فيها الجمال يكون الجمال فيها عادياً مألوفاً، والحقل الذي تطول أكثر أشجاره وتنمو نمواً جيداً لا يمكننا أن نسبغ صفة التفوق عليها جميعاً وهكذا

فكثرة العلماء والفنانين في عصرنا الحاضر حجة لي لا عليَّ، وهي السبب في أننا لا نعدهم نابغين ولا أبطالا. ولو كان واحد منهم في الزمن القديم، وكان وحده هو البارز وهو السائد لكان وحده هو النابغ. فلو كانت المسألة مسألة تقدم عصرنا وتفوقه على الاعصر الماضية في سياسة جميع العلوم والفنون لوافقتك على ذلك كل الموافقة، ولكن المسألة هي مسألة النبوغ في العصر. فلو قارنت مزرعة بمزرعة وكانت كل أشجار إحدى المزرعتين ضعيفة وكل أشجار الأخرى قوية نامية لقلت بلا تحرج وبالبداهة إن المزرعة الثانية خير

من الأولى، وإنها تفوقها بمراحل؛ ولكن لو سئلت هل في المزرعة الثانية شجرة متفوقة على أقرانها لقلت بالبداهة أيضاً (لا) بملء فيَّ.

فعصرنا كذلك غني بكل مرافق الحياة، غني بالرجال في كل علم وفن، ولكن هذا الغنى سلبه النبوغ أيضاً، فكان عجيباً أن نرى الغني علة الفقر، والتخمة سبب الجوع.

لقد انقسم كل مجتمع إلى طوائف، وكان من نتائج المدنية الحديثة زيادة التخصص، فكما تخصص الصناع في جزء خاص من الصناعة تخصص علماء كل علم لفرع منه، فصار من المضحك أن يكون الرجل قانونياً في كل فروع القانون، أو طبيباً في كل فروع الطب، أو أديباً في كل فنون الأدب؛ ونشأ عن هذا التخصص توفر العدد الكثير على كل فرع من فروع العلم والفن وإتقانهم له؛ فحيثما تلفت وجدت العدد الذي لا يحصى في الأمم المتمدنة في كل نوع وكل فرع وكل صناعة. ونتج من ذلك أن ما كان يسمى نبوغاً في العصور الماضية أصبح اليوم شيئاً عادياً مألوفاً، فعز النبوغ وندرت البطولة - ولم نعد نرى أمثال الجاحظ الذي يؤلف في الأدب والاجتماع والجغرافيا والتاريخ والمذاهب الدينية والطب والنفس والحيوان والاقتصاد؛ وصار الاقتصار على مادة واحدة بل فرع من مادة بل جزء من فرع هو المنهج العلمي الصحيح، وهذا أغنى العلم وسهل للعدد الوفير أن يصل إلى شأو بعيد وفي الوقت نفسه كان سبباً لقلة النبوغ، فالنبوغ يكثر حيث يعز الشبيه

هذا من ناحية العلماء أنفسهم وكثرتهم، وهناك ناحية أخرى وهي ناحية الناس الذين يحكمون بالنبوغ، فلابد للنبوغ من نابغ وحاكم بالنبوغ، كما لا بد للجميل من ناظر ومنظور. فهؤلاء الناس أصبحوا - على العموم - مثقفين ثقافة عامة خيراً مما كانوا عليه في العصور الماضية. اتسعت معارفهم ودقت أنظارهم، وكان لهم أيضاً شبه تخصص، فمنهم من يميل إلى الأدب، ومنهم من يميل إلى العلم، ومنهم من يميل إلى الفن. وأصبح الفرق بينهم وبين العلماء المتخصصين أقل بكثير من الفرق الذي كان بين العامة والعلماء في العصور الماضية؛ وكذلك شأنهم في السياسة، بل شأنهم في السياسة خير من شأنهم في العلم، كل يعرف حقوقه وواجباته السياسية، ويستطيع أن يزن قادته وزناً صحيحاً إلى حد ما.

كل ذلك أنتج نتيجتين بعيدتي الأثر، أولاهما أنهم أصبحوا يتطلبون من النابغة ما يشبه المستحيل حتى يعد في نظرهم نابغة، وقد كان ذلك فيما مضى سهلاً يسيراً، فمن عاش في الظلماء يبهره نور القنديل، ومن عاش في ضوء الكهرباء لا يبهره ضوء الشمس؛ والثانية أن الناس أصبحوا متسائلين مدققين باحثين لا يستطيع السياسي القدير أن يتلاعب بهم وأن يجعلهم آلة صماء كما كانوا من قبل. من أجل هذا لا نرى كبار الساسة اليوم يستطيعون أن يخضعوا الناس لأمرهم كما فعل نابليون ويوليوس قيصر وجنكيزخان وأمثالهم، وعدم الخضوع وكثرة السؤال والتدقيق يقلل من مجد الساسة، ولا يرفعهم إلى درجة الآلهة وأنصاف الآلهة كما كان في سالف الزمان؛ ومثل هذا يقال في كل علم وكل فن

فعصرنا الحاضر (طابعه طابع المألوف والمعتاد لا طابع النابغة والبطل) وإن كان

مألوفنا ومعتادنا أرقى من نابغة القرون الماضية وبطل القرون الماضية
إن كان هذا - يا أخي - هو الذي أردتُ فأظن أنه لا يرد علي بمزايا العصر الحاضر، وعلم العصر الحاضر، وفن العصر الحاضر؛ وإذا كان النبوغ في السبق وكانت المقارنة بين عصرين بقياس مسافتي البعد، فأرجو أن نكون على وفاق فيما ذكرتَ وذكرتُ، وسلامي عليك ورحمة الله
أحمد أمين

آلعلم للعلم، أم العلم للوطن بوسيلة دراسة التاريخ؟

للأستاذ أبي خلدون ساطع الحصري

- 1 -

رغب إليَّ بعض الشباب أن أدلي برأيي في موضوع (هل العلم للعلم أم العلم للوطن - بوسيلة دراسة التاريخ) وهو الذي استفتت المفكرين فيه الرابطة العربية، فكتبت هذا المقال متوخياً فيه بيان الرأي على وجه عام، غير متصدٍ لمناقشة رأي خاص. وقد رأيت نشره بالرسالة الصديقة ليتسع مدى المناقشة في هذه المسألة بتنوع المجال
أبو خلدون

أنا لا أعترض على من يقول إن (العلم للعلم)؛ واسلم بأن (الأبحاث العلمية) يجب أن تكون غايتها (معرفة الحقيقة)، معرفة مجردة من كل الاعتبارات النفعية.

غير أنني أقول في الوقت نفسه أن العلم شيء آخر، فما يصح في (العلم) قد لا يصح في (التعليم).

فعندما نقول (العلم للعلم)، لا يتحتم علينا - منطقياً - أن نقول في الوقت نفسه (التعليم للتعليم). وعندما نسلم بأن (العلم لذاته لا لشيء غيره)، لا يلزمنا التسليم في الوقت نفسه بأن (التعليم أيضاً لذاته، لا لشيء غيره).

فأن مبدأ (العلم للعلم) لا يمنعنا من القفول بأن (التعليم ليس من الأمور المقصودة بالذات، بل هو من الوسائل التي تستخدم للوصول إلى بعض الغايات).

إن هذه الغايات لا تكون (مادية ونفعية) في كل الأحيان، بل تكون (معنوية وتربوية) في معظم الأحوال: فقد يقصد من التعليم (إعطاء بعض المعلومات المفيدة للحياة) في بعض الأحوال؛ غير أنه يقصد منه - في كثير من الأحيان - (الحصول على بعض الفوائد المعنوية والتأثيرات التربوية)، كالتعويد على البحث والملاحظة، والترغيب في الدروس والمطالعة، أو تنمية الميول الفنية واستثارة العواطف النفسية. . . وأما التعليم الذي يتجرد عن مثل هذه الأهداف والغايات، فأنه يكون مخالفاً لأسس التربية الصحيحة مخالفة كلية.

ويمكننا أن نقول: (إن قيمة التعليم تقاس بقيمة الغايات التي تقصد به من جهة، وبجودة الطرق التي تتبع في خلاله من جهة أخرى، ولا نغالي إذا قلنا: إن (الغايات) في هذا الشأن تكون أهم من (الطرق) بوجه عام؛ لأن (الطريقة تتبع الغاية وتخضع لمقتضياتها) بطبيعة الحال.

هذا، ومما تجب ملاحظته في هذا الباب أن تعليم أي علم من العلوم لا يمكن أن يشمل ويستوعب جميع الحقائق المكتشفة والمقررة في ذلك العلم، حتى في الدراسات العالية. فكل تعليم يضطر - بطبيعة الحال - إلى انتخاب بعض الحقائق والاهتمام بها أكثر من غيرها. فنستطيع أن نقول لذلك: إن التعليم يتضمن شيئاً من الانتخاب؛ فجودة التعليم تتوقف على حسن الانتخاب؛ ولا جدال في أن حسن الانتخاب لا يتيسر إلا بموازنة الفوائد التي يمكن الحصول عليها من تعليم كل بحث من الأبحاث، من جميع الوجوه العلمية والتربوية. ولا شك في أن هذه (الموازنة) توسع مجال عمل (الغايات في التعليم) توسيعاً كبيراً.

وأما نوع التربية الذي يستهدف والتأثير الذي يتوخى من تعليم كل علم من العلوم، فيختلف باختلاف العلوم من جهة، وباختلاف درجات التعليم من جهة أخرى. فالفوائد العلمية والأهداف التربوية التي تستهدف في تعليم الرياضيات مثلاً تختلف عما يتوخى من تعليم الطبيعيات والاجتماعيات. كما أن الغايات التي تقصد في تعليم هذه العلوم في المدارس الابتدائية، تختلف عما يقصد منها في تعليمها في المدارس الثانوية والعالية.

ونستطيع أن نقول بوجه عام: أن دور الغايات التربوية في التعليم يتضاءل كلما ارتفعت درجة التعليم؛ ومع هذا فإن التعليم العالي نفسه لا يتجرد عن الغايات التربوية تماماً، فإن هذا التعليم أيضاً لا يكتفي بسرد الحقائق وحدها، بل يستهدف في الوقت نفسه تعويد الطلاب على (التعلم من تلقاء أنفسهم)، بمراجعة المصادر وجمع الوثائق وملاحظة الوقائع واستقراء الحوادث. . حسب ما تقتضيه طرائق البحث العلمي والدرس الذاتي. .

وأما التعليم العالي الذي لا يقوم بهذه المهمة خير قيام، فإنه يكون مقصراً في واجباته الأساسية، مهما توسع في سرد الحقائق وتوغل في شرح الأبحاث:

فلا نغالي إذا قلنا: أن التعليم لا يصبح مقصوداً بالذات، إلا في الدراسات العليا الاختصاصية وحدها.

- 2 -

إن ما قررناه آنفاً في شأن (العلم والتعليم) ينطبق على أمر (التاريخ وتعليم التاريخ) بطبيعة الحال.

ففي شأن التاريخ أيضاً نستطيع أن نقول: إن الأبحاث العلمية التي تتوخى معرفة الحقائق التاريخية شيء، والشؤون التعليمية التي تتوخى نشر تلك الحقائق شيء آخر. ومهما بالغنا في القول بأن (التاريخ) يجب أن يكون الغرض منه معرفة الحقائق معرفة مجردة عن كل غاية، لا نستطيع أن نقول ذلك في (تعليم التاريخ)، بحال. بل لابد لنا من التسليم بأن هذا التعليم يجب أن يوجه نحو غايات تربوية واضحة. . على أي حال.

ويجب أن نلاحظ زيادة على ذلك، أن الغايات التربوية التي يُرمى إليها من (تعليم التاريخ) كبيرة وخطيرة جداً، لأن المعلومات التاريخية تمتاز عن سائر المعلومات بالتأثيرات العميقة التي تحدثها في الشعور القومي والحس الوطني، وبالأدوار العامة التي تلعبها في تكوين القومية الوطنية.

فإن شعور الأفراد نحو أمتهم ووطنهم لا يتأثر بمعرفتهم أو عدم معرفتهم للحقائق الطبيعية مثلاً؛ غير أن شعورهم هذا يتأثر تأثراً شديداً من علمهم أو عدم علمهم بالوقائع التاريخية التي تعاقبت على الوطن والأمة في سالف الأزمان.

ويمكننا أن نقول: أن الشعور القومي يستند على (الذكريات التاريخية) أكثر من كل شيء آخر. ونستطيع أن نؤكد أن (الأفكار والمعلومات المتعلقة بالتاريخ) تلعب دوراً هاماً في حياة الأمم، وتؤثر تأثيراً كبيراً في سير حوادثها.

ولهذا السبب نجد أن الأمم المتمدينة بأجمعها تهتم بالتاريخ اهتماماً عظيماً. فهي لا تكتفي بالتذكير بالماضي بواسطة الدروس والمؤلفات بل تبذل أنواع الجهود لإقامة التماثيل والأنصاب، بقصد (تجسيد وتخليد الذكريات)؛ كما تنتهز جميع الفرص لإقامة الاحتفالات، لإحياء ذكر بعض الوقائع التاريخية، بقصد استثارة انتباه الشعب وإيقاد نار الذكريات القومية في قلوب الناس.

كما نشاهد أن الدول المستعمرة، عندما تستولي على أمة من الأمم، تحاول أن تدعم استيلاءها العسكري باستيلاء معنوي، وتعتبر السيطرة على (المعلومات التاريخية) من أهم وسائل هذا الاستيلاء. ولذلك، حالما تنتهي من الأعمال التي تمحو بها الحكومة المحلية وقواها المختلفة، تأخذ في تصويب سهامها نحو (التاريخ القومي)، وتبذل كل ما لديها من الوسائل لإخفات صوت ذلك التاريخ، وتستعمل كل ما لديها من الحيل لإبعاد ذاكرة الأمة عن تاريخها الخاص.

كما نجد أن الشعور القومي عند الأمم المحكومة يأخذ في الخمود والتضاؤل عندما يسحب النسيان ذيله على (التاريخ القومي) ولا سيما عندما تنصرف الأمة عن تاريخها الخاص إلى (التاريخ) الذي تلفقه وتعرضه عليها السلطة الحاكمة. . حسبما تقتضيه سياسة السيطرة والاستعمار.

وأما عودة الشعور القومي إلى مثل هذه الأمم المحكومة فلا تتم إلا بعودة الذكريات التاريخية؛ ولا نغالي إذا قلنا: أن حركات الاستيقاظ والانبعاث ومجاهدات الاستقلال والاتحاد. . لا تبدأ إلا بتذكير الماضي واستلهام التاريخ، هذه حقيقة ناصعة تتجلى من بين صفحات التاريخ بوضوح تام.

فإن (حب الاستقلال) يتغذى بذكريات الاستقلال المفقود؛ والتوقان إلى السؤدد والمجد يبدأ بالتحسر على السيادة الماضية والمجد السالف؛ والإيمان بمستقبل الأمة يستمد قوة من الاعتقاد بماضيها الباهر، والنزوع إلى الاتحاد يزداد شدة وحماسة بتجدد ذكريات الوحدة المضاعة. . . هذه كلها حقائق ثابتة، تشهد بها جميع التواريخ، من تاريخ استقلال اليونان إلى تاريخ اتحاد الألمان، ومن تاريخ ثورة الصرب إلى تاريخ وثبة الأتراك. .

ولذلك كله نجد أن جميع علماء التربية يتفقون في القول بأن دروس التاريخ من أهم وسائط التربية الوطنية والقومية.

فهل يجوز - وهذه هي الحال - للمعلمين ن والمؤلفين أن يتعاموا عن ملاحظة تأثير المعلومات التاريخية في هذا المضمار، وألا يستفيدوا من تأثيرها هذا في تقوية الروح القومي وتوجيه الشعور الوطني نحو الأهداف التي يتطلبها مجد الأمة ونهوضها؟

- 3 -

يظن البعض أن استخدام دروس التاريخ كواسطة للتربية الوطنية والقومية وتكييف كتب التاريخ لمقتضيات هذه التربية، هما من الخطط والنزعات الخاصة بالأمم التي تدار بالديكتاتوريات الوطنية؛ والواقع أنه لا فرق بين هذه الأمم وغيرها في ذلك. ونحن لا نعلم بوجود أمة بين الأمم الراقية تجردت عن هذه النزعة فأهملت الاستفادة من دروس التاريخ

في هذا المضمار.

وإذا تجلت آثار هذه النزعة الآن عند فريق من الأمم بوضوح أكبر فما ذلك إلا لأن هؤلاء غيروا نظام حكمهم حديثاً فاضطروا لذلك إلى القيام بتكييف تاريخهم لمقتضيات هذا النظام الجديد بصورة فجائية وعلى رؤوس الأشهاد، في حين أن غيرهم أقدموا على مثل هذا العمل قبلهم، فأوجدوا لأنفسهم تاريخاً مكيفاً بمقتضيات الوطنية، منذ مدة غير يسيرة من الزمن. . . فيمكننا أن نقول: إن الفرق بين الفريق الأول والفريق الثاني ينحصر في تاريخ عملهم بهذه النزعة، لا في انقيادهم إليها أو انصرافهم عنها.

ومن الغريب أننا نجد بين مفكري الفريق الثاني من الأمم من ينتقد بشدة الخطط التي يتبعها الفريق الأول في هذا الباب. غير أننا نشبه انتقادهم هذا بعمل بعض الأمم المستعمرة التي تستهجن فكرة الاستعمار عندما تشاهد آثارها عند غيرها، مع أنها كانت ولا تزال من آباء الاستعمار وأبطاله، ومع أنها تنعم بخيرات مستعمرات كثيرة ولا تتوانى في التوسل بجميع وسائل العنف والشدة لإدامة سيطرتها عليها.

فيجب علينا ألا ننخدع بمثل هذه الدعايات والانتقادات السياسية وأن نعلم علم اليقين أن تكييف دروس التاريخ بمقتضيات القومية والوطنية من الخطط التي تعمل بها جميع الأمم من غير استثناء، ومن الخطط التي تتحتم على جميع الأمم المستضعفة بوجه خاص. . .

هذا ويجب أن نلاحظ في الوقت نفسه أن (التكييف) الذي نشير إليه لا يستلزم (الاختلاق). لأن (الانتخاب والإبراز) وحدهما يكفلان (التكييف) ويكفيان (للتوجه) بوجه عام.

وذلك لأن الوقائع التاريخية تؤلف سلسلة طويلة لا مجال لتحديدها، بل شبكة معقدة لا حد لتعقيدها، فعدم ذكر الوقائع بأجمعها - قصداً أو اضطراراً - واختيار بعضها أو تفصيله أو اختصاره - كل ذلك مما يغير منظر الوقائع وتأثيرها النفسي تغييراً كبيراً، كما تتغير الألوان حسب مشيئة المصورين، تبعاً لتغيير أنواع الأصباغ التي تمزج بعضها ببعض من جهة، ولتغير نسب هذا المزج من جهة أخرى.

ولذلك نستطيع أن نقول: إن عملية الاختيار والإبراز، إذا كانت من الأمور المهمة في جميع فروع التعليم، فهي في منتهى الأهمية في تعليم التاريخ.

لنذكر مثالاً بسيطاً لتوضيح تأثير عملية الانتخاب والإبراز في مثل هذه الأمور لنفرض أننا

نود أن نبحث عن علاقة فرنسا بوحدة إيطاليا: فإذا استعرضنا الحوادث التي تعاقبت في إيطاليا منذ حروب نابليون إلى حرب السبعين، ولاحظنا علاقة هذه الحوادث بسياسة فرنسا وأعمالها، وجدنا أن هذه السياسة كانت مساعدة لوحدة إيطاليا في بعض الأحوال والأدوار ومعرقلة لها في أحوال وأدوار أخرى، فإذا ذكرنا النوع الأول من

الوقائع دون أن نبحث عن النوع الثاني منها، أو إذا سردنا النوع الثاني من الوقائع دون أن نتطرق إلى النوع الأول منها. سنوصل قراءنا وطلابنا إلى أحكام متخالفة ومتعاكسة في هذا الباب. وهذا الاختلاف سيظهر حتى عند عدم إهمال ذكر نوع من نوعي هذه الوقائع إهمالاً تاماً، بل نتوسع في شرح أحد النوعين ونكتفي بإشارة مختصرة في النوع الآخر.

وهذا يحدث فعلاً في تدوين وتدريس هذه الوقائع التاريخية في مدارس كل واحدة من هاتين الدولتين. فإن الفرنسيين يوجهون الأنظار إلى الوقائع التي كانت من نوع المساعدة للوحدة الإيطالية، ويبرزون هذه الوقائع أكثر من غيرها. . في حين أن الإيطاليين - بعكس ذلك - يوجهون الأنظار إلى الوقائع التي كانت من النوع الثاني، ويتوسعون فيها أكثر من غيرها ولهذا السبب تجد أن رأي الإيطاليين في هذه القضية يختلف عن رأي الفرنسيين اختلافاً بيناً في معظم الأحوال.

وقد لاحظ الكثيرون من رجال الفكر والسياسة، التأثير الشديدة الذي يتأتى من دروس التاريخ في إدامة الضغائن وإثارة الحروب بين الأمم، فاخذوا يفكرون فيما يجب عمله في هذا الباب؛ وهذا ما حمل عصبة الأمم على الاهتمام بالأمر اهتماماً خاصاً، وتكوين فرع مختص بشؤون تعليم التاريخ بين جوانب معهد التعاون الفكري الأممي. . كما حمل عدداً كبيراً من المربين والمؤرخين على عقد مؤتمرات أممية عديدة للمداولة في القضايا المتعلقة بدروس التاريخ. . .

وإذا تتبعنا مناهج هذه المؤتمرات ونشراتها، ولاحظنا أعمالها ومقرراتها، نجد أنها لم تعارض قط في (استخدام التاريخ كواسطة للتربية الوطنية) وكل ما طلبته من المعلمين والمؤلفين في هذا الباب، انحصر في التماس السعي إلى تخليص دروس التاريخ وكتب التاريخ من الأبحاث والاتجاهات التي تثير الضغائن وتحول دون التفاهم والتقارب بين الأمم.

إنها دعت المعلمين والمؤلفين إلى توجيه جهودهم وأعمالهم إلى هذا الاتجاه على الدوام، دون أن تطلب إليهم أن يجردوا دروسهم وكتبهم من النزعات القومية والوطنية. أو يتركوا الاستفادة من التاريخ في التربية القومية والوطنية.

وعلى كل حال نستطيع أن نؤكد أن (تعليم التاريخ) يستهدف التربية الوطنية والقومية قبل كل شيء، عند جميع الأمم بدون استثناء.

- 4 -

بعد هذه التفصيلات يجدر بنا أن نعود إلى أنفسنا ونتساءل عما يترتب علينا عمله في دروس التاريخ، نحن الناطقين بالضاد.

نحن نعتقد بأن حاجتنا إلى الاستفادة من التاريخ في التربية الوطنية والقومية، تفوق حاجة جميع الأمم على الإطلاق. لأن حالة العالم العربي الآن تزيد في احتياجه إلى الاستفادة من دروس التاريخ وكتب التاريخ في هذا المضمار زيادة هائلة.

هذا ويجب ألا ننسى من جهة أخرى أن موضوع تأليف وتدريس التاريخ - في العالم العربي - ظل بعيداً عن مقتضيات البحث العلمي والتربية الوطنية في وقت واحد وذلك لأن المؤلفات التاريخية العربية تستند إلى نوعين من المصادر: غربية وشرقية؛ والمصادر الغربية لم تتخلص تماماً من تأثير (النظرات الأوربية) التي نشأت على معاداة الشرق واستضعاف العرب حتى الآن. . . وأما المصادر الشرقية فقد ظلت بعيدة عن التطورات العلمية والنزعات التربوية في وقت واحد. . .

فيجب علينا في مرحلة النهضة التي وصلنا إليها أن نعيد النظر في أبحاث التاريخ بروح علمي وشعور قومي؛ وأن نوجه لأنفسنا - على هذا الأساس - مؤلفات تاريخية تجمع بين مقتضيات البحث العلمي ومطالب التربية الوطنية في وقت واحد. .

بغداد

أبو خلدون

في الحب وتهيؤ النفس له

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

أشرت في فصل إلى الوقت الذي تكون فيه النفس أحسن تهيؤاً للحب وقلت أنه وقت الفتور الخفيف، لا النشاط ولا التعب الشديد. وقد رأيت أن كثيرين استغربوا هذا؛ فيحسن أن أبين ما أعني وأن أجلوه إذا استطعت. وخير وسيلة لذلك أن نضيق دائرة

الاحتمالات وأن نسأل أنفسنا في أية ساعة يا ترى من ساعات الليل أو النهار يكون المرء أقوى استعداد نفس للحب؟. أيكون ذلك في الصباح حين ينهض المرء من النوم مستريحاً مجدد النفس موفور النشاط؟ أي على الريق؟. لا أظن! وأحسب أنه لو خطرت أمام المرء في هذه اللحظة أبرع الفتيات جمالاً، وأرشقهن قداً، وأسحرهن لحظاً، وأحلاهن ابتسامة، لما كان لجمالها من الوقع إلا أيسره. نعم يطرف المرء ويفرك عينيه ليستوثق من أنه ليس في حلم ولا يسعه بعد أن يوقن أن عينيه لم تخدعه إلا أن يعجب بالقد الرشيق والرونق البارع. وقد ينطق فيقول (ما شاء الله، سبحان ربي الخالق) ولكن الأمر يقف عند حد الإعجاب، أو قل إن السهم لا يستطيع أن ينفذ من اللحاف. وليس أحلى من أن يستطيع المرء أن يستأنف النوم بعد أن يستيقظ في البكور، فإن للنوم في هذه اللحظة إغراء لا أعرفه يكون له في ساعة أخرى؛ والرجل الذي يسعه أن يقاوم إغراء النوم في البكرة المطلولة لا أظن شيئاً آخر يعجزه. والجسم في هذه الساعة يكون مستريحاً إلى تفتير الراحة فيكون المرء مستيقظاً ولكن ينقصه النشاط الكافي والتنبه التام ومن هنا لا يحدث الحسن أثره لأنه لا يلاقي وعياً كاملاً.

أم ترى يكون الحب أسرع إلى النفس وأنفذ إلى القلب حين يخرج المرء في الصباح؟ لا أظن أيضاً! فإن القوى تكون مجددة والنفس منتعشة. ومعنى هذا أن نشاط الإنسان جم وأن قدرته على المقاومة تامة؛ ففي وسع الإنسان أن يعجب في هذه الساعة ما شاء من غير أن يقع في الشرك أو يصاب في مقتل. والحب مرض.

ومن الحقائق التي لا مكابرة فيها أنه كلما كان الجسم أصح كانت مقاومته للمرض أوفى وأكبر؛ وما من ساعة يكون فيها الجسم أوفر نشاطاً، وأعظم استجماماً، كساعة الصباح، بعد راحة النوم العميق الكافي، ومن كان يعرف أن أحداً أصيب بالحب في الفجر أو الصبح

فليتفضل عليَّ بنبأ ذلك فأن العلم به ينقصني؛ وقد قرأت كل ما وسعني أن أقرأ من شعراء العرب والإنجليز وغيرهم واطلعت على ما وقع لي من التراجم والأخبار ومن قصص العشاق الصحيحة والكاذبة المختلفة فلم أر أن أحداً أحب على الريق، فإذا كان هناك من اهتدى إلى غير ذلك فإنه يكون أحسن توفيقاً وأنا مستعد لتصديقه وتصحيح رأيي.

ولا أكاد أتصور أن يحب المرء وهو جائع ولا بعد أن تكتظ معدته بالطعام؛ فأما قبل أن يأكل فلأن إلحاح المعدة يشغله ويستغرق عنايته ولا يترك له بالاً إلى أمر آخر. وأما بعد الأكل فإن الامتلاء يصرف جهد الجسم إلى المعدة؛ أو إذا شئت فقل إنه يعدل المزاج فيشعر المرء أن كل شيء في الدنيا على ما يرام. وأنه ليس في الإمكان أبدع مما كان، فلا تكون له رغبة ولا فيه استعداد لتغيير هذه الحالة وإبدالها بغيرها مما لعله مزعج أو ناف لهذا الشعور السار الذي تسكن إليه النفس. وقد جربت - وأظن أن غيري جرب أيضاً - أن أسباب الخلاف والنزاع وخصوصاً بين الرجل وزوجته تفتر جداً، وكثيراً ما تزول جملة، بعد الأكل لسببين: الأول أن الجسم يشغل بما حشي به وصار أولى بجهده؛ والثاني أن الشعور بلذة الامتلاء - وهو شعور راجع إلى الحرص على الحياة - وما يفيده ذلك من الرضى والاغتباط لا يدعان محلاً للعودة إلى خلاف سخيف خليق أن يفسد هذا الشعور الجميل.

وأنا لا عالم ولا فيلسوف ولا شيء على الإطلاق مما يجري هذا المجرى، وإنما أتكلم بما أعرف وأتحدث عما جربت؛ والذي عرفته وجربته هو أن المرء في الصباح يحس حصانة ومناعة - من الأمراض ومن الجمال - وقلما يعني بأن يتبع النظرة في هذا الوقت؛ ولو أن اليوم كله صباح لكان على الحب السلام، ولكن اليوم ليس كله صباحاً مع الأسف. والمثل يقول إذا أردت أن تطاع فمر بما يستطاع. وما من أحد يستطيع أن يكون في الظهر كما يكون في الصباح، ولا في التاسعة صباحاً كما يكون في التاسعة مساء. في الصبح يكون قوياً قادراً على العمل كفئاً لمقاومة المغريات لأنه مستجم مستريح، فإذا جاء الظهر يكون قد تعب وشعر بالفتور وبالحاجة إلى الراحة والطعام - أو الطعام والراحة - ويكون العمل قد هد منه وسرق من قوته وسلبه بعض ما ادخره للكفاح والنضال. ولكن الحاجة إلى الطعام تكون أقوى ما يحس وألح ما يدرك، فيصرفه ذلك عن كل ما عداه ولا يبقى له هم إلا أن

يجلس إلى مائدة حافلة بما يسكت هذه العصافير المزقزقة ويعفيه من ثقل الشعور بما يتلوى في جوفه. فإذا رأى جمالاً فبعيد جداً أن يحبه مهما بلغ من ظمأ النفس إلى الحب؛ وقد يشعر بالسرور وينشرح صدره ولكنه لا يتمهل في عدوه إلى البيت أو إلى حيث يكون الطعام الذي يطلبه ما لا سلطان له عليه، وأحسب أن كل ما يؤدي إليه رؤية الجمال في هذه الساعة هو أن السرور يزيد القدرة على التهام الطعام.

ويأكل المرء وينام ويستيقظ ويقوم متثاقلاً، وقد أصاب حظاً من الراحة - لا كل ما يحتاج إليه - ويستحم أو يكتفي بغسل رأسه ووجهه ولكن الثقلة لا تزايله، لأنه لم يستوف نصيبه العادل من الراحة، ولم يعوض كل ما أنفقه في يومه، فهو لا يزال متعباً ولكنه تعب خفيف لا يشق على النفس ولا يبهظ الجسم احتماله. وهذا هو الوقت الخطر على ذي القلب الحساس. ويستوي أن يكون الوقت العصر أو نصف الليل فإن المهم أن يكون الجسم متعباً بعض التعب وأن يكون تعبه بحيث لا يثقل عليه ولا يمنعه أن يخرج ويجالس الناس ويشهد السينما ويسهر مع الساهرين ويلتمس المتع التي يلتمسها الناس في العادة بعد أن يفرغوا من أعمالهم ويتخلوا لأنفسهم. والتعب الخفيف هو الخطر. وهذا لا وقت له على وجه التعيين فقد يكون العصر وقته عندي في يوم والصباح وقته في يوم آخر. والتعب الخفيف هو فرصة الأمراض والحب لأن المرء لا يفطن إليه ولا يباليه ولا يتحرز من عواقبه ولا يحاول أن يقاوم ما يهجم عليه في فترته، فكأن المرء يؤخذ على غرة، وأهبته للكفاح والمقاومة غير تامة.

ولو عنى الإنسان بأن يدرس نفسه ويتدبر حالاتها لوجد أنه لا يمكن مثلاً أن يفضي بسر له يحرص عليه وهو مستجم مستريح الجسم، وإنما يبث نجواه ويقول بسره وشجوه حين يكون متعباً قليلاً - كائناً ما كان سبب التعب، فقد يكون ذلك من جراء العمل أو يكون بفعل الخمر أو يكون بعد المشي مسافة طويلة أو بعد جلسة يمتد زمنها، أو على أثر برد خفيف إلى آخر ذلك - وصاحب الجسم المستوفي نصيبه من الراحة لا يخطر له مثلاً أن يخوض بحثاً في نظام الكون، ويروح يجزم بما يدور في نفسه من الأوهام التي يحسبها حقائق لا تدفع، لأن صحة الجسم تساعد على إدراك القصور الإنساني. وإنما يفعل ذلك الذي به تعب خفيف لا يحسه، ولا يعرف له وطأة. والتعب الخفيف يهيج شهوات الجسم كما يتيح لجراثيم الأمراض فرصة العيث، فيلقى المرء نفسه غير قادر كما ينبغي على المقاومة، ويحس أنه أصبح طوع الجواذب؛ فإذا عرضت عليه كأساً لم يطل تمنعه، وقد تحدثه نفسه بأن ذلك ربما كان أجلب للنشاط وينسى رد الفعل الذي يعقب هذا النشاط المجلوب. وإذا خايله الجمال تحركت نفسه كما لا يمكن أن تتحرك وهو موفور القوة أو شديد التعب. وإذا استطرد الحديث إلى ما وراء الطبيعة جازف بالآراء وقطع وجزم بلا تردد أو تلعثم. وليس ذلك من الثقة بالنفس ولا من طول التدبر والنظر وإنما هو من الفتور الحاصل الذي يغري بالكسل واتقاء عناء البحث الذي يزيد به التعب. والمرء في هذه الحالة لا يكسل وهو شاعر بكسله ولا يتقي العناء وهو عارف بأنه يتقيه، وإنما يفعل ذلك بغريزته التي تدفعه من حيث يشعر ولا يشعر إلى وقاية نفسه والمحافظة عليها.

ومتى جاوز التعب - أعني الشعور به - الحد الذي يسهل احتماله ويهون الصبر عليه فقد استحال الحب. فالمتضور جوعاً، والذي يرعد من البرد، والذي به مغص أو غيره من المزعجات والمنغصات، والذي يكاد يسقط من فرط الإعياء، والذي يغالبه النوم ويثني رأسه النعاس الخ الخ لا يمكن أن يجد الحب سبيلاً إلى قلبه قبل أن يزول ذلك عنه، وإذا اتفق أنه كان عاشقاً فأنه لا شك ينسى حبه وعشقه حتى يشفى أو يستريح أو يشبع، ومن كان لا يصدق فليجرب وليختبر نفسه. وفي وسع كل إنسان أن يجعل باله إلى حالات نفسه في الصحة والمرض وفي الجوع والشبع وأن ينظر هل يكون له عقل يفكر في حبيب وهو جائع أو بردان أو متألم أو متهافت من النصب.

والمرأة تدرك هذه الحقائق بغريزتها الذكية، فهي دليلي على صحة ما أقول. واسألوا أنفسكم متى ترون المرأة تعنى بزينتها وعرض محاسنها على الرجل فلن تجدوها تفعل ذلك في الوقت الذي تحس فيه أن الرجل مستجم مستريح أي قادر على مقاومة مفاتنها، وإنما نراها تفعل ذلك وتلجأ إلى معونة الثياب المنسجمة على الجسم المبرزة للمفاتن، وإلى المساحيق التي تؤكد الإشراق والنضرة في وقت التعب الخفيف لا في

وقت النشاط التام ولا وقت التقوض والانهداد. وأحسب أن من المفهوم أن كلامي هو على المرأة حين تتصدى للرجل بحكم طبيعتها لا عامدة ولا حين تخرج لعملها إذا كانت تعمل أو لقضاء حاجة لها فما تستطيع إلا أن تتزين إلى حد ما تبرز للناس لأن طبيعتها وتغريها بأن تحشد قوتها كلها
وسلاحها أجمعه على سبيل الاستعداد للمنازلة، ولو كانت فرصتها بعيدة فأن الأمر بين الرجل والمرأة أمر حرب - هي تقاتله وتحاول أن تغلبه بالجمال وهو سلاحها وهو يقاومها ويحاول أن يغلبها بقوته وجلده الخ، وقد يكون من غريب أمر هذه الحرب أن النصر فيها موزع وأن الذي يبدو فيها ظافراً كثيراً ما يكون هو المهزوم، وأن الذي يتظاهر بالتسليم وإلقاء السلاح عسى أن يكون هو الغالب المنصور بل الفريقان المقتتلان لا نصر لهما ولا هزيمة، وإنما النصر للحياة التي تسخرهما لغاياتها وتتخذ منهما أداة. ولكن هذا استطراد فلنعد إلى سؤالنا، ولنتوسع فيه قليلاً. فهل يظن أحد أن من المصادفات البحتة أن المرأة لا تتزين في الأغلب إلا في العصر أو المساء أو الليل؟. إن ثياب المرأة للزينة، قبل أن تكون للمنفعة - وكذلك ثياب الرجل إلى حد كبير - ولكن الزينة مقدمة على المنفعة عند المرأة، لأن المرأة هي الشرك الذي تنصبه الحياة للرجل، والزينة تؤكد الجمال وتبرزه. وهل يستطيع أحد أن يزعم أن هذه الثياب التي تلبسها المرأة لها أدنى نفع في وقاية أو ستر؟ ولكنها لا تعني بالزينة في الأوقات التي تقول لها غريزتها إنها تكون زيادة لا داعي لها ولا تأثير، مثل الصباح الباكر أو قبل الظهر حين يكون الناس جياعاً، فإذا مال ميزان النهار الذي هو وقت العمل الطبيعي وأحدث العمل اليومي أثره الذي لابد منه وأنتج السعي للرزق أو غيره ذلك الفتور الخفيف وأنشأ الرغبة في اللهو والتسرية عن النفس والتماس ما ينسي الإنسان تعب النهار ومشقات العمل ومتاعب الحياة - إذا جاء هذا الوقت رأيت المرأة معنية بزينتها وثيابها، ومن هنا كانت ثياب السهرة وتوخي المرأة فيها أن تجعلها ثياب جلوة، تجلو محاسنها كلها وتعرض مفاتنها وتحيلها أوقع في النفس، ولو كان الأمر إلى العقل وحده وإلى الفائدة المطلوبة من الثياب لما كان الليل أحق بهذه الثياب من النهار، ولكن الغرض ليس الفائدة بل الفتنة، والفتنة تكون أسهل ومطلبها أيسر بعد تعب النهار وبعد حلول الفتور الخفيف الخفي الذي يساعد على التغلب على الفريسة.
ولنسأل سؤالاً آخر: لماذا يحلو الغزل والمناجاة في الليل الساجي وفي ضوء القمر اللين ولا يحلوان تحت الشمس المحرقة وفي الظهر الأحمر؟. وأجمل الجواب اتقاء للإطالة فأقول: إن الليل هو وقت الفتور، وإن سهوم القمر وسكونه يزيدان هذا الفتور، وإن اجتماع الفتور الطبيعي بالليل بعد الكدح بالنهار واللين المفتر الذي يحسه الإنسان من ضوء القمر يجعل
مقاومة الإغراء أضعف، لما يحدثه ذلك من استرخاء الأعصاب وكسلها؛ وشيء آخر أحسبه حقيقة وإن كنت لا أعرف له علة وذلك أن للقمر أثراً محسوساً في حالة الأعصاب. ومن هنا يعتقد العامة أن طول النظر إلى وجه القمر يحدث الخبل ويورث الجنون؛ ولا أعرف علة لذلك ولست أدري أن العلم اهتدى إلى تعليل له، ولكن الذي أعرفه أن للقمر أثراً معترفاً به في المد والجزر، فما دام أن له هذا الأثر فماذا يمنع أن يكون أثره أبلغ وأوسع نطاقاً وأمس بحياة الجسم الإنساني وحالاته؟ إن الماء الذي يؤثر فيه القمر ليس شيئاً أجنبياً منا وإنما هو بعض ما نحيا به، بل هو أصل لا مكابرة فيه. ثم أن أثره في المرأة معروف، حتى أن الدورة عندها تحسب بالشهر القمري. والذي أعرفه أيضاً أن الناس من اقدم العصور قرنوا ضوء القمر بالجنون ولا تزال في اللغات المختلفة ألفاظ يفهم منها اقتران معنى الجنون بضوء القمر. بل إن اللفظ الدال على الجنون في لغات كثيرة مشتق من أسم القمر. وعسى من يسأل (ولكن ما علاقة هذا بالحب؟) والجواب أني لفت النظر إلى أن الغزل والمناجاة يكونان في الأغلب والأعم في الليل ويطيبان في ضوء القمر. وقد قلت إن تجربة الناس من أقدم العصور هدتهم إلى أن للقمر أثراً سيئاً في عقل الإنسان واتزانه؛ وقد بقي في لغاتهم أثر هذا الاعتقاد. وقد يكون أو لا يكون هذا صحيحاً ولكنه خلاصة تجارب الخلق ومشاهداتهم في عصور طويلة لا يعرف لها أول، وبعيد جداً أن يكون كله وهماً. ومهما يكن من ذلك فالمحقق أن ساعات الليل ساعات ضعف بالقياس إلى نشاط النهار بعد راحة النوم الكافي. فالتأثر بالجمال يكون فيها أقوى والمقاومة تكون أضعف.

وقد قلت أن الحب شرك تنصبه الطبيعة للإنسان لإبقاء الدنيا عامرة بنسله - لا أدري لماذا - ولكن هذا هو المشاهد على كل حال. ففي هذا يحسن أن أقول كلمة وجيزة: سئلت امرأة عجوز عن آرائها في بعض وجوه الحياة فقالت: إن سخافة الرجال تظهر في ثلاثة أمور: الأول أنهم يتكلفون عناءً شديداً ليتسلقوا الشجر ويقطفوا الثمر؛ ولو أراحوا أنفسهم وجلسوا ينعمون بالظل تحت أفنان الشجرة لألقت إليهم بثمرها في أوانه. والثاني أنهم يذهبون إلى الحرب ليقتل بعضهم بعضاً؛ ولو انتظروا لجاءهم الموت جميعاً. والثالث أنهم يجرون وراء المرأة؛ ولو كفوا عن ذلك لجرت وراءهم المرأة. فهذه عجوز حكيمة. وأحسب أن حكمة الصبر هذه يرجع الفضل فيها إلى السن العالية وما تجره من العجز. ولكن الواقع على كل حال أن المرأة هي التي تطارد الرجل وليس الرجل هو الذي يطارد المرأة. وقد كنت في أول عهدي بالأدب أستنكر قول ابن الرومي:

أصبحت الدنيا تروق من نظر
بمنظر فيه جلاء للبصر
أثنت على الله بآلاء المطر
فالأرض في روض كأفواف الحبر
نيرة النوار زهراء الزهر
تبرجت بعد حياء وخفر
تبرج الأنثى تصدح للذكر

والشطر الأخير هو المقصود. وكنت أستثقل قوله إن المرأة تتبرج لتتصدى للرجل ولكن المرء يزداد فهمه للحياة على الأيام. وإنه ليضحكني الآن أن الرجل يتوهم أنه هو الصائد الجريء المقدام الذي يوقع منظره الخشن الرعب في قلب المرأة المسكينة الضعيفة! وإنما يضحكني أن هذا الوهم وما يفضي إليه من الغرور هما اللذان يوقعانه في شرك المرأة. فهو ينسى لغروره أنه لا يفكر في الحب إلا بعد أن تلقحه المرأة بجرثومته، أي بعد أن يصاب به. على حين كانت المرأة تعد عدتها لهذا اليوم وتتدرب على إجادة هذا الفن وتدرس كل أساليب الإغراء مذ كانت طفلة في المهد. وهذه مبالغة ولكني أريد أن أقول إن الطبيعة جعلتها أداة لإغراء الرجل وأعدتها بفطرتها لاجتذابه واستدراجه وإيقاعه في الفخ. وهي في هذا لا تحتاج إلى معلم، وحسبها غريزتها هادياً ومرشداً. وهي تتقن فن الاستدراج إتقاناً عظيماً وتعرف في أية لحظة ينبغي أن تزيد المسافة بينها وبين الرجل الذي تدعه يتوهم أنه هو الذي يبدأ بمطاردتها، وتعرف متى تتباطأ وتقصر الخطو، لتزيد أمله في إدراكها، فيقوى عزمه ويشتد عدوه وراءها والمرأة أعرف بالمرأة، أو هي أولى بذلك من الرجل وأخلق بأن تكون أقدر عليه، وقد وجدت في كتاب لكاتبة اسمها (الينورجلين) - واسم الكتاب (العاطفة التي تدعى الحب) هذه النصيحة التي يجدر بكل رجل أن يتدبرها قالت:

(قاعدة عامة - أول ما ينبغي أن تتذكريه هو ألا تظهري رغبة شديدة أو إقبالاً عظيماً أو لهفة، فأن الغرض هو الاستيلاء على الرجل. والرجل مهما بلغ من وداعته وضعفه يحب أن يتوهم أنه هو الذي يقوم بالمطاردة. ولا بد للفتاة التي تخرج للقنص والصيد من أن تدرس أساليب الصيد ووسائله وأن تستعين على التوفيق بمعرفة طباع القنيصة. وما من رجل يعتقد أن في وسعه أن يصيد غزالاً بأن يجري وراءه ويصيح به. والأساليب التي يستخدمها لصيد الفهود والنمور غير التي يلجأ إليها حين تكون غايته الأرانب، ومتى استطعت أن تثيري اهتمامه بك فليس عليك بعد ذلك إلا أن تغذي نفسه ببواعث الرغبة فإذا هو بين يديك، واعلمي أن الرجل يجد لذة في المطاردة، ولكن حماسته تفتر متى ألفى الطريدة في حقيبته. وإذا وجد أن الصيد سهل جداً فقلما يعنى بأن يمد يده ليتناوله وقد يدعه على الأرض حيث وقع. أما إذا كان الطراد شاقاً عنيفاً مثيراً وكانت الطريدة شديدة الحذر طويلة الصبر على جهد الطراد فإن الرجل خليق بأن يزهى بالفوز بها وأن يروح يعرض الصيد على العيون مفاخراً مباهياً) أهـ.

ولا شك أن الواجب الذي أوكلته الطبيعة إلى المرأة شاق، فليس من السهل أن تلعب دور الهارب وهي في الوقت نفسه مصممة على الوقوع في يد المطارد. فقد تطول المسافة بينها وبينه جداً فييأس وينكفئ راجعاً ويعدل عن المطاردة. فإذا تركته يدنو منها جداً ويدركها بسرعة وسهولة وبلا جهد يستحق الذكر فقد ينفض يده من الأمر لأنه

يراه أسهل عليه من أن يحس أنه يفيد منه متعة ويروح يلتمس صيداً غيره يستحق العناء. فالأمر يتطلب حذقاً في التقدير وبراعة وسرعة في التقرير من جانب المرأة.

ومن هنا يحدث كثير من المضحكات التي يعجب لها الرجل ولا يرى له قدرة على فهمها. وكثيراً ما يفوته الجانب المضحك لأنه يشغل بالفهم على طريقه هو، فيصرفه ذلك عن الفكاهة. من ذلك مثلاً أن واحدة اشترطت لقبول الزواج أن يكون للرجل ألف جنيه مدخرة لأن القرش الأبيض ينفع في اليوم الأسود، فراح المسكين يقتصد ويدخر - أو يحاول ذلك على الأصح - وطال الأمر وتعاقبت الشهور وهو يجد ولا يتكلم ولا يظهر أيضاً وكيف يظهر لها قبل أن يجمع المبلغ المطلوب. فلقيته اتفاقاً وسألته عما صنع، فقال: (لم استطع أن اقتصد إلى اليوم أكثر من جنيهين) فابتسمت له بعد أن أطالت النظر إليه وقالت (أظن أن هذا قريب جداً من الغاية)

وكما أن الرجل يجد لذة في المطاردة، كذلك المرأة تجد لذة في أن تُطارَد حتى ولو كانت نيتها معقودة على النجاة لا على الوقوع؛ وهذا معقول، لأنه يسر المرأة أن تعرف أنها جميلة وأن الرجل يريدها وإن كانت هي لا تريده. وأحسب أن المتعة المستفادة من الطراد هي كل ما في الحب من لذاذة؛ ومتى انتهى الأمر ووقعت الفريسة، فتر النشاط والحماسة، وسكنت النفس وهدأت الأعصاب. ومن هنا يخطئ الذين يتوهمون أن للحب عمراً أكثر من عمر المطاردة، ومن هنا أيضاً يخيب أمل الذين يتزوجون وهم يحسبون أن الحب يدوم. وما أكثر من يسألون عن الوفاء والحفاظ ما فعل الله بهما. ولو فكروا لما انتظروا وفاءً ولا حفاظاً ولا خاب لهم أمل ولا ندبوا حظوظهم في الدنيا، فإن الحب - ككل شيء في هذه الحياة - لا عمر له ولا بقاء؛ وهو يبقى ما بقيت لذته؛ ولذته تنتهي بانتهاء المطاردة. كل شيء في هذه الدنيا إلى حين، فلماذا يكون الحب وحده هو الباقي الدائم؟

والمرأة تدرك هذه الحقيقة بغريزتها أيضاً؛ ولذلك نراها تحاول أن تستبقي روح المطاردة بعد انتهائها بما نسميه الدلال وهو فن يراد به أن يشعر الرجل أن به حاجة إلى السعي والجهد فيؤدي ذلك إلى شحذ الرغبة ونفي الفتور وتجدد الطلب. فالحق أن الطبيعة حكيمة وإن كانت حكمتها لا تبدو لنا في أكثر الأحيان.

إبراهيم عبد القادر المازني

لمناسبة تتويج جلالة الفاروق

رسوم البيعة والتتويج في عهد الدولة الفاطمية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

يبلغ صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ملك مصر رشده الدستوري في الثامن والعشرين من شهر يولية القادم. وقد أثيرت بهذه المناسبة مسألة الرسوم والإجراءات التي يحسن اتباعها لإعلان هذا الحادث السعيد، وافتتاح العهد الجديد بما يليق به من الروعة الملوكية والدستورية.

ومن المقرر أن الدول الملوكية العريقة تتبع في مثل هذه المناسبات رسومها وتقاليدها الملوكية الخاصة؛ وقد رأينا كيف أحيطت حفلات التتويج البريطاني بكثير من الرسوم الملوكية القديمة التي يرجع بعضها إلى عدة قرون؛ ولكن يلاحظ هنا أن الملوكية الإنكليزية لبثت منذ قيامها حتى يومنا متصلة الحلقات، يحتفظ العرش بمعظم رسومها وتقاليدها عصراً بعد عصر. أما الملوكية المصرية فقد انقطع سيرها وعفت رسومها منذ الفتح العثماني زهاء أربعة قرون حتى أعلن المغفور له الملك فؤاد الأول ملكاً على مصر في سنة 1922.

ومع ذلك فأن للملوكية المصرية الإسلامية رسوماً وتقاليد عريقة انتهت إلينا منها صور وذكريات باهرة. وقد عرفت مصر الإسلامية هذه الرسوم الملوكية الخاصة منذ استحالت من ولاية خلافية إلى وحدة سياسية مستقلة في ظل الدولتين الطولونية والأخشيدية اللتين كانتا بالرغم من ولائهما الاسمي للخلافة العباسية تتمتعان ببعض الرسوم والتقاليد الملوكية الخاصة، مثل صدور البيعة للأمير، وتحليه بألقاب الإمارة وأحياناً بالألقاب الملوكية مثل اتخاذ محمد بن طغج لقب الأخشيد (أي أمير الأمراء)، أو تمتعه ببعض الامتيازات الملوكية السياسية، كما فعل الأخشيد حينما اتصل بقيصر قسطنطينية مباشرة في المكاتبات الدبلوماسية المتعلقة بمصر وغير ذلك؛ وثانياً حينما

غدت مصر خلافة أو دولة مستقلة كاملة السيادة في ظل الدول الإسلامية المتعاقبة.
وقد عرفت الملوكية المصرية رسومها وتقاليدها الراسخة في ظل الدولة الفاطمية:
وكانت هذه الدولة القوية تجنح إلى البهاء والفخامة في جميع رسومها وتقاليدها.
وكانت تولية
الخليفة الفاطمي تحاط بطائفة من الرسوم والمواكب الباذخة؛ ولما قدم المعز لدين
الله أول الخلفاء الفاطميين إلى مصر سنة 362هـ، بعد أن افتتحها قائده جوهر
الصقلي قبل ذلك بأربعة أعوام (سنة 358هـ) لم ترتب إجراءات خاصة لإعلانه خليفة
أو ملكاً على مصر، لأن المصريين ارتضوه على يد زعمائهم وأعيانهم خليفة وملكاً
عليهم عند الفتح حينما قدموا خضوعهم لنائبه وممثله جوهر، وقطع جوهر الدعوة
العباسية، وبدأت الدعوة للخليفة الفاطمي؛ بيد أنه حينما وصل المعز إلى الإسكندرية
في شعبان سنة 362هـ، استقبله أعيان مصر وعلى رأسهم قاضيها الأكبر وجددوا له
مراسيم الخضوع والبيعة، وقصد المعز بعد ذلك إلى القاهرة ونزل بالقصر، وبدأ عهده
في الحكم والولاية في اليوم الخامس عشر من رمضان، إذ جلس بالقصر على عرشه
الذهبي الذي أعده له جوهر في الإيوان الجديد، وأذن بدخول الأشراف ثم الأولياء
وسائر وجوه الناس، وكان القائد جوهر قائماً بين يديه يقدمهم إليه فوجاً بعد فوج
فيأخذون له البيعة والعهد، وعلى هذا النحو نظمت مراسيم التتويج لأول خليفة فاطمي
بمصر.
ومنذ عهد العزيز بالله ولد المعز لدين الله تتخذ رسوم التتويج الفاطمية صورها
الباذخة، وكانت هذه الرسوم تجري أولاً في القصر الفاطمي في الإيوان الكبير ثم بعد
ذلك في قاعة الذهب التي أنشأها العزيز بالله، وجددها المستنصر بالله فيما بعد، وكان
بها عرش الخلافة، وبها يجلس الخليفة أيام المواسم العامة، ويجلس للركوب يومي
الاثنين والخميس من كل أسبوع، وبها كان يقام سماط العيدين، وسماط رمضان
للأمراء، وكانت تعرف بقصر الذهب. وكانت مبايعة الخليفة الجديد تجري في حفل عام
يرتبه مدبر الدولة أو كبير الوزراء أياً كان لقبه، وصاحب الباب أو حاجب الحجاب وهو
اكبر رجال القصر، والسفهسلار أو القائد العام للجيش، وذلك بالاتفاق مع قاضي
القضاة، وهو في العرف السياسي أعظم رجال الدولة مقاماً ونفوذاً
وكان ينادي بالخليفة الجديد عقب وفاة سلفه مباشرةً؛ ولا فرق في ذلك أن يكون
الخليفة الجديد صبياً أو بالغ الرشد؛ ويقع هذا الإجراء الأول بالقصر أو حيث كانت وفاة
الخليفة الذاهب، ويتولاه أعظم رجال القصر نفوذاً أو قاضي القضاة ثم يعقبه إجراء
البيعة العامة بالإيوان الكبير وهو أيضاً من منشآت العزيز بالله، وجرت فيه بيعة الحاكم
بأمر الله فابنه
الظاهر لإعزاز دين الله، فابنه المستنصر بالله، فابنه المستعلي بالله، فابنه الآمر
بأحكام الله. ثم نقل الخليفة الآمر بأحكام الله سرير الملك (العرش الخلافي) من
الإيوان الكبير إلى قاعة الذهب، فحلت مكان الإيوان من ذلك الحين في إجراء الرسوم
الخلافية العظيمة؛ وكان الاحتفال بالبيعة عامّاً يشهده رجال الدولة وأكابر الجند
والأعيان وأفراد الشعب، ويبدأ بأخذ البيعة للخليفة الجديد قاضي القضاة وأعضاء
الأسرة الفاطمية وأكابر رجال الدولة والقصر، ويسلمون عليه بسلام الخلافة وصيغته
(السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته) ثم يقبلون له الأرض؛ وإذا وافق
جلوسه يوم عيد، خرج الخليفة في موكبه إلى الصلاة، كما حدث عند تولية الظاهر
لإعزاز دين الله حيث وافق جلوسه يوم النحر (عيد الأضحى) فأخذت له البيعة، ثم خرج
إلى صلاة العيد، وعلى رأسه المظلة وحوله العساكر، وصلى بالناس، ثم عاد إلى
القصر، فكتب بخلافته إلى سائر الأنحاء.
وكان للعرش الفاطمي عدة من الذخائر والآلات الملوكية كانت آية في الفخامة
والبهاء والبذخ، من ذلك سرير الملك، أو العرش الذي يجلس عليه الخليفة يوم توليه
الملك، ثم بعد ذلك أيام المواكب والاستقبالات الرسمية. ويقول مؤرخ معاصر في
وصفه: (إن وزن ما استعمل من الذهب الابريز الخالص في سرير الملك الكبير مائة
ألف مثقال وعشرة آلاف مثقال، ووزن ما حلي به الستر الذي أنشأه سيد الوزراء أبو
محمد اليازوري من الذهب أيضاً ثلاثون ألف مثقال، وأنه رصع بألف وخمسمائة وستين
قطعة جوهر من سائر ألوانه. وذكر أن في الشمسية الكبيرة ثلاثين ألف مثقال ذهباً،

وعشرين ألف درهم مخرقة، وثلاثة آلاف وستمائة قطعة جوهر من سائر ألوانه وأنواعه، وأن في الشمسية التي لم تتم من الذهب سبعة عشر ألف مثقال) والى جانب العرش يوجد تاج الخليفة أو التاج الشريف، وهو تاج يضعه الخليفة على رأسه في الموكب والأيام العظام، وبه جوهرة عظيمة تعرف باليتيمة زنتها سبعة دراهم، وحولها جواهر أخرى دونها؛ وقضيب الملك، وهو عود طوله شبر ونصف ملبس بالذهب مرصع بالدر والجواهر يحمله الخليفة بيده في المواكب العظام؛ والسيف الخاص، يحمل مع الخليفة في المواكب العظام أيضاً؛ وله أمير من أعظم الأمراء يحمله عند ركوب الخليفة؛ ومنها المظلة التي تحمل على رأس الخليفة عند ركوبه، وهي قبة ،فاخرة ملبسة في أنابيب الذهب، وحاملها من أعظم الأمراء؛ والرمح والدواة، والدرقة والحافر، وهي قطعة من ياقوت أحمر في شكل الهلال تحمل في وجه فرس الخليفة عند ركوبه في المواكب العظيمة؛ ومنها الأعلام والبنود والسلاح الخاص الذي يحمله الركابية أو الحرس الملكي.

وقد انتهى إلينا وصف بعض المناظر الواقعية التي أحاطت بتولية أحد الخلفاء الفاطميين، وهو الحاكم بأمر الله ولد العزيز بالله، نقلها إلينا مؤرخ معاصر هو عز الملك المسبحي وزير الحاكم وصديقه ونحن نعرف أن الحاكم بأمر الله تولى الحكم حدثاً عقب وفاة والد العزيز في مدينة بلبيس في 28 رمضان سنة 386هـ. يقول المسبحي: (قال لي الحاكم، وقد جرى ذكر والده العزيز يا مختار، استدعاني والدي قبل موته، وعليه الخرق والضماد، فاستدناني إليه وقبلني وضمني إليه وقال: وأغمي عليك يا حبيب قلبي ودمعت عيناه. ثم قال امض يا سيدي والعب، فأنا في عافية قال، فمضيت، والتهيت بما يلتهي به الصبيان من اللعب إلى أن نقل الله سبحانه وتعالى العزيز إليه، قال فبادر إلى برجوان، وأنا في أعلى جميزة كانت في الدار، فقال: انزل، ويحكم الله فينا وفيك، قال فنزلت، فوضع العمامة بالجوهر على رأسي وقبل لي الأرض، وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. قال، وأخرجني حينئذٍ إلى الناس على تلك الهيئة، فقبل جميعهم لي الأرض وسلموا علي بالخلافة، وقع هذا المنظر بمدينة بلبيس في 28 رمضان. وفي اليوم التالي سار الحاكم إلى عاصمة ملكه في موكب رهيب فخم وأمامه جثة أبيه، وبين يديه البنود والرايات؛ وقد ارتدى دراعة مصمت، وعمامة يكللها الجوهر، وتقلد السيف وبيده رمح فدخل القاهرة عند مغيب الشمس؛ وفي الحال أخذ في تجهيز أبيه، ودفن عشاء بالقصر. وفي صباح اليوم التالي، بكر سائر رجال الدولة إلى القصر، وقد نصب للخليفة الصبي في الإيوان الكبير، سرير من الذهب عليه مرتبة مذهبة، وخرج من القصر إلى الإيوان راكباً وعلى رأسه معممة الجوهر والناس وقوف في صحن الإيوان، فقبلوا الأرض ومشوا بين يديه حتى جلس على عرشه، وسلم عليه الجميع بالإمامة ونودي في القاهرة والبلدان أن الأمن وطد والنظام مستتب فلا مؤنة ولا كلفة، ولا خوف على النفس أو المال.

هذه لمحة من الرسوم والتقاليد التي كانت تجري عليها الدولة الفاطمية في تولية خلفائها، وهي رسوم ملوكية عريقة يطبعها لون من البذخ الساحر، وقد كانت الدولة الفاطمية، وهي

أولى الدول الإسلامية المستقلة بمصر، دولة البذخ والبهاء. وكانت رسومها وتقاليدها فيما بعد مستقى خصباً للدولة الإسلامية التي تعاقبت من بعدها في عرش مصر.

محمد عبد الله عنان

دموع الحب

للأستاذ يوسف البعيني

لتَتَذوق رحيق الفن، وتتسلل إلى سراديبه الرهيبة وتعانق غوانيه المعطرة. . يجب أن تقرأ - بول فاليري - فقصيدة واحدة من هذا الشاعر العبقري المجدد حياة فنية منفردة لها ألوانها وخطوطها وأصباغها. جملة صغيرة من ريشة بول فاليري تعطيك معنى ألذ من تغريد البلبل، وأطرب من أنغام الرباب. وأعذب من الأحلام. . أما الحياة التي تلمسها في سطوره وصوره فتبكي وتفرح، تشكو وتبتسم. تغرد للصباح الضاحك، وتكتئب للمساء الحزين؛ حياة ككل حياة، لكنها تختلف برموزها وأسرارها. وهذه الرموز والأسرار هي عبقرية الشاعر العظيم والفنان الملهم؛ وهي كائنه الحي الأعلى؛ هي روحه التي غاصت في البحر فالتقطت درره، وتغلغلت في الليل فاتشحت بإزاره. وفي

القلوب فاجتنت ميولها وعواطفها وشهواتها.
لقد قرأت أكثر مؤلفاته فتبينت فيها الفن المجنح الذي يفتح عينيك على صور موشاة بجميع ألوان الحياة وأدهنتها الرائعة. وما إن تحدق قليلاً بسطر من سطوره حتى تتولاك رحاب الشاعرية؛ هي غيبوبة بعيدة القرار يشملك بها الشاعر الفنان فيريك بهجة الربيع واخضراره، ويسمعك عويل الخريف وشكواه. وإن شاعراً يغمرك بكل ما تشتاقه الروح ويحلم به القلب ليعرف من الحياة غير أسمائها. ويقرأ من الكلمات أكثر من حروفها، ويبصر في مشاهد الأعراس والمآتم غير ما يبصره الناس!
ومن أروع ما طالعته أخيراً لهذا الشاعر الساحر رسالة دعاها - دموع الحب - قرأتها بروح نَهِمة تريد أن تتفهم معاني الحياة وتتكشف أسرار الجمال فإذا هي قطعة فنية خالبة يشوقك ما فيها من تقديس لدموع الحب، الحب الذي يتفجر من صدر المرأة فيبقى خافقاً في روع الماضي والحاضر والمستقبل. وليت شعري هل في العالم حديث أعذب من حديث رقيق تدبجه ريشة الفنان المتعبد للمثل الأعلى في ساعات وحيه وإلهامه؟ إن الكلمة التي تتحدر في قلبك وقد تشربت بدموع الحب وتسربلت بضبابه لهي الكلمة الحية، بل هي الكلمة الخالدة التي تتباغم بها أشباح الأيام والليالي.
ولكنني وقفت مبهوتاً أمام مقطع صغير عنوانه - انتحار ودموع - لا لشيء إلا لأنه مقطع تنبو عنه الحياة، وإن يكن يستظرفه الفن؛ وينبذه الحب الروحاني الملظى بجمر التضحية والمدمَّى بالألم والاستشهاد، وإن تكن ترتضيه الشهوة الوحشية المتنطسة. وإني لمورد خلاصته فيما يلي لتعلم أن الشاعر مهما مُنح من فن وإبداع. وأوتي من تصور وإدراك، يظل جاهلاً أسرار المرأة، رازحاً من حبها ودموعها على كلال.
أما المرأة التي جاء الشاعر يقدس دموعها في ذلك المقطع الصغير فهي - كليوباطرة - ملكة مصر وربة النيل. ولكن أصادقةٌ تلك الدموع التي ذرفتها المرأة الحسناء على موت حبها؟ هذا ما أريد معرفته. فلتقرأ الآن خلاصة القصيدة:
قبل أن تودع كليوباطرة حياتها الزاخرة بذكريات الحب أحبت أن تهيئ لعشاق جمالها مأدبة كبرى مثقلة بكرمها الملكي، ففعلت: وبعد انتهاء المأدبة أحضرت لها وصيفتها الأمينة (إيراش) سلة مملوءة بالتين، فكافأتها وشكرتها كثيراً ثم أخرجت من طيات ثوبها الفاخر خطاباً قصيراً لتسلمه الوصيفة إلى (أوكتافيوس) قيصر رومه في ذلك العهد.
وبعد هذا بحين انسحبت كليوباطرة إلى مخدعها الشيق المزين بزهر الجلنار وجلست وحيدة، وفي وحدتها الموحشة شرعت تحلم إلى أن اخضلت أجفانها بالدموع بكت لأنها تذكرت أيامها الماضية. . . تلك الأيام المخمرة بالحب!
إلا أنها لم تلبث أن مسحت دموعها ونظرت إلى وريقات التين نظرة عميقة مفعمة بالتأمل وطافحة بالحزن والألم. وذلك لأن عيني الحية الماكرتين كانتا تلمعان في وسطها لمعاناً موجساً مخيفاً كنور الحباحب على قبر مهجور.
وفيما هي تتناول الحية السامة بأناملها قالت تباغمها بكلام رقيق كنوم السحر: أيتها المخلوقة الفاتنة، المرذولة من جميع الناس، إني أعبدك. . . ولهذا تريننيِ لا أخشى لذعتك! نعم لا أخشاها. . . لكونها تريحني من هذا العالم، وتجمعني بمن أحب. . . ثم وخزتها وخزة موجعة فتململت الحية ولسعتها في صدرها!
عند هذا نهضت كليوباطرة وتمددت على سريرها هامسة: هأنذي أوافيك يا أنطونيوس! يا من غذيت أزاهير أحلامي بالحب!
انتحرت - كليوباطرة - فاضطرب النيل وارتعشت أوراق النخيل في مملكة ممفيس. . . لقد ارتجف كل كائن حي خلا قلباً واحداً لم يرتجف، هو قلب - أوكتافيوس - سيد رومة في ذلك الزمن. لكنه على الرغم من كل ذلك فض الخطاب الصغير وتمتم قائلاً:
إنها تريد أن تدفن مع حبيبها أنطونيوس. نعم، تريد أن تعانقه دائماً بعد الممات. فليكن لها ما تبتغي. . . هو الحب فلتبلل ضريحها دموعه المقدسة.
هذا ملخص القصيدة. ففيه تلمس تخليد الشاعر لحب - كليوباطرة - ذلك الحب الذي شغل فريقاً من العبقريين في التاريخ، ولكن على الرغم من الجمال الشعري والإشراق الفني في القصيدة أود أن أعرف أصادقة تلك الدموع أم كاذبة، أشريفة أم أثيمة؟
لم يبق بين الذين عنوا بتاريخ كليوباطرة من لم يمجد دموعها في حبها، ويطري موقفها

المؤثر في ساعات انتحارها. أما أنا فأهزأ بتلك الدموع التي حملتها على الانتحار لأنها دموع لا يقرها الحب الروحي السامي الخاضع للتضحية
لقد بكت كليوباطرة وهي تنتحر، ولكنها لم تبك على حب مقدس، بل على نزوة حمراء تصرمت وتبددت. . . والحب الذي يسوده نزوان اللحم والعظام خادع كالتراب المذهب
إن أشرف أنواع الحب هو ما تندت به العاطفة واختمرت به الروح، فدموعه تبقى منهلة في المحاجر كندى الفجر. أما الحب الذي تولده الأعصاب فدموعه مستقطرة من الوحل لا من أجفان السماء
ولا يعتقد القارئ أن كليوباطرة احتكرت وحدها هذا النوع الفريد من الحب الحيواني الغليظ، فهنالك امرأة تبزها هي (جان ديفال) التي أضرمت بضراوتها المستنكرة عبقرية - بودلير - شاعر فرنسا في الجيل الماضي. فقد كونت فيه عنصرين متناصرين أبداً. . . عنصر يستلينه جسدها الغامر بالشهوة، وعنصر يحترق حنقاً منها فيجوب رحاب الروح شاكياً من تلك النار المشبوبة، الناغلة بأحط أنواع الحب. ومن يراجع كتابه المشهور - أزاهير الشر - وهو من أروع الكتب الشعرية في دولة البيان يقرأ تلك المقاطع التي تصور انتحاره النفسي البطيء، وهي عندي من أبلغ ما أخرجه الشعراء في العالم
فانظر كيف يصفها الشاعر:
عندما أجلس قربها في ليالي الخريف الدافئة مستنشقاً شذا صدرها الحار. . . تحملني) الأحلام إلى بلاد سعيدة رافلة في حلل وضاءة من نور الشمس فأرى فيها نساء تسبيك أجسامهن الفاترة المتكاسلة لما يعذبها من شهوة مخدرة، وبرح أليم!
وعندما تنتقل متمايلة في غلائلها الهفافة، المنبهة للحواس. . . أخالها ترقص كتلك الأفاعي الخبيثة التي يرقصها الحواة في الشرق على أنغام الشبابة الحزينة!
وعندما تتمدد عند أقدامي مستضرعة إليَّ بأرق كلمات الصبابة لكي أطفئ جذوة لحمها المحرقة. . . أحسبني أرى موجة من أمواج البحر العرارة تتراخى واهية على الشاطئ بعد أن أفرغت الزبد من فمها!
- هي بعينيها المتقدتين كأشرار المعادن
- وهي بلحمها الوضاء المغري كجمرة الأتون الحمراء
- . . .إن فيها بريقاً وناراً
- وإن فيها لهيباً وكبريتاً!
- هي امرأة سحرية. . . تمثل لك بجمودها المخزي أبا الهول الصامت، وبشهوتها اللافحة حية هائلة مخيفة!)
ثم انظر كيف يصفها هنا:
أحبك وأمقتك معاً أيتها الفاجرة الطاعنة قلبي بخنجر سام، الناغلة في جسمي كما) تنغل الحشرات في جيفة منتنة!
الماردة في روحي كالشياطين!
أيتها الضارية المتخذة شرفي سريراً لفحشائها، أيتها الساقطة المكبلة إرادتي بالأصفاد، إني أكرهك. . . فلعينة أنت!
لقد استغثتُ بالسماء أن تقبضني إليها. واستنجدت بالموت تخلصاً من موبقاتك. . . فلا السماء سمعت دعائي، ولا الموت استجاب طلبي، وكيف تفعل السماء والموت وأنا أنزف دمي على مضجعك الفاسد، وأنحر جسدي في طريق استهتارك المتقنعة؟)
إن دموعَ الحب رائعة ومؤثرة عندما تجيشها العاطفة المسحوقة، ويحركها الإحساس الذبيح. أما إذا أجراها الغرام العابث فهي أفظع من المقصلة، وأقسى من العبودية مسكين إذاً - بول فاليري - لقد أخطأ وهو يصور دمعة من دموع الحب. فلو أنه رسم لنا دموع الذين يموتون من اليأس، ويأسهم من خيانة المرأة لكان أبدع وأجاد
إن الحياة، الحياة المتغلغلة في القلوب والأرواح والسابحة على أمواج الماضي والحاضر
والمستقبل، إن هذه الحياة لتهزها نبرة الشاعر العبقري وتفتنها ألوانه وخطوطه وأصباغه التي يطلي بها قصائده. أما الدموع الكاذبة الأثيمة التي يسعى إلى تقديسها بذلك البيان المورق الأنيق لتنفر منها ولا تقرها أبداً!

البرازيل
يوسف البعيني
في الأدب المقارن
أثر المرأة في الأدبين العربي والإنجليزي
للأستاذ فخري أبو السعود

للمرأة أثرها الخطير في المجتمع، ولمنزلتها من الارتفاع أو الانحطاط أوثق الصلات بتقدم المجتمع أو تأخره، واطراد رقيه أو ابتداء تدهوره، ولنظرة الرجل إليها ومعاملته إياها أبلغ الدلالة على سمو الأخلاق أو تدليها، فالمرأة هي الأليف الذي يسكن إليه رجل اليوم، والمربي الأول الذي ينشئ رجل الغد؛ فإذا كان ذلك يأوي منها إلى صحبة ممتعة للنفس مغذية الشعور، وكان هذا ينشأ في حجر راعية نيرة حازمة، فقد توفرت للمجتمع أكبر أسباب السعادة والنجاح، أما حيث تحتقر المرأة وتذاد عن نور العلم ازدراء لها واستهانة بوظيفتها، ويساء فهم علاقتها بالرجل حتى لا تحسب تلك العلاقة سوى شهوة تافهة، فذاك مجتمع دوام انحطاطه محتوم، واطراد تدهوره بدهي، إذ لا نجاح لمجتمع تغمط فيه مكانة المرأة، وتغفل وظيفة الأم، وتجهل نعمة التعاون الزوجي.

ولما كان للمرأة هذا الأثر العميق في المجتمع ورقيه وآدابه العامة، كان لها في أدب اللغة أثر بعيد ومكان ظاهر؛ فإلى منزلتها من الرفعة أو الضعة ترجع الصبغة التي ترين على الأدب من وقار وعفاف أو استهتار وفجور، وعلى التغني بجمالها والترنم بحبها يتوفر باب من أهم أبواب الأدب وهو النسيب، وارتفاع شأنها في المجتمع مقرون دائماً بازدهار الأدب، لأن المجتمع الذي يجل المرأة ويتغنى بمحاسنها مجتمع صادق الشعور، عالي النفوس، وبعكس ذلك المجتمع الذي يزدري المرأة ويسخر منها وترين فيه الشهوة لا ينتج علماً ولا أدباً، وارتفاع شأن المرأة في المجتمع مقرون كذلك بمساهمتها في الأدب منشئة وناظمة وناقدة، والأدب لكل هذه الأسباب مرآة صادقة واضحة لمنزلة المرأة في المجتمع، ومنزلة المجتمع من الرقي، وحظه من الأخلاق.

كان للمرأة العربية على العموم في الجاهلية وصدر الإسلام لاسيما نساء السادة والأشراف، منزلة عالية: كانت تشارك الرجل أعمال السلم وتعاونه في إبان الحرب، واشتهرت نساء كثيرات في تاريخ تلك العهود، واحترفن الأعمال كالطب والتدريس، وشاركن في السياسة فتركن أثرهن في سير الحوادث، وزاد الإسلام منزلة المرأة ارتفاعاً وحررها من كثير من أسباب الشقاء التي كانت تقاسيها نساء الطبقات السفلى، ومما له دلالته على مكانة المرأة إذ ذاك أن كبار الرجال كانوا يغمزون بالانتساب إلى أمهاتهم وعصبياتهن، وكانوا يلقبون في مواقف التبجيل والمدح بابن هند وابن عائشة وابن ذات النطاقين.

هذه المكانة المحترمة التي تمتعت بها المرأة في المجتمع في ذلك العصر، تركت آثارها واضحة في أدبه: فقد كان أدب ذلك العصر مزدهراً قوياً صادق العاطفة نبيل الغرض في جملته، وكان للمرأة فيه ذكر مردد، تستهل بذكرها القصائد، وتنظم في الترنم بحبها الأشعار. ويسجل الشاعر حواره مع زوجه في شتى الشئون في القصيدة يبدأها بقوله: (وقائلة. . . فقلت لها. . .)؛ وبلغ النسيب في هذا العصر أعلى درجاته من الرقي وعمق الشعور وعفة المقال. وما أجمل نسيب عنترة بعبلة، ومناجاة جميل لبثينة، وهتاف قطري بن الفجاءة بزوجه أم الحكيم؛ وساهمت المرأة في الأدب، فأثر عن كثير من الأعرابيات غرر من سحر البيان، وعرفت نساء من خيرة المسلمات بالرواية والنقد، وظهر في هذا العصر أكبر شاعرتين في تاريخ الأدب العربي: الخنساء وليلى الأخيلية اللتان ضارعتا الفحول رصانة قصيد وجودة معان؛ وكان بجانبهما العدد العديد من الشاعرات المجيدات اللائى كان بعضهن يساجلن محبيهن شعراً؛ وتفاخر الشعراء بالعفة وحسن المعاشرة والجوار ورعاية مكانة المرأة، قال مسكين الدارمي:

ما ضر جاري إذ أجاوره ... ألا يكون لبيته ستر
أعمى إذا ما جارتي خرجت ... حتى يواري جارتي الخدر

هنالك بلغ المجتمع الإسلامي أوج رقيه، ثم داخلته عوامل الفساد بتضخم الملك الفجائي وانتشار الثروة والجواري والغلمان وذيوع الترف والانصراف إلى الشهوات، ومخالطة الشعوب المختلفة واقتباس الضار من تقاليدها. ووهنت أخلاق العرب القويمة

التي رفعوا بها لواء سيادتهم، فضعفت روابط الأسرة بذيوع التسري، وانحطت نظرة الرجل إلى المرأة بانتشار صناعات القيان والمغنيات والراقصات، وفشت الريبة وشدد الحجاب على المرأة وعزلت عن المجتمع فحرمت العلم والنور والحياة، وحرم المجتمع تأثيرها المرقق للشعور المتسامي بالآداب، وازداد المجتمع انحطاطاً وشاع فيه هجر القول، وخلا تاريخ ذلك العهد من اسم امرأة واحدة ذات أثر في حياة الأمة.

فهذا الطور الثاني من تاريخ المرأة العربية مضاد للطور الأول سارت فيه مكانتها إلى انحطاط مستمر، وبدا أثر ذلك الانحطاط في أدب ذلك العصر: اتسم بالإفحاش والإقذاع، وضعف وحل التقليد فيه محل الابتكار، والزخرف اللفظي محل الشعور العميق وأصبح النسيب فيه إما بذيئاً شهوانياً كأشعار بشار. وإما تقليدياً وهمياً أجوف كاستهلالات البحتري، وشبب بعض المجان بالذكور، وتفنن بعض الكتاب كابن دريد في أحاديثه وصاحب كتاب محاسن الأضداد، والأصبهاني في أغانيه في إيراد القصص الشهوانية والنوادر التي تبدو فيها المرأة متاعاً ينهب، أو مخلوقاً نزقاً خائناً متقلباً؛ ولم تنبغ في الأدب امرأة يعتد بآثارها، وإذا كانت القيان قد ألهمن الشعر كثيراً من الشعراء، وكانت منتدياتهن مجمعاً للأدباء، فما أنتج ذاك كله إلا أدباً شهوانياً فاتراً هزيلاً، وبعد أن كان الشاعر في الطور السابق يتمدح بتبجيل المرأة، ويتقرب إليها بالمكارم (لنحمد يوماً عز شمائله) كما قال كثير أصبح النيل منها والإغراء بها والتهكم بطباعها من هم بعض الشعراء، قال بشار:

عسر النساء إلى مياسرة ... والصعب يسهل بعد ما جمحا

وقال غيره:

وإن حلفت لا يخلف النأي عهدها ... فليس لمخضوب البنان يمين

وهكذا حرم الأدب العربي إلهام المرأة السامي الجميل، وما أقل ما بقي من منادح القول لأدب حرم ذلك الإلهام! وجاء شعر فحول العربية في أوج ازدهار الأدب خلواً من تاريخهم الغرامي الصحيح؛ فهل كان لأبي تمام والبحتري والمتنبي غرام صادق عميق، صهرت في تنوره نفوسهم، وتكشفت لهم الحياة من خلاله عن عوالم جديدة من الإحساس والتفكير. إن أثر ذلك معدوم في شعرهم، وليس في شعرهم إلا النسيب التقليدي الاستهلالي المملوء بذكر هند ودعد، والكثبان والأغصان، والأطياف والمدامع؛ لا يثير في نفوسهم هذه العواطف العجيبة إلا الطمع في عطايا الممدوحين، أما النسيب المستقل بكل القصيدة المقصود لذاته فليس هناك. وبلغ من موت العلاقة السامية بين الرجل والمرأة أن المتنبي نفسه كان لا يكاد ينظم في النسيب الاستهلالي أبياتاً تحمله عليها تقاليد الصنعة حتى يبرم وتململ، فيزيح النسيب جانباً صائحاً بصاحبته المتخيلة: صلينا نصلك في هذه الدنيا، فإن مقامنا فيها قليل، فإن لم تصلي فاذهبي ودعيني أستطرد إلى ما هو أهم من أمرك من امتداح هذا الكريم ذي العطايا الجزيلة، أو ربما انقلب على محبوبته وجنسها هاجياً، فقال إن القوافي جميعاً في بواطنه ظلام.

لم يقتصر التهجم على المرأة على ذوي المجون وعبيد الشهوات بل اتخذ سبيله إلى كتابات المفكرين، وتقنع بمظهر العلم في آثار المعري الذي صب في لزومياته جام غضبه على المرأة، ورماها بالغدر وشبهها بالأفعى، وعاد إلى تشديد الحجاب عليها ونهى عن تعليمها حتى تقويم السطور، ولا ريب أن مزاج المعري السوداوي وحياته المقفرة من حنان المرأة، ونقمته على الحياة جميعاً، كل ذلك كان ذا أثر في نظرته القاسية إلى المرأة، واعتباره إياها رمزاً للحياة في جهلها وتقلبها وغدرها، بيد أن ظروفه الشخصية التعسة هذه إنما هيأته ليكون معبراً عن أفكار عصره الذي كان يعج بالفساد والاضطراب والانحطاط الخلقي، فلا ريب أنه كان يجد آذاناً صاغية، وأنه مسؤول عن بعض ما حاق بالمرأة بعد ذلك من قهر وإهمال.

فتاريخ المرأة العربية طوران: الأول طور رقي مصاحب لسمو الأخلاق ورقي المجتمع ونهوض الدولة وازدهار العمران، والثاني طور انحطاط معاصر لقعود الهمم وتدهور المجتمع وإدبار السلطان وركود الأدب؛ أما تاريخ المرأة الإنجليزية فهو طور رقي مستمر مطرد من عهد شكسبير إلى الوقت الحاضر، ازدادت فيه المرأة حظاً من التعليم والاحترام والمساهمة في الأعمال، ولم تعترض ذلك الرقي المطرد إلا فترة رجعة في عهد الملكية العائدة من فرنسا في القرن السابع عشر، وما لبثت تلك

الفترة الماجنة أن تلاشت إذ صمد لها الخلق الإنجليزي المتين، وشمر لإماطة آثار كبار الهمم من الأدباء المثقفين، وتابعت المرأة سبيل رقيها المقرون برقي الأخلاق وسيادة الآداب العامة وتقدم المجتمع.

كانت منزلة المرأة في عهد اليزابث على درجة من الرقي محسوسة وكان بنات السراة ينلن من التهذيب مثل حظ البنين، واشتهرت منهن بسعة العلم كثيرات مثل ليدي جين وليدي بيكون والدة الفيلسوف فرنسيس بيكون، وليس أدل على ارتفاع مكانة النساء في ذلك العهد من قبول الشعب اليزابث، وهي بعد في حداثتها ملكة عليه دون تردد، وإيلائه إياها من الولاء ما لم يوله غيرها من الملوك، وإظهارها هي حنكة سياسية بذت بها ملوك أوربا وساستها، ووضعت بها أساس مجد إنجلترا، وازن ذلك بما كان من ارتياع الناس في عهد

انحطاط المرأة العربية سالف الذكر، حين وليت شجرة الدر عرش مصر، حتى بعث الخليفة العباسي يوبخ أمراء مصر ويتوعدهم بالويل والثبور، إن لم ينضحوا ذلك العار الذي يبقى في الأجيال، على حين لم يحرك أسلافه ساكناً يوم ولى نفسه العرش عبد خصي، كان يبرى بظفره القلم.

وأثر المرأة الإنجليزية في الأدب تبعاً لرقي منزلتها الاجتماعية جليل، يزداد وضوحاً وشمولاً على تقدم العصور: فهي تبدو في قصص تشوسر تشارك الرجال أعمالهم، وفي درامات شكسبير مثالاً للقدرة الفائقة أحياناً، وموضعاً للحب والتقديس تارة، ورمزاً للطهارة والوفاء طوراً، وفي أشعار شكسبير ومعاصريه ومن جاءوا بعده من كبار شعراء الإنجليزية نسيب حار العاطفة سامي النظرة، وفي القصص والشعر دراسات لشتى الشخصيات النسوية، وفيهما تمجيد للجمال وتبجيل للمرأة، ويتوسل إليهما بسرد خرافات الإغريق وبطلاتهم وإلاهاتهم، وأساطير القرون الوسطى، سرداً شعرياً خيالياً؛ وضربي المرأة في إنشاء الأدب بسهم وافر فكان من النساء شواعر وقصصيات بارين فحول الرجال.

ويبدو أثر المرأة الإنجليزية في المجتمع والأدب الإنجليزيين على أوضحه في القصة: فقد كان للمرأة الفضل الأول في ظهور هذا الضرب من الأدب، فعلى أيدي اديسون وستيل اللذين اهتما بتثقيف المرأة وتنقية المجتمع ظهرت بذور القصة، ولما أخذت القصة شكلها الاجتماعي الحديث في القرن الثامن عشر، كان للمرأة دور رئيسي في حوادثها، ولولا اختلاط المرأة الإنجليزية في المجتمع ومساهمتها في الحياة لما نمت القصة، ولا وقفت على قدميها، وقد جاء نموها وذيوعها مصاحباً لنهضة المرأة وازدياد حظها من التثقف. ولما بلغ ذلك الرقي الاجتماعي غاية بعيدة في القرن التاسع عشر، بانتشار الديمقراطية وذيوع التعليم العام، نبغت جمهرة من كبريات القصصيات بارين كبار قصصيي العصر الحديث، وفي مقدمتهن جين أوستن وشارلوت برونتي ومزجاسكل

والقصة ضرب من الأدب يلائم طبع المرأة أكثر مما يلائمه نظم الشعر الذي هو أشبه بالرجل، لأنه يحتاج إلى قوة وفخامة وشمول نظرة لا تتسق كثيراً للمرأة، التي إنما صفاتها الدماثة والدعة، أما القصة التي تدرس الحياة الاجتماعية وتصف الحركات والسكنات، وتحصي التفاصيل وتتبع الحوادث وتسرد ما قيل وما فعل، فتجد فيها المرأة خير مجال

للتعبير عن خلجاتها ومشاهداتها، وملاحظاتها الدقيقة للأشخاص والأشياء؛ زد على ذلك أن المرأة تستطيع في القصة أن تعبر على لسان غيرها عن نزعات الحب وأطواره، تعبيراً لا يستساغ منها إذا هي أطنبت فيه شعراً

فالقصة أدب المرأة: ظهورها رهن برقي منزلة المرأة في المجتمع، فإذا ظهرت فحول المرأة يدور حديثها، وبين النساء تلقى الرواج والإقبال، وفيها تجد المرأة خير مجال لمواهبها الأدبية، ومن ثم أنتجت المرأة الإنجليزية في فن القصة خير إنتاجها الأدبي، أما المرأة العربية فأخرجت أحسن آثارها في الشعر في طورها الأول، فلما تطور المجتمع العربي وجاء أوان ظهور القصة الاجتماعية، كانت عوامل الفساد سالفة الذكر قد اجتاحت مكانة المرأة وضربت بحجاب كثيف بينها وبين المجتمع والأدب، فأقمئت القصة في بدء نموها، واستحال تطورها ورقيها، وجاءت مقامات البديع التي هي الخطوة الأولى في الأدب العربي في سبيل القصة الاجتماعية، خلواً من شخصية

نسائية واحدة جديرة بالذكر، ولم يعرض الحريري إلا عجوزاً يسحبها أبو زيد في استجدائه، أو لكاعاً ينابزها وتنافسه في بذائه
ولنجاة المجتمع الإنجليزي من مثل تيار الترف الجارف الذي غمر المجتمع العربي، عقب الفتوح، ظل ذلك المجتمع رفيع الآداب قويم الأخلاق، وظل الأدب عفيف المقال، وظل النسيب شريف اللفظ والغرض، وخلا النسيب الإنجليزي مما تدرن به النسيب العربي في عصره المتأخر، من تحدث بالشهوات ووصف لأجزاء الجسم وهجاء للجنس اللطيف وتغزل بالذكور؛ فإذا حمل على المرأة خصم عنيد كملتون الذي وصمها بالنزق والختل وجعلها دون الرجل منزلة، وجعل شخصية (دليلة) في قصته الشعرية (سمسون الجبار) نموذجاً لها، أو سلك مسلك الاستهتار والتبذل كبيرون الذي كان يقرن الانقياد للشهوات باحتقار المرأة، لم يجد من حوله إلا صدى ضعيفاً لا يلبث أن يتلاشى مع صوته، ويتابع المجتمع سبيل تقاليده التي درج عليها، تقاليد الاعتدال والتعفف واحترام المرأة
فأثر المرأة في الأدبين العربي والإنجليزي جلي خطير، بيد أنه أجلى وأجل خطراً في الأدب الإنجليزي، وهو في الأدب العربي دليل ارتقاء تبعه انحطاط، وفي الإنجليزية برهان ارتقاء مطرد، في المجتمع والأخلاق والأدب، ومكانة المرأة الإنجليزية العالية في مجتمعها مرد ما يمتاز به الأدب الإنجليزي عامة والنسيب خاصة، من عفة ووقار؛ وهبوط مكانة المرأة العربية في عصور التدهور مرجع الفحش الذي ذاع في النسيب والهجاء وغيرهما من أبواب الأدب العربي في عصوره المتأخرة، وبرغم تساوي المرأة العربية والمرأة الإنجليزية في تقصيرهما دون الرجل في حلبات الأدب، وضآلة أثرهما فيه إذا قيس بآثار الرجل في شتى الأغراض، فإن المرأة الإنجليزية تفوق العربية في كثرة إنتاجها الأدبي، كما فاقتها في كثرة ما أنشأ الرجل حولها من أدب، وما استلهمها من وحي، للسبب عينه: وهو أن المرأة الإنجليزية كانت أكثر مساهمة في المجتمع وارفع منزلة فيه
فخري أبو السعود
الإسلام والديمقراطية
للأستاذ عبد المجيد نافع
بقية ما نشر في العدد الماضي
رأى عمر مرة يهودياً ممسكاً برسول الله يطالبه بدين له، فعظم ذلك عليه وأخذ بخناق اليهودي وقال: دعني أقتله يا رسول الله. فقال: دعه يا عمر إن لصاحب الحق مقالاً وخطب أبو بكر فقال: القوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له الحق إن شاء الله تعالى
واختلف عمر مع أعرابي فاحتكما إلى أبي بكر فقال: قف بجانب خصمك وقص يا ابن الخطاب قصتك. فقام عمر وعلى وجهه أثر الامتعاض. فقال له أبو بكر: أيسوؤك أن تقف بجانب خصمك؟ قال: لا، ولكن ساءني أن كنيتني وفي الكنية تعظيم
ولما أسلم جبلة بن الأيهم ملك غسان وفد على عمر بن الخطاب بأبهة الملك وحشمه فتلقاه عمر بالترحيب، وبينما هو يطوف يوماً وطئ على إزاره أعرابي فضربه على وجهه، فشكاه الأعرابي إلى أمير المؤمنين، فاستدعى عمر جبلة وقال له: إما أن ترضيه وإما أن يضربك كما ضربته. فكبر ذلك على جبلة وقال: ألا تفرقون بين الملك والسوقة؟ قال: لا، قد جمع بينكما الإسلام. فاستمهله إلى الغد ثم أخذ قومه وفر بهم ليلاً، ولحق بالإمبراطور هرقل بالقسطنطينية
وعزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد من قيادة الجيش وقال له: ما عزلتك لريبة فيك، ولكن افتتن الناس بك فخفت أن تفتتن بالناس
على أن نفس خالد كانت متشبعة بمبادئ المساواة، فارتضى أن يهبط من القيادة إلى مصاف الجندية، وأن يكون في الجهاد جندياً بسيطاً
وإن شئت أن ترى آية من آيات المساواة في الإسلام فأنعم النظر في كتاب عمر إلى أبي موسى الأشعري في القضاء حيث يقول: آس بين الناس في مجلسك ووجهك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا يخاف ضعيف من جورك
وكذلك كان يبغي عمر العدالة ومظاهر العدالة

وجمع عمر الناس بالمدينة حين انتهى إليه فتح القادسية ودمشق فقال: إني كنت امرأً تاجراً
وقد شغلتموني بأمركم هذا فماذا ترون أن يحل بهذا المال؟ فأكثر القوم وعلي رضي الله عنه ساكت. فقال: يا علي ما تقول؟ قال: ما يصلحك ويصلح عيالك بالمعروف ليس لك من هذا الأمر غيره. فقال: القول ما قال علي بن أبي طالب
وما كان المسلمون يأنفون من العمل الحر الشريف، فقد كان أبو طالب يبيع العطر وربما باع البر. وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه بزازاً. وكان عثمان بزازاً. وكان طلحة بزازاً. وكان عبد الرحمن بن عوف بزازاً. وكان سعد بن أبي وقاص يبري النبل. وكان العوام أبو الزبير خياطاً. وكان الزبير جزاراً، وكان عمرو بن العاص جزاراً
يفاخرنا الغربيون بعظمائهم الذين خرجوا من صفوف العمال وأولئك بناة مجد الإسلام قد خرجوا من جميع البيئات. ونبتوا في كل الطبقات
وما سقت لك تلك الأمثال عبثاً، وإنما أردت أن أدلك على أن المساواة في معناها الصحيح، وفي كافة مظاهرها ومختلف صورها لم تتحقق يوماً كما تحققت في الصدر الأول من الإسلام
مساواة أمام القانون، فقد شرع للناس كافة لا فرق بين عظيم وحقير، وغني وفقير، وقوي وضعيف
مساواة أمام القضاء، ولقد أطلعتك على جانب منها في أروع مظاهره وأسمى معانيه
مساواة في الوظائف العامة، فقد رأيت كيف ينشأ الرجل منهم في البيئة الصغيرة ثم يصل إلى أسمى مناصب الدولة
مساواة في الضرائب، فما كانوا يرهقون أحداً أو يظلمون فتيلا
وعلى الجملة فقد كانت مساواة في الحقوق والواجبات
حقق الإسلام مبدأ المساواة السياسية والمساواة المدنية
على أنه لم يشأ أن يمني أتباعه بالمساواة الاقتصادية أو بعبارة أوضح بالمساواة في الأرزاق، ذلك بأنه دين الفطرة
وكيف السبيل إلى المساواة الاقتصادية، وفي الناس العملاق والقزم والقوي والضعيف وجبار العقل والأبله المعتوه
إن نواميس الطبيعة تأبى المساواة الاقتصادية، ولئن جاز أن تكون في هذا الميدان مساواة
فأولى بها أن تكون مساواة في البؤس والشقاء
رأى الإسلام أن المساواة الطبيعية مستحيلة. فقال تعالى في محكم كتابه: وجعلنا بعضكم فوق بعض درجات
وشاء الإسلام أن يلطف من قسوة قوانين الطبيعة فشرع الزكاة. وعندي لو أن نظام الزكاة طبق على وجهه الصحيح لوجدنا السبيل إلى حل المسألة الاجتماعية التي عجز إلى اليوم عن حلها فطاحل الاجتماع في أوربا. تلك المسألة التي كانت مثار النضال بين الطبقات، ومبعث المذاهب المتطرفة والنظريات الهدامة
وإذن فليس من الإسراف في القول أن يقال أن الإسلام هو الحصن الذي يرد غزوة المذاهب الهدامة التي تهز كيان المجتمع الأوربي أعنف الهزات، وتهدد الحضارة الأوربية بالتلاشي والفناء
لم تعرف أوربا المساواة في القرون الوسطى فقد انقسمت الشعوب إلى طبقات ممتازة وطبقات محرومة من الامتيازات، وكان للأشراف قوانينهم الخاصة ومحاكمهم الخاصة وعقوباتهم الخاصة وضرائبهم الخاصة، وكانت المدارس الحربية يحرم دخولها على طبقات الشعب، وكانت المناصب الكبرى في الدولة وقفاً على طبقات الأشراف
وهل تحققت المساواة بمعناها الصحيح في أوربا اليوم؟ لا تزال هناك مراحل كثيرة لا يزال على أوربا اجتيازها قبل ترسيخ قواعد المساواة
أوليس النظام في فرنسا مزيجاً من النظم الديمقراطية والأوضاع الملكية والأشكال الأرستقراطية؟
وإنجلترا التي يقولون عنها إنها مهد النظام الدستوري ومعقل الديمقراطية أوليس فيها إلى اليوم لوردات ومجلس لأولئك اللوردات؟
أثار كاتب فرنسي الشكوك حول تحقق مبدأ الحرية السياسية في فرنسا فاسترعى

النظر إلى أن رأي الأمة الفرنسية لا يؤخذ في أمس الشؤون بحياتها وأشدها تعلقاً بمصيرها كحالة الحرب مثلاً
واستلفت ذلك الكاتب الأنظار أيضاً إلى أن القضاة في فرنسا يؤخذون من بيئات خاصة والمحلفين من طبقات عليها مسحة الأرستقراطية، واختلاف العقوبة حين يرتكب الفعل
الواحد غني أو فقير
والحكم مع إيقاف التنفيذ؟ أفلا يكاد يستأثر به الغني دون الفقير مع أن الغني قد يكون اختلس مبالغ طائلة أو بدد أموالاً كثيرة؟
أفلا يسخر المداره المقاويل من كبار المحامين بلاغتهم في انتزاع الأغنياء دون الفقراء من براثن العدالة؟
وهل يتاح للفقير ما يتاح للغني أن يبقى بملابسه فلا يرتدي ملابس السجن، ويأكل من بيته فلا يأكل من طعام السجون حين يكون سجيناً تحت التحقيق مقابل جعل بسيط تتقاضاه منه إدارة السجن؟
وأين المساواة إذا كنتم أيها الغربيون تسلحون الأغنياء بأسلحة العلم العالي وتجردون منه الفقراء الذين لا يكادون يجدون السبيل إلى ثمن الخبز فضلاً عن أجر التعليم؟
ليس عجيباً إذن أن يهاجم الديمقراطية خصومها تارة باسم العلم وطوراً باسم الواقع وليس بدعاً أن يصيح صائح: المجتمع الأوربي يسعى للمساواة ولا يجد السبيل إليها، شأنه في ذلك شأن الإنسانية التي تجد في طلب السعادة والحقيقة فلا تظفر بهما كما أعيا طلابهما فوست جيته
التسامح الديني في الإسلام يقابله الاضطهاد الديني في أوربا في عصور الظلمات
وإذا ذكرنا اضطهاد الفكر والعقيدة ذكرنا محاكم التفتيش
وفي الحق لم تشهد الإنسانية قضاء أشد نزوعاً إلى الظلم وأكثر جنوحاً إلى القسوة من قضاء محكمة التفتيش
نهضت تلك المحاكم لتصد عن الكنيسة تيار الإلحاد المتدفق، فلئن كانت دينية في نشأتها فان التعصب قد سخر العدالة في سبيل تحقيق لبانته وغايته
وفوق ذلك فقد وقفت تناهض كل حركة فكرية وعلمية، ولعل من أبرز ضحاياها غاليلو الرياضي الفلكي الشهير. أحدث ذلك العالم ثورة في العلوم الفلكية ولبث ردحاً من الزمن يواصل العمل في بث نظرياته في دوران الأرض. فأصدرت البابوية، وفقاً لآراء أحبار محكمة التفتيش قراراً بنقض تلك النظريات وتحريمها، واعتبارها تحدياً للنصوص المقدسة. ونصح البابا لغاليلو بالكف عن نشر دعاويه. فلم يأبه الرجل لقرار التحريم، ولم
يحفل بذلك النصح، ومضى في خدمة العلم والحقيقة. وفي عام 1632 نشر كتابه (محادثات عن الأصول العالمية) فأحدث صدوره رجة عظيمة واستقبلته دوائر العلم والفكر في أوربا استقبالاً حماسياً منقطع النظير. وهنا ثارت ثائرة الكنسية وحرمت بيع الكتاب في الحال. ودعي غاليلو للمثول أمام محكمة التفتيش في روما، فاعتذر بشيخوخته وضعفه وكان قد نيف على السبعين. فاستشاط البابا غضباً وعد تخلفه عصياناً. فأجاب الدعوة واعتقل في قصر محكمة التفتيش في إبريل من عام 1633. حقق معه وعذب ولم ترحم محكمة التفتيش شيخوخته وضعفه. وكانوا كلما أمعنوا في تعذيبه، ولجوا في التنكيل به، أمعن هو في التشبث بالحق، والإصرار على الحق. فإذا زادوه نكالاً صاح في وجوههم: ومع ذلك فإن الأرض تدور!
وإنه ليهولك أن تعلم أن عدد المحكومين عليهم من محاكم التفتيش المختلفة بلغ في الفترة ما بين 1481 - 1498، 125294 منهم 8800 أعدموا بإحراقهم و6500 أحرقت رموزهم و90 ألفاً طبقت عليهم عقوبات مختلفة بالسجن والغرامة والتوبة
وفي الفترة ما بين 1499 - 1506 بلغ عدد المحكوم عليهم 34992 منهم 1664 أحرقوا و832 أحرقت رموزهم والباقون وقعت عليهم أحكام مختلفة
ومن 1506 إلى 1518 بلغ عدد الضحايا 50 , 167 من هؤلاء 2536 ماتوا حرقاً و 1638 أحرقت رموزهم والباقون طبقت عليهم عقوبات أخرى
والآن ندع التقدير للمؤرخ الشهير (لورنتي) وهو أكبر حجة وأعظم ثقة في الموضوع
أحرقوا 912 , 31

أحرقت رموزهم 659 , 17
طبقت عليهم عقوبات شديدة 450 , 271

المجموع 021 , 341

والآن فاسمع هذا الوصف الذي تقشعر له الأبدان وصاحب الوصف هو فيكتور هوجو ألقاه في الاحتفال بتأبيت فولتير:

في 13 أكتوبر من عام 1761 وجد شاب مشنوقاً. ثارت الخواطر واضطربت الأفكار. وهاج رجال الدين بينا أخذ رجال القضاء في التحقيق. ومشى الناس بعضهم إلى بعض يتساءلون: انتحار أم قتل؟ وكان الاتهام منصباً على رأس الوالد. وقال الذين أثاروا الشكوك حوله إنه من الهجنوت وقد حال بين ابنه وبين اعتناق المذهب الكاثوليكي. وكانت البداهة تمج هذا الاتهام وتحمي الوالد من ارتكاب هذا الجرم الفظيع. وإلا فأي عقل يسوغ أن يسفك الأب دم الابن ويشنق الشيخ الشاب

وما لبث الناس أن شهدوا في يوم 9 مارس سنة 1762 مشهداً هائلاً رهيباً. رأوا رجلاً جلل الشيب فوديه يساق إلى أحد الميادين العامة، ذلكم هو جان كالا، وما راعهم إلا أن يروا الشيخ المتهدم الفاني عاري الجسم مطروحاً على عجلة موثق الأكتاف متدلي الرأس. ووقف إلى جانب المشنقة ثلاثة رجال فأما الأول فطبيب ليعنى به. وأما الثاني فقس يحمل الصليب. وأما الثالث فالجلاد وبيده قضيب من حديد.

وعرت الضحية نوبة ذهول واضطراب، وتمشى الرعب في أضالعه، فما كان يرنو إلى القس بل كان يرمق الجلاد بنظراته المضطربة الحائرة، وما يلبث الجلاد حتى يهوي بالقضيب الحديد فيهشم للمسكين ذراعاً. أنين يمزق نياط القلوب يعقبه فقد الرشد. فيتقدم الطبيب فيعيده إلى الصواب بشم بعض الأملاح. فينبري الجلاد لضربة جديدة. صرخات دامية ثم غيبة عن الصواب. يعيدونه للحياة والجلاد يعاود الضرب. وإذا كان كل عضو لابد أن يكسر في موضعين فلا مفر له من تلقي ضربتين. وإذن فقد تلقى المسكين ثماني ضربات. وفي عقب الضربة الثامنة يقدم القس له الصليب ليقبله. على أن (كالا) يشيح عنه بوجهه. لو كانت الرحمة تجد سبيلاً إلى تلك القلوب المتحجرة لقلنا إن كان في نفوسهم بقية منها فقد أجهز الجلاد على (كالا) بضربة قاضية من رأس القضيب الغليظة، حطمت صدره تحطيما. وبذلك وضع حد لعذاب كالا وآلامه. إذ فاضت روحه في الحال.

دام التعذيب ساعتين كاملتين، وما إن مات كالا حتى تبين في جلاء ووضوح أن الشاب مات منتحراً. على أن جريمة قد ارتكبت ومن هم مرتكبوها؟ هم جماعة القضاة الذين قضوا على كالا بغير حق.

وفي عام 1765 بعد ليلة عاصفة وجدوا على إفريز أحد الجسور صليباً خشبياً عتيقاً ملقى على الأرض. ومضت ثلاثة قرون والصليب معلق في رأس السور. فمن الذي طرح

الصليب أرضاً؟ من ذا الذي اجترأ على ارتكاب ذلك الإثم؟ لا يعلم أحد. أيكون أحد المارة هو الذي عبث به؟ أم تكون الريح هي التي عصفت به؟ ويرى الناس مطران (أميان) يرغي ويزبد، ويبرق ويرعد، ويتوعد ويتهدد بالنار كل من يعلم الحق ثم يكتمه. وهنا تتلاقى هوجاء التعصب مع هوجاء الجهالة. ولا تلبث العدالة أن تكتشف أو تتوهم أن تكتشف أن ضابطين مرا بالجسر وأنهما كانا ثملين وينشدان نشيداً حربياً؛ فأما أحدهما فيلوذ بأذيال الفرار، وأما ثانيهما (لابار) فيؤخذ بتلابيبه، فيسأل، فيعتصم بالإنكار ويقسم جهد أيمانه إنه لم يمر بالجسر. فيبدو لهم أن يسألوه عن شركائه. ولكن شركاءه في ماذا؟ أفي أنه اجتاز الجسر؟ أم في أنه أنشد وصاحبه نشيداً عسكرياً؟ ثم يعذبونه لينتزعوا منه اعترافاً فيحطمون إحدى ركبتيه. والمكلف بأخذ الاعتراف منه يهوله صوت قرقعة العظام حتى يغيب عن صوابه من عظم الهول. ثم يسوقون لابار إلى أحد الميادين العامة، وقد أذكوا في بعض جوانبها نيراناً مضطرمة. يتلون عليه الحكم. فيكسرون إحدى يديه. ثم يستلون لسانه بكماشة من حديد. ثم يرحمونه بأن يفصلوا رأسه عن جسده. ثم يلقون جثته طعاماً للنيران، وكذلك مات لابار في ربيع العمر إذ لم يكن جاوز التاسعة عشر وراح ضحية بريئة للتعصب الأعمى.

لم يقض الإسلام بإلقاء أحد طعمة للنار لمجرد الزيغ في عقيدته ولم يضطهد حرية

الفكر والاعتقاد، ولم ينكل بغير معتنقيه ولم يطارد العلماء والفلاسفة بل اتسع صدره للعلم والفلسفة.
وهنا لا نرى مندوحة عن أن نبدد وهماً، فنسارع إلى القول بأن حروب الخوارج لم تكن لها صبغة دينية على الإطلاق، بل كانت حروباً سياسية بحتة.
نعم، لم يكن مثار تلك الحروب الخلاف في العقائد، وإنما أشعلتها الآراء السياسية في طريقة الحكم، وما اقتتل الخوارج مع الخلفاء لينصروا عقيدة. ولكن سعياً وراء قلب نظام الحكم وتغيير شكله.
ومن اضطرمت نار الحرب بين الأمويين والهاشميين لشيء غير الخلافة، وبذلك كانت حروباً سياسية لا دينية.
وكان المسلمون إذا هموا بفتح أمة خيروا أهلها بين الإسلام أو الجزية أو الحرب. وذلك هو
أقصى ما يبلغ إليه التسامح. فإذا أدخل الإسلام بلداً تحت ظلاله خلى بين المحكومين وبين حريتهم الدينية، وما يكلفهم إلا بجزية يؤدونها صيانة لأنفسهم ومحافظة على أمنهم في ديارهم وذوداً عن عقائدهم ومعابدهم
لهم ما لنا وعليهم ما علينا
من آذى ذمياً فليس منا
إن المسلمين يسعى بذمتهم أدناهم
ذلك هو شعار الإسلام في معاملة الذميين.
روى البلاذري في فتوح البلدان أنه لما جمع هرقل للمسلمين الجموع، وبلغ المسلمين إقبالهم إليهم لوقعة اليرموك ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخارج، وقالوا قد شغلنا عن نصرتكم والدفاع عنكم فأنتم على أمركم. فقال أهل حمص: لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم ونهض اليهود وقالوا: والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نغلب ونجهد، فأغلقوا الأبواب وحرسوها.
من ذلك ترون أن الجزية كانت تؤخذ مقابل الدفاع
يقولون إنا في عصر عملي يكره الأحلام والحالمين
بل نحن في عصر مادي فترت فيه حرارة الناس في التعلق بالمثل العليا وانعدم إيمانهم بالمبادئ السامية أو كاد وأصبح من يتشبث فيهم بتلك المبادئ يسمى خيالياً يعيش في السحاب.
وترى خصوم الديمقراطية يهاجمونها بعنف وشدة، فهذا يهاجمها باسم العلم وذاك يهاجمهم باسم الواقع وغيرهما يتكلم عن أزمة الديمقراطية، ورابع يخوض في حديث إفلاسها.
يقولون أن النواميس الطبيعية لا تعرف المساواة، وإن الأرستقراطية هي دعامة الحضارة والرقي، وإن من الناس من يجب أن يعمل بيده ومنهم من يجب أن يتوافر على الأعمال العقلية، وإن حكماء اليونان كان لهم بعض العذر حين ذهبوا إلى تبرير الرق بضرورة أن يتفرغ الحكماء لإدارة شؤون الدولة.
ولا شك أن الديمقراطية تعاني اليوم أزمة شديدة بدليل أن الديكتاتورية قد غلبتها على أمرها
في بعض الأمم.
على أن البقاء للأصلح من المبادئ والفوز معقود بلواء الديمقراطية في النهاية إن شاء الله.
والذين بنوا الحضارة هم من الطبقات الشعبية لا من طبقات الأشراف.
والمشاهد الملموس في أوربا أن طبقات الأشراف تفنى سراعاً.
والمذاهب المتطرفة التي تغزو موجتها أوربا اليوم لا يلبث أن يتجلى زيغها حين يتبين للناس أنها تبني لهم قصوراً من الورق أو قصوراً في إسبانيا.
والإسلام الذي وقف طوال العصور في وجه العواصف الهوج الجبل الأشم هو الإسلام الذي يقف اليوم معقلاً حصيناً يرد عن العالم الإسلامي عادية خصوم الديمقراطية وعدوان دعاة المذاهب الهدامة.
فإذا دعونا اليوم للتشبث بمبادئه والتعلق بتعاليمه فإنما ندعو إلى الاحتفاظ بمعقل

الديمقراطية، إنما ندعو إلى الذود عن دين الحرية والإخاء والمساواة.
عبد المجيد نافع
الفلسفة الشرقية بحوث تحليلية
بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين
- 9 -
الفلسفة الهندية
تمتاز بلاد الهند بخصوبة أوديتها، وتعدد نباتاتها وكثافة غاباتها وتعقد مسالكها، وكثرة متعرجاتها ومصاعدها ومهابطها، وتباين أجوائها ومناخاتها، ووفرة التناقض الطبيعي في أرضها وسمائها، فبينما ترى فيها جبالاً شاهقة تتجاوز السحاب سمواً، وهضبات متفرقة تفصل بعضها عن بعض هوى سحيقة وحفر طبيعية عميقة، وتلالاً تتخللها من جهة كثبان ضخمة وتعترضها من الجهة المقابلة صخور عظيمة النتوء صعبة الاجتياز، إذ بك ترى إلى جانب هذا أودية مبسوطة ومروجاً باسمة تتباهى بما تزدان به من ألوان وأفانين الثمار والبقول. وكذلك جوها لا تكاد تحس بدفئه وحرارته حتى يفاجئك بردة ورطوبته، بل أن الإنسان - كما أنبأني أحد الذين أقاموا في هذه البلاد - قد يشكو من شدة الحرارة التي يحس بها في جنبه الأسفل الذي يلي الفراش بينما يألم أشد الألم من الرطوبة التي تصب على جنبه الأعلى. ولا ريب أن هذه طبيعة غريبة قد يدهش لها المصري الذي اعتاد أن يشاهد زيادة النيل ونقصانه، واشتداد البرودة وتوسطها، وارتفاع الحرارة وهبوطها، وحرارة الشمس ووداعتها، وحلول الفصول وارتحالها، كل ذلك في أوقات منظمة محددة لا تختلف إلا لشذوذ نادر يعلله العلماء حيناً ويعجزون عن تعليله حيناً آخر.
كل هذا التعدد في المناظر والمظاهر الطبيعية أثر بارز في عقلية الهنود على رغم ما يوجهه بعض العلماء إلى نظرية تأثير المناظر في العقليات من طعون واعتراضات يحطون بها من شأنها ويحاولون إثبات الأثر كله للعنصر ومواهبه الفطرية.
ومهما يكن من الأمر فقد استطاع التاريخ أن يتغلغل بالمدنية الهندية في أغوار الماضي مدى ثلاثين قرناً قبل المسيح إذ يحدثنا أن تلك الأودية المخصبة كانت في ذلك العهد مأهولة بقوم من الجنس السامي لهم مدنيتهم وديانتهم وتفكيرهم، وأن هؤلاء القوم قد ساهموا في
بناء صرح المدنية العالمية بنصيب وافر، وكان لهم في تاريخ الفكر البشري مجهود جبار ظل مجهولاً أو غامضاً على الأقل حتى قام العلماء الأثريون والمستشرقون بمكتشفاتهم العلمية وأماطوا اللثام عن هذه الحقائق الناصعة وساعدوا البحث الحديث على رد الأشياء إلى أصولها، وأبانوا أن الديانات الهندية المتأخرة والفلسفات العويصة التي ظهرت في تلك الأصقاع إنما تتصل بالعناصر السامية القديمة أضعاف اتصالها بالمنتجات الآرية التي غمرت الهند بعد الفتح الأجنبي.
يحدثنا بعض المؤرخين أن الهند كانت قبل هذا الفتح الآري قبائل متفرقة أو شعوباً صغيرة، لكل شعب حاكمه وقوانينه وعقائده وعاداته، وأن الوحدة السياسية والعمرانية إنما وجدت فيها على أيدي أولئك الفاتحين (الآريين) الذين يزعم الأستاذ (ماسون) أنهم كانوا في أزمنة لا تعيها ذاكرة التاريخ يقطنون وادي (الدانوب) المخصب في تلك العهود الغابرة، ثم عبروا البوسفور إلى آسيا لضرورة العيش الذي ألجأهم إليه قحل وقع في وطنهم قبل هذه الهجرة التي لم تكن مألوفة لديهم على عكس الشعوب الآسيوية الرحالة. ومازالوا يتابعون سيرهم انتجاعاً للغيث فعبروا الفرات وواصلوا الزحف حتى (البنجاب) وأخذوا يغيرون على تلك البلاد الخصبة الوادعة حتى بسطوا سلطانهم وأسسوا بها وحدات قوية يصح أن تسمى دولاً، وكان ذلك حوالي القرن الخامس عشر قبل المسيح. ومنذ ذلك العهد بدأت الهند في مرحلة جديدة في الدين والفلسفة والعلم والسياسة، وهذه المرحلة هي التي تشغل الآن أذهان الباحثين المشتغلين بدراسة الفلسفة الهندية.
أما الأغصان الأخرى التي بقيت في الدانوب من تلك الدوحة الآرية فقد انتشرت في أوربا يحمل كل غصن منها اسماً خاصاً به مثل (السيلت) و (الجرمان) و (السلاف) و (الاتين) و (الهيلين) وقد خالف أصحاب هذه الفكرة الرأي القديم القائل بأن أصل

العنصر الآري كان يقيم في بلاد الهند ثم ارتحلت منه بطون إلى أوربا فكانت منشأ هذه الأجناس السابقة الذكر. ولا ريب أن لكل منهما أدلة خاصة.
غير أن النار لم تكن هي الإله الأوحد عند هؤلاء القوم تؤيد مذهبه، لأن مجرد اتفاق هذه الأجناس الأوربية مع آريي الهند في اللغة (السنسكريتية) وفي بعض العقائد والنظريات لا يؤيد الرأي الأول ولا ينصر الثاني؛ غير أن أصحاب الرأي الحديث يزعمون أن مكتشفات
حديثة يرجع تاريخها إلى القرن الرابع عشر قبل المسيح تؤيدهم فيما ذهبوا إليه من أن الهجرة كانت من أوربا إلى آسيا. وسواء أصح الرأي الأول أم الثاني فإن الاستكشافات الحديثة التي قام بها العلماء منذ أن بدأها الأستاذ (يانيرجي) الهندي، وثنى على أثره فيها (سيرجوهن) تسمح لنا بأن نؤكد أن مدنية الهند الغابرة تمتد جذورها في الماضي أكثر من ثلاثة آلاف سنة قبل المسيح، ولكن هذه المدنية التي كانت قد ازدهرت في وادي (البنجاب) قبل احتلال (الآريين) لتلك الأصقاع بأكثر من خمسة عشر قرناً قد اندثرت قبل هذا الاحتلال بزمن لا يعرف التاريخ تحديده بالضبط.
ويؤكد فريق من الباحثين أن تلك المدنية القديمة كانت راقية رقياً يسمح لها بأن تصعد إلى ما هو أدنى من صفوف المدنية الفرعونية بقليل، ويجعل (الآريين) الفاتحين إلى جانب الوطنيين برابرة متوحشين، وأنت ترى أن هذا الرأي يخالف ما نقلناه لك آنفاً من أن السكان الأصليين كانوا شعوباً منتثرة أقل مدنية من الفاتحين، وأن (الآريين) هم أول من حققوا لبلاد الهند الوحدة السياسية والاجتماعية.
ومهما يكن من شيء فقد احتل أولئك (الآريون) تلك الأصقاع المتمدينة وطغوا على مدنيتها وديانتها طغياناً محاهما من صحائف أذهان الخاصة وإن كان لم يستطع أن يمحوهما من صحائف الوجود، بل ولا من أذهان العامة والجماهير.
هذا، وللعلماء الباحثين موطد الأمل في أن يصلوا على ممر الزمن إلى حل رموز الآثار الهندية القديمة التي أنشأها الوطنيون قبل الاحتلال الأجنبي، فإذا وصلوا إلى هذه البغية استطاعوا أن يتبينوا المدنية الهندية القديمة والديانة المحلية وما امتزج بهما وطغى عليهما من مدنية الفاتحين وديانتهم. أما الآن فأكثر ما يقال في هذا الصدد لا يعدو دائرة الفرض والتخمين.
على أن أهم ما يلفت النظر في الاكتشافات الحديثة للآثار الهندية القديمة هو أنه قد عثر على بعض تماثيل يرجع تاريخها إلى عهد المدنية الأولى، ولكنها تشبه كل الشبه تمثال الإله (سيفا) الذي هو من آلهة عهد الاحتلال (الآري) وكذلك عثر المكتشفون على رموز يرجع تاريخها إلى القرن الثلاثين قبل المسيح، وهي لا تزال حية في الديانة الحديثة حياة قوية.
ويستنتج الباحثون من هذا أن الإله (سيفا) ليس إلا إلهاً محلياً قديماً لونه الفاتحون بلون جديد ثم أقروه في الديانة المحدثة، كما أن تلك الرموز الحية في الديانة (الهندوآرية) هي بعينها الرموز الوطنية القديمة. وينجم عن هذا أن تكون الديانة الهندية المستحدثة بعد (البراهمانية الأرثوذوكسية) مزيجاً من الديانة المحلية المندثرة والديانة (الهندوآرية) ولكنه كان مزيجاً مجهولاً لدى الهنود أنفسهم ولدى جميع العلماء والمؤرخين حتى ظهرت استكشافات (بانيرجي) الأخيرة.
وتدل دراسة الديانة الهندية بوجه عام على أن الهند هي بعد مصر البقعة الثانية التي يصح أن يطلق عليها اسم أرض الآلهة والتي لا يفوقها في كثرة آلهتها وتعقد مشاكلها الدينية وصعوبة تحديد اختصاص الآلهة وسعة الخيال وخصوبته في تصوير المعبودات إلا بلاد الفراعنة.
الديانة المحلية
لم يصل الاكتشاف الحديث بعد إلى الدرجة التي يصح معها للباحث الدقيق - كما أسلفنا - أن يصدر حكماً جازماً على الدنيا المحلية التي سبقت عهد الاحتلال (الآري) إذ قد رأيت تناقض العلماء وتضارب آرائهم في هذا الموضوع حيث يقرر فريق منهم أن الوطنيين الأوليين كانوا أرقى عقلية وأعظم مدنية من الفاتحين. ويذهب فريق آخر إلى العكس فيقرر أنهم كانوا بطوناً منتثرة وقبائل متفرقة لا تربطهم مدنية اجتماعية ولا تجمعهم وحدة سياسية، ولكن الذي لا ريب فيه هو أن أولئك القوم كان لهم ديانة مهما تبلغ من السذاجة فإن لها قيمة تاريخية لا يصح للمشتغلين بتاريخ العقلية الإنسانية أن

يهملوها. وتتلخص هذه الديانة في أن النار كانت هي المعبودة المقدسة التي تقدم إليها الضحايا والقرابين من لحوم مشوية وخمور معتقة وألبان وخبز وأعشاب صالحة للأكل أو للتخمير إلى غير ذلك، وأن كهنة النار الذين كانوا يتولون إيقادها كان لهم بين أفراد الشعب مكانة رفيعة وإجلال مفروض. وقد كان هؤلاء الكهنة سدنة للنار وسحرة وأساتذة فنيين يعلمون الشعب طقوس الدين وأركان العبادة.

وإنما كان هناك آلهة كثيرون، بعضهم يتمثل في الشمس وما تسكبه على الكون من نعمة الإضاءة والدفء والإنعاش، والبعض الآخر يتمثل في تنين هائل أو وحش مخيف. وكان عدد أولئك الآلهة يصل أحياناً إلى ثلاثين أو ثلاثة وثلاثين إلهاً متساوين حيناً، ولهم رئيس أعلى حيناً آخر، ولكن هذا الرئيس لم يكن هو خالق الأكوان، لا لأن هؤلاء القوم كانوا دهريين أو طبيعيين، بل لأن سذاجتهم كانت قد بلغت حداً حال بينهم وبين الرجوع بعقولهم إلى بدء الخلق، فاقتصروا على التفكير فيما هو بين أيديهم فحسب ولم يتعدوه إلا إلى ماض قريب فرضوا فيه وجود عالم أحط منهم مرتبة وأقل مدنية. وبناء على هذا كان عمل الإله أو الآلهة عندهم مقصوراً على التصرف في الموجود ولا يتناول الإيجاد بأي حال.

وكانوا يعتقدون أن هناك عالماً آخر وراء هذا العالم يدعى (عالم الأموات) وأن ملك هذا العالم هو أول ملك من أجدادهم وهو: (ياما) بن (فيفاسفان) كما كانوا يعتقدون أن الخيرين الذين يموتون وهم حائزون رضى الآلهة لا تكاد أرواحهم تغادر أجسامهم حتى يمنحهم أولئك الآلهة معرفة الغيب والقدرة على التصرف في الكون وعلى تدبير الأقدار خيرها وشرها.

(يتبع)

محمد غلاب

الرافعي في الحجاز

مصطفى الرافعي

للأستاذ محمد حسين زيدان

ليست هذه الكلمة رثاء أرثي به الفقيد ولكنها حادثة وقعت لنا بسببه فأحب إخواني نشرها ليعلم الناس مكان الفقيد من نفس شباب الإسلام والعرب في كل قطر ومصر.

كنا أربعة نسمر حول مائدة فانتحى اثنان منا جانباً يتذاكران اللغة الإنكليزية وجلس آخر يقرأ - يقرأ ضحى الإسلام - أما أنا فكنت أكتب موضوعاً لجريدة (المدينة) وجاء صديق يحمل (الرسالة) ولم نكن قرأنا هذا العدد الذي يحمل، إذ تأخر وصوله فقلت: الرسالة؟ الرسالة! هاتها. فتصفحت الافتتاحية وخطوتها إلى كلمة الأستاذ أحمد أمين. فالأستاذ المازني، ثم إني قرأت للرافعي (أمراء للبيع) فلما وصلت إلى منتصف المقال ألقيت الرسالة وقلت لأصدقائي (هلموا إليَّ - هيا بنا نؤمن ساعة - أقرأ لكم الرافعي) فقالوا: اقرأ. اقرأ. فأخذت أقرأ وهم سامعون ساهمون. يسمعون البيان بيان الرافعي. ويعجبون بالبطولة. بطولة الشيخ ابن عبد السلام. ويهزءون بالقوة الغاشمة والإمارة الكاذبة والجهل الفاضح. وما انتهينا من المقال حتى ملأ الإعجاب أفئدتنا. وهذا حالنا كلما قرأنا لأبي السامي ومن تصاريف القدر وأعاجيبه أنه لم تمض لحظة حتى وافانا البريد فطالع أحدنا (أم القرى) وفيها الخبر الفاجع المحزن خبر وفاة الفقيد. فنزل علينا كالصاعقة ولقد كنا لا نصدق. قبل لحظة كان الرجل حياً يسمعنا بيانه وإيمانه ويطالعنا بعجيب من البطولة والصراحة والصرامة في الحق وتأييد الحق. والآن هو ميت نسمعه أنين الحزين وبكاء المتألم. وطفق أحدنا يبكي ويقول: لكم العزاء في الرافعي فقد حرمنا نحن الناشئة أديباً كبيراً نتعلم منه البيان والأدب العالي والنبل والفضيلة. حرمنا هذا في زمن اتجه أدباؤنا إلى إرضاء الساسة والعامة، والعامة هم عصا الساسة يسوقون بها هؤلاء الأدباء. وإن كان هؤلاء الساسة لا يتحركون إلا بما يرضي العامة لأنهم يستمدون سلطتهم على مقدرات الأمة وشؤونها من هذه العصا العوجاء (الرأي العام) وما هو الرأي العام (يرحم الله قاسم أمين) - قلت: حسبك فقد آلمتنا وأبكيتنا قال: أكتب حادثنا وحديثنا في جريدة (المدينة) ليعرف هذا وإني أعرفك لا تستطيع أن تكتب راثياً فالرثاء شعر ولست بشاعر، وإنما أنا أبكي الفقيد

بدموعي وفؤادي المحترق. قلت: أعرفك بكاء وإني لعاجز. ولكن اسمع وما أردت أن أكون دونه - اسمع لقد انهدمت الدعامة الرابعة من دعائم (الرسالة) بموت الرافعي. وإنا لنرجو أن تعود، فهي اليوم تقوم على ثلاثة دعائم، قال: لم أفهم فأفصح، قلت: يا هذا ألا ترى أن دعائم الرسالة أربع:

العاطفة والشعر، فالعقل والعلم، فالتجربة والتهذيب، فالإيمان والفضيلة: رجل العاطفة والشعر الزيات يكتب بعاطفته من قلبه وحنينه وأنينه ليلهب عواطف الأمة ويوقظ شعورها ويوقد حماسها فتتجه نحو المثل الأعلى. يفعل هذا لأن فيه طبيعة الشاعر الملهم المتألم المتأمل.

ورجل العقل والعلم أحمد أمين يكتب بعقله وعلمه ليثير عقل الأمة وليزيد في علمها من علمها وتراثها فتسير في طريق العقل النير والعلم الممحص، يفعل هذا لأن فيه طبيعة القاضي النزيه والعالم المخلص. . . ورجل التربية والتجربة المازني يكتب من تجاريبه ودراسته للنفس والأمة ليهذب من أخلاق الشباب، فيسير على ضوء التجربة من حوادث الماضي. يفعل هذا لأن فيه طبيعة الأستاذ المربي.

ورجل الإيمان والفضيلة الرافعي يكتب بإيمانه وعقيدته ليدافع عن إيمان الأمة ويثبت إيمان الأمة وعقيدتها، فتسير بنور الإيمان ثابتة العقيدة طاهرة المبادئ جريئة في الحق صريحة في نبذ الباطل، يفعل هذا لأن فيه طبيعة المسجد وشيوخ المسجد، ولأن فيه أثراً من وراثة الأسرة المجيدة والبيت الرفيع من الفاروق رضي الله عنه إلى عبد الغني وعبد القادر وأمين وعبد الرحمن ومصطفى صادق. أسمعت ووعيت؟ قال: سمعت وزد. قلت: وإن هذا الارتباط بين كتاب الرسالة بدون تعمل وتعمد من أعاجيب نهضة الأمة ويقظة الأمة ورغبة الأمة وتوفيق الرسالة، فهي قد لفظت وتركت غير هؤلاء الذين شذوا عن هذه المبادئ وضمت من سار على نهجها وخطتها. تركت غير هؤلاء عن غير قصد ولا عمد، وإن زعموا أنهم تركوها حاسبين أنها محتاجة إليهم مع أنها في غنى عنهم، فليسوا هم أصحاب الرسالة وإن أيدوها بموقفهم السلبي ومناقضتهم، فإن جلاء الحق لا يظهر إلا بمزاحمة الباطل، أسمعت ووعيت؟ قال: هذا صحيح فزدني. قلت: ماذا أزيدك؟ وأخذتني عبرة وطفقت أنشد بيت الرافعي الذي يرثي به أحمد تيمور باشا، وما أحقه أن يرثى به.

تأتي المصائب كالتقليد في نسق ... أما مصيبتنا هذي فتخترع

وبعد فهذه حادثة واقعة وحديث جرى ما زدت في ذلك شيئاً. يرحم الله أبا السامي فقد ناضل عن الأدب وجدد في البيان. إنه خلاق المعاني وملك الألفاظ يتلاعب بها كيف شاء. ناضل عن الأدب حتى كاد يستقر، ودافع عن الدين والقرآن والنبي صلى الله عليه وسلم دفاعاً يجزيه الله عليه أحسن الجزاء وإنه ولي الرحمة والغفران.

عن جريدة (المدينة المنورة)

محمد حسين زيدان

أدب الرافعي أدب ممتاز

للسيد كمال الحريري

للمرحوم فقيد الأدب مصطفى صادق الرافعي في وصف الجمال وصوره والتعبير عن آثاره في النفس والروح طريقة ممتازة هو فيها طراز وحده بين أدباء العربية في جميع عصورها. فأنت من وصفه الجمال الإنساني أمام لوحات بيانية سحرية، تكاد الحياة والعاطفة والروح تنطق مجتمعة من خلالها. وهو في الوصف الروحي العاطفي للجمال الإنساني المادي، صاحب مدرسة سدت في فراغ الأدب ثغرة ما أغنت استعاراته وتشابيهه عن سدها شيئاً. ولا غرو فإن روح التعبير عن الجمال التي تسللت إلى أنامل فيدياس الإغريقي فأنشأت له من الصخر الأصم هياكل وتماثيل بشرية في عاطفتها وحيويتها وروحها، قد هبطت بعد أجيال على قلم الرافعي، فأوحت إليه تحفه الأربع في فلسفة الجمال والحب. وأنا في هذا الحوار الذي دار بيني وبين صديقي الرسام إنما أعرض لوناً جديداً حيوياً من أصباغ وصف الجمال البشري، للأستاذ الرافعي وحده فضل استكشافه وفرضه على الأدب، ولوددت أن الأدباء غمسوا فيه ريشاتهم حين رسمهم لوحات الجمال الإنساني. ولا بأس أن أحتكم في تذوق هذا اللون أو النفور منه إلى أدباء الرسالة ليقولوا فيه كلمتهم.

لي صديق فنان في الرسم، وريشته لسانه، وترجمانه ألوانه، أسمعته جملة لي في

وصف أبي نواس وهي: لقد كان أبو نواس في حدائق الكرخ فراشة شاعرة ترتع بين أغصان القدود وأوراد الخدود. ثم وقفت عند هذه الجملة منتظراً أن تروقه هذه الاستعارة. ولكنه زاد علي أن قال: صعب علي يا صديقي أن أتصور كيف يتجرد صاحبك أبو نواس من هيكله البشري ليتجسد في جسم فراشة شاعرة ترتع بين أغصان القدود وورداتِ الخدود. وهل القدود مما تنبت الأيكة والخدود مما تتفتح عنه خميلة الورد؟ قلت دهشاً: أين يذهب بك يا صاح؟ إن هي إلا استعارة بديعة يلجأ إليها الأدباء حين يشبهون اعتدال القد بالغصن وحمرة الخد بالورد. قال: إن أصحابك يسيئون إلى الخدود الموردة والقدود المتأودة حين يشبهون الأولى بالورد والأخرى بالغصن. الغصن جميل والورد فتان ولكن جمالها مادي لا يقاس إلى جمال خد العذراء حين يتورد وقوام الحسناء حين يتأود.

وأمامي الآن - وهنا أشار إلى لوحته - منظر فتاة حسناء تقطف من خميلة وروداً زاهية حمراء. فأيهما أجمل وأنضر وأحلى وأملح؟ هذه الورود في يديها أم هذه الحمرة في خديها؟. إن حمرة خديها الملتهبين بدماء النضارة والصبا حرام أن تشبه بحمرة الورد. فليس في الورد خدود تلتهب التهاباً، ولا وجنات ترف نضارة وشباباً. وكيف يستوي خد الورد البارد الجامد الذي لا يحرك إحساساً ولا يثير عاطفة، وخد الفتاة المضرم من نار الصبى، المتوهج من حرارة العاطفة، المشبوب من خمرة الروح، المطلول من ندى الشهوة، يثير في كل قلب ألواناً من المشاعر الراقدة، وضروباً من الأحاسيس الهامدة؟

وعيون النرجس على ما بها من جمال وتناسق بليدة جامدة فليس فيها هدب طويل يثير، ولا جفن كحيل يغري. وأين من مقل النرجس (مغناطيس) العيون (وكهرباؤها) وسحرها وإغراؤها؟

الجمال بسره الكامن وجوهره الرمزي إنما هو فن الروح والعاطفة، فكيف تعبر عنه وردة محمارة أو غصن أملود أو طاقة نرجس أو سبيكة ذهب أو فضة مجلوة أو ما شئت من هذه التشابيه النفسية المادية التي خلقت لإمتاع النظر اللهيف وإرضاء الحاسة الرغيبة؟ أما تمثيل الجمال وتصوير الحلاوة ففن تلعب فيه الروح أهم دور وأخطره، وليست كل هذه التشابيه من فن الروح في مراح ولا مغدي. قلت: ولكن الجاحظ يقول في وصف جارية حسناء (وكأنها طاقة نرجس أو كأنها ياسمينة أو كأنها خرطت من ياقوتة) ثم ينقطع به نفس الوصف فلا يجعل للروح وفنها بالاً ولا ذكراً. قال صديقي ولكن ما عجز عنه الجاحظ من الوصف الروحي للجمال المادي أدركه نابغة كتاب هذا الجيل الرافعي. وهمك به من أديب يستعلن بالأدب العربي على آداب الأمم الراقية ويقول (أنا أدب لغة القرآن).

ولقد لبثت زمناً أبتغي من الأدب العربي صوراً بيانية لوصف الجمال الإنساني تكون في دقة تعبيرها كلوحات الزيت أو صور الفوتوغراف، فلا أظفر منه إلا بهذه الاستعارات (الزهرية) أو التشابيه الجوهرية حتى قرأت للمرحوم كتبه الثلاثة في فلسفة الحب والجمال فألقيت عصاي وآمنت بمعجزات الرافعي.

قال الأستاذ رحمه الله في كتابه حديث القمر:

يا رحمة لهذا الجمال! وجه وضئ الطلعة كأنه السعادة المقبلة يصل إليه دم الشباب من القلب فيتحول فيه إلى جمال وفتنة، وكأن معاني الحسن التي تتحير في خديه حقيقة إلهية تطل على النفوس من وراء الشفق. فيه عينان تنظران والله بروح تكاد تنطق ولا يفهم عنها إلا كأنها ناطقة. وتفيضان دلالاً وتفتراً فكأنما تلقيان على الروح فترة تحلم فيها من أحلام السماء وتستيقظ. وخدان تحير فيهما الجمال فوقف يتلفت عن يمين وشمال، وتراهما أسيلين بارزين، فيالله! هل هما ثديان صغيران من الورد يرضعان كفل الحب؟ قال: صديقي فكم بين هذا الوصف الساحر الدقيق العاطفي وبين وصف صاحبك الجاحظ المادي السطحي (وكأنها طاقة نرجس وكأنها ياسمينة)؟. إن هذه التشابيه على ما بها من جمال المادة والعطر واللون مادية لا ترسم حور العين وسحر الجفون ولا تصور تواثب النهود والحياة الكامنة في الخدود. أتدري لماذا؟ لأن لغة العواطف يا صاحبي غير لغة الورود، وتمايل الأغصان لا يشبهه تأدد القدود.

(حلب)
كمال الحريري
أي أسبانيا
للأديب حسين شوقي
أي أسبانيا! إني لأذرف دمعة صادقة على نكبتك لأنك وطني الثاني! ألم أقض طفولتي في ربوعك أثناء الحرب العالمية حينما نفي إليك والدي؟
أي أسبانيا! أصحيح أن الموت والدمار نزلاً بمدنك التي كانت رؤيتها بهجة للنفس ومتعة للنظر؟
أي أسبانيا! أصحيح أن المرء يستنشق رائحة البارود البغيضة من حقول بلنسية حيث كانت تعبق رائحة البرتقال؟
أصحيح أن يد الدمار قد امتدت إلى غرف الحمراء حيث مرحت الأميرات العربيات في شباب الدهر، بين أحضان الترف والنعيم؟
أصحيح أن كنائسك الفخمة قد أحرقت أو تهدمت، وكانت مقصد النبيلات الأسبانيات - أيام فتوح شارل الخامس وفيليب الثاني - للتضرع والصلاة، كي ترد إليهن أزواجهن من الحرب سالمين مظفرين؟ . .
أي أسبانيا! أصحيح أن قومك الذين كانوا بالأمس مضرب الأمثال في اللطف والدعة وإكرام الضيف والترحيب بالغريب جن جنونهم بغتة، كأنهم أصيبوا بداء الصرع، فأخذوا يقتلون يمنة ويسرة؟
أصحيح أن قلوبهم غلظت إلى حد أنهم يقطعون أيدي الحسان الناعمة كي يلبسوها حليها، تلك الأيدي التي ما خلقت إلا للتدليل والتقبيل؟
أصحيح أنهم سئموا مصارعة الثيران فاستبدلوا بها الأنفس البشرية؟
أي أسبانيا! أين كانت كامنة هذه القسوة؟
بل من أين هبطت عليك؟
إن بعض الكتاب الغربيين ينسبها إلى الدم العربي الذي يجري في عروق الأسبان اليوم، ولكن الله يشهد أن هذا الدم بريء، لأنه دم أموي نبيل! إن أسلافنا العرب الذين استوطنوا الأندلس كانوا أبطالاً ولم يكونوا أنذالاً، إنهم لم يقتلوا العجزة والأطفال والنساء!
بل إن العرب فقدوا ثمار فتوحهم العظيمة بما كانوا يبدون من الحلم المتناهي إزاء الشعوب
المغلوبة! ألم يتركوا لها حرية العقائد والعادات، وكتفين بأخذ الجزية؟
إذن ما مصدر هذه القسوة؟
إن (أنامونو) الفيلسوف الأسباني الشهير الذي توفي أخيراً ينسبها إلى دم النور (بفتح الواو) المنتشرين بكثرة في ربوع أسبانيا، وبخاصة في الجنوب، لأن هؤلاء القوم لهم - على حد زعمه - غرائز بعيدة عن المجتمع، بل وحشية. ومما يؤيد قوله هذا ما حدث في برشلونة من أعمال القتل والحرق والسلب فقد قام بمعظمها عمال من الجنوب لم يستوطنوا برشلونة إلا في السنوات الأخيرة. . .
أي أسبانيا! أصحيح أن حسانك قد مللن أقنعة رؤوسهن الجميلة من (الدانتلا) والمعروف (بالمانتليا) ففضلن عليها خوذة الجند الحديدية؟
أصحيح أنهن حطمن بأيديهن تماثيل العذراء التي طالما توسلن إليها كي ترقق لهن قلب العاشق النافر؟
أصحيح أنهن أصبحن يقتلن بالحديد والنار بعدما قتلن زمناً بسهام اللواحظ وحد الجفون؟
أصحيح أنهن سئمن أناشيد الحب فأخذن يحرضن خطابهن الرشيقين ذوي العيون العربية البراقة على الذهاب إلى ساحات الموت؟
أي أسبانيا! أصحيح أن قومك يهدمون مآثر ماضيهم المجيد بزعم التقدم والرقي؟
رب! كيف تمحى قرون متتابعة من العز والفخار؟ هل من المدنية أن تدفن المتاحف وتنسف الآثار؟
ألا ينظرون إلى حسرة أبناء العالم الجديد لافتقارهم إلى الآثار وهم قدوة المدنية والتقدم؟

ألا يرون كيف ينقل هؤلاء القوم الكنائس والقصور الأثرية من أوربا، حجراً حجراً، لإعادة تركيبها في بلادهم، رغم ما يكلفهم عملهم هذا من جهد ومال؟
أي سرفانتس! هلا تركت ضجعتك الهنيئة الأبدية لحظة لتشاهد مقدار عبث قومك؟
أي سرفانتس! إن صاحبك (دون كيخوت) لأقل جنوناً من هؤلاء القوم جميعاً إذ جنونه برئ لا يتعدى مهاجمة الخراف والطواحين. أما هؤلاء فلا يهدأ لهم بال إلا بقتل الأطفال والنساء والإخوان من بني جلدتهم!
(كرمة ابن هانيء)
حسين شوقي
رسالة الشعر
هياكل بعلبك
للأستاذ أمجد الطرابلسي
وأجل من حللِ الغبيّ ووشيه ... خِرَق على الأبطالِ أو أسمال
أطلالُ! ما البنيانُ يا أطلالُ؟ ... فَنِيَتْ على صُحاتِكِ الأجيالُ!
هَزِئَتْ رمامُكِ بالزمانِ وصرفهِ ... ما تفعلُ النكباتُ والأهوالُ؟
يفنى الزمان جديدُهُ وجميلهُ ... وعلى حطامِكِ بسمةٌ وجمالُ
إن الخلود يَفرُّ من سطواتهِ ... عادي الردى وتباعَدُ الآجالُ
لا يَقحمُ النّكسُ المُروِّعُ غابةً ... تختال في جنباتها الأشبالُ
يا غادة الماضي البعيد تَبَختَري! ... إن العصورَ هوادِجٌ وحِجال
تيهي على الدنيا فإنكِ أختها ... والسّحْرُ بينكما الزمانَ سِجال
وتخايلي مِلَء العيون، مليكةً ... تعنو لها الأملاكُ والأقيال
فَلَصَولجانُكِ يا مليكةُ صفعةٌ ... يخزي بها المتكبر المختال
هاتي حديثَكِ بَعلَبَكَّ أو اصمتي! ... إن الزمان محدِّثٌ قوّال
تتكلم الآبادُ فيكِ مبينةً ... وتخيرُ الأعصارُ والأجيالُ
هذي الرسمُ وهي الزمان وما وهت ... وقضى البُناةُ الظالمون ودالوا
مازال يدهمها الزلزال بعدهم ... حتى ارتضى بالخَيبَةِ الزلزال
ماذا يضيركِ أن وَهَت وتمايلت ... عَمَدٌ ودالت دولةٌ ورجال
إن الخلود على جبينكِ مشرقٌ ... ونصيبُكِ التقديسُ والإجلالُ
وأجلُّ من حُللِ الغبيِّ ووَشيهِ ... خِرَقٌ على الأبطالِ أو أسمال!
يا بعلبكَّ! وقفتُ فيكِ كأنني ... وصحابتي بين الطلول رمالُ
نرنو إلى الرِّئبالِ وهو من الصفا ... فيكادُ يُفزِعنا بكِ الرئبالُ
ونحدّثُ الأطلالَ وهي طريحةٌ ... فتكادُ تنطقُ مثلَنا الأطلالُ
نتسلّقُ العمَدَ المنيفةَ مثلما ... تتسلّق الصَّخَر الأشمَّ نِمالُ
فنُطلُّ منها فوق سفرٍ زاخرٍ ... أسطارُه الأعصارُ لا الأقوال
نتلو صحائفَهُ وملء برودنا ... عُجبُ العجيبِ، وفيمَ لا نختال؟
أقدامنا فوق الزمان قَريرةٌ ... ولنا الهيكِلُ والبُعولُ نِعالُ
نختالُ في ذُرُواتِها فتسُبنا ... عُصُرٌ تكنّفها الظلامُ طوالُ
يا أيُّها العاتون! بعض عُتوِّكم ... إن الزمانَ مخادعٌ ختّال!
أرأيتمُ لَعِبَ الصّروفِ وهدمَها ... ما يرفعُ الإرهاقُ والإذلال؟
هذي النِّعالُ تدوسُ وهي فخورةٌ ... ما شادتِ الأصفادُ والأغلال!
تلكَ الأوابدُ كم أهِلَّ لها دمٌ ... وسقى ثراها مَدمَعٌ هَطّالُ
كم ذلّتِ الأملاكُ في أعتابها ... وجَثَت على أقدامِها الأبطالُ
واليومَ نَمرَحُ نحنُ في هاماتِها ... يا للمَشيب تُهينُهُ الأطفالُ!
يا للفنونِ الخالداتِ تَدوسُها ... وتُذِلها المجّانُ والجُهّالُ!
عفواً هيكِلَ بعلبكّ! فإنما ... هذا الزمانُ وصَرْفُهُ أحوالُ
صبْراً على عبَثِ الزمان! فربما ... رقصت على جُثث الأسود سخال
كنّا نحوسُك ساخرين وربما ... أقعى لكِ الجبّارُ والصَّوّالُ
كم ذلّتِ الأدغالُ بعدَ لُيوثِها ... ولقد تُهابُ لأسدِها الأدغال
جوبتيرُ! أين جبارٌ لك شيدوا ... ما لا يزول على الزمان وزالوا؟
بذلت لهيكلك الرفيع نفوسهم ... ودمائهم، وأُهينتِ الأموال

أَرضيتَ أن تُبنى القُصورُ من الأذى ... لك أو يخضَّبَ بالدم التِّمثَالُ
عبدوكَ فاستعْبدتهم، وتمزَّقت ... في ظلِّكَ العُبدانُ والعُمّالُ
تلك العُبوديَّاتُ من آثارها ... هذي الصُّروحُ كأنها الأجْبالُ
نحتتْ بأصفادِ العبيد صخورُها ... وعلى العُناةِ أقيمتِ الأثقال
لا كنتِ يا آثارُ! إنكِ طعنةٌ ... في كلِّ قلبٍ شاعرٍ ونصلُ
عبدوا بكِ الشمسَ المنيرةَ في الضحى ... والشمسُ خيرٌ كلُّها وجَمال
خَشَعتْ لها منذُ القديم مَعاشرٌ ... شغَفتهُمُ الأنوارُ والأظلالُ
فَلئن يَعبدكِ الناسُ أو يستهزئوا ... فاليومَ معبودُ الأنامِ المالُ
كم تُحْرقُ الأبناءُ قُرْباناً لهُ ... وتُذبَّحُ الأعمامُ والأخوالُ
أغلى من الخُلُق المُكَرَّم دِرْهَمُ ... وأجلُّ من أعلى العُلى مِثقالُ
يا رَبَّ الكؤوسِ! وكم عَنا ... لمُجونكَ المُتزمِّتُ المفضالُ (باخوسُ)
هذي الكروم تكادُ وهْي نحيتةٌ ... يُصْبي العُقولَ رَحيقُها السَّلسَالُ
يا ليتَ شِعريَ ألهّوك فهلْ رأوا ... كيفَ استبدَّتْ خمرُك الجِريالُ
شادوا لكَ الصَّرْحَ الأشمَّ تَجِلّةً ... وجَثا لكَ النُّسَّاكُ والضُّلّالُ
وبنوا لِفينوس جِوارك معْبداً ... يختالُ فيهِ الحُسْنُ والإدلالُ
صُوَرُ الهوى المعسولِ ملءُ رحابهِ ... والجوُّ حُبٌّ كلُّه ووِصال
يا أمَّةَ الرُّومانِ! مازالَ الوَرى ... يَسبيه كُوبٌ مُترَعٌ ودلال
في كلِّ قلبٍ للمحاسِن مَعْبدٌ ... تأوي الجراحُ إليهِ ةالآمالُ
لكنّما ذهَبتْ مُلوكُكِ في الهوى ... سِيَراً تدارُ كُؤوسُها وتُجَالُ
ملءُ الخمائِلِ حبُّهُ ... و (سِزَار) كم ضُرِبَتْ به الأمثال (أنطونيو)
مَلِكان صاغَهما الغرامُ قصائداً ... تَشدو بها الأسحارُ والآصال
بِنتَ الخلود! أما سَئِمْتِ جراحَهُ؟ ... إن الخلودَ سآمةٌ ومَلال!
إني لأسمعُ من صَفاكِ صُراخَهُ ... وكأنهُ التَّنْعابُ والإعوالُ
ماذا عرَفْتِ من الحياةِ، وإنما ... سرُّ الحياةِ تعاقُبٌ وزَوالُ؟!
ويل لمفجوعٍ يرى أحبابَهُ ... يترَحَّلون ومالَه تَرحال!!
تنتابُهُ من بعدهمْ أطيافُهمْ ... والذكرياتُ عواصفُ ونبال
أوَ تذْكرينَ (أبا عبيدة) غازياً ... من حولِهِ الفرسانُ والنُّبَّالُ؟
تتبختَرُ الجُرْدُ الضّوامرُ تحتهُمْ ... نَشْوى يُصَعِّرُ جيدَها الإدلال
تزْهو على الأرض الفخور بحمْلها ... عَزَّت وعَزَّت فوقها الأحمال!
رَكْبٌ تحفُّ به الملائكُ هُتَّفاً ... وتحوطُهُ بقلوبها الأجْيالُ
أرَأيتِ أشرَفَ فاتحاً، سارَ الهدى ... في ركْبهِ واليمنُ والإقبالُ؟
أعلمت. . .؟ مالى والسؤال فربما ... نكأ الجراحَ الداملاتِ سؤال!!

أمجد الطرابلسي

إلى عصفورة

للأستاذ خليل هنداوي

حلِّقي، حلقي! لك الجو مهد ... والسماوات، والمعي كالشهاب
رجعي ما أردت شدوكِ حتى ... يسكر الكون بالغناء المذاب
أنا لا أستطيع يوماً صعوداً ... وجناحي مهشم الأسباب
أنا طير يدري السماء ويدري ... ما يواري السحاب خلف السحاب
كلما هم لم يطعه جناح ... أوهنت عزمه رياح الرغاب
كمحب سار الركاب بمن يهوى ... ولكن هواه عند الركاب
أنا كالزهر أملأ الجو عطراً ... وجذوري تعلقت بالتراب

رسالة الشباب

هلموا يا شباب!

كأن كلمة الشباب مقصورة الدلالة على الطلاب. كأن الذين هم في ربيع العمر من الموظفين والمحامين والأطباء والملاك لا يعنيهم الأمر إذا وجهت دعوة إلى الشباب.

فقد دعت الرسالة الشباب إلى أن يديروا بينهم الرأي فيما يهيئ الأمة إلى العهد الجديد من توفير سلامة الجسم وتقريب وسائل الثقافة وترقية أساليب الإنتاج وتكوين رأي عام صحيح وصريح يتشاور في بناء الهيكل القومي على أساس الخلق والدين

والعلم والتعاون، ويتجاوب في كل حادث بالصوت المتحد الذي ينبه الغافل ويحذر المغتر ويكون سياجاً للأمة من جمحات الأهواء وطغيان النفوس. تحرك هذه الدعوة الطيبة كرام الطلاب ثم شغلهم الاستعداد للامتحانات عن توسيع المناقشة فيها ودراسة الوسائل إليها، وانتظرنا من غيرهم أن يلجوا هذا الميدان الإصلاحي، أو يعملوا على تزويد الداخلين فيه، فلم نسمع صوتاً ولم نشعر بحركة، كأن أصحاب الوظائف وأرباب الأعمال يظنون أن واجبهم ينتهي عند عتبة الديوان، وأماهم يقف على باب المكتب؛ أما العمل التعاوني القومي فأمره بين شيوخ الحكومة وشباب الجامعة.

أنا أحد الذين حددت آمالهم وأعمالهم الوظيفة، ولكني أشعر أن الإنسان المثقف والوطني الصادق لا يسمح لنفسه أن يمثل في يقظة أمته فتور النعسان أو جمود الكسلان فيكتفي بقراءة الصحف في القهوة ومناقشة الأخبار في الطريق. المسألة مسألة تجنيد عام لمحاربة عوامل الضعف التي فشت فينا من تغير الزمان وفساد الحكم، فيجب أن يؤدي كل منا واجبه الوطني في الميدان الذي يستطيعه. والموظفون وهم ألصق الناس بالجمهور يستطيعون أن يؤدوا واجبهم على الوجه الأكمل فيرشدون الجاهل، ويعاونون المتعلم، ويضربون للناس الأمثال في إخلاص العمل وتقدير المسئولية وسلامة الضمير ومراعاة المصلحة. والذين يتصلون منهم بالفلاحين من أطباء ومهندسين ومعلمين يتسع أمامهم مجال الإصلاح فيكونون رسل سلام ودعاة خير وناشري ثقافة، فإلى إخواني الشباب والموظفين أوجه هذه الكلمة وأرجو أن يكون لها صدى في نقاباتنا وأنديتنا ومكتباتنا، يبلغ كل أذن ويهز كل قلب فنجيب دعوة الداعين ونعمل مع العاملين.

علي إسماعيل بالمالية

حول توجيه الشباب

إن أول واجب أشعر به هو تقديم وافر الشكر لصاحب الرسالة ومحرر رسالة الشباب فيها، وكل من ساهم ويساهم في تأدية هاته الرسالة السامية التي اضطلعت بأعبائها الثقال المجلة المحبوبة إلى جانب رسالة الأدب والعلم والفن التي قامت بتأديتها خير قيام. ونحن شديدو الإيمان بأن نصيبها من التوفيق في تأدية رسالة الشباب لن يكون أقل منه في غيرها إن شاء الله.

ولقد استرعى انتباهي - بصفة خاصة - هاته الكلمة التي ختم بها محرر رسالة الشباب صفحته في عدد سابق وكان عنوانها: (عبرة الشباب من حفلة التتويج). وإني وإن كنت من كارهي الحديث المعاد أشعر بدافع قوي يحملني على أن أعيد مغزاها على إخواني الشباب لا ليمتعوا أنفسهم بسلاسة أسلوبها أو جمال شاعريتها أو غير ذلك من ضروب الاستمتاع. بل ليجعلوها منهاجهم في كل عمل من أعمال الحياة.

ذلك المغزى أو العبرة، كما أرادها المحرر - والتي أريدها نبراساً للشباب هي: إن الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس لم يمنعها احتفاظها بالتقاليد من أن تكون أمة التجديد، واحترامها للدين من أن تكون أمة المدنية، وإخلاصها للملك من أن تكون أمة البرلمان والديموقراطية والدستور.

فأي عبرة هذه؟ بل أي عبر يمكن لشبابنا المثقف أن يتلقنها من حفلة تتويج ملك الإنجليز؟ وأي توجيه هذا الذي ينادي به أستاذنا عميد كلية الآداب لشباب مصر بعدما سمع بأخبار حفلة التتويج، وفهم منها ما فهم من محافظة الإنجليز على تقاليدهم واحترامهم لدينهم الذي هو مصدر الروحانية عندهم كما أن ديننا يجب أن يكون مصدر روحانيتنا؟

وحتى هذا المقال الأخير الذي قرأته لعميدنا الكبير في إحدى مجلاتنا تحت عنوان: (توجيه الشباب أيضاً) كنت أحس في مطالعته بارتياح عميق بل باغتباط لا شائبة فيه. ولكني لم أكد أتصفح هذا المقال وأكرر ذلك - عادتي في كل ما يكتبه كبار أدبائنا - حتى وجدت لساني يتطاول - على الرغم مني - باتهام عميد الأدب بعدم توفيقه المرة في معالجة شئون

الشباب. فليسمح لي سيدي الدكتور بهذه اللهجة الجافة التي لم أجد خيراً منها لمناقشة رسالته. فهي الصراحة لا تعرف المجاملة والحق لا يقوم على المداهنة.

ينادي عميد الأدب بأن يتجرد شباب مصر من روحانية الشرق التي هي لباب دينه، ليتجه بفكره صوب مادية الغرب ليغترف من تعاليمها الخير على ما يقول، فأي خير

هذا الذي وجدته يا سيدي في مادية الغرب التي تحبها، وتؤمن بها وتنتظر منها الخير الكثير وقد فقدته في روحانية الشرق؟
أهذه المبادئ والمذاهب الخاطئة التي ينادي بها زعماء الغرب والتي تسير بأوربا نحو الهلاك السريع والتي بنيت على حب المادة والعمل للمادة وحدها؟ أم هذه النزعات والميول المتطرفة التي قلبت رسالة الإنسانية السامية إلى رسالة بهيمية وضيعة والتي سوف يجني الغرب ثمارها المرة الشائكة إن عاجلاً وإن آجلاً؟ أم هذا وذاك من مساخر الغرب ومساوئ ماديته؟
إن أحداً لا ينكر سير الغرب بخطى واسعة نحو الرقي والحضارة المزعومة في هذا العصر. ولكني كبير الشك في أن هذه الحضارة - التي سخرت للمادة وقامت على دعائم خالصة من المادية - تعمر أو تطول. وليست هذه الأحداث والمهازل - التي يعج بها المجتمع الغربي، ويستصرخ المصلحين لإنقاذه منها - إلا إحدى نتائج هذا الاتجاه المادي الصرف.
أما الحضارة الحق التي يؤمل من ورائها الخير، وينتظر لها البقاء، ويجب علينا أن ننير سبيل شبابنا إليها فهي تلك التي تأخذ ضرورتها من المادة إلى جانب حاجتها من الروح. وما تذوق الحياة جسد من غير روح. وهذه سنة الله في خلقه أنطق بها رسوله الأمين حيث قال: (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا).
وعندي أن هذا الحديث الشريف هو جماع دستور الفرد الذي ينشد الكمال من المجتمع الذي يرجو الصلاح. وتلك الإمبراطورية الإسلامية - التي بلغت حدود الهند والسند شرقاً والاطلنطيقي غرباً - قامت على أسس من الروحانية الشرقية التي ينكرها الدكتور ولا يرى فيها أي خير. . .
كامل بركات
من رسالة
أما إن الشباب سيظل زيت النهضة المضيء المحترق فهذا مما لا شك فيه . . .
سلخنا من العمر ثمانية عشر عاماً هي ربيعه في نهضة شريفة سامية طامحة جامحة جريئة رزينة - نقنع بالحجة ونغرى بالعاطفة ونلهم الشعور ونحرك القلوب - فعزيز علينا ثم عزيز أن نسلم علم الجهاد وقد دافعنا عنه بالمهج والأرواح، فإلى الأمام نسير في كل فن وعلم بتجاريب السنين الماضية، أما الميدان السياسي فلن يضيق عن الجهود الوثابة التي اكتسبت من المحن خبرة ومن الشدائد عظة، وقد كان لنا فضل السبق في الإصلاح وهاهو ذا بنك مصر لا يزال شاهداً بما كان للشباب من قوة أثر في تعميره. بل إن طربوش القرش هو غرس الشباب.
فمن يوم أن قام الشباب قومته إلى الآن لا نجد أثراً عمرانياً أو أدبياً أو سياسياً إلا لمست فيه يد الشباب حادة قوية.
ومازال كل في طريقه شجاعاً في غير عنف، فخوراً في غير زهو، جريئاً يقول الحق ولا يهاب فيه الموت. وتلك كلها صفات اكتسبت من تعاليم سعد، وتغلغل أثر النهضة في نفوس تعطشت إلى الحرية فنالتها من يوم أن طلبتها.
حرية بعنا لأجلها نفوساً عزيزة علينا، ودستوراً قاومنا في سبيله كل من حدثته نفسه أن يكون عليه ظهيراً. وسنعرف بإذن الله كيف نحيطه بسياج من الأخلاق متين، غير منتظرين الوحي من الغرب؛ فالديموقراطية الشرقية مستمدة من وحيي الله ومن تعليم الأنبياء، فالمشورة كانت من صفات النبي صلى الله عليه وسلم؛ وما كان مستبداً حتى في إبان الحروب التي تتخذها الأمم الغربية كلها ذريعة لإعلان الأحكام العرفية.
وإن كان بعض مشرعي الغرب يحذرون شعوبهم من اندفاع جارف يؤدي بهم إلى الفاشستية أو الشيوعية، فانا لا نزال بحمد الله بعيدين عن كل ذلك، فإن التأني البصير خير من الاندفاع الأعمى، وإن دستوراً راسخاً متين البنيان لذو أثر عظيم في تشييد صرح النهضة. فليطمئن الشيوخ، فلن يجدوا إلا شباباً مجرباً وثاباً دمه الحار بمثابة وقود لعقله المتزن.
م. س سليمان
البريد الأدبي
تقرير صحيفة ألمانية لأمة سامية
استقبلت مصر حين دخولها في عصبة الأمم في أواخر مايو الماضي بتحية إجماعية

مؤثرة من اثنين وأربعين دولة بينهما اثنتان من الدول العظمى؛ وكان التقدير الذي لقيته مصر يقوم بالأخص على التنويه بمكانتها التاريخية، وعلى الدور العظيم الذي أدته في تكوين الحضارة اليونانية القديمة؛ ومن ثم في تكوين الحضارة الغربية بوجه عام؛ ولم تكن هذه المظاهرة الاجتماعية المؤثرة حديثاً أفلاطونياً فقط، ولكنها كانت إشارة بحقيقة تاريخية يستحيل على أوربا الحديثة تجاهلها، وفي الأسبوع الماضي نشرت جريدة (الأسبوع) الألمانية عدة صفحات خاصة بمصر وحضارتها القديمة، ثم استأنفت في عددها الصادر هذا الأسبوع فكتبت عدة صفحات أخرى واستطردت فيها إلى الإشادة بما لمصر من فضل على المدنية وما يرجى لها من مستقبل باهر، وهذه أول مرة في عهد ألمانيا النازية تقوم الصحف الألمانية بمثل هذه الإشادة بمقام أمة شرقية (سامية)، ولقد كان علماء الآثار الألمان في مقدمة علماء الغرب الذين عاونوا على اكتشاف الحضارة الفرعونية وعلى إظهار الدور العظيم الذي قام به الفراعنة في تكوين حضارة العالم، فلم تكن هذه الحقيقة بخافية يوماً على العلم الألماني. ولكن حدث بعد ذلك أن اجتاحت الدعوة الهتلرية العلم الألماني كما اجتاحت كل شيء في حياة هذه الأمة العظيمة، وذاعت نظريات هتلر عن الشعوب الشرقية والشعوب السامية بوجه خاص.

فهذه الشعوب في نظر زعيم ألمانيا الجديدة، شعوب منحطة، هدامة للحضارة، غير أهل لإنشائها. ومصر أمة سامية شرقية، فهي طبقاً لإنجيل ألمانيا الجديد أمة منحطة هدامة للحضارة، لا تستحق أن ترتفع إلى مصاف الأمم (الآرية) وهي الشعوب التي يحق لها أن تستعبد الشعوب السامية وأن تخضعهالثقافتها. ولقد اعتبرت مصر في ألمانيا بعد ذلك بصفة رسمية دولة غير آرية لا يصح لأبنائها أن يختلطوا بالعنصر الآري، وكان لذلك فيما نذكر ضجة في العام الماضي. فهل نعتبر إقدام صحيفة ألمانية كبيرة على التنويه بحضارة أمة (سامية) كمصر دليلاً على تطور هذه النظرية النازية المجحفة؟ إن الصحافة الألمانية تخضع في كل ما تكتب لرقابة حكومية صارمة؛ فإذا كان يسمح لها الآن أن تنوه بمركز

أمة (غير آرية) في إنشاء الحضارة العالمية، فإنه يسمح لنا إن نعتقد أن التفكير الألماني قد أخذ يتحرر من بعض النظريات المفرقة التي أذاعها كتاب (كفاحي)، وهي نظريات ليس لها في الغالب سند من التاريخ الحق أو التدليل الصائب.

كتاب عن تاليران

عرف تاليران الوزير الفرنسي الشهير بأنه نموذج للسياسي الداهية الذي لا يعرف في سبيل تحقيق سياسته مبدأ ولا ذمماً، وأضحى اسمه علماً على السياسة القادرة المتقلبة، بيد أن للتاريخ دورته وتطوراته؛ فإذا كان التاريخ قد رأى في تاليران من قبل سياسياً غادراً متقلباً، فقد يرى فيه اليوم رأياً آخر. وهذا الرأي الجديد عن شخصية تاليران وعن سياسته يقدمه إلينا وزير إنكليزي هو مستر دوف كوبر في بحث تاريخي جليل صدر أخيراً بعنوان (تاليران) والواقع أن حياة تاليران العجيبة تستحق الدرس؛ فقد خرج من الكنيسة إلى السياسة، وخدم لويس الخامس عشر، فلويس السادس عشر، فالمؤتمر الوطني والثورة الفرنسية، فنابليون بونابرت في جميع أطوار حكمه، ثم لويس الثامن عشر، وشارل السابع، وأخيراً لويس فيليب؛ وهكذا وضع تاليران مواهبه تحت تصرف أنظمة وحكومات مختلفة؛ ولم يحجم في أي ظرف عن أن يتخلى عن حكومة أفل نجمها لتأييد حكومة جديدة، ولم ير بأساً من أن يخون عرشاً على وشك السقوط لخدمة عرش تألق نجمه؛ فهذا التقلب الغادر هو الذي يأخذه المؤرخون الفرنسيون على تاليران، ويرون فيه سفالة أخلاقية لا تغتفر؛ ولكن الوزير الإنكليزي يرى في كتابه الجديد رأياً آخر؛ فهو يرى أن تاليران كان مثل السياسي العملي البارع؛ وهو يقدم لنا عنه هذه الصورة القوية: (إن للفرنسيين ذاكرة بعيدة؛ والسياسة في نظرهم هي استمرار التاريخ. والكتاب الفرنسيون ينتمون إلى مختلف الأحزاب والنحل: فهم ملكيون أو جمهوريون أو بونابارتيون. أما تاليران فلم يخلص لناحية خاصة من هذه. ولهذا لم يجد قط مدافعاً عنه في فرنسا. ومع ذلك فليس للفرنسيين أن ينحوا عليه باللوم؛ ذلك لأن تقلباته كانت تبذل في سبيل فرنسا كلها، وهو يصرح بحق أنه لم يتآمر قط إلا حينما يندمج معظم مواطنيه في سلك المؤامرة. وقد هلل كباقي الفرنسيين لمثل الثورة الفرنسية واعتقد في ضرورتها. ولكنه كباقي فرنسا سخط

على حكم الإرهاب وخدم الحكومة المؤقتة وناصر نابليون كرسول النظام والسلم. بيد أنه كباقي فرنسا كان يبغض
الظلم، فلما سئم من الحروب عاد يسعى إلى إعادة البوربون. ولما رأى استحالة العمل مع شارل العاشر، اتجه نحو لويس فيليب، وقد كانت مثله التي لم يحد عنها قط الملكية الدستورية، وتأييد النظام والحرية في فرنسا. والسلام في أوربا، والتحالف مع إنكلترا).
وقد انتهى الوزير الإنكليزي إلى هذا الرأي بعد البحث واستقراء الوثائق التاريخية الهامة؛ وهو يستعرض كل أعمال تاليران وتقلباته ويشرحها على ضوء الحوادث والأشخاص؛ وهو يجنح إلى العطف في معظم تعليقاته؛ ومن رأيه أن تاليران كان من أعظم الساسة الذين عرفهم العالم، وأن تقلباته المزعومة لم تكن إلا نوعاً من السياسة العملية التي يقدرها الإنكليز قدرها، وأنه كان يتمتع بصفات باهرة جعلت منه أقدر سياسي في عصره.
ونحن إذا قلبنا صحف تاريخنا وجدنا لدينا قرين تاليران؛ ذلك هو السياسي الفيلسوف ابن خلدون؛ فهو أشبه الناس بتاليران في خدمة الحكومات المختلفة، وفي الأخذ بقواعد السياسة العملية، وفي تقلباته مع الظافرين.
من نفائس أوراق البردي
تحتفظ مكتبة فينا الوطنية بمجموعة من أوراق البردي المصرية القديمة، ومنها خمسة أوراق ظهر من فحصها ودراستها أنها جزء من التوراة، وأن هذه التوراة المخطوطة هي أقدم توراة وجدت حتى الآن. وقصة هذه التحفة الأثرية هي كقصة جميع التحف التي تتسرب من مصر إلى الخارج بانتظام؛ وهي أنه في سنة 1930 اشترى بعضهم لحساب مكتبة (فينا) عدة من أوراق البردي من أحد تجار العاديات في القاهرة؛ ولما أظهر البحث أنها قسم من التوراة سئل التاجر المذكور عما إذا كان يمتلك أوراقاً أخرى من هذا النوع فذكر أنه باع مجموعة أخرى منها إلى أحد اليهود المشهورين وهو مستر شستربيتي. ولم يمض على ذلك قليل حتى أذاعت الدوائر الأثرية في لندن أنها قد حصلت على أقدمنسخة في العالم كله من العهد الجديد (الإنجيل)، وبه نص كامل لإنجيل متي، وأن هذه النسخة ترجع إلى منتصف القرن الثالث الميلادي. وتحتفظ فينا في الوقت نفسه بأقدم قطعة من أوراق البردي اليونانية، وبهذه الوثيقة نص كامل لقصة (فرار ارتميسيا) الشهيرة كذلك تحتفظ بأقدم ورقة من أوراق البردي اللاتينية، وهي وثيقة عسكرية ترجع إلى أيام الإمبراطور أوغسطوس أعني إلى القرن الأول من الميلاد غير أنه لا ريب أن أوراق
البردي المصرية القديمة من أثمن ما تحتفظ به العواصم الأوربية المختلفة، ومع أن مصر لا زالت تحتفظ منها بمجموعة ضخمة فإن أثمن ما فيها قد تسرب إلى الدوائر الأثرية الأجنبية في مختلف أنحاء العالم.
المكاتب العامة في فرنسا
قررت الحكومة الفرنسية تحقيقاً لأغراض سياستها الثقافية أن تعمل على تعميم المكاتب الشعبية بطرق وأساليب مغرية للقراءة والتثقيف. وقد رؤى أن تنظم هذه المكاتب في المدن المكتظة بطريقة خاصة، إذ تنشأ في مواقع مزهرة منيرة، وأن تعمل لها واجهات زجاجية تحلى بالصور ولأزهار والتحف، ثم تعرض فيها أحدث الكتب كما تفعل المكاتب التجارية؛ والمقصود بذلك التوصل إلى إغراء المارة من عمال وعاملات وطلبة أنهكهم العمل أو الطواف بدخول المكتبة وتمضية لحظات في القراءة أو تصفح الكتب والمجلات المصورة، وسيعنى بأن تعرض في هذه المكاتب جميع الصحف والمجلات من كل لون ونزعة سياسية، كما تعرض الكتب العلمية والروايات وغيرها ليكون هناك مجال للجميع كل حسب ذوقه ونزعته، كذلك ستنشأ في هذه المكتبات أجنحة خاصة للأطفال وتزود بطائفة من كتب الأحداث المصورة؛ بل واللعب والصور المختلفة.
المؤتمر الدولي لكتاب اللغة الفرنسية من الأجانب
افتتح يوم الثلاثاء الماضي في باريس المؤتمر الدولي لكتاب اللغة الفرنسية من الأجانب فألقى الأستاذ جورج قطاوي الأديب المصري خطبة جاء فيها:
في مقدمة الكتاب المصريين باللغة الفرنسية واصف غالي باشا وزير الخارجية

المصرية وقد شرفنا بحضور اجتماعنا هذا. وجميع المصريين يقدرون عمله السياسي حق قدره، فالاستقلال الذي أحرزته مصر مكنها من دخول جامعة الأمم من عهد قريب مرجع الفضل فيه إلى الجهود الوطنية والتضحيات وهمة الذين جاهدوا إلى جانب سعد زغلول باشا وفي جملتهم واصف غالي لنيل الأمة المصرية مطالبها المشروعة.

فالخطب التي ألقاها واصف غالي والنشرات التي أصدرها في أثناء الثورة المصرية تكاد تكون صدى لصوت دانتون أحد أعلام الثورة الفرنسية الكبرى. ومع اشتغال واصف غالي بالشئون السياسية لم يهمل

حرفة الأدب والبحوث التاريخية وقرض الشعر، فإن آثاره القلمية معدودة من محاسن النثر وعيون الشعر، وقد بين أن الغرب والنصرانية اقتبسا كثيراً من الحضارة الإسلامية. وأحيا ذكر شياطين الشعر العربي القديم والقصة العربية، ولم يسبقه في معالجة هذا الموضوع إلا المغفور له ثروت باشا أحد رؤساء الوزارة المصرية السابقين.

وما من أديب في مصر كلطفي السيد وطه حسين وأحمد ضيف ومنصور فهمي لم ينشر نبذاً باللغة الفرنسية على هامش مؤلفاته العربية النفيسة. ولو شئنا الإسهاب في هذا الموضوع لتمادى الكلام إلى مدى بعيد. وحسبنا أن نذكر أسماءهم. وأظن أن اسمي عدس وجوزيبوفتشي مستحقان أن يكونا في رأس جدول أسماء الذين نكرمهم، فإن كتابهما (جحا الساذج) قد بلغ بهما إلى أوج البلاغة، فقال عنه اوكتاف ميريو إنه لا يقل قيمة عن الكتب التي نسجت بردتها يراع ستندهال وفلوبير وتلستوي.

وقال إنه لم يدرك حقيقة الشرق إلا حينما قرأ كتاب (جحا الساذج)

وكتب أحمد ضيف بالاشتراك مع فرنسوا بون جان قصة (منصور) وغيرها فوصف الأول محاسن الريف المصري ومعيشة النوتية في النيل ومرفأ الإسكندرية، واشترك معه بون جان في وصف جامعة الأزهر.

وفي جملة الذين عالجوا محاسن مصر القديمة التركية أحمد راسم فإن نثره الشعري يحكي بسلاسته وابتكاره ما نراه في شعر فرنسيس جام، وفي كتابة أحمد راسم تكثر النكتة والتعابير الشعرية والأمثال العلمية. وقد عالج تحليل قصائد الشعراء المصريين باللغة الفرنسية، وسيتسنى لكم الإطلاع على تراجم هؤلاء الشعراء في الديوان الذي يعده في القاهرة المسيو روبرت بلوم الأديب الفرنسي الذي اختار مصر وطناً له.

ومن المؤلفين الذين لا يذهل راسم عن الإشادة بهم أمامكم شاعر أريد أن أسبقه إلى التنويه به وهو محمد ذو الفقار فإنه من أرقى شعراء مصر وأحسنهم ديباجة، ولكنه ينفر من الظهور والتبجح، وهو علاوة على تفوقه في الشعر يعد من المصورين البارعين. ويحب في غالب الأحيان أن يستر عواطفه الحقيقية بنكتة لطيفة أو بتهكم لاذع. وقد قال عنه أحد النقاد:

(أن الكلمات العادية في اللغة الفرنسية تتخذ إذا عالجها بقلمه طلاوة جديدة).

وأول من رفع الستار عن قصائد ذو الفقار وأعلنها للجمهور هو الكاتب المصري جورج دوماني بك، ولم يكن قبل ذلك قد اطلع عليها إلا خلصاؤه. أما جورج دوماني الذي استهوته السياسة والأعمال وشغلته عن عالم الأدب، فهو والحق يقال من أدق النقادين نظراً وألذعهم قلماً. فالمواهب التي يسخرها لتخليد ذكرى بعض زملائه وإظهار عبقرية البعض الآخر، تدل على أن نزوعه إلى النقد لم يضعف فيه قوة الشاعرية.

ومن عهد قريب صارت مصر تضيف إلى عداد شعرائها الذين ينظمون باللغة الفرنسية شاعرة جديدة هي السيدة قوت القلوب كريمة المغفور له عبد الرحيم الدمرداش باشا، فقد أصدرت رواية مطولة بعنوان (الحريم) أجادت في إنشائها كل الإجادة ونظم لها الكتاب الفرنسيون عقود الثناء عليها.

وإذا كانت الصداقة، الحقيقية وليدة اندغام بعض المتضادات والتقرب عن طريق المصاهرة فقد وجدت فرنسا ومصر لتتفاهما فعند طرفي حوض البحر الأبيض المتوسط لا تتخدش شواطئنا المتطرفة بخطوط منحرفة. وكأن شعبينا قد أعدا من الوجهتين الجغرافية والتاريخية لأن يكونا في ملتقى الطرق حيث تتواجه وتندغم الحضارات المتضادة. فباريس في الغرب تقوم بين العالم الجرماني والعالم اللاتيني بهمة تماثل المهمة التي تقوم بها الإسكندرية بين آسيا والعالم الأفريقي. ونجد في فرنسا كما نجد في مصر الفلاح المتعلق بالأرض وحراثتها، فاليسر لم يجرده من الميل

إلى العمل ولا التعلق بأهداب الحرية ولا يسعى وراء الاقتصاد المحمود. وكان (بوسيه) يقول عن مصر الفرعونية: إن الأحوال الجوية المتساوية فيها دائماً تولي عقول أهلها متانة وثباتاً.

الكتب

غريب القرآن

لمحمد بن عزيز السجستاني المتوفى 450هـ

طبع المطبعة الرحمانية بالخرنفش بمصر

أنجزت المطبعة الرحمانية بالخرنفش بمصر طبع هذا الكتاب النفيس من تراثنا الأدبي بعد ما عهدت إلى الأستاذ الشيخ مصطفى عناني بك المفتش الأول بالمعاهد الدينية، تصحيحه وترقيمه، وضبط المهم من ألفاظه وتعليق حواشيه ومراجعته على أصوله؛ وقد اعتنى به ناشره عناية فائقة تناسب قيمة هذا الكتاب الجليل.

ونحن نحب أن نعرف هذا الكتاب إلى جمهور المتأدبين من قراء الرسالة لينتفعوا به ويستفيدوا منه؛ فهذا كتاب وضعه واضعه ليعين قارئ القرآن وسامعه على أن يفهم ما يشاء من آياته على وجه السرعة، غير مستعين بما كتب المفسرون لأنه ينشد الفهم العاجل أو لأنه لا يتسع صدره لفضول الكلام الذي يملأ كتب التفسير في إسهاب عجيب. ونحن الآن نسمع القرآن يتلى في (الراديو) أو يقرأ في المساجد والمآتم والبيوت، فنستمع إلى هذا الجرس الجميل في كتاب الله ونتابعه بإذن واعية وفكر يقظ وقلب مشوق؛ ثم يضايقنا أحياناً أن يقف الفكر عند آية أو كلمة من آية لا نستطيع أن نفهمها لطول العهد بما قرأنا من كتب التفسير، أو لبعدها عن محيطنا اللغوي؛ في مثل هذه الحالة يعيننا كتاب (غريب القرآن) فيفسر لنا الكلمة الغريبة عنا في بساطة ووضوح تعيننا على فهم الآية كلها وتصل بين ما نسمع من آي الذكر الحكيم.

وعلى أنه مع ذلك قاموس صغير يعين اللغوي والكتاب والشاعر بما اجتمع فيه من كلمات قد لا نجدها فيما بين أيدينا من معاجم اللغة. ثم هو مرتب ترتيباً أبجدياً يدل على موضع الكلمة منه بسهولة وبغير كبير عناء.

لهذه الأسباب كان طبع هذا الكتاب خدمة كبرى أسديت إلى العربية يستحق ناشره من أجلها الشكر الجزيل.

وهذه هي الطبعة الثانية من الكتاب، وكانت طبعته الأولى منذ خمس عشرة سنة؛ على أن ما لقيه الكتاب من رواج، وتقدير الأدباء والمتأدبين لقيمته العلمية والأدبية، قد حدا ببعض المرتزقة من تجار الكتب أن يعيدوا طبعه من غير إذن ناشره، فكان على عملهم طابع السرقة ودليلها، فجاء مطبوعهم مغلوطاً ناقصاً مشوهاً يسيء إلى الكتاب وقارئه أكثر مما يسيء إلى ناشره.

ولكن هذه الطبعة الجديدة بضبطها وتحقيقها والعناية بها قد أنستنا هذه السيئة التي أقدم عليها طابعه المغتصب، وردت إلى الكتاب قيمته العلمية الجليلة.

س

شرح الإيضاح

تأليف الأستاذ الشيخ عبد المتعال الصعيدي

أتمت المطبعة المحمودية التجارية بالأزهر بمصر طبع الجزء الرابع من شرح الإيضاح في علوم البلاغة للأستاذ الشيخ عبد المتعال الصعيدي، فتم به شرح كتاب الإيضاح للخطيب القزويني، وهو الكتاب الذي جمع فيه بين طريقة الإمام عبد القاهر الجرجاني، وطريقة الشيخ أبي يعقوب السكاكي، بعد أن هذب الطريقتين، وأبدع في ترتيب مسائل علوم البلاغة، فاستقام له بهذا طريقة ثالثة يلغ من حسنها أنها لا تزال قدوة المؤلفين في علوم البلاغة إلى يومنا هذا.

وقد شرح الأستاذ الشيخ عبد المتعال الصعيدي في هذا الجزء علم البديع من كتاب الإيضاح، وسار فيه على طريقته في الأجزاء الثلاثة قبله؛ لا يعني إلا بشرح ما بهم من المسائل التي تكون من صميم هذه العلوم. فإذا فرغ من شرح المسألة عنى بشرح شواهدها وتكميلها وإيراد شواهد أخرى لها، وضرب بما سوى هذا عرض الحائط، وهو مما لا تزال المعاهد الدينية تشبث به، وترى أنه الميزة التي يمتاز بها الأزهري على غيره. ونرى نحن أن إصلاح العلوم في الأزهر لا يتم إلا بالقضاء على هذا الأسلوب الذي

يبعدها عن تحقيق ثمراتها، وتلتوي به مسائلها على المعلم والطالب حتى ينتهي منها على مثل ما بدأ به فيها، وحتى لو شاء الاثنان أن يقضيا سنة في مسألة على هذا الأسلوب لقضياها في تحقيقها، وقد تضيق بهما عن غايتهما، ومن غريب أمر هذا الأسلوب أنك تتعب في تذليله ما تتعب حتى تنتهي منه، فإذا عدت إليه بعد هذا بسنة أو شهر أو يوم كنت كأنك تحاول شيئاً لم تذلله من قبل، وأحوجك إلى مثل تعبك الأول أو أشق منه. فيا لله من هذا الأسلوب العويص الذي لا يذلل، ولله لهؤلاء المساكين الذين يشقون فيه هذا الشقاء بدون ثمرة نافعة!

ولا يفوتنا بعد هذا أن نذكر مثالاً من شرح الأستاذ الشيخ عبد المتعال الصعيدي في هذا الجزء، ليعرف منه القارئ نوعاً من طريقته في شرح مسائل البلاغة، وهي طريقة يجمع فيها بين العلم والأدب، وتحقيق المسألة وإيراد الشاهد على نحو ما كان يفعل المتقدمون قبل شيوع الطريقة النظرية في تدوين هذه العلوم.

قال الخطيب في تعريف علم البيان (علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة).

فقال في شرحه: قد أخطار السبكي أن كل واحد من تطبيق الكلام على مقتضى الحال ومن الإيراد بطرق مختلفة ومن وجوه التحسين قد يوجد دون الآخرين، فلا يكون الأول عنده شرطاً في الثاني كما سبق في علم البيان، ولا يكون كل منهما شرطاً في الثالث كما هنا، ولكن الحق خلاف ذلك، لأنه لا قيمة لوجوه التحسين عند فقد المطابقة ووضوح الدلالة، ولا لوضوح الدلالة عند فقد المطابقة، ولهذا عد من عيوب الطباق قول الأخطل:

قلت المقام وناعب قال النوى ... فعصيت قولي والمطاع غراب

لأن هذا من غث الكلام وبارده.

وكذا قول أبي تمام:

يوم أفاض جوى أغاض تعزياً ... خاض الهوى بحري حجاك المزبد

لأنه جعل الحجى مزبداً، ولا يعرف عاقل يقول إن العقل يزبد، وكذلك خوض الهوى بحر التعزي من أبعد الاستعارات.

وإنا نهنئ الأستاذ الصعيدي بتمام شرحه على الإيضاح، وندعو الله أن يقويه على هذا العمل المتواصل.

(ص)

بغداد أو المدينة المدورة في عهد الخلافة العباسية

كان الأستاذ النبيه بشير يوسف فرنسيس قد أخرج في الصيف الماضي الجزء الأول من ترجمة كتاب (بغداد أو المدينة المدورة) لمؤلفه المستشرق الذائع الصيت الأستاذ (غن ليسترنج). وكنت في وقته قد كتبت كلمة في العدد (153) الصادر بتاريخ 8 حزيران 936 من مجلة (الرسالة) الغراء بينت فيها ما لفريق من علماء المشرقيات من الفضل الأكبر في إخراج الآثار القيمة والأسفار العظيمة، وقد وعدت القراء بنشر مقال أصف به الكتاب عند نشر الجزء الثاني، وهأنذا بعد أن تناولت الجزء الثاني - وهو المتمم للكتاب - من مؤلفه الفاضل أفي بوعدي فأقول كلمتي خدمة للحقيقة والتاريخ.

لقد بذل المؤلف في إخراج كتابه هذا جهوداً عظيمة لا تقدر بقدر حتى تمكن من إخراج كتابه إلى عالم المطبوعات بصورة متقنة مستنداً إلى أوثق المصادر التاريخية وأصدقها برهاناً وأقواها حجة، وإن هذا الكتاب لهو معجم جغرافي لمدينة بغداد وفروعها وشعباتها، ومحلاتها، وأزقتها، وشوارعها العامة والخاصة، وقبورها، وبيوتها، ودورها، وجسورها، وجميع مرافقها ومساجدها، ومعابدها، ومدارسها، ومعاهدها الدينية والعلمية منذ تأسيسها على عهد أبي جعفر المنصور المتوفى سنة (145هـ 762م) حتى انقراض الدولة العباسية بهجوم المغول على بغداد واستيلائهم عليها سنة (656هـ 1258م). نظرة بسيطة يلقيها القارئ على مقدمة الكتاب وثبت المصادر التاريخية التي استقى منها المؤلف وألف كتابه هذا تجعله يقدر ما لهذا السفر الجليل من القيمة التاريخية العظيمة التي خدم بها المؤلف العرب والعلوم التاريخية العربية، وبعد أن فرغ المؤلف من مقدمته دون الوقائع المهمة التاريخية منذ سنة (132هـ 750م) حتى سنة (640هـ 1242م) بجدول ذاكراً فيه اسم السنة واسم الخلفاء والحوادث والأبنية الحادثة والمؤرخين المعاصرين. ثم قسم الكتاب إلى أربعة وعشرين فصلاً بين فيها

الحوادث الواقعة واحدة تلو الأخرى بصورة واضحة لا إشكال فيها ولا التباس، وقد وضح كثيراً من الحوادث في ثماني خرائط تبين موقع بغداد في مختلف القرون. وقد بلغت صفحات الكتاب ثلاثمائة واثنتين وعشرين صفحة من القطع المتوسط.

وبعد فإن الجهود العظيمة والأعمال الجبارة التي قام بها المترجم الفاضل لم تكن بأقل أهمية مما بذله المؤلف من الجهود.

ويكفيه فخراً أنه بالرغم من أن التعليم مستغرق كل وقته فإنه اغتنم فرص الراحة والخلود إلى السكينة فآثر الخدمة العامة على النفع الخاص وثابر على جهاده في الترجمة وتعقيب الحوادث من مصادرها الأصلية - رغم ندورها في العراق - حتى أخرج ترجمته هذه إلى عالم المطبوعات بأحسن صورة وأبدع أسلوب. وإني لا يسعني هنا إلا أن أقدم التهاني القلبية للمترجم الفاضل، وأدعو إخوانه الشبان المتحمسين المخلصين إلى اقتفاء أثره والسير على منواله ليفيدوا بلادهم ويستفيدوا، فإن رجل الدنيا من أفاد واستفاد.

(بغداد)

إبراهيم الواعظ

العدد 207 - بتاريخ: 21 - 06 - 1937

الأدب وتحصيله

على ذكر مقال (أدب السندوتش)

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

نعي صديق الأستاذ الزيات - صاحب الرسالة - على أدباء هذا الجيل الجديد، جهلهم بلغتهم وتقصيرهم في تحصيل آدابها، وقال: (أن الواقع الأليم أن الذين درسوا لغتهم وفقهوها من الأدباء النابهين نفر قليل. فإذا استثنيت هؤلاء الستة أو السبعة وهم من الكهول الراحلين، وجدت طبقة الأدباء كطبقة الصناع والزراع والتجار يأخذون الأمور بالتقليد والمحاكاة، لا بالدرس والمعاناة) وقال أيضاً: (ولا تجد في تاريخ العربية قبل هذا العصر، ولا في تاريخ اللغات في جميع العصور، من يحسب نفسه أديباً في لغة وهو لا يعرف منها إلا ما يعرف العامي الآلَفُّ).

وهذا صحيح. واحسبني من الستة أو السبعة الذين أشار إليهم الأستاذ؛ وإني لمن الكهول فقد جاوزت الأربعين وقاربت الخمسين، ولكني إن شاء الله من الباقين لا من الراحلين، فأني أحس من العزم والقوة والنشاط ما لو فرق بعضه على الأدباء النابتين أو الناجمين في زماننا هذا، لكفاهم وزيادة. ولست أكتب لأقول هذا، وإنما أريد أن أرسم للقراء صورة لأيام التحصيل الأولى. وأقول (الأولى) لأنا ما زلنا دائبين على التحصيل لا نعرف له نهاية إلا نهاية الحياة نفسها.

عرفنا القراءة والاطلاع ونحن تلاميذ في المدارس الثانوية؛ وأدع غيري وأتحدث عن نفسي فأقول إن مواردي كانت محدودة جداً؛ وكان حسبي أن أؤدي نفقات التعليم.

وكنت أحمد الله إذا وجدت بعد ذلك قرشاً في اليوم. وكان من زملائي في مرحلة التعليم الثانوي الأستاذ حسن فهمي رفعت بك - وكيل الداخلية الآن - ولا أعرف كيف كان حاله، ولكني أعرف أنه كان يعيرني ما يشتري من الكتب بعد أن يفرغ منها؛ وقلما كان يسترد ما يقرضني من كتبه. وكان فريق منا يعني بأن يحضر دروس الأمام الشيخ محمد عبدة، والشيخ سيد المرصفي، وانتقلنا إلى التعليم العالي، وكتب الله لي - على خلاف ما كنت أريد - أن أدخل مدرسة المعلمين العليا، فكان مرشدي فيها وأستاذي، زميلي وصديقي الأستاذ عبد الرحمن شكري، فقد كان شاعراً ناضجا ذا مذهب في الأدب يدعو أليه؛ وكنت

أنا مبتدئا، فصرفني عن البهاء زهير وابن الفارض وابن نباتة ومن إلى هؤلاء، ووجهني إلى الأدب الجاهلي والأموي والعباسي، ودلني على ما ينبغي أن أقرأ من الأدب الغربي. وكانوا ينقدوننا في هذه المدرسة بضعة جنيهات في الشهر: ثلاثة في السنة الأولى، وأربعة في الثانية والثالثة، فكنت أقسم هذه الجنيهات قسمة عادلة، فأدفع للبيت نصفها وأستأثر بالنصف، وأذهب إلى مكتبة فأنتقي منها (مؤونة الشهر). وكنت أعود إلى البيت بهذا الحمل فتسألني أمي، (أنفقت فلوسك كلها! وتظل طول الشهر تقول لي: هاتي!. هاتي!. أي تدبير هذا؟)

فأقول: (يا أمي. . لك مئونتك من السمن والعسل والأرز والبصل والفلفل والثوم، ولي

مئونتي من المتنبي والشريف الرضي والأغاني وهازليت وتاكري وديكنز وماكولي؛ ولا غنى بك عن سمنك وبصلك، ولا بي عن هؤلاء؟)
فتبتسم وتقول: (طيب. .) وتدعو لي بالتوفيق
وكنت أشتري ديوان الشعر ورقا، أعني بغير غلاف أو تجليد، ليتسنى لي حين أخرج من البيت أن أحمل معي ملزمة أو ملزمتين، أقرأ فيهما وأنا جالس في مقهى، أو إذ أتمشى على شاطئ النيل. وكان حديثنا إذ نجتمع في الأدب والكتب؛ وكانت رسائلنا التي نتبادلها في الصيف حين نفترق لا تدور إلا على ما نقرأ؛ وكان أحدنا يلقى صاحبه في الطريق اتفاقاً فيقول له: (لقد عثرت على كتاب نفيس بغلاف فتعال نقرأه) لا يدعوه إلى طعام، أو شراب، أو سينما، أو لهو، بل إلى قراءة كتاب. وكان كل من يقع على كتاب قيم يخف به إلى صاحبه فينبئه به ويخلصه له ويحضه على اقتنائه. وكان أساتذتنا في مدرسة المعلمين يحثوننا على التحصيل وييسرون لنا أسبابه، ما وسعهم ذلك، فلما تركنا المدرسة وفرغنا من الطلب (الرسمي) كنا قد عرفنا أمهات الكتب في الأدبين العربي والإنجليزي، وغيرهما أيضاً من الآداب، ودرسنا أكثر شعراء العرب والغرب، وكان لكل منا مكتبته الخاصة المتخيرة
وتزوجت. وفى صباح ليلة الجلوة، دخلت مكتبتي ورددت الباب. وأدرت عيني في رفوف المكتب، فراقني منها ديوان (شيللي) فتناولته وانحططت على كرسي وشرعت أقرأ، ونسيت الزوجة التي ما مضى عليها في بيتي إلا سواد ليلة واحدة؛ وكانوا يبحثون عني في
حيث يظنون أن يجدوني - في الحمام، وفي غرفة الاستقبال، وفي (المنظرة) - حتى تحت السرير بحثوا، ولم يخطر لهم قط أني في المكتبة، لأني (عريس) جديد لا يعقل في رأيهم أن يهجر عروسه هذا الهجر القبيح الفاضح! وكانت أمي في (الكرار) أو المخزن تعد مالا أدري لهذا الصباح السعيد، فأنبئوها أني اختفيت كأنما انشقت الأرض فابتلعتني، وأنهم بحثوا ونقبوا في كل مكان فلم يعثروا لي على أثر، فما العمل؟
فضحكت أمي وقالت: (ليس في كل مكان. . . أذهبوا إلى المكتبة فأنه لا شك فيها).
فقالت حماتي وضربت صدرها بكفها: (في المكتبة؟ يا نهار أسود! وهل هذا وقت كتب وكلام فارغ؟).
فقالت أمي بجزع: (أسمعي. . . كل ساعة من ساعات الليل والنهار وقت كتب. . . أفهمي هذا وأريحي نفسك، فأن كل محاولة لصرفه عن الكتب، عبث).
فقالت حماتي: (لو كنت أعرف هذا. . . مسكينة يا بنتي. . . وقعت وكان ما كان).
فقالت أمي: (هل تكون مسكينة إذا وطدت نفسها على هذه المعرفة؟ ويحسن أن تكبحي لسانك، وأن تدعي الأمر لبنتك فانه من شأنها).
فلم تكبح لسانها بل قالت: (لو كانت ضرة. . . لكان أهون!).
فقالت أمي: إنك حمقاء. . . وليس في الأمر ما يحوج إلى هذا الهراء. . . أذهبي إليه وناديه. . .).
فارتدت إليّ، وفتحت الباب علي، وكنت ذاهلا؛ فلما شعرت بالباب يفتح أزعجني ذلك، فأشرت إلى الداخل أن يرجع من غير أن أنظر إليه؛ وكنت مقطباً، وكان لساني يخرج أصواتاً كهذه: (شش! شش!).
فخرجت المسكينة وأغلقت الباب، وذهبت تقول لأمي والدموع تنحدر من عينيها إني طردتها وصحت بها: (هشش!) كما يصاح بالدجاج؟
وقد عرفت هذا كله فيما بعد، فطردتها، لأن خفت أن تخرب لي البيت؛ ثم إني تزوجت بنتها، ولم أتزوجها هي، فما مقامها عندي ولها بيت طويل عريض وزوج كريم؟ وكان رأي بنتها فيها مثل رأيي، فلم يسؤها مني ما فعلت. وأراحنا الله من دوشتها، ولكن زوجتي كانت تقول إلى آخر أيام حياتها رحمها الله: (ليس لي ضرة سوى هذه الكتب) - كانت تقول لها
مازحة، فقد راضت نفسها على احتمال هذا الجنون مني، واستطاعت أن تدرك أنه ليس لها ولا لسواها حيلة، وأن في الوسع صرفي عن أي شيء إلا الكتب والدرس.
ويا ما أذكى المرأة!! تكون لها حاجة تريد مني قضاءها، وتخشى رفضي وعنادي، فتكتمها ولا تكاشفني بها، وتنتظر حتى تراني غارقاً في كتاب، وذاهلا به عن الدنيا، وآية الذهول أن تدخل مرات فلا أشعر بها، فتقبل علي وتلاطفني وهي عارفة بما سيكون

.مني، فأعبس، كما كانت تتوقع، فتقول (كلمة واحدة. . . لن أعطلك. . .)
فأقول متململاً متأففاً: (لا حول ولا قوة إلا بالله! قوليها يا ستي ولا تعطليني) فتطيل عامدة لتضجرني: (كلمة واحدة بس. . . لماذا تغضب هكذا؟. . . ألا يتسع صدرك لكلمة ليس إلا؟)
فأكاد أجن وأقول: (يا ستي قوليها، وأريحيني!)
فتقول: (المسألة الفلانية. . .)
وأنهض، وأمضي بها إلى الباب وأنا أقول: اصنعي ما تشائين. كل ما بدا لك اصنعيه، ولكن لا تعطليني. . . أنا محتاج لعقلي كله الآن. . . ألا تفهمين؟ هذه نسخة مخطوطة، منسوخة. . . من ديوان أبن الرومي. . . نسخها حمار كلها غلط وتحريف وتصحيف،. . . ليس فيها بيت واحد له معنى. . . فكيف يمكن أن أصلح غلطة واحدة إذا كنت تطيرين (. . .لي عقلي بالفساتين والخياطة والركامة. . .؟؟
فتبتسم، فقد بلغت سؤلها، وتعدني أن تحرس هذا الباب فلا تترك أحداً يدخل منه أو يقربه.
ومن العناء الذي تكلفته أني اشتريت الأغاني الذي طبعه (الساسي) - اشتريته ورقاً على عادتي، فكنت أراجع الأبيات التي ترد فيه، في دواوين الشعراء أو كتب الأدب الأخرى، فأصلحها أو أتمم القصيدة - أنسخ ذلك في ورقة وألصقها في الكتاب، وكلما فرغت من جزء جلدته، وقد أصبح ضعف ما كان؛ وهذا هو الكتاب الوحيد الذي بعته بأضعاف ثمنه، فقد اشتريته بمائة قرش وخمسة قروش، فلما بعت مكتبتي في سنة 1917 أو 1918 - لا أذكر - ابتاعه مني وراق بخمسين وسبعمائة قرش، وقد ندمت على بيعه، فما أستطيع أن أصنع الآن ما صنعته قديماً، ولكن العناء الذي تكبدته نفعني، فقد أحوجني إلى مراجعات لا آخر لها، وأطلعني على ما كنت خليقاً أن أخطئه فيفوتني العلم به
وأنا مع ذلك أقل الثلاثة - العقاد وشكري - اطلاعاً وصبراً على التحصيل. وأدع للقارئ أن يتصور مبلغ شرههما العقلي؛ ولا خوف من المبالغة هنا، فإن كل ظني دون الحقيقة التي أعرفها عنهما. وأنا أجتر كالخروف، ولكنهما يقضمان قضم الأسود، ويهضمان كالنعامة، فليتني مثلهما!
إبراهيم عبد القادر المازني
كثرة البطولة أو ندرتها؟
للأستاذ عباس محمود العقاد
لخص العالم الفاضل الأستاذ أحمد أمين ما بيننا من خلاف على مسألة النبوغ والبطولة في ختام مقاله فقال:
عصرنا الحاضر طابعه طابع المألوف والمعتاد لا طابع النابغة والبطل، وإن كان مألوفنا ومعتادنا أرقى من نابغة القرون الماضية وبطل القرون الماضية
أن كان هذا - يا أخي - هو الذي أردتُ فأظن أنه لا يرد علي بمزايا العصر الحاضر،) وعلم العصر الحاضر، وفن العصر الحاضر. وإذا كان النبوغ في السبق وكانت المقارنة (بين عصرين بقياس مسافتي البعد، فأرجو أن نكون على وفاق فيما ذكرتَ وذكرتُ وموضع الوفاق بين ما قال الأستاذ وما قلت أننا لا ينبغي أن نقيس علم السابقين إلى علم المحدثين. فليست المقارنة بين مقدار ما نعلم ومقدار ما يعلمون، وإنما المقارنة بين الملكات في الزمن الماضي، والملكات في الزمن الحاضر، وهذا ما نختلف عليه؛
إذ لا موجب عندي لأن تكون ملكات النابغين في عصرنا أقل مما كانت في عصر الأقدمين
إن النبوغ صفة في أصحابها وليست صفة في غيرهم، فإذا تعلم غير النابغين أو لم يتعلموا فصفة النبوغ باقية في أصحابها سواء ظهروا بين المتعلمين أو ظهروا بين الجهلاء. وكل ما هنالك من فرق أن النابغة الذي يظهر بين المتعلمين أنبغ من زميله الذي يظهر بين الجهلاء، وتلك شهادة للنابغين في العصر الحديث تضاف إلى ميزان الحسنات والمرجحات
ومسافة البعد بين النابغ القديم ومعاصريه، هي مسافة البعد بين نابغينا وأبناء عصرنا إذا نحن تجاوزنا مسألة التعليم ووفرة المتعلمين، لأن النبوغ ملكة مطبوعة، والمسافة بين المطبوعين وغير المطبوعين اليوم هي هي المسافة بين الفريقين قبل مائة عام

أو ألف عام. فليس فضل إديسون في زماننا أنه يعرف في علم الضوء وعلم الصوت ما ليس يعرفه أبناء عصره، ولكنما فضله أنه نابغ وهم غير نابغين، فأفاد بالعلم اليسير ما لم يفده الآخرون بالعلم الغزير، وظلت المسافة بينهم وبينه في النبوغ كالمسافة بين أرخميد ومن عاصروه من غير النابغين، وإن أختلف العصران في شيوع العلم وكثرة المتعلمين

يقول الأستاذ الفاضل: (مقياس النابغة في نظري أن يفوق أهل زمانه ويسبقهم في فنه أو

علمه أو أدبه حتى لا يدركوه إلا بعد أزمان، وعلى مقدار هذا السبق يكون النبوغ. (فسيبويه نابغة في النحو، لأنه رأى من قواعده ما عجز أهل زمانه عن النظر إليه.

وأنا أقول كما يقول الأستاذ: إن النابغة يفوق أهل زمانه في معرض من معارض العلوم والفنون، ولكني لا أقول إن عصرنا لم ينجب أمثال سيبويه، بل أقول إن سيبويه لو عاش في عصرنا لما فاق نوابغه الأحياء. وإن نوابغنا الأحياء لو عاشوا في عصره لما قصروا عن شأوه، لأن الملكات التي تعرف وحدة الأسماء والأفعال بين لغات أوربا ولغات آسيا لا تقل عن الملكات التي تعرف الوحدة أو الاختلاف بين قبيلة وقبيلة من أبناء البادية، لا لأن الأمر يرجع إلى كثرة المتعلمين عندنا وقلة المتعلمين قبل نيف وعشرة قرون.

وعندي أن المعاصرين ينظرون إلى نوابغهم وأبطالهم كما كان الأقدمين ينظرون إلى النوابغ والأبطال في عصورهم إلا من كان منهم موسوماً بسمة الدين أو محوطاً بهالة الإيمان.

فالأستاذ يقول أن نابليون ظهر (فاستعبد الناس وأجرى الدماء أنهاراً وقلب الممالك رأساً على عقب ودوخ الدنيا فكان نابغة حقاً في ناحية. وبيننا الآن في عصرنا من هم أعلم منه بفنون الحرب ومن هم أقوى منه إرادة وأبعد نظراً، ولكن من الصعب أن نسميهم نوابغ، لأن الناس ليسوا مغفلين كما كانوا أيام نابليون. ولأنه وحده هو القاهر المريد ومن حوله كانوا المنفذين المأمورين، فظهر ولم يظهروا، ونبغ ولم ينبغ بجانبه إلا قليل).

فليت الأمر كما يبشرنا الأستاذ من هذه الناحية: إنما الواقع أن أحداً من أبناء القرن الثاني عشر لم يناد بأن الإمبراطور معصوم كما ينادي الفاشيون من أبناء القرن العشرين بعصمة (ألد وتشي) وطاعته بغير تفكير ولا امتعاض.

والواقع أن نابليون لم يجسر يوماً على صنيع كالذي صنعه (الفوهرر) قبل ثلاث سنوات من (تطهير) البلاد بلا محاكمة ولا سؤال.

وقد كان (لفين) ينحي على القديسين، ولا يعترف للعظماء بأثر في توجيه التاريخ إلى الأثر الذي يعترف به الشيوعيون، فلما مات أقاموا له ضريحاً لم يحلم به كاهن ولا راهب في عهد القياصرة أو عهد الكنائس والقديسين.

وإننا لنسمع كل يوم عن الألوف التي تندفع حول نوابغ الصور المتحركة للظفر بتوقيع بطاقة أو صورة شمسية، كما نسمع بالألوف التي تتدفع من أجل هذا حول أبطال الألعاب الرياضية وأبطال السياحة والطيران وأشباههم من أصحاب الشهرة في كل ميدان يتصل بالجماهير. أما العلماء والأدباء فمن نبغ منهم وأشتهر فليس نصيبه من الإعجاب والجزاء بأقل من نصيب أمثاله قبل أجيال وأحقاب، ومن لم ينبغ ولم يشتهر فله قرناء يماثلونه بؤساً وغبناً وشظفاً في أقرب العصور وأبعد العصور.

لا، بل نحن لا نستثني أصحاب المكانة الدينية على إطلاق الاستثناء، فما يربحه الدعاة باسم الدين اليوم لا يقل عما كانوا يربحونه في الأيام الخالية؛ والثقة بأغاخان اليوم وهو يعيش في أوربا عيشة المترفين والمتطلقين لا تقل عن الثقة بإمام زاهد عاكف على العبادة كان يعيش في صومعته قبل عصر الكشف والاختراع.

ولم ننفرد نحن بإكبار البعيد في الزمان أو المكان وترجيحه على أنداده وقرنائه الذين نراهم رأى العين ونعرفهم بالمصاحبة واللقاء، فقديماً كانوا يقولون إن زامر الحي لا يحظى بإطراب، وقديماً كان الجاحظ يكتب الرسائل وينحلها الكتاب الأسبقين ليحظى بالإصغاء والتقريظ.

وأحسب أن إيثار الماضي على هذا النمط له علة شائعة بل علل شائعات لا تنحصر في وقت ولا يخلو منها قبيل.

فالماضي يشبه المثل الأعلى لأنه غائب عن الأنظار كالمثل الأعلى في هالاته وخيالاته، أما الحاضر فهو كالواقع المحسوس الذي نحب أبداً أن نتجاوزه ونطمح إلى ما وراءه.
ولقد كان المشركون ينكرون النبي عليه السلام ولا ينكرون منه إلا أنه (يأكل الطعام ويمشى في الأسواق). ترى هل كان الأنبياء فيما مضى لا يأكلون طعاماً ولا يمشون في سوق؟ كلا بل كانوا يأكلون ويمشون، ولكنهم بعدوا واحتجبوا فخيل إلى غير معاصريهم أنهم مختلفون.
ومن العلل التي تجنح ببعضهم إلى تهيب (السلف الصالح) أننا ننظر إليهم كما ننظر إلى الآباء والأجداد، كأنهم كبار ونحن صغار، لأنهم ولدوا قبلنا بمائة عام أو مئات من الأعوام، وينسى المتهيبون أن السابقين كانوا أطفالا في سن الطفولة وأننا سنصبح شيوخا مع السنين أو نربى في الشيخوخة على أولئك الآباء والأجداد
ومن تلك العلل ما أومأنا إليه في مقالنا الأول عن سهو الذين يقارنون بين الماضي والحاضر فيجعلونها كفتين تتساويان في نطاق الزمان والمكان، مع أن الحاضر زمن واحد والماضي حاضر قد تتكرر عشرات ومئات
وعندنا نحن الوارثين للثقافة العربية سببان آخران لا يلحظان بهذه القوة في جميع الشعوب: أحدهما أن العربي يعتز بالأنساب وينوط الفخر كله بماضيه، لأنه سلالة من القبائل التي تغلب فيها العصبية وترسخ فيها الأصول.
والثاني أن الماضي أقرب إلى منشأ الدين، فيخيل إلينا أن الأقدم فالأقدم هو الأصلح فالأصلح والأعلم فالأعلم، وإن لم تدلنا الدلائل على اطراد هذا القياس
تلك الأسباب كلها خليقة أن تضعف احتراسنا كلما عمدنا إلى الموازنة بين حاضر وغائب وقريب وبعيد. فهي صنجة تؤخذ من كفة الأقدمين وتضاف إلى كفة المحدثين في ميزان الأنصاف. ومما لاشك فيه أن ملكات النبوغ لا تقل في عصرنا بل هي أحجى أن تزيد وتنشط، بل هي قد زادت ونشطت فعلا باتساع مجال السعي والمنافسة والتفكير والاستنباط؛ ومما لا شك فيه أن الأقدمين لم ينظروا إلى معاصريهم إلا كما ننظر نحن إلى معاصرينا، وأنهم لم يشعروا قط بتلك المهابة التي نضفيها عليهم الآن ولا بذلك الترجيح الذي نمحضهم إياه. أما أنهم كانوا يرون نوابغهم وأبطالهم كما نراهم الآن فذلك ما نخالف فيه الأستاذ لأنه خلاف المعهود والمروي والمسطور. وهبهم أكبروا معاصريهم لأنهم قلائل، وأصغرنا معاصرينا لأنهم كثيرون لا نادرون كما يقول الأستاذ الفاضل، فإنما يكون ذلك كالذهب الذي يكثر تداوله فيرخص سعره وهو ذهب لا شك فيه. وإنما يكون النبوغ نبوغاً ولا يكون شيئاً آخر مهما يكن حظ الناس من التعليم، لأنه ملكة في الطباع لا يختلف كنهها وإن اختلفت أنظار الناس إليها، ولا تزال الإنسانية بحاجة إلى الكثير منهم والقليل
وخلاصة القول إننا نستطيع أن نقول مع الأستاذ الكبير إن النبوغ في عصرنا كثرة لا ندرة، ولا نستطيع أن نقول معه أن المسافة بين النابغ وسواد الناس تقترب في العصر الحديث، لأن ازدياد التعليم يزيد نصيب المتعلم من المعرفة ولا يخوله فطرة أخرى ولا ملكة مطبوعة كتلك التي يخلق بها النابغون الممتازون
عباس محمود العقاد
العلم والوطنية
إلى الأستاذ توفيق الحكيم
من الأستاذ أبي خلدون ساطع الحصري
مدير دار الآثار ببغداد
قرأت الكلمة الرشيقة التي دبجتها يراعتكم الفنانة، في صدد الرد على استفتاء الرابطة العربية حول مسألة (العلم للعلم أم العلم للوطنية؟)
قرأتها بإمعان واهتمام، وأعجبت بالأخيلة والتشبيهات التي تحلت بها؛ غير أنني لم أقتنع بصحة الأفكار والآراء التي تضمنتها
لقد قلتم بصيغة التأكيد الحاسم: (العلم والوطنية لا يمكن أن يتفقا. . .)
إذن فأنتم تعتقدون أن العلم والوطنية مختلفان؛ وزيادة على ذلك تقولون بأن اختلافهما هذا سيستمر إلى الأبد، ولن يزول في يوم من الأيام. . .
على أني أعترف أيها الأستاذ بأنني من الذين يدينون بدين العلم والوطنية في وقت واحد، ومن الذين يقولون على الدوام بوجوب (نشر الروح العلمي) من جهة، و (تقوية

الشعور الوطني) من جهة أخرى
أفلا تعذرونني إذن إذا ما اعتبرت نظريتكم هذه من الخطورة بمكان، فأخذت على عاتقي مناقشتكم فيها مناقشة شاملة لإظهار الحقيقة التي اعتقدها؟
تقولون، أيها الأستاذ، بأن (العلم والوطنية لا يمكن أن يتفقا) وتحاولون أن تبرهنوا على هذه الدعوة بثلاث قضايا:
(إن الوطنية هي الأنانية في المجموع)
(والأنانية عمياء)
(. . .والعلم هو البصر - المنزه - بحقيقة الأشياء)
إنني لا أود أن ابدأ المناقشة بالبحث عن مبلغ صحة هذا القضايا؛ بل أود أن أسلم بها مؤقتاً، لأرى هل تكفي للدلالة على صحة رأيكم في هذا الصدد. . .
تقولون: (إن الوطنية هي الأنانية في المجموع) فهل تستطيعون أن تقولوا - في الوقت نفسه - بأن العلم ينكر الأنانية على الإطلاق، ولا يعترف بأثرها في حياة الحيوان والإنسان؟
تقولون: (إن الأنانية عمياء) فهل تستطيعون أن تقولوا - في الوقت نفسه - إن العلم يخالف كل ما هو أعمى؟ أفتنكرون أن القوى الطبيعية أيضاً عمياء؟
تقولون: (إن العلم هو البصر المنزه بحقيقة الأشياء) فهل تستطيعون أن تأتوا ببرهان يدل على أن الوطنية (خارجة عن حقائق الأشياء)؟. . .
كلا. . إن الوطنية قوة اجتماعية فعالة، ليس إلى إنكارها من سبيل. . . آثارها تظهر دائماً، من خلال الوقائع التاريخية والحادثات الاجتماعية، بكل وضوح وجلاء فهي تدخل لذلك في نطاق (حقائق الأشياء). كما تدخل فيه سائر القوى والمؤثرات الطبيعية، كالوراثة والمناعة والمغناطيسية والجاذبية. . .
فإذا أردنا أن نجعل الوطنية موضوع بحث علمي، يجب أن ندرسها كما ندرس الحادثات والقوى الطبيعية بوجه عام، والحادثات والقوى الاجتماعية بوجه خاص. . .
ولا جدال في أن العلم يدرس الكون وحادثات الكون (بحياد تام). يدرس خواص الأشياء، ويتتبع سير الحادثات ويتحرى أسبابها، ويستقصي قوانينها؛ وقد يتنبأ في بعض الأحوال بمستقبلها أيضاً، استناداً إلى القوانين التي اكتشفها والعوامل التي أظهرها. . . إنه يفعل كل ذلك، دون أن يقدم على استحسان أو استهجان الحقائق الثابتة بوجه من الوجوه، دون أن يتأثر بموافقة أو مخالفة تلك الحقائق لمصالحنا المادية أو لنزعاتنا الفكرية بصورة من الصور. لأن مهمة العلم تنحصر في معرفة حقائق الأشياء واكتشاف قوانين الحادثات، ولا يتعدى ذلك إلى تحبيذ أو تقبيح تلك الحقائق أو استحسان أو استهجان تلك القوانين. . .
لنا أن نتخيل كوناً غير هذا الكون، ولنا أن نتصور (مجتمعاً غير هذا المجتمع)، ولنا ألا نكتفي بالتخيل والتصور بهذه الصورة، بل نوصل الأمر إلى درجة التمني، فنتمنى أن يتحول الكون إلى الحالة التي تخيلناها، وأن يتطور المجتمع إلى الهيأة التي تصورناها. . ولنا أن نذهب إلى أبعد من ذلك أيضاً:
لنا أن نعتبر ما تخيلناه وتصورناه في هذا الباب مثلاً أعلى نسعى إلى تحقيقه بنشاط وحماس، وهدفاً أسمى نتجه نحوه بقوة واندفاع. . . لنا أن نفعل كل ذلك، على أن نعلم في الوقت نفسه، بأن تفكيرنا وعملنا في هذا السبيل يكون من قبيل الشعر أو الفلسفة أو السياسة. . . فلا يدخل في نطاق (البحث العلمي) بوجه من الوجوه. .
لكم، أيها الأستاذ، أن تتمنوا زوال الأنانية من الأمم؛ ولكم أن تصبوا إلى رؤية مجتمع تتغلب فيه مصلحة الدول على مصلحة الدولة الواحدة، ولكم إذا شئتم أن تقوموا بدعاية ترمي إلى تضحية مصلحة الدولة الواحدة إلى مصلحة سائر الدول. . . فأني لا أناقشكم في كل ذلك في هذا المقام؛ غير أنني أقول بأنه لا يحق لكم بوجه من الوجوه أن تعزوا تمنياتكم ونزعاتكم هذه إلى (العلم) فتقولوا (العلم لا يتفق مع الوطنية) فأن العلم لا يختلف الآن إلا مع ما يخالف الواقع. . وأننا مهما تعمقنا في تحليل طبيعة العلم من جهة وطبيعة الوطنية من جهة أخرى لا نجد بينهما ما يستوجب الاختلاف بوجه من الوجوه.
بعد أن وصلنا إلى هذه المرحلة من المناقشة أرى أن نترك هذه (الأحكام الآنية) جانباً،

لنستقرئ الوقائع التاريخية فننظر فيما إذا كان العلم والوطنية قد اتفقا أم اختلفا فعلاً في مختلف الأجيال. . .

إنني أستطيع أن أذكر وقائع تاريخية كثيرة تشهد على (اتفاق العلم مع الوطنية) و (خدمة العلم للوطنية) بصورة فعلية، لعل اقدم هذه الوقائع يعود إلى عهد (أرخميديس) الشهير، ويتعلق بقصة مقاومته للرومان، فأن هذا العالم الكبير الذي يعتبر من آباء علم الميكانيك، والذي يتردد أسمه حتى على ألسنة طلاب المدارس الابتدائية في دروس الطبيعة والأشياء، هذا العالم الكبير لعب (بعلمه) دوراً هاماً في تاريخ وطنه سيراقسة، فعندما حاصرها الرومان، وضع كل ما عنده من علم وقوة وتفكير واختراع إلى خدمة وطنه، فأستعمل المنجنيقات والمرايا المحرقة لتخريب أسطول المحاصرين، فمكن المدينة منَ الدفاع عن نفسها دفاع الأبطال، إذن، فالعلم والوطنية اتفقا في نفسية أرخميديس في أمر الدفاع عن الوطن المحصور، ولم يختلفا بوجه من الوجوه.

أن الثورة الفرنسية أيضاً تعطي لنا مثالاً بارزاً (لتعاون العلم والوطنية): عندما تألبت الدول الأوربية على فرنسا بقصد خنق الثورة في مهدها، جابهت الدولة المذكورة مشكلة كبرى، كادت تقضي عليها لولا مساعدة العلم والعلماء لها، فأن الحصار الذي أحاط فرنسا بالنار

والحديد من كل الجهات، حرم رجال الثورة إمكان استيراد المواد الأصلية الضرورية لصنع الصابون والبارود والمدافع والأسلحة، عندئذ فكرت لجنة الدفاع الشعبي في الاستفادة من علماء الكيمياء، فاستنهضت هممهم لتخليص الوطن من هذه المحنة. ومن هؤلاء العلماء (برتوله) و (فوركروا) وجهوا أبحاثهم العلمية وجهودهم الفكرية، نحو أيجاد الطرق التي تساعد على إحضار المواد المذكورة بصورة صناعية من المواد الموجودة داخل البلاد، فنجحوا في مسعاهم هذا وخدموا وطنهم بذلك أجل الخدمات.

وأما بعد ذلك فنستطيع أن نقول: إن (خدمات العلم للوطنية) أصبحت من الأمور الاعتيادية التي يصعب إحصاؤها فأن صحائف تاريخ العلوم من جهة وتاريخ الدول من جهة أخرى مملوءة بأمثلة دالة على ذلك، ولاسيما ما حدث منها خلال الحرب العالمية.

وربما تقولون أيها الأستاذ، (إن هذه كلها من الأمور التطبيقية) وستكررون في هذا المقام رأيكم في (العلم وتطبيق العلم) لأنكم قلتم في كلمتكم (فالعلماء الحقيقيون لا يطبقون العلم، إنما يعيشون حياتهم للمعرفة المجردة لا يبتغون من ورائها غير مجرد الدنو منها، تلك لذتهم الكبرى، أما رجال الأعمال الذين يأتون بعد ذلك لاستغلال نتائج هذا العلم فليسوا من العلماء وإن درسوا العلم دراسة عميقة)

فاسمحوا لي أن أقول: إن الطبيعة بعيدة عن مثل هذه التقسيمات القطبية في أمر (العلوم وتطبيقاتها) فأن استغلال نتائج العلوم - بعد اكتشافها - لا يكون دائماً من عمل رجال آخرين غير العلماء المكتشفين، بل كثيراً ما نشاهد في تاريخ العلوم أن العالم الباحث، بعد أن يتوصل إلى معرفة الحقائق واكتشاف القوانين ينتقل بنفسه إلى التفكير في النتائج المأمولة والفوائد المتوقعة منها، ويبحث عن تطبيقاتها فهل يحق لنا - في هذه الحالة - أن نخرجه من عداد (العلماء بحجة أنه لم يكتف باكتشاف الحقيقة، بل تعدى ذلك إلى التفكير في الاستفادة منها؟ فهل يحق لنا مثلا ألا نعتبر أرخميديس من (العلماء الحقيقيين) بالرغم من نظرياته واكتشافاته العلمية الكثيرة - لمجرد إقدامه على تطبيق بعض القوانين التي اكتشفها؟ وهل يحق لنا أن نخرج (برتوله) من عداد العلماء - بالرغم من نظرياته وقوانينه المشهورة - لمجرد عدم اكتفائه باكتشاف تلك القوانين - وإقدامه على توجيه بعض أبحاثه العلمية إلى الاتجاه الذي تتطلبه منه خدمة الوطن؟.

كلا. . . إن مبدأ (العلم للعلم) يتطلب البحث عن الحقائق لنفسها ولو لم ينتظر فائدة من وراء معرفتها، غير أنه لا يتطلب الامتناع عن الاستفادة منها.

إن هذا المبدأ يتطلب الاعتراف بالحقائق الثابتة، مهما كانت نتائجها؛ غير أنه لا يتطلب الامتناع عن توجيه الأبحاث العلمية نحو الحقائق التي ينتظر الحصول على فائدة وطنية من وراء معرفتها.

هذا وإتماماً لاستقراء الوقائع التاريخية، يجب عليّ أن أشير إلى بعض الحوادث التي تدل على حدوث شيء من المخالفة والمشادة بين رجال العلم ورجال الوطنية في

بعض الأحوال: إن تاريخ الثورة الفرنسية يعطينا مثالاً بارزاً لذلك: فأن رجال الثورة أعدموا (لافوازييه) الذي يعتبر مؤسس علم الكيمياء الحديث، و (بايلي) الذي أشتهر بأبحاث فلكية هامة؛ وسجنوا (كوندورسه) الذي كان من كبار المفكرين، فاضطروه إلى الانتحار تخلصاً من المقصلة والعذاب. . .

كما أن الانقلاب الألماني الأخير أعطانا مثالاً جديداً لذلك: فأن الحكومة الوطنية، طردت من البلاد عدداً غير قليل من العلماء، وعلى رأسهم (إينشتاين) الشهير. . .

غير أنه يجب علينا أن نلاحظ أن هذه الوقائع لا تدل على خصام بين العلم والوطنية، من حيث الأساس. لأن العلم قلما يتفرغ إلى الأبحاث العلمية تفرغاً مطلقاً، فأنه لا يتجرد عادة عن الحياة الشخصية، بل كثيراً ما يقوم ببعض الأعمال السياسية أيضاً، كما أن تفكيراته لا تكون علمية في كل الموضوعات، إذ أنه قد يفكر كما يفكر سائر الناس في المسائل التي تخرج عن نطاق اختصاصه، ولا سيما في الأمور التي تدخل ساحة الدعايات الحزبية والأعمال السياسية. فإذا ما تحدث مخالفة بينه وبين رجال السياسة الوطنية، يكون قد حدث ذلك بالرغم من علمه لا بسبب علمه.

فأن (لافوازييه) مثلاً كان من النبلاء الذين يحملون لقب (المركيز) كما أنه كان من (الملتزمين) الذين كانوا يشتغلون بجباية الضرائب من الناس. فإذا ما اتهمه رجال الثورة الفرنسية - بحق أو بغير حق - بالخيانة للوطن، وحاكموه فاعدموه، إنما كان ذلك من جراء صفاته وأعماله هذه، لا من جراء أبحاثه وآرائه العلمية.

وكذلك الأمر في (إينشتاين): فأن أبحاثه العلمية ونظرياته الفلسفية لم تجرده عن النزعات
الطائفية ولم تبعده عن الأعمال السياسية. فإذا وجد رجال الحكومة الوطنية الألمانية - بحق أو بغير حق - في سلوكه وسلوك طائفته ما يضر بسلامة الوطن، كان ذلك من جراء أعماله وأعمال طائفته السياسية، لا من جراء أبحاثه وآرائه العلمية.

وربما كان من المفيد أن نذكر رأي بعض العلماء لإيضاح هذا البحث أكثر مما تقدم.

وربما كان رأي (باستور) الشهير من أبلغ الشهادات في هذا الباب:

إن هذا العالم الذي يعتبر بحق من العلماء الذين انتظمهم الروح العلمي بأكمل معانيه، والذي قام بسلسلة أبحاث تعد بحق من أبرز وأنجع الأمثلة للطريقة التجريبية. . . هذا العالم الكبير كان وطنياً متحمساً طول حياته؛ وقد قال في خطبة بليغة ألقاها في أحد المؤتمرات الأممية:

(لا وطن للعلم أو بالأحرى، وطن العلم يشمل العلم بأجمعه ومع هذا لكل عالم وطن وعلى كل عالم أن يهتم بكل ما يخدم مجد وطنه ففي كل عالم حقيقي كبير تجدون دائماً وطنياً كبيراً)

والآن بعد الانتهاء من هذه المناقشة، اسمحوا لي أن أعود إلى إحدى القضايا التي كنت سلمت بها جدلاً، وهي أولى القضايا الثلاث التي سقتموها للبرهنة على عدم إمكان اتفاق العلم والوطنية:

(الوطنية هي الأنانية في المجموع)

إنني لا أنكر صحة القضية من حيث الأساس، غير أنني أرى من الضروري أن نتبعها بقضية ثانية فنقول:

(. . .الوطنية هي الأنانية في المجموع، غير أنها التضحية والإيثار في الفرد)

نعم أن الوطنية هي التضحية والإيثار - بالنسبة إلى أفرد البشر، وإن كانت من قبيل الأنانية بالنسبة إلى الكتل البشرية. ونستطيع أن نقول: أنها أرقى أشكال التضحية والإيثار. فإن مظاهر التضحية والإيثار لا تتجلى في مجال من مجالات أعمال الإنسان بالتنوع والسمو والقوة التي تتجلى بها في مجال الوطنية. وأما مظاهر الإيثار التي تنشأ من الشعور الأممي فإنها لا تذكر بجانب ذلك. . .

إنني لا أود أن أتوسع في هذه المسألة الآن غير أنني أود أن أختم هذه الرسالة بإحدى الكلمات التي قالها جان جاك روسو بأسلوبه الخلاب:

(بعض الناس يحبون أبناء الصين، وذلك لكي يتخلصوا من الواجبات الفعلية التي يتطلبها منهم حب أبناء وطنهم الأقربين)

(بغداد)

أبو خلدون

في التاريخ السياسي

الحرب الأهلية الأسبانية وخطرها على السلام

بقلم باحث دبلوماسي كبير

حينما اضطرمت الحرب الأهلية الأسبانية في أواخر يولية الماضي، لمحنا في حوادثها منذ البداية عوامل معركة دولية خطرة وكنا يومئذ نتلمس القرائن والأدلة لتأييد هذا الرأي، لأن العوامل الدولية التي كانت وراء هذه المأساة لم تكن قد وضحت بعد بصورة جلية، بيد أنه لم تمض عدة أسابيع على ذلك، حتى تكشفت هذه العوامل واضحة، وحتى بدأ إصبع إيطاليا وألمانيا ظاهراً وراء الثورة الأسبانية يذكى ضرامها ويمدها بكل صنوف المعاونة العسكرية والسياسية، وحتى بدت روسيا السوفيتية في جهة أخرى وراء الجبهة الجمهورية الأسبانية تؤيدها بكل ما وسعت وتمدها بالأسلحة والذخائر والفنيين، وحتى بدت إنكلترا وفرنسا أيضاً من وراء الجبهة الجمهورية تمدها بعونها السياسي والأدبي. وآثرت إنجلترا وفرنسا الأخذ بسياسة عدم التدخل في المشكلة الأسبانية ونجحتا في حمل الدول الأخرى أعني إيطاليا وألمانيا وروسيا والبرتغال على إقرار هذه السياسة، وتألفت لجنة عدم التدخل الدولية في لندن. وبينما كانت هذه اللجنة تسير في مباحثها وقراراتها ببطء وتسويف ظاهرين كانت المعركة الدولية في أسبانيا تتفاقم يوماً بعد يوم ويتوالى نزول القوات الإيطالية والألمانية في الثغور الأسبانية لتشد أزر الجبهة الثورية، وتتوالى الإمدادات الروسية لتشد أزر الجبهة الجمهورية ويتسع تدخل إيطاليا وألمانيا في أسبانيا نفسها، وفي جزر البليار ومراكش الأسبانية بشكل يزعج فرنسا وإنكلترا. عندئذ خطت السياسة البريطانية خطوة أخرى واستطاعت بعد مفاوضات ومباحثات طويلة أن تحمل الدول الممثلة في لجنة عدم التدخل على إقرار مشروع دولي لرقابة الشواطئ والحدود الأسبانية وذلك لمنع الإمدادات الأجنبية عن الفريقين المتحاربين، وتطبيق سياسة عدم التدخل بطريقة فعلية، وترك المشكلة الأسبانية يحلها الشعب الأسباني وحده، وبذلك تحصر الحرب في أسبانيا، ويحمى السلام الدولي من عواقبها.

وننفذ مشروع الرقابة الدولية منذ عدة أسابيع. واشتركت فيه إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا والبرتغال، وحصرت الشواطئ والحدود الأسبانية على يد السفن الدولية والمراقبين

الدوليين. ولكن الواقع أن إيطاليا وألمانيا كانتا قد بعثتا إلى أسبانيا قبل تنفيذ مشروع الرقابة من القوات العسكرية والجوية - لمعاونة الجنرال فرانكو زعيم الثورة الأسبانية ما اعتقدتا أنه كاف لإحراز الجبهة الثائرة النصر النهائي على الجمهوريين وإقامة الحكم الفاشستي المنشود في أسبانيا على أنقاض الحكم الجمهوري، بل ظهر أن إيطاليا وألمانيا لم تكفا عن إرسال الإمداد حتى بعد أن نفذ مشروع الرقابة، على أن الرقابة الدولية أفادت في تضييق نطاق المعاونات الخارجية، وحصرت احتمالات الحرب الأهلية نوعاً.

وفي أثناء ذلك حاولت السياسة البريطانية أن تتقدم خطوة جديدة في تصفية المشكلة الأسبانية، فقدمت إلى الدول اقتراحها بسحب جميع الجنود الأجانب من أسبانيا سواء منهم من يحارب مع الجنرال فرانكو أو مع حكومة مدريد؛ فرفضت إيطاليا النظر في الاقتراح، وأجابت الصحف الإيطالية بأن الجنود الإيطالية لن تغادر أسبانيا قبل أن يحرز الجنرال فرانكو النصر النهائي. والمعروف المحقق أن لإيطاليا في أسبانيا جيشاً لا يقل عن مائة وعشرين ألف مقاتل، هذا عدا القوات الألمانية وهي تقدر بنحو ثلاثين ألفاً، وهذه القوى الأجنبية هي عصب الثورة الأسبانية وهي سند الجنرال فرانكو؛ وقد أبدت ألمانيا وإيطاليا في غير فرصة سواء في التصريحات الرسمية أو عن طريق الصحافة أنها لن تدخر وسعاً في تأييد الجنرال فرانكو حتى يحرز النصر النهائي، وحتى تقوم في مدريد حكومة فاشستية، ولم يبق ريب بعد أن الثورة الأسبانية إنما هي محاولة عسكرية فاشستية تدبرها الفاشستية الإيطالية والألمانية، وأن الجنرال فرانكو إنما هو أداة هذه السياسة الأجنبية؛ فالثورة الأسبانية تفقد بذلك كثيراً من صبغتها الوطنية، وتفقد عطف الديمقراطية، والعالم المتمدن الذي يعرف وسائل الفاشستية وأساليبها الهمجية وجنوحها إلى العنف والعدوان، ويقدر خطرها على السلام العام

ولكن هل تنجح الفاشستية في هذه المحاولة الدموية؟ لقد مضى على الثورة الأسبانية

التي دبرتها الفاشستية وسلحتها أحد عشر شهرا، واستطاع الجنرال فرانكو بمؤازرة معاونيه الأجانب أن يستولوا على نصف الأراضي الأسبانية؛ ولكنه لم يحرز حتى اليوم أي نصر حاسم، بل فشل في كل محاولة خطيرة قام بها لتحطيم قوى الجمهورية، وكان مقدراً أن الثورة لن تستغرق في تنفيذ برنامجها أكثر من عدة أسابيع، ولكن مضت الأسابيع والأشهر،

وتحطم هجوم الجنرال فرانكو على مدريد ولقي الثوار أكثر من هزيمة شديدة أمام العاصمة ومزقت الوحدات الإيطالية في وادي الحجارة شر ممزق؛ وعندئذ فكر الحلفاء في مهاجمة ناحية أخرى من الجبهة الجمهورية، فنظم فرانكو هجومه على بلاد الباسك منذ أكثر من شهرين، حاول أن يطوقها من البر والبحر؛ ولكن قوات الباسك خيبت آمال الهاجمين، وردتهم غير مرة، وانتقم فرانكو وحلفائه من الجمهورية الصغيرة الباسلة بتخريب بلادها وضياعها، وأحرق الطيارون الألمان المدن والقرى الباسكية من الجو بطريقة ودالية أثارت سخط العلم المتمدن وكان فرانكو يقدر أنه بحصار بلباءو من البحر يمهد لافتتاحها بسرعة وأنه كما حدث من الهجوم على مالطة يستطيع الاعتماد على معاونة الغواصات الإيطالية، ولكن إنجلترا التي خشيت على مصالحها ومناجمها العظيمة في هذه المنطقة بعثت بوارجها الكبرى إلى مياه بلباءو، وأنكرت حق حكومة فرانكو في محاصرتها وخرقت السفن الإنكليزية الحصار وأمدت المدينة المحصورة بالأطعمة، وعاونت على إخلائها من غير المحاربين؛ ومازالت قوات الباسك تصمد للمهاجمين وتكبدهم أفدح الخسائر، وأن كان في الأنباء الأخيرة ما يدل على أن بلباءو قد لا تستطيع المقاومة طويلاً.

قلنا أن الفاشستية الإيطالية تزعم أنها لن تتخلى عن الجنرال فرانكو حتى يحرز النصر النهائي، وتزعم إيطاليا وألمانيا معاً أنهما لن تسمحا، بإقامة حكومة بلشفية في أسبانيا تهدد السلام في غرب أوربا؛ وهما تصفان حكومة أسبانيا الجمهورية بالحكومة البلشفية لأنها تستمد العون من حكومة موسكو، وتلك دعاية مغرضة كما أسلفنا في فرص سابقة، فالجبهة الأسبانية الجمهورية هي جبهة الشعب الأسباني التي تحاول الفاشستية تحطيمها على يد الجنرال فرانكو، وإذا كان في الجبهة الجمهورية عنصر شيوعي فهو أقلية سياسية، كما هو الشأن في معظم الدول الديمقراطية؛ وإذا كانت الجبهة الجمهورية تعتمد على مؤازرة روسيا السوفيتية، فلأنها الدولة الوحيدة التي سارعت لنجدتها في محنتها، ولأن روسيا ليست لها مطامع استعمارية في أسبانيا بل يحدوها إلى هذا العون معركة المبادئ والمثل، فهي في أسبانيا تضرب الفاشستية ألد وأخطر خصومها على أنه إذا كانت الفاشستية تزعم أنها لن تتخلى عن فرانكو حتى يحرز النصر النهائي، فإن السياسة البريطانية من جهة أخرى تبدي صراحة أنها لن تسمح بانتهاك استقلال أسبانيا أو الاعتداء على سلامة أراضيها؛ وهذا ما صرح به أخيراً مستر ايدن وزير الخارجية في مجلس العموم، ومعنى ذلك أن بريطانيا لن تسمح بفوز الجنرال فرانكو، لأن هذا الفوز الذي تدعمه الحراب الأجنبية يعقبه بعض المطامع الإيطالية في جزر البليار وربما في مراكش الأسبانية؛ وإنكلترا مع تمسكها بسياسة الحيدة وعدم التدخل في المسألة الأسبانية، لا تخفي عطفها على حكومة بلنسية، وفي ذلك تؤازرها فرنسا بل ربما ذهبت فرنسا إلى اكثر من هذا العطف في معاونة الجبهة الجمهورية، وإذا كانت إنكلترا وفرنسا تقفان في الميدان الدولي إلى جانب أسبانيا الجمهورية، فإن ذلك لا يرجع إلى لونهما الديموقراطي ولا إلى معركة المبادئ فقط، بل يرجع بالأخص إلى خوفهما من غلبة الفاشستية في أسبانيا، ومما تهدد به مصالحهما الاستعمارية ومواصلاتهما في غرب البحر الأبيض المتوسط.

ومن جهة أخرى فإن إنكلترا وفرنسا تخشيان على مصير السلام من تفاقم الحوادث الأسبانية. ولقد تجلى هذا الحرص على السلام في حادثة البارجة الألمانية دويتشلاند، فقد ألقت طيارات حكومة بلنسية القنابل على هذه البارجة أثناء رسوها في ميناء أبيزا بجزيرة ميورقة فقتلت من بحارتها خمسة وعشرين وجرحت عدداً آخر؛ وثارت ألمانيا لهذا الاعتداء فلم يمض يومان حتى ضربت بوارجها ثغر ألمرية الأسباني على حين فجأة ضباً شديداً فقتلت وجرحت من أهلها المسالمين مئات وخربت قسماً كبيراً منها؛ وعلى أثر ذلك أعلنت ألمانيا وإيطاليا انسحابهما من لجنة عدم التدخل حتى توضع الضمانات الكفيلة بحماية بوارجهما؛ وكان لهذا الاعتداء الذي يشبه أعمال القرصنة من

جانب البوارج الألمانية وقع عميق في الأوساط الدولية، لأنه حتى مع التسليم بأن ألمانيا قد اعتدي عليها في حادثة البارجة دوتشلاند، فإنها لم تتقدم بطلب الترضية الودية ولم تقدم إلى حكومة بلنسية إنذارا بها كما يقضي بذلك القانون الدولي، ولم يسبق في قانون الأمم أن اعترف بحق الانتقام من المدن الآمنة دون أن تكون هناك حرب شرعية بين الخصوم. خصوصاً إذا وقع الانتقام على النساء والأطفال كما حدث في ضرب المرية. ومن الغريب أن تنفرد ألمانيا بمثل هذا التصرف لاعتداء وقع على إحدى سفنها تبرره حكومة بلنسية بوجود هذه السفينة في إحدى الموانئ التي بيد خصومها الوطنيين، مع إن مثل هذا الاعتداء قد وقع من قبل في أكثر من فرصة على السفن الإنكليزية ولم تندفع في مثل هذا الانتقام الوحشي.

على أن إنجلترا رأت مع ذلك أن تتفادى عواقب هذا المشكل الخطر، وأن تعمل على رد ألمانيا وإيطاليا إلى لجنة عدم التدخل، فوضعت مشروعاً جديداً يقضي بتعيين مناطق أمينة تستطيع السفن المشتركة في المراقبة أن تلجأ إليها ويحترمها الفريقان المتحاربان، ويعترف المشروع فوق ذلك بحق الدفاع الشرعي للسفن التي يتعدى عليها وقت الاعتداء فقط، ولكن الإجراءات اللاحقة تكون موضع بحث بين الدول، وتدل الأنباء الأخيرة على أن ألمانيا وإيطاليا قبلتا هذا المشروع، وقررتا العودة إلى لجنة عدم التدخل، وبذلك تكون السياسة الإنكليزية قد استطاعت أن تتفادى عواقب هذا الاحتكاك الخطر بين ألمانيا وحكومة بلنسية.

على أن المأساة الأسبانية ما زالت مفعمة بالأخطار والمفاجآت. والخطر في هذه المأساة هي صبغتها الدولية، التي أشرنا إليها. فالصراع الدولي بين الجبهتين الأوربيتين الفاشستية والديموقراطية مازال قائماً، وإذا لم تبذل الدبلوماسية الأوربية جهوداً جدية لإخراج القوات الأجنبية من أسبانيا، وترك أسبانيا تقرر مصيرها بيدها، فسوف تبقى المشكلة الأسبانية خطراً دائماً على السلم الأوربي.

* * *

في الأدب المقارن

الحكمة في الأدبين العربي والإنكليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

يولد المرء جاهلاً ثم لا تزال التجارب تبصره بحقائق الحياة ولا يزال الدهر يعلمه ويؤدبه، ولا يزال هو بثاقب فكره، يتعظ بماضيه وينتفع بمشاهداته، ويصوغ من جزيئات التجارب التي يمر بها كليات يلخص فيها نواميس الحياة وطباع الأشياء، التي يجدر بالعاقل أن يسايرها ويحتال لها، لا أن يصادمها ويجري على غير سننها، وتلك هي الحكم التي هي لباب التجارب وثمار المعرفة، والتي يغتبط الأديب أي اغتباط حين يستخلص عصارتها من مرير الشدائد وعصيب الأزمات، ويتجلى له ضياؤها بعد أن تنقشع غيوم المطامع وعواصف المخاوف، ويتوارثها الناس جيلاً بعد جيل، وتتشكل مع اختلاف بيئاتهم وتقاليدهم، ويشدو بها الصغار وهم ناشئون ولا يعرف صدقها إلا الكبار، بعد أن يخوضوا أتون التجارب الذي ينضج النفوس.

فالحكمة خلاصة التجربة العلمية، ولا تقرأ في الكتب ولا تؤخذ عن المؤدبين. ومن ثم يستوي فيها الخاصة المثقفون والعامة الأميون، إذ كان كلاهما يستقي من معين الحياة المشهودة؛ وتذيع بين العامة أمثال وحكم هي غاية في الصدق ونفاذ النظرة وبلاغة التعبير. وقد يطابق بعضها أمثال الخاصة والحكماء في كتبهم؛ وتدل تلك الحكم السائرة بين الشعب على الكثير من أخلاقه وأعماله، من سعي وتوان، ووقار واستهتار، وإمعان في الحروب واستراحة إلى السلم والدعة، ومن ثم نرى كثيراً من الأمثال المتخلفة عن جيل الانحطاط الماضي، رغم صدقها وعمقها مصوغة في أبذأ لفظ وأفحش صورة، ونرى كثيراً منها يحث على القناعة والتواكل والقعود.

ومن الحكم ما نرسل موجزة مستقلة كأنها القضايا المنطقية مبدوءة ببعض حروف الشرط أو أسمائه، ومنها ما تصاغ في قصة محكمة ذات مغزى، ومن تلك القصص ما ينسب إلى حكيم من الأقدمين كلقمان، أو إلى شخص خيالي مثل جحا الذي صاغ العمة حوله قصصاً بالغة غاية الحكمة والمتعة والفكاهة، ومن تلك القصص ما يجري على السنة الحيوان، ويقوم الأسد فيها بدور السلطان ويلعب الثعلب دور المكر والاحتيال، ويمثل الذئب دور

الغدر والافتئات، وقد كان للأمم القديمة كالمصريين والفرس والهنود، من كل هذه الضروب حظ وفير، وفيها يبسط الحكماء المجربون لأبناء جلدتهم ثمار تجاربهم، ويحضون على حسن المعاملة ويدعون إلى الفضيلة.

والشرق، مهد المدنيات القديمة والإمبراطوريات العظيمة، والملكيات المطلقة ذات الحول والأبهة والبذخ، والموارد الواسعة والكنوز الطائلة، هو مهد الحكمة ومطلع الحكماء والأنبياء، فيه تتجلى طباع الأشياء على جهارتها، ويتجاور البذخ المفرط والبؤس المرمض، وتتابع السعود والنحوس، وتتقلب الأيام والدولات وتعقب عصور الرخاء والازدهار عهود الشدائد والأدبار، ومن كل ذلك تستخلص عبر الحياة وعظاتها، ويتجلى لذوي النفوس العالية غرورها وبهارجها، وتنصرف همة الحكماء والفضلاء إلى هداية مواطنيهم إلى سبيل الخير والسلامة وتلقينهم كيف يعيشون في أمن من جور الغاشمين وبطش الأقدار ويسعون جهدهم لتخفيف ما حولهم من آثار البؤس والبلاء، وإصلاح ما يرون من أسباب الفوضى والفساد، وهكذا كان يظهر المصلحون والأنبياء بين اليهود والهنود وغيرهم من أمم الشرق، بين الفترة والفترة.

وللحكمة الصادقة المصوغة في اللفظ البليغ المحكم مكانها في أدب كل لغة: ففي كل أدب ما لا يعد من الحكم المتواترة يقتبسها الأدباء في مواطنها، وقد نسيت أسماء قائلها وضاعت نسبتها وصارت من تراث الأدب المشاع، وفيه كذلك ما لا يعد من آثار الشعراء والكتاب التي أساسها الحكمة وقوامها خلاصات التجارب التي عركتهم؛ وفي الأدبين العربي والإنجليزي تراث حافل من الحكم والأمثال، وفي كل منهما أدباء اشتهروا خاصة بصوغ الحكم وجرت آثارهم على الأقلام والأفواه، لما تمتاز به من صدق النظرة وشمول الفكرة وإيجاز اللفظ.

ففي الإنجليزية اشتهر شكسبير أولاً وبوب ثانياً بروائع حكمهما. وسارت كثير من أبياتهما مسير الأمثال، لما امتاز به كلاهما من التمكن من اللغة وبلاغة الأداء ووجازة التعبير، رغم اختلافهما فيما عدا ذلك من نظرة إلى الحياة ومذهب في الفن؛ وندر من كبار أدباء الإنجليزية من لم يسر له مثل أو أكثر فيما توفر عليه من موضوع كالطبيعة والجمال والاجتماع والمرأة وهلّم جرا ومن الإنجيل سرت في اللغة الإنجليزية المكتوبة والمتكلمة

أمثال وحكم عديدة، لا تزال تحمل طابعها الإسرائيلي وتدل بأسماء أعلامها ومواطنها على نشأتها الشرقية؛ وسرت في الإنجليزية كذلك أمثال عديدة من الإغريقية واللاتينية يترجمها الأدباء إذا استعملوها وقد يثبتونها في لغتها الأصلية.

بيد أن ذلك هو كل ما هنالك، والحكمة في الإنجليزية نادرة إلى حد بعيد، وهي لم تكن من مطلوب أدبائها ولا من هم شعرائها يتوخونها عمداً ويودعونها اللفظ البليغ الموجز، ولم يكن الإيجاز من دأبهم كما كان من دأب شعراء العربية وأدبائها في أحسن آثارها وأزهر عصورها، فالأديب الإنجليزي إذا أخذ في الكتابة أرسل لخياله العنان، وأبرز فكرته الواحدة في شتى الصور متسلسلة متتبعة غيرها من الأفكار، أما الأديب العربي فيؤثر الإيجاز البليغ ويودع المعنى الواسع الشامل البيت الموجز أو العبارة المحكمة ويتجه إلى غيره، وهذا الإيجاز المشهود في جيد الشعر الجاهلي راجع بلا شك إلى أمية العرب وحاجتهم إلى الاستغناء بالقول الجامع، والاجتزاء بالحكمة الشاملة، وقد توورثت هذه الخلة من خلال الأدب الجاهلي فيما تلا ذلك من عصور الأدب العربي كما توورث غيرها من خلالّ.

ومما حبب العرب في جاهليتهم في الحكمة أخذهم بحياة الحل والترحال، واشتغالهم أبدا بالقتال وإدراك الثارات: فتلك حياة شديدة كانت تتطلب كثيراً من العمل وقليلاً من الكلام المفيد مع قلته. وكان الانتفاع بالتجارب من أكبر أسباب النجاح فيها، والاشتهار بالحكمة والدراية من صفات الشيوخ والرؤساء؛ ومنهم كان كثير من فحول الشعر ورجال البيان ومصاقع الخطباء كالأفواه الأودي وأكثم بن صيفي وقس بن ساعدة الأيادي. ومن ثم أثر عن الجاهليين ما لا يعد من روائع الحكم نظماً ونثراً. ومن أمثلتها خطبة قس بن ساعدة وحكم زهير بن أبي سلمى في معلقته.

وقد أعجب المتأخرون من الشعراء والأدباء بهاتيك الحكم أيما إعجاب، وشمروا عن ساعد الجد للإتيان بأمثالها، وعدوها محك قدرة الشاعر وبرهان الشاعرية الصادقة، وكاد يلهيهم الاشتداد في طلبها عن ابتكار شيء جديد في الشعر.

وكان العرب في الجاهلية لا يعدون الشاعر فحلا حتى ينطق بالحكمة، فما لم يأت بشيء منها فهو وبعد غر لم ينضجه تنور التجارب ولم تتكشف له حقائق الحياة؛ وظل الأعشى فيما قبل مزوياً عن مرتبة الفحول، رغم ضربه بسهم في مجالات المدح والهجاء والاعتذار

ووصف الخمر، حتى قال في مدحه سلامة ذو فائش: (والشيء حيثما جعلاً) فرفعته هذه الجملة الموجزة إلى مصاف النابغة وامرئ القيس. وتروى حكايات كهذه عن شعراء الإسلام: فقد قيل إن جريراً سمع دالية عمر بن أبي ربيعة التي يقول منها: (إنما العاجز من لا يستبد)، فقال: (ما زال هذا الفتى يهذي حتى قال الشعر)، فهو لم يحفل بكل ما قاله الفتى في التشبيب، حتى ضرب على وتر الحكمة فاستثار إعجابه.

وأدب الجاهلية وصدر الإسلام حافل بتلك الحكم البليغة المشتملة على تجارب قائليها من سادة القبائل وأشرافها، الجامعة لنظراتهم في الحياة وخطتهم وسننهم فيها، وتمدحهم بما رسموه لأنفسهم من مناهج وما أخذوها به من فضائل، وهذا الباب من أكرم أبواب الأدب العربي وادعاها إلى الإعجاب، ومن أجله كان العرب في تلك العهود يغالون بالشعر وينشئون أبنائهم على مدارسته، وكانوا يسمون هذا الباب من الشعر بالأدب، لأن حفظ آثاره والتمثل بها يؤدبان النفس ويهذبان الخلق، وذاك هو الاسم الذي أطلقه أبو تمام في حماسته على ذلك الضرب من القول الشامل للحكمة والتمدح بالفضيلة. وقد اتسع معنى هذا اللفظ فبعد أن كان اسم جزء صار اسم كل وأطلق على الشعر جميعه والنثر معاً. وليس شك في أن هذا التطور الطبيعي البسيط هو منشأ كلمة أدب اللغة، وإن يكن بعض المستشرقين قد تحذلق وزعم أنها مقلوبة عن كلمة دأب. فذلك من قبيل النظريات المحضة التي لا تبلغ مبلغ اليقين أبداً، وليست إلا من قبيل التظرف العلمي والتظاهر بالتعمق في البحث، وإن لم يجد ذلك العلم فتيلا، ولم يدرك يوماً منزلة الإقناع.

كانت الحكمة من أظهر أبواب الأدب في الجاهلية وصدر الإسلام، وكان من أقطابها في الجاهلية من ذكر، وفي الإسلام الإمام علي والأحنف بن قيس وكثير من الصحابة، وبظهور الإسلام ثم توطد الدولة زاد العرب كلفاً بالحكمة وزاد الداعي إليها أهمية، فقد جاء في القرآن الكريم والحديث حافلين بروائع الحكم وجوامع الكلم، التي أربت على الغاية من البلاغة والسمو، وحثاً على طلب الحكمة التي هي ضالة المؤمن، وقد ظل الكتاب والحديث دائما نموذج الأدباء ومستقاهم؛ فلما فرضت الملكية المطلقة سلطتها كاملة، وأخرست الأفواه وأسكتت النقد، عادلة حينا وجائرة أحيانا، وجد الناس في الحكمة الشاملة المعممة سلوة للنفوس المقهورة، وعزاء عن المآرب المحظورة، وتنفيسا عن المطامح المستورة، واتقاء

لشبهات السلطان، فأجريت الأمثال والمواعظ على ألسنة السلف الصالح، وملوك الأمم الغابرة وحكمائها وفلاسفتها، ووضعت على أفواه الحيوان والأرواح، وأرسلت شعراً ونثراً، وترجمت عن اللغات، وكان من ذلك مترجمات ابن المقفع.

وكانت الصبغة الدينية التي لازمت توطد الدولة الإسلامية وتطور المجتمع الإسلامي، داعياً آخر إلى انتشار الحكمة في الأدب، وفي الحكمة كتب ونظم كثير من رجال الدين، ومن آثار الحكمة التي مبعثها الشعور الديني أشعار أبي العتاهية وأبن عبد القدوس والأمام الشافعي، ومما زاد هذه النزعة الدينية احتداداً وهذه الحكم الدينية ذيوعاً، ما كان يجاورها من مظاهر الترف المغرق وآثار اللذات والمفاسد، فكانت تلك رد فعل لهذه، وكان من الشعراء المغرقين في المجون والتبذل كأبي نواس وبشار، من تعاودهم رجعات من التبصر في الحياة وغرورها، حين تسئمهم اللذات ويرهقهم بشمها وخمارها، فيرسلون في أشعارهم من الحكم ما قد ينسب إلى أزهد الزهاد وأحكم الحكماء

وبدخول الأدب العربي طوره الفني طلب الشعراء البراعة والتفنن بصوغ الحكم وضرب الأمثال محاكاة للأقدمين وتوليدا من معانيهم، وكانوا يشفعون الحكمة الإنسانية أحياناً بمصداقها من عالم الطبيعة والحيوان والجماد، فإذا أرسل أبو تمام حكمة في ظهور فضل المحسود على يد الحاسد ضرب لذلك مثلاً اشتعال النار فيما جاورت وإعلانها بذلك طيب عرف العود، ويقول في موضع آخر منتزعاً مصداق كلامه من ظواهر الطبيعة:

وإذا رأيت من الهلال نموه ... أيقنت أن سيكون بدراً كاملاً
ويقول غيره:
يعيش المرء ما استحيا بخير ... ويبقى العود ما بقي اللحاء
واشتغل المسلمون بدراسة الفلسفة اليونانية دون الأدب اليوناني، فتأثر أدبائهم بتلك الدراسة، وازداد ولعهم بالحكمة، واتخذت حكمتهم صبغة فلسفية أقرب إلى القضايا المنطقية وأشبه بالاستقراء العلمي، وذلك واضح في أشعار المتنبي والمعري اللذين انحرفا بذلك بعض الانحراف عن الأسلوب العربي الأصيل، الذي يمتاز بالبلاغة والوضوح والإطلاق، وبلغ من تأثر شعر الحكمة في العربية بروح الفلسفة اليونانية، أن أبا علي الحاتمي وضع رسالة يرد فيها أكثر حكم المتنبي إلى كلام أرسطو. وفي شعر المتنبي بلغت الحكمة العربية
أوج رقيها، أو بالأحرى بلغ الشعر العربي ذروة عظمته، وبلغ من احتفاء الشعراء بتضمين الحكمة أشعارهم أن قيل في الموازنة بين أبي تمام والمتنبي والبحتري إن الأولين حكيمان، والشاعر البحتري، لكثرة ما في شعرهما من الحكم، وأبو تمام هو القائل في ذلك الضرب من الشعر:
يرى حكمة ما فيه وهو فكاهة ... ويقضي بما يقضي به وهو ظالم
ولولا خلال سنها الشعر ما درى ... بغاة العلا من أين تؤتى المكارم
فالولع بالحكمة ظاهر في الأدب العربي: فاقتباس المأثور من كلام المتقدمين أكثر ذيوعاً في العربية منه في الإنجليزية، والحكمة مادة جانب عظيم من كتب الأدب التي تحفل بما أثر عن الحكماء والخلفاء والفقهاء من جوامع الكلم، وهي موضوع مطولات كثيرة كمقصورة أبن دريد ولامية أبن الوردي وأرجوزة صاحب كتاب الصادح والباغم، وبها تمتلئ الخطب المنسوبة إلى وفود العرب إلى كسرى وإلى أهل بيت المهدي عند مشاورته لهم في حرب خراسان. وقد أولع الكتاب بنثر حكم الشعراء في رسائلهم مسجوعة منمقة، كما أولع الشعراء بنظم الحكم السائرة وأمثال العامة، وكان الشعراء أكثر لجوءاً إلى نظم الحكم وسرد العبر والاستشهاد بعظات التاريخ خاصة في قصائد الرثاء ورسائل التعزية وأشعار الشكوى والوجدانيات؛ وكثيراً ما كانت تساق الحكم في هيئة نصائح. ويقول أبن عبد القدوس (والنصح أغلى ما يباع ويوهب) ومن شعر النصيحة جيمية محمد لأبن بشير التي يقول منها:
قدم لرجلك قبل الخطو موضعها ... فمن علا زلقا عن غرة زلجا
أم الموضوعات التي طرقتها الحكمة في الأدب العربي فلا تحصر، فقد جالت في شتى نواحي الحياة: من غرور الدنيا وتقلبها ووجوب الحذر منها وتوقع زوالها، إلى مزايا الشدائد وامتحانها للرجال، إلى ندرة الصديق الصدوق، ومن شؤون الحياة اليومية إلى سياسة الدول وحكم الشعوب، ومن آداب الحوار إلى آداب مصاحبة السلطان؛ وكان بعض الشعراء يتوفرون على ضروب دون غيرها من الحكمة، حسب ما توجههم إليه بيئاتهم ونفسياتهم؛ فأبو العتاهية كان دائم الذكر للموت، والمتنبي كان يشتق حكمه من حياة التناحر والمطامع والمعارك الأدبية والسياسية التي كان يحياها، والمعري كان يستقي حكمته
ويستخرج عبرة من ظواهر الكون التي كان دائم الاشتغال بها، فهذان البيتان من نظمه يحملان طابع تفكيره ولا يمكن أن ينسبا إلى سواه:
يغادر غابة الضرغام كيما ... ينازع ظبي رمل في كناس
سجايا كلها غدر ولؤم ... توارثها أناس عن أناس
فكثير من الظروف التي أحاطت بالأدب العربي في الجاهلية والإسلام كانت تدعو إلى انتشار آثار الحكمة فيه، فجاء حافلاً بها منثوره ومنظومه على متعدد الصور ومختلف الأوضاع، ومثل هاتيك الظروف لم تصاحب الأدب الإنجليزي، ومن ثم كانت الحكمة فيه أندر كثيراً، فلا البداوة ولا الملكية المطلقة ولا رد الفعل المنعكس من الترف المفرط، ولا الروح الديني المتغلغل في المجتمع، لم يؤثر شيء من ذلك في الإنجليزية تأثيره في العربية ولم يقتصر الإنجليز على دراسة الفلسفة الإغريقية بل درسوا معها الأدب الأغريقي، وعنه تلقوا رسالته وهي الجمال، فصارت هذه رسالة الأدب الإنجليزي أيضاً، فكان الأديب الإنكليزي يتوخى الجمال فيما يشاهد ويحس ويكتب، في حين كانت الحكمة والعبرة والموعظة قبلة الأديب العربي في كل ذلك، ومن الأدب الإغريقي تعلم

الأديب الإنجليزي أيضاً أن يطلق لفكره العنان ويفسح لبيانه المجال، على حين ظل رائد الأديب العربي بلاغة الإيجاز، وكبح جمحات الخيال.

ومن ثم تمثل خير ما في الأدب العربي في حكم الشعراء والخطباء والكتاب، وجوامع كلهم وموجز بيانهم، وتمثل خير ما في الأدب الإنجليزي في سبحات الخيال المطلق المطنب، من درامات وملاحم وقصص، فالعيب الاجتماعي أو النقص السياسي الذي كان يراه الأديب العربي، فتحمله الظروف سالفة الذكر على أن يصوغه حكمة موجزة عامة لا تثير ريبة السلطان، كان يحوك حول الأديب الإنجليزي في قصة اجتماعية رحيبة الجوانب تشخص موضع الداء تشخيصاً؛ وتعين الدواء، ويتجلى الفرق بين الأدبين في هذا الصدد في نوع عبقرية شاعريهما الفذين: فقد بلغت العبقرية الشعرية الإنجليزية ذروتها في آثار شكسبير صاحب الدرامات العجاجة بالخيال المطلق، وبلغت العبقرية الشعرية العربية أوجها في قصيدة المتنبي الحافل بالحكمة البليغة.

فخري أبو السعود

البطولة وهل ندرت؟

للأستاذ فتحي رضوان

يحلو لي أن ادخل في المناقشة التي أدارها الكاتبان (النابغان) عباس العقاد وأحمد أمين حول النبوغ والبطولة. . . يحلو لي أن ادخل في هذه المناقشة خصماً ثالثاً، وإن كنت أكره لفظة (خصم) ولكن ما حيلتي وقد علمنيها القانون .!

لقد طالعت مقال الكاتب (النابغ) أحمد أمين، وأدركت نظريته التي بناها على أن النبوغ هو سبق النابغ لمعاصريه، حتى ليعجزوا عن اللحاق به، إلا بعد زمن قد يطول، وذلك حين يكون النبوغ عالياً ورفيعاً، وقد يقصر، وذلك حين لا يكون النابغ ممتازاً إلا بقدر . . .

ولقد ساقته هذه النظرية إلى نتيجة آمن بها، ودافع عنها، وضرب الأمثال العديدة على صحتها وسلامتها. والنتيجة هي التي استوقفتني، فدفعتني إلى التأمل فيما جاء بهذا المقال، ثم هي التي حفزتني على كتابة هذا الرد فالأستاذ أحمد أمين يرى أن نوابغ هذا العصر قلة، لأن أساليب التربية الحديثة، ونظام المجتمع الذي نعيش في ظله أشاع العلم، وأضعف الفوارق بين الخاصة والعامة، وأتاح فرصة التحصيل والتفوق للفقراء وذوي الثراء. وقد بلغ اقتناع الأستاذ أحمد أمين بهذه النظرية وبنتيجتها مبلغاً حمله على أن يضرب لنا الأمثال بالتلميذ في المدارس الثانوية، فهو ينظر إليه كل يوم، فيراه يطالع كتب الطبيعة التي تشرح قواعد الضوء والصوت، والحرارة والكهرباء، فيقول: (إنه يعرف ما يعرفه نيوتن، وأكثر مما يعرفه)، ثم يراه يقرأ كتب النحو والصرف، والبلاغة فيقوى يقينه بأن ما وصل إليه من نتيجة صحيح جداً فيقول: (إنه يدري من النحو ما لا يدريه سيبويه) ثم يطمئن إلى هذا الاستقراء فيقول لنا إذا كان محصول علمه يفوق علم جهابذة العلوم والآداب، وهو بعد تلميذ في المدارس، يخطئ ويصيب، وينجح ويتعرض للسقوط، ويذاكر ويشكو قسوة الامتحان، فكيف تظنون أن عهد النبوغ لم ينصرم بعد؟. وأين مجال التفوق أمام الموهوبين وذوي الجد ما دامت المدارس قد ذللت المعرفة وفتحت أبوابها على المصاريع؟

قد كان التفوق والنبوغ بالأمس ممكناً، لأن النابغة كان مبصراً وسط عمى، وصاحياً وسط مغفلين ومدركاً بين جهال، أما اليوم فأصغر علماء الطبيعة كأكبرهم، يعرفان من أمر هذا العلم وقواعده قدراً يكاد يكون متساوياً، فإذا وجد الفارق بين العالم الصغير والعالم الكبير

فليس هو بالفارق الذي يضفي على الكبير منها صفة النبوغ والتفوق. . .

وقد سألنا الأستاذ أحمد أن ندله على السياسي الذي يفوق أقرانه ويبذهم، وقد نبهنا إلى استنارة الشعوب وبصرها الآن بأساليب الحكم وفقهها لطرائق الإدارة؛ ثم سألنا أن ندله على العالم الذي يسبق جيله أو معاصريه، ونبهنا إلى أن العلوم اليوم والفنون كذلك قائمة على سنة التخصص، وأفهمنا أنه لا يوجد طبيب، وإنما يوجد أخصائيون في كل فرع من فروع الطب، ولا يوجد قانونيون، بل مطبقون لناحية واحدة من نواحي القانون. . .

والحق أننا نشكر للأستاذ هذا التنبيه، لأننا نستطيع بعده أن ندله على النابغين المتفوقين الذين يسبقون معاصريهم بالسنين ويفوتونهم بالمراحل، فالتاريخ لم يعرف حاكماً كموسوليني ينبعث من خنادق الحرب، ثم يشتغل سنين معدودة في الصحافة،

ثم تدين له الدولة والأمة بالطاعة والانصياع، ويصبح البون بينه وبين أكبر رجال أمته شاسعاً، حتى لا يكاد يوجد في إيطاليا إلا موسوليني، الكلمة كلمته، وكلمته قانون، وقانونه مقدس أسمى من أن يشوبه خطأ، ثم تتحالف عليه الدول وتطوق بلاده بحصار لا يرحم، فيجرح شجاعته، ويواجه العاصفة بسيل من الخطب ودنيا من التدابير. . . فالتخصص ومجانية المدارس وتذليل أساليب التحصيل، كلها لم تحل دون بروز شخصية سياسية طاغية في إيطاليا. وهذا البروز، هو النبوغ على الأقل كما وضح لنا الأستاذ أحمد أمين مقياسه - ولكن الأستاذ يريد أن ندله على نوابغ كثيرين وإلا كان محقاً فيما ذهب إليه من أن العصر الحديث لا يعتبر عصر النوابغ، بل عصر ارتقاء الجماعة الإنسانية ارتقاء لا يسمح بإيجاد الفوارق الواسعة بين العامة والخاصة، وبين الكبار والصغار، ولكن حسب الأستاذ الكبير أن يدير بصره في العالم بأسره ليعلم أننا نعيش في عصر النابغين فألمانيا يحكمها رجل واحد يتصرف في أمورها كما يحلو له، أو على الأقل كما يحلو له ومستشاروه الذين من حوله.

وروسيا على رأسها رجل يضع دستورها، وينفذ قانونها ويشرف على جيشها، والذين من حوله أقزام ينظرون إليه ولا يقوون على مقاومة إرادته. . . وعلى الأستاذ الكبير أن يسأل من اليوم صاحب النفوذ الذي لا يحد في تركيا، وفي بولندا - قبل وفاة سلسودسكي - وفي النمسا وفي تشكوسلوفاكيا في عهد مازاريك ليعرف أننا محكومون بالنابغين والمتفوقين في

عالم السياسة وليدرك أن بصر الشعوب بأساليب الحكم، وفطنتها الدستورية، لم تحل دون ظهور هذه الكثرة من ذوي السلطان المطلق. .

فإذا رجعنا إلى التاريخ القديم، وجدنا أن روما التي احتملت موسوليني أربع عشرة سنة متوالية، لم تستطع أن تحمل يوليوس قيصر مثل هذه المدة.

قد يعترض الأستاذ فيقول: ولكن من قال عن هؤلاء الحكام نابغون؟ وهو لا يحرجني بهذا السؤال، لأنه هو الذي ضرب لنا المثل (بنابليون) ولا أحسب أن نابليون من حيث معدن العظمة يبذ واحداً من هؤلاء الذين ذكرت أسمائهم

فإذا أدرنا وجهنا إلى ميدان العلوم والفنون ألفيناه ميدان العمالقة والأقزام، ميدان الذين تلامس هاماتهم السماء والذين تلاصق أسماؤهم التراب، على الرغم من أن هؤلاء وأولئك، حصلوا على نصيب واحد من العلم المدرسي، فالأستاذ أحمد أمين يصيب كثيراً من العناء إذا هو أراد أن يجد قريناً لرجل ككارل ماركس ألف كتاباً فثل هذا الكتاب عروشاً، وأزال دولا، وقلب وجهة التاريخ، ورجل كداروين لا يشابهه في ميدان الطبيعة أكثر الذين حوله، ولا نستطيع أن نقول إن كارل ماركس هو وحده النابغة في ميدان الاقتصاد، ولا أن داروين هو وحده المتفوق في ميدان الطبيعة، فإلى جانب ماركس برودون وبلاخانوف وبوخارين وغيرهم وغيرهم ممن كانوا إلى جانب طلاب الاقتصاد وأساتذته وكتابه والمشتغلين به نوابغ بل عباقرة. وفي الأدب يكتب الآن الكثيرون، والمطابع لا تنفك تخرج المؤلفات والمصنفات، ولكن ألا يوجد الكاتب الذي كلمته في حساب المادة عشرات الجنيهات، والكاتب الذي لا تساوي كتبه شروى نقير. . . ثم ألا يوجد الكاتب الذي تفعل بدائعه في النفوس وفي الشعوب فعلا تارة يدفع بها إلى العنف، وأخرى يميل بها إلى الرضا. . . فكثرة الكتاب في أوربا وفي العالم، وكثرة الموسيقيين وكثرة الاقتصاديين لم تحل دون النابغين، ولكن الأستاذ أحمد أمين يريد أن يرى هؤلاء النوابغ، ويريد أن يسألنا عن الفرق الكبير بين كاتب إنجليزي وكاتب إنجليزي آخر. . . والحق أننا لا نتعب كثيراً في أن ندله عليهم، لا بذكر الأسماء بل بوضع قاعدة تغير الموقف.

فالأستاذ لا يرى موسيقياً كالموصلي ولا كبتهوفن. ولا شاعراً كشكسبير، ولا كالمتنبي. ولا كاتباً كعبد الحميد ولا كابن المقفع ولا كما كولي، فيقول: لا نبوغ في هذا الأيام وينسى أن

الذين يتحدث عنهم جميعاً طواهم الموت وأحاطهم القدم بجلاله، ومحا أسماء منافسيهم الذين كانوا يعيشون معهم وبقيت أسمائهم وحدهم، وأن المعاصرين يعيشون معنا، ونحن نقرأ أسماء النوابغ وأسماء العامة، أقصد العاديين من الكتاب والفنانين، ولكن غداً سيموت الجميع، والأجيال القادمة هي وحدها التي ستدون أسماء المتفوقين الذين عاشت بدائعهم، وخلدت مؤلفاتهم، وظهرت آثارهم، عظيمة ومؤثرة

وجليلة وستقول هذه الأجيال كما يقول اليوم الأستاذ أحمد أمين إن جيلها يخلو من النوابغ وإن الأجيال السابقة هي عهد المتفوقين والمبرزين.

فمثلنا مثل الذي يقف إلى جانب الجبل، لا يرى قممه، ولا سوافله، إنما يرى جسماً مسطحاً لا تضاريس فيه، فإذا بعد عنه ظهرت معالمه وبانت خطوطه واتضح له أنه عال في ناحية ومنخفض في ثانية، أو قل إن مثلنا مثل الوالد يعيش مع بنيه فلا يدري أنهم يزدادون طولاً مع مرور الزمن، فإذا غاب عنهم شهراً وعاد أدرك أن هذا أطول من ذاك، وأن أكبرهم أشد سمرة من أصغرهم، لأن طول النظر إلى الصورة لا يبرز معالمها.

المدارس انتشرت، والمعارف رخصت، ولكن النفس البشرية هي هي باستعدادها، سيبقى النبوغ فيها استعداداً لا يضعفه نظام، ولا يقويه نظام، إنما يغير فيه قليلاً.

لقد طرنا في السماء، وغصنا في الماء، ولكن لا يزال الواحد منا إذا ما خلا إلى نفسه في القمر، ثارت شجونه، وتحركت في عيونه شؤونه، تماماً كما يفعل أبن الصحراء وراكب الجمل.

وأحفادنا سيقولون - حينما يقرءون مقالنا - إننا تعجلنا الزمن، فقلنا عن عهدنا إنه عهد لا نبوغ فيه، وإنهم سيرونه عهداً ككل العهود، فيه النوابغ وفيه العاديون، فيه العمالقة وفيه الأقزام.

فتحي رضوان

على هامش رحلتي إلى الحجاز

ليلة في مكة

بقلم الدكتور عبد الكريم جرمانوس

أستاذ التاريخ الشرقي بجامعة بودابست

أخذ الغسق يهبط بسرعة في وادي مكة الضيق، المشبع بهواء الصحراء الجاف؛ وهنا بدأت خيوط الأصيل الذهبية تتلاشى ثم تختفي دفعة واحدة كأن ستارا أسدل عليها بغتة؛ وبعد فترة وجيزة أخذ الليل ينشر خيمته السوداء فنسينا حينذاك ذكريات الغروب الجميلة وأصبحت لدينا كحلم سافر بعيد، ثم خيم السكون وشمل المدينة كلها.

وكنت أشاهد منظر غروب الشمس من إحدى نوافذ بيتي الصغير في مكة، ولم ير الديك الذي كان يصيح طيلة النهار داعياً لإيقاف صياحه، كأن عظمة هذا الغروب لم تؤثر في نفسه، ولكن الدجاجات لاذت بالصمت وراحت تتسلق أقفاصها استعداداً للنوم.

وكان يقع في طرف فناء البيت الصغير الذي أعد لضيافتنا قسم خاص بالحريم تجلس في إحدى غرفه سيدة وقور اسمها سنية، تقرأ القرآن على ضوء مصباح خافت اللون، على حين كانت ابنتها فاطمة النحيلة الخصر منصرفة إلى أعداد طعام العشاء لإرساله إلينا مع إحدى العجائز، وحتى هذه العجوز الشمطاء كانت تتخذ كل الحيطة عند إحضارها الطعام بحيث لا يظهر وجهها، وكانت تحمل الصينية على يديها ثم تدفعها بحذر على عتبة الغرفة وتنسل راجعة، فأقوم بدوري لآخذ الصينية بمجرد وضعها على العتبة، أما الطعام فهو لا يخلو عادة من الأصناف العربية المشبعة بالتوابل

كانت هذه العجوز تحاول كما قلت أن تمنعني من رؤية وجهها، ولقد أفلحت في ذلك إلى حد كبير، فلم أر منها إلا ذلك الهيكل العظمي، ولم أسمع من حركتها إلا صوت ذلك القبقاب الخشبي الذي كنت أسمع طقطقته على الدرج حين صعودها وحين أوبتها إلى الحريم، فالمرأة في كل زمان ومكان، هي المرأة، أو ذلك اللغز الغامض، في الغرب وفي الشرق على السواء، فإذا ما دفعني حب الاستطلاع لرؤية فاطمة الجميلة، وليس هذا بمستغرب من رجل مثلي، أخذت أنظر إليها خلسة من إحدى الثغرات، ويلوح لي أن الفتاة الصغيرة كانت

تشعر أيضاً بأن العيون موجهة إليها من خصاص الشباك فكانت تتخذ كل حيطة وحذر فتقفل نوافذها وترخي السدول عليها حتى تمنع عنها تلك النظرات التي تخافها وتخشاها، ولكن فاتها أن في الفضاء تياراً خفياً ينشر جاذبية العواطف، وينبعث من شعاعه شرارة سرعان ما تكون سبباً في تأجج تلك النيران التي تضيء الحياة بلهيبها. هذه التيارات مخيفة في الواقع لأنه حين اشتعالها تزيد أوار الحب في القلوب البشرية، فتوقظ فيها وسائل الحياة ووسائل الموت دون تفريق بينهما. أما أنا فلا أخفي عنك

أنني ارتعدت من هول ذلك التيار، فرميت رأسي إلى الوراء حياء مخافة أن يقع نظر الفتاة علي وأنا أتجسس عليها عن كثب، ومخافة العار والفضيحة ولا سيما وأنا غريب عن البلاد

ففي ارض الحجاز، تلك البلاد التي لا يوجد فيها من الجنس الأوربي غير شخصي الضعيف، مرتدياً تلك الملابس الإفرنجية، والذي تخرج من فمه رطانة لا يفهمها غيره، كنت مضطراً بحكم البيئة التي تربيت فيها أن ابحث وأدقق في كل ما يقع نظري عليه، ولكن بروح أجنبية، فكان شأني شأن اللص الذي يتسلل إلى بيت تحت جنح الظلام، في وقت هجوع سكانه، ثم يخشى أن يقوده سوء الطالع فتصدم رجله قطعة من الأثاث، أو يفتح باباً خلسة، بيد مرتجفة، بل قد تراه يتلفت ذات اليمين وذات اليسار خائفاً وجلاً، فإذا صادف أن شعوره الإجرامي لم ينبض في صدره، فحينذاك يكاد يطير فرحاً لاقتناصه فريسته، وإذا لم يجد وازعاً من ضميره فانه يفخر بانتصاره على ضحيته، ومن الأسف أن هذا الشعور الإجرامي يلازمنا من المهد إلى اللحد، فأمامنا الرجل العادي الذي يهرع إلى فراشه ليلاً على حين نقضيه نحن في مسامرة النجوم، وفي الوقت الذي يعود هو فيه إلى بيته بعد أن يكون قد أكتسب قوته بعرق جبينه فما علينا إلا أن نوجه أنظارنا إلى ألوان الشمس العظيمة ساعة غروبها، ونتعلم منها عن كثب طرق التحول ونعد قبلاتها الحلوة التي تطبعها على سطح الأرض من نعم الطبيعة، أجل يتحتم علينا أن نبحث بدقة وحذر خشية أن نتخبط في ديجور الظلام كما يتخبط اللص في الخفاء

انه لأحساس نبيل لو أتيح للإنسان أن يكون كشجرة الأرز الباسقة، تلك الشجرة المغروسة على أعالي القمم، تنقل عينها من حين إلى آخر على المروج الخضراء والكروم الزمردية، ولكن هذه الشجرة - وهي سيدة الأشجار - ستبقى على الدوام مهددة بميلها للسقوط في

وسط الأدغال، حيث الحركة والحياة بين الحشرات والأزهار وبين القطعان في مراعيها، وحيث الأطفال يضحكون وحيث تستغرق السعادة في سباتها العميق

هذه الأفكار مرت سراعاً بمخيلتي، عندما كنت انظر صفوف نوافذ منازل مكة التي تطل على هذا الوادي الضيق، ثم وقع نظري على المآذن الشامخة وقد فارقتها أشعة الشمس الذهبية، كأنها تناديني أن أقترب منها. وهذه الشمس التي غربت هي بغير نزاع ذلك الصاحب الأمين للأجنبي، فشمس الصباح وشمس الظهيرة بهما قوة واقتدار مثل قوة الشاب العاشق، ولكنها على الدوام واحدة لا تتغير، أي أنها لا لون لها، وتكاد تكون في الغالب وحشية شاحبة ومزعجة. إنها لاشيء سوى القوة الغشوم، فهي كالآلة، بيد أنه ينقصها الإحساس، والصوت والضمير، والشوق. فهذه الشمس التي تغرب، ليست سوى حب الرجل البالغ، فالضمير، والمعرفة، والفرح، والأحزان قد تغلبت عليها مئات المرات، وأخضعتها لسلطانها، وظلت للآن في كفاحها تغالبها، وستظل في هذا الكفاح الدائم راضية بالحياة، ممتزجة مع الموت

هنا سمعت المؤذن يدعو المؤمنين إلى الصلاة، وهنا يجب علينا أن نولي وجوهنا شطر الكعبة المقدسة لنسجد للحي القيوم، مالك الملك، الذي خلقنا فسوانا، وفي قدرته الحياة والموت، صاحب الأمر الذي إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون. فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون، إننا ندعوه ونبتهل إليه في قعودنا وقيامنا، إذا ليس أفضل من الابتهال إلى قدرته، تلك القدرة الدائمة الأبدية، فطوبى لمن يخشون ربهم. نعم طوبى لهم وحسن مآب

خيم الظلام المخيف على جميع أطراف مكة، وفي هذه البقعة الصحراوية الجرداء نرى بيت الله، ذلك البيت العتيق قبلة الشعوب الإسلامية، الذين ينسون حطام الدنيا ومتاعبها ويطئون المادة بأقدامهم ويستعيضون عنها بالأيمان المطلق، وهو لعمري أثمن من كل شيء في الوجود، فيتخلصون من شرور الجسد ويصعدون بأرواحهم إلى أعلى عليين، وما أحلى وأطيب سماعك آذان المغرب في بلاد العرب، أو على الأقل ما وجدت شيئاً أروع منه، خصوصاً وقد قدمت إلى هذه الأرض المقدسة لأتطهر من أدراني وأبغي الثواب والمغفرة، وسيعلم الإنسان عندما تصعد الروح إلى بارئها، وعندما تنهار أعمال الرجال، فأننا بفطرتنا

نلجأ إلى حماية الرب العظيم، حيث الماء والهواء يحركان الصخور؛ ولكن على الرغم من ذلك نحاول أن ننشل أنفسنا من وهدة القنوط بقوة الأيمان، تلك القوة التي تخفف عنا عذاب الضمير وتهدئ من ثورة عواطفنا الجامحة، فتطمئن قلوبنا بذكر الله وتجري على شفاهنا آيات الكتاب الكريم

أليست كلمات الله العذبة الفصيحة قادرة على أن ترشد الإنسان مهما كان زائغ العقيدة إلى الصراط المستقيم؟

ذلك الصراط الذي وعد الله به عباده المتقين فيرون ضوء الشمس الساطعة في كل جزء من أجزاء الحياة، وعندما تشعر النفس بالكآبة فلا عزاء لها إلا أن تيمم نحو الخالق العظيم لأن الله سبحانه وتعالى يحب من عباده التوسل والضراعة إليه، والكل يغترفون من فيض نعمائه لأنه رحيم رؤوف بعباده. على ضوء هذه العقيدة اضطجعت في غرفتي وأغمضت عيني فشعرت بازدياد ضربات قلبي ثم ألفيت نفسي أتلو آية الكرسي، وهناك شعرت بدمعتين حارتين تنحدران على خدي. ثم أسدل الليل ستاره وخيم السكون على أنحاء المدينة وبدأ القوم يوقدون مصابيحهم الزيتية، وحضرت الخادم تحمل طعام العشاء فسرعان ما شعرت بأني أهبط من طبقات السمو والتفكير في صفات الخالق إلى حضيض الأرض، وبعد أن تناولت عشائي نهضت فارتديت سروالي وعصبت رأسي بعصبة أحكمت فوقها عقالا، ثم يممت شطر جبل أبي قبيس لزيارة صديقي الأستاذ عبد الله رافع الذي دعاني مع آخرين لقضاء ليلة ساهرة في بيته، فاخترقت في طريقي سوق المدينة ورأيت الشوارع لا تزال مكتظة بالزوار وحجاج البيت الحرام. وكانت دار صديقي حافلة بالضيوف فما كدت أغشي الصالة الكبرى حتى أحسست أني في عزلة عن الضوضاء، وشعرت بالهدوء الشامل والطمأنينة المريحة

وأستطيع أن أقول إن جماعة الوهابيين في بلاد العرب يحرمون بتاتاً الاجتماع في الولائم وغيرها، وحجتهم في ذلك أنها مخالفة لنصوص الشريعة والسنة، ويقولون أن في التقشف الغذاء النفساني لكل طالب، ويعززون رأيهم بأن الإنسان ما خلق إلا للعبادة والتقوى، وليس له أن يتوغل في إعطاء النفس شهواتها لأن الحياة في ذاتها كلها تعب وقصيرة؛ وليس الغرض منها أن يتمتع الناس وينغمسون في شهواتهم. بيد أني أرى أنهم يبالغون في هذا التحريم لأن الله حين نظر إلى التراب الذي خلق منه آدم والذي تكون منه العالم، سقطت من عينه دمعة، وهذه الدمعة كانت تحمل شطراً من القلب ومن طبيعته أن يوجد فيه الحب والأحزان وغيرها من الصفات الكامنة الآن في نفوسنا.

(البقية في العدد القادم)

أول مدرسة مصرية فرنسية

للدكتور زكي مبارك

هذه أول مرة تلقى فيها كلمة اللغة العربية، بجانب كلمة اللغة الفرنسية، في هذا المعهد؛ وذلك حق كسبته اللغة العربية منذ عامين، منذ إنشاء القسم المصري الذي تسود فيه اللغة العربية سيادة أصيلة، ويدرس فيه الأدب العربي دراسة مفصلة، على نحو ما يدرس في أرقى المدارس المصرية

والقسم المصري لم ينشأ في هذا المعهد لمجرد المجاملة، وإنما هي خطة تعليمية قضى بها المنطق السليم. وتوجيه صالح وفق إليه المشرفون على سياسة التعليم في هذا المعهد الذي يجمع بين القديم والحديث.

فأنا أيها السادة أتكلم باسم أساتذة اللغة العربية في القسم المصري كما تكلم زميلي المسيو بارال باسم أساتذة اللغة الفرنسية في القسم الفرنسي، وكذلك يأخذ الأدب العربي مكانه في تقاليد الحفلات السنوية منذ اليوم، ويصير من حظ هذا المنبر أن يطرب في كل عام وهو يستمع لغة القرآن.

وإنشاء القسم المصري في معهد الليسيه هو الذي أوحى إليّ موضوع هذه الخطبة، وهو الكلام عن أول مدرسة مصرية فرنسية في التاريخ الحديث.

والمدرسة التي أعنيها هي البعثة التي أرسلها محمد علي الكبير إلى فرنسا في سنة 1826. وقد كانت مؤلفة من اثنين وأربعين طالباً منهم ثلاثة من طلبة الأزهر الشريف وما سميت تلك البعثة مدرسة من باب المجاز فقد كانت مدرسة بالفعل، وكذلك

سماها المسيو جومار في التقرير الذي نشره في الجورنال أزياتيك في سنة 1828.
ومن طريف التشابه أن أذكر أن المدرسة المصرية الأولى كانت مؤلفة من اثنين وأربعين طالبا ثم زاد طلبتها بعد ذلك وأن القسم المصري في الليسيه كان طلبته في الأسبوع الأول أثنين وأربعين طالبا ثم تكاثر العدد وازدحمت الفصول.
ولعل تشابه الحظوظ في هذه البداية يبشر بتشابه الحظوظ في التسامي والتفوق.
والله بالتوفيق كفيل.
سافرت البعثة من مصر في يناير فوصلت إلى باريس في يوليو، وإنما كان السفر طويلا
لان المواصلات لم تكن سهلت إلى الحد الذي تعرفوه في هذه الأيام، وقد كانت تلك الرحلة المطولة سبباً في أن يتعرف الطلاب إلى الأقاليم الفرنسية، ويدرسوا ما ائتلف وما اختلف من أخلاق الناس.
ولما استقر الطلبة في باريس عاشوا تحت إشراف ثلاثة من الأساتذة المصريين، وكان لأولئك الأساتذة الثلاثة واجبات دراسية، ومن هذا ترون كيف كان المصريون يعرفون واجبهم في ذلك الحين
كان الطلبة يقيمون أول الأمر مجتمعين في بيت واحد يسمونه المركز، ثم رؤى أن يتفرقوا في المنازل الفرنسية ليتذوقوا الروح الفرنسي. فنظمت لهم لائحة مكونة من أربعة عشر مادة. وإليكم نصوص تلك المواد لتروا كيف كانت إدارة البعثة تفهم الواجبات التعليمية في تلك العهود
المادة الأولى: (1) إن يوم الأحد المقرر لهم الخروج فيه يلزم أن يخرجوا من البنسيونات في الساعة تسعة ويأتوا إلى البيت المركز من أول الأمر ويقدموا وقت الدخول ورقة معلمهم إلى الأفندي النوبتجي لأجل أن يعلم ساعة دخولهم في البيت، وبعد ذلك يذهبون إلى المواضع المعدة للفرجة بشرط أن يجتمع ثلاثة أو أربعة، ثم يرجعون إلى البنسيونات في أيام الصيف الساعة تسعة، وفي أيام الشتاء الساعة ثمانية
المادة الثانية: إن من لم يمتثل لخصوص ما سبق يمنع من الخروج من البنسيون بحسب الاقتضاء جمعة أو جمعتين
المادة الثالثة: إن كل من له شكاية من معلمه لا تسمع ولا تقبل حتى يكتبها في ورقة. ولا تسمع إلا إذا كانت من جهة التعليم أو جهة أخرى يحصل له منها ضرر
المادة الرابعة: إن جميع الأفندية يمتحنون في آخر كل شهر ليعرف ما حصلوه من العلوم في هذا الشهر ويسألون عما يحتجون إليه من الكتب والآلات ويكتب في آخر كل شهر كسبهم وتحصيلهم وأفعالهم على الوجهة الصحيح
المادة الخامسة: لو احتاجوا شيئاً من الكتب والآلات في أثناء الشهر يطلبونه من معلمهم بورقة يكتبونها له، ومعلمهم يخبر بذلك مسيو جومار، فأن رآه مناسباً يعطيهم ذلك بعد ما يخبر النوبتجي، فأن اشترى أحداً شيئاً من غير إجازة يلزمه أن يدفع ثمنه من عنده
المادة السادسة: إنه بعد الامتحان بما ذكرنا في المادة الرابعة إن أستحق أحد من الأفندية الهدية لنجابته تعطى له كتب وأدوات وسعة
المادة السابعة: في محل التفرج أو على الطريق لا ينبغي لأحد منهم أن يرتكب ما يخل بمروءته، وهذا الأمر هو أهم الجميع وممنوع أشد المنع
المادة الثامنة: إن كل الأفندية الذين في البنسيونات لا يدخلون البيت المركز إلا كل خمسة عشر يوماً مرة وهو يوم الأحد
المادة التاسعة: إن يوم الأحد الذي لا يأتون فيه إلى البيت يخرجون فيه مع أولاد الفرنساوية أو مع المعلمين إلى مواضع التفرج أو الرياضة أو ما ينبغي رؤيته، وكذلك يوم الخميس أو يوم التعطيل، أن لم يكن عليهم شغل فيذهبون مع من ذكر إلى المواضع المذكورة
المادة العاشرة: إذا خالف أحد هذا الترتيب يقابل بقدر مخالفته، وإذا اظهر عدم الطاعة يحبس بالخشونة، وإن كان يتشبث بأفعال غير لائقة وأطوار غير مرضية وجاءت تذكرة من معلمه تشهد عليه بقبح حاله وتبين عصيانه فمثل ما ذكر حضرة ولي النعم أفندينا في القوانين التي أعطاها لنا نتشاور مع المحبين لحضرة أفندينا من أهالي

هذه المدينة ونرسل فاعل القبح والعصيان بنفسه حالاً إلى مصر من غير شك ولا شبهة.
المادة الثانية عشرة: إن جميع الأفندية يكونون في البنسيونات في هذا الترتيب على حد سواء، وإن كان في البنسيونات مائدتان إحداهما للمعلمين والأخرى للتلاميذ فأفنديتنا يأكلون مع معلميهم.
المادة الثالثة عشرة: إن الأفندية المذكورين يلزمهم جميع ما ذكر من القوانين من غير امتياز ولسبب ذلك أعطينا كل واحد منهم صورة ذلك
المادة الرابعة عشرة: كل المواد السابقة هي خلاصة أفكارنا ونتيجة أذهاننا وأذهان الأعيان الذين وصاهم علينا حضرة أفندينا، وبناء على ذلك كل أحد يلزمه أن يتبعها مع التنبيه لأجل تحصيل رضاء حضرة أفندينا ولي النعم. فمن لم يمتثل أو تعلل بشيء يجرى عليه ما هو مذكور في قانون حضرة أفندينا ولي النعم حفظه الله.
أيها السادة:
حدثتكم أن محمد علي الكبير وكل رعاية تلك البعثة إلى المسيو جومار، فاسمحوا لي أن
أشير إلى بعض النواحي من أخلاق ذلكم المربي العظيم.
كان المسيو جومار يحرص أشد الحرص على تذكير الطلبة المصريين بأنهم من شعب مجيد له فضل سابق على الإنسانية فقد قال في الخطبة التي ألقاها عليهم في حفل توزيع الجوائز في اليوم الرابع من يوليه 1828:
(أيها الشبان، هذه أول مرة بعد وصولكم إلى فرنسا تعطى لكم أمام الجمهرة المكافأة التي تستحقونها على عملكم الذي ثابرتم عليه، وهذا اليوم يعد من أفضل أيام حياتكم، والأكاليل التي ستتوج بها رءوسكم بعد هنيهة هي رمز فخر عظيم، لأنكم أتيتم في عاصمة العلوم والفنون، وفي وسط مدينة تجمع بين جوانبها كل ما وجد من عناصر المدنية اليونانية وكل ما وجد من العناصر الفخمة في طيبة ذات المائة باب.
أمامكم مناهل العلم فاغترفوا منها بكلتا يديكم، وهذا هو قبسه المضيء بأنواره أمام أعينكم، فاقتبسوا من فرنسا نور العقل الذي رفع أوربا على سائر أجزاء الدنيا، وبذلك تردون إلى وطنكم منافع الشرائع والفنون التي ازدان بها عدة قرون في الأزمان الماضية فمصر التي تنوبون عنها ستسترد بكم خواصها الأصلية، وفرنسا التي تعلمكم وتهذبكم تفي ما عليها من الدين الذي للشرق على الغرب كله)
ولم يقف المسيو جومار عند هذا الحد من التذكير بمجد مصر، بل يتحدث إلى الجورنال أزياتيك عن البعثة المصرية فأشار إلى ما أنشأ محمد علي الكبير من المدارس في وادي النيل فقال إنها ستكون عاملاً لرد النور إلى وطنه الأصلي، ذلك النور الذي يجب على كل من يعني بنشر العلوم والمعارف والمدنية أن يرده إلى مهده الأصيل
ولعلكم تسألون أيها السادة عن عناية محمد علي الكبير بتلك البعثة، وجواب ذلك عند الشيخ رفاعة الطهطاوي، فقد حدثتنا مذكراته أن محمد علي الكبير كان يبعث إليهم من وقت إلى أخر خطاباً يحضهم به على الجد والتحصيل، وأثبت شاهد لذلك نسوق منه طرفا للدلالة على مبلغ عناية ذلك الرجل العظيم بأولئك المبعوثين
قال طيب الله ثراه:
قدوة الأماثل الكرام الأفندية المقيمين في باريس لتحصيل العلوم والفنون، زيد قدرهم قد وصلتنا أخباركم الشهرية والجداول المكتوب فيها مدة تحصيلكم، وكانت الجداول المشتملة على شغلكم ثلاثة أشهر مبهمة لم يفهم منها ما حصلتموه في هذه المدة، وما فهمنا منها شيئاً، وأنتم في مدينة مثل مدينة باريس التي هي منبع العلوم والفنون، فقياسا على قلة شغلكم هذه المدة عرفنا عدم غيرتكم وتحصيلكم، وهذا الأمر غمنا كثيرا، فيا أفندية ما هو مأمولنا منكم، فكان ينبغي لهذا الوقت أن كل واحد منكم يرسل لنا شيئاً من أثمار شغله وآثار مهارته، فإذا لم تغيروا هذه البطالة بشدة الشغل والاجتهاد والغيرة وجئتم إلى مصر بعد قراءة بعض الكتب فظننتم أنكم مثلهم في العلوم والفنون فأن ظنكم باطل، فعندنا ولله الحمد والمنة رفقاؤكم المتعلمون يشتغلون ويحصلون الشهرة فكيف تقابلونهم إذا جئتم بهذه الكيفية وتظهرون عليهم كمال العلوم والفنون، فينبغي للإنسان أن يتبصر في عاقبة أمره وعلى العاقل أن لا يفوت الفرصة وأن يجني ثمرة تعبه. . .

فأن أردتم أن تكسبوا إرضاءنا فكل واحد منكم لا يفوت دقيقة واحدة من غير تحصيل العلوم والفنون، الخ، الخ
ويحدثنا الشيخ رفاعة أن هذا الخطاب كان له في أنفس الطلاب تأثير شديد، وكان من نتائجه أن صاروا يكتبون إلى مصر في كل شهر بياناً بما قرءوه وما تعلموه
أيها السادة، سمعتم اسم المسيو جومار في هذه الخطبة غير مرة، وعرفتم فضله على تلك البعثة، فمن الخير أن نشير إلى أن محمد علي حفظه له ذلك الجميل، فأرسل إليه خطاب ثناء في 10 يناير سنة 1834 وترون ذلك الخطاب في كتاب سمو الأمير عمر طوسون عن البعثات
أما بعد فقد كان المسيو جومار واثقاً كل الثقة وهو يلقي أول خطبة في توزيع الجوائز على أول مدرسة مصرية، وقد حققت الأيام ظنه فكان أولئك المبعوثون رسل علم وهداية وكانت معارفهم الأدبية والعلمية أساسا لما عرفت مصر من أصول التمدن الحديث
وأنا أيها السادة في أول خطبة لتوزيع الجوائز على طلبة القسم المصري أثق بتلاميذي أكثر مما كان يثق المسيو جومار بتلاميذه، وأعتقد أن القسم المصري بالليسيه سيخرج لكم نماذج جميلة من الشبان المثقفين الذين يعرفون واجبات الرجال
نحن نعرف تلاميذنا أيها السادة، وأؤكد لكم أننا وضعنا في صدورهم جذوة لن تخمد، وهديناهم إلى نمير من المعارف لن ينضب ولن يغيض
والتلاميذ الذين يفرحون اليوم بتسلم الجوائز خليقون أن ينسوا إساءتنا إليهم أيام الدرس، فقد أسرفنا في إثقالهم بالواجبات وعاقبناهم أحياناً على هفوات صغيرة لا تستحق العقاب، إنهم خليقون أن ينسوا عنفنا وقسوتنا في معاملتهم فقد كنا على يقين من أن الأبوة تبيحنا حق التحكم فيهم، وتفرض علينا أن نلقاهم بوجوه تمثل الحزم وقلوب تضمر العطف والوداد
إنما نمنحكم الجوائز أيها الأبناء النجباء لتنسوا هموم الدرس فماذا تصنعون أنتم لمكافأة أساتذتكم؟ إن لنا في ذمتكم جائزة واحدة فتفضلوا بها علينا
أو تدرون ما هي تلك الجائزة؟ هي أن تكونوا أبطالاً يرفعون الوطن ويخدمون الإنسانية
لقد منحناكم خير ما نملك، فامنحوا الوطن والإنسانية خير ما تملكون
أيها الأبناء النجباء
لقد شقينا لتسعدوا، فليس من الكثير أن نطلب منكم أن تشقوا ليسعد الوطن وتسعد الإنسانية
تذكروا يا أبناءنا الأعزاء أن الشقاء في سبيل الخير هو السعادة الغالية التي ينشدها أرباب القلوب

زكي مبارك
في الأدب الإنجليزي
شكسبير والأدب العربي
للأستاذ جريس القسوس

(مهداة إلى الأستاذ فخري أبو السعود)

يقف من يتعمق في دراسة الأدبين العربي والإنجليزي على ظاهرة غريبة حرية باهتمام من يعنون بدراسة الآداب الإفرنجية، أعني بها التماثل الظاهر بين ما يرد في كلا الأدبين من قصص وحكم وآراء فلسفية: وهو تماثل يحمل المرء على الاعتقاد الجازم بأن أحد هذين الأدبين قد أقتبس من الآخر، أو تأثر به تأثراً بعيداً
وفي روايات شكسبير خاصة من القصص والحكم والكنايات والإشارات ما يثبت أن مؤلف هذه الروايات الخالدة كان ملماً بعض الإلمام بالأدب العربي، وخاصة القديم منه، ولا نقول العكس لأن هذه القصص المتشابهة وردت في الآداب العربية قبل الإنكليزية بعهد طويل.
وأنني لا أرى مبرر للزعم بأن شكسبير نقل حكمه وآراءه الفلسفية عن الأدب العربي، إذ أن الشاعر في كل آن ومكان وفي أية حالة أو ظرف من ظروف الحياة، لا يخرج عن كونه أنساناً يتألم ويحس بما يحس به غيره من الشعراء عند الأمم الأخرى، وإن اختلفوا لغة وجنساً، فالحياة والطبيعة البشرية، اللتان هما المصدران الرئيسيان واللتان يستمد منهما الشاعر المخلد وحيه، إنما هما ثابتتان لا تتغيران أصلاً في كل بيئة وزمان،

فشكسبير والمتنبي، وبيرون وعمر بن أبي ربيعة، وشلي وموسيه، ودانتي وأبو العلاء، جميعهم حلقوا في سماء الشعر، واختلجت في صدورهم أحاسيس وأخيلة وفكر متماثلة بعض التماثل في المعنى، وإن كانت تختلف بما ألبسته هذه المعاني الرائعة من أثواب قشيبة منمقة. لهذا ترى العباقرة في كل باب وفن يتجردون من السفاسف البشرية التافهة والهنات السخيفة التي يتمسك بأذيالها فئة الجهال، كالفروق الدينية الجنسية واللغوية، إذ يتسامى العباقرة عن كل تعصب ذميم ممقوت وينضوون تحت لواء مملكة واحدة هي فوق هذه الممالك التي تظهر متباينة الألوان على المخططات الجغرافية

ولعل هذا القول يصدق على التشابه الظاهر بين الحكم والآراء الفلسفية الواردة في شكسبير

والأدب العربي، أكثر منه على الخرافات والقصص العامية

فهذه تتداولها الألسن من قطر إلى قطر وتتناقلها الأجيال من عهد إلى عهد؛ ولا حرج على الأديب المنتج من تضمين أدبه قصة عامية تلقاها عن أمة أخرى بالرواية أو المطالعة. وللعالم والأديب الكبير بيزا قنصل رومانيا السابق في فلسطين. أبحاث شيقة حول موضوع شكسبير والخرافات الشرقية، وقد سرد في محاضرة له قيمة سماها:

طائفة من القصص والخرافات التي كانت تدور (شكسبير والقصص العامية الشرقية) على ألسنة العوام والفلاحين في الشرق، وحين رجع الصليبيون إلى أوربا نقلوا معهم الشيء الكثير منها، فانتشرت تلك القصص بين الخاصة والعامة في الأوساط الأوربية، فكان شكسبير أحد أولئك الذين ذكروا هذه القصص في منتوجاتهم الأدبية، وأنا لا أدري إلى أي حد تبلغ هذه النظرية من الصحة، بيد أنني وقفت على قصص عديدة في روايات شكسبير، ذكرتني بأخرى في الأدب العربي، شبيهة بها بعض الشبه.

ولا أخال أحداً طالع رواية مكبث ولا يذكر لأول وهلة قصة زرقاء اليمامة، فشكسبير قد ضمن هذه الرواية فكرة الغاب المتحرك، إذ حينما عبأ مكدوف جيشه العظيم منتقماً لوالده المغدور به، ومستعيدا ملكه المغتصب من مكبث القائد الطاغية العنيد، بعث مكبث من يستطلع أمر العدو، فاعتلى أحد جنده ربوة عالية تشرف على جيش عدوه. وبدلاً من أن يرى جيشاً لجباً، رأى غاباً كثيفاً يتحرك نحوه رويداً رويداً، فعاد الرسول وأخبر مولاه بما رأى، فأيقن مكبث أنه لا محالة هالك، إذ بذاك تتحقق نبوة الساحرات الثلاث اللاتي ظهرن له في أول عهده، وتنبأن له باعتلاء العرش، وأنه لن يلقى حتفه حتى يرى غاب برنام يتحرك نحو مقاطعة دنسنان وما كان غاب برنام الذي شاهده جندي الطليعة يتحرك إلا جيش مكدوف متستراً بأشجار اقتطعها وحمل كل جندي منهم شجرة يسير تحتها متخفياً ليتمكنوا بذلك من مفاجأة العدو، والإيقاع به على حين غرة، وهكذا أسفرت المعركة عن انهزام مكبث ولقاء حتفه على يد الابن الثائر.

وصاحب الأغاني يذكر كيف كانت زرقاء اليمامة ترى الجيش من مسير ثلاثين ميلا، وكيف أن قوماً آخرين غزوا قبيلتها، فلما قربوا من مسافة منظرها، قالوا (كيف لكم الوصول مع الزرقاء)، فأجمعوا على اقتلاع أشجار تستر كل منها فارساً إذا حملها، ففعلوا

ذلك وساروا، فأشرفت الزرقاء كعادتها، فأجابت قومها وقد سألوها (ما ترى) قائلة: (أرى شجراً يسير) فقالوا: (كذبت أو كذبتك عينك) واستهانوا بقولها، فلما أصبحوا، صبحهم القوم، فاكتسحوهم فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وقيل أخذوا الزرقاء فقلعوا عينيها

وقصة أخرى يشير إليها المستشرق الإنكليزي الشهير نيكلسون في كتابه في سياق البحث عن الحياة العامية في القسم الجنوبي من جزيرة العرب ولقد وردت هذه القصة في قصيدة (أسعد كامل أو أبو كرب) التي أطلق عليها نيكلسون أسم (قصيدة الساحرات الثلاثة) ذلك لما بينها وبين خرافة الساحرات الثلاثة. اللواتي يمثلن ذلك الدور المدهش في رواية مكبث، من تشاكل وتشابه عظيمين، والقصيدة كما سترى، موضوعة في قالب أقرب إلى العامية منه إلى الفصحى. وقد نقلها فون كريمر المستشرق الألماني إلى الألمانية مودعاً إياها كتابه وكذلك نقلها نيكلسون إلى الإنكليزية في كتابه المذكور

وفي هذه القصيدة يخاطب أسعد أبنه حسناً ويوصيه بالبطولة، ويسرد له في سياق الحديث قصة الساحرات الثلاث كيف صادفنه غلاماً، فمزجت له الكبرى أولاً دواء، وأعطته فشرب، وقدمت له الوسطى ضبياً برياً امتطاه وذلله، ثم جاءت الصغرى تمرّضه فتجنّبها، ولما أيقن في هذه الجرأة النادرة والقدرة على مقارعة الخطوب، تنبّأن له بعهد سعيد ومستقبل باهر، يتنسم فيه ذرى المجد، وهكذا تمت النبوة فقد أصبح أسعد، على ما جاء في القصيدة، قائد جيش مجر، ثم ملكا تهابه الأعداء.

وأنت تذكر أن مكبث كان في أول عهده قائداً مغواراً في عسكر الملك دانكين ولما عاد هو وبنكو مظفَّرين لقيا في طريقهما، ثلاث عجائز شمط، دأبهنَّ القيام بأعمال سحرية خارقة، ولهن القدرة على قراءة المستقبل، ومعرفة الغيب فتنبأن أن سيكون مكبث مبدئياً من الشرفاء، ثم يعتلي العرش، وبعد ذلك بقليل تحقق القسم الأول من النبوءة، فقد اختار الملك القائد مكبث ليكون شريفاً، ثم تعلم كيف سوّلت لمكبث نفسه التطلع إلى الملك، فدعا الملك (دنكن) إلى وليمة وقضى عليه ليلاً، ثم نصب نفسه ملكاً على الشعب

ومن يدرس ما جاء على لسان هؤلاء الساحرات في رواية مكبث من أقوال دقيقة معقدة ويقابل ذلك بحديث الساحرات في العقيدة العربية يلقي تشابهاً يدعو إلى الإعجاب الشديد، فساحرات مكبث من شأنهن طبخ الأدواء ومزجها واستعمالها في جميع أعمالهن السحرية،

وشبيه بذلك ما جاء عن ساحرة أسعد الكبرى، فقد ورد أنها

جاءت إليه الكبرى بأسقية ... شتى وفي بعضها دم كدر

ثم إن الضبع الذي قدمته الساحرة الوسطى لأسعد هو من مطايا ساحرات أسعد؛ وفي رواية مكبث تشير إحدى الساحرات إلى اتخاذ زوجها النمر مطية تحمله إلى حلب العربية ولا أدري ما الذي حدا بشكسبير إلى ذكر حلب البلدة السورية العربية، ولو لم يكن بين هاتين الخرافتين من علاقة وثيقة وسبب متين

أما وقد بسطنا بعض وجوه الشبه بين الخرافتين، فمن المستحسن الإتيان بقصيدة أسعد بكاملها ليتسنى بذلك مقابلتها مع الخرافة الشكسبيرية بالتفصيل والتدقيق

الدهر يأتيك بالعجائب

و ... الأيام والدهر فيه معتبر

بينا ترى الشمل فيه مجتمعا ... فرقة في صروفه القدر

لا ينفع المرء فيه حيلته ... فيما سيلقاه لا ولا الحذر

أتى زعيم بقصة (عجب) ... عندي لمن (يسترد هذا) الخبر

يأتي بتصديقها الليالي

و ... الأيام إن المقدور ينتظر

يكون في (الأسد) مرة رجل ... (ثم) له في ملوكه الخطر

مولده في قرى ظواهر هم ... دان بتلك التي اسمها (خمر)

يقهر أصحابه على حدث ... السن (ويحقرهم) فيحتقر

حتى إذا أمكنته صولته ... وليس يدري ما شأنه البشر

أصبح في هيوم على وجل ... وأهله غافلون ما شعروا

رأوا غلاماً بالأمس عندهم ... أزرى لديهم بجهله الصغر

أن يفقدوه لا در درهم ... لو علموا العلم فيه لافتخروا

حتى إذا أدركته روعته ... بين ثلاث وثلاثة صخروا

جاءت إليه الكبرى بأسقية ... شتى وفي بعضها دم كدر

فقال هاتي إليّ أشربها ... فقالت له ذر فقال لا أذر

فناولته فما تورع عن ... حصاة حتى أماده السكر

فنهنهته الوسطى فنازلها ... كأنه الليث هاجه (الزعر)

قالت له هذه مراكبنا ... فاركب فشَّر المراكب الحمر

فقال حقاً صدقت ثم سما ... فوق ضبيع قد زانه القمر

فدق منه جنباً فغادره ... فيه جراح منها به أثر

ثم أتته الصغرى تمرضه ... فوق الحشايا ودمعه درر

فمال عنها بمضجع ضجر ... لا يتساوى الوطاء والزعر

كان إذ ذاك بعد صرعته ... من شدة الجهل تحته (الإبر)
فقلن لما رأين جرأته ... أسعد أنت الذي لك الظفر
في كل ما توجهه بوجهها ... وأنت يشقى بحربك البشر
وأنت للسيف والسنان وفي ... الأبدان تبدو كأنها الشمر
أنت المهريق (كل) دم ... إذا ترامى (بشخصك) السفر (وإن)
فارشد ولا تستكن في (خمر) ... ورد ظفاراً فإنها الظفر
فلست تلتذ عيشة أبداً ... وللأعادي عين ولا أثر
نحن من الجن يا أبا كرب ... يا تبع الخير هاجناً (الذعر)
فما بلوناه فيك من تلف ... عن عمد عين وأنت مصطبر
ثم أتى أهله فأخبرهم ... بكل ما قد رأى فما اعتبروا
فسار عنهم من بعد تاسعة ... إلى ظفار وشأنه (الفكر)
فحلَّ فيها والدهر يرفعه ... في عظم الشأن وهو يشتمر
حتى أتته من المدينة تش ... كو الظلم شمطاء قومها غدروا
إليه منهم ظلامتها ... ترجو به ثأرها وتنتصر (أدت)
فأعمل الرأي في الذي طلبت ... (فكان) كل بذاك يأتمر
فعبأ الجيش ثم سار به ... مثل الدبا في البلاد ينتشر
قد ملأ الخافقين عسكره ... كأنه الليل حين يعتكر
تعمم أعداءه (كتائبه) ... وليس يبقى فيهم ولا يذر
حتى مضى منه (لثانية) ... وفاز بالنصر ثم ينتصر
إنا وجدنا هذا يكون معاً ... في علنا والمليك مقتدر
فالحمد لله والبقاء له ... كل إلى ذي الجلال مفتقر
(السلط - شرق الأردن)
جريس القوقس ب. ع
مدرس اللغة الإنجليزية في مدرسة السلط التجهيزية
نقل الأديب
الأستاذ محمد اسعاف النشاشيبي
90 - من اكتتب ضمنا بعثه الله ضمنا
في (الفائق) للزمخشري:
قال عمر (رضى الله عنه): من اكتتب ضمناً بعثه الله ضمناً. وهو الرجل يضرب عليه بالبعث فيتعالَّ ويتمارض ولا مرض به. ويحكى أن أعرابياً جاء إلى صاحب العرض فقال:
إن تكتبوا الضمني فإني لضمن ... من داخل القلب وداء مستكن
91 - منذ ثلاثين سنة أنتظر
سئل الشاعر الأهوازي كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت (والله) أظرف الناس، وأشعر الناس، وآدب الناس،
فقال السائل: اسكت حتى يقول الناس ذلك.
فقال: أنا منذ ثلاثين سنة انتظر الناس، وليسوا يقولون.
وعزيز علي مدحي لنفسي ... غير أني جشمته للدلاله
وهو عيب يكاد يسقط فيه ... كل حر يريد يظهر حاله
92 - حلقة، حلقة
في تاريخ ابن عساكر:
كان زريع على عسس بلال فقال له يوماً: يا بني، إن أهل الأهواء يجتمعون في المسجد ويتنازعون، فأذهب فتعرف ذلك، فذهب ثم رجع إليه، فقال: ما وجدت فيه إلا أهل العربية حلّقة، حلّقة.
فقال له: ألا جلست إليهم حتى لا تقول: حلّقة، حلّقة؟
93 - الخاطر
قال ابن جني في (الخصائص):
حدثني أبو علي (الفارسي) قال: قلت لأبي عبد الله البصري: أنا أعجب من هذا الخاطر في حضوره تارة ومغيبه أخرى، وهذا يدل على أنه من عند الله، فقال: نعم، هو

من عند الله إلا أنه لا بد من تقديم النظر، ألا ترى أن جامداً البقال لا يخطر له.
ومن ظريف حديث الخاطر أنني كنت منذ زمان طويل رأيت رأياً جمعت فيه بين معنى آية ومعنى قول الشاعر:
وكنت أمشي على رجلين معتدلا ... فصرت على أخرى من الشجر
ولم أثبت حينئذ شرح الجمع بينهما ثقة بحضوره متى استحضرته، ثم إني الآن وقد مضى له سنون أعان، الخاطر واستثمده وأفانيه وأتودده على أن يسمح لي بما كان أرانيه من الجمع بين معنى الآية والبيت، وهو معتاص متأب، وضنين به غير معط.
94 - أفضل الناس بعد رسول الله
أتى شيعي وسني أبا نؤاس فقالا: أي الناس أفضل بعد رسول الله؟
فقال: أفضلهم بعده يزيد بن الفضل.
فقالا: ومن يزيد بن الفضل؟
فقال: رجل يعطيني كل سنة ثلاثة آلاف درهم. . .
95 - ريبة
في (الكشاف):
عن بعض العرب أنه سئل عن نسبه، فقال: قرشي والحمد لله!!
فقيل له: قولك: (الحمد لله) في هذا المقام ريبة. .
96 - أستريح منه إليك
في (الصناعتين) لأبي هلال العسكري:
قال معاوية (رضي الله عنه) لابن أوس: ابغ لي محدثاً
قال: أو تحتاج معي إلى محدث؟!
قال: أستريح منه إليك، ومنك إليه، وربما كان صمتك في حال أوفق من كلامك.
97 - والي شرطة بغداد وأهل السنة والشيعة سنة 442
في (النجوم الزاهرة) لابن تغري بردي:
في سنة (442) كان من العجائب أنه وقع الصلح بين أهل السنة والشيعة، وصارت كلمتهم واحدة، وسبب ذلك أن أبا محمد النسوي ولي شرطة بغداد، وكان فاتكا، فاتفقوا على أنه متى رحل إليهم قتلوه؛ واجتمعوا وتحالفوا، وأذن بباب البصرة بـ (حي على خير العمل) وقرئ في الكوخ فضائل الصحابة، ومضى أهل السنة والشيعة إلى مقابر قريش فعد ذلك من العجائب، فان الفتنة كانت قائمة، والدماء تسكب، والملوك والخلفاء يعجزون عن ردهم، حتى ولي هذا الشرطة
98 - تغير شعره ورق طبعه
قال السمعاني: لما ورد علي بن حسن الباخرزي بغداد مدح (القائم بأمر الله) بقصيدته التي صدر ديوانه وهي:
عشنا إلى أن رأينا في الهوى عجبا ... كل الشهور وفي الأمثال: عش رجبا
أليس من عجب إني ضحى احتملوا ... أوقدت من ماء دمعي في الحشا لهبا
وإن أجفان عيني أمطرت ورقا ... وان ساحة خدي انبتت ذهبا
وان تلهب برق من جوانبهم ... توقد الشوق في جنبيَّ والتهبا
فاستهجن البغداديون شعره وقالوا: فيه برودة العجم، فانتقل إلى الكوخ وسكنها وخالط فضلاءها وسوقتها ثم أنشأ قصيدته التي أولها:
هبت علي صبا تكاد تقول ... إني إليك من الحبيب رسول
سكري تجشمت لربي لتزورني ... من علتي، وهبوبها تعليل
فاستحسنوها وقالوا: تغير شعره، ورق طبعه
99 - خطباء الطير
قال الثعالبي: خطباء الطير هي الفواخت والقماري والراوشين والعنادل وما أشبهها، وأظن أن أول من اخترع هذا الاستعارة المليحة أبو العلا السروي في قوله:
أما ترى قضب الأشجار لابسة ... حسناً يبيح دم العنقود للحاسي؟
وغردت خطباء الطير ساجعة ... على منابر من ورد ومن آس
100 - ما مدحته إلا ثقة بضمانك
مدح ابن نباتة الكبير فخر الدولة وزير بهاء الدولة ابن عضد الدولة بقصيدة قال فيها:
لكل فتى قرين حين يسمو ... وفخر الملك ليس له قرين

أنخ بجنابه واحكم عليه=بما أملته وأنا الضمين
فامتدح بعض الشعراء فخر الدولة بعد هذه القصيدة، فأجازه بجائزة لم يرضها، فجاء الشاعر إلى ابن نباتة وقال له:
أنت غررتني، وأنا ما مدحته إلا ثقة بضمانك فتعطيني ما يليق بمثل قصيدي، فأعطاه من عنده شيئاً رضي به، فبلغ ذلك فخر الدولة، فسير لابن نباتة جملة مستكثرة لهذا السبب.
101 - أحسنت والله! هذا أحسن
قال ابن الخطيب البغدادي: كان بين أبوي العباس (ثعلب والمبرَّد) منافرات كثيرة، والناس مختلفون في تفضيل كل واحد منهما على صاحبه. وقال محمد بن خلف: كان بين المبرَّد وثعلب من المنافرة ما لا خفاء به، ولكن أهل التحصيل يفضلون المبرَّد على ثعلب
قال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر: حضرت مجلس أخي محمد بن عبد الله بن طاهر، وحضره أبو العباس ثعلب وأبو العباس المبرَّد النحويان. فقال لي أخي محمد: قد حضر هذان الشيخان وأنا أحب أن أعرف أيهما أعلم، فاجلس في الدار الفلانية، ويحضر هذان الشيخان حضرتك ويتناظران ففعلت ما أمر، وحضرا فتناظرا في شيء من علم النحو مما أعرفه، فكنت أشاركهما فيه، إلى أن دققا فلم أفهم، ثم عدت بعد انقضاء المجلس، فسألني فقلت: إنهما تكلما فيما أعرف فشاركتهما في معرفتي، ثم دققا فلم أعرف ما قالا. ولا والله يا سيدي، ما يعرف أعلمهما إلا من هو أعلم منهما، ولست ذاك الرجل. فقال أخي: أحسنت والله! هذا أحسن
هكذا قال زرادشت
للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه
ترجمة الأستاذ فليكس فارس
نشيد الرقص
ومر زارا بالغاب يوماً ومعه صحبه فاكتشف وهو يفتش عن ينبوع مرجاً منبسطاً بين الأشجار والأدغال، وكان هنالك رهط من الصبايا يرقصن بعيداً عن أعين الرقباء. وإذ لمحن القادم وعرفنه توقفن عن الرقص ولكن زارا اقترب منهن وخاطبهن قائلا:
- داومن على رقصكن، أيتها الآنسات الجميلات، فما القادم بمزعج للفرحين وما هو بعدو للصبايا. أنا من يدافع عن الله أمام الشيطان، وما الشيطان إلا الروح الثقيل فهل يسعني أن أكون عدواً لما فيكن من بهاء ورشاقة وخفة روح؟ وهل لي أن أكون عدواً للرقص الإلهي ترسمه مثل هذه الأقدام الضوامر الرشيقات. . .؟
لا ريب في أنني غابة اشتبكت فيها قاتمات الأشجار وساد الحلك على أرجائها ولكن من يقتحم ظلماتي بلا خوف ليجدن تحت سرواتي الرهيبات طرقاً تحف بجانبيه الورود، وليجدن أيضاً الإله الصغير الذي تشتاقه الصبايا منطرحا بسكون قرب الينبوع وقد أغمض عينيه
لقد نام في وقت الظهيرة، هذا الإله المتراخي، ولعله سعى طويلا ليصطاد من الفراشات عدداً كبيراً. .
لا يكدركن مني أيتها الراقصات الجميلات تأديبي لهذا الإله الصغير، ولعله يصيح ويبكي ولكنه إله يجلب المسرة حتى في بكائه. فلسوف اقتاده إليكن والدموع سائلة على خديه ليطلب إليكن أن ترقصنه، وإذا ما رقص فسأرافقه أنا بإنشادي فما تجيء نغماتي إلا هزيجاً أصفع به الروح الثقيل، روح الشيطان المتعالي الذي يقول الناس إنه يسود العالم
وهذه هي الأغنية التي رفع زارا صوته بها بينما كان (كوبيدون) إله الحب يرقص مع الصبايا الفاتنات:
لقد حدقت يوماً في عينيك، أيتها الحياة، فحسبتني هويت إلى غور بعيد القرار، غير أنك
سحبتني بشابك من ذهب وأطلقت قهقهة ساخرة عندما قلت إن غدرك لا قرار له.
وأجبتني: - هذا ما تقوله الأسماك جميعها، فهي إذ تعجز عن سبر الأغوار تحسبها لا قرار لها. وهل أنا إلا المتقلبة النفور؟ وهل أنا إلا امرأة، وامرأة لا فضيلة لها. لقد تقول الناس كثيراً عن صفاتي ولكنهم أجمعوا على أنني غير المتناهية، المليئة بالأسرار

أيها الرجال، إنكم ترون في فضائلكم، فأنتم لا قبل لكم بادراك شيء آخر غيرها أيها الفضلاء. . .
هذا ما كانت تقهقه به في سخريتها تلك الحياة، غير أنني لا أثق بها ولا أصدق ضحكها عند ما تهجو نفسها
وناجيت يوماً حكمتي النفورة فقالت لي غاضبة: - إنك تطلب الحياة وتشتاقها وتحبها وذلك ما يحفز بك إلى بذل الثناء عليها
ولولا أنني تمالكت نفسي لكنت رددت بعنف على حكمتي وأعلنت الحقيقة لها وهي تغاضبني وهل من جواب أشد وقعاً على الحكمة من أن تهتك سرائرها
ما أحب شيئاً من صميم الفؤاد إلا الحياة، ولا يبلغ حبي لها أشده إلا حين أكرهها. وإذا ما أنا اندفعت إلى الحكمة وأغرقت في الالتجاء أليها فما ذلك إلا لأنها تبالغ بتذكيري بالحياة. فان للحكمة عيني الحياة لها ولها ابتسامتها. بل لها أيضاً شابكها المذهب، فما حيلتي بهما إذا تشابهتا إلى هذا الحد؟
وعندما سألتني الحياة عن الحكمة أجبتها: هي الحكمة يشتهيها الإنسان بكل قوته ولا يشبع منها. فهو يحدق فيها ليتبين وجهها من وراء القناع ويمد أصابعه بين فرجات شباكها متسائلا عن جمالها وما يدريه ما هو هذا الجمال ومع هذا فان أقدم الأسماء لا تنفك عن الانجذاب إلى طعمة شباكها فهي متقلبة شديدة المراس. ولكم رأيتها تعض على شفتها وتسرح شعرها، ولعلها شريرة ومخادعة، بل لعل لها صفات المرأة بأجمعها فهي لا تبلغ أبعد مداها في اجتذاب القلوب إلا عندما تهجو ذاتها. . .
وبعد أن قلت هذا عن الحكمة للحياة، مرت على شفتيها ابتسامة شريرة وغضت من جفنيها قائلة: - عمن تتكلم. . . لعلك تتكلم عني أنا. . . وهل للإنسان أن يعلن مثل هذه الأمور بوجه من تعنيه حتى ولو كان محقاً. فما قولك الآن في حكمتك يا هذا. . .؟
(وفتحت الحياة المحبوبة عينيها فحسبتني عدت إلى التدهور في الهاوية البعيدة القرار
هذا ما يتغنى زارا به وما انتهى الرقص وتوارت الصبايا عن أبصاره حتى تملكه حزن عميق فقال: لقد اختفت الشمس وترطب المرج وقد بدأ الغاب يرسل لفحاته الباردات. أن شيئاً مجهولاً يدور حولي ويحدجني قائلاً: - ألم تزل على قيد الحياة، يا زارا؟ ولماذا أنت حي بعد؟ وما هي فائدة هذه الحياة؟ ما هو مصدرك وإلى أين مصيرك أفليس من الجنون أن تبقى في الحياة؟
ويلاه، أيها الصحاب، أن ما يتناجى فيّ إنما هو الغسق فاغتفروا لي شجوني. لقد جاء المساء فاغتفروا لي قدوم المساء. . .
هكذا تكلم زارا. . . . . .
الكهنة
وتمثل زارا مرور رهط من الكهنة أمامه، فقال لأتباعه: هؤلاء هم الكهنة؛ فعليكم - وإن كانوا أعدائي - أن تمروا أمامهم صامتين وسيوفكم ساكنة في أغمادها فإن بينهم أبطالاً ومنهم من تحملوا شديد العذاب فهم لذلك يريدون أن يعذبوا الآخرين.
إنهم لأعداء خطرون، وما من حقد يوازي ما في اتضاعهم من ضغينة، وقد يتعرض من يهاجمهم إلى تلطيخ نفسه. ولكن بيني وبينهم صلة الدم وأنا أريد أن يبقى دمي مشرفاً حتى في دمائهم.
وعاد زارا يتمثل أنهم مروا وانصرفوا، فشعر بألم شديد قاومه لحظة حتى سكن روعه، فقال: - إنني أشفق على هؤلاء الكهنة، وأنا لا أزال أنفر منهم ولكنني تعودت الإشفاق مرغماً نفوري منذ صحبت بني الإنسان، ومع ذلك فأنا أتألم مع هؤلاء الكهنة لأنهم في نظري سجناء يحملون وسم المنبوذين في العالم، وما كلبهم بالأصفاد إلا من دعوه مخلصاً لهم، وما أصفادهم إلا الوصايا الكاذبة والكلمات الوهمية، فمن لهؤلاء من يخلصهم من مخلصهم. . .
لقد لاحت لهؤلاء الناس جزيرة في البحر على حين ثارت عليهم زوبعة فنزلوا إليها فإذا هم على ظهر تنين نائم على العباب
وهل من تنين أشد خطراً على أبناء الحياة من تنين الوصايا والكلمات الوهمية وقد كمن
فيها المقدور طويلاً حتى حان وقت انتباه التنين؟ وهاهو يهب مفترساً جميع من بنوا مساكنهم على ظهره.

انظروا إلى المساكن التي بناها هؤلاء الكهنة، وقد أسموها كنائس وما هي إلا كهوف تنبعث روائح التعفن منها. وهل للروح أن ترتفع إلى مستواها تحت لآلاء هذه الأنوار الكاذبة وفي هذا الجو الكثيف، حيث لا يسود إلا عقيدة تصم الناس بالخطيئة وتأمرهم بصعود درجات الهيكل زحفاً على الركب

أنني لأفضل أن أنظر إلى اللحظات الفاحشة من أن أرى هذه العيون أطبقت أجفانها معلنة خشوعها واستغراقها.

من ذا الذي اخترع هذه الكهوف وهذه الدرجات يرقاها النادمون زاحفين، أهي من إيجاد من استحيوا من صفاء السماء فلجئوا إلى الاستتار؟

لن أعود بقلبي ألج مساكن هذا الإله إلا إذا انثلمت قبابها واخترقتها نور السماء الصافية لتتكشف عن الشقائق الحمراء النابتة على جدرانها المتهدمة.

لقد أراد هؤلاء الكهنة أن يعيشوا كأشلاء أموات فسربلوا جثثهم بالسواد فإذا هم ألقوا مواعظهم انتشرت منها رائحة اللحود.

إن من يجاور هؤلاء الناس فكأنما هو ساكن على ضفة الأنهار السوداء حيث لا يسمع إلا نقيق الضفادع الحزين

ليسمعني هؤلاء الناس نشيداً غير هذا النشيد لأمرن نفسي على الاعتقاد بمخلصهم، إذ لا يلوح لي أن أتباع هذا المخلص قد ظفروا بالخلاص.

لكم أتمنى أن أراهم عراة، وهل لغير الجمال أن يدعو الناس إلى التوبة، ولكنهم عبارة عن فجائع مستترة لا يسعها أن تجتذب إلى الإيمان أحداً.

والحق، أن مخلصي هؤلاء الكهنة أنفسهم لم ينحدروا من سماء الحرية وما وطئوا مسالك المعرفة قط، فما كانت حكمتهم إلا نسيجاً ملأته الخروق رقعوه بما أوجد جنونهم من آلهة. لقد أغرقتهم حكمتهم في بحيرة الإشفاق فهم كلما زفروا فيها أرسلوا بجثة عظمى تطفو على سطحها.

ولقد زعق هؤلاء الرعاة بقطعانهم فمضت متدافعة إلى فجوة واحدة وقد علا صراخها كأن التوصل إلى مخارج المستقبل ممتنع من غير هذه الفجوة الضيقة. أما والحق ما هؤلاء الرعاة إلا فريق من هذه السائمة وقد ضاقت عقولهم ورحبت نفوسهم وسرعان ما تصغر العقول إذا كبرت النفوس.

لقد تركوا على كل معبر اجتازته أرجلهم آثار الدماء، إذ كانوا يستلهمون جنونهم ليعلموا الناس أن الدماء تقوم شاهدة للحق. وقد جهلوا أن أفسد شهادة تقوم للحق إنما هي شهادة الدم، لأن الدم يقطر سماً على أنقى التعاليم فيحولها إلى جنون وإلى أحقاد.

أفتقيمون للحق دليلاً من اقتحام أحد الناس للهب في سبيل تعاليمه. وهل لمثل هذا التعليم ما للعقيدة التي تتولد متقدة من لهبها نفسه؟ إذا ما تلاقى رأس بارد بقلب مضطرم نشأت من التقائهما تلك العاصفة التي يدعوها الناس مخلصاً. ولكم وجد على الأرض من رجل أعرق منشأ وأرفع مقاماً ممن يدعوهم الشعب مخلصين، وما كان هؤلاء المخلصون إلا عاصفات كاسحات تهب متوالية على الأرض

إذا ما كنتم تنشدون سبل الحرية، أيها الإخوة، فعليكم أن تنقذوا أنفسكم حتى ممن يفوقون هؤلاء المخلصين عظمة ومجداً. فان الإنسان الكامل لم يظهر على الأرض بعد. لقد حدقت بأعظم رجل وبأحقر رجل عن كثب وهما عاريان فظهرا لعياني متشابهين، بل رأيت أعظمهما أشد توغلا في المعائب البشرية من الآخرين.

هكذا تكلم زارا. . . . . .

رسالة الفن

في فن التصوير

يقف الإنسان أمام صورة من الصور ويلقي عليها نظرة عارضة عاجلة فيصدر في الحال حكمه عليها أعجب بها أم لم يعجب؟ أنالت من نفسه ارتياحا؟ أسكن وجدانه إليها؟ ولماذا أعجب بها؟ ولماذا لم يعجب؟ وما هي العاطفة الكامنة التي تصدر هذا الحكم بتلك السهو لها أو عليها؟ أهو الذوق؟ وما هو الذوق؟ أهو العقل؟ وعلام يستند العقل؟ هذا ما نحاول شرحه في هذا المقال متوخين الإيجاز في تناول موضوع التصوير بصفة عامة لأنه فن واسع الأفق لا يحيط به مقال واحد ولا كتاب واحد.

ليس التصوير إلا لغة للتغيير وأسلوباً من أساليب الوصف والإفضاء

عن الشعور والعاطفة، فكل مصور درس أصول التصوير وقواعده هو ككل إنسان تلقن قواعد الكلام وأصول الصرف والنحو ليستطيع التخاطب بلغة سليمة متآلفة، ولكن على قدر انتشار اللغة سليمة صحيحة غير مشوبة باللحن لا نجد كل متكلم أديباً ولا شاعراً، فكذلك ليس كل من تناول ريشة الفن وأتقن مزج الألوان فناناً موفقاً، وكذلك على قدر التفاوت بين طبقات الأدباء والشعراء يتفاوت الفنانون مقدرة وعجزاً.

فلغة التصوير على ذلك ليست إلا أداة أو وسيلة لغاية بعيدة يريد المصور أن يبلغها، ونحن إذ ننظر إلى الصورة يجب أن نبحث أولاً عن هذه الغاية - ماذا يريد صانعها أن يقول.

فإذا لم نجد من وراء صورته فكرة أو غاية مفيدة فالصورة لغو لا طائل تحته، إذ لكل صورة قصة يجب أن تقصها وإلا فهي بكماء صماء أو هراء من القول وهذر مخطوط ومضيعة للجهد والوقت بالغة ما بلغت أداة التعبير من إتقان. وأقل ما نلتمسه في صورة من الصور أن نستخرج لها ميزة تميزها وشخصية تتسم بها. هل سجلت شيئاً جديداً كان خافياً علينا؟ أو هل فسرت معنى مجهولاً؟ أو هل مهدت خطوة في سبيل غرض سام؟ أو هل
ألقت بصيصاً ولو ضئيلاً من النور على ظلام الحياة؟ أو هل أضافت نغمة ولو خافتة إلى موسيقى الكون؟ إذا التمسنا شيئاً من ذلك ووجدنا له أثراً يشير إليه أو لمسنا صدى له في نفس المصور كان لنا أن نأمل من هذا الفنان شيئاً.

المصور العبقري كالشاعر العبقري كلاهما كالنبي المعجز غرس الله في قلوبهم بذرة الخلود تجمع بينهم رابطة الروح السماوي والنور الإلهي وهم يصدرون عن إيمان صادق ووحي أمين وإن كان لكل وجهة يوليها وعالم يكشفه.

والمصور الصادق قطعة من الحياة تهذبت وتثقفت، يرتاد سبيله ملهماً ببصيرة سماوية وقلب دافق ألا حساس مرهفه، ومهجة فياضة الشعور، ووجدان بالغ الدقة منته في اللطف؛ فهو روح مجرد يطير في كل أفق، ويحوم في كل خميلة، ويرد كل غدير، ويعتلي كل فن، ويدوم فوق كل منظر بهيج فيحيطه بفؤاد خفاق، ويلتهمه بعين حديدة، ويحيله أشعة وظلالا ويحمله روحا بروح تسجله للأبصار في أسلوب ناطق وخفي، ويحده بإطار من شعوره وفيض إحساسه.

فإذا كان هذا قدر المصور الفنان الصادق الأمين. إنسان بالغ النبل نقي الروح زكي النفس عظيم السمو لزم أن يكون أسلوبه الذي يضمنه روحه نبيلاً على قدر نبله سامياً على قدر سموه، ولزم أن تكون موضوعاته التي يختارها لأداء فكرته وحكاية قصته ولشرح عاطفته أو غير ذلك من الأغراض، لزم أن تكون على قدر نبله وسامية على قدر سموه؛ فالفنان الذي يصور البعث أو الوحي أو الصلاة أو الحنان أو الحب أو الأمومة وما يدخل تحت فصل الجمال الروحي أنبل من المصور الذي يصور الحقد والدمامة أو التبذل والوحشية أو الرذيلة للاستمتاع بتصويرها لا للنهي عنها، هذا تدور خواطره على مشاغل الناس اليومية المادية، وذلك لا تتعلق نفسه ولا يحس في قلبه إلا بكل جليل الشأن. ويلي هذين من يعني بتصوير الصغير من الأمور والتافه الحقير كلعب الأطفال وأعمال المهرجين وما إلى ذلك ولا ينبغي أن تضيق هذه الحدود إلى أقصى تخومها فنحكم بمقتضاها حكماً قاطعاً لا نقض فيه، إذ أن الفنان النبيل قد يتناول موضوعاً يقل عن مستوى موضوعاته فيسبغ عليه من روحه ويفضي عليه من قدرته وبراعته، ولكن كثيراً ما يشرئب النقاش الصغير غير الموهوب والمشغول بحقير الأمور إلى تقليد جليلها فلا يبلغ منه مبلغاً ولا يخرج عن
الدائرة التي يدور فيها، وينتهي حيث يبتدئ، بل أنه يكشف عن عجزه ويدل على ضعفه ولا يتمخض بعد الجهد الشاق والعناء العنيف عن غير ما تطيقه مؤهلاته وما تنتجه قريحة مثله، ومثل هذا النقاش يحسب غروره وحياً وطمعه عظمة الروح وعلواً في النفس

وشتان بين الاثنين! إحداهما كالنحلة لا يغذيها إلا الرحيق ولا تهيم أو تسعى إلا وراء الشذى الذكي والعبق النقي والعرف الندي، ولا يستهويها إلا الزهر المنور والجو المعطر؛ والآخر كالزنبور الطنان يقع على الأقذار ويستطعم الأدران ويأكل الحشرات

والديدان.
والنحلة تنتج رحيقاً من رحيق، والزنبور أذى وشرا. تلك رمز التضحية والغيرية، وهذا عنوان الأنانية والأثرة؛ تلك متواضعة خجولة تعمل في رصانة وسكون، وذلك مدّع مغرور صخاب طنان بهرجت الطبيعة من ألوانه وعددت فيها للنميمة عليه والإيقاع به أو لتفاديه
فلا تستصغرن من النحلة اندماج لونها وهدوئها؛ ولا يغرنك من الزنبور بروزه وطنينه.
وكذلك لا يغرنك من الصورة بهرجة الدعاية لها بل ابحث عن الغاية المجيدة وعن التعبير الصادق الجميل.
كثيراً ما يتفق الناس على أن هذه المرأة جميلة، وأن تلك دميمة، ويكادون لا يختلفون في حكمهم، فما الذي جمع بينهم على رأي واحد؟ قد يحتج بأن هذه هي أذواقهم وهذه أمزجتهم وأنهم يرون أنها جميلة لأن هذا إحساسهم فلا تطلب تعليلا ولا تحليلا، وفي الحق أن المرأة الجميلة تعجبنا لأول ما نراها لأن قلبنا يهفو إلى حسنها، ونفوسنا تصبو إلى جمالها، ولكننا نتفق في النزوع إلى جمالها والصبابة إليها بدافع من الغريزة فالغريزة هي في الواقع التي تؤلف بين الرجال على الإعجاب بجمال المرأة أو هي على الأصح التي كانت منذ الزمن الأول ترغب الرجل في المرأة؛ فلما ارتقى وهذب من غرائزه وتسامى بها عن أن تكون مطلقة الحيوانية تغير إلى حد كبير نظره إلى المرأة فأصبح يجل جمالها لذاتها مجرداً عن دافع الشهوة، وبعدت عن خياله تلك الصور التي كانت تجسمها الغريزة الجنسية وتمثلها الرغبة الحيوانية، فلم نعد نسمع شاعراً يتغنى بثقل الردفين وانقطاع الخصر وكثيب الرمل ولم نعد نسمع قول بشار بن برد:
أو عضة في ذراعها ولها ... فوق ذراعي من عضها أثر
أو لمسة دون مرطها بيدي ... والباب قد حال دونه الستر
ولم نعد نسمع تلك النواسيات الماجنة وما إليها من دلائل الاحساسات البهيمية، وإذا بنا تطرق قلوبنا هذه الأغاني الخالدة التي تسمو بأرواحنا، إذا بنا نسمع قول العقاد يقول:
أغلى جمالك في النواظر أنه ... عوض لشين في النفوس كثير
وأنا له منها المقادة أنه ... في الأرض رمز كمالها المحظور
وقوله: -
أن التعاطف بالأرواح بغيتنا ... وفي القلوب على الأرواح عنوان
وقوله: -
فعش في جوار الناس شخصاً مجسماً ... وعش في فؤادي صورة تتخيل
فالغريزة هي الأصل في الإعجاب بشيء دون شيء، ولما تهذبت وارتقت استحالت إلى ما نسميه نبلاً أو ذوقاً رفيعاً وإن بقيت للغرائز الأولى بعد نزعاتها.
ولكن هذا الذوق له فصول وأسس، وله قواعد وقوانين تظبطه وتحده، فلم يعد جمال الجسم الإنساني صباحة وجه، وسطوع جبي، وامتلاء جسم أو نحافته، أو غير هذه الأوصاف من المعاني المطلقة، بل وضعت له مقاييس وأطوال - وإلى هنا يكون للذوق ضابط يحفظه في حدود مرسومة، ولكنه لا يخضع لها خضوعاً مطلقاً ولا ينكمش بين تلك الأعلام والأوضاع الضيقة إذ أنه يكون بذلك جامداً كزاً ذا وجه واحد. ولكن ذلك الجمود يتحرك ويحيا بما ينفخ فيه من روح، وما ينفث فيه من سحر، فيتخذ صوراً متباينة مختلفة، وإن كانت كلها تدور في حدود هذه الأوضاع، ولكل وجه سيماه ضربت المثل بجمال الجسم الإنساني ممثلاً في المرأة لأنها مركز اهتمام الرجل، ولأن الاتفاق على مقياس الجمال فيها يكاد يكون مفروغاً منه. وكلما بعد موضوع الحكم عن أن يكون ذا صلة بغريزة من الغرائز، أو بعلاقة مباشرة بعاطفة فسيولوجية أو نفسية، تعقد الموضوع، وصعب الاتفاق على حكم واحد فيه، واختلفت الأذواق: فهذا ذوق جميل يصدر حكماً صائباً، وذلك ذوق فاسد مضطرب الحكم، ولهذا السبب كان لا مناص من أن يوضع لكل شيء حدود يصدر الحكم على أساسها، فالشجر والنبات، والنهر والشلال، والغدير والبحر، والمحيط والجبل، والسماء والسحاب، والأبنية والعمائر. لكل هذه المظاهر أصول وقواعد يؤدى الفن في حدودها، وكانت هذه الأصول على ذلك ضابط الذوق إلى حد محدود، فكأن الذوق الجميل لم ينشأ نشأة لدنية، بل هو في الحقيقة غاية الثقافة والتهذيب، وهو عندما يقبل شيئاً أو يرفضه يظهر لنا أنه أتى ذلك في التو بغير سند واضح، ولكن عمل الذوق في الحقيقة نتيجة طبيعية لما

وعته النفس وكسبه العقل من قضايا مختلفة ومقدمات منطقية وتاريخ حافل من تجارب الحياة
وليس من شأننا هنا أن نعدد الأصول التي تراعي في التعبير عن هذه المظاهر الطبيعية السالفة الذكر فلها مجال آخر نرجو أن يتاح لنا في المستقبل، ولكنا هنا سنبسط الشرائط التي يجب توفرها في الصورة، بوجه عام، وفي الفنان أيضاً والتي يمكن بمقتضاها أن نصدر حكماً أدنى للصواب فيما نشاهده من صور الفنون هذه الشرائط هي كما ذكرها جون راسكن:
1 - الصدق والحقيقة
2 - البساطة
3 - نوع من الإبهام السحري
4 - أيجاز التعبير
5 - الجرأة
6 - السرعة
هذا ولكي يكون تقديرنا لجمال المظاهر الطبيعية أتم وأوفى يجب أن نجردها من النفعية وننظر لها نظرة خالصة للفن ذاته وللجمال ذاته. فعندما نرى نهراً جميلاً يجري بين شاطئين بسقت عليهما الأشجار وغطاهما بساط سندسي من العشب يجب أن تقبل أذواقنا جمال هذا المنظر كما خططته يد الله بعيداً عن تدخل يد الإنسان في التحكم فيه والسيطرة على أجزائه - فنخفي عن ذوقنا أنه أقيم هنا سد اعترض من النهر انسيابه الجميل - وأن هناك آلة رافعة وضعت لتختلس من مائه بضجيجها وصريرها، وقامت على جانبه شوهاء كالقرحة في الجسم الغض. وننفي عنه أن هناك حطابا قويا يعمل فأسه في جذع شجرة ليسقطها وليأخذ خشبها ليصنع منه بابا أو نافذة.
الينبوع إذ يتسلسل ماؤه على الحصى ويتدفق على الثرى أجمل مما لو أحطناه بسور من البناء لنحصر ماءه، والسياج الحديدي حول مجموعة من الأشجار مشوه لجمالها، والعصفور الطليق أجمل من العصفور الحبيس في قفص ضيق. وهكذا فإن القلب يحس
إحساساً خالصاً بجمال الطبيعة ويندمج فيها ويخفق لها لأن طبيعة الإحساس العاطفي المحض في القلب وهو تامورة الحياة في الجسم الإنساني، أجل وهو الذي يستجيب ويلبي كل شيء جميل حي
وإذا أصاب القلب مرض أو تعطلت وظيفته النبيلة لسبب ما كأن كدر صفاءه غضب أو اهتياج أو حقد أو غيرها من الحالات التي تخرجه عن طبيعته انبتت علاقته بالحياة فلم يعد يستجيب لها ولا يحس بها إحساساً سليماً صحيحاً. وكذلك الحال عندما نرى مظهراً من مظاهر الطبيعة قد طرأ عليه ما يعطل من طبيعة الحياة فيه. فالزهرة النظرة يعجبنا منها رونقها واتساقها وزهاء لونها ونورها وهي بذلك حية سليمة، وهي لحياتها جميلة غاية الجمال، فإذا رأيناها ذاوية خبا رونقها ومالت إلى العدم؛ والظبي رشيق الحركة وهو سليم صحيح، فإذا أصيب في ساقه بعرج فهو سقيم ثقيل، والطير جميل وهو قوي الجناح سليمة، فإذا كسر جناحه فهو ضعيف ذليل - وكل هذه المخلوقات سعيدة ما دامت وافرة الحياة سليمة الوظائف وهي بذلك جميلة غاية الجمال
ولا ينبغي أن نقرن النظر لشيء الجميل بتحليله إلى عناصره وتعليل مظاهره فنبحث في أن ماء النهر يكون من عنصري الهيدروجين والأوكسجين، وأن النهر ينحدر ماؤه بالجاذبية، وأن الشجر يمتص بجذوره من الأرض عناصر التغذية، وأنه يحيل ثاني أوكسيد الكاربون إلى أوكسجين نهاراً والعكس ليلاً.
فالنظرة إلى الجمال يجب أن تكون مجردة من جميع هذه العوامل وإلا طغى الفكر المحلل على الذوق السليم وسكتت العاطفة وقد تكلم العقل وانتقلنا إلى عالم مادي وبعدنا عن عالم الروح والكمال.
البريد الأدبي
ربيعة الرقي رقصة الذئب والحمل
يعف كل متأدب الشاعر الفرنسي المشهور لافونتين ومنظومته المعروفة (الأمثال) ولكن من تتبع المصادر التي أخذ عنها هذا الشاعر أمثاله، يتبين أن معظم هذه القصص

المنظومة التي حكى أكثرها على لسان الحيوان، مأخوذة من مصادر شرقية ولا سيما كتاب كليلة ودمنة وأشباهه. نقلت هذه القصص إلى أوربا قبل عصر لافونتين بالتراجم اللاتينية أو على ألسنة التجار والمسافرين، وتناولها هذا الشاعر فغيرها لتلائم أذواق بلاده، ثم صبها في قالب من الشعر الفرنسي السلس. وتبع هذه الطريقة شاعر فرنسي آخر أسمه فلوريان بعد لافونتين بنصف قرن.

وليس قصدنا أن نبحث في هذا الموضوع انكشف عن مرجع كل قصة من أمثال لافونتين، وإنما نريد هنا أن نقتصر على واحدة من أكثر هذه الأمثال ذيوعا، وهي قصة الذئب والحمل التي شاعت حتى طبقت الآفاق وصارت مثلا لتجني الأقوياء على الضعفاء.

وكان كاتب هذه السطور يصحح كتاب (طبقات الشعراء المحدثين) لأبي العباس عبد الله بن المعتز الذي تطبعه لجنة ذكرى جب في إنكلترا، وسيظهر عما قريب، فألفيت الحكاية نفسها في قصيدة لربيعة الرقي أحد الشعراء المحدثين، وعلمت أن هذه الحكاية أيضاً مقتبسة من القصص الشرقية القديمة التي كانت شائعة عند المسلمين في عصر ربيعة الرقي وعنهم نقلها أهل أوربا، فنظمها لافونتين واشتهرت في تلك الأقطار

وقد رأيت أن هذه المسألة لا تخلو من فائدة، وأن ديوان ربيعة الرقي أحد شعراء الغزل المشهورين في عهد هارون الرشيد غير مطبوع فاستحسنت أن أقدم إلى قراء الرسالة الكرام قصيدة ربيعة المشتملة على هذه القصة وهي هذه:

أعلل نفسي منك بالوعد والمنَى ... فهلاّ بيأسٍ منك قلبي أعلّلُ
ومَوْعِدك الشهدُ المصفّى حلاوة ... ودُون نجاز الوعدِ صاب وحنْظلِ
وأمنحُ طرف العين غيرَكِ رقْبةً ... حَذارَ العدَى والطرفُ نحوكِ أميَلُ
لكيما يقولَ الناسُ أنَ امرَأ رَمى ... رَبيعةِ في ليلَى بسوءٍ لمبطلُ
لقد كذب الواشونَ بغياً عليهما ... وما منهما إلا برئٌ معقلُ
فلو كنت ذا عقل لأجمعت صرمكم ... برأيي ولكني امرُءٌ لست أعقلُ
وكيف يصبر القلب لا كيف عنكم ... وبابُ فؤادي دونَ صرمِكِ مُقفَلُ
ومن أينَ لا من أين يَحْرم قتلُكم ... وقتلى لكم يا أم ليلى محلّلُ
أغركِ أن لا صبرَ لي في طِلابِكم ... وأن ليسَ لي إلاّ عليكِ معّولُ
ولما تبينتِ الذي بي منَ الهوَى ... وأيقنتِ أني عنكِ لا أتحول
ظلمت كذئب السوء إذ قالَ مرة ... لسَخلٍ رأى والذئب غرثان مرمل
أأنت الذي في غير جُرْمٍ شتمتني؟ ... فقال: متى ذا؟ قال ذا عام أوَّلُ
فقال وُلِدْتُ العامَ بَل رُمْتُ غدرة ... فدونك كلني لا هَنا لك مأكل
أتبكين من قتلي وأنتِ قتلتِني ... بحبِّك قتلاً بيناً ليس يَشْكل
فأنت كذبَّاح العصافير دائباً ... وعيناه من وجد عليهن تهمل
فلو كان من رأف بهن ورحمة ... لكف يداً ليست عن الذّبح تَعطُل
فلا تنظري ما تهمل العين وانظري ... إلى الكف ماذا بالعصافير تفعل

(باريس)

عباس إقبال

حمى السياحة

كانت السياحة إلى ما قبل جيل فقط نوعاً من الترف لا يتمتع به سوى الأغنياء؛ وكانت الرحلة إلى الشام أو إلى استانبول مثلاً بالنسبة لآبائنا وأجدادنا حادثاً عظيماً يتحدث به؛ وكان السفر إلى باريس أو الريفيرا متعة الأمراء والخاصة.

أما اليوم فان السياحة تغدو حركة ثقافية ورياضية عالمية، يستطيع أن يتمتع بنعمها جميع الطبقات المتوسطة، وغدت المواصلات البحرية والبرية والجوية ميسورة يطيقها ويستعملها جميع الناس؛ وفي عصر السرعة الذي تهب ريحه اليوم على جميع الأمم والمجتمعات يستطيع السائح أن يطوف قارة بأسرها في أيام معدودات، ويستطيع أن يقطع البحر إلى إيطاليا في سبعين ساعة فقط، وإلى فرنسا في أربعة أيام، ويستطيع أن يقطع ما بين الإسكندرية ولندن بالطيارة في عشرين ساعة. وقد نظمت جميع الأمم السياحية عواصمها

وربوعها ومنتزهاتها بصور وأساليب جذابة سواء في برامج الزيارة أو في تخفيض النفقات، وتسابقت معظم الأمم في تقرير الامتيازات للسائحين بتسهيل المواصلات ومسائل النقد وغيرها مما يغري السائح بتفضيلها، وتعنى الهيئات الثقافية والرياضية بتنظيم الرحلات الرخيصة للطلبة وأصحاب المهن وجماعات المثقفين وتعنى مكاتب السياحة نفسها بتنظيم الرحلات الرخيصة للطبقات المتوسطة بأجور مدهشة.

فالسياحة لم تبق اليوم أمنية المترفين ولا حكر الأغنياء، ولكنها تغدو في متناول معظم الطبقات؛ ويرجع الفضل في ذلك إلى تحسن المواصلات العالمية ورقيها السريع المدهش، وإلى تنافس الأمم السياحية في استثمار موارد السياحة إلى أقصى الحدود، ويرجع أيضاً إلى تقدم الصلات الدولية بين الشعوب المختلفة وإلى الرغبة في تبادل الاطلاع والمعرفة والتثقيف، وتبادل المزايا التجارية والاقتصادية، وقد هبت هذه الريح السياحية على مصر في الأعوام الأخيرة، وأتيحت الفرصة لطبقات جديدة من المتوسطين أن يقوموا برحلات بديعة بأجور زهيدة، وسرت الرغبة في جميع طبقات المثقفين ولا سيما الشباب أن يسافروا وأن يسوحوا وأن يتعرفوا أحوال الأمم الأخرى، وقد وصلت هذه الحمى السياحية إلى أقصاها في هذا الفصل حيث تعتزم ألوف عديدة من المصريين السفر إلى زيارة معرض باريس الدولي لا فرق في ذلك بين المترفين وصغار الموظفين والطلبة والمتوسطين؛ وهذه رغبة مشروعة لا اعتراض عليها، بيد أنه يخشى أن تؤدي المبالغة في تحقيقها إلى إسراف لا تحمد عواقبه، إذ تتسرب أموال المصريين إلى الخارج بكثرة، وتضطرب مالية كثير من المتوسطين وصغار الموظفين خصوصاً وأنه لا توجد بمصر قوانين لتقييد العملة أو تحديدها كما هو الشأن في معظم البلدان، ولهذا يحسن بولاة الأمور أن يبحثوا هذه المسألة وأن يضعوا لها بعض الحدود والقيود المعقولة

كتاب جديد لماريا ريمارك

صدر أخيراً في أمريكا كتاب جديد لماريا ريمارك عنوانه: (الرفاق الثلاثة) وريمارك كما نذكر هو مؤلف الكتاب الذي لقي أعظم نجاح في عصرنا وهو القصة المسماة (كل شيء هادئ في الميدان الغربي) التي تدور حوادثها على حياة الجندي أثناء الحرب الكبرى. والكتاب الجديد هو أيضاً قصة اجتماعية عسكرية من النوع الذي حذقه هذا المؤلف الذي

حباه الحظ بأكثر مما حبته مواهبه الكتابية

وريمارك الآن في التاسعة والثلاثين من عمره؛ وحياته قصة عجيبة، فهو ألماني من وستفاليا، وكان في حداثته يغني في جوقة بعض الكنائس؛ ولما نشبت الحرب كان جندياً يحارب في الميدان الغربي؛ ولما انتهت الحرب في سنة 1918 وعاد ريمارك إلى وطنه لم يجد سبيلاً للعيش؛ فاحترف مهنة البائع المتجول في القرى وأخذ يبيع السلع الرخيصة للنساء القرويات، ولكنه كان في خوف دائم من البوليس لأنه لا يحمل رخصة البائع، ثم ترك هذه الحرفة واشتغل صبياً لبناء أثري، ثم اشتغل عاملاً في أحد الملاجئ وبدأ حياته الكتابية بتحرير الإعلانات، وكان يحررها أحياناً بالنظم، ثم اشتغل كاتباً رياضياً لإحدى الصحف، ثم كتب قصته الشهيرة فلم تنل في البداية سوى قليل من النجاح، ولكن القدر كتب له بعد ذلك هذا النجاح العظيم الذي لقيه والذي أثري من جرائه وعرف الحياة الناعمة وهو ما يزال في عنفوان شبابه، وكان من حسن طالعه أيضاً أنه كسب على مائدة الميسر ذات يوم مبلغاً كبيراً من المال قبل أن يؤاتيه النجاح، فاستطاع بذلك أن يصلح من شأنه وأن يسيح في معظم بلاد العالم. ويعيش ريمارك الآن في منفاه في سويسرا كباقي الكتاب الألمان الأحرار الذين طاردتهم ألمانيا الهتلرية وأخرجتهم من أرض الوطن

قسم التفكير والآداب بمعرض باريس

أنشئ أخيراً في معرض باريس الدولي قسم للكتاب وإذاعة الفكر برياسة المسيو (جوليان كان) مدير المكتبة الوطنية. والمنتظر أن يكون هذا القسم نواة لمتحف الآداب الذي سينشأ في المستقبل القريب في أبنية (دار الصناعة) (الأرسنال) وسيكون متحف الآداب أكبر ما عرف من نوعه، ويضم مجموعات عظيمة من الصور والمخطوطات والطبعات النادرة والتجارب المصححة والوثائق المتعلقة بتراجم كبار الكتاب والمجموعات الخاصة؛ وهذه المجموعات والتحف توجد الآن مبعثرة في أقسام

المكتبة الوطنية: ويتضمن القسم الأدبي بالمعرض تطور الآداب منذ عصر الإمبراطورية حتى الوقت الحاضر، ومنها معروضات كثيرة تخص الكتاب المعاصرين. والمقصود أن تعطى فكرة واضحة عن تطور الكتابة والطباعة والأعمال الأدبية، وأن تعرف أكثر الأوقات والمواسم الأدبية إنتاجا. ويشمل القسم الأدبي ما يتعلق بكتاب عظام مثل بلزاك وفكتور هوجو وفلوبير وستندال ورينان وبودلير وبروست، ويقوم بعرض كل كاتب من هؤلاء كاتب من المعاصرين يختص بالتحدث عن حياته وآثاره وأسلوبه. ويشرف على عرض مخطوطاته وصوره وجميع الوثائق المتعلقة به ومنها تحفه وآثاره وتجارب المطبعة التي تحمل تصحيحاته، وطبعات كتبه وترجماتها. كذلك أعدت أقسام خاصة لكل نوع من المدارس الأدبية مثل المدرسة الواقعية والطبيعية والرمزية، وأدب المقاهي والأبهاء وغيرها، ولا ريب أن هذا القسم من المعرض سيجذب أنظار الكثيرين من الكتاب والأدباء من جميع الأمم

آثار فرعونية في خطر

من أنباء فينا أن الدكتور أرنست آبلت العلامة الأثري النمساوي والأستاذ بالمعهد المصري بجامعة فينا قد أعاد أخيرا إلى العاصمة النمسوية بعد أن قضى بمصر بضعة أشهر منقباً في بعض أنحاء الصعيد الجنوبية، ووقف على معلومات ومواد أثرية ثمينة ولا سيما بشأن المعابد والهياكل الجنوبية. وقد صرح الدكتور آبلت لبعض الصحف النمسوية أن تعلية خزان أسوان، وما يستتبع ذلك من غمر مياه النيل لبعض المناطق الأثرية المجاورة يهدد سلامة المعابد والآثار القائمة في هذه المناطق خصوصاً أن المياه تغمر بعضها الآن حتى القمة، وكانت البعثة النمسوية للحفريات قد توقفت عن العمل نحو ثلاث سنوات لحاجتها إلى المال ثم استأنفت عملها في الشتاء الماضي. وقد عثرت أثناء حفرياتها على عدة هياكل عظمية فرعونية وبعض تحف حجرية، وستعود في الشتاء القادم إلى استئناف أعمالها في منطقة بني سلامة من أعمال مديرية أسوان

كتاب فارسي قديم في الجغرافية

أصدرت مطبعة (بريل) في ليدن كتاباً فارسياً قديما في الجغرافية ترجمة المستشرق منورسكي ترجمة كاملة عن الفن الفارسي:

وهذا الكتاب - وأسمه (حدود العالم) - لمؤلف فارسي قديم لم يعرف، ألفه سنة 372 هـ. وكان قد عني به المستشرق الروسي بارتولد فكتب له مقدمة طويلة ونشره سنة 1930، غير أنه وجد صعوبة في تحقيق أسماء الأماكن والمدن الإنجليزية التي وردت في الكتاب فعمد إلى اختصار بعض موضوعاته.

كتاب المثنوى في الإنكليزية

أصدرت مطبعة بريل في ليدن الجزء السابع من سلسلة كتاب المثنوى لجلال الدين الرومي، وهي توالي إخراج هذا الكتاب سلاسل وأجزاء مع ترجمته إلى الإنجليزية وتعليقات عليه بقلم المستشرق رينولد نيكلسن

وكتاب المثنوى مؤلف قيم معروف، وقد قرظ صاحبه بهذه العبارة المأثورة: (أنه جاء بكتاب وإن لم يكن نبياً) وقد عرض فيه مؤلفه لمبادئ الصوفية وتعاليمها فشرحها شرحا مستفيضا.

ويتضمن هذا الجزء الذي صدر أخيرا تعليقات المستشرق نيكلسن على الجزء الأول والثاني من الكتاب، أما الأجزاء التي ظهرت من قبل فهي:

1 - نص الكتابين الأول والثاني.

2 - ترجمة الكتابين الأول والثاني إلى الإنجليزية.

3 - نص الكتابين الثالث والرابع.

4 - ترجمة الكتابين الثالث والرابع إلى الإنجليزية.

5 - نص الكتابين الخامس والسادس.

6 - ترجمتهما إلى الإنجليزية.

لجنة أحياء ذكرى المنفلوطي:

ناشدت لجنة إحياء ذكرى المنفلوطي أساطين الأدب وأعلام البيان في الشرق العربي على صفحات الجرائد والمجلات أن يتفضلوا بالكتابة عن أدب الفقيد الخالد من شتى نواحيه بمناسبة مرور ثلاثة عشر عاماً على وفاته وتمهيداً لإحياء ذكراه في 16 يوليو

القادم، وكان ذلك في أول مايو غير أنه والأسف يحز في نفوسنا لم يتحرك قلم لأداء هذا الغرض النبيل كما أنه لم تصل السكرتارية حتى الآن أية رسالة في هذا الموضوع،
ولقد قر الرأي - بناء على اقتراح الأستاذ توفيق حبيب - على وضع كتاب عن أدب المنفلوطي لتخليد ذكراه، تتبارى فيه جهابذة الأدباء في جميع أقطار الشرق العربي، وذلك بأن يختار كل من حضرات الأدباء والشعراء ما يروقه من الموضوعات فيكتب فيها بحثاً ضافياً يرسله إلى
السكرتارية قبل آخر يونيو الحالي حتى إذا تكامل لديها ما يكفي لمادة الكتاب قامت بطبعه وأنفقت ثمنه في تشييد قبر يتفق ومكانة المنفلوطي العالمية. واللجنة تتوجه بالرجاء الشديد إلى حضرات الكتاب والأدباء والشعراء ألا يضنوا بمجهوداتهم وأن يحققوا ما تعلقه عليهم من آمال.
سكرتير اللجنة
متولي حسنين عقيل

القصص

ممنون الفيلسوف
أو الحكمة الإنسانية
بقلم فولتير
ترجمة الأستاذ عبد اللطيف النشار

آلى ممنون على نفسه: أن يصير فيلسوفاً عظيماً في يوم من الأيام. وقليل من الناس هم الذين لم يعتزموا في وقت ما مثل هذا العزم الرائع.
قال ممنون في نفسه: إن بلوغ الكمال في الفلسفة معناه بلوغ الكمال في السعادة. وليس علي أن أعمل لكي أصير فيلسوفاً إلا التجرد من كل الشهوات؛ ولا شيء أسهل من ذلك كما يعرف كل إنسان. وسأبدأ بمقاومة الحب فإذا رأيت امرأة جميلة أقول في نفسي إن هذه الخدود ستدركها الغضون، وإن هذه العيون ستصبح طعاماً للدود، وإن هذا الرأس سيصبح جمجمة منخوبة. فإذا ما تصورت خيالها وهي كذلك فأن جمال وجهها لن يؤثر في نفسي
هذا من جهة. ومن جهة أخرى فأني سألزم القصد والاعتدال، فإذا ما وجدت من نفسي إغراء على شرب النبيذ الشهي أو الطعام المريء أو غيره مما يفتتن به المجتمع ذكرتها بآلام الرأس من التغالي في الشراب، وبآلام البطن من التغالي في الطعام، وحذرتها من فقدان العقل والصحة. ومتى تجنبت التغالي ظلت صحتي موفورة وظل ذهني نقياً وضاءً
وقال ممنون: كذلك يجب ألا أفكر كثيراً في الثروة لأن رغائبي معتدلة وما عندي من المال يكفي لأن أعيش مستقلاً وهذه أكبر نعمة في الوجود. ولن أجد ضرورة لحضور الحفلات الراقصة في القصر. ولن أحسد إنساناً ولن يحسدني إنسان، وهذا كله سهل. ولي أصدقاء، سأحتفظ بهم ولم ينشب بيني وبينهم خلاف فلم أعترض أحدهم في قول أو فعل وسيسلكون معي هذا المسلك، ولا صعوبة في ذلك. . .
وهكذا وضع ممنون خطة لفلسفته ثم أطل من النافذة فرأى امرأتين تسيران تحت الأشجار، وكانت إحداهما كبيرة تبدو عليها علائم الرضى، والثانية صغيرة جميلة، ولكن علائم التذمر بادية عليها. وكانت تبكي وتتنهد، فتأثر فيلسوفنا من رؤيتها - على أنه من المحقق أن
جمالها لم يكن له دخل في هذا التأثير - (لأنه آلى على نفسه ألا يزعجه شيء من هذا القبل) بل كان تأثره بسبب الحزن الذي رآها فيه، فنزل من المنزل ليعزي تلك السيدة بفلسفته، فروت له الجميلة بإبسط اللهجات وأشدها تأثيراً ما تتألم منه. وشكت له من عم تتخيل وجوده يريد أن يحرمها ثروة تتوهما. وقالت: يظهر أنك رجل حكيم، وإنك لتنقذني من متاعبي إذا أتيت إلى منزلي ودرست قضيتي وأشرت علَّى بالرأي الذي تراه
فلم يتردد ممنون في اتباعها لدرس قضيتها دراسة فلسفية وليشير عليها بالرأي الراجح
وقادته المرأة الجميلة إلى حجرة تفوح منها روائح العطر وأجلسته على نمرقة متسعة وجلست أمامه جلسة المتحدث إلى من يتحدث وقد تقاربت إقدامهما، وكان إحداهما

يقص قصته والآخر يصغي إليه أتم الإصغاء
وكانت السيدة تتكلم وهي ناظرة إلى الأرض والدموع تنحدر من عينيها بين حين وحين.
ثم ترفع بصرها لتنظر إلى وجه الحكيم ممنون. وكان الحديث في منتهى الرقة، وقد زاد عطف الفيلسوف وسر بأن يكون في وسعه تخفيف الألم عن مخلوقة بهذه الدرجة من الجمال، وهذه الدرجة من التعاسة. ولما اشتدت حرارة الحديث جلس المتحادثان المتقابلان جنباً لجنب، وتدانى الساقان، وكان ممنون يمنحها من نصحه الرقيق ومن عطفه حتى صار كلاهما لا يستطيع الكلام عن الموضوع الذي كانا يتناولانه. وحتى صار كل منهما لا يدري أين هو وفي مثل هذا الحين من الذي يظن أنه يأتي إليهما غير العم الذي كانت تشكوه؟ لقد جاء مسلحاً، وكانت أولى كلماته أنه سيضحي بالحكيم ممنون، وبنت أخيه، وقد أسرعت الأخيرة ففرت، وهي موقنة بأن صاحبها سينجو إذا اشترى حياته بكل ما معه من المال وقد اضطر إلى بذل ما معه ليفتدي نفسه وقد كان الناس في ذلك العهد سعداء لأنهم يستطيعون النجاة، بسهولة بمثل هذه الوسيلة. وكانت أمريكا لما تستكشف بعد، وكانت السيدات التاعسات أقل تعرضا للخطر مما هن عليه الآن
وخرج ممنون من المنزل متعثراً بأذيال الخجل فذهب إلى منزله. وهناك وجد دعوة لتناول العشاء من بعض أصدقاءه الخلصاء، فقال في نفسه إذا بقيت وحدي في المنزل فإن ذهني سيظل مشغولاً بالتفكير في حادثة اليوم، ولا أستطيع أن أتناول لقمة، وربما جلب إلى ذلك مرضاً، ولذلك سأذهب إلى أصدقائي، وسأنسى في مجلسهم ما ارتكبته اليوم من الحماقة
وذهب إليهم فوجدوا عليه بعض علائم القلق وحثوه على أن يشرب ليصرف عن نفسه الهم فقال في نفسه: (إن قليلاً من النبيذ لا يتنافى مع الاعتدال) وهكذا شرب ممنون حتى سكر.
ودعي إلى اللعب بالأوراق فقال إن اللعب بها مدة يسيرة مع صديق لا يتنافى مع الاعتدال، وهذا اللعب من خير الوسائل لتمضية الوقت.
ولعب حتى خسر كل ما معه وهو أربعة أضعاف ما كان مستعداً ليلعب به.
ولسبب ما نشأ خلاف بين اللاعبين واشتد الخلاف فصار مشاجرة، فرماه بعض أصدقائه بصندوق صغير جرح رأسه وإحدى عينيه، فحمل الفيلسوف ممنون إلى منزله سكران مفقود إحدى العينين.
نام، ولما أبل بعض الابلال أرسل إلى مدير المصرف الذي يودع فيه أمواله يطلب ما يفي به ديونه في اللعب، فعاد الخادم وأخبره بأن المصرف أفلس بالتدليس وأن مئات من الأسر قد أصبحت في أشد حالات البؤس والفاقة، فكاد يذهل ممنون، وذهب إلى البلاط لرفع قضيته، وهناك وجد عدداً من السيدات وآخر من القسس ورأته إحدى صديقاته فصاحت: (مالك يا مسيو ممنون! كيف فقدت إحدى عينيك؟) ثم جرت دون أن تنتظر الجواب، فانتظر ممنون حتى الساعة التي يستطيع فيها الارتماء على قدمي الملك لبث شكواه.
وأخيراً جاءت تلك الساعة فقدم إليه عريضته، واستقبله الملك استقبالاً حسناً. ولكن كبير الأمناء صاح به بعد ذهاب الملك: (كيف تقدم عريضتك إلى الملك مباشرة دون تقديمها إليّ؟ وكيف تطلب المقاضاة على تفليسة شريفة ضد ابن أخت وصيفة زوجتي؟ إن هذا التصرف يدل على أنك لا تحرص على عينك الأخرى)
فعندما سمع ممنون ذلك - وكان إلى الآن عازماً على هجر النساء والتقليل من الطعام والشراب وترك المشاجرة - عزم أيضاً على الكف عن دخول البلاط وعن طرق سبيل القضاء لأن هذا سبيل ألحق به الإهانة وحرمه الأنصاف
وتصدع قلبه من الحزن فعاد إلى المنزل يائساً. ولكنه وجد المحضرين يشرعون في بيع أثاثه وفاء لديون دائنيه فوقع على الأرض في حالة تشبه الإغماء، ورأى في الطريق السيدة التي قابلها في الصباح مع عمها فضحكا منه ضحكة عالية.
وفي المساء صنع ممنون لنفسه وسادة من القش ونام بجانب الحائط، فرأى في الحلم تلك
الروح الفلسفية التي كان يتعشقها وهي روح من النور لها ستة أجنحة جميلة، ولكن ليس لها رأس ولا قدمان وهي لا تشبه شيئاً مما سبقت له رؤيته، فقال: (من أنت أيتها

الروح؟)
قالت: (أنا روحك) فقال: (ردي إلي عيني وصحتي وثروتي وعقلي)
.ثم قص عليه قصة يومه فقالت: (هذه حوادث لا تحدث في الموطن الذي أنا فيه)
قال: (وأين ذلك الموطن؟ فأجابته: (هو على بعد خمسمائة مليون فرسخ من الشمس، وهو موطن جميل. وليس هناك شياطين تغري ولا أصدقاء يجالسون المرء ليسلبوا ماله، وليس هناك من يخرقون عيون الناس، ولا إفلاس بالتدليس، ولا أمناء ملوك يسخرون ممن يطلب العدالة؛ وليست تخدعنا النساء لأنه لا نساء بيننا، وليس عندنا طعام ولا شراب، وليس عندنا تفليس لأنه لا ذهب عندنا ولا فضة، وليس لنا عيون تقلع لأن أجسادنا نورانية ليست كأجسادكم. وليس عندنا بلاط لأن الكل متساوون)
قال ممنون الفيلسوف: (إذا لم يكن عندكم نساء ولا طعام ولا شراب فكيف تقضون أوقاتكم؟)
.قالت: (نحن موكول إلينا مراقبة دنياكم وقد جئت إليك لأعزيك)
.قال ممنون: (ولكن لماذا لم تأتي بالأمس لتمنعيني من اقتراف ما اقترفت؟)
فقالت: (لقد كنت مع أخيك الأكبر (حسن) الذي كان في بؤس أشد من بؤسك لأن سلطان الهند أمر بقلع عينيه وهو الآن في السجن ويداه ورجلاه في السلاسل والأغلال)
قال: (وهل من العدل أن يكون اثنان من أسرة واحدة إحداهما أعور والثاني أعمى، وإحداهما ينام على وسادة من قش والآخر في السجن؟)
فقالت الروح: (إن حظك سيتغير سريعاً. نعم أن عينك لن تشفى ولكنك ستصير سعيداً إذا نزعت عن فكرك الرغبة في أن تكون فيلسوفاً كاملاً)
قال ممنون: (إذاً فذلك مستحيل!) فقالت الروح: (إنه لمن المستحيل أن يصير المرء كامل العقل كامل السعادة، فنحن أنفسنا بعداء عن الكمال مع أننا أرواح، وسيأتي عالم غير هذا العالم يكون ذلك كله ممكناً فيه. ولكن بيننا وبين هذا العالم مائة ألف مليون من العوالم يتدرج فيها المرء إلى ذلك العالم الكامل. وفي كل درجة من تلك الدرجات العالية تنقص الفلسفة وتنقص المسرات بالتدريج حتى يصير الناس في العالم الكامل كلهم بلهاء)
قال ممنون: (أخشى أن تكون هذه العوالم التي نتدرج فيها إلى الكمال ليست إلا مستشفيات للمجاذيب وإن عالمنا هذا ليس إلا واحد منها)
فقالت الروح: (إذا لم يكن هذا الوصف منطبقاً فأنه ليس بالبعيد)
قال: (ولكن هل الشعراء والفلاسفة مخطئون إذ يقولون إن كل شيء في هذا الوجود آخذ في سبيل الارتقاء)
فقالت: (كلا ليسوا مخطئين ولكن لكي نتبين الصدق فيما يقولون يجب أن نراعي صلة كل شيء بمجموعة العالم فإنما كمال الأشياء أن يتم اتصالها بالعالم لصالح العالم)
فأجاب ممنون: (لست أستطيع تصديق ذلك إلا إذا رجعت إليّ عيني)
عبد الطيف النشار
العدد 208 - بتاريخ: 28 - 06 - 1937
الضعف في اللغة العربية
للأستاذ أحمد أمين
رددت الجرائد والمجلات في هذه الأيام الشكوى من ضعف الطلبة وخريجي الجامعة في اللغة العربية - ولا شك أنها مسألة لا يصح أن تمر من غير أن يتداولها الكتاب بالشرح والتعليل، ويقلبوها على وجوهها المختلفة، حتى يصلوا إلى علاج حاسم.
أما إن الطلبة ضعاف جداً في اللغة العربية فأمر لا يحتاج إلى برهان. فأكثرهم لا يحسن أن يكتب أسطراً ولا أن يقرأ أسطراً من غير لحن فظيع يكاد يكون بعدد الكلمات التي يكتبها أو يقرؤها؛ وهم إذا خطبوا أو قرءوا أو كتبوا أو أدوا امتحاناً رأيت وسمعت ما يثير العجب ويبعث الأسف. وأما أن الضعف في اللغة العربية نكبة على البلاد فذلك أيضاً أمر في منتهى الوضوح، لا لآن اللغة العربية لغة البلاد والضعف فيها ضعف في القومية فقط، بل لأنها اللغة التي يعتمد عليها جمهور الأمة في ثقافتهم وتكوين عقليتهم؛ فاللغة الأجنبية التي يتعلمها طلاب المدارس الثانوية والعالية ليست هي عماد الثقافة، وليست هي التي تكون أكثر جزء في عقليتنا، إنما الذي يقوم بهذا

كله هو اللغة العربية التي نتعلمها في الكتاتيب ورياض الأطفال، وندرس بها العلوم المختلفة في المدارس الابتدائية والثانوية والعالية. فالضعف في اللغة العربية ضعف في الوسيلة والنتيجة معاً، على حين أن الضعف في اللغة الأجنبية في كثير من الأحيان ضعف في الوسيلة فقط، ولهذا أعتقد أن معلم اللغة العربية في المداس على اختلاف أنواعها عليه أكبر واجب وأخطر تبعة، وبمقدار قوته وضعفه تتكون - إلى حد كبير - عقلية الأمة.

وبعد، فما هي الأسباب التي نشأ عنها هذا الضعف؟ أظن أنه يكفينا في هذا المقال الإجابة عن هذا السؤال وإرجاء الكلام في العلاج إلى مقال أو مقالات أخر.

فعندي أن الأسباب ترجع إلى أمور ثلاثة: طبيعة اللغة العربية نفسها، والمعلم الذي يعلمها، والمكتبة العربية.

فأما طبيعة اللغة العربية فهي صعبة عسره إذا قيست - مثلاً باللغة الإنجليزية أو الفرنسية. ويكفي للتدليل على صعوبتها ذكر بعض عوارضها: فهي - مثلاً - لغة معربة، تتعاور أواخرها الحركات من رفع ونصب وجر وجزم حسب العوامل المختلفة؛ ولا شك أن اللغة

المعربة أصعب من اللغة الموقوفة، أعني التي يلتزم آخرها شكلاً واحداً في جميع المواضع ومع جميع العوامل كاللغة الإنجليزية والفرنسية.

وهي صعبة كذلك من ناحية أن حروفها وحدها لا تدل على كيفية النطق بها، بل لابد لصحة النطق من الضبط بالحركات أو المرن الطويل، على عكس اللغات الأوربية التي تدل كتابتها على كيفية النطق بها في أكثر مواضعها، والضبط بالشكل عسير فلا نستعمله في الجرائد والمجلات ولا في أكثر الكتب الأدبية قديمها وحديثها.

وهي صعبة - أيضاً - من ناحية الاختلاف الكثير في الفعل الثلاثي، فله أشكال كثيرة لا يمكن إخضاعها لضوابط حاسمة، وكصيغ جموع التكسير فهي كثيرة وضوابطها قلما تطرد، وكنظام العدد والمعدود فإنه معقد تعقيداً شديداً حتى لا يجيده إلا الخاصة وأشباههم.

كل هذا ونحوه يجعل اللغة العربية صعبة المنال، وإتقانها يحتاج إلى مران كثير ومجهود كبير من المتعلم والمعلم.

ولست أعرض هذا لبيان ما إذا كانت هذه الأعراض مظهراً من مظاهر رقي اللغة أو ضعفها فان هذا لا يعنيني الآن، وأما الذي يعنيني فهو تقرير صعوبة اللغة العربية وحاجتها الشديدة إلى عناية كبرى لتذليل صعوباتها ورسم أقرب خطة للتغلب عليها حتى يحذقها المتعلم من أقرب سبيل.

فإذا نحن وصلنا إلى المعلم فقد وصلنا إلى نقطة شائكة، ذلك لأننا اعتدنا دائماً أن ننقل النقد في الأمور العامة إلى مسائل شخصية، ونحول الكلام في المبادئ العامة إلى فئات وأحزاب، ونسئ الظن بالناقد، فإن كان من فئة خاصة ظنوا أنه يدافع عن فئته وأنه يريد تنقص غيره، فهل يسمح لي المعلمون بأن أصارحهم القول مؤكداً أن لا غرض لي إلا الإخلاص للحق؟

إن كان كذلك فإني اصدقهم القول بأن جزءاً كبيراً من ضعف اللغة العربية يرجع إليهم. ولست أنكر أن منهم أفذاذاً نابغين يصح أن يكونوا المثل الذي ننشده، ولكن المنطق عودنا أن يكون حكمنا على الكثير الشائع لا على القليل النادر

فالحق أن دار العلوم والأزهر وكلية الآداب لم تستطع أن تخرج المعلمين الأكفاء الذين نتطلبهم والذين تتطلبهم اللغة العربية للأخذ بيدها والنهوض بها ومحاربة الضعف الفاشي

فيها.

فأما دار العلوم فقد تأسست، والذي دعا وزارة المعارف إلى إنشائها أنها أحست بعجز الأزهر عن أن يمدها بالمعلمين الصالحين لها، إذ رأت الأزهر تنقصه - إذ ذاك - الثقافة الحديثة والعلم بمناهج التربية والتعليم، وقد نجحت الوزارة في تحقيق هذا الغرض إلى حد كبير، وأخرجت رجالاً نهضوا باللغة العربية إلى حد ما، وأحسنوا التدريس على خير مما كان يدرسه الأزهريون، ولكن دار العلوم كانت سادَّة لحاجة الأمة في السنين الأولى من إنشائها، ثم تقدمت الأمة في ثقافتها ووقفت دار العلوم حيث كانت، فأصبحت لا تؤدي رسالتها كاملة، وأصبح خريج دار العلوم لا يحذق الأدب القديم ولا

الأدب الحديث، ولا يستطيع تغذية الشعب بالأدب الذي هو في حاجة إليه، ولا له من المهارة في الوسائل ما يستطيع بها أن ينهض بالطلبة النهوض اللائق، ولا هو يساير الزمن في ثقافته حتى يخضع الطلبة لشخصيته القوية؛ ودليل ذلك أمور كثيرة: منها ضعف المكتبة العربية وهو ما سأبينه بعد؛ ومنها عجز معلمي اللغة العربية عن تشويق الجمهور والطلبة إلى القراءة العربية، حتى أنا نرى الناشئ لا يكاد يستطيع القراءة في الكتب الأجنبية حتى يهيم بها ويفضلها ألف مرة على المطالعة العربية؛ ومنها نظر الطلبة في صميم نفوسهم إلى أن اللغة العربية مادة ثانوية وأن وضعت في المناهج في أوائلها؛ ومنها أن الثقافة في الجمهور فيما يتعلق بالتاريخ الإسلامي والأدب العربي والمعلومات العامة التي تتصل بذلك ضعيفة إلى حد بعيد، والمسؤول عنها - كما أسلفنا - هم معلمو اللغة العربية لأنها لغة البلاد وعليها يعتمد في تكوين العقلية، إلى كثير من مثل هذه الأسباب.

وأما الأزهر من ناحية اللغة العربية فهو الآن وليد دار العلوم، والمشرف على تعليم اللغة العربية فيه هم خريجوها؛ فقصار أه أن يبلغ من الرقي ما بلغته مدرسة دار العلوم في تعليمها ونظمها ومناهجها حتى يحل محلها؛ ويكفي هذا برهاناً على أنه لا يحقق الغرض الذي نرمي إليه.

وأما قسم اللغة العربية في كلية الآداب فكذلك ناقص ضعيف، فهو يعلم طرق البحث الجامعي، وهذا يضطره إلى أن يتوسع في مسألة وأن يهمل مسائل، فلا يخرج الطالب دارساً لكل ما ينبغي أن يدرس. أضف إلى ذلك أنه يعتمد في طلبته على طائفة يخرج أكثرها من المدارس الأميرية وحصلوا على شهادة الدراسة الثانوية، وهؤلاء لا يصلحون صلاحية تامة لدراسة اللغة العربية إلا بعد عهد طويل لا تكفي له سنو الدراسة الجامعية؛ ذلك أن اللغة العربية متصلة اتصالاً وثيقاً بالدين، ولا يمكن أن يحذقها ويستطيع أن يفهم كتبها القديمة إلا من بلغ درجة عالية في فهم القرآن والحديث والفقه وأصول الفقه والتاريخ الإسلامي، والطلبة الذين تأخذهم الجامعة لهذا القسم لم يثقفوا هذه الثقافة، ولا تستطيع الجامعة أن تكمل هذا النقص مهما بذل المدرسون من الجهد، ومن أجل هذا ترى أن طلبته بينما يجيدون نهج البحث في المسائل إذ يقصرون تقصيراً معيباً في مسائل تعد في نظر ألا زهر ودار العلوم مسائل أولية وهي في الواقع كذلك.

إذن من الحق أن نقول إن المعاهد التي تدرس اللغة العربية في مصر تعجز عن إخراج المعلم الكف، ومن العجيب أن توجد هيئات ثلاث لتحضير معلمي اللغة العربية والبلد لا يحتاج إلا إلى هيئة واحدة؛ ثم كل هذه الهيئات معيب لتوزع قواها، ولو وجدت القوى في هيئة واحدة - ولا أتعرض الآن لبيان ما هي - لاستطاعت أن تخرج خير نموذج للمعلم، ولكن يعصف بهذه الفكرة الصالحة تعصب كل فئة لنفسها، فضاعت بذلك المصلحة العامة

ويتصل بأمر المعلمين مسائل كانت هي الأخرى سبباً في الضعف وهي مناهج الدراسة والامتحانات والتفتيش

فمناهج تدريس اللغة العربية متحجرة برغم ما يبدو من مدنيتها وأناقتها. خذ - مثلاً - منهج قواعد اللغة العربية والبلاغة تجد أنهما إلى الآن لا يزالان هما بعينيهما منهجي سيبويه والسكاكي على الرغم من زخرفتهما، فالتقسيم الذي قسمه سيبويه في النحو والتعاريف التي وضعها والمصطلحات التي ذكرها هي هي في كتب المدارس اليوم. وكل ما حدث حتى في الكتب التي ألفت منذ سنوات قليلة - هو ذكر الأمثلة الرشيقة وتبسيط الشرح، ولكن لم نبذل أي مجهود في معالجة النحو على أساس جديد كضم مسائل متعددة إلى أصل واحد حتى يسهل على الطالب فهمها وتحصيلها وكوضع مصطلحات جديدة أقرب إلى الفهم ونحو ذلك، وحسبنا دليلاً على ذلك ما نراه في أجروميات اللغات الحية الأخرى، فأجرومية اللغة الفرنسية أو الإنكليزية اليوم تخالف - في الجوهر - ما كانت عليه منذ عشرين سنة فضلاً عن قرن وقرنين

ومصيبتنا في البلاغة أعظم، فبرامجنا لا توحي بلاغة، ولا تربي ذوقاً؛ وإلا فقل لي بربك ماذا تفيد دراسة (الفصل والوصل) على هذا المنهج إلا تكرير مصطلحات فارغة ككمال الاتصال وكمال الانقطاع وشبه كمال الانقطاع وشبه كمال الاتصال؟ وأخبرني أي أديب يراعي ذلك عند كتابته، ومتى كانت هذه المصطلحات الفارغة وسيلة لرقي الذوق

الأدبي؟
وليست برامجنا في الأدب بأقل سوءاً من هذين، فأنا نضع في البرنامج أول الآمر مسائل فلسفية وقواعد في النقد وتاريخ الأدب في العصور المختلفة قبل أن يلم الطالب بجمهرة كبيرة من الأدب يقرؤها ويحفظها ويتذوقها، وبذلك تقدم له نتائج من غير مقدمات، وتصعده على السطح من غير سلم
والذين يضعون البرامج يكلفون وضعها في أسبوع أو أسبوعين أو شهر أو شهرين، وماذا على وزارة المعارف لو كلفت من يضع لها البرامج المستقبلة في سنتين أو أكثر على ألا توضع إلا بعد دراسة عميقة، ثم تنشر في الجرائد والمجلات وتتقبل الاعتراضات عليها ويعمل بالصالح منها، ثم تثبت الوزارة العمل بها عهداً طويلاً حتى تتم تجربتها؟
ثم الامتحانات أمرها غريب! فمع هذا الضعف الذي نسمعه في كل مكان، تظهر نتيجة الامتحانات في اللغة العربية باهرة، والسقوط فيها نادر! فشيء من شيئين: إما أن تكون الشكوى في غير محلها، وهذا ما لا يسلم به عاقل، أو تكون الامتحانات على غير وجهها، وهذا ما يقوله كل عاقل، وسبب هذا السوء في الامتحانات كثير، فنظريات النحو واسعة تحتمل أن يكون لكل خطأ تأويل من الصواب، ومنها عدم تقدير ورقة الامتحانات في جملتها حتى يصح أن يسقط الطالب إن أتى بخطأ شنيع في موضع ولو أصاب في مواضع أخرى، ومنها الرحمة والشفقة في التصحيح، وأؤكد أن لو زالت هذه الرحمة سنة من السنوات وأدرك الطالب ما تعامل به ورقته من الحزم في الامتحان لخدم هذا الموقف اللغة العربية في المدارس جملة سنين
ثم التفتيش؛ والمفتش معذور، فهو كالقاضي يطبق مواد القانون ولا يشرعها، فعليه أن ينظر كم موضوعاً إنشائياً كتبه الطلبة، وهل هذا يتناسب مع العدد المقرر في السنة، وهل ترك المدرس كلمة خطأ في كراسة الطالب من غير أن يصححها، وهل أساء المدرس إساءة كبرى فأستعمل كلمة (التيليفون) و (الراديو) أو على العموم استعمل كلمة ليست في
أو (لسان العرب) فأما هل نجح المدرس في تعليمه اللغة العربية (القاموس المحيط) لطلبته، وما الوسائل التي استعملها، وهل تقدم الطلبة في القراءة والكتابة فأمر في المنزلة الثانية؛ وأما ما ينبغي أن يدرس هنا أو لا يدرس. وما العوامل في الرقي باللغة العربية - على العموم - فأمر يرجع في الأغلب إلى المشرع لا إلى المفتش
نعود - بعد - إلى المسألة الأخيرة من أسباب ضعف اللغة العربية. وهي مسألة (المكتبة العربية) فالحق أنها مكتبة ضعيفة فاترة، هي مائدة ليست دسمة ولا شهية ولا متنوعة الألوان.
والحق أيضاً أن القائمين بإحضارها لم يجيدوا طهيها؛ فدار العلوم وقد أتى على إنشائها أكثر من خمسين عاماً وقد خرجت الألوف من أبنائها، هل أجادت في إخراج الكتب النافعة المختلفة الألوان والموضوع؟ أو هي قصرت كل التقصير فأخرجت من الكتب ما لا يتفق وعدد خريجيها ومنزلتهم في الحياة الاجتماعية والأدبية؟
والأزهر هو أقدم عهداً وأعرق أصلا لم يشترك في التأليف الحديث اشتراكاً جدياً، ولم يساهم بالقدر الذي كان يجب عليه، ولم يعرف عقلية الناس في العصر الحديث حتى يخرج لهم ما هم في أشد الحاجة إليه
وكلية الآداب - وأن قصر عهدها - لم تؤد رسالتها في هذا الموضوع كاملة، واتجهت أكثر ما اتجهت إلى الثقافة الخاصة لا العامة
فمكتبتنا في كل نواحيها ناقصة من ناحية الأطفال، ومن ناحية الجمهور، ومن ناحية المتعلمين. وحسبك أن تقوم بسياحة في مكتبة أفرنجية وأخرى في مكتبة عربية لترى الفرق الذي يحزنك ويبعث في نفسك الخجل والشعور بالتقصير
ماذا يقرأ الطفل في بيته وفي عطلته؟ وماذا تقرأ الفتاة في بيتها؟ وأين الروايات الراقية التي يصح أن نضعها في يد أبنائنا وبناتنا؟ وأين الكتب في الثقافة العامة التي تزيد بها معلومات الجمهور؟ وأين الأدب القديم المبسط؟ وأين الأدب الحديث المنشأ؟ الإجابة عن هذه الأسئلة يعرفها كل قارئ لمقالتي، وواضح أن اللغة لا ترقي بكتبها في قواعد النحو والصرف والبلاغة بمقدار ما ترقى بالكتب الأدبية ذوات الموضوع
سيقول المعلمون: وماذا نصنع وليس العيب عيبنا، فوزارة المعارف ترهقنا بالدروس

وترهقنا بنظام الكراسات وتصحيحها، وبنحو ذلك حتى لا نجد وقتاً لترقية نفوسنا والازدياد في معلوماتنا فضلاً عن المساهمة في تضخيم (المكتبة العربية) والمشاركة في إصلاح جوانب النقص منها

ذلك حق، ولكنه ليس ردا على ما أقول، فإني في هذا المقال أكتفي باستعراض الأدواء استعراضاً خاطفاً سريعاً ثم أعود بعد، إن شاء الله إلى ذكر ما يعن لي من طرق العلاج

وأياً ما كان فالموضوع جد خطير، وهو - كما قلت - جدير بأن يتناوله الكتاب بالبحث والتفكير والكتابة ومناقشة الآراء؛ وكل ما أرجوه هو ما أشرت إليه ألا تتحول المسألة إلى نزاع شخصي أو طائفي، فالأمر أهم من ذلك كله، وإلى الجحيم كل مسألة شخصية أو طائفية تقف في سبيل الخير العام

أحمد أمين

في الحب أيضا

وجواب بعض المسائل

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

يظهر أنني لم أحسن البيان فيما كتبته عن الحب والوقت الذي تكون فيه النفس احسن تهيؤاً له، فقد تلقيت رسائل من هنا وههنا، ومن مصر وغيرها من أقطار العرب، جملة ما استخلصته منها أني حمار طويل الأذنين، وأن لي نهيقاً عالياً ولكنه نهيق لا أكثر، وقد أكون كذلك فما أدري، ولو أني عرفت نفسي على حقيقتها لكان هذا حسي، وعزائي، إذا كنت هذا، قولُ رصيفي الفاضل أبن الرومي:

فيّ طبعٌ ملائكيٌّ لديه ... عازف صادف عن الإطراب

أو حمارية فمقدار حظي ... شبعةٌ عنده بلا أتعاب

فبين الملائكية والحمارية هذه الجامعة - إن الملائكية تغري بالعزوف والزهد ترفعاً أو استنكافاً، أو لا أدري لماذا، فما ارتقيت قط إلى هذه المرتبة، وأن الحمارية تؤدي أيضاً إلى الزهد وإن كان هذا منها عن نقص الإدراك وعدم الشعور بالحاجة. ولا تعنيني الأسباب، وإنما تعنيني النتيجة وهي كما ترى واحدة والحمد لله، ولقد أطلت النظر إلى وجهي في المرآة لما وردتني هذه الرسائل ورفعت يدي إلى أذنيّ أتحسسهما ثم قلت لنفسي إن الحمارية طبيعية لا صورة، وارتددت عن المرآة ورأسي مثنىٌ على صدري وأذناي مسترخيتان - مجازاً.

وقال أحد الأفاضل الذين كتبوا إلي، إني لو قضيت يوماً على شاطئ البحر في الإسكندرية لأدركت أن الحب يجئ في وقت النشاط الجم لا الفتور كما زعمت، واعترف لي غير واحد أنهم أحبوا على الريق وذكر لي أحدهم أنه كان يلقي صاحبته كل صباح فأحبها، وقال ثان انه سمع صوتاً في الصباح فخيل إليه أنه يعرفه، فلما رآها عرف أن ذاكرته لم تخنه، وكان أن احب ذات الصوت الذي أيقضه من النوم، ولكن الله لم يكتب له الفوز بها. وذكر ثالث أن المرأة تتزين في كل وقت - في البيت وخارج البيت الخ الخ فما بي إلى الإطالة حاجة

لهذا قلت إني لم أحسن البيان، فما أردت أن أعين ساعة معلومة للحب في الصباح أو الظهر أو العصر أو الليل، وإنما أردت أن أبين أن الحب - ككل مرض - تكون فرصته حين يكون الجسم متعباً قليلاً وأن كان المرء لا يدرك ذلك ولا يفطن إليه. وهذا التعب الخفيف لا وقت له، وما أكثر ما أصبحت برأس مصدع على الرغم من النوم ساعات طويلة فأضحك وأقول لزوجتي: (يا امرأة، هل رأيت أحداً قبلي يفطر على الأسبرين؟) فتسألني: (أبك حاجة إلى الأسبرين؟) فأقول: (نعم بي حاجة إليه. . إلى صيدلية كاملة من الأسبرين. . . ولكني سأحاول الاستغناء عنه، إنما أردت أن أبين لك أن زوجك أعجوبة. . الناس غيري يصبحون وريقهم يجري على الفول المدمس والبيض والقشدة واللبن والشاي والمربيات وما إلى ذلك، أما زوجك المحترم فلا يخطر على باله شيء من ذلك كل همه قرص من الأسبرين يعفيه من وقع هذه الفؤوس التي تحطم رأسه)

فتقول: (الذنب لك. . من قال لك أفعل ما فعلت البارحة؟)

فأقول: (يا ستي أن المهم الآن هو التسكين وبعد ذلك يصح أن يجيء دور الحساب. . . ثم إني لا أذكر ماذا كنت أصنع البارحة. . كلا. . لا يختلج في ذاكرتي شيء. .)

وأما صاحبنا الذي كان يرى فتاته كل صباح فأحبها، فأقول له أن هذا ليس من الحب على الريق وقد وقع لي ما وقع له، أيام كنت تلميذاً في المدرسة الخديوية، وكان بيتي

في (البغالة) وطريقي إلى المدرسة من درب (الجماميز) وكنت أرى في كل صباح فتاة على وجهها النقاب الأبيض وحولها ذلك الإزار الأسود - وكان هذا هو اللباس الشائع في ذلك الزمان - ومعها خادمها يحمل لها كتبها ويتبعها ويحرسها، وهي ذاهبة إلى المدرسة السنية، وعائدة منها إلى البيت فكنا نلتقي كل يوم، واستملحت وجهها، وأعجبني قدها، فكنت أتعمد أن اقف على أول الطريق حتى أراها مقبلة وتكرر ذلك فصار عادة.

ومضت سنوات طويلات وأصبحت مدرساً، وإني لراكب مرة إلى الجيزة وإذا بي أرى أمامي فتاتي القديمة، ومعها طفلان فعرفتها، فما تغيرت عن العهد بها، ونظرت حولي فلم أر أحداً معها سوى هذين الطفلين فتشجعت وقلت لها: (اسمحي لي. . إننا صديقان قديمان إذا كانت ذاكرتك كذاكرتي. . هل تذكرين هذا الوجه الدميم الذي كنت لا أخجل أن ألقاك به كل صباح في شارع درب الجماميز وأنت ذاهبة إلى المدرسة؟) فابتسمت وقالت: (أظن أني أذكره).

قلت - ويداي على طفليها -: (وهذان. . . المحروسان أهما اللذان كان يمكن أن يكونا ولدي؟).

ففهمت وهزت رأسها أن نعم، فقلت: (وتسمحين لي أن اقبلهما، إذ كنت لا أستطيع أن أقبل غيرهما؟)

فهزت رأسها مرة أخرى، فقبلتهما وقلت كالمعتذر: (اذكري أنهما كان يمكن أن يكونا لي)

وقصت عليّ قصة عجيبة، فقالت: إن جاراً لها أحبها وأن أباه أبى أن يزوجه قبل أن يفرغ من المدرسة، فحاول أن يتصل بها فلم يوفق، فأنتحر، فسألتها: أين كنت تسكنين؟) فذكرت لي أسم الشارع والحارة، فإذا الذي انتحر قريب لي!

(. . .وقلت لها: أما أنا وأنت فلم ننتحر. . . آثرنا أن نتزوج. . . أظن أن الأمرين سيان فأنا أيضاً أحببت في الصباح، كما أحب الفاضل الذي كتب إلي، ولكن الحب لم يكن على الريق بل كان بتأثير العادة وفعلها.

وصاحبنا الذي سمع الصوت في الصباح فتذكره - هذا أيضاً لم يحبب على الريق وإنما استقيظت في نفسه ذكرى، ولو كانت هذه أول مرة يسمع فيها الصوت الحلو لاستغرب ولكان قصار أه أن يستعذبه وأن يشتاق أن يرى صاحبته، ولما منعه ذلك من أن يتثاءب ويمتطي ويشتهي ويعاود النوم.

بقيت الزينة وأظن أني قلت إن المرأة تحب أن تؤكد جمالها وتبرز مفاتنها بالزينة، وأنها لا تستطيع أن تهمل زينتها حين تخرج في أي وقت. فلا خلاف بيني وبين الناقد الفاضل فما أنكرت أن المرأة تطلب الزينة، لأن طبيعتها تقضي عليها بذلك حتى ولو كان الرجال لا يرتاحون إلى هذه المساحيق المختلفة الألوان. ولو ظللت تنهي المرأة عن ذلك طول العمر لما انتهت إلا إذا كانت هي تزهد في المحسنات من تلقاء نفسها أو تضطر إلى الزهد لمرض جلدي أو نحوه. وما أكثر من قلت لهن: (أين منديلك؟) فتخرجه وترينيه وتسألني: (ماذا تريد أن تصنع به؟) فأقول: (لست أحب أن أرى فمك الجميل كالطماطة المشقوقة، فهاتي المنديل لأمسح هذا الأحمر) فتأبى وتقاوم، فألح عليها وأقول: (ثم إن هناك داعياً آخر هو أن هذا الأحمر يحول دون التقبيل) فيكون هذا مغرياً لها بالإصرار على ترك الأحمر على شفتيها، على حين كنت أظن - لغروري - أني زهدتها فيه. .!!

وأحمد الله الذي أعفاني وأراحني من سخافة المساحيق، فأن زوجتي لا تتخذها، فليس في بيتي ذرة من الأحمر أو الأبيض. ومن القواعد المقررة عندنا أن على من تزورنا من قريباتنا أو من هنّ في حكمهن لتقض يوماً أو أياماً معنا، أن تجيء معها بمساحيقها، فلن تجد حتى ولا ما يُنْفَضُ على الوجه بعد حلاقة الذقن. وأحسب أن زوجتي اطمأنت إلى عجز فريستها عن النجاة فهي لا تعنى الآن بشيء من هذه المزينات. .

ولست مجنوناً حتى أقف على شاطئ البحر وأنظر إلى الفتيات الناهدات، الرشيقات، المشوقات، وهن يخرجن من الماء وقد لصق بأبدانهن القليل الذي عليها، فإني محتاج إلى عقلي كله، ولكني أحسب الفاضل الذي كتب إليّ يدعوني إلى ذلك، يدرك أن الأمر هنا أشبه بأن يكون أمر اشتهاء، لا حب، وخليق بالمرء وهو ينظر إلى هذه الفتنة المجتمعة، أن تدركه الحيرة، وأن يزوغ بصره، فلا يعود يدري أي هؤلاء الجميلات أولى

بحبه. فأن لكل جسم فتنة، ولكل محيا سحره، ولو أني وقفت على البحر لكان الأرجح أن احب هؤلاء جميعاً، جملة، وأن أشتهي أن أضمهن كلهن في عناق واحد، فان الظلم قبيح، وأن نفسي لا تطاوعني على غمط الجمال في أية صورة من صوره، ومن يدري. . . لعل القدرة على أدراك معاني الجمال في مظاهره المختلفة هي التي وقتني الحب، ومنعت أن أعشق واحدة على الخصوص أجن بها.

ولكني لست واثقاً أن هذا كهذا، وأن كان يحلو لي أن أغرّ نفسي به، والأرجح إنها بلادة، وان جلدي سميك. . .

ويجب أن نفرق بين النشوة العارضة، والنشاط الصحيح وبين الإعجاب والحب؛ وأن ننسى كل ما علق بالحب من الحواشي الخيالية التي كان الفضل فيها لمبالغة الشعراء وهذيان المرضى، فليس الحب إلا مرضاً فالشأن فيه هو الشان في كل مرض. والمرء يصاب بالأمراض في حالتي الصحة والضعف ولكنه يكون أكثر تعرضاً للمرض في حالة الفتور الخفي الذي يضعف المقاومة، لأنه يغري بالاطمئنان على حين ينبغي الحذر، أو هو في حقيقته ضرب من الجوع كما قلت.

وفي الناس الشره المبطان، وفيهم القنوع الذي يكفيه اليسير الموجود. والجوع ضعف. والجائع لا يملك من القدرة على مقاومة الأغراء ما يملك الشبعان

هذا جواب بعض ما وردني من المسائل. وقد مللت الحب وذكره، ولم أكن أظن أن الكتابة فيه تثير كل هذه الضجة، قاتل الله الشعر والشعراء!!

إبراهيم عبد القادر المازني

جهاد شعب مصر في سبيل حقوقه في القرن الثامن عشر

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

ألف الأستاذ محمد كتاباً أسماه (سيرة السيد عمر مكرم) نتبع فيه تاريخ الحركة القومية في مصر منذ القرن الثامن عشر وتناول سيرة (السيد عمر مكرم) زعيم مصر إذ ذاك، وأوضح فيه سعي مصر إلى الحرية والاستقلال في فجر العصر الحديث، وبين أن الروح القومية والتطلع إلى الحرية كانا قويين منذ القرن الثامن عشر والكتاب تحت الطبع، وسيظهر قريباً، وهذا الفصل الممتع من ذلك المؤلف القيم:

ولم يكن صوت المصريين داوياً في مجتمعات الديوان وحدها، بل كان للشعب منافذ أخرى يعبر بها عن أرادته ويردد منها شكواه ويرسم بواسطتها أمانيه ومثله العليا، فأن بعض المتكلمين من الوعاظ الذين كانوا يتعاقبون في تلك العصور كانوا بمثابة الصحفيين يعقدون مجالسهم في المساجد فيلقون فيها دروساً في معاني العدل وواجبات الحكام وحقوق المحكومين، ويدسون في خلال تلك الدروس نقدات للحكام لا يخشون منهم غضباً ولا يتوجسون منهم خوفاً، وكان بعض الحكام يضيق بنقدهم؛ ولكنهم كانوا في أغلب الأحوال يتركونهم آمنين أحراراً لا يقيدون ولا يعاقبون على ما يصدر عنهم من النقد. وكان نقدهم في كل الأحوال نقداً عالياً نبيلاً يقصدون به تصوير المثل الأعلى للحكم، ويدعون فيه إلى العدل وأداء الواجب. والعل أول من نبغ من هؤلاء الوعاظ هو الشيخ الحفني الذي كان يعاصر ملك مصر العظيم علي بك الكبير. وهو محمد بن سالم الحفناوي أو الحفني الحسيني نسباً وكان زاهداً ورعا كريماً كثير البذل للفقراء. واتخذ سبيل الدعوة إلى الخير على طريقة صوفية اسمها الطريقة الخلوتية وكثر اتباعه واعتقد فيه الناس اعتقاداً كبيراً سواء في ذلك العامة والخاصة، حتى قال عنه الجبرتي صاحب (عجائب الآثار): (أنه كان قطب رحى الديار المصرية لا يتم أمر من أمور الدولة إلا باطلاعه ومشورته)، وكان لا يتردد في إبداء نصحه صريحاً قوياً وإن كره أهل الحكم رأيه وصراحته وكان الشيخ الحفني فوق هذا عضواً في ديوان الحكومة يمثل الشعب المصري مع جماعته من إخوانه تمثيلاً رائعاً، حتى كان علي بك الكبير على شدته وقوة ملكه لا يستطيع مقاومته ولا معاداته. وكان في مناقشاته في الديوان لا يتردد أحياناً أن يهدد الحكام باسم الشعب إذا هم عمدوا إلى ما يسئ إليه أو يضر بمصلحته، فقد وقف مرة يناقش في ضرورة إرسال حملة حربية لإخضاع بعض الأمراء الخارجين في الصعيد. وكان رأيه أن تلك الحملات الحربية تضر بالناس وتعطل مصلحتهم، فلم يتردد في آخر خطبته القوية أن يصيح قائلاً: (والله لن نسمح أن يسافر أحد وإن سافرت الحملة فلن يحدث خير أبداً)

ولما توفى الشيخ الحفني حل محله في زعامة النقد واعظ آخر وهو ابن النقيب السيد علي بن موسى الحسيني المقدسي، وعرف بابن النقيب لأن جدوده كانوا نقباء الأشراف في بيت المقدس. وكان واسع العلم يلقى دروساً في المسجد الحسيني في التفسير والفقه والحديث. وكان فوق ذلك كتاباً وأديباً حسن الأسلوب، وزاهداً لا يضن بشيء يملكه على سائليه.

ولهذا كانت له مكانة عظيمة في قلوب الناس. وكان فوق كل هذا فارساً ماهراً في فنون الحرب واستعمال السلاح واللعب بالرماح، فكان يجمع كل صفات النساك المحاربين الذين ينهجون نهج القاضي عيسى الهكاري الذي كان معاصراً لصلاح الدين الأيوبي واشترك معه في محاربة الصليبيين.

وكان أهل مصر يعرفونه بالمحدث، ومع أنه كان محبوباً عند الأمراء ورجال الدولة لم يمتنع عن نقد ما كان يراه فيهم وفي أحكامهم من العيوب، وكان نقده أحياناً يبلغ حد المرارة والعنف، ولكن صدر هؤلاء الحكام لم يضق به، ولم يحدث له من وراء نقده أي ضرر. مع أنه ذهب مرة إلى القسطنطينية حوالي عام 1763 للميلاد فلم يسمح له بالبقاء طويلاً فيها لما عرف عنه من الصراحة في النقد، واضطر إلى العودة إلى مصر.

وكان الأمير محمد بك أبو الذهب يرحب به ويوسع له في مجلسه مع ما يلقي منه من النقد، وكان يقابل نقده بالإحسان فوق التسامح، ومن ذلك أنه سأله مرة عن حاله، وكيف وجد عاصمة الخلافة في استانبول عند زيارته لها، فكان جوابه على ذلك قوله: (لم يبق باستانبول خير ولا بمصر كذلك خير، فلا يكرم بهما الأشرار الخلق) فلم يغضب الأمير من رده بل أرسل إليه بعد انصرافه من مجلسه هدية قدرها مائة ألف نصف فضة ليقضي بها ديونه ولينفق منها على الفقراء كعادته.

وقد عاصر هذا الواعظ الكبير شيخ آخر جليل كان ينهج مثل نهجه مع شيء من الاعتدال،

وهو الشيخ علي الصعيدي وكان معاصراً لملكي مصر العظيمين علي بك الكبير ومحمد بك أبي الذهب. وبلغ من إكرام هذين الملكين له أنهما كانا إذا دخل عليهما أفسحا له وقبلا يده، ولم يردا له شفاعة، وكان كثير الشفاعة عندهما يتدخل لمصالح الناس. فكان من الدولة بمثابة النائب الشعبي الذي يسعى لمصالح الناس عند أهل الحكم.

وكان الناس يلجأ ون إليه إذا ما مسهم ما يشكون منه، فيكتب شكواهم في ثبت ويدخل بها على الأمير فلا يخالفه في شيء مما يرجوه فيه، ولا ينقبض عنه، وكان يقول لمحمد بك أبي الذهب إذا وجد منه شيئاً من التردد: (لا تضجر ولا تأسف على شيء يفوتك بغير حق في الدنيا، فإن الدنيا فانية وكلنا نموت ويوم القيامة يسألني الله عن تأخرنا عن نصحك؛ وها نحن قد نصحناك وخرجنا من العهدة). فإذا امتنع الأمير عن إجابة مطلب له صرخ وقال له: (اتق النار وعذاب جهنم) ثم يمسك بيده ويقول له: (أنا خائف على هذه اليد من النار).

وسنذكر فيما يأتي أسماء بعض زعماء الشعب الذين انتهجوا فيما بعد خطة أخرى غير النقد والنصح عندما تحولت مجاري الأمور في أيام مراد وإبراهيم. وحسبنا هنا أن نقول إن أمراء مصر في أثناء القرن الثامن عشر كانوا يحاولون بكل ما استطاعوا أن يكون حكمهم مرضياً عنه عند الشعب، وأن يكونوا في سياستهم موفقين إلى العدل فيهم بحسب عقلية عصرهم وأساليبه وكانوا يعملون على تقريب أهل العلم والأعيان والأدباء، ويشجعونهم على غشيان مجالسهم، فكانت مجالس علي بك الكبير تمتاز بوقار من يؤمها من العلماء الإجلاء، والزهاد الفضلاء. وكذلك كانت مجالس أبي الذهب من بعده، في حين كانت مجالس الأمير رضوان بعد ذلك مضرب الأمثال في البهجة الفنية والسمو الأدبي، حافل بأسماء تباهي بها مصر من الأدباء المبرزين الأعلام، وكان هذا التقريب عاملاً من أقوى العوامل على أيجاد روح من الود طالما ساعد على تبادل العطف بين الحاكم والمحكوم، وهو عطف كان يؤدي بغير شك إلى إصلاح الحكم والمحافظة على حقوق الناس وعواطفهم.

ولما تولى الطاغيتان إبراهيم ومراد؛ تغير الحال واختل الأمر ورأى الشعب أن لا بد له من انتهاج خطة جديدة للمحافظة على حرياته وحقوقه؛ فخطا خطوة جديدة لم يسبق له عهد بها، فإن الطاغيتين كانت تحيط بهما هالة من أهل الطاغوت، وهي عصبة للشر ما كانت تتنبه

إلى حق، ولا ترعوى عن غي، ورأى أهل مصر أنهم حيال نوع جديد من الحكم، لا تنفع فيه النصيحة ولا تستقيم معه الأمور على الشفاعة، ولم يكن للشعب بعد أن عجز عن النصح إلا ذلك الحق الطبيعي الذي للشعوب وهو أن يرغم الحكام على الإصلاح، وهكذا رأى أهل مصر إلا ملجأ لهم من طغيان إبراهيم ومراد، إلا أن يلجئوا إلى القوة والثورة.

بعد مضي سنة واحدة من حكم الطاغيتين، ثارت مسألة في خلاف على وقف، ولم يكن للمسألة في ذاتها خطر خاص، بل كان القصد منها نضالاً على مبدأ قانوني وهو: هل يجوز للأمير القوي أن يدل بقوته ويثور على القانون فيعصاه، أم لا بد له من الخضوع للقانون ولو كان خصمه ضعيفاً لا سند له من سلطان الدولة، وكانت الخصومة بين رجل من أفراد الشعب، وأمير من كبار الأمراء من عصبة الطغيان، واعتصم الرجل الضعيف بالشريعة فلجأ إلى القضاء، ولوح الأمير القوي بالقوة والبطش، وحكم الشرع للرجل الضعيف، فأبى الأمير الإذعان للحق؛ وأصبح الأمر معلقاً بين أن ينتصر القانون، وبين أن تجتاح القوة كل سياج وكل حرمة.

فأدرك العلماء أن واجبهم يناديهم - وهم ممثلو الشعب والطبقة المستنيرة منه - بالمحافظة على القانون والحق، ولم يترددوا لحظة، بل هبوا لنداء الواجب، وتصدر فيهم زعيم اسمه الشيخ الدردير، رحمه الله وطيب ثراه، فأرعد الأمير المدل وابرق، وأرغى وأزبد، ونهر وتوعد، فوقف العلماء وثبتوا، وأرغوا وأزبدوا كذلك، وقام الشعب من ورائهم يؤيدهم. وكانت مظاهرة كبرى، فأغلق الناس حوانيتهم لينظروا مآل النضال بين الحق والقوة، وأوشك الأمر أن يؤدي إلى فوضى شاملة، لولا أن جزع عقلاء الأمراء من ذلك الاضطراب، وأشفقوا من تلك الحال فاجتمعوا وتشاوروا ثم أرسلوا إلى الأمير المعاند فلاموه على وقفته، وأمروه بالنزول على ما أراد القانون، فأذعن وهو كاره بعد مشادة عنيفة، ولم يرض العلماء أن يدعوا الأمر يفلت من أيديهم بغير حق مسجل يكتسبونه للناس، فطلبوا أن تكتب لهم وثيقة بالحق المكتسب، وكتب لهم صلح رسمي به شروط على الأمراء، وتعهد من الحكام بالتزام ما يقضي به القانون ويحتمه العرف.

وقد أثرت أمثال هذه الصيحة في الأمراء، فصاروا يخشون الشعب خشية عظيمة، حتى إنه عندما أشيع مجيء الحملة التركية لإصلاح الحكم في مدة مراد وإبراهيم بقيادة القبودان

حسن باشا، ذعر الطاغيتان خوفاً من أن ينتهز الشعب تلك الفرصة فيثور مظهراً ما في نفسه من الألم، فحاولوا التقرب إلى زعمائه، وقد وصف أحد من شهد ذلك العصر تذلل الأمراء بقوله: (فذهب إبراهيم بك إلى الشيخ البكري، ثم الشيخ العرومي والشيخ الدردير، وصار يبكي لهم وتصاغر في نفسه جداً وأوصاهم على المحافظة وكف الرعية عن أمر يحدثونه أو قومة أو حركة في مثل هذا الوقت، فانه كان يخاف ذلك جداً) والحق أن شعب مصر كان عند ذلك قوى الإحساس بنفسه، وبما ينبغي له من الحرية، وما يجب له من الحقوق، لا يتهاون في إظهار ذلك الإحساس بشتى الوسائل كلما لاحت له فرصة، أو كلما حدث حادث يشتم منه رائحة الاستهانة بكرامته أو الاعتداء على حرماته. ولهذا كانت ثوراته تتوالى عند كل مناسبة، فما تكاد ثورة تهدأ في القاهرة حتى تشب أخت لها في رشيد، وما تكاد تلك تخبو حتى تبدأ أخرى في بلبيس، وكان بعض هذه الثورات يبدو عنيفاً كأنما هو ينذر بثورة شاملة كثورة فرنسا. ونحن إذا بحثنا حال فرنسا قبيل ثورتها لا نستطيع أن نرى من بوادر ثوران النفوس أكثر مما بدا في أواخر القرن الثامن عشر في مصر، فان فرنسا ظلت على ما كانت عليه من سوء الحكم، ومن العبث بالحريات إلى أواخر ذلك القرن؛ لا بل إن سوء الحكم فيها قد زاد في أواخر ذلك القرن عما كان في أواسطه، فكانت أفاعيل لويس الخامس عشر وخليلته المشؤومة في أواخر ذلك القرن جديرة بكل حنق وكل غيظ، ولكن الفرنسيين لم يثوروا عند ذلك، وإنما كانت ثورتهم في أيام الملك الطيب الذي جاء عقبه، أما في مصر فقد بدت تلك الثورات كالشرر المتطاير وما كان أقمنها أن تنتهي إما بثورة تامة كثورة فرنسا، وأما بإصلاح تدريجي شامل يتناول كل نظمها.

وأغلب ظننا أن حكام مصر ما كانوا ليسمحوا للأمور أن تتفاقم إلى أن تحرج الصدور وتدفع بها إلى الثورة المدمرة، فقد كانوا دائماً ينزلون عند إرادة الشعب بعد أن يروا غضبته، ويصلحون ما يشكوا منه من فساد، ويقومون ما يشير إليه من اعوجاج؛

وتكررت الأمثلة الدالة على ذلك

فريد أبو حديد

مصر في خاتمة القرن السابع عشر

كما رآها العلامة عبد الغني النابلسي

للأستاذ محمد عبد الله عنان

ليس في تاريخ مصر الإسلامية أغمض من العصر التركي بل نستطيع أن نقول إن ليل الإسلام وليل الأمم العربية والإسلامية كلها يبتدئ بابتداء العصر التركي. وبينما نرى تاريخ مصر الإسلامية زاهراً وضاء قبل الفتح التركي إذا الستار كثيف من الغموض والظلمات ينسدل من بعده على هذه العصور المجيدة، وإذا بالانحلال والفساد والفوضى تغمر ذلك المجتمع الزاهر الذي لبث قروناً يسطع خلال العصور الوسطى؛ وفي هذه المرحلة الغامضة المؤسية من تاريخ مصر لا نظفر بكثير من المواد أو المصادر التي تلقي كبير ضوء على المجتمع المصري، ولا يدون المؤرخ غير تعاقب الولاة الترك ولا يكاد يروي لنا شيئا من الأحداث العظيمة أو الحوادث الشائقة، اللهم إلا في أواخر هذا العصر، حينما تستيقظ الحركة القومية المصرية من سباتها الطويل، وينزع الزعماء المماليك إلى تحطيم نير الأجنبي، ثم تمهد الحملة الفرنسية لانهيار الحكم التركي، وبزوغ العصر الجديد.

بيد أننا نستطيع أن نتتبع أحوال المجتمع المصري في تلك المرحلة على يد جمهور من الأدباء والرحل الذين وفدوا على مصر في تلك العصور سواء من الشرق أو الغرب. وقد انتهت إلينا طائفة من مشاهداتهم التي دونوها في رحلاتهم، وهي وثائق لها قيمتها في الكشف عن بعض نواحي المجتمع المصري في هذا العصر؛ ثم هنالك أنفس آثار هذه المرحلة إطلاقا، وهي مذكرات الجبرتي التي تلقي أعظم ضياء على تاريخ مصر والمجتمع المصري في القرن الثامن عشر، وأوائل القرن التاسع عشر.

وقد رأينا أن نستعرض مشاهدات أولئك الرحل كلما سنحت الفرص، وأن نستخرج من آثارهم ما يفيد في تعرف أحوال المجتمع المصري في تلك المرحلة، وسنبدأ اليوم باستعراض رحلة علامة وأديب دمشقي وفد على مصر في خاتمة القرن السابع عشر، وترك لنا عن رحلته بمصر أثراً يدون به بعض الملاحظات المفيدة عن المجتمع المصري في ذلك العصر.

ذلك الرحالة هو الفقيه والعلامة الصوفي الشهير عبد الغني النابلسي، وهو شخصية غريبة

تستحق الدرس؛ بيد أنا نكتفي هنا بترجمته بإيجاز، فهو عبد الغني بن إسماعيل بن عبد الغني أبن إسماعيل بن أحمد النابلسي الحنفي الدمشقي النقشبندي القادري، وينعت بشيخ الإسلام وأستاذ الأساتذة؛ ولد بدمشق في سنة 1050 هـ (1640 م) ودرس القرآن والحديث والفقه والنحو، وقرأ على أعظم شيوخ العصر في دمشق، وانتظم منذ فتوته في الطريقة القادرية ثم الطريقة النقشبندية، وأنكب على قراءة الأدب الصوفي ولا سيما آثار محي الدين ابن العربي؛ وتولى التدريس حيناً بالجامع الأموي؛ وحمله تيار التصوف في شبابه إلى نوع من الشذوذ والهيام فلزم داره مدى أعوام، وأطلق شعره حتى تدلى على كتفيه، وأطلق أظافره، وصارت تعتريه نوبات من الذهول حتى ظن أنه جن؛ ورماه خصومه بالزندقة واشتدت الحملة عليه؛ ولكنه تغلب على خصومه، وضاعفت المحنة هيبته وشهرته؛ وكان مغرماً بالسياحة، فسافر إلى استانبول أو دار الخلافة كما كانت تسمى يومئذ، سنة 1075 هـ (1664 م) ومكث بها حيناً؛ ثم طاف بالشام وثغوره، ورحل بعد ذلك إلى مصر والحجاز؛ وانقطع للتدريس منذ سنة 1115 هـ، وهو في الخامسة والستين من عمره وأقام في أواخر حياته بالصالحية على مقربة من دمشق، وعلا قدره وطار صيته، وتوفي سنة 1143 هـ (1730 م) وقد أربى على التسعين من عمره، ودفن بالصالحية، وقبره يعتبر مزاراً يتبرك به إلى اليوم.

وكتب النابلسي عدة كبيرة من الكتب والرسائل في التفسير والحديث والفقه والتصوف؛ وقد اشتهر بالأخص ببديعيته في مدح النبي صلى الله عليه وسلم وهي المسماة (نسمات الأسحار في مدح النبي المختار)؛ وله شرح لديوان ابن الفارض؛ ومنظومة في تاريخ ملوك بني عثمان؛ ودون رحلته عن الشام ومصر والحجاز في سفر

كبير اسماه (الحقيقة والمجاز)؛ وبلغت مؤلفاته ورسائله أكثر من مائة، اشتهر الكثير منها في أنحاء العالم الإسلامي

كانت أمنية الحج باعث الرحلة الكبيرة التي قام بها عبد الغني النابلسي سنة 1105 هـ (1693 م) في الشام ومصر والحجاز؛ وهو يخصص لهذه الرحلة كما قدمنا سفراً خاصاً عنوانه (الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز)، لدينا منه بدار الكتب نسخة خطية جميلة؛ وينقسم الكتاب إلى ثلاثة أقسام، يخصص القسم الأول منه لرحلة الشام وفلسطين، والثاني للرحلة المصرية، والثالث لرحلة الحجاز؛ ويدون النابلسي رحلته

بطريقة اليوميات، فيذكر تنقلاته وزياراته ومشاهداته، ويستطرد في أحيان كثيرة إلى ذكر النبذ التاريخية والأدبية؛ وقد بدأ رحلته من مدينة دمشق في غرة المحرم سنة 1105، (2 سبتمبر سنة 1693) وطاف أولاً بمدن الشام وثغوره، ووصل إلى الحدود المصرية حسبما يذكر في يومياته في اليوم الثالث بعد المائة من بدء الرحلة وذلك في 14 ربيع الثاني سنة 1105، ودخل مدينة القاهرة من باب الشعرية في 24 ربيع الثاني (أواخر ديسمبر سنة 1693) وهو يحييها بإعجاب وحماسة كما حياها من قبل جميع الأعلام الوافدين عليها من المشرق والمغرب؛ ونزل ضيفاً على صديقه الشيخ شاهين بن فتح الله حيث أفرد له داراً خاصة ملاصقة لداره ورتب له بها كل ما يلزم لراحته ورفاهته؛ وكان أول من استقبله من أعيان مصر عميد السادة البكرية السيد زين العابدين البكري، فزاره بداره الواقعة على بركة الأزبكية، ويشير النابلسي إلى فخامة هذه الدار وروعة مجلسها المنيف المطل على البركة، ويصف البركة الشهيرة (ذات الروح والريحان التي فيها نفحة من نفحات الجنان)؛ ثم يصف الحمام المجاور لدار البكرية، وبه جناح خاص لا يدخله سوى السيد، وقد دعاه إليه وتمتع بالاستحمام فيه. وكان والي مصر التركي يومئذ علي باشا خازن دار واليها من قبل السلطان أحمد خان (1690 - 94)، فاستصحبه السيد البكري لزيارته بمنزله بالقصر العيني المطل على النيل؛ وكان لمضيفه السيد شاهين علاقة صداقة بالوزير (الوالي) فكان يدعوه للمنادمة، ويذهب النابلسي معه إلى مجلس الباشا فيقضيان في زيارته أوقاتاً طويلة وزار النابلسي المحكمة وقاضيها التركي عارف أفندي وأعجب بضخامتها وبساتينها اليانعة، وزار مراد بك المصري وهو من أعيان الصناجق المصرية بقصره الفخم في (سبيل علام) على قيد ساعتين من القاهرة، وينعته (بفخر الأكارم والاماجد) وقد اعجب النابلسي بفخامة مجالس أعيان المصريين وبذخها وحسن روائها، وكانت تجهز بالأنوار الساطعة من قناديل وشموع، تطلق فيها مباخر العود والعنبر، وينتظم فيها أهل الفن ويوقعون نغماتهم الساحرة على الجنك والعود والرباب وتنشد فيها القصائد الغراء، وبالجملة. فقد كانت مجالس السَحر والطرب والسمر الرفيع.

ويصف النابلسي جزيرة الروضة وجمالها، والمقياس وعجائبه وجامع عمرو وفخامته؛ ثم قلعة الجبل، وقد كانت مركز الوزير التركي (الوالي) وبها ديوان العساكر، ويصف لنا المؤرخ بئر (الحلزون) الشهيرة التي أنشأها بها السلطان الغوري لاستخراج الماء من أعماق الأرض وقد شهد البقر تدور فيها على عمق سحيق، وكان بالقلعة يومئذ عدة من السرايات والجوامع والمساجد والحمامات كأنها مدينة مستقلة، وأبراجها العظيمة مما يفلت الأنظار، وكان بها مصنع خاص لعمل الكسوة النبوية، وعمل السجاد للحرم الشريف.

ثم يحدثنا الرحالة عن الجامع الأزهر وعن شيخه وهو يومئذ الشيخ منصور المنوفي الشافعي الضرير، وكان يكثر من زيارته ويجتمع بأستاذته وطلابه ويستمع لبعض ما يلقى فيه من دروس ويقول لنا النابلسي إن طلبة الأزهر رجوه في إلقاء بعض دروس في الحديث فأعتذر إليهم، وكانوا يجتمعون حوله، ويلتمسون بركته، وهو يبكي تأثراً.

وكان الرحالة كثيراً ما يمر في غدواته وروحاته بباب زويلة، وقد كان يومئذ مخرج القاهرة القديمة من الجنوب، ولم يفته أن يصف محلة زويلة، وما كان يجتمع بها يومئذ من أرباب الملاعب والسميا، وهم طائفة المهرجين والحواة، الذين لم ينقرض نسلهم إلى يومنا

على أن أهم ما عنى به الرحالة هو زيارته للقرافة ومزاراتها، وقد كانت الفسطاط ما تزال مجمع المقابر والمزارات الفخمة، تتوسطها مقبرة الشافعي الخالدة؛ وكان

النابلسي كما رأينا من أقطاب الصوفية الذين تستهويهم ذكريات القبور والمزارات المشهورة، ومن ثم نراه يفيض في وصف زياراته للقرافة ومقابر الفسطاط التاريخية ولا سيما مقبرة الشافعي، وينوه بعظمتها وسحرها، ويترجم لمن يأتي ذكرهم من العلماء والأولياء؛ ثم يصف زيارته لمزار وليه المصطفى ابن الفارض بجامع القرافة، كما يصف لنا حلقات الذكر الصوفي الذي تنشد فيه القصائد والأناشيد المؤثرة، ويقول لنا إنه شهد الأولياء أحياناً يأخذهم التأثر فيمزق بعضهم ثيابه أو يدوس الناس هائماً على وجهه لا يلوي على شيء

ولبث النابلسي بالقاهرة ثمانين يوماً حتى اقترب موعد السفر إلى الحج؛ فقابل أمير الحاج المصري إبراهيم بك واستشاره في خير الوسائل للسفر الأمين، وبذل أمير الحج له ما استطاع من النصح والمعونة، وأعد النابلسي عدته للسفر وودع أصدقائه في مظاهر مؤثرة، وغادر القاهرة في السادس من رجب (سنة 1105) في ركب من المصريين والشاميين، وغادرها من باب الشعرية كما دخلها، وودع الوزير خارج القاهرة بقصره بالعادلية، وإلى هنا تنتهي رحلته المصرية

وإذا كان النابلسي لم يعن كثيراً بدراسة أحوال المجتمع المصري يومئذ ولم يقدم إلينا عنه بيانات شافية، فأنه يقدم إلينا بيانات وملاحظات لها قيمتها في دراسة المجتمع المصري في خاتمة القرن السابع عشر؛ ولعل أنفس ما فيها أقواله عن معالم القاهرة ومعاهدها، فهذه الأقوال في ذكر أبواب القاهرة وبركة الأزبكية وجزيرة الروضة والمزارات الشهيرة وغيرها ما يفيد في تعرف خطط القاهرة في هذا العصر، وهي تعتبر حلقة في مجموعة الآثار التي لدينا عن الخطط، ثم أن أحاديثه عن أعيان القاهرة وعن مجالسهم من الصور التي لها قيمتها في تعرف مجتمع هذا العصر، ولنذكر أن العصر الذي يحدثنا عنه النابلسي يسبق بداية العصر الذي يحدثنا عنه الجبروتي بنحو خمسين عاماً فقط، ومن ثم ففي وسعنا أن نصل بين المواد المشتركة في هذين الأثرين في دراسة المجتمع المصري في القرن الثامن عشر

محمد عبد الله عنان

في الأدب المقارن

التشابه والاختلاف في الأدبين العربي والإنجليزي

خاتمة

للأستاذ فخري أبو السعود

يروع الناظر في الأدبين العربي والإنجليزي شدة ما بينهما من تباعد، وكثرة ما هناك من وجوه الاختلاف، وقلة ما فيها من وجوه التشابه والاتفاق، ولا غرو فان الظرف الجغرافية والتاريخية التي أحاطت بنشأة كل منهما ونموه وازدهاره، وكانت متباينة أي تباين، والعوامل الاجتماعية والسياسية التي تترك آثارها في الأدب كانت متضادة أي تضاد، فجاء الأدبان اللذان هما وليدا تلك الظروف والعوامل مختلفين أعظم اختلاف، في الموضوعات والأساليب والأشكال والأغراض، ولم يتفقا إلا في كل عام من الوجوه التي يستوي فيها جميع الآداب لشيوعها بين جميع شعوب الإنسانية

فالأمة العربية أمة سامية ضربت في فيافي الجزيرة أحقاباً، وترعرع أدبها تحت سماء البادية، ثم خرجت من جزيرتها فورثت حضارات الأمم الشرقية، وأخضعت لسلطانها أغنى بلاد الشرق وسيرت تحت لوائها شعوباً أرقى منها مدنية وأعرق في العلم والصناعة ودانت لحكومة ملكية مطلقة، وكان الدين أساس دولتها وشارة مجتمعها؛ والأمة الإنجليزية أمة آرية خرجت من جزيرتها المنعزلة فجولت في البحار، وشاركت في تراث الإغريق والرومان، واعتنقت المسيحية، وساهمت في الحضارة الأوربية، وتمسكت بنظام الحكم الديمقراطي؛ فهما أمتان مختلفتان في الجبلة ونوع المجتمع ومتجه التفكير، فاختلفت أدباهما تبعاً لذلك، ولم يتفقا كما تقدم إلا في وجوه عامة ومناح عارضة:

فعصر الجاهلية في تاريخ الأدب العربي شبيه بعصر ما قبل اليزابث في التاريخ والأدب الإنجليزيين: ففي ذينك العصرين كان كل من الشعبين يعيش داخل جزيرته في عزلة كبيرة عن العالم. على حال شبيه بعصر الأبطال في بلاد اليونان الذي أنتج ملاحم هوميروس، وكان الأدبان تبعاً لذلك جافين، وعرى اللفظ والأسلوب، ساذجي المعنى،

بعيدين عن الصناعة الفنية، وكانا أقل رقياً من الأدب الفني الذي جاء في العصر التالي، وإن يكن
الأدب العربي بلغ في عهد الجاهلية والبداوة والعزلة مبلغاً من الرقي أعلى كثيراً من
مبلغ الأدب الإنجليزي قبل أن يتصل اتصالاً وثيقاً بثقافات الأمم الأخرى وآدابها
ونهضة العرب بظهور الإسلام تماثل نهضة الإنجليز في عصر اليزابيث، بوصول النهضة
الأوربية إلى إنجلترا، واتجاه نظر الإنجليز إلى ما وراء البحر، ففي كل من هذين
العصرين بدأت الأمة تخرج من محيط جزيرتها وتشب عن طوق عزلتها، وتتصل بالعالم
وتصطنع حضارته، وتبني لنفسها إمبراطورية مترامية الأطراف، وارتقى أدبها من جراء
ذلك ارتقاء عظيماً، ورقت ديباجته ودخل في طوره الفني، طور الإنشاء المحكّم
والمجهود الأدبي المتصل، وانتشرت كلتا اللغتين في بقاع الأرض وافتتحت آدابها كثيراً
من الأمم: فاللسان العربي الذي لم يكن يتجاوز حدود الجزيرة في الجاهلية، صار
يتكلم من تخوم الصين إلى المحيط الأطلسي، وأثر في لغات وأزال غيرها وحل محلها،
واللغة الإنجليزية التي لم يكن يتكلمها إلا ملايين معدودة في عهد شكسبير أصبحت
تتكلم وتدرس في مشارق الأرض ومغاربها، وأصبح أدبها عالمياً كما كان أدب العرب
عالمياً على عهد عظمتهم
ولم تكن كل من الأمتين توطد أركان إمبراطوريتها حتى انسلخ عنها جانب من أملاكها
ونما مستقلاً حتى طاولها في النفوذ والسلطان، ودناها في ازدهار العلوم والآداب:
فكما انفصلت الأندلس عن الخلافة العربية، استقلت الولايات الأمريكية عن
الإمبراطورية البريطانية، بيد أن البلاد الأصلية احتفظت بالزعامة الأدبية على طول
المدى: فلم تنجب الأندلس من الأدباء من بذوا فحول العباسيين، ولا ظهر في أمريكا
ولا غيرها من أنحاء الإمبراطورية البريطانية من دانى شكسبير وملتون، فلعل التراث
الثقافي الحافل، والماضي التاريخي المؤثل من ضروريات ازدهار الأدب الأساسية،
وذلك ما كان يعوز الأندلس الإسلامية، وما يعوز أمريكا الحديثة، فظلت كلتاهما تلتفتان
إلى الوطن الأول في طلب النموذج والمنهاج والوحي
وكلا الأدبين العربي والإنجليزي تأثر إلى حد بعيد بالكتاب السماوي الذي تدين به أمته:
فأثر القرآن في المجتمع العربي وتاريخ اللغة العربية وآدابها وثقافة آدابها وأساليبهم
جسيم شامل، فقد كان منذ جاء مثلاً أعلى في البلاغة وثقافة قائمة بذاتها، والإنجيل
منذ ترجم إلى الإنجليزية في عهد صلاح الديني كانت له اليد الطولى في تثبيت
الأسلوب النثري
الإنجليزي، وتثبيت مفردات اللغة وإدخال مفردات جديدة، واشتقاق غيرها، واختراع
طرق للاشتقاق أدت إلى توسيع جوانب اللغة، وكان دائماً قدوة للأدباء يحتذونها في
إسلاس الأسلوب، وله أثر مباشر جلي في كتابين هما من ذخائر الأدب الإنجليزي،
أحدهما (رحلة الحاج) لبنيان والثاني (الفردوس المفقود) لملتون، ففي كليهما يقوم
أساس القصة على ما ورد في الإنجيل من أنباء الخلق والبعث والحساب، بل أن
دراسة الإنجيل كانت هي الثقافة الوحيدة التي نالها بنيان، الذي كان قساً ضئيل الحظ
من العلم، ومع ذلك يعد أسلوبه المبني على أسلوب الإنجيل في الذروة في أدب اللغة.
تلك أمثلة من وجوه التشابه في الأدبين، وظاهر أنه تشابه عام عارض محدود، أما
وجوه التناقض فعديدة تشمل نواحي الأدب وتضرب جذورها في صميمه: فالأدب
العربي ازدهر في كل دولة إسلامية فهو أشد تأثراً واصطباغاً بالنزعة الدينية من الأدب
الإنجليزي، ومع ذلك قد جرى العرب إلى غايات من الترف واجتناء اللذات لم يبلغ
بعضها الإنجليز، وبدأ أثر ذلك الترف المغرق بجانب ذلك الروح الديني في أدبهم؛
وقضت التقاليد التي نمت في المجتمع الإسلامي بإسدال الحجاب على المرأة، فتقلص
ظلها من المجتمع وضؤل أثرها في الأدب، وازداد ضآلة بمرور الأيام بدل أن يزداد
جسامة بتوطد الحضارة وذيوع التعليم واتساع جوانب الأدب، فكانت المرأة الإنجليزية
أبين أثراً في أدبها - كاتبة ومكتوبا عنها - من المرأة العربية.
وعرف الإنجليز فنونا لم يحفل بها العرب كثيرا كالتصوير والنحت، وأغرموا بما اطلعوا
عليه من آثار تلك الفنون من مخلفات الأمم القديمة، وامتلأ أدبهم بوصف كل ذلك
وتقديره والأدب العربي يكاد يكون خلوا من ذلك؛ وانكب أدباء الإنجليزية على دراسة
الآداب الأوربية المعاصرة وأفادوا منها كثيراً، وتوفروا خاصة على دراسة الأدب

الإغريقي القديم، فكان لهذا الأدب أبعد الآثار وأشملها في الأدب الإنجليزي: رحب آفاقه وبسط أساليبه وأشكاله، ومد أمامه منادح القول ووجه نظره إلى جمال الحياة الذي تصويره غرض الأدب والفن جميعاً واكتسب الأدب الإنجليزي صبغة إغريقية ظل الأدب العربي بعيداً عنها، فأن هذا الأخير لشديد اعتداده بنفسه لم يحاول أن يطلع على آداب غيره، أو يستفيد من تراث اليونان الأدبي الحافل فكان ذلك الإقبال على الأدب الإغريقي من جانب الإنجليز، وذلك
الأعراض عنه من جانب العرب من أكبر دواعي اختلاف الأدبين وتباعدهما.
وفي عهد الدولة والحضارة والثقافة، عهد الطور الفني للأدب حين يبلغ أوج رقيه، رضخ العرب للملكية المطلقة، والملكية تكف الشعب عن الحكم وتكف الأدب عن النقد والإصلاح وتلحق الأدباء بحاشيتها، فجاء الأدب العربي بلاطياً في جملته، يمتدح بمآثر الملوك ويصف مواكبهم ومظاهر عظمتهم، ويغفل الشعب وأحواله وآماله إلى حد بعيد، على حين اعتمد الأدب الإنجليزي في اكثر عصوره على استجلاب رضا الشعب، وتصوير أحواله ونشدان آماله، فامتلاء الأدب الإنجليزي بالنظرات النقدية والقصص الاجتماعية والبحوث السياسية، وحفل بتمجيد الحرية والديمقراطية واحترام الفردية والرأي العام، على حين امتلاء الأدب العربي بالمدائح والرسائل الديوانية، فمن أكبر مظاهر اختلاف الأدبين العربي والإنجليزي، صبغة الأخير الشعبية الفردية وصبغة الأول البلاطية الرسمية.
وهذا الانضواء تحت لواء الملكية أكسب الأدب العربي صفات وخصائص ظل الأدب الإنجليزي خلوا منها: فغلبت على الأدب العربي - الذي تعود الإغضاء والرضا بالكائن وعدم محاولة الإصلاح - نزعة المحافظة والتقليد، على حين سادت الأدب الإنجليزي روح التجديد، وتجدد على طول العصور لفظا وأسلوبا وموضوعا؛ وكان من دواعي تلك المحافظة أيضا اشتغال غير العرب بالأدب العربي، بل ظهورهم على العرب في جمال الصناعة الأدبية، وقدم من جراء ذلك كله الأسلوب على المعنى، وكان يعد أديباً من تمكن من أصول اللغة وأحكم إنشاء الجمل البليغة، لا من لطف حسه وأرهف شعوره، واتسعت نظرته وسمت فكرته في الحياة؛ وكان من أثر نزعة المحافظة والجمود التي سادت الأدب العربي أن جمدت أشكاله وموضوعاته، فلم تتطور أشكاله وتتميز وتتعدد، ولم تتجدد موضوعاته وتتكاثر وتتوالد، على حين كان تاريخ الأدب الإنجليزي تاريخ تجدد مستمر وإخصاب متزايد في هذه النواحي جميعا.
ولسير الأدب العربي في ركاب الأمراء، واعتماده على عطفهم دون عطف الجمهور، أهمل الأدب موضوعات كثيرة هي من صميم الفن ولباب الحياة، وهي هم الأديب المفكر المحس، كعبادة مفاتن الطبيعة والتفنن في عرضها، واستلهام حكم التاريخ والتأنق في وصفها، واستيحاء جلائل البطولة وتصوير روائعها، واستخلاص مواضع الفتنة والمتعة
والجمال من خرافات الأقدمين، وإرضاء الفن بنظمها وتجديد شبابها، وعرض آثار الرحلات التي يقوم بها الأديب ووقعها في نفسه، والسبح في عوالم الخيال البعيدة الساحرة، والضرب في أعماق الماضي وآماد المستقبل وآفاق الإنسانية الواسعة، كان الأدب العربي - لاعتماده على صلات الأمراء - في شغل شاغل بحاضر العيش وقريب المطلب عن كل تلك العوالم الزاخرة بالفن والحياة والشعور والمتعة، فأهمل بعضها ولم يمس بعضها إلا مساً رفيقاً، وبكل هاتيك العوالم وذخائرها وأصدائها يحفل الأدب الإنجليزي
هذا الاختلاف المطرد الشامل في البيئة والمجتمع والموضوع والأسلوب، مرجع ذلك الاختلاف الرائع الملحوظ بين كتب الأدبي العرب وكتب الأدب الإنجليزي، وفحول هذا وأقطاب ذاك، وسيرهم وآثارهم وعقليا تهم وشخصياتهم، حتى ما نكاد نرى في الأدبين شاعرين متماثلين أو كاتبين يذكرنا إحداهما بالآخر، من جهة العقلية والأسلوب أو الموضوعات، أو يتشابه موضوع كتاب هنا وموضوع كتاب هناك، أو تخال فكرة قصيدة في هذا الأدب صادرة عن نفس الحالة النفسية الصادرة عنها أخرى في الأدب الآخر، ليس هناك شيء من ذلك، وليس بين الأدبين إلا التباعد والتناكر، كما يتباعد ويتناكر شخصان غريبان مختلفا الموطن والنشأة والتربية، والعقيدة الدينية والثقافة، والنزعة في الحياة والمتجه في التفكير

فإذا وازنا بين كبيري شعراء الأدبين، المتنبي وشكسبير، بدا لنا الاختلاف والبون العظيم: فجانب كبير من شعر المتنبي موقوف على المدح والهجاء، ولم يقل فيهما شكسبير حرفاً، وشعر المتنبي مليء بالحكم البليغة الموجزة المتجاورة يزاحم بعضها بعضاً وشعر شكسبير حافل بوصف الشخصيات وتحليل النفوس تحليلاً مسهباً لا يتوخى بلاغة الإيجاز في شيء؛ وبجانب المدح والهجاء والحكمة وما يتصل بذلك لم يكد المتنبي يطرق موضوعاً آخر بعيداً عن دائرة حياته الشخصية، بينما روايات شكسبير وقصائده تعج بوصف الطبيعة وتقديس الفنون كالموسيقى وتمجيد الأبطال، وتضرب في شعاب الخرافة وأرجاء التاريخ؛ وشكسبير يراوح في نظمه بين أشكال الشعر المختلفة، بين الشعر المرسل والدوبيت والسونيت، والفقرات المتراوحة طولاً، المتداخلة القوافي، وقد دعي ضرب من السونيت باسمه لما أكسبه بعبقريته من مرونة، على حين ظل المتنبي - وهو الشاعر العظيم المتمكن من اللغة والأدب المطلع على حقائق الحياة - متمسكاً بالشكل الشعري الوحيد الذي وصل إليه من المتقدمين، وهو القصيدة المصرعة الموحدة الوزن والقافية غير الموحدة الفكرة، فلم يمنح الأدب العربي شكلاً ولا موضوعاً لم يكن من قبله؛ وعاش المتنبي ومات طامحاً إلى الملك وتضريب الأعناق، ساخطا على تبريزه في مضمار الأدب الذي كان يحسد عليه ويكاد له من أجله، ولم يكن شيء من ذلك مما يخطر لشكسبير على بال

وجلى واضح أن هذه الفروق بين الشاعرين العظيمين إنما ترجع إلى العوامل الاجتماعية والسياسية، التي كانت تحيط بكل منهما وتكون نفسيته وعقليته، وإلى هذه العوامل ذاتها يرجع التباين الشديد بين أبي نؤاس وأبي تمام والبحتري وأبن العميد وبديع الزمان من جهة، وبين ملتون وبيرون وشلي وكيتس وجيبون وكارليل وماكولي من جهة أخرى، وهو تباين يجعل من المحال تشبيه واحد من الفريق الأول بواحد من الفريق الثاني، في سيرته في الحياة أو فلسفته الفكرية أو مذهبه الأدبي. وإن كان من أسهل الأمور استخراج العديد من أوجه الاختلاف والتضاد.

هذا الاختلاف في البيئتين الجغرافية والظروف التاريخية، والعوامل الاجتماعية والاقتصادية، والجبلة والتقاليد والمنازع، وهذا التباين بين الأدبين في المشرب والأسلوب والموضوع وشخصيات الأدباء وسيرهم، كل ذلك يجعل الموازنة بين الأدبين من أمتع الدراسات الأدبية وأحفلها بالدروس والعبر، وادعاها إلى استخلاص المبادئ والنظريات الأدبية. وإلى التفطن إلى العوامل المؤثرة في الآداب ونتائجها، وقديماً قيل: وبضدها تتميز الأشياء، ولو كان الأدبان شديدي التشابه وليدي ظروف متقاربة وعوامل مؤثرة متماثلة، لما كان في الموازنة بينهما كبير طائل، ولا كان تتبع ظواهرهما يستحق طويل عناء، ولأشبها أن يكونا أدبا واحدا مشتركا بين أمتين، موزعا بين لسانين.

فخري أبو السعود

واجبنا الثقافي نحو الآداب والفنون

للأستاذ إسماعيل مظهر

قال الأستاذ الكبير لزلي إستيفن في أول الفصل الثاني من كتابه العظيم (الفكر الإنجليزي في القرن الثامن عشر) ما يلي:

إن الكتب التي هي بمثابة الدعائم الثابتة في تاريخ الآداب، إنما تكون من الطائفتين: أحدهما طائفة الكتب التي تلخص جدل الماضي، والثانية طائفة الكتب التي تعد جدل المستقبل

والظاهر من كلام هذا الرجل الفذ يتضمن في مطاويه كثيرا من الحقائق التي ينبغي لنا أن ننعم النظر فيها، ونطيل التأمل والاستبصار منها، ذلك بأن آدابنا وفنوننا حتى الآن تفتقر إلى الطائفتين معاً: تحتاج إلى كتب تلخص جدل الماضي، وتحتاج إلى كتب تعد العدة لجدل المستقبل.

أما الكتب التي تلخص جدل الماضي فلا سبيل إليها إلا بالترجمة والنقل عن اللغات الأخرى، لنستكمل بها - في لغتنا العربية المنيفة - الأداة التي تعدنا لجدل المستقبل.

وعلى هذا نريد أن ننظر أتسع آدابنا وفنوننا اليوم تلك الكتب التي تتضمن مشاكل الماضي وتعدنا لمشاكل المستقبل؟

أما الذين هم أميل إلى التفاؤل فيقولون إن ما بين أيدينا من الكتب يكفي لتكوين

الأديب الذي يستطيع أن يخلق القضايا العقلية والنظريات التي سوف تكون عدة الجدل في المستقبل. وعلى النقيض من هؤلاء فئة تذهب إلى عكس ما تذهب إليه الأولى وإن كل من يعرف مقدار التراث الذي خلفته القرون الأولى، ويجول بفكره جولة يقطع بها تاريخ ستين قرناً من الزمان ليقنعه بعدُ الشقة التي تفصل بين أبناء العرب وبين المراجع التي هي عدة لجدل المستقبل، بلزوم الإكباب على درس ما يلخص جدل الماضي، من آثار الآداب والفنون.

عن لي أن أكتب في هذا الموضوع، وأن أخص الرسالة بما أكتب، إثر سؤال تقدم به إلي صديق من خريجي الأزهر ومن رجال التخصص فيه يريد به أن يعرف المصادر التي يستطيع أن يدرس فيها تاريخ الاسكندر المقدوني وحياته وأعماله، وقد أراد أن يكتب رسالة

في تاريخ هذا الرجل وأن يعقد في الرسالة فصلا يبحث فيه العلاقة التاريخية بين الاسكندر المقدوني وذي القرنين الذي ورد ذكره في القرآن الكريم، وعبثاً ما حاولت أن أستذكر اسم كتاب واحد في اللغة العربية يمكن أن يتخذ مرجعاً في مثل هذا الدرس التاريخي الحافل. وهب أني استطعت أن اقفه على أسم كتاب أو كتابين، على تقدير ذلك، فهل ذلك يغنيه عن الرجوع إلى المصادر القديمة التي تصدت لذكر الاسكندر المقدوني وفتوحاته، مثل فلوطرخوس وإفلينيوس وإسطرايون وبطليموس ويوستين وكورتيوس وغيرهم وغيرهم ممن لا تحصيهم الذاكرة، وهل ذلك يغنيه إذا أراد أن يكتب في أخلاق الإسكندر عن درس المراجع التي كتبت في فيليبس الثاني أبيه، والمراجع التي كتبت في صفات أمه أولمبياس؟ هل ذلك يغنيه عن أن يعرف أن هناك قصة أكثر ما فيها خرافي تدعى عند الأعاجم قصة الاسكندر، يرجح الثقات أنها كتبت في مصر في خلال القرن الثالث الميلادي، وأن هذه القصة ترجمت إلى أكثر اللغات الحية ما عدا العربية بالطبع، وأن ذيوع هذه القصة كان سبباً فيما ذاع عن الإسكندر من الخرافات، حتى قيل إنه نبي مرة وإنه رسول مرة أخرى؟

ذكرت للأديب العالم الذي سألني مجمل هذه الأشياء، وزدت على ذلك أن درس تاريخ الإسكندر على الصورة التي رسمها يحتاج إلى إلمام بتاريخ الثقافة الهلينية وعلاقتها بغزوات الإسكندر في الشرق؛ ثم زدت على ذلك أن هذا الدرس يحتاج إلى إكباب على درس جغرافية حوض البحر المتوسط القديمة والمدن التي قامت حقاً فيه وتاريخها وأثرها في نشر الثقافة الهيلينية، ثم درس جغرافية الشرق القديمة من حدود بحر الروم إلى حدود بلاد الهند؛ ثم زدت على ذلك أنه من المحتوم على من يريد أن يدرس هذا الدرس وينحو هذا النحو أن يلم بتاريخ الصراع بين فارس وبلاد اليونان قبل ظهور الإسكندر، وأن يلم بالحالات التي قامت في بلاد فارس قبيل الفتح المقدوني.

صور لنفسك أيها الباحث بعد ذلك عدد المراجع التي يحتاج إليها باحث كهذا الباحث ليدرس موضوعاً خيل إليه بدءاً أن بحثه هين وأن درسه سهل، وصور لنفسك بعد ذلك مقدار ما يكون في بحث مثل هذا يتم بغير مراجع وثيقة فيها من نقص وجهل وتقليل، ثم صور لنفسك بعد هذا كله مقدار ما يكون في مؤلف يبرز للناس عفو الخاطر من قدرة على تلخيص جدل الماضي، وليكون للمستقبل جدله الخاص به؟ وإني لأقول آسفاً إن صديقي

هذا على مقدار ما كان فيه من شغف لبحث هذا الموضوع، قد أضطر إلى الميل عنه إلى بحث آخر عربي المرجع، بحث من تلكم البحوث التي يعتمد فيها على كتب عربية لم يصقلها النقد، ولم يقف على إخراجها للناس علماء أنفقوا من وقتهم في تصحيحها وضبط أعلامها وألفاظها ما يجدر بكتب هي في الواقع مراجع العلم ومآل العالم في البحث

انتهت محاولة ذلك العالم بأن يتحول عن الإسكندر إلى غيره، لأنه فقد المراجع التي يستطيع أن يتخذها عدة للبحث. ولم ينته الأمر عند ذلك. فقد أرسل إلى أديب من أدباء العراق كتاباً يسألني فيه عن المراجع العربية التي يستطيع أن يخلص منها بشيء من تاريخ تأسيس مدينة الإسكندرية والبحوث التي قام بها الذين عنوا بموضوع هذه المدينة، ولقد أردت أن ألبي طلب الأديب فبحثت عن المراجع فلم أجد لها أثراً، ونقبت عن الكتب التي ألمت بشيء من تاريخ العصر المقدوني بمصر فلم أقف لها على وجود وفي النهاية اضطررت أن أكتب إليه بأن يستعين بأحد الذين يجيدون اللغة الإنجليزية

ويراجع ما كتب مهفي وهوجارت واردن بيفن، وأنا على علم بأن حظه من التأليف والبحث سوف لا يعدو حظ صديقي الأول:

وبعد فأن أمثال الباحثين كثيرون، يريدون أن يلخصوا جدل الماضي، وأن يعدو العدة لجدل المستقبل، ولكن عمادهم مفقود، وسلاحهم مفلول، على أن ما طلب الباحثان لأهون بكثير مما يطلب غيرهما، فالتاريخ على ما فيه من عويص المشكلات يهونه نقل مراجعه إلى العربية، بقدر ما يصعب نقل الآثار الأدبية أو الفلسفية، فلو أن كاتباً أراد أن يكتب في تاريخ الشعر الإغريقي فأي المراجع يقصد وأي الأبواب يلج؟ ولو أن كاتباً أخر أراد أن يستقصي تاريخ المذاهب الفلسفة التي اندست في ما نظم شعراء الحكمة عند اليونان، فأي الكتب ستذكر وأي المدونات يدرس؟

دعك من كل هذا، وصور لنفسك حال باحث يريد أن يقف على تاريخ العصر الروماني في مصر، أو أن يقف على شيء من تاريخ الكنيسة النصرانية فيها، أو أن يقيم من تاريخ الصراع بين الهيئتين السياسية والدينية، هيكلاً يخلص منه تاريخ شامل لمصر في خلال سبعة قرون حكم فيها الرومان أرض النيل، فأي الكتب العربية يستوحي وأي الأبواب يطرق؟

أما إذا كان هذا مقدار النقص الذي نحسه في مراجعنا العربية في مسائل هي أكثر المسائل مساساً بتاريخنا، فكيف بنا إذا أراد أحدنا أن يتخذ من الكتب العربية مرجعاً لدرس تاريخ الاستكشاف الجغرافي وعلاقة ذلك بتاريخ الاستعمار الأوربي، أو التاريخ السياسي لدول أوربا في القرن التاسع عشر، أو أثر الحروب الأوربية في تكوين التصور السياسي الجديد في القرن العشرين؟

تشعرنا هذه الحقائق بأن أدبنا ناقص، وأن علمنا ناقص، وأننا مصدودون عن البحث بصواد ليس لنا من يد في دفعها ونحن اكثر شعوراً بذلك إذا أردنا أن نؤلف في تاريخ العلم الحديث أو في تاريخ الفكر عامة أو في تاريخ الفنون أو الفلسفة.

مثل الظرف التي تجتازه ثقافتنا، قد اجتازته من قبل أمم عديدة. والعرب في العصر العباسي، وأوربا في حدود القرون الوسطى، أقرب ما نمثل به، على أن احتياجنا إلى الكتب التي ندرس فيها شتى موضوعات الأدب والفن، ونكمل بها عدتنا في اللغة العربية، ينبغي أن لا يقتصر على كتب المراجع وحدها بل يجب أن يتعدى إلى الأمهات المؤلفة في مختلف الموضوعات، ففي تاريخ اليونان مثلاً تدعونا الحاجة إلى أن ننقل إلى جانب المؤلفات القديمة مؤلف جورج جروت مثلا، وفي تاريخ الرومان نضطر إلى نقل كتاب ممزن الذي حلل الحياة الرومانية اجتماعياً واقتصادياً وكتاب انحلال القيصرية الرومانية الذي يبحث الأسباب السياسية التي أدت إلى ذلك الانحلال. كذلك ينبغي لنا أن ننقل إلى العربية كل المراجع التي تعالج تاريخ الفكر وثورات العقل وأن لم نلم بكل ما يتاح لنا الإلمام به من المظان التي توسع من أفق العلم بأخبار الأمم وحالاتها وأسباب ارتفاعها وسقوطها

أضف إلى ذلك أن أدبنا تنقصه المعاجم الكثيرة، فهل يمكن لأديب باحث أو عالم متفرغ للعلم أن يستكمل عدة البحث بغير معاجم قريبة التناول سهلة الأسلوب؟ وإذا أردت أن تعرف مقدار افتقارنا إلى المعاجم فانظر هل في مراجعنا شيء من المعاجم الآتية:-

(1) معجم لغوي تاريخي
(2) معجم اصطلاحي لمفردات العلوم
(3) معجم لغوي عام
(4) معجم الآداب
(5) معجم للفلسفة وعلم النفس
(6) معجم الأسماء القديمة
(7) معجم الأسماء الحديثة: في الجغرافيا والتاريخ
(8) معجم الأسماء العربية
(9) معجم أسماء طبقات الحيوان
(10) معجم أسماء طبقات النبات
(11) معجم المصطلحات الإسلامية

إلى غير ذلك مما يصعب حصره وتحديد الحاجة إليه.

وأنك إذا تصفحت رسالة في التاريخ القديم مترجمة إلى اللغة العربية عن الفرنسية، ثم قارنتها برسالة في نفس الموضوع مترجمة إلى العربية عن اللغة الإنجليزية أو الألمانية، لتعذر عليك في كثير من الأحوال التمييز بين الاسم العلم الواحد لشدة ما تنافر الناقلان في طريقة نقله إلى العربية، حتى لقد تقدم إلي كثيرون من طلاب الآداب يسألون عن حقيقة أسماء مختلفة عرضت في درج رسائل في التاريخ، وبمقارنتها اتضح لي أنها اسم واحد نقله عدة من المترجمين بصيغ مختلفة في العربية. ولا شك في أن هذه الفوضى الغامرة من شأنها أن تعمي على طلاب العلم وربما كانت سببا في تناقضهم.

وإذا وقع التناقض للملمين بشيء من آداب اللغات الأوربية بسبب ذلك، فأحرى ممن يدرسون باللغة العربية خالصة، أن يكونوا أشد تناقضا وأكثر تطوحا مع الأوهام التي أكاد أجزم بأنها شائعة في أكثر ما يكتبونه ويؤلفونه شيوعاً عظيماً إذا تعرض أحدهم للكتابة في غير الموضوعات الإسلامية، وما السبب في هذا إلا احتياجنا إلى معاجم لأسماء الأعلام تجري في تعريب الأسماء القديمة والحديثة على قواعد معينة، اللهم إلا ما عربه العرب، وهو قليل، فأنه يبقى كما عربوه.

خيل إلى بعض المشتغلين بحركة الثقافة في مصر، وتتبعوا أطوارها منذ مائة سنة، أن ما نقل إلى العربية من فروع المعرفة كاف لأنه يكون جزءاً صالحا من العلم بحقائق الأشياء، والحقيقة التي أحسها تناقض هذا الخيال، فقد اتبع النقلة عندنا حتى الآن طريقتين: إما

التلخيص وإما نقل نتف من المذاهب أو قطع متفرقة عن كتاب الأدب المعروفين، وكلا الأمرين مضر أقصى الضرر بالثقافة الصحيحة، فأن هذه الثقافة لا يمكن أن تتلقى نتفا وأقساطا إلا لتكون أدبا ناقصاً أو علماً ناقصاً أو فناً ناقصاً، والمعرفة إذا اعتورها النقص في الأصول التي تقوم عليها، امتنع عليها أن تكون أداة قويمة لخلق التصورات العامة في العلم والأدب والفلسفة. وخلق التصور العام في العلم والأدب والفلسفة هي الغاية التي يجب أن تنتهي إليها الثقافة العامة، هي المثل الأعلى الذي ينبغي أن ينشد من العلم، وهي الهدف الذي يجب أن يرمي إليه التعليم.

إذن يكون ما نقلنا إلى اليوم من الآثار العلمية والأدبية عن المعرفة الجديدة، وبالحرى عن الثقافة الأوربية، إنما هو نتف وأجزاء، لها من الفائدة على قدر ما فيها من تعبير صحيح عن مذاهب أصحابها، وقلما يعبر الجزء عن الكل تعبيراً صادقاً قويماً من جراء هذا كان ذلك الارتجاج العظيم الذي نشهده في مجالي الأدب العصري في مصر والشرق. ذلك بأنه أدب اعتمد على نتف من قديمنا وعلى نتف من الحديث المنقول عن أوربا، اعتمد على درس غير كامل لآدابنا القديمة، وعلى درس غير كامل للآداب الأوربية، فكان في جملته أشبه ببقايا السلع المختلفة إذا اجتمعت لتكون شيئاً جديداً، ولك أن تتصور مقدار ما في ذلك الشيء المكون من تلك البقايا من تنافر ونقص، إذا أنت صورت لنفسك حيواناً استحدثت صورته من أجزاء مختلفة من البقايا الحفرية جمعت من مختلف أجزاء الكرة الأرضية.

تلك حال الأدب، وهذه طريق العلم في عهدنا الجديد؛ فمن المسؤول إذن عن هذه الفوضى العظيمة؟

من الحقائق التي لا نزاع فيها أن ما استحدث حتى الآن من ألوان الأدب والعلم على نقصه، إنما يرجع إلى جهود بضعة أفراد يمكن عدهم على أصابع اليدين. على أن جهود هؤلاء كانت جهوداً متفرقة موزعة لم تجتمع يوما على غرض رمت إليه ولا نظرت إلى هدف صوبت نحوه ووجهت عملها نحو البلوغ إليه. ولقد عانى أكثر هؤلاء من عنت الدنيا ومن انصراف الناس عن الأدب والعلم ما جعلهم يفرون من ميدان العمل الواحد تلو الأخر، ليفسحوا الطريق لغيرهم ممن يريدون أن يقامروا على موائد الأدب والعلم إما بمالهم أو

بعافيتهم، تاركين للأقدار وزن ما جهدوا فيه وعملوا له السنين الطوال. ومن أعجب العجب أن أكثر الذين سقطوا في ذلك الميدان كانوا ممن حملوا لواء فكرة جديدة أو مذهب حديث حاولوا نشره في الناس وفيهم حرارة الأيمان وحماسة الاقتناع بصلاحياته، وكان من الواجب أن يؤيدوا ولو إلى الحد الذي يمكنهم من إتمام رسالتهم وتأديتها على وجه يضمن في المستقبل سلامتها لتكون عدة من العدد التي يقوم من

حولها جدل المستقبل. ولكن شيئاً من ذلك لم يعش في بيئتنا الأدبية على صورة يتخيل معها أشد الناس تفاؤلاً بأن لها أثراً ثابتاً في عقل الجماعات العلمية أو الأدبية في هذه البلاد أو في غيرها من بقاع الشرق.

فلا نكران إذاً في أن الأفراد قد قاموا بأوفر نصيب في تنشئة تلك الجرثومة التي تبعث في أدبنا شيئا من مجالي الحياة، ولا يطالب الأفراد مطالب بأكثر مما جهدوا له إلا ويكون إلى الظلم والتجني أقرب منه إلى الأنصاف والعدل.

غير أن أمامنا بعد الأفراد الذين عملوا على تكوين التصور الأدبي الجديد جهات أربع يجب أن نتوجه إليها بالكلام في ختام هذه الكلمة

فأن الأدب والعلم لم ينلهما حتى الآن نصيب من تقدير ظهراء لهم من الجاه والمال ما يكفل لأفراد ممتازين في المعرفة على اختلاف ألوانها إبراز أثارهم وتسجيلها في تاريخ العصر الذي يعيشون فيه ولقد كان لظهراء العلم والمعرفة في القرون الوسطى الأثر الأعظم في نقل العلوم إلى أوربا، كما كان لهم في العصر العباسي الأثر الأدنى في نقل العلوم والمعرفة إلى الشرق. وفي مصر ولله الحمد فئة من هؤلاء ولكنهم لا يفكرون في الأدب أو في العلم أو في حماية حرية الفكر إلا كما يفكرون في أتفه الأشياء التي تمر بهم في الحياة. وهؤلاء لا يستحقون من كل نصير للأدب أو حليف للعلم إلا أشد اللوم والتقريع. ولقد برهن هؤلاء على أنهم في هذا العصر، عصر النور والمعرفة، أقل إجلالاً للعلم وتقديراً للمعرفة والأدب والفن، من أمراء المماليك رحمهم الله، وقد أزدهر عهدهم بالأدب واستنار بالعلم، لأنهم كانوا ولا شك من أشد أمراء المسلمين رعاية لآثار العقل والفن أدبية كانت أو فنية. لقد كان أمراء المماليك ظهراء لرجال العلم نصراء لرجال الأدب وفي معتقدي أن ذلك أفخم وأروع ما خلفوا لإعقابهم من صالح الأعمال

بقي بعد ذلك جهات ثلاث: الأولى وزارة المعارف، والثانية الجامعة المصرية، والثالثة الأزهر الشريف، ولا أعلم لماذا لا يكون في كل من هذه الجهات مؤسسات علمية لترجمة ما يعنيها من المؤلفات قديمة وحديثة؟ اللهم إلا أننا لم ندرك بعد أننا في نهاية الأمم المتمدنة من حيث العلم والمعرفة والعناية بنقل العلوم والمذاهب الأدبية والفلسفية إلى لغتنا العربية المبينة

سيظل أدبنا وعلمنا ناقصين من نقل المظان والأمهات إلى العربية؛ فهل نحن فاعلون؟

إسماعيل مظهر

على هامش رحلتي إلى الحجاز

ليلة في مكة

بقلم الدكتور عبد الكريم جرمانوس

أستاذ التاريخ الشرقي بجامعة بودابست

تتمة ما نشر في العدد الماضي

ولا بد أن هذا الأمر كان مقصوداً من الله جلت قدرته وهي بعض صفاته العليا. فالعلماء الذين يتجردون من المادة ويصعدون بأفكارهم إلى أعلى عليين، والصوفيون الذين يحاولون التوحيد بين ذاتهم وذات الله وفنائهم فيها، والفلاسفة الذين ارصدوا أنفسهم في سبيل البحث عن الحق المطلق الذي لا يلمس وليس له زمان. ألم يكن هؤلاء جميعاً يحاولون الوصول من طرق مختلفة، إلى غرض واحد، هو الأشراف الباطني؟ تلك هي نعمة التجرد التي ترد الظلام كما يرده المشعل في الليل، وفي الوقت ذاته يعمي حامله إلا عن نفسه.

ولا يخفى أن النفس العربية نبتت في الصحراء القاحلة - أجل - لقد رأت ذلك النور المتألق في تلك الصحراء التي تحدها بحار من الرمال، ويعلوها أفق لا شائبة فيه حيث يستطيعون حتى في ضوء القمر أن يميزوا بين الظل والنور، بين الأسود والأبيض. ولكنهم قلما يدركون شيئاً من أسباب هذا التطور، ولا يعرفون ما تخفيه لهم الأقدار في رحلاتهم البعيدة وهم يجتازون مفاوز الصحراء، إنهم يستخفون بمظاهر هذا العالم الفاني لأنهم يعتقدون اعتقاداً جازماً بحياة أطيب وأنقى من تلك التي يعيشونها الآن، وللدار الآخرة خير وأبقى.

لقد راعني جلال الحفلة، فرأيت الرجال يضطجعون على الأرائك المبعثرة في أركان الثوى يتمتعون بلذة التدخين في ظل المصابيح ذات الضوء الشاحب، وعلى الرغم من

أن التدخين محرم في الأراضي السعودية فقد ألفيت بعضهم يدخن النارجيلة ويسبح مع دخانها في عالم الخيال.

وقابلني رب الدار بكل بشاشة وترحاب وكذلك بقية الضيوف، وكان السرور يطفح من وجوههم والبشر يتألق على محياهم، وكانت أول تحية سمعتها من صاحبي قوله:

- على الرحب والسعة، الله سبحانه وتعالى يوليك برحمته ويمنحك بركته.

فأجبت: شكراً لك وللرفاق، وفي الحقيقة إنني مستأنس لوجودي بينكم، فلا حرمنا الله منكم.

ثم اتكأت على إحدى الأرائك ووضعت وسادة تحت ذراعي. وفي الحال أحضر صاحب الدار نارجيلة مزخرفة بالنقوش بيد أني اعتذرت عن التدخين لعدم تعودي عليه من قبل، وأنني أخشى أن يصيبني دوار منه، مع اعتقادي بأن في تدخين النارجيلة لذة وتنشيطاً للقريحة، وهو مظهر من مظاهر العز الشرقي البائد، حيث تظل رافعاً رأسك، محدقاً في غيرك وأنت ممسك بقبضة خرطوم النارجيلة.

في ذلك الثوى المثقل بدخان التبغ والذي كانت حرارته تكاد تصهر الوجه، رأيت لأول مرة منظر الجواري وهن يدخلن علينا بأكواب الشاي المعطر، وكانت إحداهن المسماة فريدة، عذراء في ريعان الصبا، وهي من جنوب بلاد العرب، صبوحة المحيا، بسامة الثغر، رشيقة في حركاتها، تخطو كخطو الغزال الوحشي. وكانت تحلي جيدها ومعصميها ببعض الحلي، وترتدي من الملابس أفخرها، وكانت عندما تصل إلى موضع الضيف تحني رأسها بابتسامة ثم تقدم إليه الشراب المثلج.

هذه الجارية كانت مملوكة لصاحب الدار الذي يسيطر عليها سيطرة تامة، فمن حقه مثلاً أن يبيعها أو يعتقها أو يهبها إلى غيره وعلى الرغم من أن الفتاة كانت تدرك ذلك فقلما كانت تأبه بهذه الأحمال الثقيلة، بل كانت تتنقل من مكان إلى مكان دون خوف أو وجل، كعصفور موضوع في قفص يحوي طيوراً جارحة. أما الرجال فأنهم يتسامرون في خلواتهم بأحاديث الهوى والعشق ويلتمسون في ذلك عزاء وسلوى. لآن المرأة في كل البلاد العربية لا يمكنها أن تشترك في الحفلات والمجتمعات، بل أنهن يكتفين بالنظر خلسة إلى الرجال أثناء سمرهم، وهن لا يعلمن شيئاً من مجريات الأمور الخارجية إلا ما يصل إلى سمعهن من الأحاديث التي تدور حول الموائد

ولقد أفضى إليَّ أحد الضيوف المسمى الغرابي بحادث زواجه للمرة الثانية وما لاقاه من زوجه الجديد من عنت وقسوة عندما أراد التبني بها، فالزواج في تلك الديار موكول إلى أهل الزوجة، وعليهم أن ينتخبوا بأنفسهم الزوج الصالح لأبنتهم، أما القبائل البدوية التي ترابط خارج مكة فهم لا يتزوجون إلا من عشيرتهم. وذكر صاحبي الغرابي، أنه بعد إتمام

مراسيم حفلة العرس، تلك الحفلة التي يحتفل بها الرجال والنساء كل على حدة، يدلف العريس إلى مخدعه حيث تكون العروس في انتظاره، ومن البديهي أن ذلك السيد الذي فرضوه عليها، لم يقع نظرها عليه قبل الساعة.

يدخل صاحبنا المخدع الذي يكون مضاء بمسرجة باهتة اللون، وهناك يقع نظره على كومة منزوية في أحد الأركان وما تلك الكومة إلا عروسه ملفوفة بين الوسائد، ومشدودة بالحبال، وتشعر بدخول عريسها فتخرج رأسها من بين تلك الوسائد - كما يخرج القنفذ رأسه - فيتقدم إليها بلطف محاولاً أن يصافحها، ولكن عوضاً عن أن تمد يدها إليه، فأنها تلطمه على خديه بكل قواها، بحيث تبعده عنها. ثم يحاول أن يقترب منها للمرة الثانية فيكون نصيبه مثل ما أصابه في المرة الأولى

وربما أحدثت في يده جروحاً من أظافرها الطويلة - أما هو فيجد نفسه غير قادر على معاملتها بالمثل. وبفرض أنه حاول أن يضربها، فأنها لا تحس بتأثير تلك الضربات التي لا تقع إلا على الوسائد. وفي هذه الحالة ليس من وسيلة أمامه سوى أن يشرع في تمزيق هذه الوسائد، الواحدة بعد الأخرى.

وهو في خلال هذه الفترة معرض لكل ضروب اللكم والعض والخربشة. ولا يكاد يفرغ من هذه العملية الشاقة حتى يضنيه الإجهاد فتهدأ ثائرة العروس وتبدأ تسلم نفسها إليه).

وضحكنا ضحكا عالياً من هذا الحديث ثم أخذنا نتمتع باحتساء القهوة العربية وأكل شرائح البطيخ. وكانت هذه القصة الطريفة بداءة السمر لأنهم استحضروا بعد ذلك

حاكياً كان مخبأً في إحدى الزوايا، وشرعوا يضعون عليه أقراصاً بها قصائد وأغاني تسودها مسحة من الحزن والكآبة. وأرتفع صوت بعض الضيوف بأغان من نوع الرومبا، وكان في ركن من أركان الثوى رجل يغني بواسطة عود يحمله، وكان هذا الرجل قد تعلم هذا النوع من الضرب الموسيقي المصحوب بالغناء في فترة إقامته بالديار المصرية ولما رآني مهتماً بالأغاني التي يذيعها اقترب مني وطلب إلي بإلحاح أن أندمج معهم في هذا اللهو البريء، فلبيت الطلب وتناولت العود فضممته إلى صدري، كما تضم المرضعة فطيمها، وسرعان ما تحركت أصابعي فوق الأوتار وانبعثت من حلقي أنشودة مجرية، من نوع تلك الأغاني التي تعلمتها في البراري فسر المدعوون من تلك النغمات التي لم تألفها آذانهم وأقبلوا يصافحونني بحرارة. وهنا دخلت الجواري حاملات في أيديهن الصواني الطافحة بأنواع شتى من المرطبات، ثم تقدمت إحداهن فتصدرت الثوى وبدأت تطربنا بصوت عربي جميل يسيل رقة وليونة على حين كنا نتلذذ بالشراب المثلج سكارى من رائحة التبغ ومسرات الغناء.

والواقع أن هذه الأغاني الشعرية الرائعة هي إحدى عوائد العرب القديمة التي ما برحت نافذة إلى عصرنا الحاضر دون تغيير ولا تبديل. فالعرب عن بكرة أبيهم ميالون بفطرتهم إلى الشعر، ففيه الحكمة التي تأخذ بمجامع اللب، وله تأثير خاص على الحواس والمشاعر. مع أنهم في أحاديثهم الخاصة يلجأ ون إلى استعمال اللغة الدارجة، وهي لهجة معقدة ليس في وسع كل إنسان أن يتفهمها بمجرد سماعها. وقد يتعذر على كثير من الناس أن يتذوقوا طلاوتها لأول وهلة، رغم أنها حافلة بالألفاظ العذبة والنكات السمحة، أما الشعر العربي فيدور كله حول الغزل، ويرجع الفضل في ازدهار حركة الشعر الغزلي إلى عمر بن أبي ربيعة الملقب (بدون جوان جزيرة العرب).

وكانت الفتاة قد انتهت من غنائها فنهضت وغادرت الثوى ثم تقدمت أخرى وأنشدت قصيدة غرامية تفيض بالعواطف الذاتية، وبعد ذلك خيم الصمت والسكون، ولم يعد يسمع غير أصوات تقلب المياه في جوف النارجيلة، وأصوات التنهدات والزفرات وهي تخرج قوية حارة من صدور الرجال وراعني هذا الصمت العميق الشامل، وأحسست أني تحت تأثير قوة مغناطيسية لا قوة لي على دفعها أو ردها، وراعني أيضاً أنها كانت حالة جميع الضيوف تقريباً، فلقد رأيت أنهم يتوجعون ويتأوهون، ولاحظت أن البعض منهم يئن من لوعة الفراق، ويتذكرون خليلاتهم، فاقتربت من أحدهم ويدعى الكتبي وسألته على الفور:

هل أنت مغرم يا صاحبي إلى هذا الحد؟ فأحنى رأسه ولم يحر جواباً لأول وهلة، ولاحظت أن وجهه احتقن بالدم ثم سمعته بعد لحظة يقول:

ولكن ليس في وسعي أن أملكها، فأنا كما ترى رجل فقير، وهي من عائلة مثرية. ما حيلتي وقد وقعت في شراك غرامها وأصبحت أسير هواها؟ لقد أصبحت أسير امرأة. . .

وكف عن الحديث فجأة، فطيبت خاطره وقلت له:

- ولكن المرأة التي تشير إليها ليست كسائر النساء

فقال الرجل:

- انك تقول الحق وتنطق بالصواب ولكن انظر إلي فقد أصبحت في حالة يرثى لها، بعد أن وقعت في غرامها. ما حيلتي وقد رزقها الله قدًّا نحيلاً وقامة هيفاء، وعينين نجلاوين كعيني الغزال؟ أنني أبتهل إلى الله ليل نهار أن يجعلها من نسائي ويرزقني منها الذرية الصالحة

وتأثرت تأثراً شديداً من حالة هذا العاشق المد نف وأردت أن أنتقل إلى صاحب آخر، وكان الليل قد أنسلخ منه نحو ثلثيه، فألفيت الضيوف يسبحون في عالم الخيال وعالم الحب، وكلهم يشكون تباريح الهوى ولوعة الهجر، ولاحظت أن البعض منهم يبكون نساءهم ويندبون حظوظهم، وهكذا كانت ترتعد فرائصي من هول الموقف وأنا أفر من صاحب إلى صاحب

والخلاصة التي أستطيع أن أقررها أن هذه العواطف النبيلة التي اكتسبها البدو إن هي إلا أثر من آثار الصحراء التي يرجع الفضل إليها في تهذيب نفوسهم، وفي تلقينهم

أصول هذا الغزل الذي قلما نجده في سواهم من الشباب
وحينذاك أخذ ضوء المصابيح يخفت فدخلت إحدى الجواري الحسان إلى البهو تحمل مصابيح أخرى جديدة بعد أن سحبت المصابيح المستعملة من داخل الفوانيس.
وكان من حظي أن اقتربت الجارية من ناحيتي ولاحظت أن وسادتي سقطت على الأرض فالتقطتها من مكانها بمهارة وقدمتها إلي. هناك وقع نظري عليها وطالعت وجهها في ضوء المصباح اللامع، وراقني منها شعرها الأسود المتموج كخيوط الليل، وأسنانها اللؤلؤية وقامتها الهيفاء، كما أعجبت بحركاتها الرشيقة، فأدمنت النظر إليها وصرت أتبعها بخاطري وهي تتحرك كالطائر من غصن إلى غصن، ولاحظ مضيف اهتمامي بهذه الجارية فأقترب مني وقال:
- هل أزعجتك عائشة؟
فأجبته على الفور:
- أنها فتاة بديعة حقاً
ثم حاولت أن أغير مجرى الحديث، ولكنه أدرك حيلتي فقلت له: ماذا دهاك يا أخي؟ هل
كنت سبباً في إيلامك؟
فأجاب: كلا! لا شيء مطلقاً، لقد اغتبطت حين سمعتك تطنب في جمال عائشة، لأنني شخصياً مفتون بها موله في حبها فقلت مبتسماً:
- ولكن مادام الله قد من عليك بها فانك في نظري رجل سعيد.
فتبرم وقال في ضجر: أنا سعيد؟ ومن أين لي هذه السعادة؟
فقلت له: أليست عائشة ملك يمينك؟
فقال: أجل أنها لي، ولكنها جارية، ابتعتها بعشرين ديناراً من سوق الرقيق، كانت إذ ذاك في العاشرة من عمرها وهي الآن في السادسة عشرة.
فنظرت إليه في دهشة، بيد أنه أحنى رأسه ثم صرح لي أنه يحبها من أعماق قلبه، فسألته للمرة الثانية: وما يمنعك عنها وهي جاريتك وملك يمينك؟
فأجاب: هذا صحيح، ولكن دون ذلك خرط القتاد، فالإنسان في هذا الوجود قد يبلغ قمة المجد وقد يصل إلى الشهرة وإلى المال ولكن هذه أمور ثانوية وليست لها أدنى قيمة إذا لم تؤدبنا إلى حب جارية مملوكة.
فهززت رأسي وأعدت نفس السؤال: ولكنها ملك يمينك؟
فقال: هذا صحيح، أن جسمها ملكي ولكن روحها ليست ملكاً لي، إنني لا أبغي منها ذلك الجسد ولا متعة الشهوة وحدها، بل أريد أن تبادلني حباً بحب وإخلاصاً بإخلاص.
وراحت الدموع تنحدر من عينيه وتسيل فوق خديه، ورمقته بنظرة فيها كل معاني الشفقة والرثاء لحالته، فهو والد وله أطفال وزوجتان أخشى عليهم جميعاً عاقبة هذا الحب الجديد.
وأعقب ذلك صمت طويل، تذكرت في خلاله مواقف الحب وسلطانها على النفوس، ثم رأيت أن أغادر الدار فودعت مضيفي وسرت اجتاز شوارع مكة الضيقة، حتى وصلت إلى الميدان العام وكانت تخترقه قافلة يحدو أصحابها بغناء شجي مطلعه:
من ذا (يلمني) إن بكيت صبابة ... الدمع دمعي والعيون عيوني
عبد الكريم جرمانوس
موانع الابتكار في أدبنا الحديث
للأستاذ محمد يونس
إنه ليسعدنا حقاً أن يكون قريباً ذلك اليوم الذي نشعر فيه من جمهرة كتابنا أنهم أحلوا الابتكار محل المحاكاة وأبدعوا فيما يكتبون إبداعاً فيه غناء وإغناء للأدب العالمي العام
الدكتور منصور فهمي
مجلة مصرية
كان حديث الدكتور منصور فهمي في مجلة المصرية ذا شجون، فقد تناول فيه الأدب العربي الحديث والأدباء بالنقد اللاذع، وصورهم بصورة المقلد المفتون، وعراهم من أردية المجد التي اكتسوها بعد الكفاح الطويل.
وأنا وأن كنت إلى حدّ ما أؤيد الدكتور في أن أدبنا الحالي أدب تقليد ومحاكاة لا أدب ابتكار وإبداع، فأني أخالفه في تحديد أدب المحاكاة عندنا وفي قيمة هذا الأدب، ثم لا

ألقي اللوم كله على الأدباء أنفسهم، لأن الدوافع إلى المحاكاة كما سيرى القارئ قريباً أقوى من أن يغلبها الكاتب اللبيب.

كان كلام الدكتور عن الأدب عاماً وشاملاً كل أنواعه، ولكن من الظلم ونحن نلصق طابع التقليد على أدبنا الحديث أن نغفل طائفة خاصة من الكتاب برعت في الابتكار وأعني بها كتاب المقالة. فالمقالة خطت في الأدب العربي الحديث خطوات واسعة وأصبحت تتحدث في موضوعاتها الخاصة وأهدافها القريبة حديثاً وصل حد الابتداع عند كثير من الكتاب وها هي ذي المقالة العربية في مصر لا تقل عنها في البلدان الغربية إن هذه المقالات التي تقدمها إليك الصحف والمجلات تحركك معها إلى حيث تريد من حيث لا تريده أنت، وتفهمك مطالبها بكل وضوح، هي فخر الأدب الحديث. وكثيرون لدينا برعوا في حيل الإقناع وفي مفاجأة القارئ واللعب به وبكل ما يجعل للمقالة العربية مجدها وشخصيتها. إلى هنا يقف أدباؤنا عن الابتكار، وما بقي من أنواع الأدب العربي أكثره خلو من الابتكار، ولكن خلوه من الابتكار لا يعني فقره في الإجادة ودقة الإنتاج، فأدب المحاكاة أدب قائم بذاته له قيمته وفائدته، وله - وهذا ما نريد الإشارة إليه في هذا المقال - أو انه، ولابد للأدب

كما للمجتمعات البشرية من المرور في أدوار تاريخية مختلفة يتبع فيها سنة التطور ومنطق التدرج وهو قانون ثابت لا تفيد معه ثورة الأديب، ولا ألقاب الابتكار والتجديد التي تمنح له بغير حساب

وهذا الدور في الأدب العربي، دور محاكاة ونقل تتجه فيه العبقرية راضية أو غير راضية إلى النقل عن أدب الغرب أو إحياء ما اندرس من أدب العرب، وهو تيار جارف لا يقف أمامه كاتب مهما كبر، ولذلك فشلت محاولات الابتكار عند كبار أدبائنا. هذه محاولات شتى قام بها كثيرون منهم في السنوات الأخيرة وأرادوا أن يظهروا بها الابتكار والإبداع. ليقرأها القارئ جيداً وليحكم عليها من غير مداجاة، ألا يرى عليها الهزال والشحوب؟ فيدرك أن هذه الجهود المبتورة لا تناسب اسم أولئك الكتاب ومالهم من مجد عظيم نالوه عن طريق النقل.

وما يقال عن النثر يقال عن الشعر أيضاً. ولقد أدرك شوقي - رحمه الله - في أواخر أيامه أن خير ما يختم به إنتاجه قصص شعرية، عجز عن أن يستمدها من المحيط الذي يعيش فيه فرجع إلى كليوباترة في التاريخ المصري ومجنون ليلى في التاريخ العربي، وكأن الحياة الدارجة ما استطاعت أن تلهم الشاعر الموهوب موضوعاً لرواية قوية تقترن بحياة هذا الجيل

ولا عيب على هؤلاء الأدباء أن ينجحوا في دور الناقل ويخفقوا في دور المبتكر، ولا ينقص من قيمة جهدهم أن يبرز في النقل وحده، فالأدب المنقول يؤدي واجباً كبيراً في خدمة الأمة العربية ويشغل حلقة لابد منها للوصول بين الماضي والمستقبل، هي قسمة لابد منها وتوزيع لنوع الإنتاج بين أدباء المستقبل وأدباء اليوم الذين كان من حظهم أن يأتوا في في هذا العهد، عهد النقل فلا يسطع نجمهم إلا فيه ولا يذهب تقيدهم به سناء عبقريتهم

وهنا من حق القارئ أن يسألني: لماذا يعجز أدباؤنا عن الابتكار؟ أهو كسل منهم كما يقول الأستاذ المازني وفيهم النشاط الجم. أم فقر في المواهب، وفيهم العبقري الموهوب أم فقر في المحيط وهو عامر بشتى الصور والمفاجآت؟

وقد ثار مثل هذا التساؤل من حين قصير بين أدباء الإنكليز وتناول ناقدان كبيران البحث عن أسباب جمود الأدب الإنكليزي الحديث (ولا سيما في ناحية القصة التي تجتاح أكثر

ميادين الأدب الغربي) وتأخره عن الأدب الأمريكي الذي أصبح يخطو خطوات واسعة وينتج آثاراً مدهشة.

قال أولهم: أن الابتكار - وليد ما أسماه شعوراً بالاستغراب يأخذ على الكاتب أنفاسه ويدفعه في مجالي الإبداع، ومتى عجز المحيط عن إثارة مثل هذا الشعور في الكاتب إما لكثرة الصور السابقة المرسومة عنه أو لفقره خلا جو الأدب من المبتكرين

وقال الثاني: إن الأديب يبتكر يوم يثق بمحيطه ويؤمن به، ويعجز عن الابتكار إذا فقد هذه الثقة فلا يثير فيه العناية بدرسه وتصويره بلونه الخاص

وإني أرى أن المانع من الابتكار في الأدب العربي، مزيج من السببين.

ولقد يبدو غريباً لأول وهلة أن تكون الحالة واحدة في المحيط الإنكليزي الذي كثرت الصور عنه وفي المحيط العربي الحديث الذي لم ترسم له صورة صحيحة باهرة إلى الآن، ولكن هذا نتيجة فقدان الشعور بالاستغراب، أما في الأول فأحسب القارئ قد فهم سببه وهو كثرة الصور الباهرة التي رسمها لهذا المحيط أكابر الكتاب فلم نترك مجالاً للمزيد؛ وأما في الثاني فلأن هذا المحيط لا يمكن أن يثير الكاتب إلى الاهتمام به ما دام فكره مشدوهاً بأنوار أخرى بديعة تأتيه من بعد.

أرجو أن يتصور القارئ نفسه مكان الأدب العربي اليوم: فهو إذا كان مجدداً لا يزال مسحوراً بصور الأدب الغربي العامرة وما فيها من عبقرية ونبوغ؛ وإذا كان من دعاة القديم فلا يزال مفتوناً بالصنعة الباهرة وقوة الاندفاع والحيوية التي يشهدها عند الجاحظ أو المتنبي مثلاً. أن هذه الصور تأخذ بلبه فتشغله عن المحيط الذي هو فيه وهو لا يزال محدقاً بها غير ملتفت إلى ما حوله ما دامت أضواؤها الخلابة تبهر عينه، وأني لأشعر أن هذا الكاتب المنصف لنفسه ولقارئه إذا حاول رسم صورة لشخص من الذين حوله يقعده عن المحاولة ما يراه من تصوير باهر لأساتذة كبار كموباسان ودكنز، فيقول في نفسه: خيراً أن أنقل هذه الصورة الغريبة للناس من أن أقحمهم على مجازفاتي في التصوير، ويقعد عن الابتكار.

ومثله هنا مثل العاقل لا يشعل سراجه ما دامت الشمس طالعة، فهو يكتفي بفتح باب النافذة فتضيء أشعتها المكان وليس في هذا عيب على كهرباء البيت ولا انتقاص لمخترعها
العظيم.

ولن يشعل صاحبنا العاقل كهرباءه إلا ساعة تغيب الشمس وهي هنا في الأدب الساعة التي تذهب فيها دهشة الأديب من منتجات الأدب الغربي أو العربي القديم.

وهنا يدخل السبب الأخر الذي ذهب إليه الناقد الإنكليزي الثاني، فأن انبهار الأديب العربي بصور الأدب الغربي أو العربي القديم يبهت أمامه صور محيطه ويضعف ثقته فيه، فلا يزال هذا المحيط متردداً بين الغرب والشرق وبين الجديد والقديم وبين التقليد والرجعية وقد فقد شخصيته المستقلة القديمة التي تثير الكاتب إلى التغني بأمجادها، ولم يكتسب الشخصية الجديدة التي تثيره إلى الإشادة بقوتها، ولذلك كان طبيعياً أن يذهب الكتاب والشعراء إلى المحيطين البعيدين، الغربي والعربي القديم، لأن شخصيتهما أقوى وأتم.

وأظن القارئ أدرك الآن لماذا اندفع شعراء العصر الأول من الإسلام في الابتكار في الشعر لأن المحيط الجديد الذي خرج إليه العرب من الجزيرة كان عامراً مدهشاً وهكذا ذهب أبو نواس المشدوه بالمحيط الجديد يفاخر به ويتهكم على شعراء الجاهلية، أما ابن المعتز الذي ألف حياة النعيم الجديد إلى حد ما، فكانت أحسن نفحاته هي التي يستمد وحيها من الصحراء ومعانيها التي أصبحت غريبة عنه تثير استغرابه أكثر مما حوله، وأن كانت نضارة هذا المحيط الباقية حافزة له على عدم التخلي عنه تماماً كما صنع الذين جاءوا من بعده ممن ذبلت أمامهم زهرة المحيط الجديد وعاشوا في العهد المتأخر فرجعوا إلى تراث الجاهلية يقلدونه تقليداً فاضحاً لأن هذا الشعر الجاهلي أقوى شخصية وأسطع نوراً من أي شعر جاء بعده

ونعود إلى أدبائنا اليوم، فهم مهما غالوا في المكابرة لا يستطيعون إنكار زهدهم واستخفافهم بهذا المحيط الباهت الألوان الفقير إلى الأمجاد الباهرة، ولذلك فهم لن يبتكروا إلا يوم يؤمنون به، ولا يؤمنون به إلا متى ذهب أثر الدهشة التي يحدثها الأدب الغربي الجديد أو العربي القديم في أذهانهم، على أن ترافق هذا زيادة في سطوع المحيط.

هذه هي موانع الابتكار وهي قوية لا يستطيع الكاتب مهما كانت عبقريته التخلص منها خير لأدباء هذا الجيل أن يكتفوا بأدب النقل ويجودوا فيه ويهيئوا المجال للجيل القادم فأن مجدهم لن يقوم إلا على النقل وهو مجد له خلوده.

(نزيل القاهرة)

محمد يونس

نقل الأديب

للأستاذ محمد اسعاف النشاشيبي

102 - فيه غيره . . .
ابن الشبل البغدادي:
وكأنما الإنسان فيه غيره ... متكوناً والحسن فيه معار
متصرف وله القضاء مصرف ... ومكلف وكأنه مختار
طوراً تصوّبه الحظوظ وتارة ... خطأ تحيل صوابه الأقدار
تعمى بصيرته ويبصر بعد ما ... لا يسترد الفائت استبصار
فتراه يؤخذ قلبه من صدره ... ويزد فيه وقد جرى المقدار
فيظل يضرب بالملامة نفسه ... ندماً إذا لعبت به الأفكار
لا يعرف الإفراط في إيراده ... حتى يبينه له الأصدار
103 - لم تبلغ قدريتي هذا كله
حدث المبرد: قال رجل لثمامة (القدري المعتزلي):
أنت إن شئت قضى فلان حاجتي
فقال ثمامة: أنا قدري، ولم تبلغ قدريتي هذا كله؛ إنما قلتُ: (أن شئتُ فعلتُ) ولم أقل: إن شئتُ فعل فلان
104 - جد الأدب جد وهزله هزل
قال خالد بن يزيد الكاتب: لما بويع إبراهيم بن المهدي طلبني، وقد كان يعرفني وكنت متصلاً ببعض أسبابه.
فقال: يا خالد، أنشدني من شعرك
فقلت: يا أمير المؤمنين، ليس شعري من الشعر الذي قال فيه رسول الله: (إن من الشعر حُكما) وإنما أمزح وأهزل، وليس مما ينشده أمير المؤمنين
فقال لي: لا تقل هذا يا خالد، فأن جد الأدب جد، وهزله هزل، أنشدني، فأنشدته:
عش فحبيبك سريعاً قاتلي ... والضنى - إن لم تصلني - واصلي
ظفر الشوق بقلب كمد ... فيك، والسقم بجسم ناحل
فهما بين اكتئاب وبلى ... تركاني كالقضيب الذابل
وبكى العاذل لي من رحمة ... فبكائي لبكاء العاذل
فاستملح ذلك، ووصلني
105 - ندمان الفتى قبل كأسه
العطوي (أبو عبد الرحمن):
يقولون قبل الدار جار موافق ... وقبل طريق المرء أنس رفيق
فقلت:
وندمان الفتى قبل كأسه ... فما حث سير الكأس مثل صديق
106 - الملحية
قال ابن أبي الحديد: وجدت بخط أبي محمد عبد الله بن أحمد الخشاب في تعاليق مسودة أبياتا للعطوي وهي:
قد رأينا الغزال والغصن والنجمين ... شمس الضحى وبدر الظلام
فوحق البيان يعضده البرهان ... في مأقط ألد الخصام
ما رأينا سوى الملحية شيئا ... جمع الحسن كله في نظام
فهي تجري مجرى الاصالة في الرأي ... ومجرى الأرواح في الأجسام
وقد كتب أبن الخشاب تحت الملحية: ما اصدقه إن أراد بالملحية الحكمة!
107 - شهود ثقات
أنشد رجل الأمام إبراهيم الحربي قول الشاعر:
أنكرت ذلي فأي شيء ... أحسن من ذلة المحب
أليس شوقي، وفيض دمعي ... وضعف جسمي، شهود حبي
فقال إبراهيم: هؤلاء شهود ثقات. . .
108 - هذا من خاطر الجن
قال الصولي: حدثني علي بن عيسى قال: كان البحتري معي جالسا، فسلم على ابن لعيسى
بن المنصور، فقال لي: ومن هذا
قلت: هذا ابن عيسى بن المنصور الذي يقول أبن الرومي في أبيه:

يقتر عيسى على نفسه ... وليس بباق ولا خالد
فلو يستطيع لتقتيره ... تنفس من منخر واحد
فقال لي: أف، وتف! هذا من خاطر الجن لا من خاطر الإنس ووثب ومضى
109 - وإذا غاب فبالثاني
للراغب (في محاضرات الأدباء):
قال خالد بن صفوان لجاريته: أطعمينا جبناً فأنه يشهي الطعام ويدبغ المعدة، ويهيج الشهوة، فقالت: ما عندنا
فقال: ما عليك، فأنه يقدح في الأسنان، ويلين البطن وهو من طعام أهل الذمة.
فقال بعض أصحابه: بأي القولين نأخذ؟
فقال: إذا حضر فبالأول، وإذا غاب فبالثاني
110 - استعدت التاريخ
قال الفقيه المقري: أنشدت يوماً الابلي قول أبن الرومي:
أفنى وأعمى ذا الطبيبُ بطبه ... وبكحله الأموات والأحياء
فإذا مررت رأيت من عميانه ... أمما على أمواته قدَّاء
فاستعادني حتى عجبت منه مع ما أعرف من عدم ميله إلى الشعر وانفعاله، وظننت أنه أعجب بما تضنه البيت الأول من غريب اللف والنشر والمكرر الذي لا أعرف له ثانياً فيه، فقال: أظننت أني استحسنت الشعر؟
فقلت: مثلك يستحسن هذا الشعر
فقال: تعرفت منه أن العميان كانوا في ذلك الزمان يقرءون على المقابر فأني كنت أرى ذلك حديث العهد فاستفدت التاريخ
111 - حتى أتى الله بالفرج . . .
في (العقد): قال عبد الله بن مسلم بن جندب:
تعالوا أعينوني على الليل إنه ... على كل عين لا تنام، طويل
قال عبد الله: فطرقني عيسى بن طلحة فقال لي: سمعت قولك فجئت أعينك
فقلت: يرحمك الله، أغفلت الإجابة حتى أتى الله بالفرج
112 - وآباؤنا أفعال غيرنا
أتى ضرار المتكلم بمجوسي ليكلمه فقال: أبو من أنت؟
فقال: نحن أجل من أن ننسب إلى أبنائنا إنما ننسب إلى آبائنا
فورد على ضرار ما لم يكن في حسابه، فأطرق ساعة ثم قال: أبناؤنا أفعالنا وآباؤنا أفعال غيرنا
113 - ليته جور مشاع
عبدان الأصبهاني:
تكلفني التصبر والتسلي ... وهل يسطاع إلا المستطاع؟
وقالوا قسمة نزلت بعدل ... فقلنا ليته جور مشاع!!
114 - وأما غيرهن فما نلتمس صبوتهن
قال المبرد: حدثني الزيادي قال: قيل لأعرابي: ألا تخضب بالوسمة؟
فقال: لم ذاك؟
قال: لتصبو إليك النساء
فقال: أما نساؤنا فما يرون بنا بديلا، وأما غيرهن فما نلتمس صبوتهن
115 - كيف يصوغ الموسيقي الألحان
قال الرشيد لإبراهيم المَوْصلي: كيف تصوغ الألحان؟
فقال: يا أمير المؤمنين أخرج الهم من قلبي وأمثّل الطرب بين عيني، فتنزع إليّ مسالك الألحان فأسالكها بدليل من الإيقاع فلا أرجع خائباً
فقال له الرشيد: يحق لك (يا إبراهيم) أن تدرك ما طلبت
116 - أن الحديث مع الغناء حرام
أحمد بن علَّويَه الكرماني:
حُكْمُ الغناء تسمّع ومدام ... ما للغناء مع الحديث نظام
لو أنني قاض قضيت قضيّة ... أن الحديث مع الغناء حرام
117 - أعطني فروتي

في الشرح الكبير للشريشي، قال بعضهم: كنت في متنزه لي وإذا شيخ معه صبي في يوم بارد فكنت أسمع الصبي يقول للشيخ: أعطني فروتي، فيناوله شيئا لا أتبينه. فبعثت غلامي ينظر إليه فإذا عند الشيخ قنينة، كلما طلب الصبي فروته سقاه قدحاً.

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

الفلسفة الهندية

البراهمية الأولى أو الأورثوذوكسية

تشبه آلهة البراهمية الأولى بوجه عام آلهة الإغريق، إذ لا يخفى على الباحث - إذا أغضى عن الموازنة الدقيقة - ما يلفت النظر من المشابهة الواضحة بين آلهة (الفيدا) وآلهة (الإلياذة) و (الأودسا) تلك المشابهة التي لا تجعل مجالا للشك في أن آلهة الكتابين من أسرة واحة يتفقون جميعاً في البساطة والطفولة وسرعة الغضب وسهولة العودة إلى الرضى وفي الخلو من الحقد وسوء النية والأنانية والوحشية المتأصلة في آلهة الآشوريون أو البابليين مثلاً، وهم يتفقون كذلك في القرب من صف الإنسانية كاستعانتهم ببني البشر مثلا في الوصول إلى غاياتهم ثم مكافأتهم إياهم بحمايتهم لهم وعطفهم عليهم.

ومما يلفت النظر في هذه المشابهة هو بساطة اختصاص آلهة (الفيدا) كآلهة (الالياذة) و (الأودسا) وخلوها من التعقيد الذي كان فيما بعد من مميزات الديانة (الأندويسمية) التي ظهرت بعد الفيدا بعدة قرون وكانت مزيجاً من الديانتين:

والهندية المحلية القديمة، ف (أندرا) مثلاً هو كبير الآلهة وهو إله السماء (الفيدية) والمناخ، و (رودرا) و (أجني) هما صاحباه وساعداه على تصريف شؤون الكون. و (جاما) إله الموت و (أوسهاس) إلهة الفجر. وهكذا كل إله له اختصاص محدد ودائرة محصورة.

بدء الخلق

تستقي (البراهمية) الأولى عقيدة بدء الخلق من أسطورتين قديمتين فأما أولهما، فهي أن الإله (براجاباتي) هو في نفس الوقت خالق ومخلوق، لأنه كان في أول الأمر واحداً فأشتاق

إلى التكثر وتمناه، فلم يكن من بقية الآلهة إلا أن أجابوه إلى سؤله، فضحوه وقطعوه إرباً ونثروا أجزائه في جميع البقاع، لتحقيق هذا التوحد المنشود من جميع الأجزاء، وهذا الشوق هو سر التجاذب الخفي الموجود في جميع عناصر الكون، وأنجع الوسائل لتحقيق هذه الغاية هي الضحايا التي يقوم بها بنو البشر.

على أن الوصول النهائي إلى هذه الغاية لا يتحقق تماماً، لأن ما يجتمع من هذا الإله بوساطة الجاذبية الطبيعية من جهة وبالضحايا المقدمة من بني الإنسان من جهة أخرى لا يلبث أن يعود إلى التفكك بعملية خلق جديد يتولاها هذا الإله بنفسه من نفسه رغبة في إنشاء كون وتكثير وحداته. وستظل هذه الدورة مستمرة كالحلقة المفرغة التي لا يمتاز مبدؤها عن منتهاها إلى ما شاء الله أن يكون، ولكن القرابين والضحايا هي أهم أسباب هذا التجاذب الذي يقع بين العناصر المتناثرة فيجمع شتاتها، إذ هي العامل الأوحد الذي يصل بين الإله والأناسي من جهة وبين الأفراد بعضهم مع بعض من جهة أخرى، وأكثر من هذا أنها هي التي تعيد للإله قوته بعد تفككها بسبب تناثر أجزائه.

هذه هي الأسطورة الأولى في عقيدة بدء الخلق، أما الثانية فهي أن الإله (براجاباتي) أحس يوماً بشغف مادي شديد نحو ابنة (أوسهاس) إلهة الفجر الجميلة فأبدى لها هذه الرغبة فارتاعت منها ارتياعاً شديداً وفرت من وجهه مذعورة، فتعقبها وأخذ يرقب حركاتها، فكلما تشكلت بأنثى كائن من الكائنات تشكل هو بصورة ذكر هذا الكائن، وظل على هذه الحال حتى استولى عليها ونال منها بغيته، فحملت لساعتها بأول أفراد هذا العالم الموجود.

وحدة الوجود

كان من نتائج الأسطورة الأولى أن سرت في تلك البلاد فكرة وجود ساذجة لم تلبث

أن تحولت إلى وحدة الوجود الفلسفية، تلك الوحدة التي أخذت تقوى مع الزمن حتى عم الاعتقاد بها بلاد الهند كافة. وها هو البيروني يحدثنا عن وحدة الوجود في الديانة الهندية بعد تاريخ (الفيدا) ببضعة وعشرين قرناً فيقول: (قال (باسديو) في كتاب (بكيتا): أما عند التحقق فجميع الأشياء إلهية لأن (بشن) جعل نفسه أرضاً ليستقر الحيوان عليها، وجعله ماء ليغذيهم، وجعله ناراً وريحاً لينميهم وينشئهم، وجعله قلباً لكل واحد منهم، ومنح الذكر والعلم وضديهما على ما هو مذكور في بيذ).

اختلاف الطبقات

كانت طبقات الشعب الهندي في عهد البراهمية الأولى أربعاً، أولاها البراهمية وهم الكهنة ثانيتها (كساتريا) ويسميها البيرتي (كشتر) وهي طبقة الجند، ثالثتها طبقة الفيسيا يسمها البيروني (بيسن) وهي طبقة العمال وأصحاب المهن والزراع، رابعتها سودرا ويسميها البيروني (سودر) وهي طبقة الأرقاء، ومما جاء في كتاب البيروني عن هذه الطبقات قوله: (وهذه الطبقات في أول الأمر أربع، علياها البراهمة قد ذكروا في كتابهم أن حلقتهم من رأس براها وأن الاسم كناية عن القوة المسماة طبيعية، والرأس علاوة الحيوان فالبراهمة نقاوة الجنس، ولذلك صاروا عندهم خيرة الأنس، والطبقة التي تتلوهم (كشتر) خلقوا بزعمهم من مناكب براهم ويديه، ورتبتهم عن البراهمة غير متباعدة جداً، ودونهم (ييش) ثم (شودر) خلقوا من رجلي براهم. وهاتان المرتبتان الأخيرتان متقاربتان).

كتابهم الأول المقدس - الفيدا

ليست (الفيدا) كتاباً هندياً أصلياً وإنما هي كتاب (أندروآرى) حمل الفاتحون عناصره معهم إلى وادي (البنجاب) المفتوح حيث فرضوا تعاليمه على الوطنيين فرضاً. وإذاً فهو لا يمثل العقلية الهندية ولا يصور المدنية القديمة التي كانت زاهرة في تلك البلاد قبل وجوده فيها بأكثر من خمسة عشر قرناً كما أسلفنا، بل بالعكس كثيراً ما يجد فيه القارئ صورا عقلية واجتماعية هي على طرفي نقيض مع الصور التي اكتشفها الأثريون حديثاً للهند المحلية الغابرة، وفوق ذلك هو مكتوب باللغة (السانسكريتية) التي لم تكن معروفة عند الهنود الأصليين من غير شك والتي هي لغة الآريين وحدهم.

غير أن هذا الكتاب لا يزال هو أقدم المستندات العلمية المعتمدة في تاريخ الديانة الهندية، وسيظل كذلك - رغم يقيننا بأجنبيته - حتى يكشف علماء العاديات ما يحل محله في هذه الأولوية من الكتب المقدسة القديمة.

ولا يعرف المؤرخون بالضبط متى جمعت (الفيدا) وإنما كل الذي ثبت لديهم هو أن بعض أناشيدها يرجع إلى القرن الخامس عشر قبل المسيح، وأن صيرورة هذا الكتاب إلى ما هو عليه الآن قد استغرقت عدة قرون، ويرجح بعض العلماء أنه قد جمع في القرن الثاني عشر

قبل المسيح، وأن تياره القوي لم يستطع أن يجرف العقيدة القديمة من نفوس جميع أبناء الشعب الهندي، وإنما قد صبغ تلك العقيدة بلونه الجديد كما أسلفنا، ولم يقو على محوها إلا من نفوس الخاصة المثقفة أما الجماهير فقد ظلت العقيدة القديمة محتفظة بمكانتها في نفوسهم احتفاظاً كان في أول الأمر صامتاً أما قوة الديانة الأجنبية المنتصرة، ولكنه أخذ بعد ذلك يقوى وينتعش شيئاً فشيئاً حتى برز منه الشيء الكثير على مسرح الوجود.

لكلمة (الفيدا) عدة معان، أدقها: (العلم عن طريق الدين بكل ما هو مجهول). وينجم عن هذا التعريف أن تكون (الفيدا) منبع جميع المعارف الهندية من: ديانات وأخلاقيات ونظريات علمية أو اجتماعية، وهي تحتوي أوراداً تعبدية وأناشيد دينية، وتعاويذ سحرية نزل بها الوحي من عند الله على قلب (براهما) فتلاها على الناس فاستظهروها وأخذوا يتعبدون بتلاوتها دون أن يكتنهوا أسرارها. وهي مؤلفة من أربع مجموعات تختلف كل واحدة منها عن الأخرى باختلاف الموضوع الذي تعالجه، فالأولى تسمى (رك بيذ) - (رك فيدا) وهي تحتوي على الأوراد، والثانية تسمى: (سام بيذ) - (سامان فيدا) وتحتوي على الأناشيد. والثالثة (جزر بيذ) - (ياجوس فيدا) وتحتوي على طقوس الضحايا والقرابين. والرابعة (أثارفين - بيذ) - (أتهارفان فيدا) وتحتوي على التعاويذ السحرية.

هذا، واليك ما كتبه أبو الريحان البيروني عن هذا الكتاب: (بيذ) تفسيره العلم بما ليس بمعلوم، وهو كلام نسبوه إلى الله تعالى من فم (براهم) ويتلوه (البراهمة) تلاوة من

غير أن يفهموا تفسيره، ويتعلمونه كذلك فيما بينهم يأخذه بعضهم من بعض، ثم لا يتعلم تفسيره إلا قليل منهم. وأقل من ذلك من يتصرف في معانيه وتأويلاته على وجه النظر والجدل ويعلمونه (كشتر) فيتعلمه من غير أن يطلق له تعليمه ولو لبرهمن، ثم لا يحل لبيش ولا لشودر أن يسمعاه فضلاً عن أن يتلفظا به ويقرآه، وإن صح ذلك على إحداهما دفعته البراهمة إلى الوالي فعاقبه بقطع اللسان. ويتضمن (بيذ) الأوامر والنواهي والترغيب والترهيب بالتحديد والتعيين بالثواب والعقاب، ومعظمه على التسابيح وقرابين النار بأنواعها التي لا تكاد تحصى كثرة وعسرة، ولا يجوزون كتابته، لأنه مقروء بألحان، فيتحرجون عن عجز القلم وإيقاعه زيادة ونقصاناً في المكتوب. ولهذا فاتهم مراراً ويروي لنا البيروني كذلك أن أكثر البراهمة يدعون أن (الفيدا) معجزة لا يستطيع أحد مهما أوتي
من ذكاء الجنان وقوة البيان أن يأتي بمثله، أما أقلهم فيزعمون أن بلغاءهم قادرون (على الإتيان بمثله ولكنهم ممنوعون عن ذلك احتراماً له
ولعلك - إن كنت ممن لهم إلمام بالمذاهب الإسلامية - تذكر أن هذه المسألة بالذات قد أثيرت بين علماء المسلمين، وأن هذا الخلاف عينه موجود بينهم على الصورة التي وجد عليها بين البراهمة، فذهبت الأكثرية الساحقة من علماء المسلمين إلى أنه ليس في طاقة البشر الإتيان بمثل أصغر سورة من القرآن مهما أوتوا من الفصاحة والبلاغة، وذهبت أقلية من هؤلاء العلماء إلى أن الفصحاء ممنوعون قسر إرادتهم عن هذه المحاكاة بحيث أنه لو فرض وجود كتاب آخر يستوي مع القرآن في البلاغة ويصعد إلى طبقته في الفصاحة والإتقان لأمكن للفصحاء تقليده. وإذاً فالعجز عن الإتيان بمثل القرآن في رأي هذا الفريق ليس أصلياً في عقول الفصحاء، وإنما هو عارض دعا إليه إجلال القرآن. ونحن نرجح أن عناصر الخلاف في هذه المسألة بين علماء المسلمين إنما هي دخيلة جاءتهم من الديانة الهندية، ونرجح كذلك أنهم لو لم يتأثروا بهذا الخلاف الهندي لضلوا جميعاً على رأي واحد في هذه المسألة ولأجمعوا على أن القرآن لا يقصد به بقوله: (قل لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) إلا إعلان العجز الطبيعي الأصيل، وإلا لما صح التحدي، لأنه لا معنى لأن تتحدى شخصاً ثم تدعه على حريته، بل تحاول صرفه عما تحديته فيه وإذا، فلو دقق هذا الفريق النظر في الآية الكريمة لما ذهب إلى ما ذهب إليه.
هذا، ولا يفوتنا قبل مغادرة هذه النقطة أن نعلن أن هذه المغالاة من جانب البراهمة في تقديس كتاب الفيدا هي التي حالت بينه وبين التبديل والعبث اللذين وقعا في كتاب البوذية كما سنشير إلى ذلك في حينه.
(يتبع)
غلاب
هكذا قال زرادشت
للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه
ترجمة الأستاذ فليكس فارس
الانتصار على الذات
ليست إرادة الحق في عرفكم، أيها الحكماء، إلا تلك القوة التي تحفزكم وتضطرم فيكم، تلك هي إرادتكم التي أسميها أنا (إرادة تصور الوجود) فأنكم تطمحون إلى جعل كل موجود خاضعاً لتصوركم، وأنتم تحاذرون بحق أن يكون هذا الوجود قد أحاط به التصور من قبل فتريدون أن تخضعوا لإرادتكم كل كائن لتتحكموا فيه بالصقل ليصبح مرآة تنعكس عليها صورة العقل.
هذا ما تطمحون إليه، يا أحكم الحكماء، وتلك هي إرادتكم تجاه القوة والخير والشر وتقدير قيم الأشياء.
إنكم تريدون خلق عالم يمكن لكم أن تجثوا أمامه، تلك هي نهاية نشوتكم وآخر أمنية لكم. ولكن البسطاء الذين يدعون شعباً يشبهون نهراً تخوضه أبداً ماخرة تقل الشرائع، وقد جلسن عليها بعظمة وأنزلن على وجوههن الحجاب.
لقد أرسلتم إرادتكم وشرعتكم على نهر الزمان، ولكن إرادة القوة مثلت أمامي وكشفت لي حقيقة الخير والشر في اعتقاد الشعوب.

وهل سواكم، أيها الحكماء، من أنزل بإرادته المتسلطة هذه الشرائع في هذه الماخرة وقد حليتموهن بالجواهر وأسبغتم عليهن أروع الأسماء.
لقد سار النهر يحملن بانسيابه وسهم الماخرة يشق أمواجه ومن يبالي بالموجة تقاوم عبثاً في إرغائها وإزبادها.
إن الخطر الذي يتهدد خيركم وشركم لا يكمن في النهر، أيها الحكماء، بل الخطر في إرادة القوة نفسها لأنها الإرادة الحية الدائمة المبدعة.
أن ما سأقوله عن الحياة سيوضح لكم اعتقادي في الخير والشر عندما أتناول ببياني ما تفعل العادات في الأحياء.
لقد سايرت الكائن الحي على معابره وأشواطه لأتعرف إلى عاداته، وعندما كانت الحياة صامتة نصبت أمامها مرآة بألف ضلع لأستنطق عينيها فكلمتي لحاظها.
في كل مكان عثرت فيه على حي، طرقت أذني كلمات الطاعة فما من حي يتعالى عن الخضوع، وعرفت أيضاً أن ليس من محكوم في الحياة سوى من لا قبل له بإطاعة نفسه. . . تلك هي عادة كل حي. .
وهذا ما سمعت أخيراً: إن تولي الحكم أصعب من الطاعة لأن الآمر يحمل أثقال جميع الخاضعين له وكثيراً ما ترهق هذه الأثقال كواهل الآمرين.
إن في أمر خطراً ومجازفة، وكل مرة يصدر الحي فيها أمراً يقتحم خطراً.
وإذا ما تحكم الحي في ذاته فأنه يؤدي جزية لسلطانه إذ يصبح قاضياً ومنفذاً وضحية للشرائع التي يستنها.
وتساءلت عن علة هذه الأمور وعن القوة التي ترغم الحي على الانقياد والتحكم فتجعله خاضعاً حتى إذا حكم. ولعلي توصلت إلى سبر قلب الحياة إلى الصميم، فأصغوا إلى قولي أيها الحكماء
لقد تيقنت وجود إرادة القوة في كل حي ورأيت الخاضعين أنفسهم يطمحون إلى السيادة لأن في إرادة الخاضع مبدأ سيادة القوي على الضعيف، فإرادة الخاضع تطمح إلى السيادة أيضاً لتتحكم فيمن هو أضعف وتلك اللذة الوحيدة الباقية لها فلا تتخلى عنا.
وبما أن الأضعف يستسلم للأقوى والأقوى يتمتع بسيادته على هذا الأضعف فإن الأقوى يعرض نفسه للخطر في سبيل قوته فهو يجازف بحياته مستهدفاً للأخطار.
أن إرادة القوة كامنة حتى في مجال التضحية والخدمة المتبادلة وبين نظرات العاشقين لذلك يتجه الأضعف إلى السبل الملتوية قاصداً اجتياز الحصن والتربع في قلب الأقوى مستولياً فيه على قوته
لقد أودعتني الحياة سرها قائلة: لقد تحتم علي أن أتفوق أبدا على ذاتي. وأنكم لتحسبون هذا الاندفاع إرادة إبداع أو غريزة تحفز بي إلى الهدف الأسمى والأبعد منالاً بعديد جهاته، في حين أن ليس هنالك إلا وجهة واحدة وسر واحد. وأنني لأفضل العدم على التحول عن هذه الوحدة.
والحق أنكم حيث تشهدون انحداراً وسقوط أوراق من الأدواح، فهنالك تشهدون تضحية الحياة من أجل القوة.
لقد وجب علي أن أكون أنا الجهاد والمستقبل والهدف وأن أكون في الوقت نفسه الحائل الذي يعترضني في انطلاقتي إلى هدفي
لذلك لا يعرف الإنسان الطريق المتعرجة التي عليه أن يسلكها إذا هو لم يدرك حقيقة إرادتي.
مهما كان الشيء الذي أبدعه ولي ومهما بلغ حبي له فإن عليّ أن أنقلب له خصماً، وأتحول عن حبي وحناني، ذلك مل قضته إرادتي عليّ
وأنت، أنت يا من تطلب المعرفة ليس لك من سبيل غير سبيلي فعليك أن تقتفي أثر إرادتي، وما تقتفي إرادتي إلا آثار إرادة الحق
ما عثر على الحقيقة من قال بإرادة الحياة، لأن مثل هذه الإرادة لا وجود لها، وليس للعدم إرادة كما أن المتمتع بالحياة لا يمكنه أن يطلب الحياة
ولا إرادة إلا حيث تتجلى حياة، ومع هذا فإن ما أدعو إليه إن هو إلا إرادة القوة لا إرادة الحياة
أن هنالك أموراً كثيرة يراها الحي أرفع من الحياة نفسها، وما كان ليرى أشياء أفضل

من الحياة، لو لم تكن هنالك إرادة القوة.
هذا ما علمتني إياه الحياة يوماً، وأنا بهذا التعليم أهتك أسرار قلبكم، أيها الحكماء، فأقول لكم: إنه ليس هنالك من خير دائم وشر دائم، لآن على الخير والشر كليهما أن يندفعا أبداً إلى التفوق والاعتلاء
وأنتم أيها الواضعون للقيم أقدارها بمقاييسكم وأوزانكم وبما تقولونه عن الخير والشر هل كان لكم أن تفعلوا هذا لو لم تكن لكم إرادة القوة؟ وما تطمحون في أعماق ضمائركم إلا إلى الشهرة والشعور بتأثركم وفيضان أرواحكم. ولكم تجهلون أن في الأمور التي تخضعونها لتقديركم قوة أعظم من تقديركم تنمو وتتفوق على ذاتها لتحطم غلافها وقشورها، فمن أراد أن يكون مبدعاً سواء أكان في الخير أو في الشر فعليه أن يبدأ بهدم ما سبق تقديره وبتحطيمه تحطيماً. وهكذا فأن أعظم الشر يبدو جزاء من أعظم الخير، ولكن هذا الخير لم
يعط إدراكه إلا للمبدعين
لقد حق القول علينا أيها الحكماء، مهما كلفنا الجهر به فأن الصمت أشد وطأة علينا، لأن كل حقيقة نكتمها إنما تتحول إلى سم زعاف فينا، فلنحطم الحقائق التي نجهر بها ما يمكنها أن تحطم فأن هنالك أبنية عديدة يجب علينا أن نرفعها
هكذا تكلم زارا. . .
العظماء
إن في بحراً هدأت أعماقه، فمن يظن أنه يخفي مسوخا دأبها المزاح؟ إن أغواري صامدة لا تتزعزع، غير أنها تتماوج بالمعميات وتجاوب فيها من الضحك نبرات وأصداء.
رأيت اليوم رجلا من العظماء الإجلاء الذين يكفرون من أجل الروح. فاستغرقت روحي في ضحكها هازئة بقبحه. غير أن هذا العظيم لم يبد ولم يعد. بل أنتفخ صدره كمن يتنفس الصعداء، فلاح لي بحقائقه المروعة وبأثوابه الممزقة غصناً كله أشواك وليس فيه ورد.
ما تعلم هذا القناص الضحك ولا عرف الجمال، فأنه راجع من غاب المعرفة أغبر الوجه بعد أن صارع فيها الوحوش فانطبعت صورهم على سيمائه، فهو كالنمر يتحفز للوثوب، وما أحب مثل هذه الأرواح المنقبضة على ما تضمر.
تقولون، أيها الصحاب، إنه لا جدال في الذوق وفي الألوان فكأنكم تجهلون أن الحياة بأسرها نضال من أجل الأذواق والألوان.
ما الذوق إلا الموزون والميزان والوزان. . . فويل لكل حي يريد أن يعيش دون نضال من أجل الموزونات والموازين والوازنين
ليت هذا الرجل العظيم يتعب من عظمته ليظهر الجمال فيه فأنه في ملاله من هذه العظمة يستحق أن أتذوقه فأجد له طعماً.
إذا لم يتحول العظيم عن نفسه فلا يمكنه أن يقفز فوق خياله لتغمره أشعة شمسه.
لقد تفيأ الظل طويلا، هذا المفكر من أجل الروح، فشحب وجهه وكاد في انتظاره أن يموت جوعاً، وهذه عيناه تشعان بالاحتقار وشفتاه تتبرمان بالاشمئزاز، أنه يلتمس الراحة الآن ولكنه لم ينطرح تحت الشمس بعد.
ليت هذا الرجل يتمل بالثور فيفوح من سعادته عبق الأرض لا احتقار الأرض. ليته كالثور
الأبيض يعج أمام المحراث فيرتفع عجيجه تسبيحاً للأرض وما عليها.
لقد أكفهر وجه هذا العظيم إذ تلاعبت على خديه إظلال يده فاخفت عيناه. وأعماله نفسها لم تزل كالخيال تلوح ولا تبدو عليه. فإن اليد ترسل ظلا قاتماً على العامل إذا هو لم يتفوق على عمله
إنني أقدر احتمال هذا الرجل لنير الثور ولكنني أتمنى أن تشع نظرات الملاك في عينيه، ولن تشع هذه النظرات ما لم ينس ما فيه من إرادة الأبطال. لأن ما أريد له هو أن يصير رجلاً سامياً لا أن يبقى في مربية الرجل العظيم حيث يفقد الإنسان إرادته فتتلاعب به أضعف النسمات.
لقد تغلب هذا العظيم على الجبابرة وتوصل إلى حل الرموز ولكن عليه الآن أن ينقذ هذه الجبابرة وهذه الرموز ليحولها إلى طفولة الألوهية.
إن معرفة هذا الرجل لم تتعلم الابتسام ولا الترفع عن الحسد كما أن موجة شهواته لم

تكن في خضم الجمال. وما عليه أن يدفع بهذه الشهوات إلى سكون الشبع بل عليه أن يغرقها في الجمال لأن اللطف لا ينفصل عن مكارم من بلغوا الأوج بتفكيرهم
على البطل ألا يستسلم للراحة ما لم يضع يده على رأسه ليتفوق على راحته، وما يصعب على البطل شيء كإدراكه الجمال، لأن الجمال لا يستسلم لأبناء العنف.
أن بين الإفراط والتفريط قيد أنملة، فلا تحتقروا هذا المدى لأنه بعيد وإن قصر وفيه الأهمية الكبرى. ولكن عضلات العظماء لا تلجأ إلى السكون وأرادتهم لا تنضب. وما من جمال إلا في تنازل القوة إلى الرحمة وحلولها في المنظور.
أنني لا أطالب بالرحمة سواك، أيها المقتدر، فلتكن الرحمة آخر مرحلة تقطعها في انتصارك على ذاتك. وما كنت لأفرض الخير عليك لولا أنني أراك قادراً على ارتكاب كل الشرور. ولكم أضحكني أولئك الصعاليك يعدون أنفسهم رحماء وقد شلت يدهم ولا حول لهم ولا طول
عليك أن تتمثل في فضيلتك بفضيلة الأعمدة التي تزداد بها دقة وصلابة في لبابها كلما ازداد ارتفاعها
أجل أيها الرجل العظيم إنك ستبلغ الجمال يوماً فترفع المرآة إلى وجهك لتتمتع برؤية جمالك وعندئذ تختلج روحك بالشهوات وعندئذ تتجلى العبادة في غرورك
لا يقترب البطل في أحلامه إلى مرتبة البطل الكامل ما لم يغفل الروح ويتحول عنها.
هكذا تكلم زارا. . .
رسالة الفن
ميكيلانجلو
العبقرية الملهمة
للدكتور أحمد موسى
- 3 -
وما صادفه من صعاب سبق ذكرها، صادفه هنا في تنفيذ مشروعاته الفنية الخاصة بحقوق أميري المديتشي جيليانو ولورنسو، اللتين كان قد أوصى بعملهما الكردينال جليودي مديتشي في سنة 1519، ولم يبدأ في تنفيذهما إلا سنة 1521 بعد تعديلات وأخذ ورد
على أنه عمل بيده فيها من سنة 1527 إلى سنة 1530، ووقف عندما أضطر للفرار لهبوب العاصفة السياسية التي انتهت بانهزام المديتشي وخروجهم من فلورنسا. عندئذ عمل ميكيلانجلو تحت لواء الجمهورية حتى عودة المديتشي ثانياً
وبعد موت البابا بقليل سافر في سبتمبر سنة 1534 إلى روما دون أن يتم أعماله إلى النهاية فقد ترك اثني عشر تمثالاً دون إكمال إلى أن أتمها جورجيو فاساري (1511 - 1574) الذي كان مصوراً ومهندساً معمارياً ومؤرخاً لعصره، والذي بنى قصر أوفيسين بفلورنسا بردهته المعتبرة من أجمل ردهات قصور إيطاليا
ويحسن بنا أن نعلم بعض الشيء عن هاتين المقبرتين المشهورتين، التين تعدان آية من آيات الإعجاز الفني، فبين حائطين تنحصر مسافة خصصت للمقبرتين، ولكل منهما تمثالان رمزيان إحداهما لامرأة والآخر لرجل، وفوقهما نافذة أشبه بقبلة وضع فيها تمثال للمتوفى جالس.
أما التماثيل الرمزية فهي عارية الجسم، وأكبر من الحجم الطبيعي قليلاً، وتمثل الأوقات اليومية الأربعة وعلاقتها بالنفس وهي (الليل، النهار) و (الفجر، المساء) معبرة عن الأسى والحزن لوفاة الأميرين.
وقد عبر ميكيلانجلو عن الليل بامرأة نائمة وعند قدميها بوم. وأما النهار فقد مثله برجل هرقلي التكوين، ولكنه ترك الرأس والذراع غير كاملين، وكلاهما في غاية القوة الإنشائية
وحسن الإخراج، ولكن الطريقة الوضعية لهذين التمثالين تكاد تكون مستحيلة بالنظر إلى الكيفية التي أجلسهما بمقتضاها، وهذا ما قررته عندما تناولنا مميزاته الفنية بالبحث
ونأتي هنا بصورة لجانب آخر من هذه المقبرة (ش1) فترى فيها لورنسو جالساً، وعند قدميه تمثالا الفجر والمساء (ش2، ش3). أنظر إلى رأس كل منهما وتأمل القوة في الإخراج والعظمة في الإنشاء؛ فالوضع العام خال من الإرغام والطريقة الوضعية أهدأ

كثيراً من تماثيله لليل والنهار، وقد عبر عن الحزن تعبيراً قوياً، هذا والتكوين الجسماني وسير الخطوط الإنشائية مما يثير الدهشة والاستغراب لهذه القوة الخارقة في تقدير الجمال الكامل وحسن إخراجه

أنظر إلى جمال اليد اليسرى للمرأة، وإلى اليد اليمنى للرجل وتأمل نعومة جسم المرأة وقوة عضلات الرجل، ترى أن ميكيلانجلو كان موفقاً كل التوفيق في هذين التمثالين

أراد أن يمثل لك بطريقة إخراجه ألم الأحلام الحزينة في الليل وما ترسمه على الملامح عند الفجر، فأخرج وجه المرأة على هذه الصفة، كما أراد أن يمثل لك كيف أن الحزن نهاراً يعود على الجسم العامل والعقل المفكر بملامح أقرب إلى إنهاك القوى والتعجيل بحلول الشيخوخة، فكان إماماً يحتذي وقائداً يتبع وفناناً يذكر على مر القرون وتمثالاه لجليانو وفلورنسو أقرب إلى الإخراج الإغريقي وهما لا يمثلان صاحبيهما وإنما رمزيان للتعبير عنهما فالأول مثل قائداً حربياً ارتسمت على وجهه ملامح التفكير وقوة الإرادة وصرامة الأوامر. وأما الثاني (لورنسو) (ش1) فتراه جاساً وقد اكتسى جبينه بغطاء رأسه فأحدث ظلاً على العينين أكسب صاحبهما شيئاً من الخفاء وعمق التفكير.

أنظر إلى اليد اليسرى وقد لامست شفتيه وإلى السبابة وقد جاورت الأنف، ثم تأمل المجموع الكلي، تر أن صاحب هذا التمثال بحالته هذه وبطريقة جلسته وعمقه في تفكيره، لابد وأن يكون من رجال السلطة العامة. وهذا ما قصده ميكيلانجلو تماماً فقد سجل بذلك للأخوين أميز وأبرز صفاتهما وهي الحكم.

والدارس للمجموع الإنشائي لهاتين المقبرتين يسجل لميكيلانجلو المعرفة الصادقة بأصول علم التشريح بالنسبة إلى التماثيل، والإحاطة الكاملة بعلم النفس بالنسبة إلى مظهرها، فضلاً عن القدرة في فن المعمار التي تجلت في وضعه التصميم الكلي وما أنطبع عليه من

الانسجام

وله على الحائط الثالث للمقبرة مجموعة تمثل المادونا مع يسوع الطفل، وهي جالسة والطفل متجه إلى ثديها للرضاعة، وهي لا تقل جمالاً عن قطعه الأخرى، لا سيما وأن المادونا على جانب كبير من الجمال الرفيع مع شيء كثير من الحزن

وعلى ذلك لا مناص للمؤرخ الفني من اعتبار هاتين المقبرتين مجموعتين أعظم إنتاج مجسم أخرجه ميكيلانجلو وأكمل عمل فني أفرغ فيه غايته وأدى به رسالته، كما أن ما شملتاه من تماثيل بجانب تمثاله للنبي موسى (راجع المقال السابق) أهم وأبرز إنتاج فني في مدرسة النحت الحديث

أما المرحلة الثالثة من حياته فقد بدأت منذ رحيله نهائياً إلى روما في سبتمبر سنة 1534، وإقامته فيها حتى وفاته بعد أن بلغ التاسعة والثمانين في 18 فبراير سنة 1564

وقد ارتقى رئيساً عاماً للمعماريين والنحاتين والمصورين في القصر الابوستولي، وكلفه البابا بتصوير السقف السكستيني (نسبة إلى البابا سكستس الرابع) واشتغل منهمكاً فيه من سنة 1535 إلى سنة 1541، وصور (يوم القيامة) كما صور بين سنة سنة 1542 وبين سنة 1550 الصور اللازمة لمجموعة باولينا.

أما من سنة 1542 إلى سنة 1545 فقد أكمل البناء التذكاري ليوليوس، وهو بناء شامل لطبقتين (دورين) لكل منهما ثلاث قبلات، في الطبقة الأرضية تمثال موسى، وعلى اليمين واليسار وضع تمثالان جديدان، الأول يمثل (ليا) امرأة يعوب الأولى وبيدها المرآة، والثاني لامرأته الثانية (راشيل) وهي تصلي، وهما مليئتان بالحياة والحركة.

أما في الطبقة العليا، فله قطع مثلت البابا والمادونا والكاهن والنبي، وهي ليست في جودة قطعه السابقة، ولذلك يخيل إلينا أنها من نحت تلاميذه.

ونحت بعض التماثيل وتركها دون إتمام، منها مجموعته لبيتا ومنها المجموعة الصغرى محفوظة بقصر روندانيني بروما، ومجموعته الكبرى عملها خصيصاً لمقبرته وهي تشمل أربعة تماثيل موجودة الآن في كاتدرائية فلورنسا بالردهة الرئيسية.

واشتغل في هذه المرحلة بالشعر أيضاً وله ملحمات معروفة، خصوصاً تلك التي كتبها غزلاً في معشوقته فيتوريا كولونا بين سنة 1534 و1547 وكان لها تأثير عظيم في فنه وفي

مجرى حياته
ومنذ سنة 1546 أسند إليه الأشراف الفعلي على بناء قبة كنيسة بطرس واشتغل بهندسة المعمار السبعة عشر سنة الأخيرة من عمره، ودفن في كروسه بفلورنسا. أما ميكيلانجلو المصور فسيكون موضوع بحثنا في العدد القادم.

أحمد موسى

البريد الأدبي

وفاة جيمس باري عميد الكوميديا الإنكليزية

نعت أنباء لندن الأخيرة كاتباً من أعظم كتاب إنكلترا المعاصرين هو السير جيمس باري القصصي والكاتب المسرحي الكبير؛ توفي عقب أصابته بالتهاب رئوي صاعق. وكان مولده سنة 1860 في قرية من أعمال أسكتلندة وتلقى تربيته في جامعة أدنبورج، وشغف بالأدب منذ حداثته وفي سنة 1883 بدأ حياته في الصحافة، واشتغل بالتحرير في جريدة (نونتنهام جورنال)، ولفت الأنظار إليه بعدة مقالات أدبية رائعة؛ وفي سنة 1885 انتقل إلى لندن، وظهر كتابه الأول بعد ذلك بعامين بعنوان: (الموت أفضل) وهو مزيج من الخيال الساحر والتهكم اللاذع ثم ظهر كتابه وهو مجموعة صور ريفية فزاد في شهرته؛ وبعد قليل ظهرت روايته الصحفية الشهيرة (حينما يكون الرجل أعزب) ثم مجموعة صور جديدة عن الحياة في أدنبورج، وظهرت في سنة 1889 أقوى وأعظم رواياته وهي (أرملة في ثياب خشنة) ثم رواية ظريفة عن التدخين عنوانها ثم (الوزير الصغير)

وفي ذلك الحين بدأ باري يكتب للمسرح، وافتتح مجهوده بمسرحية عنوانها فنالت نجاحاً عظيماً وتلاها بكوميديا عنوانها (قصة غرام الأستاذ) ' - في سنة 1895؛ وأصدر في هذا الوقت أيضاً مذكراته في حياته الأولى مع والدته بعنوان ثم استأنفها في روايتين أخريين هما وتمتاز هذه السلسلة بأسلوبها الفكاهي اللاذع الذي برع فيه باري براعة عظيمة

وفي سنة 1902، أخرج باري مسرحيته الغريبة: (العصفور الصغير الأبيض)، وهي أول حلقة من سلسلة القطع الشهيرة التي اتخذ لها بطلاً مدهشاً هو (بيتر بان).

واشتهر أيضاً بقطعة أخرى عنوانها: (لعبة الاختفاء مع الملائكة) وفيها يشرح طريقته في العمل وفي الحياة كأنها مداعبة مع الملائكة

ويرى النقدة أن سير باري بلغ أروع مواهبه في الكوميديا، وأنه يعرضها بفن لا يجارى ويتفوق فيها على المأساة (الدرامة)، وفي أثناء الحرب أخرج باري عدة من المسرحيات المؤسية والكوميدية، بيد أنها لم تكن من النوع الممتاز وأشهر هذه القطع: (قبلة لسندريلا) ويبدو باري في هذه القطع متأثراً بطابع هانس اندرسون وحصل باري سنة 1913 على وسام البارونية، ثم وسام الاستحقاق سنة 1922. وانتخب منذ سنة 1830 مستشاراً لجامعة ادنبورج.

أعياد جامعة لوزان

قرأنا في البريد السويسري الأخير شيئاً عن جامعة لوزان التي احتفلت أخيراً بعيدها بمناسبة مرور أربعمائة عام على تأسيسها ويذكر القراء الجامعة المصرية قد اشتركت في هذا الاحتفال على يد مديرها الأستاذ الكبير لطفي السيد باشا وقد نشأت جامعة لوزان سنة 1537 أكاديمية متواضعة أنشأها أهل برن في مقاطعة فات (فود) بعد أن افتتحوها لتكون معهدا للتبشير للدين البروتستانتي الذي غلب في سويسرا يومئذ، وقطعت الأكاديمية الجديدة عهداً من الاضطراب خلال الجدل والخصومات الدينية، ولكنها لقيت عضداً كبيراً في معاونة البروتستانتيين الفرنسيين؛ وفي سنة 1700 زادت الأكاديمية على قسم اللاهوت قسمين جديدين للتاريخ والقانون، ولما استقلت مقاطعة فات بشئونها الإدارية عنيت بتنظيم الأكاديمية، وصدر سنة 1837 قانون بإنشاء ثلاث كليات بها. وفي سنة 1869 وضع العلامة لوي ريشونيه مشروعا لتنظيمها، وأخيرا في سنة 1890 حولت إلى جامعة كبيرة، وأنشئت لها مبان فخمة.

وقد كان الاحتفال بعيد جامعة لوزان مظاهرة علمية دولية عظيمة؛ فقد اشترك فيه ممثلو الجامعات والهيئات العلمية في سائر أنحاء الأرض؛ وافتتح الاحتفال في الكاتدرائية الكبيرة، ثم أقيم مهرجان علمي بالجامعة لمنح العالميات الفخرية لطائفة من العظماء؛ ثم نظمت بعد ذلك نزهة لقصر شيلون الشهير الذي تغنى به الشاعر

بيرون
كتاب جديد لأميل لودفيج
يعنى الكاتب المؤرخ الألماني الكبير أميل لودفيج بعد أن أخرج كتابه الضخم عن نهر النيل بقسميه حسبما ذكرنا ذلك في الرسالة، بوضع كتاب جديد عن كليوباترا ملكة مصر، وينتظر أن يظهر هذا المؤلف الجديد بعد بضعة أشهر فقط؛ وفي ترجمة كليوباترا يستطيع أميل لودفيج أن يعرض كل مواهبه وبراعته كمترجم لأبطال العالم، وقد ظهرت هذه البراعة من قبل في جميع التراجم التي أخرجها المؤرخ عن (المسيح) وعن (نابليون) وعن
وعن (ولهلم القاني) وغيرها، بيد أنه يجد في حياة كليوباترا ميداناً أكثر (بسمارك) سحراً وخصوبة، فحياة هذه الملكة المصرية العظيمة لم تكن سوى مأساة مؤثرة؛ وأميل لودفيج في الواقع كاتب مسرحي قبل كل شيء يجيد عرض المآسي؛ وأخص ما في تراجمه هو هذا العرض الذي يصوغها في صور الأشخاص الحية، تراها أمامك تحت قلمه بجميع مناظرها وجميع حسناتها وعيوبها، وعنصر المأساة هو الذي يجذب أميل لودفيج ويذكي خياله وقلمه، ولا يتوفر هذا العنصر قدر توفره في حياة كليوباترا فهي ملكة عظيمة وامرأة ساحرة، تستعمل سحرها كامرأة في الذود عن مركزها كملكة، فإذا خانها الحظ، ولم يعد سحرها يحدث أثره، وحينما تشعر أن كل شيء قد أفلت من يدها ولم يبق غير العبودية، فإنها تؤثر أن تغادر هذه الحياة بمحض أرادتها؛ وفي حياة كليوباترا نلتقي بشخصيات عظيمة كشخصية أنتوني، ويوليوس قيصر، ثم أوغسطوس، وفي هذا المزيج من العبقريات المدهشة يستطيع أميل لودفيج أن يطلق العنان لقلمه، وسوف تعني شركة (الان وانوين) بإخراج هذا الكتاب
جامعة إنكليزية في قبرص
منذ بضعة أشهر قام اللورد جورج لويد المندوب السامي لإنكلترا بمصر سابقا برحلة في بلاد الشرق الأدنى، وقيل أنه مكلف بمهمة سياسية وثقافية خاصة، والآن يتضح لنا طرف من هذه المهمة؛ فقد راع السياسة البريطانية انتشار الثقافات الأجنبية الأخرى؛ ولا سيما الثقافة الإيطالية في مصر وفلسطين وقبرص ومالطة، فرأت أن تتقي هذه المنافسة الخطرة بمثلها؛ وعرض لورد لويد أخيراً نتائج بحثه على لجنة الشؤون الخارجية بمجلس العموم البريطاني؛ وأخص ما يقترحه اللورد علاجاً لهذه المشكل أن تنشأ جامعة إنكليزية في قبرص تكون مهداً لإذاعة الثقافة البريطانية في شرق البحر الأبيض المتوسط، ويقول لورد لويد بأن الثقافة البريطانية ليست اقل في نوعها ونفوذها من الثقافة الإيطالية، وأن شعوب هذه الأنحاء تفكر ولا ريب أن تتغذى بالثقافة البريطانية، ثم أن الدعاية الإيطالية التي تشتد وطأتها الآن في شرق البحر الأبيض المتوسط لا يمكن مقاومتها إلا عن هذا الطريق الثقافي القوي
وإذا كانت إيطاليا وهي ليست ذات مصالح حيوية في هذا القسم من البحر الأبيض تعنى
هذه العناية بنشر ثقافتها فأولى ببريطانيا العظمى ذات المصالح العظيمة في هذه البلاد أن تدعم هذه المصالح بنشر ثقافتها
مسارح الهواء الطلق
أعدت ألمانيا هذا العام ثمانية وأربعين مسرحاً مكشوفاً يمثل فيها في الهواء الطلق، وتوجد هذه المسارح اليوم في معظم المدن الكبرى ومراكز الاصطياف والاستشفاء؛ ويجري فيها التمثيل في شهور الصيف من يوليه حتى سبتمبر وقد اختير لها برنامج معظمه من القطع الكلاسيكية الخالدة مثل (حلم ليلة صيف) و (روميو وجوليت) لشكسبير ومسرحيات جيته وشيللر شاعري ألمانيا العظيمين، وكذلك أنتخب عدة قطع محدثة من مسرحيات أبسن وهابتمان، وبيرجنت، وفلوريان جينر وغيرهم، وبعض قطع كوميدية شهيرة. وسوف تمثل أيضاً في هذه المسارح المكشوفة أوبرات موسيقية لأعظم أقطاب الموسيقى مثل جلوك، وهاندل وريخارد شترادس، وأوجين البرت وغيرهم
وفكرة المسارح المكشوفة مستمدة من اليونان القديمة حيث كانت أثينة وأسبارطة وكورونته تغص بهذه المسارح الرياضية الفنية، وكانت المدارس الشعبية العملية تتخذ أداة لتثقيف الشعب وتهذيب مشاعره

الاحتفال بذكرى وفاة أبن سينا
من أنباء الآستانة أن جمعية التاريخ التركية احتفلت في 21 من هذا الشهر بمرور 900عام على وفاة الطبيب الفيلسوف التركي الكبير أبن سينا احتفالا يليق به. وقد بدأ الاحتفال في الساعة الثانية في معهد البيولوجيا بالجامعة. وألقى كثير من العلماء الأتراك والأجانب محاضرات شرحوا فيها الخدمات التي أداها أبن سينا للعلم. ونخص بالذكر من بين هؤلاء العلماء المسيو لوفان رئيس شرف الجمعية الدولية لتاريخ الطب والدكتور تريكور رداير أستاذ تاريخ الطب بالجامعة والرئيس العامل لنفس الجمعية والدكتور جوبولو. وقد نشرت بهذه المناسبة كتاباً عن حياة الفيلسوف الشهير وأعماله وعرضت في الوقت نفسه كتب أبن سينا المخطوطة والمطبوعة في المعهد البيولوجي وقد أعدت جمعية التاريخ التركية في المطبعة الأميرية بالألوان الكتاب الأصلي للفيلسوف الشهير وهو الموجود في متحف
المؤلفات التركية والإسلامية
كذلك احتفل في جميع أوزبكستان بالذكرى التسعمائة لوفاة (أبن سينا) وقد جمعت بهذا المناسبة النماذج النادرة لمؤلفات العالم الكبير باللغات العبرية والعربية واللاتينية في مكتبة طشقند وقد نشر المستشرقون في أوزبكستان نشرة تضمنت مقالات عدة عن أبن سينا
منح جوائز التفوق العلمي
أتصل بنا أن معالي وزير المعارف يدرس الآن مشروعاً لإقامة حفلات عامة في القاهرة تمنح فيها جوائز للتفوق العلمي وهذه رغبة من رغبات الرسالة نادت بها في مستهل هذا العهد الجديد ونقول بهذه المناسبة إن مجلس إدارة الجامعة قرر إقامة حفلة سنوية تمنح فيها الدرجات الجامعية باحتفال كبير
القصص
بقعة من حبر
' ' للقصصي الفرنسي رينه بازين
للأديب أحمد المحمود
1، 2، 3، 4، 5، 6، 7، 8، 9، 10، 11، 12، 13، 14، 15، 16، 17، 18، 19، 20، 21، 22، 23، هذا كل ما أستطيع أن أذكره عن الثلاث والعشرين سنة الأول من سني حياتي، ومجرد تعداد هذه الأرقام يكفي - كما ترى - لإظهار تشابهها المشترك وتوضيح وحدة اللون بينها.
مات أهلي ولم أعد للطفولة الأولى، وإني لأستحضر صورهم في شيء من الجهد والمشقة، وتكاد معالم البيت الذي شهد حبوي الأول تنمحي من ذاكرتي لولا أنني نشأت غير بعيد عنه أرنو إليه ويرنو إلي، ولكن الدار بيعت وا أسفاه! وغاضت حياتها أبد الدهر، أجل بيع البيت فجرى عليه حكم القدر القاسي وفي هذا المكان اكتحلت عيناي بالنور، وفي مدرسة البلدة تصرم ثمانية عشر عاماً من عمري وقد أعتاد المدير أن يشرح لنا معنى المدرسة وأنها عائلة ثانية لها قيمتها وأثرها في النفس حتى خيل لنا أنها تفضل الأولى بمراحل كثيرة وتسمو عليها شرفاً وقدراً.
وما كدت أنهي دراستي الثانوية وأحمل شهادتها النهائية حتى بعث بي خالي إلى باريس لدراسة الحقوق والتثقف بالثقافة العالية وفي ثلاث سنوات نلت الإجازة التي مضى عليها ثمانية عشر شهراً وهي في يدي، ثم أقسمت يمين المهنة وغدوت - بهذه الصفة المكتسبة على حد تعبير خالي - محامياً متمرناً وكنت كل صباح اثنين أثبت وجودي في المكتب مع زملاء آخرين وظهر لي بذلك أنني حزت ثقة الأرملة واليتيم.
نلت إجازة الأدب - في يسر ولباقة - بينما كنت أتابع دراستي الحقوقية، وأنا الآن أوشك أن أغدو (دكتورا) في الحقوق، ولقد كانت امتحاناتي حسنة في الجملة، ولكنها ليست في الدرجة التي كنت أرجوها إذ قال لي أستاذي إن الذوق الأدبي عمل فيها عمله الشديد (وطبيعة الحقوق - يا بني - لا تمت - على عادة العلوم - إلى القلب والعاطفة بسبب من الأسباب). أصحيح أن قلبي موزع بين الأدب والحقوق؟ ذلك ما لا أعتقده، ولكنني لن أعترف بهذا إلى أستاذي الذي لم ينس بعد أنني نلت أجازة في الأدب. إنه يبني علي بعض الآمال ومن الطبيعي أن أبني عليه - بدوري أنا - بعض الأماني في الفحوص

المقبلة.
وماضي حياتي تختصره ورنقتان نلتهما وثالثة تتراءى لي عن بعيد، وأوشك أن أنالها، ثم خال ذو ثروة كبرى. وإلى تاريخ 10 ديسمبر 1884 لم يكن ثمة حادث يذكر ولكن من يستطيع أن يضمن جمود الحياة فلا تتطور، وهذا حادث خطير جرى لي بعد ظهر هذا اليوم فأثر في نفسي أثره العميق وهاج من خواطري كلما أمعنت التفكير والتحليل له والوقوف عنده.
كثيراً ما كنت أذهب إلى دار (المكتبة الأهلية) للعمل في صالة المخطوطات الخاصة التي تضم بين جدرها الطبقة المشهورة من الكتاب والعلماء المرخص لهم بالعمل فيها، وكنت في كل مرة ألج باب هذه الصالة أحس بشعور الغبطة والكبرياء لوجودي في مكان لا يقبل إلا من كان على جانب من الشهرة وذيوع الاسم. وأتخطى برهبة سدة الحارس الذي اتخذ مكانه إلى رتاج الباب يستقبل الزائرين القدماء ببسمة لا تخرجه عن وقاره وهيبته عندما يمرون به إلى مقاعدهم. ولم تكن بيني وبينه هذه المعرفة الزمنية حتى يجود عليَّ بابتسامة، ولكنه على كل حال كان يستقبلني بانحنائة قصيرة من رأسه وقد اعتاد أن يراني كل يوم فلا يطلب مني البطاقة كما كان يطلبها من الزائرين الجدد وفهمت أنني أصبحت فرداً من أفراد العائلة فما عليَّ إلا أن أجوس خلال البيت بأمن وسلام.
ها أنذا في هذه الصالة الفخمة أسرح البصر في اتساعها وجدرها المزينة التي تشبه في أصباغها الجميلة الألواح الفنية الرائعة فتبعث في النفس شعور الإجلال والتعظيم. وعلق بصري بما يشبه المنبر فتبينت أن هذا المكان يجلس فيه النفر المختار من رواد هذه الدار الذين يتمتعون بألقاب العلم وأوسمة الأندية الأدبية. وينتثر إلى جانبي هذا الممر على صورة أصبحت عادية سكان المكتبة العلماء، ومن يتأملهم مقوسي الظهور مطرقي الرؤوس حادبين على كتبهم يفترسونها بصمت وسكون رهيبين يتعظم في نفسه تأثير الفكرة في العقل البشري ومبلغ اجتياحها في رؤوس هؤلاء التي قلت شعورها، ومع ذلك فإن هذا الجمع من القرعان كان لا يعدم بعض من برقت شعورهم وغالبا ما ينقطع بعض هؤلاء العلماء القراء - عندما أمر - عن القراءة فيشخصون إلي بعين (تائهة) بلهاء لا تميزني جلياً لإغراقها في القراءة والتفهم، ولكن هذه الأبصار كانت تنحسر عني عندما تلمح تقطيب وجهي فتتصهب العيون وتعود إلى ما كانت عليه وهي أشد ما تكون نشاطاً وشوقاً وندماً على أن أضاعت الوقت في تفحص هذا الآتي الغريب. ولكني كنت أحس بخواطر هؤلاء وبما هم دائبون فيه. هذا يبتدر رفيقه بأنه يدرس منشأ الصناعات والحرف وأصولها، وذاك عاكف على دراسة عصر لويس الثاني عشر، وآخر يهمس في أذن رفيقه: أنا أدرس أحوال المرأة المدنية في عصر طيباريوس، ويسرع آخر إلى شده الجمع بأنه يبحث عن ترجمة جديدة لهوراس.
وشعرت بأن جميع من في هذا المكان يبتدرني بالسؤال: وأنت أيها الحدث ماذا جئت تفعل هنا؟ ألا لا تعكر صفو هذا المكان الوقور
ماذا جئت أفعل هنا؟! وا أسفاه!. . . يا سادة. . . وهل أنا في حاجة إلى أن أقول لكم إن خالي ما فتئ يستحثني ويلحف علي في إنهاء أطروحة الدكتوراه ويضطرني إلى العودة إلى الريف ويبدي سأمه من بطئ الوضع والتأليف، وها هو ذا صراخه في كتبه إلي: (أقلل من النظريات يا بني؟. . . أسرع إلى العمل ودع عالم الخيالات والأحلام وما الذي أهاب بك إلى انتقاء هذا الموضوع دون سواه؟. .) والواقع أن موضوع (أطروحتي الرومانية) انتقى خصيصاً لتمديد إقامتي في باريس. (لاتين جونيوس) هذا موضوع أطروحتي - أيها السادة القراء - وأنه لموضوع طريف كما ترون ولكنه صعب عسير التوضيح، وليس بينه وبين الحياة العملية أقل صلة أو علاقة وهو يسبب لي تعباً كثيراً ونصباً جما، ويا ليتكم تتصورون بعض ما أقاسيه من مشاق الدرس والمراجعات والمطالعات
ومن الصدق والواجب أن أقول إنني كثيراً ما أمزج مع هذه المشاق بعض القراءات المسلية الجذابة وأرود أمكنة المعارض والملاهي وأن خالي يجهل من أمري كل شيء إلا أنني مدمن للكتب والموسوعات ومغرق في استنطاق أسطرها ومتونها وهوامشها وأن خالي ليعجب كثيراً بابن أخته الناشئ، هذا الراهب الناسك (البندكتي) الذي لا يفارق دور العلم وأروقة (المكتبة الأهلية) في باريس، بابل الحديثة - كما يسميها -

مفنياً لياليه وأيامه مع (غايوس) مستصحباً (لانتييه) غير عابئ بكل ما لا يمت إلى هؤلاء بصلة. وأنا أحرص
كثيراً على حسن ظنه بي فأرسل له دائماً بطاقات الانتساب للمكاتب ودور العلم موقعة من قيميها ومحافظيها وهو دائماً يحتفظ بها حتى يتوفر لديه منها صندوق.
ولقد وصلت هذا الصباح ناشطاً أكثر مني في بقية الأصباح وكأن سوء الطالع كان يرافقني للقضاء على هذا النشاط المنبعث من قرارة نفسي فسبب لي بلية ما كان اشغلني عنها وأغناني!. .
تنتصب إلى جانبي سدة قيم المكتبة أريكتان تحملان أوراق الطلب وأقلام الكتابة وقادتني خطاي إلى الأريكة اليمنى ويا ليتني لم أقصدها، إذن لكنت في نجوة عما أنا فيه الآن من أسف وندامة.
أخذت الريشة المتصلة بسلسلة نحاسية وخططت بغير وضوح كثير أسم الكتاب والمؤلف الذي أتوخى مطالعته وأعدت الريشة إلى مكانها، ولكن ما أدري والله كيف أركزتها ولعلها فقدت اتزانها فاضطربت وتدحرجت السلسلة والريشة وأني لأسمع صوتها. . . لقد ارتجفت وندت نقطة حبر كبيرة. . . على. . . على كتاب أثري. . . أمام أحد الأعلام الشيوخ!. . وإن كنت أذكر لا أذكر إلا انتصاب هذا الإنسان الأبيض الهزيل في ظلام مقعده صارخاً:
- يا للغباوة!. . لقد لوثت الكتاب الأثري!
وملت إلى المقعد أتفحص فعلتي التاعسة فوجدت أن نقطة الحبر السوداء القاتمة قد استقرت على غلاف الكتاب إلى جانب اسمه المذهب، وها هي ذي تتفرطح فتتشعب إلى ما يشبه المغزل والسنان وأشكال مختلفة، وهنا وهناك انتثرت نقاط صغيرة وتوزعت على صفحته كما تنتثر النجوم في السماء. وإذا ببعض الخطوط تتجمع فتشكل أخدوداً ينحدر فيه الحبر إلى أسفل الصفحة. وتطلعت فإذا أنا محاط بهالة من القراء وكلهم ينظرون إلي بعين متفحصتين فجمدت عروقي وسمرت في مكاني لانتظار الفضيحة وتمتمت بكلمات اعتذار وأسف كانت لا ترد علي ما فات. وأما قارئ الكتاب فلم ينبس ببنت شفة وكأنه قد فقد الحركة وكنا ننظر سوية إلى تشكل البقعة ونرود بأعيننا خطوط جريانها وانبثاقها على الصفحة وكأنه قد عاد إلى مداركه بعد استقرار البقعة واستكمال الملاحظة فاهتز اهتزازة محمومة وتناول من جيبه ورقة نشاف وشرع يمتص برجفة عصبية لطوخ الحبر ويعالجها بدقة الممرضة تضمد جراحاً.
واهتبلت الفرصة لا تقهقر إلى الصف الثالث من المقاعد
حيث وضع لي غلام المكتبة الكتب التي طلبتها. وجلست أحمل نفسي على الاعتقاد بأنني لو لم أفه بشيء ولو أنني أتوارى عن الأنظار أو أن أخبئ رأسي بين يدي كرجل أثقلته جسامة المسؤولية إذن لكفيت هذا الغضب وهذا الصخب ولكن الأمر لم يكن ليتوقف عند هذا الحد، وفوقت البصر قليلاً أسترق تتمة المشهد فإذا بي أبصر هذا الإنسان الأبيض الصغير الذي كان واقفاً إلى جانب القيم يكثر من الحركات بيديه قد أصبح بين يدي وكان تارة يشير بسبابته إلى الكتاب الملوث وطوراً إلي متجها نصف اتجاه، وحزرت من دون ما تعب أو مشقة أنه يقصدني بالكلمات الخشنة التي كان يذروها، وقد بدا لي بنظرة خاطفة أن قيم المكتبة أشفق علي من كلمات هذا الشيخ الذرب، فاحمر وجهي خجلاً وأحسست بالخجل يسير في كل جسمي
وهاهم أولاء يتصفحون دفتر وأظنه البيان الذي يشير إلى قيمة الكتاب وثمنه ومكان الابتياع وانهم ليتآمرون على إفراغ المكان مني وتحديد الجزاء والغرامة!. . أواه!. . يا خال تأهب لتحملها!
إلى هنا استرسلت في أفكاري المحزنة وما رجعت إلى نفسي إلا وشعرت بأن يداً تربت على كتفي دون أن أحس بدنو صاحبها، وقال:
- إن المحافظ يطلبك إليه
فنهضت أتأثر الغلام وما أن حاذيت القارئ الرهيب الذي كان قد استقر به مكانه حتى لممت بعضي في الوصول إلى سدة القيم الذي بدرني:
- أو أنت الذي لوثت هذا الكتاب؟ . .
- نعم يا سيدي
- إنك لم تتعمد فعلتك هذه؟ . . .

- طبعاً لا، وأنا آسف لوقوع الحادث يا سيدي
- أنت على حق في ندمك وعلى صواب، لأن هذا الكتاب من أندر الكتب الأثرية الموجودة، والبقعة أيضاً من اغرب البقع ولا أعتقد أني رأيت بقعة على هذا الشكل.
وأحسست بأني سأقول له إن الإنسان يلوث كما يشاء، لولا أنني أمسكت نفسي، فقال لي:
- اكتب أسمك وصنعتك ومكان أقامتك؟
فكتبت ما يلي:
فابيان جان جاك موبارد محامي، 91، شارع رن)
- هذا كل شيء؟ . . .
- نعم هذا كل شيء، مؤقتاً ولكنني أعلمك بأن (مسيو شارنو) مغيظ جداً ومن المناسب والمستحسن أن تعتذر له عن الخطيئة التي اقترفتها.
- مسيو شارنو!؟ . .
- نعم المسيو شارنو عضو المؤسسة العلمية الذي كان يقرأ الكتاب الأثري.
وتساءلت في نفسي عن هذا القارئ الخطير . . يا الهي!. . أيكون المسيو شارنو هذا الذي تكلم لي عنه المسيو فلامارون رئيس لجنة التدقيق في أطروحتي؟ أنهما زميلان إذن إحداهما عضو مجمع العلوم السياسية والمعنوية والثاني عضو معهد دراسة النقوش والفنون الجميلة.
شارنو!. . شارنو!. . أجل ولا يزال جرس هذه الكلمة يطن في أذني ولا سيما في المرة الأخيرة عندما قال لي أستاذي: أنه (أي شارنو) صديقي الحميم من معهد الفنون والآثار. وأحسست بأن خطراً يتهددني في شهادتي وامتحاناتي ونزلت إلى أعماق نفسي أتحسس غوامضها فإذا بي في مأزق حرج ما أهتدي إلى الخروج منه، وأن الخوف يتسرب إلي من جهتين اثنتين:
أولاً - لا أعلم ماذا ينتظرني من الجزاء والعقوبة للكلمة التي فاه بها القيم عندما استكتبني اسمي وكنيتي. وثانياً - أخشى أن يفسد علي هذا العالم (شارنو) عطف أستاذي فلامارون لانتهاكي حرمة الكتاب الذي كان يقرأه، هذا إذا كان نزقا غضوباً كما ظهر لي عند وقوع الحادث المشئوم.
وهل يجب أن أعتذر للمسيو شرنو؟ وأي الأعذار أقدمها له؟ وهل أنا لوثته حتى أسرع إلى الاعتذار؟ أم أن هذا من حق الكتاب الذي احتمل اعتدائي؟ أن المسيو سالم مما لحق بالكتاب وليس على قميصه أو أثوابه شيء من الحبر أو اللطوخ، فلماذا أذن يأخذني بهذه الحدة وهذا الغضب؟. . ولكنني سأقول له:
- سيدي أنا أسف جداً لأنني عكرت عليك الصفو في أبحاثك العلمية. أن كلمة أبحاثك العلمية ستتملق ولا ريب أثرته وإحساسه وستكون مخدراً قوياً لأعصابه المتوترة. . .
واستجمعت نفسي للنهوض وإذا بالمسيو شارنو يقبل بهزة عصبية وبغضب ما زال يشتد منذ وقوع الحادثة وترتسم على وجهه أمائر الاستياء الشديد من تقلص في الشفاه إلى سهوم في الوجه والنظر وكان يتأبط محفظته وذراعه تضطرب في إمساكها إلى خاصرته. وحدجني بنظرة قاسية. . . وتابع خطاه.
حسناً يا مسيو شارنو!. . إن رجلا غاضبا في حالتك التي أشهد لا يمكنه استساغة المعاذير ولكنني سأعتذر لك فيما لو تقابلنا إذا كان للأيام أن تضعنا وجهاً لوجه. . .
(طرطوس)
أحمد المحمود
العدد 209 - بتاريخ: 05 - 07 - 1937
الجيل الجديد
للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني
زارني منذ بضعة أيام عدد من شبان هذا الزمان فنظرت إلى ثيابهم الجميلة وتفصيلها المحبوك على قدودهم الممشوقة وتحسرت على أيامنا. وكان بينهم واحد يلبس بنطلونا قصيرا فقلت له: (أتلبس هذا عادة؟) قال: (نعم. سبور) قلت: (في أي مدرسة أنت؟) قال: (في الخديوية) قلت: (أسمع. أنا أيضاً كنت تلميذاً في المدرسة الخديوية ولا أذكر إني رأيت فيها - في تلك الأيام - تلميذاً يلبس بنطلوناً قصيراً، لا أدري لماذا؟ ربما كانت الروح (الاسبور) تنقصهم في تلك الأيام، ولكني أعرف أيضاً أني في صغري

كنت لا أقبل أن ألبس هذا البنطلون القصير. . . كان أخي الأكبر يأخذني قبيل افتتاح المدارس إلى محل (ماير)، وكان أشهر محلات الثياب في تلك الأيام، فيعرض على البائع أمثال هذا البنطلون فأقول لأخي: هذه سراويل لا بنطلون، وآبى كل الإباء أن أتخذها. وأصر على البنطلون الطويل فيضحك أخي ويقول للبائع: (هات له بنطلوناً طويلاً. . إنه يريد أن يكون رجلاً ويحس انه رجل، فلا داعي للتنغيص عليه). وأنا أفهم أن تلبس هذا القصير حين تلعب ولكن الحياة ليست كلها لعبا. . فيها ساعات للعمل والجد على ما أظن)

فقال أحد زملائه: (إنه لا يزال صغيراً)

قلت: (لا أدري. لقد كنت أيضاً صغيراً لما كنت أرفض ارتداء هذا البنطلون. كنت في التاسعة من عمري يومئذ. وأحسب أن من كان في التاسعة جدير بأن يسمى صغيراً. . وليس للإحساس بالرجولة وقت معين أو سن مخصوصة. . فمتى تريد يا صاحبي أن تشعر إنك رجل!)

والتفت إلى إخوانه وقلت لهم: (ليت واحداً منكم يقول لي كيف تقضون يومكم) فترددوا، وصار واحد منهم يبتسم، وثان يفرك يديه، وثالث يتمتم بكلام غير مسموع فقلت لهم: (أنا اصف لكم كيف كنا نقضي اليوم في حداثتنا. . . كان بيتنا في ذلك الوقت عتيقا جداً، وله فناء واسع كبير فيه شجرة جميز ضخمة. وكان في الفناء (حاصل) رحيب فيه أيضاً بئر، فكنت أستيقظ في الساعة الخامسة صباحاً - صيفا وشتاء - فأنحدر إلى هذا الحاصل وأدلي دلوي في البئر فأملأه وأصبه على بدني - بعد خلع ثيابي طبعاً. كان هذا

يقوم عندي مقام (الدوش) في أيامنا هذه. . . فقد كان الماء يحمل إلى البيوت في القرب على ظهور السقائين لا في الأنابيب كما هو الحال اليوم. . . ثم أصعد إلى المسكن فأفطر وأتناول كتاباً وأقرأ حتى يدنو موعد المدرسة فألبس ثيابي بسرعة. . . في دقيقة واحدة بلا مبالغة، وما زلت الآن قادراً على ارتداء الثياب في مثل هذا الوقت القصير. . . أي في دقيقة. . . وأحسب إني لو عملت في فرقة تمثيلية لأدهشت المتفرجين بسرعة اللبس. . . ما علينا. . . إنما ذكرت هذا لأني رأيت كثيرين يضيعون ساعات في ارتداء الثياب: يقفون أمام المرايا ويتأملون أنفسهم في صقالها من الخلف والأمام ومن اليمين والشمال كأنهم سيعرضون في مسابقة للجمال، أو كان أهم عمل للإنسان في هذه الحياة هو أناقة الملبس وحسن البزة وجمال الهندام. إذا مالت ربطة الرقبة نصف ملليمتر كان هذا عيباً فظيعاً؛ وإذا كانت هناك ذرة واحدة من التراب على نعل الحذاء خربت الدنيا وقامت القيامة في البيت على الخادمة المهملة. ما علينا كما قلت. ثم أذهب أجري إلى المدرسة أجري بالمعنى الحرفي لأني كنت أقرأ فلم أجعل بالي إلى الوقت وموعد المدرسة. وما أكثر ما كنت أجري وفي يدي ربطة الرقبة فلا يتيسر لي أن أضعها حول رقبتي إلا في الصف أو في المكتب. ولو تخلفت عن المدرسة لما كان في ذلك بأس ولا منه ضير، فقد كنت أنا ولي أمر نفسي، ولكنا نحب المدرسة وكانت لنا رغبة في التعلم. وينقضي اليوم المدرسي فنكر راجعين إلى بيوتنا ثم نخرج للرياضة والنزهة والترويح عن النفس ساعة أو ساعتين

وأذكر لكم شيئا. . كنا ثلاثة أو أربعة لا نكاد نفترق. ولم نكن في مدرسة واحدة ولكنا كنا نلتقي بعد المدرسة في بيت أحدنا ومعنا كتبنا أو بعضها فنتبادل الدروس التي تلقيناها في يومنا، ثم نمضي إلى قصر النيل أو غيره - على أرجلنا - فإذا كان اليوم خميس ركبنا زورقاً على النيل وكان أبو أحدنا رجلاً فيه شذوذ، فكان يتفق أن يجيء إلى بيتي يقف في الفناء الرحيب تحت الجميزة ويصفق، حتى إذا شعر أن أحداً أطل من النوافذ العليا كف عن التصفيق وانطلق يصيح: (يا أهل عبد القادر. . حوشوا أبنكم عن أبني. . أفسد أخلاقه وعلمه السهر إلى الساعة اثنين) فيخيل لمن يسمعه يصيح إننا نسهر إلى الساعة الثانية صباحا أي بعد منتصف الليل، ولكنه كان يعني لا ساعة الثانية بالحساب العربي: أي العشاء أو بعد ذلك بقليل. . .)

فقال أحد الشبان: (لم يكن في أيامكم سينما ولا غيرها من الملاهي التي تضيع الوقت)

فقلت: (إن اللهو ميسور في كل وقت. وطالبه لا يعدمه في أي مكان أو زمان. والمهم هو إرادة اللهو لا اللهو في ذاته. وأنا أراكم تريدون الحياة كلها لهو لا جد فيها ولا عمل؛ وهذا هو الفرق بيننا وبينكم، فقد كنا ندرك أن اللهو ساعات لا ينبغي أن نعدوها، أما

أنتم فلا يكاد الواحد منكم يدرك أن للعمل وقتا أو أن العمل واجب. . تريدون اللقمة ممضوغة بل مهضومة قبل أن تضعوها في أفواهكم، بل أنتم لا تريدون أن تكلفوا أنفسكم عناء بلعها وازدرادها. . من منكم يعنى بأن يفتح كتابا غير كتب المدرسة؟ لقد كنا نذهب إلى المكاتب ونبحث فيها عما نريد من الكتب. . وانتم تنشر لكم الصحف إعلانات مشوقة مرغبة مغرية عن الكتب فلا يخطر لأحدكم أن يشترى منها كتابا. . حتى كتب المدرسة لا تقرؤونها. . وشكواكم أبداً من الامتحان وصعوبته. . وسعيكم دائما إلى التسهيل والتخفيف والرأفة. . وما أحسبكم تطلبون إلا أن تعطوا الشهادات بلا امتحان. . والوظائف بلا استحقاق. . وقد سمعت بعضهم يقول أن الجرائد والمجلات تشغل الطلبة في هذه الأيام عن الدرس والتحصيل، وأعتقد أن هذا كلام فارغ فقد كانت في أيامنا جرائد ومجلات كنا نقرأها جميعا. . اللواء والمؤيد والجريدة والمقطم والدستور والهلال والمقتطف، بل كنا نذهب إلى دار الكتب لنقرأ فيها المجلات القديمة مثل الضياء والبيان لصاحبهما المرحوم اليازجي. . . وكذاب من يقول إنكم تقرءون الصحف، فما تقرءون فيها حين ترونها إلا أخبار الامتحان والإضراب والمظاهرات الساعية إلى الوزارات تستجدي النجاح. . . وما تقرءون إذ تقرءون إلا المجلات الهزلية (لأن حياتكم هزل بحت)

فقال أحدهم: أن الحركة الوطنية هي المسئولة عن انصراف الطلبة عن التحصيل. فلم يقنعني قوله هذا وبينت له أن الحركة الوطنية كانت أيضا في أيامنا. . . بل كانت في ذلك الوقت أحمى، وكان مصطفى كامل يقيم البلاد ويقعدها بخطبه ومقالاته اليومية. ولكن قراءة أو سماع الخطبة لا يستغرق اليوم كله ولا يستنفد الجهد أجمعه. . . وقد كانت هناك في أيامنا جمعيات أدبية شتى وكنا نعنى بأن نشهدها كلها. ولو أن جمعية أدبية قامت في زماننا هذا لما حضرها إلا مؤسسوها. . . وحتى هؤلاء في مواظبتهم على الحضور شك كبير. . وفي كل أمة صحف ومجلات وأمور تشغل أبناءها، وما أظن أن أحدا سيدعي أن مشاغلنا

أكبر من مشاغل الشعب البريطاني أو الألماني أو الفرنسي. . ومع ذلك لا نرى هذه البلادة المخيفة والانصراف الموئس عن الجد.

وقصصت عليهم قصة فقلت: (إني بعد أن تخرجت من مدرسة المعلمين العليا وأصبحت مدرسا اتفق يوما أن كنت جالسا في مقهى بميدان قصر النيل - ميدان الإسماعيلية الآن - وكان معي كتاب (حديث المائدة) لويندل هولمز، وكنت أقرأ فيه حديث الشاعر على المائدة، فمر بي إنجليزي كان معلما لي في مدرسة المعلمين فخففت إليه وحييته، فقد كنت أحبه، فكان أول ما قاله لي: (أظن أنك لا تقرأ شيئا في هذه الأيام؟) فسألته عن سبب هذا الظن القبيح بي فقال: (ألست مدرساً وموظفاً ولك مرتب تتقاضاه في آخر كل شهر؟ فما حاجتك إلى القراءة؟) وكان يتهكم. ولو أني شئت لما عبأت بسوء رأيه هذا ولكنه شق على أن يتوهم أني ما كنت أقرأ إلا طلباً للشهادة ورغبة في الوظيفة، فرجعت إلى حيث كنت قاعدا وعدت إليه بالكتاب الذي كنت أقرأ فيه ودفعت به إليه وقلت له: (واسألني إذا شئت. . امتحني. . نعم فأني مستعد، فابتسم وقال: إنما كنت أمزح. . لأحثك على المواظبة على الاطلاع. . وأني لأعرف أنك تحب التحصيل للتحصيل، ففرحت بهذا جدا وعدت إلى مجلسي مسروراً مغتبطاً بحسن رأي أستاذي؛ وقد لقيته بعد ذلك بسنوات طويلات المدد في إنجلترا وكنت أهم بالعودة وأتزود من مكتبة هناك فقال لي: (أراك لا تزال تقرأ؟) قلت: (إن لنا مثلا يقول إن الزامر يموت وأصابعه تلعب. . صار الأمر عادة يا سيدي. . لا أستطيع أن أنام إلا إذا قرأت شيئا. . لا لأنام فان الكتب لا تنيمني، بل لأحلق في سماء الفكر وأرتفع لحظة عن هذه الأرض. .)

فاعتذر أحدهم بأن الدروس كثيرة وأنها مضنية، وهذا صحيح، فإنها أكثر مما ينبغي، ولكني قلت لهم: إن دروسنا كانت أقل وأفرع وكان أمرها أهون، ولكن الذي كنا نقرأه من تلقاء أنفسنا، بلا حث أو حض، كان أضعاف أضعاف ما تتبرمون منه. . لقد كان أحدنا يقرأ في الليلة الواحدة كتابا. . من منكم يعرف أن لداروين كتابا اسمه أصل الأنواع؟. . أو من منكم يعرف اسم داروين؟. . لقد قرأت هذا الكتاب الجاف في صدر أيامي. . وقرأته بلا معين وحطمت رأسي به. . وما أكثر ما حطمت رأسي بأمثاله. .

الحقيقة أنكم قوم ولا مؤاخذة فارغون. . وأنتم الذين سيكون في أيديكم زمام هذا البلد المسكين!)

ولا أعرف لماذا زارني هؤلاء الشبان، ولكني أعرف أنهم انصرفوا راضين على الرغم من هذه العلقة!

إبراهيم عبد القادر المازني

السندوتش والمائدة

للأستاذ عباس محمود العقاد

أدب السندوتش هو أدب الفاقة والعجلة، وأدب المائدة هو أدب اليسار والوقار، كما سماهما الكاتب البليغ الأستاذ الزيات وأصاب في التسمية. لأنها تسمية وتوصيف وتعليل في وقت واحد

وقد ختم الأستاذ مقاله سائلا: (ليت شعري إذا خلت أمكنة هؤلاء النفر - أدباء الكهول - الذين نبغوا بالاستعداد والاجتهاد كيف تكون حال الأدب الرفيع في مصر؟ أيذهبون وبطئان ما يعوَّضون على رأي الأستاذ أحمد أمين، أم يذهبون وسرعان ما يخلفون على رأي الأستاذ العقاد؟)

وفي جواب هذا السؤال أيضاً لست من المتشائمين. لأن الجواب بعضه من سر المستقبل. وبعضه من حقائق الماضي؛ فان وقفنا من المستقبل بين الشك والرجاء فموقفنا من الماضي أدنى إلى رجاء المتفائل. وأقصى عن يأس المتشائم، بل لعله موقف لا يحمل في أطوائه غير يقين الرجاء.

قبل ربع قرن من الزمان كان أناس غير قليلين يسألون كما يسأل الأستاذ الزيات اليوم: ترى من يرفع لواء الأدب بعد أعلامه البارزين في هذه الآونة؟ ترى هل ينطوي اللواء بعدهم أو تهيئ له الأيام أكفاً تنشره كما نشروه وتعزه كما أعزوه؟

ولم يكن اسم واحد من الأسماء الستة أو السبعة الذين أشار إليهم الأستاذ الزيات معروفا تلك المعرفة التي تغني في إجابة السؤال؛ وربما كانوا مجهولين كل الجهل في غير مجال الأصحاب أو مجال المتطلعين المتسمعين إلى أبعد الأصداء؛ فكان الجواب الغالب على الألسنة أن المستقبل مقفر مدبر، وأن من مات فات وليس له لاحق بين ناشئة الجيل

فإذا سألنا في مفرق الجيلين مثل ذلك السؤال ورأينا البوادر تملي علينا مثل ذلك من الجواب، فليس من اللازم أن تصدق البوادر، وأن تنقضي خمس وعشرون سنة أخرى دون أن يخلف السابقين عوض من اللاحقين، وإن خفي نجمهم اليوم أو تراءى على الأفق ترائيا يتشابه فيه النجم والسديم

وإننا لنذكر اليوم الستة أو السبعة القائمين بأمانة الأدب وننسى الستين أو السبعين الذين

كانوا يهزلون كما يهزل بعض الناشئين في أيامنا، ويتبلغون بالقليل من زاد الاطلاع كما يتبلغ أدباء السندوتش بيننا: نسينا أولئك الستين أو السبعين لأن الزمان قد نسيهم وعفى على أسمائهم وآثارهم، ولكنهم كانوا في أيامهم يحجبون الأفق ويشبهون الشخوص على الأنظار ويبعثون اليأس ويثبطون الرجاء. فليس من البعيد أن يكون لهم نظراء يلبسون الأمر علينا، وأن يكون للستة أو السبعة نظراء ينقشع عنهم الغبار بعد عشرة أو عشرتين من السنين، وإن جاز أن يخيب الظن كما يخيب بعض الظنون

وفي العالم كله نوازع شتى تنزع بالناس الآن إلى الأدب الرخيص أو أدب السندوتش أو أدب الفاقة والعجلة، وقلما تختلف البلاد في هذه النوازع على اختلاف النظم الاجتماعية والمذاهب الحكومية التي تساس بها الشعوب في العصر الحديث

ففي البلاد الديمقراطية يكثر القارئون بين سواد الشعب ويتوخى الناشرون الرواج فيؤثرون ما هو أشيع وأيسر على ما هو أندر وأنفع؛ ويطغى الأدباء الهازلون على أصحاب الجد والأمانة، فلا تتساوى الرغبة في الأدب النفيس والرغبة في الأدب الخسيس

وفي البلاد الفاشية يتحكم المستبدون في أذواق الكتاب والشعراء فلا يذعن لعسفهم واستبدادهم إلا طائفة من المرتزقة المتزلفين الذين لا يقدرون على الأدب القيم؛ ولو أبيح لهم أن يطرقوه ويتوسعوا فيه، فهم أحرى أن يعجزوا عنه وهم مكبوحون مسوقون بالرهبة والإغراء

وفي البلاد الاشتراكية يعتقد الحكام أن الآداب هي لسان حال الطبقات، وأن الأدب الذي يليق بهم هو أدب الطبقة السفلى ومن إليها من أشباه العامة والمسخرين. وحسبك من أدب يقوم على أذواق هؤلاء، ويجري مع هذه الأهواء

ولا ننس عصر الآلات وما يجرف به الناس من سرعة جامحة ونزوة جامحة. ولا ننس (الحرية الشخصية) وما سولته للصغار والأوشاب من غرور المساواة وتمرد المباهاة، فقد بدأت باعتبار الرجل نفسه نداً للسراة والوجهاء ولو كان في الصعاليك والفقراء، وانتهت باعتبار الرجل نفسه نداً للعلماء والأذكياء ولو كان من الجهلاء والأغبياء، فضعف الخجل من التقصير، وضعف الطموح إلى مساواة الأعلين، وأصبح العي الفهُّ لا يداري عيه ولا فهاهته لأنه صاحب (حق) في العي والفهاهة، وصاحب دعوة في المساواة لا يعدم لها

أنصاراً بالألوف والملايين!

تلك النوازع في بلاد العالم كله على اختلاف النظم الاجتماعية والمذاهب الحكومية خليفة أن تنصر أدب الفاقة والعجلة، وتنحى على أدب اليسار والوقار. ولكننا نرجع إلى العصور الغابرة فلا يصادفنا عصر منها إلا كانت فيه نوازع كهذه النوازع في نصرة الأدب المبذول وخذلان الأديب الكريم العزيز. وقريبا من عصرنا هذا كان تمليق الأغنياء والخضوع للجامدين والولع بمحاكاة الأقدمين وضعف الثقة والعجز عن حرية التفكير والإبداع نوازع أخرى لا تقل في أثرها الوخيم عما أحصيناه من مساوئ عصرنا، فلا نفاذ في عصور الزمن لبواعث الضعف ولا نفاذ فيها لبواعث القوة؛ وشأن العقول في ذلك شأن الأبدان بين دواعي السقم ودواعي الصحة، لا ينفرد عصر بالأمراض كلها ولا ينفرد عصر بالعافية كلها، ولا يزال الحال في تعادل ونقص وتعويض ما دامت الحياة حيه تعطي وتأخذ من دنياها بمقدار

على أننا لا نخادع أنفسنا ولا نستر الفوارق التي بيننا وبين غيرنا. ففي إنجلترا مثلا يكتب الهازلون ويكتب إلى جانبهم برتراند رسل وهو يتهد في أعوص الموضوعات؛ وفي فرنسا يكتب الهازلون ويكتب إلى جانبهم رومان رولان وبرجسون في المثل العليا وما وراء الطبيعة؛ وفي ألمانيا يكتب الهازلون ويكتب إلى جانبهم هوسرل وهيدجر في معارض لا يعنى بها فيما أحسب عشرة من قرائنا المصريين؛ وفي إيطاليا يكتب الهازلون ويكتب إلى جانبهم فريرو وجنتلي وجروشي في معضلات الاجتماع والتاريخ. وإنما مثلت بالفلسفة وحدها لأن موضوعاتها أعسر، وقراءها أندر، وعقول الباحثين فيها أكبر وأقدر؛ وهي بعد عنوان لما وراءها من أدب الجد والأمانة والرصانة والترفع عن القشور.

أما في مصر فأدب الجد والأمانة والرصانة والترفع عن القشور إنما يقوم على كواهل أصحابه ولا يقوم على كواهل القراء؛ وكل ما نملك من عزاء أن الجد والهزل في هذا الباب يتساويان، فليس بيننا كاتب هازل يعيش بهزله، وليس بيننا كاتب جاد يعيش بجده؛ وسبيل العزاء في هذا أن الهزل والجد يعيشان على نمط واحد، فلا يجوز الهزل حتى يطمس معالم الجد، وأن شاء أن يجور

كذلك يتعاقب أدباء الكهول وأدباء الشباب في أوربا، ولهم في التعاقب معنى يتمثل في تعاقب الأدوار وتلاحق الأفكار، وتباين المدارس الذهنية على حسب الأحوال والأطوار

أما عندنا فحين ظهر بيننا من ينتعون أنفسهم بمدرسة الشباب لم يكن معهم شيء جديد ولا دليل على الحداثة غير شهادة الميلاد، وراحوا في دعوتهم يميعون تميع الذي يربت على عطفيه ويتحبب إلى نفسه ويفرط في تدليل سنه كأنه يتقدم في سوق الرقيق لا في ميدان الفكر وحلبة الصراع

بيد أننا قد جربنا الاختلاف بيننا وبين أوربا الحديثة في خصال كثيرة صلح بعضها ولا تزال لها بقية على سنن الإصلاح؛ فلنجرب ما بيننا وبينها من اختلاف في هذه الخصلة خمسا وعشرين سنة أخرى، ولا ننتظر نهايتها حتى نتفاءل ما وسعنا التفاؤل على أبواب المجهول، وحسبنا منه فيما نحن فيه أن يتساوى الأمران فلا موجب للأمل ولا موجب للقنوط، وكل ما كان بالأمس فهو وشيك في غد أن يكون

أيذكر الأستاذ الزيات ما كانوا يعيبونه قبل خمس وعشرين سنة على كتاب الجيل الناشئ وشعرائه وناقديه؟؟ كانوا يجمعون العيوب كلها في كلمة واحدة يسمونها (التفرنج) ويعنون بها الخروج على قواعد العربية، وكان يخيل إلى سامعيهم أنهم على

صواب لا ريب فيه؛ فهل نرى اليوم مصداق ذلك في لغة الفريقين من المسومين بالإعراب والموسومين بالتفرنج في ذلك الحين؟ أقرب الظن أن هؤلاء (المتفرنجين) من كهول اليوم أوفى للعربية من أولئك المستعربين المتشددين، فإن لم يكن ذلك شفيعا للأمل في غد، فلعله أن يكون معينا على الانتظار!

عباس محمود العقاد

في التاريخ السياسي

المسألة الفلسطينية والآراء المعروضة لحلها

بقلم باحث دبلوماسي كبير

تجتاز المسألة الفلسطينية الآن دورا دقيقا حاسما؛ فهي الآن قيد البحث والدرس من جانب السياسة البريطانية، والسياسة البريطانية تحاول هذه المرة أن تضع لحلها تسوية دائمة يقبلها العرب واليهود معا؛ ومنذ أن احتلت بريطانيا العظمى فلسطين، وصدر عهد بلفور لليهودية بجعلها وطنا قوميا لليهود، أعني منذ عشرين عاما، لم توفق السياسة البريطانية إلى تحقيق السكينة والسلام في فلسطين؛ ذلك لأن النظام الغريب الذي ابتدعته السياسة الاستعمارية لهذه البلاد العربية لم يكن طبيعيا يرجى له البقاء، فهو فضلا عن كونه يقضي بتمزيقها إلى شطرين هما فلسطين وشرق الأردن، فانه أيضاً يقضي بجعلها، وهي البلاد الإسلامية العربية، وطنا قوميا لليهود من جميع أنحاء العالم؛ وقد كان حلم اليهودية منذ أواخر القرن الماضي أن تستعمر فلسطين، وأن تحقق باستعمارها أمنية العودة إلى أرض الميعاد وإحياء مملكة إسرائيل بعد أن دثرت منذ آلفي عام؛ فلما أسفرت تطورات الحرب الكبرى عن قيام الحكومة البريطانية بإصدار عهدها بتعضيد إنشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين، فتحت فلسطين على مصراعيها لتلقى الهجرة اليهودية من سائر الأنحاء، ولم تمض أعوام قلائل حتى طغى هذا السيل الجارف على فلسطين، واستأثرت اليهودية بمعظم مرافقها الاقتصادية، وشهد العرب في فزع وروع بلادهم تتحول بسرعة إلى مستعمرة يهودية يكادون يصبحون فيها غرباء عن أوطانهم؛ ومع أن اليهود ما زالوا من الوجهة العددية أقلية (فهم اليوم نحو أربعمائة ألف مقابل نحو ثمانمائة ألف من العرب) فانهم من الوجهة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية هم ذوو النصيب الراجح في شئون فلسطين وفي مرافقها وثرواتها، تعضدهم السياسة الإنكليزية وترجح رأيهم ومصالحهم.

هذا الوضع الشاذ لمصاير الفلسطينية لم يكن يرجى له البقاء، ولم يرتضه العرب منذ الساعة الأولى بل قاوموه بكل قواهم، وثارت فلسطين العربية غير مرة في وجه هذا الاعتداء الصارخ على حقوقها القومية والتاريخية، وأسمعت صوتها للسياسة البريطانية وللعالم كله، وكان العام الماضي مشهد فصل رائع من ذلك النضال الجلد المؤثر الذي تخوضه فلسطين للذود عن كيانها. وللمرة الثالثة أو الرابعة تحاول السياسة الإنكليزية أن تبحث المسألة الفلسطينية على ضوء الحوادث والتطورات الواقعة، وقد حاولت من قبل أن تعالجها ببعض الحلول الجزئية، كإنشاء مجلس تشريعي، أو تقييد الهجرة اليهودية، أو الحد من بيع الأراضي إلى اليهود؛ ولكن الأمة الفلسطينية لم تقبل هذه الحلول العرضية، وما زالت تتمسك بمطلبها الأسمى، وهو إلغاء عهد بلفور وإلغاء الانتداب البريطاني ومع أن السياسة البريطانية ما زالت تصر على خطتها في التمسك بالانتداب وعهد بلفور، فأنها تشعر اليوم شعورا قويا بأنه يستحيل عليها من الوجهة العملية أن تمضي في هذه الخطة، وأن السلام لا يمكن أن يستتب في فلسطين ما لم يوضع حل نهائي شامل للمسألة الفلسطينية يرضى العرب واليهود معا. وهذه في الواقع هي النقطة الشائكة في الموضوع، ذلك أن كل حل تلحظ فيه أماني العرب لابد أن يجد فيه من نشاط الصهيونية وأمانيها في فلسطين، وهذا ما لا ترضاه اليهودية، بل تقاومه بكل قواها؛ واليهودية قوة عالمية ذات شأن وذات نفوذ يذكر في عالم السياسة والمالية العليا، والسياسة الإنكليزية لا يمكن أن تنسى هذه الحقيقة، فإذا أضفنا إلى ذلك أن بريطانيا العظمى قطعت لليهودية في شأن الوطن القومي عهوداً يصعب عليها أن تتراجع فيها، أدركنا مبلغهما يحيق بحل المسألة الفلسطينية، من المصاعب الفادحة والاعتبارات الدقيقة.

وقد كانت آخر خطوة اتخذتها الإنكليزية في سبيل المسألة الفلسطينية، انتدابها في العام الماضي على أثر الاضطرابات التي اضطرمت بها فلسطين مدى أشهر لجنة

ملكية لتحقيق أسباب هذه الاضطرابات وسماع أقوال العرب واليهود وتعرف موقف كل فريق وأمانيه وأسباب تذمره؛ وأن توصى بعد درس الحالة بخير الحلول التي تراها كفيلة بوضع الأمور في نصابها وحل المسألة الفلسطينية حلا يوفق بين مختلف الأماني والرغبات ويكفل استتباب النظام والأمن في فلسطين؛ وقدمت هذه اللجنة إلي فلسطين في أواخر العام الماضي وقامت بمهمتها؛ وفي الأنباء الأخيرة أنها وضعت تقريرها المنشود ورفعته إلي الحكومة الإنكليزية لدراسته واتخاذ قرارها بشأنه؛ ولم يعرف رأي اللجنة بعد في حل المسألة الفلسطينية بصورة قاطعة، ولكن الصحف البريطانية أذاعت أخيراً أنباء يستفاد منها أن اللجنة ترى أن تقسم فلسطين إلى منطقتين إحداهما عربية والأخرى يهودية، وأن يختص العرب بالمنطقة الشرقية ولها منفذان إلي البحر عن طريق يافا وحيفا؛ وأن يختص اليهود بالمنطقة الغربية ويعطي لها نظام الدومينون، وأن تجعل مدينة القدس وبيت لحم منطقة دولية مستقلة تحت إشراف عصبة الأمم، وأن تجعل حيفا قاعدة بحرية بريطانية؛ ويلاحظ أولا أن هذه الفكرة في تقسيم فلسطين بين اليهود والعرب إلى مناطق اتحادية، وجعل مدينة القدس مركزاً دينياً حراً على مثل (مدينة الفاتيكان) في رومه. ليست جديدة ولم تنفرد بإبدائها اللجنة الملكية البريطانية، بل هي فكرة ظهرت منذ أعوام وقل بها بعض زعماء الصهيونية ورجال السياسة، على اختلاف في بعض التفاصيل؛ ولكن هل يعتبر هذا الحل علاجا ناجعا للمسألة الفلسطينية؟ وهل يرتضيه طرفا النزاع؟ وهل يحقق السلام المنشود؟ هذا ما يشك فيه الشك أولاً، لأن العرب لا يرتضون حلا لقضيتهم يقوم على تمزيق بلادهم واقتطاع نصفها لليهودية بصفة نهائية وحصرهم في منطقة ضيقة هي أقل المنطقتين من حيث المزايا الإقليمية والاقتصادية؛ وثانيا لأن اليهودية تأبى أن تحد أطماعها في فلسطين على هذا النحو، ولا ترضى بأقل من فلسطين كلها ميدانا لنشاطها الاستعماري، بل لقد حاولت اليهودية في الأعوام الأخيرة أن تدفع نشاطها إلى شرق الأردن، وهي المنطقة التي حرمها صك الانتداب على الوطن القومي اليهودي فكيف بها ترضي اليوم أن تحصر في المنطقة الساحلية؟ وكيف ترضى اليهودية أن تنزع من نفوذها مدينة القدس، إيليا أو أورشليم عاصمة داود وسليمان. ومثوى ذكرياتهم التي يبكونها منذ ألفي عام؟ الواقع أن فكرة التقسيم؛ إذا صح أنها هي العلاج الذي تراه اللجنة الملكية، حلا للقضية الفلسطينية، تصطدم بأكبر العقبات، ولا يلوح أنها تلقى حظاً كبيراً من القبول أو النجاح

هذا وقد تقدمت في تلك الأثناء بعض المقامات المصرية العليا التي تعنى بالشئون العربية والإسلامية باقتراح جديد لحل المسألة الفلسطينية خلاصته أن تضم فلسطين إلى سوريا وأن تؤلف منهما مملكة عربية إسلامية متحدة يتبوأ عرشها أمير من أمراء العرب البارزين وتعقد هذه المملكة مع بريطانيا العظمى وفرنسا معاهدة صداقة وتحالف على مثل المعاهدة المصرية الإنكليزية. وإدماج فلسطين في تلك المملكة العربية الجديدة يعاون على حل مسألة الوطن القومي اليهودي بصورة عملية؛ ذلك أن اليهود يصبحون في المملكة الجديدة أقلية دينية، ويكون مثل الأقليات الدينية بمصر، تكفل لهم قوانين البلاد الأساسية المساواة مع باقي السكان في الحقوق والواجبات

وأذاعت الأنباء أيضا أن الأمير عبد الله أمير شرق الأردن يرى لحل القضية الفلسطينية رأياً مماثلا بيد أنه يرى أن تكون المملكة العربية المشار إليها مكونة من فلسطين وسوريا، والعراق

ويقال أن هذا الاقتراح بإنشاء مملكة عربية متحدة تكون فلسطين إحدى أجزائها هو الآن موضع اهتمام الدوائر السياسية البريطانية، بيد أنه يلوح لنا أن هذا الحل يثير صعاباً عملية جمة. ومن المحقق أولا أن الأمة الفلسطينية يسرها أن تنضم إلى شقيقتها الكبرى سوريا، وأن يستأنف القطران بذلك وحدتهما التاريخية. ولكن هذا الضم لا يتوقف على رأي السياسة البريطانية وحدها، بل يتوقف أيضا على رأي السياسة الفرنسية التي تسيطر حتى اليوم على مصاير سوريا؛ ومن المشكوك فيه جدا أن توافق عليه بريطانيا العظمى لأسباب عسكرية واقتصادية خطيرة؛ ومن جهة أخرى فان سوريا الجمهورية لا ترتضي الانضواء تحت لواء الملوكية المقترحة ولبنان تتمسك باستقلالها وانفصالها؛ وأما اليهودية فإنها قد لا تأبى مثل هذا الحل، بل ربما

رحبت به لأنه يفتح أمامها آفاقا جديدة للعمل، وإذا كان وجود الوطن القومي اليهودي في فلسطين خطراً اقتصادياً واجتماعياً على الأمم الإسلامية المتاخمة له، فان هذا الخطر يغدو أشد وأعظم إذا اتسع نطاق العمل أمام اليهودية واستطاعت أن تخلق لها مراكز جديدة للنشاط والعمل في القطر السوري أيضاً؛ هذا ومن الخطأ أن نقدر قوة اليهودية بأقليتها العددية، فان هذه أقلية تستند إلى قوى عظيمة في الخارج تغذيها بتعضيدها المادي والمعنوي؛ واليهودية العالمية قوة لا يستهان بها

والخلاصة أن المسألة الفلسطينية لا تزال في دور؛ وليس في الحلول المعروضة ما يؤدي إلى تسويتها بصورة دائمة مرضية، غير أنه لما كانت الحكومة البريطانية قد اقتنعت بعد حوادث العام الماضي بأنه لابد عمل شيء جديد يكفل استتباب النظام والأمن في فلسطين فهي بلا ريب ستحاول القيام بتجربة جديدة؛ واستتباب السلام في فلسطين يهم السياسة البريطانية في الظروف الحلية بنوع خاص، لأنها أضحت ترى في فلسطين مركزاً جديداً للدفاع الإمبراطوري يمكن الاعتماد عليه؛ وتقرير اللجنة الملكية الآن قيد البحث والدرس، وسنرى عند أذاعته على أي الأسس ترى اللجنة أن تقسم فلسطين إلى دولتين إحداهما

عربية، والأخرى يهودية، وسنرى أيضاً إذا كانت الحكومة البريطانية تميل إلى تطبيق هذه التجربة الجديدة في فلسطين، على أنه مما لاشك فيه أن اليهودية تعمل اليوم كما عملت دائما على تدعيم مطالبها وأمانيها مهما كانت السياسة الجديدة التي تنتهجها السياسة البريطانية؛ وسيجتمع عما قريب في مدينة تسيريخ (زيوريخ) بسويسرا مؤتمر صهيوني عالمي جديد، يعيد إلينا ذكرى مؤتمرات بال الشهيرة التي وضعت فيها أسس السياسة الصهيونية الحاضرة؛ ونحن على يقين من أن العرب يقصروا في الدفاع عن قضيتهم التي برهنوا دائما على انهم أهل للدفاع عنها؛ بيد أن الظرف الحاضر يقتضي بلا ريب مضاعفة الجهود؛ فعلى العرب أن ينظموا صفوفهم ليستأنفوا نضالهم السلمي المشروع، مزودين بقوة العدالة والحق والإيمان

(* * *)

فصول في التصوف الإسلامي وفتوحات ابن العربي

التصوف والصوفية في الإسلام

للأستاذ خليل هنداوي

وإن كانت (الأبيقورية) ذهبت مذهباً متطرفاً في المادة فأن الصوفية أيضاً قد نحت نفس هذا المذهب في شططها وغلوها في الروح والنفس وجوهر الله.

يقول الأستاذ (فريد وجدي) في دائرة المعارف: إن التصوف هو مذهب كان الغرض منه تصفية القلب عن غير الله والصعود بالروح إلى عالم التقديس بإخلاص العبودية للخالق والتجرد عما سواه. وهذا قديم كقدم النزعة التي أوجدته، فان الإنسان منذ ألوف من السنين أدرك أن خلف هذه الغلف الجسدانية سراً مكنوناً، فنشأ هذا المذهب في كل أمة راقية، ولبس شكلاً مناسباً لعقولها وأفكارها، وهو معروف في الهند والصين ألوف من السنين، وله عند الهنديين أساليب شديدة على النفس، ولكنه لما وجد تحت ظل الإسلام وأحيط بأدب القرآن دخل في دور جديد). وقد اختلف العلماء والمتصوفون أنفسهم في حقيقة تاريخ مذهب التصوف والى أين يذهب عهده، على أن عهده يرجع إلى قديم الزمن وان لم يكن معروفا قبل بهذا الاسم، وقد اختلق العرب اشتقاقا لهذه الكلمة واختلفوا في وضعها، فمنهم من ذهب مذهب القائل: (إن أول من انفرد في الإسلام بخدمة الله عند المسجد الحرام رجل يقال له (صوفة) واسمه الغوث بن مر فانتسبوا إليه لمشابهتهم إياه في الانقطاع إلى الله، فسموا بالصوفية) وقال الزبير: قال أبو عبيدة: (وصوفة وصوفان يقال لكل من ولي من البيت شيئاً من غير أهله، أو قام بشيء من أمر المناسك). وقد ذهب قوم إلى أن التصوف منسوب إلى أهل الصفة في الانقطاع إلى الله وملازمة الفقر، وهم المعروفون في الإسلام بأهل الصفة. والتصوف عندهم يقصد به رياضة النفس ومجاهدة الطبع برده عن الأخلاق الرذيلة وحمله على الأخلاق الفضيلة من الزهد والحلم والصبر والإخلاص. ومنهم من نسب الصوفية إلى لباس الصوف. فقيل في أحدهم صوفي، وليس طريقهم

مقيدا بلباس الصوف، ولاهم أوجبوا ذلك ولا علقوا الأمر به ولكن أضيفوا إليه لكونه ظاهر الحال.

ويقول الشيخ الشعراني في كتابه الطبقات: (إن طريق الصوفية مقيدة بالكتاب والسنة، وإنها مبنية على سلوك أخلاق الأنبياء والأصفياء) وأنها لا تكون مذمومة إن خالفت صريح القرآن أو السنة أو الإجماع لا غير، أما إذا لم تخالف فغاية الكلام أنه فهم أوتيه رجل مسلم، فمن شاء فليعمل به ومن شاء تركه. والتصوف هو عبارة عن علم انقدح في قلوب الأولياء حين استنارت بالعمل والكتاب والسنة، فكل من عمل بها انقدح له من ذلك علوم وأدب وأسرار وحقائق تعجز الألسن عنها نظير ما انقدح لعلماء الشريعة من الأحكام حين عملوا بما علموه من أحكامها. فالتصوف إنما هو زبدة عمل العبد بأحكام الشريعة إذا خلا عمله من العلل وحظوظ النفس كما أن علم المعاني والبيان زبدة علم النحو. ولا يدرك أن علم التصوف تفرع من عين الشريعة إلا من تبحر في علم الشريعة حتى بلغ إلى النهاية. وكيف تخرج علومهم عن الشريعة والشريعة هي وصلتهم إلى الله عز وجل في كل لحظة؟ وقد اجتمع القوم على أنه لا يصلح للتصدر في طريق الله إلا من تبحر في علم الشريعة وعلم منطوقها ومفهومها وخاصها وعامها وناسخها ومنسوخها، وتبحر في لغة العرب حتى عرف مجازاتها واستعارتها وغير ذلك، فكل صوفي فقيه ولا عكس.

وقد ورد فصل يحسن ذكره في هذا الموضع للدلالة على الروح الصوفية التي كانت تسود عقول أصحابها من كتاب (اللمع في التصوف) قال الشيخ أبو نصر: سألني سائل عن علم التصوف ومذاهب الصوفية وزعم أن الناس اختلفوا في ذلك فمنهم من يغلو في تفضيله ورفعه فوق مرتبته، ومنهم من يخرجه عن حد المعقول والتحصيل، ومنهم من يرى أن ذلك ضرب من اللهو واللعب وقلة المبالاة بالجهل، ومنهم من ينسب ذلك إلى التقوى والتقشف، وليس التصوف في تنوق الكلام واللباس وغير ذلك، ومنهم من يسرف في الطعن وقبح المقال فيهم حتى ينسبهم إلى الزندقة والضلالة، وليس من مذهبهم النزول على الرخص وطلب التأويلات والميل إلى الترفه والسَّعات، وركوب الشهوات لأن ذلك تهاون بالدين، وإنما مذهبهم التمسك بالأولى والأتم في أمر الدين. والصوفية لم ينفردوا بنوع من العلم دون نوع ولم يترسموا برسم من الأحوال المحمودة والأخلاق الشريفة.

ما هو التصوف؟ سال سائل محمد بن القصاب وهو استناد الجنيد الصوفي الشهير، فقال: أخلاق كريمة ظهرت في زمان كريم من رجل كريم مع قوم كرام. وقال الجنيد: التصوف

أن تكون مع الله بلا علاقة. وفي الحقيقة أن هذه الكلمة هي التي يتخذها الصوفيون أساسا لتصوفهم في المشرق كان أم في المغرب. ويدخل موضوع التصوف المبني على هذه القاعدة في عداد المذاهب الفلسفية، فالإنسان إذا أراد أن يكون مع الله بلا علاقة فهو محتاج ولا ريب إلى معرفة الله وتحديد علاقاته مع الإنسان معه، ولا ريب أن هذه الموضوعات هي سبيل مظلمة من سبل الفلسفة التي يستضيء الفيلسوف عقله لإنارتها، والصوفي يعتمد توكله وإيمانه.

وكلمة التصوف جاءت إلى العربية من اليونانية (صوفيا وهي تعني إغلاق الفم والصمت. وليس ببعيد هذا، لأن التصوف جاء إلى العرب ونشأ بينهم بعد هجرتهم من الجزيرة، وتعرفهم إلى مدنيات الأمم المجاورة لهم كالفرس واليونان وكانت فكرة التصوف عند هؤلاء شائعة

والأرجح أن يكون التصوف مذهبا مستقلا له شأنه. ينظر صاحب هذا المذهب إلى الكون نظر أصحاب المذاهب الأخرى له. وكما أن المتشرع الحكيم يضع من عنده القوانين للكون ويحدد كل شيء بالنسبة إليه بنظام، وكما أن الفيلسوف قد يجحد كل ما يصنعه غيره ويناقش الطبيعة بلغته الفلسفية الخاص، فالصوفي كذلك له من مذهبه ما يجعله مستقلا تمام الاستقلال عن المذاهب الأخرى: ينظر إلى الكون بعينه المجسدة، ويتفهم الفضائل حسبما يوحي إليه مذهبه، ولا بأس بأن نقول كمن قال (فيكتور كوزان): إن التصوف هو مذهب من المذاهب الفلسفية وإنما يستعين على الظهور بالدين؛ وهو إن لم يكن غنيا بمنطقه وقواعده وارتقائه على العقل فهو يتضمن قالب المذهب الفلسفي ولا يحدد إلا نقطة نظرية ضيقة المجال. وقد غلب هذا

المذهب على المذاهب الطبيعية، وعم في سائر الديانات التي ارتكزت على الكتب السماوية والتعاليم البشرية.

على أن هذا لم يمنع قول القائلين: أن الصوفية ليست مذهبا يعتنقه المرء، يأخذ بعقائده وتقاليده. فإنها أدنى إلى الطبائع في بعض النفوس منها إلى قواعد مذهب مقرر، وأنت ترى كثيرين من الناس يعيشون عيشة الصوفية في زهدهم وقناعتهم وما هم بالصوفيين.

حكم العلماء على الصوفية

نشأ المذهب الصوفي شأن كل مذهب يكون الإخلاص رائده، ثم يتسرب إليه التحيل والهدى، ولم يعرف التاريخ مذهبا داجي فيه أصحابه مثلما عرف من التصوف، فقد دخل فيه المخلص والزنديق والنشيط والبليد، فالتصوف أساسه الزهد والتظاهر بالفقر وكراهية الدنيا، وكم من أناس حبب لهم العيش الرخاء والتواني في السعي، فأووا إلى هذه المذاهب التي تعلي من قيمتهم وتظاهروا بالتصوف، وقديما كان الناس يتسابقون إلى إيواء الصوفي وإطعامه، والمبالغة في إكرامه، وهكذا كانوا ينتقلون في عيشهم من بادرة إلى بادرة معتمدين على الظاهرة الصوفية، وليس في قلوبهم إلا الغل والنفاق، ولابن تيميه فتوى جليلة في الصوفية وحال أقسامهم، فقد قال بعد أن شرح موضع الصوفية من العلماء: (والصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله كما اجتهد غيرهم، ففيهم السابق السابق بحسب اجتهاده، وفيهم من قد يجتهد فيخطيء، وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب، وقد انتسبت إليهم طائفة من صوفية الحقائق الذين اعتنقوا مذهب الصوفية بإخلاص قلب، ووفاء سريرة، وصوفية الأرزاق، وصوفية الرسم ممن لا يغنون فتيلا، والصوفية كانوا ولم يزالوا من جملة الزهاد، ولكنهم انفردوا عن الزهاد بصفات وأحوال، واتسموا بسمات خاصة بهم، والتصوف طريقة بدؤها الزهد الكلي كما قدمنا في كل متاع الدنيا؛ ثم ترخص المنتسبون إليها - لما حرموا من ملذة الدنيا فجعل البعض ذلك لهم حيلة - بالسماع والرقص، فمال إليهم طلاب الآخرة من العوام لما يظهرونه من التزهد، ومال إليهم طلاب الدنيا لما يرون عندهم من الراحة واللعب.

ويبدو أن هذا الضرب من التحيل لم يبخس حق قيمة المتصوفين الحقيقيين، وقد قال القشيري في رسالة: (لم يكن عصر في مدة الإسلام وفيه شيخ من هذه الطائفة إلا وأئمة ذلك الوقت من العلماء قد استسلموا لذلك الشيخ وتواضعوا له تباركوا به، فقد أذعن الإمام الشافعي لشيبان الراعي حين طلب الإمام أحمد بن حنبل أن يسأله عمن نسي صلاة لا يدري أي صلاة هي؟ وإذعان أحمد لشيبان كذلك حين قال لشيبان (هذا رجل غفل عن الله فجزاؤه أن يؤدب). وكذلك إذعان الإمام أحمد لأبي حمزة البغدادي واعتقاده فيه حين كان يرسل إليه دقائق المسائل ويقول: ما تقول في هذا يا صوفي؟ وكان يروى أن الإمام أحمد كان يحث ابنه على الاجتماع بصوفية زمانه، ويقول انهم بلغوا في الإخلاص مقاما لم يبلغه

وقد أوى منهم إلى ضروب من الكرامات زعموا أنها خاصة لا تصدر إلا عنهم، يريدون من وراء ذلك أن الله يسخر قوات الطبيعة والأشياء لهم، ولكن هذا النوع من هذه الكرامات لم يرق معشر العلماء فاختلفوا في أحكامها. والناس في إنكارها أقسام، منهم من ينكرها مطلقاً، ومنهم من يقول أن هذه الكرامات تشبه السحر من أهل السيميا، وينصح للإنسان بعدم صدهم وعدم تصديقه لهم. وقد أفتوا بتكفيرهم كما أفتوا بتكفير الغزالي وحرق كتابه الأحياء. ولكن البعض من أئمة هذا المذهب لم يجعلوا هذه الكرامات قواعد راسخة للصوفية لا يكون صادقا إلا من يؤتاها ويأتي بها.

وقد قال أبو يزيد البسطامي - واضع الله وراء جبته: (لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتفع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود، ومن ترك التقشف ولزوم الجماعة وحضور الجنائز وعيادة المرضى وتلاوة القرآن وادعى بهذا الشان فهو مبتدع، وفي هذا دلالة واضحة على أن من يدخل في هذا المذهب ويعتنق مبادئه ثم يطرح عنه قواعد الشريعة المشيد عليها هو مبتدع مختلق، يحترف الصوفية فرارا من كلفات الدين ومشقات العيش

وخلاصة الأمر أن التصوف تقلب كثيرا وتحرر كثيرا وطرأ عليه ما يطرأ على سائر المذاهب عادة، ولكن التصوف الحقيقي ظل محترما في عيون الناس وقلوب الناس.

وليس بوسعنا إخراج الحكم عليها من باب أحكام العلماء لاختلاف فتاواهم فيها وإنما علينا أن نستعرض مبادئها وقواعدها ونرى ما يلائم منهاجه منها سنة الحياة وما يباين، وهنالك القول الفصل

خليل هنداوي

من الأدب التحليلي

أنا. . . والنجوم!

للأستاذ علي الطنطاوي

ما من كلمة هي أثقل على أذن السامع وأبغض إليه، من كلمة (أنا)، وما حديث أكره إلى الناس من حديث المرء عن نفسه. . . بيد إني متحدث الليلة عن نفسي، وقائل (أنا)، وجاعلها عنوان مقالتي، لأني منفرد بنفسي، لا أجد من أتحدث عنه إلا (أنا).

أنا حين أتحدث عن نفسي أتحدث عن كل نفسي، وحين أصف شعور واحد وعواطفه، أصف شعور الناس كلهم وعواطفهم، كصاحب التشريح لا يشق الصدور جميعا ليعرف مكان القلب وصفته، ولكنه يشق الصدر والصدرين ثم يقعد القاعدة، ويؤصل الأصل، فلا يشذ عنه إنسان. . . سنة الله في الخلق، وقانونه المحكم، ونظامه العجيب الذي جعل الناس مختلفين وهم متشابهون - ومتشابهين وهم مختلفون، برأهم على الوحدة في الحقيقة، والتنوع في الجمال، فخلق العيون كلها خلقا واحدا، كل عين ككل عين، في تركيبها ووضعها، وصفتها، وما عين في شكلها ومعناها وجمالها، تلك حكمة الحكيم الخبير، وهذه صنعة المبدع القدير!

أنا منفرد على سطح دار في (الزبير) في هذه الليلة الساكنة المتلألئة النجوم، وأمامي الصحراء التي تمتد إلى عمان واليمن ونجد والحجاز، ووراءي السواد الذي يصل إلى أرض فارس، وهي قريبة، حتى أني لأرى لهيب النفط المشتعل في (عبادان) وأنا في مكاني. . . أتأمل هذه الصحراء المجيدة المباركة، التي كتب على رمالها أروع سطور المجد، وأجل صحائف التاريخ، ونبت في رمالها دوح الحضارة الذي أوت إليه الإنسانية، وتفيأت ظلاله يوم لا ظل في الأرض إلا ظله؛ وأفكر فيطول بي التفكير، ويطل بي الفكر على آفاق واسعة ودنياوات عظيمة، وتنبلج في نفسي أصباح منيرة، فأجد في رأسي مئات من الأفكار الجديدة الكبيرة، وفي نفسي مئات من الصور الرائعة المبتكرة، ولكني لا أكاد أمسك واحدة منها لأقيدها بالألفاظ، وأغلها بالكلم حتى تفلت مني وتعدو في طريقها منحدرة إلى أغوار عقلي الباطن، فلا أنا استمتعت بها استمتاع الناس بأفكارهم، ولا أنا سجلتها في مقالة وصنعت منها تحفة أدبية، ولو أني قدرت أن أكتب معشار ما أتصور لكنت شيئا عظيما، ولكني لا أقدر. . . ولا أصب في مقالاتي إلا حثالة أفكاري؛ تنبت الأفكار في نفسي وتزهر وتثمر، ثم تذوي وتجف فآخذ الهشيم فأضعه في مقالتي!

ويتفجر الينبوع في نفسي، ويتدفق ويسيل، ثم ينضب وينقطع، فآخذ الوحل فأضعه في مقالتي!

وينبثق الفجر في نفسي، ويقوى ويشتد، ويكون الضحى والزوال، ثم يعود الليل، فآخذ قبضة من ظلام الليل، لأكتب منها مقالة، عنوانها. . . (ضياء الفجر)!

من أجل ذلك أكره أن أنظر في كل ما نظرت، وأستحي أن أعود إليه، وأحب كل جديد لم ينشر، وأرى أن الذي يمدحني بمقالاتي يحقرني لأنه لا يعلم أنها درهم من خزائن نفسي المفعمة بالذهب، فهو يقول لي: إن الدرهم كبير منك لأنك فقير، ولكن الذي ينقد مقالاتي وينقصها يقول لي: انك غني فالدرهم قليل منك، إن هذه المقالة حقيرة لأنك أنت عظيم. . .

لقد تعلمت هذه المسألة من عهد قريب، فصرت أحب النقد، وكنت أجهلها من قبل فأميل إلى الثناء والتقريظ

لبثت أعرض هذه المواكب من الأفكار، حتى تعبت ومللت، فألقيتها كلها في الصحراء، وجلست أفكر في الصحراء وحدها. . .

نظرت إليها وهي متمددة على سرير الجزيرة الواسعة - نائمة - فامتلأت إكباراً لها وإعظاماً، ثم فكرت أن لو فتحت الصحراء عينها - أكانت تبصرني - وتحس بوجودي؟ أأشعر أنا بوجود رملة حملتها الريح فطارت بها، فمست وجهي وهي طائرة، ثم مضت في سبيلها؟ ما أنا في وجود الصحراء الأرملة، وما حياتي إلا لحظة من حياتها، ولو

تثاءبت الصحراء، أو حكت أنفها لتصرم قرن كامل قبل أن تنتهي من تثاؤبها وحكها أنفها. . . فما أعظم الصحراء وما أطول عمرها. . .
- بل ما أقل الصحراء، وما أقصر عمرها!
ما الصحراء؟ بل ما الأرض كلها؟ وما هذا المليار من القرون الذي عاشته؟ انه يوم من حياتي، إنها نقطة من بحري. . . إني نمت يوما فلما أفقت وجدت نقطة صغيرة هناك، فقلت: ما هذا؟ قالوا: مخلوق صغير يدعى الشمس. . . فعجبت من صغرها، ثم لم أحفل بها، فما أرضك هذا يا. . . يا. . . يا أيها العدم!
هذا ما قاله لي كوكب قريب، كان ينظر إلي باسما. . . فذكرت ما قاله علماء الفلك عن الكواكب وعظمتها، فسكت ولم أنطق. . . وإذا بكوكب آخر يطل من هناك يقهقه ضاحكا يصرخ في وجه الأول: اسكت أيها النملة الحقيرة، من أنت؟ إن آلافاً مثلك لا تملأ وادياً واحداً من أوديتي، أنني أحمل مائة مثلك بين أصبعين من أصابعي. . .
وكان وراءه كوكب خافت لا يقول شيئا، لأنه لم يعلم بوجود هذا كله - لا يراه لبعده وصغره، وكان وراءه ستمائة مليون من الكواكب كل واحدا أكبر من الذي قبله، وأصغرها من هذا الكوكب كالفيل من البعوضة. . . فجلست أحدق في هذه الكواكب ذاهلا مشدوها، وانقطعت أفكاري عن الجريان وأحسست بضآلتي، حتى لقد خلتني عدما. . .
ثم صغرت هذه الكواكب في نظري لما رأيت شيئا أعظم منها، صغرت لما رأيت السماء (سقفا مرفوعا)؛ حتى غدت كلها (مصابيح تزين السماء الدنيا)، ورأيت السموات تطيف بها كلها. تحيط بهذا الفضاء (سبعاً طباقا) ورأيت الجنة من وراء ذلك (عرضها السموات والأرض) ورأيت العرش والكرسي. وملك الكائنات العظيمة، فأحسست أن عقلي ينهدم ويتحطم حين يحاول التفكير فيها وهي مخلوقة، فكيف به حين يحاول التفكير في الخالق؟
وذهبت أقابل بين هذه العظمة الهائلة التي لا يدنو من تصورها العقل، وتلك الدقة الهائلة دقة الجراثيم التي يمر الألف منها من ثقب إبرة، دقة الكهارب التي يكون منها في الذرة الواحدة مئات من الكواكب الصغيرة، يدور بعضها على بعض، كما تدور كواكب المجموعة الشمسية، ذهبت أقابل بين هذا وذاك فعجزت، وأنكن نفسي وجحدتها وامتلأت إيماناً بالخالق الأعظم، فصحت من أعماق قلبي:
لا اله إلا الله!
أنكرت نفسي. ولم أعد أراها شيئا. . . ونسيت يدي ورجلي، حتى لقد حسبتهما جزءا من الكرسي أو السرير الذي أجلس عليه، وأضعت ميولي كلها وشهواتي. حتى لم يبق لي (أنا) وإنما صرت (أنا) الكون كله، الكون الذي ردد معي قولي، لا اله إلا الله!
فأحسست حينما أنكرت نفسي. بلذة الوجدان التي لا توصف:
لا يعرف العشق إلا من يكابده ... ولا الصبابة إلا من يعانيها
وبدأت أفهم ما كنت قرأته من أقوال أهل التصوف، وتعلمت أن الإنسان لا يحس بعظمة إلا
إذا نسي نفسه وعظمته، هنالك يجد هذا (الجرم الصغير) الذي هو رملة في الصحراء وعدم في وجود الكوكب، والذي لا يمتد عمره أكثر من لحظة في عمر السماء. . . يجده أكبر من الكواكب، وأخلد من السموات، لأنه عرف الله وأدرك حلاوة الإيمان. . . وقمت بعد ذلك أصلي، فلما قلت: الله أكبر، محي الكون كله من وجودي، ولم يبق إلا أنا العبد المؤمن الضعيف، والله الإله العظيم الجبار!
ليس في الدنيا شيء أجل ولا أجمل من الصلاة!
(البصرة)
علي الطنطاوي
على هامش رحلتي إلى الحجاز:
في تكية الدراويش
للدكتور عبد الكريم جرمانوس
أستاذ التاريخ الشرقي بجامعة بودابست
عن كتاب نشره باللغة المجرية بعنوان (الله أكبر)
كان شعاع شمس الشتاء يسطع في جو القاهرة ويتألق في السماء اللازوردية، ويريق

ضوءه القرمزي على المآذن والقباب فتتوهج أطرافها في الضوء الساطع كما يتوهج الذهب في كف الرجل الكريم. أما أسطح بيوت القاهرة فكانت فرصة لها لتداعب هذه الأشعة - تلك المداعبة الصحية - والريح تعبث بالأوراق والغصون في حدائق قصر النيل الغناء.

وكنت في خلال هذا الوقت وحيدا في غرفتي، شاعرا بأن السكون يطبق علي كجناحين كبيرين، ومنصرفا إلى دراسة بعض كتب الأدب العربي القديم لأقارن بين عصر وعصر، وبلغ بي التعب أشده من عكوفي على القراءة ومحاولة تفهم معاني الكتاب لأنني كنت أميل بفطرتي إلى تحليل أفكار المؤلف والوقوف على المعاني المستترة في باطن الكلمات. ولاح لي أنني أشبه بغواص يجاهد في بحر من الظلمات ليستخرج منه اللآلئ والأصداف. وما أمر العكوف على قراءة الكتب الخطية في بلاد الشرق؟ تغلق باب الغرفة دونك وتحاول أن تظل بمعزل عن العالم لتمثل في خاطرك العصر الذي عاش فيه المؤلف والظروف التي كانت محيطة بها، وإنها لمعجزة أن يظل الكتاب مهملا سنوات برمتها، فما تكاد تفتحه حتى تهب عليك النسمة القديمة بسحرها وعطرها وتسمع كلام المؤلف أو صوت الشاعر كأن لم يغيره تقلب الحوادث وانصرام الأجيال

وفيما كنت أقلب هذه الأفكار وأشباهها إذ طرق الباب، وكان الطارق صديقي محمد أمين حسونه، أتى لزيارتي ودعوتي إلى نزهة خلوية في ضواحي القاهرة. وكانت الزيارة في يوم الجمعة - وهو يوم عطلة عامة في البلاد الإسلامية - ففي هذا اليوم المقدس تعطل المصالح والدواوين وتقفل الحوانيت، ويتحتم على المسلمين أن يهرعوا إلى المساجد إذا سمعوا صوت الآذان. أما الآخرون الذين لا تربطهم بالتجارة صلة فهم يقضون ذلك اليوم

في اللهو والمتعة على ضفاف النيل الجميلة وفي داخل الحدائق الفيحاء المبعثرة في جوانب القاهرة.

وفي أثناء احتساء القهوة اقترح صديقي حسونه أن نقصد إلى حدائق الحيوانات للتريض أو تناول طعام الغداء في ظلال الأهرام. ولكني أجبته: وما رأيك في زيارة إحدى تكايا البكتاش

هناك طفح وجه صديقي بشرا. وفي الحال وافقني على القيام بهذه الزيارة. فقلت له: لقد زرنا الهرم عدة مرات وتحملنا بعض المشاق للوصول إليه بالترام. ثم تحدثنا عن بناء الأهرام وكيف حاول العرب أن يهدموا ذلك الأثر الخالد لاعتقادهم بأنه يحوي كنوزا في جوفه. ولكن على الرغم من المجهودات الشاقة التي بذلوها فانهم اضطروا إلى الانقطاع عن هدمه بعد أن أنهك قواهم وكلفهم نفقات باهظة، وعندما استولى المماليك على مصر كانوا يظنون أن الأهرام من عمل الطبيعة. وحاول البعض منهم أن يجرب أخذ الأحجار منها للبناء ولكنهم أكرهوا على التخلي عن هذه الفكرة لصعوبة تنفيذها وربما كان عدم قدرتهم على تنفيذها موافقة لإرادة الله الذي قضت حكمته ببقاء هذا البناء المهيب الشامخ كرمز لعظمة مصر القديمة. وكثيراً ما قصدت إلى منطقة الأهرام وقضيت سويعات شاعرية أناجي القمر وأراقب أشعته اللجينية وهي تغمر الأحجار الضخمة التي يتألف منها البناء الشامخ.

في هذه البقعة الساحرة يجتمع الماضي والحاضر والمستقبل وتبدو عظمة مصر الخالدة التي بهرت العالم. ولكن مالنا نتغنى الآن بتلك الأكوام الحجرية المكدس بعضها فوق بعض. أجل ليس في هذا ما يسر الخاطر ولا ما يشرح النفس - وما هي القيمة الروحية التي تمدنا بها رؤية الأهرام أمام زيارة تكية الدراويش، تلك الطائفة التي ما زالت تلهب في نفوسنا أسمى معاني الخلود ومتاع الآخرة.

وانطلقنا في طريقنا إلى تكية البكتاشية بعد أن عبرنا شوارع القاهرة الرئيسة وانتهت بنا العربة إلى مقابر الخلفاء. هناك أفضى إلى صديقي حسونه أنه حين كان طفلا وأسيئت معاملته أمام الأسرة، لم يجد من يلجأ إليه سوى كلب أرمنتي كان مقعيا على الدرج في نفس هذه البقعة، وكان يستدفئ بالشمس فاحتضنه ثم بكى. وبعد برهة وصلت إلى سمعه أصوات

موسيقية متنافرة، فإذا بها حفلة من حفلات الزار التي تعودت نساء القاهرة إحياءها. وكانت الحفلة تقام في أحد المنازل المجاورة لتلك القبور. فحمل صديقي الكلب

وانطلق إلى هناك حيث أتيح له أن يشاهد أكثر من عشرين سيدة وهن يرقصن على نغمات الموسيقى بجنون وحشي إلى حد أن كن يتصادمن ويتلاحمن، وكان البعض منهن يمزقن الأثواب أو يمتطين ظهور الخراف البيضاء المصبوغة بالدم. وأسر إلى صديقي بأنه أحس بالراحة ساعتئذ ولم يعز هذه الراحة إلى أية صفة مجهولة، بل ببعد هؤلاء المريضات عن الإنسانية، وفي عزلتهن هذه ما يشفي عواطفهن الهستيرية ويبرئهن من النضال الدنيوي الذي وقعن فيه.

وبينما كنا نبحث ونتجادل في البواعث الحقيقية لحفلات الزار، ألفينا أنفسنا أمام أبنية التكية الملصقة بحبل المقطم، وبعد أن ارتقينا الدرج واجتزنا حدائق التكية أحسست بنشوة وانتعاش، كالنشوة التي تحدثها الريح في يوم ساكن، ولقد ازداد سرورنا عندما اجتمعنا بطائفة من الزوار الأجانب الذين أتوا خصيصا لشهود حفلات الذكر الموسيقي، كذلك رأينا فريقا من النساء وهن واقفات بخشوع وشاخصات بأبصارهن إلى الأشجار الباسقة التي تكاد تشق أجواز الفضاء.

أما بيوت الدراويش ومساكنهم فتقع في الجهة اليسرى من الحديقة، وهي مساكن نظيفة، غاية في البساطة ولكنها فاخرة الرياش، تزينها لوحات بها رسوم رؤساء الطائفة السابقين. وتعلو هذه الإطارات - بلطة - وهي رمز الدراويش. ويزور التكية عادة جم غفير من أعيان الأجانب وبعض أمراء الشرق، ولقد شاهدت الكثير من رسومهم الفوتوغرافية وتوقيعاتهم لدى شيخ التكية. ويقع بالجهة اليمنى من الفناء الداخلي مطبخ ضخم البناء، وما كدنا نصل إليه حتى شممت رائحة الشواء ورائحة الطهي الزكية، وسال اللعاب في فمي وتحركت شهيتي فتقدمت نحو المطبخ ورأيت الطاهي يشوي شرائح اللحم الضأن. وعزم علينا الطاهي بأن نتذوق طعامه، فلم أجد مانعا من إجابة طلبه وأخذت ألتهم قطعة اللحم بشهية.

تبلغ مساحة مطبخ البكتاشية نحو مائة متر مربع بحيث تسع إعداد طعام لأكثر من مائتي شخص تقريبا، ولقد أخبرني الطاهي أن للزمن تقلباته وانهم الآن يتوخون الاقتصاد في مأكلهم مع انهم من سنوات خلت كانوا يتمتعون بأنواع المآكل الشهية، وأنهم كانوا يولمون

الولائم الفاخرة لأكثر من مائة ضيف بعد انتهاء حفلات الذكر، أما الآن فقد تغيرت الأحوال لأن الهبات التي كانت تصلهم كادت تقطع، ومن الغرابة أن كل ما في التكية قديم أثري، فالدراويش قد بلغوا من العمر عتيا، لا يعرف من أمرهم إلا نفر قليل من سكان القاهرة، ولا يزورهم إلا خاصة الأصدقاء، ولولا زيارة بعض الأجانب لأصبحت تلك الدور في عالم النسيان. حتى صديقي المصري حسونه الذي لازمني في هذه الزيارة لم ترق في عينيه أحوال تلك الطائفة ولكني على الضد منه ألفيت لذة عظيمة لزيارة هذه الطائفة التي تربطني بها روابط روحية.

البقية في العدد القادم

عبد الكريم جرمانوس

حديث الأزهار

للكاتب الفرنسي ألفونس كار

نخاسة الأزهار

ما اجتزت سوق الأزهار مرة إلا شعرت بحزن شديد، كأنني أتجول في سوق النخاسة حيث تقوم المساومة على الأجساد وتلقى العبودية طابعها المروع على وجه الإنسان يتمشى الأغنياء بين الأزاهر فيحدجونها بأنظارهم متفحصين أشكالها وصحتها وأعمارها. فإذا ما تمت الصفقة خرجت الزهرة المبيعة من سوق النخاسة لتتبع خطوات سيدها. سيرى وراء من اشتراك أيتها الزهرة التعسة. اذهبي إليه لتخدمي شهواته، زيني قصره بجمالك فلسوف ينزلك ثمين الآنية ويحوطك بأطالس الأعشاب. سيكون مسكنك فخما، أيتها لزهرة، فودعي الشمس والهواء، ودعي الحرية فالعبودية فاتحة ذراعيها لتضمك إلى صدرها.

يا لشقاء هذه الأزهار! إنها تعرض أكواماً يلفحها الحر والقر فتذوي مهتوكة تحت نظرات الفاحشين من الناس

لقد مر البائع فارفعي رأسك أيتها الزهرة، ليراك منتصبة تملأك الفتوة نضارة، فأنت لنضارتك معروضة على المشترين إن أكثر الأزهار المعروضة في سوق النخاسة تحني

رأسها وقد ارتخت قوائمها فتلاعبت فيها أضعف النسمات. لقد رسمت الأسفار البعيدة عليها آثار الضنى. وكتب الشقاء على تويجها آيات المذلة والاستعباد. وما تهتم هذه الزهرات بجمالها، وهي تعلم ما تحتم عليها من الخضوع لسيد مجهول يتحكم فيها.
لقد تسعد إحداها إذا اشترتها فتاة لتزين بها نافذتها فتجد الماء وتجد الهواء لتحيا وتطل عليها من وراء الأشجار أشعة الكوكب الذهبي يناجي فيها ابنته في كل صباح.
هنالك تسمع الزهرة تغريد أخيها الطير يمازجه نشيد الغادة بصوتها الحنون.
ما أسعد الزهرة التي تمر بها فتاة معلقة بذراع أمها فتحملها إلى غرفتها الطاهرة تجود بعطرها في الليل ممتزجا بأحلام العذراء أما أنت أيتها الأزهار التي ينثرك الأغنياء في قصورهم في ليلة عيد، فما أشد ويلك وما أظلم الأفق الذي تستقبلين. أملاي أجواء القصر بالعبير في ليلة واحدة لقاء اجر معين،
فانك ستحملين من عيد إلى عيد حتى يرتعي السل صدرك الضعيف فتجودين بالحياة على المزابل بزفرة دامية
وأشد منك شقاء يا زهرات الأعياد زهرة تشتريها سيدة مستبدة لا تطلب من الأزهار إلا أوائل أريجها حتى إذا تخدرت منها طرحتها إلى الخدم يجهزون عليها بعيدة عن الهواء في ظلمات الليالي.
ويل لهذه الأزهار تهمس أنينها همسا فلا يسمع أحد ببلواها، فهي مستعبدة صامتة لا تعرف إلا أن تحني رأسها وتندفع إلى الفناء.
تقتطف الزهرة من حضن أمها وتؤخذ بالعنف من بين أخواتها وأصحابها، لتطرح حيث تجود بنضارتها وعبير صباها، فيا للجريمة لا عقاب عليها!
لقد منعت القوانين نخاسة السود ولكنها ما منعت نخاسة الأزهار.
ليهتف المصلحون بصوت وجدانهم فما من سميع وقد مات جان جاك روسو وبرنار دي سان يار. ولكن من نستصرخ وإلى من نتجه؟ فليس أنصار الحق نفسهم المنادون بمنع النخاسة بين الناس هم الذين ينسلون تحت جنح الليل يتلهون بدوس الأزهار واقتلاع وريقاتها الطاهرة من تويجها الضعيف. . .؟
أفليست السلطة هي التي تسمح باقتلاع الأزهار من منابتها إلى سحيق الإفطار حيث تعيش ولا أسرة لها لأن بذورها تطرح على أرض تخنقها وتواريها.
مررت يوما في تلك الساحة، فرأيت زنبقة رائعة الجمال يساوم عليها رجل ألقت السنون غشاء على عينيه، وهو يصب نظراته على الوريقات البيضاء فتختلج ويمد يده إلى ساقها ليجس بضاضته، فتتلوى خجلا وذلا، فانحدرت من أجفاني دمعة حري رأيت مثلها تنحدر على مهل من التويج الأبيض، فخيل إلى أن الزنبقة تقول لي: - اشترني أنت ولا تتركني فريسة في يد هذا الرجل فان نظراته تحرقني ولمساته تقضي علي، أنقذني فإنني إن تبعته أموت
هتفت: - سأخلصك أيتها الزهرة الطاهرة
فدهش الشيخ لهذا الهتاف، فأدار وجهه نحوي وأرسل إلي نظرة الاحتقار مشيرا إلى الخادم، فحمل الزنبقة وسار بها وعبثا حاولت إقناع البائع بفسخ البيع لأن الشيخ كان قد أدى ثمن
الأمة الشقية
تبعتها وأنا أزودها نظرات الأسى والحنان فكانت تبتسم لي بدموعها من بعيد. وتوارت عن ناظري، وفي صباح اليوم التالي وقفت أمام القصر أستخبر النسيم عن زهرتي الحزينة. ففتحت النافذة بعنف ورأيت الخادم يرمي بالزنبقة الذابلة إلى مطارح الأقذار. . .لكم من زهرة تجود بأنفاسها على مثل هذا الفراش
(ف. ف)
باقة من شعر طاغور
ترجمة الأديب نصري عطا الله سوس
- 1 -
لقد خلعت أغنيتي كل زينتها //
إنها لا تُزهَى بالملبس والزخرف
إن الزخرف ليفصم عرى وحدتنا ويقف بيني وبينك، وطنينه يغرق همساتك
وان زهوي كشاعر ليتبدد خجلا أمام مرآك.

آه يا مولاي الشاعر!
إني أجلس عند قدميك
وكل ما أبغيه أن تجعل حياتي بسيطة ومستقيمة كعود من القصب، كي تنفخ فيه موسيقاك
- 2 -
أتناول يديها وأضمها إلى صدري
وأحاول أن أملأ ذراعي بجمالها، وأن أسرق بسمتها الحلوة
بالقبل، وأن أشرب نظراتها الفاتنة بعيني
آه! ولكن أين ذلك؟ من ذا الذي يستطيع فصل الزرقة عن السحاب؟
أحاول امتلاك الجمال فيتملص مني، تاركا (الجسم) وحده بين يدي فأرجع حائرا تعبا
كيف للجسم أن يلمس الزهرة التي لا تمسها إلا الروح؟
- 3 -
قلبي، ذلك الطير الآبد وجد سماءه في عينيك
انهما مهد الصباح ومملكة النجوم
إن أغاني تضيع في أعماقهما.
دعيني احلق في هذه السماء المتفردة بلا نهائيتها
دعيني أشق سحبها وأنشر جناحيَّ في نور شمسها
- 4 -
قال: (حبيبتي، ارفعي عينيك)
فنهرته في حدة وقلت: (ابتعد) فلم يتحرك
وقف حيالي واجعل يدي الصغيرتين في يديه فقلت: (اتركني) ولكنه لم يذهب
مال علي بوجهه حتى لامس أذني فنظرت إليه وقلت: (يا للعار!) فلم يتحول
ولمست شفتاه خدي فارتعشتُ قائلة: (لقد تماديت كثيرا) فلم يخجل
ورشق زهرة في شعري فقلت: (بدون جدوى) ولكنه وقف ساكنا
. . .ثم أخذ إكليل الزهر من عنقي وذهب
أني أبكي وأسائل قلبي: (لم لا يعود؟)
- 5 -
أيها الحب
إن قلبي يتوق ليلا ونهارا إلى أن يلقاك لقاء يستغرق كل شيء. . . كلقاء الموت
إكتسحني كعاصفة
خذ كل ما لدي
شرد نعاسي
وانهب أحلامي واستلبني من دنياي
وفي ذلك الدمار - وفي العراء الروحي المطلق، دعنا نصير وحدة من الجمال
وا أسفاه! باطلة رغبتي
أين الأمل في اندماج تام فيك وحدك. . . يا الله.
- 6 -
إن عينيك القلقتين الحزينتين تطلبان كنهى كما يطلب القمر أعماق البحر
لقد نزعت عن حياتي أثوابها أمام عينيك - لم أخف عنك شيئا من البداية للنهاية. ولذا أنت لا تعرفينني
لو كانت حياتي جوهرة لكسرتها مئات من القطع وصنعت منها عقدا يزين عنقك
لو كانت زهرة صغيرة رشيقة لقطفتها من جذرها ورشقتها في شعرك!
ولكن حياتي (قلب) يا حبيبتي. . . لا شواطئ له ولا نهاية إنك لا تعرفين حدود هذه المملكة. . . ولو أنك ملكتها
لو كانت حياتي لحظة سرور لتفتحت عن بسمة لطيفة تدركينها في لحظة!
لو أنها لم تكن غير ألم لذابت دموعا شفافة تنعكس عليها أعمق أسرارها دون كلمة!
ولكنها حب. . . يا حبيبتي
مسراتها وآلامها لا تحد
حاجاتها وثروتها أبديان

إنها قريبة منك كحياتك
ولكنك لا تستطيعين إدراك قرارها. . .
- 7 -
أنا أهواك يا غرامي فاغفري لي حبي إياك
مثل عصفور ضال أسرت
عندما هز قلبي سقط عنه قناعه وعاد عاريا. دثريه بالشفقة يا حبيبتي، واغفري لي حبي.
إذا لم تستطيعي حبي - يا حبيبتي - فاغفري لي ألمي
لا تنظري إلي من بعيد بازدراء
سأسترق خطاي إلى زاويتي وأجلس في الظل
وأحجب خجلي العاري بكلتا يدي
فأشيحي بوجهك عني واغفري لي ألمي
حبيبتي، إذا كنت تحبيني فاغفري لي سروري
وإذا حمل فيض السعادة قلبي بعيدا فلا تبسمي لاستسلامي للخطر
- وعندما أستوي على عرشي وأحكمك بقسوة الحب، وعندما أمنحك عطفي - كإله
تحملي كبريائي - يا حبيبتي وسامحيني عن فرحي. . .
- 8 -
أيتها المرأة! انك لست من صنع الله فقط، بل من صنعا الرجال أيضاً
انهم يضفون عليك من قلوبهم جمالاً. . .
الشعراء ينسجون لك نسيجاً من خيوط الخيال الذهبي،
والرسامون يمنحون صيغتك خلودا مجددا
البحر يعطي لآلئه، والمناجم ذهبها، وحدائق الصيف أزهارها، لتجملك وتجعلك أنفس مما
أنت
رغبات قلوب الرجال تضفي مجدها على شبابك
إنك نصف امرأة ونصف حلم.
نصري عطا الله سوس
الفلسفة الشرقية
بحوث تحليلية
بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين
- 11 -
تطور البراهمية الأولى
نصت (الفيدا) على أن الخيرين يذهبون إلى جوار الآلهة ويمتزجون بهم في عالم الخلود، وأن الشريرين يذهبون على بعض الأقوال إلى العدم المطلق، وعلى البعض الآخر يتجسدون من جديد. ولما أصبح القول بالرأي الأول يتنافى مع عقيدة خلود النفس التي كانت قد عمت جميع البيئات المفكرة على أثر إيمان الناس بأن العالم ليس ألا أجزاء (براجاباتي) المتناثرة، فلم يبق إلا الأخذ بالقول الثاني، فأخذوا به وتفلسفوا فيه، فنقلوه من تجسد ساذج إلى تناسخ فلسفي معقد، ولكنه كان تناسخا آريا، مبعثه السرور من الحياة والتفاؤل في تقدمها وسيرها نحو الكمال والرغبة في الامتزاج بالإله (براجاباتي) والاتصال ببقية الآلهة والشغف بتحقق السرور والمعرفة الكاملة التي لا تتحقق إلا بالتناسخ الذي هو شبيه بفعل الإله (براجاباتي) في تحقيق السرور والمعرفة، إذ قررت شروح أحد نصوص (الفيدا) وهو النص الخاص بنثر أجزاء (براجاباتي) في الكون، إن هذه الأجزاء لم تنتثر إلا بدافعين قويين كانا عند هذا الإله: أحدهما الشغف بحيازة السرور، والثاني الشوق إلى المعرفة. واذا، فيجب أن يكون هذان المقصدان ضمن غايات التناسخ ليتم تشبهنا بهذا الإله الخير الذي رضي بتفريق أجزائه، ليحوز السرور بوجودنا، ولتحدث له المعرفة الكاملة بطوفان أجزائه في الكون كله.
غير أن هذا التفاؤل لم يلبث أن تضاءل شيئا فشيئا حتى تلاشى نهائيا وحل محله

تشاؤم قاتم قابض أثر في الحياة الفكرية الهندية تأثيرا عميقا. وقد نشأ هذا التشاؤم في أول أمره من اعتقاد المفكرين في أن الحياة خير كلها، وإنها لهذا يجب الحرص عليها والتهالك في الاستمساك بها، ولكن قصرها من ناحية وعدم التحقق من الاستيلاء على زمامها من ناحية

أخرى، يوجدان حسرة في القلب وضيقا في الصدر وشعورا بخيبة الأمل يسود له المزاج وتنقبض له النفس، وهذا هو الذي كان في المبدأ ثم جعل يتطور مع الزمن حتى زالت العقيدة في خيرية الحياة زوالاً تاماً وحلت محلها عقيدة تناقضها تمام المناقضة، وهي أن الإنسان شقي تعس في جميع أدوار حياته، إذ هو في حياته الأولى فريسة للمصائب والنكبات والمخاطر والأمراض، وهو قاصر عن الاستحواز التام على جميع المتع والمسرات، وإذا حاز شيئاً منها فالأجل قصير جداً يستوجب الشفقة والرثاء، فإذا ترك هذه الحياة كان أكثر تعاسة وبؤساً، إذ هو ينتقل في الأجسام المختلفة من وضيع إلى اوضع، غير عارف بمصيره ولا متحقق من حظه، لأن كل مرحلة من مراحل حياته المتعددة تقذف به إلى المرحلة التي تليها قذفاً دون إرادة منه ولا اختيار، وفوق ذلك فهو مسئول في كل مرحلة من هذه المراحل التناسخية أمام الآلهة مسئولية قاسية على ما اقترف أو ما هوى فيه قسر إرادته من آثام وسيئات وإذاً فالحياة شر، والعالم شر، وهذا الوجود المادي كله شر، وكله باطل، والحقيقة هي غيره، والاعتقاد بأن هذا العالم المادي هو متناثرات أجزاء (براجاباتي) - كما كان سائدا في الزمن السابق - جريمة من الجرائم، لأن الآلهة حق، وهذا العالم المادي باطل، ولا يمكن أن يتكون الباطل من أجزاء الحق، وإنما الصحيح هو أن أجزاء الحقيقة الإلهية حالة في هذا العالم المادي الباطل، ولا وسيلة للخلوص من شر هذا العالم إلا استخلاص الحقيقة من الباطل، ففي جانبنا الاستخلاص لا يتحقق إلا بالتخلي عن المادة، وفي جانب الآلهة، حسب الإنسان أن يفهم أن وراء كل مظهر من هذه المظاهر حقيقة هي الجوهر الصحيح في هذا المظهر. وهذه القاعدة عندهم تتناول حتى (براهما) رأس الآلهة نفسه، فهم يعتقدون أن الحقيقة في (براهما) هي (براهمان) أي الكائن اللا شخصي أو الموجود المنزه عن الجرمية، والحال حلولا غير مادي في جميع عناصر الكون، وأن إدراكه على هذه الصفة هو المحقق الأوحد للنجاة من التناسخ المؤلم ولضمان الخلود، ولكن - الإدراك لا يتيسر إلا بهجر المادة وتجنب جميع مظاهر الحية العملية وتسليم النفس للتأمل العميق المنتهي إلى الغيبوبة والامتزاج بالله والفناء في ذاته

الكتب الدينية في عهد التطور

البرانات

وهو الكتاب الأساسي للديانة البراهمية، وهو وحده المنزل، أما غيره من (الفيدا) الكتب فهي من عمل البشر المصطفين الذين هم أقرب إلى (براهما) وهي لذلك. لاتصل من القداسة في نفوس الشعب إلى المرتبة التي وصلت إليها (الفيدا) وهي كذلك غير معجزة ولا مستحيلة التقليد ولكن إمكان تقليدها مقصور على طائفة واحدة من المقربين وهي طائفة (راشين) من خواص البراهمة. وهاك حديث البيروني عن هذا الكتاب:

وأما البرانات - وتفسير بران: الأول القديم - فأنها ثمانية عشر، وأكثرها مسماة) بأسماء حيوانات وأناس وملائكة بسبب اشتمالها على أخبار أو بسبب نسبة الكلام فيها أو الجواب عن المسائل إليها من عمل القوم المسنين: (رشين) والذي كان عندي منها مأخوذاً من الأفواه بالسماع فهو (آدبران) أي الأول. و (مج بران) أي السمكة و (كوم بران) أي السلحفاة. و (براه بران) أي الخنزير و (نارسنك بران) أي الإنس الذي رأسه رأس أسد. و (يامن بران) أي الرجل المتقلص الأعضاء بصغرها. و (تاج بران) أي الريح. و (نند بران) وهو خادم له (مهاديو) و (اسكند بران) وهو ابن (مهاديو). و (آدت بران) و (سوم بران) وهما النيران. و (سانب بران) وهو ابن (بشن) و (هماندبران) وهو السماوات. و (ماركتو يوبران) وهو (رش كبير). و (تاركش بران) وهو العنقاءو (بشن بران) وهو (ناراين). و (براهم بران) وهو الطبيعة الموكلة بالعالم. و (يشن (بران) وهو ذكر الكائنات في المستأنف

كتب أخرى

يروي لنا البيروني كذلك أن للقوم كتباً كثيرة أخرى تعد بمثابة دساتير وقوانين دينية واجتماعية وأخلاقية. وقد لخص الكلام عنها فقال: (وأما كتاب (سمرت) فهو مستخرج من (بيذ) في الأوامر والنواهي، عمله أبناء (براهم) العشرون ولهم كتب في فقه ملتهم وفي الكلام وفي الزهد والتأليه وطلب الخلاص من الدنيا مثل كتاب عمله (كور الزاهد) وعرف باسمه ومثل (سانك) عمله (كبل) في الأمور الإلهية ومثل (باتنجل) في طلب الخلاص واتحاد النفس بمعقولها ومثل (نايبهاش) لكابل في (بيذ) وتفسيره وأنه مخلوق وتميز
الفرائض فيه من السنن. ومثل (ميمانس) عمله (جيمن) في هذا المعنى. ومثل (لوكايت) عمله المشتري) الخ

ألوهية الطور الجديد

كان العامة في الهند بعد تطور (البراهمة) يعتقدون بوجود ثلاثة آلهة: الأول (براهما) وهو الرئيس الأعلى. الثاني (فيسنو) وهو اله الحياة الدائب على إنماء الحياة وازهارها، والثالث (سيفا) وهو اله التدمير والخراب الذي أهم مميزاته الهدم والإبادة والذي لولا سلطان (براهما) لصير الحياة منذ زمن بعيد أثرا بعد عين، ولكن (براهما) الغير المحدود القوة يمسكها دائما أن تميد ويحفظها من شر هذا المدمر الوحشي.

هذا عند العامة. أما الخاصة فكانوا يعتقدون - كما أسلفنا - بوجود اله واحد أزلي أبوي منزه عن الاستعانة بغيره وعن كل ما يوجب نقصه في زعمهم.

وأبو الريحان البيروني يذهب في كتابه إلى ما هو أبعد من هذا فيؤكد أن فكرة الألوهية عند خاصة الهنود كانت سامية جليلة، وأنهم كانوا يعبدون إلها متصفا بكل كمال، ميزها عن كل نقص. ويعلق على هذا بقوله: (ولنورد في ذلك شيئا من كتبهم لئلا تكون حكايتنا كالشيء المسموع فقط) ثم يروي بعد ذلك محادثة وردت في أحد كتبهم المقدسة بين سائل مسترشد ومجيب موضح؛ وفي هذه المحادثة يرى الباحث الأدلة ناصعة على ما يدعيه البيروني من سمو التأليه عند خاصة الهند. واليكم نص هذه المحادثة: قال السائل في كتاب (باتنجل): (من هذا المعبود الذي ينال التوفيق بعبادته؟. قال المجيب: (هو المستغني بأزليته ووحدانيته عن فعل لمكافأة عليه براحة تؤمل وترتجي، أو شدة تخاف وتتقى، والبريء عن الأفكار لتعاليه عن الأضداد المكروهة والأنداد المحبوبة؛ والعالم بذاته سرمدي. إن العلم الطارئ يكون لما لم يكن بمعلوم، وليس الجهل بمتجه عليه في وقت ما أو حال) ثم يقول السائل بعد ذلك: (فهل له من الصفات غير ما ذكرت؟ ويقول المجيب: (له العلو التام في القدر) لا المكان، فانه يجل التمكن. وهو الخير المحض التام الذي يشتاقه كل موجود. وهو العلم الخالص من دنس اللهو والجهل): قال السائل: (أفتصفه بالكلام أم لا؟) قال المجيب (إذا كان عالما فهو لا محالة متكلم). قال السائل: (فان كان متكلما لأجل علمه، فما الفرق بينه وبين العلماء والحكماء الذين تكلموا من أجل علومهم؟. . . قال المجيب: (الفرق بينهم
هو الزمان فانهم تعلموا فيه وتكلموا بعد أن لم يكونوا عالمين ولا متكلمين، ونقلوا بالكلام علومهم إلى غيرهم، فكلامهم وإفادتهم في زمان؛ وإذ ليس للأمور الإلهية بالزمان اتصال. فالله سبحانه عالم متكلم في الأزل، وهو الذي (يراهم) وغيره من الأوائل على أنحاء شتى، فمنهم من ألقى إليه كتابا، ومنهم من فتح الواسطة إليه بابا، ومنهم من أوحى إليه فنال بالفكر ما أفاض عليه)، قال السائل: (فمن أين له هذا العلم؟) قال المجيب: (علمه على حاله في الأزل وان لم يجهل قط، فذاته عالمه لم تكتب علما لم يكن له كما قال في (بيذ)، قال السائل: (كيف تعبدون من لم يلحقه الإحساس؟) قال المجيب: (تسميته تثبت أنيته. فالخبر لا يكون إلا عن شيء، والاسم لا يكون إلا لمسمى، وهو وان غاب عن الحواس فلم تدركه، فقد عقلته النفس وأحاطت بصفاته الفطرة، وهذه هي عبادته الخالصة، وبالمواظبة عليها تنال السعادة

ثم يعقب البيروني على هذه المحادثة بقوله: فهذا كلامهم في هذا الكتاب المشهور. وفي كتاب (كينا) وهو جزء من كتاب (بهارث) فيما جرى بين (باسديو) و (أرجن): إني أنا الكل من غير مبدأ بولادة ومنتهى بوفاة، لا أقصد بفعلي مكافأة ولا أختص بطبقة دون أخرى لصداقة أو عداوة؛ قد أعطيت كلا من خلقي حاجته في فعله، فمن عرفني بهذه الصفة وتشبه بي في إبعاد الطمع عن العمل، انحل وثاقه، وسهل خلاصة وعتاقه)

وهذا كما قيل في حد الفلسفة: إنها التقيل بالله ما أمكن. وقال هذا الكتاب: اكثر الناس يلجئهم الطمع في الحاجات إلى الله. وإذا حققت الأمر لديهم وجدتهم من معرفته من مكان سحيق، لأن الله ليس بظاهر لكل أحد يدركه بحواسه، فلذلك جهلوه، فمنهم من لم يتجاوز فيه المحسوسات، ومنهم من إذا تجاوزها وقف عند المطبوعات. ولم يعرفوا أن فوقها من لم يلد ولم يولد ولم يحط بعين أنيته أحد، وهو المحيط بكل شيء علماً)

(يتبع)

محمد غلاب

الموشح

للأستاذ توفيق الضوي

لقد كان الشعر في أول أمره سجعا غير مقيد بالقوافي الموحدة؛ إنما كان قطعاً قطعاً وشذوراً شذوراً كل اثنين منها أو أكثر على قافية واحدة، ثم توحدت القوافي في بعض الأوزان الشعرية انطلاقا مع الأفكار والمحاكاة، عدا الأراجيز التي بقيت مختلفة القوافي فسهل النظم عليها في القواعد والضوابط التي هي من القيود المتينة، ثم لما كثرت الأغراض وضاقت قوافي الشعر عن استيعابها عدل الأندلسيون إلى التفنن فيها فأوجدوا الموشحات غير متقيدين بالقوافي الواحدة، بل تفننوا فيها بمظاهر مختلفة ذهابا مع الأفكار وهياما في سماء الخيال. على أن للقريحة والذوق وللحس والخيال تأثيرا كبيرا على الشعر وتجديده وابتكار معانيه والتصرف في قوافيه والتلاعب بأوزانه فوق ما لتأثير السلالة والإقليم والعمران وما يتعلق بها، فلهذا كان الفرق بين الشعر العربي والأعجمي عند الأمم، وبين الغربي والشرقي عند العرب. ومن المعلوم أن فنون الشعر سبعة: هي القريض، والموشح، والدوبيت، والمواليا، والزجل، والكان وكان، والقوما. وقيل إن الحماق منها أيضا فتكون ثمانية. وثلاثة من فنون الشعر هذه معربة ولا يغتفر اللحن فيها. وهي القريض والموشح والدوبيت؛ وثلاثة ملحونة دائما وهي الزجل وكان والقوما. وأما المواليا فيحتمل الإعراب واللحن. والآن نتكلم عن الموشح الذي هو مدا بحثنا. . .

فالموشح فن من فنون الشعر الرائعة التي توسع فيها شعراء الأندلس إطلاقا لبنات أفكارهم في سماء الخيال فأجادوا ما شاءت بلاغتهم وعنايتهم في إظهار المنظومات في قالب جديد مطبوعة على غرار جميل مطرزة بوشي لطيف حتى تفرقوا على غيرهم بهذا التصرف البديع الذي اقتبسه عنهم المغاربة فالمصريون فالسوريون فالعراقيون؛ وعم عالم الشعر العربي الذي زاده التوشيح محاكاة فوق محاكاة أوزانه المطربة، فكانت الموشحات موسيقى الشعر التي تضرب على أوتار القلوب، فتناولها الشعراء بمنتهى الإقبال والتكريم وتباروا في الإجادة في فنونها هائمين في سهولها وضروبها، راشفين من صافي معينها، واصفين مظاهر الطبيعة والعالم على اختلاف شؤونها. فالأندلس أم الموشحات، وصفاء أذهان شعرائها راس هذه الاختراعات. . .

وهذا ما قال صفوان المرسي الأندلسي يصف تأثير مناظر الأندلس في شعرائها حتى أحسنوا النظم والنثر متفوقين فيهما على غيرهم

هنالك بين الغصن والقطر والصباح ... وزهر الربى ولدت، آدابى الغُرا
إذا نظم الغصن الحيا قال خاطري ... تعلم نظام النثر من ههنا شعرا
وإن نثرت ريح الصبا زهَر الربى ... تعلمت حل الشعر أسبكه نثرا
فوائد أسمار هناك اقتبستها ... ولم أر روضا غيره يقرئ السحرا
كأن هزيز الريح يمدح روضها ... فيملأ فاها من أزاهره درا

قال ابن خلدون في الموشح: لما كثر الشعر في الأندلس وتهذبت مناحيه وفنونه وبلغ التنميق فيه الغاية، استحدث المتأخرون منهم فنا سموه الموشح ينظمونه اسماطاً أسماطاً وأغصاناً أغصاناً يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة، ويسمون المتعدد منها بيتا واحدا، ويلتزمون عدد قوافي تلك الأغصان وأوراقها متتاليا فيما بعد إلى آخر القطعة. واكثر ما ينتهي عندهم إلى سبعة أبيات، ويشتم كل بيت على أغصان عددها بحسب الأغراض والمذاهب، وينسبون فيها ويمدحون كما يفعل في القصائد. وتجاروا في ذلك إلى الغاية، واستظرفه الناس جملة الخاصة والكافة لسهولة تناوله وقرب طريقه.

قال أبو عبد الله محمد الأزرق الأندلسي في مدح موشحه ذهابا إلى القصيدة:
بعثت بها عذراء رائعة الحلى ... قضت أنها للمعلمات مرشحة
توشحت اللفظ البديع وأقبلت ... فها هي تبدو للعيون موشحة
ووصفها ابن دحبة الأندلسي بقوله:
الموشحات هي زبدة الشعر ونسبته، وخلاصة جوهره وصفوته. وهي من الفنون التي أغرب بها أهل المغرب على أهل المشرق، وظهروا فيها ظهور الشمس الطالعة والضياء المشرق. . . وقال ابن معصوم في سلافة العصر: ولأهل اليمن أيضا نظم يسمونه الموشح غير موشح أهل المغرب؛ والفرق بينهما أن موشح أهل المغرب يراعى فيه الإعراب، وان وقع اللحن في بعض الموشحات التي هي على طريقتهم لكون ناظمه جاهلا بالعربية فلا عبرة به، بخلاف موشح أهل اليمن فانه لا يراعي فيه شيء من الإعراب بل اللحن فيه أعذب، وحكمه في ذلك حكم الزجل
وللموشحات اصطلاحات لابد منها، مثل اللازمة، والمبدأ، والدور، والدرج، والبطايحي، والمجنح، والخرجه، والسلسة، والقفلة، والانصراف، والمجنب الخ
وأول من اخترع الموشحات في شبه جزيرة الأندلس مقدم بن معافر الفريري؛ والفريري نسبة إلى فريرة وهو حصن بالأندلس من أعمال كورة البيرة؛ وقد يكون جده منسوبا إلى فرير وهي قرية بين جيجون وبخارى في بلاد العجم، أو بلدة بخراسان كما ذكر السمعاني في أنسابه وياقوت الرومي في معجم البلدان. وهو من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني (273هـ، 886م) وأخذ عنه أبو عبد الله محمد بن عبد ربه مؤلف العقد الفريد. وجاء بعدهما كثير من الشعراء فتفننوا في الموشحات حتى فاقوا من سبقهم فاشتهرت موشحاتهم، وأشهرهم عبادة القزاز وغيرهم. وانتقل بعد ذلك الموشح من الأندلس إلى المغرب، ومن هذه إلى مصر، ومنها اتصلت بسورية فالعراق. وذلك في العصر العباسي الرابع وفي أثناء القرن السادس للهجرة. . .
قال الزبيدي في معجم تاج العروس: التوشيح اسم لنوع من الشعر استحدثه الأندلسيون، وهو فن عجيب له أسماط وغصون وأعاريض مختلفة، واكثر ما ينتهي عندهم إلى سبعة أبيات. وقال أيضا: الوشاح بالضم والكسر رسان من لؤلؤ وجوهر منظومان يخالف بينهما، تتوشح المرأة به، ومنه اشتق توشح الرجل بثوبه، وقال غيره أخذ التوشح من الظبية الموشحة وهي التي في جنبها طرتان
قال القيراطي موجها بالزجل والموشح ذهابا إلى الشعر:
أرتاح للأقمار وهي طوالع ... وشموس راحي للمغارب تجنح
ويهزني زجل الطيور بلحنها ... والروض بالزهر النظيم موشح
وباختراع فن الموشح كان له الثر العظيم في الشعر الأوربي، فحاكى شعراءهم هذه الأوزان والأشكال كما نرى في منظوماتهم، ولاسيما قصائد فكتور هوجو شاعر فرنسا في ديوانه المسمى بالشرقيات، وكذلك قصائد غوته الشاعر الألماني وغيرهما من شعراء بقية الأمم الأوربية التي وقفت على أشعار عرب الأندلس وموشحاتهم الخالدة، فكانت القافية عندهم لا تلتزم في أكثر من بيتين كالأراجيز عندنا، أو أنها تلتزم في أبيات وتتغير وتعود إلى اللازمة كما في الموشحات؛ ومنها نوع من الشعر يسمونه الأبيض وهو ما كان غير مقفى كشعر شكسبير شاعر الإنكليز وغيره. . .
قال أبو الوليد بن رشد الأندلسي في تلخيص كتاب أرسطو في الشعر ما نصه: والمحاكاة في الأقاويل الشعرية تكون من قبل ثلاثة أشياء: من قبل النغم المتفقة، ومن قبل الوزن، ومن قبل التشبيه نفسه. وهذه قد يوحد كل واحد منها مفردا عن صاحبه مثل وجود النغم في المزامير، والوزن في الرقص، والمحاكاة في اللفظ: أعني الأقاويل المخيلة غير الموزونة. وقد تجتمع هذه الثلاثة بأسرها مثل ما يوجد عندنا في النوع الذي يسمى الموشحات والأزجال وهي الأشعار التي استنبطها في هذا اللسان أهل هذه الجزيرة إذ كانت الأشعار الطبيعية هي ما جمعت الأمرين جميعا؛ فالصناعة المخيلة أو التي تفعل فعل التخييل، ثلاثة. . صناعة اللحن. والوزن وعمل الأقاويل المحاكية. ومن أبدع فنون الموشحات كتاب المديحات لعبد المنعم عمر بن حسان الغساني الأندلسي الجلياني ألفه سنة 569هـ ويوجد في المكتبة الخالدية في القدس الشريف، وكتاب جيش التوشح للسان الدين بن الخطيب، وعقود اللآل في الموشحات والأزجال، لشمس الدين النواحي، لدار الطراز في عمل الموشحات لابن سناء الملك،

والدر المكنون في سبعة فنون لمحمد أحمد بن إياس الحنفي، وحاوي الفنون وسلوة المحزون لابن الطحان وغيرها من المؤلفات القديمة القيمة. هذه كلمة موجزة عن تاريخ الموشح وعمله كتبها خدمة الشعر والموسيقى ليكونوا على علم بأصول الموشح وتاريخه لارتباطه الوثيق بفن الموسيقى والغناء
(إسكندرية)
توفيق الضوي
أستاذ في الموسيقى
من روائع أدب الغرب
ناقوس القرية
لشاعر الحب والجمال: ألفونس دي لامرتين
الحياة: موجة في خضم تأوهات، صبرها الشهد، كأس المجد،
تملأ بالعبرات.
(لامرتين)
كالزفرات تعلو خفقات الناقوس الخاشع المتئدة. الإحراج تمسكها الوديان تبددها. يد الصغير، توازن كأسه، وتفرغ نغمات الروض العلوية، في نسيم الليل المدلهم.
رجف من أصواته العالية، جزع من خفقاته المتوالية البلبل يطير تاركا بيته المضطرب مياه الغدير المتموجة، تجنى الأزهار اليانعة من جوانبه. أرملة القرية، تركع لصدى نغماته تترك خيط مغزلها لترسل الرحمات للموتى.
يوقظ في قلبي، غناء هذا البرج الرنان. . .
لا سرور النهار الذي انتهى،
ولا بؤس اليوم الذي انقضى،
ولا صور الماضي الفتية، والذكريات الغنية، التي تهدمت في هذه الطرقات بين الأنوار الذابلة.
لا نومي الهادئ في ظلال أغصان الدلب الندية،
ولا أول نسمة في حياتي،
ولا صوت أقدامي التائهة، فوق هذه الذروات العالية، ولا السرور العظيم تحمله إلى موجاتك يا نسيم الصبا، المثقل بالروائح العطرة التي لا تنضب.
لا ذكرى الجواد الواقف في المرج وقد لوى عنقه الحريري على يدي المدربة، ومزج ضفائر عنقه، بشعرات رأسي الشقراء، والأرض ترن تحت سنابكه القوية كالسندان، بينا
ردفه يحملني، وزبد شدقيه يكسو فضة ناصعة حشائش الوادي.
لا الحب نفسه. . .
الحب، الفجر الأول في الحياة.
حيث شهور الربيع تجري ماء الحياة في نسغ النبات، فتزهر العقول وتخضر الأحراج.
في الظلال أصوات العذارى الحاملات الجرار لملئها من الينبوع، تصل لسمعي وئيدة، فتدب في جسدي الرعشة ولا أنت. . .
أنت التي أبكيك أبدا،
الفورة الأولى لدمي،
صوت الفؤاد الذي يفنى، ويوقظ في روحي الدمدمة السحرية معطرة بالعنبر، فتنثر في الأجواء رياح الشعر
أواه. أيها المجد، ولا أنت. . .
لا الشتاء يحمل إليك دون أسف أيامي مع بقايا الأعشاب الفارغة من الحب.
ونثرات الأوراق الذابلة، وصدى المجد الفارغ.
أعشاب الطريق، مزروعات علوية، تعطر الأقدام، ولكن جذورها لا تغرس في القلوب.
لا أكاليل الأعراس يقطفون زهورها في المساء. فيسممها الحقد، ويذبلها الحسد.
ولا ما يهب الحياة نشوة، تاج المجد المحطم تحت يدي. الزهرات المعارة، لا تمسكها ساق، تذبل وتجف، ثم تقع من فوق الحبيبين
هو ذاك اليوم.
أصواتك ممتزجة بزفرات امرأة، مخضلة بالعبرات، مترعة باليأس، رنت في أرجاء

الوادي، تبكي نعشين مرا، يجللهما الحزن، ويسبل عليهما الألم رداءة،
في قبر واحد، دفنت أرواح ثلاثة ونسيت على حافة اللحد.
من الفجر حتى الليل، من الليل حتى الفجر، تذرف الدمع أيها الناقوس. كما أذرفه.
تجمع بين قلبينا زفرة محرقة. الأهوية والسماء تردد نواحك، كما لو فقد كل كوكب أمه، وكل نسيم ولده.
من ذلك اليوم رنانك المقدسة ارتسمت في ذاكرتي المفجعة. وامتزجت بكأس آلامي المترعة. اختلطت زفراتك بأصوات قلبي، وتردد صداها في أنحائه. معدنك الرنان المغموس في اللهيب يماثلني عندما يبكي، هو قطعة من روحي، يوقع عليها ملاك نغماتك.
أرقد لغفلتك، وانهض ليقظتك. صوت نعيك، صديق تسمعه أذناي. بين رنين الأجراس، أفرق نغمتك. تغمرني موجاتك. كالأجراس تعلو في جنباتها رنات بعوضة طائرة.
أقول لنفسي: هذه الزفرة الحزينة المبهمة، يحملها إلي نسيم الليل العميق، موجة اثر موجة. أواه لأجلي تتردد هذه الأصوات العالية. أفهم ما يقول. ويدرك ما أفكر. والهواء الجاهل في هذا السكون المحتدم يحمل إلى لهجته المؤثرة.
أقول لنفس: صوت هذا المعدن المتردد، قبل أن يصل إلى قلبي، ويغمر جنباته ويغرق قطعاته. اهتز فوق أطلال الماضي الراقد، يحمل إلي من بقايا قبته المتهدمة أشياء.
حجر القبر، حيث دفن حبي، يقرع بهذا اللحن العذب. لا تعجب يا ولدي إذا اهتزت أفكاري لأصوات هذا الناقوس. مغرم بصمته الأمين للردى. لأول رنة تختلج تحت قبته أقف مصغيا لما يحمله إلي الحمام
أما أنت، مذياع الحزن البشري الذي اخترعته الأرض لتجهر بآلامها. غن نشيد القلوب المحطمة الرائع، فزفراتك تهب الأحجار روحا، والمقل الجافة دموعا، والصلاة خشوعا أبديا، والقبور حزنا سرمديا.
عندما يحمل العمال نفسي وبقايا حطامي، تبقى هنا روحي تقذف حممها الملتهبة نحو السماء. الباكون، حاشية باردة، تسير خلفي لتضع جسدي، تحت باب حقير، ترتمي عليه أشعة الشموس.
إذا يد ورعة قرعتك لشرفي. فلا تحزن مخلوقا بزفراتك المتصاعدة. لا تنشر الدموع في الأفق. التمس جرس العيد واقرع فوق لحدي، برنة سلسلة سجن قرحة تقع على عتبته
غرد كالعندليب لحنا خالدا، يرتفع من منزلك، والسوط الأسمر يوجه نحو فجر النهار خفقته المحزنة.
غن أنشودتك المترددة في أعماق السموات تطفئ شهوة الخصوم المتشبثين بأدران الحياة.
إليك
اقرع قبل اليوم، دق رويدا الساعة. صديق في منزلي الحقير، يحضر ليضيء في هذا القلب المهدم، الحزن العميم، ويترك قبل أن يذهب قطرتين من العطر تضمخان طويلا كفني.
حسين تفكجي
هكذا قال زرادشت
للفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه
ترجمة الأستاذ فليكس فارس
في بلاد المدنية:
ذهبت بعيدا طائرا في أجواء المستقبل فارتعشت وذعرت عندما نظرت ما حولي فما وجدت من معاصر لي غير الزمان. وليت الأدبار مسرعا حتى وصلت إليكم، يا رجال اليوم، ونزلت بينكم في بلاد المدنية، فألقيت عليكم أول نظراتي بصفاء نية لأنني جئتكم بقلب مصدوع، ولا أعلم ما أهاب بي إلى الضحك بالرغم من ارتياعي، فان عيني ما رأت من قبل مثل هذه الخطوط والألوان.
ذهبت في ضحكي وقد ارتعش قلبي واصطكت رجلاي فقلت في نفسي (لعل هذه مصانع آنية المواد الملونة).
لقد برزتم أمامي يا رجال اليوم، وعلى وجوهكم أعضائكم من الألوان عشرات الأنواع،

وحولكم عشرات المرايا تعكس تموجات ألوانكم؛ والحق أنكم لا تستطيعون أن تجدوا ما تتقنعون به أشد غرابة من وجوهكم نفسها، يا رجال اليوم، فمن له أن يعرف من أنتم؟
لقد حفر الماضي في وجوهكم آثاره فألقيتم فوقها آثارا جديدة، لذلك خفيت حقيقتكم عن كل معبر وأعجزت كل بيان.
ولو كان لأحد أن يفحص الأحشاء فهل بوسعكم أن تثبتوا أن لكم أحشاء وما أنتم إلا جبلة هباب ألوان وقطع أوراق ألصقت إلصاقا. وهذه جميع الأزمنة وجميع الشعوب تتزاحم مرسلة نظراتها من وراء قناعكم كما تفصح جميع حركاتكم عن تراكم كل العادات والمعتقدات فيكم. فإذا ما نزعت أقنعتكم وألقيت أحمالكم ومسحت ألوانكم ووقفت حركاتكم فلا يبقى منكم إلا شبح ينصب مفزعة للطيور.
والحق، ما أنا إلا طائر مروع، لأنني رأيتكم يوما عراة لا تستركم ألوانكم فاستولى الذعر علي إذ انتصبتم أمامي هياكل عظام تومئ إلي بإشارات العاشقين.
أنني افضل أن أكون من عمال الجحيم وخدام الأشباح. لأن لسكان لجحيم ما ليس لكم من
شخصية معينة، وأمر ما ألقاه هو أن أنظر إليكم سواء استترتم أو تعريتم، يا رجال اليوم. . .
إن جميع ما يدعو إلى القلق في آتي الزمان وجميع ما ارتاعت له في الماضي تائهات الطيور، إنما هو أدعى الاطمئنان والارتياح من حقيقتكم، لأنكم أنتم القائلون: (إنما نحن الحقيقة المجردة عن كل خرافة واعتقاد) وبهذا تتبجحون وتنتفخون دون أن يكون لكم صدور.
وهل من عقيدة لكم وأنتم المبرقشون بجميع ما عرف الزمان من ألوان حتى اليوم؟ وهل أنتم إلا دحض صريح للإيمان نفسه وتفكيك للأفكار جميعها؟ فانتم كائنات أوهام يا من تدعون أنكم رجال الحقائق.
لقد قامت العصور كلها تتعارك في تفكيركم، وما كانت هذه العصور في أحلامها وهذيانها إلا أقرب إلى الحقيقة من تفكيركم وأنتم منتبهون.
بليتم بالعقم ففقدتم الإيمان وقد كانت للمبدع أحلامه وكواكبه قبلكم فوثق من إيمانه.
ما أنتم إلا أبواب فتحت مصاريعها لحفار القبور، وما حقيقتكم إلا القول بان شيء يستحق الزوال.
إنكم تنتصبون أمامي كهياكل عظام متحركة، أيها المبتلون بالعقم، ولا ريب في أن أكثركم لم يخف عليه أمر نفسه عندما تساءل: (هل اختطف اله مني شيئا وأنا نائم؟ والحق أن ما سلب مني يكفي لإيجاد ارأة، فما اضعف أضلاعي) هكذا يتكلم العدد الوفير من رجال هذا الزمان.
ان حلكم ليضحكني أيها الرجال؛ ويزيد في ضحكي أنكم لأنفسكم مستغربون. ولشد ما يكون وبلى لو امتنع على أن أضحك من استغرابكم ولو اضطررت إلى ازدراد ما في أوعيتكم من كريه الطعام.
أنني أستخف بكم لما على عاتقي من ثقيل الحمال فما يهمني لو نزل عليها بعض الذباب فانه لن يزيدها ثقلا وما أنتم من يحملني أشد الأتعاب أيها المعاصرون.
وا أسفاه إلى أية ذروة يجب علي أن أرتقي بأشواقي فأنني أدير لحاظي من أعالي الذرى مفتشاً عبثا عن مسقط رأسي وأوطاني، فأنا لا أزال في أول مرحلتي في المدن أتنقل أمام
أبوابها.
لقد اندفعت بعواطفي نحو رجال هذه الايام، ولكنني ما لبثت أن تبينت فيهم قوما غرباء عني لا يستحقون إلا سخريتي، وهكذا أصبحت طريدا يتشوق إلى مسقط رأسه وأوطانه. ولا وطن لي بعد الآن إلا وطن أبنائي في الأرض المجهولة وسط البحار السحيقة، لذلك وجب أن ندفع بشراعي على صفحات المياه لأفتش عنه.
على أن أكفر أمام أبنائي لأنني كنت ابنا لآبائي. على أن أكفر عن حالي العتيد بكل جهودي في آتي الزمان
هكذا تكلم زارا.
المعرفة الطاهرة

عندما أطل القمر على ليلة أمس خيل إلي أنه أنثى أثقلها الحبل وكأن في أحشائها كوكب النهار. وقد جاءها المخاض وأنا أميل إلى تذكير القمر مني إلى تأنيثه وإن خلا من صفات الرجولة فانه رائد ليل يمر على السطوح وقد ساءت نواياه، فهو كالراهب المتدفق شهوة وحسدا يتمنى لو يتمتع بملذات جميع العاشقين
لا، إنني لا أحب هذا الهر المتجول على مزاريب السطوح، لأنني أكره كل متلصص أمام النوافذ التي لم يحكم أقفالها. إن القمر ليمر خاشعا متعبدا على بساط النجوم وأنا أكره كل من ينساب في مشيته فلا تسمع وقعا لأقدامه، فان خطوات الرجل الصريح تستنطق الأرض؛ وما يمشي الهر إلا متجسسا، وهذا القمر لا يتقدم إلا بخطوات الغدر كالهر.
ما أوردت هذا المثل إلا لكم وعنكم يا أبناء الخبث وقد أرهقت إحساسكم لطلب المعرفة الصافية، وما أنتم في نظري إلا عبيد الملذات لأنكم أنتم أيضاً تحبون الأرض وما عليها ومنها. لقد عرفت طويتكم فإذا في حبكم ما يخجل وما يفسد الأخلاق، فما أشد شبهكم بكوكب الليل.
لقد أقنعوكم بأن تحتقروا كل ما ينشأ من التراب، ولكن هذا الإقناع لم ينفذ إلى أحشائكم، وأحشاؤكم هي أقوى ما فيكم؛ وهكذا أصبح عقلكم خجلا من سيطرة أحشائكم عليه، فهو يتبع الطرق الخفية المضلة فزعا من حجله. أنصتوا إلى مناجاة عقلكم لنفسه فهو يقول: ليت لي أن أرتقي إلى حيث أنظر إلى الحياة محررا من الشهوة فلا ألهث أمامها ككلب يدلي
لسانه وقد شفه السغب من شهوته.
ليت لي أن أسعد بالتأمل متفوقا على إرادتي متحررا من خساسة الأنانية ومطامحها فيسود على السلام ولا يبقى لعيني سوى لحظات القمر الثملة.
إن عقلكم يطلب التملص من ذاته لأنه طريد يشتهي أن يتعشق الأرض كما يتعشقها القمر فلا تتمتع إلا عيونكم بجمالها
إن عقلكم يرى المعرفة الظاهرة لا تحتله ما لم ينبسط أمام الأشياء دون امتلاكها مكتفيا بانعكاس أشباحها عليه كما تنعكس الأشباح على مرآة لها مئات العيون.
أيها الخبثاء المتحرقون بالشهوات، لقد خلت شهوتكم من الطهارة فلذلك تجدفون على الشهوة، فأنتم لا تحبون الأرض كما يحبها المبدعون والمجدون الذين يسرون بما يبدعون وبما يجددون. فلا طهارة إلا حيث تنجلي إرادة الإبداع، فمن اتجه إلى خلق من يفوق عليه فذلك عندي صاحب اطهر إرادة وأنقاها.
طلبت الجمال فما وجدته إلا حيث تنصب الإرادة بأكملها إلى المراد، وحيث يرتضي الإنسان بالزوال لتجديد الصور وتبدلها، فالمحبة والموت صنوان متلازمان منذ زمان الأزل فمن أراد المحبة فقد رضي بالموت. هذا ما أقوله لكم أيها الجبناء
ولكن نظراتكم المنحرفة المؤنثة تحب الاستغراق في التأمل فتريدون أن يدعي جمالا ما تحدجونه أنتم بعين الحذر والجبن؛ إنكم لتدنسون أشرف الأسماء.
إن اللعنة التي تحل بكم، أيها السائرون وراء المعرفة الطاهرة إنما هي عجزكم عن التوليد في حين أنكم تلوحون كالحبالى المثقلات على الآفاق.
إنكم تحشون أفواهكم بأنبل الكلمات بان قلبكم يتدفق عطفا وما أنتم إلا منافقون.
لقد أخشنت القول لكم فكلماتي مشوهة ذرية؛ غير أنني أتناولها من الفتات المتساقط من موائد ولائمكم فاستعملها حين أعلن الحقيقة للخبثاء وهذا ما بيدي من حسك وأصداف يخدش آنافكم أيها الخبثاء.
إن الهواء الفاسد يهب بلا انقطاع حولكم وحول مآدبكم لأنه مشبع من أفكاركم الدنسة وأكاذيبكم وخداعكم.
عليكم بأن تبدءوا باطراح خوركم لتتوصلوا إلى الوثوق بأنفسكم فما ينقطع عن الكذب من
لا ثقة له بنفسه
لقد أخفيتم وجوهكم بأقنعة الإلهة أيها الرجال الأتقياء فأنتم ديدان قبيحة نتشح برداء الأرباب
إنكم لجد متبجحين يا رجال التأمل، حتى إن زارا نفسه أخذ بمظاهر جلودكم الإلهية فخفيت عنه الأفاعي الكامنة وراءها

لقد كنت أرى في عيونكم روح اله أيها الطالبون المعرفة الطاهرة، قبل أن تكشف لي تصنعكم فعرفت أنكم امهر المتصنعين
لقد بعد المجال بيني وبينكم فما تميزت فيكم الثعبان القبيح، ولا وصلت إلي رائحته الكريهة، وما خطر لي أن أمامي حرباء تتلون بشهواتها. ولكنني عندما اقتربت منكم تبددت الظلمة حولي. وها إن الفجر يغمركم بأنواره فلكل قمر جنوح إلى الغياب في شهوته. انظروا إلى هذا القمر فهو في افقه شاحب مذعور وقد باغته الفجر بأنواره المرسلة، فكل شمس يتجلى حبها الطاهر في تشوقها إلى الإبداع
أما ترون الفجر ينسحب على البحر وقد اهتاجه الشوق والحنين؟ إنما تشعرون بظمأة في حبه وحر انفاسه، فكأنه يزيد ارتشاف اللجج. وهاهي ذي تتعالى نحوه بآلاف نهودها، واللجة نفسها متشوقة إلى وصال كوكب النهار ليرشفها ارتشافا فتتحول إلى سحب ومسالك أنوار، بل هي نفسها تفنى في النور متحولة إلى نور
وأنا كوكب النهار أحب الحياة وكل لجة بعيدة الأغوار؛ تلك هي معرفتي. إنني أجتذب كل غور ليتعالى إلي. . .
هكذا تكلم زارا. . .
نقل الأديب
للأستاذ محمد اسقاف النشاشيبي
المرأة والكتب - 118
في (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) لابن أبي أصيبعة: حدثني الشيخ شديد الدين المنطقي بمصر قال: كان الأمير ابن فاتك محبا لتحصيل العلوم، وكانت له خزائن كتب، فكان في أكثر أوقاته إذا نزل من الركوب لا يفارقها، وليس له داب إلا المطالعة والكتابة. وكانت له زوجة كبيرة القدر من أرباب الدولة. فلما توفي (رحمه الله) نهضت هي وجوار معها إلى خزائن كتبه، وفي قلبها من الكتب، وانه كان يشتغل بها عنها، فجعلت تندبه، وفي أثناء ذلك ترمي الكتب في بركة ماء كبيرة في وسط الدار هي وجواريها. . . ثم أشيلت الكتب بعد ذلك من الماء. وقد غرق أكثرها، فهذا سبب أن كتب المبشر بن فاتك يوجد كثير منها وهو بهذه الحال
على الطنبور - 119
قال جحظة: وهب لي جعفر بن المأمون طنبور عبيدة الطنبورية فإذا عليه مكتوب بآبنوس:
كل شيء سوى الخيانة في الحب يحتمل
حتى متى أرفعك؟ - 120
قال أسماء بن خارجة لجاريته:
أخضبيني
فقالت: حتى متى أرفعك؟!
فقال:
عيرتني خلقاً أبليت جدته ... وهل رأيت جديداً لم يعد خلقاً
في الدنيا والآخرة - 121
قال الجاحظ: روي أن أعرابيا اشتد عليه البرد فأصاب نارا، فدنا منها ليصطلي بها وهو يقول: اللهم، لا تحرمنيها في الدنيا ولا في الآخرة
الجديد والقديم - 122
أبو بكر محمد بن نصر الأوسي:
وان كان عندي للجديد لذاذة ... فلست بناس حرمة لقديم
إذا استحكمت المودة بطلت التكاليف - 123
قال عبد العزيز بن الفضل: خرج القاضي أبو العباس أحمد بن عمر بن سريج وأبو بكر محمد بن داود الظاهري وأبو عبد الله نفطويه إلى وليمة دعوا لها، فأفضى بهم الطريق إلى مكان ضيق، فأراد كل واحد منهم أن يتقدم عليه، فقال ابن سريج: ضيق الطريق يورث سوء الأدب
وقال ابن داود: لكنه يعرف مقادير الرجال. . .
فقال نفطويه: إذا استحكمت المودة بطلت التكاليف
غزل الصداقة - 124

(في (المقابسات) قال الحسن بن وهب: غزل الصداقة أرق من غزل العلاقة
وهذه نفثة فاضل قد أحس كمال الصداقة
125 - أسمه أبو العتاهية
تكلم بعض القصاص قال: في السماء ملك يقول كل يوم: لدوا للموت وابنوا للخراب.
فقال بعض الأذكياء: اسم ذلك الملك أبو العتاهية. . .
126 - الشاكر والصابر في الجنة
نظرت امرأة عمران بن حطان يوما في المرآة - وكانت أجمل النساء - فأعجبها
حسنها، ونظرت إلى عمران - وكان قبيحا فقالت أبا شهاب، تعال فانظر في المرآة!
فجاء فنظر إلى نفسه وهو إلى جانبها كأنه قنفذ ورأى وجها قبيحا، فقال: هذا أردت؟!
فقالت: إني لأرجو أن أدخل الجنة أنا وأنت
قال: بم؟
قالت: لأنك رُزقتَ مثلي فشكرت، ورزقت مثلك فصبرت. والشاكر والصابر في
الجنة. . .
127 - فلا
في (العمدة) لابن رشيق: قيل لأبي السائب المخزومي: أترى أحدا لا يشتهي النسيب؟
فقال: أما ممن يؤمن بالله واليوم الآخر فلا. . .
128 - لا حكم إلا للملاح
أبو القاسم المرتضى:
بيني وبين عواذلي ... في الحب أطراف الرماح
أنا خارجي في الهوى ... لا حكم إلا للملاح
129 - ماء الملام، جناح الذل
قال أبو تمام في قصيدة:
لا سقني ماء الملام فإنني ... صب قد استعذبت ماء بكائي
فبعث مخلد الموصلي إليه بقارورة يسأله أن يبعث له فيها قليلا من ماء الملام، فقال
لصاحبه: قل له يبعث إلي بريشة من جناح الذل لأستخرج بها من القارورة ما أبعث
إليه
قال ابن أبي الحديد: هذا ظلم من أبي تمام لمخلد، وما الأمران سواء لان الطائر إذا
أعياه تعب وذل، وخفض جناحه، وكذلك الإنسان إذا استسلم ألقى بيديه ذلا، ويده
جناحه، فذاك هو الذي حسن (واخفض لهما جناح الذل) ألا ترى لو أنه قال: واخفض
لهما ساق الذل أو بطن لم يكن مستحسنا
130 - ولع الشعراء ببعض الألفاظ
في (سر الفصاحة) للخفاجي:
قلما يخلو واحد من الشعراء المجيدين أو الكتاب من استعمال ألفاظ يديرها في
شعره. وقد كان أبو الحسن مهبار ابن مرزويه ممن عَرِى بلفظ (طين وطينة) فما
وجدت له قصيدة تخلو من ذلك إلا اليسير.
وقال أبو الفتح بن جني: لأبي الطيب المتنبي: إنك تكرر في شعرك (ذا وذي) كثيراً،
ففكر ساعة ثم قال: إن هذا الشعر لم يعمل كله في وقت واحد. فقلت: صدقت إلا أن
المادة واحدة، فأمسك
131 - القاضي بسعادتك
قال أبو اليمن زيد الكندي: كنا نلقب أبا المكارم محمد بن الملك بن أبي جرادة
(القاضي بسعادتك) وذلك أن القلانسي دعاه في وليمة - وكنت حاضرها - فجعل لا
يسأله عن شيء فيخبر عنه بما سر أو أساء إلا قال في عقبه (بسعادتك) فان قال له:
ما فعل فلان؟ قال: مات بسعادتك، وان قال له: ما خبر الدار الفلانية؟ يقول: خربت
بسعادتك. فسميناه (القاضي بسعادتك) وكان يقولها لاعتياده إياها لا لجهل كان فيه،
وكان أدب وفضل وفقه وشعر جيد
132 - وبأ حسنت لا يباع دقيق
حضر جحظة مجلس بعض الكبار مراراً، وكان إذا غنى يقول له: أحسنت، ولم يكن
يخوله شيئا، فقال فيه:
إن تغنيت قال: أحسنت أزدني ... وب (أحسنت) لا يباع دقيق

133 - فلهذا يرقص الحبيب
قال كان: من معاني الأبيوردي البديعة قوله من جملة أبياتا وصف الخمرة:
ولها من ذاتها طرب ... فلهذا يرقص الحبب
134 - أنت الحسن إذن
قال أبو نواس: استقبلتني امرأة فسفرت عن وجهها، فكانت على غاية الحسن،
فقالت: ما اسمك؟
قلت: وجهك
قالت: أنت الحسن إذن!
135 - يتيم
قال ابن خالويه في كتاب (ليس): أنشدني أعرابي:
ثلاثة أحباب: فحب علاقة ... وحب تِمِلاّق وحب هو القتل
فقلت له: زدني
فقال: البيت يتيم.
136 - فر زيتون من الجبن
في (الغيث المسجم) للصفدي: كتب القاضي محي الدين عبد الله بن عبد الظاهر لما التقى (الملك الظاهر) مع (زيتون الفرنجي) قريبا من عكا، وهرب زيتون، وأسر غالب من كان معه من الفرنج، فجاء في جملة الكتاب: (وفر زيتون من الجبن) قيل إن الملك الظاهر لما سمعها أعجبته وخلع عليه
137 - أينما كانت انتفعنا بها
في كتاب (قضاة قرطبة) لمحمد بن الحارث الخشني:
قال محمد بن فرج الفقيه: ما رأيت أعقل من زياد بن عبد الله (الخطيب بالمسجد الجامع بقرطبة) قلت له يوما: يزعم هؤلاء المعدلون إن هذه الشمس. مقرها السماء الرابعة. فقال: (أينما كانت انتفعنا بها) ولم يزدني على ذلك فعجبت من عقله
نفثة محزون
للأستاذ إبراهيم عبد الوهاب
في ميعة الصبا ونضرته، وفي ربيع الحياة وزهوه، أختطف الموت أبني ولم يتجاوز الثانية عشرة من عمره، ففاض صدري بهذه الكلمة تفجعاً عليه ورثاء له
عافَ الحياة ومَلّ من أوْصابها ... لما ألَحّ الداَء في أسبابها
بَكَرَت إليه يد المنون ولم يكد ... يُوفي من الدنيا على أبوابها
ورمت مَنيته إليه شباكها ... وعَدَتْ عليه بظفرها وبنابها
وطوت صحيفتَهُ ولما يَكْتَمِلْ ... عنوانُ قصتها وبَدْءُ كتابها
فمضى كأزهارِ الربيع قصيرةٌ ... أيامُها وفريدة في بابها
أبني أيُّ فجيعةٍ غدَّارةٍ ... دَهْياَء قد نزلت بفصْلِ خطابها
رمت القلوب فأقْصَدتْ حياتها ... وَمَحتْ جميل الصبر في أعقابها
وأسالت الدمع الأبيَّ كأنه ... غيثُ السماءِ هَمَي وهَطْلُ سحابها
لَهَفي عليك وأنت نِضْوٌ خائر ... تشكو من الحمى ومن أذنابها
وتبينت مضطرباً كأنك في لظى ... قَلقَا تَوجَّعُ من أليم عذابها
حلت بجسمك لا تريد فراقه ... فكأنما ألْفتْكَ من أحبابها
ورمت يديك برعدة مشئومة ... أيقنْتُ أن الموت ينذرنا بها
الجسم مرتعها ولحمك طُعْمُها ... وعصير قلبك من لذيذ شرابها
صهرتك لم ترحم صباك ولم تَهِنْ ... حتى مضت بالروح أسلابها
وقف الطبيب إلى سريرك مطرقا ... حَيْران مُغْتنمًّا لدائك آبِها
ودعا صحابته إليك فلم يجد ... رأياً جديداً أو مشيراً نابها
وأهابَ بالطب العتيد فخانه ... وأراد معجزة فما أوْفَى بها
الطب إن شاء الإله وسيلة ... تشفي من الحمى ومن أترابها
أو لم يشأ تلقاه شر رسالة ... للموت يُزْجيها إلى أربابها
قل للمؤمل في الطبيب وطبه ... إن الحياة رهينةٌ بكتابها
لا الطب يصنعها ولا أقطابه ... الله قدرها ليوم مَآبِها

هي صنعة المولى تَمَلَّكَ سِرَّها ... وأجادها وَوَعي دقيق حسابها
أُبُنَيَّ أرْمَعْتَ النوى وتركتني ... أشْتَفُّ من كدر الحياة وصابها
أذكيت نار الحزن تلتهم الحشا ... وتذيب قلبي من سعير لهابها
تلك الدموع الحائرات بمقلتي ... هي مهجتي تنساب من أهدابها
أفلا رَحِمْتَ أباك من أدوائه ... حتى أضفت لها الفراق مشابهاً
ورَحِمْتَ أمك من لواعج ثكلها ... وغزير عبرتها وسود ثيابها
تبكي وتندب حظها وعِثَارهُ ... وَربيبَ مهجتها وصِنْوَ شبابها
وتود لو أنَّ الدموع شرابُها ... أو أن ماء البحر من تسْكابها
وتطوف حول القبر تلتمس الهدى ... فكأنما أوفتْ على محرابها
حَيْرَى مُحَسَّرةً تمثل حزنها ... فتكاد تلمسه على جلبابها
الخطب أرهقها وحَطَّمَ عودها ... ولرُبَّ عاقلةٍ مَضى بصوابها
قد كنت وَثّاب الذكاء مَحَّباً ... وبرئت من طبَعِ الخصالِ وعابِها
قد كنت بهجة دارنا وسرورها ... فغدت بفيض الحزن من أعتابها
قد كنت لي أملاً ألُوذُ بنوره ... في لجة الدنيا وشق عبابها
غدت الحياة ثقيلة أيامها ... ضَيْقٌ على رَغمي فسِيحُ رحابها
ما أضيع الآمال بعدك والمنى ... هي خُدْعَة الدنيا وكِذْبُ سَرَابها
حشدت لي الأيام حُرَّ نِصَالها ... ومضت تجُدُّ بحدها وذُبابها
وتتابعت نُوَبُ الزمان كأنما ... ألِفتْنيَ الأحداثُ في إغْبَابها
وأصاب هذا الدهر خير أحِبّةٍ ... سَلكتْهُمُ العلياءُ في أنْسَابها
كانوا ملاذ الفضل مُعتصمَ الحجا ... وبشاشة الدنيا وزَهْوَ خِصَابها
قد كنت أمرح بينهم في روضة ... والآن صرت لوحدتي ويَبابها
أَبني إن عظمت بفقدك نكبتي ... فرَجائيَ المولى عظيمُ ثوابها
ناداك ربك فاستجبت نداءه ... وصدَفْتَ عن دنيا الورى وكذابها
نم في جوار الله غير مُرَوَّع ... وانعم بجنته ورحب جنابها
وَارْتعْ هنالك بين رَيِّق مائها ... وبهيج سُنْدُسِها وفي أعْنابها
وارْجُ الإله لوالديك تصبُّراً ... ينسيهما البلوى وَوَقعَ مُصابها
إن الذي خلق المكاره والأسَى ... هو باري الرحماتِ يُسْعِدُنا بها
إبراهيم عبد الوهاب
المدرس بمدرسة المنيرة الابتدائية الأميرية

رسالة الفن
ميكيلانجلو
العبقرية الملهمة
للدكتور أحمد موسى

تكاد تكون شخصية ميكيلانجلو من أعقد الشخصيات؛ ذلك لتعدد نواحي دراسته وتحديد مواهبه الفنية فإذا استعرضت تاريخ حياته في مختلف المصادر، وجدت أن كل مؤرخ فني تفرغ لتناوله من ناحية معينة، بغية الوصول إلى تعريف محدود له، ينتهي بوضع أساس يتفق وعظمته.

وقد قرأنا عنه الكثير، وشاهدنا من إنتاجه وأثاره ما فيه الكفاية، ووجدنا بعض مؤرخي الفن يدرس كمهندس معماري، وآخر يحلله كنحات، وثالث كنقاش، ورابع كمصور، وخامس كشاعر، وسادس كعاشق، دفع به الهوى إلى تلحين ملحمات غزلية ألفها في ساعات إلهامه.

وقد أخذنا على عاتقنا دراسة ميكيلانجلو دراسة فنية مبسطة ولكنها شاملة، وتناولناه بالبحث كنحات عظيم. ولكن لا نكون قد أدينا رسالة الفن تمام التأدية إذا لم ندرسه كمصور أيضاً، حتى تتم بذلك معرفتنا له من ناحيتيه البارزتين وهما النحت والتصوير؛ ولا سيما وهو لم يكن ليقل عظمة في الأخير عن الأول، بل إنه استطاع إظهار أدق وأعمق مشاعره النفسية، وأفكاره الملهمة في التصوير الذي أخرجه على أعظم جانب من الإجادة وحسن الانسجام.

وإذا كنا قد علمنا أن ترك بعض منحوتاته دون إكمال، فإنه يهمنا أن نعلم أنه لم يترك

من مصوراته إلا ما ندر غير كامل، ومن هنا نستطيع أن ندرسه دراسة وافية كمصور، ونصل بها إلى الأعماق التي لم نستطع الوصول إليها في النحت الذي قررنا أن اتجاهه فيه كان مثلياً كما كان في التصوير، وهي ظاهرة طبيعية يحتمها التناسق في الإنتاج الفني والخلق المبتكر.

وإذا كان ميكيلانجلو قد ظهر أمامنا بعد استعراض منحوتاته، دائم الطموح نحو الكمال الإنساني، ساعياً وراء المثل العليا في التكوين الإنساني والموضوعي، مهتما تمام الاهتمام باختيار المواقف العنيفة التي خرج بها عن المألوف من ناحية الإنشاء الوضعي والتي مقتضاها أن أظهرت تفاصيل الجسم على أقوى ما يمكن ظهورها به؛ فإن هذا نفسه كان الاتجاه الذي سار فيه والهدف الذي رمى إليه في التصوير الذي لم يجمع فيه بين المناظر الشخصية مفردة كانت أو مجتمعة وبين الطبيعة إلا فيما ندر، مخالفاً في ذلك ما رأيناه عند ليوناردو دافينشي (راجع المقالين الخاصين به)

ويشعر المشاهد لمصوراته عموماً كأنه واقف يستعرض تماثيل مجسمة لا صور أو لوحات مسطحة، ومن هذا نستطيع أن نكون لفنه التصويري طابعاً مميزاً وروحاً خاصا، وهو أنه كان مصوراً نحاتياً أكثر منه مصوراً بحتاً، إذ أن كل مصوراته تمت بصلة كبيرة إلى قواعد النحت، أكثر من انتمائها إلى قواعد التصوير.

على أن مصوراته هذه لم تكن مرسومة بالزيت كما يعتقد كثير من الناس، بل كانت تصويراً على الجص الطازج، وهذه الطريقة التي تتلخص في التصوير بألوان الماء على طبقة رقيقة من الجص أو الجير قبل جفافه هي التي يعبر عنها رجال الفن بتصوير الفرسكو

وقد صور بعض مصوراته بطريقة أخرى. وذلك أنه أخذ الألوان الطبيعية من الأرض وأضافها إلى محلول الغراء والعسل، وعندما أراد التصوير بها أضاف إليها الغراء الكثيف أو بياض البيض واستعملها مباشرة ولعلنا بدرسه على ضوء أبسط أصول تاريخ الفن نضطر إلى تقسيم تراثه إلى ثلاث مراحل تستغرق كل مرحلة منها نحو ثلاثين سنة، على اعتبار أنه عاش حوالي التسعين

وتنحصر المرحلة الأولى بين سنة 1475، 1505 وهي التي قضى معظمها كنحات، وقد سبق لنا درسها، وله فيها ثلاث قطع لا تزال باقية، أولها صورته (دفن المسيح) وثانيهما (مادونا مانشيستر) وتشمل مريم ويسوع ويوحنا وأربعة ملائكة والروح الغالبة على هذه اللوحة ظهور البساطة بأجلى معانيها، مع عظمة التكوين الإنساني، وهذه سابقتها محفوظتان بجاليري لندن غير كاملتين.

وقطعته الثالثة تمثل العائلة المقدسة، وهي صورة مستديرة - ش1 - محفوظة بمتحف أوفيسين بفلورنسا، صورها سنة 1504 وتمثل مريم والطفل وخلفهما يوحنا ومجموعة أطفال في مؤخرة اللوحة.

أنظر إلى مريم وكيف أسندت الطفل بوضع أطراف يدها اليمنى تحت إبطه وإسناده له بيسراه ثم تأمل الجمال البادي على ملامحها، وحسن إخراج الملابس وثناياها. إلى جانب جلستها الرائعة، وظهور قدمها اليمنى بحالة فنية لا ترتفع إلى مثلها غير عبقرية ميكيلانجلو.

ثم شاهد ما أرتسم على وجه يوحنا من علامات الحب والإشفاق على الطفل يسوع. ولا حظ شعر الرأس والذقن إلى جانب الحياة التي تشع من عينيه.

ورسم الأطفال في مؤخرة الصورة أقوياء التفاصيل والتكوين الجسماني وهذا من مميزاته الخاصة، وميله إلى قواعد النحت أكثر من ميله إلى قواعد التصوير.

وتعطيك النظرة الشاملة للمجموع الإنشائي للصورة فكرة هائلة عن جمال الوضع الأولي والتصميم الكلي للوجه. فالرؤوس الثلاثة تكاد تكون بارتفاع واحد. ومع هذا لم تخرج عن أصول الانسجام فضلا عن بعدها عن الازدحام الذي يؤدي غالباً إلى ضعف التوجيه. هذا إلى هدوء الألوان وبعدها عن الحدة.

وله مصورات تخطيطية بين سنة 1501، 1505 منها ما مثل دراسات لرؤوس بمشاهدتها تعطيك فكرة صادقة عن مدى تأثره بليناردو دافينشي.

ولعل أبرز ما أنتجه في هذه المرحلة أيضاً الصور الكارتونية للتصوير الجصي (الفرسكو) الذي لم يتم عمله والذي كان مخصصاً لبيت البلدية في فلورنسا، وهذه تخالف في روحها وتكوينها لوحاته التي أظهرت تأثره بليوناردو وهي تمثل مذبحة

كاشينا التي أنتصر فيها الفلورنسيون على محاربيهم من بيزا في 27 يوليو سنة 1364 وقد مثل في هذه اللوحة جمهرة من الفلورنسيون يستحمون وأعداؤهم من بيزا يفاجئونهم، وهي رائعة الإنشاء قوية الإخراج مليئة بالحركة والرشاقة.

وله أيضاً في هذه المرحلة (1505) كارتونات مصورة لم يبق منها للأسف إلا اثنتان، الأولى لأجوستينو فيسيانو والثانية تمثيل منظر (الصاعدين) - ش2 - ، وهي بالنظر إليها تبين رجلا عجوزا جلس على مرتفع من الأرض بينما يشير بيمناه إلى الهدف الذي يريد الوصول إليه، وأمامه ولداه وقد مد الأول منهما يسراه إلى رابع لم تظهر منه إلا أطراف أصابعه الأربعة، والطريقة التي انحنى بها الولد للأخذ بيد زميله من أطراف أصابعه هي من أقوى ما يستطيع فنان اختياره.

أنظر إلى اليد اليمنى وكيف استندت إلى حافة المرتفع، ثم تأمل الحرص البادي على يده اليسرى الممدودة لمساعدة زميله. وإذا تأملت ما تخلل الأحجار من نباتات ظهرت نهايتها ونظرت إلى الأشجار وما غلب عليها من ظل ونور، وشاهدت الكيفية التي عالج بها أوراق الشجر إلى جانب المرتفعات البعيدة في مؤخرة الصورة، ترى أن ميكيلانجلو كان عنيفاً ولكنه العنف الذي أدى إلى الخلود الفني.

أحمد موسى

البريد الأدبي

كتاب عن التربية في مصر

صدرت أخيراً كتاب بالإنكليزية عن مستقبل التربية في مصر بقلم أستاذ إنكليزي معروف في دوائر التربية المصرية هو الدكتور جاكسون الأستاذ سابقاً بمعهد التربية، عنوانه: (التربية والعهد الجديد في مصر) وقام بإصداره معهد التربية؛ ويقول الأستاذ جاكسون إن الذي حمله على تأليف هذا الكتاب هو الحاجة الماسة إلى هذه المرحلة من تاريخ مصر الاجتماعي، إلى وضع سياسة حديثة للتربية تقوم على جهود موحدة نزيهة ومثل عملية. ويتناول الأستاذ في كتابه ثلاث مسائل رئيسية هي: أولا - مهمة التربية في مصر وفي رأيه أنها العمل على إنشاء ثقافة مصرية. ثانياً - مسألة أعداد المعلمين. ثالثاً - مسألة النظام.

ويتناول الأستاذ جاكسون في هذه المسائل تناول العارف المطلع، ولا غرو فقد أنفق أعواماً يعمل في أوساط التربية المصرية، وهو يحاول في بحوثه أن يوفق بين المقاصد العملية وبين المثل النظرية، ويقدم اقتراحات عملية لبعض المسائل المستعجلة التي تواجهها مصر اليوم: فهو يرى مثلاً أن التعليم الثانوي في مصر نظر محض ويقترح أن تدمج فيه بعض العناصر العملية، وينوه بخطر التعليم السطحي، ويرى أن تزداد البعثات العملية القصيرة إلى الخارج؛ ثم هو يحذر ولاة الأمر من التقتير على المعلمين لأن المعلمين المغبونين الساخطين يعدون خطرا على المجتمع، ويرى في تعليم اللغة الإنكليزية ألا يبدأ به إلا من السنة الثالثة الابتدائية بعد أن يكون التلاميذ قد حصلوا على قسط معقول من اللغة العربية.

ويتحدث الأستاذ جاكسون طويلا عن مسألة النظام والطاعة؛ وهو يرى أن استتباب النظام شرط جوهري للتقدم، ويرى ضرورة التشدد في مسألة القوانين النظامية، ثم يقول إنه ما دامت الصبية في وسعهم أن يقلبوا قرارات معلميهم إلى عكسها سواء بالشكوى إلى ذويهم أو بالاعتصاب والصخب، فإنه يستحيل عليهم أن يتعلموا احترام السلطة المدرسية التي هي جوهرية بالنسبة للتعليم والعلم. إن الاعتصاب من أنواع العنف فيجب محاربته وقمعه بالحزم من جانب السلطات وبتنمية الروح الاجتماعي في المدارس وهو روح يكاد يكون مفقوداً.

ولا شك أن مسألة التربية وتوجيهها من أهم المسائل التي يجب أن تعنى بها مصر المستقلة؛ فمصر تحتاج إلى خلق جيل جديد يتمتع بصفات جديدة تناسب العهد الجديد وتناسب مسئولياته؛ ومن الأسف أن ولاة الأمر لم يوفقوا حتى اليوم إلى تناول هذه المسألة الخطيرة بما يجب من الاهتمام، ولا ريب أن كتاب الأستاذ جاكسون يحتوي كثيراً من الحقائق والملاحظات الجديرة بالدرس والاعتبار.

حول عيد القاهرة الألفي

أذاعت الصحف المصرية أن وزارة التجارة والصناعة تنوي أن تنتهز فرصة سنوح العيد الألفي لمدينة القاهرة المعزية فتقيم معرضاً مصرياً عظيماً تدعو الدول ولا سيما الدول

الشرقية والإسلامية إلى شهوده والاشتراك فيه؛ وهذه فكرة جليلة بلا ريب؛ وقد سبق أن نوهت (الرسالة) في أكثر من مقال رنان بأهمية هذا العيد التاريخي ووجوب الاحتفاء به في مظاهر عظيمة تتفق مع أهميته وجلاله؛ على أن هذه الدعوة لم تلق إلى اليوم صداها المنشود؛ وإذا كان مجلس التنظيم قرر بهذه المناسبة أن يطلق اسم الخليفة المعز واسم القائد جوهر على شارعين من شوارع القاهرة القديمة، وإذا كانت وزارة التجارة تريد أن تتخذ هذه المناسبة لإقامة معرض دولي عظيم، فإن هذه الإجراءات والقرارات المتفرقة لا تكفي في نظرنا للاحتفاء بهذا العيد. بل يجب أن يكون الاهتمام به شاملاً، وأن تؤلف لجنة حكومية عامة تمثل جميع الوزارات المصرية والهيئات العامة، لتضع برنامجاً شاملاً لهذا الاحتفال التاريخي الجليل، تندمج فيه هذه الإجراءات الجزئية التي ترى الجهات المختلفة اتخاذها؛ ومن المحقق أن عيد القاهرة الألفي هو من أعظم الأعياد القومية، فيجب أن يتخذ برنامج الاحتفال به هذا اللون، وعلى أي حال فما يدعو إلى الغبطة أن تبدأ السلطات بالتحرك للتفكير في إحياء هذا العيد بعد أن طال صمتها، وبعد أن لم يبق على وقوعه سوى زمن قليل.

الشيخ منصور المنوفي لم يكن شيخاً للأزهر

قرأت ما كتبه الأستاذ الجليل محمد عبد الله عنان في عدد الرسالة الغراء (208) تحت هذا العنوان - مصر خاتمة القرن السابع عشر كما رآها العلامة عبد الغني النابلسي - فرابني منه قوله (ثم يحدثنا الرحالة عن الجامع الأزهر وعن شيخه وهو يومئذ الشيخ منصور الشافعي الضرير) وحدثتني نفسي أن هذا الاسم لم يمر عليها في شيوخ الأزهر، فأخذت على عادتي أرجع إلى مصادري التي قرأتها لأحقق هذا الأمر الذي استغربت فيه، وأدركني الشك في صحته.

فرجعت إلى الخطط التوفيقية وإلى تاريخ الأزهر فوجدتهما متفقين على أن الذي كان شيخاً للأزهر في تلك السنة التي رحل فيها الشيخ النابلسي إلى مصر، وهي سنة 1105هـ - 1693 - هو الشيخ محمد النشرتي المالكي. وقد كان شيخاً للأزهر من وفاة الشيخ عبد الله محمد بن عبد الله الخرشي سنة 1101هـ إلى أن توفي سنة 1120هـ.

وقد ذكر الجبرتي وفاة الشيخ الخرشي في سنة 1101هـ وقال عنه إنه الإمام العلامة والحبر الفهامة شيخ الإسلام والمسلمين وارث علوم سيد المرسلين الشيخ محمد الخرشي المالكي شارح خليل وغيره، ويروى عنه والده الشيخ عبد الله الخرشي وعن العلامة الشيخ إبراهيم اللقاني، كلاهما عن الشيخ سالم السنهوري المالكي، عن النجم الغيطي عن شيخ الإسلام زكريا الأنصاري عن ابن الحافظ الحجر العسقلاني بسنده إلى الأمام البخاري.

ثم ذكر وفاة الشيخ محمد النشرتي في سنة 1120هـ وقال عنه إنه الإمام العلامة الشيخ محمد النشرتي المالكي، وهو كان وصياً على المرحوم الشيخ الوالد بعد موت الجد، توفي يوم الأحد بعد الظهر، وأخر دفنه إلى صبيحة يوم الاثنين، وصلى عليه بالأزهر بمشهد حافل، وحضر جنازته الصناجق والأمراء والأعيان، وكان يوماً مشهوداً.

أما الشيخ منصور المنوفي فقد ذكر الجبرتي وفاته سنة 1135 وكان قد جاوز تسعين سنة، وقال عنه أنه الشيخ العلامة الفقيه المحدث الشيخ منصور بن علي بن زين العابدين المنوفي البصير (لا الضرير) الشافعي، ولد بمنوف ونشأ بها يتيماً في حجر والدته، وكان باراً بها، فكانت تدعو له، فحفظ القرآن وعدة متون، ثم ارتحل إلى القاهرة وجاور بالأزهر وتفقه بالشهابين البشبيشي والسندوبي، والشمس الشرنبابلي والزين منصور الطوخي، ولازم النور الشبراملسي في العلوم وأخذ عنه الحديث، وجد واجتهد وتفنن وبرع في العلوم العقلية والنقلية. وكان إليه المنتهى في الحذق والذكاء وقوة الاستحضار لدقائق العلوم، سريع الإدراك لعويصات المسائل على وجه الحق، نظم الموجهات وشرحها، وانتفع به الفضلاء وتخرج به النبلاء وافتخر بالأخذ عنه الأبناء على الآباء.

وقد رأيت بعد أن ارجع إلى المصدر الذي نقل عنه الأستاذ عنان، فذهبت إلى دار الكتب وطلبت رحلة الشيخ النابلسي (الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز) فوجدته قد ذكر في صفحة (202) أنه طلع عليه صباح يوم الأحد 28من شهر ربيع الثاني فحضر عنده الإمام العام الهمام الشيخ منصور المنوفي الأزهري الشافعي

الضرير شيخ الأزهر ومعه الجماعة والطلبة وكثير من المجاورين بالجامع الأزهر، وحصل بعض أبحاث وفوائد علمية.

ثم ذكر في صفحة (204) أنه أصبح صباح يوم الاثنين 29 من شهر ربيع الثاني، فجلس على عادته يستقبل من يأتي إليه من الأصحاب والأخوان، ثم قام من مجلسه إلى مجلس الشيخ زين العابدين بدعوة منه، فرأى عنده صديق فخر العلماء الأعلام الشيخ أحمد المرحومي شيخ الأزهر، ومعه بعض أصحابه الكرام، فجلس يتذاكر معهم في مسائل العلوم ويتطارح الكلام من منطق ومفهوم.

ثم ذكر في صفحة (275) أنه أصبح يوم الجمعة 10 من جمادي الثاني فاجتمع بالشيخ الأمام العلامة منصور المنوفي الشافعي الضرير شيخ الأزهر.

ثم ذكر في صفحة (284) أنه اصبح يوم السبت 25 من جمادي الثاني فذهب بعد الظهر إلى عيادة صديقه العلامة الشيخ أحمد المرحومي شيخ الجامع الأزهر.

وهذه هي المواضع التي جاء فيها ذكر هذين الشيخين المتعاصرين في كتاب الشيخ النابلسي، وهو يعطيهما فيها صفة الشيخ الأزهر في الزمن الذي قضاه بمصر في رحلته إلى الحجاز وكان ذلك سنة 1105هـ كما سبق. فلو أخذنا هذا الكلام على ظاهره لكان للأزهر في تلك السنة شيخان مجتمعان معاً وهذا غير مقبول، مع مخالفته لما ذكره من أن شيخ الأزهر في تلك السنة كان الشيخ النشرتي المالكي، فلم يبق إلا أن الشيخ النابلسي تبرع بتلك الصفة لذينك الشيخين، ويجب أن تؤخذ على هذا لا على أنها حقيقة تاريخية.

وقد ذكر الجبرتي وفاة الشيخ أحمد المرحومي في سنة 112 وقال عنه أنه السيد عبد الله (لعله أبو عبد الله) الإمام العلامة الشيخ أحمد المرحومي الشافعي.

وهذا رأيي في تحقيق هذه المسألة التاريخية أنشره على صفحات الرسالة الغراء، ولعله
يكون للأستاذ عنان رأي آخر في تحقيقها ينشره علينا فيها، والله يتولانا جميعاً بتوفيقه.

عبد المتعال الصعيدي

بين الجامعات الألمانية والإنكليزية

احتفلت جامعة جتنجن الألمانية خلال هذا الأسبوع بمرور مائتي عام على قيامها؛ وكان المظنون أن يكون هذا الاحتفال بالغاً في أهميته وعظمته، لما لهذه الجامعة القديمة العريقة من ماضي علمي جليل، ولما لها بالأخص من علاقات وثيقة بالثقافتين الإنكليزية والأمريكية إذ كانت دائماً مقصد الشباب من الأمتين، ولكن حدث ما لم يتوقعه أحد، وهو أن الجامعات الإنكليزية والأمريكية اعتذرت جميعاً عن شهود هذا الاحتفال الذي دعيت جميعاً إليه، ولم تذكر الجامعات المعتذرة أسباب هذه المقاطعة العلمية؛ ولكن بعض الصحف الإنكليزية والأمريكية تحدثت عنه، وهي جميعاً ترجع الأسباب إلى خضوع الجامعات الألمانية في منهاجها العلمية والثقافية لسياسة الحكومة النازية خضوعا يضر بالمثل العلمية والثقافية العليا وينافي أسمى المزايا العلمية وهي حرية البحث وتوجيهه إلى الحقيقة وحدها؛ ولم ترض الجامعات الإنكليزية والأمريكية أن تشترك في احتفال جامعة جتنجن حتى لا يقال أنها تعترف بوحدة المثل الثقافية والتعليمية بين الدول الديمقراطية التي تمثلها بين الوطنية الاشتراكية الألمانية.

والواقع أن حال الجامعة الألمانية قد ساء في العهد الأخير وانحط مستوى التعليم العالي وأقفر كثير من الجامعات من الأساتذة والطلبة. مثال ذلك إن جامعة جتنجن فقدت من أساتذتها النصف فأصبحوا خمسة وأربعين بعد أن كانوا تسعين، وأبعد البعض لأسباب عنصرية والبعض لأسباب سياسية، ونقص عدد طلبة الجامعة من 4200 في سنة 1933 إلى 1800طالب فقط هذا العام، وهجرها معظم الطلبة الأجانب، وأصيبت سمعتها العلمية والثقافية.

وقد حذت الجامعات السويسرية حذو الجامعات الإنجليزية فاعتذرت عن الاشتراك في هذا الحفل لأسباب مماثلة، ولكن الجامعة المصرية قد قبلت الدعوة واشتركت في الاحتفال على يد مديرها.

إنكلترا وطريق الهند

صدر أخيراً في ألمانيا كتاب سياسي عسكري خطير عنوانه (طريق إنكلترا إلى الهند) ' بقلم الهر كارل بارتس يشرح المؤلف بأسلوب تاريخي سياسي قصة الصراع بين

السياستين البريطانية والفرنسية لامتلاك الهند في القرن الثامن عشر، وكيف أن إنكلترا استطاعت أخيراً أن تظفر بالهند دون معارك عسكرية كبيرة، لأن الهند كانت عندئذ ممزقة الأوصال مفرقة الكلمة، فاستطاعت السياسة الإنكليزية أن تضرب الطوائف والممالك الهندية بعضها ببعض.

ويقول الكاتب أن إنكلترا من ذلك التاريخ تحمي إمبراطوريتها الهندية بجميع الوسائل والقوى، وتحمي الطريق إلى الهند من جبل طارق ومالطه ومصر وعدن والجزيرة والدردنيل؛ ثم يحلل جميع العوامل السياسية والعسكرية التي ترتبط بهذه المسألة؛ ويستعرض شعوب الهند وآسيا ومهادها الصوفية الغريبة، كما يستعرض من حياة الرجال الذين تدين لهم بريطانيا بامتلاك الهند.

ويلاحظ الكاتب أن إنكلترا لا تطيق ظهور أية دولة عظيمة على مقربة من طريق الهند؛ ومع ذلك فقد استطاعت إيطاليا أخيراً أن تفتح الحبشة وأن تربض في منتصف هذا الطريق؛ ومن المحقق أن إنكلترا لقيت في المسألة الحبشية هزيمة فادحة، بيد أن إنكلترا لزمت الصمت، وسارت في برنامج تسليحها، وسوف يبين لنا المستقبل، ما إذا كانت استطاعة السلاح الجوي أن يحافظ على طريق الهند، وهو إلى اليوم لم يجرب تجريباً كافياً.

وفاة العلامة أدولف ايرمان

نعت أنباء برلين الأخيرة العلامة الأثري أدولف ايرمان وهو من أكبر الأخصائيين في علم الآثار المصرية؛ وكان مولده في سنة 1854ودرس التاريخ والفلسفة، ثم تخصص في الحضارات القديمة، وبالأخص في حضارة مصر الفرعونية ولبث أعواماً طويلة أستاذاً لحضارة مصر القديمة بجامعة برلين. ثم عين بعد ذلك مديراً لقسم الآثار المصرية بمتحف برلين، فعكف على دراسة النقوش القديمة وأوراق البردي التي يغص بها هذا القسم،

وأخرج عدة رسائل في حضارة مصر الفرعونية وفي آثارها وفنونها.

وزار الأستاذ ايرمان مصر مرتين؛ بيد أنه درس الآثار المصرية في متاحف أوربا دراسة مستفيضة؛ وكان يعتبر حجة فيها؛ وكان إلى جانب زميله الدكتور أبشر العلامة الأخصائي في حل الرموز والنقوش الفرعونية أعظم أستاذين في تلك المدرسة الأثرية التي ما زالت منذ نحو نصف قرن تعمل للكشف عن حقائق أعظم وأقدم الحضارات.

الحركة التمثيلية في مصر حديث لرئيسي فرقة (دبلن جيت)

نشرت جريدة (ايرش تيمس) حديثا طويلا للمستر هلتون أدواردس مدير فرقة (دبلن جيت) التي قدمت إلى مصر في الشتاء الماضي؛ ومما قاله أن الشعب في مصر على اتصال دائم بالقارة الأوربية فلديهم إلمام بالقصص التمثيلية الأوربية أوسع من إلمام الشعب الإنجليزي بها.

قال: وقد زرنا مصر عامين متواليين فمن سوء السياسة الاستمرار على الذهاب إلى هناك. وسيكون في العام القادم دور إحدى الشركات الفرنسية.

وتقول الجريدة أن المستر إدوارس درس المسرح المصري دراسة عميقة. ومن رأيه أن الشركات التمثيلية المصرية ستبلغ أعلى مستوى وأن أهل الإسكندرية أقل اهتماماً بالروايات التمثيلية من أهل القاهرة.

قال: وقد شهدنا في أثناء مقامنا في مصر التمثيل في المسارح العربية ورأينا فيها حركة نشيطة جداً، وقد طلب إلينا أن نتقبل عددا من الطلبة المصريين في دبلن ولكنهم ليسوا متضلعين في اللغة الإنجليزية، فمتى جاءوا فستتاح لهم الفرصة لتعلمها ودراسة الطرق المسرحية في وقت واحد.

تأبين الرافعي في طنطا

تألفت بطنطا لجنة من بعض المحامين والأطباء والعلماء وأعضاء مجلس النواب والشيوخ ومن الأعيان والتجار لتأبين فقيد الأديب الكبير المرحوم الأستاذ مصطفى صادق الرافعي وسيعلن فيما بعد عن ميعاد الحفلة ومكانها.

وقد قررت اللجنة أن لا يتعدى التأبين الموضوعات الآتية:

(1) الرافعي: تاريخه وحياته الوظيفية.

(2) الرافعي الشاعر.

(3) الرافعي الأديب.

الرافعي المؤلف (4)
فلسفة الرافعي (5).
وترجو اللجنة حضرات الأدباء والشعراء ممن يرغبون في الاشتراك فيها بأعمالهم أن يخابروا سكرتيرها، ويتفضلوا بإرسال خطبهم وأشعارهم إليه لعرضها على اللجنة وإقرارها.
أمين حافظ شرف
طنطا - شارع الشيخة صباح القديم
القصص
أغنية الدير
للكاتب الإنجليزي وليام كانتون
ترجمة الأستاذ كامل محمود حبيب
هبط جون أوف فولد إلى هيثهولم - لأول مرة - رئيساً للدير هناك وفي صحبته شتى المؤلفات النادرة الأنيقة في الفلسفة والدين والأدب، مغلفة في جلد ثمين موشى بالذهب والفضة ثم الملابس الغالية الطريفة من الحرير والمخمل؛ وعباءات من الكتان الجميل، دقيقة الصنع، وقلانس محلاة بالعسجد، أشياء تنبئ عن نعمة وترف. . .
وراح القس الجديد ينفث من روحه التواقة الصافية في جنبات الدير، فوضع في نوافذ الناحية الغربية التي يسكنها هو أصصا من البلور بها طاقات من شتى ألوان الزهور الناضرة. وزين حجرة سانت إيجون بالأصص المرصعة بالبواقيت، فيها فنون وفنون من الزهر الصناعي؛ وفي سماء الحجرة طير من لجين تبدو كأنها محلقة في سماء الأرض تهفو نحو هذه الطاقات وتحوم حولها؛ ثم أمر فصففت المناضد والكراسي الخشبية الجميلة في حديقة الدير ليجلس عليها الموسيقيون كل صباح وكل مساء، يعزفون ويرتلون الأناشيد الدينية الشجية. . . لقد كان الأب جون يفور نشاطاً وقوة، في روحه الصفاء والجمال، وفي قلبه الإيمان واليقين؛ فأراد أن يبعث في الدير روح الجنة ليستروح هو وإخوانه من الرهبان نسمات الخلد من هذه الناحية النائية من الأرض. . .
وبذ هذا الدير غيره جمالا وروعة وبهاء
وكان الأب توماس وكيل الرئيس يرى ما يفعله الأب جون وفي قلبه الاضطراب والأسى، وفي نفسه الغيظ والحنق؛ وكان يجلس إلى نفسه بين الحين والحين يحدثها: حقاً، إن هذه الأشياء لا تعني الرب، وهي تبعث في العين السرور والبهجة، وتدخل إلى القلب اللذة والطرب، وتنفث في الحياة المتعة والجمال! ماذا تفيد هذه الكنوز الغالية، والطرف الجميلة، والآثار النادرة؛ وهي تجذب القلب عن العبادة، وتورث في النفس حب الحياة وحب الاستمتاع؟ ما للراهب ولهذه الأشياء وهو يريد وجه ربه مخلصاً له؟ هذا بعض عبث
الشيوخ وحرفهم حين يسيطرون على بيوت الله، يجمعون شتى الطيبات، وألوان الملذات، فتلهيهم عن ذكر الله وعن الصلاة؛ وعن أناس يبيتون في العراء حفاة عراة، ويتضورون جوعاً، لا يجدون مأوى، ولا يجدون كساء ولا طعاماً، ليت هذا الشيخ الغفل ينظر بعين القس الورع إلى ما يقاسيه الفقراء وذوو الحاجة فيخفف من غلوائه، وينزع عنه بعض حماقاته!. .
وفي الحق لم يكن توماس ليستشعر في نفسه الأسى والألم لما يقاسيه بعض الناس من فاقة وعوز، ولم تكن في قلبه الرحمة والشفقة؛ ولكنه كان يحس ألم الحقد والحسد يتنزى في صدره كلما وقعت عينيه على ما أنتثر هنا وهناك في نواحي الدير منذ هبط الكاهن الأعظم جون.
لقد كان توماس على غير ما كان عليه رفاقه: كان رجلا فيه الكآبة والعبوس، فكان الرهبان والقسس يعبدون الله مخلصين وفي قلوب الطرب والسرور. وفي قلبه هو التجهم والحقد؛ في أرواحهم اللذة والقناعة، وفي روحه هو الجفاف والغلظة؛ وفي أنفسهم الرضا والاطمئنان، وفي نفسه التقلقل والاضطراب. ثم هم يرون في أرض الله مسرحاً للعين والقلب والنفس جميعاً، وهو في منأى عنهم قد شغلته فكرة تضطرب في رأسه.
واعتاد الأب توماس أن يدلف إلى المعبد كل مساء وفي يده مصباحه، وقد أرخى الليل أستاره، ونامت الحياة في كل حي، يتهجد ويتعبد، ساجداً راكعاً، قارئاً مرتلا؛ يناجي ربه

في هدأة الليل وسكونه، يسأله ويستغفره، فما يبرح حتى تخونه قوته، ويهن عزمه، وتضطرب مفاصله، من أثر الاندفاع والبرد في وقت معاً؛ فيرتد إلى حجرته يتكفا في طريقه. .

وانطلق - ذات مرة - إلى حيث ينطلق كل ليلة، وقد تأججت في نفسه ثورة الحقد على رئيسه جياشة مضطرمة، تكاد تعصف بإيمانه وعقيدته. . انطلق والبرد يزلزل أعصابه ويتغلغل في أوصاله وهو في طريقه لا يتململ ولا يعبأ. . وسجد في محرابه. . . غير أن صوتاً موسيقياً عذباً هادئاً رن في مسمعيه فنزعه من أخيلته، فأنصت يتسمع. . . ثم استوى جالساً، وحدق فيما حوله يريد أن يستشف أمراً، وبدت عليه الدهشة حين رأى ضوءاً خافتاً يضطرب في أرجاء الدير يزداد سطوعه رويداً رويداً، وتعلو معه نغمات الموسيقى فتزداد حلاوة ووضوحاً.

ورنت الموسيقى الإلهية في جنبات المعبد، وارتفعت الأصوات الملائكية تنشد نشيداً عذباً يرقق القلب، ويبعث فيه الروعة والجلال وخيل إليه أن الرسوم والأحجار والسقف والحوائط. . . جميعاً تردد هذا النشيد في رنات سماوية وأحس بالناي الإلهي تحت ركبتيه تنبعث منها أهازيج يطرب لها الفؤاد وتهتز النفس.

واستولت على الراهب الحيرة فما استطاع أن يبرح مكانه. . . ثم أرهف سمعه فإذا الصوت ينبعث من ناحية المحراب أولا ثم يمسك، فيندفع كل ما حوله يرتلون الأنشودة في صوت فيه السحر والجمال، وترتفع رنات الموسيقى لتزيد النشيد طلاوة وحلاوة، وبدا له المكان يهتز طرباً كأنه يرقص مع النغم الشجي المنبعث من هنا ومن هناك.

وتراءت له صور الملائك تضطرب في هذا الضوء الإلهي الساطع، وفي أيديهم المعازف، وخيل إليه أن هذه الأشباح رسوم صورها له خياله فحسب، فانتفض من مكانه يحدق ذات اليمين وذات الشمال، ويتحسس بيديه نواحي المكان، وحين بدا له أن ما يرى حقاً لا مرية فيه، اضطرب، وزالت عنه شجاعته، وجمد في مكانه وقد سيطر عليه الفزع والخوف، غير أن صوتاً لذيذاً رن في مسمعيه يطمئن نفسه:

نحن الملائك نبتهل إليك يا رب

نحن الملائك نبتهل إليك يا رب

وأجال بصره فرأى على جانبي المحراب ملكين يترنمان: على مر الأيام والليالي ونحن نسبح بحمدك يا رب ونقدس اسمك العظيم يا رب، ما دام هذا الكون اللانهائي. ومن بين شفتيهما يتصاعد النفس فينعقد سحباً كثيفة بيضاء في أعلى المكان، فاستشعر في نفسه الخور والضعف غير أن حب الاستطلاع دفعه إلى المحراب ليرى. . .

واستطاع أن يرى رسوم الملائك والملوك على أستار المعبد تردد هي أيضاً هذه الأغنية.

والصور على زجاج النوافذ ترتل هي أيضاً الأغنية ورؤوس الملائكة المنحوتة في رخام المعبد ترتل الأغنية والأسد والدواب المرسومة هنا وهاهنا ترتل هي الأخرى الأغنية.

وتماثيل القديسين المنثورة في نواحي المكان ترتل هي أيضاً الأغنية.

والرسوم على الجدران ترتل أيضاً الأغنية.

وبدا له أن كلمات هذه الأغنية قد رسمت بحروف من ذهب يتوهج فيخطف البصر. على

دروع الملوك والأمراء وذوي الجاه في سقف المعبد؛ والجميع يهزجون ويهتزون من فرح ومن سرور كأنهم أحياء، وتصاعدت أنفاسهم إلى سماء المعبد، سحبا تغطي السقف وتحيط بالأعمدة، ثم أمسك الجميع سوى رنات الناقوس العظيم في أعلى المحراب

وملأ مسمعي توماس صوت يردد الأغنية خارج المعبد في نبرات أخاذة شجية، يخترق سكون الليل وظلامه ليستقر في أذنيه هو. إنه. . . إنه منبعث من حجرة التماثيل، حيث الملوك والملكات، حيث الأمراء والعظماء، حيث الكهنة والشهداء، حيث القسس والرهبان؛ قد صففت تماثيلهم الفضية والبرنزية والرخامية والحجرية، لقد أجابوا جميعاً دعوة الداعي فانطلقوا يترنمون بالأغنية الإلهية في طرب ولذة. . . وهدأت الموسيقى خارج المعبد لتبدأ مرة أخرى داخله، ثم. . . ثم اندفعوا جميعاً بصوت فيه العذوبة والحلاوة يرددون:

على مر الأيام والليالي ونحن نسبح بحمدك يا رب، ونقدس اسمك العظيم يا رب؛ ما

دام هذا الكون اللانهائي واصطرعت في رأس توماس فكرة أفكار متناقضة فما استطاع سوى أن يرفع عقيرتة:
يا إلهي، فليشملنا عفوك وغفرانك؛
فليشملنا عفوك وغفرانك يا إلهي!
. . .ثم تراخت قوته فانطرح على الأرض ذاهلا
وأفاق فما وجد إلا الظلام يشمل الأرض، وإلا السكون يسيطر على الكون، وإلا مصباحه الضئيل يضطرب في ناحية من المعبد. . . فارتد إلى حجرته وقد آلمه ما نازعته إليه نفسه من حقد على عبد من عباد الله الصالحين، حباه الله بفضل من لدنه، فبذل فضل جهده في العناية بمخلوقاته الخرساء الصماء، وفي تنسيق قطعة من أرض الله لتكون جنة الله على أرضه، ونزع ما في صدره من غل، فأيقن أنه إن لها الإنسان عن ذكر ربه ففي الكون مخلوقات ما تفتأ تردد ما دامت السموات والأرض:
،نحن نسبح بحمدك يا رب . . .
ونقدس اسمك العظيم يا رب؛ مادام هذا الكون اللانهائي.
كامل محمود حبيب
العدد 210 - بتاريخ: 12 - 07 - 1937
مصطفى لطفي المنفلوطي
بمناسبة ذكراه الثالثة عشر
كان في مستهل هذا العصر نفر من الأيفاع الخلصاء ينتقلون بين حلق الأزهر كما تنتقل النحل بين قطع الروض، لا يتشممون غير الزهر، ولا يتذوقون إلا الرحيق؛ وكانوا كالفراش رقاق الجسوم خفاف الأجنحة يتهافتون على أضواء النوابغ المعاصرين أينما تشع؛ وكانت الومضات الروحية الأخيرة للبارودي واليازجي ومحمد عبده وقاسم أمين ومصطفى كامل والشنقيطي قد التمعت إلتماعة الموت لتنطفئ كلها متعاقبة في العقد الأول من عقود هذا القرن، فهيأت الأنفس والأذواق إلى أدب جديد كنا نفتقده فلا نجده؛ وكان إخواننا اللبنانيون في مصر وأمريكا قد فتحوا نوافذ الأدب العربي على الأدب الغربي فأرونا فنونا من القول وضروبا من الفن لا نعرفها في أدب العرب؛ ولكنها كانت في الكثير الأغلب سقيمة التراكيب مشوشة القوالب، فأجمناها على نفاستها كما أجمنا أساليب المقامات من الألفاظ المسرودة والجمل الجوف والصناعة السمجة والمعاني الغثة
وحينئذ أشرق أسلوب المنفلوطي على وجه (المؤيد) إشراق البشاشة، وسطع في أندية الأدب سطوع العبير، ورن في أسماع الأدباء رنين النغم، ورأى القراء الأدباء في هذا الفن الجديد ما لم يروا في فقرات الجاحظ وسجعات البديع، وما لا يرون في غثاثة الصحافة وركاكة الترجمة، فأقبلوا عليه إقبال الهيم على المورد الوحيد العذب.
وكان هذا النفر من الأيفاع المتأدبين يجلسون في أصائل أيامهم الغريرة أمام (الرواق العباسي) يتقارضون الأشعار، ويلهون بإغفال الناس، ويترقبون (مؤيد) الخميس ليقرءوا مقال المنفلوطي خماس وسداس وسباع، وطه مرهف أذنيه، ومحمود مسبل عينيه، وفلان مأخوذ بروعة الأسلوب فلا ينبس ولا يطرف. وكلهم يودون لو يعقدون أسبابهم بهذا المنفلوطي الذي اصطفاه الله لرسالة هذا الأدب البكر، وجعله الأمام المفتي تلميذه المختار؛ ولكن المنفلوطي كان في ذلك العهد الذي قرأناه فيه قد جاوز الثلاثين، فهو قليل الإلمام بالأزهر، لا يجلس إلى شيخ ولا يأوي إلى رواق؛ وكان قد هيأ نفسه ليكون كاتباً لا (عالماً) فلم يجعل همه لامتحان، ولم يشغل ذرعه بشهادة.
وبعد سنتين نشر مختار ما دبج من فصوله في المؤيد في كتاب عنونه بالنظرات، وكان قد
حكم على الشيخ عبد العزيز شاويش في مقاله: (طبقات الكتاب) حكماً شديداً ورطه فيه على ما أظن صلته بالمؤيد وبالمغفور له سعد باشا، والشيخ شاويش يومئذ محرر اللواء، بعد مصطفى باشا كامل، ولطه به اتصال، فحرضه على أن ينقد (النظرات) فنقدها ذلك النقد الغاضب الصاخب في ثلاثين مقالة ونيفا لم تدع سبيلاً إلى التعارف بيننا وبينه
ثم زاولت التعليم فكنت أستعيد قراءة المنفلوطي مقسما بين أقلام الطلبة. وفي سنة 1920 ترجمت (آلام فرتر) وكان صاحب العبرات يومئذ قد بلغ الغاية في الشهرة

والأدب، فرغب في أن يراني؛ وكان لنا صديق مشترك فجمع بيننا في داره؛ ورأيت المنفلوطي لأول مرة فرأيت رجلا مجتمع الأشد، مربوع الخلق، ممتلئ البدن، غليظ الشارب، حسن السمت، لا تلحظ على وجهه المطهم المصقول مخايل الفنان ولا سهوم المفكر؛ ثم تحسبه وهو يحدثك حديثه المقتضب الخافض سريا من عامة السراة في الصعيد لاحظ له من بلاغة اللسان ولا رياضة القلم. ثم داخلته فتكشف لي عن ألمعية أصيلة تستتر عادة بين الحياء والحشمة؛ ووثق الود بيني وبينه توافق المزاج المنقبض والطبع الحي والوجود المنعزل، فدرسته على ضوء ما أعلم من نفسي فلم أجاوز الحق في تصويره وتقديره

كان المنفلوطي قطعة موسيقية في ظاهره وباطنه؛ فهو مؤتلف الخلق، متلائم الذوق، متناسق الفكر، متسق الأسلوب، منسجم الزي، لا تلمح في قوله ولا في فعله شذوذ العبقرية ولا نشوز القَدامة. كان صحيح الفهم في بطء، سليم الفكر في جهد، دقيق الحس في سكون، هيوب اللسان في تحفظ. وهذه الخلال تظهر صاحبها للناس في مظهر الغبي الجاهل، فهو لذلك كان يتقي المجالس ويتجنب الجدل، ويكره الخطابة؛ ومرجع ذلك فيه إلى احتشام التربية التقليدية في الأسرة، ونظام التعليم الصامت في الأزهر، وفرط الشعور المرهف بكرامة النفس. ولكنك إذا جلست إليه رأسا إلى رأس، تسرح في كلامه، وتباري لسانه وخاطره في النقد الصريح والرأي الناضج والحكم الموفق والتهكم البارع، فلا تشك في أن هذا الذي تحدثه هو المنفلوطي الذي تقرأه. ثم هو إلى ذلك رقيق القلب، عف الضمير، سليم الصدر، صحيح العقيدة، نفاح اليد، موزع العقل والفضل والهوى بين أسرته ووطنيته وإنسانيته.

(للكلام بقية)

أحمد حسن الزيات

في التاريخ السياسي

ماذا في روسيا السوفيتية

الصراع بين البلشفية والرجعية

بقلم باحث دبلوماسي كبير

يتساءل الناس عما يحدث في روسيا السوفيتية، وما هو سر هذه المحاكمات الدموية التي تتري منذ عام في موسكو، والتي يقبض فيها على أكابر الزعماء جماعات، ثم يعدمون بعد محاكمة مرتبة موجزة؟ ففي الصيف الماضي قبض على عدة من الزعماء وعلى رأسهم سينو فييف رئيس الدولة الشيوعية الأسبق، وحوكموا بتهمة التآمر على سلامة الدولة بتحريض ليون تروتسكي زعيم البلشفية المنفي، وأعدموا بعد محاكمة قصيرة؛ ثم عقدت خلال الأشهر الأخيرة عدة محاكمات مماثلة، حكم فيها بالموت أو السجن على عدة أخر من الزعماء البارزين مثل العلامة الفيلسوف بوخارين رئيس الدولة الشيوعية السابق، وكارل رادك أعظم كتاب البلشفية المعاصرين، وياجودا مدير البوليس السري وغيرهم؛ ومنذ أسابيع قلائل امتدت يد المطاردة إلى الجيش الأحمر وقبض على عدة من قادته وفي مقدمتهم المارشال توخاتشفسكي، وحوكموا بسرعة مدهشة بتهمة الاتصال بدولة أجنبية معادية لروسيا وإمدادها بمعلومات عن الجيش الأحمر وعن أسرار روسيا العسكرية، ثم اعدموا ليلة صدور الحكم؛ وأذاعت الأنباء على اثر ذلك أن بوادر التمرد ظهرت في بعض وحدات الجيش الأحمر، وأن الثورة نشبت بالفعل في بعض أنحاء روسيا، وأن طاغية الكرملين ستالين، يلجأ في إخماد التذمر أو الهياج إلى أروع الوسائل، وهكذا؛ فما هي عوامل هذا الاضطراب الذي يتخذه البعض نذيراً بانهيار النظام السوفيتي؟ وما هي الحقيقة وراء ذلك كله؟

إن الثورة البلشفية التي سحقت عرش القياصرة منذ سنة 1917، وبسطت على روسيا سيادة (الكتلة العاملة)، واتخذتها ميداناً للتجربة الشيوعية، لم تصل بعد إلى نهايتها؛ وما زالت روسيا السوفيتية تعيش منذ عشرين عاماً في ظل نظم ثورية تسير من طور إلى طور؛ وهذا الصراع الذي يضطرم اليوم بين ستالين وبين جماعة من خصومه، والذي تبدو

بوادره في تلك المحاكمات الدموية الرنانة، إنما هو نذير تطور جديد في الثورة البلشفية لم تكتمل عوامله بعد؛ ويلاحظ أن هذه الإجراءات الدموية التي يجد ستالين في اتخاذها إنما تقترن بصدور الدستور السوفيتي الجديد الذي تم وضعه في الصيف

الماضي، ثم صدر في ديسمبر سنة 1936. بيد أنه يجب لكي نفهم عوامل هذا التطور الأخير، أن نرتد إلى الوراء، لنرى كيف نشأ الصراع بين ستالين وخصومه، وكيف أن هذا الصراع يرتبط أشد الارتباط بتطور التجربة الشيوعية في روسيا

كانت الثورة البلشفية تقوم عند بدايتها على دعائم ثلاثة: الشيوعية المطلقة، وسيادة الكتلة العاملة، وإضرام نار الثورة العالمية؛ وكان لنين رأس المذهب الجديد وزعيم الدولة الشيوعية الجديدة يستمد كل وحيه من تعاليم إمام المذهب وأستاذه الأكبر كارل ماركس؛ ولكن التجربة الشيوعية لم تلبث أن اصطدمت من الوجهة العملية بمصاعب اقتصادية واجتماعية خطيرة، ولم يلبث لنين نفسه أن أقتنع بوجوب الاعتدال في تطبيق التجربة والأخذ بسياسة اقتصادية جديدة تغفل فيها بعض المبادئ الشيوعية المتطرفة، وتدمج فيها بعض المبادئ الرأسمالية من (البورجوازية). وبدأ لنين بتطبيق هذه السياسة الجديدة منذ سنة 1921 ولكنه لم يلبث حتى توفي (يناير سنة 1924) وكانت وفاة لنين في الواقع فاتحة هذا الصراع الذي تجوز الثورة البلشفية أطواره من ذلك الحين؛ فقد تولى مقادير الأمور بعد لنين ثلاثة من خاصة أصدقاءه وأعوانه وهو سنوفييف وكامنيف وستالين؛ ولكن قطباً آخر من أقطاب البلشفية هو ليون تروتسكي مؤسس الجيش الأحمر (الجيش البلشفي) وأعظم رجل في الثورة بعد لنين كان يسهر على مصاير الثورة ويحاول أن يسير دفتها طبق آرائه، وبينما كان ستالين وزملاؤه يتوسعون شيئاً فشيئاً في تطبيق السياسة الاقتصادية الجديدة، وهي تنطوي بالأخص على الاعتراف بالملكية الصغيرة، ومهادنة الدول الرأسمالية والتعامل معها، ومراعاة الاعتبارات الزراعية والتجارية والصناعية في الإنتاج، كان تروتسكي يعمل لمعارضة هذه السياسة ويرى أنها خيانة للثورة والمبادئ الشيوعية الصحيحة، وكان تروتسكي يشدد بالأخص في وجوب إضرام نار الثورة العالمية ويرى أنها هي السبيل الوحيد لظفر الاشتراكية، هذا في حين أن ستالين وفريقه يرون الاقتصار على تطبيق التجربة الاشتراكية في روسيا وحدها ويرون نجاحها محققاً دون الثورة العالمية؛ وكان تروتسكي بماضيه الثوري الحافل وصداقته المؤثلة للنين، وما له من فضل عظيم في نجاح الثورة البلشفية، ونفوذ قوي في الجيش الأحمر، عماد الثوريين المتطرفين ومعقد آمالهم، ولكنه لم يحسن استخدام هذا النفوذ وتوجيهه؛ ومن جهة أخرى فقد استطاع ستالين وفريقه أن يستغلوا الظروف الاقتصادية، وأن يعتمدوا في تنفيذ سياستهم على الرجال الإداريين؛ واستمر النضال بين الفريقين يشتد ويتفاقم، ولكن ستالين استطاع أن يقوي مركزه ونفوذه شيئاً فشيئاً داخل الحزب الشيوعي وخارجه، وأن يعمل على أضعاف خصومه وتسفيه معارضتهم وسياستهم، ولما شعر بأنه غدا هو الأقوى والأشد ساعداً ونفوذاً، رفع القناع فجأة، وأخذ يطارد تروتسكي وشيعته جهاراً؛ وكان يعتمد في المبدأ على مؤازرة عدة من أكابر الزعماء مثل سيونيف وكامنيف وتومسكي وريكوف وغيرهم، فلما شعر أنه يستطيع العمل دونهم أنقلب إلى مطاردتهم، فانضم هؤلاء إلى الفريق المعارض؛ ونزل ستالين وشيعته إلى ميدان النضال، واستطاع تباعا أن يقضي على خصومه وأن يخرجهم من حظيرة الحزب الشيوعي الذي هو كل شئ في حياة روسيا العامة، والذي يسيطر ستالين باعتباره سكرتيره العام على توجيهه واستخدام نفوذه وسلطانه؛ ثم خطا ستالين خطوة أخرى، فنفى تروتسكي وشرد الزعماء من أنصاره، وشتت شمل المعارضة كلها سنة (929) واستأثر عندئذ بكل نفوذ وسلطة وغدا سيد روسيا وزعيمها القوي، وأخذ يوجهها في الطريق الجديد الذي اختاره لها؛ فوضع مشروع السنوات الخمس لتنظيم الإنتاج الروسي، وهو المشروع الذي قلدته فيه ألمانيا وإيطاليا بعد، وعمل على التقرب من الدول الغربية، وكان من أثر هذه السياسة أن انضمت روسيا إلى عصبة الأمم، وتفاهمت مع فرنسا تفاهما انتهى بعقد الميثاق الروسي الفرنسي؛ وجد ستالين في تسليح روسيا ولا سيما منذ قيام الوطنية الاشتراكية (الهتلرية) في ألمانيا حتى غدت اليوم أقوى دول القارة في التسليحات البرية والجوية، وبذلك اجتنبت روسيا عزلتها السياسية القديمة، واتخذت مكانتها في السياسة الأوربية العامة إلى جانب الكتلة الديمقراطية، وأضحت عاملا حاسما في التوازن الأوربي.

على أن المعارضة القديمة التي لبث تروتسكي روحها وزعيمها لم تخمد ولم تسحق،

فقد أستمر تروتسكي في منفاه في مختلف البلاد الأوربية يشهر بقلمه ولسانه حرباً عواناً على
ستالين وسياسته، ويذكي بنفوذه القديم روح النضال في أنصاره داخل روسيا؛ وهو الآن في منفاه النائي بالمكسيك، وبالرغم من محنته وشيخوخته ما يزال يشهر سهام الخصومة والنضال على عدوه؛ ويقول التروتسكيون إن ستالين قد سحق الثورة وبدد تراث لنين، وبسط على روسيا نوعاً من الاشتراكية الوطنية التي بسطها الهتلريون على ألمانيا، أو بعبارة أخرى بسط عليها نوعاً من الدكتاتورية البورجوازية (الرأسمالية)، وأرتكب بذلك أعظم خيانة لقضية الثورة البلشفية والثورة العالمية.
والواقع أن الدستور الجديد الذي صدق عليه مؤتمر السوفيت الأعلى في 5 ديسمبر الماضي يدلل بروحه ونصوصه على هذه الحقيقة التي يتخذها التروتسكيون محوراً للخصومة والنضال، وهو أن الثورة الشيوعية قد انتهت، وانتهت كذلك فكرة الثورة العالمية. ذلك أن الدستور السوفيتي الجديد يعترف صراحة بحق الملكية الفردية التي يعتبر إلغاؤها أساساً جوهرياً لمجتمع الشيوعي؛ ويشتمل الاعتراف بهذا الحق ملكية الإيرادات الناتجة عن العمل وملكية المساكن الشخصية والأثاث المنزلي وحاجات الحياة اليومية، ويشمل أيضاً حق الميراث؛ ويمنح حق الملكية بالأخص للطبقات الممتازة في الدولة كموظفين وأعضاء الحزب الشيوعي، والذين حصلوا على أوسمة من ذوي المواهب والخدمات الممتازة؛ ومن جهة أخرى فأن الدستور الجديد يعترف بأن الحزب الشيوعي هو مصدر السلطات، ويحمي الدكتاتورية التي يبسطها على روسيا في الوقت الحاضر، ويؤيد بذلك طغيان ستالين زعيمه وسكرتيره العام؛ ثم أن الدستور الجديد لا يعترف بحرية الصحافة والرأي والاجتماع كحق للأفراد، وإنما يقرر أن الدولة هي التي تكفلها وهي التي تمد الشعب بالنشرات والصحف والخطباء وغيرهم، وهي التي تسيطر بذلك على عقل الشعب وروحه، وتسيره حيث شاءت.
هذه هي أسس الدستور السوفيتي الجديد؛ فأي فرق بينها وبين الفاشتية الإيطالية، أو الاشتراكية الوطنية (الهتلرية) الألمانية؟ أنه الطغيان الحزبي المطلق؛ وإنه لفناء الحقوق والحريات العامة كلها في شخص الدولة، والدولة هي الحزب القابض على السلطان؛ ومعنى ذلك إن ستالين قد أضحى بقوة الدستور الجديد يشغل في روسيا نفس المركز الذي يشغله موسوليني في إيطاليا وهتلر في ألمانيا؛ وهذا النظام الذي يتوجه الدستور السوفيتي
اليوم هو النظام الذي تعيش روسيا في ظله منذ استطاع ستالين أن يجمع في يده القوية كل مقاليد السلطة والحكم
وهذا هو محور النضال الذي يضطرم بين ستالين وخصومه؛ وهذا هو السر في تخوف الطاغية من كل حركة أو بادرة تدل على التذمر أو المقاومة؛ ومنذ عام يجد ستالين في مطاردة خصومه وكان يخشى منهم منافسة أو مقاومة؛ ولا تزال إجراءات القمع الدموية تجري اليوم في روسيا في جميع دوائر الحكومة والجيش، ولن تقف حتى يأمن ستالين كل معارضة وحتى يوقن أنه أخمد كل صوت وكل نزعة إلى المقاومة. ولكن هل ينجح الطاغية في هذه المهمة الفادحة؟ هذا ما نشك فيه؛ فروسيا البلشفية هي غير ألمانيا وإيطاليا، ولن يستطيع كائن أن يخمد في هذا المجتمع الروسي الذي عاش في ظل الثورة عناصر النضال والثورة؛ وقد تسفر الحوادث عما قريب عن نتائج وتطورات جديدة؛ بيد أنها لن تكون على ما نعتقد سوى طور جديد من أطوار الثورة البلشفية.
(* * *)

عين الرضى وعين السخط

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

هل صحيح ما يقول الشاعر أن عين الرضى عن كل عيب كليلة. . . لا أدري فقد صار كل شئ يحيرني، وما من أمر إلا أراني يبدو لي فيه رأيان أو مذهبان لطول ما عودت نفسي أن أنظر إلى (الجانب الآخر) فلو أني كنت قاضياً لظلت أحكامي تدور في نفسي ولا يجري بها لساني أو يخطها قلمي. وليس هذا من التردد، فأن من كان ضيق الصدر متنبه الأعصاب مثلي قلما يتردد. وما أكثر ما يؤثر الجزم والبت وإن كان في شك من الصواب كبير. ولكنما هذا من حب الموازنة والرغبة في إنصاف كل جانب من

جوانب الرأي. وقد قلت لنفسي وأنا قاعد أتدبر قول هذا الشاعر القديم إن أعظم الرضى رضى المرء عن نفسه. أم ترى هذا ليس من الرضى. . لا أدري أيضاً. . وأخشى أن أظل لا أدري فلا أخرج بشيء أبداً. . ولو أني أعطيت نفس إنسان غيري لما قبلت؛ ومع ذلك لا تخفى علي عيوبي ونقائصي من مادية وأدبية، ومن بدنية أو نفسية أو عقلية، فأنا أعلم أني. . . . ولكن هل من الضروري أن أفضح نفسي وأهجوها إلى الناس. . . ومن دلائل الرضى عن النفس على الرغم من الإحاطة بعيوبها، والفطنة إلى مواطن الضعف والنقص فيها أني أستخف بهذه العيوب ولا أبالي أن أذكرها، ولا أعبأ شيئاً إذا رأيت الناس يعرفونها كما أعرفها؛ وأني لأدرك بعقلي أنها نقائص ومذام ولكني أراني اتخذ أحياناً من المعالنة بها مفخرة ومحمدة، ولست أستخف بها في الحقيقة ولكنما أحاول تهوينها على نفسي حتى لا يكربني أمرها، ولأظل محتفظا بحبي لنفسي ورضاي عنها وغروري بها، وحب النفس من حب الحياة

وتذكرت وأنا أقلب هذا وأديره في رأسي مقالا أو فصلا لأديسون الكاتب الإنجليزي المعروف - أم ترى لا يقرأه أبناء الجيل الجديد - يتصور فيه أن الله جلت قدرته أذن للناس أن يخلعوا ويرموا ما لا يرضيهم من أجسامهم، فهذا رمى أنفه وذاك آخر ألقى أذنيه، وأخرج الثالث عينيه وقذف بهما، ونزع رابع ساقه وطرحها؛ وهكذا حتى صارت الأعضاء والجوارح المرمية المزهود فيها كوماً عالياً. وعاد الله فأذن لهم أن ينتقي كل واحد من هذا الكوم بديلاً مما زهد فيه ورماه فأقبلوا يقلبون ويبحثون وأخذ كل واحد ما أعجبه ووضعه

موضع العضو المنزوع، ثم نظروا بعد ذلك إلى أنفسهم فلم يعجبهم حالهم ولم يرضوا عن أنفسهم واستبشعوا ما أخذوا بديلاً مما نزلوا عنه فجأروا بالشكوى إلى الله تعالى وتوسلوا إليه أن يأذن في أن يسترد كل منهم أعضاءه الأصلية. فتقبل الله دعاءهم رحمة منهم بهم، فما أسرع ما خلعوا ما استعاروا واستعادوا ما كانوا يسخطون عليه ويتبرمون به!

وهذه القصة الخيالية تدل على أن المرء لا يسعه إلا أن يفطن إلى حقيقة نفسه، ولكن إدراكه لعيوبه لا يمنع الحب الإيثار. وأحسب أن من هنا ما يسمونه (مركب النقص) أي معالجة الإنسان مداراة عيب يثقل على نفسه الشعور به، ومحاولة تعويضه من ناحية أخرى، والمقارنة والامتحان هما باب المعرفة، ولا سبيل إلى هذا الذي يسمى (مركب النقص) إلا بعد المعاناة أي الامتحان والمقارنة ولو امتنعت أسباب المعاناة والمقارنة بينه وبين غيره لما شعر المرء بنقص في نفسه أو في بدنه، ولما أحس الحاجة إلى مداراة النقص وستر العيب بإلتماس الصحة أو القوة في ناحية أخرى.

وأراني لا تخفى عليّ عيوب أبنائي وهم أحب إلى خلق الله إلي بعد نفسي كما لا أحتاج أن أقول فما أعدل بنفسي أحداً، وما أكثر ما سمعت أمي رحمها الله تقول إذا رأتني أشكو ألماً إنها تؤثر أن تكون هي المصابة، وأحياناً كنت أسمعها تدعو الله أن يتوفاها قبلي فأنكر هذا عليها في سري وأعجب كيف يمكن أن يتمنى إنسان أن يموت قبل غيره. هذا إحساس لا أستطيع أن أدعيه. ولو أني خيرت أن أموت قبل أولادي أو أن يموت أولادي قبلي لما رآني أحد أتردد أو أتحير، وربما أظهرت التردد نفاقاً وستراً للأنانية الصارخة، ولكن هذا لا يكون مني إلا نفاقاً وكذباً على الله والناس لا أكثر ولا أقل. وكثيراً ما سألت نفسي أترى الرجل غير المرأة؟ وأنا أؤمن بأن أمي كانت مخلصة صادقة السريرة، وقد كانت الدنيا كلها لا تعدل عندي قلامة ظفر من أصغر إصبع في رجلها. فهل تراها لو أن الأمر كان جداً لا تتردد في إيثاري على نفسها؟ من يدري؟ الرجل غير المرأة على التحقيق. . وشعور الأب غير شعور الأم، هي حملته تسعة أشهر على قلبها فهي تحس أنه قطعة منها بالمعنى الحرفي لا مجازاً، ومن أين يتأتى للرجل مثل هذا الشعور وهو لم يعان شيئاً ولا يدري أكثر من أن امرأته جاءته بغلام أو بنت قد لا يكون له رغبة فيه أو فيها. فأنا أستطيع أن أصدق هذا الإيثار من المرأة، ولكني لا أستطيع أن أصدق أن يكون الرجل مثلها إيثاراً

لأبنه على نفسه - على الأقل فيما يمس الحياة - إلا إذا كانت نسبة عناصر الأنوثة في نفسه كبيرة.

ويحضرني الآن بيت قلته من قصيدة نسيتها وأظنه كان ختام القصيدة وهو:

ألا ليتني في الأرض آخر أهلها ... فاشهد هذا النحبَ يقضيه عالَمُ

وعيب البيت في نظري أن فيه مغالطة واضحة - على الأقل لي - ذلك أني لا أتمنى أن أكون آخر من يبقى في الدنيا لأرى كيف يفنى العالم، بل لأني لا أريد أن أترك الدنيا، فأن كان لا بد من تركها والخروج منها، فلتخرب قبلي أو فليكن موتي هو الإيذان بخرابها وإمحاء هذا العالم كله. ولم أستطع وأنا أنظم البيت أن أختزل كل هذا في شطر واحد فجاء البيت غير دقيق في التعبير عن حقيقة ما في نفسي

وقد أحببت مرات عديدة - لا عداد لها في الحقيقة فأني أبداً كما قال في الأستاذ العقاد:

(أنت في مصر دائم التمهيد ... بين حب عفا وحب جديد)

والسبب في ذلك أن عمر الحب عندي لا يطول إلا ساعة أو ساعتين أو ليلة أو ليلتين - إلى أن أمل والسلام - وما من واحدة أحببتها إلا تمنيت على الله أن يهبني القدرة لأصلح بعض ما لا أرضى عنه فأملأ هذا الساق وأديرها، وأعالج الترهل الذي يبدو لي في الثديين مثلا أو الردفين، وأصلح الأنف، وأخفف النتوء الذي في أرنبته، وأرسم الحاجبين رسماً جديداً يكون أقرب إلى ذوقي ورأيي في التناسب، وأعالج نفسها أيضاً علاجي لبدنها وهكذا إلى آخره، فما بي حاجة إلى الإطالة، وليس هذا من الاعتراض على خلق الله سبحانه وتعالى. . حاشا وكلا. . وإنما هو من اشتهاء الكمال كما أتصوره، ولا كمال في الدنيا مع الأسف

وقد صدق الشاعر في الشطر الثاني من بيته كما لم صدق في شطره الأول فما من شك أن عين السخط تبدي المساوي. وثم عيون أخرى عديدة تبدي المساوي غير عين السخط، وفي وسعنا أن نتسامح مع الشاعر المسكين وأن نقول أنه يعني بين السخط عينا تبدي المساوي، وأنه لم يرد القصر ولا التخصيص

وأسأل نفسي وأنا أكتب هذا الفصل: (ماذا أخطر ببالك هذا البيت؟) والحقيقة أني لا أدري سوى أني أردت أن أكتب كلاما فحضرني هذا البيت، فما أكثر الكلام الفارغ وما أسرعه

إلى اللسان.

إبراهيم عبد القادر المازني

تأملات في الأدب والحياة

للأستاذ إسماعيل مظهر

الثقافة التقليدية:

في مقالات بعنوان (التعليم والحالة الاجتماعية) نشرتها في الرسالة الغراء منذ حين، روجت لنظرية استخلصتها من تاريخ الأمم ودعوتها نظرية (الثقافة التقليدية). ومؤدى هذه النظرية أن لكل أمة من الأمم ثقافة مأثورة تنتقل على الزمن من أهل إلى أهل، وتتوارثها الأمم طبقة بعد طبقة، وأن الثقافة التقليدية الخاصة بكل أمة من الأمم أو سلالة من السلالات، لها من الأثر في الحالات الاجتماعية، ما للصفات الوراثية الحيوية من الأثر في الأفراد، وأن شباب الأمم من حيث القدرة على الرقي والاحتفاظ بالصورة من المدنية تلائم مقتضى البيئة والظروف القائمة من الدنيا الحافة بالأمم، إنما يرجع في الحقيقة إلى استمساك الأمة بثقافتها التقليدية واتخاذها أصلا ثابتاً يغرس فيه ما ينتحل من ثقافات الأمم الأخرى، فتتكيف هنالك المبادئ المنتحلة، تكيفاً ملائماً لطبيعة ما توارث الأمم من مأثور ثقافتها التقليدية. وبذلك تحتفظ الأمة بطابع خاص وتجري تطوراتها الاجتماعية والعقلية والنفسية على قاعدة ثابتة وأسلوب راسخ، فتأمن بذلك شر الفورات الفجائية والثورات المجتاحة والكوارث الاجتماعية المفنية، ويكون لها من مجموع ما حفظت من مأثور أسلافها ضابط يضبط نزوات الأفراد، ويهيئ المجموع بعقلية ذات طابع تقليدي تكون لها بمثابة الكَمَّاحة التي تصدها عن التورط في نواح غير مضبوطة المعايير، أو التعلق بأذيال فكرات ومبادئ مريضة المنطق، بعيدة عن حاجاتها الأولية التي تضمن لها الاتزان والتعقل في طريقها إلى أسمات جديدة من المدنية أو الرقي العقلي.

ولقد أردت بهذه النظرية أن تكون أساساً لسياسة التعليم في مصر، فنتخذ من الأصول التقليدية التي قامت عليها المدنيتان العظيمتان، مدنية الفراعنة في مصر، وأساسها الزراعة والقوة الحربية ومدنية العرب وأساسها الإسلام والأدب العربي، منارة نستشرف منها ما نحتاج من مبادئ عامة فنحور من برامجنا التعليمية وخططنا الثقافية

بما يلائم طبيعة التقاليد المأثورة عنهما، ذلك بأن الثقافة التقليدية في نفسية الأمم وعقلياتها بمثابة الصفة الوراثية في الفرد، لا تنفك الأمم عن الأولى أو ينفك الفرد عن صفة تلقاها عن أسلافه

هذه النظرية على ما فيها من بساطة في الظاهر تحتاج في إثبات حقائقها إلى تأملات تاريخية عميقة، ينفذ الباحث من طريقها إلى أبعد غور من الأعماق التي ينزل إليها قارئ التاريخ العادي. فأن وراء الحوادث الظاهرة في صفحات التاريخ كانقراض الأمم المالكة، أو فتوح البلاد، أو اندحار الجيوش وانتصارها، أو قيام الحكومات المختلفة وسقوطها، أو تسلط الأفراد على الأمم وإطراح الأمم لسلطة الأفراد، حقائق أخرى تصدر عن صفات نفسية تختفي من وراء الحوادث الظاهرة، فتكون بمثابة القوة المحركة أو الطاقة في المادة، فهي خفية بأعيانها، ظاهرة بآثارها. وهذه القوة إنما تمكن وتستخفي طوعاً لظروف خاصة، وتظهر وتستقوي على غيرها طوعاً لظروف أخرى، وهذه الظروف التي تمكن معها القوى المحركة للجماعات أو تظهر، ينبغي أن تكون موضوع كل من يكب على التأملات في الثقافات التقليدية لدرس مالها من أثر في كون هذه القوى أو ظهورها، بحسب ما يحيط بالجماعات من ظروف تبعدها عن ثقافتها التقليدية أو تقربها منها

أما إذا أردنا أن نستوثق من حقيقة هذه النظرية، فعلينا أن نرجع إلى التاريخ، علينا أن نرجع إلى أقرب تاريخ منا، أي إلى تاريخ العرب. فأن الأمة العربية سادت الدنيا عندما استمسكت بعرى ثقافتها التقليدية، وفقدت الدنيا عندما انحرفت عن الاسترشاد بثقافتها المأثورة. وكذلك كان شأن روما وشأن اليونان قبل العرب. أما الدورات التي انتابت الأمم متراوحة بين الاستعلاء حيناً والتَّنكُّس حيناً آخر، فما هي إلا دورات تقرأ فيها صوراً من التطور ترجع في حقيقتها إلى استمساك الأمم بثقافتها التقليدية حيناً، وتفريطها في ذلك حيناً آخر

فعلينا إذن أن نرسم لمستقبلنا خطة نتخذ فيها ثقافتنا التقليدية نبراساً نستضئ به، وإلا فأنا سوف نظل نتخبط في الظلام فلا نستقر

حادثة:

قد تقرأ تاريخاً كاملا كتاريخ الإسكندر المقدوني وفتوحاته الكبيرة، وقد تستجلي في هذا التاريخ صوراً من شجاعة الرجل ومن إقدامه، وقد تجد في انتصار من انتصاراته سبباً للتأمل والعبرة؛ غير أن كل هذا لا يدلك على حقيقة الرجل قدر ما تدلك حادثة من الحوادث الصغيرة في حياته.

بعد أن هزم الإسكندر جيش فارس الهزيمة الأولى، تقدم بجيشه نحو (طرسوس)، وهي مدينة حصينة من مدن آسيا الصغرى، تعرف في التوراة باسم (طرشيش)، وجاء عيون الإسكندر يخبرونه بأن الجيش الفارسي قد عزم على أن ينهب المدينة ويحرقها إذ لم يبادر الإسكندر باحتلالها. فترك قائده الأكبر (قرمنيون) على رأس المشاة وتقدم الفرسان منحدراً من الجبال الهاوية بمقربة من البحر، إلى السهل الذي تستوي فيه طرسوس، وجد في السير، حتى يتسنى له أن ينقذ المدينة قبل أن يفعل بها الفرس، والسهل الذي تستوي فيه المدينة شديد الحر كثير الرطوبة، وقد افرغ الإسكندر على جسمه درعه الثقيل وعدة حربه، ممتطياً صهوة جواده الصَّوَّال (بُوقيفالوس)، فقطع أميالاً من الوهاد والوديان، حتى إذا أشرف على المدينة، كان قد بلغ منه العطش، فنزل على ساحل نهر (البَرَدَان) وخلع درعه وأستحم في النهر، والظاهر أن هذا النهر ينبع من الجبال ويستمد ماءه من ينابيع باردة، فماؤه مثلج بفطرته، ولقد أصاب المأمون مرض إثر استحمامه في نهر البَرَدان فمات، ولقد أوشك الإسكندر أن يموت، كما مات خليفة المسلمين من بعده؛ ولزم الإسكندر فراشه بعد أن دخل (طرسوس) وشاع أن حياته في خطر.

كان من الأطباء الذين يعنون به طبيب شيخ يدعى (فليب الأكرناني)؛ وكان من قبل طبيباً لأبيه ومن المتفانين في خدمة بيت مقدونيا المالك؛ وقد أقر جميع الأطباء بأن الإسكندر ميؤوس منه، إلا هذا الرجل، فأنه نصح الإسكندر أن يذعن إلى رأيه وأن يشرب جرعة سيعدها له بنفسه، ورضى الإسكندر بذلك على رغم عناده، وخرج الطبيب من حجرة الملك المريض ليعد جرعة الشفاء.

في اللحظة التي خرج فيها الطبيب إلى الحجرة، دخله رسول من قبل قائده

(قرمينون) يحمل رقعة في يده، فقدمها إلى الإسكندر؛ وكانت تحذيراً للإسكندر من طبيبه (الأكرناني) فقد أتصل بسمع القائد أن الطبيب مالأ الفرس عليه وأنه تلقى منهم رشوة ليدس له السم في الدواء.

كان الإسكندر قد أتم قراءة الكتاب لما دخل عليه الطبيب حاملاً الجرعة التي أعدها، فتناول الإسكندر الجرعة بيده اليمنى وناوله الرقعة بيده اليسرى؛ وطفق الإسكندر يكرع الجرعة، والطبيب ينظر في الرقعة نظرات جامدة حيرى؛ ثم ناول الإسكندر الكأس الفارغ للطبيب،

وناول الطبيب الرقعة للأسكندر؛ ونظر كل من الرجلين في وجه الآخر برهة، ثم استلقى المريض على فراشه، وانصرف الطبيب إلى شأنه، من غير أن ينبس أحدهما ببنت شفة.

ألست تجد في هذا الحادث الصغير معنىً عظيماً يدلك على أن القلب الذي حمله الإسكندر كان جديراً بأن يفتح العالم ويدوخ الدنيا برمتها؟

حاجة اللغة العربية:

وقد تكون لغتنا العربية السمحاء في حاجة إلى كثير من وجوه الإصلاح. قد نقول بأن كتب النحو غامضة وأن قواعد الصرف مشتتة، وقد نقول إن أدب العربية لم يخدم بعد الخدمة الواجبة، بل نقول إن اختلاف مذاهب النحويين، وجمود الكثير من اللغويين أمر لا بد من النظر فيهما وإصلاح شأنهما بما يلائم حاجات أبناء العربية في هذا العصر، كل هذا وأكثر منه صحيح، والحاجة إليه ماسة؛ غير أن أحوج ما تحتاج إليه اللغة العربية المعجمات؛ وأول ما نتكلم في المعجمات القديمة

أما هذه فأما مطولة ترضي نزعة الباحث الذي تمكن من الأدب وربي فيه الذوق الأدبي، فأدمن البحث وطلب الاستقصاء؛ وإما مختصرةً اختصاراً مخلاً في كثير من نواحي الإرشاد اللغوي؛ وليس بين هذين وسط يسد طلبة الأديب العابر في رياض الأدب عبور المستفيد، فلا هو بالمستقصي ولا هو بالقانع بما بين يديه، وهؤلاء هم جمهرة الأدباء عندنا، بل وفي كل الأمم. ناهيك بأن معجماتنا القديمة قد تركت كل مادة علمية من المواد التي عرفها العرب ودرسوها من غير تعريف؛ فهذه دويبة، وذاك طوير؛ وهذا نبت يكون في العراق، وذلك عرق في الساعد أو الزند؛ وكذلك صفة الأمراض، أفي الإنسان كانت أم في الحيوان، فقد قرأت في صبح الأعشى من عيوب الخيل ما يزيد عن المائة عيب، كلها، كما اعتقد، تمت إلى أمراض؛ غير أنك قلما تقع على عبارة تشخص لك المرض أو أعراضه الصحيحة؛ فمعجماتنا ناقصة من هذه الوجهة نقصاً شائناً، ناهيك بأن في كتب الأدب والتاريخ والخطط والشعر والتراجم ألفاظاً لم تدخل المعجمات القديمة؛ ولا نقصد بذلك الألفاظ المولدة، بل نقصد بها ألفاظاً فصيحة صحيحة، فالمعجمات القديمة إذن لم تحط بكل ما في العربية من مادة لغوية؛ وهذا نقص نضيفه إلى ما عددنا قبل.

نتكلم بعد هذا في أنواع المعاجم التي نطالب الآن بوضعها لتتم حاجة اللغة؛ وأول ما نحتاج

إليه المعاجم التي تقابل فيها مفردات لغتنا، مفردات لغة أخرى؛ وليست الحاجة في هذا مقصورة على لغة أو لغتين فأن الواجب يحتم علينا أن ننظر إلى كل اللغات الحية، بل وبعض اللغات غير كثيرة الانتشار، لنضع لها معجمات تقابل مفرداتها مفردات من اللغة العربية، على غرار ما نرى في المعاجم الكثيرة عند الأمم التي أدركت ما للمعاجم من أثر في إحياء اللغات ونشر الثقافة والمعرفة.

تأتي بعد ذلك حاجتنا إلى المعاجم الخاصة بالعلوم والفنون؛ فلست تجد الآن معجماً واحداً يرضي حاجة المختصين في علم من العلوم أو فن من الفنون ويسعفهم بالكلمة الصحيحة والتعريف الكامل للمصطلحات التي تصادفهم أثناء بحوثهم؛ وهذا نقص معروف شائع، فلا حاجة إلى التوسع في شرح الحاجة إلى سد ثغرته؛ وإنما يتبقى لنا أن نتعرف أن أمامنا في هذا مجهود شاق طويل علينا أن نبذله وأن نضحي فيه بالجهد والمال والعين والعافية.

أما الطامة الكبرى والمصيبة العظمى فتشعر بها إذا قارنت بين الأسماء القديمة والحديثة الواردة في كتب التاريخ أو الجغرافية، فقد تقرأ الاسم الواحد الدال على ذوات بعينها مرسوماً بعدة أهجية مختلفة في كتب مختلفة أو في كتاب واحد؛ فقد

يتفق أن يكون المؤلف قد اعتمد على كتب إنجليزية تارة وعلى كتب فرنسية تارة أخرى؛ فينتقل الاسم الواحد كما يلفظه ويرسمه الإنجليز مرة، وكما يلفظه ويرسمه الفرنسيون مرة أخرى؛ ولا تبلغ بلبلة الألسن في هذه الناحية من الفساد مبلغها في نقل الأسماء القديمة، وبخاصة إذا كانت أسماء عرفها العرب، فقد قرأت في كتب مختلفة الأعلام الآتية: مرجراط، مرجرات، مرغرات، مرغراط، مرج راهط، مرج راهد، مرجراه، وكلها للموقعة المعروفة في مرج راهط؛ وقرأت: رقطيس، راقتيس، راقطبس، راقوده، رقوته، وكلها للمستعمرة الإغريقية المعروفة راقوطيس في شمال الدلتا في تاريخنا القديم وهي راقودة عند العرب؛ وقد أذكر أن الفروق في رسم الأعلام قد بلغ من الاختلاف في أسماء أخرى مبلغاً لا يدركه أشد الواقفين على حقيقة الأسماء القديمة، ولا شبهة عندي أن مبتدئاً في درس التاريخ أو الجغرافية إذا وقع له مثل هذا في كتب مختلفة أو كتاب واحد لظن لأول وهلة أن اختلاف الرسم يدل على اختلاف الذات.

هذه الحال تحفزنا إلى الدعوة لوضع معاجم لأسماء الأعلام، فنحتاج إلى معاجم في أسماء الأعلام القديمة؛ ومعاجم لأسماء الأعلام الحديثة، ومعاجم تضبط فيها أسماء الأعلام العربية، وإن من الأسماء العربية ما تقرأه على أوجه عديدة إذ لم يكن تام الضبط بالشكل الكامل.

لم أتناول في هذه الكلمة إلا بعض حاجة اللغة العربية إلى المراجع، فهل قدرنا كل ذلك؟ وهل اتخذنا العدة للعمل؟ وهل لهذا العمل ظهراء من بين أغنياء هذا البلد والقائمين على أمره؟ نرجو مؤملين أن تتوجه الجهود إلى هذا العمل إن كانت الرغبة فيه موجودة، ونرجو أن يتضافر الكتاب والباحثون على خلق الرغبة فيه إذا لم تكن موجودة.

إسماعيل مظهر

إلى الأستاذ أحمد أمين:

الضعف في اللغة العربية

للأستاذ محمد سعيد العريان

تناول الأستاذ الجليل أحمد أمين في العدد 208 من الرسالة موضوع الضعف في اللغة العربية، بعد ما تناوله عديد من الصحف والمجلات في هذه الأيام؛ وما كان لي أن أعني بمناقشة ما قال الكاتبون في هذا الموضوع والإدلاء برأيي فيه لولا اعتدادي بمكانة الأستاذ الكبير وما لآرائه من خطر وقيمة، فأنا لهذا أكتب إليه أستدرك أشياء وأنبه إلى أشياء لعل لها أثراً في توجيه البحث ينتهي إلى الغاية التي يريد ونريد.

وأحب قبل أن أمضي فيما أنا بسبيله أن أؤكد لأستاذي ما لا بد من توكيده: إنني فيما أكتب إليه بعيد عما يسميه النزاع الشخصي أو التعصب الطائفي، فإذا رأى في مقالي ما يجعلني إلى طائفة من القائمين على شئون اللغة العربية فليتبرع لي بحسن الظن، وأن رأى مني انحرافاً عن الصواب فلينسبني إلى الخطأ في الاجتهاد، لا إلى الهوى والتعصب

وبعد فماذا يعني الأستاذ بالضعف في اللغة العربية؟ أتراه يعني إن اللغة العربية في هذه الحقبة من تاريخها الأدبي سائرة إلى الضعف؟ أم هو يعني ضعفها على ألسنة تلاميذ المدارس وطلاب الجامعة وناشئة المتأدبين من كتاب هذا العهد؟

هذا سؤال أحسب الجواب عنه صريحا محدداً في مقال الأستاذ؛ فما من شك في أن اللغة العربية في هذا العهد خير منها منذ ستين عاماً وقبل ستين عاماً، وإن لم تبلغ بعد الهدف الذي ترمي إليه. وأما ضعفها في السنة طلاب المدارس وخريجي الجامعة وناشئة المتأدبين، فأمر لا شك فيه كذلك ولا يحتاج إلى برهان.

وإذا تحدد موضوع البحث على هذا الوجه فأن علينا مناقشة الأسباب التي يرجع إليها هذا الضعف في اللغة العربية. وأرى الأستاذ الجليل يرجعها إلى أمور ثلاثة تتفرع في النهاية إلى ست مسائل: هي طبيعة اللغة نفسها، والمعلم، وبرامج التعليم، والامتحانات، والتفتيش، والمكتبة العربية. وسأقصر حديثي الآن على بعض هذه المسائل دون سائرها؛ إذ هي عندي أجدر بالعناية وأحق بالنظر. وأولى هذه المسائل

هو المعلم، وأراني أشارك الأستاذ في قوله: (إن معلم اللغة العربية في المدارس على اختلاف أنواعها عليه أكبر واجب
وأخطر تبعة، وبمقدار قوته أو ضعفه تتكون - إلى حد كبير - عقلية الأمة. .) ولكني مع ذلك لا أشاطره الرأي بأن جزءاً كبيراً من ضعف اللغة يرجع إلى المعلمين. فما المعلمون في مدارسنا - وأنا واحد منهم - إلا أدوات عاملة بغير إرادة: ليس لهم حرية في العمل ولا خيرة في الطريقة، ولا فكرة في التنفيذ؛ وإنما يشرع لهم الشارع في وزارة المعارف وعليهم الطاعة العمياء والإرادة الخرساء. قد يكون عيباً في المعلم أن ينزل عن رأيه بهذا الهوان؛ ولكنه يريد أن يعيش، ومن ورائه المفتش، والمفتش الأول، والمراقب، والوزير؛ كل هؤلاء عليه عيون لواحظ، ليس عليهم أن يوجهوه أو يروا له الرأي الصالح بمقدار ما عليهم أن يحصلوا عليه مخالفاته لما أرادت الوزارة من الخطة والمنهج والنظام. .
وأراني قد بينت للأستاذ موقف المعلم ومكانته في المدارس المصرية، مسوقاً إلى أن أعتب عليه أن ينال معلمي اللغة العربية ودار العلوم بما يشبه أن يكون مصدره فكرة قديمة مستقرة في موضعها من فكرة الكاتب الجليل لا تتصل بموضوع البحث من قريب أو بعيد! وإلا فأين هذا الموضوع من دعواه بأنه خريج دار العلوم أصبح لا يحذق الأدب القديم ولا الأدب الحديث، ولا يستطيع تغذية الشعب بالأدب الذي هو بحاجة إليه. . ؟
إننا هنا نتحدث عن ضعف اللغة العربية في المدارس لا ضعفها في الأدب العام الذي يغذي الشعب ويساير النهضة؛ ولو كان هذا هو الموضوع لاستطاع أن يجد البراهين في كل ما يكتب الكتاب وينشئ الأدباء منذ نيف وستين عاماً، وكلها شاهدة بما لدار العلوم من أثر على اللغة في هذا القطر وفي الأقطار العربية عامة، وما أرى الأستاذ يستدرك فيعترف بأنه من خريجي دار العلوم أفذاذاً نابغين يصح أن يكونوا المثل الذي ينشده إلا مجاملة لطائفة من أصدقائه وزملائه في الجامعة، وما تغير هذه المجاملة شيئاً من وجه الرأي، وما تغير شيئاً من الحقيقة التي يلحظها كل من يقرأ مقالة الأستاذ الكبير، وهي أنه خرج من البحث في كفاية خريجي دار العلوم باعتبارهم معلمين، إلى البحث في كفايتهم باعتبارهم كتاباً وأدباء ومنشئين أثروا تأثيرهم في الأدب العام أو لم يؤثروا، وما هذا مصدر البحث ولا مورده. . .
وما أريد أن أطيل في هذا العتب، فأن هنا (النقطة الشائكة) التي كان هم الأستاذ أن يتحاشاها، وكان همي لولا (الواعية الباطنة) التي أقحمتها في غير موضعها من مقال الأستاذ الجليل.
وأعود إلى ما كنا فيه فأقول إن الأستاذ لم يبلغ إلى الحقيقة في قوله: إن دار العلوم وغيرها لم تستطع أن تخرج المعلمين الأكفاء الذين نتطلبهم وتتطلبهم اللغة العربية للأخذ بيدها والنهوض بها ومحاربة الضعف الناشئ فيها. وكان وجه الرأي أن يقول: إن وزارة المعارف لم تترك للمعلمين حرية العمل وحرية الرأي في المناهج للأخذ بيد اللغة العربية والنهوض بها ومحاربة الضعف الناشئ فيها؛ وذلك بما قيدتهم من قيود لا تدع لهم الخيرة في أن يفكروا في الوسائل ولا في الغايات التي يجب أن يأخذوا بها الناشئة من طلاب اللغة العربية ليبلغوا بهم حيث يريدون.
ولمنهج التعليم أكبر الأثر بعد ذلك فيما آلت إليه حال اللغة العربية في المدارس المصرية، وعلى ألسنة الناشئين من المتأدبين؛ ولا أعني بهذا منهج اللغة العربية وحده؛ فهذا جزء من كل له أثره في الثقافة العامة التي توجه التلميذ وجهته، وتعده لأن يكون ما يكون في غده: رجلاً لأمته يحرص على قوميته وتراث أهله ومقومات وجوده، أو واحدا كبعض من نعرف من شبابنا، لا يعرف له قومية وليس فيه حفاظ على ما خلف الآباء، ويضيع فيما يضيع من تراث الأجيال لغة قومه ودين قومه. والدين واللغة في تاريخ هذه الأمة شيء واحد، يقوم كل منهما من الآخر مقام الأخر مقام الجزء ما يكمله، وهما معاً عماد القومية العربية المسلمة التي نريد أن نطبع عليها ناشئة الغد.
هذا نقد عام لبرامج التعليم في مدارسنا لا أحاول تفصيله، وحسبي في هذا السبيل أن أنبه أستاذي الجليل إلى نظرة الطلبة في صميم نفوسهم إلى أن اللغة العربية مادة ثانوية وإن وضعت في المناهج في أولها - ليس من عمل المعلم بقدر ما هو من تأثير المنهج الذي يفرض فيما يفرض على التلميذ في المدرسة الابتدائية برنامجاً طويلاً

عميقاً في اللغة الإنجليزية قبل أن يستقيم لسانه في نطق جملة عربية واحدة. كما أن ضعف الثقافة في الجمهور فيما يتعلق بالتاريخ الإسلامي والأدب العربي والمعلومات العامة التي تتصل بذلك - ليس مسئولاً عنه معلمو اللغة العربية، لأن ذلك ليس داخلاً في برنامج ما يدرسون لتلاميذهم، وليسوا هم القائمين على تدريس التاريخ الإسلامي، ولا شيءٍ مما يتصل به من المعلومات العامة في مرحلة من مراحل التعليم؛ وقد كان ذلك إليهم منذ سنين، وكانت حال
اللغة يومئذ خيراً منها في هذه الأيام.

وهنالك أمر ذو خطر يتصل بمنهج اللغة العربية ذاتها، ولا مناص من الالتفات إليه؛ ذلك هو ترتيب المنهج وتوزيعه على سني الدراسة المختلفة، ولا أعني هنا الكم والمقدار، إنما أعني الكيف والطريقة.

إن الأستاذ أحمد أمين قد قصر نقده للمناهج على المادة دون الموضوع؛ فراح يتهم قواعد النحو والبلاغة في مادتها وتقسيمها دون نظر إلى مؤداها وغايتها وموضوعها من مراحل التعليم.

إن الآفة والعلة والداء ليست في قواعد البلاغة ومصطلحات النحو وفصول الأدب؛ فما نحن بمسئولين بأن نجعل هذه المقاييس اللغوية تسلية وملهاة يتلهى بها التلميذ في وقت بطالته وفراغه كأنها قصة أو فكاهة، فما هذا موضعها من العلم ولا مكانها؛ ولكن العلة والآفة والداء أننا نعلم التلميذ قواعد اللغة قبل أن يعرف شيئاً من اللغة أو يقرأ منها قدراً صالحاً ليعينه على الفهم والمحاكاة؛ وإننا ندرس له البلاغة قبل أن نقدم له النماذج الكثيرة من الكلام البليغ التي تنبه فيه ملكة النقد قبل أن نعطيه قواعد النقد ومقاييس البيان الرفيع، وأننا نجرعه مصطلحات الأدب وفنونه قبل أن يتذوق الأدب نفسه. هنا العلة فلنلتمس لها الدواء قبل أن نفكر في حلاوته أو مرارته.

إن قواعد النحو، ومصطلحات الأدب، وفنون البلاغة، كفلسفة القصة من القصة: لا ينبغي التفكير فيها والمعاناة في استخراجها قبل الفراغ من القصة نفسها، والحكم على الشيء فرع من تصوره، كما يقولون؛ فصوروا للطفل آداب لغته قبل أن يعطوه هذه المقاييس الصماء ليزن بها ما ليس في يده.

إن هذه المناهج بعيدة من الطبيعة بعد الغاية التي وصلنا إليها من الغاية التي إليها نقصد؛ وإنما ينبغي حين نريد تعليم اللغة العربية على منهاج صحيح أن نحاكي الطبيعة الخالقة في منهاجها الواضح؛ والطبيعة قد أملت علينا الطريقة التي يجب أن نأخذ بها كل ناشئ يتلقى لغة من اللغات، ففرضت عليه أن يمر في أطوار التعليم بثلاث مراحل: السماع والتلقين، ثم المحاكاة والتقليد، ثم الابتكار والإنشاء. فأن الطفل يولد وله صوت وسمع وليس له بيان، ثم يأخذ بمحاكاة الأصوات التي يسمعها؛ فإذا تكونت له أعضاء النطق أخذ يلقف الكلمات
مما يسمع من أهله فيرددها كما سمعها بلهجتها ونبرها، ثم يتدرج من ذلك إلى التعبير عن حاجته باللسان الذي يتحدث به من حوله؛ على أن قاموسه في ذلك لا يعدو كلمات قليلة على مقدار وعيه وحفظه وقدرته على التقليد؛ وكلما تقدمت به السن واتسعت الدائرة التي يضطرب فيها ويستمع إليها ويلقف منها زاد محصوله اللغوي؛ ثم لا يلبث أن يلم بكل معنى وبكل لفظ وبكل عبارة، فيتحدث كما يتحدث الناس، لا يعجزه ان يفهمهم ولا يعجزون، وحينئذ يتم تمامه اللغوي في اللغة التي يتحدث بها أهله.

هذه هي الطبيعة الملهمة وطريقتها في إعداد الطفل إلى تلقي اللغة والفهم عنها والإبانة بها. فأين طرائقنا من هذه الطريقة التي فرضتها الطبيعة على كل إنسان ناطق. . .؟

وعلى هذا المنهج الطبيعي نفسه تخرج الخالدون من أدباء هذه الأمة، فبلغوا ما بلغوا وخلفوا لنا هذا التراث الباقي على الزمن من الشعر والأدب. وطريقة الأخذ عن الرواة هي طريقة الطبيعة نفسها، وهي هي كانت كل ما يؤهل الأديب أو الشاعر إلى التبريز في الأدب والإجادة فيه. وما كان الأصمعي وأبو عبيدة والقالي وغيرهم ليعلموا تلاميذهم أول ما يعلمونهم - المحادثة والإنشاء والقواعد والتطبيق، إنما كانت دروسهم في حلقات الدرس والرواية هي هذه الأمالي الباقية من جيد الشعر والخطب والأمثال والقصص، أما النحو والصرف وقواعد البلاغة فكانت شيئاً من وراء ذلك لا ينظر إليه إلا عند الحاجة، وهي اليوم عندنا أول الطريق وأخره.

وأمامنا الأمثال في كل جيل وفي كل عصر من عصور العربية ترشدنا إلى الطريق التي يجب أن نسلكها في تعليم العربية، ولكننا نغمض عنها أعيننا ونضرب في البيداء، ومع ذلك ما ننفك نسأل أنفسنا:

(أين ومتى نبلغ الغاية؟)

وهل بلغ البارودي وحافظ وإضرابهما ذلك المبلغ من الشعر والأدب بالقواعد والتطبيق ومعالجة الإنشاء، أو بالاطلاع والرواية والحفظ من مأثور النظم والنثر؟

ينبغي أن نعلم العربية على الطريقة التي يتعلم بها الطفل أن يتكلم؛ فلتكن دروس العربية الأولى أن نتحدث إلى التلميذ ثم نسأله أن يتحدث، وأن نحمله على المطالعة ثم نطلب إليه أن يكتب، وأن نقدم له الغذاء من متن هذه اللغة ومن أساليبها في أقاصيص صغيرة مسلية

نقصها عليه بلسان عربي سلس الأداء واضح النبرات مفهوم المعنى، ثم نطلب إليه أن يعيد ما سمع بلغة كالتي تحدثنا بها إليه ولا تخرج عن قاموسه الذي نعرفه كلمة كلمة لأننا نحن الذين أمليناه عليه كلمة كلمة في هذه الأحاديث والقصص التي روينا له، ولا نفتأ كل يوم نزيد في معجمه اللغوي كلمات وأساليب فيما نتحدث به إليه؛ فإذا بلغنا به مبلغاً ما بهذه الوسيلة فلنفكر حينئذ في تلقينه قواعد اللغة وموازين الكلام الصحيح لا على أنها قواعد جديدة يجب أن يدرسها، ولكنها على أنها جزء غير مسموع من الكلام الذي سمع، ونطق غير ملفوظ من الكلام الذي تحدث به. وهنا نقطة يجب أن لا تغيب عن أحد من المشتغلين بالتعليم، هي أن هذا ليس واجب معلم اللغة العربية وحده، ولكنه واجب عام ينتظم المعلمين جميعا؛ وإلا كان عبثاً ما يحاوله معلم العربية، فما يعالج هو تقويمه من ألسنة التلاميذ بالقدوة والمثال تفسده الرطانة الأعجمية في لسان باقي المعلمين.

هذا هو الأمثل بأن يؤدينا إلى الهدف الذي نريده لو أخلص العاملون، فليجربه من شاء ثم يحدثني عن النتيجة؛ فأنا نفسي قد حاولت هذه الطريقة في بعض الفرق (على غفلة من المفتش وغفلة من المنهج. . .) فما ادعوا إليها إلا مقتنعا بها مؤمناً بنتيجتها.

والآن وقد وصلت إلى هذه النقطة من الموضوع، أراني مع الأستاذ أحمد أمين في الحديث عن المكتبة العربية؛ فلو أنني زعمت له ولنفسي إن عندنا المعلم الكفء الموهوب الذي لا يمل الحديث مع تلاميذه بلسان عربي مبين جذاب ليزودهم بالغذاء المريء والنموذج الصالح من متن اللغة وأساليبها، لما وسعني الزعم بأن عندنا الكتاب الذي يصلح أن يكون لهذا التلميذ أستاذاً في غيبة أستاذه؛ يعطيه ما يعطيه المعلم من متن اللغة وأساليبها في عرض جذاب يحبب إليه مطالعته والتزود منه ثم يحمله من بعد أن يحرص على المطالعة لتكميل ثقافته ويجعل لها وقتاً من وقته طوال حياته في زمن التخرج وبعد التخرج.

ولو أنني زعمت أن عندنا هذا الكتاب لكذبتني وزارة المعارف التي لا تعطي تلاميذ مدرستها الابتدائية إلا كتابا واحدا للمطالعة العربية ألفه مؤلفه في القرن الماضي. . . وما يزال حيث كان! على حين تعطي هذا التلميذ نفسه بضعة كتب للمطالعة الإنجليزية قد تبلغ ستة كتب أو سبعة في السنة الدراسية، ثمن الكتاب منها يبلغ ضعف كتاب المطالعة العربية، وهي دقة بالغة في تنفيذ سياسة الاقتصاد. . .!

على أن هنا حقيقة لا ينكرها أحد ولا يغفل عنها أحد، هي أن المطالعة عند كل المشغولين بالمطالعة - عادة لازمة أكثر مما هي وسيلة من وسائل العلم، فإذا لم يعود الطفل على أن يقرأ منذ حداثته فهيهات أن يمكن حمله على المطالعة المثمرة من بعد؛ وهنا سر انصراف شبابنا عن المطالعة والأدب إلى ذلك اللغو وتلك الدعاوى الفارغة التي تملأ أفواههم عن الأدب والتجديد.

ومن ثم يجب أن نبحث أول ما نبحث في نقص المكتبة العربية للأطفال، ثم من يليهم، ثم من يليهم، إلى أن نبلغ الطبقة التي نجد فيها من يقرأ أمثال الأغاني والأمالي وعيون الأخبار والطبري وغيرها من تراثنا الأدبي الذي لا نجد من يقبل عليه إلا القليل من قراء العربية.

وأنني أؤكد للأستاذ أحمد أمين أن المكتبة العربية لم تضعف هذا الضعف لعجز في المعلمين أو نقص في كفاية القائمين على شئون اللغة العربية، ولكن وسائل التخذيل وقلة المكافأة. . . وقد عالجت طائفة غير قليلة من أدباء العربية هذا النقص في مكتبة

الأطفال، وكان خليقاً أن يبلغوا بها مبلغاً تطمئن إليه، لولا قلة المكافأة وسوء التقدير، وأنا نفسي ما زال أعاني أزمة عنيفة بيني وبين نفسي من جراء محاولة من هذه المحاولات لا صلاح مكتبة الطفل، صرفتني عن العمل لغيرها وقطعتني عن الجو الأدبي الذي كنت أعيش فيه والذي كنت أهيئ نفسي لمنزلة في الغد هي أجدى علي وأنفع، وجعلتني غرضاً لسهام اللوم من أصدقائي الذين كانوا يحسنون الظن باستعدادي الأدبي، والأستاذ الزيات صاحب الرسالة أول هؤلاء اللائمين، مع إعجابه بما أقدم للطفل العربي من أدب سائغ. وهاأنذا ما أزال في المحاولة، ومازلت أطمع في أن أبلغ بالقصص المدرسية - أصدرها مع زميلين من زملائي - مبلغاً أقتنع فيه بأني قد أسديت يداً إلى المكتبة العربية واحسبني قد سمعت مرة من الأستاذ أحمد أمين ثناءً على عملنا كان خليقاً بأن يحملني على الثبات ومضاعفة الجهد في هذه المحاولة؛ ولكن عملاً كهذا يا سيدي لا يجزئ فيه أن أسمع كلمات الثناء وعبارات التشجيع وأنا أبذل فيه من أعصابي ومن مالي وعمري ولا مكافأة ولا تعويض. أفيحسب أستاذنا الجليل أن سعيد العريان ومعه مائة مثله من معلمي اللغة العربية في مدارس الحكومة يستطيعون أن يسدوا هذا النقص في المكتبة العربية ووزارة المعارف لا تحاول أن تشعرهم من قريب أو بعيد بأن لهم عليها حقاً أكثر من: أحسنت وأجدت ولله أنت. . .!

أم تحسب أحداً يقدم على أن يبذل لمثل هذا العلم جنيها لعله أحوج إليه في بيته، وهو يعلم أن وزارة المعارف لا تكافئ الكتاب والمؤلفين إلا أن يكونوا مفتشين أو أشباه مفتشين؛ حتى لو أن معلماً صغيراً (مثلي. . .!) أنشأ عملاً خليقاً بأن من ينتفع به، أسرع إلى محاكاته واحد من هؤلاء فيكافأ على التقليد ويضيع العمل الجيد على منشئه بلا مكافأة ولا تعويض. . .؟ يا سيدي! والله ما كان في بالي أن أشكو، ولا أردت أن يكون الحديث عن نفسي، وليس من طبعي أن أقول: ليتني وليت الناس! ولا كان همي أن التمس المعاذير للمقصر والمجيد؛ ولكنك رغبت إلى كل ذي رأى أن يدلي برأيه، فهذا ما دفعني إلى ذاك، وأرجو ألا أكون على حيد الطريق فيما كتبت، أو أن أزيل حسن الظن من نفسك، ولعل لي عودة قريبة إلى الموضوع والسلام عليك.

(طنطا)

محمد سعيد العريان

في القديم والجديد

كلمة وكليمة

للرافعي فقيد اللغة والأدب

للأديب محمد فهمي عبد اللطيف

إن الخلاف بين ما يسمونه القديم والجديد ليس بخلاف على جديد ولا قديم، ولكن . . . على ضعف وقوة؛ فأن قوماً يكتبون وينظمون، ولكن لم تقسم الفصاحة والبلاغة على مقدار ما يطيقونه من ذلك، ولا يتسع الصحيح لآرائهم في اللغة والأدب؛ وقد أرادوا أن يسعوا كل ذلك من حيث ضاقوا، ويطاولوه من حيث تقاصروا، وينالوه من حيث عجزوا، فظنوا بالأمر ما يظن إنسان يمشي على الأرض ويعرف أنها تدور فيؤول ذلك بأنه هو مدير الأرض على محورها بحركة قدميه. . . نحن نقول: أسلوب ركيك، فيقولون: لا بل جديد!! ونقول: لغة سقيمة، فيقولون: بل عصرية!! ونقول: وجه من الخطأ، فيقولون: بل نوع من الصواب!!

إننا لا نعرف قديماً محضاً ولا جديداً صرفاً، ولا نقيم وزن أحدهما إلا بوزن من الآخر . . . إذا أردنا بهما سنة الحياة، وأنت لم تجد حياً منقطعاً مما وراءه؛ بل أنت ترى الطبيعة قيدت كل حي جديد إلى أصلين من القديم لا أصل واحد هما أبواه، فمنها يأتي، ومنها يستمد، وهما أبداً فيه وإن كان على حدة.

المذهب القديم هو أن تكون اللغة لا تزال لغة العرب في أصولها وفروعها، وأن . . . تكون هذه الأسفار القديمة التي لا تحويها لا تزال حية تنزل من كل زمن منزلة أمة من العرب الفصحاء، وأن يكون الدين العربي لا يزال هو هو كأنما نزل به الوحي أمس، لا يفتننا فيه علم، ولا رأي، وأن يأتي الحرص على اللغة من جهة الحرص على الدين، إذ لا يزال منهما شيء قائم كالأساس والبناء لا منفعة فيهما معاً إلا بقيامهما معاً. . .

سألت بعضهم ما هو الجديد الذي تحامون عنه؟ قال: هو ما يكتب به في الصحف. . . .

قلت: فأن فيما يكتب الضعيف والساقط المرذول ثم ما هو إلى الجزالة والفصاحة، ثم ما يلتحق بجيد الكلام، فأي هذه تريد؟ وأيها ليس قياساً من أصلها العربي المعروف؟ أفتجعلون
النقص مذهباً من كماله ثم لا تكتفون بخطأ واجد وتدعون أن الكمال في نفسه يجب أن يعد مذهباً من النقص؟ أم الجديد هو ما يكتب به في الصحف، تعني لأنك أنت تكتب الصحف. . .؟
التجديد في الأدب إنما يكون من طريقتين: فأما واحدة فإبداع الأديب الحي في آثار تفكيره بما يخلق من الصور الجديدة في اللغة والبيان، وأما الأخرى فإبداع الحي في آثار الميت بما يتناولها من مذاهب النقد المستحدثة، وأساليب الفن الجديدة. وفي الإبداع الأول إيجاد ما لم يوجد، وفي الثاني إتمام ما لم يتم، فلا جرم كانت فيهما معاً التجديد بكل معانيها، ولا تجديد إلا من ثمة، فلا جديد إلا مع القديم. . .
لم أقرأ إلى يوم الناس هذا في معنى هذا (الجديد) كلاماً يبلغ أن يصور منه برهان أو تؤلف منه قضية صحيحة، وكل أقاويلهم ترجع إلى ثلاثة أبواب: جديد، ومجدد، ولنجدد، فأما الأول فهو عندهم تقبيح القديم والزراية عليه والتنفير منه، وأما الثاني فهو العائب والشاتم والمتهزئ، وأما باب قولهم (ولنجدد) فهو لا يزال إلى الآن مقصوراً كل واحدٍ منهم للآخر: (ولنجدد). . .
أنا والله لا أعرف أهؤلاء القوم يجدون أم يسخرون! ولكن الذي لا أجهله أن في . . . بعض الناس أرواحاً وأمزجة انطبعت فيها صور الاجتماع الأوربي بما يحوي من فضائله ورذائله لأن هذه نتائج تلك ما منها لهم بد - فتريد هذه النفوس الرقيقة الجميلة!! أن تنسخ الرسم الإسلامي الشرقي وتقر كل ذلك الأوربي في مكانه. تلك هي نزعة التجديد. !!
لقد رأيت لأصحاب (المذهب الجديد) أصلاً في تاريخ الأدب العربي كانت جذوره . . . ممن انتحلوا الإسلام وهم يدينون بغيره، وممن كانوا يدينون به وتزندقوا فيه، حتى قال الجاحظ في بعض رسائله يعني هؤلاء وأولئك: (فكل سخنة عين رأيناها في أحداثنا وأغبيائنا!! فمن قبلهم كان أولها) ورحم الله أبا عثمان، إن التاريخ ليعيد نفسه اليوم (بنسخة عين جديدة). . .
إنهم أرادوا (بالمذهب الجديد) أن يكتب الكاتب في العربية منصرفاً إلى المعنى والغرض تاركاً اللغة وشأنها متعسفاً فيها آخذاً ما يتفق كما لا يتفق، وما يجري على قلمه كما يجري، معتبرا ذلك اعتبار من يرى أن مخه بلا غلاف من عظام رأسه، وأن عظام رأسه كعظام
رجليه! وأن أصابع قدميه كأهداب عينيه!! وأن مطلق التركيب هو مطلق النظام والمناسبة!! وأن اللغة أداة ولا بأس بالأداة ما اتفق منها، ولا بأس أن يمزع الجراح مزعاً من جلد العليل بأسنانه أو بأظافره أو بنصل الفأس. . . ما دامت معقمة وما دام ذلك يعينه هو فعل المبضع لا يزيد المبضع عليه إلا الدقة. .
إن أرادوا بهذا وأشباهه ما يسمونه المذهب الأدبي الجديد قلنا: لا، ثم لا، ثم لا، ثلاث مرات. . .
أظن أن اللغة العربية لم ترتفع منزلتها عند هؤلاء الحمقى المجددين إلا إذا أصبحت لغة فرنسا أو إنجلترا. . فيومئذ يكون الجاحظ جاحظاً بقوة الأسطول، وعبد الحميد بقوة الجيش، وابن المقفع بسلاح الطيران، إذ هم وأمثالهم أسلحة التاريخ التي يقاتل بها مجد الأمة ليغلب وينتصر، وهذا بعينه هو من دليلنا على أن هؤلاء الخمسة أو الستة المجددين هم خمسة أو ستة مجانين في أمراض العقل الاجتماعي. . .
(أختارها وأخرجها)
محمد فهمي عبد اللطيف
التقاء النجف بالأزهر
رأي العلامة الشهرستاني
للأستاذ عبد المنعم خلاف
العلامة الكبير السيد هبة الدين الشهرستاني رجل من رجالات العراق الذي يشار إليهم، ويعتمد على رأيهم في شئون الدين والدولة، تولى وزارة المعارف العراقية لأول عهد البلاد بالاحتلال الإنجليزي، فكانت له فيها مواقف جريئة مع مستشارها الإنجليزي لا

يزال الناس يتحدثون بها ويثنون عليها. وكان العامل الأول على نشر التعليم بين المسلمين بعد أن كانوا يعزفون عنه نظراً للصبغة الاحتلالية التي كانت تسيطر عليه. وهو فوق ذلك صاحب قلم بارع في سرد حقائق الإسلام وجلاء مآثره، يشهد بذلك كتبه العديدة وخصوصاً كتابه (المعارف العالية) الذي نحى فيه منحى عصرياً حميداً يحبب إلى الشباب قراءته، وهو محاضر طلق اللسان لين الصوت وقور المظهر، وديع النفس تشعر أن فيضاً من سمو الروح وجلال الخلق يغمرك وأنت في مجلسه. وهو من كبار مجتهدي إخواننا الشيعة، وإن كان لسمو خلقه وغزارة علمه وأتساع أفقه لا يختص بفريق دون فريق. وكان على رأس الرعيل الأول من علماء الإصلاح في النجف الأشرف أهاب بعلمائه وطلابه سنة 1328هـ في مجلته (العلم) أن يرموا بأبصارهم إلى ما وراء أسوار معاهدهم الدينية من شئون الحياة والعلوم العصرية، كما أهاب الأستاذ الأمام محمد عبده برجال الأزهر. وقد صار له الآن تلاميذ ومريدون يتولون نشر دعوته وتعميم طريقته.

وقد كان من حسن حظي أن أتيحت لي فرصة زيارته فملأت بصري بصورته الجليلة. وشيخوخته الوقور التي ذكرتني بالصور الذهنية لعلماء بغداد الأولين، بعد أن ملأت سمعي بذكره العاطر وثناء الناس عموماً عليه. فصدق العيان الخبر.

وكان لا بد أن يتطرق الحديث إلى شئون المسلمين والآمال في المستقبل الذي تحفز التاريخ ليكتب فيه صفحة جديدة للنهضة الدينية والدنيوية في ديارهم.

وهو يرى أن الوحدة الإسلامية المنشودة التي يمهد لها المخلصون من رجال الإسلام، ويدعون إليها لا يمكن أن تتم إلا بالتقاء النجف بالأزهر بتبادل الزيارات بين العلماء والبعثات بين الطلاب، وإطلاع رجال كل من المعهدين على الأنظمة في الآخر وهذا رأي لا ريب سديد وقريب التحقيق يجب أن يلتفت إليه العاملون لجمع الشمل وتحقيق الوحدة. أنقله إلى مسامع حضرة الفضيلة الأستاذ الأكبر المصلح الشيخ المراغي الذي تركزت فيه آمال النهضة الإسلامية، وسار الأزهر في عهده خطوات موفقة إلى الغاية التي ينشدها الناس من رجال الدين.

والواقع أن الخلاف بين الشيعة وأهل السنة الذي يجسمه العوام والإغفال، وينفخ فيه أعداء الطائفتين جميعاً من وراء ستار، لا يمكن أن يزول إلا إذا رأى العوام رجال الدين من الفريقين يتآخون ويتبادلون الزيارات ويتعلم كل منهم على الآخر في أخوة وصفاء، فالعوام هم الذين يعظمون الصغائر ويكبرونها، أما العلماء من الفريقين فهم أفقه وأعقل من أن يجدوا مواضع الخلاف القليلة محلا لجفاء وهوة تفصل بين أهل التوحيد.

ولقد وجدت هذه الرغبة في التوحيد متجلية عند علماء الشيعة في مواقف عدة، فالسيد محمد حسين آل كاشف الغطاء يدعو إليها في المؤتمر الإسلامي بالقدس، وها هو ذا العلامة الكبير السيد هبة الدين الشهرستاني رجل الإصلاح، يرسم الطريق ويضع الخطة لها ويعد بمواصلة العمل في سبيلها على رغم شيخوخته، والأستاذ حسين مروة يدعو إليها منذ شهرين في الرسالة. . . . كل هذا يبشر باقتراب الموعد ومواتاة الظروف، ولم يبق إلا أول العمل فهيا.

عبد المنعم الخلاف

شخصيات مجهولة في الأدب العربي

إبراهيم بن سهل الأشبيلي

بقلم محمد الأمين بن محمد الخضر الشنقيطي

كثيراً ما رأيت من بعض الأدباء جهلاً شائناً بذلك الشاعر المطبوع إبراهيم بن سهل؛ فخدمة للأدب، وإحياء لذكره، أتقدم بهذه الكلمة الموجزة إلى صحيفة العلم و (رسالة) الأدب، راجياً أن أتبعها أخرى إن سمحت لي الظروف وكان في صفحات الرسالة متسع

نسبه، ميلاده، وفاته

هو أبو إسحاق إبراهيم بن أبي بعيش بن سهل الاشبيلي، نسبة إلى إشبيلية مدينة من أعظم المدن الأندلسية. ولد سنة ستمائة وتسع عشرة هجرية، ومات غريقاً في البحر وهو أبن أربعين، سنة ستمائة وتسع وخمسين هجرية كما ذكره أبو الحسن الخزرجي قال صاحب نفح الطيب: غرق وهو أبن أربعين سنة في البحر. وقيل وقد جاوز الأربعين. ولما غرق قال فيه بعض الأكابر: عاد الدار إلى وطنه. وذكر مالك بن المرحل

في غرقه قصة طويلة، خلاصتها أنه كان من كتاب أبي علي بن خلاص صاحب سبتة فأرسله مع أبنه المستنصر ملك تونس فغرقا في البحر لشدة هيجانه. ولما بلغ المستنصر غرق ابن سهل قال: عاد الدر إلى وطنه.

إسلامه

كان يهودياً وأسلم، وقد أختلف العلماء والمؤرخون في صحة إسلامه، فمن قائلا إن إسلامه كان ظاهراً وباطناً، ومن قائل أنه في الظاهر فقط. ولا بأس أن أنقل هنا بعض أقوال الفريقين. قال محمد صغير الأفراني المراكشي: كان يهودياً ثم من الله عليه بالدخول في الملة المحمدية وحسن إسلامه. وقد مدح النبي صلى الله عليه وسلم بقصيدة بارعة، قال أبو حيان وقفت عليها، وهي من أبدع ما نظم في معناها. وقال العزفي: كان يتظاهر بالإسلام ولا يخلو من قدح أو اتهام. وقال ابن مرزوق: صحح لنا من أدركنا من مشائخنا أنه مات على الإسلام. وقال صاحب نفح الطيب: اجتمع جماعة مع ابن سهل في مجلس أنس فسألوه - لما أخذت منه الراح عن إسلامه - هل هو في الظاهر والباطن أم لا؟ فأجابهم: للناس ما ظهر ولله ما استتر. وقال ابن سعيد القيسي في كتابه القدح المعلى: كتبت إلى ابن سهل أستدعيه إلى أنس بثلاث أبيات فأجابني سراعاً بأبيات آخرها

سآلفها إلف العتيق كتابه ... ولأشتهي ورداً سواها لدى الخمر

فلما وصل أظهرت استحسان سرعة جوابه غير أني أنكرت عليه منزع بيته الأخير فقال: أليس في الجنة نهر خمر؟ فقلت: بلى فقال: حسبي لا أبغي به بدلا. فقلت: بحرمة ما بيننا إلا ما أصدقتني هل أنت على دين أسلافك، أم على دين المسلمين، وأزلت عني شك الناس فيك. قال: للناس ما ظهر ولله ما استتر. وقال في عنوان الدراية: سمعت شيخنا أبا الحسن الأندلسي يقول: شيئان لا يصحان: إسلام ابن سهل وتوبة الزمخشري من الاعتزال. وقد أستدل الأفراني المراكشي على حسن إسلامه بقوله:

تسليت عن موسى بحب محمد ... ولولا هدى الرحمن ما كنت أهتدي

وما عن قلى قد كان ذاك وإنما ... شريعة موسى عطلت بمحمد

جاعلاً أنه قصد بموسى الكليم عليه السلام، وبمحمد نبينا عليه الصلاة والسلام، وعندي أنه لا دليل في هذين البيتين (رغم اعتقادي حسن إسلامه)، وأن موسى المذكور غلام كان يعشقه، وذكر أسم محمد تورية، وقد جاء ذكر موسى هذا في شعره كثيراً، من ذلك قوله:

كساني موسى من سقام جفوله ... رداء وأسقاني من الحب أكؤسا

وقوله:

ليس ثاري على موسى وحرمته ... بواجب وهو في حل إذا وجبا

وقوله:

أشاعوا أنني عبد لموسى ... نعم صدقوا عليّ بما أشاعوا

وفي بيتيه الآتيين فصل القول أنه معشوقه لا الكليم عليه السلام:

موسى تنبأ بالجمال وإنما ... هاروت لا هارون من أنصاره

إن قلت فيه هو الكليم فخده ... يهديك معجزة الخليل بناره

شهادات العلماء فيه

قال ابن القاضي في كتابه درة الجمال: كان ابن سهل ممن أنتحل صناعة القريض فافتن بها وتصرف، وعنى بعالم الأدب فوعى وصرف، إلى أن بلغ الغاية في الشعر فصار فيه أوحد، لا ينعت ولا يحد. وقال أبو حسن الخزرجي في كتابه إعلام الزمن: إبراهيم بن سهل كان شاعر زمانه أسلم بعد يهوديته ومدح النبي صلى الله عليه وسلم بقصيدة بديعة. وقال مالك ابن المرحل: كان معنا ابن سهل وحسن إسلامه، ولازم صلاة الجماعة، ونظر في الأدب فنبغ في الشعر. وقال الأفراني: وإن من تتبع مقطعاته علم أن له خبرة واسعة بفن العربية كقوله:

أموسى أيا كلي وبعضي حقيقة ... وليس مجازا قولي الكل والبعضا

خفضت مقامي إذا جزمت وسائلي ... فكيف جمعت الجزم عندي والخفضا

وفي هذين البيتين تنكيت على أبي القاسم الزجاج إذ قال في جملة: (وإنما قلنا بدل

الكل والبعض مجازا) وسئل بعض المغاربة عن السبب في رقة نظمه، فقال: لأنه أجتمع فيه ذلان: ذل العشق وذل اليهود.

عفافه

وقد كان فيما يظهر من كلامه عف الإزار، وبيته المشهور من أعظم الأدلة على ذلك وهو:

وأبى عفافي أن أقبل تغره ... والقلب مطوي على جمراته

وقوله:

بتنا نشعشع والعفاف نديمنا=خمرين من غزلي ومن كلماته

وقد ذهب ابن القاضي في شرحه لأبيات الذهبي لما تعرض لابن سهل إلى أن هذا من صناعته لا طبيعته، ولعمري إن هذا منه توريك وتحامل؛ وإلا فأي مانع من أن يكون العفاف فيه سجية؟

شعره:

وله ديوان شعر مشهور، وقفت عليه وهو في غاية الجودة، ولا بأس أن أثبت هنا من شعره ما يرخص الدرر، ويكون في هذه الأسطر بمثابة الغرر من ذلك قوله:

مضى الوصل إلا أمنية تبعث الأسا ... أداري بها همي إذا الليل عسعسا
أتاني حديث الوصل زوراً على النوى ... أعد ذلك الزور اللذيذ المؤنسا
ويا أيها الشوق الذي جاء زائرا ... أصبت الأماني خذ قلوباً وأنفسا

وقوله:

قالوا سيسلبك العذار سفاهة ... وحصاد عمري في نبات عذاره
إن لم أمت قبل العذار فعندما ... يبدو أيسلم عاشق بفراره
مثل الغريق نجا فوافى ساحلا ... قاذا الأسود روابض بجواره
إن العذار صحيفة تتلو لنا ... ما كان صان الحسن من إسراره

وقوله:

يا حسنه والحسن بعض صفاته ... والحسن مقصور على حركاته
صافحته والليل يذكي تحتنا ... نارين من نفسي ومن وجناته
أوثقته في ساعدي لأنه ... ظبي خشيت عليه من نفراته
والقلب يرغب أن يصير ساعدا ... ليفوز بالآمال من ضماته

وقوله:

نظر جرى قلبي على آثاره ... خلع العذار فلالعاً لعثاره
يا وجد شانك والزمان وخلني ... ما المرء مأخوذ نزلة - جاره
دنف يغيب عن الطبيب مكانه ... لولا ذبال شب من أفكاره
للدمع خد فوق صفرة خده ... فتراه مثل النقش في ديناره

وقوله:

ردوا على طرفي النوم الذي سلبا ... وخبروني بقلبي أية ذهبا
علمت لما رضيت الحب منزلة ... أن المنام على عيني قد غضبا
فقلت وا حربا الصمت أجدر بي ... قد يغضب الحسن إن ناديت وا حربا

وقوله:

يقولون لو قبلته لأشتفي الجوى ... أيطمع في التقبيل من يعشق البدرا
ولو غفل الواشي لقبلت نعله ... أنزهته أن أذكر النحر والثغرا
ومن لي بوعدٍ منه أشكو بخلفه ... ومن لي بوعد منه أشكو به الغدرا
وما أنا ممن تحمل الريح شوقه ... أغار حفاظاً أن أبوح له سرا

وقد أبدع في فنون البيان وأتى في شعره منها بالعجب العجاب. فمن أحسن توجيهه قوله:

لقد كنت أرجو أن تكون مواصلي ... فأسقيتني بالبعد فاتحة الرعد
فبالله برد ما بقلبي من الجوى ... بفاتحة الأعراف من ريقك الشهد

وله موشح كبير، أبدع فيه وأجاد، تبارى العلماء في شرحه وإظهار معانيه ودرره، برهن فيه على سعة باعه في العربية والصناعة الشعرية، أوله:

هل درى ظبي الحمى أن قد حما ... قلب صب حله عن مكنس
فهو في جر خفض مثلما ... لعبت ريح الصبا بالقبس

ولعلي في فرصة أخرى أتمكن من شرح بعض أبياته وإبراز مكنوناته والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

موت صديق

للكاتب الفرنسي

من كتابه (رحلة حول غرفتي)

ترجمة الأستاذ خليل هنداوي

سعيد ذلك الذي يجد صديقاً يلائمه منه قلبه وروحه. صديق يجمعه به حدة وذوق، وألفة وعاطفة، وجامعة معرفة. صديق لا يقلقه طمع ولا تسيره مصلحة. صديق يؤثر ظل شجرة على ترف مدينة. سعيد من يملك صديقاً!

كان لي صديق أحتضره الموت مني في عنفوان صباه، ومطلع عمله في العهد الذي أصبحت صداقته حاجة لقلبي شديدة. كنا نتآزر معاً على أعمال الحرب، ولم يكن لنا إلا غليون واحد نتناوبه وكأس واحدة نشرب بها، وسقف خيمة واحدة يظللنا. في الظروف التعسة كان لنا ذلك السقف حيث كنا نحيا معاً وطناً جديداً. رأيته ينجو من كل مهالك الحرب ويسلم من أهوالها كأنما الموت كان يدخر أحدنا للأخر، وكأنما نفذت نباله التي صوبها إليه دون أن تصيبه. ولكن هذا لم يكن إلا ليجعل فقده - عندي - أكثر ترويعاً.

ولقد كان في قعقعة السلاح والذهول الذي يملك النفس من جراء الأخطار ما يحول دون بلوغ آلام نزعه إلى عاطفتي وإحساسي. وموته قد يكون نفعاً لوطنه وشؤماً على أعدائه. لو كان ذلك لكان أسفي عليه قليلاً، ولكني فقدته في وسط المسرات ورأيته يحتضر بين ذراعي في حين كانت تقوى صحته وتتوثق روابط مودتنا في أيام الراحة والسكون.

آه إنني لن أتعزى عن فقده، وإن ذكراه لا تبرح قلبي ولا تحيا إلا في طواياه. وإنها لن تكون في اللذين كانوا يحيطون به أو اللذين حلوا محله، هذه الفكرة تجعل وقع فقده أنأى على النفس وآلم للقلب. وهذه الطبيعة التي تتراءى لنا خلية لا تبالي حظ الناس تضع رداء ربيعها الزاهي وتتزين بأبهى حلل جمالها حول المقبرة التي يستريح جثمانه فيها. فالأشجار مورقة متشابكة الأغصان، تشدو العصافير تحت ظلالها، وللذباب الربعي أغاريد على أزهارها. كل شيء يتنفس فرحاً وحياة في مساكن الموتى، وفي المساء، حين يلمع القمر في السماء، وأنا أتأمل هذا المثوى الكئيب أسمع الصرصور يوالي بطرب إنشاد (أغنيته)

التي لا يسأم ترديدها، متوارياً بين الأعشاب التي تحجب اللحد الذي يثوي فيه صاحبي، إن فساد الكائنات هذا الفساد الذي لا يحس به، وكل نكبات الإنسان ومصائبها لا يعد شيئاً في الوجود الكلي، إن موت إنسان يحس به، يحتضر بين أصحابه اليائسين، وموت فراشة أهلكتها نسيم الصبح البارد في فجوة زهرة، هما حادثان متماثلان عند الطبيعة. فما الإنسان إلا خيال أو ظل أو ضباب يذوب في الفضاء.

خليل هنداوي

الشعر على اللسان النبوي

للسيد جلال الحنفي

الذي لا زلنا نسمعه ونقرأه بحيث بات من البديهيات التي لا يتجادل فيها، وأصبح من غير المحمود الخروج عليه: أن الشعر لم يكن يلتئم على لسان النبي صلى الله عليه وسلم. ويقال إن النبي أنشد قول طرفة المشهور على هذا الشكل:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ... ويأتيك من لم تزوّد بالأخبار

فقيل له: ليس البيت كذلك يا رسول الله، وإنما هو هكذا:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ... ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد

فرجع صلى الله عليه وسلم منشداً للبيت كما أنشده من قبل، ولم يتمكن من إنشاده بلفظه.

وإني لأعجب منتهى العجب كيف يسوغ لأحد أن يتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا العّي الذي ينقص أي امرئ إذا نسب إليه، وناهيك بالنبي وهو أفصح من نطق بالضاد، وصاحب الكلم الجوامع.

ولا أريد هنا أن أدلي بالنصوص التي يعلم منها أن النبي رغب في الشعر وحث عليه وافتخر ببعض رجاله، ودرج على ذلك بقية من أصحابه، وإنما أعرض هنا طائفة من

المواطن التي تقيم الحجة على ما يسند إلى الرسول غير صحيح؛ وأنه أنشد بضعة أبيات في أحوال متعددة من دون أن يخرجها عن سننها.

فلقد أنشد صلى الله عليه وسلم في حفر الخندق من شعر عبد الله بن رواحة:

هذا الحِمال لا جمال خيْبر ... هذا أبرُ ربَّنا وأطهر

ولكن ابن شهاب الزهري قال تعليقاً على هذا تخلصاً من الحجة التي تقع على القاعدة الموضوعة في هذا الأمر، قال:

ولم يبلغنا في الأحاديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثل ببيت شعر تام غير (هذا البيت)

والحقيقة أيضاً خلاف هذا إذ أنه صلى الله عليه وسلم أنشد في حفر الخندق أيضاً لابن رواحة على ما رواه البخاري، ومسلم والمؤرخون:

والله لولا الله ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا

والمشركون قد بغوا علينا ... إذا أرادوا فتنة أبينا

وأنشد رسول الله يوم الخندق أيضاً:

بسم الإله وبه هدينا ... ولو عبدنا غيره شقينا

يا حبذا رباً وحب دينا

وأنشد عليه الصلاة والسلام لأمية:

رجل وثور تحت رجل يمينه ... والنسر للأخرى وليث مرصد

وأنشد فيما أنشد:

أتيناكم أتيناكم ... فحيونا نحييكم

ولولا الذهب الأح ... مر ما حلت نواديكم

ولولا الحبة السمرا ... ء لم تسمن عذاريكم

وكان صلوات الله عليه كثيراً ما ينشد لعنترة:

ولقد أبيت على الطوى وأظله ... حتى أنال به كريم المأكل

وينشد للبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل ... وكل نعيم لا محالة زائل

وإني لأخجل في تحقيق مثل هذا الأمر والدفاع عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما عقلوه فيه من العجز عن النطق بالبيت على وزنه من حيث لا حكمة هنالك، ولولا أن تكون المسألة ضاربة إطنابها بين المعتقدات لما أسلكت قلمي في سبيل نقدها.

(بغداد)

جلال الحنفي

خطيب جامع عطاء

بعض أسباب الضعف في اللغة العربية

للأستاذ عويس القرني

كتب الأستاذ الكبير أحمد أمين في أسباب الضعف في اللغة العربية، ودعا الباحثين أن يدلوا بآرائهم في ذلك ليتبين الأمر على وجهه ونصل إلى علاج ناجع لترقيتها.

وحرص الأستاذ المصلح على ترقية اللغة العربية هو الذي دعاه إلى فتح باب البحث، ولذلك نتقبل نقده قبولاً حسناً؛ والأمر يهم مدرسي اللغة العربية، إذ أن حديث الأستاذ يمسهم في خاصة أمرهم ويرميهم بالتقصير والقصور، فهم يدفعون عن أنفسهم ذلك بأدلة الواقع المحسوس.

ولا يدعونا للدفاع عن أنفسنا عاطفة حزبية، أو رغبة طائفية، فذلك ما لا نرضاه ونميل إليه، وإنما يدفعنا إلى ذلك الرغبة في إظهار الحقيقة.

والأستاذ الفاضل عودنا في بحوثه وتأليفه الإنصاف ووزن الأحكام بميزان الصدق والحق.

ودار العلوم التي رماها بالتقصير والتخلف لم تتوان منذ أنشئت عن أداء مهمتها، ولم تدخر وسعاً في تقويم الألسنة وتثقيف العقول في جميع مراحل التعليم.

وأية نظرة إلى منهاج المدرسة تدل دلالة بينة على مقدار صلاحية أبناء الدار في عملهم؛ فهم يدرسون اللغة العربية أدبها وقواعدها وفقهها، كما يدرسون القران الكريم، والفقه وأصوله، والفلسفة، والمنطق، والتاريخ، والجغرافيا وغيرها يدرسون

تلك العلوم بتوسع على أساتذة أكفاء.
وأبناء الدار منبثون في طول البلاد وعرضها، يعلمون النشء ويقومون أخلاقهم، ويبثون في نفوسهم الوطنية الصادقة ويعودونهم البحث ويشوقونهم إلى الإطلاع.
والعلوم التي يدرسونها في مدرستهم يراها الأستاذ في حديثه الماضي ضرورية لمعلمي اللغة العربية، وهذه المواد لا تتوافر دراستها إلا في ذلك المعهد الجليل.
ودار العلوم لا تدعي الكمال، وهي دائبة في طلب الإصلاح وتعديل منهاجها كلما رأت ضرورة إلى ذلك.
يقول الأستاذ إن خريجي دار العلوم لا يفهمون الأدب القديم ولا الحديث، وهذا حكم لم تصح حيثياته التي تبرره، ومن السهل على كل إنسان أن يرمي الناس بالضعف أو الجهل،
ويظل حكمه موقوفاً إلى أن تتبين دلالاته.
لا يضير مدرسي اللغة العربية قلة التأليف، فإن طبيعة عملهم تثقيف العقول، وتعويدها البحث والتفكير المستقيم، وعقد الصلة بين النشء وبين الحياة، وهم لم يقصروا في واجبهم، والنهضة الفكرية كما يشهد الأستاذ لهم فيها أكبر نصيب.
وعملنا كعمل غيرنا من أصحاب الفنون، فكما لا ينقص من قدر الأطباء والمهندسين والقضاة ألا يؤلفوا في فنونهم التي حذقوها، فكذلك شأن المعلمين.
ونجاح الإنسان في حياته منوط بإتقان عمله، وأداء رسالته
والآن أظهر بعض أسباب الضعف في اللغة العربية، مما لم يذكره الأستاذ في حديثه السابق.
اللغة العامية:
معلم اللغة العربية يبذل مجهوداً كبيراً في تعليمها وتلقينها لأبنائه، ولو كان يسمع التلميذ من بيئاته لغة عربية، ويتحدث بلغة عربية لظهر مجهود المدرس وترقت حال التلاميذ، ولم نشعر بهذا الضعف، والذي يبنيه الأستاذ في الفصل يهدم خارجه في البيت وفي الشارع؛ بل أن بعض مدرسي العلوم الأخرى يتحدثون مع تلاميذهم بلغة عامية، ويقبلون منهم الإجابة بها متى أدت إلى المطلوب، وينشأ من ذلك ما تراه من استهانة التلاميذ بلغتهم الأصلية، ولا يتعودون التجويد ولا العناية متى ما كان دون ذلك يقبل منهم
وما حيلة أساتذة اللغة العربية وحدهم، وهم يبنون وغيرهم يهدم؟ فعلة العلل - على ما أرى - طغيان اللغة العامية على الفصحى في كل مكان، حتى في المدرسة نفسها.
والعلاج أن نعني باللغة العربية جميعاً في محادثاتنا وكتاباتنا حتى نصل بها إلى حالة مرضية، ونقوي أنفسنا بذلك.
وقد لحظت وزارة المعارف وجوب التحدث باللغة العربية، فحتمت على مدرسيها جميعاً التحدث باللغة العربية الفصحى، ولكن الواقع غير ما يجب.
الطريقة
ومن أسباب الضعف التي عرفتها منذ اشتغلت بالتدريس، طريقة التدريس بها. فأمام المدرس منهاج مطول من القواعد وأبواب متعددة، والمنهاج يتطلب منه الشرح بطريقة خاصة ويطلب من المدرس تقسيم المنهاج على شهور السنة، وإلقاء كل درس في ميعاده. وإذا خرج المدرس عن الطريقة المطلوبة إلى طريقة يراها مفيدة إلى التلميذ، فقد يرى رؤساؤه أنه أتى أمراً آدا والطريقة التي نسير عليها الآن يرى التلاميذ فيها عناية بالقواعد فيتوفرون عليها لعلمهم إنها وسيلة النجاح، وطريقة الحصول على درجات عالية، ولا يصرفون في تلك العناية إلى التطبيق العملي، وإلى لباب الأدب، والآثار الفنية التي تكون التذوق، وتثمر العقل وتزيد الثروة، فتجود لغتهم، ويقوى تعبيرهم عما في نفوسهم. والعناية بالقواعد تخرج التلاميذ عن الغاية السامية من العلم، إلى اعتباره وسيلة للنجاح، ولذا يهملون بانتهائه وينسون باجتيازه والذي أراه أن تغير الطريقة الحالية في جميع سني الدراسة إلى طريقة عملية تطبيقية، وذلك إما بعرض نماذج أدبية مختلفة، وإلقاء أسئلة منوعة في الدرس تحوي أجوبتها الصحيحة القواعد المطلوبة، وإما بوصف محسوس أو شرح حادثة، ثم يوجه نظر التلاميذ إلى القاعدة، بعد أمثلة كثيرة، فالقاعدة تدرس كشيء ثانوي لا أولي.
وهذه الطريقة نافعة قد جربتها فثبتت لي فائدتها، وكل عبئها يقع على المدرس في

تحضيرها وإعدادها إعداداً صالحاً، وهي تقرب من الطريقة الطبعية.
القواميس العربية
ومن أسباب الضعف في اللغة العربية فقرها من القواميس الحديثة المصورة التي تحدد المعنى في الذهن تحديداً بيناً.
وأمامنا الآن قواميس قديمة نأخذ منها معاني المفردات مع تقدم الزمن، واختلاف العصور.
ويشاهد الباحث حاجة ملحة إلى مظان البحث فلا يجد، على حين نشاهد في اللغات الأخرى ثروة عظيمة لمن يريد البحث والإطلاع. فعلى من تقع مسؤولية ذلك؟ أعلى مدرس اللغة العربية أم على العلماء؟ أم على الجامعة؟
الحق إننا شاعرون بالنقص، ولكن لا حيلة لنا في الكمال إلا بقدر.
عويس القرني
هل التقليد هو النظرية السائدة في التعليم والتشريع
بمصر الحديثة؟
للدكتور محمد البهي قرقر
في مصر يلاحظ الإنسان العادي إذا ما تتبع الصحف اليومية فحسب تغييراً متتالياً في برامج التعليم وتعديلا من وقت لآخر في قوانين البلاد المدنية.
تؤلف وزارة المعارف لجاناً لتهذيب مناهج التعليم، يكاد يكون ذلك في آخر وفي أول كل سنة دراسية، وتكلف وزارة الحقانية في فترات قصيرة متتالية بعض رجالها المسئولين على شكل هيئات استشارية - تغير بعض مواد القانون الجنائي أو المدني مثلا. كل ذلك تتسابق الصحف في الإعلان عنه، وهو أيضاً حقيقة واقعة تتكرر كلما حدث تغيير أو بعض التغيير في هيئة الحكومة المركزية.
قد يمر الإنسان العادي بمثل هذه الأخبار دون أن يوقف بها وقفة تفكير، بل ربما يعدها مثلا النشاط الحكومي، ولكن الباحث الاجتماعي الذي يربط الحوادث بأسبابها، أو الباحث النفسي الذي يفتش للظواهر النفسية عن مصادرها، لا يدع هذه الظاهرة، ظاهرة التعديل المتكرر، تمر إلا ويستخلص منها نتائجها، ولكن لا في صورة نهائية يقينية - فذلك ما لا يعمد إليه الباحث المتروي - وإنما يضعها في صيغة استفهامية مرددة، وأول ما يخطر بفكره: هل لهذا التغيير والتحوير من سبب؟ هل ذلك السبب أساسي؟ أي له علاقة بالأساس الذي بني عليه التعليم وأرتبط به التشريع، أم هو عرض إضافي؟
وأساس التعليم والتقنين يختلف طبعاً باختلاف أحوال كل أمة، ويتكيف بالظواهر الاجتماعية والأوضاع الجغرافية لكل شعب: فالجنس والدين واللغة والعادات من المقومات الأولية في تكييف التعليم والتشريع. فالجنس - وأقصد به الجنس التاريخي الذي يتكون بمرور الزمن وتنشأ عنه وحدة جنسية - له صفات وغرائز نفسية ربما تباين كل التباين صفات وغرائز جنس آخر، فالجنس الشمالي مثلا عرف بالبطء في الفهم والتروي في التفكير، بينما الجنس الجنوبي - وخاصة سكان البحر الأبيض المتوسط - حاد الذكاء كثير الأخطاء في استنتاجاته العقلية. والدين له دخل كبير إلى حد ما في تكوين العادات الخلقية، الفردية والاجتماعية منها، في كل شعب، بل في وسط شعب واحد، فقد يرى الإنسان في
الشعب مظاهر خلقية متباينة ترجع في اختلافها إلى اختلاف معتقدات الشعب نفسها. وكل لغة - بسبب تميزها بوسائل التعبير التي تنم عن طرق في التفكير لكل أمة خاصة - تعتبر عاملاً مهماً في تلوين التعليم والتشريع لا يقل عن عوامل العادات والوضع الجغرافي والحالة الاقتصادية للأمة.
فالتعليم الطبيعي إذن يسير على وفق غرائز الشعب وصفاته النفسية، لا بد أن يلاحظ فيه دين الدولة ولغتها وعاداتها. وسواء اعتبرت هذه كلها أو بعضها في نظر أمة أخرى أو أفراد منها - بناء على صورة نفسية مخصوصة ملقنة مثلا - ساذجة فطرية أو راقية، فالمبدأ الأساسي هو ربط التعليم بها ربطاً وثيقاً؛ وهذا الربط عينه هو ما يسمى عند علماء النفس والتربية بنظرية التعليم الوطني.
كذلك التشريع. فالجنائي والمدني منه يرتكزان على نفسية الشعب التي تتمثل في أفراده وعلى أخلاق الشعب وعوائده التي للدين فيها أثر كبير. فالمشترك الحديث لا

يفرض عقوبة على جرم مثلاً إلا إذا وثق أن من وراء ذلك الردع والتهذيب، والردع والتهذيب كلاهما مرتبط بمعرفة نفسية المجرم وبظروف الإجرام، والمرآة الوحيدة التي تنعكس عليها نفسية المجرم وتتشخص فيها هي تحليل نفسية الشعب الموروثة والمكتسبة، والمقياس الذي يوضح ظروف الجريمة هي عادات الشعب وقانونه الخلقي، وليست المبالغة في العقوبة وحدها كافية في الردع والتهذيب كما يظن بعض المشترعين. وتشريع العائلة أساسه أيضاً دائماً عادات العائلة نفسها والعرف الشعبي الذي يحيط بها ومعتقدها الديني الثابت فيها ومنهجها الخلقي الذي تسيطر عليه. فإذا كان التشريع على هذه الأسس كان أيضاً تشريعاً وطنياً والتعليم والتشريع إذا كانا وطنيين كانت الغاية منهما محققة وثابتة وهي رفع المستوى التهذيبي للشعب من ناحيتين يلتقيان عند نقطة واحدة؛ إلا أن إحداهما وهي ناحية التعليم، ذات أثر داخلي، والأخرى وهي ناحية التشريع؛ أثرها من الخارج.

وكل حركة سياسية وطنية ترمي - إذا كانت سائرة في طريقها الصحيح - أولاً وقبل كل شيء إلى جعل التعليم والتشريع وطنيين، ولكن لا معنى صبغهما بالصبغة الحزبية وإلا كانت الغاية منهما خدمة شخصية بحتة.

على ضوء هذا التعريف الوجيز يمكن للإنسان أن يتبين أسباب التعديل والتغيير في مناهج

التعليم وفي حركة التشريع بمصر الحديثة.

قسمت مدارس الحكومة إلى درجات معينة: إلزامي وابتدائي وثانوي وجامعي. ووضع لكل نوع من هذه المدارس منهاج خاص، وربما - بل هو الواقع - لا يكون الخطوة الضرورية للنوع الذي يليه من التعليم. ثم لوحظ أنه لا بد أن يكون في المنهاج الخاص لكل نوع وحدة عامة قد تتنافى مع الحالة الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية التي تكتنف كل مدرسة والتي تؤثر إلى حد ما في محيط تعليمها.

ففي التعليم الإلزامي مثلاً يوجد برنامج واحد شامل لمواد التعليم لكل مدارس القطر الإلزامية، بينما المناطق الجغرافية المختلفة وأحوال البلاد الاجتماعية المتباينة لم تنل أية عناية فيه. وهنا يمكن للباحث الاجتماعي أن يدعي أن هذا المنهاج ليس وطنياً؛ إن هو إلا منهاج عبر سفينة التقليد من حيز إلى آخر، من شعب إلى غيره، ولكنه لا يقطع بأجنبيته إلا إذا تحقق من نتائجه، ونتائج التعليم مهما اختلف في أسلوبه يجب أن تكون التهذيب، وبلا ريب لم يكن التهذيب في يوم من أيام حياة التعليم الإلزامي نتيجة له، وإن كان مقصداً له مرسوماً، بل كانت نتائجه، وستكون كلما طال أجله على هذا النحو، إيجاد مشاكل اجتماعية تزداد تعقيداً على ممر الأيام. وليس أصرح في بيان هذه النتيجة من كلمة النائب المحترم الأستاذ عزيز أباظة عند مناقشته ميزانية وزارة المعارف في مسألة التعليم الإلزامي. فهو يقول: (إن الوسيلة المتبعة في التعليم الإلزامي بمصر قد تكون متفقة مع الأحوال الفنية - وطبعاً هو يعني أنها قد تكون طبق النظريات المقلدة - ولكنه يعتقد أن هذا التعليم في وضعه الحاضر لا يفيد البلاد شيئاً) لأنه لم يقم على أسس البلاد الوطنية.

كذلك إذا جاوزنا التعليم الابتدائي والثانوي، وناقشنا التعليم الجامعي، وخاصة ما يدعى منه زعامة التعليم الأدبي والثقافة العربية، رأينا ما يسمى (بالتجديد) الذي صار نغمة تسمع في كل جدل ومناقشة، ليس ما يجري فيه من التعديل إلا تعديلاً وتغييراً لا يعدو أن يكون سببه التقليد أيضاً أو هو التقليد نفسه. فمثلاً إنشاء سنة توجيهية، كمقدمة لدراسة الأدب العربي، يدرس فيها آداب اللغتين اليونانية واللاتينية، مع شدة ما بينهما من ناحية وبين الأدب العربي من ناحية أخرى من تباعد وانفكاك، محض تقليد للجامعات الأوربية، فهذه تحتم دراسة اللغة اللآتينية، لأنها مرجع النقل في العلم الغربي وأصل لمصطلحاته الفنية لليوم.

كذلك تحتم هذه الجامعات على طلب التخصص في الفلسفة الإغريقية دراسة اللغة اليونانية القديمة للعلة نفسها بخصوص هذا الموضوع من الفلسفة عامة، ولكن أمصطلحات فن دراسة الأدب العربي مشتقة كذلك من اللغة اللاتينية أو اليونانية مثلا؟ أم ذلك هو التقليد (والتجديد)؟

كذلك يجد الباحث الاجتماعي نظرية التقليد هي أساس محور التعديل والتغيير في التشريع المصري. فعند قراءتي: (يوميات نائب الأرياف) للأستاذ توفيق الحكيم في

مجلة (الرواية) أستوقف نظري حكاية حادثة قضائية هي نفسها تعد من الحوادث اليومية العادية، ولكنها تعطي للباحث صورة واضحة عن هذا التقليد: (سيقت امرأة ريفية إلى الوقوف أمام محكمة جزئية للحكم عليها، لأن جريمتها أنها غسلت ملابس في ترعة عمومية، فلم يجد القاضي بداً من تغريمها، لأنه أمام نص قانوني) هذا النص القانوني أقتبس من النص الفرنسي الذي هو نتيجة لازمة لمخالفة نظام قائم في فرنسا. هذا النظام القائم هو أن البلديات هناك شيدت أولاً أحواضاً عامة للفقراء للغسل والاستحمام تسهيلا لهم من جهة، ومنعاً لانتشار الجراثيم في مياه عمومية من جهة أخرى، ثم شرعت بعد ذلك هذا النص وهو تشريع طبيعي. فتعديل القانون المصري وإدخال هذا النص الفرنسي فيه دون أن يكون بريف مصر منشئات مثل هذه، تعديل لم يراع فيه إلا التقليد من ناحيته السلبية، ولم يلاحظ بأي حال أسلوب المعيشة في قرى مصر وحالتها الاجتماعية وعوائد أهلها.

وليست أمثال هذه الحوادث القضائية هي التي تظهر فقط أن أساس تعديل القوانين في مصر هو التقليد، بل ما زال بعض كبار رجال القانون المصري المسئولين يباهي ويفتخر بأن التشريع المصري الحديث أصبح يضاهي أحدث القوانين لدى الأمم الراقية. ولكن الأمم الراقية نفسها إذا افتخرت بقوانينها فإنما تفتخر لأنها وفق حضارتها وثقافتها، وفق حالة شعوبها الاجتماعية والاقتصادية؛ وبالعكس تسخر من الشعوب الأخرى التي تحاول تقليدها في تشريعها لذات التقليد وحب الانتساب إلى الرقى والمدنية في شكلها الظاهري. فكثير من الشعوب الغربية يعيب تركيا الحديثة في اقتباسها القانون السويسري مثلاً في أحوال العائلة، والقانون الفرنسي في المسائل المدنية والتجارية - مع إن العائلة التركية لا تجتمع مع العائلة السويسرية إلا في النسبة البشرية؛ أما التربية، أما الغرائز النفسية، أما العادات المتناقلة فشتان ما بينها من اختلاف -. التقنين عند تلك الأمم الراقية ليس عملية هينة يقوم بها القانون وحده، وإنما ساعده الأيمن في ذلك العالم النفسي الذي يبحث في تكييف صفات الشعب النفسية، والعالم الاجتماعي الذي يربط ظواهر الأمة الاجتماعية بأسبابها ويقارن بينها وبين ظواهر أمة أخرى، والعالم الاقتصادي الذي يبحث أسباب ضعف أو ارتفاع ميزان الأمة التجاري وحالة معيشتها.

فالتعليم والتشريع إذا في مصر الحديثة كما يراه أي باحث اجتماعي نفسي أساسه التقليد أو على الأقل هو الجزء الأعظم المكون لهذا الأساس، أما العوامل الوطنية المحلية فنصيبها في ذلك ضئيل. وما يسمى بالحركة الوطنية لا يتجاوز للآن أن يكون حركة صورية فحسب لم تنفذ بعد إلى الباب بل ربما يقال عنها أيضاً إنها تقليدية.

تعليم وطني، تشريع وطني وحركة وطنية في مصر - لم تزل كلها بعد ألفاظاً معانيها غير محدودة، وخيالات لم تقابلها إلى الآن حقائق راهنة. نعم هنالك المواد الأولية لبناء حركة تعليمية تشريعية وطنية، هنالك عادات للأمة، هنالك مقاييس خلقي - وليكن فيها بعض نواحي النقص أو الضعف أو الانحطاط فمعالجة ذلك موكولة إلى المصلح الاجتماعي - ثم هنالك دين ولغة تتمثل فيهما ثقافة الأمة الموروثة كما تتمثل في أبي الهول وأهرام مصر مدنيتها القديمة؛ هناك أيضاً البناء الذي ينقصه فقط الإتمام والتوسيع، هنالك الأزهر الذي رجع بنظره الآن إلى ألف عام مضت - وهو لم يتقوض ولن يتقوض - كمصدر لهذه الثقافة الوطنية، كمصدر لهذا التشريع الوطني. ذلك هو فخر مصر، فجامعة اكسفورد اللاهوتية، جامعة اكسفورد التي هي معقل الثقافة الإنكليزية القديمة الموروثة جيلاً عن جيل، معقل لتقاليد لم تزل وستبقى فخر الشعب الإنكليزي مادام اعتزازه بالمحافظة على التقاليد.

حركة وطنية ما هي إلا حركة رجعية، وليست تقليدية، حركتها تنظر إلى تراث الماضي لتبني عليه مجد المستقبل لا لتقوضه وتستبدل به غيره؛ فالتبديل معناه إنشاء خلق جديد على رغم الطبيعة وسنة الكون، وتلك محاولة شاقة لم تخطر ولن تخطر ببال مصلح اجتماعي عاقل، لأنها محاولة عبث وخيال لن يتحقق. تقليد وحركة وطنية شيئان لا يجتمعان في نظر عالم اجتماعي نفسي، لا يجتمعان في نظر زعيم وطني، وإن كانا قد يجتمعان في نظر روائي خيالي لم يلمس الحقائق بعد؛ قد يجتمعان في نظر من شغف (بالتجديد) والانتساب إلى البحث لا لأنه يحب الجديد ويميل إلى البحث، بل لأنه قد لا

يدري ما هو التجديد وما هو البحث. في المقال التالي سأعالج العلل النفسية لهذا التقليد.

محمد البهي قرقر
دكتور في الفلسفة وعلم النفس من جامعات ألمانيا

على هامش رحلتي إلى الحجاز
في تكية الدراويش

للدكتور عبد الكريم جرمانوس
أستاذ التاريخ الشرقي بجامعة بودابست

خاتمة

وتقع في جانب الجبل مغارة عميقة هائلة ليست كلها من عمل الطبيعة، بل أنهم اجتهدوا في توسيعها شيئاً فشيئاً، فهذه المغارة هي في الواقع مقبرة الدراويش يتوسطها مقام الشيخ الكبير أبو عبد الله المغاوري الذي يرجع الفضل إليه في تأسيس تكية القاهرة، يحف به مئات من قبور الأخوان الدراويش، وهي متناثرة هنا وهناك في جوف المغارة. وأسر الى صديقي بأن هؤلاء الأخوان إنما تحرروا من قيودهم الزمنية وانطلقوا إلى العالم الأخر ليظفروا بلمحات يكشف لهم فيها الغيب، ويروا ما لا تراه العيون. بيد أنني لم أفكر كما فكرت الساعة في أن الرجال في أية لحظة من لحظات حياتهم هم أموات بالنسبة لتلك اللحظة، فليس الوقت هو الذي يمضي سراعاً، ولكننا نحن الذين نبتعد عن الزمن الصامت الثابت.

وإذا ما أراد الزائر أن يهبط إلى جوف المغارة فعليه أن يخلع نعليه أولا ويودعهما في صندوق خشبي مستطيل الحجم بجوار الباب، كما يتحتم عليه أن يدفع بعض ما تيسر في صندوق النذور. ولقد رأيت أن المترددين لزيارة هذه القبور نفر يسير من سكان القاهرة الفقراء، وأخصهم النساء اللواتي يلتمسن شيئاً من العزاء والسلوى في وقوفهن أمام الأضرحة والقبور.

خلعت وزميلي نعلينا وتأهبنا للتوغل في داخل المغارة التي كانت شمس الصباح تنفذ من فوهتها. وبعد أن دفعنا بضعة قروش لحارس المقبرة وهو من الدراويش الأشداء، دلفنا إلى مقصورة الشيخ الكبير مؤسس الطريقة؛ وكان في خارج المقبرة عدد من العجائز يرفعن أيديهن إلى السماء ويبتهلن إلى الله بالدعوات الصالحات، وقد علمت أن في وسع الموسرات منهن أن يدخلن إلى المقصورة ويمسسن الضريح بأيديهن للتبرك - ولكن هذا نادر - أما بقيتهن فمن الفقراء اللواتي لا يملكن قوت يومهن، وهن يكتفين بالوقوف بباب المقصورة وأمامهن أحد الدراويش حاملا في يده مقرعة ليفسح الطريق للزائرين.

إن زيارة الأضرحة في مصر لا تزال من العادات المتفشية بين جميع الطبقات؛ وعلى الرغم من محاربة العلماء لها، فليس من السهل القضاء على الخرافات الكثيرة المتأصلة في نفوس العوام، لأنهم يعتقدون أن بعض الأولياء تحل بركتهم بالمرضى فيبرؤون. ولقد قضى الوهابيون على هذه البدع والنقائض كلها فحرموا زيارة الأضرحة والتبرك بالأولياء، واستطاعوا أن يعيدوا إلى بلادهم الشرائع الإسلامية خالية من كل شائبة. وهم يقولون إن قوة الإنسان في حد ذاتها محدودة، وليس في وسع أي مخلوق أن يشارك الله في قدرته؛ ويعتقدون أن وجود هذه الأضرحة يعيد إلى الذاكرة عبادة الأوثان التي قضى عليها الإسلام وحاربها بكل قوة.

ووقع نظرنا على ضريح الشيخ المغاوري يتوسط المقصورة في مساحة لا تقل عن تسع ياردات، وفي طرف الضريح رأس من الحجر ملفوف عليه قماش أخضر مطرز. وكذلك رأينا شمعتين كبيرتين الحجم موضوعتين بجوار الشاهد، حتى خيل إلينا أنهما حارسان. ولا يجب أن يفهم من هذا إن هاتين الشمعتين موضوعتان لغرض الإضاءة، كلا بل هما للزينة والتأنق، لأننا شاهدنا مصباحاً متدلياً من السقف ينشر ضوءه الشاحب المخيف على وجوه الزائرين.

جلست مع صديقي حسونه على المقعد الحجري المعاقب لضريح الشيخ، نرقب عن كثب هذا المشهد المؤلم، مشهد عشرات النسوة وهن يتمرغن في الخارج على الحجارة ويرسلن أصواتاً مخيفة مزعجة كالنباح، وأومأت إلى صديقي أنه يستطيع أن

يستخلص موضوع رواية يوضح فيها بجلاء حالة المرأة المصرية، ثم يعرج على وصف حالة العامل المصري والفلاح المصري ويحلل نفسية كل منهما. فالفلاح في مصر لا يزال يكد ويشقى، ويلاقي من صنوف الهوان ومرارة العيش، كما كان يعانيه زميله أيام بناء الأهرامات دون تغيير أو تبديل في أسلوب الحياة، وما برحت الخرافات والبدع الدينية ظاهرة الأثر رغم تقدم الحضارة وانتشار العمران، وما زالت مسيطرة على نفوس هؤلاء العوام.

أجل! إنه لولا وجودي في القاهرة لما فكر صديقي حسونه في أن يقصد إلى تلك الخرائب

والأضرحة، ولكني أغريته بزيارتها حتى يتمكن من أن يجمع المواد التي يتألف منها كتاب أو رواية تضم معتقدات العوام وحالتهم الفطرية.

ولا أبالغ إذا قلت إن هذه وهذا الضريح الذي يتوسطها وتلك الأضواء الخافتة المستحيية، وهذا الشيخ الذي تفد النساء لزيارته خاشعات مسترسلات في توسلاتهن الحارة. كل هذه مشاهدة كان لها تأثير خاص على مشاعري. أما حارس الضريح الذي لا يأذن لأحد بالدخول إلا إذا ناوله الجعل المخصص للزيارة فأنه قادنا إلى أقصى المغارة حيث ألفينا نحو ثماني نساء يطفن بالضريح ويلمسن الكسوة بأيديهن تبركا. ولقد حدث أن شاهدت واحدة منهن وهي واقفة كالصنم، شاخصة ببصرها نحو المصباح الذي يرسل ضوءاً خافتاً لونه أحمر، شاهدتها جامدة كالتمثال أكثر من دقائق معدودة، لا تبدي حراكا ولا يهتز لها جفن، وراعني أن ألفيت برقعها الأسود ملقى وراء ظهرها، وكان وجهها شاحباً شحوب الموتى، ولكن صديقي علل ذلك بأن الشمس قلما تسطع على هذه الوجوه، لأنهن يعشن محجبات في داخل دورهن وإذا ما خرجن أحكمن وضع البراقع السميكة التي تحجب على وجوههن ضوء الشمس فيكتسب الجلد لون الصفرة، وكانت هناك عجوز شمطاء تلقي بجسمها على جدار الضريح كأنما الشخص المدفون أحد أحفادها، وثالثة نحيلة طويلة، ترتدي السواد وتلطم صدرها بكلتا يديها، ثم لا تلبث أن ترفعهما إلى السماء وتتوسل بصوت مرتفع. ورأيت الدموع تنحدر من عينيها وقد ارتسمت على وجهها آيات الرعب والفزع، ثم سمعنا بعد ذلك صوتاً يخرج من صدرها، وبعد برهة أخذت تولول وتمزق ثيابها. وكانت هذه الصرخة نذيراً لبقية النسوة اللواتي حافظن حتى هذه اللحظة على الصمت، فأنهن أسرعن إلى تقليد حركاتها والارتماء ثم التمرغ على الثرى والتدحرج حتى يصلن إلى المحراب، وهناك تخور قواهن. أما صديقي فقد راعه هذا المشهد المؤلم الذي يصور حالة خاصة من حالات الأمراض النفسية، فأمسك بذراعي وطلب إلي أن نغادر هذا المكان سريعاً، بيد أنه نسي أن هذه المناظر الهستيرية هزتني هزة عنيفة بحيث كدت أرتمي بدوري على الأرض، لولا أنني قاومت هذه الرغبة وأقصيتها عن ذهني. ما هذا البكاء، وذلك العويل، وشق الثياب؟ لقد تمالكت رشدي ورحت أحدق في وجوهن لأحاول أن أستخلص منها قصة كل واحدة، وإليك نتيجة استنتاجي:

تربى الفتاة المسلمة على الطاعة والخضوع والانقياد، لا على الحرية والصراحة في الرأي والتفكير، فالطاعة والانقياد هما الدعامة الأولى للتربية في مصر، وهذا هو السبيل للحياة المقبلة. فللوالد الحق في أن يجبر أبنته على الزواج من الشخص الذي يختاره لها ويفرضه سيداً عليها، وليس عليها سوى الامتثال لمشيئته، كما أن للزوج سلطة ضربها إذا عصيت له أمراً. وإذا أرادت المرأة أن تثأر لنفسها فليس أمامها سوى طريق واحد، هو طريق المؤامرات السرية والدسائس. والعادة أن جميع الأزواج لا ينظرون إلى زوجاتهن إلا نظرة الازدراء والتحقير، بل إن البعض منهن يعتبرن من سقط المتاع. وهذا هو السبب الذي يدعو الكثيرات منهن إلى أن يقصدن إلى تلك الأضرحة ليتوسلن إلى أصحابها ويستنجدن بكراماتهم من هول تلك الفضائع ولا يخفى ما للعواطف المكبوتة من الأثر السيئ في النفوس، وهؤلاء اللائى يدفن رغباتهن في صدورهن إنما يتعرضن لأفظع الآلام الهستيرية، فيعمدن إلى إقامة حفلات الزار والتوسل بزيارة الأضرحة للبرء مما يصيبهن من الأمراض العصبية.

- إنني لا أزال وأنا أكتب هذه السطور أتذكر صورة هذا الرجل الذي دخل علينا ونحن بضريح الشيخ المغاوري ثم أتخذ موقفه بين الشمعتين وما كاد يرى صياح النسوة حتى راح يهز رأسه عنيفاً بطريقة منتظمة، ثم ينادي بأعلى صوته: الله، الله. . . وبعد برهة

كان يلتوي على الأرض التواء الحية الرقطاء وتتقلص عضلات وجهه، ويرسل صراخا كالنباح قائلاً: الله أكبر! الله أكبر! حتى خيل إلينا أن صخرة المقبرة أوشكت أن تلتقط منه لفظ الجلالة. وكدت أفقد رشدي من هول الموقف، وأحسست كأن حشرجة الموت تنشب مخالبها في حلقي، فأردت أن أستنجد بكل قواي غير أني لم أستطع إلى ذلك سبيلا؛ فجاهدت قدر طاقاتي حتى لا أسقط على مقعدي، ولكن بلا جدوى أيضاً لأنني شعرت كأن بي مسا من الجن، وأن كابوساً قد جثم فوق صدري، وأن العرق البارد يتحلب من وجهي. وأخيراً هدأت نفسي فغادرت المكان وهتفت بصديقي أدعوه إلى الصلاة. ولكنه أجابني بعدم قدرته على أدائها وهو لا يزال يرجف فزعا. فتركته ومضيت إلى القبلة، حيث عادت إلي طمأنينتي الأولى. وبعد الصلاة رحت أفتش عن صديقي فإذا به يقف بجوار المحراب باهت اللون، ينتظرني بفروغ صبر لنغادر هذا المكان الذي يرمقه بعيون مفتحة رعباً.

وتأوه صديقي ونحن نغادر باب المغارة، ثم أفضى إلي بأنه من الصعب أن يشعر بأقل ميل نحو الشرق، حيث الأضرحة والعقائد القديمة البالية والعادات المرذولة، ولكن أمه - تلك السيدة الوقور الطيبة الأخلاق - طالما شكت إلى إيمانه المزعزع واتجاهه نحو الغرب، وكانت تصلي من أجله عسى الله أن يرشده إلى الطريق السوي ويغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

وانطلقنا إلى حديقة المغارة وما كدنا نستقبل الهواء الطلق حتى وقع نظرنا على طائفة من السائحات الأمريكيات وهن يصغين باهتمام إلى شروح بعض التراجمة والإدلاء، فهتفت بصديقي قائلا:

- هذا هو الغرب الذي تتعشقه

(تمت)

عبد الكريم جرمانوس

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

- 12 -

النفس - خلودها - التناسخ

رأيت فيما أسلفنا من مستحدثات عهد التطور تلك النظرية الفلسفية العميقة التي تقرر أن الوجود المادي باطل، ولكنه مشتمل في داخله على جوهر سام هو وحدة الحقيقة في كل موجود، ورأيت كذلك أن هذه النظرية لم تقتصر على كائن في الوجود دون كائن، فهي قد تناولت الآلهة والأناس والحيوان والنبات، غير أن أهم ما يعني الباحث في هذا الجوهر الحق المختبئ وراء الأستار المادية إنما هو النفس.

وقد عني خاصة اليهود بها عناية شديدة منذ أقدم عهودهم بالتفكير، فقرروا أنها هي الجوهر الحق في الإنسان؛ ولذلك أطلق عليها أسم الإنسان لأنهم اعتبروا الجسم بدونها باطلاً لا يستحق أن يدل على الإنسان كما تدل عليه النفس. ولا شك أن الباحث حين يتأمل هذه النظرية للوهلة الأولى يلمح فيها عناصر نظرية (أفلاطون) في النفس والمادة حيث يقرر أن النفس هي وحدها النور الخالد والحق الأسمى في الإنسان، أما الجسمان المادي فأنه خيال باطل لا تطلق عليه كلمة (حقيقة) إلا تجوزاً، لحلول النفس فيه ولصوغه على نماذج المثل التي أبنا أن عناصرها مصرية.

ويرى فلاسفة الهند أن النفس جاهلة بالفعل عالمة بالقوة، وأن الجهل والعلم صفتان متعاقبتان عليها باختلاف الظروف والأحوال. ولا جرم أن الهنود قد سبقوا (أرسطو) بعدة قرون إلى نظرية جهل النفس بالفعل وعلمها بالقوة وفوزها بالعلم الفعلي عن طريق الكسب والتجربة، تلك النظرية التي يبسطها أرسطو بسطاً واضحاً حين يرد على أفلاطون القائل بأن النفس كانت عالمة بالفعل قبل أن تحل الأجسام المادية ثم نسيت تلك المعارف بعد حلولها في المادة الكثيفة، وهي الآن لا تتعلم شيئاً جديداً، وإنما نتذكر ما كانت قد تعلمته في الماضي ثم نسيته.

والنفس عند الهدوء خالدة لا يعتورها الفناء، لأنها هي كل ما في الإنسان من حقيقة

كما أسلفنا، ولهذا فهم لا يعتبرون الموت أكثر من تغيير ثياب النفس ومآويها، إذ إنها هي لا تتعرض بالموت لأي شئ إلا انتقالها من مأوى إلى مأوى بما يسمونه التناسخ أو التقمص. وقد أفاضت الكتب الهندية دينية وفلسفية في هذه العقيدة أو النظرية إفاضة جعلتها كأنها وحي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وهاك شيئاً مما نقله لنا البيروني خاصاً بعقيدة خلود النفس وتقمصها:

قال (باسديو) لـ (أرجن) يحرضه على القتال وهما بين الصفين: (إن كنت بالقضاء السابق مؤمناً فأعلم أنهم ليسوا ولا نحن معاً بموتى ولا ذاهبين ذهاباً لا رجوع معه، فأن الأرواح غير مائتة ولا متغيرة، وإنما تتردد في الأبدان على تغاير الإنسان من الطفولة إلى الشباب والكهولة ثم الشيخوخة التي عقباها موت البدن ثم العود. وقال له: كيف يذكر الموت والقتل من عرف أن النفس أبدية الوجود لا عن ولادة ولا إلى تلف وعدم، بل هي ثابتة قائمة لا سيف يقطعها، ولا نار تحرقها، ولا ماء يغصها، ولا ريح تيبسها، لكنها تنتقل عن بدنها إذا عتق نحو آخر ليس كذلك كما يستدل البدن واللباس إذا خلق. فما غمك لنفس لا تبيد، ولو كانت بائدة فأحرى ألا تغتم لمفقود لا يوجد ولا يعود. فان كنت تلمح البدن دونها وتجزع لفساده فكل مولود ميت، وكل ميت عائد، وليس لك من كلا الأمرين شيء، إنما هما إلى الله الذي منه جميع الأمور وإليه تصير). ولما قال له (أرجن) في خلال كلامه: (كيف حاربت براهم في كذا وهو متقدم للعالم سابق البشر، وأنت الآن فيما بيننا منهم معلوم الميلاد والسن؟). أجابه قال: (أما قدم العهد فقد عمني وإياك معه، فكم مرة حيينا حقباً قد عرفت أوقاتها وخفيت عليك، وكلما رمت المجيء للإصلاح لبست بدناً، إذ لا وجه للكون مع الناس إلا بالتأنس). وحكى عن ملك أنسيت أسمه أنه رسم لقومه أن يحرقوا جثته بعد موته في موضع لم يدفن فيه ميت قط، وأنهم طلبوا موضعاً لذلك فأعياهم حتى وجدوا صخرة من ماء البحر ناتئة فظنوا أنهم ظفروا بالبغية. فقال لهم باسديو: إن هذا الملك قد أحرق على هذه الصخرة مرات كثيرة فافعلوا ما تريدون فانه إنما قصد إعلامكم وقد قضيت حاجاته)

وقال باسيديو: فمن يؤمل الخلاص ويجتهد في رفض الدنيا ثم لا يطاوعه قلبه على المبتغى أنه يثاب على عمله في مجامع المثابين، ولا ينال ما أراد من أجل نقصانه، ولكنه يعود إلى الدنيا فيؤهل لقالب من جنس مخصوص بالزهادة ويوفقه إلى الإلهام القدسي في القالب الآخر بالتدرج إلى ما كان أراده في القالب الأول، ويأخذ قلبه في مطاوعته ولا يزال يتصفى في القوالب إلى أن ينال الخلاص على توالي التوالد)

وقال في كتاب (سانك): أما من أستحق الاعتلاء والثواب فانه يصير كأحد الملائكة مخالطاً للمجامع الروحانية غير محجوب عن التصرف في السموات والكون مع أهلها أو كأحد أجناس الروحانيين الثمانية. وأما من أستحق السفول بالأوزار والآثام، فانه يصير حيواناً أو نباتاً أو يتردد إلى أن يستحق ثواباً فينجو من الشدة أو يعقل ذاته فيخلى مركبه ويتخلص.

قال صاحب كتاب (باتنجل): إفراد الفكرة في وحدانية الله يشغل المرء بالشعور بشيء غير ما اشتغل به، ومن أراد الله أراد الخير لكافة الخلق من غير استثناء واحد بسبب، ومن اشتغل بنفسه عما سواها لم يصنع لها نفساً مجذوباً ولا مرسلاً. ومن بلغ هذه الغاية غلبت قوته النفسية على قوته البدنية. فمنح ألا فتدار على ثمانية أشياء بحصولها يقع الاستغناء، فمحال أن يستغني أحد عما يعجزه واحد. تلك الثمانية هي: التمكن من تلطيف البدن حتى يخفى عن الأعين؛ والثاني التمكن من تخفيفه حتى يستوي عنده وطء الشوك والوحل والتراب؛ والثالث التمكن من تعظيمه حتى يراه في صورة هائلة عجيبة؛ والرابع التمكن من الإرادات؛ والخامس التمكن من علم ما يروم؛ والسادس التمكن من الترؤس على أية فرقة طلب؛ والسابع خضوع المرؤوسين وطاعتهم؛ والثامن انطواء المسافات بينه وبين المقاصد الشاسعة.

تقاليد البراهمة

كتب كثير من العلماء الفرنجة المحدثين المشتغلين بتاريخ الفلسفة حول تقاليد البراهمة وطقوسهم الدينية، فهممت بأن ألخص لك هنا ترجمة ما كتبوه من هذه التقاليد على نحو ما فعلت في الطقوس المصرية، ولكني وجدت ما كتبه أولئك العلماء ليس إلا هيكلاً عظمياً إلى جانب ما نقله أبو الريحان البيروني عن هذه التقاليد، فلم

يسعني إلا العدول عن الناقص إلى الكامل أو القريب من الكمال. وكنت أحب أن ألخص هذا النص في عبارات من عندي لكي لا أكثر من النقل عن الغير، ولكن ضرورة الاصطلاحات الفنية من جهة وخلو كلام
البيروني من الحشو في هذه النقطة من جهة أخرى قد ألجأني إلى الآتيان بالنص لتحقيق الفائدة المرجوة. وهاك ما قاله البيروني عن هذه التقاليد:
عمر (البرهمن) بعد مضي سبع سنين منه منقسم لأربعة أقسام: فأول القسم الأول هو السنة الثامنة يجتمع إليه البراهمة لتنبيه وتعريفه الواجبات عليه وتوصيته بالتزامها واعتناقها ما دام حياً ثم يشدون وسطه بزنار ويقلدونه زوجا من (جنجوي) وهو خيط مفتول من تسع قوى، وفرد ثالث معمول من ثوب يأخذه من عاتقه الأيسر إلى جانبه الأيمن ويعطي قضيباً يمسكه وخاتم حشيشة يسمى (دربهى) يتختم به في البنصر اليمنى، ويسمى هذا الخاتم (بيتر) والغرض فيه التيمن والبركة في عطاياه من تلك اليد، والتشديد فيه دون التشديد في أمر (جنجوي) فأن جنجوي مما لا يفارقه البتة، فأن وضعه حتى أكل أو قضى حاجته خالياً عنه، كان بذلك مذنباً لا يمحصه عنه غير الكفارة بصوم أو صدقة. وقد دخل في القسم الأول إلى السنة الخامسة والعشرين من سنيه، ووجدت ذلك في (بشن بران) إلى السنة الثامنة والأربعين. والذي يجب عليه فيها هو أن يتزهد ويجعل الأرض وطاءه ويقبل على تعلم (بيذ) وتفسيره وعلم الكلام والشريعة من أستاذ يخدمه أناء ليله ونهاره، ويغتسل كل يوم ثلاث مرات، ويقيم قربان النار في طرفي النهار، ويسجد لأستاذه بعد القربان، ويصوم يوماً ويفطر يوماً مع الامتناع عن اللحم أصلاً، ويكون مقامه في دار الأستاذ ويخرج منها للسؤال والكدية من خمسة بيوت فقط كل يوم مرة عند الظهيرة أو المساء، فما وجد من صدقة وضعه بين يدي أستاذه، ليتخير منه ما يريد ثم يأذن له في الباقي فيتقوت بما فضل منه ويحمل إلى النهار حطبها من شجرتي: (بلاس) و (دوب) لعمل القربان؛ فالنار عندهم معظمة وبالأنوار مقترنة، وكذلك عند سائر الأمم فقد كانوا يرون تقبل القربان بنزول النار عليه ولم يثنهم عنها عبادة أصنام أو كواكب أو بقر وحمير أو صور.
وأما القسم الثاني فهو من السنة الخامسة والعشرين إلى الخمسين، وفي (بشن براين) بدل هذه الخمسين سبعون، وفيه يأذن له الأستاذ في التأهل فيتزوج ويقيم (الكذخداهية)، ويقصد النسل، على ألا يطأ امرأته في الشهر أكثر من مرة عقب تطهر المرأة من الحيض، ولا يجوز له أن يتزوج بامرأة قد جاوز سنها اثنتي عشرة سنة، ويكون معاشه إما من تعليم (البراهمة وكشتر) وما يصل إليه منه فعلى وجه الإكرام لا على وجه الأجرة، وإما من
هدية تهدى إليه بسبب ما يعمل لغيره من قرابين النار، وإما بسؤال من الملوك والكبار من غير إلحاح منه في الطلب أو كراهة من المعطى فلا يزال يكون في دور هؤلاء (برهمن) يقيم فيها أمور الدين وأعمال الخير، ويلقب: (برهت)، وإما من شيء يجتنيه من الشجر أو يلتقطه من الأرض، يجوز أن يضرب يده في التجارة بالثياب وبالفوفل، وإن لم يتولها واتجر له (بيش) كان أفضل، لأن التجارة في الأصل محظورة بسبب ما يداخلها من الغش والكذب، وإنما رخص فيها للضرورة، إذ لا بد منها، وليس يلزم البرهمن للملوك ما يلزم غيره لهم من الضرائب والوظائف. فأما التتابع بالدواب والبقر والأصباغ والانتفاع بالربا فأنه محرم عليه، وصبغ النيل من بين الأصباغ نجس، وإذا مس جسده وجب عليه الاغتسال ولا يزال يقلس ويقرأ على النار ما هو مرسوم لها.
وأما القسم الثالث، فهو من ألسنة الخمسين إلى الخامسة والسبعين، وفي (بشن) بدل الخمسة والسبعين تسعون، وفي هذا القسم يتزهد ويخرج من الكذخداهية ويسلمها والزوجة إلى أولاده إن لم تصحبه إلى الأصحار، ويستمر خارج العمران على السيرة التي سارها في القسم الأول، ولا يستكن بسقف ولا يلبس إلا ما يواري سوءته من لحاء الشجر، ولا ينام إلا على الأرض بغير وطاء، ولا يتغذى إلا بالثمار وبالنبات وأصوله، ويطول الشعر ولا يتدهن.
وأما القسم الرابع فهو إلى أخر العمر يلبس فيه لباساً أحمر ويأخذ بيده قضيباً ويقبل على الفكرة وتجريد القلب من الصداقات والعداوات، ورفض الشهوة والحرص والغضب، ولا يصاحب أحداً البتة، فان قصد موضعاً ذا فضل طلباً للثواب لم يقم في طريقه في قرية أكثر من يوم، وفي بلد أكثر من خمسة أيام، وإن دفع أحد إليه شيئاً

لم يترك منه للغد بقية، ولم يكن غير الدؤوب على شرائط الطريق المؤدي إلى الخلاص والوصول إلى (موكش) الذي لا رجوع فيه إلى الدنيا.

وأما ما يلزمه في جميع عمره بالعموم فهو من أعمال البر وإعطاء الصدقة وأخذها، فأن ما يعطي البراهمة راجع إلى الآباء ودوام القراءة وعمل القرابين والقيام على نار يوقدها ويقرب لها ويخدمها ويحفظها من الانطفاء ليحرق بها بعد موته، واسمها (هوم)، والاغتسال كل يوم ثلاث مرات في سند الطلوع وهو الفجر، وفي سند الغروب وهو الشفق، وفي

نصف النهار بينهما، أما بالغداة فمن أجل نوم الليل واسترخاء المنافذ فيه فيكون طهراً من كائن النجاسة واستعداداً للصلاة، والصلاة هي تسبيح وتمجيد وسجدة برسمهم على الإبهامين من الراحتين الملتصقتين نحو الشمس فإنها القبلة أينما كانت خلا الجنوب، فليس يعمل شيء من أعمال الخير نحو هذه الجهة، ولا يتقدم إليها إلا في كل شيء رديء. وأما وقت زوال الشمس عن نصف النهار فانه مرشح لاكتساب الأجر، فيجب أن يكون فيه ظاهراً، والمساء وقت العشاء والصلاة، ويجوز أن يفعلهما من غير اغتسال، فليس أمر الاغتسال الثالث مثل الأول والثاني في التأكد، وإنما الاغتسال الواجب عليه في الليل وفي أوقات الكسوفات بسبب إقامة شرائطها وقرابينها. وتغذي البرهمن في جميع عمره في اليوم مرتين عند الظهيرة والعتمة، فإذا أراد الطعام أبتدأ بإقرار الصدقة منه لنفر أو نفرين وخاصة للبراهمة المتوحشين الذين يجيئون وقت العصر للسؤال، فأن التغافل عن إطعامهم إثم عظيم، ثم للبهائم والطير وللنار ويسبح على الباقي ويأكله، وما فضل منه فيضعه خارج الدار ولا يقرب منه إذ لا يحل له، وإنما هو لمن سنح واتفق من محتاج إليه، سواء أكان إنساناً أو طائراً أو كلباً أو غيره، ويجب أن تكون آنية مائه على حدة وإلا كسرت، وكذلك آلات طعامه. وقد رأيت من البراهمة من جواز مؤاكلة أقاربه في قصعة واحدة وأنكر ذلك سائرهم.

(يتبع)

محمد غلاب

من صور الشارع:

العدالة

للأستاذ أمجد الطرابلسي

اللّيلُ داجٍ وأعاصيرُهُ ... مجنونةٌ تضحكُ منه الرّعودْ
والبرقُ في آفاقِهِ لاهِبٌ ... كشعْلَةِ الغيظِ بصدْرِ الحسودْ
والمطرُ الدَّفّاقُ في لجِنهِ ... مسترسِلٌ يُبَدِّئُهُ أو يُعيد
يصافحُ النهرَ فتعلو لهُ ... نَغمةُ نايٍ وأرانينُ عود
والشارعُ الجَهْمُ مصابيحُهُ ... كأعينِ الذؤبانِ فوق النجود
قَفْرٌ منَ الناس، فلا سيّدٌ ... يخطرُ مختالاً ولا من مَسود
إلا عرابيدُ هُنا أو هنا ... كأنما أرْجُلُهُم في القيود
يبغونَ مَنْجى من مُلِثِّ الحيا ... لولا خُمارٌ مُسْتَبِدٌّ عنيد
ونام. . . إلا مرقصاً فاجراً ... يقظانَ لا يعرفُ معنى الهجود
نهارُهُ الليلُ، وسُمارُهُ ... كُثْرٌ إذا أغفى الغبيُّ البليد
تمزّقُ الدجيةَ أنوارُهُ ... كأنها أنوارُ عُرسٍ وعيد
وتطربُ الشارعَ أنغامُهُ ... رَنّانَةً صَخّابةً من بعيد
دخلته. . . يا حسنَه منظراً! ... راحٌ ورَوْحٌ ولحونٌ وغيد
من كلِّ خَوْدٍ خلِقَتْ فتنةً ... لحظا وقدّاً ونهوداً وجيد
وأهوجٍ في عنفوانِ الصِّبا ... صريع كأسٍ ومُعنى خدود
والناسُ في رقصٍ وفي نَشْوَةٍ ... حولَ دُمى الحسنِ قيامٌ قُعود
ما منهُمُ إلا فَتى عابثٌ ... ما فيهمُ إلا الضَّحوكُ السّعيد
كأنّهمْ في فَرَحٍ دائمٍ ... مُذ نزلوا الأرضَ وعيشٍ رغيد
يا شاكياً أوصابَ هذي الدُّنا ... لا زلتَ إلفاً للضّنى والجمود
أتدَّعي البؤسَ وتشكو الورى ... ورهنُ كفيكَ المنى والسُّعود
أليس فوقَ الأرضِ غيرُ الأسى ... أما تَرى عيناك غيرَ اللحود
هذي الأغاريدُ وهذا الهوى ... وذلك الحسنُ وتلك القُدود

وهذه الأقداحُ فَوّارةً ... والدلُّ والسِّحر وخفقُ النُهود
أليسَ فيها ما يَبُلُّ الصَّدى ... ويفْرِجُ القلبَ المعنى العميد
عدتُ إلى الشارع نَضْرَ المنى ... والكونُ في عَيَّني خلقٌ جديد
تقولُ لي النفسُ وقد أُنْسِيَتْ ... ما أَلِفَتْهُ من شَقاءٍ تليد:
أليسَ حقّاً صفو هذي الدُّنا؟ ... أليسَ لي من خيرِها ما أريد؟
وسرتُ نشوانَ حليفَ الرِّضى ... يغْمُرُ جَفنيَّ جمالُ الوجود
فرحان. . . لولا منظر لاحَ لي ... أماتَ في قلبي الحبورَ الوليدْ
طفلٌ على وجهِ الثرى نائمٌ ... كأنهُ الجيفةُ فوقَ الصَّعيد
تحسبُهُ في بؤسهِ كوكباً ... تحت نُثاراتٍ من السُّحْبِ سودْ
تدفعُ عنه البردَ أسمالهُ ... لو تَدْفَع الأقدارَ كفُّ العبيد!
وجاَءه الشُرْطيُّ مستأسداً ... يحرِمُهُ هذا الرقادَ الشّرودْ
أليسَ في مَنظَرِهِ غُصَّةٌ ... لسادةِ الأرضِ عبيدِ النقود؟
أما على الدولة غَسْلُ الثرى ... من الفُضالاتِ وما لا يفيدْ؟!
أيقظهُ من نومهِ هاتفاً ... بلهجة الآمر ربِّ البنود
(هَيّا إلى دارِكَ. . . . هَيا أفِقْ! ... في الدارِ لا فوقَ الرَّصيفِ الهجود!)
الدّار! ما الدار؟ وما شأنُها؟ ... ما الأهلُ؟ ما آباؤهُ؟ ما الجدود؟
وهل ينامُ الناسُ في دورهم ... أم مثلهُ فوق الصّفا والجليد؟
وهل له بين الصّروح العُلى ... قصرٌ مشيدٌ، أو مَقرٌّ وطيد؟
يا ناسُ. . . دُلوه على مقبرٍ ... وَهْوَ بهِ راضٍ شكورٌ سعيد!!
يا نعمةَ الدنيا ويا عدلها! ... ماذا جنى هذا البَريءُ الشهيد؟
أماله مُتسَعٌ ناعمٌ ... وسْطَ المقاصيرِ وفوقَ المهود؟
ضاقَ الثرى عنه وأترابهُ ... بين الرياحين وفوق الوُرود
أليسَ حُلْما صفو هذي الدنا ... وفوقها هذا الشقي الشريد!؟
يا طفلُ عِشْ فوق الثرى جائعاً ... وقضِّ أيامَك كلْباً طريد!
ليَهنكَ الفقرُ وويلاتهُ ... فالفقرُ بُنْلٌ وسموٌّ وَجود!
إن جعتَ فالمجدُ طعامٌ. . وإن ... ظمِئتَ فالنبلُ شراب برود!
لا تحسدِ الناسَ على حظِّهم ... فالأم الناسِ شقيٌّ حسود!
ولا تكن لصا ولا مُجْرِماً ... فإن عقباكَ العذابَ المبيدْ!
ولا تَدَعْ للغيظِ من مَسْرَب ... إلى حناياكَ ولا للحقود!
وأربع على الذلِّ ولا تأبه ... واسجُدْ لمن يطلبُ منك السجودْ
فغاصبُ الأموالِ حرٌّ بها ... يبخلُ إن شاَء أو يجودْ!
مالكَ والدنيا ولذاتها ... ألم تقدَّرْ لكَ دارُ الخلودْ.!؟
إيهِ خروفَ الذبحِ مثْ يائساً ... فالكونُ للعِقبان أو للأسود!
أو فاتخذ بين الورى مخلباً ... كمخلب الليثِ وناباً حديد
. . .!ثم أنتزع حقك مستنسراً ... ولا تدعهُ لُعْبةٌ للقُرود
(دمشق)
أمجد الطرابلسي
عناد. .!!
خطبت إليه عروس الخيال ... أزف إليها المنى الساميه
أزف إليها أغاني السماء ... وأمهرها مهجتي الغالية
وأجعل حبي لها هكيلا ... تكون صلاتي به ناميه
غلائلها من ضياء النجوم ... وأزرارها القبلة الواريه
منازلها حيث شاء النعيم ... وأبوابها في يدي الحانيه
وأحلامها طول أيامها ... كما تحلم الزهرة الراويه
تطوف عليها طواف السلام ... وترقص رقصاتها العاريه
أفيء إليها بشوقي الوفير ... فتلقى به نعمة العافيه
نظل كطيرين في روضة ... أليفين في عيشه راضيه
نطير كروحين في جنة ... نعانق أحلامنا الظاميه
نقبل خد الصباح المنير ... ونرقص للنسمة الساريه

وأنت تبارك أشواقنا ... وتبني لنا العش في الداليه
فندعو بكل أهازيجنا ... لمنشئ جنتنا الدانيه
وننشد أنغامك السامعات ... ونشكر آلاءك الضافيه
حنانك لا أنت قارون في ... خزائنه الأنهر الجاريه
ولا أنت (فوردٌ) ولا شبهه ... ولا أنا ذو راحة خاليه
فهذا وذاك رهين الفناء ... وكل سيقضي بلا باقيه
يعدد آلامه ذو الغنى ... كعد دنانيره الفانيه
ولكن قلباً كبير الغرام ... يعيش الحياة. . . الثانيه
(الكرك)
حسني فريد
رسالة الفن
ميكيلانجلو
العبقرية الملهمة
للدكتور أحمد موسى
خاتمة
أما المرحلة الثانية التي تنحصر بين سنة 1505، 1535 فهي تبدأ عندما رحل إلى روما وأقام فيها، حيث أتم أبرز عمل في حياته، ألا وهو تصوير السقف السكستيني بالفاتيكان على الجص (الفرسكو)، فظل من مايو سنة 1508 إلى خريف سنة 1512 منكباً على العمل لا يعاونه مساعد ولا ينصرف إلى غيره؛ الأمر الذي عاد عليه بشيء من حدة الأعصاب يؤوله غير عارفيه بكراهيته للناس.
وهذا السقف مقبب يتوسطه حقل يكاد يكون مسطحاً، وجنوبه مقببة أيضاً ولكن بشكل سيمتريكي متناظر، يتخلل هذه الجوانب نوافذ على هيئة أهلة.
ولا بد أن تؤدي بنا الرغبة في تفهم إنتاج ميكيلانجلو تفهماً صحيحاً إلى تقسيم تصويره هذا السقف إلى أربع شعب: إحداهما تتناول المصورات الدينية التي صورها في وسط السقف في تسعة حقول عدا صور الجوانب التي منها أربع كبيرة والأخرى صغيرة؛ محاطة كلها بإطارات وجامات من الشبهان (البرونز)؛ والأخرى تمثل مناظر تاريخية للعهد القديم كخلق الدنيا، وخلق آدم وحواء، ونوح والطوفان، والخالق يبدي إرادته، وتناولت غيرها خلق النور من الظلام، وخلق الشمس والقمر والنبات، وخلق الحيوان، وخلق آدم. وفي هذه القطعة عبر عن نهاية النهايات أبدع تعبير يمكن أن يتصوره ويخرجه فنان، وخلق حواء والخطيئة والطرد من الجنة، وفي هذا أجاد في تمثيل قوة الإرادة عند حواء، والطوفان.
وله صور على الجوانب المقببة لا يتسع المجال لذكرها جميعاً، ولكني أقتصر على ذكر أهمها من الصور التاريخية، التي من أروعها صور الأنبياء والكاهنات وهي تقع بين فتحات النوافذ، وقد أجاد تصويرها وكلها ترمي إلى نشر رسالة الخلاص والتبشير بانتهاء الجاهلية واليهودية. وأستطيع أن أقرر أن هذه المناظر أجمل وأعظم ما أبدعه فنان على مر القرون، فهي الكعبة التي يحج إليها كل فنان حيث يقف ناظراً مستلهماً، فيذهب به خياله إلى التسبيح بذكر العلي القدير الذي جعل من بين خلقه من استطاع الوصول بالفن إلى هذا الكمال. يقف المشاهد أمام هذا الخلق الرائع والجمال السامي والنبل العظيم كما لو كان في حلم هنئ فيشعر دون إرادة منه بعبيق العبادة يحيط به، ونقاوة القلب وصفاء الضمير يغمر كيانه، ويحس أنه قد تجرد من حاجات النفس المادية، ثم لا يلبث أن يرجع ببصره مطأطئ الرأس أمام العظمة الإلهية التي تمثلت خير تمثيل في إبداع العبقري الملهم
ولا بأس من أن نعرج قليلاً على ذكر بعض هذه المصورات التي أرى أن أهم ما يجب تعريفه للقارئ منها هو: صورة جرمياس وقد غطت وجهه تجاعيد الهم والتفكير والكرب، وصورة يونس والحوت. وصورة كاهنة عجوز ساحرة.
كما أن له صوراً قصد بها التحلية ولم يسمها وهي تشمل رجالاً وأطفالاً، وقد عرت جسوم الأولين، ويستوقف المتأمل في هذه الصور جمال التفاصيل وقوة الإخراج، والإبداع في إبراز الحركات الجسمانية كاملة قوية مما يجعلها تنبض بالحياة وتتحدث عن عظمة الفن.

ومن هذا نرى أن السقف السكستيني هو أعظم إنتاج وصل إليه ميكيلانجلو، ليس في هذه المرحلة الثانية فقط؛ بل في حياته كلها، لأنها مثلت القدرة الفائقة في الخلق الفني الأسمى والتفوق الرائع في التعبير عن المثل الأعلى، كما تعرفنا بعينيه المحيطتين اللتين نظر بهما إلى الحياة فتغلغل إلى كنهها.

وسافر بعد هذا إلى فلورنسا وهناك لا نعرف له إلا صورة واحدة أسماها (ليدا والبجعة) وهي مصورة بطريقة تمبرا (راجع المقال السابق) أتمها سنة 1530، وللأسف توجد في أسوأ حال بالناشيونال جاليري بلندن.

وكان أهم عمل له في المرحلة الثالثة صورته (ليوم القيامة) وهي هائلة عملها بالفرسكو على حائط الهيكل السكيتيني من سنة 1535 إلى سنة 1541، وتشمل السيد المسيح كقاضي العالم وإلى جواره مريم وحوله القديسون وبالقرب منه صورتان رسمت كل منهما في نصف دائرة ممثلة مجموعات من الملائكة.

أما في الوسط فيوجد سبعة ملائكة رفع الأتقياء إلى النعيم وعلى اليسار الإلقاء بالمغضوب عليهم في الجحيم، وهنا نرى عبقرية ميكيلانجلو قد بدت في أقوى مظاهرها.

وتحت هذه المناظر صورة أخرى تمثل البعث وغيره من المناظر الدينية، كلها عظيمة الإنشاء قوية الإخراج، وفيها يتمثل العنف والسيطرة الكاملة على التصوير الجسماني في أروع مظاهره وأبدع حركاته، وقد تحقق بإخراجها على يد ميكيلانجلو حلم الفنانين والمثل الأعلى لمؤرخي الفن الذين يعتبرون خلقه وإبداعه أسمى مقياس يمكن الوصول إليه؛ ولا سيما أنه قد تحرر في كثير من هذه المناظر من قيود الكنيسة وتعاليمها، طامحاً نحو السمو والكمال الفني المنشود، فخرج عمله شعراً منثوراً من الناحية المعنوية، وتصويراً عظيماً من الناحية الفنية.

والناظر إلى هذه الصور يرى عليها شيئاً من اللون الدخاني قد غلبه على كل ألوانها مرور مئات السنين وكثرة إشعال البخور داخل الكنيسة.

أما آخر أعماله التصويرية فهو مجموعة المصورات المسماة (باولينا) وهي أيضاً بالفاتيكان بروما. وأهمها صورتان عظيمتان كبيرتان، الأولى لظهور المسيح، والثانية لصلب بطرس (1545 - 1550) وهما لا تقلان روعة عما سبقهما، ولو أن طريقة الإخراج كانت على كل شيء يسير من التكلف، أما الثانية فقد ظهرت واضحة جلية في الكيفية التي سار عليها في تصوير الأجسام الهائلة التي بدا عليها العنف والحركة.

ومهما حاولنا الوصف فأن مشاهدة هذه المناظر مما لا بد منه لمن يريد الوقوف على مدى القوى البشرية الموهوبة من الخالق ومدى ما يمكن الوصول إليه من عمل فني رائع، إن قدر لنا أن نفهمه استطعنا أن نستمتع بناحية من أسمى وأروع نواحي الاستمتاع الإنساني.

وله أيضاً في هذه المرحلة صورتان تخطيطيتان لمعشوقته فيتوريا كولونا، ويتجلى فيهما تأثره بالدين، كما نلاحظ من عنايته الفائقة ما كان لهذه المعشوقة من قدر في نفسه وأثر عليها، أما صورته لمريم والمسيح مأخوذا من الصلب، وصورته للمسيح مصلوباً فان أصولهما مجهولة للآن.

وتكاد تكون جامعة أكسفورد هي الفريدة التي حصلت على مجموعة جيدة من تصويره الخطي، ويعقب ذلك جاليري بوناروتي في أوفيسين والمتحف البريطاني ومتحف اللوفر.

تلك صفحة مبسطة لحياة رجل خالد أعتبره الفن إماماً والتاريخ مقياساً، فمحاولة الإحاطة به هنا متعذره؛ لأن إبداعه الفني وتحليل آثاره العظيمة لا يحيط بها إلا ضخم المجلدات.

أحمد موسى

البريد الأدبي

شيخ الأزهر وقت مقدم النابلسي

ذكرت ضمن مقالي المنشور بالرسالة (عدد 208) عن رحلة الشيخ عبد الغني النابلسي في مصر في أواخر القرن السابع عشر واقعة وردت على لسان الرحالة أكثر من مرة، وهي أن شيخ الأزهر وقت مقدمه إلى القاهرة في أوائل سنة 1105هـ (1693م) كان (الشيخ منصور المنوفي الأزهري الشافعي الضرير)؛ فعلق الأستاذ عبد

المتعال الصعيدي على هذه الواقعة (الرسالة رقم 209) بكلمة أبدى فيها ارتيابه في صحتها، وذكر نقلاً عن الخطط التوفيقية أن شيخ الأزهر وقت مقدم النابلسي لم يكن سوى الشيخ محمد النشرتي المالكي، وأنه تولى مشيخته من سنة 1101هـ إلى سنة 1120هـ.

وقد رجع الأستاذ الصعيدي بنفسه إلى رحلة النابلسي (الحقيقة والمجاز)، فألفى ما نقلته عنه صحيحاً، وأنه أشار إلى الشيخ منصور المنوفي ووصفه أكثر من مرة بأنه شيخ الأزهر ولكنه مع ذلك يصر على ارتيابه في صحة هذا الوصف.

ولم اكن أقصد حين كتبت مقالي عن رحلة النابلسي أن أحقق من كان شيخ الأزهر في ذلك الحين، فهذه مسألة لم تكن ذات شأن في موضوعي، وإنما قصدت قبل كل شيء أن أستخلص من هذه الرحلة الصورة التي يقدمها لنا الرحالة عن مصر ومجتمعها في ذلك الحين؛ على أني مع كل ما نقله الأستاذ الصعيدي عن المصادر المتأخرة (مثل الجبرتي والخطط التوفيقية) لا زلت أميل إلى الأخذ بقول النابلسي من أن الشيخ منصور الأزهري كان شيخاً للأزهر حسبما يقدمه لنا، أولاً لأن هذا القول هو قول معاصر وشاهد عيان عرف الشيخ وحادثه بنفسه، ولست أعتقد أنه يسبغ عليه هذه الصفة عفواً، وثانياً لأن الشيخ النابلسي يقدم إلينا بياناً صحيحاً عن أكابر الحكام والمشايخ في مصر وقت مقدمه، ومن الصعب أن نعتقد أنه يخطئ في تعرف شيخ الأزهر وهو من الشخصيات البارزة التي يهمه أن يتصل بها أما كون الشيخ النابلسي يسبغ هذه الصفة على شيخ آخر وكون المصادر المتأخرة تذكر أن شيخ الأزهر في ذلك الحين هو الشيخ النشرتي فقد يمكن تفسيره بأن الشيخ المنوفي لم يمكث في المشيخة سوى اشهر وربما أسابيع قلائل، وعلى ذلك فقد أغفل المتأخرون ذكره في ثبت مشايخ الأزهر.

وعلى أي حال فأنه مما يصعب على المؤرخ إغفال قول معاصر وعلامة ثقة كالشيخ النابلسي.

محمد عبد الله عنان

بحوث طبية هامة لطبيب مصري

رفع الدكتور أنيس أنس بك الطبيب الباتولوجي الأول بمعامل وزارة الصحة إلى صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا نتيجة بحث علمي قام به أخيراً وتناول فيه موضوعين:

الأول خاص بسبب تضخم الطحال في القطر المصري ووادي النيل بوجه عام؛ وقد سبق لباحثين كثيرين أن بحثوا في هذا الموضوع منذ أربعين سنة فلم يصلوا إلى نتيجة حاسمة، وتضاربت الآراء العلمية حول سبب (تضخم الطحال) فقال بعضهم: إن سببه (ميكروب) مجهول، وقال آخرون: إنه نوع من الفطريات. إلخ. غير أن الدكتور أنس بك اهتدى إلى أن السبب الحقيقي لهذا التضخم هو بويضة البلهارسيا (المرض المتوطن في مصر ووادي النيل). وقد اعتمدت الجمعية الملكية البريطانية لطب المناطق الحارة والصحة العامة هذا البحث في جلستها المنعقدة بتاريخ 25 أبريل سنة 1937 ونشرته بمجلتها.

أما البحث الآخر فقد أقترن بقيام الدكتور أنس بك بعدة إحصاءات لعمليات الزائدة الدودية فاهتدى إلى أن معظمها أو ما يقرب 60 % منها راجع إلى التهاب حاد ناشئ عن الإصابة بالبلهارسيا أيضاً وخاصة في المديريات الشمالية، وقد بين أنس بك أنه لا ضرورة لأجراء العملية لهؤلاء المصابين بل يكتفي بعلاج سببها وهو مرض البلهارسيا.

ثم أوضح في بحثه كيفية الوصول إلى التمييز بين التهاب الزائدة الدودية الصديدي الذي ينتهي غالباً بالتهاب البريتون والوفاة، وبين التهاب الزائدة الدودية الناشئ عن إصابة البلهارسيا. فكان هذا أول بحث من نوعه في عالم الطب. وقد قامت الجمعية الدولية للجراحة في مؤتمرها العاشر ببحث هذه النتائج فاعتمدت ما انتهى إليه الدكتور أنس بك ونشرته على نفقتها باعتباره استكشافاً جديداً لم يسبق المؤلف المصري إليه أحد.

في الأكاديمية الفرنسية:

احتفلت الأكاديمية الفرنسية أخيراً باستقبال عضو جديد فيها هو الكاتب القصصي والصحفي الكبير إدمون جالو وقد انتخب للكرسي الذي خلا بوفاة الشاعر والقصصي والنقادة الأشهر بول بورجيه الذي توفي منذ بضعة أشهر، وكان بورجيه يشغل هذا

الكرسي منذ أكثر من أربعين عاماً؛ وقد أفتتح إدمون جالو عهده في الأكاديمية كالمعتاد بإلقاء حديث طويل عن سلفه وعن حياته الأدبية ومميزاته ومواهبه؛ وكان أهم ما في حديثه أن بورجيه قد تأثر في حياته بحادثين عظيمين طبعا حياته كلها بطابع خاص؛ أولهما وفاة والدته وهو طفل وزواج والده من سيدة أخرى، وثانيهما أنه رأى حكومة الكومون في باريس (سنة 1871) وقد اثر الحادث الأول في نفسيته أعظم تأثير، واستطاع أن يدرس خلاله تلك العاطفة التي كثيراً ما ينوه بها في قصصه وهي: (الغيرة)

وإدمون جالو من كتاب الجنوب في فرنسا، وهو مرسيلي الأصل، وله عدة روايات وقصص ممتعة، وهو صحفي يكتب في كبريات الصحف الفرنسية فصولا أدبية مختلفة.

وطن قومي للنور

أختار النور (الغجر) في بولونيا لهم ملكاً جديداً، ومنهم في بولونيا بضعة عشر ألفاً مفرقين في سائر أنحائها؛ وقد صرح الملك الجديد بأنه سيعمل على حل مسألة الوطن القومي للنور وسيزور السنيور موسوليني لأجل هذه الغاية، وربما استطاع النور أن يجدوا لهم وطناً قومياً في الحبشة يلم شعثهم ويجمع صفوفهم؛ وهذه مسألة قديمة تبحثها بعض الجمعيات السياسية في إنكلترا وألمانيا منذ نحو قرن، بيد أنها لم تعمل لها شيئاً لحلها. على أن النور استطاعوا خلال القرن الأخير أن يحصلوا على حقوق المواطنين في معظم البلاد الأوربية مثل النمسا والمجر ورومانيا. وقد أخذ الكثيرون منهم يهجرون حياة البدو، ويستقرون على قواعد الحضارة الحديثة، واندمج الكثير منهم في المجتمع الحديث ونسوا لغتهم وعاداتهم القديمة؛ وقد حصل النور في بلاد البلقان على حقوقهم السياسية بمقتضى معاهدة برلين في سنة 1878؛ وفي سنة 1906 عقدوا أول مؤتمر من النور في صوفيا وطولب فيه بمنح الحقوق السياسية لنور تركيا؛ وخطب يومئذ رئيس النور رمضان عليف، وحثهم على المطالبة بالحقوق السياسية.

والآن يرى النور أن يقوموا بحركة جديدة لإنشاء وطن قومي خاص بهم على مثل ما فعل اليهود في فلسطين. ومن المستحيل أن يعرف عدد النور، بيد أنهم يبلغون في أوربا وما حولها نحو ثلاثة ملايين.

متحف للآلات الموسيقية

افتتح متحف في نيوبرت من أعمال نيرمبرج (ألمانيا) يحتوي على مجموعة فريدة من الآلات الموسيقية هي أتم مجموعة من نوعها، وتضم هذه المجموعة نماذج من الآلات الموسيقية في القرون الخمسة الأخيرة، وكلها في حالة جيدة من الحفظ ويمكن العزف عليها، وهي بذلك تقدم إلى الموسيقيين ومؤرخي الموسيقى مادة بديعة للدرس والتأمل، وبواسطتها يمكن استعراض التطورات المختلفة في تركيب البيانو الذي اصبح أداة العصر وكيف أصبح على ما هو عليه الآن، ومن النماذج المعروضة بهذا المتحف معزف (اكلافسان) صنع في سنة 1703 ذو ثلاث أنغام وكان ملكا لآل مديتشي سادة فلورنس، وبيانو صنع سنة 1740 في أوبرزنتوفن من أعمال بلغاريا، وبيانو آخر كان ملكا لأمير الموسيقى موتسارت من صنع كيرنباخ بمايانس، ونماذج أخرى لآلات مختلفة ترجع إلى القرنين السابع عشر والثامن عشر.

موسم الفن والموسيقى في سالزبورج

يقام موسم الفن والموسيقى في مدينة سالزبورج (النمسا) هذا العام بين 24 يوليه و 31 أغسطس، وقد غدا هذا الموسم حادثاً فنياً عالمياً يجلب إلى سالزبورج في كل عام آلاف الزائرين من مختلف الأقطار، ويشرف على إحياء هذا الموسم كالعادة أقطاب الفن العالميون نمسويون وغيرهم، مثل أرتورو توسكانيني، وبونوفالتر، وماكس رينهارت، وهانس كنبرتسسبوش، ومعروف أن سالزبورج هي موطن موتسارت، ولهذا تحظى أوبراته بعناية خاصة، وسيمثل منها هذا الفصل (دون جوان) (والمزمار المسحور)، (وليل فيجارد)، وتمثل أوبرات خالدة أخرى مثل (الأساتذة المغنون) لفاجنر، و (فيدليو) لفان بتهوفن، و (فالستاف) لفيردي؛ وأوبرات أخرى لريخارد شتراوس؛ كذلك تقام حفلات موسيقية عظيمة من مقطوعات موتسارت وشوبرت، وبيتهوفن وفبير وهايدن وغيرهم، ومنها حفلات كنسية تقام في كاتدرائية سالزبورج،

وإلى جانب هذه الحفلات التمثيلية الرائعة التي تقام في مسرح البلدية الكبير تقام طائفة أخرى من الحفلات الباهرة في مسرح
موتسارت من أول يوليه إلى أول سبتمبر، وتموج مدينة سالزبورج أثناء هذا الموسم الفني العظيم بالزائرين من مختلف أنحاء الأرض، ويبلغ الإقبال على هذه الحفلات حدا لا يتصور، بحيث يستحيل على الراغبين أن يفوزوا بتذكارهم إذا لم تحجز قبلها بأسابيع.
ذكرى أبى العلاء في الرابطة العربية
رأى مجلس إدارة الرابطة العربية وقد حان موعد العيد الألفي لفيلسوف العرب وحكيمها وشاعرها (أبي العلاء) أن يوجه إلى العالم العربي نداءه ورجاءه أن يعاونه في المهرجان الأدبي الكبير الذي سيقيمه تخليداً لهذه الذكرى وإشادة بأدب هذا الشاعر الذي يعد مفخرة العالم قاطبة والشرق خاصة.
وإن الرجل الذي تدعو الرابطة إلى الاحتفال بذكراه الألفية ليس بأقل مكانة من أدباء العالم الذين قادوا الذهن الإنساني وأناروا دياجير الحياة بما وهبوا من حكمة، فهو في مقدمتهم بل مجليهم الأوحد، فان قامت الشعوب الغربية بتخليد ذكرى هؤلاء الفلاسفة في مواسم حافلة يحج إليها الناس من كل فج ليتلقوا منها الوحي والإلهام الأدبي، فالأحرى بالشرق العربي أن يخلد ذكرى فيلسوفه العظيم.
وإن الروح الطيبة التي أملت الاحتفالات الفخمة بتخليد ذكرى المتنبي لتجعل الأمل قوياً والرجاء كبيراً في أن يلقى هذا النداء كل إقبال وتشجيع.
هذا وستصدر الرابطة قريباً بياناً جامعاً بأسماء حضرات أعضاء اللجنة التحضيرية وموعد إقامة المهرجان ونظامه ومدته
سكرتير الرابطة
كامل زيتون
تأبين الرافعي
نشرت الرابطة العربية بياناً في الصحف اليومية والأسبوعية بأسماء حضرات أعضاء لجنة الاحتفال بتأبين فقيد العروبة والإسلام المرحوم السيد مصطفى صادق الرافعي، وبالموضوعات النثرية التي سيتناولها الأدباء في رثائه، وحددت موعداً لإقامة الحفلة في شهر أكتوبر المقبل، فتحركت لذلك عواطف أعيان الأدب وأمراء البيان وقادة الفكر في
العالم العربي وأرسل إليها بعض حضراتهم ما جادت بهم قرائحهم الوقادة إشادة بأدب الفقيد الكبير وتقديرا لآرائه وبحوثه.
ولما كانت الرابطة معتزمة إصدار كتاب جامع لتاريخ حياة الفقيد، وبعض آثاره، وما يقال في رثائه شعراً ونثراً تخليداً لذكراه واعترافاً بمجهوده الجبار في خدمة العروبة والإسلام، وليكون نموذجاً حياً للأدب الخصب والثقافة العالية فهي تأمل في كتاب الشرق العربي وأدبائه، وأئمة البيان فيه وشعرائه، أن يبادروا بإرسال ما توحيه إليهم ضمائرهم المؤمنة بفلسفة الفقيد الكريم، والمقدرة لأدبه الحي الحديث والقديم، في أقرب وقت بعنوان سكرتير الرابطة بحدائق القبة شارع الملك رقم 112 حتى يكون لدى الرابطة متسع لإصدار هذا الكتاب يوم حفلة التأبين.
سكرتير اللجنة
كامل زيتون
القصص
عزلة
للكاتب القصصي الفرنسي جي دي موباسان
ترجمة الأستاذ خليل هنداوي
وكان ذلك عقب غداء فشا على أثره طرب قوي، قال لي صديق قديم:
- هل لك بأن تجوز ممشى (الشانزليزيه) سعياً على الأقدام؟
انطلقنا بخطوات وئيدة، تظللنا أشجار في مطلع الإيراق، وقد هيمن السكون على تلك البقعة، ما عدا تمتمة مبهمة دائمة تصاعد من قلب (باريس)، ولقد تهب نغمات باردة تضرب وجوهنا، ومن فوقنا قناديل من نجوم تبسط على أديم السماء الأسود أزراراً ذهبية!
قال رفيقي:

لست أدري لماذا أرى الليل - هنا - أجمل منه في مكان آخر؟ -
يخيل إلي أن أفكاري تتمدد في أرجائه، وأن في روحي هذه المسارب من النور الدافق التي تطمعني - خلال برهة واحدة - بأن اطلع على السر الإلهي للأشياء، ولكن سرعان ما توصد النافذة، فينتهي بإغلاقها كل شيء.
وكنا بين الذهلة والذهلة نلمح على الأرصفة شبحين متلاصقين يزلقان في الليل أو نمر بمقعد منعزل استوى عليه كائنان لا يراهما الرائي إلا نقطة سوداء. همس في أذني رفيقي: - إنهما لا يبعثان في فؤادي سأماً - ولكن إشفاقاً كبيراً، ومن كل أسرار الحياة لا يلوح لي إلا سر واحد يشغلني، وإن كل عناء في الحياة مصدره أننا نحيا دائماً منعزلين! وكل ما نبذل من جهودنا لا نريد به إلا الفرار من هذه العزلة. إن هؤلاء العشاق المنطرحين على المقاعد في الجو الطلق يفتشون مثلنا عما يخفف مضض انعزالهم - وما ذلك إلا عمر لحظة - ثم يظلون منعزلين ونحن أيضاً.
إنهم يحسون هذه العزلة، أقل أو أكثر منا، وهذا كل شيء. منذ حين أقاسي العذاب لأنني أدركت واكتشفت العزلة المروعة التي أحيا فيها، وعلمت أن لا شيء يستطيع أن يقضي عليها مهما جربنا، ومهما عملنا، ومهما ذهبت إليه خفقات أفئدتنا، ونجاوى شفاهنا، وضمات أذرعنا، فنحن دائماً نظل منعزلين.
إنني قدتك هذا المساء إلى هذه النزهة، فراراً من لجوئي إلى بيتي، لأنني أتألم كثيراً من العزلة التي تهيمن على المنزل، وما عسى يجديني هذا؟ إنني أكلمك وأنت تسمعني، ونحن وحدنا جنباً إلى جنب، ولكننا منعزلان. . . .
يقول الكتاب المقدس: سعداء هم مساكين الأرواح، إن عندهم وهم السعادة، إنهم لا يشعرون بشقائنا المنعزل، ولا يبهتون مثلي في الحياة، لا يعرفون من اللمس إلا لمس المرافق، ولا يعلمون من الفرح إلا قناعتهم الأنانية بالفهم وبالنظر، وبالتنبؤ وبالتألم دون نهاية من إدراك عزلتنا الأبدية.
إنك لتراني مجنوناً! أليس كذلك؟
إنني بعد ما أحسست عزلة كياني، خيل إلي أنني أهوى يوماً فيوماً في مهوى مظلم لم يقع طرفي على حافة له، ولم أدرك له نهاية، وربما كان بلا غاية. فأفلت إليه وحدي دون رفيق معي ولا حولي، ولا سالك طريقي المظلمة. هذا المهوى هو الحياة، وخلال ذلك كنت أسمع صخباً عالياً وصيحات وأصواتا فكنت أدنو من هذا الصخب المضطرب متسللا، ولكني لم أعلم علم الحق من أين مأتاه، وما ألفيت إنساناً، وما عثرت على يد أخرى ترتفع في هذا الظلام المسدل علي.
هنالك رجال مثلنا أحسوا هذا الألم الممض وتنبئوا به، منهم (موسى) الصائح:
(من جاء؛ ومن دعاني؟ لا أحد!
أنا وحدي! وهذه الساعة التي تدق
يا للعزلة! يا للشقاء!)
ولكن العزلة - عنده - ما كانت إلا شكاً طارقاً، ولم تكن حقيقة ثابتة كما هي عندي. أنه كان شاعراً، يؤنس الحياة بأخيلته وأحلامه. إنه لم يكن وحده أبداً. ولكني أراني وحدي وهنالك (غوستاف فلوبير) أحد كبار أبناء الشقاء في هذا الوجود، لأنه كان أحد عباقرته، كتب إلى صديقة له هذه العبارة اليائسة (نحن كلنا في صحراء؛ لا يفهم أحداً منا أحداً) بلى! لا يفهم أحد منا أحداً، فمهما فكروا، ومهما قالوا وجربوا فالأرض هل تعلم ما يجري على مسارح هذه الكواكب المنتشرة كذرة نارية في هذا الفضاء نرى منها على البعد صفاء بعضها، والأكثر عدداً منها ضائع في اللانهاية، وقد يؤلف القريب منها كلا واحدا كما هو
الحال في ذرات الجسد.
وهكذا الإنسان لا يدري ما يجول في صدر رفيقه الإنسان وإن واحدنا لأكثر بعداً عن الآخر من هذه الكواكب السابحة، وأكثر اعتزالاً لأن الفكر لا يسبر غوره.
هل تعلم شيئاً أبعث على الهول من هذا التماس الخاطف في الأكوان الذي لا نستطيع إدراكه. إننا نحب بعضنا بعضا كأننا مقيدون مبسوطة أذرعنا دون أن نقدر على ضم. على أن حاجة ضرورية للاتحاد تؤلفنا، ولكن جهودنا لا تزال ضائعة، وثقتنا غير مجدية، وعناقنا ضعيف، وحناننا باطلاً، فإذا أردنا اتحاداً لم تعمل مطامعنا إلا على إقصاء واحدنا عن الثاني.

إنني ما شعرت أنني (واحد) إلا حين استسلم لصديقي وافتح قلبي له. إذ أفهم ذلك الحاجز القائم بيني وبينه. هو هنالك، ذلك الإنسان، أرى عينيه تسطعان حولي ولكن نفسه - وراءها - لا أدركها. هو يسمعني، ولكن فيم يفكر؟ أجل! فيم يفكر؟ إنك لا تفهم هذا القلق، إنه ربما يقلبني، أو يحقرني، أو يسخر مني، إنه يفكر فيما أقول، يناقشني، يحكم علي، يراني أبله أو أحمق. وأنى لي أن أدرك ما يفكر فيه؟ وأنى لي أن أفهم هل يحبني كما أحبه؟ وما يجول في هذه الجمجمة المستديرة!؟ وأي سر هذا الفكر المجهول في كائن: الفكر المتواري الحر الذي لا نقدر على معرفته ولا قيادته، ولا الاستيلاء عليه، أو الظفر به؟

أنا، أردت بكل نفسي أن أسلم نفسي كما هي وأفتح أبواب نفسي جميعها. ولكني لم أقدر على هذا الإسلام كله، لأنني أصون في أعماق نفسي (مكان ذاتي الخفية) حيث لا يظهر أحد ولا يقدر أحد أن يكتشفه أو يدخله، لأنه لا أحد يشبهني، ولأنه لا أحد يفهم أحداً!

أفهمتني أنت الآن؟ كلا! إنك لتحكم علي بالجنون، إنك تتأمل في، وتحترز مني! وتسأل نفسك: (ماذا به هذا المساء؟ ولكنك إذا قدر لك يوماً أن تدرك موضع الألم في فعد - إلي لتقول لي: (قد فهمتك!) وحينذاك تجعلني سعيداً - ولو عمر لحظة هن النساء اللواتي جعلنني أحسن تقبل وحدتي، آه كم تذوقت من الألم في سبيلهن! لأنهن منحني، أكثر من الرجال، التوهم بأنني لست وحيداً!

عندما يحب الإنسان يحس أن عالمه قد اتسع، وأن سعادة - فوق السعادة الإنسانية - تغمره. هل تعلم سبب ذلك؟ وهل تعلم مصدر هذه السعادة؟ يعود مصدره إلى أن الإنسان

أعتقد بأنه ليس وحيدا. وأن العزلة أو الابتعاد عن الكيان الإنساني قد انتهى سلطانه، ويا للوهم!

المرأة هي اشد قلقاً منا بهذه الحاجة الملحة للحب الثابتة التي تأكل قلبنا المنعزل، وهي الأكذوبة الكبرى من الحلم إنك لتعرف هذه السويعات الجميلة التي نقضيها مع هذا الكائن التي طالت غدائر شعره، وراقت ملامحه أو فتكت لحاظه، فأي هذيان يملك علينا أرواحنا؟ وأي وهم يغمرنا؟

أنا وهي لم نكن إلا واحداً في هذه الساعة، ولكن هذه الساعة لن تحين، وبعد أسابيع انتظار وأمل وفرح خادع، أجد نفسي فجأة أكثر انعزالاً ووحدة من أي عهد مضى! فبعد كل قبلة وبعد كل عناق أجد العزلة تتسع آمادها، ويا لها من عزلة مروعة مؤلمة!

يقول الشاعر (سوللي برودوم)

ليس العطف والحنان إلا هيماناً مقلقاً

كلها تجاريب باطلة يقوم بها الحب التاعس مجربا (الاتحاد المحال) بين (الأرواح والأجساد)

وثم وداعاً، فقد انتهى كل شيء، على أن هنالك جهدا في معرفة المرأة التي كانت كل شيء لنا، وفي لحظة من الحياة، وما عرفنا ولن نعرف الفكرة الباطنة والسطحية من دون ريب! وفي الساعات ذاتها حيث يخيل إلينا أن الأكوان أصبحت في عهد اتحاد سري وامتزاج كامل للرغاب، تنزل إلى أعماق نفسها، وكلمة قد تكون تبدي خطأنا، وتطلعنا - كأنها البرق الوامض في الليل - على الهاوية التي تفصل بينها وبيننا!

وهنالك ما هو خير وأحسن في الوجود؛ أن تقضي أمسية مع امرأة تحبها دون أن تتكلم، سعيداً كل السعادة، مغتبطاً بمجرد قيامها إزاءك. حاذر أن تطلب أكثر من هذا، لأن امتزاج كائنين مستحيل.

أما أنا الآن فقد غلقت أبواب نفسي، لا أقول لأحد عما أعتقد، ولا أظهر ما أفكر، أنظر إلى الأشياء، وأنا عالم ما تحمله إلى العزلة المروعة - دون أن أعلن عنها، وما عسى تهمني الأفكار والمشاحنات والمسرات والاعتقادات؟ لا أستطيع أن أقاسم أحداً فكرة، نفسي تتنصل من كل شيء، وفكرتي الباطنة تظل خافية على الناس، وعندي جملة عامة لكي أجيب بها

على الأسئلة التي تلقي علي كل نهار. وعندي ابتسامة تقول:

نعم! حين لا أكلف نفسي مشقة الكلام

لبثنا في مشينا حتى عرجنا في سيرنا على قوس النصر، ثم هبطنا ساحة (. . . .) وكان

يعرض فكرته متهملاً وقد أضاعت ذاكرتي الشيء الكثير مما عرضه.
وقفت فجأة باسطاً يده نحو المسلة العالية المنتصبة الشامخ رأسها في النجوم المفنية القصية عن موطنها الحاملة تاريخ وطنها المنقوش بإشارات غريبة، وقد هتف صاحبي:
- إننا كلنا مثل هذه الأرض!
ثم غادرني دون أن ينبس بكلمة
أهو مجنون أم عاقل؟ لست ادري: ولكن يخيل إلي طوراً أنه على بينة من أمره، وطوراً أنه فقد عقله.
خليل هنداوي
العدد 211 - بتاريخ: 19 - 07 - 1937
الضعف في اللغة العربية
للأستاذ احمد أمين
أبنت في مقالي السابق أعراض الداء ووعدت القارئ أن أعرض في المقال التالي للعلاج
وقد قرأت في الصحف وصفا لعلاج قيل إن مكتب التفتيش في وزارة المعارف اقتراحه؛ وخلاصته زيادة الحصص للغة العربية، وتوسيع مكتبة التلميذ. وظن أن هذا علاج ليس كافياً ولا شافياً، وأنه لا يلاقي المرض في الصميم، وأنه لا يقدم في الموضوع ولا يؤخر، فلو ضاعفنا الحصص والمعلم على حاله من النقص، والمنهج كما هو من الضعف، لم نصل إلى نتيجة ولم تتحسن حالة المرض
إنما العلاج الحقيقي في إصلاح المعلم وما إليه من منهج وامتحان وتفتيش، فالمعلم الآن تخرجه ثلاث معاهد: دار العلوم والأزهر وقسم اللغة العربية في كلية الآداب. وكلها معيبة بعيوب ابنتها في مقالي السابق، فلابد للإصلاح من توحيد تلك الجهود الموزعة والاقتصار على معهد واحد يسلح بكل أنواع الأسلحة الملائمة
وعندي أن اصلح معهد لذلك هو (دار العلوم)، فتاريخها القديم في التعليم، وسبقها الأزهر في هذا الباب، يجعلان المصلحة في بقائها؛ وكذلك صبغتها الدينية، وما بين اللغة العربية والدين من صلة وثيقة يجعلها اصلح من قسم اللغة في كلية الآداب، ولكنها في شكلها الحاضر غير صالحة، بل لابد لصلاحيتها من أمور:
(1) فصلها عن وزارة المعارف وتبعيتها للجامعة أسوة لها بكل المدارس العليا التي كانت تابعة للوزارة كالمعلمين والهندسة والزراعة والتجارة. فالجامعة أوسع حرية واكثر استقلالا، والحرية والاستقلال اصلح للنحو العلمي والرقي العقلي
(2) إعادة النظر فيها من جديد: في نظامها وبرامجها، فقد بليت واكل عليها الدهر وشرب، ولم تعد أساليبها التي كانت صالحة منذ عشرين عاماً صالحة الآن؛ على أن يشرف على وضع هذه النظم جماعة من خيرة رجال مصر ثقافة وعقلا وسعة تفكير وعلماً بمناهج التربية
(3) أن تكون الدراسة فيها مقصورة على المواد العلمية، وبعد الانتهاء يدرس المتخرج سنة أو سنتين أساليب التربية في معهد التربية.
(4) أن يعاد إنشاء تجهيزية دار العلوم لتغذي دار العلوم، على أن تكون مدرسة ثانوية تابعة للجامعة أيضا، ويعاد تنظيمها بخير مما كانت، فيتوسع فيها في الدراسة الدينية من قرآن وتفسير وحديث وما إلى ذلك، وتدرس فيها لغة أجنبية حتى يخرج الطالب منها مساوياً للطالب في المدارس الثانوية الأخرى ومتفوقاً في اللغة العربية والدين الإسلامي، وخريجو هذه المدرسة يغذون دار العلوم وقسم الفلسفة في كلية الآداب ونحو ذلك، ويكون في دار العلوم دروس في اللغة الأجنبية أيضاً تتمم ما درسه الطلبة في المدرسة الثانوية
(5) تكون الدراسة في دار العلوم دراسة قاسية شديدة دقيقة، في الانتقال وفي الامتحان، فلا يسمح لضعيف ولا متوسط الكفاية أن يخرج من هذه المدرسة لأنها ستكون - على ما اعتقد - أفعل مدرسة في رقي الأمة وتكوين عقليتها والنهوض بحياتها.
هذا هو في نظري أهم علاج لضعف اللغة العربية، فالحصة من هذا المعلم الكفء خير من مائة حصة من معلم غير كفء؛ وقديماً قالوا: (ضربة المعلم بألف)
ويلي هذا في الإصلاح إصلاح برامج التعليم؛ فالحق - كما قلت - أنها برامج متأخرة

توضع على عجل وتنفذ على عجل، والفرق بين برنامج قديم وبرنامج حديث فرق ضعيف لا يمس الأصول. واذكر أن وزارة المعارف كانت كلفت ثلاثة كنت أحدهم في وضع برامج اللغة العربية سنة 1928، فاجتهدنا في النحو أن ندمج أبواباً بعضها في بعض ونحذف أبواباً لا يترتب عليها عمل في كتابة صحيحة أو نطق صحيح، وحذفنا كل منهج البلاغة القديم ووضعنا مكانه منهجاً جديداً كل الجدة، ولم نضع منهجاً لأدب اللغة إلا في السنتين الأخيرتين من المدارس الثانوية، أما السنوات الثلاث الأولى فقصرناها على قراءة نصوص في الأدب نثراً ونظما وتذوقها ومعرفة موضع الجودة فيها وتكليف الطلبة حفظ الكثير منها واحتذاءها، ولكن - مع الأسف - أهمل هذا المنهج بل وضاع أيضاً.

فمناهج اللغة العربية وخاصة في المدارس الثانوية تحتاج إلى ثورة تقلبها رأساً على عقب تبسط فيها المصطلحات وتحذف منها الأبواب القيمة ويقتصر فيها على ما ينتج استقامة اللسان والقلم

ولو ألف في وزارة المعارف هيئة فنية (مراقبة) للبرامج ووضعها وطريقة تنفذيها لكانت افضل من كل المراقبات الأخرى لأن هذا هو العمل الأساسي للوزارة وما عداه تبع له.

وليس عمل برنامج اللغة العربية في المدارس الابتدائية والثانوية من الأمور السهلة، فهو يحتاج إلى دراسة المناهج السابقة من أول وضعها، ويحتاج إلى دراسة المناهج للغات الحية الأخرى في الأمم المختلفة للاستفادة منها والاتصال بتلاميذ المدارس في مراحلهم المختلفة لمعرفة مقدار عقليتهم وهكذا.

ثم الامتحان له كبير أثر في ضعف اللغة، لان التلاميذ عندنا اعتادوا أن يقرءوا للامتحان، ويتعلموا للامتحان، وبقدر صعوبة الامتحان والتشديد فيه تكون عناية الطلبة.

والامتحان في اللغة العربية معيب من وجهين: من وجهة ورقة الامتحان فأنها في اغلب شأنها نظرية لا عملية وتعتمد على الذاكرة والحفظ أكثر مما تعتمد على التفكير والعمل، واللغة أداة للتعبير، والغاية منها تقويم القلم واللسان فيجب أن يرمي الامتحان إلى هذه الغاية؛ أما أن تكون الأسئلة فيما هو التشبيه الضمني، وما هي الاستعارة المكنية، واثر الثقافة اليونانية في الثقافة العربية، فأسئلة لا يصح أن تكون في المرحلة الأولى ولا الثانية من التعليم، إنما تكون بعد أن يستكمل الطالب الجانب العملي

وكذلك من جهة التصحيح، فقد استولى على مصححي اللغة العربية نوع من العطف أشبه ما يكون بالعطف على المجرم فلا يعاقب؛ وبعطف إلام الجاهلة على أبنها فلا تؤدبه. وأخشى أن يكون هذا التقليد في تصحيح اللغة العربية موروثاً عن رجلين أحدهما المستر دنلوب وكان ينصح بالتساهل في اللغة العربية لأنه لم يكن يهمه أمر قوتها، وثانيهما المرحوم الشيخ حمزة فتح الله فقد طبع على الرحمة التي لا حد لها، وشاع عنه أن لكل مسالة وجهين، ثم انحدر هذا التقليد من السلف إلى الخلف

والمصححون يبنون تساهلهم على فكرتين باطلتين: أولاهما أن اللغة العربية هي اللغة الأصلية فلا يصح أن يرسب الطلبة فيها، وهذا خطأ، لان لغتنا الأصلية هي اللغة العامية لا اللغة العربية الفصحى وشتان ما بينهما، ولو كانت هي لغتنا الأصلية ما شكونا هذا الضعف؛ وثانيتهما غلبة الرحمة عليهم وقد أبنا ضررها.

وليس أدل على فساد الامتحان من حسن النتيجة المئوية مع ضعف الطلبة ضعفاً نضج منه جميعاً بالشكوى. أمن المعقول أن نلمس هذا الضعف ثم تكون نسبة النجاح فوق الثمانين في المائة؟

كل هذا جعل التلاميذ يهزؤون باللغة العربية ولا يعيرونها التفاتاً، ويحترمون اللغة الأجنبية والرياضة لان الاحترام عندهم تابع لنسبة النجاح، فكلما كانت النسبة قليلة كانت العناية بالعلم أقوى؛ وليس ينسى أحد منا العبارة التي تدور على ألسنة الطلبة وهي أنهم إذا سمعوا طالباً يجتهد في استذكار اللغة العربية قالوا: له (وهل يسقط أحد في العربي؟)

ثم لهم طريقة في التصحيح ليست صحيحة، فهم لا يقومون الورقة ككل، ولكن يجزئونها جزيئات صغيرة ثم يضعون درجة على كل جزيء فيحدث أن الطالب يأتي بأخطاء شنيعة تدل على الجهل التام ومع ذلك ينجح، حتى يخيل إليّ أن التلميذ إذا

أعرب (في البيت) في حرف جر والبيت مفعول به منصوب لأعطوه 50 % على صحة إعرابه (في) وخطئه في إعرابه (البيت)
ومالي اذهب بعيداً وقد حدث في هذا العام أن كانت فتاة قريبة لي تمتحن في البكالوريا، فجاءت يوم امتحان اللغة العربية وقالت: لقد أعربت (كفى حزناً) كفى فعل أمر وحزناً مفعول به، أليس كذلك؟ فقلت: نعم ليس كذلك، وقالت: لقد قلت إن من خطباء العصر الأموي أبا بكر الصديق وعلي بن أبي طالب، أليس كذلك؟ فقلت أيضاً: نعم ليس كذلك، وأطلعتني على بقية الأجوبة فأيقنت برسوبها؛ ولو كان لي الأمر ما أنجحتها مهما أجادت بعد هاتين الغلطتين الفظيعتين، ولكني دهشت اشد الدهش لنجاحها!
أنا كفيل بأن سنة واحدة توضع فيها ورقة الامتحان عملية اكثر منها نظرية، ويشدد فيها في التصحيح شدة حازمة تساوي الشدة في تصحيح الرياضة واللغة الأجنبية، كافية في أن يوجه الطلبة عنايتهم الكبرى للغة العربية فيزول الضعف وتحسن النتيجة
ولا ننسى أن التفتيش بعد ذلك له أثره، فلو حدد الغرض منه لبانت قوته الحالية أو ضعفه، فليس المفتش جاسوساً يضبط الجريمة، ولا هو عدّاد يعد موضوعات الإنشاء والتمرينات، ولا غرضه الأول أن يقول إن كلمة كذا ليست في القاموس، كلا ولا غرضه الأول أن يكتب عن المدرس أنه جيد أو ممتاز أو ضعيف، إنما مهمته الأولى حسن توجيه المعلمين إلى تحقيق الغرض من دراسة اللغة العربية والوصول بالطلبة والمدرسين والكتب والمناهج إلى أرقى حد مستطاع، وبمقدار تحقيق هذا الغرض أو عدم تحقيقه يكون الحكم على قيمة التفتيش
إذا اصلح المعلم والمنهج والامتحان والتفتيش صلحت اللغة العربية في المدارس. وهذا هو العلاج الوحيد الصحيح، أما ماعداه فعلاج غير حاسم ولا ناجع
أحمد أمين
أدب الموافقة
للأستاذ عباس محمود العقاد
أعتقد أن قيمة الكاتب موصولة صلة خفية بمقدار ما يستجيشه من روح الثورة.)
ولعليّ أقترب من صحة التعبير إذا قلت روح المقاومة. إذ لست من الحمق بحيث (أتخيل أن كتاب الجناح الأيسر وحدهم هم أصحاب المزية الفنية
قلت محتجاً على صاحبي: إن أجمل الآثار الفنية ومنها الآثار التي يكتب لها الشيوع بعد) ظهورها كثيراً ما كانت في بداية الأمر مقصورة في عرفان قدرها على فئة جد قليلة.
وناولته كتاباً أتفق أن كان معي ساعتئذ قائلاً: إليك فاقرأ. إن بيتهوفن نفسه قد جرى (عليه مثل ذلك
ستدفعون الفنانين بينكم إلى الموافقة. ومن أبى من خيرتهم المنتقاة أن يبتذل فنه ألجأتموه إلى السكوت، فتعود الثقافة التي تزعمون خدمتها وإيضاحها والذود عنها وهي (وصمة عار عليكم
مهما يكن من جمال العمل الفني في بلاد الجمهوريات الشيوعية الروسية فهو يعيب) صاحبه إن لم يكن على النسق المرسوم. إن الجمال عندهم خلة من خلال الموسرين!
ومهما يكن من عبقرية الفنان فهو مصدوف عنه عفواً أو قسراً إن يعمل على النسق (المرسوم، فكل ما يطلب منهم الموافقة، وهو ضامن بعدها كل ما عدا ذلك
إذا أضطر العقل اضطراراً إلى الإذعان لكلمة الأمر فأقل ما هنالك أنه قادر على) الإحساس بفقد الحرية. أما إذا سيس العقل من بداية الأمر سياسة توحي إليه أن يذعن قبل أن تأتيه كلمة الأمر فقد بلغ من فقده أن يفقد حتى الشعور بالاستعباد. وإني لأعرف من اجل هذا أن كثيراً من الفتيان الشيوعيين يستغربون ويمنعون في الإنكار إذا (قيل لهم أنهم محرمون نعمة الحرية
إن خير الوسائل التي يبلغ بها الكاتب مزيته العالمية لهي مواهبه المتفردة كل التفرد.) لأن المرء إنما يكون بشراً عريق الإنسانية بفرط ما فيه من الخصال الفردية، فما كان روسي أعرق روسية من مكسيكم جوركي، وما أصغت أسماع العالم إلى كاتب روسي (أشد من إصغائها إليه
تلك شذرات من الكتيب اللطيف الطريف الذي كتبه الأديب الفرنسي الكبير (أندريه جيد) بعد عودته من البلاد الروسية، متحريا فيه ما تعود أن يتحراه من الصدق

والصراحة والاعتراف بالخطأ والأنفة والإصرار عليه ذهابا مع الغرور والكبرياء. وقد كان من نصراء الدولة الروسية الحديثة وأصحاب الرجاء العظيم في تجاربها ومساعيها، فلما شهد الحقيقة بعينيه لم يخادع نفسه ولم يغالط حسه، وعاد يأسى ويأسف في لهجة منزهة من الضغينة والتشهير، ولكنها تشف عن خيبة الرجاء في كثير من الأمور فالثقافة هي مقياس الصلاح في كل نظام

أما مقياس الثقافة فهو الابتكار والحرية، أو هو (المزايا الشخصية) التي يعبر عنها الفنان والشاعر والكاتب كما قررنا ذلك واعدنا تقريره مرات، ولا نظنه اليوم في غنى عن التقرير

لا أمل في نظام حكومي أو نظام اجتماعي لا تقترن به ثقافة العلوم وثقافة الفنون ولا أمل في ثقافة نعرف ما تنتجه قبل أن ينتج، ونستغني عما تصوغه قبل أن نطلع عليه، لأنه لن يعدو ما نعلم وما نظن من موضوع ومن غاية ومن قالب ومن تصوير وتفكير

وقد نسى (جيد) أن الكاتب الروسي في ظل الشيوعية مطالب بشيء غير (الموافقة) واصعب تحصيلا على طالبه من الموافقة! لأنه إذا وافق الروسيين الخاضعين للأمر والوحي والإلهام فمن الواجب أن لا يوافق القراء الغرباء الذين لا يخضعون لأمر ولا يصدرون عن وحي أو الهام. وويل للكاتب الروسي الذي يصاب باستحسان العالم لما يكتب ويبتلى بتقريظ النقاد في بلاد راس المال لما يمثله من شعور ويرمز إليه من آمال ويشابه به الآدميين الموسرين من عواطف وأحلام وأفكار

تلك إذن خيانة، تلك إذن مخالسة وخديعة، تلك إذن مؤامرة بين الكاتب وبين نظام راس المال، ويكفي أن يتشابه الإنسان الشيوعي والإنسان (البورجوازي) في بعض العواطف والأحلام لتثبت دلائل المؤامرة كل الثبوت، أو يثبت شذوذ الكاتب عن خلائق الشيوعيين، لأنه إنسان كسائر الناس!!

ومن أضاحيك القوم أن تصدر رواية لبعض أعلامهم بالإنجليزية والفرنسية والشيكية ولما تصدر بالروسية، ونعني بها رواية (نحن) لمؤلفها الكاتب الروسي النابغ (زمياتين) الذي

يدين بالثورة ولكنه يدين بآمال لبني الإنسان وراء آمال الشيوعيين. . . . فيقول الناقدون الحكوميون الحصفاء: وماذا عسى أن تكون تلك الآمال؟ أليس هذا دليلاً على أن الكاتب يخامره شعور كشعور الموسرين الذين فقدوا غنائمهم فهم أبداً في حنين إلى حال وراء هذا الحال؟!

وحقت اللعنة على زمياتين لأنه يحظى بالشهرة والمتابعة بين أناس من الآدميين البورجوازيين. فضاع الرجل في بلاده ولم يغن عنه إعجاب القراء في غيرها، ولم يؤذن له أن يكون إنسانا لأن الإنسانية تشمل الناس جميعاً. أما الشيوعية فلا ينبغي أن تشمل أحداً غير الشيوعيين. . !

ونحسب أن المقاييس كلها عرضة للضلال والحيرة والاشتباه. إلا مقياس الحرية الفنية فهو وحده حسب الباحث من قياس صحيح واف لمراتب الأمم وفضائل المجتمعات ومآثر الحكومات

فلا حرية - حق حرية - حيث تتقيد الثقافة الفنية، ولا استبعاد - حق الاستبعاد - حيث تنطلق الثقافة الفنية من قيودها

وبهذا المقياس الصادق المحكم ننفذ إلى الصميم من وراء الأغشية والظواهر ولا نقصر الحكم على الحرية التي تمثلها الشرائع ودساتير الحكومات

فرب أمة لا تشتمل قوانينها على خرف واحد يحرم الابتكار والحرية، بل تنص القوانين فيها على حرية الرأي وحرية الإبداع والتصوير، ثم يظهر (الأثر الفني) فيها فتضيق به الصدور وتشيح عنه الأبصار وتتلاحق الكوارث على رأس صاحبه، لأنه يقول ما لا يعجب الناس وإن لم يقل ما يخالف القوانين ويناقض الدساتير

تلك أمة من العبيد وإن قيل على الورق إنها أمة من الأحرار. وشر ما فيها إنها مستعبدة مقهورة بغير حراس وغير قيود وغير طغاة، ولو كان استعبادها من حراسها وقيودها وطغاتها لزال الاستعباد حين يزول جميع هؤلاء

ورب أمة تزدحم الأوراق فيها بتحريم هذا وعقوبة ذاك ولا تنقطع فيها مبدعات الجمال وآيات الفنون فترة من الفترات. فارجع إلى مقاييس القوانين كلها تقل لك إنها أمة

مغلوبة مسلوبة، وارجع إلى مقياس الفن وحده يقل لك ما هو اصدق واعمق، وهو أن السعة سعة
النفوس والأذهان لا سعة الدساتير المسطورة على الأوراق؛ وإن نفساً تتسع للإبداع الحديث وترحب بالرأي الغريب وتستقبل النوازع النفسية والخوالج الفنية بغير حدود ولا أرصاد لهي حرة في غنى عن الإذن لها بالحرية، وهي وشيكة أن تنفض عن كواهلها كل ثقل يحول بينها وبين العمل الطليق
شر الآداب هو أدب الموافقة والمجاراة، لكننا نخطئ إذا حسبنا الحكومات الغاشمة علة هذا الأدب دون سائر العلل التي تفرضه على الكتاب والقراء
فالأدب التجاري أدب موافقة ومجاراة وإن لم تفرضه حكومة ولم يطلبه حاكم غاشم. لأن الذي يكتب للرواج يكتب ما يوافق الأذواق ويجاري الأهواء ولا يكتب ما ينبعث من سليقة حرة وقريحة شاعرة، والذنب في ذلك على الأخلاق لا على القوانين
والأدب الضعيف أدب موافقة ومجاراة وإن لم تفرضه حكومة ولم يطلبه حاكم غاشم، لأن النفس الضعيفة لن تهتدي إلى القوة ولو أخلى لها الحاكم طريقها. فهي توافق وتجاري عجزا عن الخلاف والانفراد، لا خوفاً من التفكير الطليق والقول الصريح
والأدب الجامد أدب موافقة ومجاراة، لأنه ينافر الحركة ويوافق السكون والركود
والأدب الذليل أدب موافقة ومجاراة، لأن الذليل لا يحسن غير التمليق والازدلاف، ولن يكون الملق إلا بالموافقة ولو كانت غير ماجورة، وبالمجاراة ولو كانت غير مشكورة
وما من عيب تعيله على أدب من الآداب إلا انتهى في قراره إلى أن يكون ضرباً من الموافقة ونقصاً في الحرية والإبداع، فالموافقة لا جديد فيها ولا حاجة إليها ولا دوام لها، وإنما تولع النفوس بالأدب لأنها متغيرة وليست براكدة، ولأنها متطلعة وليست بعمياء، وكيف يتفق التغير والمطابقة؟ وكيف يتمشى التطلع والاستقرار؟
إلا إننا نبادر فنقول إن أناساً يتمردون ولا يجيئون بخير مما هو منظور من الأدباء الموافقين المستسلمين، لأن التمرد المصطنع إن هو إلا موافقة مستورة ومجاراة معكوسة، فيه كل ما يؤخذ على التقليد من نقص وكل مما ينعى عليه من وخامة، وذلك ما نعود إلى تفصيله في مقال تال
عباس محمود العقاد
منتسكيو آراؤه ومثله
للأستاذ إسماعيل مظهر
إن أسم منتسكيو لأسم عظيم. والأثر الذي خلفته أعماله ينزل من الخلود في داخل أوربا وفي خارجها منزلة تمهد لمن يريد أن يترجم له أن يتصل به منتحيا طرقاً شتى ومداخل متفرقة. ذلك بأن أعمال هذا الرجل العظيم قد تركت أثراً رئيسياً في جميع ما ظهر في عالم الفكر من النظريات السياسية، حتى أن كاتباً من اشهر كتاب هذا العصر قد ذهب في نقد نظرياته مذهباً قضى فيها بأنها أول ما مهد لظهور فكرة (العقد الاجتماعي) التي كونها (رُوسُو) ودافع عنها أبلغ دفاع. ولا شك في أنك تبهر بعبقرية هذا الإنسان الفذ إذا علمت أن نظرياته السياسية كانت العمدة في صوغ دستور الولايات المتحدة، ومن هنا كان اثر (منتسكيو) عظيماً في الترويج للفكرات والمبادئ التي قام عليها الدستور الإنجليزي، كما كانت باكورة الدراسات العميقة التي تناولت بدايات التكوين السياسي الذي نشأ في فرنسا خلال القرون الوسطى. فكان بمجموعه أعماله ودراساته وأفكاره من الرجال الذين عبَّدوا الطريق للثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر
لهذا يجدر بنا أن نمهد للكلام في الترجمة له بذكر شيء من الأطوار التي تقلبت فيها حياته السياسية. فقد كان (منتسكيو) رئيساً لمحكمة (بوردو) العليا، وهي أول هيئة تشريعية إقليمية كانت في فرنسا. وكان أعضاؤها يطمعون في أن يكون لهم مقاعد في محكمة باريس العليا. غير أن محكمة العاصمة الكبرى لم تذعن لهذا المطلب. لهذا ظلت النزعة (البرلمانية) جلية الأثر جد الجلاء في كل ما كتب (منتسكيو)، بالرغم مما كان يطنب فيه من الالمامات التاريخية المستفيضة وتعلقه في مجال البحث الاجتماعي بمعالجة مشكلات أوربا خاصة؛ والإنسانية عامة. فيجب أن نعي إذن ذلك الأثر المزدوج الذي أحدثته المحاكم العليا في تاريخ فرنسا. فإنها كانت حتى نهاية القرن السادس عشر الأداة الرئيسة التي اتخذتها الملوكية المركزية، ذريعة لمدِّ نفوذها، وتثبيت

سلطانها، اتقاء لنفوذ النبلاء ومطامعهم من ناحية، ودرءاً لسلطان الكنيسة من ناحية أخرى. وكانت هذه الأداة مجدية في إضعاف نفوذ النبلاء الموروث، وهو نفوذ يتضمن فيما يتضمن سلطاناً واسعاً، مالياً وإدارياً

وكانت الخطة أن تقرر المحاكم العليا أن من حقها النظر في (الدعاوى الملكية) التي كان

كبراء أصحاب القطائع يرغبون في أن تنظر أمام محاكمهم الخاصة. وكذلك قررت تلك المحاكم على اختلافها، أن من حقها النظر في الدعاوى التي يقتضي النظر فيها انتقاصاً من سلطان الكنيسة، قضائياً ومالياً. ولا شك في أن القوة الباطشة التي حازتها الملوكية المركزية في فرنسا في القرن السابع عشر، كانت نتيجة لأشياء ثلاثة: الجيش، ومجلس البلاط، والمحاكم العليا

ولم تكن المحاكم العليا عند أول نشأتها في فرنسا، إلا جزءاً من مجلس البلاط. وكان من أثر هذه المحاكم كما يقول (هانوتو) أن احتفظت فرنسا بوحدتها، ولم تمزق ولايات متفرقة

وفي أخريات القرن السادس عشر حدث انقلاب، ساد محاكم فرنسا العليا، وظهر أثره واضحاً في روحها المعنوية وفي عملها. فإنها بدأت تستمسك بقوة بكل ما يدعي الملك من حقوق الدولة، لتقضي بذلك على ما بقي لكبار أصحاب القطائع ورؤساء الكنائس من الامتيازات. غير أنها، بجانب هذا، بدأت تظهر بمظهر الأداة المستقلة عن إرادة الملك أيضا. فكانت بطبيعة تكوينها وتاريخها، الوسيلة الوحيدة التي يمكن أن تعارض إرادة الملك آمنة رخية البال. ذلك بأن أعضاء هذه المحاكم كانوا يملكون بالوراثة حق الجلوس فيها. ولم يكن من الهين أن يسلب واحد منهم حقه فيها، حتى أن (رشيليو) في كتابه (العهد السياسي)، قد عبر بعمق عن الأخطار التي يجوز أن يواجهها العرش من نفوذ أعضاء المحاكم العليا، أو من مسلكهم الذي يسلكونه عند الضرورة. وعصر (الفروند) والسنوات الأخيرة من حكم الملك لويس الخامس عشر، وقد حققت كل ما جال في مخيلة (رشيليو) من المخاوف. ومجمل ما نرمي إليه من هذا كله أن نوضح أن (منتسكيو) كان يرى أنَّ الوظيفة الأولى للمحاكم العليا إنما هي في أن تصمد لقوة الملك وأن تحد من سلطانه: قال:

(إن هذه الهيئات - المحاكم العليا - من أبعد الأشياء تلاؤماً مع طبع الملوك. فإن أعضاؤها كثيراً ما ينغصون على الملك بسرد حقائق غير مرغوب في سماعها ولا يتصلون بالملك إلا لعرض الشكايات الحق. وأنت إذ ترى أن فئة البطانة الملكية تلقي في سمع الملك دائماً أن الشعب في رغد وسعادة في ظل الحكومة، إذا بتلك المحاكم تظهر ما في أقوال هؤلاء من كذب ونفاق، وتقرع مسامع العرش، حيناً بعد حين، بصدى تلك الأنات العميقة الجافية التي تتنفس عنها صدور أولئك الذين يمثلونهم)

كتب منتسكيو بضع عبارات بالغة منتهى الجودة والإبداع حلل فيها نفسيته، وصور بها أخلاقه ويحسن بنا أن ننقل بعض فقرات منها؛ وذلك أقوم سبيل تعرف به شيئاً من حقيقة منتسكيو:

يقول أنه وهب حساً عميقاً جعله يقدس معنى الصداقة، فلم يجازف بإن يخلع نعت الصديق على كل من أتصل بهم من الناس؛ ولذا يذكر، ولعله يذكر بحق، أنه لم يفقد طوال حياته غير صديق واحد.

وكان خجولاً، حتى أن الخجل كان مصيبته الخلقية الكبرى؛ قال:

(يخيل إليّ أن الخجل يغشّي على كل أعضائي الجسمانية، فيربط لساني، ويظلم افكاري، ويقضي على كل ما عندي من قدرة على التعبير. ومن العجيب أني أقل تعرضاً لنوبات الخجل في حضرة ذوي الألباب مني في حضرة الحمقى والمغمورين)

فلا عجب إذن إذا رأينا (منتسكيو) يمقت كل المقت ذلك الجو الخانق الذي كان يأنسه في البطانات الملكية؛ قال:

(لم أجهد نفسي في أن أسعد وأربى من طريق البطانة. وإنما أمَّلت دائماً أن أثري من عملي في ضياعي، وأن أتلقى الخير من يد الآلهة لا من يد البشر).

وليس لنا بعد هذا أن نعجب من أن (منتسكيو) كان لا يرى سبيلا للفرار من متاعب الحياة إلا بالنزوع إلى أسمى ما تتجه إليه الأنفس الأبيَّة، المتطلعة إلى المثل العليا، والغايات السامية؛ قال: -

كان الإكباب على الدرس والتحصيل الدواء الواحد الذي استطعت أن أنجو به من كثير من مرارات الحياة. ولم أنس في الحياة من حرج، لا تكفي ساعة واحدة اقضيها في القراءة، لكي تذهب بكل آثاره من نفسي)

وكان عريض الأمل، شامل النظر، كلي المرامي، أنساني النزعة، فإن الثورة الفرنسية، وهو من اكبر الممهدين لها، لم تلبث أن استقوت عليها بعد قليل الروح القومية، فأسلمت نابليون قيادها، وألقت بين يديه بروحها؛ تلك الروح التي كانت أكبر الأسباب في انتصاراته؛ غير أن سيل الفكر الجارف الذي تقدم شبوب الثورة، كان من غير شك، ذا صبغة إنسانية. ومن كلمات منتسكيو ننقلها هنا يتضح لك الاتجاه الحقيقي للفكر الفرنسي

قبيل الثورة العظمى؛ قال:

إذا وضح لي أن شيئاً من الأشياء لي فيه نفع، ولكنه مضر بأسرتي، فإني أنفيه من عقلي، واطرده من مخيلتي. وإذا وقعت على شيء نافع لاسرتي، ولكنه مضر بوطني، فإني اجتهد في أن أنساه. أما إذا سقطت على شيء مفيد لوطني، ولكنه مضر بأوربا، أو بالسلالة البشرية، فاقل ما اعتبر أن نيله جريمة كبرى.)

وكان لمنتسكيو نظرات فلسفية عميقة في حقيقة الخلق الإنساني، طبقها واتخذها في الحياة إماماً. وكان ككل الفلاسفة العمليين الذين درجوا من قبله يعتقد أن اللذة والألم دستور السلوك الإنساني. ولكنها اللذة التي لا تطفر فتصير شهوة، والألم الذي يحتمل بصبر وشجاعة في سبيل تحقيق المثاليات؛ وقال:

إن دورة عقلي قد هيئت، لحسن الحظ، بحيث تجعلني شديد الحساسية فأتأثر بالأشياء ابتغاء الاستمتاع بها. ولكن لم تبلغ حساسيتي بالأشياء حداً يجعلني أتألم من فواتها)

من هنا نستطيع أن نؤلف صورة تدلنا على شيء من حقيقة (منتسكيو)، وهذا كافٍ للتعريف به. ولهذا ننتقل إلى الكلام في مبادئه ونظرياته السياسية، فإنها أخص ما يعلق بالذهن كلما ذكر أسم (منتسكيو)

إذا شرعت تقرأ كتاب منتسكيو (روح القوانين)، وضحت لك صورتان جليتان: الأولى، رجوعه في التدليل على نظرياته إلى التاريخ؛ والثانية: نزعته إلى أحكام الآخرة بين النظرية السياسية، والعلوم الطبيعية. وللصورتين أهميتهما القصوى في التعريف بمنتسكيو ودرس مذاهبه. ناهيك بأنهما بداية ذلك التطور الفكري الكبير الذي تناول منازع هذا الرجل العظيم منذ نشأته مُفكِّراً، حتى تمام تكوينه كقوة عظيمة، أثرت ولا تزال تؤثر، في مناحي الفكر والعمل الإنساني

كان (منتسكيو) مفرط العناية بقراءة التاريخ. ولن تبالغ إذا قلت أنه كان بالتاريخ أشد هياماً من (روسو). ذلك إلى أنه أوسع من (فولتير) نظراً، واشمل إحاطة، وانزع إلى معالجة المشكلات الاجتماعية. ومع كل هذا فإن معرفته بالتاريخ مقيسة على مفهومه الحديث، كانت ضيقة محدودة. وكان من المحتوم أن يكون علمه بالتاريخ ضيق الحدود؛ إذا وعينا أن التاريخ الحديث خلق جديد من مخلوقات القرن الثامن عشر

كانت معرفة (منتسكيو) بحوادث التاريخ تامة، بالغة منتهى الضبط والإحاطة. ولقد حوى كتابه (عظمة الرومان وانحطاطهم) أسمى صور البلاغة، وجمال الأسلوب. بل إنك لا تقول شططا إذا قضيت بأن اكثر النظريات التحليلية التي بثها فيه (منتسكيو) عند الكلام في أربعة القرون التي أظلت نشوء النصرانية، سبقاً وتعقيباً، كانت عادلة متزنة، لا هي إلى الإفراط ولا هي إلى التفريط، ولقد كتبت الفصول الأولى من هذا الكتاب في عصر لم يكن سلطان النقد قد تناول فيه التاريخ بعد؛ فإنه كتبها قبل ظهور كتاب (تييوهر) الذي يعد الفتح الأول للنقد في مجال التاريخ. وكانت آراؤه في القيصرية الرومانية الغربية وسبب انحلالها نفس الآراء التي ذاعت في سبب انحلال القيصرية البوزنطية. وتلك وجهة من النظر التاريخي ذاعت في القرن الثامن عشر؛ ومن حسن الحظ أن البحوث التي ظهرت في خلال نصف القرن الماضي، قد طهَّرت منها عقول المؤرخين، تطهيراً كاملاً

وكان (منتسكيو)، إلى هذا، محيطاً بتاريخ رومية أوسع إحاطة، فاهماً جوهره أقوم فهم، ملماً بعناصره أمتن إلمام. ولكن معرفته بتاريخ اليونان كانت بغير شك أقل من معرفته بتاريخ رومية. وكتاباته في تاريخ العصور الوسطى؟، لا تخرج عن كتابات مُلِمٍّ بالآثار البدائية (الأرخيولوجيا) لا بالتاريخ

أما معرفته بتاريخ فرنسا فكانت شاملة، وبخاصة تاريخها في القرنين السادس عشر والسابع عشر؛ ولا شبهة في أنه كان محيطاً بتاريخ العصر الذي عاش فيه. وكان شديد العناية بدرس تاريخ إنجلترا، مشغوفاً بمسائله ومشكلاته. ولكن نظرته فيه كانت شاذة بالرغم من طرافتها

ولم يهمل (منتسكيو) التاريخ العام، الذي يعتبر تاريخ رومية وفرنسا وإنجلترا، أجزاء منه ونتفاً؛ بل زوده بعناية الدرس والتحصيل. فإن تاريخ مصر وبابل والهند والصين واليابان وشعوب خط الاستواء، وشعوب الجمد الشمالي، كانت ماثلة له حية في مخيلته. ولكن لم يكن الزمان قد زود المشتغلين بالتاريخ بعد بمادة يستخرجون بها من ماضي الشعوب صوراً واضحة جلية

يظهرنا هذا على أن عنايته بالتاريخ كانت كبيرة ولكن من الخطأ أن نتصور أن فلسفته السياسية كانت مستمدة من معرفته بالتاريخ، أو مستندة إليها؛ فإنك إذا مضيت تماثل بين ما كتب أرسطوطاليس أو لادويرابس، وبين ما كتب (منتسكيو) وقعت على الفارق العظيم، والصدع النائي الذي يفصل (منتسكيو) في العصور التي تقدمته، والعصور التي تلته، وجملة الفارق بين الأساليب التي اتبعها القدماء والأساليب التي انتحاها المحدثون. فإن (منتسكيو) كان يتخذ من التاريخ مضربا للأمثال والمثلات، ليؤيد وجهة نظره، ولكنه لم يستمد من التاريخ بالذات تلك الآراء التي قامت عليها نظرياته السياسية، وليس عندنا من دليل على هذا أقوم من الدليل الذي ترجع فيه إلى الفصل الثامن من كتابه (روح القوانين) إذ يقول:

(كما أن الديمقراطيات تفسد وتنهار باعتداء الأمم على المحاكم العليا - البرلمان - والحكام والقضاة، واستلاب حقوقهم وخصائصهم، كذلك تسقط الملوكيات، أو هي تأخذ في الانحلال إذا مضت تسلب النقابات والجمعيات والمدن امتيازاتها الطبيعية والحالة الأولى مظهر لاستبداد الجماعات، والثانية مظهر لاستبداد الفرد.)

(إن السبب الذي اسقط أسرتي (تسن) و (سووي) كما يقول مؤلف صيني، إنما يرجع إلى أن أمراء الأسرتين لم يكتفوا من الحكم بالأشراف الأعلى على شؤون الدولة، كما كان شأن الأمراء في الأسر اللواتي سبقت في الحكم، وكما هو طبيعي أن يكون في ملوكيات رشيدة؛ بل حاولوا أن يتحكموا ويحكموا في كل شأن من الشئون بأنفسهم، وبغير واسطة. وكلمات هذا المؤلف الصيني، تعبر عن الأسباب التي يعود إليها سقوط الملوكيات في كل الأزمان.)

(إنما تسقط الملوكيات بأن تقوم في نفس الملك شهوة أن يظهر جبروته وسلطانه، فيحرِّف النظم المقررة ويفسدها، بدل أن يحافظ عليها ويرعاها. ومثل ذلك أن يغتصب الحقوق والامتيازات التي تقوم عليها بعض النظم من يد فئة، ويهبها باختياره، ولمجرد إشباع شهوته، لفئة أخرى، وان يحكم خياله وتصوراته في شؤون الدولة؛ دون عقله ونهاه.)

(تنهار ملوكية عندما يقدم ملك يحاول أن يحصر كل شيء في ذاته. فيركز الحكومة في عاصمته، ويركز العاصمة في بطانته وحاشيته، ويركز البطانة في ذاته؛ وفوق كل هذا يكون سقوط الملوكية سريعاً مروعاً، عندما يسيء الملك فهم سلطته ومركزه، وحب شعبه له، وعندما يغيب عن فهمه أنه يجب أن يشعر دائما بأنه في أمن وسلام، (قدر ما يشعر المستبد القاهر أنه دائماً في خطر أهـ)

فهل من شك في أن (منتسكيو)، وهو رئيس محكمة (بوردو) العليا إنما يعبر بهذا عما قام في ذهنه عن ملوكية لويس الرابع عشر وخلفه، وأنه ذلك المؤلف الصيني، الذي يخيل إلينا أنه لم يوجد إلا في مخيلة مؤلف (روح القوانين) لم يقحم في هذا الموقف إلا ليكون مادة لضرب المثل، وإظهار المثلة؟ ليس هذا ببعيد. ذلك بأن (منتسكيو) يعرف تمام المعرفة، كما ذكر في غير الموطن الذي نقلنا عنه هذا القول، أن الملوكيات كثيراً ما فسدت وانحلت متأثرة بأسباب تختلف كل الاختلاف عن الأسباب التي ذكرها.

كذلك لا يستطيع المؤرخ أن يعزو كبير قيمة لنزعة هذا العبقري إلى الاستعانة بالعلوم الطبيعية. فإن قوله بأثر البيئة الطبيعية كان أمراً له في البحوث الاجتماعية والسياسية، إلى جانب الجدة والحداثة، خطره العلمي. غير أن هذا البحث مجلُواً في الصورة التي

لابسته في ما كتب (منتسكيو)، وفي الصورة المحرفة التي ظهر بها في بحوث (روسو) لن يجد فيه المفكر الحديث مقنعاً، أو يقع فيه على حقيقة تنقع الغلة. فلقد عالج تطبيق العلوم الطبيعية على الاجتماعيات من وجهة هي على غرابتها وبعدها عن مناحي الفكر الحديث، تثير عند المحدثين اللذين يعرفون مرامي العلم العملي ومنازعه. كثيراً من الاستخفاف بها، والسخرية منها. ومثلنا على ذلك ما عالج به حالات إنجلترا الاجتماعية من الآراء التي بثها في فصلين من (روح القوانين) فإن آراؤه التي بثها في ذينك الفصلين، تحمل على القول بأن (منتسكيو) كان فيها إلى الهزل والمجانة. اقرب منه إلى الجد. ويزيدني بهذا الأمر ثقة أن فلاسفة القرن الثامن عشر لم يتعففوا عن النزعة إلى المجون، بجانب ما كان فيهم من حب النفع العلمي، والاستقامة في التفكير. وعندي أن (منتسكيو) لم يرم بما كتب في الفصلين السالفين إلا إلى الاستخفاف بقرائه الإنجليز. وما قولك في رجل يبدأ البيان عن حالات الإنجليز الاجتماعية بالكلام في تأثير طقس بلادهم، فيعزو إليه نزعة الإنجليز إلى الانتحار! ثم يحاول أن يعلل الصورة التي تلابس ميولهم القومية، فيقول أنها ترجع إلى صف الاستعداد الطبيعي على ترشح العصارة العصبية. وهذا قول لا يكفي أن يكون سبباً في تعليل ميول الإنجليز القومية لا غير، بل يكفي للقول بأن الشعب الإنجليزي مقضي عليه بالفناء جميعاً.

وهو يحاول في فصل تال أن يفسر تأثير ذلك الأمر على شكل الحكومة الإنجليزية فيقول

أن سلالة لها استعدادها في التأثر بالاستثارات المختلفة وقلة ثباتها على شيء، لن تصبر على حكومة تلقي مقاليدها في يد فرد واحد، فلا لقوم خارجة على سلطان الحكومة وعلى سلطانه، وإنه من الطبيعي أن تحلم أمة غرس فيها طقس البقعة التي تسكنها من كرة الأرض خليقة القلق والجزع، بحيث لا تحتمل البقاء على حالة بعينها، أو الصبر على شيء بذاته، بقوانين مستخلصة من التجارب، فيكون من الصعب نبذها والنزوع إلى غيرها. ويخلص (منتسكيو) من هذا إلى رأي أعجب من كل آرائه الآخر، مؤداه أن الدستور الإنجليزي، إنما هو جني الضباب الذي يحط على بلادهم. أضف إلى ذلك أنه يعزو دين الإنجليز إلى السبب عينه، في موضع آخر من ذلك الكتاب.

إسماعيل مظهر

من ذكريات الحملة الفرنسية

رستم مملوك الإمبراطور

للأستاذ محمد عبد الله عنان

يرقد نابوليون في مثواه الخالد في مؤخرة صرح الانفاليد بباريس، في تابوت من المرمر القاتم. تظلله قبة فخمة رائعة، وقد ركزت حوله عدة من الأعلام التي ظفر بها الإمبراطور في الوقائع الشهيرة التي خاضها وكان النصر حليفه فيها مثل مارنجو، وفاجرام، وايلو، واوسترلتز، ويينا، والاهرام، وغيرها؛ وقد استوقفنا يوم أتيحت لنا زيارة قبر الإمبراطور منظر ذينك العلمين الممزقين اللذين كتب أمامهما موقعة الاهرام، فلم نستطيع أن نميز لهما لوناً أو علامة خاصة أو أن نقرأ فيهما شيئاً

كانت الحملة المصرية من أعظم الحوادث التي تركت في ذهن نابوليون أثراً خالداً؛ ومع إنها اختتمت بالفشل من الوجهتين العسكرية والسياسية فإنها تركت من الوجهة المعنوية أعمق الآثار؛ ولم يكن نابليون حين مقدمه إلى مصر فاتحاً يبحث وراء طالعه فقط، ولكنه كان يتصور أنه يستطيع أن يعيد حلم الاسكندر، فيبدل آلام والحضارات؛ ومن ثم فقد حشد في جيشه المطابع والأدوات العلمية إلى جانب المدافع، والعلماء المبرزين في كل فن إلى جانب الضباط والقادة؛ ولم يكن ظفر نابوليون بفتح مصر والبقاء فيها مدى حين، ليضارع تلك الجهود البديعة التي اضطلع بها علماء الحملة الفرنسية لدراسة مصر وحضارتها، وتلك النتائج العلمية الباهرة التي وفقوا إليها، ودونوها فيما بعد في كتاب (وصف مصر) أعظم وأقوى موسوعة ظهرت عن مصر، في العصر الحديث

ولما عاد نابوليون من مصر إلى فرنسا حينما تعقدت الحوادث وتجهمت، (أكتوبر سنة 1799)، لم يكن لديه أمل في استبقاء مصر طويلا، ولكنه أراد أن يغادرها جنده في افضل الظروف والشروط؛ وهذا ما وقع بعد قليل، فقد انتهت الحوادث بجلاء

الفرنسيين عن مصر في أواخر سنة 1801؛ ولكن نابوليون لم يقطع صلته بمصر، ولم ينقطع اهتمامه بشئونها؛ فقد عني بعد ذلك بتأليف لجنة من العلماء الذين رافقوا الحملة إلى مصر مثل برتوليه ومونج وفورييه، لتضع موسوعة شاملة عن مصر، وظهر أول مجلد من هذه الموسوعة، أو كتاب وصف مصر الذي أشرنا إليه في سنة 1809، واستمر صدورها بعد

ذلك أجزاء متعاقبة إلى سنة 1826، وكانت من أعظم ثمار الحملة العلمية وليث نابوليون وثيق الصلة بمصر وذكرياتها عن طريق آخر؛ ذلك هو حرسه الخاص الذي ألفه من بعض المماليك والأقباط والترك والسود الذين اصطحبهم معه من مصر؛ وكانت هذه الفرقة المختارة التي يرتدي أفرادها الثياب الشرقية الزاهية ويركبون الخيول المطهمة تصحب القنصل الأول، ثم الامبراطور، في غدواته وروحاته، إلى التويلري ومالميزون؛ وكان منظرها الفخم المروع معاً، يثير طلعة الباريسيين ودهشتهم، فيحتشدوا لرؤية أولئك الفرسان الشرقيين، أولي الشوارب المفتولة، والعمائم الملونة، والثياب الفضفاضة، كلما مر ركب نابوليون

وكان عميد هذه الكوكبة المختارة جندي مملوك يدعى رستم. ولرستم مع نابوليون قصة طريفة نرويها في هذا الفصل. كان رستم أحد أولئك المماليك الذين يصعب تعقب أصولهم أو حياتهم الأولى، ألقى به القدر إلى القاهرة بعد أن بيع مراراً ولقي خطوبا، وقدم إلى بونابارت في القاهرة حينما طلب أن يؤتى له ببعض الإدلاء الوطنيين. وكان رستم يومئذ فتى في عنفوانه وسيم المحيا، فراق نابوليون منظره، وسأله حسبما يقرر لنا رستم بعد ذلك في مذكراته، هل يجيد الركوب والطعان، فأجاب رستم بالإيجاب. وسأله نابوليون عن اسمه، فأجاب أن اسمه الأخير يحيى، ولكن اسمه الحقيقي الذي سمي به في بلاد الكرج مسقط رأسه هو رستم؛ فامره نابوليون أن يتسمى بهذا الاسم، ثم وهبه سيفاً دمشقياً رصعت قبضته ببعض الجواهر، ومسدسين زينا بالذهب، وألحقه بخدمته

ولم تمض أيام قلائل حتى اضطر نابوليون إلى مغادرة مصر مسرعاً إلى فرنسا، فلم ينسى أن يصطحب معه مملوكه الجديد رستم على ظهر السفينة (مويرون) التي أقلته إلى فرنسا مع بعض علماء الحملة من أصدقائه؛ وكان رستم يختص بخدمة سيده الجديد، ويقضي المساء على مقربة من الحلقة التي تتألف كل ليلة في مؤخرة (مويرون) من نابوليون والعالمين برتوليه ومونج يتحدثون في الشئون العامة أو يلعبون الورق؛ وكان نابوليون كثيراً ما يقول لمملوكه أنه سيجد في باريس كثيراً من المال والنساء الحسان، فيطرب رستم، وتضطرم مخيلته بالأحلام اللذيذة، ويتذكر ماضيه التعس الحافل بصنوف البؤس والمخاطرة، وما اسبغ الحظ عليه من رعاية ذلك السيد العظيم الذي سيقوده إلى مستقبل

حافل بصنوف السعادة والنعيم

ووصلت (مويرون) إلى المياه الفرنسية بعد رحلة خطرة دامت نحو خمسين يوماً؛ ولما وصل رستم في ركب سيده إلى باريس، رأى منظراً رائعاً لم يتصوره من قبل، وسحرته عظمة العاصمة الفرنسية، التي لم تكن القاهرة أعظم مدينة شاهدها في الشرق إلى جانبها شيئاً مذكوراً؛ ولم تمض أشهر حتى ظفر نابوليون بإلغاء الحكومة الإدارية المؤقتة (الديركتوار)، وصدر دستور القنصلية (ديسمبر سنة 1799)، وانتخب نابوليون قنصلاً أولا، وانتخب معه صديقاه كامباسير ولبرون كقنصلين ثان وثالث؛ وهنا جاء دور رستم في الظهور إلى جانب سيده في المواكب العظيمة، وكان نابوليون يتوق دائماً إلى أن يحيط نفسه بتلك المظاهر الشرقية الساحرة، فكان رستم يتقدم عربة القنصل الأول دائماً، وهو على ظهر فرس بديع، وقد ارتدى صديرية من القطيفة الزاهية فوق ثوب واسع، ووضع على رأسه عمامة بيضاء أنيقة؛ وكان منظره الشائق الساحر معاً اجمل ما في ركب القنصل حين يغدو وحين يروح

وجاء دور الإمبراطورية وتألق نجم رستم سراعا، وشهد الحفلة الدينية الكبرى التي توج فيها الإمبراطور بالرغم من معارضة رجال الخاصة، واعد له بهذه المناسبة ثوبان فاخران وضع رسمهما (إيسابي) مصور الإمبراطور، وظهر رستم في كنيسة (الانفاليد) وعليه صدرية من الكشمير الفاخر المطرز بالذهب وعمامة رائعة الحسن، وذاعت شهرته حتى اصبح من طرائف باريس التي يعني برؤيتها كل زائر للعاصمة، وطبعت

صورته ووزعت بالألوف في جميع أنحاء فرنسا؛ وأغدق الإمبراطور على مملوكه العطاء والصلة ورتب له عدة رواتب حسنة حتى غدا من أهل اليسار والنعم؛ وكان الإمبراطور يثق به ثقة لأحد لها، فلم يكن من أقطاب حرسه الخارجي فقط، ولكنه كان حارسه الأمين في حياته الداخلية أيضاً؛ فكان ينام عند عتبة غرفة الإمبراطور في البهو الملاصق، وكان هو الذي يحمل العشاء إلى الإمبراطور والإمبراطورة حينما يكونان في الفراش؛ وكان ملحوظا بالرعاية من جميع أعضاء الأسرة الملكية والحاشية، حتى أن الملكة هورتنس ابنة الإمبراطورة جوزفين، وزوجة الجنرال مورات، عنيت بتصويره، وكانت تغنى له المقطوعات الساحرة حتى لا ينام أثناء التصوير

وتاقت نفس رستم إلى الزواج، وهام بحب آنسة تدعى دوفيل وهي ابنة أحد منادي الإمبراطور، وكانت رائعة الحسن في التاسعة عشرة من عمرها؛ ولما طلب رستم يدها قامت في سبيله بعض صعاب شكلية لأنه لم يكن كالفتاة كاثوليكي المذهب، ورفض الأسقف الموافقة على هذا الزواج فتدخل الإمبراطور وقضى على هذه الصعاب، وتم زواج رستم بالآنسة دوفيل في سنة 1806؛ ورزق رستم منها غلاما سمي (أشيل)، فطرب الإمبراطور لمولده وأغدق العطاء لمملوكه

وظل رستم متمتعاً برعاية الإمبراطور، يمرح في ظلال النعماء والنفوذ، حتى وقعت الكارثة، وهزم نابوليون في حرب التحرير واضطره الحلفاء الظافرون إلى التنازل عن العرش والسفر إلى جزيرة (إلبا)؛ وهنا سئل رستم كما سئل المخلصون من حاشية الإمبراطور، عما إذا كان يرغب في مرافقة الإمبراطور إلى المنفى، فتردد رستم في اللحاق به، وهرول إلى زوجه في باريس مغادراً ذلك القصر الذي أنفق فيه أعواما طوالا متمتعاً برعاية أعظم رجل في فرنسا، وفي أوربا بأسرها؛ ودلل بذلك على أثرته، ووضاعة نفسه؛ بيد أنه ندم على فعلته بعد، حينما رأى بداية العهد الجديد تميل إلى اضطهاد كل من كانت له صلة وثيقة بالعاهل المنفي؛ وكانت فرقة المماليك التي ينتمي إليها رستم قد انحلت مع مرور الزمن غادرها معظم رجالها ومات عدد منهم، وبقي رستم بعد ذلك ابرز أعضائها القدماء، ورأى رستم نفسه ينزل من علياء نفوذه بسرعة، ويجرد من سيفه وعمامته، وينظر إليه بعين الشك من الحكومة الجديدة. ألم يكن رسم اخلص حرس الإمبراطور وأقربهم إليه وأشدهم وطأة على أعدائه؟ وأحيط رستم برقابة صارمة، ونقل عيون الحكومة الجديدة عنه أغرب الأخبار، وقيل أنه يدبر مؤامرة لقلب الحكومة الملكية؛ والواقع أن رستم كان أبعد الناس عن هذه الريب، ولم يكن يود إلا أن يعيش في سلام بعيداً عن ذلك الماضي الذي يريبه ويزعجه

ولما عاد الإمبراطور من منفاه في إلبا توجس رستم شرا، وهرول إلى سيده القديم يلتمس الصفح والإعادة؛ فأبى الإمبراطور رؤيته، ورده باحتقار. وكان رستم يقيم عندئذ منزويا في بعض ضواحي باريس. فلم يكن أحب إلى نفسه من أن يستأنف حياة الانزواء والهدوء؛ ولم يمض غير قليل حتى وقعت الكارثة الحاسمة وهزم نابليون في واترلو وحمل إلى منفاه في

سنت هيلانه؛ ولم يهتز رستم لهذه الحوادث، وقنع من الحياة بالهدوء والسكينة؛ وعاد إلى سكنى باريس بعد أن نسيته الحكومة الجديدة، ولم تحاول إقلاق راحته، بيد أنه لم يكن يتمتع بعد برخائه القديم بعد أن أنقصت رواتبه، وكثر عياله، فنراه في سنة 1824 يسافر إلى لندن إجابة لدعوة أحد أصحاب المسارح، وهنالك يعرض نفسه في ثيابه الشرقية القديمة ويكسب بذلك بعض المال

وقضى رستم في لندن نحو عام، ثم عاد إلى باريس، وانتقل بأسرته إلى بلدة دوردان على مقربة من باريس ليعيش فيها؛ وهنالك لم تفارقه صفة (مملوك الإمبراطور)؛ وكانت هذه الصفة تثير من حوله الفضول وتسبغ عليه مهابة خاصة؛ بيد أنه لم يكن يتمتع يومئذ بشيء من مظاهره الشرقية القديمة؛ وكان يحب الصيد، ويغشى مجتمعات المدينة، ويتصل بكثير من أهلها بأواصر الصداقة المتينة؛ وكان كثيراً ما يقص ذكرياته عن الإمبراطور ويفاخر بما لديه من آثار الإمبراطور مما أفاضه عليه من أيام عزه؛ وكان بعض الساخطين عليه يرمونه بالخيانة، ويقولون عنه أنه خائن لبلاده خائن لولي نعمته، بيد أن رستم لم يكن ليعبأ بهذه المطاعن، وكان يحتفظ دائماً بسكينته وهدوء نفسه

وتوفي رستم سنة 1845، في الرابعة والستون من عمره ودفن بمقبرة دوردان وكتب

على قبره ما يأتي (هنا يثوي رستم رضا، مملوك الإمبراطور نابليون سابقاً؛ ومولده بتفليس من أعمال الكرج)؛ وكانت وفاته خاتمة لآخر الذكريات الحية في تاريخ الحملة الفرنسية على مصر

محمد عبد الله عنان

وحي الثلاثين

للأستاذ عبد المنعم خلاف

على مقطع من مقاطع الزمن الذي يبنيني، أقف مستدبراً مواكب الحياة الحاضرة، لأستعرض هذه العقود الثلاثة التي كونت جسمي ذرة ذرة، وملأت رئتي شهقة وأفرغتها زفرة، وسلسلت عقلي فكرة فكرة!

وأريد في وقفتي هذه أن يكون في روحي غيبوبة وامتداد، وفي ذاكرتي صحو واجتماع، وفي قلبي حنين واهتياج، وفي عقلي سكون وإدراك، وفي جسمي صحة ووقود، وفي قلمي حساسية وبيان. . . فإن الصور التي ارصدها مخبوءة في ركام من أيامي البالية التي لبستها أمام الشمس والقمر فطبعاها بالخاتمين (الأبيض والأسود) ثم نضوتها ومعها بسمة أو دمعة أو فكرة أو ذكرى، أو قطعة من قلبي أو هزة من جسمي في غرارة الطفولة أو ضحوة الصبا أو فوعة الشباب الذي يوشك أن يمضي به ما أشاب الصغير أفنى الكبير من كرّ الغداة ومرّ العشى. .!

أمسى! يا وادي الظلال الساكنة من حياتنا العاملة الناصبة. أنا الآن في حركة أدبار وارتداد إليك، في ساعة ليس لي فيها حاضر راهن يشغلني، ولا أمل غائب يغازلني، واقف فيك على أطلالي! ابحث فيها عن صور عيني ولها فيك ظلال، وأنغام أذني، ومنها بك أصداء. . بل أني لأبحث عن سري وميراثي من عهد آدم حادراً في الأصلاب متنقلا في الأحقاب في عالم غيبي ومشهدي!

فمن لي بما يروي لي ما بين مبتداي ويومي هذا. .؟ إنها شقة بعيدة احسب أنها تعي تهاويل الخيال المسعد!

وقد قالت (الفسلجة): إني صورة تتجدد فيها خلايا جسمي كل سبع سنين. . . فلست أنا الجسم الأول ولا الثاني ولا الثالث ولا الرابع. . . وليس في بقية منها، فإذا بحثت عن أجزائي التي ماتت وأبعاضي التي غيبت، فلن أجدها إلا في ذلك الجسم العظيم الذي أنا خلية منه: الأرض. ويالها من تيهٍ لمن يبحث!

إذاً يا روحي، أنت (المكان) الذي يمكن أن ابحث فيه عني: سراً كامناً في عالم الغيب، ثم نواةً فعقدةً فَلبّاً فثمرةً مدركة. فافسحي لي من شأنك العظيم واحرقي بخوراً يعد لي جواً

أعيش فيه ساعة الذكرى!

ودخلت قدس الروح المعطر، ومعي ذلك (الصندوق العجيب) جمجمتي! أتحسس الشعاع الأول الهادي إلى مفتاح حياتي، فلم أرَ ولكني سمعت نجوى تقول:

حينما طلبت شعلة الحياة حطباً جديداً قبل ثلاثين سنة، دفع بك وأنت (لاشيء) في) غيبوبة الأزل على حبل نسل تناهي إليك من أبيك عن أبيه عن. . . آدم في صف كبير مع لداتك الذين أتى دورهم في الاحتراق. . . فانعقدت البذرة وتخلقت وركبت الذات ووضعت الذرة الصغيرة التي فيها كل ميراث آدم، واتصلت بها الشرارة الخفيفة المجهولة فدار قلبك الصغير فأضاف بنبضه صوتاً إلى ضوضاء الحياة. . وبحركته دفعاً إلى موكبها. . وبحرارته جمرةً في شعلتها. . . فاختلج آدم فَمَن والاه على السلسلة التي بينك وبينه، فرحاً بالامتداد والخلود. . واستبقت الملائكة والشياطين إلى احتلال الأمكنة فيك استعداداً للمعركة المقبلة. . . وعششت في قلبك الغربان والخفافيش السود، والحمامات البيض شأنها على كل غصن. . . وطارت عليك الذرات الجامدة التائهة لتكون لبناتٍ حيةً في البناء الجديد.

ثم فصلت عن المستودع التي التقى فيه أزلك وأبدك، وخرجت في موكب الربيع في أبريل سنة 1907 مع أوراقه وأزهاره وأغصانه وأفراخه. . كتلةً لحمية عمياء بكماء صماء. . فأسرع جو الأرض إلى رئتيك المختلجتين في ارتباك وسرعة لتلحقا حركة الحياة بالإحياء، وفتحت الأضواء أجفانك، وكل شعاع يريد أن يكون بشير النور ورسالة الشمس أم الحياة إلى (عدستك) الجديدة.

وكان أول صوت اقتحم أذنيك من ضجة الحياة، صوت الآلام. . آلام تكاليف الحياة

وحمل أمانتها الفادحة التي عرضت (على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان). . . صوت أمك. .
وبكيت من ازدحام هذه العوامل على جسمك الرقيق الغريب بينها فأذاقوا فاك لذته فسكت. . . وكان هذا أول درس عرفته من منطق أهل الأرض مع المزعجين!.
ثم عاشت هذه الكتلة طفيلية في حياة كحياة النبات، وفي فراغ كفراغ النائم ومضت الدنيا تدور كل يوم حول (صندوقها العجيب) فتدخل إليه على شعاع أو صوت أو طعم أو لمس لتثبت وجودها فيه أو لتخلق فيه خلقاً آخر على الأصح (والأكوان عداد العقول) كما يقول
الرافعي العظيم.
وتفاعلت أشياء الدنيا مع أشياء القلب فأخذ الشخص الكامِن يبدو ويمتد فكل ذرة تلد وكل معنى يتركب من هذه الأبجدية وظهرت بعض النسب بين الأشياء، واشرأبت الأشياء إلى براهين وجودها. .
فقلت لصوت النجوى: أكانت الدنيا عدما قبلي؟!
فأجاب: قالت بعض الفلسفات: الدنيا فكرة!
قلت: لا! بدون برهان. . .
قال الصوت: أنت وأخوك قد خرجتما من مستقر واحد بجسمين مختلفين قد تقمصتك روح وتقمصته أخرى. أفرأيت لو خالف بينك وبينه فكنت إياه وكان إياك؛ أفلا كان العالم غير ما هو الآن عندك وعنده وعند الناس؟
فتأملت ولم أعط الجواب للآن!.
ثم أنقطع الصوت وابتدأت أرى في الجمجمة خيوط ضوء على حواء وآدم في شخصي ألام والاب، واسمع منها أهازيج الجنة وأصوات ولدانها في أصوات لداتي وأترابي بملاعب الطفولة، وأرى قطعة من سماء القاهرة والشمس فيها والقمر، فوق المكان الذي تيقظت فيه من الغيبوبة والذهول: حارة الروم. . . سقاها الحيا، فوقفت أبحث عن الطفل الصغير وضعفه وجهله وبراءته وفراغه وثيابه وحلواه وحيوانه وصورته التي كان يتعجب منها كثيراً. . . فوجدتها أشياء لا تزال تضحك كما كانت. . . وأنا أبكي بعلمي وأنوء بقوتي، وانفجر بامتلائي وأجن بيقظتي. .
ففتحت لها قلبي فكادت تنكره وتختنق بما فيه.
وقلت يا حمراء هل رجعة! ... قلت وهل يرجع ما فاتا!
ثم جاء العهد الذي رأيت فيه الدنيا في شخص المعلم لها عصا تلوح لي بها إلى الحق والواجب، والنفس والغير، وتشير بها إلى الأمام. . . إلى الغاية. . . إلى الرجولة، ثم تصلصل بالقيود حين يصلصل الجرس. . .
فصحوت لأعلام الطريق واستيقظت لصحبة ذلك الشخص الغامض المبهم الذي أبتدأ يضايقني بندائه، ويشغلني بأشيائه. . . أنا! فتمنيت وتخليت وتشبهت وجاء الأمل والعمل،
وأسلمني الزمان إلى عهد الشباب بنداءاته وهزاته، وأقبلت الدنيا بإعراسها واحتوائها ومباهجها ومفاتنها تتحبب وتغازل وتغنى للثمرة الناضجة. . واستيقظت الشياطين والملائكة للمعركة التي رسمت خططها واحتلت لها الأمكنة في قلب الجنين، وحامت الحمامات والفراشات البيض، والأغربة والخفافيش السود، فتغيرت نبضات القلب وسمعت منه أصوات لا عهد لها ولا تاريخ. . وقال الجسد: هاأنذا. . . وقالت النفس: وها أنذي. . . وقالت الحياة: دونكما. . .
ووقفت أنا. . . أرى المعركة وأتفرس في القتلى والمصروعين بدهشة وأسف ولذة وعجب إلى يومي هذا، وهكذا يدور الصراع والقبر الموعد. . .
وارتسمت البشرية بعلومها وآدابها كلماتٍ على ذلك العرض الأبيض الذي في رأسي: فألف وياء، وواحد وألف، وأرض وبحر وسماء، ومادة وقوة، ومثلث ودائرة، وزنوج أفريقية وبيض أوروبا، وبوذا وفينوس، والجمل وزبلن، والسلحفاة والطيارة والراديو، والقبر والقصر، والحق والواجب. . وقيل وقالوا. . . ولست أدري بعد ذلك: أهو قبض على ريح.؟. أو إمساك على ماء؟! أو سراب على سبسب؟!
أيها الدهر الذي صحبته ولبسته ذرة صغيرة إلى أن صرت كوناً فيه قلب وعقل! هاأنذا كواقف في صحراء تلتقي بها على مدى بصره آفاق السماء، إذا تلفت وراءه وجد إبهاماً

. . .وغموضاً وإذا تطلع أمامه وجد إبهاماً وغموضاً
وددت لو أني كنت الرجل الأول لأشهد نشأة الإنسان والرجل الأخير لأشهد فناء الإنسان. . . الإنسان الواحد الهائل الذي يتمثل في هذه الأشخاص التي تمتلئ بها الأرض وتفرغ منها كل لحظة. . . الإنسان الذي وقع عليه كل الضوء وكل الظلام. . . وددت هذا لأعرف! ولكن ليس لي متقدم عن زماني هذا ولا متأخر.
يا لبنات الجسد. . . يا قلبي الذي لم أره ولن أراه. . يا أعضائي وأجزائي التي تجمعت لأكون. . .
!. . .يا ناصيتي وقدمي، وأهابي وفؤادي وظاهري وباطني
أما سئمتن الألفة تحت هذا الرباط الضاغط، فترون الفكاك والانطلاق؟
إني اشعر أن حملتكن إصراً، وأرهقتكن من أمري عسراً، وآذيتكن من جوار روحي: بيت
النار!
!إني يقظ للصحبة وفيٌّ للرفقة في هذه الرحلة، لا أبخل عليكن بالنظرة الراثية أيتها الأيام المقبلة التي فيها الأعباء الكبيرة والصحو من الرؤى والأحلام، وبلوغ القمة ثم الانحدار إلى الحفرة التي فيها الدوام والقرار. .
أعيذ حرارة قلبي من يدك الباردة. .، وما وراء قلبي فهو لسطوة قوانينك، وصرامة نواميسك. فهذا شعري فاصبغيه بلون الكفن. . . وجلدي فسجلي فعلك بتجعيده، وقدماي فافتلي قيدهما، وأوصالي فافصمي عراها، وإن شئت فاغلقي عيني وأحوجي سمعي إلى ترجمان، واجعليني كجذع هصرت غصبونه وذهبت حلاه وفنونه. .
أما قلبي فدعيه لي بأوتاره وأشواقه، صوتاً أخيراً وصاحباً محدثاً أعيش معه يوم يدبر الناس وتزيغ الحواس؛ حتى تطلبني الأرض جسداً تأكله!
عبد المنعم خلاف
للأدب والتاريخ
مصطفى صادق الرافعي
1880 - 1937
للأستاذ محمد سعيد العريان
لما جاءني نعي الرافعي بعد ظهر الاثنين 14 مايو سنة 1937 غشيتني غشية من الهم والألم سلبتني الفكر والإرادة وضبط النفس فلم أكد أصدق فيما بيني وبين نفسي أن (صادق الرافعي) الذي تنعاه لي (البلاغ) الساعة هو الرجل الذي أعرف ويعرف الناس؛
ودار رأسي دورة جمعت لي الماضي كله بزمانه ومكانه في لحظة فكر، وتتابعت الصور أمام عيني تنقل إليّ خيال هذا الماضي بألوانه وإشكاله ومجالسه وسمره وأحاديثه، من أول يوم لقيت فيه الرافعي من خريف سنة 1932 إلى آخر يوم جلست إليه في قهوة (بول نور) منذ شهرين فحدثته وحدثني ثم انصرفت وانصرف وفي نفسي منه شيء وفي نفسه مني. . .
وعدت إلى النعي أقرأه وفي النفس حسرة والتياع، فما زادتني قرأته شيأً من العلم إلا أن مصطفى صادق الرافعي قد مات!
حينئذ أحسست كأن شيئاً ينصب انصباباً في نفسي، وأن صوتاً من الغيب يتناولني من جهاتي الأربعة يهتف بي، وأن حياة من وراء الحياة تكتنفني الساعة لتملي عليّ شيئاً أو تتحدث إليّ بشيء. ونفذت إلى أعماق السر حين شعرت كأن عينين تطلان علي من وراء هذا العالم المنظور لتأمراني أمرا، هام عينا الرجل الذي أحببته حباً فوق الحب، وأخلصت له وأخلص لي إخلاصاً ليس منه إخلاص الناس، ثم نزع الشيطان بيني وبينه ففارقته وفي نفسي إليه نزوع وفي نفسه إليّ، ثم لم القه من بعد إلا مرسوماً في ورقة مجللة بالسواد. . . وانحدرت من عيني دمعتان!
وانطلق بي الترام إلى غير وجهة معروفة، والدنيا في نفسي غير الدنيا، والناس من حولي غير الناس؛ فلما صار بي الترام في ميدان (العتبة) رأيت جماعة من الشبان والصبيان يسيرون في موكبهم وموسيقاهم هاتفين بنشيد الرافعي:
حماة الحمى يا حماة الحمى ... هلموا هلموا لمجد الزمن
لقد صرخت في العروق الدما ... نموت نموت ويحيا الوطن
فكأنما كانت أصوات هؤلاء الشبان، في تلك الساعة، هاتفة بهذا النشيد، لتنبهني إلى

أن الرافعي الذي وقع في نفسي منذ قليل أنه مات، هو حي لم يمت؛ وأن هذه النقلة من حياة إلى حياة، خليقة بأن تكون لمثل الرافعي هي الميلاد الثاني. وثابت إلى نفسي فاستشعرت برد الراحة وهدوء الإيمان

وانتهيت إلى (نادي دار العلوم) فما جلست قليلا حتى أقبل صديقي الأستاذ محمود شاكر وفي عينيه دموع وفي شفتيه اختلاج فمد إليّ يداً يصافحني وهو يقول: (الرافعي مات. . .) وأطرق وأطرقت، وانسرب الفكر في مساربه، فما عرفت إلا منذ الساعة أي واجب عليّ لهذا الراحل العزيز.

لقد عاش الرافعي في هذه الأمة وكأنه ليس منها، فما أدت له في حياته واجباً، ولا اعترفت له بحق، ولا أقامت معه على رأى؛ وكأنما اجتمع له هو وحده تراث الأجيال من هذه الأمة العربية المسلمة، فعاش ما عاش ينبهها إلى حقائق وجودها ومقومات قوميتها. على حين كانت تعيش هي في ضلال التقليد وأوهام التجديد. ورضى هو مقامه منها غريباً معتزلا عن الناس لا يعرفه أحد إلا من خلال ما يؤلف من كتب وينشر في الصحف، أو من خلال ما يكتب عنه خصومه الاكثرون. وهو ماض على سنته، سائر على نهجه، لا يبالي أن يكون منزله بين الناس في موضع الرضا أو موضع السخط والغضب، ولا ينظر لغير الهدف الذي جعله لنفسه منذ يومه الأول، وهو أن يكون من هذه الأمة لسانها العربي في هذه العجمة المستعربة، وأن يكون لهذا الدين حارسه وحاميه، يدفع عنه أسباب الزيغ والفتنة والضلال؛ وما كان - رحمه الله - يرى في ذلك إلا أن الله قد وضعه في هذا الموضع ليكون عليه وحده حياطة الدين والعربية، لا ينال منهما نائل إلا انبرى له، ولا يتقحم عليهما مقتحم إلا وقف في وجهه؛ كأن ذلك (فرض عين) عليه وهو على المسلمين (فرض كفاية)؛ وأحسبه قال لي مرة وقد كتب إليه صديق يلفته إلى مقال نشرته صحيفة من الصحف لكاتب من الكتاب تناول فيه آية من القرآن بسوء التأويل: (يا سعيد، من تراه يقوم لهذا الأمر إن سكت الرافعي؟) وكان هذا من اعتداده بنفسه، ولكنه كان مذهبه وإليه غايته، وكأن القدرة التي هيأته وأنشأته بأسبابها لهذا الزمان قد فرضت عليه وحده سداد هذا الثغر؛

وكان إلى ذلك لا ينفك باحثاً مدققاً في بطون الكتب حيناً وفي أعماق نفسه المؤمنة حيناً آخر، ليستجلي غامضة من غوامض هذا الدين أو يكشف عن سر من أسراره فينشر منه على الناس؛ وأحسبه بذلك قد أجدَّ على الإسلام معاني لم تكن تخطر على قلب واحد من علماء السلف، وأراه بذلك كان يمثل (تطور الفكرة الإسلامية) في هذا العصر، فإذا كانت الأمة العربية المسلمة قد فقدت الرافعي فما فقدت فيه الكاتب، ولا الشاعر ولا الأديب؛ ولكنها فقدت الرجل الذي كان ولن يكون لها مثله في الدفاع عن دينها ولغتها، وفي النظر إلى أعماق هذا الدين يزاوج بينه وبين حقائق العلم وحقائق النفس المستجدة في هذا العصر، ولقد يكون في العربية كتاب وشعراء وأدباء لهم الصيت النابه، والذكر الرائع، والصوت المسموع؛ ولكن أين منهم الرجل الذي يقوم لما كان يقوم له الرافعي: لا يترخص في دينه، ولا يتهاون في لغته، ولا يتسامح لقائل أن يقول في هذا الدين أو في هذه اللغة حتى يرده من هدف إلى هدف أو يرض عليه الصمت. . .

وبعد فماذا يعرف الناس عن الرافعي وماذا أعرف؟ هل يعرف الناس إلا ديوان الرافعي، وكتب الرافعي، ومقالات الرافعي؟ ولكن الرفعي الذي يجب أن يعرفه أدباء العربية ليس هناك. فماذا يكتب عنه الكاتبون غداً إذا أرادوا أن يكتبوا هذا الفصل الذي تم تأليفه في تاريخ العربية، وماذا يقول الراثون عنه في حفلة التأبين؟

لقد عشت مع الرافعي عمراً من عمري في كتبه ومقالاته فما عرفته العرفان الحق؛ وعشت معه بعد ذلك في مجلسه وفي خاصته، وخلطته بنفسي وخلطني بنفسه؛ فما أبعد الفرق بين الصورتين اللتين كانتا له في نفسي من قبل ومن بعد؛ أفتراني بهذا أستطيع أن أقول عن الرافعي شيئاً أؤدي به بعض ما على من الدين للعربية وللفقيد العزيز؟ مالي أتهيب هذا المجال فلا أقدم حتى أحجم؟ إنني لأحس عبئاً ثقيلاً على عاتقي، لا طاقة لي بأن أحمله، وليس على أحد غيري أن يقوم به. ولقد طلب إليّ الأستاذ الزيات منذ عامين أن اكتب شيئاً عن الرافعي يعرفه إلى قراء (الرسالة) فما احسبني لقيت في ذلك من الجهد إلا بمقدار ما استحضرت الفكر وتناولت القلم؛ على أن الرافعي كان يومئذ حياً، وكنت أحذر أن يغضب أو ينالني منه عتب؛ فكيف بي اليوم

والرافعي بعيد في العالم الثاني، والكلمة اليوم للتاريخ، ووسائل العلم مني قريبة؛ ورسائل الأستاذ الزيات تتري تستنجزني الوعد وتقتضيني الحق
الذي عليّ للأدب والعربية، وصوت الفقيد العزيز يهتف بي حيثما توجهت: (إن لي عليك حقاً وإن للأدب عليك. . .!)
ولكني ما أكاد أمسك القلم حتى يكتنفني الشعور بالعجز فأكاد أوقن أنه لا أحد يستطيع أن يكتب عن الرافعي إلا الرافعي نفسه، ولكن الرافعي قد مات . . .
أيها الحبيب العزيز الذي ما أزال من كثرة ذكراه كأنني منه على ميعاد معذرة إليك!
وهاأنذا أحاول أن اكتب عن الرافعي؛ فلا ينتظر أحد مني أن أتكلم عن الرافعي الشاعر، أو الرافعي الكاتب، أو الرافعي الأديب، أو الرافعي الفيلسوف؛ فما يتسع لي الوقت، وما يرضيني عن نفسي ولا يقنعني بالوفاء أن أكتب عن هذه الحيوات الكثيرة التي اجتمعت في حياة إنسان؛ فلينهض لذاك غيري؛ ولكني سأكتب عن الرافعي الرجل الذي عاشرته زمناً، ونعمت بصحبته، وخلطته بنفسي، وتحدث قلبه إلى قلبي، وتكاشفت روحه وروحي؛ سأكتب عن الرافعي الرجل الذي عاش على هذه الأرض سبعاً وخمسين سنة ثم طواه الموت؛ سأحول أن أجمع شتات حياة تفرقت أخباراً وأقاصيص ونوادر على لسان معاصريه أو غابت سراً في صدور أهله وخاصته؛ أما الرافعي الشاعر الكاتب الأديب الفيلسوف فسيجد الباحثون مما أقول عنه مادة لما يقولون فيه، ولعليّ أن أوفق في البلوغ إلى ما قصدت. وإنني لأتهم نفسي من كثرة ما أحب الرافعي أن أتحيف الأدب لو بدا لي أن أقول: هذا رأي. ولكني سأقول: هذا ما رأيت. فمن كانت له عين بصيرة تنفذ إلى ما وراء المرئيات وتربط الأسباب بالمسببات فسيبلغ جهده ويرى رأيه
ولقد كان الرافعي منذ شهرين إنسانا حياً بعواطفه وأمياله وحبه وبغضه وشهواته النفسية، ولكنه اليوم فصل من تاريخ العربية بألوانه وفنونه؛ فلا عليّ اليوم أن قلت كل ما أعرف عنه خيراً وشراً؛ فإنما أكتب للتاريخ، والتاريخ لا يحابي ولا يحتسب، وستمر بي في تاريخ الرافعي حوادث وأسماء سأصفها وأعرِّف عنها بقدر ما، كما سمعتها أو عرفت عنها؛ فأيُّما كاتبٍ أو أديب أو رجل أو امرأة أو ذي شأن أحس فيما أكتب شيئاً ناله بما يوجب المدح أو المذمة فلا يشكر ولا يتعتب؛ فإن التاريخ بعد أن يقع لا يمكن محوه بممحاة تلميذ. . . وما فات من تاريخ الإنسان فهو جزء أنفصل من حياة صاحبه، وإنما له ما هو آت، وما أحب أن يقول لي أحد صدقت أو كذبت؛ فما هذا الذي أكتب رأيا أراه، ولكنه رؤية رأيتها أو
رواية رويتها فأثبتها مسندة إلى راويها وعليه تبعتها
إن التاريخ الأدبي للرافعي يبدأ من سنة 1900 وتاريخ ميلاده قبل ذلك بعشرين سنة؛ وأنا ما بدأت صلتي بالرافعي إلا سنة 1932 فما كان من هذا التاريخ فسأرويه من غيب صدري أو مذكراتي وعليّ تبعته، وما كان من قبل فقد سمعت به من أهله وأصدقائه الأدنين وخلطائه منذ صباه، أو كان مما قصه عليّ أو عرفت عنه من أوراقه الخاصة ورسائله إلى صحبه ورسائل صحبه إليه. فهذه مصادر علمي أقدمها بين يدي هذا الحديث ليعرف قارئه أين مكانه من الصدق ومنزلته من الحق. على أن للذاكرة خئون، وما يمر على فكر الإنسان من مختلف الحوادث وصروف الأيام ينسيه أو يلهيه أو يخلط في معلوماته شيئاً بشيء؛ فمن كان يعرف شيئاً من تاريخ الرافعي ورأى أني تصرفت فيه بنقص أو زيادة أو تغيير أو تبديل فليراجعني الرأي وليرشدني إلى الصواب، على أن أكون عنده بمنزلة من حسن الظن وأن يكون عند نفسه؛ وألا فليرحني وليرح نفسه فما بي حاجة إليه ولا به حاجة. ورجائي هذا إلى أصدقاء الرافعي وخاصته وخلطائه؛ أما الذين يروون عن السماع فليعلموا أن الحديث المتداول يزيد وينقص، فما أرويه هو أقرب إلى الحق مما يكونون سمعوه
الرافعي في يومه الأخير
في الساعة الثانية بعد الظهر الأحد 13 مايو سنة 1937 نهض الرافعي من مكتبه بمحكمة طنطا الكلية الأهلية منطلقاً إلى داره في رفقة صديقه الأديب أمين حافظ شرف، وتحت إبطه عديد من الكتب والصحف والمجلات، تعود ألا يسير إلا معه مثلها، وفي يمناه عصاه يهزها أمام ووراء؛ وما افترقا حتى تواعدا على اللقاء مساءً في مكان ما، ليذهبا معاً إلى (متنزه البلدية) فيشاهدا فرقة راقصة هبطت إلى المدينة منذ

قريب، وتغدى الرافعي وصلى الظهر ونام، ثم نهض في الساعة الخامسة فصلى العصر وجلس يداعب أولاده - وجلوسه مع أولاده يداعبهم ويمزح معهم ويتبسط لهم جزء من عمله اليومي - ثم ذهب إلى عيادة الدكتور محمد الرافعي حيث لقي هناك أخاه الدكتور نبوي وصهره الأستاذ مغازي البرقوقي، فجلس الرافعي يمزح ويضحك ويتندر أكثر مما عرف عنه من المزاح والضحك والتندر في يوم من الأيام؛ ثم صلى المغرب والعشاء في العيادة، ودعا أخاه ليصحبه إلى

مأتم جار من العامة ليعزيا أهله؛ والمعروف عن الرافعي أنه كان يكره حضور المأتم وتقديم التعازي كراهة ظاهرة؛ وقلما كنت تشاهده في مأتم إلا في النادر، حتى أنه لما توفيت زوج ابنه الأستاذ سامي الرافعي لم يجلس في المأتم إلا لحظات، ثم أنفرد في خلوته يستوحي الحادثة مقاله المعروف: (عروس تزف إلى قبرها!) وجاء المعزون يلتمسون الأستاذ الرافعي فلم يجدوا إلا ولده وصهره. أفكان الرافعي بحضور هذا المأتم في يومه الأخير يريد أن يصل نسباً أو يعقد آصرة بالعالم الثاني؟ أو كان ميعاداً إلى لقاء قريب. . .!

ثم ذهب الرافعي بعد التعزية إلى موعد صديقه ماشياً، وقطعا الطريق إلى المتنزه على الاقدام؛ فتفرجا، وشاهدا ما شاهدا في الحفلة الراقصة، وأخذ الرافعي ما اخذ من وحي الراقصات لفنه ومادته الأدبية، واخذ صديقه ما اخذ؛ أفكان بهذه الحفلة يريد أن يصل ما أنقطع من قصة (الجمال البائس) و (القلب المسكين) و (في اللهب ولا تحترق)ـ . . .؟

وفي منتصف الساعة الثانية عشرة كان الرافعي في طريقه إلى بيته بعد ما ودع صديقه في منتصف الطريق؛ فلما بلغ الدار خلع ثيابه، وتناول عشاء خفيفاً من الخبز والبطارخ، والبطارخ طعام الرافعي الذي يحبه ويؤثره على كل طعام في المساء، لأن له عملاً أدبياً معه. . .!

واستيقظ مع الفجر على عادته كل يوم، فتوضأ وصلى، وجلس في مصلاه يدعو الله ويتلو قران الفجر. وأحس بعد لحظة حراقا في معدته فتناول دواءه وعاد إلى مصلاه، وصحا ولده الدكتور فشكا إليه ما يجد في معدته، وما كان إلا شيئاً مما يعتاده ويعتاد الناس كثيراً من حموضة في المعدة، فأعطاه الدكتور شيئاً من دواء وأشار عليه أن ينام، ولبس الدكتور ثيابه، ومضى ليدرك القطار الأول إلى القاهرة، ومضت ساعة؛ ثم نهض الرافعي من فراشه لا يحس ألماً ولا يشكو هما وما به علة، فأخذ طريقه إلى الحمام؛ فلما كان في البهو سمع أهل بيته سقطة عنيفة أحدثت صوتاً شديداً؛ فهبوا مذعورين ليجدوا عميد الدار جسداً بلا روح.

قال الدكتور محمد: (ولما وجدت البرقية تنتظرني في محطة القاهرة وليس فيها سبب ما يدعونني إليه، تحيرت حيرة شديدة؛ بلى أيقنت أن شيئاً قد حدث، وأن كارثة وقعت؛ ولكن لم يخطر في بالي أنه أبي. لقد تركته منذ ساعتين سليما معافى قوي القلب أقوى ما يكون

قلب رجل في سنه. . . كل المفاجآت المروعة قد خطرت في بالي إلا هذا الخاطر، ولكن. . . ولكن الذي مات كان أبي. . .!)

يا صديقي، لك العزاء ولنا؛ أحسبت أن الرافعي سيموت في فراشه وهو قد نذر أن يموت في الجهاد وفي يده الراية ينافح بها الشرك ويدعو إلى الله ويواصل حملة التطهير. . .؟

طبت نفسا يا مصطفى، ولكم كنت تخشى الهرم والمرض والزمانة ولزوم الفراش وثقل الأيام التي تعد من الحياة وما هي من الحياة، فأي كرامة نلت؟ وأي مجاز جزت؟ وهل رأيت الطريق بين الحياتين إلا ما كنت تريد؟ وهل كانت إلا خفقة نفس نقلتك من ملأ إلى ملأ أرحب وأوسع في كنف الخلد وفي ظلال الجنة يرحمك الله يا صديقي ويرحمنا!

(لها بقية)

(طنطا)

محمد سعيد العريان

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

البوذية
لما كانت البوذية ثانية الديانتين الجوهريتين في بلاد الهند، فقد كان من الطبيعي - وقد بدأنا بالبراهمة - أن نثني بها محاولين إيضاح غوامضها ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، ولكن ينبغي لنا قبل الدخول في تفاصيل هذا المذهب أن نلم بشيء مما حواه لنا التاريخ الغامض عن حياة المنشئ العظيم لهذه الديانة الخطيرة التي لعبت في تاريخ الإنسانية دوراً من أهم الأدوار. وإليك هذا الموجز المضطرب من حياة هذا الزعيم الديني الكبير
ولد (جوتا ما سيرهارتها) في (كابيلا فاستو) على حدود (نيبال) حوالي سنة 560 قبل المسيح من أسرة نبيلة، إذ كان والده رئيس قبيلة (ساكيا). ولما شب زهد في نعمة والده وأخذ هذا الزهد يزداد شيئاً فشيئا حتى إذا بلغ من نفسه منتهاه ألقى بالحلل الفاخرة جانباً واستبدلها بثياب خشنة مرقعة ثم هجر منزل أسرته إلى الغابات والأحراش لا يلوي على شيء من مظاهر النعمة التي كانت تحدق به إحداق السوار بالمعصم، لأنه آمن بأن مصدر جميع هذه الآلام التي تكتظ بها الحياة البشرية إنما هو الهوى المنبعث من الشهوات الجسمانية، وأن المخلص الوحيد من هذا السجن المطبق إنما هو في التلاشي المادي، وهذا التلاشي لا يتحقق إلا بالزهادة والتخلي عن جميع ملاذ الحياة وشهواتها. وقد أيقن كذلك بأن اللذائذ المادية ستار من الظلام يحجب عن النفس كل معرفة حقة، فالوسيلة الوحيدة إذاً، للتخلص من الألم ولتحقيق المعرفة هي الزهادة في المادة من جميع نواحيها.
لم تكد هذه العقيدة تستولي على نفسه حتى بدأ في تحقيقها، فانسلخ عن كل مظاهر الترف وأنسحب عن المدينة إلى إحدى الغابات الموحشة، فآوى فيها إلى شجرة كبيرة اتخذ ظلالها الوارفة مقامه، ثم أخذ يحاسب نفسه على ما قدمه من خير وشر حيناً، ويتأمل في أسرار
الكون وخفايا الوجود حيناً آخر، واستمر على ذلك زمناً طويلا لا يزاول من أساليب الحياة إلا هذا الأسلوب المماثل الذي لا فرق بين أمسه ويومه وغده. . . وأخيراً شعر ذات ليلة وهو سابح في بحار الفكر والتأمل أن المعرفة قد انقذفت إلى قلبه دفعة واحدة، وأن أداء واجبه منذ اليوم لم يعد يتحقق بالنسك والتأمل فحسب كما كان قبل ليلة المعرفة، وإنما اصبح يتناول إلى جانب ذلك شيئاً آخر، وهو التبشير بمذهبه في كل مكان، ومحاولة غرسه في كل قلب، فهب لساعته يصدع بديانته الجديدة جهراً وفي غير مبالاة، وسرعان ما تجمع حوله عدد من الشباب والشيوخ يتشربون تعاليمه تشرب الأرض اليابسة للمياه، ثم جعل عدد هؤلاء التلاميذ يزيد شيئاً فشيئاً وأخذت هذه الديانة تعم ويتسع نظامها حتى بلغ عدد معتنقيها نحو أربعمائة وسبعين مليونا من الأنفس في الشرق الأقصى
كان بدء بوذا في الصدع برسالته على رأس العام السادس والثلاثين من عمره، فظل جهاده في نشرها زهاء أربع وأربعين سنة لم ينضب أثناءها لنقاشه نبع، ولم يخفت لتبشيره بدينه صوت، ولكن لم يثبت عنه أثناء هذا الزمن الطويل الذي قضاه في نشر رسالته أنه غضب مرة واحدة مع مناقشه، بل كانت الرحمة والعطف يفيضان من أساليبه في مختلف الظروف ومتباين الأحوال لا فرق بين أن يكون مناقشه من تلاميذه المحبين أو من خصومه الحاقدين.
وأخيراً توفى هذا الحكيم حوالي سنة 480 قبل المسيح عن ثمانين عاما قضاها بين الزهد والتقشف والدعوة لديانته الجديدة، وكان موته بين جمع من تلاميذه الأصفياء - مثال البساطة البعيدة عن جميع مظاهر الجلال التي تحوط عادة آخر ساعات عظماء الرجال
شخصية بوذا بين الشك واليقين
سأل الملك (ميلاندا) أحد ملوك الهند الأقدمين الحكيم (ناجازينا) وهو أحد أتباع البوذية قائلا: (أيها الحكيم المحترم هل رأيت بوذا؟) فأجاب الحكيم: (كلا يا صاحب الجلالة). س: (وهل أساتذتك رأوه؟). ج - (ولا أساتذتي يا صاحب الجلالة) قال الملك: (إذاً، يا

ناجازينا، فليس هناك بوذا ما دام لم يقم على وجوده برهان قوي). فلما سمع الحكيم (ناجازينا) هذا الاعتراض الذي وجهه الملك إلى إلهه، وكان حقا لا يملك على وجوده برهانا مباشرا، شرع يدلل عليه بآثاره الكونية فقال: (إذا غاب بوذا عن الأنظار، فهنالك آثاره التي أنشأها،

ومصنوعاته التي خلقها فهي أقوى الأدلة على وجوده، هنالك هذا العالم البديع الذي خلقه وهناك هذا العدد العظيم الذي أرسى سفنه بحكمته وقدرته على شاطئ النجاة بعد أن أنقذها من خضم الألم. وإذا كان من يرى مدينة منسقة بديعة التكوين والتنظيم لا يستطيع إلا أن يعلن إعجابه بمنشئها وأن يرفع الصوت قائلا: ما أحكم هذا المهندس الماهر الذي شيد هذه المدينة وأتقن تنظيمها! فالأمر يجب أن يكون بالنسبة إلى مدينة الكون العام التي أنشأها بوذا واحكم تنسيقها.

وفي الحق أن نظرة واحدة إلى ما عليه الكون من نظام وانسجام تكفي لترسيخ الإيمان اليقيني بوجود بوذا،. فلم يكد الملك يسمع من الحكيم هذا البرهان حتى أعلن أنه مقتنع بوجود بوذا اقتناعه بوجود جده الأعلى مؤسس أسرته المالكة الذي لم يره كذلك، وصرح بأن المشاهدة ليست كل شيء، وأعلن أن كثيراً مما لا تعترف به المشاهدة له وجود واقعي يقيني

ويعلق الأستاذ (أولترامار) في كتابه (تاريخ وحدة الوجود الهندية على هذا بقوله: (أما النقد الحديث، فلا يجد في هذا البرهان ما وجده ذلك الملك الطيب القلب من الرضى والاطمئنان فهو إذ يوافق على أن مؤسس البوذية وجد تاريخياً لا يستطيع أن يؤمن بأن هذا المؤسس كان في الواقع على النحو الذي صورته عليه الأسطورة الهندية، وفوق ذلك فتاريخ الديانات يعترف في صراحة أمام النقد الحديث بأن براهين هذا الحكيم كانت مبنية على أسس ضعيفة واهية لا تستطيع الثبات في ميدان الجدل المنطقي وأن قيمة هذه البراهين تزيد ضآلة بقدر ما يكشف التاريخ أن أهم مصادرها هو الأساطير الشعبية المفعمة بالخرافات والأباطيل)

ويؤكد الأستاذ (أولترامار) أن استخلاص العناصر الصحيحة من وسط ذلك المحيط الهائل المليء بالأساطير الخيالية في ترجمة بوذا وصفاته وتعاليمه من الصعوبة بموضع، وهو لهذا يحيل القارئ إلى مؤلفات ثلاثة رجال من كبار العلماء الذين وصلوا إلى نتائج بحوث قيمة في هذا الموضوع، ليستأنس بآرائهم وهم: (كيرن) و (سينار) و (أولدنبيرج). فأما أول هؤلاء العلماء وهو الأستاذ (كيرن) فهو ينكر إنكاراً تاماً القيمة التاريخية لهذه الأساطير ويصرح بأنه لا أثر للحقيقة في كل ما نقل لنا عن (بوذا) وبأن هذه السيرة البوذية لم تكن

إلا رموزاً للمثل العليا في نظر الشعب

وأما الأستاذ (سينار) فهو لا يرى في السيرة البوذية اكثر من أنها أسطورة قديمة رصعت بأبهى ما وعاه الشعب من أخلاق عدة أبطال طواهم الزمن فنسيت أسماؤهم وعلقت بالأذهان آثار بطولتهم

وأما الأستاذ (أولدنبيرج) فهو أقل قسوة على بوذا من زميليه، إذ يعترف بأن طائفة من الحقائق الحائرة منبثة في وسط هذا البحر من الأساطير وأنه ليتيسر للباحث الدقيق أن يستخلص من بين الفرث والدم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين. أما بوذا على حالته التي هو عليها الآن في الأسطورة قبل تمييز الخيال من الحقيقة فهو لا يبعد عن كونه شخصية رمزية

ويميل الأستاذ (أولترامار) إلى هذا الرأي الأخير. إذ يعتقد أن الباحث العميق يمكنه أن يصل - عن طريق الموازنة الدقيقة بين كل المصادر - إلى حقائق يقينية عن شخصية بوذا وديانته وتعاليمه وأنه هو شخصياً قد وصل إلى كثير من هذه الحقائق، وأن إحدى هذه الحقائق التي وصل إليها هي أن بوذا قد وجد حقاً، وأنه كان شخصية غير عادية لها من الميزات ما لم يفرز بها سواها في العصر الذي كانت تعيش فيه، وأن هذا الرجل - بصرف النظر عما أحكمت حوله الأساطير من سياج التألية - كان قوي الإرادة إلى حد بعيد، ولكن هذه القوة وجهت كلها إلى النضال الداخلي، فبينا كان ظاهره يدل على الوداعة ولين الجانب وخفض الجناح كانت نفسه تحوي في داخلها عراكا قويا ضد الشهوات والرغبات ولم يسمح لهذا النضال أن يتجاوز نفسه إلى الخارج إلا في ناحية واحدة وهي ناحية إقناع سائليه ومناقشيه ولكن هذا الإقناع كان دائما ممزوجا بروح

السلام العام الذي يتخلل كل نواحي مذهبه
وعنده أنه كما أن الأرض تحمل ما يلقى فوق ظهرها من خبائث الأشياء دون ضجر وتتقبلها قبولها للطيبات، كذلك يجب على البوذي أن يحتمل باسما احتقار الناس وإهاناتهم وأن يتقبلها بنفس الروح التي يتقبل بها الإجلال والتشريف. وكما أن الماء يتخلص عن التراب، ليروي الظمآن، كذلك يجب على البوذي أن يشعر أعداءه بنفس الخيرية التي يشعر بها أصدقاءه
وأهم ما يلفت النظر في شخصية بوذا هو أن وثوقه بنفسه وإيمانه بمبدئه، وعقيدته في نجاح رسالته لم تكن ممكنة التشبيه بأي شيء آخر، وهو لهذا يقول: (إن من المحتم أن هناك طريقاً للخلاص، وأن من المستحيل ألا توجد هذه الطريق، وسأعرف كيف ابحث عنها، وساجد حتما تلك الوسيلة التي توصل إلى الخلاص من كل وجود.
كان بوذا يجمع حوله الشباب، ليلقي عليهم تعاليمه المأثورة التي كانت تنال من نفوسهم منالا بعيد الغور، ولكن الأسطورة التي كانت كأنها إطار حول حياته زعمت أن موجة من الأيمان كانت تخرج من عيني بوذا بمجرد نظره إلى تلاميذه فتسلك سبيلها إلى قلوبهم وتحتلها احتلالا قوياً قبل أن تنبس شفتاه بأية كلمة من تعاليمه.
يتبع
محمد غلاب
حديث في سفر
للأستاذ محمود السيد
لقد كان التطلع إلى الأحداث الجارية منذ يوم الهدنة التي أعقبت الحرب الكبرى في البلاد الشرقية المجاورة لنا، ديدني، والسفر إليها غايتي، ومعرفة بواعث النهضات الرائعة التي نهضها أهلها، مقصدي. وكنت أحاول البدء بتركية التي أحسن لغتها وألمُّ بعض الإلمام بأدبها القوي في حيويته الرقيق بجماله، فلم أوفق. على أني قد وفقت في العام الثاني والثلاثين والتسعمائة والآلف، لزيادة بلاد الجارة الصديقة إيران، وكنت يومئذ تعباً جداً من لغوب الحياة الراكدة، سائماً أيامها المتوالية المتكررة عندنا في غير ما انبعاث صحيح، ولا انقلاب من العهد القديم إلى عهد الدنيا الحديث؛ نازعاً إليّ اغتراب أنسى فيه، إلى حين من الزمن، الآم المتطلعين من أبناء الشعب الصابر النبيل، إلى حياة هنيئة حرة في مجد جديد يرام كالمجد القديم؛ وقد أسمع وأرى ما يذكر ويفيد
غادرت بغداد شاخصاً إلى طهران مساء اليوم السابع عشر من شهر ايار، مستقلا قطار خانقين. وفي فجر اليوم التالي بلغت هذه البلدة الصغيرة التي يتكلم قطينها شتى اللغى، لأنها بلدة الحدود ونافذة العراق المطلة على إيران. وقد فكرت فيها والأسف يحز في قلبي كائنة المغول الأولى، إذ جاءوها في محرم الحرام من العام الثالث والأربعين والستمائة للهجرة، نازلين إليها من همذان ففتحوها ثم قربوا من يعقوبا؛ وكانت بغداد سكرى في غفلة عن الزمن القلب الحوّل والأقدار الغادرة. ولم يفعل خليفتها ووزيره وصحبهما سوى التهيؤ - التهيؤ فقط - للدفاع بأجناد من الخلائق فقدت المثل العليا، فخارت عزائمها ووهت بعد مرّة، إذ أوهنها تخنيث الترف، وتبلبل العقائد، وانحطاط الخلق، واضمحلال روح الاستقلال، ثم أرتد المغول عنها متحفزين لهجمة ثانية قاضية. وكذلك فعلوا، فقد عادوا مرة أخرى في العام الخامس والخمسين بعد الستمائة للهجرة يقودهم هلاكو. . .
لم أقم في خانقين التي كانت طريق البلاء الأكبر النازل على العراق بعد ازدهار الحضارة العربية الإسلامية فيه، إلا ساعتين. واكتريت لي سيارة رافقني فيها إلى كرمانشاهان تاجر أيراني ذو سجاحةٍ وظرفٍ. ثم جاء بعده عقيب السري منها مسافر عراقي من مشايخ العلم، تراءت لي في محياه دلائل الحماسة في الدين، وفي سلوكه دلائل الحماسة في القومية. فهو
عربي من أهل النجف، يدرك روح العصر بعض الإدراك، على ميل شديد فيه إلى الماضي، وحنين إلى دولة العرب في أيامهم الذهبية التي خلت من قبل. وكان سميراً من الطراز الأول، ورجلا يصلح، لو أدرك روح العصر كل الإدراك، لأن يكون قريباً من الكمال الإنساني المجرد من الصفات التي يخلعها على الإنسان في المجتمع نضال المتعصبين في الملل واعتراك النحل وتصادمها. وهو - كما كان يقول - من العاملين

لآخرتهم كأنه موشكٌ أن يموت غدا، ومن العاملين لدنياهم كأنه يريد أن يعيش أبداً.
وقد حداني الحديث ذو الشجون إلى أن أساله: من السعيد في الدنيا أيها الشيخ الفقيه؟
فأجابني وهو يعبس بمسبحته السوداء: ومن ذا الذي تعني؟ آلسعيد من أهل السياسة؟ آلسعيد من أهل الحرب والطعان؟ آلسعيد من التجار؟ آلسعيد من المحترفين خدمة الحكومة بأعمال الدولة؟ آلسعيد من ذوي الحرف والصناعات؟. . الخ
فحيرني تَسْآله هذا، وأعجبت بمنطقه، فقلت وقد أدركت بعض قصده: من السعيد من الطبقة التي ينتمي إليها أنت يا شيخي؟
قال: أحسنت. لقد حددت التعريف فأنصفت. . السعيد منا نحن رجال العلم القديم والدين من صح فيه قولُ عمر بن عبد العزيز الوراق لأبي بكر بن حزم: (إن الطالبين الذين أنجحوا والتجار الذين ربحوا هم الذين اشتروا الباقي الذي يدوم بالفاني المذموم، فاغتبطوا ببيعهم، وحمدوا عاقبة أمرهم. . . فالسعيد الموفق من أكل من عاجله قصداً، وقدم ليوم فقره ذخراً، وخرج من الدنيا محموداً. . .)
قلت: يا شيخي هذه فلسفة صوفية قد تنافي - إذا كنت مقتصراً عليها - ما زَعَمتَ لي إذ قلت في بعض حديثك أنك من العاملين للآخرة ومن العاملين للدنيا فأهملت الدنيا هنا؟ أليست هي على رأيك: (الأمر الفاني المذموم).
قال: إذن لابد من إيضاح. . أن أمرها لفان ومذموم لأمثالي إذا ما اقتصرنا في الحياة عليه. وهذا التشديد في ذمها صمام أمننا، لأننا صرنا إلى حال لا تسر المؤمن المحض؛ وإذا كان هذا العصر عصر الاختصاص، فإننا قد بعدنا - إلا الأقل الأندر منا - عن اختصاصنا وهو العمل بروح الدين ورحنا نتطلع إلى مطامع الدنيا، وحطامها، فنسينا النصيحة والدين هي، واقبلنا على كل ما فيه زهو وغرور. . .
قلت: هذا صوت صارخ في البرية، فهل للشيخ أن ينصحني؟
قال: لا تعجل، فإن لكلامي بقية قليلة. وفي القليل بلغة
فأصغيت إليه، فمضى يقول: فأما العمل للدنيا بالنسبة إليّ، فإني احرث الأرض وازرع في بستان ورثته من آبائي أرضاً قاحلة، وأتعفف عما في أيدي الناس، ولا أمد عيني إلى مال؛ وبمنتوج بستاني وعمل يدي احفظ على كرامتي، واشتري ورقي وحبري وكتابي وثوبي وطعام عيالي، وارفع رأسي موفور العزة في عشيرتي وأهل بلدي؛ فهل من تقصير لدي بعد هذا في أمر الدنيا؟
قلت: كلا. لقد أوفيت يا شيخي.
قال: وأنصحك يا صاحبي - ولعلك في غنى عن النصح - أن تكون ذا دين، فأني لأشم في رائحة كتبك هذه التي تحمل بين يديك في رحلتك، التي لا اعرف منها الغاية والمدى، شيئاً أراه فوق التجدد الذي أنشده - مع من ينشده - لكم معشر الشباب فقد يصح لكم التجدد على طريقة معتدلة لا تمس الدين، ولا تذهب بالقومية مذاهب الفناء والدمار؛ ولكن غير هذا لا يصح.
قلت: يا شيخي! الآن كنت تنادي بالاختصاص، فقد فهمت أنك من حماة الدين الذي لن تمسه بسوء أن شاء الله، وأن كنت أقرا كتباً تجادل فيه، فلكي استطلع طلع المجادلين واعرف مقالاتهم.
قال مقاطعاً:
للرد عليهم ولا شك.
فقلت مستمراً في قولي: ولكني أراك في قولتك الأخيرة متطرقاً إلى القومية، فهل لي أن افهم رأيك الواحد في النحلتين.
قال: بلي؛ فأنا قومي بعد كوني مسلماً. وإذا ادعيت مع المدعين أن للعرب الفضل الأكبر في هذه الحضارة العتيدة، فلن أخطئ الهدف من الصواب. وأنت تعلم أن أجدادنا نشروا ثقافتهم في آسية وأشاعوا علومهم في أوربة صعداً من الأندلس وأسسوا في بلادهم المدارس، وسافروا إلى أقاصي البلاد في سبيل العلم، بعد أن نقلوا إلى اللغة العربية كثيراً من الكتب العلمية، ونقحوها وهذبوها أصولاً وفروعاً، وأضافوا إلى بعضها، فاصبح زمام الحركة العلمية العالمية في أيديهم دهرا.
وكان سلطانهم ممتداً من ساحل المحيط الاطلنطيكي إلى تخوم الصين، وكانوا هم

أهل الصنائع والفنون
وكانوا أهل الشرائع العادلة، وأولي نظام في سياسة الملك قويم، وآداب خالدة رائعة وفلسفات
قلت: معلوم
قال: اجل، فهذا شيئاً مفصل في كتب التاريخ؛ فما الذي يمنعني الآن من أن افخر بهم، وبماضيهم المجيد الزاهر، لكي ابعث في نفوس بني جلدتي - أبنائهم - الصُبُوَّ إلى السير على آثارهم مع أداء الواجب الحق لما يتطلبه العصر الحديث منها من أعمال مهما كان نوعها، ترفع لامتنا رايتها خفاقة بين رايات الأمم الحية القوية المنيعة الجانب، الرافلة في حلل المدنية، المتمتعة بمتع المجد والاستقلال. وكذلك كان أجدادنا العرب أولئك في أزمانهم السعيدة، وأيامهم الخالدة الذكر، في سفر الحياة. وإنهم كانوا مع شيوع الفلسفة لديهم مسلمين حق إسلام، يشعرون برابطة العروبة غالباً، وإن كانت القومية على الطراز الغربي الجديد غير معروفة لديهم. . . فاكرر لك مرة ثانية: أنا قومي بعد كوني مسلماً؛ وليس عندي - لنفسي - رأي غير هذا. . .
إلى هذه النقطة من الحديث بلغ الشيخ. فانتهينا إلى مرحلة من الطريق، وجبت فيها علينا الراحة. وكنا في ضاحية قرية كائنة على جرف واد يشرف عليه جبل سامق، نبتت في سفوحه الجنات والحدائق الغلب؛ فأردت أن اكتفي من الرجل بما سمعت فالتفت إلى السائق أسأله (الشاي) له؛ فقال مبتسماً وهو ينزل من السيارة: لعلك ترى في كلامي اقتضاباً مخلا، فإني وأن كنت شيخاً، لا اعرفني إلا من أقل الطلبة علماً فإن ألفيت في منطقي وفي رأيي ما لا تراه وافياً فسامحني فيه، فهذا حديث عجلان. . .
(نزيل القاهرة)
محمود. أ. السيد
الخطابة في عهد علي بن أبي طالب
للأستاذ أحمد أحمد بدوي
- 1 -
ارتقت الخطابة في عهد علي بن أبي طالب ارتقاء واضحاً وصارت سلاحاً قوياً يلجأ إليه الخليفة وخصمه؛ يثيران بها الأنصار، ويحفزان النفوس إلى الغارة والحروب؛ ولقد خلف لنا هذا العصر قدراً كبيراً من الخطب، لم يؤثر مثله طول عهد الخلفاء الراشدين؛ وليس ذلك بعجيب؛ فإن المسلمين لم يقفوا موقفاً يحتاج إلى كثرة الخطابة، كهذا الموقف الذي وقفوه أيام علي ومعاوية.
لم يقف المسلمون قبل اليوم يحارب بعضهم بعضاً، وإنما كانوا يجتمعون لحرب المشركين، ونشر لواء الدين، تملأ قلوبهم الروح المعنوية، والأيمان القوي المتين، وتحدوهم العقيدة أن لهم إحدى الحسنيين؛ فكان لهم من أنفسهم وازع أي وازع؛ قلبهم يدفعهم، وعقيدتهم تقودهم؛ فلم يكونوا يوم خرجوا لمحاربة الفرس والروم في حاجة إلى إطالة القول والإطناب في الخطابة لأن الدين الجديد وعقيدتهم في وجوب نشره كان يحفزهم إلى الجهاد، ويملأ قلوبهم ثقة بالنصر معتقدين أن الله يمدهم بروح من عنده، وأن المجاهد منهم تنتظره جنات وعيون، أو نعيم الدنيا وما يغنمه من العدو، وما يناله من الفيء.
أما اليوم فهم مدعوون لحرب قوم لا يشركون بالله، ولا ينكرون محمداً، بل هم على دينهم وعقيدتهم، ومن جنسهم وملتهم ولذلك كان الموقف الجديد في حاجة إلى خطيب يبرر حرب المسلم أخاه المسلم وقتل العربي بني قومه العرب، واحتاج قادة الفريقين وزعمائهم إلى الخطابة يقوون بها الروح المعنوية، ويخلقون في نفوسهم الأيمان بأنهم يحاربون من اجل الحق والدين الذي آمنوا به، وبأن جهادهم ليس إلا لتمكين الاسلام، وتنفيذ أحكامه، وكان المتحاربون في حاجة إلى هذه الروح حتى تشتد سواعدهم على قتل إخوانهم وذوي قرباهم، وكان الزعماء يلجئون إلى الخطابة كثيراً، حتى لا تفتر هذه الروح وتضعف؛ وكثرة تكرار القول تدخل في النفوس توهم صدقه وصحته، وذلك هو السر في فكرة ما ورثناه من خطب هذا العصر كثرة لم نعهدها في خطب الخلفاء حينما كانوا يحضون المسلمين على حرب المشركين.
- 2 -
ولكن الذي بين يدينا من خطب علي وصحبه، أكثر من ما ورد لمعاوية وأركان حربه،

ويمكن أن نرجع ذلك إلى أن كثيراً من آثار معاوية وأنصاره، قد امتدت إليه يد النسيان والضياع، بعد سقوط دولتهم، وتشتت شمل معاونيها، فإن الدولة الأموية بعد سقوطها لم يحاول أنصارها يوماً رفع رؤوسهم ولا محاولة رجوعها، ففقد بفقدانها الكثير من آثار خلفاءها؛ أما العلويون فمع أنهم كانوا يحاربون ويقتلون، ويلاقون من الحياة الشدة والعناء، كان لهم في كل مكان الأنصار والمروجون لدعوتهم والساعون إلى إقامة خلافتهم، وقد نجحوا في كثير من الأحيان فكان من الضروري لهم أن يحفظوا كلام إمامهم، وأن يتناقلوا أحاديثه وخطبه.

ويمكن أن نرجعه إلى أن كثيراً من الخطب التي نسبت إلى علي وضعت بعد عصره وضعاً، وأضيفت إليه من غير أن يكون قد قالها، ولا نريد الآن أن نمحص هذه الخطب، وأن نبين ما وضع منها وما لم يوضع، ولكن نقرر أن كثيراً من هذه الخطب الصق به إلصاقاً؛ فكان سبب ما نراه من كثرة كلام علي كثرة يقل أمامها ما قاله معاوية؛ هذا إلى أنه مما لاشك فيه أن علياً كان أبين من معاوية قولا وافصح منه لساناً.

ويمكن أن يكون السبب قلة حاجة معاوية إلى الخطابة بالنسبة إلى علي، فلقد كانت الروح المعنوية في نفوس أهل الشام أقوى وأشد منها في نفوس أهل العراق، لأن معاوية قد ألقى في روعهم أنهم إنما يقتصون لخليفة قتل مظلوماً، ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً؛ ومن أولى بالدفاع عن حق عثمان من معاوية؟ وكان مكر معاوية ودهاؤه حين يقول: إننا لا نريد منهم سوى قتلة عثمان، فليدفعوهم إلينا ونحن نبايع صاحبهم - يحرك الشاميين إلى الأخذ بثأر عثمان، فلا حاجة إلى كثرة الخطابة وتكرير القول، هذا إلى أن أهل الشام كانوا أطوع لمعاوية من أهل العراق لعلي. فمعاوية وأبوه وأخوه من قوادهم يوم حارب المسلمون في الشام، وإلى أن الشاميين كانوا في موقف المدافعين عن بلادهم، الذائدين عن حياضهم وعن آبائهم ونسائهم، وهذا مما يقوي في نفوسهم روح الجهاد ويدفعهم إلى الحرب والقتال.

وهناك سبب آخر هام دعا إلى كثرة خطابة علي وصحبه، فلقد كان الخلاف يمشي إلى قلوب أنصاره، وكان المخالفون يبينون رأيهم بالخطابة فكان من الضروري أن يقف بينهم

خطباء يدعونهم إلى الألفة واجتماع الشمل؛ هذا إلى أن أصحاب علي قد خذلوا خليفتهم، وتقاعسوا عن نصرته، فاضطر إلى أن يرقى ذرا المنابر. وأن يرسل فيهم الصيحة تلو الصيحة يحرضهم على مناجزة أعدائه. وللإمام وأنصاره خطب كثيرة في هذا الغرض.

على أن معاوية كان يلجأ إلى الخطابة الصامتة: فما كان عليه إلا أن يعلق على المنبر أصابع زوج عثمان التي قطعت في الدفاع عنه، وقميص عثمان، فيغنيه هذا عن تدبيج القول وإطالة الحديث؛ إذ يجد من حوله ينادون: هيا إلى الأخذ بالثأر، هيا إلى الحرب والقتال؛ وقد يكون السبب مزيجاً من ذلك كله.

لم يكن لعلي بد من أن يخلق في أنصاره الروح المعنوية، وأن يبرر لهم موقفهم من حرب قومهم وإخوانهم، وأن يملأ قلوبهم بالحماسة والبسالة، ويوغر صدورهم ضد عدوه معاوية ومن معه، فأحياناً يلجأ إلى العاطفة الدينية يثيرها فيظهر عداءه في مظهر المارقين عن الدين، والهادمين لأسسه ومبادئه، هذا الدين الذي كان أجل ما يعتزون به ويحاربون في سبيله، فيقول علي في خطبة: (وأيم الله ما وتر قوم قط لشيء أشد عليهم من أن يوتروا دينهم، وأن هؤلاء القوم لا يقاتلونكم إلا عن دينكم؛ ليميتوا السنة، ويحيوا البدعة، ويعيدوكم في ضلالة قد أخرجكم الله عز وجلّ منها بحسن البصيرة؛ فطيبوا عباد الله أنفساً بدمائكم دون دينكم، فإن ثوابكم على الله، والله عنده جنات النعيم؛ وأن الفرار من الزحف فيه السلب للعز، ومغلبة على الفيء، وذل المحيا والممات، وعاب الدنيا والآخرة، وسخط الله وأليم عقابه)

وهذه الفكرة قد تكررت في اكثر خطب علي لتتأكد في نفس أصحابه؛ ولتصبح عقيدة إلى جانب عقيدتهم، تدفعهم إلى حرب قومهم وبني ملتهم.

وأحيانا يثير فيهم الأنانية، فيبين لهم سوء المغبة إذا أنتصر معاوية عليهم، ويحدثهم عما سوف ينالهم على يده من الذل والهوان، فيقول: (أما والله لئن ظهروا عليكم بعدي، لتجدنهم أرباب سوء، كأنهم والله عن قريب قد شاركوكم في بلادكم. . . وكأني أنظر

إليكم تكشون كشيش الضباب، لا تأخذون لله حقاً، ولا تمنعون له حرمة، وكأني أنظر إليهم، يحرمونكم ويحجبونكم، ويدنون الناس دونكم). واحسب أن المرء حين يغرس في نفسه أنه إنما يدافع
عن كيانه، ليحفظ على نفسه حياتها وسعادتها وأمنها - يدافع عن حياضه ببسالة وقوة وهو ما يرمي إليه علي بخطابته.

وتارة يلجأ إلى ماضي أعداءه؛ فيذكرهم به، ويتحدث عما كان لهم ولآبائهم من قبلهم من خصومة للإسلام، وسعي إلى تحطيم أساسه، ثم يأخذ في بيان ما له من مآثر ومزايا، تجعل الموازنة بينه وبين معاوية ضربا من العبث؛ قال علي: (. . . لم يرعني إلا شقاق رجلين قد بايعاني، وخلاف معاوية، الذي لم يجعل الله له عز وجلّ سابقة في الدين، ولا سلف صدق في الإسلام، طليق بن طليق، حزب من الأحزاب، لم يزل لله عز وجل، ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وللمسلمين - عدواً، هو وأبوه حتى دخلا في الإسلام كارهين؛ فلا غرو إلا خلافكم معه، وانقيادكم له، وتدعون آل نبيكم صلى الله عليه وسلم، الذين لا ينبغي لكم شقاقهم ولا خلافهم، ولا أن تعدلوا بهم من الناس أحداً) وبيان مآثر علي ومزاياه، ونقائص معاوية والطعن في أغراضه ومقاصده، أهم ما يدور عليه خطب العلويين حين يدعون قومهم إلى الحرب والقتال.

أما معاوية بن أبي سفيان فقد لجأ أيضاً إلى الناحية الدينية يثيرها في نفوس قومه ويحفزهم بها إلى الجهاد والقتال؛ ينثر أمامهم حجته الوحيدة التي دفعته إلى الخلاف وشق عصا الطاعة وهي قتل عثمان، وادعاءه أن علياً آوى قتلته ولم يأخذ بثأره، ولذلك كان هو ومن معه قوماً نكثوا البيعة، وسفكوا الدم الحرام في البلد الحرام.

وهناك شيء آخر يستطيع أن يستغله معاوية في إثارة حفيظة قومه: ذلك أن علياً وصحبه قوم اقبلوا من بلادهم، واعتدوا على حرمة الشاميين وحرمة ديارهم، فليس أمامهم أن أرادوا الحياة خالية من العار إلا أن يقاتلوا ويذبوا عن نسائهم وأبنائهم، قال معاوية يحرض قومه على القتال: (. . . انظروا يا أهل الشام، إنكم غدا تلقون أهل العراق؛ فكونوا على إحدى ثلاث خصال: إما أن تكونوا طلبتم ما عند الله في قتال قوم بغوا عليكم؛ فأقبلوا من بلادهم حتى نزلوا بيضتكم، وإما أن تكونوا قوماً تطلبون بدم خليفتكم وصهر نبيكم؛ وإما أن تكونوا قوماً تذبون عن نسائكم وأبناءكم، فعليكم بتقوى الله والصبر الجميل واسألوا الله لنا ولكم النصر. . .)

وأيضاً كان يلجأ معاوية وصحبه في تقوية الروح المعنوية إلى الحديث عن ضعف جيش العراق وتفرق كلمته وأدبار امره، ولا ريب أن مثل ذلك الحديث يشجع قومه ويغريهم بالثبات، حتى يتم الانتصار؛ قام عمرو بن العاص يحرض أهل الشام، على القتال فقال: (إن أهل العراق قد فرقوا جمعهم وأوهنوا شوكتهم، وفلوا حدهم، ثم أن أهل البصرة مخالفون لعلي، قد وترهم وقتلهم وقد تفانت صناديدهم وصناديد أهل الكوفة يوم الجمل، وإنما سار في شرذمة قليلة منهم من قد قتل خليفتكم؛ فالله الله في حقكم أن تضيعوه، وفي دمكم أن تطلّوه)

أما العلويون فإنهم لم يستغلوا هذه الناحية أيما استغلال، مما يدل على أن جيش معاوية لم يدع لهم هذه الفرصة، بل كان جيشاً متحداً متماسكا، ولكنهم استغلوا ناحية أخرى؛ هي أن معاوية ليس معه من له قدم سابقة في الإسلام، أما هم فمعهم جلة الصحابة والأنصار والبدريين؛ قال الاشتر النخعي يحث العلويين على الحرب: (. . . إنما تقاتلون معاوية وأنتم مع البدريين قريب من مائة بدري، سوى من حولكم من أصحاب محمد، اكثر ما معكم رايات قد كانت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فمن يشك في قتال هؤلاء إلا ميت القلب!. . .) وهذا هو الحق فلقد كان اكثر الصحابة منضمين تحت راية علي، ولكن ذلك لم يستطع الوقوف أمام دهاء معاوية وعمرو بن العاص؛ فقد استطاعا بفضل ما أوتياه من الحصافة والمكر أن يظهرا بقلتهما على كثرة علي ومن تبعه من صحابة وأنصار

لم يكن التحريض على القتال هو كل أغراض الخطباء في ذلك العهد؛ بل كان من أغراضهم أيضاً الصلح بين المتقاتلين؛ فلقد سعت الرسل بين الفريقين تريد حقن الدماء، وكانت الخطابة عماد أحاديثهم، وإن لم يوفق الخطباء إلى أداء مهمتهم؛ فلقد كانوا مهددين أكثر منهم سياسيين دهاة، يستلون السخائم من الصدور واستمع إلى

حبيب بن مسلمة رسول معاوية إلى علي يقول: (. . . أما بعد فإن عثمان بن عفان رضي الله عنه كان خليفة مهديا يعمل بكتاب الله عز وجل، وينيب إلى أمر الله؛ فاستثقلتم حياته واستبطأتم وفاته، فعدوتم عليه، وقتلتموه رضي الله عنه، فادفع إلينا قتلة عثمان؛ إن زعمت أنك لم تقتله، نقتلهم به ثم اعتزل أمر الناس فيكون شورى بينهم، يولي الناس أمرهم من اجمع عليهم رأيهم) ولذا قال له علي: (وما أنت (لا أم لك) والعذل؟!). ويقول عدي ابن حاتم رسول علي إلى معاوية:

أما بعد فأنا أتيناك ندعوك إلى أمر يجمع الله عز وجل به كلمتنا وأمتنا ويحقن به) الدماء، ويؤمن به السبل، ويصلح به ذات البين إن ابن عمك سيد المسلمين، أفضلها سابقة، وأحسنها في الإسلام أثرا، وقد استجمع له الناس، وقد أرشدهم الله عز وجل بالذي رأوا؛ فلم يبق أحد غيرك وغير من معك، فانته يا معاوية؛ لا يصيبك الله وأصحابك بيوم مثل يوم الجمل .(فلما انتهى قال معاوية: كأنك جئت متهدداً، لم تأت مصلحاً.

والحق أن الخطابة التي كان يقوم بها سفراء الزعيمين لم تكن لتدل إلا على أنهما يرغبان في أن يستخلصا حقهما بالسيف؛ أما السفارة فلكيلا يكون ثمة مدعاة للوم أحدهما إذا اضطر إلى امتشاق الحسام

وكان من أغراضهما أيضاً نصح الصحب، وإرشاد المقاتلين إلى ما يجب أن يفعلوه في الحرب كما يفعل القائد قبل الهجوم، يوصي جنده ويمنحهم نصائحه: قال علي يرشد مقاتلته: (معاشر المسلمين، استشعروا الخشية وتجلببوا السكينة، وعضوا على النواجد فإنه أنبى للسيوف عن الهام، واكملوا اللأمة، وقلقلوا السيوف في أغمادها قبل سلّها، والحظوا الخزر، واطعنوا الشرر ونافحوا بالظّبا، وصلوا السيوف بالخطا، واعلموا أنكم بعين الله ومع ابن عم رسول الله. . .)

ومن أغراض الخطباء لذلك العهد الدفاع عن الرأي، ومقارعة الحجة بالحجة، وتفنيد براهين الخصم، واظهر مثال لذلك الخطب التي قالها علي والخوارج؛ فهي خطب مليئة كلها بالحجج والبراهين من جانب الخوارج ومن جانب الإمام

كانت أساليب الخطابة لذلك العهد رصينة في جملتها، سهلة الألفاظ إلا في القليل، لها مميزات الخطابة القوية، تعتمد على الألفاظ الضخمة، وعلى الجمل القصيرة يقل فيها السجع إلا إذا جاء عرضاً غير مقصود، فالخطبة ترسل إرسالا، لا تكلف فيه ولا تنميق، ومع ذلك تكون قوية الأسر، متينة السبك، ولا غرو فلقد كان القائلون مقاويل العرب وأبلغهم وكان المقام يتطلب لساناً بليغا يحرضهم ويدعوهم

ولقد كثر الاقتباس من القرآن، وكان علي وصحبه أكثر غراما بالاقتباس يدخلون الآية والآيات في معرض خطبهم

هناك ملاحظة تبدو في خطب علي وتظهر ظهوراً واضحاً إذا أنت وازنت بين خطبه التي قالها في أول النزاع وآخره،؛ فانك تجد خطبه التي قالها بعد التحكيم، والتي يستفز فيها القوم إلى حرب معاوية، ضخمة في ألفاظها، قوية في أسلوبها، متينة فخمة، أمتن وأقوى من تلك الخطب التي قالها في أول النزاع، وكانت خطبه تشتد وتقوى، كلما ضعف أمله في نصرة قومه، وزاد تواكلهم وتخاذلهم، وحسبك أن ترجع إلى خطبته التي قالها لرؤساء أنصاره ووجوههم بعد أن رجع من حرب الخوارج؛ أو إلى خطبته بعد أن أغار النعمان بن بشير على عين التمر، أو عندما أغار الضحاك بن قيس على الحيرة، أو حينما أغار سفيان بن الغامدي على الأنبار، واستمع إلى السيل المتدفق من فم علي حين يقول:. . . ألا وأني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً وسراً وعلاناً، وقلت لكم أغزوهم من قبل أن يغزوكم، فوالله ما غزى قوم قط في عقر دارهم إلا ذلّوا، فتخاذلتم وتواكلتم، وثقل عليكم قولي، واتخذتموه وراءكم ظهريا، حتى شنت عليكم الغارات، وملكت عليكم الأوطان؛ هذا أخو غامد قد وردت خيله الأنبار، وقتل حسان بن حسان البكري ورجالاً منهم كثيراً ونساء، وأزال خيلكم عن مسالحها، والذي نفسي بيده، لقد بلغني أن كان يدخل على المرأة المسلمة والأخرى المعاهدة، فينتزع حجلها وقلبها وقلائدها ورعثها، وما تمتنع منه إلا بالاسترجاع والاسترحام، ثم انصرفوا وافرين، ما نال رجلا منهم كلم، ولا أريق لهم دم، فلو أن امرأ مسلما مات من دون هذا أسفا ما كان عندي فيه ملوما، بل كان به عندي جديرا يا عجباً كل العجب! عجب يميت القلب، ويشغل الفهم، ويكثر الاحزان، من تضافر

هؤلاء القوم على باطلهم، وفشلكم عن حقكم، حتى أصبحتم غرضا، تُرمَون ولا تَرمُون، ويغار عليكم ولا تغيرون، ويعصى الله عز وجل فيكم وترضون، إذا قلت لكم إغزوهم في الشتاء، قلتم هذا أوان قر وصر، وإن قلت لكم: إغزوهم في الصيف، قلتم: هذه حمارة القيظ، أنظرنا ينصرم الحر عنا؛ فإذا كنتم من الحر والبرد تفرون، فأنتم والله من السيف أفر، يا أشباه الرجال ولا رجال! ويا طغام الأحلام!! ويا عقول ربات الحجال! لوددت أني لم أركم، ولم أعرفكم، معرفة والله جرت ندما، وأعقبت سدما! قاتلكم الله لقد ملاءتم قلبي قيحا، وشحنتم صدري غيظا، وجرعتموني نُغَب التهمام أنفاسا، وأفسدتم عليّ رأيي بالعصيان والخذلان. . . .

وتعليل هذه الظاهرة سهل يسير، هو ذا التخاذل الذي بدا من القوم بعد التحكيم، فلقد سئموا القتال وملوه، وركنت نفوسهم إلى الهدوء والدعة، واستسلموا إلى الراحة، ووجدت الفرقة سبيلها إلى قلوبهم، فكان الإمام في أشد الحاجة إلى ما يبعث الحياة فيهم، ويعيد الحماسة إليهم، فلا غرو، كان يلجأ إلى الخطابة فيجعلها قوية الأسر، مليئة بالألفاظ الضخمة التي تثير النفس، وتبعث النخوة، مفعمة بالتحذير والانذار، علها تحيي الميت أو تبعث الروح في الجماد

نستطيع أن نقول: إن الخطب في عهد علي تؤرخ لنا الحالة السياسية، وتسجل أهم ما كان في فترة خلافة علي، وفضلا عن ذلك نستطيع إذا أنت تتبعت الخطب، أن تلمس الحوادث التي قيلت فيها لمسا، وهي تكشف لك صراحة نفسية الإمام علي، وتبين الأدوار التي مرت فيها آماله: من النهوض والتفاؤل في أول الأمر؛ إلى اليأس والقنوط في آخره، كما أنها تكشف أيضا نفسية قومه، وتضعها أمامك في صورة واضحة، وإن المؤرخ ليجد في هذه الخطب معينا لا ينضب، يساعده على فهم نفسيات المتقاتلين ليدرك النتائج التي وصلت إليها الحرب، وكيف كانت طبيعية لا بد من حدوثها

أحمد أحمد بدوي

نقل الأديب

للأستاذ محمد اسعاف النشاشيبي

138 - صلاة. . .!

في (معجم الأدباء): قال حسان بن علوان البيستي: كنت أنا وجماعة من بني عمي في مسجد بيست ننتظر الصلاة فدخل أعرابي وتوجه إلى القبلة، وكبر ثم قال: (قل هو الله احد، قاعد على الرصد مثل الأسد، لا يفوته أحد، الله اكبر!) وركع وسجد، ثم قام فقال مثل مقالته الأولى وسلم. فقلت يا أخا العرب! الذي قرأته ليس بقرآن، وهذه صلاة لا يقبلها الله. فقال: حتى يكون سفلة مثلك، أني آتي إلى بيته واقصده وأتضرع إليه ويردني خائباً، ولا يقبل لي صلاة! (لا) إن شاء الله (لا) إن شاء الله، ثم قام وخرج

139 - مسيلمة وأشعب

قال الثعالبي: قد تظرف من قال في كذب مسيلمة وطمع أشعب:

وتقول لي قولاً أظنك صادقاً ... فأجيء من طمع إليك واذهب

فإذا اجتمعت أنا وأنت بمجلس ... قالوا: مسيلمة، وهذا أشعب!!

140 - إنما هو بركة من السماء

في (تاريخ ابن عساكر) عن أنس قال: كان أبو طلحة يأكل البَرَد وهو صائم، ويقول: ليس بطعام ولا شراب. قيل له: أتأكل وأنت صائم؟!

فقال: إن ذا ليس بطعام ولا شراب، وإنما هو بركة من السماء نطهر بها بطوننا

141 - رد الله عليك غربتك

كان الصاحب بن عباد يقول: لم أسمع جواباً أظرفَ وأوقعَ وأبلغَ من جواب عبادة فإنه قاله لرجل: من أين أقبلت؟

قال: من لعنة الله

فقال: رد الله عليك غربتك

142 - وعد الله ووعيده

عند أبي عمرو بن العلاء. . .

في (عيون الأخبار): اجتمع أبو عمرو بن العلاء وعمرو ابن عبيد فقال عمرو: أنّ الله وعد وعداً، وأوعد إيعاداً، وإنه منجز وعدَه ووعيدَه، فقال أبو عمرو: أنت أعجم. لا أقول: أنك أعجم اللسان، ولكنك أعجم القلب. أما تعلم، ويحك! أن العرب تعد إنجاز الوعد

مكرمة، وترْكَ إيقاع الوعيد مكرمة ثم أنشده:
وإني - وإن أوعدتُه أو وعدتُه ... لمخلفُ إيعادي ومنجزِ موعدي
143 - عاد الدر إلى وطنه
سئل بعض المغاربة عن السبب في رقة نظم ابن سهل فقال اجتمع فيه ذلان: ذل العشق، وذل اليهودية.
ولما غرق قال فيه بعض الأكابر: عاد الدر إلى وطنه
144 - أدب الخواص
قال الوزير أبو القاسم المغربي في كتاب الخواص:
كنت أحادث الوزير أبا الفضل جعفرا وأجاريه شعر المتنبي فيظهر من تفصيله زيادة تُنبه على ما في نفسه خوفاً أن يُرى بصورة من ثَناه الغضبُ الخاص عن قول الصدق في الحكم العام وذلك لأجل الهجاء الذي عرض له به
145 - أطعموا آذاننا
كان مروان بن أبي حفصة إذا تغدى عند إسحق الموصلي يقول له: أطعموا آذاننا، رحمكم الله!
146 - روائح الجنة في الشباب
قال في (أغاني) أبى الفرج:
محمد بن هاشم الخزاعي: تذاكروا يوماً شعر أبى العتاهية بحضرة الجاحظ إلى أن ذكر أرجوزته التي سماها (ذات الأمثال) فأخذ بعض من حضر ينشدها حتى أتى على قوله:
يا للشباب المرح التصابي ... روائح الجنة في الشباب!
فقال الجاحظ للمنشد: قِفْ، ثم قال: انظروا إلى قوله:
روائح الجنة في الشباب
فإن له معنى كمعنى الطرب الذي لا يقدر على معرفته إلا القلوب، وتعجز عن ترجمته الألسنة.
147 - إن العرب لا تستخذي
احب الأصمعي أن يستثبت في كلمة (استخذيت) أهي مهموزة أم غير مهموزة قال:
فقلت لأعرابي: أتقول: استخذأت أم استخذيت؟ فقال: لا أقولهما
قلت: ولِمَ؟
قال: لان العرب لا تستخذي
148 - أسهل الموت وأصعبه
الصابي:
إذا لم يكن للمرء رد من الردى ... فأسهلهُ ما جآء والعيشُ أنكدُ
وأصعبه ما جاءه وهو رائع ... تُطيف به اللذات والحظُّ مسعدُ
149 - فزع الأغنياء، شهوة الفقراء
سئل (سيافيدس) عن الموت فكتب: نومٌ لا انتباهَ معه، راحة المرضى، انفصالُ الاتصال، نقصُ البنية، رجوعٌ إلى العنصر، فزعُ الأغنياء، شهوةُ الفقراء، سفرُ النفس، فقدان الوجود
150 - الفراق
قيل لبعض الصوفية: لِمَ تصفرّ الشمس عند الغروب؟
قال: خوفاً من الفراق وبه ألم!
هكذا قال زرادشت
للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه
ترجمة الأستاذ فليكس فارس
العلماء
وكنت نائماً فإذا نعجة تتقدم فتقضم اللباب المعقود إكليلا على رأسي، فكانت تعمل أنيابها فيه وتقول: لم يعد زارا من العلماء
وذهبت بعد ذلك مزدرية متفاخرة. ذلك ما أخبرنيه أحد الأولاد
أحب أن استلقي على الأرض حيث يلعب الأطفال تحت الجدار المتهدم وقد نبت في شقوقه العوسج والشقائق الحمراء. فإنني لم أزل عالماً في عيون الصغار وفي عيون العوسج والشقائق الحمراء. لأنها طاهرة حتى في أذيتها

أنا لم أعد عالماً في نظر النعاج. تبارك حظي فهذا ما قضى به عليّ. والحقيقة هي أنني هجرت مسكن العلماء فخرجت منه جاذبا بابه بعنف ورائي.
لقد جلست روحي الجائعة طويلا إلى الخوان، وما أنا كالعلماء متطبع على المعرفة كمن اتخذ كسر القشور مهنة له، فأنا عاشق الحرية والسير في الهواء الطلق على الأرض الباردة كما أفضل أن أتوسد جلود الثيران على افتراش أمجاد العلماء وألقابهم.
إن بي من الحماس ومن لهب الفكر ما يقطع عليَّ أنفاسي فلا يسعني إلا الاندفاع إلى رحب الفضاء هاربا من الغرف المكسوة بالغبار.
ولكن هؤلاء العلماء يتفيأون الظلال فلا يقتحمون السير على المسالك التي تلهبها حرارة الشمس، بل يكتفون بالاستكشاف كالمتفرجين يفتحون أشداقهم وينظرون إلى المارة في الشارع. هكذا يفتح العلماء أشداقهم وينتظرون اتقاد شرارة الفكر في أدمغة المفكرين. وإذا ما لمستهم بيدك تطاير الغبار ما حولهم كأنهم أكياس من الحنطة، ولكن أحداً لا يظن أن هذا الغبار المتطاير منهم هو دقيق السنابل الصفراء التي ينشج بها الصيف في زهوه.
إذا ما تظاهر العلماء بالحكمة، فإن حقائقهم وأحكامهم تهزني برعشة البرداء إذ تنتشر منها روائح المستنقعات، ولكم أسمعتني حكمتهم نقيق الضفادع.
إن لهؤلاء العلماء مهارتهم ولأناملهم لباقتها، فليس من نسبة بين صراحتي وتعقيدهم، فأناملهم لا تني تغزل وتحيك ناسجة للعقل ما يستره. فهم كالساعات إذا ما أحكم ربط رقاصها دلت بضبط على سير الزمان وأسمعتك طقطقة خافتة. إنهم يعملون كحجر الرحى فيطحنون كل ما تلقى إليهم من حبوب، وكل منهم يراقب حركة أنامل الآخرين، وجميعهم يتلهون بالنكايات ويترصدون من يتعارج بعلومه، فهم أشبه بالعناكب في تلصصهم. ولكم رأيتهم يستقطرون سمومهم بكل حذر ساترين أيديهم بقفازات من زجاج ولهم مهارة خاصة بلعب النرد المزور. ولكم انحنوا فوقه والعرق يتصبب من وجوههم
لا صلة بيني وبين هؤلاء الناس فإن فضائلهم تبعد عن فضائلي بأكثر مما تبعد عنها أكاذيبهم ونردهم المزور
وما وجدت مرة بينهم إلا وكنت فوقهم، ولذلك ابغضني هؤلاء العلماء. لأنهم لا يطيقون أن يسمعوا بمرور أي كان فوق رؤوسهم، ولذلك وضعوا الأخشاب فوق رؤوسهم وأهالوا فوقها التراب والأقذار ليخنقوا وقع أقدامي، ولم يزل حتى اليوم أكثرهم علماً اقلهم إدراكا لأقوالي
لقد نصبوا بيني وبينهم حائلا كل ما في الإنسان من ضعف وضلال، وهم يدعون هذا الحصن لمسكنهم السقف المستعار.
ولكنني بالرغم من كل هذا لا أزال أمشي فوق رؤوسهم وأنا أنشر أفكاري. ولو أنني مشيت على عيوبي فلن أزال ماشيا فوق جباههم، ذلك لأنه لا مساواة بين البشر، وهذا ما يهتف به العدل، فما أريده أنا لا حق لهم بأن يتناولوه بإرادتهم.
هكذا تكلم زارا. . .
رسالة الشعر
دمشق
للدكتور عبد الوهاب عزام
يا أخي صاحب الرسالة: هذه أبيات نظمتها في إحدى زياراتي لمشق العظيمة وطويتها. ثم رأيت أن موضوعها يشفع لما فيها من قصور فأرسلتها إليك لترى رأيك في طيها أو نشرها
هذى دمشق فخل القلب يمتار... طالت على القلب أشواق وأسفار
كم ماطلتك بها الأيام أُمنيَة ... لها على الدهر إعلان وإسرار
حطّ الرحال فهذا جهرةً بَردى ... وذي دمشق هناك الأهل والدار
لا تُعجلني فما الأيام مُسعدة ... لا تخدعني فصرف الدهر غدار
دعني أؤلف آمالا مشتّتة ... وأسمع القلب. ملء القلب أسرار
دعني أزود قلبي ملء مُنيته ... ففي فؤاديَ أسفار وأخطار
وردت جلّق ملتاعاً ومغتبطاً ... تطفي بنفسي آمال وأفكار
دمشق مجتمع الأعصار قد زخرت ... فيها كما أندفقت في البحر أنهار

خطّت أمامي سراعاً فوق رقعتها ... من الوقائع أسطار فأسطار
فكل رجل على التاريخ سائرة ... وكل طرف إلى التاريخ نظّار
وللأذان دوي فوق أربعها ... وللأذان ببطن الأرض إسرار
يذيع قبر بلال في مآذنها ... صوتاً له من وراء الغيب تسيار
كالنبع شق الصفا والترب فازدهرت ... منه الخمائل، وهو الدهر ثرار
ذهبت للمسجد المعمور أسأله ... وقد تدل على الأعيان آثار
رأيت فيه خلال القوم ماثلة ... وللبناء من البانين أقدار
علوت في قمة التاريخ مأذنة ... لها من الحق وتاريخ أحجار
تطوف حولي خطوب الدهر في صخب ... وتزحم العين دولات وأقطار
أرى الوليد على ملك لسطوته ... ذل الزمان، وفيه المجد خطّار
دانت لهيبته الأهوال واجتمعت ... في همّة العُرب أقطار وأعصار
كأن ما بين سيحون وقرطبة ... على الخريطة أفنار وأشبار
أحييت دمشق رميم الشعر في خلدي ... لا غرو قد تبعث الأشعار أشعار
وقفت فيها أسيم الطرف في فتن ... من الجمال لديها الطرف يحتار
كلا فؤادي وطرفي فوق بهجتها ... بين الحضيض وبين السفح طيار
تندى القلوب وتجوى من نضارتها ... وربٍ أخضر منه تقدح النار
واها لقلبي إن يبد الجمال له ... سطراً تبدت من الآلام أسفار
خاض المطامع، طماح المنى عرم ... عليّ الشدائد والسراء ثوار.
وقاسيون على الجنات مطّلع ... بين الرياض وبين الشهب نظّار
عاري المناكب بالشجراء متزر ... ثبت الجنان على الأحداث، جبار
نسرٌ يرى اللوح منه هامة عطلا ... لكنه ذنبَ الطاووس جرَّار
والصالحية حيا الله ساكنها ... وحَيَّ في سعدها دار وديار
شجا فؤادي دروس في تدارسها ... والدهر بالناس دولات وأدوار
يا دار هذا زمان السعد فابتسمي ... لافاتَكِ السعد بعد اليوم يا دار:
وقفت بالغوطة الخضراء أنشُدها ... قلباً أضلّته أفياء وأشجار
هفا كما أنطلق العصفور من قفص ... دعته في الروض أطيار وأزهار
قالت: رأيت دمشقاً في مفاتنها ... فكيف ينجو فؤاد فيك شعّار؟
فسل دمشق هناك الروض مزدهر ... والجو مبتسم والحسن سحّار
قالت دمشق: وما عندي به خبر ... سائِل بدُمَّر لا يخدعك إنكار
يا دمَّر الخير قلبي فيك مرتهن ... لا تجحديه فما يجديك إصرار؛
ردي فؤادي ففي دهري له عِدة ... وفي فؤادي لأرض العرب أوطار
فقد وردتك يوماً في حمى نفر ... من الغطاريف فيهم يأمن الجار
كأنما كل حر في عزيمته ... نجم يضيء علي الأهوال سيار
وكان مجلسُنا أَيْكاً على بردى ... تردد الحسن فيه فهو محتار
نزجي الأحاديث من شكوى ومن ألم ... ومن أمانٍ ذوت فيهن أعمار
نبني على أسُس التاريخ آتِيَنا ... وللمعالي من التاريخ أسوار
وننشد المجد تدعوه عزائمُنا ... والمجد مُصغٍ إذا ناداه أحرار
إما أرى المجد قد أضفى أشعته ... وأشرقت فيه دولات وأمصار
أبصرت في الظلمات الشمسَ طالعة ... لمّا تراءى لنجم الصبح إسفار
مختارات من أدب الرافعي
بَايْ يَا بَابَا!
(في سنة 1904 تزوج المرحوم مصطفى صادق الرافعي، وفي سنة 1905 ولدت له (وهيبة)، فلما صارت بنت سنتين جلس إليها يوماً يناغيها ويداعبها، وحب الرافعي لأولاده شيء أكثر من محبة الآباء، فمال عليها يقبلها، فآلمها، فقالت له الطفلة، وقال لها، فكانت هذه القصة في هذه القصيدة)
محمد سعيد العريان
طفلتي في العمرِ مَرَّتْ ... من سِنيها اثْنَتَيْنِ
ليستا فيما غَدَتْ تَعْ ... قِلُ إلا ضحكتينِ
جئتُها يوماً فالْقَيْ ... تُ عليها قُبْلَتَيْنِ

وأمالتْ عُنُقاً آ ... لَمْتُهُ من غَمْزَتين
فَمَضَتْ غَضْبَى وقالت: ... (بَايْ يَا بَابَا بَايْ يَا بَابَا)
إعتاباً يا ابنْتَي أَمْ ... ذاكِ من غيظِ الحبيبهْ؟
بدأتْ دنياكِ مُنْذُ الْ ... يومِ والدنيا عجيبهْ .. .!
وغريب منك أن تدْ ... ري معانيها الغريبه .. .
نجمةٌ أبْعَدُ ما تُلْ ... قَى إذا لاحتْ قريبه
مِثلُها حُبُّك للبا ... با ومعنى (بَايْ يا بابا)
نَغْمَةٌ كالبلبلِ أسْتَعْ ... لَى علَى الورد فَغَنَّى
أتمنَّى أن تُعيدي ... مِثلَها إذْ أتمنى
قد غدا يُذْهبُ في الدُّنْ ... يَا الْعَنَا لفظُك عنَّا
وأرى الشعرَ فنوناً ... صرتِ لي منهنّ فنَّا
حكمةٌ ما مِثلُها الْحكْ ... مةُ عندي (باي يا بابا)
لو أتتْني كلُّ بُشْرَى ... مِلْء أنحاءِ البلادِ
أو أتاني السعدُ يوماً ... هاتفاً بأسمِي يُنادي
أو سَعَى المديحِ والتَّمْ ... جِيدِ لي كلُّ العبادِ
أو شَدَا في كلِّ ارضٍ ... بقريضي كلُّ شادَ
لم يكن أحْلَى بسمعي ... كُلُّ ذا من (باي يا بابا)
سنة 1907
مصطفى صادق الرافعي
بين الجد والمجون
فجيعة في ساعة
وساعةٍ كالسِّوارِ حوْلَ يدِي ... ضاعت فأوْهى ضَياعُها جَلَدِي
مازالِ يطْوي الزمانَ عقرَبُها ... حتى طواها الزمانُ للأبدِ
ضيَّعها نجليَ الصغيرُ وكم ... حمَّلني من خَسارةٍ ولدِي
قالوا: فداءٌ لَهُ فقلتُ لهم: ... كلاهما فلذتان من كَبِدي
قالوا: التمس غيرَها. فقلتُ لهم: ... وهَلْ معي ما يُقيمُ أوَدِي؟
مَنْ مُسعِدي إنْ أكُن على سفرٍ؟ ... ومَنْ يفي لِيَ بالوعد إنْ أعِدِ؟
إلْتَبَسَت أيَّامي عَلَيَّ فَلاَ ... أفْرِقُ ما بين السبتِ والأحدِ
واختَلَّ وقتيَ فإنْ وعَدْتُكَ أنْ ... أزُورَك اليومَ جئتُ بعدَ غَدِ
كم رُمْتَ عَدَّ الساعاتِ مُهتدياً ... بالشمس لكنْ غَلِطْتُ في العددِ
روَّضْتُ نفسيَ على السُّؤَالِ وما ... حَمَلت ذلَّ السؤالَ من أحَدِ
جَهْلُ الفتى بالزمانِ أهونُ مِنْ ... سُؤَالِ غَيْرِ المَهْيِمِنِ الصَّمَدِ
أمست يدي بعدها مُعَطَّلَةً ... منظرُها في العيونِ كالرَّمَدِ
فَمَنْ لِعَيْنِي بحُسْنِ طَلْعَتِها؟ ... ومَنْ لأُذُني بصوتِها الغَرِدِ؟
كم آنَسَتْ وحشتي بِدَقَّتها ... فالآنَ أصبَحْتُ شِبْهَ مُنْفَرِدِ
لاغَرْوَ إنْ أقْضِ حَقَّ عِشْرَتِها ... عِشْرَتُها ليَ طويلَةُ الأمَدِ
قد لازَمَتْ مِعْصَمِيَ سنين إلى ... أنْ أصبحت قِطْعَةً من الجسدِ
ناطقةً بالصواب أن سُئِلَتْ ... إنْ قُلْتَ كَمْ لَمْ تَنْقُصْ وَلم تزِدِ
على الصراطِ السّوِيِّ سائرةٌ ... إنْ حادت الشمسُ عنْهُ لم تَحِدِ
أرْنو إليها إذا مَشَيْتُ وإنْ ... جَلَسْتُ في مجلسٍ كَشَفْتُ يَدِي
ألم تُشَاهِدْ ذا نعمةٍ حَدَثَتْ ... إذا مَشَى في ثيابِهِ الْجُدُدِ؟
صَبَرْت صَبْرَ الكرامِ آمُلُ أنْ ... تَعُود لي ثانياً فَلَمْ تَعُدِ
فلُذْتُ بالأولياءِ عَلَّ لهم ... سِرّاً وإن كنتُ غير مُعْتقِدِ
مَنْ ليَ بالعرَّافينَ أسألُهم ... عنها وبالنفَّاثات في العُقدِ
أسأتُ بالأصدقاءِ كلِّهِم ... ظَنِّي ففتَّشْتُهُمْ فلم أجِدِ
شَتَّان بينَي وبينَ لاقِطِها ... بات قريراً وبتُّ في كَمَدِ
ليت الذي طُوِّقت بها يَدُهُ ... في جيدِهِ حَبْلٌ شُدَّ مِنْ مَسَدِ
محمود غنيم

القصص
قصة الحب والحياة
جرازييلاّ
كان لامرتين في الثامنة عشرة من عمره عندما لمسه الحب بأنامله الناعمة، وطاف به الشعر في آفاق الوحي والإلهام. وكانت (جرازييلا) الفتاة الأولى التي أسمعته نغمات الغرام، وأسكرت روحه بتلك الخمرة العلوية التي تسكبها الآلهة في أرواح الشعراء والمفكرين
فجرازييلا هي التي غرست في فؤاد (لامرتين) زهرة الشوق والحنين. وهي التي جعلته ينطق بأرق ما في الحياة من صبابة وتذكار، وألم ودموع!
لقد أحب دانتي بياتريس فكتب عنها الصحائف والأوراق وعشق جميل بثينة فصعد لأجلها التأوهات والزفرات. . . ولكن لامرتين في حبه لجرازييلا أرانا شيئاً خفيا لم تقع على مثله العيون
فالذي يقرأ ما كتبه لامرتين عن جرازييلا يعانق تمثال الحب ويتفهم معاني الحياة. . . لأن هناك أقوالاً إذا لم تبلل العيون بالدموع فهي تفعم النفوس بغمائم الحزن والكابة، ومرارة الشوق والتذكار
إن لامرتين عرف أن يسعع تلك الفتاة الساذجة البريئة تغاريد الحياة المعنوية وحفيف أجنحة الهوى. . . وأن يجعلها ترى من وراء ضباب أحلامها شجرة الحب المتعالية في الفضاء، ونهر الغرام الجاري بين الأرض والسماء
والذي يصغي إلى غمغمة تلك التعابير الشعرية الحنونة التي سالت على براعة لامرتين، ترفعه العاطفة إلى جنة سحرية فيرى مواكب الأرواح هائمة في رحاب النعيم، وغواني الشعر راقصة على أنات الرباب في ضوء القمر!!
شغف (لامرتين) بالطبيعة منذ صباه وغذى شعوره وإحساسه برقة الحب والغرام، وعناصر الحسن والجمال. . . فجاءت كتاباته صورة حية للمثل الأعلى الذي ينشده أصحاب التأمل وأبناء الخيال
ثم أحب التجول والاغتراب ليتغلغل في صدر الطبيعة وليجني في حناياها تلك الزهرة القدسية الخالبة التي تملأ القلب عبيراً والنفس نشوة وكمالاً. . . فارتحل إلى إيطاليا بلاد الشمس المشرقة والماء المترقرق، والذكريات الزاخرة بالحياة والحرارة وجاب أنحاءها فتعرف إلى آثار التاريخ الروماني القديم الذي لم يمح الدهر سطراً واحداً من ذكرياته
وفي (روما) المدينة الخالدة استطاع الشاعر أن يدرس عصر النهضة درساً وافياً دقيقاً فكان يذهب في الصباح إلى نهر (التيبر) المنساب فوق رفات الدهور والأجيال، فيجلس على ضفافه ويتطلع من ثنايا مائه إلى آماله وأمانيه التي يخبئها المستقبل. وعندما يخيم الظلام يعود إلى مخدعه فينام راضياً مطمئناً
وهنا تشوق لامرتين إلى سماء (نابولي) الزرقاء ليشاهد فيها قبر (فرجيل) الذي كان يجد لذة في ترديد أشعاره فذهب إليها. وفي هذه الأثناء التقى الشاعر بأحد أصدقائه القدماء فعاش معه عيشة ألفة ودعة
نابولي عند الإيطاليين جنة سحرية فاتنة سكنتها أرواح الشعراء والأنبياء. . . هي غابة ابتدعتها عبقرية الله لتبقى مكمناً للفن والفكر والموسيقى، ومأوى لكل من يريد أن يرسم أفكاره التواقة إلى المثل الأعلى، وأحلامه الشاردة وراء أشباح الموت والحياة!!
تأثر (لامرتين) لهذه المناظر وشعر بجاذب عاطفي فلهب يدفعه إلى تفهم أسرارها. فإن مشاهد الصيادين يتفيأون في ظلال مراكبهم الصغيرة. . . والعاشقين يتشاكون الهوى تحت ألوية الدجى. . . والشمس المودعة تلقي نظرتها الحزينة على قمم الجبال. إن جميع هذه المناظر كانت تحرك إحساسه فينظمه شعراً لطيفاً عذباً كما تنظم القيثارة أنغامها وتنهداتها!
وبعد أن مرت بالصديقين أيام قليلة أحب لامرتين تلك الحياة الشعرية التي يحياها الصيادون في مراكبهم تحت السماء الصافية، وفوق متون الأمواج، فتمنى كثيراً لو أتيح له أن يحيا تلك الحياة.
وشاءت الأقدار أن تحقق أمنية الشاعر، وأن يلتقي بفتاة طاهرة تلمع في صدرها محاسن الحب والعاطفة، فقاده حسن الطالع إلى التعرف بصياد شيخ في السبعين من

عمره كان ينتصب دائماً قرب زورقه انتصاب الطيف بين الموت والحياة!!
هنا اكتمل الحلم وتحقق الأمل!!
كان ذلك في ليلة من ليالي الصيف القمراء. . . بدا البحر فيها صافيا كمرآة العذراء في ساعة عرسها. . . أما السماء فقد تكللت بتاج من الأنوار لتضيء العيون وتهدي القلوب. . وفي وسط هذه التأثرات مرت بالشاعر العبقري أحلام موردة تركت في نفسه أثراً لا يمحوه الدهر
ثم تلت هذه الليلة ليال جميلة في زورق ذلك الصياد الشيخ!!
مات الصيف فأسرعت ربة الحقل بالرحيل لتستريح في وادي الذكرى. ثم جاء الخريف فتناثرت أوراق الأشجار واعتصب جبين الأفق بغيمة من تلك الغيوم السوداء المنذرة بخمود جمرة الأفراح. . . وفي ليلةٍ باردة أتفق الصديقان مع الصياد على سياحة في عرض البحر فركب الثلاثة الزورق وساروا يداعبون الموج بمجاديفهم الخشبية كأنهم في حلم من الأحلام المزهزة. ولم تكد تمضي على ذلك ساعة حتى ثارت الأمواج منبئة بالكارثة الرهيبة. ثم أطفأت النجوم مصابيحها فاشتد حلك الظلام اشتداداً مخيفاً هو المصيبة العظمى. إلا أن الشيخ المسكين لم يستسلم إلى الهلكة فصاح بهم أن يغالبوا المنية حتى تلوي من أمامهم خاسرة مضعضعة.
وظلوا عالقين بين أشداق الموت ساعتين كاملتين حتى قذفتهم الأمواج الصاخبة إلى جزيرة تدعى (إبسكيا) كان بيت الصياد مبنياً فيها. . . وفي ذلك البيت الحقير كان يعيش الشيخ مع زوجه العجوز وحفيدته الحسناء غرازيلاّ.
لم تكن (غرازيلا) كسائر الفتيات. ولم تصنع مثلهن من طين وماء. . . لأن الله حباها بجمال رائع فتان. . . فعيناها سرقتا سوادهما من ظلام الليل، وجيدها التالع استعاد سحره من عرف الزهور البيضاء، أما قوامه الخالب فقد سكبته الطبيعة من ضياء الفجر لتبهر به عقل كل من يراها ويتأمل في معاني حسنها وجمالها
نشأت بين الصديقين والعائلة القروية ألفة لم تلبث أن تحولت إلى محبة سماوية، فاصبح الفريقان لا يحتملان ألم الفراق، وقد كونت هذا التقارب عاطفة غريبة بين الفتاة والشاعر، فإنها أحبته عندما ألقت عليه أول نظرة. وبعد أن درس (لامرتين) أخلاق العائلة وتبين مشاربها وأفكارها شعر بجاذب روحي مجهول يحبب إليه كل فرد من أفرادها.
وأحب أن يقرأ لهم في إحدى الليالي رواية (بول وفرجيني) ففعل. وفيما هو يقص عليهم
تلك الفاجعة المؤلمة التي صورها كاتب فرنسا الكبير (برنادين دي سان بيير) أحس بدمعة حرى تتسايل على يده، فنظر فإذا غرازيلا تبكي جاثية عند قدميه، وإذا الشيخ وزوجه مطرقان كأن داهية دهياء حلت في تلك الساعة!
فكانت هذه الكآبة دليلا على رقة عواطفهم.
في إحدى الليالي تسلم رفيق الشاعر كتاباً من أمه تسأله أن يأتي إلى فرنسا لحضور زفاف شقيقته فرافقه لامرتين إلى نابولي، ثم ودعه وعاد إلى الفندق ليصرف فيه ليلته. غير أن لامرتين لم يكن يحس بالرابطة التي توثقه بصديقه إلا بعد أن فارقه. وعندما أقبل الصباح كان يقاسي آلام الشوق على سريره
وعلمت (غرازيلا) بمرض لامرتين فأسرعت إلى (نابولي) مع أخيها الصغير. ولم تكد تدخل عليه وتشاهد نحوله واصفراره حتى تفجرت بالدموع وجداً ولوعة. وبعد أن جلست قرب فراشه نزعت من جيدها أيقونة مقدسة وعلقتها فوق رأسه لتقيه من الموت، ثم خرجت متأثرة باكية تضرع إلى الله إلا يفجعها فيه!!
مضى على هذا الحادث أسبوع كامل شفي في أثنائه لامرتين من آلامه فعاد إلى منزل الشيخ. ولم يكد يطأ عتبة ذلك المنزل حتى أقبل أصحابه يعربون له عن تعلقهم ومحبتهم وإعزازهم. وكان في زيارتهم فتى في العشرين من عمره مشوه البنية، ولكنه طيب الأخلاق شأن أمثاله القرويين الذين لم تفسد المدنية عواطفهم. . . وسأل الشاعر عن أمره فقيل إنه ابن خال لغرازيلا، وإنه سوف يكون زوجها عندما تسمح الظروف. هنا شعر بمرارة خرساء تمزق فؤاده!
مالت الشمس نحو المغيب تاركة قبلة جرى على وهاد تلك الجزيرة الهادئة، وبمغيبها غمرت روح الشاعر سكينة عميقة ممزوجة بالأسى الساحق. . . وما أن صمم على

ترك هذه الأسرة لتنعم بأحلامها وتأملاتها حتى وقفت غرازيلا والعجوز في سبيله قائلتين إنهما لا تسمحان له بمغادرة المنزل مادامت العائلة تعتبره فرداً منها. وظلتا تتوسلان إليه حتى رضى أخيراً.

وتسلل الحزن إلى روح الشاعر فأوى إلى حجرته ليذرف فيها دموعه. وكان عندما تهدأ ثورة عاطفته يلجأ إلى مذكراته فيبثها حنينه وشكواه!!

مرت على هذه الحادثة ثلاثة أشهر فعاد إلى الشاعر انبساطه الماضي لأنه استعاض عن صديقه المخلص بغرازيلا الحبيبة التي كان يقضي معها أيامه ولياليه على شواطئ تلك الجزيرة الشعرية الساحرة. وهنا شاءت الحياة أن تضرم لوعة الشاعر. . . ففي ذات ليلة عاد إلى المنزل فلحظ انقباضاً مرتسما على وجهي العجوزين أما غرازيلا فكانت عيناها مملوءتين بالدموع

تساءل الشاعر عن سبب انقباضهم وحيرتهم فقال الصياد: إن خال غرازيلا جاء طالباً يدها إلى ابنه، ولما كان في هذا العقد سعادة للفتاة فقد أجابه الشيخ بالارتياح، أما غرازيلا فلم تنطق بغير دموعها السحاحة

عند ذاك أحس لامرتين بتعلقه بغرازيلا، فأهمه كثيراً أن تخرج من ذلك المنزل، وأن لا يراها فيما بعد صادحة بين جنباته وزواياه، ثم دخل مخدعه يائساً وانطرح كالمحموم لشدة تأثره. . . وعبثاً حاول الرقاد.

وكانت تلك الليلة باردة جداً، والبرق شديد اللمعان في الفضاء، والريح تئن كثكلى ترثي وحيدها، والسيول تتساقط بروعة فتلقي الرعب في القلوب. . كان باب الحجرة يضطرب كلما هبت العاصفة. وقد خيل إلى الشاعر أنه يسمع أنيناً جارحاً؛ وأن فماً يردد أسمه بلوعة وأسى!

وكما تبرز الدمعة من العين الباكية ثم تتلألأ على الوجه، برز الفجر من أحشاء تلك الليلة المخيفة، فأنار سفوح الجزيرة وأغوارها بضوئه الضعيف. في تلك الساعة استيقظ لامرتين من رقاده. ولم يكد يسمع صراخ العجوزين والأخوين الصغيرين حتى سُمِّرَ في مكانه. . . ذلك لأن غرازيلا فرت إلى مكان مجهول. وهاج الحزن في صدر الشيخ جميع الآمه فدنا من لامرتين وبيده ورقة مبللة كانت ملقاة على فراش غرازيلا ورجا إلى الشاعر أن يقرأها له فإذا هي تحتوي على هذه الكلمات المتقطعة:

(لقد احتملت كثيراً حتى أصبحت لا أقوى على الاحتمال أقبلكم قبلة الوداع. . . سامحوني. . . أفضل أن أكون راهبة متجردة من أحلامها وأمانيها على أن أعيش عيشة الذل مع الرجل الذي لم تهبني السماء إياه. . . ردوا الخاتم إلى ابن خالي. . . سأصلي لألفونس ولأخوي الحبيبين. . .)

ولم يصل لامرتين إلى النهاية حتى ارتعشت يده وهوت الورقة إلى الأرض. وعندما انحنى ليلتقطها رأى عند عتبة الباب زهرة حمراء كانت تحملها غرازيلا دائماً، ووجد بجانبها تلك الأيقونة التي تركتها فوق رأسه يوم كان مريضاً. هنا علم أن الصوت الذي كان يناجيه في عتمة الليل هو صوت غرازيلا. . . فمضى شاكياً!

قضى الأمر وفرت غرازيلا لتدخل إلى الدير، ولكن فرارها راش سهماً ماضياً في قلب لامرتين. فخرج منتحباً بين الأودية والوهاد.

وعندما مالت الشمس نحو المغيب اهتدى إليها في أحد الأكواخ. وما أن رآها حتى جثا بجانبها ووضع يديها بين يديه ثم أدناها من فمه ليدفئهما بحرارة أنفاسه. وبصوت متقطع خاطبها قائلا: لماذا اختبأت هنا؟

فاعترفت غرازيلا له أنهم أرادوا أن يجمعوها بغير الرجل الذي اختارته روحها. . ثم قالت أنها لم تهب قلبها لغيره في العالم

وأحنى لامرتين رأسه ليشكو لها ما يكابده من يأس وحرقة فقاطعته قائلة:

(لقد صرفت ليلة أمس باكية عند باب مخدعك وعندما خرجت قلت في نفسي إني لن أراك أبداً لأني سأصير راهبة تنقطع إلى عبادة الله على ضوء الشموع، وفي ظلال انفرادها الطويل الملول. . ولكني قرعت باب الدير فوجدته موصداً وهكذا رجعت إلى هذا المأوى لأقضي فيه ليلتي. ثم أشعلت المصباح أمام صورة العذراء وخاطبتها قائلة: أيتها القديسة إني أهب حياتي بما فيها من صبوة وإغراء لخالقي. وإذا جاء غداً ذلك الحبيب فقولي له غني أحببته بكل ميولي وعواطفي، وإني هجرت العالم لأجله. . قولي إني ضحيت بأعز شيء لدي، هاهو ذا شعري الذي كان يحبه فإني أقصه. خذيه أيتها

العذراء وأبقيه معك ليظل آمناً بين يديك.
وهنا نزعت منديلها من رأسها فبدت كغصن عرى من أوراقه!!
اختبأ الليل بين خرائب الأبدية ثم بزغ الفجر معلناً قدوم الشمس، فقدم الصياد مع عائلته ليتفقدوا غرازيلا. وعندما شاهدوا تلك الكآبة التي ارتسمت على محياها الناضر ركعوا قربها ملتاعين ونار الحزن تأكل أفئدتهم
عاد الجميع صامتين إلى الجزيرة. وبعد أن صعدوا صلواتهم لتختمر في الفضاء الوسيع ارتموا على مضاجعهم تحفزهم هيبة الأسى. وتظللهم أجنحة اليأس والانفعال وسارت الأيام في طريقها. . . ففي ذات ليلة من ليالي الربيع الجميلة كان الشاعر نائماً في حجرته فسمع قرعاً قوياً على الباب ففتحه فإذا صديقه القديم يدخل عليه قائلاً:
أتيت لأصطحبك حالاً إلى فرنسا لأن والدتك تريد أن تراك قبل موتها. فإذا لم تذهب) (تركت في قلبها غصة أليمة ترافقها إلى الأبدية
أثرت هذه الكلمات في قلب (لامرتين) فعاوده دفعة واحدة تذكار الماضي الذي قضاه في حضن أمه. ولما لم يحتمل جسده المكدود قوة الصدمة وقع مغمى عليه. وعندما ثاب إليه روعه وعد صديقه بالرحيل.
ثم دخل حجرته ورتب ثيابه، وبعد أن أخذ ورقة وأفرغ عليها جميع ما تضمره روحه العظيمة، أقسم لغرازيلا أنه سيعود إليها عندما تبرأ والدته العزيزة من مرضها، وأراد أن يودع غرازيالا قبل رحيله فمنعه صديقه. غير أن الفتاة استيقظت حينذاك فهبت مذعورة. وعندما علمت حقيقة الأمر وقعت فاقدة الرشد
تسرب داء الغرام إلى قلب (غرازيالا) فاصفرت زهرة حياتها اصفرار الوردة عندما يمسها الخريف بيده القاسية، أما لامرتين فكان يهتف باسمها في الحلم واليقظة!
ولم تشأ غرازيالا أن تفارق الحياة دون أن تبثه أسرار فؤادها ولاعج غرامها فأرسلت إليه هذه الرسالة:
حبيبي الفونس
يقول لي الطبيب إني سأترك الحياة بعد حين، فلذلك أريد أن أودعك الوداع الأخير! آه يا الفونس، حبذا لو كنت قريبا مني الآن، إذا لبقيت حية. . ولكن هي إرادة الله أيها الحبيب
إن جسدي سيضمه التراب ويبلى سريعا أما روحي فستظل مرفرفة فوق رأسك إلى الأبد. إني أترك لك - كتذكار - لما بيننا من عهود - شعري الذي كنت تحبه وتداعبه بأناملك الجميلة فاحفظه لأن رؤيته تعيد إليك ذكرى تلك الليالي التي صرفناها معاً في هذه الجزيرة الحبيبة التي تحن مثلي إليك
(غرازيالاّ)
منذ ذلك اليوم انطبعت على محيا (لامرتين) كآبة خرساء وقطنت عينيه اللطيفتين أشباح
اليأس والحنين. وكان كلما شاهد جنازة فتاة يخونه الصبر والتجلد فيرتمي على الأرض باكياً منتحباً! أما روحه فقد اتشحت بوشاح الحزن والكآبة حتى تفصدت بهذه القصة الرائعة المؤثرة التي فتحت لمؤلفها الشاعر العبقري مغالق الخلود
(البرازيل)
يوسف البعيني
البريد الأدبي
الشيخ منصور المنوفي لم يكن شيخا للأزهر
ذكرت في العدد (209) من مجلة الرسالة الغراء ارتيابي فيما نقله الأستاذ محمد عبد الله عنان عن رحلة الشيخ عبد الغني النابلسي من أن الشيخ منصوراً المنوفي الضرير كان شيخاً للجامع الأزهر وقت قدومه في رحلته إلى مصر. وبنيت هذه الارتياب على أمرين: أولهما اضطراب ما ذكره الشيخ عبد الغني النابلسي في ذلك، وثانيهما مخالفته لما جاء في الكتب التي عنيت بذكر شيوخ الأزهر وترتيب ولايتهم له. من تاريخ الجبرتي والخطط التوفيقية وكنز الجوهر في تاريخ الأزهر، وقد خرجت من ذلك بترجيح هذه المصادر على هذا المصدر المضطرب.
ولكن هذا الترجيح الذي ذهبت إليه وهو المتعين عندي في هذه المسالة لم يرض به

الأستاذ محمد عبد الله عنان لوجهين: أولهما أن القول بأن الشيخ منصوراً المنوف كان شيخاً للأزهر في ذلك الوقت قول معاصر وشاهد عيان عرف الشيخ وحادثه بنفسه، ولا يصح أن يسبغ عليه هذه الصفة عفواً، وثانيهما أن الشيخ النابلسي يقدم إلينا بياناً صحيحاً عن أكابر الحكام والمشايخ في مصر وقت مقدمه، ومن الصعب أن نعتقد أنه يخطئ في تعرف شيخ الأزهر، وهو من الشخصيات البارزة التي يهمه أن يتصل بها، وقد رأى في التوفيق بين هذا المصدر وتلك المصادر السابقة أنه من الممكن أن الشيخ المنوفي لم يمكث في ذلك سوى أشهر أو أسابيع قليلة، وأن يكون هذا هو السبب في إغفال تلك المصادر له في ثبت مشايخ الأزهر

ولا شك أن من يرجع إلى ما نقلته في ذلك من رحلة الشيخ النابلسي يرى أنه ذكر أنه قابل في صباح يوم الأحد 28 من شهر ربيع الثاني الشيخ منصوراً المنوفي شيخ الجامع الأزهر، ثم ذكر أنه قابل في اليوم الثاني (يوم الاثنين 29 من شهر ربيع الثاني) الشيخ أحمد المرحومي شيخ الأزهر، فإما أن يكون للأزهر في ذلك الوقت شيخان وهو غير مقبول، وإما أن الشيخ منصور المنوفي قد عزل في اليوم الأول وولى الشيخ أحمد المرحومي مكانه في اليوم الثاني وهو غير مقبول أيضاً. لأنه لو حدث مثل هذا في ذينك اليومين لأشار إليه الشيخ النابلسي في رحلته.

على أن الشيخ النابلسي يعود بعد هذا فيذكر أنه قابل الشيخ الأول في يوم 10 من جمادي الثاني. وقابل الشيخ الثاني في يوم 25 من جمادي الثاني. وهو في ذلك أيضاً يصف كلا منهما بما وصفه به في الأول من أنه شيخ الجامع الازهر، والظاهر من هذا أنه يجري فيه على وصف ثابت لهما في هذه المدة التي كانت بين المقابلتين، فلو أخذنا كلامه في ذلك على حقيقته لاجتمع للأزهر في ذلك الوقت شيخان معاً، وهو ما لم تجر العادة به في الجامع الأزهر، ولا في التقاليد الإسلامية.

ولاشك أنه لا يمكن الأخذ بقول الشيخ النابلسي في ذلك مع هذا الاضطراب الذي نجده فيه، ولعل كلا من ذينك الشيخين كان شيخ رواق من أروقة الازهر، فالتبس من أجل هذا على الشيخ النابلسي ذلك الأمر، وما هو إلا بشر يصيب ويخطئ والعصمة لله وحده.

عبد المتعال الصعيدي

تعديل جديد في عقوبات جرائم النشر

يصعب على الذهن الحر أن يسيغ أي حجر على حرية الرأي أو أي اتجاه إلى التشديد في المؤاخذة على زلات القلم؛ وقد كانت النصوص الخاصة بجرائم النشر في مصر موضع تعديلات كثيرة في الأعوام الأخيرة بسبب التطورات السياسية والدستورية المختلفة التي وقعت في هذه الفترة؛ وأخيراً رأت السلطات المختصة أن تجري تعديلا جديداً في هذه النصوص، وأن تشدد العقوبة في بعض المواطن قمعاً لنوع سيئ من القذف هو التهجم على الأعراض والكرامات الشخصية؛ وقد كان القانون يعاقب بالحبس أو الغرامة على أمثال هذه الكتابات القاذفة، وكان اتجاه القضاء في الغالب إلى التخفيف والاكتفاء بعقوبة الغرامة، فنشأ عن ذلك أن ذاع هذا الأسلوب المستهجن من الكتابة في الآونة الأخيرة ذيوعاً مثيراً، فرأى الشارع في التعديل الجديد وجوب الحكم بالحبس على من يدينه القضاء في أمثال هذه الكتابات

والذي يهم الكاتب أن يسجل من الناحية الأدبية هو أن حرية القلم والرأي لا يمكن أن تتأثر بتشديد النصوص الجنائية في مثل هذه المواطن، فالقلم يجب أن يتحلى إلى جانب الحرية الرأي بخلة الأدب والتعفف عن مس الكرامات والأعراض الشخصي؛ وما يبعث على

الأسف هو أن يضطر الشارع إلى الالتجاء إلى النصوص في تحقيق هذا المثل الذي يجب أن يحققه القلم لنفسه دون إرغام؛ وقد كان خيراً لو استطاع الكتاب أنفسهم أن يضعوا لأنفسهم دستورهم الخاص. وأن تحدد حدود الجدل والنقد بسائر صنوفه بحدود متينة من النزاهة والعفة والترفع عن لغو القول؛ والقانون الإنكليزي يعاقب السب والقذف الشخصيين بعقوبات شديدة رادعة، ولكن يندر أن تتورط صحيفة إنكليزية في مثل هذا الجرم؛ والصحافة الإنكليزية تضرب أرفع الأمثال لأدب الحوار والجدل وعفة النقد والمناقشة؛ فماذا يضيرنا أن نهتدي نحن في كتاباتنا بهذه المبادئ السامية؟

وثيقة دبلوماسية فرعونية

أضحت مواثيق الاعتداء من أهم عناصر السياسة الدولية الحاضرة؛ ولكن هنالك ما يدل على أن هذه المواثيق التي استحدثتها السياسة الدولية بعد الحرب، ليست من ابتكار الدبلوماسية الحديثة وحدها، ففي تراث المصريين القدماء ما يدل على أنهم عرفوا مواثيق الاعتداء قبل آلاف الأعوام؛ وهنالك وثيقة مدهشة من هذا النوع عثر عليها الأستاذ دنكان العلامة الأثري الأمريكي ترجع إلى نحو ثلاثة آلاف عام، وتعتبر بحق أقدم وثيقة دبلوماسية وصلت إلينا

وهذه الوثيقة عبارة عن نقش على صفحة فضية يحتوي على نصوص ميثاق بعدم الاعتداء عقد بين الملك رمسيس الثاني وبين ملك الحيثيين خيثاسار، وذلك في القرن الثالث عشر قبل الميلاد ومن الغريب أن هذه النصوص لا تبعد كثيراً عما تستعمله الدبلوماسية في عصرنا عدا بضع فروق وصيغ يسيرة؛ فعنوان الوثيقة مثلاً هو: (ميثاق سلام وأخوة دائمة)، ويلي ذلك نصوص الميثاق وهي مدمجة في ثماني عشرة مادة هذه أهمها: (يتعهد الحيثيون والمصريون كل قبل الآخران أن يلجئوا في تسوية جميع الخلافات التي تنشأ بين الدولتين إلى الوسائل السلمية وألا يلجئوا في تسويتها إلى القوة والعنف). فأي فرق بين هذا النص وبين النصوص المماثلة في مواثيق عدم الاعتداء المعاصرة؟ أما ضمان التنفيذ في هذا الميثاق القديم. فقد رجع فيه إلى ما يتفق وروح العصر الذي وضع فيه؛ ومن ثم فقد نص فيه على ما يأتي: (إذا ارتكب أحد الفريقين المتعاقدين ما يخالف هذا الميثاق الأبدي، فقد حلت عليه لعنة جميع الآلهة المصرية والآلهة الحيثية).

ولم يقل لنا التاريخ القديم كم دام مفعول هذا الميثاق بين الفريقين المتعاقدين؛ ولكن الأستاذ دنكان يؤكد لنا أنه قد دام بلا ريب اكثر مما دام مفعول ميثاق تحريم الحرب الأمريكي بين الدول، أو ميثاق لوكارنو بين ألمانيا والحلفاء السابقين

وإن هذا الاكتشاف لأقدم وثيقة دبلوماسية يضيف آية جديدة إلى تراث الفراعنة. وما يزال هذا التراث كل يوم يتكشف عن عجائب وحقائق جديدة تدلل على ما وصلت إليه الحضارة الفرعونية في النضج وروعة الابتكار

قرآن . . .!

يتلو القراء في النقلة (138) في هذا لجزء من (الرسالة) قرآن ذاك الأعرابي الجلف أو القرآن الأعرابي أو تلك الأفكوهة ضاحكين. وإني أضيف في هذا الموطن أن هناك قرآناً إلحادياً مجوسياً دسه الداس بل الدساس في سورة (النجم): (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى - تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن ترتضى - ألكم الذكر وله الأنثى، تلك إذن قسمة ضيزى) وهناك قرآن فارسي شعوبي بثه راويه الخبيث المتحذلق الغبي في القرن الثاني أو الثالث مرفوعاً معنعنا وحشره في سورة (العصر): (والعصر إن الإنسان لفي خسر - وإنه فيه آخر الدهر - إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) وهناك غير ذلك، وعند الطيالسي والترمذي ما عندهما. وأنى يكون ما كذبوا؟ كيف وهناك ثلاثة وأربعون كاتباً من كتاب الوحي، وقد جمع القرآن قبل أن أظلمت بفقد رسول الله هذه الدنيا، وقد كتبت النسخ غير المعدودة، الكثير في زمن النبي (صلوات الله عليه) وصاحبيه وقد ملأت المصاحف في وقت الفاروق بلاد الإسلام كلها جمعاء (وإن لم يكن عند المسلمين إذ مات عمر مائة ألف مصحف من مصر إلى العراق إلى الشام إلى اليمن وما بين ذلك - فلم يكن أقل) كما قال ابن حزم وما مصحف عثمان إلا المصحف النبوي البكري العمري، مازاد وما نقص. وقد عرف ذو النورين ألحان العرب - ولسان الكتاب المضري - والعربية لغات، والعرب أمم، وقد انتشروا في الأرض، ورأى الاحتفاظ بإملاء القرآن، فكتبت تلك المصاحف المسماة بالعثمانية. وأعجب العجب وأكذب الكذب هذه الرواية: (لما فُرغ من المصحف أتى به عثمان فنظر فيه فقال: قد أحسنتم وأجملتم أرى فيه شيئاً من لحن ستقيمه العرب بألسنتها) وقد حار أبو بكر السجستاني صاحب (كتاب المصاحف) في هذا الكلام - وقد رواه - فقال: (هذا عندي يعني بلغتها وإلا لو كان فيه لحن لا يجوز في كلام العرب جميعاً لما استجاز أن يبعث إلى قوم يقرءونه) ثم سطر السجستاني بعد قليل: (. . عن الزبير أبي خالد قال: قلت لأبان ابن عثمان: كيف صارت (لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة) ما بين يديها وما خلفها رفع وهي نصب؛ قال

من قبل الكتاب الخ) فهل كان الزبير أبو خالد يعرف هذا الاصطلاح المولد في فن النحو أعني الرفع والنصب؛ وهل كان نحو أو شيء منه في أيام أحد من الصحابة أو بعدهم بمدة طويلة؟ وهل هذا لحن أو خطأ وقد بينه سيبويه في كتابه وأوضحه علم العربية؟ وكيف لم يستفد السجستاني وأمثاله من (الكتاب) وقد جاءوا من بعد صاحبه وقرءوا علم الخليل وأماليه فيه؟ وهل بنى العلماء (علم العربية) إلا على قرآن العربية؟ وكيف اجترأ السجستاني أن يروي عن سعيد بن جبير أن مثل (فأصدق وأكن من الصالحين) لحن وهو في القرآن وهو في كلام العرب وشعرهم؟

دعني فاذهب جانباً ... يوماً وأكفف جانباً

وقد كشف الخليل (قاعدته) أيما كشف، وبيانه في (الكتاب).

إني لأقول هازئاً: الحق أن في الكتاب لحناً - كما افترى المفترون على عثمان وكما قولوه - لكن العرب ما أقامته بألسنتها ولن تقيمه أبداً، وما أقتدر في هذا الدهر على إقامته وإصلاحه إلا أمثال رجال التضليل (أي مبشري البروتستانت) وهاشم العربي (بل الأعجمي) في (تذييله) على (مقالة في الإسلام) معلمين الخليل وسيبويه والكسائي والفراء ما جهلوه، وهاذين العرب الصرحاء الأقحاح إلى الذي لم يعرفوه. وهو الحياء فإذا فارق المرء فارتقب كل عجيبة.

وبعد فإن كان كتاب كل أمة أو ملة في تبديل وتحريف وفيه زيادة ونقصان؛ وفيه الخطأ والخطل، وكان كاتبه غير صاحبه ف (ذلك الكتاب لا ريب فيه) (إنا نحن نزلنا الذكر، وإنا له لحافظون)

النشاشيبي

الكتب

تاريخ بئر السبع وقبائلها

تأليف عارف العارف قائمقام بئر السبع

تعد منطقة بئر السبع أكبر مديرية في أرض فلسطين لأنها تشتمل على نصف مساحة أراضيها، وهي بلاد شاسعة الجوانب بعيدة الأطراف، وليس لها حدود طبيعية تفصلها عن شبه جزيرة طور سينا وبلاد شرق الأردن

وتقع هذه الناحية على طريق القوافل العربية، مثل قبائل سبأ ومعين وحضرموت وثمود التي كانت تأتي إلى أسواق كنعان وإسرائيل وأرام بعرض البضائع المختلفة، كما كانت طريق الجيوش البابلية والآشورية والفارسية واليونانية والرومانية الزاحفة لفتح الديار المصرية، وكما كانت طريق الجيوش المصرية المتوغلة منذ زمن بعيد في الديار الشامية والعراقية الشمالية.

يفتتح المؤلف كتابه (تاريخ بئر السبع وقبائلها) بذكر الروايات التي وردت في الكتب القديمة عن بئر السبع وعن الشأن الخطير الذي كان لتلك الأرجاء في عهد بني إسرائيل الأول أي من القرن الثالث عشر إلى القرن السادس ق. م. أي من عهد وفاة موسى إلى زمن بختنصر ملك بابل.

وقد أعتمد المؤلف في هذا البحث على ما ورد في أسفار الكتاب المقدس وحده مع أننا نعتقد أنه لو راجع أيضاً الروايات القليلة المبعثرة في كتب المشنا والتلمود وذلك أمر سهل عليه لأنه يتقن العبرية - لوقف فيهما على أخبار مهمة عن بني إسرائيل والعرب في تلك المنطقة من جنوب فلسطين.

ونلاحظ أيضاً أنه كان حريا بالمؤلف أن يذكر أسم هذه المنطقة في الآداب العبرية القديمة، فقد سميت في التوراة باسم نجب أي الجنوب، وعرفت في الطور الثاني من حياة بني إسرائيل بفلسطين أي بعد رجوعهم من بابل باسم الداروم، أي الجنوب أيضاً وعرفها العرب المسلمون بهذا الاسم أيضاً في عصر البعثة الإسلامية وزمن الخلفاء الراشدين، فقد ورد في سيرة ابن هشام أن أسامة بن زيد بن حارثة أرسل على رأس جيش صغير إلى الشام وأمر بأن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين

ولب موضوع الكتاب قد تضمنه البابان الثالث والرابع، لأن المؤلف يبحث فيهما عن الأحاديث والأخبار المتعلقة برجال القبائل في بئر السبع، ويتكلم عن الحروب التي وقعت بينهم وبين القبائل القريبة منهم والنائية عنهم وقد أبان المؤلف في هذين البابين عن مقدرة فائقة على تنظيم المعلومات الغزيرة التي جمعها في مثابرة ودأب

من أفراد القبائل الضاربة هناك، ففتح لنا بذلك عالماً عظيم الشأن كنا نجهله مع قربنا منه واتصالنا به، وإذا كان المستشرقون قد جاءوا إلينا بأخبار عن حياة القبائل في بئر السبع فإن كل ما ذكره منها لا يكاد يذكر بالنسبة إلى ذلك الفيض الدافق من المعلومات التي قدمها عارف بك العارف، وذلك يرجع إلى أنه من أهل البلاد وحاكم على البدو

ويجد القارئ في هذين البابين كثيراً عما ورد في المصادر العربية عن أيام العرب في الجأهلية، كما يجد فيهما صورة مصغرة لحياة بني إسرائيل الفطرية في عصر القضاة قبل أن يأخذوا نصيبهم من الحضارة في أرض كنعان.

ونود أن نلاحظ أن كثيراً مما ذكره رجال البدو لمؤلفنا بعيد عن الحقيقة التاريخية وليس إلا محض خيال لأنهم لم يدونوا شيئاً ولم يكتبوا حوادثهم ولا قيدوا أنسابهم وإنما هي روايات ينسجها خيالهم وفقاً لمصلحتهم وتبعاً لأطماعهم

فما يقولونه من أن أغلبهم أو أن جميعهم وعلى بكرة أبيهم إنما نزحوا إلى هذه الديار من الجزيرة العربية ليس إلا نظرية ساذجة لا يقبلها عقل الباحث السليم، فإن مما لا شك فيه أن عدداً (عظيما) من هذه البطون ليس إلا سلالة تلك القبائل التي عمرت تلك الديار منذ أزمان بعيدة طويلة فبينهم بلا شك بقية تلك القبائل التي كانت في هذه المنطقة قبل الفتح الإسرائيلي مثل العمالقة والمدنيين والادوميين، ثم منهم بقية البطون الإسرائيلية مثل بني شمعون ودان ويهوذا، وكذلك لا ننسى وجود أرهاط من الأنباط في هذه النواحي القريبة من شبه جزيرة طور سينا، ولا ننسى كذلك أن هناك أفخاذاً من قبائل يمنية قديمة وصلت من أقصى بلدان الجزيرة إلى هذه الأماكن منذ زمن قديم

ولا شك أن العرب أخذوا يتسربون إلى هذه المناطق قبل الإسلام بعدة قرون واستوطنوا بعض أماكنها كما استوطنوا النواحي الأخرى من صحراء سوريا وتخوم بلاد العراق والشام.

وقد ذكر المؤلف، وحق له أن يذكر، أن هناك بعض قبائل تَمُتُّ بصلة إلى الإفرنج الصليبيين.

ونحن نعتقد أن البحث الدقيق في اللهجات المختلفة يساعد الباحث على كشف الغطاء عن هذه المشكلة الجنسية العويصة التي تبلبلت فيها الأجناس البشرية، وقد نرى في بعض الألفاظ المستعملة هناك بقية باقية من الاستعمال العبري القديم مثل كلمة نقابة عند البدو في هذه الأنحاء فهي تدل على المعابر والمسالك المنيعة في الجبال لأنها وردت في مخطوط عبري يرجع إلى القرن السابع. ق. م

وقد أحسن المؤلف بذكره نماذج من شعر أعراب القبائل ولكن فاته أن يأتي بمثل ذلك من رطانتهم العربية، ولو أنه فعل لقدم خدمة جليلة للبحث العلمي اللغوي حيث كان يمكن أن نقف على لهجاتهم وأن ندرسها دراسة علمية ونقارن بينها وبين اللهجات العربية الأخرى ونتبين ما فيها من الألفاظ الغريبة التي جاءتها بلا شك من اللغات السامية الأخرى.

ولا نستطيع أن نكف أنفسنا عن التساؤل: لماذا صقل المؤلف الأحاديث التي سمعها من الأعراب صقلا عربياً صحيحاً وفصيحاً؟ ولماذا لم يتركها في لغتها البدوية الطبيعية والفطرية؟. . .

لذلك نلح على المؤلف ونشتد في الإلحاح أن لا ينسى حين يقبل على طبع كتابه الطبعة الثانية أن يضيف إليه جملة أحاديث وأقاصيص لكثير من رجالات الأعراب من نواح مختلفة بلهجاتهم الطبيعية ورطانتهم الفطرية دون أن يتعرض لها بشيء من الزيادة أو الحذف.

ثم يأتي بعد ذلك الباب الخامس الذي يشتمل على تاريخ بئر السبع على ممر الأحقاب من أقدم الأزمنة التاريخية إلى يومنا الحالي

وثمة أمر آخر له خطره، وهو أن المؤلف الذي يتقن العربية والعبرية لم يقع في ذلك الخطأ الفاحش الذي وقع فيه غيره من المؤلفين الشرقيين الذين يجهلون اللغات السامية، وهو أنهم لا يضبطون كتابة أسماء الأماكن وأسماء الأعلام كتابة صحيحة كما ينطق بها أهل الشرق بل يكتبونها كما هي مدونة عند الغربيين الذين لا يستطيعون نطق الأسماء الشرقية نطقاً صحيحاً دقيقاً

أما مؤلفنا فكان في أغلب هذه الأحوال محسناً لكتابة هذه الألفاظ بضبطها الصحيح.
ولنا في هذا النوع بعض ملاحظات على مؤلفنا منها أنه لم يكن يجوز لعالم مثله أن يستعمل أسم البتراء دون أن يشير إلى اسمها الحقيقي القديم الذي منه اشتقت كلمة بتراء المحرفة، فالمؤلف يعرف أن البتراء التي تعرف اليوم بوادي موسى كانت عاصمة لبني أدوم قديماً ثم للأنباط في العصور المتأخرة، وقد عرفت باسم سلع ومعناه: الصخرة، ثم جاء اليونان وترجموا هذه الكلمة إلى اليونانية وأطلقوا على هذا المكان اسم بترا أي الصخرة أو الحجر
وكان عالمنا المرحوم احمد زكي باشا كلما قرأ لبعض الكتاب كلمة بتراء بدلاً من سلع هاج وماج لأنه يعرف أن العرب أنفسهم كانوا يستعملون في القديم كلمة سلع لا كلمة البتراء، وقد أشار إلى ذلك في جملة مقالات نشرت بجريدة الأهرام قبل وفاته بزمن قليل
وفي الباب السادس يبحث في حالة بئر السبع في وقتنا الحاضر، ومع أنه موجز فإنه شامل كامل لأن المؤلف من الأفراد المعدودين الذين خبروا البلاد خبرة وافية.
ولا ننسى أن نشير إلى تلك الخريطة المفصلة لفضاء بئر السبع فهي بلا شك أول خريطة علمية دقيقة مبينة لمواطن القبائل العربية ومعينة لأسماء الأمكنة في تلك البيداء الشاسعة الأطراف.

إسرائيل ولفنسون
(أبو ذؤيب)
أستاذ اللغات السامية بدار العلوم

العدد 212 - بتاريخ: 26 - 07 - 1937

جلالة الملك فاروق الأول

اجتمع لجلالة الفاروق أعز الله نصره ما لم يجتمع لملك قبله من المزايا والخصائص فأحببناه أكثر من أخ، وأجللناه أكثر من ملك: شباب كمنضور الربيع كله حياة وجمال وخصب، وخلق كعَبْهريِّ النسيم فيه الرَّوْح والريحان واللطف؛ ونشأة كنشأة الأخيار المصطفَيْنَ أقامها الله على أدب الدين وخلال الفتوة؛ وجاذبية كشعاع الروح الإلهي تجذب القلوب الصاغية بالهيام والحب؛ وشخصية على طراءة السن تبهر العيون بالجلالة وتملأ الصدور بالهيبة؛ وديمقراطية على عزة الملك كرحمة الله تُقر في الأذهان معنى السمو وسر العظمة؛ وعهد كإشراق الشمس قبله السرى المجهد والغسق الداجي، وبعده الصباح المسفر والضحى الماتع؛ وتاج كدارة النور أو هالة القدس حلاه (مينا) بالشمس وزينه (المعز) بالقمر، فهو يتألق على جباه العصور بالقمرين لا بماس الأرض ولا بلؤلؤ البحرين؛ وببعض هذه الخصائص والمزايا قدس الشعوب الملوك في الأمس البعيد، وفضل الناس الملكية في اليوم الحاضر مَن مثل فاروق جمع أطراف المجد فورث ملك الفراعنة وخلافة الإسلام وسلطان العرب، فكان رمزاً لأول حضارة مدنت الإنسان، وأقوم رسالة هذبت الحياة، وأعدل أمة حكمت الأرض؟ أليس هذا التاج المعنوي الذي يضعه الشعب على مفرقه يوم الخميس المقبل خليقاً بأن يسامي أضخم التيجان ملكا وأرفعها مكانة؟ وهل يغض من خطر التاج أن انحسرت ظلال ملكه بعد أن ورفت على أكثر بقاع الكون؟ إن قيمة التاج في خلوص جوهره وأثالة مجده وسطوع تاريخه؛ وهذا التاج الذي له ملك مصر وهذه الملايين العرب والمسلمون ينظرون إليه نظرهم إلى الشعاع الهادي والأمل الباسم، هو من هذه الصفات الثلاث أعظم تاج على جبين ملك
لا جرم أن فاروقاً الأول هو أول ملك في تاريخ مصر القديم والحديث نَشَّأته الأمة على طبعها وحسها، وأعدته لعرشها بنفسها، وتوجته بطوعها ورضاها هذا التتويج الدستوري الشعبي الحر، ففتحت به عهداً لم يسبق، وسنت به سنة لم تكن، وفصلت بالفاروق بين ماض كليل بغى فيه الاحتلال على سيادتها واستقلالها، واعتدت فيه (الامتيازات) على أنفسها وأموالها، وبين حاضر زاهر يزخر فيه النيل بالحياة، ويجيش بالقوة، ويفيض بالأمل، ويقيم مُلكه على الديمقراطية، وعرشه على الدستور، وحكمه على العدل، وصلته بالدول على المساواة. فهل تعجب إذا انقلبت البلاد من ضفاف الشلال إلى أرياف الدال، بشراً

يتهلل في الوجوه، ومرحاً يتنزى في الأفئدة، وزينة تتخايل في الأرض،
وأعلاماً تخفق في الجو، ودعاء يصَّعَّد في السماء، استعداداً للاحتفال
بتتويج الفاروق سيد أعزاء مصر، وزين شباب الإسلام، وملك ملوك
العرب؟

إن لابتهاج الشعب بتولي الفاروق حقوقه الملكية بواعث شتى: بعضها يرجع إلى شخصه، فشخصه عذب الروح قوي الجاذبية؛ وبعضها يرجع إلى عهده، فعهده أول عهد مصر بالسيادة والحرية؛ وبعضها يرجع إلى حكمه، فحكمه حكم الدستور والديمقراطية؛ ولكل أولئك ملابسات ومناسبات توزعت عواطف هذه الأمة الوديعة المطيعة المخلصة، فغرقت كما ترى في نشوة من نشوات الروح، فيها بهجة القلوب بالحب، وغبطة النفوس بالعزة، ولذة الحواس بالطمأنينة.

مولاي الفاروق!

إن من دلائل الفوز التيسير. ومالك الملك الذي اصطفاك لخلافة هذا المجد العريق قد يسر لشعبك في مستهل عهدك ما تعسر عليه الحقب الطوال من سيادته على أرضه. فتول القيادة العليا للسفين على هدى من الدستور ووحي من شمائلك الحرة؛ وأفِض من شبابك الفردوسي على ما خمد من عزائم هذا الشعب لطول ما كابد من عنت الأحداث وطغيان الدخيل؛ واطبع النَّشء من شعبك الهين اللين على غرارك في ثقافة العقل وثقافة الطبع وثقافة الجسم، فإنك المثل الأعلى لكل ذلك. ومثلك الفريد يا مولاي هو ما تحتاجه مصر في تجديد ما رث منها، وتكميل ما نقص فيها، وتوفير مواهب الإنشاء بها، وتنظيم قوى الدفاع عنها، وتوثيق أسبابها العمرانية والاجتماعية والسياسية لتربط بين أملاك العروبة وملكك، وتصل
طرفي المجد بين عرش (مينا) وعرشك. ثبت الله ملكك بالسلام، ونضر عهدك بالوئام، وجمل حكمك بالرخاء والصفاء والسكينة

أحمد حسن الزيات

تاج مصر

من (مينا) إلى فاروق

للأستاذ عباس محمود العقاد

اسم الملك في مصر القديمة دليل على عراقة النظام الملكي فيها، لأنه دليل الرسوخ والتوطد والعمران المستفيض على حين يعرف الملك في البلدان الأخرى بأسماء قريبة من البداوة أو من حالة البداية الفطرية.

فالملك في اللغات اللاتينية مأخوذ من كلمة الراجا الهندية وهي في الأصل بمعنى الربان.

والملك في اللغات السكسونية مأخوذ من كلمة جناكا الهندية وهي بمعنى الوالد، ولعلها كما يرى بعض الباحثين في اللغات القديمة قريبة من كلمة الخان وما إليها.

والملك في العربية وأخواتها بمعنى الاستيلاء، والأمارة بمعنى الأمر، وكلاهما يتحقق لأصغر الحاكمين ولو كانوا من رؤساء العشائر، لأن المرجع فيهما إلى الرآسة حيثما كان رئيس ومرؤوسون.

أما (بارو) أو فرعون كما نعرفها الآن فمعناها (الباب الكبير) أو (الباب العالي) وهو الاسم الذي كان المصريون الأقدمون يعرفون به ملك البلاد، وتسمية الملك به دليل على (تطور) الحكم عندهم من حالة الأبوة أو الزعامة البدائية أو الرآسة المستمدة من أواصر القرابة إلى حالة السياسة وتدبير العمران وقيام الدواوين ومراسم السلطان.

كذلك كان المصريون يعرفون التيجان ومعانيها السياسية إذ كان لا يتجاوزون عهد العصابة أو عهد الإكليل من النسيج والزهر، ثم من المعادن والجواهر، فكان لملك الوجه البحري تاجه وشعاره، وكان لملك الوجه القبلي تاجه وشعاره، ثم اتحد الوجهان فاتحد الشعاران؛ وظل الملوك حينا يلبسون هذا أو يلبسون ذاك للدلالة على الحقوق السياسية التي تناط بكل تاج وكل شعار.

وعراقة النظام الملكي معقولة طبيعة في بلاد كالبلاد المصرية تحتاج إلى نظام واحد في الرأي ونظام واحد في الحكومة، ويد واحدة تشرف على سقيها وتدبير معيشتها؛ ويساعد على استقرار (النظام) فيها أن أمورها كلها مستقرة تجري على مثال واحد قليل التغيير والتبديل.

قال الأستاذ ألفرد فيدمان الألماني في كتابه (ديانة قدماء المصريين): (إن الهيمنة على جداول الأرض كانت بطبيعتها أقرب إلى التركيز والتوحيد من سائر المرافق الأخرى. إذ لا يتأتى تنظيم الري في مصر على نحو مضمون مكفول بغير هيمنة واحدة تمنع الأفراد أن يجوروا على المصلحة القومية في سبيل المنافع الفردية)

وتناول الأستاذ اليوت سميث هذا الرأي فشرحه وفصله في كتابه (التاريخ الإنساني) وأيد فيه ما سبقه إليه العالم الألماني من تعليل عبادة الملوك في مصر القديمة، إذ كان المالك عندهم لزمام النيل ومقادير الماء مالكا في ظنهم لمصادر الحياة، خليقاً أن يحاط بمظاهر من التعظيم ومناسك من التقديس لا يحاط بها الإنسان، ولا تكون لغير الأرباب.

ويزكي هذا الرأي أن (مينا) رأس الملوك الذين وحدوا البلاد وجمعوا بين حكم الوجهين إنما كان في معظم أعماله مهندساً يسوس الماء ويدري من ثم كيف يسوس البلاد، وإليه ينسب المؤرخون الأولون تحويل مجرى النيل وإقامة في أقاليم منف والفيوم.

ثم جاء عهد الحضارة العربية وهي الحضارة الثانية التي بقي لها بعد الحضارة الفرعونية أخلد الآثار في تكوين الشعائر وتقرير نظام الحكومة بين المصريين.

والفرق بين مظاهر الملك فيها ومظاهر الملك في الحضارة الفرعونية هو الفرق بين حاكم يقول: إنه (عبد الله) وحاكم يقول ويقال له: إنه هو الإله وسيد الخلق والأمر وباعث الخير من الأرض والسماء.

فليس للملك العربي (تاج) ولا يحب الملوك العرب أن يتشبهوا بالأعاجم في هذه المراسم. مدح عبد الله بن قيس الخليفة عبد الملك بن مروان بقصيدة من جيد شعره فيها.

إن الأغر الذي أبوه أبو العا ... صي عليه الوقار والحجب
خليفة الله فوق منبره ... جفت بذاك الأقلام والكتب
يعتدل التاج فوق مفرقه ... على جبين كأنه الذهب

فقال له عبد الملك: يا ابن قيس! تمدحني بالتاج كأني من العجم وتقول في مصعب (ابن الزبير):

إنما مصعب شهاب من الل ... هـ تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك عزة ليس فيه ... جبروت وليس فيه رياء

أما الأمان فقد سبق لك، ولكن والله لا تأخذ مع المسلمين عطاء أبداً. . هذا وعبد الملك بن مروان كان من ملوك العرب الذين أكثروا من اقتباس الأزياء والشارات الفارسية، إلا مراسم التيجان التي بغضتها إليه النعرة العربية كما بغضتها إليه موجدته علي ابن الزبير ومن مدحوه وجنحوا إليه!

وأيا كان سر الإنكار في نفس عبد الملك فقد ظل الملوك المسلمون يؤثرون العمامة على التاج ويتخذون آثار النبي عليه السلام - ومنها البردة والخاتم - شعاراً للخلافة أعز عندهم وعند الرعية من كل شعار.

ثم جاء خلفاء الترك فاختاروا العمامة على التزين والترصيع، حتى لبسوا الطربوش وميزوه على سائر الطرابيش بحلية من حلي التجميل، كراهة منهم أن يتخذوا التاج ويتشبهوا بالملوك الأوربيين

أما ملوك مصر فقد لبثوا يتخذون الآثار النبوية شعاراً للخلافة حتى زالت عنهم هذه الآثار فعوضوها بما يشبهها، ثم جروا على سنة الولاة العثمانيين حين دخلت مصر في حوزة الدولة العثمانية.

ثم قامت الأسرة العلوية على أساس الانتخاب والتولية في وقت واحد: فقد أساء الوالي العثماني الحكم فاجتمع العلماء والنقباء بدار المحكمة واستقر رأيهم على اختيار محمد علي الكبير والياً عليهم وإبلاغه ذلك والكتابة إلى الآستانة في هذا المعنى.

وانتقلوا إلى دار محمد علي باشا هاتفين: إننا لا نريد هذا الباشا - يعنون خورشيد باشا - والياً علينا. وقال السيد عمر مكرم: (إننا خلعناه من الولاية). . . فقال محمد علي باشا: ومن تريدونه والياً عليكم؟ فقالوا بصوت واحد: إننا لا نرضي إلا بك لما نتوسم فيك من العدالة. قال بعد تردد: إنني لا أستحق هذا المنصب وقد يكون في التعيين مساس بحق السلطان. فعاد العلماء والنقباء يقولون: إن العبرة برضى أهل البلاد وقد أجمعنا على اختيارك.

فقبل محمد علي وألبسه السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوي الكرك والقفطان وهما خلعة الولاية. ولم يمض على ذلك شهران حتى جاء الفرمان من قبل السلطان بإقراره في منصبه وتعزيز ما اختاره الشعب لنفسه، فكانت هذه هي بيعة الشعب المصري لمحمد علي الكبير ولأسرته من بعده

وكانت النهضة المصرية وشاء الله لمصر أن تكون ولاية مليكها المحبوب (فاروق الأول) فتحاً جديداً في تاريخها لا مثيل له في جميع هاتيك العصور، وقدوة للاحقين جمعت كل حسن سائغ من الماضي وتنزهت عن كل ما يأباه المليك ويأباه رعاياه: استقلال الفراعنة بغير شوائب الوثنية، وملك العرب بغير رعاية أجنبية، واختيار الشعب بغير الولاية العثمانية. وقد كانت الدولة البريطانية تزعم لنفسها المزاعم في إبان الحرب العظمى، فبطلت هذه المزاعم وقام الملك الفاروق بالأمر بيننا أول ملك خلص لمصر عرشه وخلص له حبها واختيارها. فلا نظير لهذا الملك في عهد الفراعنة ولا في عهد العرب ولا في دولة العثمانيين ولا في دولة الإنجليز. وهنيئاً لمصر هذه البداية، وهنيئاً للفاروق هذه المزية، وهنيئاً للمستقبل ما يرجى له من طوالع هذا الفأل الحسن وهذا البشير السعيد

وإن من الخير لمصر أن يكون تاجها هو التاج الذي اختاره الله للمليك الفاروق الفارق بين جيلين وعصرين:

تاج محسوس بالقلوب مثاله هو شخص المليك المحبوب، ورمز تراه الأفكار قبل أن تراه الأبصار، وطلعة كما قال عبد الله ابن قيس:

شهاب من الل ... هـ تجلت عن وجهه الظلماء . . .

ملكه ملك عزة ليس فيه ... جبروت وليس فيه رياء

عباس محمود العقاد

حديث الملك فاروق

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

عرفت فضل النظام الملكي ومزيته في ليلة صيفية كان هذا الموضوع آخر ما أتوقع فيها أن يجري لي في خاطر. وكنا نحو عشرين - ما بين كبار وصغار، ورجال ونساء، وشيب وأطفال - خرجنا في أربع سيارات إلى الصحراء - صحراء مصر الجديدة - ومعنا الطعام والشراب والسجاجيد والوسائد والأواني والأوعية وسائر ما يحتاج إليه مثلنا في مثل هذه الرحلة، إلا الأكواب فقد نسيناها على فرط حرصنا على تذكرها، فاضطر أحدنا أن يعود بالسيارة إلى حيث مساكن الأحياء ليشتري لنا كفايتنا من هذا الذي نسيناه. وفرشنا السجاجيد وأخرجنا الوسائد والحشايا وصففنا الأطباق ووزعنا الفوط والأشواك والملاعق والسكاكين - فقد أبى أكثرنا إلا أن يكونوا من أبناء المدنية وإن كان أصل الفكرة أن نجعلها ليلة (بوهيمية) وأن نطلق النفس على السجية وننفي التكلف - وشرعنا نأكل ونسمر ونضحك ونلعب ونتخاطف الطعام والشراب ويجري بعضنا وراء بعض. وكنت جالساً على حافة السجادة وساقاي ممدوتان أمامي - كأنما يمكن أن أمدهما ورائي! - وظهري إلى مؤخرة إحدى السيارات فأن إحدى ساقي مهيضة فليس في وسعي أن أجلس كما يجلس خلق الله. فأقبلت عليّ إحدى الفتيات وأراحت كفها على كتفي وقالت: (ولكن كيف نسينا الأكواب؟)

فهززت كتفي التي عليها راحتها - فقد كان الجو حاراً - وقلت: (وهل أنا أعرف؟) فأبت إلا الإلحاح وقالت: (ولكنك كتبت كل شيء في ورقة وراجعت كل شيء على ما فيها؟)

فقلت بإيجاز: (صحيح)

فقالت: (إذن كيف حدث هذا؟. . لابد أنك تعمدت. .)

ولم تتمها فقد صاحت إحدى الفتيات في هذه اللحظة: (الملك فاروق!)

وإذا بالقاعدين والمضطجعين جميعاً يثبون إلى أقدامهم كأنما شكهم جميعاً حديد محمي، ولولا ساقي وصعوبة هذه الحركة المباغتة عليها، لكنت وثبت كما وثبوا، فإن للجماعة عدواها، وصارت كل يد على أقرب كتف، وجعلت العيون تدور في كل ناحية، والألسنة تجري بالسؤال الطبيعي: (فين؟). وكانت الفتاة التي أطلقت هذه الصيحة تشير إلى سيارة تخطف بعيداً عنا، ولا يكاد يبدو منها شيء لكثرة الغبار الثائر وراءها. وسكنت

الضجة أخيراً فقالت إحدى الفتيات: (هل سمعتم أغنية الملك فاروق؟) فقلنا جميعاً - أعني الرجال -: (لا) - بلسان واحد. فقالت: (أغنية جميلة) قلنا: (هات أسمعينا) فهزت كتفها، وأولتنا ظهرها، وأخفت وجهها في حجر زميلة لها. فسأل أحدنا: (هل فيها شيء يدعو إلى الحياء؟) فقالت بنته: (لا. إنما خجلها من أن تغني) قلنا: (إذن أسمعونا يا ناس)

فأبين أن يسمعننا شيئاً، وتركننا متلهفين على السماع الذي حرمناه. ولم أطق أنا صبراً فعدمت إلى الحيلة، وغيرت الموضوع تم ملت على جارتي وسألتها - فيما بيننا -: (هل تعرفين هذه الأغنية؟) فهزت رأسها أن نعم، فسألتها: (ماذا فيها؟) قالت: (لا شيء في الحقيقة وهي شائعة جداً)

قلت: (اهمسي بها في أذني) ففعلت وإذا بالأغنية كما يأتي:

(مصر فرحانة بفاروقها ... مصر فرحانة بحبيبها

(كل بنت تستمنى ... لو جلالته يكون خطيبها

ففهمت لماذا خجلت الفتيات أن يغنينها وإن كان لفظها لا يراد به المعنى الحرفي ولا يدل على أكثر من الحب العام الذي فاز به هذا الملك الشاب السعيد الحظ. وخطر لي وأنا جالس أفكر في هذه الأغنية الشائعة أن ملكا مثله يسعه أن يثق بحب الشعب له وأن يطمئن إلى دوام هذا الحب، فإن المرأة تصنع بنا معاشر الرجال المغرورين ما تشاء

وقلت لنفسي وأنا أرمي بعيني هذه الصحراء المهولة التي يضيئها القمر: إنه ليس في وسع رئيس جمهورية أن يفوز بمثل هذا الحب، ولا يعقل أن يكون رئيس جمهورية شاباً في مثل سن الملك فاروق، وعلى أنه ماذا صنع الجمهوريون حين ألغوا الملكية واعتاضوا منها الجمهورية؟ لم يصنعوا شيئاً سوى أنهم قلدوا الملكية، واحتفظوا بكل مظاهرها، وحرموا الشعوب إمكان الحب لرؤساء دولهم، واتخاذ هؤلاء الرؤساء رموزاً لأوطانهم وأعلاماً عليها، وعناوين لها، وأفقدوها معنى قومياً تتعلق الشعوب به. والجمهوريون يشعرون بذلك ويفطنون إلى الزيف الذي تكلفوه، ولذلك يحفون رئيس الجمهورية بكل ما كان يحف بالملوك من المظاهر والمراسم. فله قصره، وحرسه، وحاشيته، وإنعاماته - كائنة ما كانت

وله مقام كمقام الملك، واحترام كاحترامه، وتقاليد ملكية مقررة لا تختلف ولا يمكن - التساهل في أمرها. وكل ما ذهب هو نظام الوراثة. هذا والملكية نشوءها طبيعي في الأمم، فقد كان الملك في العصور الأولى هو الأقوى أو الأقدر على العموم وبقدرته أو قوته الممتازة استحق التسويد. أما الجمهورية فنظام قائم على التكلف والمغالطة. والزعم فيه هو أن الأمر والرأي للأمة، ولا أمر ولا رأي للأمة في الحقيقة، وإنما الأمر والرأي لنفر ممن في أيديهم مقاليد الأمور، وأعنة الشئون. ومادامت الشورى هي نظام الدولة، والدستور هو الذي يجري على قاعدته الحكم، والملك لا يحكم إلا بواسطة وزرائه، فلماذا تتكلف الأمم عناء التبديل والتغيير والمغالطة لنفسها وتجيء برئيس جمهورية لا يختلف عن الملك في شيء، ثم تزعم أنها جاءت بجديد؟ كل ما تصنعه الأمم التي اعتاضت الجمهورية من الملكية هو أنها أفسحت المجال لأطماع وراء الأطماع العادية في مناصب الحكم أي في المناصب الوزارية. وقد يكون من عجائب الإنسان أنه لا يقنع بمنصب الوزارة - وهو منصب حكم فعلي لا وهمي - وأن يروح يطمع في منصب لا يكون لصاحبه وهو فيه من الأمر قليل أو كثير. وكل ما يفيده هو الأبهة التي ليس وراءها حقيقة. ومن مغالطات الإنسان لنفسه أن يدعي كره الملكية وأن يتخذ مع ذلك كل مظاهرها ما خلا الاسم، ويروح على الرغم من هذا يقنع نفسه أنه غير شيئاً حين أبدل الملك برئيس جمهورية. وقد تكون الجمهورية أو ما إليها معقولة في بلد حديث العهد بالوجود مثل الولايات المتحدة؛ أما في الأمم القديمة التي نشأت فيها الملكية وتقررت زمناً فإن التغيير لا يكون إلا مغالطة ولا يكون الباعث عليه إلا الأطماع الشخصية أو جنون الحركات الثورية التي يفقد فيها العقل اتزانه واستقامة نظره، وهدوءه

ولم أسترسل في هذه الخواطر التي لا أدري لماذا دارت في نفسي، فعدت إلى رفاقي أسألهم عن الملك فاروق وأحاول أن أعرف سر هذا الحب كله. فقالت فتاة صغيرة بسذاجة محببة: إنه شاب حلو. فقلت لنفسي: إن هذا معقول فإن الأمم تحتاج

إلى الشباب لتجديد نفسها. ومجرد وجود ملك شاب على رأس أمته يشعرها بفيض جديد من الحياة والشباب على الخصوص، وينعش في نفوسها الأمل. ولعل فتاتنا الساذجة لا تدرك ذلك كله، ولكنها صدقت من حيث لا تدري. وقال رجل: إنه شديد التمسك بعادات قومه ودينهم. فقلت لنفسي: وهذا أيضاً صحيح وهو من مزايا الملكية، والشعوب تحب أن ترى في ملكها رمزاً لكل ما تحرص عليه وتضن به، من دينها وعاداتها وتقاليدها وآمالها، ولا يتأتى هذا كما يتأتى في الملكية. وقال ثالث: إنه متواضع رقيق الحاشية والقلب. فحدثت نفسي أن هذا أيضاً، ومعقول أن يكون باعث حب، فما من أمة تحب العجرفة والشموخ والغطرسة والجبروت في حكامها، حتى ولو خضعت لهم مكرهة، وهي تؤثر الحدب والرعاية والعطف والعدل، وهذا كله حقها. وقال آخر: إن الأمل فيه عظيم، وإن البشرى به حسنة، وإن فاتحة عهده آذنتنا بالخير. ولا يكون مثل هذا الأمل الكبير في رجل عرفت حياته ونزعاته واتجاهاته، وأصبح ما يمكن أن يكون منه مما يسهل أن يعرف بالقياس على ما كان فعلا في ماضيه المعروف. وعظم هذا الأمل دليل على عظم الرغبة في الانتقال إلى ما هو خير. ودلالات هذا الأمل كثيرة وليس هنا مقام القول فيها. وقد كثرت في جلستنا الأسباب التي يعزى إليها حب الشعب لملكه الشاب، وكلها صحيح ولكني لا أذكر الآن أن واحداً منا أشار إلى جاذبيته الخاصة، وقد يكون مرجعها إلى الشباب، ولكني أحسبها هبة من الله، فما أكثر الشبان وما أثقل الكثيرين منهم!

وعدنا وما كان لنا حديث إلا الملك فاروق وحبه لأمته وحب الأمة له. وما أظن أن حديثاً آخر كان خليقاً أن يكون أشهى وأمتع. ومتى كان الحديث عن الملك في المجالس أشهى الأحاديث وألذها فإن للملك أن يبشر وللأمة أن تستبشر

إبراهيم عبد القادر المازني

لمناسبة تتويج الفاروق

خواطر تاريخية ودستورية

عن رسوم التتويج والتولية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تستقبل مصر بعد يومين حادثاً من أعظم الحوادث في تاريخها الحديث هو الاحتفال (بتتويج) جلالة مليكها فاروق الأول، أو بالحري ببلوغ المليك رشده الدستوري وتوليه مقاليد الشئون. وافتتاح عهده السعيد في ظل الاستقلال والحريات الدستورية؛ ويلاحظ أن هذا الحادث الذي هو الأول من نوعه في تاريخنا الحديث. سوف ينشئ سابقة دستورية ينسج على منوالها، وسف يكون هو الحجر الأول في صرح تقاليد الملوكية المصرية الدستورية

ولقد كان للملوكية المصرية في عصور الاستقلال والمجد رسوم وتقاليد مؤثلة؛ وكانت رسوم البيعة والتولية من أعظمها وأعرقها، وكانت تتشح بألوان ساحرة من الفخامة والبهاء، وتعتبر من الحوادث القومية الجليلة؛ ولو لم تنكب مصر بمحنة الفتح العثماني في سنة 1517، وينهار بذلك صرح استقلالها وملوكيتها التالدة، لكان عرش مصر اليوم أقدم عروش العالم وأعرقها

فالحادث العظيم الذي تستقبله مصر في الغد يعتبر من الوجهة التاريخية ذا أهمية خاصة في تاريخها: أولاً لأنه يصل ماضي الملوكية المصرية المستقلة بحاضرها بعد أن انقطع سيرها زهاء أربعة قرون؛ وثانياً لأنه يفتتح عهد الملوكية الدستورية في عصر الاستقلال؛ وهذا المعنى التاريخي المزدوج هو الذي يسبغ على تتويج مليك مصر الشاب خطورة قومية ودستورية ذات شأن

وسوف تتخذ إجراءات التتويج هنا صفة رمزية معنوية، فليس هناك تتويج بالمعنى الحقيقي، وليس لمصر الحديثة تاج موروث أو آلات وأزياء ملوكية خاصة يتقلدها المليك عند توليته؛ وإنما هنالك إجراء دستوري خطير هو في الواقع أسمى مظهر يبدو به الملك الدستوري لأمته، وأقدس عهد يقطعه لها حين تقلده لأمورها؛ وهذا الإجراء هو أداء الملك

لليمين التي نص عليها الدستور في مادته الخمسين، وذلك أمام البرلمان مجتمعاً بمجلسيه في هيئة مؤتمر ونصها: (أحلف بالله العظيم أني أحترم الدستور وقوانين

الأمة المصرية وأحافظ على استقلال الوطن وسلامة أراضيه)؛ وسيتلو هذا الإجراء الخطير عدة حفلات واستقبالات عظيمة يتاح فيه للأمة أن تبدي عميق حبها وولائها لمليكها، ويستعرض فيها الجيش المصري الذي تؤمل مصر أن يستعيد في المستقبل القريب مجده العسكري التالد، ويغدو حصنها المكين، وحامي حمى استقلالها وذمارها

وإذا كان (تتويج) الفاروق سيقتصر على ثلاثة إجراءات ومظاهر رئيسية، هي أداء اليمين الدستورية يوم الخميس القادم، فأداء صلاة الجمعة في اليوم التالي في مسجد الرفاعي، ثم استعراض الجيش في اليوم الثالث؛ فإن هذا البرنامج على بساطته المؤثرة يحتوي جميع العناصر القومية والشعبية التي تأخذ بها جميع القصور والأمم العريقة، بل والتي عرفتها الملوكية المصرية في ظل الدولة الإسلامية؛ ذلك أن تبادل العهد بين العرش والأمة عن طريق اليمين الدستورية التي يؤديها جلالة الملك أمام ممثلي الأمة، والتي هي معقد رسوم التولية، ليست في الواقع إلا مظهراً جديداً من مظاهر نظام البيعة القديم تطور مع الزمن طبقاً لتطور الفكرة الدستورية؛ ففي العصور الوسطى كانت الخلافة أو العرش مصدر السلطات الروحية والزمنية، وكانت البيعة تعقد للخليفة أو صاحب العرش بهذه الصفة؛ أما اليوم فإن الأمة تغدو في ظل النظم الدستورية هي مصدر السلطات، ويغدو العرش رمزها الأسْمَى، وهي التي يدين لها الجميع بالولاء

أما التتويج بصورته الشكلية المعروفة عند ملوك النصرانية من وضع التاج على رأس الملك الجديد في حفل ديني على الأغلب فلم يتبع دائماً في الدولة المصرية الإسلامية، ولم يتبع إلا في دولة الخلفاء الفاطميين، فقد كان لخلفاء هذه الدولة ضمن آلات الملك تاج من الجوهر الثمين يعرف بالتاج الشريف وبه جوهرة عظيمة تعرف باليتيمة ومن حولها جواهر دونها، وله موظف خاص يوكل بوضعه على رأس الخليفة في المواكب والأيام العظام يعرف (بمتولي شد التاج). أما الدول التي تلتها كالدولة الأيوبية، ودولة المماليك البحرية، ثم دول السلاطين الشراكسة، فلم يكن التاج بين الآلات الملوكية التي اختصت بها، بل كان أهمها العرش (أو سرير الملك) وكان سلاطين هذه الدول يضعون على

رؤوسهم أيام التولية طرحة سوداء مرقومة بالبياض، أو عمامة سوداء مرقومة بالبياض، تنويهاً بشعار الخلافة العباسية القديمة وهو السواد، وقد كانت هذه الدول تنضوي من الوجهة الروحية تحت لواء الخلافة العباسية الذاهبة، على أنه لم يكن سوى انضواء شكلي فقط

ثم إن الحفلات القومية التقليدية كانت في هذه المناسبات العظيمة تحتوي دائماً على العنصر العسكري، وعلى بعض المظاهر الدينية؛ فكانت مواكب الخلفاء في الدولة الفاطمية تمتاز بروعة عسكرية، وكان يحف بالخليفة الجديد وينتظم في ركبه صفوة القادة والضباط والجند في أثواب وأزياء باهرة، ويشق هذا الركب الخلافي العسكري الفخم مدينة القاهرة فيعرض على أنظار الشعب المعجب طرفاً من قوة الدولة والجيش؛ وكانت مواكب السلاطين فيما بعد تمتاز أيام التولية أيضاً بهذا الطابع العسكري الفخم؛ ومازال الطابع العسكري في عصرنا أعظم مظهر للمواكب المشهودة في أرقى الدول وأعظمها

أما المظاهر الدينية فقد كانت تتخذ مكانتها دائماً في المواكب الخلافية والسلطانية، وكانت في ظل الدولة الفاطمية أشد ظهوراً وتمكناً منها في أية دولة مصرية أخرى؛ ذلك لأن الدولة الفاطمية كانت خلافة مذهبية وكانت الإمامة الدينية شعارها، وكان الخليفة يجمع بين يديه جميع السلطات الدينية والزمنية؛ وكانت مواكب السلاطين تحتوي أيضاً مثل هذا الطابع الديني؛ بيد أنه يجب أن نفرق بين هذه المظاهر التي كانت تتفق من الوجهة الشكلية مع روح العصر، وبين مسألة أخرى هي مدى مثول العنصر الديني في تولية الخلفاء والسلاطين المصريين. وقد أثيرت هذه المسألة أخيراً لمناسبة تتويج جلالة الملك فاروق، ورأى بعضهم أن تجري إلى جانب الحفلة الدستورية حفلة دينية في أحد مساجد القاهرة يتلو فيها شيخ الأزهر على جلالته صيغاً معينة يجيب عنها جلالته بما يناسبها، فيكون هذا بمثابة تتويج ديني لجلالته إلى جانب التتويج المدني؛ وكانت حجة هؤلاء أن مصر دولة إسلامية دينها الرسمي الإسلام؛ وقد اعترض على هذا الإجراء بحق بأنه ينافي الأوضاع الدستورية ويخلق في الدولة سلطة روحية لا وجود

لها؛ على أننا نريد هنا أن هذا الإجراء لم تعرفه القصور المصرية فيما عرفت من رسومها وتقاليدها، ولم يحدث قط في تاريخ مصر الإسلامية، أن تلقى خليفة أو سلطان عهداً أو تفويضاً من زعيم ديني سواء أكان قاضي القضاة أم شيخ الأزهر، ولم يتلق السلاطين مثل هذا التفويض إلا من الخليفة العباسي، الذي أقاموه هم بمصر بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد ليتخذوا من لوائها أداة من أدوات السياسة. بيد أنه كان إجراء شكلياً فقط؛ كذلك لم يحدث قط في تاريخ مصر الإسلامية أن توج خليفة وسلطان في مسجد من المساجد، بل كان التتويج يجري دائماً في مقر الملك، في القصر الفاطمي أيام الدولة الفاطمية، وفي دار الوزارة الكبرى ثم في قصر القلعة أيام الدولة الأيوبية والدول التي تلتها؛ أما العناصر والمظاهر الدينية في حفلات تولية الخلفاء والسلاطين فكانت تلخص فيما يلي: مثول قاضي القضاة وأكابر العلماء إلى جانب أقطاب الهيئات العسكرية والمدنية الأخرى، في حفل التولية، وفي الموكب الملكي؛ وأداء الخليفة لصلاة العيد أو الجمعة في الجامع الأزهر أو جامع عمرو أو جامع الحاكم أو غيرها من المساجد الجامعة؛ ولم يظهر نفوذ رجال الدين في مسائل العرش والتولية إلا في أواخر دولة الملوك الشراكسة حيث كان للعلماء والقضاة الأربعة نفوذ يذكر في تولية بعض السلاطين وعزلهم وتقرير رشدهم؛ بيد أن هذا النفوذ كان عارضاً يرجع إلى أحوال الدولة المصرية والمجتمع المصري يومئذ؛ ولم يكن من العوامل الأساسية في مسائل العرش والتولية.

والواقع أن إجراء رسوم التتويج بالمسجد هو أقرب إلى الشعائر الوثنية والنصرانية، والكنسية تؤدي مثل هذا الدور الذي يراد أن يؤديه المسجد - في الأمم النصرانية؛ وقد شهدنا هذا المنظر في تتويج جلالة ملك إنكلترا حيث جرى تتويجه في الكنيسة وتلا عليه مطران كنتربري صيغاً معينة أجاب عليها؛ ومع أن الدول الأوربية قد تحررت منذ بعيد من سلطان الكنيسة فإن هذه الإجراءات ما تزال تمثل في الاحتفالات القومية الكبرى كالتتويج وغيره، فنرى الإمبراطور نابليون بونابرت مثلا يجوز رسوم التتويج في كنيسة الأنفاليد في فاتحة القرن التاسع عشر، كما توج سلفه الإمبراطور شارلمان قبل ذلك بألف عام في إحدى كنائس رومة وتولى البابا ليون الثالث وضع التاج على رأسه؛ على أن هذه المظاهر النصرانية والمناظر الوثنية التي ترجع إلى روح العصور الوسطى أيام كان سلطان الكنيسة الروحي يغشى كل سلطة زمنية وتستظل بلوائه الملوكية لتدعم سلطانها الزمني، لم تعرفها الملوكية الإسلامية ولم تأخذ بها ولم يلعب المسجد في هذا الميدان مثل هذا الدور الذي تلعبه الكنيسة في تتويج ملوك النصرانية، كذلك لم تعرف الدولة الإسلامية لرجال الدين سلطة خاصة كتلك التي يزاولها الأحبار النصارى في مثل هذه المناسبات السياسية والقومية.

وعلى ذلك فإن البرنامج الذي وضع لتتويج جلالة ملك مصر والذي يقوم على العناصر التقليدية الثلاثة: العنصر الدستوري وقوامه أداء جلالته لليمين الدستورية أمام ممثلي الأمة، والعنصر الديني ومظهره أن يؤدي جلالته صلاة الجمعة في اليوم التالي في أحد المساجد الكبيرة، والعنصر العسكري ومظهره أن يقوم جلالته باستعراض الجيش المصري الباسل في حفل فخم، هو في الواقع برنامج موفق، يتفق على بساطته مع الروح الدستورية الصحيحة، ويجانب تلك البدع والرسوم الوثنية التي زعم البعض أنها تسبغ على حفلات التتويج لوناً روحياً خاشعاً، وتنوه بصفة مصر الإسلامية في حين أنها تنافي الأوضاع الدستورية والتقاليد الملوكية الإسلامية؛ بل إن هذا العهد الدستوري المؤثر الذي يتقدم به المليك لأمته يوم توليه مقاليد أمورها، ليذكرنا كيف تمت ولاية جده العظيم محمد علي لمصر على يد زعماء الأمة المصرية في منظر من أعظم المناظر الديمقراطية التي يسجلها التاريخ المصري

محمد عبد الله عنان

عرش الشمس

يقدمه واحد وأربعون قرنا!

للأستاذ عبد المنعم خلاف

حينما أرسلت خيالي يرود لي ما يقع عليه (عرش الشمس) الذي يتبوأه اليوم الفاروق،

من البحر فوق، إلى البحيرات تحت، عرفت في نفسي كلاماً يُوحِي إلي أن خذ قلمك وسر في موكب التتويج جندياً يحمي أو شاعراً يغني! فأنه موكب يسير فيه واحد وأربعون قرناً هي كل تاريخ الإنسانية الذي وعته ذاكرتها. . وتحتشد فيه الدنيا لرجوع شباب (أمِّها) في مَلِك نظيف المادة مكتمل، واسع الروح قِدّيس الحياة، قد صنعه الله على عينه، وآتاه البسطة في العلم والجسم، واختار له ذلك الاسم الذي يومئ الزمن به إلى تاريخ وقف وتاريخ أقبل، وخالطه بحكماء أذكياء على علم تام بكمالات النفوس وواجبات الملوك، وعبد له طريق الحكم وأزال منه الأشواك ورفعه على عرش لا تخفق فوقه راية أجنبية، وأعده ليكون ملكا بطلا ومربياً شعبياً وقائد جيل!

- وهأنذا في الموكب أهتف:

أشهد أن لا إله إلا الله يا مليكي! فلا أعبدك. . . ولا أنسى بك ملكك وبارئك وإلهك. . . كمن فتنوا بعبادة الملوك في الماضي، ومن لا تزال في قلوبهم بقية من هذه الجاهلية في الحاضر

ولكني أجد في قلبي سطوة الحب لمعناك الذي أخرجه الله على قلوب الناس إخراجاً مفاجئاً في ظرف غريب، كما يُخرِجُ الفجر فتطْرفُ له كل عين، ويتفتح له كل قلب، وتغسل الأرض به من الظلام!

ولمعناك يا مولاي في ذهني صورة تمتد امتداد النهار. . . فتقع على الزنجي في جنوب الوادي، وعلى الإسكندري ومن بينهما فحبك حب هؤلاء جميعاً، لأنك المعنى الندي الذي ينضح الله به قلوبهم الجافة، ويبثه فيها رحمة مهداة.

هي صورة مؤتلفة الأصباغ من ألوان برك الذي واليته على أمتك تقول به لها: أنا لك! ومن كمالك الذي تستعلن به مصر في كل مكان وطئته قدماك وتقول للناس: أنا هو! ومن دينك الذي نقول له: يا سلاماً من رحمة الروح لنا. . وظلا ظليلا من سلطان الله في أرضه علينا. . . وهدىً ضاحياً على أعلى منارة!

ومن شبابك الذي يقول به الزمان لمصر: تجددي تجددي يا أم أبي الهول! تجددي في آمال قلبك أيتها العجوز!. .

كلا! ليس مصادفة ومحض اتفاق أن يضع أبوك العظيم اسمك الكريم على ذاتك المفداة. . . وإنما هو الإلهام والإرهاص الذي ترسله المقادير حين تريد أن تحدث انقلاباً تضطرب به أحشاء الزمن، وأن تحجز بين تاريخين بحاجز من قدرها!. .

كلا! ليس مصادفة واتفاقاً أن تخرجك المقادير على مسرحها هذا الإخراج الفني العجيب الذي استجمعت فيه كل براعتها وحسها وبلاغتها في التكميل والتجميل: فأفرغت ذاتك في نصاب الرجولة ووشتها بألوان الروض. . . وقدست روحك بدين السماح وأضاءت عقلك بنور العلم. . . وزينت قلبك بمختار الأخلاق ومصطفاها. . . وإنما يراد بك أن تكون صورة من صور الكمال الإنساني يراها شبان هذا الزمان فيسيرون إلى الكمال الأعلى وفيك لهم أسوة!. .

كلا! ليس صدفة أن يتكون قلبك في عهد ثورة الأمة وزلزلتها حين ذهبت تدق بيدها المضرجة باب الحرية الحمراء، تقرعه على مسمع (أسد) ظافر بما سلب، تياه بما غلب، بطاش بمن يجأر أو يهمس بالكلمة المقدسة: الحرية! حتى ظفرت منه بما زلزلت الأرض له. . . وإنما كان ذلك من الأقدار صبّا لقلبك الملكي في القالب الذي صبت فيه قلوب شباب أمتك ليكون الإحساس الوطني تحت ضغط الثورة، على سواء في الأعلى والأدنى. . . وذلك هو المقياس الصحيح لوحدة الأمة وعرشها. .

فليكن هذا كله في موضع التأمل من عقول الشباب والأمل من صدورهم والعمل من أجسادهم؛ فأنها برسالة تطلب جنوداً ذوي أرواح من شعل، وقلوب من جبل، وأجسام من عمل!

ولتهنأ الأمة بملك يدرك الحرية ويعرفها معرفة الرأي الذي كان يدور في عقله حينما يرى تلاحم الحجج بين حُماتها وغُزاتها. . ويعرفها في قلبه معرفة الدم الذي كان يفور فيه حينما يسمع أن دما من دماء جنوده الشبان سفك على مذبحها. . .

وليهنأ الملك بالعرش الذي يقدمه إليه واحد وأربعون قرناً. . . ويحمله أربعة من أبطال الدنيا: رمسيس وعمرو وصلاح الدين ومحمد علي. . . وتحوم حوله قلوب عشر مليوناً تصلي في ملكوت السموات إلى مالك الملك أن يجعل عينه الراعية على الملك

الشاب الإلهي. . وأن يحدث به انقلاباً تحتاجه أوضاع الأرض!
(القاهرة)
عبد المنعم محمد خلاف
تولية محمد علي باشا الكبير
صفحة مصرية نبيلة
وضع الأستاذ المؤرخ القصصي الكبير محمد فريد أبو حديد قصة سينمائية عن قيام حكم محمد علي باشا الكبير سماها (ابنة الملوك) وعهد إلى الأديب يوسف تادرس الناقد المسرحي بكتابة (السيناريو) وفي هذه المناسبة السعيدة ننشر من مناظرها هذا المنظر الذي يصور كيف نصب الشعب المصري محمد علي باشا والياً عليه بحكم إرادته ومحض اختياره
المنظر: قاعة في قصر محمد علي باشا بالأزبكية. محمد علي باشا في ملابس الولاية واقف وأمامه أدهم أحد ضباط الأرنؤود.
أدهم:ـ . . وبعد قليل وصل السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوي فلقيا عناء كبيراً في اختراق الكتل البشرية المجتمعة في ساحة بيت القاضي والطرق المؤدية إليها فقد كان عددها يعدو الأربعين ألفاً.
محمد علي: (في دهشة) أربعون ألفاً؟!
أدهم: أجل يا مولاي وقد بلغ بهم الحماس حداً لا مثيل له. . . كانوا يضربون على الدفوف ويهتفون من أعماق قلوبهم: (عايزين الحاكم اللي نرضاه) (عايزين الباشا بتاعنا)
محمد علي: (يبتسم) وبعد!
أدهم: صعد السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوي والعلماء والأعيان إلى القاضي. . . حاولت الدخول فلم أستطع ولكني علمت أن كلمة الجميع اتفقت على خلع خورشيد باشا لأنه ظالم مستبد.
محمد علي: وهل انفض الاجتماع على هذه النتيجة؟!
أدهم: الاجتماع لم ينفض بعد. . . لقد غادرتهم مجتمعين وجئت مسرعاً لأتلقى تعليمات مولاي.
محمد علي: لا بأس سيقفنا الشيخ عبد المنعم على ما دار في الاجتماع. . . قل لي يا أدهم ماذا يقول الناس عني؟
أدهم: إنهم في حيرة يا سيدي. . . يقول البعض إنك ستسافر في الأسبوع القادم إلى جدة
لتقوم بأعباء الولاية، ويقول آخرون إنك تخشى السفر ولن تبرح القاهرة
محمد علي: (يبتسم ويهز رأسه)
أدهم: مولاي! أتسمح لي أن أسألك سؤالا؟
محمد علي: سل يا أدهم.
أدهم: كيف قبلت منصباً كهذا؟
محمد علي: لا يرفض المرء ترقية مهما كانت. . . لقد كان هذا المنصب وسيلة إلى الرتبة التي ساوتني بخورشيد. . . إنه اعتراف من الباب العالي بجدارتي لمنصب الولاية
أدهم: أتترك مصر إلى جدة؟! تغادر هذه الجنة الزاهرة إلى تلك الصحراء القاحلة!؟
محمد علي: ومن قال لك إني راحل أيها الغبي؟
أدهم: مولاي. . . لقد أحس رجالك بحيلة خورشيد لإقصائك عن القاهرة فتوسلوا إليك أن ترفض السفر فأبيت. فهل لي أن أتساءل. . .؟!
محمد علي: (مقاطعاً بإشارة من يده) لا نتساءل. . . لنترك كل شيء إلى الظروف. وما قدر فسوف يكون
(يدخل سرور ويؤدي التحية)
سرور: سليمان أغا وضابطان يطلبون الأذن على مولاي
محمد علي: (يبتسم) أدخلهم. وإذا جاء الشيخ عبد المنعم فأخبرني توا. (يخرج سرور) إذهب الآن يا أدهم وتسقط الأخبار في القلعة فلعلك تحمل إلينا شيئاً جديداً.
(يخرج أدهم - يدخل سليمان أغا وضابطان من الأرنؤود ويؤدون التحية)
محمد علي: خيراً.

سليمان أغا: جئنا يا مولاي لنعرف ماذا استقر عليه رأيك.
محمد علي: لقد أعلنتكم برأيي وإني مصر عليه.
سليمان: مولاي! ولكن مصلحة جنودك ورجالك لا يمكن إغفالها.
محمد علي: تطلبون إلي أن أخالف أوامر الباب العالي؟! إنكم تطلبون المستحيل. . . لقد قبلت المنصب والرتبة فلابد أن أرحل إلى جدة.
سليمان: وكيف تتركنا؟! ومن يهتم بنا إذا تخليت عنا؟ . .
محمد علي: إن خورشيد باشا صاحب الأمر في البلاد وتستطيعون أن . . .
ضابط (1): نحن لا نقبل أن يتحكم خورشيد فينا.
ضابط (2): ألا من سبيل لتحقيق أمنية رجالك يا مولاي؟!
محمد علي: لا أظن، فأنها تتعارض وأوامر الباب العالي.
سليمان: يؤلمني يا سيدي أن أصرح بأن رجالك قد قر رأيهم على أن يحولوا بينك وبين السفر.
محمد علي: أجاد أنت فيما تقول؟!
سليمان: أجل يا سيدي سنمنعك بكل الوسائل.
محمد علي: كيف؟
ضابط 2: سنلجأ إلى القوة إذا أدى الأمر إليها.
محمد علي: وإذا صممت أنا على السفر؟
ضابط 1: تعرض نفسك للخطر.
محمد علي: إن ذلك تهديد!
سليمان: سيدي. . . إن خورشيد هو الذي سعى لإبعادك ليتحكم فينا ويستبد بنا.
ضابط 2: إنه لا يريد بنا الشر فحسب، بل بك أيضاً. . . إنك تدرك خديعته وتعرف أن سفرك الخطر كل الخطر ومع ذلك تصر على رأيك. . .
محمد علي: إذا نزلت على رغبتكم كنت في نظر السلطان ثائراً وحق لخورشيد باشا أن يلقي القبض علي ويرسلني إلى الأستانة.
سليمان: لن يستطيع هذا. . . إننا قوة كبيرة في البلاد. . . ثق يا سيدي أنه لن يصل إليك إلا على أجسادنا
محمد علي: (يبتسم ويقول ساخراً) وإذا بدأت الحرب وقفتم في وجهي بين يوم وآخر وجعلتم تطالبونني بالرواتب أليس كذلك؟! لا. لا. . . لن أقبل.
سليمان: مولاي. . . إننا لا نفكر الآن في الرواتب؛ نحن ننظر إلى كياننا، إلى الخطر الذي يهددنا. . سنكون طوع أمرك فهل تعطينا كلمة؟ . .
محمد علي: لا أستطيع أن أفكر في الأمر إلا إذا وثقت من شيئين: ألا يطالبني الجنود برواتب الآن، وألا يوقفوني مواقف حرجة فيما بعد.
سليمان: لك ذلك يا سيدي. لن تكون الرواتب مصدر قلق لك
محمد علي: (ساخراً) أحق هذا؟!
ضابط 1: أجل يا سيدي ولنقسم بين يديك
(يدخل سرور ويؤدي التحية)
سرور: مولاي. . . الشيخ عبد المنعم.
محمد علي: (لسرور) ادخله حالا (لسليمان أغا) لا أستطيع أن أعطي كلمة الآن. . . وسأرسل إليكم كلمتي في المساء؛ وعليكم أن تكونوا على استعداد.
سليمان: حسن يا سيدي
(يؤدي الثلاثة التحية ويخرجون)
(يدخل الشيخ عبد المنعم مسرعاً)
عبد المنعم: مولاي. . . إنهم في أثري إلى هنا.
محمد علي: من؟
عبد المنعم: السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوي والأعيان وأولاد البلد.
محمد علي: وماذا حدث؟ . . .
عبد المنعم: أوه يا سيدي. لقد كان يوماً عظيما. . . احتشدت الألوف . . .
محمد علي: (مقاطعاً) عفواً يا سي الشيخ أعرف كل هذا، أريد أن تقص علي ما دار في الاجتماع. أريد النتيجة فحسب.

عبد المنعم: وقف السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوي ومن ورائهما العلماء والأعيان أمام منصة القاضي، وعرض السيد عمر مظالم الشعب فكان الجميع لساناً واحداً على خلعه
محمد علي: وما السبب الذي بني عليه قرار الخلع؟!
عبد المنعم: السبب أنه حاد عن سنن العدل وسار بالظلم فأصبح خارجاً على الشريعة.
محمد علي: وبعد؟
عبد المنعم: تحدث العلماء وأصحاب الرأي في اختيار وال جديد واقترح السيد عمر مكرم اسم مولاي فقال الشيخ الشرقاوي: (إننا لا نستطيع أن نجد خيراً منه) وقال آخر: (إنه رجل ذكي محب للخير) وتبارى العلماء والتجار في ذكر مناقب مولاي.
محمد علي: ألم يعترض أحد؟
عبد المنعم: لم يعترض أحد على شخصك يا مولاي ولكن البعض رأى في التعيين دون الرجوع إلى الباب العالي افتئاتاً على حقوقه
محمد علي: وماذا قال السيد عمر؟
عبد المنعم: ثار وصاح قائلا: (أي حقوق؟ يجب أن يكون للشعب رأي في اختيار حاكمه. كفانا ما لقينا من حكامهم . .
محمد علي: (يبتسم) يا له من رجل جريء! - فما الذي كان؟
عبد المنعم: نزل الجميع عند رأيه في النهاية وقرروا أن يجيئوا إلى هنا ليعرضوا عليك الولاية
(تسمع ضجة وجلبة صادرة من بعد تقترب شيئاً فشيئا)
عبد المنعم: أتسمع يا مولاي؟. . إنهم قادمون
(يسير محمد علي إلى نافذة ويطل من خلف الستر وينصت قليلا ثم يلتفت إلى الشيخ عبد المنعم)
محمد علي: اذهب الآن. . . لا أحب أن يراك أحد هنا وتستطيع أن تدخل معهم
عبد المنعم: حسناً يا سيدي. . (يخرج)
(يعود محمد علي ليطل من خلف الستر. ترتفع أصوات الشعب ويسمع هتافات مختلفة وضرب بالدفوف)
(يدخل سرور ويؤدي التحية)
سرور: السيد عمر مكرم والعلماء يا سيدي
محمد علي: أدخلهم يا سرور
(يخرج سرور وبعد لحظة يفتح الباب على مصراعيه ويدخل السيد عمر مكرم ثم الشيخ الشرقاوي وكثير من العلماء والأعيان)
السيد عمر: السلام عليكم يا سيدي
محمد علي: عليكم السلام ورحمة الله. . .
(يتقدم محمد علي ويصافح الجميع)
محمد علي: تفضلوا. . . (يشير إليهم بيده فيجلسون) خيراً يا سيد عمر؟ لعل ما جئتم من أجله خير؟
الشيخ الشرقاوي: إنه خير بإذن الله يا سيدي
السيد عمر: سيدي. . . لقد خلعنا خورشيد باشا من الولاية على البلاد واخترناك والياً علينا وجئنا نعرض الأمر عليك
محمد علي: أيسمح لي صديقي أن أوجه إليه سؤالاً؟!
السيد عمر: تفضل يا سيدي
محمد علي: هل من سلطتكم أن تعزلوا الولاة وتقيموا غيرهم؟
السيد عمر: أجل يا سيدي. . . (إن للشعوب طبقاً لما جرى به العرف قديماً ولما تقضي به أحكام الشريعة الإسلامية الحق في أن يقيموا الولاة ولهم أن يعزلوهم إذا ما انحرفوا عن سنن العدل وساروا بالظلم لأن الحكام الظالمين خارجون على الشريعة. .)
الشرقاوي: ولقد انحرف خورشيد عن العدل وسار بالظلم، لذلك أجمعنا على عزله واختيارك مكانه فإننا نتوسم فيك العدالة وحب الخير وبعد النظر

محمد علي: ولكن خورشيد باشا لن يقبل القرار
السيد عمر: سواء علينا قبوله أو رفضه. . . فإن إرادة الشعب فوق إرادته
محمد علي: وإذا رفض النزول من القلعة؟
السيد عمر: نرغمه بالقوة
محمد علي: وإذا لم يرض الباب العالي أن يسلم لكم بحق اختيار الحاكم
السيد عمر: لا يهمنا سلم أم لم يسلم. . . يجب أن يخضع لرأي الشعب ويختار الحاكم الذي نرضاه
محمد علي: ولكن الأمر خطير. . . فهل قدرتم مبلغ خطورته
السيد عمر: أجل يا سيدي. . . الشعب يتمسك بحقه كاملاً ولن يقبل التفريط فيه وإن كلفه ذلك حياته
الشرقاوي: أجل. . . لن نقبل التفريط في حقوقنا وفيما تفرضه الشريعة علينا
السيد عمر: البلاد مصرة على تنفيذ إرادتها ولو أدى الأمر إلى استعمال القوة
محمد علي: أما من سبيل إلى الرجوع؟ . .
السيد عمر: (مقاطعاً) عفواً يا سيدي. . . لقد جرب الشعب المصري في السنين الماضية أكثر ما يجربه شعب من المظالم والمتاعب وقد صحت عزيمته على ألا يرضى بحاكم (يشير بيده إلى محمد علي باشا) إلا الذي اختاره
العلماء: أجل. أجل. لا نرضى إلا به
السيد عمر: هل تقبل يا سيدي ثقة هذا الشعب الذي أحبك واختارك دون غيرك والياً عليه؟
محمد علي: إنني عالم بما في قبولي من خطورة، عالم به تماماً ولكنني أمام إجماع الشعب ونزولاً على رغبة ممثلي الأمة الكريمة لا يسعني إلا القبول
الشرقاوي: شكراً يا سيدي. . .
محمد علي: وإنني أشعر بثقل الحمل الذي تريدون وضعه على عاتقي
السيد عمر: نحن على يقين من أن الله سيعينك وأنت بلا شك عالم بما تمتلئ به قلوبنا من الآمال
محمد علي: أسأل الله أن يوفقني إلى تحقيقها بمؤازرتكم ومعونتكم
السيد عمر: سيطلع علينا عهد جديد بإذن الله تبطل فيه المظالم وتقام فيه الشرائع والأحكام
محمد علي: لن يبرم أمر إلا بمشورتكم ومعونتكم إن شاء الله
(يتناول السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوي صرة من أحد العلماء ويخرجان منها ملابس تشريفه وهي عبارة عن جبة عليها كرك ويقفان ثم يتقدمان إلى محمد علي باشا الذي يقف فيلبسانه الجبة بين سرور العلماء)
السيد عمر: مولاي. . . لقد اختارك الشعب لأنه رأى الخير في اختارك ولن يرضى بديلا منك. نسأل الله تعالى أن يسدد خطاك ويديم الملك فيك وفي بيتك
العلماء: (يقفون ويرفعون أكفهم بالضراعة) آمين. . .
محمد علي: أشكرك يا صديقي وأشكر السادة العلماء وأصحاب الرأي في البلاد. . . إنني سعيد بثقة هذه البلاد العزيزة وأسأل الله أن يعينني على خدمتها ورفع لوائها حتى تعيد مجدها الغابر وتصبح سيدة الأمم.
العلماء: (رافعين أكفهم بالضراعة) آمين.
(تسمع ضجة من الخارج عند باب القاعة ويرى حجاج الخضري يحاول الدخول ولكن الجنود يمنعونه ويمسكون به وسرور ينهره)
سرور: لا. لن تدخل.
حجاج: دعني. . . أريد أن أكلم الباشا.
محمد علي: دعوه. . . دعه يا سرور
(يترك الجنود حجاجاً فيتقدم خطوة نحو الباشا)
حجاج: مولاي. . . الشعب يريد أن يرى الوالي الذي اختاره
السيد عمر: أجل يا سيدي. . . يحسن أن تطل عليهم من الشرفة
(يسير محمد علي إلى الشرفة ويفتحها ويخرج ليطل منها وإلى جانبه السيد عمر وخلفه الشرقاوي وعندما يظهرون للجماهير ترتفع أصواتهم بالهتاف كالرعد)

أصوات: ينصر الله الوالي. ينصر الله مولانا عمر. ينصر الله الباشا.
(ستار سريع)
عاش الملك
بقلم السيد زيادة
أية قوة تنبعث في نفسي الآن لأكتب؟. . . ألا ما أشاهدها قوة نازية بالفرح أستغربها على نفسي أنا المخلوق لأحزن!! ولكني إذ أنتشي وإذ يستطيع الفرح أن يستأثر بنفسي إنما أراني فرداً ضئيلا من أمة فيه بعض ما فيها جماعات وأفراداً من صخب الفرح، ولاء للعرش القائم على دعائم المجد، وحفاوة بالملك القادم بين دعوات القلوب.
لقد دنت من الأفق شمس اليوم الضاحك الذي ينصرم فيه تاريخ مصر الممتحن ليبدأ به تاريخها السعيد. . .
اليوم الذي نظر إليه الشعب من بعيد كأول أيامه الخالدة، وميلاد حياته الزاهرة، وفاتحة عهده الجديد. . .
اليوم الذي تنتظره الأمة انتظار المحب الولهان ليوم اللقاء الموعود.
اليوم الذي تتقدمه الحياة منذ شهور ببشائر الخير، وتحفه بدلائل النعيم، وتزفه بآيات الفرح. . .
اليوم الذي يجلس فيه مليكنا الدستوري على عرشه المؤيد ليملك زمام شعبه المخلص له. . .
دنا اليوم الذي يتحقق به حلم الشباب في قلب مصر
وافتر ثغر الحياة عن بسمة الزمن
وتهاتفت القلوب من أعماقها بالولاء للملك
ورقص غصن النيل المديد المياس بحواشيه وأعطافه
ونادى المنادي بأن فاروق الحبيب مقبل بعد غيابه ليتلقى بكاهل الشباب أعباء الملك
فهب الجميع يهتفون: عاش الملك. عاش الملك
مرحباً يا مرمق أبصار الأمة، ومبسم ثغر النيل، وحبة قلب الكنانة، وعنوان فخر الشباب. . .
مرحباً يا باعث المجد من مرقده، وناشر العز بعد انطوائه، ومطلق الشعب في هنائه. .
مرحباً يا حجة الزهو حين تزهو، وقوة الأرواح حين تصبو ونور النفوس حين تسمو، وحياة العزائم حين تتحد. . .
مرحباً يا قائد الأمة الحية، ومعجب ملوك العالم، وحامل لواء السلام. . .
أيها القادم من حيث فتن الغرب بجلاله، ليفتن الشرق بأعماله؛ هذه أرواحنا تناديك ظامئة إليك، تستقبل من صفو وجهك الريَّ والحياة
أيها المتهلهل بطلعة القمر من أبهة الملك فوق عرش الأفئدة. . هذه قلوبنا تحييك مصفقة لك خافقة بك تقتبس من حبك المرسل في نواحيها النور والأمل. . .
أيها المشرف على واديه السعيد به إشراف العاطف الكريم الحنون. . . هذه عيوننا تتطلع إليك مرقرقة فيها دموع الفرح متسامية إليك منها نظرات الحنين، تطالع في ركابك العالي بهجة العيد الدستوري المخلد. . .
يا أيها المِلكُ المَلكُ. . . إن لك في كل موضع من كل قلب صورةً تقدَّس واسما يُرَدَّد.
يا أيها العاهل العظيم، أقبل على وادي النيل الشاعر بأنك رمز آماله. . . إن لك فيه تاجاً سنياً عقدت نسجه العتيد مئات السنين بيد الخلود، وعرشاً جليلاً هيأتْ مجلسه الوطيد قلوب الشعب بأعظم الولاء. . . فما خلقت هامتك الشريفة إلا لتحمل أعرق تيجان الملوك، وما خلق مقامك السنيُّ إلا ليتبوأ أسنى عروش الدول.
يا فاروق! لقد أشرق في بدء عهدك تاريخ الفاروق، ومضيت على سنن أبيك لتتم نهجه، واتبعت في علاك مناهج الرسل؛ فما أسعد المُلكَ الأشم بك، وما أكبر المثل الأعلى للملوك فيك!!.
ليست عابثةً هذه الأمة التي تعد نفسها لتحييك بتحية فاقت كل تحايا الأمم للملوك بروحها الدفاقة الزاخرة التي هي روح الحب في إيمان القلوب تحت إلهام الله. . . هذه الحماسة المتقدة في قلوب شعبك ما هي إلا تعلقه بك، وهذا البشر الشامل كل بقعة

. . .من وادي النيل ما هو إلا ولاؤه لك
إن لنا من عبقرية شبابك آمالا شابة ناضرة ستحققها الأيام بيدك.
فامض بالأمة فيما شئت من سبل المجد، وضع مصر من حيث أردت لها من صفوف
. . .الدول الماجدة، وابسط علينا من ظلالك حياة العز والرَّغد. . . وعش لنا يا فاروق
السيد زيادة
إلى سدَّة المليك الشاب
شعب يبايع
للأستاذ محمد غنيم
النِّيل تَحْمِلُ سِبْطَ إِسْماعِيلاَ ... أرأيتَ نِيلاً جاَء يَحْمِلُ نِيلاَ
لو كانتِ الأملاكُ تَحْدُو مَرْكَباً ... لرأيتَ بَيْنَ حُدَاتِهاَ جِبرِيلاَ
سارتْ فغضَّ البحرُ من غَلَوَائه ... ومَشَى كما تَمشي الجيادُ ذَلُولا
هبَّتْ عواصِفُه فَكُنَّ حِياَلَها ... رَهْواً كما هَبَّ النَّسيمُ عَليلا
ما لاطَمَتْ أمواجُه جَنَباَتِها ... بَلْ أوسَعَتْ جِنباتِها تقبيلا
لو أَنَّ زَاحِفَةً تَفُوهُ لكبَّرتْ ... نِيناَنُهُ ولَهَلَّلتْ تهليلا
يا بحرُ فوقَكَ دُرَّةٌ هيْهات أَنْ ... تَلْقَى لها فيما حَوَيْتَ مَثيلا
أَوَلَسْتَ تَعرِفُ فيهِ مَنْ أَجْدَادُهُ ... قَطَعُوكَ عَرْضاً بالسَّفِينِ وَطُولا؟
فَلَطاَلَماَ مَلأُوا المياهَ مَراكباً ... ولطالما ملأوا السهولَ خيولا
عَرَفَتْهُمُ الأيامُ إِنْ هُمْ حَارَبُوا ... أُسْداً وَإِنْ حَكموا الأنام عُدُولا
أَشْرِقْ بنُورِك في البلاد فإنَّما ... صَبْرُ البلاد على فراقِكَ عِيلاَ
الشَّعبُ يا فاروقُ صَادٍ. نِيلُهُ ... مِنْ يومِ بُعْدِكَ لا يَبُلُّ غليلا
ما كان يُسْعِدُهُ التجلُّدُ سَاعَةً ... لو لم يكُنْ بِكَ قلبُهُ مأهولا
ما غبتَ عن بَصَرِ البلاد وسَمْعِها ... يوماً وَلا بَعُدَتْ رِكابُكَ مِيلا
كانت تُطَالِعُ ما تقول فَتَنْتَشي ... طرَباً. وَإِنَّ مِنَ المقَالِ شَمُولا
وتَرى على القِرطاسِ رَسْمَكَ زاهياً ... غَضَّا فَيُصْبِحُ طَرْفُها مَكْحُولا
قد كنتَ أنت حديثَها وسكُوتَها ... حتَّى غدا بكَ وقتُها مَشْغُولا
زُرْتُ الممالكَ داعياً فكَشَفْتَ عَن ... مِصْرَ الفتاةِ حِجابَهاَ المسْدُولا
أَنْعِم بِشَعْبٍ أَنْتَ عُنْوانُ لَهُ ... وَكَفَى بُعنْوان الكتابِ دَليلا
تمشي الممالكُ في ركابك أينما ... تمشي وتَحْني هاَمَها تبجيلا
سَمِعُوا بمجد الأقدمين وأَبْصَرُوا ... بعيُوُنِهم للأقدمين سَليلا
كيْ يَعْلموا أَنَّ الكنانَة أُمَّةٌ ... طابت فروعاً في الورى وأُصُولا
إِنَّا لفي زَمَنٍ يفيض دِعايَةً ... كادتَ تَدُقُّ به الشُّعُوبُ طُبُولا
هم يُعْلِنون عن الشُّعُوب كأنها ... سِلَعٌ وَتَرْضَى بالسُّكوتِ خُمُولا
مَنْ راح ينشُرُ للبلاد دِعايةً ... فكأنه يَبْني لها أَسْطُولا
وَليَ الأُمُورَ بمصرَ أَصْيَدُ يآفِعٌ ... بَرَّ الأوائلَ فِتْيَةً وكُهُولا
جَاشَتْ بِصَدْري يَوْمَ قُلِّدَ عَرْشَهُ ... ذكرى فراعِنَةِ القُرُونِ الأولى
ما أبهجَ الإِكْليلَ فوق جبينهِ ... هذا الجبينُ يُزَيِّنُ الإكليلا
هذا هو الفاروقُ أَشْرَق وجْهُهُ ... فَسَل الغزَالةَ هل تُرِيدُ أُفُولا؟
أفديه منْ مَلِكٍ أَغرَّ وراَءهُ ... شَعبٌ يُرَتِّلُ حمدَه ترتيلا
يَعْنوا لطَلْعَتِهِ ويهتف باسمِهِ ... ويكادُ يتلو قوْلَهُ إنجيلا
مَلِكٌ تواضُعُه يزيدُ جَلاَلَهُ ... ليس الغشومُ المستبِدُّ جليلا
يُنسيك من فَرْط التواضُع تَاجَهُ ... فتكادُ تحْسَبُهُ أخاً وزميلا
يَرْنو إليه الطَّرْفُ غيرَ مُنَكَّسٍ ... والبدرُ يظهَرُ من سَناَهُ خَجَولا
يَقضي لُباَنَتَهُ الغنيُّ ببابه ... ويرى الفقيرُ دُعاَءهُ مَقبولا
لَبِقُ الحديث كأنما هو مُلْهَمٌ ... وقد أَدْرَكَ المعقولَ والمنقولا
لا تُحْصِ أعْمَارَ الملوكِ فإنني ... أجدُ الملُوكَ مَدَاركاً وعُقولا
ما قلتُ: قد بلغ الرشادَ بسِنِّه ... فَعَلَيْهِ كان بطبعْه مَجْبولا
إِنَّا عَهِدْنا الرُّشْدَ فيه سجِّيةً ... ما كان في يومٍ عليه دَخِيلا
ما ضَرَّ غَرْساً طاب قَبْلَ أوانِهِ ... أنْ كان حُرّاً في النَّبات أصيلا
قد كان ذو القرنين مثلَكَ يافعاً ... وأركما تَتَشاَبَهاَن مُيوُلا

هيهاتَ أنتَ أجلُّ منهُ حضارةً ... وأعَزُّ أوطاناً وأكرَمُ جيلا
فاروقُ تلك عناية الله التي ... قد حَقَّقَتْ في عهدِكَ المأمولا
إن الكنانَةَ ظنَّتِ اسْتِقْلاَلَهاَ ... حُلْماً فكنتَ لحُلْمها تأويلا
وهي المشاكلُ كلُّها وَجَدَتْ لها ... في عهْدِك الزاهي السَّعِيد حُلُولا
عَهْدٌ قصيرٌ غيرَ أنَّ غُصوُنهَ ... في جَبْهَةِ التاريخ صرْن حُجُولا
لو حاكت التِّيجاَنُ تاَجَك لم يَجِدْ ... يوماً إليها الثائرون سَبيلا
ليتَ الذينَ وَلُوا العُروشَ جميعهمَ ... كانوا على حُكم الشُعوب نزولا
أسِّسْ على الدُّستور مُلكَ وَابْنِه ... تَبلُغَ به الشُّمَّ الرَّواسيَ طولا
كم ثَلَّ الاستبدادُ عرشاً بعدما ... أجرى حواليْه الدماَء سُيُولا
مَنْ لم يعزِّزْ تاجهَ وسريره ... باللهِ والدستورِ كان ذليلا
إنَّ الكنانَةَ بايَعَتْكَ فكُنْ لها ... ظِلاًّ كما كان الجدودُ ظليلا
وَهَبَتْ لعرشِك مالها ودماَءها ... إنْ شئت تَلْقَ كِلَيْهما مَبذولا
فَامْلأ بلادَك حكمةً وَمعارفاً ... واجْعَلْ بلادَك في المناعَة غِيلا
لن يسْتقمَ لِشَعْبٍ اسْتِقلاله ... يوماً إذا حَمَلَ السِّلاحَ كليلا
أين المدافعُ كالرُّعود دَوِيُّها ... والخيلُ تَصْهَلُ بالجنود صهيلا
يا رُبَّ طائرةٍ سمعتُ أزِيزَها ... فحسبته في مَسْمَعَيَّ هَديلا
فانهض بمصْرَ وجيشها حتى يرى ... شَبَحُ المنيَّةِ طيْفهَا فيميلا
واكبحْ جِماحَ الطامعين وقُلْ لهم ... لا تطمَعَوا في أُخت عِزْرائيلا
وهُنا تُعادي مَنْ تشاءُ عِدَاَءهُ ... مصرٌ وتأْخُذُ من تشاءُ خليلا
فاروقُ يَفْدِيك الحمى بهلاله ... وصليبه. وأرى الفداَء جليلا
أصبحتَ في مرح الشَّبابِ ولَهْوِهِ ... عن خير شَعْبٍ في الورى مسؤولا
حَمَلَ الشبابُ يَرَاَعَهُ وكتابهَ ... وحملتَ عِبْئاً كالجبالِ ثقيلا
أوْلَتْكَ مِصْرُ قيادَها فأَعِدْ لها ... مجداً بناهُ الأقدمونَ أثيلا
وسُس الأُمورَ إذا جَمَحْنَ بمُصْطفى ... تَلْقَ الْحُزونَ إذا مشيتَ سُهولا
هو صارمٌ ماَضِي الغِرارِ أليلُهُ ... فاحِملْهُ عَضْباً في يديك صَقيلا
قد أفْرَغَتْ مصرٌ كنَاَنَتهاَ فما ... رضيت به بين السِّهام بَديلا
وإذا تحوَّلَتِ الجبالُ فمُصطفى ... عن حقِّه لا يَقْبَلُ التَّحويلا
يا مصطفى لَهِجَتْ بذكرك أمَّةٌ ... أبناؤُها لا يَجْحَدُونَ جميلا
ولقد تولَّيتَ الأمورَ فلم تكنُ ... سيفاً على رأس الحمى مَسْلولا
لا تَثْنِيَنَّكَ عن طريقك عُصْبةٌ ... ملأت حَناجِرُها البلادَ عَويلا
إنَّا بلوناهم فكانَ فَعَالُهُمْ ... مُرًّا وكان كلامُهُمْ مَعْسُولا
فَلَيَنْصِبوُا في غير مصرَ شِباكهُمْ ... حَسْبُ البلادِ وَحَسْبهُم تدْجِيلا
سِرْ في طريقك. لا تُعِرْهمْ مَسْمَعاً ... واعْلَم بأنَّ من الكلام فُضُولا
أنَّى اتَّجَهْتَ وَجَدْتَ خَلْفَكَ أُمَّةً ... ورأيتَ رَبَّكَ بالنجاح كَفِيلا
(كوم حماده)
محمود غنيم
تتويج رعمسيس الثاني
فرعون مصر الشاب
للأستاذ عبد الرحمن صدقي

كانت وفاة الملك سيتي الأول والد رعمسيس فجيعة للبلاد جزعت لها ولبست من أدناها لأقصاها ثياب الحداد. وقد قضى نحبه في عنفوان العمر واكتمال الرجولة بعد حكم مجيد زاهر. فامتد سلطانه واتسعت رقعة ملكه شمالا حتى دانت له الشام كلها، وبلغ حدود الحثيين في آسيا الصغرى وممالك بابل وأشور إلى أعالي الفرات، واستتب له الأمر جنوباً في النوبة، وضرب على أيدي قبائل البدو في الصحراء الغربية فكف عن الوادي الخصيب غاراتهم المتكررة. ثم جعل همه إلى صلاح البلاد وعمرانها؛ وأمامنا حتى اليوم على علو همته شهود ناهضة ناطقة، منها ضريحه الرائع ومعبد العرابة وبهو الكرنك الشاهق مرفوع السمك على عُمُده الفخمة وقد ازدانت جوانبها بتهاويل منقوشة تمثل انتصاراته وتروي وقائعه تخليداً لعظمته ومجده.

ولكن كان العزاء عن فقده ما يبدو من المخايل على ولده وإن كان بعد في سن

الحلم.
فانظر إلى المليك الشاب من ذا الذي لا يعنو لفتنة طلعته! فأنه ليروعك أول ما يروعك - بالقامة الفارعة وجمال الوجه واستواء الخلق، وهو ممشوق لطيف الأوصال لدن الأعطاف حلو الشمائل، ومع ما يلحظه المتأمل في ملامحه من القوة والتفاوت كضيق الجبين وقنى الأنف ومتانة الفك وشدة الذقن فإن هذه جميعاً تكسوها سماحة ودماثة.
كما أنه ليس من ذوي الطبائع الحزينة المسترسلة في سبحات التفكير الهائمة في أودية الأحلام، وإن كانت له سيماؤها لفرط ما صقلته التربية وهذبت حواشيه، وإنما طبعه الغالب هو الإقدام والعزيمة يعمران هذا الجسد الذي ارتاض على المشقة والجهد من سباق العجلات إلى الرماية والصيد فضلا عن المعارك الحربية، فتوفرت له منها مزايا سرعة الحركة ورباطة الجأش والاستخفاف بالخطر. وشد ما كانت تستجيشه أوصاف الشعراء لوقائع أسلافه. ثم هو يحس منذ نعومة أظفاره بأنه مولود للرياسة الملك. وكان يطيب له أن يستذكر المراسم التي هيأته لوراثة السلطان، فيذكر شعائر التطهير وكيف ضمه والده إلى صدره على مشهد من كبراء الدولة ورجال القصر لتسري إليه نفحات الحياة، ثم نادى به ملكا من بعده في وسط الهتاف المتصاعد والمديح المرتل.
ولقد كانت التقاليد الدينية والسياسية حافزاً للفراعنة على رعاية مملكتهم بهمة وصدق، فهم على العرش خلفاء الآلهة، وهم مسئولون عما يفعلون بين يدي أوزيريس في يوم الحساب. فلا جرم يكونون في مقدمة خدام الدولة الساهرين على تدبير شئون مصر وممتلكاتها وتفقد أحوالها. وإن رمسيس لم يكد يشب عن طوقه، ويتجاوز طور الطفولة حتى تولاه أبوه يدربه ويخرجه على يديه. فصحب الابن أباه في حرب الشام، وكان يعاونه في الحفلات الدينية ويطلع على كافة شئون الملك وتدبير إدارته. فهو لما توكله إليه الآلهة اليوم من واجبات وتبعات غير هياب.
ولقد انقطع بين عشية وضحاها عهده بالصبا الغرير حين اجتز حلاق القصر طرته المتهدلة على صدغه الأيمن شارة عليه. وعما قريب تضاف إلى قدرته الإنسانية على عظمتها قوى الهيبة تنتقل إليه مع شعائر الملك. وهذي رعاياه كبيرة الأمل كشأنها في مستهل كل عهد بأنه وإن كان الأخير زمانه لآت بما لم تستطعه الأوائل.
ولقد جرت العادة منذ ألفي سنة بأن تجري مراسم التتويج في منف عاصمة الوجه البحري بمقتضى احتفال مقرر منذ أقدم عصور المملكة المصرية المتحدة. ولكن فراعنة الدولة الحديثة قد آثروا أن يكون تتويجهم في طيبة عاصمة الصعيد وهو منشؤهم ومنبت أعراقهم تحت رعاية الإله آمون. فلما جاء رعمسيس عاود السنة القديمة لأن أسرته من الدلتا ولأنه فوق ذلك موقن بأن الوجه البحري يرتفع كل يوم شأنه ويعظم خطره من الناحيتين الحربية والاقتصادية.
وهكذا استهلت أعياد تتويج رعمسيس في منف بعد الفيضان. ومنف مدينة عريقة في القدم واقعة فيما يلي ملتقى فرعي الدلتا وهي عامرة بالأهلين تطوقها خمائل النخيل الباسقة، وتقوم في أفقها الغربي مثلثات الأهرام، وتسطع شمسها المتجددة على الحقول فتشيع في فلاحيها النشاط والطرب كما تهب من ناحية بحر الروم نفحة باردة تنعش الأبدان.
ولما كان المصريون الأقدمون يؤمنون بأن الاسم - سيان المنطوق والمكتوب - يقوم مقام المسمى وله قوة رهيبة تخلق الأحياء والأشياء، فقد عكف الكهان على اختيار الأسماء الملكية الأربعة ليكمل بها اسم الملك. وتم بسرها لرعمسيس سلطة الملوك وجبروت
الأرباب.
ثم تعاقبت المراسم تنقل للملك الجديد القوى السحرية المقترنة بتاجي مصر. فترى الملك بعد التطهر يتلقى على هذه المنصة التاج الأبيض شعار الوجه القبلي، وعلى منصة أخرى التاج الأحمر شعار الوجه البحري، ويسمون هاتين الحفلتين إشراق ملك الجنوب وإشراق ملك الشمال. ويقوم بالتتويج كاهنان مقنعان يمثل أحدهما الإله حوريس في صورة صقر، والآخر الإله ست في صورة سلوقي. ثم يتوج الملك بالتاج التؤام للوجهين القبلي والبحري معا، ويجلس على العرش وعلى جانبيه إله الجنوب وإله الشمال وقد وضع الكاهنان إلى دعامة العرش أزهار اللوتس وهو نبات جنوبي،

والبردي وهو نبات شمالي، وربطا النباتين بعضهما إلى البعض بأربطة متقاطعة. وهما مع هذا لا ينفكان يشدان فضول الأربطة بيديهما ويسندان برجليهما عراها حرصاً على توثيقها؛ وأخيراً ينهض الملك والتاج على رأسه وهو متشح بالطيلسان وفي يديه المحجن المعقوف وسوط أوزيريس ويؤدي فريضة (الطواف بالحائط) حول المحراب إشارة إلى أنه يتسلم ملك حوريس وست ويتكفل بصيانته ودفع العدوان عنه.

ولم يبق بعد ذلك إلا اتخاذ الضمانات الرسمية. فإن الآلهة تتخذ سجلات مستوفاة تحصي فيها كل شيء تجنباً للملاحاة والخلاف. وهذان كاهنان يمثل أحدهما إله العلم تحوت، ويمثل الآخر إله الكتابة سخت، يحرران الصكوك بالصيغة الملكية ويودعانها ديوان السماء. وأخيراً يدونان اسم رعمسيس على ورقة من نبات السبط المقدس تخليداً لحكمه.

ولقد كان لتراتيل الكهنة في وسط السكون الرهيب فعل الرقى والتعازيم السحرية في نفس رعمسيس، فضلا عما كانت مصحوبة به من الحركات الموزونة والوقفات النبيلة والإشارات الملتوية في ترسل ويسر. فامتلأ يقيناً بالرسالة الموكولة إليه وبقدرته على تأديتها وبأن التوفيق ملازمه طيلة حياته. ونهض بعد انتهاء المراسم وقد سرت في أعطافه النفحة الإلهية.

وحكم رعمسيس فرعوناً على مصر.

وقد ذهب بعدها إلى طيبة حيث جرى شبه تتويج ثان له، وكان ثمة عيد الإله (مين) في آخر مارس عقب موسم الحصاد. وعبادة (مين) لها شأنها الأكبر في بلاد مصر الزراعية،

فهو إله الخصب وحامي الحقول والبساتين، وهو يقرن أحياناً بآمون إله طيبة الأعظم ورب الأرباب والبشر وأب الفراعنة. وفي هذا العيد قدم الملك إلى (آمون - مين) قربانا من الحصاد في ذلك الأوان

وقد غادر رعمسيس قصره في طيبة كما تطلع الشمس باهرة اللألاء من مشرقها، وشخص إلى هيكل (مين) في محفته الفاخرة يحملها ويحمل المراوح إلى جانبيها عظماء الدولة، ويتقدم المحفة الملكية كاهنان يمسكان مجامر البخور، وكاهن آخر يرتل الأناشيد وهو ممسك بيده قرطاساً من البردي. وفي طليعة الموكب تعزف الطبول والأبواق عزفها الهاتف الآمر، ويسير وراءه في نظام جليل رائع أكابر رجال القصر تتبعهم فيالق من جنود الحرس البواسل. ولكن الإله (مين) يخرج من محرابه محمولاً على أكتاف ثلاثين كاهناً يصحبه عجل أبيض باعتباره الصورة الحية التي يتجسد فيها، ويتقدمه صف طويل من الكهنة يحملون الشارات الدينية وتماثيل السلف الصالح من الفراعنة الراحلين، ويتقدمون إلى المذبح حيث الملك واقف. وهنا يتعرف الإله مين على ابنه فيدخله في عداد الأرباب كسائر أسلافه. وإنه لحدث عظيم. وإذ ذاك يطلقون طير الإوز في جهات الأفق الأربع لاذعة البشرى في أركان المعمورة كما فعل الإله حوريس نفسه عند تتوجيه. ويجري الاحتفال ويتم في وقار ودقة على حسب الأصول المرعية. وفي النهاية يقدم الملك القرابين لتماثيل أسلافه ويقتطع بمنجل قصير جرزة مصطنعة فيقدمها للآلهة باعتبارها باكورة الحصاد في عهده

ويعود فرعون إلى القصر، فيقبل عليه رجال البلاط ووزيره باسار وجميع الموظفين يحيون مليكهم وينشدون في مديحه: -

أقبل عليّ بوجهك أيها الشمس المشرقة
يا من تضيء القطرين بسنا جمالك
أنت شمس الورى
تنفي عن مصر الظلمات
ولك طلعة أبيك رع
الصاعد في معارج السماء
وإليك يوحي بكل ما يجري في بلدان الأرض
وأنت راقد في قصرك
وإنك لتسمع ما يدور في الخافقين من أحاديث
لأن لك الألوف من الأسماع
وعينك أنفذ من نجوم السماء

وتبصر ما لا تبصره الشمس
وكل ما يقال ولو كان همساً ونجوى
يقع لا محالة في سمعك.
وكل ما يفعله امرؤ في الخفاء
فإن عينك تراه.
يا رعمسيس يا رب الجمال ورب الحياة!
وكذا كانت أعياد التتويج عند قدماء المصريين تمتزج فيها عبادة فرعون بعبادة الآلهة لاعتبارهم أن الملك العظيم هو حمى الدولة وحمى الدين.
عبد الرحمن صدقي
إبراهيم باشا
موقعة نصيبين
في أواخر هذا الشهر يخرج الأستاذ محمد بدران ناظر مدرسة بنبا قادن الابتدائية ترجمة عربية لكتاب (إبراهيم) تأليف القاضي بيير كربتيس بتصريح خاص من شركة روتلدج الإنجليزية، والكتاب مثال من الدقة والأمانة في الترجمة. وإليك فصلا من فصوله ننشره بمناسبة تتويج الفاروق أعز الله ملكه.
لما علم محمد علي بأن الجيش التركي يستعد للزحف على بلاد الشام ويحرض أهلها على الثورة أمر وزير حربيته أن يلحق بإبراهيم رغم معارضة قناصل الدول
وأسرع وزير الحربية إلى مقر القيادة العليا لجيش إبراهيم. وكان الطريق أمامه طويلاً، ولا يستطيع هو السير فيه مسرعاً كما يسير الرسول. ولذلك سبقه مبعوث خاص يحمل إلى إبراهيم أوامر أبيه. ولم نستطع الاطلاع على نص هذه الأوامر، ولكن في مقدورنا أن نتكهن بمعناها لأن إبراهيم قد خول منذ يونيه سنة 1839 الحق المطلق في أن يفعل كل ما يراه صالحاً. فيبدأ الحرب أو يحافظ على السلم حسبما تمليه عليه الظروف
ولما ترك محمد علي لإبراهيم أن يتصرف في الأمر بحكمته وحسن تدبيره، كان يعرف أنه لن يهاجم العدو إلا إذا اضطر إلى ذلك اضطرارا، على الرغم من أن تركيا ومصر كانتا في حالة حرب فعلية في البر والبحر منذ شهر مارس من عام 1839، كما أنبأ القنصل الإغريقي العام بالقاهرة حكومته في 26 من ذلك الشهر. ولطالما استفز الأتراك إبراهيم بموقفهم العدائي؛ ولولا قدرته على كبح جماح نفسه لتكشف ستار السلم عن حقيقة الحرب العلنية. وقد كتب في ذلك القنصل اليوناني العام في الإسكندرية إلى وزارة خارجيته بتاريخ 18 يونية يقول:
(تدل الأنباء الواردة من المنطقة التي يعسكر فيها الجيشان في الوقت الحاضر على أن جيوش السلطان تواصل الزحف، وتشجع أهل البلاد على الثورة بتقديم الأسلحة وبذل الوعود لهم. وقد تقدم (سليمان باشا والي مرعش) في جيش مكون من نحو ثمانمائة فارس،
حتى بلغ عينتاب واستولى على المدينة، وإن كانت قلعتها لا تزال في أيدي المصريين. ويقال إن حافظاً باشا القائد العام للجيوش التركية كان مع هذه القوة، ولكنه تخلف عنها قبل أن تصل إلى عينتاب. ورأى جنود السلطان سكوت الجيش المصري وامتناعه عن القتال إطلاعه للأوامر الصادرة من الوالي إلى إبراهيم باشا، بعد أن هددته الدول الأوربية وأنذرته ألا يكون البادئ بفتح باب العدوان، فاغتنموا هذه السانحة وتوغلوا في البلاد من غير أن يلاقوا مقاومة، اللهم إلا مناوشة بين الفرسان السالفي الذكر وكتيبة صغيرة من البدو).
وقد أفصح هذا القنصل العام نفسه في رسالة سابقة بعث بها إلى حكومته عن حقيقة تهديد الدول الأوربية. وقبل أن ننقل إلى القارئ شيئاً من هذه الرسالة نقول إن ميخائيل توسزا الذي بعث بهذه المعلومات إلى أثينا، لم يكن من رجال الدبلوماسية الرسميين، ولا من رجال البحرية، بل كان تاجر استوطن الإسكندرية قبل أن تستقل بلاد اليونان، وكسب صداقة محمد علي، واحتفظ بهذه الصداقة. فلما أنشأت بلاد اليونان أول قنصلياتها في القطر المصري في عام 1833، عهدت بأمور القنصلية إليه. ولم يكن يرسل في أول الأمر تقارير منتظمة إلى وزارة خارجيته، كما أنه لم يبدأ

الاشتغال بالمسائل السياسية إلا في سنة 1838. ولم يكتسب قط في حياته ذلك الأسلوب الخاص الذي تكتب به المراسيم والوثائق السياسية، بل كانت معانيه على الدوام واضحة كل الوضوح. ويمتاز ما كتبه توسزا بميزة أخرى غاية في الأهمية، وهي ناشئة من الصداقة الوثيقة التي كانت بينه وبين محمد علي. وقد كتب هذا القنصل إلى وزارة خارجيته في 23 يوليه سنة 1838 يقول:

(لقد أبلغ المستر كامبل وكيل إنجلترا السياسي الوالي بصفة رسمية أن بريطانيا العظمى تعارض أشد المعارضة فيما يطلبه من الاستقلال، وتصر على أن يبقى كما هو؛ وإلا فإن الدول الأربع: إنجلترا وفرنسا والروسيا والنمسا ستعمل مجتمعة لمنعه من نيل استقلاله، ولو أدى ذلك إلى استخدام القوة. وهذه الدول متفقة على ذلك، وقد قررت أن تزيد قوة الأسطولين البريطاني والفرنسي في البحر الأبيض المتوسط، وأن ترسل الجنود النمساوية إلى بلاد الشام إذا استلزم الموقف ذلك. ويلوح أن سمو الوالي سيجيب بأنه إذا عجز عن نيل رغباته بالرضا والمسالمة. فستلجئه الضرورة إلى أن يعمل لنيلها بوسائل أخرى؛

ومهما كانت العاقبة فسيكون من أكبر دواعي الشرف له أن تهزمه الدول الأربع الكبرى)

وكتب توسزا رسالة أخرى في 6 سبتمبر سنة 1838 يضم فيها بروسيا إلى جماعة الدول المتفقة. ولهذا الأمر أهميته، لأننا عرفنا من قبل أن هلمث فون ملتكه كان وقتئذ مع الجيش العثماني الذي كان يعمل بكل ما في وسعه ليستثير غيظ إبراهيم. وليس يخفى علينا أن ملتكه كان في ذلك الوقت رجلا لا خطر له، ولا يكاد يعرفه أحد؛ ولكن انضمام النمسا والروسيا وبروسيا كان مقدمة لحلف القياصرة الثلاثة الذي تم فيما بعد، ومضاعفاً للخطر الذي كان يتعرض له جيش إبراهيم. وقد أبلغ قناصل هذه الدول الثلاث محمداً علياً أن دولهم لا تسمح بأن يطرأ على العلاقة القائمة بينه وبين الباب العالي تغيير ما، وأنه إذا أقدم على عمل أيا كان نوعه فستنضم هذه الدول إلى تركيا لقتاله والتغلب عليه؛ فأجابهم الباشا عن ذلك بقوله:

(إنني لا أرغب في الحرب، ولن أقدم على عمل عدائي، ولكنني راغب في الاستقلال، ولن أتخلى عن هذه الغاية)

على أن هذا التحذير كان له أثره في نفس محمد علي؛ ورأى أن خير وسيلة لتجنب هذه الأحاديث البغيضة المنذرة بأسوأ العواقب، أن يرحل إلى الجنوب. وكانت الإشاعات متواترة بأن مناجم من الذهب صالحة للاستغلال قد كشفت في السودان. ورأى الباشا من مصلحته أن يتحقق من هذه الأنباء الهامة بنفسه، حتى إذا ما اضطر إبراهيم إلى الزحف على الأتراك، حلت بهذا الكشف مشكلة من أهم المشاكل. وزيادة على ذلك فإن غيابه يهيئ الظروف للمسألة التركية كلها أن تستقر على قرار ثابت مكين. لكن هذا الغياب المؤقت لم يكن ليفت في عضد الزمرة الدبلوماسية المتحدة التي ظلت تعارض محمداً علياً بعد رجوعه في 15 مارس سنة 1839

ولاشك في أن إبراهيم كان يعرف كل هذه الحقائق ويعرف أيضاً كيف يتعظ بعبرها؛ لأن أباه كان دائم الاتصال به لا يقطع عنه أخباره؛ وكانت معرفته بها وتقديره خطر الموقف الذي كان يواجهه سبباً في أنه لم يحرك ساكناً حينما استثار الأتراك غيظه؛ وذلك لأنه أيقن أن الأتراك يلقون معونة أوربا السياسية؛ وعرف الباب العالي ذلك فوقف من المصريين هذا الموقف المغضب. وكان فون ملكته وفون ملباخ وغيرهما من الضباط البروسيين لا

يفتأون يحرضون قواد الترك العسكريين، ويستعينون بما طبع عليه الألمان من اعتداد بالنفس ومغالاة في الاطمئنان إلى مقدرتهم، فيغرون حافظاً باشا بالاستمرار على مناوأة إبراهيم.

وصادف تحريض الضباط البروسيين هوى في نفس القائد التركي العام، فلم يشك قط في الظفر بأعدائه، لأن له جيشاً جراراً، وإدارة للمخابرات دقيقة النظام، وهيئة طيبة من الضباط نواتها مساعدوه الألمان.

وشجعه على الاعتداد بنفسه أن إبراهيم لم يقابل هجومه في 23 إبريل بهجوم مثله. ولما سقطت عينتاب في يده زاد اطمئنانه، ولم يساوره قلق ما حتى جيء إليه بأحد الأسرى الذين وقعوا في يد الأتراك عند استيلائهم على قرية تل باشر. وهذا الأسير هو

فرجاني شيخ عرب الهنادي. وكان رجلا سواه الله وعدله ووهبه من الكبرياء بقدر ما وهبه من قوة الجسم. وأخذ القائد العام يسأل أسيره، لعله يعرف منه ما يفيده في موقفه، لكن الرجل كان عنيداً لا يلين فأجابه بقوله: (عن أي شيء تسألني؟ دونك رأسي فليس ينجيه منك لساني، بل ربما أوقعني في الهلاك وكان منطقي سبباً في إراقة دمي). فأجابه حافظ بقوله: (لن أمس شعرة من لحيتك إذا صدقتني القول). فقال له الأسير: (أقسم بالقرآن أني سأبرح هذا المكان حياً سليما من الأذى، أخبرك بما تريد)

فلما أقسم ضحك فرجاني ملء شدقيه وقال!

(أتريد أن أخبرك بالحق وأطلعك على رأيي في معسكرك ومعسكر إبراهيم؟ أتريد أن تعرف ما سيقع في المستقبل؟ ألا هل يستطيع أحد أن يتنبأ بما في عالم الغيب؟ لكنك إذ أصررت على معرفة الحقيقة فأني مبلغك إياها: إن معسكر إبراهيم معسكر جنود، أما معسكركم فمعسكر حجاج).

فقال له القائد التركي غاضباً: (وماذا تقصد بهذا القول؟) فرد عليه بقوله: (رأيت في معسكر إبراهيم أكداساً من الأسلحة وإلى جوارها كتائب من الجند المشاة مدججين بالسلاح؛ ورأيت المدافع وإلى جانبها رجال المدفعية؛ ورأيت الاصطبلات وبقربها الفرسان؛ ورأيت كل إنسان في موضعه متأهباً لأداء واجبه؛ ولم أر شيئاً من ذلك في معسكركم، بل رأيت فيه يهوداً وتجاراً وأئمة؛ رأيت فيه رجالا يقرضون المال، ورجالا يبيعون، وآخرين يصلون،

ولذلك قلت: إن معسكركم أشبه شيء بمعسكر الحجاج. وتسألني لمن سيكون النصر؟ فأقول إن هذا ما لا أعرفه، لأن علمه عند الله، وستعلمن نبأه بعد حين) إن للأتراك أغلاطاً ولكنهم قوم كرام. ومع أن حافظاً قد تألم وكاد يصعق مما قاله العربي الصريح، فقد فك أسره وخلى سبيله، وقبل أن يعود إليه صوابه جاءه رسول ومعه خطاب من إبراهيم؛ ولم يكن هذا الرسول يحمل راية الهدنة لأن الحرب لم تكن أعلنت رسمياً بين الدولتين. وكان تاريخ الخطاب 8 يونيه سنة 1839 وقد جاء فيه:

(إن التعليمات التي أرسلتها الدول العظمى إلى قناصلها المقيمين في الإسكندرية قد أقنعتني بأنهن غير راضيات عن الحرب؛ وإني لأعرف أيضاً أن سمو مولاي المعظم غير راض عنها، ولكن على الرغم من هذا.

(1) فإن سليمان باشا المرعشلي أرسل فصيلة من جنوده هاجمت جيوشنا في بولانق.

(2) وأرسلتم فرقة إلى باياس لتحريض أهلها على الانتقاض علينا

(3) وبعثتم بالحاج عمر أوغلو إلى كرد داغ للغرض نفس.

(4) وغزوتم أرضنا وهاجمتم عرب الهنادي التابعين لنا.

(5) ووزعتم الأسلحة على أهل ولاية عيتناب، ودخل سليمان باشا المرعشلي هذه المدينة ولا يزال باقياً فيها إلى الآن. وبالأمس هاجمت قوة من الفرسان تحت قيادة سعادتكم صفوفنا وأمرتم مدفعيتكم أن تصوب نيرانها على فرساننا الهنادي في مخافرنا الأمامية).

وبعد أن ذكر إبراهيم هذه الأسباب قال:

(ولقد صبرت إلى الآن على هذا كله ولم أقابله بمثله، لأنني كنت أحاول أن أقنع نفسي بأن هذه الأعمال العدائية تغضب السلطان مولانا المعظم. فإذا كنتم سعادتكم تعزون سكوتي عنها إلى الخوف فأنكم مخطئون في ظنكم، إذ ليس لسكوتي إلا سبب واحد هو حرصي على احترام رغبات سمو والدي وسيدي المعظم. وإذا كنتم سعادتكم قد تلقيتم الأمر باستئناف القتال، فما بالكم تنهجون هذا النهج وتدسون الدسائس. هلموا إلى ميدان القتال ولكن هلموا إليه بصراحة، وخوضوا غمرات الحرب كما يجب أن تخاض. وإلا أخالكم قد نسيتم ما حدث منذ بضع سنين، وستلقون رجالاً لا يعرف الخوف طريقة إلى قلوبهم؛ أما الدسائس فأننا لا نطيق احتمالها إلى الأبد. فهل أحظى منكم بجواب صريح؟ فإن فعلتم فسينقل ردكم

إلي إذا رغبتم حامل هذا الخطاب الأمير ألاي محمود بك).

(يتبع)

محمد بدران

مشروع تقسيم فلسطين وأخطاره
لباحث عربي كبير
جلس سكان فلسطين مساء يوم الأربعاء الواقع في 7 يوليو، أمام الراديو منتظرين سماع تقرير اللجنة الملكية. وكان السكون مخيما في معظم البيوت وفي المقاهي والأندية. وما كاد المذيع يفرغ من قراءة خلاصة التقرير واستنتاجات الحكومة المنتدبة حتى انتاب أهل البلاد ذهول دام بضعة أيام من شدة الصدمة. . وأراد فخامة المندوب السامي أن يتلطف بهم وبحالهم ويهون عليهم المصاب بدعوته أهل البلاد إلى إنعام النظر والتروي في إبداء الرأي، وأن يحكموا العقل على العاطفة في تقرير الحكم على مشروع اللجنة الملكية
اتبعنا هذه النصيحة وقرأنا بإمعان خلاصة التقرير، ثم أخذنا في قراءة التقرير نفسه. فما كان أشد دهشتنا عندما رأينا اللجنة الملكية تخالف في تقريرها جميع تقارير اللجان البريطانية، والخبراء الإنكليز، وكتب حكومة لندن البيضاء، ورأي عصبة الأمم، فيما يتعلق بالمسألة الفلسطينية، حتى أنها تخالف أيضاً صك الانتداب نفسه
تقول جميع هذه المستندات بأن التزامات الحكومة المنتدبة نحو العرب واليهود متساوية، فقالت لجنة اللورد بيل خلاف ذلك، وأوصت حكومة جلالة الملك بتنفيذ التزاماتها نحو اليهود أولا ثم النظر في التزاماتها نحو العرب. أي أنها توصي بإنشاء الوطن القومي اليهودي، ثم بالنظر في المحافظة على حقوق العرب!.
وصرحت حكومة جلالته وعصبة الأمم مراراً بأن ليس الغاية من تصريح بلفور إيجاد دولة يهودية في فلسطين، فقال اللورد بيل في تقرير لجنته بأن المراد من تصريح بلفور وصك الانتداب إيجاد دولة يهودية في الأراضي المقدسة عندما يصبحون أكثرية فيها
وينص صك الانتداب صراحة بأن واجب الحكومة ترقية الحكم الذاتي في فلسطين، فقالت اللجنة الملكية بأن إنشاء مجلس تشريعي مخالف لصك الانتداب!. .
ولم تكتف اللجنة الملكية بهذا، بل تهكمت في تقريرها بالعرب وزعمائهم، ولم تر فيهم إلا مثالب، ولم تر في اليهود وأعمالهم إلا محامد؛ وجمعت في تقريرها جميع الآراء والأقوال اليهودية التي تزعم أن ليس للعرب حق في فلسطين، وأن الأراضي المقدسة حق لبني إسرائيل! فكان تقريرها هذا مجموعة أضاليل يهودية. حتى أنه لو قيل للدكتور وايزمن،
زعيم الصهيونية، أن يكتب تقريراً عن القضية الفلسطينية ومطالب اليهود، لما جرؤ على كتابة مثل تقرير اللجنة الملكية!. .
إن تقرير اللجنة الملكية خطة سياسية مرسومة، يراد منها أولا إزالة مفعول التقارير البريطانية السابقة التي جاءت كلها منذ الاحتلال حتى الأيام الأخيرة لصالح العرب مثنية عليهم، ومظهرة سوء السياسة الصهيونية وخطرها على أهل البلاد ووخيم عواقبها، وثانياً تحقيق إنشاء (المملكة اليهودية)
إننا لا نبالي بحكم اللورد بيل على العرب لأن حكمه فريد، وطبيعي أن هذا الحكم الشاذ لا يؤثر في رأي المنصف العادل على حكم التاريخ، ولا على الأحكام البريطانية العديدة السابقة، ولا يقلل من أهميتها ومفعولها
والذي يهمنا في هذا المقال هو إظهار أخطار مشروع تقسيم فلسطين، و (المملكة اليهودية) التي تريد الحكومة البريطانية إيجادها في قسم فلسطين الطيب
تمويه التقسيم
قسم اللورد بيل فلسطين إلى ثلاثة أقسام، أعطى الأول إلى اليهود، واحتفظ بالثاني لدولته، وأبقى الثالث لأهل البلاد. أما قسم اليهود فيشمل جميع الفضاء الشمالي وسهل الحولة ومرج ابن عامر، والسهل الساحلي حتى 10 كليومترات جنوبي رخبوت، وتبلغ مساحته حوالي ثمانية ملايين من الدونمات (الدونم ألف متر مربع)، وفيه من المدن العربية صفد وعكا وحيفا وطبرية والناصرة، ومن القرى عدد عظيم، حكم عليها أن تصبح يهودية، وقضي على سكانها العرب البالغ عددهم أربعمائة ألف عربي بأن يرحلوا من وطنهم العزيز. أما القسم الذي سيوضع تحت انتداب بريطاني جديد فيشمل القدس وبيت لحم وضواحيها وجميع الأراضي التي تسير فيها طريق يافا - القدس، وسكة حديد يافا - القدس. ويدخل في هذه المنطقة الرملة واللد وقرى عديدة

كلها عربية. وعلاوة على هذه المنطقة فالحكومة المنتدبة تحتفظ لها بمنطقة لم تعين حدودها على ساحل خليج العقبة، وستكون هذه المنطقة جميع ما يدخل فلسطين من صحراء سيناء وقسم كبير من فضاء بئر السبع إن لم يكن كله لأسباب سياسية واعتاد الإنكليز واليهود القول بأن ما بقي من فلسطين خاص بالعرب ليوهموا العرب بأن
ما يبقى لهم قسم مهم عظيم. والواقع أن ما يبقى لهم من وطنهم حسب مشروع التقسيم، جبال نابلس وجبال الخليل والقسم الجنوبي من القسم الساحلي، وهذا القسم من السهل قاحل على أكثر السنين لعدم انتظام سقوط الأمطار فيه. وبعبارة أخرى إن ما يريد اليهود والإنكليز إبقاءه عربياً (مؤقتاً) جبال جرداء وصحراء محرقة.
وهم يريدون إلحاق هذا القسم بشرق الأردن الفقير وتأسيس مملكة عربية منهما أطلق على مشروع لجنة اللورد بيل مشروع تقسيم فلسطين، وكلمة تقسيم تخدع كثيرين من الذين لا ينظرون بعيداً أو الذين لا يعرفون طبيعة الأراضي في فلسطين. أما الحقيقة فهي أن مشروع اللجنة الملكية يعطي فلسطين كلها لليهود، لأن اعتبار البلاد هو بما فيها من أراض صالحة للزراعة، لا بجبالها الجرداء ولا بصحاريها الجدباء. وإذا علمنا أن مساحة الأراضي الصالحة للزراعة في فلسطين لا تزيد على 6 , 544 , 000 دونم، حسب تقدير الخبير الكبير السير جون هون سمبسون، وإن هذه الأراضي الصالحة للزراعة مؤلفة من سهول فلسطين وهي: سهل عكا، وسهل الحولة، ومرج ابن عامر، والسهل الساحلي؛ وإذا علمنا أن جميع هذه السهول داخل ضمن القسم اليهودي، عدا جنوبي السهل الساحلي القاحل في أكثر الأوقات، رأينا بجلاء أن جميع فلسطين الصالحة للزراعة وهي فلسطين الحقيقية والتي من خيراتها يعتاش جميع سكان البلاد، داخلة ضمن القسم اليهودي، وما بقي من فلسطين قاحل لا يعول من فيه من السكان

إجلاء لا تبادل أراض وسكان

يريد اليهود ترحيل الشعب من فلسطين ليكونوا فيها وحدهم - فحقق لهم اللورد بيل قسما كبيراً من أمنيتهم، وذلك بقبوله هذا المبدأ، وإصراره على إرغام العرب الذين يعيشون في (مشروع القسم اليهودي) من فلسطين، على الرحيل إلى القسم الآخر منها، أو إلى حيث يشاءون، فيما لو قبل مشروع تقسيم فلسطين. ووضع اللورد بيل إصراره في عبارات كثيرة ما استعملها الدبلوماسي إلا لإخفاء الحقيقة والظهور بمظهر الشفيق العادل، فقال بأن (مصلحة الفريقين تقضي بأن يبذل أقصى ما يمكن من الجهد للوصول إلى اتفاق بشأن تبادل الأراضي والسكان).
ربما يخيل للقارئ من هذا القول أن هناك أقلية من العرب تملك أقلية من الأراضي في
(مشروع التقسيم اليهودي)، لا، إن هذا خطأ مبين، إذ أن كل ما تملكه اليهود من أراض في فلسطين منذ ابتداء - حركتهم الصهيونية، مليون وربع من الدونمات، بينما مساحة القسم الذي تريد اللجنة الملكية إنشاء مملكة يهودية فيه تبلغ حوالي ثمانية ملايين دونم. فمن هذين الرقمين يظهر أن (المملكة اليهودية) ستنشأ على أراض لا يزال العرب يملكون فيها ستة أضعاف ما يملك اليهود، كما أن عدد سكان العرب في هذه المنطقة لا يقل عن أربعمائة ألف، بينما عدد اليهود فيها لا يزيد على ثلاثمائة ألف.
وفي الواقع أن لجنة اللورد بيل تريد إخراج ما لا يقل عن أربعمائة ألف عربي من (مشروع القسم اليهودي) واستبدالهم باليهود القاطنين بما يسمونه (القسم العربي) البالغ عددهم 1 , 250 فقط، والذين لا يملكون فيه إلا بضع مئات من الدونمات. فاستعمال تعبير تبادل السكان في هذه الحال غاية في الهزء والسخرية بالعرب. ليس الأمر أمر تبادل سكان، وإنما هو إجلاء العرب عن القسم الخصيب من بلادهم الذي منه يعتاشون والذي من دونه لا حياة لهم.
ويصحب جلاء العرب عن وطنهم استيلاء (الحكومة اليهودية) على أراضيهم، وهذا ما يريده اليهود. وما أوصت به اللجنة الملكية
أراد اللورد بيل مساعدة اليهود إلى أكبر حد، فقرر منع بيع الأراضي بيعاً حراً لتنزل أسعارها، وأعطي (الحكومة اليهودية) الحق في تعيين ثمن أراضي العرب ليوفر عليها مبالغ طائلة؛ وعليه سيستولي اليهود على أراضي العرب مقابل أثمان زهيدة. فالأفراد

من العرب الذين لهم أراضي في (المنطقة اليهودية) ويمنون النفس بالثراء سوف لا ينالون الأسعار التي يمكن أن ينالوها فيها لو لم ينفذ مشروع تقسيم فلسطين.

الموت الاقتصادي

ربما يفكر البعض، متأثرين بما سمته اللجنة الملكية (فوائد التقسيم) وبالدعاية التي يقوم بها بعض موظفي الحكومة، في أن لا فائدة من رفض التقسيم مادام اليهود واصلين إلى أكثر من النتيجة التي يوصلهم إليها تقرير اللورد بيل، ويقولون متسائلين: ألم يحدد تقسيم فلسطين الأطماع اليهودية؟ فإذا لماذا نرفضه؟

غريب هذا المنطق! لنفرض (وهذا ليس بصحيح) أن ليس في إمكان العرب صد تيار اليهود عن فلسطين، وليس في مقدورهم المحافظة عليها عربية، وأن سيأتي يوم يصبح فيه القسم المعطي لهم الآن يهودياً إن لم يكن فلسطين كلها، ولكن ذلك لا يتحقق غدا، ولا بد له على الأقل من خمسين سنة. وسيظل اليهود خلال هذه السنين في نضال عنيف، وسيبذلون خلالها جهوداً عظيمة وأموالا طائلة، حتى يصلوا إلى النتيجة التي يوصلهم إليها الآن مشروع التقسيم. فهل من الصواب إذن أن تنيلهم اليوم ما لعلهم ينالونه بعد مشقة وبعد جهاد يدوم نصف قرن؟ أو ليس من الحكمة السياسية، إن لم يكن من الواجب الوطني، أن نصبر ونناضل بالطرق المشروعة، ونتخذ الوقت عوناً لعله يأتي لنا بما يفرج؟ وما يدرينا أن تتغير الظروف الدولية فتكون لنا عوناً على المحافظة على عروبة فلسطين وعلى نيلنا حقوقنا فيها؟ أما إن تأسست اليوم مملكة يهودية في قسم من فلسطين فيكون الأمر قد انتهى، ولا نعود بقادرين، مهما أتت الظروف على إرجاع ما ذهب منا، وما تقسيم فلسطين، وتأسيس مملكة يهودية في قسمها الطيب إلا وسيلة يراد بها تسهيل استيلاء اليهود على جميع فلسطين وشرق الأردن دفعة واحدة.

إذا نظرنا نظرة اقتصادية إلى ما يريد اللورد بيل إبقاءه (مؤقتاً) للعرب من وطنهم وجدنا أن هذا القسم قاحل لا يعيش من فيه، وخير دليل على ذلك نزوح ألوف من سكانه إلى السهل الساحلي حيث الخصب وحيث بساتين البرتقال منتشرة، ثم إن ألوفاً عديدة من سكان هذه المنطقة مزارعون يعتاشون من أعمالهم في الأراضي التي يملكونها في السهول الداخلية في المنطقة اليهودية. ومثال ذلك جميع القرى الواقعة حتى على مسافات بعيدة من السهل الساحلي ومدن طولكرم والرملة واللد ويافا، فإن هذه القرى العديدة وهذه المدن الكبيرة تعتاش بما يعمل أهلها في أراضيهم ومزارعهم الواقعة في السهل الذي يريد مشروع التقسيم أن يستولي عليه اليهود؛ فمتى حرمت هذه القرى والمدن من أملاكها، أصبح لا عمل لأهلها إلا مكافحة الجوع والشقاء (فكيف تصبح حالة سكان هذا القسم من فلسطين متى رحل إليه الأربعمائة ألف عربي سكان القرى والمدن التي سيستولي عليها اليهود إن قبل العرب التقسيم أو مكنوا الإنكليز من تحقيقه؟

حرمت مدينة يافا، بموجب مشروع التقسيم من بساتين البرتقال التابعة لها والتي منها يعتاش سكانها، فمعنى ذلك أن أهل هذه المدينة سوف لا يجدون لهم مرتزقاً يمكنهم من الاستقرار في مدينتهم. وسيأخذ اليهود الذين يحيطون بهم من كل ناحية في مضايقتهم، وستكون النتيجة حتما رحيل سكان يافا وتهويد المدينة، ومصير اللد والرملة وهما في منطقة الانتداب كمصير يافا، لأن هاتين المدينتين حرمتا أكبر قسم من أراضيها، وبغير هذا القسم من الأراضي لا حياة لسكانهما.

ستحل من غير شك (في المنطقة العربية) بل في (المملكة العربية) المنوي إقامتها في بلاد فقيرة، أزمة اقتصادية هائلة بل مجاعة شنيعة. وهذه الحالة ترغم الملاك فيها إلى بيع ما يملكون، أو رهنه، أو إيجاره على سنين عديدة، وليس في هذه البلاد من شار ولا مرتهن، ولا من مستأجر، غير اليهود. . . وهكذا يأخذ اليهود في وضع أيديهم على (القسم العربي) ويلحقوه بمملكتهم، فتصبح فلسطين برمتها في مدة وجيزة مملكة يهودية خالية من أصحابها العرب. ربما يعترض على هذا الحكم من لا يعرف السياسة وتلاعبها بأن ليس لليهود الحق في شراء الأراضي في القسم العربي من فلسطين. هذا صحيح، ولكن في إمكان من يضع هذا القانون أن يضع غيره، لاسيما وأنه غير قابل للتنفيذ، والقانون وحده لا يستطيع الحيلولة دون وضع اليهود أيديهم على

البلاد بمختلف الطرق مادامت موارد البلاد الاقتصادية لا تفي بحاجة السكان.
ولا يقتصر الأمر على ذلك، بل إن (المملكة العربية) الهزيلة سوف لا تعرف الاستقلال لأنها لا تقدر على حمل أعبائه الاقتصادية. والبلاد التي ليست مستقلة استقلالا اقتصادياً والتي تجاورها دولة غنية طامعة فيها، لا يمكنها المحافظة على استقلالها السياسي. . وستكون النتيجة التحاق الدولة العربية بالدولة اليهودية، سواء طلب العرب ذلك بدافع العوامل الاقتصادية، أم اضطروا إليه أمام حيل الدولة اليهودية، فتنتشر الملايين من اليهود في جميع أنحاء البلاد، ويصبح العرب فيها أقلية فقيرة لا شأن لهم يذكر، إن لم يرغموا على الرحيل إلى صحراء الجزيرة.

فمشروع التقسيم لا يحدد في الواقع المطامع الصهيونية، وإنما هو وسيلة لتحقيقها بمدة وجيزة، وهو حيلة يراد بها الوصول إلى تأسيس مملكة يهودية واسعة في فلسطين كلها، وفي شرق الأردن ذلك البلد العربي الذي لا يطبق عليه صك الانتداب، ولا يسري عليه تصريح بلفور، وفي ذلك ما فيه من الأخطار الفادحة لجميع البلاد العربية

دولة تولد مستعبدة

أقرت اللجنة الملكية أن الدولة العربية التي تريد إيجادها لا تستطيع الحياة حياة اقتصادية وحاولت تخفيف شدة الضربة على العرب بالمال، فرددت عبارة (إعانة مالية) مراراً، كأن المال هو كل شيء في الحياة، وكأنه أعز من الأوطان والمقدسات. وقالت: (بما أن ذلك القسم من فلسطين الواقع في منطقة الدولة العربية لن يستفيد فيما بعد من قدرة المنطقة اليهودية على دفع الضرائب، وبما أن مساحة الدولة اليهودية ستكون أوسع من مساحة المنطقة الحالية التي تضم أراضي اليهود ومستعمراتهم (بما لا يقل عن ست مرات) فينبغي أن تدفع الدولة اليهودية إعانة مالية للدولة العربية)

مما لا ريب فيه أن شعب الدولة العربية المنوي إنشاؤها سوف لا يقدر على دفع ضرائب تسد الأكلاف الضرورية لمسير أعمال الدولة كما هي حال شرق الأردن الآن، فإن حكومة هذا الشرق تتقاضى إعانة سنوية من الحكومة البريطانية تمكنها من استمرار وجودها. ولتمكين حكومة (الدولة العربية) من الحياة يريد اللورد بيل أن تدفع الدولة اليهودية للدولة العربية إعانة مالية. أي أن حياة المملكة العربية تتوقف على ما تجود به عليها الدولة اليهودية. . .

إن في إمكان الدولة اليهودية أن ترفض دفع هذه الإعانة المادية بعد أن تكون قد نالت ما تبتغي. فمن يضمن دفع هذه الإعانة؟ أهي الحكومة البريطانية؟ لقد رأينا قيمة ضمانات هذه الحكومة ولاسيما تجاه العرب. لا ينبغي إن تبهر هذه الإعانة من يوطنون النفس على الاستفادة منها. إن اليهود لن يدفعوها إذا وجدوا مصلحتهم تقضي بذلك. وسيجدون ألف عذر ليتملصوا من دفعها. لقد تعهدت ألمانيا بدفع تعويضات لفرنسا ولغيرها من الدول ولم يمض على تعهدها عامان حتى أخذت في تأجيل الدفع ثم النصل منه نهائيا، ولم تستطيع فرنسا القوية على إرغامها، فهل في مقدور الحكومة العربية الضعيفة إرغام اليهود على دفع هذه الإعانة؟

ولنفرض أن اليهود سيدفعون هذه الإعانة عن طيب خاطر فإن هذه الإعانة ضرب من استعمار اليهود للدولة العربية الفقيرة، ووسيلة إلى تدخل اليهود في سياستها وفي جميع أمورها. هناك قاعدة اقتصادية سياسية بسيطة تقول بأن الذي في يده ميزانية الدولة في يده

مصيرها. فلما كانت خزينة الدولة في العهد السابق في يد الملوك، كانت السلطة المطلقة في يدهم أيضاً، ولما انتقل حق فرض الضرائب من الملوك إلى البرلمانات، انتقلت السيادة معها. فأصبحت البرلمانات مصدر السلطات. ونرى في هذه الأيام، في البلاد الديموقراطية، أن نفوذ وزير المالية آخذ في الازدياد حتى أنه أصبح يتدخل في دوائر زملائه ويشرف عليها نوعا ما، لماذا؟ لأن في يده توزيع ميزانية الحكومة على دوائر الوزراء. فالإعانة المالية اليهودية ستمكن الدولة اليهودية من الحصول على امتيازات خاصة في الدولة العربية، ومن مراقبة ماليتها وسياستها. . . أي أن الدول العربية ستكون طوعا أو كرها المستعمرة الأولى للدولة اليهودية، وسوف لا يمر على ذلك مدة طويلة حتى تدمج الدولتان، ويتألف منهما دولة يهودية كبرى تهدد ما جاورها

. . .من البلاد العربية
ورأت الحكومة البريطانية تحقيقاً للتقسيم صرفا لشرق الأردن عن المطالبة بحقوق العرب بأن تعده بثلاثة أمور: إلحاق القسم الباقي من فلسطين به، وتأسيس مملكة عربية (مستقلة) منهما، وإعطاء مليونين من الجنيهات لحكومة شرق الأردن بدل المنحة التي تدفعها سنويا لسد عجز ميزانيته. . .
(البقية في العدد القادم)
اقتصادي
الفلسفة الشرقية
بحوث تحليلية
بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين
- 14 -
البوذية
نشأة الديانة والفلسفة البوذيتين
ذاعت في بلاد الهند قبل البوذية بزمن طويل أسطورة دينية مؤداها أن إنقاذ الإنسانية من آلامها سيكون على يدي شاب نبيل حسن الخلق والخلق، يولد بين أحضان النعمة ويشب بين أعطاف الترف والسعادة، ثم يتخلى عن المادة ويزهد في الشهوات فيصل إلى المعرفة الكاملة التي بها ينقذ الإنسانية من بين براثن الشر والألم. فلما ظهر بوذا وكان قد نشأ على النحو الملائم لبطل الأسطورة المتقدمة آمن الناس بأنه هو المنقذ المنتظر، وكان هو شخصياً يعرف هذه الأسطورة فآمن بأنه بطلها المنشود، فأعلن أنه لا شيء أنجع للوصول إلى النجاة من وسيلتين: أولاهما التخلي عن المادة، وثانيتهما المعرفة. ثم بدأ جهاده بتحقيق هاتين الوسيلتين في نفسه، فتخلى عن اللذائذ تخلياً عملياً، ثم لم يلبث أن أعلن أنه وصل إلى نهاية المعرفة كما أسلفنا
نشأت عن المبدأ الأول من هذين المبدأين الديانة البوذية التي هي وليدة الزهد والتقشف قبل كل شيء، وعن المبدأ الثاني وهو المعرفة نشأت الفلسفة البوذية. وسنحاول هنا أن نلم في شيء من الإيجاز بالديانة البوذية وأركانها وتطوراتها ثم بالفلسفة البوذية وعناصرها الأولية
الديانة البوذية
لم يشأ بوذا في أول أمره أن يقحم في مذهبه أي شيء له علاقة بما بعد الطبيعة، بل لم يتحدث عن الإله على أصح الأقوال، وإن كان بعض مؤرخي الفلسفة قد رووا عنه أنه تعرض للألوهية بالإنكار وصرح بأن ليس هناك إله على النحو الذي يصورونه به، وإنما
هناك روح عام متغلغل في كل شيء. ويروي البعض الآخر أن بين أقدم النصوص البوذية نصاً ينكر الألوهية أصرح الإنكار، إذ هو يتساءل قائلا: (ما هو الإله؟ هل هو نفس العناصر؟ إذا كان ذلك فلا يكون في الأمر جديد سوى وضع اسم مكان آخر
وإذا كان غيرها، ولها هي هذه الخواص التي نشاهدها، فقد ثبت خلوه هو من بعض الخواص الثابتة للعناصر، وهو نقص فيه. وإذا كان له كل خواصها فلم يكن في حاجة إليها، لاتخاذها وسيلة لإيجاد العالم. وإذاً فنحن أمام خلاء من الألوهية يؤيده المنطق) وأنا شخصياً أستبعد هذا الإلحاد على ذلك المتنسك النوراني والمصلح الأخلاقي العظيم، ولعل هذا النص قد دُسَّ عليه في العصر الذي تلا عصره
وكان أهم ما يرمي إليه هو تخليص الإنسانية من آلامها المتوالية التي يجددها التناسخ بقدر ما يعدده من وحدات العودة إلى الحياة التي هي في كل مرة مليئة بالألم والشقاء. وقد اعتبر بوذا - كما أسلفنا - الجهل والشهوة الأساسين الجوهريين لهذا الألم، وأكد أنه لا خلاص للإنسانية إلا بالمعرفة والتخلي عن المادة، وهما وسيلتان متلازمتان أبداً، إذ لا توجد المعرفة الصحيحة حيث يحل التهالك على المادة، ولا تستقر الزهادة حيث يوجد الجهل
ولا ريب أن هذا الحط من شأن الحياة وما فيها من متع ولذائذ قد قسم البوذيين إلى قسمين: القسم الأول الدينيون، والقسم الثاني المدنيون أو الأحرار، ولكن ليس معنى هذا أن طائفة الدينيين من البوذيين كانت مكلفة بتأدية طقوس دينية خاصة. كلا، فبوذا

لم يكلف أتباعه بأي نوع من أنواع العبادة، وإنما كل ما كان يمتاز به الديني على المدني من البوذيين هو أن الأول أكثر تنسكا وأقل تعلقاً بالمادة من الثاني، وهو لهذا كان نموذجا له في حياته العملية، لأنه أسرع منه خطى في السير نحو الخلاص من شوائب المادة المدنسة

غير أنه لا ينبغي أن يفهم من هذا أن جميع أفراد الطائفة الدينية البوذية كانوا بعيدين عن جميع مظاهر الحياة، لأن الواقع يخالف ذلك، إذ كان أكثرهم مع تنسكهم يتصلون بالناس في المعاملة وأحوال المعيشة، لكن في شيء من الاعتدال، بل من الحذر والاحتياط. أما أقلهم فكانوا رهابنة يعيشون في عزلة من الناس لا ينشغلون إلا بالتأمل في أسرار الكون والنظر في عظمة الوجود

كان الملك محرماً على البوذيين الدينيين كافة حتى الذين يتعاملون منهم مع الناس، وكان

الواجب على كل فرد منهم أن يتسول طعامه يوماً فيوما وألاّ يدخر شيئاً مهما قل إلى غده

أحس المدنيون من البوذيين في داخل أنفسهم بشيء من القلق المضني، فأيقنوا بأنهم لم يصلوا بعد إلى الهدوء النفساني المنشود الذي به وحده تتحقق السعادة، وبحثوا عن سبب ذلك فعلموا أنه التعلق بالمادة والتخلف عن الطريق القويم الذي سار فيه إخوانهم الدينيون، ولكنهم لم يستطيعوا أن يطبقوا على أنفسهم تلك المناهج الضيقة ولا أن يذعنوا لهاتيك القواعد التي كانت قد بدأت تقسو وتتشدد في جميع أساليب الحياة، فحظرت على البوذي أكل اللحوم والأسماك، وقيدته بأنواع محددة من الأطعمة والأشربة والثياب، ورسمت له الخطة التي يجب عليه أن يسلكها، فاكتفى أولئك الأحرار من البوذيين بالإيمان النظري ببوذا وباتباع الأخلاق البوذية السامية من: صدق وأمانة وحلم وحياء ووداعة وإيثار وتضحية وغير ذلك من جلائل الصفات، وجعلوا بيوتهم مأوي لإخوانهم الدينيين؛ أما مشكلة عدم وصولهم إلى السعادة النفسية، فقد وجدوا لها حلا طريفاً، وهو أن من آمن ببوذا وتخلق بأخلاقه وآوى رجال دينه وأكرم مثواهم وعاش عيشة مدنية، فإن روحه بعد موته تتقمص بوذ يادينيا، لتصل عن طريقه إلى الخلاص من المادة الذي يضمن لها السعادة والنجاة

مستحدثات البوذية:

أتت الديانة البوذية بمحدثات لم يكن للبراهمة بها عهد من قبل مثل نبع الوحي من داخل النفس بدل أن كان البراهمة يسندونه إلى الآلهة. ويعلق العلماء الأوربيون على هذا المبدأ بما يفيد عظمة بوذا وسموه على جميع سكان الهند وثقته بنفسه إلى الحد الذي لم يؤلف عند الشرقيين الذين وصلت ضآلتهم أمام أنفسهم إلى حد إسناد كل شيء إلى السماء، تلك الضآلة التي كادت تمحو منتجاتهم العقلية الخاصة من صحائف مجهودات الفكر البشري. وسنرد على هذه الحملة الجائرة حين نعرض للوحي والإلهام عند الكلام على الإشراقية إن شاء الله.

ومن الميزات التي اختصت بها البوذية إعلانها أن مهمتها نجاة العالم وإنقاذه من الألم والشقاء، وفي هذا الغيرية ما لم يخطر للبراهمة الأنانيين على بال، وبهذه النقطة يقترب بوذا من المسيح في نظر العلماء الذين يصدقون حادثة الصلب ويتخذون منها برهاناً على غيرية المسيح وتضحية نفسه في سبيل إنقاذ البشر من الخطايا والآثام.

ومن هذه المستحدثات البوذية إلغاء نظام الطبقات الذي مر بك مفصلا في البراهمية (الأرثوذكسية) ثم أقره عهد التطور حتى جاء بوذا فحرمه على جميع معتنقي ديانته، وإن كان الأستاذ (دينيس سورا) يرى أن بوذا لم يلغ نظام الطبقات، وإنما كانت المقاطعة التي نشر فيها ديانته خالية قبل وجوده من نظام الطبقات لأن من المسلم به أن البراهمة لم ينشروا ديانتهم في جميع بقاع الهند، ولكن هذا الرأي غير صحيح، لأن بعض النصوص البوذية روت لنا أن بوذا كان كثيراً ما يتلاقى مع بعض البراهمة يتيهون في البراري والقفار فلا يكترث بهم ولا يتلفت إليهم.

ومهما يكن في الأمر، فقد محا بوذا كل تلك الفروق التي كانت البراهمية قد وضعتها بين طبقات الشعب بزعمها أن الكهنة خلقوا من رأس براهما، والجند من ذراعيه ومنكبيه، وأرباب الحرف من ساقيه، والأرقاء من قدميه، فلما جاء هذا المصلح العظيم أعلن أن جميع بني البشر سواسية لا فضل لأحد على أحد إلا بالزهادة والمعرفة.

الأخلاق البوذية
بدأ بوذا منذ فجر اليوم الأول لتبشيره بديانته يعلم تلاميذه الفضائل التي رأى أنها وسائل الخلاص والنجاة، ولكنه شاء أن يعلمهم هذه الفضائل عن طريق إنبائهم بأضدادها، فأعلن أن الرذائل الواجبة التجنب عشر، وهي: الشهوة والمقت، والعمى والجهل، والإدعاء والرأي، والشك والإهمال، والخلاعة والوقاحة.
كانت هذه الرذائل في أول الأمر تذكر في تعاليم بوذا على النحو المتقدم، دون ترتيب ولا تخصيص، أما بعد ذلك فقد قسمت إلى فصائل اختصت كل ناحية من الإنسان بفصيلة معينة منها بعد تطورها وتحديدها في مجموعتها. وهاك هذا التقسيم: إن الرذائل التي تهوي بالإنسان عشر، وإن نواحيه التي تأتي هذه الرذائل ثلاث اختصت كل ناحية منها بعدد من تلك الرذائل، فرذائل الجسم ثلاث، وهي: التعذيب والسرقة والزنى؛ ورذائل النطق أربع، وهي الكذب والنميمة والسباب والطيش؛ ورذائل التفكير ثلاث، وهي: الطمع والخبث والتزييف.
لم تكن البوذية تسوي بين هذه الرذائل، بل جعلتها متفاوتة في مراتب الإثم كما هي متفاوتة في سرعة الانمحاء عن مرتكبها، ولكنها صرحت بأن الندم هو من أهم وسائل الخلاص
منها
على أن الفضائل المضادة لهذه الرذائل المتقدمة ليست مجموعها من النوع العالي في رأي البوذية، وإنما هي فضائل سلبية لأن من تعفف عن السرقة مثلا لم يزد على أنه هجر رذيلة من شأنه أن يهجرها، وهو لهذا لا يسمو إلى درجة من يستعمل فضيلة الزهادة أو التضحية، أو ما شاكل ذلك.
وعندهم أن أهم تلك الفضائل الإيجابية ما يأتي:
(أ) حب الحقيقة.
(ب) الرأفة.
(ج) الطهر.
(د) الإحسان.
(هـ) مداومة التقوى.
(و) احتمال كل المؤلمات والمقززات. وغير ذلك مما يصادفه القارئ من أمثلة عالية في كل صفحة من صفحات السيرة البوذية الفاتنة.
(يتبع)
محمد غلاب
رسالة الفن
رفائيل
الفنان أبداً
للدكتور أحمد موسى
عرفنا من المقالات السابقة أن عصر الرفعة قد امتاز بعدد عظيم ممن توافرت فيهم الكفايات التي إذا قورنت بغيرها آمنا بإطلاق بعض المؤرخين على هذه المرحلة الزمنية (عصر النهضة)
وعرفنا بعض الشيء عن ليوناردو دافينشي، وتناولنا بالبحث ميكيلانجلو الذي اعتبرناه عبقرية ملهمة في عالم الفن، كما فحصنا اتجاهه ونواحي إنتاجه، ووصلنا إلى أنه كان أعظم فنان ظهر رغم ما بذله حاسدوه من مجهود لتدبير المكائد له حتى يقضوا على صيته وسمعته
واليوم نعالج شخصية أخرى على النقيض، غمرتها محبة الناس واستأثرت بإكبارهم وتدليلهم إلى حد بعيد. ومن تكون هذه الشخصية غير (رفايللو سانتي) الذي كان على أكبر جانب من جمال الطلعة وسمو النفس ودقة الشعور ورقة الشمائل؟
ولد رفايللو يوم 28 مارس (؟) سنة 1483 في أوربينو، وتلقى أول دروسه على والده المصور جيوفاني سانتي الذي مات عندما بلغ الابن الثانية عشرة من عمره، ثم على معلم آخر ربما كان تيموتيوفيتي الذي عاش في أوربينو في ذلك الحين أيضاً، والذي كان صديقاً حميما له فيما بعد
ولم يترك رفايللو مدينة أبيه إلا سنة 1499 عندما أراد الالتحاق بالعمل عند المصور

المشهور بيروجينو في مدينة بيروجيا
وإذا رجعنا إلى مصوراته كلها نرى أن بينها واحدة أرّخها سنة 1504 وأسماها سبوساليزيو غير أن هذا لا يتخذ دليلا على أنه لم يقم بتصوير لوحات أخرى قبل هذا التاريخ، إذ المعروف أنه اشتغل بالتصوير في كنيسة بيروجيا وفي سيتا دي كاستيلا وفي هذه السنة أيضاً (1504) سافر إلى فلورنسا وأقام فيها بضع سنوات لم يتركها أثناءها إلا عندما كان يذهب في بعض الآونة إلى بلدته أوربينو أو إلى بيروجيا حيث يقيم معلمه
وتأثر في فلورنسا بتراث ليوناردو (راجع الرسالة) وبفن فرا بارتولوميو فدقته في التصوير وعنايته المنهجية ترجع إلى ليوناردو، على حين ترى السيمتري وجمال التناظر وإبداع التقسيم ورشاقة الحركة إلى بار تولوميو
وصور في فلورنسا لوحة لأجل سان فاتشسكو في بيروجيا تمثل دفن المسيح، وهي القطعة التي لا تزال محفوظة بجاليري بورجيره في روما
واستدعاه البابا يوليوس الثاني سنة 1508 للتوجه إلى روما حيث زخرف وصور بعض غرف بالفاتيكان، وهنا بدأ اسمه ينشر، وما كاد يعمل لدى البابوين يوليوس الثاني وليو العاشر إلا وكانت الألسنة تلهج بذكره، وعم صيته إيطاليا وغيرها من البلدان المجاورة
وكلفه فرانس الأول ملك فرنسا بأعمال فنية كما تهافت عليه كثيرون من الأكابر، والتف حوله تلاميذ عديدون من المعجبين به والراغبين في فنه
ولم يكن مظهر رفايللو ليدل على أنه فنان، بل كان أقرب إلى مظهر الأمراء منه إلى رجال الفن. فتكوينه الجسماني الرقيق وملابسه الرائعة الاختيار، وشبابه الغض، إلى جانب أدبه الجم وحديثه الخلاب، كل هذا جعل الناظر إليه أو المتحدث معه يظن أنه في حضرة أمير أرستوقراطي
وكأن المشيئة أرادت ألا يكون بين ميكيلانجلو وبين رفايللو أي تشابه أو انسجام، حتى الاتجاه الفني عند كليهما كان مختلفاً، فالموضوع الإنشائي وطريقة الإخراج والتعبير تباينت عند كل منهما
وكان في الخمس السنوات الأخيرة من حياته الرئيس الأعلى لبناء كنيسة بطرس، وتعمق في دراسة علم الآثار ومعرفة أسرار الفن القديم، وفكر في رفع الأنقاض والأتربة عن آثار روما القديمة عندما كان محافظاً للآثار فيها
وبلغ الذروة في سن مبكرة وفجأة أصيب بحمى انتهت بموته، ولم يكن قد أكمل السابعة والثلاثين من عمره حين وافته المنية في 6 إبريل سنة 1520 ودفن في البانثيون بروما
يقول بعض المؤرخين بأن حزنه على خطيبته ماريابيبينا التي ماتت قبله بقليل كان من أهم
العوامل التي قربت منيته؛ فلقد كان على رقة إحساسه ودقة تكوينه الجسماني عاشقاً مخلصاً ومحباً متفانياً. فضؤلت مقاومته للمرض
وسجل جمال خطيبته في كثير من مصوراته وعلى الخصوص في لوحاته التي مثلت المادونا السكستينية ودوّنا فيلاتا ولا يزال بعض هذه الصور محفوظاً في أوفيست بفلورنسا.
وأقيم له تمثال تذكاري من البرنز في أوربينو بارتفاع أربعة أمتار تقريباً، صنعه المثال الإيطالي المعروف لوريجي بللي سنة 1897، كما نحت المثال الألماني هانل تمثالاً له لا يزال من النماذج الفذة لطراز النحت الألماني.
هذه قد تكون أبسط قصة تقال عن فنان لا نظير له، عاش قليلا ولكنه أنتج كثيراً، وهو إلى جانب ميكيلانجلو لا يُعدان فقط ثروة الفن الإيطالي الحديث بل ثروة العالم أجمع.
ولم يشتغل رفايللو بالتصوير الجصي (الفرسكو) إلا بعد أن سافر إلى روما حيث قام بتصوير ثلاث غرف وردهة كبيرة في الفاتيكان، وفيها جمع بين التصوير الرمزي والديني.
وبعد أن كان البابا يوليوس الثاني عازماً على زخرفة الغرف بواسطة بعض المصورين المعاصرين أمثال بيروجينو وسودوما وغيرهما، تراه قد تحول اتجاهه إلى روفايللو بعد أن شاهد تصويره وتفوقه على معلمه، فكلفه القيام بإكمال العمل إلى نهايته.
أما عمله في الغرفة الأولى (1508 - 1511) فهو متجه في جوهره إلى الروح الفنية

التي كانت لها الغلبة في ذلك الحين وهي روح من النهضة، ويتلخص موضوعها في التعبير عن قوة القوى المسيطرة على العقل الإنساني، المهيمنة على مصير الإنسان؛ فيرى المشاهد أمام عينيه صوراً رائعة للتعبير عن اللاهوت (الدين) والفن (الشعر) والفكر (الفلسفة) والقانون (الفقه)، صورها كلها على مساحات دائرية الشكل، وإلى جانب كل منها التفاسير المرتبطة بموضوع الصورة كالخطيئة والعقوبة والدنيا وحكم سالوم.

أما الصور الكبيرة في هذا المكان فقد جعلها تنطق بالحقائق التي ترمز إليها في عالمنا الدنيوي.

وفي الماكن المسمى ديسبوتا صور المسيحيين الصالحين مجتمعين حول الهيكل وقد فتحت فوق رؤوسهم أبواب السماء (النعيم). وفي بارناس صور الشعراء الأقدمين والمحدثين

ملتفين حول أبولو وآلهات الشعر من حوله.

أما الفلسفة فقد صور ما يعبر عنها بمدرسة أتينا الجامعة (الكارتون محفوظ بميلانو) وهي شاملة للمشتغلين بالعلوم العقلية أمثال أفلاطون وأرسطو طاليس وحولهم تلاميذهم، واتخذ الفنان الركن الأيمن من الصورة لتصوير نفسه مع معلمه بيروجينو.

أما الدين فهو ممثل في صورته بالبابا والقيصر وهما يصرّفان الأمور والشئون بموجب الكتب السماوية.

(له بقية)

أحمد موسى

القصص

شقاء

للأستاذ إسماعيل مظهر

هذه صورة من صور الريف، حملتها ذاكرتي مذ كانت شاباً في مقتبل العمر، وقد انتهيت من مجهود عام دراسي شاق في زمان كنا ندرس أكثر المواد باللغة الإنجليزية؛ وما كدت أنتهي من تاريخ رومية واليونان والحساب والهندسة والجبر وأدب شكسبير، حتى سارعت بالسفر إلى الريف أستجم بسكونه وسذاجته، وأطلب في حقوله وهوائه وشمسه راحة القلب وسلوى النفس ورخاء البال، وأسعد بالعمل في الحقول جهد استطاعتي لأشارك في عمل له نتاجه وثمره القريب. غير أني شعرت بعد قليل من الاستقرار في الريف أن الحياة قلما تهبنا الراحة التي نطلبها أو تحقق بعض ما نتمنى من الوحدة والاتساق يشيعان في نواحي العقل والنفس، ويعوضان على المرء بعض ما ينفق في حياة المدن من إرهاق يأنسه في تنافر الصور في المرئيات والمعقولات. ذلك بأن قريتنا الصغيرة كانت قد احتلت بكائن غريب الأطوار من نسل آدم وحواء، أجدر به أن يكون على نشوء الإنسان من صورة دنيا، المثل الأعلى والبرهان الصادق الملموس الظاهر للعيان

بمقربة من غدير يمر بجوار القرية شجرة من الصفصاف تتدلى فروعها الطويلة فتمس صفحة الماء الجاري، حتى ليخيل إليك أن بين الماء وفروع تلك الشجرة صراعاً؛ كأن الماء يحاول أن يقتلعها ويجرفها بتياره، وكأن الشجرة تحاول أن تقاوم إرادته فتتشبث بالأرض. أما الغدير فيجري هادئاً مطمئناً بريئاً من فكرة العنف والفساد. وأما الشجرة فتطل بفروعها على صفحة الماء الهادئ، كأنها نرجس في خرافات الأقدمين. فلا جلاد إذن ولا عراك، ولا تناحر ولا خصام، في ذلك العالم الجميل الذي يضم الشجرة والغدير، وما العاصفة والعراك إلا في خيالك وفي نظرك إذ يخدعك عن هذه الحقيقة، كما يخدعك عن كثير من حقائق الحياة.

وبين أصل الشجرة وحافة الماء منسطح صغير من الأرض كسته الأعشاب البرية، ونبتت فيه حشائش النجيل الجميلة وقليل من السعد، تناثرت من فوقه بضع شجيرات من عشب البرنوف الأخضر الزاهي. وقد هجر فتيان القرية وعذاراها الحسان هذه البقعة الجميلة،

شأنهم في هجر كل جميل، سعياً وراء العيش والضرب في مناكب الأرض، لعنة الله على مناكبها.

تلك بقعة من الأرض أصح ما توصف به أنها ملك الطبيعة على قلة ما تملك الطبيعة

من وادينا العظيم، فلا محراث يبجُّ بطنها، ولا فأس تقلب طبقاتها، ولا منجل يحصد ما نبت فيها، بل ولا إنسان يحييها تحية الحب والجمال. فهي أحق بأن تدعى (الشقة الحرام) كما يسمون البقعة التي تكون بين جيشين متحاربين.'

وكنت أمر على هذه البقعة المهجورة عجلان مسرع الخطو فأحييها تحية صامتة، وأتمنى لو أن مشاغل الزرع والإنتاج، والحرث والحصاد، والري والصرف، تمكنني أن أسعد بيوم واحد أقضيه في ظل هذه الصفصافة، وفوق بساطها السندسي الجميل. وكانت هذه الأمنية تعاودني صبيحة كل يوم وأنا رائح إلى الحقل، وفي كل أمسية وأنا غاد إلى داري. ولكن الأمل باق مادامت هذه البقعة بكراً لم يغشها إنسان ولم يفكر مخلوق في أن يسعد بجمالها قبلي. ودرجت على ذلك الأيام. فالصفصافة واقفة مشرفة بهامة الجبار على مجرى الغدير، وغدائرها الطويلة يمايلها النسيم على الماء، وخيال العراك الدائم بين الشجرة والغدير قائم في وجداني، وأمل المتعة بيوم أقضيه في ظل الشجرة المحبوبة متجدد كل يوم.

ولكن لا فلابد من يوم تغشى فيه الآمال الحلوة الخلابة سحائب من الكدر. فإن مخلوقاً غريباً احتل البقعة الحرام، واستظل بالصفصافة المقدسة. وقد خلع رداءه وجلس على حافة الغدير ينظر في مائه المنساب الدافق كأنه يستوحيه الأسرار، مثبتاً ناظريه في نقطة واحدة كأنما جاذبية الأرض قد تجمعت فيها، والماء ينساب متحدراً إلى غاياته، والصفصافة قائمة بظلها الوارف ما يعنيها في هذه الحياة من شيء، استظل بها فيلسوف من طبقة أفلاطون، أو أبله (ممسوخ) شوهت الطبيعة من خلقه كذلك الشبح الذي رأيته على ما وصفت صبيحة ذات يوم.

هو مخلوق هبط هذه البقعة من عالم سحري عجيب، ضئيل الجسم نحاسي اللون صغير العينين أفطس الأنف دقيق الشفتين على غير قياس، بارز الذقن إلى غاية غير مألوفة، مكتل الرأس طويل الوجه بارز الصدر مخشوف الظهر، طويل الذراعين قصير الرجلين. وقد اندكت رقبته بين كتفيه، فقصرت قامته على قصرها، وغشيت نحاسية وجهه بقعة من

السواد الفاحم أتلفت مساحة منه غير صغيرة، ونبت فيها شعرات قصار ملس كأنها الحشائش الفطرية في حرجة كثيفة حجبت الأشجار الباسقة عن أرضها ضوء الشمس. وهو فوق ذلك أجرد، فلا شارب ولا لحية له، غليظ اليدين والقدمين واسع الشدقين بارز الأسنان إذا مشى فهو الهرة إذ تتلبث؛ وإذا نظر فكأنه يريد أن ينفذ ببصره إلى ما في سريرتك. وما تنم حدة نظراته وجمودها، إلا عن شدة ما قاسى من الزمن ومن الطبيعة ومن الناس.

مررت بهذا المخلوق محسوراً على أملي الذي سوف لا يتجدد بعد اليوم، وعلى البقعة الحرام يستبيحها هذا القزم الأسود العجيب. فكنت أراه كل صباح ثم أخلفه من ورائي في رواحي إلى الحقل وفي غدوتي إلى الدار وما رأيته يوماً بعيداً عن ظل الصفصافة أو غير ناظر إلى صفحة الغدير. وقد ألف المكان وألفه نظري، فكان يخيل إلي أن الصفصافة والغدير قد أصبحا له، على حد قول هوجو، بمثابة البيضة والعش والسكن والوطن والكون

ولقد هممت مرات عديدة بأن أسأل ما شأنه، وما حاله، وما الذي جعله يختار قريتنا دون القرى الأخرى. وكنت أقمع هذه الرغبة وأسلط إرادتي على حب الاستطلاع في نفسي. ولكني هزمت ذات يوم فوقفت إزاءه وأطلت النظر فيه، فأخذ يخالسني النظر وحول عينيه نحوي وما تزالان تنظران في الأرض وتتحركان حركة عصبية شديدة، حتى ليخيل إليك أن هذا الإنسان ما يظن فيك إلا أنك وحش مقدس يريد الانقضاض على الفريسة المسكينة الوادعة. ولم يكن في هذا غير مصيب. فقد هممت أولاً أن أقرئه السلام، ثم ترددت وقام في نفسي أن أجره من أذنه الغليظ لأريه الطريق المسلم إلى القرية الأخرى. ولكن لم كل هذا التعب؟ فهو جالس على حافة الغدير مستجمع كأنه النسر الأجرب العجوز وقدمي حاضرة. فركلة واحدة تسلم به إلى الغدير يتولاه برحمته الأبدية. ولأي شيء خلقت الرجل وفيها القدم، ولأي شيء زودت بهذه العضلات القوية، إن لم يكن لمثل هذا الظرف ولمثل هذا المخلوق الأشوه. فإن الطبيعة ما أبدعت من شيء إلا وأبدعت معه طريقة التخلص منه. وقد قام في نفسي أن الطبيعة لم تدربنا على العدو والقفز، والركل واللكز، والطفر والوكز، في طفولتنا إلا لتكون

عدتنا لمثل هذه الساعة، وفي مثل هذا الظرف، ولمثل هذا القرد الأزعر العجيب
ولقد قويت في نفسي هذه الشهوة وخيل إليّ أن الأمر سهل هين والطريق مقفر والحقول
خاوية. وقد انحدرت الشمس فغابت في عينها الحمئة السحيقة. وما أجَّل لهذا المخلوق في الحياة بعد هذا كله إلا استيقاظه نفسية، سرعان ما تبخرت معها فكرة الثورة على النظام وعلى الطبيعة، وتحركت شفتاي على غير إرادة مني وقرأته السلام
يا لله! هاهو ذا قد نظر إليّ بكامل وجهه، وعيناه تبعثان بصيصاً فيه الرعب والوجل والألم والقسوة والجمود. وأخذ يجاهد جهاد المستميت ليرد تحيتي بأحسن منها، وأخذت الكلمات تخرج من شفتيه غير متماسكة الحروف، فكان فيها مد وغن، وقصر واستطالة، وعوج واستقامة، وإمالة وشمام، ومضت دقائق ما أعرف عددها قبل أن يتم رد السلام:
- وعليكم السلام. . . ورحمة الله وبركاته. . . إزاي حضرتك سلمات. . . أهلا وسهلا. . . يا مرحب
- اسم أخينا إيه؟
- اسمي. . .
- أيوه
- اسمي. . . والله اسمي. . . اسمي. . . محمد
- بتعمل إيه
- أ. . . نا
- أيوه أنت
- أنا. . . بشتغل. . . في غيط. . . عم حمدان. . . اللي. . . قصادك ده!
- وبلدك إيه؟
- أ. . نا
- أيوه إنت
- بلدي. . . بلدي. . . بعيد من هنا! بينا وبينها. . . تلاته تعريفه تمام. واسمها. . . اسمها. . . الخرابة
ولقد صدق المسكين. فأية بقعة من بقاع هذا العالم الواسع تقذف الإنسانية المسواة في أحسن تقويم بمثل هذا الشبح الممسوخ إلا بقعة خراب!
إذن فقط هبط علينا من الخرابة. وكيف يستوي أن يعيش في العمران والمدنية، من تلفظه
الخرائب الموحشة الجرداء. وبلدة الخرابة قرية لا يدور اسمها على ألسنة موظفي الحكومة إلا قليلا فهي في شمالي الدقهلية وفي أرض بور تبلغ مساحتها بضعة آلاف من الأفدنة كلها مرتفعات وأخاديد، وقد تجمعت المياه في بعض المنحدرات ونبتت فيها النِّسيلة والبَشْنين. أما المرتفعات فقد تجمع من فوقها السبخ الأحمر وتوجتها أدغال من الطرفاء، وما أن تبعث على هذا الخراب الشامل بنظرة حتى يخيل إليك أن الله قد أنزل على هذه الأرض حسباناً من السماء فأصبحت صعيداً زلقاً
وعلى تبة من تباب هذه الأرض السبخة المالحة تقوم أكواخ قرية الخرابة، وقد نبت عليها شوك العاقول الأخضر، وتسلقتها حشائش العليق، وامتدت الرطوبة إلى نصف ارتفاعها. وعقدت أسطح الحجرات باللبن النبيء، وفتحت في أعلاها النواريز بارزة من أواسطها، فيخيل إليك إذا نظرت فيها أنهن عجائز القرية المهجورات مسخن بكارثة، وهن يتطلعن جميعاً إلى الشمال. فإذا جن الليل وأرسل القمر أشعته الفضية على هذا الكون الميت العجيب، شبه لك أن القرية قطيع من الفيلة السود، تتساوق متزاحمة، ولكن في صمت كأنه صمت القبور
ومن حول هذه القرية تقوم بضعة شجيرات من السنط بهت لونها وامتقعت أوراقها، وما يغشاها من طرفي النهار إلا غربان تنعق، وما يألفها في الليل إلا البوم تنوح من حول القرية طيلة ساعات السواد، نادبة حظ الأحياء والأموات، مرسلة بأناتها الطويلة الشجية الحزينة، ترثي الطبيعة المجرودة الغبراء
وعلى مسيرة بضع دقائق تقع جبانة القرية، وقد انتثرت فيها القبور كأنها كثبان الرمل سفتها الرياح، فتجاورت مزدحة في بقعة من الأرض، والأرض من حولها فسيحة براح،

كأن طبيعة الإنسان الاجتماعية قد أقسمت لتزحمنَّه في القبور كما تزحمه في الحياة.
وقد ترى اللحد ومن فوقه ذلك الكثيب علاه السبخ الكئيب، ومن حوله نبت الشوك وحوَّط القبر من جميع جهاته، كأن الطبيعة قد أرادت أن تحدد تخوم كل قبر لتكفي الموتى مؤونة العراك على امتلاك القبور، وهنالك تقع على جحر ذئب، وهنا على نبيشة ثعلب، وقد تنتبه على حركة طائر في وحشة ذلك الصمت الأبدي، فترى قطاة أزعجها مسيرك في مدينة الأموات، فتركت عشها من فوق قبر لتثقل به على صدر ميت كان بالأمس جباراً لا يرحم،
عنيداً لا يلين، مشبوب الشهوات واسع الأمل مستثار الجنان
وإنك لتعجب كيف أن قزم الخرابة يترك تلك الجبانة التي نشأ بمقربة منها، بل وفي حضنها الرهيب، ليهبط قريتنا، فلا نراه إلا ونذكر الخراب والغربان والبوم، ولا نحييه إلا وفي مخيلتنا مجمل هذه الصور التي صورتها، يحييها منظره ويدعوها إلى الوعي مجرد الذكرى، بأن في بلدتنا شخصاً من الخرابة. وتداعي الأفكار صفة نفسية، ولكن لابد من باعث يحركها ويدعوها. فكان هذا سبباً في أن يبعد الناس عن طريق هذا الإنسان لئلا تقوم في مخيلتهم ذكريات الخرابة وذلك القفر المجذب الحزين والأكواخ تسلقتها الحشائش والأشواك والأشجار الميتة القائمة من حولها، والغربان والبوم، والجبانة والقبور، فتغشي الطبيعة المرحة الباسمة سلسلة من تلك الذكريات الباكية. فلا ريب إذن في أن الأقدار قد تناصرت على هذا المسخ المشؤوم. ولكن لم يقس عليه من الأقدار شيء بقدر ما قست عليه الطبيعة التي شوهت من خلقه، و (الخرابة) التي نبذته وقذفت به إلى الوجود.
وقد يولد بعض الناس مثقلين بأوزار، أو محكوماً عليهم بأن يعيشوا في جفوة عما يحيط بهم من الأشياء؛ فمنهم من تجني عليه الطبيعة، ومنهم من تجني عليه الأسرة، ومنهم من يجني عليه الناس، ومنهم من تجني عليه البيئة، وكثير منهم يجني على نفسه، ومنهم من يخرج إلى الدنيا حاملاً وزر أبيه، أو وزر أمه، أو وزريهما معاً. وهو بعد تلك الأداة الضعيفة، وذلك المخلوق البائس. الذي لا اختيار له فيما اختارت له الأقدار، ولا حيلة في ما مضت به الكلمة المبرمة في ألواح الأبد والأزل.
في الإنسان طبيعة مشتركة، من تفاسير الوجود ما ينم عنها، ومن الذكريات وتداعي الأفكار ما يرسم على وجوه أبناء آدم تعابير واحدة. فكنت إذا ذكرت (محمداً) مساعد حمدان العربي وبلدته (الخرابة)، أرتسم على الوجوه ما يدل على ما قام في النفوس من الاستيحاش والتشاؤم والاستفزاز.
وفي صبيحة ذات يوم، أشبه بذلك اليوم الذي احتل فيه ذلك القزم سيف الغدير المحبوب، اجتمع نفر من أهل القرية وقد ذر قرن ذكاء بأبهته السماوية، ينظرون في الماء ليتبينوا شيئاً يعلو ويهبط أمام قنطرة تحجز مياه الري
تلك جثة (محمد الخرابة)، فقد تولاه الغدير برحمته الأبدية. أما أهل القرية فقد ظهرت على
وجوههم تعابير الرحمة ممزوجة بالكثير من راحة البال والضمير. فلا الشوه يمازج ذكرياتهم، ولا الخرابة بغربانها وبومها وأشجارها الميتة وقبورها الموحشة وسكونها الرهيب الأليم، وليلها المربد الهادئ هدوء الموت، يمر على مخيلاتهم أو يلابس وعيهم من بعد ذلك
ولكن. . . هنالك بمقربة من الجثة المسجاة، جلست (فاطمة) ابنة حمدان، بوجهها الصبوح وعينيها الواسعتين، وبشرتها القمحية الجميلة وقوامها اللين المتعاطف، جلست وحدها بغير شريك من فتيان القرية وفتياتها، وهي أفتنهن جميعاً، تخالس الجثة النظرات صامتة مبهوتة، وترمق الجسد البارد بعينين حائرتين جامدتي النظرات، وقد تقاطرت منهما دموع انحدرن كالحمصات الكبار
إسماعيل مظهر
البريد الأدبي
الاحتفال بتولية جلالة الملك
أذاع مجلس الوزراء البرنامج الرسمي التالي للاحتفال بتولية صاحب الجلالة الملك وهو الوصول إلى الإسكندرية
تصل الباخرة بمشيئة الله الساعة الثامنة من صباح يوم الأحد 17 جمادى الأولى - 1

سنة 1356 الموافق 25 يوليه سنة 1937 فيصعد إليها عضوا مجلس الوصاية والأمراء والنبلاء الموجودون بالإسكندرية، ورئيس مجلس الوزراء والوزراء وكبار رجال القصر، ومحافظ الإسكندرية وقائد حاميتها المصرية ومدير الموانئ، ومدير البلدية، ومدير خفر السواحل

2 - ينزل المستقبلون ماعدا رئيس مجلس الوزراء لانتظار جلالة الملك على رصيف محطة الإسكندرية

3 - يقل جلالة الملك لنش المحروسة لتشريف سراي رأس التين وبمعية جلالته رئيس مجلس الوزراء وكبار رجال القصر

4 - يعود لنش المحروسة إلى الباخرة فيقل جلالة الملكة وحضرات صاحبات السمو الملكي الأميرات وبمعية جلالتها ناظر خاصة جلالة الملك

5 - يقوم ركاب جلالتها وسموهن الملكي إلى محطة الإسكندرية قبل قيام ركاب جلالة الملك وبمعية جلالتها ناظر خاصة جلالة الملك

6 - يتحرك ركاب جلالة الملك إلى محطة الإسكندرية في الوقت المناسب لكي يقوم القطار الملكي الساعة 30، 9 صباحاً

7 - يكون في مثول الاستقبال بالمحطة حضرات المستقبلين على ظهر الباخرة والمعتاد وجودهم عند تشريف جلالة الملك ثغر الإسكندرية سنوياً.

8 - يقوم القطار الملكي إلى محطة سراي القبة رأساً ويقف في المحطات المعتاد وقفه ويكون الاستقبال طبقاً لما يتبع عند انتقال جلالته من الثغر إلى سراي القبة العامرة.

9 - تعد دفاتر لقيد أسماء المهنئين في قصري رأس التين وعابدين.

حفلات مباشرة السلطة الدستورية

يوم الخميس 21 جمادى الأولى سنة 1356 - 29 يوليه سنة 1937.

1 - يقوم الركاب الملكي من سراي عابدين العامرة الساعة 8 , 30 صباحا إلى دار البرلمان عن طريق ميدان عابدين فشارع الخديو إسماعيل فميدان الفلكي فشارع الخديو إسماعيل فشارع قصر العيني فشارع مجلس النواب.

2 - تكون العودة إلى سراي عابدين العامرة من طريق شارع قصر العيني فشارع سليمان باشا فشارع فؤاد الأول فميدان إبراهيم باشا فشارع إبراهيم باشا إلى السراي العامرة.

3 - عقب عودة جلالة الملك إلى السراي الملكية العامرة تجري التشريفات العامة حسب الترتيب الذي سيعلن عنه وفي الوقت نفسه تقام استقبال في المحافظات وعواصم المديريات للموظفين والأعيان الباقين بها.

4 - بعد انتهاء التشريفات يقدم وزير الحربية باسم الجيش المصري وبحضور كبار الضباط إلى حضرة صاحب الجلالة الملك عصا المشيرية هدية منهم لجلالته رمزاً لإخلاصهم وولائهم.

5 - تجري تشريفات حضرة صاحبة الجلالة الملكة قبيل الظهر وبعده طبقاً لترتيب المقابلات الذي سينشر فيما بعد:

6 - قبيل المساء يذيع جلالة الملك كلمة على شعبه في الراديو

7 - تقام مأدبة عشاء بالسراي وتعقبها حفلة ساهرة

يوم الجمعة 22 جمادى الأولى سنة 1356 - 30 يوليو سنة 1937

1 - يؤدي جلالة الملك فريضة الجمعة في مسجد الرفاعي، ثم يزور قبر المغفور له والده

2 - قام مأدبة غذاء للعلماء في قصر عابدين يحضرها رئيس مجلس الوزراء ووزير الأوقاف

3 - في الساعة الخامسة بعد الظهر تقام حفلة شاي بسراي عابدين العامرة

4 - في الساعة 8 , 30 مساء يشرف حضرة صاحب الجلالة الملك مأدبة العشاء التي يقيمها مجلس الوزراء بسراي الزعفران والحفلة الساهرة التي تليها

يوم السبت 23 جمادى الأولى سنة 1937

1 - في الساعة 8 , 30 صباحاً يستعرض حضرة صاحب الجلالة الملك الجيش

2 - في الساعة الخامسة مساء تقام حفلة شاي بسراي عابدين العامرة يحضرها ضباط الجيش على اختلاف رتبهم وأسلحتهم، وكذلك الضباط المتقاعدون من رتبة أميرالاي فما فوقها

رسائل عن مصر في أواخر القرن الماضي

أصدر متحف بروكلين الأمريكي أخيراً كتاباً عنوانه (رحلات في مصر) وذلك من ديسمبر سنة 1880 إلى مايو سنة 1891، وهي عبارة عن رسائل بقلم تشارلس أدوين ولبور، نشرها وعلق عليها العلامة الأثري الأستاذ جان كابار. ولمؤلف هذه الرسائل المصرية قصة مؤثرة فقد كان من علماء الآثار الأمريكيين. ووفد على مصر في أواخر القرن الماضي، وقضى بين أطلالها ومعابدها القديمة نحو عشرة أعوام في التنقيب والدرس، ثم توفي في سنة 1896، دون أن يتمكن من نشر شيء من مباحثه العديدة، وترك مجموعة أثرية فخمة ومكتبة نفيسة عن الأثريات المصرية وهبهما أبناؤه إلى متحف بروكلين تخليداً لذكراه. وفي سنة 1932 عثر الأستاذ كابار في هذه المجموعة على رزم من رسائل مهملة، وما كاد يتصفحها حتى أيقن بنفاستها وأهميتها من الوجهتين التاريخية والأثرية

ذلك أن تشارلس ولبور كاتب هذه الرسائل عاش في مصر في فترة وصلت فيها المباحث الأثرية القديمة إلى ذروة الازدهار؛ وكان بمصر يومئذ العلامة الفرنسي ماسبيرو يقوم بأعظم حفرياته ومباحثه، وكذلك العلامة الألماني هينريخ بروكش، والمستشرق الإنكليزي سايس، وكان ماسبيرو يومئذ قد وفق إلى أعظم اكتشافاته وهو اكتشاف الموميات الملوكية في الدير البحري؛ وكان مستر ولبور وثيق الصلات بأولئك العلماء الأعلام وبأعمالهم ومباحثهم، وكان أيضاً وثيق الصلات بالأهالي في المناطق الجنوبية التي يجري فيها الحفر، وقد وفق في حفرياته إلى اكتشاف بعض القطع الأثرية وأوراق البردي، وهي تحفظ الآن في المتحف البريطاني. فهذه الجهود والتطورات العلمية الهامة التي شهدتها مصر في أواخر القرن الماضي يصفها مستر ولبور في رسائله بإسهاب، ثم هو يصف خلالها حالة الريف المصري والمجتمع المصري يومئذ؛ وهذه الرسائل التي وجهها إلى أسرته وإلى بعض أصدقائه هي التي يضمها المجلد الضخم الذي أصدره متحف بروكلين وقام على نشره الأستاذ كابار، وهي رسائل لها قيمتها في تاريخ مصر الأثري والاجتماعي في أواخر القرن الماضي.

جوجليلمو مركوني

في يوم الثلاثاء الماضي نعت أنباء رومة العلامة المخترع الأشهر جوجليلمو مركوني، الذي كان لاختراعاته في المواصلات اللاسلكية أعظم أثر في تطور الحياة البشرية في عصرنا، وكان مولد هذا العلامة الكبير في مدينة بولونيا (بإيطاليا) في 25 أبريل سنة 1874 في أسرة كريمة من أب إيطالي وأم ارلندية، وتلقى مركوني تربية حسنة في جامعة لجهورن ثم في جامعة بولونيا؛ وكان من أساتذته العلامة الرياضي الشهير روزا. وأبدى مركوني منذ حداثته عناية خاصة بكل ما يتعلق بالكهرباء، وشغلته فكرة نقل التموجات الكهربائية عن طريق الهواء فأجرى فيها تجارب لم تشجعه عليها الحكومة الإيطالية يومئذ؛ فذهب إلى إنكلترا واتصل بالسير وليم بريس كبير مهندسي التلغرافات يومئذ، وأجرى تجاربه بإشرافه، ونجحت التجربة لأول مرة فوق خليج برستول. وفي سنة 1899 تقدمت التجربة خطوة جديدة، واستطاع مركوني أن ينظم المواصلات اللاسلكية بين فرنسا وإنكلترا فوق القنال الإنكليزي. وفي سنة 1901 استطاع أن ينظم المواصلة اللاسلكية فوق المحيط الاطلانطيقي بين كورنوال في إنكلترا وجزيرة نيوفوندلند في أمريكا على مسافة 2100 ميل؛ وعلى أثر ذلك افتتحت المواصلة اللاسلكية بصفة رسمية بين أوربا وأمريكا، وكلل اختراع مركوني بالنجاح الكامل؛ وذاع الاختراع بسرعة، واستعملته السفن التجارية منذ أوائل هذا القرن، وكذلك نظم في جميع الأساطيل الحربية. وأضحى أداة سهلة سريعة للمواصلات البرقية؛ وخصص مركوني حياته لتحسين اختراعه المدهش؛ وأنشأ منذ سنة 1900 شركة للمواصلات اللاسلكية سميت باسمه ولها اليوم فروع في جميع أنحاء العالم. ولما دخلت إيطاليا في الحرب الكبرى تولى مركوني الإشراف على المواصلات اللاسلكية الإيطالية؛ وفي نهاية الحرب انتدب عضواً في الوفد الإيطالي لدى مؤتمر

الصلح، وتولى عن إيطاليا توقيع معاهدات الصلح التي عقدت مع النمسا وبلغاريا؛ ومنح مركوني من ألقاب الشرف العلمية والأوسمة الرفيعة ما يضيق المقام عن ذكره؛ ومنح جائزة نوبل للعلوم في سنة 1909؛ وانتخب منذ سنة 1930 رئيساً للمجمع العلمي الإيطالي؛ وأنعم عليه بلقب

المركيز، وانتخب عضواً بمجلس الشيوخ

واليوم يغدو اختراع مركوني في المواصلات اللاسلكية وتبادل التموجات الأثيرية أعظم ما عرف العصر؛ ولم يحدث أي اختراع آخر مثل ما أحدث اختراع مركوني من ثورة في نظم الحياة البشرية، ولم يقرب مثل ما قرب بين أبعد أطراف العالم. وإذا كنا نستطيع اليوم في لمح البصر أن نتصل بأوربا أمريكا واستراليا ونحن جلوس في منازلنا، وأن نصغي إلى آخر الأنباء العالمية، وأن نسمع الموسيقى والغناء على بعد آلاف الأميال؛ وإذا كانت السفن في عرض المحيط، والطيارات في جوف الفضاء، تستطيع الاتصال والاستغاثة عند اللزوم، فالفضل في ذلك كله يرجع إلى عبقرية جوجليلمو مركوني ولم ينبغ في عصرنا من المخترعين نبوغ مركوني في ميدانه سوى رجل واحد هو أديسون المخترع الأمريكي؛ على أن مركوني يتفوق على أديسون من الناحية العلمية، ويمتاز بسعة آفاقه التي لم يحد منها بحر ولا جبل ولا هواء. وقد عاش مركوني طول حياته في جو من الهدوء والثقة، يحمله النجاح إلى التماس النجاح؛ وكان مثل العلامة المتواضع يرتفع بالفكرة الإنسانية إلى ذروتها.

حرب الميكروبات

إذا كان عصرنا عصر المعجزات العلمية، فهو أيضاً عصر المهلكات. ولم يسبق في التاريخ أن سخر العلم لاختراع المهلكات البشرية كما سخر في عصرنا؛ فالأمم العظيمة كلها تسخر قوى العلم لاختراع الأسلحة الجديدة وصقل الآلات المهلكة، وتحسين الأسلحة الجوية والبحرية، وتحويل الحرب إلى عملية ميكانيكية مخربة؛ وأفظع ما في هذا النشاط المخرب هو الحرب الكيماوية التي يوجه اليوم لها نشاط العلم والاختراع. فالعلماء الذين يعتبر واجبهم المقدس أن يعملوا لخير الإنسانية ورفاهتها وصون الحياة البشرية من الأدواء والأمراض، يعملون اليوم لإفناء المجتمع الإنساني، وسحق المدنية، وقتل الإنسان بواسطة الغاز الخانق، والسوائل الملتهبة والجراثيم (الميكروبات) الفتاكة؛ وتشتغل المعامل الكيماوية في معظم الأمم الكبرى اليوم باختراع هذه المهلكات والعمل على مضاعفة قواها المهلكة؛ وقد كانت ألمانيا أول دولة لجأت إلى هذه الوسيلة المروعة، واستعملتها في الحرب الكبرى، فاستعملت الغاز الخانق وأنواعاً أخرى من الغازات الخطرة؛ وكانت هذه مفاجأة مروعة لجيوش الحلفاء. بيد أنها لم تبلغ يومئذ مدى كبيراً. فلما انتهت الحرب فطن الحلفاء إلى هذا السلاح الجديد الخطر، وأدركوا ما للحرب الكيماوية من أثر عظيم في المستقبل، وانكب علماؤهم ومعاملهم على بحث السوائل والغازات والميكروبات المهلكة؛ وكانت ألمانيا التي وجدت في المباحث الكيماوية السرية ملاذها وسلامتها بعد هزيمتها الساحقة في الحرب - في مقدمة الدول التي خصت الحرب الكيماوية باهتمامها؛ ويقال إنها انتهت فيها إلى نتائج خطيرة. والمعروف أن ألمانيا حاولت في الحرب الكبرى أن تستعين على إهلاك أعدائها بالميكروبات وأنها حاولت تطبيق هذه التجربة في رومانيا. ومنذ سنة 1933، أعني منذ قيام النازي في الحكم تعمل المعامل الألمانية ليل نهار لابتكار وسائل الدمار البشري وتعنى عناية خاصة بمسألة الميكروبات. وقد وجه معهد كوخ إلى المعامل الألمانية منشوراً فيه بيان مفصل عن الميكروبات التي يمكن استعمالها في الحروب المقبلة، وعن أفضل الوسائل لاستعمالها. ويقول الدكتور ليفين الألماني الأخصائي الكبير في هذا الموضوع: إن الميكروب هو أفضل مهلك للجيوش، لأنه متى ارتفعت صيحة الذعر في الجيش فقد قضى عليه.

وتعنى الدول الكبرى الآن بهذه المشكلة الخطرة، وتجتهد في ابتكار وسائل الوقاية، إلى جانب ما تعنى به من اختراع المهلكات، وهي جميعاً تفطن إلى الكوارث المروعة التي تتعرض لها الشعوب والإنسانية من جراء هذا الخطر الشامل.

وفاة طبيب عالمي

نعت أنباء باريس الأخيرة الأستاذ الدكتور لابرسون العلامة الرمدي الشهير. توفي في

الخامسة والثمانين من عمره بعد حياة علمية وطبية حافلة؛ وقد بدأ حياته أستاذاً للرمد في كلية الطب بجامعة ليل، ثم انتقل إلى باريس حيث عين أستاذاً للرمد في جامعتها، وعين مديراً لقسم الرمد في (أوتيل ديو) وانتظم عضواً في أكاديمية الطب، ثم انتخب رئيساً لها، وطارت شهرته كحجة عالمية في أمراض العين، ووضع كتباً ورسائل كانت مرجع الأطباء الرمديين في جميع أنحاء العالم، وكان لتعاليمه ومؤلفاته أثر كبير في تطور طب العيون بفرنسا، وقد تخرج على يده عدد كبير من أطباء العيون في فرنسا وفي خارجها.

تصويب

قرأت في عدد الرسالة الأخير في مقالة الأستاذ المؤرخ الجليل محمد عبد الله عنان في صفحة 1171 في الجانب الأيسر من الرسالة في السطر الرابع أن الملكة هورتنس ابنة الإمبراطورة جوزفين من زوجها الأول كانت زوجة القائد مورات. والذي قرأناه في الكتب هو أنها كانت زوجة لويس أخي نابليون الذي نصبه ملكا على هولندة، وولدت من نابليون الذي صار فيما بعد نابليون الثالث. أما زوجة القائد مورات الذي نصبه نابليون ملكا على نابل في إيطاليا فهي كارولين أخت نابليون. ويلاحظ أن الضمير في الفعل في الجملة مفرد مما يدل على أنه لا يتكلم على اثنتين فالمرجو إيضاح وجه الصواب للفائدة

(ش)

الكتب

المستشرقون

تأليف السيد نجيب العقيقي

للأستاذ الحوماني

يكاد يكون الاستشراق علماً بنفسه له أصوله وفروعه، وله مقدماته ونتائجه؛ ويكاد يكون رجاله، على رغم شتاتهم، شعباً خاصاً له أفقه الخاص به، وحياته القاصرة عليه، وقد مر بهذا الشعب وبرجاله في العالم قرون لم يكتشفه، كما هو، عالم ولا أديب ولكن هنالك بضعة من الكتاب نقلوا لنا وللغربيين نتفاً من أخبار هذا الشعب. . . في معرض النقد أو التقريظ، والناقل إما شرقي يشكر للمستشرق إنصافه أو ينعى عليه تعصبه، وإما غربي يشكر له عصبيته أو ينعى عليه إنصافه.

نقرأ في بعض الكتب وفي كثير من الصحف أشياء عن هذا الشعب شعب المستشرقين، ونقرأ أشياء لكثير من أفراد هذه الجماعة جماعة الاستشراق عما يكتشفون في عالمهم من آثارنا نحن الشرقيين.

أما أن نسمع بكاتب جميع شتات هذا الشعب في مختلف الأزمنة والأمكنة، ولم شعثه، ثم عن كشف آثاره بين جلدتين تشتملان على كتاب وبلسان شرقي عربي يصور لنا حياتهم قديمة وحديثة، ويبعث فينا آثارهم مكتسبة وموروثة، ويكشف لنا آراءهم خاطئة وصائبة، ويمحص لنا أقوالهم جائرة ومنصفة، ويمعن في البحث عن أغراضهم وأهوائهم، ويعلل أفعالهم وأقوالهم، ويحلل آراءهم وأفكارهم، بعيداً عنهم وهو في الصميم من جماعتهم، منصفاً في الحكم عليهم والقضاء لهم، أما هذا الكاتب فلم نسمع أو لم أسمع أنا به على الأصح فيمن غبر أو حضر من كتابنا ماخلا هذا الشاب المثقف (النجيب) صاحب كتاب (المستشرقون) المؤلف الحديث الذي أخرجته لنا في الأيام الأخيرة مطبعة الاتحاد البيروتية في مائتين وخمسين وجهاً من القطع الوسط يحمل اسم مؤلفه (نجيب العقيقي)

لا أحب أن أعرض لعروبة الكتاب والناحية البيانية فيه فإن مؤلفه واحد من هؤلاء الشباب الذين عمروا قلوبهم بالثقافة الأجنبية في معاهد إنما شيدت لقتل العروبة في بلادنا لغة وخلقاً

ومعتقداً، وإذا قرأت في الكتاب جملا فصيحة فإنما هي نتاج الغريزة العربية في المؤلف، وثمرة حبه للأدب العربي وغرامه بالديباجة العربية الذي حمله على إلا يدع مؤلفاً عربياً، قديماً أو حديثاً، سمع به واستطاع الوقوف عليه، إلا اتصل به وأخذ منه، فهو كاتب عربي في مؤلفه هذا بما قرأ لا بما درس. من أجل ذلك كانت ديباجته فيه عادية لا روعة فيها ولا سحر، وربما وقفت عند كثير من جملة تتبين ما تشتمل عليه من معان أبهمها الاعجام.

فالكتاب في لغته بسيط، وهذا لا يحط من قيمته العلمية، فإنما يؤخذ مؤلفه بما أودعه من فكرة لا بما نمق فيه من ديباجة.

ما أحببت أن أعرض في نقدي هذا لشيء من ذلك ولكني أحب أن أعرض لمواطن الجمال في الكتاب معللا ببضع خلال خبرتها في نفس الكاتب.

عرفت نجيباً منذ أنشأت عروبتي ولم أزل أعرفه حتى اليوم؛ ولأول نظرة ألقيتها عليه شربت روحه ولم أزل أشربها حتى الآن

قرأت في شمائله الحرية في غير أنانية ولا أثرة، والصراحة في غير مراء ولا صلف، ولمست فيه الروح الوثابة والعمل الجبار؛ قرأت في شمائله كل ذلك ولم أزل أقرأه فيها حتى ساعتي هذه

توسمت فيه إذ ذاك النجابة ولم يكن قد أنتج بعد، فكتابه هذا هو باكورة عمله، وإذا كان وليد أدبه الغض وشبابه الناضر فماذا نرقبه من أدبه الكهل؟ ثم ماذا سيطلع علينا به وقد أشرف على الأربعين سن الحكمة والنضج؟

الحرية في نجيب حملته على ألا يتقيد في كتابه بدين درج عليه في البيت وتلقنه في المدرسة حتى كان جزءاً من دمه الفائر ونفسه الجبارة، ولم يحل دون تحرير فكره في مؤلفه هذا هيبة المستشرقين في نفوس الضعفاء من كتابنا حتى تحامى أكثر هؤلاء إبرام ما نقض أولئك من حق أو نقض ما أبرموه من باطل.

عرفت العقيقي حراً في زيارته لي وتحدثه إلي؛ عرفته حراً في شمائله، حراً في جدله، حراً في رأيه. وهأنذا أقرأه اليوم في مؤلفه الجديد حراً في درسه وتفكيره، حراً في بحثه وتحليله، حراً في نقضه وإبرامه.

والصراحة في نجيب حملته على أن يكتب في الأدب للأدب، ويبحث في العلم للعلم، ويجهر بالحق للحق.

فإذا نقم على المستشرق لتعصبه الذي يدفعه إلى الطعن على الإسلام (مثلا) فإنما ينقم عليه للحق الذي يراه دون رياء أو تزلف يتملق بهما المسلم حباً للمال أو سعياً وراء الشهرة التي يحسبها النفر الخامل من متأدبينا في الضجة الفارغة واللقب الكاذب.

العقيقي صريح في كتابه إلى أبعد حد في الصراحة لم يراع معه نعي الرجعيين من قومه عليه فيما يحمل على عصبية المستشرقين لدينهم أو عنصرهم، ولا حذر انتقام الجهلاء من غير قومه فيما يصوب من حملات الغرب على الشرق.

والروح الوثابة في نجيب حملته على ألا يترك أديباً إلا جلس إليه ولا كتاباً إلا وقف عليه، حدت به هذه الروح إلى أن يبحث ما اتصل به من علم، وأن يدرس ما استطاع درسه من فن، حتى بدا له أن يبدع فيما ينتج فولدت هذه الروح فيه فكرة الكشف عن هذا الشعب شعب الاستشراق المبعثر هنا وهناك.

ويهجر العقيقي أصدقاءه بضعة أشهر فلا يزورهم خلالها إلا لماماً، ويمعن في البحث والتنقيب، والكتابة والترجمة، ثم يطلع عليهم بعد عام وقد سهم وجهه وتغضن جبينه، فإذا به يتأبط كراريس تشتمل على قلب نابض بالحياة، وإذا بضربات هذا القلب تقرع الأسماع، وإذا بهذا القرع يملأ الأفق دوياً.

يتناول نجيب في كتابه رأي المستشرق في لغة العربي أو أدبه أو خلقه أو معتقده فيمر به في طريقه إلى الحكم على وطن المستشرق وعلى مدرسته وعلى كنيسته ثم على حكومته، فإذا توفر لديه البحث عن وطنه كيف غادره، وعن مدرسته كيف تخرج منها، وعن كنيسته كيف اعتنق دينه فيها، وعن حكومته وكيف كانت منزلته منها، استطاع إذ ذاك أن يمحض هذا الرأي فيرجعه إلى المستشرق نفسه مجرداً عن الأهواء أو إلى أحد هذه العوامل متأثراً به إذ قلما استشرق غربي دون أن يتأثر بواحد منها وهو يثبت في كتابه أن الاستشراق غالباً مدفوع بسياسة الغرب ودينه لغزو الشرق واستعماره وقتل القومية فيه حتى تتوفر الغلبة للغرب عليه.

هذا ما أحببت أن أشير إليه من موضوعات الكتاب ويكاد يكون أروع موضوعاته، فالشرق جد محتاج إلى مثل هذا المؤلف وما أحوجنا إلى كتاب آخر من هذا النوع يخلقه قلم العقيقي

ويطلق عليه اسم (الغزاة) يعني فيه بالإرساليات التبشيرية عنايته بالاستشراق

وبعد فليس لي في ختام كلمتي هذه إلا أن أعلن إعجابي بهذا الأثر، وأدعو كل عربي

أديب إلى الوقوف عليه والإمعان في درسه. فهل يرينا المستقبل من أبنائنا من يضرب على هذا الوتر فيحرر نفسه من العبودية بين يدي كل غربي مستشرق؟؟؟
(بيروت)
الحوماني
صاحب العروبة
في قصيدة الدكتور عزام
كان في قصيدة (دمشق) للدكتور عبد الوهاب عزام التي نشرت في العدد الماضي - كلمات يتعذر فهمها بغير الشكل، وقد أهمل شكل بعضها - فنعيد هنا نشر الأبيات التي وقع فيها ذلك:
حطّ الرحال فهذا جهرةً بَردى ... وذي دمشق. هَناك الأهل والدار
نسرٌ يرى اللَّوح منه هامة عطلا ... لكنه ذنبَ الطاووس جرار
وقد وقع تحريف في الأبيات الآتية وصحتها كما يلي:
خافي المطامع طماح المنى عزم ... على الشدائد والسراء ثوار
شجا فؤادي عفاء في مدارسها ... والدهر بالناس دولات وأدوار
إني أرى المجد قد أضفى أشعته ... وأشرقت فيه دولات وأمصار
العدد 213 - بتاريخ: 02 - 08 - 1937
أسبوع التاج
كانت مصر كلها طوال الأسبوع الماضي، من صباح أحده إلى مساء سبته، في سكرة من الطرب النشوان، وفورة من الحماسة المضطرمة. والطرب والحماسة كلمتان مسكينتان لا تقعان من حقيقة الأمر في كثير ولا قليل. وكيف تدرك من هاتين الكلمتين وأشباههما تلك الحالة العجيبة التي قامت بسكان هذا البلد الوفي أبنائه ونزلائه لمقدم الفاروق، وتتويج الفاروق، ومواهب الفاروق، فجعلت كلامهم وأنغامهم وأحلامهم هتافاً لمجده لا يفتر، ودعاء لعهده لا ينقطع؟!
انفعلت قلوب الناس بما أجنته للمليك الشاب من الإعجاب والحب والأمل، فعبرت عن ضوء رجائها، وحرارة ولائها، بهذه الملايين من المصابيح الكهربائية، رصعت بها وجوه العمائر والمتاجر، وجعلت منها عقوداً منظمة على أطوارة الطرق، وأبراجاً متوجة في بُهَر الميادين، وأقواس نصر في مداخل الشوارع؛ وافتن فيها الصناع فرسموا بها أشكالا تعبر عن شتى العواطف، وخطوطاً تسفر عن خالص الأدعية؛ ثم راحوا يرقصون ويهزجون في إشراق باهر تشعه القلوب المتهللة، وتعكسه المدينة المتألقة. ولكن ماذا يصنع الكاتب وقد انبثق في حسه هذا النور، وانفتح في ذهنه هذا العالم، إذا أراد أن يمثله للخاطر البعيد، ويسجله في صحيفة الأبد؟ هل يملك إلا ريشة من المعدن لا تلين، وألفاظاً من اللغة لا تدل؟ وهل اللغة مهما اتسعت موادها إلا أبعاض من صوت النفوس، وأصداء لهتاف القلوب؟ ماذا يقول الكاتب أو الشاعر في ثلاثة ملايين من الناس تجردوا من هموم الحياة وأنانية الذات، واحتشدوا في مسالك القاهرة يسبحون في أمواج هذا النور المعبر، وقد انطوى كل منهم على عالم زاخر بالأماني والأخيلة والأحاسيس، ولا حديث لهم ولا نجوى إلا ملكهم الأعز، وطالعه الأسعد، وعهده الأغر، وخلقه الأكمل؛ هذا يذكر في فخر حادثاً من حوادث ديمقراطيته، وذاك يروي في إعجاب نادرة من نوادر عبقريته، وذلك يقص في زهو عملا من أعمال نبله؛ والألسنة كلها في كل مكان أشبه بلواقط الراديو ذوات المصدر الواحد تردد الحديث نفسه بصوته وطريقته؟
قد يحتشد الناس في أيام الزينة ومواكب النصر بدافع الإيحاء أو الإغراء أو الفضول فيقفون عند الظواهر والأشكال لا يحسون الروح ولا يلمسون الجوهر ولا يحفلون الغرض، ولكن مواكب التاج كانت أنساً خالصاً لكل فرد، وعرساً خاصاً بكل أسرة؛ ساهم فيه كل بماله (نقوطاً)، وبقلبه إخلاصاً، وبسروره غبطة. وهذه هي العقدة النفسية التي تنحل أمامها قوى الكاتب قبل أن يجد لها وصفاً أو يحدد لها علة.
رأيت جلالة الفاروق في حفلات التتويج عن كثب، وفي ذهني صورة طبيعية للغلام الشابل الذي يهدف للثامنة عشرة من سنيه، فإذا رجل وقور الطلعة، رزين الحركة، ظاهر الأبهة، باهر الجلالة؛ نظرته نظرة روحه لا نظرة عينه، وعقله عقل جسمه لا

عقل سنه: فأدركت حينئذ معنى قول الشاعر الفرنسي: (إن النفوس التي تولد على درج العرش لا تنتظر عبقريتها كرور السنين) وتعليل ذلك أن الطفل الملكي متى كان سليم الفطرة تستجيب غرائزه إلى وحي العمل الذي يُهيأ له؛ وعلمه يأنه يهيأ لوراثة الملك يحمله على اتخاذ سَمْته وسِمَته؛ ثم ينشأ في جو يساعده ما فيه من النظام والاحترام ومظاهر القدرة وتقاليد الأسرة على سمو المدارك ونضوج الرجولة؛ ولا ينفك يسمع في مجاري دمه النبيل أصوات أجداده الأمجاد تأمر وتنهي، وتشير وتوحي، وترسم وتدل؛ فإذا رفع إلى العرش واستوى عليه لم يجد في نفسه شيئاً جديداً ينكره، ولا في جوه مظهراً غريباً يستريبه؛ فيسير أمره على ما رسمته النشأة، وهيأته الطبيعة، لا تكلف ولا تعسف ولا تظاهر ولا تذبذب.

لذلك انتقل الفاروق من حال التلميذ إلى حال الملك في سهولة أدهشت الناس في مصر وفي غير مصر.

وليس لهذا الدهش موضع، فإن الرجل الذي يختل توازنه ويضطرب أمره، هو الذي يتحول بغتة من العجز إلى القدرة، ومن الخضوع إلى السلطة، ومن الصعلكة إلى المُلك، فيستر صغره بالكبر، وضعفه بالاستبداد، وفشله بالخديعة؛ ثم لا يطمئن إلى حاله، ولا يستقر في محله، فيتعلق بالظنون، ويستمسك بالدسائس، ويعتصم بالترفع؛ ولكن الفاروق العظيم ربيب المُلك وسليل محمد علي وإبراهيم وإسماعيل وفؤاد يرى نفسه طبيعياً في موضعه؛ وموضعه فوق الحكم وفوق الأحزاب وفوق المطامع، فلا يمكن أن يكون إلا كما تراه. ومخايل الفاروق ودلائل الحال تؤكد أنه سيكون في عهده السعيد المجيد موئل الدستور، وملاذ الحرية، وحارس الدين، وراعي الشعب، ومرشد الحكومة في الحيرة، ومرجع الأحزاب في الخلاف؛ أما ثقافة العقل والجسم والخلق فتلك رسالته التي وكل الله إليه أداءها بالتشجيع والتشريع والقدوة.

أحمد حسن الزيات

السرقات الأدبية

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

سأقص على القراء حادثة أعذر من لا يصدقها ولا ألوم من يرتاب في صحتها، ولكنها مع ذلك حقيقة، وبعض الحقائق أغرب من تلفيقات الخيال. وذلك أني على أثر الثورة المصرية في سنة 1919 ذهبت إلى الإسكندرية لأقضي فيها أياماً أو لأتخذ فيها مقامي - حسب الأحوال - وكنت لا أزال سقيم الأعصاب جداً. وكنا في رمضان فأفطرنا واسترحنا ثم خرجنا لنحيي الليل بالسهر كما هي العادة وكنت منشرح الصدر، ولكني لم أكد أتجاوز عتبة البيت حتى وقفت وقلت لقريبي إني محموم، فأنا راجع، فجسني فلم يجد بي شيئاً فأصررت على أنها الحمى، فرقدت وكنت لا أكاد أطيق الصهد الذي أحسه. وزال عني ذلك بعد ساعة أو اثنتين غير أني لزمت الفراش وعادني طبيب الأسرة في اليوم التالي فقال: إن هذه حمى عصبية. فاستغربت ولكني عانيت من الأعصاب ما جعلني أصدق كل شيء، وبقيت أياماً في البيت زارني في خلالها صديقي الأستاذ العقاد وترك لي رواية روسية أتسلى بها، فأكببت عليها وقرأتها في ساعات أحسست بعدها أني صرت أقوى وأصح بدناً وأقدر على المكافحة والنضال في الحياة، وأنه صار في وسعي أن أستخف بما يحدث لي سقم الأعصاب من الوهم. وعدت إلى القاهرة، ومضى عام فطلب مني بعضهم أن أترجم له رواية؛ فقلت لنفسي إني مدين لهذه الرواية الروسية بشفائي بالروح الجديدة التي استولت علي، فيحسن أن أنقلها إلى العربية عسى أن تنفع غيري كما نفعتني. وقد كان. نقلت الرواية بسرعة، وكنت أذهب إلى المطبعة لتصحيح المسودات فيقول لي العامل أحياناً: إن الأصول نفدت، فأقعد في أي مكان وأفتح الرواية أروح أترجم وأرمي للعمال بالورقة بعد الورقة، وكأني أدون كلاماً حفظته من قبل. ولست أذكر هذا الأباهي به ولا أقول لكم إني رجل بارع، بل لسبب آخر سيأتي ذكره في موضعه. وفرغنا من الترجمة والطبع؛ ولم يعن الناشر بأن يبعث إلي بنسخة من الرواية ولم أعن أنا بأن أطلب أو أدخر نسخة؛ وقد نسيت أن أقول إني سميتها (ابن الطبيعة) وكان اسمها في الأصل (سَنين) وهو اسم بطلها. وليس هذا إعلاناً فقد نفدت من زمان طويل. كان هذا في سنة 1920. وفي سنة 1926 شرعت أكتب قصة (إبراهيم الكاتب) وانتهيت منها ولم أرض عنها فألقيتها في

درج حتى كانت سنة 1930 فخطر لي أن أنشرها، فدفعت بها إلى المطبعة، فاتفق بعد أن طبعنا نحو نصفها أن ضاعت بعض الأصول وكنت لطول العهد قد نسيت موضوعها وأسماء أشخاصها فحرت ماذا أصنع؛ ثم لم أر بداً من المضي في الطبع فسددت النقص ووجهت الرواية فيما بقي منها توجيهاً جديداً. ونشرت الرواية. وبعد شهور تلقيت نسخة من مجلة (الحديث) التي تصدر في حلب وإذا فيها فصل يقول فيه كاتبه إني سرقت فصلا من رواية ابن الطبيعة. فدهشت ولي العذر. واذكروا أني أنا مترجم ابن الطبيعة وناقلها إلى العربية، وأن أربعة آلاف نسخة نشرت منها في العالم العربي، وإني أكون أحمق الحمقى إذا سرقت من هذه الرواية على الخصوص. فبحثت عن ابن الطبيعة وراجعتها وإذا بالتهمة صحيحة لا شك في ذلك، بل هي أصح مما قال الناقد الفاضل. فقد اتضح لي أن أربع أو خمس صفحات منقولة بالحرف الواحد من ابن الطبيعة في روايتي (إبراهيم الكاتب). أربع أو خمس صفحات سال بها القلم وأنا أحسب أن هذا كلامي. حرف العطف هنا هو حرفه هناك؛ أول السطر في إحدى الروايتين هو أوله في الرواية الأخرى. . . لا اختلاف على الإطلاق في واو أو فاء أو اسم إشارة أو ضمير مذكر أو مؤنث. . . الصفحات هنا هي بعينها هناك بلا أدنى فرق.

ومن الذي يصدقني إذا قلت إن رواية ابن الطبيعة لم تكن أمامي ولا في بيتي وأن أكتب روايتي؟ من الذي يمكن أن يصدقني حين أؤكد له أني لم أر رواية ابن الطبيعة مذ فرغت من ترجمتها، وأني لو كنت أريد اقتباس شيء من معانيها أو مواقفها لما عجزت عن صب ذلك في عبارات أخرى؟ لهذا سكت ولم أقل شيئا وتركت الناقد وغيره يظنون ما يشاءون فما لي حيلة. ولكن الواقع مع ذلك هو أن صفحات أربعاً أو خمساً من رواية ابن الطبيعة علقت بذاكرتي - وأنا لا أدري - لعمق الأثر الذي تركته هذه الرواية في نفسي فجرى بها القلم وأنا أحسبها لي. حدث ذلك على الرغم من السرعة التي قرأت بها الرواية والسرعة العظيمة التي ترجمتها بها أيضاً. ومن شاء أن يصدق فليصدق، ومن شاء أن يحسبني مجنونا فإن له ذاك. ولست أروي هذه الحادثة لأدفع عن نفسي فما يعنني هذا، وإنما أرويها على أنها مثال لما يمكن أن تؤدي إليه معابثة الذاكرة للإنسان. وليست الذاكرة خزانة مرتبة مبوبة، وإنما هي بحر مائج يرسب ما فيه ويطفو بلا ضابط نعرفه ومن غير أن يكون لنا على هذا سلطان. فالمرء يذكر وينسى. ويغيب عنه الشيء

ويحضر بغير إرادته وبلا جهد منه، ويعلق بذاكرته ما يعلق وهو غير دار أو مدرك لما يحدث، وتتزاوج الخوالج وتتوالد كما يتزواج الناس ويتوالدون وهو غير شاعر بشيء مما يجري في نفسه من التفاعل وأثره

ولست أحب أن أجعل من نفسي قاضيا يحكم على هذا بالسرقة وعلى ذاك بالانتحال إلى آخر هذا، وإنما أحب أن أعلل وأفسر الحالات أو الحركات النفسية التي تؤدي إلى ما يمكن أن يسمى سرقة أو اقتباساً أو التي تغري إنساناً بما فكر فيه غيره. ولا جديد في تعليلي أو تفسيري فأنه قائم على علم النفس، وإنما الجديد هو التوجيه أو التطبيق، ولا فضل في هذا ولا مزية له. ومن أجل ذلك أقصر هذا في الفصل على الأمثلة فإن المقام لا يتسع لها ولما يبدو لي من وجوه التعليل، وأرجو أن تتاح لي فرصة قريبة أشرح فيها مذهبي ورأيي في هذه الحالات

وقد عني العرب بتعقب شعرائهم، فكل شاعر ظهر له من ينخل كلامه ويغربله ويرد المعاني إلى أصحابها أي إلى الذين سبقوا إليها. والسبق في الزمن هو الذي يكسب السابق الحق في المعنى؛ وأنا أقول المعنى لأنه لم يكن ثم موضوع للقصائد غير الأغراض المألوفة مثل المدح والهجاء والفخر والغزل وما إلى ذلك. ولما كان البيت في الشعر العربي القديم هو الوحدة فقد صارت الأبيات المفردة هي مدار هذا الضرب من النقد؛ فهذا أخذ معنى البيت الفلاني من فلان، وذاك نظر إلى قول علان، إلى آخر هذا إن كان له آخر. ولهم في هذا الباب حكايات بعضها لاشك مختلق والبعض قد يكون صحيحا، وأعني بهذه الحكايات ما يراه المرء في كتب الأدب من أن بعض الشعراء المستهترين المستخفين بالدنيا وما فيها من مثل أبي نواس سمع شاعرا مغمورا ينشد قصيدة فأعجبه معنى بيت فيها فأخذه جهرة وقال: أيروى لك هذا المعنى وأنا حي؟. . ومثل ما يروون من أن المتنبي كان ينكر في حياته أنه قرأ شعر ابن الرومي، فلما قتل وجدوا بين أوراقه نسخة خطية بالطبع من ديوان ابن الرومي وعليها تعليقات بخط

المتنبي. ولا فائدة من محاولة التمثيل لهذا النوع من السرقات فإن الكلام خليق أن يطول بلا جدوى ومن غير أن نجيء فيه بجديد وأكثر القراء يستطيعون أن يرجعوا إليه إذا شاءوا في كتب الأدب المتداولة. لهذا أوثر أن أسوق أمثلة مما في الآداب الغربية مما يدخل في باب السرقات فإن الأمر في هذه أمر

موضوع يقتبس، أو قصيدة برمتها تؤخذ من أولها إلى آخرها على طولها بالحرف الواحد. والقليلون يعنون بتعقب هذا فذكر أمثلة منه خليق أن يكون أمتع.

أشهر شعراء الإغريق هومر كما لا أحتاج أن أقول؛ وقد قرأت ترجمتين إنجليزيتين له وحطمت رأسي بهما وأعترف أنه لم يرقني منه إلا القليل، ولكن كنت أخشى أن أجاهر بهذا الرأي لئلا يقول عني إخواني إن ذوقي فاسد أو إن بي نقصاً في الاستعداد الأدبي؛ أما الآن فإني أستطيع أن أجهر بذلك وأن لا أخشى تهماً كهذه. على أني لا أذكر هومر الآن لأقول رأيي فيه بل لأروي قصتين صارتا الآن معروفتين: الأولى أن الأدب الإغريقي كان في العصور الوسطى مجهولاً أو مدفوناً وكان لا يعرفه إلا الرهبان الذين احتفظوا بنسخ منه ضنوا بها على النشر والإذاعة لأنه أدب وثني، وفيما عدا هؤلاء الرهبان لم يكن أحد يعرف شيئاً لا قليلا ولا كثيراً عن الأدب الإغريقي، فكان من سخرية الأقدار أن الرجل الذي رد إلى العالم هومر في القرن الرابع عشر كان سكيراً نصاباً وشريراً كبيراً، وأن الرجل الذي حمله على ترجمة هومر كان من أبرع كتاب النهضة، وأن الرجل الذي آلى على نفسه أن يعمل على نشر جمال الأدب الإغريقي في العالم كان لا يعرف حرفاً واحداً من اللغة الإغريقية. هؤلاء الثلاثة الذين جمعهم الحظ هم بيلاتس وبوكاكشيو وبترارك فأما أولهم فكان مغامراً يؤثر أن يستخفي لأسباب لعل البوليس أعرف بها؛ وكان قذراً كثير الشعر دميم الخلقة، ولكنه كان يعرف اللغة الإغريقية فجاء به بوكاكشيو وأنزله عنده ضيفاً فبقي ثلاث سنوات. أما بوكاكشيو فمعروف مشهور وهو عندي أنبغ نوابغ الإيطاليين ولكنه كان ساذجاً وكان لا يعرف قدر نفسه وكان عظيم التوقير لبترارك حتى لقد صار في آخر حياته يخجل لأنه كتب ما كتب باللغة الإيطالية العامية لا باللاتينية. وأما بترارك فقد اقتنع لسبب لا نعرفه بأن المخرج الوحيد من السوء الذي يراه في زمانه هو إحياء درس الأدب الإغريقي، ويظهر أنه كان هناك اعتقاد بأن هذا الأدب المقبور هو القادر وحده على حل المشاكل التي كانت تواجه العالم في ذلك الزمان، وهكذا عرف الناس هومر بعد أن قبره الزمن عدة قرون.

ومن المحقق أن هومر كان يعرف الأساطير المصرية وأنه استعان بها في قصيدته - الإلياذة والأوديسية - وأحسب أن كثيرون قرءوا البحوث التي نشرها الأستاذ عبد القادر حمزة وأثبت فيها - استناداً إلى ما وقف عليه وكشف عنه العلماء بالآثار المصرية والتاريخ المصري القديم - أن هومر أخذ كل العقائد وكل القصص من المصريين. والمصريون كما لا يحتاج أن أقول - أسبق بآلاف السنين لا بمئاتها فقط، وهم الذين نشروا في العالم القديم العقائد التي لا تزال باقية إلى اليوم. وهم أول من فكر في الروح والآخرة والحساب والعقاب. وقد ذهبت مدنيتهم ولكن آثارها بقيت وهي على قلتها كافية للدلالة على حضارتهم. وقد نشر الأستاذ عبد القادر حمزة النصوص وأثبت منها أن هومر أخذ قصصه من مصر وأن كل ما فعله هو تغيير الأسماء وقلبها إغريقية. وأنا أزيد على ذلك أن هيرودوت يقول عن هومر كلمة لها مغزاها، ذلك أنه يصف عمله بأنه (تنظيم)، ويقول عنه في موضع آخر إنه وضع (إطاراً) للقصص، وفي موضع آخر أيضاً إنه (جمع). ومعنى هذا أنه كان معروفاً أن هومر لم يبتكر قصصه وإنما جمعها ورتبها ونظمها. ويظهر أنه كانت هناك روايات متعددة مختلفة وأن هومر شعر بالحيرة بينها ولم يدر أيها يؤثر: الرواية المصرية أم الروايات المشوهة التي شاعت في إسبارطة وأثينا وفي غيرهما؟ ولهذا اضطرب ولم يستقر على رأي في أيهما هو البطل - هكتور أو أخيل - ويرجح بعضهم أنه لحيرته بين الروايات المختلفة أعد نصين، واحداً ينشده على الجانب الآسيوي والآخر ينشده على الجانب الأوربي. على أن المهم أن هومر أخذ موضوعه كله بكل ما انطوى عليه من مصر، فلولا مصر لما كان هومر.

وأحسب أن الدنيا ما كانت حينئذ تخسر شيئاً فقد أصبح هومر اسماً لا أكثر وأدع التوافه مثل قول أكثر من ناقد واحد: إن الرومان مدينون بفكاهتهم للإغريق، وإنه ما نكتة في الأدب الروماني إلا وهي مأخوذة من نكت الإغريق أو لها ما يقابلها عندهم، ومثل قولهم إن (الأبولوجيا) أو الاعتذار الذي كتبه سنيكا لما أمره نيرون بالانتحار ليس

سوى تقليد ضعيف للأبولوجيا التي كتبها أفلاطون عن سقراط بعد الحكم على سقراط بالموت، ومثل قولهم إن وصف درع (إينياس) في قصيدة فرجيل مأخوذ من وصف هومر لدرع أخيل، وقولهم أيضاً إن خير ما في إينيادة فرجيل منقول بالحرف من وأن القصيدة كلها في الحقيقة ليست أكثر من مقاطيع منقولة من شعراء سابقين مثل هومر وأبوللونيوس ورودياس ولوسيلياس ولوكريشلاس وأن مكروبيوس ضبط كل هذه السرقات، ومثل
قولهم إن الشاعر الإنجليزي (مارلو) - معاصر شكسبير - انتحل أبياتاً كثيرة ترجمها عن اليونانية في روايته (الدكتور فاوست). أدع كل هذا لأنه كما قلت من التوافه وأثب إلى ملتون الشاعر الإنجليزي المشهور، وأعترف أني لا أحبه وأني ما استطعت في حياتي أن أقرأ له قصيدة مرتين. وأشهر ما لملتون قصيدة (الفردوس المفقود) وأختها (الفردوس المستعاد) والأولى لا الثانية هي التي تقوم عليها شهرته. وهذه يقول النقاد إن من المعروف أنها عبارة عن جملة سرقات من ايسكلاس ودافيد وماسينياس وفوندل وغيرهم. ولكنه لم يكن معروفاً أن الفردوس المفقود كله - موضوعه ومواقفه وعباراته أيضاً - مترجمة ترجمة حرفية عن شاعر إيطالي مغمور غير معروف كان معاصراً لملتون. لم يكن هذا معروفاً حتى اهتدى إليه (نورمان دوجلاس) فقد اتفق له أن عثر على نسخة وحيدة من رواية (ادامو كانوتو) لمؤلفها (سرافينو ديللا سالاندرا) وهذه الرواية وضعت في سنة 1647.
وأنا أنقل هنا ما يقوله (نورمان دوجلاس) قال:
سأسوق الآن بلا تمهيد ما يكفي لإثبات أن الفردوس المفقود ليس إلا نقلا وترجمة لهذه الرواية
محور قصيدة سالاندرا هو ما أصاب العالم من جراء العصيان الذي أغري به الإنسان الأول. وهذا هو محور موضوع ملتون
والأشخاص في رواية سالاندرا هم الله، وملائكته، والإنسان الأول والمرأة الأولى والحية وإبليس وزملاؤه. وكذلك في قصة ملتون
وفي فاتحة القصيدة أو التمهيد لها يذكر سلاندرا الموضوع ويتكلم عن الله وأعماله. وكذلك يفعل ملتون
ثم يصف سلاندرا مجلس الملائكة المتمردين وسقوطهم من السماء في منطقة جرداء نارية ويسوق أحاديثهم وكيف أنهم يحقدون على الإنسان ويتفقون على الاحتيال على إسقاطه ويقررون أن يجتمعوا في الهاوية حيث يتخذون التدابير الخليقة أن تجعل من الإنسان عدواً لله وفريسة لجندهم. وكذلك في ملتون
وسالاندرا يجسد الخطيئة والموت ويجعل الموت ثمرة الخطيئة. وكذلك يفعل ملتون
ويصف سالاندرا سبق العلم الإلهي بنتيجة الإغواء وسقوط الإنسان وتهيئته تعالى لأسباب الخلاص. وكذلك ملتون
ويصف سالاندرا موقع الجنة والحياة السعيدة فيها. ويفعل ملتون مثله
ويشرح سالاندرا الإعجاز في خلق العالم والإنسان وفضائل الثمرة المحرمة. وكذلك ملتون
ويروي سالاندرا الحوار الذي دار بين حواء والحية ويصف الأكل من الشجرة المحرمة واليأس الذي استولى على أبوينا - آدم وحواء - وكذلك ملتون
ويصف سالاندرا فرحة الموت بما ارتكبته حواء والسرور الذي عم الجحيم والحزن الذي انتاب آدم وخروج آدم وحواء من الجنة وحزنهما وندمهما. وكذلك يفعل ملتون
ويتوقع سالاندرا مجيء المخلص وهزيمة الخطيئة والموت ويتكلم عن عجائب الخلق
ويصف قتل قابيل لأخيه هابيل ويذكر الخطيئات في الدنيا والحرب وأهوالها. وكذلك ملتون
ويصف سالاندرا الحب الذي ينطوي عليه عيسى عليه السلام والعزاء الذي يشعر به آدم وحواء حين يبشرهما الملك بمجيء المسيح ثم خروجهما من جنتهما الأرضية. وكذلك يفعل ملتون
فالموضوع مأخوذ برمته كما أثبت ذلك نورمان دوجلاس. ويقول برتون راسكو: (إن هذا ليس كل شيء ويحيل القارئ على كتاب اسمه (أولد كالابريا) - كالابريا القديمة - ويؤكد أنه يؤخذ منه أن ملتون ترجم قصة سالاندرا حرفا بحرف وأن ما ليس مترجما

عن سالاندرا مترجم عن غيره من الشعراء القدماء
والذي يجعل الأمر أغرب أن ملتون كان قد أعلن قبل ذلك عزمه على نظم قصة خالدة لا يسمح الناس بأن يدعوها تموت وتقبر، ويعني بها الفردوس المفقود، وبعد أن أعلن عزمه هذا بسط لسانه في كل الشعراء الإنجليز الذين تقدموه مثل شوسر وسبنسر وشكسبير ومارلو وجونسون ووصفهم بأنهم صناع آليون، وانتقد هومر وفرجيل وتاسو وعاب شعرهم. ويعلل نورمان دوجلاس اهتداء ملتون إلى قصة سالاندرا بأن ملتون لقيه في رحلته إلى إيطاليا، وأن سالاندرا يرجح أن يكون أعطاه نسخة من قصته عسى أن يعينه على ترجمتها إلى الإنجليزية. ويقول إن ملتون كان له أصدقاء يراسلونه من إيطاليا وإنه قابل جروتياس في باريس وجاليليو في فلورنسا، وإنه يحتمل أن يكون هذان قد أعطياه
نسخة من القصة لما نشرت بالإيطالية. والمحقق على كل حال أن قصيدة الفردوس المفقود نسخة طبق الأصل من قصيدة سالاندرا الإيطالي.
وأنتقل الآن إلى ما هو أحدث في أثناء الحرب العظمى. لم يكن لنا عمل بعد السعي وراء الرزق إلا القراءة والإطلاع واتقاء التعرض لمكاره الاعتقال والسجن وما عسى أن يكون وراءهما. وقد وقتني الكتب ذلك مرة وجاء القوم يفتشون بيتي وكان معهم ضابط إنجليزي، فلما دخل المكتبة وأجال عينه في الرفوف وما عليها من كتب الأدب حسن رأيه فيّ ومال إلى الرفق، فانتهى الأمر بخير. ولكن هذا استطرد فلنرجع إلى ما كنا فيه. والذي أريد أن أقوله هو أن صديقي الأستاذ العقاد أعارني يوماً قصة (تاييس) لأناتول فرانس فقرأتها بلهفة فقد استطاع المترجم الإنجليزي أن يحتفظ بقوة الأسلوب وتحدره وبراعة العبارة وسحرها. ومضت بضعة شهور ثم دفع إلي الأستاذ العقاد رواية (هايبيثيا) للكاتب الإنجليزي (تشارلز كنجزلزي) فقرأتها أيضاً، ثم سألني: ما رأيك؟ قلت: غريب. قال: إن الروايتين شيء واحد. قلت: صحيح
والواقع أن الروايتين شيء واحد وأن تاييس مأخوذة من هايبيثيا بلا أدنى شك. وفي وسع من شاء أن يقول إن أناتول فرانس ما كان يستطيع أن يكتب - أو ما كان يخطر له أن يكتب روايته لو لم يسبقه تشارلز كنجزلزي إلى الموضوع. ذلك أن تاييس في رواية أناتول فرانس هي هايبيثيا في رواية كنجزلزي، والعصر هو العصر والبلاد هي البلاد، وكل ما هنالك من الاختلاف هو أن أناتول فرانس أستاذ فنان، وأن تشارلز كنجزلزي أستاذ مؤرخ. وأنا مع ذلك أفضل رواية هايبيثيا وأراها أكبر وأعمق وأملأ للنفس وأمتع للعقل، فما لأناتول فرانس في تاييس غير براعة الأسلوب وحلاوة الفن، ولكن الصور في رواية هايبيثيا أتم وأصدق، والشخصيات أكثر ورسمها أقوى وأوفى والموضوع أحفل. وفي وسعي أن أقول بلا مبالغة إنها تعرض عليك عالماً تاماً لا ينقصه جانب واحد من الجوانب؛ وأما تاييس فليست سوى لمحة خاطفة من هذا العالم وتشارلز كنجزلزي يرسم لك الحياة في تلك الفترة من تاريخ مصر بكل ما انطوت عليه ويريك الناس والأشياء والعادات والأخلاق والآراء والفلسفات الشائعة والفردية بدقة وأمانة، أما أناتول فرانس فيرسم لك بقلمه البارع خطوطاً سريعة تريك ما وقع في نفسه من ذلك
العصر، فهو أشبه بالمصورين الذين يجرون على طريقة الامبرشزنم أي الذين يصورون وقع المناظر في النفس لا المناظر كما هي في الحقيقة والواقع.
هذا بعض ما يسعني ألان أن أذكره وأمثال هذا كثير في الآداب الغربية، وليس له في الأدب العربي نظير، وأسباب ذلك كثيرة يطول فيها الكلام فلنرجئها إلى فرصة أخرى تتسع لوجوه التعليل المختلفة.
إبراهيم عبد القادر المازني
في التاريخ السياسي:
المأساة الفلسطينية ومشروع التقسيم البريطاني
بقلم باحث دبلوماسي كبير
لما تسربت الأنباء الأولى عن مشروع اللجنة الملكية البريطانية في تقسيم فلسطين إلى دولتين إحداهما عربية والأخرى يهودية، وقبل أن يذاع تقرير اللجنة أبدينا في (الرسالة) أن هذا الحل الجديد الذي ابتكرته السياسة البريطانية لتسوية المسألة الفلسطينية لم يكن حلاً موفقاً، وأنه لا يمكن أن يرضي أحداً من الفريقين المتنازعين

والآن وقد مضت أسابيع على ظهور تقرير اللجنة عن مشروع التقسيم، وعرفنا إلى أي حد ذهبت اللجنة الملكية في استنتاجاتها وفي توصياتها، وكيف استقبل العرب مقترحاتها بعاصفة من السخط والإنكار المطلق لا في فلسطين وحدها ولكن في جميع أنحاء الجزيرة العربية، وكيف اعتزمت فلسطين أن تستأنف النضال في سبيل حياتها وكيانها، وكيف تغدو اليوم وشيكة انفجار جديد لا تؤمن عواقبه، فأنه يصعب علينا أن نعتقد أن الحكومة البريطانية التي أقرت مقترحات اللجنة على عجل لم تعتده في مثل هذه المناسبات الخطيرة، ستغضي عن هذه العوامل الجيدة التي ظهرت في الميدان منذ ظهور التقرير، والتي لا يمكن أن تعاون على استتباب السلام المنشود في فلسطين

إن مشروع التقسيم الذي تقترحه اللجنة يمزق فلسطين شر ممزق بل هو يقضي القضاء الأخير على كيانها القومي ويخرجها من عداد الأمم والمجتمعات ذوات المميزات الخاصة ويحرمها من كل أمل في التقدم والنهوض؛ وإن نظرة واحدة إلى الحدود المقترحة لهذا التقسيم تكفي للحكم بأن فلسطين تمحى بمقتضاه من خريطة الوجود ولا يبقى منها برسم الدولة العربية الجديدة سوى صخور وبسائط صحروية لم يتح للعمران طيلة القرون أن يذللها وأن يستثمرها؛ وماذا عسى أن يبقى من فلسطين العربية إذا اقتطعت منها كل سواحلها وثغورها وقواعدها المقدسة وكل بقاعها الخصبة؟ إن الدولة اليهودية التي يشير التقرير بإنشائها تشمل في الواقع كل قواعد فلسطين وثغورها التاريخية عدا ثغر يافا الذي يبقى وحده مخرجاً بحرياً للقسم الصحراوي الذي خصص للعرب؛ أما بقاع فلسطين المقدسة التي لبثت علماً عليها طوال القرون فقد تقرر أن تؤلف منها منطقة خاصة توضع تحت أشراف عصبة الأمم أو بالحري تحت إشراف الانتداب البريطاني، وبذلك تجرد كل فلسطين من قواعدها التاريخية وكل ثرواتها ومواردها الاقتصادية في مصلحة الدولة اليهودية الجديدة؛ ومع ذلك فاللجنة الملكية تنوه في تقريرها بأهمية هذا التقسيم بالنسبة للعرب، وتقول لنا إنه (سيمكنهم من الحصول على استقلالهم الوطني والتعاون على قدم المساواة مع العرب في البلاد المجاورة، وذلك في كل ما يؤول إلى وحدة العرب ونجاحهم وسيخلصون نهائياً من خوف تسلط اليهود عليهم ووقوع الأماكن المقدسة بيد اليهود)

على أن هذه الألفاظ المعسولة لا تغير شيئاً من الحقيقة الهائلة وهي أن مشروع التقسيم يمحو فلسطين العربية من خريطة الوجود لينشئ على أنقاضها وتراثها التاريخي مملكة إسرائيل وليحقق بذلك حلم اليهودية القديم؛ نعم إن المساحة التي تضمها الدولة اليهودية الجديدة هي أقل مما تطمح إليه اليهودية، ولكنها تحتوي كما قدمنا على أطيب ما في فلسطين من قواعد وثغور، واليهودية تغدو في هذا الحيز الضيق أقوى وأشد إيماناً بالمستقبل؛ ثم هي مع ذلك بدء فقط؛ واليهودية تأسف بلا ريب أن تخرج بيت المقدس من قبضتها وهي مثوى تراثها الروحي وذكرياتها المقدسة، ولكنها تتعزى عن ذلك بخروجها من قبضة العرب أيضاً، وكونها وهي في يد إنكلترا أقرب إلى نفوذهم؛ ومن يدري فقد تسنح الفرصة فيما بعد لاستردادها بطريقة من الطرق، وبذلك يصبح ظفر اليهودية بإحياء مملكة إسرائيل القديمة كاملا شاملا والخلاصة أن مشروع التقسيم هو قرعة الفناء للأمة الفلسطينية وهي حقيقة لم يتردد العرب لحظة في إدراكها، ومن ثم كان رفضهم للمشروع بهذا الإجماع السريع المؤثر الذي هو عنوان الخطر القومي، والذي تلوذ به الأمم المجاهدة في مواقف الحياة والموت؛ ولقد جاهدت فلسطين مذ نكبت بالانتداب والوطن القومي اليهودي في سبيل حريتها وعروبتها، ولم تقبل أن تكون ميداناً لهذه التجربة اليهودية الخطرة التي لم تكن تتوجها مع ذلك أية صبغة شرعية أكثر من وعد الحكومة البريطانية بمؤازراتها، فكيف ينتظر منها أن تقبل اليوم أن تقوم في قلبها وفي أطيب بقاعها مملكة يهودية تتمتع بصفة شرعية دولية، تنازعها البقاء وتنذرها بالفناء العاجل بما هيئ لها من أسباب التفوق السياسي والاقتصادي والاجتماعي

ومن حسن الطالع أن الأمة الفلسطينية لا تقف وحدها في هذا النضال الذي هو بالنسبة إليها معركة الحياة والموت، فإن شقيقاتها العربيات قد فزعت لفزعها وهبت من حولها تنصرها وتشد أزرها بالقول والعمل معا، فألقى رئيس الوزارة العراقية

تصريحاته الرسمية المعروفة في إنكار مشروع التقسيم والحملة عليه بشدة، وفي التنويه بما تتعزمه العراق من مقاومته باعتباره خطراً لا على فلسطين وحدها ولكن على الأمة العربية بأسرها؛ ولم يقف رئيس الوزارة العراقية عند هذه التصريحات القوية الحازمة بل قدم احتجاجه بصفة رسمية إلى الحكومة البريطانية؛ وأيد الشعب العراقي موقف حكومته بتنظيم مظاهرات الاحتجاج في بغداد وغيرها؛ وحذت الحكومة السورية حذو الحكومة العراقية في إلقاء التصريحات الرسمية بمعارضة مشروع التقسيم، وفي توجيه الاحتجاج الرسمي إلى الجنة الانتداب بعصبة الأمم، وقام الشعب السوري بمظاهرات مماثلة لتأييد فلسطين في موقفها؛ وقامت مظاهرات مماثلة في الحجاز، وما تزال عواصم الجزيرة العربية كلها تضطرم بأمواج الاحتجاج والسخط على مشروع التقسيم والعطف على فلسطين وتأييدها في جهادها. كذلك لم تكن مصر بمعزل عن هذه الحركة وإن تكن الحكومة المصرية قد آثرت أن تعمل في صمت وهدوء؛ فقد أعرب رئيس الحكومة المصرية في بيانه الرسمي بمجلس الشيوخ عن اهتمام الحكومة المصرية بالقضية الفلسطينية وأشار إلى ما جرى من اتصاله بالحكومة البريطانية في شأنها أكثر من مرة، وإلى أنه عقب ظهور تقرير اللجنة الملكية قد بادر باستئناف هذا الاتصال والسعي بالمسائل الدبلوماسية إلى العمل على صيانة حقوق العرب ومصالحهم، مؤثراً ألا تكون هذه المساعي موضع المناقشة العلنية حرصاً على مصلحة فلسطين ذاتها؛ هذا إلى ما أبدته الهيئات السياسية والوطنية المصرية من احتجاج على مشروع التقسيم وتأييد قلبي لفلسطين.

والواقع أن قيام اليهودية في فلسطين في مثل هذا الحشد القوي المنظم، خطر داهم لا على فلسطين وحدها، ولكن على العالم العربي والإسلامي كله؛ ويزيد هذا الخطر ويذكيه أن تنتظم اليهودية على هذا النحو إلى دولة ذات شخصية مستقلة تجثم في قلب العالم العربي؛ وهذا الخطر متعدد النواحي، فمن الوجهتين السياسية والاقتصادية يخشى أن تكون هذه الدولة الجديدة التي لا يتأتى لها البناء إلا على ما تستطيع تقويضه من صروح الأمة

العربية، مصدر اضطراب دائم في هذا الجزء من الجزيرة العربية؛ وخطرها السياسي على كيان الأمة العربية ظاهر لا يحتاج إلى بيان؛ أما خطرها الاقتصادي فنحن نعرف كيف تعمل اليهودية بوسائلها القوية المعروفة أينما حلت على الاستئثار بجميع الثروات والمرافق؛ على أن هناك خطراً أشد وأفدح من قيام اليهودية في صميم المجتمع العربي والإسلامي على هذا النحو، هو الخطر المعنوي إذا صح التعبير؛ ذلك أن اليهودية كما يشهد تاريخها الفكري والفلسفي تضطرم دائماً بروح الثورة والانتفاض والهدم، وقد كان هذا الروح الثوري الهدام مبعث كثير من الحركات الثورية الهدامة الخفية والظاهرة التي قلبت أوضاع المجتمع، وبثت إليه كثيراً من عناصر الانحلال والفوضى؛ ويكفي أن نمثل لذلك بالشيوعية التي تعتبر اليوم أخطر عناصر الهدم، فهي من نفثات العقلية اليهودية؛ ومذ حلت الصهيونية في فلسطين ظهرت معها العناصر الشيوعية وأخذت تتسرب إلى مصر وسوريا والعراق؛ وهذه العناصر الثورية الهدامة التي تحملها اليهودية معها إلى فلسطين، تغدو إذا ما اشتد ساعد الدولة اليهودية الجديدة خطراً داهما على الأمم العربية التي تجثم في صميمها.

والأمم العربية تقدر كلها هذا الخطر، وكلها من وراء فلسطين في درئه ومقاومته؛ وقد أبدت فلسطين عزمها جلياً قاطعاً على استئناف النضال إذا لم تسمع شكايتها العادلة، وإذا أريد أن تفرض عليها سياسة التقطيع والتمزيق بالقوة القاهرة. على أننا من جهة أخرى نعتقد أن السياسة البريطانية الفطنة لم يفتها أن تقدر ما كان لمشروع التقسيم من سوء الواقع، ولم يفتها بالأخص أن تلاحظ موقف البلاد العربية والإسلامية الأخرى وما ينطوي عليه من دلائل لا تستطيع السياسة البريطانية أن تغفلها؛ ومع أن الحكومة البريطانية قد وافقت على تقرير اللجنة الملكية عن مشروع التقسيم فإن ذلك لا يعني أنها قد اتخذت خطتها النهائية إزاء المسألة الفلسطينية؛ كذلك لم يتخذ البرلمان البريطاني أي قرار في شأن المشروع بالرغم من المناقشات العديدة التي جرت حوله والتي لم تخل من بعض ميول معارضة للتقسيم؛ بل آثر أن يرجئ قراره حتى تنتهي لجنة الانتداب الدائمة لعصبة الأمم من بحث المشروع، وهو الآن أمامها قيد النظر.

والخلاصة أن السياسة البريطانية لا تزال بالنسبة للمسألة الفلسطينية في مفترق الطرق،
وهي إذا استطاعت أن تغفل اعتراضات العرب على مشروع التقسيم وإقامة الدولة اليهودية، فأنها لا تستطيع أن تغضي عن موقف الأمم العربية والإسلامية، وهي جميعاً تؤيد فلسطين في ظلامتها ومحنتها؛ وإنكلترا التي تربطها بالأمم العربية والإسلامية روابط صداقة متينة هي اليوم أشد حاجة منها في أي وقت آخر إلى تأييد هذه الأمم ومحالفتها؛ وموقع فلسطين والجزيرة العربية في طريق المواصلات الإمبراطورية أمر جوهري بالنسبة لمستقبل الدفاع عن الهند والإمبراطورية البريطانية؛ فهذه العوامل كلها مما يحملنا على الظن بأن المسألة الفلسطينية قد تجوز تطورات هامة أخرى قبل أن يستبين المصير النهائي الذي قدر لها؛ وللسياسة أعاجيب لا تفنى وكم سمعنا أيام اشتداد النضال بين مصر وإنكلترا، وعيد السياسة البريطانية بضم مصر إلى الإمبراطورية إذا لم تخلد إلى السكينة وتقبل المصير الذي يفرض عليها، ولكن مصر لم تن للوعيد حتى اضطرت سياسة القوة الغاشمة أن تختفي، وأن تترك المجال حراً لسياسة التفاهم والوفاق؛ وكل ما نرجوه في هذه الكلمة هو أن توفق الأمة الفلسطينية المجاهدة في دفاعها المؤثر عن كيانها، وأن يكلل جهادها بما يحقق أمانيها وطمأنينتها.

بمناسبة إشراق دولة الفاروق الجديدة

لمحات من شمس الأمس الغاربة

السلطان الغوري ومفاوضاته الدولية

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

تستقبل مصر اليوم عهدها الجديد المشرق بتولية مليكها المحبوب الذي يتربع فوق عرش القلوب ويحكم شعبه عن ولاء ثابت له في حنايا الصدور. وعهد الفاروق وإن كان جديداً ناضراً يستأنف عهود المجد السابقة ويسترجع آيات العلا الغاربة فقد كانت مصر أبدا واسطة عقد الدول وجوهرة تاج المدنية.

وإن لعهدنا الحاضر معنى خاصا في تاريخ البلاد، ونحن إذ نحتفل في هذين اليومين بتتويج مليكنا المحبوب فإنا نشهد يوما من أكبر أيام مصر وأعظمها دلالة وأحفلها ببواعث الفخر والاعتبار والسرور، وذلك لأن عهد الفاروق الجديد أول عهد يخفق فيه على مصر علم الاستقلال بعد فترة سلب الدهر منها علمها ونزع عنها تاجها. ونود هنا أن نتخطى القرون الماضية التي شهدت تلك المأساة فنطفر إلى آخر عهد كان فيها ذلك العلم عالياً مكرماً عزيزاً، لنذكر في نشوة السرور الحاضرة بعض ما كان لبلادنا من العز الغابر لنحس بالنشوتين معا نشوة الأمل الطالع ونشوة ذكرى المجد التالد.

كان قانصوه الغوري آخر السلاطين العظماء الذين حكموا مصر منذ انقرضت دولة الأيوبيين في مصر فتعاقبوا على حكمها نحو ثلاثة قرون كانت مصر فيها أقوى أمم الشرق والغرب وتبسط سلطانها على الشام والنوبة ويمتد نفوذها في البحر حتى قبرص وتدين لها بلاد الشرق قاطبة بالزعامة وتتقرب إليها دول الغرب قاطبة لابتغاء ما عندها من كنوز التجارة ولتخطب مودتها في السلم ولتتقي عدواتها في الحرب، وكانت مع كل ذلك قلب المدنية التي تكدست فيها آثار العلم والفن والصناعة التي بلغتها الإنسانية إلى ذلك الوقت

تولى قانصوه في مارس سنة 1501 وهو جركسي الأصل. نشأ في بيت الملك الأشرف قايتباي العظيم ومازال حتى صار أميراً من أمراء الجيش ووكلت إليه قيادة فرق الحدود المصرية في طرسوس وكليكية وملطية. فلما مات قايتباي اختاره الملك الناصر ابنه لرياسة

أمراء حلب وصار من كبار الأمراء الذين كان يقود كل منهم ألف فارس في الحرب، وكانوا لذلك يسمون (مقدمي الألوف)؛ وبلغ بعد ذلك إلى أكبر مراتب الدولة فأصبح دوادارا ثم وزيراً. وحدثت عقب ذلك أحداث جعلت الناس يتطلعون إليه ليجعلوه سلطاناً. ولم يرض بذلك في أول الأمر إذ كان يؤثر أن يكون أحد كبار الأمراء حتى لا يتعرض للمسئولية الجسيمة التي يتطلبها تبوء العرش. ولكن كبار الأمراء اضطروه إلى قبول التاج اضطراراً حتى قيل إنه بكى عندما عجز عن مقاومتهم ونزل مرتين عن الجواد الذي أركبوه إياه ليسروا به إلى القلعة ليحتفلوا بتوليته السلطنة بها

ولي الغوري عرش مصر ولقب بالملك الأشرف أبي النصر. وسار في القاهرة عقب ذلك في موكب حافل يحف به الأمراء وجنود الجيش المظفر، وكان يلبس الخلعة الرسمية التي كانت عادة السلاطين أن يلبسوها وهي الخلعة التي أهداها الخليفة العباسي إلى السلطان العظيم بيبارس من قبل منذ نيف وقرنين عندما انتقلت الخلافة العباسية إلى القاهرة عقب تحطيم التتار بغداد وقضائهم على الحكم العباسي بها.

سار السلطان قانصوه في ذلك الموكب يلبس تلك الخلعة وهي عبارة عن جبة سوداء وعمامة سوداء وطوق من الذهب حول العنق وسيف بدوي متدل من حمائله، وحملت على رأسه المظلة الرسمية التي يعلوها رسم طير من الفضة المذهبة. وكان عمره عند ذلك نحو الستين وله لحية ضرب فيها البياض، وهو بدين أسمر اللون واسع العينين.

وكانت مصر في أيامه مركز حركة سياسية متصلة لا تنقطع لأن أحوال العالم في وقته كانت تؤذن بشر انقلاب عرفه التاريخ الحديث

كانت أسبانيا قد تمكنت من طرد العرب من غرناطة، ولم تكد مصر تفيق من تلك الهزة حتى سمعت بأن دولة أخرى مجاورة وهي البرتغال قد عرفت طريقاً إلى الشرق تسير فيه السفن من بلادها إلى الهند مباشرة عن طريق البحر حول رأس الرجاء، وكانت بلاد العالم كله تتطلع إلى مصر لتنظر ما هي فاعلة في هذين الحادثين وتترقب سير هؤلاء البحارة الذين هاجموا بحار الشرق ليروا أيستطيعون أن ينفذوا الحلم الذي تصوروه في محاولة القضاء على تجارة مصر. وكانت مدن أوربا المطلة على البحر الأبيض المتوسط كالبندقية تقف عند ذلك مشدوهة تنظر تارة إلى مصر وتارة إلى شبه جزيرة الأندلس، وهي تحاول

أن تحتفظ بمودة الأولى لتحتفظ بتجارتها معها وأن تحتفظ بمودة الثانية خشية على سمعتها بصفتها إحدى البلاد المسيحية الخاضعة للبابا والتي ما كان ينبغي لها أن تعادي المسيحيين في سبيل نصرة المسلمين.

وكانت حدود مصر الشمالية تضطرب كذلك بين قوتين ناشئتين إحداهما قوة الشاه إسماعيل الصفوي في بلاد العراق وإيران، والأخرى قوة النزلاء العثمانيين في بلاد الأناضول وأوربا، فقد كان محمد الفاتح أتم فتح القسطنطينية وجعل عاصمة دولته فيها محل الدولة البيزنطية العظمى. وكان الشاه إسماعيل الصفوي قد جمع أكثر العراق وإيران في دولة عظيمة تهدد الشرق كله بأن تكتسح بلاده وتبسط عليها مذهبها الديني الشيعي.

وكانت دولة الصفوي أشد دول الشرق خطرا على حدود مصر لأنها كانت تتبع طريق الدعاية والخفاء في الإغارة على البلاد التي تليها. وكانت لا تتورع عن أن تحالف المسيحيين لتساعدهم على القضاء على عظمة الدولة الإسلامية السنية الكبرى وهي مصر

فكانت القاهرة بطبيعة هذه الظروف مركزا لتيارات مختلفة بعضها مقبل من الشرق وبعضها من الغرب، لكل منها وجهة ولكل منها لون. وسننقل هنا بعض مناظر المفاوضات السياسية التي شهدتها أبهاء الحكم عند ذلك

كانت أسبانيا تدين لملك كبير وملكة عظيمة جمعا تاجي قشتالة وأرغونة في سبيل توحيد كلمة مسيحي الأندلس، وتمكنا بذلك من القضاء على آخر أثر من آثار الحكم الإسلامي الذي كان لا يزال يتحصن في غرناطة. وبلغت شكوى مسلمي الأندلس مسامع العالم الإسلامي ولاسيما دولة مصر ذات المجد التالد. وخشي عاهلا الأندلس أن يفتح ذلك عليهما باب الجهاد الصليبي القديم؛ وشاعت إشاعات سوداء عن عزم سلطان مصر أن ينتقم من رعاياه المسيحيين للثأر لمن وقعت عليهم مظالم أسبانيا من مسلمي المغرب.

فعوّل ملكا أسبانيا على أن يرسلا من قبلهما إلى مصر رسولا عظيم المقام في الدولة وهو (بطرس مارتير دانجير) وسار من غرناطة مارّا بفرنسا وإيطاليا وأبحر من البندقية في سبتمبر سنة 1501 وبلغ الإسكندرية في ديسمبر من ذلك العام

تردد السلطان الغوري في مقابلة ذلك السفير ولكنه سمح له بعد لأي بأن يمثل بين يديه، وكان ترجمان السلطان (تنجري بردى) من أصل أسباني فساعد على تخفيف ما كان عند

السلطان العظيم من الموجدة على سفير الملكين اللذين اشتهرا باضطهاد المسلمين وإذلالهم وإيقاع أشد صنوف الأذى بهم.

وقابل الرسول السلطان مرارا مقابلة علنية ثم سمح له بلقاء سري تم فيه إقناع السلطان بأن ما بلغه عن مظالم الحكم الأسباني إنما هو من أكاذيب يهود الأندلس، فإن السفير أقنع السلطان العظيم أن وقعة ملكي الأندلسي إنما كانت مسددة إلى اليهود، وأن هؤلاء قد هاجروا من تلك البلاد وجعلوا يشنون الغارة عليها ويرمون مليكها بالظلم والعسف كذبا لإيغار صدور المسلمين وملوكهم على دولة أسبانيا الناشئة. فلم يعد ذلك السفير من مصر إلا بعد أن كتبت له معاهدة صداقة وسلام حملها معه وغادر القاهرة فائزا في فبراير سنة 1502

وكانت دولة البرتقال في هذه السنوات قد أفلحت في تثبيت أقدامها على شواطئ آسيا وجعلت تناصب مصر العداء في بحار الهند فأثر هذا في تجارتها حتى خلت أسواق بيروت والإسكندرية من الأفاويه التي كانت دول أوربا تتهافت على شرائها من تجار البندقية الذين يشترونها من أسواق مصر والشام. فثارت مصر لما أصابها من خسارة في تجارتها وفي سفن أسطولها، وأخذت تستعد لمقابلة عدوان البرتقال بمثله وجهز السلطان في الوقت نفسه بعثات سياسية أرسلها للمفاوضة مع البابا والبندقية ومع أسبانيا والبرتقال، وكانت رسالاته تنطوي على رجاء المليك المتحضر للدول الأخرى أن ترعى حقوقه وأن تقلع عن معاداته حفظا للسلام كما كانت تنطوي على تهديد المسيحية بالإيقاع بما للمسيحيين في الشرق كله من مصالح ورعايا ومعاهد. وكان أول رسول له في هذه المفاوضات هو رئيس دير جبل صهيون واسمه (فرا ماورو دي سان برناردينو) ثم أرسل بعد ذلك ترجمان الخاص (تنجري بردى). ولكن هذه الرسائل لم تفض إلى نتيجة حاسمة، واضطر السلطان إلى أن يعلن أنه سيعمد إلى القوة والبطش للانتقام. وما كاد يعلن هذا العزم حتى بادرت دول أوربا فأرسلت إليه سفراءها للاعتذار له وإظهار صداقتها ومودتها وأنها غير راضية عن الدول التي تسعى للإضرار بمصر أو تعمل على الكيد للمسلمين، وكانت البندقية أولى الدول التي سارعت إلى إظهار المودة والصداقة لشدة الترابط بينها وبين مصر. غير أن الظروف أساءت إلى هذه الصداقة الوراثية بين البندقية ومصر وكادت تصل بها القطيعة إلى القطيعة والعداوة، إذ اتفق أن ضبط في الشام في شهر مايو سنة 1511. رجلان أحدهما من جزيرة قبرص واسمه (نيقولان سوربيه) وكانا آتيين من الشرق من بلاد الشاه إسماعيل الصفوي يحملان خطابين موجهين من الشاه إلى حكومة البندقية معنونين إلى (توماسو كونتاريني) قنصل البندقية في دمشق و (بطرس زين) قنصلها بالإسكندرية. وكان السلطان العظيم قانصوه يرى في الشاه الصفوي عدوا خطيرا. فلما رأى هذه المراسلة بينه وبين البندقية زاد حنقه على تلك الصديقة ورأى أنها تخادعه وتتظاهر بمودته في حين أنها تراسل عدوه الأكبر، وأوشك الأمر أن يفضي إلى عداوة صريحة بينهما

فأمر السلطان بالقبض على القنصلين، وقادهما إلى القاهرة وسجنهما بها وعزم على أن يعامل رعايا البندقية معاملة رعايا الدول المعادية فيقبض عليهم ويصادر أملاكهم وأموالهم ويقطع علاقته بدولتهم إيذاناً بالعداوة الصريحة.

وكانت فرنسا والبندقية تتنافسان على النفوذ في الشرق، فلما رأت فرنسا هذا التوتر في علاقة مصر بالبندقية سارعت إلى إرسال سفير إلى السلطان ليوثق معه روابط المودة وكان هذا السفير اسمه (اندريه لرو)

ولما رأت البندقية أن فرنسا تسعى هذا السعي في تلك الأزمة لم ترض أن تترك الميدان لمنافستها خشية ما يعود عليها من الضرر لو تغيرت سياسة مصر نحوها، فبادرت بإرسال سفير كبير لمقاومة مسعى فرنسا وكان سفيرها هو (دومنيكو تريفيسان)

وهكذا شهدت القاهرة في سنة 1511 معركة سياسية دولية لم يكن فيها سفراء فرنسا والبندقية هم المتنافسين على صداقة سلطان مصر فحسب، بل كان إلى جانبهم سفراء آخرون بعضهم مسيحيون كسفراء (جورجيا) البعيدة، وبعضهم مسلمون كسفراء النزلاء العثمانيين وسفراء شاه إيران.

ولعله من المناسب هنا أن نصف استقبال سلطان مصر لسفير البندقية مستمدين

تفاصيل ذلك من كاتب صحب ذلك السفير.
قال شاهد العيان يصف رحلة السفير ومن معه إلى مقرهما بالقاهرة ويصف لقاء السلطان لهم:
نزلنا ببولاق ثم سرنا إلى المنزل المعد لنا في بقعة من أحسن بقاع القاهرة. وكان المنزل
آية في الفخامة والرواء لا يستطاع أن يوجد مثله في بلد من البلدان. قيل إن نفقات بنائه بلغت مائة ألف دوقية. وكانت جدرانه مغطاة بالنقوش موشاة بالذهب وكانت أرضه مغطاة بالفسيفساء وأبوابه مطعمة بالأبنوس والعاج.
وفي الغد أتت إلى السفير هدية من السلطان (وهنا وصف ما تحتوي عليه الصور))
وفي يوم الاثنين ذهبنا إلى المقابلة الأولى لصاحب العرش وكان نظام المقابلة على النحو الآتي:
جاء المهمندرا والترجمان إلى السفير في بيته ليصاحباه، وركب جواده ومن حوله) معيته بعضهم يركب خيلا وبعضهم يركب بغالا. وسرنا في المدينة حتى بلغنا القلعة فنزل السفير ومن معه وصعدوا سلماً ثم دخلوا من باب يحرسه جماعة كبيرة من الجنود
ثم دخلوا من أربعة أبواب واحداً بعد الآخر. وكان عند آخر باب منها فرقة موسيقى تصدح بالأنغام. ثم مررنا بعد ذلك بثلاثة أبواب أخرى حتى دخلنا إلى فناء صغير تحيط به حوائط قد علقت عليها أنواع السلاح والدروع وإلى جوانبها نحو خمسين رجلا يعملون في صناعة السلاح المختلفة، وقد علمنا أن هؤلاء العمال إنما أعدوا قصداً لا طوعاً لصناعة السلاح والاستعداد للحرب فإنا ما كدنا نمر حتى ذهبوا جميعاً وتفرقوا.
وأخيراً رأينا السلطان في فناء القلعة الفسيح جالساً على مسطبة علوها نحو خطوتين) فوق الأرض تغطيها قطيفة خضراء وعلى رأسه قلنسوة كبيرة يعلوها قرنان عاليان يبلغ كل منهما نصف ذراع. وكان يلبس قفطاناً من القطن الأبيض فوقه جبة من قماش لونه أخضر قاتم. وكان يجلس مربعاً ساقيه كما يجلس الخياطون عندنا وعن يمينه سيفه ودرعه وكانا لا يفارقانه أبداً. وكان عن يمينه على مسافة قليلة نحو عشرين من الأمراء الملكيين الذين يقود كل منهم ألفاً في الحرب وقوفا، وكلهم يلبسون الأبيض وعلى رؤوسهم قلانس مثل قلنسوته، وكان سوى هؤلاء عدد كبير من المساعدين كلهم وقوف يملأون فضاء الفناء.
وتقدم السفير حتى إذا ما وقعت عينه على السلطان رفع قبعته وانحنى إلى الأرض) فلمسها بيديه ثم رفعهما إلى شفتيه وجبهته دلالة على مقدار احترامه للسلطان العظيم، ثم سار مع من معه نحو خمسة عشرة خطوة وحيا مرة أخرى، وكان عند ذلك قد صار على نحو عشرين خطوة من السلطان. وكانت هذه المسافة تغطيها الأبسطة ولم يكن من المباح السير فوقها، فحيا السفير تحيته الأخيرة وأخرج من صدره خطاب (الدوج) مكتوباً على ورق
بنفسجي وقد ختم بخاتم من الذهب ولف برباط تدلى منه دلايات من الذهب، وقبل السفير الخطاب ثم وضعه على رأسه وسلمه للمهمندار فناوله للسلطان ففتحه ثم أرجعه فقرئ له، فلما انتهى من سماع ما فيه سأل السفير عن حال الدوج وصحته، ولما انتهى السفير من الجواب حياه وتراجع إلى الوراء خارجاً هو ومن معه.
وقد تعددت المقابلات بعد هذه المقابلة الأولى، كانت إحداها في بهو فسيح يقول فيه شاهد العيان: (وهذا البهو لا يمكن أن يقاس به بهو التشريفات الكبير في قصر الرياسة العظيمة في البندقية وذلك لعظمته وجماله ونفاسة نقوشه وأثاثه)
وكانت المقابلة الثالثة في ساحة الرميلة المجاورة للقلعة في حديقة خاصة بالسلطان في ذلك الميدان الفسيح.
وكانت المقابلة الرابعة في هذا الميدان نفسه ولكن في غير الحديقة وكانت السلطان هذه المرة جالساً على منصة إلى جانب سور القلعة وكان يلبس ملابس كالتي كانت عليه في المقابلة الأولى، وكذلك كانت هيئة الاستقبال كالهيئة السابقة. وتقدم السفير حتى صار على أربع خطوات من السلطان ثم وقف هو ومن معه وجعل يتكلم مع السلطان بصوت عال بواسطة ترجمانه، وجاء في أثناء الاجتماع السيد (بطرس زين) قنصل البندقية في دمشق وهو المتهم بخيانة السلطان وكان يلبس ثوباً من قطيفة

قرمزية.
واستمرت المقابلة ثلاث ساعات كان السفير في أثنائها واقفاً يحمل قبعته في يديه وكان موضوع الحديث علاقة البندقية بدولة الصفوي، وكان السلطان يتكلم غاضباً في لهجة قاسية ولهذا كان السفير يبذل الجهد لكي يهدئ من غضبه، وكان كل همه أن يظهر براءة حكومة البندقية من كل سعي ضد مصر فنظر السلطان إلى السفير وصاح به قائلا: -
أنا أعلم أن حكومة البندقية بريئة من السعي ضدي ولكن هذا الكلب (مشير إلى) وكان السلطان وهو (قنصل البندقية بدمشق) يعمل على خيانتي وقطع علاقتي بدولتك يقول ذلك يضطرب أشد الاضطراب من الغضب فاستمر السفير في خطابه يحاول الدفاع عن دولته، فصاح به السلطان قائلا: (أيها السفير - هل تعلم كيف سارت الأمور؟ إذا كنت قد أتيت سفيرا للصدق فمرحبا بك، وأما إذا كنت قد حضرت لتدافع عن الخونة وعن أعدائي فلا مرحبا بك، فاترك بلادي وخذ معك مواطنيك من تجار بلادك) فعاد السفير يلاطف في
حديثه وقال: (إنني أجهل يا سيدي السلطان ما كان من هذا القنصل. ولكني أؤكد براءة دولتي وصفاء مودتها لكم. فإذا كان عندكم ما يدل على كذب قولي فأنا مستعد أن أرهن حياتي على صدق ما أقول. وأما إذا كان القنصل قد أضر بمولاي بجهله وغباوته، ولا أستطيع أن أسلم بأنه يقصد إلى ذلك قصدا، فإن حكومة بلادي كفيلة بعقابه على جرمه الشنيع؛ فأسلمه لي لأعود به إلى بلادي ليلقى بها جزاءه بعد تحقيق دقيق. وسيلقى من الجزاء ما يعلن للعالم كله صدق مودتنا لكم وتعلقنا بكم) ثم قام السفير ووضع بيده غلا حول عنق القنصل المتهم. ولما انتهت المقابلة عاد السفير راكباً واقتيد القنصل سائرا على قدميه حتى وصل إلى البيت الذي كان السفير نازلا فيه.
وفي هذه المقابلة تناول الحديث موضوع الجزية المفروضة على قبرص وكانت البندقية تدفع تلك الجزية كل سنة لمصر.
وتعددت المقابلات بعد ذلك وكانت مقابلات خاصة بلغ عددها سبعا، وفي المرة الأخيرة أستأذن السفير السلطان في السفر فأذن له وخلع عليه خلعة من القطيفة المحلاة بالفراء حول رقبتها.
وكان نجاح ذلك السفير في هذه المفاوضات عظيما فأنه استطاع أن يحصل لدولته على معاهدة صداقة صريحة جدد بها عهود المودة الأولى.
وهكذا بقيت مصر مركزا عظيما للتوازن السياسي والاقتصادي بين الدول يقصدها الجميع ويتقرب إليها الجميع إلى أن أراد الله أن تفجعها دولة شرقية في استقلالها وعظمتها - تلك الدولة التي كانت مدينة لمصر أكبر دين في نشأتها وتقدمها - وهي الدولة العثمانية التي لولا حماية مصر لها في نشأتها ووقفاتها الكريمة في الدفاع عن المدنية الإسلامية أمام هجمات تيمور لما كان لها في العالم وجود.
ولكن إذا كان القضاء قد قدر لها أن تفقد استقلالها عند ذلك فقد شاء كذلك أن يعود لها ذلك الاستقلال عزيزا مجيدا لنعيد إن شاء الله سيرة عظمتها ولتستأنف قصتها في القيام برسالة المدنية والسلام في العالم الجديد.
محمد فريد أبو حديد
تأملات في الأدب والحياة
للأستاذ إسماعيل مظهر
في اللغة العربية:
من المشكلات العويصة التي تواجهها اللغة العربية في هذا العصر، مشكل قلما انتبه له المشتغلون باللغة، لأنه يتعلق بموضوع لا يمكن يوماً ما أن يكون ذا علاقة بشئون الحياة العامة تلك الشئون التي يوجه لها الناس عادة معظم اهتمامهم، ويصرفون فيها أكثر مجهودهم، ويوجهون نحوها أخص عنايتهم.
ذلك بأن الموضوع الذي سنتكلم فيه له علاقة بنواح علمية صرفة، قلما يحتاج إلى النظر فيها غير العلماء المختصين، وندر أن يحتاج إليها كاتب أديب، أو شاعر مستجدد أو مستقدم. هذا بالرغم من أن أفق الأدب قد اتسع مداه، وتصور الشعر قد تعالى إلى أسمات لم يفكر فيها الأقدمون.
أما المشكل فينحصر في وضع أسماء عربية لأفراد الحيوان والنبات تعين الأشخاص

والطبقات المختلفة بما فيها من الفصائل والعشائر والمراتب والأجناس والأنواع. ولقد كثر الجدل حول هذا الموضوع ولم يستقر الرأي فيه على شيء يصح الأخذ به؛ فإن لكل رأي من الآراء رأياً يناقضه، ولكل أسلوب من الأساليب التي قيل بها أسلوباً ينابذه، والأمر فوضى لا ضوابط له ولا حدود، ينتحيها المترجم أو واضع الاصطلاح، حتى يأمن أن يخرج له ناقد برأي جديد يسفه ما ذهب إليه. وكل ما لا حدود له، لا علم فيه. فالعلم أول شيء حدود وضوابط، هي أشبه بالمنطق عند القدماء. ومنطق العلم من شأنه البيان والتعيين فإن ما هو مدخول بشك ليس من العلم الثابت في شيء. فما بالك بمسألة علمية، كالتي نحن بصددها، لم يتفق باحثان على قاعدة واحدة يمكن أن تتخذ أساساً للنظر فيه؟

ظلت العربية واقفة وعجلة الزمان من حولها تدور، وتسارع دورانها في خلال القرنين الفارطين، حتى بعدت الشقة بين الحياة الجديدة ومطلوبات العلوم والفنون، وبين اللغة العربية، حتى أن الفرق ليروع كل واقف على حقيقة الهوة التي تفصل بين العلوم والآداب، وبين قدرة اللغة العربية على تأدية مدلولات مصطلحاتها في كلمات أصيلة مضرية الأصل أو صحيحة الاشتقاق.

ولقد انحصر الخلاف بين الناظرين في هذا الموضوع في نقط ثلاث: الأولى القول بالتعريب؛ والثانية القول بالنحت؛ والثالثة القول بالاشتقاق. ولابد من الكلام في كل نقطة من هذه النقط لنظهر ما وراءها من مناحي القوة والضعف؛ حتى نخلص في النهاية برأي، آمل أن أكون قد وفقت فيه.

أما القول بالتعريب فرأي الذين يريدون اختصار الطريق وأخذ الأمر بنواصيه الظاهرة، دون خوافيه. ولاشك في أن العرب قد نزعوا هذه النزعة، وجنحوا هذا الجنوح. ويريد القائلون بالتعريب أن يتخذوا مما عمل العرب ركيزة يرتكزون عليها تعزيزاً لرأيهم فيه. غير أن هؤلاء لم يفطنوا إلى أشياء من أوجب الواجبات أن تكون دستور القول في مثل هذا الأمر. فالعربي أول شيء قد عرب وفي نفسه سليقة العرب وفي لسانه فصاحتهم وفي لغته بلاغتهم، وهذا أمر يتطلب منا الحكم في من منا يمكن أن يكون ذا سليقة عربية أو ذوق عربي يقارب ذوق الأقدمين أصحاب اللغة؟ هذا شيء. وهنالك شيء آخر فإن العربي لم ينزع إلى التعريب إلا مكرهاً، بدليل القلة النادرة في ما ورد من الألفاظ المعربة مقيسة على الألفاظ العربية الأوزان الصحيحة الاشتقاق. وهذا يدل على أن قاعدة العرب كانت الاشتقاق على الصيغ التي كان يرى العربي أنها أصلح لأداء المراد. وهذا أمر له من الشأن ما لم يفطن له الأكثرون. ذلك بأني أعتقد أن العربي لم يزن ما اشتق من الأسماء خبط عشواء، وإنما راعى في اشتقاقها سليقة خاصة به. وبعد هذا وذاك ينبغي لنا أن نعرف أن التعريب ليس من السهولة بحيث يتصور الداعون إليه، بل إن من أسماء الحيوان والنبات أكثرية مطلقة يفضل المعرب أن يصوغ لها اسماً عربياً كائناً ما كان على أن يعربها فتكون غليظة غلظ الجبال، لندرة ما يوافق تركيب حروفها جرس تركيب الحروف العربية من حيث المخارج وتلاؤم ذلك في الألفاظ العربية.

على أن جملة هذا القول لا تغني عن التصريح بأننا في حاجة إلى التعريب، ولكن بقصد وقدر معلوم، على أن نتقيد في التعريب بقواعد، أخصها أن يكون المُعَرَّبُ على وزن عربي من الأوزان قياسية أو سماعية حتى يلائم جرسه جرس الكلمات العربية، وحتى لا يحس منه المتكلم بالعربية نفوراً أو يجد فيه تنافراً مع ما تلقى من صيغة نعته الكريمة.

ومع القول بأننا في حاجة إلى التعريب، ينبغي أن نلحظ أن لجوءنا إليه إنما تدعونا إليه ضرورة قصوى يقف عندها جهدنا في البحث والاستقصاء وتقليب كافة الأساليب بكامل وجوهها.

ننتقل من هذا إلى الكلام في رأي يقول به المؤيدون لنظرية التعريب إطلاقا، وبلا قيد. هم يقولون إن أسماء الحيوان والنبات لغة علمية عالمية، لا ينبغي لنا أن نزايلها بوضع ألفاظ أو مصطلحات عربية تقصينا عن جو العلم. وفي هذا القول وجوه من الضعف ووجوه من القوة. ذلك بأن القائلين بهذا الرأي قد فطنوا إلى حقيقة وغابت عنهم حقائق كثيرة، لم يجعلوا لها وزنا في كفتي الميزان الذي اتخذوه وسيلة للحكم في موضوع من أدق الموضوعات التي تتصل بحياة اللغة العربية.

أما الحقيقة التي لم تغب عنهم، فقولهم بأن أسماء الحيوان والنبات لغة عالمية. وهذا ما ليس إلى نكرانه من سبيل. أما الذي غاب عنهم فحقيقة ذات علاقة شديدة بالحقيقة التي لم تغب عنهم. ذلك بأن أسماء الحيوان والنبات لغة عالمية في اللغات الأعجمية أي في اللغات (الاندوجرمانية)، وليس في اللغات السامية. ولا أظن أن هذا الفارق ضئيل بحيث لا يعتد به، بل على العكس من ذلك أعتقد أن ذلك الفارق من أكبر الفوارق التي تحفزنا إلى القول بأن أسماء الحيوان والنبات إن كانت عالمية في اللغات (الاندوجرمانية)، فلن تكون بالنسبة للغات السامية إلا أسماء غريبة لا تمت إليها بأي سبب من الأسباب.

أضف إلى ذلك أن جهادنا في سبيل اللغة العربية ينبغي أن يتجه متجهاً واحداً، هو أن تصبح هذه اللغة قادرة على الاستقلال بمصطلحاتها العلمية والفنية والأدبية؛ بمعنى أنها تصبح لغة العلم ولغة الأدب ولغة الفن في مدارسنا ومعاهدنا بحيث نستطيع أن نؤدي بها أغراض المعرفة من غير استعانة بلغة أخرى. ولنفرض مثلاً أننا أردنا أن ندخل طرفاً من علم الحيوان في كليات الأزهر فهل يمكن لنا أن ندخله من غير أن تكون اللغة العربية تامة القدرة على أداء المعاني والأسماء الضرورية لدرس هذا العلم الكبير في وسط لا علاقة له بغير اللغة العربية؟ وكيف تصبح اللغة العربية وافية بمطالب العلوم والفنون، ما لم تكن تامة الوسائل لأداء أغراض العلم لطلاب لا يعرفون غير العربية؟

وهل من الممكن بعد هذا أن ندرس هذا العلم ونحشو العبارات العربية الصريحة بألفاظ يونانية ولاتينية، لا ينطقها أهلها الأصليون في بعض الأحيان إلا بصعوبة؟ وليجرب معي بعض حضرات طلاب الأزهر قراءة الجمل الآتية:

إن (الأورنثيرونكهوس بارادوكرس) حيوان ثديي بيوض يعيش في أوستراليا! والأنثربثكوس طروغلوديطس حيوان من البريمات يعيش في أفريقية! والأرخوبتريكس طائر منقرض!

على هذه الصفة تكون عبارات علم الحيوان في العربية، إذا أردنا أن نلزم التعريب الحرفي الذي يوافق اللغة العالمية في اللغات (الاندوجرمانية) (الهندية الجرمانية).

ولعمري كيف يستطيع عربي لا صلة له باللاتينية واليونانية أن ينطق هذه الكلمات الأعجمية المنحوتة من مقاطع متباينة وأهجية متنافرة نطقاً صحيحاً كما تنطق في لغتها العالمية التي يتغنى بها فئة من ذوي الرأي لم يفطنوا إلى الصعاب التي تكتنف نظريتهم، بل إنهم لم يحاولوا أن يفطنوا لها

ننتقل الآن إلى رأي القائلين بالنحت، وهم لاشك أقل من القائلين بالتعريب. أما النحت فباب يلحقه اللغويون بفقه اللغة، ولكل من مشهوري اللغوين رأي فيه. فمن رأي السيوطي أن معرفته من اللوازم. وعرفه ابن فارس في كتابه (فقه اللغة) فقال: إن العرب تنحت من كلمتين كلمة واحدة، وهو جنس من الاختصار واستشهد بقول الخليل:

أقول لها ودمع العين جار ... ألم يحزنك (حيعلة) المنادي

والحيعلة من قول (حَيِّ على):

وهذا مذهبنا في أن الأشياء الزائدة على ثلاث أحرف فأكثرها منحوت، مثل قول العرب للرجل الشديد (ضَبْطر) من (ضبط وضبر)؛ وفي قولهم (صَهصَلق)، إنه من (صهل وصلق)؛ وفي (الصَّلدَم) إنه من (الصلدِ والصَّدْم) وقد ذكر ابن فارس مذهبه هذا مفصلاً في كتابه مقاييس اللغة.

ومن كلام ياقوت في معجم الأدباء:

سأل الشيخ أبو الفتح عثمان بن عيسى الملطي النحوي، الظَّهيرَ الفارسي عما وقع من ألفاظ العرب على مثال (شقحْطب) فقال: هذا يسمى من كلام العرب المنحوت، ومعناه أن الكلمة منحوتة من كلمتين، كما ينحت النجار خشبتين يجعلهما واحدة. فشقَحْطب منحوت من (شقَّد وحطب). فسأله الملطي أن يثبت له ما وقع من هذا المثال إليه، ليعوِّل في معرفتها

عليه، فأملاها عليه في نحو عشرين ورقة من حفظه، وسماها كتاب (تنبيه البارعين على المنحوت من كلام العرب) اهـ. وهذه الوريقات مفقودة على الأسف.

وحكى الفرَّاء عن بعض العرب (معي عشرة فأحْدهنَّ لي) أي صيرهن أحد عشر اهـ.

وقد ذهب اللغويون إزاء النحت مذاهب. فمنهم فئة لا تقول برأي ابن فارس. إذ لو صح

رأيه إذن لأصبح النحت كثيراً في اللغة، وبذلك يمكن القياس عليه ويطَّرد في كثير من الأحوال ومنهم فئة تقول برأيه. ولاشك في أن قليلاً من التأمل يرجح قول ابن فارس في أن كل الأشياء الزائدة على ثلاثة أحرف أكثرها منحوت. وأقرب مثل على هذا كلمة (قُرْدُوح) أي القرد الكبير فهي بلا شك منحوتة من (قَرَّ) و (دَوْح) والقرود تقر في الدَّوْح، فسمى العرب واحدها قُرْدُوح، وما كان أكثر تسامحهم، مادام جرس الكلمة جارياً على الذوق العربي السليم.

وسواء أكان النحت أصلاً من أصول الوضع الصحيحة في اللغة أم كان غير ذلك، فإن الرأي غير متفق على اتخاذ النحت أساساً من الأسس التي يلجأ إليها في وضع الألفاظ الاصطلاحية الجديدة. ذلك بأن القول بأن اللغة العربية لغة اشتقاق، وليست لغة نحت، تجعل الذين يريدون التوسل بالنحت إلى وضع المصطلحات الحديثة يتريثون طويلاً. ولكنا بالرغم من هذا نعرض للأسئلة الآتية:

أولاً - أيعتبر النحت قياسياً أو سماعياً؟ وما حد القياس والسماع فيه باعتبار أقوال فقهاء اللغة؟

ثانياً - أيجوز أن نجري على النحت في وضع المصطلحات التي نعجز عن ترجمتها أو تعريبها تعريباً يفي بحاجات اللغة؟

ثالثاً - أيفسد النحت اللغة العربية إذا روعي فيه (1) أن يكون المنحوت على وزن عربي نطق به العرب (2) ألا يكون نابياً في الجرس عن سليقة اللغة (3) أن يؤدي حاجات اللغة من إفراد وتثنية ونسب وإعراب

رابعاً - أيجوز أن تنحت ألفاظ على غير وزن عربي عند الضرورة، أم تقتصر على أن يكون المنحوت على وزن عربي إطلاقاً

خامساً - هل كون اللغة العربية لغة اشتقاق في بنيتها، ينافي النحت مع مراعاة شروط خاصة كالتي سبق أن ذكرناها؟

سادساً - إذا أضفنا إجازة النحت إلى الاشتقاق، أيكون هذا توسيعاً في اللغة وتيسيراً، أم تضييقاً وتعسيراً؟

وقبل أن نمضي في شرح ما نراه حلاً لهذا المشكل الكبير ينبغي لنا أن نلقي نظرة في التعريب والنحت، لنقول إنهما في أكثر الأحوال عسيرين كل العسر، شاقين كل مشقة جامدين كل جمود، وبخاصة إذا كثرت مقاطع الكلمات الأعجمية المراد تعريبها أو تعددت حروفها إلى ما فوق الخمسة، أو تكونت من أكثر من لفظ في أسماء الأنواع من النبات والحيوان. وكذلك في النحت فقد تجد أن حروف الكلمتين المراد نحت كلمة منهما قد تنافرت حتى ليتعذر نحت كلمة منهما توافق الجرس العربي.

على أننا بالرغم من كل هذا، وبالنظر إلى كثرة الأسماء التي نريد إيجاد مقابلات لها في العربية، وهي تعد بالملايين ينبغي توسيعاً لأقيسة اللغة وجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون والآداب أن نعتبر التعريب والنحت أصلين من أصول الوضع في اللغة، على أن نحذر من التمادي فيهما كل الحذر، وألا نلجأ إليهما إلا عند الضرورة القصوى مادامت أوزان اللغة وصيغها تواتينا بحاجتنا من الأسماء التي نطلبها.

بقي علينا بعد ذلك أن نعرف هل تواتينا اللغة العربية بما نحتاج إليه من الأسماء؟ إن لي في هذا رأياً جديداً لعلي أوفق إلى تبيانه في الأسطر التالية.

جمدت اللغة العربية بتعنت اللغويين، كما جمدت الشريعة الإسلامية بتعنت أصحاب المذاهب. فإن القول بقياسية الصيغ وسماعيتها، بنسبة الكثرة والقلة، بالرغم من أنها صيغ سمعت من أعراب أصَلاَء، قد أصاب اللغة بجمود لم يبلغ الشعور بقسوته بقدر ما بلغ في زماننا، ولم يأنس جيل من أبناء العربية بمقدار أثره في تقييد أساليبهم العلمية بقدر ما أنس جيلنا هذا. فإن أكثر الصيغ التي وردت منها أسماء النبات والحيوان صيغ سماعية، ومعنى أنها سماعية أنه ممنوع عليك أن تقيس عليها وأن تصوغ على غرارها أسماء جديدة تدل على حيوان أو نبات لم يذكره العرب، على قلة ما تستطيع أن تعين من أشخاص الحيوان والنبات التي ذكرها العرب لضعف التعاريف أو فقدانها كلية. فلم يبق أمام الواضعين للأسماء الجديدة إلا الصيغ القياسية، وهي قليلة مقيسة بالعدد الوافر الذي ورد في كلام

العرب من الصيغ التي اعتبرها اللغويون سماعية. وهذه القيود الثقيلة التي لا مبرر لها إلا مسألة إحصائية قيدت اللغة وقيدت الواضعين بقيود وصفدتهم بأغلال، هي السر

الوحيد فيما يقال عن عجز اللغة العربية عن مجاراة اللغات الأخرى في الأسماء الدالة على الأشياء الحديثة. ذلك في حين أن إجازة الصوغ على تلك الصيغ التي قيل إنها سماعية يفتح على اللغة أبواباً واسعة تجعلها تفوق كل لغات الأرض في القدرة على الوضع اللغوي الأصيل الذي لا يخرج عما اتبعه العرب من الأصول التي جروا عليها في بناء لغتهم المجيدة.

ولا أريد أن أذهب هنا مذهب القائلين بأن كل ما قيس على كلام العرب، ويقصد بهم العرب الأصلاء إلى نهاية القرن الثالث الهجري، فهو من كلام العرب، وعلى رأسهم الإمام ابن جني، على ما أرى في رأيه من رجحان، بل أريد أن أتواضع قليلا فأقول إن الظرف العلمي يحفزنا إلى التسليم، على الأقل، بالقول بأن كل الأوزان التي صاغ منها العرب أسماء الحيوان والنبات قياسية، بصرف النظر عما ورد منها قلة وكثرة في كلام العرب. فأننا بذلك نوسع حقيقة من أقيسة اللغة، وتقل حاجتنا إلى التعريب والنحت، حتى لأكاد أومن بأن حاجتنا إليهما تنعدم تقريباً، وإني لأفضل اسماً مصوغاً على صيغة نطق بها العرب، مع مراعاة الشروط التي اتبعوها في الوضع والتي سأشرحها بعد، على اسم معرب أو منحوت مهما حسن جرسه في السمع. فإننا بذلك نحافظ على سلامة اللغة ونكون قد أمنا التطوح باللغة في مهاوي الفساد الذي سوف يؤدي إليه التمادي في التعريب بالجملة، إذا اتبعنا رأي بعض المتطرفين الذين لم يتذوقوا بعد للغة العرب طعما

على أن العربي لم يجر في وضع الأسماء على غير قاعدة، بل إنه اتبع قاعدة أوحى إليه بها طبيعة الظرف الذي أحاط به في مختلف البيئات التي عاش فيها، وساعدته سليقته على تطبيقها. فأنك إذا تأملت الأمر بعض الشيء، ألفيت أن العربي كان ينظر في الشيء فيلحظ فيه كثيراً من الصفات، فإذا غلبت في الشيء صفة صاغ له اسماً مستمداً من اللفظ الذي يدل على هذه الصفة والأمثال على ذلك كثيرة لا تحصى، ولا بأس من أن أورد هنا بعضاً منها.

الإسْليح: نبات؛ قال أبو حنيفة الدينوري: واحدته إسلحة طوال القصب، في لونه صفرة تأكله الإبل. وقيل هو عشبة تشبه الجرجير، وينبت في حقوف الرمل، والأولى أكثر (ابن سيده). وقيل هو نبات سُهْلي ينبت ظاهراً، وله ورقة رقيقة لطيفة وسَنِفه محشوة حباً كحب الخشخاش. وهو نبات مطر الصيف يُسلِح الماشية (ابن خالويه واللسان) اهـ. فأخص صفة لحظها العربي في النبات أنه يسلح الماشية أي يسهل بطونها. فسماه الإسيلح

الرَّتَم والرَّتيمة: قال أبو حنيفة: الرتم والرتيمة نبات من دق الشجر كأنه من دقته شبه بالرتم، وهو الخيوط (اللسان) وقيل إنه شجر له زهر كالخيري وحب كالعدس (ابن سيده) والرتمة خيط يعقد في الإصبع للتذكير (ج) رتم كالرتيمة (ج) رتائم ورتام وأَرْتمة، والرَّتَم محركة نبات كأنه من دقته شبه بالرتم زهره كالخيري وبزره كالعدس (القاموس 4: 116)

السُّلْتُ: قال الليث شعير لا قشر له أجرد. زاد الجوهري: كأنه الحنطة. وعن أبي حنيفة: هو صنف من الشعير يتجرد من قشره كله. وعن اللسان: وينسلت حتى يكون كالبرِّ سواء

السُّمْنة: عن أبي حنيفة: دواء تُسمَّنُ به النساء

الشَّعارير: صغار القثاء، الواحدة شعرورة، سميت بذلك لما عليها من الزَّغب

الظُّفرَة: نبات حريف يشبه الظفر في طلوعه (التاج)

الظِلامُ؛ والظالم، قال الأصمعي: هو شجر له عساليج طوال وتنبسط حتى تجوز أصل الشجرة، فمنها سميت ظِلاماً

العَصب: شجرة تلتوي على الشجرة وتكون بينها، ولها ورق ضعيف؛ وفي اللسان شجرة العصبة نبات يلتوي على الشجر، وهو اللبلاب اهـ. والاسم تشبيه بعصابة الرأس لأنه يلتوي على غرارها

العَطفُ: نبات يلتوي على الشجر، لا ورق له ولا أقتان قال ابن بَرِّي: العطفة: اللبلاب، سمي بذلك لتلويه على الشجر

العقِدُ: شجر ورقه يلحم الجراح (التاج)

فمن هذا يظهر لك أن العربي لم يجر في وضع الأسماء على غير قاعدته، وإنما كانت

قاعدته أن يلحظ في الشيء صفة، فيرجع إلى لغته حتى يقع على الكلمة التي تؤدي معنى تلك الصفة ثم يصوغ منها الاسم على وزن يلذ في أذنه جرسه
على أن لنا في لغتنا العربية من الأصول ما يقابل كل الأصول التي نحت منها الفرنجة أسماء الحيوان والنبات يونانية كانت أم لاتينية. فإذا استعنا بالصيغ السماعية على ما بين
أيدينا من الصيغ القياسية، انفتح أمامنا الباب المغلق، وخرجنا إلى الرحاب الواسعة وحافظنا على سلامة اللغة أن يطيح بها التقريب السقيم، أو يتلاعب بها من ليس في مقدورهم تفهم أصولها وأساليبها
والسبيل المعقول هو أن نكب على جمع أسماء النبات والحيوان ثم نعرف من أية الصيغ وردت ونحصر هذه الصيغ حصراً كاملا بقدر الإمكان، ثم نجيز قياستها والصوغ عليها في أسماء الحيوان والنبات. فإننا بذلك لا نخرج عن القاعدة التي جرى عليها العرب مادمنا سنراعي شرط لحظ الصفة في المسمى على ما عمل أسلافنا طيب الله ثراهم، فإن تسمحهم في هذا الشأن، يضطرنا إلى القول مع الأئمة الذين قالوا من قبل (إن كلاماً قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب)
وإن لغتنا لواسعة وإن لنا في أقيستها وصيغها التي وردت على لسان العرب، ما يكفل لنا وضع الأسماء الجديدة التي يظن البعض أن وضعها من المستحيلات. وإني جرياً على القاعدة التي شرحتها هنا. لقمين بأن أضع أسماً لأي نبات أو حيوان لا اسم له في العربية، مصوغاً على ما ورد في كلام العرب
وقد جمعت حتى الآن من أسماء النبات أكثر من ألفي اسم، وسأضع في هذا الموضوع رسالة آمل أن تكون مبدأ عهد جديد في صوغ أسماء عربية للحيوان والنبات
إسماعيل مظهر
للأدب والتاريخ
مصطفى صادق الرافعي
1880 - 1937
للأستاذ محمد سعيد العريان
- 2 -
نسبه ومولده:
الرافعي سوري الأصل، مصري المولد، إسلامي الوطن: فأسرته من (طرابلس الشام)، ضم ثراها عظام أجداده، ويعيش على أرضها إلى اليوم أهله وبنو عمه؛ ولكن مولده بمصر، وعلى ضفاف النيل عاش أبوه وجده والأكثرون من بني عمه وخئولته منذ أكثر من قرن؛ وهو في وطنيته (مسلم): لا يعرف له أرضاً من أرض الإسلام ينتسب إليها حين يقول: (وطني. . .) فالكل عنده وطنه ووطن كل مسلم؛ فأنت لم تكن تسمعه يقول: (الوطنية المصرية. . .) أو (الوطنية السورية. . .) أو (الوطنية العراقية. . .) إلا كما تسمع أحداً يقول: هذه داري من هذا البلد، أو هذه مدينتي من هذا الوطن الكبير الذي يضم أشتاتاً من البلاد والمدائن. وإنما الوطن فيما كان يراه لنفسه ولكل مسلم، هو كل أرض يخفق فيها لواء الإسلام والعربية؛ وما مصر والعراق والشام والمغرب وغيرها إلا أجزاء صغيرة من هذا الوطن الإسلامي الأكبر ينتظمها جميعاً كما تنتظم الدولة شتى الأقاليم وعديداً من البلاد
وكثيراً ما كانت تثور الخصومات بين الرافعي وبعض الأدباء في مصر، فما يجدون مغمزاً ينالون به منه عند القراء إلا أن يتهموه في وطنيته، أعني مصريته؛ وكان الرافعي يستمع إلى ما يقولون عنه في ذلك مغيظاً حيناً وساخراً حيناً آخر، ثم يقول: أفتراهم يتهمونني في مصريتي لأنني في زعمهم غير مصري وفي مصر مولدي وفي أرضها رفات أبي وأمي وجدي، أم كل عيبي عندهم في الوطنية أنني صريح النسب؟. . . وإلا فمن أبو فلان وفلان؟ ومن أين مقدمه؟ ومت استوطن هذا الوطن. . .؟
ورأس أسرة الرافعي هو المرحوم الشيخ عبد القادر الرافعي الكبير المتوفى سنة 1230 هـ بطرابلس الشام، ويتصل نسبه بعمر بن عبد الله بن عمر بن الخطاب أمير المؤمنين
رضي الله عنه، في نسب طويل من أهل الفضل والكرامة والفقه في الدين، ما منهم إلا له تاريخ مشهود وجهاد مشكور ومسجد ومزار.

وأول وافد إلى مصر من هذه الأسرة هو المرحوم الشيخ محمد الطاهر الرافعي، قدمها في سنة 1243هـ (قريب من سنة 1827م) ليتولى قضاء الحنفية في مصر بأمر من السلطان؛ وأحسب أن مقدمه كان أول التاريخ لمذهب الإمام أبي حنيفة في القضاء الشرعي بمصر. ولم يعقب الشيخ محمد الطاهر غير فتاة وغلام، انتهى بموتهما نسبه فليس في مصر أحد من ولده؛ ولكنه كان كرائد الطريق لهذه الأسرة، فتوافد أخوته وأبناء عمومته إلى مصر يتولون القضاء ويعلمون مذهب أبي حنيفة حتى آل الأمر من بعد أن اجتمع منهم في وقت ما أربعون قاضياً في مختلف المحاكم المصرية، وأوشكت وظائف القضاء والفتوى أن تكون مقصورة على آل الرافعي؛ وقد تنبه اللورد كرومر إلى هذه الملاحظة فأثبتها في بعض تقاريره إلى وزارة الخارجية الإنجليزية.

وقد تخرج في درس الشيخ محمد الطاهر وأخيه الشيخ عبد القادر الرافعي أكثر علماء الحنفية الذين نشروا المذهب في مصر. ومن تلاميذهما الأدنين المرحومان الشيخ محمد البحراوي الكبير والشيخ محمد بخيت مفتي الدولة السابق

ولما توفي المرحوم الإمام الشيخ محمد عبده، كان شيخ الحنفية في مصر يومئذ هو المرحوم الشيخ عبد القادر الرافعي، فدعاه الخديو عباس إلى تولي وظيفة الإفتاء، وكان رجلاً زاهداً ورعاً فيه تحرج وخشية، فلم يجد في نفسه هوى إلى قبول هذا المنصب، تحرجاً من فتنة الحكم وغلبة الهوى في شأن يتصل بحقوق العباد وفيه الفصل في الخصومات بين الناس. . . فلما بلغته دعوة الخديو ذهب إلى لقائه وفي نفسه همّ، وهو يدعو الله ألا يئول إليه هذا الأمر ضناً بدينه ومروءته. . . وتمت مراسيم التولية، وتلقى الأمر من صاحب العرش بقبول وظيفة (مفتي الدولة) ثم نزل إلى عربته فركبها عائداً إلى داره وهو يتمتم ويدعو؛ فلما بلغ نزل الحوذي ليفتح له العربة ويساعده على النزول، فإذا هو قد فارق الحياة قبل أن يجلس مجلس الحكم مرة واحدة ليقضي في شئون العباد. . . واستجاب الله دعاءه!. . .

وأبو الأستاذ الرافعي هو المرحوم الشيخ عبد الرزاق الرافعي، كان رئيساً للمحاكم الشرعية في كثير من الأقاليم، وهو واحد من أحد عشر أخاً اشتغلوا كلهم بالقضاء من والد المرحوم

الشيخ سعيد الرافعي. وكان آخر أمر الشيخ عبد الرزاق رئيساً لمحكمة طنطا الشرعية؛ وفي طنطا كانت إقامته إلى آخر أيامه، وفيها مات ودُفن، وفيها أقام مصطفى صادق وأخوته من بعد أبيهم في بيته، فاتخذوا طنطا وطناً ومقاماً، لا يعرفون لهم وطناً غيرها ولا يبغون عنها حولا. ولقد حاولت وزارة الحقانية أكثر من مرة أن تنقل مصطفى إلى غير طنطا فكان يسعى سعيه لإلغاء هذا النقل، حتى لا يفارق البلد الذي فيه وفاة أبيه وأمه، وفيه مسجد السيد البدوي. . .

وكان الشيخ عبد الرزاق رجلاً ورعاً له صلابة في الدين وشدة في الحق، ما برح يذكرهما له مع الإعجاب معاصروه من شيوخ طنطا.

حدثني نسيب قال: (كنت غلاماً حدثا، وكان الشيخ عبد الرزاق الرافعي من جيراننا وأحبابنا الإجلاء، وكان يتخذ مجلس العصر أحياناً في متجر جاره وصديقه المرحوم الحاج حسن بدوي الفطاطري، في شارع درب الأثر، ودرب الأثر يومئذ هو شارع المدينة وفيه أكبر أسواقها التجارية؛ ففي عصر يوم من رمضان، كان الشيخ عبد الرزاق يجلس مجلسه من متجر صديقه، فمر به رجل ينفث الدخان من فمه وبين إصبعيه دخينة، فما هو إلا أن رآه الشيخ عبد الرزاق، حتى اندفع إليه، فانقض عليه، فأمسك بثيابه، فدعا الشرطي أن يسوقه إلى القسم لينال الحد على إفطاره في رمضان في شارع عام. وما أجدى رجاء الرجل ولا شفاعة الشفعاء؛ فسيق الرجل إلى القسم في (زفة) من الصبيان، ليتولى الشيخ حده بنفسه على إفطاره. وما كان القانون يأمر بذلك ولا يجيزه، ولكن الشرطة ما كانوا ليخالفوا أمر قاضي المدينة، وما كانوا يعرفون له عندهم إلا الطاعة والاحترام)

وحوادث الشيخ عبد الرزاق من مثل ذلك كثيرة يعرفها كثير!

واسم (الرافعي) معروف في تاريخ الفقه الإسلامي منذ قرون وأحسب أن هناك صلة ما بين أسرة الرافعي في طرابلس الشام وبين الإمام الرافعي المشهور صاحب الشافعي؛ وقد سألت المرحوم الأستاذ الرافعي مرة عن هذه الصلة، فقال: لا أدري، ولكني سمعت من بعض أهلي أن أول من عُرف منا بهذا الاسم شيخ من آبائي كان من

أهل الفقه وله حظ من الاجتهاد والنظر في مسائله، فلقبه أهل عصره بالرافعي تشبيهاً له بالإمام الكبير الشيخ محمود الرافعي صاحب الرأي المشهور عند الشافعية، والله أعلم.

والأستاذ الرافعي حنفي المذهب كسائر أسرته، ولكنه درس مذهب الشافعي وكان يعتد به ويأخذ برأيه في كثير من مسائل العلم.

وأم الرافعي كأبيه سورية الأصل، وكان أبوها الشيخ الطوخي تاجراً تسير قوافله بالتجارة بين مصر والشام، وأصله من حلب، وأحسب أن أسرة الطوخي ما تزال معروفة هناك، على أنه كان اتخذ مصر وطناً له قبل أن يصل نسبه بأسرة الرافعي.

وكانت إقامته في (بهتيم) من قرى مديرية القليوبية، وكان له فيها ضيعة، وفيها ولد الأستاذ مصطفى صادق الرافعي في يناير من سنة 1880م، إذ آثرت أمه أن تكون ولادتها في بيت أبيه.

وكانت أم الرافعي تحبه وتؤثره، وكان يطيعها ويبرها، وقد ظل إلى أيامه الأخيرة إذا ذكرها تغرغرت عيناه كأنه فقدها بالأمس، وكان دائماً يحب أن يسند إليها الفضل فيما آل إليه أمره؛ وقد توفيت في أسيوط ودفنت بها، ثم نقلت إلى مدافن الأسرة بطنطا، وقد شيعها الرافعي على عنقه إلى مقرها!

علمه وثقافته:

لأسرة الرافعي ثقافة أُسميها كما يسميها الأستاذ إسماعيل مظهر (ثقافة تقليدية)، فلا ينشأ الناشئ منهم حتى يتناولوه بألوان من التهذيب تطبعه من لدن نشأته على الطاعة واحترام الكبير وتقديس الدين، وتجعل منه خلفاً لسلف يسير على نهجه ويتأثر خطاه.

والقرآن والدين هما المادة الأولى في هذه المدرسة العريقة التي تسير هذه الأسرة على منهاجها منذ انحدر أولهم من صلب الفاروق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب

وعلى هذه النشأة نشأ المرحوم مصطفى صادق، فاستمع إلى أبيه أول ما استمع تعاليم الدين وحفظ شيئاً من القرآن، ووعى كثيراً من أخبار السلف، فلم يدخل المدارس المدنية إلا بعد ما جاوز العاشرة بسنة أو اثنتين. فقضى سنة في مدرسة دمنهور الابتدائية، ثم نقل أبوه قاضياً إلى محكمة المنصورة فانتقل معه إلى مدرسة المنصورة الأميرية، فنال منها الشهادة الابتدائية وسنه يومئذ سبع عشرة سنة أو دون ذلك بقليل؛ ومن زملائه في المدرسة الابتدائية الأستاذ الجليل منصور فهمي بك، ونيازي باشا وأحسبه قال لي: إن منهم كذلك الشارع القانوني الكبير عبد الحميد بدوي باشا

ومن أساتذته في المدرسة الابتدائية شيخنا العلامة الأستاذ مهدي خليل المفتش بوزارة المعارف، وكان يدرس له العربية؛ وكان الرافعي رديء الخط لا يكاد يقرأ خطه إلا بعد علاج ومعاناة فكان الأستاذ مهدي يسخر منه قائلاً: (يا مصطفى، لا أحسب أحداً غيري وغير الله يقرأ خطك!) وقد ظل خط الأستاذ الرافعي رديئاً إلى آخر أيامه، ولكن قراء خطه قد زادوا اثنين: هما سعيد العريان والعمال في مطبعة الرسالة . . .

وهنا أذكر حكاية طريفة تدل على مبلغ وفاء المرحوم الرافعي وتكشف عن شيء من خلقه: فقد صحبني مرة منذ عامين إلى نادي دار العلوم، وما أكثر ما كان يصحبني إليه إذا هبط القاهرة. وجلس وجلست معه في جمع كبير من المفتشين والمدرسين ورجال التعليم، وكان المرحوم الأستاذ أبو الفتح الفقي نقيب المعلمين السابق جالساً إلى جانب الأستاذ الرافعي يتحدثان، وأنا بينهما أترجم للأستاذ الرافعي حديث محدثه مكتوباً في ورقة، وبينما نحن كذلك والحديث يتشعب شعبه وينسرب في مساربه، والجمع حولنا مرهف الآذان يستمع إلى حديث الرجلين، إذ نهض الرافعي واقفاً، فانتبهت، فإذا القادم الأستاذ مهدي خليل يبدو من طوله وجسامته واكتمال عضله كأنما يطل علينا من نافذة. . . وإذا الرافعي يطأطأ له وينحني يهم أن يقبل يده؛ ثم عاد إلى مجلسه فمال عليّ يقول في همس: (هذا أستاذي مهدي خليل. . .) وفي صوته رنة هي أقرب إلى صوت طفل لأبيه حين يمر بهما معلم الغلام فيميل إلى أبيه يُسرّ إليه. . . ومضى الأستاذ مهدي غير عابئ ولا ملتفت بما فيه من طبيعة المح وعادة الإغضاء، وأحسبه لم يعن بالسؤال عن هذا الزائر الذي نهض له أو بالنظر إلى وجهه، على حين ظل ذكره على لسان الرافعي طول اليوم

وفي السنة التي نال فيها الرافعي الشهادة الابتدائية - وهي كل ما نال من الشهادات

الدراسية - أصابه مرض مشف أثبته في فراشه أشهراً - وأحسبه كان التيفويد - فما نجا منه إلا وقد ترك في أعصابه أثراً كان حبسة في صوته ووقراً في أذنيه من بعد.
وأحس الرافعي آثار هذا الداء يوقر أذنيه، فأهمه ذلك هما كبيراً، ومضى يلتمس العلاج لنفسه في كل مستشفى وعند كل طبيب، ولكن العلة كانت في أعصابه فما أجدى العلاج عليه شيئاً، وأخذت الأصوات تتضاءل في مسمعيه عاما بعد عام كأنها صادرة من مكان بعيد، أو كأن متحدثاً يتحدث وهو منطلق يعدو. . . حتى فقدت إحدى أذنيه السمع، ثم تبعتها الأخرى، فما أتم الثلاثين حتى صار أصم لا يسمع شيئا مما حواليه، وانقطع عن دنيا
الناس.
وامتد الداء إلى صدره فعقدة عقدة في حبال الصوت كادت تذهب بقدرته على الكلام، ولكن القدر أشفق عليه أن يفقد السمع والكلام في وقت معاً، فوقف الداء عند ذلك، ولكن ظلت في حلقه حبسة تجعل في صوته رنينا أشبه بصراخ الطفل، فيه عذوبة الضحكة المحبوسة استحيت أن تكون قهقهة. . .
وكانت بوادر هذه العلة التي أصابت أذنيه هي السبب الذي قطعه عن التعليم في المدارس بعد الشهادة الابتدائية، لينقطع لمدرسته التي أنشأها لنفسه وأعد برامجها بنفسه، وكان هو فيها المعلم والتلميذ
وحظ الرافعي من الشهادات العلمية حظ أبيه، فإن الشيخ عبد الرزاق الرافعي على علمه وفضله ومكانته، وعلى أنه كان رئيساً للمحكمة الشرعية في كثير من الأقاليم - لم تكن معه شهادة (العالمية) حتى جاء إلى طنطا. ولأمر ما نشب خلاف علمي بينه وبين بعض علماء طنطا حفزه وهو شيخ كبير إلى طلب الشهادة، فتقدم إلى امتحانها ونالها، لغير غرض يسعى إليه إلا أن يستكمل براهينه في جدال بعض العلماء. . .
وكان لأبي الرافعي مكتبة حافلة تجمع أشتاتاً من نوادر كتب الفقه والدين والعربية؛ فأكب عليها مصطفى إكباب النهم على الطعام الذي يشتهيه؛ فما مضى إلا قليل حتى استوعبها وأحاط بكل ما فيها وراح يطلب المزيد. وكان له من علته سبب يباعد بينه وبين الناس فما يجد لذة ولا راحة في مجالسة أحد، وكان ضجيج الحياة بعيداً عن أذنيه، وكان يحس في نفسه نقصا في ناحية يجهد جهده ليداريه بمحاولة الكمال في ناحية، وكان يعجزه أن يسمع فراح يلتمس أسباب القدرة على أن يتحدث، وكان مشتاقاً إلى السمع ليعرف ماذا في دنيا الناس فمضى يلتمس المعرفة في قراءة أخبار الناس، وفاتته لذة السامع حين يسمع فذهب ينشد أسباب العلم والمعرفة ليجد لذة المتحدث حين يتحدث، وقال لنفسه: إذا كان الناس يعجزهم أن يسمعوني فليسمعوا مني. . .
وبذلك اجتمعت للرافعي كل أسباب المعرفة والاطلاع، وكانت علته خيراً عليه وبركة.
وعرف العلم سبيله من نافذة واحدة من نوافذ العقل إلى رأس هذا الفتى النحيل الضاوي الجسد الذي هيأته القدرة بأسبابها والعجز بوسائله ليكون أديب العربية في غد. . .!
كانت مكتبة الرافعي في هذه الحقبة من تاريخه، هي دنياه التي يعيش فيها، ناسُها ناسه، وجوها جوه، وأهلها صحابته وخلانه، وعلماؤها رواته، وأدباؤها سُمَّاره؛ فأخذ عنها العلم كما كان يأخذ المتقدمون من علماء هذه الأمة عن العلماء والرواة فماً لفم، فنشأ ذلك نشأة السلف. يرى رأيهم، ويفكر معهم، ويتحدث بلغتهم، وتستخفه أفراحهم، وتتراءى له أحلامهم ومناهم
وإذا كان قد فقد السمع قبل أن يتم تمامه ويكون أهلا لغشيان المجالس يتحدث إلى الناس ويستمع إلى حديثهم - فإن حظه من العامية المصرية كان قليلا، وكان عليه أن يسألني أحياناً أو يسأل غيري من خاصته، عن كلمة أو عبارة أو مثل مما يسمع من أمثال العامة حين تلجئه الحاجة الأدبية إلى شيء من ذلك، وكان يمزح معي أحياناً ويقول: (فلتكن أنت لي قاموس العامية. . .)
وإذا كان أبوه وأمه قريبي عهد بمنبتهما في سورية، وكان لم يسمع أكثر ما سمع في طفولته إلا منهما - فإن لهجته في الحديث ظلت قريبة من السورية إلى آخر أيامه، على حين تسمع إلى كل أسرته وأخوته وبنيه يتحدثون باللهجة المصرية فما ينم صوت أو كلمة على أن أصلهم سوري، ولكن مصطفى كان بلغته ولهجة حديثه هو وحده النميمة على هذا الأصل، وكأنه لم يقدم من سورية إلا قريب.

ولم تُجْدِ على الرافعي معرفته الفرنسية إلا قليلا أو أقل من القليل، فمنذ انتهى من المدرسة لم يجد في نفسه إليها نزوعاً قوياً، فلزمها سنوات يقرأ فيها بعض ما يتفق له من الكتب القليلة المقدار في العلم والأدب، ثم هجرها إلى غير لقاء، ولو أنك كنت تسمعه أحياناً يأسف على هجرها ويمني نفسه بالعودة إليها في وقت فراغ؛ وهيهات أن يجد الرافعي فراغا من وقته.

هذه ثقافة الرافعي وتلك وسائله إلى المعرفة، وقد ظل هذا على الدأب في القراءة والاطلاع إلى آخر يوم من عمره، يقرأ كل يوم ثماني ساعات متواصلة لا يمل ولا ينشد الراحة لجسده وأعصابه كأنه من التعليم في أوله لا يرى أنه وصل منه إلى غاية.

وكان إذا زاره زائر في مكتبه جلس قليلا يحييه ويستمع لما يقوله ثم لا يلبث أن يتناول كتاباً مما بين يديه ويقول لمحدثه: (تعال نقرأ. . .) وتعال نقرأ هذه معناها أن يقرأ الرافعي

ويستمع الضيف، فلا يكف عن القراءة حتى يرى في عيني محدثه معنى ليس منه أن يستمر في القراءة. . .

وفي القهوة، وفي القطار، وفي الديوان، لا تجد الرافعي وحده إلا وفي يده كتاب.

وكان في أول عهده بالوظيفة كاتبا بمحكمة طلخا، فكان يسافر إلى طنطا كل يوم ويعود، فيأخذ معه في الذهاب وفي الإياب (ملازم) من كتاب أي كتاب ليقرأها في الطريق. وفي القطار بين طنطا وطلخا (وبالعكس) استظهر كتاب نهج البلاغة في خطب الإمام علي، وكان لم يبلغ العشرين بعد. . . .

(لها بقية)

(طنطا)

محمد سعيد العريان

إبراهيم باشا

موقعة نصيبين

- 2 -

واستقبل حافظ باشا الأمير ألاي والبكباشي الذي كان يصحبه أحسن استقبال، وأتحفهم بالهدايا وأخبرهم أنه سيرسل رده في اليوم التالي. وكانت الروح السارية في هذا الرد من أوله إلى آخره هي أن الخضوع لا يكون بالأقوال بل بالأفعال. ثم انتقل حافظ باشا من هذا المبدأ إلى قوله إنه لا يعترف بأن التهم التي يوجهها إليه إبراهيم قائمة على أساس صحيح؛ وحاول أن يثبت أن الجنود المصرية لا الجنود الشاهانية هي المعتدية، وجاء في ختام هذا الخطاب ما يأتي:

(لقد أعطيت لنفسي الحرية في كتابة هذه الرسالة الودية، لتكون دليلا على حسن نيتي؛ وقد أرسلتها مع الأمير الاي حاذق بك وبصحبته الأمير الاي أحمد بك من ضباط الجيش الشاهاني المظفر. وعندما تصلكم هذه الرسالة إن شاء الله سيتوقف العمل بما فيها على حكمتكم السامية).

وبينما كانا القائدان يتبادلان الرسائل على هذا النحو، كان رسول يستحث الخطى إلى إبراهيم، يحمل إليه رسالة من أبيه مؤرخة 9 يونية سنة 1839 يقول فيها:

(تسلمت رسالتك التي تقول فيها إن العدو يواصل زحفه وإنه احتل الآن ستين قرية وراء عينتاب، وانه وزع السلاح على الأهالي وحرض العصاة على مهاجمة عَكّار وسلب أموال حاكمها وقتله. وقد قلت بعد ذلك إنه ليس من الحكمة أن يسمح للأتراك بالسير على هذه الخطة، وطلبت إليّ أن أخبرك بما تفعل.

(إن اعتداء العدو علينا قد تجاوز كل حد معقول، وإذا ما صبرنا عليه بعد ذلك عز علينا أن نقفه، لأنه يبذر بذور الفتن ذات اليمين وذات الشمال؛ وكلما صبرنا عليه رغبة منا في عدم معارضة رغبات الدول الكبرى، زاد عدونا إيغالا في بلادنا وزادت الأمور حرجا. وتلك حال ترغمنا على العمل؛ فعلينا أن نرد هجومه بهجوم مثله. ولما كان العدو هو المعتدي فإن الدول لن تلقي التبعة علينا.

(فنصيحتي إليك أن تبادر عند وصول رسالتي إلى يديك بالهجوم على جنود العدو الذين دخلوا في أرضنا، وأن لا تكتفي بإخراجهم منها، بل عليك أن تزحف على جيش العدو الأكبر وتقاتله)

ووصلت هذه الأوامر إلى إبراهيم في غسق الليل؛ فأراد أن يهاجم العدو عند مطلع

فجر اليوم التالي. ورأى سليمان باشا (الكولونيل سيف ساعد إبراهيم الأيمن، الذي طالما أشرنا إليه في هذا الكتاب) غير هذا الرأي، وأصر على أن وجود الضباط البروسيين في جيش حافظ باشا يحمله على الظن بأن مواقع العدو قوية محصنة؛ وطلب الضابط الفرنسي أن يستكشفا بنفسهما تلك المواقع قبل الهجوم عليه. ولما كان من شيمة إبراهيم أن ينصاع دائماً إلى حكم العقل، فقد قبل هذا الرأي عن رضى وطيب خاطر.

وفي صباح اليوم التالي اضطلع القائدان نفسهما بتلك المهمة الخطيرة، مهمة استطلاع مواقع الجيش التركي. ومازالا يقتربان من خط النار حتى أصاب الرصاص حصان أحد جنودهما فقتله وكانت نتيجة هذا الاستطلاع أن عرفا أن نصيبين التي اعتصم بها حافظ باشا أمنع من عقاب الجو، وأن ليس في مقدورهما أن يستوليا عليها عنوة، لأن فون ملتكه وفون ملباخ نصبا معسكر الأتراك عند سفح التل الذي يجري عنده نهر كرزين وجعلا هذا النهر حائلا بين المصريين والجيش التركي. ولذلك اضطر المصريون أن ينسحبوا من مواقعهم ويهاجموا العدو من جهة أخرى. وأيقن إبراهيم وسليمان باشا أن الفضل في اختيار هذا الموقع المنيع الذي اتخذه الجيش التركي لنفسه يرجع إلى مهارة الضباط البروسيين وخبرتهم الفنية، ولكنهما قدرا أن الألمان لن يستطيعوا أن يتنبئوا بالحركة الجريئة التي سوف يقدمان عليها

والحق أنهما لم يخطئا التقدير، لكنهما حين أقدما على ما أقدما عليه عرضا أنفسهما لأشد الأخطار رغم أنهما بنيا خطتهما على نفسية البروسيين وعقلية الأتراك. وقد وصف تلك الخطة إيميه فنترنييه صاحب سيرة سليمان باشا بقوله:

(وكانت فكرة سليمان وميضاً من العبقرية إذا أفلحت وأوهاما من عقل مخبول إذا أخفقت. ولكنه كان مؤمناً بصوابها، واستطاع أن يبث هذا الإيمان في الجيش كله لا فرق بين قائده الأعلى وأصغر جندي فيه).

وكانت الخطة التي نفذت بإشراف إبراهيم وعلى مسئوليته هي أن يترك الجيش المصري

المعسكر الذي كان يحتله وقتئذ، ويسير مخترقا قرية مزار، وأن يتم ذلك بين طلوع الفجر وغسق الليل؛ ثم يلتف حول جبل بيازار ويعود بعدئذ فيتجه نحو العدو مولياً شطر الجنوب في اتجاه قرية كرد قلعة، وكانت الفكرة التي بنيت عليها هذه الحركة كلها هي: أولا أن فون ملتكه عندما يرى أن الجيش المصري قد رفع معسكره لا يشك مطلقاً في أن قواد هذا الجيش لن يفعلوا ما كانوا ينوون أن يفعلوه، وهو تعريض جناحهم للخطر، وأنه سيمكنهم بذلك من أن ينفذوا الشطر الأول من خطتهم قبل أن يدرك حقيقتها. وثانياً أن فون ملتكه إذا ما أدرك حقيقة الموقف وأراد الانسحاب إلى مواقع خير من مواقعه الأولى ليهاجم منها المصريين قبل أن يصلوا إلى أماكن آمنة، لن يتمكن من التغلب على كبرياء القائد التركي، بل إن هذا القائد سيتغلب على المنطق الألماني الضعيف.

ويقال إنه لما فرض حافظ باشا رأيه على الضباط الألمان غضبوا أشد الغضب ورفعوا إليه استقالتهم، فلما فعلوا ذلك قال لهم السر عسكر: (إن الجندي لا يستقيل قبيل الموقعة). وكان هذا الالتجاء إلى المبادئ الخلقية العسكرية كافياً لحل المشكلة، فلم ينسحب فون ملتكه بل أفرغ وسعه في معالجة هذه الحال الطارئة، فعدل خططه ونقل مدافعه التي أصبحت عديمة الفائدة لأن المصريين أبوا أن يقدموا أجسامهم طعاماً لنيرانها، ووضعها حيث يمكنه الاستفادة منها. وأيقن أن الموقعة الحاسمة ستبدأ عند مطلع فجر اليوم التالي، وكان يخشى أن تكون نتيجتها وبالاً على الجيش العثماني، لأن إبراهيم خرج على القوانين الحربية، فأبى أن يتبع البديهيات الأولى في فن الحروب، وخرق مبادئها الأولية. ولشد ما تألم ذلك العالم الخبير بفنون الحرب حين رأى أن عدوه قد أبى أن يعمل ما يجب عليه أن يعمله. ولاشك في أنه كان يعتقد أن أمثال ماكماهون وبازين ممن يتمسكون بالقواعد والأصول، خير من رجال كإبراهيم أو سليمان باشا يضعون قواعدهم لأنفسهم.

وما أسفر صبح اليوم الرابع والعشرين من شهر يونيه حتى بدأت المعركة بهجوم المصريين. وكان جل اعتماد الأتراك على فرسانهم لأنهم ظنوا أن طبيعة الأرض تحتم عليهم اتباع هذه الخطة الحربية. وقد يكونون مصيبين في ظنهم لأننا لا ندعي لأنفسنا

تلك الخبرة بالفنون العسكرية التي تمكننا من أن نبدي رأيا في هذا الموضوع. وكل الذي يعنينا هنا هو أن مشاة المصريين صدوا هجوم الفرسان العثمانيين، فولى هؤلاء الفرسان الأدبار
لا يلوي أخرهم على أولهم. وعندئذ وقع الاضطراب في صفوف الجيش العثماني كله فتضعضعت أركانه ولم تأت الساعة التاسعة حتى كان إبراهيم سيد الميدان غير المنازع.
وأقبل إبراهيم على خيمة حافظ باشا. وقد وصفها فنترنييه وصفاً لا نعتقد أنه كان جاداً فيه؛ لأنه قال: (إنها كانت واسعة الأرجاء كأنها قصر مشيد، مزخرفة كأنها حجرة استقبال لأحد الأباطرة العظام، يبهر الرائي جلالها وعظمتها) يبدو على هذا القول كثير من المبالغة، ولكن الذي لاشك فيه أنه كان في هذه الخيمة المزخرفة أريكة من الأرائك التركية المطعمة بالصدف، البعيدة عن الذوق والجمال الفني بعدها عن النفع، ثمنها عظيم ولكن الجالس عليها في عناء. وقد ترك بعضهم على هذه الأريكة أوسمة حافظ باشا ورسائله.
فلما دخل إبراهيم هذا المسكن المؤقت المترف، الذي لا نشك في أن فون ملتكه كان يعده مخالفاً للسطرين الثالث والرابع من الفقرة التاسعة من القسم الرابع عشر من المادة الثانية عشرة بعد المائتين من القواعد الخاصة بنظام الجيوش في الميدان، كان يكسوه العثير ويتصبب من جبينه العرق. ولما رأى هذه الأبهة الكاذبة تبسم ابتسامة ملؤها السخرية والازدراء، ومشى من فوره إلى الأريكة غير حافل بالأوسمة التي لم تكن لها قيمة في نظره، لأنه أكبر من أن يهتم بهذه الصغائر. ولكن الوثائق المتروكة وما قد يكون فيها من أمور ذات بال استرعت نظره، فوقف يفحصها وإذا به يجد فيها فرمانا يعين حافظ باشا والياً على مصر بدل والده فأمر أن يعنى بفحص الأوراق الباقية عساه أن يجد فيها من المعلومات ما له قيمة حربية. وبعد أن وكل هذه الأمور إلى من يعنى بها، أرسل الفرسان المصريين لمطاردة الأتراك الفارين، وأعد العدة لمواصلة الزحف على مرعش وملطية وديار بكر
ويقول لنا القنصل اليوناني العام في تقريره المرسل إلى أثينا إن إبراهيم كتب إلى محمد علي من خيمة حافظ باشا نفسه ينبئه بهزيمة الأتراك، وأن الموقعة لم تدم أكثر من ساعتين، وأن البشير وصل بهذا النبأ السار إلى القاهرة في اليوم الثالث من شهر يوليه؛ ومنها أرسل بالبرق إلى الإسكندرية حيث كان الباشا مقيما في ذلك الوقت وجاء في تقرير قنصلي آخر أن مدافع الجيش لم تطلق أكثر من ساعة ونصف ساعة، وأن الأتراك زلزلت أقدامهم فجأة، فطارت قلوبهم وولوا مدبرين، وأنهم خسروا خمسة آلاف قتيل ونحو سبعة آلاف أو ثمانية
آلاف أسير، أما عدد الجرحى فلم يرد له ذكر في هذا التقرير
ولم يعش السلطان محمود حتى يعرف نتيجة مغامرته العظيمة ضد أعظم أتباعه وأشدهم بطشاً، بل وافته المنية بعد يومين من واقعة نصيبين، وقبل أن يصل نبأ هذه الطامة التي حلت بالجيش التركي إلى الآستانة. ويقول الفيكونت بنسنبي في موته: (لاشك في أن العلة كانت قد نشرت جناحيها عليه منذ شهور، وأنه لم يحس بوطأتها فظل يعمل كل ما من شأنه أن يعجل يوم حمامه)
وماذا كانت علة السلطان يا ترى؟ لقد اختلف الأطباء في تشخيص مرضه، فأما الطبيب الإنجليزي الدكتور ملجن الذي عرض عليه فقال إن محموداً قضى نحبه بسبب اضطراب في المخ ناتج من إدمان المسكرات، وقال الدكتور نونر الذي كان يعالجه إنه مات بذات الصدر، ووافق الحكيم باشي التركي كبير أطباء القصر على رأي الطبيب البريطاني
(يتبع)
محمد بدران
مشروع تقسيم فلسطين وأخطاره
لباحث عربي كبير
تتمة ما نشر في العدد الماضي
الأماكن المقدسة
لم تكتف اللجنة الملكية بحرمان العرب من قسم فلسطين الطيب، مورد حياتهم، بل

سلخت القدس وبيت لحم ومنطقة واسعة توصلهما بالبحر عن البلاد العربية، ووضعته مع غيره تحت انتداب بريطاني دائم، بحجة أن المحافظة على هاتين المدينتين (أمانة مقدسة في عنق المدنية)، كأن العرب لا يعرفون المدنية وكأنهم لا يدركون مقدار ما لهذين المكانين من قداسة

إن العرب هم أكثر الشعوب تقديساً للقدس وبيت لحم، والإنكليز يعرفون ذلك، غير أنهم اتخذوا مبدأ (المحافظة على قداسة القدس وبيت لحم) وسيلة لسلخهما عن البلاد العربية، وتسهيلا لتحقيق المآرب اليهودية في هذا الجزء من البلاد المقدسة

مهدت اللجنة الملكية في تقريرها السيطرة اليهودية على هذا القسم من فلسطين، فهي توحي بأن تكون لغته الرسمية الإنكليزية لتزول مع الزمن منه الثقافة العربية والروح القومية. ومهدت السبيل لأن تكون أكثرية موظفي الحكومة في هذه المنطقة من اليهود. إذ هي تقول (صفحة 138) بأنه لو لم يكن هناك الانتداب الحالي على فلسطين، لاعتبرت الحكومة اليهود والعرب جماعة واحدة، ولانتخبت من بينهم الموظفين حسب كفايتهم لا حسب جنسيتهم، كما هي الحال الآن، ولكان أكثرية هؤلاء الموظفين من اليهود لأنهم أكثرية كفاية وأكثر مقدرة. وتقول اللجنة بعد ذلك بأن الانتداب الجديد (صفحة 382) لن يجعل ثمة مجال للبحث في حفظ التوازن بين ادعاءات العرب إزاء اليهود أو بالعكس، لأن الحكومة ستنظر إلى جميع السكان نظرة واحدة. ومعنى هذا أنها سوف لا تراعي النسبة بين الموظفين، بل ستأخذ الأقدر والأفيد لها. والموظفون اليهود أقدر بكثير من الموظفين العرب في نظر لجنة اللورد بيل ،ومتى أصبحت اللغة الرسمية الإنكليزية، ومتى أصبح الموظفون من الإنكليز واليهود صعب جداً على العرب العيش في هذه المنطقة من بلادهم واضطروا إلى النزوح عنها، فتصبح الأكثرية الساحقة فيها من اليهود. وحتى لو فرضنا أن عرب هذه المنطقة سيظلون فيها، فإن اليهود سينسلون إليها وسيصبحون فيها أكثرية. وعندها يطلبون إجراء استفتاء سائلين سكان هذه المنطقة فيما إذا كانوا يريدون الانضمام إلى (المملكة اليهودية) أو إلى (المملكة العربية). وتكون النتيجة الانضمام إلى (المملكة اليهودية)، ووضع اليهود أيديهم على الأماكن المقدسة الإسلامية والمسيحية، وإقامة هيكل سليمان مكان الصخرة الشريفة. . . وستجد الحكومة البريطانية عذرا لذلك تبرر به عملها قائلة بأنها تحب العدل ولا ترغب في حكم جماعة رغم مشيئتهم!. . .

ثم إن القدس مدينة كبير، يعيش أهلها على الوظائف والموظفين العديدين الذين فيها، وعلى التجارة مع القرى. فمشروع التقسيم يحرم أهل القدس من الوظائف ويقلل عدد موظفي المدينة، ويقطع القرى التي تتعامل مع القدس عنها. وسحل حينئذ أزمة اقتصادية شديدة يقاسي سكان المدينة العرب آلامها. . .

تقول اللجنة الملكية إنه (يجب أن يلقى على عاتق الدولة المنتدبة أيضا عبء المحافظة على الأوقاف الدينية وعلى الأبنية والمقامات والأماكن الواقعة في أراضي كل من الدولتين العربية واليهودية والمقدسة لدى العرب واليهود). وهي في هذا القول تريد إيهام الرأي العام بأن في المملكة العربية مقدسات يهودية! والحقيقة أن ليس لهم في القسم المنوي إبقاؤه عربياً شيء من هذا القبيل. أما العرب فلهم في مشروع (المملكة اليهودية) جوامع وكنائس وأوقاف وأبنية ومقامات وأماكن مقدسة عديدة، تتعهد الحكومة البريطانية بالمحافظة عليها! لقد رأينا قيمة تعهدات الحكومة البريطانية ومدى ما يمكن الاعتماد عليها. . .

ثم ما الفائدة للعرب من بقاء جوامع وكنائس ومقامات مقدسة في قسم من بلادهم يرغمون على الرحيل عنه؟ إن العرب يقدسون الجوامع والكنائس مادام فيها مصلون، أما إن قدر للشعب العربي أن يرحل عن وطنه (وهذا لن يكون) فخير له أن تنسف الجوامع والكنائس، وأن تمحى آثاره المقدسة، من أن تبقى أثراً يذكر الأجيال بأنه كان في هذه البلاد شعب عربي لم يعرف كيف يحتفظ بها. . .

دولة يهودية

إن لمشروع تقسيم فلسطين فائدة واحدة، ذكرها اللورد بيل في تقريره، وهي تحقيق أحلام اليهود من تأسيس مملكة لهم في الأرض المقدسة.

لقد منح تصريح بلفور اليهود وطناً قومياً في فلسطين، يعطيهم الحق في القدوم إلى الأراضي المقدسة وسكناها دون أن يغير ذلك كيان العرب وحقوقهم. غير أن هذا

التصريح لم يحقق آمال اليهود؛ على أنهم قبلوه ليكون وسيلة لتحقيق تلك الآمال. وجاء اللورد بيل وأوصى بإلغاء الانتداب القائم على تصريح بلفور، وإعطاء اليهود مملكة في أطيب قسم من فلسطين، مستقلة تمام الاستقلال، ولها ما لأكبر الدول من سيادة ومكانة. ومثل هذه الدولة لا تحقق آمال اليهود كلها، بل هي إلى إحياء الصهيونية، بعد أن كادت تفشل، ووسيلة لإيصال اليهود إلى غايتهم الرئيسية، وهي: إنشاء دولة يهودية ممتدة من النيل حتى الفرات، واستعمار الشرق الأدنى، لاسيما الشرق العربي، استعماراً اقتصادياً.

إن تأسيس مملكة يهودية في فلسطين أو في قسم منها، مهما كانت رقعته، خطر عظيم على الشرق العربي أجمع. لأن منح اليهود مملكة معناه تقوية نفوذهم في جميع أنحاء العالم، وسيطرتهم على الدوائر السياسية الدولية، سيطرة تجعل لدولتهم، مهما كانت صغيرة، أهمية دولية لا تقل عن أهمية عن كبار دول العالم. ويتلو ذلك تزلف الدول لهذه الدولة القوية، فتأخذ في عقد محالفات معها، تضمن للدولة اليهودية حرية العمل في الشرق الأدنى، لاسيما في بلاد العرب منه.

وفي أثناء ذلك تكون (الحكومة اليهودية) آخذة في حشد اليهود في (القسم اليهودي) من فلسطين. وقد صرح رجالاتهم من الآن، بأنه سيبلغ عدد اليهود في هذا القسم عما قريب خمسة ملايين، جلهم من الشبان والشابات الصالحين للعمل. لهذا ستكون قوة التجنيد عندهم معادلة، إن لم تكن أقوى، لقوة تجنيد بلاد عادية يبلغ سكانها خمسة عشر مليوناً. وستدرب الحكومة اليهودية هذا العدد الكبير من الرجال والشبان والنساء على الأعمال الحربية. وسيكون لديها جيش قوي مجهز بأحدث عدد الحرب. وزيادة على الجيش المحلي فإن للدولة اليهودية جيوشاً احتياطية منتشرة في جميع أنحاء العالم. لأن كل يهودي خارج فلسطين سيعتبر نفسه جنديا في جيش (الدولة اليهودية) وسيلبي النداء مهما كان بعده عن الأراضي المقدسة. وليس في العالم قوة تحول بين ملايين اليهود وبين الانضمام إلى جيشهم في فلسطين. . . وإن حوادث أسبانيا الحالية خير برهان على ذلك.

وقسم المملكة اليهودية من فلسطين لا يتسع طبيعية لأكثر من مليون. فمتى وجد ثلاثة ملايين إن لم تقل خمسة أو أكثر، اضطروا بحكم الطبيعة إلى التوسع، ولا توسع لهم إلا في البلاد العربية. أما استيلاؤهم على بقية فلسطين وشرق الأردن فسهل متى كان لهم مملكة، لعوامل اقتصادية عرضناها فيما تقدم. ومتى استولوا على (المملكة العربية) المنوي خلقها زاد عددهم في فلسطين، حينئذ يوجهون وجههم شطر سوريا ولبنان. وعند ذلك، مهما كانت شجاعة العرب، ومهما كان صبرهم على القتال، لا يكون في مقدور جيش القطر السوري الشقيق، حتى وإن عاضده بقية البلاد العربية، الوقوف أمام جيش (المملكة اليهودية) العديد والمجهز أحسن تجهيز حربي حديث. . . ومتى زال استقلال سوريا، هدد العراق، ومصيره أن يجزأ بين الطامعين فيه، ويدخل قسم منه في المملكة اليهودية. أما مصر فستجابه خصما عنيداً يكون عونا لأعدائها عليها. . .

ولنفرض أن لا خوف على استقلال سوريا والعراق ومصر السياسي من (الدولة اليهودية)، فإن هذه البلاد سوف لا تنجو ولن تنجو من استعمار اليهود الاقتصادي لها. فوجود دولة يهودية في فلسطين أو في قسم منها معناه زوال كل ما لمصر من أمل في زعامة البلاد العربية ثقافياً واقتصادياً، إذ ستكون الدولة اليهودية حائلا بينها وبين هذه البلاد، وسوف لا تنجو هي من استعمار اليهود الاقتصادي. ومعناه أيضاً زوال كل ما للعراق من أمل في تقوية الرابطة بين البلاد العربية، وتوحيدها، ومن وصوله إلى البحر الأبيض المتوسط. أما سوريا، بما فيها لبنان، فإن لم يزل استقلالها زوالا نهائياً، فستكون تحت نفوذ الدولة اليهودية سياسياً واقتصادياً. . .

إن وجود (مملكة يهودية) في فلسطين أو في قسم منها، ضربة قاضية لآمال العرب (بما فيهم مصر)، وسبب لفقدان السلام والهدوء من الشرق العربي. لهذا يجب على كل عربي أن لا يرضى أبدا بتقسيم فلسطين، ولا يمكن الحكومة منه. ويجب على جميع البلاد العربية أن تتساند وتحول دون تأسيس مملكة يهودية في قسم من فلسطين، فتحول بذلك دون وقوع الأخطار العديدة التي ذكرنا بعضها.

اقتصادي

الفلسفة الشرقية
بحوث تحليلية
بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين
- 15 -
كتاب البوذية
جمع تلاميذ بوذا الأولون حكمه وعظاته وتعاليمه ومناهج حياته العملية وضموا إليها قصصاً عجيبة وأساطير شيقة عن التجسد والتناسخ، وأخرى حوت كثيراً من معجزات بوذا وخوارقه للعادة وغير ذلك، فبلغت هذه المجموعة نحو عشرين مجلداً أطلق عليها كتاب (السلال الثلاث) ولكنها لم تكن مصونة صيانة (الفيدا) ولا صيانة (البيرانات) أو أي كتاب آخر من كتب البراهمة التي أقامت حولها القداسة سياجا من المناعة حفظها من التبديل. ولهذا مازج كتاب البوذية كثير من الخلط والعبث والانتحال حتى دس على بوذا ما لم يدر له بخلد أو يخطر له على بال.
تطور البوذية
لم تظل البوذية طويلا على هذه البساطة التي رأيناها، إذ لم تلبث أن تحولت إلى ديانة معقدة، فيها كثير من الظلمة والخفاء و (الماوراء) الطبيعيات، فبوذا قد تحول إلى إله خفي ذي أسرار عجيبة، منها أن الإله تجسد في بوذا، لينقذ البشرية بأن يحمل عنها عبء خطاياها القديمة، ويحول بينها وبين ارتكاب أخرى جديدة، لا بواسطة نشر نور المعرفة بين الناس كما كانت الحال في العهد الأول، بل بطريقة فيها من الأسرار العويصة ما يجعل الفرق بين العهدين بعيداً والخلف شاسعاً. وليس هذا فحسب، بل إن بوذا قد أصبح بعد هذا التطور رمزاً للإله المنقذ الذي جعل يجيء إلى هذا العالم الأرضي من حين إلى آخر، متقمصاً جسد أحد بني الإنسان، لينقذ البشرية في شخصه الذي يسمى في كل مرة: (بوذا) ويجري عليه ما لا يجري على أفراد بني الإنسان جميعاً من أكل وشرب وزواج وإنسال
وغير ذلك من خصائص الأناسي. وقد كان بوذا الذي نحن بصدد مذهبه الآن هو الرابع من هؤلاء الأشخاص الذين تقمص الإله أجسادهم.
الفلسفة البوذية
لما تطورت البوذية على النحو الذي رأيناه آنفاً وخاضت فيما وراء الطبيعة، كان من المحتم أن يكون لها فلسفة، لاسيما وأن عناصر هذه الفلسفة موجودة في التعاليم الأساسية لهذه الديانة حيث قرر بوذا كما أسلفنا أن النجاة لا تتحقق إلا بعاملين متلازمين الزهادة والمعرفة، وأن من شأن الأولى أن توجد ديانة متصوفة، ومن شأن الثانية أن توجد فلسفة معقدة، وهذا هو الذي كان بالفعل، إذا أعلنت البوذية أن الإنسان لا يكون حكيما إلا إذا تمت له المعرفة، وهي لا تتم إلا إذا مر أمامه سلسلة مشاكل الكون المتماسكة الحلقات وأخذ في حل حلقاتها واحدة بعد واحدة. وعندها أن سلسلة المشاكل الكونية يجب أن يبدأ في حلها على النحو الآتي:
حيث إن الحياة مزيج من الألم والشيخوخة والموت، فأول الأسئلة التي ترد على الذهن هي: س: لم كان الموت؟. ج: لأننا ولدنا، ومن ولد يجب أن يموت. س: ولم ولدنا؟. ج: لأننا موجودون، والولادة والموت نوعان من الوجود، فالموت يقودنا إلى الحياة، والحياة تقودنا إلى الموت. س: ولم كان هذا الوجود؟ ج: لأننا خاضعون لارتباطات وثيقة بكل ما يغذي وجودنا، ولاسيما بالقوى الثلاث: المادية والنفسية والأخلاقية. س: ولم كان هذا الارتباط بالأشياء الخارجية أو الميل إليها أو الاتصال بها؟ ج: لأننا بالرغم من آلامنا الكثيرة نحس بظمأ إلى الحياة وشغف بها. س: ولم كان هذا الظمأ؟. ج: لأننا - وقد منحنا الإحساس - ننعطف بغريزتنا إلى البحث عن الإحساس اللذيذ، وهو يوجد في استمرار الحياة. س: ولم كان هذا الإحساس؟ ج: لأنه يوجد تماس بين أعضائنا وبين الأشياء الخارجية. س: ولم كان هذا التماس؟ ج: لأن لنا حواس ستاً تتجاوب مع ستة أنواع من الأشياء أو مع ست حقائق موضوعية وبالأحرى مع ستة اختصاصات. س: ولم كان الاختصاص؟ ج: لأن كل مشخص يتألف من كائنين: المادة والمدرك. ومعنى هذا أنه اسم وصورة في آن واحد. س: ومم جاءت الاسمية والصورية؟. ج: جاءت من أنه

توجد معرفة، ووجود المعرفة يستلزم وجود كائن معنوي جدير بأن يعرف كما يستلزم وجود
عملية المعرفة. س: ومم جاءت المعرفة؟ ج: جاءت من أن طبيعتنا مكونة من استعدادات شتى، وأن سلوكنا الحاضر وليد نتائج معارف سابقة. س: ومم جاءت هذه الاستعدادات؟ـ ج: جاءت من الجهل الطبيعي فينا، لأننا لو كنا نملك المعرفة الحقة لما سقطنا في السطحية التي تطبقها استعداداتنا تطبيقاً عملياً في كل لحظة.

السكون عند البوذية

كل شيء حركة دائمة، وليس هناك في الحقيقة كائنات موجودة، وإنما كل ما في الكون لا يزيد على أنه حالات لهذه الحركة الأبدية يمتاز بعضها عن بعض بفروق ناشئة من سنن طبيعية لا يؤلف بينها عنصر جوهري شامل، وإنما هي موجودة من نفسها وبفعلها تتكون حوادث الوجود. فإذا اتخذنا الإنسان مثلا كنموذج لبعض الظواهر الناشئة من السنن الكونية وجدناه مؤلفاً من خمسة عناصر: المادة والإحساس والإدراك والنمو والوجدان.

وترى الفلسفة البوذية أنه لا ثبات لأي واحد من العناصر على حالة واحدة، وتتخذ من هذا برهانها على أنه لا يوجد في الكون جوهر يؤلف بين الحوادث الكونية المشاهدة، إذ لو كان هذا الجوهر موجوداً لما كان كل ذلك التعقد الذي يرافق هذه الظواهر دائماً، ولشاهدنا فوق ذلك أثره الخاص، مع أن الواقع أنه لا يشاهد لغير الظواهر الطبيعية أي أثر، فمثلا الشهوة والجهل المجتمعان أبداً ينتجان أحداثاً، والأحداث تنتج انفعالات ينشأ عنها إدراك الكائن لأنيته. وهذه الانفعالات وذلك الإدراك للأنية ينتجان الوجود الشخصي، وهذا الوجود الشخصي ينتج الحواس، والحواس تنتج التماس مع الأشياء، والتماس ينتج الإحساس، والإحساس ينتج الرغبات، والرغبات تنتج تشرب المشتهيات. وهذا التشرب ينتج الصيرورة، والصيرورة تنتج التوالد، والتوالد ينتج الألم والشيخوخة والموت، والموت ينتج الحياة بوساطة التناسخ، وهكذا تتكون دائرة الحركة المتداخل أولها في آخرها تداخلا محكما.

النفس عند البوذية

تنكر البوذية النفس كما تنكر كل ما وراء الطبيعة، ولكن آخر حلقة من هذه السلسلة المنطقية التي أسلفناها وهي حلقة التناسخ لا تلبث أن تخلق مشكلة عويصة وهي: إذا كان عنصر حياة مذهبكم هو التناسخ، فما هو ذلك الكائن الذي يتناسخ؟ فإن قلتم: إنه الجسم فلا يمكن أن يتناسخ جسم في جسم، لأنه يلزم عليه أن يتضخم هذا الكائن إلى ما لانهاية، أو أن يهذب منه شيء ويحل محله شيء آخر، فيترتب على ذلك تشويش في النظام لا حد له، إذ يعاقب البريء على جريمة الآثم، ويثاب المجرم على براءة البريء، وهذا لا يقبله عقل؛ وإن قلتم: إن ما يتناسخ هو شيء غير الجسد، قلنا لكم: ما المانع من أن يكون هو النفس؟ غير أن البوذية تنفلت من هذا الجواب كما شأنها كلما أحرجت بأسئلة ما وراء الطبيعة وتقول: إن هذا السؤال غير مفيد، لأن جوابه غير محدود مادامت عناصر الشخص بعد موته ليست عينه تماماً وليست غيره تماماً، وإنما هي مزيج من العينية والغيرية معاً

مصير البوذية

حينما نشأت البوذية كانت البراهمية قد خَلِقَتْ بعض الشيء، فاستطاعت تلك الديانة الناشئة أن تهزمها وتحصرها في أمكنة معينة من بلاد الهند، ولكن البراهمية لم تلبث أن استردت قوتها وحملت على البوذية حملة عنيفة أجلتها بها عن أكثر البلاد الهندية، حتى إذا فتح الإسلام الهند أجهز على البقية الباقية منها، ولكن هذه الديانة حينما أجلتها البراهمية في القرون الأولى للميلاد المسيحي لم تكن قد انعدمت من الوجود، وإنما كانت قد تفرقت شمالاً وجنوباً إلى الصين واليابان وجاوة وسومطرة، وظلت هاك حيث التقت بالإسلام فصدمها خصوصاً في جاوة وسومطرة صدمة قاسية لم تقو بعدها على المناهضة والغلاب فتخلت له عن الميدان معترفة بأن البقاء للأصلح، سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا

ولكن ليس معنى هذا أن البوذية قد انمحت من سجل الكون، كلا فهي لا تزال تحتل قلوب الملايين من بني البشر وإن كانت قد تبدلت تماماً وخضعت لأهواء الشعوب التي

اعتنقتها وانهزمت أمام عاداتها وتقاليدها انهزاماً جعلها أثراً بعد عين. فبعض الشعوب مثلا أدخل فيها عبادة النساء، والبعض الآخر أدخل عبادة الفيلة محتجاً بأن بوذا قد تقمص أجسادها مرات متعددة، والبعض الثالث جعل من شعائرها أن يباح للكهنة والقديسين كل موبقة مهما بلغت فداحة ما فيها من عهر ومجون مادام هذا الكاهن يدعي أنه لا يحس أثناء هذا الفجور بسرور إلى غير ذلك مما لم يخطر لبوذا ولا لتلاميذه ولا لأنصاره الأولين ببال

(يتبع)

محمد غلاب

أدب المنفلوطي

بقلم السيد جورج سلستي

كتبت على أثر الحملة الطائشة التي قام بها بعض الأدباء على المنفلوطي وأدبه بمناسبة ذكراه الثالثة عشرة

أحق ما يقولون من أن صاحب (النظرات) (ليس بالكاتب ولا الأديب)، وأنه صنم من أصنام الأدب (يجب علينا تحطيمه وطرحه)، وأنه خلو حتى (من ناحيةٍ واحدة خليقة بالتحليل ووجهٍ واحدٍ جدير بالدرس)؟!

أتكون نفثاته الشائقة نفاية (لا قيمة لها ولا وزن)، وكتاباته الممتعة (مزيفة جوفاء)، وأدبه الرائع (سقيماً هزيلاً)؟!

أيبلغ العقوق في هذا الجيل حدَّه الأقصى فيتهجم الأبناء على آبائهم والتلاميذ على أساتذتهم ولا يعترفون لهم حتى بالتثقيف ولا يقرون لهم بفضل ولا شبه فضل؟!

أكلما طلع كاتب جديد كان القدح أو كلماته، والنقد الجارح أول نفثاته، وكان الهدم نصيب نابغة من نوابغ الأدب العالي وقطب من أقطاب الفن الرفيع؟!

أحتم على الأديب الناشئ أن يتخذ النقد المرّ وسيلةً لبلوغ ما يصبو إليه من مكانة، والتهكم اللاذع سبيلا إلى ما يطمح إليه من مقام، كأن لا نهج إلا هذا النهج، وكأن الإنتاج ليس من مزايا التفوق والنبوغ؟!

إننا نكبر الجرأة - والجرأة من مزايا الأديب - ولكن عندما تكون محدودة، مكبوتة النزوات، مكبوحة الأهواء؛ لأن الجرأة المطلقة تهوّر وجنون.

وإننا نجلّ النقد - والنقد عماد الأدب الصحيح - ولكن عندما يكون نزيها لا تحامل فيه ولا طعن.

نود أن يكون الناقد فذّا في أدبه فذاً في رجولته لأننا نربأ به أن يكون طفيلياً يعيش على فتات سواه، لا، بل نربأ بكل من يمت إلى الأدب بصلة أو سبب أن يبني مجده على تقويض زعامة غيره وهدم بنيان سواه.

ليس المنفلوطي بالأديب الكامل، فالأديب الكامل لم يخلقه الله بعد؛ ولا هو سيد الكتاب ولا

إمام المنشئين ولا أمير الشعراء ولكنه من سادة الكتاب ومن أئمة المنشئين ومن الشعراء المجيدين، فعلام الإنكار؟!

وليس المنفلوطي من الروائيين الأفذاذ الأعجمية ولا القصاصين النوابغ ولكنه من خيرة من نقلوا الرواية الأعجمية إلى لغة الضاد وممن كتبوا في القصة فبلغوا فيها شأواً؛ فعلام التضليل؟!

إن في أدب المنفلوطي مآخذ، ما في ذلك ريب، ولكن ما ضعف أقله لا ينبذ جله. وعلى الناقد الحصيف ألا يجسم الأخطاء ويتعامى عن مواضع السموّ والجمال.

يقولون إن المنفلوطي لم يكن يهمه من الإنشاء غير الأسلوب وفي هذا القول غلوٌّ كثير.

فهو على افتتانه بالمظهر كان يولي (الجوهر) اهتمامه وعنايته؛ إلا أن روعة أسلوبه طغت على سواها فظهر أدبه أقرب إلى السطحية منه إلى العمق.

والتقعر لم يكن من شأنه فقد كان يلقي بآرائه في سلاسة ووضوح في ألفاظ جزلة ناعمة، فأتت ديباجته وضاءة مشرقة تغمرها العذوبة ويفيض عليها السحر. أيكون ساحر البيان سقيم الأدب هزيله، وتكون السلاسة جُرْماً والعذوبة إثماً؟!

ويقولون إن الجيد في لغة جيدٌ في كل لغة، وإن المنفلوطي إذا نُقِلَ إلى لغة أعجمية تعرِّى من بهرجه وظهر ما في أدبه من ضعف.

وهذا قول فيه نظر. فليس لقطعة من الأدب الإنكليزي جلالها ذاته لدى نقلها إلى الفرنسية مثلا، ذلك لأن لكل لغة سحرها الخاص في الأداء والتعبير لاسيما في الشعر والأدب.

وإنك عبثاً تستطيع بالغاً ما بلغت من قدرة أن تنقل شكسبير بسحره وفتنته إلى لغة أخرى؛ وما ذلك إلا لأنه كان - وهو المتضلع من لغته البصير بدقائقها وأسرارها - على عنايته بالفكرة شديد العناية بالأسلوب. ذلك الذي يفقد جل روعته بالنقل.

لندع شكسبير ولنتخذ أحد الكتاب المعاصرين مثالا. وليكن بول فاليري هذا المثل.

فهذه (مقبرته البحرية) تكاد تكون أحجية، وهي بالفرنسية معجزة في السبك، وما أحسب أن أحداً يأنس في نفسه القدرة على نقلها إلى لغة أخرى ويظل محتفظاً بقوتها وروعتها الأصيلتين، وليجرب نفسه من يشك في القول أو من يرتاب في صحته.

فتلاؤم الألفاظ في كل لغة له جرسه الخاص ووقعه الخاص، ولن يكون له مثل وقعه مثل
جرسه في النقل والترجمة.

ويقولون إن المنفلوطي لم يصوّر إلا ناحية واحدة من نواحي الحياة هي البؤس، وإنه لم يوفق حتى في هذه الناحية.

وهذا قول مردود، فقد اشتهر المنفلوطي بمقالاته أكثر منه برواياته، وهذه (نظراته) في أجزائها الثلاثة طافحة بكل طريف؛ وقد عالج فيها جميعاً من فنون الأدب وشؤون الحياة الشيء الكثير
وهب أنه لم يكتب في الاجتماعيات ولا في الشعر ولا في النقد الأدبي، وأنه وقف قلمه السيال على المأساة دون الملهاة، وعلى تصوير البؤس دون السعادة، فهل يلام الحزين إن لم يفتر ثغره بالبسمات؟ وهل تلحي الكئيب إذا لم تعرف مقلتاه إلا الدموع وإذا لم تفض نفسه إلا بما تشعر به، ويجيش به صدره المجهود؟!

ثم من ذا الذي كتب في البؤس فبلغ مدى المنفلوطي فيه؛ ومن هو الكاتب العربي الذي حرك بنفثات قلمه مكامن الأشواق وهز مختلف الأحاسيس وتلاعب بالعواطف وأجرى الشؤون من العيون كما حركها وأثارها وأجراها مصطفى لطفي المنفلوطي؟!

ويقولون إن التكلف احتل كتاباته كلها وإن قلمه كان يجري بما لم تكن تشعر به نفسه.
وفي هذا القول ما فيه من هراء

فلقد قال فيه عارفوه والذين لازموه في حياته إنه لم يكتب إلا عن فيض شعوره وحسه، وإن كتاباته صور حقيقية لنفسه، وإن أدبه وكرم خلقه وما تحلى به شخصه من مزايا وصفات إنما هي رسائله وكتبه لا تنقص ولا تزيد؛ أما أسلوبه فخال من التكلف وتكاد كلماته الطيعة تسيل رقة وعذوبة

والمنفلوطي إلى هذا كله شاعر مجيد وله قصائد رائعة لا تعيبها إلا قلتها. وهو في شعره شأنه في نثره متخير اللفظ متين السبك، لطيف المعاني بارع الوصف، وله في الوجديات غرر وفي الحكم آيات

وبعد فحسب المنفلوطي فضلا على الأدب العربي أنه انتقل به في مستهل . . . . النهضة من الجفاف إلى الإيراق والإيناع، وإنه حبب جمهور المتأدبين في الإنشاء الرفيع وأساغ له الاستمتاع بالسلاسة وتذوق العذوبة فيه. وحسبه فخراً أنه نسيج وحده في عصره لم يجاره
في فححر بيانه منشئ في جيله

ومن كان لذ في الأدب خدمات مصطفى وفضل مصطفى، فلن يضير مجده تهجم المتهجمين ولن ينال من مكانته تشدق المتشدقين
على أنه يؤلمنا والله ألا توزن الأقوال وألا تقدر الرجال
(بيروت)
جورج سلستي
رسالة الشعر
مختارات من أدب الرافعي

انقطع الرافعي عن التعلم في المدارس بعد حصوله على الشهادة الابتدائية لعلة) أصابته في أذنيه، فكان لذلك أثر شديد في نفسه، وكان بذلك يرى نفسه وهو في العشرين كأنما ودع الشباب؛ فهو كثير الالتفات إلى الماضي والحنين إليه؛ وما كان له

ماض بعد إلا المدرسة التي هجرها برغمه من جراء العلة التي نالته. فاستمع إليه في القطعتين التاليتين يتحدث عن المدرسة وعهد الدراسة كما يتحدث الشيخ الهم عن ماضيه البعيد. والقطعتان من أول ما قال الرافعي من الشعر وهو ابن عشرين سنة). أما القطعة الثالثة فقد ألقاها في الحفلة السنوية لجمعية الاتحاد والإحسان السورية المصرية بطنطا في 22 أبريل سنة 1921

محمد سعيد العريان

زمن الدراسة (1)

زمن كالربيع حلّ وزالا ... ليت أيامه خُلقن طوالا!
يحسب الطفلُ أنه زمن الهمِّ ... وما الهمُّ يعرف الأطفالا
يا بَني الدرسِ، مَن تمنَّى الليالي ... كلياليكمُ تمنَّى المحالا
ليلةٌ بعد ليلةٍ بعد أخرى ... وليالي الهنا تمرُّ عِجالا
قد خَبَرْناَ الأنامَ في كل حالٍ ... فإذا الطفلُ أحسنُ الناسِ حالا
وهو إن جدَّ لم يزل في صعودٍ ... وكذا البدرُ كان قبلُ هلالا
غير أن الكسولَ في كل يوم ... يجد اليومَ كلَّه أهوالاً
ويرى الكُتْبَ والدفاتر والأقْ ... لامَ وأوراق درسِه أحمالا
وإذا ما مشى إلى قاعة الدرْ ... سِ ذراعاً يظنُّه أميالا!
من يقم في الأمور بالِجْدِّ يَهنْأ ... والشقا للذين قاموا كسالى
وزمانُ الدروس أضيق من أن ... يجدَ الخاملون فيه مجالا
أيها الطفلُ لا تضيِّع زماناً ... لستَ تَلْقَي كمثله أمثالا
ربما نلتَ ما يفوتُ، وهَيها ... تَ إذا فاتَكَ الصِّبَى أن تنالا!

بعد المدرسة (2)

ما لأيام ذا الصِّبَى تتفانَى؟ ... وقديماً عهدتُها تتوانَى
ذهبتْ بالصِّبى، سلام عليها ... من فؤادٍ بحبِّها ملآنا
كل ذي حالة سُيمْنَى بأخرى ... ويلاقي بعد الزمان زمانا
والفتى مَن إذا تغيَّر حالٌ ... لم يقف في وجوهه حيرانا
هذه ساعة الحصاد، فمن كا ... نَ تَعَنَّى أراحَه ما عانَى
والذي يزرع التهاونَ في الأشْ ... ياءِ لا يجتنيه إلا هوانا
ليس يُجدي الإنسانَ أن يأمل النَّا ... سُ فلاناً من قومه وفلانا
فاسْعَ في الأرض، إن عِقبان هذا الْ ... جوِّ لا يرتضين فيه مكانا
واحذر الناسَ، إنما يأمن النا ... سَ صَبيٌّ يظنُّهم صبيانا
واركب الْجِدّ في الأمور ولا تَجْ ... بُنْ إذا فات بعضُها أحيانا
إن هذا الوجود كالحربِ: لا يُكْ ... رَمُ في الحرب من يكون جبانا

(سنة 1901)

مصطفى صادق الرافعي

مصر والشام (3)

يا نسمة النيل مُرِّي بالسلام إلى ... نسيم وادي الهوى في أرض لبنان
إلى النسيم الذي رَفَّت نضارتهُ ... كدمعة الفجر رفَّتْ فوق ريحانِ
إلى النسيم الذي يَنْدَى على كَبِدي ... نَدَى السرورِ على آفاق أحزانِ
إلى النسيم الذي من طول أُلْفَتِهِ ... للزهرِ أحْياء بروح الزهر أغصاني
بالله يا نسمات النيل طِرْنَ إلى ... ذاكَ النسيم بأشواقي وتحناني
قلبي يرفُّ رفيفَ الطير بينكما ... كأنَّما أنتما فيهِ جَناحانِ
لَمِصر في حَقِّها الأدنى عليَّ هوىً ... وللشام هوىً في حقِّها الداني
لستُ الكريمَ بدارِي إنْ رعيتُ لها ... عهداً ولم أرْعَ فيهِ عهدَ جيراني
يا مصرُ أرضُكِ مهدُ العقل كان بها ... والشام منبت أرواحٍ وأديانِ
نُبّوة العقلِ في مصرٍ، وجارتُها ... نُبُوَّة الروحِ فيها مُنْذُ أزمانِ
كلتاهما تركتْ فيِ الدهرِ معجزةً ... إيمانُ عقلي فيها عقل إيماني
معنَى من الحسن أعياني تفهُّمُهُ ... لكنهُ هو معنى الخالدِ الفاني
الشام من مصرَ، لكن قد تجاورتا ... لِتُصبحا للمعالي شِبْهَ ميزانِ
ألم ترَ الدهرَ وزَّاناً بمجدهما ... مُلكاً بملكٍ وتيجاناً بتيجانِ

الشام من مصرَ لكن قد تباينتا ... لأَنَّ حِسنَهما في الأرض حُسْنَانِ
لونانِ في واحدٍ كالغصنِ تنظرهُ ... لوناً وبالوردِ غصنُ الوردِ لونانِ
والشرق وَجهٌ من الدنيا تُطلُّ بهِ ... ومصر والشامُ في ذا الوجهِ عينانِ
يا مصرَ يا سوريا المجدُ (دائرةٌ) ... وأنتما في محيط المجد (قُطران)
كلا كما مُشْبِهٌ في الحسنِ صاحبَهُ ... أأنتما واحدٌ أَمْ أنتما اثنانِ
أرى الممالكَ أخواناً مُعَلَّلَةً ... لكنَّما مصرُ والشامُ الشقيقانِ
لو تُسأَلُ الأرضُ: أين ابناك؟ لاَلتفتتْ ... إليهما ثم قالتْ: هاهما ذانِ

رحلة ما تنقضي

للأستاذ فخري أبو السعود

ما طول لبثي في ديار قرار ... والنفس تائقة إلى الأخطار؟
إني سئمت لطول لبثيَ موطني ... ورغبت عن خدني وعفتُ جواري
ومللت نفسي إذ غدت وكأنها ... دثرٌ من الأطلال والآثار
قد آدَها طولُ القعود ولم تزل ... وثابة العزمات والأوطار
لأجددنَّ برحلة عزماتِها ... وأُصَدِّعَنْ عنها قيودَ إسار
أَأُقيم في أرض وفكريَ ما وَنى ... في الكون عن دأب وعن تسيار؟
تالله أهدأ أو تُسابِقَ خطوتي ... خطواتِهِ في شاسع الأقطار
في رحلة في الأرض تعقب رحلة ... لم أدر غايتها وأين قراري
أَحتثُّ خطوي في مَسارحَ لم تُجَبْ ... بالكهرباءِ ولم تُجَزْ ببخار
متمليّاً أنى تَرَامَتْ بي النوى ... من فتنة الأرياف والأمصار
أَلْقَي شروقَ الشمس يوماً من ذرى ... طود ويوماً من عباب بحار
وتظل دائبةً وأمعنُ دائباً ... حتى أودع قرصها المتواري
وأسيرُ من رمل لِوَادٍ معشب ... غَشَّتْ حصاه سواقطُ الأزهار
نَفْسي هنالك صاحبي أكرِمْ به ... من صاحب من صفوة الأخيار
أَنْسَى على سَنَنِ الطريق بلابلي ... ويخف ما بالنفس من أوقار
وأرى الحياة مع المسير جميلةً ... والمكثُ حلفُ الهم والأكدار
ويقولُ مَن هذا الغريبُ معاشرٌ ... أنا فيهمُ سرٌّ من الأسرار
أَغشَى ديارهمُ وأطوي أفقْهم ... وأمر فيهم كالخيال الساري
وهُمُ حيالي دائبون بمسرح ... للعيش ذي وِرْدٍ وذي إصدار
فكأنهم دوني شخوصُ رواية ... عُرضتْ مَشاهِدها على النُّظَّار
يا ليت عمري رحلة ما تنقضي ... موصولة الأسفار بالأسفار
لا أصطفي وطناً ولا آوي إلى ... دار فهذا الكون طراً داري
لا دَارَ إلاَّ حيث أغْفى في حمى ... جبلٍ مُنيف أو معَين جار
أروي فؤادي من مباهج عالم ... هو مسرح الألباب والأبصار
وأبيع في الأسفار عمراً واحداً ... أَشْرِي به ألفاً من الأعمار

فخري أبو السعود

رسالة الفن

رفائيل

الفنان أبداً

للدكتور أحمد موسى

- 2 -

أما في الغرفة الثانية (1512 - 1514) فقد صور مناظر دينية ومناظر قصصية، تناول في الأولى العلاقة بين الكنيسة والخالق، وتحرير الكنيسة الفاتيكانية من أعدائها بواسطة البابا يوليوس الثاني. وفي الثانية مثل طرد هيليودورس من معبد أورشليم بفارس هبط من السماء. ولعل من أجمل تصاويره (الفرسكو) تلك التي مثلت صد اتيلاس عن روما سنة 452 بقوة ليو الأول، وإدماج ذلك في محاربة الفرنسيين وطردهم من إيطاليا بعد مذبحة نوفارا سنة 1513. أما القطعة التي مثلت تحرير بتري من السجن بواسطة الملاك فهي أيضاً لا تقل روعة عن سابقاتها.

وتبين صور السقف أربعة مناظر للعهد القديم (بحالة سيئة الآن)، الأول يهوا وموسى، والثاني فداء إسحاق. والثالث ظهور يهوا لنوح، والرابع حلم يعقوب.

وفي الغرفة الثالثة (1514 - 1517) سجل عصر البابوين ليو الثالث والرابع.
أما القطعة التي مثلت مأساة احتراق بورجو بالحي الفايتكاني ومحاولة البابا ليو التاسع إخمادها، وسيره في التصوير على الخط الإغريقي الرائع الذي مثل حرق ترويا فإنها من أعظم ما أنتجه رفائيل.
وفي الغرفة الرابعة ترى من أبرز فيها المذبحة الهائلة بين قسطنطين الأكبر وماكنتيوس، والتي لم يتم تلوينها إلا بعد وفاة رفائيل بواسطة تلميذه رومانو وله من الأعمال العظيمة غير ما ذكرنا زخرفة وتحلية بعض الأماكن والمسالك المقببة بالفاتيكان، وقد قام بهذه المهمة الفنية تلبية لطلب البابا ليو العاشر؛ فعمل بالدور الأرضي
وبالدور الأعلى كثيراً من المناظر الدينية وبخاصة تلك التي تنتمي إلى العهد القديم، صور منها على السقف اثنتين وخمسين قطعة مساحة كل واحدة 13 4 أمتار كلها بالفرسكو، كما رسم كثيراً من النقوش والزخارف العربية وغيرها ووصل في ذلك إلى غاية الإتقان مع وضوح اتساع خياله وروعته. ولم يقم بالعمل جميعه بمفرده، كما كان الحال عند ميكيلانجلو، بل استعان بتلامذته في التنفيذ بعد وضعه التصميم بنفسه. ومن بين هؤلاء التلاميذ من هو جدير بالذكر حقاً أمثال رومانو، وبين، وبيرينودل باجا، وكالدارا
وله كرتونات مصورة بالماء (1515 - 1516)، جعلها لتغطية الأجزاء السفلى لحوائط الفاتيكان في أيام الأعياد الرسمية، هي أشبه بتلك التي تراها في القصور إلى منتصف القرن التاسع عشر وكلها تشمل مناظر دينية من أهمها عودة بولس، وتحرير بولس من سجنه، وبطرس يستلم مفاتيح السماء من يسوع، وشفاء الأعرج، وموت أنانياس، ومعاقبة كليماس بالعمى، وبولس وبرنابا في ليسترا، وبولس يعظ في أثنيا؛ والسبع الأخيرة من هذه القطع الكرتونية موجودة بمتحف ساوث كنسنجتين بلندن
وله قطع جمعها للنسيج وعرضت في الفاتيكان لأول مرة في 26 ديسمبر سنة 1519 بالكابيلا سكستينا لمناسبة (يوم استفان) وهذه كلها جمعت منذ حوالي مائة وعشرين سنة (1814) في مكان خاص بالفاتيكان. ولهذه القطع أمثلة موجودة بمتحف برلين ودرست منذ سنة 1723
وإذا كنا لم نذكر للآن سوى الأعمال التي كلفه البابوات القيام بها، فإنه قام بغيرها للأفراد أمثال أوجستينو شيجي وهو أحد رجال المال الذي طلب إليه تحلية كنيستين في روما ففي الأولى المسماة (القديسة ماريا ديللا باسا) صور رفائيل سنة 1514 الكاهنات الأربع في أروع ما يمكن إخراجه من جمال الخلقة وحسن التكوين والروعة الإنسانية. أما الثانية المسماة (القديسة ديلل بوبولو) فإنه علاوة على وضعه تصميم الصحن، وضع الرسوم التخطيطية التي رسمت بعدئذ على باطن القبة. وهذه الرسوم تمثل خلق السبعة الكواكب التي أخرجها الفنان الويسيو ديللا باسا بالفسيفساء سنة 1516.
وفي هذه السنة نفسها صور على حائط الردهة الصغرى بفيلا فارنيزينا صورة (انتصار جاليتيا) ووضع تصميم الرسوم التي أخرجها تلميذاه رامونو وبيني والتي مثلت مناظر عشق (آمور وبسيشه) لسقف الردهة الكبرى.
ومهما يكن من شيء فإن خيال هذا الفنان العظيم وقدرته على الخلق الرائع الذي يذهب بالمتأمل إلى ملكوت السمو ويحرك لسانه بالتسبيح بقدرة الله، كل هذا لم يتمثل على أشده إلا في تصوير العذراء التي أفنى روحه وتفاني بكليته في إخراج صورها على أقصى ما يمكن لعقل إنساني أن يتصوره من الجمال.
هذا بيان أساسه المنطق والمقياس الصادق. ولا أثر للمبالغة فيه ولا إلحاح رغبة في تجليته على صورة تستأثر بإعجاب القارئ، فقد يحوم مثل هذا الكلام حول فنان آخر، أما رفائيل فيكاد نطاق القول يضيق عن تناول حقيقته ووصفه.
وفي هذا المجال العظيم صور رفائيل. وأظهر نهاية مقدرته ونبوغه. وقد لجأ بعض المصورين إلى تصوير المادونا ودسّ ما صوره بين مخلفاته، ولكنا - خصوصاً في الوقت الحاضر - بعد تقدم علم التصوير الفوتوغرافي، لإثبات الصور الحقيقية من المقلدة لاسيما بعد إمكان الكشف عن طبقات اللون على سطح اللوحات واتجاه الفرشاة، لا نقع فيما وقع فيه بعض مؤرخي القرن الثامن عشر والتاسع عشر.

وقد اجمع مؤرخو الفن على أنه لم يوجد ولن يوجد فنان بعد رفائيل يستطيع أن يخرج ماريا والطفل بهذه العظمة والقوة والجمال الذي أخرجهما به، أما حنان الأم ومحبتها لطفلها وكمال الانسجام الإنشائي في وضعهما فهذه صفات تلتصق بما صوره رفائيل. أما الطهارة التي تجلت والعفة التي تمثلت في وجه العذراء. فهذه عسيرة على غيره من رجال الفن مهما كبر اسمهم.

أحمد موسى

البريد الأدبي

تراثنا الفني في ظل الإشراف الأجنبي

من الحوادث المدهشة المؤلمة معا ما كشفته التحريات الأخيرة من ضياع عشرات آلاف من التحف الفنية النفيسة من المتحف المصري، ما بين تماثيل وصور وحلي فرعونية وغيرها، وقد اكتشفت هذه الفضيحة المؤسية على أثر حادث التمثال الفرعوني الذي اختفى من المتحف وظهر أخيراً في متحف بافالو بأمريكا، ثم رده المتحف الأمريكي بعد أن وقف على الحقيقة، وكان تصرفه مثلا للأمانة العلمية المؤثرة، وقد كنا نعتقد أن خسارة مصر الفنية تقف عند مجموعات التحف الفرعونية النفيسة التي تحتفظ بها متاحف العواصم الأوربية والأمريكية والتي تسربت من مصر خلال الخمسين عاماً الأخيرة ومعظمها بطرق غير مشروعة، على يد البعثات الأجنبية التي تستتر بصفاتها العلمية والأثرية؛ ولكن ظهر مع شديد الأسف أن البقية الباقية التي استطعنا أن نحتفظ بها من عبث أولئك العابثين، وأن نودعها في متحفنا القومي، لم تسلم أيضاً من الاختلاس والاعتداء، بل ظهر أن هذا الاختلاس يصل اليوم إلى آلاف مؤلفة من التحف التي أدمجت وقيدت في سجلات المتحف ولا وجود لها اليوم؛ ونحن لا نعتقد أن هذا الاختلاس المؤلم قد وقع في يوم أو في شهر أو أشهر بل وقع بالتوالي خلال أعوام طويلة ولم تفطن إليه السلطات ذات الشأن. ذلك أن تراثنا الفني كان مع الأسف خلال العصر الأخير تحت الإشراف الأجنبي، ومنذ أكثر من خمسين عاماً يتولى بعض العلماء الأجانب، وهم جميعاً فرنسيون إدارة المتحف المصري؛ وما حدث من تسرب تحفنا ونفائسنا الفنية وقع في عهد هذه الإدارة الأجنبية؛ وكان صوت المصري وصوت السلطات المصرية خافتاً في الماضي، فلم يرتفع كما يرتفع اليوم بالاحتجاج على هذه الفضائح المزرية؛ وكان إذا أتيح له الاحتجاج يقنع بالترضية اللفظية. أما اليوم فإن مصر لا تستطيع صبراً على هذا الاعتداء الشائن على تراثها الفني، ولابد من أن تقوم السلطات المصرية بكل ما تستطيع لتعقب الآثار الضائعة، ولابد لها قبل كل شيء أن تعتبر بهذا الدرس، وأن تعمل على رفع الإشراف الأجنبي نهائياً عن المتحف المصري، كما وقفت من قبل إلى رفعه عن دار الكتب المصرية بعد عهد طويل من الإشراف الأجنبي تسربت في ظله معظم التحف الخطية من القطر المصري إلى ألمانيا التي كان يستأثر علماؤها بإدارة دار الكتب المصرية

لسنا ننكر ما أفادته مصر في العصر الأخير من معاونة العلماء الأجانب، ولكن التعاون العلمي الصحيح يجب أن ينزه عن أن يتخذ أداة للاستيلاء على تراثنا الفني والعلمي بوسائل ظهر في أحيان كثيرة أنها لا تتفق مع مبادئ الأخلاق الرفيعة، ولا تتفق بالأخص مع الثقة الكريمة التي كانت مصر تمنحها فيما مضى للعلماء الأجانب

مستقبل المهن العقلية

تساءل كاتب في إحدى الصحف الفرنسية الكبرى عن مستقبل المهن العقلية وأبدى تخوفه من أن يصير التفكير والمهن العقلية إلى مصير سيئ؛ وإذ كان التفكير قوام الحضارات الرفيعة فإنه يخشى أن تصاب الحضارة البشرية في ركن من أعظم أركانها إذا لم تفطن الأمم المختلفة إلى ما أصاب التفكير والمهن العقلية من ضروب الركود والغبن؛ ويقول هذا الباحث إن الفنون والمهن العقلية قد تضاءلت آفاقها وميادينها في العصر الأخير وانحط معيارها المادي إلى أدنى الحدود، هذا في حين أن الحرف اليدوية والمادية قد ازدهرت وارتفع معيارها المادي؛ وقد كان الفرق منذ ثلاثين سنة شاسعاً بين المهن العقلية؛ والحرف اليدوية من حيث التقدير المادي؛ أما اليوم فقد تضاءل هذا الفرق بل ربما تفوقت الحرف اليدوية في بعض الأحيان على المهن العقلية؛ ولنضرب

لذلك مثلا، ففي إدارة شركة من الشركات أو تحرير صحيفة من الصحف ترى الموظفين الذين يتولون أعمالاً ومهناً عقلية كالتحرير والإدارة، يتقاضون أجوراً لا تكاد تزيد على الأجور التي يتناولها بعض رؤساء العمل مثلا، وأحياناً يتفوق هؤلاء في أجورهم على المحررين ويتناول العامل الفني مثلا في مصنع من المصانع أجراً يفوق ما يتناوله الطبيب أو المحامي العادي من مهنته؛ هذا مع أن الحالة قبل الحرب الكبرى كانت تختلف عن هذه الحالة كل الاختلاف ويرجع ذلك إلى تنظيم الحركة الصناعية والعملية منذ الحرب الكبرى، وتنظيم النقابات والاعتصابات لرفع الأجور والمنح، وتحسين أحوال العمال بوجه عام. أما أصحاب المهن العقلية فلم يفكروا ولم تسمح لهم ظروفهم بخوض مثل هذا الكفاح. بيد أن من الخطر على الحضارة أن يترك أصحاب المهن العقلية دون عون، وأن يدفعوا بفعل الظروف الاقتصادية إلى مصاير سيئة تحملهم على التفكير في تحقيق العيش من طرق أخرى. ومن مصالح الأمم والحضارة أن تدعم الحركة الفكرية والمهن العقلية، وأن تيسر لأربابها سبيل العيش المريح، هذا وإلا فإنه يخشى أن يخمد النبوغ وينطفئ وتتحول الحضارة إلى ركام من الماديات المبتذلة.

مؤتمر فني للتربية:

يعقد بمدينة كوبنهاجن عاصمة الدانماركة بين أول أغسطس والعاشر منه مؤتمر للتربية على مبادئ مونتيسوري المشهورة برياسة الدكتورة ماريا منتيسوري صاحبة هذه الطريقة؛ وهذا هو المؤتمر السادس من نوعه، وسيشهده مندبون عن دول كثيرة وعن طائفة عديدة من معاهد التربية العالمية؛ وستلقي الدكتورة منتيسوري محاضرات في الموضوعات الآتية (1) لماذا يمكن أن تؤثر التربية في سلام العالم (2) ماذا يجب أن تزود به التربية لكي تعاون على تحقيق السلام (3) ماذا يجب أن تسلح التربية به لمقاومة أخطار العصر (4) ضرورة التفاهم العالمي لإعداد الإنسانية إعدادا خلقيا (5) التربية كوسيلة لرفع مستوى الإنسان والمجتمع. وسيلقي أعلام آخرون من رجال التربية مباحث أخرى، وتبحث أساليب منتيسوري للتربية بحثاً علمياً وفنياً، ويقام في نفس الوقت معرض دولي لمطبوعات هذه الطريقة وأشغال مدارسها.

وقد اشتهرت أساليب منتيسوري للتربية في العصر الأخير، وهي تنسب إلى الدكتورة منتيسوري التي كانت أول امرأة حصلت على درجة الطب من جامعة رومة؛ وتولت إدارة معهد الأطفال الشواذ في سنة 1898، وحصلت بطريقتها الخاصة على نتائج طيبة في رفع المستوى العقلي لهؤلاء الأطفال. وفي سنة 1907 طبقت الدكتورة منتيسوري طريقتها على الأطفال العاديين وأسفرت عن آثار حسنة وذاعت في عدة معاهد في رومه وميلانو وبعض عواصم القارة. وتقوم هذه الطريقة بالأخص على ما يأتي: (1) تدريب الحواس والمنطق (2) السيطرة على أطراف الجسم وحركاته (3) تعليم القراءة والكتابة والحساب

وتتبع الآن كثير من رياض الأطفال في أوربا وأمريكا طريقة منتيسوري

تأييد تصويب

استدرك قارئ فاضل هو (ش) في عدد الرسالة الماضي على عبارة وردت في مقالي المنشور في الرسالة (عدد 210) تحت عنوان (من ذكريات الحملة الفرنسية) عن الملكة هورتنس بوهارنيه ابنة الإمبراطورة جوزفين من زوجها الأول الكونت دي بوهارنيه، إذ ورد به أنها كانت زوجاً للجنرال موراتِ؛ والواقع أن ذلك سهو يؤسف له؛ وقد كانت الملكة هورتنس في الحقيقة زوجاً لأخي نابليون، لويس بونابرت ملك هولنده كما ذكر (ش) في ملاحظته؛ أما زوج الجنرال موراتِ فقد كانت الأميرة ماري كارولين أخت نابيلون؛ وكانت حياة الملكة هورتنس من بعد سقوط الإمبراطور في سنة 1815 حتى وفاتها في سنة 1837 مؤسية مؤثرة؛ وتولى أصغر أولادها لويس نابليون عرش فرنسا فيما بعد باسم نابليون الثالث

هذا وإني لأشكر لحضرة القارئ غيرته واستدراكه

(م. ع. ع)

الملكة هورتنس:

في التصويب الذي نشر في عدد الرسالة الأخير وردت الجملة (فولدت من نابليون الخ) والصواب (فولدت منه) بالهاء والهاء تعود على لويس بونابرت أخي نابليون ووالد

لويس نابليون الذي صار يعرف باسم نابليون الثالث
(ش)
الكتب
قلب غانية وقصص أخرى
تأليف الأستاذ محمود تميور
للأديب محمد فهمي عبد اللطيف
للقصة اليوم في الأدب العالمي خطر كبير، ومكانة معتبرة، فهي في الأمة مظهر رقيها الأدبي، وتقدمها الفكري، وهي وسيلة للكاتب يضمنها ما يريد من إبداء فكرة ناضجة، أو شرح ظاهرة اجتماعية، أو تحليل شخصية غريبة، أو توضيح عاطفة نبيلة، حتى قضايا التاريخ، ومسائل العلم، ومشاكل السياسة، كلها قد أصبحت تؤدي بالقصص، وتروي بالحكاية. ولعل من المعلوم أن القصة بمعناها الفني الدقيق لون جديد في الأدب العربي كان في طليعة المضطلعين بأعبائه المرحوم محمد تيمور الكاتب المسرحي مؤلف (الهاوية) و (العصفور في القفص) و (عبد الستار أفندي) وغيرها من القصص التي نسج بردها بأسلوب نازل، وأخرجها في لغة عامية مهلهلة، بحجة أنها أقرب إلى عقل الشعب، وأنفذ إلى قلبه، فكان في صنيعه هذا إرضاء للفن بالموضوع والفكرة وخذلان في الأداء واللغة. فلما استأثرت به المنية - عليه رضوان الله - قام من بعده سيد آخر هو الأستاذ محمود تيمور، فحاول أن يكون نبوغه جماع ما كان لأخيه من الروح الفنية، وما كان في نفس والده من النعرة العربية، فصار يكتب القصة بأسلوب مبين ابتعد فيه عن الجفوة والخشونة، وارتفع به عن السقط والابتذال. وكأني به قد ألفى نفسه وحيداً في الميدان، واستشعر عظم الأمانة الملقاة على عاتقه، فأخذ يسد الفراغ بكلتا يديه، وراح يعمل في نشاط وتوثب، مرهفاً العقل والحس، حتى أخرج للناس وللفن جملة طيبة من القصص الممتع، نشر جلها في الصحف وطبع منها نحو ثماني مجموعات آخرها هذه المجموعة التي بين أيدينا (قلب غانية وقصص أخرى) وهي موضع النظر، ومدار الحديث. . .
ثماني قصص أو قل ثمان قطع فنية هي التي تشتمل عليها هذه المجموعة مقدمة بكلمة المؤلف عن حافظ القصصي في يوم ذكراه. وقصص الكتاب تختلف طولا وقصراً، فأطولها (قلب غانية) التي وقعت في صدر الكتاب، وأقصرها قصة (أم) التي جاءت في ختامه، ثم
هي أيضاً تختلف في جوها وبيئتها، وتتباين بأبطالها وشخصياتها، ففي قصة (حنين) يدلف بك تيمور إلى صميم الريف العظيم، فيستطيع أن ينقلك إلى (شمسه المحرقة وظلاله الوارفة، وهوائه الساخن، ونسميه اللطيف، وغدرانه الوديعة، وسواقيه الناعسة) حتى ليسمعك (خوار بهائمه، وأغاني فلاحيه) ويريك (البهائم متراصة أمام معالفها ورؤوسها محنية على العلف تأكل في شره فلا تسمع منها غير جرش وقضم وأنفاس ترددها بين الحين والحين)، وفي (قلب غانية) يقودك إلى (حي غير مشهور) إذ وراء جدرانه حب قائم، وغرام يضطرم، فيطلعك على طراز من الناس تجري بهم الحياة وهم بطئان، وتتغير الدنيا في تقاليدها وألوانها وهم لا يريمون مكانهم، إذ الحياة (لا تستحق عندهم أكثر من حشو البطون، والنوم ملء العيون وما لهم من الفراغ بعد ذلك فهم يقضونه (في اطمئنان وتبلد) بين النارجيلة والثرثرة حول سلوك الناس؛ وفي قصة (سراب) و (حورية البحر) و (السجينة) يأخذ تيمور بيدك إلى منابت الأرستقراطية، فإذا أنت في أسر من أفرادها الباشا والبك ومن أهون متاعها السيارة والمسرة، ولها الأمر والنهي، وفيها الخدم والحشم، والظئر والمربية، (حياة كلها رخاء وبهجة تسير وفق الهوى) وكل شيء فيها ميسور (المال والمرأة والأخوان) أما في قصة (قبلة) فتيمور يهبط بك إلى طبقة نازلة فإذا أنت في (حارة قديمة ضيقة عابثة خالية من المصابيح لا تكاد الشمس تغرب عنها حتى تستولي عليها وحشة كئيبة) وهناك ترى (الدخاخني والمكوجي وبائع الفول) وتتعرف على السايس والعربجي والزبال إلى آخر ما هناك من الأشخاص والمعالم.
فتيمور من غير شك قصص شعبي لا يختص منه بطبقة من الطبقات، ولا يقصر أدبه على طائفة دون طائفة، ولكنه يضرب في كل ناحية ويجري في كل حلبة، وإن من المدهش حقا أن نرى ذلك الأديب النابه موفقاً في كل قصصه، صادقا في كل ما

يصف، فكأنه نشأ في كل هذه الطبقات وخالطها ولمس أحاسيس أهلها واستشف ما يجول في خواطرهم وما يدور بنفوسهم فهو من الجميع وللجميع، يستوعب شؤونهم ويتحفز لها بقوة واحدة هي قوة الملكة المصورة، والنظرة الشاملة، فكأنه - وهو يصف - مصور لا كاتب، وكأن ما يصفه مبسوط أمامه فهو ينقله على وضعه الطبيعي، ومن ثم كان أدب تيمور هو الصورة الصادقة للحياة المصرية في أدق نواحيها، فهو للسائح في بلادنا دليل مرشد، وهو للمؤرخ القادم

مصدر ناطق، وهو للاجتماعي الباحث مادة نافعة

وهناك ظاهرة في أدب تيمور يعيبها عليه بعض النقاد، وهي خروجه على حدود الحشمة والوقار والأخذ بما يسمونه الأدب المكشوف، وإنك لتجد شيئاً من هذا في قصة السجينة، وقلب غانية، وسراب؛ وتيمور يدافع عن نفسه بأن (الأدب ليس له عنده غير اسم واحد هو الأدب بمعناه الواسع، وليس له إلا هدف واحد هو الفن). وأنا لا أريد أن أفيض القول في الأدب المكشوف والأدب المستور فإن القول في ذلك يطول، ولكني أريد أن أقول: إن من الخطل أن نتخذ الدين والأخلاق ميزاناً من موازين النقد فنطمس شعر النواسي مثلا لما فيه من العهر والفحش، وإنما الواجب أن تصور الحياة بالأدب، وأن نقدر الفن للفن، وأن نفرق بين الأديب والواعظ، والظاهر أن القدماء كانوا أسمح منا نفوساً في ذلك، فقد عاب بعض النقاد شعر ابن حجاج بما تضمنه من فحش المعاني، فقال ابن سنان الخفاجي يرد عليه: (وليس الأمر عندي على ذلك لأن صناعة التأليف في المعنى الفاحش مثل الصناعة في المعنى الجميل، ويطلب في كل واحد منها صحة الغرض وسلامة الألفاظ على حد واحد. . .) فإن كان في قصص تيمور بعض النواحي المكشوفة فإن في الناس من يقبلها كما أن في الناس من ينكرها، وهي على كل حال ليست بعيب في يحصى على الرجل. . .

وأما بعد فهل استطاع تيمور أن ينجو من سنان هذا القلم؟ لقد حاولت أن أتلمس ما عليه فلم أقع إلا على هفوات طفيفة كأن يقول: (وكان كساب أفندي يرتدي زعبوطا!!) وأنا ما رأيت أفندياً يرتدي زعبوطا إلا في قصة تيمور

ثم هناك هفوات في اللغة والنحو قد يكون من السهل أن يتداركها الأستاذ في طبعة ثانية، وأنا لست ممن يتساهلون في الخطأ اللغوي والنحوي، لأن الكاتب الذي لا يراعي أشراط الكتابة هو فنان ناقص!! وإني لأشهد أن تيموراً قد ارتقى أسلوبه عن ذي قبل، وهو كل يوم في تقدم مطرد، وإني لأرجو له تقدماً أوفى وأتم.

محمد فهمي عبد اللطيف

العدد 214 - بتاريخ: 09 - 08 - 1937

مصطفى لطفي المنفلوطي

بمناسبة ذكراه الثالثة عشرة

- 2 -

كان مولد المنفلوطي كمولد الرافعي في بيت كريم بالدين جليل بالفقه توارث أهله قضاء الشريعة ونقابة الصوفية قرابة مائتي سنة؛ ولكنه كان خِلْفةً لنبعتين مختلفتين: فأبوه عربي صريح النسب إلى عترة الحسين، وأمه تركية شابكة القرابة إلى أسرة الجوربه جي؛ ونهج المنفلوطي سبيل آبائه في الثقافة، فحفظ القرآن في المكتب، وتلقى العلم في الأزهر؛ لا أن للأدباء من أبناء الفقهاء نَبوةً في بعض الحالات على إرادة الوراثة والنشأة؛ فهم يصدفون في منتصف الطريق عن دروس الفقه والأصول والعقائد، إما لأن أذواقهم الأدبية الموهوبة لا تسيغ أساليب كتبها المعقدة، وإما لأن طباعهم المدنية الحرة لا تطيق الحياة الدينية المقيدة. فكان السيد مصطفى على الكره من ورع قلبه ورعاية أبيه لا يُلقي باله كثيراً لغير علوم اللسان وفنون الأدب؛ فهو يحفظ الأشعار، ويتصيد الشوارد، ويصوغ القريض، وينشئ الرسائل، وتسير له شهرة في الأزهريين بذكاء القريحة وروعة الأسلوب فيقربه الأستاذ الإمام ويرسم له الطريقة المثلى إلى الغاية من الأدب والحياة. ثم يستفيد المنفلوطي من قربه إلى الإمام صلته بسعد باشا، ومن زلفاه لدى هذين العظيمين تُفوقه لدى (المؤيد)؛ والإمام المجتهد محمد عبده، والسياسي الخطيب سعد باشا، والصحفي الكاتب علي يوسف، كانوا أقوى العناصر في تكوين المنفلوطي الأديب بعد استعداد فطرته وارشاد والده؛ وأولئك الثلاثة كانوا على ما بينهم من التفاوت في نواحي النبوغ أفهمَ رجال العصر الحديث

لحقيقة الأدب وأشدهم حدبا على بؤس أهله.

كان المنفلوطي لا يعمل جادّاً لشهادة الأزهر، وإنما كان يعتمد في نيلها على جاه الإمام، كما كان يعتمد من هم على شاكلته من أبناء العلماء على وساطة والديهم؛ والإمام المفتي مفسر وحي الله، وشارح فن عبد القاهر، ومعيد الأدب إلى الأزهر، كان يقيس كفاية الطالب بمقياس سيبويه لا بمقياس أبي حنيفة. فلما قبضه الله إلى رحمته جزع المنفلوطي فيه على سنده وأمله، وارتد مقطوع الرجاء إلى بلده. ثم نعش الله عاثر أمله بعد فترة من الزمن فهب يبتغي في (المؤيد) الوسيلة إلى النباهة والنجح، وأوى من الوزير سعد باشا حامي النبوغ

إلى ركن منيع، فخلق له منصب التحرير في وزارة المعارف فضمن له به رغد العيش ووفرة الإنتاج حتى اختار الله له ما عنده

كان المنفلوطي أديباً موهوباً حظ الطبع في أدبه أكثر من حظ الصنعة؛ لأن الصنعة لا تخلق أدباً مبتكراً ولا أديباً ممتازاً ولا طريقة مستقلة؛ والنثر الفني كان على عهده لوناً حائلاً من أدب القاضي الفاضل، أو أثراً ماثلاً لفن ابن خلدون؛ يتمثل الأول قوياً في طبقة المويلحي وحفني ناصف، ويظهر الثاني ضعيفاً في طبقة قاسم أمين ولطفي السيد؛ ولا يستطيع ناقد أن يقول إن أسلوبه كان مضروباً على أحد القالبين؛ إنما كان أسلوب المنفلوطي في عصره كأسلوب ابن خلدون في عصره بديعاً أنشأه الطبع القوي على غير مثال؛ والفرق أن بلاغة (النظرات) مرجعها إلى القريحة، وبلاغة (المقدمة) مرجعها إلى العبقرية.

أَعلم أن المنفلوطي تأثر في القديم بابن المقفع وابن العميد، وفي الحديث بجبران ونعيمة، ولكن هذا التأثر دخل في فنه دخول الإلهام والإيحاء، لا دخول التقليد والاحتذاء؛ فله من الأولين إشراق الديباجة وقوة النسج، وله من الآخرين جدة الموضوع وطرافة الفكرة، ولكنك لا تتذكر وأنت تقرأه أحداً من أولئك جميعاً.

عالج المنفلوطي الأقصوصة أول الناس وبلغ في إجادتها شأواً لا ينتظر من نشأة كنشأته في جيل كجيله. وأذكر أننا كنا نقرأ (غرفة الأحزان) و (اليتيم) وأمثالهما فنطرب للقصة على سذاجتها أكثر مما نطرب للأسلوب على روعته. وسر الذيوع في أدب المنفلوطي ظهوره على فترة من الأدب اللباب، ومفاجأته الناس بهذا القصص الرائع الذي يصف الألم ويمثل العيوب، في أسلوب طلى وسياق مطرد ولفظ مختار. أما صفة الخلود فيه فمأتيةٌ من جهتين: ضعف الأداة وضيق الثقافة. فأما ضعف الأداة فلأن المنفلوطي لم يكن عالماً بلغته ولا بصيراً بأدبها، لذلك تجد في تعبيره الخطأ والفضول ووضع اللفظ في غير موضعه. وأما ضيق الثقافة فلأنه لم يتوفر على تحصيل علوم الشرق، ولم يتصل اتصالاً مباشراً بعلوم الغرب؛ لذلك تلمح في تفكيره السطحية والسذاجة والإحالة. فإذا قدر الله لأدب المنفلوطي أن يفقد سحره وخطره في أطوار المستقبل، فإن تاريخ الأدب الحديث سيقصر عليه فصلاً من فصوله يجعله في النثر بمنزلة البارودي في الشعر. وكفى بذلك عرفان

فضل وخلود ذكر. أما مسألة الأدب الباكي والأدب الضاحك، أو الأدب الضعيف والأدب القوي فمغالطة مريضة من النقد سنعرض لها في فرصة أخرى.

احمد حَسن الزياتْ

أدب التمرد

للأستاذ عباس محمود العقاد

في ختام مقالنا عن أدب الموافقة قلنا (إن أناساً يتمردون ولا يجيئون بخير مما هو منظور من الأدباء الموافقين المستسلمين، لأن التمرد المصطنع إن هو إلا موافقة مستورة ومجاراة معكوسة: فيه كل ما يؤخذ على التقليد من نقص، وكل ما ينعى عليه من وخامة، وذلك ما نعود إلى تفصيله في مقال تال)

فليس كل التمرد إذن خيراً من كل الموافقة؛ وليس كل التمرد ابتكاراً وخلقاً واستقلالاً بالرأي والفطرة. فكيف على هذا نميز بين التمرد النافع المحمود والتمرد الذي هو ضرب من الموافقة المعكوسة؟

والمحك الذي لا يخيب ولا يخطئ في التمييز بين كل أدب صحيح وكل أدب سقيم هو هذا: هو أن الأدب الصحيح لن يكون آلياً يجري على نمط الأشياء التي تصنعها الآلات والتي تعرف سلفاً كما يعرف كل مصنوع في قالب مصبوب.

والأدب الذي يوافق ولا يخالف (آلي) محض، لأن صاحبه ينزل عن مرتبة الإنسان إلى مرتبة الآلة التي تحذو حذو ما سبقها ولا تضيف إليه أو تمسه بتحسين وتنقيح.
وكذلك الأدب الذي يتمرد على كل شيء ولا يميز بين ما هو أهل للموافقة وما هو أهل للنسخ والمناقضة إنما يصنع كما تصنع الآلة ويغنيك عن صاحبه كل الغنى، لأنك تعرف رأيه قبل أن تسمعه، وتدرك أسلوبه قبل أن تراه.
وغاية ما بين هذا وذاك من فارق أن الموافق يؤتى له بشيء فيراه كما يراه السابقون ولا يحب أن يراه على خلاف ما نحلوه من لون ورسموه من شكل ونهجوه من طريق: يقال له هذا أبيض، فيقول نعم هذا أبيض؛ ويقال له هذا جميل، فيقول نعم هذا جميل.
أما المتمرد الكاذب أو المتمرد المصطنع فأنت تعلم ما يقول عن الأبيض قبل أن يلمحه بعينه، وما يقول عن الجميل قبل أن يتأمله بفكره ويروزه بحسه وبصره: فالأبيض عنده أسود، والجميل عنده قبيح، والنافع عنده ضار، والضار عنده نافع على غير قياس وفي غير تمييز وتمحيص. فإذا به ينزل عن مرتبة الإنسان وينقلب آلة معروفة الوزن والحساب على العكس والمناقضة؛ ومثل هذا لا يخلق جديداً ولا يحمل في عالم الأدب والفن أمانة،
ولا يبالي بشأنه إلا كما يبالي بشأن المريض لاستطلاع حالة من أحوال سقم النفوس والأذواق.
إن (الآلية) هي الوصف الوحيد الذي ما جاز قط ولن يجوز أبداً في نتاج أدب صحيح أو فن صحيح.
وإنما يجوز الخلاف فيما عدا ذلك من الأوصاف. أما وصف الآلية فالاتفاق على إنكاره بداهة من البداهات، إذ كان معدن الفن كله حرية السليقة والقدرة على الإبداع والإتيان بالجديد حتى في عرض المعنى القديم.
ونحن حين نقول الحرية لا نقصر الغرض منها على حرية الفنان في مواجهة العسف والإملاء والإيحاء من غيره، ولا نقصد منها أن الفنان يأبى ما يرسم له ويساق إليه على حكم القسر والاضطرار؛ ولكننا نقصد بها مقصداً قد يلوح في بادئ الرأي غريباً نابياً وهو هو المألوف المشهود فيما يمارسه وفيما قد مارسه كل صاحب فن وكل صاحب رسالة أدبية: نقصد بها (حرية الفن) حتى بين الفنان ونفسه، فليس له أن يعتسف ولا أن يدعو ملكته إلى غير ما ترضاه وتنساق أليه بمحض (الحرية) وعفو السليقة، وليس له هو أن يخط للحرية الفنية حدودها أو يشق لها طريقها، لأنها (حرية مطلقة) لا فرق عندها بين طغيان صاحبها وطغيان عدوها، ولا محاباة عندها في استجابة أمر تراد عليه.
ومن الأدباء الواقعيون والخياليون، ومنهم أنصار الماضي وأنصار المستقبل، ومنهم الماديون والروحيون، ومنهم المتفائلون والمتشائمون، إلا أنهم جميعاً في هذه الخصلة سواء؛ وهي الخصلة التي يتمردون بها على الآلية ويرتفعون بالإنسانية إلى ذروتها العليا؛ وما كانت للإنسانية علامة ترفعت بها عن درك الحيوان إلا التكليف؛ وما كان التكليف إلا الدرجة الأولى من سلم الحرية التي تأخذ بشيء وتدع ما عداه، والتي تختار بين الحميد والذميم والمطلوب والممنوع. أما الدرجات فوق ذلك فهي (الحرية الفنية) التي تنبعث من باطن الإنسان بغير أمر ولا زاجر، ولا تتوقف على التكليف والتخيير.
نعم ليس الواقعيون أو الماديون عنواناً آخر للموافقين أو المقلدين. فمن يصف الواقع ليس باللازم اللازب أن يخضع له ويرضاه، ومن ينكر المثل العليا ليس باللازم اللازب أن ينكر الحركة ويخلد إلى الجمود.
لقد كان المتنبي (واقعياً) إلى جانب العمل، وكان المعري واقعيا إلى جانب الزهد والقعود، وكلاهما مع هذا مثل بارز في التمرد والثورة على (الآلية) والتقليد؛ فأسلوب المتنبي جديد، وخبرته للناس جديدة، وثورته على الواقع معناها أنه من المتمردين وليس من الموافقين.
أما المعري فهو على تشاؤمه وزهده قد دفع الحاضر المحيط به دفعة الجبار الذي يهدم بيديه وهو قائم في مكانه. وقل فيه ما شئت إلا أنه آلة وليس بإنسان في الصميم من الحرية الإنسانية؛ وقل في تمرده ما شئت إلا أنه تمرد آلي وليس بتمرد (حر) يمتاز به المعري بين سائر المتمردين؛ وإلا فمن هو المتمرد الذي يشبه المعري في تناول الأمور ونقد العيوب وصياغة النقد في منظومه ومنثوره؟؟ تلك علامة الأدب الصحيح أو الفن الصادق: علامته أن عشرين شاعراً ينكرون أموراً بعينها ثم يختلفون في نمط

الإنكار اختلافا يحمل عنوان كل شاعر منهم ولا يخالط غيره من العناوين
من الواجب أن نثور على أدب الموافقة
وأوجب منه أن نثور على أدب (الثورة) الكاذبة، أدب التمرد البخاري أو الكهربائي الذي يحطم ذات اليمين وذات الشمال كما تحطم القاطرة بغير سائق.
وفي أوربا اليوم غاشية من هذا التمرد الزري يوشك أن تسري إلى أمم الشرق، لأنها أشبه الأمور معاً بكسل الكسالى وجموح الجامحين. فأما الكسلان فالتمرد الآلي مغنية عن التحصيل، ومغنية عن إجهاد الذهن ورياضة الذوق على التفريق والتمييز؛ وأما الجامح الأهوج فالتمرد الآلي في يديه كالسيف الذي يشهره المجنون وهو مغمض العينين أو مفتوحهما على حد سواء
وأظهر ما كان ظهور التمرد الآلي في عالم التصوير، لأنه الفن الذي يفاجئ العيون ولا يخفي الشذوذ فيه حتى يتسرب إلى الأفكار والأذواق. فالمصورون المجددون اليوم في أوربا اللاتينية يصورون لك ما شاءوا إلا ما تراه وتحسه وتتخيله وتفقه مغزاه. ومن المحقق أنك تبحث عن وجه الرجل المرسوم فلا تراه، وعن مشاهد الطبيعة المرسومة فلا تراها، وعن الرمز المتوقع أو الشبه المنتظر فلا تلمح أثراً لهذا ولا لذاك. . . وكل شكل جائز أن تلقاه في الصورة إلا الشكل الذي يجب أن تلقاه!! ولا تدري بعدها ما الذي على الإنسان أن يتعلمه ليسلك في عداد المصورين؟ هل يتعلم الرسم؟ هل يتعلم مزج الألوان؟
هل يتعلم التشريح؟ هل يتعلم التعبير؟ هل يتعلم مشابهة الملامح؟؟ كلا! لا ضرورة لذلك في صناعة التصوير إلى مذهب هؤلاء المجددين. فما من صورة حديثة فيها سمة من تلك السمات. ولعل تعلم الحلاقة أو تعلم الطبخ أو تعلم النسيج أقرب إلى إخراج صورة الإنسان على هذا المثال من تعلم الرسم والتشريح والألوان.
وإنما تبدو لنا حقيقة هذا التمرد إذا نظرنا نظرة واحدة إلى وجوه دعاته والمتظاهرين بفهمه واستحسانه. فجميعهم أمساخ مشوهون، أو ضعفاء مهملون، لا يقعون في موقع من الأنظار ولا الخواطر. ودأب هذه الزمرة من الناس أن تنكأ الأذواق والضمائر لتبلغ ممن يعافونها ويعرضون عنها مبلغاً من الانتباه والمبالاة، وتلك سريرة خفية في جماعة الخلعاء حيث كانوا وحيث تهيأ لهم الظهور بالتفحش في الأخلاق، أو التفحش في الأذواق، ومن كان منهم سويَّ الخلق معتدل التركيب في ظاهر الأمر فآفته لا محالة نقمة مطوية تلحقه بزمرة الأمساخ والمشوهين، ولولا ذلك لما جنح إلى إيذاء الشعور واللجاجة في إيذائه حتى يقال من حوله إنه ليس بحقير وإنه لا يترك بغير انتباه.
ذلك نموذج من وباء (التمرد الآلي) في الفنون الأوربية الحديثة، وهو تمرد أدنى إلى الغثاثة والعقم من كل جمود وكل موافقة.
عباس محمود العقاد
حلم بالمدرسة
للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني
رأيت في المنام أني رددت تلميذاً. وقلما أذكر ما أراه في أحلامي لأني أنام كالقتيل من فرط الإعياء والنصب ثم لأن ذاكرتي خوانة. وأحسب أن من فضل الله علي أنه أعفاني من الشغلان بالأحلام وتأويلها. فما ينقصني من دواعي الاضطراب إلا هذا. وقد كنت في حياة أمي رحمها الله أصبح فأدخل عليها وأجلس إلى جانبها على حشيّة مطروحة فوق السجادة وأمامها الموقد وعليه وتحته أدوات القهوة كلها فتصب لي شيئاً في الفنجانة وتناولنيها فأسألها: (نمت نوماً مريحاً؟) فتقول: (لله الحمد) فأسألها مرة أخرى (أحلام لطيفة إن شاء الله؟) فتقص علي ما رأت وأنا مصغ وبي كالذهول من شدة استغرابي لدقة الوصف وإحاطته بالألوان والأصوات والاحساسات وما يدور في النفس من معان، وأراني أسأل نفسي وأنا أنصت: (أتراها تتخيل؟) ولكني أعرفها صادقة تتقي الله وتخشاه فلا يسعني إلا أن أتعجب لهذه القدرة التي حرمت مثلها.
وأذكر أنه لم يسؤني أني رجعت تلميذاً أجلس في الصف وأصغي إلى المعلم وأجعل بالي إليه. وقلت لنفسي وأنا ماض إلى المدرسة: إن الحياة مدرسة لا تنتهي. والمرء لا يكف عن التعلم لحظة واحدة إلا حين تنقطع أنفاسه ويخرج من الدنيا. وصحيح أن أكثر ما يتعلمه الإنسان في مدرسة الحياة يدفن معه فلا ينتفع به أحد - لا هو ولا سواه - ولو كان الذي أفاده في حياته يبقى بعده ويتخلف في الدنيا دونه لما كان المرء خليقاً أن

يشعر بعبث التجارب وما استطاع أن يحصل في فسحة العمر طالت أم قصرت؛ إذ ما خير أن أتعلم وأن أحصل وأن أستخلص الحكمة والعبرة مما أجرب وأعاني إذا كان كل ذلك يطوي معي بل لا يعود له وجود؟ ولكن ما يبدو من قلة الجدوى في النهاية لا يمنع أننا نظل نتعلم ما دمنا أحياء. وإذا كان هذا هكذا فالأولى أن يكون المرء تلميذاً جهرة وصراحة فلا يذهب يدعي أنه فرغ من التعلم وحصل كل ما ينبغي له تحصيله. وهذا الذي أصنعه الآن من استئنافي عهد التلمذة هو الذي يقضي به الصدق - صدق النفس على الأقل.

ولا أذكر ما الذي ردني إلى المدرسة وكل ما أعرفه أني رأيتني أقصد إليها وأني كنت فرحاً بذلك، وكان معي شيء أحمله ولم ألتفت إليه إلا بعد أن صرت بين التلاميذ الآخرين

فقد وجدت (الفصل) غاصاً بهم، ولكني لا أذكر منهم إلا وجه الأستاذ محمود عزمي فقد كان يجلس إلى أقصى اليمين، وكان مكاني الذي قصدت إليه في أقصى الجنوب، وكانت وراءه نافذة مغلقة فوضعت ما أحمل على حافتها، وعرفت في هذه اللحظة فقط أن الذي أحمله هو قطع شتى من الحلوى والفطائر والسندوتش. وتذكرت وأنا أضع ذلك على حافة النافذة المحكمة العسكرية التي شهدت جلساتها أيام كنت أعمل في جريدة الأخبار. وكانت المحاكمة طويلة وكنت أوافي الجريدة بأنبائها مفصلة، وكانت الجلسات تعقد في الصباح وفي المساء أيضاً كل يوم. وكنت أتعب وأجوع وأظمأ، فكان المرحوم أمين بك الرافعي يبعث إليّ مع الخادم الذي يجيء ليأخذ مني الأوراق التي كتبتها بالسندوتش وما إليه و (بترموص) فيه عصير الليمون فكنت آكل وأشرب وأفرق

وكان الأستاذ الذي وجدته في (الفصل) شاباً وكنت أحس أني أعرفه. ولم أستغرب أن يكون شاباً، وحدثت نفسي إن هذا خير من أساتذتي القدماء الذين كانوا جميعاً من الشيوخ، ولا أعني الشيوخ ذوي العمائم بل من الشيوخ في السن، ولا استثني منهم إلا واحداً هو الأستاذ الشيخ احمد الإسكندري، أراني لا أزال أضن به أن أسلكه مع سواه ممن علموني في صغري. وقلت لنفسي وأنا واقف في مكاني - فما أذكر أني قعدت - عسى أن يسير بنا هذا الأستاذ الشاب في نهج مستقيم واتجاه سديد فقد أضلنا تعليمنا القديم وحيرنا وتركنا كالتائهين في الصحراء. وما كان لنا من أساتذتنا السابقين مرشد أو معين؛ وأحسبهم ما كانوا يعرفون إلا ما يعلموننا، فلهم العذر إذا كانوا قد عجزوا عن هدايتنا وإرشادنا والأخذ بأيدينا.

وكان الأستاذ يحمل خيزرانة - فما استطعت حتى في الحلم أن أتخلص من صور المدرسة القديمة، وكان أبرز ما فيها العصا - وابتسمت وأنا أنظر إلى الخيزرانة في يد المعلم ونظرت إلى الأستاذ عزمي فأدرك ما أريد وهز رأسه وابتسم ابتسامته المحببة وقال: (أيوه يا سيدي. . . لا يزال القديم على قدمه مع الأسف).

وقال الأستاذ شيئاً فهمت منه أنه يريد أن يلقي أحدنا كلمة استهلال - أي أن يفتتح الدرس، فأعربت عن استعدادي لإلقاء الكلمة المطلوبة، فقال الأستاذ عزمي: (من أول يوم يا مازني؟) فابتسمت له راضياً وتنحنحت استعداداً للكلام، وأذن لي الأستاذ فقلت كلاما لا أذكر منه مع الأسف ولا حرفاً واحداً، ولكني أذكر أني كنت وأنا أتكلم أحدث نفسي بأن

الأثرة كانت تفسد على التلاميذ حياة المدرسة المشتركة فكان أحدنا إذا اشترى شيئاً من الحلوى أو (المخلل) - فقد كنا نشتريه قبيل الغداء ونحمله معنا إلى موائد الطعام - أقول إن أحدنا كان إذا اشترى شيئاً يضن به على إخوانه ولا يسمح لهم بأن يشاركوه فيه، وكان ربما ذهب إلى ركن خفي وأخرج من جيبه بعض ما فيه وراح (يبلع) قبل أن يفاجئه أحد ويطلب منه قطعة. ولكنا كبرنا الآن وعرفنا أن الأثرة عيب وأن لذة المشاركة أحلى وأطيب. وإن جديراً بي في مستهل حياتي المدرسية الجديدة أن أستن سنة الإيثار أو على الأقل المشاركة، وأن أقلب جو المدرسة جو تعاون ومودة.

كان هذا يدور في نفسي وأنا ألقي كلمتي، فامتدت يدي إلى النافذة واستراحت أناملي عليها إلى أن أستطيع أن أهتدي وأنا أتكلم إلى مناسبة تسمح بأن أوزع الحلوى والسندوتش على الزملاء، ولكن المناسبة لم تعرض مع الأسف لسبب خارج عن إرادتي فقد استيقظت فانتسخ الحلم قبل أن يتم. وكان الذي أيقظني صوت دق عنيف

على باب العمارة وصياح عال: (افتح يا محمود. . . أنت ميت؟. . .)
فأخرجت الساعة من تحت الوسادة ونظرت إليها فإذا هي الثالثة صباحاً، فقلت: والله إن محموداً لمعذور! وهل كان عليه أن يظل واقفاً بالباب ينتظر مقدم صاحبنا إلى الفجر؟ وفتح الباب ودخل الرجل - فقد كان رجلا كما لا أحتاج أن أقول - يزمجر ويبرطم وبدأ الفصل الثاني من رواية إزعاج خلق الله في سكون الليل فقد شرع يدق باب شقته ويصيح وينادي، وبقي على هذا الحال ربع ساعة لا تنقص دقيقة، وكان الذي يثير ثائرته ويهيجه إلى ما به أن من في بيته - لا أدري من - لا يريدون أن يفتحوا له الباب، وكانوا يقولون له: (اذهب فنم حيث كنت) فيرج الباب ويهزه ويهدد بكسره ويدعو البواب المسكين أن يساعده على تحطيمه كأنما يمكن أن يعينه البواب على فعل كهذا. . . وأخيراً فتح الباب ووسعني أن أضحك قليلا وأن أستأنف النوم - لا الأحلام مع الأسف. . . وتذكرت حكاية الرجل الذي رأي في منامه أن واحداً يعرض عليه تسعة وتسعين جنيهاً وهو يأبى إلا أن تكون مائة؛ واشتد الحوار واللجاج بينهما فاستيقظ الرجل فنظر في يديه فألفاهما خاليتين فارغتين كفؤاد أم موسى، فندم وأغمض عينيه ومد كفه وقال (طيب رضينا. . . هات بقى)
كذلك أنا والله. . . كنت أود أن أعود إلى حلمي لأرى ما يكون مني ومن إخواني. وكان الذي يعنيني على الخصوص أن أعرف كيف يكون سلوكنا في المدرسة وهل نعود إلى (الشقاوة) القديمة التي اشتهرنا بها؟. وهل (نحوي) على المدرسة كما كنا نفعل في صبانا؟. وهل يمكن مثلا أن ننثر الحبر الأزرق على ثيابه البيضاء حين يمر بنا؟. ونضع سن الريشة بين (الدرج) وغطائه ونذهب نخرج منها أصواتاً قد لا تكون موسيقية ولكنها كافية لإزعاج المعلم وبلبلة خواطره وتحييره الخ الخ
والأحلام - على ما يقال - تؤول بضدها، فإذا كان هذا صحيحاً فهل معنى هذا أني سأرتد معلماً؟. . أعوذ بالله. . ولا قدر الله. . لقد نجوت من هذا فلن يردني إليه شيء كائناً ما كان. وذكرت لهذه المناسبة حادثاً مضحكا - أو لا أدري ماذا يفعل - ذلك أني كنت محرراً في جريدة الأخبار. وكانت الأحكام العسكرية مرفوعة في ذلك الوقت ولكن الرقابة التحفظية على الصحف كانت قد ألغيت، وكان صديق لي يبعث إليّ بمقالات عن وزارة المعارف ويضع في ذيلها اسماً مستعاراً مثل (مطلع) أو نحو ذلك فقد نسيت. وكانت هذه المقالات تقض مضجع الوزير يومئذٍ. وكنت أخشى أن نفاجأ بهجوم على الجريدة فتؤخذ الأصول ويعرف الكاتب فكنت أنقلها بخطي وأحرق الأصل؛ ويظهر أن أحدهم اتصل بعمال المطبعة الذين لا يعرفون أن في الأمر سراً لأنهم يرون المقالات بخطي. فاقتنعت الوزارة أني أنا الكاتب ولم تستغرب ذلك لأني كنت من موظفيها ومن رجال التعليم بها. وفي إحدى الليالي كنت عائداً إلى البيت - وكان يومئذ في صحراء الإمام - فصار كل من يلقاني هناك يقول لي: إن الشيخ (يريدون شيخ الإمام وهو قربي) يطلبك فسألت عنه، فلم أجده، فذهبت إلى بيتي ونمت، وفي الصباح بعث إلي الشيخ خادمه فلحقت به فقال: (اركب) فركبت. وكانت له مركبة يجرها جواد أصيل وسألته: (إلى أين إن شاء الله؟) قال (إلى وزارة المعارف) فدهشت وسألته: (وماذا أصنع في وزارة المعارف؟) قال: (تتسلم عملك) فصحت من فرط الدهشة: (عملي؟. . . ماذا تعني؟) قال: (جاءني وزير المعارف أمس وأنت تعرف أنه صديقي وقال لي إنه علم أن المازني قربي وأنه يعتمد علي في إقناعك بقبول العودة إلى وظيفة كوظيفة أقرانك في الوزارة) فأدركت أن الوزير غلط وظن أني أنا كاتب المقالات التي أقامت القيامة وقلت: (إن المسألة فيها غلط. . لست كاتب المقالات) قال: (زي بعضة) قلت: (هذه رشوة لا أستحقها مع الأسف) قال: (يا أخي لا تكن مجنونا)
قلت: (مجنون. . عاقل. . كيف أستطيع أن أدخل وزارة المعارف وأنا أكتب كل يوم بإمضائي ضد الوزارة كلها؟. بأي وجه ألقى الناس؟. كل ذمة لها ثمن. . لا تحسب أن أحداً أرفع من أن يرشى. . ولكن من سوء الحظ أن هذه الرشوة تعرض في الوقت الذي لا يسعني فيه أن أقنع ضميري بقبولها. . وقد قلت لك إني لست الكاتب كما توهمت الوزارة فأرحها وأعفها من تكلف هذه الرشوة.)
وانتهى الأمر على هذا الوجه. إني ليخيل لي أحيانا أني كنت مغفلا ولكن من يدري؟. . وسواء أكنت أم لم أكن فما اعرفني ندمت قط على شيء مضى وفات. . ولماذا أعني

النفس بالماضي ولا خير في ذلك؟ والحاضر حسبي مشغلة. والحمد لله على ما وفق وأعان.

إبراهيم عبد القادر المازني

كان لمصر أسطول

فهل يعيد التاريخ نفسه؟

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كانت مصر بين الدول التي دعتها الحكومة البريطانية إلى الاشتراك في حفلة العرض البحري الكبرى التي أقيمت لمناسبة تتويج جلالة الملك جورج السادس، ولكن مصر اعتذرت عن إجابة هذه الدعوة لأنها لا تملك من الوحدات البحرية اللائقة ما يصلح لاشتراكها في مثل هذا الحفل الدولي العظيم

وبالأمس احتفلت مصر بتتويج جلالة مليكها الفاروق احتفالا رائعاً يذكرنا جلاله وروعته بمجد عصورنا الذاهبة وعظمتها، وروعة أيامها ومناسباتها المشهودة؛ واشترك الجيش المصري الباسل بوحداته البرية والجوية في هذه المناسبة السعيدة اشتراكا يذكرنا بماضيه العسكري الباهر، ويبعث إلى الأمل في أن يغدو سراعا كما كان في الماضي درع البلاد وحصنها الحصين

ولكنا لم نسمع للأسف صوت الأسطول المصري، ولم نشهد أثره في تلك المناسبات العظيمة لأن مصر لا أسطول لها

هذه الحقيقة المؤلمة يجب أن تلفت أنظار مصر المستقلة إلى مركزها الدقيق بين دول البحر الأبيض المتوسط، وإلى ما يمكن أن تواجهه في المستقبل من الأخطار من هذه الناحية خصوصاً في هذا العصر الفياض بالتطورات والاحتمالات السريعة، وفي هذه المياه التي تنذر من آن لآخر أن تضطرم بكدر الخصومات والمنافسات التي تتفاقم عواملها يوماً بعد يوم

فمصر بلد بحري بلا ريب تمتد شواطئه إلى مسافات بعيدة على طول البحرين التاريخيين العظيمين: بحر الروم أو البحر الأبيض المتوسط، وبحر القلزم أو البحر الأحمر؛ وقد لعب هذان البحران العظيمان منذ فجر التاريخ في تاريخ مصر وفي مصايرها أدواراً خطيرة؛ وسوف يلعب كلاهما بلا ريب دوره الخطير في مستقبلها وقد شعرت مصر دائماً بمركزها البحري الخطير في هذين البحرين، فكان لها منذ أقدم العصور أساطيل حربية تجوس خلال هذه المياه وتذود عن شواطئها، وأساطيل تجارية تحمل تجارتها إلى أقصى ثغور العالم القديم

وكما أن لمصر تاريخ مجيد في الغزوات والفتوحات البرية التي بلغت أحياناً قاصية الأناضول شمالاً، وأقاصي السودان والحبشة جنوباً، فكذلك لمصر تاريخ مجيد في الغزوات والفتوحات البحرية، بل إن تاريخ مصر البحري يبدو أحياناً في ألوان من العظمة تضارع سيرة أعظم أساطيل هذه المياه في العصور الوسطى؛ فقد كان الأسطول المصري طوال هذه العصور يملك ناصية شرق البحر الأبيض، ويناهض أسطول الدولة البيزنطية، وأسطول البنادقة أعظم أساطيل العصر، وكانت له في تلك المياه جولات وفتوحات عظيمة حتى أواخر القرن الخامس عشر

ومنذ القرن الرابع الهجري (القرن العاشر الميلادي) نرى مصر تعنى بأسطولها عناية فائقة، وتنشئ دور الصناعة أو المصانع البحرية العظيمة لتغذي أسطولها باستمرار بمختلف الوحدات البحرية؛ وكانت دور الصناعة بمصر والإسكندرية ودمياط أيام الفاطميين تخرج أعظم الوحدات البحرية المعروفة في ذلك العصر. وبلغ الأسطول المصري في أوائل عهد الدولة الفاطمية نحو ستمائة قطعة ترابط في الإسكندرية ودمياط وعسقلان وفي البحر الأحمر. وكان للأسطول وشئونه ديوان خاص يعرف بديوان الجهاد أو ديوان العمائر؛ واشتبكت مصر أيام الفاطميين مع الدولة البيزنطية في عدة معارك بحرية شهيرة. وفي أيام الدولة الأيوبية لعب الأسطول في المعارك الصليبية دوراً خطيراً؛ وكانت الحراقات أو قاذفات النار المصرية عاملا حاسما في هزيمة لويس التاسع ورده عن مصر. ومع أن الأسطول لم يحظ أيام دول السلاطين بمثل العناية التي حظي بها أيام الفاطميين، فإنه لبث منذ القرن الثالث عشر إلى أواخر القرن الخامس عشر عاملاً هاماً في التوازن الدولي في شرق البحر الأبيض المتوسط. وفي أوائل القرن الخامس عشر افتتح الأسطول المصري جزيرة قبرص

في عهد الملك الأشراف بارسباي (سنة 1425 م)، وغزا رودس أكثر من مرة؛ وكان يشتمل يومئذ على نحو ستين قطعة، وكان معظم بحارته من المتطوعين الذين يهرعون إليه كلما دعا داعي الجهاد. وما زالت مصر أيام السلاطين تحتفظ بأسطولها حتى الفتح العثماني، بل نرى السلطان الغوري آخر أولئك السلاطين يجدد الأسطول المصري ويعده لمحاربة البرتغاليين للمحافظة على طريق الهند القديم الذي كانت مصر حارسته وكانت تعلق عليه أهمية تجارية خاصة. وفي سنة 1508 م أعني قبيل الفتح العثماني بأعوام قلائل نرى الأسطول المصري بقيادة أمير البحر حسين يهزم الأسطول البرتغالي في البحر الأحمر بقيادة الأميرال لورنسو الميدا، ثم يشتبك بعد ذلك في معارك بحرية شديدة مع أسطولي برتغالي آخر بقيادة أمير البحر الشهير البوكركي على مقربة من باب المندب

والظاهر أن مصر لبثت بعد الفتح العثماني مدى حين تحتفظ بأسطولها، أو على الأقل بسمعتها البحرية، فنرى التواريخ النصرانية تنوه بشجاعة البحارة الإسكندريين في موقعة لبانتو البحرية الشهيرة التي نشبت بين الأسطول العثماني بقيادة علي باشا، والأساطيل النصرانية المتحدة بقيادة الدون خوان سنة 1571 م، واشتركت فيها إلى جانب الترك وحدة بحرية مصرية، تنوه التواريخ النصرانية بشجاعتها وبراعتها

بل ما لنا نرجع بعيداً، وقد كان لمصر في أوائل القرن الماضي أسطول ضخم، وكانت من الدول البحرية التي يحسب حسابها في شرقي البحر الأبيض المتوسط؛ ففي عهد محمد علي استعادت مصر صفتها القديمة كدولة بحرية، وأستأنف الأسطول حياته في هذه المياه بعد أن قطعت زهاء ثلاثة قرون. ومع أن الأسطول المصري لم يبلغ عندئذ قوته القديمة، فإنه لم يلبث أن غدا عاملا يحسب حسابه. واهتم محمد علي بإنشاء الأسطول منذ بداية حكمه، فأنشأ أسطولاً صغيراً في البحر الأحمر ثم قرنه بإنشاء أسطول كبير في البحر الأبيض المتوسط، وأنشأ بالإسكندرية دار صناعة عظيمة لصنع الوحدات البحرية. ومع أن الأسطول المصري قد نكب في موقعة نافارين الشهيرة في المياه اليونانية سنة 1827، فإن عبقرية محمد علي أبت ألا أن تنشئ لمصر أسطولاً آخر أعظم وأضخم، فلم تمض أعوام قلائل حتى كان لمصر أسطول ضخم قوامه ست وثلاثون قطعة من مختلف الوحدات، بها ألف وثمانمائة مدفع؛ وبلغ رجاله نحو ثمانية عشر ألف مقاتل، وذلك في سنة 1843 أعني لأقل من قرن مضى. وكانت معظم هذه الوحدات البحرية من صنع دار الصناعة المصرية الشهيرة، وقليل منها اشترى من الخارج وأنك لتدهش حقاً إذا علمت أن الميزانية المصرية لم تزد إيراداتها في ذلك الحين على ثلاثة ملايين جنيه، وكانت هذه الملايين الثلاثة كافية للأنفاق على الجيش والأسطول، ومختلف المرافق والمشاريع الإصلاحية العديدة التي اضطلع بها مصلح مصر العظيم

هذا ولسنا نتحدث هنا عن أسطول مصر التجاري، وكيف كان طوال العصور الوسطى يأخذ بأعظم قسط في المواصلات البحرية بين مصر وثغور البحر الأبيض المتوسط، شرقه وغربه وشماله، وكيف كان إلى جانب أساطيل البنادقة والجنوبيين يأخذ بقسط وافر في تجارة الهند في تلك العصور

عرضنا هذه الخلاصة التاريخية ليرى القارئ كيف كانت مصر في عصور استقلالها دولة بحرية عظيمة، وكيف كان الأسطول المصري في تلك العصور عاملا من عوامل التوازن والاستقرار في شرقي البحر الأبيض المتوسط

والآن وقد استأنفت مصر حياتها الحرة المستقلة بعد فترة من المحن قلت فيها إرادتها وحرياتها؛ الآن وقد عادت تحمل على كاهلها أعباء الاستقلال وتكاليفه، وتعد أسباب الدفاع عن هذا الاستقلال، وتعيد تنظيم جيشها الباسل ليتبوأ مكانته التاريخية القديمة بين الجيوش الحديثة، فانه يلوح لنا أن حديث الأسطول المصري مما يناسب المقام والظروف.

وإذا كان من حسن الطالع أن تكون مصر صديقة وحليفة لبريطانيا العظمى أعظم الدول البحرية؛ وإذا كانت مصر تستطيع إلى حين أن تعتمد على معاونة حليفتها العظيمة في رد اعتداء المعتدين عليها وخصوصاً من البحر؛ وإذا كانت بريطانيا العظمى ترى من مصلحتها الحيوية أن تعاون بأقصى ما تستطيع في سلامة مصر من كل اعتداء خارجي، فإن ذلك كله لا يمنع مصر من أن تفكر في المستقبل وأن تتطلع إلى اليوم

الذي تستطيع فيه أن تنظم لنفسها نوعاً من الدفاع البحري إلى جانب الدفاع البري والدفاع الجوي.

ونقول نوعاً من الدفاع البحري لأننا لا نطمع أن تغدو مصر دولة بحرية في المستقبل القريب؛ وإنما نطمع في أن يكون لمصر في الفرصة الملائمة قوة بحرية دفاعية تؤيد سيادتها في المياه المصرية وتقوم بقسطها من الدفاع عن الطوارئ والمفاجآت، وتكون نواة لأسطول مصر المستقبل. ذلك أن مصر باعتبارها دولة بحرية من دول البحر الأبيض لا نستطيع أن نقصى عن هذه الحقيقة إلى الأبد، ولا مندوحة لها من أن تساير تطور الحوادث والظروف

ولمصر أسوة بدول أخرى من دول البحر الأبيض ليست أكبر منها ولا أعظم موارد، مثل اليونان وتركيا؛ فكتاهما تملك قوة بحرية متواضعة، ولكنها في نفس الوقت تكفي لأغراض الدفاع المحلية، وكلتاهما تعتبر من الدول البحرية في هذه المياه

إن عصرنا الحاضر عصر التسليحات والأهبات الدفاعية؛ والبحر الأبيض التوسط ليس مكفول السكينة، بل يخشى أن يكون في المستقبل القريب مسرحاً لمنافسات وخصومات ربما أصاب مصر رشاشها؛ ومن بواعث الأسف أن تكون حقوق الأمم اليوم عرضة للإنكار والانتقاص من جانب بعض الأمم التي تعتد بقوتها؛ ففي مثل هذه الفترات المضطربة من الحياة الدولية التي يسود فيها قانون القوة، ترتجف الأمم الضعيفة إشفاقاً على مصايرها، وتستمد من بعض المحالفات القوية ما تعتمد عليه لدرء الخطر، ولكن ذلك لا يعفيها من واجب الأهبة والاستعداد قدر استطاعتها؛ وإذا كانت مصر لظروف خاصة قد تخلفت في هذا المضمار عن غيرها من الأمم، فان عليها أن تستكمل اليوم ما فاتها بالأمس، لكي تستطيع مسايرة الحوادث والظروف، ولكي تثبت قبل كل شيء أنها تحرص على استقلالها الذي نالته بعد طول كفاح

وهذه هي تكاليف الاستقلال الفادحة؛ فان استقلال الأمم لا تكفله الحقوق الدولية إذا لم تدعمه أهبة الدفاع؛ ومصر اليوم تبدأ في هذا الميدان حياة جديدة، وتعنى بتنظيم دفاعها يحفزها إلى هذا الواجب المقدس تاريخ جيشها المجيد؛ ولكن مصر أيضا دولة بحرية، وقد كان لها أسطول مجيد كما كان لها جيش مجيد. فلتذكر إذن تاريخ هذا الأسطول الذي بسطنا خلاصته في هذا الفصل؛ وإذا كانت ظروفها الحاضرة لا تفسح لها مجالا للعمل السريع في هذا الميدان، فان المستقبل القريب قد يمهد لها سبيل التفكير، وقد يمدها أيضا بالوسائل والموارد التي تعاونها على تحقيق هذا المشروع الحيوي الجليل.

محمد عبد الله عنان

عالم!

للأستاذ علي الطنطاوي

(مهداة إلى روح المرحوم أستاذنا الرافعي)

حدثني بعض مشايخي عمَّن رأى بعينيه وسمع بأذنه. قال:

وقعت الصيحة في (حيَّ الميدان) أجل أحياء دمشق وأكبرها، صبيحة يوم من أيام سنة 1831، بأن إبراهيم باشا، قادم لزيارة عالم الشام الشيخ سعيد الحلبي في مسجده. وإبراهيم باشا من قد علمت في بطشه وجبروته، ومن يده إلى السيف أسرع من لسانه إلى القول وعينه إلى النظر. . . ومن كان جبار سورية وفاتحها وسيدها؛ فطار الفزع بألباب الميدانيين، وهم فرسان دمشق وحماتها، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون، ماذا يصنعون؟ إنهم يعلمون أن الشيخ لا يقيم وزناً لأحد من أبناء الدنيا، فلا يبجل سلطاناً لسلطانه، ولا يوقر غنياً لغناه، ولا يقيس الناس بما على جسومهم من ثياب، ولا بما في صناديقهم من مال، ولا بما يبتزون من أموال الدولة، ولكن يقيسهم بما في نفوسهم من فضائل، وما في قلوبهم من إيمان، وما في رؤوسهم من علم؛ وإذا نظر الناس من خارج فرأوا الطبْل سميناً عظيما، نظر من داخل فرآه خالياً حقيراً. . .

وكانوا يخشون أن يسوء ذلك من شأنه الباشا، ويودّون لو رجوا الباشا، ولكن كيف يصلون إليه وهو في قصره، حوله الحجاب والأعوان، والجند بالسلاح، ومن حوله الموت ألواناً وأشكالاً، يحمي حماه، ويحرس أبوابه. . . ويتمنون لو رَجَوا الشيخ، ولكنّ الشيخ أعزّ من مائة ملك جبار، تحميه هيبته، ويحرسه تقواه وتحف به الملائكة واضعة

. . .له أجنحتها
ولم يكونوا يخافون أن ينال الشيخ بسوء؛ فهذا شيء تُحيله عقولهم لما استقر فيها من إجلال الشيخ وإكباره. ولا تراه أبصارهم، ولكنهم كانوا يخشون الشيخ على الباشا، ويخشون الباشا على نفوسهم.
ومضوا يقيمون معالم الزينة، ويبنون أقواس النصر ويرفعون الرايات على طريق البطل الفاتح. ويقطفون أزهى أزهار الغوطة لينثروها عليه. . . فما كان الأصيل حتى تم كل شيء. وأقبل الباشا في الموكب الفخم، والجند والسلاح والدَّبدَبَة. . . حتى انتهى إلى باب المسجد وكان باباً صغيراً. فاعترض الباشا كأنه يقول له: ارجع أو أرجع دنياك، إنك تدخل
بيت الله بشراً خاضعاً، أما أن تكون تزوير إله. . . بألف عبد، وألف ثوب فلا! إنه لا يجتمع ميراث النبوة التي جاءت بالتوحيد والمساواة، ببقايا الجاهلية التي قامت على الشرك والتمييز بين الناس إلا محي أحدهما. . . فانظر هل محا باطل حقاً؟
قال الراوي: وتردد الباشا هنيهة يفكر. ثم أبعد أعوانه وترجل ودخل المسجد منفرداً، وكان الشيخ جالساً على حصير وقد وضعت فوقه حشية، وكان مادّاً رجله فسمعته يقول:
والمرء إذا خاف الله، وصدق في مخافته. خافه كل شيء، لأنه لا يرى كبيراً إلا . . . صغره عنده أن الله أكبر. . . الله أكبر. إن لهذه سراً إلهياً، ولكن المسلمين استعجموا فهم لا يرددون منها إلا حروفها فارغة من المعنى، وما فرض الله على المسلم أن يقولها كل يوم (85) مرة أقل ما يقولهاويسمعها من المنارة ثلاثين مرة. . . إلا ليعلم أنه لا كبير في الدنيا وأن من كان مع الله لم يبال شيئاً: لا الملك ولا المرض ولا الوحش، فلو أن المسلم عرف معنى هذه الكلمة وهو يقولها ما عرف الذل ولا الجبن ولا الكسل.
قال رجل من طرف الحلقة:
فإن قتله الملك يا سيدي الشيخ، أو أماته المرض؟
فقال الشيخ: سبحان الله! وهل يهاب المسلم القتل؟ أو يبغض الموت؟ إن الموت شديد لأنه انقطاع اللذات، وخسران الدنيا، ولكنه لا يكون بهذا المعنى إلا عند الكافر الذي يعيش في الدنيا، ويستمتع بملاذها؛ أما من كان يتهيأ فيها للعيشة الخالدة ويقيم فيها كالمستعد للسفر، ويرقب ساعته كما يرقب المسافر ساعة القطار، ويراه حين يمضي ليلقى ربه، كالآيب إلى وطنه حين يذهب ليلقى أهله وصحبه. . . من كان هذا شأنه لا يرى في الموت موتاً، وإنما يرى فيه ولادة جديدة، وابتداء حياة، وقد جاء في الحديث: إن أفضل الشهداء رجل يقول كلمة حق عند إمام جائر فيقتله بها. . .
وكان الباشا قد وقف على الحلقة متنفّجاً، مصعراً خدّه، شامخاً بأنفه، فنظر إليه الشيخ رحمه الله فلم يتغيّر ولم يبد عليه أنه رأى فيه أكثر من رجل، وأشار إليه أن اجلس كما كان يفعل بغيره، فلم يتمالك الباشا أن جلس. . . ونظر في الحاضرين يقلب فيهم بصره، يفتش فيه عن شيء أضاعه فيهم، عن الخضوع والإكبار اللذين تعوّد أن يراهما حوله دائماً، ينتظر أن يقوموا له، وأن يقفوا بين يديه صفاً، ولم يدر أن القوم كانوا في غير هذا، لم يدر أن
الشيخ قد علا بهم، حتى جعلهم يطلون على الدنيا من شرفة طيارة، أو من قطع السحاب، فيرون الأرض كلها كمفحص قطاة، ولا يرون في الباشا العظيم إلا نملة. . . فمنذ الذي يحفل بنملة. . .
وأجال الباشا نظرة فيهم حتى علق برجل الشيخ، وكانت ممدودة نحوه. فأثار مرآها كبرياءه وسلطانه، ورأى فيها علامة تعجب أضيفت إلى عظمته وجلاله، إضافة سخرية وتهكم؛ ورآها كبيرة في عينه، فأحس كأنما هي في عيبنه، ونظر في الحاضرين ألم يجرد واحد منهم سيفه يتقرب إلى الباشا بقطّها. .؟ وكان الباشا ينظر بعين بصره المادية، لم تفتح بعدُ عين بصيرته المعنوية فيفاضل بين قصره وسريره، ومكان الشيخ وحصيره، وبين جنده وأعوانه، وتلاميذ الشيخ وإخوانه، فيوقن أن دنيا الشيخ كلها لا تثبت لحظة لسيفه الذي لم تثبت له دنيا الخليفة العثماني (إمبراطور الشرق). . . وكان كالأسد الذي زعموا أنه مر على قنبلة من القنابل المدمرة. . . ملقاة في أجمته، فعجب منها وحقرها وقال: ويحك أي حيوان أنت؟ يا للضعف والمهانة! أين الأنياب؟ أين

المخالب؟ أين. . أين. . يا للهوان! ماذا يصنع بأهله. قالوا: ثم ركلها برجله، فانفجرت القنبلة! وانفجرت القنبلة من فم الشيخ فرجع يتكلم
قال:
ومن عجيب صنع الله في الإنسان أن خلقه حيواناً كالحيوان، ولكنه وضع فيه مَلَكا ووضع فيه شيطاناً، فمن كان همَّه من دنياه لذتا بطنه وفرجه، وابتغاهما من حل ولم يعرف غيرهما لم يكن فيه إلا الحيوان، فهو يرتع كما يرتع الحمار، ويتبع غريزته كما يتبع؛ ومن كان همه اللذة من حل وحرمة، ومن كان لا يبالي ما اجترح من السيئات، لم يكن فيه إلا الشيطان، وكان العقرب والخنفساء خيراً منه، لأن مصيرهما إلى التراب ومصيره إلى النار. ومن كان همه أن يعيش في هذه الحياة كما يعيش في مدرسة يتلقى فيها أساليب الكمال، فهو الإنسان حقاً. .
ومن عجيب صنع الله في الإنسان، أنه وضع في نفسه الملك، فلا يحتاج مهما كان ضالاً فاسقاً ظالماً إلا إلى تنبيه الملك في نفسه، ليطرد الشيطان، ويقود الحيوان، فلست أنت الذي يعظه، ولكنه يعظ حينئذ نفسه، وهذا معنى قولهم:
لا تنتهي الأنفس عن غيها ... ما لم يكن منها لها زاجر
وذلك ثوابه الجنة، والجنة لا تكون بالتشهي والأمل، ولكن بالجد والعمل. ولو أن تلميذاً أمضى عامه في لعبه ولهوه، ثم تمنى النجاح، أكان ينجح؟ ولو أن صياداً ألقى بندقيته فلم يضرب بها ورمى شبكة فلم ينصبها، ثم حلم بالقنيصة أكانت أحلامه تعدو في أثر الغزال حتى تأتي به مكتوفاً؟ أم كانت السمكة تأتيه وحدها وعلى ظهرها الملح والفلفل تقول له: كلني؟. .
قال رجل: ولكن القلوب قست يا سيدي الشيخ، فما علاجها؟
قال: إن الشيطان لا يأتي إلا من إشعاره الكمال، فأشعر نفسك النقص، وذكرهَا في الصحة المرض، وفي الحياة الموت. ولقد أدركنا من مشايخنا من إذا قسا قلبه أم المستشفى أو قصد المقبرة، فخوف نفسه المرض وذكرها الموت. والمؤمن لا يزال بخير ما زال بين الخوف والرجاء، فإن لم يخف أو لم يرج فقد هوى. . . ولقد سمعنا إن منهم من كان يدني يده من المصباح ويقول: يا نفس عن لم تصبري على هذا فكيف ويحك تصبرين على نار جهنم؟ وإن المؤمن ما ثارت في نفسه شهوة، إلى أطفأها بأنهار الجنة، أو أحرقها بنار جهنم، فاستراح منها. . .
وما الإنسان لولا العقل؟ وكيف يكون العقل إن لم يكن معه الإيمان؟ إنه لا يكون إذن إلا كما قالوا: أوّله نطفة مذرة، وآخره جيفة قذرة. . . وللسلطان سكرة، فمن أسكره سلطانه وعزته على الناس، فليذكر هوانه على الله، وأن الله أهلك أشد الملوك:
النمرود بأضعف الخلق: البعوض
فيا من أصله من التراب، لا تنس أن نهايتك إلى التراب!
وكان الباشا يشعر، والشيخ يتكلم، كأنه كان محبوساً في صندوق، ثم فتح عينيه فنشق الهواء الطلق، أو كأنه كان في ظلمة فاحمة، فطلع الشيخ عليه شمساً نيرة، فتضاءل حتى جلس على ركبتيه، ورأى نفسه دون هؤلاء كلهم، لأنهم ألصق منه بالشيخ وأدنى إليه، ولم يعد يزعجه مرأى الشيخ وهو ماد رجله. . . بل كان يراه الغريق ويراها خشبة النجاة، وكان يبصرها عالية كجناح النسر المحلق، ثم لم يعد يرى فيها شيئاً، لقد استحال الشيخ في نظره إلى فكرة. . . لم يعد يرى فيه إلا الحقيقة تمثلت إنساناً.
قال الراوي: فلما ذهب الباشا، بعث إلى الشيخ بكيس فيه ألف دينار من الذهب العين، فلما جاءه به الرسول وألقاه بين يديه تبسم الشيخ رحمه الله ورده إليه، وقال له: سلم على سيدك وقل له: إن من يمد رجله لا يمد يده. . . . .
البصرة
علي الطنطاوي
من أدب القوة
مثال. .!
للأستاذ عبد المنعم محمد خلاف
ثارت نفسه ثورة ضارمة جاحمة لِتَحَيُّف الغاصبين وطنه وتمزيقه شر ممزق؛ فصرخ الدم في عروقه، ولصرخة الدم دوي يسمعه الأحرار فتصيبهم جِنَّةٌ تخرجهم من ديارهم إلى القبور. . . وتَحرَّك الإيمان في قلبه، ولحركة الإيمان زَلزلةٌ تتحطم بها كل الشهوات

ويستيقظ لها المؤمنون يقظة تخرجهم من قبور الغفلة إلى حومة الجهاد. . . وأقبل الملك والشيطان يصطرعان على فكره وهو بينهما كما تكون كُدْسَةُ الحَبّ بين شِقيّ الرحى. . . يدعوه الأول إلى خطة الأقل والأكثر فيها الفِداء في الدار التي عريت من الخلود وازينت بالشر، ويقول له: إنك ما كنت لتحيا هنا، وإنما الحياة هناك. . . فاذبح مالك لحريتك، واذبح شهوة الدعة في الزلة لكرامة العزة، واخرج من كل شيء لله . . .الذي أعطاك كل شيء

إيتِهِ جسداً عارياً من الحلي والزينة، فإنها سلاسل تربطك بالأرض. . . وائتِه نفّسا عارية من كلَبِ شهوةِ البقاء. . . وائته عقلا عاريا من صور البنين والمملوك والذهب والفضة والمنصب، فإن كل أولئك أقذاء وحجب تغشى العين فلا تبصر ذلك اللفظ الصارم الذي لا يرحم، العابس الذي لا يبتسم: الواجب!

. . .إيتِه عبداً مملوكا طائعا ولك الكرامة قبل أن تؤْخذ آبقا كارها وعليك كلمة السوء ويدعوه الثاني إلى خطة الأقل فيها السلامة. . . والأكثر فيها العيش الموفور المعَطَّرُ المُدَثرُ المفضض. . . ويقول له: مالك مجنوناً بالفناء وقد خلقت للبقاء؟! الناس قطعان حيوان ليس فيهم حرمة ولا لهم واجب فلماذا تموت ليحيوا. .؟ أتموت أنت الشابَّ الغُرَانِقَ المُقْبِل ليحيا العجائز والشيوخ المدبرون. .؟ لماذا تحمل وطنك بكل ما فيه على قلبك؟ ألقِه عنك يتحطم وعش على أنقاضه. . . دع أوهام الأديان وأحلام الفلاسفة والشعراء. . . أنت (لا تأتي إلى دنيك هذي مرتين؛ فلا تقف في وجه لذاتك مكتوف اليدين.!) ولماذا تقدم نفسك للمذبح ويتأخر فلان وفلان؟ انتظر حتى يتقدموا. . . أتموت ليبقى الزعماء فلان وفلان وفلان يتمتعون بالمجد والنعمة والحمل على الأعناق.؟ أتخشى حساب الله على تخلفك عن الجهاد؟

. . .ومن أنت حتى يحاسبك الله العظيم؟! على أن في الحياة كفارة

فيقف في غمرةٍ من الحيرة بين وحي الملك ونزغ الشيطان، ولكن صراخ الدم وزلزلة الإيمان مضافاً إليهما حديث الملك مضافاً إليها حكم العقل بأن الحياة الدنيا ما دامت تنتهي فالأولى أن تنتهي بشرف. . . وما دامت اللذات والمناعم، بنت ساعتها، لا تحيا في النفس إلا ريثما تحيا في الحس. وليس لها نصيب من حياة الذكرى الخالدة فالأولى أن تُفْطمَ النفس عنها وبخاصة إذا دعا داعي الواجب وقالت قوانين الحياة الشريفة: يا إنسان النجدة!

كان (موظفاً) في الحكومة، والوظيفة رخصة تبيح لصاحبها عند نفسه وعند بعض الناس أن يغضي على كل لعنة تصيب دينه ووطنه. .! وأن يكفر بالله ويعبد الرغيف. . . وليس الرغيف الضروري فحسب بل الرغيف المرصع بكل لذات الفم له ولأبنائه وذرياتهم إلى يوم القيامة. .! حتى لا يستهدف بزعمه للعناتهم. . . وأن يقيم حول ذلك . . .الرغيف سورا وقلاعا من العمارات والضياع تحفظه ممن يتعقبونه

يا ما أعجب أنانية الإنسان! إنه لا يدرك من حقه إلا ما امتلكه من التافه والحقير. . . أما حقه الكبير الذي به سر حياته فلا يدركه ولا يغار عليه ولا يألم لوخز قلبه في عقيدته كما يألم لشوكة تخز خلية من خلايا جسده الترابي. .! ولا يثور لحق وطنه المسلوب كما يثور لمتاع سرق أو حمار نَفَقَ. .!

ولكن صاحبنا كان من الذين يضعون دائماً قلوبهم على أكُفّهم يعلنونها مستبرئة ظاهرةً ليخيفوا بمرآها من ليست لهم قلوب. . . أو من كانت قلوبهم هواء، أو ليجعلوها دائماً تحت التأثير المباشر للحوادث، تقرعها الحادثة فتجد صداها مردداً في صدق وبعدٍ عن الرياء والتدليس، أو ليستفتوها إذا نزل أمر عاجل يتعجل الفتوى من إلهام الطبيعة وميزان الفطرة. لذلك ما كانت قيود الوظيفة ضمامة على سمعه تمنعه من سماع نداء الواجب، ولا كمامة على فيه تمنعه من كلمة الحق. . . فلم يكن يدلس على نفسه بتأويل الحوادث ودفعها إلى غير وجهها وتحميلها غير ما يتقاضاه منطقها، وخاصة إذا كان مدار الحوادث دينه أو وطنه، فحينذاك يضع قلبه في كفة ميزان والوظيفة بما وراءها من جاه ومال ودعة في كفة، ويختار الذي هو راجح وخير، وهو الأول دائماً!

فلما أن طار الحريق في جو وطنه من أنفاس الأحرار حسرة على ما أصاب بلادهم وحريتها كتب يقول:

(أيها الحاكمون!)

أنا عامل في حكومتكم، ولكني ما بعتكم حريتي لأني لا أملكها؛ فإنها ألطف وأدق من

. . .أن تملك؛ إذ هي في الحصن المغلق على سر الإنسان: في القلب
لذلك أعلنكم أن هذا الجانب الخفي الرفيع مني قد أعلن الثورة عليكم، وترك لكم هذا
الجسد مِلْكَ يمينكم، فإن شئتم أخذتموه فقطعتم منه الوتين. . وتلك غاية مكنتكم. .
وإن شئتم تركتموه سلاحاً تقاتلكم به حريتي التي تحكمني من داخلي. . وتلك غايتها
وغايتي!
. .أما أن أهادنكم على الدَّنيَّة في ديني والخائنة في وطني فذلك ما ليس إليه طاقة حر
المال الذي آخذه منكم إنما هو لتحقيق كرامتي بين الناس؛ فإذا لم أجد لأمتي كرامة
فما كرامتي أنا؟! إذاً فهو الآن عندي كعلف الدابة التي تركب. . ولن أكُونها!
والجاه الذي أتمتع به في حكومتكم الدخيلة الغاضبة، إنما هو جاه العبد. . لن يرتفع به
إلى أن يكون سيداً مهما كان قربه من سيده؛ لأن السيادة ليست له في نفسه، ولا في
اعتبار الناس، ولا في اعتباركم أنتم، فهو جاه مثلث التزييف، وأنا آباه!
ودولاب الأعمال في حكومتكم يدور بحرية وإخلاص منكم ليفني الحرية والإخلاص منا؛
فاشتراكي معكم جريمة لا يغتفرها قلب الوطن ولا حساب الله. . فلن أصبر بعد اليوم
على ما أرى من قبيح فعلكم بأمتي ونقضكم المواثيق التي واثقتم بها أنفسكم وتمزيق
وطني ذلك التمزيق الذي سيفنيه لو بلغتم مرادكم فيه، وما أنتم ببالغيه)
وبهذا انطلق من وظيفته كما ينطلق الطير من قفص فيه حَبٌّ وماء، ونشيده: الجَوَّ
. . .الجَوَّ! ولم يَأس على الحب والماء لأنهما ليسا الشيء الهامَّ في سعادة قلبه
ثم سار يجاهد ويضرب في الأرض، لا يملك غير وجهه جاهاً، وغيرَ يديه ثروةً، وغير قلبه
خزانة.

عبد المنعم محمد خلاف
للأدب والتاريخ
مصطفى صادق الرافعي
1880 - 1937
للأستاذ محمد سعيد العريان

- 3 -

الرافعي في الوظيفة

في أبريل سنة 1899 عُيّنَ الرافعي كاتباً بمحكمة طلخا الشرعية، بمرتب شهري أربعة
جنيهات، وأعانه على الظفر بهذه الوظيفة ما كان لأبيه وأسرته من جاه في المحاكم
الشرعية؛ وما كان الرافعي ليجهل جاه أبيه وأسرته في هذه المحاكم، وما كان منكوراً
لديه أن لهم يداً على كل قاض في القضاء الشرعي؛ فنشأ بذلك نشأة الدلال في
وظيفته، لا يراها إلا ضريبة على الحكومة تؤديها إليه عَمِل أو لم يعمل، لمكانة أسرته
من النفوذ والرأي، ولمكانته هو أيضاً. . ألم يكن يرشح نفسه ليكون أديب هذه الأمة؟
. . .هكذا كان يرى نفسه من أول يوم، وظل كذلك يرى نفسه لآخر يوم
وكانت إقامته بطنطا في هذه الحقبة؛ فمنها مغداه وإليها مراحه في كل يوم، يتأبط
حقيبة فيها غداؤه وفيها كتابه، وما كان أحد ليستطيع أن يلفته إلى ضرورة التبكير إن
جاء في الضحى، أو يسأله الانتظار إذا دنا ميعاد القطار ولم يفرغ من عمله.
لم يكن يرى الوظيفة إلا شيئاً يعينه على العيش، ليفرغ إلى نفسه ويُعِدّها لما تهيأت له،
فما انقطع عن المطالعة والدرس يوماً واحداً، وما كان أكثر ما كان ينقطع عن وظيفته.
وقضى الرافعي في طلخا زمناً ما، ثم نقل إلى محكمة إيتاي البارود الشرعية، ثم إلى
طنطا؛ وفي طنطا انتقل من المحكمة الشرعية إلى المحكمة الأهلية بعد سنين، لأنه
رأى المجال في المحاكم الأهلية أوسع وأرحب، والعملَ فيها أيسر جهداً وأكثر مالاً
وأملاً؛ وظل في محكمة طنطا الأهلية إلى يومه الأخير.
وحياة الرافعي في طلخا وإيتاي البارود وطنطا لا تخلو من طرائف، وتاريخه في
الوظيفة حافل بالصور والمشاهد التي كان لها أثرها من بعد في حياته الأدبية: ففي
طلخا عرف
الكاظمي شاعر العراق الكبير واتصل به وانعقدت بينهما أواصر الود على ما سيأتي
تفصيله؛ وفي إيتاي البارود تفتحت زهرة شبابه للحب وتعطشت نفسه إلى لذاته،
وعلى (جسر كفر الزيات) فيما بين إيتاي البارود وطنطا مسته شعلة الحب المقدسة
فكشفت عن عينيه الغطاء ليرى ويحس ويشعر ويكون (شاعر الحس) من بعد؛ وفي

طنطا كان نضجه وتمامه وإيناع ثمره.

وما أستطيع أن أصف بتفصيل واضح كيف كان يعيش الرافعي في تلك الأيام البعيدة، ولا كيف كانت صلته بالناس، ولا كيف تفاعلت حوادث أيامه باحساسات الشباب التي كانت تجيش بها نفسه الثائرة؛ ولكني أعرف شيئاً واحداً هو كل ما يهمني إثباته في هذا البحث، هو أن روحا رفافة كانت تطيف به في تلك الأيام فتنتزعه من وجوده الذي يعيش فيه لتحلق به في أجواء بعيدة وتكشف له عن آفاق مجهولة لم يسمع بها ولم يعرفها فتوحي إليه الشعور بالقلق وألم الحرمان والإحساس بالوحدة، فلا يجد متنفساً ينفس به عن نفسه غير الشعر، وكان ذلك أول أمره في الأدب وإليه كان آخر ما يمتد أمله، فما كانت له أمنية إلا أن يكون شاعراً، شاعراً وحسب.

لم يتعلم الرافعي الحب مما يسمع في مجالس الشبان، كما يتعلم أبناء هذا الجيل من أكاذيب المنى التي يتداولونها في مجالسهم فيتعلمون الحبَّ منها فنّاً له قواعد مرسومة وغاية محتومة. . . لكنه استمع إلى وحي الحب أول ما استمع في همسات روحه، وخلجات وجدانه، وخفقات قلبه، وانفعال أعصابه؛ إلى ما كان للحب في نفسه من صورة مشرقة شائقة مما قرأ من أخبار العذريين من شباب العرب؛ فأحس كأن شيئا ينقصه، فراح يفتقده وشعر كأن إنسانة من وراء الغيب تناديه وتهتف باسمه في خلوة نفسه وجلوة خاطره تقول: ها أنا ذي. . . فهام بالحسن ينشده شعره وينشد فيه مثاله الذي يدور عليه، وطار على وجهه كالفراشة الحائمة تقول لكل زهرة: أأنت التي. . . فلا يستمع إلى جواب وإن الصوت البعيد لدائب يهتف في أذنيه: إنني هنا، إنني هنا يا حبيبي فاقصد إلي. . .

لم يكن يحب إنسانة بعينها يناديها باسمها ويعرفها بصفتها، بل كانت محبوبته شيئاً في نفسه وصورةً من صنع أحلامه، يرى في كل وجه فاتنٍ لمحةً من جمالها، وفي كل طلعةٍ مشرقة بريقا من فتنتها، وفي كل نظرة أو ابتسامة معنى من معاني الحبيبة النائمة في قلبه وفي

أمانيه. . . فمضى يتنقّل من زهرة إلى زهرة، عفيف النظر والشفة واللسان، حتى انتهى أمره إلى أمر. . .

لم ينس الرافعي إلى آخر يوم من حياته ما كان من شأنه وشأن قلبه في صدر حياته، فكان دائم الحديث عن هذا العهد كلما رفَّت به سانحةٌ من سوانح الماضي تذكره ما كان من أمره وما آل إليه أمره.

ليس قصدي الآن أن أتحدث عن الحب في تاريخ الرافعي، فإن للحب في تاريخه فصلاً ضافي الذيول كثير الألوان متعددّ الصور له مكانة المفرد من هذا البحث في غير هذا الباب. ولكني أتحدث عن الرافعي في بكرة الشباب فما لي من مندوحة عن الإلمام بما كان يصطرع في نفس الرافعي في بكرة الشباب.

عاش الرافعي لفنه ولنفسه من أول يوم، فما عاقته الوظيفة عن أن يكون كما أراد أن يكون؛ على أنه كان إلى اهتمامه بفنه وعنايته بما يكمله، وعلى أنه كان لا يرضى أن تتعبده قوانين الوظيفة وتقيده أغلالُ النظام الحكومي - كان إلى ذلك دقيقاً في عمله الرسمي دقة تبلغ الغاية. وكان إليه تقدير رسوم القضايا والعقود ونحوها مما يتصل بعمل المحكمة؛ فكان كاتباً حاسباً لا يفوته شيء مما يسند إليه، حتى آل أمره من بعد إلى أن يكون المرجع في هذا العمل لكتاب المحكمة جميعاً، يستفتونه فيما أشكل عليهم من الأمر في تقدير الرسوم؛ ثم لكثير من كتاب المحاكم في مختلف البلاد، ثم لوزارة الحقانية نفسها وهي المرجع الأخير، تكتب إليه في زاوية مكتبة من محكمة طنطا تسأله الرأي في حسبة أو إشكال أو شيء مما يتصل بذاك، فيكتب إليها بالرأي لتبلغه في منشور عام إلى كل المحاكم الأهلية.

وكان عليه العبء من هذه الناحية في محكمة طنطا، وقد طلب أكثر من مرة أن يحال إلى المعاش ليتفرغ لفنه، فما كان يمنعه من المضي في طلبه إلا ذعر سائر موظفي المحكمة وإلحاحهم عليه أن يبقى لئلا يخلو موضعه.

وكان في صلته بموظفي المحكمة الذين يشركونه في عمله نبيلاً كريم الخلق إلى حد بعيد، فكان يتطوع ليحمل عنهم تبعة كل خطأ يقع فيه واحد منهم مهما كان مدى الخطأ ونتيجته؛ وقد رأيته مرة في صيف سنة 1934 وقد لزمه مفتش من مفتشي الحقانية

ثلاثة أشهر أو أكثر، يستجوبه عن خطأ في تقدير الرسوم لأكثر من مائة وعشرين قضية، بلغ النقص في
الرسوم المتحصلة عنها بضعة وتسعين جنيهاً؛ والرافعي يرد المفتش ويدافعه ويرى له الرأي ويصف له العلاج، والمفتش دائب الحضور كل يوم يبحث ويفتش ويستقصي وما ضاقت به أخلاق الرافعي؛ على حين لم يكن على الرافعي في هذه القضايا المائة والعشرين خطأ واحد، وما كانت إلا من أخطاء زملائه في المكتب حمل عنهم تبعتها حتى لا يتعرضوا لشرَّ هو أقدر منهم على الخلاص منهم.

وكان من اعتداده بنفسه وحفاظه على كرامته بحيث لا يسمح لرئيس مهما علا منصبه وارتفع مكانه أن يجحد منزلته أو ينال منه أيَّ نيل؛ وكان يفرط في ذلك إفراطاً يدعو إلى الشك أحياناً في تواضع الرافعي وكرم خلقه وحسن تصرفه.

ومن ذلك أنه لما كان هذا المفتش يؤدي عمله في المحكمة - وكان عمله التحقيق مع الرافعي - كان الرافعي يُلزم المفتش أحياناً أن يحضر هو إلى مكتب الرافعي في حجرته الغاصة بالموظفين ليسأله وهو جالس إلى مكتبه والمفتش على كرسيه إلى الطرف الثاني من المكتب. وكنت إحدى هذه المرات جالساً إلى جانب الرافعي - وكان يستدنيني ويشركني في عمله حين أذهب لزيارته في الديوان - فلما جاء المفتش هممت بالانصراف، فشد الرافعي ذراعي بعنف وهو يقول: (اجلس يا أخي. . .) ووجه إليه المفتش سؤالاً، فالتفت الرافعي إليَّ قائلاً: (فَهَّمه من فضلك يا شيخ سعيد أحْسن مُش قادر أفَهَّمه. . .) ثم ألتفت إلى المفتش قائلاً وهو يشير إليّ: (حضرته مدرس، يقدر يخلّيك تفهم. .!)

لم يكن اعتداد الرافعي بنفسه يبلغ به إلى مثل هذا الشذوذ في كل أحواله، وإنما كان كذلك مع هذا المفتش بخاصته، لأنه كان يعتقد أنه يرمي إلى إحراجه والتضييق عليه لقضايا مدنية كانت بين الرافعي وبين أصهار هذا المفتش ولم يقبل فيها الرافعي شفاعته.

وكان من تقاليد المحكمة كلما نقل إليها قاض أو نائب جديد، أن يهرع إلى مكتبه موظفو المحكمة يهنئونه ويتمنون له؛ فما أكثر ما كان يتخلف الرافعي عن وفد الموظفين، ويظل وحده في مكتبه؛ فإذا فرغ القاضي أو النائب من استقبالهم، مضى إلى مكتب الرافعي في حجرته، فينهض الرافعي لاستقباله، فيقفان لحظة يتبادلان الشكر والتهنئة على هذا الاتفاق الذي هيأ لهما هذا التعارف. . . ثم يذهب إليه الرافعي بعد ذلك في مكتبه ليشكر له ويكرر التهنئة.

حتى مدير المديرية - ومحكمة طنطا هي جزء من ديوان المديرية - لم تكن صلته بالرافعي صلة المدير الحاكم بموظف صغير فكانت بينه وبين أكثرهم صلات من الود والصداقة فوق ما يعرف من الصلات بين الموظفين؛ ولكن منهم رجلاً واحداً كان أقرب قرابة إلى الرافعي من أهله ومن خاصته ومن. . ومن تلامذته هو صاحب السعادة محمد محب باشا أقدر مدير عرفته مديرية الغربية منذ كانت مديرية؛ وكان للصلة بين الرافعي ومحب باشا أثر كبير في أدبه سنتحدث عنه فيما بعد

لم يكن للرافعي ميعاد محدود يذهب فيه إلى مكتبه أو يغادره، فأحياناً كان يذهب في التاسعة أو في العاشرة، أو فيما بين ذلك، فلا يجلس إلى مكتبه إلا ريثما يتم ما أمامه من عمل على الوجه الذي يرضيه، ثم يخرج فيدور على حاجته، فيجلس في هذا المتجر وقتاً ما، وعند هذا الصديق وقتاً آخر، ثم يعود إلى مكتبه قبيل ميعاد الانصراف لينظر فيما أجتمع عليه من العمل في غيبته، وقد لا يعود. . .

وكان هذا منه يغضب زملاءه في العمل، فكانوا ينفسون عليه ويأكلون لحمه، ويبلغه عنهم ما يتحدثون به فيهز كتفيه ويسكت، ثم لا يمنعه ذلك من بعد أن يأخذ بيدهم عند الأزمة؛ وكان كتبة المحامين وأصحاب المصالح في المحكمة يسمونه بذلك عمدة المحكمة. . .!

وحدث مرة أن جاء إلى محكمة طنطا رئيس شديد الحول، فلما صعد إليه موظفو المحكمة للتهنئة، لم يجد بينهم الرافعي، فلما سأل عنه تحدث الموظفون في شأنه ما تحدثوا؛ فاستاء الرئيس وأرسل يدعوه إليه، فلم يجده الرسول في مكتبه، فغضب الرئيس وثارت ثائرته، وأمر باستجوابه عن الاستهانة بنظام المحكمة ومواعيد العمل الرسمي؛ وجاء الرافعي فبلغه ما كان، فهز منكبه وجلس إلى مكتبه يمزح ويتحدث

على عادته كأن لم يحدث شيء؛ ورفع الرئيس كتابه إلى وزارة الحقانية، يبلغها أن في محكمة طنطا كاتباً أطرش، لا يحسن التفاهم مع أصحاب المصالح على شدة اتصال عمله بمصالح الجمهور، وهو مع ذلك كثير التهاون بنظام المحكمة ومواعيد العمل ولا يخضع للرأي. . . وطلب الرئيس في آخر كتابه إقالة الرافعي من الخدمة. . .

وأرسلت وزارة الحقانية مفتشها لتحقيق هذه الشكوى، وليرى رأيه فيما طلبته محكمة طنطا؛ وكان المفتش المندوب لذلك هو الشاعر اللبق الظريف المرحوم حفني ناصف بك. ولم تكن بين الرافعي وحفني ناصف صلة ما إلى هذا الوقت، إلا ذلك النسب البعيد الذي يجمع بينهما في أسرة أبو لّون. . . وإلا. . . وإلا تلك الكلمة القاسية التي كتبها الرافعي بأسلوبه اللاذع عن (شعراء العصر) سنة 1905 ونشرها في مجلة الثريا وجعل فيها حفني ناصف ذيّل الشعراء. . .

وجاء حفني ناصف إلى الرافعي فحيا وجلس، وبسط أوراقه ليحقق. . . وقال الرافعي: قل لهم في الوزارة: إن كانت وظيفتي هنا للعمل، فليؤاخذوني بالتقصير والخطأ فيما يُسند إليّ من عمل؛ وإن كانت الوظيفة: تعال في الساعة الثامنة، واجلس على الكرسي كأنك مشدود إليه بحبل - فلا عليّ إن تمردت على هذا التعبد. . قل لهم في الوزارة: إنكم لا تملكون من الرافعي إلا هذين الإصبعين ساعات من النهار. . .!

واستمع الأديب الشاعر إلى حجة الأديب الشاعر، ثم طوى أوراقه، وحيا صاحبه ومضى، فلما كان في خلوته، كتب تقريره إلى وزارة الحقانية يقول:

إن الرافعي ليس من طبقة الموظفين الذين تعنيهم الوزارة بهذه القيود. . . إن للرافعي حقاً على الأمة أن يعيش في أمن ودعة وحرية. . . إن فيه قناعة ورضى، وما كان هذا مكانه ولا موضعه لو لم يسكن إليه. دعوه يعيش كما يشتهي أن يعيش، واتركوه يعمل ويفتنّ ويبدع لهذه الأمة في آدابها ما يشاء أن يبدع، وإلا فاكفلوا له العيش الرخيّ في غير هذا المكان. .!

وبلغ التقرير وزارة الحقانية، وانطوت القضية، وصار تقليداً من تقاليد المحكمة من بعد أن يغدو الرافعي ويروح لا سلطان لأحد عليه، وله الخيرة في أمره؛ ولكنه مع ذلك لم يهمل في واجبه قط، ولم ينس يوماً واحداً أنه في موضعه ذاك بحيث يرتبط به كثير من مصالح الجمهور.

قلت: إن الرافعي لم تكن بينه وبين حفني ناصف صلة ما. ولكن حفني تولى القضاء بعد ذلك مرة أو مرتين في محكمة طنطا فتقاربا وتوثقت بينهما أواصر الود؛ وكانت طنطا في ذلك الوقت حلبة من حلبات الشعر والأدب؛ فلا يمضي أسبوع حتى يقدم إليها أديب أو شاعر لزيارة الشاعرين: حفني والرافعي، فيقوم للشعر سوق ومهرجان.

وكان بين الرافعي وحفني من التقارب في الصفات ما يؤكد هذه الصلة ويوثق هذا الود؛ فكلاهما شاعر، وكلاهما من دعاة القديم، وكلاهما أديب مرح يجيد الدعابة ويستجيد النكتة البكر، وإن كانت فكاهة حفني أظهر وأبعث على الضحك وتكشف عن فراغ القلب، وفكاهة الرافعي أعمق وأدل على قصد العبث والسخرية وامتلاء النفس. ولعل روح الفكاهة في الرافعي كان لها شأنها فيما كان بينها وبين المرحوم حافظ إبراهيم بك من صلة الود والإخاء.

حدثني الأستاذ الأديب جورج إبراهيم - صديق الرافعي وصفيُّه منذ حداثته - قال: لقد كانت الصلة بين الرافعي وحفني أكثر مما يكون بين الأصدقاء، وكانا يتزاوران كثيراً، أو يجتمعان في قهوة (اللوفر) بميدان الساعة، وكنت أغشى مجلسهما أحياناً. . . فكنت أرى حفني يتواضع للرافعي ويتصاغر في مجلسه، على مقدار ما يتشامخ الرافعي ويتكبر ويدعي الأستاذية، حتى ليرى له الرأي في القضايا التي لم يدرسها حفني بعد، فلا يحكم فيها إلا بما حكم الرافعي!

ظل الرافعي في وظيفته تلك، موزع الجهد بين أعماله الرسمية وأعماله الأدبية وما تقتضيه شئون الأب وشئون رب الدار، على المورد المحدود والبساط الممدود. . . وما زاد مرتب الرافعي الشاعر الكاتب الأديب الذائع الصيت في الشرق والغرب، الموظف الصغير في محكمة طنطا الكلية الأهلية، على بضعة وعشرين جنيهاً في الدرجة السادسة، بعد خدمة ثمان وثلاثين سنة في وظائف الحكومة. . .

على أن الرافعي كان له مرتب آخر من عمله في المحكمة، وهو ثمن ما كان يبيع من كُتبه للموظفين والمحامين وأصحاب القضايا الذين يقصدون إليه في مكتبه لعمل رسمي؛ فما كان أحد منهم يستطيع أن يظفر برضا الرافعي فيقضي له حاجته، حتى يبيعه كتاباً من كتبه. وكانت ضريبة فرضها الرافعي من طريق الحق الذي يدعيه كل شاعر على الناس!

ليت شعري أكان على الرافعي ملام أو معتبة أن يفعل ذاك. .؟ لنا الله أيها الأدباء في هذه الأمة التي لا تحفظ الجميل!

(لها بقية)

(طنطا)

محمد سعيد العريان

أدب الميوعة والدلال

للسيد ماجد الأتاسي

منذ أسابيع خلت نعى أستاذنا (الزيات) في مقاله البليغ (أدب السندوتش)، على أدباء هذا الجيل النابتين (جهلهم للغتهم، وتقصيرهم في تحصيل آدابها).

ثم على الأستاذ (المازني) على هذا المقال، وحدثنا عن شغفه بالكتب في أيام تحصيله الأولى، وعن جلده على القراءة والدرس، وقص علينا قصته مع كتبه يوم زواجه، وكيف آثر الخلوة إلى هذه (الضرة) صباح يوم الجلوة على الجلوس والتحدث إلى زوجه العروس التي لاقت من ضرتها كل ما يسوء ويضجر والتي نسأل الله لها الرحمة والرضوان وإلهامها أن تقابل ما تجد من اغتياب أستاذنا لها في شتى المناسبات، بالصفح والغفران، وهي آمنة مطمئنة في فسيح الجنان.

ثم تناول الأستاذ (احمد أمين) هذا الموضوع بالبحث والدرس، والتحليل والتعليل. ووعدنا أن يعود إليه - كرة أخرى - ليصف لنا طرق العلاج، وفنون الدواء من (صيدليته) ولعله يفعل.

وأخيراً عالج الأستاذ (العقاد) أدب (السندوتش) من - الوجهة العالمية - وأتى على عوامل شيوعه وتفشيه في آداب الأمم الأخرى المعاصرة.

وهكذا تداول أساتذتنا الأئمة هذا الموضوع من أكثر من ناحية - بالبحث والدرس، والتحليل والتعليل.

وما كان لي - وأنا أحبو على عتبات الأدب حبو الأطفال وأحمل في ميدانه أجسام الأقزام - أن يدفعني ما يلابس - عادةً - نفوس الشباب، من الغرور والصلف والتهور والنزق، إلى أن أزج بنفسي بين أرجل هؤلاء العمالقة الأئمة الأخيار.

ولكنني أحببت - ولست أدري لم - أن أصرف أستاذي (المازني) ساعة عن هذه (الضرة) الباقية التي يهيم بها، والتي لا يطيق لها هجراً ولا بعداً، وأن أثقل فأهذر - أمامه - حيناً، فعهدي به أنه محظوظ من جماعة الثقلاء، فلكم طرقوا بابه موهناً وهو يغط في نومه، وسحبوه من فراشه لسؤال أو مزاح. ثم إني - بعد هذا - أطمئن وأقول له إنني لست من هؤلاء الشباب (الناعمين) أبناء الجيل الجديد، الذين جاءوه زائرين، فأذاقهم (علقته) وردهم

إلى الباب مدحورين، ثم فضحهم وشهَّر بهم (في الرسالة) أمام الناطقين بالضاد أجمعين.

لئن نعى الأستاذ (الزيات) والأساتذة (المازني والعقاد وأمين) من بعده، على أدباء هذا الجيل الناجمين، جهلهم بلغتهم، وتقصيرهم في تحصيل آدابها، فما احقني إذن، أن أشغب على زملائي الناشئين - وعلى الكهول في سوريا أيضاً - فأنعى عليهم جميعاً: ضعف النفس، وضمور الشخصية، وقلة الاستعداد لحمل رسالة الفكر الحر، والعقيدة الثائرة؛ وأن أسمي هذا النوع من حملة الأقلام (أدباء الدلال) بعد أن أسمى أستاذي (الزيات) أدبهم (أدب السندوتش) هذا الذي تقوم ثقافته على (نتفات من الكتب، ولقفات من الصحف، وخطفات من الأحاديث) والذي نجد نتاجه (مختضراً معتسراً كجنين الحامل أسقطته قبل التمام).

إن شأن اللغة في الأدب الفحل ثانوي بالقياس إلى نفس الأديب وشخصيته، وإن الجهل بها والتقصير في تحصيل آدابها، من السهل واليسر - إلى حد بعيد - أن نعالجهما ونبرأ منهما، إذا ما تعهدناهما بالإرادة القوية، والعزيمة الحازمة، والكدح الصابر،

والمعاناة الجلدة.
ولكن اللغة بلا نفس تنفخ فيها الحياة، ولا شخصية تطبع هذه الحياة بطابع خاص، ودون فكرة تذاع، لا تكون إلا حطاماً تدوسه الأقدام، وقرقرة تعافها الآذان
كثيرون وكثيرون من الأدباء أوفوا في معرفة لغتهم على الغاية، وأشرفوا في تحصيل آدابها على الذروة، ولكن طبيعتهم التي لابستهم، وبيئتهم التي أخرجتهم، وعوامل أخرى، كل هذا لم يهيئ لهم النفس التي تهدم لتبني، والشخصية التي تستقل لتهيمن، فتهوروا وتدهوروا وانحدروا إلى الوادي بين جموع الناظمين والمنشئين واللاعبين، من حيث طفر إلى القمة أهل النفوس والشخصيات، فتبوءا قمم (أولمب) واستقروا في جنات (عبقر) ذلك لأن قوام الخلود في عالم الأدب، نصيب هذا الأدب من فيض الحياة وزخرها، وقسطه من معرفتها وخبرها. وهذه الحياة التي أعدت للرجال أهل العود الصلب واللسان العضب، محرمة على من ضعفت نفوسهم، وضمرت شخصيتهم، ولانت قناتهم، وموصدة أبوابها دون أولئك الذين يتهيبون مجاهلها، ويخافون جدها، ويجفلون من عثارها، ويعولون جياعاً على عتباتها، والذين لا تحملهم أقدامهم الرخوة للجري فوق شوكها، والوثب على صخورها
هؤلاء (الناعمون المدللون) أهل الدلال والدعة، هم طفيليات في هذه الحياة، وهم - بالتالي - متطفلون على موائد الأدب، وليس للمتطفلين في عالم الأدب بقاء
بل أنا أذهب إلى أبعد من هذا، فأقول بأن أصحاب النفس الشديدة، والروح القوية، والشخصية الجبارة، يتهيأ لهم من حسن البيان، وجودة المقال والارتفاع بفنون الكلام، ما تتقطع دونه أقلام من تمكنوا من ناحية اللغة، وتفقهوا في أساليبها، وبصروا بنتاجها، من أهل البرودة والنعومة والدلال
ذلك لأن الفكرة في النفس القوية قوة، قوة عاصفة جامحة حرون، (تتكهرب) لها الأعصاب المرهفة، ويثور لحملها الوجدان، فما تجد النفس ترفيها وتنفيساً إلا في أن تقذف بها في أسلوب نير كومضة البرق، قوي كالحمم تنطلق من فوهة البركان، بليغ يرتفع في آفاق البلاغة والبيان إلى ما تتقطع دونه علائق الأحلام والأفهام
هذا هو الأستاذ البشري يقول: (إن السيد جمال الدين الأفغاني كان غريباً عن العربية، وإن قاسم أمين كان شبه غريب عنها، وإن حسين رشدي باشا كان قل أن تطرد على لسانه ثلاث كلمات عربية متواليات، ومع هذا كانوا يرتفعون بالعبارة أحياناً إلى ما يتخاذل من دونه جهد أعيان البين)
ولا عجب من هذا، ألا ترى إلى مقالنا، كيف يبين ويرتفع في سماء الوجدان ساعة ثورتنا وغضبتنا، إلى ما لا قدرة لنا عليه في ساعة الرضى والاطمئنان؟
كذلك هي النفس القوية، أبداً في ثورة عاصفة، وغضبة جامحة، وكذلك هي أبداً في تحفز للوثبة، وتأهب للطفرة والهجمة فان لم تجد أمامها ما تحطم، رجعت إلى قرارتها تثير حرباً عواناً بين خيرها وشرها، وحقها وباطلها، وتقاها وفجورها، لأن الهدوء والركون صور من صور الموت، والنفس القوية لا تعرف فترات الموت والبرودة والجمود، ما دامت تبصر النور، وتتنفس الهواء.
الحياة سفر الأديب الموهوب: وهي صراع دائم بين الغي والرشد، والحق والباطل، والجمال والقبح، والهدى والضلال، والحب والبغض؛ فالأديب الحق هو الذي ينزل إلى ميدان هذه المعركة المحتدمة، يقاتل ويناضل ويصاول في سبيل الرشد والحق والهدى والحب والجمال، إلى أن يحطم أصنام الشر والبطل، ويهدم حصون الضلال والقبح، أو يتحطم هو على أقدام الحق الذي ناضل في سبيله، وتحت ظل الراية التي نافح عنها، وهكذا يلفظ النفس، راضي النفس، مطمئن الضمير، هادئ الخاطر، يبتسم لأحلام القبر كما
نسعى إلى الفراش إذا مسنا اللغب وأثقل جفوننا النعاس، فنسحب اللحاف، ونسبله علينا. هادئين باسمين لنستسلم إلى الأحلام.
هذه هي الحياة؛ وهذه هي رسالة الأدب: قطع الصخر. وتجرع الصاب، وتحطيم الأصنام. والطفرة على حطامها إلى قمم المجد، وسماء الخلود.
فهل أعد أدباؤنا الناشئون - والكهول أيضاً - نفوسهم ومهجهم وأدمغتهم لهذه المعركة التي وقودها النفوس الطامحة، والقلوب الراغبة، والضمائر الحرة، والعقول النيرة؟
اللهم لا! اللهم لا!

من يمتري في هذا فلا ينعى على أدبائنا الناجمين - وعلى الكهول عندنا - رخاوة العصب. والدلال والدعة والأنوثة واللين؟
من يمتري في هذا، فلا ينعى عليهم ضيق الأفق، وقحط الخيال، وقصر المدى، وضعف الجنان، وتهيب القديم لأنه قديم، وحب الجديد لأنه جديد، والحرص على السلامة والمسالمة، والراحة والركون، والنفرة من المصاولة والمعاركة وقلة الجلد على حياة الجهد والتعب والضوضاء، والتهيب من التجربة والإقدام، وضعف التعلق بالحق والمثل الأعلى والجمال؟
أن حياة الأدباء أصبحت مضرب المثل، ووحدة القياس، في خمول النفس، وكسل العقل، وضعف الاستعداد للحياة؛ فإذا قيل لك: هذا أديب فاعلم أنه من هؤلاء الذين يخرجون إلى الشارع، والفراش على أكتافهم (والمخدة) فوق ظهورهم.
أجل! إننا لا نرى من ينقطع إلى الأدب من شبابنا إلا الذين خانتهم أقدامهم في الوثوب إلى مراقي المجد، والطفرة إلى قمم الظفر والذين نزلوا إلى ميادين الحياة، فلما بلوها وبلتهم، وعجموها وعجمتهم ولوحت لهم بسياطها من بعيد هرولوا وارتدوا على أعقابهم ناكصين حائلة ألوانهم، مرتعدة فرائصهم، ثم انتحوا جانبا قصياً من الطريق، بعيداً عن مواطن أهل الرجولة الإقدام، على غرار العاجزين المتسولين الذين يقبعون في زوايا الشوارع القذرة، أمام أهل الأعمال.
ها هم أولاء شبابنا الذين يخفقون في الشهادات (والبكالوريات) تسألهم: ما تصنعون؟ فيقولون: ندرس الأدب. وهكذا أصبحت دراسة الأدب صناعة العجز، ودليل الخور، وبرهان الفقر في المواهب، أو الضعف في النفس. وقد ينتهي هؤلاء إلى شيء ما في دراستهم هذه، فتراهم يصيحون نائحين في مآتم الموتى، أم مهرجين في حفلات الأحياء، أو خارقين للبخور أمام أهل الجاه
ولا عجب من هذا، فهم لا يصلحون للحياة، ومن لا يصلح للحياة لا يصلح لحمل القلم، والوقوف في صفوف الأدباء
ثم هذه هي المقاهي، ودور البطالة واللهو والعبث، أصبحت ملاجئهم يلجئون إليها كما يلجأ العجزة إلى دورهم وملاجئهم، ويفرون إليها من زحمة الحياة، وهم يقرقرون ويموءون وينقنقون
أعرف أديباً كهلاً - أو على الأصح متأدباً -: أفتدري يا صاحبي ما هي رسالة أديبه؟ رسالته - بالضبط - رسالة (عميان الجنائز) والنائحات اللاتي يستأجرن في المآتم للندب واللطم والشق والعويل، أو رسالة (البرابرة) الذين يستأجرون في مصر لتأديب المآدب، وتنظيم الحفلات
يسمع أن صديقه فلاناً قد مرض ولزم الفراش؛ وقد يكون ما به لفحة حر، أو زكام طفيف، فهو - منذ أيام المرض الأولى - يعد لصديقه العزيز مرثيته العصماء ليبكي فيه - إذا ما مات وأظنه يريده أن يموت ليرثه - ليبكي فيه النجم الذي أفل، والبحر الذي نضب، والرحمة التي رفعت، والرجولة التي فقدت. ويسمع أن (فلانا) وهو من أهل الجاه الطويل العريض - سيؤم المدينة بعد أيام؛ فإذا قدم كان صاحبنا الأديب الخالد أول المستقبلين والمرحبين، وكان أول الخاطبين بين يديه والمادحين؛ وقد يكون هذا العين ممن لا يعرفهم صاحبنا إلا (بالسلام) وقد يكون من هذه الطبول المنفوخة الجوفاء التي نقع عليها في طريقنا صباح مساء؛ وقد يكون ممن كان يشهر بهم أديبنا آناء الليل وأطراف النهار؛ وقد يكون من هؤلاء المجرمين الذين يروحون ويجيئون أمامنا بأثواب القديسين والأقطاب، فنسجد لهم ونحملهم على الأعناق؛ قد يكون هذا العين من كل هؤلاء، ولكن أديبنا لا يتحرج إذ يخلع عليه الألقاب، وإذ يغرقه بالتحيات، ويجعله في البلاغة سحبان وإن كان أعيا من بإقل، وفي الكرم حاتماً وإن كان أبخل من أشعب، وفي الشجاعة عنترة وإن كان أجبن من أبي دلامة
وليت هذا الرثاء وهذا المديح كانا من وحي الخاطر، ومن بنات القريحة؛ وإنما هما سرقات من الكتب رصفت رصف الحصى، ونتفات من الدواوين ركبت تركيب (اللعبة)
أعرف أديباً آخر - أو على الأصح متأدباً - أفتدري يا صاحبي ما رسالته؟ رسالته هي مهمة (سماسرة) القطن في مصر أو (سماسرة) البصل والثوم عندنا في سوريا. إذا كان الصباح يدعو إلى الانتداب، ويتغنى بمآثره و (يسمسر) له؛ وإذا كان الضحى، وكان الحكم الوطني ملأ الجو بالتصفيق، وحطم الآذان بقصائده ينشر فيها مجد بني عبد

شمس، ويذيع فيها صنيع أبناء عدنان؛ وهو (يسمسر) للحكم الوطني لأن بيد الحاكمين مناصب الدولة، ورياسة ديوان وزارة المعارف؛ وهو عند الأصيل معارض للحكومة الوطنية، متحمس في معارضته، مسرف فيها، لأنهم طردوه ولم يقبلوه، وهو أخيراً في المساء رجل مسالم يقف بعيداً (على الحياد) لا يدعو إلى شيء ولا يؤمن بشيء لأنهم لوحوا له من بعيد بالسوط، مهرول إلى عقر داره، مضطرب النفس، مهتز القلب؛ وآثر السكوت والرضى بالواقع على الشغب المغرض، والنعيب المضجر

أعرف متأدباً قيل له ذات يوم (لم لا تنتسب إلى هذا الحزب ومبادئه كيت وكيت؟) فقال: (إنني أؤمن بمبدئه، وأرضى عن منهجه، وأطمئن إلى برامجه، ولكن خصومه أصدقائي وصحبي، فلا قدرة لي على خصامهم!. . وعلى أن أكون حرباً على هذا الحزب بين صفوفهم!. .)

هذه خطوط هي إلى اللمحات الخاطفات أقرب منها إلى الصور الجامعات، أوردناها - على عجل - لتلمس أيها القارئ نواحي من هذه الحياة التي يضطرب فيها جماعة الأدباء، والتي هي ضرب من ضروب الجمود بل الموت.

يزعم أدباؤنا أن سماءنا غائمة ليس لها روعة الإيحاء والإلهام، وأن آفاقنا ضيقة ليس لها القدرة على تفتيق الأذهان والأحلام، وأن حياتنا جامدة ليس فيها من فيض الحياة ما يحرك المشاعر والأوتار.

لا! لا! لم تغم السماء لكن عيونكم حسرى ما ترتفع، ولم تضق الآفاق ولكن أذهانكم لم تفتق، ولم تتجمد حياتكم ولكن أوتار قلوبكم ما تتحرك.

ها هنا زعماء يرقصون على قبور الأمة، ويرتفعون على أشلاء الشهداء، ويتناصرون لاقتسام الغنائم تناصر الذئاب الجائعة أمام الجيف في أقصى الصحراء، والناس - على رغم هذا - يحملونهم على الأعناق، ويحرقون أمامهم البخور، ويهتفون باسمهم أطراف الليل وأناء النهار

في كل مكان مرجفون يرجفون، ومضللون يكذبون، وغادرون يغدرون، وماكرون يمكرون، وجاهلون يتعالمون، وأغبياء يرتفعون، ومجرمون في ثياب الأقطاب والأولياء، وبين الهتاف والتصفيق يروحون ويجيئون.

والحقيقة في كل هذا تشرد فلا مأوى ولا مصير، والفضيلة تستغيث وتستجير فلا مجير ولا نصير.

أليس في هذا، ما يلهب الحقد والضغينة في صدر الأديب ويحوله إلى طاغية غشوم، يبطش بلا رحمة ولا هوادة، في أهل المجد المزيف المجرم، والجاه الملوث الكاذب؟

في كل مكان أمة تصنع لقمتها من دمها ودمعها وقطع كبدها ثم ترفعها بيدها المرتعشة المشلولة إلى فمها لتسد رمقها، فإذا اليد القوية تمتد إليها وتتخطفها، وهي على شفتيها، والسوط يهتز في يسراها.

في كل مكان نعاج رواقص على سكينة الجزار، وسياط هاويات على ظهور المستضعفين من العباد، وعذارى يشردن ويبعدن عن أوطان الآباء والأخوة والأمهات، وشذاذ الآفاق يشترون الضمير البشري بالأصفر الرنان، وذئاب (جنيف) تعصف بها غرائز الوحشية والجشع، فتنتشر في بقاع الأرض الآمنة المطمئنة، تثير الفتنة، وتبعث الروع، وتستنزف الدماء، ومن ورائها الخبث الأوربي يحارب في سبيل السلام، ويبغض في سبيل الحب، ويرهب في سبيل التأديب، ويسرق في سبيل الإطعام، ويوقظ الفتنة في سبيل الأمان!

أليس في كل هذا ما يشعل النخوة في رءوسكم، ويحرك المروءة في نفوسكم، ويثير الغيرة في قلوبكم، ويدفعكم إلى إغماد أقلامكم في أفئدة هذه الذئاب، وصوغها أسرّة لهذه العذارى المشردات، وإرسالها سهاماً في صدور الظالمين الطغاة، ورفعها أعلاماً خفاقة للحق والخير والجمال؟

أين أنتم يا أصحاب المشاعر الرهيفة، والقلوب الرقيقة؟ يقولون (الأدب نزيف القلب: طاهرة ورجسة، ونشيد الشعور: نبيلة وخسيسة؛ ومعيار القوة فيه أن ينزف القلب فيتفجر،

وأن ننشد فنبدع.) إذن، لم لا تسمعوننا دقائق من زئيركم، إلى جانب الشهور الطوال من نحيبكم نحيب الأطفال، ونواحكم نواح العجائز؟

ستقولون: (هذا ما يجري على اللسان، وما يفيض عن القلب) وسنقول لكم: (إنكم

مرضى في أعصابكم، يا أنصاف الرجال، وأشباه النساء.)
بلى! يا طلاب الأدب الباكي النائح، يا عجائز الفن
هؤلاء هم آباؤكم وأمهاتكم وأبناء عشيرتكم، يزجون في السجون، ويرسفون في القيود، وتتلظى رقابهم على شفرات منجل الجلاد؛ ترتعش جفونهم المثقلة لتلمح ومضات النور، وتلهث صدورهم من خناق الكهوف، ويغلي في صدورهم الشوق إلى مروج الحياة الحرة، حيث ترقص عرائس الأحلام والآمال في أحضان الربيع. . .
أليس من جمود الحس، وبلادة الشعور، وغلظ القلب، أن تشربوا كأسكم على قبور الآباء، وأن ترقصوا في مآتم الأمهات، وألا تحرك أوتار قلوبهم هذه الأماني المشتركة الطوال العراض، وألا يهيمن على نفوسكم هذا الموقف الذي تتمازج فيه الأنوار بالظلمات، والآلام بالآمال، والضجر بالرغبات؟ فما نراكم إلا مالئين بنحيبكم جو الرجال، وقارعين آذانهم بنواح (الدلع) والدلال؟
المجد، والشهرة، والنبوغ، والخلود: كل هذا من عرائس القلب، وحسان الخيال.
لم لا يوقظ الحب في قلوبكم، وتلهب الشهوة في جسومكم عرائس هذه العواطف العليا اللاتي يرقصن على أكف النجوم عاريات، وينمن على ظهور القرون غافياتٍ، ويضربن على أوتار التاريخ منشداتٍ، ويقطفن أكاليل الغار من رياض الجنان، ليعصبن بها رءوس المجانين من أهل العشق والغرام؟
لم لا تترامون على أقدام هذه العرائس التي يشع منها نور الرجولة، وتتفتح تحتها أزهار الحياة، بدل أقدام غانياتكم التي يفوح منها روائح الرجس والخزي والعار، والتي مصيرها إلى فجوة قذرة في جوف التراب؟ أليس في اختطاف الرجال ورغباتهم من يد الأقدار، وركوبهم مراكب الهول في سبيل الآمال، وتبوئهم عروش النصر مضمخة بالدماء، أليس في كل هذا ما يبعث فيكم عواطف الرجولة والشدة والبأس، بدل الأنوثة والبرودة والقنوع والدلال؟
أيها السبعة، يا شباب الشيوخ، ويا شيوخ الشباب
ابعثوا الثورة والتمرد في نفوس الناشئين من الأدباء؛ قولوا لهم: (إن حياة الأديب لا تكون إلا في ميادين الطعن والضرب والعراك؛ ولا تهنأ إلا تحت ظلال الحق والحب والخير والجمال!)
قولوا لهم: (إن القلم الذي تحملونه أعد لتغمدوه في قلوب الباطشين الظالمين، والمجرمين الحاكمين، والأتقياء المزيفين، فان لم تفعلوا فاغمدوه في قلوبكم فما خلقت الحياة لنذل جبان رعديد، وفي القبور مراد للاغبين)
إذا فعلتم هذا، أيها السبعة الأئمة، في العالم العربي جميعه، تصبح معضلة الضعف في اللغة من الهنات الهينات؛ وتقر عيونكم بأدباء على غراركم: هم أهل لحمل القلم ومجده، وهم أهل لأن يقولوا عن أنفسهم ما قال (فولتير) عن نفسه (ما يمنعني عن أن أكون ملكا، وإن لم يزن مفرقي تاج؟!)
أجل! آنئذ يصبحون ملوكاً على عروش الأدب والبيان؛ ملوكا تتحطم تحت أقدامهم عروش ملوك البطش والجاه، وتحمل عروشهم الخالدة أعناق القرون والدهور والآباء.
(حمص سورية)
ماجد الأتاسي
هكذا قال زرادشت
للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه
ترجمة الأستاذ فليكس فارس
الشعراء
وقال زارا لأحد أتباعه: منذ بدأت أعرف حقيقة الجسد لم تعد الروح روحاً في نظري إلا على أضيق مقياس، وهكذا صرت أرى (كل ما لا يفنى) رمزاً من الرموز.
فأجاب التابع قائلاً: لقد قلت هذا من قبل يا زارا ولكنك أضفت إليه قولك (وكثيراً ما يكذب الشعراء) فلماذا قلت هذا؟
فقال زارا: أنت تسأل لماذا، وما أنا، ممن يحق عليهم أن يُسألوا. ما أنا ابن الأمس وقد مر زمان طويل على إدراكي أسباب ما أرتأيه، وهل أنا خزانة تذكارات لأحفظ الأسباب التي بُنيت عليها آرائي؟ إنما يكفيني عناء أن أحفظ هذه الآراء نفسها، أفليس في العالم عصافير تشرد من أماكنها؟ ولكم وجدت في قفصي من طير غريب يرتجف إذا

ما مرت عليه يدي ومع ذلك فماذا قال لك زارا يوماً؟ لقد قال إن الشعراء كثيراً ما يكذبون، وهل زارا نفسه إلا واحداً من هؤلاء الشعراء؟ أفتحسب أنه بهذه الصفة قد أعلن الحق؟ وما الذي يكرهك على تصديقه؟

فقال التابع: إنني مؤمن بزارا.

أما زارا فهز رأسه وابتسم قائلا: ليس الإيمان مما يرضيني حتى ولو كان هذا الإيمان معقودا علي، ولكن إذا قال إنسان بكل جد: إن الشعراء يكذبون، فانه ليقول حقاً لأننا نحن الشعراء نكذب كثيراً، ولا بد لنا من الكذب ما دام ما نجده من العلم قليلا. ومَنْ من الشعراء بيننا لم يغش شرابه وفي سراديبنا تستقطر السوائل المسمومة؟ ولكم فيها من أمور يقصر عن وصفها البيان. إن افتقارنا في المعرفة يهيب بنا إلى محبة مساكين العقول وبخاصة إلى محبة مسكينات العقول الفتيات. . . فنحن نعود بشهواتنا إلى الأمور التي تتحدث عنها العجائز في السمر ونقول إن ما نبحث فيه إنما هو قضية المرأة الأبدية.

يخيل لنا أن أمامنا طريقاً سوياً يؤدي إلى المعرفة وأن هذا الطريق لا ينكشف لمن يدركون الأمور بالعلم، فنحن لا نؤمن إلا بالشعب وبحكمته. فالشعراء جميعهم يعتقدون أن الجالس على منحدر جبل مقفر يتنصت إلى السكون يتوصل إلى معرفة ما يحدث بين الأرض والسماء. وإذا هم هزهم الشعور المرهف خيل لهم أن الطبيعة نفسها أصبحت مغرمة بهم فيرونها تنحني على آذانهم لتلهمهم البيان الساحر والأسرار، فيقفون مباهين بإلهامهم أمام كل كائن يزول.

واأسفاه! إن بين الأرض والسماء أموراً كثيرة لا يحلم بها إلا الشعراء وهناك أمورٌ أخرى كثيرة فوق السماء، فما جميع الآلهة ألاّ رموز أبدعها الشعراء.

والحق أننا منجذبون أبداً إلى العلياء، إلى مسارح الغيوم فنرسل إليها أكراً منفوخة ملونة ندعوها آلهة وبشراً متفوقين. والحق أنهم من الخفة على ما يجعلهم أهلا لاقتعاد مثل هذه العروش

ويلاه! لكم تعبت من كل قاصر يطمح إلى جعل نفسه شيئاً معدوداً؟ ولكم أتعبني الشعراء؟

وما نطق زارا بهذا الكلام حتى ثارت نفس تابعه، ولكنه كظم غيظه فسكت وسكت زارا أيضا وغيض نظره كأنه يسبر أقاصي نفسه، ثم تنفس الصعداء وقال: أنا من الأمس ومن الزمن القديم ولكنَّ في شيئاً من غدٍ وبعده ومن الآتي البعيد. فقد أتعبني الشعراء الأقدمون منهم والمجددون فما هم في نظري إلا رغوة لا صريح تحتها، بل هم أسِرَّة بحار جفت مياهها. إن أفكارهم لم تنفذ إلى الأغوار، وقد وقف شعورهم عند أول جرفها. وخير ما ترى في تأملاتهم قليل من الشهوة وقليل من الضجر فليست بحورهم إلا مجالات تنزلق على تفاعيلها الأشباح فهم لم يدركوا شيئاً بعد من القوى الكامنة في النبرات. لم يبلغ الشعراء درجة النقاء فهم يعكرون جداولهم ليخدعوا الناس ويوهموهم أنها بعيدة الغور؛ إنهم يريدون أن يقيموا أنفسهم موفقين بين مختلف المعتقدات غير أنهم لا يزالون رجال العمل الناقص السائرين على السبل المتوسطة الحائرة فهم يعكرون المياه بأقذارهم.

وآسفاه لقد ألقيت شباكي في بحارهم آملا اصطياد خير الأسماك ولكني ما سحبت هذه الشباك مرة إلا وقد علق فيها رأس إله قديم. وهكذا كان يجود البحر بحجر على الجائع. ولعل الشعراء أنفسهم خرجوا هم أيضاً من البحر وفيهم ولا ريب بعض اللآلئ، فهم أشبه بنوع من المحار الممنع بأصدافه، ولكم وجدت في داخلهم بدل الروح شيئاً من الرغوة المالحة. إن الشعراء يقتبسون من البحر غروره، وهل البحر إلا أشد الطواويس غروراً؟ فهو حتى أمام أقبح الجواميس يدحرج أمواجه ويبسط أطالس مراوحه وأطراف وشاحه المفضض فيحدجه الجاموس بنظرات الغيظ لأن روحه المقتربة من الشاطئ لا تزال ملتصقة بمعلفه ومرعاه فما يبالي بالجمال وبالبحر وببهاء الطواويس. هذا هو المثل الذي أضربه للشعراء. والحق أن فكرهم لطاووسٌ مغرور بل هو بحر من الغرور. ففكر الشاعر يطلب مَنْ يشاهده حتى ولو كان المشاهد جاموساً.

لقد أتعبني هذا الفكر وسوف يأتي زمان - وهو قريب - يتعب فيه هذا الفكر من ذاته.

رأيت بعض الشعراء يتحولون عن الشعر ويوجهون النقمة إلى ما كانوا عليه، ورأيت من يقدَّمون كفّارة للفكر، وما نشأ هؤلاء المكفَّرون عن الضلال إلا بين الشعراء.
هكذا تكلم زارا. . . .

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

- 16 -

سامكهيا:

عاش الحكيم (كابيلا) مؤسس هذا المذهب في القرن السادس قبل المسيح كما يظن أكثر الباحثين المدققين. وقد نشأ هذا الظن عندهم من أن أقدم النصوص التي تحدثت عنه وعن مذهبه ترجع إلى القرن الخامس قبل المسيح، وأنه قد عثر في هذا المذهب وفي المذهب البوذي على تأثرات قوية متبادلة بين المذهبين بالتساوي مما يدل على أنهما متعاصران تقريباً لا سيما إذا كان بعض تلك النقط المتشابهة واضح الأصلية في أحدهما والحداثة في الثاني، والبعض الآخر على العكس من ذلك تماماً.

سمي هذا المذهب (سامكهيا) لقوله بالتعدد الذي لا يتناهى في النفوس، وهو على الأصح مذهب إلحادي لا يقول بإله مسيطر متصرف في الكون، وهذه إحدى النقط التي يلتقي فيها مع البوذية التي صورتها لنا نصوص العصر الذي تلا عصر (بوذا) وبعبارة أدق: لعلها إحدى النقط التي تأثرت فيها البوذية بعد موت زعيمها بمذهب (سامكهيا) الإلحادي الذي لا يشك باحث في أن الإلحاد متأصل فيه.

يرى صاحب هذا المذهب أنه لا يوجد للكون إله قدير منفرد بالتصرف فيه، وإنما يرى أن هناك روحا عاماً أو عالماً من الأرواح غير محدود ولا متناه، متشابه الوحدات، وأن هذه الوحدات بتكاتفها مع المادة هي التي تحدث في الكون هذه الآثار وتلك التغيرات على النحو الذي يفصله فيما بعد، وهو يرى كذلك وجود عالمين هما في الحقيقة والأزلية والأبدية سواء. وهما: النفس، وتسمى بالهندية: (بوروشا) والمادة، وتسمى: (براكريتي)ـ وهذان العالمان لا يتفقان في أي شيء آخر عدا الحقيقة والأزلية والأبدية. ومع ذلك، فان بينهما صلة قوية، لأن مجاورة النفس للمادة هي التي تكسبها الحركة التي هي منشأ كل النتائج

الصادرة عنها، ولكن النفس وحدها لا تستطيع أن تفعل شيئاً وإن كانت حية مشتملة بالقوة على جميع عناصر القدرة التأثيرية، وهي مبصرة ولكنها عاجزة على عكس المادة العمياء المشتملة على قدرة كامنة يستحيل بروزها من غير اتصالها بالنفس، وهم لهذا يشبهون اتحادها باتصال مقعد وأعمى التقيا في الصحراء، فاتفقا على تعاون عملي بينهما يضمن لهما النجاة، وهو أن يحمل الأعمى المقعد على كتفيه، ليمكنه من السير مقابل أن يدله المقعد بوساطة بصره على الطريق الذي لم يكن في مكنته أن يعرفه لولا معاونة رفيقه، وقد وصلا معاً إلى شاطئ النجاة بفضل هذا التعاون العظيم. وهكذا شأن النفس مع المادة هيأ لهما اتحادهما إبراز خواصهما التي لم تكن لتوجد بدون هذا الاتحاد.

وللمادة ثلاث صفات ملازمة لها، وهي الخيرية والهوى والظلمة، وإن هذه الصفات تظل تتفاعل فيما بينها في عصور مختلفة حتى تصل إلى حالة الاعتدال التي تسوي بينها، فإذا وصلت إلى هذه الحالة تطورت تطوراً آخر جديداً نشأت عنه الطبيعة، وبارتباط النفس والمادة المتطورة والطبيعة الناشئة عن هذا التطور يوجد هذا العالم المشاهد. غير أن هذه النظرية لم تلبث أن تلاشت وحلت محلها نظرية أخرى على العكس منها تماماً، إذا أصبحت فكرة الارتباط الحقيقي بين النفس والمادة لا وجود لها، وإنما أصبح الرأي السائد هو أن النفس تجتمع مع المادة اجتماعاً مؤقتاً، أساسه الضرورة التي تتطلبها الحياة الدنيوية، ثم لا تلبث هذه الضرورة أن تزول فتتخلص النفس من هذه الصلة المقيدة لها ثم تنطلق إلى عالم الأبدية الأعلى حيث تنام بلا نهاية نوماً عميقاً هادئاً لا تزعجه الرؤى ولا تنغصه الأحلام.

ويرى كذلك أن الشر في هذا العالم موجود وجوداً ذاتياً وأنه لا يقدر على محوه إلا بوساطة العمل الصالح والتخلي عن جميع اللذائذ والتأمل في أسرار الكون، وعلى

الخصوص بالمعرفة التي هي الغاية المثلى من جميع هذه المحاولات المتقدمة.
وهم للحصول على هذا الخلاص المنشود يغالون في التصرف مغالاة شديدة حتى ليجلس الواحد منهم على شاطئ أحد الغدران عدة أعوام طويلة دون أن يغادر مكانه، ويقتات بالأعشاب ويديم التفكر في أسرار الكون، ولا يزال يغالب نفسه حتى ينتزعها نهائياً من دنس المادة، وقد تصل به الحالة أثناء هذا التنسك إلى أن يصير جسمه نصف متحجر
وتنبت فيه الحشائش وتلتف عليه الأغصان.
ومع ذلك فسوف لا يعم هذا الخلاص جميع النفوس البشرية وإنما سيبقى منها عدد غير متناه ساقطاً في أحابيل الشر مسجوناً في غيابات الأجسام المادية، لأنه مهما اقتطع من اللامتناهي عدد ذهب إلى الخلاص، فان ذلك الاقتطاع لا يؤثر فيه ولا يخرجه عن صفة اللانهائية لا سيما إذا عرف أن الأصل هو الشر أو الانحباس في سجن المادة، وأن التخليص عارض، ولكن أنجح الوسائل إلى هذا التخليص هو معرفة القوى الكونية الخمس والعشرين ودوام التفكير فيها. ولذلك يقول (بياس ابن براشن): اعرف الخمسة والعشرين بالتفصيل والتحديد والتقسيم معرفة برهان وإيقان، لا دراسة باللسان، ثم ألزم أي دين شئت فان عقباك النجاة. . .
وهذه القوى الخمس والعشرين هي: النفس الكلية والهيولي المجردة، والمادة المتصورة، والطبيعة الغالبة، والعناصر الرئيسية وهي: السماء والريح والنار والماء والأرض، وتسمي (مهابوت) والأمهات التي هي بسائط العناصر، فبسيط السماء (شبد) وهو المسموع وبسيط الريح (سبرس) وهو الملموس. وبسيط النار (روب) وهو المبصر. وبسيط الماء (رس) وهو المذوق، وبسيط الأرض (كند) وهو المشموم. ولكل واحد من هذه البسائط ما نسب إليه وجميع ما نسب إلى ما فوقه. فللأرض الكيفيات الخمس، والماء ينقص عنها بالشم، والنار تنقص عنها به وبالذوق، والريح بهما وباللون، والسماء بها وباللمس. ولعلهم في نسبتهم الصوت إلى السماء يقصدون به أن لدوران الكواكب في أفلاكهاتلك اللحون الموسيقية التي زعم (فيثاغورس) أن سماعها يتاح لكل من صفت نفسه ولطف حسه. والحواس المدركة، وهي: السمع والبصر والشم والذوق واللمس والإرادة المصرفة والضروريات الآلية. واسم الجملة: (تتو) والمعارف مقصورة عليها
أما الإنسان فهو عند هذا المذهب معقد تعقيداً يلفت النظر، إذ هو مكون من ثلاث شخصيات مختلفة: الأولى الجسم المادي الذي ينحل ويتفكك بالموت ثم تتلاشى أجزاؤه في أصولها الناشئة عنها من عناصر المادة. الثانية جسم دقيق شفاف، وهو الذي يعتبر في الحقيقة الجوهر الصحيح للإنسان، وهو الذي يتناسخ ويتقمص الأجسام الأخرى. الثالثة النفس التي هي الواحد الحق المماثل كل المماثلة لجميع الآحاد الحقة التي هي من عالمه
النفساني الغير المتناهي.
ويرى هذا المذهب أيضاً أن الحواس الإنسانية لم توجد اتفاقاً ولا عبثاً، وإنما وجدت وفاقاً لعناصر الكون، فكل حاسة من حواس الإنسان يقابلها عنصر من عناصر الطبيعة يصلح لأن تقع عليه هذه الحاسة بالذات كما أشرنا إلى ذلك عند الكلام على الديانة البراهمانية.
وليس هذا التعقيد في شخصيات الإنسان مقصوراً على مذهب (سامكهيا) وحده، وإنما هو أسلوب هندي عام اشتركت فيه أكثر مذاهب تلك البلاد. بل إن غير (سامكهيا) قد يصل بهذه الشخصيات إلى أربع أو سبع أو عشر حسب الظروف والأحوال.
يتبع
محمد غلاب
نقل الأديب
للأستاذ محمد اسعاف النشاشيبي
تكون رأساً لخيار محمودين - 151
في (رسالة أرسطو للاسكندر):
إنك قد أصبحت ملكا على ذوي جنسك وأوتيت فضيلة الرياسة عليهم فمما يشرف رياستك ويزيدها نبلا أن تستصلح العامة، وتكون رأساً لخيار محمودين لا لشرار

مذمومين. فان رياسة الاغتصاب - وإن كانت تذم لخصال شتى - أولى ما فيها بالمذمة أنها تحط قدر الرياسة وتزري بها، وذلك أن الغاصب إنما يتسلط على الناس كالعبيد لا كالأحرار فرياسة الأحرار أشرف من رياسة العبيد. وقد كان ملك فارس يسمى كل أحد عبداً ويبدأ بولده، وهذا مما يصغر قدر الرياسة، لأن الرياسة على الأحرار والأفاضل خير من التسلط على العبيد وإن كثروا.

لا تلتفت إلى مشورة من يشير عليك بغير الذي أنت أهله، ولا تعبأ بكلام أقوام خسيسة آراؤهم ناقصة هممهم يموهون عندك الأمور ويحملونك على العامة.

152 - نحن لا نملك علينا من لا يشاور

يروى أن روميا وفارسيا تفاخرا، فقال الفارسي: نحن لا نملّك علينا من يشاور فقال الرومي: نحن لا نملّك علينا من لا يشاور

153 - الملك الدستوري

في (الكامل) لأبن الأثير: كان عضد الدولة لا يعول الأمور إلا على الكفاة، ولا يجعل للشفاعات طريقاً. شفع مقدم جيشه (أسفار) في بعض أبناء العدول ليتقدم إلى القاضي ليسمع تزكيته ويعدله. فقال: ليس هذا من أشغالك إنما الذي يتعلق بك الخطاب في زيادة قائد، ونقل مرتبة جندي وما يتعلق بهم، وأما الشهادة وقبولها فهي إلى القاضي، وليس لك ولا لنا الكلام فيه، ومتى عرف القضاة من إنسان ما يجوز معه قبول شهادته فعلوا ذلك بغير شفاعة

154 - أنا عبد الشرع وشحنته

في (رحلة ابن جبير): حضر صلاح الدين أحد رجاله المتميزين مستعدياً على رجل. فقال السلطان: ما عسى أن أصنع لك وللناس قاض يحكم بينهم، والحق الشرعي مبسوط للخاصة والعامة، وأوامره ونواهيه ممتثلة، وإنما أنا عبد الشرع وشِحْنَتُه، فالحق يقضي لك أو عليك

155 - تعظم النعمة في تملك سلطان عالم عادل

كتب ابن العميد (أبو الفضل محمد بن الحسين) إلى عضد الدولة:

يعد أهل التحصيل في أسباب انقراض العلوم وانقباض مددها وانتقاض مِرَرها والأحوال الداعية إلى ارتفاع جل الموجود منها وعدم الزيادة فيها - الطوفان بالنار والماء، والموتان العارض من عموم الأوباء، وتسلط المخالفين في المذاهب والآراء، فان كل ذلك يحترم العلوم احتراماً، وينتهكها انتهاكاً، ويجتث أصولها اجتثاثاً. وليس عندي الخطب في جميع ذلك يقارب ما يولده تسلط ملك جاهل تطول مدته، وتتسع قدرته، فأن البلاء به لا يعدله بلاء، وبحسب عظم المحنة بمن هذه صفته، والبلوى بمن هذه صورته تعظم النعمة في تملك سلطان عالم عادل كالأمير الجليل الذي أحله الله من الفضائل بملتقى طرقها، ومجتمع فرقها. وهي نور نوافر ممن لاقت حتى تصير إليه، وشُرّد نوازع حيث حلت حتى تقع عليه. تتلفت إليه تلفت الوامق، وتتشوق نحوه تشوق الصب العاشق، ولقد ملكتها وحشة المضاع وحيرة المرتاع،

156 - للرعية المنام وعلينا القيام

كان الرشيد في بعض حروبه فألح عليه الثلج ليلة، فقال له بعض أصحابه: أما ترى ما نحن فيه من الجهد والنصب ووعثاء السفر والرعية قارة وادعة نائمة؟!

فقال: أسكت، فللرعية المنام، وعلينا القيام، ولا بد للراعي من حراسة الرعية وتحمل الأذى. وإلى ذلك أشار بعضهم:

غضبت لغضبتك الصوارم والقنا ... لما نهضت لنصرة الإسلام
ناموا إلى كنف بعدلك واسع ... وسهرت تحرس غفلة النوام

157 - محلم العربي كسرى

في (تاريخ الطبري وشرح النهج لابن أبي الحديد): لما قُدم على عمر بسيف كسرى ومنطقته وزبرجه وزيه في المباهاة وزيه في غير ذلك، وكانت له عدة أزياء لكل حالة زي - قال: عليّ بمحلّم - وكان أجسم عربي يومئذ في المدينة، فألبس تاج كسرى على عمودين من خشب، وصُبّ عليه أوشحته وقلائده وثيابه، وأجلس للناس، فنظر إليه الناس فرأوا أمراً عظيماً من أمر الدنيا وفتنتها، ثم قام عن ذلك فألبس زيه الذي يليه، فنظروا إلى مثل ذلك في غير نوع حتى أتى عليها كلها، ثم ألبسه سلاحه وقلده سيفه فنظروا إليه في ذلك ثم وضعه ثم قال: والله إن أقواماً أدوا هذا لأمناء؟ فقال علي:

إنك عففت فعفوا، ولو رتعت لرتعوا.
158 - حتى يمسكن أزواجهن عن الحركة
ابن سعيد المغربي في بعض مصنفاته: وكان الملك العادل ابن أيوب من أعظم السلاطين دهاء وحزماً، وكان يضرب به المثل في إفساد القلوب على أعدائه وإصلاحها له، وكان صلاح الدين - وهو السلطان - يأخذ برأيه. وقدم له أحد المصنفين كتاباً مصوراً في مكايد الحروب ومنازلة المدن - وهو حينئذ على عكا محاصراً للفرنج - فقال: ما نحتاج إلى هذا الكتاب ومعنا أخونا أبو بكر. . . وكان (العادل) كثير المداراة والحزم. كثير المصانعات حتى إنه يصوغ الحلي الذي يصلح لنساء الفرنج، ويوجهه في الخفية إليهن حتى يمسكن أزواجهن عن الحركة
159 - وأين أنت من محادثة الرجال؟
قال المأمون للحسن بن سهل: نظرت في اللذات فوجدتها مملولة خلا سبعاً.
قال: وما السبع يا أمير المؤمنين؟
قال: خبز الحنطة، ولحم الغنم، والماء البارد، والثوب الناعم، والرائحة الطيبة، والفراش الموطأ، والمنظر الحسن من كل شيء.
قال: وأين أنت - يا أمير المؤمنين - من محادثة الرجال؟
قال: صدقت، هي أولى منهن
خواطر وأفكار
للأستاذ أديب عباسي
الخاطر المخامر كالداء المخامر: هذا يضعف الجسم ويعرضه لأدواء أخرى، وذاك يضعف الفكر ويعرضه للكلال والانقباض في نطاق ضيق
يجب ألاَّ يخدعنا سكوت الناس عن رأي من الآراء أو فكر من الأفكار فنظن أن هذا السكوت دليل الرضى وآية القبول؛ فقد يكون الرأي من السخف ووضوح الخطأ فيه بحيث لا يتكلف أحدٌ مشقة العناية به والإنبراء لتفنيده
الخطأ الكبير من صفات العقول الكبيرة، أما صغار العقول فلا يمكن أن تكون لهم أخطاء كبيرة
قصر النظر كبعد النظر لازم في بعض ظروف الحياة، لا سيما في الأزمات
الناجح والقاتل في الحياة يلتقيان عند قلَّة الأصدقاء والمريدين لهم إرادة بريئة من الملق والزلفى أو حب الاستعلاء والظهور
يقولون لو عرف الإنسان كفايته متى تكون لفتر سعيه وقلَّت أطماعه، وليس أنأى عن الصواب من هذا الرأي. فالواقع أن الناس يسعون ويعملون ويؤملون كأنهم باقون إلى آخر الدهر ومن هنا ترى الشاب والكهل والشيخ يستوون في المطامح والأطماع
كثرة التحليل والتعليل والتدبر كثيراً ما تكون سبيلاً للفشل بدل أن تكون عوناً على النجاح
يضطر المرء أحياناً أن يمثل دور المخدوع، لعله أن يقلل من أذى الحاقدين وشرهم، لا سيما إذا كانوا ذوي حول وسلطان
حتى الأعراض تهون عند البعض في سبيل الانتقام
خير للمرء أن يخطئ مع التجربة من أن يتجنب التجربة كيلا يخطئ
تعوُّدك الأمر من الأمور أسهل جدّاً من انقطاعك عنه
في الناس الميل لذكر السيآت ونسيان الحسنات، لأنهم في قرارة نفوسهم لا يحبون أن يكونوا المحسن إليهم، ويودون دائماً أن ينالوا ما يشتهون بجدهم وسعيهم
في طبيعة الناس جميعاً الملل من المؤثر يجيء على وتيرة واحدة ومن هنا ترى الناس على الإطلاق يتمنون لو يبدَّلون أحوالاً بأحوال وأوضاعاً بأوضاع مع العلم واليقين أن الأحوال والأوضاع الجديدة قد لا تكون خيراً من الحال والوضع القديم
السياسي كالدجال يعتمد على خداع الفكر كما يعتمد الدجال عل خداع البصر.
إذا اشتد الجدل حول الرأي من الآراء أو الخطة من الخطط وانتصر الرأي أو الخطة، فمن الخير والحكمة أن ننزل بالرأي أو الخطة درجة أدنى من التقدير، وذلك أن حرارة النضال وشهوة الفوز لا بد أن تكون أخرجت الرأي أو الخطة عن نطاق الصحة وصدق التقدير.
معارك الفكر الكبرى تترك كثيراً من قتلى الأفكار الأبرياء كما أن المعارك الحربية

تترك كثيراً من القتلى في غير ميادين القتال.
السعادة كالأفق دائماً أمامك.
ليست الفضيلة أن تمتنع عما لا تستطيع، إنما الفضيلة امتناعك عما تطوله يداك وتخصه بهواك.
إذا أكثر المرء الحديث في فضيلة من الفضائل فشك في نصيبه منها
إذا جاء الإعجاب بالشيء بعد كره له، فذاك هو أصدق الإعجاب
الإعجاب المفاجئ كثيراً ما ينتهي بالكره والاحتقار
الابتكار بالطبع غير الإغراب، ولكن كثيراً ما يلتبس الواحد بالآخر. ومن هنا يجب ألا يخدعنا الإغراب عن مكان الابتكار فيه، إن يكن تحته ابتكار
من الكتاب من لا يريد أن يريك الفكرة في وضاحة من الألفاظ واستقامة من الأسلوب، وذلك لأنه ليس على يقين من فجة هذه الفكرة أو صدقها، فيرى أن يلفَّفها ويغمَّضها بالملتوي من الأسلوب ومبهم البيان
حديث النعمة لا يعرف الاعتدال، فإما السرف الشديد أو الكزازة
الدنيا مع الواقف
الفشل أشدُّ أثراً في حياة الأفراد من النجاح
ليست النتيجة بقياس صحيح لجودة الرأي وصواب النهج والخطة، فقد ينتهي الرأي الخاطئ على غير انتظار بنتيجة طيبة وقد ينتهي الرأي الصائب بنتيجة سيئة
قدَّر السوء والشرَّ نتيجة لما تسعى. فان جاءك الخير أحسست به قوياً، وإن جاءَك الشر يكن لك من توطينك النفس عليه واقياً يقيك أذى اليأس وأخطار الخيبة
الشخصية القوية الواضحة كالفكرة القوية لا تزيدها المقاومة إلا رسوخاً وظهور معالم منتهى الشك بدء اليقين.
الطفولة أسعد أوقات الحياة لأنها الدور الأوحد الذي يستطاع العيش فيه للحاضر دون الآتي أو الغابر من الزمن.
تظلم الثعلب إذ تشبه بمكره رياء الناس. فهو يمكر ويختل تحت أقسى الظروف، وأشد الضرورة، أما أكثر الناس فيختلون ويمالئون ويراءون تترفاً وفي غير حاجة سوى حاجتهم إلى إظهار الصغار وهوان النفس.
حتى الصغائر تظهر صغيرة في صغار النفوس.
عند الاضطراب تتقارب صفات الخلق.
يبلغ من لؤم الطبع في بعض الناس أن يؤذوا الأصدقاء إذا وُجد بينهم أعداء يريدون لهم الأذى ولا يستطيعون أن يفردوهم لأذاهم من بين هؤلاء الأصدقاء.
لو أتيح أن يتساوى جميع الناس في الفضائل، لأضحت رزائلنا ضرباً من الامتياز يُرغب فيه ويُسعى إليه.
التوقح أشرف من الرياء، فهو على الأقل يدلُّ على الجرأة
عاد مشتركاً - إن أمكن - وصادق منفرداً.
الإقدام لا يكون شجاعة إلا مع تقدير الخطر.
كل شيء يخف أثره وقيمته إذا تكرر إلا التضحية.
من ضحى مرة وأعادها ثم أعادها، بعد إنكار لها، فمنزلته فوق منزلة البشر.
أعط بعض ذاتك تعط كل ذاتك.
أديب عباسي
رِسَالَة الشَّعر
مختارات من أدب الرافعي
على جسر كفر الزيات كان للرافعي في صدر شبابه مغدى)
ومراح ومن عيون الملاح على هذا الجسر تفتحت زهرة شبابه
للحب؛ و (العصفورة) التي ينسب بها الرافعي في القصيدة
التالية فتاة من بنات كفر الزيات لقيها على الجسر فهفا إليها
قلبه وتحرك لها خاطره، وهي كانت أول هواه، وعمره يومئذ
(اثنتان وعشرون سنة
محمد سعيد العريان
عصافير يحسبْن القلوبَ من الحَبِّ ... فَمَن لي بها (عصفورةً) لقطت قلبي

وطارت فلما خافت العينُ فَوْتَهَاَ ... أذالت لها حبّاً من اللؤلؤ الرطبِ
فياليتني طير أُجاوز عُشَّها ... فيُوحشَها بُعدي ويؤنسَها قربي!
وياليتها قد عشَّشتْ في جوانبي ... تُغرِّد في جنب وتمرح في جنب
ألا يا عصافير الرُّبى قد عشقتُها ... فهُبِّي أعلمْك الهوى والبكا هُبَّي
أعلمُك النَّوح الذي لو سمعْتِه ... رثيتِ لأهل الحب من شغف الحب
خذي في جناحيك الهوى من جوانحي ... ورُوحي برُوحي لَّلتي أخذت لُبَّي
نظرتُ إليها نظرةً فتوجَّعت ... وتَنَّيْتُ بالأخرى برُوحي فدارت رَحَى الحرب!
فمِن لحظة يَرمي بها حدّ لحظةً ... كما التحم السيفان عضباً على عضب
ومن نظرة ترتدّ من وجه نظرة ... كما انقلب الرُّمحان كعباً إلى كعب
فساقت لعيني عينُها أيَّ أسهم ... قذفن بقلبي كلَّ هول من الرعب
وساق لسمعي صدرها كلَّ زفرة ... أقرَّت بصدري كل شيء من الكرب
ودارت بيَ الألحاظ من كل جانب ... فمنهن في سلْبي ومنهن في نهبي
فقلت: خُدِعْنا، إنها الحرب خدعة ... وهوَّنَ خطبي أن أسْرَ الهوى خطبي
فقالت: إذا لم تنجُ نفسٌ من الردى ... فحسبك أن تهوى فقلت لها: حسبي
ولي العذر إمّا لامني فيكِ لائم ... فأكبر ذنبي أن حبَّك من ذنبي
ويا من سمعتم بالهوى، إنما الهوى ... دمٌ ودمٌ: ها ذاك يصبو وذا يُصْبى
متى أئتلفا ذَلاًّ وَدَلاًّ تَعَاشُقاً ... وإلا فما في رونق الحسن ما يَسبي
سَلوني أنبئْكم، فلم يدرِ ما الهوى ... سواي، ولا في الناس مثليَ من صَبّ
إذا شعراء الصّيد عُدُّوا فإنني ... لَشَاعرُ هذا الحسن في العُجْمِ والعُرب
وإن أنا ناجيتُ القلوب تمايلتْ ... بها نسماتُ الشعر قلباً عَلى قلب
وبي مَن إذا شاءتْ وصفتُ جمالهَا ... فوالله لا يبقَى فؤادٌ بلا حُب!!
من الغيد، أما دَلُّها فملاحةٌ ... وأما عذابي فهو من ريقها العذبِ
ولم يُبقِ منها عُجْبُها غيرَ خطرةٍ ... ولا هي أبقتْ للحسان مَن العُجب
عرضْتُ لها بين التذلُّل والرضا ... وقد وقفتْ بين التدلُّل والعَتْب
وأبصرتُ أمثال الدُّمَى يكتنفها ... فقلت: أهذي الشُّهب أم شبه الشهب؟
فما زال يَهدي ناظري نورُ وجهِها ... كما نظر المَلاَّحُ في نجمة القطب
وقد رُحْنَ أسراباً وخِفْتُ وشاتَها ... فعيني في سرب وقلبيَ في سرب
وقالت: تجلَّدْ. قلت: يا ميَّ سائلي ... عن الحزن يعقوبا ويوسفَ في الجب
وما إن أرى الأحباب إلا ودائعاً ... تُرَدُّ، فإما بالرضاء أو الغصب.!

سنة 1902

مصطفى صادق الرافعي

في هدأة الليل

قيثارتي. . .

(كأنما قلبي في خفقة ... فراشة أنت لها المشعل)

الكَونُ سّاجٍ، وَالدُّجَى مُسْبَلُ ... وَالبَدْرُ فِي هَالتِهِ يَرْفُلُ
والليْلُ كاليَمِّ بَعِيدُ المَدَى ... لا آخِرٌ يُرجَى وَلا أَوَّلُ
ونَسْمَةُ الأَمَوَاجِ خَفَّاقَةٌ. . ... حَيْرى فَلاَ قَصْدٌ وَلا مَوْئِلُ
رَخِيَّةُ الأَنْمُلِ في مَسِّها ... كأَنَّهَا فِي لِينهَا المَحْمَلُ
وَالنَجْمُ وَهْنَانُ السَنَا رَاجِفٌ ... وَالطَّيْرُ مَعقُودُ اللُّهَا مُجْفِلُ
فَسَلْسِلِي الأَنْغَامَ في هَيْنِةٍ ... كما سَرَى في الْجَدْوَلِ السلسَلُ
وَرَقْرِقِي الأَلْحَانَ نَثْمَلْ بِهَا ... فَمِنْ رَقِيقِ اللحْنِ مَا يُثْمِلُ
أَغْفَتْ لِحَاظُ الكَونِ مِنْ حَوْلِنا ... وَغَابَ في أَغْصَانِهِ البُلْبُلُ
وَأَسْبَلَ الجَفْنَ بَنَانُ الكَرَى ... وَأَسْدَلَ السُّجْفَ الدُجَى المُسْدِلُ
وَعُدْتُ فِي اللَيْلِ وقيثَارَتي ... تُرَجِّعُ اللحْنَ وتَسْتَرْسِلُ
لَحنٌ كما الحُلْمُ رَفِيف الرُؤَى ... يَحْفِلُ بالآمَالِ ما يَحْفلُ
قَدْ فاضَ في قَلْبِي فأَحْيَا بِهِ ... مَا كادَ مِنْ نَضْرِ المِنى يَرْحَلُ
كأَنما أَوْتَارُهَا جَدْوَلٌ ... يَنْهَلُ مِنْهُ الرَّوْضُ مَا يَنْهَلُ
رُوحِي عَلَى صَفاّتِهِ نَبتةٌ ... حَيَاتها فِي رَوضْهَا الْجدْوَلُ
كَمْ تُسْكِرُ النَّفْسَ أَرَانِينُهَا ... وَيَسْتَخِفُّ القَلْبَ مَا يُذْهلُ

كأَنَّمَا أَلْحَانُهَا نَسْمَةٌ. . ... تَرُحُ بَينَ الزهْرِ أَوْ تُقْبِلُ
وَالقَلْبُ في هَبَّاتِهَا زَهْرَةٌ ... تُرْسِلُهَا الأَنْسَامُ مَا تُرْسِلُ
يا أَيُّهَا القَلْبُ إِلاَمَ الأَسَى ... والكَوْنُ صَافٍ حَوْلَنَا يَجْذَلُ
أَذْبَلتنِي مِنْ طُولِ ذَاكَ الضَّنَى ... وَالزهْرُ أَنْ طَالَ المدَى يَذْبُلُ
فَدَعْ أَسَى الدُّنْيَا وَآلامَهَا ... واطْرَحْ مِنَ الأَشْجَانِ مَا يُثْقِلُ
حُثَّ الْخُطَي وانْعَمْ بِصَفْوِ الصِّبَا ... فالْعُمْرُ يَحْبُو، والصِّبَا يأفِلُ
مَا خَلْفَ العُمرِ إلاَّ الرَّدَى ... نِهَايَةُ السُّنْبُلةِ المِنْجَلُ
قينَارَتِي هُزِّي الدُّنَا نَشْوَةً ... كما تَهُزُّ السُّنْبُلَ الشَّمأَلُ
كأَنَما قَلْبَي في خَفْقِهِ ... فَرَاشَةٌ أَنْتِ لَهَا المِشعَلُ
إن أَبْقَتْ الدُّنْيَا لَهُ مَأْمَلاً ... فأَنْتِ سُؤْلُ وَالمأَمَلُ
فَسَلْسِلِي الأَنْغَامَ في هَيْنَةٍ ... كما سَرَى في الْجَدوَل السلْسَلُ
وَرَقْرِقي الأَلْحَانَ نَثْملْ بِهاَ ... فمِنْ رَقيقِ اللحنِ مَا يُثْملُ
إسكندرية
احمد فتحي مرسي
حمامة الموكب
لا والذي علم الغيوب وصانها ... لا أدعي علماً بأي مغيب //
لكن فطنت إلى دقائق حاضري ... فنظرت للآتي بعين مجرب
إن الحمامة فوق ركب مليكنا ... روح النبي محمد في الموكب
هذي مبايعة بسرٍ ما انجلى ... وسينجلي في لمحة أو أقرب
ركن الخلافة لن يظل معطلاً ... تاج الخليفة بين أجنحة النبي
واهاً لكم يا آل مصر رأيتمو ... روح الرسول على الفناء الأرحب
هبطت على القصر المنيف بسحره ... ميمونة يوم الخميس الأطيب
ورأت خليفتها لدى استيقاظه ... في الفجر نعم المجتَبى والمجتِبي
ولى المتوج وجهه مستقبلاً ... بيت الإله بعزة وتهيب
ذرعت له أفق السموات العلا ... لتراه يوم حلوله في المنصب
لترى معزاً دينها ومجدداً ... سلطانها ومعيد عزة يعرب
وافرحة الورقاء لما شاهدت ... تقوى الإله وعزة المتربب
أمنت على القسم العظيم وليه ... وحبته سر طريقها والمذهب
وافرحة الفاروق بالروح التي ... نزلت على أهل لديه ومرحب
فاروق يا مولاي إن إشارة ... أغنت لديك عن المقال المسهب
المشرق الأقصى رنا إسلامه ... شوقاً إلى مصر وأقصى المغرب
يرجو إمامتها وأنت إمامها ... أيذاد عندك ظامئ عن مشرب
عبد اللطيف النشار
القَصَصُ
مهر الوظيفة
للأديب نجيب محفوظ
كانوا أربعة فتيان، جمعتهم في البدء نشأة الصبا على ما بين القصور الشماء والبيوت البسيطة من تفاوت ونفرة، وآخت بينهم زمالة الدراسة الطويلة ما بين ابتدائية وثانوية وجامعية، وأغراهم بالطموح إلى المجد اجتهاد عظيم وعزم متوثب ونجاح مؤازر لم يخنهم عاماً من الأعوام حتى غدوا تملأهم الثقة ويلهب قلوبهم الحماس.
وذكروا في حياتهم الدراسية العالية مثالاً لهم شرذمة من رجال مصر نشأوا على الإخاء نشأتهم، وتزاملوا في الدراسة زمالتهم. ثم كان منهم الوزير الخطير والمالي الكبير والفيلسوف الحكيم والمشرع العبقري، جعلوهم نبراساً منيراً بهداه يهتدون، ومن قوته يستمدون، وبعظمته يرجون ويأملون، ولم تقصر أخيلّتهم عن التوفيق والابداع، فربط كل منهم نفسه بواحد من هؤلاء العظام أما لصفة ظاهرة أو سجية غالبة أو خلق معروف.
فلما أن حصلوا على ليسانس الحقوق ووضعوا أول قدم في طريق الحياة العملية الجديدة انتظر كل منهم نصيبه داعياً أن يجد فيه ما يحقق أحلامه ويؤدي إلى هذه الحياة التي سعى إليها طويلاً وبذل النفس كي يحقق مثلها الأعلى، وما كانت الوزارة

. . .لدى الزميل منهم إلا بعض أحلامه
وفي الفترة التي أعقبت ظهور النتيجة ارتحل اثنان من الأربعة - وهما الثريان - إلى المصايف كعادتهما كل عام، وسافر واحد من الاثنين الباقيين إلى كفر الشيخ مسقط رأسه، وبقي في القاهرة (الأستاذ) جودة وهو شاب بسيط الحال من أسرة فقيرة في الصيت والرجال، عميدها موظف صغير بالبريد جاوز الخمسين ولم يجاوز مرتبه خمسة عشر جنيهاً، ولم ين الشاب عن السعي فحرر عدة طلبات استخدام وأرسلها إلى وزارة الحقانية وأقلام القضايا في الوزارات المختلفة، وكان طيب القلب قليل الخبرة فانتظر على شيء من الأمل والاستبشار، وفات يوم ويومان وأسبوع وأسبوعان، وشهر وشهران ولم يلق رداً أو يرى في الأفق بشيراً من الأمل، فراجع نفسه في تفاؤله وتلفت يمنة ويسرة فلم يجد من يهتم لشأنه سوى أبيه العجوز الضعيف الذي لا يملك له ضراً ولا نفعاً.
وعلى غير انتظار زاره صديقه رشدي ففرح به أيما فرح وكان في أشد الحاجة إلى من يبادله الرأي ويبثه الشكوى ويتقبل منه العزاء، فبادره سائلاً: (أراجع أنت من كفر الشيخ. . .؟)
فرد عليه الشاب وهو يتنهد:
أي كفر الشيخ يا رجل. . . لقد كنت تلك الشهور التي غبتها عنك كالرحالة أجوب) البلدان وأزور الرجال وأتسقط الرزق. . . والآن ما أخبارك أنت. . .؟)
لا شيء مطلقاً سوى أني سعيت للتوظف وعدت من مسعاي بالخيبة. . . هل من) أخبار عن صديقنا حامد وإبراهيم؟)
(. .أخبار سعيدة والحمد لله. . . هما الآن موظفان بالحكومة المصرية)
(مبارك حظهما. . . ولكن كيف حدث هذا. . .؟)
كيف حدث هذا؟ أتحسب أن حامداً يشقى في طلب وظيفة وأبوه مستشار في) محكمة النقض والإبرام؟ لقد كان تعيينه بالنيابة العمومية أمراً مفروغاً منه من يوم أن التحق بالكلية)
حسن. . وإبراهيم؟ نعم إن إبراهيم غني ولكن أهله فلاحون وليسوا من ذوي المناصب) الحكومية. . .)
المال أبو الخوارق، وإبراهيم شاب جسور، أفتعلم ماذا صنع. . . ذهب إلى وكيل وزارة) الخارجية وهو من بني بلدته، وطلب يد ابنته ومهرها ألف جنيه. . . ولما كانت هذه الفتاة من ذوات الأمزجة الرقيقة اللاتي لا يجوز أن يمضين شهر العسل في مصر فعما قريب سنذهب جميعاً لتوديع صديقنا العزيز وهو في طريقه إلى السفارة المصرية بروما. . .)
فبدت الدهشة على وجه الشاب وتساءل:
وما الذي زكاه - وهو شاب ناشئ - فطاب في عيني هذا الرجل الخطير. . . ومثل ابنته يتنافس فيها خيرة الموظفين الممتازين. .؟
ما فائدة التساؤل؟ هب أنها عاطل من الجمال. . . أو أن رشاشاً يبلل سمعتها. . أو. .) أو. . . فما يهمني سوى رواية ما عندي من الأخبار.)
وصمتا لحظة جامدين خلا فيها كل منهما إلى أفكاره ثم نظر الشاب إلى رشدي وقال:
ها إن الصديقين يرسمان الخطوة الأولى في الطريق المؤدي إلى المجد ولا يبعد أن) يحققا مرة أخرى المثل الأعلى الذي سبق أن حققه الباشوان اللذان كان الصديقان يترسمان شخصيتيهما)
فأحنى الأستاذ رشدي رأسه مؤمناً فعاد الآخر إلى سؤاله بعد تردد:
(وأنت. . .؟)
أما أنا فقد سعيت كما سعيت وأغلقت الأبواب في وجهي كما أغلقت في وجهك) ولكني لم أسلم للخيبة كما سلمت لها، ففي ميدان المحاماة متسع لجميع ذوي العزائم والهمم، والمحاماة ميدان تبرز فيه ملكات الرجال ومزاياهم، فلا ينبغ فيها إلا كل عبقري جبار؛ وما أجدرها أن تبلغ بي ما تتمنى نفسي من المثل الأعلى. .)
هذا جميل، ولكنه لا يستطيع أن يحتذي حذو رشدي ولا أن يأمِل آماله، فآل رشدي على شيء من الثراء يمكنهم من أن يؤيدوا الشاب حتى يقف على قدميه، أما هو فلا يمكن أن يطالب أباه بشيء من هذا، لأنه يعلم علم اليقين أنه شيخ فقير. وأنه يربي خمسة

من البنات والبنين، فما عسى أن يصنع. . .؟
لقد أظلمت الدنيا في عينيه وذوت أزاهر آماله اليانعة وبات يذكر أحلامه عن المجد والوزارة بالاستهزاء المرير والسخرية الأليمة، وداخله شعور قوي بتفاهته وتفاهة الدنيا وأحلامها ومسراتها، فعاش زمناً في ظلمة أشد حلكة من ظلام القبور.
وبعد حين زاره فجأة الأستاذ رشدي، وكان في هذه المرة منشرح الصدر جذلاً مسروراً فبادره بقوله: -
قل معي يا بشري. . . لقد اهتديت إلى كنز ثمين. . . فأصبت منه حظاً وأرجو أن تنال) منه مثل حظي. . .)
فنظر إليه نظرة المريض المشرف على الهلاك إلى طبيبه.
فاستطرد رشدي قائلا:
لن تغرب شمس الغد علي حتى أكون من الموظفين. . من أعضاء النيابة) العمومية. . .)
(مبارك. . .)
أرجو أن أهنئك بدوري عما قريب. . والآن أصغ إلي فإني أعلم أنك تتلهف إلى معرفة) حقيقة المسألة. هو مكتب للمعاملات المالية في الطابق الخامس من عمارة رقم 85 شارع
سليمان باشا مديره رجل في الأربعين حنكته الأيام والتجارب ففاق الفلاسفة فهماً للنفوس والرجال، يعرفه جميع الماليين وكبار الموظفين لأنه يقرض النقود بأرباح هادئة. وقد غدا بحكم اتصاله بكبار رجال الدولة من زبائنه ذا نفوذ عظيم له ظاهر يعلمه الناس جميعاً وباطن يعلمه هو وهم وأمثالنا من ذوي الحاجات. . هلم أدلك على قريب لي من أصدقائه المقربين، خاطبه في أمرك فان رأى أن شروطك ملائمة كان واسطتك إليه، وثق يا صديقي أنه إذا كتب لسعيك لديه النجاح فانك لا شك غداً من موظفي الحكومة الممتازين)
وفي عصر ذلك اليوم كان عند قريب الأستاذ رشدي. . . وقد قدمه إليه صديقه فلقي منه ترحيبا شد عزيمته وأنعش أمله، قال له الرجل بعدما بسط له مسألته:
(أذكر لي الوظائف التي ترغب في الالتحاق بإحداها)
فأجابه جودة:
(. . .النيابة العمومية. . . قلم القضايا. . . السفارات أو القنصليات)
(أوه. . . إنك تنظر إلى علُ. . . فما هي مؤهلاتك. . .؟)
(ليسانس الحقوق)
شهادة في ذاتها مبجلة. . . ولكن ليس العبرة بالشهادات. . . هل لك أقارب من ذوي) المناصب. . .؟)
فضحك الشاب وقال:
(. . .لو كان لي ما سعيت إليك)
حسن. . . من يطلب ثميناً فليدفع ثميناً. . . إلا أني أرجو أن تذكر أنه ما أنا إلا واسطة) نزيهة، وإني إن مددت لك يدا فلأنك صديق رشدي ولأنه حدثني عنك بما جعلني أقدرك وأعطف عليك. . . والآن أسمح لي أن أعرض عليك الوسائل التي قد تبلغ بك إلى غايتك المقصودة، وما علّي جناح إن لم يصادف بعضها هواك لم يستحق احترامك فعلي العرض وعليك الاختيار. . .)
فأحنى الشاب رأسه أن نعم؛ فاستطرد الرجل همسا:
النساء من أنجع الوسائل تحقيقاً للغرض. . . أم جميلة. . . أخت شابة. . . زوج) ظريفة. . . أرى وجهك تحتقن فيه الدماء. . وتلتهمه سورة الغضب، حسن فلندع هذه الوسيلة. . .)
(. . .نعم. . . نعم)
وسيلة أخرى شريفة جداً. . . الزواج. . . ولكنه ليس زواجا بهذه الفتاة أو تلك. . .) وإنما هو طلب الانضواء تحت لواء اسم كبير. . . أو أسرة عتيدة. . .)
فانبسطت أسارير وجه الشاب وخفق قلبه من نشوة الأمل وصاح:
(. . .هذا علي هين)
لا تتسرع فليس الأمر كما تظن. . . فشهادتك لا تكفي. . . هذه الأسر تهمها المحافظة) على المظاهر. . . وصون اسمها عن انتقادات الصالونات ما أمكن. . . فمهر كبير

(. . .يخرس الألسن ويدعم أي ادعاء وإن بعد عن الحقيقة
- :فعاوده اليأس واستشعر الخيبة مرة أخرى وقال
(. .فلألحق بوظيفة. . . وليدعوا لي فرصة حتى اقتصد من مرتبي وأفي بوعدي
(وما الداعي لرهان غير مضمون. . . والزبائن النافعون غيرك غير قليلين. .؟)
(. . .إذاً هات وسيلة أخرى
(وا سفاه إنها لا تكاد تختلف عن هذه إلا في الاسم. .: هي المال
(وكم ينبغي أن أدفع؟)
(. . .مهر الوظائف التي تطلب من الألف فصاعدا
الألف. . . إن والده لم يربح من الحكومة طوال عمره بها ضعف هذا المبلغ فكيف يأتي به في ساعة من الزمن؟ أواه. . . إن اليأس ينشب فيه أظافره فيستقر في قلبه. . . ولكن التمعت في ذهنه فكرة فصاح:
(لم لا يقرضني صاحبك المرابي المبلغ الذي يريد ويكتب علي صكا أسدده فيما بعد من مرتبي؟)
فكرة حسنة، ولكنه رجل مرت به جميع التجارب وهو يرفض عادة أن يقرض مبالغ ضخمة لغير ذوي المراكز المالية المضمونة، ولكنه قد لا يرى بأساً من كتابة صكوك وهمية كهذه بمبالغ صغيرة. . . مائة جنيه أو مائتين لمن يرغب في وظيفة كتابية مثلا. .)
وظيفة كتابية؟ أين هذه من المجد والوزارة ومَثَله الباشا العظيم؟
ولكن ما باليد حيلة وقد سدت في وجهه الطرق وأظلمت الدنيا في عينيه فينبغي أن يغض عن الآمال العالية ولو إلى حين ريثما يبحث عن كسرة الخبز أولا، ومن يعلم فقد تتمخض البداية الصغيرة عن نهاية عظيمة؛ فكم من الوزراء بدءوا كتبة في المحاكم المقبورة في أقاصي الصعيد.
وهكذا اضطر إلى أن يحول قلبه عن محركات الدولة الكبرى إلى آلاتها الصغرى الميكانيكية التي تتحرك ولا تدري لم تتحرك أو كيف تتحرك.
وأصبح ذات يوم فوجد نفسه في حجرة واسعة تتزاحم فيها المكاتب الهرمة يقعد وراءها قوم خيل إليه - لجمودهم وتفاهتهم - أنهم قطعة من بنيانها المتهدم.
المركز صغير. . والمرتب ضئيل. . ترى هل ينتظر طويلا كي يضخم هذا المرتب أو يعلو هذا المركز؟ واقترب برأسه من زميل له وسأله همساً:
(ما موعد علاوتي المقبلة؟)
فنظر إليه الرجل دهشاً ورد عليه بصوت مسموع رنان:
(يحل موعد علاوتك - ومقدارها جنيه واحد - بعد أربع سنوات بصفة اسمية تصير فعلية بعد سنة فالمدة كلها خمس سنوات. . .)
ولفتت إجابة الرجل انتباه الحاضرين فعرفوا بداهة السؤال الذي اقتضى هذه الإجابة فلم يملكوا أنفسهم من الضحك. . . ومن حقهم أن يضحكوا من هذا الشاب الذي يسأل عن موعد علاوته ولما يمض عليه في العمل أسبوع، وقال له واحد منهم:
(ستعلمك هذه الوظيفة أن تستهين بمتع فترة من عمرك وهي الشباب. . . فتستحث كل يوم - من أجل جنيه واحد - خمس سنوات من العمر اليانع أن تفوت وتنطوي. . .!)
نجيب محفوظ
البَريدُ الأدَبيّ
دولة الأدب والعهد الجديد
يحق لدولة الأدب أن تتطلع إلى العهد الجديد، عهد الملك الفتي فاروق الأول، وأن تؤمل أن تجتني من الرعاية والشباب والجدة ما يسبغ عليها قوة جديدة ويحملها إلى آفاق جديدة أوسع وأعظم من آفاقها الحاضرة، وقد كنا وما زلنا نؤمل أن تفتتح الهيئات الرسمية والعلمية العهد الجديد بطائفة من المشاريع العلمية والأدبية الجليلة؛ ومن بواعث الأسف أن الجهات الرسمية لم تفطن إلى أهمية هذه المناسبة السعيدة وكونها من أصلح الظروف لوضع المشاريع الأدبية وترتيب الجوائز العلمية والأدبية، وقد رأينا الأمم الأوربية تتخذ هذه المناسبات لتنظيم الرعاية الأدبية وتنظيم المشاريع والجوائز العلمية الجليلة، ورصد الاعتمادات والهبات لتشجيع الحركة الفكرية وتشجيع الكتاب والمفكرين، وافتتاح العهد الجديد بنوع من الحملة الأدبية والعلمية تسبغ على الحركة

الفكرية حياة جديدة. أما في مصر فقد مرت هذه المناسبة الجليلة، مناسبة تتويج الملك الشاب وافتتاح عهده الغض الجديد دون أن تحظى الحركة الأدبية من جهاتنا الرسمية والعلمية بما كان خليقاً أن تحظى به من المشاريع والجوائز؛ ولم يفطن إلى هذه المناسبة سوى دار الكتب المصرية إذ رتبت عدة جوائز أدبية من الكتب للمتفوقين من الطلاب؛ وهذا الإجراء على ما ينطوي عليه من معنى مشكور إنما هو إجراء متواضع كنا نود أن يصدر مثله مضاعفاً من هيئاتنا الرسمية العلمية؛ وقد كان خليقاً بوزارة المعارف العمومية والجامعة المصرية والأزهر ومجمع اللغة أن تنظم جميعاً مشاريع وجوائز علمية تعلن في مفتتح العهد الجديد وتكون عنوان عصر جديد من الأحياء العلمي والأدبي ولكنها جميعاً غفلت عن هذه الفكرة الجليلة. على أن الوقت ما زال متسعاً للتفكير والعمل؛ وما زلنا نؤمل أن تنتهز هيئاتنا العلمية هذه الفرصة لتعمل على شد أزر الحركة الأدبية بصورة عملية؛ وإذا كانت الحركة الأدبية قد حققت لنفسها في العصر الأخير تقدماً يبعث إلى الفخر والرضى، فقد كانت في ذلك مستقلة تعمل من تلقاء نفسها، ولو حظيت بقسط من الرعاية الرسمية لكان تقدمها مضاعفاً، فهل نظفر في العهد الجديد بمثل هذه الرعاية الكريمة؟ هذا ما نرجو، وهذا ما ندعو إليه.

آثار للشاعرة سافو بمصر

عثر أحد علماء الآثار الإيطاليين وهو السنيور بريشا والسيدة ليديا نورسا أثناء مباحثهما في مصر عن الآثار الخزفية القديمة على قطعة من الخزف ترجع إلى القرن الثاني من الميلاد، وقد نقشت عليها ثمانية عشر سطراً من نظم الشاعرة اليونانية الشهيرة (سافو)، وهي أول مقطوعات من نوعها وجدت لهذه الشاعرة وقد قام بترجمة هذه النقوش العلامة الإيطالي جو فريد كوبول، وظهر من تلاوتها أن الشاعرة قد كتبتها أثناء إقامتها بجزيرة أقريطش، وهي في ملخصها ترنم بمحاسن الطبيعة والأحراج الخضراء في تلك الجزيرة.

وسافو كما هو معروف أعظم شاعرة عرفت في التاريخ، وهي يونانية عاشت في أواخر القرن السابع وأوائل القرن السادس قبل الميلاد، وهي صاحبة أعظم وأجمل مقطوعات غنائية عرفتها دولة الشعر.

ومن الغريب أن تخرج هذه التحفة الأثرية من مصر؛ ومن الأسف ألا تجد السلطات المصرية وسيلة لمنع هذا السيل المتسرب من تحفنا وآثارنا.

مؤتمر للصيد تمثل فيه مصر

من أنباء برلين أنه سيعقد بها مؤتمر دولي عظيم للصيد في شهر نوفمبر القادم؛ وسيقام إلى جانبه معرض للصيد يكون أعظم ما عرف العالم من نوعه إذ سيغطي مساحة قدرها نحو عشرة أفدنة، وسيضم نماذج من آلات الصيد ومناظره المختلفة منذ فجر التاريخ إلى يومنا، وستشترك مصر في هذا المؤتمر، وترسل نماذج وصوراً من آثارها المتعلقة بالصيد عند الفراعنة لتعرض في هذا المعرض العظيم.

العيد المئوي لدار نشر عظيمة

احتفلت دار النشر الألمانية الشهيرة (تاوخنتز) بعيدها المئوي؛ ولعله لا يوجد بين مئات الملايين اللذين يقرءون الإنكليزية في مختلف أنحاء الأرض من لا يعرف مطبوعات هذه الدار الشهيرة التي اشتهرت بجمالها وأناقتها واعتدال أثمانها؛ وقد كان تأسيس هذه الدار في سنة 1837 على يد كرستيان برنهارد تاوخنتز، أسسها لتقوم بنشر مؤلفات الكتاب البريطانيين والأمريكيين وبالفعل لم تترك علماً من هؤلاء الكتاب اللذين يكتبون بالإنكليزية إلا نشرت جميع مؤلفاته في قطع جميل موحد، وتضمنت مطبوعاتها مؤلفات جميع كتاب

العصر الفكتوري مثل ليتون وتاكري وكارلايل ودكنز وكولنس وهاردي وكونان دويل وكابتن ماريات، وجميع الكتاب الأمريكيين مثل كوبر ومارك توين وبريت هارت وادجار بو وهاو تورن وغيرهم؛ وقد جرت الدار على أن تنشر مؤلفات الكاتب كلها في نفس القطع والشكل؛ وقد أخرجت حتى يومنا أربعين ألف مجلد و5260 كتاباً للمؤلفين الإنكليز والأمريكيين في القرن الماضي والقرن الحاضر.

ومن الغريب أن دار تاوخنتز كانت تنشر كتب المؤلفين دون استئذان ولكنها كانت ترسل إليهم بعض تعويضات عن حقوقهم وكان ذلك صنيعاً يحمد من جانبها لأنه لم يكن هناك في ذلك العصر تشريع دولي لحماية المؤلفين وحقوق التأليف، ولكن مطبوعات

تاوخنتز لم يكن يسمح بدخولها في إنكلترا ولا الأملاك البريطانية لاعتدائها على هذه الحقوق فيما يظهر، بيد أن السائح الإنكليزي يشتري منها خارج بلاده بكثرة، ويشتريها جميع اللذين يتكلمون الإنكليزية في مختلف البلاد. ويقدر أن قراءها من الإنكليز لا يزيدون على عشرين في المائة بينما يقدر قراؤها من أبناء الأمم الأخرى بنحو ثمانين في المائة.

وفي سنة 1934 بيعت حقوق أسرة تاوخنتز في النشر إلى دار نشر ألمانية أخرى في ليبزج هي دار أوسكار براندشتتر، وهي تقوم أيضاً بنشر المؤلفات الإنكليزية تحت عنوان معروف هو (مكتبة البتروس)

التاريخ السياسي المعاصر

صدر أخيراً بالإنكليزية كتاب عن التاريخ السياسي المعاصر عنوانه (العلاقات الدولية منذ معاهدة الصلح) لمؤلفه المؤرخ الأستاذ هنري كار وقد كان الأستاذ كار مدى أعوام طويلة، من كبار موظفي وزارة الخارجية البريطانية، وأتيحت له فرصة حسنة لدراسة العلاقات الدولية عن كثب ومراجعة المحفوظات والوثائق الهامة؛ وهو يقدم لنا في كتابه عرضاً موجزاً للحوادث والعلاقات الدولية منذ عقد معاهدات الصلح في سنة 1919 حتى سنة 1937، ومن رأيه أن معاهدة فرساي كانت وثيقة سيئة لم يحسن وضعها، لأنها قصدت في مجموعها إلى إذلال ألمانيا وانتهاز فرصة هزيمتها وضعفها إلى حدود أبعدت الشعب الألماني نهائياً عن أوربا الغربية وجعلت من المستحيل على الحلفاء السابقين أن يطمعوا في ولائه أو مصادقته، ثم يستعرض الأستاذ كار سياسة إيطاليا الفاشستية وألمانيا النازية في النمسا وأوربا الوسطى، وأن ما يجمع بين السياستين هو عاطفة السخط على الدول التي استغلت ظفر الحرب واستولت على جميع الثمار والأسلاب، ولكن هذه الجامعة السلبية ينقصها كثير من عناصر الوئام والتناسق. وكتاب الأستاذ كار على العموم سجل بديع لتاريخ الدبلوماسية الأوربية منذ خاتمة الحرب الكبرى إلى يومنا.

الحب والشعراء

قرأت المقال الطريف (في الحب أيضاً) للأستاذ الأديب إبراهيم عبد القادر المازني في الرسالة عدد 208 حتى وصلت إلى قوله: (وخليق بالمرء وهو ينظر إلى هذه الفتنة المجتمعة، أن تدركه الحيرة، وأن يزوغ بصره، فلا يعود يدري أي هؤلاء الجميلات أولى بحبه، فإن لكل جسم فتنة، ولكل محيا سحره، ولو أني وقفت على البحر لكان الأرجح أن أحب هؤلاء جميعاً، جملة، وأن أشتهي أن أضمهن كلهن في عناق واحد فإن الظلم قبيح. ونفسي لا تطاوعني على غمط الجمال في أية صورة من صوره. ومن يدري لعل القدرة على إدراك معاني الجمال في مظاهره المختلفة هي التي وقتني الحب، ومنعت أن أعشق واحدة على الخصوص وأجن بها) الخ

وهنا رأيت أن روح التصوف قد حلت في الأستاذ من غير أن يعرفها، أو يعرفها ولا يريد أن يتظاهر بها. فإنه بين الصوفية من يقول: (همه أوست) أي كل شيء هو؛ ويرى أن الله روح سائر في الكون. فكل شيء فيه مظهر من مظاهر جماله تعالى. لذلك لا وجود للقبح عندهم بل كل شيء حسن في ذاته. وهؤلاء غير من يقول (همه أزوست) أي كل شيء منه. فهم لا يقولون كقولهم إن الله روح سائر في الكون، بل إنه تعالى مصدر لوجود الكون، وإن كل شيء في الكون وميض جمال قدرته وشعاع كمال صنعه؛ وعلى هذا فلا وجود للقبح بالنسبة إلى قدرته تعالى وصنعه

ولكن هؤلاء الصوفية مع تلك العقيدة لم يضنوا بقلوبهم على فرد خاص من أفراد الجمال الكثيرة في هذا العالم كما يضن الأستاذ بقلبه. فإننا كلما تتبعنا حوادث حياتهم ودرسنا سيرتهم وجدنا أن قلب كل منهم تقريباً علق بفرد خاص من أولئك الأفراد وأصبح فيما بعد دليلاً لسموهم النفسي، وسبباً لتقدمهم الروحاني

بقى ما هو الحب؟ فينظر الأستاذ إليه نظرة المتشائم ويقول إنه مرض، وينسب ما أتصف به الحب من المزايا والمحاسن في الشعر والأدب إلى الشعراء ومبالغتهم فيه. فكأن الشعراء هم اللذين وصفوا هذا المرض المستحق للذم بالأوصاف والمزايا تفاؤلاً فيه، وإلا فهو نفسه لم يكن خليقاً بها. لذلك ختم الأستاذ مقاله بالدعاء على الشعر والشعراء. ولكننا نقول للأستاذ ألا يبادر في الدعاء عليهم فإن للتشاؤم وجوداً في كل

مكان مهما كان مصدره، سواء أكان خيبة أمل، أم كبر السن، أم فساد الطبع. فبين الشعراء أيضاً من يرى رأي الأستاذ. قال الشاعر الفارسي:
جنين قحط سال شداندر دمشق
كه ياران فراموش كردند عشق
اشتدت المجاعة في دمشق إلى درجة أن نسى الناس العشق.
وقال الآخر: أين نه عشق أست آنكه در مردم بود
أين بلا أزخوردن كند بود
إن العشق الذي يوجد في الإنسان لا أصل له فأن هذا البلاء يوجد من أكل القمح.
السيد أبو النصر أحمد الحسيني الهندي
القسام والقسامة، السمحة
قال الأستاذ فكري أباظة: (لماذا لا يستعمل الناس هذا اللفظ الجميل البليغ - يعني الكسم - ولا أعلم ما رأى مجمع اللغة العربية في فصاحته ودقته وروعته)
قلت: هذا (الكسم) العامي هو القسام والقسامة محرفين ناقصين ففي (التاج والأساس): (قسم قسامة والمقسم والقسيم: الجميل معطي كل شيء منه قسمة من الحسن فهو متناسب كما قيل متناصف. ورجل قسيم وسيم بين القسامة والقسام)
ومن استثقل (القاف الثقيلة) لفظها سعدية زغلولية أو محمودية رازقية (نسبة إلى محمود باشا عبد الرزاق رحمة الله عليه) أو علوية وقراءة جماعة منهم في القرآن بها - كما قال ابن خلدون - وهي متوارثة فيهم، ويرون أنها الصحيحة المضرية. وقاف الجماعة هي بين القاف والكاف
وما دمت في ألفاظ. . . فأقول: إني وجدت في هذا الشهر العربي في جريدة ومجلة وكتاب
هذه الكلمة غير الصحيحة: (السمحاء) وهي لفظة لا توجد في الأرض ولا في السماء، وإنما هي (السمحة) أي السهلة كما في (النهاية) والحنيفية السمحة هي الملة التي ما فيها ضيق ولا شدة كما في (اللسان والتاج) فهناك السمح والسمحة لا الأسمح ولا السمحاء. والحديث المشهور الذي رواه الخطيب عن جابر هو: (بعثت بالحنيفية السمحة، ومن خالف سنتي فليس مني) وهو من الأحاديث الضعيفة كما في (الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير)
للحافظ الأسيوطي
قارئ
رسالة النقد
نقد كتاب إحياء النحو
تأليف الأستاذ إبراهيم مصطفى
للأستاذ أحمد أحمد بدوي
- 1 -
لا ريب في أن نحو اللغة العربية ثقيل عسير، يحتاج إلى كثير من التهذيب والتبويب؛ ليصبح سهل المأخذ، قريباً إلى النفوس، محبباً إليها درسه وفهم قواعده وأصوله ولقد أخذت كتاب إحياء النحو، راجياً أن أجد فيه - كما يدل عنوانه - روحا جديدة تبعث في النحو الحياة، أو فكرة حديثة تذلل صعبه، وتجمع ما تشتت من أبوابه ومسائله، وهاأنذا، بعد القراءة، أبين رأيي في الكتاب، بالصراحة التي يتطلبها العلم، وبالأدلة التي لا تدع مجالاً للشك، آملا أن أكون قد وفيت بحق النقد البريء
وسوف أنهج في بحثي النهج الذي اتبعه المؤلف، فأذكر النتائج التي وصلت إليها بعد القراءة، ثم أتحدث بالتفصيل عن الأسباب التي أدت إليها، ويؤلمني أن تكون النتائج هي:
أولاً: أن الكتاب ليس فيه شيء جديد
ثانياً: أن الكتاب لم يحدث في دراسة النحو، أو كتبه، أو قواعده أي تغيير أو تبديل
ثالثاً: أن ما في الكتاب ليس إلا تعليلات كهذه التعليلات التي يستنبطها النحاة لشرح ما بين أيديهم، مما وقع في كلام العرب، وإنك لواجد مثل هذه التعليلات التي جاء بها المؤلف، وأكثر منها في الحواشي والتقارير

رابعاً: أن المؤلف ادعى على النحاة قضايا غير ممحصة
خامساً: أنه في الأبواب القليلة التي أراد ضم بعضها إلى بعض يزيد النحو عسراً، لا سهولة وفهماً، فضلاً عن أنه لم ينجح في هذا الضم
وسآخذ الآن في مناقشة آرائه، وتفصيل القول فيها:
تعريف النحو
يأخذ المؤلف على النحاة، أنهم يعرفون النحو بأنه علم يعرف به أحوال أواخر الكلم إعراباً
وبناء؛ وهم لذلك قد ضيقوا دائرته تضييقاً شديداً، ويجب (في رأيه) أن تتسع هذه الدائرة، حتى يصبح النحو قانون تأليف الكلام، وبيان كل ما يجب أن تكون عليه الكلمة في الجملة، والجملة مع الجمل، حتى تتسق العبارة، ويمكن أن تؤدي معناها
وليسمح لي الأستاذ المؤلف أن أخبره بأن هذا التعريف غامض الغموض كله، فبيان كل ما يجب أن تكون عليه الكلمة في الجملة قول عام مبهم، يشمل بيان أن تكون هذه الكلمة مستعملة في معناها الحقيقي، أو غير مستعملة، قصد بها السجع مع كلمة أخرى أو لم يقصد، رمي بها إلى طباق أو تورية أو جناس، أو لم يُرَمَ بها، إلى غير ذلك، وعلى هذا يشمل تعريف النحو علوم اللغة العربية كلها. لأنها جميعاً ما وضعت إلا لبيان كلّ ما يجب أن تكون عليه الكلمة في الجملة؛ ثم قسمت وأصبح لكل علم اختصاص خاص؛ ولا احسبني في حاجة إلى أن أحدث الأستاذ عن اختصاص علم المعاني وعلم البيان وعلم البديع، التي ترمي جميعها مع علم النحو، كما قلت، إلى بيان ما يجب أن تكون عليه الكلمة في الجملة؛ ولا أخال المؤلف يريد أن يجعل علم النحو عاماً شاملاً يضمّ تحت جناحيه علوم العربية كلها.
ولكن يظهر أن المؤلف (وتعريفه لعلم النحو غير محددّ ولا واضح كما قلت) يرمي بكل ما يجب أن تكون عليه الكلمة في الجملة إلى وصف حالها من تقديم أو تأخير أو نفي أو إثبات أو تأكيد أو استفهام، وهنا أريد أن أقف وقفة قصير نستبين فيها غرض علم النحو وغايته.
لا احسبني أبعد عن الصواب إذا قلت: إن غرض علم النحو (كما هو واضح فيما بين أيدينا من كتبه) ليس إلا تكوين الجمل تكويناً سليماً، وإقدارنا على النطق الصحيح الخالي من الخطأ في التركيب. فليس صحيحاً إذاً أن ندعي على النحاة أنهم قصروابحثهم على أواخر الكلمات، بل هم قد تعرضوا كثيراً، وكثيراً جداً، أكثر مما توهم المؤلف الفاضل إلى بيان وضع الكلمة من الكلمة والجملة من الجملة، وإلى حذف بعض أجزاء الكلام لدليل أو لغير دليل، وإلى كثير مما يعرض للكلمة من النفي والإثبات. وأكبر الظن أني أجلب السآمة للقارئ إذا أنا أخذت أحدثه عما في كتب النحو من ذلك كله، ولست أكلفه إلا أن يرجع إلى كتاب من هذه الكتب ليرى بعينيه أن المؤلف كان مغالياً كل المغالاة حين ادعى على النحاة أنهم لم يعنوا إلا بأواخر الكلمات. ولأجلب الطمأنينة إلى النفوس سوف أنقل هنا مثالاً صغيراً يبين دعواي: قال ابن هشام في كتابه أوضح المسالك: وللفاعل أحكام: أحدها الرفع. . . الثاني وقوعه بعد المسند. . . الثالث أنه لا بد منه. . . الرابع أنه يصح حذف فعله. . . الخامس أن فعله يوحد مع تثنيته وجمعه. . . السادس أنه إن كان مؤنثاً أنث فعله بتاء ساكنة. . . السابع أن الأصل فيه أن يتصل بفعله، ثم يجيء المفعول، وقد يعكس، وقد يتقدمهما المفعول، وكل من ذلك جائز وواجب. . الخ فأنت ترى من هذا أن حكم آخر الكلمة لم ينل إلا واحداً من سبعة - بل أقل من ذلك كثيراً - من عناية ابن هشام؛ أما بقية أحكام الفاعل فهي علاقته بالكلمة التي قبله وبعده، وما يعرض لهذه العلاقة من تذكير أو تأنيث أو تقديم أو تأخير أو غير ذلك. وإذا شئت أن أعد الكثير من أبواب النحو التي تنقض ادعاء المؤلف طال بي القول وانتهى بي إلى الإملال
أما إذا قصد المؤلف إلى أن من غرض النحو أن يفضل أسلوباً على أسلوب، أو أن يوجب نحواً خاصاً من التعبير إذا كان الحال يستدعيه، أو أن يبين سر جمال نوع من القول - فذلك أمر قد تكفل به علم المعاني والبيان والبديع، فالنحو مثلاً يقف أمام الجمل الآتية موقف المصحح لها جميعاً وهي: مصر مستقلة، وإن مصر مستقلة، وإن مصر لمستقلة، واستقلت مصر، ومصر استقلت؛ يصحح النحو هذه الجمل كلها ويقبلها، وإذا تكلمت بواحدة منها في أي حال قبلها النحو، ولم يخطئها؛ أما علم المعاني فينظر

إلى الحال التي يقال فيها الكلام، فعندما يكون المخاطب منكراً استقلال مصر مثلاً وقلت مصر مستقلة كنت مخطئاً، لأن الحال يستدعي أن تؤكد له القول، وأن تقول له: إن مصر مستقلة. فإذا أراد المؤلف أن يجعل ما يبحث فيه علم المعاني والبيان من اختصاص علم النحو، ومما يجب أن تتناوله بحوثه، فإنه لم يزد على أن ضم علمين أحدهما إلى الآخر من غير ضرورة ملحة بل ضماً يجلب معه الاضطراب والخلط.

هذا إلى أن المؤلف لم يشر إلى علاقة الكلمة بالكلمة. ولا ارتباط الجملة بالجملة من أول كتابه إلى آخره، بل قصره على حكم آخر الكلمات، ولم يعن بغيرها.

فلسفة العامل

أطنب المؤلف في ذكر فلسفة العامل وبيان أهميته لدى النحاة، ذم أخذ ينقذ مذهبهم من غير أن يذكر رأيه الصريح في العامل، فالنحاة قد اضطروا - لمذهبهم في وجوب ذكر العامل -

إلى التقدير الذي سماه تقديراً صناعياً، ولم يبين لنا كيف نحلل هذه الجمل التي أضطر النحاة فيها إلى التقدير. وهل نكتفي حين نبين مكان كلمة الضيف في قولنا: الضيفَ أكرمته، بأن نقول إن الضيف لم يرد به أن يكون مسنداً إليه، ولا مضافاً إليه، ولذلك كان منصوباً، أم ماذا؟

أما أن النحاة بالتزامهم أصول فلسفة العامل قد أضاعوا معاني الكلام في باب المفعول معه، فلا إخالني في حاجة إلى بيان تحامل المؤلف مما نقله هو حين تحدث عن المفعول معه من أن النحاة قد تنبهوا للمعنى، وأوجبوا أن يتبعه اللفظ؛ فقد قال الرضي في شرح الكافية ما نصه: الأولى أن يقال: إن قصد النصّ على المصاحبة وجب النصب وإلا فلا. ففكرة النظر إلى المعنى في المفعول معه قديمة معروفة، وهي التي يقتلها العقل ويستريح إليها.

وأما ما أنتقده المؤلف من كثرة خلاف النحاة في كل عامل يتصدون لبيانه، فالمغالاة فيه ظاهرة، فهذه الخلافات لا تجدها في لباب كتب النحو، ولكنك تجدها في الحواشي والتقارير، ولا يعطى لها من العناية إلا مقدار ضئيل لا يخشى منه على دراسة لباب النحو وأصوله؛ على أن الأستاذ المؤلف قد زاد رأياً جديداً في عامل النصب وأنه وجود الكلمة في حالة لا يراد بها أن تكون مسنداً إليها ولا مضافة وسوف نناقشه في ذلك.

معاني الأعراب

جعل المؤلف الضمة والكسرة علامتي إعراب فحسب، أما الفتحة فليست علامة إعراب ولا دالة على شيء، بل هي الحركة الخفيفة المستحبة عند العرب التي يراد بها أن تنتهي بها الكلمة كلما أمكن ذلك، فهي بمثابة السكون في لغة العامة.

ذلك قول يتهدم أمام النقد:

أولاً: لأنه ليس من المعقول ولا من الواقع في شيء أن تكون المعاني التي قصد إليها العربي تدور حول اثنين: هما الإسناد والاضافة، حتى يهتم بهما العربي حدهما ولا يعنى بغيرهما فلا يضع له علامة تدل عليه، فعندنا الحال والتمييز وعندنا أنواع المفعول والاستثناء، ولا أخال واحداً مما ذكرت أقل من معنى الإضافة حظاً لدى اهتمام العربي بل إن بعض هذه الأنواع لا يتم الكلام إلا به، ولا يفهم المعنى إلا بذكره، فالكلام يكون أبتر ناقصاً إذا حذفت الحال أو المستثنى أو نوعاً من أنواع المفعول أو التمييز؛ وإذا شئت أن

تلمس ذلك فهاك أمثلة توضح لك ما قلنا:

تقول: عدت المريض، واجتهدت رغبة في النجاح، وسوف أزورك الساعة الخامسة، ونجح التلاميذ إلا سعيداً، واشتريت أقتين جبناً، وما جئتك إلا زائراً؛ فانظر كيف كمل المعنى في المقال الأول بذكر المفعول به، ولو أنك حذفته لصار المعنى ناقصاً مبتوراً؛ وفي المثال الثاني إذا أنت حذفت المفعول لأجله، جعلت الكلام غير معلل ولا مسبب، فتقل فائدته ومعناه؛ أما إذا حذفت المفعول فيه في الجملة الثالثة فإنك سوف تلقي بمن تزوره في خضم من الظن والتخمين، لأنه لا يدري متى تزوره حتى يتهيأ للقائك؛ ولا أخال المستثنى في المثال الرابع يقل أهمية عن المستثنى منه، فكلاهما مقصود يهتم به القائل، ولو أنك حذفت المستثنى لفسد المعنى وأصبح خاطئاً. وقل مثل ذلك في الحال والتمييز؛ فقد بدا لك أن العربي يقصد هذه الأنواع قصداً، ويعنى بها عناية تامة، فلِمَ لَمْ يميز كلا منها بحركة، كما ميز المضاف إليه بحركة، وإذا علمت أن

المضاف إليه لم يذكر في الكلام قصداً، ولم يؤت به لأنه مراد لذاته، (كما يقولون) وإنما جيء به لتعريف المضاف أو تخصيصه وتقليل شيوعه فحسب - إذا علمت ذلك أدركك العجب حين ترى أن ما يقصد في الكلام ويعنى به: من حال أو تمييز أو غيرهما، لا يهتم العربي بأن يجعل له علامة خاصة تدل عليه، أما ما يذكر عرضاً فإن العربي يحتفل به أيما احتفال، ويضع له حركة تميزه. ذلك قول لا يستطيع العقل أن يقبله.

ثانياً: لأنه ليس من الصحيح أن الفتحة هي الحركة الخفيفة المستحبة التي يراد أن تنتهي بها الكلمة، فلو كان ذلك صحيحاً ما وقف العرب بالسكون على الكلمات التي تنتهي بالفتحة، ولا انتهزوا فرصة اختتامها بالفتحة، فوقفوا بها استمتاعاً بما يحبونه من نطقها. ولست أدري كيف وصل المؤلف إلى هذه النتيجة وكيف استنبطها، مع أنه ليس في الكلام العربي كله كلمات يقف عليها المرء بالفتح إلا إذا كان آخر الاسم منوناً مفتوحاً، فلو كان العرب يحبون الوقوف بالفتحة لجعلوا وقفهم بها لا بالسكون، ولاختتموا بالفتحة كل كلمة تقع في آخر الجملة، ولما أتوا بكلمات مفتوحة في أول الكلام ووسطه؛ وذلك غير ما هو واقع بين أيدينا.

ثالثاً: لأن المؤلف أراد أن يجعل الضمة علامة الإسناد، فتكلف في سبيل ذلك عناء ومشقة،

وانتحل أسباباً لا تثبت أمام الانتقاد:

فمن ذلك أنه أضطر في سلامة قاعدته إلى أن يخرج أسم (لا) من أن يكون مسنداً إليه، لأنه ليس بمتحدث عنه، ولذلك كان حقه الفتحة.

(يتبع)

أحمد أحمد بدوي

العدد 215 - بتاريخ: 16 - 08 - 1937

فلسطين المنكوبة

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

أعجب أعاجيب الاستعمار في هذا الزمان مشروع التقسيم الذي اقترحته لجنة (اللورد بيل) للتوفيق بين العرب واليهود في فلسطين - أو على الأصح للتوفيق بين العهود المتناقضة التي قطعتها بريطانيا للعرب أولاً ثم لليهود من بعد ذلك. وتزعم بريطانيا الآن أن فلسطين لم تكن داخلة في ما عنته بالبلاد العربية التي وعدت بمساعدتها على الاستقلال. وقد فند الأمير عبد الله هذا الزعم بمذكرة بعث بها إلى المندوب السامي في فلسطين وأورد نصوص الرسائل والتصريحات البريطانية التي لا يبقى معها ظل من الشك في أن فلسطين كانت داخلة في جملة البلاد العربية الموعودة بالاستقلال والحرية. على أن الأمر ليس أمر رسائل أو ما يجري مجراها وإنما هو أمر بلاد لا شك في أنها عربية من قديم الزمان وأن حق العرب فيها وهم أهلها لا ينكره إلا مكابر ذو غرض، أو كما قال الأمير عبد الله في مذكرته: (إن حق العرب في بلادهم فلسطين صريح لا يحتاج إلى وثيقة أو وعد، فهم أهلها منذ أجيال، وفي إقامة متصلة بها، وهم على الرغم مما اجتاحهم من حروب وتكابدهم من خطوب لم يفرطوا فيها ولم يتحولوا عن شبر منها). ومن غرائب ما تجئ به الأيام أن اليهود عاشوا في كنف العرب أحراراً آمنين على أموالهم وأرواحهم لا يتقون شراً ولا يخشون أذى ولا يتعرضون لاضطهاد ولا يسامون تضييقاً ولا حجراً، على حين كانوا في أوربا يعدون (أنجاساً) منبوذين، لا يواكلهم أحد ولا يشاربهم ولا يجلسهم إلا دونه. فإذا احتاج إلى مال يقترضه منهم دعاهم إليه وعنف بهم وبسط فيهم لسانه أقبح البسط وأبذأه وأخذ المال وركلهم. ومن شاء فليقرأ رواية السير (وولتر سكوت) عن عصر ريتشارد قلب الأسد وليتأمل كيف كان القوم يعاملون اليهود وبأي عين كانوا ينظرون إليهم. فإن قيل هذا كان عصر جهالة وعماية قلنا فما الرأي في هذا العصر وما يلقى فيه يهود أوربا من العنت والعسف والجور والتحقير والمهانة؟ - كتبهم تحرق، وأموالهم تصادر، وعماؤهم ينفون من الأرض، وجنسهم يعير بأنه دون الجنس الآري، ومعاملتهم ومخالطتهم ومصاهرتهم محرمة، حتى اتخاذ الخدم منهم جريمة تستوجب العقاب. وأوربا التي تنكبهم هذه النكبة وتسومهم هذا الخسف ولا يرتفع فيها صوت بالدفاع عنهم واستهجان ما يحل بهم من

العذاب الغليظ والمقت الشديد هي التي تريد أن تتخلص منهم فلا تجد إلا فلسطين المسكينة تقذف بهم عليها وتقول: اتخذوا لكم وطناً قومياً هنا. . .
ومن سوء حظ اليهود أن لا وطن لهم، ولكن العرب لا ذنب لهم في ذلك ولا كانوا هم الذين حرموهم أن يكون لهم هذا الوطن. وما تعلق اليهود بالوطن القومي و (صهيون) إلا من طول ما قاسوا من العذاب في أوربا وهول ما صبه أهل هذه القارة عليهم من البلاء. وإنك لتجد اليهود القدماء في فلسطين لا يحلمون بهذا الوطن القومي إلا مجاراة وتقليداً لليهود الأوربيين وخوفاً من أن يتهموا بالخروج على ملتهم، لأنهم كانوا حتى على أيام الحكم التركي يعيشون في بلهنية ورخاء، بل كانت حياتهم أهنأ وأرخى من حياة أبناء البلاد العربية
فلولا وعد بلفور ما حلت الجفوة ولا وقعت النبوة بين العرب واليهود، ولكن إنجلترا التي تعهدت للعرب أن تؤازرهم على الفوز باستقلالهم وحريتهم فثاروا لهذا على دولتهم رمتهم بالوطن القومي والهجرة اليهودية فلم يسعهم إلا أن يتدبروا ما هددوا به؛ وهل هو إلا الجلاء عن وطنهم؟ وإلا أن يكرهوا ذلك ويثوروا عليه، ومن الذي لا يثور على من يبغي إخراجه من دياره وطرده من وطنه. .؟
والآن تجئ بريطانيا فتقول دعوني أقسم بينكما البلاد فلليهود شطر وللعرب شطر، ولتكونوا بعد ذلك إخواناً وجيراناً متوادين. تأخذ مني أرضي وتعطيها لأجنبي وتقول لي كن أخاً له وأصغ إليه بالود! وبأي حق تخول نفسها أن تفعل ذلك؟ لا حق إلا أنها وعدت اليهود بإنشاء وطن قومي لهم في فلسطين. ولكن من خولها أن تبذل لهم هذا الوعد؟ لا أحد. . . هي خولت نفسها ذلك وانتحلت الحق فيه وعدت نفسها ملزمة بالوفاء، والعرب ملزمين بالإذعان لقضائها فيهم. ولو أنها كانت تُقطع اليهود من بلادها هي لما كان لأحد وجه اعتراض على ما تصنع، فإن الأرض أرضها وهي حرة في أن تجود بها على من تشاء من خلق الله. ولكن البلاد ليست بلادها ولا تزعم قط أنها مستعمرة لها وإنما هي فيها بما سموه (الانتداب)، والانتداب معناه أن البلاد أمانة في عنق الدولة التي ندبتها العصبة لإصلاحها وترقيتها وإعدادها لحكم نفسها بنفسها ولنفسها، ولم نكن نعرف قبل اليوم أن من معاني أداء الأمانة تضييعها والتسخي بها على غير أصحابها. . .
وانظر كيف تقسم البلاد بين العرب واليهود!. تأخذ الساحل كله - ما خلا يافا فقد أنقذتها جارتها تل أبيب وأن ميناءها شر ميناء في البحر الأبيض - تقول تأخذ الساحل والأرض الخصبة وتهديها إلى اليهود، وتعمد إلى الجبال الجرداء، والفيافي التي لا شجر فيها ولا ماء، وتقول للعرب هذا نصيبكم ولن يضيركم محلها وخرابها فان لكم الجنة في الآخرة فطيبوا نفساً وقروا عيناً واحمدوا الله واشكروني. ولا تنسى بريطانيا نفسها فإن لها حظاً من الغنيمة. . .
وفي الرقعة التي جعلتها من نصيب اليهود كثرة عربية فهؤلاء سيجلون عنها ويخرجون من ديارهم لأن بريطانيا شاءت هذا. وفيها ثروة العرب جلها إن لم تكن كلها وليس لليهود من المزارع إلا حوالي العشر، فهذه الثروة أيضاً تنتقل إلى اليهود ويفقدها العرب ويرحلون إلى الصحراوات والجبال العارية. ولا منفذ للعرب إلى البحر إلا من يافا، والطريق إلى يافا مما تحتفظ به بريطانيا لنفسها؛ ومؤدى هذا أن تخرب تجارة العرب بعد أن تخرب زراعتهم ويضيع مالهم كما ضاع وطنهم.
وتقول بريطانيا إن هذه هي الوسيلة الوحيدة للسلام والوئام بين العرب واليهود في فلسطين، فلو أنها تعمدت أن تثير بين الشعبين العداوة والبغضاء وأن تبذر بذور الحرب في فلسطين لما فعلت غير ذلك. فلن يكف اليهود عن التطلع إلى ما بقي في أيدي العرب من البلاد، لأن دولتهم ستضيق بهم لا محالة، ولأن مالهم وعلمهم وما يحسون من العطف البريطاني عليهم - كل ذلك خليق أن يغريهم بالطمع في بقية فلسطين. وأما العرب فغير معقول أن يصبروا على هذا الظلم، أو أن يكفوا عن الحنين الطبيعي إلى ما فقدوا، أو أن يرغبوا في استرداده، فهي الحرب بين الأمتين لا مفر منها ولا هوادة فيها ولا حيلة لأحد في اجتنابها. فإذا كانت الحرب ما تبغي بريطانيا فالمشروع يبلغها مأربها على التحقيق.
ووراء فلسطين - أو ما يبقى منها في أيدي العرب - شرق الأردن يغرون أميره بالإمارة على البلاد كلها؛ ومن وراء شرقي الأردن العراق وفلسطين طريقها إلى البحر الأبيض، وبين العراق وفلسطين أواصر عروبة لا انفصام لها، وبعيد أن تنام العراق على هذا؛

ومصر جارة فلسطين وشقيقتها، وقد تكون اليوم ذاهلة عما يجره عليها هذا التقسيم العجيب من المتاعب وما يهددها به من الأخطار، ولكن الغفلة تزول وسيجيء يوم قريب تدرك فيه

مصر أنها لا تستطيع أن تغض عما يجري على حدودها، أو تستخف بالأثر الذي يكون لإنشاء دولة يهودية على الساحل الشرقي القريب من ساحلها، وسترغمها الحوادث على أن تدرك القربى بينها وبين فلسطين أجدى عليها وأربح لها من هذه العزلة التي يحملها على الإخلاد لها الجهل وقلة الفطنة وضيق أفق النظر. وكل آت قريب، ولكن الشيء في أوانه خير منه بعد الدرس القاسي والامتحان الأليم والتجربة المرة.

وإن عصبة الأمم لتنظر الآن في أمر فلسطين ولكنه لا إيمان لنا بالعصبة التي لا خير فيها فما أجدت شيئاً على الحبشة المسكينة ولا هي تجدي فتيلاً على الصين. فليوطن العرب أنفسهم على الاستغناء عن كل عون من غير أنفسهم وليعلموا أن الذي يسعهم وحدهم بلا معونة من أوربا كثير لا يستهان به؛ وإذا كان سبعون مليوناً من العرب لا يدخل في طوقهم شيء فماذا يرجون؟.

إبراهيم عبد القادر المازني

مصر مجاز الشرق

عامل يعيد الأثر في تأريخها

للأستاذ محمد عبد الله عنان

من الحقائق الجغرافية والتاريخية ما يلازم حياة الأمم حتى ليغدو من صميم هذه الحياة، بل يغدو أحياناً عاملاً حاسماً في تكوينها وتطورها؛ فعلاقة النيل بحياة مصر مثلا علاقة أزلية خالدة لم يفصمها تعاقب الدهور والعصور؛ وإذا كانت هيرودوت قد ذكر منذ ألفين وثلاثمائة عام أن مصر هبة النيل، فان هذه الحقيقة لا تزال ماثلة إلى اليوم بكل قوتها وروعتها، وقد كانت ماثلة راسخة قبل هيرودوت بآلاف السنين. وقد كان النيل منذ أقدم العصور حياة الأمة المصرية المحتشدة حول ضفافه الخضراء، وسيبقى أبد الدهر مصدراً لهذه الحياة؛ وكان منذ فجر التاريخ عاملاً أساسياً في تكوين هذه الحياة وفي تطور مظاهرها وأساليبها مدى العصور والدهور. كذلك كان موقع مصر الجغرافي وما يزال عاملاً جوهرياً في تطوراتها التاريخية وفي مصايرها السياسية والاجتماعية، فقد كان هذا الركن الذي تشغله مصر صلة الوصل بين قارات العالم القديم، وكان لهذه الحقيقة الجغرافية في تطور تاريخها القديم والحديث أعظم تأثير.

بل إن هذه الحقيقة الراسخة لتغدوا في تاريخ مصر الحديث والمعاصر أشد وضوحاً وتأثيراً؛ ذلك أن القدر شاء أن تحفر مصر قناة السويس وأن تغدوا مرة أخرى طريق الهند والشرق الأقصى. وهل ينسى مؤرخ ما كان لقناة السويس من أثر عظيم في مصاير مصر في العصر الأخير وفي وضعها السياسي الحاضر؟ وهل ينكر إنسان أن القناة ستبقى عصراً هي العامل الفصل في مصير مصر ومستقبلها الدولي؟ ونقول إن مصر قد غدت كرة أخرى طريق الهند والشرق الأقصى، لأن مصر كانت منذ أقدم العصور حلقة من أهم حلقات الوصل بين الشرق والغرب، وكانت خلال العصور الوسطى حتى أواخر القرن الخامس عشر طريق الهند المختار، وكانت ثغورها دائماً سواء في البحر الأبيض المتوسط أو في البحر الأحمر قواعد رئيسية لتجارة الغرب مع الهند والشرق الأقصى؛ ونحن نعرف إن مصر والشام كانتا منذ القرن التاسع وحدة جغرافية وسياسية متحدة، وكانت حدود مصر منذ الدولة الطولونية تصل حتى أقاصي الشام؛ وكانت هذه المياه كلها على طول ساحل

الشام وسواحل مصر حتى برقة تقع تحت السيادة المصرية؛ كذلك كانت مياه البحر الأحمر حتى ثغور الحجاز. وكان للهند والشرق الأقصى في تلك العصور طريقان رئيسان: الأول طريق قسطنطينية، والثاني طريق المياه والأراضي المصرية؛ ولكن الطريق الأول لم يكن دائماً خير الطريقين، لأنه بعد اجتياز أراضي الدولة البيزنطية، ينحدر إلى مسالك وعرة في أرمينية وفارس وما وراء النهرين، وكان أيضاً أطول الفريقين شقة؛ ولهذا كان طريق الثغور المصرية هو طريق الهند والصين المختار؛ وكانت جمهورية البندقية لتفوقها البحري في البحر الأبيض المتوسط تستأثر في تلك العصور بأعظم قسط من تجارة الشرق الأقصى؛ وكانت مصر، سيدة الطريق إلى الهند، تستأثر بأعظم قسط من أرباح هذه التجارة ومكوسها، وكانت المكوس التي

تفرض في ثغور مصر والشام على التجارة الصادرة إلى الشرق الأقصى من أعظم موارد الخزينة، هذا إلى ما تجنيه التجارة المصرية من أرباح الوساطة وأعمال النقل وغيرها.

كانت مصر إذاً في تلك العصور كما هي اليوم طريق الهند والشرق الأقصى؛ بيد أنها كانت عندئذ سيدة هذا الدرب والمتحكمة في مصايره، تدعم إرادتها وصولتها بقوات برية وبحرية يخشى بأسها. ولما غزى الصليبيون سواحل الشام في نهاية القرن الحادي عشر واستقروا حيناً في فلسطين وبعض ثغور الشام اضطربت مواصلات الهند من هذه الناحية حيناً، ولكنها تحولت إلى الإسكندرية ودمياط وإلى القلزم وعيذاب ثغري البحر الأحمر؛ وكانت القوافل التجارية تخترق مصر من الإسكندرية ودمياط براً إلى ثغر القلزم (وموقعه القديم مكان ثغر السويس)، أو في النيل حتى قوص، ثم إلى عيذاب؛ وتسير بعد ذلك بحراً إلى الهند والصين؛ وكانت ثمة طريق برية أخرى تخترق الشام والجزيرة ثم فارس وخراسان والسند، أو تنحرف شمالا إلى بخارى ثم الصين؛ وهذه الطريق الأخيرة هي التي سلكها ماركو بولو الرحالة البندقي الشهير في القرن الثالث عشر والتي وصفها لنا في رحلته أبدع وصف؛ ثم سلكها من بعده في أوائل القرن الرابع عشر إلى الهند الرحالة المغربي الشهير ابن بطوطة الطنجي. والواقع أن فكرة قطع طريق الهند وحرمان مصر من مغانمها لم تكن بعيدة عن أفكار الصليبيين؛ فلما انهارت حملاتهم ومشاريعهم واستطاعت مصر أن تردهم نهائياً عن الشام وثغوره، استردت مصر كل سيادتها

وسيطرتها على طريق الهند؛ ومن جهة أخرى فإن جمهورية البندقية لم تكن كباقي الدولة النصرانية متحدة الرأي مع الصليبيين دائماً، وكانت في معظم الأحيان تؤثر مصالحها التجارية وتؤثر البقاء على صداقة مصر.

ولبثت مصر تسيطر على طريق الهند والبندقية تستأثر بمعظم مغانم التجارة الهندية حتى أواخر القرن الخامس عشر؛ وكانت علائق مصر والبندقية دائمة التوثق تنظمها دائماً معاهدات متوالية تسعى جمهورية البندقية دائماً إلى عقدها مع حكومة السلاطين.

ولكن حدث في أواخر القرن الخامس عشر أن حاول البحارة البرتغاليون اكتشاف طريق جديد للهند؛ واستطاع فاسكودي جاما في سنة 1497 أن يكتشف طريق رأس الرجاء الصالح، وأن يصل عن هذا الطريق إلى ثغر قاليقوط في غرب الهند؛ ولم تمض أعوام قلائل حتى أنشأ البرتغاليون في هذا الثغر مستعمرة برتغالية، وأخذت بعوثهم البحرية تتردد إلى الهند عن هذا الطريق الجديد. وفي الحال شعرت مصر بالخطر الذي يهدد طريقها الهندية ومواردها التجارية، وشعرت البندقية حليفتها وشريكتها بما يهدد تجارتها مع الشرق الأقصى من الخراب والإمحال؛ وظهر هذا الخطر بصورة واضحة حينما أخذت التجارة الهندية التي كانت تسير إلى مصر عن طريق عدن وجدة وسواكن تتحول إلى الطريق البحرية الجديدة، وأخذت السفن البرتغالية تطارد السفن المصرية التي تشق هذه المياه؛ عندئذ هبت مصر تدافع عن مواصلاتها الهندية وامتيازاتها التجارية التي استأثرت بها مدى القرون؛ وكان ذلك في عهد السلطان الغوري الذي شاء القدر أن يكون آخر ملوك مصر المستقلة؛ فبادر السلطان بإنشاء أسطول مصري جديد في مياه البحر الأحمر ليقاتل أولئك الخصوم الجدد. وفي بعض الروايات أن البنادقة أمدوا السلطان بالأخشاب والذخائر لتجهيز هذا الأسطول؛ وعلى أي حال فقد التقى الأسطول المصري بسفن البرتغاليين في البحر الأحمر أكثر من مرة وأحرز قائده أمير البحر حسين على الأسطول البرتغالي بقيادة الأميرال لورنزوالميدا في سنة 1508 انتصاراً حاسماً؛ ولكن البرتغاليين عادوا فهاجموا الأسطول المصري وهزموه في العام التالي؛ ولم يك ثمة شك في مصير هذا النضال، فإن البرتغال كانت يومئذ في مقدمة الدول البحرية التي يخشى بأسها، وكانت مصر من جهة أخرى ترقب خطراً آخر أعظم وأجل، هو خطر الترك العثمانيين. أما البندقية فقد حاولت من جانبها أن تتأهب للنضال محافظة على تجارتها، ولكن الدول الأوربية الكبرى، فرنسا وأسبانيا والبابوية، اتحدت في مجمع كامبري لمقاومة البندقية والقضاء على محاولاتها.

وهكذا فقدت مصر طريق الهند في نفس الوقت الذي فقدت فيه استقلالها، وفقدت كل ما كانت تجنيه من وراء هذا الامتياز القديم من المغانم الطائلة. ومنذ أوائل القرن

الخامس عشر يغدو طريق رأس الرجاء الصالح، هو الطريق المختار للهند والشرق الأقصى؛ ومن ذلك الطريق سارت البعوث البحرية المتوالية لاكتشاف مجاهل المحيط الهندي والمحيط الهادئ.

على أن القدر شاء القدر أن تسترد مصر طريق الهند في ظروف لم تكن تحلم بها، وكانت بالنسبة إليها مفتتح عصر من الكوارث والمحن؛ أجل كان افتتاح قناة السويس في سنة 1869 نذيراً بفاتحة الدور الخطير المحزن الذي قضى على مصر أن تؤديه في ربط الشرق بالغرب وتوثيق المواصلات بين بريطانيا العظمى والهند وأستراليا؛ بل لقد ظهر هذا النذير واضحاً منذ أيام الحملة الفرنسية حيث شعرت إنكلترا بالخطر الذي يهدد مواصلاتها المستقبلة من استقرار الفرنسيين في مصر، فبذلت كل ما في وسعها لتحطيم الحملة الفرنسية وإجلاء الفرنسيين عن مصر؛ وكأنما استطاعت إنكلترا يومئذ أن تنفذ إلى حجب الغيب، وأن تتصور قيام هذه القناة تشق الصحراء بين البحرين الأبيض والأحمر؛ وكانت القناة منذ افتتاحها شراً مستطيراً على مصر، لأنها لفتت أنظار الدول الأوربية إلى هذا الشريان الحيوي الجديد في طريق الشرق الأقصى، وأذكت أطماع السياسة الاستعمارية. ولم تلبث مصر أن سقطت فريسة هذه السياسة المتجنية؛ وكانت محنة فقدت مصر فيها استقلالها؛ ومهما كانت البواعث التي تذرعت بها السياسة البريطانية لاحتلال مصر في سنة 1882 فإن حراسة القناة، وهي شريان حيوي لطريق الهند، كانت بلا ريب أهمها وأخطرها؛ وقد غدت هذه الحقيقة فيما بعد شعار السياسة البريطانية ومحورها الأساسي في التمسك باحتلال مصر.

ولما وقعت الحرب الكبرى ظهرت أهمية القناة كطريق حيوي للمواصلات الإمبراطورية البريطانية، ولعبت دوراً خطيراً في حمل القوات والمؤن من أنحاء الأملاك والمستعمرات إلى ميادين القتال الأوربية؛ وازدادت السياسة البريطانية اقتناعاً بأهمية هذا الشريان

الحيوي في مواصلاتها الإمبراطورية، وازدادت تمسكاً بحراسته والسيطرة عليه، حتى إنها رأت يومئذٍ أن تعلن حمايتها على مصر تمهيداً إلى ضمها إلى أملاك التاج. فلما لم تقبل مصر هذا المصير، واضطرت أن تشهر النضال في سبيل حريتها واستقلالها، وأعلنت إنكلترا في سنة 1922 إلغاء الحماية والاعتراف باستقلال مصر، كانت مسألة المواصلات الإمبراطورية أو بعبارة أخرى مسألة قناة السويس من المسائل المحتفظ بها؛ ولما آن للمسألة المصرية أن تحل أخيراً بعقد معاهدة الصداقة المصرية الإنكليزية في أغسطس الماضي، كانت مسألة المواصلات الإمبراطورية وحماية قناة السويس عقدة العقد، وكانت بالنسبة للسياسة البريطانية غاية الغايات؛ وقد جاءت نصوص المعاهدة منوهة بأهميتها وخطورتها بالنسبة لمصاير العلاقات بين مصر وإنكلترا.

على أن المستقبل فياض بالاحتمالات؛ وقد حمل تطور فنون الحرب الحديثة وتقدم التسليحات الجوية بعض الخبراء على الشك في مستقبل قناة السويس كشريان للمواصلات الإمبراطورية؛ وقد أيدت ظروف الحرب الحبشية وتطوراتها هذه النظرية؛ ومع أن السياسة البريطانية مازالت على تمسكها بأهمية القناة وخطورتها بالنسبة للدفاع الإمبراطوري، فإنها تتوجّس اليوم من حركات إيطاليا الفاشستية ومطامعها الاستعمارية، وتتوجس بالأخص من تفوق تسليحاتها الجوية، وتنظر دائماً إلى احتمال العود إلى طريق رأس الرجاء الصالح، إذا وقع ما يهدد سلامة القناة؛ وهكذا نرى أن التاريخ قد يعيد نفسه، وأن أحداث الحرب والسياسة قد تؤثر في أهمية القناة كطريق للهند والمواصلات الإمبراطورية؛ على أنّه إذا شاء القدر أن تفقد مصر طريق الهند مرة أخرى، وأن تغدو القناة في عرف السياسة والحرب بل وفي عرف التجارة كما مهملا، فإن مصر تكون آخر من يأسف لضياع هذا الامتياز المحزن، وإنها لترى فيه يومئذ بشير الخلاص والرضى.

محمد عبد الله عنان

هل أسلوب الحكم وحده كافي في تطور الشعب ورقيه؟

للدكتور محمد البهي قرقر

بتطور العلم الطبيعي ومراعاة الحقائق الراهنة والدنو من الواقع تغير مقياس الحكم على النظريات العلمية الفلسفية. فبعد أن كان أساس الحكم عليها تعمق صاحب

النظرية في الفكر وتشعب تفكيره في فروض متعددة وخيالات مظنونة، أصبح إمكان استخدامها أو عدم إمكانه في حياة الإنسان العملية ميزان الصحة أو الخطأ في الحكم على نظرية من النظريات الفلسفية. ففلسفة العصر الحديث توجه عنايتها إلى الواقع وإلى الناحية العملية والسلوك النفسي للفرد والجماعة أكثر من النظر فيما وراء الطبيعة والبحث عن معنى النفس وهل هي جوهر أو عرض، أو غير ذلك من الأسئلة التي تحوم حول ماهية النفس وكيفية تركيب الوجود على العموم.

وأسلوب الحكم ونوع النظام الذي تسير عليه أمة من الأمم خاضع لهذه القاعدة، لأنه لا يخرج عن أن يكون عملاً عقلياً له صدى نفسي عملي أيضاً في تلك الأمة. فهو من أهم موضوعات الفلسفة الواقعية الحديثة؛ يلقى استحساناً في كل مكان إذا برهن على يد قائد سياسي إمكان استخدامه والانتفاع به في الحياة العملية للشعب، ولكن ربما يكون طالع نحسه في سوء استخدامه لا في ذاته نفسه.

فالحياة العملية هي في الواقع محك أية نظرية فلسفية؛ فإن لم تتفق النظرية معها أو لم تجد نفعاً لها فهي إما خيال مفروض أو لم يئن الأوان لها بعد ولم يدن وقت استخدامها، لا لأنها لم تنضج - فقد تكون في ذاتها ناضجة - ولكن لأن الحياة العملية للشعب ربما لم تتطور نسبياً بما يدانيها.

صلاحية نظام أي حكم أو عدم صلاحيته مرتبط بحال الأمة التي ينفذ فيها. وكونه عاملاً من عوامل رقي الشعب يتوقف إلى حد كبير على موقف الشعب العملي نفسه منه ومن مبادئه، وعلى تأثره به.

وكل أنظمة الحكم في العصر الحديث تدعي أنها تقصد إلى تحقيق فضيلة خلقية، يكون من ورائها رفاهية الشعب ورقيه، وشعور كل فرد بمعنى السعادة.

فالنظام الشيوعي يزعم أنه يريد تحقيق العدالة ومعنى المساواة في كل ناحية من نواحي الحياة وبالأخص في الناحية الاقتصادية التي لم يمسها بالتعديل نظام حكم قبله. وحينما كان نظرياً لقي أتباعاً كثيرين ولاسيما بين الطبقات الفقيرة والعاملة. فلما نزل به زعماؤه في الحياة العملية وحاولوا تطبيقه أثبت أنه خيال مفروض ووهم لا يمكن أن يساير الحقيقة. ولم ينل الشعب الذي رغب في الأخذ به من ورائه إلا الفوضى والشقاء. ومع ذلك لم يحكم الشعب نفسه، وإنما تحكمت فيه فئة قليلة منه ضمنت لها السيطرة بالقوة والعنف، فهو حكم استبدادي لا شعبي.

والنظام الديمقراطي (الهادئ الرزين)، الذي لا يتشدد في معنى الوطنية - أو على الأصح الذي لا يعرف وطناً -، والذي هو مفعم بحب (الإنسانية)، يبغي أيضاً الوصول إلى العدل، يبغي إعطاء الشعب حقه بتسليمه مقاليد أمره. ولخلابته - لأنه يحض على محبة الإنسانية والعمل على (السلام)، وفي الوقت نفسه يتملق الشعب ويدعي أنه في خدمته، مع المحافظة على نشاط الفرد المالي - لقي أنصاراً عديدين وأضحى أمنية لكثير من الأمم الضعيفة التي لم تزل في سن الطفولة بعد خلقها ونشأتها، لأنها تحب العمل للإنسانية المزعومة وتميل للسلام العالمي - بمقتضى ضعفها - وتود أن تخرج عن حكم الفرد أو الهيئة الأرستقراطية.

والحياة العملية لمثل هذه الشعوب أصح مقياس للوقوف على حقيقة هذا النظام وعلى مبلغ حصته في رقيها، لأنها تفهم (الديمقراطية) فهماً ساذجاً فطرياً، فهماً لغوياً لا سياسياً، فالمعنى السياسي وملكة التلاعب بالسياسة لم تتكون عندها بعد، ولأنه ليس من إنتاجها العقلي بل اقتبسته وآمنت به، فأثره حينئذ، إيجابا أو سلباً، أظهر، والحكم له أو عليه أصح وأقرب للواقع.

ومصر دولة من الدول العربية التي تغرم بالديمقراطية، ونظام حكمها ينص على أنها (دولة ذات سيادة، وهي حرة مستقلة وحكومتها ملكية وراثية، وشكلها نيابي - المادة الأولى من دستور سنة 1923)، وهو مظهر لا اعتراض عليه من ناحيته الشكلية والقانونية، ولا من ناحية ما إذا كانت هناك رقابة أجنبية فعلية، أو سياسة مجاملة، تقيد في الواقع بعض الشيء من هذه السيادة، فالدول الصغيرة تتمتع دائماً من الوجهة الدولية باسم السيادة التامة وإن

كانت تسير في سياستها العملية طبقاً لخطة دولة أخرى ذات نفوذ أكبر تحت ستار (الصداقة) أو (المحالفة) لغرض مزدوج: لوقاية الدولة الصغيرة من اعتداء أجنبي - وما هو في الواقع إلا اعتداء على نفوذ الدولة الكبرى في سياسة الدولة الصغرى - ولمنفعة

الدولة الحليفة الكبرى اقتصادياً وأدبياً في السياسة العالمية. ولكن الشيء الذي يرغب الآن في بحثه هو: هل من الممكن بواسطة هذا النظام نقل مصر من حالتها الراهنة إلى حالة أرقى، وما مبلغ أثره في تطور الشعب؟

وبحث هذا يتطلب الوقوف على السلوك العملي للشعب إزاء هذا النظام، ثم على مقدار استفادته منه. ولبيان السلوك العملي له وموقفه تجاه هذا النوع من الحكم أود أن أقتبس من دستوره بعض المواد التي لها صور عكسية بارزة في حياة الأمة العملية والتي يقابلها بعض الظواهر النفسية التي لها صفة الأغلبية في الشعب، وبعبارة أخرى المواد التي لها مساس كبير بهذا السلوك النفسي.

(1) في الفصل الثالث من الدستور يقضي أسلوب الحكم بتأليف هيئة شعبية نيابية، لها صفة الرقابة على القوة التنفيذية بطريق الاقتراع العام. وصاحب الأغلبية في هذه الهيئة يتولى رياسة تلك القوة.

ومن خصائص الشعب المصري وألزم صفاته للآن السير وراء العاطفة والرغبة في التصديق، والتمسك بالعقيدة، فهو سريع التأثر بالوعود الخلابة، وخصوصاً بالتي على وفق رغباته المتخيلة، لا يضعف تأثره بذلك إرهاب أو اصطدام بالواقع، وهكذا شأن العاطفة إذا هي احتلت من النفس مكاناً واسعاً، يكاد يكون لها كل سلطان على السلوك النفسي.

لهذا لم تتحلل نتيجة الانتخاب بعد من أثر الدعاية المنظمة - التي تسير طبق رغبات الشعب - ومن قوة العاطفة الحساسة الخارجة عن الاعتدال التي هي أميل بكثير إما إلى الانفعال والقابلية (في حالة التصديق) وإما إلى الرفض والمعارضة (في حالة الجحد والإنكار).

وزيادة على ما للشعب من هذه العاطفة فهو لم تتكون عنده بعد الملكة السياسية، أو بعبارة أخرى لم تتميز عنده قوة الحكم المبنية على الروية والتفكير من قوة العاطفة الثائرة التي لم تهذب بعد. ولعل ذلك يرجع إلى جهلة وتركه مدة طويلة إلى الطبيعة التي كانت تكتنفها

عوامل متناقضة.

الأكثرية النيابية إنما تعبر عن قوة العاطفة المصدِّقة التي تغلب على الشعب وتكون الجزء الأعظم من نفسيته. ولهذا يصح أن يقال إن الحكم الديمقراطي الصادر عن ملكة سياسية والمرتكز على قوة شعبية لا تغلب عليها العاطفة لم يتحقق للآن، وإن وجد أسلوبه ورسمت مبادئه النظرية.

(2) ينص الدستور أيضاً على الحرية الشخصية، على حرية الاعتقاد، وعلى حرية إبداء الرأي والنقد.

(المواد 4، 12، 14). حرية الفكر والاعتقاد، حرية إبداء الرأي والنقد يتمتع بها إذن، قانونياً، كل فرد يعيش في مصر. والمصري طبعاً يفكر ويبدي رأيه وينتقد ككل إنسان لأن هذه معان عامة، ولكن طريقته في التفكير وفي إبداء الرأي وفي النقد ربما تنم عن فهم آخر لمعنى الحرية فيها: تنم إما عن سوء في الفهم أو قصر في إدراك ما هي الحرية في شيء من الأشياء، وربما لم يفهم بعد أن الحرية معنى محدود غير مطلق، حرية في شيء مقيدة بجواز استعمال شيء آخر ربما يكون مضاداً للأول ونقيضاً له.

حرية التفكير ما زالت تستخدم في مهاجمة الدين وجرح العاطفة الدينية للشعب، بل أظهر صورها التهكم بمعتقدات الأمة والسخرية بعاداتها، حرية إبداء الرأي تستعمل في الخروج عن المألوف للأمة والاستخفاف بما هو مقدس عندها، حرية النقد سبيله العملي جرح الكرامة الشخصية أو الجدال للجدل في غير طائل.

حرية التفكير، حرية إبداء الرأي وحرية النقد حق سام من حقوق الشعوب المتمدينة، ولكنه لا يصح أن يتخذ أداة للهدم، فوظيفته يجب أن تكون إيجابية لا سلبية. جعلته بعض الدول الراقية حقاً شرعياً لأفرادها بعد ما شعر الشعب من نفسه بقدرته على كظم شهوته العقلية وحاجته إلى تقرير ذلك ضد حاكم مستبد أو ابتغاء المساواة بالفئة الأرستقراطية التي كفلت لنفسها هذا الحق منذ زمن بعيد.

فتقرير حرية الفكر وإبداء الرأي والنقد لكل فرد من أفراد الشعب حق إنساني فطري جميل، وأجمل منه استعداد الشعب وإعداده لاستخدام ذلك في طريقه الطبيعي

وتشريعه له من نفسه، لا إعطاؤه له منحة أو فرضه عليه فرضاً، فالطفل إذا ما أفسح له الطريق ربما
يلقى حتفه في هاوية.
كذلك المساواة أمام القانون. المساواة في وظائف الدولة مبدأ شريف نصت عليه (3) المادة الثالثة من الدستور المصري، (المصريون لدى القانون سواء، وهم متساوون في التمتع بالحقوق المدنية والسياسية. . . .)
المساواة في الحقوق العامة مزية من مزايا الحكم وظاهرة من ظواهر عدله، ولكن أساس التفضيل وقاعدة الاختيار لوظائف الدولة في الأمم الراقية الجدارة الشخصية وإمكان القيام بالواجب نحو الأمة؛ ومقياس تلك الجدارة الإنتاج العملي لا الهوى الحزبي؛ وما شرعت المساواة وجعلت حقاً من حقوق الشعب إلا لإفساح المكان للجدارة والكفاية لا للنسب والعائلة. وكلما كان الشعب إلى الفطرة أقرب كانت لعلاقة النسب والقرابة في التمييز بين فرد وآخر وتخصيصه بمنصب من مناصب الدولة الكبرى الأثر الأول، لأن قوة الحكم في الشعب حينئذ ما زالت تعتمد على العصبية، فإذا ما تطور الشعب بعوامل التهذيب جُعلت القاعدة في الاختيار والتفضيل الكفاية الشخصية وتُنوسيت عصبية القرابة الضيقة، لأن مجموع الشعب أصبح حينئذ يعتبر كمجموع أفراد لعائلة واحدة.
ومن هنا تغلب الظاهرة النفسية التي تسمى (المحسوبية) - والتي تعد مرضاً اجتماعياً خلقياً في الشعب - في الشعوب الفطرية أو فيما هي أقرب إليها وإن اتخذت أحدث الأساليب في نظام الحكم، فإذا كانت هذه الظاهرة متفشية الآن في مصر - وستبقى متفشية فيها مهما شرع ضدها من قوانين، لأن علاج ذلك ليس بسن قانون وتشريع وإنما بتهذيب الشعب نفسه - فذلك لأن الشعب المصري مازال يعتبر قاعدة الجدارة في الاختيار في المنزلة الثانية.
فالمبادئ الأساسية التي هي مظهر الحكم الديمقراطي، من تمثيل نيابي وإعلان حرية الفكر وإبداء الرأي والمساواة أمام القانون والتمتع بالحقوق السياسية والمدنية لكل فرد مصري أو متمصر، موجودة في أسلوب الحكم المصري الحديث، ولكن مظاهر الحياة الواقعية للشعب تدل على أن سلوكه العملي منحرف عنها وموقفه تجاهها سلبي. وبالرغم من ذلك فهل يترقب لهذا النظام أثر إيجابي حتى يكون كفيلاً بتغيير هذا الموقف وبترقية الشعب؟.
لا يجحد أن تمشى الحكم مع هذه الأسس من العوامل التي تُشعر الفرد باستقلاله وحريته
وتؤمّنه على حياته الفردية وتفسح المجال لجده وذكائه. واستقلال الفرد وإفساح المجال لجده ومواهبه من أسباب رقي الأمة كمجموعة متكونة من أفراد تربطهم روابط عدة، طبيعية وثقافية، ولكن هذه النتيجة الإيجابية مقيدة بتنفيذ هذه الأسس وبفهم الشعب لها فهماً صحيحاً، والتنفيذ والفهم كلاهما ليس حاصلاً لأي أسلوب من أساليب الحكم، وإنما هما مقدمة من مقدمات نجاح الحكم نفسه وعادة تتكون بالمران في نفسية الشعب.
فأسلوب الحكم نفسه لا ينتج عادة وإنما يرعى العادات. في ظله تتكون عادات ذات أثر إيجابي أو سلبي في رقي الشعب أو انحطاطه. وتكوُّن العادات الحسنة سبيله الوحيد التربية والتهذيب. فإذا استقر في نفس الشعب حب الحرية وفهمها فهماً صحيحاً، إذا عرف معنى المساواة، كان عمله طبق ذلك الفهم وهذه المعرفة، وكانت خطواته دائماً إلى الأمام؛ وما أسلوب الحكم الديمقراطي حينئذ إلا مظهر خارجي فقط لمعنى نفسي مستقر، طبيعي أو مكتسب.
فالشك إذن محوط بنظام الحكم وبنتائجه الإيجابية في رقي الشعب كعامل أول في تطور الأمم، ولكن الأمر الذي لا مرية فيه هو عامل التربية التي تنفذ إلى نفس الفرد والجماعة وتكيفها حسبما تختط الأمة لنفسها.
فإذا لم يرب الشعب الضعيف المستعبد على حب الحرية والمطالبة بالاستقلال، لم يشعر بمعنى الحرية وبمزايا الاستقلال إذا ما تركته القوة المستعمرة وخلته ونفسه، بل بالعكس لا ينال من هذا الاستقلال إلا الفوضى وعدم استقرار النظام حتى يتحكم فيه نفر من الشعب نفسه ويسوسه بالقوة والعنف ويومئذ يشعر بحكومة وبنظام.

فإذا قدر للنظام الديمقراطي في أمه لم تتكون عندها بعد الملكات الاستعدادية له أن يكون ذا نتيجة إيجابية في تطور الشعب فلن تلمس إلا بعد زمن طويل وجهد شاق يقوم به زعيم مترسم لبرنامج معين مقصود. ومع ذلك يصح أن ينسب هذا التطور إلى الزعيم كمرب اجتماعي لا إلى الحكم الديمقراطي من حيث هو.

فالنظام الديمقراطي في إنكلترا مثلا ليس نظاما موضوعا ولا مواد دستورية مفرغة في الصيغ القانونية، وإنما هو نظام يحس به الشعب وقد خلقه من نفسه خلقاً، وتكون كنتيجة لازمة لأسلوب مخصوص في التربية، ولعادات مخصوصة لها بطول الزمن قوة الملكات الفطرية.

والشعوب الأخرى التي تحاول تقليد الدستور الإنكليزي ولم يكن لها بعد ما للشعب الإنكليزي من الاستعدادات والملكات السياسية لا تستفيد من هذا التقليد غلا التخبط وعدم الاستقرار. وما أشد عنايتها حينئذ بالصيغ الدستورية، وما اكبر ولعها بالترنم بأغاني الدستور والتشدق بمواده، أما الشعب نفسه، أما مصالحه، فأمر ثانوي يأتي بعد تنفيذ نصوص الدستور، كأنما الشعب خلق للدستور لا أن الدستور وجد لخدمة الشعب ورفاهية الأمة. ما ذلك إلا لأن التقليد فيما يسمى (دستوراً) لا فيما يقصد من الدستور، في مظهر من مظاهر المدنية لا في: كيف تتكون المدنية. بينما الشعب الإنكليزي نفسه أو أي شعب آخر كون له دستوراً من نفسه لا يلقى الأهمية إلا على: ماذا يقصد من الدستور. وهكذا الضعف يخلق صفة الأمانة والإخلاص في المظاهر فقط، فما أشد الأمم الضعيفة تمسكاً بنصوص ما يسمى قوانين دولية، وما أخلص الفقهاء للنصوص الفقهية - لا للروح الفقهية - في وقت الضعف وانحطاط مستوى الإنتاج العقلي.

فحرية الفكر وحرية إبداء الرأي والمساواة أمام القانون - أو بعبارة أخرى الدستور نفسه - معان تغرس في النفوس ويروض عليها الشعب الفطري أو ما هو قريب منه حتى يقيد حريته الهوجاء التي لا تعرف حرمة للغير ولا للجماعة، وحتى يحد كل فرد من جشعه وأنانيته، ويومئذ توجد الحرية الصحيحة وتستعمل في موضعها وتتحقق المساواة أمام القانون فعلاً.

فالدستور قبل كل شيء معنى خلقي أو هو يرتكز على الأخلاق التي تأخذ صبغتها الوطنية، وما أحوجه لذلك في ثباته واستقراره إلى الدين والتدين. فكلما اشتد ميل الشعب الديني ازداد تمسكه بالدستور، وكلما تحللت حكومة من الحكومات من دينها كان حكمها إلى الديكتاتورية أقرب. وهل هناك في التاريخ الحديث من هو أشد تدينا وأعرق في الدستور من الشعب الإنكليزي والحكومة الإنكليزية؟

وإذن أولى بمصر أن تعنى بدينها وخلقها وبتنشئة شبابها على التربية الوطنية من أن تجري وتتعلق بمظاهر نفعها - أن كان فيها نفع - محدود، أولى بها أن تنظر فيما يخلق الشعوب ويبنيها لا فيما يظهر عليها من أثواب ويكون لها من ألوان!

محمد البهي قرقر

دكتور في الفلسفة وعلم النفس وعضو بعثة الإمام الشيخ محمد عبده

من تاريخ الأدب المصري

أحمد بن يوسف

المعروف بابن الداية

للأستاذ محمد كرد علي

كان والده من جلة كتاب الدولة الطولونية انتقل من بغداد إلى مصر، وكان من أهل المروءات والفضل، ونشأ ابنه أحمد في مصر كاتباً فصيحاً وشاعراً مجيداً، وحاسباً منجماً. وأصل آبائه من أقباط مصر على الغالب، وكان جدهم الأول سميه أحمد بن يوسف الكاتب وزير المأمون. ولأحمد هذا المعروف بابن الداية ثلاثة وعشرون مصنفاً فقدت ولم يبق منها فيما نحسب سوى قطعة من (كتاب المكافأة وحسن العقبى) تدل على علو كعبه في البلاغة وقد أثبت في كتاب المكافأة أخباراً في المكافأة عن الحسن والقبيح مما شاهده في عصره، وذكر قصصاً شهدها أو نقلت إليه عمن أحسن إلى إنسان فكوفئ على إحسانه، وساق في المكافأة على الحسن إحدى وثلاثين قصة، وفي المكافأة على القبيح إحدى وعشرين قصة، قال في آخرها: وإذ قد وفينا ما

وعدناك به من أخبار المكافأة على الحسن والقبيح ما رجونا أن يكون ذلك عوناً للاستكثار من مواصلة الخير، وتطلب المعارفة في الحسن، وزجر النفس عن متابعة الشر، وإبعادها عن سورة الانتقام في القبيح وقد قالوا: الخير بالخير والبادئ أخير، والشر بالشر والبادئ أظلم - رأيت أن أصل ذلك حفظك الله بطرف من أخبار من ابتلي فصبر، فكان ثمرة صبره حسن العقبى، وأخبار حسن العقبى تسعة عشر خبراً سقط بعضها فيما يظهر.

قال من أخباره: (حدثنا أحمد بن أبى يعقوب قال: أنكر المهدي على هرثمة بن أعين (من أكبر قواد بني العباس) تحككه بمعن بن زائدة وأمر بنفيه إلى المغرب الأقصى، فكلمه الرشيد فيه واستل سخيمته عليه. ومات معن، وزادت حال هرثمة، وشكر للرشيد ما كان منه. وأفضت الخلافة إلى موسى الهادي فتمكن منه هرثمة. وحدثت الهادي نفسه بخلع الرشيد، وجمع الناس على تقليد ابنه العهد بعده، وعلم بهذا هرثمة، وتذكر عارفة الرشيد فتمارض. وجمع الهادي الناس ودعاهم إلى خلع الرشيد ونصب ابنه مكانه فأجابوه وحلفوا

له، وأحضر هرثمة فقالوا له: تبايع يا هرثمة؟ فقال: يا أمير المؤمنين يميني مشغولة ببيعتك، ويساري مشغولة ببيعة أخيك فبأي يد أبايع؟ والله يا أمير المؤمنين لا أكدت في الرقاب من بيعة ابنك أكثر مما أكده أبوك لأخيك في بيعته. ومن حنث في الأولى حنث في الأخرى. ولولا تأول هذه الجماعة بأنها مكرهة وإسرارها فيك خلاف ما أظهرت لأمسكت عن هذا. فقال لجماعة من حضر: شاهت وجوهكم، والله لقد صدقني (وكذبتموني، ونصحني وغششتموني. وسلّم إلى الرشيد ما قدره الهادي فيه

قصة ثانية: (حدثني هرون بن بلال قال حدثني ياسين بن زُرارة قال: كان ببعض أرياف مصر نصراني من أهلها كثير المال فاشي النعمة سمح النفس، وكانت له دار ضيافة، وجرايات واسعة على ذوي الشعر بالفسطاط. فهرب من المتوكل رجل كنى عن اسمه لخطر منزلته، لميل كان من المنتصر إليه، فلما دخلها رأى فيها كثيراً من أهل بغداد، فخاف أن يعرف فنزع إلى أريافها، فانتهى به المسير إلى ضياع النصراني فرأى منه رجلاً جميل الأسر، وسأله النصراني عن حاله، فذكر أن الاختلال انتهى به إلى ما ظهر عليه. فغير هيئته، وفوض إليه شيئاً من أمره، فأحكم فيما أسند إليه واضطلع به. ولم يزل حاله يتزايد عنده حتى غلب على جميع أمره، وقام به أحسن قيام، فكان محل الرجل الهارب من النصراني يفضل كلما ذهب له.

وورد على النصراني مستحث بحمل مال وجب عليه. (وسأله) النصراني عن خبر) الفسطاط فقال: ورد خبر قتل المتوكل وتقلد المنتصر. ووافى رسول من المنتصر في طلب رجل هرب في أيام المتوكل يعرف بفلان بن فلان ويوعز إلى عمال مصر والشام بأن يتلقوه بالتكرمة والتوسعة فيلحق أمير المؤمنين في حال تشبه محله عنده. فعدل النصراني بالمستحث إلى بعض من أنزله عليه، وخلا الهارب بالنصراني فقال: أحسن الله جزاءك، فقد أوليت غاية الجميل وأحتاج إلى أن تأذن لي في دخول الفسطاط فقال: يا هذا إن كنت استقصرتني فاحتكم في مالي، فأني لا أرد أمرك ولا أزول عن حكمك؛ ولا تنأ عني، فقال له: أنا الرجل المطلوب بالفسطاط وقد خلفت شملاً جمّاً، ونعمة واسعة. إنما عدل بي الخوف على نفسي. فقال له: يا سيدي فالمال في يدك وما عندك من الدواب فأنت اعرف به مني فاحتكم فيه، فأخذ بغالاً وما صلح لمثله، وخرج النصراني معه. وقدم كتاباً إلى عامل

المعونة من مستقره، فتلقاه عامل المعونة في بعض طريقه، ووصاه وجميع العمال بالنصراني، وصار إلى الحضرة فأصدر إليهم الكتب في الوصاة به إلى أن قدم بعض العمال المتجرة فتتبع النصراني ورام الزيادة عليه فخرج إلى بغداد.

قال لي هرون إن ياسين قال له: إن النصراني حدثه أنه دخل إلى بغداد فلم ير بها) أدنى محلا، وأكثر قاصداً منه، ثم استأذنت عليه وعنده جمع كثير فخرج أكثر غلمانه حتى استقبلوني فلما رآني قام على رجليه ثم قال: مرحباً يا أستاذي وكافلي والقائم بي حين قعد الناس عني. وأجلسني معه وانكب على ولده وشمله، وأنا أتأمل مواقع الإحسان من الأحرار، وسألني عن حالي في ضياعي فأخبرته خبر العامل، وكان أخوه في مجلسه فنظر إليه من كنا عنده، وقال له: كنت السبب في تقليد أخيك فصار أكبر سبب في مساءتي، فكتب من مجلسه كتاباً إليه بجلية الخبر وأنفذه. وأقمت عنده حولا

في أرغد عيشة وأعظم ترفة. وورد على كتب أصحابي فخبروني بانصراف العامل عن جميع ما كان اعترض عليه في أمري. وأخرج أمر السلطان في إسقاط أكثر خراج ضياعي والاقتصار بي على يسير من مالها. قال ياسين فكتب النصراني ببغداد حجة أشهد فيها على نفسي أن أسلمه في جميع الضياع التي في يده (وسماها وحددها) لهذا الرجل الذي كان هرب، وصار بها إليه، فقال له: قد سوغك الله هذه الضياع، فأني أراك أحق بها من سائر الناس، فامتنع الرجل من ذلك وقال له: عليك فيها عادات تحسن ذكرك، وترد الأضغان عنك، ولست أقطعها بقبض هذه الضياع عنك. ورجع النصراني إلى الفسطاط فجدد الشهادة له فيها. فلما توفى النصراني أقرها في يد أقاربه، ولم يزاولوا معه بأفضل حال).

محمد كرد علي

ظاهرة هامة

للأستاذ عبد المغني علي حسين

يروي كثير من الناس عن بعض الذين ماتوا من أقربائهم أو أصدقائهم، أن هؤلاء، عندما حضرهم الموت كانوا يهتفون بأسماء بعض الذين سبقوهم إلى الدار الآخرة. ويروي الراوون أن المحتضر كان يتحدث إلى (الموتى) كما لو كانوا منه على مرأى وعلى مقربة. أما قول الناس في تعليل ذلك فهو أنه هذيان نتيجة اختلال الشعور. وبعض الناس يسلم بالعجز عن تعليل هذا الأمر. والجميع يعرفون بالتجربة أن المريض إذا نادى على الأموات) على حد قولهم، فقد تحقق دنو أجله، ولم يعد ثم أمل في تماثله).

هذه الظاهرة معروفة مشهورة في بيئتنا المصرية، ولا أحسب القارئ الكريم ألا قد سمع بها، إن لم يكن شهدها بنفسه. ولكن أرجو ألا يحسبها قاصرة على البيئة المصرية، أو على أية بيئة معينة، فالواقع أنها شائعة في العالم اجمع، ومعروفة بين بني البشر على اختلاف جنسياتهم وألوانهم ومدنياتهم ودياناتهم. وهي، بالنظر لشيوعها هذا، خليقة أن تسترعي اهتمام الباحث المفكر، سيما وأنها تتصل بذلك السر الأعظم: الموت. هذه الظاهرة قد استرعت فعلا اهتمام من اشتغلوا بالبحوث الروحية، وهي عندهم عظيمة الدلالة والخطر.

أمامي الآن كتاب أخرج في عام 1925، لأحد كبار الباحثين الروحيين الإنكليز، هو سر وليم باريت، عضو الجمعية الملكية البريطانية وفي هذا الكتاب دراسة مستفيضة لتلك الظاهرة الشائعة، ومن يتصفحه ير كيف يمكن أن يصل الباحث إلى نتائج خطيرة من ظواهر مشتتة لا تحمل في ظاهرها دلالة ولا قيمة علمية. عمد الباحث المذكور إلى دراسة هذه الظاهرة دراسة استقرائية على طريقة العلم الحديث التي بلغت به إلى ما بلغ. تلك الطريقة القائمة أولاً على شهود أكبر عدد ممكن من الظواهر، ثم وصف تلك الظواهر بدقة وتفصيل وصدق، ثم المقارنة بينها وملاحظة ما فيها من عناصر مشتركة، ثم استنتاج ما يمكن استنتاجه. ويأتي بعد ذلك استنباط التجارب للوقوف على مبلغ صحة هذا الاستنتاج.

لجأ سر وليم باريت إلى أصدقائه من أطباء ومديري المستشفيات الكبيرة في مدينة لندن، طالباً تمكينه من زيارة من يحضره الوفاة من المرضى كلما سمحت الظروف وسمح ذوو المريض، فحضر بنفسه عدداً كبيراً من الحالات، ودون ما شاهده وسمعه، وكانت تعاونه

في هذا العمل زوجته (ليدي باريت). وكتب أيضاً إلى أصدقائه من أطباء المستشفيات في عدد كبير من مدن العالم راجياً موافاته بوصف ما قد يعرض لهم في هذا الأمر. وبذا تم له جمع عدد كبير من تلك الحالات، رتبها وبوبها، وقدمها لجمعية البحوث الروحية بلندن ثم أذاعها على ملأ القارئين في هذا الكتاب.

في الكتاب وصف دقيق لكل حالة، وبه الأسماء والأمكنة مذكورة، وكذا الزمن باليوم والساعة والدقيقة. أما المحتضر فقد يكون رجلا أو أمرأة، شيخاً أو شاباً أو طفلاً، وقد يكون إنجليزياً أو أوربياً أو أمريكياً أو هندياً أو زنجياً، وهو في أكثر الحالات يعاني آلاماً جساماً، ووجهه متجهم، فإذا به ينسى ألمه برهة، ويتهلل وجهه ويقول: (ماذا أرى؟ هذا أنت يا فلان. لقد جئت لتستصحبني. . .) أو نحو ذلك من الكلام.

ولكن لو اقتصر الأمر على مثل هذا لما كان له كبير وزن من الوجهة العلمية، إذ من الممكن القول بأن المريض وقد برحت به العلة، وتسممت أعصابه، واضطربت دورة

الدم في مخه، قد اختلط عقله ولم يعد يفرق بين الحقيقة والخيال، وصار سواء عنده الشعور الذي يصل إلى مخه بالطريق المعتاد من الخارج والشعور الذي ينبعث من عقله الباطن، فالذكريات القديمة تتمثل له في شكل حقائق راهنة مصطبغة بالمشاعر المستولية عليه، فهو من هذه الوجهة كالنائم إذ يحلم بالفكرة كأنها شيء محسوس. ولكن الكتاب لا يحوي هذا الضرب من الحالات فقط، بل به مجموعة أخرى هي بيت القصيد، وهي النقطة الدقيقة حقاً التي عندها يرغم الإنسان على التفكير الجدي في أن كلام المحتضر لا يمكن أن يكون محض هذيان.

في الكتاب حالات هتف فيها المحتضر باسم شخص مات ولم يكن المحتضر يعرف إن ذلك الشخص قد مات، فكان يبدو عليه التعجب لوجود ذلك الشخص بين (الأموات) مع أنه - في زعمه - بين الأحياء. يكون المحتضر مثلاً قد دخل مستشفى منذ شهر أو أكثر، وفي تلك الأثناء توفي فجأة واحد من أقربائه، فكتم الأهل والأطباء عنه الخبر حتى لا تسوء حاله الصحية بتأثير الصدمة والحزن، فتأتي ساعة احتضاره فإذا به يحدث بعض الذين ماتوا من قبل، وبينا هو يحدثهم إذا به يقول مندهشاً (ما هذا؟ أهذا أنت يا فلان؟! وما الذي جاء بك مع هؤلاء، وكان يجب أن تكون في جهة كذا الآن؟. . .) ثم ينظر إلى الحاضرين

ويقول (لماذا لم تخبروني بأن فلاناً قد سبقني، فها هو ذا قد جاء ليستصحبني. . .) أو نحو ذلك من الكلام.

وإني أورد هنا حالة من تلك الحالات اخترتها لا لأنها مؤثرة بل لأن فيها جميع العناصر التي يطلبها الباحث: طفلة في الثامنة من عمرها تدعى جيني، لها صديقة في نحو سنها تدعى أديث. مرضت جيني ونقلت إلى مستشفى، وفي أثناء مرضها توفيت أديث فجأة، وكتم الخبر عن جيني، فلما جاء الموت يطلب جيني رجت الحاضرين أن يبعثوا بصورة من صورها إلى أديث كتذكار، مما يثبت أن الخبر كتم عنها حقيقة. وبعد دقائق من رجائها هذا قالت: (انظروا! هذه هي أديث. إنها تقول إنها ستكون معي. لماذا لم تخبروني بذلك. . .)

تدل ظواهر هذا النوع من الحالات على أن المحتضر يدرك تماماً أن في الحجرة معه طائفتين من الناس، الطائفة المعتادة من أهل هذه الدنيا، وطائفة أخرى من أهل العالم الذي هو قادم عليه، والطائفة الثانية لا تقل عنده عن الأولى وضوحاً، وليست ابعد عن حسه من الطائفة الأولى.

يقول المؤلف: (إن مثل هذه الحالات تضطر الإنسان إلى التسليم بالغرض الروحي، حتى أن البروفيسور شارل ريشيه لم يجد بداً من التسليم بأن نظريته عن الحاسة السادسة لا تكفي لتعليل هذا النوع من الظواهر. . .)

وفي الكتاب أبواب فيها وصف موسيقى سمعت ساعة احتضار بعض الناس دون أن يكون لها مصدر عادي معروف. وبهذه المناسبة أقول إن بعض من أصدقهم روى لي انه حضر موت شاب في ريعانه شبابه فسمع مع الحاضرين (زغردة) انبعثت من أحد أركان الحجرة، ولم تكن صادرة بطبيعة الظروف عن أية واحدة من الحاضرات.

وبعد فلعل القارئ الكريم يسلم معي بما لهذه الظاهرة وأشباهها من دلالة، وبأنها تفتقر فقط إلى الدراسة المنظمة. أما من وجهة الدين فهناك الأقوال بأن المحتضر يرى أرواح الموتى ويحادثهم: روي أن بلالاً كان يبتسم عند الموت، فقيل له في ذلك فقال (سنلقى الأحبة محمداً وحزبه) وروى ابن مالك عن أبي أيوب الأنصاري قال: (إذا قبضت نفس المؤمن تلقاها أهل الرحمة من عباد الله كما يتلقون البشير من الدنيا، فيقبلون عليه ويسألونه، فيقول

بعضهم لبعض: انظروا أخاكم ليستريح فإنه كان في كرب شديد. قال: فيقبلون عليه ويسألونه ما فعل فلان، ما فعلت فلانة. . .) الحديث.

عبد المغني علي حسين

اتجاهات الأدب العالمي في العصر الحاضر

وكيف يتجه أدبنا

للأستاذ خليل هنداوي

أيها السادة في هذه الجلسة أحدثكم حديثاً أراد البعض أن يكون جديداً، أو أنا نفسي كنت ولا أزال اطلب الجديد وألح في طلبه وأردد بيت الشاعر الزهاوي:

سئمت كل قديم ... حتى سئمت حياتي
إن كان عندك شيء ... من الجديد فهاتِ

ولكن أنى لي أن أعرف حدود هذا الجديد الذي تريدونه وأريده؟ وأنى لي أن أعرف الرجل الذي يستطيع أن يدلني على الجديد الذي يبغيه؟ إنني ما فكرت يوماً في هذا الجديد إلا ذكرت قول حكيم الجامعة: (لا جديد تحت الشمس) ومع هذا أراني كلما استقبلت هذه الشمس وما تحتها رأيت شيئاً جديداً، وما أضيق الحياة لو بقيت حدودها ماثلة لا تتزحزح كما تراها العين!

إني محدثكم حديثاً أرجو ألا تقيسوه بمقياس الجديد، لأننا لا نملك مقاييس صحيحة تفرق بين الجديد والقديم، فقد تعثرون في هذا الحديث على قديم وجديد. وليس هذا كل ما يهمني، وإنما همي أن أوجه عقولكم إلى (نصيب الأدب في حياة الأمم الحاضرة وحياتنا) ومتى ذكر الأدب هرعت وراءه صفوف من الذكريات لا تعد، أو احتشدت حوله جحافل من حياة الناس لا تحصى، لأن حديث الأدب هو حديث الحياة، ومتى كان حديث الحياة تافهاً؟ ومتى كان حديث الحياة يرويه رجل أو يحكم فيه رجل؟

قد يقول البعض: ولم اخترت هذا الحديث الذي إن خص بعضنا فلن يرضي عنه الجل؟ وما هو نصيب الأدب في الحياة الحاضرة حتى تحدثنا عن اتجاهاته وعهدنا الحاضر عهد علم ومادة، لا عهد بضائع كلامية؟ إنني لا أرى رأي من يقول باندحار سلطان الأدب، لأن الأدب، أو قولوا الفن، ليس بشيء غريب عن كياننا، ولا بعنقاء مغرب نحلق وراءها ونريد صيدها، ولا بثوب نرتديه ونطرحه متى نشاء. وأنى لنا أن نهمل الأدب إذا كان الأدب جوهراً كامناً في صميم أنفسنا، أو إذا كانت الحاجة إليه حاجة نفسية تأتي من داخل النفس لا من خارجها؟

ويقول البعض: ونحن لا نجحد قيمة الأدب ولكنا لا نجد فيه الهوة تنفي سأمنا وتملأ فراغنا حين ننتهي من جدنا، نتخذه مسلياً لا قائداً يتصرف بأمورنا، ولكن هذا الأدب قد يكون ضرباً من اللهو يتفكر به قوم قل جدهم ولكن ليس الأدب كله. وكيف يكون الأدب الذي يمثل حياة الناس ويصور هناءهم وشقاءهم، وحيرتهم وطمأنينتهم، ثم يأتي المجتمع يحاول أن يهدم هنا، ويبني هناك، كيف يكون هذا الأدب لهواً تلهون به في فراغكم وهو الأدب الذي ينفذ إلى النفس فيجردها من خرقها الرثة وينشئ لها حياة جديدة وجواً جديداً؟ وإذا كانت رسالة العلم، أن تقرب وسائل الحياة، وتنوع أسباب الرفاه والراحة فان رسالة الأدب من حياة الأمة رسالة تثقيف الروح وتهذيب النفس وصقل العقل. رسالة تنزل منها منزلة الإيمان، رسالة لا يستطيع العلم أن يقوم بها وحده. وما وحّد علم بين أبناء وطن واحد، ولكن الأدب وحد ويوحِّد!

أما حاسة الارتياح إلى الأدب والفن أو حاسة تذوقهما فهي حاسة جذورها بعيدة القرار في النفوس. هذه الحاسة تدفعنا بالرغم منا، وبدون وعي منا إلى أن نطلب الموسيقى مثلاً لأن نفوسنا تحن إليها، وإلى أن نغتبط بمطالعة قصة أو إنشاد قصيدة تمثل نفوسنا برغم المادة التي ترين على قلوبنا. هذه الحاجة هي ميزان أذواقنا وميولنا، لاشيء يقدر على إخمادها، والذهاب بها. ناهيك بأن كثيراً من هذه الأنواع الفنية والأدبية ما تتصل أسبابه مباشرة بأسباب حياتنا الاجتماعية، وان الأديب الذي لا يشعر بهذه الحاجة التي تسوقه إلى الكتابة لا يستطيع أن يبدع شيئاً، أو الفنان الذي لا يحس هذا الدافع في نفسه لا يقدر أن ينشئ شيئاً!

كانت المقاييس التي توجه الأدب والفن أيها السادة مقاييس فنية تستلزم صدقها ودقتها من الأدب والفن نفسها. عودوا مثلاً إلى الأدب الفرنسي وانظروا كيف يدرسه الطلاب على مقاييس فنية صرفة، أما اليوم فقد تبدلت المقاييس وأخذت مقاييس المبادئ الاجتماعية والسياسية تطغى عليه. وبحسب هذه المقاييس تغيرت اتجاهات الأدب والفن، وتطورت غاياتهما في الجيل الحاضر. وتعليل ذلك أن الأدب كان يحيا منكمشاً بنفسه يصف الجمال للجمال، ويرسم الفن للفن، ويقنع بأن يطل على الحياة إطلالاً، ويعمل على إكبار شأن الفرد ويجعل الأديب نفسه قلب الوجود تتلاقى فيه الأشياء أكثر مما يتوزع في الأشياء. وأما اليوم فقد خرج إلى الحياة، وإلى المجتمع وإلى السياسة. فأصبحنا ندرس الأدب على هذه الطريقة.

من الأدب الأدب الذي لا غاية له إلا نفسه. يتغنى الشاعر مثلا لأنه يريد أن يغني لنفسه

ويسمع ألحان نفسه؛ ومن الأدب الذي نزل إلى المجتمع وخبر خلائق الناس وعالج الحياة؛ ومن الأدب الذي تفيأ ظل الدولة والسياسة والأحزاب. أما الأدب الأول ففي إمكاننا أن ندعوه (الأدب الأرستقراطي) لأن الأديب فيه لا يعمل إلا لنفسه، أو لفئة نزره العدد تعجب به، فهو من نفسه في عالم واسع المدد منفصل عن هذا الوجود، والأدب الثاني ندعوه (الأدب الديموقراطي) يعنى بالطبقة الوسطى ويعالج مسائلها ويصور آلامها ويقلب وجوه حياتها؛ والأدب الثالث ندعوه (أدب الأزمة) تخلقه أزمة اجتماعية كأدب الثورة الفرنسية، وأدب الثورة البلشفية الحمراء، أو تبدعه أزمة سياسية كأدب الحرب العظمى الذي صور فضائع الحرب وجوها المكفهر، وأدب الفاشية الإيطالية، والهتلرية النازية. أو تخلقه أزمة عصبية أو دينية أو اقتصادية. وقد يقوم أدب على غير هذا الغرار يتجرد من كل هذه العوامل الضيقة، عوامل الزمان والمكان، أدب شامل إنساني يعانق الإنسانية من أقصاها إلى أقصاها على اختلاف شعوبها ونزعاتها. ولكن حدث هذا الأدب يقوى في أيام البلاء ويخفف من أيام الهناء، لأن الشقاء يقرب الضعيف من الضعيف! حتى إذا استراح الاثنان عادا إلى نزاعهما الذي لا ينتهي.

ومن ذا لا يتأمل في أدب اليوم ولا يجده ميدان صراع في كل بقعة من بقاع الحضارة؟ فأدب الأمم الديمقراطية يذود عن الديمقراطية ويدافع عن حرية الفرد بما في وسعه أن يدافع، لأنه يعلم أن تقييد الأدب هو نوع من القضاء على حريته التي لا يحيا إلا بها. هذه الحرية يتباهى بها لأنه يراها مستمدة من حرية الحياة التي لا تضيق، وأدب الأمم الدكتاتورية يصول صولة أربابها ويفرض على الناس نفسه، فبينما نرى في الأدب الديمقراطي كل فرد يفكر وحده تفكيره الخاص، له استقلاله وذاته وعالمه واعتقاده، نرى في الأدب الدكتاتوري أن الفرد الواحد يفكر تفكير الأمة كلها، وأن الأمة كلها تفكر تفكير هذا الفرد. وخير ممثل للأدب الحر المدرسة الأدبية الفرنسية التي لا تزال تحترم مبدأ ثورتها الذي أعلن حرية الفرد وزاد عنها. ولعل الوضع السياسي الذي خرجت به من

الحرب العظمى أيد هذا الأدب، ولم يزج بها في أحضان الآداب الأخرى التي ولدتها الأزمات المختلفة. وفي هذه المدرسة تجد ألوان الأدب والتفكير متآلفة على اختلافها، فيها الأدب الفردي والأدب الاجتماعي والأدب الإنساني والأدب الشعبي والأدب الشيوعي، ولكن هذا لا يجعلنا نقول: إن مقاييس أدبها وفنها لم تختلف، فلقد تبدلت المقاييس الفنية، وكاد يحل محلها مقاييس تتبع النظريات السياسية والاجتماعية، ولكن محمدة هذه المدرسة أنها وسعت كل هذه الألوان المتقاربة، وهذه المبادئ المتنافرة، وتقبلتها كلها باسم الديمقراطية. . .

إن أدب الأمم الدكتاتورية يسعى كما توجهه الدكتاتورية، ضيق الفسحة، قريب الغاية، سليب الحرية، لأن أصحابها جعلوا منه وسيلة للدعاية المحلية، ويسيطروا على كل ما يتفرع من الأدب والفن كالمسرح والسينما. وأول من بشر بأدب (الدعاية) الأديب الروسي (بليكانوف) الذي كان يقول في مطلع هذا القرن (إن كل أثر فني مرتبط بحياة الشعب السياسية) وقد شاعت هذه النظرية في مؤتمر (فولنا) الذي انعقد في (روما) سنة 1934 للبحث في أدب المسرح وفنه، فقال فيه أحد مخرجي السوفييت: (إن أدب التمثيل بحاجة إلى الاقتراب من الشعب، وملامسة روحه) وقال فيه أحد فناني الألمان: (إن السياسة الممثلة يجب أن تتمثل في أدب التمثيل لأن السياسة اليوم هي روح حياة الشعوب).

وفي روسيا بعد هدوء ثورتها الاجتماعية أدرك أقطابها قيمة الفن، فسخروا كل أنواع الأدب والفن لنشر دعاياتهم ومبادئهم. وعن السينما يقول (لينين) إنها الفن الأول للثورة. . . لأنها تصور الآلام الاجتماعية التي كانت ظهور الناس تلتوي تحتها، وتهيئ النفوس لحياة أعدل ومثل أعلى. وفي المؤتمر الأخير الذي عقده أدباء الروس قال أديبهم الكبير (مكسيم غوركي): (إن الدولة اليوم يجب أن يقودها ألوف من أرباب الثقافة الكاملين. وهذه وسيلة ضرورية لترد على الشعب العامل وسيلة إنماء عقله وبراعته ومواهبه التي هي حق من حقوقه المسلوبة في جميع أنحاء العالم. هذه الغاية التي تتحقق بالعمل - تحتم علينا - نحن الأدباء - أن نكون مسئولين عن عملنا وسلوكنا الاجتماعي وهو عمل لا يحيل منا أدباء واقعيين، وقضاة على الناس ونقاداً للحياة

فحسب. وإنما هو عمل يعطينا الحق بإنشاء حياة جديدة وتطور جديد. ومثل هذا الحق يوجب على كل أديب أن يشعر بمسئوليته الخطرة في
هذه المرحلة).

هذا ما يقوله (مكسيم غوركي) اشهر أدباء الروس والأديب الأكثر إنسانية في أكبر مقاطعة غذت الآداب بالأدب الإنساني، لأن تيار (الدعاية) قذف به إلى حيث يريد! وهكذا ارتدى الأدب رداءاً محلياً حتى غدا الأدب في روسيا أدباً روسياً والفن فناً روسياً! وكذلك الأمر في (الفاشية) فأنها عملت بهذا المذهب القائل (إن الموضوع الأدبي يجب أن يستمد من قلب الأمة لا من المحيط الخارج عنها) وأصبحت تريد من الفن أن يخدم الدولة. . .

أما الهتلرية الجرمانية فقد أرادت أن تتفوق في هذا الباب، فسخرت العلم الذي لا يسخر للدلالة على أصالة الجنس الجرماني وطهارته من أخلاط العناصر وقد طغت أيّما طغيان على حقول الأدب والفن. يقول ممثلها في أحد مواقفه: (إن كل ما نعجب به اليوم من علم وفن واختراع إن هو إلا وليد فئة قليلة من الشعوب. وربما كانت هذه الفئة تنسلها سلالة واحدة ومن هذه السلالة تنحدر الثقافة الإنسانية. . . لتتوار هذه الفئة، فكل جمال الحياة يتوارى معها. . . أريد أثراً جرمانياً يبقي اثر الجرمانية فيه بعد ملايين السنين) وقد أيد هذه النظرية أحد رجالها بقوله (أنا نريد فناً حقيقياً، فناً جرمانياً يستمد روعته من قلب الإبداع الفني، فناً يدخل إلى أعماق نفوسنا ويهزها هزاً!) ويقول وزير دعايتها (في اللحظة التي تسطر فيها السياسة رواية شعب ما، حيث يتلاشى عالم وينشأ عالم، حيث تزول قيم عتيقة وتقوم قيم جديدة، لا يجدر برجل الأدب والفن ولا يحق له أن يقول: هذا شيء لا يهمني ولا يعنيني. . . ونحن، رجال السياسة - إزاء هذه الحركة، رجال فن لأننا نهيئ شعباً. ولست أدعو إلى أن يكون الأدب عسكرياً، وإنما يجب على الأدب أن يخلق ويصور العلاقات المرتبطة بهذه الحركة الانقلابية. . . يجب على الأديب أن يجر نفسه إلى الزوبعة التي تعصف في وطنه. يمشي تحت عجاجتها ولا يقف شاهداً على الربوة! إننا نحكم على الفن والأدب بالنسبة إلى تأثيرها في الشعب. وكل ما خالف هذا لا نرضاه. . .)

(البقية في العدد القادم)

خليل هنداوي

بحث في الإيمان

للأستاذ علي الطنطاوي

إلى الأخ البغدادي الذي كتب إلي أمس

كتبت إلي تسألني عن الإيمان، وتريد دليلاً عقلياً على صفات الله السمعية، وصورة حسية لما خبر به من المغيبات كالجنة والنار، والجن والملائكة، حتى لكأنك تراها بعينك، وتعرض للقضاء والقدر وتسرد شبهاً عرضت لك تطلب مني ردها، إلى آخر ما ذكرت في كتابك من مسائل تنوء بها أكبر الأدمغة البشرية. وتعجز عن حلها العقول العظيمة، بَلْهَ عقل مثلي ودماغه. من أجل ذلك أزمعت السكوت عن الجواب، ثم بدا لي فرأيت الكلام في هذه المسألة واجباً. لأن معرفة الله أول مطالب الحياة، وأسمى غاية لوجود البشر، ولأن الشباب في حاجة إلى مثل هذا البحث؛ ثم إن البحث في ذاته لذيذ ممتع. فأقدمت على فتح بابه، وذكرت ما ألهمته فيه.

المعارف البشرية

أورد النسفي رحمه الله في أول عقائده هذه الكلمة الجامعة قال: (حقائق الأشياء ثابتة، والعلم بها متحقق وأسباب العلم كثيرة: الحواس السليمة، والعقل، وخبر الصادق المعصوم) أي أن المعارف البشرية إما أن تكون مشاهدة محسة نراها ونسمعها، وإما أن تكون معقولة ندركها بالفكر والقياس الصحيح، وإما أن تكون مغيبة علمنا بها من طريق الوحي. أما المحسنات فيتساوى فيها الناس والحيوان. وليس في إدراكها ميزة للناس، وإن كان أفقها عند الناس أوسع. وإدراكهم لها أرقى. وأما المعقولات فيستوي فيها الناس كلهم من كل ذي عقل سليم. وأما الإيمان بالمغيبات فهي الميزة التي تمتاز بها عقول المؤمنين الذين يشاركون الناس في الحس والتفكير، ويختصون دونهم بالإيمان.

وسنحاول أن ندرس فيما يلي قيمة كل مصدر من مصادر المعرفة الثلاثة.

الحواس
تستطيع أن تشك في كل شيء، ولكنك لا تستطيع أن تشك في شيء تراه أو تلمسه، لأن الحس أصح طرق المعرفة وأدناها، ولأنك إذا قلت: هذا الشيء (محسوس)، تكون قد
عبرت بأبلغ تعبير عن الثقة بوجوده، والاطمئنان إليه، والحواس هي طريق المعرفة الأولى، والنوافذ التي تطل منها النفس على العالم الخارجي، فلو أغلقت هذه النوافذ آض العالم عدماً. ولو أن رجلاً ولد أعمى أصم لكان عالم الألوان والأصوات (بالنسبة إليه) غير موجود، ولما استطاع مطلقاً تصور الخضرة والحمرة. . .
كل هذا مسلم به، ولكن هل يحق لنا أن ننكر وجود شيء من الأشياء لأننا لا ندركه بحواسنا؟ هل يجوز لنا أن نقول إنه ليس في الوجود ملائكة مثلاً، لأننا لم نر الملائكة ولم نسمع أصواتهم ولم نلمسهم؟ هل نستطيع أن ننكر الشياطين؟
وبالعبارة الثانية: هل هذه الحواس كاملة تطلعنا على كل شيء في الوجود؟ وهل هي صادقة لا تخدعنا ولا ترينا الشيء على غير حقيقته؟
إني أسألك أولاً: كم هي الحواس؟ فتقول إنها خمس، فأسألك: ألا تعرف لها سادسة؟ فتضحك وتحسبني أمزح، لأن الحواس كاملة لا يمكن الزيادة عليها. وأنها مشهورة معروفة من قديم الزمان، لم يفكر أحد أن بالإمكان كشف حاسة سادسة لها.
بينما يعرف صغار طلبة البكالوريا الذين يقرءون علم النفس، أن هناك حواس أخرى، وتعرف ذلك أنت إذا دققت في نفسك وحللت مشاعرك؛ ألا تشعر بالتعب موجوداً في عضلاتك عقب المشي الطويل أو الحركة العنيفة؟ ألا تحس بالجوع والعطش والتهاب الجوف، وغثيان النفس؟ فبأي حاسة من الحواس الخمس عرفت ذلك؟ أأبصرته أم سمعته، أم شممت ريحه أم لمسته؟ إنك لم تدركه بشيء من ذلك، بل بحاسة سادسة دعنا نسمها (الحاسة المشتركة) مثلاً. . .
ثم. . . ألا تحس وأنت مغمض عينيك بأن يدك ممدودة أو مرفوعة، وأن كفك مقبوضة أو مبسوطة؟ إنك لم ترها، ولم تدركها بحاسة من الحواس الخمس، وإنما أدركتها بحاسة سابعة دعنا نسمها (الحاسة العضلية) مثلاً. . .
وكذلك حسك بالحرارة والبرودة، فإنها حاسة ثامنة، وحسك بتوازن جسمك عند المشي أو الوقوف؛ بل لقد استطاع العلماء أن يكشفوا مركز هذا الحس، وان يعلموا أنه في الأذن الداخلية، في مادة كلسية مبلورة، لو أتلفت في حيوان فقد حسَّ التوازن وسار مترنحاً كما يترنح السكران. . .
فالحواس ليست كاملة لأن الكامل لا يقبل الزيادة، وما دامت ناقصة فسيظل في الوجود أشياء لا ندركها أو ندركها ولا ندري أننا ندركها.
ولنأخذ الكائنات التي ندركها، هل ندركها كاملة؟ أنا أرى الألوان ولكن هل أراها كلها؟ هل أرى ما وراء الجدار؟ هل أبصر عصفوراً على شجرة من مسيرة يوم؟ هل أمّيز رجلاً في الصحراء على بعد عشرة أميال؟ وأنا أسمع الأصوات، ولكن هل أسمع صوت نملة تسير على التراب؟
أفيحق لي أن أنكر أن للنملة صوتاً لأني لا أسمع هذا الصوت؟ أو أن أجحد ما وراء الجدار لأني لا أبصر ما وراءه؟ فأنا إذن أدرك من الكائنات أنواعاً معدودة، وأدرك من هذه الأنواع مقادير محدودة.
وهذه المقادير التي أدركها، هل أدركها على حقيقتها؟ ألا تخطئ حواسي أو تضل؟ إني أضع إصبعي الوسطى على السبابة ثم اجري القلم على باطن الإصبعين فأحس بقلمين. . . وأضع العود المستقيم في الماء فأراه منكسراً. . . وأنظر في الصحراء فأرى الرمال مياهاً غزيرة. على حين انه ليس هناك إلا قلم واحد، وإن العود المستقيم يبقى في الماء مستقيماً، وإن رمال الصحراء لا مال فيها، ولكن حواسي أخطأت وضلت. وأنظر أي كتاب من كتب علم النفس (السيكولوجي) تر من ذلك شيئاً كثيراً، فإذا كانت هذه هي قيمة الحواس، فهل يحق لنا أن نجعلها وحدها طريق المعرفة، وأن ننكر كل أمر لا تقع عليه حواسنا؟ ألا ننكر نفوسنا قبل كل شيء لأن نفوسنا وأرواحنا لا تدركها حواسنا ولا تعرف ماهيتها؟
الخيال
وإذا ثبت أن الحواس ناقصة محدودة، ثبت أن الخيال محدود، لأن الإنسان لا يستطيع

أن يتخيل شيئاً جديداً لم يدخل في دائرة الحس، ولأنه لا عمل للخيال إلا تأليف صور جديدة من الأجزاء القديمة. فالذي نحت تمثال فينوس لم يأت به من العدم، وإنما جمع في ذهنه أجمل أنف رآه، وأجمل فم، وأجمل عين، ثم ألّف منها صورة جديدة لم يدركها الحس بمجموعها ولكنه أدرك مفرداتها على كل حال. والذي صور الحصان المجنح، أخذ جسم الحصان وجناح الطائر. من أجل ذلك سمى كثير من علماء النفس هذا الخيال جامعاً، وكرهوا أن يطلق عليه لفظ (الخيال المبدع). فكيف إذن تستطيع أن تتصور الجنة أو

الملائكة أو الحياة الأخرى وأنت لم تدرك بحواسك أي جزء من أجزائها؟ إنه ليس في النفس شيء لم يدخل لها من العالم الخارجي، وأنت لم تعش في الجنة، فإذا قلت لك مثلاً. . . إن في الجنة أنغاماً موسيقية عطرة، أو أن فيها عطوراً لها رائحة خضراء، فهل تستطيع أن تتخيل هذه الأنغام العطرة، أو هذه الرائحة الخضراء؟ هل تقدر أن تتخيل بعداً رابعاً غير الأبعاد الثلاثة المعروفة (الطول والعرض والارتفاع)؟ هل تتصور مثلثاً ليس له زوايا، ودائرة ليس لها محيط؟ كذلك لا تقدر أن تتصور أن لله يداً ليس لها طول ولا عرض ولا جسم ولا صلابة ولا صفة من الصفات البشرية ولا تشبه الأيدي ولا تشاركها إلا في الاسم. ألا تجد نفسك مضطراً إلى التسليم بالعجز والإقرار بأن المستحيل على الخيال البشري الوصول إلى معرفة ذات الله وصفاته الإلهية؟

العقل

تقدم معنا أن الحواس خدعت، فأحست القلم قلمين، ورأت العود المستقيم منكسراً، والسراب ماء، ولكن العقل لم يخدع، وكان يعلم انه قلم واحد، وأن العود مستقيم، والسراب ليس بماء، فالعقل إذن أوسع قدرة، وأصح حكماً من الحواس. ولكن أليس لقدرته حدود؟ هل يقدر العقل على أن يحكم على كل شيء؟

الجواب: لا. لأن العقل لا يستطيع أن يحكم على شيء، أو يدركه إلا إذا حصره بين شيئين هما الزمان والمكان. لذلك يسأل العقل دائماً: متى؟ وأين؟ فلو قلت لك: إن حرباً وقعت ولكنها لم تقع اليوم ولا أمس ولا قبل سنة ولا أقل ولا أكثر لم تصدق ذلك ولم تدركه. ولو قلت لك: إني رأيت مدينة ليست في شمال ولا جنوب ولا سهل ولا جبل ولا هواء ولا هي في مكان، رددت ذلك وكذبته، لأن الزمان والمكان ركنا العقل لا يقوم إلا عليهما. وبديهي أن ما اتصل بذات الله لا يخضع للزمان والمكان، ولا يطلق عليه متى وأين. . . ولذلك يعجز العقل عن إدراك أي شيء يتصل بالله عز وجل وصفاته، ولا يستطيع أن يعرف عنهما شيئاً بلا معونة من الخارج.

ثم إن العقل محدود، فلو قلت لك: إن خطاً أبيض يمتد في الظلام ليس له آخر، وأردت أن تفكر في هذا الخط، وتجمع في إدراكه عقلك، لعجزت عن إدراكه وشعرت بأن عقلك ينازعك منازعة شديدة إلى وضع آخر له، ويميل إلى قطعه وإدراك نهايته. ولو قلت لك:

أن المؤمن خالد في الجنّة دائماً دائماً دائماً. . . وفكرت في ذلك لأحسست من عقلك ميلاً قوياً إلى وضع حد لهذا الدوام. ويتجلى هذا الميل في الرياضيات العالية التي فرضت اللانهاية نقطة وجعلت منها (+ (? لانهاية موجبة، و (- (? لا نهاية سالبة. . .

فإذا كان العقل محدوداً، فكيف يحيط بالله وهو عز وجل غير محدود؟ هل يمكن أن تضع بغداد في غرفتك؟ لا. والله المثل الأعلى!

الوحي

بَيّن لك من هذا ضرورة الوحي، والوحي ضرورة عقلية وضرورة عملية.

أما ضرورته العقلية فما رأينا من عجز العقل عن إدراك ما وراء المادة، وعن معرفة الله، فلم يكن بد من إتمام نقص العقل بعلم من الخارج، وهذا هو الوحي.

فالوحي علم خارجي يصل إليه العقل بالسماع والتعلم، كما أن المعارف المعقولة علم داخلي يصل إليه العقل بالإدراك والتفكير، وكلاهما من الله. لذلك لا يمكن أن يكون بينهما تناقض مطلقاً، لأن الله عز وجل مبدع حكيم؛ ومن شروط حكمة المبدع ألا يكون فيما يبدعه تناقض، فالدين الصحيح (أعني الوحي) والعقل السليم متفقان في المبدأ، متعاونان على بلوغ الغاية، لا يقوم أحدهما إلا بالآخر. فلابد للوحي من عقل يدركه ويؤمن به، ولابد للعقل من وحي يكمل نقصه، ويمكنه من إدراك مالا يستقل بإدراكه منفرداً. وليس معنى هذا أن العقل يستطيع إدراك كل ما جاء به الوحي، لأنه لو

كان هذا لما كان للوحي من حاجة، ولكن معناه أن الوحي لا يناقض العقل، ولا يوجب ما يحيله، أو يحيل ما يوجبه.

وأما ضرورته العملية فهي أن الفضيلة والعدالة لا تقومان في الأرض إلا بقيام الدين. وبيان ذلك أن الإنسان مسوق أبداً في حياته بالمنفعة الخاصة، لا يعمل عملاً إلا إذا كان له فيه فائدة أو لذة؛ وعبثاً تحاول حين تحاول أن تجد عملاً واحداً يعمله امرؤ لمنفعة غيره فقط. . . ولست بحاجة إلى سرد أمثلة من لاروشفوكلد فقد نشرت عنه الرسالة فصلا ممتعاً في عدد من أعدادها الماضية لا أذكر رقمه تستطيع أن تفتش عنه وترجع إليه، ولكن أسأل القارئ وآمل أن يجيب بإنصاف: هل يتصور رجلاً ملحداً (لا يؤمن بالله واليوم الآخر) فقيراً جائعاً ليس معه إلا قرش واحد لعشائه يضع هذا القرش في صندوق الطيران الوطني أو صندوق جمعية خيرية من غير أن يراه أحد، ثم لا يخبر بذلك أحداً ولا يرجو (بالطبع) ثواب الله، وإنما وضعه حباً للآخرين؟ أو يتصور طالباً رأى ورقة جاره في الامتحان تستحق الرسوب، فضحى بنفسه من أجله فوضع اسمه على ورقته، ورضى بأن يرسب هو لينجح ذاك، واحتمل لوم أهله وتأنيب أصحابه، ولم يخبرهم ولم يخبر ذلك الطالب بما فعل، ولم يرج عليه ثواباً من الله، وإنما فعله حباً للآخرين؟

قد يفعل ذلك إذا كان عاشقاً؛ غير أن العشق أبعد شيء عن حب الآخرين، بل هو الأنانية بأفظع أشكالها. فأنت لا تحب مطلقاً شخص المحبوب، وإنما تحب لذتك فيه: تحب نفسك. ولو ضاعت هذه اللذة، بأن فقد المحبوب جماله بمرض مشوه أو بذل نفسه لغيرك لأقلعت عن حبه، بل لكرهته اشد الكراهية؛ والحب العذري خرافة ليس هذا موضع الكلام في بطلانها.

فمن هو إذن الذي يضع قرشه في الصندوق وينام جائعاً، ويؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة؟ هو المؤمن بالله واليوم الآخر لا لأنه أسمى من البشر فهو خارج عن النواميس النفسية، والمبادئ العامّة؛ بل لأنه يشتري لذة كبرى بلذة صغرى، فهي أيضاً أنانية. . . يبذل قرشه هذا ليأخذه في الآخرة أضعافاً مضاعفة، ويضحي بحياته هذه القصيرة الشقية لينال حياة طويلة سعيدة في الجنة. . . فالتضحية إذن لا تكون إلا ثمرة للدين، أي للوحي.

ولنعرض المسالة بشكل أوضح: لو محي الدين من الأرض هل تكفي القوانين والأخلاق الوضعية لضمان الفضيلة والعدالة؟ أما الأخلاق فليس لها مؤيد عملي، وأما القوانين فتؤيدها القوة، فالقانون معناه الشرطي، فإذا سرق اللص ولم يره أحد، ولم يقدر عليه الشرطي، فسرقته جائزة عملاً وإن لم تجز نظرياً. وإذا قتل القاتل ولم يشهد جريمته أحد فجريمته جائزة وهو غير مسئول أمام القانون. ونتيجة ذلك أن الجرائم تنتشر ويستعمل الناس ذكاءهم ومواهبهم في ابتكار الحيل للفرار من القانون كما نرى اليوم في بعض بلدان الغرب التي تستغل فيها العلوم والفنون للسرقة والغش والاحتيال، في حين أن الدين يؤيده اتباعه، وضامنه فيه. فالمتدين لا يستطيع أن يسرق أو يقتل ولو لم يره أحد، لعلمه أن الله يراه، ويطلع عليه، وهذه أقوى وسيلة لنشر الفضيلة:

لا تنهى الأنفس عن غيّها ... ما لم يكن منها لها زاجر

فكرة الإله

وهناك فائدة أخرى للتدين: هي الاطمئنان الذي يحس به المؤمن حيال النكبات والمصائب؛ فبينما نرى غير المؤمن مقبلاً على الانتحار، يائساً قانطاً، نجد المؤمن راضياً بقضاء الله مستسلماً إليه. وقد يفهم من هذه الفائدة أن الدين فطرة في الإنسان على حد قول دوركليم: الإنسان حيوان ذو دين وأكبر الأدلة على ذلك فكرة الإله. فالاعتقاد بوجود إله أزلي خالد قوي خير عادل موجود مع الإنسان منذ وجد الإنسان. وليس من حاجة لإقامة الأدلة العقلية على وجود الله، كما انه لا حاجة للتدليل على أن الجزء أصغر من الكل، لأنهما من البديهيات.

وبيان ذلك أن الإنسان لما بدأ يفكر نظر في نفسه فوجد فيها مبادئ لا يد له فيها، ولا يدري من أين جاءته ولا يعرف عليها دليلاً واحداً، وجد أن الذي هو هو.

الماء هو الماء، ليس الماء ورقة ولا شجرة ولا قطعة ولكنه ماء. . . والأرض هي الأرض. هذه بديهية ثابتة لا يستطيع العقل أن ينكرها مهما اختلفت الإعصار والأمصار، فما هو الدليل عليها؟

ما هو الدليل على أن الجزء أصغر من الكل، وأن وجود الشيء ذاته في الوقت عينه وانعدام هذا
الشيء مستحيل. إن التدليل على أمر معناه رد هذا الأمر إلى بديهية ثابتة. فكيف ندلل على البديهية وإلام نردها؟
وكيف يصح في الأذهان شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليل
ومثل هذه البديهيات تماماً الاعتقاد بوجود إله، بدليل أن البشرية لم تعش يوماً واحداً بغير هذا الاعتقاد وإن اختلفت المدارك فعرف بعض الناس الإله الحقيقي الذي لا تدركه الأبصار، وألصق بعضهم صفة الإله ببعض المخلوقات ثم عبدها لا لذاتها بل لأن فكرته عن الإله تمثلت له فيها - وقد يعترض على معترض بأن الشبان اليوم من ينكر الإله ولا يقر بوجوده فأجيب بأن هذا الشاب لو ضاع في صحراء ويئس من المعونة أو أصابه مرض عضال عجز عنه الأطباء لعاد مؤمناً بالله، ولآب إلى الله مقراً مستغفراً. فالإيمان لم يذهب من نفسه وإنما غطته عوارض زائلة. وذلك قريب من قول السيدة رابعة العدوية وقد خبروها أن (فلاناً) من العلماء أقام ألف دليل على وجود الله. فقالت لو لم يكن عنده ألف
شك لما أقام ألف دليل! قيل لها: فما هو إذن؟ قالت من ضاع في الصحراء وانقطع ماذا يقول؟ قالوا يقول: يا الله! قالت: ذاك هو الله. وقول اناتول فرانس: إن كذا غراماً من السكر في بول أشد الناس إلحاداً ترده مؤمناً. يريد أنه لو أصيب بمرض ويئس من الحياة.
فإذا عرفت يا سيدي قيمة الحواس، وحدود الخيال، وطاقة العقل، وفائدة الأيمان، كنت أنت الذي يجاوب على ما بعثت لي به من أسئلة. والسلام عليك ورحمة الله.
(دمشق)
علي الطنطاوي
مدرس الأدب العربي في الكلية الشرعية ببيروت
الفلسفة الشرقية بحوث تحليلية
بقلم الدكتور محمد غلاب أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين
- 17 -
المدرسة اليوجية
نشأت هذه المدرسة حوالي القرن الثاني قبل المسيح على أصح الأقوال وسارت في تعاليمها على منهج مدرسة (سامكهيا) ولهذا لم يكن لها في الإبداع الفلسفي شيء يستحق الذكر، وإنما يقدر مجهودها في السلوك العملي الذي بعثته من مرقده بعد أن طغت عليه عوامل أخرى شديدة التأثير. ويتلخص هذا السلوك في الزهادة التامة ومحاولة إنقاذ الروح من سلطان البدن ومحاسبة الإنسان نفسه على مقدار ما حصل عليه كل عضو على حدة من هذا التحرر من سيطرة المادة.
وعندها أن الإنسان مكون من قنوات كثيرة، وأن العلة الوحيدة في أنه لا يصل إلى مبتغاه من المثل الأعلى في الخلوص من الطبيعة هي أنه حين يتزهد لا ينجح في مراقبة جميع أعضائه، وإنما هو يسيطر على بعضها فقط. فالبعض المتروك هو سبب الرسوب في هوى الطبيعة السحيقة والرزوح تحت أنيارها الثقيلة والرسوب في أغلالها الضيقة.
أما من استطاع أن يخلص كليته بتمامها من سلطان المادة، فإنه يصير إلى نهاية المعرفة فينكشف له ما وراء الحجب ويحيط بأسرار الأقدار ويدرك كل ما تجري به أقلام الغيب وتحصل عنده القدرة الكاملة على قهر الزمان والمكان فينطويان أمامه متى شاء وكيف شاء. ويستطيع أن يختفي عن الأعين وأن يتشكل بأية صورة يشاء وأن يشكل جميع العناصر كما يريد، وأن يحيط بمكنونات أفكار غيره، وأن يظهر في عدة أمكنة في نفس اللحظة، فإذا وصل إلى هذه المرتبة فقد حصل على درجة الغيبوبة وتفانى في الكل الأول، وهذه هي عليا درجات الكون أو غاية اليوجية، ولعل ألطف رد على تلاميذ هذه المدرسة هو ما قاله أحد قواد إحدى الفرق الحربية الإنجليزية في الهند حين سمع هذه الميزات التي يعزوها (اليوجيون) إلى مدرستهم، فقال: ساخراً (إني أظن إن زهاد الهنود إن استطاعوا - كما يزعمون - التغلب على الزمان والمكان والاختفاء عن الأعين واختراق حجب الأقدار

ومعرفة خفايا الأسرار إلى آخر ما يدعون، فإني على يقين من أنهم لا يستطيعون التغلب على رصاص بنادقنا وقذائف مدافعنا).

غير أن نساك اليوجيين قد وجدوا لهذا الاعتراض رداً وهو أن حصول الشخص على الميزة شيء واستعمالها الفعلي الذي ينشأ عنه انقلاب نظام الكون شيء آخر.

ومهما يكن من الأمر، فإن هذه المدرسة تعتبر مثلاً أعلى في التنسك والزهادة وإن كانت تابعة لغيرها في الأفكار والنظريات. ولما كانت تعاليمها المتنسكة تتفق مع طبيعة الهنود وما فطروا عليه من روحانية وميل شديد إلى العزلة، وانعطاف قوي نحو التأمل في أسرار الكون وخفايا الوجود، فقد راجت مبادئها رواجاً عظيماً، واعتنقها خلق كثير، ولا تزال إلى اليوم حية آهلة بالمعتنقين والمريدين.

الفيدانتا

كان هذا المذهب في أول نشأته محصوراً في شرح (الفيدا) وتأويلها وتخريج آياتها المتشابهة، ولكنه بفضل تلك البحوث المستفيضة التي كان زعماؤه يخرجونها حول تلك النصوص العتيدة المغرقة في التعقد أخذ يرتقي شيئاً فشيئاً ويخطو إلى النظر العقلي خطوات واسعة حتى تحول إلى فلسفة نظرية عويصة في عهد (سانكرا) ذلك الفيلسوف العظيم الذي يؤكد الباحثون العصريون أنه لا يقل عمقاً في التفكير ودقة في النظر وغوصاً في بحر الفلسفة المنطقية عن (كانْتْ) و (هيجل) وهما أرقى فيلسوفين في العصر الحديث.

يرى هذا الفيلسوف أن العالم صدر عن الله بطريق الانبثاق، وهو يعود إليه بطريق الجذب، وهذه فكرة قديمة سبق بها الأولون هذا الفيلسوف بزمن بعيد، ولكنها أخذت تتطور بين مباحث هذه المدرسة حتى وصلت إلى حلولية من النوع الراقي، فقررت أن هذا العالم الظاهر ليس هو حقيقة الإله، وإنما هو كائن أدنى محدث، ولكن كل جزئية منه تشتمل على طرف من تلك الحقيقة الإلهية، ولهذا يجب أن يفهم الإنسان أن شخصه الخارجي الذي يشبه غيره في شيء ويختلف عنه في شيء، والذي يولد ويموت ويأكل ويشرب ليس في الحقيقة شيئاً مذكوراً وإنما الذي يجب أن ينظر إليه في شخصه هو الحقيقة الإلهية، لهذا يصح أن يقال له: أنت الإنسان والإله، أنت الخالق والمخلوق، والعابد والمعبود، أنت المشخص و (اللا مشخص). وإذا صرفنا النظر عن الناحية الدنيا فيه، قلنا له: أنت الواحد الأوحد والكل الأعلى والأول والآخر.

ولما كانت هذه المدرسة تؤسس تعاليمها على أن عالم الظاهر لا يساوي شيئاً كما أسلفنا، فقد احتقرت المعرفة الظاهرية واستخفت بالتجربة والمشاهدات إلى أبعد حدود الاستخفاف وأعلنت أن المعرفة الوحيدة الجديرة بالإجلال هي معرفة الحق الأعلى أو هي ما كان موضوعها الحقيقة الإلهية، وإنها لا تجيء غلا عن طريق الإلهام البصيري الذي يتوصل غليه بالتنسك والرياضة والخلوص من المادة. وأخيراً أعلن (سانكرا) أنه لا يصل إلى (براهمان) إلا من تحققت لديه المعرفة الكاملة وتخلص من جميع علائق المادة، إذ هو في هذه الحالة وحدها يصل إلى درجة الغيبوبة الكاملة أو التفاني في الله أو السعادة الأبدية.

غير أنه لم يكد يعلن هذه الآراء حتى هب المتعصبون من البراهمة يرمونه بأنه بوذي يتقمص جسم براهمي، أو زنديق يرتدي ثوب متدين، لأن النتيجة الأخيرة التي انتهى إليها مذهبه هي نفس زبدة تعاليم البوذية، ثم جعلوا يحاربون مذهبه بكل ما أوتوا من قوة وسلطان حتى قضوا عليه، وكان ذلك موافقاً بالمصادفة لأوان الفتح الإسلامي، فاجتمع هذان العاملان وتكاتفا على قطع هذه السلسلة الفكرية من تاريخ الهند، وعلى بدء تاريخ جديد يبرز للباحثين اثر الإسلام في تلك الأصقاع على صورته الحقيقية.

خاتمة

الطبيعة - الرياضة - المنطق

لا نريد أن نغادر الحديث عن تلك البلاد إلا بعد أن نقرر في صراحة أن الفلسفة بجميع أقسامها: الإلهية والرياضية والطبيعية قد أزهرت فيها إزهاراً فائقاً، وأن المقدمة الضرورية للفلسفة وهي المنطق قد بلغت في مدارسها الحد الكافي للتفلسف الراقي.

فأما الإلهيات فأحسب أن ما مر بك فيها كاف للتدليل على ما نقول. وأما الرياضة

بجميع أقسامها فلم تصل في أي بلد آخر - إذا استثنينا مصر - إلى مثل ما وصلت غليه الهند من رفعة وارتقاء. ويكفي أن نصرح بأن الهنود هم أساتذة (فيثاغورس) اكبر رياضي اليونان على الإطلاق، وهم أساتذة العرب في الحساب والهندسة والفلك، بل إن أرقام الحساب المستعملة الآن في العربية هي هندية الأصل.

أما الطبيعة فحسبنا لنبرهن على سابقيتهم فيها أن نعلن أنهم قد وصلوا إلى نظرية (الذر) أو الجوهر الفرد قبل (ديموقريطس) و (لوسيب) أول قائلين بهذا في بلاد اليونان بزمن بعيد، وأنهم قاموا في الكيمياء بتجارب جبارة كلفت الكثيرين منهم الحياة نفسها كما روى التاريخ في عدة نواح من حديثه عن تلك البلاد.

وأما المنطق فهو قديم جداً في المدارس الهندية حتى ليرجعه بعض المؤرخين إلى القرن الثاني عشر. ولا شك أن أصحاب هذا الرأي يجزمون بأن المنطق الهندي هو أساس منطق أرسطو، ولكن البعض الآخر لا يصعد بالمنطق الهندي على سلم الماضي أكثر من عصر المدرسة اليوجية أي بعد عصر ارسطو، ولكن هذا الرأي الأخير غير صحيح، إذ أن المنطق قد وجد بلا شك في مدرسة (سامكهيا) وهي قبل أرسطو بزمن بعيد.

وعلى هذا نستطيع أن نجزم بأن الفلسفة بأكمل معانيها قد وجدت في بلاد الهند. وأن اليونان مدينة لتلك البلاد بكثير من نظرياتها التي يعتقد السطحيون أنها مبتدعة، وبالتالي نصرح أن الهند كانت ولا تزال لبنة هامة، بل حجراً أساسياً في بناء الفكر البشري الراقي ما في ذلك شك ولا ارتياب.

(يتبع)

محمد غلاب

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

1880 - 1937

للأستاذ محمد سعيد العريان

- 4 -

شاعر الحسن

كلف الرافعي بالشعر من أول نشأته، فما كان له هوى إلا أن يكون شاعراً كبعض من يعرف من شعراء العربية، أو خيراً ممن يعرف من شعراء العربية. . . كان الرافعي واسع الأمل، كبير الثقة، عظيم الطموح، كثير الاعتداد بالنفس؛ فمن ثم نشا جباراً عريض الدعوى طويل اللسان من أول يوم. . . وبهذه الكبرياء الأدبية الطاغية، وبما فيه من الاستعداد الأدبي الكبير، وبما في أعصابه من دقة الحس وسرعة الاستجابة لما تنفعل به بكل أولئك تهيأ الرافعي لأن يكون كما أراد أن يكون، وأن يبلغ بنفسه هذا المكان بين أدباء العربية.

وإذا كان الرافعي قد بدأ شاعراً كما أراد، فما كانت له خيرة في المذهب الذي آل إليه من بعد، ولكنها نوازع الوراثة، وعوامل البيئة، ودوافع الحياة التي كانت تضطرب به وتذهب به مذاهبها.

لم يكن الرافعي يقدر في أيام نشأته الأولى انه سينتهي من الأدب إلى هذه الغاية، وأن الحياة سترده من الهدف الذي يسعى إليه في مملكة الشعر إلى هذا الهدف الذي انتهى إليه في ديوان الأدب والإنشاء. وما كان أحد من خاصته وأصدقائه ليعرف أن الرافعي الشاعر الشاب الذي توزعته الصبابة، وفتنته الحياة، وتقاسمته لذات الصبا، وتعناه الهوى، وتصباه الحب والشعر والشباب - سيكون مكانه في غده هذا المكان في الدفاع عن الدين والذود عن العربية والصيال في سبيل الله. وما كان هو يأمل في مستقبله إلا أن يكون شاعراً تسير إليه في إمارة الشعر منزلة تحمل ذكر فلان وفلان من شعراء عصره.

ومضى الرافعي يسعى إلى غايته في الشعر، وقد تزود زاده من الأدب القديم، ووعى ما

وعى من تراث شعراء العربية. وكان أمامه مثلان من شعراء عصره يمتد إليهما طرفه ويتعلق بهما أمله: هما البارودي وحافظ؛ أما أولهما فكانت له زعامة الشعر، على مفرقه تاجُه وفي يده صولجانه، قد قوي واستحصد واستوى على عرشه بعد جهاد

السنين ومكابدة الأيام؛ وأما الثاني فكان في الشباب والحداثة، وكان جديداً في السوق، قد فتنته الشهرة وفتنت به من حوله؛ فأخذ الرافعي ينظر إليه وإلى نفسه، ويوازن بين حال وحال، ويقايس بين شعر وشعر؛ فقر في نفسه أنه هو وهو، وأنهما في منزلة سواء، وأنه مستطيع أن يبلغ مبلغه ويصير إلى مكانه إذا أراد؛ فسار على سنّته وجرى في ميدانه، لا يكاد حافظ يقول: أنا. . . حتى يقول الرافعي: أنا وأنت. . . وما فاته أن حافظاً يغالبه بالشهرة السابقة، ويطاوله بالجاه والأنصار، ويفاخره بمكانه من الأستاذ الإمام، وبمنزلته عند البارودي زعيم الشعراء، وبحظوته عند الشعب؛ فراح الرافعي يستكمل أسباب الكفاح ويستتم النقص؛ فأكد صلته بالبارودي، وعقد آصرة بينه وبين الأستاذ الإمام، ومضى يتحدث في المجالس، وينشر في الصحف، ويذيع اسمه بين الناس. وانتهز نهزة فذهب يستطيل بأنه (شاعر الحسن) وبأن حافظاً لا يقول في الغزل والنسيب. . .!

كانت المنافسة بينه وبين حافظ منافسة مؤدبة كريمة، لم تعكر ما بينهما من صفو المودات، ولم تجن على صداقتهما القوية، فظل الرافعي وحافظ صديقين حميمين، منذ تعارفا في سنة 1900 إلى أن قضى حافظ رحمه الله في سنة 1932.

ليس من همي أن أتحدث عن شعر الشاعرين، أو أقايس بين فن وفن وشاعرية وشاعرية، فقد يبدو لي هنا بعد ما بين المنزلتين في الموازنة بين الرافعي وحافظ في الشعر؛ وما يهمني في هذا الحديث إلا إثبات الصلة بين الرجلين؛ فمن أراد شيئاً وراء هذا فسيجد فيما أثبته هنا مقدمات البحث وهيكل البناء.

في أبان هذه المعركة الصامتة بين الرافعي وحافظ، قدم إلى مصر شاعر كبير لم يكن الرافعي يعرفه أو يسمع به أو قرأ شيئاً من شعره، ذلك هو شاعر العراق الكبير المرحوم عبد المحسن الكاظمي، ونشرت له الصحف غداة مقدمه قصيدة عينية من بحر الطويل، قرأها الرافعي فاستجادها ورأى فيها فناً ليس من فن الشعراء المعاصرين الذين قرأ لهم، فملكت نفسه وبلغت منه مبلغاً، فقرر لساعته أن يسعى إلى التعرف به، ليصل به حبله

ويقتبس من أدبه، وكان الرافعي يومئذ كاتباً بمحكمة طلخا، ففارق عمله بغير إجازة، وسعى إلى لقاء الكاظمي في القاهرة، وهو يمني نفسه بأن يكون بينهما من الود ما يرفع من شأن الرافعي ويجدي على أدبه. وكان في الكاظمي - رحمه الله - أنفة وكبرياء، فأبى على الرافعي أن يلقاه ورده رداً غير جميل، إذ كان الرافعي يومئذ نكرة في الأدباء، وكان الكاظمي ما كان في علمه وأدبه وشهرته وكبريائه، مع خلته وفقره. واصطدمت كبرياء بكبرياء، وثار دم الرافعي وغلى غليانه، فذهب من فوره فأنشأ مقالة (أو قصيدة، لا أذكر) نال فيها من الكاظمي ما استطاع أن ينال بذمه والزراية عليه والغض من مكانته؛ وما كان الرافعي مؤمناً بما كتب، ولكنه قصد أن يلفت الشاعر إليه بالإنذار والتخويف، بعد ما عجز أن يبلغ إليه بالزلفى والكرامة.

وفعلت هذه الكلمة فعلها في التقريب بين الأديبين، فأتصل الرافعي بالكاظمي وصفا ما بينهما وأخلصا في الوداد والحب حتى لم يكن بينهما حجاب، وحتى صار الرافعي أصفى أصفياء الكاظمي، وصار الكاظمي أشعر الشعراء المعاصرين عند الرافعي، ثم ارتفعت الصلة بينهما عما يكون بين التلميذ والأستاذ، وتصادقا صداقة النظراء؛ حتى أنه لما هم الكاظمي أن يسافر إلى الأندلس في سنة 1905 كتب كتاباً إلى الرافعي يقول فيه: (. . . ثق أني أسافر مطمئناً وأنت بقيتي في مصر. . .).

هؤلاء الثلاثة: البارودي، وحافظ، والكاظمي، هم كل من أعرف ممن تأثر بهم الرافعي من شعراء عصره. أما شوقي، وصبري، ومطران، وغيرهم ممن نشأوا مع الرافعي في جيل واحد فلا أعرف بينه وبين أحد منهم صلة تمتد إلى أيامه الأولى، وما سمعت منه - رحمه الله - حديثاً يشعر أن صلة خاصة كانت تربطه بواحد منهم في حداثته؛ فلعل عند غيري من أهل الأدب علماً من العلم يكمل هذا النقص ويسد هذه الخلة، فليتفضل من يعرف بنشر علمه مشكوراً على وفائه للأدب والتاريخ.

بدأ الرافعي يقول الشعر ولما بلغ العشرين من عمره، ينشره في الصحف وفي المجلات السورية التي تصدر في مصر، وكانت المجلات الأدبية كلها إلى ذلك الوقت في أيدي السوريين؛ فمجلة الضياء، والبيان، والثريا، والزهراء، والمقتطف، وسركيس،

والهلال، وغيرها - كان يقوم عليها جماعة من أدباء سورية: كالبستاني، واليازجي، وصروف،
وجورج زيدان، وسليم سركيس وغيرهم؛ وكانت إليهم الزعامة الأدبية في اللغة والأدب الوصفي والتاريخ، أما أدب الإنشاء فكان قسمة بينهم وبين أدباء مصر.
والآن أدع لصديقي الأديب الأستاذ جورج إبراهيم حنا، أن يتحدث عن الرافعي في أول عهده بالشعر؛ قال:
بدأت صلتي بالمرحوم الرافعي قريباً من سنة 1900؛ كنت يومئذ أقول الشعر، وكان) اسمي معروفاً لقراء مجلة الثريا، ولم أكن اعرف الرافعي أو اسمع به، وكان لأخيه الوجيه سعيد أفندي الرافعي متجر في شارع الخان بطنطا، يستورد إليه النقل والفواكه الجافة من الشام، وكنت زبونه، فذهبت إليه يوماً أشتري شيئاً من فاكهة الشام، إذ كان له بها شهرة وكان بي إليها شوق؛ فلما صرت إليه، لقيت هناك فتى نحيلاً في العشرين من عمره، يلبس جلباباً، جالساً إلى مكتب في المتجر قريب من الباب، فما رآني الفتى حتى ناداني ودعاني إلى الجلوس، ثم قال لي: أتعرف أني شاعر؟ قلت: لا؛ لست أعرف. قال: أنا مصطفى صادق الرافعي، وهذه الكراسات كلها من شعري. وعرض علي بضعة دفاتر كانت على المكتب، ثم استأنف قائلاً: ولكنه شعر الحداثة فهو لا يعجبني؛ سأختار أجوده وأمزق الباقي، وسأطبع ديواني بعد قليل قال: (وعرفت الرافعي من يومئذ، وقويت بيننا الصلة حتى صرت أدنى (!. . .فتعرفني أصدقائه إليه: يقرأ على شعره، ويستمع إلى رأيي فيه، ويستشيرني في أمره. وقد كان أوله كآخره، فما لبثت حتى أعجبت به وأحللته من نفسي أرفع محل من الحب والتقدير).
ظل الرافعي يقول الشعر لنفسه، أو ينشر منه في المجلات الأدبية، أو يقرؤه على أصدقائه. وأصدقاؤه يومئذ صفوة من شباب السوريين في طنطا: منهم الأديب جورج ابراهيم، والصيدلي غلياس عجان، والطبيب تُودرى، وكانوا يتخذون مجلسهم عادة في وقت الفراغ، في صيدلية (كوكب الشرق) بطنطا.
فلما كانت سنة 1903، وعمر الرافعي يومئذ ثلاث وعشرون سنة، نشر حافظ بك إبراهيم ديوانه، وقدم له بمقدمة بليغة كانت حديث الأدباء في حينها وطال الجدل حتى نسبها بعضهم إلى المويلحي. واستقبل الأدباء ديوان حافظ ومقدمة ديوانه استقبالاً رائعاً. وعقدوا له أكاليل الثناء. والرافعي غيور شموس، فما هو إلا أن رأى ما رأى، فعقد العزم على إصدار الجزء
الأول من ديوانه. وما دام حافظ قد صدر ديوانه بهذه المقدمة البليغة التي أحدثت كل هذا الدوي بين أدباء الجيل فإن على الرافعي أن يحاول جهده ليبلغ بديوانه ما بلغ حافظ، وإن عليه أن يحمل الأدباء على أن ينسوا بمقدمته ديوان حافظ.
وصدر الجزء الأول من ديوان الرافعي في الموعد الذي أراد بُعَيدَ ديوان حافظ بقليل، وقدم له بمقدمة بارعة فصل فيها معنى الشعر وفنونه ومذاهبه وأوليته، وهي وإن كانت أول ما نعرف مما كتب الرافعي، تدل بمعناها على أن ذلك الشاب النحيل الضاوي الجسد، كان يعرف أين موضعه بين أدباء العربية في غد. وإذا كانت مقدمة حافظ قد ثار حولها من الجدل ما حمل بعض الأدباء على نسبتها إلى المويلحي، فقد حملت هذه المقدمة الأديب الناقد الكبير الشيخ إبراهيم اليازجي على الشك في أن يكون كاتبها من ذلك العصر، مما يخادع نفسه في قدرة الرافعي على كتابتها. قال الأستاذ جورج إبراهيم:
لما هم الرافعي أن يكتب مقدمة ديوانه، جاء ألي في جلبابه والحر شديد، فحدثني من) حديثه، ثم سألني أن أهيئ له مكاناً رطباً يجلس فيه ليكتب المقدمة. فجلس في غرفة من الدار، ثم تخفف من لباسه. . واقتعد البلاط بلا فرش، وبسط أوراقه على الأرض وتهيا للكتابة؛ فحذرته أن تنال منه رطوبة البلاط في مجلسه الطويل، فقال: لا عليك يا جورج؛ غني لأحب أن أحس الرطوبة من تحتي. . . فينشط رأسي. . . ثم استمر في مجلسه يكتب وليس معه ولا حواليه من وسائل العلم إلا قلمه وأوراقه، حتى فرغ من المقدمة في ساعات. . .
قال: (فلما تم طبع الديوان أهدى نسخة منه فيما أهدى إلى العلامة الشيخ إبراهيم اليازجي، والشيخ اليازجي يومئذ أديب العصر وأبلغ منشئ في العالم العربي. وكان

الرافعي حريصاً على أن يسمع رأي الأستاذ اليازجي في شعره وأدبه، ومضى زمان ولم يكتب اليازجي، على حين تناولت كل الصحف والمجلات ديوان الرافعي ومقدمته بالنقد أو التقريظ، واحتفل به المؤيد احتفالاً كبيراً فنشر مقدمته في صدره، والمؤيد يومئذ جريدة العالم العربي كله.

قال: (واستعجبت أن يهمل أستاذنا اليازجي هذا الديوان فلا يكتب عنه، واغتم الرافعي لذلك غماً شديداً، إذ كان كل ما يكتب الأدباء في النقد لا يغني عن كلمة يقولها اليازجي. فذهبت أسأله، فقال لي: أنت على ثقة أن هذه المقدمة من إنشاء الرافعي؟ قلت: هو كتبها بعيني فما أشك في ذلك. قال اليازجي: وأنا ما أبطأت في الكتابة عن الديوان إلا من الشك في قدرة هذا الشيخ على إنشاء مثل هذه المقدمة؛ فأنا منذ أسبوعين أبحث عنها في مظانها من كتب العربية. . . قلت: يا سيدي، إنه ليس بشيخ، إنه فتى لم يبلغ الثالثة والعشرين. . .).

وكتب اليازجي بعد ذلك في عدد يونيو سنة 1903 من مجلة الضياء في تقريظ الجزء الأول من ديوان الرافعي ما يأتي:

(وقد صدره الناظم بمقدمة طويلة في تعريف الشعر، ذهب فيها مذهباً عزيزاً في . . . البلاغة، وتبسط ما شاء في وصف الشعر وتقسيمه وبيان مزيته، كلام تضمن من فنون المجاز وضروب الخيال ما إذا تدبرته وجدته هو الشعر بعينه. . .).

ثم انتقد الأستاذ اليازجي بعض ألفاظ في الديوان، وعقب عليها بقوله:

(على أن هذا لا ينزل من قدر الديوان وإن كان يستحب أن يخلو منه، لأن المرآة . . . النقية لا تستر أدنى غبار، ومن كملت محاسنه ظهر في جنبها اقل العيوب؛ وما انتقدنا هذه المواضع إلا ظناً بمثل هذا النظم أن تتعلق به هذه الشوائب، ورجاء أن يتنبه إلى مثلها في المنتظر، فإن الناظم كما بلغنا لم يتجاوز الثالثة والعشرين من سنيه، ولا ريب أن من أدرك هذه المنزلة في مثل هذه السن، سيكون من الأفراد المجلين في هذا العصر، وممن سيحلون جيد البلاغة بقلائد النظم والنثر).

بلغ الرافعي بالجزء الأول من ديوانه مبلغه الذي أراد، واستطاع بغير عناء كبير أن يلفت إليه أنظار أدباء عصره. ثم استمر على دأبه، فاصدر في سنة 1904 الجزء الثاني من الديوان، وفي سنة 1906 أخرج الجزء الثالث، وفي سنة 1908 الجزء الأول من ديوان النظرات؛ ومضى على سنته، معنياً بالشعر، متصرفاً في فنونه، ذاهباً فيه مذاهبه، لا يرى له هدفاً إلا أنه يبلغ منزلة من الشعر تخلد اسمه بين شعراء العربية.

وتألق نجم الرافعي الشاعر، وبرز اسمه بين عشرات الأسماء من شعراء عصره براقاً تلتمع أضواؤه وترمي أشعتها إلى بعيد؛ ولقى من حفاوة الأدباء ما لم يلقه إلا الأقلون من أدباء هذه الأمة، فكتب إليه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده يقول:

(أسأل الله أن يجعل للحق من لسانك سيفاً يمحق به الباطل، وأن يقيمك في . . . الأواخر مقام حسان الأوائل).

وكتب المرحوم الزعيم مصطفى كامل باشا يقول:

(وسيأتي يوم إذا ذكر فيه الرافعي قال الناس: هو الحكمة العالية مصوغة في . . . اجمل قالب من البيان).

وكتب حافظ، وقال البارودي، ونظم الكاظمي، وتحدثت الأدباء والشعراء ما تحدثوا عن الرافعي الشاعر. وظل هو على مذهبه ذاك حتى سنة 1911، ثم تطورت به الحياة، وانفعلت أعصابه بأحداث الأيام، فانحرف عن الهدف الذي كان يرمي إليه من الشعر، وتوجه وجهة جديدة في الأدب سنتحدث عنها بعد.

ليس كل شعر الرافعي في دواوينه، وليس كل ما في دواوينه يدل على فنه وشاعريته؛ فالجيد الذي لم ينشر من شعر الرافعي أكثر مما نشر؛ وقد كان في نية الرافعي لو أمهلته المنية أن يتبرع لشعراء اليوم بأكثر ما في دواوينه، ثم يخرج منها ومما لم ينشر ديواناً واحداً مهذباً مصقولاً، ليقدمه هدية منتقاة إلى الأدباء والمتأدبين، ولكن. . . ولكن الموت غاله فبطل أمله وبقي عمله تراثاً باقياً لمن يشاء أن يسدي يداً إلى العربية يتم بها صنيع الرافعي.

لم ينقطع الرافعي عن الشعر بعد تلك الفترة ولكنه لم يقتصر عليه، وسنتحدث عن ديوان الرافعي الذي لم ينشر حين تحين الفرصة للحديث عن أعماله الناقصة التي لم

تتم، فحسبي الآن وإلى اللقاء في الأعداد المقبلة.
(سيدي بشر)
محمد سعيد العريان
نقل الأديب
للأستاذ محمد اسقاف النشاشيبي
160 - هذه الصلة وأنا العائد
قال القاضي ابن خلكان: كان الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل عالي الهمة، حازماً، شجاعاً، مهيباً فاضلاً، جامعاً شمل أرباب الفضائل، محباً لهم، وكان يحب الأدب كثيراً، وله رغبة في فنه، وكان قد شرط لكل من يحفظ (المفصل) للزمخشري مائة دينار وخلعة، فحفظه لهذا السبب جماعة، ولم اسمع بمثل هذه المنقبة لغيره، وكان من النجباء الأذكياء: مرض أبو المحاسن محمد بن نصر (الوزير والشاعر الشهير) فكتب إليه:
انظر ألي بعين مولى لم يزل ... يولي الندى وتلاف قبل تلافي
أنا كالذي احتاج ما يحتاجه ... فاغنم ثوابي والثناء الوافي
فجاء (الملك) بنفسه إليه يعوده ومعه صرة فيها ثلاث مائة فقال: هذه الصلة وأنا العائد. وهذه لو وقعت لأحد من أكابر النحاة ومن هو في ممارسته طول عمره لاستعظم منه.
161 - القيام عند ضرب النوبة
في (نزهة الجليس): قال العلامة السيد محمد كبريت المدني: سبب قيام آل عثمان عند ضرب النوبة أن السلطان علاء الدين السلجوقي لما شاهد عزم السلطان عثمان وعلم قابليته في فتح أطراف البلاد تلك البلاد أكرمه وأمده. وبعث إليه الراية السلطانية والطبل والزمر ووسمه باسم السلطنة تقوية ليده وشداً لعضده. فلما وصل إليه ذلك، وضربت النوبة بين يديه قام عند أول سماعه لها على قدميه تعظيماً لذلك. فهم يقومون عند ضرب النوبة إحياء لتلك السنة.
162 - المال ناموس الملك
في (المنهج المسلوك في سياسة الملوك): قد كان يقال: المال ناموس المُلك تظهر به هيبته، وتقوى أبهته. حكى أن سابور ملك الفرس اتخذ أعمدة وقواعد من الذهب، وجعلها على باب خزانة المال يجلس عليها الخزنة وغيرهم، فعظم بذلك عند نظرائه وأهل مملكته، فلما أفضت المملكة إلى ولده جعل يفرق الأموال ويسرف في العطايا، فلما نفدت الأموال أخذ
تلك الأعمدة وسبكها فوجدها مجوفة قد ملئت رملاً فذهب حينئذ ناموسه، وقلت هيبته عند أهل مملكته حين علموا سر هذه الأعمدة. فلهذه المعاني يجب حفظ المال والاحتياط عليه.
163 - فقر أدى إلى مصالح الرعية
في (كتاب غرر ملوك الفرس وسيرهم): كان كيقباذ يقول: ليس غرضنا فيما نحتفل من أصناف الزين بالقصور المشيدة والفرش الممهدة والملابس الفاخرة والأطعمة الملونة إلا تزيين أمر المملكة، وتفخيم أسبابها في أعين الناظرين إليها والواردين من النواحي عليها، دون الانهماك في الشهوات، والاستكثار من اللذات. وجدوي شأن المملكة وإقامة مروءاتها عائدة عليها بالمصلحة، وما أدى إلى مصلحتها فقد أدى إلى مصالح الرعية.
164 - إمارات القيام، يا غلام هات الطعام
في (التاج ومحاضرات الراغب): كان لكل ملك أمارة يستدل بها أصحابه إذا أراد أن يقوموا عنه، فكان اردشير إذا تمطى قام سماره. وكان الأردوان الأحمر، وله وقت من الليل وساعات تحصى فإذا مضت جاء الغلام بنعله فقام من حضره. وكان كيشاسف يدلك عينيه، ويزدجرد يقول: (شَبْ بِشُدْ) وبهرام يقول: (خُرّمْ خُسْفاذ)، وسابور يقول: حسبك يا إنسان. وقباذ يرفع رأسه إلى السماء، وأبرويز يمد رجليه. وأنوشروان يقول: قرت أعينكما! وكان عمر يقول: قامت الصلاة. وعثمان يقول: العزة لله. ومعاوية يقول: ذهب الليل. وعبد الملك يقول: إذا شئتم. والوليد إذا قال: أستودعكم الله. والهادي إذا قال: سلام عليكم. والرشيد يقول: سبحانك اللهم وبحمدك. والمأمون إذا

استلقى على فراشه. والمعتصم إذا نظر إلى صاحب النعل. والواثق إذا مس عارضيه وتثائب.

وحكي عن بعض البخلاء أنه سئل: ما إمارتك لقيامنا؟ قال: قولي: يا غلام، هات الطعام. . .

165 - الصبر

الصابي: مآرب الناس منزلة بحسب قربها من هزل أو جد، ومرتبة على قدر استحقاقها من ذم أو حمد، وإذا وقع التأمل عليها والتدبر لها وجد أولاها بأن تعده الخاصة نزهة وملعباً، والعامة حرفة ومكتسباً - الصيد الذي فاتحته طلاب لذة ونظر، وخاتمته حصول مغنم

وظفر، وقد اشتركت الملوك والسوقة في أستجماله، واتفقت الشرائع المختلفة على استحلاله، ونطقت الكتب المنزلة بالرخصة فيه، وبعثت المروءات على مزاولته وتعاطيه، وهو رائض الأبدان، وجامع شمل الإخوان، وداع إلى اتصال العشرة منهم والصحبة. وموجب لاستحكام الألفة بينهم والمحبة.

166 - العامل (الوالي) النصراني في الدولة الإسلامية

في (كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق) للبطريك سعيد بن بطريق: ولى المأمون (وهو في مصر) بكام النصراني عمل بورة وما حولها. وكان بكام إذا كان يوم الجمعة لبس السواد وتقلد بالسيف والمنطقة، وركب وبين يديه أصحابه، فإذا بلغ المسجد وقف ودخل خليفته وكان مسلماً يصلي بالناس ويخطب باسم الخليفة ويخرج إليه.

167 - من نبأ الورقاء أن محلكم حرم

قال أبو المحاسن شرف الدين محمد بن نصر الدين: أنه حضر درس الإمام فخر الدين الرازي يوماً وهو يلقى الدروس في مدرسته بخوارزم ودرسه حافل بالأفاضل واليوم شات وقد سقط ثلج كثير، فسقطت بالقرب منه حمامة وقد طردها بعض الجوارح، فلما وقعت رجع عنها الجارح خوفاً من الناس الحاضرين فلم تقدر الحمامة على الطيران من خوفها وشدة البرد فلما قام الإمام فخر الدين وقف عليها ورق لها وأخذها بيده، قال شرف الدين:

فأنشدته في الحال:

يا ابن الكرام المطعمين (تبرعا) ... في كل مسغبة وثلج خاشف
العاصمين إذا النفوس تطايرت ... بين الصوارم والوشيح الراعف
من نبأ الورقاء أن محلكم ... حرم وأنك ملجأ للخائف
وفدت عليك وقد تدانى حتفها ... فحبوتها ببقائها المستانف
لو أنها تحبي بمال لانثنت ... من راحتيك بنائل متضاعف

168 - ارقص للقرد في زمانه

في (وفيات الأعيان): لما ولى جلال الدين الزينبي الوزارة دخل عليه هبة الله بن الفضل بن القطان - الشاعر المشهور - والمجلس محتفل بأعيان الرؤساء، وقد اجتمعوا للتهنئة

فوقف بين يديه ودعا له، وأظهر السرور والفرح، ورقص.

فقال الوزير لبعض من يفضي إليه بسره: قبح الله هذا الشيخ فإنه يشير برقصه إلى ما تقول العامة في أمثالها. أرقص للقرد في زمانه.

رسالة الشعر في ظلال الأرز

للأستاذ امجد الطرابلسي

قلبيَ يا ابن الفناء! ماذا ... يُصِيبكَ في هيكلِ الخلودِ؟
أيُّ جمالٍ تَراه يبدو ... يا قلبُ في مَقْبَرِ العهود؟
وأيُّ لحنٍ هناك يشدو ... به وُجومُ المدي البعيد
أراكَ يا أيُّها المُعَمَّى ... في الأرض كالهارب الطّريد
تَفِرُّ من نَقمةِ البرايا ... وتَتَّقي زحمةَ الوجود
تمشي على هامش الفَيافي ... مُجتنباً رنّةَ القُيود
مُلْتمساً ملجأً بعيداً ... عن الوشاياتِ والحُقود
كالوحش ليستْ تَقَرُّ عيناً ... إلا ببيداءَ خلفَ بيدِ

بالأمسِ في بَعْلَبَكَّ، ذكرى ال - زّمانِ من عِزِّهِ التَّليد
قمتَ على رسمها تُغَنّى ... غناءَ مُستوحشٍ عَميد
غنيّتَها رائع المعاني ... يميسُ في أجملِ البُرود
واليومَ في الأرْز يا فؤادي ... وغابِهِ الأعطرِ البَرود
في حِصْن لُبنانِهِ المُوشّى ... وعرسِه الضاحكِ السعيد
تُجَنّ في بَحْرِكَ القوافي ... كالموجِ في الزّاخرِ المديد
ويحكَ يا قلبيَ المُدَوي! ... يا نبعةَ الحبّ والقصيد
درُّك صُنْهُ ولا تبدِّدْ ... يتيمَهُ البكرَ في الصّعيد
كَرِّمْهُ يا قلبُ فهو أغلى ... من الدّمِ الطاهرِ الشهيد
تَعَوَّدِ الصمتَ فهو أولى ... بالحرّ في دولة العَبيد
خيرُ صلاةِ الحزينِ دمعٌ ... يَفيضُ من ناظرٍ شَرود
يا أرْزَ لبنانَ! يا مُصَلى ... ما فاتَ من غابرِ العهودِ
أليسَ في دوحِكَ المُعَلىّ ... أرائِكُ الأعْصُرِ الهُجودِ؟
تَفَيَّأتْ ظلَّه وأغضتْ ... من بعدِ إعيائِها الشَّديدِ
!يا مريضَ الثلج يا مَحَطَّ ال - نُّجوم يا مأمنَ الشَّريدِ
بِتَ وَحَوَّمْتَ في الأعالي ... نَسراً تَحرّى ذُرى الفُنودِ
تُرى تَعاليتَ عن مُناخ ال - نفّاقِ والذلِّ والسّجود؟
أمْ قَدْ تَرَفَّعتَ عن فَناءِ ال - وَرى فأمعنتَ في الصّعودِ؟
!يا أرزُ لا تظلمِ البرايا في دهرِها المُنجِبِ المُبيدِ
!ما أجدرَ الناسَ بالتَّحَني ... لا بالزّرايات والصُّدود
!وا رحمتا للورى جميعاً ... من حَمَلٍ أعزلٍ وسِيد
!وا رحمتا للورى جميعاً ... الموقِدِ الشَّرَّ والوَقود
!والآسرِ الخلق والأسارى ... والحاسدِ النّاسَ والحسيدِ
إيهِ أولُمْبَ العصورِ! ماذا ... لدَيْكَ عن أعصرِ الجُدود؟
لعلّ أدواحَكَ الرواني ... مثلُ أبي الهَولِ في الجمود
نسألها، والسكوتُ دوماً ... خيرُ جوابٍ لها سَديدِ
هاتِ الأحاديثَ عن (عَبيدٍ) ... وعن (كُلَيْبٍ) وعن (لَبيد)
ونسرُ (لُقمانَ) ما دهاه ... من بعدِ عُمرٍ له مديد؟
أيُّ الأساطيرِ نَسَّقَتْها ... قريحةُ الشاعرِ المُجيدِ
وأيُّها قد شهدتَ حَقاً ... في الزَّمَنِ الغابرِ التليدِ
وأيُّها نَسْجُ أُمّهاتٍ ... في اللّيلِ حولَ الصَّلى قُعودِ
يَقْصُصْنَها للبنينَ شغلاً ... لهم عن اللّعب والهُجودِ
يا ليتَ شعري! وأين شعري ... من ظُلُماتِ المدى البعيد؟
!!لعلَّ أمسِ الحياةِ شطرٌ ... من قَصَصِ الجَدِّ للحفيدِ
مددتُ كفّي أصوِّرُ اسمي ... في صفحةِ الأرزةِ الهَجودِ
فارتعشتْ باليراع كفي ... واحترقتْ في دمي جُهودي
ويلي! أأَنْعى إلى وُجودي ... بأحرفٍ من يدي وجودي؟
أينَ (لَمَرْتين) أين (جُوليا) ... هل عنهما اليوم من مُفيد
سلْ عنهما الدودَ في ثراه ... إن ضَنَّ غولُ الرّدى بدُودِ
أمسِ على قربِهِ إلينا ... أشدُّ قُرباً إلى ثمودِ
!إيه لمرتينُ يا صديقي! ... يا شاعرَ المأمل الفقيد
!يا صرخةَ الناي في الليالي! ونفحةَ الزهرِ والورود
!وهتفةَ البلبلِ المُغَنَّى! ... وبسمةَ البرعمِ الوليد
يا شاعري! متَّ غيرَ نَقْشٍ ... عَزَّ على الموتِ واللُّحودِ
خلَّفتَهُ لِلْحجيجِ دُنيا ... من التَّصاويرِ والوُعودِ
يَرِفُّ كالزَّنبقِ المندَّى ... في جَبْهَةِ الأرزةِ الوَدودِ
يضحكُ للزّائرين أُنساً ... بِهِمْ وَيَفْتَرُّ للوُفودِ
نَقَشْتَهُ لاهياً شَغيلاً ... عَنِ الفُجاءاتِ والنُّكودِ
و (جولِيا) غِرَّةٌ لَعوبٌ ... خَفَّاقَةُ الحُلْمِ والنُّهودِ

بسّامَةُ الطرفِ والأماني ... ضحَّاكة الثّغرِ والخُدودِ
تضحكُ في نَومِها وتَعدوا ... خلفَ الفَراشاتِ في النجودِ
تناغِم الطيرَ ليس تدري ... ماذا ورآء الغَدِ الصيَّودِ
ماذا لدى الغيبِ من هَدايا ... أو نُوَبٍ كالظَّلامِ سودِ
كم عَبْرةٍ تَعقبُ ابتساماً ... ومأتمٍ نامَ خلفَ عِيد
خَطَّتْ حروفَ اسمِها غروراً ... تحتَ اسمِكَ الخالدِ المَجيدِ
أملةً أن تعودَ يوماً ... فتقرأ الخطَّ منْ جَديد
!ما أخيبَ العمرَ للأماني! ... وألعبَ الدهرَ بالجُدود
!وأوسعَ القلبَ في صباه! ... وأقربَ القبرَ للمهود
خطَّتْ وخطَّ القضاءُ سَطراً ... في لوحِهِ المُفْعَمُ الرَّصودِ
أمسكها الموتُ لم يدعْها ... تعودُ للموكنِ المَشيدِ
غاضَرَها والصِّبا غَريضُ ... بلا ضَجيجٍ ولا وَعيد
بعيدةَ الحصَّبِ والمغاني ... غَريبةَ الدارِ والشُّهودِ
إيه (لمرتين)! أيّ كنزٍ ... من الحشاشاتِ والكُبودِ
أودعتَهُ أرضَنا بَليلاً ... بدمعِكَ المُسْبَلِ البَديدِ
هديةُ الشاعرِ المعنّى ... لموطنِ الشعرِ والخُلودِ
فريدةٌ بِعتها بجرحٍ ... في القلبِ مُسْتَعبِرٍ فَريد
!وعدتَ من بعدها وحيداً ... يا لوعة الشاعرِ الوحيد
تضربُ: بين الربى البواكي ... كالزورقِ التائِهِ الشَّريد
قيثارةً: تُرسِلُ الأغاني ... من مِزَقِ القلبِ والوَريد
تَنوحُ في هدأةِ الليالي ... وفي الأعاصيرِ والرُّعود
لِلّهِ يا شاعري دموعٌ ... ذرفتَ كاللُّؤلُؤِ النَّضيدِ
ما فَتِئَتْ في الْخُطوبِ تَحنو ... على جراحاتِ ذا الوُجودِ
هلاّ حبستَ النُّواحَ قهراً ... للزَّمَنِ الشّامتِ الحقود
ما زالَ هذا الزمانُ خَصماً ... للعبقريِّينَ والبُنود
دَع لاهبَ الجُرحِ في الحنايا ... يأتكلُ الصَّدرَ كالوقودِ
فأسبلْ على وَقْدِهِ سُتوراً ... من البَشاشاتِ والسُّعودِ
غَلِّفْ جِراحاتِكَ الدّوامي ... بِبَسْمَةِ الساخِرِ الجَليد
وكنْ على صولةِ الرَّزايا ... أعندَ من دهركَ العَنيد
هذا هو المجدُ لا دموعٌ ... تُسَحُّ فوقَ الثرى المَجودِ
تضحكُ من سَكبِها البرايا ... في عرسِلها الناعم الرَّغيد
أَوَّاه! مالي أريقُ شِعري ... دماً على مذبحِ الجُحود؟
أنتَ عزائي وأنتَ روحي ... فعدْ إلى القلبِ يا نشيدي؟
(دمشق)
امجد الطرابلسي
. . .تَردُّد
أنت يا ليلى مُنَى جنَّحها ... حلم الحب الجميل الناضر
أنت في فجر حياتي نجمةً ... قد أضاءت غيهباً في خاطري
قد تأملتك دهراً، خاشعاً ... أتم النور بطرف حائر
ويراني من يراني هائماً ... غير أني في صباح سافر
أنت كالجدول يجري هانئاً ... هازجاً ينشد لحن الطائر
وأنا الطائر في أحنائه ... نغم الحب الحنون الساحر
رددي يا ليل لحني واذكري ... أنه ذوْبُ فؤاد صابر
من ترى يعرف أحلام الندى ... غير من فازوا بحب ظافر
من ترى يعرف أسرار الربى ... وزهور الحقل غير الشاعر
قد ملأتِ للكأس من خمر الهوى ... فاسكبيه في فؤاد ثائر
(السلط)
حسني فريز

رسالة الفن
رفائيل
الفنان أبداً
للدكتور أحمد موسى

وله صورة أخرى للمادونا مؤرخة سنة 1506 وهي مسماة (مادونا ديجلي أنسيدى) محفوظة بجاليري لندن، وغير ذلك صورة للعائلة المقدسة محفوظة ببينا كوتيك ميونيخ وهي صورة منظمة تنظيماً سيمتريكياً جميلاً، غير أن روعة تصويره لعلاقة الأم بالابن لم تكن على درجة من الجودة، كتلك التي عهدناها في صوره الأخرى، وغير ذلك من صور المادونا ما هو محفوظ ببرلين وميونيخ، وبانجلترا لدى اللورد كومبر وبمنزل بردج واتر بلندن، كما أن له صورة مشهورة بإنشائها المجيد وهي المادونا (الديلويم) وقد توسطت الصورة، وعن يمينها يسوع الطفل قد أخذه النوم بينما هي ترفع عن وجهه القناع بيمناها لتمكن يوحنا الطفل من مشاهدة يسوع، وقد ركع يوحنا أمامه وكمال الخشوع بادٍ على وجهه وجمال النقاوة يغمر محياه وهي تسنده بيسارها.

والمادونا إلبا بمتحف بطرسبرج ومادونا الدوبرانديني بلندن تسجلان تطور رفائيل واتجاهه اتجاهاً لا يعد جديداً من الناحية الفنية؛ ولكنه يعد عظيماً من الوجهة الدراسية.

هذا ولا تنس أن تذكر أن من بين صور المادونا ما أثار إعجاب مؤرخي الفن بالإجماع، من ذلك مادونا دي فوليجنو (1511) بجاليري الفاتيكان، ومادونا ديلبيسكا (بمتحف برادو في مدريد) ومادونا ديلتندا بميونيخ ومادونا كولديفينو أمورا بنابولي ومادونا ديلليمباناتا بقصر بيتي بفلورنس.

ولقد وضع تصميم صور للعائلة المقدسة وترك إكمالها لتلامذته وأشهر هذه الصور بمتحف برادو بمدريد (؟) وهي المسماة لا بيرله وفيها ظهر بدع تعبير للأمومة في أسمى معانيها والحب في أبلغ مظاهره.

أما للفن الخالص فله أروع صورة للمادونا وهي المسماة أو المادونا السكستينية. وعلى (مادونا دي سان سيستو) هذه اللوحة الرائعة التي بلغ طولها 652 متر وعرضها 961 متر والتي يغلب الضن أنه صورها سنة 1515 يتجلى أعظم ما وصل إليه رفائيل من الإنتاج الفني الخالد الذي سجله التاريخ بمداد من نور؛ فترى العذراء (ش1) قد اعتلت الغيوم كملكة للسماء حاملة يسوع الطفل بين ذراعيها وقد تأبطته يمناها، وبكل حنان أسندت ساقيه بيسراها. أما الوجه فهو أنبل ما استطاع فنان إخراجه. وفي الجهة اليسرى للصورة القديس سكستس الثاني وهو ينظر إلى يسوع نظرة التقديس المملوءة بكل ما أوتي رفائيل من قوة العبادة التي ملأت قلبه، وفي الجهة اليمنى منها القديسة بربارة. وعند قدمي العذراء ترى ملاكين يفيضان ببراءة الطفولة ووداعتها اللتين تمتلكان جميع الحواس لكثرة ما فيهما من الصفاء والنقاء.

وقد عملت هذه الصورة خصيصاً لكنيسة دير بيارسوا، واشتراها القصر السكسوني سنة 1753 بحوالي عشرة آلاف جنيه إنجليزي في وقت كانت قيمة الجنيه فيه تعادل عشرة جنيهات في الوقت الحاضر.

وتنفرد جاليري درسدن وحدها بامتلاك أعظم قطعة لرفائيل ولذلك تسميها (درة الجاليري) بعد حصولها عليها من القصر السكسوني.

وبهذا تكون معظم صوره لمادونا قد انتهت، وله غير ذلك صورة تمثل زواج ماريا بيوسف
سنة 1504 وأسماها سبوساليتزيو محفوظة بميلانو وصورة القديس جورج (ش2) يقتل التنين (باللوفر) وهي مصورة سنة 1506.

والقطعة التي يتجلى فيها حبه وهيامه بالموسيقى، وقد أظهرت أستاذيته في الفن وعظمته في الإنشاء التكويني فضلاً عن التوفيق الكامل في اختيار الألوان ومزجها وإيجاد الانسجام المثلي بينها. هذه هي صورة القديسة سيسيليا (ش3) وحولها ثلاثة تلاميذ (بولس ومجدلين ويوحنا) والقديس جيمينيانوس صورها سنة 1513 تلبية لطلب

الكردينال لورنسوبوتشي لأجل سان جيوفاتي في مونتابولونا (محفوظة ببيتا كوتيك بولونا) وقد اهتم بتصوير تفاصيلها اهتماماً خاصاً حتى أنك لترى أنه على صغر مساحتها نسبياً إلى ما شملته في دقة رائعة وبراعة فائقة. فالملائكة في السماء وآلات الموسيقى على الأرض وتفاصيل الملابس والوجوه وما ارتسم على كل منها يبين لنا إلى حد بعيد مدى المقدرة العظيمة التي أظهرها في هذه القطعة.

وله صورة هامة صورها لكنيسة ماريا ديللوسباسيمو في سنة 1517 والتي حازها فيليب الرابع ملك أسبانيا من نفس السنة تبين (حملة الصليب) وهي محفوظة بمتحف برادو بمدريد (؟) وتشمل ستة عشر وجهاً كبيراً بين نساء ورجال عدا رؤوس الخيول وبعض الناس في مؤخر الصورة وهي رائعة الإنشاء التكويني والموضوعي، ترى فيها الوجوه التي طغى عليها اليأس والقنوط إلى وجوه قد انعكس عليها ما في قلوب أصحابها من حقد كمين على المسيح. وهناك في برادو صورة أخرى لماريا (البحث عن المأوى) وغير ذلك صورة العائلة المقدسة تحت شجرة البلوط. وله في سنة 1518 صورة رسمها للملك فرانس يوسف الأول ملك فرنسا وأسماها (القديس ميخائيل يحارب الشيطان بالسفود) باللوفر. وهناك بعض صور أخرى عملها في بدئ حياته الفنية، كما أن هناك عدد غير يسير من اللوحات صورها بعد الذي ذكر، وكلها يضيق المقام عن ذكره، وبذلك ينتهي إنتاج هذا الفنان الخالد من الناحية الدينية وصور غير هذا كله صوراً شخصية لنفسه ولغيره، ومن أهم ما يجب ذكره هنا ما صوره أثناء إقامته بفلورنسا، وهو صورته لصديقه انجيولو دوني وزوجته مادلينة ستروزي دوني (1505بفلورنسا) وصورته لنفسه بفلورنسا أيضاً. أما صوره أثناء أقامته في روما فاهمها صورة البابا يوليوس الثاني جالساً على كرسي ذي مسند مرتفع محفوظة بفلورنسا ومنها نسخة جيدة منقولة عنها ومحفوظة بلندن، وصورة الكردينال توماس انجرامي (محفوظة بفلورنسا) والصورة النصفية لشاب هو بيدو التوفيتي وقد كان يظن أنها صورته الشخصية إلى وقت ليس ببعيد (محفوظة بميونيخ) وصورتاه دوتَّا بيلاتا ودوتَّا جرافيدا (بفلورنس). وصورته المزدوجة لشخصين هما بيازّانو ونافاجيرو (بروما).

وبعدئذ وأخيراً صورته المجموعية للبابا ليو العاشر مع الكردينال جيليودي موتيشي ودي روسي (قصر بيتي بفلورنسا).

ولقد حاول العمل أيضاً كمعماري ووصل إلى حد لا بأس به وأنتج إنتاجاً جديراً بالذكر هنا، حيث وضع تصميماً لكنيسة بطرس روما، وقد كلف بعض المختصين بعمل أنموذج مصغر منه أثار إعجاب معاصريه.

هذا مجمل قصة رفائيل سيانتي الذي مات في سن السابعة والثلاثين، ونحن إن ذكرنا هنا إنتاجه القيم دون تعمق في نقد مصوراته ولوحاته فإن هذا راجع لسببين أولهما ضيق المجال وثانيهما إننا لا نرغب في أن تكون دراساتنا جامعية، بل نكتفي بأن نذهب بذوق القارئ إلى السمو ونضع نصب عينيه أن الفن في مصر ضعيف وأن الذين يقومون بالهيمنة عليه ليسوا ممن تخصصوا في الفن علمياً وأن واجب الحكومة وواجب الشعب هو الالتفات إلى ما في هذا الاتجاه الخاطئ من خطورة على تهذيب النشء والسمو بذوقهم ونحن نعتبرهم رجالاً للمستقبل.

وإنه لمما يثير عندنا الدهشة والاستغراب أن وزارة المعارف في الوقت الذي لا تبيح فيه اشتغال تمورجي بالطب ولا تسمح لكاتب محام بالاشتغال بمهنة المحاماة تسمح بملء إرادتها أن يهيمن على الفن وعلى دراسته العلمية والثقافية غير من تخصص في دراسته التاريخية والفلسفية.

أحمد موسى

القصص

رجل البيت

للأديب عبد الحميد جوده السحار

دق جرس الباب فأسرعت نعمات هانم لتفتح لزوجها كما هي عادتها في أول كل شهر فما كادت ترى وجهه حتى بادرته

- استلمت المرتب طبعاً. . . سلمه بدورك

فقال لها وهو يدخل:

- انتظري حتى أدخل وأستريح. . . انتظري قليلاً
- لا. . . هاتها. . . أمدد يدك في جيبك. . . أوه. . . أسرع
وضع حسن أفندي يده في جيب سترته الداخلي وهو يتململ وأخرج رزمة من الأوراق المالية ووضعها في يد زوجته التي كانت ممتدة إليه تنتظر أوراق البنكنوت. استلمت نعمات هانم مرتب زوجها فنادت ابنها حسونة ثم ابنتها فيفي وهي سائرة إلى جوار زوجها وكان متجهاً نحو غرفته ليغير ملابسه. لبى حسونة وفيفي النداء وسارا وراء والديهما ودخل الجميع غرفة الوالد فقالت نعمات هانم:
- خذ يا حسونة نقودك. . . وأنت يا فيفي. . . خذي هذا وأخذت تعد - واحد. . . اثنان. . . ثلاثة. . . أربعة. هذا للبقال. . . واحد ونصف هذا للخباز. . . واحد. . . اثنان. هذا للجزار. . . أوه. . . آسفة يا حسن بك. . . نسيت أن أعطيك مصروفك. خذ ولا تحزن. . . واحد. . . اثنان. . . ثلاثة. . . ونصف. . . هذا أجر المنزل. وبقيت في يدها بضع أوراق مالية فطوتها وقالت: هذا للخياطة طبعاً
فرفع زوجها رأسه وقال:
- كل هذا للخياطة. . . لا لا. . . هذا إسراف. . . لا أقـ. .
- هذا للخياطة والتنزه والملحقات. . . سنشتري أنا وفيفي أقمشة للصيف ونرسلها إلى الخياطة. . . مسكينة فيفي إنها لا تملك إلا تسعة فساتين فقط
فقال حسونة: ولكن يا ماما. . . أنا محتاج إلى بذلة جديدة
- أوه حسونة. . . الشهر الآتي يا حبيبي
ونظر حسن أفندي إلى حذائه البالي وسترته التي تغير لونها وهم بالكلام ولكنه فضل السكوت لأنه كان يعلم جيداً أن لا فائدة من الكلام.
انتقلت العائلة إلى غرفة المائدة لتناول الغداء، فأخذ حسن أفندي ككل أول شهر ينتقد العمل في الحكومة ويصف الحكومة بمقبرة الكفايات ويعلم الله أن حسن أفندي هذا لا يصلح لأي عمل حكومي أو غير حكومي فهو متردد ضعيف العزيمة ولا يحسن غير الخط. التحق بالحكومة من عشرين سنة أيام أن كان كل من يستطيع القراءة والكتابة يلتحق بها. يعتقد أنها نابغة وأنه لو كانت الإجازات موجودة في أيامه لحصل على أعلى الدرجات. ثم قال: التحق اليوم بوزارتنا موظف جديد متخرج من كلية التجارة وجاءت قرعته في مكتبي فناولته حساباً بسيطاً ليتمه، وقدم إلى الحساب فلم أفهم منه حرفاً. مسكين هذا الشاب إنه اتبع طرقاً عقيمة طبعاً وكان خطه رديئاً، فقلت له: (اسمع يا بني. سأنصحك لوجه الله أترك كل ما تعلمته في المدرسة واتبع الطريقة التي سأعلمها لك) فبهت الشاب ونظر إلي مذهولاً فقلت: (الطريقة التي سأعلمها لك اكتسبتها بالمران الطويل وسترى أنها بسيطة) ثم شرحتها له وأراد أن يعترض فقلت له: (اسمع، أعمل بطريقتي ولا تعمل بغيرها إننا نتبعها من عشرين سنة. أتريد أن نغير من نظامنا إكراماً لخاطرك. لا يا بني لا أسمح لك بغير طريقتي)
فقال حسونة: (ولكن يا أبي لماذا لم تتركه يتبع طريقته التي تعلمها) فرد أبوه محتداً: (أية طريقة؟ لا يوجد للحساب سوى طريقة واحدة، أتظن أنكم تتعلمون الآن؟ أنكم تضيعون وقتكم سدى. رحم الله أيام أن كنا نحصل كل العلوم في أربع سنوات. اترك فلسفتك يا سيد حسونة)
أراد حسونة أن يرد ويقنع أباه ولكن نعمات هانم تدخلت وقالت:
- لنترك هذا الحديث. عليك يا حسن بك أن تكون هنا في الساعة الثامنة والنصف لنذهب إلى السينما
- لا أستطيع الليلة. . عندي شغل كثير.
- بل يجب أن تحضر.
فثار حسن أفندي وقال:
- قلت لا أستطيع. يجب أن تكون الكلمة كلمتي، نعم يجب أن أطاع هنا. . أنا رجل البيت. . أنا رجل البيت.
وقام ثائراً واتجه نحو غرفته ثم لبس ملابسه. وفي أثناء خروجه قالت زوجته:
- تذكر الساعة الثامنة والنصف.
في الساعة الثامنة أخذت نعمات هانم تعد نفسها للخروج فدخلت غرفة الزينة وأمرت حسونة أن يجهز نفسه واختارت لفيفي الفستان الذي ينبغي لها ارتداؤه فقال حسونة:

- قد نلبس ونتعب أنفسنا ولكن أبي قد لا يحضر.
فردت نعمات هانم: (اطمئن)
فما كادت نعمات هانم تتم قولها حتى سمع رنين الجرس فنظر حسونة إلى أمه فرآها تبتسم فابتسم أيضاً.
- أسرعي يا فيفي وافتحي. . إنه جاء
فتحت فيفي الباب فدخل حسن أفندي مسرعاً وما كاد يرى زوجته حتى قال:
- حظكم حسن. . لقد تمكنا من إنجاز كل شيء قبل الثامنة فحضرت لأمتعكم بالسينما. . هيا أسرعوا.
فنظر حسونة إلى فيفي ثم إلى أمه وضحكوا.
وهكذا اثبت حسن أفندي أنه حقاً رجل البيت.
ظهرت نتيجة البكالوريا وكان حسونة من الناجحين فأراد أن يلتحق بكلية من كليات الجامعة فاجتمعت العائلة ودار النقاش والمفاضلة واشتد الجدل بين الوالد المحترم والوالدة المهذبة، وترك حسونة المسكين ولم يأخذ رأيه حتى كرأي استشاري. الأب يرغب في إلحاق ابنه بكلية الهندسة والأم ترغب في أن ترى أبنها طبيباً.
- هندسة.
- طب.
- قلت هندسة. . هندسة
- قلت طب. . طب
- قلت هندسة وكفى. . أنا ولي أمره. . .
والتحق حسونة بكلية الطب.
وخطب فيفي خطيبان أحدهما محام والثاني ضابط بوليس فاجتمعت العائلة المحترمة ودار النقاش. . فالأب يفضل المحامي ويدافع عنه ويقول يكفي أنه يعمل حراً وانه شاب سيكون له مستقبل باهر، والأم تفضل الضابط لأن منظره بالشريط الأحمر كما تقول (يسر) وأن ماهيته ثابتة، أما المحامي فمن يدري قد يتخاصم الناس وقد لا يفعلون. اشتد الجدل.
- المحامي
- الضابط
- قلت المحامي
- قلت الضابط
- لا. . . لا أقبل هذا أبداً. . . الكلمة هنا كلمتي والرأي رأيي. . . أنا رجل البيت. . . أنا رجل البيت لن تتزوج إلا المحامي. . .
وتزوجت فيفي من الضابط
وهكذا عاش حسن أفندي. . . رجل البيت
عبد الحميد جوده السحار
البريد الأدبي
تعطف ملكي كريم
حضرة المحترم الأستاذ أحمد حسن الزيات مدير مجلة الرسالة رفعت إلى الأنظار العلية الملكية النسخة التي قدمتموها إلى حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم من العدد الذي أصدرتموه
من مجلتكم فنالت حسن القبول والتقدير وإني أتشرف بإبلاغ ذلك إلى حضرتكم مع شكر جلالته السامي.
وتقبلوا وافر الاحترام
تحريراً في 6أغسطسسنة 1937
كبير الأمناء
سعيد ذو الفقار
اللغة العربية والألفاظ الدخيلة
لاشك أن اللغة العربية تجوز في عصرنا طوراً من الإحياء والتجديد، ولا شك أن مصر هي التي تحمل لواء هذه النهضة المباركة؛ بيد أن هذه النهضة تتكشف أحياناً عن مظاهر ضعف تدعو إلى الأسف؛ فبينما نجد لغة الصحافة والأدب تبلغ مستوى رفيعاً،

إذا لغة المصالح الحكومية والمحررات الرسمية بوجه عام لا تزال على جانب عظيم من الركاكة والضعف، هذا إلى كثير من الألفاظ الأجنبية الدخيلة تستعمل في الدوائر الحكومية والعسكرية؛ وهذه الألفاظ الدخيلة، وهي تركية في معظمها، هي من آثار عصر مضى، ويجب أن تمحى اليوم لاعتبارات قومية وأدبية ظاهرة المغزى؛ واللغة العربية ليست قاصرة عن أن تؤدى بديلا لهذه الألفاظ الأجنبية التي أضحت في الدوائر الرسمية كالطفيليات الضارة. ولقد رأت تركيا الكمالية من قبل أعوام أن تطهر اللغة التركية من جميع الألفاظ الأجنبية التي تسربت إليها، ومن المعروف أن العربية كانت تمثل في التركية بنسبة عالية ولكن زعماء تركيا الكمالية الذين يضطر مون بغضاً لكل ما يمت إلى الإسلام

واللغة العربية بصلة، لم يجدوا بديلاً في التركية لتلك الثروة العربية التي أطلقت ألسنتهم قروناً، بل عمدوا إلى اللغات الأوربية يشتقون منها ويستعيرون. ومن حق العربية على نفسها وعلى أبنائها أن ترد إلى التركية بضاعتها المزجاة من الألفاظ العتيقة؛ واللغة العربية ليست في حاجة إليها، وليست عاجزة عن أن تقدم مكانها البديل؛ أليس مما يبعث إلى الخجل والأسى أن نسمع حتى اليوم كلمات (حقانية، وباشكاتب، وحكيمباشي) وأمثالها تدون في محرراتنا الرسمية، وأن تكون اصطلاحات الجيش المصري إلى اليوم كلها تركية؟ ولقد سبقت العراق مصر في التحرر من هذه الآثار البالية، واستحدثت لنفسها في الدواوين وفي الجيش ألفاظاً واصطلاحات عربية. وضربت بذلك مثلاً رفيعاً يحتذى، فعلى مصر التي تتصدر لزعامة الآداب العربية أن تحرر نفسها من هذه البقية العتيقة من العصر البائد، وأن تطهر لغتها ومحرراتها من هذه الألفاظ الدخيلة، وأن تكون في ذلك قدوة حسنة لجميع أبناء العربية في مختلف الأقطار.

مؤلف جديد في تاريخ العرب

صدر أخيراً مؤلف جديد بالإنكليزية عن تاريخ العرب والإسلام عنوانه (تاريخ العرب) بقلم الدكتور فيليب حتي أستاذ الآداب السامية بجامعة برنستون الأمريكية، والأستاذ حتي شرقي تفقه في الجامعات الأمريكية وعرف بتضلعه في لغات الشرق وآدابه، وكتابه عن العرب مؤلف جامع يقع في نحو ثمانمائة صفحة، ويشتمل على تاريخ الأمة العربية منذ فجر التاريخ إلى سقوط دولة السلاطين في مصر وسقوط مصر في يد الترك العثمانيين في سنة 1517م، وانتقال زعامة الإسلام من الأمة العربية إلى الأمة العثمانية. ويمتاز كتاب الدكتور حتي بطابعه العلمي، ومع ذلك فإن هذا الطابع لم يحل دون حسن العرض وطلاوة الأسلوب. وتمتاز الفصول الأولى من الكتاب، وهي التي تتعلق بأصل الأمة العربية وحضارتها الأولى من الحميرية والنبطية والسبأية، بكثير من الدقة والوضوح، وربما كانت في الواقع أقيم فصول الكتاب وأكثرها طرافة لأن البحث في أصول العرب والحضارة العربية قبل الإسلام ما يزال من الموضوعات الغامضة على البحث الحديث. ومع أنه يصعب على المؤرخ عادة أن يبسط هذه النواحي المشعبة لتأريخ العرب والإسلام في مجلد واحد، فإن المؤلف استطاع أن يلم بهذه النواحي إلماماً حسناً، وأن يقص تاريخ الخلافة في عصورها وعواصمها المختلفة، وتاريخ الأسر والدول الإسلامية المختلفة شاملة على إيجازها.

وقد كان المرجع الموجز في تأريخ الإسلام والعرب بالإنكليزية حتى اليوم كتاب المرحوم السيد أمير علي (مختصر تاريخ العرب) ولا يزال إلى يومنا من أقيم المراجع الجامعية في بابه. وكتاب الدكتور حتي من هذا الطراز. فهو أيضاً يمكن أن يعتبر من المراجع الجامعية الموجزة في هذا الباب. بيد أن كتاب السيد أمير علي يمتاز بميزة لم تتوفر في أي مؤلف آخر صدر بالإنكليزية في عصرنا عن تاريخ العرب؛ ذلك انه كتب بقلم مسلم يفهم روح الإسلام الصحيح، ويستطيع أن يدرك كثيراً من أسراره التشريعية والأخلاقية والاجتماعية، وإدراك روح الإسلام الصحيح شرط أساسي لكتابة تاريخ الإسلام بروح الفهم والإنصاف. وهذه الخلة قلما تتوفر للكتاب غير المسلمين.

مسارح العراء

كانت مسارح العراء في العصر القديم من أهم ظواهر الثقافة الفنية والرياضية، وكان لها شأن كبير في الحياة الاجتماعية في أثينه ورومه؛ والآن تعمل بعض الأمم العظيمة

الحديثة على إحياء مسرح العراء القديم ليتسع لعشرات الألوف من النظارة بين الخضرة والهواء الطلق بدلا من المسارح الضيقة المغلقة التي لا تتسع إلا لفريق من الخاصة والتي يتاح كثيراً لأفراد الشعب زيارتها والتمتع بما يعرض فيها من المظاهر الفنية الساحرة. وقد سبقت ألمانيا البلاد الأخرى في هذا المضمار، فأنشأت مسارح عظيمة في العراء في أجمل المواقع والبقاع، ويبلغ عددها اليوم نحو مائتين وخمسين مسرحاً يؤمها نحو مليوني متفرج؛ وهذه المسارح على خمسة أصناف: مسارح الميادين العامة، مسارح القصور، مسارح الطبيعة، مسارح الحدائق، والمناظر الهندسية الضخمة؛ وقد انتخبت عدة من القصور التاريخية والغابات الشهيرة بجمالها لإنشاء هذه المسارح، ومنها ما يتسع لأكثر من عشرة آلاف متفرج دفعة واحدة.

وقد أقامت ألمانيا هذا الصيف معرضاً دولياً لمسارح العراء في مدينة فرانكفورت، وهو أعظم مظاهرة فنية من نوعه؛ وبه مناظر لتطورات المسرح والتمثيل منذ فجر التاريخ إلى يومنا؛ ومن الأمم المشتركة فيه فرنسا وهولنده وسويسرا وإيطاليا واليابان والصين، وكل منها تعرض مناظر مسرحها القومي، ولاسيما المناظر التي اشتهرت في التاريخ؛ من ذلك مناظر قدمتها فرنسا ترجع إلى القرن السادس عشر، وأخرى قدمتها سويسرا وإيطاليا وهي جميعاً تدل على روعة المسرح وازدهاره في عصر الإحياء؛ وفي هذه المجموعة الغريبة من المناظر الفنية يشعر الإنسان بالدور العظيم الذي يؤديه المسرح في نشر الثقافة الفنية والأخلاقية في مختلف المجتمعات التي تتذوقه وتغذي مشاعرها منه. وسيبقى هذا المعرض الفني العظيم قائماً حتى شهر سبتمبر.

الروح الأوربي

ظهر أخيراً بالفرنسية كتاب عنوانه (الروح الأوربي) ' بقلم مسيو ديمون فلدن وفيه يعالج الكاتب مشكلة أوربية جديدة هي فقد ما يسميه هو (بالروح الأوربي). وقد كان جان جاك روسو يقول في القرن الثامن عشر إنه لم يبق في أوربا فرنسيون وألمان وأسبان وإنكليز. وإنما هنالك أوربيون فقط، ويرجع ذلك في رأيه إلى أن أحداً من هؤلاء لم يتلق تربية قومية خاصة. ورأي المؤرخ الفرنسي البير سوريل أن ذلك يرجع إلى نفوذ اليسوعيين لأنهم هم الذين يتولون شئون التربية في معظم أنحاء أوربا، ولكن أوربا اليوم قد تغيرت تغيراً عظيماً وأصبح (الروح الأوربي) القديم أثراً بعد عين. ذلك لأن النزعة القومية العميقة قد طغت بعد الحرب على أوربا طغياناً شديداً واتخذت لوناً محلياً يقرب إلى التعصب وقد كانت الفاشستية أول من وضع بذرة هذا التعصب القومي العميق، ثم جاءت الوطنية الاشتراكية (الهتلرية) في ألمانيا فأذكت هذه الحركة ودعمتها بفكرة الجنس أو الدم؛ وطغت هذه الموجة القومية العمياء على معظم المجتمعات الأوربية؛ وحتى فرنسا التي عرفت بنظرياتها الحرة الواسعة رأت نفسها مضطرة إزاء هذا التيار أن تنهج نفس المنهج، وأن تأخذ بهذه النزعة القومية الجديدة. والآن ينهار الروح الأوربي القديم انهياراً تاماً، ويندر أن يتفاهم رجال السياسة الأوربية على خطة أو جهة موحدة، لأن النزعات والمصالح القومية تمزق الدول والمجتمعات. هذه هي المسألة التي يعالجها الكاتب في كتابه بمنطق حسن وأسلوب جذاب.

الكتب

سيرة السيد عمر مكرم

تأليف الأستاذ محمد فريد أبو حديد

للأستاذ أحمد أمين

ما كان لي - ولست متخصصاً في تاريخ مصر - أن أقدم للقراء كتاباً في تاريخ مصر الحديث.

واغرب من هذا أن أقدم كتاباً في تاريخ مصر الحديث للأستاذ محمد فريد أبو حديد، وهو الذي وقف حياته على دراسة التاريخ، وبخاصة تاريخ مصر، فترجم (فتح العرب لمصر) تأليف الأستاذ بتلر، وهو الكتاب الفخم الضخم، لقي في ترجمته العناء المضني، وأخرجه للقراء كأنه مؤلف عربي؛ فذكر الأصول بنصها الأصلي، وترجم الإنجليزية، فلولا ما وضع على الغلاف من أنه ترجمة ما شك القارئ أنه عربي الأصل، عربي الأسلوب، عربي التفكير.

وأخرج (ابنة المملوك)، وهي رواية تمثل عصر المماليك في مصر تصويراً دقيقاً، سلسل حوادثها تسلسلاً بديعاً، وصاغها في أسلوب شيق، ورونق أنيق.
ثم له الفصول الضافية، والمقالات الكثيرة في تاريخ مصر، وأحداث مصر، وبطولة مصر.
ما كان لي بعد هذا كله أن أقدم كتاب (السيد عمر مكرم) للقراء، وكان يكفي أن يقال إنه كتاب
في تاريخ مصر للأستاذ محمد فريد أبو حديد، ليثق القارئ به، ويقومه أحسن تقويم.
ولكن أتاح لي القدر أن أقرأ الكتاب قبل نشره وطبعه، فراقني فيه - بجانب ناحيته التاريخية - ناحيته الأدبية؛ فقد استطاع مؤلفه أن يصوغه صياغة لذيذة شائقة؟ يقرؤه القارئ فكأنه يقرأ رواية ممتعة لا كتاباً علميا دقيقاً، مع أنه كتاب علمي دقيق أيضاً:
على أن في عالم التأليف روايات شائقة، بنيت على أحداث تاريخية ثابتة، ولكن عيبها أنها قيمة من ناحية الأدب، وليست بقيمة من ناحية التاريخ، فلا يعرف القارئ أي الحوادث ثابت تاريخياً وأيها من نسج الخيال، أما هذا الكتاب فقيم من ناحيتيه الأدبية والتاريخية معاً،
فليس فيه من الوقائع ما هو نسج الخيال؛ ومع ذلك استطاع المؤلف بمهارته أن يسبغ عليه متعة الرواية وإن لم يكن رواية.
اشهد لقد بدأت قراءته وفي عزمي أن أفرغ منه بعد أسبوع على أقل تقدير، وأن أخصص له كل يوم بعض الوقت ولأعمالي الأخرى بعضه؛ ولكني ما بدأت به حتى أنساني عملي، وأنساني وقتي؛ واستمررت في قراءته بلذة وشغف حتى أنهيته شاكراً غاضباً؛ فأما الشكر فلأنه هيأ لي ساعات سعيدة لذيذة صرفتها في قراءته، وأما الغضب فلأنه اختلس مني زمني، من غير جرم يستوجب الحد.
ومزية أخرى واضحة في الكتاب تظهر لكل قارئ، وهو أن المؤلف عنى أكثر ما عنى - لا بالملوك والأمراء كما فعل أكثر مؤرخينا - بل بالشعب وحركاته ونفسيته وحياته الاجتماعية وآماله الوطنية. واتخاذُه السيد عمر مكرم محوراً لكتابه أكبر دليل على هذا؛ فهو ليس ملكاً ولا أميراً، ولكنه أحد أفراد الشعب، وعظيم من عظمائهم، يشعر بشعورهم، ويأمل آمالهم، ويقصده الشعب في حوائجهم، ويرجعون إليه في خطوبهم.
فاتخذه المؤلف نواة نسج حولها تاريخ مصر في هذا العصر وخاصة تاريخ الشعب وتطوراته ونظراته وآماله وآلامه.
وكان حب (فريد) لمصر، وعصبيته لكل ما هو مصري، وحسن تقديره للشعب المصري سبباً في بعض الأحيان أن يلوّن بعض الأحداث لوناً زاهياً جميلاً براقاً يعجب الأديب والشاعر والسياسي، ولست أدري إلى أي حد يعجب المؤرخ الجاف المتزمت. ولكن نحن - على كل حال - أحوج ما نكون إلى الإكثار من الكتابة في تاريخ مصر في عصورها المختلفة، ومن جوانب الرأي المختلفة؛ فكل هذا يخدم مصر ويخدم الحق ويخدم التاريخ ويخدم السياسة.
وأخيراً أهنئ أخي (فريداً) بنجاحه في هذا الكتاب، وتوفيق الله له، وأجدني مغتبطاً سعيداً بتقديمه للقراء، وأرجو أن يجدوا فيه من الفائدة واللذة ما وجدت.
أحمد أمين
نقد كتاب إحياء النحو
تأليف الأستاذ إبراهيم مصطفى
للأستاذ أحمد أحمد بدوي
- 2 -
لا أحسب المؤلف يؤمن بذلك، ولكنه (كما قلت) قد اضطر إليه اضطراراً؛ لتسلم له فكرته. فإنني إذا قلت: لا تلميذ في فصلي راسب، أريد أن أتحدث عن كل تلميذ في فصلي، وأن اثبت له انه غير راسب؛ فتلميذ مسند إليه، ومتحدث عنه، لا ريب في ذلك، وإنما سوغنا حذف خبر لا النافية للجنس في كثير استعمالها؛ لأن الخبر وجود عام، والعرب (إذا كان الخبر وجوداً عاماً) حذفوه، لأنه مفهوم من الكلام. ألا تراهم يفعلون ذلك بعد لولا؛ فيقولون: لولا محمد لهلك علي، فيحذفون خبر (محمد) والأصل لولا محمد موجود لهلك علي؟ ولا أخال المؤلف يشك في أن محمداً مسند إليه، محذوف الخبر، كما حذف خبر لا من غير أن يؤثر في اسمها، بل هو باقي على حاله، مسنداً

إليه، ولا أخالني في حاجة إلى تذكير المؤلف بأن العرب يلتزمون حذف متعلق (الجار والمجرور) إذا كان وجوداً عاماً.

ومن ذلك تمحلات الأستاذ لنصب مفعولي (ظن)، وإذا كنت أقتنع بأن اسم لا لم يعد مسنداً إليه، فإنني كذلك لا أستطيع أن اقتنع بأن المفعول الأول لظن لم يعد مسنداً إليه، فإنك إذا قلت: ظننت أخاك حاضراً، لم ترد - بلا شك - أن تخبر السامع بأنك ظننت ظناً ما، ولكنك تريد أن تخبره بأنك قد القي في روعك ظن حضور الأخ، فأنت إذاً تقصد إلى أن تتحدث عن الأخ بأنك قد ظننت حضوره؛ وأما ما أحتاجه بأنه يجوز حذفهما إذ لم يعودا مسنداً غليه ومسنداً، فمردود بأن المبتدأ الذي هو مسند إليه بالإجماع يجوز حذفه إذا دل عليه دليل، وكذلك مفعولا ظن يجوز حذفهما إذا دل عليهما الدليل، وليس ثمة استعمال عربي ترى فيه مفعولي ظن محذوفين لغير دليل، بل لا يمكن فهم هذه الألفاظ إلا وهي متعلقة بمفعوليها، ويطول بي القول إذا أتيت بهذه التراكيب التي توهم المؤلف فيها حذف المفعولين لغير دليل، وبينت له أن دليل المفعولين قائم في الجملة يلمسه السامع بأقل انتباه.

ومن ذلك أننا نجد الاسم الذي نريد التحدث عنه منصوباً في باب الاستثناء، ألا ترى أنك حين تقول: نجح التلاميذ إلا سعيداً تريد أن تخبر عن سعيد بأنه لم ينجح، وتقصد ذلك قصداً، ومع ذلك نجد سعيداً (وهو متحدث عنه) منصوباً أبداً، لا نستطيع رفعه.

رابعاً: لأنه لم يجعل الفتحة علامة إعراب، جعل نصب جمع المذكر السالم، وجمع المؤنث السالم محمولا على الجر وتابعاً له؛ لأن العرب يعنون بالدلالة على الجر ويغفلون النصب، وتلك علّة تنهدم من أساسها، فلو أن العرب كانوا يغفلون النصب حقاً لما جعلوا له علامة تميزه في المفرد، ولحملوا النصب على الجر في المفردات أيضاً، وذلك ظاهر البطلان؛ على أن المؤلف وقف أمام المثنى ولم يستطع شيئاً، فقال: ولكن باب التثنية في العربية غريب، وأرجو أن يدلني الأستاذ المؤلف على موطن غرابته ومواضعها، فإنني لا أعرف فيه وجه غرابة إلا أنه استعصى على أن يسير مع فكرة المؤلف، وما كان أغناه عن هذه الفروض التي ليس لها اطراد.

اختصار أبواب النحو

أبواب النحو حول سبعين باباً، أراد المؤلف أن يختصرها، فلم يستطع أكثر من أن يضم ثلاثة أبواب هي المبتدأ والفاعل ونائب الفاعل تحت عنوان واحد هو المسند إليه. وان يستغني عن بعض التوابع وان يدمج الباقي بعضه في بعض، وسوف نناقش رأيه في هدوء لنرى أنه حتى في هذه الأبواب القليلة لا يستطيع ضمها ولا اختصارها.

أولاً: لأن المبتدأ له معنى ليس للفاعل في كثير من التراكيب، فنحو: هذا محمد، وعلي أخوك، لا نجد المبتدأ في الجملة يتصل أي اتصال بمعنى الفاعل أو نائبه.

ثانياً: لأن المبتدأ له أحكام يختص بها دون الفاعل، من حيث وجوب أن يكون معرفة إلا إذا سوغ الابتداء بالنكرة مسوغ، وليس كذلك الفاعل؛ ومن حيث علاقته بالخبر، الذي يجب أن يتأخر عنه احياناً، وأن يتقدم عليه أحياناً، والذي يقع حينا مفرداً، وحيناً جملة، أو شبهها، وليس للفاعل حظ من ذلك، ولا أريد أن أدخل في تفصيل هذا المجمل، فيتعب القارئ، أو يمل.

ثالثاً: لأن نائب الفاعل له أحكام ليست للفاعل، ألا تراه يقع جاراً ومجروراً، والفاعل لا يكون كذلك؟ وإذا كان ظرفاً أو مصدراً وجب أن يكون مختصاً، ولا يشترط ذلك في الفاعل، إلى غير ما ذكرت من الأحكام؛ هذا إلى أن باب نائب الفاعل، يقصد فيه إلى غرض آخر، هو بيان صورة الفعل عندما يسند إليه

فأنت من هذا لا ترى أن ضمّ هذه الأبواب تحت عنوان المسند إليه يؤدي في النهاية إلى بيان أنواعه: من مبتدأ، وفاعل، ونائب فاعل، وإلى ذكر أحكام كل نوع على حدة؛ لا مفر من ذلك ولا مهرب. أما في علم المعاني حيث تتفق كلها في الأحكام التي يتناولها هذا العلم من تقديم وتأخير وذكر وحذف وإثبات ونفي. . . الخ فقد وضعت كلها تحت عنوان واحد هو (باب المسند إليه).

هذا شأن المؤلف في باب المسند إليه، وقد رأيت أن فكرته لا تسير إلى غايتها، بل تنتهي إلى ما أراد الهرب منه. أما شأنه في باب التوابع فأعجب وأغرب؛ ويجب أولا أن أسجل هنا ظاهرتين على المؤلف: أولاهما انه لم يتعرض إلا لتحليل الجمل البسيطة الأولية، أما الأساليب القوية الصعبة، التي من أغراض علم النحو فهمها وإدراك مغازيها،

فلم يتعرض لها المؤلف، وأحسب أن كتب النحو لم توضع لتوضيح مثل قام محمد وعلي. وثانيتهما أن المؤلف يغالي كثيراً في قيمة العامل حتى ليتوهم قارئ مؤلفه أن كتب النحو لم تشرح في التوابع إلا العامل فيها وذلك وهم. فمن يقرأ هذه الكتب ير أن ذكر العامل لم يأت إلا عرضاً، أما القصد والغرض فبيان علاقة التابع بالمتبوع وذكر مميزات كل صيغة، وما تتضمنه من معنى وشرح قيمة كل أسلوب.

وسآخذ الآن في مناقشة بعض ما جاء به من الآراء:

أولاً: قال الأستاذ: (إن باب العطف ليس له إعراب خاص، وليس جديراً أن يعد من التوابع، ولا أن يفرد باب لدرسه) فهل قال أحد إن للعطف إعراباً خاصاً، غير إعراب متبوعه؟ ولكن هل اتحادهما في الإعراب يمنع من أن يفرد للعطف باب لدرسه؟ يكفي أن ترجع إلى كتب النحو لترى أن ما ذكر في باب العطف جدير بأن يكون له باب يخصّه؛ فهناك حروف العطف المختلفة. ولكل منها معنى خاص بها، تكفل ببيانه علم النحو، وباختلاف معاني هذه الكلمات تختلف علاقتها بما قبلها وبما بعدها، وكذلك لكل حرف منها شرط لوجوده في الجملة حتى يكون استعماله صحيحاً (وهذا كله عكس ما توهم المؤلف من أن كتب النحو لم تدرس هذه الأدوات إلا من ناحية بيان أثرها في الأعراب) ثم هناك غير ذلك عطف على ظاهر، وعطف على ضمير مرفوع أو منصوب، أو مجرور، ولكل ذلك

حدود وشروط، لا تكون الجملة صحيحة إلا بمراعاتها فأين تذكر هذه الحدود وتلك الشروط إلا في باب خاص بها؟ ومن الغريب أن المؤلف يدعو في أول كتابه إلى دراسة علاقة الكلمة بالكلمة، والجملة بالجملة، وأحسب أن باب العطف الذي يريد حذفه - تتجلى به هذه العلاقة تمام الجلاء، وفضلا عن هذا كيف يفهم طلاب اللغة العربية: الصغار والكبار، هذه الحروف وكيف يعربونها ويعربون ما بعدها؟ أنقول لهم: إن هذه الحروف حروف تشريك، وأن ما بعدها شريك ما قبلها، كما يفهم من حديث المؤلف، هذه الحروف منها ما يفيد التشريك في اللفظ والمعنى ومنها ما يفيد التشريك في اللفظ دون المعنى، كما هو مفصل في كتب النحو، على أنه (إذا كان هذا كل ما يريده) ليس هناك كبير غناء في وضع لفظ مكان لفظ. ولا سيما إن كان اللفظان مترادفين، فظهر لك من هذا وجوب أن يكون للعطف باب خاص بأحكامه.

ثانياً: جعل المؤلف البدل والتوكيد باباً واحداً، وذلك إن دل فإنما يدل على أن صاحب الكتاب يريد أن يتناسى الفوارق المعنوية بين البابين، والتي يوضحها ويبينها الاستعمال؛ فبينما نرى في باب البدل أن المقصود بالحكم هو البدل، نرى في باب التوكيد عكس ذلك إذ أن المؤكد هو المعنى بالحديث المقصود منه وإنما جيء بالتوكيد ليثبته وليقوى معناه، ولأضرب مثلاً يبين ما أردت:

تقول قرأت الكتاب بعضه، فالمقصود من الجملة هو البدل (بعضه) لأنك لم تقرأ الكتاب كله؛ وتقول: قابلت الوزير نفسه، والمقصود من الجملة هو الوزير ولم تأت كلمة (نفسه) إلا لتؤكد أنك قابلته، ولم تقابل (سكرتيره) مثلاً، وأحسب هذا فرقاً معنوياً واضحاً يكفي لأن يجعل لكل منهما باباً خاصاً به، هذا إلى أن للتوكيد ألفاظاً لا يتعداها، ولا يكون بغيرها، أما البدل فمتحلل من هذه القيود وغير خاضع لها.

أحمد أحمد بدوي

العدد 216 - بتاريخ: 23 - 08 - 1937

حوادث العراق

ذيول الانقلاب العسكري

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

كان العراق ما خفنا أن يكون، وجاءت الأنباء بأن بكر صدقي باشا رئيس أركان الحرب في الجيش بوغت في مطار البصرة وهو يتهيأ للسفر إلى تركيا برصاصات أطلقها عليه جندي، وهم قائد القوة الجوية بأن يدفع عن صديقه فلحق به، ولقي حتفه مثله فحملت الجثتان في طيارة إلى بغداد حيث دفنتا، وأبى الجندي الذي اغتالهما أن يفضي بشيء عن بواعثه على هذه الجريمة؛ وأرجح الآراء أن الاغتيال سياسي، وأنه إحدى نتائج الانقلاب العسكري الذي قام به المرحوم بكر صدقي باشا في العام الماضي، والذي عصف بالوزارة الهاشمية وشرد رجالها، والذي كان من ضحاياه المرحوم جعفر باشا العسكري وزير الدفاع يومئذ. وفي الأنباء الواردة عن الحادث الجديد أن الجندي الذي

أردى بكر صدقي كان يصيح وهو يفرغ رصاصته في صدره: (يا لثارات جعفر) وسواء أصح هذا أم لم يصح، وكان الرجل قد أطلق هذه الصيحة أو لم يطلقها، فإن المحقق أن الأمر أمر انتقام، وأنه بعض رد الفعل لذلك الانقلاب العسكري المفاجئ الذي أحدثه بكر صدقي، فقد كان للوزارة الهاشمية أنصارها ولرجالها شيعتهم، وللعهد الجديد خصومه؛ وبعيد أن يكون الجيش كله - بأجمعه - قد رضي عما وقع، وارتاح إلى التدخل لقلب وزارة وإقامة أخرى، وسره أن يغتال جعفر العسكري ويدفن حيث لا يدري أحد، وأن يكون قتلته معروفين ولا يسألون عما اجترحوا؛ وغير معقول أن يكون الشعب العراقي قاطبة حامداً شاكراً، قانعاً، راضياً مطمئناً، فإن هذا مطلب عسير، وغاية لا تنال؛ ومتى بدأت تجيز لنفسك أن تقتل، وأن تستخدم القوة بعد إحكام التدبير في الخفاء، في تحقيق مآربك - كائنة ما كانت - فقد أجزت هذا لسواك، وأغريتهم بأن يحتذوا مثالك ويقتاسوا بك؛ ومتى أمكن أن يأتمر جانب من الجيش بوزارة، فإن من الممكن أن يأتمر جانب آخر منه بوزارة غيرها، لأن الأصل - والواجب - أن يبقى الجيش بمعزل عن السياسة والأحزاب والوزارات، وألا يعرف إلا وطناً يدافع عنه ويذود عن حقيقته حين يدعى إلى ذلك، فإذا زججت به مرة واحدة في السياسة، فقد أغرقته في لجها المضطرب إلى ما شاء الله؛ وعزيز بعد ذلك أن تصرفه عنها وأن ترده إلى الواجب الذي لا ينبغي أن يعرف سواه. وهذا هو الذي خفناه وأشفقنا على العراق منه يوم حدث الانقلاب العسكري في العام الماضي. وإنا لنعرف للوزراء الحاليين كزملائهم السابقين وطنية وغيرة وإخلاصاً، ولم يكن جزعنا لأن وزارة معينة ذهبت وأخرى جاءت. فما نفرق - ولا ينبغي لنا أن نفرق - بين أحد منهم، وإنما خفنا على العراق عاقبة اتخاذ الجيش أداة لإسقاط حكومة وإقامة أخرى، فإن الحكم ليس من شأن الجيش بل من شأن الساسة والنواب والأمة، وكل دولة تحرص على إقصاء الجيش عن كل ما له صلة بالسياسة ودسائسها ومكايدها ومناوراتها وخصوماتها، اتقاء لما يفضي إليه اشتغاله بذلك من الشقاق وتفرق الكلمة وتوزع الولاء والمؤامرات والفتن والهزاهز. وقد صح ما توقعناه مع الأسف وخسرت العراق اثنين من رجال الحرب مشهورين بالاقتدار والحزم. وقد وكان المرحوم ياسين باشا الهاشمي يكبر المرحوم بكر صدقي باشا ويوقره ويعرف له قدره، ولكن بكر صدقي أخطأ مع الأسف فجر الجيش إلى ميدان كله شر وفساد، وكان هو الضحية الأولى لخطئه ولا نعرف ماذا انتوت حكومة العراق أن تصنع، ولكنا نرجو ألا تجمح مع أول المخاطر؛ ولا شك أن التحقيق واجب، وأن عقاب الجاني فرض؛ غير أن الأمر يحتاج إلى الاعتدال والحكمة وبعد النظر، أكثر مما يحتاج إلى البطش والتنكيل. ولا خير في مثل ما جاء في بعض الأنباء من أن الوزارة العراقية تريد أن تشتت شمل أنصار العهد السابق جميعاً، فإن أنصار الحكم السابق لا ينقصهم التشتيت، وكل ما يؤدي إليه ذلك هو تعميق الهوة وإيغار الصدور، وإغراء النفوس بالانتقام وأخذ الثأر، والعراق اليوم أحوج ما يكون إلى الصفاء والسكينة ليتيسر له أن يستأنف النهضة التي صدها الانقلاب العسكري، أو جعلها على الأقل أبطأ وأقصر خطوات مما كان يرجى أن تكون، وليتسنى له أن يؤدي واجبه للقضية العربية التي عنيت بها وزارة السيد حكمت سليمان عناية مشكورة، ولا سبيل إلى شيء من ذاك إلا بعد أن يستقر الأمر على حدود مرضية، في الظاهر والباطن أيضاً لتخلو النفوس من دواعي النقمة وتتصافق الأيدي على العمل المشترك لخدمة الأمة، ولا يكون هذا إلا بالتفاهم والتراضي والتعاون، لا بالبطش والتنكيل. وقد جربت الوزارة السليمانية القوة والتشتيت، ولسنا نراهما أجديا عليه فتيلاً. نعم كانت البلاد ساكنة، ولكنه سكون ظهر الآن أنه يستر شراً عظيماً، ومتى آثرت الضغط والحجر، فقد ألجأت الناس بكرههم إلى العمل في الخفاء والتدبير في السر، والنفاق في الجهر، ولسنا نعرف أن اجتناب الاعتدال أثمر غير هذا. ومن سوء الحظ أن بلادنا فقيرة في الرجال، فكل من تفقد، خسارة لا تعوض. وفق الله العراق ورجاله، وسدد خطاهم وألهمهم الحكمة والرشاد

إبراهيم عبد القادر المازني

الخروج من النفس

للأستاذ عباس محمود العقاد

كل ناقد لابد له من قدرة على الخروج من نفسه بعض الأحايين، أو من قدرة على

تصور الأشياء كما يتصورها مائة إنسان لا كما يتصورها فرد واحد في جميع الحالات وما كان (الخيال) ملكة من أنفس الملكات وألزمها للناقد والأديب والشاعر والعالم إلا لأنه يتيح للإنسان أن ينظر إلى نفسه أحياناً كما ينظر إلى غريب، وأنه ينظر إلى الغرباء أحياناً كأنهم نسخ أخرى منه يحس معها وتحس معه، ويحس باللحظة عينها بالفوارق بين تلك الأحاسيس جميعها، فينقد ويؤلف ويقسم ويوزع ويعلم أن الصواب لا ينحصر في سمت واحد ولا حالة واحدة، وأن الأمر لا يكون خطأ لأنه يخالف ما استصوب، ولا يكون دميماً لأنه يخالف ما استحسن، ولا يكون بدعاً غريباً لأنه يخالف ما تعود، ولكنما الحقيقة فصيلة من فصائل الجان، تتشكل كما يتشكلون بمختلف الأشكال والنماذج والألوان

وبعض الأمم يبتلون بضعف الملكة الناقدة لأسباب كثيرة بعضها أصيل وبعضها عارض يزول

فمنها ما يؤتى من جانب الغرور عقب النصر الباهر، وفي أيام الرخاء والوافر؛ ومنها ما يؤتى من جانب الجمود والركود وطول العهد بالحضارة، بين جيران من ذوي الخشونة والجلافة؛ ومنها ما يؤتى من جانب العزلة وقلة المخالطة والهجرة؛ ومنها ما يؤتى من بلادة الحس وضيق العطن وشيوع الجهل والقدامة؛ ومنها ما يؤتى من التعصب الشديد الذي يؤصله في النفس طول الظلم والاضطهاد مع قوة في الشكيمة وقدرة على التحول والتصرف تحول دون الأمة والفناء

وأحسب أن المصريين من أكثر الأمم سخرية بما استغربوه ولم يتعودوه، فلا يكون الخطيب خطيباً ولا الواعظ واعظاً ولا الممثل ممثلاً إلا إذا خاطبهم باللهجة المصرية التي لا تشوبها مسحة من اللهجات العربية الأخرى ولو كانت ريفية من صميم البلاد المصرية

وأذكر أن ممثلاً سورياً كبيراً حضر إلى مصر بعد اغتراب سنوات في أوربا تتلمذ خلالها على أساطين المسرح الحديث وعاد إلى مسرحنا بنمط جديد في بعض الأدوار يبذ به أنداده وسابقيه، فذهبت ومعي اثنان من الأدباء - وأقول من الأدباء لا من عامة السواد -

وأصغينا إلى الرجل وهو يترقى في دوره حتى شارف القمة وألهب النفوس بالتشوف واحتداد اللهفة، ونظرت إلى جانبي فما راعني إلا أحد الصاحبين، وقد غلب ضحكاً، وإلا الصاحب الثاني يكاتم الضحك مكاتمة شديدة، وكل ذلك لأن الممثل قد مط الحروف وهو يصرخ ويهيج على نحو يقارب الفرنسية من جهة، والسورية من جهة أخرى، فنسي الأديبان أن الإنسان قد يتألم سورياً وفرنسياً وليس من الضروري أن يتألم مصرياً وقاهرياً وإلا انقلبت الخوالج الآدمية فأصبح الألم مما يضحك والهياج مما يدعو إلى الفكاهة، وحسبا أنني لم أفطن لاختلاف اللهجة كما فطنا. . . فخرجا يتندران بهذه القصة ويزهيان بالفطنة التي رزقاها وحرمتها، والذوق (الدقيق) الذي عداني وما عداهما!

وكان عيد الحرية الثمانية فذهبنا جمعاُ من الإخوان نشهد الحفل الحافل في بعض المسارح المشهورة يومذاك، وكان بين الخطباء ترك وعرب وسوريون. فما أحسب أن رواية هزلية في ذلك المسرح أثارت قط مجانة وضحكاً وسخرية كالتي أثارتها (حماسة) الخطباء والشعراء وذكريات الفجائع والمظالم في أيام الاستبداد. وكان أحد الخطباء مبيناً مفوهاً متدفقاً كأحسن ما يكون الخطيب في لغة من اللغات، إلا أنه ارتضح لهجة غريبة فبطلت محاسنه واحتجبت مزاياه. ولم يكن قصارى الأمر عند أصحابنا أنه يجهل العبارات المصرية والمخارج القاهرية، وإنما كان عندهم جاهلاً بكل شيء يجعل الخطيب خطيباً ويجعل السامعين يستمعون إليه.! فلما قلت لهم: إني أعد الرجل من أقدر من سمعت وأوفاهم بياناً، قام أحدهم يحكيه ويردد عباراته ويمثل إشاراته وحركاته فسقطت الحجة كلها وقطعت جهيزة قول كل خطيب!!. . . وإلا فماذا يبقى من قول القائل الذي يخالف اللهجة القاهرية هذه المخالفة، والذي يستطيع القاهري أن يحكيه ويتماجن عليه؟؟ لا يبقى بالبداهة شيء

ويؤمن العامة إيماناً عجيباً بملازمة الأشياء لصورها وأسمائها وعاداتها التي ألفوها حتى لا يجوز أن تقع التفرقة بينها بنحو من الأنحاء

سألت أحدهم مرة: ما اسمك؟ فأخفى اسمه الصحيح وقال لي إن اسمه (علي) وهو

في الحقيقة يسمى إدريس، وكأنه امتحن ذكائي بهذه الأكذوبة وظن أنني لا أفرق بين الكذب والصدق إذ كان الرجل الذي يسمى (إدريس) تلزمه هذه التسمية لزوماً لا فكاك منه ولا
يمكن أن يسمى علياً بحال من الأحوال.! فلما دعوته مرة أو مرتين باسم (علي) وصدقت ما قال تدرج إلى غشي ومخادعتي في غير ذلك موقناً أنني سأجهل الحق كما جهلته في استبانة اسمه الصحيح. وأين. . . نعم أين بالله علي من إدريس؟!
هذا مثل هابط جد الهبوط في ملازمة الأشياء لمظاهرها وأسمائها بحيث لا تقبل الاختلاف ولا التصور على مثال آخر، ولكن الذين يهبطون هذا الهبوط كثيرون وإن لم يظهروا هذا الظهور. وما من ناقد ينكر كلاماً لأنه يخالف أسلوباً من الأساليب إلا وهو قريب إلى طبقة ذلك الفدم الذي يستجهل كل من يتخيل أن أسماء تطلق على الناس غير اسم إدريس!
كنا نناقش أستاذاً مدرساً في مسألة اجتماعية فاحتج علينا برأي فيها لبعض الأئمة السابقين، قلنا: وهل هذا الإمام حجة فيما نحن فيه؟
قال: سبحان الله! إننا نقضي العمر نتعلم اللغة العربية ولا نحذقها كما حذقها ذلك الإمام وهو طفل لم يتعلمها على معلم. أفيكون هذا حظه من الفهم ثم يجهل كلاماً نحن ندريه؟
قلت: أو لم يخطر لك أن ذلك الإمام يقضي العمر يتكلم اللغة العامية التي نحذقها نحن ولا يبلغ من حذقها ما بلغناه؟ أو لم يخطر لك أن الطفل المولود بين الفرنسيين أو الإنجليز أو الألمان يسبق ذلك الإمام إلى معرفة الفرنسية أو الإنجليزية أو الألمانية؟؟
أتظن أن العربي وحده يحسن اللغة التي يتكلمها؟ وإذا أحسنها أتظن أنه يحسن كل شيء على هذا المنوال بغير كتب وبغير معلمين؟
فلاح عليه وأنا أساجله السؤال أنه لم يكلف بداهته قط أن تتصور للأمور أوضاعاً غير الوضع المعروض عليه. وقد تنساق أمة كاملة إلى خطأ شبيه بخطئه كما انساق العرب إلى تسمية الناس جميعاً (بالأعاجم) لأنهم لا يفهمون ما يقولون
ولست أرى ميزاناً للنقد والذوق أصوب وأحكم من سؤال المرء عن عشرة شعراء أو فلاسفة يقرأ لهم ويعجب بهم ويشهد لهم بالشعر والفلسفة. فكلما اختلف هؤلاء وتباعدت بينهم أوجه الشبه وأسباب الاختيار والترجيح كان ذلك دليلاً على سعة القريحة وقدرتها على الاستحسان لجملة أسباب متفرقات لا لسبب واحد متكرر محدود. وكلما تماثل هؤلاء وتقاربوا كان ذلك دليلاً على ضعف النقد وعجز الملكة الموكلة بالاستحسان والانتقاء
ومن هنا نعتقد أن البارودي خطا بالنقد العربي خطوات كما خطا بالشعر في معناه وأسلوبه.
فانتقل بنا من المدرسة التي كانت تقصر الشعر على الجاهليين والمخضرمين إلى مدرسة تعرف الفضل للعباسيين والمحدثين، وانتقل بنا مع ذلك من جماعة الزي الواحد والنمط الواحد إلى جماعة المكاثرين بالأزياء والأنماط. فقد كان الناقد قبله يستحسن البحتري ثم لا شيء بعده ولا شيء غيره، فجاء البارودي على آثار من سبقوه يجمع بين المعري والبحتري وبين ابن الرومي وابن المعتز في ديوان واحد ولا تزال في مصر بقية من المحدودين المطويين على أنفسهم يلج بهم الغرور ويشتد بهم الوهم على مقدار ما يضيق بهم المجال وينحسر بهم الذوق والشعور. فهم على يقين ما بعده يقين أن (الذوق) لم يخرج من مصر، وأن الذوق هو ما اصطنعوه من الفكاهة الغثة أو الرقة المحفوظة المدبرة المتشابهة العبارات والتحيات والمصطلحات، أو الجناسات الكلامية والفكرية التي لا تطلع على الذهن بلمعة من نور، ولا تترك فيه فضلة من فهم، ولا تبعث فيه حركة من حياة. وتسألهم: كم عدد الشعراء الفحول في عشرة آلاف سنة بين القوم الذين رزقوا الذوق كله والإحساس كله ولم يتركوا على زعمهم بقية منهما إلا كما يترك السؤر في الإناء المهجور؟؟ وكم واحداً من (أبناء البلد) الذين لا ذوق إلا ذوقهم، ولا إحساس إلا إحساسهم، ولا فكاهة إلا فكاهتهم، ولا فطنة إلا فطنتهم، قد صعد في مراتب الفن والشعر إلى مواطئ أقدام المحرومين المساكين، الذين لا يشعرون ولا يتذوقون، ولا يستمرئون اللطافة ولا يستملحون المعاني والنكات؟؟ وإذا كان ما استقروا عليه هو غاية الحس والذوق، وحمادي الإبداع

والإحسان، وقصارى الأناقة والجمال، فما بالهم لم ينجبوا رجلاً واحداً خلاقاً في عالم الشعر أو الكتابة أو التصوير أو الموسيقى، وقد أنجبت الأمم المئات والألوف؟

سيمضي زمن نرجو ألا يطول قبل أن يفقه أدعياء الذوق بيننا أنهم صفر من الذوق، وأن الله لم يخلق على الأرض طائفة أغلظ منهم حساً، وأثقل منهم روحاً، وأفرغ منهم لباً، وأعضل منهم داء على العلاج

سيمضي زمن نرجو ألا يطول قبل أن يفقه أدعياء النقد عندنا أن الذوق الذي يستحسن حسناً جميل، وأجمل منه الذوق الذي يستحسن الحسنين، وأجمل منهما الذوق الذي يستحسن الشيئين بينهما تناقض في الحسن كأنهما ضدان

وسيمضي زمن نرجو ألا يطول قبل أن يشيع بيننا أن الآكل قد يشتهي طعاماً لذيذاً ولا يمنع ذلك أن تشتمل الأطعمة على ألف لون لذيذ غيره، وأنه إذا جاز هذا في الآكال التي تعد وتحصر فأخلق أن يجوز فيما ليس له آخر، وهو أطعمة الألباب وأصناف المعاني وألوان الشعور

ونرجو ألا يطول الزمن قبل أن يتعلم الهازلون الماجنون كيف يخرجون من نفوسهم ليعرفوها ويعرفوا سواها، كما يخرج السائح من وطنه ليعرف وطنه، ويخرج القارئ من زمنه ليعرف زمنه، ويبتعد المصور من صورته ليراها حق الرؤية ويبلغ بها جهده من التسوية والتجويد

وتلك نقلة صعبة على من يحتاج إليها. ففي عالم المادة أكثر الناس انطلاقاً إلى الخروج المحبوسون في المكان المغلق المحدود. أما في عالم الفكر والروح فالمحبوسون في المكان المغلق المحدود هم أقل الناس انطلاقاً إلى الخروج وأكثرهم قناعة بما هم فيه.

عباس محمود العقاد

المحاكمات التاريخية الكبرى

1 - الحركة النهليستية ومصرع القيصر اسكندر الثاني

صفحة رائعة من صحف الثورة على الطغيان

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كانت الثورة البلشفية نتيجة محزنة للمعركة التحريرية الرائعة التي اضطرمت مدى ستين عاماً بين القياصرة وبين الحركة الثورية الروسية. ولم يثل عرش القياصرة ويسحق طغيان القيصرية وتمحى نظم الإقطاع وامتيازات النبلاء إلا ليقوم مكانها طغيان جديد أشد إمعاناً في الإرهاب والسفك وثل الحقوق والحريات العامة. ومن ذا الذي يستطيع أن يقول إن الشعب الروسي يتمتع اليوم في ظل النظم البلشفية بلمحة من الحرية التي كان ينشدها في أيام القياصرة والتي اعتقد أنه ظفر بها كاملة في ثورة مارس سنة 1917 الاشتراكية ثم في ثورة أكتوبر البلشفية. كانت روسيا منذ منتصف القرن التاسع عشر مشرح نضال عنيف بين طغيان القيصرية وبين العقلية الروسية الجديدة الطموح إلى الإصلاح والتحرير؛ وكانت روسيا الجديدة تنشد الإصلاح السلمي بادئ بدء وتحاول عن طريق الإصلاحات الدستورية والاجتماعية تحطيم الأصفاد المرهقة التي تطوق القيصرية بها عنق الشعب الروسي؛ وكان رسل روسيا الجديدة يومئذ جمهرة من الشباب المستنير الذي حفزته مؤثرات الثقافة الحرة إلى التطلع إلى آفاق جديدة، كان هؤلاء هم طلائع (النهلزم) أو الحركة النهلستية كما سماها ترجنيف، وكانت هذه الدعوة الإصلاحية المتوثبة دعوة مثل ومبادئ يذكيها طائفة من الكتاب الأحرار بأقلامهم الملتهبة؛ وكان أخص ما يميز الدعوة الحديثة على قول ستبنياك مؤرخ الثورة الروسية (هو إنكار كل ما يفرض على الفرد إنكاراً مطلقاً تعززه الحرية الفردية. وقد كانت النهلستية ثورة قوية مضطرمة لا على الطغيان السياسي ولكن على الطغيان المعنوي الذي يرهق حياة الفرد الخاصة). على أن هذه الحركة الإصلاحية السلمية لم تلبث إزاء عنت القيصرية وإغضائها عن الاستماع لدعوتها، أن تطورت بسرعة إلى حركة ثورية تعتزم أن تحقق مثلها بالنضال والعنف. واحتشد الشباب المتوثب من جميع الطبقات تحت لواء الحركة الجديدة. بيد أنهم على قول ستبنياك (كانوا عزلاً إلا من النظريات والمثل، وكانوا يحاربون قوة هائلة مدججة بالسلاح والعدد، ولم يك ثمة سبيل لأن يحركوا كتلة الشعب التي ترزح في أغلال الرق والذلة). وكانت القيصرية تضاعف إجراءات القمع وتمعن في مطاردة أولئك الرجال

والنساء الذي يتجاهلون حقيقة الحياة والنظم القومية الروسية.

وهنا يضطرم النضال وتنشب بين القوتين الخصيمتين: القيصرية والنهلستية - تلك المعركة الهائلة التي تقطر في كل مراحلها دماً، وتتناثر حولها الأشلاء من كل صوب، ويتساقط في حلبتها قياصرة وأمراء وقواد وحكام وشباب من كل الطبقات. كانت القيصرية وعميدها، وكل المؤيدين لطغيانها، هدفاً لطائفة من المؤامرات والجرائم التحريرية المحكمة تعصف بهم وتثل أرواحهم بين آونة وأخرى؛ وكانت هذه الجمهرة المستبسلة من الشباب الغض بين فتية وفتيات تلقي بنفسها إلى تلك الغمار المروعة وهي تودع الحياة في كل مرة أفراداً وجماعات؛ وكان العنف يذكي العنف فكلما وقع اعتداء جديد على زعيم من زعماء الطغيان حشد الطغاة في الحال حول المشانق رهطاً من الشباب المجاهد وأعدموهم بعد محاكمات مرتبة تختتم دائماً بمجازر بشرية. ذلك هو تاريخ النهلستية أو الحركة التحريرية الروسية التي سطرها التاريخ بمداد من الدم الغزير.

بدأ هذا النضال العنيف في سنة 1875 بعد أن نضجت الحركة الثورية، واحتشد حول المثل الحرة الجديدة جيش حقيقي من الفدائيين؛ وكانت القيصرية كلما اشتد ساعد الحركة الثورية واشتدت مطالب الأحرار في سبيل الإصلاح الدستوري اشتدت من جانبها في القمع والمطاردة، وازدادت حرصاً على سلطانها المطلق. وكانت سلطات الطغيان تبسط على أنحاء روسيا الشاسعة حكماً من الإرهاب المطبق، تدعمه جاسوسية بارعة خطرة؛ وكانت القيصرية هي الباغية المتجنية لأنها لم تستمع إلى دعوة الإصلاح، بل آثرت سلاح القمع الهمجي، فمالت على الحركة الثورية تحاول تمزيقها، ومالت على الأحرار تحاول إفناءهم، وأسرفت في القبض والاعتقال والنفي إلى سيبريا، وتدبير المحاكمات الصورية واتخاذها وسيلة لإعدام الزعماء والقادة والشباب المجاهد؛ وأجاب الأحرار من جانبهم بتنظيم حركة من الإرهاب الثوري ذهب ضحيتها ثبت حافل من الوزراء والقضاة ورجال الشرطة وغيرهم من أعوان الطغيان. وكانت هذه المعركة الشهيرة في صحف الكفاح الثوري ذروة الحركة النهلستية، وكان قوامها من جانب سلسلة من الجرائم السياسية المروعة، ومن الجانب الآخر سلسلة من المحاكمات الرنانة. ففي سنة 1877 قبضت الحكومة على خمسين من الأحرار النهلستيين وحوكموا في موسكو بتهمة التآمر على سلامة الدولة وهي التهمة الخالدة التي يشهرها الطغيان دائماً في وجه خصومه. وكان منهم صوفيا باردين وهي فتاة ثورية نابهة عرفت مثل النهلستية أمام قضاتها بما يأتي: (إن الجماعة التي أنتمي إليها هي جماعة الدعاة السلميين. إن غايتنا هي أن نبعث إلى نفس الشعب مثل نظم أفضل وأقرب إلى العدالة، أو بالحري أن نوقظ المثل الغامض الذي يجثم في نفسه، وأن نبين له عيوب النظام الحاضر حتى لا يعود في المستقبل إلى نفس الأخطاء التي يعانيها. أما متى تدق ساعة هذا المستقبل المنشود فهذا ما نجهله وليس علينا نحن أن نبينه).

وأسفرت المحاكمة عن القضاء على كثيرين بالإعدام والسجن والنفي. وفي العام التالي قبض على نحو مائتين منهم وقدموا إلى المحاكمة في بطرسبرج ولينجراد فهلك في بدء المحاكمة منهم ثلاثة وتسعون بالتعذيب والانتحار، وقتل النهلستيون من جانبهم عدة من الجواسيس، وأطلقت فتاة تدعى فيرا زاسولتش النار على تربيوف مدير الشرطة فجرحته جرحاً خطيراً (فبراير 1878) وقدمت إلى المحاكمة فبرئت وحملت على الأعناق في مظاهرة صاخبة، ثم فرت خيفة المطاردة والانتقام. وفي أغسطس أعدم الزعيم الاشتراكي كرفالسكي في أودسا فلم تمض بضعة أيام حتى انتقم له الثوار بقتل رئيس الشرطة مزنتزيف. وفي فبراير 1879 قتلوا في خاركوف حاكم المقاطعة البرنس ألكسي كروبتكين، وانتقمت القيصرية على الأثر بإعدام الزعيم أوسنسكي وبعض رفاقه. وهكذا لبثت المعركة على اضطرامها أعواماً طويلة تحصد أرواح الفريقين.

وكان مصرع القيصر إسكندر الثاني أعظم حوادث هذا النضال الدموي المروع وكان ذروة الحركة النهلستية؛ وكانت المحاكمة التي تلت أعظم المحاكمات السياسية التي عرفتها هذه الحركة الفياضة بالحوادث والمحاكمات الرنانة. وكان إسكندر الثاني الذي تولى العرش سنة 1855 يجنح في بداية عهده إلى نوع من الإصلاح ومسالمة الحركة

التحريرية وتحقيق بعض غاياتها. وكان تحريره لرقيق الضياع في سنة 1861 فاتحة طيبة لهذه السياسة الإصلاحية؛ وكان يميل في نفس الوقت إلى إجراء بعض الإصلاحات الدستورية التي لا
تؤثر في مجموعها على حقوق السلطة العليا، ولكن تتخذ في الوقت نفسه صورة المنح والمزايا الدستورية؛ وكان يعتقد أنهلا يستطيع تحقيق هذه الغاية بإنشاء المجالس المحلية (زمستفوس)، ولكن الحركة التحريرية لم تحفل بهذه المشاريع الجزئية بل اشتدت في مطالبها وضاعفت جهودها في سبيل الكفاح والنضال، وشهرت على القيصرية حربها العوان، وردت القيصرية بمضاعفة إجراءات القمح الذريع، واضطرمت بين إسكندر الثاني وبين النهلستية تلك المعركة الدموية المروعة التي أتينا على وصفها ورأت اللجنة التنفيذية الثورية أو اللجنة التنفيذية لإرادة الشعب كما كانت تسمى، أن تقضي على الشر من أصوله فقررت إعدام القيصر (26 أغسطس 1879) ونظمت شعبها الفدائية، ودبرت تباعاً عدة مشاريع لاغتيال القيصر. فبدأت في شهر نوفمبر بوضع لغم في طريق القطار الذي يسافر فيه القيصر ولكنه لم ينفجر، وفي ديسمبر وضع الفدائيون لغماً آخر في طريق القطار الملكي إلى موسكو انفجر عند مرور القطار، ولكن القيصر وصل إلى موسكو في قطار سابق؛ وفي مساء 17 فبراير سنة 1880 نسف الفدائيون قاعة الطعام في قصر الشتاء على ظن أن القيصر كان عندئذ يتناول طعامه فيها، ولكن القيصر كان في مكان آخر من القصر، ولم يكن قد جلس إلى المائدة بعد، فقتل في الحادث وجرح سبعة وستون من الجند والحشم. ونشطت القيصرية من جانبها إلى مطاردة الجناة، فأعدم عدة من الفدائيين، ومنح لوريس مليكوف وزير الداخلية سلطة مطلقة على العاصمة لكي يستطيع السهر على حياة القيصر وأسرته، وخول له الإشراف المطلق على القضايا السياسية وعلى جميع السلطات الإدارية والمدنية. ورأى مليكوف من جهة أخرى أن يتخذ بعض إجراءات لاستمالة الشعب فأفرج عن كثير من المعتقلين وكانت تغص بهم السجون، ورد آلاف الطلبة إلى الجامعات التي أخرجوا منها. وأصدرت اللجنة التنفيذية بياناً قالت فيه (إنها لن تترك الكفاح حتى يتنازل إسكندر الثاني عن سلطانه للشعب ويترك مكانه لجمعية وطنية تأسيسية تضع مبادئ الإصلاح الاجتماعي). ولكن حدث في مساء 27 فبراير أن استطاعت الشرطة السرية أن تقبض على أندري جليابوف زعيم اللجنة الثورية في دار صديقه وزميله في اللجنة المحامي تريجوني وقبض على تريجوني في نفس الوقت، وحمل النبأ إلى القيصر وزير الداخلية مليكوف فابتهج به أيما ابتهاج، لأنه كان يعتقد أن جليابوف
رأس اللجنة المدبر ولن يهدأ له بال مادام حراً طليقاً. ورفع الوزير إلى القيصر في نفس الوقت مشروع المجالس المحلية الذي اعتزمت الحكومة تنفيذه بعد أن وضع في صيغته النهائية فوعد القيصر بالنظر فيه في الغد.
وكان ذلك في مساء يوم الجمعة 27 فبراير سنة 1881 وكان القيصر يعتزم أن يشهد يوم الأحد أول مارس تمارين فرسان الحرس في ميدان ميخايلوفسكي كعادته كل أحد. فرجاه وزير الداخلية ألا يفعل لأن جليابوف صرح أمامه أن القبض عليه لا يمنع وقوع اعتداء جديد على حياة القيصر، ولكن القيصر لم يعبأ بهذا النصح وصمم على الذهاب.
وكان القبض على جليابوف ضربة شديدة للجنة التنفيذية، وكان يقيم منذ حين في بطرسبرج باسم سلاتفلسكي مع صاحبته وزميلته صوفيا بيروفسكايا بزعم أنها أخته، وكانت صوفيا ساعده الأيمن في تدبير المشاريع وإدارة الشئون؛ فلما قبض عليه ولم يعد ليلة 27 فبراير جمعت صوفيا أعضاء اللجنة التنفيذية المقيمين في بطرسبرج في الحال وكان منهم ضابط البحرية سوخانوف، والصحفي تيخوميروف، وأساييف وفرولتكو، وجراتشفكي، وحنه كوربا، واجتمعت اللجنة في دار فيرا فنجر، وبحثت الموقف الخطير الذي انتهت إليه، وكيف أخفقت مشاريعها المتوالية في الأشهر الأخيرة، واستطاعت شرطة القيصر أن تشل كل حركاتها، وأن تقبض أخيراً على زعيمها؛ وبعد مناقشات عاصفة قررت اللجنة بالإجماع أن تنفذ مشروع جليابوف لاغتيال القيصر وعهدت إلى صوفيا بيروفسكايا بالإشراف على التنفيذ، وكانت اللجنة ترمي بهذه المشاريع الجنائية المتوالية فضلاً عن الانتقام للضحايا العديدين، إلى غاية

سياسية عملية هي أن تستغل ما يترتب على الاغتيالات السياسية من الاضطراب والروع وتحقيق بعض مطالبها الدستورية. ولكن هذه الخطة لم تحدث أثرها المنشود بل زادت بالعكس في سخط القيصرية وحرصها على سلطانها، وزادتها إقداماً وقسوة في تتبع خصومها.

(للبحث بقية - النقل ممنوع)

محمد عبد الله عنان

عصبة الأمم في التاريخ

للدكتور حسن صادق

فكرة عصبة الأمم وتطورها - 1

يكثر الناس في هذه الأيام من الكلام عن عصبة الأمم بمناسبة انضمام مصر إليها في هذا العهد الجديد، ومنهم من يحبذ هذا الانضمام ويرجو من ورائه خيراً، ومنهم المتشائم الذي يتمثل في ذهنه الماضي القريب وما جرى فيه من حروب وعدوان بين دول هي أعضاء في العصبة، ويرى أن غنم هذه العصبة للقوى وغرمها على الصغير الضعيف. وليس من غرضنا في هذا المقام أن نخوض غمار السياسة في مجلتنا الأدبية، ولكننا سنبين في هذه الكلمة كيف ولدت فكرة العصبة وتطورت خلال الزمن حتى برزت في شكلها الحالي، ونرجو أن يجد القارئ في هذا الموضوع بعض الفائدة العلمية التاريخية.

من يتصفح التاريخ يجد أن الشعوب دائماً في حروب تفصلها فترات تطول حيناً وتقصر أحياناً. وكلما وضعت حرب أوزارها يبحث الإنسان عن وسائل لتنظيم السلام ويهتم لهذا الأمر جد الاهتمام. ولم يشعر الإنسان في أي وقت بشدة حاجته إلى توطيد أركان السلام أكثر مما شعر عقب الحرب العظمى في سنة 1914 لهول ما لاقى الناس منها. وقد كانت فكرة عصبة الأمم كائنة قبل الحرب، وظهرت جلية في كتاب للمسيو ليون بورجوا الفرنسي عنوانه (عصبة الأمم). ثم بدت هذه الفكرة بعد ذلك رسمياً في مذكرة الرئيس ويلسون في ديسمبر سنة 1916. وانتشرت هذه الفكرة بين رجال الحكم والسياسة فقويت، ثم ازدادت قوة حين تغلغلت في الرأي العام وسرت بين الشعوب التي عانت في الخنادق أفظع الآلام وذاقت في تلك الحرب الضروس طعم الأهوال البشعة التي يذيب ذكرها لفائف القلوب.

وفكرة عصبة الأمم تضرب بأصولها إلى أزمان بعيدة، لأنها تتصل بشعور طبيعي ضروري، وبرغبة شديدة في الهدوء والسلام. والباحث المدقق يجد أن عصبة الأمم وجدت منذ أن تكونت شعوب منظمة قامت بينها الصلات الكثيرة المختلفة. وقد أنشأ الرومان ما يمكن أن نسميه (جمعية شعوب) وكانوا هم بطبيعة الحال رؤساء هذه الجمعية.

وبعد وقت طويل جاءت المسيحية تحمل للعالم أفكار المساواة والإخاء على الأخص. وهذا المثل الأعلى العظيم تحقق تقريباً في القرون الوسطى أي من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر. فالمسيحية في ذلك العهد كانت عبارة عن أسرة مكونة من جميع الأمم المسيحية، تحت نفوذ رئيسين وهما البابا والإمبراطور. ولم يكن هذا النظام في الوقع إلا نوعاً خاصاً من (عصبة الأمم) تقوم على أساس من الدين. وكان رئيس المسيحية يحظى بسلطان كبير، فكان في استطاعته أن يصدر قرار الحرمان ضد أية دولة أو ضد جماعة من الأفراد، ومن حقه أن (يشلح) أي فرد ولو كان رئيس دولة؛ وهذا القرار الذي يجعل الدولة التي صدر ضدها خارجة على القانون له نتائج خطيرة، لأنها تصبح عرضة لعدوان الدول الأخرى عدواناً مشروعاً. وهذه الحال من غير شك تنتج اضطراباً خارجياً. وفوق لك فإن رعايا الأمير الخارج على القانون يصبحون في حل من يمين الطاعة والإخلاص له، وينتج عن هذا اضطراب داخلي دون ريب. وقد لجأ البابوات كثيراً إلى هذه الوسيلة لحفظ السلام وليصبحوا رؤساء إمبراطورية شاسعة كما يقول بعض المؤرخين.

وكانت الحروب في تلك الأزمنة مشروعة ضد الملحدين، وجائزة في أحضان المسيحية نفسها. ولكن البابوات والأساقفة كانوا يبحثون عن وسائل لتقصير مدتها وتخفيف نتائجها؛ من ذلك أن مجالس الدين في تولوز وكليرمون بفرنسا أذاعت في الناس ما

يسمى (هدنة الله) و (سلام الله) ووجدت هذه الإذاعة من الدول المسيحية ما تستحقه من الاحترام.

والغريب في ذلك العهد أن الحرب نفسها كانت متلفعة بروح من العدل. ولم تكن الموقعة تقوم على خطط حربية، ولكن كان المعتقد أن الذي يخرج من الحرب ظافراً، سيخرج من محكمة الله في الأخرى وعلى رأسه تاج النصر والظفر؛ وعلى ذلك كانت تجري المواقع بطريقة تبعث اليوم في النفس دهشة شديدة. فالخصوم كانوا يتواعدون في ساعة ومكان معينين، ويصطفون للموقعة بطريقة نمطية لا تتغير، ثم يهجم بعضهم على بعض وجهاً لوجه. وكانت خدع الحرب إلى القرن الخامس عشر تعتبر خيانة وعاراً ينفر منه المقاتل أشد النفور. وأول موقعة طبقت فيها خطة حربية بمعنى الكلمة هي موقعة رو كروي بين فرنسا وإسبانيا، إذ قام الأمير دي كونديه بحركة التفاف طوق بها الأسبان وانتصر عليهم، ولكن هذا العمل من جانب الأمير بعث التذمر في صدور كثير من فرسانه النبلاء، لأنه لا يمت في نظرهم ونظر عصرهم بأية صلة إلى النبل والشرف في القتال. وإذن نستطيع أن

نعتبر موقعة رو كروي خاتمة الطريقة الحربية في القرون الوسطى وبداية الحروب الحديثة التي تبرر جميع الوسائل وتجعل القتال أشد هولاً مما كان.

وهذه القواعد التي ذكرناها لم تكن مقبولة في كل موطن، فهي لم تكن تطبق إلا في أوربا المسيحية التي كان يحيط بها الأرتوذكسية اليونانية والإسلام، ثم الآسيويين الذين كانت أوربا تطلق عليهم اسم البرابرة.

نستنتج مما سبق أن أوربا في تلك العصور كانت تشتمل على وحدة حقيقية على رأسها البابا والإمبراطور، ولكن في أواخر القرن الرابع عشر وخلال القرن الخامس عشر قويت الأمم في كل النواحي وأخذت كل أمة طابعها الخاص، وشرعت تتناضل وتتقاتل. ثم ظهر الإصلاح الديني على يد لوثر وكلفن، فأصاب المسيحية بضربة شديدة وفرقها شيعاً.

وعقب هذه الحوادث، رغب الناس في إقامة نظام جديد للعلاقات الدولية. وحاول أحد رجال الدين من الجزويت (سوارز 1548 - 1617) أن يقيم نظاماً أقوى على الثبات من نظام القرون الوسطى، بأن يدخل على العلاقات الدولية مبادئ المسيحية الثابتة. أدرك هذا الرجل أن لكل دولة الحق في سيادة زمنية متينة، على أن تكون فيما بينها جميعاً جمعية حقيقية. ثم ذهب علماء البروتستانت إلى أبعد من هذا، وجعل جنتليس أولاً ثم جرتيوس من بعده مكاناً أكبر في تعاليمهما لسيادة الشعوب، وأعلن في شجاعة أن العلاقات الدولية ينبغي أن تحرر من كل صبغة دينية. ولجنتليس في هذا المقام كلمة مأثورة لاقت رواجاً هائلاً في ذلك الوقت وهي (فليعتصم علماء اللاهوت بالصمت في هذا الميدان، لأنه غريب عنهم وهم غرباء عنه) والمفكرون الذين أتوا من بعدهما، عملوا على توكيد آرائهما حتى انتشرت انتشاراً كبيراً.

ولما تولى هنري الرابع عرش فرنسا جدد بناءها وأراد أن يعيد بناء أوربا كلها، وكان هذا الحلم موضوع حديثه في أغلب الأحيان مع وزيره سوللي. وقد أعد هذا الوزير ما سمي (غرض هنري الأكبر) وخلاصته أن تكون أوربا اتحاداً حقيقياً مسيحياً مكوناً من ست دول ملكية وراثية، وخمس دول ملكية انتخابية، ثم خمس جمهوريات. وكان سوللي يرى أن هذا المشروع لا يمكن تحقيقه إلا إذا انهارت قوة الأسرة الملكية النمسوية، ومن هنا نشأ النضال ومقاومة الحركة الجرمانية. وكان الغرض أن يوضع على رأس الاتحاد المسيحي المرغوب

فيه مجلس مكون من ستين عضواً تنتخبهم الدول الداخلة في الاتحاد، ويقيم هذا المجلس في هذه الجدول على التوالي، وأن تكون أحكامه إجبارية، وتوضع تحت تصرفه لهذا الغرض قوة مادية عامة، وأن تكون حرية التجارة كاملة بين جميع البلدان التي يشملها الاتحاد. ثم رؤي أن يكون أول عمل يقوم به هذا الاتحاد هو إبعاد الأتراك عن أوربا. ومات هنري الرابع من قبل أن يرى هذا المشروع الكبير نور الإنفاذ، ولكن فكرته استقرت في النفوس والأذهان، وظهرت آثارها في المؤتمرات السياسية. ففي مفاوضات وستفاليا التي اختتمت بها حرب الثلاثين سنة في عام 1648، دار البحث عن وسائل تقضي على الاضطراب الألماني من ناحية، وتجعل ألمانيا غير ذات خطر على أوربا من ناحية أخرى. وكان في ألمانيا حينذاك قوتان: الإمبراطورية وكانت في

حالة تدهور وانحلال، ونحو أربعمائة دولة صغيرة تخضع إلى حد ما لسلطان الإمبراطورية، ففصلت هاتان القوتان حتى لا يتكدر صفو السلام، وأعلن أن هذه الدول الصغيرة أصبحت مستقلة عن الإمبراطورية، وهذا الإعلان سمي بالحريات الجرمانية، وقد ضمنت هذه الحريات الدولتان الظافرتان فرنسا والسويد. وهذا يعني أنه في ذلك الوقت ظهرت فكرة إنشاء توازن أوربي ضامن للسلام الدولي

وفي نهاية القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر، كثرت حروب لويس الرابع عشر حتى اشرأبت أعناق الناس للصلح والسلام، وجرى البحث عن كيفية تنظيمهما وإقامة أسسهما. وبعد معاهدة أترخت سنة 1713 نشر القسيس دي سان بيير - وقد حضر المفاوضات بصفته سكرتيراً - مشروعاً يجعل السلام دائماً في اعتقاده، وأمل في وضع قانون عام لأوربا كما كان الحق الخاص للأفراد مقرراً بالأوامر الملكية. وأعلن القسيس أنه للمحافظة على سلام العالم، ينبغي إنشاء محكمة عامة تكون أحكامها إجبارية. والدول التي تأبى إنفاذها يجب أن توضع خارج القانون. والذي يلفت النظر هو أن مشروع القسيس دي سان بيير أوسع مدى من مشروعات سابقيه، فلم يكن خاصاً بأوربا وحدها، بل بالعالم كله. وقويت هذه الفكرة على مر الأيام وظهرت آثارها في عدة مناسبات وعدة معاهدات مثل معاهدتي 1762، 1783، كما نتج عنها فكرة العمل على خير الإنسانية التي ظهرت في كتب جان جاك روسو

وقد تأثرت الثورة الفرنسية بهذا التيار من الأفكار. وفي 18 مايو سنة 1790 أعلن (فولتي) للجمعية التأسيسية قوله: (ستدعون إلى الانعقاد جمعية الأمم) ووجهة النظر هذه اقتبسها بعض عظماء المفكرين، وعلى الأخص الفيلسوف الألماني (كانت) فقد أعلن أن الحرب هي حالة الإنسانية الطبيعية، وإذن ينبغي إيجاد حالة للسلام بتكوين حلف من شعوب حرة. والشعوب الحرة في اعتقاده لا تكون إلا في الجمهورية. وكثير من أفكار كانت، وعلى الأخص الفكرة الأخيرة، اعتنقها الرئيس ويلسون ونادى بها كما هو معروف

وأول من ابتكر اسم (عصبة الأمم) هو الكاتب الفرنسي المشهور (جوزيف دي مستر)، فقد وردت للمرة الأولى في حديثه السابع من كتابه الذائع الصيت (أمسيات سان بطرسبرج)

وفي أثناء حروب نابليون الأول وعقب سقوطه، دار البحث عن إنشاء هيئة لمنع عودة مثل تلك الحروب. ومن أجل ذلك فكر القيصر إسكندر الأول الروسي في إقامة الحلف المقدس، أو الحلف الديني بين الملوك. وكان الغرض منه الدفاع عن مصالح الملوك أكثر مما يكون الدفاع عن قواعد السلام

وخلال القرن التاسع عشر وفي أوائل القرن العشرين، انتشرت أفكار الجنسية والقومية وشقت طريقها بين الشعوب الأوربية، بفضل المفكرين الذين يعتبرون أن أوربا هي الأسرة الوحيدة للشعوب الحرة.

وعقب الحرب الألمانية الفرنسية في سنة 1870، خيم على أوربا ضيق سياسي شديد، فحاول رجال الدولة تبديده بخلق توازن أوربي تكون مهمته تجنب ألوان الخلاف والشقاق. وظلت الأفكار التي ترمي إلى التفاهم الدولي تنمو وتقوى حتى حرب سنة 1914. والذي يدل على نمو هذه الأفكار، كثرة عدد المؤتمرات التي أقيمت من سنة 1870 إلى سنة 1914 وإنشاء هيئة قضائية دولية في لاهاي واتفاقيات السلام الموقعة السلام في سنة 1899، وسنة 1907 وهذه المحاولات كلها أدت إلى تكوين عصبة الأمم في سنة 1920.

وحين إنشائها، قامت عقبة فلسفية عملية مأتاها: كيف العمل لحمل الدول التي تزداد ميلاً يوماً بعد يوم إلى الأخذ بمذهب الفردية، على الخضوع لعصبة الأمم؟ وهل ينبغي جعل عصبة الأمم دولة عليا حتى تقوم بدور هام، أو جعلها تقتصر على أداء أعمال ثانوية فقط؟ وفي الحق أننا إذا أنعمنا النظر نجد أن من الصعب على أمة من الأمم أن تقبل سلطة أعلى

من سلطتها، أو أن تقبل أن يكون للعصبة الحق في فرض سلطانها على الدول، لاسيما وهذه العصبة تعتمد على مبدأ ديني كما كان الحال في القرون الوسطى.

ولكي تكون عصبة الأمم ذات مبدأ مقبول، ينبغي أن تقدر كل القوى الدولية. وهذه القوى ليست الدول فقط، ولكنها كامنة أيضاً في بعض هيئات دولية وبعض تيارات

فكرية. وربما نرى في المستقبل هذه العصبة تدعو إلى تمثيل الدول فيها، ممثلي القوى الدينية والخلقية والاجتماعية والاقتصادية. وهذا أمر صعب التحقيق، ولكنه إذا تحقق يجعل للعصبة نفوذاً أقوى مما لها الآن.

2 - تكوين عصبة الأمم

ولدت عصبة الأمم رسمياً في 16 يناير سنة 1920 في وزارة الخارجية الفرنسية بباريس، حيث اجتمع مجلس الإدارة لمرة الأولى برآسة المسيو ليون بورجوا الفرنسي، المكونة من ممثلي الدول الكبرى المتحالفة، وقام بأعمال السكرتير السير جيمس آرك درموند. ولم يصدف عن هذا المجلس من الحلفاء إلا الولايات المتحدة الأمريكية، حتى قيل إن عصبة الأمم ولدت مشوهة هزيلة وكانت أولى خطواتها عرجاء

كيف تكونت عصبة الأمم هذه؟

أخذت فكرتها مكاناً كبيراً أثناء الحرب العظمى وسيطرت على مفاوضات الصلح، حتى أن الحلفاء وضعوا ميثاق العصبة في مقدمة معاهدات الصلح جميعاً. وهذا الميثاق لكبير أهميته ثم لروح الخلاف الذي بدأ يدب بين الحلفاء أنفسهم، كان شديد الصعوبة في إعداده. وقد اجتمع المندوبون فوق العادة الذين كلفوا القيام بهذا الأمر في باريس، وحاولوا ونجحوا آخر الأمر في التوفيق بين المشروعين الإنجليزي والأمريكي. والنص الأخير الذي اتفق عليه هو في الواقع ما عرضه الرئيس ويلسون مع بعض تحفظات هامة أرادتها بريطانيا لتجنب نفسها التدخل في منازعات الشعوب الأخرى

انتظم في سلك العصبة معظم الدول. ففي مبدأ الأمر، اشتملت على كل الدول التي قامت في وجه ألمانيا ووقعت على معاهدات الصلح. وهذه الدول هي: بلجيكا، بوليفيا، البرازيل، بريطانيا، كندا، استراليا، زيلندة الجديدة، الهند، ثم ارلندة بعد قليل، كوبا، جمهورية خط

الاستواء، فرنسا، اليونان، جوايتمالا، تاهيتي، الحجاز، إيطاليا، اليابان، ليبريا، نيكاراجوا، هندوراس، بنما، بيرو، البرتغال، رومانيا، يوغوسلافيا، سيام، تشيكوسلوفاكيا، اورجواي. وهذه الدول يطلق عليها اسم أعضاء مؤسسين لعصبة الأمم.

ثم انضم إليها 13 دولة كانت على الحياد أثناء الحرب وهي: أرجنتين، شيلي، كولومبيا، الدانمرك، أسبانيا، نرويج، باراجواي، هولندة، إيران، سلفادور، السويد، فنزولا. وهذه الدول والتي ذكرت من قبلها تعرف باسم أعضاء أصليين في العصبة. ومن سنة 1920 إلى الآن طلبت عدة دول الانضمام إلى العصبة وقبلت 14 دولة منها وأصبحت أعضاء فيها

وللقبول في العصبة أربعة شروط ذكر نصها في الميثاق، وهي:

(1) تقبل الدولة عضواً في العصبة إذا كان لها حكومة حرة؛ والحكومة الحرة في رأي ويلسون هي التي تكون على رأس أمة تحظى بالانتخاب العام وحرية الصحافة، وتكون من نفسها حكومة برلمانية، ولكن مع هذا قبلت الحبشة ولم تكن إلا حكومة مطلقة.

(2) أن تكون الدولة منظمة حتى تستطيع أن تعضد حربيا أي حكم يصدر عن مجلس العصبة.

(3) أن تمثل الدولة أمة حقيقية تربط أفرادها صلة الجنسية والقومية

(4) أن تكون الدولة قد قدمت ضمانات فعالة تثبت احترامها للتعهدات الدولية. وقد أثار هذا الشرط مناقشة حادة حين عرض فرض دخول ألمانيا العصبة. وقد طرحت هذه المسألة منذ سنة 1922 من جانب الإنجليز، ولكن مندوب فرنسا تمسك بهذا الشرط وأقفلت المناقشة على ذلك. وقد رفض قبول بعض الدول في العصبة لأسباب مختلفة، ومنها الدول القوقازية مثل أرمينيا وجورجيا واذربيجان لأن حدودها كانت لا تزال مثاراً للاحتجاج فلما سويت هذه الحدود في جلاء، دخلت هذه الدول العصبة في الوقت نفسه الذي دخلت فيه إيران، وقد رفض قبول إمارة ليخنشتين في العصبة لأن مساحة أرضها ضئيلة لم تبلغ الحد الأقصى الذي عينه ميثاق العصبة.

وبعد اجتماع العصبة الأول، دخلها أربع دول هي إسبانيا وكورستارنكا وفنلنده ولكسمبرج. ولما بدأت النمسا وبلغاريا في إنفاذ تعهدات الصلح، استطاعتا دخول العصبة، ثم قطعت

المجر على نفسها وعوداً رسمية صريحة بإنفاذ ما فرض علها فقبلت في العصبة في سنة 1922. ولم يبق في ذلك الوقت خارج العصبة من الدول الكبرى غير الولايات

المتحدة الأمريكية وروسيا السوفيتية. أما ألمانيا فقد رؤي أنها قامت بتعهداتها في مسألة السلاح والتعويضات، ثم جاءت اتفاقات لوكارنو واستقر الرأي على أنها لا تكون ذات قيمة إلا إذا كانت الدول الموقعة عليها أعضاء في العصبة، ومن أجل ذلك قبلت ألمانيا في العصبة في شهر سبتمبر سنة 1926 ومثلها في مجلس العصبة وزير خارجيتها الهر فون شتريزمان. ولكن ألمانيا إنفاذاً لسياستها ورغبة منها في استرداد كامل حريتها، تركت العصبة بعد سنوات قليلة كما استقالت أسبانيا والأرجنتين.

وفي العصبة عنصر دائم هو السكرتارية العامة. وقد نص في الميثاق على أن يكون السكرتير العام إنجليزي. وقد تولى هذا المنصب سير جيمس أرك درموند يعاونه ثلاثة آخرون فرنسي وياباني وإيطالي. والسكرتارية منقسمة إلى جملة أقسام، وهي تعد أعمال مجلس العصبة وتقوم بدور الوساطة بين مجلس العصبة وجمعيتها العامة.

ويمكن أن نقول إن الجمعية العامة هي عنصر الديمقراطية في العصبة، وإن مجلسها هو العنصر المختص بالحكم. وكان من المتفق عليه في بادئ الأمر أن يتكون المجلس من خمسة أعضاء دائمين يمثلون الدول الخمس الكبرى وهي إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وإيطاليا واليابان. ولكن لما امتنعت الولايات المتحدة عن دخول العصبة، كون المجلس من أربعة أعضاء، حتى قبلت ألمانيا فأكملت هذا النقص. وكان من المتفق عليه أيضاً أن يكون إلى جانب هؤلاء ربعة أعضاء مؤقتين، وكانوا بادئ الرأي يمثلون البلجيك والبرازيل وأسبانيا واليونان. ثم زيد عدد الأعضاء المؤقتين إلى خمسة

وليس المجلس بازاء الجمعية في المركز الذي يكون لمحكمة الاستئناف بالنسبة لمحكمة الدرجة الأولى، فليس هناك أي استئناف أو أي فرق في الدرجة، فالمجلس هيئة تنفيذية تسيطر عليها الدول الكبرى ولا يخضع لأية رقابة. والجمعية العامة تسيطر عليها الدول الصغيرة لكثرة عددها، وتستطيع في بعض الحالات أن تعمل بمفردها. وينتج عن ذلك أن الخلاف جائز الوقوع بين هذين العنصرين في العصبة.

واختصاصات مجلس العصبة كثيرة، فهو الذي يوافق على تعيين السكرتير العام ويقرر محل إقامة العصبة، وهو إلى الآن في جنيف، وهو الذي كان يعد الخطة التي ترمي إلى إعادة النظر في التسلح ويفرض الرقابة على تجارة الأسلحة حتى لا تكون خطراً على سلام العالم. وفي حالة وقوع اعتداء دولي أو ظهور شبح الاعتداء أو خطر الحرب، يتخذ المجلس ما يراه ضرورياً للوصول إلى حل سلمي للخلاف، أي أنه يقوم بدور الوساطة بين الدول الأعضاء. ومن الناحية النظرية. يستطيع المجلس أن يطلب من الدول التي ليست أعضاء في العصبة، أن تتخذ بعض تدابير يراها ضرورية لحفظ السلام. وهو المختص بتسلم وفحص تقارير الدول المنتدبة. ثم أعطت معاهدات الصلح مجلس العصبة اختصاصات مؤقتة مثل إدارة وادي السار (المادة 50 من معاهد فرساي) لمدة 15 سنة. وقد أجري استفتاء في شهر يناير سنة 1935 في ذلك الوادي وكانت النتيجة أن أعيد إلى وطنه الأصلي ألمانيا. وقد عين المجلس لهذا الغرض لجنة مكونة من خمسة أعضاء، فرنسي وساري وثلاثة أجانب. وأسندت رقابة مدينة والزج إلى رقابة مجلس العصبة (المادة 102 من معاهدة فرساي) كما أسند إليه رقابة تسلح ألمانيا والقيام بتحقيق في أرضها إذا تطلب الأمر. وقد تخلصت ألمانيا من كل رقابة واستردت حريتها في التسلح وحطمت أغلال معاهدة فرساي الجائرة، ولم تستطع العصبة منعها من إنفاذ مشيئة شعبها الحي.

ما هي الصلات التي بين المجلس والجمعية؟

الجمعية تعين أعضاء المجلس المؤقتين ولها الرأي في مسألة قبول أعضاء جدد في العصبة. ولكن اختصاصات الجمعية والمجلس في أغلب الأحيان تختلط وتمتزج. وهما يقفان على جميع المسائل التي تدخل في حيز نشاط العصبة أو تمس السلام الدولي. ومن ناحية المبدأ، لا يجتمع المجلس إلا مرة واحة في العام، واجتماعات خاصة، أما اجتماعات الجمعية فعامة علنية

والجمعية تعقد مرة في السنة، ولكنها تجتمع في أي وقت تراه إذا دعت الظروف إلى ذلك، أو إذا جدت مسألة تتطلب النظر في الحال. وفي العصبة لجان كثيرة مثل لجنة العمل الدولي ولجنة المواصلات والنقل ولجنة الاقتصاد والمال ولجنة الصحة ولجنة التعاون الفكري. وقد أنشأت العصبة محكمة العدل الدائمة الدولية بجنيف في سنة

1920 وهي مختصة بالفصل في ضروب النزاع القانوني. أما محكمة لاهاي فمختصة بالفصل في
النزاع السياسي. فكل نزاع الآن يقع بين دولتين أو أكثر، يمكن أن يقدم للفصل فيه إلى ثلاث جهات: محكمة التحكيم في لاهاي، ومحكمة العدل الدولية، ومجلس عصبة الأمم
وقد ظهر نظام جديد عقب الحرب هو نظام الانتداب. ورقابة الدول المنتدبة من اختصاص العصبة. والانتداب هو إدارة دول ناشئة، موكولة إلى دول كبيرة تعتبر في عرف السياسة أنها أرقى من الدول الواقعة تحت الانتداب، وهي أجزاء من الإمبراطورية العثمانية ومستعمرات ألمانيا القديمة. والانتداب ثلاثة أنواع: (أ) وهو ضرب من الحماية، (ب) وهو قريب جداً من النظام الاستعماري، (ج) وهو عبارة عن ضم مقنع. وليست العصبة هي التي قامت بتوزيع الانتداب، ولكنها فقط أقرت أمراً واقعاً. وفي كل عام تقدم الدولة المنتدبة تقريراً إلى العصبة عن إدارتها، ولمجلس العصبة أن يبدي النقد الذي يرى من ورائه نفعاً.
ونستخلص من كل ما سبق أن عصبة الأمم ضعيفة ليس لها قوة مادية تكسبها الاحترام المرجو، وأحكامها قليلاً ما تطاع، وهي لهذا ترجو وتطلب أكثر مما تأمر وترغم. وما يزال في الأذهان ذكرى اعتداء اليابان على الصين وإيطاليا على الحبشة.
ومن يدري لعل العصبة في المستقبل تستطيع أن تقوم بدور هام يحتاج إليه العالم. وقد كسرت الحرب النظم القديمة وهدمتها، وينبغي إعادة البناء لا من خرائب الماضي وعلى مثالها، بل بطريقة منظمة على ضوء حوادث الماضي واحداثه، حتى تتجنب الإنسانية أهوالاً أفظع وأبشع من التي سبقت
حسن صادق
علاقة مصر ببلاد النوبة في الجنس والدين
للأستاذ فهمي عبد الجواد حبيب
تمهيد
بلاد النوبة من البلاد القديمة تقع جنوب مصر وعلى بعد خمسة أميال من مدينة أسوان. ويحدها من الشرق البحر الأحمر ومن الغرب صحراء ليبيا، وتمتد جنوباً حتى ملتقى النيل الأبيض بالنيل الأزرق، غير أن هذا التحديد جغرافياً أكثر منه سياسياً إذ لم يكن لها حدود سياسية ثابتة. وقد كان ملوك الدولة المصرية القديمة يسمونها (خنت) أي الأراضي الجنوبية كما كانت تسمى - أي أرض القوس (أي المشهورون برمي النبال) ولهذا سماهم العرب رماة الحدق.
وقد أخطأ بعض الكتاب في إطلاق كلمة كوش على جميع بلاد النوبة، والصواب أن إقليم (كوش) يمتد من الجندل الثاني تقريباً حتى ملتقى النيل الأبيض بالأزرق، وأما الإقليم الواقع بين الجندلين الأول والثاني فكان يعرف (بالواوات)
هذا ويطلق أيضاً بعض الكتاب خطأ كلمة (أثيوبيا) على بلاد النوبة معتمدين في ذلك على خريطة سريدوت ومن نحا نحوه من المؤرخين. فينسبون للنوبين ما ليس لهم إذ أن هؤلاء المؤرخين كانوا يعنون بكلمة (أثيوبيا) جميع البلاد الواقعة جنوب مصر كالسودان والحبشة وغيرها. ومما زاد الطين بلة في تعزيز هذا التعريف الخاطئ ما وقع فيه رهبان سوريا من الخطأ عند ترجمتهم الإنجيل من اليونانية حيث ترجموا كلمة (كوش) بأثيوبيا ويعنون بها بلاد الحبشة.
وكانت النوبة على عهد العرب تنقسم قسمين: النوبة السفلى وتمتد من الجندل الأول إلى الرابع وعاصمتها دنقلة، والنوبة العليا وتمتد من الجندل الرابع حتى بلاد الحبشة وعاصمتها سوبة على النيل الأزرق.
وقد كانت لهذه البلاد في وقت ما عزة ومناعة ثم اعتورها ما يعتور كل موجود حتى صارت حالها إلى ما هي عليه الآن.
العلاقة بينها وبين مصر في الجنس
أجمع المؤرخون على أن المصريين والنوبيين من أصل واحد مدللين على صحة قولهم هذا بأن كلا الشعبين ينتسب إلى الجنس الحامي فضلاً عن تشابه لون بشرتهم. والواقع أن سكان مصر العليا والنوبة حتى الآن متشابهان، وأما الوجه البحري فنظراً لأن حدود مصر من جهة القنطرة سهلة الغزو فكان عرضة للغارات الخارجية ولذا سار منها

الغازون أمثال الرعاة والاسكندر وقمبيز وغيرهم؛ ومن ثم تأثر الوجه البحري بدم هؤلاء الغزاة فتغير كثيراً عن مصر العليا. وهناك عامل آخر أثر في جنسية سكان شمالي مصر وبشرتهم نوعاً ما، ذلك أنه رحل إلى شمالي أفريقيا قبل بناء الأهرام بعض الأوربيين، وهؤلاء المهاجرون انتشروا في شمالي أفريقيا حتى جزائر كناريا. وقد وجدت ابنة لخوفو شرق الهرم الأكبر من الجنس الأبيض ذي الشعر الأشقر وتعليل ذلك أن خوفو تزوج واحدة من هؤلاء البيض، كما أنه وجد في العوينات رسوم لفريقين من المتحاربين السمر والبيض

وقد حدث في عهد الأسرة العشرين حادث ذو بال: ذلك أنه في عهد هذه الأسرة قل دخل الحكومة لفقد مصر كثيراً من البلاد الآسيوية فنقص ما كان يتقاضاه كهنة آمون في عهد الأسرة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة فضلاً عن ضعف الملوك، فدعا ذلك إلى ازدياد سلطة هؤلاء الكهنة حتى تمكن أحد رؤسائهم المسمى (حرحور) من اغتصاب العرش وأسس الأسرة الحادية والعشرين، ولكن المصريين اعتبروا كهنة آمون مغتصبين للملك فصار عهدهم فوضى ولم يستطيعوا حفظ سلطانهم ولا القيام بما تتطلبه عظمة آمون من النفقات؛ ورأوا أن معبودهم يعبد في (نبتة) عاصمة النوبة في ذلك الوقت وأن له المقام الأول بين آلهة النوبيين فلهذا اختاروا (نبتة) لتكون قبلتهم في هجرتهم فهاجروا إليها من طيبة بعد أن حكموا بها 121 سنة من 1100 - 979 قبل الميلاد.

وقد رحب بمقدمهم النوبيون نظراً لأن المدنية التي نشرها المصريون في النوبة كانت لا تزال قوية الدعائم، وكان هؤلاء الكهنة على جانب كبير من العلم فساعدهم هذا على أن يكونوا رؤساء كهنة آمون في نبتة وتدخلوا في السلطة الزمنية كما سبق أن تدخلوا في مصلا وتزاوجوا مع النوبيين.

وفي عهد الأسرة 23 تزوج أمير نوبي يسمى (كاشتا) أميرة مصرية، ثم خلفه على ملك النوبة ابنه (بعنخي) وهنا يجب علينا أن نشير إلى ما لهذا التزاوج من أهمية إذ لو كان

النوبيون ممتزجين بدم زنجي لما قبل الكهنة على ما هم عليه من المقام الرفيع أن يتزاوجوا بهم، ولما تزوج نوبي بأميرة مصرية.

الديانة

كان النوبيون كالمصريين يعبدون آلهة عدة مثل تيتون وملول، ولما استولى المصريون على بلادهم احترموا آلهتهم ثم أدخلوا عبادة آمون بها وأقاموا له المعابد، وأخذ النوبيون يعبدون آمون حتى أصبح أكبر آلهتهم وصارت آلهتهم الأصلية في مقام ثانوي وكان النوبيون يعبدون من الآلهة المصرية غير آمون إزيس وأوزيريس.

دخول المسيحية إليها

لا يعلم بالضبط كيف ومتى دخلت المسيحية بلاد النوبة؛ ويقول البعض إنها دخلت من جهة الجنوب، ولكن ليس هناك دليل يثبت صحة ذلك. والمرجح أنها دخلت في هذه البلاد من جهة الشمال عن طريق مصر في أول القرن السادس حيث كانت الوثنية هي دين أهل البلاد (فأليمبيدوس) الذي زار النوبة فيما بين 407 - 425م يقول إن البجة وقبائل أخرى من سكان الصحراء الشرقية كانوا وثنيين، كما أن كتاب شيود وسيوس يثبت أن عبادة إزيس وأوزيريس كانت منتشرة في بلاد النوبة في هذا الوقت؛ وحتى بعد ذلك بثلاثين سنة كانت إيزيس تعبد في جزيرة فيلة. ويؤيد دخول المسيحية إليها من الشمال عن طريق مصر أن المسيحية لما انتشرت في الإمبراطورية الرومانية أخذ الأباطرة يضطهدون معتنقيها ففر بعضهم من مصر التي كانت تحت سيطرتهم في ذاك الوقت إلى الجنوب كما فر البعض إلى الواحات الغربية ليكونوا في مأمن من أذى الرومان وبطشهم. وهذا هو بعينه ما حصل مع الفارق لكهنة طيبة، فإنهم لما أرادوا الهجرة ذهبوا إلى النوبة كما ذهب إليها المماليك في عهد محمد علي باشا فراراً منه.

ولما زاد اضطهاد الإمبراطور دقلديانوس للمسيحيين وأوقع بهم وقعته المشهورة كثر التجاء الرهبان وغيرهم إلى الجبال والصحراء فنزح إليها الكثيرون وأقاموا بها يبشرون بدينهم ما استطاعوا، حتى إذا ما أتى زمن قسطنطين وترك للمسيحيين حريتهم واستأمن الرهبان وغيرهم أخذوا في الظهور وفي إعلان الديانة المسيحية يعملون لها ما استطاعوا إلى ذلك

سبيلاً.
وكان لسلكو زعيم سكان الصحراء الغربية والنوبة أكبر نصيب في انتشار المسيحية في هذه البلاد فقد وجد في معبد كلابشة كتابة ترجمتها (أنا سلكو زعيم سكان الصحراء الغربية والنوبيين كافة قد أتيت إلى كلابشة مرتين وحاربت سكان الصحراء الشرقية (البجة) ونصرني الله عليهم واقسموا لي بآلهتهم إزيس وأوزيريس فصدقتهم) والإله الذي نصر سلكو هو بلا شك إله المسيحيين. ومن هذه الكتابة أيضاً تعلم أن سكان الصحراء الشرقية كانوا إلى آخر القرن السادس الميلادي يعبدون الآلهة المصرية. وقد كان من نتيجة المودة بين سلكوا وجستيتيان (527 - 565م) أن أرسل الأخير أسقفاً وهدايا إلى سلكو فعمد هذا الأسقف الملك سلكو الذي أخذ ينشر المسيحية في بلاده. وفي عهد خلفه أربانوم تحولت معابد كلابشة والسيوع وعمدة وأبو سمبل وفيلة إلى كنائس، وقد تم ذلك قبل نهاية القرن السادس واتخذ المسيحيون دنقلة عاصمة للمملكة المسيحية.

دخول الإسلام إليها

أرسل عمرو بن العاص بعد أن استتب له الأمر في مصر عبد الله بن سعد لغزو بلاد النوبة عام 21هـ فحاربهم وهزمهم وقرر عليهم الجزية ولكنه لم يتعرض لدينهم وفي عام 31هـ غزاهم عبد الله بن سعد في خلافة سيدنا عثمان رضي الله عنه لثاني مرة وهزمهم ثم كتب لهم عهداً جاء فيه: (وعليكم حفظ المسجد الذي بناه المسلمون بفناء مدينتكم (دنقلة) ولا تمنعوا منه مصلياً ولنا عليكم بذلك أعظم ما تدينون به من المسيح وذمة الحواريين وذمة من تعظمونه من أهل دينكم وملتكم).

ومن هذا العهد يتضح لنا أمران:

الأول - أن النوبيين حتى عام 31هـ كانوا يدينون بالمسيحية

والثاني - أنه كان يوجد بدنقلة عاصمتهم بعض المسلمين مما أدى إلى بناء مسجد لهم، ولكن من هم هؤلاء المسلمون؟ إني أرجح أنهم من المصريين أو العرب الذين نزحوا إلى العاصمة - دنقلة - بعد الغزوة الأولى بقصد التجارة.

وفي خلافة المأمون ثار البجة، فسار إليهم عبد الله بن الجهم وهزمهم وعقد صلحاً مع ملكهم كانون الذي تعهد بالمحافظة على أرواح المسلمين وأملاكهم.

ومن هذا يتضح أن المسلمين كانوا عدداً قليلاً وكان لهم ممتلكات في بلاد النوبة.

وفي عام 969م أرسل جوهر الصقلي رسلاً إلى جورج ملك النوبة ليستلموا الجزية وليدعوه إلى الإسلام فسلم الجزية ولكنه امتنع عن اعتناق الإسلام.

وفي النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي انتشر الإسلام في الجهات القريبة من دنقلة وما أتت نهاية القرن الرابع عشر حتى كان الإسلام قد عم هذه البلاد.

فهمي عبد الجواد حبيب

المدرس بالمدارس الأميرية

حول الثقافة العربية

للأستاذ قدري حافظ طوقان

إن من يطالع المؤلفات الحديثة عن الحضارة العربية يرى آراء متضاربة في الأساس الذي قامت عليه، وفي المناهل التي استقت منها؛ ويرى كذلك تحاملاً عليها وانتقاصاً لقيمتها. فبعض المؤرخين لا ينسب إلى العرب أي فضل في خدمة المدنية، وينفي عنهم الابتكار، ويقول إنهم لم يكونوا غير نقلة للعلوم، وإن نتاجهم العقلي هو من الدرجة الثانية من حيث قيمته وأثره على تقدم العلم، وإنهم كانوا متأثرين بالثقافة اليونانية وقد اتبعوها وفضلوها على غيرها. وهناك فريق آخر من الأوروبيين يرى غير ذلك، ويقول بأن العرب فضلوا الثقافة الهندية وتأثروا بها أكثر من غيرها، وإنهم كانوا عالة عليها اقتبسوا منها أكثر ما جاءوا به من آراء ونظريات في العلوم والفنون، ويرى هذا الفريق في هذا نقصاً معيباً وناحية الضعف في الحضارة العربية

وقد حاولت أن أعرف الأساس الذي يبني عليه هؤلاء العلماء أقوالهم وأحكامهم في الحضارة العربية، فتوصلت بعد بحث إلى أن الأساس الذي يعتمدون عليه في هذا الشأن هو هذا الاقتباس، إذ يرون فيه النقطة الضعيفة في تاريخ العلوم والفنون عند العرب

إن اقتباس العرب عن اليونان أو الهنود أو غيرهم ممن سبقهم من الأمم لم يكن إلا

بموجب غريزة في الإنسان تميزه عن الحيوان، فالإنسان على رأي الفيلسوف كورزبسكي يأخذ دائماً ما عمله غيره ويزيد عليه، وإن قوة الإنتاج في (الإنسان) لا تقوم وتقوى إلا على نتاج السابقين. وعلى هذا فليس في الجري على هذه الغريزة عيب أو مجال للتنقص

لا ننكر أن العرب اقتبسوا عن غيرهم، وهذا الاقتباس مما ساعد على تقوية قوى الإنتاج فيهم، ومما أدرى إلى إصلاح الأخطاء التي وجدوها في تراث الأمم التي سبقتهم والى إضافة بحوث ونظريات هامة جعلت العلماء المنصفين يعتبرون بعض العلوم من موضوعات العرب. وتصفح بسيط لتاريخ العلوم في الرياضيات والطبيعيات والطب والفلسفة والفلك يثبت صحة رأينا ويريك خصب القريحة العربية بأجلى بيان

قال البارون دي فو: (إن الميراث العلمي الذي تركه اليونان لم يحسن الرومان القيام به، أما العرب فقد حفظوه وأتقنوه. . . فهو لم يكونوا حفظة وخزنة للعلوم فحسب، ولكنهم توفروا على ترقيتها وتطبيقها باذلين الجهد في تحسينها وإنمائها حتى سلموها للعصور الحديثة. . .) وقال الدكتور سارطون في إحدى محاضراته في جامعة بيروت الأميركية: (إن بعض الأوروبيين يحاولون أن ينتقصوا من قدر العرب العلمي في القرون الوسطى، وذلك بقولهم إن العرب لم يكونوا غير نقلة للعلوم ولم يزيدوا عليه شيئاً. . . هذا خطأ. . . وإذا افترضنا أن العرب لم يكونوا غير نقلة أليس في عملهم هذا خدمة كبيرة للعالم؟ فلولا نقلهم لما تقدمت العلوم تقدمها الحاضر ولكنا حتى الآن في قرون وسطى. . .)

ويعتقد الدكتور سارطون بأن نقل العرب لم يكن ميكانيكياً بل على الضد فليه روح وحياة

هذا من جهة الذين يعيبون على العرب نقلهم عن الغير، أما الذين يقولون بان العرب فضلوا ثقافة على أخرى فمخطئون، وسنحاول تبيان رأينا بإيجاز

اختلفت أقوال علماء الغرب في أي الثقافات فضل العرب فقال كاجوري إن الكرخي وأبا الجود والخيامي فضلوا الطريقة اليونانية على الهندية في استعمال الأرقام، وقال كانتور بوجود مذهبين مختلفين (في زمن البوزجاني) أحدهما يتبع الثقافة الهندية والآخر اليونانية، وقال أحد علماء الغرب بأن العرب تأثروا بالثقافة اليونانية وفضلوها على غيرها، وقال آخرون مثل ذلك في الهندية

والحقيقة أنه لم يكن موجوداً أي تفضيل، فقد كان علماء العرب في العصر العباسي يترجمون ما يقع تحت أيديهم من المخطوطات هندية كانت أو يونانية، فالبيروني ذهب إلى الهند وساح فيها بقصد البحث والاستقصاء والتنقيب، وكذلك محمد بن موسى بن شاكر ذهب إلى اليونان ابتغاء الحصول على مخطوطات ورسائل، وهناك من العلماء العرب من أوجدتهم ظروفهم إلى أن سيتقوا من ثقافتين أو أكثر وقد مزجوا ما استقوا وكونوا من ذلك ثقافة خاصة. وعلى هذا فلم يكن هناك فكرة تفضيل إحدى الثقافات على غيرها بل جمع العرب الثقافات المختلفة التي نهلوا منها وخرجوا من هذا الجمع بثقافة تميزهم على غيرهم من الأمم. وقد لاحظ الدكتور سارطون كل هذا فقال: (والعرب لم يقتصروا على علوم اليونان فحسب، بل أخذوا عن الهنود، وفي كثير من الحالات جمعوا بين الثقافتين الهندية واليونانية. . .) وسبق الجاحظ الدكتور سارطون فيما قال، فنجد في كتاب الحيوان ما يلي: (وقد نقلت كتب الهند وترجمت حكم اليونان، وحولت آداب الفرس فبعضها ازداد حسناً وبعضها ما انتقص شيئاً. . .)

يتبين مما مر أن العرب لم يفضلوا ثقافة على أخرى، ولم يأخذوا بإحدى الثقافات ويتركوا البواقي، إنما هم طلاب علم راحوا يبحثون عنه في الكتب والمخطوطات والرسائل القديمة من يونانية وهندية وفارسية وحبشية وسريانية وعبرية وغيرها، فنقلوا ما عثروا عليه إلى لسانهم وهو معظم ما كان معروفاً من العلم والفلسفة عند سائر الأمم المتمدنة، وكان أكثر نقلهم عن اليونانية والفارسية والهندية؛ وقد يكون النقل عن اليونانية أكثر من غيره ولكن هذا لا يعني أن العرب فضلوا ثقافة على غيرها. وعلى فرض أنهم تأثروا بالثقافة الإغريقية، فهل هذا يعني أن نية علمائنا الأقدمين تفضيلها على غيرها. وعلى كل حال فالقول بأن العرب فضلوا ثقافة على أخرى أو

القول بوجود مذهبين مختلفين أحدهما يتبع الطريقة اليونانية والآخر الهندية قول خطأ لا يجب أن يؤبه له وهو من خيالات المستشرقين، إذ لا يوجد من الأدلة ما يحققه بل على العكس لدينا شواهد عديدة تجعلنا نميل إلى أن العرب لم يخطر ببالهم تفضيل ثقافة على أخرى كما تجعلنا نميل أيضاً إلى القول بعدم وجود مذهبين مختلفين أو مذاهب مختلفة، وبأن المآثر العربية في العلم والفن تأثرت بعناصر الثقافات المتعددة التي ساعدت على إيجاد ثقافة عربية لها مميزاتها وخصائصها الممتازة.

(نابلس)

قدري حافظ طوقان

اتجاهات الأدب العالمي في العصر الحاضر وكيف يتجه أدبنا

للأستاذ خليل هنداوي

تتمة ما نشر في العدد الماضي

والآن أراني أجملت إبراز الاتجاهات الاجتماعية والعوامل التي تؤثر في الآداب الحاضرة فأين نجد في أدبنا في غابره وحاضره وكيف يتجه؟

كنت أود أن يتسع لي المجال أو أن يرجأ البحث عن اتجاهات أدبنا في الغابر إلى فرصة ثانية، لأن التكلم عن اتجاهات أدب مهما كانت قيمته ليس بالشيء الذي يغني فيه الإلمام، ولكني ناظر إلى ناحية من نواحيه الاجتماعية القومية، وغير خائض في خصائصه الأدبية.

إن أدبنا أيها السادة كان كثير الخصب والإنتاج؛ وتبارك الله ما كان أخصبه! ولكن خصبه في الموضوعات التي نثب إليها اليوم كان خفيفاً جداً. خذوا الشعر مثلاً، والشعر أبرز ما راج في أدبنا، فهو شعر لا أجده قد صفا كثيراً لنفسه ولا لمجتمعه. نما بعضه في جو أرستقراطي لا يتصل بسواد الشعب، نما في ظلال الطبقة المترفة؛ وإذا غادر هذا الجو غادره إلى جو كان يرائي الأديب فيه ويداجي. أما المجتمع فلم يقم له أدب خاص يعبر عنه. وإذا أفاد بلاط الملوك والأمراء في نمو بعض الأدب الذي كانت تستحثه الدعايات والعصبيات فقد قتل ذلك الأدب الذي كان يجب أن ينطلق عن الحياة. وهذا المتنبي على جلاله وهو الذي يعد أحد الشعراء مزاجاً وأكثرهم اندفاعاً لم يخلص من أدب الرياء. وهذا المعري الذي يطفح شعره ببعض نظرات متألمة لا نجد أن تألمه كان نتيجة اختلاطه بالمجتمع، ولكنه كان وليد تشاؤم صرف اختص به مزاجه. ويمكنني القول إن كثيراً من أدبنا خلقته أزمات سياسية وعصبية ليكون ضرباً من ضروب الدعاية. ولكنه كان مجرد دعاية تؤرث نار العداوة، وتعبر عن نوازي العصبية في الأحزاب والقبائل وتحيي الضغائن في الأمة الواحدة. على أن أزمة الشعوبية التي احتدمت نارها بين الأعارب والأعاجم كان بها أن تخلق نوعاً قوياً من أدب الدعاية القومية ولكن الأدب لبث يمالئ الأوساط المترفة، ينظم لها الشعر مسبحاً بحمدها، أو مسلياً لها من مللها وسأمها.

أما أدبنا الحاضر فلا يمكننا الركون إليه، لأنه أدب مضطرب يمثل اضطراب هذه الثقافة المكتسبة التي لم نتم هضمها ولم تتمركز فينا! أدبنا الحاضر لم يتحرر من قيود القديم سالكاً طريقته الخاصة دون تردد. وأديبنا لم يؤمن بأن في الحياة التي تتكرر فصولها كل يوم أمام عينيه أدباً غنياً يغذي فكره؛ وأديبنا لا يزال يعتقد بأن النزول إلى الحياة يضعف من قيمة أدبه. وبهذا يكتب الأدب فيه كل الألوان إلا لون الأدب، وفيه أثر كل بيئة إلا بيئته التي هو فيها. على أن الأديب الحقيقي حين يبث نفحة أرضه يحملها لتعانق نفحات الأرض كلها، وحين ينشر نسمة لشعبه ينشرها ليضمها إلى نسمات الشعوب!

لا أود أن أحدثكم من أدبنا الحاضر عن آفاقه الإنسانية التي يسمو إليها، ولا عوالمه الرحبة التي تتعانق فيها الإنسانية، ولا ذلك الجمال الذي يكسو الآثار الكونية به، وإنما أحدثكم عن اتجاهات أدبنا من الناحية التي هي أصدق انطباقاً على حياتنا الحاضرة، وهذه الحياة الحاضرة مؤثرة في أدبنا مهما فر منها، وفي أديبنا مهما تجافى عنها! لأن الأديب ليس كالعالم الذي يقدر أن يحيا في بيئة وكأنه ليس منها!

لو أراد واحد في الأجيال الآتية أن يستقرئ نفوسنا وحالنا لرأيته لا يستطيع، لأننا لا نمثل في أدبنا عواطفنا ولا نصبغه بألواننا. إنا نكتب أدباً لا يمثل آلام حياتنا الاجتماعية والنفسية التي نعانيها. ألم تمر بنا أزمات مختلفة وظروف مروعة؟ فأين الأدب الذي

ولدته هذه الأزمات؟ وأين قصة كقصة البؤساء تمثل البؤس الذي برح بنا في عهد الحرب؟ وأين القصة التي تمثل حيرتنا وألمنا؟ وأين مسرحية كمسرحية (غليوم تل) تصور أبطالنا وشهداءنا؟ وهذا شوقي الذي خلف لنا تراثاً من سر حياته الشعرية لم يجد في هذه الأزمات ما أوحى إليه مسرحية يصور بها مشهداً من هذه المشاهد التي قد يكون فيها ما هو أشد وأقوى على خلق التأثير من الموضوعات المطوية التي عالجها في مسرحياته. وأخيراً أين ذلك الأديب الذي يترجم عن عصره؟

على أن البعض يقول: وما عسى يغني الأدب الذي يأتي بالتلقين لا بالالهام؟ وكيف يملك حريته في التعبير، وإنما الأدب بحريته؟

أجيب هذا البعض بأني لا أدعو أدبنا إلى أن يتقيد، وما كنت يوماً لأدعو إلى أن أخلق للأدب أجواء محدودة يخوض فيها. وكيف أدعو إلى تحديد اتجاهات الأدب والتحديد معناه وقف روحه وحريته التي لا يحيا إلا بها؟ كيف أدعو إلى حبسه ضمن تقاليد جديدة؟ ولكأني بذلك أهدم تقاليد وأرفع تقاليد وفي هذه وتلك عبودية، وفي العمل نفسه عبودية أدهى!

أجل! لا أريد أن يكون الأدب كله اجتماعياً، أو ذاتياً، أو إنسانياً أو قومياً! وإنما أنشد أدباً حراً يستوحي إبداعه من قلب الحياة، لا يكونه من الحياة على هامشها، وإنما على متنها. ولا يمر هو بجانب ويترك الحياة بجانب آخر. وإنما همه أن يرافق الحياة في مراحلها، ويعمل على تفوقها وتساميها. همه أن يوجه الحياة كما يريد. وإذا تحدثت عن اتجاهات يتجه إليها فإنما هي اتجاهات يكون للأديب فيها مادة غزيرة، وعالم نبيل الغرض.

إننا أمة لا نزال في دور الكفاح، الكفاح في كل نواحيها. ودور الكفاح دور اضطراب وحركة، وهذا الدور لا يجمل بالأديب أن يمر به هادئاً ساكناً دون أن يرفع صوته، وإنك لن تجد أمة خلا مثل هذا الدور فيها من أدب يمثلها ويعبر عنها ويستحثها ويجعل قلبها بركاناً هادراً مهما كانت هذه الأمة حرة النزعة، إنسانية المبدأ. لأنها ترى قوميتها مثل إنسانيتها، ولن يصدق للإنسانية قلب لا يصدق لوطنه، وليكن أدبنا مجرداً ما أراد، متوجهاً حيثما توجه، ولكنا نريد معه أدباً قوياً يساهم في بناء الجبهة القومية، ويستمد روحه من الثقافة القومية، ونريد معه أدباً اجتماعياً يخلق ثورة التجديد والإبداع وينفض هذه المزق الرثة من التقاليد، إذ لا يؤتى الانقلاب السياسي ثمره إذا لم يكن مقروناً بالانقلاب الاجتماعي.

أحس هنا بل أكاد أسمع أصواتاً تنادي من حولي: أتريد أن تجعل من الأدب الواسع الإنساني خادماً للقومية، ومهذباً للمجتمع؟ كأنك لم تعرف التعاريف الأولية التي تفصل الأدب عن القوميات والفن عن الأخلاق التي ضيقت حدوده وأفسدت جماله الذي لا يحيا إلا في المطلق!

بلى! إني أفهم كما يفهمون، وأدرك أن للأدب غاية أسمى وأعلى، ولكني ممن يعتقدون أن الأدب لا يتجرد من شخصية أمته كالأديب لا يستطيع أن يتجرد من شخصيته ولا يمكنه أن يكون إنسانياً قبل أن يكون قومياً؛ وإذا تكلمت عن اتجاهات أدبنا الحاضر فإن عوامل كثيرة تحملني على تحديد هذه الاتجاهات؛ وقد تكون هذه الاتجاهات مفيدة لظروف حاضرة تموت بموتها، وقد يبطل غداً بعضها ويبقى بعضها، وقد يبطل كلها ولكن ما همي مادمت أعتقد

أن هذه الاتجاهات محيطة بحياتنا الحاضرة، ولا نستطيع أن نحل عقدة من عقدها إلا بمقتضاها!

يظنون أن الأدب القومي أن يكون الأديب بوقاً ينفخ في كل حادثة، وفي مقدم كل وزير أو زعيم، ومثل هذا الأدب لا يحتاج إلى أن نبدي إعراضنا عنه، وإنما الأدب القومي روح يعلقنا بحب هذا الجو وهذه الارض، ويجلو لنا عن روائع الجمال فيها، ولست أذكر أنني تلوت شيئاً من هذا!

أذكر أنني في هذه السنة كن أنا ورفاق نقوم برحلة في أطراف الفرات الاوسط، فجزنا قرية تدعى (الميادين) وكانت أناشيد الرفاق تتعالى. فهب من في السوق يصفقون لهم، فما راعني ذلك، ولكني أبصرت رجلاً ضريراً مخدود الوجه، ممزق الثياب، هب يلمس بوجهه مواقع الصوت والصدى ويداه تصفقان، فطفرت من عيني

دمعة وتمثلت الشعور الوطني يتيقظ في نفسه. فقلت: ألا يجد أدباؤنا في هذا المظهر مادة وموضوعاً؟ ألا يجد شاعرنا عاطفة تهزه كالعاطفة التي ولدتها فيه قبلة محبوبة؟ وأخيراً ألا نجد في هذا الضرير رمزاً للأمة التي فقئوا عينيها فهبت تتلمس النور بغير الحاسة التي خلقت لالتقاط النور، وقد استحالت كل حاسة في جسدها عيناً تبصر، وقلباً يشعر!

أعرف في هذا البلد فئة - قد تكون مخلصة - تدين بالأدب الإنساني، ولا تعنى بالأدب القومي، تمشي فوق رءوس الحقب، وتعلو على حالات عصرها لأنها في اعتقادها حالات زائلة كالغيوم؛ ولا أستطيع أن أناقش هذه الفئة، ولا أن أصرفها عن غايتها النبيلة، وكلني أعلم أن الأدباء الإنسانيين أنفسهم الذين بشروا بالدعوة الإنسانية والأدب الإنساني هم قوميون قبل أن يكونوا انسانيين، لأن الذي لا يتسنى له أن يحس آلام شعبه الذي هو من لحمه ودمه، لجدير بألا يتسنى له أن يحس آلام الإنسانية. . .

اتركوا الأدب والفن وعودوا إلى العلم المجرد والأخلاق تجدوا أن كل شعب يثبت فيهما شخصيته التي تختلف عن شخصية غيره. تأملوا الطرق الرياضية الجبرية التي يسلكها العقل الجرماني تجدوا أنها طرق مطلسمة مبهمة تلائم هذا العقل. على حين أن العقل الفرنسي الرقيق يخضع المنطق له ويسلك فيه الطرق الواضحة. وكذلك قولوا في الأخلاق: فكل أمة رتبت أنظمتها بحسب عاداتها. ولو أن طريقة العلم واحدة لما وجدنا طريقة كل

عالم تختلف عن طريقة الآخر. . . وإذا كان هذا شأن العلم والأخلاق فكم يكون اختلاف الأدب والفن اللذين يترجمان عن حياة الأمة؟

يقولون: لا وطن للفن! باعتبار أنه إذا صدر عن إنسانية معينة فإنه يخص كل الناس. لأن الإنسانية الكلية هي مجموعة هذه الانسانيات، والفن الكلي هو مجموع هذه الفنون، والفن صلة القربى بين الناس.

يقولون: لا وطن للفن! وأنى لنا أن نسلخ الفن عن الشعب الذي خلقه على صورته، أبالإمكان أن نسلخه عن الطبيعة التي أحاطت به، والتراب الذي حمله؟ والسماء التي حنت عليه، والهواء الذي تنشقه، والوطن الذي احتضنه، وصدى أصوات الأجداد الذين نقلوا إلى الأحفاد ما ورثوه؟ إن الشعب باستطاعته أن يقتبس عن شعب آخر ثم يبقى ما يقتبسه كما هو؛ ولكن من جراء ذلك أن يتنازل عن شخصيته، ويخضع لهذا الغريب خضوعاً أعمى لا يفسر إلا بالجحود بعبقرية الوطن. لقد أخذت روما عن اليونان أنظمتها وفنونها التي أحبتها ولكنها لم تفهمها، فأعطت زخرفة جميلة ولكنها لم تعط أثراً فيه حياتها. وهكذا لا نستطيع أن نقول: هذا أدب إنساني قبل أن نقول: هذا أدب عربي أو إيطالي أو جرماني! إن أطوار الأدب والفن هي ترجمان صادق عن العصر المتحول، يظهر لنا مراحل الطريق، ومراحل السعي، ويحدد لنا أعمار الأمة، ومن خلال كل هذه الخطوط والصور والألوان نجد صورة الوطن، ونستشف ملامحه الحقيقة؛ وقد رأينا أن الأدب أكثر أنواع الثقافة تعلقاً بحياة الأمة، لأنه لا يصور إلا حياتها ولا يسرح إلا في جوها، والذرية العبقرية تكتسب من بيئتها صفات متى حان الوقت أظهرتها، وحولتها إلى الإبداع؛ وعصير الأرض الوطنية يسقي الشجرة الإنسانية؛ وبهذه الإنسانية الشخصية، وبهذا المثل الأعلى الخاص يعلن كل شعب مزاياه وعبقريته. والعظماء أنفسهم لم يستغنوا عن هذه القاعدة، لأنهم كانوا قبل كل شيء وليدي بيئتهم وجيلهم.

إن إنكار القومية ليس جحوداً بقيمة التاريخ وتنائجه فحسب، بل هو إغضاء عن الجغرافية وجهل بعمل الأرض والسماء والبيئة، لأن الأوطان ليست بفكرات خيالية ولا شعرية ولا وهمية، وإنما هي حقائق ظاهرة ثابتة؛ والثقافات المختلفة تثبت ذلك، وكل وطن يحدد حياة أهله ويلهمهم فنه! ولكل شعب أدبه وفنه، وهو بهذا يمثل دوره في القصيدة الكبرى، وإنا

نود أن نعود إلى حمل مشعل جديد ورسالة جديدة إلى الإنسانية، ولكنا نريد ألا تصرفنا هذه الإنسانية عن قوميتنا، بل نريد أن نكف عن هذه الإنسانية إذا ساومتنا على قوميتنا!

أذكر في هذا الموقف حادثة طريفة أدبية تمثل تأثير القومية في الأفراد الذين كانوا يؤمنون بالدعوة الإنسانية. لقد كان العالم النقادة الفرنسي (تين) ذا ثقافة ألمانية صرفة. كان يعجب بألمانيا ويحبها حباً جماً ويراها له وطناً ثانياً بعد فرنسا. وكان يرى

مع الفيلسوف (رينان) أن ألمانيا هي أم العقل والذكاء. وأن الألمان هم أساتذة العالم في العلوم والآداب والفلسفة، وهم أساتذة العقل الراهن. هبت حرب السبعين، وغمرت ويلاتها الفرنسيين. فضربت اعتقاد (تين) في الصميم، وكانت له يقظة قاسية مؤلمة، إذ وجد القول بأن العلم الإنساني هو كل شيء للإنسان قولاً كاذباً، وألفى أن الفن لا يحيا إذا كان الوطن يتمرغ في الشقاء، فأخذه الإشفاق على وطنه، وحمل بعدها حملات عنيفة على غطرسة العقل الألماني الإنساني، وقال: (إن زمان العلم الخالص الإنساني قد انتهى. . والآن يجب قبل كل شيء أن نساعد فرنسا على أن تحيا حياة تنطبق على حياتها الماضية. . .)

ونحن في مرحلة شبيهة بهذه المرحلة، لا يجدر بنا في الوقت الذي تفتش فيه الأمم عن قوميتها، أن نضيع قوميتنا بحجة الإنسانية. وقد قدمنا للإنسانية تراثاً خالداً من الدين والفلسفة في سبيل الإنسانية. . . وكيف نطمع ونحن ضعفاء القومية أن نفيد الإنسانية؟ والأمة الضعيفة القومية لا تعطي نتاجاً!

أعطوني أمة ضعيفة القومية ذات نتاج خالد! أليس لنا في اليونان أمة العبقرية والفن مثل واضح على ذلك؟ لقد تحجرت مواهبها وعبقريتها منذ تلاشت قوميتها. وهل أعطى العرب نتاجهم الأدبي إلا يوم كانوا أقوياء؟ وأي نتاج لهم في عصر الضعف والتلاشي؟ وهل يدرس الطلاب من الأدب الغربي إلا أدب الأمم التي ثبتت قوميتها، وخفقت حريتها؟. . . وإذا كانت الثقافة أحلت لهذه الأمم أن تسخر ما لا يسخر للدعاية أفهل يلومنا أحد على أن نسخر هذا الشيء نفسه لغاية أسمى وأعلى، لغاية إحياء قومية نبيلة: (ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً). . . إني أخاف إذا غالينا في تجريد أدبنا من قوميتنا أن يقولوا: هذا أدب إنساني ولكن بلا وطن! وضعف القومية يقتل كل خاصة مبدعة في الشعوب. لقد عملنا عملنا الإنساني كأفراد فلنجرب أن نعمله كأمة!

نحن في مرحلة نستطيع أن نقول فيها للأديب ما قاله وزير الدعاية النازية: (لا يحق لك أن تقول (لا يهمني شيء من هذه المرحلة). وما قاله مكسيم غوركي (يجب على كل أديب أن يشعر بمسئوليته الخطرة في هذه المرحلة لأن عليك أيها الأديب يتوقف كل شيء لأنك لست حاكياً تردد، ولا آلة فوتوغرافية عمياء تصور ما يعرض لعدستها، ولا اسطوانة حاك تستنطقها أية إبرة نفس الكلمات، وإنما أنت الصوت وغيرك الصدى. أنت الريشة التي تصور، والأمة الأخيلة التي تلتقطها. أنت الإبرة التي تنقش على الاسطوانة ما تريد والشعب الاسطوانة، فعليك أن تتخير الكلمات التي تريد أن تنقشها. . . وإذا كان هم الرجل السياسي أن ينظم علاقات أمة وشؤونها في الداخل والخارج. فإن هم الأديب أن يوجه حياته ومجتمعها. ويعطينا أدباً يستمد حياته من قلب حياتها لا من بطون الكتب والحجارة. . .)

الساعة قد دنت: وعلى هذه الأرض التي سطعت عبقريتها يريد جديد من المجد والجمال أن يتيقظ!

إنا تذوقنا من ألوان الاضطهاد في الأجيال السابقة ما يجعلنا نسخر حتى السماء في تشييد حريتنا وقوميتنا. . . فكيف لا نسخرك أيها الأدب لهذه الحرية، وكيف لا نسخركم أيها الأدباء لأدب أرى فيه وجه أمتي.؟

خليل هنداوي

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

1880 - 1937

للأستاذ محمد سعيد العريان

- 5 -

الرافعي في أهله

إذا رأيت رجلاً موفقاً فيما يحاوله مسدد الخطى إلى الهدف الذي يرمي إليه، فاعلم (أن وراءه امرأة يحبها وتحبه!)

وأنا لا أعرف - فيمن أعرف - أحداً تنطبق عليه هذه الحكمة الغالية انطباقها على حياة الرافعي؛ فالواقع الذي يعرفه كل من خالط الرافعي واتصل به وعرف طرفاً من حياته الخاصة، أنه ما كان ليبلغ مبلغه الذي بلغ لولا الحياة الهادئة التي كان يحياها في بيته؛ فإلى زوجه يعود فضل كبير في نجاحه وتوفيقه وهدوء نفسه، هذا الهدوء الذي هيأه إلى

دراسة نفسه ودراسة من حوله والتفرغ لأدبه وفنه، لا يشغله عنهما شاغل مما يشغل الناس من شئون الأهل والولد.

وقد تزوج الرافعي في الرابعة والعشرين من عمره؛ ولزواجه قصة فيها طرافة وفيها مجال للفكر والنظر؛ ومادمت قد أخذت على نفسي أن أكتب عن الرافعي في كل أطواره، فلا علي أن أقول ما أعرف من قصة زواج الرافعي؛ ولا احسبني بذلك أتجاوز ما لي من الحق أو أتعرض لعتب أو ملامة، فقد خرج الرافعي من ملك نفسه وأهله إلى حكم التاريخ، وللتاريخ حق واجب الوفاء

وزوج الرافعي مصرية صريحة النسب، من أسرة البرقوقي المعروفة في (منيه جناج) - دسوق - وأخوها الأديب الكبير الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي صاحب (البيان)؛ وقد كانت صلة الأدب بين الرافعي وعبد الرحمن البرقوقي هي أول السبب في هذا الزواج.

حدثني المرحوم الرافعي قال:. . . كنت في الرابعة والعشرين وكنت أعرف عبد الرحمن البرقوقي نوعاً من المعرفة التي تربط بين شابين توافقا في الطبع، واتفقا في الغاية؛ وكان

عبد الرحمن طالباً أزهرياً ولوعاً بالأدب، له حظوة ومكان عند الأستاذ الإمام إذ كان من تلاميذه الأدنين؛ وكنا نلتقي أحياناً؛ فسرني منه ما سره مني؛ وكان يعيش عيشة مترفة ليست منها حياة الأزهريين إذ كان له من غنى أبيه ومن جاه أسرته عز وكرامة. . . فما تعارفنا حتى تصافينا، ثم اتصل بيننا الود، فكنت له وكان لي أصفى ما يكون الصديق للصديق. . .

لم أكن أعرف له أخاً أو أختاً، ولم يجر في بالي قط أن الصلة بيننا ستتجاوز ما بيننا، حتى كان يوم جلست فيه أتحدث إلى نفسي، فكأنني سمعت صوتاً من الغيب يهتف بي أن صديقي عبد الرحمن هو صهري وأخو زوجي. . . وانتبهت إلى نفسي وأنا أسائلها: أله أخت؟ يا ليت. . .! لو كان إنني إذاً من السعداء. .

وكانت نفسي في الزواج، فما هي إلا أن تحرك في نفسي هذا الخاطر حتى سعيت إلى صديقي عبد الرحمن، وقلت له وقال لي، وجرنا الكلام إلى حديث الزواج، فقلت لصاحبي: من لي يا أخي بالزوجة التي أريد؟ ووصفت له الفتاة التي تعيش في أحلامي؛ فلما فرغت من حديثي قال صاحبي: أنا لك بما تريد. قلت: أتعرف؟ قال: هي هدية أقدمها إليك. قلت: من؟ قال: أختي!

قال الرافعي: وغشيتني غشية من الفرح، فما تلبثت حتى مددت إليه يدي فقرأنا (الفاتحة)، وما وقع في نفسي وقتئذ أنني أمد يدي لأخطب عروسي لنفسي، ولكني أمدها لأتعرف إلى العروس التي خطبتها علي الملائكة وأثبتت نبأ الخطبة في لوح الغيب

وبنى بأهله، وعاشا أهنأ ما يكون زوج وزوج، ثلاثاً وثلاثين سنة - ثلث قرن - لم يدخل الشيطان بينهما مرة واحدة، ولم يتخاصما لأمر، إلا مرة. . .

قال الأستاذ جورج إبراهيم: لقد حضرت عرس الرافعي، وصحبته طوال يومه حتى صعد إلى جلوة العروس، وشهدت اضطرابه وخجلته، واستمعت إليه من بعد يتحدث عن سعادته ويغبط نفسه على حظه وتوفيقه، وما شكا إلي مرة واحدة هماً ناله، ومضى عام. . . وجاءني ذات يوم، فجلسنا نتحدث، وتسرحنا في الحديث، ولكن وجه الرافعي كان ينم على شيء. . على سر يطويه، ثم لم يلبث أن أفصح، قال: يا جورج، لقد عزمت على أمر. . . سأطلق زوجي! وراعني هذا النبأ ونال مني؛ قلت: تطلقها! لماذا؟ قال: إن إخوتها يجحدون

حقها في تركة أبيها، لا يريدون أن تستمتع منه بشيء. . . قلت: فهذا هو السبب؟ قال: نعم، قلت: فما ذنبها هي؟ قال: أيهون عندك أن تكون زوجي ليس لها عند إخوتها حق ولا كرامة؟ قلت: ويهون عندك أن تأخذها بما اقترف أخوها؟. . . مصطفى، إنك جبار، أو لا فاذكر أن الطلاق جريمة لم يقترفها قبلك أحد من أسرة الرافعي؛ أو لا هذا ولا ذاك، فاذكر أن أهل (طرابلس الشام) لا يذكرون الطلاق إلا كما يذكرون نادرة معيبة وقعت مرة ولن تتكرر من بعد. . . فكن بعض أهلك يا صاحبي. . .!

قال: وأطرق الرافعي هنيهة ثم قال: أحسبتني أفعلها. . .!؟ ولم يدخل الشيطان من بعد بينه وبين أهله، إذ كان كل منهما يعرف لصاحبه حقه وواجبه. . . ومضت اثنتان وثلاثون سنة بعد هذه الحادثة، كما يمضي شهر العسل، أو شهر الغزل، ليس فيه إلا

العطف والمحبة والاحترام.
كان الرافعي يعيش في بيته عيشة مثالية عالية؛ فهو زوج كما يجب أن يكون الزوج، وأب كما ينبغي أن يكون الأب؛ وما كان منكوراً لأحد من أهله أن الرافعي ليس موظفاً كسائر الموظفين عمله في الخارج وحسب؛ بل كانوا جميعاً يعلمون ما عليهم لهذا الرجل الكبير، ويشعرون بما عليه من تبعات تفرضها عليه مكانته الأدبية، فيهيئون له أسباب الهدوء والراحة والاطمئنان. كان في بيته كالملك من الحكومة الدستورية: يملك ولا يحكم، ويعيش في جو من الاحترام والرعاية والطاعة، فرق الأحزاب وفوق المنازعات؛ فمن ذلك لم تكن (سياسة) البيت تشغله أي شغل أو تشغب في هدوئه وتعكر صفوه؛ فكان خالصاً لنفسه، منقطعاً لفنه وعمله الأدبي، فدار كتبه له هو وحده، وطعامه مهيأ في موعده وعلى نظامه، وفراشه ممهد في موضعه لساعته، ونظامه الذي يحقق له الهدوء والراحة ونشاط الفكر مرعي مضبوط
على أنه كان إلى ذلك يعرف واجبه لزوجه وأولاده، فما هو إلا أن يفرغ من عمله حتى تراه بين أهله مثلاً عالياً من الحب والوفاء؛ وأنا ما عرفت أبا لأولاده كما عرفت الرافعي؛ إذ يتصاغر لهم ويناغيهم ويدللهم ويبادلهم حباً بحب، ثم لا يمنعه هذا الحب الغالي أن يكون لهم أباً فيما يكون على الآباء من واجب التهذيب والرعاية والإرشاد، ناصحاً برفق حين يتحسن الرفق، مؤدباً بعنف حين لا يجدي إلا الشدة والعنفوان.
ومادمت بصدد الحديث عن الرافعي في أهله، فإن واجباً علي أن أتحدث هنا عن شيء من (حب الرافعي) أراه يتصل بهذا الموضوع:
في فترة ما من حياة الرافعي - سأتحدث عنها بتفصيل أوفى فيما بعد - كان للرافعي هوى وغرام، ووقع له في هواه ما يقع للمحبين من ضرورات الحب، ودافع نفسه ما دافع فلم يجد له طاقة على المقاومة، واحتال على الخلاص فما أجدته الحيلة إلا هماً على هم، وكان حبه أقوى منه، ولكن دينه وأخلاقه كانت أقوى من حبه. وقال لنفسه: ما أنا وهذا الحدث الذي يعترض طريقي ويغلبني على إرادتي؟ إن في بيتي امرأة أحبها وتحبني - والحب عند الرافعي لا يأبى الشركة! - وإن لها عليّ حقاً ليس منه أن يكون مني لغيرها نظرة أو ابتسامة إلا أن تأذن لي! ماذا يكون من أمري وأمرها غداً أمام الله حين يطلب كل ذي حق حقه؟ أأقول لها: نعم قد ضيعت حقك وأعطيت من قلبي الذي لا أملك لمن لا تملك؟ ويلي! إنها الخيانة والإثم والعار!
وذهب إلى زوجه فحدثها وحدثته، ثم أفضى إليها بخبره وكشف لها عن نفسه، ثم قال: وأنت يازوجتي هل يخفى عليك مكانك مني؟ ولكن. . .
واستمعت إليه زوجته هادئة مطمئنة. . . ثم أذنت له. . . وكتب الرافعي رسالته الأولى إلى صاحبته التي غلبته على قلبه، وقرأت زوجته الرسالة وطوتها وأرسلت بها إلى صندوق البريد. . .
وجاء جواب صاحبته فقرأته زوجته كما قرأت رسالته، وصار هذا دأبهما من بعد. . . لا ترى زوجته لها حقاً عليه إلا أن تعرف، ولا يرى على نفسه في ذلك ملامة مادامت زوجته تعرف. . .!
وأنشأ هذا الحب طُرفتين في الأدب العربي ثم بهما نقص العربية في فلسفة الحب والجمال، هما كتابا (رسائل الأحزان) و (السحاب الأحمر) ولكن. . . ولكن أحداً لم يقرأ القصة الأخرى. . . قصة الحب والوفاء والتضحية، لأن الرافعي لم ينشرها فيما ألف من الكتب في فلسفة الجمال والحب. . .!
(سيدي بشر)
محمد سعيد العريان
الفلسفة الشرقية
بحوث تحليلية
بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين
- 18 -
الديانة الفارسية
لا ريب أن من يلقي على الديانة الفارسية نظرة فاحصة يأخذ بلبه ما يجده بارزاً بين جوانبها من المبتدعات (الزرادشتية) التي يجزم بعض مؤرخي الحركة العقلية بأنها لم

يسبق لها نظير في تاريخ الديانات القديمة، إذ لا يعرف التاريخ قبل (زرادشت) مجدداً قلب الدين القديم رأساً على عقب وأحدث فيه أحداثاً جديدة إلا (أخناتون) الفرعون المصري الذي نادى بالتوحيد في وسط معمعان الوثنية والتعدد الطاحنين؛ ولكن (أخناتون) في نظر هؤلاء المؤرخين لم يبلغ مرتبة (زرادشت) لأن دعوته كانت تجديداً سياسياً أكثر منها دينياً، ولهذا قد فشل تجديده على أثر صعود خلفه على العرش، وإذاً فزرادشت هو الفذ الأسبق في هذا التجديد.

ولكن ليس معنى هذا أن (زرادشت) قد قطع كل العلائق بالديانة القديمة وأنشأ ديانته إنشاء كاملاً، كلا، وإنما هو قد أقر منها الشيء الكثير، وهذا هو الذي يحدونا إلى أن نلقي على الديانة القديمة نظرة عجلى قبل أن نعرض للديانة (الزرادشتية).

الديانة قبل زرادشت

ليس عندنا من المصادر عن الديانة الفارسية السابقة على (زرادشت) القدر الكافي لإعطائنا صورة واضحة تمكننا من تحليلها على الطريقة العلمية القيمة، وإنما كل ما نعرفه في هذا الصدد هو أن نقوشاً أثرية يرجع تاريخها إلى القرن الرابع عشر قبل المسيح وجدت في الشمال الغربي من بلاد فارس، ووجدت فيها أسماء آلهة هندية ثلاثة وهي: (ميتهرا) و (أندرا) و (فارونا) ولما كان من غير الممكن أن تصل هذه الآلهة الهندية إلى ذلك المكان

دون أن تخترق البلاد الفارسية، فقد استنتج بعض الباحثين ونخص منهم بالذكر الأستاذ (دينيس سوريه) أن للديانة الهندية أثراً عظيماً على الفارسية الأولى. وقد ذهب غيرهم إلى ما هو أبعد من هذا، فزعم أن (أهورامازدا) إله (زرادشت) هو محرف عن (أور روناشول) الإله الهندي العتيق، ولكن هذه مغالاة شديدة من أصحاب هذا الرأي، إذ النظريات العلمية لا يصح أن تبنى على مثل هذه التكهنات المستنتجة من التحككات اللفظية.

ومهما يكن من الأمر، فإن تأثر الفارسية بالهندية أمر مقطوع به، إذ أننا نجد مثلاً في الكتاب الفارسي المقدس (زند أفيستا) أسطورة تحدثنا عن (ييما) أول إنسان أنه أطعم أبنائه لحماً محرماً (ولعله لحم ثور) ليصيرهم خالدين، وأنه قد فعل هذا نزولاً عند نصيحة أحد الآلهة، وقد ظلت هذه العقيدة فيما يظهر سائدة حتى جاء (زرادشت) فأعلن احتجاجه ضد هذه الخرافة وصرح بأن الخلود لا يمكن أن يتوقف على أكل لحم الثور وإنما هو شيء معنوي يمنحه (أهورامازدا) لمن يستحقه بالفضيلة.

ومن هذه الأساطير أيضاً ما يحدثنا به (هيرودوت) من أن الملكة (أميستريس) حين صارت عجوزاً أمرت بدفن أربعة عشر طفلاً من أبناء النبلاء أحياء، ليكون ذلك قرباناً عنها، ليقربها من الآلهة.

تمتاز هذه الديانة القديمة بأنها كانت تأمر بعبادة العناصر الأربعة: النار ممثلة في كوكبيها العظيمين: الشمس والقمر، والهواء والماء، والتراب، وبتقديس كل مظاهر الطبيعة، وبأنها تأمر بتضحية بعض الحيوانات كالثيران والكباش، ولكن يجب أن يكون ذلك على يد جمعية مؤلفة من رجال الدين تنعقد خصيصاً للإشراف على الضحايا. وكانت بعض الحيوانات تمتاز بقداستها على البعض الآخر، فكلب الماء مثلاً كان مقدساً إلى حد أن من يقتله يجب أن يعاقب بضربه عشرين ألف عصا، وكان المسكين يموت غالباً قبل أن يستوفي هذا العدد، غير أنه إذا نجا بمعجزة، وجب عليه أن يشكر الآلهة على هذه النجاة، وذلك بتقديمه عشرة آلاف قربان من السوائل، وأن يقتل عشرة آلاف ضفدعة، ولم تكن هذه الحماية مقصورة على كلب البحر، بل كانت القنافذ والكلاب البرية كذلك، كما كانت الثعابين والنمل والضفادع على العكس من ذلك تماماً.

وعندهم أن الميت يجب أن يدلك بالشمع ثم تعرضه جمعية رجال الدين للطيور والكلاب،

لتمزق جسمه وتأكل منه ما تشاء، ثم يوارى الباقي في التراب. وقد تطورت هذه العقيدة فيما بعد فتحولت إلى عقيدة عرض الأموات في برج السكوت. ومن المحتمل أيضاً أن يكون الهنود الذين لا يزالون يعرضون جثث موتاهم لتمزيق الوحوش قد تأثروا بهذه الشعيرة.

وعندهم أيضاً أن الشعر والأظافر بعد فصلها من الأجسام الحية تصبح مدنسة، وكذلك النَّفَسُ البشري مدنس؛ ومن عقائدهم كذلك أن الجثة البشرية قد تطهر إذا قطعت

ومزقت أجزاؤها ثم مر أحد الناس بهيئة خاصة من بين هذه الأجزاء.
وعندهم أن زواج الأمهات والأخوات والبنات ليس مباحاً فحسب، بل إنه مستحب وموصى به، أما الزنى فهو عندهم جريمة كبرى.
لم تمنع عبادة العناصر الفرس من اتخاذ آلهة أخرى لكل واحد منها اختصاص محدد مثل (أناهيتا) إلهة الماء والخصوبة التي صوروها بعدة أشكال وبدلوا اختصاصاتها كثيراً والتي يظن بعض الباحثين أنها أثر من (إيستار) إلهة (بابل) القديمة لا سيما وإن شمال بلاد الفرس كان خاضعاً لاستعمار البابليين في ذلك العهد.
كان بعض الشعب يعتقد أن (هاومو) - وهو اسم لشراب كحولي - هو اسم لشخصية بين الآلهة والبشر والبعض الآخر يعتقد أنه يجب أن يعبد، وقد عبدوا هذا الشراب بالفعل، ووضعوا عدة أناشيد، للتغني باسمه. وقد صرح الأستاذ (دينيس سواريه) بأنه لا مانع عنده من أن يكون لهذه الأناشيد التي تغنى بها الفرس القدماء في عبادة الخمر أثر على رباعيات عمر الخيام التي جاءت بعد ذلك ببضعة عشر قرناً.
هذا كله خاص بعقيدة العامة وجماهير الشعب؛ أما الخاصة فقد كانت لهم عقيدة أرقى من هذه العقيدة على نحو ما كانت الحال عند المصريين القدماء، إذ تحدثنا آثار ملكية وجدت في مدينتي (سوز) و (بيرسيبوليس) أن كثيراً من الملوك كانوا يؤمنون بالإلهين: (ميترا) و (أناهيتا) وغيرهما من آلهة الشعب، ولكنهم كانوا يضعون على رأس هذه الآلهة جميعاً الإله (أهورا مازدا) الذي سنتحدث عنه في ديانة (زرادشت)، ومما يلفت النظر في عقيدة الخاصة هو أن هذا الإله الرئيس كان عندهم غير مرئي وأن النار لم تكن إلا رمزاً له فحسب، وأنه لم يكن له معبد خاص، وإنما كانت جميع بقاع الأرض معبداً له.
لقد ظل هؤلاء الملوك يعبدون (أهورا مازدا) عبادة حرة غير مقيدة بتعاليم نبوة (زرادشت) حتى أخر القرن الخامس قبل المسيح حيث اعتنقوا الديانة (الزرادشتية) وطبقوا كل طقوسها.
(الديانة الزرادشتية)
حياة زرادشت
يجمع أكثر الباحثين على أن (زرادشت) قد وجد حقاً وإن كانوا جميعاً لا يجرؤون على القول بأن لديهم أي برهان علمي يدل على وجوده؛ وهم يجمعون كذلك على أنه وجد حوالي نهاية القرن الثامن قبل المسيح، وإن كان قد شذت عن هذا الإجماع الأخير شخصية من أجل الشخصيات العلمية، وهي شخصية الأستاذ (كليمان) الفرنسي الذي يرى أنه وجد في أوائل القرن العاشر قبل الميلاد.
يحدثنا أولئك الباحثون أن تاريخ هذا الزعيم الديني مفعم بالأساطير الشعبية الغريبة التي لا يخلو منها شعب من الشعوب والتي رأينا صورة منها في تاريخ (بوذا)؛ فمن هذه الأساطير أنه ولد ضاحكاً، رافعاً وجهه ويديه نحو السماء، وأنه حدثت ليلة مولده معجزات شتى رآها الخاصة والعامة؛ ومنها أنه تحدى بعض مشاهير السحرة في عصره فحاولوا أن يهلكوه بكل ما أوتوا من علم وقوة، ولكنهم فشلوا في ذلك فشلاً ذريعاً. ومن ذلك أنه كان ينسحب من البقاع الآهلة بالسكان ويأوي إلى الصحراء، ليعتكف فيها مناجياً ربه بقلبه ولسانه، وأنه كان يوحى إليه بوساطة رؤساء الملائكة، وأنه عرج به إلى حيث الإله نفسه فصار أمامه، وأنه سحر الملوك ببراهينه، وأنه كان دائماً على رأس الدعاية التي أسسها لدينه، وأنه مات في إحدى الحروب الدينية التي كان يقوم بها تبعاً لأوامر شريعته، إلى غير ذلك من الأساطير الفاتنة التي تنظمها الشعوب عادة، لتحوط بها زعماءها أو تتخذها رمزاً لمستقبلها.
أما التاريخ فيحدثنا أن (زرادشت) نشأ في بيئة ريفية متواضعة لا تستطيع أن تحمي نفسها مما ينزل بها من غارات جيرانها، ولهذا كان أكبر ما يشغل (زرادشت) في شبابه هو أن ينجو هو وأسرته من غزو القبائل الرحالة التي كانت تتهدد تلك الجهات في ذلك العهد. ويحدثنا أيضاً أن أخلاقه الشخصية كانت على أسمى ما يمكن أن يكون في تلك العصور،
فقد رأينا آنفاً أنه عارض الدين القديم لحماية الأخلاق، إذ أعلن أن الخلود لا يكون إلا جزاء للفضيلة؛ وقد أعلن كذلك أن قتل أي كائن حي في الغزو والغارات المؤلفة لأجل السرقة والسلب هو من أفظع أنواع الجرائم حتى ولو كان هذا المقتول حيواناً، ولكن

التبعة في ذلك واقعة كلها على المعتدين لا على المدافعين عن أنفسهم. وعنده أيضاً أن أجل الغايات هي الخلود النفساني وإن كان السمو لم يمنعه من أن يعنى بالحياة الدنيا عناية فائقة إلى حد أن يفسح في أدعيته مكاناً عظيماً لطلب متع الحياة من: مال وخيل وجمال فيقول (أنا أسألك أن تنبئني بالحقيقة يا (أهورا) هل أنت العدل حقاً؟ وهل حقاً سأنال هذه المكافأة التي وعدت بها، وهي عشرة أفراس وحصان وجمل، وأيضاً الهبة المستقبلة التي وعدتني بها وهي النعيم والخلود).

أهم مميزات الديانة الزرادشتية

قبل أن ندخل في تفاصيل هذه الديانة يخمل بنا أن نشير إلى أهم مميزاتها العامة التي تأسست عليها، وهي:

(أ) إن هذه الديانة أسست على فكرة خطيرة أحدثت في تاريخ الديانات هزة عنيفة لا عهد لها بها من قبل، وهي أن جميع الآلهة المذكورة في تاريخ الديانات كانت آلهة محلية أي كان لكل شعب آلهته، بل لكل مقاطعة آلهتها، أو لكل قرية إلهها، وأن كل التطورات التي أحدثها الزعماء الدينيون قبل (زرادشت) كانت تتناول تغييرات داخلية كما أشرنا إلى ذلك حين مثلنا لك بأخناتون، أما (زرادشت) فقد استطاع أن يعلن في جرأة أن (أهورا مازدا) ليس إلهاً فارسياً، وإنما هو إله الكون كله، وأنه هو نبي تلقى الوحي من هذا الإله العالمي الذي ليس له شريك وإنما له خصم هو دونه في الرفعة وهو (أهرمان) إله الشر الذي سينهزم على ممر الزمن وسينعدم جنده وأنصاره بانعدام الرذيلة من فوق الأرض.

(ب) إن هذه الديانة تمتاز عن غيرها من الديانات القديمة بأنها بنيت على أساس مبدأ تعميم الخير وإبادة الشر، وهي ترى أن من أهم الوسائل الضرورية لتحقيق هذه الغاية هو تقوية النوع البشري ونشر الخصوبة والعمران على سطح الأرض. ويلاحظ بعض الباحثين أنه وإن وجد الخير والعدل في غير الديانة الفارسية من الديانات القديمة، إلا أن تلك الديانات لم تتخذهما غاية لها كما فعل (زرادشت)؛ فخصومة (أوزيريس) وشقيقه (سيت) لم تكن حرباً بين الخير والشر، وإنما كانت خصومة سياسية اضطرمت نارها من أجل الاستيلاء على العرش، وإن كان أصحاب هذا الرأي لا يستطيعون أن يجحدوا أن الحق والعدل قد فازا في هذه الأقصوصة بأكبر نصيب، ولكن هناك فرقاً بين كون العدالة ممثلة في الأسطورة كما كانت الحالة في مصر وكونها غاية لها كما هي الحال في الديانة (الزرادشتية).

أما في بابل فالحالة أدهى وأمر، إذ نلفي الآلهة هناك بعيدين كل البعد عن فكرة العدالة كما تدل على ذلك أسطورة الطوفان البابلي الذي تكبت به آلهة بابل بني الإنسان دون ذنب جنوه ولا جريمة اقترفوها، وإنما كان بسبب نزاع قام بين أولئك الآلهة.

(ج) وحد (زرادشت) بين الإله (مازدا) وبين الخير توحيداً جعلهما اسمين لمسمى واحد، فسبق أفلاطون إلى هذا المزج الفلسفي والأخلاقي العظيم. وبهذا أصبح الخير قلب الديانة (الزرادشتية) الذي ينبض بحياتها، وقد أعلن أن الخير سيعم الكون كله عندما تسود الفضيلة وينهزم إله الشر (أهرمان) الذي هو العدو الأوحد لأهورا والذي هو دائم الحرب معه مستعيناً بجنوده من أنصار الرذيلة والفساد، والذي يجب على كل مؤمن أن يقوم بنصيبه من قتاله بإبادة جانب من جوانب الرذيلة.

يرى بعض العلماء أن تأسيس الديانة الزرادشتية على الفكرة من حيث هي ليس مميزاً لها، وإنما المميز هو تأسيسها على فكرة الخير، إذ كل الديانات الراقية: قديمها وحديثها قامت على مبادئ مختلفة، فالبوذية مثلاً أسست على مبدأ: الألم، والمسيحية على مبدأ: الحب، والإسلامية على مبدأ: التوحيد.

ويعلق ذلك الفريق من العلماء على هذا الرأي بقوله: (ولكن الشعوب التي ظهرت فيها هذه الديانات لم تفهم تلك المبادئ العالية التي قصد إليها زعماؤها، وإنما أحاطوها بسياج سميك من أساطير الوثنية الأولى التي بعثوها من مراقدها وأنزلوها من الاحترام العملي منزلة طغت على الغاية الأساسية للديانة؛ فأنت إذا فتشت في هذه الديانات الراقية بعد وفاة زعمائها وجدت ذلك ملموساً لا يحتاج إلى جدل، ف (بوذا) لم يتخيل قط أنه سيؤله ويعبد بعد موته، ولو تخيل هذا في حياته لانكسر قلبه حزناً وألماً؛ و

(زرادشت) لم يتصور البتة أن الشعب سيرفعه بعد عشرين سنة إلى منزلة (أهورامازدا)؛ والمسيح لم يدر له بخلد أن الشعوب التي اعتنقت ديانته ستتغالى إلى هذا الحد في شخصيته البشرية؛ ومحمد لم يكن يسمح من غير شك أن تدعو أمته قوماً من البشر للشفاء أو لقضاء الحاجات كشركاء لله الذي قضى نبيهم حياته في النداء بتوحيده وإفراده بكل شئ.

أما ما تحاوله العقلية العصرية من تفسير هذه الديانات بما يلائم روح هذا العصر فهو فاشل أو قليل النجاح، لأن عامة الشعوب لا تستطيع أن تتعقل تلك المبادئ السامية التي أتت بها هاتيك الديانات.

(يتبع)

محمد غلاب

نقل الأديب

للأستاذ محمد اسعَاف النشاشيبي

169 - وتضحى ممالك قوم طعم

أبو العلاء احمد بن سليمان:

تلوا باطلا، وجلو صارماً ... وقالوا: صدقنا فقلتم: نعم

يدول الزمان لغير الكرام ... وتضحى ممالك قوم طُعَم

170 - جهنم اليهود وجنتهم في الدنيا

في (شرح النهج) لابن أبي الحديد: كل ما في التوراة من الوعد والوعيد فهو لمنافع الدنيا ومضارها. أما منافعها فمثل أن يقول: إن أطعتم باركت فيكم، وكثرت من أولادكم، وأطلت أعماركم، وأوسعت أرزاقكم، واستبقيت اتصال نسلكم، ونصرتكم على أعدائكم. وإن عصيتم وخالفتم اخترمتكم، ونقصت من آجالكم، وشتت شملكم، ورميتكم بالجوع والمحل، وأذللت أولادكم، وشمت بكم أعداءكم، ونصرت عليكم خصومكم وشردتكم في البلاد، وابتليتكم بالمرض والذل، ونحو ذلك.

ولم يأت في التوراة وعد ووعيد بأمر يتعلق بما بعد الموت

171 - يا دولة السوء لا لقيت صالحة

يا دولة السوء لا لقيت صالحة ... هل لانقراضك من وقت فينتظر

وكيف نرجو خلاصا أو نري فرجا ... وفيك طول وفي أعمارنا قصر!!

172 - أؤدب أحدهما وأقبل رأس الآخر

في (الموشح وخزانة البغدادي): قال أبو جعفر محمد بن موسى المنجم: كنت أحب أن أرى شاعرين فأؤدب أحدهما وهو عدى بن الرقاع لقوله:

وعلمت حتى ما أسائل عالما ... عن علم واحدة لكي أزدادها

ثم أسائله عن جميع العلوم فإذا لم يجب أدبته، وأقبل رأس الآخر وهو زيادة بن زيد لقوله:

إذا ما انتهى علمي تناهيت عنده ... أطال فأملي أو تناهي فاقصرا

173 - الدنيا سوفسطائية

في (الذريعة إلى مكارم الشريعة) للراغب الأصفهاني: قال بعض الحكماء المكر والخديعة محتاج إليهما في هذا العالم، وذلك أن السفيه يميل إلى الباطل، ولا يقبل الحق، ولا يميل إليه لمنافاته لطبعه فيحتاج أن يخدع عن باطله بزخارف مموهة خدعة الصبي عن الثدي عند الفطام، ولهذا قيل: مخرق فأن الدنيا مخاريق، وسفسط فان الدنيا سوفسطائية. وليس هذا حثا على تعاطي الخبث بل هو حث على جذب الناس إلى الخير بالاحتيال.

174 - أين الوعد

في (وفيات الأعيان): قال أبو محمد بن الحسن بن عسكر الصوفي الواسطي: كنت ببغداد في سنة (521) جالسا على دكة باب ابرز للفرجة، فجاء ثلاث نسوة، فجلسن إلى جانبي، فأنشدت متمثلا:

هواء ولكنه جامد ... وماء ولكنه غير جار

وسكت، فقالت إحداهن: هل تحفظ لهذا البيت تماماً؟ فقلت: ما احفظ سواه. فقالت: إن أنشدك أحد تمامه وما قبله فماذا تعطيه؟ فقلت: ليس لي شيء أعطيه ولكني أقبل فاه، فأنشدتني:

وراح من الشمس مخلوقة ... بدت لك في قدح من نهار
هواء ولكنه جامد ... وماء ولكنه غير جار
إذا ما تأملتها وهى فيه ... تأملت نوراً محيطاً بنار
كأن المدير لها باليمين ... إذا مال للسقي أو باليسار
تدرع ثوباً من الياسمين ... له فرْدُ كُمٍّ من الجلّنار
فحفظت الأبيات منها. فقالت لي: أين الوعد؟. . - تعني التقبيل - أرادت مداعبتي بذلك.

175 - كيف الحياة مع الحيات في سفط

ابن عسال الطليطلي (عبد الله بن فرج): حين أخذ الأفرج طليطلة سنة (478):
حثوا رواحلكم يا أهل أندلس ... فما المقام بها إلا من الغلط
السلك ينثر من أطرافه وأرى ... سلك الجزيرة منثوراً من الوسط
من جاور الشر لا يأمن عواقبه ... كيف الحياة مع الحيات في سفط!

176 - عائشة بنت طلحة زعيمة السفور

في (الأغاني): كانت عائشة بنت طلحة لا تستر وجهها من أحد، فعاتبها مصعب في ذلك، فقالت: إن الله (تبارك وتعالى) وسمني بميسم جمال أحببت أن يراه الناس، ويعرفوا فضله عليهم، فما كنت لأستره، ووالله ما فيَّ وصمة يقدر أن يذكرني بها أحد.

177 - يكتب هذا في مكارم الأخلاق

في (تاريخ بغداد) لابن الخطيب: قال محمد بن احمد بن موسى القاضي: حضرت مجلس موسى بن اسحق القاضي بالري سنة (286) وتقدمت امرأة فادعى وليها على زوجها خمسمائة دينار مهراً، فأنكر، فقال القاضي: شهودك، قال: قد أحضرتهم، فاستدعى بعض الشهود أن ينظر إلى المرأة ليشير إليها في شهادته، فقام الشاهد وقال للمرأة: قومي، فقال الزوج: تفعلون ماذا؟ قال الوكيل: ينظرون إلى امرأتك وهي مسفرة لتصح عندهم معرفتها، فقال الزوج: وإني أشهد القاضي أن لها على هذا المهر الذي تدعيه ولا تسفر عن وجهها، فردت المرأة وأخبرت بما كان من زوجها، فقالت المرأة: فإني أشهد القاضي أن قد وهبت له هذا المهر وأبرأته منه في الدنيا والآخرة
فقال القاضي: يكتب هذا في مكارم الأخلاق

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

الحادثات الجسام

على مقربة من جزر زارا السعيدة، تقوم في البحر جزيرة فوقها بركان يقذف حممه عليها بلا انقطاع، ويقول الشعب وبخاصة العجائز فيه: إن هذه الجزيرة منتصبة صخرا يسد باب الجحيم، غير أن هنالك منفذاً ضيقاً يخترق البركان وينتهي إلى هذا الباب في ذلك الزمان، حين كان زارا يسكن جزره السعيدة ألقى مركب مرساته أمام الجزيرة التي يعلوها الجبل المشتعل. ونزل بحارته إلى البر ليقتنصوا بعض الأرانب، وما حان وقت الظهيرة واجتمع القبطان برجاله بعد أن لموا شعثهم حتى رأى هؤلاء الناس رجلاً يخترق الفضاء بغتة إليهم ثم اقترب منهم وصاح بهم بصوت جلي قائلاً: لقد حان الزمن، لقد اقترب كثيراً. . .

ومر بهم الشبح مسرعاً وهو يتجه إلى البركان، فتميزوا به شخص زارا لأنهم كانوا رأوه من قبل جميعهم ما عدا القبطان وأحبوه كما يحب الشعب من يخشى
فقال شيخ البحارة - هذا زارا يسير إلى الجحيم

وفي الزمن الذي نزل فيه البحارة إلى جزيرة اللهب، كان شاع اختفاء زارا بين الناس وقال صحبه لمن سألوا عنه: إنه أبحر على مركب تحت جنح الظلام ولم يعرف أحد الوجهة التي يقصدها

هكذا ساد القلق من اختفاء زارا؛ وبعد ثلاثة أيام زاد هذا القلق بعد أن أخبر البحارة بما رأوا، وشاع بين الشعب أن إبليس قد اختطف زارا، ولكن صحب زارا لم يأبهوا لهذه الإشاعة بل ضحكوا منها وقالوا: إن ما نعتقده هو أن زارا قد اختطف الشيطان غير أن اختفاء زارا كان يشغل بال صحبه، وما مضت خمسة أيام حتى عاد إليهم، فكان

سرورهم عظيما
وهذا ما نقله زارا لهم عن حديثه مع كلب النار. قال: إن للأرض جلداً ولهذا الجلد أمراضه، وأحد هذه الأمراض الإنسان وهنالك مرض آخر يدعى كلب النار، وقد كان هذا الكلب السبب في تناقل الناس الأكاذيب وتصديقهم لها. وما اجتزت البحار إلا لأكشف هذا السر فرأيت الحقيقة عارية من أخمص قدسيها حتى عنقها، فما تخفي عني الآن حقيقة كلب النار، وحقيقة جميع أبالسة التمرد والأقذار التي لا تتفرد العجائز بالذعر منها
لقد هتفت قائلاً: اخرج من أغوارك أيها الكلب الناري وقل لي كم هي عميقة أغوارك ومن أين تأتي بما تنفثه علينا. إنك تكرع من البحر بشراهة، وذلك ما تنم عليه مرارة الملح في ثرثرتك. والحق أنك وأنت كلب الأغوار لا تستمد غذاءك إلا من الأماكن السطحية، فما أنت إلا كالمتكلم من بطنه لأنني في كل مرة سمعت فيها أقوال أبالسة التمرد والأقذار تبينتهم أشبه بك في دناءتك وأكاذيبك. لقد اتفقت أنت معهم على النباح واتفقتم جميعكم على ذر الرماد ونشر الظلام فأنتم أعظم المتفاخرين وتعرفون كيف تدفعون بالأوحال إلى الفوران وحيث تكونون لا بد أن تحيط بكم الوحول وكل ما هو إسفنجي مضغوط ضيق المسام وما يطلب الانطلاق إلا من اتصف بهذه الصفات. والحرية هي الصرخة التي تفضلونها غير أنني فقدت إيماني بالحادثات الجسام منذ رأيت الصراخ والدخان يتعاليان حولها.
صدقني يا إبليس الثورات الصاخبة الجهنمية، ليست أعظم الحادثات في أكثر ساعاتنا ضجيجاً بل هي في أعمقها صمتاً. وما يدور العالم حول موجدي الشغب الجديد بل هو يدور على محور موجدي النظم الجديدة.
لا بد لك أيها الشيطان من الإقرار بسخافة ما كانت تنقشع عنه قرقعتك وضباب دخانك وهل من جسام الأمور أن تتحول مدينة إلى مومياء وأن يتداعى عامود إلى الأوحال؟ وهذه كلمة أخرى أوجهها إلى هدامي الأعمدة: إن أقصى الجنون هو في إلقاء الملح إلى البحر وفي إسقاط الأعمدة إلى الوحول، لأن هذه الأعمدة كانت مطروحة على أوحال احتقاركم وهاهي ذي تنهض بسيماء الآلهة وقد انطبع عليها الألم الساحر. فهي والحق تدين لكم بالشكر لأنكم أسقطتموها أيها الهادمون
وهأنذا الآن أسدي النصح للملوك والكنائس ولكل من أضعفته الفضيلة أو أهرمه الزمان فأقول: دع القوة تسقطك لتعود إلى الحياة لترجع الفضيلة إليك.
هكذا تكلمت أمام كلب النار، فقاطعني بهريره قائلا: (الكنيسة، وما هي هذه الكنيسة؟) فقلت: إن الكنيسة شئ أشبه بالدولة، بل هي من أكذب أنواع الدول، ولكن صه أيها الكلب، فانك أخبر بنوعك من أي كان. إنما الدولة حيوان خبيث على شاكلتك فهي تحب أن تتكلم فترسل بيانها دخاناً وهريراً لتخدع الناس وتجعلهم يعتقدون بأن أقوالها مستمدة من غور الأمور. فهي تريد أن تكون أعظم حيوان على وجه الأرض والعالم يراها على ما تريد.
وظهرت على وجه الكلب أفظع معاني الحسد فصاح: ماذا تقول وهل يعتقد أحد أن الدولة هي أعظم حيوان على الأرض؟
فقال هذا وخرجت من بين شدقيه إعصار من الدخان وازداد هريره حتى حسبته مقتولاً بغيظه. ولكنه ما لبث حتى استعاد السكون فقلت له: - لقد تملكك الغيظ، يا كلب النار، وذلك دليل على أنني أقول الحق عنك. وهأنذا أستمر في إعلان الحقائق فأحدثك عن كلب آخر من أتباع النار وهذا الكلب يتكلم حقيقة من قلب الأرض، فلهاثه من ذهب، وما يحسب حساباً للرماد والدخان والزبد الحار فإن فيما حوله ترتفع قهقهة تنتشر كأنها سحاب يزهو بعديد ألوانه. وهو عدو هريرك وزبد شدقيك وما في أحشائك من الاختلال. إن هذا الكلب يأخذ الذهب والضحك من قلب الأرض لأن قلب الأرض من ذهب، فاعلم هذا أنت.
وغلب الكلب على أمره عند سماعه هذه الكلمات فأرخى ذيله خجلاً وبدأ يعوي وهو يزحف زحفاً إلى مغارته.
هذا ما سرده زارا لأتباعه ولكن أتباعه ما كانوا يبالون بما يقول وقد اشتد شوقهم إلى إخباره عما حدث للبحارة والرجل الطائر في الهواء.
ولما سمع زارا ما قصوه عليه قال: ماذا عساني أظن بما قلتم؟ أفأكون شبحاً من

الأشباح؟ ولعل ما رأوه لم يكن سوى خيالي ولعلكم سمعتم حكاية المسافر وخياله، غير أنه من الواجد علي أن أشدد النكير على خيالي فلا يذهب كما يشاء نائلاً من شهرتي.

وهز زارا رأسه بتعجب متسائلاً عما يقوله في هذا الحادث وهو لا يدري لماذا هتف الخيال قائلاً: لقد اقترب الزمان.

هكذا تكلم زارا. . .

العرّاف

ورأيت الناس يستولي عليهم حزن عميق، وقد وهنت قوى خيارهم فيما يعملون. . . .) وانتشر تعليم يؤدي إلى الإيمان في أن كل شيء باطل ومتشابه وقيد الزوال. فتجاوبت الأصداء في الهضبات مرددة: كل شيء باطل ومتشابه وقيد الزوال.

لقد حصدنا ولكن غلالنا أكمد لونها وتهرأت، فأي شيء تساقط تحت جنح الظلام من وراء كوكبه اللئيم؟

لقد ذهبت جهودنا سدي وفسد خمرنا فاستحال سماً زعافاً فكأن عيناً حاسدة أصابت حقولنا وقلوبنا فأذوتها.

جففنا جميعنا فإذا نزلت بنا حارقة فلا يتطاير منا غير الرماد. لقد تعب منا كل شيء حتى لسان اللهيب.

غاضت الينابيع أمامنا وتراجع البحر عنا وقد زلزلت الأرض تحت أقدامنا ولكنها لم تفغر فاها لتوارينا. فمن لنا ببحر نغرق فيه، إننا نصرخ طالبين البحر فيذهب صوتنا بدداً على سطوح المستنقعات.

والحق أننا بذلنا أقصى جهودنا طلباً للموت ولما نزل جثثاً تحيا وعيونها جاحظة طي اللحود.)

هذا ما قاله أحد العرّافين فذهب قوله نافذاً قلب زارا فبدّله تبديلاً، وأصبح زارا حزيناً متعباً يضرب في الأرض شبيهاً بمن ذكرهم العراف في نبوءته.

وقال زارا لأتباعه: لن يمضي زمن طويل حتى ينسدل هذا الغسق القاتم على وجه الأرض، وأنا أحاذر ألا أجد وسيلة للعبور بنوري إلى ما وراءه فأنقذه من الانطفاء. هل من حافظ له بين هذه الأحزان وأنا قد أعددته ليضيء في العوالم البعيدة ويشع في طيات الظلام السحيق.

وسار زارا شارداً يحمل همه في قلبه، فأمضى ثلاثة أيام لا يذوق فيها طعاماً ولا شراباً ولا يعرف الراحة حتى وقف لسانه عن الكلام فاستغرق في نوم عميق. وجلس صحبه حوله يسودهم القلق طوال الليالي متوقعين أن يفيق ليردوه عن أحزانه.

وأفاق أخيراً فخاطبهم بصوت كأنه ترديد صدى بعيد قائلاً: (أصغوا إليّ، أيها الصحاب، لأقص عليكم ما رأيت في حلمي وساعدوني على تعبيره، فإن حلمي قد أغمض عيني ولم يزل معناه كامناً فيه.

(يتبع)

فليكس فارس

هذي المعاهد

قَضَّيتُ آمالَ الحشاشة أجمعا ... ورأيت ما اغترق العيونَ وأمتعا
وعرضتُ من فِتَن الطبيعة موكباً ... سيظل في خلدي نضيراً مونعاً
ومضيت عن نَظَرٍ بديع معجب ... حَسَنٍ إلى نَظَرٍ أَحَبَّ وَأَبْدَعا
وجَلَتْ حلاها لي الطبيعة أُفْقَها ... وأديمها وأراكها المتضوعا
وقرارةً هبطتْ ونجداً صاعداً ... وخميلة نضرت وعشباً أمرعا
ونميرَ ماءٍ سارياً متوانيا ... حيناً وحيناً دافقاً متدفعا
ينساب آنا ساكناً مترقرقا ... بسطت حواليه الغصونُ الأذرعا
ورَمَتْ عليه ظلالَها مخضَرَّةً ... فكأنَّ روضاً رفَّ فيه وأفرعا
ويغيب آنا في حنايا غابِهِ ... إلا خريراً منه شق المسمعا
يتلو على سمع الصخور قصيدَهُ ... عذبَ البيان مجنّساً ومسجَّعا
ويفيض من جسر إلى جسر إلى ... جسر يزمزم تحته متخشّعا
ويضل عن بصري ويذهب ضاوياً ... ويعود يلقاني مليئاً مترعا

صرَّفتُ في تلك المجالي نظرتي ... ورويت طرفي مرسَلاً ومرجَّعا
واشتقتُ لي في كل بيت مسكناً ... منها وجَانِبَ كلِّ دوح مضجعا
يا حُسْنَ أبياتٍ هناك تتابعت ... زُمَراً تفرَّق بعضها وتجمعا
جثمت على قمم الربى وسفوحها ... وبدا بها نَورُ الزهور مرصَّعا
وزكتْ بساحتها الثمارُ شهيةً ... وعَدَتْ حواليها السوائم رُتَّعا
ويجودها هامي السحاب فتنجلي ... أبهى من الثلج النقي وأنصعا
ما ضرَّ مالِكَها ونازلَ حُسنها ... ما نال من آماله أو ضيَّعا
فِتَنٌ نعمتُ بها نهاراً خلتُني ... قد جُبْتُ حُسْنَ الكون فيه أجمعا
مُذ طالعتْها الشمسُ في رأد الضحى ... حتى زها فيها الأصيل مشعشعا
هذي المعاهد كم سعدتُ بظلها ... وخطرت في جنباتها مستمتعا
وصحبتُ فيها الليل آخِرَ قافلٍ ... ولقيتُ فيها الصبح أولَ مَن سعى
ومضتْ بها ذِكَرٌ إليَّ حبيبة ... وخَلاَ بها ودٌّ نما وترعرعا
وقبستُ منها الشعر أمسِ ولم تزل ... توحي إليَّ الشعرَ والعليا معا
اكستر (إنجلترا)
فخري أبو السعود
قلبي. . . قلبي
للمرحوم مصطفى صادق الرافعي
قلبي أأنت نصيري في محبتها ... أم أنت يا قلب فيها بعض أعدائي
كل الذي فيك من برئي وعافيتي ... هو الذي فيك من سقمي ومن دائي
يا رحمتا لك من قلب كصومعة ... في رأس شاهقة في جوف صحراء
شيدت من الصخر لكن في طهارتها ... هي الغمامة قد شيدت من الماء
فالموت فيها بلا معنى يميت كما ... فيها الحياة بلا معنى لأحياء
يا حسرتا لك من قلب تقلب من ... جوع لجوع وإظماء لإظماء
عند الأحباء لا يألو منازعة ... وإن تكن روحه عند الأحباء
ناء قد ازْوَرَّ عن ناء وما ابتعدا ... لكن معاند من يهوى هو النائي
يظل ذاكر حب غير محتفل ... ذكرى وناسِيَ حب غير نَسَّاءِ
أوفى بك الحب يا قلبي على زمن ... كالأرض بعد حصاد الزرع للرائي
سوداء شعثاء مغبراً جوانبها ... من بعد لفاء ريا النبت خضراء
قلبي إن بت مطوياً على حرق ... من الصبابة تطفيها بإطفاء
ويك اتئد إن نيراناً تحرقني ... في حبها هي نيراني وأضوائي
يا بؤس للقلب من هجر عرفت به ... ثقل الزمان على قلبي وأحشائي
يمر يوم فيوم في تسلسله ... والحب جالسني في يوم أخطائي
مثل الضباب على الأنوار يتركها ... مرضى من النور قد حمت بظلماء
وشقة الهجر تمضي لا انتهاء لها ... إذا الدلال مشى فيها بإبطاء
حمامة الموكب الملكي
صَحِبَتْ رَكْبَهُ المُعَزَّزَ وَرْقَا ... ءُ وَحَفَّ الرِكابَ سِرْبُ الحَمَامِ
وَقُلُوبُ الطُّيُورِ قَد شَفَّهَا الشَّوْ ... قُ إِلَيْهِ فَكَيْفَ قَلْبُ الأَنَامِ
هِيَ رَمْزُ السَّلاَمِ قَدْ هَزَّهَا البِشْ ... رُ فَمَالَتْ عَلَى رَسُولِ السَّلاَمِ
يَهْبِطُ الطَّيْرُ أَيْنَما هَبَطَ السِّلْ ... مُ وَسادَ الوَرَى لِوَاءُ الوِئَامِ
إسكندرية
احمد فتحي مرسي
رسالة العلم
الفيتامينات
للأديب عبد المنعم عبد الحميد بدر
الجسم كالمعمل الكيماوي تجري داخله عدة تفاعلات كيماوية معقدة للقيام . . . بوظائفه الحيوية المختلفة، والروح كالعالم الكيماوي داخل هذا المعمل أمامه المواد الكيماوية والمواد الأخرى التي يريد إجراء التجارب عليها لتحليلها والاستفادة منها. فإذا نقصت إحدى هذه المواد وخصوصاً إذا كانت ذات أهمية كبرى وقفت التجارب أو قل وقف معظمها لنقص هذه المادة التي كانت تدخل في إجراء كل منها وبذلك يضعف

الجسم وتنتابه الأسقام والآلام.
ومن هذه المواد المهمة والتي يحتاج إليها معمل الجسم بكثرة الفيتامينات، إذ أقل ما يقال في وصفها أنها من المواد التي تنظم الحياة، فعليها يتوقف سير عمليات الهضم والتمثيل وقوة الجسم أو ضعفه وقابليته للأمراض أو مقاومته لها. وتوجد هذه الفيتامينات في المواد النباتية كالخضر والفاكهة ومحاصيل الحقل كالقمح والشعير والفول، والمواد الحيوانية كاللحوم والألبان متى كان كل منها طازجاً أو مضى عليه زمن طويل غير أنه محفوظ بطريقة خاصة تمنع تطرق الفساد إليه.

تعريف الفيتامينات

هي عبارة عن مواد كيميائية معقدة غير معروفة التركيب إلى الآن وهي ذات أهمية أساسية لنمو الجسم وبقائه في حالة صحية وغيابها يجعل النمو غير طبيعي فضلاً عن تعرض الجسم للأمراض المختلفة التي يسببها نقصها في الجسم. فمرض نحافة العظام والكساح يتسببان عن نقص فيتامين (د) في الأم أثناء الحياة الجنينية فينشأ الطفل وفيه هذا المرض، كذلك إذا غذي بالأغذية الصناعية كالألبان المجففة بطريقة تؤدي إلى موت الفيتامينات فيها إذا اضطرت الظروف إلى تغذية الطفل بغير لبن أمه الكامل والمحتوي على جميع الفيتامينات لأي سبب من الأسباب. وكثيراً ما يؤدي نقص الفيتامين في الجسم إلى إحداث

مضاعفات شديدة وأمراض خبيثة تأتي تدريجياً وببطء قد تودي في نهاية الأمر بالحياة.

وتوجد سبعة فيتامينات وهي: فيتامين (أ) وفيتامين (ب) وفيتامين (ج) وفيتامين (د) وفيتامين (هـ) وفيتامين (و) وفيتامين (ز) والستة الأولى أكثر أهمية من الفيتامين السابع، وعلى العموم فلكل منها وظيفة خاصة لا يمكن أن يؤديها فيتامين آخر في حالة عدم وجوده.

طبيعة الفيتامينات

لم يعرف للآن التركيب الكيميائي للفيتامينات ما عدا الفيتامين (د) الذي توصل إلى معرفة طبيعته فقط في الوقت الحاضر بالنسبة لعلاقته الشديدة بالأرجوسترول وهي مادة عضوية معقدة التركيب يمكن تحضيرها في المعمل، وبعض لعلماء يعتبر الفيتامينات مواد حية والبعض الآخر يعتبرها مواد كيميائية معقدة غير حية يمكن الوصول إلى معرفة تركيبها بالبحث والتجارب؛ غير أنه لم يمكن تحضير أي فيتامين على حالة انفراد فيقال إن هذه المادة هي فيتامين (أ) أو (ب). . . الخ، وكل ما أمكن عمله هو الحصول على مركزات أو مستخلصات أو مجففات تكون فيها هذه الفيتامينات بكثرة كزيت كبد الحوت ومجفف عصير العنب والموالح أو مستخلص الفواكه واللحوم ويستدل على وجود الفيتامينات كيميائياً بما يأتي: -

(1) فصل الفيتامينات من المواد الغذائية باستخدام طرق كيميائية وتركيزها في مركزات صناعية سهلة التداول (2) عن طريق دراسة بعض الصفات الكيميائية المهمة (3) عن طريق دراسة طبيعة المواد التي تقتلها وتؤدي إلى تحللها.

وتدرس الفيتامينات من وجهة وجودها أو عدمه بطرق حيوية خاصة وذلك عن طريق نوع من الأرانب الغينية لمعرفة ما إذا كان أي نوع من الغذاء يحتوي على نوع مخصوص من الفيتامين أم لا. ولتوضيح ذلك نفرض أن المطلوب معرفة هل يحتوي التفاح على فيتامين (أ) أم لا لذلك يؤخذ نوع الأرانب المذكور ويغذى أو يحقن بمادة غذائية تحتوي على جميع الفيتامينات ماعدا فيتامين (أ) ثم تغذى أو تحقن بمستخلص التفاح فإن نما جسمها نمواً عادياً ولم تضطرب أي عملية من عملياته المختلفة في مدة تتراوح ما بين 21، 25 يوماً دل ذلك على وجود فيتامين (أ) في التفاح. أما إذا مرضت الأرانب وظهرت عليها أعراض كالأعراض التي تنشأ عن نقص الفيتامين (أ) كان ذلك دليلاً على عدم وجود

الفيتامين (أ) في التفاح.

وتعتبر الفيتامينات على وجه العموم مواد نباتية إلا أنه توجد عدة اعتراضات مهمة تقف حائلاً دون قبول هذا الرأي وأهمها صلاحية أي أو أي مماثل له سواء وجد في الأنسجة الحيوانية أو النباتية - لأن يتحول إلى فيتامين (د) صناعياً بفعل الأشعة فوق البنفسجية وكذلك توجد شبهة قوية في أن بعض الحيوانات لها قدرة اكتناز فيتامين (ج) في كبدها وتمثيله.

تقسيم الفيتامينات
تقسم الفيتامينات من وجهة ذوبانها في الماء أو في الدهون ومذيباتها إلى قسمين رئيسيين وهما: -
فيتامينات توجد في الدهون فهي بالطبع تذوب في الدهون ومذيباتها وهي فيتامين (أ) وفيتامين (د) وفيتامين (هـ) وفيتامين (ز).
فيتامينات قابلة للذوبان في الماء وهي (ب) و (ج) و (و) (ب)
خواص الفيتامينات
لقد أجرى العلماء عدة تجارب دقيقة أمكن بها معرفة المواد الغذائية التي يوجد فيها كل فيتامين بكثرة أو بحالة مناسبة للجسم حتى يتمكن الإنسان من إدخالها ضمن غذائه للمحافظة على سلامة جسمه ووقاية ومقاومته للأمراض. وسنبدأ بذكر خواص كل فيتامين على حدة ثم نذكر بعد ذلك وظيفة كل فيتامين والنتائج التي تحدث في حالة عدم وجوده في الجسم أو نقصان مقداره عن الحد المناسب لحالة الجسم ونذكر المواد الغذائية والمركزات الصناعية التي يوجد فيها كل فيتامين على الترتيب.
فيتامين (أ) ويسمى:
(1) فيتامين ضد التهاب العين -
(2) فيتامين ضد عدوى الأمراض -
يتأثر هذا الفيتامين بالحرارة إلا أن درجة التأثر تتوقف على ظروف البيئة التي يوجد بها وهذا الفيتامين سريع الأكسدة في الجو العادي فإذا سخن في درجة حرارة عالية تحت جو مفرغ من الهواء أمكن المحافظة عليه خصوصاً إذا أزيل غاز الأكسجين واستبدل مكانه بغاز متعادل كالأزوت غير الفعال. وهذا الفيتامين لا يتأثر - بدرجة كبيرة - بدرجات الحرارة العالية عند تعقيم المواد الغذائية المحفوظة إلا أنه يفقد بسرعة الأكسدة عند تجفيف الفاكهة والخضروات ماعدا الفاكهة التي تعامل بغاز أكسيد الكبريت قبل التجفيف.
وظائف هذا الفيتامين الحيوية
(1) يساعد على نمو (خصوصاً التهاب العين وأعضاء التنفس) (2) يمنع عدوى الأمراض الجسم (3) يحافظ على سلامة البنية (4) يساعد على عمليات الهضم (5) عامل مهم للتناسل (6) يحتاج إليه الطفل مدة الرضاعة ولذلك يجب توفره في لبن الأم (7) يمنع تعرض الجسم لمرض الأنفلونزا.
بعض النتائج التي يسببها عدم وجود فيتامين (أ) أو وجوده بقلة:
(1) تعرض العين لما يأتي: - ضعف مقاومة الجسم لعدوى الأمراض (2) وقوف الجسم عن النمو (3) مرض العين والتهابها وفقدان قوة الإبصار أثناء الليل (ب) فقدان غدد العين لخاصية (أ) البكاء (ج) تعرض جميع أعضاء التنفس للأمراض (د) التهابات بقناة الهضم (هـ) التهابات بغدد اللعاب تحت اللسان (4) إسهال (5) ضعف طبيعي (6) فقدان شهية الأكل (7) تعرض الجسم للأنفلونزا ويوجد هذا الفيتامين في مركزات صناعية: -
(1) كاروتين في الجزء الذي لا يتصبن من زيت كبد الحوت وهو محضر بالصيدليات (2) محضر من الجزر أو الخضروات الخضراء فيتحول الكاروتين إلى فيتامين (أ) في الجسم والمادة الوحيدة التي يوجد فيها هذا الفيتامين بغزارة هي زيت كبد الحوت.
المواد النباتية التي يوجد بها هذا الفيتامين هي: -
(1) خضراوات (أ) بكثرة مثل: برسيم حجازي - جزر - خس - سبانخ - طماطم (2) بكميات حسنة وهي: -
فواكه: - مشمش - موز - برتقال - خوخ - أناناس - قراصية (ب) خضراوات (أ) خرشوف - كشك - ألماز - كرنب كرفس - ذرة (صفراء) - بسلة (الخضراء) - فلفل (أخضر) - قرع - فاصوليا - بطاطا (صفراء).
والمواد الحيوانية التي يوجد بها هذا الفيتامين: -
(1) بكثرة: - زبدة - جبن - قشدة - بيض (المح) - لبن (غير مفروز) (2) بكميات حسنة: - الكبد - الكلى - حيوانات بحرية -

فيتامين (ب) ويسمى:
- فيتامين ضد مرض البري بري (1)
- فيتامين ضد مرض الأعصاب (2)
يتوقف تأثير الحرارة على هذا الفيتامين تبعاً للوسط إذا كان حمضياً أو قلوياً أو متعادلاً وهو يتأثر بالحرارة سواء وجدت في محلول أو في المواد الغذائية الطبيعية، والوسط له تأثير على درجة الحرارة التي يقتل عندها أو تقل كميته، فمثلاً المواد الغذائية الطبيعية كالحبوب تفقد هذا الفيتامين عند تسخينها إلى درجة 120 مئوية لمدة نصف ساعة ولكن يسهل قتله عند درجة 100°م إذا كان الوسط متعادلاً أو قلوياً نوعاً ما ويقتل هذا الفيتامين تماماً عند درجة 250° مئوية لمدة 4 ساعات في معظم المواد الغذائية.

وظائف فيتامين (ب) الحيوية
(1) يساعد عمليات الهضم (2) يساعد على تكوين العظام (3) يمنع أمراض الأعصاب (4) تحتاج إليه الأم مدة الرضاع (5) يقوي أعضاء الهضم.

بعض النتائج الحيوية التي يسببها عدم وجود الفيتامين (ب) أو قلته:
(1) ضعف أو فقدان شهية الأكل (2) ضعف عمليات الهضم والأعضاء المختصة بها (3) ضعف نمو الأطفال مدة الرضاع (4) ضعف البنية (5) التعب (6) انخفاض في درجة حرارة الجسم العادي (7) ظهور علامات مرض البري - بري كما يأتي:
(أ) فقدان تعاون الأعضاء (ب) شلل تدريجي بالأطراف (ج) اختلال وظيفة أعضاء الهضم (د) النحافة.

ويوجد هذا الفيتامين في المركزات الصناعية الآتية
(1) محضر من نخالة القمح (2) محضر من فضلات الأرز بعد تبييضه (3) محضر من الخميرة.

والمركب الوحيد الذي نحتوي هذا الفيتامين بغزارة هو الخميرة

والمواد النباتية التي يوجد بها هذا الفيتامين:
(1) بكثرة وهي حبوب: - قمح - ذرة - أرز - شوفان (بشرط عدم فصل الدقيق عن النخالة) - بسلة (2) بكميات حسنة: كشك الماز - تفاح - فول - موز - جزر - كانتالوب - قرنبيط - بلح - كرفس - عنب - خس - ليمون هندي - بطاطس - بندق وجوز - سبانخ - برتقال - طماطم - خوخ - لفت - قراصية - أناناس -.

والمواد الحيوانية التي يوجد بها هذا الفيتامين:
(1) بكثرة: - بيض (المح) (2) بكميات حسنة: - المخ - الكبد - الكلى - الجبن - اللبن - (حيوان بحري).

- فيتامين (ج) - ويسمى فيتامين ضد الإسخربوط
يتحمل هذا الفيتامين الحموضة عن الفيتامينات الأخرى ويحتفظ بطبيعته في المحاليل الحمضية أكثر من القلوية والمتعادلة ولذلك يتطلب أثناء عمليات حفظ عصير بعض أنواع الفاكهة المحافظة الدقيقة على هذا الفيتامين لمنع أكسدته، ولا يتأثر هذا الفيتامين بالأشعة فوق البنفسجية، ويجب المحافظة عليها من الأكسدة أثناء تعريضه لهذه الأشعة، ومن المعتاد أنه يتلف أثناء التخمرات الحمضية بواسطة البكتيريا ولا يفقد طبيعته أثناء التخمر بواسطة الخميرة أو في حالة وجود الأحياء الدقيقة التي تساعد على تخمر سكر وبعض أنواع البكتيريا الأخرى، ويلاحظ أن عمليات الطبخ المنزلي تساعد دائماً على قتل هذا الفيتامين بخلاف المواد المحفوظة في العلب التي يمكن المحافظة على مقدار الفيتامين الذي تحتويه بالمحافظة عليها من التعرض لفعل الأكسدة مع ارتفاع درجة الحرارة المستخدمة. ولقد تيسر في الوقت الحاضر الاحتفاظ بهذا الفيتامين في المواد الغذائية المجففة وخصوصاً إذا أجريت عمليات التفريغ الهوائي أثناء عملية التجفيف.

وإذا عرضت المواد الغذائية التي تحتوي على هذا الفيتامين والتي يراد تجفيفها إلى أبخرة غاز ثاني أكسيد الكبريت ساعد ذلك على الاحتفاظ بكمية أوفر

منه في الطريقة السابقة خصوصاً إذا عوملت المواد
الغذائية المراد تجفيفها بواسطة محلول قلوي يعرف
باسم وهو مكون من الماء والصودا الكاوية في
العادة بنسبة تركيز 12 % إلى 3 % وذلك قبل
تعريض المواد التي يراد تجفيفها إلى أبخرة غاز
ثاني أكسيد الكبريت، فإذا تم التفريغ الهوائي أثناء
عملية التجفيف (في حالة العصير) فإن الفيتامين
تزداد كميته أيضاً في المادة الناتجة. ويمكن الاحتفاظ
بهذا الفيتامين في بعض المواد الغذائية كالمشمش
والقراصية إذا حفظت بطريقة التجمد، وذلك لو
فرغت الأوعية التي بها المواد من الهواء الذي
يفضل تعويضه في هذه الحالة بغاز غير فعال
كالأزوت.
خواص هذا الفيتامين الحيوية
(1) يمنع مرض الأسخربوط (2) يساعد على تكوين العظام (3) يساعد على تكوين
الأسنان وحفظها في حالة سليمة.
- :بعض النتائج الحيوية التي يسببها عدم وجوده أو قلته
(1) الأسخربوط: - (أ) إدماء الجلد والمفاصل والأطراف (ب) إدماء العضلات والأنسجة
(ج) آلام وورم في المفاصل والأطراف (د) إحداث عظام المفاصل صوتاً عند تحركيها
(2) تحلل كالسيوم العظام (3) تحلل الأسنان وفقدانها (4) نقص في وزن الجسم (5)
تعب (6) فقدان الشهية للأكل (7) تغير لون الوجه واصفراره.
- :ويوجد هذا الفيتامين في المركزات الصناعية الآتية
(1) محضر من عصير البرتقال (2) محضر من عصير الليمون
ويوجد في المواد النباتية:
(1) بغزارة: - كرنب - خس - بصل - سبانخ - طماطم - عصير طماطم - فواكه -
عصير الليمون - برتقال - عصير برتقال.
(2) بكثرة: - خضروات - كرفس - راوند - لفت - عصير ليمون بلدي - خوخ - أناناس -
شليك - تانمارسن.
(3) بكميات حسنة: - فول (مطبوخ) - تفاح - بنجر - كرنب (مطبوخ) - موز - عنب -
جزر - قرنبيط - خيار - عصير عنب - بسلة مطبوخة - فلفل أخضر - ليمون هندي -
بطاطس - قرع عسلي - سبانخ (مطبوخ) - كمثري ذرة سكرية - لفت أخضر - بطيخ -
بصل.
ولا توجد مواد حيوانية بها هذا الفيتامين سوى اللبن.
- فيتامين (د): - ويسمى فيتامين ضد مرض نحافة العظام
- :ووظائفه الحيوية هي
(1) يساعد على تكوين العظام (العناصر المهمة هي الكلسيوم والفوسفور)
(2) ينظم عملية ترسيب العناصر المعدنية في العظام والأسنان
(3) تحتاج إليه الأم الحامل لمنع نحافة عظام الطفل
- :بعض النتائج الحيوية التي يسببها عدم وجود الفيتامين (د) أو وجوده بقلة
(1) نحافة العظام (أ) عظام غير صلبة (ب) تضخم الكوعين والعقبين (ج) بروز الجبهة
(د) تغير شكل الصدر (هـ) إعوجاج الساقين
(2) ضعف عمومي في الأعصاب (3) تحلل الأسنان وفقدان المادة الكلسية.
(4) قلة وجود عنصري الكالسيوم والفوسفور في الدم والعظام عن الكمية الضرورية.
- :المركزات الصناعية
(1) استعمال الأشعة فوق البنفسجية من أقواس كهربائية خاصة
(2) محضر من الجزء الذي لا يتصبن من كبد الحوت.
(3) محضر من ايرجوسترول بعد تعريضه للأشعة فوق البنفسجية.
(4) تعريض المواد الغذائية للأشعة فوق البنفسجية.
(5) مركب طبي معروف اسمه

ويوجد هذا الفيتامين بكثرة طبيعياً وكذلك صناعياً في:
زيت كبد الحوت (2) أشعة الشمس المباشرة (3) الأشعة فوق البنفسجية (1).
ويوجد في مواد نباتية بكثرة: بيض (مح) - سمك السالمون.
- وبكميات مناسبة في: - الزبدة - اللبن الكامل - سمك
- فيتامين (هـ): - يسمى فيتامين ضد العقم
وهذا الفيتامين عامل أساسي لوظيفة التناسل في الذكر والأنثى وعدم وجوده أو قلته يسبب عدم القدرة على التناسل في الذكر والأنثى ويوجد بكميات مناسبة في الخس والبريسم الحجازي - شعير - فول - قمح (دقيق وردة) عسل أسود - شوفان (دقيق ونخالة) - أرز - ذرة (كله) ويوجد في اللحوم.
فيتامين (و): - ويسمى فيتامين ضد البلاغرا ويمنع هذا
- الفيتامين مرض البلاغرا الذي أعراضه:
اضطرابات داخلية (2) تبقع وسماكة الجلد (3) مرارة والتهابات بالفم واللسان ((1) 4) إسهال (5) إضطرابات عصبية وعقلية.
ويوجد بغزارة في محضر الخميرة وبكثرة في اللحوم والكبد والخميرة والبنجر وفي: بطاطس - سبانخ - لفت (أخضر) بيض - لبن - سمك (السالمون). ويوجد بكمية حسنة في: موز - جزر - لفت - بنجر - خس - كرنب - طماطم.
فيتامين (ز)
أقل الفيتامينات أهمية وقد اهتدي إليه أخيراً في زيت بزر الكتان أما صفاته وخواصه فلم تدرس بعد.
عبد المنعم عبد الحميد بدر
كلية الزراعة
, , , , , , , , , , مترجمة بتصرف عن
البريد الأدبي
القرآن وعلامات الترقيم - فتوى لمشيخة الأزهر
تلقت لجنة الفتوى بالجامع الأزهر اقتراحاً، من الأستاذ محمود عفيفي المحامي، خاصاً بطبع المصحف الكريم على الكيفية الآتية:
أولاً: أن يكون بالرسم العادي المتبع الآن بالأزهر الشريف وفروعه وجميع المعاهد العلمية بمصر والبلاد العربية إسلامية وغير إسلامية.
ثانياً: أن يراعى وضع علامات الترقيم وسط الجمل لا فوقها كما هو متبع الآن.
ثالثاً: أن يوضع تفسير عصري مختصر بهامش هذه الطبعة بمعرفة هيئة من كبار العلماء.
وقد جاء في تقرير مرافق لهذا الاقتراح ما خلاصته: إن الغرض هو تيسير تناول كتاب الله الكريم وسهولة تلاوته كما أنزل مع فهم ما غمض من معانيه، لأن كثيراً من المتعلمين في المدارس مع نبوغهم في اللغة العربية لا يستطيعون تلاوة القرآن في المصحف بطبعته الحالية، لاختلاف هجائه عن الهجاء الذي ألفوه ودرسوه في معاهدهم، فحرصاً على أن تكون تلاوة هؤلاء وأمثالهم ممن لا يحفظون القرآن ولم يتلقوه عن القراء صحيحة يجب طبعه بالهجاء العادي المعروف لهم، وحرصاً على فهم معاني القرآن لمن يقرأه في المصحف يجب وضع تفسير مختصر مفيد على هامش هذه الطبعة.
رأي اللجنة في هذا الاقتراح
وقد أبدت اللجنة رأيها في ذلك فقالت: إنها توافق على وضع تفسير مختصر مفيد على هامش المصحف، وتوجو أن يوفق الله جماعة من العلماء لوضع هذا التفسير، حتى يعم الانتفاع بالقرآن الكريم.
أما وضع علامات الترقيم وسط الجمل لا فوقها، فاللجنة ترى أن المصحف الكريم قد وضعت فيه قديماً وحديثاً علامات على بعض الحروف وبعض الكلمات وفي وسط الجمل للدلالة على كيفيات لهذه الحروف كالإدغام والإخفاء وللدلالة على معان تتعلق بالتلاوة كحسن الوقف ولزومه وامتناعه وغير ذلك، وهذه العلامات لا ترى اللجنة حاجة لإحداث تعديل في وضعها لأنها وضعت في أماكنها للدلالة على أغراض خاصة وقد أدت

بوضعها في أماكنها هذه الأغراض بوضوح لا لبس فيه، وبين كل ذلك في التعريف الشامل
بالمصحف الذي وضع في ذيل الطبعة التي أمر بها حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول سنة 1347هـ
وأما إنشاء علامات ترقيم أخرى للدلالة على أن الجملة استفهامية مثلاً، ومقولة لقول سابق أو محذوف، فلا ترى اللجنة مانعاً منها بشرط أن يوضع بشكل لا يوجد لبساً على القارئ فقد كان المصحف الكريم مجرداً عن (التعشير) و (الإعجام) و (النقط) و (رموز الوقف) ثم أحدث كل ذلك واستحسنه كثير من العلماء حفظاً للآي وضبطاً للإعراب خصوصاً للأعاجم وغيرهم ممن لا يحسنون العربية، قال الزيلعي من علماء الحنفية: هو وإن كان محدثاً فمستحسن، وكم من شيء يختلف باختلاف الزمان والمكان. اهـ
وأما طبع المصحف الكريم على قواعد الرسم الكتابي العادي المتبع الآن، فاللجنة ترى لزوم الوقوف عند المأثور من كتابة المصحف وهجائه وذلك لأن القرآن الكريم كتب وقت نزوله على النبي صلى الله عليه وسلم، ومضى عهده صلى الله عليه وسلم والقرآن على هذه الكتبة لم يحدث فيها تغيير ولا تبديل، وقد كتبت بها مصاحف عثمان، ووزعت على الأمصار لتكون إماماً للمسلمين، وأقر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عمل عثمان رضي الله عنه، ولم يخالفه أحد فيما فعل؛ واستمر المصحف مكتوباً بهذا الرسم في عهد بقية الصحابة والتابعين وتابعي التابعين والأئمة المجتهدين في عصورهم المختلفة ولم ينقل عن أحد من هؤلاء جميعاً أنه رأى تغيير هجاء المصحف عما رسم به أولاً إلى تلك القواعد التي حدثت في عهد ازدهار التأليف والتدوين في البصرة والكوفة، بل ظل مصطلح القرآن قائماً مستقلاً بنفسه بعيداً عن التأثر بتلك القواعد.
ولا ريب أنه وجد في تلك العصور المختلفة أناس يقرؤون القرآن ولا يحفظونه وهم في الوقت نفسه لا يعرفون من الرسم إلا ما وضعت قواعده في عصر التأليف والتدوين وشاع استعمالها بين الناس في كتابة غير القرآن، ولم يكن وجود هؤلاء مما يبعث الأئمة على تغيير رسم المصحف بما تقضي به تلك القواعد.
قال العلامة نظام الدين النيسابوي في كتابه (غرائب القرآن ورغائب الفرقان) ما نصه:
(وقال جماعة من الأئمة: إن الواجب على القراء والعلماء وأهل الكتاب أن يتبعوا هذا الرسم في خط المصحف، فإنه رسم زيد من ثابت، وكان أمين رسول الله صلى الله عليه
وسلم، وكاتب وحيه). اهـ.
وجاء في الإتقان للإمام السيوطي ما نصه:
(وقال أشهب: سئل مالك: هل يكتب المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء؟ فقال: لا، إلا على الكتبة الأولى. رواه الداني في المقنع، ثم قال: ولا مخالف له من علماء الأمة. وقال في موضع آخر: سئل مالك عن الحروف في القرآن، مثل الواو والألف: أترى أن يغير من المصحف إذا وجد فيه كذلك؟ قال: لا. قال أبو عمرو: يعني الواو والألف المزيدتين في الرسم المعدومتين في اللفظ، نحو (أولوا)
وقال الإمام أحمد: يحرم مخالفة خط مصحف عثمان في واو وياء أو ألف أو غير ذلك.
وقال البيهقي في شعب الإيمان: من يكتب مصحفاً ينبغي أن يحافظ على الهجاء الذي كتبوا به تلك المصاحف، ولا يخالفهم فيه، ولا يغير مما كتبوه شيئاً فانهم كانوا أكثر علماً، وأصدق قلباً ولساناً. وأعظم أمانة منا، فلا ينبغي أن نظن بأنفسنا استدراكا عليهم). اهـ.
وقد جاء في فقه الحنابلة ما يؤيد نقل السيوطي في الإتقان عن الإمام أحمد بن حنبل.
وجاء في حواشي المنهج في فقه الشافعية: أن كلمة (الربا) تكتب بالواو والألف، كما جاء في الرسم العثماني، ولا تكتب في القرآن بالياء أو الألف، لأن رسمه سنة متبعة.
وجاء في المحيط والبرهان في فقه الحنفية: أنه ينبغي ألا يكتب المصحف بغير الرسم العثماني.
على أن قواعد الإملاء التي حدثت في عهد التأليف والتدوين لم يتفق عليها واضعوها بل اختلفوا في رسم كثير من الكلمات كما هو مدون في مواضعه، وهي بعد ذلك

عرضة للتغيير والتبديل، وقد صارت اليوم موضع شكوى وتفكير نظراً لما فيها من كتابة أحرف لا وجود لها في المنطق، وترك أحرف منطوق بها، فلا ينبغي والحالة هذه أن يخضع القرآن في رسمه لهذه القواعد المختلف فيها، والتي هي عرضة للتغيير والتبديل.

وأما ما يراه أبو بكر الباقلاني من أن الرسم العثماني لا يلزم أن يتبع في كتابة المصحف، فهو رأي ضعيف، لأن الأئمة في جميع العصور المختلفة درجوا على التزامه في كتابة المصاحف، ولأن سد ذرائع الفساد مهما كانت بعيدة أصل من أصول الشريعة الإسلامية التي تبنى الأحكام عليها، وما كان موقف الأئمة من الرسم العثماني إلا بدافع هذا الأصل

مبالغة في حفظ القرآن وصونه.

وأما ما ذكره صاحب الاقتراح من أن كثيراً من المتعلمين لا يحفظون القرآن، ولا يحسنون قراءته في المصحف، لعدم معرفتهم الرسم الثماني، فللجنة ترى - تسهيلا للقراءة على هؤلاء - أن ينبه في ذيل كل صفحة على ما يكون فيها من الكلمات المخالفة للرسم المعرف.

على أن الأمر أهون مما يتصوره المقترحون للتغيير، لأن رسم المصحف العثماني لا يخالف قواعد الإملاء المعروفة إلا في كلمات قليلة معدودة. ومع ذلك، فليست هذه المخالفة مما تحدث شيئاً من اللبس على القارئ المتأمل، لأنها إما بحذف حرف، كحذف الألف في (بسم الله الرحمن الرحيم)، أو زيادة حرف، كزيادة الألف في (أولوا) أو إبدال حرف من حرف، كرسم (الصلوات) بالواو بدلا من الألف، أو وصل ما حقه الفصل مثل وصل (ان) بما الموصولة، كما في قوله تعالى: (إنما لتوعدون لآت) أو فصل ما حقه الوصل، كفصل (في) الجارة من (ما) الموصولة، مثل (في ما فعلن في أنفسهن)

وواضح أن مثل هذا لا يشتبه على أحد أن ينطق به صحيحاً

وإن من يطلع على التعريف بالمصحف الذي أشير إليه فيما سبق، يستطيع أن يتعرف تلك الكلمات بسهولة، والله أعلم

بقي أن لجنة الفتوى لم تذكر الحكمة في الاستمرار على الرسم المضلل (الرسالة) في كتابة قوله تعالى (ولا تقولن لشاى (لشيء) إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله) وقوله تعالى (والسماء بنيناها بأييد (بأيد))، و (بأييكم (بأيكم) المفتون)

مشكلة برامج التعليم

إصلاح برامج التعليم المصرية مشكلة طال عليها العهد، وتقلبت بين مختلف التجارب والعهود ولم تستقر على وضع ثابت حتى اليوم؛ وقد كان اضطراب برامج التعليم وتغييرها بين آونة وأخرى من أهم الأسباب التي أدت إلى انحطاط مستوى الثقافة المدرسية، وبث الفوضى إلى معاهد التعليم وإلى نظم الدراسة والامتحانات؛ وكان آخر العهد بتغيير البرامج منذ نحو عام فقط ولكن النظام الجديد ما كاد يستقر حتى سمعنا وزير المعارف الجديد يصرح منذ أيام بأنه يعتزم تأليف لجنة من ذوي الخبرة في شئون التربية من رجال

المعارف وغيرهم لتبحث برامج التعليم وتضع لها من الأسس الجديدة ما يتفق مع حاجات العهد الجديد، وهذه في الواقع فكرة لا بأس بها؛ ولكن الذي يصح التساؤل عنه بهذه المناسبة هو: أليس لهذه التجارب التعليمية من نهاية؟ ومتى توفق وزارة المعارف إلى وضع الأسس النهائية لبرنامج التعليم القومي؟ ذلك أن مسائل التربية يجب أن تكون بمعزل عن التقلبات السياسية، ويجب أن تكون بالأخص بمعزل عن الآراء والرغبات الشخصية؛ ومن المستحيل أن نظفر بسياسة إصلاحية ثابتة للتعليم إذا لم نوفق إلى وضع المبادئ والأسس صفة الاستقرار إلى حين معقول؛ ولا بأس من أن تكون التفاصيل ذاتها عرضة للتغيير والتبديل كلما دعت الحاجة أو دعت التجارب، ولكن الاستمرار في الإنشاء والمحو على هذه الصورة كل عام أو عامين أو بعبارة أخرى كلما تغير وزير المعارف، خطة عقيمة ضارة نلمس الآن نتائجها السيئة. وإذن فلنؤمل أن تكون هذه التجربة الجديدة التي يزمع وزير المعارف القيام بها لوضع النظم الأساسية للتعليم والتربية، هي ختام هذه الفوضى؛ بيد أنه يشترط لنجاح مثل هذه التجربة أن تجري بعيداً عن الجو الحكومي، وأن تقوم بها صفوة من ذوي الخبرة

والثقافة الرفيعة، وأن يسترشد في إجرائها بكل ما يقتضيه العهد الجديد من تنمية الروح القومية وتوسيع الأفق وتعزيز العناصر الأخلاقية والعملية في ثقافتنا.

هل اكتشف سر التحنيط عند الفراعنة؟

المعروف أن العلم الحديث بالرغم من تقدمه بخطى الجبابرة في سائر النواحي، لم يوفق إلى اكتشاف سر التحنيط عند قدماء المصريين؛ وقد كانت للفراعنة في هذا الفن براعة ليس أدل على عظمتها وروعتها من تلك الموميات العجيبة من جثث الملوك والأمراء الفراعنة التي أخرجت من قبورها والتي ما زالت بعد آلاف الأعوام تحتفظ بشكلها البشري احتفاظا مدهشاً حتى أنك لترى الأظافر وشعر الجلد والرأس باقية كما كانت أثناء الحياة. وقد حاول العلم الحديث أن يجري تحنيط بعض العظماء لتخلد هياكلهم البشرية فلم تطل التجربة أكثر من أعوام تطرق بعدها البلي والعدم إلى الجثمان المحفوظ؛ وهذا ما حدث لجثمان (لنين) زعيم روسيا البلشفية فإنه لم يمكث بعد تحنيطه أكثر من بضعة أعوام ثم اضطرت السلطات إلى مواراته بعد أن ظهرت عليه أعراض التحلل. بيد أنه ظهر أخيراً

في أمريكا علامة شاب هو الدكتور جون فيدمان من جامعة الينوا يقول إنه قد وقف على سر التحنيط عند القدماء وإنه يستطيع أن يحقق حفظ الجسم المحنط أجيالاً وأحقاباً، وأنه اهتدى أخيراً إلى سر المركب الذي كان يستعمله القساوسة المصريون، وأن أهم المواد التي كانت تستعمل لمزج هذا المركب هو محلول (النترسلولوز). وقد يكون هذا العلامة قد وفق حقاً إلى اكتشاف مركب جديد لتحنيط الجثث؛ ولكن الحكم على صحة الاكتشاف وعلى مدى أهميته لا يمكن تحقيقه قبل مضي مدة طويلة، لأن التجربة لا يمكن الحكم عليها إلا بمرور الزمن الطويل

ونحن نذكر أن المؤرخ الأول هيرودوت قد عرض إلى مسألة التحنيط في مباحثه التي أجراها عن المصريين القدماء وعن مدنيتهم وأحوالهم التي شاهدها واطلع عليها بنفسه؛ وقد ذكر لنا هيرودوت في كتابه أن التحنيط كان عند المصريين درجات وأن الجثة كانت تنقع بعد استخراج الأمعاء والحواشي نحو سبعين يوماً في محلول لم يوضحه لنا تماماً لأنه هو لم يستطع الوقوف على سره نظراً لتحوط الكهنة في الاحتفاظ بهذا السر، وأن التحنيط كان على ثلاث درجات: الأولى للملوك والأمراء وهي أتقن الدرجات، والثانية للنبلاء والأغنياء، والثالثة لأفراد الشعب، وهذه أبسطها وأقلها اتقاناً. وقد حاول كثير من العلماء أن يهتدي إلى سر هذا المحلول العجيب الذي يشير إليه هيرودوت، ولكن العلم أخفق حتى يومنا في اكتشاف هذا السر

كتاب جديد عن فلسطين

ظهر أخيراً في إنكلترا كتاب جديد عن فلسطين وضعته صحفية إنكليزية شابة تدعى مس بربارا بورد وعنوانه (فتاة صحفية في فلسطين) وقد زارت مس بورد فلسطين في الشتاء الماضي وأنفقت بضعة أشهر في درس الحياة الاجتماعية الفلسطينية وعنيت بالأخص بتعرف أحوال المجتمع النسوي على اختلاف أجناسه وبيئاته؛ وهي تقول لنا إنها قد زارت المرأة الفلسطينية في القصر وفي الكوخ وفي الصحراء، وتعرفت إلى أفقر الفتيات من النصارى واليهود كما تعرفت إلى حريم الأمير عبد الله؛ ودرست عادات هذا المجتمع النسوي المتباين وأخلاقه وخواص حياته. وكتاب المؤلفة هو كتاب سائحة، ولكن يطبعه شئ من العناية بالبحث والتحقيق أكثر مما يبذل السائح العادي؛ وقد قصدت أن تظهر كتابها في هذه الآونة التي تطرح فيها المسألة الفلسطينية على بساط البحث ليعاون في تفهم أحوال المجتمع الفلسطيني.

وقد وفدت المؤلفة أخيراً على مصر وأقامت فيها بضعة أسابيع وشهدت حفلات التتويج، وتعرفت إلى البيئات النسوية المصرية وهي تنوي فيما يظهر أن تضع كتاباً آخر عن مصر والمجتمع المصري على طراز كتابها عن فلسطين، بيد أنه لا ريب في أن هذه الكتب التي تكتب على جناح السرعة خلال سياحة سطحية لا يمكن أن تكون مراجع قيمة عن الموضوعات التي تتناولها. وسنرى في القريب العاجل ماذا تكتب هذه المؤلفة الشابة عن مصر والمجتمع المصري.

حول أرزة لامرتين

كتب الأستاذ أمجد الطرابلسي في حاشية قصيدته المنشورة في صفحة 1349 من

عدد مجلتكم الأخير أن الشاعر الفرنسي دي لامرتين وابنته جوليا زارا أرز لبنان عام 1832 ونقشا اسميهما للذكرى على شجرة هناك تشتهر الآن بأرزة لامرتين
والوقع غير ذلك فان الشعر الفرنسي لم يزر مع ابنته غابة الأرز قط ولم يكتب هو اسمه ولم ترسم وحيدته اسمها على شجرة الأرز المذكورة. وكل ما في الأمر أنه حاول أن يقوم برحلة إلى الأرز خريف عام 1832 والمعروف عن هذه الرحلة أنها أخفقت لشدة الزمهرير إذ ذاك وكثرة الثلج والجليد ونحن نعلم أن لامرتين لم يسع بعد ذلك لإدراك رحلته مرة أخرى وأنه استعاض عن مشاهدة الأرز عن كثب برؤية الغابة من بعيد
هذا وقد وضع الكاتب هنري بردو كتاباً عنوانه (رحل المشرق) عالج فيه مسألة زيارة الفرنسي العظيم للبنان وأرزه وقد استطاع أن يثبت أن التوقيعين المنقوشين على الشجرة المشهورة إنما خطهما صديق قديم للامارتين وأسرته وذلك قبل قيام شاعرنا برحلته رغبة منه في مفاجأة صاحبه المجيد مفاجأة ظريفة رقيقة

خليل عطا الله
(كلية الحقوق)

الكتب

سيرة السيد عمر مكرم
تأليف الأستاذ محمد فريد أبو حديد

فرغت من قراءة هذا الكتاب التحليلي المحكم، كما يفرغ الإنسان من شهود فلم تاريخي متقن، وبدل أن أرفع يدي لأصفق، أخذت قلمي لأكتب. شبهت هذا الكتاب بالفلم لأنه أوسع من الرواية، وأوضح من القصة، وأروع من السيرة؛ ففيه البيئة والمكان، وفيه الصور والألوان، وفيه الوقائع التي تتكلم، والخوالج التي تتجسم، والدقائق التي تسفر، والفروق التي تتضح. وتجلية الحياة المصرية السياسية والاجتماعية في القرن الثامن عشر على هذه الصورة الرائعة البارعة الملهمة لا تتهيأ إلا لأمثال الأستاذ فريد ممن توفروا على اكتناه الحق في هذا العهد المجهول المظلوم، وأوتوا مع ذلك البصيرة التاريخية التي لا تطيش، والضمير العلمي الذي لا يخدع، والقلم الفني الذي لا يزلّ. والأستاذ فريد من كتابنا القلائل الذين لا يخرجون ما ينتجون إلا عن اختصاص محيط ودرس شامل وروية صادقة وضرورة حافزة وغرض نبيل. وقد عهده الناس في تأليفه محققاً، وفي ترجمته أميناً، وفي قصصه مجوداً، وفي شعره مجدداً، وفي أبحاثه حجة. وهو بعد زيدان زعيم المذهب التاريخي في القصة على نحو ما كان (ولتر سكوت)؛ وحبه الخالص لمصر صرف هواء وجهده إلى تاريخها القديم والحديث فخدمه خدمة جلى وغرسه في قلوب النشء غرساً مثمراً بالتعليم في أسمى درجاته، وبالتأليف في شتى فنونه؛ واعتزازه الصادق باستقلال وطنه وجّه نشاطه إلى ذلك العصر الذي خلص فيه سلطان مصر إلى أبنائها الخلّص الذين وُلدوا فيها، ونُشّئوا لها، وذادوا عن حياضها المطهرة طمع الواغل الدخيل ذياد الأحرار البررة؛ واتصافه بالخلق النبيل والطبع الحر جعله يغرم فيه بالشخصيات الكريمة الحرة التي جلاها لقراء (الرسالة) في مناسبات شتى، ومنها هذه الشخصية العزيزة السيدة: شخصية السيد عمر مكرم التي أفرد لها هذا الكتاب الذي نتحدث اليوم عنه.
صورة فنية مشرقة لمصر في القرن الثامن عشر، تقرأها (سيرة السيد عمر مكرم) فكأنك تشاهده، وتستبطنها فكأنك تعيش فيه؛ برز فيها وجه هذا الرجل الأبي صادق النظر أشم الأنف ناطق الملامح، فجعله فريد مثالاً للخلق المصري المحض في ذلك العهد، ومثلاً
للجيل المصري الناشئ في هذا العهد (وقد رأينا الأمم الحديثة - وهي تسعى لتحفيز أبنائها إلى المكارم، وحضهم على المعالي - تلجأ إلى التاريخ فتستخرج منه صور المجد والبطولة فتعرضها على الجيل الحاضر ليجد فيه مثلاً يحتذيه، وأملاً يتطلع إلى تحقيق مثله، وهي تقصد بذلك إلى إعلاء نفوس أبنائها، والتسامي بأرواحهم وعواطفهم، وإثارة الخامد من طموحهم، بالتلويح لهم بأعلام المجد، والإشارة إلى ذرى الأماني الإنسانية.
ومصر بحمد الله عريقة في كل مكرمة، غنية في كل فن، عبقرية في كل وجهة؛ فليس الواقع بمعجزها، ولا الحق بخاذلها، إذا هي أرادت المُثُل العالية، أو رسم صور البطولة والمجد).

الكتاب مشوق جذاب بموضوعه وطريقته وأسلوبه. أما موضوعه فجهاد مصر في سبيل حقوقها وبلوغها من ذلك بفضل الأحرار من زعمائها أمثال السيد عمر مكرم ما تبغيه من حفظ كرامتها وإنفاذ إرادتها حتى بلغ من فوزها أن تحللت من إرادة الخليفة فعزلت بقوتها من الولاة من يفسد، وولت برأيها منهم من يصلح؛ وهو موضوع من أحب الموضوعات إلى النفس، لأنه قصة الحياة ومطمح الإنسانية إلى السمو. وأما طريقته فطريقة التحليل النفسي بصدقه ودقته، والعرض الروائي بطلاوته وحبكته. وأما أسلوبه فقد ارتفع فيه فريد إلى الدرجة العليا من الفن: جزالة في رقة، وبلاغة في سلامة، وإيجاز في وضوح، ومنطق في شعر. وحسبي من ذلك أن أضع أمامك صورة صغيرة من الفصل الجميل الممتع الذي عقده لثورة المصريين على الفرنسيين في مارس من سنة 1800، وقد عز القاهرين النصير، وخذلهم الأمير، وأهملهم الخليفة، وسلط عليهم المحاصرون النار، وأرسلت عليهم السماء المطر، حتى قال فريد: (وأمسى أهل تلك الأحياء المنكوبة ليلة العاصفة وهم في أشد حالات البؤس والكرب؛ يحاولون الخروج من منازلهم برغم الرعد والبرق والمطر المنهمر، فتعوقهم المياه المتدفقة، وتنزلق أقدامهم في الأوحال الخوانة. فإذا بهم يسمعون قصف المدافع من بين أيديهم، ويرى بعضهم أخاه صريعاً إلى جانبه قد أصابته رصاصة لا يرى قاذفها البعيد، فيقف لحظة ينظر في إسعاف الصريع، فإذا به يسمع هيعة من خلفه، فينظر فإذا باللهب يندلع في منزله الذي تركه منذ حين قصير، فيذكر الصبية الذين خلفهم فيه، فيثب قلبه في صدره، وبهم منتفضاً كالملسوع. ويعدو نحو بيته وهو لا يعي من الفزع؛ وفيما هو يعدو تطرق أذنيه صرخات داوية يملؤها الهلع والذعر، من نساء كدن
يخرجن عن الوعي من الهول؛ ويرى ماء المطر يهبط على النيران فلا يزيدها إلا توهجاً واندلاعاً، ويسمع من دون فحيح اللهب وقعقعة النار صوتاً كأنما هو من صبية يستغيثون، فيقتحم اللهب يطمع أن ينقذ فلذات كبده من بين أنياب السعير، فما يكاد يخطو في المنزل خطوات حتى تحيط به النيران، ويطيش سائراً ويتخبط حائراً حتى يوقن أنه لن يستطيع إنجاء ولده، فتثور الطبيعة في رأسه، ويخشى على نفسه، فيحاول العودة من حيث أتى، ولكن النار تحيط به وتأسره، فيضطرب ويختنق، ويحاول الصراخ فلا يخرج صوته، ثم يثبت في مكانه ويقع لا يعي، وينطبق اللهب مرة أخرى (كأن ليس في جوفه شيء).

فأنت ترى أن (سيرة السيد عمر مكرم) بمنهاجها الذي سارت عليه، وغرضها الذي هدفت إليه، وأسلوبها الذي كتبت به، حرية بأن يكون في يد كل شاب قدوة، وفي يد كل كاتب نموذجاً، وفي يد كل قارئ ثقافة ولذة.

جزى الله مؤلفها الفاضل خير ما يجزي به العامل المخلص على جهده وقصده وتوفيقه.

الزيات

العدد 217 - بتاريخ: 30 - 08 - 1937

الملك الموفق

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

منذ بضعة أسابيع أدى صاحب الجلالة الملك صلاة الجمعة في مسجد من مساجد الإسكندرية على عادته المحمودة، فلما انتهت الصلاة نهض جلالته، فهتف باسمه الناس، فأشار إليهم جلالته بيده أن كفوا، ومال على أحد العلماء، وهمس في أذنه أن بيوت الله للعبادة لا لهذا، ولذكر الخالق لا للذكر المخلوق.

وفي جمعة أخرى أمر واحداً من رجال حاشيته، فأعطى الإمام عشرين جنيهاً لخدم المسجد، فتناولها الإمام شاكراً، داعياً؛ وكان للمسجد خادمان فنقد كلا منهما عشرة، واتصل الخبر بجلالة الملك، وعلم أن الإمام حرم نفسه، فدعاه إليه وكلمه في هذا، فقال الرجل: إني خطيب وإمام لا خادم، وقد أعطيت المال لأفرقه على الخدم ففعلت وأمضيت مشيئة مولاي. فسرت جلالته عفةُ الرجل وأمانته تقواه وأجزل له الثواب.

ولجلالته عناية بأن يعرف على أي وجه تنفذ أوامره. حدث في منتصف أغسطس أن حضر جلالته حفلة تمصير شركة البواخر الخديوية، فطاف بالباخرة (محمد علي الكبير) ولاحظ أن المدخنة لونها أحمر، فالتفت إلى عبود باشا وقال إنه يؤثر أن يكون لونها

أخضر، فقال عبود باشا: (حباً وكرامة، سيكون ما شاء مولاي) فقال جلالته وهو يبتسم: (سأسأل عن المدخنة ولونها).

ويذكر القراء أن وزير الأوقاف السابق وقف مرة في البرلمان يرد على سؤال عن الأزهر ورثاثة فرشه، فكان مما قاله - وظهر أنه كذب - أن طلبة الأزهر يقطعون السجاجيد ويأخذون ما يقتطعون منها لفرش مساكنهم. وقد هاج الأزهر وماج لهذا، وكتب الشيخ الأكبر الأستاذ المراغي إلى وزير الأوقاف يومئذ يبين له أن الموظفين الذين أمدوه بهذه المزاعم كذبوا عليه وغشوه، ويطلب منه أن يحقق مع المسئولين عن هذه الأكاذيب والتشنيعات، ولكن الوزير طوي الأمر لسبب ما، ولم يعن بالتحقيق الذي كان واجباً.

وكأنما عز على جلالة الملك أن يكون الأزهر بهذه الرثاثة، وأن تضن عليه وزارة الأوقاف بالفرش اللائق، وأن يقول وزيرها السابق ما قال في طلبة هذا المعهد الإسلامي العالمي الذي لم يبق على عيده الألفي إلا القليل، ولكن الحكمة والأناة شعار الملوك، فقد سكت

جلالته حتى خرج هذا الوزير من الوزارة، وتولاها غيره، ثم أمر بأن يفرش الأزهر بالسجاد على نفقة جلالته الخاصة، وبأن يكون السجاد مصرياً من صنع مصريين. ولو أن جلالته أمر بذلك والوزير السابق قائم بالأمر في الأوقاف، لكان هذا بمثابة دعوة صريحة إلى الاستقالة، ولكن جلالته تريث حتى لا تختلط الحسنة بالسيئة، فليس همّ جلالته أن يؤنب وزيراً، وإنما همه أن يصنع جميلاً وأن يسدي مكرمة. والأزهر معهد مهول، وسيحتاج من السجاد إلى شيء كثير، فأخلق بصناعة السجاد المصرية أن تنشط من جراء ذلك نشاطاً عظيماً، وجدير بالسجاد المصري أن ينفرد بالسوق بعد هذا فلا يتخذ مصري سواه.

ولا يزال جلالة الملك في صدر الشباب، ومع ذلك آثر الزواج على العزوبة؛ وله في ذلك حكم لا حكمة، فإنه ملك، والملك قدوة لشعبه. والمثل يقول إن الناس يكونون على دين ملوكهم، والزواج عفة وتقوى وحصانة. وقد وقع اختيار جلالته على مصرية من بيت كريم، وفي هذا الاختيار معنى إنساني بارز، ومظهر ديمقراطي لا يخفى، فقد عرف جلالته الآنسة ذو الفقار، وكانت تصحب الأسرة الملكية في رحلتها في أوربا، فهو اختيار فيه كل المعاني الإنسانية وليس فيه أي معنى سياسي. وحسناً صنع جلالته، فما بقي للزواج السياسي أية فائدة أو قيمة في هذا الزمان. وإن الأمة المصرية تشعر الآن أنها صارت أقرب إلى ملكها بهذا الاختيار الموفق الذي احتذى فيه جلالته حذو المغفور له والده العظيم. وقد كان مما تحرص عليه الأسر المالكة في العصور الماضية أن تبقى بمعزل عن أممها، فلا تخالطها، ولا تصاهرها، وقلما كانت تبادلها حتى الشعور، فالآن تغير كل هذا، وأدركت الأسر المالكة أنها لشعوبها وأن شعوبها لها، وكان من خير ما صنع المغفور له الملك فؤاد وأوقعه في نفوس الأمة أن آثر أن تكون جلالة الملكة من رعاياه. واليوم يقتاس به جلالة الملك فاروق فيختار الملكة من رعاياه كذلك، فلا يبقي موضع في قلوب الأمة غير مشغول به

وهكذا يمحو جلالة الفاروق الفوارق التي تباعد ما بين الملك وأمته اكتفاء بالولاء الصادق، والإخلاص الصحيح، والحب الثابت، والإجلال العميق، واستغناء بذلك عن كل ما عداه مما لا خير فيه، ولا محل له في هذا العصر، فإن الملوك من طينة الخلق جميعاً، فلا معنى

للحرص القديم على أن يظلوا طبقة مستقلة عن شعوبهم لا تمسها ولا تقربها ولا تتصل بها من ناحية من النواحي. وأخلق بالشعوب أن تكون أعمق ولاء وأصدق وفاء لملوكها إذا شعرت أنهم منها، وأنهم يمثلون خير ما للأمة من المزايا والخصائص والصفات والطباع؛ وأنهم رمزها الأعلى حقاً، وعنوانها الأرفع صدقاً، وأن الأمر في ذلك أمر حقائق واقعة، لا أمر ألفاظ جوفاء وكلمات فارغة.

لقد ثبت العرش البريطاني على الرغم من زلازل الحرب العظمى وما تلاها، لأن الشعب البريطاني يعرف أن العرش منه وله، وأنه عنوان مجده، وأنه الصلة الوثيقة بين إبعاض إمبراطوريته؛ وللعرش في مصر أحق بالثبات والدوام على الزمن، فقد قامت هذه الأسرة المجيدة باختيار الأمة لها، وكان المصريون هم الذين ولوا محمد علي باشا أمرهم، وألقوا إليه بمقاليدهم، وملكوه زمانهم. ولم يخيب محمد علي على

ظن مصر به ويقينها فيه، فقد رفع مقامها، وأعلى شأنها، وجعل منها دولة محسودة مرهوبة الجانب، مخوفة السطوة؛ وحسبه فخراً أن احتاجت الدول العظمى إلى التألب عليه والائتمار به لحرمانه ما كان حقيقاً أن يفوز به من الثمرات. ولا شك أن مصر مدينة برقيها الحديث للخديوي إسماعيل على الرغم من كل ما جر إليه حكمه، وإن كان مؤرخو الغرب يبالغون في ذلك ويهولون به ليستروا مؤامرات أوربا ومكائدها، وما أوقعت فيه مصر بسوء نيتها وفساد طويتها. والمغفور له الملك فؤاد هو الذي أزخر تيار النهضة الحديثة وعرف كيف يذلل كل عقبة اعترضته في الاحتلال وفي عدم الاستقرار. والآن يجيء جلالة الملك فاروق بفيض من الحيوية، وبمثل حكمة الشيوخ المحنكين في شبابه الغض، وبقلب كبير ملؤه الحب لأمته، وعزم صادق على الوثوب بها. ولَحسْبنا هذه الفواتح بشيراً بمستقبل سعيد في ظل حكمه المديد المبارك إن شاء الله.

إبراهيم عبد القادر المازني

الليل

للأستاذ أحمد أمين

في ليلة حالكة السواد بعدت عن ضوضاء المدينة إلى مكان قصيّ على شاطئ البحر أهرب بنفسي من جراثيم المدنية ووباء الحضارة، وأغسلها من أدران التقاليد والمواضعات، وأطهرها بالانغماس في عالم اللانهاية: في السماء والماء والجو الفسيح الذي لا يحده حد ولا ينتهي إلى غاية

غاب فيها القمر فلعبت النجوم؛ ولو طلع لكسفها وهي أكبر منه حجماً، وأعظم قدراً، وألمع ضوءاً، ولكن دنيانا هذه يسود فيها التهويش حتى في القمر والنجوم

كان سواد هذه الليلة أحب إلى نفسي من ضوء الشمس ونور القمر، فللنفس حالات تبسط فيها فيعجبها البحر الهائج، والوسط المائج، واللون الأبيض والأحمر، والنكتة اللاذعة؛ وتنقبض فتأنس إلى الليل الساكن، والوحدة المريحة، والسكون العميق، واللون القاتم

لك الله أيها الليل! فما زلت بالفن حتى ملكته، واحتويته، فجعل يشيد بذكرك ويرفع من شأنك، حتى لم تجعل لأخيك النهار نصيباً يقاس بنصيبك، فاقتسمتما الزمان عادلة، واقتسمتما الفن قسمة جائرة!

فالمغني يقصر مناداته عليك، ولا يلتفت في هتافه إلا إليك؛ فإذا غنى بالليل نادى الليل، وإذا غنى بالنهار لم يخجل فنادى الليل أيضاً؛ والآلات كلها تتبعه فتردد على أوتارها ما ردده المغني بكلماته. ثم كان اسمك على قلته وضؤولته أداة طيعة في صوت المغني يوقع عليه ما شاء من نغمات: مرحة وحزينة، ومديدة وقصيرة، وعالية وهادئة، وباعثة للقوة واليأس والأمل، وداعية إلى الضعف والخمول والكسل

وحتى المصور! لماذا شغف برسم غروب الشمس أكثر مما شغف بطلوعها إلا لأن غروبها إيذان بقدومك وارتقاب لزورتك؟

أما الأدب فله فيه الباع الطويل والقول الذي لا ينتهي. تداولت عليه الأدباء، فنقموا عليه حيناً، وتذللوا له حيناً، من عهد الأستاذ امرئ القيس إذ يقول:

فيالك من ليل كأن نجومه ... بكل مُغَار الفتل شدت بيذْبُل

إلى عهد الأستاذ محمد عبد الوهاب إذ يقول:

(بالله يا ليل تجينا، وتسبل ستايرك علينا)

شكوا طوله وتفننوا في ذلك ما شاءوا، فتخيلوا أن نجومه شدت بالحبال، وربطت في الجبال، أو أن النهار ضل طريقه فظل الليل لا يبرح ولا يتزحزح كالذي يقول بشار:

أضلَّ النهارُ المستنيرُ طريقهُ ... أم الدهرُ ليلٌ كله ليس يبرح؟

أو أن النجوم حارت لا تدري أتتيامن أم تتياسر فوقفت فوقف الليل بجانبها كقول جرير:

أبُدِّلَ الليلُ لا تسري كواكبهُ ... أم طال حتى حسبت النجم حيرانا؟

وشكوا قصره فأبدعوا في ذلك أيما إبداع، فشبهوه بعارض البرق كالذي يقول:

يا رب ليل سرور خلته قِصَرا ... كعارض البرقِ في أُفق الدُّجى بَرَقا

قد كادَ يعثرُ أولاهُ بآخرهِ ... وكاد يَسْبقُ منه فجرُه الشفقَا

وأنكروا من قصره وجوده فقالوا:

وليلة من الليالي الغر ... لم تك غير شفق وفجر

كان هؤلاء الذين يشكون طوله ويشكون قصره يتحدثون بعواطفهم، ويترجمون عن مشاعرهم، فجاء قوم على أثرهم يتحدثون بعقولهم، فقال الفرزدق:

يقولون طال الليلُ والليلُ لم يَطُلْ ... ولكنَّ من يِبكي من الشَّوْقِ يَسْهَرُ

وقال ابن بسام:

لا أظلمُ الليلَ ولا أَدّعِي ... أن نجومَ اللَّيلِ لَيْست تغور

ليلى كما شاَءت فإن لم تَجُد ... طال، وإن جادت فليلى قصير

أيها الليل! كم لففت ثوبك على متناقضات: حزن على ميت، وسرور لميلاد، ومحب مهجور يشكو طولك، ومحب واصل يشكو قصرك، وعابد متهجد يناجي ربه، وداعر فاجر يبغي حظه، ودمعة حري تسلبها أم ولْهَى بجانب سرير مريض، وضحكة صارخة تخرج من فم سكير عربيد، ومجلس أنس تتجاوب فيه الأقداح والأوتار، ويلبس فيه الليل ثوب النهار، بين بدور؛ وكاسات تدور، كأنه مسرح صغير تمثل فيه الجنة بصنوف نعيمها، أو معرض تعرض فيه الملاهي بشتى ألوانها، ومجلس بؤس تتجاوب فيه الزفرات والحسرات، وتتساقط فيه النفوس، قد شرقوا فيه بدموعهم، وتلظى الهم في ضلوعهم، فهم بين كاسف بال، وساهم طرف، ومنقبض صدر، ولهيف قلب يترقبك السارق ليحتمي بسوادك في سرقته، والعاشق ليفر في سكونك بعشيقته، والناسك ليبتهل إلى الله في صلواته، ويتحد معه في مناجاته، والشاعر لينظم شجونه في قصيدته، والملحن ليوقع لحنه على قيثارته، والسياسي ليدبر مؤامراته، والعالم ليفكر في نظرياته

ولكن لماذا استأثرت بكل هذا والنهار قسيمك في الخدمات وعديلك في الحياة؟ بل هو أشد منك حياة وأكثر قوة، فسلطانه الشمس وسلطانك القمر، وسلاحه الضوء وسلاحك الظلام، وشعاره البياض وشعارك السواد؛ وهو مبصر وأنت أعمى، وطبيعته الحركة وطبيعتك السكون؛ وهو يدعو إلى النشاط والعمل وأنت تدعو إلى الخمول والكسل، ولكن شاء الله أن يمن على الذين استضعفوا في الأرض ويجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين، فجعل من قوة النهار ضعفاً ومن ضعفك قوة

انتهرت فرصة السكون الذي منحك الله فجعلت منه حركة دونها حركة النهار، فحركته حركة جسم وآلات، وحركتك حركة عواطف وانفعالات، وشتان ما بينهما! لقد أطاق الناس مصائبه ولم يطيقوا مصائبك، فقال الشاعر:

وحُمِّلْتُ زَفْرات الضحى فأطقتها ... ومالي بزفرات العشي يدان

واستعنت بسلطان الحب فجعلته من أعوانك، وأسرت العواطف فاتخذتها من خدامك، فلما اجتمع لك الحب والعواطف نازلت بها الزمان، وغلبت بها كل سلطان؛ فالوصل لا يلذ إلا في ظلك، والهجر لا يلدغ إلا في كنفك، والسرور لا يشع إلا في حضرتك، والألم لا يضني إلا في هدءتك

من تعب في النهار وجد فيك راحته، ومن أتعبته الحركة نعم فيك بسكونه، ولكن من تعب فيك لم يجد في النهار عوضاً عنك، ولم يرض به بديلا منك

جالت هذه المعاني في فكري، وامتلأت بعظم الليل نفسي، فمنّ عليّ بنومه لذيذة، هادئة عميقة، فقابل جميل ثنائي بجميل صنعه، وأدى فريضة شكري بجزيل فضله (سيدي بشير)

أحمد أمين

المحاكمات التاريخية الكبرى

الحركة النهلستية - 2

ومصرع القيصر اسكندر الثاني

صفحة رائعة من صحف الثورة على الطغيان

للأستاذ محمد عبد الله عنان

اعتزم القيصر شهود حفلة الاستعراض العسكرية في ميدان ميخابلوفسكي كما قدمنا، وقام البوليس باتخاذ الإجراءات المعتادة للمحافظة على سلامة القيصر فزار الشوارع التي يمر بها الركب الملكي؛ وكان ثمة في شارع (مالايا سادوفيا) حانوت لبان افتتح هنالك منذ ثلاثة أشهر يديره شخص يدعى كوبوزيف وزوجه؛ وكان البوليس يشتبه في أمر هذا الحانوت وأمر صاحبه، فزاره في عصر يوم السبت بحجة التفتيش الصحي فلم يجد فيه ما يريب؛ ولم يكن كوبوزيف في الواقع سوى عضو من أعضاء اللجنة التنفيذية

وضعته اللجنة هنالك ليكون عوناً لها على التنفيذ.
واعتزمت اللجنة الثورية من جانبها أن تنتهز هذه الفرصة لتنفيذ قرارها باغتيال القيصر فغادرت بيروفسكايا مسكنها وذهب أساييف إلى حانوت كوبوزيف ليضع لغما قوياً تحت شارع (ماليا سادوفيا) وأنفق كبالتشتش وهو عضو اللجنة المتخصص في صنع القنابل طول الليل في منزل فيرا فنجر مع جراتشفكي وبيروفسكايا، ولم يأت الصباح حتى تم صنع قنابل أربعاً حملها كبالتشتش وبيروفسكايا. وفي صباح يوم الأحد أول مارس وزعت صوفيا القنابل الأربع على أربعة منالشبان الفدائيين هم جرنفتسكي واملیانوف وميخالوف وريساكوف وعمره تسعة عشر عاماً فقط؛ وتفرق الأربعة في نقط أربع عينت في خريطة التنفيذ حول منعطف نفسكي والطرق المفضية إليه. . وفي الساعة الثانية بعد الظهر كان كل في مكانه المعين ينتظر إشارة صوفيا ووقفت صوفيا مدى حين ترقب ميدان الاستعراض عن بعد. ولكنها ما لبثت أن علمت أن الركب الملكي لن يمر بالشارع الذي وضع فيه اللغم، فسارت عندئذ صوب منعطف نفسكي في اتجاه جرنفتسكي وأخرجت منديلها، ففطن الفتيان إلى إشارتها وساروا تباعاً صوب قناة سانت كاترين لمقابلة الركب
الملكي، واستولى الفزع على أحدهم وهو ميخايلوف فانسل واختفى في آخر لحظة، وبقي الثلاثة الآخرون يرقبون الإنذار الأخير
وذهب القيصر إلى ميدان الاستعراض نحو الظهر. ولما انتهى الاستعراض ذهب إلى قصر ميخايلوفسكي القريب حيث تناول طعام الغداء مع الجراندوقة كاترين ميخايلوفنا؛ وفي الساعة الثانية وبضع دقائق انتظم الركب الملكي للعودة، وأمر القيصر سائق مركبته أن يعود إلى قصر الشتاء من نفس الطريق. وكان يحرس العربة الملكية ستة من الفرسان القوازق وتتبعها عربة أخرى يقف فيها مدير البوليس، ثم ثالثة بها ضابط الحاشية. وسار الركب مسرعاً في شارع انجنرنايا، مجتنباً بذلك شارع ماليا سادوفيا (الذي وضع به اللغم) ثم اتجه يميناً إلى جسر قناة القديسة كاترين؛ وكان المكان قفراً ليس فيه غير رجال الشرطة والمخبرين الذين ينتشرون على طول الطريق وسوى قليل من المارة.
بيد أن الركب ما كاد يقترب من جسر القناة حتى دوي انفجار هائل وانعقدت فوق الموكب سحابة من الدخان الكثيف، وكانت هذه قنبلة ريساكوف انفجرت وراء العربة فأتلفت مؤخرتها؛ وفي الحال أوقف السائق العربة ونزل القيصر منها سالماً وكان قد سقط على مقربة منها قوزاقي وثلاثة من الشرطة وغلام من المارة مصابين بجراح بالغة. وقاد رجال الشرطة صوب القيصر فتى عريض المحيا غائر العينين هو ريساكوف، فسأل القيصر: أهو الفاعل؟ وفي تلك اللحظة سأل أحد كبار الضباط: (هل جرح صاحب الجلالة؟) فأجاب القيصر: (شكراً لله فإني سليم معافى) وهنا قال ريساكوف: (لا تعجل بشكر الله) وسار القيصر ومن حوله الحاشية إلى مكان الانفجار ليرى الجرحى ولكنه ما كاد يسير بضع خطوات حتى دوى انفجار آخر وانكشف الغبار والدخان عن منظر مروع:
سقط القيصر صريعاً وقد كسر ساقاه، وبقر بطنه، واحترق وجهه، ومن حوله عدة من الجرحى. وفي الحال حمل القيصر مضرجاً بدمائه إلى قصر الشتاء، ولكنه زهق بعد ذلك بقليل دون أن يعود إلى رشاده أو يفوه ببنت شفة.
وعثر رجال البوليس بين الجرحى على الفتى الذي ألقى القنبلة الثانية، وكان في دور النزع وتوفي بعد ساعات قلائل دون أن يبوح باسمه للمحقق. ولكن البوليس وقف على اسمه بعد ذلك وقد كان أجناتوس جرنفتسكي الثوري البولوني واحد الفدائيين الأربعة. أما
الرابع وهو أمليانوف فقد اختلط بالناس واستطاع الفرار
واعترف ريساكوف بإلقاء القنبلة الأولى، وشرح للمحقق سيرته فذكر أنه طالب بمدرسة المناجم وعضو في حزب (إرادة الشعب)، وأنه يشتغل ببث الدعوة الثورية بين العمال وقدم بعض تفاصيل عن المؤامرة وتدبيرها ولكنه لم يُعرِّف عن أحد من زملائه. وفي ساعة متأخرة من الليل واجهه المحقق بجليابوف، فحياة جليابوف بحرارة؛ ولما علم بمقتل القيصر أبدى ابتهاجه، وقال إنه وإن لم يشترك بنفسه في تنفيذ الحادث بسبب اعتقاله فانه يشترك فيه بكل قلبه، وإنه اشترك في عدة محاولات

سابقة لاغتيال القيصر، ولم يمنعه من الاشتراك في قتله سوى مصادفة سخيفة، ولذلك فهو يطلب أن يحاكم مع ريساكوف وسوف يدلي للمحقق بكل ما يثبت مسئوليته.
ولم يمض يوم آخر حتى استطاع البوليس أن يظفر بآثار المرهبين. وفي مساء نفس اليوم هاجم مركزهم في شارع تالينايا فانتحر صاحب الدار وهو ثوري يدعى سابلين قبل دخول البوليس وقبض البوليس على صاحبته المدعوة جسيا هلفمان وضبط لديها بعض القنابل. وقبض في صباح اليوم التالي على ميخايلوف، ولاحظ البوليس في الوقت نفسه أن حانوت اللبان في شارع مالاياسادفيا قد أغلق واختفى صاحباه ففتش الحانوت مرة أخرى فاكتشف فيه سرداباً خفياً يصل حتى منتصف الشارع وقد وضع فيه لغم ثبت بسلك رفيع إلى آلة كهربائية؛ وفي يوم 10 مارس استطاع البوليس أن يقبض على صوفيا بيروفسكايا وكانت لا تزال مختفية في العاصمة ترقب الحوادث، فاعترفت في الحال باشتراكها في مقتل القيصر واشتراكها في حادث القطار الملكي.
وهكذا استطاعت الشرطة أن تضع يدها على جميع الجناة ولم يفلت من يدها سوى امليانوف الذي اختفى عقب الحادث ولم يعترف أحد عليه.

- 3 -

وفي نفس اليوم الذي قبض فيه على صوفيا بيروفسكايا أعني في يوم 10 مارس 1881 وجهت اللجنة التنفيذية لحزب إرادة الشعب إلى القيصر الجديد - اسكندر الثالث - كتاباً ضافياً تستهله بالاعتذار عن مخاطبته في تلك الآونة الدقيقة (إذ يوجد ما هو أسمى من أية عاطفة بشرية وهو الواجب نحو الوطن ثم تقول فيه:
(إن المأساة الدموية التي وقعت على جسر ترعة سانت كاترين لم تكن حادثاً غامضاً غير متوقع، بل كانت بعد كل ما حدث في الأعوام العشرة الأخيرة قضاء محتوماً، وهذا ما يجب أن يفهمه الرجل الذي ألقي إليه القدر مقاليد الحكم. ولقد نمت الحركة الثورية واشتد ساعدها بالرغم مما اتخذ من إجراءات القمع الذريع، وبالرغم من أن حكومة القيصر الراحل قد ضحت حريات كل الطبقات ومصالحها ولم تدخر وسعاً في إزهاق المجرم والبريء وفي تعمير السجون النائية بالمعتقلين. ولقد شنق عشرات ممن يسمونهم بالمحرضين فماتوا في هدوء الشهداء. ولم تقف الحركة الثورية بل استمرت قوتها في ازدياد. أجل يا مولاي إن الحركة الثورية لا تتوقف على إرادة الفرد، بل هي عملية تقوم بها الأداة القومية ولن تنجح المشانق التي تقام لصفوة قادة هذه الحركة في إنقاذ النظام السياسي المحكوم عليه، كما أن صلب المسيح لم ينجح في إنقاذ العالم القديم الفاسد من ظفر النصرانية المصلحة
(ونحن أول من يعرف كم يحزن ويؤسي أن تبدد هذه المواهب والعزائم كلها في أعمال التخريب، فهذه القوى يمكن في ظروف أخرى أن تستخدم في عمل الإنتاج: في تربية الشعب وفي تثقيفه، وفي زيادة رفاهته وتحسين نظمه؛ فلماذا إذن نلجأ إلى خوض هذا النضال الدموي؟
(لأنه لا توجد لدينا يا مولاي حكومة بمعنى الكلمة، وواجب الحكومة هو أن تعبر عن أماني الشعب وأن تمثل إرادته، ولكن الحكومة عندنا قد انحطت إلى عصابة قصر، وغدت أحق من اللجنة التنفيذية بأن توصف بعصابة من الغاصبين)
وتستعرض اللجنة بعد ذلك مثالب الحكم القيصري وإمعانه في استعباد الشعب وتسخيره، وما جلبته هذه السياسة على روسيا من الخراب والبؤس وما ترتب عليها من فقدان الحكومة لكل نفوذ معنوي. وهذا هو السبب في اضطرام الحركة الثورية، بل هذا هو السبب في ابتهاج الشعب لإزهاق القيصر ثم تقول:
(ولا مخرج لهذه الحالة سوى أمرين: فأما الثورة المحتومة التي لا يمكن أن يمنعها أي قمع، وإما التوجه إلى سلطة الأمة العليا. وإن اللجنة التنفيذية لتنصح إلي جلالتك باتباع الطريق الثاني، ففي ذلك خير أمتنا وبه تجتنب المصائب المروعة التي تحملها الثورات.
وثق بأنه متى عدلت السلطة العليا عن اتباع الهوى وقررت أن تستلهم في عملها برغبات الأمة ففي
وسعك أن تطرد الجواسيس الذين يلوثون الحكومة، وأن ترد حرسك إلى ثكناته، وأن تهد المشانق؛ وسوف توقف اللجنة التنفيذية نضالها وتنفض القوى التي حولها لكي تعني بالعمل الثقافي لخير الشعب. . . ونحن نؤمل ألا تطغى لديك عاطفة السخط الشخصي على الشعور بالواجب، والرغبة في تعرف الحقيقة، فنحن يحق لنا أن نشعر

بالسخط أيضاً؛ وإذا كنت قد فقدت أباك فقد فقدنا نحن أخوة ونساء وبنين وأصدقاء أعزاء؛ ولكننا على أهبة لأن نخمد مشاعرنا الشخصية إذا اقتضى ذلك خير روسيا، وننتظر منك أن تفعل مثلنا)

إن الشروط التي يجب تحقيقها لكي تترك الحركة الثورية المجال للعمل السلمي قد) عينها التاريخ لا نحن. وإنا لنذكرك بها فقط فهي:

أولاً - العفو العام عن الجرائم السياسية فهذه لم تكن جرائم، بل هي أعمال يمليها الواجب الوطني

ثانياً - استدعاء ممثلي الأمة الروسية لتعديل مناهج الحياة الاجتماعية والسياسية الحاضرة وصوغها وفقا لرغبات الشعب

ثم تشير اللجنة إلى الشروط التي يجب توافرها في الانتخاب الحر ووجوب إطلاق حرية الصحافة والرأي والاجتماع وتختتم خطابها إلى القيصر بما يأتي:

هذه هي الوسيلة الوحيدة لتوجيه روسيا إلى طريق التطور السلمي والنظامي، وإنا) لنعلن خاشعين أمام الوطن وأمام العالم أجمع أن حزبنا سيخضع من جانبه لقرار الجمعية الوطنية التي تنتخب طبقاً للشروط المذكورة، ولن يقوم بأي عمل عنيف لمعارضة الحكومة التي تستند إلى ثقة الجمعية الوطنية)

والآن فقرر لنفسك يا مولاي. أمامك طريقان ولك الخيار. وإنا لا يسعنا إلا أن نرجو) القدر أن يملي عليك عقلك وضميرك الحل الوحيد الذي يقتضيه خير روسيا وتقتضيه كرامتك الشخصية وواجباتك أمام الوطن - 10 مارس 1811)

(للبحث بقية - النقل ممنوع)

محمد عبد الله عنان

بمناسبة الذكرى

في حضرة سعد

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

لما قصدت القاهرة سنة (1343) لأقول (كلمتي في اللغة العربية) تقدم سعد (رضي الله عنه) إلى الأستاذ الكبير حافظ بك عوض بأن يلاقيني ويقول لي: (إن سعداً يحب أن يراني فهل أحب أن أراه؟!) فلما قيل لي ذلك قلت: يا شيخ، قل: يأمره، إنما هو الآمر المطاع. وهل أنا في هذا البلد إلا في حمى عمرو بن العاص وحماه؟ ثم يممنا في اليوم الثاني ذاك العرين: بيت الأمة، وعرجنا إلى عليّة فيه، وكان الزعيم يومئذ موعوكا

فإن تك قد نالتك أطراف وعكة ... فلا عجب أن يوعك الأسد الورد

وطلع علينا سعد ومشى إلينا فسارعنا إليه

فلم أر قبلي من مشي البحر نحوه ... ولا رجلا قامت تعانقه الأسد

ومكثت والأستاذ حافظ عوض في تلك الحضرة ذات الجلال وذات الهيبة حيناً، وكانت أحاديث جمة أروى منها حديثين: ذكر الزعيم سعد جمال الدين الأفغاني (رضي الله عنهما) وأياديه البيض في هذه اليقظة العربية الأدبية، وأفاض في هذا المعنى، فقلت: يا مولاي، إنه لم ينتبه من أمم الشرق في ذاك الوقت إلا أمتان لا ثالثة معهما: الأمة اليابانية وجمال الدين. فابتهج البطل الخالد بهذا القول في بطل مثله، وقال: حقاً إن جمال الدين أمة وحده. ثم قلت له قبل توديعه: يا مولاي، من دأب الطبيعة عند ارتقاء أمة أن تلخصها في رجل، ومصر لم تبرح تتقدم وتعلو حين طويل، وقد لخصها الله في سعد. فأجاب جواب الأبطال العظماء المتواضعين، وهل يكون العظيم إلا متواضعاً؟ وهل يستعير رداء الكبر يلبسه إلا الصغير؟ ثم قبلنا تلك اليد الطاهرة المباركة مودعين. ولما عدت إلى مصر سنة (1346)، وكان أمر الله وقضاؤه ذهبت إلى (القبر) وسلمت على صاحبه

طاف الكأس بساقي أمة ... من رحيق الوطنيات سقاها

عطلت آذانها من وتر ... ساحررنّ مليّا فشجاها

وقرأت فاتحة (الكتاب) لقائدين من قواد محمد: عمرو أبن العاص، وسعد زغلول

النشاشيبي

رابطة النقد بالأثر الأدبي

وأهداف النقد

للأستاذ خليل هنداوي

نص المحاضرة التي ألقيت في حمص بروضة البلدية في 17 يوليه على جمع غفير من هواة الأدب. وكانت حفلة زاهية دلت على إقبال شديد على حوض الأدب. وقد تخللها قصائد ومقطوعات لشعراء حمص الشباب جددت عهد ديك الجن الحمصي، وقد أطرب الزائرين عزف نادي (دوحة الميماس) ولا عجب في تعانق الأدب والفن في مثل هذه الحفلة، فإنهما عنصران يتمم أحدهما الآخر. وهكذا سادت الجو روح وثابة مفعمة بالخواطر الرفيعة والشعر الجميل. وفي هذا الجو العالي ألقيت هذه الكلمة. . . (خ. هـ)

كنت أود أن أزوركم خفيفاً لا مثقلاً، أمتع العين ببهجة مدينتكم ولا أجهد عقلي وعقولكم. كنت أود أن آتيكم زائراً لا محاضراً حتى أرى ألوانكم الطبيعية وتروا لوني الطبيعي. ولكن الأخ الأستاذ محمد روحي فيصل ألح علي في أن تكون الزيارة للمحاضرة، ولكنه روعني كثيراً وكاد يدخل الجزع في نفسي لأنه وصفكم لي وصفاً يبعث على الخوف. قال لي: إنك ستنزل في قوم يدرسون آثار الأديب ويحصون عليه خطراته، ويمنعون فيها تحليلاً وتعليلاً. بل سترى فئة عرفت آثارك وتعرف أفكارك ما تجانس منها وما تنافر. لأنهم قوم يقرءون ويدرسون ويحللون ويناقشون. فقلت له: ما دام الأمر هكذا فدعهم على الأقل يتناولوني وأنا بعيد عنهم، ويسلقوني بألسنتهم الحداد من حيث لا تشوى نارهم جسدي، ولا تبلغ مديتهم ودجيَّ. أتريد أن تسلمني إليهم يداً بيد؟ ولكن ما دواعي هذا الجزع؟ ولم أخشى الفئة المناقشة؟ ألسنا ندعو إلى أدب عميق يستمد من ثقافة عميقة؟ ألسنا نحرره من الدجالين ونغزوه غزواً مستمراً بالفكر حتى يغدو أدب الحياة وأدب الحقيقة؟ وكيف أخشى قوماً هذا عملهم؟ وإنما الأجدر بي أن أكون واحداً منهم فيما يعلمون. والأجدر بي أن أشكر هؤلاء القوم لأنهم مراقبون - لا بمعنى لجان المراقبات والحياد السياسي - ولكن بمعنى المراقبة الحقيقية التي تجعلنا نتحقق إذا كتبنا، ونتأنى إذا فكرنا، وإذا كان هدفنا من الأدب هذا الهدف فلمن ننشد هذا الأدب؟ الشباب لا يقرءون أم لشباب يقرءون، ولا يفكرون؟

يظن الصديق الكريم أنه روعني وفي الحقيقة شجعني. إذ الخير لي أن أعطي فكرة تُناقش وترد لي محطمة من أن أعطي فكرة تضيء بين عميان يقدسونها ولا يحسونها! هذه ظاهرة حسنة من ظواهر أدبنا تدل على الاتجاه الثقافي الذي اتجه إليه أدبنا في العهد الجديد. وقد كنا في عهد إذا وجد الأديب لم يوجد القارئ، وإذا وجد القارئ لم يوجد الأديب، وقد بدأنا بعهد يستطيع الاثنان فيه أن يوجدا!

ها قد جئت ولا أدري ما يكون نصيبي بعد ما سكن روعي. ولكني أرجو أن يكون حظي في هذه المدينة حظ ذلك المكان المسحور الذي شاع عنه أنه لا يبيت فيه بائت ليلة إلا لقي حتفه حتى جاءه رجل يريد الموت، وما أشد عجب الناس حين وجدوه حياً، لأنه بإرادته الموت عاش. وهكذا أرجو أن أفك هذه الطلاسم لأني أريد أن أراكم غير مطلسمين. وأريد أن تروني غير مطلسم!

وعلى ذكر النقد وشيوع النظرة النقدية عندكم آثرت أن تكون كلمتي - بينكم - حول النقد ورابطة النقد بالأثر الأدبي.

تدركون جيداً المرحلة التي فصلت بين انحطاط أدبنا الأخير وبين تباشير النهضة الأدبية الحديثة، وتدركون أن آفاقاً كثيرة تفتحت، وأن اضطرابات فكرية هزت عالمنا الجامد؛ وتدركون أن النقاد يرجعون هذه البوادر إلى مدرسة الأدب الغربي التي هي أعمق وأكثر ألواناً وصوراً وأكثر درساً للحياة واكتمالاً من الناحية الفنية. على أن للأدب الغربي - في أدبنا - جوانب أبرز من جوانب، والجانب الأكثر بروزاً في نظري هو جانب النقد الذي يسرني أنكم غلبتموه - فيكم - على كل شيء. فنظريات النقد التي شاعت في أدبنا يعود لها الفضل في هذا التقدم. والنقد كما يفهم الأدباء ظاهرة يخلفها الأثر الأدبي، إذ لا نقد إلا بعد الأدب. ولكني أريد أن أفهم اليوم هذه النظرية معكوسة عندنا لأنا بدأنا بالنقد قبل أن نبدأ بالأدب. ولأن الأدب الغربي الذي خلق لنا أجواء نقد، وأعطانا مقاييس نقد صحيحة، لم يفتح عندنا أجواء إنتاج بعد!

تقلبت مدارس النقد في الأدب الغربي كثيراً تقلب الأدب نفسه، والنقد فيه كان مصاحباً

للأدب. وليس للنقد حدود واضحة؛ ففيه نزوع إلى الجمال ونشدان الحقيقة وتسجيل التاريخ الأدبي. وقد قسم الكاتب الفرنسي (فان تيجام) ثقافة الأدب في كتابه (الأدب بالمقارنة) إلى ثلاث مراحل: الأولى المطالعة بلذة؛ والثانية المطالعة بنقد؛ والثالثة تاريخ الأدب. ولكن هذه النتيجة الملائمة للمنطق تأتي مشوشة، فهو لم يوضح عمل النقد، ولكن يبدو له أن عمل النقد شيء ذاتي ولا يمكنه أن يكون تاريخاً. أما تاريخ الأدب فهو يريد به دراسة قوية حقيقية للآثار الأدبية وما تحتويه وما تتجه إليه وما تكنّ من فن وثروة. على أن هذا هو ما ينشده النقد وينزع إليه ما استطاع

سأل الأستاذ (روزو) في مجلته (الآداب الحديثة) الأدباء: (إلى أين يذهب النقد؟) فأجاب الأستاذ (لانسون) محدداً علاقات النقد وتاريخ الأدب: (قد تمكن كتابة تاريخ الأدب بدون نقد، ولا تمكن كتابة النقد بدون تاريخ الأدب. فإذا أردت مثلاً أن تدرس المدرسة الشعرية الرمزية، فأنت مضطر إلى أن تصعد إلى أعلى وأن تسبق هذه الحركة وتطلع على ما هيأها)

ويقول (أدمون جالو): (إن النقد لا يستطيع أن يتفوق على تاريخ الأدب؛ ومن العسير أن نحكم على رجل حياته. وأظن أن القلق في أحكامنا التي نصدرها على معاصرينا إنما يأتي من هذه الناحية) على أن الناقد وإن لم يكتب التاريخ فهو يهيئ عناصره وموارده، وكثيرون من الناقدين يهيئون الأماكن المقبلة للآثار الحاضرة

وقد تطورت مهنة النقد في العصور كثيراً. فلقد كان في عصرنا قاضياً يميز الكتاب الجيد من الكتاب الرديء، والأثر الرائع من الأثر السخيف. ولكن في هذا الحكم ما فيه من الجور لأنه يضع الحكم على الآثار في أيد ليست منها على شيء! ثم أصبح الناقد معلماً يوضح الطريق اتباعها، ولكن هذه المهنة زالت أيضاً واصبح هم الناقد غير هم المعلم. وفي هذا المعنى يقول النقادة (سانت بوف): إن مهمتي كأستاذ أن أوقظ قبل كل شيء مسالك الذوق بواسطة التحليل والتحديث. أما الناقد فله واجبات أخرى الناقد يعطي أحكامه بسكون وبملازمة نفسه!)

وقد أعلن (لاسير) أن للنقد رسالة سامية لا تقف عند تحليل المؤلفين، وإنما همه أن يؤثر في الجماعات، ومثله الأعلى أن يعد شعباً حر النزعة، مفتوح آفاق العقل، صافي العاطفة،

لكي يأتي الشعراء والمبدعون من بعده ويجدوا من يفهمونهم ويمشون معهم ويسمعون إلى ألحانهم. ولعل هذه النظرية تلائم نظرية الشاعر (ستيفان مالارمي) في أن الشاعر يجب ألا يتلوه إلا شاعر، أو قارئ يستطيع أن يسمو معه في لحظة ما ويتحد معه اتحاداً شعرياً. وهذا أهم ما في رسالة النقد لأن عبقريات كثيرة - بغير النقد - تنطفئ لأنها لا ترى طريق اتصالها بالجماعات

ويرى (ماسبي) أن النقد يعمل كمعلم. . . (إننا نفتقر إلى معلمين ولا نطلب إلى النقد أن يعجبنا. . . لا شيء أصعب اليوم ولا أعسر من وضع نظام وترتيب في الآثار الأدبية والفنية. وإزاء هذه الميول والأهواء المتباينة يجب أن يكون الواجب الأول للأدب أن يرينا أين نحن؟ ومن نحن؟ وأن يفصل بين العبقريات. وبعبارة أجلى أن يكون حارساً أميناً)

ونحن مهما تجردنا من هذا النقد المعلم فمن المحال أن نتجرد منه تجرداً تاماً، لأن من طبيعة الحال أن يقبل الناس على الناقد ويروا فيه (المطلع الحاكم) الذي يصحح بجرأته بعض الأخطاء الكبيرة. ويمكن القول بأن تقدير الآثار على رغم بعض الخطأ في هذا التقدير قد يكون ضرورياً في مجتمعنا الحاضر. . . .

وبعض النقاد يعملون على أن يتجردوا ويتركوا الحكم للقارئ نفسه. وذلك بأن يفتحوا له طريقاً يسلكها ويكتشفها لنفسه. . . ولكن هؤلاء مهما تجردوا - يحملون شيئاً من أنفسهم دخل في بضاعتهم من حيث لا يشعرون.

أما مدارس النقد التي قامت وتقوضت ثم قام غيرها ويقوم غيرها فهي أكثر من أن تحصى، ولكل فوائدها واكتشافاتها. فقد نشأ النقد نشأة ضيقة منذ نشأ. كان يرى أن الشيء الجميل له قواعد معينة معروفة ولا يكون بدونها جميلاً. وهذا نقد مجرد ينصر الفكرة المجردة، ولكنه يهدم بنقد آخر لا يؤمن بالتجرد، بل يرى أن الجميل لا يكون مجرداً، وإنما هو كغيره له علاقات تربطه بغيره. وقد شاعت هذه النظرية كثيراً حتى نشأ عنها (النقد بالمقارنة والموازنة بين الأشكال الجميلة والآثار الأدبية في الشعوب

المختلفة ثقافتها) وهذا النقد قد وسع آفاق النقد إلى ما لا حد له. ويعجبني في هذا المعرض سلسلة المقالات التي تنشرها مجلة الرسالة الغراء (بين الأدبين العربي والإنجليزي) للأستاذ فخري أبو السعود. ولعلها تكون فاتحة سلاسل للمقارنة بين الأدب العربي والآداب الشرقية الأخرى التي أتصل بها
أدبنا وتأثرت به وتأثر بها كالأدب الفارسي مثلاً الذي لا تزال علاقاته مع أدبنا تكاد تكون مجهولة.

أجل! قد ولى عهد كان يرى أن الإنسان مملكة إلى قلب مملكة، وجاء عهد يرى أصحابه أن الإنسان شيء من أشياء هذه المملكة، يؤثر فيها ويتأثر بها بمقدار. . . وقد أوحت هذه النظرية للنقادة الفرنسي (تين) نظرية تحليل الأثر الأدبي بعوامل الجنس والبيئة والزمن. . . . ونظرية التطور أوحت (لبرونتيير) أن يعتبر الأنواع الأدبية ككائنات حية تتطور ويولد بعضها من بعض. وقد شاعت نظرية جديدة تقول إن الأثر الأدبي لا تكمل صفاته إلا بدرس صاحبه. لأن المؤلف إنما يصف نفسه ويمنح أشخاصه كثيراً من شخصيته. على أن الأثر الأدبي يخضع من وجوه كثيرة بالمؤلف إذا كان المؤلف نفسه ليس بسيد أثره الذي أعطاه، ولا بسيد عمله الذي يريد أن يظهره؟ بل نذهب إلى أبعد من هذا الحد ونقول: إن المؤلف هو الذي يطابق أثره ويمشي عليه، وليس الأثر هو الذي يطابقه. ومهما كان هذا النقد موضوعياً علمياً فمن الواجب أن يتبعه نقد ذاتي يبث الناقد فيه آراءه الذاتية الشخصية. ومن هذه الناحية تولد النقد (المنفعل أو المتأثر) الذي يرى أن الناقد الحقيقي عليها. ومهما أشرق على طبائع مختلفة ونماذج متباينة فهو يرعى شخصية وحدود اتصال الحادث بنفسه. ولكن هذه الذاتية إذا تطرفت كثيراً أخرجت النقد عن كونه علماً! ويطلب في الناقد الحقيقي أن يكون ذا موهبة تحليلية نفسية، وأن يكون قادراً على الخروج من حدود الذات ليمكنه تذوق الفكرة الغريبة مع صيانته لشخصيته. ونقد آخر يعمل على ترتيب درجات الآثار الأدبية، وآلة ذلك - كما يقول سانت بوف - الذوق، لأن الذوق يعبر عن كل دقيق وعن كل خفي يتمشى في أنفسنا!

ونشأ في إبان النهضة العلمية النقد الفلسفي، ويقول أصحابه: إن إلحاق النقد الأدبي بالعلم لا معنى له، إذ لا يوجد علم يختص بشخص دون شخص، والنقد الأدبي لا يعرف إلا الأفراد في الرجال والآثار. ويقول هؤلاء: إننا لا نضم العلم إلى النقد، ولكن نضم الفلسفة إليه. والنقد الحديث قد دخله شيء من مدرسة أفلاطون وشوبنهاور وبرغسون. نعم إن الغاية من الأدب والنقد إنشاء اللذة النفسية، ولكنا نريد أن نعرف تحليل هذه اللذة التي يغمرنا بها الشعراء والكتاب. وبذلك نزيدها أضعافاً مضاعفة. وهل كانت المجادلة على الشعر الصافي
إلا قبساً من فلسفة ما وراء الطبيعة. ونقد (تييودي) الذي أوجد الاتصال بين الرمزية وفلسفة برغسون هو نقد مشبع بالروح الفلسفية المرتكزة على فلسفة الفنون والآداب. وهنالك النقد الاجتماعي والأخلاقي الذي يقيد الأدب والفن ويرى صلاحهما بمقدار معالجتهما للمسائل الاجتماعية والأخلاقية، ولا ينصرها إلا بمقدار ما ينصران الأخلاق. وهكذا نجد في النهاية ألواناً كثيرة للنقد نشأت لتحليل ألوان الأدب وكل غايتها أن تفتح للأدب آفاق التجديد والإبداع.

لقد دخلت هذه المدارس النقدية أدبنا وعملت فيه - على غير نظام - وأثرت فيه تأثيراً مباشراً. وليس طه حسين والعقاد وأحمد أمين إلا وليدي هذه المدارس على اختلاف الاقتباس وتباين الطرائق! على أنكم إذا شئتم أن تقارنوا من أنتجهم أدبنا الحديث - بين الناقدين والمبدعين - فسدت المقارنة وشالت كفة المبدعين، لأننا لا نجدهم كما نجد الناقدين. وهذا الأمر يجعلني أعتقد بالنظرية التي أعلنتها (إنا بدأنا بالنقد قبل أن نبدأ بالأدب) فنقادنا الذين تثقفوا بالأدب الغربي قد فتحوا فتحاً جليلاً في أدبنا القديم. ولكنه فتح لم يعد بكل الفائدة على توجيه أدبنا الحديث. فأدبنا الحديث لا يزال جامداً مقلداً لا تتلمس في أقلام أدبائه المبادئ الفنية التي يجب أن تكون فيهم؛ وبهذا أفاد الأدب العربي الناقدين ولم يفد الأدباء المجددين.

قد يقول حاملو لواء التجدد: إننا نريد التجديد والتطور، ولكن القدماء يمنعون علينا هذا التطور ويجدوننا في أدبهم هدامين. ولأصحاب المذهب القديم أن يقولوا ذلك لأنهم يرون في أساليب المجددين التواء وتنكباً عن الأساليب العربية؛ ثم لا يجدون في

أساليبهم ذلك العسل المصفى الذي يبشرون به. وما ذلك إلا لأن جل المجددين أنفسهم يمشون ولا يدركون أين يمشون! ويأخذون من كل ثقافة برقعة فيأتي ثوبهم مؤلفاً من رقع! فهل درسوا نظرية كل مدرسة في الفن والحياة؟ فليس الأدب الغربي كله من هذه البضاعة التي ألف أن يحملها إلينا من حين إلى حين أناس لم يستقيموا لأدبهم ولم يستقم الأدب العربي لهم. وإنا إذا دعونا إلى التجديد وإلى تدبر الأدب الحديث فلا ندعو إلى تعطيل الأسلوب العربي والبيان العربي، لأننا نعلم أن لكل لغة من بيانها صبغة إذا زالت زال منها كل لون من ألوان عبقريتها. ولكنا لا نجد حرجاً في خلق المدارس الجديدة ليغذي أنصار كل مدرسة مدرستهم بخير ما يغذى. وفي الأقطار العربية فئات لا ينقصها من الثقافة شيء. ولا يضير العربية تعدد هذه المدارس لأنها باعث من بواعث النشاط والتحفز.

نحن في عهد قد اتسعت فيه مناحي ثقافتنا وأصبح لا يشبعنا ما كان يشبع من قبلنا، وأصبحنا نطلب من الأدب أن يكون شيئاً غير التنميق والزخرفة والشعوذة. والأدباء والشعراء الذين كنا نطرب لهم بالأمس لم يعودوا يملئون نفوسنا، وإنا إذا طربنا اليوم ببعض آثارهم فلأن هذه الآثار تخاطب فينا جزءاً عتيقاً من أنفسنا لا يزال يمد رأسه من حين إلى حين، كالمقطوعة الشعرية مثلاً نسمعها في مناسبة ما من فم قائلها فتطربنا، ولكن إذا عدنا إلى (جوها) لم نجد شيئاً، وإذا تلوناها تلوناً فيها شيئاً كثيراً إلا الشعر. وشعراؤنا على اختلافهم ينظمون كثيراً ولا نعرف لشاعر منهم لوناً خاصاً يتميز به إذا ميزت الألوان؛ لأن جلهم لا يزال يرعى عهد القدماء (القائل) أحفظ أشعار الأوائل وانهج على منوالهم تصر شاعراً. . ولم يعلم هؤلاء أن العصر قد تبدل وتبدلت بتبدله مطالبه، وأن الشعر أصبح ذا رسالة تفتقر إلى ثقافة عميقة وذوق مهذب فني. فهل هب من شعرائنا من يدرس النظريات الفنية؟ وهل في تحليل النظريات والاستفادة منها ما يضر مواهبهم؟ وهل يعارض أصحاب القديم في إدخالها وهي لا تهدد البيان ولا تحرف اللسان؟

كان الشاعر - مثلاً - يكفيه أن يجمع بين أية فكرة وأية لفظة لا يبالي الملائمة ولا يبالي أصل هذه الفكرة! أما الآن فهو مضطر إلى أن يفرق بين الخطرة الفكرية والخطرة الشعرية، وأن يعي علاقات الألفاظ بالمعاني وينسق ألحانها دون أن يخونه شيء. وهذا يدعوهم إلى أن يمارسوا النظريات الجديدة في الفن وعلم النفس. وهذه النظريات هي وقف على العقل الإنساني الشامل لا تختص بأدب ولا تنتسب إلى قبيل، وإن من واجب المدارس الأدبية إزاء هذه التطورات ألا تقف عند نظريات معينة في النقد لتجعل من طلابها نقاداً ومؤرخين، وإنما هنالك النظريات الفنية التي تزيد في إطلاع الطالب على أعماق النفس البشرية وتجعله أكثر ارتباطا بالحياة وتفهماً لها. وبهذا تعمل على تطور الأدب - لا تاريخ الأدب - تطوراً مخصباً يعود على كل حقول الأدب بالإنتاج والابتكار. قلت: إن النقد تقدم في أدبنا، وليس معنى ذلك أنه بلغ الذروة التي يريد بلوغها. فللنقد عند الناقدين مذاهب كما للأدباء؛ وكل مذهب يفهم النقد كما يريد، بينما يقف نقدنا عند مرحلتين: (1) نقد الآثار القديمة وتنظيمها وإنشاء دراسات مخصبة عليها. وقد خطا النقد العربي في هذه المرحلة خطوة واسعة موفقة (2) نقد الآثار الحديثة وأكثره عمل تهديمي صرف، أو إضرام بخور المجاملة للأصنام الأدبية، دون أن يجرب أن يكون نقداً عميقاً يلتفت إلى البناء. وإذا كانت فائدة النقد الأول إحياء مآثر الماضين ففائدة النقد الثاني أجل وأعلى لأنه يحيى الأحياء ويفتح لهم طريق الإبداع. ومن هذا ترى سر تهافت طلابنا على الدراسات القديمة وتجمد روح الإنتاج والإبداع فيهم.

تلوت قراراً جديداً أصدرته الجمهورية الألمانية هذا العام تمنع فيه الأدباء الأحداث أن يجروا أقلامهم في ميدان النقد، لأن النقد عمل ثقافي يحتاج إلى مراس وإطلاع واختبار. وهي تزعم أنها تريد من وراء هذا أن تحمى آثار العباقرة من التهجم، ولكني أريد أن يبقي النقد وأن يتناوله الشباب. وإذا أريد حماية الأدب فلا نستطيع أن نحميه بمثل هذا القرار لأن النقد غريزة في النفس، بل ربما كان النقد وحده عبقرية. وقديماً قالوا إن النقد يرافق الأثر الأدبي ولا يخلقه. ولكني أرى أن النقد في كثير من المواطن لم يكن مرافقاً وإنما كان خلقاً. أجل! إن العبقرية تكاد تكون - كما يجمع علماء النفس - شذوذاً في الناس كالمعجزة، ولكن هذه المعجزة مرتبطة - من نواح كثيرة - بما

حولها، ولولا ما حولها لفسدت. وهكذا ساعد النقد عبقريات كثيرة على الظهور لأنه عبر عنها وفسر ما يكنفها من إبهام. ولذلك لا حاجة إلى خنق النقد حماية الأثر الأدبي، لأن الأثر الأدبي والنقد لا يحتاجان إلى وسيط بينهما للتفاهم، ولا إلى قانون يحمي أحدهما من الآخر. فليوجد الأثر الأدبي من شاء، ولينقده من شاء. . . .

تقولون لي: وكأنا بك لم تكفك مقاييسنا الجديدة في النقد فما هي مقاييسك؟

إنني لا أميل إلى مقاييس تقريبية محددة مقيدة. ومن ذا يستطيع أن ينشئ للحياة وأذواقها المتباينة مقاييس. .؟ وأية عين ترى مثل ما ترى الأخرى؟ ولقد نتغذى بثقافة واحدة في بيئة واحدة، وتتجه وجوهنا شطر آفاق واحدة، ولكنا لا نتفق في النهاية على تفهم ما نراه. ولكنا رأينا الحياة جميعاً، وفهمنا منها كل بحسب مزاجه، ولكن هذا لا يمنع أن يكون للنقد مناح نوجهه إليها.

فالواجب الأول - عندي - للنقد أن يكون في القارئ شخصية مستقلة في النقد، تترك صاحبها لا يقبل الشيء نقلاً، وإنما يقبله إذا قبله عقلياً. . . . استقلال الشخصية أول ما يجب أن يلهم النقد. فبقدر ما يؤلمني فقدان الاستقلال الشخصي في الأمم، كذلك يؤلمني فقدانه في الأفراد. وكما يقبل عليك الأديب بشخصيته، أقبل أنت عليه بشخصيتك

والواجب الثاني للنقد - وهو واجب ما أحوج نقدنا إليه! هو توجيه العقول إلى التوليد. وذلك بإنماء الذوق الفني في النفس حتى تتلمس مواقع الجمال، وخلق الأجواء الخاصة له. فالشعر إذا لم يكن محدوداً فذلك لأن المحدود نفسه يتحدد فيه ويفقد روحه المنطقية، ومن كان يتنبأ بأن الشعر يخضع لظروف جديدة؟ أليس علم النفس أثر فيه كما أثر في نواح مختلفة من الأدب؟ ألم يبدل فيه وجهات كثيرة وخلق منه اتجاهات كثيرة؟ وبينما كان الشعر لغة لا تصف من النفس إلا حالات العاطفة الهائجة، ومن البحر إلا أمواجه المصطفقة أصبح يهوي إلى الأعماق التي تثير هذه العواطف المتماوجة في سكون النفس! إذ ليس من الضرورة أن تصف أوعى ما في نفسك وأقربه للاهتزاز والارتجاج. ويكفي من القصيدة أنها تضرب على وتر في أعماقك تسمع رنينه ولا تسمعه! على أني لست متشائماً من تأخر الإنتاج، لأننا نؤثر أن نتكلم بالنقد على أن نتكلم بأدب غير ناضج، ولا نريد أن يذهب تأثير الأدب الغربي إلى أبعد من جو النقد. نريده موقظاً فقط لا موحياً إلينا، وفاتحاً عن أفق لا أن يكون هو الأفق!

والواجب الثالث أن يساعد النقد - كما يقول (لاسير) على أن يعد شعباً مفتوح آفاق التفكير صافي الذوق لكي يأتي المبدعون ويجدون من يفهمهم ويمشون معهم. . . .

خذوا النقد وسيلة لا غاية. وسيلة لفتح آفاق الإنتاج القوي. ولا تجعلوا غاية سيركم بل اجعلوه طريقاً إلى غايتكم. وليكن لون إنتاجكم لون نفوسكم ولون هذه الطبيعة. ولا ترتدوا ثياب غيركم لأنكم لن تحسنوا تقليد غيركم، ثم لن تجدوا بعدها لونكم الخاص. ولا تمشوا وراء خطوات غيركم مقلدين. . . إنني رحبت بالروح النقدية عندكم على أن تكون مقدمة للإبداع المنشود!

فليكن لناقدكم ضمير يوحي إليه أن يعترف بالجمال حيثما رآه!

وليكن نقدكم نقطة يتعانق فيها العدل والحق والجمال.

وليفتح لكم النقد طريقاً إلى التوليد.

وليفتح الناقدون الطريق للروح المولدة.

وإذا لم نكن عباقرة فلنمهد - على الأقل - الطريق للعباقرة.

ولعل الذي وصفكم لي بأنكم ذوو عقول ناقدة مناقشة هو الذي يصفكم لي في المستقبل بأنكم ذوو عقول مبدعة مولدة

(حمص)

خليل هنداوي

للأدب والتاريخ

مصطفى صداق الرافعي

1880 - 1937

للأستاذ محمد سعيد العريان

لا يؤاخذني القارئ بما أخذت به نفسي من الترتيب في هذه المقالات؛ فقد يبدو لكثير)

من القراء أنني أسير على غير منهاج واضح حين أجمع بين الحديث عن الرافعي الشاعر، والرافعي الأديب، والرافعي في أهله، أو حين أثب من موضوع إلى موضوع لا يمت إلى سابقه ولا يصله به سبب.

وعذري الذي أقدمه إلى القراء من هذا الخلط هو أنني أسير في تاريخ الرافعي على (الترتيب الزمني لا ألقي بالا إلى غيره؛ فأيما حادثة اعترضت حديثاً وجرت في زمانه تناولتها، حتى لا يفوتني شيء مما أريد إثباته، فأسير مع الحادثة من حيث تبدأ في زمانها وانتهى بها حيث تنتهي من تاريخه، ثم أعود إلى ما كنت فيه على حساب السنين؛ فهذا من هذا؛ وللباحث من بعد أن يجمع عناصر موضوعه على ما يشتهي ويتناولها من حيث يريد

شعراء العصر في سنة 1905

قدّمت الحديث في الجزء الرابع من هذه المقالات عن شيوخ الرافعي في الشعر الذين أخذ أو أقتفي آثارهم، أو جرى معهم على سنن. وأثبتُّ ما كان بينه وبين حافظ من المنافسة، وما كان يتمتع به حافظ يومئذ من الشهرة والجاه والحظوة عند الشعب، تلك الشهرة التي ألهبت غيرة الرافعي وحفزته إلى الكفاح وحمّسته إلى استكمال أسباب الغلبة بعقد الأواصر وإنشاء المودّات والدعاية لنفسه. ثم بينتُ ما كان بين الرافعي والكاظمي من صلة الحب والتقدير؛ وتساءلت في آخرة القول: هل من صلة بين الرافعي وبين غير هؤلاء الثلاثة من شعراء الجيل؟ هل كان لغير البارودي وحافظ والكاظمي من شعراء العصر أثر في شعر الرفعي؟ وما مبلغ هذا الأثر؟ وما نتيجته؟

على أن الباحث المحقق لا يقنعه هذا التساؤل، وليس يكفيه من وسائل البحث أن يعلم من

شعراء العصر هؤلاء الثلاثة فحسب؛ ولقد نشأ الرافعي الشاعر في أول هذا القرن، وأوّلُه حافل بثُلّة من الشعراء لم يجمتع مثلهم في زمان في بلد؛ فما مبلغ تأثر الرافعي بكل أولئك الشعراء المعاصرين؟

هنا أدع للرافعي نفسه أن يتحدث، وما حديثه هذا إلا طرف من الدعاية التي كان يقوم بها لنفسه في أول عهده بالشعر ليبلغ المنزل الذي يطمح إليه. وإنه ليكشف عن شيء من خلق الرافعي وكبريائه واعتداده بنفسه، ويدل على قوة الرافعي وعنفوانه وشدته في النقد، إذ كان هذا الحديث أول ما كتب الرافعي في النقد.

إن أدباء العربية عامة لا يعرفون من الخصومات الأدبية أشهر شهرةً من الخصومة بين الرافعي وأدباء عصره؛ فالخصومة بين الرافعي وطه، وبين الرافعي والعقاد، وبين الرافعي وعبد الله عفيفي، وبينه وبين غير هؤلاء - هي خصومة مشهورة مذكورة في موضعها من تاريخ الأدب العربي في هذا الجيل، مشهورة مذكورة في موضعها من تاريخ النقد في العربية.

وإن قراء العربية عامة ليعرفون الرافعي الناقد معرفة بصيرة، ويعرفون شدته وعنفوانه في النقد، شدةً حبّبْته إلى الكثير، وألّبتْ عليه الكثير. على أن من يريد أن يعرف أول شأن الرافعي في النقد فليقرأ مقال الرافعي عن شعراء العصر في سنة 1905

نشر الرافعي مقاله ذاك في عدد يناير سنة 1905 من مجلة الثريا بتوقيع (*) وأحسبه أخفى أسمه وراء هذا الرمز حذر التهمة، وليبلغ به مبلغه في الدعاية لنفسه، فقد جعل نفسه في الشعراء رابع الطبقة الأولى من طبقات ثلاث تنتظم كل من يعرف الرافعي من شعراء عصره. جعل الطبقة الأولى منهم على الترتيب:

الكاظمي، والبارودي، وحافظ، والرافعي. . . .

وفي الطبقة الثانية على الترتيب:

صبري، وشوقي، ومطران، وداود عمون، والبكري، ونقولا رزق الله، وأمين الحداد، ومحمود واصف، وشكيب أرسلان، ومحمد هلال إبراهيم، ثم. . . . حفني ناصف!

وفي الطبقة الثالثة:

الكاشف، والمنفلوطي، ومحرم، وإمام العبد، والعزبي، ونسيم. ثم ألحق بهؤلاء أثنين يعرفهما من شعراء العراق، هما: السيد إبراهيم، ومحمد النجفي

وقد أفتتح الرافعي مقاله بما يأتي:

قرأت في بعض أعداد (الثريا) كلمة عن (الأدب قديماً وحديثاً) فقلت: كلمة مألوفة.)
ولم ألبث أن رأيت جملة أخرى لأديب غيور على الشعراء، كان رأس الشعر بين أولها
وآخرها كأنما خدش بين حجرين؛ فقلت: إني أنظم الشعر فأسرّ، وأقرأ عنه فأسرّ،
فمالي لا أنفثها والقوم قد أصبحوا يتنافسون في أسماء الشعراء كما يتنافسون في
ألقاب الأمراء؛ وقد استويا في الزور، فلا أكثر أولئك شاعر، ولا أكثر هؤلاء أمير
ثم رأيت بعد أن عزم الله لي كتابة هذا المقال أن أتركه بغير توقيع، وإن كنت أعلم)
أن أكثر من يقرءونه كذلك سيخرجون من خاتمته كما لو كانوا أميين لم يقرءوا فاتحته،
فإن الحكمة كلها والمعرفة بجميع طبقاتها أصبحت في أحرف الأسماء. فإن قيل: كتاب
لفلان. . . قلنا: أين يباع، وإن كان من سقط المتاع. على أن اسمي قد لا يكون في
غير بطاقتي وكتبي إلى أصحابي القليلين، وفي سجلّ بعض الجرائد والمجلات،
فليظنني القارئ ما ضرب على رأسه الظن
وسأذكر في هذه الأسطر كل ما عرفته أو أتصل بي أسمه من الشعراء، وأقطع عليه)
رأيي، فإما وسعه فكمل به، وإما أظهره كما هو في نفسه، لا كما هو عند نسفه؛ ولذلك
(فقد ضممتهم إلى ثلاث طبقات، وجاريت في تسمية بعضهم بالشعراء عادتنا المألوفة
ثم كتب رأيه بعد ذلك في كل شاعر ممن ذكرت مقتبساً من شعره مستشهداً به على
ترتيبه في موضعه من طبقته
وكان ما قاله عن صديقه ومزاحمه حافظ:
وأكثر شعره في هذه الأيام (سنة 1905) أضعف من قبل. . . . والذين لم تستقم . . .)
ألسنتهم ولم تزل أفكارهم على سقم يقولون: إن شعر حافظ اليوم خير منه في
ديوانه الأول؛ وذلك لأنهم لا يدركون موقع الخيال الشريف، ولا يهتزون للمعنى البكر إلا
في اللفظ الثيب، وهؤلاء يفضلون (شوقي) عليه، وهيهات بعد أن استنوق
الجمل. . . .!)
وكتب عن نفسه:
لو كان هذا الشاعر (يعني نفسه) كما أسمع عنه، فإني أكون قد ظلمته إذ لم أقدمه)
عن هذا
الموضع (الرابع من الطبقة الأولى)؛ فقد أخبرت أنه لم يتم الرابعة والعشرين من
عمره، ولذلك فإني لا أكتب عنه إلا ما أعرف من شعره، سواء كان فتى أوكهلاً؛ وهو قد
طبع من ديوانه الجزء الأول من سنة مضت، وذكر في مقدمة شرحه أنه نظمه في
عامين، وأنه لم يقل الشعر إلا منذ ثلاث سنوات من طبع ذلك الجزء؛ ولم ألبث أن
رأيت منذ أشهر في بعض أعداد مجلة (الجامعة) تقريظاً مسهباً جداً للجزء الثاني من
ديوان هذا الشاعر؛ فأكبرت ذلك، ولا شك أنه ينظم اليوم في الجزء الثالث قياساً على
ما تقدم. . .
ومما أمتاز به هذا الشاعر ولعه الشديد بالغزل، وبلوغه فيه أسمى ما يبلغه النظم؛ وله)
مزية أخرى، وهي غوصه على المعاني في الأغراض التي لم تطرق، وكثيرون يعدونه
بذلك شاعر مصر، وديوانه معروف، وشعره مشهور. . . . الخ)
وقال عن شوقي:
سيأخذ بعض القراء العجبُ إذا رأى شوقي بك ثاني الطبقة الثانية وهو هو (شوقي بك)
شاعر الحضرة الفخيمة الخديوية)، ولكنا نعجب أكثر منه إذ رأينا الشوقيات قد انقلبت
إلى شوكيات؛ فأي ذووق سليم يطمئن لهذه المعاني المكررة وتلك الألفاظ النافرة من
مثل: (قضي أرْيحيُّ القوم) وغيرها. ولا أدري لهذا الانقلاب سبباً إلا إذا صح ما يقال من
أن (صبري وسلمان) كانا يهذبان شعر الرجل من قبل، وهو قول لا أجزم به ولا أرفضه.
. .
وإنما أشتهر قديما يوم كان الكاظمي في العراق، والبارودي في سيلان، . . . . .)
وصبري من مهذبي شعره على ما يقال، وحافظ في السودان، والرافعي لم يقل
الشعر بعد - على ما قيل لي! - وأثبت له الشهرة إضافته إلى الحضرة الخديوية على
نحو ما يذكر النحاة في باب (الجر) بالمجاورة. . . .)
وختم المقال بقوله:
وسنرى ما يكون من امتعاض الشعراء بعد هذا المقال، ولكني أطلب إليهم أن . . .)
يخفضوا عن أنفسهم؛ فلا أنا من معية الأمير، ولا من حاشية السفير، وليس ما كتبت إلا

(رأيي، فليبق كلٌّ في رأيه وعند نفسه أشعر الشعراء
وذيّلتْه مجلة (الثريا) بما يأتي:
ألقى إلينا مكتب بريد الزيتون يوماً ملفاً ضخماً وارداً من مصر، وداخله كتاب موجز) ومعه
المقالة المتقدمة للنشر. أما الكتاب فهذه صورته بعد الديباجة:
دونك مقالةً بكرا لم يُنسج على منوالها بعدُ في العربية، حَرِيّة بأن تصدّر بها . . .)
مجلتك الغراء؛ ولا يروعنّك شدة لهجتها فكلها حقائق ثابتة، وإن آلمت البعض فان الحق أكبر من الجميع؛ وإني لبالمرصاد لكل من ينبري للرد عليها، وأنا كفء للجميع؛ وما أخال أحداً يستطيع أن ينقض حرفاً مما كتبته، وإن هم لزموا الصمت فحسبك من سكوتهم إذ ذاك إقراراً بأني أنزلت كل شاعر في المنزلة التي يستحقها.
ولا يعنيك معرفة أسمى، فأنا أبن جَلا وطَلاَّع الثنايا؛ فانظر إلى ما قيل وليس لمن) قال، وبعد هذا فإن أعجبتك مقالتي فانشرها وإلا فاضرب بها عرض الحائط.
وإني أقترح عليك أن تنشر جميع ما يردك من الردود في المعني، سواء جاهر أصحابها) بأسمائهم أو تستروا، فإن الموضوع طليّ شهيّ، وفي إطلاقك الحرية للكتّاب ما ينشط بهم لحرية الجولان في هذا المضمار)
قالت الثريا: (وقد تصفحنا المقالة فراعنا شدة لهجة الكاتب وبتنا نقدم رجلاً ونؤخر أخرى في نشرها، إلى أن تغلب علينا الميل لنشرها، إن لم يكن لشيء فلكثرة ما حوته من رائق الأشعار لفحول الشعراء، وهم نخبة شعراء مصر في هذا العصر؛ فأقدمنا على نشرها كما وردتنا بالحرف الواحد، غير متحملين تبعتها؛ وللكتاب الأدباء الحرية في الرد عليها، وأبواب الثريا ترحب بكل ما يردها من هذا القبيل، سواء من المشتركين أو غيرهم
ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه ... يُهدّم، ومن لا يَظلم الناسَ يُظلَم
أحسب أن لهذا المقال أهمية كبيرة لمن يريد أن يدرس الرافعي دراسة أوسعَ قائمةً على قواعد من العلم والتحليل النفسي؛ وإنما يستأهل هذا الاهتمام من ثلاث نواح:
أولاً: إنه أول ما أنشأ الرافعي في النقد؛ فهو كالمقدمة لهذه المعارك الطاحنة التي قامت بين الرفعي ولفيف من أدباء عصره بعد ذلك بعشرين سنة؛ فلا بد لمن يريد أن يتحدث عن الرافعي في النقد أن يبدأ من هنا
ثانياً: إنه ثَبْتٌ جامع لأسماء الشعراء الذين نشأوا مع الرافعي في جيل واحد، وقرأ لهم ونظر في شعرهم نظر الناقد أو نظر المعجب المحتذى؛ فلا بد لمن يريد أن يتحدث عن الرافعي في الشعر، وعن الشعراء الذين تأثر بهم أو تأثروا به، أن يعرف هؤلاء الشعراء.
ثالثاً: إن في هذا المقال لوناً من ألوان الدعاية التي كان يقوم بها الرافعي لنفسه ليبلغ إلى الهدف الذي كان يرمي إليه بين أدباء العصر، فلا بد لمن يريد أن يدرس وسائل الرافعي إلى الشهرة وذيوع الصيت أن يقرأ هذا المقال.
وبعد فإن فيه شيئاً من أخلاق الرافعي المزهوّ بنفسه، المعتدّ بعلمه، القوّي بإيمانه، المتقحِّم على مواطن الهلاك؛ الرافعي القزم الضعيف الذي وقف على السفح تعتمد خاصرته على راحته وهو ينظر إلى فوق ليقول للشعراء العمالقة على القمة: انزلوا إليّ أو أصعد إليكم فأرميكم إلى بطن الوادي أشلاء ممزقة ليس فيها عضو إلى عضو ولا يسمع لكم صريخ. . . .!
الرافعي. . .؟ لقد كان الرافعي طويل اللسان من أول يوم. . .!؟
(سيدي بشر)
محمد سعيد العريان
من تاريخ الأدب المصري
شعر القاضي الفاضل
للأديب محمد سعيد السحراوي
وقفت على نسخة مخطوطة من ديوان القاضي الفاضل في دار الكتب المصرية فأحببت أن أعرض طرفا منه خدمة للأدب
(م. س)
سيرة القاضي الفاضل

ولد بمدينة عسقلان عام 529 للهجرة؛ فهو ليس مصري الأصل وإن كان مصري الدار. تولى أبوه القضاء في نيسان وهو طفل، وثقفه تثقيفاً دينياً بحتاً حتى كبر، فقدم إلى القاهرة في عهد الحافظ لدين الله، وخدم فيها الموفق بن يوسف ابن جلال مدير ديوان الإنشاء إذ ذاك فتعلم فنون صناعته، وحذا حذوه في كتابته، ثم انتقل إلى الإسكندرية يخدم بعض حكامها حتى عرف بينهم بالذكاء، وبنبوغه في صناعة الإنشاء، فلما سمع به العاضد استدعاه إلى القاهرة وعينه كاتباً، وفي عام 566 للهجرة توفي الموفق بن يوسف بن جلال فجعل العاضد القاضي الفاضل مكانه - وظل يكرمه كل وال ويرقيه، حتى ولي الملك صلاح الدين فجعله كاتبه وقاضيه، ووزيره ومشيره؛ وظلت هذه حاله إلى أن توفي في 17 ربيع الآخر عام 596 للهجرة أي في الليلة التي هزم فيها الأفضل ودخل العادل القاهرة

نسبه وصفاته

وهو الوزير مجير الدين أبو علي عبد الرحيم بن القاضي الإشراف بهاء المجد علي بن القاضي السعيد أبي محمد ويعرف بالبيساني. وقد ذكر عنه المؤرخون أنه كان ديناً كثير الصدقة والعبادة، وله وقوف كثيرة على الصدقة وفك الأسارى؛ وكان يكثر الحج والمجاورة مع اشتغاله بخدمة السلطان. وكان ضعيف البنية، رقيق الصورة، له حدبة يغطيها الطيلسان. وقالوا عنه أيضاً إنه كان فيه سوء خلق يكمد به نفسه ولا يضر أحداً؛ وكان يجل أصحاب الأدب ويكرمهم ويعاونهم، ويؤثر أرباب البيوت والغرباء ولا ينتقم من أعدائه، فإما أن يحسن إليهم أو يقتصر على الأعراض عنهم

والقاضي الفاضل كاتب معروف وأديب له طابع خاص، وأسلوبه لا يكاد يجهله مطلع على الآداب العربية، فهو كما يقال عنه - رب العلم والبيان، واللسن واللسان، والقريحة الوقادة، والبصيرة النقادة، والفضل الذي ما سمع به الأوائل لمن عاش في زمانه، وما تعلق أحد بغباره أو جرى في مضماره وهو كذلك شاعر جيد الشعر كما سيجيء

شعره

شعر القاضي الفاضل صورة من نفسه، يدل على رقة حسه؛ أكثره في الغزل، لأنه أسلس ضروب الشعر قيادة للمحسنات اللفظية التي أغرم بها القاضي الفاضل غراماً شديداً، وكلف بها كلفاً ظاهراً، في غير تصنع واضح، أو تطرف يخرج بها عن المعنى الذي يقصده. وقد اكتسب القاضي الفاضل من البهاء زهير وابن سناء الملك وابن قلاقس وغيرهم من الشعراء الذين عاشوا معه في مصر، رقتهم وموسيقاهم الشعرية العذبة، كما اكتسب مما كان يأتيه من أشعار الأندلسيين الذين كانوا في إبان نهضتهم الأدبية، الأخيلة الرائعة والطرائق المستحدثة، وإن كان قد حافظ على نظام سابقيه، فظل ينظم فيما تعود سماعه وما كثر النظم فيه فلم ينظر إلى الطبيعة الساحرة نظرة الأندلسيين إليها، ولم يجب الآفاق البعيدة التي جابوا فيها؛ وربما كان ذلك نتيجة لنشأته الدينية واحتراماً لجلال المركز الذي وصل إليه

الفخر

القصيدة الأولى في ديوانه يعرفها بعض الأدباء، وهي في الفخر، وفيها يصف بلاغته متلاعباً فيها بالمعاني وهي خير مثال على شعره ومنها:

قضى نحبه الصوم بعد المطال ... وأطلق من قيد فتر الهلال
وروَّض كاتب جنبي اليمين ... وأتعب كاتب جنبي الشمال
فدع ضيقة مثل شد الإسار ... إلى فرجة مثل حل العقال
وقم هاتها مثل ذوب النضار ... وموج البحار وطعم الزلال
جزى الله عني عروس الدوالي ... ولا أخطأتها كؤوس الغزالي
بما أطعمت من لذيذ الثمار ... وما ألبست من نسيج الطلالِ
وما سلست من مذاب السرور ... وما خفضت من جماع التغالي
فكم زخرفت جنة للعذاب ... وكم رفعت قبساً للضلال
أغالط بالكأس حكم الزمان ... فيوم عليّ ويوم بمالي
فجاءت بما في عيون النساء ... ومرت بما في رءوس الرجال
وأسلو الغزال بها إذ أرى ... بكاساتها دم ذاك الغزال

إذا مزج الماء منها الكئوس ... مزجاً أسنتها بالنصال
وسكران كدر من سكره ... زمان على كل عقل ممال
فسكر الشباب وسكر الشراب ... وسكر الصدود وسكر الوصال
فلا تذكرن عهود الوصال ... فعهدي بها والليالي ليالي
ولم أيك عهداً رجاء الرجوع ... ولكن أجدده بالصقال
بعثن الليالي بيأس جديد ... عليّ قديماً فجاست خلالي
فما جاء عن منطقي ذم جان ... ولا جاء عن جوهري ذم حالي
ولم استغث تحت ظل الخطو ... ب جرجرة البُزل تحت الرحال
خشنت لحال كشوك القتاد ... ولنت لأخرى كشوك السيال
ولست لساناً لذل السؤال ... وما زلت صدراً لعز السؤال
حديث يناجي فروع السحاب ... وأصل يناجي أصول الجبال
ولي قلم منه عين الكلا ... م تجري فتنظر عين الكمال
يراع تظل رياض الطرو ... س منها موشحة بالصلال
كمثل الوقيعة فيها الظلال ... يشيع الوقيعة لي في الزلال
وكتْب يفيض بأرجائها ... يمين الجدا أو لسان الجدال
تقدمها الشكل من فوقها ... كمثل السهام أمام النصال
وهي طويلة جمعت عدة أنواع من الشعر فأوعت.
الغزل
وشعر القاضي الفاضل الغزلي رقيق جزل، فهو يقول معاتباً.
وإني لمطوى الضلوع على جوى ... بأيسر منه ينشر الوابل السجم
وأملت نفع الكتم فيه مغالطاً ... غليلي ولكن قل ما نفع الكتم
وقد كان لي عزم على الصبر صابراً ... فقد خانه بعد النوى ما نوى العزمُ
وأسعفها باللؤلؤ النثر جفنه ... ويسعفها من بعدها اللؤلؤ النظمُ
لنفسي أريد الوصل لا بعد موتها ... فلا خبر من بعد الممات ولا علمُ
لحي الله هذا العيش إن كان ما أرى ... فأنفه ظل وسالفه حلمُ
ويزعم صبري أنه لي عدة ... وأكبر ظني أن سيكذبني الزعمُ
فلا بعد إطلال الحمي القطر وحده ... ولا دارها دمعي ولا غلتي الظلمُ
تحرج عن وصلي مخافة إثمها ... فلا تحرجى إن الصدود هو الإثم
وأكثر أيامي تعقبها الأسى ... عليها ولكن قد تقلبها الذم
رضيت بما يقضي على قسط جوره ... فَلِمْ يغضب القاضي وقد رضي الخصمُ
واستمع إليه يقول متغزلاً، وفي هذه الأبيات يظهر مدى أثر الشعر الأندلسي فيه:
سنّ النسيم تعانق الأغصان ... أفلا يسن تعانق الخلان؟!
قد كان بينهم حديث ساكت ... ناجى خواطرهم بغير لسان
فهمت قلوبهم فلما لم يجب ... عنها اللسان أجابت العينانِ
والقلب يدرك وهو ليس بسامع ... لفظ الدموع بألسن الأجفانِ
يا راجلاً من عينه قد أصبحت ... في الناس مقفرة بلا إنسانِ
فإذا جرت منها الدموع فإنما ... تجرى لسقيا ذكرك العطشان
ومنها:
بلد بما يسقى غليلك ماؤه ... ما دمت تنزل منه في نيران
وعجبت من متوسل مستوصل ... بجهنم منه إلى بستان
وهو كذلك يقول:
يا هلالاً إذا أنار ضللنا ... وغُصَينا إذا تثنَّى ثنانا
بينما جلنار وجهك يبدو ... إذ رأينا في صدرك الرمانا
ومن غزله أيضاً:
تلذ بجنتها أعين ... وفيها الذي تجتنى الأنفسُ
لها نكهة إذ تحيى بها ... يغض لها عينه النرجسُ
وجاءت بعود لها خاطب ... أرم لهَيْبتهِ المجلسُ
لها معجز إن تأملته ... فما سر إعجازه ملبسُ
أري العود من قبلها أخرساً ... وفي يدها ينطق الأخرسُ

كأن المدامة من لحظها ... ونار الغرام بها تقبسُ
وله:
ومالي في صيد العقارب حيلة ... سوى عقرب دبت على ورق الورد
وإني شجاع لا علي كل حية ... سوى حية صيغت من الشَّعر في الخد!
وفي الأبيات الآتية تبدو حيرته ويتجسم قلقه، فله من قصيدة:
يمزقني ذا الحب كل ممزق ... ويصبح خلقي فيه وهو جديدُ
مقيم وقلبي في ركابك سائر ... قريب - ولكن ما أريد، بعيدُ
وله من قصيدة أخرى:
ليال تقضت ليس يوم براجع ... إليها ولكن الليالي سترجعُ
فيا ليت أسباب الليالي تقطعت ... كأسبابنا فيها إذا تتقطعُ
وإن فرطت منا وأعني اتباعها ... فيا ليت أن النفس لا تتتبعُ
وإن كان قلبي بين جنبي حاضراً ... فليت هموم القلب لا تتبوعُ
وبيني وبين النائبات وقائع ... يهونها الموت الذي أتوقعُ
فكل زمان ليس لي فيه صاحب ... وكل حبيب ماله فيَّ موضعُ!
وقال في حبيب مريض، وفيها تصوير لنفسه بديع:
وما عدته بل عدت سقمي بقربه ... ومما به ما بي عليه قريب
أغيب برغمي ثم أحضر غائباً ... وأنظر آثار الضنا فأغيب!
وقال مداعباً:
بين الضلوع جهنم من حبهم ... فوددتهم لا يسمعون حسيسها
فمع الظلام الدمع كان طليقها ... ومع الصباح الهم كان حبيسها
وقال:
وما قضى الدهر لي من قربه وطراً ... إلا اقتضى الوطر المقضي أوطارا
يا من شقيت به دنيا وآخرة ... ترى عرفت سوى الدارين لي دارا؟
أشقى البرية منظوراً ومنتظراً ... هذا الضعيف الذي يهواك جبارا!
ومن شعره الموسيقى العذب قوله:
وقف الطيف بجفني كالطفَل ... سائلاً أين الكرى أين رحل
إنما كان الكرى يسكنها ... فالكرى من وصلهم ثم انتقل
إنه يا طيف طوفان طغى ... وابن نوح ليس ينجيه الجبل
إن قلبي من قلوب لم تبن ... سرها لو لم تبينه المقل
حالت الأشياء عن حالاتها ... فتولى الماء إيقاد الغلل
هذه أمثلة من شعره الغزلي، وما هي إلا قطرة من بحره الفياض؛ ومنها نستطيع أن نحكم على نفسيته؛ وهي لا تتعدى ما قال المؤرخون فيه.
(يتبع)
محمد سعيد السحراوي
فردريك نيتشه
للأستاذ إبراهيم إبراهيم يوسف
عصره - مولده - تعليمه - شغفه بالأدب والموسيقى - أثر شوبنهاور وفاجنر في تفكيره - أول مؤلفاته - (إنساني وإنساني إلى أبعد حد) (زرادشت) - بقية أعماله - فن نيتشه وفلسفته - وفاته - مدرسته
بدأ التفكير الاجتماعي يظهر جلياً في آداب الأمة الألمانية في خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ويرجع سبب ذلك إلى تغلب النزعة الواقعية على غيرها من النزعات. وكان لهذه النزعة الجديدة أثرها الجليل، فقد بدأت تسير في سبيلها هادئة حتى تغلغلت في نفوس المتأدبين. وكان على رأس القائمين بهذه الحركة الجديدة فريدريك نيتشه الذي أخذ يميل شيئاً فشيئاً إلى الاعتقاد بأن جماعات الناس تهوى إلى أسفل. وقد أرجع أسباب ذلك إلى أن الأدباء لا يعنون إلا بالفرد في منتجاتهم الفنية، في حين أن حاجة الفرد ومتاعبه ومشاكله ليست بالذات حاجة العصر ومتاعبه ومشاكله، وإن حالة الأديب قد تناقض حالة الجماعات البشرية. وعندئذ مال معه بعض صحبه إلى تفكيره هذا، وبدأت الناس تحس بأن ما كتبه الأدباء عن ماجريات الأحوال وشئون الحياة، أو ما كتبوه عن المسائل الاجتماعية والشئون السياسية التي سار

ويسير إليها العالم، ليست إلا بعض آراء من شتاتها. ومن ثم أدرك عامة الناس بأن لهم وجوداً، وأنه يجدر بهم أن يعبروا عن آرائهم بصراحة. فأنجبت هذه الحركة أدباء فنانين من طراز جديد، منهم المصلح الاجتماعي، ومنهم الثوري الأشتراكي، ومنهم طبقات الفوضويين. ولنحاول هنا أن نلم بتاريخ حياة فردريك نيتشه لنتعرف مكانه من بين هؤلاء.

ولد فريدريك نيتشه في اليوم الخامس عشر من شهر أكتوبر سنة 1844م، في قرية (ريكن) الواقعة بالقرب من (لتزن) وقد يبدو لمن يحدق في صورة نيتشه أو يسمع باسمه أنه يمت إلى أصل بولوني، ولكن الباحثين قد فرغوا من إثبات أصله الألماني. ويرجع التشكك في أسمه إلى أن الألمان الذين كانوا يستوطنون المناطق التي يتغلب فيها السلافيون لا يرون غضاضة في صبغ نهاية أسمائهم بالصبغة السلافية. وكذلك فعلت عائلة نيتشه. أما

تكوين رأسه واصفرار لون شعره وزرقة عينيه، فدليل كاف على أنه ينتمي إلى (الشماليين) أي سكان شمال أوربا.

وكان لفريدريك أب قس ورث عنه نزعته للموسيقى وذكاءه المتقد وإحساسه المرهف وأعصابه الملتهبة. أما القوة فقد ورثها عن أمه التي أخذ عنها قوة الإرادة، والقدرة على العمل، والقوة الحيوية، وقوة مناعة جسمه ضد هجمات أعصابه الثائرة. أما الوعظ والدعاية لما يؤمن به فقد ورثه عن أبويه كليهما، ولذا كان حب الوعظ والإرشاد قوياً عنده إلى حد أنه كان يهيم بوقع الكلمة التي ينطق بها. وكان من اجتماع نزعته الإصلاحية إلى قوة إرادته وصدق حيويته لهيب من النار يسرى في كلماته فتهتدي به الناس وتطمئن إلى حرارته في جو إنعدمت فيه حرارة الإيمان.

وليس غريباً أن يكون هذا شأن نيتشه، فقد كان في صغره شعلة ذكاء تتقد منذ سني دراسته الأولى. فقد كتب مذكراته عام 1858، ولما يبلغ الرابعة عشرة من عمره، بأسلوب واضح متزن يشف عن ذكاء مبكر، إذ قال: (أصبحت في الطور الشعري الثالث.) وكتب أيضاً: (يجب أن أتمرن على القريض أكثر من ذي قبل، وإن أمكن فسأنظم في كل ليلة قصيدة.) ومع كل ذلك لم تخلُ قصائده الأولى هذه من أبيات موسيقية أخاذة تحوي معاني مبتكرة. وفي سن الخامسة عشرة نظم قصيدته المعروفة باسم (بغير وطن) ذات النزعة الرومانتيكية. فالتف حوله الأدباء الناشئون وألف منهم جمعية أدبية أسماها (جرمانيا). وكان يأمل أن يتتلمذ في المستقبل على جين باول بعد أن مال إلى فنه كل الميل. ولكن غير واحد من أصدقائه نصحوه بقراءة (هيلدرين) (ونوفاليس) فقرأهما كما قرأ (شكسبير) و (ترسترام شاندي) وهو في سن الخامسة عشرة. وكتب إذ ذاك في مذكراته: (إنني أقيد كل فكرة طريفة؛ وقد اتضح لي أنني إلى ما قبل الآن كنت غير ملم بشيء من العلوم.)

ولم يكن شغف نيتشه بالأدب أكثر من شغفه بالموسيقى، وكان أحب الموسيقيين إليه (روبرت شومان) الرومانتيكي النزعة، ولكنه مال بعد ذلك إلى شوبان إذ قال عن موسيقاه إنها تمثل جمال ونبل الفكر كما تمثل المرح وعظمة الروح الإنسانية والشعور الفياض سواء بسواء) وفضلا عن ذلك فقد وضع نيتشه أيام صباه قطعاً موسيقية قال عنها بعد أن تقدم في السن: إن (نغماتها) تكاد تكون مطابقة لموضوعات مختلفة من بارسيفال

التي ألفها فاجنر بعد عهد الصبا لنيتشه.

وعندما التحق نيتشه بجامعة (بون) عام 1864 كان يرغب في دراسة اللاهوت، ولكنه نزع عام 1865 إلى دراسة الآداب الكلاسيكية إلى جانب درسته الأصيلة. غير أنه هجر فيما بعد دراسة علوم الدين وتعلق بالبحث في العلوم، ثم رحل إلى (ليبزج) طلباً لحرية الفكر وحرية الرأي، ولكنه سرعان ما أدرك (أنه لا يوجد مكان تتوافر فيه حرية الفكر) وكان شوبنهاور قد ساعده على تحرره من عقيدته الدينية، بعد أن أتصل به في (ليبزج) التي قال فيها نيتشه: (هنا وجدت مرآة رأيت فيها العالم والحياة كما رأيت نفسي منعكسة بها في أجلي وضوح؛ وهنا حدقت في عين شمس الفن الذي لا نهاية له؛ وهنا رأيت المرض والبرء، رأيت المنفي والملجأ، رأيت النار والجنة) وفي هذا ما يدل بمفرده على مقدار تأثر نيتشه بشوبنهاور، كما تأثر به بعد ذلك في أبحاثه الأدبية التي كتبها أثناء دراسته في الجامعة، والتي أدهشت أساتذته، إذ عجبوا لأسلوبه العلمي

الرصين. ولكن كل أبحاثه الأدبية لم تكن لتغريه إذ كانت تنقصها الفكرة الإنسانية. ودفعه هذا الاتجاه الجديد في تفكيره إلى تغيير منهج دراسته الذي كان قد صمم عليه.
فقد كتب إلى صديق له عام 1869 يقول: (إننا دون شك أتباع القدر. فمنذ أسبوع أردت أن أكتب إليك بأني اعتزمت دراسة الكيمياء وترك دراسة الآداب لمن هم أليق بها مني، وهؤلاء هم الشيوخ. والآن يغريني شيطان القدر بالأستاذية في الآداب).
ولم يكن تعرّف (نيتشه) إلى (شوبنهاور) أهم ما وقع للأول في حياته إذ أن تعرفه إلى فاجنر قبل نزوحه إلى (باذل) كان له أثر عميق في نفسه. ولم يكن حب (نيتشه) لموسيقى (فاجنر) وليد يومه، بل لقد أعتبر (نيتشه) صديقه (فاجنر) الممثل لكل الفنون الحديثة التي أرتشفها وهضمها. وبلغت تلك الصداقة أبعد مدى لها سنة 1888 عندما قضى كلاهما الصيف في قرية بالقرب من (لوزرن) وحرص نيتشه على ألا تنتزع الأيام منه هذه الصداقة، وود لو أن تبقى صلته بصديقه فاجنر إلى الأبد، وقال عنها: (لقد كانت أيام تبادلنا فيها الثقة، أيام مرح وسرور. والحق أنها لحظات لها أعمق أثر في نفسي). قال ذلك نيتشه عن صديقه الذي أخلص له فقال فيه: (إنني لا أعرف ماذا كان حظ الآخرين من مصادقتهم لفاجنر، إلا أني أعرف أن سماءنا لم تغشها سحابة قط) وما ذلك إلا لاعتقاد نيتشه بأن
صديقه عبقري كريم الخلق، تنطبق عبقريته على وصف شوبنهار للعبقريات
وفي ذلك العهد ألف نيتشه أول كتبه القيمة الذي أسماه (انحدار التراجيدية من روح الموسيقى وأتمه عام 1871 وقد ضمنه أهم ما وقع له في حياته الخاصة وصداقته مع فاجنر، كما ضمنه مراميه الأولى والأخيرة في الحياة، ومساس الحاجة إلى الموسيقى. ولقد كتب كتابه هذا بأسلوب رائع تجلى فيه هيامه بالفنون، وأثبت قدرته على البحث كعلامة. ولم يحجم نيتشه عن أن يقول رأيه في الفنون الإغريقية وفي الإغريق. ويعد كتابه هذا من أروع الكتب الكلاسيكية التي تناولت الفن من عديد نواحيه التاريخية والفلسفية والعقلية. فلقد حاول نيتشه (أن يرى العلوم والمعارف بعين الفنان، وأن يرى الفن عن طريق الحياة) وهاجم في كتاب آخر له أسماه (نظريات لا تتفق وروح العصر) ووضعه فيما بين سنة 1873 و 1875 - عديد الاتجاهات في الثقافة الألمانية. فقد قال بأن ألمانيا تعيش في حالة همجية من الثقافة. وأفصح في هذا الكتاب عن طبيعة الحقائق الواقعية وما يقع تحت الحس في كل آن. وطالب بأن يكون الفن ممثلاً للعصر والحياة. وفي هذا الكتاب ينزع إلى المثل العليا، كما يميل في كتابته إلى التهكم المشبع بروح الفكاهة، وفي كتابه الذي أسماه (بعض فوائد ومضار التاريخ في الحياة) قال بأن كثرة المعلومات ليست وسيلة الثقافة، ولا هي دليل عليها إذ المسألة متعلقة بالسمو في الحياة. أما التخمة الناجمة عن التهام التاريخ وحشره في الرأس حشراً فإنها تجعل الحياة مريرة كما تجعلها خطرة. فالتاريخ يضعف الشخصية، ولا يمكن لشخصية أن تتحمله إلا إذا كانت غاية في القوة. أما ضعاف الشخصية فالتاريخ يؤيدهم، إذ يصبحون دائرة معارف متنقلة، ولا يكون لهم رأي، وإن جرأوا على ذلك فهو رأي محايد، ليس لشخصيتهم فيه أثر. ومن رأيه (أن وظيفة الإنسانية أن تعمل دون انقطاع لتخرج إلى العالم شخصيات عظيمة). والذي جر نيتشه إلى هذا التفكير هو شدة تأثره (بشوبنهاور) و (فاجنر)، غير أن أثرهما فيه لم يدم إلا بعض الزمن. فقد أدرك عندما شاهد حفلات (بايرويت) - الحفلات الموسيقية والتمثيلية السنوية الهامة - أدرك أنه خدع في رأيه، فقال بأن فاجنر يتخذ وسائل خشنة جامحة لإظهار تلك الفخامة العاصفة. وذلك الاضطراب العظيم المخيف وإن كان مزركشاً ومحلى بزخارف بهيجة أبغض الأشياء إلى نيتشه.
وفي سنة 1876 أخذ نيتشه في دراسة الفيسيولوجيا والطب والعلوم الطبيعية. ومن ثم أخذ يدرس من جديد جميع المسائل التي عالجها من قبل. وكتب في فترة العطلة التي قضاها في جنوب ألمانيا كتاباً أسماه (الخلاص) وهو أول جزء من كتاب جمع فيه مختارات أقواله وأختار له اسماً آخر هو: (إنساني وإنساني إلى أبعد حد) , - وكان ذلك عام 1878. ولما أن أهدي كتابه هذا إلى صديقه فاجنر ليطلعه على آرائه الجديدة بعث إليه فاجنر بقطعته الموسيقية (بارسيفال) ونجم عن ذلك فتور بين الصديقين، إذ تمسك كل منهما برأيه. ولعل كتاب (إنساني، وإنساني إلى أبعد حد) هو كما أسماه صاحبه (كتاب لأحرار الفكر) وفي هذا الكتاب من التضارب في القول ما جعل الناس

تتحدث عنه. فبينما تراه في هذا الكتاب ملماً بكل شيء سليم المنطق، تراه غاضباً في بعض مواضع الكتاب مهتاج الأعصاب مريضاً. والواقع أنه كان يقاسي الآلام، ولكنه كان يحاول الكلام كمن لم يمس بسوء، وكان يريد الاحتفاظ بهدوئه ليهزأ بالعالم، كما قال بعد ذلك بعشر سنين. والحق أن نيتشه كان ثائراً على نفسه

(يتبع)

إبراهيم إبراهيم يوسف

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

الديانة الفارسية

الزرادشتية ومصدرنا عنها

ليس لدى الباحث عن الديانة (الزرادشتية) إلا مصدر واحد، وهو كتابها المقدس: (زند أفيستا) الذي وإن كان لم يتم جمعه إلا حوالي القرن السادس بعد المسيح إلا أنه قد أحتوى على جزء عظيم يدعى (جاتها ياسنا) وهو الذي يرجح جميع العلماء أنه كلام (زرادشت) نفسه ويرجعون تاريخه إلى القرن السابع أو العاشر قبل المسيح على ما اختلفوا في وجود النبي الفارسي كما أسلفنا. وما ليس من كلام (زرادشت) من هذا القسم هو - في رأي الكثرة المطلقة من الباحثين - يمثل (الزرادشتية) الأولى حق تمثيل، ويصح أن يعتمد عليه في تاريخ العصر الأول من عصور هذه الديانة. وهذا القسم قد وجد مكتوباً بلغة قديمة ترجع إلى ذلك التاريخ الذي عينه العلماء.

الميتافيزيكا

يجد الباحث في قسم (الجاتها) أن (زرادشت) أرجع جميع آلهة العهد القديم إلى إلهين أثنين: إله الخير (أهورا مازدا) أو (هور مازاد) أو (هرموز)؛ وإله الشر أو الكاذب أو الرديء، وهو الذي سيسمى فيما بعد بـ (أهرمان) في رأي المحققين. ولكن هذه التثنية ليست على علاتها، ولم تكن تثنية بمعناها الصحيح، لأن الإله الذي خلق الكون هو (أهورا) أما (أهرمان) فلم يكن له عمل إلا إيجاد شبه ظل من الشر لكل خير يخلقه (أهورا) وهو وإن كان أزلياً كمازدا، لأنه توءم رديء له إلا أنه ليس أبدياً مثله، إذ هو سيفني عندما يتغلب الخير على الشر فيمحوه من الوجود. أما رفعته عليه فهي ثابتة بنص الكتاب المقدس الذي أسلفنا الإشارة إليه. وإليك شيئاً من هذا النص:

(استمعوا بآذانكم الأشياء الجيدة وانظروا فيها بوضوح حتى تصمموا على أحد الإيمانيين، لأن كل إنسان يجب عليه أن يصمم هو بنفسه قبل الفناء النهائي لكي يتكون حظ كل واحد منكم حسب اختياره.

إذاً، فالروحان الأولان اللذان ظهرا في الوجود كتوءمين هما: الخير والشر، وهما دائماً في التفكير والقول والعمل والحكماء قد اختاروا بينهما، وحسناً اختاروا، ولكن المفاليك هم الذين أساءوا الاختيار. وعندما تقابل هذان الروحان في مبدأ الوجود أسسا الحياة و (اللاحياة). وفي نهاية الأشياء سيكون أردأ أنواع الوجود من نصيب الذين يتبعون الكذب كما يكون أحسن الفكر من نصيب الذين يتبعون الخير. . .) إلى أن يقول:

(أيها الفانون، إذا أنتم أطعتم أوامر (مازدا) الذي نظم السعادة والألم ووضع قاعدة العقاب الطويل للكذابين وبارك الأخيار فإنكم ستفوزون بالسعادة الأبدية)

قد رأيت من هذا النص سمو (مازدا) على (أهرمان) من جميع النواحي، وعلى الخصوص من ناحيتي الأخلاق والأبدية، ولكن هذا الإله مع سموه وجلاله لم يسلب القوة والإرادة من البشر حتى ولا الأشرار منهم، بل ترك لهم من الإرادة ما يكاد يساوي إرادته نفسها، ليكونوا كاملي الحرية في الاختيار. ولولا هذه الحرية لما رأينا الكذب والشر يسودان كثيراً على هذه الأرض وينتصران أحياناً على الخير؛ وهذه السيادة وذلك الانتصار كانا أحياناً يدفعان (زرادشت) إلى التشاؤم واسوداد المزاج كما يظهر ذلك في الأنشودة الآتية: (نحو أي بلد أفر أو أنجو بنفسي؟ لقد فصلت من النبلاء ومن أمثالي، والشعب ليس مسروراً مني ولا الكذابون الذين يحكمون البلاد أيضاً. ماذا

أعمل لأرضيك أنت يا (مزدا أهورا)؟
أنا أعرف جيداً لماذا لم أحز أي نجاح: ذلك لأني ليس لدي مال ولا رجال. أنا أدعوك يا (أهورا) أن تمنحني مساعدتك كما يساعد الصديق صديقه.
يا (مازدا) متى تشرق شمس انتصار الخير في العالم بوساطة الحكمة السامية الممثلة في المحررين الذين سيجيئون؟.
لم تقبل هذه التثنية (الزرادشتية) إلا أثناء حياة مؤسسها، أما بعد موته فقد دار حولها الجدل ولم يفهم الناس هذه الموازنة المعقدة التي وضعها زرادشت بين الخير والشر. وما زال هذا
الجدل يعمل عمله حتى انتهى حوالي القرن الرابع بعد المسيح بأحداث تغيير جوهري في هذه الديانة، فذهب فريق من رجال الدين إلى إنكار التثنية بتاتاً وإعلان التوحيد حيث صرحوا بأن (مازدا) هو الإله الأوحد، وأن (أهرمان) ليس خصماً له وإنما هو خصم روح القدس في (مازدا) إذ هذا الأخير يحتوي على روحين: أحدهما خيّر والثاني شرير.
الملائكة والأرواح الخفية
يتحدث كتاب (زند أفيستا) عن عدد من كبار الملائكة كانوا وزراء لأهورا مازدا، وقد حددهم القسم المتأخر من هذا الكتاب بستة وزراء، كل واحد منهم له اختصاص معين وعمل محدود؛ ووزاراتهم هي كما يأتي: (1) الفكرة الخيرة. (2) الفضيلة الجُلّى. (3) الإمبراطورية المشتهاة (4) التنازل الكريم. (5) الصحة. (6) الخلود.
هؤلاء هم رؤساء الملائكة الذين يكونون الهيئة العليا التي تلي (أهورا) مباشرة. وهناك عدد عظيم من صغار الملائكة ومن الأرواح والجن، لكل واحد منهم أيضاً مهمة يقوم بها ومنزلة يشغلها. وهذه المهمات تختلف في جواهرها كما تختلف في قيمتها، فبعضها أخلاقي كصغار الأعمال الخيرية، وبعضها مادي كالعناصر والنباتات المختلفة. ولقد أخذ هذا العدد الأخير يتضاعف وتزداد سلطته حتى طغى أو كاد على الديانة الزرادشتية ولو في البيئات العامية على الأقل حيث عاد بالجماهير إلى عبادة العناصر كما كانت الحال في الديانة القديمة. وقد بعث (ميتهرا) من جديد وأصبحت النار والشمس والقمر والنجوم ملائكة ثم آلهة، واستردت أهميتها الأولى في تلك الأوساط وعاد إلى الوجود من جديد (أهوما) إله الخمر الذي رأيناه في الديانة الأولى كما حدثت خرافات أخرى لم يكن للفرس عهد بها من قبل كذلك العملاق ذي الأرجل الثلاث والذي له أهمية في إدارة العالم. ولكن ينبغي أن نلاحظ أن مازدا هو الذي كان لا يزال الإله الرئيس على جميع هؤلاء، ولم يكن الآخرون إلا آلهة ثانويين أو ملائكة أو أرواحاً.
هؤلاء جميعاً هم أعوان (مازدا) أو هم الحزب الأعلى؛ أما الحزب الأدنى أو أنصار إله الشر فهو يتألف طبعاً من (أهرمان) رئيساً، وقد كان الشعب في أول الأمر يتمثله في ثعبان أو في ذكر الضفدع أو في حيوان رديء مزعج أو في حصان جمح وتوحش ثم استطاع أحد الملوك أن يقبض عليه ويخضعه، ولكن لما تقدم الشعب وارتقت عقليته لم يعد يتمثل
إله الشر على هذه الصورة المادية الساذجة، وإنما خطا به نحو التصوير المعنوي فرفعه إلى عالم المدركات العقلية وجعل له وزراء ستة كأهورا يختص كل واحد منهم بعمل من أعمال الشر والسوء، وعلى رأس هؤلاء وضعوا (أندرا) الإله الشعبي القديم، ولكن تحت أسم وزير سابع خاضع لأهرمان. ودون هؤلاء الوزراء وضع رجال الدين أيضاً ملائكة شر وأرواح سوء وشياطين وسوسة وضلال، وذلك مثل ملك الرعد وملك العواصف المدمرة، وكالأرواح الحالة في الحيوانات المؤذية والحشرات الضارة؛ وهناك أيضاً من هذا الحزب شياطين موكل كل واحد منها برذيلة من الرذائل، عليه أن ينميها وينشرها ويعلي شأنها
لم يكتف رجال الدين بهذا التقسيم، بل ذهبوا إلى ما هو أبعد من ذلك فعينوا شمال بلاد فارس كمستقر لأرواح الشر وشياطينه، وعلموا الشعب بعض تعاويذ سحرية إذا قرأها المؤمن فرت من أمامه أرواح الشر وتضعضعت قوتها وهوت إلى مكان سحيق. وكان أهم هذه التعاويذ ما أخذ من الكتاب المقدس ثم قريء بطريقة خاصة ولهجة معينة ورنة مُوَقَّعَة.
الإنسان أو الشخصية البشرية
لم يوجد في القسم القديم من (زند أفيستا) ما ينبئنا برأي زرادشت في الشخصية

البشرية من: جسم وروح من حيث المبدأ أو المصير، وإنما كل ما لدينا في هذا الشأن قد وجد في الأجزاء الأخيرة التي كتبت بعد عصر زرادشت بزمن غير يسير، أي بعد ما ارتقت المعارف الإنسانية نوعاً ما وبدأ الخاصة يفكرون في ثنائية الإنسان ويحللونه إلى جسم وروح.

يجد الباحث في هذه الآيات المتأخرة أن الإنسان يتألف من جسم وروح وأن الجسم يتكون من أربعة أشياء: اللحم والعظم والقوة الحيوية والصورة أو القالب، وهذا الأخير هو وحده الذي يعود إلي الحياة في حالة البعث دون الثلاثة الأول التي لا تبقى

وأما الروح، فهي عندهم خمسة أنواع، بين كل واحد منها وبين الأربعة الأخرى شيء من الترادف أو التقارب يجعل التحديد الدقيق صعباً أو كما يقول أحد الباحثين الأوربيين (إن مفردات لغاتنا لا تستطيع التعبير الصحيح عن هذه المعاني). وهاك هذه الأقسام الخمسة للروح:

(1) الوجدان النفسي (2) الدين والضمير الخلقي والوحي (3) النفس والإلهام والعقل والشعور والإحساس (4) الروح بأدق معاني الكلمة (5) الفرافاشي. وهو عبارة عن

شبح سماوي هو في نفس الوقت ملك حارس وروح جوهرية، وعلى الجملة هو الإنسان الحقيقي الذي ليس الكائن البشري إلا مظهراً له، وهو وحده الذي يستطيع أن يتصل بأهورامازدا ويحيا في حضرته، ولهذا عند الموت يفني الإنسان كله في هذا (الفرافاشي)

مصير الروح

عندما يموت الميت تظل الروح ثلاثة أيام وثلاث ليال معلقة إلى جانب الجسم، منعمة بنعيمه أو معذبة بعذابه، وفي فجر اليوم الرابع تهب عليها ريح إما معطرة إذا كان الميت خيراً، وإما نتنة إذا كان شريراً فتحملها إلى موضع تلتقي فيه إما بفتاة جميلة، وإما بعجوز مفزعة، وليست الأولى فتاة حقيقية ولا الثانية عجوزاً حقيقية، وإنما هي صورة أعمال الميت، وهي ضميره نفسه الذي سيقوده إلي حيث معبر الحساب والحكم الأخير. وعلى باب هذا المعبر يوجد ثلاثة قضاة بينهم (ميتهرا) وهناك ينصب ميزان توضع في إحدى كفتيه حسنات الميت وفي الأخرى سيئاته. وبناء على صعود إحدى الكفتين يصدر الحكم على مصير هذا الميت.

ويلاحظ أن الثواب والعقاب لم يكونا يَنْصبَّان على كل حسنة أو كل سيئة على حدة، بل على مجموعة النوعين، فإذا رجحت الحسنات كفرت السيئات مهما كانت كل واحدة منها في ذاتها جسيمة؛ كما يلاحظ أن الندم والتوبة لم يكونا معتبرين، وأن الغفران في الحساب لا وجود له البتة لأنه مؤسس على العدل لا على الرحمة.

وعلى أثر انتهاء الوزن وصدور الحكم يؤمر المحاسب بالمرور فوق هذا المعبر أو الصراط الممتد فوق الجحيم، الذي يتسع أمام الأخيار ويضيق حتى يكون أدق من الشعرة وأحد من الشفرة أمام الأشرار.

فهؤلاء الأخيرون يهوون في جحيم مظلم ظلاماً كثيفاً إلى حمو يستطاع معه لمسه باليد، فإذا هوَ وافي الجحيم كانوا متزاحمين كأنهم كمية من الشعر في مَعْرَفة حصان، ومع ذلك فكل واحد منهم يشعر في وسط هذا الزحام بوحدة قاسية وعزلة ممضة.

أما الأخيار، فيذهبون إلى النور حيث يستقبلهم (أهورمازدا) بعد أن يمروا في وسط العمل

الصالح والقول الخير والفكر الطيبة، وهناك يستمتعون في كنف (مازدا) بالسعادة الأبدية.

هذا كله بالنسبة لمن ثقلت موازينهم أو خفت؛ أما من استوت حسناتهم وسيئاتهم، فهم يوضعون في مكان فسيح بين السماء والأرض، يقاسون فيه آلام الحر والبرد، ويحسون بجميع التغيرات الجوية، ويظلون ينتظرون في أمل ورهبة الحكم الأخير على مصيرهم الذي يظل مظلماً ما داموا في هذا المكان. وأشهر أهل هذا الموضع هو: (كيريزاشيا) الذي قتل وحشاً مرعباً فحسب له ذلك حسنة، ثم دنس النار المقدسة فحسبت عليه سيئة مساوية للحسنة الأولى فظل بين النعيم والجحيم

(يتبع)

محمد غلاب

نقل الأديب
للأستاذ محمد اسعاف النشاشيبي
178 - والأبيات على ظهر يده
في (مطمح الأنفس وشرح الشريشي): خرج القاضي أبو عبد الله محمد بن عيسى من بني يحيى إلى حضور جنازة بمقابر قريش، وكان رجل من بني جابر يؤاخيه ينزل بقرب المقبرة، فعزم عليه في الميل إليه، فنزل وأحضر له طعاماً، وأمر جارية له بالغناء، فغنت تقول:
طابت بطيب لثاتك الأقداح ... وزها بحمرة وجهك التفاح
وإذا الربيع تنسمت أرواحه ... نمت بعَرف نسيمك الأرواح
وإذا الحنادس ألبست ظلماؤها ... فضياء وجهك في الدجى مصباح
فكتبها القاضي طرباً بها في ظهر يده، ثم خرج من عنده. قال يونس بن عبد الله: فلقد رأيته يكبر للصلاة على الجنازة والأبيات مكتوبة على ظهر يده.
179 - أوسعتهم سباً وأودوا بالإبل
في (مجمع الأمثال): حديثه أن رجلاً من العرب أغير على إبله فأخذت، فلما توارَوا صعِد أكمة وجعل يشتمهم، فلما رجع إلى قومه سألوه عن ماله فقال: أوسعتهم سباً وأودَوا بالإبل. يضرب لمن لم يكن عنده إلا الكلام.
180 - اللثغة
قال علي بن هرون المنجم: كنت وأنا صبي لا أقيم الراء في كلامي وأجعلها غيناً، فدخل المفضل بن سلمة على أبي وأنا بحضرته، فتكلمت بشيء فيه راء، فلثِغْتُ فيها فقال له الرجل: يا سيدي، لمَ تدع أبنك يتكلم هكذا؟ فقال له: وما أصنع وهو ألثغ؟ فقال له: إن اللُّثْغة لا تصح مع سلامة الجارحة، وإنما هي عادة سوء تسبق إلى الصبي أول ما يتكلم بتحقيق الألفاظ أو سماعه شيئاً يحتذيه، فأن تُرك على ما يستصحبه من ذلك مرن عليه، فصار له طبعاً، وإن أخذ بتركه أول نشوئه استقام لسانه، وأنا أزيل هذا عن عليّ ثم قال لي: أخرجْ لسانك فأخرجته فتأمله فقال: الجارحة صحيحة، قل يا بني: (راء) واجعل لسانك
في سقف حلقك، ففعلت، فلم يستوِ لي، فما زال ينقل لساني إلي موضع موضع من فمي، ويأمرني أن أقول الراء فيه، فإذا لم يستو نقل لساني إلي موضع آخر حتى قلت راء صحيحة في بعض تلك المواضع، فطالبني بإعادتها، وألزمني ذلك حتى ذهبت اللثغة، فأمر أن أطالب بهذا أبداً، ويُتقدم به إلي معلمي، وأوخذ بالكلام به، ففعل ذلك، ومرنت عليه، وما لِثغت إلي الآن.
181 - كلهم أعداء
قال ابن الجوزي: مر رجل بإمام يصلي بقوم فقرأ: (ألم، غُلِبت الترك) فلما فرغ قال له محمد بن خلف: يا هذا، إنما هو (غُلبت الروم)
فقال: كلهم أعداء، لا نبالي من ذكر منهم.
182 - ليس التكحل في العينين كالكحل
في كتاب (الأنساب) للبلاذُري المدائني قال: كان عبد الله ابن الزبير يشمّر إزاره، ويحمل الدِّرَّة، يتشبه بعمر بن الخطاب فقال أبو حرة:
لم نرَ من سيرة الفاروق عندكم ... غير الإزار وغير الدِّرَّةِ الخَلِقِ
183 - كأنها رءوس رجال حلقت في المواسم
قال الأغر النهشلي لأبنه لما بعثه لحضور ما وقع بين قومه: يا بُنيّ، كن يداً لأصحابك على من قاتلهم، وإياك والسفيه فإنه ظِلُّ الموت، واتق الرمحَ فإنه رِشاء المنية، ولا تقرب السهام فإنها رسل تعصى وتطيع
قال: فبم أقاتل؟
قال: بما قال الشاعر:
جلاميدُ أملاءُ الأكفّ كأنها ... رءوسُ رجالٍ حُلِّقتْ في المواسم
فعليك بها، وألصقها بالأعقاب والسوق
184 - فالدب في الصحراء ما افقهه
ناظر أبو زيد عبدُ الله بن عمر الدبوسي بعض الفقهاء فكان كلما ألزمه أبو زيد إلزاماً تبسم أو ضحك فأنشد أبو زيد:

مالي إذا ألزمتهُ حجةً ... قابلني بالضحك والقهقههْ
إن كان ضحك المرء من فِقههِ ... فالدب في الصحراء ما أفقهه!
185 - يا مسكين أين أنت؟
ذكر الحافظ السلفي في (معجم السفر): أن شخصاً قال في مجلس الإمام ابن القابسي (وهو بالقيروان): ما أقصر المتنبي في معنى قوله:
يُراد من القلب نسيانُكم ... وتأبى الطباع على الناقلِ
فقال له: يا مسكين، أين أنت من قوله تعالى: (لا تَبْديلَ لِخلْقِ اللهِ، ذَلِكَ الدِّينُ القيِّمُ؛ ولَكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعلَمُون)
186 - أبو تمام، البحتري، المتنبي
في (المثل السائر): سُئل الرضي عن أبي تمام، وعن البحتري، وعن أبي الطيب فقال: أبو تمام خطيبُ منبر، والبحتري واصف جُؤْذُر، والمتنبي قائد عسكر
187 - التخصص بمعرفة التلصص
قال الثعالبي: سمعت أبا بكر الخوارزمي يقول: أنشدني الصاحب نتفة له، منها هذا البيت:
لئن هو لم يكفف عقارب صدغه ... فقولوا له: يسمح بترياق ريقه
فاستحسنتُه جداً حتى حممت من حسدي عليه، وودت لو أنه لي بألف بيت من شعري!. قال الثعالبي: فأنشدت الأمير أبا الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي هذا البيت، وحكيت هذه الحكاية في المذاكرة، فقال لي: أتعرف من أين سرق الصاحب معنى هذا البيت؟ فقلت: لا والله. قال إنما سرقه من قول القائل (ونقل ذكر العين إلى ذكر الصدغ):
لدغت عينك قلبي ... إنما عينك عقربْ
لكنما المصة من ... ريقك ترياق مجربْ
. . .فقلت: لله مولانا الأمير فقد أوتي حظاً كثيراً من التخصص بمعرفة التلصص
من الأدب الرمزي
في الطبيعة
للأستاذ عبد المنعم خلاف
احتفلت الطبيعة لعيني العاشقة، فحشَدَتْ أطفالها جميعاً، ووقفت تعاجبني بهم، وأبرزت نهودها من جبالها، وأرسلت شعرها من حُورها، ورقرقت خدها بماء النبع، وموَّهته بدم الشفق، وكللت جبينها بالزهر المضفور، ومَشقت قدَّها في رقص السرو، وخرجت عليَّ بمليء الضحى السابغ ضياءً وملء الليل الساجي نجوما، ومشت تتهادى على الحصى الملوّن، وتخطو على الجُدَد البيض والحمر، وأخذت تغازلني بالنسيم الذي استروحتُ فيه بردَ قلبها لحر قلبي. . . فسجدت أمامها بجسدي كله على الشوك والحصى في حِضن صخرة مشرفة على هوة. . . .! وقلت لها: هل أنا إلا منك يا ذات الشباب المتجدد أبداً؟ يا أيتها الأم الوَلود الأكول الضاحكة المعولة. . . يا ذات البطن البَرَاح الذي مما فيه البحرُ والدَّيمومُ بعجائبهما وولائدهما. . . يا ذات الأثداء التي تَدِرُّ وتمتص.!
سأرتد إليك وأجرد نفسي من شعور الانفصال عنك، وأقف في صفوف أطفالك صورةً من صور الجمال أو القبح كما تشائين. . وسأطلق أنفاسي مَوْجةً في هَبَوات الريح، وأصواتي نغمةً في النشيد الكبير الذي يملأ أسماع السموات والأرض. . . وخَطَفاتِ ذهني مع ومَضاتِ البروق. وسأضع جسدي لَبنةً في البناء العام كالجبل والحصى الموضوع تحت السقف المرفوع. . .
إني أخ كبير لأبنائك الذين تلدينهم مع ساعات الصباح والمساء، أتلقفهم بعيني هاتين اللتين فيهما الإعجاب والرحمة للجمال والقبح! عينيَّ اللتين وراءهما قلب خلقه الله أوسع منك وأعجب وأكثر ولادة. . . إنه بلد كل أبنائك ولادةً ثانية بمخاضها ورضاعها وفِصالها! ثم لا يرسلهم وينساهم فانين ضائعين كما تفعلين. . بل يبقيهم كلماتٍ تامةً دائمة مسجلة في اللوح المحفوظ. . .
فاسأليهم. . اسألي الورد والشوك، والحمل والذئب، والورقاء والرقطاء، والغراب والعصفور، والنحلة والجُعَل، وسائرَ ما تلدين من الأعلى والأدنى: ألست أوالي عليهم

نظراتي وفكرتي؟ واسألي الشمس والنجوم: ألا أسافر معها سفراً غير زَمنيٍّ فلا أيام فيه ولا
ليالي.!
واسألي النهار: ألا أغتسل بأول قطرة من ضياء فجره إلى آخر قطرة من شفق غروبه، وأسير معه في موكب الحياة العام أدبُّ بقدميَّ على قارعة الطريق الممدود من أول الدنيا إلى آخرها. .؟
واسألي الليل: ألا أجلس فيه متيقظاً أسترقُ السمعَ وألتقط الكلمات الخفية التي ينثرها في غفلة على الأجساد الهاجعة في موتتها الصغرى؟
واسألي البحر: ألا أُسْلم إلى عرائس موجه جسدي يعبثن به، وأملأ بصري بأفقه ولجه وزبده، وسمعي بضجيجه وصخبه، ويدي بقواقعه وأصدافه؛ وأتوسع كثيراً كثيراً حتى أغطيه بروحي وأشربه بكأسي التي وراء حسي؟
واسألي الصحراء: ألا أقف في محرابها الأصفر، وأمسح عضلات جبالها التي أعياها الوقوف، وأُرقِدْ قلبي على مهادها بجانب ذراتها الجامدة وأشواكها الحادة؟
فيا أيتها الأم إني غير عاق في البنوَّة بيني وبينك، والأخوة لأبنائك جميعاً مما علا أو سفل فأسبغي على من شبابك الدائم، واكشفي لي عن محاسنك المكنونة، وعبقريتك المضنون بها على غير أهلها، وزاوجي بيني وبين بناتك العرائس الأبكار اللائي لم يَطمثهن إنس قبلي ولا جان. . . وآسكبي في قلبي من ذاك الإكسير المخلد الذي يجعلك دائماً أصبى من أولادك؛ ولا تأكليني فيما تأكلين من بنيك أيتها الهرة. . . .!
وحينما تغضبين أيتها الأم، فتزأرين بحناجر الريح، وتحطين أبناءك بالقارعات العاتية. . . وتثور أخلاطك فتقذفين الحممَ والشُّواظ واليَحْمومَ من تحت، والصواعق وحرائق البروق وجبال الثلوج من فوق، وتنفضين ما على الأرض بالزلزلة والمَيَدَان، فلا يسلم من يدك بعوضة ولا جمل. . . وتفتحين فكَّيْك لابتلاع الحقول بعشبها وشجرها، والمدن بمدرها ووبرها فتسدين الفجوات التي خلت في أحشائك، وتشبعين جوعك إلى العناصر بأكل أبنائك الذين يضجون وهم في الهول بين يديك بالثغاء والرغاء، والزئير والطنين، والهديل والنعيب، وغيرها من أصوات الحيوان الأبكم. وبالدعاء والبكاء من الحيوان الناطق: أبنك البكر الذي دلَّلْته وعزَّزْته وأعطيته مصباحاً ومفتاحاً زعم بهما أنه إلهك! وجعل قضيتك كلها (معادلة جبرية) في نصف سطر من قلمه العجيب الذي يجعل الدنيا كلمات وأرقاماً. .
حينذاك أحاول أيضاً أن أقترب منك في غضبك لأرى عبقرية الإماتة والتخريب فيك !
كما رأيت إبداع الإيجاد والتكوين، ولأرى الدنيا صوراً من القبح والبشاعة والقسوة والفوضى كما رأيتها صوراً من الجمال والانسجام والنظام. . .
ولكنك تحتجين عنا حين تبدلين الثياب لتخفي عوراتك وسوآتك وشناعاتك، فتقتلين كل ذي عين حتى لا يراك فيقسم ألا يقترب ولا يعشق ولا يفنى في مظاهر خداعك وطلاء حقيقتك، وترسلين نارك التي تحرق دائماً، وماءك الذي يغرق دائماً، وقوارعك التي تحطم دائماً. . . فلا مطمع لأحبابك في رشوتك بالحب والشعر، ولا محسوبية ولا شفاعة أمام قوانينك الصارمة.!
وهأنذا أبحث عن حِرْز حَريز فيما وراء يدك المخربة، أخط فيه قبري وأختبئ فيه وأرصد منه دائماً حركة التجدد ورجوع الشباب والجمال إلى ديباجتك، وحتفالك لغير عيني من عيون الشباب الشعراء المقبلين. . . وهم يسكبون في سمعك ما أسكبه الآن من كلمات الهوى والغزل. . . ويقولون لك: (يا ذات الشباب المتجدد. . . اسبغي علينا من شبابك وأرضعينا يا أمنا من إكسير الخلد. . .) فأناديهم من مكاني البعيد الذي لا سلطان لكِ عليه قائلاً: أيها الطامعون في الخلود مع هذه العجوز المتجددة. . . لا تطمعوا أن تعطيكم ما بخلت به من قبلكم من بينها. . . إنها لم تسمح لأحد بالبقاء الكثير حتى لا يحتويها ويكفر بجمالها، فابحثوا عن مثل هذا المكان الحرير الذي أناديكم منه. . . واقنعوا أن يكون حظ أحدكم منها قبراً معلوماً في القبور، يقف أمامه أبناؤها اللاحقون ويشيرون إليه قائلين: هنا يرقد قلب شاعر عرف أمنا فكان يشتري فيها الحبر بالذهب. . . فاسكبوا على قبره كأساً منه. . . .!

عبد المنعم خلاف

أطفال الطبيعة
للأستاذ محمد عبد اللطيف السحرتي
لم تكن إلا زقزقة العصافير تطوف بأثير نفسي، وأنا عائد إلى البلدة في طريقي الحبيب الذي تحتضنه أشجار الكافور الخضراء الفارعة - لم يكن أعذب لنفسي من زقزقة تلكم العاصفير التي مازجت أصواتها أحلامي، وأنعشت ألحانها إلهامي - في هذه الساعة السعيدة طابت أحلامي، ونَبُل حديثي مع نفسي، ولم يكن يهزني إلا مرأى الفلاحين المساكين، وهم يكدحون حول الوادي في صبر وقناعة وأحلام مضطربة. . .
ثم تعاودني أصوات العصافير فتحمي مادوم بنفسي من هزات الأسى، وتنقل إلى شعورها الفرح، وتبعث في سعادتها البريئة.
يا إلهي، لكأنك خلقت العصافير للطبيعة أطفالاً كما خلقت للناس أطفالهم! وشتان بين أطفالها وأطفالنا! فأطفالها في طفولة خالدة، وأطفالنا بعد عمر قصير يكبرون، فتنداح براءتهم وتنمحي شفافة نفوسهم!
هؤلاء الأطفال الخالدون يُنَبِّلونَ انفعالاتنا، ويطهرون نفوسنا من هموم الأعمال اليومية، ويخلقون لنا جواً روحياً ساجياً ينعم في بحبوحته الأدباء والشعراء، ويلقون علينا دروساً روحية ثمينة. ولقد ألقت عليَّ عصفورة درساً خلقياً بليغاً، وأنا في حديقة (مونسو) البديعة بباريس، عندما كنت ألقي لها فتات الخبز، فكانت وهي تتناوله تنادي أخواتها لتشاطرها الغذاء، وهذا درس في الإيثار يلقيه علينا هؤلاء الأطفال الكرام
ولكم أحب الأدباء هؤلاء الأطفال الأعزة. ومن بين هؤلاء الأديب الفرنسي كوبيه في قطعته (موت العصافير) التي يُظهِرُ فيها إشفاقه عليها ويبدي تخوفه من مفاجأة الموت لها في الشتاء، ويسائل في انفعال وهزة: (هل العصافير تختفي لتموت؟).
والذي نعلم أن العصافير تختفي في مكان أمين وأنها في الجو الطليق تجد أماناً من الموت ولا تخشاه، وإنما هي تخشى الإنسان، وهي إذ تمرح في أمن وإيمان، وتحمل الغذاء في كل مكان، وتستقبل الشمس في الصباح وتودعها في الغروب، إنما تحمل للإنسان رسالة الفرح والبراءة والجمال، والحياة الطويلة، إن لم أقل الخالدة!
هكذا قال زرداشت
للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه
ترجمة الأستاذ فليكس فارس
رأيتني هجرت الحياة واخترت مهنة حارس للقبور على الجبل المقفر حيث يرتفع قصر الموت، فكنت أحرس النعوش وهي أسلاب النصر تغص بها الدهاليز المظلمة، فكنت أرى الساقطين في معترك الحياة المسجين في التوابيت المغطاة بالزجاج يحدجونني بنظراتهم المروعة. وهنالك نشقت عرف الأبدية غباراً يتطاير على روحي فيرهقها ولا أستطيع أن أنفض عنها هذا الغبار الثقيل
وكانت أصداء الليل تدور بي ومعها شبح العزلة والانفراد، فكان رفيقي سكون الموت تتعالى فيه من حين إلى حين حشرجة المدنفين
وكنت أحمل المفاتيح وقد علاها الصدأ أعالج بها أصلب الأبواب فتصرف مصاريعها بصراخ أبحّ لئيم يذهب مدوياً في الدهاليز كأن الدرفات أجنحة تقبضها أطيار تنعق متململة ممن يريد تنبيهها من رقادها
وعندما كان يخيم السكوت بعد هذا الدوي كان يبلغ رعبي أشده فأبقى وحدي محاطاً بهذا الصمت الرهيب
ومر الزمان متمهلاً، لو صح أن في مثل هذه الرؤى زمان، إلى أن وقع ما أفقت له مذعوراً.
قرع الباب ثلاث مرات بدوي كأنه الرعد القاصف، فهتفت الدهاليز ثلاث مرات بصدى كأنه الزئير، وتقدمت إلى القفل أعالجه فلم يتزحزح قيد أنملة، وهبت العاصفة بشدة فدفعت بالمصراعين ورمت إليّ بنعش أسود وقد تصدع الهواء بالصفير والولولة وسقط النعش فانحطم وخرجت منه آلاف من القهقهات، فرأيت آلافاً من الأطفال والملائكة وطيور البوم والمجانين والفراشات الضخمة يطفرون حولي ساخرين واستولى الخوف عليّ فإذا أنا مطروح على الأرض أصرخ صراخاً مريعاً فانتبهت لصوتي مذعوراً.
وسكت زارا لحظة وهو حائر فإذا بأحب أتباعه إليه ينهض ويقبض على يده قائلاً: (إن

تعبير رؤياك إنما هو في حياتك نفسها يا زارا. أفلست أنت النعش وقد حشدت الحياة فيه سيئاتها وعبوس ملائكتها؟ أفليس زارا يحتاج اللحود مقهقهاً كالأطفال ساخراً بالساهرين على القبور الخافرين لها، مستهزئاً بكل من تقرقع المفاتيح في أيديهم.
لسوف يذعر هؤلاء الناس منك فيطرحهم ضحكك أرضاً فيغمى عليهم ثم ينتبهون وبذلك يثبت عليهم سلطانك.
لقد أطلعت لنا كواكب جديدة في الآفاق ونشرت من الليل ما كنا نجهله من البهاء. والحق أنك مددت ضحك فوق رؤوسنا فأظلنا بعديد ألوانه. فمنذ الآن ستتعالى قهقهة الأطفال من النعوش وستعصف من الجهود القاتلة الريح التي نتوقعها.
لقد مثّلت نفسُك أعداءك فأزعجتك رؤياك، ولكنك انتبهت منسلخاً عنهم وعدت إلى روعك، وهم أيضاً سينتهون فيرجعون إليك.
هكذا تكلم التابع، فدار سائر الأتباع بزارا يشدون على يديه محاولين إقناعه بالنهوض من فراشه والانسلاخ عن أحزانه ليعود إليهم، غير أن زارا بقي جالساً على فراشه وعيناه جاحظتان كأنه عائد من سفر بعيد لا يعرف ممن حوله أحداً، ولكن أتباعه رفعوه وأوقفوه فانتبه فجأة وتغيرت سحنته فمد يده يداعب شعر لحيته ورفع عقيرته قائلاً:
- كل هذا سيكون عندما يحين زمانه. فأعدوا لنا غذاء طيباً الآن لأكفر عن الرؤيا التي رأيت؛ غير أن العراف سيجلس إلي جنبي ليأكل ويشرب معي وسأريه بحراً يغرق فيه نفسه
هكذا تكلم زارا. . .
. . .ولكنه حدق في وجه تابعه الذي عبر له حلمه، حدق به طويلاً وهو يهز رأسه الفداء
وسار زارا يوماً على الجسر فأحاط به رهط من أهل العاهات والمتسولين وتقدم إليه أحدب يقول له:
- التفت إلى الشعب يا زارا فهو أيضاً يستفيد من تعاليمك وقد بدأ يؤمن بسنتك. ولكن الشعب بحاجة إلى أمر واحد ليتوطد إيمانه بك: عليك يا زارا أن تتوصل إلى إقناعنا نحن أهل العاهات. وأمامك الآن نخبة منهم وما لك بعد مثل هذه الفرصة تنتهزها لتقوم باختبارك
على مثل هذا العدد من الرؤوس. بوسعك الآن أن تشفي العميان والمقعدين فتخفف الأثقال، وتريح المتعبين. تلك هي الطريقة المثلى لهداية هؤلاء القوم إلى الإيمان بزارا
فأجاب زارا:
- من يرفع عن ظهر الأحدب حدبته فقد نزع منه ذكاءه. هذه هي تعاليم الشعب. وإذا أعيد النور إلى عيني الأعمى فأنه ليرى على الأرض كثيراً من قبيح الأشياء فيلعن من سبب شفاءه. ومن يطلق رجل الأعرج من قيدها فانه يورثه أذية كبرى إذ لا يكاد يسير ركضاً حتى تتحكم فيه رذائله فتدفعه إلى غاياتها. هذه هي التعاليم التي ينشرها الشعب. وهل على زارا إلا أن يأخذ عن الشعب ما أخذه الشعب عنه؟
غير أنني منذ نزلت بين الناس سهل على أن أرى منهم من تنقصه عين، ومن تنقصه أذن، وآخر فقد رجليه؛ وهنالك من فقدوا لسانهم أو أنفهم أو رأسهم.
وهكذا رأيت أقبح الأمور. وهنالك أشياء أشد قبحاً مما ذكرت لا يسعني ذكرها فما يصعب عليّ سكوت عن أكثرها.
رأيت رجالاً فقدوا كل شيء، غير أنهم يملكون شيئاً يسوده الإفراط، فهم رجال كأنهم عين عظيمة أو فم واسع أو بطن كبير أو عضو آخر كبير لا غير. وما هؤلاء الناس إلا أهل العاهات المعكوسة
وعندما عدت من عزلتي لأجتاز هذا الجسر للمرة الأولى وقفت مندهشاً لا أصدق ما أرى فقلت: هذه أذن، أذن وسيعة كأنها قامة رجل؛ وتقدمت إليها فلاح لي وراءها شيء صغير لم يزل يتحرك وهو ناحل ضعيف يستدعي الإشفاق، فان الأذن الكبرى كانت قائمة على ساق دقيق. وما كانت هذه الساق إلا إنساناً. ولو أنك تفرست في هذا الشيء بنظارة لرأيت فوقه وجهاً يتقطب بالحسد وينم عن روح صغيرة تريد الانتفاخ وترتجف على قاعدتها.
وقال لي الشعب: إن هذه الأذن ليست رجلاً فحسب، بل هيأيضاً رجل عظيم بل عبقري من عباقرة الزمان. غير أنني ما صدقت الشعب يوماً إذا هو تكلم عن عظماء

الرجال، فاحتفظت بعقيدتي وهي أن هذا الرجل ذو عاهة معكوسة إذ ليس له إلا القليل من كل شيء والكثير من شيء واحد.
وبعد أن وجه زارا هذا الخطاب إلى الأحدب ومن تكلم بالوكالة عنهم أتجه نحو أتباعه وقد
تحكم الكدر فيه فقال:
والحق أنني أسير بين الناس كأنني أمشي بين أنقاض وأعضاء منثورة عن أجسادها. وذلك أفظع ما تقع عليه عيناي فأنني أرى أشلاء مقطعة كأنها بقايا مجزرة هائلة. وإذا ما لجأت عيني إلى الماضي هاربة من الحاضر فأنها لتصدم بالمشهد نفسه. فهنالك أيضاً أنقاض وأعضاء أشلاء وحادثات مروعة. ولكنني لا أرى رجالا . . .
إن أشد ما يقع عليّ أيها الصحاب إنما هو الحاضر والماضي وما كنت لأطيق الحياة لو لم أكن مستكشفاً ما لابد من وقوعه في آتى الزمان، وما زارا إلا باصرة تخترق الغيب فهو رجل العزم وهو المبدع، هو المستقبل والمعبر المؤدي إلى المستقبل، هو وا أسفاه ذو عاهة ينتصب على هذا المعبر.
وأنتم أيضاً تتساءلون مراراً: من هو زارا؟ وبماذا نسميه؟ فلا تتلقون غير السؤال جواباً كما أتلقاه أنا.
أهو من يَعِدُ أم من ينفذ الوعد؟ أهو فاتح أم وريث أهو الطبيب أم هو الناقه؟
أشاعر هو أم حقيقة؟ أمحرر أم متسلط؟ أصالح أم شرير؟
ما أنا إلا سائر بين الناس قطعاً من المستقبل الذي يتراءى لبصيرتي، وجميع أفكاري تتجه إلى جمع وتوحيد كل متفرق على أسرار ومبدد على الصدف العمياء.
وما كنت لأحتمل أن أكون إنساناً لو أن الإنسان لم يكن شاعراً محللاً للأسرار ومفتدياً لإخوانه من ظلم ما تسمعونه صدفة ودهراً. وما الفداء إلا في إنقاذ من ذهبوا، وتحويل كل ما كان إلى ما أريد أن يكون.
ما المخلص والمبشر بالغبطة إلا الإرادة نفسها وهذا ما أعلمكم إياه يا أصحابي، ولكن اعلموا أيضاً أن هذه الإرادة لم تزل سجينة مقيدة.
إن الإرادة تنقذ، ولكن ما هي القوة التي تفيد المنقذ نفسه؟
إن داء الإرادة الوحيد إنما هو كلمة (قد كان) تقف الإرادة أمامها تحرق الأرّم عاجزة عن النيل كل ما كان، فالإرادة تنظر بعين الشر إلى كل ما فات وليس لها أن تدفع بقوتها إلى الوراء، فهي أضعف من أن تحطم الزمان وما يريده الزمان، وهذا داء الإرادة الدفين
إن الإرادة تنقذ، ولكن ما هو تصور الإرادة في عملها للتخلص من دائها وهدم جدران سجنها؟
وا أسفاه! إن كل سجين يصبح مجنوناً، وما تنقذ الإرادة السجينة نفسها إلا بالجنون.
إن الزمان لا يعود أدراجه. ذلك ما يثير غضب الإرادة وكيدها فهنالك صخر لا طاقة للإرادة برفعه، وهذا الصخر إنما هو الأمر الواقع.
هكذا تكلم زارا. . . . . .
فليكس فارس
رسالة الشعر
في استانلي
للأستاذ محمود غنيم
كلُّ شيء في الصيف يشكو الخمودا ... وأرى البحرَ وحدَهُ في نشاطِ
قذف البحرُ درَّهُ المنضودّا ... أرأيت الجُمانَ فوق الشاطِي؟
يا خليليَّ أين أين الرداءُ؟ ... أنا مالي بكلِّ ذاكَ يَدَانِ
ذاكَ ماءُ أمْ هذه كهرباءُ ... أمْ لهذا الخليجِ تيَّارانِ؟
أنا أخشى عوارىَ الأجسادِ ... لست أخشى العُبآبَ والإعصارَا
يصرَعُ الموجَ ساعدي وفؤادِي ... خائرٌ واهنٌ أمامَ العذارَى
رفعوا في الزوابع الأعلاماَ ... يُنْذِرون الأنامَ بالأخطارِ
نكَّسوها ثم ارفعوها إذا ماَ ... لاح سربٌ من الأوانسِ عارِ
أعَوارٍ تلك الدَّمَى أم كواسى ... بلباس يفصَّل الأجسامَا؟
لا وقاه اللهُ البلى من لباسٍ ... إنه كان واشياَ نمامَا

صاح ماذا رأيتُ حولَ الماءِ ... أهوَ سِرْبٌ من الحمائِمِ ظَامِ؟
طيَّبَ اللهُ خاطرَ الصحراءِ ... أصبح البحرُ مرتعَ الآرامِ
ها هنا لؤلؤٌ بغير محارٍ ... سابحٌ باحثٌ عن الغوَّاصِ
وظباءٌ لم تَدْرِ معنى النفَّارِ ... تَضَعُ السهمَ في يد القنَّاصِ
أُنظر الشمسَ والهوى والهواء ... كيف راحت تنسابُ في الأجسامِ
إن للشمس والهواءِ شفاء ... لا يساوي ما للهوى من سقامِ
رُبَّ ثغرٍ يداعبُ الأمواجاَ ... ينثُرِ الماء كاللُّجين المُذابِ
تشتهيه النفوسُ ملحاً أُجاجاَ ... خارجاً من بين الثنايا العِذابِ
رُبَّ قين غاصتا في الماءِ ... كلُجينٍ ينسابُ وسْط لجينِ
بدتا آيتينِ في الإغراءِ ... وهما فيه نصفُ عاريتين
إن فوق الرمال غيداً نياماً ... كالأفاعي: لينٌ بغير عظامِ
ليس سُمًّا لهابُها بل مُداماً ... هو بُرْءُ السقيمِ، ريُّ الظَّامِ
قال جاري: ألا تكونُ رزيناَ؟ ... قلت: لا تلحني: فقدتك جارَا
وتلفتُّ يَسْرَةً ويميناَ ... قال: ماذا أضعت؟ قلت: الوقارَا
أيها المشتكي من الإقلالِ ... مَتِّعِ النفس بالجمال مَتَاعَا
لم يُبيحوا لنا شُيُوعَ المالِ ... وأباحوا لنا الجمال مُشاَعاَ
صاح قل لي: ما بال تلك الصدورِ ... كَشفْهُا لا يحِلُّ للأحداقِ؟
ليتهم حرَّموا ذواتِ الشُّعورِ ... فهْي عندي مثل القذى في المآقي
لا تَضيقوا بالمعصم المكشوفِ ... وتقولوا: خيرُ الجمال المصونُ
ما غَنَاءُ الشَّذَى بغير أنوفِ؟ ... قيمةُ الحسنِ أن تراه العيونُ
لا تقولوا: قد غاض ماءُ الحياءِ ... واقرءوا الآيَ في وجوه الحسانِ
رُبَّ عضوٍ من هذه الأعضاءِ ... نَمَّ عن سرِّ قدرة الرحمن
أيها الآسفُ الحزينُ الباكِي ... إبكِ ما شئتَ ضيعةَ الأخلاقِ
قِفْ إن أسْطَعْتَ دورةَ الأفلاكِ ... أو فَكلْ أمرَ الخلق للخلاَّقِ
ها هنا أعشَقُ الملاحَةَ صِرْفَا ... ما عليها من الثياب غِشاءُ
ها هنا ليس يعرف الكحلُ طرفَا ... لا ولا يَغْمُرُ الخدودَ طِلاءُ
ها هنا روعةُ الطبيعة تبدُو ... فتراها عذراء بين العذارَى
أُنظر البحرَ وهْو جزر ومدٌّ ... وأنظرِ الشمس فيه إذ تتواري
أيها البحرُ قد نزلتُك ضيفَا ... فكأني أغرقتُ فيك همومي
ليت عمْري جميعَهُ كان صيفَا ... ينقضي فوق شطِّ بحرِ الرُّومِ
(الإسكندرية)
محمد غنيم
!.وحي جديد
إلى ذات الوجه الأسمر
.هذه السُّمُرَةُ العجيبةُ، ماذا ... راح يُغْرِي بوصفها تبياني؟
أين شعري منها، وأين خيالي ... هي فوق الخيال والأوزانِ
رُبَّ معنى توحي به لم يحوِّمْ ... حوله شاعرٌ مدى الأزمانِ
أنا منها في مهبط لوحي، لكن ... عَقَدَ الحبُّ في ذَراها لسانِي
غير أني مُسْتَلْهِمٌ سِحْرَ عينيك ... م المعاني، ويالها من مَعانِ
لا تَغُضِّي عن جفونَكِ حتى ... أتلقَّى عنهنَّ آي افتنانِي
أسعديني بنظرةٍ منكِ تَشْفِي ... غُلَّةَ الصدرِ مِنْ شَجِيِّعانِ
وهَي لي سويعةً من وصالٍ ... بعد عمرٍ قضيتُ في حرمانِ
وأتيحي لناظريَّ متاعاً. . . ... عبقرياً من حسنك الفتَّانِ
أضجعي رأسكِ الصغيرَ على صد ... ري وأصْغي لهذه الألحانِ
ودَعيني أسكِبْ بأذنيك أنغا ... م جريح شدا على الأغصانِ
!.لا تشيحي عني بوجهٍ أفدّيه ... بدنيا من باسمات الأماني
(القاهرة)
أحمد فتحي

من صور الطريق
الأعمى. . .
هّدَّهُ السَّيْرُ، وأضْوَاهُ المَطَافُ ... فَتَولَّتْ هَدْيَهُ الخِمسُ الُّلطَافُ
وَاهِنُ الخطْوَةِ لَمْ تَنْهَضْ بَهِ ... مِنْ عَيَاءِ الْجِسْم أَطْرَافٌ ضِعَافُ
رَاعَني مِنهُ جَبينٌ شَاحبٌ ... كجبين الزَّهْرِ أَذْوَاهُ القِطَافُ
وَيدٌ مِنْ حَوْلِهِ حَائِرَةٌ ... دَأبُها في السَّيْر حَفْقٌ وَارْتِجافُ
رَهْنُ كَيفَّيْهِ السَّنَا لَكنَّما ... دُونَ عَينيهِ حِجابٌ وسِجَافُ
مَنْ رَأَى الظَمْآنَ يَرْجُو رَشْفَةً ... وعَلَىَ مَرْمَى ذِرَاعَيْنِ الضِّفَافُ؟
يَا مُطِيفاً لا تَنَي عَزْمَتُهُ. . . ... أيْنَ يَرْسُو بِكَ في الأَرْضِ الطَوَافُ . . .
رَنَّحَتْ عِطْفَيْكَ أَوْصَابُ الضَّنَى ... مِثْلَمَا رَنَّحَتْ الْعِطْفَ السُّلاَفُ
وَشَغَافُ القَلْبِ أَذْواهُ الأسَى ... فَذَوَى مِنْ طُولِ ما يَلْقَى الشَّغَافُ
حَوْلَكَ النَّاسُ جُمُوعٌ حُشِدَتْ ... وَلَهُمْ عَنْكَ بِعَادٌ وَانصِرَافُ
لَمْ يُصَافُوا مَنْ خَلَتْ رَاحَتُهُ ... وَاحْتَفِوا بِالرَّاحَةِ المَلأَى وصَافُوا
فامْضِ في شَأنِكَ لا تَحفْلْ بِهِمْ ... أَتجَافَوا عَنْكَ أمْ لَمْ يَتَجَافُوا
لا تُرَجِّ النَّصْفَ، أوْ تَشْكُ الأسى ... لَيْسَ بَيْنَ النَّاسِ عَدْلٌ وانْتِصَافُ
أَرَأَيْتَ النَّضْوَ يَشْكُو دَاءهُ ... لِطَبِيبٍ طِبُّهُ سُمٌّ زُعَافُ
لَوْ أَتَاهُ النَّاسُ طُرًّا خُضَّعاً ... وَافَت الدُّنْيَا بِنُعْمَاهَا وَوافُوا
أَوْ سَعَى المَجْدُ إِلَيْهِ، وَلَهُ ... بِجَنَابَيْهِ اعْتِصَامٌ وَالْتِفَاَفُ
لَمْ يَجِدْ فيهِ غنيً عَنْ عَيْنِهِ ... فَرغَابُ الْمَجْدِ والدُّنْيَا زِيَافُ
قَسَماً لَوْ زُفَّتْ الدُّنْيَا لَهُ ... فِي مَجَالِيها لَمَا أَجْدَى الزِّفَافُ
لَيْسَ يُغْنِي الزَّهْرَ في مَنْبَتِهِ ... رَائِعُ الطَّلْعَةِ وَالْجَوُّ جَفَافُ
(الإسكندرية)
أحمد فتحي مرسي
القصص
على سور (جينان)
للكاتب الصيني الشهير (يانغ جينغ شينغ)
ترجمة محمد مكين الصيني
لما رجع (هونغ سين) إلى المنزل قال لأخيه: (هل سمعت أن اليابانيين يريدون أن يحتلوا مدينة (جينان)؟)
فأخذ أخوه يشك في وفاء جنود الصين وقال: (ألم يقاومهم جنودنا؟)
قال وهو يريد أن ينوه بكرامة جنود الصين إخلاصهم: (بلى!)
فجعل أخوه يرتاب في كفايتهم قائلاً: (هل في المدينة قوة كافية؟)
قال: (لا بد أن تسقط المدينة في أيدي اليابانيين عاجلاً أو آجلا! ولكن الواجب علينا أن ندافع عنها باذلين أقصى جهدنا، فإن خضعت لهم في آخر الأمر قوتنا فلن تخضع لهم روحنا.) ثم رفع رأسه وأصلح بيده شعره.
فطفق أخوه يرتاب في توازن القوتين المتحاربتين قائلا: (بلغني أنه قد وصل إلى (جينان) خمسة آلاف من جنود اليابان.)
قال، وهو يتمشى في الغرفة: (اسمع! قد شرع اليابانيون يطلقون المدافع! لا يتوقف الانتصار على كثرة الجنود، فإذا اشتدت حمية قومنا وتطوع نصفهم للدفاع فلا تخش سوء العاقبة ولو. . .)
ثم توقف عن الكلام لأن قلم الرصاص الذي في يد أخيه انكسر ونشأ عن ذلك فرقعة صغيرة، ووقف ينظر إلى أخيه بعين الريبة وسكت هنيهة ثم قال: (هل كتبت في هذه الأيام إلى السيدة الوالدة؟)
قال أخوه: (لا. قد انقطعت المواصلات بين (جينان) و (تسينغ تاو) منذ أيام كما علمت فلا يمكن أن يصل إليها الخطاب لو بعثت به.)
إذا لم يصلها خطاب منا فلا محالة يشتد اضطرابها. ولا أمل في الدراسة هذا العام) - مع هذه الحالة، فان استطعت أن تعود إلى البلد مبكراً فعلت. إن السيدة الوالدة بعد وفاة السيد

(الوالد في حاجة إلى من يعولها، ويكفي أن يتطوع أحدنا للدفاع
ولما سكت تأمل فيه أخوه شاكا في أمره.
وقد أكثر من الكلام، وبعد أن دار في الغرفة دورتين جلس إلى مكتبه فأخذ كتاباً ينظر فيه كأنه يطالعه.
قد تتابعت في ضواحي المدينة أصوات المدافع وارتفعت الصيحات داخل المدينة.
تذكر فجأة أمراً ما فوضع الكتاب على المكتب ورمق أخاه حزيناً كئيباً يقول: (شانغ سين!)
(مالك يا هونغ سين؟)
قال لأخيه بكل لطف: (اذهب إلى الآنسة (لوس) لعلها هي وأمها في حال سيئة من الذعر)
فأومأ أخوه برأسه أن سمعاً وطاعة.
وبعد خمس دقائق جلجلت أصوات المدافع تتخللها فترات قصار، فقام أخوه يقصد الباب فصافحه قائلاً: (يا أخي!)
وقد خالف في ندائه هذا عادته فإنه كان دائماً يدعو أخاه باسمه فتلاقى بصره ببصر أخيه ثم قال: (إلى اللقاء!)
فنظر إليه أخوه نظرة المحزون المهموم وقال: (ألا تخرج الليلة فتكتب خطاباً إلى السيدة الوالدة؟)
فأشار برأسه أنه سيفعل، وخرج أخوه، وكان ذلك بعد الظهر.
وبعد المغرب أخذت أصوات المدافع تتكاثر وتتعالى في ضواحي المدينة، وارتفعت الصيحات بالويلات؛ ولما كاد الليل ينتصف خفتت أصوات المدافع شيئاً فشيئاً وأخذت تقل، وكان (هونغ سين) يتمشى في غرفته ويظن أن أخاه في منزل الآنسة (لوس) فدعا له بالأمن والسلامة، ثم فتح خزانة الثياب وأخرج منها ثوباً من ثياب الألعاب الرياضية فلبسه، وشد رباط حذائه ثم أقفل باب المنزل وخرج.
وكان القمر وهو في أيام التربيع الثاني ممتقعاً لونه معلقاً في جو الشرق تحيط به غيوم فاحمة كأنها تحاول أن تبتلعه.
وكانت الرصاصات وقنابل المدافع تتطاير هنا وهناك، وأصوات البكاء والعويل تملأ أذنيه.
جعل يمشي في أقرب طريق إلى البوابة الغربية لسور المدينة. ولم يخطُ إلا خطوات قلائل
حتى طارت قنبلة من فوق رأسه فوقعت على جدار بعض البيوت فَمُلئت أذناه جلبة وضوضاء من تهدم الجدران يعقبه أصوات الفزع والصراخ والبكاء؛ ثم عاد الجو بعد هنيهة إلى ما كان عليه من سكون وهدوء.
ولما اجتاز عدة شوارع رأى بيتاً تشتعل فيه النيران اشتعالاً هائلاً، ورأى جماعة من الرجال والنساء، منهم من يحمل على ظهره أمه الفانية، ومنهم من يقود أباه الهرم، ومنهم من تحمل على ذراعها رضيعها، وهم يهيمون على وجوههم في الشوارع باكين صارخين لا يدرون إلى أين يلتجئون. وبيناهم كذلك إذا بقنبلة تسقط بينهم فانفجرت فمليء الجو صراخاً وأنيناً: أنين الذين يشرفون على الموت الزؤام، فأغمض عينه ومضى في سبيله قدماً بخطوات واسعة. ثم ارتبكت رجلاه فجأة ارتباكاً كاد يعثر منه، فنظر إلى الأرض فإذا بجثة سيدة ملقاة على الثرى تبين في نور القمر أن قنبلة قد ذهبت بإحدى رجليها وتركتها غارقة في دمائها البريئة، وطفل لم يمض على ولادته حول كامل مكب على صدرها يرضعها
ولما بلغ جانب السور رأى نور القمر يسطع من بين الغيوم السوداء، وشاهد كثيراً من جثث الجند مبعثرة على مسند السور هنا وهنالك يئن فيها من لم تزهق نفسه بعد، فالتقط من الأرض بندقية وسلب إحدى الجثث كنانة الرصاص ثم أخذ يصعد على السور، وما كد ينتهي إلى شرفاته حتى تدحرجت جثة من فوق السور عثر فيها ثم نهض من عثرته على الفور، ولما انتهى إلى الشرفات التفت يمنة ويسرة فوجد مسافة نيف وخمسين متراً خالية من حراسة الجند، ثم أخرج رأسه من بين شرفتين ليعرف حالة العدو، فطار نحوه الرصاص ومر بجانب أذنه، فأنسحب سريعاً وانتقل إلى ما بين الشرفتين الخامسة والسادسة من يساره، وأخرج رأسه مرة أخرى فرأى بأشعة القمر

بضعة عشر جندياً يحاولون تسلق السور من هذا المكان الخالي من الحراسة، بعضهم على أكتاف بعض، فصوب بندقيته إلى أحدهم في الطبقة السفلى وأطلق عليه رصاصة فأصابته بالمصادفة فانهارت الطبقة السفلى وتدحرج الذين فوقها إلى الخندق كلهم أجمعون.

ولكن بعد هنيهة اجتمعوا عند السور مرة أخرى فأطلق عليهم رصاصتين فأصاب أحدهما وأخطأ الآخر، وبينا هو في اضطراب وغضب إذا برجل يناديه من وراء ظهره: (من أنت يا رجل؟!)

أجابه (هونغ سين) بدون تروّ ولا تردد: (من عساكر الخفية.)

ولما التفت إلى خلفه وجد بضعة عشر جندياً قد أتوا إلى النقطة التي يدافع عنها وحده فدلهم على اليابانيين تحت السور، فأطلقوا عليهم وابلا من الرصاص فأصابوا شرذمة منهم وتوارى الباقون في حقول القمح بجانب السور، ولم لم يحسوا بحركتهم ظنوا أنهم قد فروا من وجوههم، فأخرجوا مطمئنين رءوسهم من خلال الشرفات، وإنهم لكذلك إذا بنار تلألأت أمامهم عن بعد، وإذا بقنبلة طارت نحوهم فذهبت بإحدى الشرفات وتطايرت شظايا القنبلة في كل صوب، ومات عقب انفجارها أكثر المدافعين عن السور؛ فأنسحب الباقون إلى نقطة أخرى بعيدة عن مسقط القنبلة ثم جاءت قنبلة أخرى لم تصب شيئاً.

وبعد بضع دقائق اقترب بضعة عشر جندياً يابانياً من السور فأطلق عليهم وابل من الرصاص فاختفوا في حقول القمح

واستمروا على الكر والفر، وبعد مدة مات المدافعون عن السور من قنابل المدافع ولم يبق منهم إلا جندي واحد مع (هونغ سين) الذي أصيب في ذراعه اليسرى فعصبها بمنديله.

انفجر الليل واجتمع الأعداء في شرقي السور الشمالي وخف الضغط على نقطتهما فأخرج (هونغ سين) من جيبه علبة لفائف التبغ وقدمها إلى زميله الجندي قائلاً: (دخن لفافة)

ثم جلسا خلف شرفات السور ورأيا مئات من آثار قنابل المدافع على السور وقد أشتمل ضباب الصباح على وحشة واكتئاب

قال (هونغ سين): (لولا عرقلة اليابانيين لوصلت جيوشنا إلى مدينة (ديجو):)

وقال الجندي: (يسوءني جداً أنهم أهلكوا الليلة خلقاً كثيراً من إخواننا.) ثم أمتص الدخان بقوة.

وعبر (هونغ سين) عن آماله قائلاً: (لعل عدد الباقين منا يكفي للدفاع عن المدينة يوماً آخر.)

فهز الجندي رأسه ثم أخرج من جيبه رغيفاً من الخبز وقال لزميله: (أتحب أن تتناول شيئاً من هذا؟) فهز (هونغ سين) رأسه وأخرج لفافة من لفائف التبغ ليسد بها جوعه دار الجندي بعينيه حول وجه (هونغ سين) وأطرافه وهو يأكل من خبزه ثم قال: (يا أخي! إنك لا تشبه الجندي في الصورة.)

فسأله (هونغ سين) مبتسماً: (لا يهمني هل أشبه الجندي في الصورة أو لا أشبهه. قل لي هل أشبه الجندي في الدفاع؟)

قال الجندي معجباً به: (نعم ما رأيت قط جندياً باسلاً داهية مثلك!)

ثم شبع الجندي فكثر حديثه فقال. (ألا إن المتطوعين في هذه المرة كثيرون، وكنا بعد ظهر أمس ندافع في جهة الجنوب فجاء طالب من طلبة المدارس ليساعدنا على الدفاع، وما كان أشجعه في القتال! ولكنه واأسفاه لم يكن يدري كيف يختفي وراء شرفات السور فأصيب بعد قليل بجرح.)

قال (هونغ سين): (أكان ذلك بعد ظهر أمس!)

(.نعم)

(كيف شكله؟)

(.أقصر منك بقليل ويشبهك في السحنة غاية الشبه)

قال ذلك وهو يديم النظر إلى عيني (هونغ سين)

فسقط على الأرض ما بقي في يد (هونغ سين) من لفافة التبغ

فسأل الجندي فزعاً: (هل يلبس الزي الأزرق الخاص بالطلبة؟)

(.نعم)
قال هذا وهو فاغر فاه ينتظر جواب صاحبه الذي قال (أجرحه في خطر؟):
(جرح في ترقوته اليسرى، فإذا أتيح له من يسعفه أمكن أن يشفى؛ ولكن أنى يكون لنا فراغ لنعتني بجرحه؟ فتساقط المسكين على الأرض وجعل ينادي: (يا أماه!) فسأله على سبيل المزاح
(يا رجل! أفتريد أن ترضع أمك؟)
فنهض (هونغ سين) من فوره.
فقال له الجندي: (أتريد أن تعود إلى المنزل؟)
(.لا. بل إلى جهة الجنوب)
(لإسعاف الجرحى؟)
ثم مشى نحو الجنوب (لإسعاف شقيقي؟).
فقال الجندي: (وا أسفاه!)
في هذه اللحظة نفسها اشتد هجوم الأعداء في شرق السور الشمالي وتوالت أصوات المدافع وتعالت معمعة المدافعين على السور وأصوات البكاء والعويل والصراخ داخل المدينة كأن الأعداء قد اقتربوا من جانب السور هناك.
فأدبر (هونغ سين) ودنا إلى شرقي السور الشمالي ساكتاً صامتاً يسمع الجندي يقول:
(يا للخطر! إن عدد المدافعين هناك غير كاف، وإني لذاهب إلى مساعدتهم.)
رأى الجندي ينهض من مكانه فيضع على كتفه بندقيته ويمشي نحو الشرق الشمالي.
فناداه (هونغ سين): (أنتظر!)
فأقبل الجندي ووجده واقفاً واجماً رانياً إلى شرقي السور الشمالي ولا يذهب إلى الجنوب.
فسأله الجندي: (مالك يا أخي؟)
فلم يجبه ببنت شفة وهو لا يزال واقفاً في مكانه شاخصاً ببصره.
قال الجندي: (أنا ذاهب)
(نذهب معاً)
فهز (هونغ سين) رأسه هزة ومسح بكمه مدامعه وأخذ يعدو مع الجندي نحو شرقي السور الشمالي الذي اشتدت عليه قنابل المدافع اليابانية.

محمد مكين الصيني
أحد أعضاء البعثة الصينية في الأزهر
البريد الأدبي
حول العيد الألفي للأزهر

أذاعت الصحف أن مشيخة الجامع الأزهر تنوي أن تضع برنامجاً جديداً للاحتفاء بالعيد الألفي للأزهر، وأنها ستبدأ قريباً باتخاذ الخطوات العملية لإحياء هذه الذكرى الخالدة، وهذه أول مرة نسمع فيها مذ تقلد الشيخ الأكبر منصبه باهتمام المشيخة بعيد الأزهر؛ وقد كانت للمشيخة عناية خاصة بهذا العيد منذ أعوام، وكان لها برنامج حافل وضعنه للاحتفاء بالذكرى الألفية. وقد اتخذت بالفعل عدة خطوات عملية في هذا السبيل فانتدبت مختلف اللجان لوضع تاريخ الأزهر ولتنظيم الاحتفال، ودعوة مندوبي العالم الإسلامي، وغير ذلك مما يقتضيه إحياء هذه الذكرى الجليلة؛ ولكن هذه الاستعدادات وقفت فجأة منذ نحو عام ونصف، وقيل يومئذ إن الوقت ما يزال متسعاً فلا داعي للعجلة في هذا الاستعداد؛ وكان هذا القول غريباً في ذاته لأنه لم يبق بيننا وبين انقضاء الألف عام على قيام الأزهر سوى ثلاثة أعوام إذا اعتبرنا تاريخ البدء في إنشائه وهو جمادي الآخرة سنة 359هـ؛ وقد اعتادت الحكومات والهيئات العلمية أن تحسب حساب هذه الأعياد قبل وقوعها بأعوام طويلة، وأن تتخذ أهباتها في تؤدة وروية، وأن تعد كل شيء بنظام حسن؛ ونحن لا نلوم مشيخة الأزهر لأنها عدلت عن برنامج الاحتفال السابق ووضعت برنامجاً جديداً، لأن البرنامج القديم كانت تحدوه في الواقع بواعث واعتبارات خاصة، وكان واضعوه يتصرفون بروح ضيق، وكانت الفكرة كلها ينقصها الروح القومي والروح العلمي الصحيح؛ ولكنا نأخذ مشيخة الأزهر أنها تأخرت حتى اليوم في الاهتمام بموضوع لا يدانيه شأن آخر من شؤون الأزهر في أهميته وجلاله.

وثمة مسألة أخرى نريد أن نلفت إليها النظر، وهي أن الاحتفال بالعيد الألفي للأزهر يجب أن يكون احتفالاً قومياً بالمعنى الحقيقي، ويجب أن تشرف الحكومة المصرية على وضع برنامجه وعلى تنظيمه؛ ومن حق الأزهر أن يقوم في تنظيم هذا الاحتفال بأكبر قسط ولكنا لا نرى أن يستأثر بوضع البرامج ودعوة اللجان وغيرها؛ وإذاً فيجب أن تتولى تنظيم الاحتفال لجنة حكومية عليا يمثل فيها الأزهر والهيئات العلمية المختارة، وبعض الشخصيات البارزة، ويجب أن يشتمل برنامج الاحتفال على كل ما اصطلح العرف عليه

في مثل هذه المناسبات. وفي وسع اللجنة الخاصة أن تستأنس بما تقوم به الهيئات العلمية الأجنبية في أعيادها الكبرى من المظاهرات العلمية والاجتماعية لإحياء هذه الذكريات.

(م)

كتاب جديد عن مصر

ظهر أخيراً كتاب جديد عن مصر باللغة الألمانية عنوانه (طريق مصر إلى الحرية) بقلم الكاتب الصحفي باول شمتس. والهر شمتس هو مكاتب جريدة (لايبزجر نويسته ناخرختن) في القاهرة، وقد عرف بعنايته بشئون مصر والشرق الأدنى، وتبدو هذه العناية في فصول ومباحث كثيرة ينشرها في الصحف الألمانية عن هذه الشئون. وكتابه عن مصر صغير لا يتجاوز المائة والعشرين صفحة، ولكنه يقدم للقارئ العادي كثيراً من الحقائق والمعلومات النافعة، وهو يصور لنا مصر منذ العهد المسيحي حتى قيام الحرب الكبرى تعيش على هامش التاريخ؛ وفي العصر الأخير تدب في مصر روح الوطنية الملتهبة، وتنهض مصر الفتاة لاسترداد حرياتها واستقلالها أولاً من يد الترك ثم من يد الإنكليز. ومصر اليوم من المراكز الحيوية في سير الشئون الدولية، وفي تطورها، ومصر همزة الوصل بين الشرق والغرب. على أن الهر شمتس لا يقدم إلينا جديداً في تصويره للشئون المصرية، وكل ما هنالك هو أن هذا الكتيب الذي صدر بالألمانية في وقت اتجهت فيه الأبصار إلى مصر يعاون على فهم الشئون المصرية في ألمانيا وأوربا الوسطى.

تاريخ المقاهي

قرأنا في إحدى المجلات الأوربية الكبرى بحثاً طريفاً في تاريخ المقاهي؛ خلاصته أن المقهى منشأة شرقية عرفت أولاً في الشرق. وفي أواسط القرن السادس عشر سافر إلى المشرق طبيب ألماني يدعي ليونارد راوفولف وزار الشام، ورأى في مدينة حلب أول مقهى وشرب فيه أول قدح من القهوة شربه في حياته، وعاد إلى ألمانيا يصف المقهى والشراب الأسود الذي يشبه الحبر؛ وكان المقهى في تلك العصور لا يخرج عن مكان مفتوح يؤمه الناس ويشربون فيه القهوة جلوساً على الأرض؛ وكانت القهوة قد عرفت في البلاد العربية قبل ذلك بنحو مائة عام، ولم يكن المقهى ذائعاً إلا في العواصم الكبرى؛

وعرف الترك المقهى من العرب، وظهر في قسطنطينية أول مقهى في سنة 1554؛ أما في مصر فقد عرفت المقاهي قبل ذلك بنحو نصف قرن.

ومضى قرن آخر قبل أن ذاعت المقاهي في أوربا؛ وفي سنة 1645 ظهرت في البندقية أول دار من هذا النوع؛ ثم ظهرت في لندن وأكسفورد بعد ذلك بقليل؛ وكانت القهوة فيها على الطريقة الشرقية. ولم تلبث المقاهي أن ذاعت في إنكلترا بسرعة. ولبثت المقاهي ممنوعة في روما حتى أوائل القرن الثامن عشر. وظهرت المقاهي في فرنسا في أوائل القرن السابع عشر، وافتتحت في باريس سنة 1689 دار أنيقة سميت قهوة بروكوب؛ وكان الفيلسوف فولتير من روادها. فذاع من بعده ارتياد الأدباء للمقهى؛ ولم يظهر المقهى في برلين إلا في أوائل القرن الثامن عشر.

وكان المقهى في تلك العصور مركزاً للمقابلات والسمر، ولم يعرف الموسيقى إلا في أواسط القرن الثامن عشر؛ إذ افتتح في برلين أول مقهى موسيقي؛ وان هذا النوع من المقهى قد عرف قبل ذلك في باريس؛ وكانت الفرقة الموسيقية التي تختار للعزف فيه تؤلف عادة من بعض الموسيقين العميان؛ وكانت المقاهي تسمى في فينا بالمنتديات الفضية لأن الموائد والكراسي والمشاجب كانت من معدن يطلى بالفضة. وفي سنة 1790 ظهر في لندن مقهى من نوع خاص لا يدخله سوى السيدات؛ ويتولى

الخدمة فيه سيدات. كذلك ظهر في لندن أول مقهى وضعت فيه مائدة البليارد، وكانت عند ظهورها عجيبة من العجائب.

وتطورت المقاهي بعد ذلك. وتفنن أصحابها في تجميلها وتأثيثها وتزويدها بمختلف الملاهي من الموسيقى والغناء وورق اللعب والرقص وغيرها، وبلغت ما بلغت في عصرنا من الأناقة وحسن التنظيم؛ وكثرة التنوع والافتنان في كل ما يجلب المسرة والمتاع إلى نفوس الزائرين، وأضحت منتديات للسمر والسياسة والأدب.

حرية الفكر في مؤتمر القلم الدولي

قرأنا في البريد الفرنسي الأخير أخبار مؤتمر القلم الدولي الذي عقد في باريس في أواخر شهر يونيه. وسبق أن أشارت إليه (الرسالة) وذكرت أن مصر ستمثل فيه على يد وفد من أعضاء نادي القلم المصري برياسة الدكتور طه حسين عميد كلية الآداب؛ وقد شهد المؤتمر مندوبو خمسين دولة وتولى افتتاحه وزير المعارف؛ وكانت أعظم ظاهرة في جلساته

ومناقشاته مسألة حرية الفكر التي أصبحت مهددة في كثير من الدول والتي سحقت بالفعل في بعض الدول التي تسودها النظم الطاغية. وألقى الكاتب الفرنسي الكبير جول رومان رئيس نادي القلم الدولي بهذه المناسبة خطاباً رناناً نوه فيه بقدسية الحرية الفكرية؛ ومما قاله: (إن للفكر قوانينه وأخلاقه وعاداته التي لا تستطيع أية حدود بل ولا يستطيع التاريخ أن يوقفها أو يميلها؛ فالفكر وحده هو الذي يضطلع بوضعها ومراعاتها؛ وإذا تنزل الفكر إلى الدعوة إلى فضائل لا توجد، أو لا تستطيع الوجود إلا بممالأته فهو يرتكب بذلك حماقة لا تغتفر؛ وإذا كانت جمعية القلم لا دخل لها في السياسة فأنا مع ذلك لا نستطيع أن نسترشد إلا بقيمة الفكر وحياته وحقوقه في جميع أنحاء العالم؛ ولن نستطيع أن نقبل أي حجة لتعطيل حرية الفكر وحقوقه، ذلك أنا نعلم أن قبول غل واحد يصفدنا فيما بعد بأغلال لا نهاية لها). هذا وسوف نتحدث في فرصة أخرى عن قرارات هذا المؤتمر الأدبي الخطير.

الأزهر في مؤتمر القوانين

عاد منذ أيام اثنان من أعضاء وفد الأزهر في مؤتمر القانون الدولي بعد الاشتراك في دورة المؤتمر.

وقد بدأت هذه الدورة في اليوم الرابع من هذا الشهر، وكان اليوم الأول خاصاً بحفلة الافتتاح التي أقيمت تحت رعاية وزير العدل في الحكومة الهولاندية واشترك فيها بعض أعضاء محكمة العدل الدولية في لاهاي؛ ثم دامت جلسات المؤتمر بعد ذلك من اليوم الثاني إلى أن كانت جلسة الختام في اليوم الحادي عشر من الشهر.

وكانت مصر ممثلة في المؤتمر من جهتين: الأزهر، وممثلوه هم الأستاذ الشيخ عبد الرحمن حسن والشيخ محمود شلتوت ومحمد عبد المنعم رياض بك والأستاذ حسن البغدادي؛ والجامعة المصرية وكان يمثلها الدكتور عبد الرزاق السنهوري بك.

وقد كان الربح الأدبي والعلمي الذي وصل إليه الوفدان ربحاً عظيماً إذ ألقى الدكتور السنهوري بك بحثه عن الجنسية في اليوم الثالث للمؤتمر. وأعقبه بعد ذلك في الأيام التالية الأستاذان الشيخ عبد الرحمن حسن والشيخ شلتوت فألقيا بحثهما باللغة العربية للمرة الأولى في دورات المؤتمر كلها. وكان البحث الأول خاصاً بالشريعة الإسلامية وعلاقتها بالقانون الروماني، والبحث الثاني خاصاً بالمسؤولية المدنية والجنائية في الشريعة الإسلامية.

وقد تناقش كثير من أعضاء المؤتمر عند تلاوة هذه البحوث وكان الأستاذ البغدادي يتولى الترجمة العربية والفرنسية والأسئلة وأجوبتها كما تولى ترجمة البحوث نفسها عند إلقائها.

ومن المظاهر المشرفة التي نالتها مصر في هذه الدورة أن جلسة الختام التي تليت فيها قرارات المؤتمر النهائية. كانت خاصة برؤساء اللجان والمقررين، فكانت الغالبية العظمى من الدول يمثلها في هذه الجلسة ممثل واحد سوى مصر، فقد حضر من وفديها في هذه الجلسة اثنان هما فضيلة الشيخ عبد الرحمن حسن والأستاذ عبد المنعم رياض بك.

وكذلك كان من الربح العظيم الذي وصلت أليه مصر بواسطة الوفد الأزهري أن قرر المؤتمر جعل اللغة العربية إحدى اللغات الرسمية له. وقد قلنا إن بعض البحوث التي

ألقيت في هذه الدورة ألقيت فعلاً باللغة العربية. وكذلك قرر المؤتمر حسبان الشريعة الإسلامية مصدراً من مصادر التشريع الحديث.

وقرر المؤتمر في ختام جلساته أن تعقد دورته القادمة في سنة 1942 في مدينة لاهاي أيضاً.

بعثة أزهرية جديدة باسم جلالة الملك فاروق

علمنا أن الرأي قد استقر على اختيار بعض العلماء الممتازين أيضاً لتأليف بعثة جديدة يتلقى أعضاؤها في جامعات أوربا من العلوم، ما يرتبط ارتباطا وثيقاً بالعلوم الشرعية وذلك على النهج الذي اتبع في تأليف بعثة (فؤاد الأول) الأزهرية

وسيطلق على هذه البعثة الجديدة أسم (بعثة فاروق الأول) وتفكر إدارة المعاهد الدينية في هذه الأيام في تأليف بعثة أزهرية جديدة تؤلف من بعض العلماء الأزهريين الممتازين الأكفاء لتوفدها إلى بعض المقاطعات الإسلامية في الهند، للدعوة إلى الدين الإسلامي ونشر مبادئه بين طوائف المسلمين في هذه المقاطعات

اضطراب آخر في شيوخ الأزهر

أطلعت في أثناء تحقيق للاضطراب الذي وقع في رحلة الشيخ عبد الغني النابلسي عن اضطراب آخر في كتاب (خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر) للشيخ أمين المحبي بن فضل الله بن محب الله المولود بدمشق سنة 1061هـ والمتوفى بها سنة 1111هـ فقد

ذكر في الكلام على الشيخ محمد بن حسن بن محمد بن أحمد جمال الدين بن بدر الدين المعروف بالمنير ما ذكره الجبرتي عنه، وخلاصته أنه ولد بسمنود سنة 1099هـ. وقدم الجامع الأزهر وعمره عشرون سنة فدرس على كثير من شيوخه وبرع في كثير من علومه خصوصاً علم الحديث، وكان عالي السند فيه، وكان يعرف أيضاً جملة من الفنون الغريبة كالزايرجة والأوفاق وغيرهما

وقد ذاع صيته في أواخر أمره وذهبت شهرته في الآفاق، وأتته الهدايا من الروم والشام والعراق، وكانت وفاته سنة 1199هـ

وقد زاد المحبي على ما ذكره الجبرتي من ذلك أنه بلغ أمره أن صار شيخاً للأزهر، وأن أول من انتزع مشيخة الأزهر من المالكية، وكان رحمه الله شافعياً

فهذا اضطراب آخر في شيوخ الأزهر، فالشيخ المنير غير معدود في هؤلاء، وقد كان شيوخ الأزهر في عهده الشيخ عبد الباقي المالكي القليني، فالشيخ محمد شنن المالكي، فالشيخ عبد الله الشبراوي الشافعي، فالشيخ محمد الحفني الشافعي، فالشيخ عبد الرؤوف السجيني، فالشيخ أحمد الدمنهوري، فالشيخ أحمد العروسي، وقد صار أولهم شيخاً للأزهر سنة 1120هـ وصار آخرهم شيخاً له من سنة 1192 هـ إلى سنة 1208هـ

والشيخ عبد الله الشبراوي هو الذي ذكر صاحب تاريخ الأزهر أنه أول من تولى مشيخة الأزهر من الشافعية، وقد صار شيخاً للأزهر من سنة 1137هـ إلى سنة 1171هـ، فكيف يكون الشيخ المنير شيخاً للأزهر بين توالي أولئك الشيوخ؟ وكيف يكون أول من انتزع مشيخة الأزهر من المالكية إلى الشافعية؟

فالحق أن الشيخ المحبي أخطأ في هذا كما أخطأ قبله الشيخ عبد الغني النابلسي في الشيخ منصور المنوفي الشافعي، وقد كانا شاميين بعيدين عن الأزهر ورجاله، ولا شك أن هذا يضعف من قيمة ما شذا فيه من ذلك.

ولو صح أن الشيخ منصور المنوفي كان شيخاً للأزهر كما ذكر الشيخ عبد الغني النابلسي لكان هو الذي انتزع مشيخة الأزهر من يد المالكية إلى الشافعية لا الشبراوي ولا المنير لأنه أقدم عهداً منهما كما سبق.

عبد المتعال الصعيدي

الكتب

سيرة السيد عمر مكرم

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

بقلم الأديب توفيق الطويل

بارح الجيش الفرنسي أرض مصر بعد أن عرف الشعب مكانة ظالميه عند دفع العاديات، فرأي جيش السلطان لا يملك العودة إلى القاهرة إلا في ظلال أعوانه

الإنجليز، ورأى المماليك يفرون إلى الشرق ويهربون إلى الغرب ويلتمسون صداقة الفرنسيين أو مرضاة العثمانيين أملا في العودة إلى حكم البلاد، فعرف الشعب من ذلك أن مصيره موكول إليه وأن اعتماده على غير نفسه غفلة وخداع لا ينبغي أن يطولا. وكان على يقين بأنه يستطيع أن يصمد للحرب الطاحنة وحده شهوراً وأياماً كما فعل في ثورته الثانية العنيفة على الجيش الفرنسي المنظم. وكان زعماء هذا الشعب الكريم تعوزهم التضحية وينقصهم الإخلاص، ينتفعون بتقلبهم مع الحومات على حساب الوطن المسكين سوى رجل واحد جمع الزعامة والجهاد والتضحية. كان ينزوي حين لا تنفع المقاومة، ويثور ثورة الأسد حين تمس الحاجة إلى الثورة والتمرد. . ذلك هو السيد عمر مكرم. . . فلما سمع صوت الشعب يدوي مطالباً بحكومة جديدة خرج من عزلته وتولى قيادته. واحتشدت جموع الشعب التي بلغت أربعين ألفا بجوار الأزهر على كثب من بيت القاضي الذي كان يجتمع فيه الزعماء لاختيار الوالي الجديد. وأنعقد إجماعهم على قبول (محمد علي باشا) والياً بعد أن رشحه الزعيم الأكبر (عمر مكرم) لما عرفوه عنه من الذكاء والعدل والشهامة والعطف على المصريين إزاء الطغاة من حاكمهم. . . وقبل الوالي الجديد ترشيحهم بعد تردد. . . فقام إليه السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوي وألبساه الكرك والقفطان في بيته وخلعا عليه حكم البلاد باسم الشعب المصري الكريم. وكان ذلك في 13 مايو سنة 1805، فتميز الوالي القديم (خورشيد باشا) غضباً وقال: (ولأني السلطان فلن يعزلني الفلاحون) فلم يكن بد من أن ينزله هؤلاء الفلاحون بالقوة من قصره بالقلعة. وبدأ الكفاح المجيد بين شعب يفدي حاكمه الذي اختاره لنفسه بل يفدي حريته واستقلاله بالمهج والأرواح، وبين جيش يريد أن

يحكمه على غير إرادته. . وكانت الثورة قائمة على مبدأ أعلنه الزعيم الأعلى لرسول السلطان الذي أحتج بقوله تعالى: (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) فأجابه الزعيم بأن أولي الأمر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل، وأن السطلان أو الخليفة نفسه إذا سار في الناس بالجور والظلم كان لهم عزله وخلعه. . . وأصاب الشعب النصر الحاسم داخل المدينة وخارجها. . . وبارح البلد خورشيد باشا بعد أن عرف بالتجربة أن إرادة الشعوب من إرادة الله. . .

ولبث الشعب المجيد يعين حكومته الجديدة من رد أعدائها من مماليك وأتراك وإنجليز حتى نحاه عن ذلك (واليه) وصارح زعيمه بأن واجب الدفاع والاشتراك في سياسة البلاد قد سقط عن الشعب بعد أن صارت قوة الدولة كفيلة به. . ونهض الوالي بالبلاد نهضة زاهرة شملت تجارتها وزراعتها وصناعتها وثقافتها ولكنها كانت بعيدة عن روح الشعب الذي أكره على الاعتزال ولم تكن ثمرة جهاده ولا نتيجة سعيه ولا وليدة ذهنه فذبلت وماتت بموت موجدها. .

واعتزل الزعيم، حتى إذا اشتط الوالي في ضرائبه التي أكرهته عليها كثرة إصلاحاته وحروبه خرج من مكمنه وأعلن مبدأه الذي لا يقبل فيه شكا ولا جدلا: أن ليس للباشا أن يغير نظام الحكم ولا أن يفرض ما شاء من الضرائب ولا أن يحكم الشعب بغير قانونه وعاداته. . ولكن الباشا عرف كيف يفرّق بين الزعماء وينتفع بحقدهم على زعيمهم فيأمر بخلعه من نقابة الأشراف ونفيه بعيداً عن موطن الثورات. . .

هذا موجز مشوه لسيرة البطل الذي تناوله الأستاذ الجليل محمد فريد أبو حديد في كتابه القيم الممتع الذي أصدره في هذين اليومين وأبان فيه نهاية الكفاح المجيد الذي كان الشعب المصري قد بدأه منذ قرن ونيف من الزمان. . والكتاب آية أدبية جمعت ثلاثة عناصر قل أن تجتمع في كتاب: دقة العلم، وجمال الفن، وحرارة الوطنية.

على أن في الكتاب رأياً ترددت كثيراً في التسليم به، ذلك هو تحديده للوقت الذي تحرك فيه الشعب المصري للمحافظة على حقوقه وحرياته بعام 1114هـ إذ أن الحادثة التي أيدت هذا تتلخص في شكوى رفعها العلماء إلى الديوان فاستجيبت لعدالة الحاكم (الفعلي) يومذاك لا لحرص الشعب وزعمائه على حقوقهم ولا الخوف الحاكم من عنادهم. فأما عدالة الحاكم فيشهد بها قول الشيخ حسن الحجازي شاعر العصر يرثيه:

ألا قلْ لمن في موت حاكم مصرنا ... غَدَا فرِحاً لا عشْت حلَّ بك الغمُّ

إلى أن قال:

فأرجح ميزاناً وأوفى مكايلاً ... وأخمد نيراناً وقام به سلم
وليس له من مبغض غير معرض ... عن الحق أو من في عقيدته سقم
إلى آخر ما جاء في الرثاء الذي أورده الجبرتي (107 و108ج1)
وأما الدليل على أن الشعب وزعماءه يومئذ لم يكونوا قد آمنوا بعد بالحرص على حرياتهم وحقوقهم فيشهد به مجيء فرمان من الدولة عام 1137هـ يأمر بمنع العلماء من اجتماعهم بالباشا. وكان ذلك في وقت قد اشتد فيه الظلم، وعانى الشعب أو ألواناً من التعدي على الحريات وانتهاك الحرمات ونهب الأموال، فلم يقاوم الفرمان شعب ولا زعماء. ولما تكرر الظلم بعد هذا طالب الشعب العلماء بالذهاب إلى الباشا فاعتذر هؤلاء الزعماء بأنهم ممنوعون من طلوع القلعة. . .! (131، 135ج1 من الجبرتي) فالشكوى وحدها ليست دليلاً على التحرك لدفع الظلم، وإنما الدليل أن يقاوم المظلوم حتى ينصف أو يستشهد.
والرأي عندي - إن صح أن يكون لي رأي إلى جانب رأي أستاذي المؤرخ - هو أن الشعب قد تحرك للمحافظة على حقوقه وحرياته في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر الميلادي (أواخر الثاني عشر الهجري) إذ سمعنا في هذه الفترة سلسلة من الحوادث تقوم على دفع الظلم ومقاومة أهله والاعتزاز بالحرية. ورأينا فيه كيف يهتم الحكام - أقوياء وضعفاء وعدول وظلمة - بالرأي العام وزعامته. وسمعنا بالحفني وابن النقيب والصعيدي، وعرفنا موقف العلماء في فتنة الوقف، بل أروع من هذا كله موقفهم في فتنة الأزهر (56ج2 من الجبرتي) يوم رفضوا شيخ الأزهر الحنفي حين عينه شيخ البلد ولم يعبئوا بمنطقة يوم أصر قائلاً لهم: أليس الحنفية مسلمين كالشافعية؟ أليس مذهب النعمان أقدم المذاهب؟ أليس القاضي حنفياً والوزير حنفياً والسلطان حنفياً. . .؟ انتهى إصرارهم بالانتصار الحاسم على أكبر رأس في البلد. ورأينا في هذه الفترة العالم الذي يغضب على الحاكم فيقول له في وجهه: لعنك الله ولعن اليسرجي الذي جاء بك ومن باعك ومن اشتراك ومن جعلك أميراً (19ج2) ورأينا العالم
الذي يقول للعامة وهي تستنصره لدفع الظلم الذي يوقعه الحكام بهم: (في غد تجمع أهالي الحارات والأطراف وبولاق ومصر القديمة وأركب معكم وننهب بيوتهم كما نهبوا بيوتنا ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم) فما جاء مساء ذلك اليوم حتى ذل له الحكام واستكانوا لعناده (110ج2 من الجبرتي)
تكرر هذه الحوادث وظهور المقاومة فيها جميعاً هو الشاهد العدل على تحرك الشعب لحقوقه في هذه الفترة. . . أما مجرد الشكوى من الظلم في فترات منقطعة، والصبر عليه، والعجز عن التمرد والسكوت عن كفاح المستبد حين يصر على استبداده فهو الدليل على أن الشعب لا يحرص على حقوقه ولا يتحرك للمحافظة على حرياته. . .
هذا هو الرأي الذي خطر لي عند قراءة هذا الكتاب القيم الذي كسبته القومية المصرية وربحه الناطقون بالضاد. . .
توفيق الطويل
العدد 218 - بتاريخ: 06 - 09 - 1937
فن الحكم
للأستاذ أحمد أمين
يعاني الشرق الآن محنة من أشد أنواع المحن، سببها أنه بدأ يحمل عبء نفسه، وقد كان يحمله عنه المحتل
كان المحتل يصرّف أمور الأمة كما يرى، فيحرّم ما يشاء ويحلّ ما يشاء؛ ويعز من يشاء، ويذل من يشاء؛ فإذا استعان ببعض أفراد الأمة فبأيديهم لا بعقولهم؛ وقد يستعين بعقولهم أيضاً ولكن على شرط أن تكون في خدمة عقله، وفي الاتجاه الذي يرسمه قلمه، فمن حدثته نفسه أن يفكر تفكيراً حراً طليقاً فالويل له. أمسك بيده المال وهو عصب الأمة، ينفق منه كما يشاء في الوجوه التي تخدم سلطانه، ويبخل كما يشاء فيما يعارض منهاجه؛ فهو شحيح كل الشح على التعليم العالي، وعلى الجيش وما إليه؛ وهو سخي فيما يصلح الأرض ويدر الثروة. وعلى كل حال لم يقف من الأمة موقف المعلم النزيه يؤهل تلميذه ليكون رجلاً يوماً ما، ويمرنه على أن يستقل بنفسه شيئاً فشيئاً، إنما وقف منه موقف السيد من عبده يسخره وله الغلة، ويطعمه ما يسد رمقه ليقوى

على العمل له
ثم كان أن جاهد الشرق جهاداً شاقاً طويلاً جعل حكم الأجنبي له شاقاً عسيراً، وسَاعدت الأحداث الخارجية وما فيها من قلق واضطراب على أن يغير المحتل سياسته، ويحمّل الأمة أكبر عبئها، ويطلق لها اليد في التصرف في أكثر شؤونها. فأصبحت الأيدي التي كانت تعمل بعقول غيرها غير كافية، واشتدت الحاجة إلى العقول المفكرة، وأساليب الحكم العادلة الحازمة، فإذا بالشرق أمام مدرس يلقي لأول مرة أول درسه، أو قاض يجلس على منصة القضاء أول عهده، حتى الذين تولوا الحكم في عهد الاحتلال والحكم بعد الاحتلال يشعرون بالفرق بين الحكمين، واختلاف الصعوبة في العهدين، فقد كانوا في عهد الاحتلال أيديا مسخرة، وهم في عهد الاستقلال عقول مدبرة
أول درس يجب أن يتعلمه الشرق تضحية الحاكم؛ واعني بذلك أن يضحي بشهواته في سبيل تحقيق العدل الدقيق، فلا تستهويه شهوة المال، ولا شهوة الجاه، ولا شهوة المنصب فتصرفه عن إحقاق الحق وإبطال الباطل. وطبيعي أن الشعب لا يرضيه من الحاكم في عهد الاستقلال ما كان يرضيه منه في عهد الاحتلال؛ فقد كان في عهد الاحتلال يصبر
على الظلم كارهاً بحكم القوة، فلما رأى أن حكومته منه، وأنها تستمد قوتها من قوته، لم يرض عن ظلم، بل هو يشتط في طلبه فلا يرضى عن عدل مشوب بظلم، إنما يريد عدلاً خالصاً، ويتطلب منها المثل الأعلى في العدالة وإلا لا يمنحها رضاه
ثم هو لا يرضى بتحقيق العدل السلبي وحده، مثل عدم الترقية لصلة أو قرابة، وعدم الظلم في توزيع مياه الري ونحو ذلك، إنما يطالب بتحقيق العدل الإيجابي أيضاً، مثل إصلاح نظم التعليم ونظم المال ونظم الصحة ونظم الشئون الاجتماعية؛ فإذا قصر الحاكم في ذلك ملّ المحكوم وسئم وشكا من أن العهد الجديد لم يفترق عن العهد القديم إذا لم تتحقق آماله ولم يظفر بما كان يرجو من سعادة.
على أن من الإنصاف أن نقول إن تبعة صلاحية الحكم وعدمه لا تعود إلى الحاكم وحده، بل إن جزءاً كبيراً يحمله الشعب المحكوم نفسه، فالحكم فعل وانفعال مستمران بين الحاكم والمحكوم، والنتيجة التي نراها من تقدم الأمة أو تأخرها هي نتيجتهما معاً لا نتيجة الحاكم وحده.
والأثر الذي يقول (كما تكونون يولى عليكم) ليس قانوناً للقَدَر بل هو قانون طبيعي، فحالة المحكوم تشكل الحاكم - لا محالة - بالشكل الذي يتفق وحالته، وقد علّمنا التاريخ أن عسف الحاكم لا يتم ولا ينجح إلا إذا سبقه استنامة المحكوم وضعف إحساسه؛ وصلاحية الحاكم مسبوقة دائماً بتنبه المحكوم وحسن تقديره للعدالة والظلم.
بل إن أساليب الحكم ونظريات الحكومات لم تتقدم على مر الزمان تقدم الشعوب في تقدير العدل والظلم، فنظم الحكم التي وضعها اليونان والرومان وعلى رأسهم أفلاطون في جمهوريته وأرسطو في كتابه السياسة لم تتقدم كثيراً في عهدنا الحاضر، ولكن شعوب اليوم في فهم الحكم ومدى سلطة الحاكم وإبائهم أن يتجاوز حده أرقى بكثير في ذلك من شعوب الأمس الدابر. لقد كان الحاكم يستطيع أن يحكم في سهولة ويسر وإلى عهد طويل شعبه على رغم أنفه بسلطانه وجبروته، ثم هو يتحمل أعباء الحكم على كتفه وحده؛ أما اليوم فلا يستطيع حاكم مهما أوتي من العقل والقوة أن يحكم إلا برضا شعبه وبمعونته وبمشاركته إياه في حمل العبء؛ وإن وجدت حالات تخالف ذلك فحالات شاذة لا يسمح النظام الاجتماعي ببقائها طويلاً.
بل تبين فساد رأي أفلاطون وأرسطو وأمثالهما في أن هناك طبقة خاصة يجب أن تَحْكُم، وأنها وحدها الصالحة للحكم، وأن من عداها غير صالح إلا لأن يُحْكَم؛ وتبين أن الحاكم الحق للشعب هو الشعب نفسه، وإنما يركز آراءه في الحكم في أشخاص لأن الناس اعتادوا تجسيد المعاني والرمز إليها بمحسوسات تقريباً لعقولهم وتبسيطاً لأفكارهم، ولا ينجح حاكم ولا مصلح إلا إذا مثل رأي الناس أو على الأقل رأي طائفة صالحة منهم، فلو أتى مصلح بما لا يتهيأ له فريق من الناس لعد مجنوناً، بل إن الشعب أو الطائفة منه هي التي تخلق حاكمها وتخلق مصلحها إذ هو ليس إلا مبلوراً لأفكارهم ومركّزاً لآرائهم. وليس الحاكم أو المصلح جذر الشجرة ولكن زهرتها، إنما الجذر

والساق والأوراق هي الشعب نفسه.
يميل الشرق إلى أن يُحكم حكماً ديمقراطياً، وله الحق في ذلك، لأنه جرب أنواعاً من الحكم الاستبدادي على أنواعه المختلفة فكانت ميتة لمشاعره، عائقة لتقدمه، وكان الحكام المستبدون ينعمون بكل صنوف الترف والنعيم على حساب بؤس الشعب وفقره.
ويميل إلى الديمقراطية لأنها على ما بها من عيوب لا تزال أرقى أنواع الحكم وأبقاه، وحكم الاستبداد إن رضيته بعض الأمم حيناً، أو فرض عليها فرضاً حيناً، أو أرتكن على بعض الظروف حيناً، فليس هو الحكم الصالح للبقاء أبداً
لقد أنهار الاستبداد في مظاهره المختلفة وحلت محله الديمقراطية بأشكالها المختلفة. أنهار استبداد رجال الدين بعد أن سيطروا على الشعوب أزماناً طويلة لقي فيها الناس من عنتهم ما كره إليهم الحياة
وأنهار استبداد الأب بأسرته فلم يعد ذلك الأب الذي لا إرادة في البيت بجانب إرادته، ولا الأب الذي كلمته حكم، وطاعته غنم، وحل محله أب هين لين يأمر حيناً فيطاع، ويؤمر حينا فيطيع
وتغيرت الغايات للسلطات فأصبحت الغاية من الحكومة لا أن تظهر بمظهر الآمر الناهي، ولكن أن تحقق العدالة والحرية للناس حتى للضعفاء؛ وأصبحت الغاية من الأب لا أن ينعم بسلطانه، وإنما الغرض منه ومن الأسرة كلها إيجاد جو صالح لنمو الطفل وتربيته ورقيه. وليس الغرض من المعلم أن ينفذ إرادته بالعصا، وإنما الغرض منه ومن الناظر والمدرسة كلها أن يمسكوا بدل العصا مصباحاً يضيء للتلاميذ حقائق الحياة وسبل الحياة
ولكن هذا الحكم الديمقراطي ليس يصلح إلا بتنظيم دقيق، بل هو إلى النظام أحوج من الحكم الاستبدادي، لأن الحكم الاستبدادي يحمل عبئه فرد واحد وأعوانه أياديه، وهو الرأس المدبر، فطبيعي أن يكون ظلمه وعدله منظماً، أما الحكم الديمقراطي فيحمل عبئه عدد كبير، فإذا لم يؤد كل واجبه أختل البناء، ومثله مثل الآلة ذات الأجزاء المختلفة أو كالساعة ذات القطع المتعددة المتباينة، ولا ينتظم سير الآلة ولا سير الساعة حتى يقوم كل جزء بعمله
وسبب آخر لحاجة الحكم الديمقراطي للنظام دون الحكم الاستبدادي، وهو أن الحكم الاستبدادي يرمي إلى تحقيق مصلحة فرد واحد أو طائفة محصورة، وذلك سهل يسير أما الحكم الديمقراطي فيرمي إلى مصلحة الشعب جميعه وخاصة الضعفاء، كالفقراء والمرضى والفلاحين والعمال وهؤلاء عددهم في كل أمة كبير، ولا يمكن تحقيق الخير لهم إلا بجهد كبير ونظام دقيق
فإذا لم يتحقق هذا النظام فشل الحكم الديمقراطي، وظن قصار النظر أن العيب يرجع إلى طبيعة الحكم، وهو في الواقع لم يرجع إلا إلى سوء تطبيقه واستعماله. ثم إذا أختل كان نذيراً بعودة الاستبداد، وأرتكن المستبدون وذوو السلطان إلى ما يبدو تحت أعين الأمة من سوء الحكم الديمقراطي وفساده، واتخذوا ذلك ذريعة إلى استرجاع سلطانهم واستعادة استبدادهم، وأعادوا الأمة إلى سيرتها الأولى يسخرونها لمنفعتهم ويستغلونها لصالحهم
فأكسير الحياة للشرق الآن تحري العدالة في الحاكم، وتضحية شهواته، وتنظيم حكمه وحمل كل عبئه، وتنفيذ واجبه في دقة، وإلا كان تحت خطر الفوضى التي تقدم للأسد الرابض حجته وصياحه من جديد بأن الشرق أعطي حريته فلم يحسن استعمالها
أحمد أمين

مصير الحضارة

للأستاذ عباس محمود العقاد

يجتمع اليوم في مصانع العالم ومخازنه من أسلحة الحرب وأدوات الهلاك ووسائل التدمير ما لم يجتمع مثله قط في تاريخ الإنسان.
فهل يعقل العقل أن تلبث هذه الآلات مشلولة معطلة ينتهي أمرها بانتهاء صنعها ويقف الخطر منها عند حد التخويف والإنذار؟
وإذا هي استخدمت فيما صنعت له وانطلقت من عقالها وفعلت كل ما يخشى من فعلها الموبق الوخيم، فماذا يبقي من الحضارة؟ وماذا يبقي من تاريخ الآدمية بعد أن

عبر هذا الشوط الطويل في آفاق الزمان؟ ألا تكون النهاية؟ ألا نرجع كرة أخرى إلى حالة بين الهمجية والحيوانية ينقطع السلم بعدها فلا نهتدي منه إلى طريق صاعد، ولا نعود - إذا ملكنا رأينا - إلى تجربة قد رأينا في خواتمها ما يصد النفوس عن البدء فيها؟

أكبر ما يرجوه الآملون في مستقبل الإنسان أن تنقبض هذه الشرور الجهنمية في محابسها كما تنقبض الشياطين في القماقم، فتخيف الناس خوفاً يعصمهم من آفاتها ويذودهم عن اللعب بنيرانها

فإن لم يصدق هذا الرجاء فأكبر الرجاء بعده أن تصمد البنية الآدمية للخطر المحيط بها وأن تفلت منه ببقية صالحة تحفظ عناصر الحضارة والأخلاق كما تصان الذخيرة المنتقاة من أنقاض الحريق

وأصحاب الرجاء في هذه العاقبة السليمة يعلقون رجاءهم على اختلاف الحال بين العصور التي سبقت زوال الحضارة فيما سلف وبين العصور التي نحن فيها والعواقب التي نحن منساقون إليها

ففي الأزمة الغابرة كانت غارات الهمج على الأمم المترفة هي المعول الأكبر الذي يضرب في أركان الحضارة ويقتلع العمران من أساسه، وكانت غارات الهمج مصحوبة بحال من العقم في القرائح والأفكار تصيب الفنون والعلوم بالفاقة والكساد والنضوب، فكانت تنقضي السنون وراء السنين ولا جديد في عالم التأليف ولا في عالم الاختراع ولا في عالم الفنون والآداب، وتلك في الوقع هي علامة الدثور والاضمحلال التي لا تزيدها الغارات الهمجية

إلا التسجيل والإعلان. ولا شك في أن الحضارات الأولى قد أخذت تموت وتتهاوى قبل أن يجهز عليها المغيرون من أبناء القبائل العارمة، ولا أدل على موتها من ضمور ملكة الخلق والابتكار فيها.

أما اليوم فالأمر بيننا مختلف والاختراع بيننا أروج وأكثر مما كان في أيام ازدهار الحضارات البائدة، وما تطلع الشمس صباحاً واحداً في أنحاء العالم المتمدن على غير كتاب جديد أو ثمرة فنية جديدة أو اختراع طريف أو تنويع وتحسين في اختراع قديم. فالبنية الآدمية بما اشتملت عليه من قدرة على التفكير أو قدرة على الشعور أو قدرة على الابتكار بنية سليمة مهيأة لطول الحياة ومغالبة الأحداث وتعويض المفقود.

هذا مع اختلاف آخر لا يقل في أثره ولا دلالته عن ذلك الاختلاف، وهو أن الغالبين والمغلوبين في أيامنا سوف يكونون من أبناء الحضارة الحديثة المشاركين في علومها وصناعاتها وأدواتها وآلاتها، فمن كتب له النصر من المحاربين في المعمعة القادمة سوف يضطلع بأمانة الحضارة وحده إذا قدرنا أن المهزومين يعجزون كل العجز عن متابعة الطريق واستئناف العمل النافع؛ وسوف يستبقي من علومنا وأفكارنا ما يصلح أن يكون خميرة يأكل من زادها أبناء الأجيال المقبلة، ثم يفتنون فيها ويزيدون عليها.

هذا وذاك مع اختلاف ثالث لا يقل عن ذينك الاختلافين في تغليب دواعي الأمل على دواعي القنوط، وذاك أن معارف الحضارة الحديثة لا تشبه معارف الحضارات الأولى في جواز الفناء عليها. فقد كانت معارف المصريين واليونان والرومان الأقدمين أشبه شيء في جملتها بحرفة الصانع القديم الذي يصون سره ويحمله معه إلى قبره، أو كانت بمثابة الخبرة الشخصية التي لا تقبل التعميم ولا اتصال النسق بين حاضرها وماضيها، لأنها مسائل اجتهادية يكاد يبدأها كل عامل من البداية ولا يدعمها إلى أساس يبني عليه من يخلفه من أبناء الصناعة.

أما حضارة العصر الحديث فهي حضارة قائمة على أساس العلم الشائع المقرر الذي جعل لكل اختراع قاعدة ولكل صناعة أصلاً ولكل مرحلة من مراحل التعليم مسافة وحدًّا؛ فلو فنيت ثلاثة أرباع المصنوعات الحديثة من الدنيا لكان الربع الباقي مشتملاً على جميع قواعدها وأصولها ومراحل التعليم والابتكار فيها؛ ومن البعيد عن التصور أن تعمد الحرب

إلى عناصر العلم المتفرقة فتجمعها كلها إلى بقعة واحدة وترسل عليها صيباً من القذائف الناسفة فتمحوها محواً ولا تذر منها بقية للتجديد والترميم.

ذلك بعيد عن التصور، ولا خوف من اتجاه النية إليه أو اشتمال الطاقة على تنفيذه لو جاز أن يداخل النيات على أبعد الفروض.

نعم إن هناك خطراً أخطر على الحضارة من تدمير عناصر العلم بالقذائف الناسفة

والآلات الجهنمية التي هي نفسها مادة من مواد العلم وجزء من أجزاء الصناعة.
هناك خطر على الحضارة أخطر من القذائف والآلات الجهنمية وهو إفساد الطبائع ومسخ العقول وتلويث الأخلاق وتعويد الناس أن يسخروا بكل نبيل جليل وأن يقنعوا من الدنيا بمعيشة البهم ولذائذ الحيوان.
فلو شاعت هذه الآفة - بل هذا الوباء - بعد الحرب المقبلة لكان بقاء العلوم والصناعات وزوالها على حد سواء، ولكانت الحضارة شيئاً لا يستحق الحرص عليه ولا الأسى لفقده ولا التفكير في استبقائه، ولبلغت الحرب بالناس أقصى ما نخاف من وبالها المحذور.
ومن خاف هذه العاقبة فله عذره الواضح مما نراه من تهالك على المتاع الزائل وتهافت على الشهوات الخسيسة وتهافت على المثل العليا والأخلاق الفاضلة والمطالب التي تتجاوز ساعتها أو يومها أو عمر طالبها على أبعد احتمال.
الاشتراكيون لا يؤمنون بغير الخبز، والفاشيون لا يؤمنون بخير الخنجر، والذين يأنفون من مذاهب أولئك ومن مذهب هؤلاء حيارى لا يهتدون إلى قرار؛ ومتى أصبحت الغاية المنشودة ما كان فيه آباؤنا وأجدادنا منذ ألوف السنين فنحن راجعون إلى وراء مقبلون على هبوط يشبه الفناء.
إلا أن الأفق لا يخلو في هذه الظلمة أيضاً من بارقة بعيدة يوشك أن يستفيض منها ضياء شامل.
فكلما شاعت اللذت كذلك شاعت السآمة من اللذات، وشاعت النزعة إلى التبديل، وتسرب القلق إلى الضمائر، فليست هي في حالة أستقرار، ولكنها في حالة تحفز وانتظار.
ويخيل إلينا أن الدنيا تتجه إلى تفكير جديد في القرن العشرين يشبه التفكير الجديد عند الانتقال من طور العقائد التقليدية إلى طور العقائد بالبحث والاجتهاد، أو يشبه التفكير
الجديد عند الانتقال من هذا إلى الإيمان بالعقل وحده، ثم الغلو في التعويل عليه كما غلا العقليون المعروفون (بالراشنلاست) في أوائل القرن الغابر، أو يشبه التفكير الجديد عند الانتقال من (الراشنلازم) إلى المذهب الروحي أو مذهب البصيرة والإلهام الذي شاع منذ خمسين سنة في الأمم الغربية كافة
أما هذا التفكير الجديد الذي ننتقل إليه الآن فهو التقاء العالم المشهود وعالم الأسرار عند (الفلسفة الرياضية) التي انتهى إليها البحث في النور والإشعاع
فقديماً كان العالم الطبيعي في ناحية والعلم الرياضي في ناحية أخرى
كان العلم الطبيعي في تجارب المحسوسات، وكان العلم الرياضي في الحقائق الذهنية التي لا تحتاج إلى العالم المحسوس
فاليوم وصل العلم الطبيعي بكل شيء إلى الإضاءة والإشعاع، ووصل بالإشعاع إلى النسب العددية والتقديرات الرياضية، وجاز في عرف العقل المثقف السليم أن تقاس الحقيقة من (باطن) العقل وداخل السريرة، على مثال يقارب هداية الملهمين ومكاشفة القديسين في الزمن القديم.
تلك البارقة من التقاء عالم المادة وعالم الأسرار بشيرة بالخير وشيكة أن تعصم النفوس من تيه الظلمات، وأن تسلم زمام الحضارة الإنسانية إلى غاية أبعد من الغاية التي يدين بها عباد الخبز وعباد الخنجر، حيثما اهتدى بها العلم والفلسفة والعقيدة في أعقاب الضياء.

المحاكمات التاريخية الكبرى
الحركة النهلستية - 3
ومصرع القيصر اسكندر الثاني
صفحة رائعة من صحف الثورة على الطغيان
للأستاذ محمد عبد الله عنان

تلك هي الوثيقة التاريخية المؤثرة التي وجهتها اللجنة التنفيذية إلى القيصر الجديد؛ ولكنها لم تحدث أثراً. ولم تكن الدوائر القيصرية تفكر في النزول عند نذير المرهبين ولما يجف دم الجريمة الرنانة التي كانت في الواقع ذروة الإرهاب السياسي؛ ومن ثم فقد ردت القيصرية بمضاعفة إجراءات القمع والإمعان في مطاردة المرهبين

والثوريين، وقبض خلال شهر مارس في بطرسبرج على عشرات منهم، ولكن لم يقدم في النهاية إلى المحاكمة القضائية سوى ستة هم أندري جليابوف وصوفيا بيروفسكايا ونيكولا كالبالتشش وجسيا هلفمان وتيموتي ميخايلوف ونيكولا ريساكوف وبدات المحاكمة في 26 مارس سنة 1881 أمام محكمة عليا ألفت من ستة من الشيوخ وعضوين يمثلان النبلاء هما الكونت بوبرنسكي والبارون كورف، وممثل للتجار، وممثل للفلاحين، وعمدة موسكو، وممثل لبطرسبرج؛ وتولى الرياسة الشيخ فوكس، وتولى إجراءات الاتهام النائب مورافييف الذي غدا فيما بعد وزيراً للعدل.

وكان أهم المتهمين في تلك القضية الشهيرة هما بلا ريب جليابوف وصوفيا بيروفسكايا عضوا اللجنة التنفيذية لحزب إرادة الشعب وهما في الواقع مدبرا الجريمة ورأسا الحركة الإرهابية يومئذ؛ وكان جليابوف من أقطاب حزب إرادة الشعب وأعظمهم نفوذاً وكان يومئذ فتى في الثلاثين من عمره؛ وكان مولده في أسرة من الأرقاء، ولكن الرقيق حرر وهو طفل فتفتحت أمامه آفاق جديدة، وتلقى تربية حسنة، وتخرج في مدرسة الحقوق في أودسا وشغف منذ حداثته بالأدب الثوري والنظريات الاشتراكية والتحريرية، ولم يلبث أن لفت أنظار السلطات، وأعتبر في سلك المحرضين الخطرين ونفي في أودسا. فذهب إلى كييف وهنالك أتصل بأسرة غنية كان يعطي لولدها درساً وتزوج من أبنتها (أولجا) وعاش حيناً في هدوء وعزلة، ولكنه لبث مع ذلك متصلاً بالأوساط الثورية، ولما اضطرمت الحركة الثورية في سنة 1874 ونزل إلى ميدانها ألوف من الفتية والفتيات الذين ألهبت عقولهم وأراحهم النظريات التحريرية الحديثة، نظمت القيصرية من جانبها حملة القمع الذريع وقبض على ألوف من الدعاة والمحرضين وعقدت المحاكمات الرنانة تباعاً؛ وكان منها المحاكمة الشهيرة التي عقدت في بطرسبرج سنة 1877 وقدم فيها إلى المحكمة 193 متهماً بينهم جليابوف وبيروفسكايا، ولكن جليابوف بريء؛ وما كان يغادر سجنه حتى أجتمع مع أقطاب زملائه وأسسو حزب (إرادة الشعب) وقرر الحزب أن يلجأ إلى سلاح الإرهاب السياسي. وفي أغسطس سنة 1879 قررت اللجنة التنفيذية إعدام القيصر أسكندر الثاني حسبما قدمنا؛ ودبرت لذلك عدة محاولات متوالية ولكنها أخفقت. وكان جليابوف رأس اللجنة المدبر وكان يوجه الحزب بنفوذه القوي إلى ميدان النضال العنيف وكان شجاعاً لسناً قوي العزم والإرادة لا يحجم عن شيء. وكان وقت المحاكمة كما قدمنا فتى في الثلاثين من عمره، مديد القامة، قوي البنية. وسيم الطلعة، حلو الحديث، يميل إلى الدعابة ويتدفق حين الجدل فصاحة وبياناً.

وكانت صوفيا بيروفسكايا تنتمي إلى أسرة عريقة شغل كثير من أعضائها مراكز كبيرة في الدولة؛ وكان والدها حاكماً لمقاطعة سنت بيترسبرج، ولكنها آثرت منذ حداثتها حياة الحرية والمغامرة، فغادرت منزل الأسرة إلى العاصمة وتلقت تربيتها في إحدى مدارس المعلمات، ثم عينت بعد ذلك معلمة في إحدى مدارس الأقاليم؛ ولكنها لم تنجح إلى السكينة والعزلة بل اتصلت بالحركة الثورية، وقبض عليها لأول مرة بتهمة التحريض وهي دون العشرين. ولما أفرج عنها اشتغلت مدى حين ممرضة في أحد المستشفيات ثم قبض عليها مرة أخرى في قضية بطرسبرج الكبرى مع جليابوف وزملائه فبرئت، ولكنها نفيت إلى إحدى المقاطعات الشمالية. بيد أنها تمكنت من الفرار وعادت إلى العاصمة حيث التحقت عضواً بحزب (إرادة الشعب). وكانت حينما قبض عليها في مارس سنة 1881 في السابعة والعشرين من عمرها ولكنها كانت تبدو بنظراتها الساحرة وعينيها الخضراوين ومحياها الوسيم أصغر بكثير من عمرها. وكانت صوفيا تحب جليابوف حباً جماً وتترسم خطاه ومغامراته بعزم مدهش؛ وان هذا حبها الأول والأخير. وكان جليابوف يبادلها هذا الحب المضطرم وكانا يعيشان معاً في أفق ساحر من الجوى والمثل الثورية.

أما عن باقي المتهمين فكان كالبلتشش مهندساً في نحو الثلاثين من عمره؛ وكان ميخايلوف عاملاً فتى من عمال المعادن؛ وكانت جسيا هلفمان فتاة من أسرة متوسطة تخرجت في مدرسة القابلات ولم تكن حسناء ولكنها كانت مخلصة مطبوعة، وكانت تعمل في مطبعة اللجنة السرية وتدير المنزل الذي يجتمع فيه الأعضاء.

بقي ريساكوف، وقد كان فتى حدثاً في التاسعة عشرة ينتمي إلى أصل متواضع؛ وكان وقت القبض عليه طالباً بمدرسة المناجم يعني ببث المبادئ الثورية بين العمال؛ وكان

أهم متهم في القضية بعد جليابوف وصوفيا بل كان مفتاح القضية في الواقع ذاته أنه قبض عليه متلبساً بجريمته على أثر إلقائه القنبلة الأولى على موكب القيصر، وقد رأى فيه النائب المحقق دبرجنسكي منذ الساعة الأولى فريسة سهلة، فمال عليه بالإغراء والألفاظ المعسولة واستطاع أن يحمله على الاعتراف بكثير من الوقائع والمعلومات الهامة المتعلقة بالجريمة وحزب إرادة الشعب، وكان ريساكوف فتى هائم الذهن، مضطرب الأعصاب، فكان تارة يدون اعترافاته للمحقق وتارة يحاول تأييد مسلكه؛ وقد نشرت أقواله فيما بعد في كتيب صغير ضمن ما نشر من وثائق هذا العهد، وهي أقوال روح فتى هائم يتخبط بين الرغبة في التمسك بمبادئه ومثله، وبين الروع الذي يثيره فيه شبح الموت، ويقص ريساكوف في مذكراته كيف كانت مشاعره الحساسة التي شحذتها طفولة بائسة تتأثر أيما تأثر بما يراه بين الفلاحين والعمال من مناظر البؤس المطبق، وكيف ترك لقاءه الأول لجليابوف في نفسه أعظم أثر، وكيف أذكي لجليابوف في نفسه عاطفة الكفاح، فأنضم إلى جماعة المرهبين، وأرتكب جريمته على أنها عمل مجيد.

- 4 -

ودام التحقيق زهاء ثلاثة أسابيع، وفي يوم 26 مارس سنة 1881 بدأت المحاكمة الشهيرة أمام المحكمة العليا التي ألفت كما قدمنا من ستة من الشيوخ وعضوين من النبلاء وعضو عن التجار وعضو عن الفلاحين اختارتهم المحكمة وعمدة موسكو؛ وتولى رآستها الشيخ (السناتور) فوكس وتولى مهمة الاتهام النائب مورافييف؛ وأعترف جميع المتهمين بانتمائهم إلى حزب إرادة الشعب واشتراكهم في تدبير المؤامرة وتنفيذها، ما عدا جسيا فأنها أنكرت

قيامها بأي عمل إيجابي، وميخايلوف فأنه أعترف بانتمائه إلى فرقة المرهبين ولكنه أنكر اشتراكه في تنفيذ الجريمة.

وكان اعتراف جليابوف بالأخص رناناً مؤثراً؛ فذكر أنه عضو في اللجنة التنفيذية وأنه أنضم إلى الحزب نزولاً على إيمانه وعقيدته، وأنه وهب حياته منذ أعوام لخدمة قضية الحرية. ثم قص في بلاغه وقوة على المحكمة تاريخ أعمال اللجنة التنفيذية وما دبرته من مختلف المشاريع لإزهاق القيصر، وأعترف بأنه هو الذي دبر مؤامرة أول مارس، وأنه هو الذي أختار المنفذين لها من بين المتطوعين الفدائيين، ولكنه حاول جهده أن يبرئ ميخايلوف من تهمة الاشتراك.

وسمعت المحكمة عدة شهود من الشرطة وحجاب المنازل التي كان يتردد عليها المتهمون وعدداً كبيراً من الضباط والمخبرين الذين شهدوا مصرع القيصر، وبعض زملاء ريساكوف وأساتذته، فنوهوا جميعاً بذكائه ورقة خلاله، وسمعت تقارير الخبراء عن خواص القنابل والمفرقعات التي استعملت في الجريمة ووقفت المحكمة بذلك على كثير من تفاصيل الحادث وسير الحركة الثورية.

وألقى النائب مورافييف ممثل الاتهام مرافعة قوية عنيفة، فقدم المتهمين في صورة مجرمين من أروع طراز، وأبالسة من البشر ظمئين إلى الدم، وحمل على الحركة الثورية وعلى مثلها ودعاتها بشدة، وقال إن هؤلاء القتلة لا محل لهم بين مخلوقات الله وإنهم من عناصر الهدم والفوضى يُعَبدون طريقهم بالقتل، وإن الوطن الروسي الذي خضبوه بدم القيصر الثمين قد عانى كثيراً من أعمالهم، فعلى روسيا أن تصدر حكمها عليهم في شخص هذه المحكمة وليكن مصرع أعظم الملوك خاتمة حياتهم الإجرامية.

ثم جاء دور الدفاع؛ وكان الدفاع مهمة شاقة أمام هذا القضاء المسير وهذه المحكمة التي عقدت لأداء مهمة معينة. وكان شاقاً بالأخص أمام اعتراف المتهمين الشامل؛ ولم يكن للبواعث المعنوية والمثل العليا اعتبار في هذا الجو الخانق. ومع ذلك فقد قام الدفاع بمهمته التقليدية، فتولى الأستاذ أونوفسكي الدفاع عن ريساكوف وصور للمحكمة عقلية المتهم الفتية الساذجة ورجا المحكمة أن تراعي في تقديرها لجرمه حداثة سنه واضطراب أعصابه. ودافع الأستاذ خارتولاري عن ميخايلوف ففند أدلة اتهامه، وبين أنها فيما عدا أقوال

ريساكوف لا تنهض دليلاً على اشتراكه. وأن ريساكوف لم يكن متزناً ولا متفقاً في أقواله. ودافع الأستاذ جركي عن جسيا هلفمان وبين أنها لم تقم قط بأي دور إيجابي في هذه المحاولات الإجرامية، وأن كل ما قامت به هو أنها كانت تؤجر المكان الذي

أعتاد المهتمون أن يعقدوا فيه اجتماعاتهم. ودافع الأستاذ حيراردي عن كبالتشش وشرح للمحكمة العوامل والظروف القاسية التي دفعته إلى سبيل الإجرام.
وتولى الأستاذ كدرين الدفاع عن صوفيا بيروفسكايا؛ وكانت مهمة فادحة لا تبعث إلى شيء من الأمل، فقد لبثت صوفيا حتى آخر لحظة متمسكة بأعترافاتها، وأضطر الأستاذ كدرين أن يلجأ في دفاعه إلى ضروب من البلاغة المؤثرة؛ فصور صوفيا فتاة وديعة هادئة تجيش بأعظم حب لوطنها، وتعتقد بإيمان راسخ أن المثل الثورية هي سبيله الوحيد إلى الخلاص والمجد؛ وأستعرض نشأتها النبيلة، وحياتها المضطربة، ومثلها العليا؛ وبين أنها لم تنزلق إلى الجريمة إلا مدفوعة بحبها للوطن.
أما جليابوف فقد آثر أن يتولى بنفسه الدفاع عن نفسه. وكان دفاعاً رناناً تردد صداه خارج روسيا، ووصفه مكاتب (التيمس) في بطرسبرج بأنه أعظم ظاهرة في القضية. وكان جليابوف يتدفق منطقاً وبياناً؛ وكانت أقواله محاضرة فلسفية وسياسية مؤثرة، وأستهل جليابوف دفاعه بقوله: إن المبادئ بالنسبة لأولى المبادئ أثمن لديهم من الحياة، وفند مطاعن النائب العام في مبادئ حزب إرادة الشعب، وبسط مثل الحركة الثورية وغاياتها. ثم عطف على المسائل العنيفة التي تلجأ إليها الحركة الثورية، فذكر أنها ليست إلا مهمة من المهام العديدة التي يتطلبها تطور روسيا، وأنه يحب لكي تفهم غايات الحزب ووسائله أن يدرس ماضي هذا الحزب، وهو ماض قصير ولكنه حافل بالتجارب. وسترى المحكمة متى استعرضت كتاب حياته المفتوح أن أصدقاء الشعب الروسي لن يعمدوا دائماً إلى إلقاء القنابل، وإننا قد عرفنا خلال نشاطنا أحلام الشباب الوردية. وإنه ليس خطأنا أن يكون هذا العهد قد انقضى.
وإن حياتنا القصيرة التي قضيناها بين الشعب قد كشفت لنا عن حقيقة آرائه وآماله،) وعرفنا من جهة أخرى أن هنالك ضمير الشعب كثيراً من العناصر التي يجب تأييدها. وقد عولنا على أن نعمل باسم المصالح التي أخذ الشعب يشعر بها؛ وليس باسم النظريات
الخالصة. وقد رأينا سبيلنا العملية إلى ذلك أن ندبر مؤامرة لأحداث انقلاب حكومي؛ ونظمنا لذلك القوى الثورية أتم تنظيم. وقد كانت مهمتي الشخصية ومقصد حياتي أن أخدم الصالح العام. وعملت لذلك طويلاً بالوسائل السلمية ولكني أيقنت في النهاية أن الالتجاء إلى العنف أمر محتوم).
(للبحث بقية - النقل ممنوع)
محمد عبد الله عنان
خذ الحق واترك الباطل
اليابان والإسلام
المساعي لتحقيق إنشاء الدولة الآسيوية العظمى
مترجمة عن جريدة الوقت الهولندية
لقد عرفت اليابان بشدة تمسكها بلغتها ونزعتها القوية للبقاء على ما قد وجدوا عليه آباءهم خصوصاً فيما يتعلق بدينهم ومعتقداتهم؛ ولكن الذي يبعث على الدهشة والاستغراب هو موقفهم الآن تجاه الدين الإسلامي وانتشاره الرائع في بلادهم. ففي مدة قصيرة جداً صار لهذا الدين اتباع ومعتنقون كثيرون؛ والأغرب من ذلك أن هؤلاء كان جلهم من أهل الوجاهة والسلطة. إن عددهم الآن في الحقيقة لا يستحق أن يقارن بعدد معتنقي الأديان الأخرى، إذ أن البوذويين يبلغون ما يقرب من الأربعين مليوناً، والشنتويين يناهز عددهم الستة عشر مليوناً، ولكن إذا راعينا حداثة دخول هذا الدين بينهم وجدنا أن عددهم لا يستهان به. ولكي نعرف تماماً أهمية هذا الدين عندهم فلنتصفح أوجه الحوادث الأخيرة التي طرأت على تلك الحركة، وبعد ذلك يكون سهلاً علينا أن نستنتج هل كان دخولهم ورغبتهم فيه بدافع الميل الديني الخالص أم كانت هناك أسباب أخرى ألجأتهم إلى ذلك.
إلى منتصف سنة 1934 لم يكن في اليابان أية دعاية إسلامية تستحق الذكر، ولم يكن هنالك أقل رجاء بأن سيكون لذلك الدين ما لنهضته الموجودة الآن. نعم قد سمع من بعض الأجانب تصريحات بوجوب إيجاد تلك الدعاية. فمثلاً من قبل 18 أو 20 سنة مضت تكونت بسعي بعض الترك والتتار والهنود والسوريين وكذلك بعض اليابانيين جمعية جعلت مهمتها نشر الدين الإسلامي في جميع أنحاء آسيا الشرقية، ثم إنه يوجد

في الأماكن المجاورة للموانئ مسلمون أجانب جاءوا إليها بقصد التجارة لسبب انتشار تجارة اليابان. وهؤلاء قد بدءوا بالدعوة سرّاً بين أفراد اليابانيين، فأنسلخ كثيرون منهم عن ديانتهم القديمة. وهكذا بقيت هذه الدعاية في طي الخفاء إلى انتهاء سنة 1934.

وفي 11 أكتوبر سنة 1934 أفتتح أول مسجد في كوبا، وكان عدد الحاضرين يوم الافتتاح لا يتجاوز ثلاثين رجلاً منهم روسيون وهنود. ولم تتحقق إقامة هذا المسجد إلا بعد أن تقدمت طلبات حارة

من جانب المسلمين إلى الحكومة، لأنها في بادئ أمرها رفضت رفضاً باتاً أن يبنى مسجد إسلامي على أرض يابانية بوذوية. وكان ذلك يوماً مشهوداً ألقى فيه رئيس جمعية نشر الديانة الإسلامية السيد ميان عبد العزيز خطبة حماسية. ومن هنا بدأت الدعوة جهراً وظهرت تلك الحركة في أبهى مظاهرها. أما السبب في بناء المسجد في كوبا دون العاصمة فذلك راجع إلى أن المسلمين هنالك كانوا أكثر عدداً ونشاطاً. ومعظم هؤلاء من التتار التركمان الذين فارقوا الأراضي الروسية في إبان مطاردة الروسيين

بني هذا المسجد الفخم بأموال الأغنياء المتاجرين وشيدت بجانبه مدرسة إسلامية. ثم ظهر من جانب الحكومة أسفها على طول تمنعها من الأذن لهم بذلك. فأرادت أن تبرر موقفها بالعمل مع المسلمين على تعميم هذا الدين في أقرب وقت ممكن. ففي يوم افتتاح ذلك المسجد نشرت إحدى الجرائد اليومية الكبرى (أوسكامينخي) مقالة مسهبة عن انتشار الإسلام في جميع أنحاء المعمورة، وأهابت بالأمة اليابانية أن تضم نفسها إلى هذه الرابطة المتينة. ثم بين الكاتب أن هناك شبهاً في العادات بين المسلمين واليابانيين، من ذلك خلعهم لنعالهم عند دخول الأماكن المقدسة، وغسل القديمن، ثم غسل اليدين قبل كل أكلة. وقد تحاشى الكاتب مقارنة المسائل الجوهرية في هذين الدينين كالتوحيد وتعدد الزوجات وما أشبه ذلك

ثم تأسست في أول سنة 1935 جمعية إسلامية أخرى في عاصمة اليابان. وقد أسست بفضل الترتاري السيد عبد الحي. نالت هذه الجمعية الناشئة مساعدات جمة من عظماء البلاد وأصحاب السلطة فيها، ولم يمض عليها حين من الزمن حتى انضوى الألوف من اليابانيين إلى لوائها، معظمهم من أرباب الوظائف العالية وكبار الرأسماليين وأصحاب الأمر في الجيش. وقد جعلت غايتها درس المدنية الإسلامية ومدنية البلاد الإسلامية العصرية، ثم توثيق عرى المودة بين بلادهم وبين تلك البلاد. وفي إحدى الحفلات التي أقاموها وحضر فيها أعيان البلاد ووزراؤها ألقى أحد أمراء التتار كلمة بليغة في فضل الإسلام وخاض في موضوع تفسير (ترجمة) القرآن إلى اللغة اليابانية وذكر لهم عظم انتشار الإسلام في الشرق أجمعه (وقد تم الآن هذا التفسير وطبع منه آلاف النسخ التي وزعت على ألوف اليابانيين) ثم ألقى فيلسوفهم أوهارا كلمة بليغة عن هذا الدين

الجديد (عندهم) وأشار بصفة خاصة إلى أن الإسلام مع ما فيه من اليسر والبساطة محتو على كثير من الحكم الحقة، وأختتم كلامه بأن قال: (إنه يرى الدين الإسلامي أوفق الديانات وأليقها بالأمة اليابانية)

الحكومة اليابانية الآن تعتبر الدين الإسلامي ديناً معترفاً به اعترافا رسمياً. فقد وعدت تلاميذ المدارس الإسلامية بإمكان التحاقهم بالمعاهد والكليات العلمية التابعة للحكومة، وأذنت للمسلمين بشراء الأراضي لإقامة المعاهد الإسلامية. ولم يقف إحسانها إلى المسلمين عند هذا الحد، بل فرضت لهم مساعدة مالية، وجلبت لهم أساتذة وعلماء من الأزهر الشريف بمصر لتلقين من يحبون من اليابانيين دراسة القرآن؛ ودعت إلى بلادها الدعاة المسلمين للتعاون على إكثار عدد المسلمين الذين قد بلغوا عشرين ألفاً.

كل هذا وقع عند انتهاء سنة 1935. وفي شهر إبريل من هذه السنة نفسها شيد بمعاونة الحكومة مسجد آخر في توكيو. وهنا ألقى السيد ميان عبد العزيز خطبة بليغة سياسية جاء فيها قوله: (إن اليابان قد وفقت الآن لسلوك الطريق المؤدي إلى إنشاء الدولة الأسيوية العظمى، وسيكون الإسلام في طليعة هذه الحركة).

لم تكتف الحكومة بكل هذا التنشيط لهذه الحركة الجدية، بل قررت في سنة 1936 عقد مؤتمر إسلامي في توكيو، فكم بهذا قد أسدت إلى الإسلام من خدمات! وقد رفع الشاعر الكبير السيد عبد الرحيم بك قليلات تقريراً ضافياً عما رآه وشاهده أثناء مكثه

في تلك البلاد من ازدياد نمو تلك الحركة. من كل هذا نرى دون مبالغة أن البلاد اليابانية حقاً هي الأرض الموعودة للدعاة المسلمين، ونرى أنهم أتوا في الوقت المناسب للقيام بمهامهم. والظاهر أن الحكومة اليابانية تحبذ كل شيء ينتسب إلى الإسلام. وحسبك ما ذكرناه دليلاً

ثم لنر الآن ما هي البواعث على إنماء الحركة الإسلامية في بلاد مثل اليابان؟. أما من ناحية المسلمين فالأمر بين، وذلك سعيهم لتعميم الإسلام في جميع البلاد الآسيوية. وقد ظهرت بوادر هذه الحركة من بعد الحرب العظمى؛ وظاهر هذه الحركة عند العامة مسألة دينية محضة، ولكن الزعماء يقصدون من ذلك مقصداً آخر سياسياً. فأن الرئيس بقوله: (إن اليابان الآن في طريقها نحو تحقيق إنشاء دولة آسيوية عظمى الخ) قد نحا منحى سياسياً محضاً.

أما الأمة اليابانية فأنها تعلل الباعث لها على ذلك بأنه هو حبها للتسامح مع الأديان، كما صرح ساستها به مراراً ونطقت بذلك قوانينها. فالحكومة تتصنع التظاهر بذلك والساسة البارزون ورجال الحربية وغيرهم يظهرون ميلهم إليه لبساطة تقاليد هذا الدين ويسره متأثرين بقول فيلسوفهم أوهارا عندما أكد لهم ذلك في خطابه:

ولماذا لم تجب الحكومة مطالب المسلمين في بادئ الأمر؟ قد تساءلت عن ذلك الجرائد اليابانية نفسها فأنكرت أولاً أن تحول الأمة نحو الإسلام بسبب إحساس عام طرأ على أفرادها، وكان الذي حملها على ذلك القول هو توجه تلك الأمة بأجمعها نحو ذلك الدين عند افتتاح مسجد كوبا ودرس القيصر نفسه للقرآن. ثم عللته بعد ذلك بأنه إنما هو نتيجة تأثير الدعاية التي قام بها المسلمون القاطنون فيها، ولكن للتأثير عليهم بذلك يلزم مضي وقت طويل، إذ أن اعتناق دين جديد عند اليابانيين أصعب منه عند الأوربيين، فدخولهم فيه لم يكن بسبب شعور قومي عام ولم يكن كذلك بدافع الاعتقاد الديني الخالص.

إذا فكر المرء قليلاً ونظر إلى مطامع اليابان في بلاد الصين وما حواليها من البلدان الآسيوية التي يقطنها 260 مليوناً مسلماً - ويوجد في غرب بلاد الصين 30 مليوناً مسلماً - ثم إلى سياسة المسلمين الذين يدمجون كلمة تعميم الإسلام في كلمة توحيد الآسيويين. وقابل بين هذا وبين محاباة اليابان وتحبيذها لتعاليم محمد صلى الله عليه وسلم ومحاباة زعمائها، وعلاوة على ذلك أن أغلبية المحبذين لها هم من السياسيين البارزين ورجال الحربية والرأسماليين الكبار - لاستنتج معنا أن تلك المحاباة لم يقصد منها إلا تحقيق مطامعهم السياسية وأمانيهم في الإمبراطورية الآسيوية العظمى. ولم يكن اختيارهم للدين الإسلامي لمزية فيه لا توجد في غيره من الأديان، بل إن كل دين عندهم من هذه الوجهة في درجة واحدة، إلا أن الإسلام تميز عن غيره بكثرة المعتنقين؛ واليابان تؤمل بهذا وجود جبهة قوية لها أمام الأشتراكية، ورابطة متينة لبناء الوحدة المزمع إنشاؤها.

أما كون الحكومة في السنتين الأوليين لم توفق إلى تلك النظرية - أو أنها لم ترد الاعتراف بها - فذاك بحث آخر؛ ويحتمل أن يكون لزعماء المسلمين يد في حملها على الاعتراف بنظرية نشر الدين الإسلامي لترويج تجارتها في تركيا وفي أواسط آسيا. وقد وفقت إلى ذلك وقدرت على مزاحمة الصادرات الأوربية ونالت إقبالاً كبيراً من البلاد الإسلامية كبلاد

العرب والأفغان وإيران. وما دامت اليابان ترى حاجتها في الإسلام للوصول إلى تلك الأغراض فضررها سيكون بليغاً على الديانة النصرانية.

إن الإسلام يعقد في مساعدات اليابان له أماني ذهبية، واليابان بدورها تنتهز هذه الفرصة لإشباع مطامعها السياسية والتجارية. وقريباً يظهر هل تلك الأمة حقيقة راغبة في اعتناق ذلك الدين، أو يظهر ما أخفته وراء تلك المجاملات.

(المرشد - سورابايا)

من تاريخ الأدب المصري

أحمد بن يوسف

المعروف بأبن الداية

للأستاذ محمد كرد علي

(لاحقة)

ليس ما نشرته (الرسالة) لي في عدد 215 هو كل ما عُرف من أخبار أحمد بن يوسف الكاتب. فقد ذكر من ترجموا له أن أباه يوسف بن إبراهيم كان من ذوي المروءات التامة والعصبيات المشهورة، وأنه كان كاتباً مجيداً يعد من كتاب الطبقة الأولى، وأنه ولد داية ابن المهدي، وكاتب إبراهيم بن المهدي ورضيعه وصاحبه، وأنه صنف كتاباً في أخباره وفي أخبار المتطببين وغير ذلك، وأنه قدم دمشق سنة 225، ولعلها كانت سنة هجرته من بغداد إلى مصر. وذكروا أسماء من روي عنهم ورووا عنه؛ وممن روي عنهم من غير المسلمين جبرائيل بن بختيشوع الطبيب وعيسى بن حكم الطبيب وكان يوسف بن إبراهيم من أصحاب الثروة يجري على كثرين في الفسطاط. ولما حبسه ابن طولون في (بعض داره، وكان اعتقال الرجل في داره يؤيس من خلاصه، فكاد ستره أن ينتهك لخوف شمله عليه) جاء جماعة من أبناء الستر إلى أحمد بن طولون وطلبوا إليه أن يقتلهم إذا كان معتزماً على قتله، وقالوا إن لهم ثلاثين سنة ما فكروا في ابتياع شيء مما احتاجوا إليه ولا وقفوا بباب غيره. وفي الساعة التي توفي فيها يوسف بن إبراهيم بعث أحمد بن طولون أيضاً بخدم فهجموا الدار وطالبوا بكتبه (مقدرين أن يجدوا كتاباً من أحد ممن ببغداد، فحملوا صندوقين وقبضوا على أحمد وعلى أخيه، وصاروا بهما إلى داره، فأدخلوهما إليه وهو جالس وبين يديه رجل من أشراف الطالبيين، فأمر بفتح أحد الصندوقين، وأدخل خادم يده، فوقع على دفتر جراياته على الأشراف وغيرهم، فأخذ الدفتر بيده وتصفحه، وكان جيد الاستخراج، فوجد أسم الطالبي في الجراية، فقال له وأحمد يسمع: كانت عليك جراية ليوسف بن إبراهيم. فقال: نعم أيها الأمير، دخلت هذه المدينة وأنا مملق، فأجرى عليّ في كل سنة مائتي دينار، أسوة بابن الأرقط والعقيقي وغيرهما. ثم (امتلأت يداي بطول الأمير فاستعفيت منها

هذا الوالد هو الذي أنجب أحمد بن يوسف. وأنت ترى أن أحمد بن طولون كان يتخوف منه، لمكانته واتصاله الوثيق بالبيت العباسي وربما وقع في خاطره أنه عينٌ عليه، في زمن كان فيه أبن طولون يرمي إلى نزع يده من الخلفاء وتأسيس ملك في مصر يكون له ولعقبه على عنق الدهر.

ولذا كان أبن طولون حذراً يقظاً وقد أتخذ أساليب مهمة لأخذ الأخبار، واتقاء عادية كل من طرأ على مصر، وعنده أن كل غريب يجعل تحت الترقيب، ولا سيما إن كان عراقياً أو يمت إلى السياسة بأدنى سبب.

تثقف أحمد بن يوسف ثقافة أبناء الأعيان في عصره، فجاء كاتباً شاعراً رياضياً منجماً أو هو كما وصفوه (مجسطي إقليدسي) حسن المجالسة والعشرة تام المروءة كأبيه، وصار له اتصال دائم بأرباب الدولة ومنهم عظماء في الأدب والكتابة والفقه والطب والهندسة والفلك لم تتعرض كتب التراجم لهم، مثل على المتطبب المعروف بالديدان وقال فيه إنه كان (حسن المعرفة لكتب أفلاطون ورموزه ومبرزاً في الطب) وكان على صلة بالمهندسين واستفدنا من كلامه أنه كان لهم في بغداد موضع يجتمع فيه وجوه العلماء بالهيئة والهندسة في دار العباس بن سعيد الجوهري ترب المأمون ولم نعرف حقيقة الديوان الذي كان يعد من كتابه أو من رؤسائه، فأن أبن النديم وصفه في الفهرست بالمهندس المصري، وقال إنه فسر كتاب الثمرة، وكتاب الثمرة من تأليف بطليموس. أما سائر كتبه فقد ذكر منها ياقوت في معجم الأدباء طائفة صالحة، ومنها سيرة أحمد بن طولون وسيرة أبنه خُمارَوَيْه وسيرة هارون أبن أبي الجيش، وأخبار غلمان بني طولون، وكتاب أخبار الأطباء، وكتاب مختصر المنطق ألفه للوزير العالم الكاتب العف علي بن عيسى، وكتاب ترجمته، وكتاب أخبار المنجمين، وكتاب أخبار إبراهيم بن المهدي، وكتاب الطبيخ. وكل هذه الأسفار فقدت، ولولا أن عثر له في الأعوام الأخيرة على كتاب (المكافأة) بل على جزء منه لغطى الزمن على فضل أحمد ونبوغه في الكتابة أيضاً. وكم من رجل سدل على صيته القناع بعد قليل من رحيله لفقد ما كتبه وقلة أنصاره، وربّ رجل تضاعفت شهرته في مماته أكثر من حياته لإغفال حساده أمره بعد موته ولكثرة من أشادوا بعلمه وأدبه وإبداعه.

وإذا كتب لأحمد بن يوسف أن تدرس حياته وأدبه دراسة أدبية، وتهيأ لبعض المتفرغين من الباحثين أن يجمعوا طائفة من كلامه، وهو قليل في المطبوعات التي بين الأيدي،

ولا يبعد أن يعثر له على أشياء في بعض المخطوطات - يسهل على نقاد الأدب أن يسلكوه مع سمّيه أحمد بن يوسف الكاتب وزير المأمون في سلك واحد، وربما يثبت لهم أن أحمد بن يوسف المصري أوسع علماً من سميه البغدادي بما أصابه من الحظ العظيم من الثقافة التي تنم عليها أسماء مصنفاته فقط. وكيف لا تتأفق شهرة الكاتب البغدادي واتصاله كان بأعظم خليفة، وكيف لا تضؤل شهرة الكاتب المصري وصلته كانت ببيت يعد في عرف السياسة يومئذ خارجاً على الخلافة؟ وبغداد في ذلك العصر يحمل إليها كل جميل ويعد ما يحمل منها جد جميل

إن كتاب (المكافأة) بأسلوبه ورشاقة بلاغته من أبلغ ما كتب كتاب العرب في القصص، يشبه أسلوب أبن المقفع فهو من غراره في السلاسة وعدم الكلفة. وقد نقل فيه شيئاً من القصص عن والده وعن رجال البلاط الطولوني وغيرهم وعن أبن المقفع وقال إنه (مما نقله أبن المقفع عن الفرس وتعالمه العرب)

روي لي أحد أصدقائي أن حافظ إبراهيم (رحمه الله) أستظهر هذا الكتاب في سنة نشره وقال لي الأستاذ عبد العزيز البشري إنه قرأه ثلاثين مرة وما أرتوي من ديباجته.

لا جرم إن بلاغة أحمد بن يوسف من النوع الذي لو راهنت على أنه ليس في وسع جهابذة النقد أن يسقطوا لفظة من جملته لربحت الرهن، وصدقك الأدباء في قولك بتفرده في أسلوبه، وأنه بلا جدال المفرد العَلَم بين من أنبتتهم مصر من الكتاب في الدهر الغابر

وبعد فمن عجيب ما فهمناه من حياة أحمد بن يوسف أنه كان يحاذر محمد بن سليمان لما دخل مصر في سنة 292 للقضاء على الدولة الطولونية، وكان يستدعي (الواحد بعد الواحد من أسباب الطولونية ويستصفي ماله بالسوط وعظيم الإخافة). وكان الطولونيون يعرفون أن هواه مع بني العباس بالطبيعة ويراقبون حركاته، وما ندري وهو الذي جمع سيرة دولتهم ورجالها إن كانوا راضين عما كتب أم غير راضين؟ لأن حرية القول ظاهرة في كلامه من كتاب المكافأة، ولا شك أن سائر ما دونه من تاريخ القوم من هذا النمط. مات

أحمد بن يوسف سنة نيف و 330 وقال ياقوت وأظنها 340

وسواء صحت الرواية الأولى أو الثانية فإن الظاهر أن أحمد أبن يوسف عُمّر طويلاً لأنه يروي عن رجال عرفهم في أيام أحمد بن طولون، وهذا هلك في سنة 272 والظاهر أنه كان صاحب مزارع انتقلت إليه من أبيه ومنها ما كان على مقربة من المحلة الكبرى

محمد كرد علي

الظاهرة الهامة وتأويلها

للأستاذ محمد أديب العامري

من الناس من يموت فجأة، فهذا يقف قلبه عن النبض لتوقف الأعصاب التي تحركه، فلا يصل الدم إلى أجزاء ألجسم، فتهبط الحرارة ويقف الغذاء ويسكن الجسم، ثم ينحل من بعد. وهؤلاء لا يعانون دور النزع الذي يسبق انقطاع المرء عن الحياة؛ ومن ثم لا يصاحبهم بالطبع هذيان النزع الأخير،

ومن الناس من يموت متدرجاً ببطء شديد؛ فإذا تقدم في السن إلى حد بعيد تصلبت أوعيته الدموية، وتيبست عضلاته، وتعب جهازه العصبي، وأضاع كثيراً من رشده. ومن المعتاد في مثل هؤلاء أن يفقدوا شيئاً من قواهم الشعورية التفكيرية قبل موتهم بأشهر، بل بسنين؛ فيصرحون بأشياء لا يصرح بها الإنسان السوي عادة، ويتحدثون أحاديث تحمل الناس على اعتبارهم مجانين، أو أشباه مجانين.

ولكن أكثر الناس يموتون في فترة، لا هي قصيرة كالفجائية، ولا هي زائدة الطول كما هو الحال في (الموت التدريجي). فهؤلاء يقعون في المرض فيؤثر المرض على بعض أجزاء أجسامهم؛ وهم أثناء ذلك يحتفظون بقواهم العقلية من شعور ووعي وتفكير؛ فإذا أستفحل المرض أثر على الجهاز العصبي فعطل قوته الواعية (الشعور) وتحكم في المريض جزء آخر من قواه العقلية، وهذا الجزء هو المسئول فيما أعتقد عما يظهر على المريض من هذيان.

وقبل أن نتوسع في شرح ما يقع للمريض في هذه الحالة وحالة (الموت التدريجي) أحب أن أتعرض قليلاً لعمليات العقل الإنساني، ففي هذه العمليات التأويل المرجح

لظاهرة الهذيان التي تسبق الموت.
عقل الإنسان هو عبارة عن قواه المدركة التي يسميها علماء النفس (الشعور) مضافاً إليها قواه الفكرية الأخرى التي يسمى بعضها (شبه الشعور) ويسمى بعضها (اللاشعور) أو (العقل الباطن). فعندما تكتب مقالة فأنت تفكر تفكيراً عنيفاً مقصوداً وموجها، وهذا العمل نوع من الأعمال الشعورية وعندما تحل مسألة رياضية أو عقلية فأن عملك هذا يعتبر من نوع الشعور كذلك. والأعمال الشعورية التي يعملها الإنسان قليلة وإن ظهر أول الأمر أنها
كثيرة. أما المشي فمن أعمال المرء شبه الشعورية. فإنك عندما تقصد من بيتك إلى السوق تطلق رجليك دون تفكير شعوري واع في الشوارع والمنعطفات. وآية ذلك أنك تستطيع أن تقوم بعمل عقلي شعوري أثناء المشي، وعمل اللاشعور من أعمال العقل التي نظن عادة أنه أقلها أهمية ولكنه في الواقع أكثرها إشغالاً لقوانا العقلية وأكثرها دلالة على حقيقة شخصياتنا. فأنت تكون تعمل عملاً شعورياً متعباً فلا يلبث تفكيرك أن ينصرف إلى أفكار خيالية بعيدة الوقوع. فأنت ترى نفسك وقد غنيت أو امتلكت أملاكاً عريضة، أو تزوجت من فتاة جميلة، أو حصلت على شهادة عالية وأنت لابث مكانك لم تنفض يدك من عملك. وتنصرف حالاً إلى الانتقام من خصومك أو التحبب إلى أصدقائك على نحو لا يتأتى لك حين تفكر في أساليب هذا الانتقام أو التحبب ويقع ذلك أثناء اليقظة وتسمى هذه الأفكار (أحلام النهار) فإذا ما نمت تعطل معظم التفكيرين الشعوري وشبهه وأنطلق اللاشعور يعمل عمله. فأنت في النوم طائر مرة، محارب أخرى، مسافر ثالثة. وبالجملة يقع لك ما كنت ترغب في تحقيقه فأمتنع عليك فأنشغل به اللاشعور بعد أن أعرض الشعور عن حمل المرء على تحقيقه. وأهم ما يجب أن يعرف من هذا هو أن (أحلام النهار) والأحلام العادية وعمل النفس اللاشعوري إنما يكون أهمها في رغبات الإنسان المكبوتة، وما كان يعمله لو أتيحت له الوسائل. ومن هنا ترى أن أكثر أعمال المرء في يقظته ونوعه إنما هي أعمال لا شعورية
والذي يلاحظ المريض المقبل على الموت يرى أنه ينتقل من وعيه الكامل إلى هذيانه شيئاً فشيئاً، فهو يهذي بادئ الأمر شيئاً قليلاً بينا يتخلل هذيانه تفكير واع، ثم يتمادى في الهذيان حتى يطغى الهذيان عليه، فلا يكون كلامه إلا خليطاً لا يتصل بالشعور أو شبهه بسبب. والإصغاء إلى المتوفى في هذه الحالة دراسة مهمة لشخصيته وتفكيره ومتاعبه. لأنه يفكر آنئذ بلا شعوره ويعطيك نفسه غير مغلقة ولا مصطنعة. والأرجح أن جميع ما يصدر عن المريض له تعليل على هذا الأساس، أي أن هذيانه تفكير لاشعوري.
وأحسن ما تشبه هذه الحالة بالنوم، فالنوم في الواقع شبه موت مختصر، تثور فيه رغبات المرء المكبوتة ومخزونات اللاشعور العديدة على صورة أحلام. والذين تجري أحلامهم على ألسنتهم أثناء النوم يتحدثون حديثاً يشبه الهذيان. على أن هذا الهذيان نفسه أصح دلالة
كما قلت على نفسيه النائم مما يصرح به أثناء وعيه الكامل عن شعور محكم مضبوط. ولهذا يعمد المحققون إلى مثل هذه الحالات ليعرفوا منها أسراراً يقصدون إليها. وهم لذلك يلجئون إلى طرق طبية خاصة توصلهم أحياناً إلى أغراضهم.
وأصغ إلى هذيان المريض تجد أنه يحدثك عن أهم المشاكل التي كانت تعترضه في حياته. ويساعدك على تحقيق هذا معرفة بالمريض تكون قد أطلعتك على أحواله الخاصة. ومع أن هنالك ما يؤيد أن المريض إذا أقبل على الموت عرف ذلك، فأن هذا لا يدل على أن المريض يرى شيئاً من الحياة الثانية ويتحدث عنه، إلا إذا كان هو من شديدي الإيمان بهذه الحياة والعناية بها والتحدث عنها بحيث أنها تشكل في عقله قسماً من أفكاره اللاشعورية التي يتحدث عنها وهو يهذي. ونحن هنا يجب أن نلتمس التأويل الممكن لحديث بعض المحتضرين عن أناس توفوا قبل.
فما قيل من أن مختضراً (كان يتحدث إلى الموتى كما لو كانوا منه على مرأى وعلى مقربة) سهّل التأويل على أساس نظرية اللاشعور. وأما أن هنالك (حالات هتف فيها المحتضر باسم شخص مات ولم يكن المحتضر يعرف أن ذلك الشخص قد مات) فقول يحتاج بعد إلى تحقيق شديد. فالمرء قد يختزن في لا شعوره معلومات لا تكون في متناول شعوره دائماً، فهو ينكر معرفتها في حال وعيه وشعوره في حين أنها ترد على خاطره حين يتيه فكره لا شعورياً، فلا يكفي قول رجل لك عن أمر إنه لا يعرفه دلالة

على عدم معرفته، إذ المرء نفسه قد يجهل أنه يعرف شيئاً مختزناً في اللاشعور.
وإذا أريد الوصول إلى قرار علمي صحيح في هذه الظاهرة فلا يجب أن تحمل أقوال المحتضر على شيء خاص حين يمكن حملها على معانٍ طبيعية عادية. فقول مريضة محتضرة عن شقيقة لها سبقتها إلى الموت دون أن تعلم (انظروا هذه هي شقيقتي إنها تقول أنها ستكون معي. لماذا لم تخبروني بذلك؟) قول لا يدل دلالة قاطعة على أن الشقيقة المحتضرة عرفت قبيل موتها عن موت أختها، كما يتضح من التآويل التي يمكن أن يؤولها هذا الكلام بصورة طبيعية، أن العمْد إلى تآويل روحية غير مستندة إلى ما يعتمد عليه العلم من وسائل الإثبات لا يزيد إيضاح هذه الظاهرة شيئاً، بل يزيدها تعقيداً.
هذا - ولا ريب أن المريض يعرف قبل الموت بزمن، قصر أو طال، بأنه سيموت.
والرجل المسن الذي يرى قواه العقلية تنحط وقواه الجسدية تذهب، هو رجل يموت في الواقع، وهو يعرف أن انحطاطه هذا آيل به إلى الموت. فعندما يقع خلل في أحد أجهزة الجسم المهمة يتحقق الموت ولا سيما إذا كان عالماً بشيء من طبيعة الحياة. والإنسان المريض الذي يقبل على الموت يعلم قبيل موته في الغالب أنه سيموت، لأن الانحطاط الشديد الناتج من اختلال العمل في بعض الأجهزة كما مر لابد وأن يشعر المرء إشعاراً داخلياً بيناً بأن الخيط الذي يصله بالحياة وشيك الأنبتات، فلعل هذا هو الذي ينقله إلى التفكير اللاشعوري في الحياة الثانية وفي معارفه الذين سبقوه إليها.
(عمان)
محمد أديب العامري
مدير مدرسة عمان الثانوية
فردريك نيتشه
للأستاذ إبراهيم إبراهيم يوسف
تتمة ما نشر في العدد الماضي
وفي سنة 1874 كتب نيتشه في مذكراته (إن ديني - إن كان لي بشيء يصح تسميته بذلك - لا يتعدى العمل لمنتجات العبقرية. أما الفن فهو التربية التي تحقق ما نأمله في الحياة وبذلك تهون علينا الحياة بما فيها من ألم.) وذكر نيتشه في نهاية الجزء الرابع من كتابه (إنساني، وإنساني إلى أبعد حد) في فصل (عن روح الفنان والأديب) كلاماً بلهجة اليائس، إذ أعتبر الفن في تدهور وانحلال - ولعله كان يتحدث في ذلك عن نفسه بالذات. فقد حمل نيتشه على الفنانين الذين يحجمون عن النظر إلى المثل العليا، ويكتفون بالنظر إلى أعمالهم فقط. ولهذا انقلب على الفنانين وراح يمجد العلماء الذين يعملون للفكر، فكل عالم أصبح في نظره (إنساني، وإنساني إلى أبعد حد). وهكذا بدأ يشيد بسقراط الذي كان قد نعته من قبل (بقاتل التراجيديا) وأتخذه مثلاً أعلى له.
وعد نيتشه بعد كتابه الأخير من الحكماء البلغاء القابضين على ناصية المنطق والخيال والقول الحكيم. وكان في جده صارماً وفي لذعه قارصاً وفي مزحه ظريفاً. وهو إذا ما غضب بلغ حد الغضب، وإذا ما عمد إلى اللعب نسي نفسه، وإذا ما رقص تفانى في الرقص، وكان الرقص أحب الأشياء إلى نفسه. وكان نيتشه يرى في نفسه رأس حكماء الألمان ويعتقد بأن أسلوبه هو الأسلوب الخالد، إذ في وسعه أن يكتب في عشرة جمل ما لا يكتبه غيره في كتاب كامل. وكان قد قرأ من الألمان ليشتنبرج (هينه) ومن الفرنسيين مونتاني وفونتنل وشامفور وغيرهم. وكان يجد للفرنسيين آراء صادقة لم تجتمع في كافة كتب الفلاسفة الألمان.
وتخطى نيتشه في سنة 1881 تلك الأزمة التي عاجلته بعد كتاب (إنساني وإنساني إلى أبعد حد) وكتاب (آراء وحكم مختلفة) وكتاب (الهائم وظله) وأحس بأنه قد أسترد قواه الجسمانية والروحية بعد أن جال في التيرول وفي جبال الألب وفي شمال إيطاليا.
ورأي نيتشه أن الحياة تفتحت له من جديد، إذ أخذ يدرك الأشياء على حقيقتها بعد أن زال عنه الغشاء. وقد أدى به تجواله إلى هيامه بتلك البلاد الجنوبية هياماً ضارع حبه لوطنه. ومن ثم أصبح شخصاً آخر لا يؤمن بوطن خاص، وصار (أوربياً) لا يفرق بين شعب أو وطن، حتى لقد قال (لكي تكون ألمانيا صادقاً، يجب أن تنتزع النعرة الألمانية

من صميمك). كذلك قال: (إن الألمان هم رجال الأمس البعيد وسيصبحون رجال الغد البعيد، أما أنهم رجال اليوم فلا!) وما ذلك إلا لتعهدهم بتربية العاطفة بدلاً من تعهدهم تربية الفكر. وألمانيا في اعتبار نيتشه أحط مستوى من بقية دول أوروبا في الناحية الثقافية. ولم يشعر نيتشه بأنه ألماني إلا بالقدر الذي تسمح به طبيعته (الأوربية الصادقة) فهو ألماني كما هو بولوني أو أيطالي أو غيرهما. ولعل حياته الأولى ومحيطه الذي عاش فيه ساعداه على أن يكون ذلك الرجل

وإذا كانت أعمال (أفلاطون) و (أسبينوزا) و (بسكال) و (روسو) و (جيته) قد أحدثت تطورات في الفكر البشري كما يقول نيتشه فأن كتاب (شفق الصباح) الذي أخرجه نيتشه عام 1882 وجعل له عنواناً آخر هو (أفكار عن الأحكام الخلقية) أحدث هو الآخر تطوراً في الفكر البشري. وفيه عالج المسائل الأخلاقية، فمثلاً كتب عن العادات المستحبة. وتساءل: ما هي العادة التقليدية؟ فقال بأن العادة التقليدية هي الخضوع إلى ما يضاد العادات الغريزية. وقال بأن على الناس أن يتعلموا من جديد، وعليهم أن يرفضوا ما أتفق عليه العالم من عادات تقليدية، إذ لا يوجد (عدل أبدي)، ولهذا فهو ثائر على كل اعتبار، حتى الاعتبارات الدينية المسيحية. وأعقب كتابه هذا بآخر عنوانه العلم المرح وقد حاول فيه أن يحرر الإنسان من قيوده المكبل بها، ويبعده عما لحق به، كيما ينتعش فكره. ولم تمض أربع سنوات أخرى حتى أخرج كتاباً آخر عنوانه (لغة الريح الساخن) (الذي من شأنه أن يذيب الثليج) - والكتب الثلاثة الأخيرة تمم بعضها بعضاً. وفيها من غريب الآراء في الأخلاقيات ما لا يصح تلخيصه في مثل هذه العجالة.

وعثر نيتشه في قراءاته على (زرادشت) فيلسوف الفرس الأقدم ومعلمها الأول والحكيم الخالد الذي عالج كل مسألة. فأتخذ من أسمه شخصية تملى على الناس آراءه الخاصة. فأصدر في فبراير سنة 1883 الجزء الأول من كتاب (زرادشت). ولم يكن نيتشه في

حاجة إلى أكثر من عشرة أيام لوضعه، فجاء في أسلوب من الشعر المنثور الذي لا يجارى. وكتب كتابه هذا أثناء تجواله في طريق (زاوجلي) الذي يطل على خليج (رابللو) بالقرب من (جنوه) هنالك نزل علي نيتشه وحي ذلك الكتاب الذي أختار له أسم (كتاب للجميع ولغير أحد) وجعل له عنوناً آخر (هكذا قال زرادشت) , كذلك أتم الجزء الثاني والثالث منه في عشرة أيام أخر. فكتب الجزء الثاني في بلده (سلز ماريا) بين أواخر يونية وأوائل يولية من عام 1883 وأتم الجزء الثالث في يناير سنة 1884 في مدينة (نيس). أما الجزء الرابع الذي كتبه لأصدقائه فقط فقد أقتطع من وقته زمناً أطول. وكان نيتشه أثناء وضع هذا الكتاب على أتم ما يكون من عافية وصحة. وكان لا يسأم السير في الجبال التي كانت توحي إليه بكل ما يكتب كما أن البحر الممتد أمامه كان له أثر في ذلك الوحي. ولقد كتب (زرادشت) كما لو كان يرقص أو يلعب. فقد قال بلسانه (كان من السهل أن يراني الناس راقصاً. وكنت لا أعرف للتعب معنى. فقد سرت في الجبال عدة أيام، وفي كل يوم أسير سبع أو ثماني ساعات متوالية، وكنت أنام ملء جفني، وأضحك من كل قلبي. لقد كنت مستكملاً كل معدات الحياة والفكر صبوراً. وكان هذا العهد يختلف عن تلك الأيام التي كتب فيها (إنساني، وإنساني إلى أبعد حد) اختلافاً كلياً

وكم كان نيتشه شكوراً في كتابه الرجل الطيب الذي أتى فيه بشيء من مذكراته لعام 1888.

ويعتبر كتاب (زرادشت) الذي وضعه نيتشه في رأي بعض النقاد ومنهم بيتر جاست (من الكتب الواجب تقديسها). وقال نيتشه نفسه فيه (إنه نوع أنيق من الدعاية للأخلاقيات.) بل هو (شعور نبي). (وهذا الكتاب رقص وموسيقى، هو ألحان جميلة وحكم غالية، هو العاصفة والهدوء، هو المرح الكامل والظرف والغضب، وهو إلى جانب ذلك مرعب ومخيف، إذ فيه أسرار دفينة.) وإنه (كالغابة والليل والأشجار أي مجمع الظلام، فمن لا يخاف ظلمته سيجد فيه زهوراً ورياحين) هذه هي كلمات نيتشه في كتابه الذي كان يعجب به ويسميه (قرار المحيط). وكتاب زرادشت هذا يعد بأجزائه الأربعة صباح وظهر وعصر ومساء اليوم الذي سيولد فيه الإنسان الكامل أو السوبرمان كما أسماه. وهذا الإنسان الكامل قد تخيله نيتشه في كتابه (العلم المرح). ولهذا الإنسان وحده حق الحياة ومن أجله

تحمل نيتشه مضض الحياة. أما الإنسان الراقي الذي تكلم عنه في كتابه (زرادشت) يختلف عن الإنسان الكامل الذي جاء بوصف له في الجزء الرابع. ولا داعي للاسترسال فإن (الرسالة) تترجمه في التحدث عما يتضمنه كتاب (زرادشت)، ونكتفي بما أشرنا إليه لنتحدث عن أسلوب نيتشه في هذا الكتاب. فقد نهج فيه نهجاً فريداً. وكان نيتشه قد كتب إلى (روده) إمام اللغة في ذاك العصر يسأله إن كان هناك في اللغة الألمانية أسلوباً يضارع أسلوبه في زرادشت من حيث القوة، وإن كان يعتقد بأن اللغة الألمانية بلغت أقصى شأوها على يدي جيته ولوتر ويقول نيتشه

إن أسلوبي هو الرقص، هو لعب متجانس في كل أشكاله، كذلك هو القفز والاحتقار)

ويعد كتاب (زرادشت) أكثر كتبه انتشاراً وأبعدهم أثراً وغوراً، وفيه تتجلى (لكل تكرار شخصيته وشاعريته. وهو يقول عنه: (إن هذا الكتاب أنشودة الليل - وفي الليل تجيش كل فوراة بصوت أعلى. كذلك روحي هي الأخرى فوارة.) وقال نيتشه على لسان زرادشت متحدثاً إلى شخصه: (إنني جوال أتسلق الجبال) كذلك قال: (إنني لا أحب المنبسط من الأرض، وقد تبينت أنني لا أستطيع الهجوع إلا يسيرا. ولا أنتظر من القدر إلا أن أبقى هكذا جوالا أتسلق الجبال) وهذا الشعر الرمزي هو طابع كتاب (زرادشت) العظيم.

ولنتيشه في هذا الكتاب شاعرية فذة، فهو في بعض الأحايين يخجل من أن يكون شاعراً، لأنه قد يكذب مع علمه بكذبه، ومع رغبته في الكذب. ولهذا فهو يأبى أن يكون من طبقة الشعراء الذين لا ينظرون إلى أعماق الأشياء وأعماق الحياة. أما أنه كان ميالاً إلى التلاعب بالكلام والصور في شعره فذلك لا ينكره أحد. وكان نيتشه رومانتيكي النزعة الأدبية، ولكنه كان يأبى أن يعرف عنه ذلك، هذا إلى أنه كان عدواً لدوداً للأدب الرومانتيكي، ومع ذلك فقد كان كلاسيكياً في تذوقه للأدب. وكان من أنصار الإيضاح والتبسيط، يكره التفاصيل كما يكره التعقيد والتشكك. وكان يتذوق أدب (يونج ستلنج) وجيته وشتفتر وجيتفريد كلر وهم من غير نزعته. وكذا ظهرت هويته فيما لا يملكه.

وكان نيتشه يعمل في نفس الوقت الذي أخرج فيه كتاب (زرادشت) في تأليف كتاب آخر أظهره سنة 1886 تحت عنوان (ما وراء الخير والشر) وهو مقدمة شبه مسرحية لفلسفة المستقبل، وقال عنها نيتشه بأنها طريق ممهد لأرض زرادشت الموحشة الخطرة. وهو

يختلف مع كانت في تفكيره إذ يتساءل: لم الاعتقاد في مثل هذه الأحكام عن الأخلاقيات؟ وفي رأيه أنه لا يوجد مظاهر أخلاقية، ولكن توجد تعابير أخلاقية للمظاهر. وكما يوجد لطبقة السادة تعاليمهم الأخلاقية، كذلك يوجد لطبقة العبيد تعاليمهم الأخلاقية الخاصة بهم. ولهذا فالخير والشر أشياء تتغير معانيها بتغير الزمان وتغير البيئة. ويرى نيتشه (أن التعاليم الأخلاقية لطبقة السادة كانت قد اختفت من أوربا ألفي سنة إلا أنها رجعت في عصره، وكانت قد بلغت أوجها حينما وصل نابليون أسمى مجده. وفي رأي نيتشه أن الخير لا يوجد إلا عند الفقراء الذين لا قوت لهم، وعند الضعفاء الذين لا حول لهم، وعند المرضى والقبحاء وهؤلاء جميعاً هم المتدينون)

وكان نبتشه قبل إصداره كتابه الأخير على وشك إتمام نصف كتابه الأعظم (قوة الإرادة لبلوغ الحكم ومحاولة قلب القيم جميعها) , وما يقصد نيتشه من (قوة الإرادة لبلوغ الحكم)؟ هو يقول: (إن الكائنات الحية تعمل قبل كل شيء أتظهر قوتها إذ الحياة هي قوة الإرادة لبلوغ الحكم) وهو يرى في الجزء الأول من هذا الكتاب الذي لم يتم وضعه أن اللاإرادة هي المسيطرة على مشاعر الناس. وبذا تسيطرت اللاإرادة على الإرادة للحياة. وفي الجزء الثاني من الكتاب نقد لكل القيم العليا: ففيه نقد للدين ونقد للأخلاقيات ومثلها العليا ونقد للفلسفة. أما الجزء الثالث فقد جعله كتاباً خاصاً بمبدأ تقرير القيم الجديدة. وقد أعتمد في وضع قيمه الجديدة هذه على اللاإرادة التي أعتبرها أساس القوة وأساس السيطرة. ونظرته في الحياة هذه أصبحت عقيدة. فقال إن الإرادة أساس الحكم في الطبيعة، وهي أساس الحكم عند الفرد والجماعة، وهي أساس الحكم في الفن. أما كتابه الرابع فقد أراد أن يكون تمهيداً لتطور وازدهار هذه الفكرة. وينتهي الكتاب بالقسم الأخير منه الذي أختار له (العودة الأبدية) عنوناً. ولكن لسوء الحظ لم يتم نيتشه كتابه هذا، وكان الجميع يتوقعون أن يزدان به الأدب

الألماني. ولم يكن هذا كل ما كان يريده نيتشه، بل لقد وضع تصميم كتاب آخر عن (الوحدة والانعكاف) في جزء خاص من كتاب (زرادشت) ولكن الأجل لم يمهله؛ ولم يعش ليرى أعماله تنتشر وتروج. وكانت سنة 1888 هي أكثر السنين التي أنتج فيها نيتشه مؤلفاته

وقد لاحظ النقاد في بعض كتبه الأخيرة انطفاء جذوة فكره، وبدت عليه أعراض الخبل، وكان قد تملكه بعض الوقت. وقد جر عليه تطرفه - وليس في ذلك ما يعيبه - قسوة القدرة وإعراض الناس عنه، ففي أواخر سنة 1888 أصيب نيتشه بهزة عصبية شديدة، وبدأ جسمه بعد ذلك في الاضمحلال. ولكنه بقي حتى أواخر أيام حياته طيب القلب، شديد الصبر، كثير الأدب، مراعياً احساسات الناس كافة. وكان في سنة 1888 قد خيل إليه أن لابد له من أن يبذل أقصى مجهود فكريي فجمع أشعاره التي أسماها (أغاني زرادشت)، ومنها قصيدة (غروب الشمس) الخالدة. ومن من الناس لا يمجد (زرادشت) أو (الإنسان الكامل) حين يذكر أسم نيتشه؟

وبقى نيتشه حتى اليوم الخامس والعشرين من شهر أغسطس عام 1900 يقاسي آلام مرضه حتى وافته المنية في مدينة فيمار ولم يكن في نظر الناس حين أرتحل إلى العالم الآخر إلا أديباً غريب الأطوار والأفكار. أما اليوم فله شهرة عالمية كأديب وفيلسوف. وقد كان نيتشه شاعراً مجيداً ذا عقل وثاب وإحساس فياض عميق، في حين أن بقية الشعراء لم يكن لهم إلا مجرد (نزوات مضطربة) وما كان نيتشه ليهمه اصطلاح الناس على تمجيده أو الاعتراف بفنه، فقد قال: (إن الطيبة لن تعود طيبة إذا لاكها الجار في فمه) فكيف حال الطيبة إذا لاكتها الناس عامة؟.

وكذا مات نيتشه، ولكن ما انقضت بعض الأعوام على وفاته حتى أخذ الأدباء والنقاد يشعرون بجبروت فكره ونبل غرضه. وكم من زعماء الأمم يتطلعون اليوم إليه كرائد لهم، ويستمدون الوحي من تفكيره! وكفاه بذلك فخراً.

إبراهيم إبراهيم يوسف

من تاريخ الأدب المصري

شعر القاضي الفاضل

للأديب محمد سعيد السحراوي

تتمة ما نشر في العدد الماضي

المديح

هناك نوعان من الشعر قيل كلاهما في مناسبته، أحدهما يموت بموت المناسبة، التي قيل فيها، والآخر يخلد ويخلد معه هذه المناسبة، ومن النوع الأول شعر المديح، فشعر المديح عند القاضي الفاضل أقل شعره كمية وقيمة، ومنه قوله يمدح صلاح الدين:

جهادك حكم الله ليس بمهدود ... وعزمك أمر الله ليس بمردود

سفينة نوح ما ركبت وعسكر ... كطوفانه والشام بالفتح قد نودي

كأنّا ببحر الكفر قد غيض ماؤه ... إذا ما استوت سفن لها القدس كالجودي

إذا سد باب الآذى فالجود نافذ ... ويا رب مفتوح كآخر مسدود

وقوله يمدحه أيضاً:

صحا الدهر لكن بعد ما طال سكره ... وما كان إلا من دم البغي خمره

أقمت عليه الحد بالحد ضارباً ... بسيف إذا ما أهتز قد بان سكره

فمن كان ذا هم فقد زال همُّهُ ... ومن كان نذر فقد حل نذره

فيا ملكا لا يملك الخطب صبره ... كما أنه لا يجهل الدهر شكره

يجور على الهامات عادل سيفه ... ويجري على أهل الأوامر أمره

لقد قمت في نصر النبي وآله ... مقاماً على الرحمن قد حق أجره

سرى ملك الإفرنج ينصر جمعهم ... فما ضرهم في نصرة الحق كفره

وما هي إلا آية نبوية ... أقامت لهم بالنفع من خيف ضره

وعادتهم من قبل آية جدهم ... فينصرهم من لا يؤمل نصره

وقال من موشح في مدح الفضل بن يحيى بن خالد:

دع اللوم يا عاذلي ... فما أنت بالعادل

ولا تكثرن الكلام ... وأقصر فهذا الملام

على الصب مثل الكلام ... ولو قمت في كل عام

تلوم إلى القابل ... فما أنت بالقابل
وليست هذه النماذج في مستوى شعره الآخر على ما أعتقد، وفيها تكلف ظاهر - وأكبر ما يلفت النظر في شعر المديح عند القاضي الفاضل أنه لا يبدأه - إلا في القليل النادر - غزلاً كما كانت عادة أسلافه، كما أنه لا ينزل به إلى المستوى الذي نزل إليه كثير من الشعر الأقدمين. وأقصى ما وصل إليه مديحه قوله:
لقد سالمتنا صروف الزمان ... وما برحت قبلها عائدة
وأمطرت نوء الندى دائماً ... فهزت به أرضنا الهامدة
وأسهرت عينك للمكرمات ... فأقررت أعيننا الهاجدة
وأطفت حرارة آمالنا ... مغانمُ إحسانك الباردة
وقوله:
وتلقى خطوب الدهر إن جد جدّها ... بعزم مجد في عزيمة هازل
بفخر يرد النجم ليس بصاعد ... وجود يرد القطر ليس بنازل
سماك فخار لا يسمى بأعزل ... ولا لله ليس تُراع بعازل
أقول إذا ما جاء هل من مفاخر ... كقولي إذا ما جدّ هل من منازل
وكم لك من يوم أغر محجل ... ترد به قسرا نوازي النوازل
وكذلك قوله في مدح شجاع وزير الخلافة من قصيدة طويلة:
أما ومنك على أعدائك الطلب ... فأن أعدى عدو عندنا الهرب
أنت الحياة التي ما بعدها رغب ... أو الحمام الذي ما قبله رهب
فليس يعصمهم في الفلك ما ركبوا ... وليس ينجيهم في الأرض ما ضربوا
وقوله في مدحه أيضاً:
لك المجد تردى عن عداه علاه ... فأي رجاء قد عداه نداهُ
إذا شئت يوماً أن تراه فإنما ... ترى ما ترى في النجم دون مداهُ
وجودك سحب والسحائب أرضها ... فهذي البرايا لو علمت تراهُ
وأختم مختاراته في المديح بقصيدته الجميلة التي قالها في العزيز مستعطفاً ومادحاً ومصوراً ومعاتباً:
هذا الذي كنت به أُوعدُ ... أنجز وعد الأمس هو اللغدُ
فالغد قد أعجلني حثه ... عن أن أقول اليوم لا تبعدوا
مالك إلا اليوم في شدتي ... أنت صديق وأنت أنت العدو
فليت لا كان لساني لمن ... ليس له في كشف خطب يدُ
بدا به البخل فألحاظه ... عطشى وفي ريقه الموردُ
تستشهد الأغصان في أنها ... كعطفه اللدن وما أشهدُ
والناس حساد على وصله ... وما ألوم الناس أن يحسدوا
إن شبهوه صنما فأنهم ... فأنهم في الحب قد ألحدوا
وذلك الجمر على خده ... يقبسك النور ولا يوقدُ
كأنما قام بمحرابه ... من صدغه ذو خشية يسجدُ
يدعو لأيام العزيز التي ... بالعدل في أحكامها تخلدُ
فكل أرض بالندى جنة ... وكل دار للدعا مسجدُ
يا نعمة الله التي فضلها ... يجحد إيمان الذي يجحدُ
تستنفدُ الآمال معروفه ... وهو على المعهود لا ينفدُ
لله باب منك في أرضه ... ما دونه ملجا ولا مقصدُ
ويستوي مورد معروفه ... مسود هذا الخلق والسيدُ
عبدهم حر بإعتاقه ... وحرهم بالجود مستعبدُ
كلهم أسرى ندى سرهم إنهم في كفه أعبدُ
الزهد
وشعره في الزهد وبكاء الزمان، والحنين إلى الأوطان كثير وأكثره في بكاء الشباب وذم المشيب وهو يقول من قصيدة:
فالعمر كالكأس والأيام تمزجه ... والشيب فيه قذى في موضع الحبب
ويخاطب الشباب بقوله منها:

نار وإن لم يكن كالنار محرقة ... فإن في الشعر منها آية اللهبِ
ولي صباه وأبقى شهب ليلته ... والصبح ليس بمأمون على الشهب
يا ليلة ما أظن الصبح يذكرها ... شيبت رأسي ورأس الفجر لم يشبِ
وخيمة العمر إن شد الصباح لها ... عموده كان حبل الشمس كالطنب
ونحن نأمل أسباب الحياة بما ... مثلته وأراه أضعف السببِ
وحجة العمر أكدار فأن غلطت ... بالصفو دنياك فاعدده من النغبِ
يحبك الناس إن أمسكت عن طلب ... والله يمقت إن أمسكت عن طلبِ
إن كان رزق بماء الوجه محتلباً ... فرزق ربك يأتي غير محتلبِ
ويقول في الشيب أيضاً:
ما مع الشيب حديث في غزل ... قد شغلنا منه بالضيف نزلْ
لست ممن ينزل الضيفُ به ... فيراه الضيف عنه في شغلْ
وكذلك يقول:
بلغت أول عمري أرْزل العمر ... فلم يزدني أشتعال الشيب في الشعر
والشيب والشعر كانا ساكني خلدي ... وإنما انتقلا منه إلى نظري
أما خديعة أحلام أغر بها ... في يقظتي فكر جاءت على فكر
كان الحمام أمام الصفو أرفق بي ... من الحياة التي أفضت إلى الكدر
علا البياض قتور كان أوله ... هذا البياض الذي يعلو على الشعر
فلليل ليل شباب المر إن سلكت ... فيه المنيةُ لم يسلك بمعتكر
عمر الفتى ليلة والموت صبحتها ... والشيب بين الدجى والصبح كالسحر
وللقاضي الفاضل شعر غير قليل في الرثاء والهجاء والوصف والحكم وغير ذلك فهو متفرقات له
يرثى العزيز فيقول مخاطباً قصره:
لئن صرت فوق الأرض أرضاً فربما ... عهدناك من جوف السماء لنا سما
حكيت لنا بالأمس عنهم حقيقة ... فأصبحت أنت اليوم ظناً مرجماً
عزيز علينا أن نراك على البلى ... تراباً نهي المشغوف أن يتتيما
تصدى له من لا يراقب حرمة ... ومن ليس يرعى للمكارم محرماً
وما ساءني أن ترحل الدار بعدهم ... إذا ذهب الحامي فلا بقي الحمى
وقال هاجياً مازحاً:
ولقد رأيت وما سمعت بمثله ... للبين بينهم غراباً أعصما
وجه عليه من القباحة مسحة ... ظلم اليسار وقد رآه فأظلما
وعليه وجه قد أجيبت دعوة ... فيه من الداعي عليه فأرغما
لو أنه ذنب لكان كبيرة ... أو أنه طود لكان مقطما
لو شئت أن أرقى لنيل قرونه ... لجعلت ذاك الكتف تحتي سلماً
وقال في كتم السر:
السر مالُ أو دم ... في سحره لا في يديه
إن كان يكتم سره ... كان الخيار به إليه
أو كان يفشي شره ... كان الخيار به عليه
وقال من قصيدة:
وإن امرأ أنفاسه نحو قبره ... خطاه لمحثوث المسير ولا يدري
وقال أيضاً:
يا خائباً بالمعاصي ... كفيت عقبى الخلو
لئن أمنت الأعادي ... فالنفس أدنى عدو
وقال في كتاب:
كتاب صحبت الأنس حين قرأته ... كصحبة ما فيه من اللفظ للمعنى
هو الجوهر الأعلى وما قد رأيته ... من الجوهر الأعلى هو العرض الأدنى
وقال:
لا يعجز الله هارب هرباً ... سحابة مدرك إذا طلبا
أين يفر المغرور من أجل ... ومن بلاء كلاهما كتبا

إذا رأى الشمس حوله اشتبكت ... قال أداة تفيدني الغلبا
وهي بمنصوبها له شرك ... وهو على نفسه به نصبا
يا موقد البغي إن موقده ... لناره يصطلي بها حطبا
عمائم للسنان تلبسها الرم ... ح وترخى لها الدما عذبا
وتسبح العدا بها قضبا ... تخر يوم الوغى له القضبا
وله أيضاً:
سرت فكأن الليل قبل خدها ... فأبقي به قطفاً وأسند عقربا
فما استغربت في موطن الحب غربتي ... فهذا الدجى في صبحها قد تغربا
وقال يخاطب الليل:
فيا ليل ما افترق العاشقان ... إذا كنت بينهما حاضراً
فقد جاءني هاجري أصلا ... فلا يرجعن وأصلي هاجرا
وسرّبه غلتي واردا ... ولا تفجعني به صادرا
ودعني أطارحه شكوى الفراق ... واحفظ عهود الهوى ظاهرا
لعلك تعرف سر الغرام ... فتصبح للمبتلى عاذرا
وتعشق بدرك عشقي البدور ... وترجع مثلي بهم حائرا
فلا تبعث العجز قبل اللقاء ... ولا تتبع الأول الآخرا
فكم في حواشيك من طائر ... يقص به قلبي الطائرا
ويكسر صبحك لي عينه ... فيا ليل دمت له كاسرا
هذه نماذج عرضتها من شعر القاضي الفاضل وهي ليست أحسن ما في ديوانه، ولكنها هي التي تعطي الأديب صورة صحيحة عنه، وأردت بعرضها التنويه به كشاعر لا يزال ديوانه مخطوطاً، موجهاً نظر الأدباء والباحثين إلى الكنز الثمين الدفين في دار الكتب المصرية وغيرها - الذي إن كنا لا نستطيع نشره الآن، فإننا لا شك نستطيع الإشادة به على صفحات (الرسالة) التي تغار على نشر التراث العربي القيم، تاركا البحث والتحليل في شعره وأدب غيره من الأدباء والمغمورين إلى الباحثين والأدباء.
أما ديوان القاضي الفاضل فمخطوط بمكتبة معهد دمياط، وأخذت له صورة فوتوغرافية محفوظة في دار الكتب المصرية تحت رقم 4859 أدب.
محمد سعيد السحراوي
للأدب والتاريخ
مصطفى صادق الرافعي
1880 - 1937
للأستاذ محمد سعيد العريان
ملكة الإنشاء
بلغ الرافعي الشاعر مبلغه بعد سنة 1905، ونزل منزله بين شعراء العصر، وجرت ريحه رُخاءً إلى الهدف المؤمل، فامتد نظره إلى جديد . . . .
وأخذ الرافعي يروض قلمه على الإنشاء، لعله يبلغ فيه مبلغه في الشعر، فأنشأ بضع مقالات مصنوعة فتنتْه وملكتْ إعجابه فتهيأ لأن يصدر كتاباً مدرسياً في الإنشاء، سماه (ملكة الإنشاء) يكون نموذجاً للمتأدبين وطلاب المدارس يحتذون فنَّه وينسجون على منواله، ووعد قراءه أن ينتظروه في غلاف الجزء الثاني من ديوانه؛ وأحسبه كان جاداً فيما وعد، لولا أمور نشأت من بعد وصرفته عن وجهه، فظل الوعد قائماً بينه وبين قرائه حتى نسيه ونسوه.
ولا أحسب أن شيئاً ذا بال قد فات قراء الرافعي بعدم نشر هذا الكتاب؛ وحسْب الأدباء والباحثين في التاريخ الأدبي أن يقرءوا من هذا الكتاب الذي لم ينشر مقالات ثلاثاً نشرها الرافعي في الجزءين الثاني والثالث من ديوانه، وفي الجزء الأول من ديوان النظرات؛ إعلاناً ونموذجاً لكتابه؛ فإن في هذه المقالات الثلاث كل الغَناء للباحث، تدله على أول مذهب الرافعي في الأدب الإنشائي، وطريقته ونهجه
الجامعة المصرية
قلت: إن الرافعي كان جاداً فيما وعد بإصدار كتابه (ملكة الإنشاء) لولا أمور نشأت من بعد وصرفتْه عن وجهه؛ فهذا كان يوم إنشاء الجامعة المصرية في سنة 1907، وكان أمرها هو ما يشغله.

كان قد مضى على الرافعي يومئذ عشر سنين في مدرسته التي أنشأها لنفسه، وكان فيها المعلمَ والتلميذ، يدرس ويطالع ويتعلّم، لا يرى أنه انتهى من العلم إلى غاية؛ وما كان
يدرس ليكون عالماً في الأدب، أو راوياً في التاريخ، أو أستاذاً في فرع من فروع المعروفة؛ إنما كان يدرس ليتزوّد للشعر زادَه، وليبلغ من العلم مبلغاً يعينه على أن يقول وينشئ. فلما أنشئت الجامعة المصرية، تطلع إلى ما يقال هناك في دروس الأدب، لعله يجد فيه الجديد الذي يتشوّف إليه ويطلبه؛ فماذا وجد هناك؟
لقد مضى على إنشاء الجامعة سنتان وما استحدثت شيئاً في الأدب يفتقر إليه الرافعي، وما تحدث أساتذتها حديثاً في الأدب لا يعرفه الرافعي. ماذا؟ أهذا كل ما هناك؟ وأيقن الرافعي من يومئذ أنه شيء، فلبث يتربص. . .
وطال انتظار الرافعي وما استطاعت الجامعة أن تثبت له أن فيها دروساً للأدب، وما استطاع الرافعي أن يقنع نفسه بأن في الجامعة أساتذة يدرسون الأدب، فكتب مقالاً في (الجريدة) يحمل على الجامعة، وعلى أساتذة الجامعة، وعلى منج الأدب في الجامعة. ورنّ المقال رنينه وأحدث أثره، فاجتمعت اللجنة الفنية للجامعة، ونشرت دعوة على الأدباء إلى تأليف كتاب في (أدبيات اللغة العربية) جعلت جائزة الفائز فيه مائة جنيه، وضربت أجلاً لتقديمه إليها سبعة أشهر.
وقرأ الرافعي دعوة الجامعة، فما رضى ولا هدأت نفسه؛ لقد كان أمله يومئذ أكبر من ذاك؛ إن مائة جنيه شيء مغْرٍ لمثل الرافعي الأديب الناشيء، الموظف الصغير، الزوج العائل، أبي وهيبة وسامي ومحمد؛ ولكن. . . ولكنه يطمع في أكثر من مائة جنيه، يطمع في أن يكون هو أستاذ الأدب بالجامعة. (إنهم على الأغلب سيعهدون بتدريس الكتاب لغير مؤلفه، فيكون الحاضر لديهم كالغائب عنهم، ولا فضل لدارهم إلا أنها مصدر التلقين؛ فإذا طبع الكتاب صارت كل مكتبة في حكم الجامعة، لأن العلم هو الكتاب لا الذي يلقيه، وإلا فما بالهم لا يعهدون بالتأليف لمن سيعهدون إليه بالتدريس؟ وهل يقتصرون على أن يكون من كفاية الأستاذ القدرة على إلقاء درسه دون القدرة على استنباط الدرس واستجماع مادته حتى لا يزيد على أن يكون هو بين تلامذته التلميذ الأكبر. . .؟
لِمَ تنفض إدارة الجامعة يدها من قوم هم رؤساء الصناعة، وظهور مناصبها العالية، وألسنة الحكم فيها؛ ثم تلتمس من ضعف الأفراد ما لم تؤمله في قوة الجماعة وهي (تعلم أن الحمل الذي تتوزعه الأكف يهون على الرقاب؟
وما سبعة أشهر لمن يريد أن يؤلف في تاريخ آداب العرب؟ إنه لفن لم يتناوله أحد من قبل، وإن مراجع البحث لكثيرة وإن من وراء ذلك جهداً لا يطيقه إنسان.
وكتب الرافعي مقاله الثاني في (الجريدة) ينعت الجامعة ولجنة الجامعة، ويتأبى على الدعوة التي دعت، ويقرر أن الذين دعوا الدعوة إلى وضع الكتاب وجعلوا لذلك العمل إلى فِصاله سبعة أشهر، إنما مست بهم الحاجة إلى كتاب وأعوزهم مؤلفه فالتمسوه بتلك الدعوة يفتشون عنه في ضوء الجائزة. . . ومضى الرافعي يتجنى ويتدلل، وعادت الجامعة تفكر في الأمر.
وأعادت نشر المسابقة لتأليف الكتاب، وزادت المدة إلى سنتين، والجائزة إلى مائتين، وتعهدت بطبع الكتاب المختار.
ووجد الرافعي ما يشغله، فعاد إلى نفسه، وأغلق دار كتبه عليه. . .
تاريخ آداب العرب
إن كثيراً من الأدباء لا يرضيهم أن يعترفوا للرافعي بيد على العربية أو يروا له صنيعاً في الأدب يستحق الخلود، إلا حين يذكرون كتابه (تاريخ آداب العرب)، وإنه لكتاب حقيق بأن يذكر فيذيع فضل الرافعي على الأدب والأدباء.
أنقطع الرافعي لتأليف كتابه من منتصف سنة 1909، إلى آخر سنة 1910، وفي سنة 1911 أتم طبع الكتاب على نفقته قبل أن يحل الأجل الذي عينته الجامعة.
لم يكن الرافعي طامعاً في جائزة الجامعة. ولذلك لم يتقدم إليها به قبل طبعه، ترفعا عن قبول الحكم فيه لجماعة ليس منهم من هو أبصرُ منه بالمحكوم فيه.
كان أسبق المؤلفات ظهوراً إلى دعوة الجامعة، الجزء الأول من كتاب العلامة جورج زيدان، ثم الجزء الأول من تاريخ آداب العرب. (سبقه ذاك بشهر أو شهرين سبقاً

مطبعياً)
وكانت مقالات الرافعي في (الجريدة)، وكتابه (تاريخ آداب العرب) من بعد، هما السبب في تدريس الآداب العربية وتاريخها في الجامعة المصرية، وهما السبب كذلك في وضع ما وضع من الكتب في هذا العلم.
وأعان الرافعي على جمع ما جمع من وسائل البحث لكتابه مكتبات ثلاث كلها حافل بالنادر من كتب العربية، مطبوعها ومخطوطها، هي: مكتبة الرافعي، ومكتبة الجامع الأحمدي،
ومكتبة القصبي بطنطا.
وكان من وسائل تشجيعه على إتمامه وطبعه، ما أعانه به مدير الغربية الأديب المرحوم محمد محب باشا من معونات أدبية ومادية. . .
ليس من همي هنا أن أتحدث عن القيمة الأدبية لكتاب الرافعي تاريخ آداب العرب؛ فقد فرغ الأدباء من الحكم عليه، وما منهم إلا له فيه رأي محمود وثناء مستطاب؛ وما ناله أحد بنقد إلا الأديب طه حسين الطالب بالجامعة المصرية، إذ يقول في مقال نشرته له (الجريدة) سنة 1912: (. . . هذا الكتاب الذي نشهد الله على أننا لم نفهمه. . .) لكنه عاد فصحح رأيه فيه سنة 1926، فأعترف بأنه لم يعجبه أحد ممن ألفوا في الأدب إلا الأستاذ مصطفى صادق الرافعي (فهو قد فطن لما يمكن أن يكون من تأثير القصص في انتحال الشعر وإضافته إلى القدماء، كما فطن لأشياء أخرى قيمة وأحاط بها إحاطة حسنة في الجزء الأول من كتابه تاريخ آداب العرب. . . .)
نال الرافعي بكتابه هذا مكاناً سامياً بين أدباء عصره، وشغل به العلماء وقتاً غير قليل، وحسبك به من كتاب أن يقضي الأستاذ الكبير أحمد لطفي السيد بك (باشا) أسبوعاً يخطب عنه في مجالس العاصمة ويكتب عنه مقالاً ضافياً في الجريدة جاء فيه: (قرأنا هذا الجزء؛ فأما نحوه فعليه طابع الباكورة في بابه، يدل على أن المؤلف قد ملك موضوعه ملكاً تاماً وأخذ بعد ذلك يتصرف فيه تصرفاً حسناً؛ وليس من السهل أن تجتمع له الأغراض التي بسطها في هذا الجزء إلا بعد درس طويل وتعب ممل. . . وأما أسلوب الرافعي في كتابته فأنه سليم من الشوائب الأعجمية التي تقع لنا في كتاباتنا نحن العرب المتأخرين، فكأني وأنا أقرؤه أقرأ من قلم المبرد في استعماله المساواة وإلباس المعاني ألفاظاً سابغة مفصلة عليها، لا طويلة تتعثر فيها ولا قصيرة عن مداها تودي بعض أجزائها. . .)
وكتب عنه الأمير شكيب أرسلان - وهو أشهر كتاب العربية في ذلك الوقت - مقالة في صدر المؤيد جاء فيها: (لو كان هذا الكتاب في بيت حرام إخراجه للناس منه، لكان جديراً بأن يُحَجَّ إليه؛ ولو عكِف على غير كتاب الله في نواشيء الأسحار، لكان جديراً بأن يعكف عليه. . .)
وقال عنه المقتطف: (إنه كتاب السنة. .) وما كتب المقتطف مثل هذه الكلمة من قبل ومن
بعد لغير هذا الكتاب.
وأسلوب الرافعي في هذا الكتاب أسلوب العالم الأديب، يجد فيه كل طالب طلبته من العلم والأدب والبيان الرفيع. وكان الرافعي يومئذ قد أتم الثلاثين. . .!
في السنة التالية، أصدر الرافعي الجزء الثاني من تاريخ آداب العرب، وموضوعه أعجازُ القرآن، والبلاغةُ النبوية؛ وهو الذي أصدره من بعد في طبعته الثانية باسم (أعجاز القرآن)، وباسمه الثاني يعرفه قراء العربية، وقد طبعه على نفقته المرحوم الملك فؤاد رحمه الله. وفي مكتبة الرافعي الآن أصولُ الجزء الثالث من تاريخ آداب العرب، ومعها تعليقات كان المرحوم الرافعي ينوي إضافتها إلى الجزء الأول في طبعته الثانية فعاجلته المنية؛ فهل للعربية في هذا البلد أوفياء مخلصون يعرفون للرافعي منزلته ولكُتُبه مكانها فيطبعوا هذه الأجزاء الثلاثة وينشروها على الناس؟ وهل يسمعني معالي وزير المعارف وهو القائم على شئون العلم في هذا البلد، وهو هو الذي كان يعرف الرافعي صديقاً وجاراً مواطناً فوق معرفته إياه أديباً وعالماً وشاعراً كان في الأدباء والعلماء والشعراء خير داعية لمصر الزعيمة بين الناطقين بالضاد. . .؟
لقد قلُتها مرة، فهل أظلّ حياتي كلها أهتف بهذه الأمة التي لا تعرف الجميل فلا تجيب. . .!

!. . .أيها الناس! لقد أوشكت أن أومن بأن الرافعي مات
حاشية: قلت: إن من المكتبات التي استعان بها الرافعي في تأليف كتابه، مكتبة القصبي بطنطا، وهي المكتبة التي أنشأها وجمعها المرحومان الحسيبان الشيخ إمام القصبي وولده الشيخ محمد القصبي شيخا الجامع الأحمدي قبل المرحوم الشيخ الظواهري الكبير
وقد حدثني عنها أبي، كما حدثني عنها المرحوم الرافعي، أنها مكتبة حافلة، مشحونة بفرائد العلوم والفنون، زاخرة بنوادر المخطوطات والمطبوعات من كتب الدين والعربية؛ وهي الآن محبوسة في حجرة رطبة لا ينفذ إليها الهواء من حجرات زاوية القصبي بطنطا، لم يفتح بابها منذ ربع قرن أو يزيد لعدم عناية القائمين عليها وجهلهم بقدرها، فإذا لم يكن السوس قد أتى عليها فإن هناك فرصة لا تزال لإنقاذ ما يمكن إنقاذه منها، وحسْب العربية ما لقيت من أهلها في عصور الجهل والانحطاط يا أولي الألباب. . .!؟
(شبرا)
محمد سعيد العريان

الفلسفة الشرقية
بحوث تحليلية
بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين
- 20 -
الديانة الفارسية
مصير العالم
يحدثنا قسم (الجاتها) أن نهاية العالم موقوتة بموت (زرادشت) وأن (أهوارا) أراد أن يختم به هذه الحياة الدنيا، وهو لهذا يدفعه في حماسة إلى تأدية رسالته بأسرع ما يستطاع ويأمره أن يصدع بأوامر ربه وأن يعلن أنه سيتقدم بعد موته إلى القضاة الثلاثة الواقفين على الميزان أمام باب الصراط، ليؤدي الحساب عن نفسه والشهادة عن جميع أتباعه الذين سيتحقق فناؤهم على أثر موته.
غير أن الكون ظل بعد (زرادشت) سائراً في طريقه كما كان في حياته وقبل وجوده، ولم يمت الأنصار ولا الخصوم، ولم ينته العالم. فلما رأى رجال الدين الألسنة الحداد بدأت تتجه إليهم من جانب خصومهم، أرادوا أن يتحللوا من هذه الورطة التي أوقعهم فيها نبيهم الساذج، فأضافوا إلى الكتاب المقدس آيات جديدة تحوي تأويلات للآيات القديمة وتصرح بأن جميع الزمن المحدد للكون هو اثنا عشر ألف سنة مضت منها ثلاثة آلاف سنة في خلق العالم الروحاني، وثلاثة آلاف في إنشاء العالم المادي، وثلاثة آلاف فصلت بين وجود بني الإنسان ووجود (زرادشت)؛ وثلاثة آلاف بين عصر (زرادشت) ونهاية الحياة الدنيا. أما التصريح الجازم في الجزء القديم بأن نهاية العالم ستكون عند نهاية حياة (زرادشت) فقد عرفوا كيف يتخلصون منه بلباقة لا بأس بها حيث أعلنوا أن (زرادشت) لم يمت كما رأى الناس في الظاهر، وإنما نزلت بذرته الخصبة في البحيرة المقدسة، وستظل فيها تغدو وتروح حتى قبيل نهاية العالم، فإذا حان هذا الوقت المضروب نزلت إلى هذه البحيرة فتاة
عذراء طاهرة، لتغتسل فيها، وإذ ذاك تتغلغل هذه البذرة إلى بطن العذراء فتحمل لساعتها بمنجى العالم ومن على يديه سيكون انتهاؤه فإذا ولد هذا المنجى وشب، أخذ يدعو إلى دينه وأصطفى له من التلاميذ خمسة عشر رجلاً وخمس عشرة امرأة، ليعاونوه على تأدية رسالته إلى أن ينتهي أجله المحدد بسبع وخمسين سنة فينتهي بانتهائه الكون. وعلى أثر ذلك يبدأ البعث فتمتلئ بقاع الأرض بمياه شديدة الحرارة تسيل كلها من معادن صهرتها النيران القوية فأما الأخيار فيحسون كأنها حمامات من لبن فاتر يجد الجسم فيه لذة وسروراً؛ وأما الأشرار فسيجدونها قاسية مؤلمة، ولعل العذاب بمياه هذه المعادن هو آخر ما يقاسيه أهل الأعراف الذين هم بين الجنة والنار، ثم يدخلون بعد ذلك في زمرة المعفو عنهم
عند ذلك ينهزم إله الشر الهزيمة الأخيرة ويُلقى بالثعبان الذي كان يمثله في وسط هذه المعادن فينصهر فيها ويستقر كل من السعداء والأشقياء في مكانه استقراراً أبدياً

بلا تغيير ولا تبديل. ولكن عقيدة التأبيد في الجحيم لم تستمر على حالها، بل لم تلبث أن صارت موضع نقاش بين رجال الدين انتهى بأن قر الرأي على أن للعذاب في الجحيم حداً ينتهي عنده فيلحق المعذبون بالأخيار المنعمين، وإذ ذاك يتم السلام النهائي.

الفلسفة العملية أو الأخلاق

ليست الأخلاق من وضع الأهواء البشرية ولا من اختراع المنافع الفردية حتى تتأثر بالأزمنة والأمكنة والظروف المختلفة، وإنما هي قوانين عامة خالدة، ولذلك نرى الفضائل الجوهرية هي هي عند قدماء المصريين، وعند الهنود والفرس والصينيين واليونان والرومان كما هي عند شعوب القرن العشرين في جميع بقاع الأرض إلا من تغيرت طباعهم، وتبدلت فِطَرُهم بسبب من الأسباب التي أجمع علماء الأخلاق والنفس والاجتماع على تأثيرها في السلوك البشري.

لهذا كانت الفضائل عند الفرس كما هي عند غيرهم من الأمم تتألف من صفوف ودرجات، لكل صف منها منزلته الخاصة، فمثلاً الشرف والإحسان والأمانة الزوجية من الجانبين كانت في الصف الأول. ولقد كانت العدالة والعفة والإخلاص والصدق من أجل الفضائل كما كان العمل على تنمية النوع البشري وتقويته من أهم الواجبات الدينية، ولهذا أباحت الشريعة (الزرادشتية) تعدد الزوجات، ليكثر النسل، وحرمت الصوم لتتوفر القوة في جميع

أفراد الشعب، وكذلك محاولة زيادة خصوبة الأرض والاستمتاع بما في هذه الحياة من خيرات ولذات مشروعة كانت من أسمى فروض الشريعة حتى أن إهمال بقعة من الأرض بدون نبات أو عدم الاكتراث بالتزين كارتداء رث الملابس أو عدم المبالاة بتنظيم قص الشعر والأظافر، كل ذلك كان من الجرائم الممقوتة، أما الرذائل المستفظعة فهي أضداد هذه الفضائل طبعاً.

هناك فضائل ثانوية أو مستحبات أخلاقية مثل أكل اللحوم وجميع الأطعمة المغذية ومحاولة الإحساس بالسرور، ومثل مهاجمة الأعداء من الأفراد بنظير ما قدموه. أما الدفاع عن النفس أو عن الوطن، فقد كان من الواجبات المقدسة.

هذه هي أهم الفضائل الجوهرية والثانوية ولم يبق عدا ذلك إلا أعمال هي إلى الأساطير الوثنية أقرب منها إلى الفلسفة العملية وذلك مثل حظر قتل القنافذ وكلاب البحر كما أسلفنا.

الديانة المانوية

حياة ماني

لم يعرف التاريخ عن حياة (ماني) أو (مانيس) مؤسس الديانة المانوية أكثر من أنه ولد في (بابل) سنة 215 وقتله أحد ملوك الفرس في سنة 275 بعد المسيح وأنه كان متنسكاً متصوفاً متشائماً لا يؤمن بانتصار الخير على الشر البتة ولا أمل عنده في صلاح هذا الوجود، وأنه تأثر في بعض نواحي مذهبه بالزرادشتية وفي البعض الآخر بالميتهرية القديمة التي عبثت بها العقلية الرومانية فبدلت منها الشيء الكثير، وفي البعض الثالث بالديانة البراهمية الأولى، وفي الرابع بالمسيحية قبل وضع قواعد الكنيسة كما يتبين ذلك كله في آرائه.

مذهبه

يرى (ماني) أن العالم نشأ من عملاق قسم جسمه إلى أجزاء ثم كون الموجودات من بعض هذه الأجزاء. ولا ريب أنك تذكر أسطورة بدء الخلق عند الهنود، وهي التي حدثتنا عن اشتياق الإله (براجاباتي) إلى التكثر وعن تجزيئه نفسه ونشره أجزاءه في الكون ليوحد منها جميع الكائنات.

أما رأيه في المبادئ الأولى فهو يتلخص في أن للكون مبدأين الخير والشر، وهما أزليان أبديان متساويان في كل شيء. ولا شك أنه في هذه النقطة قد تأثر بزرادشت من ناحية وبديانة (الثانوية) المغالية التي نشأت من مذهب زرادشت من ناحية ثانية. وإليك ما يقوله الشهرستاني عن هذا المذهب: (حكي محمد بن هارون المعروف بأبي عيسى الوراق، وكان في الأصل مجوسياً عارفاً بمذهب القوم، أن الحكيم ماني زعم أن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين، أحدهما نور والآخر ظلمة، وأنهما أزليان لم يزالا ولن يزالا، وأنكروا وجود شيء لا من أصل قديم وزعم أنهما لم يزالا قوتين،

حساسين، سميعين، بصيرين، وهما مع ذلك في النفس والصورة والفعل والتدبير متضادان، وفي الخير متحاذيان تحاذي الشخص والظل). إلى أن يقول: (ثم اختلفت المانوية في المزاج وسببه والخلاص وسببه فقال بعضهم: إن النور والظلام امتزجا بالخبط والاتفاق لا بالمقصد والاختيار؛ وقال أكثرهم: إن سبب المزاج أن أبدان الظلمة تشاغلت عن روحها بعض التشاغل فنظرت إلى الروح فرأت النور فبغت الأبدان على ممازجة النور فأجابتها لإسراعها إلى الشر، فلما رأى ذلك ملك النور وجه إليها ملكاً من ملائكته في خمسة أجزاء من أجناسها الخمسة فاختلطت الخمسة النورية بالخمسة الظلامية فخالط الدخان نسيم، وإنما الحياة والروح في هذا العالم من النسيم، والهلاك والآفات من الدخان، وخالط الحريق النار، والنور الظلمة، والسموم الريح، والضباب الماء، فما في العالم من منفعة وخير وبركة فمن أجناس النور، وما فيه من مضرة وفساد وشر فمن أجناس الظلمة فلما رأى ملك النور هذا الامتزاج أمر ملكاً من ملائكته فخلق هذا العالم على هذه الهيئة، لتخلص أجناس النور من أجناس الظلمة).

الميتافيزيكا المانوية

يرى هذا المذهب أن الإنسان الأول مخلوق للنور أو للشمس الذي هو (أهورا مازدا) وكان هذا الإنسان في أول الأمر نوراً محضاً وأن حكمة خلقه إياه إنما هي الجهاد ضد الظلام، ولكن هذا الخصم العنيف لم يلبث أن انتصر على الإنسان وكبله بالأصفاد وقاده إلى سجنه الحالك ولكن قوة إله الخير عملت على تخليصه من هذا السجن فنجحت بعض الشيء، لأن إله الشر كان قد تمكن من حبس جسمه النوراني في هذا الغمد الكثيف المكون من المادة المظلمة. وإذاً، فالمادة أو الجسم الإنساني أو (الماكروسكوم) و (الميكروسكوم) كما كانوا يسمونهما هما أصل الشر والسوء في هذه الحياة، لأنهما سجن الروح النورانية ومن هذا نشأت عند (ماني) فكرة وجوب تخليص النفس من الجسم أو إنهاء هذا العالم المادي بإضعاف النوع البشري وإبادة النسل بوساطة حظر الزواج وغير ذلك من وسائل التخريب والتدمير التي عمل على نشرها والتي لم تكن ملائمة لطبيعة الفرس الذين حبب إليهم زرادشت متع الحياة ولذاتها وعرفهم وسائل القوة والإخصاب.

مصير العالم المادي

ليس للمانوية في هذا الشأن شيء جديد لأنها تبعث خطوات الزرادشتية شبراً بشير وذراعاً بذراع إلا فيما يختص بفناء الشر وامتزاج مملكته بمملكة الخير وتحقق السلام العام، فقد أنكرت المانوية ذلك تمام الإنكار، وجزمت بأن المملكتين ستظلان متباعدتين متعاديتين أبدا.

نهاية ماني

لم تكد مبادئ المانوية تنتشر في بلاد فارس حتى تذمر الشعب مما أحتوى عليه من ضعف ويأس وتشاؤم وانزواء وحرمان من لذات الحياة المباحة، ثم أخذت هذه الضجة تعلو وتنتشر حتى بلغت أسماع الملك فأحضره أمامه، وناقشه في مذهبه، فلم يخف عليه شيئاً مما فيه، وصرح أمامه بأن التخلص من الشر أمر مستحيل، وأن استمرار العالم في الحياة معناه استمرار الشر، وأن الوسيلة الوحيدة للقضاء على هذا الشر هي تدمير هذا العالم، فلم يكن من الملك إلى أن قال له: إن الحكيم المخلص لمذهبه يجب أن يبدأ هو قبل غيره بتطبيق هذا المذهب على نفسه، فإن لم يفعل بدأ أنصاره ومريدوه بتطبيقه على أستاذهم، ولما كنا من أنصارك فقد وجب علينا أن نبدأ بتطبيق هذه المبادئ عليك، ثم أشار إلى الجلاد أن أبدأ بتدميره ليؤمن قبل موته بالشروع في تحقيق مذهبه وقد حدث هذا بالفعل كما أشرنا إليه في حياة ماني.

الديانة المزدكية

عاش (مزدك) حوالي نهاية القرن الخامس بعد المسيح، وكان قد تأثر بمذهب ماني من بعض نواحيه، وسار على منواله في كثير من مبادئه الفلسفية والدينية، وإن كان قد خالفه في آرائه الاجتماعية مخالفة شديدة حيث أعلن وجوب اعتناق الشيوعية المغالية، وصرح بأنها هي وحدها الوسيلة إلى إبادة الشر، إذ الحقد الذي يأكل قلوب بني الإنسان، والحرب التي تمزق أشلاء أحد الأخوين بيد الآخر لا مصدر لهما إلا الأموال والنساء، فإذا ألغيت الملكية وأبيد الزواج وأصبح المال والمرأة مباحين لجميع الأفراد بلا قيد ولا

شرط طهرت القلوب من الحقد إلى الأبد ووضعت الحرب أوزارها إلى نهاية الوجود، وهو كما يبغي أن تباح الأموال والنساء، يريد كذلك ألا يختص أحد بطقوس دينية دون الآخرين حتى تزول جميع الفروق والاختصاصات التي هي منشأ كل بلاد في هذا الكون.

سقوط الديانات الفارسية

لما فتح (الإسكندر المقدوني) بلاد فارس وأنتشر الإغريق في أنحاء البلاد وأحرقوا الكتب المقدسة والصحف الدينية، تبلبلت العقول والأفكار والعقائد في تلك الأصقاع، وصادفت هذا الاضطراب ظروف أخرى لا تقل أهمية عن الأولى، وهي اجتماع ذلك الخليط العجيب من الفرس والمصريين واليونان واليهود في مدينة الإسكندرية كما سنشير إلى ذلك عند الحديث عن الأفلاطونية الحديثة.

أجتمع هذان العاملان القويان فحدث من اجتماعهما مزيج ديني غريب غمر الشرق الأدنى من أقصاه إلى أقصاه. ويعلق الأستاذ (سورا) على هذا بقوله: (إن هذا التخمر الديني المتباين العناصر هو الذي قذف بالمسيحية إلى حيز الوجود كما تقذف الأنبذة بالزَّبدِ إلى خارج أوانيها).

هذا في فلسطين ومصر، أما في بلاد بارس كانت سائدة فيها الديانة الفارسية (الزرادشتية) بعد أن عبثت بها أيدي الأهواء والأغراض، وبدلت فيها وزادت عليها مطامع رجال الدين وشهواتهم، وقد ظلت هذه السيادة طول حكم الدولة الساسانية ولم تحْنِ الرأس إلا في القرن السابع بعد المسيح حين هاجمها الإسلام وهو في عنفوان شبابه، فذابت أمام سطوته ذوبان السكر في المياه (على حد تعبير أحد المؤلفين الفرنسيين) وإن كان البعض الآخر من الباحثين يجزم بأن الديانة (الزرادشتية) لم تتلاش تماماً أمام الإسلام، وإنما تركت آثاراً تذكر في بعض نواحيه، إذ ليس بعض الفرق الإسلامية إلا لوناً من ألوان الديانة الفارسية، بل ليس تغني عمر الخيام بالخمر وتقديس بشار بن برد للنار وزندقة أبن المقفع ومروق الجاحظ في بعض آرائه إلا من بقايا الديانات الفارسية.

غير أن الذي لاشك فيه هو أن الإسلام قد أكتسح الديانة (الزرادشتية) اكتساحاً ملموساً ولم يدع لها من معتنقيها إلا نحو عشرة آلاف نسمة في بلاد الفرس ونحو مائة ألف في بلاد الهند وهم الذين أشرنا إليهم في مبدأ حديثنا عن الفرس، وقلنا إنهم لا يزالون يُعرِّضون جثث موتاهم للوحوش.

أما المانوية فقد انتقلت إلى أوربا مع الرومانيين الذين كانوا في بلاد فارس، ثم جعلت تنتشر في جميع أجزاء الإمبراطورية الغربية الرومانية، ولكن في خنوع وإذعان للمسيحية جعلاها إلى الأهازئ أقرب منها إلى المذاهب الجدية كأن تصرح مثلاً بأن خالق الكون هو إله الشر، وأن المسيح إله الخير خصمه العنيف الذي ضرب المثل الأعلى على خيريته بتضحية نفسه للصلب في خير الإنسان.

ما زالت هذه الديانة المانوية تتلاشى في المسيحية على هذا النحو حتى ابتلعتها نهائياً ولم يبق لها في الوقت الحاضر من أثر في أوربا إلا على الآراء الاجتماعية مثل الاشتراكية والشيوعية وما شاكلهما من الآراء المتطرفة التي اعتنقتها المانوية بعد عصرها الأول ثم حملتها معها إلى أوربا فكانت جرثومة كثير من المذاهب الاجتماعية الأوربية في العصور الحديثة.

(يتبع)

محمد غلاب

التخيل

للدكتور جميل صليبا

للتخيل بحسب اصطلاح الفلاسفة معانٍ كثيرة فبعضهم (ديكارت) جعله قوة مصورة تعيد ما في الخيال من الصور وتمثله تمثلاً محسوساً. وبعضهم جعله قوة مبدعة تركت الصور وتؤلف المعاني الجديدة وتخترع. وبعضهم جعله قوة وهمية كاذبة تنشأ عنها الأوهام والأحلام، حتى لقد وصف تلاميذ ديكارت هذه القوة بقولهم: إنها (مجنونة المنزل) و (باعثة على الخطأ والرذيلة) أما فلاسفة العصر الحاضر فيجدون التخيل ضروباً للإنسان لأنه يخفف آلامه ويحبب إليه الحياة ويكشف له عن أسرار الكون. إن اختلاف معاني التخيل جعل أحد الفلاسفة المعاصرين يقول: إن هذه الكلمة الضرورية للغة العامة يجب أن تزول من قاموس علم النفس لكثرة معانيها وأنه يمكن استبدالها

بكلمات أوضح منها كالمصورة والإبداع والأحلام. على أنه لا غنى لنا عن هذا الاصطلاح أن في كل من المصورة (التخيل التمثيلي) والإبداع والأحلام شيئاً من التخيل. ولنبحث الآن في التخيل المبدع

التخيل المبدع

التخيل التمثيلي المبدع: الحقيقة والخيال

التخيل التمثيلي هو ذاكرة بدون عرفان، أو هو كما قيل رجوع الصور النفسية إلى ساحة الشعور. ونحن نعلم أن الصورة هي بقاء الإحساس في الشعور بعد غياب المؤثر. أو هي ذكرى الإحساس. فإذا أسترجع الإنسان صورة جبل أو نهر ولم يعرف أي جبل يرى ولا أي نهر يتصور كان تخيله تمثيلياً لأن الخيال يعيد ما حفظته النفس وبقي فيها بعد غياب المحسوسات. فهو إذن شبيه بالذاكرة إلا أنه كما قلنا ذاكرة بدون عرفان. إن هذا الخيال التمثيلي يقتصر كما ترى على استرجاع الصور المحفوظة في النفس. أما التخيل المبدع فيركب هذه الصور ويستخرج منها نماذج جديدة. أنظر إلى المصور، أنه يرسم بريشته صورة خيالية يراها في أعماق نفسه فهو لم يسترجع صورة بسيطة محفوظة في نفسه فقط بل ركب بعض ما في هذه الصور البسيطة إلى بعض فألف منها صورة جديدة.

إلا أن هذا الفارق بين التخيل التمثيلي والتخيل المبدع ليس مطلقاً، لأن الخيال التمثيلي لا يسترجع الصور النفسية كما هي بل يبدلها فيمحو بعض عناصرها ويضم إليها بعض العناصر الجديدة. وقد بينا ذلك عند البحث في الشعور وخطور الذكريات. فالذكريات ليست صوراً مطابقة للماضي بل هي في الغالب مركبة من الماضي والحاضر معاً، لأن النفس تنشئها إنشاء، والإدراك ليس بسيطاً بحيث يحدث في النفس خيالاً مطابقاً للشيء المدرك فقط. بل هوة إنشاء صورة مركبة من عناصر نفسية متحولة. فالصورة ليست إذن خيالاً ثابتاً بل هي حقيقة متبدلة، حتى لقد قال المسيو (لوروا): (الإدراك والتذكر كل منهما اختراع).

وعكس ذلك صحيح أيضاً. أي إن التخيل المبدع لا يبدع الصور من العدم بل يستمد عناصرها من الواقع. فالخيال إذن منسوخ من الحقيقة. وقد فرقوا في الإبداع بين الصورة والمادة فقالوا: إن التخيل لا يبدع مادة جديدة بل يقتصر على جمع بعض الصور إلى بعض فيحلل ويركب ويصغر ويكبر. فهو يبدع صورة جديدة، إلا أن مواد عمله مقتبسة كلها من الواقع. فالصورة وحدها إذن جديدة، والتخيل مبدع بمعنى أنه يجمع العناصر بعضها إلى بعض فيؤلف منها مركبات جديدة. فكل إبداع هو في الحقيقة تركيب.

وإذا قيل: إن العقل لا يقتصر في الإبداع على جمع الصور وإنه إنما يجمع هذه الصور إلى المعاني المجردة والأحوال الانفعالية والنزعات والأهواء، قلنا مهما كان نوع التركيب، ومهما كانت حالة العناصر فأن الإبداع ينتهي دائماً إلى الصور. قال أحد العلماء المعاصرين ما خلاصته: (المخترع شاعر حدسي. قد يقال إن هناك عقولاً منطقية، جدلية لا تتقدم إلا بالقياس والخطاب - سيراً على طريقة (فوبان) الذي كان لا يهجم على حصن قوي إلا بعد أن يعد للأمر عدته - غير أن الأمر على خلاف ذلك، لأن هذه العقول حدسية أيضاً. فهي تجمع ثنايا الطرائق وأصول المنطق وأحكام العقل وصور القياس بعضها إلى بعض بدلاً من أن تجمع الألوان والأصوات والأوزان والاستعارات الحسية، والأوضاع المشخصة). ومهما كان الاختراع في أوله بعيداً عن الصورة فهو دائماً يقلب المثال المجرد إلى صورة محسوسة تدل عليه وتجيبه وتخرجه من أعماق اللاشعور إلى الحياة الظاهرة الملموسة.

هل تستطيع النفس أن تبدع الصور؟

إن أكثر علماء النفس يقولون مع (لوك) إن النفس عاجزة نفسها عن إبداع أية فكرة بسيطة. فكل صورة هي إذن نسخة، ولا تصور إلا بالإحساس. إن الأكمة لا يستطيع تصور الألوان، والأصم لا يستطيع أن يبدع الألحان. فالتخيل ليس مبدعاً من حيث هو موجد، بل هو مبدع من حيث هو مركب

إلا أن الفكر يجمع كما قلنا في هذا التركيب عناصر مختلفة فهو يجمع الصور المشخصة إلى الفكر المجردة، والنزعات والأهواء. ولعله لا يعجز عن إبداع بعض الفكر، أما الصور فلا يتناولها إلا عن طريق الإحساس، وإذا تمثلها أمكنة أن يمزج

بعضها ببعض ويحصل بهذه الممازجة عن صور جديدة. نعم إن الأكمة لا يستطيع تخيل الألوان، ولكن البصير يستطيع أن يتخيل ألواناً متوسطة مركبة من الألوان البسيطة فيتصور لوناً بنفسجياً أكثر احمراراً من البنفسجي الطبيعي. قد يقال: إن الطبيعة أغنى من الفن، وإن اختراعات المصورين ليست إلا تقليداً لما في الطبيعة من الصور المختلفة وإن في غروب الشمس من الألوان ما لا يستطيع أعظم المصورين أن يأتي بمثله. هذا صحيح، لأن الألوان الطبيعية أكثر تنوعاً من الألوان الفنية. إلا أن أصوات الطبيعة أفقر من أصوات الفن، وهي في الغالب على نمط واحد، كحفيف الأغصان وتغريد الطير، وخرير الماء، ونقيق الضفادع. إن آلات الفن ليست من هبات الطبيعة بل هي من اختراع الإنسان. نعم إن الإنسان لم يتصور بوضوح لحن العود قبل اختراعه له ولكن العود لم يتكامل إلا بعد أن أنتقل الإنسان به من صوت إلى آخر وتخيل في كل دور من أدوار انتقاله صوتاً أحسن وقعاً وأعمق تأثيراً من الأصوات المألوفة، ففي كل درجة من درجات هذا التكامل قد تقدم الخيال وأبدع صورة جديدة لا عهد للفن بها من قبل.

(دمشق)

جميل صليبا

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

بقية كلامه عن (الفداء)

لذلك تهب الإرادة وقد تملكها الغيظ مقتلعة الأحجار منتقمة من كل من لا يجاريها في كيدها وثورتها. وهكذا تصبح الإرادة المنفذة قوة شريرة تصبّ جام غضبها على كل قانع بعجزها عن الرجوع إلى ما فات. وهل انتقام الإرادة إلا عبارة عن كرهها للزمان لأنه أوقع ما لا قبل لها برده؟

والحق أن إرادتنا مصابة بالجنون، وقد نزلت لعنة على البشرية منذ تعلم الجنون أن يتفكر. فإن خير ما طرأ على الإنسان حتى اليوم إنما هو فكرة الانتقام؛ وهكذا سيبقى العقاب ملازماً للألم في كل زمان وفي كل مكان. وهل فكرة الانتقام إلا العقاب بذاته، فما كلمة الانتقام إلا كلمة مكذوبة يقصد بها التعبير عن الضمير.

إن كلَّ مُريدٍ يتألم لأنه لا قِبلَ له بالرجوع إلى الماضي لردّ مافات، ولهذا لزم أن تكون الإرادة بل كل حياة على الإطلاق كفّارة وعقاباً.

بمثل هذه الاعتقادات تلفّع العقل بالغيوم فأنبثق منه الجنون هاتفاً: كل شيء يزول، فكل شيء يستحق الزوال.

إن العدل نفسه يقضي بأن يفترس الزمان أبناءه، هذا ما أعلنه الجنون.

لقد وضع الناموس الأدبي وفقاً للحقوق وللعقاب، فأين المفر من نهر الحياة الجارف وما الحياة إلا عبارة عن عقاب؟ وهذا أيضاً ما أعلنه الجنون.

ليس من حادث واحد يمكننا أن نزيله من الوجود، فكيف للعقاب أن يمحو الحادثات؟ وهل من خلود لغير الأعمال في وجود لا ينفك يحول العمل عقاباً والعقاب عملاً؟ ولا مناص من هذه الحلقة المفرغة ما لم تتوصل الإرادة إلى الفرار من ذاتها فتصبح حينذاك إرادة منفية.

إنكم تعرفون، أيها الأخوة، هذه الأغاني التي يتشدق بها الجنون. وقد أقصيتكم عن سماعها عندما علمتكم أن الإرادة مبدعة. كل ما فات يبقى مبدداً منثوراً كأنه أسرار ومصادفات

رائعة إلى أن تقول الإرادة: إنني أردت هذا. ثم تقول: وهذا ما أريده الآن وسأريده غداً.

هل نطقت الإرادة بمثل هذا حتى اليوم؟ وإلى متى ستنطق به؟ هل هي تملصت من قيود جنونها فأصبحت تفتدي الحادثات بعزمها وتبشر بالحبور؟ هل هي اطرحت فكرة الانتقام وتوقفت عن حرق الأرم من كيدها؟ من ترى تمكن من تعليمها مسالمة الزمان بل ما يفوق هذه المسالمة؟

يجب على الإرادة ولا أعني سوى إرادة الاقتدار أن توجه مشيئتها إلى ما هو أعظم من المسالمة. ولكن أنى لها ذلك ومن سيعلمها أن توجه هذه المشيئة إلى ما فات؟

وتوقف زارا عن الكلام فجأة كأن رعباً شديداً حل به فاتسعت حدقاته وشخص بأتباعه

سايراً أفكارهم وما وراء أفكارهم غير أنه ما لبث أن عاد إلى الضحك فقال بكل هدوء:
- ما تهون الحياة بين الناس لأن الصمت صعب على المرء وخاصة إذا كان ثرثاراً.
. . . .هكذا تكلم زارا
ولكن الأحدب الذي كان يصغي إلى هذا الحديث وهو يستر وجهه بيديه سمع قهقهة زارا ففتح عينيه مستغرباً وقال: - لماذا يخاطبنا زارا بغير ما يخاطب به أتباعه.
فقال زارا: - وهل من عجب في هذا؟ أفما يصح أن يخاطب الأحدب بأقوال لها حدبتان.
فقال الأحدب: - ولا عجب أيضاً في أن يخاطب زارا تلاميذه كمعلم أولاد، ولكن لماذا يخاطب أتباعه بغير ما يخاطب به نفسه. . .
. . . .هكذا تكلم زارا
نقل الأديب
للأستاذ محمد اسعاف النشاشيبي
188 - العرب واليهود في الأندلس
كتب أيوب بن سليمان المرواني إلى بسام بن شمعون اليهودي الوَشْقي في يوم مَطير:
لما كنت - وصل الله إخاءك وحفظك - مطمح نفسي، ومنتزع اختياري من أبناء جنسي، على جوانبك أميل، وأرتع في رياض خلقك الجميل - هزتني خواطر الطرب والارتياح في هذا اليوم المطير، الداعي بكاؤه إلى ابتسام الأقداح واستنطاق البمّ والزير، فلم أر معيناً على ذلك، ومبلغاً ما هنالك، إلا حسن نظرك، وتجشمك من المكارم ما جرت به عادتك: وهذا يوم حرم الظرف فيه الحركة، وجعل في تركها الخير والبركة. فهل توصل مكرمتك أخاك إلى التخلي معك في زاوية، متكئاً على دَنّ مستنداً إلى خابية. ونحن خلال ذلك نتجاذب أهداب الحديث التي لم يبق من اللذات إلا هي، ونجيل الألحاظ فيما تعودت عندك من المحاسن والأسماع في أصناف الملاهي، وأنت على ذلك قدير، وكرمك بتكلفه جدير. ولا يعين المرء يوماً على راحته إلا كريم الطباع، وها أنا والسمع مني إلى الباب وذو الشوق حليف استماع:
فأن أتى داع بنيل المنى ... ودعت أشجاني ونعم الوداع
189 - شاعرة يهودية أندلسية
في (النفح): - كانت بالأندلس شاعرة من اليهود يقال لها قسمونة بنت إسماعيل اليهودي، وكان أبوها شاعراً وأعتني بتأديبها وربما صنع من الموشحة قسماً فأتمته هي بقسم آخر. قال لها يوماً: أجيزي هذا البيت، فأجازته، فقام كالمختبل وضعها إليه؛ وجعل يقبل رأسها، ويقول: أنت (وعشر الكلمات) أشعر مني. ونظرت في المرآة يوماً فرأت جمالها وقد بلغت أوان التزوج ولم تتزوج فقالت:
أرى روضة قد حان منها قطافها ... وليس يرى جان يمد لها يدا
فوا أسفي! يمضي الشباب مضيعا ... ويبقى الذي ما إن أسميه مفردا
وقالت في ظبية عندها:
يا ظبية ترعى بروض مزهر ... إني حكيتك في التوحش والحور
أمسى كلانا مفردا عن صاحب ... فلنصطبر قسراً على حكم القدر
فسمعها أبوها فنظر في تزوجها.
190 - بلاد أمان
المتنبي:
حمي أطراف فارس شَمَّرِيٌّ ... يحض على التباقي بالتفاني
فلو طرحت قلوبُ العشق فيها ... لما خلفت من الحدَقِ الحسان
191 - شهلان ذو الهضبات ما يتحلحل
قال أبن قتيبة: كان الأحنف إذا أتاه إنسان أوسع له، فأن لم يجد موضعاً تحرك لِيُرِيَه أنه يوسع له. وكان آخر لا يوسع لأحد ويقول: ثهلانُ ذو الهضات ما يتحلحلُ
192 - لا تسألوا عن أشياء
سُئل بعضُ الوعاظ: لِمَ لَمْ تنصرف (أشياء)؟ فلم يفهم ما قيل له، شكت ساعة فقال: أنت تسأل سؤال الملحدين لأن الله يقول: (لاَ تَسْلوا عَنْ أشياء)
193 - ليتنا نخلاج منه كفافاً
سئل الشعبي هل يجوز أن يؤكل الجِنِّى لو ظُفر به؟

. .فقال: ليتنا تخرج منه كفافاً لا لنا ولا علينا
194 - رأي السلامة في الوقف
في (البيان والتبيين): كان مهدي بن مهلهل يقول: حدثنا هشامْ (مجزومة) ثم يقول: أبنْ (ويجزمه) ثم يقول: حسانْ (ويجزمه) لأنه حين لم يكن نحْويا رأي السلامة في الوقف
195 - نعوذ بالله من قوم لا يشعرون
في (الغيث المسجم): قال بعضهم يعتذر عن اشتغاله بالشعر: ولعمري ما أنصفني من أساء بي الظن، وقال: كيف رضي مع درجة العلم والفتوى بهذا الفن، والصحابة كانوا ينظمون
وينثرون، ونعوذ بالله من قوم لا يشعرون!
196 - هذا سبب الإعجاب
قال أسحق الموصلي: قلت لزهراء الكلابية: حدثيني عن قول الشاعر:
أحبُّكِ أن أخبرتُ أنك فارِكٌ ... لزوجك؛ إني مولَعٌ بالفواركِ
ما أعجبه من بغضها لزوجها؟
فقالت: عرفته أن في نفسها فضلةً من جمال وشمخاً بأنفها وأبهةً، فأعجبته
197 - اسقه الماء
دخل الشعبي على مسلم بن قتيبة فقال له: ما تشتهي يا شعبي؟
فقال: أعز مفقود، وأهون موجود
فقال: يا غلام، أسقه الماء
الصحراء
للأستاذ أنور العطار
سَرَبْ في رِحَابِهَا قِصَصُ الحُبِّ ... وَغَنَّتْ في شَاطِئَيْهَا الرِّمَالُ
مَا ثَنَتْهَا الأَحْقَابُ عَنْ مُتَعِ الشِّدْ ... وِ وَلاَ طَافَ بالنَّشِيدِ مَلاَلُ
تَتَغَنَّى والكَوْنُ نَشْوَانُ بالَّلحنِ ... فَتَهْتَزُّ في الأَقَاصِي الجبَالُ
وَتَضِجُّ الوِدْيَانُ بالنَّغَمِ البِكْرِ ... وَتُزْهَي أَغْوَارُها والدِّحالُ
نَغَماتٌ أَصْغَتْ إليها اللَّيالي ... وَوَعَتْهَا العُصُورُ وَالأَجْيَالُ
فإذا العَالَمُ ابْتِسامٌ وَصَفْوٌ ... وَرَبِيعٌ مُنَضَّرٌ مْخِلاَلُ
وإذا الكائِنَاتُ يَغْمُرُها النُّو ... رُ وَيَطْفُو عَلَى مَدَاهَا الجَلاَلُ
حَفَلَتْ سَاحُها بِخَيْرِ الرِّسَالاَ ... تِ وَسَحَّ النَّدَى وَفَاضَ النَّوَالُ
المُرُوَءاتُ لَمْحَةٌ مِنْ سَنَاهَا ... والبُطُولاَتُ والحِجَا والكمَالُ
مِلْءُ أَفْيَائِهَا السَّخَاء المُنَقَّى ... مِلْءُ أَعْطَافِهَا السُّرَي والنَّضَالُ
كَرُمَتْ عُنْصُراً وَطَابَتْ نِجَاراً ... وَصَفَتْ كالَّنمِيرِ فيها الخِلاَلُ
فَهْيَ مَهْدُ النَّجْوَى وَمُنْبَثَقُ النُّو ... رِ وَدُنْيا تَرُودُها الأَبْطَالُ
مَا عَلَيْها إِنْ شَحَّتِ الأَرْضُ بالخَيْرِ ... إذا لَمْ تَشِحَّ فيها الخِصَالُ
لَيْسَ يَحْيَا فيها الصَّرَاعَةُ والذُّلُّ ... وَلاَ يَصْحَبُ العُلا إِذْلاَلُ
لاَ تَطِيبُ الحَيَاةُ تَطْفَحُ بالبُؤْ ... سِ إذا لَمْ يَهُزَّهَا اسْتِبْسَالُ
حُرَّةٌ تُنْجِبُ الغَطَارِفَةَ الصِّيدَ ... فَلاَ عَاجِزٌ وَلا سألُ
كُلُّهُمْ كادِحٌ نَمَتْه الدِّرَايَا ... تُ وَزَانَتْ أَقْوَالَهُ الأَفْعَالُ
يَغْنَمُ العَيْشَ خَالِصاً لم يُهَجِّنْهُ ابْتِذَالٌ وَلَمْ يَعِبْهُ اتِّكَالُ
والهَنَاءاتُ شِرْعَةٌ لَمْ يَرِدْهَا ... خَائِرُ العَزْمِ، والهَنَاء اهْتِبَالُ
هَا هُنَا الشِّعْرُ والرَّحيقُ المُصَفَّى ... هَاهُنَا السِّحْرُ واللَّيَالِي الخِصَالُ
هَا هُنَا السَّامِرُ المُضَمَّخُ بالعِطْرِ ... وَلِلْحُبِّ في حِمَاهُ اخْتِيَالُ
هَا هُنَا قَيْسُ يَسكُبُ الرُّوحَ أَنْغَا ... ماً وَعَيْشُ المُتَيَّمينَ ابْتِهَالُ
شَجَنٌ صَارِخٌ وَيأسٌ مُذِيبٌ ... وَحُظُوظٌ سُودٌ وَدَمْعٌ مُذَالُ
ضَائِعٌ في مَجَاهِلِ الأَرْضِ تَبْكي ... لِبُكَاهُ الآثار وَالأَطْلاَلُ
يَسْأَلُ النَّجْمَ أَيْنَ لَيْلاَيَ يا نَجْمُ ... ولا يُهْدِيُّ المُجِبَّ السُّؤَالُ
تَتَنَاجَى الرِّمَالُ إِنْ هُوَ غَنَّي ... وَتَرَامَي كأَنَّهَا الأَطْفَالُ
يُرْسِلُ الشِّعْرَ حَافِلاً بالخَيَالاَ ... تِ كَمَا تُرْسِلُ الرُّؤَي الآصَالُ
تَتَنَزَّى أَضْلاَعُهُ مِنْ جَوَي الحُبِّ وَدَاءُ الهُيَامِ دَاءٌ عُضَالُ

يَا لَهُ شَارِداً تَقَاذَفُهُ ... البِيدُ وِبَطْوِيه ضَعْفُهَ وَالكلالُ
لَمَعَتْ في القِفَارِ هَلْهَلَةُ الفَجْرِ، ... وَلِلفَجْرِ مِطْرَفٌ هَلْهَالُ
فَعَلَى الرَّملِ مِنْ رُؤَاهُ تَهاوِيلُ ... وفي الأُفْقِ جَدْوَلٌ سَلْسَالُ
والنَّعَامَاتُ مَاتَني مَجْفَلاتٍ ... وَلَقَدْ زَانَ حُسْنَها الإِجْفَالُ
هِيَ في بَسْمَةِ الصَّباحِ أَبَادِيدُ وفي مَوْجَةِ الضُّحى أَرْسَالُ
تَتَحَرَّى مَوَاقِعَ المَاءِ عَجْلَى ... لاَهِفَاتٍ وَوِرْدُهَا الأَوْشَالُ
صَغُرَتْ رُقْعَةُ الفَلاَةِ بعَيْنَيْهَا ... وَقَلَّ المَدَى وَضَاقَ المجَالُ
تَنْهَبُ العُمْرَ في مُسَابَقَةِ الظِّلِّ ... فَيُصْوِي أَرْوَاحَهَا الإِرْقَالُ
قُلْتَ مَجْنُونَةٌ أَطَافَ بها الذُّعْرُ ... فما تَسْتَقِرُّ فيها الحَالُ
عَيْشُهَا كُلُّهُ عَنَاءٌ وَكَدٌّ ... وانْتِوَاءٌ لا يَنْقَضي وارْتِحَالُ
زَحَمَتْ في وَجِيفِهَا مَنْكِبَ الرِّيحِ ... وَضَاعَتْ كَمَا تَضِيعُ الظِّلاَلُ
فَهْيَ خَطٌّ في مُصْحَفِ الأُفْقِ نَاءٍ ... غَيَّبَتْهُ الأَبْعَادُ وَالأَطوَالُ
عَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمالي رِمَالٌ ... قَلقَاتٌ مُرَوَّعَاتٌ نِهَالُ
يُوشِكُ الهُلْكُ أَن يُصَافِحَ عَيْنَيَّ وَبِي مِنْهُ رِعْدَةٌ وانْذِهَالُ
هَا هُنَا المَوْتُ كالِحُ الوَجْهِ بادٍ ... وَلَهُ جُرْأَةٌ وَفيهِ صِيَالُ
لَطَمَتْ خَدَّهَا الجَنُوبُ مِنَ الذُّعْرِ ... وَجُنَّتْ مِنَ الصُّرَاخِ الشَّمالُ
وَالمَنَاجَاتُ فِي الرِّياحِ تَوَالَي ... لَمْ يَفُتْهَا الإِرْنَانَ وَالإِعْوَالُ
دَارَةٌ لِلْعَوَاصِفِ الهُوجِ تَلْهُو ... فِي حِمَاهَا الخُطُوبُ وَالأَهْوَالُ
تَتَلَظَّى الرَّمْضَاءُ فِي سَاحَتَيْهَا ... وَلَها فِي دَمِ الشُّمُوسِ اغْتِسَالُ
تَتَدَجَّى الدُّنْيَا وَتَصْطَخِبُ الأَرْ ... ضُ وَتُرْغِي فيها الشُّجُونُ الثِّقَالُ
وَهْيَ غَلْفَاءُ ما يَعَاوِدُها الرُّعْبُ وَلَيْسَتْ تَرُوعُها الأَوْجَالُ
لا تَنَالُ النَّكْبَاءُ مِنْ عَزْمِهَا الثَّبْتِ ... وما إِنْ يَهِيجُهَا زِلْزَالُ
جَثَمَتْ فِي فَضَاءِ رَبِّي شَمَّا ...ءَ وَتَاهَتْ كَأَنَّها الرِّئْبَالُ
أَغْفَتْ الكُثْبُ ما تُبِينُ من البُهْرِ ... وَنَشَّتْ مِنْ الطَّمَاءِ التِّلالُ
حُمَّتِ الكائِنَاتُ واحْتَدَامَ الحَرُّ ... وَذَابَ الحَصَا وَسَالَ الصَّالُ
لَفَظَتْ رُوحَهَا الهَجِيرُ مَلاَلاً ... وَتَرَاخَتْ مِنَ اللَّهَاثِ الرِّئالُ
يأْكُلُ الحَرُّ لَحْمَهَا وَهْيَ صَرْعَى ... مَثْلَمَا تأْكُلُ الشُّمُوعَ الذُّبالُ
فَهْيَ هَلْكَي عَلَى فِرَاشٍ مِنَ الجَمْرِ ... بَرَاهَا شحُوُبُها والهُزَالُ
أَيُهذَا السَّرَابُ يا صُورَةَ الدُّنْيا ... نَهَاوَتْ في لُجكَ الآمَالُ
لَحْتَ لَي تَزْدَهِيكَ بيضُ الأَمَانِي ... فَارْتَوَى خَاطِرِي وَرَفَّ الخَيَالُ
عَلِقَتْ مُهْجَتِي بَلاَلِئِكَ الغَمْرِ ... وَأَغْفى بَنَاظِرِي الزِّيالُ
فَنِيَتْ في رَؤَاكَ قَافَلَةُ العُمْرِ وَأَوْدَى بها الأَذَى والمطَالُ
لَمْ تَزَلْ تَرْتَمِي عَلَى الماءِ هَيْمَي ... وَهْوَ نَاءٍ لا يَدَّنيهِ مَنَالُ
شَخَصَتْ مُقْلَتِي وَضَلَّ ضَلاَلِي ... وَمِنَ الحُبِ فِتْنَةٌ وَضَلاَلُ
تَتَسلَّى بِنَا الأَعَاليلُ جَذْلي ... وَالأَعَاليلُ مِحْنةٌ وَخَبَالُ
لاَ يَرُدُّ الإِغْيَاءَ عَنَّا التَّشَكِّي ... لاَ وَلاَ يَصْرِفُ العَذَابَ مَقَالُ
فَاضْحَكِي يا رِمَالُ مِنْ خُدَعِ الآ ... لِ فَقَدْ يُضْحِكُ الفَطِينَ الآلُ
وَارْقُصي في مَجَاهِلِ البِيدِ حَتَّى ... تَتَعَايَا الجِنَّانُ وَالأَغْوَالُ
وَامْرَحِي في سَوَانِحي وَخَيَالِي ... لَيْسَ يَنْثَنِكِ عَنْ مَرَامٍ مُحَالُ
وَاحْطِمي هَذِهِ القُيُودَ لأَحْيَا ... رُبَّمَا أَفْنَتِ المُنَى الأَغْلاَلُ
وَدَعِيني أَعِشْ كَمَا انْتَفَضَ الطَّلُّ ... وَرَفَّ السَّنَا وَمَاجَ الزُّلاَلُ
أَوْ كمَا غَرَّدَتْ عِشَاشُ القَمارِي ... وَتَغَنَّى فِي الوهْدَةِ الشَّلاَّلُ
خفقَ القلبُ فاذكرت بلادي ... وبلادي الحقولُ والأدغالُ
وَبِلاَدِي الأَنْهَارُ تَهْتِفُ سَكْرَي ... والنَّدَى السَّمْحِ والسُّلاَفُ الحَلاَلُ
والرِّياضُ اللِّطَافُ تَعْبَقُ بالعِطْرِ ... حَلَتْهَا الأَفْيَاءُ والأَظْلاَلُ
واليَنَابِيعُ حُفَّلٌ بالأَنَاشِيدِ تَرَاخَي فيها السَّنَا والبِلاَلُ
لا يُرَوِّعْكَ مَدْمَعِي وَهُيَامِي ... أَنا سِرُّ الهَوَى وَأَنْتَ الجَمَالُ
تَتَرَاءَى لِنَاظِرِي مِنْكَ أَرْوَا ... حٌ رِقَاقٌ يَلَذُّ مِنْهَا الوِصَالُ
فَأُنَاجِي وَمَا أَمَلُّ التَّنَاجِي ... وَأُغَنِّي وَلِلْهَوَى اسْتِرْسَالُ

وَبِنَفْسي لْحَنٌ جَبِيبٌ يُسَلينِي ... وَحُلْمٌ يَهْفُو إِلَيْهِ البَالُ
وَتَصَاوَيرُ مِنْ رِباعِيَ شَتَّى ... مَالَها الدَّهْرَ فِي الوُجُودِ مِثَالُ
هِيَ سَلْوَاىَ إِنْ أَظَلَّنِيَ الهَمُّ ... ومَادَتْ بِيَ الخُطُوبُ الطِّوالُ
نَهِلَ الحُبّث مِنْ مَنَاعِمَها الزُّهْرِ ... وَضَاءَتْ بَسحْرِهَا الأَشْكالُ
فَهْيَ في العَيْنِ صُورَةٌ لَيْسَ تُمْحَي ... نَامَ عنها البِلَى وَأَغْفَى الزَّوَالُ
وَهْيَ فِي القَلْبِ فَرْحَةٌ تَمْلأُ القَلْبَ ... فَتُطْوَى بِحُلْمِهِ الآجالُ
يا رِباعَ الخَلَودِ عاَشَ لكِ العَّدْ ... ولا زَالَ خِدْنَكِ الإِقْبَالُ
أَنْتِ مِنِّي الحُلْمُ الذي أَشْتَهِيه ... وَمِجنِّي وَمَفْرَعِي وَالمَالُ
أَيُّهَذَا القَفْرُ الذَّي أَدَّرَع الهَوَ ... لَ وَغَابَتْ فِي صَمْتِهِ الآزَالُ
أَنَا فِي كَوْنِكَ الرَّحيبِ ندَاءٌ ... أَخْفَتَتْهُ الأَوْجَاعُ وَالأَعْلالُ
تَتَرَامى بِيَ الهُمُومُ العَوَاتِي ... والشَّجَا المرُّ والأَذَى والنَّكالُ
أتعَبَتْنِي المُنَى وَمَا زِلْت أَشْقَى ... وَأُعَنَّي وَلِلْمُنَى بَلْبَالُ
وَبِقَلْبِي دَاءٌ عَيَاءٌ قَدِ اسْتَعْصَى ... وَجُرْحٌ لا يَعْتَرِيه انْدِمَالُ
وَجَنَاحُ الَحَياةِ مِنِّي مَهِنيضٌ ... لا تُقَوِّيهِ رِحْلَةٌ وانْتِقَالُ
فَلَعَلِّي أَبلُّ في جَوْبِيَ البِيدَ ... وَمَا يُرْتَجَى لِيَ الإِبْلالُ
خَاطِري مِنْ أَذِيَّة الدَّهْرِ مَكْدْو ... دٌوَ جْسِمِي مِنَ الضَّنى أَسْمَالُ
أَقْطَعُ العُمْرَ فِي غَمارِ الرَّزَايا ... وَحَيَاتِي زَهَادَةٌ وَاعَتْزَالُ
يا رمَالَ الآباد مَا أدكِ السَّيْرُ وَلاَ هَدَّ عَزْمَكِ التَّرْحالُ
أَبَداً تَوغِلينَ فِي المَجَهلِ النَّا ... ئِي وَمَا إِنْ يَرُوعُكِ الإِيغالُ
غَابَ فِي يَمِّكِ الرَّهيب أَخُو القّفْر ... وَطَاحَ المُسَافِرُ الجَوَّالُ
هَدَأَ الدَّهْرُ مِنْ نِظَالِكِ تَعْبَا ... نَ وَمَا نَالَ مِنْ قُوَاكِ النِّضَالُ
أَنْتِ لَحْنٌ مِنَ الخُلْودِ نَقِيٌّ ... وَنَشَيِدٌ مِنَ البَقَاءِ حَلاَلُ

أنور العطار

البريد الأدبي

اختيار الأسماء وتبديلها

القرآن (وعلم آدم الأسماء كلها)

استبدال سمي صاحبي النبي - زاد الله مصر في أيامه ارتقاء ومجداً - بذلك الاسم الأعجمي، هذا الاسم (الفريدَ) العربي مستنا بسنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) و (لكمْ في رسولِ الله أسوة حسنة) ففي (صحيح الترمذي): (كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يغير الاسم القبيح) وفي (مسلم والترمذي وأبي داود): (عن أبن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) غير أسم الله عاصية وسماها جميلة) وفي (صحيح البخري): (قال: ما أسمك؟ قال: حَزْن، قال: بل أنت سهل) وفي (سنن أبي داود): (سمي حرباً سلماً وسمي المضطجع المنبعث، وأرضاً تسمى عفرة سماها خضرة، وشعبَ الضلالة سماه شعب الهدى)

فأستبدل ملك مصر - أيده الله - (فريدة) ب (سافيناز) هو (والله) من الجودة والارصان والإتقان بمكان. وما أجدر الناس - والناس على دين ملوكهم كما يقال - في مصر وغير مصر من بلاد العرب والإسلام أن يغيروا أسماءهم القبيحة، والأعجمية والإفرنجية، وأن يختاروا لبنيهم وبناتهم الأسماء العذبة الحسنة العربية. وقد قال محمود جاد الله (صاحب الكشاف):

وقال: (قد قدّم الخلفاء وغيرهم رجالاً بحسن أسمائهم، وأقصوا قوماً لشناعة أسمائهم) إن الأسامي السُّنْع - يعني الجميلة والشريفة الفاضلة - جديرة بالأثرة، وإياها كانت العرب تنتحي في التسمية لكونها أنبه وأنوه وأنزه عن النبز) وليستهد الجاهل بذلك الفقيه العالم صاحب الذوق. إياك من وفاقده وإياك من فاقده فرب عالم أو عويلم قد سلبه الله الذوق سلباً. فمن استرآه (طلب رأيه) في كلمة أو سم أتحفه بآبده . . .

وإن الكلمات والأسماء العربية الفائقة البارعة الباهرة لتملأ الدنيا

(قارئ)

الهبات الملكية للبعوث الإسلامية في الأزهر

أفردت مشيخة الجامع الأزهر في مشروع الميزانية العامة باباً خاصاً للهبات الملكية - جاء فيه أن حضرة صاحب الجلالة الملك قد تفضل فأمر بوقف مبلغ قدره ألف جنيه

لينفق على الطلاب الوافدين إلى الجامع الأزهر من اليابان وجهات البلقان، ووقف مبلغ قدره 720 جنيهاً سنوياً للطلاب الذين يفدون إلى جامع الأزهر من بلاد الصين. ثم ذكرت بعد ذلك ما يفيد أن جلالة المغفور له الملك فؤاد الأول قد وقف في حياته مبلغاً قدره مائة جنيه تصرف في كل عام مكافأة للأول والثاني من الناجحين في امتحان الشهادة من طلاب الكليات الأزهرية الثلاث

وبهذا يصبح مجموع الهبات الملكية لطلاب البعوث الإسلامية في الأزهر ولبعض طلاب الأزهر المتفوقين 1820 جنيهاً سنوياً

حديث طل

روي في مجلة العرب (الرسالة) الأستاذ محمد سعيد العريان المتحلي بالفضل والآداب، والسابق في الميدان، من كلام فقيد الأدب العربي ونابغته المرحوم (مصطفى صادق الرافعي) هذه الجملة: (فأن الموضوع طلي شهي) والطلي في العربية:

الجَدْيُ، الصغير من أولاد الغنم، وجمعه الطليان، وإنما سمي طلياً لأنه يَطلي أي تشد رجله بخيط أياماً. و (قول طلي) أي عذب أو ذو طلاوة قد نُقِد، والنقد حق لا يدفعه تعقب، ولا يجدي الجدل. وقد وجدت في اللغة لفظة صحيحة تسد مسد المنقودة، وتشكاكلها في أكثر حوفها، وهي (الطل) وهذا ما جاء في (أساس البلاغة) للزمخشري: (يوم طل: رطب طي، وحديث طل. ومن أعرابية: ما أطل شعر جميل وأحلاه؛ وامرأة طلة: حسنة نظيفة) وفي شرح القاموس: (الطلة الخمرة اللذيذة وقيل: السلسة) وفي لسان العرب: (وحديث طل أي حسن)

. . .فقل (الطل) وكُلْ (الطلي)

المسرح المصري والنفوذ الأجنبي

كانت وزارة المعارف قد انتدبت في الشتاء الماضي خبيراً أجنبياً لدراسة شؤون المسرح المصري هو مسيو إميل فابر المدير السابق لمسرح الكوميدي فرانسيز. وقد نوهنا يومئذ

بما هنالك من شذوذ في هذا الانتداب؛ وكانت نتيجة هذه الدراسة أن وضع مسيو فابر كالمعتاد تقريراً لا يخرج في معناه عما قيل وعرف منذ سنين؛ ولكن كانت ثمة نتيجة أخرى هي أن وزارة المعارف حملت على انتداب فرقتين فرنسيتين للتمثيل في دار الأوبرا في الموسم المقبل؛ وقد كان المعتاد من قبل أن تستقدم فرقة فرنسية واحدة إلى جانب بعض الفرق الأجنبية الأخرى؛ ولكن سنشهد هذا العام أول فرقة الكوميدي فرانسيز، ثم نشهد من بعدها فرقة الأوبرا كوميك؛ وهذه لعمري وسيلة بديعة للإصلاح المسرح المصري وتحريره من النفوذ الأجنبي. ولقد كنا نظن حينما تألفت الفرقة القومية أنها بداية عهد جديد في تاريخ المسرح المصري، وأننا سنظفر عما قريب بتمصير هذا المسرح وإصلاحه ليفي بالغايات القومية؛ ولكنا رأينا نفوذ الجهة الأجنبية التي استعبدت الفن المصري منذ قرن يشيد عن ذي قبل؛ وظهر أثر هذا النفوذ واضحاً في تنسق القيم المصري بمعرض باريس، ثم ظهر في هذه النتيجة المعكوسة التي انتهى إليها انتداب الخبير الفرنسي لإصلاح المسرح المصري، ولسنا نعرف متى يتحرر الفن المصري من هذه السيطرة الأجنبية التي تحاول تمكين أغلالها دائماً؟ ولكن الذي نعرفه هو أن الفن المصري لا يمكن أن ينهض من عثاره ما دام خاضعاً للتوجه الأجنبي، وأن مصر لن تظفر بقيام المسرح المصري المنشود ما لم تعمل أولاً على تحريره من هذه الأغلال.

فهارس للفن الأندلسي

من المعروف أن أسبانيا تملك كثيراً من التحف الفنية الأندلسية؛ ولكن توجد إلى جانب ذلك مجموعات أخرى من تراث الأندلس الفني لم تذع محتوياتها؛ ومن ذلك مجموعة الجمعية الأسبانية الأمريكية، فهي تملك مجموعة كبيرة من المصنوعات الخزفية الأندلسية، ومن قطع الوشي والنسيج الأندلسية. وقد صدر أخيراً فهرسان كبيران مصوران لمحتويات هذه المجموعة الشهيرة أحدهما للتحف الخزفية وهو بقلم السيدة أليس فورذنهام، والثاني للوشي والنسيج، وهو بقلم السيدة فلورنس ماي؛ وقد صدر الفهرس الأول بمقدمة بديعة عن تاريخ الخزف الأندلسي، ونماذجه وألوانه ولا سيما فنون غرناطة، وما كان لها من أثر عميق في تقدم فن النقش والتلوين. وقد اشتهرت

مالقة وغرناطة منذ القرن الثالث عشر بصناعة الخزف المذهب؛ واشتهرت تونس في هذا العصر بصناعة الآنية المزخرفة المسماة (ملكي)
وكان لبلنسية شهرة فائقة في هذا الفن، وكان لها أثرها فيما بعد في أرجوان وقشتالة؛ ثم ذاع هذا الفن الأندلسي بعد ذلك في فرنسا وإنكلترا. وكان الملوك والأمراء في العصور الوسطى يزينون قصورهم وابهاءهم بنماذج من الخزف الأندلسي والتوينات الأندلسية، ولا سيما الألوان الذهبية الوهاجة التي برع فيها أهل الأندلس. كذلك يصف الفهرس الخاص بالنسيج براعة أهل الأندلس في هذا الفن، وما كان لهم من فضل في تقدم النقوش والنماذج المتماثلة، واستحداث صور الأزهار والزخارف المستديرة. وقد كان للفن الأندلسي أعظم الأثر في تطور هذا الفن الدقيق أيام عصر الإحياء، وكانت غرناطة أيام ازدهارها تخرج من الحرير والكتان أفخم وأبدع النماذج التي كانت تستوردها أعظم القصور والشخصيات

آراء جديدة في العقاب

تطورت فكرة العقاب في القرن الماضي تطورً عظيماً، ثم هي لا زالت تتطور اليوم. وقد أصبحت الغاية الأولى من العقاب هي الإصلاح الاجتماعي بعد أن كانت هي الزجر والردع. وللعلامة الألماني الدكتور هانس فون هنتج كتاب في هذا الموضوع ظهرت أخيراً ترجمته الإنكليزية وعنوانه (العقاب؛ أصله، وغايته ونفسيته). ويقول الدكتور فون هنتج في تصديره إنه يقصد بمؤلفه أن ينفذ إلى ذهن الرجل العادي قبل الأستاذ الباحث؛ لأن الرجل العادي هو المسئول في الواقع عن وضع التشريعات الحسنة والسيئة؛ ويتناول فكرة العقوبة والعقاب من ناحية جديدة، ويضع للعقاب تعريفاً جديداً، ويصفه بأنه نوع من التطعيم لخطر صناعي لا يقل شبهاً عن الأخطار التي تفرضها الطبيعة ذاتها لصون قوانينها، ويعرفه في مقدمته بما يأتي: (العقوبة تعني إنشاء خطر صناعي، والعقاب إضرار منظم، وصدع للحياة منظم في شكل قوانين يستعملها المجتمع ليعود الإنسانية على تجنب بعض طرق العمل التي تخاصمها أو تؤذيها)
ويرى الدكتور فون هنتج أن فرض العقوبة لا يبرره سوى السعي إلى تخفيف الضرر الإنساني، وعنصره القانوني يتوقف تماماً على مقدرته في التأثير في غرائز الفرد ومشاعره، فالرجل الذي لا يشعر مثلً شعوراً قوياً بغريزة الاحتفاظ بالنفس لا تؤثر فيه العقوبة كثيراً؛ وكذلك لا يكون للعقوبة قيمة اجتماعية إذا كان اكتشاف الجريمة التي توقع من أجلها العقوبة أمراً عارضاً. ويقدم لنا المؤلف أمثلة عملية عديدة يرى أن العقاب فيها لا
أثر له ولا وازع، ويقول لنا إن مضاعفة العقوبة في مثل هذه الأحوال إنما هي قسوة همجية لا تحقق شيئاً من الردع المقصود؛ بيد أن القانون قد أعتاد هنا أن يضاعف العقوبة، دون أن يحاول صقل الجهد في الإثبات والاكتشاف؛ في حين أنك ترى مثلاً فتى مغامراً يعتمد دائماً على حقه في الإفلات من العقوبة، وبذل لا يخشى العقوبة إلا بقدر ما يخشى جهنم
والعقوبة المادية ليست كل شيء في تحقيق فكرة العقاب؛ فمشاق السجن مثلاً يستطيع الكثيرون تحملها، ولكن الضرر الحقيقي هو في الحياة التي تلي حياة السجن.
والواقع أن معظم العقوبات القانونية قاصرة عن تحقيق الأغراض التي وضعت لها؛ ومن الواجب أن تكون القوانين في الدولة المثلى، سواءاً كانت مدنية أو جنائية، سائرة وراء معيار الإنسانية في تقدير الخطأ والصواب
ويعالج الدكتور فون هنتج موضوعه الدقيق بوضوح يقربه إلى فهم القارئ العادي، ويجعله في نفس الوقت مرجعاً قيماً للباحثين

تعميم تدريس الدين في التعليم الثانوي والابتدائي للبنين والبنات

قررت وزارة المعارف تعميم تدريس مادة الدين في جميع فرق الدرسان بالمدارس الثانوية والابتدائية للبنين والبنات بعد ما كانت مقصورة على السنتين الأولى والثانية وقد أعتمد معالي وزير المعارف المنهج الذي وضعه مكتب تفتيش اللغة العربية لهذا الغرض وستبدأ المدارس بتطبيقه في السنة الدراسية المقبلة
وأهم ما في هذا المنهج درس أخلاق ومناقب عمر بن الخطاب والسيدة عائشة والسيدة خديجة درساً صحيحاً يتجلى فيه ما لهم من أخلاق حميدة ومواقف مشهورة تبعث الطلبة على الإقتداء بهم، ودرس الآيات الكريمة والأحاديث النبوية. وأن تقترن

هذه الدراسة بما يناسبها من الموضوعات، وأساس الدين الإسلامي، والآداب الإسلامية، وأدب الإنسان مع خالقه ومع المجتمع، ودرس سيرة أبي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد، والإسلام والشورى، والإسلام والحكومة الصالحة، ودرس سيرة عمر بن عبد العزيز، والإمام أبي حنيفة، وسعد بن أبي وقاص، وأسماء بنت أبي بكر، والسيدة حفصة، ودرس الرسل والحكمة في إرسالهم، والإسلام وقواعده الخمس، والفضائل التي عز بها الإسلام، وتأثير
الإسلام في تهذيب النفوس، وشرح الفضائل والرذائل، وعناية الإسلام بشأن المرأة، والبدع والعادات المخالفة للدين

حول أرزة لامرتين

أخي السيد خليل عطا الله:

لست أدري طيف يجب أن أقول: ويل للتاريخ من الشعر أو ويل للشعر من التاريخ.

وإنما أحب أن تعلم أنني يوم زرت الأرز، منذ شهر ونيف، ونظمت فيه قصيدتي، لم أكن عالماً ولا مؤرخاً، ولعلي لن أكون أحدهما أبداً، وإنما أنا شاعر تجولت وإخواناً لي في ظلال الأرز ساعة من زمان صحبة دليل، واستمعت مأخوذاً إلى ما يقصه علينا هذا الدليل من كريات شعرية عذبة، وأنعمت النظر فيمت تركته هذه الذكريات من آثار محسوسة باقية، فوجدتني أطرب لهذا الفيض الشعري الساحر، فأصوغ طربي شعراً كفاني صدقه شرفاً ومجداً. ولا أعرف في الناس يا أخي من هم أحق بالرثاء من هؤلاء العلماء والمؤرخين الذين يستحقون كل إجلال وإعظام، والذين يفنون زهرة صباهم، وعنفوان شبابهم، وجلد كهولتهم، وراحة شيخوختهم، بين أكوام الأوراق ورفوف الكتب، ليظهروا حقاً أو ليزهقوا باطلاً؛ أما أنا فليس أحب إلى نفسي من أن تكون الحياة كلها أسطورة! ولعلها كذلك!. . .

أقول هذا لتوقن أنه لا ذنب لي في هذا الخطأ التاريخي الذي ارتكبه، وإنما هو ذنب ذلك الدليل (الصادق) الذب طاف بي أرجاء الغابة يدلني ويعلمني ويهديني السبيل؛ وذنب تلك اللوحة الرخامية المنصوبة على أرزة لامرتين، تلك اللوحة التي تؤكد زيارة الشاعر الكبير للأرز خريف عام 1832، والتي رأيتها ولا شك في الصورة التي نشرتها (الرسالة) العزيزة. وإني إن شكرتك على ملاحظتك التاريخية القيمة فكم أحب أن أوجها بدوري إلى أولئك الإخوان في بلدة (بشرى) الذي نصبوا تلك اللوحة منذ سنوات على الشجرة المذكورة وفي أعلى النقش تخليداً لذكرى هذه الزيارة بمناسبة مرور مائة عام عليها، دون أن يشيروا بكلمة إلى حقيقة هذه الزيارة أو حقيقة هذا النقش؛ وكم أود أيضاً - رغم كل هذا - أن يتمسك أولئك الأخوان بمعتقدهم، وأن يؤمنوا بزيارة الشاعر الكبير وأبنته لأرزهم، ونقشهما أسميهما على إحدى شجراته، ولو كتب هنري بوردو ألف كتاب، لا كتاباً واحداً في دحض
هذه الزيارة وتفنيدها. لا أريد بهذه الحقيقة والتاريخ، وإنما أريد الاحتفاظ بهذا الكنز الشعري الروحي الثمين. ومن يدري فلعل كاتباً آخر يقوم غداً فينقض كل ما كتب صاحبنا (بوردو) ويثبت كل ما أنكر!

وختاماً أشكر يا أخي ملاحظتك الرقيقة من كل قلبي، وإن كنت آسف، وأحسبك ستأسف مثلي، على أنك أفقدتني أو كدت تفقدني عطفي على قصيدة هي على من أعز شعري

والسلام عليك. . .

(دمشق)

أمجد الطرابلسي

السينما والعلوم

لم يقف نشاط الفن السينمائي عند إخراج الروايات والقطع التاريخية والأجتماعية، ولكنه أتجه في العصر الخير أيضاً إلى الناحية العملية فأخرجت عدة شرائط مصورة عن حياة الحيوان والنبات وعن كثير من الصناعات الدقيقة، والآن تخطو السينما خطوة أخرى في هذه الناحية، فقد بدأت منذ حين تخرج لنا سير أقطاب العلم في شرائط مصورة تمثل حياتهم واكتشافاتهم العلمية، وكان أول شريط من هذا النوع شريطاً يمثل حياة الطبيب العلامة الفرنسي لوي باستور الذي

أكتشف عدداً كبيراً من الجراثيم، وساعدت تجاربه واكتشافاته العملية على تقدم الطب تقدماً عظيماً، وكان نجاح هذا الشريط عظيماً، إذ يقدم عن حياة باستور صورة مطابقة مؤثرة. وتلا ذلك إخراج شريط آخر عن حياة فلورانس نيتنجيل المصلحة الإنسانية، ومنظمة المستشفيات الشهيرة. والآن تفكر إحدى الشركات الأمريكية السينمائية في إخراج شريط علمي جديد يمثل حياة العلامة والمخترع السويدي الشهير ألفريد نوبل؛ ونوبل كما هو معروف مخترع الديناميت الحديث، ولكنه أشتهر بمأثرة إنسانية أخرى هي وقفه أمواله الطائلة على منح جوائز نوبل الشهيرة للآداب والعلوم والأعمال السلمية، وهي تعتبر أعظم الجوائز الدولية في هذا الميدان، ولم يعرف حتى اليوم من هو الممثل الذي سيقوم بدور المخترع الشهير، ولكن الشركة التي تعنى بإخراج هذا الشريط وهي شركة كولومبيا ستبذل كل جهودها لتحقق لهذا الشريط العلمي الجديد نجاحاً باهراً. وهكذا تعاون السينما في تاريخ العلم بصورة عملية شائقة.

عيد مدينة برلين

أحتفل في برلين في أواخر أغسطس بالعيد المئوي السابع لقيام مدينة برلين العاصمة الألمانية؛ وأقترن الاحتفال الرسمي بعدة حفلات موسيقية فخمة في بهو قصر برلين، وأقيم قداس موسيقي في كنيسة كلوستر بإشراف الموسيقي الأشهر أدوين فيشر؛ وكان من أهم المظاهر التي لفتت الأنظار إلى هذا العيد نماذج بديعة عرضتها شركة (أوربا الوسطى) في ميدان بوتسدام تمثل تاريخ خطط برلين من نشأتها إلى يومنا

رسالة النقد

كتاب إحياء النحو

للأديب السيد عبد الهادي

نشر الأستاذ أحمد أحمد بدوي، في مجلة الرسالة، نقداً لكتاب إحياء النحو للأستاذ الجليل إبراهيم مصطفى، ولقد قرأته بإمعان وتدبر كما أقرأ غيره من البحوث التي تتعلق بعلم النحو وخاصة في الأشهر القليلة الأخيرة التي قامت فيها ضجة حول الضعف في اللغة العربية وأسبابه وعلاجه، وقد كان النحو محوراً في هذه البحوث كلها، فقد جعل كل من الباحثين النحو في صورة خاصة سبباً من أسباب الضعف في العربية وجعله في صورة أخرى، أوجز في بيانها، سبباً من أسباب التقوية في العربية أي أن الباحثين المحدثين أجمعوا على تعبير نحوي قديم، هو النحو في الكلام كالملح في الطعام يفسده ويصلحه، فكان طبيعياً أن أقرأ أنا وأمثالي نقد الأستاذ بدوي لإحياء النحو لأنه نقد للمنهج الجديد الذي نريد أن نأخذ به نفوسنا والنشء كذلك في معرفة قواعد اللغة العربية وهذه هي ناحية الأهمية في هذا النقد بغض النظر عن علم المؤلف وجلال قدره فهذا أمر يعرفه الكل

وقد أستهل الأستاذ نقده بأن نحو اللغة العربية ثقيل عسير يحتاج إلى كثير من التهذيب والتبويب ليصبح سهل المأخذ قريباً إلى النفوس محبباً إليها درسه وفهم قواعده وأصوله، ولي على ذلك اعتراض ثانوي ذلك أن الأستاذ يريد أن يهذب النحو ويبوبه ليفهم بذلك

قواعد النحو، فأوجد بذلك شيئاً أسمه النحو وشيئاً أسمه قواعد النحو، وهذه نتيجة خاطئة سببها على ما أظن الأسلوب الإنشائي الذي لا يعني بتجديد المقصود من كل عبارة ومن كل لفظ، وإنما يعني برصف بعض جمل منمقة تؤدي معنى عاماً لا تحده خطوط أربعة، وهذا إن جاز في بعض أنواع الكتابة فهو غير جائز في النقد. وتفصيل القول في هذا أن هناك مسائل ككون الفاعل مرفوعاً وأسم إن منصوباً والتالي لمن مجروراً؛ هذه المسائل وأمثالها هي قواعد اللغة العربية ولا سبيل لتغييرها أو تبديلها، ولم يقصد أحد من الباحثين المعاصرين بإصلاح النحو إصلاح هذه القواعد - هذه القواعد تحتاج إلى ما يحصرها وينظمها ويقيم الدليل على صحتها، وذلك هو علم النحو أو هو النحو بحذف كلمة علم لأنها مفهمومة ولا بد من تقديرها عندما نقول النحو - والنحو هو محل بحث الباحثين، وتجديد المجددين، وليست قواعد اللغة محلاً لذلك، وإذن ليس هناك شيء أسمه قواعد النحو كما خيل للأستاذ - وإلا فليقل لنا الأستاذ ما

هي قواعد النحو التي يقصدها
ثم عقب الأستاذ على ذلك بذكر النتائج التي توصل إليها متألماً بعد القراءة، وأولى هذه النتائج أن الكتاب ليس فيه شيء جديد ومعنى ذلك أنه نقل من القديم لا أكثر ولا أقل ففيم النقد إذن، وفيم ذكر النتائج الأربع الباقية إذا لم يكن هناك جديد؟ المتفق عليه أن الشيء إذا كان صورة مما سبقه فليس محلاً للنقد أبداً
والنتيجة الثانية أن الكتاب لم يحدث في دراسة النحو أو كتبه أو قواعده أي تغيير أو تبديل. ويلاحظ هنا أن الأستاذ لا يزال يصر على استعمال (قواعد النحو) وأس فرق بين النتيجة الأولى والثانية؟ أليست الثانية تفسيراً للأولى؟ فهلا أضاف الأستاذ إحدى النتيجتين إلى الأخرى لأنهما في معنى واحد، والأستاذ لا يجهل أن نتيجة واحدة قد تكون خيراً من عشر نتائج وهو لا يجهل كذلك أن العدد في الليمون
والنتيجة الثالثة أن ما في الكتاب ليس إلا تعليلات كتعليلات النحاة، وأظن هذا أيضا داخلاُ تحت عدم الجدة التي لحظها الأستاذ في النتيجة الأولى
والنتيجة الرابعة أن المؤلف أدعى على النحاة قضايا غير ممحصة ولننتظر ما يقول الأستاذ في ذلك ونعقب عليه في حينه
وأما النتيجة الخامسة فهي أن المؤلف في الأبواب القليلة التي أراد ضم بعضها إلى بعض
يزيد النحو عسراً لا سهولة وفهماً على أنه لم ينجح في هذا الضم. هذه هي النتيجة الخامسة والأستاذ يعترف فيها صراحة أن المؤلف قد أحدث حدثاً جديداً، زاد النحو عسراً، وهو أمر يستحق النقد الذي ينشر في الرسالة على دفعتين ومع ذلك يقول الأستاذ في النتيجة الأولى إن الكتاب ليس فيه شيء جديد، هذا تناقض لا يصح أن يكون نتيجة الغفلة الفكرية وإنما هو نتيجة غفلة الذاكرة فحسب، ألست معي أيها القارئ الكريم في إقرار هذا التناقض الغريب؟
ثم أخذ الأستاذ في مناقشة ما ورد في الكتاب فأبتدأ بتعريف النحو ولم يرض عن التعريف الذي ارتضاه المؤلف ليوسع دائرة النحو فقد قصره النحاة على معرفة أواخر الكلمات إعراباً وبناء، وأراد المؤلف أن يكون النحو قانون تأليف الكلام وبيان ما يجب أن تكون عليه الكلمة في الجملة والجملة مع الجمل حتى تنسق العبارة ويمكن أن تؤدي معناها. لم يرض الناقد عن هذا التعريف لعلم النحو، ولكن القارئ يدهش إذا علم أن الناقد عاد ودافع عن هذا التعريف وأثبت أنه الصواب من حيث لا يريد حيث قال: (فليس صحيحاً إذن أن ندعي على النحاة أنهم قصروا بحثهم على أواخر الكلمات بل هم قد تعرضوا كثيراً وكثيراً جداً أكثر مما توهم المؤلف الفاضل إلى بيان وضع الكلمة من الكلمة والجملة من الجملة. . .) وضرب الناقد مثلاً لذلك باب الفاعل في كتاب أوضح المسالك لأبن هشام
وإذا كان المؤلف قد آمن بأن هذه المباحث من مباحث النحو التي توسع فيها النحاة والتي خصوها بعناية تعدل أضعاف عنايتهم بحركات أواخر الكلمات فكيف استقام عنده تعريفهم للنحو بأنه علم يعرف به أحوال أواخر الكلمات أعراباً وبناء؟ وإذن يكون تعريف النحو كما عرفه النحاة قاصراً عن غايته بشهادة الناقد نفسه لأنهم قد تعرضوا لمباحث كثيرة غير حلكت الأواخر كما يقول الناقد ولكنهم جعلوا التعريف قاصراً على معرفة أواخر الكلمات أعراباً وبناء - وإذا كنا قد اكتفينا بنقد الأستاذ بدوي من مقاله نفسه مسلين بصحة ما قاله بالحرف الواحد فهل لنا أن نستوضحه بعض الشيء ونسأله: هل صحيح أن النحاة وفوا المباحث النحوية التي هي غير حركات الأعراب حقها إحصاء وتبويباً؟ فأين إذن الباب الذي بحث النفي؟ وأين الباب الذب بحث التوكيد؟ وأين الباب الذي بحث التذكير والتأنيث، وأين أمثال هذه الأبواب التي هي العمدة في تركيب الجمل وفهم خواصها؟ نعم ذكرت بعض هذه المباحث مفرقة في الأبواب المختلفة، وقد أعترف المؤلف بذلك، ولكنه دعا إلى جمعها وتكميلها وتنظيمها حتى تفيد فائدتها المرجوة، ترى أليس تعريف المؤلف هو التعريف الصواب الشامل؟
وأخيراً رمي الناقد بقضية لم يقم عليها برهاناً إلا الثقة الغالية التي يأمل أن يجدها من القراء، فقد أدعى أن المؤلف لم يشر إلى علاقة الكلمة بالكلمة بل قصر الكتاب على حكم آخر الكلمات ولم يعن بغيرها. كيف لم يشر المؤلف إلى علاقة الكلمة بالكلمة مع

أن الكتاب كله في علاقة الكلمة بأختها؟ ألا ترى أن المؤلف قد أرجع لحركات المختلفة إلى معان مختلفة، وأن الكلمة تأخذ حركة خاصة إذا كان لها مركز خاص في الجملة وعلاقة خاصة بغيرها من الكلمات وبتغير هذا المركز وهذه العلاقة تتغير الحركة؟ أليس ذلك هو المبدأ الذي ينادي به المؤلف والذي أستغرق الكتاب من أوله إلى آخره؟ أو ليس بحثاً في علاقة الكلمة لا لكلمة والكلمة بالجملة. هذه مغالطة ظاهرة وحاشا لله أن تكون سوء فهم أو قصد

ثم أنتقل الأستاذ إلى نقد الكتاب في فلسفة العامل فذكر أن المؤلف لم يذكر رأيه صراحة في العامل، والمسألة يكفي فيها التلميح عن التصريح لأنها واضحة جلية، فالمؤلف يرى أنه ليس هناك شيء أمسه العامل يرفع وينصب ويجر وإنما يفعل ذلك المتكلم تبعاً لمركز الكلمة في الجملة وعلاقتها بأخواتها، وأظن أن الدفاع عن نظرية العامل لا يجدي شيئاً وقد تهدمت تماماً وملها الناس وأصبح المشتغلون بالنحو لا يملكون أنفسهم من الضحك حيث يقدرون العامل في مثل زيداً رأيته حيث يقولون رأيت زيداً رأيته على أنه في كثير من الأحوال تكون الجملة واضحة فإذا حاول تقدير عامي لكلمة فيها تعقدت كما في قولنا (أحقاً ما تقول؟)

وأنتقل الأستاذ بعد ذلك لمعاني الأعراب، وهو ينقد رأي المؤلف في أن الفتحة ليست علامة إعراب، وإنما هي الحركة المستحبة عند العرب وشأنها شأن السكون في اللغة العامية.

ينقد الأستاذ هذا الرأي لأنه في نظره يجعل كل الأسماء المفتوحة الآخر لا يعني بها العربي ولا يهتم بها، مع أنها تعبر عن معان هامة في الجملة قد لا تفهم إلا بها؛ وقد أقام الأستاذ الدليل على ذلك. ونحن لا نخالفه في أن من الكلمات المفتوحة ما يدل على معان هامة في الجملة لا تفهم إلا بها، ولكننا نسأل الأستاذ: من أين له هذا الفهم. من أين أتى له أن

المؤلف قصد أن المعاني التي تدل عليها الأسماء المفتوحة الآخر معان لا يعتني بها العربي وليست ذات خطر في الكلام؟. لا يزال كتاب (إحياء النحو) بين أيدينا فيستطيع الأستاذ أن يقرأه مرة ثانية ليقتنع بأن المؤلف لم يقصد بتاتاً إلى ما فهمه؛ ولقد قرأت الكتاب وأجهدت نفسي في الفهم لأجد ما يشير إلى ذلك تصريحاً أو تلميحاً فلم أجد. فليدلنا الأستاذ على الموضع الذي فهم منه هذا الفهم فأنا نكون له شاكرين

ولقد وضح المؤلف هذه المسألة وبينها تماماً حين عقد مشابهة بين الفتحة في اللغة العربية وبين السكون في اللغة العامية حتى لا يدع مجالاً لفهم خاطئ وحتى يقرب المسالة من الأذهان، فهل يستطيع الأستاذ أن يفهم أن المؤلف قصد أن الكلمات الساكنة الآخر في اللغة العامية، وكل كلمات اللغة العامية ساكنة الآخر، تؤدي معاني ثانوية يمكن الاستغناء عنها. وبم إذن تؤدي المعاني الهامة، ما دام الأستاذ قد حكم على المشبه، وهو الفتحة في اللغة العربية، بأنه في رأي المؤلف، لا يأتي إلا مع كلمات معانيها لا يعتني ولا يهتم بها فإنه سيفعل ذلك مع المشبه به، وهو السكون في اللغة العامية، أي أن اللغة العامية تصبح في رأي المؤلف خالية من المعاني الهامة قاصرة على المعاني الثانوية التي لا يضير تركها ولا ينفع ذكرها. تل هي النتيجة التي يريد أن يخرج بها الناقد وهي أبعد ما تكون عن العقل السقيم بله العقل السليم.

أن تكون الفتحة في العربية كالسكون في العامية ليس معناه أن الكلمات المفتوحة ليست مهمة ولا تعني بها اللغة، بل إن العلاقة بين هذين المعنيين منعدمة تماماً، غنما ذلك لأنها الأصل في الحركات ولا يعدل عنها إلا لغرض هو الإسناد أو الإضافة؛ ولم يقل أحد إن معنى الإسناد أهم من المعاني التي تؤديها الكلمات المفتوحة الآخر. ترى عند النحويين دائماً شيئاً أسمه الأصل وما عاده الفرع ولكنهم لا يجعلون أحدهما أهم من الآخر، فهم يقولون الأصل في المضارع الرفع والأصل في الأسماء الأعراب الخ، وليست فروع هذه الأصول بأهم منها بل لم يلتفت أحد مطلقاً إلى وجود أهمية أو عدمها في هذا التقسيم. إن بناء أهمية وعدمها على أصل وفرع في النحو فكرة خاطئة ومنطق فاسد.

والأستاذ لا يؤمن بأن الفتحة أخف الحركات، فأيها إذن أخف؟ وما رأي الأستاذ في هذه الأدلة الكثيرة التي أوردها المؤلف؟ وهلا تعرض لواحد منها فنقضه؟ لم يفعل الأستاذ ذلك.

النقد الصحيح أن يتعرض الناقد للأدلة وينقضها الواحد بعد الآخر حتى تكون حجته دامغة ودليله قاطعاً؛ وإذا لم يفعل الأستاذ ذلك فقد كفانا مؤونة الرد عليه.

(يتبع)

السيد عبد العادي

بالدراسة العليا بكلية الآداب

العدد 219 - بتاريخ: 13 - 09 - 1937

معاملة الناس

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

لو أني صدقت ما حدثني به شيوخ الجيل الماضي الذين هم في منزلة آبائنا وأعمامنا، وما رووه لي في وصف حياتهم المنقرضة ومعاملاتهم وعلاقاتهم، لكنت حرياً أن أعتقد أن ذاك الجيل الذي انقضى كان أفضل وكان حظه من الرجولة أعظم، ونصيبه من البساطة التي يستقيم بها النظر أوفر وأجزل؛ فقد كان الفقر لا يعيب أحداً في ذلك الزمان. ولا يغري الصديق بالفرار من صديقه أو اجتنابه؛ وكان حسن الأدب والتواضع ولين الجانب لا يعرض المرء للاستخفاف أو قلة المبالاة به؛ وكان للعلم شأنه وكرامته، وكانت المعاملات تقوم على الصدق والثقة ولا تحتاج إلى الصكوك وما إليها؛ وكان الصغير يوقر الكبير، ولا يغمط الكبير فضل الصغير أو يبخسه حقه، إلى آخر ذلك مما لا حاجة إلى التقصي فيه. وقد أدركت بعض ذلك ففي وسعي أن أطمئن إلى الصدق في سائره، فمن ذلك أنه بعد وفاة أبي بشهور ثقيلة، دق علينا الباب رجل من العلماء كان زميلاً لأبي، وقال إن (الأفندي) - يعني والدي فقد اتخذ زي الأفندية في آخر زمانه - ترك معه قبيل وفاته مبلغاً من المال، وإنه لا علم لأحد بذلك، وإنه يخشى أن يزوره الأجل، ودفع إلينا المال ومضى مرتاح الضمير. ولا أدري ما شأن غيري، ولكن الذي أدريه أنه لو ائتمنني أحد على مال له لكان حقيقاً أن ييأس من رده!

وقد وجدت بالتجربة أنه لا كرامة لمن لا مال له، وأن صاحب المال، وإن كان قد جمعه بشر الوسائل وأرذلها وأسفلها، قد يغتابه الناس ويبسطون فيه ألسنتهم ولكنهم لا يلقونه بغير الحفاوة ولا يبدون له غير التعظيم والتوقير، وأن من شاء أن يضمن إكبار الناس له فليشعرهم بالاستغناء عنهم، وأن الناس ينزلونك حيث أنزلت نفسك، ولا يخطر لهم أن يرفعوك عنه، فإذا كنت معهم عف اللسان مكفوف السلاطة مأمون الغضب، لم يهابوك ولم يبالوك، ولم يتقوا أن يسيئوا إليك وإن كانوا يرون منك أنك تكره أن تسيء إلى نملة؛ وقد يظهرون لك الاحترام ولكنهم يعدون ذلك فضلاً منهم وإيثاراً للصنع الجميل، لا حقاً لك عليهم. أما إذا كانوا يعرفون أن أدبَك لا يمنعك أن تهيج بهم وأن لينك قد ينقلب صلابة وعنفاً، ورقة ملمسك خليقة أن تحور شوكاً حاداً كشوك القنفد، إذا خطر لهم أن يجاوزوا معك الحدود التي ترسمها لهم في علاقتك بهم، وتفرضها عليهم، فأيقن أنهم لا يكونون معك في حال من الأحوال إلا على ما تحب وترضى، وقد يسخطون عليك في سريرتهم ويكتمونك ما ينطوون عليه لك من المقت والحقد، ولكن هذا لا قيمة له، فأن الخوف من عصفك بهم يظل يقيك أذاهم. وماذا يضيرك أن يجدوا ويضطغنوا إذا كانوا لا يجرءون أن يكشفوا لك عن هذه الصفحة المستورة؟؟ وإنك لتعلم أنهم ينافقون ويبدون غير ما يبطنون، ولكن الحيلة في ذلك قليلة، والشأن شأنهم لا شأنك، وعلى أنه ما داعي الغيظ والنقمة؟ وما موجب الكراهية والمقت؟ وما الحاجة إلى النفاق؟ إن كل ما تبغيه منهم أن يجنبوا الإساءة إليك كما تجنبها إليهم، فإذا بدءوك بذلك فانهم الظالمون، والشاعر القديم يقول:

لا تطمعوا أن تهينونا، ونكرمَكم ... وأن نكفّ الأذى عنكم، وتؤذونا!

فإذا كانوا يأبون إلا أن ينتحلوا الحق في الإساءة بلا مسوغ، فذنبهم على جنبهم. وتالله ما أسرع ما يرتد الناس إلى الواجب وحسن الأدب إذا رأوا منك تمرداً على سوء الخلق وقلة الحياء!! كان كبير من الكبراء يدخل حيث أكون، فيمر بي وكأني قطعة أثاث، وكنت ألقاه كثيراً، فحملت هذا في أول الأمر على الذهول أو نحوه، ولكنه تكرر وباخ وتبينت فيه سخافة الكبرياء والنفخة الكذابة، فقلت: أكيل له بصاعه، وصرت أتعمد أن أدخل عليه وهو مع الناس فأحييهم وأهمله، وأتخطاه بيدي وعيني كأنه ليس هناك، ولم يكن له غير هذه النفخة، فلما خرقت القربة المنفوخة، لم يبق شيء، فلم يطق صبراً،

!!وأقبل يوماً فهممت أن أشيح بوجهي عنه، فإذا هو يطوقني بذراعيه
وليست هذه المبادئ التي يُلقنها التلاميذ في المدارس، ولكنها هي المبادئ التي ألقنها
ابني، وأحرص على أن يفهمها ويعمل بها، وقليل من رياضة النفس عليها تكفيه، لا
مثلي، فقد نشأت على غير ذلك واعتدت خلافه، فخيب الناس والدنيا أملي في كل
ناحية، وأحدثوا لي رجات نفسية أتلفت أعصابي. وكنت أعتقد مثلاً أن في وسعي أن
أسير في الحياة من غير أن أسيء إلى أحد أو أخشى أن يسيء إلي أحدٌ، وأن عليَّ أن
أعطي الناس حقوقهم في صراحة وبأخلاص، وأن لي أن أثق أن سيعطيني الناس حقي
ولا يقصرون في أدائه إلي كاملاً؛ فإذا الأمر على خلاف ذلك ونقيضه. أنا أكف أذاي عن
الناس، ولكنهم هم لا يعنون بمثل ذلك، حتى لصرت مضطراً أن أحتال لاتقاء أذى
الناس، وأنا أؤدي للغير حقه غير
منقوص، ولا أبخل عليه بالإسراف في الأداء، ولكنه هو لا يخطر له أن لي حقاً يؤدى، أو
كرامة تحفظ، لا لسبب إلا أني لا أتقحم على الناس ولا أركبهم بالغطرسة، ولا ألح
عليهم ببيان ما يجب لي، ومن هنا تغير رأيي في كل ما نشأت عليه، وأدركت أنه لا
يوافق هذا الزمان؛ وتغير سلوكي مع الناس، واختلفت سيرتي وتربيتي لأبنائي، وما
زلت أجنب أن أبدأ بعدوان، فما لهذا معنى، ولكني لا أتردد في دفع الأذى، ولهذا مزيته،
!وتلك أن ترغم الناس على أن يكونوا خيّرين
إبراهيم عبد القادر المازني
المحاكمات التاريخية الكبرى
الحركة النهلستية ومصرع القيصر اسكندر الثاني - 4
صفحة رائعة من صحف الثورة على الطغيان
للأستاذ محمد عبد الله عنان
خاتمة البحث
وكانت مرافعة جليابوف عن نفسه خاتمة المناظر العاصفة في تلك القضية الشهيرة.
وكان هذا الزعيم الثوري المضطرم حسبما يصفه مكاتب التيمس، يحدج قضاته
بنظرات ملتهبة كأنها نظرات وحش يُطَارد، وكانت ألفاظه وعباراته الرنانة تحدث أثرها
في المحكمة والنظارة؛ وكلما ضجت الجلسة ألقى على الجمهور نظرته الملتهبة حتى
يعود إلى سكينته. ولما انتهى من مرافعته، أذنت المحكمة للمتهمين تباعاً بأن يقول كل
منهم كلماته الأخيرة. فكرر كبالتشش أقواله عن نيات حزبه السلمية، وأنهم لم
يسفكوا الدم رغبة في السفك، ونوه بأنه قد اخترع جهازاً للطيران يرجو أن ينسب له
بعد موته إذا أخرج إلى حيز التطبيق. ونفت صوفيا عن نفسها ما اتهمها به النائب من
القسوة وفساد الخلق واحتقار الرأي العام. وحاول ريساكوف أن يكرر نظرياته
السياسية؛ وأصر ميخايلوف على نفي اشتراكه في الجريمة
وبذا اختتمت المرافعات في هذه القضية الشهيرة ولم تستغرق في الواقع سوى ثلاثة
أيام. وفي صباح يوم 29 مارس أصدرت المحكمة حكمها وهو يقضي بإعدام المتهمين
الستة شنقاً. فاستقبل المتهمون مصيرهم في سكينة وثبات. وهل كانوا يتوقعون
مصيراً آخر؟ إن الحكم بالإعدام كان قاعدة مقررة في جميع الجرائم السياسية التي
جرت في الفترة الأخيرة، ولم يلفت من هذا المصير المروع سوى قلائل من الثوريين
الذين اشتروا حياتهم بالاندماج في سلك البوليس السياسي؛ ولم يطعن أحد من الستة
المحكوم عليهم في الحكم بطريق النقض، ولكن ريساكوف وميخايلوف رفعا طلباً
بالعفو لم تر المحكمة أن تراجع القيصر في شأنه؛ وحاول ريساكوف ليلة التنفيذ أن
يلجأ إلى الخطوة الأخيرة فعرض أن يندمج في البوليس السياسي وأن يفتدي حياته
بالعمل على مقاومة الإرهاب والمرهبين، وأفضى
بأسماء وبيانات جديدة عن الثوريين ونظم الحركة الثورية، فلم يقبل طلبه وخاب
مسعاه
وقدمت جسيا هلفمان إلى المحكمة بلاغاً قالت فيه أنها حامل لأربعة أشهر، وطلبت
إرجاء التنفيذ حتى تضع حملها؛ فانتدبت لفحصها لجنة طبية أيدت دعواها، فقررت
المحكمة أن ترجئ التنفيذ حتى تضع حملها ويمضي على وضعها أربعون يوماً
وكان التنفيذ في اليوم الثالث من أبريل سنة 1881 ففي نحو الساعة الثامنة من صباح
ذلك اليوم حمل المتهمون الخمسة على عربتين عاليتين إلى ميدان سيمونفسكي حيث

نصبت المشنقة وكانت والدة صوفيا قد سعت إلى رؤيتها فلم توفق إلى ذلك إلا عند خروج الموكب من السجن. وكان المتهمون قد ألبسوا أردية سوداء، وأوثق كل منهم في مكانه في العربة، وظهره إلى الخيل وقد وضعت على صدره لوحة كتب عليها بحروف بيضاء ظاهرة: (قاتل الملك) وكان يتبع المحكوم عليهم عربة بها خمسة قسس؛ وكان الموكب رهيباً يحف به حرس قوي من الفرسان والمشاة، وقد اصطف الجند على طول الطريق من السجن حتى ميدان التنفيذ. وكان الميدان غاصاً بعشرات الألوف من النظارة إذ كان تنفيذ الإعدام يجري في ذلك العصر بطريقة علنية؛ وكان الشعب يهرع دائماً إلى رؤية هذه المناظر المؤسية. وفي نحو الساعة التاسعة وصل موكب المحكوم عليهم إلى ساحة التنفيذ فأنزلوا من العربات وتلا عليهم سكرتير مجلس الشيوخ الحكم؛ ثم قرعت الطبول إذاناً بالإجراءات الأخيرة، فكشف النظارة رؤوسهم وتقدم القسس من المحكوم عليهم وفي يدهم الصلبان فقبلوها. وأبدى المحكوم عليهم في تلك اللحظات الرهيبة ثباتاً يثير الإعجاب والخشوع إلا ريساكوف فإنه كان مضطرباً ممتقع اللون؛ وبعد إجراء المراسيم الدينية قبل كل صاحبه وودعه الوداع الأخير

وقبل الساعة العاشرة بقليل تقدم الجلاد فرولوف بثوبه الأحمر إلى فرائسه يحيط به معاونوه وألبس المحكوم عليهم الأكفان والقلنسوات. وبدئ التنفيذ بإعدام كبالتشش ثم تلاه ميخايلوف فصوفيا فجليابوف فريساكوف؛ وحدث حين إعدام ميخايلوف أن قطع حبله وسقط على النطع ثلاث مرات قبل أن يزهق، فثار الجمهور لهذا المنظر المروع، وعلت غمغمة السخط والروع. ولكن الجلاد أتم مهمته بهدوء ولم يحدث حادث. وكان هذا آخر إعدام علني في روسيا القيصرية. وكان له في الرأي العام أيما أثر. ووجه كاتب روسيا الأكبر

يومئذ الكونت ليون تولستوي إلى القيصر اسكندر الثالث خطاب احتجاج على هذه الفظائع المثيرة

وأما جسيا هلفمان فكان لها قصة أليمة أخرى، ذلك أن حزب إرادة الشعب لجأ إلى الرأي العام الخارجي ليحاول إنقاذ هذه الفتاة المنكودة من براثن الموت، وأذاع شاعر فرنسا وكاتبها الأكبر يومئذ فكتور هوجو في الصحف الفرنسية خطاباً مفتوحاً إلى القيصر يناشده فيه الرأفة بآلام الفتاة؛ ورددت صحافات القارة هذا النداء. وفي الثالث من يوليه سنة 1881 عدلت عقوبة الإعدام إلى الأشغال الشاقة المؤبدة. وفي شهر سبتمبر نقلت جسيا إلى مستشفى السجن ووضعت طفلة لم يعرف مصيرها. وتوفيت الأم بعد ذلك بأشهر قلائل في فبراير سنة 1882 من جراح أصابتها وقت الوضع وقيل إنها أحدثت فيها عمداً

هذه صفحة مؤسية مروعة معاً من صحف الثورة على الطغيان، وقد كانت النهلستية بلا ريب من أعظم الحركات التحريرية العنيفة التي عرفها التاريخ، وكانت من أحفلها بمواطن النضال الدموية وكانت القيصرية من جانبها من أشد النظم الطاغية إمعاناً في القسوة والعنف وإخماد النزعات الحرة. وكان هذا النضال الذي يخضب أرض روسيا بدماء الفريقين، ويدفع بآلاف من الشباب المستنير إلى ظلمات السجن والنفي مسألة حياة أو موت للقيصرية ولروسيا الجديدة معاً؛ وقد سار هذا النضال حيناً بعد مصرع اسكندر الثاني ومصرع قاتليه. ولكن القيصرية ضاعفت أهباتها ووسائلها لقمع الإرهاب. ومع أن المرهبين استطاعوا أن ينزلوا بالقيصرية وأعوانها عدة ضربات دموية أخرى وأن يدبروا اعتداءين جديدين على حياة القيصر، فأن القيصرية استطاعت بوسائلها الذريعة أن تمزق شمل الحركة الثورية؛ وركدت ريح النهلستية في أواخر القرن الماضي بعد أن هلكت زهرة دعاتها وأنصارها؛ ثم استعادت شيئاً من نشاطها في أوائل هذا القرن، ولكن القيصرية استطاعت من جانبها أن تجنب العاصفة بتحقيق بعض الإصلاحات الدستورية المنشودة، وإصدار الدستور الروسي الجديد سنة 1906. على أن المثل الثورية التي بعثتها النهلستية في روسيا الجديدة لم تخمد جذوتها بل لبثت على اضطرامها حتى مهدت الحرب الكبرى أخيراً لانفجارها الرائع في سنة 1917. وعندئذ لم تقف العاصفة عند سحق القيصرية وكل نظمها القديمة، بل دكت نظم المجتمع الروسي القديم كله وقامت البلشفية على أنقاضه

تطمح إلى إضرام نار الثورة العالمية وتحقيق مثل ماركس ولنين
كانت النهلستية حركة فريدة بين الحركات التحريرية. وكانت وسائلها العنيفة من طراز
لم يعهد التاريخ كثيراً من أمثاله؛ ذلك أنها جعلت من الثورية ديناً تدين به الشبيبة
المستنيرة، ينبث إلى أعمق عقولها وأرواحها، وجعلت من الحرية هيكلاً مقدساً تتفانى
هذه الشبيبة في الحج إليه، وتسقط في سبيله صرعى لا تلوى على شيء إلا أن تموت
في سبيل العقيدة الجديدة؛ وقد كانت ضحايا النهلستية عظيمة فادحة. ومن الصعب أن
نقدم عن هذه الضحايا بياناً شافياً لأن الأساليب الهمجية والرسائل السرية التي كانت
تتبعها القيصرية في مقاومة الحركة كانت تحصد المئات والألوف في خفاء وصمت؛
يهلكون ألوفا في أعماق السجون أو في معسكرات الاعتقال النائية في أعماق سيبريا،
هذا عدا من حصدتهم المشانق وهم وحدهم ألوف؛ وليس من المبالغة أن نقول إن
المناظر الدموية التي يقدمها إلينا كفاح النهلستية، تفوق في روعتها مناظر عصر
الإرهاب أبان الثورة الفرنسية؛ ذلك أن الثورة الفرنسية كانت بالرغم من اضطرامها
وعنفها قصيرة الأجل محدودة المدى، وكانت آثارها المعنوية تفوق أحداثها المادية
بكثير. أما الثورة النهلستية فقد استطاعت نحو أربعين عاماً؛ تضطرم آنا وتخبو آنا،
ولكنها لبثت دائماً تلتهم فرائسها من الجانبين. هذا إلى أن نزعة الكفاح في الحركة
الثورية الروسية كانت أعرق أصولاً وأبعد مدى. وبينما نرى الثورة الفرنسية تستسلم
بعد أعوام قلائل إلى الحركة العسكرية الرجعية وتغدو أداة ذلولاً في يد جندي طموح
هو نابليون، إذا بالحركة الثورية الروسية تمضي في طريقها برغم كل مقاومة حتى
تفوز بتحقيق كل مثلها وغاياتها. بيد أنه كان ظفرا سلبياً فقط، وكان ظفراً قصير
المدى؛ فقد مهدت الحركة النهلستية كما قدمنا إلى الانقلاب العظيم الذي درج زعماؤه
وقادته في غمارها وتغذت عقولهم وأرواحهم بتعاليمها ومثلها، وكان ظفر الثورة
البلشفية كاملاً شاملاً، ولكن شتان بين تلك المثل الحرة الإصلاحية التي تنشدها
النهلستية، وبين ذلك الهدم الشامل الذي انحدرت إليه الثورة البلشفية. أجل سقطت
القيصرية صرعى المثل الجديدة وأعلنت سيادة الشعب أو الكتلة العامة في عبارات
ضخمة، ونودي بالحريات والحقوق العامة، واستطاعت الثورة الجديدة أن تحتفظ
بانتصارها الظافر مدى حين كان شعارها فيه مكافحة الخطر الخارجي؛ ولكنها ما كادت
تثبت أقدامها حتى استحالت بسرعة
إلى نوع جديد من الطغيان لا يقل في أساليبه ووسائله فظاعة عن أساليب القيصرية
ووسائلها؛ ولم تلبث أن غدت سيادة الشعب اسماً بلا مسمى؛ واستطاعت الزعامة
الجديدة أن تفرض سلطانها المطلق على ذلك العالم الروسي القديم الذي كان يطمح
إلى عالم جديد من النور والحريات المثلى؛ وانتهت الثورة التحريرية بعد كفاح طويل
إلى تلك النتيجة المحزنة التي أشرنا إليها في فاتحة هذا البحث. ذلك أن النظم التي
تسود روسيا الآن بأسم البلشفية ليست في الواقع إلا صورة من أشنع صور الطغيان
الدموي التي عرفها التاريخ

(تم البحث - النقل ممنوع)

محمد عبد الله عنان

في تاريخ الأدب المصري

أبن الصيرفي

أبو القاسم علي بن منجب بن سليمان الصرفي

مات بعد سنة 542

للأستاذ محمد كرد علي

كان أبن الصيرفي من كتاب الدولة الفاطمية، ومن عظماء المنشئين والمؤلفين من
المصريين في عهده؛ جزل حظه من البلاغة والشعر والخط الجميل، وأخذ صناعة
الترسل عن صاعد بن مفرج صاحب ديوان الجيش، ثم انتقل منه إلى ديوان الإنشاء
وبه الحسين الزبدي ثم تفرد بالديوان. ولابن الصيرفي تصانيف تجعله فوق أقدار
رؤساء الدواوين وكتاب الملوك والسلاطين، ومنها في الأدب والتاريخ الترسل كتاب
(عمدة المحادثة) و (عقائل الفضائل) و (استنزال الرحمة) و (منائح القرائح) و (رد
المظالم) و (لمح الملح) ومنها (الإشارة إلى من نال الوزارة) و (قانون ديوان الرسائل)
وهذان الكتابان مطبوعان. وله غير ذلك من التصانيف منها اختيارات كثيرة لدواوين

الشعراء كديوان ابن السراج وأبي العلاء المعري وغيرهما. وله شعر جيد لكنه أشتهر بالكتابة. وقد ضمن كتابه الإشارة إلى من نال الوزارة ذكر من تقدم من سفراء الدولة ووزرائها وسلاطينها، ولم ير أن يتوسع إشباع الموضوع قائلاً: (إذا كان الاستقصاء لا يليق بكل تصنيف لاسيما إذا خدم به سلطان ينفق أوقاته في تدبير دولة وإقامة سنة واستضافة مملكة، وإذا بقيت من زمانه فضلة استعجل بها جزءاً من الراحة، يستعين به على ما يستأنفه من مهماته) بدأه بترجمة الوزير ابن كلس الآمري وإليه أهدى كتابه.

وفي هذا الكتاب مثال واضح من سوء إدارة الفاطميين أخرياتِ أيامهم، وما توسعوا فيه من الألقاب، وما أوغلوا فيه من المصادرات، وما كان لهم وعليهم. وكان من لوازم الدعاء الذي يستعمله أبن الصيرفي في كل سجل ورسالة وتقليد وكتاب، بل يستعمله الإسماعيلية الفاطميون عامة أن يقال بعد الصلاة على النبي (وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب)

،وذكر في مقدمة قانون الرسائل ما ننقله بحرفه: (ولما رأيت أولى الفطر الصحيحة والعقول الرجيحة، قد سبقوا إلى النظر في سائر العلوم، ووضعوا فيها المصنفات، ونظموا ذكرها في الكتب المؤلفات، ثم انتقلوا عن ذلك إلى قوانين الأشياء فقرروا في كل منها ما كان أصلاً يعتمد عليه، ونهوا عما كان فساداً لنظامها أو أدى إليه، وخالفوا بين أحكام تلك التصنيفات لاختلاف الأزمنة وتباين البلاد والأوقات، فوجدتهم قد صنفوا في كتابة الخراج كتباً كثيرة، وعُنوا بكتابة الجيش عناية كبيرة، فألف كل من العراقيين والمصريين في ذلك ما وصلت إليه طاقته واقتضاه ما أوجبه وقته والبلد الذي يحتله.

فأما صناعة الشعر وذكر بديعه وسائر أنواعه وتقاسيمه، فقد أكثر كل منهم فيه المقال، وتوسع في تصنيفه وأطال، ورأيتهم أهملوا الكلام في الكتابة الجليلة قدراً، النبيهة ذكراً، الرفيعة شأناً، العلية مكاناً، التي هي كتابة حضرة الملك المشتملة على الإنشاء إلى ملوك الدول، والمكاتبة عنه إلى من قلّ من الأمم وجلّ، وكيف يجب أن يكون متوليها وما يخصه من الأخلاق والأدوات، وما يجب أن يكون فيه من الفضائل، وأن يجتنبه من القبائح والرذائل، وكيف ينبغي أن تكون أمور أتباعه ومعينيه، وأي الحالات ينبغي أن يكون عليها ديوانه الذي يتولاه وينظر فيه)

وكتاب قانون ديوان الرسائل درة نفيسة قدمه إلى الأفضل ابن أمير الجيوش وقال: (يجب أن يكون هذا الكتاب مخلداً في ديوان الرسائل يقتدي به كل من يخدم فيه، ويستضيء بهدايته ويحتذي أمثلته وأن يؤخذ المستخدمون في الديوان بفهمه وبحفظه)

ثم قال: (ثم ينتفع بهذا الكتاب إذا جعل بحيث استقر مخزوناً بديوان الرسائل للقراءة فيه وتدبره كل من تصفحه أو يعمل بمقتضاه على مرور السنين وكرور الأحقاب والأعوام، فيكون كالمعلم لهم، والمهذب لأخلاقهم، والهادي لهم إلى سنن الصواب الذي قد درست معالمه وتنوسيت أحكامه)

ومما رأى أن يكون رئيس الديوان من المسلمين (ومع ذلك فيجب أن يكون متمذهباً بالمذهب الذي عليه الملك ليكون أنقى جيباً وأنصح غيباً، فان المسلمين وإن جمعتهم كلمة الإسلام، فقد أختص كل واحد منهم بمذهب يباين به بعضهم بعضاً، حتى حدث بذلك بينهم من التباعد والتنافر قريب مما بين المسلمين والمشركين) وعاد فأكد هذا المعنى في موضع آخر من أن الكاتب ينبغي أن يكون على دين الملك ومذهبه لكونه يكاتب الملوك المخالفة ملتهم ملة ملكه، وربما احتاج في مكاتباته إلى تفخيم ملة ملكه والاحتجاج لها وإقامة الدلائل

على صحتها، ولن يحتج لملة من اعتقد خلافها، بل المخالف للملة إنما يبدو له مواضع الطعن ومواضع الحجاج، فان اعترض معترض بالصابي وأنه كان يكتب عن ملوك مسلمين وهو على غير ملتهم، فالجواب أنه كان من أهل ملة قليل أهلها، ليس لهم ذكر ولا مملكة، ولا لهم دولة قائمة، ولا منهم محارب لأهل الإسلام، ولا من يكاتِب ويكاتَب، ولا من يخشى من الكاتب الميل إليه، والانحراف معه. ثم إن المشهور من أحوال ذلك الكاتب أنه كان قد حفظ من ملة الإسلام وسنتها مما يحتاج إليه في كتابته ما لا يوجد عند كثير من المسلمين في زمانه، وكان في صناعته الغاية في وقته فقادت ملوك عصره الضرورة إليه، إذ لم يجدوا من المسلمين من يغني غناءه ولا ليسد مسده)

قال: (ومما يحتاج أن يفهمه هذا الكاتب أن يعرف الفرق بين مخاطبة الملوك الإسلامية

وبين مخاطبة الملوك المخالفين للملة واللسان، لأن مخاطبة من يتكلم باللسان العربي مشهورة المقاصد معروفة الطرائق يستعمل فيها الأسجاع وتنميق الألفاظ وتحسينها وزخرفتها وترتيبها مع ضبط المعنى وحسن التأليف. وأما مكاتبة المخالفين للسان فإنه لا ينبغي أن يهتم فيها بالألفاظ المسجوعة، ولا ضرب الأمثال والتشبيهات والاستعارات، فإن ذلك إنما يستحسن ما دام مفهوماً في تلك اللغة وغير منقول إلى غيرها، وأكثر هذه الضروب إذا نقلت من لغة إلى لغة فسدت معانيها، وعاد حسنها قبيحاً؛ ومنها ما لا يفهم بعد نقله ببتة؛ ومنها ما إن فهم له معنى كان غير ما قصد، لا سيما إن كان الناقل لها مقصراً في اللغتين المنقول منها والمنقول إليها. وأرى أن الأفضل في هذا الباب أن يتولى هذا الكاتب نقل ما يكاتب به إن كان عارفاً بها فينقل ما يكتب به ويكتبه بخط أهل تلك اللغة ولسانهم، إما في ذيل الكتاب أو في كتاب طيه، لأنه قد لا يجد الملك الذي يصل إليه الكتاب ناقلاً ماهراً عالماً باللغتين، فربما أفسد الناقل المعنى فعاد الكتاب المصلح مفسداً فيبطل الغرض الذي قصد به. وهذا باب يجب صرف العناية إليه جداً، وليس يحتاج في مكاتبة أهل اللغات المخالفة بغير المعاني السديدة البريئة من الاستعارات، والكتابات الصائبة لمواضع الحجج التي تبقى جزاتها ونضارة معانيها وبهجتها مع النقل والترجمة.)

وذكر فصلاً في عمل من يستخدم خازناً لديوان الرسائل فقال: (ينبغي أن يؤخذ بجعل كل شيء من الرسائل مع شبهه، وجعل كل سنة على حدتها، ويجعل لكل شهر إضبارة، ولكل صفقة من الأعمال إضبارة وعليها بطاقة في مضمونها) قال: (وينبغي لهذا الخازن أن يحتفظ بجميع ما في هذا الديوان من الكتب الواردة. وينسخ الكتب الصادرة والتذاكير وخرائط المهمات، وضرائب الرسوم وغير ذلك مما فيه - احتفاظاً شديداً، ويكون بالغاً في الأمانة والثقة إلى الحد الذي لا مزيد عليه، فإن زمام كل شيء بيده؛ ومتى كان قليل الأمانة أمالته الرشوة إلى إخراج شيء من المكاتبات من الديوان، وتسليمه إلى من يكون عليه فيه ضرر أو لمن يأخذه نفع. وهذا أمر متى أعتمده الخازن أضر بالدولة ضرراً كثيراً من حيث لا يعلم الملك ولا أحد. ومن أحسن ما سمعته في أمانة خازن ما رواه علي بن الحسن الكاتب المعروف بابن الماشطة في كتابه المعروف بجواب المعنت في الخراج من أنه كانت تجمع الأعمال والحسابات بالعراق بعد كل ثلاث سنين إلى خزانة تعرف بالخزانة العظمى، وكان يتولى في وقته ذلك رجل يعرف بمحمد بن سليمان الكانجار. وكان شديد الأمانة بالغاً فيها إلى المبلغ الأقصى، وكان رزقه كل شهر خمسمائة درهم تكون بخمسين ديناراً من صرفهم ذلك؛ وكان لهذا الخازن خازن يعينه يقال له إبراهيم، فحدث إبراهيم أن رجلاً لقيه في بعض طرقه من أسباب أبي الوليد أحمد بن أبي دؤاد فقال له: هل لك في الغنى بقية عمرك وأعمار عقبك من بعدك من حيث لا يضرك؟ فقال: هذا لا يكون. فقال: بلى، في خزائنك دفتر في قراطيس أعرف موضعه من بعض الخزائن من رفوفها، وأسألك أن تنقله من ذلك الرف إلى رف غيره ولا تخرجه ولا تغيره وأحمل إليك مائة ألف درهم وأعطيك كتاب ضيعة تغل لك كل سنة ألف دينار وتخرج عن الديوان. قال: فارتعد من هول ما سمعه وقال: ليس يمكنني في هذا شيء إلا بأمر صاحبي، فقال له: فاعرض ذلك على صاحبك وأجعل هذا الشيء له ونجعل لك شيئاً آخر. فعرف محمد بن سليمان الخازن صاحبه بالخبر، وكان في منزله آخر نهار، فقال له: ماذا قلت للرجل؟ قال: قلت له إني أستأمرك، فأمر ابناً له وابن أخ بالتوكيل به، فلم يفارقاه طول ليلته، فلما أصبح صار معه إلى الديوان فوقفه على الدفتر، فأخذه محمد بن سليمان الخازن وحمله في قبائه ولم يزل يترقب علي بن حسين صاحب الديوان حتى حضر، فلما حضر صار إليه، وكان أبو الوليد في حبسه فقص عليه القصة، ودفع إليه الدفتر فنظر فيه فوجده نسخة كتاب من بعض النظار بما وقف عليه من فضل ما بين القوانين التي كانت تلزم ضياع أحمد بن أبي دؤاد وبين ما يلزمها على معاملة العامة لجميع السنين، أن جملته أكثر من ثلاثين ألف ألف درهم (ثلاثة ملايين دينار) فأحضر علي بن عيسى أبا الوليد وأسمعه كل غليظ على جلالة رتبته، وأمر بأخذ قلنسوته وأن يضرب بها رأسه ويطالب بالمال. فلولا أمانة هذا الخازن، ونزاهة نفسه وصدفها عن المال الذي بذل مع كثرته لرغب فيه، ولرأى أن لا

شيء عليه في نقل دفتر من مكان إلى مكان، وهو في الخزانة لم يبرح منها، فيتوجه عليه بذلك ضرر، ولا خرج من يده فيظهر في يد غيره، ولا يعرف موضوعه فيطلب منه، ورأى وجوه السلامة واضحة، ونيل الغنى قريباً فكان يضيع على هذا السلطان ذلك المبلغ الكثير من المال)

محمد كرد علي

بين العلم والأدب

للأستاذ علي الطنطاوي

قرأت منذ أيام في صحيفة يومية، مقالة يسأل فيها كاتبها عن العلم والأدب والقول فيهما، والمفاضلة بينهما، فوجدته قد حمل الكلام على غير محمله، وساقه في غير مساقه، فأفتى وهو المستفتى، وحكم وهو المدعي، فلم يدع مذمة إلا ألحقها بالأدب، ولم يترك مزية إلا نحلها العلم، وزعم بأن الأمر قد انتهى، والقضية قد فصلت، وحكم للعلم على الأدب. . فلم أدر متى كانت هذه المنافرة وأين كانت هذه المفاخرة، ومن هو الذي جلس في منصة القضاء، ومن الذي زعم أنه وكيل الأدب حتى أخزاه الله على يديه، وأذله به؟ . . .

ومتى كان بين العلم والأدب مقاربة، حتى تكون بينهما (مقارنة)، ومتى كان بينهما مناضلة، حتى تكون بينهما مفاضلة؟ وهل يفاضل بين الهواء الذي لا يحيا حي إلا به، وبين الذهب الذي هو متاع وزينة وحلية، ولو كان الذهب أغلى قيمة، وأعلى ثمناً، وأندر وجوداً؟

إن الأدب ضروري للبشر ضرورة الهواء. ودليل أن البشرية قد عاشت قروناً طويلة من غير علم، وما العلم إلا طفل ولد أمس ولا يزال يحبو حبواً. . . ولكن البشرية لم تعش ساعة واحدة من غير أدب، وأظن أن أول كلمة قالها الرجل الأول للمرأة الأولى، كلمة الحبّ، لمكان الغريزة من نفسه، ولأنها (أعني غريزة حفظ النوع) كانت أقوى فيه، والحاجة إليه أشد وبقاء النوع معلق بها، فكانت كلمة الحب الأولى أول سطر في سفر الآداب، كتبت يوم لم يكن علم، ولا عرفت كلمة العلم. . . ودرج البشر على ذلك فلم يستغن أحد عن الأدب، ولم يعش إلا به، ولكن أكثر البشر استغنوا عن العلم ولم يفكروا تفكيراً علمياً، وهؤلاء هم الأكابر من العلماء كانوا يضطرون في ساعات من ليل أو نهار، إلى مطالعة ديوان شعر، أو النظر في قصة أدبية، أو صورة فنية ليبلوا صوت العاطفة، ويستمعوا نداء الشعور، وأكثرهم قد أحب، وملأ نفسه الحب، فهل بلغ أحداً أن أديباً نظر في معادلة جبرية، أو قانون من قوانين الفيزياء أو أحس الحاجة إلى النظر فيها؟ وهذا أكبر عالم في مختبره، يسمع نغمة موسيقية بارعة، أو يرى صورة رائعة، أو تدخل عليه فتاة جميلة عارية مغرية، فيترك عمله ويقبل على النغمة يسمعها، أو الصورة يمعن فيها، أو الفتاة يداعبها، فهل رأيت شاعراً متأملاً يدع تأمله، أو مصوراً يترك لوحته ليستمع منك

قوانين الرقاص ونظرية لابلاس؟

هذه مسألة ظاهرة مشاهدة؛ وتعليلها بين واضح هو أن المثل العليا كلها تجمعها أقطاب ثلاثة: الخير والحقيقة والجمال. فالخير تصوره الأخلاق، والحقيقة يبحث عنها العلم والجمال يظهره الأدب. فإذا رأيت الناس يميلون إلى الأدب أكثر من ميلهم إلى العلم فاعلم أن سبب ذلك كون الشعور بالجمال أظهر في الإنسان من تقدير الحقيقة. . . وانظر إلى الألف من الناس كم منهم يهتم بالحقيقة ويبحث عنها؟ وكم يعني بالجمال ويسعى للاستمتاع به؟ إن كل من يعني بالجمال ويتذوقه بل إن كل من يذكر الماضي ويحلم بالمستقبل ويحس اللذة والألم واليأس والأمل يكون أديباً، ويكون الأدب -بهذا المعنى - مرادفاً للإنسانية. فمن لم يكن أديباً لم يكن إنساناً.

ولندع هذا التفريق الفلسفي ولنفاضل بين العلم والأدب من الناحية النفسية (السيكولوجية) إننا نعلم أن العلم يبحث عن الحقيقة فهو يستند إلى العقل. أما الأدب فيتكئ على الخيال. فلننظر إذن في العقل والخيال: أيهما أعم في البشر وأظهر؟ لا شك أنه الخيال. . فكثير من الناس تضعف فيهم المحاكمات العقلية، ولا يقدرون على استعمال العقل على وجهه؛ أو تكون عقولهم محدودة القوى، ولكن ليس في الناس من لا يقدر على استعمال الخيال، وليس فيهم من يعجز عن تصور حزن الأم التي يسمع حديث ثكلها، أو لا يتخيل حرارة النار، وامتداد ألسنة اللهب، عندما يسمع قصة

الحريق؛ بل أن الخيال يمتد نفوذه وسلطانه إلى صميم الحياة العلمية فلا يخرج القانون العلمي حتى يمر على المنطقة الخيالية (الأدبية). ولا يبني القانون العلمي إلا على هذا الركن الأدبي. وبيان ذلك أن للقانون العلمي أربع مراحل: المشاهدة والفرضية والتجربة والقانون. فالعالم يشاهد حادثة طبيعية، فيخيل القانون تخيلاً مبهماً ويضع الفرضية ثم يجربها فأما أن تكذبها التجربة فيفتش عن غيرها، وإما أن تثبتها فتصير قانوناً، فالمرحلة التي بين المشاهدة والفرضية مرحلة أدبية لأنها خيالية. وقد شبه هنري بوانكاره الرياضي الفرنسي (أو غيره فلست أذكر) شبه عمل الذهن في هذه المرحلة بعمل الذي يبني جسراً على نهر، فهو يقفز أولاً إلى الجهة المقابلة قفزة واحدة ثم يعود فيضع الأركان ويقيم الدعائم. وكذلك الفكر يقفز إلى القانون على جناح الخيال، ثم يعود فيبنيه على أركان التجربة؛ فالقانون العلمي نفسه مدين إذن للخيال أي للأدب.

ثم أن الخيال يخدم العلم من ناحية أخرى هي أن أكثر الكشوف العلمية والاختراعات قد وصل إليها الأدباء بخيالهم، ووصفوها في قصصهم قبل أن يخرجها العلماء؛ فبساط الريح هو الطيارة، والمرآة المسحورة هي التلفزيون، والحياة بعد قرن هي هي خيال ولز في روايته مستقبل العالم. . .

أنا إلى هنا في القول بأن الحقيقة في صف العلم والجمال مع الأدب؛ ولكني أقول ذلك متابعة للناس، وسيراً على المألوف، والواقع غير ذاك. ذلك أن العلم في تبدل مستمر، وتغير دائم؛ فما كان يظن في وقت ما قانوناً علمياً ظهر في وقت آخر أنه نظرية مخطئة؛ والكتاب العلمي الذي ألف قبل خمسين سنة، لم يعد الآن شيئاً ولا يقبله طالب ثانوي، في حين أن الأدب باق في منزلته، ثابت في مكانته مهما اختلف الأعصار، وتناءت الأمصار. فإلياذة هوميروس، أو روايات شكسبير، أو حكم المتنبي؛ كل ذلك يقرأ اليوم كما كان يقرأ في حينه، ويتلى في الشرق كما يتلى في الغرب، ولا يعتريه تبديل ولا تغيير

فأين هي الحقيقة؟ وأي الشيئين هو الثابت؟ وأيهما المتحول؟

وعد عن هذا. . . وخبرني يا سيدي الكاتب: ما هي فائدة هذا العلم الذي تطنطن به وتدافع عنه؟ وماذا نفع البشرية؟

تقول: إنه خدم الحضارة بهذه الاختراعات وهذه الآلات؛ إن ذلك احتجاج باطل، فالاختراعات ليست خيراً كلها، وليست نفعاً للبشرية مطلقاً، والعلم الذي اخترع السيارة والمصباح الكهربائي، هو الذي اخترع الديناميت والغاز الخانق، وهذه البلايا الزرق، فشره بخيره والنتيجة صفر

ودع هذا. . . ولنأخذ الاختراعات النافعة: لنأخذ المواصلات مثلاً. . . لا شك أن العلم سهلها وهوَّنها، فقرب البعيد، وأراح المسافر، ووفر عليه صحته ووقته، ولكن هل أسعد ذلك البشرية؟

أحيلك في الجواب على (شبنكلر) لترى أن البشرية قد خسرت من جرائها أكثر من الذي ربحته: كان المسافر من بغداد إلى القاهرة، أو الحاج إلى بيت الله، ينفق شهرين من عمره أو ثلاثة في الطريق، ويحمل آلاماً، وتعرض له مخاوف، ولكنه يحس بمئات من العواطف، وتنطبع في نفسه ألوف من الصور، ويتغلغل في أعماق الحياة، ثم يعود إلى بلده، فيلبث

طول حياته يروي حديثها، فتكون له مادة لا تفنى، ويأخذ منها دروساً لا تنسى، أما الآن فليس يحتاج المسافر (إن كان غنياً) إلا إلى الصعود على درجة الطيارة، والنزول منها حيث شاء بعد ساعات قد قطعها جالساً يدخن دخينة، أو ينظر في صحيفة، فهو قد ربح الوقت، ولكنه خسر الشعور، فما نفعتنا المواصلات إلا في شيء واحد، هو أننا صرنا نقطع طريقنا إلى القبر عدواً، ونحن مغمضو عيوننا. . . لم نر من لجة الحياة إلا سطحها الساكن البراق!

ولنأخذ الطب. . . وليس من شك أن الطب قد ارتقى وتقدم، وتغلب على كثير من الأمراض، ولكن ذلك لا يعد مزية للعلم لأنه هو الذي جاء بهذه الأمراض، جاءت بها الحضارة؛ فإذا سرق اللص مائة إنسان، ثم رد على تسعين منهم بعض أموالهم أيعد محسناً كريماً، أم لا يزال مطالباً بالمال المسروق من العشرة؟

أنظر في أي مجتمع بشري لم تتغلغل فيه الحضارة، ولم يمتد إلى أعماقه العلم،

وانظر في صحة أهله وصحة المجتمعات الراقية؟ هل الأمراض أكثر انتشاراً في فيافي نجد، أم في قصور باريز؟ أوليس في باريز أمراض لا أثر لها في البادية؟ فليس إذن من فضل للعلم في أنه داوى بعض الأمراض بل هو مسئول عن نشرها كلها؟

وتعال يا سيدي ننظر نظرة شاملة، هل البشر اليوم (في عصر العلم) أسعد أم في العصور الماضية؟ أنا لا أشك في أن سعادتهم في العصور الماضية، عصور الجهالة (كما يقولون) كانت أكبر وأعمق، ذلك لأن السعادة ليست في المال ولا القصور ولا الترف ولا الثقافة، ولكن السعادة نتيجة التفاضل بين ما يطلبه الإنسان، ويصل إليه، فإذا كنت أطلب عشرة دنانير وليس عندي إلا تسعة فأنا أحتاج إلى واحد، فسعادتي ينقصها واحد، أما روكفلر فسعادته ينقصها مليون، لأن عنده تسعة وتسعين مليوناً وهو يطلب مائة؛ فأنا بدنانيري التسعة أسعد من روكفلر. . وكذلك الإنسان في الماضي لم تكن مطاليبه كثيرة فكان سعيداً لأنه يستطيع أن يصل إليها، أو إلى أكثرها؛ أما مطاليبه اليوم فهي كثيرة جداً لا يستطيع أن يصل إلا إلى بعضها فهو غير سعيد!

هذا وأنا لا أعني الأدب الضيق، أي الكلام المؤلف نثراً أو نظماً، بل أعني الأدب بالمعنى الآخر؛ أريد كل ما كان وصفاً للجمال وتعبيراً عنه، لا فرق عندي بين أن تعبر عن جمال الفتاة بصورة أو تمثال أو مقطوعة من الشعر؛ ولا فرق عندي بين أن تصور غروب الشمس بالريشة والألوان، أو بالألفاظ والأوزان، فالموسيقي أديب، والمصور أديب، والنحات أديب، والشاعر أديب؛ والأدب بهذا المعنى أهم من العلم، وأنفع للبشرية. . . ولو كره العالمون!

علي الطنطاوي

تحقيق تاريخي

مولاي إسماعيل والأميرة دوكنتي

للأستاذ ابن زيدان

ذكر بعض مؤرخي أوربا أنه لما رجع سفير مولاي إسماعيل، عبد الله بن عائشة الرئيس البحري الشهير من بعض سفاراته في فرنسا، وتلاقى بمولاي إسماعيل، كان من جملة ما وصف له عند الإفضاء إليه بنتائج سفارته جمال الفتاة دوكنتي بنت لويز الرابع عشر، فكان ذلك أعظم باعث لمولاي إسماعيل على خطبتها من والدها بواسطة سفيره المذكور. غير أن والدها لم يحقق رغبته، ولم يعر أدنى التفات خطبته، لأسباب: منها عدم ملاءمة طبعها لطبعه، ومباينة نبعها لنبعه، وتعدد أزواجه وسراريه، وكثرة حشمه وذراريه، إلى علل أخرى هي أولى بعدم الذكر، وأحرى لبعدها عن الحقيقة، ولتلون مغامزها ومغازيها الدقيقة

طالما بحثت ونقبت بتعطش لحجة يستند إليها في إثبات هذه الأحدوثة الغريبة في بابها. بالطرق الرسمية، فلم أعثر على شيء يستحق الذكر فيها، أو تطمئن إليه النفس، سوى ما جاء به بعض مؤرخي أوربا، مما لا سند لهم فيه، فيما علمت وقرأت غير كتاب ابن عائشة المذكور، ذلك الكتاب الذي سأفيض القول فيه وفي قيمته فيما يلي بحول الله. ثم جال بفكري أنه لا بد أن تكون هذه القضية، إن كان لها أصل، ثابتة مسجلة بوزارة الخارجية، فرحلت إلى فرنسا. ولما حللت بعاصمتها باريس ذهبت تواً إلى وزارة خارجيتها، فقوبلت من رؤسائها بمزيد الاحتفاء والاعتناء، وحملت على كاهل المبرة والاحترام، وسوعدت على تصفح كل ما يهمني في بحوثي التاريخية، من الوثائق والأوراق الرسمية. فجست خلالها أياماً أبحث وأنقب، وآخذ ما راقني بالتصوير والتقييد، فلم أجد من بين أخاير تلك الذخائر ضالتي المنشودة، فرجعت أدراجي، وأعملت الفكر في هذه القضية، وقابلت بين هذا الكتاب الملصق بابن عائشة، وبين غيره من المكاتيب الرسمية الرائجة إذ ذاك، حتى المكاتيب الصادرة من ابن عائشة، الممضاة بخط يده، فلم أجد بينها وبينه مناسبة ما، لا من حيث الأسلوب الدبلوماسي الجاري به العمل في ذلك العصر، ولا من حيث التقصير الواقع في هذا الكتاب، بالنسبة لأهمية هذا الأمر الجَلل

أما من حيث الأسلوب الدبلوماسي، فإن كل من يرجع إلى تاريخ العلائق السياسية الخارجية إذ ذاك وما صدر فيها من المكاتيب والوثائق الرسمية الإسماعيلية، يُدرك بالبداهة أن نسبة هذا الكتاب لابن عائشة المشتمل على هذا الأمر المهم، إنما هي خيالية فحسب، لجريانه وصدوره على غير المألوف والمعهود من الأساليب الكتابية

والدبلوماسية المتبعة إذ ذاك
وأما من الحيثية الأخرى، فإنه يبعد كل البعد أن يخطب ملك عظيم إلى ملك عظيم بنته وهو أجنبي عنه بهذه الوسيلة المخلة بعظمتها معاً، إذ التقاليد تقضي في مثلها ألا يصدر فيها مثل هذا الكتاب الذي هو أشبه برسالة تكتب لمطلق إنسان، بأسلوب يزري بعظمة السلطان، ويقضي ببله هذا السفير العظيم الشأن، إذن فما يقتضيه الحال حينئذ؟ يقتضي أن يحرر في ذلك كتاب رسمي، باسم جلالة الخاطب لجلالة المخطوب إليه، ويرسل صحبة سفير عظيم ماهر كابن عائشة، مع هدايا نفيسة، وتحف مغربية تستلفت الأنظار، وتحف المخطوبة من الاعتبار بإطار، وتقضي بنيل الأوطار، طبق المقرر المعتاد في السفارات المتبادلة بين الملكين فيما هو أو هي وأوهن من هذا الأمر
لابد أن أعرض على القراء نص هذا الكتاب، وكيف وجد وبأي لغة كتب، ولأي لغة نقل، وبشهادة من يراد إثباته، مما لم تجر به عادة، ولا ارتكب مثله لا في البدء ولا في الإعادة، لتعلموا قيمته:
هذا الكتاب نقل عن مجلة فرنسية، سميت مجلة فرنسا، وكتب لأول مرة باللغة الأسبانية، ولم يحرر أصله الموهوم باللغة العربية، التي هي لغة من ألصقت نسبته به، والتي هي لغة الدولة المغربية الرسمية، والتي كانت تخاطب بها الدول الأجنبية، ونقل من اللغة الأسبانية إلى اللغة الفرنسية، والذي شهد على أبن عائشة به كاتب أجنبي لتاجر أجنبي كان مقيماً بسلا في ذلك العهد، وإذا تحققت هذا وأحطت به علماً. فإليك نص هذا الكتاب منقولاً عن المجلة المذكورة عدد 62 مترجماً بقلم رئيس الترجمة العلمية بالرباط سابقاً الكمندار إسماعيل حامد الأشهر:
(وبعد فقد أمرني مولانا السلطان على أنه إن كان جواب ملك فرنسا موافقاً لما تضمنه كتابنا هذا فأتجهز للسفر على أي مركب من المراكب الحربية الفرنسوية ترد عل مرسى سلا أو غيره لأتوجه إلى حضرة سمو ذلك الملك الفخيم وأعرض على جنابه العلي المعاهدة التي يرغب سيدنا عقدها معه بمزيد الاشتياق والفرح، وأن أحقق لديه بكل التأكيد بأنه يفتخر سيدنا بمصاهرة أعز الملوك وأجلهم، وأن يبيح له الدخول في جميع مراسي الإيالة الشريفة وسائر مدنها وأقطارها، وكذلك لكافة رعيته، وعليه أشهد أن القبطان عبد الله بن عائشة هو الذي أملى عليّ هذا الكتاب باللغة الأسبانية، ثم ألزمني بترجمته إلى اللغة الفرنسوية ولأجله وضع فيه خاتمه والسلام. الإمضاء: جان ماني دولا كلوازري النازل بمدينة سلا في مقابلة تجارة المسيو جوردا، وكتبه في 14 نوفمبر سنة 1699 (موافق 21 جمادي الأولى سنة 1111
هذا أصل الكتاب. وهذه ترجمته حرفياً فلنبحث الآن فيما يُعَضِّده أو يَعْضِده، لنكون على بينة من أمره، ولنميز بين خله وخمره، فنقول: هل يمكن لأبن عائشة، وهو ذلك السفير الخطير أن يملي على كاتب أجنبي نص هذا الكتاب الخاص بمولاه، المتعلق بأمر يهمه، من الواجب أن يكون سرياً لا يتجاوز الخاطب، والسفير يمليه عليه باللغة الأسبانية، ويلزمه بترجمته إلى اللغة الفرنسية؟ هذا ما لا يوافق عليه عظمة الخاطب ومهنة السفير، ولا يقبله العقل السليم، ولا يصدقه الواقع، حتى فيما هو أقل من هذا الأمر الخطير، وإلا فأين كتاب الدولة ومترجموها، المعتنون بتنميق مكاتبتها، وتطريزها بالذهب، وتلوينها بأصباغ مبهجة خلابة رائقة، بطرق فنية، امتاز بها كتاب المملكة المغربية؟ ما بقي لنا إلا أن نتساءل قائلين:
هل يمكن أن يكون ابن عائشة وضع هذا الكتاب افتياتاً منه على ولي نعمته وهو لا يعلم، ووجهه للملك لويز ليجس نبضه في الأحدوثة التي لم تعزز بثانية في بابها، حتى يعرف من أين تؤكل الكتف، فان نجح مسعاه قدمه قرباناً لمولاه، بين يدي نجواه، رجاء ازدياد تمكن وتقرب منه، وإن أخفق وخاب كتم الأمر عنه وقنع بالحالة التي كان عليها معه، ولذلك كله تجشم مشقة الالتجاء إلى ذلك الكاتب الأجنبي، وإملاء الكتاب عليه بنص أسباني أجنبي، وإلزامه بنقله إلى نص فرنسي أجنبي. واكتفى بوضع الخاتم عن الإمضاء بخطه، ولكن هناك عقبة كأداء تعترضه في هذا السبيل، وهي أن هذا الأمر من الأهمية بمكان، وليس بالأمر الهين الذي يمكن تمشيه والوصول إليه في طي الخفاء؛ ولا يؤدي به إذا أخفق فيه إلى عقاب سلطانه وجفاه

إننا نعلم جيداً كغيرنا أن المغرب كان إذ ذاك طافحاً بكتاب بارزين هم أولى بإسناد هذه المهمة إليهم، وأحق بإلقائها عليهم، لو كانت تخطر ببال، فكيف عدل أبن عائشة عنهم إلى هذا الكاتب دون سواه، وهو كاتب أجنبي لتاجر أجنبي، لا علاقة له بمطلق شؤون الدولة، ولا بالبلاط السلطاني وكيف اطمأن إليه في هذه القضية المهمة، التي يتوقف علاجها على كاتب ماهر من كتاب أسرار الدولة الممارسين لها العارفين بأساليبها ممن يتلاعب بأطراف الكلام، ويداوي ببلسم بلاغته الكلام، ويوصب بسحر بيانه إلى هدف القصد والمرام؟ فهل بلغ البله بابن عائشة إلى هذا الحد، فخاطب أعظم ملوك أوربا إذ ذاك بمثل هذا الخطاب الصبياني في خطبة فلذة كبده، وريحانة قصره وقرة عين ملكه لملك عظيم، عرف بعلو الهمة والشهامة والغيرة، والمحافظة على أبهة الملك وسطوة السلطان؟ هذا يسأل عنه من درس حياة الخاطب، وسيرة سفيره ابن عائشة معه، وما لسفيره هذا من المكانة المكينة في العقل والدهاء ونفوذ البصيرة، وعدم الدخول في ميادين الفضول، والبصر بما يصلح من الشئون الدولية، وما لا يصلح، وعدم تجاوزه لحدود وظيفته، وما تقتضيه رسوم مرتبته، فلم يكن ابن عائشة مغفلاً ولا أبله ولا إمعة ولا فضولياً ولا ثرثاراً حتى يأتي بسر من أسرار سيده، لو كان، ويضعه بين يدي كاتب أجنبي لتاجر أجنبي، ويتبرع بإطلاعه عليه والإفضاء به إليه ليفضي به لدولته، فيذيع وينتشر قبل وصوله لصاحبه المخاطب به، ويشهده مع ذلك على نفسه، وهو يعلم قيمة شهادته عنده وعند غيره إذ ذاك

نحن لا نشك في أن المصاهرة هي من آكد العلائق وأوثقها بين ملوك الدول، ولا زال الملوك يرغبون فيها، توطيداً لدعائم عروشهم، وتثبيتاً لمراكزهم، وتسييراً لنفوذهم، وسعياً وراء تأمين ممالكهم، فليس هناك من عار يلحق الجد أبا النصر إسماعيل لو ثبتت خطبته لبنت أعظم ملوك أوربا في عصره، سعياً وراء ربط علائقه معه برباط من المصاهرة وثيق، واستطلاعه على أسرار دولته، الذي لا يتأتى إلا بالمصاهرة، وليس في الدين الإسلامي مانع منه؛ ومن الضروري لدى كل المسلمين أن الشرع الإسلامي، يبيح التزوج بالكتابية، وفرنسا من أهل الكتاب، فحينئذ لا داعي لتستر الجد مولاي إسماعيل، وتكتمه في هذا الأمر الذي يبيحه شرعه القويم لو شاء، ولا موجب لالتجائه إلى هذه الخطبة بهذا الأسلوب المريب الغريب المخل بعظمته وعظمة المخطوب إليه، كما أنه لا داعي لارتكاب

ابن عائشة هذه الهفوة، وهو ذلك السفير الحازم (الضابط) المجرب العارف بمقتضيات أحوال الملوك وما تتطلبه مناصبهم ومراسيمهم، وما تتنافس فيه نفوسهم الطماحة من التنافس فيما يظهرهم بمظاهر العظمة والجلال والفخار المطلق، على أن ابن عائشة إنما كان سفيراً في الشئون الراجعة إلى وظيفته، ولا شك أن هذا الأمر ليس منها في قبيل ولا دبير، فلم يكن ابن عائشة في الدولة الإسماعيلية وزير خارجية، وإنما كان رئيس البحرية، يترأس الأساطيل المغربية التي كانت تمخر عباب البحر إلى شواطئ الدانمارك، وفرنسا، وغيرهما، فكيف يمكن أن يكلفه مخدومه بهذا الأمر، وهو بعيد عنه تمام البعد؟ بل كيف يمكن تدخله فيه، وهو بهذه المثابة، مع وجود من تسيغ التقاليد الدولية تكليفه بذلك من وزراء ورؤساء الدولة الإسماعيلية المدنيين السياسيين؟ بل كيف لا يفطن مولاي إسماعيل لذلك، وهو ذلك الملك الألمعي (الذي يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا) يندب لكل مهمة أهل بلواها، حسبما شهد له بذلك غير واحد، حتى من ساسة أوربا؟ قال الأب بيستوفي مؤلفه المعنون بحكاية حوادث بالمغرب، صفحة 35 منه في حقه: يدرك ما يدور في ضمير مخاطبه قبل أن ينطق بمراده. إلى أن قال: بصير بعواقب الأمور، آخذ بالأحوط في متوقع الحوادث، وبصفحة 60 منه لا يسند تدبير أموره بغيره من قواد وكتاب، ولكن يستشيرهم فيما عزم عليه فيحبذون.

لو كان هذا الكتاب صحيحاً، لجاء على صورة المكاتبة الدولية، وبأسلوبها، ولكانت له أهمية كبرى، وطنين ورنين في الدوائر الإدارية الفرنسية ذات الشأن، ولاحتفظ بأصله، كما احتفظ بغيره، مما هو أتفه منه في السجلات الدولية والفرنسية المعدة لذلك، ولتناقله كتاب ذلك العصر من مؤرخي الشرقيين، والغربيين، فقد تتبعت بغاية اليقظة والتثبت جل المصادر المتعلقة بتاريخ دولتنا الإسماعيلية، مغربية وفرنسية، وغيرها مما كتب بلغات مختلفة، وأساليب متعددة في ذلك العصر، كرحلة مويط، وتاريخه للدولتين،

الرشيدية والإسماعيلية، سواه كثير، فلم نعثر على شيء، ولم نقف لهذه الأحدوثة على أثر ولا خبر يسمع وتطمئن النفس إليه، ولطالما تباحثت في ذلك مع جماعة من علية المستشرقين وغيرهم، فلم يفيدوا بما يحسن السكوت عليه، ومنهم من وعد بالبحث في مواطنه، وبعد مدة أجاب سلبياً، وغاية ما هنالك، رواج القضية حتى استفاضت بدون استناد لأصل أصيل

يثبتها، ولقد أجهد نفسه البحاثة الكبير الكنت هنري دوكستري، وهو من هو في البحث، والتنقيب، عسى أن يصل إلى أصل يعتمد عليه في الإثبات، بصفة رسمية، فلم يظفر بشيء كسابقيه، ومن أتى بعده، وكل من ذكرته في هذا الموضوع من المؤرخين المستشرقين وغيرهم، وبينت له وجهة نظري في إبطال القضية، ودحضها بالحجج الواضحة، حبذ النظرية واقتنع بها

والباحث المولع مثلي بالبحث والتنقيب عن الآثار والوثائق التاريخية، ولا سيما ما كان متعلقاً منها بسلفنا الطاهر، لا بد أن يكون جد مسرور لو عثر على ما يطمئن نفسه، ويقر في قرارتها ثبوت هذا الأمر الخطير بالطرق الرسمية المعروفة المتبعة. هذا ولا عار يلحق الخاطب العظيم، لو كان هذا الكتاب صحيحاً، وحبذا ذلك، وأبى لويز الرابع عشر أن يحقق له هذه الأمنية لأسباب ارتآها، وعلل خارجية يعقلها من يعلم بوقوع هذه الشئون بين من لا يعد من الخاطبين ومخطوباتهم في سائر الطبقات، ولكننا ويا للأسى والأسف لم نقف ولا وقف غيرنا ممن أجهد نفسه في البحث قبلنا على ما يثبت ذلك، فليس هنالك نص محفوظ في الدوائر الرسمية يتضمن ذلك، وليس هنالك جواب يدل على وجود هذا الكتاب من والد المخطوبة، والجواب ضروري ولا شك حسب القواعد الجارية، ولا سيما في مثل هذه المهمة التي أصبحت الشغل الشاغل لكثير من الباحثين، والتي يريد إثباتها كثير من المستشرقين، بل والشرقيون كذلك من غير التفات إلى مصدر وثيق، ولا نص رسمي صريح يحمل على اليقين. على أنه لو كان هنالك كتاب لكان عنه جواب بالطبع؛ ولو كان هنالك جواب لحفظ أصله من غير ارتياب؛ ولو كانت هنالك رغبة حقيقية من جلالة الخاطب في هذا الأمر لوقع منه ما يؤيده من مراجعة الملك المخطوب إليه بواسطة نائبه الذي كان بمثابة وزير الخارجية إذ ذاك، وكان يقيم، في الغالب، بثغر طنجة، وكانت الأمور الخارجية، كيفما كانت، منوطة به من جانب السلطان في ذلك العهد، وما ذاك إلا لكون هذا الكتاب يقتضي بنصه الصريح شدة رغبة مولاي إسماعيل في ذلك، فكيف يمكن أن يكون راغباً فيه متعلقاً كل التعلق به ولا يراجع المخطوب إليه، ولا يخاطبه في شأنه بمكاتيب رسمية تفصح عن مراده تمام الإفصاح؟ ذلك مما ينقض هذه القضية بوضوح، ويصيرها في حيز العدم. جعل مؤرخو أوربا لهذه القضية سبباً غريباً نعده نحن، بحسب تقاليدنا الدينية وتقاليد ملوكنا الغيورين العظماء، من قبيل الروايات والتشبث بالخيال الكاذب. أتدري ما هو هذا السبب؟ هو وصف ابن عائشة تلك الفتاة الجميلة لمولاي الجد إسماعيل وصفاً كاشفاً جعله ينزو هذه النزوة التي تقضي على ما عرف به من الثبات الذي يحطم النزوات والوثبات والمشهود له به من كتاب عصره سواء في ذلك الأوربيون وغيرهم، بل صيره ينزع هذه النزعة التي تجعله في صف الذين تقودهم غرائزهم إلى الهيام بما يرضيها ويشبع نهمها بأي وسيلة كانت، مع أنه كان بقصره الفاخر العامر من الأزواج الطاهرات والسراري وأمهات الأولاد الأعجميات الجميلات ما يغنيه ولاشك عن التعلق بفتاة وإن كانت أميرة بعيدة عنه تمكن أحد سفرائه من وصفها بكل دقة؛ فقد نص (بيدجان مكان) في تعليقه على ما كتبه (سان أولون) على أن مولاي إسماعيل، وإن كان ولوعاً بالنساء، فإنه لم يكن من الذين يستهويه حبهن، ويستولي على فكره، بل كان مقتصراً على ما تدعو إليه الحاجة إليهن، ولم تشغله كثرة نسائه عن تدبير شئون مملكته، والنظر في مصالحها، إلى آخر ما قال من هذا القبيل فلينظر في كتابنا (المنزع اللطيف، في التلميح لمفاخر مولاي إسماعيل بن الشريف) وليس سفيره ابن عائشة بذلك المتهور السخيف، الذي يتجرأ على مولاه وسيده، بوصف هذه الفتاة له وجهاً لوجه، وهو الذي كان يقف بين يديه وقوف المملوك بين يدي مالكه، بأدب واحتشام، وتهيب لمقامه واحترام

والذي يرفع نقاب الغموض عن هذه القضية، هو ما كان بين الخاطب والمخطوب إليه من غاية الرعاية وتمام المودة، وحسن العلائق، والمخاطبات التي كانت أكبر عنوان

على تعظيم أحدهما للآخر والتنويه به، واعتناء كل منهما بإجابة صاحبه عن كل أمر له علاقة بتوثيق العلائق السياسية بينهما، وأي علاقة تضاهي علاقة المصاهرة في هذا الباب أو تحل محلها؟ فكيف إذن تصح خطبة سيدنا الجد إسماعيل الأكبر منه بهذه الصفة؟ وكيف لا يجيبه جواباً يعبر فيه عما تكنه نفسه للجد من إجلال وتقدير عهدا منه في غير هذا الأمر؟

هذا ما ظهر لي في هذه الأحدوثة أبديته، راجياً من الباحثين والمؤرخين أن يرشدونا إلى أصل ثابت غير الكتاب الذي أبديت فيه رأيي، ولهم مزيد الشكر مني سلفاً (الرباط)

ابن زيدان

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

الفلسفة الصينية

يلاحظ الباحثون أن لديهم مصادر لا بأس بها عن جميع الفلسفات الشرقية القديمة ما عدا الفلسفة الصينية فإنها ظلت إلى ما قبل هذه السنين الأخيرة مدروسة دراسة ناقصة، إذ لم يوفق قبل هذا العصر أحد لأن يكتب عنها كتاباً وافياً يعالج نواحي فلسفتها العميقة المتشعبة، ولكن ليس معنى ذلك أن هذه الفلسفة ظلت مجهولة تماماً إلى أن ظهرت تلك البحوث الأخيرة، كلا، فهذه الفلسفة قد عرفت في العالم الأوربي المتمدين قبل الفلسفة الهندية مثلاً، إذ ترجم (كونفيشيوس) سنة 1687 و (مانسيوس) سنة 1711، ولكن الذي ظل ينقص الباحثين إلى هذا العهد الأخير هو الكتب الشاملة لجميع نواحي هذه الحياة العقلية القيمة؛ غير أن هذه الثغرة قد أخذت تضيق على أثر شعور العلماء المحدثين بوجوب استيفاء هذه الدراسة الهامة، ذلك الشعور الذي تجلى بوضوح في كتاب العالم الكبير والمُستَصْين الخطير (ا. ف. زانكير). ولا ريب أن هذا المؤلف وأمثاله قد كشفوا للعقل الحديث عن ناحية هامة من نواحي الفكر البشري كانت مجهولة لدى العامة، ومعروفة معرفة مشوهة لدى الخاصة. ولهذا الجهل أو التشويه ثلاث أسباب: الأول صعوبة اللغة الصينية إلى حد يصعب معه إتقانها واكتشاف أسرارها. الثاني فقدان الثقة نهائياً من جميع الترجمات التي نقلت النصوص الصينية إلى اللغات الأوربية لما وجد بينها من تباين واختلاف جديرين بإسقاطها كلها من صف الحقائق العلمية. السبب الثالث هو ذلك الغرور الأوربي المتعجرف الذي ظل إلى ما قبل هذه السنوات الأخيرة يجزم في طفولة بأن أول فلاسفة الدنيا هو (تاليس) وأن العقلية الشرقية - ولا سيما الجنس الأصفر - غير قادر البتة على أن تنتج آراء فلسفية ذات قيمة عالية، إلى غير ذلك من الدعاوى السطحية التي أنزلتها البحوث الأخيرة عن الفلسفة الصينية منزلة الخجل والسخرية، إذ كشفت الدراسات الحديثة عن أن للصين فلسفة عميقة مبتدعة جديرة بالاحترام يرجع تاريخها إلى عشرين قرناً قبل المسيح، وأنها استطاعت أن تلون الحياة العملية العامة للأمة جمعاء بلونها الراقي، وأنها استطاعت كذلك أن تحفظ الكيان الخلقي الكامل لهذه البلاد مدى أربعة آلاف سنة، بل إن بعض العلماء يعتقد أن الفضل في هذا التماسك الاجتماعي والمقاومة السياسية واحتفاظ الصين باستقلالها إلى الآن يرجع إلى تمسكها بالأخلاق العالية المسجلة في فلسفتها

على أن هذا لا يمنعنا من أن نعترف مع الأستاذ زانكير بأن الفلسفة الصينية لم تعرف علم النفس التجريبي على النحو الذي يدرس عليه الآن، وأن العقلية الصينية لم تعرف المناهج العلمية، بل وأنها لم تنجح تماماً في تأليف كتاب منظم متقن في علم المنطق وإن كان هذا كله يجب أن ينظر إليه بعين التحفظ والأحتياط، لأننا سنشير فيما بعد إلى المنطق الصيني، وسنبين بعض ما فيه من عمق وسمو كما أننا سنشير كذلك إلى ما لهم من مجهود لا بأس به في العلوم المختلفة الأخرى

غير أن أولئك العلماء الذين استهانوا بالفلسفة الصينية ورموها بالخلو من النظريات لهم في ذلك بعض العذر، وهو أنهم لاحظوا في جميع الأطوار التاريخية لهذه الأمة أن

الفلسفة العملية هي التي تفوز بأهم الأدوار فخدعهم ذلك عن الفلسفة النظرية التي هي أساس كل هذه الأخلاق العملية. وفي الواقع أن من طلائع مميزات الأمة الصينية تحوُّل النظريات بسرعة إلى أخلاق عامة في الشعب كله، ولهذا قال (سوزوكي) الياباني ما نصه: (إذا كان الدين ممثلاً في اليهود، والتنسك في الهنود، والتفلسف في الإغريق، فإن الأخلاق هي الثقافة الروحية التي التقت في إمبراطورية الوسط بممثليها الحقيقيين وبنموها المنظم المحدود)

بلغت الأخلاق الصينية من السمو إلى حد أن يروي لنا الأستاذ (زانكير) أن المبشرين المسيحيين حين اتصلوا بالصينيين في القرن التاسع عشر ورأوا ما عندهم من أخلاق بهتوا خجلاً من عقيدتهم القديمة عن هذه الأمة ولم يجدوا لهم من هذه الورطة مخلصاً إلا أن يعلنوا أن الإله قد أوحى إلى الصينيين كما أوحى إلى الإسرائيليين، وأن (شانج - تي) ليس إلا الرب السماوي المذكور في الكتاب العبري المقدس، بل إن أحد (اليسوعيين) في القرن

التاسع عشر اشتغل بجمع بعض النصوص الصينية، ليثبت منها هذا الوحي الإلهي، وإن عدداً كبيراً من القسس والعلماء قد حاولوا أن يربطوا بين التوارة وبين الكتب الصينية تارة في الأخلاق وتارة في أصول العقيدة، وثالثة في اللغة على نحو ما رأينا من التحككات اللفظية التي قام بها العلماء بين الفلسفتين: الهندية والفارسية. ويستطرد هذا العالم فيقول ما ملخصه: وقد ظلت الفلسفة الصينية مجهولة القيمة في وربا إلى القرن التاسع عشر، وهذا طبيعي، لأن الفلسفة التي تسمو فيها الأخلاق إلى هذا الحد لا يمكن أن تفهم حق الفهم في العصور التي - مع الأسف الشديد - لا تعني بالأخلاق كثيراً. ولكن العجيب في رأيه هو هذا التناقض البارز الذي وجد كثيراً في كتب (المُستصْينين) والذي أنزل أولئك الباحثين في نظر (زانكير) منزلة العوام والأميين كما يصرح بذلك بعد أن يسرد طائفة كبيرة من آرائهم المتضاربة المتناقضة ثم يسأل أولئك المتعالين متهكماً فيقول: تقولون إن العقلية الصينية غير جديرة بالأحترام، لأنها لم تترك تراثاً علمياً، فهل تستطيعون أن تنبئوني متى عرفت أوروبا العلم؟ وهل كان لديها أقل فكرة قبل القرن السادس عشر عن العلم أو عن مناهجه الحديثة؟ وهل كل شعوب أوروبا لم تكن مستوية مع الصين في هذه النقطة تمام الاستواء إلى عهد النهضة؟

على أن هذه التهمة التي رموا بها العقلية الصينية هي باطلة من أساسها؛ فالصينيون قد عرفوا منذ أكثر من ثلاثين قرناً الرياضة والفلك إلى حد أم كان لهم فيهما بحوث قيمة تدور حول بعض معقدات فروع هذين العلمين مثل معرفة الفروق الدقيقة بين السنتين: الشمسية والقمرية، ومعرفة أوقات دورات هذه الأفلاك الثلاثة: الأرض والشمس والقمر بالنسبة إلى بعضها. وفوق ذلك فقد كانت لهم دراية عظيمة بالأدب ونقد النصوص والتاريخ والجغرافيا وتاريخ الفنون وعلم اللغات. كل هذه المواد كانت معروفة ومدروسة في الصين بدرجة من العناية لم تكن تبلغها أوروبا قبل القرن السادس عشر

أما العلوم الطبيعية فيكفي لإثبات نبوغهم فيها أن نلعن في فخر أنهم هم الذين اخترعوا البوصلة وأحجار المناظير ورواسم (كليشهات) الطباعة المصنوعة من الخشب، وأنهم عرفوا الورق والحرير و (البورسيلين) والطلاءات الثابتة وبرزوا في كل هذا على أوروبا قبل عصر النهضة

نعم إن أوربا قد سبقت الصين في هذه العصور الحديثة، ولكن ذلك ليس معناه نقص العقلية الصينية أو عدم استعدادها للنبوغ في هذه العلوم، كلا، وإنما هو ناشئ من أن الصينيين لم يحتكوا بأوروبا احتكاكاً مباشراً متواصلاً، فلم ينلهم نصيب كبير من هذا النمو العلمي الحديث، ويدل على ذلك أن الشبان الصينيين الذين أخذوا بحظ من العلوم العصرية لم يكونوا أقل نبوغاً من شباب أي شعب آخر

ثم يعلق الأستاذ زانكير على هذا بقوله: والآن نعود إلى النقاش في مشكلة الفلسفة المنهجية فنسأل أولئك المتجنين على الصينيين: ماذا يقصدون بهذه العبارة؟ إن كانوا يريدون بها تطبيق مناهج العلوم التجريبية على الفلسفة، فنحن نوافقهم على أن الصينيين لم يعرفوا هذا الفن، ولكننا نعود فنهمس في آذانهم بأن أوروبا لم تنجح في هذه الطريقة إلى الحد الذي يبرز هذه الطنطنة، ويستدعي تلك الكبرياء. بل بالعكس

إن أحدث الآراء الفلسفية المحترمة قد عدلت نهائياً عن هذه الفكرة، وآمنت بأن العلم قد عجز أن يكون أستاذ الفلسفة وملهمها، وأعلن استعداده إلى العودة من جديد إلى بنوتها والتتلمذ عليها، واعترف أن مناهجه الميكانيكية ليست إلا جزءاً من مناهج الفلسفة ابتدعته هي حينما ألجأتها الحاجة إلى دراسة المظاهر الخارجية التي لا تعرف إلا عن طريق هذه المناهج التجريبية. وأخيراً فهل سقراط وأفلاطون والقديس أوجستان والقديس توماس - ولم يعرف واحد منهم المنهج التجريبي - لم يكونوا فلاسفة في نظر أولئك المتجنين؟

نحسب أننا بعد هذا كله قد رسمنا لك صورة واضحة للفلسفة الصينية في شكلها العام، ولِمَا أصدر عليها الباحثون من أحكام متسرعة لم تلبث أن انهارت أمام النقد العصري النزيه

مصادرنا عن الفلسفة الصينية

يرى العلماء أن أهم مصادر فلسفة شعب من الشعوب هو الكتب التي سجلت فيها آراؤه الفكرية وأخلاقه العملية، وأن أصدق ما يحقق هذه الغاية عند الشعوب القديمة هي الكتب الدينية، لأن الدين والفلسفة توءمان في النفس البشرية لا يستطيع أحدهما أن يستغني عن الآخر، إذ لا تكاد العقيدة الدينية تستقر في النفس حتى توقظ التفكير الذي هو مبدأ الفلسفة، ولا تكاد الفلسفة تبدأ في مهمتها دون أن تفتتحها بالبحث عن الإله، وهو الجوهر الأساسي في العقائد. وإذن فنستطيع أن نجزم بأن الدين والفلسفة شقيقان مستقلان بدآ من مصدر واحد متجهين إلى غاية واحدة وإن اختلفت أثناء الطريق وسائلهما، بل قد يعظم هذا الاختلاف حتى يصل إلى درجة الخصومة كما حدث بين (أنا جزاجور) ورجال الدين في أتينا، أو بين الفلاسفة ورجال الكنيسة في أوروبا في القرون الوسطى، ولكن الصينيين لحسن حظهم لم يعرفوا هذه المعارك الدامية التي شهدتها أوروبا المتمدينة بين الفلسفة والدين مراراً عدة، بل ظل العقل والدين عندهم في وئام وسلام يتعاونان تعاون الشقيقين على حل خفايا الكون ومشكلات الوجود.

لهذا كله كان من الطبيعي في الصين - أكثر منه في أي بلد آخر - أن نبحث عن مصادر الفلسفة بين صفحات الكتب الدينية وفي تقاليد الشعب وعاداته الشفهية، وهذا هو الذي كان بالفعل، إذ اعتمد الباحثون العصريون في الفلسفة الصينية على ما يأتي:

(ا) العادات والتقاليد الدينية التي ظلت - بفضل العزلة - كما كانت منذ آلاف السنين، ولم تنل منها هذه العصور الطويلة كما نالت من تقاليد الشعوب الأخرى، والتي لا تزال قادرة على إعطائنا صورة أمينة لما كان عليه العقل الصيني منذ تلك العهود.

(ب) الكتب الدينية الخمسة المسماة: (وو - كينج) والتي يمكن أن تعد بين أقدم الكتب الإنسانية، ومع ذلك فلا يستطيع العالم الدقيق أن يطمئن إلى هذه الكتب كمصادر موثوق بها عن العصر الأول، إذ قد ثبت أن أكثرها كتبه (كونفيشيوس) ملخصاً بأسلوبه الخاص، ولهذا ينبغي للباحث الاحتياط من هذه الكتب كما يقول أحد العلماء الألمان، ولكن ليس معنى هذا أننا نتهم (كونفيشيوس) بتشويه هذه الكتب، كلا، ولكنه لما صرح بأنه لم يأت في مذهبه بجديد، وإنما أقر أنقى وأطهر ما كان في العقيدة القديمة، فقد خشي الباحثون المحدثون أن يكون قد ألغى من هذه الكتب كل ما ليس نقياً في نظره، وهذه خسارة علمية كبرى، لأن العالم يهمه أن يجد الآثار التاريخية بقضها وقضيضها، ليستطيع أن يستخلص منها الحقائق في حياد تام. وفوق ذلك فإن تلاميذ (كونفيشيوس) قد شرحوا هذه النصوص وعلقوا عليها، وربما يكونون قد حذفوا منها أو أضافوا إليها.

يوجد بين هذه الكتب الخمسة ثلاثة جديرة بالعناية، وهي: (شو - كينج)، و (شي - كينج) و (إي - كينج)؛ فأما (إي كينج) فهو أهم هذه الكتب من حيث تصوير الناحية العقلية للأمة، وقد حوى كثيراً من التطورات الفكرية المختلفة وهو لهذا يدعى: (كتاب التغير) وعليه أكثر من غيره يعتمد (المستصينون) في فهم الحياة الفلسفية لهذه الأمة، لأن التطور الذي وقع له ليس تطور حذف ولا تشويه، وإنما هو تطور إضافة وتأويل للنصوص القديمة بما يتفق مع سير العصور المختلفة. أما نصوصه فقد أثبت العلماء أن بعضها يرجع إلى القرن الثاني عشر قبل المسيح، وأن هذا البعض قد وجد عليه الطابع النحوي واللغوي لتلك العصور التي كتب فيها. والفضل في هذا التحقيق العلمي يرجع

إلى العالم الدقيق (أليز) الذي استطاع بمعونة علوم اللغة أن يحدد - ولو على وجه التقريب - العصور التي كتبت فيها هذه النصوص. وإذاً، فنحن نرى أنه اجتمعت في هذا الكتاب المحافظة الدقيقة مع التطور المستمر.

وأما (شو - كينج) فأهميته كلها تنحصر في احتوائه على جميع النواحي الأخلاقية إذ أنه ضم بين دفتيه أسمى أنواع الفضائل والخيرات التي أتصف بها حكماء ملوك الصين فيما قبل التاريخ تلك الفضائل التي اتخذها (كونفيشيوس) فيما بعد نموذجا احتذاه وسار على منواله.

كان هذا الكتاب أكثر الكتب الصينية تعرضاً إلى التشويه والتبديل، إذ تحدثنا القصص الشعبية أنه كان في عهد (كونفيشيوس) مائة فصل كاملة نسخها هذا الحكيم بخطه، وأنه لما أمر الإمبراطور (اتسين - شي - هوانج - تي) بإحراق الكتب افتقد الناس كتابي: (شو - كينج) و (شي - كينج) فلم يجدوهما، فاضطروا إلى أن يستنسخوهم من جديد. وقد اعتمدوا في هذا على ذاكرة شيخ قدير وعالم جهبذ كان قد اشتهر في عصره بالدقة وقوة الذاكرة، وهو (فو - سانج). ولهذا السبب قد أصبح كتاب (شو - كينج) ثمانية وخمسين فصلاً بعد أن كان مائة.

ومهما يكن من الأمر، فإن هذا الكتاب له أهمية عظمى من الناحية الأخلاقية، لاحتوائه على كثير من الحكم والمواعظ والأمثال والقصص التي تعلي من شأن الفضيلة والخير.

هذه هي المصادر القديمة التي يعتمد عليها. وهناك كتب أخرى قد كتبت في العصور المتأخرة وسنشير إليها عندما نعرض لعصورها في شيء من التفصيل.

(يتبع)

محمد غلاب

فقيد الأدب السوداني

التيجاني يوسف بشير

للأديب المبارك إبراهيم

في أواخر شهر يوليو المنصرم، منيت النهضة الأدبية الحديثة في السودان بخسارة جد فادحة قل أن يأتي الزمان لها بعوض، وذلك بوفاة شاعر هو من أفحل شعراء النهضة، هذا إن لم أقل إنه أرهفهم إحساساً أجمعين!

يعد الفقيد من أصغر شعرائنا المجيدين سناً، إذ كان مولده في مدينة أم درمان عام 1912

وقد تلقى علومه بمعهد أم درمان العلمي؛ وبعد تخرجه ساهم في تحرير جريدة (ملتقى النهرين)، قبل اندماجها في جريدة (حضارة السودان). ثم حرر في مجلة (أم درمان)، ومجلة (الفجر)

وكان الشاعر الشاب يؤمل أن تواتيه الظروف، فينزح إلى القطر المصري الشقيق، للانتظام في أحد معاهده العالية، غير أن جده العاثر لم يمكنه من إدراك هذه البغية

ومن رقيق شعره في الحنين إلى أرض الكنانة: -

عادني من حديثك اليوم يا مصر ... رَئِيٌّ وطوفت بي ذكرى

وهفا باسمك الفؤاد ولجت ... بسمات على المباسم سكرى

إنما مصر والشقيق الأخ السو ... دان كانا لخافق النيل صدرا!

نضر الله وجهها فهي ما تز ... داد إلا بعداً عليّ وعسرا!

والتيجاني لم يكن كأولئك النظامين الذين إذا ما شاءوا أن يؤلفوا القوافي أتوا بالتعابير الجاهزة الجافة، فقوموا قصيدهم منها كما يقوم البناءون البيت أو البناء بقوالب من الطوب. . . كلا لم يكن شاعرنا كأولئك، وإنما كان رحمه الله أشبه ما يكون بالمثال الماهر الذي يعمد إلى المواد الأولية البكر فينحت منها في غير محاكاة، تماثيل هي آية من آيات الفن الخالد على الزمن

وإليك أغرودة من أغاريد الشاعر المرقصة، وقد أسماها (النائم) قال:

أيها النائم في مه ... د أغانيّ ولحني!

هكذا يدفق يا نا ... عس في حسنك حسني

أنت يا واهب ألحا ... ني ويا ملهم فني

إنما أصنع من كرْم ... ك صهبائي ودني!

يا أمانيّ التي أعب ... دها في كل لون
وأغانيّ التي ألهمه ... املهم جن!
والتي ذوبها المط ... رب في الصوت الأغن
كلما طار بها اللح ... ن وفراها المغني!
خفقت ذات جناحي ... ن: مدوٍ ومرن!
عبرت كل فؤاد ... وتغشت كل أذن!

وكل أثار الفقيد من هذا الضرب الذي يمتاز بالرصانة في الأسلوب، والسمو في الخيال، والتجديد في المعاني

وفن التيجاني في مجموعه، مزاج من الأحاسيس العاطفية المتناهية في الدقة، والتأملات الروحية الفلسفية الصوفية: التي تُرى أن كل الكائنات، كبيرها وصغيرها، جليلها وحقيرها، تحدث عن جلال الخالق عز وجل

وليس أدل على صدق هذا القول من قصيدة شاعرنا التي نشرتها له (الرسالة) في العدد 38 من سنتها الثانية، تحت عنوان (الصوفي المعذب)، وهذه القصيدة تمثله صوفياً من الطراز الأول، ومنها: -

الوجود الحق ما أو ... سع في النفس مداه
والسكون المحض ما أو ... ثق بالروح عراه
كل ما في الكون يمـ ... شي في حناياه الإله
هذه النملة في رقتها ... رجع صداه!
هو يحيا في حواشيـ ... ها وتحيا في ثراه!
وهي إن أسلمت الرو ... ح تلقتها يداه!
لم تمت فيها حياة الله ... إن كنت تراه!

وله من نفس القصيدة، وكأني به كان يصور شعوره عند دنو الساعة الأخيرة:

أذنيـ . . لا ينفذ اليو ... م بها غير العويل
نظري. . . يقصر عن كل ... دقيق وجليل
غاب يا نفسي إشرا ... قك والفجر الجميل
واستحال الماء فاستحـ - جر في كل مسيل
يرجع اللحن إلى أو ... تاره بعد قليل!

وكان حب الشاعر المفرط للبحث والتنقيب في أمهات الكتب الأدبية والفلسفية يحمله على أن يقطع ليالي برمتها ساهراً: يقلب صفحات كتبه تارة، وصفحات أفكاره تارة أخرى، أو يغازل عرائس أشعاره وقوافيه، البارعات الجمال، ذلك دون أن يقيم لصحته وزناً، أو يعطي جسمه الضاوي راحته من الهجود وفي ذلك يقول: -

ويح نفسي تنام من دونها الأنـ ... فس شوطاً وما تهم بشوط!
أنا والنجم ساهران نعد الصبح ... خيطاً من الشعاع لخيط!
كم صباح نسجته أنا والنجـ ... م وأرسلت شمسه من محطي!

وكان من جراء هذه الجهود المتواصلة التي كان يبذلها الشاعر في الانكباب على الدرس والتحصيل أن أصيب بداء (السل) الذي أودى بحياته في أقل من نصف عام.

فرجع هذا اللحن الجميل إلى أوتاره، على حد تعبير الشاعر. والشاعر لما يزل في ريعان الشباب، ولما يتجاوز الخامسة والعشرين

هذا وقد خلف الشاعر ديوان شعره، الذي كان يعده للطبع بعنوان (إشراقة). وقد قدم له بقصيدة شيقة جاء فيها:

قطرات من الندى رقراقه ... يشرق البشر دونها والطلاقة
قطرات من الصبا والشباب الغض (م) ... منسابة به منساقه
ورذاذ من روحي الهائم الولهان (م) ... أمكنت في الزمان وثاقه!
قطرات من التأمل حيرى ... مطرقات على الدجى براقه
يترسلن في جوانب آفاقي (م) ... شعاعاً أسميته (إشراقه)

في سنة 1027، نشرت له مجلة (البلاغ الأسبوعي) أولى قصائده، وهو يومذاك طالب حديث السن في الخامسة عشرة من عمره، ومطلعها: -

تبدي الصدود وإنني أهواها ... حسناء ما عرف الهوى لولاها!

وأما آخر ما نظمه الشاعر وهو على فراش الموت، فقصيدة بليغة مؤثرة، يخاطب فيها صديقه الشاعر السوداني المشهور: محمود أنيس. وفيما يلي جانب منها :-

أرأيت الصديق يأكله الدا ... ء ويشوي عظامه المحراق؟
جف من عوده الندى فتعرى ... وتنفت من حوله الأوراق!
وأنا اليوم لا حراك كأن قد ... شد في مكمن القوى أوثاق
بت استنشق الهواء اقتساراً ... نفس ضيق وصدر مطاق
وحنايا معروقة، وعيون، ... غائرات، ورجفة، ومحاق!
مالنا دون ذا احتيال فإن الله (م) ... في علمه الشئون الدقاق!
كيف أجزيك يا (أنيس) ومالي ... من يد بالجزاء مثلي تساق
فالقريض الذي تقدر لا أعلم (م) ... إن كان في الجزاء يستشاق
فاحتفظها ذكرى فإن مت فأقرأ ... بينها الحب ما عليه مذاق
أو حيينا فسوف نقرأ فيها ... فترة لا أعادها الخلاق!

ألا رحم الله فقيد الأدب السوداني، فلو عاش لغدت له شهرة مدوية بين قراء العربية في شرقنا العزيز.

(أم درمان سودان)

المبارك إبراهيم

همس وعزلة

للأديب يوسف البعيني

إلى أخي وصديقي الأستاذ فليكس فارس

مرَّ عليكِ الخريف بحزنهِ وكآبته. . .
ثم كفنكِ الشتاء بضبابهِ وثلوجه. . .

ومع أنك تسمعين هَمهمة الرياح، وتشاهدين تناثر الأوراق في الأودية والمنحدرات، أراكِ لا تحركين شفتيك ولا تهمسين بكلمة. فهل أخرَسَ الموتُ لسانكِ؟ لسانكِ الذي كنتُ أسمعهُ شادياً مغرداً يُفعم القلبَ حباً، والروح فرحاً وانتعاشاً!

واأسفاهُ. . . إن ليالي الانزواء والانفراد قد حوَّلتْ رائعَ إنشادكِ إلى وحشة خرساء صامتة. . . فما عدتِ تغازلين القمر، والجدول، والزهر، والشمس المطلة من وراء جدائل الشفق فسلامٌ على أيَّامك الغُرِّ الحسان. . .
أيام زهوكِ وسروركِ!!
عجباً. .!
أهكذا يذوي الانفراد زهرة الأرواح؟
ويحوِّلُ إيناعها الناضر إلى ذبولٍ مؤلم وإطراقٍ مخيف؟
عجباً. .!

أهكذا تجرد العزلة زهرة الأرواح من زهوها الأنيق لتتعرى كالحُلم الحزين في برودة الموت؟

وافجيعتاه عليك. . . لم تعد حرارةُ أنفاسك تدفئك! إني أخشى عليك من تجمُّدِ العناصر، وظلمة ليالي الخريف الحالكة!

دمعةٌ فابتسامة،
ليلٌ فصباح،
هذا هو قانونُ الحياة
فلا حزنٌ يبقى، ولا يأس يدوم

فاستعدي لكي تنفضي عن مناكبك غبار العزلة والأنفراد، وأن تفتحي للفجر قلبك الطافح
بخمرة الحب والجمال
فعمَّا قريب يأتي الربيعُ بنسماتهِ العليلة،
وزهورهِ البيضاء،
وأندائهِ النابعة من أجفان النجوم!
كفاك صمتاً. . .
فالصمتُ للعظام والجماجم،
وليس لكِ يا ابنة الآلهة!

فهل تستيقظين وتنزعين عن وجهك نقاب الموت أيتها الموحيةُ الحبيبة
المتسربلة بالضباب،
والمتَّشحة بالشعور والعواطف،
والمصغية إلى أغاني الكواكب؟
نعم. . سوف تستيقظين،
وسوف ترافقين ذاتي الخفيَّة. .
فنفرحُ معاً عندَ أقدام الوادي، ونحتسي كؤوس الحياة منفردين
إنَّ الربيعَ حياةٌ. .
ومن لا يشارك الربيع في سروره وأفراحه، فليس من أبناء الحياة!!
(البرازيل)
يوسف البعيني
تشريع ولز للزواج وأثره الاجتماعي
للأستاذ خليل جمعه الطوال
إن الإنسان مدني بفطرته ميال بطبيعته إلى تفهم نواميس الكون التي تحيط به، والوصول إلى عللها ونتائجها؛ وهو إلى جانب ذلك قلما يطمئن إلى نظم معينة، أو يستقر على حالة ثابتة. ولعل مسألة الهيئة الاجتماعية كانت أولى المسائل التي أكب على دراستها دراسة جدية لما لها من الأثر البليغ المباشر في مشاكل حياته اليومية التي يصطدم بها صباح مساء حتى لينوء بحملها. وإذا كان لا بد من نتيجة مرضية لدراسته هذه التي أعارها جزءاً من اهتمامه غير يسير، فقد انتهى إلى أن المجتمع يرتكز على نظم واهية لا تماشي البيئة في سرعة تضخمها، ولا الأحوال في استمرار تطورها، فجاءت هذه النتيجة حدثاً جديداً بل صدمة عنيفة ألقت الرعب في قلوب الكثيرين من علماء الاجتماع الذين انقسموا إزاءها إلى ثلاث فرق رئيسية لكل منها في الأمر وجه نظر خاصة لا تقرها الفرقتان الأخريان وهي: (1) فرقة المتشائمين (2) فرقة المحايدين (3) فرقة المتفائلين

فالفرقة الأولى: هم الذين تسرب إليهم اليأس من الإصلاح فالقوا حبل الأمور على غاربها وانكفئوا على أنفسهم يتوقعون انطلاق رصاصة الدمار الأخيرة التي لا يستطيعون لدرئها سبيلا فمنهم من مال إلى الزهد من عقيدة دينية واكتفى من العيش باليسير؛ ومنهم من لزم عقر بيته يصابح الفجر بنكده ويشحن الزمن بزفرات بؤسه

والفرقة الثانية: وهم سواد المجتمع الأعظم، فقد شغلتهم أعمالهم الشخصية وسعادتهم الوقتية التي راحوا يهتبلون لها السوانح كلما طرأت - عن التفرغ لدراسة أحوال المجتمع، ووقفوا من تقلب أوضاعه واضطراعها موقف المتفرج في حومة القتال لا يبدون رأياً، ولا يدفعون عادية، ولا يقرون أمراً

أما الفرقة الثالثة فهم الذين هالهم ما رأوه في جوف هذه النظم والأوضاع من البؤس المسرع إليهم، فأحدث هذا المنظر في نفوسهم آثاراً شتى ليست على مستوى واحد من العمق والتأثير، ولذلك هبوا من غفوتهم واستيقظوا من رقدتهم مشمرين للأمر ليدفعوا عن البشرية عدوانه وليسدوا ثلمة الشقاء قبل أن تتسع، فمنهم من استل سيفه وقام بحركة إصلاح عنيفة، كما حدث في روسيا الشيوعية وإيطاليا الفاشية.

ومنهم من لزم حد الاعتدال

فقام يدعو تارة بلسانه وطوراً بيراعه كأفلاطون ومور وسبنسر وموريس وبرناردشو وإبسن وكثير غيرهم من أساطين علم الاجتماع

ومن كبار دعاة هذا الرهط في إنكلترا اليوم الكاتب العالمي الفذ هربرت جورج ولز الذي جاءت آراؤه ونظرياته خلاصة وافية ضافية ونتيجة صادقة صائبة لدراسات سابقيه ومتقدميه

دعوة ولز

صنف ولز قرابة الخمسين كتاباً بأسلوب يستهوي القارئ ويغريه، بعيداً عن التقعر والإسفاف، خالياً من اللبس والإبهام ومن مستهجن اللفظ وزركشة العبارة التي قد تزيد الفكرة تعقيداً. وتجعل المعنى ملتاثاً سقيما، وذلك لأنه يكتب مؤلفاته للخاصة والعامة على السواء، ويدعو لآرائه رعاع القوم ودهماءهم كما يدعو سراة الناس وأمراءهم. وقد تناول في كتبه معظم البحوث الاجتماعية التي اصطبغ بها أسلوب

الأدب الإنكليزي الحاضر من سياسية وعلمية وتشريحية، ولا سيما البحوث الدينية إذ تناول كثيراً من مسائل الدين المسيحي وعقائده بمشرط النقد والتجريح، فجردها بطريقة علمية من معظم السفاسف والترهات التي حاكها حولها إنكشارية الدين من القساوسة والرهبان ليجعلوا منها ذريعة إلى أطماعهم الشخصية وأغراضهم الذاتية.
وله في التاريخ مؤلف لم يسبق لغيره أن نسج على منواله، لا ترى فيه أثراً للدعوة القومية والعصبية الوطنية، إذ هو عدوهما الأزرق وخصمهما الألد، في الجهر والخفاء.
ومما يستوقف النظر ويدل على سعة علمه ومعرفته بنتائج الظروف والتطورات قبل وقوعها هو صدقُ تكهنهِ عن كثير من الحوادث، فقد تنبأ عن مصير الاشتراكية الحاضر وعن الحرب الكبرى فجاء حدوثهما دليلاً على صدق نبوءته ونفوذ بصيرته. وعلاوة على ما ضمنه هذه الكتب من الآراء السديدة التي قضى في دراستها طول العمر وريق الشباب فقد كتب على صفحات الجرائد والمجلات كثيراً من المقالات التي كان ينتزعها من صفحة الحياة اليومية، وتمليها عليه مستلزمات البيئة الاجتماعية
وخلاصة القول أن ولز يدعو في جميع كتاباته (البيولوجية) و (السيكولوجية) إلى مقت الحروب وتحطيم آلاتها المدمرة وإلى إزالة الاستعمار والروح الوطنية، وينادى بالحرية والعلم والعالمية؛ وهو في دعوته هذه إنما يُهيئ السبيل السوي للحوادث التي لا بد من وقوعها في المستقبل القريب
أما خير كتب ولز في هذا الموضوع وأحدثها فهو كتابه الطوبى العصرية الذي يرمي به إلى أيجاد مدينة كبرى فاضلة لتكون وطناً للهيئة الاجتماعية بأسرها ووافية بحاجات السعادة البشرية، وقد رشحت مادة هذا الكتاب من دراساته للفلسفة الأفلاطونية التي تغلغل في ثناياها واتسم بطابعها. ولولز في هذا الكتاب آراء طريفة في المرأة والزواج أعرضها على صفحات الرسالة الغراء لا لأنها تلائم روح عصرنا وتتمشى مع حضارتنا، ولا لأنها وقعت من نفسي موقع القبول والاستحسان، بل لأطلع جمهور القراء على ناحية جديدة من مناحي التفكير الغربي
يرى ولز أن ناموس الطبيعة في كائناتها قائم على أن تتوالد وتتكاثر، وعلى أن يفترس القوي الضعيف بأنياب محددة ومخالب قوية طبقاً لنظام تنازع البقاء وبقاء الأفضل، وما الحياة في نظره إلا حلبة تتصارع فيها الكائنات الحية على اختلاف أنواعها وأجناسها فيخرج منها القوي ظافراً منصوراً، ويولي الضعيف منهزماً مكسوراً. وليس ما نشاهده من فتك الإنسان بأخيه في مجاهل أفريقيا وغابات الهند وفي جزر زيلندا أو يماثله بين شعوب الإسكيمو التي تقتات باللحوم البشرية حيث يقيمون في كل يوم مجزرة هائلة من بني الإنسان تتفطر لهولها القلوب الجلامد، وتسح لها العيون الجوامد، أو ما نشاهده من تطاحن الأمم والشعوب على استعمار الأمم الضعيفة، واقتسام ثروتها؛ ومن فتك الحيوانات بعضها ببعض - إلا مظهراً من مظاهر تنازع البقاء ونوع من حكم الطبيعة على الضعيف بالموت والفناء. وعليه فلا سبيل لتقدم البشرية، وقد أصبحت مشاكلها تشغل الحيز الأكبر من عقول مفكريها، كشوبنهور، ونيتشه، وبرناردشو، وهكسلي إلا إذا أسندت أمرها وألقت مقاليدها ووكلت بشوؤنها حكومة عالمية واحدة تسيطر على هذه الحركة وتبيدها، لئلا تصبح الهيئة الاجتماعية أشبه بأجمة للافتراس. ويتم ذلك بمنعها الضعيف عن التناسل والتكاثر وجعلها عدد الوفيات منه يزيد في كل عام على المواليد زيادة مطردة؛ وهكذا فلا تمضي حقبة من الزمن حتى تصبح الهيئة البشرية بكاملها كتلة واحدة من القوة متجانسة الأجزاء متماسكة الذرات، ولا يكون بعد ثمة تنازع على البقاء، الذي يشبهه ولز بشوكة في جانب حق الضعيف والمدنية، أو حسكة في لهاة العدل والإنسانية.
فولز في هذا الموضوع يناقض زميله ومعاصره برناردشو الذي يذهب إلى أن خيرَ وسيلة للخلاص من هذا الضعيف هي أن ندعه فريسة في يدي القوي ونتركه يتمرغ في حمأة الموبقات والشرور المهلكة التي ينقاد إليها بضعفه، وهكذا يكون كمن بحث عن حتفه بظلفه
أما كيف يتسنى للحكومة إخراج ما يقترحه عليها من الآراء إلى حيز العمل فيراه في أن تهيمن على الزواج وتجعله شريعة مدنية لا دينية، وخاضعاً لقوانين معلومة تضمن بها صيانة المجتمع من الضعف والانحلال
ويقول بعضهم تعليقاً على آراء ولز: إن بعض الناس - وقد رأوا أنه يسلبهم بشريعته

هذه حق الزواج وهو جل ما بقي لديهم من ذلك التراث النفيس الذي ورثوه عن تلك الإمبراطورية الرومانية المقدسة، يوم كانوا فيها قابضين على زمام السلطتين الدينية والمدنية ومن ورائهم محاكم التفتيش بسراديبها المخيفة، وأقبائها الموحشة - أخذوا ينسبونه إلى الكفر والإلحاد والجنون، لا لأنه هتك ستر الدين وخرج على عقيدة من عقائدهم الجوهرية، بل لأنه أذاقهم مرارة الحق إذ غمز مطامعهم الشخصية، وحاول أن ينتزع من أفواههم لقمة دسمة يرون فيها وهم يتشدقون بمضغها هيبة الدين وجلاله، وسلاح الإيمان وسطوته، ولأنه ليس لأكثرهم أيضاً من حرية الفكر وانطلاق الذهن ما يدركون به كارثة الهيئة الاجتماعية التي تنتج من الزواج في غالب الأحيان. ويقول أيضاً بأن الزواج في عرفهم ليس إلا رباطاً مقدساً لا تبلى جدته ولا تنحل عقدتُه لسبب من الأسباب إلا بالموت ما دام الكاهن قد أعطى الزوجين بركته القدسية وربطهما بحباله الأزلية

فولز إذاً من أشد خصوم البابوية خاصة والكنسية الرومانية عامة - وهي التي يسميها بالكنيسة الأفلاطونية لما بينها وبين طبقة أفلاطون الحاكمة من العلاقة المشتركة من حيث الزواج - لإصرارها على أن الزواج لا يتم إلا بالإكليل الذي يضعه هو من الأهمية على الهامش فقط.

أما خلاصة ما يضعه من التشريع: فأن يكون طالب الزواج بالغاً سِناً تؤهله لذلك (الرجل 27 سنة، والمرأة 20 سنة) مؤدياً ما عليه من الديون والضرائب القانونية، ذا دخل ثابت معلوم - تحدد الحكومة نهايته الصغرى - يمكنه من أن يعيش مع زوجه وأولاده عيشة رخية، وذا شخصية فعالة قادراً على العمل، وألا يكون مجرماً عند زواجه، ومكفراً عن الأجرام التي سبق أن ارتكبها، وبالغاً من التهذيب درجة عالية. على أن أهم هذه الشروط أن يكون كلا الزوجين خالياً من الأمراض المعدية والوراثية كالسل والجنون والسرطان.

هذه هي الشروط الأساسية التي يريد ولز وضعها، ويشترط على كل من طالبي الزواج أن يقدم بها شهادة للجنة المسؤولة عنه، وهذه بعد أن تطالعها وتبحثها تعين لهما يوماً معلوماً يحضران فيه لإجراء بعض المراسم القانونية لكل منهما بانفراد عن رفيقه، وبحضور الشهود والمميزين. . . وكل اثنين يتعاقدان على غير هذه الكيفية يكون عقدهما فاسداً بحكم القانون، وترتب عليهما الحكومة عند أول مولود لهما مبلغاً مقرراً من المال يدفعانه للخزينة حتى يبلغ المولد سن الرشد، وذلك لقاء عنايتها به، وضماناً لمستقبله، وجزاء لتحديهما القانون، وذلك بعد أن تمنعهما من أن يتناسلا مرة ثانية

الطلاق

لا يحق للزوجة في حالة زواجها من الرجل زواجاً مدنياً بالشريعة الولزية أن تطلب طلاقها منه إلا إذا أقامت عليه البينة أنه شيء الخلق فظ الطباع يعاملها معاملة قاسية، أو أنه قالٍ لفراشها ومنصرف عن الاهتمام بأمرها إلى السكر والدعارة والفسق، إلى ما هنالك من الصفات المستنكرة؛ فمتى توافرت هذه الأسباب أو بعضها يتقيد كل من الزوجين برفيقه مدة معلومة وذلك حتى يصبح أصغر أولادهما غنياً عن عناية أمه به، وبعدها يتم الطلاق. ويحق لكل منهما أن يتزوج ثانية بمن يريده. على أن ولز لا يميل حقيقة إلى الطلاق؛ وذلك لما ينتج عنه للأسرة - وهي التي تمثل الهيئة الاجتماعية بأصغر أشكالها - من وخيم العواقب التي تفت في عضدها وتجعلها مشوشة النظام، مفككة الأوصال، واهية الروابط التي ترتبط بها أفرادها ربطاً محكما؛ ولكنه يستحسنه في مثل هذه المناسبات الاضطرارية، والأحوال الشاذة لعلمه أن ما ينتج عن عَدمَه من تنغيص حياة الزوجين أضر بهناء الأسرة من وخيم عواقب الطلاق

الزواج المؤقت (المتعة)

يبيح ولز (المتعة) في كتابه: (الطوبى العصرية) وهي أن يتزواج اثنان لمدة أربع سنوات أو خمس مثلاً وبعدها يكون لهما الحق في الانفصال أو في تجديده ثانية على ألا يكون لهما الحق في التناسل في مثل هذا النوع من الزواج المؤقت

مساواة المرأة بالرجل

يقول ولز إن مساواة المرأة بالرجل وعدمها من الأمور الرئيسية التي كانت ولا تزال مثار البحث والاختلاف بين كبار العلماء والفلاسفة. فقد ذهب أفلاطون قديماً إلى أن

المرأة خلقت وهي غاية بنفسها وموازية للرجل في الحقوق والواجبات، وإلى أنها حرة في جميع أمورها وتصرفاتها لا فرق بينها وبين الرجل إلا في الجنس فحسب، فباب العمل والتنافس على الجاه والثروة يجب أن يكون مفتوحاً على مصراعيه للجنسين على السواء كما أنه أباح للمرأة التي في الطبقة الحاكمة حق ممارسة الألعاب الرياضية والتدرب على حمل السلاح في سلك الجندية. ولكن أرسطو طاليس ذهب إلى عكس هذا المذهب وقال: لم تخلق المرأة إلا لتحفظ النوع من الفناء، وإن هي للرجل إلا أمة صاغرة تسير بإرادته دون أن يكون لها حق الاعتراض عليه؛ فهو ينكر على أفلاطون مساواته للجنسين بلهجة شديدة ملؤها الهزء والاستخفاف. أما هو وإن كان له مذهب ثالث وسط بين هذين المذهبين إلا أنه يفضل النظرية الأفلاطونية على تلك الأرسطوطاليسية التي يعيب على العرب خاصة وعلى الشعوب الشرقية عامة شدة تعصبها لها والعمل بها لما هم فيه من التأخر والانحطاط، على حين أن الشعوب الغربية وهي التي تعمل بالنظرية الأفلاطونية قد قطعت شوطاً بعيداً في مضمار المدنية

يحمل ولز على العرب مثل هذه الحملة الشعواء كشأن غيره من الشعوبيين الذين يحاولون إفساد التاريخ العربي والنيل من المدنية الإسلامية التي ظلت تسود العالم مدة من الزمن ليست قليلة، وهو لو درى أن أوربا بأسرها قد أخذت تضيق قليلا قليلا من نطاق مساواة المرأة بالرجل بعد أن أطلقت لها العنان إلى جانب الرجل مدة قرن ونيف، وذلك لما انغمست فيه من فساد الأخلاق وخشية من أن يتسرب هذا الداء منها إلى بنيها. أجل لو عرف هذا وأشباهه ودرس البيئة العربية لأنصفهم ولما عاب عليهم شدة محافظتهم على المرأة

المرأة والعمل

يرى ولز أن المرأة خلقت ضعيفة الجسم والتركيب لا تقدر على تحمل الأعمال الشاقة ومزاولتها كالرجل، وأن الطبيعة إنما أعدتها بهذه الكيفية لتقصر مهمتها على إدارة البيت وتربية الأطفال؛ فعليها أن تنصرف بكليتها نحو هذه الغاية السامية التي خلقت لها، وأن تجعل سعيها موجهاً نحو إغراء الرجل وحمله على الزواج منها، وبذلك تصبح شريكة له في سرائه وضرائه ومساهمة معه في حلو الحياة ومرها. أما إذا وكلت أمر بيتها وإعالة أطفالها إلى من يقوم بهما تحت إشرافها وكانت فيها مواهب القدرة على العمل والتفوق على الرجل فلا بأس من أن تمارس ما هي كفؤ له من الأعمال على أن يكون ذلك لها من الأحوال الشاذة لا قاعدة مطردة. فولز في هذا الموضوع يقف موقف الحيرة والتردد وهو أيضاً كما يشاهد القارئ يخالف آراءه السابقة بعض المخالفة في شدة تحفظه

المرأة والحكومة

ينظر ولز إلى الأمومة نظره إلى وظائف الحكومة، ولذا يريد أن تدفع الحكومة لها عند كل ولادة مبلغاً مقرراً من المال يزيد بزيادة ما تلده من الأولاد، وتبقى مستحقة لهذا المبلغ حتى يبلغ أصغرُ أولادها سِنَّ الرشد، وذلك لكي تصرفها عن التطلع إلى الوظائف المدنية. وهي بهذه الطريقة أيضاً تشجع على الزواج أولئك الذين يحجمون عنه بسبب الفقر وتنقذ من وهدة الشقاء والبؤس الأراملَ اللواتي ينفصلن عن الحياة الزوجية بموت أزواجهن ولا يكون لهن من المال ما يقوم بأودهن وأود أولادهن حيث يصبحن فريسة تنتاشها مخالب البؤس وبراثنُ الفقر، أو يُطوحنَ بعفافهن وشرفهن في سوق الدعارة والموبقات

ولولز عدا ما تقدم آراء متطرفة في شيوعية النساء وفي النظرية اليوجينية أو التأصيل لا نرى ضرورة للتبسط فيها لأنها تنبو عن الذوق العربي الذي لم تفسده الحضارة الغربية بعد

الطور الثاني من حياة الرافعي

هل كان للرافعي خِيَرَة في المذهب الجديد الذي ذهب إليه عندما شرع يكتب (تاريخ آداب العرب)؟

وهل كان يعني ما يفعل حين انحرف عن الهدف الذي كان يسعى إليه في إمارة الشعر إلى المنحى الجديد في ديوان الأدب والإنشاء!

هل كان عن قصد ونية أن يتخلى الرافعي عن أماني الشباب وأوهام الصبا وأخيلة الفتيان وأحلام الشعراء، ليقف نفيه على العربية وتراث العربية يستبطن أسرارها ويغوص على فرائدها، وعلى الإسلام وأبطال الإسلام يكشف عن مآثرهم وينشر آثارهم؟. . .

الحق أن الرافعي لم يكن له خِيرة في شيء من ذلك ولا كان يعنيه ولا توجهت إليه نيته؛ ولكنه ألف تاريخ آداب العرب لأنه وجد في نفسه رغبة إلى أن يؤلف في تاريخ آداب العرب، وكتب في إعجاز القرآن لأن إعجاز القرآن باب في تاريخ الأدب؛ فلما أخرج كتابيه إلى الناس لم يلبث أن ارتد إليه الصدى مما يقول الناس؛ فإذا هو عندهم أديب ليس مثله في أدباء العربية، وإذا هو عندهم كاتب من الطراز الأول بين كتاب العربية، وإذا هو صاحب القلم الذي يكتب عن إعجاز القرآن فيُعجز، ويتحدث عن الإسلام حديث المؤمن إلى المؤمن، حديثَ قلب إلى قلب ليس بينهما حجاب فكل ما ينطق يُبين. . . ووجد الرافعي كأنما أكتشف نفسه. . .

وهنا بدأ الرافعي الكاتب الذي يعرفه اليوم قراء العربية، على حين أخذ الرافعي الشاعر يتصاغر ويختفي رويداً رويداً حتى نسيه الناس أو كادوا، لا يتحدثون عنه إلا كما يتحدثون عن شاعر استمعوا حيناً إلى أغاريده العِذاب ثم ترك دنياهم إلى العالم الثاني ليتحدث إليهم

من صفحات التاريخ. . .

لقد عرف الرافعي من يومئذ أن عليه رسالة يؤديها إلى أدباء الجيل، وأن له غاية أخرى هو عليها أقدر وبها أجدر؛ فجعل الهدف الذي يسعى إليه أن يكون لهذا الدين حارسه وحاميه، يدفع عنه أسباب الزيغ والفتنة والضلال، وأن ينفخ في هذه اللغة روحاً من روحه يردُّها إلى مكانها ويردّ عنها، فلا يجترئ عليها مجترئ ولا ينال منها نائل ولا يتندر بها ساخر إلا انبرى له يبدد أوهامه ويكشف عن دخيلته.

ونظر فيما يكتب الكُتاب في الجرائد، وما يتحدث به الناس في المجالس، فرأى عربية ليست من العربية، هي عامية متفاصحة، أو عجمة مستعربة، تحاول أن تفرض نفسها لغة على أقلام المتأدبين وألسنتهم، فقر في نفسه أن هذه اللغة لن تعود إلى ماضيها المجيد حتى تعود (الجملة القرآنية) إلى مكانها مما يكتب الكتاب وينشئ الأدباء، وما يستطيع كاتب أن يشحذ قلمه لذاك إلا أن يتزود له زاده من الأدب القديم.

وعاد الرافعي يقرأ من جديد، ينظر فيما كتب الكتاب وأنشأ المنشئون في مختلف عصور العربية؛ يبحث عن التعبير الجميل والعبارة المنتقاة واللفظ الجزل والكلمة النادرة، ليضيفها إلى قاموسه المحيط ومعجمه الوافي، فتكون له عوناً على ما ينشئ من الأدب الجديد الذي يريد أن يحتذيه أدباء العربية.

هذا سبب مما عدل بالرافعي عن مذهبه في الشعر إلى مذهبه الجديد في الأدب والإنشاء. وثمة سبب آخر كان الرافعي يصرح به كثيراً لمن يعرفه: ذلك أنه كان يرى في الشعر العربي قيوداً لا تتيح له أن ينظم بالشعر كل ما يريد أن يعبر به عن نفسه الشاعرة. هكذا كان يقول هو، وأقول أنا: إنه كان يعجز أن يصب في قصيدة من الشعر ما كان يستطيع أن يكتبه في سهولة ويسر مقالاً من مقالاته الشعرية الرائعة التي يعرفها قراء العربية فيما قرءوا للرافعي. والحق أن الرافعي بطبعه شاعر في الصف الأول من الشعراء، لا أعني الشعر المنظوم، فذلك ميدان سبقه فيه كثير من شعراء العصر، بل أعني الشعر الذي هو التعبير الجميل عن خلجات النفس وخطرات القلب ووحي الوجدان ووثبات الروح. ولقد كان - رحمه الله - بما فيه من اعتداد بالنفس، يكتب المقال الفني المصنوع فيقيس لفظه بمعناه ويربط أوله بآخره ويجمع بين أطرافه كل ما ينبض به قلبه من معاني السرور والألم، والرجاء واليأس، والرغبة والحرمان؛ فإذا فرغ من إنشائه جلس يترنم به ويعيده على سمعه الباطن، ثم لا يلبث أن يلتفت إلى جليسه قائلاً: (أسمعت هذا الشعر؟

أرأيت شاعراً في العربية يملك من قوة البيان ما يجمع به كل هذه المعاني في قصيدة منظومة. . .؟)

هذه العبارة التي كان يسمعها جلساء الرافعي كثيراً، تفسر لنا قول الرافعي إن في الشعر العربي قيوداً لا تُتيح له أن ينظم بالشعر كل ما يريد أن يعبر به عن نفسه الشاعرة، أو تؤيد ما أدعيه أنا، من أنه كان يشعر بالعجز عن الإبانة عن كل خواطره الشعرية في قصيدة من المنظوم ولا يعجزه البيان في المنثور. نعم، كان شعر الرافعي أقوى من أداته، وكانت قوالبه الشعرية تضيق عن شعوره. . .

افترى في العربية شاعراً يستطيع أن ينظم ورقة واحدة من (أوراق الورد) في قصيدة منظومة دون أن يتحيف المعنى ويختل الميزان؟

لا أحسب أن الرافعي كان يعني ما يقول حين يزعم أن القيود في الشعر العربي من أسباب الضعف في الشعر؛ فهو نفسه لم يكن يستطيع أن يجهر بهذا الرأي، بل أحسبه في بعض نقداته الأدبية أنكر مثل هذا القول على بعض الأدباء وراح يتهمه بمحاولة الغض من قدر الشعر في العربية؛ فما أراه كان يقول ذلك إلا تعبيراً عن معنىً تأبى كبرياؤه الأدبية أن يصرح به.

ذلك هو السبب الثاني الذي عدل بالرافعي عن الاستمرار في قرض الشعر معنياً به مقصوراً عليه.

لم يهجر الرافعي الشعر هجراً باتاً بعد أن اتخذ لنفسه هذا المذهب الجديد، ولكنه لم يجعل إليه كل همهه، واتجه بقلبه ولسانه إلى الهدف الجديد، فلا يقول الشعر إلا بين الفينة والفينة إذا دعته داعية من دواعي النفس أو من دواعي الاجتماع. وسنرى فيما سيأتي بعد، أنه قد صبا إلى الشعر ثانية عندما مس الحب قلبه واتقدت جذوته في أعصابه سنة 1923، فدعته نفسه؛ وعندما اتصل ببلاط الملك فؤاد - رحمه الله - سنة 1926، فدعته داعية الجماعة.

حديث القمر

قلت إن الرافعي بطبعه كان شاعراً، ولكن شعره كان أقوى من أداته، وكانت قوالبه الشعرية تضيق عن شعوره فنزع إلى النثر الفني. وقلت إنه كان يرمي إلى أن يعيد (الجملة القرآنية) إلى مكانها مما يكتب الكتاب وينشئ الأدباء لتعود اللغة على أولها فصيحة جزلة مبينة، وإنه أخذ على نفسه أن يكون نموذجاً في هذا الأدب الجيد يحتذيه أدباء العربية. وقدمت في المقال السابق أن الرافعي كان على نية إصدار كتاب مدرسي سماه (ملكة الإنشاء) يكون عوناً للمتأدبين وطلاب المدارس على الاقتباس لإجادة الإنشاء. فكل أولئك ما دفعه إلى إصدار كتابه (حديث القمر) من بعد

كتاب (حديث القمر) هو أول ما نشر الرافعي من أدب الإنشاء؛ أصدره بعد كتابيه: تاريخ آداب العرب، وإعجاز القرآن. وما بي أن أصف حديث القمر لقراء العربية، فهو مشهور متداول، وهو ضرب من النثر الشعري، أو الشعر النثري؛ يصف من عواطف الشباب وخواطر العاشق وما إليهما في أسلوب فني مصنوع أحسبه لا يطرب الناشئين من قراء العربية في هذه الأيام، إلا أن يقرءوه على أنه زاد من اللغة، وذخر من التعبير الجميل، ومادة لتوليد المعاني وتشقيق الكلام في لفظ جزل وأسلوب بليغ

ومن هذا الكتاب كانت أول التهمة للرافعي بالغموض والإبهام واستغلاق المعنى عند فريق من المتأدبين؛ ومنه كان أول زادي وزاد فريق كبير من القراء الذين نشأوا على غرار في الأدب لا يعرفه ناشئة المتأدبين اليوم

شيوخه في الأدب

أما إذ وصلت إلى هذا المكان من تاريخ الرافعي فإني أسأل نفسي: عمن أخذ الرافعي هذا المذهب في الكتابة، وبمن تأثر من كتاب العربية القُدامى والمحدثين؟

هذا سؤال لا أجد جوابه فيما حدثني به الرافعي أو أحد من أهله وصحابته؛ وما أستطيع أن أثبت شيئاً في هذا المقام يعتمد عليه الباحث. واكبر ظني أن الرافعي نفسه كان لا يعرف أستاذ في الأدب والإنشاء؛ فما كان همه أول همه أن يكون كاتباً أو منشئاً، ولكن تطورات الزمن هي ردته من هدف إلى هدف وألزمته أن يكون ما كان. وقد قرأ الرافعي كثيراً وأخذ عن كثير، فمذهبه في الكتابة من صنع نفسه، وهو ثمرة درس طويل وجهاد شاق اختلطت فيه مذاهب بمذاهب وتداول عليه أدباء وأدبا من كتاب

العربية الأولين. ولكني أجد من الفائدة هنا أن أشير إلى اثنين من أدباء العربية كان يقرأ لهما الرافعي أكثر ما يقرأ إلى آخر
أيامه: هما الجاحظ وصاحب الأغاني، وكان يعجب بأدبهما ويعجب لأحاطتهما عجباً لا ينقضي وإعجاباً لا ينتهي، وكان لا بد له حين يهم بالكتابة بعد أن يجمع عناصر موضوعه في فكره أو في مذكراته - أن يفتح جزءاً من الأغاني، أو كتاباً من كتب الجاحظ يقرأ فيه شيئاً مما يتفق، ليعيش فترة ما قبل الكتابة في جو عربي فصيح.
ومما لا يفوتني إثباته في هذا المجال أن مجلة (الهلال) قد استفتت أدباء العربية يوماً منذ سنوات، في أي الكتب العربية تعين الناشئ الأديب على مادته؟ وكان للرافعي في هذا الاستفتاء جواب لا أذكره، أحسبه يفيد الباحث عن المصدر لأدب الرافعي
وسمعت الرافعي مرة يقول: (إن كلمة قرأتها لفكتور هوجو كان لها أثر في الأسلوب الأدبي الذي اصطنعته لنفسي؛ قال لي الأستاذ فرح أنطون مرة: إن لهوجو تعبيراً جميلاً يعجب به الفرنسيون كل الإعجاب، قوله يصف السماء ذات صباح: (وأصبحت السماء صافية كأنما غسلتها الملائكة بالليل)
قال الرافعي: (وأعجبني بساطة التعبير وسهولة المعنى، فكان ذلك حذوي من بعد في الإنشاء)
!. . .أفندعي بهذا أننا عرفنا واحداً من شيوخ الرافعي في الأدب والإنشاء
(شبرا)
محمد سعيد العريان
هكذا قال زرادشت
للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه
ترجمة الأستاذ فليكس فارس
نشيد القبور
هنالك جزيرة القبور، جزيرة الصمت والسكون، وهنالك أيضاً أجداث شبابي، فلأحملن إليها إكليلاً من الأزاهر الخالدات
بهذا ناجيت نفسي، فقررت أن أقتحم الغمر
يا لصور الشباب وأشباح أحلامه، يا للحظات الغرام! يا لأويقات الحياة الإلهية! لقد تراميت سريعاً إلى الزوال، فأصبحت أستعرض ذكرياتك كما أستعرض خيال الأحبة الراقدين في القبور.
إن نفحات الطيب تهب منك يا أعز المضيعات فتروح عن قلبي وتستقطر مدامعي، إنها لنفحات تستنبض قلب العائم وحيداً على العباب.
أنا المنفرد أراني أغنى الناس وأجدرهم بالغبطة لأنك كنت لي يوماً أيتها الذكريات ولما أزل أنا لك، فقولي لي: على مَ تساقطت ثمراتك الذهبية عن أغصانها؟
إنني لم أزل منبتا لغرامك الذي أورثتنيه يا أيام الشباب وبذكرك تنور فضائلي بعد وحشتها بعديد ألوانها الزاهية
وآ سفاه، ما كان أولاك بألاَّ تفارقينني، أيتها الأيام الساحرات فقد اقتربت إليَّ وإلى شهواتي لا كأطيار يسودها الذعر بل كأطيار تستأنس بالواثق بنفسه
أجل لقد كنتِ معدة مثلي للبقاء على العهد إلى الأبد، يا أويقات الشباب، وليس لي أن أدعوك خائنة وقد وصفتك بالأويقات الإلهية. لقد مررت سِراعاً أيتها الأويقات الهاربات وما هربت مني ولا أنا هربتُ منك، فما أنا مسؤول ولا أنت أيضاً عن خيانتك وعن خيانتي
لقد أماتوك طلباً لقتلي، يا أطيار آمالي وصوبت الشرور سهامها نحوك لتصل مخضبة بالدماء إلى قلبي فأصابت هذه السهام مقتلاً مني لأنك كنت أعز شيء لدي بل كنت كل ما أملك، لذلك قضي عليك بالذبول في صباك والزوال قبل أوانك
لقد صُوبت السهامُ إليك وأنت أنعم من الحرير وأضعف من ابتسامة تمحوها نظرة قاسية
فليسمع أعدائي ما أقول:
- إن القتل أخف جرماً من جنايتكم علي، فقد سلبتموني ما لا قبل لي بالاستعاضة عنه بشيء، ذلك ما أقوله لكم، أيها الأعداء. أفما قتلتم أحلام شبابي وحلتم دون إتياني بمعجزاني؟ لقد سلبتم مني تفكيري، وهأنذا أحمل هذا الإكليل لتذكاره حاملاً معه لعنتي

لكم، أيها الأعداء، لأنكم قصرتم مدى أبديتي فانقطعت كأنها صوت ينقطع في الزمهرير تحت جنح الظلام فما تسنى لي أن أنظر إلى هذه الأبدية إلا لمحا لأنها توارت عني بطرفة عين

وأتت ساعة ناجتني فيها طهارتي قائلة:

- يجب أن تكون جميع الكائنات إلهية، وأنتِ أرسلتِ إلي الأشباح المدنسة، يا أيام الشباب؛ فانقضت تلك السانحة وعادت حكمة الشباب تقول لي: (يجب أن تكون جميع الأيام مقدسة في نظري) وما هذه الكلمة إلا كلمة الحكمة المرحة. وعندئذ أتيتم أيها الأعداء فحولتم ليالي راحتي إلى أرق وهموم، فأين توارت هذه الحكمة المرحة؟

لقد كنت فيما مضى أتوقع السعادة فأرسلتم على طريقي بومة مروعة مشئومة فتبددت أماني العِذاب

نذرت يوماً أن أرتجع عن كل كراهة، فحولتم كل ما حولي إلى قروح، فأين مضت مخلصات نذوري الطاهرات؟

لقد مررت على سبيل السعادة كفيف البصر فرميتم على طريق الأعمى كوماً من الأقذار فأصبحت كارهاً للطريق القديم الذي تلمسته. وعندما توصلت إلى القيام بأصعب أعمالي، عندما تمكنت من الاحتفال بالانتصارات التي تغلبت فيها على ذاتي أهبتم بمن يحبونني إلى الهتاف قائلين بأنني أوقعت بهم اشد الآلام

والحق أنكم لم تنقطعوا عن تشريد خير العاملات في قفيري وتحويل جناها إلى علقم مرير؛ ولكم أرسلتم إلى إحساني أشد المتسولين إلحاحاً ودفعتم أهل القحة ليطوفوا بإشفاقي وهكذا نلتم من فضليتي وهي ممنعة بإيمانها

وكنت كلما قدمت أقدس ما عندي محرقة للتضحية تسارعون في تقواكم إلى إحراق أدسم ذبائحكم لتتصاعد أبخرة شحمها مدنسة خير ما قدست

وطمحت يوماً إلى الرقص متعالياً بفني إلى ما وراء السبع الطباق فأفسدتم على أعز المنشدين لدي، فرفع عقيرته بأفظع الأناشيد وقرع أسماعي بنغمات الأبواق الحزينة الباكية

لقد كنت قائلا أيها المنشد البريء، إذ غدوت آلة في يد الغدر فقضت نغماتك على خشوعي بينما كنت أتهيأ للقيام بأروع رقصي

وما أنا بالمعبر عن أسمى المعاني بالرموز إلا عندما أدور راقصا، لذلك عجزت أعضائي عن رسم أروع الرموز بحركاتها. فأرتج عليَّ وامتنع عليَّ أن أبوح بسر آمالي. لقد ماتت أحلام شبابي وفقدت معانيها المعزيات

إنني لأعجب لتحملي هذه الصدمات وأعجب لصبري على ما فتحت فيَّ من جراح، فكيف أمكن لروحي أن تبعث من مثل هذه القبور؟

أجل إن فيَّ شيئاً لا تنال منه السهام مقتلا، ولا قبل لأحد بدفنه لأنه يزحزح الصخور عنه فتتحطم، وما هذا الشيء إلا إرادتي؛ والأرادة تجتاز مراحل السنين صامتة لا يعتريها تحول وتغير. إن إرادتي قديمة لا تني تدفع قدمي إلى السير فهي القوة المتصلبة المتعالية عن الفناء

ليس فيَّ من عضو لا يصاب إلا قدمي السائرة إلى الأمام تدفعها هذه الإرادة الثابتة الصامدة المتجلدة التي تخترق المدافن دون أن تنطرح تحت لحودها

إن فيكِ وحدكِ يا إرادتي يصمد ما لا تبدده أيام الشباب، فأنت لا تزالين حية وفتية تملأك الآمال، تجلسين على ركام المدافن وقد طبع الزمان عليها قبلاته الصفراء. إنك لن تزالي أيتها الإرادة هدامة لجميع القبور، فسلام عليك يا إرادتي. لأنه لا بعث إلا حيث تكون القبور

هكذا تكلم زارا. . . . . .

فليكس فارس

نقل الأديب

للأستاذ محمد اسعاف النشاشيبي

صرت في راحة ابن أيوب أقرا - 198

(أعظم مروحة في الدنيا)

في (ثمرات الأوراق): قال أبو الفوارس بن إسرائيل الدمشقي: كنت يوماً عند السلطان صلاح الدين بن أيوب، فحضر رسول صاحب المدينة ومعه قَوْد وهدايا، فلما

جلس أخرج من كمه مروحة بيضاء عليها سطران بالسَّعَف الأحمر وقال: الشريف يخدم مولانا السلطان ويقول: هذه المروحة ما رأى السلطان ولا أحد من بني أيوب مثلها، فاستشاط السلطان صلاح الدين غضباً، فقال الرسول: يا مولانا السلطان، لا تعجلْ قبل تأملها، وكان السلطان صلاح الدين ملكا حليما فتأملها فإذا عليها مكتوب:

أنا من نخلةٍ تجاوزُ قَبْرا ... ساد من فيه سائرَ الخلْق طُرا
شملتني عناية (القبر) حتى ... صرت في راحة ابن أيوبَ أقرا

فإذا هي من خوص النخل الذي في مسجد الرسول فقبلها السلطان صلاح الدين، ووضعها على رأسه، وقال لرسول صاحب المدينة النبوية: صدقتَ فيما قلتَ من تعظيم هذه المروحة!!!

199 - لم يحلني إلا على الأزهار

قال أبو جعفر الذهبي لفاضل أديب جمع بينه وبين فاضل أديب:

أيها الفاضلُ الذي قد هداني ... نحوَ من قد حمِدْتهُ باختيار
شكر اللهُ ما أتيتَ وجازاك ... ولا زلتَ نجمَ هَدْى لسارِ
أيُّ برقٍ أفاد أيّ غمامٍ ... وصباح أدّى لضوءِ نهارِ
وإذا ما غدا النسيمُ دليلي ... لم يُحِلني إلا على الأزهار

200 - الشغل للقلب ليس الشغل للبدن

العباس بن الأحنف:

تعتل بالشغل عنا ما تكلمنا ... الشغل للقلب ليس الشغلُ للبدنِ

قال أبو الفرج الأصفهاني: لا أعلم شيئاً من أمور الدنيا خيرها وشرها إلا وهو يصلح أن يُتمثل به بهذا النصف الأخير

201 - يستر المحاسن كما يستر القبائح

نقل ابن الجوزي عن بعضهم قال:

قلت لجاريتي: ألا تلبسين الحلي؟
قالت: لا، لأنه يستر المحاسن كما يستر القبائح

ابن الرومي:

وما الحْليُ إلا زينة لنقيصة ... يتمم من حسن إذا الحسن قصَّرا
وأمَا إذا كان الجمال موفَّراً ... كحسنك لم يحتج إلى أن يُزوّرا

202 - كلنا في الهوى سوا

ابن زريق المقدسي:

كلّ من جئتُ أشتكي ... أبتغي عنده دَوا
يتشكّى شكيّتي ... كلّنا في الهوى سوا!!!

203 - فترجمت العيون عن القلوب

في (ديوان المعاني): عن أبي عكرمة قال: أنشدت أعرابياً قول جرير:

أبدّل الليل لا تسري كواكبه ... أم طال حتى حسبت الليل حيرانا؟!

فقال: هذا حسن، وأعوذ بالله منه! ولكن أنشدك في ضده من قولي، وأنشدني:

وليلٍ لم يقصره رقادٌ ... وقصّره لنا وصْلُ الحبيبِ
نعيمُ الحبّ أورق فيه حتى ... تناولنا جناه من قريبِ
بمجلس لذَّة لم نقوَ فيهِ ... على الشكوى ولا عدّ الذنوبِ
يخلنا أن نقطعَه بلفظٍ ... فترجمتِ العيونُ عن القلوبِ

فقلت له: زدني فما رأيت أظرفَ منك شعراً. فقال: حسبك.

204 - فأين عنها نعزف؟

قال الحسين بن الحسين بن مطير:

إنّ الغوانيَ جنّةٌ ريحانُها ... نَضِرُ الحياة فأين عنها نعزف؟
لولا ملاحتُهن ما كانت لنا ... دنيا نلذّ بها ولا نتصرّف

205 - دواء اللبس الحبس

كان بعض الولاة إذا اشتبه عليه حكم حبس الخصمين حتى يصطلحا، ويقول: دواءُ اللبْس الحبْس. . .

206 - ما يصنع الشيطان بين الحيطان؟

رأى أبو نؤاس غلاماً جميلاً يمشي في بعض السكك فقال له:

ما تصنع الحور بين الدور؟
فقال الصبي: ما يصنع الشيطان بين الحيطان؟!
207 - كأني في عيونهم السماح
بكر بن النطاح:
تراهم ينظرون إلى المعالي ... كما نظرت إلى الشيب الملاحُ
يُحِدّون العيونَ إليّ شَزْراً ... كأني في عيونهم السماحُ
وهذا بديع في حسنه، بليغ في تشبيهه
208 - لم يجد أحمق يقبله سواك
أنشد رجل الفرزدق شعراً، وقال: كيف تراه؟
فقال: لقد طاف إبليس بهذا الشعر في الناس فلم يجد أحمق يقبله سواك
209 - إنما سرق محجني
قال الجاحظ في (كتاب الحيوان): حدثنا حماد بن سلمة
قال: كان رجل في الجاهلية معه محجن يتناول به متاع الحاج سرقة
فإذا قيل له: سرقت قال: لم أسرق إنما سرق محجني. فقال حماد: لو كان هذا اليوم حياً لكان من أصحاب أبي حنيفة.
210 - دف ومزمار ونغمة شادن
ابن سيد الناس:
يا عصبة ما ضرّ دين محمدٍ ... وسعى إلى إفساده إلا هي
دفٌ ومزمارٌ ونغمة شادن ... أرأيت قطُّ عبادةً بملاهِ؟!
211 - إذا انقطع وصلته
قيل لأعرابي كان يُسهب في حديثه: أما لحديثك هذا آخر
قال: إذا انقطع وصلته. . .
212 - قد جاءك بالشمال فأته باليمين
في (نزهة الألباء في طبقات الأدباء) للأنباري: حكي أبو زكرياء (التبريزي) أن المتنبي كان بواسط جالساً وعنده أبنه مُحسَّد قائماً وجماعة يقرءون عليه فورد إليه بعض الناس
فقال: أريد أن تجيز لنا هذا البيت وهو:
زارنا في الظلام يطلب سراً ... فافتضحنا بنوره في الظلام
فرفع رأسه وقال: يا مُحسَّد، قد جاءك بالشمال فأته باليمين فقال:
فالتجأنا إلى حنادِس شَعْرٍ ... سترتنا عن أعين اللوّام
قال أبو الجوائز (الحسن بن علي الواسطي): معنى قول المتنبي لولده قد جاءك بالشمال فأته باليمين أن اليسرى لا يتم بها عمل وباليمنى تتم الأعمال، فأراد أن المعنى يحتمل زيادة فأوردْها. وقد ألطف المتنبي في الإشارة، وأحسن ولده في الأخذ
213 - أنتم الأطباء ونحن الصيادلة
سأل الأعمش أبا حنيفة عن مسائل فأجاب، فقال الأعمش: من أين لك هذا؟
قال: مما حدّثتَنا
فقال: يا معشر الفقهاء، أنتم الأطباء ونحن الصيادلة
مختارات من أدب الرافعي
أغاني الشعب
لم يوفق شاعر من شعراء العربية توفيق الرافعي في تأليف الأناشيد، ولم يكتب) لنشيد وطني أو طائفي من الذيوع والشهرة والانسجام مع الألحان ما كتب لأناشيد الرافعي؛ فكان بذلك خليقاً أن نسميه (شاعر الأناشيد)
وهذا نشيد الكشافة المصرية (اسلمي يا مصر)، ونشيد شباب الوفد (حماة الحمى)، ونشيد الشبان المسلمين، ونشيد بنت النيل، ونشيد تلاميذ المدارس الثانوية (مجداً مجداً مدرستي) كلها من تأليف الرافعي، وهي دائرة على كل لسان في كل حفل أو ناد
وعرف الرافعي لنفسه هذه الميزة التي فاق بها شعراء العربية عامة في باب هو من) الشعر في هذا العصر صلبه وقوامه، فاجمع أمره على إخراج ديوان (أغاني الشعب) يضع فيه لكل جماعة أو طائفة من طوائف الشعب نشيداً أو أغنية عربية تنطق

بخواطرها وتعبر عن أمانيها؛ وقد جرى الرافعي في هذا الميدان شوطاً بعيداً، وأنجز طائفة كبيرة من أغاني الشعب نشر بعضها وما يزال سائرها في طي الكتمان بين أوراقه الخاصة ومؤلفاته التي لم تنشر بعد، ولا أدري متى يقدر لها أن تنشر . . .!
والذي أنشره اليوم نشيد من هذه الأناشيد، وضعه الرافعي على لسان الفلاحة) المصرية، وسيجد القراء في أسلوبه ومعانيه شيئاً مأنوساً يحببه إلى الشعب ويخفف (وقعه على فؤاده ولسانه

محمد سعيد العريان

نشيد الفلاحة المصرية

الفجر قد غبّر ثم لاحا
والديك قد أذّن ثم صاحا
وأطلقتْ حمامتي الجناحا
والكلبُ بالباب غدا نبَّاحا
واشتاقت البهائم السَّراحا ... هيا إلى غيطك، سُقْها: حَا، حَا
أروح والجارةَ نَمْلاَ الجَرَّهْ
نمرّ بالغيط القريب مَرّه
نرى الهنا والفرْحَ والمسَرَّه
يا رب لا تنزل بنا مَضَرَّه
واكتب لداري عزَّ والأفراحا ... هيا إلى غيطك، سقها: حَا، حَا
البنتُ يا مَولى الدعا المجابِ
إحفظ عليها صحةَ الشبابِ
وافتح على أولاديَ الأحبابِ
مَن راح للغيط والكُتَّابِ
ذا يقرأ الغيطَ وذا الألواحا ... هيا إلى غيطك، سُقها: حَا، حَا
يا نخلة الغيط احذري الغرابا
بانعجة الغيط احذري الذئابا
يا صاحب الغيط احذر العذابا
من الربا، والفقرَ والخرابا
إن الربا ليس لنا مُباحا ... هيا إلى غيطك، سَّقها: حَا، حَا
إياكَ أن تذكر لي (الخواجا)
فقد رأيتُ جارنا المحتاجا
راحَ إليه مالُهُ وماجاَ
وباع حتى البطَّ والدَّجَاجا
لا خير فيمن جانب الصلاحا ... هيا إلى غيطك، سُقها: حَا، حَا
إياك والرهن على الغيطانِ
فتُنْزِل الدود على الأقطانِ
وتفتح الأبواب للشيطان
وتجعل الهدمَ على حيطاني
الشمس جاءت والصباح راحا ... هيا إلى غيطك، سُقها: حَا، حَا
أنا ابنةُ الفلاح أمُّ النصرِ
فلاحة يا بنت هذا العصرِ
لكن كوخي من أساس مصرِ
يُسْنِدُ فيها ركن كل قصر
هَلُمَّ غَنَّي معنا الفلاحا ... هيا إلى غيطك، سُقها: حَا، حَا
1907

مصطفى صادق الرافعي

الغدير

على صفحتَيْك تلوح النجومْ ... وفوق لجينك يلهو القمرْ!
مياهك راكدة كالهمومْ! ... أأضنى مياهك طول السهرْ؟
ترف عليها طيوف النخيلْ ... وترقص فيها ظلال الغصونْ

وتنسابُ منهوكة كالعليل ... طواه الأسى واحتواه السكونْ!
وتمضي الهوينى رويداً كما ... يمر الزمان على اليائسِ!
وتسبح في صمتها مثلما ... يجوب الكرة مقلة الناعسِ!!
فيا سارياً ما ينام الدجى ... وما يستطيب الكرى والوسَنْ
في سائل عيني عنك الحجا: ... أهذا الغدير رقيب الزمَنْ؟!
تلف الحقول وتطوي القرى ... وما لك من صاحب أو رفيقْ
أما يا غدير سئمتَ السُّرَى ... وبُعد المطاف وطول الطريق؟!
فأيان تلقى غبار المسيرْ؟ ... وأنى تلبي نداء العدَمْ؟!
وحتام تحيا حياة الأسيرْ ... وفيها الملال ومنها السأمْ؟
طويت القرون ولما تزلْ ... فتياً كما كنتَ منذ القدَمْ!
كأنك في الأرض نور الأمَلْ ... ينير الدياجي ويمحو الظَّلَمْ!!
تقبِّلك الوردةُ الهائمهْ ... وترشف من فيكَ معني الأملْ
وتغضى فتحسبُها نائمهْ ... ولكنها أسكرتْها القبلْ!!
وتحضنك النسْمة المترفَهْ ... وتشكو إليك لهيبَ الجوى
وتهمسُ في أذنْك المرَهفه ... حديث العتاب ونجوى الهوى
وترقى وئيداً إلى الرابيهْ ... وتعدو حثيثاً إلى المنحدَرْ
ونفسك دائبة ساعيهْ ... وغيرك يشكو الونَى والخوَرْ!
وتشرق في الظلمة الدامسهْ ... كأنك في الأرض معنى الهدَى
وتضحك في الليلة العابسهْ ... فعش هانئاً قد أمِنت الردَى
وأمواهك العذبة الشادَيهْ ... ترتل لحن المنى باسمَهْ
هنا الشعر والسحر والعافيهْ ... هنا الحب والفتنة الهائمهْ!!
هنا قد عَرَفْتُ الهوى والجمالْ ... وأدركْتُ كيف يكون الخلودْ
هنا قد درَى القلب معني الكمالْ ... ومعنى الحياة وسِرَّ الوجودْ!!
بربك صِف ما وراء الغيوبْ ... وحدِّثْ عن المقبل المنتظرْ
أناخت على كاهليَّ الخطوبْ ... فجئتك أشكو إليك القدرْ!!
فيا معهد الحب أينَ الحبيبْ؟ ... ويا موطن الحسن أين الهوى؟!
تنكرْتَ لي فكأني غريبْ ... وما غيرتْني صروف النوى!
سأغمض عينيَّ حتى أرى ... خيالك يملأ لي خاطري
وأحيا بذكرك بين الورى ... فهل أنت إن لم أعُدْ ذَاكِري؟!
(إسكندرية)

محمود السيد شعبان

تليد من جمال

رائعٌ والله هذا الو ... جه حالي القسمات
مُعجِبُ الحسنِ وسيم ... رغم حيف السنوات
رغم شَيْب قد تَمَشَّى ... في المعاني والسِّمَات
وتراءى مستطيراً ... طائفاً بالشعرات
لم يزل حُسنُك رغم الشـ ... يْب يسبى المُهُجَات
يأسر اللب ويُنْسى ... كلَّ عذراَء مَهاة
غضةِ الجسم توافت ... كنضير الزهرات
غرةِ القلب لعوبٍ ... خطرت كالنسمات
رائعٌ حسنُك من بيـ ... ن وجوه الغانيات
ووضىءٌ يجذب الأعـ ... ين دون الأخْرَيَات
رائعٌ كالشفق الغا ... رب يُذكي اللهفات
ينبئ الناظرَ عن ما ... ضي الحُلَي والحَسنات
وتليدٍ من جمالٍ ... كان ممنوعَ اللدات
كان شغلَ العابديه ... وعناَء العاذلات
لم يزل ينبئ عنه ... عذبُ تلك البسمات
وأرى أطيافه في ... حُسن تلك اللحظات
إن يكن قد ودع الطيـ ... شَ وسحرَ اللفتات

وغريرَ الضحكاتِ ... وطروبَ الثرثرات
فقد اعتاضَ بحلم ... ووقار وأناة
رائعٌ ينبئ عن قلـ ... بٍ مليءٍ بالعظات
وبأشتاتِ التجار ... يبِ وجمّ الذكريات
قد جنَى حلواً من العيـ ... ش ومُرَّ الحادثات
فهو يَسبي اليوم بالحِسْـ ... نِ ويسبى بالصفات
وأحاديثَ عِذابٍ ... كشهي الثمرات
زانت الغيدَ رزانٌ ... ذات حُسنٍ وحَصاة
فخري أبو السعود

رسالة العلم

مملكة النحل

عيشة النحل وتربيته الحديثة

بقلم جمال الكرداني

أفراد الخلية

كلنا لا نجهل هذه الحشرة الصغيرة التي تعطينا العسل، وقد يعدها من ليس على علم بمعيشتها من الحشرات الحقيرة مع أنها في الواقع تنشئ من جموعها مملكة هي مثال الاستقلال والرقي والنشاط. يعيش النحل معيشة اشتراكية في جماعات تقدر زنة الجماعة منها بما يقرب من خمسة إلى ستة أرطال، والجماعة تملأ ثلاثة أو أربعة أقداح، وتتميز في أفراد الجماعة الواحدة ثلاثة أنواع هي اليعسوب والذكر والشغالة وقد يكون أوفق أن نعطي اليعسوب لقب ملكة الجماعة لجلالها وحسن سيطرتها على مثل هذا العدد الكبير - وهي وحيدة في الحالة العادية للخلية - ولكن تتعارض معيشتها بين الأفراد الأخرى للجماعة مع هذا اللقب إذ أنها تختلف عن عيشة ملوكنا بيننا، فالأجدر إذن تسميتها أم الخلية، ويعزز هذه التسمية أنها والدة كل نحلة في الخلية تقريباً

والملكة لا تترك مدينتها إلا مرة أو مرتين للإخصاب فقط بل تمضي معظم حياتها في ظلام الخلية، وإن كان هذا حكم واجبها وهو وضع البيض. وقد يشغلها هذا الواجب الدقيق عن التفات إلى شيء سواه فلها خدم بمرتبة الوصيفات لملكاتنا تحرسها وتقدم إليها الطعام وتؤدي لها غير ذلك من الخدمات. وإذا ساعدتنا الظروف على رؤية ملكة الخلية يتضح لنا جلالها إذ نجدها على القرص وحولها ما يقرب من عشرين نحلة تواجهها دائماً وتأبى أن توليها ظهرها تأدباً، وهذا الحرس ككل أفراد الجماعة يقدم حياته فداء اليعسوب إذا لزم ذلك

ويمكننا تمييز اليعسوب بطول مؤخرها لوضع البيض وقصر جناحيها، لأنها كما قلنا لا تطير خارج الخلية كثيراً. وللملكة حمة بلغ من عفافها أنها تأبى أن تلدغ بها من هو أقل منها وأضعف سلطاناً، فهي لذلك لا تستعملها إلا لمحاربة مثيلاتها الملكات إذا اقتضت الضرورة

والذكر ليس كبيراً كاليعسوب وإن كان منظره أضخم وليس له حمة. ولكون وظيفته تقتصر على إخصاب الملكات الصغيرة لا يوجد منه في الخلية غير بضع مئات. يعيش الذكر في الخلية عيشة رخاء وراحة، لا يشترك بقسط من العمل، فلا يجمع هباء النبات ولا رحيق الأزهار بل تطعمه العملة؛ وإذا أراد الزيادة انقض على ما هو مخزون بالخلية. ويتخذ الذكر له ركناً بعيداً عن جلبة الخلية فينام حتى منتصف النهار، ويخرج بعد تناول الطعام شاقاً صفوف العملة محدثاً حركة بين باقي النحل ولا يبالي حتى بالحراس فيطير إلى الأزهار البعيدة ليعرض جسمه لأشعة الشمس وهناك يشاكس الرعاة من النحل فيقلبها أثناء جمع قوتها. وفي الأصيل يرجع إلى الخلية بطنين عال فيتناول غذاءه وينام إلى اليوم الثاني. وهذه الحياة حياة كسل ولابد أن تنتهي ككل شيء لذيذ في وقت قريب، ففي الشتاء عند قلة الغذاء تنقض عليه العملة فتقتله وينتهي الرخاء بالفناء

أما العاملة أو الشغالة فهي أصغر أفراد النحل جسماً، وقد يكون ذلك استعداداً طبيعياً يساعدها على تأدية أعمالها الشاقة في خفة ونشاط. والشغالة أكثر أفراد النحل عدداً فقد يصل عددها 30000 في الخلية الواحدة. وكل واحدة لها واجبات خاصة وعندها

استعداد طبيعي لأدائها. فمنها يتكون حرس الخلية ورعاة الحقول والمربيات إلى غير ذلك. ويخيل إلينا أن كل عاملة تنافس غيرها بالسعي والجد فهي تقضي حياتها لا تميل إلى الكسل ولا تعرف الرفاهية

وأهم عمل لشغالة تموين الخلية بالغذاء فتطير الرعاة من زهرة إلى أخرى ومن حقل إلى حقل يساعدها على ذلك زوجان قويات من الأجنحة، الأماميان منهما أكبر من الخلفيين، وإذا ما زارت زهرة تدخل لسانها الطويل المغطى بالشعر في قاعدتها وتمتص الرحيق. وأحب الأزهار إلى النحل هي ذات اللون الأزرق والأرجواني والأصفر؛ وتحب كذلك الأزهار الحمراء المشوبة بألوان أخرى زاهية مثل حنك السبع. وللنحلة غير العينين المركبتين ثلاث أخرى بسيطة على شكل مثلث (() ويختلف شكلها في الذكر هكذا (?)، وهذه العيون تساعدها على اختيار ما تريده من الأزهار. وطبيعي أن تعاود النحلة زهرة أو حقلاً عدة مرات لأن قدرتها على الحمل لا تمكنها من أخذ كل ما يروق لها من زهرة ما مرة واحدة. ويساعدها على زيارة الزهرة نفسها مرات عدة تفرزه عليها من رائحة خاصة

تميز منطقة هذه الزهرة عن بقية مناطق الحقل. ومن هنا نقدر قوة حاسة الشم عند النحل. وأثناء انتقال الرعاة في الحقل وزحفها على أزهاره المختلفة يجتمع هباء النبات في شبه كيس في الرجلين الخلفيتين للنحلة، فإذا دخلت أخرى تركت بعض هذا الهباء بدون قصد، وبذلك يحدث الإخصاب بين الأزهار. وكثيراً ما يربى النحل في المزارع لهذا الغرض. وعلاوة عل جمع رحيق الأزهار تقوم الشغالة بصنع أقراص العسل الشمعية وملئها بالشهد نفسه. ومن واجبات المربيات حراسة البيض وتقديم الطعام للصغار. وعلى عاتق العملة تقع حراسة الخلية وأقراصها ومليكتها من كل معتد أو فضولي كالذباب والعثة. وألد أعداء النحل هو الزنبور الأحمر (زنبور البلح)

وينقسم النحل بحسب الجهة التي يعيش فيها إلى عدة أقسام ويتميز كل نوع من الآخر بحجمه ولونه، فالنحل البلدي أو المصري صغير مائل إلى البياض، أما القبرصي فلونه أحمر وأضخم من المصري. وهناك نوع يعيش في إيطاليا وهو أطول قليلاً من القبرصي. أما النحل الكرنيولي ويعيش في يوغسلافيا فلونه أسود وهو أطول من الإيطالي وأضخم من القبرصي

الاستعمار والخراب

نواة مستعمرة النحل ملكة ملقحة لوضع البيض، فبعد ستة أيام من خروجها من العذراء تطير إلى علو بعيد ويطير وراءها الذكور؛ وأثناء هذه المسافة الطويلة تخور قوى بعض الذكور فيسقط إلى الأرض؛ وفي النهاية تختار الملكة أحدها وهو الذكر المثابر على الطيران ويكون عادة من خلية غير التي أنتجت هذه الملكة. ويموت الذكر بعد عملية التلقيح، وتقتل العملة ما بقي من الذكور في الخلية وعند عودة الملكة ملقحة تظهر أعضاء التذكير البيضاء اللون متصلة بفتحتها التناسلية إذ تنفصل عن جسم الذكر عقب السفاد.

وإذ ما وصلت الملكة إلى الخلية استقبلتها (الشغالة) بالالتفاف حولها؛ وبعد يومين تبتدئ في تأدية وظيفتها فتضع ما يقرب من 400 بيضة كل 24 ساعة، وتستمر على نشاطها سنتين أو ثلاثا

وللملكة قدرة على وضع بيض ملقح وبيض غير ملقح؛ فالأول ينتج الملكات والخناث (العملة) تبعاً لنوع الغذاء الذي يقدم لليرقات بعد فقسها وتبعاً لشكل الثقوب التي تربى فيها،

والثاني ينتج الذكور

ومدة إفراخ البيض ثلاثة أيام في جميع الأفراد. وعند خروج اليرقات الصغيرة تتغذى جميعاً بالغذاء الملكي مدة ثلاثة أيام وهو سائل يشبه اللبن تفرزه الشغالة الصغيرة من غدد خاصة في رأسها؛ وبعد هذه المدة تتغذى الشغالة بمزيج مركب من العسل وحبوب الطلع يسمى بخبز النحل. أما يرقات الذكور فتتغذى بخبز النحل مع جزء من الغذاء الملكي وتستمر الملكات على غذائها. وتمكث يرقات الملكات خمسة أيام إلى أن تشرنق، وكذاك يرقات الخناث. أما يرقات الذكور فتمكث ستة أيام، وفي هذه الأثناء تنسج حولها شرنقة تتحول داخلها إلى عذراء. وبعد مضي سبعة أيام على عذراء الملكات وثلاثة عشر يوماً على عذارى الخناث وخمسة عشر يوماً على عذارى الذكور

تخرج منها الحشرات الكاملة
وتعمر الملكة زمناً طويلاً قد يصل إلى أربع سنوات، وتضع في السنوات الأولى من حياتها ما متوسطه 400 بيضة في اليوم، ثم يقل شيئاً فشيئاً في السنوات التالية؛ ولذا يستحسن تغيير الملكة بأخرى جديدة كل سنتين أو ثلاث حتى لا تضعف الخلية
وتعيش الخنثي زمناً يختلف من عشرة أيام إلى ستة أسابيع تبعاً لمقدار الشغل ودرجة صعوبته: وغالباً تقضى الخناث التي تولد في الخريف فصل الشتاء في راحة قليلة، ثم تعاود عملها في فصل الربيع الذي تنتهي فيه حياتها. والذكور لا تعمر كثيراً وليس لها منفعة معظم السنة بل أنها فضلا عن ذلك تتطفل على ما تجمعه الشغالة
وهكذا تكون المستعمرة. وتستمر الملكة في وضع البيض والشغالة تخدم الخلية، فإذا مات جيل من الشغالة حل محله جيل يعقبه وهكذا. وفي حالة عدم تلقيح الملكة، وذلك ينشأ عن عدم رؤية الذكور لها أو عدم اللحاق بها عند طيرانها، تهدأ الملكة بعد ثلاثة أسابيع وتضع نوعاً من البيض غير ملقح يسمى بالبيض الكاذب وهنا تتعرض المستعمرة للخراب
أما إذا ماتت الملكة أو ضاعت فيبتدئ الضعف يتطرق إلى الخلية، وينتهز الأعداء فرصة هذا الضعف فتظهر دودة تفتك بالشمع، وتغير الزنانير والنمل على النحل فتأكله. وإذا استمر الحال كذلك شهرين فمصير الخلية الخراب إن لم تمد بملكة جديدة. وفي أغلب هذه الأحوال تبحث الشغالة عن بيضة ملقحة من بيض الملكة المفقودة وتنقلها إلى عين ملكية، وعند فقسها تعامل معاملة الملكات في المعيشة والتربية والغذاء فتنتج ملكه حقيقية. أما عند
عدم وجود بيض ملقح فتتطوع شغالة أو أكثر لوضع البيض ويكون غير ملقح طبعاً فتنتج ذكوراً فقط فتسير الخلية إلى الخراب. وتسمى مثل هذه الشغالة بالأم الكاذبة. ولا تستطيع الأم الكاذبة وضع البيض في صفوف متتالية وعيون متعاقبة كما هو شأن الملكة. كذلك تضع الأم الكاذبة أكثر من بيضة واحدة في كل عين؛ وقد يكون البيض على جدر هذه العيون وذلك لعدم وجود غريزة وضع البيض عند الأم الكاذبة لقصر بطنها. ونجد في مثل هذه الحالة طنيناً مستمراً بالخلية وهذا لأن الطمأنينة لا تدب في نفوس أفرادها. ويجب إسعاف مثل هذه الخلية ببروز به بيت ملكي من خلية أخرى أو شراء ملكة جديدة ووضعها في الخلية، إلا أن ذلك يحتاج إلى مهارة ودراية
(البقية في العدد القادم)
جمال الكرداني
البريد الأدبي
حديث لأميل لودفيج مع الأديب المصري جورج قطاوي
تعد ضواحي سان موريتز قبلة الكتاب والفنانين منذ (نيتشه) فان منظر بحيرات سيلس ماريا في سفح جبال الألب مما يخلب النفوس؛ ولهذا أقام بها الكاتب المشهور أميل لودفيج منذ سنوات. ولقد تعرفت منذ ثلاث سنين بمؤرخ حياة الرجال العظماء حينما كان يعد كتابه الكبير عن ماء النيل. ويسرني أن أسمع منه أثر رحلاته العديدة في مصر والسودان. ولهذا انتهزت فرصة وجودي في ضيافته يوماً لأسأله عن الأسباب التي حملته على وضع كتابه هذا الأخير. وقد وجدت على مكتبه ست تراجم لكتاب النيل (بالإيطالية والمجرية والبرتغالية والفرنسية الخ) وغيرها الآن تحت التحضير، ولكن الذي يهمه أكثر من هذا كله هو الترجمة العربية
قال إميل لودفيج: (إن الشرق يجذبني إليه منذ كنت صبياً. فقد كنت أسمع أبي يتحدث عن مصر فتبتهج هذه الحكايات مخيلتي؛ ذلك أن أبي - وكان يدعى هرمان لودفيج كوهين - كان طبيباً للعيون، ودعاه السلطان عبد الحميد لاستشارته فاستمر في رحلته إلى مصر حيث أكتشف علاجاً للرمد، وتغلغل في بيوت القاهرة العريقة، وتعرف بأميرات عديدات من البيت المالك، وزار السودان، ودرس قبائل البشارية الذين كانوا يدعونه (حكيمباشي)
وهأنذا قد عبرت وادي النيل من الحبشة إلى الدلتا بعد مضي نصف قرن على رحلة) أبي. ولما أصبت بالملاريا في أثناء مقامي بالحبشة عند منبع النيل الأزرق كانت زوجتي هي التي قامت بوصف البحيرات الكبرى، ومن وصفها وضعت الخمسين صفحة المخصصة للنيل الأبيض. وقد حكم نقاد أمريكان عديدون بأن هذه الصفحات هي خير

(ما في الكتاب
المعروف أن مدام لودفيج هي نفسها إفريقية، فقد ولدت في دربان من أب ألماني)
(وأم اسكتلندية وهي ساعد زوجها الأيمن
وأضاف لودفيج قائلاً: (ولقد وضع جلالة الملك فؤاد تحت تصرفي خلال ثلاثة أسابيع باخرة تدعي (الكاشف) صعدت بها النيل، وهذه الأسابيع الثلاثة مع رحلتي إلى اليونان هي أسعد أيام حياتي
و (النيل) من بين جميع مؤلفاتي هو الذي اقتضى أكثر الجهد والعناء والبحث والعمل الطويل، لأن مؤلفاتي الأخرى مثل (نابليون) و (بسمارك) و (لنكولن) و (غليوم الثاني) قد ألفتها خلال فصل صيف، من مارس إلى نوفمبر. وأما قصصي التمثيلية، فقد كان يلزمني يومان اثنان لأكتب كل فصل منها. وعلى الضد من ذلك قد قضيت عشر سنوات لأضع مأساة نهركم العظيم التي أردت أن تكون من القوة بحيث تمثل أبطالي من البشر، فخلصت من الوقائع والإحصاءات والوثائق لأعيد في ذهن القارئ جو ما عبرت من أماكن، وما استنشقت من عطر لا سبيل إلى نسيانه. . . لأن منشأ أكثر مؤلفاتي هو أثر شعور يتمكن مني؛ فكتاب (ابن الرجل) مثلاً قد تمثل إلى ذهني ذات (مساء بينا كنا في طريقنا من بيت المقدس إلى الناصرة
ولما سألته عن الشخصيات المصرية التي احتك بها، حدثني عن تشرفه بلقاء المغفور له الملك فؤاد فقال:
لقد كان يتمنى لو وضعت حياة الخديو إسماعيل، ولما كان الموضوع لا يلهمني الإلهام) الكافي فقد وعدته بأن أخصص بضع صفحات من (النيل) لذكرى والده
والحق أن خير رجال الحكم المصريين الذين أتيح لي لقياهم هو سفيركم في لندن: الدكتور حافظ عفيفي باشا؛ وفي خلال مروري بلندن في يونيه الماضي تحدثت طويلاً إليه. وقد أراد تقدمتي إلى جلالة (الملك فاروق) لولا أن سفري إلى أمريكا قد حرمني (هذا الشرف
وكان المسيو لودفيج عائداً فعلاً من الولايات المتحدة حيث قضى زمناً بالقرب من الرئيس روزفلت في بيته الخلوي بهايدبارك. وهو يحمل لرئيس الحكومة الأمريكية أشد الإعجاب، إذ قال:
إنه رجل من نوع جديد، ظهر لأول مرة في الحياة العامة، رجل القرن العشرين،) الباسم أبداً، المستبشر المتفائل على الدوام. فإنني ما رأيت قط نظرة أصفى من نظرته، ولا وجهاً أشد من وجهه حزماً وعزماً. وهو رجل الحكم الوحيد السعيد الذي عرفت. . . وسيكون أسم كتابي عن حياة روزفلت: (بحث في الهناء والمقدرة).
والرئيس يود بكل جوارحه لو فرض على سياسة العالم التآلف والوفاق. وأعظم أمانيه وأعزها تدعيم السلام في أوربا
وله في هذا الصدد آراء دقيقة ثمينة، غير أني أخشى أن يكون قد سبق السيف العذل ولات حين تدخل؛ ولم أستطع أن أخفي عنه رأيي في هذا، فإني أرى أوربا تندفع، منخفضة
الرأس، نحو حرب جديدة؛ وأشفق من أن تقع الواقعة حتى قبلما يترك روزفلت الحكم والبحث عن الكوارث المقبلة لا يكون في الصعوبات المادية التي تعانيها أوربا بل في روح الشر والعداء المشبعة بها بعض الدول، ولكن روزفلت ساهر؛ والفرق بينه وبين (الديكتاتوريين أنهم يريدون أن يخافهم الناس وروزفلت يريد أن يحبوه
وعبثا حاولت معرفة رأي المسيو لودفيج في المعاهدة الإنجليزية المصرية، فقد قال:
إن كل شيء يتوقف على السياسة الدولية وعلى الحرب القادمة التي لا أرى مفراً) (منها
ومع ذلك فهو لا يخفي عطفه الشديد على الفلاح المجاهد العنيف الذي يشتغل بقوة؛ وهو يعني كثيراً بما ينتظره من مصير. وكذلك يتمنى لو جمعت الأخوة يوماً ما بين العرب واليهود
على أن تشاؤمه لا يحول بينه وبين الأمل في مستقبل حضارتنا المهددة فهو يقول:
إن ما ينبغي هو إنقاذ الميراث الأدبي المجيد للشاعر جيته من المتوحشين. وإذا عشت) حتى عام 1939 فإنني سأعيد كتابة حياة مؤلف فاوست. فهو الرجل العظيم الوحيد الذي لا أمل الإعجاب به طرفة عين. أما الآن فقد أتممت كتاباً يختلف اختلافاً محسوساً

عن كل ما كتبته حتى اليوم وهو (كليوباترة)، وقد كتبته في أربعة أسابيع، كأنني كنت (في حلم
وهكذا تراني قد ظللت وفياً لبلادكم وأرجو أن أسافر إلى القاهرة هذا الشتاء في شهر فبراير، وأتحدث في الجامعة.
ج. قطاوي

حول مهمة دار الكتب

تحتفظ دار الكتب المصرية، فضلاً عن مجموعة مخطوطاتها الحافلة، بطائفة كبيرة من المطبوعات النفيسة النادرة؛ ومنها ما يرجع تاريخ صدروه إلى القرن السادس عشر أو القرن السابع عشر، وكثير منها من مطبوعات القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر؛ وهذه المجموعة من المطبوعات القديمة هي في الواقع أنفس ما تحتفظ به دار الكتب بعد مخطوطاتها، من المصادر والمراجع القيمة التي لا يستغني باحث عن الرجوع إليها؛ ومنها معظم المراجع في المباحث الإسلامية والشرقية؛ ومنها مراجع عربية مثل تاريخ

العميد بن المكين المطبوع في القرن السادس عشر، ونزهة المشتاق للإدريسي المطبوع في أواخر هذا القرن، وتاريخ ابن عربشاه، وتاريخ ابن العبري المطبوعان في القرن السابع عشر، ومراجع نفيسة أخرى تعتبر في حكم النادر والمخطوط. وقد جرت دار الكتب حتى اليوم على تيسير سبيل البحث والمراجعة للباحثين القلائل الذين يعتمدون في مباحثهم على هذا التراث، وكانت تسمح لهم باستعارة هذه الكتب خارج الدار بإذن خاص، ولمدد محدودة؛ ولكن حدث أخيراً أنها قررت حبس هذه المراجع وعدم التصريح بخروجها من الدار وقصر المراجعة فيها على القراءة بالدار ذاتها؛ وحجة دار الكتب في ذلك المنع هو أن هذه المراجع أصبحت لندرتها كالمخطوطات يجب المحافظة عليها من الضياع، وإبقاؤها أبداً داخل الدار في متناول الباحثين

ونحن مع دار الكتب بلا ريب في المحافظة على نفائسها والحرص عليها من الضياع والتبديد؛ ولكنا نلاحظ أن هذا القرار معطل لمهمة دار الكتب الأصلية. ذلك أن دار الكتب لا تحتفظ فيما عدا هذه المجموعة من المطبوعات القديمة، بكثير من الكتب والمراجع الحديثة القيمة، وجل ما اقتنته الدار في الثلاثين عاماً الأخيرة من كتب القصص والأدب السائر والمؤلفات العادية، وأما ما اقتنته من الكتب والمراجع النفيسة في هذه الفترة فقليل جداً بالنسبة إلى الآلاف المؤلفة من كتب القصص الفرنسي والإنكليزي التي ما زالت تجد في اقتنائها؛ ومعظم ما يقرأ ويعار لا يخرج عن هذه الدائرة، وهذه نتيجة يؤسف لها، ولكن هذا هو الواقع؛ وخير ما تقوم به دار الكتب هو معاونة البحث العلمي وذلك بوضع مجموعتها من المراجع القيمة تحت تصرف الباحثين؛ فإذا كانت تريد اليوم أن تحبس هذه المجموعة بحجة المحافظة عليها فإن ذلك يعطل البحث والمراجعة، لأن معظم الذين يستفيدون من هذه المجموعة لا تسمح لهم ظروفهم بالمكث ساعات طويلة في دار الكتب، ومن المستحيل عليهم أن يترددوا عليها بلا انقطاع ليقوموا بمباحثهم في حجراتها. وخير لدار الكتب أن تعود إلى نظامها القديم في إباحة استعارة هذه الكتب، مع اتخاذ التحوطات والضمانات اللازمة. هذا مع سعيها في نفس الوقت إلى تجديد هذه المجموعة، وذلك بشراء الطبعات الجديدة للكتب التي صدرت لها طبعات جديدة وهي كثيرة تعد بالآلاف. أما إذا كانت دار الكتب تريد أن تغدو متحفاً آخر، وإذا كانت تريد أن تقتصر مهمتها الثقافية على تقديم كتب القصص والأدب الخفيف للشباب، فذلك ما لا نسيغه ولا نعتقد أنه متفق مع وجودها ومهمتها الحقيقية.

تحقيق صحفي شائق

قال الرئيس جفرسون ذات مرة في تعليقه على مهمة الصحافة: (إن إلغاء الصحافة لا يجرد الأمة من مزاياها بقدر ما يجردها إغراقها في الكذب. وإن المرء لا يستطيع أن يصدق اليوم شيئاً تنشره الصحف)، وقد مضى منذ عهد الرئيس جفرسون عصر طويل تطورت فيه الصحافة وغدت قوة عالمية يخشى بأسها. بيد أنه يبقى أن نتساءل دائماً: هل تؤدي الصحافة دائماً مهمتها طبقاً لمبادئ الحق والخلاق؟ هذا ما تصدى لتحقيقه بالنسبة للصحافة الأمريكية اثنان من أكابر الصحفيين الأمريكيين هما مدام سوزان كنجسبوري وهورنل هارت؛ وقد نشرا نتيجة تحقيقهما في كتاب صدر أخيراً تحت عنوان

(الصحف والأخبار) وجرى هذا التحقيق تنفيذاً لرغبة (محسن مجهول) رصد لهذا الغرض مبلغاً كبيراً من المال لدي كلية (برين مور)، وقدم إليها مجموعة كبيرة من قصاصات صحفية لبث يجمعها مدى أعوام. وقد استعرض المؤلفان في كتابهما حالة الصحافة الأمريكية اليوم، والقواعد الأخلاقية والثقافية التي تسير عليها طبقاً لدستور الصحافة الأمريكي؛ وخرجا من ذلك بأن الصحافة تجري في تغذية قرائها على أسلوب آلي محض، فتقصد قبل كل شيء إلى إثارة الشعور والحس، وإذكاء تطلع القراء؛ وإن معظم قراء الصحف الكبرى يستقون معلوماتهم ويكونون أفكارهم من قراءة العناوين ورؤوس الموضوعات. وأما من حيث الناحية الأخلاقية فان الصحف لا تسير على وتيرة واحدة، وكل منها تخرج الخبر المعين في الصيغة التي تناسب اتجاهها السياسي أو الاجتماعي؛ ويترتب على ذلك أن الخبر الواحد يحدث آثاراً شتى طبقاً للصيغ والتعليقات المختلفة التي أخرج بها؛ ومن هنا تضعف الحقيقة في رواية الأخبار. كذلك يتناول المؤلفان مسألة الإعلانات وما تحدثه من اثر في أذهان القراء. ومما يلاحظانه أن الصحف الزنجية تغرق في نشر إعلانات السحر؛ وبذلك تستمر على تغذية عقول الزنوج بهذا الضرب من التخريف. وإلى جانب ذلك تكثر الصحف البيضاء من نشر إعلانات المنجمين وقراء الطالع. وينوه المؤلفان في تحقيقهما بنتيجة خطيرة هي أن الصحافة كانت مسئولة في العصر الأخير عن زعزعة الإيمان بالديمقراطية والثقة في مزاياها، وذلك لما تغرق فيه من تشويه نتائج الحكم الديمقراطي، ومن نشر الأنباء التي تسبغ الريب على صلاحيته من النواحي الاجتماعية والأخلاقية والسياسية.

نقول: وإنه ليجدر بأحد الصحفيين المصريين النابهين أن يقوم بمثل هذا التحقيق، فيحدثنا عن الآثار التي أحدثتها الصحافة في العصر الأخير في عقلية المجتمع المصري، وعن مدى التزام الصحافة المصرية في أساليبها وفي مقاصدها للقواعد الأخلاقية والثقافية الحقة.

توماس مان والجامعات الألمانية

كانت جامعة بون الألمانية ضمن الجامعات التي منحت كاتب ألمانيا الأكبر توماس مان درجاتها الفخرية، وكان ذلك قبل قيام الوطنية الاشتراكية في ألمانيا، وأيام أن كان الكاتب الكبير في إبان مجده؛ ولكن ألمانيا الهتلرية تنكرت لجميع الكتاب الأحرار، وكان توماس مان في مقدمة ضحايا النظام الحالي، فغادر ألمانيا إلى إنكلترا مع أخيه الكاتب الكبير هينريش مان؛ ثم نزعت عنه الحكومة الهتلرية جنسيته الألمانية؛ وعلى أثر ذلك سحبت جامعة بون منه درجتها الفخرية، وأعلنته بهذا التجريد في خطاب موجز جاف؛ فرد عليها توماس مان بخطاب مسهب يفيض وطنية ونبلا؛ وفيه يحمل على النظام الحالي في ألمانيا ويستعرض آثاره المخربة للحضارة الألمانية والتفكير الألماني؛ ثم يعرب عن حزنه لما أصاب الجامعات الألمانية في هذا العهد من الصغار والذل. ويقول: (إن الجامعات الألمانية تحمل قسطاً عظيماً من المسئولية في المحنة الحاضرة لأنها أساءت فهم مهمتها التاريخية، وسمحت بأن تكون مهاداً لتغذية القوى الهمجية التي خربت ألمانيا من الوجهات الأخلاقية والسياسية والاقتصادية. . . وإن كاتبا ألمانيا يدرك مسئوليته وتتوق وطنيته إلى الإعراب من الوجهة المعنوية عن كل ما يحدث في ألمانيا لا يستطيع أن يغض الطرف عن ذلك البلاء الذي يعصف بوطنه، والذي يسحق الأجسام والعقول والأرواح ويسحق الحق والصدق). وقد ظهرت رسالة توماس مان هذه إلى جامعة بون أخيراً بالإنكليزية وأحدث نشرها أثراً عميقاً في إنكلترا وأمريكا. وتوماس مان هو بلا ريب أعظم كتاب ألمانيا المعاصرين، وهو يحمل جائزة نوبل للآداب

مدرسة اللغات الشرقية وخلف السير دينسون روس فيها

أعلنت (الصنداي تيمس) أن مدرسة اللغات الشرقية قد ساعدها الحظ فوجدت خلفاً للسر دينسون روس من بين رجالها هو المستر رالف ترنر. وكان قد عين أستاذاً في جامعة (سانسكرت) بلندن سنة 1923 واشتغل مع السر دينسون روس في مدرسة اللغات الشرقية

ومن المحتمل أن يكون المستر ترنر أقل معرفة بالشرق الأوسط من السر دينسون، ولكنه من المستشرقين الذين لهم شهرة عالمية. وقد تخصص في فقه اللغات الهندية الآرية

كاتب فرنسي يزور مصر
وصل إلى الإسكندرية الأستاذ كلودفارير الكاتب القصصي الفرنسي المعروف. وسيزور القاهرة ويقضي يومين فيها ثم يبرحها عائداً إلى فرنسا
والمسيو كلودفارير ينتسب إلى جماعة من البارزين في المجتمع الفرنسي والمشتغلين بالثقافة؛ وتنظم هذه الجماعة الآن رحلة على شواطئ البحر الأبيض المتوسط للدرس والسياحة
الكتب
الربع الخالي
تأليف الشيخ عبد الله فلبي
للأديب محمد عبد الله العمودي
المستر سنت جون فلبي، صديق العرب وخليفة لورنس، يعدُّ من أبرز شخصيات الاستشراق في العالم العربي
اتصل بالملك ابن السعود فأحبه وأخلص له، ورافق البدو في البوادي كثيراً فبهرته عظمة الصحراء فارتادها، وتقلب في كثير من أقاليمها، وتكاد آثاره تنحصر على قلب البلاد العربية حيث الملك ابن السعود وأقوامه الوهابيون.
له مؤلفات جليلة، ومجهودات جبارة، عرف فيها عالم الغرب بشعب العرب الفتى الناهض وقائدهم الأعظم
وهذه المؤلفات هي المرجع الوحيد لمن يبتغي تاريخ نجد، وحركة (الأخوان) الأخيرة، وكلها باللغة الإنجليزية منها:
و (بلاد الوهابيين) و (تاريخ بلاد العرب) و (الربع الخالي) (قلب جزيرة العرب) أخيراً. . .
وهذا السفر الذي نحن بصدده يعد بحق من أروع الأسفار وأخلد الآثار، وأدهش الأخبار، وإلا فهل يخطر ببال أحد أن هذه الصحراء العربية التي طالما تهيبها الغزاة، وارتدت عنها أنظار المستكشفين، يقتحمها المستر فلبي فيبرز لنا عالماً مجهولاً، وبقعة مسحورة؟!
هذا الربع الخالي يقع بين حضر موت ونجد، واليمن وعمان؛ وهو عبارة عن مفازة عظيمة، واسعة الأكناف، مترامية الأطراف تتناوح فيها الرياح، وتدوي بها الأعاصير؛ وللبدو فيها خرافات وأوهام يحار المرء في صحتها كقولهم بوجود قصور قائمة، وعيون جارية، ومدن مطمورة تحت الرمال! وما إلى ذلك من غريب الأخبار. . . والمؤرخ في مثل هذه الحال لا يمكنه أن يرفض كل أخبار هذه البقاع لما عُلِم من أنها كانت آهلة بالعمران والسكان في عصور واغلة في القدم. . . وما نعلم أحداً طعن في هذه الرمال وكتب عنها تقارير قيمة، وأبحاثاً لها أهميتها في عالم الكشف سوى ثلاثة من الأوربيين هم: برترام توماس، وجيزمان والمستر فلبي أخيراً. . .
وكتبهم هذه لا تتعدى المشاهدة والملاحظة التي مرت بهم في أثناء سيرهم في طريق خاص، بل في طريق مأهول. فياليت شعري ما علم المناطق المجهولة التي لم تطأها حتى أقدام البدو من أبنائها؟؟
ومهما كانت الإحاطة محدودة وضيقة بهذه البقاع فإن المستر فلبي قد نشر لنا صفحة من صفحها المطلوبة، وصورة من صورها الغامضة، وقفنا على الشيء الكثير من أسرارها وخفاياها
وأمنيته في اختراق هذه الآفاق تعود إلى سنة 1918 حتى تحقق حلمه في عهد الملك ابن السعود بعد أن أخذ عليه إقراراً كتابياً إنه غير مسؤول إذا ما لحقه سوء في الطريق؛ فأمضى المستر فلبي وتوكل على الله. وانحدر من (الهفهوف) أو (الهفوف) بإقليم الحسا في عشرين رجلاً و32 جملاً محملة بالماء والزاد والمتاع، واستغرقت رحلته أكثر من شهرين، اخترق الجنوب ثم انعطف نحو الشمال حتى بلغ (السُّلَيِّل) من أعمال (نجران)
ومؤلفه هذا يقع في 400 صفحة من القطع المتوسط، ومحلى بصور رائعة تمثل مناظر ذلك العالم المجهول. وقد قسم كتابه إلى ثلاثة أقسام؛ الأول يشمل صحراء (جافوره) و (جبرين) وهاتان المنطقتان تقعان جنوب الحسا فيهما عيون ونخيل، وهِجر (للأخوان) ثم تليهما إلى الجنوب منطقة (الرمال) وهي عبارة عن مفاوز ذات سطح

متموج؛ ويأتي القسم الثالث وهو (الربع الخالي) ويمضي المستر فلبي ويصور لنا شبحه المخيف كما يتصوره البدو وكيف يبتلع الأرواح، ويدفن الأشباح! وبعد هذا القسم في نهاية الكتاب تأتي شذرات قيمة، وملاحظات دقيقة، لبعض العلماء الطبيعيين في المتحف البريطاني بلندن عن النيازك التي سقطت في بقاع الربع الخالي، وعن أنواع غريبة الشكل من الطيور والحيوانات والحشرات، ومن الأخيرة جمع صناديق قدمها للمتحف البريطاني. . .

والقيمة العلمية لهذا الكتاب يلمسها المرء في ثنايا السطور، فهو يرسم لنا مناظر خلابة للصحراء، والأشياء المتصلة بمظاهر البادية تصويراً طبيعياً، قريب الانتزاع، صادق النظرة، من وصف الأطلال التي مر عليها، ومراتع الوحوش التي أبرد فيها. وآفاق البادية المجلوة التي كانت من أمتع المناظر ساعة الأصيل!

وقد أفاض في حياة الأفراد والجماعات التي تعيش في ذلك العالم المجهول وأخصهم (بني مرة) و (المناصير) فعرض لحياتهم البسيطة الساذجة، ومراعيهم المتجهمة المتناثرة في عرض الصحراء، وكيف أنهم يعتمدون في قوتهم على لحوم الغزلان والوعول والأرانب التي تكثر في تلك البراري. .

وفي هذا الكتاب يكشف لنا المؤلف عن ناحية سياسية مجهولة بين حضرموت ونجد؛ فمن المجزوم به أن القبائل الحضرمية المتاخمة لحواشي الربع الخالي من الصعب عليها الاتصال والأمتيار من بلاد نجد، لوجود هذه الفلاة الفاصلة، ولكن المؤلف يميط اللثام، ويرفع الظن، ويعلمنا أن صلات القبائل الحضرمية في الشمال وأخصها الصّيْعر والعوامر والمناهيل متينة بالبلاد النجدية، ولابن السعود سلطة نوعية على هذه القبائل، فقد روي المؤلف في ص103 حادثة (سيف ابن طناف) شيخ مشايخ المناهيل في (حضرموت) وكيف فاض إلى نجد من أقصى حدود حضرموت ومعه هجين من الأصائل ليقدمه لأبن حلوي حاكم الحسا السابق دليلاً على الولاء والخضوع!

ومن عجيب ما حدثنا به المؤلف في ص116 أنه بينما كان يجوس خلال بعض الغياض يطارد الجعلان لاحظ سائلاً قرمزي اللون يسيل على لحاء إحدى الشجيرات؛ فتبينه فوجده مادة صمغية تشبه تلك المادة التي أنزلها الله في البرية على بني إسرائيل ليقتاتوا بها عند رحيلهم من مصر وهي (المن) الواردة في القرآن الكريم في قوله تعالى (وأنزلنا عليهم المن والسلوى). وقد ذهب العالم الإسرائيلي الدكتور يهودا إلى أن هذه اللفظة مصرية قديمة بمعنى (لا نعرف) وذلك أنه لما خفي أمرها على بني إسرائيل، ولم يدركوا حقيقتها وكنهها كسوها هذا اللفظ الذي معناه في المصرية ما تقدم. ويزيد هذا العالم أن هذه اللفظة لا تزال شائعة الاستعمال في اللسان العبري الدارج: فهل لأستاذنا الدكتور ولفنسون أن يتكرم بإماطة اللثام عن أصل هذه الكلمة ومصدر اشتقاقها، وشجرة المن وما ورد عنها في الآثار اليهودية؟

ويمضي المستر فلبي ويصف لنا الشيء الكثير من القصور المتهدمة، والآثار التي تشير إلى الماضي السحيق وخاصة في منطقة جبرين، كما عثر هناك على حلق مفككة، وخرز مبعثر هنا وهناك، وشظايا خزف، وجرار مدفونة في الرمال!

ويعجبنا من المؤلف أنه كان أثناء الرحلة حركة فعالة، فقلما ترك فرصة إلا وشغلها في البحث والتنقيب، خلال الأشجار وثنايا المخارم، وادعاص الرمل؛ وكان في سيره لا يساير القافلة بل كان في اتجاه آخر يتعثر بين أنجاد الفلاة وأغوارها، عله يقع على جديد، أو يتوصل إلى شيء غريب، وقد كان له ما أراد فقد وضح لنا أن منابت الربع الخالي لا تنبت إلا العبل والعندب والعلقة والبركان والمرخ والحمض والغضا والحرمل والسمر والسرح، وهذه النباتات يقتات بها حيوان ذلك الإقليم وتساعف الجمال في رحلاتها الطويلة الشاقة. ومن أدهش ما حدثنا به المؤلف أنه توجد في تلك الصحارى الغبراء مروج مخضلة ومناضر ساحرة، لمسارح الإبل، ومراعي الشاء!

ولعل الظاهرة الطبيعية في ذلك البلقع من الأرض، هي الرياح فقد كانت شديدة الدوي، قوية الأعتكار، ومع هذا فلها موسيقى عذبة، ولحن مطرب، ترنحت لها أعطاف الشيخ عبد الله وخال نفسه في الـ وذلك عندما اعتلى قوزاً من الأقواز، وكانت الرياح تصفر حواليه، وهناك استرعى انتباهه لحن عذب، ظنه لأول وهلة صادراً عن أحد رفاقه، ولكن تبين له أخيراً أنها أغان مبعثها الرمل وقد استكتب المؤلف أحد العلماء الطبيعيين عن أسبابها في فصل أدرجه في خاتمة الكتاب

وهذه الرياح الهوج كانت من أكثر الصعاب في عرقلة سير الاستكشاف ومضايقة المؤلف في أبحاثه، فهو يحدثنا في ص188 كيف ثارت الطبيعة، فعصفت الرياح، وانبعثت الأعاصير، فزعزعت المضارب وحطمتها ثم استوى عليها الرمل وما أخرجوها إلا من بطن الأرض

وهذه الظاهرة ليس للشك فيها مجال، فكثيراً ما سمعنا في حضرموت أن الرجل يقف في وسط هذا الرمل فما تمضي عليه عشر دقائق حتى يصير مغروزاً فيها؛ والحضارمة لا يسمونه إلا (البحر السافي!)

ويمضي المؤلف ويصف لنا الآبار في هذه الأصقاع، فيحدثنا أنها كثيرة جداً، وما على البدوي إلا أن ينبش الأرض على بعد بعض قوائم، فيرى الماء وقد نزا من جوفها! وحفظ

هذه الآبار من سفى الرياح غريب، فيقول إن البدو يغطون أفواهها بالجلود العريضة وأغصان الشجر، وهم على اتفاق تام على رعاية هذه المصلحة العامة في جميع تطوافهم

وعندما دخل المؤلف منطقة (شنة) ص228 تراءت له منبسطات من الرمل محاطة بكثبان تكون شكل بحيرات وأخرى منها مستطيلة، أدى بحثه إلى أنها بحيرات كانت موجودة من العصر الجيولوجي الثالث، وكانت تتدفق إليها الأنهار من شتى أنحاء الربع الخالي، حاملة الطمي معها، ثم لم تلبث هذه البحيرات أن جفت وفاضت عليها أنفاس الرياح فغمرتها بكثبان الرمل!

ويظن المستر فلبي أن بلدة (شنة) لا تبعد عن البقعة التي كان وادي الدواسر يصب مياهه فيها في الأعصار القديمة؛ ويعزز رأيه بأن حفافي تلك البحار لا تزال محسوسة حتى هذه الساعة في الأجراف التي تعود إلى العصر الميوسيني في طرقات (جيبان) وأفاض المؤلف في هذه الظاهرة الجيولوجية العجيبة التي خرجنا منها بأن بقاع الربع الخالي كانت آهلة في عصور سحيقة بالسكان والعمار، وكانت حضرموت وظفار وجبال القرا، بل الشاطئ الجنوبي من الجزيرة العربية مغموراً بالمياه؛ وكانت وديان الدواسر وتثلث وحبونة وسحبة وبيشة أنهاراً تصب مياهها في رحاب الربع الخالي؛ فلما جفت هذه الأنهار، وأضحت ودياناً كما هي اليوم أنحسر الماء عنها فخلت تلك البقاع فلم يبق فيها إلا هذه الآثار من الأصداف وأحجار البحر، وفضلات الزجاج، والصخور الغريبة التي شاهدها المؤلف وشحن منها صناديق. وقال عن وادي الدواسر إنه أعظم الأنهار القديمة ينحدر من جبال عسير واليمن فيمر على (دام) و (السُّلَيِّل) فيلقي بنفسه في أحضان الربع الخالي!

وهذه النظرية المحيرة لم يقل بها المستر فلبي وحده، بل فطن لها كثير من علماء الجيولوجيا كملطبرون والعالم الإيطالي كاتاني داتيانو، إذ يعتقدون استناداً إلى الأدلة الجيولوجية أن الجزء الجنوبي من بلاد العرب كان في يوم ما مزدهراً بحضارة عظيمة تعود إلى ما قبل التاريخ، أيام كانت هذه البقاع تأهل بأقدام أمم الأرض وأشدها قوة من بني عاد. . .

وهذا السفر الجليل الذي خدم فيه المؤلف العرب لم يسلم من بعض الهنات، من ذلك ما جاء في ص77 عند الكلام على قبيلة (المناصير) فقال، استناداً إلى ضعف رواية، إنها قبيلة

كانت تدين بالمسيحية واسمها يدل عليها!

وفي ص78 تكلم عن أجود أنواع الإبل، فقال إنها الإبل التي تنتمي إلى قبيلة (آل بوشامس) من قبائل عمان، وهذه القبيلة لا تعد من المسلمين! بل تنتمي إلى المذهب الأباضي، ولهم صلاة عجيبة!

وهذه شطحة من (أخينا الشيخ عبد الله)، فالأباضية فرقة من فرق الإسلام!

وفي بقاع الربع الخالي يوجد حيوان من نوع الماعز يسميه الأهالي (الوضَيْحي) وقد أطلق المؤلف عليه اللفظ الإفرنجي وهذه اللفظة لا تعني إلا (الوعل) وهو يختلف عن (الوضيحي) في انتصاب قامته، وتقوس قرنيه مع انتظام عقد عليهما، وهذا الحيوان يوجد بكثرة في جبال حضرموت، أما الوضيحي فيظهر أن أسمه العلمي

وفي الكتاب نبدة عن رملة (وبار) الشهيرة إذا ساعفتنا الظروف نقلنا منها شيئاً لقراء الرسالة

وأخيراً، لا يسعنا إلا أن نهتف هتاف المعجبين بهذا المجهود الذي بذله المستر فلبي فقدم للعرب خدمة تذكر له أبد الدهر

محمد عبد اله العمودي

بدار العلوم

العدد 220 - بتاريخ: 20 - 09 - 1937

حقيقة النفس

هل إليها من سبيل؟

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

كان (ويندل هولمز) يقول - ولا يزال، على الأقل في كتابه فقد شبع موتاً من زمان - إن الإنسان في حقيقته ثلاثة؛ وإن (أحمد) - مثلاً - توجد منه ثلاث صور: فهنا احمد كما يعتقد هو في نفسه، وهناك احمد ثان كما هو في رأي محمد، وهناك احمد ثالث هو الذي يتكون من اعتقاده في رأي محمد فيه، وعلى هذا القياس يمكن أن يكون هناك ألف احمد أو أكثر، ولا يكون لأحمد الحقيقي وجود في الواقع، لأنه ضائع بين شخصياته المتعددة، ولأنه هو نفسه قلما يعرف حقيقة نفسه فكيف بمعرفة غيره؟

كنت أفكر في هذا الذي قاله ويندل هولمز لأن صديقاً لي كان يبدو لي كأنه طائفة من النقائض جُمعت وخُلط بعضها ببعض وعُجن التراب فيها بالنار، ثم صيغ من هذا المزيج المتنافر وغيره، مما يخفى علينا، إنسان نعرفه باسمه، ولا نعرف كنهه وحقيقته؛ وابتسمت وقد خطر لي أنه كالمهربات التي يجد رجال الجمارك مكتوباً على صناديقها: (بطاطس) أو (زيتون) ويفتحونها فإذا البطاطس أو الزيتون هناك، ولكن حشوه حشيش أو رصاص أو غير ذلك من المحضورات! وكنت أعجب له هل يدرك، يا ترى، أن له بواطن وظواهر مختلفات، وأنه أشخاص كثر لا شخص واحد، وأن في أعماقه تيارات شتى تتلاقى لتتدافع لا لتتساير؟ فسألته عن ذلك فقال: (إنك لست أقل مني تعدداً، أنت أيضاً لك جوانب كثيرة) فبينت له أني لا أنتقد ولا أعيب، وإنما أريد أن أفهم، فكان مما سمعته منه: (إنك أنت أيضاً لك سيرة في حياتك العامة، وسيرة أخرى في حياتك الخاصة، ولك رأي تذيعه ورأي تضمره، وشخصية تكشف عنها وأخرى تسترها، ونزعة تبديها ونزعة تحجبها؛ أو لعلك لا تتعمد شيئاً من ذلك ولا تفطن إليه ولا تدريه ولكنك على التحقيق تغير جلدك في اليوم الواحد أكثر من مرة)

قلت: (إذن ما حقيقة الإنسان؟)

قال: (حقيقته يعلمها الذي خلقه وركبه فيما شاء من الصور)

قلت: (قد تؤدي هذه الحيرة إلى إنكار المرء لنفسه. أين أنا بين هذه الصور العديدة المتناقضة التي تبدو لي كأنها لي؟)

قال: (وما المانع؟)

قلت: (وإذا ضاعت نفسي؟ إذا خفيت عني حقيقتها؟)

فصاح بي وهو يضحك: (إذا؟ تقول إذا؟ إن حقيقتها ضائعة يا صاحبي من قبل أن تفطن إلى احتمال ضياعها! تعال. . . تعال)

قلت: (إلى أين؟)

قال: (وما سؤالك هذه؟ أتكره أن تريح رأسك المتعب أو أن تنظر إلى صورة لجانب من نفسك الخفية المضمرة؟)

قلت: (ماذا تعني؟)

قال: (أعني أن النفس كتاب فيه ورق كثير. . . كثير جداً. . . ولكنه مطوي. . . يحتاج إلى يد تفتحه وتقلب صفحاته؛ هذه الأيدي هي المناسبات والظروف. وكثير من الناس تظل كتب نفوسهم مطوية لأن حياتهم لا تتيح لهم أسباباً تدعو إلى فتح الكتاب والنظر إلى ما فيه. . . وقد تكون نفيسة جداً، ولكنها تبقى مغلفة مجلدة، لأن حياتهم تتدفق بانتظام في مجرى مألوف مثلاً، لا يحوج إلى الرجوع إلى الكتاب والاستمداد من وحيه والاسترشاد بما فيه. . . ملايين وملايين من الخلق هكذا، وتراهم فترى البساطة والوضوح والجلاء. . . لاشيء يبدو خفياً أو معقداً. . . ولكن من يدري كيف يكونون لو أن الكتاب فتح مرة؟ وماذا ترى يبقى حينئذٍ من البساطة والوضوح؟ تعال، تعال).

قلت: (هل لي أن أعرف أي يد ستفتح لي اليوم كتابي وتقرئني بعض ما فيه؟)

قال: (فتاة رشيقة ظريفة تنسيك الدنيا والسعي والكدح وراء الرزق).

قلت: (ومعنا رابع أو رابعة؟)
قال: (رابع: أخوها)
فهممت بسؤال ولكنه زجرني عنه، وقال: (اركب اركب)
وبلغنا البيت فأطلق النفير فأطل الذي هو (أخوها) وصاح: (حالاً. حالاً)
وخرجنا إلى روضة على النيل وكانت جلسة ظريفة وممتعة، نعمنا فيها بالضحك والحديث وأنس المجلس ثم رجعنا، فسألني لما صرنا وحدنا: (ما رأيك؟)
قلت: (لا أدري ماذا تستفيد من هذه المجالس إلا الحسرة. أولى بك أن تقصر. . . هو أحجى وأرشد)
قال: (لا أستطيع. إني مدبر فعيني لا تزال تتلفت إلى ما أُوَلِّي عنه. أنت أصغر مني فالذي أمامك لا يزال إن شاء الله أطول مما خلفت وراءك. وهل وراءك إلا الطفولة الغافلة والحداثة الجاهلة والشباب الغرير؟ ولكني أنا ورائي خير ما في العمر. . . فلا يسعني إلا أن أنثني وأتلفت وأدور وأتوقف. غير أني لا أتحسر لأني أصح إدراكاً لحقائق الحياة من أن أفعل ذلك؛ وحسبي متعة النظر ولذة الحديث، ومن متعي أن أرى الشباب كيف يلهو كما كنت ألهو. ولست أحجم عن اللهو إذا تيسرت لي أسبابه وإلا ففي لهو العقل الكفاية)
قلت: (اسمع. إني لا أرى مما يليق بك أن. . .)
فصاح بي: (خل ما يليق بي لي، فإنه شأني. واسمع. إن لي حياتين: حياة العمل وهذه مشتركة بيني وبين الناس وأنا فيها جاد صارم، وحياتي الخاصة وهذه لي وحدي وليس للناس شأن بها فيما لا يمسهم منها. . . لا تعترض. . . إن الناس جميعاً كذلك ومنافق كذاب من يدعي غير هذا)
ومن آرائه أن أهل المدن المتحضرين ليسوا أقل خشونة وجلداً من أهل الريف، ولا أرق ولا أطرى كما يتوهمهم البعض. ومن قوله لي في ذلك: (إنكم تنظرون إلى أفراد معدودين من ذوي اليسار والترف، وتقيسون أهل المدن جميعاً على هؤلاء الآحاد وتنسون أن كثرة الناس من الفقراء الذين لا يكفون عن السعي والكدح في سبيل الرزق ليلاً ونهاراً. . . أين في الريف من يتعب كتعب أهل المدينة؟ أين في الريف من يعدم قوتاً، ويبيت طاوياً كما يبيت الكثيرون من سكان المدن؟ وأين هو هذا الترف في حياة المدينة؟ وليس في المدن رذيلة إلا وفي القرى مثلها؛ ولكن المدن مزدحمة غاصة، وتيار الحياة فيها زاخر، فالعيوب تبدو أبرز. كلا، الإنسان هو الإنسان سواء أكان في قرية سحيقة أم في المدينة، ولكن الحياة في القرية أهدأ وضغطها على الأعصاب وإتلافها لها أخف وأقل؛ فالناس في المدن أطلب للترفيه، وأكثر مصارحة بالرغبة فيه)
وآراؤه في مجالسه العامة غير آرائه في مجالسه الخاصة، فهو مثلاً في حياته العامة لا ينحرف مقدار شعرة عن تأييد التقاليد المقررة، ولا يكف عن الدعوة إلى مغالبة النفس وضبطها وكبحها والحرص على الفضائل الاجتماعية، ولكنه حين يكون بين إخوانه الذين اصطفاهم لا يتردد في المعالنة بإنكار الخير والشر والفضيلة والرذيلة، ويذهب إلى أن هذه كلها أكاذيب يستعان بها على تنظيم حياة الجماعة ووقايتها ما تجره الفوضى؛ ويؤدي إليه إرسال النفس على السجية الساذجة بلا كابح. وعنده أن الإنسان حيوان مصقول لا أكثر، ولكن الصقل لا يمنع أن تطغى عليه حيوانيته إذا استفزها شيء، فلا تعود طبقة الدهان - وإن كانت سميكة - تنفع أو تصد. وما من إنسان في رأيه يحجم عن الشر حتى من غير استفزاز إذا وسعه أن يقدم عليه وهو آمن. وكل امرئ يشتهي أن يكون له مال الأغنياء، وقوة الأقوياء، وسطوة الحاكم، وبطش الظالم، وفجور الفجار؛ ولكنه يقيس قدرته إلى شهوته فيطلب ما في طوقه، ويقصر عما عداه، وتفعل العادة والنظام المألوف والشرائع فعلها أيضاً.
ولست أعرفه مشى في جنازة أو بكى على ميت، فأن هذه عنده سخافة. وحبه مع ذلك للحياة وجزعه من الموت أقوى ما عهدت، ووفاؤه لإخوانه وحدبه ورقة قلبه من الفلتات المفردة في هذه الدنيا. وهو حين يذكر نظرية قديمة ظهر بطلانها وعفي عليها الزمن، يخيل إليك أنه يؤبن ميتاً على قبره من فرط شعوره بالزوال؛ وإذا سمعته يبين فساد رأي رأيته يترفق بالرأي ولا يعنف في تفنيده كأنما يتقي إيلامه وجرحه.
وقد قلت له مرة: (إنك تهدم بيد ما تبني بالأخرى) فقال: (كلا، فإن الذين أصارحهم بما

انطوي عليه من الآراء الخاصة - أو على الأصح أدع نفسي تتفتح على هواها بلا كابح في حضرتهم - يسعهم أن يفهموا ويقدروا، بل أن يهتدوا إلى أصح وأصدق من آرائي؛ أما سواد الناس فأصلح لهم أن يبقوا على التقاليد، وأن تتحدر حياتهم في المجاري المقررة المحفورة من قديم الزمان، وإلا ارتدوا إلى الهمجية. ثم إني أخشى أن أكون مخطئاً فكيف أستبيح أن أزلزل للناس نفوسهم؟ ألا يمكن أن يكون الناس على صواب وأكون أنا الذي ركبت من الغلط أبلد الحمير؟ جائز. . . كل شيء جائز)
صحيح! كل شيء جائز! ولهذا تضيع الحقيقة.

إبراهيم عبد القادر المازني

توارد الخواطر

للأستاذ عباس محمود العقاد

قبل أربع عشرة سنة كتب صديقنا الأستاذ المازني مقالاً عن الخيام ألمع فيه إلى تصوف الخيام واستغرب أن يدين رجل مثله بخيالات المتصوفة وشطحاتهم البعيدة عن تحقيق الحلم وتقرير الواقع لأنه (كانت له موهبة تنأى به عن التصوف: ذلك أنه كان رياضياً بارعاً؛ ومما يذكر له في هذا الباب تنقيحه التقويم السنوي تنقيحاً أظهر فيه من الحذق والأستاذية ما أطلق لسان جيبون المؤرخ الإنجليزي بالثناء عليه. وله كذلك طائفة من الجداول الفلكية ومؤلف في علم الجبر بالعربية؛ والذهن الرياضي مجاله وعمله ضبط الحدود والحصر وتعليق النتائج بأسبابها والمعلول بعلته، وهو عمل يتطلب من الدقة والعناية والترتيب والتبويب ما لا يطيقه أو يقوى عليه ذهن المتصوف. ومن العجيب أن فتزجرالد لم يفطن إلى دلالة هذا ولا خطر له أن يسوق هذه الحجة فيما ساقه لتبرئة الخيام من التصوف).

ومن رأيي الذي لا أزال أراه أن الملكات الرياضية أقرب الملكات إلى التصوف والفروض البعيدة والعقائد الخفية، فكتبت يومئذٍ بصحيفة البلاغ مقالاً عن القرائح الرياضية والتدين، ناقشت فيه رأي الأستاذ المازني وبينت فيه أسباب العلاقة بين القريحة الرياضية وبين التدين والإيمان بالغيب؛ وأهمها أن حقائق الرياضة ذهنية وليست خارجية، فهي أقرب إلى الفروض وأبعد عن مراجعة الواقع الذي يراجعه علماء الحس والتجربة والمشاهدات العملية؛ فاعتماد الرياضيين على البديهة أكثر من اعتمادهم على الملاحظة، واستعانتهم بالفرض أكثر من استعانتهم بالتجربة؛ وموقفهم أمام المجهول موقف يسلم به فرضاً ولا يستبعد فيه أي شيء، وهذا سر تدينهم وإخباتهم وميلهم إلى تصديق المعجزات والخفايا وما شاكلها مما يلي البديهة الغامضة ولا تكاد تجمعه بظواهر الأشياء صلة. وفي عصرنا هذا لم يشتهر أحد من الرياضيين كما اشتهر أوليفر لودج الإنجليزي وفلامريون الفرنسي وأديسون الأمريكي، وكلهم من أعظم علماء الرياضيات، وكلهم مسترسل في إثبات أسرار الروح وكشف غوامض الاستهواء.

قلنا: (لهذا تتآخى فروع هذه الحقائق أحياناً وتتآلف العلوم التي تبحث فيها وتتقارب الملكات التي تكون في المشتغلين بها، فيكثر من يجمع بين الفلسفة والرياضة ولا يندر أن ترى من يجمع بينهما وبين الموسيقى معاً. فالفارابي مثلاً كان رياضياً مبتكراً في الموسيقى، وفيثاغورس أقدم فلاسفة ما وراء الطبيعة عند اليونان كان يبني فلسفة الكون كله على النسب الموسيقية بين الأعداد. وقد مر بمصر قبل أيام نابغة من أفذاذ الرياضة هو ألبرت اينشتين صاحب الفلسفة النسبية التي دهمت الناس ببدع في تعريف الوقت والفضاء يكفي أن نذكر منها أن الخط المستقيم ليس من اللازم أن يكون أقرب موصل بين نقطتين. وهو فيلسوف رياضي وموسيقار بارع في العزف على القيثار. وليس يخفى الشبه القريب بين ملامح العظماء من الفلاسفة والرياضيين وملامح العظماء من نوابغ الموسيقيين. فقد تلتبس عليك صورهم حتى لا تكاد تميز بعضهم من بعض ولا سيما في نظرات العين وسعة الجبهة وارتفاعها. . .) ومن ذلك أن ينبغ العازفون والحاسبون والعدادون في الطفولة الباكرة وفيما دون الخامسة أحياناً ولا يحصل ذلك في سائر العلوم.

ذكرني ذلك البحث القديم الجديد اتفاق عجيب بين أمور متعددة لا رابطة بينها في هذه الأيام.

فالأستاذ المازني يكتب عن توارد الخواطر، وفي مقالي الأخير بالرسالة كلمة عن الرياضيات واتصالها بعالم الروح، وبينما أفكر في هذه الموضوعات إذا بكتاب جديد يصدر من مطبعة (جولانكز) الإنجليزية عنوانه (عظماء الرياضيين) لمؤلفه الأستاذ (بل) الرياضي المشهور في الجامعات الأمريكية. فتصفحته واستقصيت بعض تراجمه فإذا به لا يقول ما قلته عن الصلة بين التدين والرياضة والموسيقى والحقائق الفرضية، ولكنه يعرض لنا تراجم العظماء الرياضيين وعجائب آرائهم ونوادر صباهم وطرائف أخبارهم فلا يسع القارئ إلا أن يخرج منه بتلك النتائج التي أجملناها قبل أربع عشرة سنة كأنها استقصاء ثم تلخيص لكل ما ورد في ذلك الكتاب.

من ذلك أن الرياضي الكبير سلفستر يقول: (ألا يجوز إذن أن توصف الموسيقى بأنها رياضيات الحس، وأن توصف الرياضيات بأنها موسيقى العقل، وأن يقال إن الموسيقار يحس رياضياً وأن الرياضي يفكر موسيقياً؟ فالموسيقى هي حلم الحياة، والرياضة هي عمل الحياة، وكلتاهما تستوفي نصيبها من الأخرى حين يرتقي الذهن البشري إلى أوجه الأعلى، ويسطع في مزدوج من العبقرية يجمع بين موزار وديرشليه، أو بين بيتهوفن وجاوس، وهو الازدواج الذي تجلى وميض منه في عبقرية هلمهولتز وأعماله).

ومن ذلك أن الرياضي السويسري النادر المثال ليونارد إيلر الذي قيل فيه إنه يصنع المعادلات كما يتنفس الهواء، كان شديد التدين، وكان يصلي بالأسرة في منزله؛ وخطر له أن ينتقل من ألعوبة دبروها في البلاط الروسي للفيلسوف (ديدرو) إلى الجد كل الجد في إثبات وجود الله بالمعادلات الرياضية. فلما تمادى ديدرو في تكفير رجال الحاشية الروسية ومجادلتهم في وجود الله تعمدت كاترين الكبيرة أن تداعبه وتفحمه من طريق الرياضيات التي كان يجهلها كما يجهل اللغة الصينية، فوكلت به إيلر فواجهه في جد ورصانة ولفق له معادلة وتحداه أن يجيب إن استطاع الجواب. . . فلم يدر الفيلسوف بماذا يجيب، وكانت أضحوكة البلاط إلى حين.

قال الأستاذ (بل) مؤلف الكتاب: (ولم يقنع إيلر بفكاهته الفاخرة بل حاول بعد ذلك أن يجلو الزنبقة وراح وهو جاد غاية الجد يركب المعادلات والبراهين الرياضية التي تثبت أن الله موجود وأن الروح مجردة من المادة. وقيل إن هذه البراهين تسربت إلى فلسفة الفقه والتصوف على أيامه فكانت على الأرجح نخبة الأزاهير التي تتمثل فيها عبقريته الرياضية بمعزل عن الشؤون العملية).

ومن ذلك أن جاوس الملقب بملك الرياضيين عرف تصحيح الحساب قبل بلوغه الثالثة من عمره. وكان أبوه رئيساً لطائفة من العمال، فلما كان يوم السبت واستدعاهم لإحصاء ما لهم وما عليهم بمسمع من طفله الصغير غلط في الجملة فصاح به الطفل: (يا أبتاه! ليس هذا بصحيح، وإنما الصحيح كيت وكيت) وروجع الحساب فإذا هو على صواب.

ويقول المؤلف: (ومما تشوق ملاحظته - لما هو معهود في الرياضيين من الميل إلى الموسيقى - أن فيرستراس الكبير لم يكن يقبل الأنغام على ضروبها مع اتساع مشاركاته، فلم تكن تعنيه ولم يزعم هو أنها تعنيه).

وعندنا أن هذا غريب حقيق بالملاحظة كما قال المؤلف، إلا أن غرابته تهون كثيراً متى ذكرنا أن فيرستراس هو القائل إن الرياضي لا تستقيم له ملكة الرياضة إلا بقسط من الشاعرية فيه، وأنه كان يعارض إخوته في تعلم الموسيقى لأنهم كانوا يروضونه بها على الرقص وشهود المجتمعات.

وكان (كبلر) يزعم أنه اهتدى إلى نسبة بين حركات الكواكب السيارة ومواقعها تشابه النسب التي بين الأنغام الموسيقية والمقامات.

وتعددت الأقوال التي ترجع بتركيب الكون كله إلى النسب الرياضية ولا سيما بعد ما ظهر في السنوات الأخيرة من تحليل النور ورد المادة كلها إلى الإشعاع، ورد الإشعاع كله إلى مقدورات عددية يوشك أن تخرج به من عالم المادة إلى عالم الحساب. فبعد مقال أفلاطون: (إن الله يهندس) ومقال جاليلي: (إن كتاب الطبيعة العظيم مكتوب بلغة الرياضيات) ومقال جاكوبي: (إن الله يحسب) يقول الأستاذ جينس في كتابه (الكون الخفي) وهو من أقطاب العصر الحديث: (إن مهندس الكون الأعظم قد بدا لنا اليوم محض رياضي. . . وإن الكون يلوح لنا رياضياً على منوال مخالف لكل معنى

تصوره الفيلسوف (كانت) أو كان في وسعه أن يتصوره في أيامه؛ فإن الرياضيات بالإيجاز تهبط إلى الكون من عل ولا تصعد إليه من الأدنى).

ومن الاتفاق الذي ينساق في هذا المساق ما رواه الأستاذ جينس في كتابه المتقدم عن رأي هكسلي في المصادفات وتوارد الخواطر. فهو يعتقد اعتقاده أننا لو أسلمنا الآلات الكاتبة إلى ستة قرود يدقون على حروفها بغير قصد ولا معرفة، ملايين بعد ملايين من السنين لكان لزاماً أن يجيء الوقت الذي (تنكتب) فيه بهذه الوسيلة جميع الكتب التي في المتحف البريطاني).

ولا يخفى ما يريده هكسلي بهذه النكتة المنطقية، ولكنه على كل حال قد خرج بالمسألة إلى (ما وراء الطبيعة) وأبطل حكم العقل والإرادة فيها. فمهما يطل عمر الإنسان فما هو ببالغ أن يفسر لنا على هذا النمط اتفاق الخواطر في صفحة واحدة بله الألوف من المجلدات التي تحويها دار الكتب البريطانية.

ولا حاجة إلى القرود الستة وملايين السنين والآلات الكاتبة لتعليل توارد الخواطر في الآراء أو في العبارات، فإن علم النفس يغنينا حيث لا يغني التطوح ملايين السنين وراء المشهود والمحسوس. وقد كان علم النفس كافياً حتى الآن لتعليل حفظ العقول صفحات عديدة في حالة (الغيبوبة) أو حالة التنويم المغناطيسي أو حالة (التنويم الذاتي) أو ما يشبه هذه الحالات من عوارض الحمى العصبية. فإذا رأينا حالة كالتي رواها صديقنا الأستاذ

المازني يستوعب فيها الإنسان بضع صفحات لا يخرم منها حرفاً ولا نقطة ثم يعيدها وهو معتقد أنه يمليها من وحي بديهته فلنرجع إلى علم النفس في وصف العوارض التي تأتي بهذه الغرائب فإنه لكفيل بتعليلها أو بإبداء مقطع الحق فيها.

وإنما العبرة من جميع ما تقدم أن نسأل: ترى لو صدر كتاب (عظماء الرياضيين) قبل كتابة المقال الذي ناقشت به الأستاذ المازني منذ أربع عشرة سنة، أما كان أقرب الاحتمالات إلى الذهن أنني قرأت ذلك الكتاب واستوحيت منه التحليل الذي فرقت به بين عقول الطبيعيين وعقول الرياضيين وعقول الموسيقيين؟ أم كان من المستغرب يومئذٍ أن يقال إنني لم أطلع على ذلك الكتاب وإن كان مؤلفه لم يبسط فيه الرأي الذي بسطته، ولم يتجاوز أن جمع أخبار الرياضيين وعجائبهم في سجل واحد؟ فأما وصدور الكتاب بعد كتابة المقال محقق لا شك فيه فهذا التوافق يبدو سهلاً جائزاً خلواً من الغرابة. ومن ثم ينبغي أن نقدم الاستقراء العقلي - في تمحيص الخواطر المتواردة - على استقراء التاريخ مع رجاحة هذا وصعوبة الاستغناء عنه، لأن استقراء التاريخ وحده لا يكفي للبت في جميع الأمور.

ونعني بالاستقراء العقلي أن نمتحن ذهن الكاتب وأن نتابع وجهته في تفكيره؛ فإذا عرفنا أنه قمين أن يقول ما قال، وأن يخوض حيث خاض، ويتوجه حيث توجه، فالاتهام بعد ذلك ضرب من اللغو والتمحل، وإن لم يكن كذلك فهو متهم ولو لم يكشفه استقراء التاريخ.

أما حين يقع الاتفاق في العبارات والحروف صفحات متواليات فليس من المروءة أن نجزم باستحالة ذلك قبل أن نحتكم إلى الاستقراء العقلي من طريق علم النفس ودرس الذهن الذي تقع له أمثال هذه الغرائب، فقد يهدينا الحكم الوئيد هنا حيث يضلنا الحكم السريع، ولا ضير علينا إذا تطابق الحكمان في النهاية بعد الموازنة والمقابلة بين جميع الفروض.

عباس محمود العقاد

1 - مصر في أواخر القرن الثامن عشر كما يصفها الرحالة سافاري

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كانت مصر خلال العصور الوسطى كعبة لطائفة كبيرة من الرحل والباحثين يفدون عليها من المشرق والمغرب، تجذبهم عظمتها وآثارها وعلومها وفنونها؛ وقد ترك لنا كثير من هؤلاء الرحل آثاراً قيمة عن مصر وأحوالها في مختلف العصور. ونستطيع أن نذكر من هؤلاء ابن حوقل وعبد اللطيف البغدادي وابن بطوطة، والبلوي، وابن خلدون من الرحل والعلماء المسلمين، ومركوبولو ودي جوانفيل وبيترو مارتيري من الرحل الغربيين. ولم ينقطع ورود هذا الرهط من الرحل بعد الفتح العثماني، بل نلاحظ

بالعكس أن الرحل والباحثين الغربيين يفدون على مصر منذ القرن السابع عشر في فترات متقاربة ويضعون عنها المؤلفات والبحوث المطولة؛ ولدينا منهم في القرنين السابع عشر والثامن عشر ثبت حافل؛ ولدينا من آثارهم مجموعة نفيسة من الوثائق والصور عن مصر في هذه الفترة. وإذ كان العصر العثماني من أغمض عصور التاريخ المصري وأشدها ظلاماً، فإن هذه المجموعة من آثار الرحل الغربيين تعتبر من أهم مراجعنا في دراسته وتصويره.

بيد أنه مما تجدر ملاحظته هو أن القرن الثامن عشر كان بالنسبة للدولة العثمانية فترة انحلال وضعف؛ فقد كانت قواها العسكرية تنهار تحت ضربات روسيا القوية، وكانت الاضطرابات والمتاعب الداخلية تقوض من صرحها القديم الشامخ؛ وكانت مصر في ذلك الحين قد أخذت تتحرك من سباتها الطويل، وتترقب الفرص لتحطم ذلك النير الغاشم الذي يعصف بقواها المادية والروحية منذ قرنين. وفي منتصف القرن الثامن عشر استطاع زعماء مصر، بقية الأمراء من الشراكسة أن يستردوا نوعاً من الاستقلال المحلي، وأن يبسطوا حكمهم الفعلي على مصر، وأن يجعلوا سلطة الدولة العثمانية اسمية رمزية فقط؛ وتعاقب في حكم مصر منهم عدة بدأت بإبراهيم بك ورضوان بك، ثم علي بك الكبير. فمحمد بك أبي الذهب، فمراد وإبراهيم. على أن هذا الحكم الداخلي المستقل كان نوعاً من المغامرة التي لا تستند إلى قوة مادية يخشى بأسها أو تأييد شعبي حقيقي، وكانت مصر عاجزة عن مواجهة الأخطار الخارجية دون معاونة الدولة العثمانية. ففي تلك الفترة التي

انهارت فيها قوى الدولة العثمانية، والتي تركت مصر فيها مفتحة الأبواب دون حماية حقيقية، نرى ثبتاً من الرحل الغربيين يفدون عليها في فترات متقاربة، ويدرسون أحوالها وشئونها بعناية ودقة؛ وكان جل هؤلاء الرحل من الفرنسيين والإنكليز؛ فهل كان مقدمهم إلى مصر في تلك الظروف أمراً عرضياً؟ وهل كانوا طلاب سياحة وثقافة ودرس فقط؟ أم كانوا طلائع الاستعمار الغربي المتوثب يومئذٍ، قدموا إلى مصر يجوسون خلالها ويتفقدون شئونها وأسرارها تمهيداً لمشاريع يجيش بها هذا الاستعمار؟ ويلوح لنا أن هذه الرحلات والدراسات المستفيضة لم تكن بريئة كل البراءة، ولم تكن بعيدة كل البعد عن وحي الاستعمار ومشاريعه؟ ولقد ألفى الاستعمار في هذه الدراسات كل ما يرغب في معرفته عن مصر وعن أحوالها الاقتصادية والسياسية وبالأخص عن قواها الدفاعية. وفي خاتمة القرن الثامن عشر دبر الاستعمار الأوربي أول مشاريعه لافتراس مصر، وجاء بونابرت إلى مصر تحدوه أحلام إمبراطورية عظيمة، كان يعتقد أنه يستطيع أن يتخذ مصر قاعدة لتحقيقها.

وكان في مقدمة الرحل الذين قدموا إلى مصر قبل الفتح الفرنسي بقليل رحالة ومستشرق فرنسي ترك لنا عن مصر في أواخر القرن الثامن عشر أثراً من أنفس الآثار وأقيمها، فإن الرحالة العلامة هو كلود إتيان سافاري الذي قدم إلى مصر في سنة 1776، تحدوه أحلام مشرقية باهرة؛ وكان مولده في فتري سنة 1750، ودرس دراسة جامعية حسنة في رون وباريس، وكان في السادسة والعشرين من عمره حينما اعتزم الرحلة إلى المشرق يجذبه بهاء المشرق وروعته؛ وقضى في مصر ثلاثة أعوام طاف خلالها أرجاء الديار المصرية من شرقها إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها، وزار جميع معالمها ومعاهدها وآثارها، ودرس جميع أحوالها وشئونها ومجتمعاتها، ودرس اللغة العربية والدين الإسلامي: ثم زار الجزر اليونانية، وعاد إلى فرنسا سنة 1781 بعد غيبة دامت خمسة أعوام؛ ووضع عن رحلته ودراساته في مصر طائفة من الرسائل المستفيضة ملأت ثلاث مجلدات، ونشرت بين سنتي 1785 و 1789؛ ثم نشر ترجمة حسنة للقرآن وأتبعها بكتاب في تفسير قواعد الدين الإسلامي تحت عنوان وترجم بعض قصص ألف ليلة وليلة إلى الفرنسية، ووضع أجرومية للغة العربية والعامية ظهرت بعد وفاته. وتوفي في باريس سنة 1788، وهو دون الأربعين.

كان سافاري إذاً رحالة من طراز خاص، أعدته مواهبه ومعارفه للقيام بدراسات حسنة في بلاد المشرق؛ فقد درس اللغة العربية، وعرف تاريخ المشرق، وعرف كثيراً عن الإسلام والشريعة الإسلامية؛ ومن ثم كانت رسائله عن مصر تمتاز بطابع من الدقة لا نجده في كثير من الكتب والدراسات المماثلة، وهو يقدم إلينا هذه الرسائل تحت

عنوان (رسائل عن مصر) ' ويصف لنا محتوياتها فيما يأتي: (بها وصف لخلال أهل مصر القديمة والحديثة ووصف لنظم الدولة، وأحوال التجارة والزراعة، وغزو القديس لويس لدمياط منقولاً عن جوانفيل والروايات العربية، ومعها خرائط جغرافية). ويهدي سافاري كتابه إلى (صاحب السمو أخي الملك. . لما أسبغه عليه من مؤازرة مكنته من نشر رسائله، وإنه لشرف عظيم أن يتوجها باسم مولاه. .) ويوجه رسائله إلى هذا الأمير أخي الملك؛ وقد كان ملك فرنسا يومئذٍ هو لويس السادس عشر وأخوه الدوق دورليان. ويبدو مما كتبه سافاري في رسالته الأولى أن الأمير المشار إليه هو الذي نصحه عند سفره أن يدرس أحوال المجتمعات التي اعتزم زيارتها وخلالها وعاداتها ولغاتها.

وقد كان لآثار مصر الفرعونية وذكرياتها القديمة في نفس سافاري أعظم الأثر، وهو يعرب لنا في مقدمته عن عظيم إعجابه بذلك التراث الباهر، ويقول لنا: (إن من يرى الآثار التي تحتفظ بها مصر، يستطيع أن يتصور أي شعب هذا الذي تحدت صروحه أحداث الزمن. فهو لم يكن يعمل إلا للخلود؛ وهو الذي أمد هوميروس وهيرودوت وأفلاطون بكنوز معارفهم التي أسبغوها على بلادهم؛ وإنه لمن الأسف أن العلم لم يستطع بعدُ أن يكشف عن أسرار النفوس الفرعونية (الهيروغليفية) التي تغص بها هذه البلاد الغنية، فمعرفة هذه الأسرار تلقي ضياء على التاريخ القديم، وتبدد الظلمات التي تكتنف عصور التاريخ الأولى) وقد تحققت أمنية سافاري بعد ذلك بقليل، إذ اكتشف حجر رشيد ووقف العلم على أسرار اللغة الفرعونية، وبدأت البحوث الأثرية بين الأطلال والآثار الفرعونية تكشف تباعاً منذ أوائل القرن التاسع عشر عن روعة هذه المدنية الفرعونية الباهرة التي ما زالت هياكلها وآثارها العظيمة، مدى العصور مثال الإعجاب والإجلال والتقدير.

ويبدأ سافاري رسائله عن مصر من الإسكندرية في 24 يوليه سنة 1777 بعد أن مكث في
مصر أكثر من عامين، ويوجهها جميعاً إلى هذا الأمير الذي يهدي إليه كتابه، ويستهلها بوصف جامع لجغرافية مصر، ثم وصف بديع لمدينة الإسكندرية وآثارها الرومانية؛ ويستعرض بعد ذلك حوادث الفتح العربي، ودخول الإسكندرية في ظل الحكم الإسلامي، ويعطف على قصة مكتبة البطالسة الشهيرة، وينقل خرافة إحراقها بأمر عمر عن بعض الروايات العربية. ويبدو مما يكتب سافاري أن الإسكندرية كانت في أواخر القرن الثامن عشر لا تزال تحتفظ بقسط من عظمتها القديمة وتجارتها الزاخرة برغم الأحداث الكثيرة التي مرت بها. وكان مما أثار اهتمام الرحالة بنوع خاص منظر عمود السواري وما يحيط به من الأسرار المغلقة، والمسلات التي كانت تسمى يومئذٍ (إبرة كيلوباترة) والمقابر الرومانية، أو كما يسميها مدينة الأموات.

ولم يفت سافاري أن يلاحظ آثار الفتح العثماني المخربة؛ فهو قد درس تاريخ مصر الزاهر في عهد الدولة الإسلامية، واستطاع أن يقدر مما شاهده يومئذٍ من أحوال مصر تلك النتائج المحزنة التي انتهت إليها بعد قرنين ونصف قرن من حكم غشوم عاسف جاهل؛ وهو يقول لنا بحق إن الفتح التركي كان خاتمة لمجد مصر وإن حكم الباشوات قضى على العلوم والآداب، وخرب التجارة والصناعة والزراعة، وأسبغ حجاباً من العفاء الشامل على كل ما كان لمصر الإسلامية من عظمة ورخاء.

ثم ينتقل سافاري من الإسكندرية إلى رشيد، ويقضي بها ردحاً من الزمن، ويصف لنا رشيد وأهلها وأحوالها الاقتصادية والاجتماعية في عدة رسائل شائقة؛ ويقول لنا إن الحياة فيها ساحرة مغرية، وإن لأهلها أزياء خاصة، وإنهم يقصون الشعر ويرسلون اللحى؛ ثم يقصد بعد ذلك إلى القاهرة في مركب شراعي، ويخترق فرع رشيد ماراً ببعض القرى الشهيرة يومئذٍ مثل برمبال ومحلة أمير، ويصف لنا هذه الرحلة البطيئة الشائقة، ويصف لنا بالأخص منظر القرويات على الشاطئ، وكيف يهرعن إلى النهر لأخذ الماء وغسل الثياب والاستحمام أحياناً، وكيف شهد كثيرات منهن يسبحن في النهر نحو المركب وهن يصحن: (يا سيدي هات ميدي) ويقول لنا في لغة شعرية: إنهن يسبحن في كثير من الظرف، وإنهن يتمتعن بأجسام رشيقة ساحرة، وبشرة سمراء بديعة.

وفي هذه المواطن وأمثالها تبدو براعة سافاري الوصفية، وتبدو قوة بيانه. والواقع أن

سافاري يكتب بأسلوب رفيع سواء من الناحية العلمية أو الناحية الأدبية؛ ولا يفوته أن يقدم إلينا خلال وصفه كثيراً من المقارنات التاريخية والأدبية الشائقة؛ وهو من هذه الناحية يتفوق على كثير من الرحل الذين كتبوا عن مصر؛ كما أن رسائله تمتاز كما قدمنا بطابعها العلمي الدقيق.

وسنرى عندما يتم سافاري رحلته النيلية، ويصل إلى مدينة القاهرة أي صور قوية شائقة يقدمها إلينا هذا الرحالة العلامة عن حياة العاصمة المصرية والمجتمع المصري في أواخر القرن الثامن عشر؛ وسنرى أي وثيقة نفيسة تقدمها إلينا رسائله عن تاريخ مصر السياسي والاجتماعي والاقتصادي في هذه الفترة المضطربة التي تعز مصادرها ووثائقها.

فينا في أوائل سبتمبر

(للبحث بقية)

محمد عبد الله عنان

أسباب التقليد في التعليم والتشريع بمصر الحديثة

للدكتور محمد البهي قرقر

في مقال سابق حاولت أن أبين أن التقليد هو أساس التعليم والتشريع اليوم في مصر، أساس التعديل في برامج التعليم والتغيير في القوانين المدنية والجنائية، وخصصت بالذكر هاتين الناحيتين لأنهما مظهر الأمة الثقافي والطابع العقلي الذي يعبر عن (نفسية) الشعب.

وإذا ذكرت التقليد فلا أريد منه الناحية الإيجابية التي يجب أن تشجع وتُنمى في زمن الطفولة، فذلك لم يكن هو النظرية السائدة في التعليم والتشريع بمصر، وإنما أقصد النوع السلبي الذي هو ذاك، أقصد النوع الذي لا يتعدى محاكاة الظواهر المقلدة ولا ينفذ إلى كيفية تكونها وهو الذي تدفع إليه العاطفة المجردة عن الروية. ولهذا قلما تتخذ الظاهرة المقلدة صفة الثبات والاستقرار، بل سرعان ما تنمحي من الوجود إذا خفيت العاطفة التي بعثت على تقليدها أو تغلبت عليها عاطفة أخرى تحمل على تقليد مظهر آخر.

لكل كاتب أو مؤرخ أن يبدي رأيه في علل هذا التقليد وأن يوضح الباعث عليه. له أن يعتقد مثلاً أن السبب هو رغبة مصر الحديثة الفتية النشأة في مسايرة المدنية الحاضرة والتقدم بسرعة إلى مصاف الدول الراقية، فهي لذلك لا غنى لها عن التقليد، ولا مفر إذن من أن تتعثر في طريقه مرة أو أكثر. ولكن التقليد الناشئ عن مثل هذه الرغبة في الأمم الأخرى هو دائماً أشبه بسياسة مرسومة ثابتة نعرف إلى أي شيء تنتهي وأي طريق تسلك، فهو نوع إيجابي من التقليد، وذلك ما لا أعتقده في الحركة التقليدية السائرة اليوم في مصر لأنها حركة هوجاء متقلبة، تهدم اليوم ما بنته بالأمس، وتبني في الغد من جديد على غير أساس.

لذلك الكاتب أو هذا المؤرخ أن يعتقد أيضاً أن العلة هي الضعف، إذ يشاهد أن الأمة الضعيفة تقلد القوية في مظاهرها لأنها ربما تتخيل الجمال مفرغاً في تلك المظاهر - فهي لانحطاطها لم تتكون عندها ملكة مستقلة للجمال، مطبوعة بطابعها الخاص، أو على الأقل لم تنضج عندها تلك الملكة بعد، أو لأنها ربما تحاول بذلك أن تستر ما بها من ضعف ونقص؛ فما دام شعار القوي مثلاً هو القبعة، أو مادامت ميزته في قوم هو ليس منهم العجمة في التعبير، فربما يُخيَّل الضعيف لنفسه إذا ما وضع القبعة فوق رأسه، أو إذا ما

أفصح عن مراده في أمته بغير لغته الوطنية. أو لهج لسانه من حين لآخر بكلمات أجنبية، أنه قد أصبح في منزلة القوي وأن له أن يتيه كبراً وخيلاء، ولم يدر أن سلوكه العملي الناشئ عن صفات نفسية خاصة به، وأن طريقه في التفكير الخاضع لبيئته وما ورثه في دمه عن أسلافه ينم عن أنه ما زال هو الضعيف، ولكنه تزيى بزي القوي فحسب.

وربما يكون الضعف هو السبب الرئيسي والعلة غير المباشرة لكثير من صور التقليد، ولكن البحث النفسي الحديث يتجنب الآن بقدر الإمكان استنتاج قوانين عامة لجملة من الظواهر النفسية - لأن ذلك قد مضت مدته بفقدان العلوم الطبيعية والرياضية نفوذها على العلوم العقلية، وتأثيرها في تكوين كليات لها عامة تشرح بها جزئيات

متعددة - ويفتش لكل ظاهرة عن علتها الخاصة بها والمباشرة في تكوينها.
والتقليد الآن في مصر في أهم ناحيتين من نواحيها الثقافية والعقلية: في ناحيتي التعليم والتشريع، ظاهرة تغلب على نفسية الشعب، أو بعبارة أدق على رجاله المسئولين في توجيه سياسته العامة. وإذن لبحث هذه الصفة يجب استعراض المؤثرات التي أوجدتها في نفسية هؤلاء وتعهدتها إلى درجة النضوج. وأظن أننا إذا رجعنا ببصرنا إلى تاريخ مصر الحديثة في جيل سابق وجدنا تلك المؤثرات بادية في شيء واحد: في الابتعاد عن التربية الوطنية الذي كان نتيجة لخطة إحدى مدارس التعليم في مصر ولسياسة أخرى تعليمية كانت تهيمن على مدرسة ثانية منها.
فالتعليم في مصر ليس واحداً، والمدرسة التي تخرج منها الشعب متباينة النزعة مختلفة الغرض. فبينما نرى مدرسة وطنية، وهي الأزهر، تعتمد في تهذيب أبنائها على ما ورثته الأمة من ثقافة في صورتها التي احتفظت بها من عصور مضت، إذ بنا نرى مدرسة أخرى، وهي مدارس الإرساليات الأجنبية، تلقن الناشئة المصرية مبادئ تنتهي بخلق أمم متعددة في أمة واحدة، وبفئات من الناس مختلفة لا تجمعهم وحدة في التفكير ولا وحدة في الغرض. وبينما نشاهد هذه وتلك إذا ببصرنا يقع مرة أخرى على مدرسة ثالثة، وهي مدارس وزارة المعارف، ليس بينها وبين اللتين قبلها من صلة إلا أنها ربما تكون أو تحاول أن تكون مزيجاً منهما، ولكنه مزيج لا ينتج عنصراً جديداً كما فقدت فيه كل من مادتيه خواصها.
فالأزهر - في نظر علماء الشعوب والاجتماع - لاشك أنه المدرسة الوطنية التي تربط الأمة بماضيها - وإن كان ينقصها ربط الحاضر بالماضي، وتلقن جيل اليوم ما كان لخلفه من دين ولغة وعادات خلقية وقومية، وهو لهذا كان ولم يزل مكان الخطر على الاستعمار الغربي وعلى سياسته في حكم الشعوب الإسلامية كما يراه الأوربيون أنفسهم الذين تخصصوا في السياسة وفي فلسفتها. ففي المجلة العلمية السياسية الألمانية لمخرجها الأستاذ الفيلسوف السياسي الأستاذ بجامعة بحث جدير بالاعتبار عرض كاتبه لبيان صلة الإسلام ومقدار علاقة الأزهر على الخصوص بالحركات الوطنية في الشرق تحت عنوان (الإسلام والفاشستية) فكاتب هذا البحث يرجع الحركة الوطنية الحالية ضد السيادة الفرنسية في تونس ومراكش والجزائر إلى الأفراد الذين غلبت عليهم الدراسة الوطنية - الإسلامية - وعلى الأخص إلى أولئك الذين تلقوا علومهم في الأزهر بالقاهرة. فالأزهر في رأي هذا الكاتب وفي رأي كثير من أمثاله منبع الخطر على السيادة الأجنبية في الشرق كله.
وفوق ما للأزهر من هذه الصبغة الوطنية فهو مدرسة الشعب والسواد المنتج من الأمة. ولسبب ما، إما لأسلوبه في التعليم (وعدم تمشيه في وقت من الأوقات على نظم التربية الحديثة)، أو لشعبيته، أو لسبب آخر غير هذا وذاك، وآلت الطبقة المثرية من الأمة من أرباب المناصب الكبرى في الحكومة وجهها نحو مدارس الإرساليات الأجنبية، وقصدت الطبقة المتوسطة إلى النوع المزيج وهو النوع الحكومي، وقنع الأزهر بالشعب وبأبنائه، طوعاً أو كرهاً، واضطر لهذا أن يكون بعيداً عن أفق سياسة الدولة، لأن سيادة الروح (الأرستقراطية) وجدت في ظل الحكم التركي ثم في حكم الاحتلال كل أنواع التأييد. فأسلوب التعليم في هذه المدرسة بعيد في ذاته عن التهيئة إلى موجة التقليد الطافحة اليوم في مصر والتي تنذر بالخطر، لأنه هو نفسه ضد التقليد والعقبة في طريقه، وكذا رجالها ليسوا ممن يتبعون سياسة التقليد لأنهم أبعدوا عن السياسة العامة للدولة واكتفوا بالتحدث إلى الشعب عن الحياة الآخرة والسبل الموصلة إلى السعادة فيها، وإن فرطوا بهذا الاكتفاء في حق أنفسهم كأبناء الشعب وفي حق دينهم لإظهاره بالمظهر الروحي فحسب، ثم أخيراً في حق وطنهم لإقصاء أنفسهم وهم أكثرية عن سياسة توجيه الأمور في الدولة أو لرضاهم بهذا الإقصاء.
والمدرسة الثانية، وهي مدارس الإرساليات الأجنبية كانت - ولا تزال - تعمل على قطع الصلة بين الوطن وتراثه العلمي والديني والخلقي، وبين أطفاله وشبانه من أهل الطبقة العالية الذين ولوا الأمر فيما بعد، إذ كانت القاعدة أن ينتخب أولو الأمر منهم؛ ثم زودتهم بثقافة أجنبية ملؤها الدعاية لأمة من أمم الغرب طبقاً لجنسية الإرسالية. وإن نوع هذه الثقافة قد يكون مختلفاً - وفي الواقع هو كذلك - عن ثقافة البلد الذي تنتمي إليه الإرسالية اتباعاً لخطة سياسية مرسومة لم يُرد بها - كما يدعي أو كما

يفهمه الشرقي البسيط - القيام بعمل خيري من نشر ثقافة حديثة ومكافحة الأمية؛ وإنما قصد بها ضمان السيطرة على النفوس والتصرف في ميولها؛ فنشأت في الأمة فئة تجهل الأمة نفسها، تجهل عقليتها وطباعها، تحتقر الشعب وتهزأ بتقاليده، ثم بعد ذلك شاء القدر أن يكوم زمامه بيدها.

ولاختلاف ميول هذه الثقافة واتجاهاتها - وإن كانت متحدة في غرض الدعاية - كانت وجهة هذه الفئة الحاكمة مصوبة على العموم نحو ظواهر المدنية الغربية، واقتباس ما يوحي به ميلها الثقافي، لا اقتباس ما قد يتفق مع مدنية الأمة وثقافتها القديمة وما يتطلبه الشعب ولا يتعارض مع قوانينه الخلقية وسننه الطبيعية. وهنا نجد مظاهر شتى لهذا التقليد أنشأتها ميول الثقافة الأجنبية المختلفة. فمن تثقف بالثقافة الفرنسية من تلك الفئة - وهو عدد كبير - كان المثل الأعلى في نظره حضارة فرنسا وحريتها المزعومة، وعمد إلى التقليد في مظاهر الحضارة الفرنسية، وإلى الاقتباس من القانون الفرنسي، لأنه يمثل في نفسه، كما تلقن، صورة العدالة، وينطوي في نظره على (حب) الحرية وتقديس معنى الإنسانية - وما كان القانون الفرنسي، ولا أي قانون وضعي آخر يمثل في يوم من الأيام صورة العدالة على الإطلاق، ولا ينطوي على حب الحرية للحرية نفسها، ولا يقدس الإنسانية للإنسانية؛ وإلا لما أعطي للقسوة صفة خلقية، وأنكر على الوطني المستعمر حقه الطبيعي في الحياة ما دام في ذلك حفظ للسيادة الفرنسية. وما شهرة فرنسا بحب العدالة وبحب الحرية وبتقديس الإنسانية إلا لما قامت به من الثورة، كرد فعل نفسي ضد حكم الظلم والاستبداد؛ ثم استغل بعد ذلك استغلالاً أدبياً في صالحها. وللإرساليات التعليمية في الدعاية به وخصوصاً في الشرق قسط غير قليل. ثم تكون نتيجة هذا التقليد عكسية، ونهاية الاقتباس خاطئة، لأن مصر الشرقية غير فرنسا الغربية، ومصر الضعيفة الحديثة النشأة غير فرنسا المستعمرة. وبالرغم من ظهور الخطأ وعكسية النتيجة لا يدير المقلد وجهه نحو أمته ويدرس حالتها النفسية والاجتماعية، ثم يقتبس ما تدعو إليه هذه الدراسة، لأنه لم يألف الأمة ولم يتعرفها منذ طفولته.

ومن تثقف بالثقافة الإنكليزية عشق تقاليد الأمة الإنكليزية وأعجب على الأخص بالبرلمان الإنكليزي وبعراقة الدستور الإنكليزي ونظام الأحزاب الإنكليزية وبتمتع الأقلية بحرية المعارضة، فيهوى وفقاً لميله تقليد إنكلترا في مظاهرها الدستورية ونظامها البرلماني؛ ولكنه يخطئ أيضاً في تقليده، لأن الشعب المصري ذو صفات نفسية تغاير تمام التغيير صفات الشعب الإنكليزي؛ له طريق آخر في التفكير وأسلوب آخر في المعاملة؛ هو شعب ناشئ لم تتركز طبائعه بعد، ولم يروض على عادات خلقية تتناسب وفطرته، فإذا نوقش في خطأ تقليده أصر عليه وسرد تأييداً لإصراره أقوال الساسة الإنكليز والعرف الدستوري في البرلمان الإنكليزي. وأولى به أن ينظر إلى الواقع وفي أي شعب هو يعيش. أولى به أن يتعلم خواص الشعوب بدل أن يحلق في خيال نظري (قانوني) لا طائل تحته. ولكن ميله الثقافي هو الذي حدد له نهاية الطريق وأملى عليه برنامج السير.

ومن تثقف بالثقافة السويسرية يستهويه نظام التعليم ونظام الأسرة فيحاول تقليد الشعب السويسري، أو بعبارة أخرى يضطر أن يسير في طريق ميوله الثقافية، والتعليمية - وليس إلا طريق التقليد طبعاً - ثم لا يلبث أن يرى نتيجة تقليده بين يديه خاسرة، لأن المصري في طبعه وفي ميوله الغريزية غير السويسري الذي هو نفسه يغاير نفسه - وبناء على هذا يتغير نظام تعليمه - في منطقة أخرى من مناطق الاتحاد السويسري. والأسرة المصرية التي حددت عاداتها طريق سلوكها في الحياة وعين دينها ولغتها طريق تفكيرها وفهمها لما يحيط بها، غير الأسرة السويسرية التي تتطلب أيضاً بحكم الوراثة وبحكم العادات وطبيعة البلاد أسلوباً في التعليم خاصاً بها.

وهكذا دواليك نجد العمل الجدي لهذه الفئة تقليداً سلبياً قلما يتحول إلى محاكاة إيجابية، إلى (التمصير) الذي هو عملية نفسية يقوم بها الفرد كالأمة، عملية تتطلب أولاً أن تنشأ الأفراد تنشئة وطنية ثم تزود بثقافة أخرى أجنبية. وإذن يكون عمل الفرد كعمل الأمة مصبوغاً بصبغة وطنية وفي الوقت نفسه مسايراً لخطى الأمم الراقية. فالأمة اليابانية مثلاً تقلد

الحضارة الغربية ولكنه تقليد إيجابي، لأنها تنظر إليها ثم تحاكيها لا في صورتها الأولى ولكن في صورة يابانية شرقية بعد ما تكون قد مزجت بينها وبين حضارتها الموروثة ووفقت بينهما. وهو لهذا تقليد فيما ينفع، وتقليد لا يمس بالخطر العوامل الأولى المكونة لحضارة الأمة، كأمة مستقلة.

فجهل الوطن وما فيه والنزوع إلى التلون بلون غربي - كما هي النتيجة الحتمية لأسلوب هذه المدرسة - من الأسباب القوية لهذا التقليد السلبي؛ ثم اختلاف النزعة نحو هذا التلون، تبعاً لاختلاف نوع الثقافة، من أكبر العوامل في كثرة التغيير والتعديل اليوم في سياسة الأمة التشريعية والتعليمية.

وربما تكون تبعة المدرسة الثالثة، وهي مدارس وزارة المعارف، في هذا التقليد أقل من المدرسة السابقة، ومع ذلك فعليها تبعة كبيرة أيضاً، لأنها لم ترسم لها خطة تعليمية وطنية، أو أرغمت، فطاوعت، على السير وراء سياسة استعمارية، سياسة أوربية أجنبية. فالاتجاه الذي توحي به وتخلقه في تلامذتها لا يخلو من مبالغة في عظمة الغرب واحترام المدنية الغربية، كأبلغ شيء وصل إليه العقل الإنساني - ولكن لا لخدمة الإنسانية ولكن لسيادة القوى - وذلك يقوي غريزة التقليد في الطفل ويدفعها إلى ناحية معينة قلما تحيد عنها أو تتصرف في تقليدها؛ ثم في الوقت نفسه لا يخلو ذلك الاتجاه من النظر إلى الشرق كوطن والى تقاليده ودينه ولغته كمقومات لثقافته من إلقاء نظرة بسيطة عليها قلما يصحبها احترام أو يتبعها تقديس مما يدعو إلى الارتباط بها والحنين إليها.

وهكذا يسير الشعب إلى غير وطنه ويقاد في غير طريقه الطبيعي ويدفع به في كفاح لم يتهيأ ولن يتهيأ له، وهو كفاح ضد الطبيعة ومقتضياتها؛ وهيهات أن يفوز إن لم تهلكه الحرب هلاكاً بطيئاً، وذلك شر أنواع الهلاك وآلمه.

فمبدأ التقليد ليس معيباً إذا كان إيجابياً، لأنه إلى جانب الفكرة الخالقة والعقل المستقل في الإنشاء من عوامل تقدم الأمة، فما كان لأمة أن تستقل في نهضتها العقلية بنفسها ولكن يجب عليها أن تكيفها بشخصيتها وطابعها. وهذا التكييف نفسه مدين إلى حد كبير بالاعتماد على ثقافة الأمة الموروثة أو هو نفسه المحافظة على تلك الثقافة والاعتزاز بها.

واليوم آن للأزهر أن يعمل على تأدية رسالته، من ربط حاضر الأمة بماضيها، في ثبات وجرأة؛ وهي رسالة شاقة، ولكنه راعى الواقع، فلا يدري إنسان متى تتهيأ الفرصة للأزهر من جديد، فيمنحه الدهر رجلاً مستقل الفكر، قوي الإرادة، صادق العزيمة، متفهماً للحياة كما منحه في السابق رجل التاريخ والإصلاح، وكما يمنحه اليوم بصنوه. فما أشد تقاربهما في الفكرة، ولكن ما أبعد المسافة بين توليهما شؤون تلك الجامعة العالمية.

وإذا كانت روح السياسة العامة الآن للدولة مشبعة بمجاملة الأجانب ومنحهم حرية كاملة في تعليم جالياتهم وعدم إلزامهم بثقافة البلد الوطنية - كما هو الشأن في البلاد الأوربية نفسها - فلا يصح أن تقصر تلك السياسة في حق أبناء الأمة وتكل أمر تربيتهم إلى جهة أخرى غير الأمة نفسها. يجب أن تفهم حد المجاملة وتدرك ما ينطوي عليه حق الأمة في استقلالها وحريتها.

وإذا كانت وزارة المعارف اليوم تعنى بالثقافة الوطنية بعض العناية فيجب أن يكون الدافع لها عليها مصلحة الوطن والعمل على تحقيق استقلال الأمة لا الرغبة في كسب عواطف الشعب أو استمالة طائفة منه خاصة، فما أكثر تغير الشعب في عواطفه، ولكن ما أثبته على حب من أخلص إليه في خدمته!

محمد البهي قرقر

دكتور في الفلسفة وعلم النفس وعضو بعثة الإمام الشيخ

(محمد عبده)

من الأدب الرمزي

فيما وراء الطبيعة

للأستاذ عبد المنعم خلاف

. . . رَكْبٌ مَسُوق إلى ما يجهل بعصاً قاهرة يقظة فلا التفات ولا اعتراض ولا جُموح من الذَّرَّات التي لا تدركها الأبصار لدقتها وصغرها. . . إلى الذرات الضخمة التي لا

تدركها الأبصار لجلالتها وكِبَرها، يتألف الركب المسوق المدفوع الذي لا يعرف من أين ولا إلى أين
. .لقد وُلد فيه كل شيء أثناء الرحلة فحَيَّ مسافراً وهَلَكَ مسافراً
يسير الزمان والمكان في الركب المهدود، وتسير الأبعاد والحدود، والمُهود واللّحود، والحركة والجمود، والموت والحياة، والظلمات والنور، أضداداً مؤتلفة ونقائض مجتمعة في صمت.!
السموات شاخصة العيون إلى الأرض. . والأرض مشرئبة الأعناق إلى السماء. . واللجة مقبلة في لَهْفة على الشاطئ. . . والشاطئ واقف يترقب اللجة. . وهكذا يرنو كل شيء إلى كل شيء. . زوارق سائرة في لجة لا يعلم لها شاطئ. . . أجسام هابطة أبداً إلى غير قرار. . . كل شيء يدور على نفسه نحو كل أفق ليرى النهاية، فلا يرى إلا أشياء دائرة مثله. . .
أبداً تخرج الحياة من الموت ويخرج الموت من الحياة ليشهدا سير الركب؛ ثم يفنيان في الطريق. . .
أبداً تسافر الأضواء في ملايين سنيها محاولة كشف النهاية فلا تقع إلا على ذرات ترسل أضواءها. . .
. . .الرحلة طويلة شاقة ومع ذلك فليس فيها مراحل ولا مواقف
الصمت والصبر شعار القافلة إلا صُراخاً ينبعث من (أكثر شيءٍ جَدَلاً). من الإنسان. صاحب الجمجمة الدائبة على التلفت إلى الوراء والتطلع إلى الأمام، وسؤال كل شيء: ما أنت؟ ومن أين أتيت؟ وإلى أين تنتهي؟ ولماذا نحن هنا؟ (هل عندكم من علم فتخرجوه لنا؟) فيجيبها كل شيء: (ما المسئولُ بأعلمَ من السائل. . .) ثم يردد كل شيء صدى تلك
الكلمة الكبيرة المعزِّية: (ما أَشهَدتُهمْ خَلقَ السموات والأرض ولاَ خَلْقَ أنفُسِهم) .الركب سائر بانسجام ونظام. . وهذا هو موسيقاه التي تستحثه وتنسيه وعثَاء السفر. . .
. . .ومن جَمِح وحاد عن طريق الركب ضل واحترق ضلالَ النيازك والشهب واحتراقها
كل شيء قانعٌ بالنظر إلى عصا القهر المرفوعة عليه أبداً، إلا هذه الجمجمة. .! فهي تحاول جهدها أن ترى اليد القابضة على العصا. . . ومن هنا تعبت من النظر وزاغ منها البصر وتراجع حتى لم تَعدْ ترى العصا إلا في يدها هي المصنوعة من الطين. .! فعبَدَت نفسها وسجدت لها. .!
ألا يا عايد البطولة الإنسانية وفاديها ومالئ كئوسها من دمه ومحرق حبة قلبه بخوراً لها. .! ليس هذا موقع العبادة من قلب الإنسان والفكر المدله من رأسه. . . وإنما هذه العصا المرفوعة أبداً هي مكان السجود. . . فارفع جبهتك كثيراً كثيراً لتسجد عليها فوق. .!
أنظر إليها وحدها واجمد كما جمد لها قلب الجبل. . . واخفق كما خفق لها جوف البحر. . . واعصف كما عصفت لها جوانح الريح. . . واصفر كما اصفر منها وجه الصحراء. . . والتهب كما التهب بها وجه الشمس. . . وسر كما سار أمامها الركب المسوق. .!
أنظر إليها دائماً فهي تشير إلى الطريق. . . فإذا عميت عنها فهي شعلة تحرق البصر. . وسر في طوعها دائماً فهي حماية وسلاح. . . فإذا شردت كارهاً فهي صوت وصاعقة .!
قال لي ضباب مبهم في نفسي: لم تحوم حول اللجة ولا تضرب في أعماقها؟
قلت: أنا عاجز قاصر ضئيل محدود. . . فليس لي يدان باقتحام عالم القدرة والاستطالة والجلالة واللانهائية!
. . .قال: لقد أتيت بشيء مما في اللجة وأنت لما تزل على الساحل
قلت: كذلك الذي يأتي به الطير البحري المتربص على الساحل: سمكة ميتة طافية قذف بها جوف البحر. . . أو صغيرة خفيفة مبذولة لأنها ليست من الرجاحة بحيث تختفي في عالم العمق والاحتجاب. . .
قال: لقد أفرغت نفسك من كل شيء وهيأتها لصداقة الطبيعة وأفهمتها أن تتصل بها اتصال بُنُوَّة بأمومة؛ فلا تفزع من هولها وقسوتها ولا تجفُل من غموضها وإبهامها، ولا

تشمئز من وجوه القبح فيها، ولا تجمُد أمام وجوه الجمال بها، ولا تغفل عن الدقيق، ولا تقصر عن
. . .إدراك الجليل؛ وحقيق على من انتهى إلى هذا أن يبتدئ بشيء آخر
!. .قلت: أجل! كما يبدأ ثور الطاحون من حيث ينتهي
.قال: لولا الغطاء الذي على عيني الثور لجمح وأبى الدوران على محيطه الضيق
قلت: لو استطاع الثور أن يزيح ذاك الغطاء عن عينيه لحُلَّت العقدة. . . فما دامت
هناك يد غير مدفوعة تضع ذاك الغطاء فهو عاجز مملوك يرى السلامة في التسليم
. .والدوران. . . وإلا فظهره مبسوط مكشوف والسوط له حاضر
لقد قلت لنفسي يوماً: سأبعثك للارتياد فيما وراء الزمن والفلك فاصنعي الريش
وأعدي الجناحين. . . فإذا وقفت هناك فلا يَخْسأنَّ بصرك دون أن ترىْ طرفي الركب
. .المسوق. . سيكون ذلك عسيراً ولكن تجردي وامتدي فإن فيك قوة على ذلك
وقلت لها: إن المكان سينتهي. . . فترين الفراغ وعماياته ومهاويه التي ليس لها
قرار. . فطيري فيه مغمضة العين، واضربي فيه بمجموع الإدراك لا بأفراده فإنها تغرق
. .في لججه وظلماته
وقلت لها: أعدي السمع للموسيقى التي تميتُ طرَباً، والعينَ للأضواء التي تحرق لهباً. .
.واللمس والذوق لما لا يلمس ولا يذاق
وقلت لها: هناك كلام دائم قديم فاملئي معانيك منه واحذري أن تحدثي به ناس الأرض.
. وسترين كل ما كان في الأرض هناك في منطقة الصمت الذي يصعق، والسكون
الذي يهول. . سترين ما يقال إنه تبدد من الأضواء والأصوات وأمواج الخلائق ووَمضَات
. .المعاني
وقلت لها: ستمرين بالقوى المطيعة أبداً، العاملة بلا ضعف يلحق ولا فتور ولا سأم،
القائمة على مراقبة الذرات في حركاتها وتنقلها، والحبات في تولدها وانفلاقها، والرياح
في انسيابها واندفاعها، والأمواج في رحلاتها ومدها وجزرها، والأضواء في انبثاقها
وفيضانها، والظلمات في انطباقها وانفراقها، والأجرام في نثارها ونظامها. . . فقفي
هناك طويلاً وتعجبي من صبر هذه القوى المجندة ويقظتها وطاعتها، واملئي سمعك
بنشيدها وهي هاوية صاعدة راكعة ساجدة تحت المشيئة الواحدة القاهرة الضاربة على
. . .العوالم بنطاق من العلم والقهر، فلا رد ولا اعتراض ولا هرب من أقطارها
وقلت لها: ربما تستطيعين الوصول في خطفة من خطفاتك إلى المنطقة الثابتة التي لا
تتغير. . . فإن كان ذلك فاحذري أن تتوغلي في متاهاتها! فربما لا ترجعين إلى ثوبك
!الأرضي ثابتة فيترك في الأرض معذباً مَجْفوًّا لا يفهمه الناس ولا يرحمون. . . فاحذري
وقلت لها: التراب عنصر كثيف ثقيل يزيد (ثقله النوعي) كلما بعد عن نطاق الأرض،
ولو كان نضرة خد أو حرير ورد، أو عبير زهر، أو نغم وتر! فخففي رحلك منه حتى
. . .تسرعي
وقلت لها: لا تنسي أن تلقي بنظرة منك على الذَّرَّة التي أنت منها. . . وحاولي أن
تتبيني مكان هذا الذي يقول فيها: أنا إله! سترينه قزماً يدب ممسوخ القوام. . . وقد
كان يستطيع أن يتطاول ببعض ما فيه لو عقل وأراد ورأى عصا القهر التي تدفع عجلة
. . .الفلك
قلت لها كل ذلك فقالت: يا هذا الذي يصنع الألفاظ ويحاول خديعتي بها.! يا من
!يُشَمِّر للُّجِّ عن ساقه ... ويغمره الموج في الساحل
عشْ كهذا الطير الساحلي مكتفياً بالنظر إلى اللجة الرجراجة الهائلة، قانعاً بما تقذفه
إليه من النفايات، عالماً بأنه مخلوق مُعَدٌّ للساحل وحده، فهو دائماً ينكتُ بمنقاره في
. . .الرمل والقواقع وغثاء البحر
وهو يعلم أن في جوف اللجة سمكاً كثيراً صغيراً وكبيراً يشبع جوعه الذي يحسه في
دوام. . . ولكنه يعلم كذلك أنه لو تقدم خطوة نحو اللجة لابتلعته حقيقة من حقائقها
وغاب فيها قبل أن يبتلع إحداها وتغيب فيه. . . عش هكذا دائراً على نفسك في
. . .محيطك الضيق ما دام على عينيك الغطاء
وابحث في لجة نفسك عن الأشياء التي تنشدها فلعلك تجد منها صوراً صغرى تدركها
. . .بالوحي الصغير إدراك النبوة للكبرى بالوحي الكبير
:ومع هذا لا يزال الضباب المبهم يناديني ويسألني سؤاله. . . وأنا أنادي

لمحة من النور الذي عندك ضحاه الدائم الذي لا يغيب يا هادي الركب وصاحب القافلة. . . النور الذي تهتدي به ظلمات الدنيا وأضواؤها إلى مسالكها ومساربها ومواقعها. . . .النور الذي أعطيت به كل شيء خلقه ثم به هديته
النور الذي اهتدت به كل ذرة في بناء العالم وكل خلية في جسمه وكل قوة من قواه إلى
مكانها وعملها. . . ثم إيماءة بطرف عصاك إلى المخبوء وراء الزمان والمكان والأجرام والشواخص والكثافات. . . ثم قدرة على الانفصال عن الركب لأشهده كله وهو يسير. .!
(الإسكندرية)
عبد المنعم خلاف
ابن العديم وتآليفه
للأستاذ محمد كرد علي
كان كمال الدين عمر العقيلي الحلبي رئيس الشام (666هـ) من بيت علم. تولى خمسة من أهله منصب قاضي القضاة بحلب، وأكثرهم على جانب من الأدب والفضل، وكلهم مذ كان الإسلام يحفظ القرآن. وكان كمال الدين هذا محدثاً حافظاً مؤرخاً صادقاً فقيهاً مفتياً منشئاً بليغاً كاتباً محموداً درس وأفتى وصنف، وترسل عن الملوك، وكان رأساً في الخط المنسوب لا سيما النسخ والحواشي (يقرأ الخط العقد كأنه يقرأ من حفظه. وأما خطه في التجويد والتحرير والضبط والتقييد فسواد مقالة لأبي عبد الله ابن مقالة، وبدر ذو كمال، عند علي بن هلال) (وهو أكتب من كل من تقدمه بعد ابن البواب) ترجم له ياقوت في معجم الأدباء وعرض لتراجم أهله، وكان ياقوت اجتمع بكمال الدين، وأخذ عنه وبالغ في مدحه، وقال إن من أجداده بني أبي جرادة، وكان أبناء العديم يُعرفون بهذا اللقب وقد كتب بخطه ثلاث خزائن من الكتب: واحدة لنفسه وخزانتين لابنيه، لكل منهما خزانة قال ياقوت وأنشدني لنفسه وبإملائه بحلب في ذي الحجة سنة 619 (وكان كمال الدين شاباً):
وساحرة الأجفان معسولة اللّمى ... مراشفها تهدي الشفاء من الظما
حنت لي قوسي حاجبيها وفوَّقت ... إلى كبدي من مقلة العين أسهما
فواعجبا من ريقها وهو طاهر ... حلال وقد أضحى عليَّ محرما
فإن كان خمراً أين للخمر لونه ... ولذته مع أنني لم أذقهما
لها منزل في ربع قلبي محله ... مصون به مذ أوطنته لها حمى
جرى حبها مجرى حياتي فخالطت ... محبتها روحي ولحميَ والدما
تقول إلى كم ترتضي العيش أنكدا ... وتقنع أن تضحى صحيحاً مسلما
فسر في بلاد الله واطّلب الغنى ... تفز منجداً إن شئت أو شئت مُتْهما
فقلت لها إن الذي خلق الورى ... تكفل لي بالرزق مَنًّا وأنعما
وما ضرني أن كنت رب فضائل ... وعلم عزيز النفس حراً معظما
إذا عدمت كفاي مالاً وثروة ... وقد صنت نفسي أن أذل وأحرما
ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي ... لأخدم من لاقيت لكن لأخدما
ونظن البيت الأخير مقحماً إقحاماً في هذه القصيدة، لأنه بيت من قصيدة مشهورة لعلي بن عبد العزيز القاضي من أهل القرن الخامس التي يقول في مطلعها:
يقولون لي فيك انقباض وإنما ... رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجما
قال ياقوت بعد إيراد هذه القصيدة: ولا يظن الناظر في هذه الأبيات أن قائلها فقير وقير، فأن الأمر بعكس ذلك لأنه، والله يحوطه، رب ضياع واسعة، وأملاك جمة، ونعمة كثيرة، وعبيد وإماء وخيل، ودواب، وملابس فاخرة وثياب. ومن ذلك أنه بعد موت أبيه اشترى داراً كانت لأجداده قديماً بثلاثين ألف درهم؛ ولكن نفسه واسعة، وهمته عالية، والرغبات في الدنيا بالنسبة إلى الراغبين، والشهوة لها على قدر الطالبين. قال ياقوت: وكان إذا سافر يركب في محفة تشيله بين بغلين، ويجلس فيها ويكتب، ورحل إلى العراق ومصر والحجاز.
ويقول ياقوت أيضاً إن كمال الدين صنف مع هذه السن كتباً منها كتاب (الدراري في ذكر الدراري)، جمعه للملك الظاهر غازي، وقدمه إليه يوم ولد ولده العزيز الذي هو اليوم سلطان حلب. وكتاب (ضوء الصباح في الحث على السماح)، وصنفه للملك

الأشرف، وكان قد سير من حَرَّان بطلبه، فإنه لما وقف على خطه اشتهى أن يراه فقدم عليه فأحسن إليه وأكرمه، وخلع عليه وشرفه. وكتاب (الأخبار المستفادة في ذكر بني أبي جرادة) وأنا سألته جمعه فجمعه لي وكتبه في نحو أسبوع وهو عشرة كراريس. وكتاب في الخط وعلومه، ووصف آدابه وأقلامه وطروسه، وما جاء فيه من الحديث والحكم، وهو إلى وقتي هذا لم يتم. كتاب (تاريخ حلب) في أخبار ملوكها وابتداء عمارتها ومن كان بها من العلماء، ومن دخلها من أهل الحديث والرواية والدراية والملوك والأمراء والكتاب، وشاع ذكره في البلاد، وعرف خطه بين الحاضر والباد، فتهاداه الملوك. ومن كتبه تبريد حرارة الأكباد، في الصبر على فقد الأولاد. وكتاب (دفع التجري عن أبي العلاء المعري) وكتاب (التذكرة) وهو في أجزاء في دار الكتب المصرية أولها الجزء الخامس وآخرها الجزء السادس عشر، وفي هذه الأجزاء قصائد جميلة لأناس من معاصريه ورسائل منثورة وغيرها (راجع ما كتبناه في هذه التذكرة في المجلد السابع من مجلة المقتبس ص811). ومما نقله أبيات للسابق أبي اليمن محمد بن الخضر المعري وهي:

حلب معهد الصبا والتصابي ... فسقاها الوسميُّ ثم الوليّ
موطني بعد موطني فكأني ... لغرامي بحبها البحتري

إلى أن قال:

فلديها كل الفنون وفيها ... ما اشتهاه الشرعيُّ والفلسفيُّ
غير أني أرى الأطايب شزراً ... وحليف الإفلاس عنها قصيّ

وكان في حلب في ذاك الزمن جلة من العلماء كما قال الشاعر، بل أن من قراها ما كان أشبه بدار علم مثل معرة النعمان وكفر طاب، وكفر طاب اليوم مزرعة خربة.

ومما اقتبسه في هذه التذكرة أبيات لسنان صاحب الدعوة

لو كنت تعلم ما علم الورى ... طراً لكنت صديق كل العالم
لكن جهلت فصرت تحسب أن من ... يهوى خلاف هواك ليس بعالم
فاستحْي إن الحق أصبح ظاهراً ... عما تقول وأنت شبه النائم

وسنان هذا هو أبو الحسن سنان بن سليمان بن محمد الملقب راشد الدين صاحب قلاع الدعوة دعوة الإسماعيلية، ومقدم الفرقة الباطنية بالشام، وإليه تنسب الطائفة السنانية. وهو الذي كتب إلى صلاح الدين يوسف بن أيوب جواب كتاب هدده فيه، على ما نقل ذلك ابن خلكان في وفيات الأعيان، وافتتحه بقوله:

يا ذا الذي بقراع السيف هددنا ... لأقام مصرع جنبي حين تصرعه
قام الحمام إلى البازي يهدده ... واستيقظت لأسود البر أضبعه
أضحى يسد فم الأفعى بإصبعه ... يكفيه ما قد تلاقي منه إصبعه

ثم أردف هذه الأبيات بكتاب كله تهديد لصلاح الدين. وقد كتب مرة أخرى:

بنا نلت هذا الملك حتى تأثلت ... بيوتك فيها واشمخر عمودها
فأصبحت ترمينا بنبل بنا استوى ... مغارسها منا وفينا حديدها

وفي خزانة المجمع العلمي العربي بدمشق نسخة من كتاب دفع الظلم والتجري، وسماه هناك (كتاب الإنصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري) وهو مخروم من آخره نقص منه بيت القصيد وهو تبرئة المعري من التعطيل، وكان أعداؤه ينحلونه أبياتاً ليصححوا دعواهم عليه انحلال العقيدة. وفي هذا الكتاب فصول جميلة في

نشأة المعري وعماه وشيوخه ورحلته إلى بغداد وقوة حافظته. وقد استفدنا منه أنه كان عند أبي العلاء أربعة كتاب في جرايته وجارية يكتبون عنه ما يكتب إلى الناس، وما يمليه من النظم والنثر والتصانيف، وكتب له جماعة من المعرة أخصهم أنسباؤه ومنهم ابن أخيه، وكان ملازماً لخدمته ويكتب له تصانيفه، ويكتب عنه الإجازة والسماع عمن يسمع منه ويستجيزه، وكتب تصانيفه بخطه حتى يقع بخطه من المصنف الواحد نسختان وأكثر. واستفدنا منه أن المعري زار دار العلم ببغداد لا دار العلم في طرابلس، ولم يكن في طرابلس دار علم، وإنما جدد دار العلم بها القاضي جلال الملك بن عمار في سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة. وأبو العلاء مات قبل جلال الملك في سنة تسع وأربعين وأربعمائة.

وأهم مصنفات ابن العديم على ما يظهر تاريخ زبدة الحلب في تاريخ حلب، ومنه نسخة

في دار الكتب المصرية، أخذت بالتصوير الشمسي من إحدى خزائن الأستانة وهي في ثلاثة مجلدات. بدأ كتابه بجغرافية حلب والبحيرات التي في أعمالها، وما فيها من الجبال وما جاء في صحة تربة حلب وهوائها واعتدال خراجها وصفة مائها، وما ورد من الكتابة القديمة على الأحجار بحلب وعملها. وعقد فصلاً في بيان أن معاوية ومن كان معه بصفين لم يخرجوا عن الإيمان بقتال عليّ عليه السلام، وفصلاً في ذكر ما جاء في الكف عن الخوض في حديث صفين. وذكر الرواندان وعين زربة وبهسني والمرزبان والشغروبكاس وعربسوس، وفصلا في ذكر فضائل الشام، وحلب وفويق نهر حلب وما ورد فيه وذكر الغراب ومخرجه ومعرفة من حفره، وذكر جتيمان نهر المصيصة وسيحان نهر أذنة والعاصي نهر إنطاكية وحماة والبردان نهر طرسوس، وذكر البحر الشامي ويعرف ببحر الروم. وأشار إلى ما يتعلق بحلب وأعمالها من الملاحم وأمارت الساعة. وعقد فصلاً فيمن نزل من قبائل العرب بأعمال حلب ومن كان قبلهم في سالف الحقب، وهو من أهم فصول كتابه. وذكر من نزل في أعمال حلب من حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وعقد باباً في فتح حلب وقنسرين وما تقررت عليه أحكامها، ونقل شرط عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) على أهل قنسرين وهو على الغنيّ ثمانية وأربعون، وعلى الوسط أربعة وعشرون، وعلى المدقع اثنا عشر يؤديها بصغار - والغالب أنها دراهم والدرهم على الأكثر عشر الدينار، ويقدر الدينار بنحو نصف جنيه مصري ذهباً - وعلى مشاطرة النازل

بينهم وبين المسلمين وألا يحدثوا كنيسة إلا ما كان في أيديهم ولا يضربوا بالناقوس إلا في جوف بيعة، ولا يرفعوا أصواتهم بالقراءة، ولا يرفعوا صليباً إلا في كنيسة، وأن يؤخذ منهم القبلى من الكنائس للمساجد، وأن يُقْروا ضيوف المسلمين ثلاثاً، وعلى ألا يكون بين ظهراني المسلمين الخنازير، وعلى أن يناصحوا المسلمين ولا يغشوهم ولا يمالؤا عليهم عدواً، وأن يحملوا راجل المسلمين من رستاق إلى رستاق، وألا يلبسوا السلاح ولا يحملوه إلى عدو، ولا يدلوا على عورات المسلمين، فمن وفى وفى المسلمون له، ومنعوه بما يمنعون به نساءهم وأبناءهم، ومن انتهك شيئاً من ذلك حل دمه وماله وسباءُ أهله وبرئت الذمة منه؛ وكتب بذلك كتاباً. وهذا الكتاب فيما نذكر لم يرد بهذا النص في كتب الفتوح والبلدان المشهورة.

ومما روى ابن العديم قال: وأخبرنا قاضي العسكر أبو الوليد محمد بن يوسف بن الخفر قال: كانت حلب من أكثر المدائن شجراً فأفنى شجرها وقوع الخلف بين سيف الدولة بن حمدان وبين الإخشيد أبي بكر محمد بن طفج، فإن الإخشيد كان ينزل على حلب ويحاصرها ويقطع شجرها، فإذا أخذها وصعد إلى مصر جاء سيف الدولة وفعل بها مثل ذلك، وتكرر ذلك منهما حتى فنى ما بها من شجر. واتفق بعد ذلك نزول الروم على حلب وأخذ المدينة في سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة ففنى شجر الشربين لذلك، وكانت الوقعة بين سيف الدولة وبين الدمستق في هذه السنة في سفح جبل بانقوسا وسميت وقعة بانقوسا. وقال في سيف الدولة إنه كان يتشيع فقيل على أهل حلب التشيع لذلك.

ومما ذكره جبل برصايا وقال إنه جبل عال شامخ شمالي عزاز يشرف على بلد عزاز وكورة الأريتق (الأرتيق) وتحتهما قرية يقال لها كفر شيغال وقفها نور الدين محمد بن زنكي على مصالح المسلمين. وهذا الجبل بين عزاز وقورس. وذكر ما في حلب من اعزازات وما فيها وفي أعمالها من العجائب والخواص والطلسمات والغرائب. وقال إن حلب من الأرض المقدسة، وإن أهل حلب في رباط وجهاد، وإنها كانت باب الغزو والجهاد، ومجمع الجيوش والأجناد، وذكر صفة مدينة حلب وعماراتها وأبوابها وما كانت عليه أولاً وما تغير منها وما بقى. ثم ذكر فصولاً أخرى في فضلها وفضل قنسرين وفصولا في إنطاكية، ومنبج، ورصافة هشام وخناصرة، وبالس، وحياد بني القعقاع، ومعرة

النعمان - نسبة للنعمان بن بشير - ومعرة مصرين، وحاضر قنسرين وسرين وكفر طاب، وأفامية، وشيزر، وحماة، وبغراس (بيلان اليوم) والمصيصة، وعين زربة، وأذنة، والكنيسة السوداء، وطرسوس، وذكر كيفية النفير بطرسوس وكيف كان يجري أمره، وعقد فصلاً لفضل طرسوس والحصون المجاورة لها وللمصيصة وإنطاكية، وذكر حصن ثابت بن نصر وهو الذي كان مشهوراً قبل الثغور وبنائها، وذكر حصن عُجَيْف، وحصن

شاكر، وحصن الجوزات، وعرض لتل جبير، وأولاس ويقال له حصن الزهاد، وذكر الهارونية، وحصن الأسكندرونة، والتينات، والمثقب، وسيسيه ويقال لها سيس وهي مدينة قريبة من عين زربة إلى غيره من الحصون، وذكر مرعش والحدث المعروفة بالحدث الحمراء، وزبطرة، وحصن منصور، ومكظية، وسُمَيْساط، وريمان، ودلوك، وقورض وكيسوم. فاستدللنا بهذا أن عمل حلب كان يتناول قسماً مهماً من الجزيرة ومعظم بلاد قاليقلا، وبعض بلاد آسيا الصغرى (ويقع الكتاب في 518 صفحة وعدد أوراقه 196)

محمد كرد علي

تطور علم الكلام في رسالة إنقاذ البشر من الجبر والقدر

للأستاذ محمد علي كمال الدين

من آثار الماضين المطمورة في الخزائن رسالة (إنقاذ البشر من الجبر والقدر) للشريف المرتضى المتوفى سنة 436هـ. قام بنشرها وطبعها الشاب الفاضل علي الخاقاني النجفي عضو منتدى النشر فيها.

لم تقتصر هذه الرسالة على طلاوة الحديث وسهولة الأسلوب فقط، بل استهلت بمقدمة وجيزة متقنة الترتيب والتنسيق والتأليف، عرضت لتاريخ تطور علم الكلام لم نجد لها مثيلاً في مطولات الكتب. ويدرك الباحث قيمة هذه المقدمة عند مقارنتها مع مقدمة مختصر كتاب الفرق بين الفرق؛ فقد كان المؤلفان متعاصرين فضلاً عن أن لهما سبقاً في التأليف على معظم مؤلفي الكتب المتداولة اليوم في مثل هذه الموضوعات.

لقد قارنا بين المقدمتين فوجدنا شبهاً بين مسلكي المؤلفين، ولو أن بين موضوعي الكتابين فرقاً ظاهراً. أما وجه الشبه فإن كلتا المقدمتين تبحثان عما جد من نقط الخلاف بين المسلمين. وأما وجه الافتراق فأن مقدمة مختصر كتاب الفرق بين الفرق لم توضح العوامل النفسية والاجتماعية الداعية لهذا الاختلاف، وأنها لم ترنا نظرية جديدة في أسباب هذه الحركة الفكرية؛ أضف إلى ذلك أنها قرنت نظرية الاستطاعة مع نظرية القدر في حين أن هذا الاقتران لا يصح منطقياً إلا على رأي القائل: إن القدر مرادف للجبر، وهو خلاف رأي ذلك المؤلف نفسه؛ فإن بحث الاستطاعة وتقدمها وتأخرها عن الفعل إنما حدث بين علماء الجبر أنفسهم، فكأنما المؤلف غفل عن التطور الفكري والظروف والمدارج العقلية التي يمكن للنظريات أن تحل أو تخلق فيها؛ في حين أن مقدمة المرتضى كما ستراها علمية فنية، فقد بدأت في نظرية نسبة المعاصي ونفيها عن الله، ثم أعقبت ذلك بنظرية العدل فنظرية الاعتزال يعني المنزلة بين المنزلتين، وتلاها بنظرية القدر ويعني بها الجبر؛ على أنه راعى في ذلك كله العوامل النفسية والاجتماعية المباشرة لخلق مثل هذه النظريات التي جاءت مرتبة بعضها وراء بعض فكان منها علم الكلام

وهذا هو الذي دعاني إلى العناية بدراسة هذه المقدمة وإلى تحليلها فلعلنا نستنتج تاريخ علم

الكلام وتطور نظرياته. قال الشريف:

(واعلم أن أول حالة ظهر فيها علم الكلام وشاع بين الناس في هذه الشريعة هو أن جماعة ظهر منهم القول بإضافة معاصي العباد إلى الله سبحانه، وكان الحسن ابن أبي الحسين البصري ممن نفى ذلك ووافقه في زمانه خلق كثير من العلماء كلهم ينكرون أن تكون معاصي العباد من الله، منهم محمد الجهني وأبو الأسود الدؤلي ومطرف ابن عبد الله ووهب ابن منبه وقتادة وعمر ابن دينار ومكحول الشامي وغيلان وجماعة كثيرة لا تحصى؛ ولم يك ما وقع من الخلاف يومئذٍ يتجاوز باب إضافة معاصي العباد إلى الله سبحانه ونفيها عنه وغيره من هذا الباب)

فأنت ترى أن الشريف بدأ مقدمته ببحث نفسي علمي عن الحالة التي ظهر فيها علم الكلام وهو وإن لم يصور في المقدمة تلك الحالة بوضوح وجلاء إلا أن تحليلها العلمي يكشف لنا عنها، فقد درج فيها مثلاً جماعة من أكابر التابعين ممن تصدوا لنفي ذلك القول؛ ومن تصدي مثل هؤلاء العلماء تتجلى لنا أهمية هذا القول وقيمة القائلين به ومبلغ تأثيرهم وتأثيره في أفكار الناس، كما أن وجود أبي الأسود الدؤلي المتوفى سنة

69هـ بين هؤلاء الجماعة النافين، وهو المعروف بعلمه ومكانته، يدل دلالة صريحة على أن البدء في هذا القول لا يعدو هذا التاريخ، أي لا يعدو سنة 69 كما يدل على وجود رأي خاص بعلماء النفي. فنحن الآن نبحث نقطتين إحداهما العوامل التي كونت ذلك القول، وثانيتهما علماء النفي ورأيهم وكيفية تكون هذا الرأي.

(1) عوامل نسبة المعاصي إلى الله.

أما الحالة والعوامل النفسية التي دفعت إلى هذا القول فيمكن استنتاج رأي الشريف فيها من موضوع البحث نفسه. بحث المعاصي، فإنه من الواضح أن العرف والعادة يقضيان باستحالة ظهور هذا البحث فجأة وبدون أسباب، في حين أن الذي كان عليه المسلمون ونشئوا عليه هو الطاعة طاعة الله ورسوله التي تجلت أسبابها في عهد النبي والصحابة. فهل يمكن تغيير اتجاه الأمة فجأة، من هذا التوغل في الطاعة إلى البحث في المعاصي دون أن تجد عوامل اجتماعية وروحية مما تدفع إلى هذا التغير.

والسيد المرتضى لم يساعده الإيجاز في مقدمته على بيان عوامل البحث في المعاصي،

وربما كان معتمداً على فهم القارئ واستنتاجه فإن الباحث إذا رجع إلى الأحداث التاريخية قبل سنة 69 يجد أنها بدأت في مقتل عثمان وثنت بوقعة الجمل وحروب صفين، وناهيك بمفعول هذه الأحداث وعظيم أثرها على الفطرة العربية والإيمان المتغلغل، فكان أن تمخضت عن خروج الخوارج المتصلبين في نظرياتهم الدينية والذين لم يكتف بعضهم بتخطئة علي ومعاوية وأصحابهما بل يريدون من الناس أن يحكموا بكفرهم وكفر من ناصرهما. وهذه الأحداث هي التي كونت نظريتهم في تكفير مرتكب الكبيرة وهي كما ترى عين نظرية المعاصي المبحوث عنها غير أنها توسعت بنسبة هذه المعاصي إلى الله.

وهنا يجد السؤال: كيف ومتى توسعت نظرية تكفير ذوي المعاصي فشملت إضافة هذه معاصي العباد إلى الله تعالى؟ وبتعبير أوضح كيف تطور الموضوع من إيجابي لدى فريق إلى سلبي لدى فريق آخر، ومن تكفير مطلق إلى تبرئة مطلقة، في حين أن طبائع الجماعات والأحزاب المتطاحنة تسترسل بالطعن بعضها في بعض بإصرار وشدة. وإن رأت الاعتدال فإنما يكون بالإعراض والإغفال لا في التبرئة، فإن من المعلوم أن نسبة عصيان العبد إلى ربه تستلزم نقض ذلك التكفير وتخفيف وطأته، وذلك يستحيل تحقيقه عقيب تلك الأحداث الدموية أي عقيب سنة 40، نعم يمكن أن يتكون من إصرار الخوارج على التكفير ومن حركاتهم الطفيفة ضد معاوية والعنيفة ضد ابن الزبير، ومن تفاقمها ضد عبد الملك وعامله الحجاج يمكن أن يتكون من جميع ذلك عوامل لتهيئة نفسية الأمة في تكوين جماعة ذات رأي في تبرئة الصحابة بقصد مناضلة الخوارج، والوقوف ضد تيارهم كما أن الأحداث التي قام بها يزيد بن معاوية والتي فتنت الناس في دينهم ولطخت ثيابهم بدم الحسين وبدماء أهل المدينة، وأيضاً حصار مكة المكرمة من قبل الحجاج لا بد أنها ولدت في نفوس الناس الشك والحيرة في العاقبة وسوء المنقلب، فمن الجائز أنهم لجئوا إلى وسيلة تبرئة الصحابة والتابعين كيما يحصلوا هم على هذه التبرئة ضمناً فنسبوا معاصي العباد إلى الله. ونحن نرى أن نشوء فئة تبرئ الأحزاب وتصحح أعمالها وأغلاطها لا يحصل عادة إلا بعد استقرار الوضع السياسي واطمئنان النفوس، وأيضاً بمعونة جيل جديد ينضم إلى بقايا تلك الأحزاب؛ فمن هذا النشء الجديد ومن أولئك البقية الذين كانوا شباناً عند تلك الحروب والفتن الداخلية التي انغمسوا فيها مسبوقين غير مختارين؛ فمن هؤلاء

وأولئك يجوز أن تتكون فئة مختلطة تفكر أو تعتقد بتبرئة السلف - وبتعبير آخر يمكن أن يحدث على عهدها مثل هذه النظرية التي خلقها التطور الفكري - والسيد المرتضى وإن اكتفى بذكر النظرية عن تحديد وقتها أو تعيين الجيل الذي اعتنقها فإني أرى أن خير جيل وأفضل وقت يمكن أن تتجلى فيه نظرية نسبة عصيان العبد إلى الله هي المدة بين سنة 60 و 69 مراعين في ذلك سنن الاجتماع ومدى تطور عقلية الجماعة.

وإجمال القول أننا جعلنا التسعة والعشرين عاماً بين سنة 40 و 69 هي المدة التي تطورت فيها النظرية من قضية بسيطة إلى قضية مركبة، أو من دور الشعور بها فالتفكير، إلى دور نضوجها وبروزها نظرية ثم معتقداً، ذلك المعتقد الذي اضطر أبا الأسود الدؤلي وإخوانه التابعين إلى إنكاره. ومن الأدلة على صحة رأينا هذا هو المكانة

العلمية التي كان عليها الحسن البصري كما يظهر من قول المرتضي (وكان الحسن بن أبي الحسين البصري ممن نفى ذلك) فإنك تعلم أن مثل هذه المكانة لا يبلغها إلا من قارب عمره 39 عاماً وقد كانت ولادة البصري سنة 30 هـ وعليه لا بد وأن تكون المدة من 60 إلى 69 هي القدر المتناسب لخلق نظرية نسبة المعاصي لله.

(2) علماء النفي ورأيهم:

أما علماء النفي فيظهر لنا من المقدمة أن المرتضي يرى أنهم جمع غفير من السلف الصالح فإنه بعد ما ذكر سلسلة صالحة من التابعين ألحقها بقوله: مع جماعة كثيرة لا تحصى. والمنطق يحكم في ذلك. فإن سواد الأمة ورجال العمل فيها مسوقين طبعاً لرفض نسبة معاصي العباد إلى الله، ذلك القول الذي ينفر منه الحس ولا يقبله العرف فقد عسر على فهم الناس الإذعان بأن الكفر والفسق وسائر الإجرام التي يرتكبها العصاة عادة - تنسب إلى الله وهو في الوقت نفسه العادل الرؤوف الرحيم. فكان رأي هؤلاء القول بالعدل وأنهم ينفون أن تنسب معاصي العباد إلى الله.

ويضيف المرتضي إلى ذلك أنه لم يكن في ذلك الدور الذي حصرناه بين 60 و 69 غير بحث المعاصي نفياً وإثباتاً.

فإن قيل إن النقطة الأولى أعني البحث في نسبة المعاصي لله يؤول إلى القول بالقدر الذي هو بمعنى الجبر على رأي المرتضي، وأيضاً النقطة الثانية أعني البحث في نفيها عنه

بنسبتها إلى الإنسان تؤول إلى القول بالاختيار وهو الذي يدعوه المرتضي العدل. قلت: ولكن هذا المآل لا يتحقق فعلاً قبل تفهم الأمة حقيقة بواعثه نفسها وقتلها بحثاً ودرساً ثم تطبيقاً، ومن الجائز تحقق ذلك وتحقق هذا المآل ولكن بعد سنة (69) أي بعد تقادم نظرية نسبة المعاصي ونفيها، وأيضاً بعد مرور زمن يتناسب مع مدى تقدم عقلية الأمة، وعليه فيكون عهد نظرية القدر ونظرية الاختيار متأخراً كما قال المرتضي بعد عهد طويل.

ولا يذهبن بنا الظن إلى أن معنى تأخر هاتين النظريتين أنهما لم تخطرا ببال أحد ولم يعرض لهما الكتاب والسنة والأحاديث مطلقاً، فقد عرض الكتاب في مختلف الموارد إلى القدر والاختيار تصريحاً وتلميحاً وكناية، وكذلك الحديث؛ غير أنا لا نرى أن ذلك يستلزم أن تصبح علماً مفرداً لدى الناس إذ ليس كل ما يعرض له الكتاب والسنة يتفهم الناس نظرياته العلمية فعلاً، فقد جاء أن الكتاب يحوي بين دفتيه علوماً لم تكتشف بعد. ولذلك رأينا الشريف المرتضي قد خطأ القائلين أن القدر أول موضوع في علم الكلام فقال: ولم يك ما وقع من الخلاف حينئذٍ يتجاوز باب نسبة معاصي العباد إلى الله ونفيها عنه. ومن هنا نعرف أن رأي المرتضي لا يتفق مع رأي القائلين بأن معبد الجهني وغيلان الدمشقي هما أول القائلين بالقدر وإنما يرى فيهما كما عرفت في أنهما يقولان بنفي معاصي العباد عن الله وهي النظرية العدلية. وخلاصة رأي المرتضي كما يأتي:

(1) إن أولى النظريات في علم الكلام الإسلامي هي نظرية نسبة المعاصي إلى الله

(2) ثانيتهما النظرية العدلية وهي رأي علماء النفي

(3) يستنتج أن عام 60 - 69 هو أعلى حد يمكن أن يكون مبتدأ لتاريخ علم الكلام؛ وذلك لأنا ضبطنا الأرقام على أساس تاريخ وفاة العلماء أي على أخس المقدمات. ومن هنا يعرف القارئ أن تاريخ علم الكلام يجوز أن يتقدم على سنة 60 ولا يمكن أن يتأخر عن سنة 69، وهكذا الشأن في جميع أرقام بحثنا التالية فيجوز عليها التقدم ولا يجوز التأخر وسيتجلى رأي المرتضى أكثر في أجزاء المقدمة التالية قال:

(بيان القدرة والمقدور وما أشبهه. فأما الكلام في خلق أفعال العباد في الاستطاعة وفيما اتصل بذلك وشاكله فإنما حدث بعد دهر طويل، ويقال إن أول من حفظ عنه القول بخلق أفاعيل العباد جهم بن صفوان فإنه زعم أن ما يكون في العبد من كفر وإيمان ومعصية فالله

فاعله كما فعل لونه وسمعه وبصره وحيويته، وأنه لا فعل للعبد في شيء من ذلك ولا صنع، والله تعالى صانعه، وإن لله تعالى أن يعذبه في ذلك على ما يشاء ويثيبه على ما يشاء. وحكى عنه علماء التوحيد أنه يقول مع ذلك إن الله خلق في العبد قوة بها كان فعله، كما خلق غذاء يكون به قوام بدنه، ولا يجعل العبد كيف يصرف حاله فاعلاً لشيء

على حقيقة، فاستبشع من قوله أهل العدل وأنكروه مع أشياء أخرى حكيت عنه. ولما أحدث جهم القول بخلق أفعال العباد قبل ذلك ضرار بن عمرو بعد أن كان يقول بالعدل فانتفت عنه المعتزلة واطرحته، فخلط عند ذلك تخليطاً كثيراً وقال بمذاهب خالف فيها جميع أهل العلم وخرج عما كان عليه واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد بعد (ما كان يعتقد فيهما من العلم وصحة الرأي لأنه كان في الأول على رأيهما وأخذ عنهما
(لها بقية)
(العراق - النجف)
محمد علي كمال الدين
الفلسفة الشرقية
بحوث تحليلية
بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين
- 22 -
الفلسفة الصينية
العصر الأول
عقيدة العامة
لا يستطيع الباحث أن يحصل على نتائج قيمة في دراسة عقيدة شعب من الشعوب إلا إذا صعد مع الماضي إلى العناصر الأولى لهذه العقيدة بقدر المستطاع. ولا شك أن العقيدة الصينية هي إحدى تلك العقائد القديمة التي تتكون من عناصر مختلفة وأساطير شعبية متباينة. ولهذا وجب علينا قبل أن ندرس الوحدتين الصينيتين: الدينية والفلسفية أن نلم بمعتقدات العامة في عصور ما قبل التاريخ، حتى إذا ما وصلنا إلى العصور الراقية، استطعنا أن نربط بين الأصل والفرع على نحو يرضي البحث العصري.
تتكون عقيدة العامة عند الصينيين من أقدم عصورهم من عبادة الأرواح الخفية والقوى الغامضة التي كانوا يشاهدون آثارها دون أن يدركوا كنهها على نحو ما فعلت جميع الشعوب الغابرة. وكانت هذه الأرواح المعبودة مؤلفة من نوعين: أرواح الموتى: من آباء وأجداد وغيرهم، وتسمى عندهم بالـ (كُوِي) وأرواح القوى الطبيعية مثل الشمس والقمر والكواكب وتسمى عندهم (شين).
وكانت هذه الأرواح بنوعيها تنقسم من حيث المكان إلى قسمين: الأرواح العليا أو السماوية، وهي جميع الكواكب والنجوم؛ والأرواح الدنيا أو الأرضية، مثل: الأنهار والبحيرات والمنابع، والغابات والمروج والأودية والجبال والتلول والربوات. وتندرج في هذا القسم الأدنى أو الأرضي أرواح الموتى كذلك.
ولقد كان الصينيون ولا يزالون إلى اليوم يؤمنون بأن هناك أرواحاً موكلة بالمطر، وأخرى بالجفاف، وثالثة بالإنبات، وغير ذلك، وأن هناك أرواحاً خاصة لحماية المنازل ورعاية أفراد الأسر.
كان هذان النوعان الـ (كُوِي - شين) إذن هما اللذين يحكمان الكون، ويسيران كل حركاته. ولهذا كان من الطبيعي أن تنحصر تفكيرات أفراد الشعب وحكامه ومشاغل قلوبهم في البحث عن نيات هذه الأرواح ومقاصدها، وما يرضيها، وما يغضبها، لكي يعمل كل فرد من أفراد الأمة حاكماً كان أو محكوماً على اجتذاب رضى هذه الأرواح، وجلب خيرها ودفع شرها. وكانت هناك وسائل كثيرة تستعمل للحصول على هذه الغاية مثل السحر والرقى واستنطاق الوحي على لسان رجال الدين
تمتاز العقيدة الصينية القديمة عن عقائد الشعوب الأخرى بالمغالاة في تقديس الأجداد إلى حد لم يعرف له نظير عند الأمم الغابرة، ففي الماضي قدموا عبادتها على عبادة أرواح السماء، وقد حافظوا على هذا التقديم من أي تغير طوال هذه العصور السحيقة، ولا يزالون إلى هذا العصر يشعرون الباحث في معتقداتهم بنفس هذا الشعور الذي يذكرنا بطفولة الإنسانية، ولكن لعل هذا النوع من العبادة قد بقي إلى الآن، لأنه يحمل في ثناياه مبادئ أخلاقية سامية تدفع الأبناء إلى احترام الآباء في حياتهم وبعد مماتهم وليس بغريب عن الصينيين أن يكون أثبت العقائد عندهم هو ما يمت بصلة إلى الأخلاق كما أشرنا إلى ذلك في الفصل الماضي
هناك ناحية أخرى قد تميز الشعب الصيني عن غيره، وهي الإغراق في تقديس الأرض

وعبادتها حتى كانوا يطلقون عليها اسم: (القوة المحسنة التي تتسم البذور لتردها ثماراً مضاعفة) ولا ريب أن السبب في هذا هو أن الشعب الصيني كان شعباً زراعياً يضع الاستغلال والاستنبات في المنزلة الأولى في الحياة.

عقيدة الخاصة أو عبادة السماء

بقدر ما كان العامة يقدسون الأرض لما تفيضه عليهم من نعمة الخصوبة ووفرة الإنبات، كان الخاصة يعبدون السماء لما يرونه بعين الفكر كامناً فيها من قوة معنوية لها كل السلطان على الأرض وما فيها، وهكذا ظهر الفرق منذ أقدم العصور واضحاً بين عقيدة العامة

الساذجة التي تأمر بعبادة الأجداد وغيرهم من الموتى، وعقيدة الخاصة التي تحصر العبادة في السماء أو في (شانج - تي) أي السلطان الأعظم

لم تكن عقيدة الخاصة هذه مستحدثة في العصور المتأخرة، وإنما هي قديمة جداً، إذ نراها مسطرة في أقدم فصول كتاب (إي - كينج). ولقد كانت الرياسة في هذه العبادات الراقية مقصورة على الملك الذي كان يسمى: (تي) أي السلطان وكانوا يلقبونه أيضاً بابن السماء؛ وقد تطورت هذه الرياسة في العصور المتأخرة فتجاوزت الملك إلى حكام المقاطعات والأقاليم

لم تكن عقيدة الخاصة مجرد عبادات وطقوس دينية فحسب، وإنما كانت ممتزجة بتفكيرات قيمة حول الكائن من حيث هو كائن وتحليلات لا بأس بها للقوى الطبيعية السماوية والأرضية التي كانوا يشاهدون آثارها، وكان ذلك مقصوراً على الخاصة ومحرماً على العامة تحريماً قاسياً. ويتضح هذا التحريم من قراءة أقدم فصول (إي - كينج) إذ لا يكاد الباحث يتصفحها حتى يجزم بأنها لم تكتب إلا للحكماء والملوك وخاصة الأمراء وعلماء كبار رجال الدولة

وفي الواقع أن حكماءهم كانوا يقولون: ليس من العقل أن تُسَلَّم إلى الجمهور الأداة التي يسيء استعمالها، والتي قد تجرحه فترديه قتيلاً. وقد ظلت فكرة (المضنون به على غير أهله) قائمة في بلاد الصين حتى هذه العصور الحديثة، ولهذا قال: (لا أو - تسي) حكيمهم المتنسك في العصور التاريخية: (كما أنه من غير الممكن إبعاد الأسماك عن الماء دون أن تموت، كذلك من المستحيل أن تكشف أسرار الدولة أمام العامة دون أن تفسد الحال)

من هذا نعرف مقدار حرص الخاصة على عدم تسرب أسرار عقيدتهم إلى العامة. والآن نريد أن نشير إلى شيء من تفاصيل هذه العقيدة، وعلى أي نحو كانت العقلية الصينية تفهم القوى المتصرفة في الكون وتؤمن بها وتوجه إليها التقديس. وإليك هذه الإشارة:

كان أولئك الخاصة من أقدم العصور يسندون التأثير في جميع الكائنات إلى قوتين عظيمتين: السماء والأرض؛ ولكنهم كانوا يرون في السماء وحدها السلطان الأعلى (اللامحدود) القوة، وكانوا يعتقدون أن السماء نفسها كائن حي متحرك بالإرادة، وبعبارة أدق: أن السماء هي العالم الحي المتحرك حسب نظام دقيق عجيب، وأنها هي كل الكون،

وأن الأرض وجميع ما عليها من خصوبة وتناسل ومظاهر أخرى ليست إلا رمزاً تمثيلياً من رموز السماء. وقد كانت الأرض هي الرمز النسوي للسماء لما يظهر على سطحها من خصوبة ونباتات؛ ولكن ليس معنى هذا أن خاصة الصينيين كانوا يعتقدون - كما اعتقدت بعض الشعوب الأخرى القديمة - بأن الكائنات تناسلت من زواج السماء مع الأرض، كلا. وإنما كانوا يعتقدون بالوحدة المطلقة وبأن الأرض ليست إلا مظهراً للسماء بحيث يستحيل تصور فصلها عنها كما تستحيل تثنيتهما في الحقيقة، لأن كل واحدة منهما هي الأخرى، وهي أصل جميع الكائنات في نفس الوقت. ولئن وجدنا في كتاب (إي - كينج) أن عناصر الوجود الإيجابية مستقرة في السماء وعناصره السلبية موجودة في الأرض مثلاً، وأن الأرض تدعى بالأميرة المخصبة، فليس معنى هذا هو التثنية الحقيقية، وإنما هي رموز لا أكثر ولا أقل

وهكذا نتلاقى عند هذه النقطة من الفلسفة الصينية بوحدة الوجود سافرة جلية بعد أن قصرها أولئك المتفيقهون على العقلية الآرية وجزموا بأنها برهان السمو الفكري. وليست هذه الوحدة موجودة في الفلسفة الصينية بهيئة غامضة، أو قابلة للفرض

والتخمين، كلا، بل إنهم يصرحون بأن كل كائن من الكائنات الموجودة حية كانت أو جامدة إنما هو نتيجة لإحدى حركات الوحدة المطلقة، وأن جميع الحوادث الكونية ليست ناشئة إلا عن تغير المظاهر الطبيعية، وأن هذه الوحدة هي المنشأ والمرد لجميع الموجودات بغير استثناء. غير أن هذا التأثير لا يتجه من الوحدة إلى الكثرة الناشئة عنها بطريقة مباشرة، وإنما يتجه إليها بوساطة قوى هي كذلك ناشئة عن تلك الوحدة، وعلى هذا النحو تحدث الموجودات. فمثلاً الرعد يحدث الحركات الأبدية التي تجذب أحد الضروريين إلى الآخر، والهواء يحدث فرقتهما وكذلك المطر يحدث الخصوبة، والشمس تحدث الحرارة، والجبال تحقق السكون، والماء يحدث السرور؛ وهكذا تحدث القوة الطبيعية وحدها بعض الحوادث حيناً، وتتكاتف مع إحدى القوات الأخرى إحداث البعض حيناً آخر، وتتضارب مع قوة ثالثة إما للإحداث أو للكف عنه حيناً ثالثاً، وبناء على ذلك كله فليس للعالم عند الصينيين منشئ أجنبي عنه، وإنما المنشئ هو عين المنشأ، كما هي الحال عند الهنود وعند الرواقيين مع الاحتفاظ بالفروق الدقيقة المميزة لكل واحدة من هذه الفلسفات

وعلى أن أهم ما يجمل بنا أن نشير إليه في هذا الموضع هو تصريح الفلسفة الصينية أو عقيدة الخاصة منذ عصور ما قبل التاريخ بأن جميع الكائنات هي نتائج التغير والتحول الدائمين والناشئين من الحركة. تلك النظرية التي طالما تلألأت في سماء الفكر الإغريقي في عصر ما قبل (سقراط) وكانت منشأ مجد (هيراكليت) ومبعث تلك المجادلات الفلسفية التي احتدم أوارها بينه وبين (بارمينيد) وتلميذه (زينون الإيليائي). وليست هذه هي النظرية الفلسفية الوحيدة التي سبق الصينيون فيها الإغريق، بل إنهم قد سبقوا أفلاطون بتلك النظرية التي أسلفناها آنفاً، وهي تصريحهم بأن السماء كائن حي، متحرك بالإرادة. وإذا أردت التوسع في إيضاح هذه النظرية فارجع إلى أفلاطون أو إلى كتب ابن سينا وابن رشد فإنك ستجد فيها الفصول الضافية والبحوث المستفيضة.

لا يفوتنا قبل أن نغادر هذا الفصل أن نعلن أن هذا الكون الأوحد عند الصينيين لم يكن مادياً محضاً، وإنما كان طبيعياً أي مادة مشتملة على روح، بل إنهم صرحوا بأن الجانب المادي في الطبيعة لم يحتفظ بنظامه كاملاً إلا بفضل الجانب الروحي، وكذلك ينبغي أن نشير إلى أن الإنسان له عندهم منزلة خاصة، بل إنهم كانوا يعتبرونه عالماً مستقلاً ويضيفون اسمه إلى اسمي السماء والأرض كمظهر قوى من مظاهر الوحدة الكونية أو الكون الأوحد، لأنه هو المشتمل على الروح من بين جميع الكائنات وفي هذا يقول كتاب (شو - كينج): (إن السماء والأرض هما أبوا الكائنات جميعها، والإنسان من بين جميع الكائنات هو وحده الموهوب روحاً).

ولكن ليس معنى إضافة اسم الإنسان إلى اسمي: السماء والأرض هو تكوين ثالوث كثالوث الهنود أو المسيحيين، بل إنها وحدة مطلقة كما أسلفنا. وكذلك يجب أن نعلن أن هذه النظريات الراقية لم تكن يوماً ما عامية ثم تهذبت، وإنما هي وليدة أفكار الخاصة والمهذبين استخلصوها مباشرة من دراسة ما حولهم من الظواهر الطبيعية

(يتبع)

محمد غلاب

نقل الأديب

للأستاذ محمد اسعاف النشاشيبي

لقد صغرت عظيماً - 214

سأل رجل خالد بن صفوان فقال: هب لي دنينيراً. فقال خالد: لقد صغرت عظيما (صغرك الله!) الدينار عشر العشرة، والعشرة عشر المائة، والمائة عشر الألف، والألف ديتك

ألم العيون للذة الآذان - 215

كان جحظة البرمكي ناتئ العينين جداً، قبيح الوجه، وكان طيب الغناء، ممتد النفس، حسن المسموع، حلو النادرة كثير الحكاية، صالح الشعر فقال فيه ابن الرومي:

نبئتُ جحظة يستعير جحوظه ... من فيلِ شِطرنجٍ ومن سرطان

وا رحمتا لِمُناديميه! تحمّلوا ... ألَمَ العيون للذّة الآذان

عتاب بين جحظة والزمان - 216

في (الإيجاز والأعجاز) للثعالبي: كان الشبلي يرقص على قول جحظة:
ورَقّ الجوُّ حتى قيل: هذا ... عتابٌ بين جحظةَ والزَّمان
217 - نزلنا عن الأكوار نمشي كرامة
قال يونس بن محمد المفتي: أخبرنا عبد الله بن منظور قال: لما سرنا إلى الزيارة، وانتهينا إلى باب الخشبة، وهو الباب الذي يفضي إلى القبر (قبره صلوات الله عليه) نزل رجل عن راحلته وأنشد:
نزلنا عن الأكوار نمشي كرامة ... لمن بان عنه أن نلم به ركباً
فلما سمعه الناس نزلوا عن رواحلهم ومشوا إلى القبر
وتمثل هذا الرجل بهذا البيت احسن من مدح أبي الطيب المتنبي من مدحه به، وقاله فيه
218 - يا كفى الله شر ما هو حاك
أبو عامر بن الفضل التميمي و (هذا كلام عليه إمارة الإمارة وله ملاحة البداوة ورشاقة الحضارة):
واصلتني الهمومُ وصلَ هواكِ ... وجفاني الرقادُ مثلَ جفاكِ
وحكى لي الرسول أنك غضبى ... يا كفى الله شر ما هو حاك!!
219 - ذهب ذلك القليل
في (روضة العقلاء ونزهة الفضلاء): قال شعيب بن حرب:
قال لي شعبة: عقولنا قليلة فإذا جلسنا مع من هو اقل عقلا منا ذهب ذلك القليل.
وإني لأرى الرجل يجلس مع من هو اقل عقلا منه فأمقته
220 - إرجاف العوام مقدمة الكون
كان ابن الزيات يقول: إرجاف العوام مقدمة الكون. نظمه جحظة:
وإرجاف العوامِ مقدّماتٌ ... لأمرٍ كائن لا شكّ فيهِ
221 - لا. . .
كان ابن الليث قاضي مصر يكتب في فتيا فسمع جارية تقول:
ترى في الحكومة يا سيدي ... على من تعشق أن يُقتلا؟
فرمى القلم من يده وهو يقول: لا
222 - فكيف حالي لو كنت أعبد ثلاثة؟
في (نفح الطيب): كان محمد بن أبي بكر القرموطي المرسي من اعرف أهل الأندلس بالعلوم القديمة المنطق والهندسة والعدد والموسيقى والطب، فيلسوفاً ماهراً، آية الله في المعرفة بالأندلس يقرئ الأمم بألسنتهم فنونهم التي يرغبون فيها وفي تعلمها.
ولما تغلب طاغية الروم على مرسية عرف له حقه فبنا له مدرسة يقرئ فيها المسلمين والنصارى واليهود. وقال له يوماً وقد أدنى منزلته: لو تنصرت وحصلت الكمال كان لك عندي كذا، وكنت كذا. فأجابه بما اقنعه، ولما خرج من عنده قال لأصحابه: أنا عمري كله اعبد إلهاً واحداً، وقد عجزت عما يجب له، فكيف حالي لو كنت اعبد ثلاثة كما طلب الملك مني؟!
223 - واستشهد بالموتى
في (كشكول العاملي): قيل لأعرابي: كيف غلبت الناس؟ فقال: كنت أبهت بالكذب، واستشهد بالموتى. . .
224 - إنها لم تجعد عني
في (الكشاف): شهد رجل عند شريح (القاضي) فقال: إنك لسبط الشهادة!
فقال الرجل: إنها لم تجعد عني
فقال: لله بلادك! وقبل شهادته
225 - علم الله نيتي من سمائه
في (أمالي) القالي: كان الجماز منقطعاً إلى أبي جزء الباهلي، فتنسك أبو جزء وقال للجماز: لا احب أن تخالطني إلا أن تتنسك، فاظهر الجماز النسك وأنشأ يقول:
قد جفاني الأميرُ حين تقرّى ... فتقرّيت مكرهاً لجفائهْ
والذي انطوى عليه المعاصي ... علم الله نّيتي من سمائهْ
226 - المصغر لا يصغر
في (وفيات الأعيان): اجتمع الكسائي يوماً بمحمد بن الحسن (الشيباني صاحب أبي

حنيفة) في مجلس الرشيد فقال الكسائي: من تبحر في علم يهدي إلى جميع العلوم.
فقال له محمد: ما تقول فيمن سهى في سجود السهو، هل يسجد مرة أخرى؟ قال الكسائي: لا. قال محمد: لماذا؟ قال: لآن النحاة تقول: المصغر لا يصغر
فقال محمد: فما تقول في تعليق الطلاق بالملك؟ قال: لا يصح قال: لِمَ؟ قال: لأن السيل لا يسبق المطر.

227 - والى العقول

في كتاب (الزهرة) لعلي بن داود (الظاهري): ليتحر الساقي العدل فإنه والي العقول، وإلا ناله من خجلة الاستعفاء ما ينال الوالي من خجلة العزل.

228 - قل لي متى

أحمد بن فارس:

إذا كان يؤذيك حرُّ المصيف ... وكرب الخريف، وبرد الشتا
ويلهيك حسن زمان الربيع ... فأخذُك للعلم قل لي متى؟

229 - الله اعدل

قال المنصور لبعض أهل الشام: ألا تحمدون أن دفع عنكم الطاعون منذ وليناكم؟
فقال الشامي: إن الله اعدل من أن يجمعكم علينا والطاعون. . .

230 - أف على النرجس والآس

في (نزهة الجليس) للعباس بن علي المكي: كتب الشاه إسماعيل ملك العجم إلى الملك الأشرف قايتباي - ملك مصر - هذين البيتين:

السيفُ والخنجرُ ريحانُنا ... أفّ على النرجس والآس
شرابنا من دم أعدائنا ... وكأسنا جمجمة الرأس

رسالة الشعر

المال

للأستاذ فخري أبو السعود

إِيَّاكَ يبغي رائح أو مغتد ... وإليك يسلُكُ حائد أو مهتد
وعليكَ أنت تجمّعوا وتفرّقوا ... كلٌّ إلى أَرَبٍ يروح ومقصد
وعلى هواك تواصلوا وتباغضوا ... متزاحمين عليكَ عَذْبَ المورد
متنافسين على جَدَاكَ فغارق ... فيما يُجَمِّعُهُ وغصّانٌ صَدِ
مَن نال مِن جدواك رَامِ تزيُّداً ... هيهات مهما زِدْتَه لم يَزهد
أَحِبِبْ إلى أسماعهم وقلوبهم ... بصداكِ لا بل باسمك المتردد
قطبُ الحياة وملتقَى طلابها ... طراً وسِلْكُ نظامها المتبدد
يُعْلِي مكانك عالمٌ بصروفها ... وبطبعها المتقادم المتجدد
بك تُطْلَبُ الدنيا ويُدْرَكُ ما بها ... مِن متعةٍ لأَخي النُّهى المتَزَيِّد
وتَصُونُ ماَء الوجه يومَ ملمة ... وتَقومُ دون الحادثات بمرصد
وأراك تَقْحَمُ كل حصن مغلق ... أَشِب وتفتح كل باب موصد
وأراك عدة كل حر ناهض ... يَقْضِي حقوقاً للعلا والسودد
وأراك جيشاً للغَنِّي مؤزِّراً ... يمشي بجند حيث سار مؤيِّد
وكأنّ هذا الكونَ دولةُ مَن مشى ... في جانبيه بُمطْرَفٍ أو مُتْلَد
أَنا إِنْ حَوَيْتُ قليلَ فَيْضِكَ خلتني ... مَلِكاً على هذا السَّوَاد المُجْهَد
يشقَوْن كي أَهْنَا وأخطر مُكْرَماً ... فيهم وأُدْعى بينهم بالسّيد
ويسارعون إلى رضاي مُحَكَّماً ... في خير ما صَنَعَ الصَّنَاعُ وأَجْوَد
وتهش لي أَنِّي ذهبتُ ديارُهم ... طرباً ويُبْشِرُ عند مَقْدَمِيَ النَّدِي
فإذا خَلَتْ كَفِّي فيالي مُجْتَوى ... إن جاء أَنْكِرَ أو مَضَى لم يُفقْدَ
أنت الصديق الصادق الفرد الذي ... يُغْنِي إذا أُفْتُقِدَ الصديقُ ويفْتَدِي
نِعْمَ المصاحبُ في المُقام وحبذا ... خِدناً لِذِي السَّفَرِ المفِذِّ المبْعِدِ
فتشتُ عن وجه الصديق فلم أجد ... فيمن عرفت سوى الطُّلُوب المجتدي
مَنْ ليس في يوم الرفيهة مُؤْنِسِي ... بحديثه أو في الكريهة مُسعدي
حتى إذا أُقصيتُ كلَّ مُسائِلٍ ... عنّي وصاحب حاجةٍ متودِّد
ألفيتُني فرداً لعمرك واحداً ... فنبذتُهم وَوَفَرْتُ ما مَلكَتْ يَدِي

فخري أبو السعود

ريحانتي الأولى أو الحرمان
للأستاذ سيد قطب
ريحانتي الأولى وروْح شبابي ... أئذا دعوت سمعتُ رجع جواب
أنا في الجحيم هنا وأنتِ بجنة ... من روْح إعجاب وريْق شباب
أنا في الجحيم وأنت ناعمةُ المنى ... خضراءُ ذات تطلّع وطِلاب
أنا لا أريدك ها هنا في عالمي ... إني أعيذكِ من لظًى وعذاب
لكنها الذكرى تثور بخاطري ... مجنونةً حمقاء ذاتَ غِلاب
عيني رعتكِ وأنت نابتةٌ فلم ... تغفل ولم تفتر ولم تتألم
وتعهدتك يدي وأنت نحيلة ... وغذاكِ من نفسي الحنانُ ومن دمي
فنموتِ والآمالُ حولك تنتشي ... وتهم راقصةً وتهتف بالفم
حتى إذا أينعتِ وانطلق الشذى ... ألفيتُ نفسي في صميم جهنم
ملقًى هنالك لا أحس ولا أرى ... إلا الشواظَ وكلَّ داجٍ معتم
بيني وبينكِ شُقة لا تنتهي ... أبداً أُقارب حولها وأُباعد
هي شقة النفسِ الخرابِ، وإنها ... لمجاهل لم تُكتشف وفدافد
الشمس فيها لا تطلُّ وما بها ... إلا الرواكدُ والظلام البارد
أنا لستُ سالكَها وأنتِ حفيةٌ ... أن تجْنبي عنها ونجمك صاعد
فإذا الذي بيني وبينك كلُّهُ ... ذكرى تطل برأسها وتعاود
وأراكِ من خلل الغيوم أسيفةً ... إذ تذكرين رعايتي وجهودي
وتريْن حاضرنا وغابرنا معاً ... وتراجعين مواثقي وعهودي
نفسي فداك فلا أراك شجية ... ترقي الغضونُ لوجهك المعبود
وقف عليك تطلعي وتلهفي ... وقف عليك قصائدي ونشيدي
لكن أعيذك خطرة في عالمي ... إني أعيذك وحشتي وركودي
أيها البحر
للآنسة نفيسه السيد
سرِّحْ الطَّرفَ في الَجَلالِ وَهاَتِ ... نَفَحَاتٍ مِنْ آيِهِ البَيِّناَتِ
وامْلأ النَّفْسَ مِنْ معاَنيهِ سِحْراً ... مُسْتَفِيضاً في أَرْوَعِ الآياتِ
مَوْطِني بُورِكَ المقَامُ حَوالْي ... كَ كريمَ الغُدْوَات والرَوَحاتِ
حَيْثُ نُشِّئتُ في ظِلالِكَ أرعَى ... شاَطِئَ اليَمِّ في مَراحِ الحيَاةِ
وَملاذُ النُّفُوسِ أَنْتَ إذا ما ... أَثْقلتْها الأَيَّامُ بالحادِثاَتِ
فَتُوَلِّي إليْكَ مَنْطَلِقاَتٍ ... مِنْ قُيُودِ الهُمُوم والحسَراتِ
نآئياتٍ عَنْ عاَلم الأرْض تحْيي ... فَتَراتٍ مِنَ المنَى صاَفِياَتِ
دُولٌ أَقْبَلتْ عليكَ ودالتْ ... مِن قديم وأنت في الرَّاسِياَتِ
مُشبهٌ للزَّماَنِ تأخُذُ عَنْهُ ... سَرَّةَ مِن تَقَلُّبٍ وثَباَتِ
فَحَدِيثُ الأَيَّامِ فيكَ مُعَادٌ ... فِي قَدِيمٍ من العُصُور وآتِ
(إسكندرية)
نفيسه السيد
من وحي جنائن دمشق
تعالي
للسيد جورج سلستي
،تعاَليْ لنسهرَ حتى السَحَرْ ... فللمغرمينَ يلذُّ السَهَرْ
فهذا الغدير، وهذى الرياض ... التي تعشقين، وهذا الزَهَرْ
أطلَّ عليها جميعاً، كوجهك ... غبّ الشجونِ، أخوكِ القَمَر
يوشِّعُها من سناءِ ضياه ... ووهْج أشعَّتهِ بالبِدَر!
تعاَليْ فقد رقَدَ المرجفون، ... وغطَّ الوشاةُ، ونامَ القَدَر!
سجاَ الليلُ إلاَّ هبوبَ النسيم ... العليلِ، وإلاَّ حفيفَ الشجر
وأبلسَ إلاَّ خريرَ الغدير ... وجرجرةَ الماءِ في المنحدر
تعاَليْ أُساقطُ منكِ الكَلامَ، ... فإنّ كلامَ الحسانِ دُرَرْ
وتحت ستارِ الدُجى يُستطابُ ... حديثُ القلوب ويحلو السَمَر
تعاَليْ فكلّي جوارحُ تهفو ... لمرأى المحيَّا الوسيم الأغرّ

تعاَليْ فشوقي إليكِ تلظَّى ... وأنَّ حنيني إليكِ استَعَرْ
تعاَليْ أبثك نجوى الفؤادِ ... وأشكِو إليكِ صُرُوف الغِيرْ
!وما فعلتْ بَي أيدي البعادِ ... وما خلَّفتْ من بليغ الأَثَرَ
هنا مجتلى عبقريُّ الرواءِ، ... وضئُ المحاسنِ، فَذُّ الصور
زها بغلائلهِ الفاتناتِ ... وماجَ بوشْيِ الربيع النَضَر
!كأنَّ جنانَ الخلودِ عليه ... تجلَّينَ بالَرَوْنَقِ المبْتَكَر
مراءٍ تشعُّ بسحرِ الجمال ... فتسبي العقولَ، وتسبي النَظَر
هنا الروضُ يطفَحُ بالنُعمياَتِ ... فيشأو جميعَ الرياضِ الأُخَر
هنا متعةُ النفسِ يا منيتي ... وراح النُهى ومراحُ الفِكَر
هنا جنةُ اللهِ في أرضه ... إذا كانَ من جنةٍ للبَشَر
تعاَليْ فإنَّ لقاَءكِ فيها ... لسرُّ الحياة ونعمى العُمُر
تعاَليْ نذوب غراماً فنبقى ... حديثَ الدهورِ ونجوى العُصُر
جورج سلستي
رسالة العلم
مملكة النحل
عيشة النحل وتربيته الحديثة
بقلم جمال الكرداني
تتمة ما نشر في العدد الماضي
ومن العوامل التي تسبب خراب الخلية وتؤدي إلى دمارها ظاهرة تسمى بالتطريد، والتطريد هو هجر الملكة الخلية مع بعض الحاشية لتكوين مستعمرة أخرى، وذلك لضيق الخلية أو وجود منازع لها في الملك. ويحدث التطريد في الربيع أي في أوائل أبريل حيث تكون الخلايا قوية وآهلة فتحس الملكة بضيق المكان فتضطر للمهاجرة. وعندما ترى الملكة نخاريب (عيون) ملكية تتنبه إلى أنه سيخرج منها يوماً ما ملكات تنازعها الملك فتعمد للسعها داخل عيونها ويمنعها من ذلك الشغالة حديثة السن فيعز على الملكة ذلك وتؤثر الرحيل
عند ذلك ترسل الملكة بضع نحلات هي الكشافة للبحث عن محل لائق للهجرة، وهو عادة الأشجار والجدران العالية؛ ثم يخرج النحل الكبير في السن ويتجمع بالقرب من باب الخلية ويتماسك بواسطة الأرجل حتى تتكون كتلة تسمى بالطرد
وعند تمام اجتماع الطرد تخرج الملكة وتركب وسط هذا المتن ثم يطير الطرد قاصداً المكان الذي تهديه إليه الكشافة
ويسبق هذه الهجرة ظواهر يمكن النحال ملاحظتها، وهي انقطاع الملكة عن العمل وربما كان ذلك لانشغالها بفكرة الرحيل، ويلاحظ كذلك تجمهر النحل على أبواب الخلية. كذلك يوجد غالباً دوي غير عادي داخل الخلية. وفي استطاعة النحال منع التطريد إذا فطن له فيعمل على توسيع المكان بوضع براويز جديدة كلما لزم ذلك مع ملاحظة مسألة التهوية. ويجب أخذ البراويز التي بها بيوت ملكات أو قطع البيوت منها أولاً بأول حتى لا تفقس. وإذا كانت مهارة النحال فائقة فيمكنه عزل الملكة القديمة (الأصلية) في برواز سلكي يوضع في الخلية فيرى النحل ملكته ولكن لا يرى لها بيضاً على الأقراص فتذهب نزعته
للتطريد. وإذا رأى النحال أن الملكة لا تستحق مثل هذا الحفظ يخرجها من الخلية ويميتها ويدخل ملكة جديدة، فيظن النحل أن التطريد قد تم، وأن هذه الملكة زعيمته الجديدة؛ ويمكن منع التطريد بتاتاً بقص أجنحة الملكة من جانب واحد
النحل والعسل
عرف النحل من قديم الزمن، وكانت الجماعات منه تسكن شقوق الصخور والتجاويف التي توجد في سوق الأشجار وعند تحقيق فائدته استأنسه الإنسان، ونقله قدماء المصريين إلى جانب بيوتهم، وكونوا له بيوتاً أرقى من الأولى، وهذه ما زالت ترتقي حتى كونت الحديثة
وتنجح تربية النحل في الحدائق والمزارع حيث تحاط الخلايا بأشجار تظللها، ويحسن أن تكون قصيرة متساقطة الأوراق مثل التفاح والخوخ والبرقوق، لأن الأشجار العالية تساعد على التطريد كما أن الخضرة الدائمة تمنع أشعة الشمس. ويستحسن تظليل

الجهة الشرقية والجهة الجنوبية قليلاً لتسمح لأشعة الشمس بالوصول إلى الخلايا إذ أنها من العوامل المنشطة للنحل؛ ويقام عادة سياج في الجهتين الشمالية والغربية لمنع الأهوية الباردة عن الخلايا

وخلايا المناحل المصرية نوعان بلدية وأفرنكية؛ أما البلدية فعبارة عن اسطوانة من نوع طين القلل طولها 120 سم وقطرها 15 سم تسد بقرصين أحدهما به ثقب وتلتصق بجدران الداخلية إلا من أسفل أقراص الشمع ويبلغ عددها من 20 إلى 25 قرصاً

أما الأفرنكية فعبارة عن صندوق خشبي يتصل بقاعدته أربع قوائم قصيرة وغطاؤه محكم القفل سهل الفتح، ويرتكز على حافتي جانبين متقابلين من هذا الصندوق عشرة براويز مساحة السطح المحصور بين دائر كل برواز 35. 5 21. 5 سم2 وعرض حافته العليا 2. 5 سم وبين كل برواز والذي يليه مسافة قدرها 1. 5 سم. كما أن مستوى القاعدة ممتد من أحد جوانب الصندوق إلى الخارج مسافة 12 سم لوقوف النحل قبل دخوله الخلية أو طيرانه منها؛ ويخرج النحل من الخلية ويدخلها عن طريق فتحة عرضية في قاعدة وجه الصندوق من جهة الامتداد.

وأهم جزء من أجزاء الخلية سواء كانت بلدية أو أفرنكية هو القرص الشمعي، ويقوم النحل في الخلايا البلدية ببنائه كله؛ أما في الخلايا الأفرنكية فيثبت أساس شمعي على كل برواز

ويكون عمل النحل هنا قاصراً على تعلية أضلاع الأشكال المسدسة المنقوشة على هذا الأساس الشمعي، وهذا الأساس يقلل من تعب النحل في بنائه من جهة ويجعله يبذل هذا المجهود في عمل عسل من جهة أخرى. وقد وجد أن المجهود اللازم لعمل أربعة أرطال من العسل يبذل في صنع رطل واحد من الشمع. وهذا الشمع يتكون من دخول العصير الذي تمتصه النحلة من الأزهار في غدد لها أسفل الجسم فيستحيل إلى شمع

فإذا ملئت هذه الغدد فاض منها الشمع على شكل قشور تزيلها النحلة برجليها الخلفيتين، وباستعمال فمها ورجليها الأماميتين يمكنها بناء الأقراص أو تعلية الأساسات ولون القرص الشمعي أبيض في الابتداء ويحفظ لونه إذا استعمل في تخزين العسل، أما إذا استعمل الأفراخ فأن لونه يسمر. ويمكن الاحتفاظ بالقرص صالحاً الاستعمال مدة حمس سنوات إذا اعتنى به ولم يكسر عند استخراج العسل.

وعند تمام بناء القرص تقوم الشغالة بجمع العسل وتخزينه وطريقة ذلك أن تمتص النحلة رحيق الأزهار وترسله إلى حوصلة خاصة موجودة بالجزء الأمامي من البطن حيث تحصل فيه تغيرات كيميائية وغيرها ويكتسب الطعم الخاص به، وبعد وضع العسل في العيون يتبخر ماؤه قليلا ثم تغطيه الخناث بغطاء من الشمع. ويخزن العسل في الجزء العلوي والجانبي من القرص، أما الجز الأوسط منه فتشغله الأفراخ.

ويقطف العسل مرة في السنة عادة في أغسطس أو سبتمبر، ولكن إذا كانت الخلايا قوية والنحل مجداً يقطف العسل مرتين في أغسطس وأكتوبر. ويلاحظ عند قطف العسل ترك ربع المقدار في الخلية ليكون غذاء للنحل في الشتاء. وفي الطريقة البلدية توضع الأقراص فوق بعضها في إناء من الفخار مثقوب من أسفل، فتراكم الأقراص يسبب سيل العسل وخروجه من الثقب إلى إناء معد لذلك. وهذه الطريقة طبعاً غير مرضية لما يشوبها من الأوساخ وغيرها وخصوصاً إذا استعملت الأيدي لتكملة العصر

أما في الطريقة الحديثة فنحصل على العسل بوضع البراويز المحتوية عليه في جهاز يسمى الفراز يديرها دورات سريعة، وبنظرية الطرد المركزي ينفصل العسل من البرواز ويسقط في اسطوانة محيطة بالجهاز، وعند ضمان نظافة الجهاز يكون العسل نقياً رائقاً حلواً شهياً.

وكلنا طبعاً لا نجهل لذة طعم العسل وحلو مذاقه وخصوصاً وقت طفولتنا كما أننا لا ننسى أنه يدخل في معظم الفطائر والمربات فيزيد طعمها حسناً.

ويستعمله الغربيون بدل السكر فيضعونه في أقداح الشاي وما شاكل ذلك. وكثيراً ما يدخل في العقاقير الطبية ليزيل شيئاً من مرارتها ويكسبها طعماً مقبولا. والعقاقير التي يلزم الإنسان منها مقادير صغيرة جداً ولا يتسنى للفرد أخذها بمقاديرها الحقيقية وهي على حالتها الراهنة، تمزج بالعسل بحساب معلوم ويتعاطى الإنسان منها مقادير

تحتوي على هذه الكميات الضئيلة من العقاقير وقد قال الله تعالى (يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس)

جمال الكرداني

بكلية الزراعة

تعليق

ورد في مقال (مملكة النحل) المنشور في العدد الماضي من الرسالة أن يرقات ذكور النحل تتغذى بخبز النحل مع جزء من الغذاء الملكي (اللبن) بعد ثلاثة الأيام الأولى، والحقيقة أن يرقان الذكور والشغالة بعد تغذيتها في الثلاثة الأيام الأولى بالغذاء اللبني تتغذى بغذاء نصف مهضوم من العسل وحب اللقاح (انظر مملكة النحل العدد الرابع من المجلد الثامن - أبريل 1937)

يوسف أحمد موسى

معاون أعمال فرع النحل بوزارة الزراعة

القصص

من قصص التاريخ

جاسبار هوزيه 1812 - 1833

الأستاذ عبد اللطيف النشار

إن كان البؤس مؤهلاً لبقاء الذكرى فليس أحد أحق بأن يعيش في ذاكرة الناس من جاسبار هوزيه.

أربى عمره على العشرين ولكنه لم يعش في الواقع إلا أربعة أعوام، وذلك لأن بقية عمره يجب أن تحذف من حساب الأعمار. عاش ما بين العام الذي ولد فيه وبين اليوم الذي بلغ فيه من العمر ثمانية عشر عاماً، وهو يجهل تمام الجهل ما يعلمه الأطفال دون عمد - ما يعلمونه بالغريزة وحدها. كان يجهل مثلا أن في الدنيا مزارع وأن في هذه المزارع طيوراً وزهوراً؛ وكان يجهل أن في الدنيا رجالا وأن هؤلاء الرجال يمشون ويضحكون ويبكون؛ وكان يجهل أن فوقنا سماء وأن في السماء كواكب وأن أحد هذه الكواكب يضئ في النهار وبقيتها تنير في الليل.

هكذا عاش ثمانية عشر عاماً وهو لا يعرف شيئاً عن الدنيا ولا عن الناس ولا عن الأفراح ولا عن الأحزان.

وفي يوم 26 مايو سنة 1828 وجد جاسبار هوزيه عند باب مدينة نورمبورج في بافاريا وكان هذا أول عهد الناس به وعهده بالناس.

ولما ترك هذا الباب حاول المشي ولكن قدميه خانتاه لأنه لم يعتد المشي فوقع. وهو الآن يمشي لأول مرة في الطريق وهمهم بأصوات غير مفهومة لأنه لا يعرف الكلام. ولو كان يعرفه لخاطب الناس بمثل هذا القول:

(في هذا اليوم أترك في المرة الأولى سجناً مظلماً وضعت فيه منذ مولدي ولم أنتقل منه، ولم أعرف غيره. ولست بالأعمى ولكن لأول مرة ترى عيناي اليوم ضوء الشمس، ولست بالأصم ولكني إلى ما قبل لحظات لم أكن أعرف ما الأصوات؛ وهكذا أنا بينكم لا أستطيع المشي ولا السماع ولا النظر. إنني رجل ولكنني أقل بينكم من الأطفال.

وكانت قوانين هذه المدينة شديدة على المتشردين، فلما رأى الجنود جاسبار مرتمياً على الأرض قادوه إلى قسم البوليس، ولكن كان عبثاً ما حاول المحققون من الحصول على إجابة منه

وخطر ببال واحد منهم أن أمامه دواة وقلماً وورقة، فلما رأى جاسبار هذه الأشياء تناول القلم وكتب اسمه فاستدل المحققون بذلك على أنه يدعي الخرس والصمم، وعلى أنه متشرد فأرسلوه إلى السجن

وكان من بين الذين حضروا التحقيق معه طبيب اسمه الدكتور (دومر) وقد استرعت هذه الحالة اهتمامه فصار يعوده في السجن ويترقب تصرفاته

ولما جيء إليه في السجن بقطعة من اللحم وبقدح من الجعة ارتاع ورمى بالقدح، وجيء له بقطعة من الخبز وبقدح من الماء فتهلل وجهه وتغدى منشرحاً ثم نام

وفي خلال الأيام الأولى زار السجن عدد كبير من الناس ليروا هذا المجهول. وكان بعضهم يحمل إليه الكعك، والبعض يحمل إليه اللعب

وكان الفريق الآخر حكيما لأن المعاملة المعقولة مع مثل هذا المخلوق هي معاملة الأطفال. لكن جاسبار كان يرفض كل ما كان يقدم إليه إلا جواداً خشبياً حين رآه تهلل وأبدى رغبة دالة على نفاذ الصبر في الحصول عليه. فأدرك النظارة من ذلك أنه كان يملك مرة مثل هذا الجواد الخشبي، وانه كان في يأس من استرجاعه

وعلى التدريج استطاع جاسبار رؤية النور وسماع الأصوات، وكان من قبل يبكي عندما يسمع دقات الساعة من الكنيسة المجاورة وينزعج عندما تمر بالقرب من السجن فرقة موسيقية. وقد أغمي عليه في أول مرة سمع فيها الألحان

وكان الدكتور (دومر) يراقب في اهتمام شديد كل هذه التطورات، فلما اقتنع بإمكان تعليمه طلب إلى ولاة الأمور تسليمه إليه. وبدأ يعلمه ووجد تقدمه مستمراً. وبعد مدة كتب جاسبار تاريخ نفسه في العجالة الآتية:

(كنت لا أعرف كم عمري لأني لم أكن اشعر بوجود الأيام والليالي ولا بمدلول العمر، ولكني كنت أشعر بوجودي في الغرفة المظلمة التي لم أعرف غيرها. وكان رجل يزورني كل يوم ويأتي بالطعام، وكنت اشعر بأني غير وحيد في هذه الدنيا. وقد وضع الرجل أمامي

شيئاً لم أكن أعرف ما هو لكن شكله كان يسرني، وهو جواد خشبي، وكنت أرى ذلك الرجل يمشي فأحاول المشي مثله ولكني كثيراً ما كنت أقع أو يصطدم رأسي بالحائط. وافهم الآن - ولكني لم أكن أفهم من قبل - أن ثيابي كانت بين حين وآخر تتبدل بثياب انظف وأن شعري كان يقص. واحسب أن ذلك الرجل كان يضع في طعامي مخدراً ليتمكن من إحداث هذا التغيير دون أن اشعر

وفي يوم من الأيام جاء بدواة وقلم وورقة وأمسك بيدي وعودني كتابة اسمي ولم أكن أعرف معنى لهذه الحركة ولا للاسم الذي كنت أكتبه. ولكن سهل علي ذلك بحكم الاعتياد. وأظن تعلمي كتابة اسمي قد أستغرق نحو عام من العمر. وأحسب أن هذا الاسم ليس هو اسمي الحقيقي ولكنه الذي أرادوا أن يطلقوه عليّ. على أنني غير راض عنه وأريد إن مت أن يكتب على قبري: (المجهول)

ولست أشك في أن أبي أراد إنكاري ولم يرد قتلي وهذا هو الذي يجعلني أعتقد أن اسم جاسبار هوزيه ليس اسمي. ويظهر أنني أصبحت عبئاً ثقيلاً عليهم بعد إذ بلغت هذا العمر فأرادوا التخلص مني. ففي أحد الأيام دخل الرجل الذي أعتاد أن يحمل إلي الطعام والشراب ولكنه لم يقدم لي طعاماً ولا شراباً فاستغربت وزاد استغرابي لما وضع عصابة على عيني وحملني فلم أسائل نفسي عما يراد أن يصنعوه بي وهنا تخونني ذاكرتي ولكن أحسب أن وجودي في الطريق لأول مرة صدم أعصابي وأظن أنهم أزالوا العصابة عند باب (نورمبورج)

وأقام جاسبار عند الدكتور (دومر) وصار يرافقه في الأسواق ويظهر بين الناس. وفي أحد الأيام أصيب جاسبار وهو يدخل باب المنزل بطعنة من خنجر قذف به فجرح في جبينه ولكن الجرح كان خفيفاً. ولم يتمكن أحد من معرفة الذي شرع في قتله لكن هذا الشروع كان كافياً للدلالة على أن حياة جاسبار لم تكن في مأمن بتلك المدينة

وطلب اللورد ستانهوب وهو من أغنياء الإنكليز إلى الدكتور دومر أن يترك له جاسبار فتركه له. وأرسل جاسبار إلى مدرسة في إنكلترا. وكان يقيم بها في منزل الدكتور منهرمان.

وفي يوم ما كان جاسبار يسير بالقرب من متحف أوزن فأصيب بطعنة وهرب الذي طعنه.

وعلى الرغم من أن الطعنة كانت مميتة فقد تمكن جاسبار من العودة إلى منزل الدكتور منهرمان. وكان كل ما استطاع أن يفوه به قبل موته أنه ولد في 30 ابريل سنة 1812 في بافاريا.

وأعلن اللورد ستانهوب أنه يكافئ من يرشد عن قاتله بخمسة آلاف فلورين، ولكن البحوث الرسمية وغير الرسمية ذهبت كلها سدى. ومات جاسبار في17 ديسمبر سنة 1833.

عبد اللطيف النشار

البريد الأدبي

تشجيع جلالة الملك للكتاب والمؤلفين

تفضل حضرة صاحب الجلالة الملك فأمر بمنح الأستاذ محمد بدران ناظر مدرسة بنبا قادن الابتدائية والعضو في لجنة التأليف والترجمة والنشر خمسين جنيهاً تشجيعاً له على ما بذله من جهد في ترجمة كتاب (إبراهيم باشا) فقابل الأستاذ بدران هذا العطف الملكي الكريم بالشكر والضراعة إلى الله أن يحفظ لمصر فاروقها

مدالية ذهبية إسلامية إلى فضيلة الأستاذ شيخ الجامع الأزهر

تلقت مشيخة الأزهر في الأيام الأخيرة كتاباً من وزارة الخارجية، جاء فيه أن جمعية (إسلام سيفا سماج) - وهي جمعية إسلامية كبرى في بومباي - قد قررت منح حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر (المدالية الذهبية الإسلامية) التي أنشأتها هذه الجمعية وجعلتها وقفاً على كبار المسلمين الذين يؤدون أعمالا ذات أثر ملموس في تاريخ النهضات الإسلامية الحديثة وقد أرسلت الجمعية هذه المدالية الذهبية منذ أيام إلى فضيلة الأستاذ الأكبر مشفوعة بصورة من قرار مجلس إدارتها

متى يعلن الأدب المصري عن نفسه

ظهرت أخيراً ترجمة ألمانية لرواية تركية من قلم الكاتب التركي قربان سعيد عنوانها (علي ونينو) فأثار ظهورها اهتماماً في دوائر النقد الأدبي، وظهرت عنها في الصحف الألمانية عدة مقالات نقدية، ووصفها أحد النقدة المعروفين في إحدى الصحف النمسوية الكبرى بأنها رحلة بديعة في القوقاز وبلاد الكرج وفارس، وفي تلك المناطق التي لا يؤمها الأوربي كثيراً والتي تختلط فيها المذاهب واللغات المختلفة في صعيد واحد. وليست هذه أول مرة يترجم فيها الأدب التركي الحديث إلى اللغات الأوربية، ولكن المهم هو أن كاتباً تركياً يستطيع بإنتاجه الأدبي أن يتقرب إلى الذوق الغربي، وأن يثير اهتمام الدوائر النقدية الأوربية. ولا ريب أن الحركة الفكرية في تركيا الحديثة لم تبلغ ما بلغته الحركة الفكرية في مصر من القوة والتقدم، ولكنها تمتاز بخاصة لم يبلغها الأدب المصري بعد، وهي أنها

استطاعت في بعض النواحي أن تجاري الحركات الأدبية الأوربية وأن تعرف عن نفسها، وأن تلفت أنظار النقد الأوربي، وأن تنال استحسانه في بعض الأحيان. أما في مصر فمن بواعث الأسف أننا لم نوفق في هذه الناحية بعد، ولا تزال الأمم الأوربية تجهل كل شيء عن أدبنا وتفكيرنا. نعم ترجمت في الأعوام الأخيرة بعض القصص المصرية إلى بعض اللغات الأوربية، ولكنها لم تثر اهتماماً نقدياً كافياً، وكان نقلها إلى الأدب الأوربي نتيجة اتصالات شخصية، ولم يكن مترتباً على مزاياها الأدبية الخاصة. وما دام الإنتاج القصصي في مصر يعتمد على النقل والاقتباس، ولا يتحرى الطرافة ودراسة الحياة والظروف القومية فانه سيبقى حيث هو مجهولا من الأدب الأوربي

أما قصة (علي ونينو) هذه التي أثارت استحسان النقد الأوربي، فهي قصة غرامية شائقة وقعت حوادثها في مدينة باكو حيث كان (علي) يدرس في جامعتها، وحيث عرف (نينو) أجمل فتاة في العالم، وهي تقدم لنا صوراً حسنة عن الحياة الشرقية في القوقاز وبلاد الكرج وفارس، وعن العواطف والمشاعر والأخلاق في هذه الأنحاء

الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية في عصبة الأمم

هبطت على (الأهرام) برقية من جنيف في اليوم السادس عشر من هذا الشهر تقول: ظهر علي الشمسي باشا مندوب مصر في عصبة الأمم للمرة الأولى في اللجنة) السادسة التابعة لهذه العصبة فأحرز فيها نجاحاً جديراً بأن تفاخر مصر به وبان تشكره عليه جميع البلاد التي تتكلم باللغة العربية

فمن المعلوم أن جميع البيانات والمنشورات التي تتعلق بالتعاون الفكري كانت تصدر حتى الآن باللغتين الفرنسوية والإنجليزية. ولكن علي الشمسي باشا أظهر ما لمصر من المكانة منذ افتتاح جلسة اللجنة بتدخله في المباحثة تدخلاً باهراً أثبت على أثره الفائدة العظيمة والحاجة الماسة إلى الاعتراف للغة العربية بمثل الحقوق التي تتمتع بها اللغتان الفرنسوية والإنجليزية)

وقد أوضح هذه النظرية ببلاغة نادرة، وأيدها بحجج دامغة وافق عليها جميع المندوبين وهم من أعظم المفكرين في جميع البلدان

وهكذا قبل اقتراح علي الشمسي باشا ووافقت اللجنة بإجماع الآراء على استعمال اللغة
العربية فدخلت هذه اللغة دخولاً باهراً في الميدان الدولي وأصبح من الواجب الاعتراف بعلي الشمسي باشا بأنه أدى لمصر وجميع البلاد العربية أعظم الخدم وأجلها
معرض باريس
هل كان معرض باريس الدولي دعاية حسنة لفرنسا، وهل تحقق ما كان معقوداً علية من الآمال؟ هذا ما تتساءل عنه معظم الصحف الفرنسية؛ وترى صحف اليسار الاشتراكية أن المعرض كان نجاحاً عظيماً لحكومة الجبهة الشعبية التي افتتح في ظلها، والتي أشرفت على مراحله الأخيرة، ولكن صحف الكتلة الوطنية ترى أن معرض باريس كان كارثة على سمعة فرنسا، وأنه كان فشلاً ذريعاً للحكم الاشتراكي؛ وتقول في التدليل على ذلك إن المعرض قد فتح بصفة رسمية منذ 25 مايو الماضي، ولكنه فتح قبل أن تتم معظم أقسامه، ولا تزال إلى اليوم بعد أشهر من افتتاحه أقسام لم يتم إعدادها. ولم يجذب معرض باريس إليه إلى اليوم ما كان منتظراً من الزائرين، ولم تقم حكومة الجبهة الشعبية بدعاية قوية في هذا السبيل، ولم تقدم من التسهيلات ما يغري بزيارته. وقد شعرت الحكومة بفشلها ففكرت أن تمد أجل المعرض عاماً آخر ابتداء من نوفمبر القادم وهو الموعد الذي حدد لإغلاقه؛ ولكن تقوم دون ذلك صعاب كثيرة يجب تذليلها، وذلك لأن كثيراً من الأمم الكبرى المشتركة في المعرض مثل ألمانيا وإنكلترا تعارض في مد الأجل لأنها تحتاج إلى معروضاتها لتعرض في جهات أخرى، ولأنها لا تستطيع أن تستمر في الأشراف على أقسامها في معرض باريس إلى أجل غير مسمى، والحكومة الفرنسية تسعى إلى مد الأجل لكي تستطيع تحصيل نفقات المعرض وهي تقدر بمليارات الفرنكات؛ وتقدر إدارة المعرض أنه يجب لتحصيل هذه النفقات أن يزور المعرض على الأقل عشرون مليون من الزائرين، وهو عدد لم يتحقق إلى اليوم سدسه ولا خمسه. وعلى أي حال فان مصير المعرض لن يتطور قبل نوفمبر القادم وهو موعد إغلاقه الأصلي
ضوء جديد على اللغز الروسي
مازالت روسيا لغزاً مغلقاً على المؤرخ والسياسي، يصعب النفاذ إلى روحها وعقليتها؛ فهي تخرج من ثورة إلى ثورة، وتتحرر من طغيان القيصرية لتقع بين براثن طغيان أشد
وأروع هو طغيان البلشفية. وقد ظهر أخيراً بالإنكليزية كتاب قيم يلقي كثيراً من الضياء على اللغز الروسي، ويشرح لنا تكوين روسيا السياسي في مراحله المختلفة؛ وعنوانه: (تاريخ روسيا السياسي والدبلوماسي بقلم الأستاذ المؤرخ فرنادسكي ويقول الأستاذ فرنادسكي إن نظام الطغيان هو نوع الحكم الوحيد الذي يصلح لروسيا، وإن روسيا عاشت مدى الأربعمائة عام الماضية تحت نير الطغيان؛ ويستعرض العوامل الجغرافية والتاريخية التي تؤيد هذه النظرية؛ فروسيا أعظم أمم الأرض من حيث المساحة، وكما أن حرمان ألمانيا من الحدود الطبيعية جعلها دائماً دولة عسكرية من الطراز الأول، فكذلك حاجة روسيا إلى الدفاع عن أقاليمها الشاسعة يجعلها في حاجة إلى اليد والنظم الحديدية. ولروسيا مهمة جعلتها قبلتها دائماً هي حماية الشعوب السلافية؛ وروسيا السوفيتية تسير على هذه السياسة لأن ظروفها وعواملها لم تتغير. ويقول لنا الأستاذ فرنادسكي أيضاً أنه يستحيل علينا أن نفهم روسيا المعاصرة إلا إذا وقفنا على العناصر التي تتكون منها، وكتاب الأستاذ فرنادسكي الجديد هو في الواقع ملحق لكتابه القيم عن تاريخ روسيا الذي ظهر في سنة 1929شششششش

فون أوسيتسكي كاتب ديموقراطي يدعو إلى السلام ومقاطعة الحرب، وهذا ما لا يروق لزعماء ألمانيا الحاضرة؛ وكان أوسيتسكي معتقلاً في أحد المستشفيات حينما أسند إليه هذا الشرف الدولي العظيم؛ وقد احتجت الحكومة الألمانية يومئذٍ على ما اعتبرته تحدياً لها، وقرر الهر هتلر أن يحرم الكتاب على الكتاب الألمان قبول جوائز نوبل، وأمر بإنشاء جائزة أدبية كبرى تسمى بجائزة (جيته) وتخصص لأعظم كاتب ألماني يخدم بقلمه ودعوته الحركة
الاشتراكية الوطنية الألمانية. وفي الأنباء الأخيرة أن جائزة (جيته) منحت للكاتب الألماني أروين جيدو كولنهاير، وهو من الكتاب الشيوخ، ولكنه استطاع أن يجاري النازية، وأن يحوز استحسان زعماء ألمانيا الحاضرة؛ ولم تكن له شهرة أدبية من قبل، ولكن الاعتبار الأول في منحه هذه الجائزة الكبرى، هو أنه خدم الحركة النازية بقلمه ودعايته؛ وقد علق أحد الكتاب الألمان المنفيين على ذلك بقوله: (إن النجاح الذي أسبغته جائزة جيته على كولنهاير قد عوضه عن الفشل الذي ما فتئ يلاقيه في حياته الأدبية)

الأستاذ استراتمان

في اليوم الرابع من شهر سبتمبر سنة 1927 بلغ الأستاذ الكبير المستشرق الستين من عمره، وهو مدير المعهد الشرقي بجامعة هامبورج، والأستاذ الألماني الوحيد المتخصص في الفرق الإسلامية والمخرج لمجلة
لهذا الأستاذ كثير من الأبحاث الإسلامية وله مؤلفات عدة تمتاز بالدقة العلمية والمنطق السليم وتعد لهذا من المراجع الأولى في الأوساط الأوربية للاستشراق، لأنه إذا كتب يكتب عن تفكير وروية ثم عن احتياط شديد. وهذا غاية ما يمتاز به العالم.
وفوق ما له من المزايا العلمية وسعة الاطلاع فهو وديع هادئ لا يحب الظهور، ولا يميل إلى الإعلان عن نفسه؛ يسير مع طلبته كأحدهم ولكنه مع ذلك لا يتهاون في النقد العلمي معهم، بل قد تكون له في ذلك أحياناً ثورة نفسية باعثها الرغبة الشديدة في تعويد تلامذته الكتابة العلمية، ومن ورائها قلب طاهر يضمر لهم كل محبة وإخلاص.
يرحب بالمصريين ولا يضن عليهم بإرشاداته القيمة وإن أخذت كثيراً من وقته؛ ويعمل دائماً على تعريفهم بمشاهير علماء الاستشراق في أوربا، فإذا وفد إليه وافد من هؤلاء سارع إلى دعوة طلبته وفي مقدمتهم المصريون إلى منزله البهيج النظر لتبادل الحديث والتعرف بالوافد ثم يشيعهم بعد ذلك بكل عطف. فضلاً عن أنه يدعوهم من وقت لآخر لتوثيق عرى الرابطة بينهم.
فإذا بلغ اليوم الستين من عمره فإنما يبلغها ووراءه مفخرة عظيمة من الأبحاث العلمية المستقلة وطلبة نجباء في كثير من بقاع الأرض.

دكتور محمد البهي

ماذا تعني الفاشستية

لم تثر مسألة من المسائل في عصرنا من الجدل قدر ما تثير الفاشستية؛ ومع ذلك فلا يزال معنى الفاشستية ومراميها الحقيقية بعيداً عن فهم الرجل العادي. وقد صدر أخيراً بالإنكليزية كتاب يوضح هذا اللغز ويفسره عنوانه (الفاشستي) بقلم الكاتب السياسي ا. أشتون وفيه يحلل معنى الفاشستية ويستعرض مثلها بطريقة واضحة. ومما يلاحظه في مقدمة كتابه أن من العبث أن ندرس الفاشستية من واقع عقائدنا وآرائنا السياسية، بل لا بد لذلك من أن نلبس جلد الفاشستي؛ وهو يحاول ذلك في كتابه؛ ويلخص لنا مستر أشتون مركز الفرد في الدولة الفاشستية بما يأتي: (إن الفرد لا قيمة له في نظر الدولة مطلقاً، وليس له حق البقاء إلا كفرد من المجتمع؛ وقد استبدلت حقوقه الشخصية بتسليم كل أفكاره ومشاعره ورغباته إلى الدولة، فلا حق له في التفكير أو التقدير؛ ولهذا أصبحت قوة التقدير عنده معطلة جامدة، وكل ما يسمح له أن يفكر فيه هو ما تسمح به الدولة أن يفكر؛ وهو يدهش إذ يرى في العالم أناساً لا يعتقدون أن الفاشستية هي خير طريق إلى الحياة)
ويلاحظ المؤلف أيضاً أن من خطل الرأي أن نعتقد أن الأكثرية من الدولتين الخاضعتين للنظم الفاشستية، وهما إيطاليا وألمانيا، ساخطة على هذه النظم؛ ولكن يلاحظ من جهة أخرى أن ألمانيا وإيطاليا هما دولتان في طور الفتوة، وليست لإحداهما كما لإنكلترا أو فرنسا أو أمريكا تقاليد ديمقراطية عريقة؛ بل لقد كانت الفكرة الديمقراطية

لديهما طارئة، ولم يرسخ غرسها؛ ومن ثم قد استحالت الديمقراطية في إيطاليا غير بعيد إلى حالة من الفوضى يستغلها المحترفون، وأما الشعب الألماني فهو بطبعه شعب عسكري يجنح إلى النظام والالتفاف تحت الألوية العسكرية، ويقدم خضوعه للنظم التي تشبع بهذه الروح بسهولة لا توجد في الشعوب الأخرى.

مصاير الحرب والسلام في أوربا

لفت أنظار الدوائر السياسية في إنكلترا وفي القارة كتاب سياسي خطير ظهر أخيراً بالإنكليزية عن نيات ألمانيا ومشاريعها العسكرية عنوانه: (مؤامرة هتلر ضد السلام) ' ومؤلفه الدكتور اكنر (وهو غير الطيار الشهير) أحد الكتاب الألمان المنفيين؛ وفيه يستعرض أغراض هتلر العسكرية كما يبسطها في كتابه المعروف (كفاحي) ويدلل على أن ألمانيا النازية قد قطعت شوطاً كبيراً في الاستعداد لتنفيذ هذا البرنامج بالعنف والسيف؛ وهذه مسألة ليست جديدة في الواقع، ولكن الجديد في كتاب الدكتور اكنر هو المعلومات الهامة التي يذيعها عن جهود الحكومة النازية لتكوين العقلية العسكرية في الشعب الألماني وإقناعه بأن الحرب هي وحدها طريق المجد والرخاء، وعن الدعاية المدهشة التي تنظم في ألمانيا ضد الدول التي يعتبرها النازي عقبة في سبيل أحلام ألمانيا. كذلك يقدم لنا المؤلف طائفة من المعلومات الجديدة عن مشاريع ألمانيا في أسبانيا وآمالها في محالفة الحكومة الفاشستية التي تحاول أن تعاون في إقامتها فيها، وعن أطماع ألمانيا في المشرق ووسائلها لتمهيد لهذه الأطماع؛ وهذه الحقائق الغريبة يدعمها المؤلف بطائفة من الوثائق والأدلة الهامة السرية والعلنية. والكتاب صفحة هامة من التاريخ السياسي تلقى ضياء كبيراً على مصاير الحرب والسلام في أوربا

كتاب عن المسألة الاستعمارية

أضحت المسألة الاستعمارية من أخطر المشاكل الدولية التي تهدد سلام العالم؛ وما زالت المأساة الحبشية ماثلة أمام الأعين بكل روعتها، فقد ذهبت أمة عريقة في الاستقلال هي الحبشة ضحية لهذه الشهوة الاستعمارية الخطرة وأدركت الأمم الصغيرة مرة أخرى أن الحق والسلام والعدالة كلمات جوفاء إذا لم تدعمها القوة الغاشمة. وقد صدر أخيراً كتاب خطير عن المسألة الاستعمارية عنوانه (المسألة الاستعمارية: أهميتها الدولية) , بقلم الأستاذ الدكتور بون؛ وفيه يبحث الكاتب دعاوى الدول المحرومة من المستعمرات مثل ألمانيا وإيطاليا واليابان في المساواة الاستعمارية ويستعرض ثروات الأمم الاستعمارية الكبرى وعدد سكانها ومواردها الطبيعية وموارد مستعمراتها، ويقارن مزاياها الاقتصادية، ويخرج من بحثه بأن القيمة الاقتصادية للمستعمرات مبالغ فيها لأنها ليست في الواقع عاملاً مفيداً في تخفيف ضغط السكان في الدول الكبرى، هذا فضلا عن أن عبء الدفاع عنها وقت الحرب يثقل كاهل أصحابها

ويرى الدكتور بون أن عصر بناء الإمبراطوريات الاستعمارية قد انتهى، وأن عصرنا هو عصر انحلال لهذه الإمبراطوريات وكل ما تستطيع الدول المحرومة أن تشهده وهو عملية

التصفية؛ وينوه المؤلف بالأخص بالعامل النفسي في الدول المحرومة ويصف حقد ألمانيا لفقد مستعمراتها بواسطة معاهدة فرساي؛ ويرى أيضاً أن الشروط التي يجب توفرها لضمان سلام العالم هي عود الأمم إلى التعاون، وتنازل الأمم الاستعمارية عن بعض امتيازاتها للدول المحرومة، وعود الأمم المحرومة إلى موقف التعقل والرشاد.

أدب البحر

أقامت جمعية (أبولو) في الإسكندرية في الأسبوع الماضي حفلة شعرية عن أدب البحر نظمها سكرتير الجمعية الدكتور أبو شادي. واشتراك فيها جمع حفيل من حضرات الشعراء والمستمعين. . .

وقد بدأت الحفلة بكلمة الدكتور أبي شادي، ثم تلتها قصيدة رائعة للأستاذ (أحمد محرم) ثم توالى الشعراء في إلقاء قصائدهم وكانت من القصائد المبرزة في الحفلة قصائد حضرات الشعراء (يوسف فهمي، ومحمد السيد، وزكي غازي، وفتحي الشهابي ومصطفى السحرتي)

ثم نهضت الآنسة نفيسة السيد وألقت قصيدة جميلة هزت الأسماع ننشر بعضها في

هذا العدد تشجيعاً لها على المضي في هذا الميدان. . . متجاوزين عن بعض هنات بسيطة لا تشوه من جمال القصيدة.

وقد لاحظنا في الحفلة أن كثيراً من شعرائها قد خرجوا في إلقائهم عن قواعد اللغة البسيطة. . . فمثلا نرى الشاعر (محمد السيد) قد خرج بكثير من كلمات القافية عن صحتها. . . فنراه ينطق كلمة (زفاف) بفتح الزاي وصحتها بالكسر وكلمة (هتاف) بكسر الهاء وصحتها بالضم. . . وكذلك نرى الشاعر (مصطفى صبحي) ينطق (ريح الشمال) بكسر الشين وصحتها بالفتح. . . إلى غير ذلك مما تعصانا عنه الذاكرة

والحفلة في مجموعها مجهود موفق نشكره للدكتور أبي شادي ولحضرات الشعراء الأفاضل، ونهنئ به الإسكندرية التي تلبثت زماناً طويلاً بعيدة عن أمثال هذه المحافل الأدبية

فتحي. م

ذكرى شاعر قوقازي

احتفل أخيراً في بلاد الكرج والقوقاز بالعيد المئوي لمولد الشاعر الكرجي إيليا شافشفادزي، أعظم شعراء الكرج في القرن التاسع عشر وكان هذا الشاعر زعيماً وطنياً لعب دور عظيم في إذكاء الروح الوطنية بين مواطنيه، واتخذ الشعر والأدب سلاحاً لدعوته، ولبث مدى أربعين عاماً زعيم أمته الفكري؛ وقد نظم الشعر بكثرة وبراعة واشتغل بالأدب والصحافة، وكان له مع القيصرية مواقف وطنية مؤثرة؛ ولما صدر الدستور الروسي على أثر ثورة سنة 1950، احتفظت القيصرية بكراسي مجلس الشيوخ لصنائعها من رجال البلاط؛ ولكنها لم تجد بداً من النزول على ضغط الحركة الوطنية في القوقاز، ورأت أن تهدئها باختيار ممثل لها في مجلس الشيوخ؛ وكان هذا الممثل هو الشاعر الكبير شافشفادزي أو البرنس شافشفادزي، وهو الأول والأخير الذي حظي بهذا الشرف؛ وقد انتظم الشاعر مع ذلك في صف خصوم القيصرية منذ مقدمه إلى بطرسبرج، فكانت النتيجة أن القيصرية توسلت إلى التخلص منه بوسائلها المعروفة. وكان أن قتل بعد ذلك بأشهر قلائل على أثر عودته إلى القوقاز. ولكن القيصرية لم تستطيع أن تقتل الحركة الوطنية التي أذكاها شافشفادزي بقلمه ولسانه، بل لبثت آثارها ماثلة في الجيل الذي خلفه، والذي استطاع فيما بعد أن يعاون في هدم القيصرية والطغيان. ومما هو جدير بالذكر أن ستالين زعيم روسيا وطاغيتها الحالي هو من مواطني الشاعر وتلاميذه في الوطنية والحركة التحريرية

رسالة النقد

كتاب إحياء النحو

تأليف الأستاذ إبراهيم مصطفى

للأديب السيد عبد الهادي

تتمة

واصل الأستاذ بدوي نقده، في مقاله الثاني، لمعاني الإعراب وأخذ يناقش بعض الأمثلة الواردة في الكتاب دون اعتماد على نقل قديم أو سند من رأي. فبينا ترى الكتاب قد امتلأ بآراء أئمة النحو القدماء وبالنصوص القديمة الصحيحة مؤيدة بأسماء الكتب وأرقام الصفحات، وذلك شأن الباحث الحديث الذي لا يقطع صلته بالماضي ولكنه لا يقف عند حده، ترى نقد الأستاذ قد خلا منه تماماً؛ وخلو النقد من أمثال هذه النصوص والآراء يسقط قيمته ويحيله إلى مجادلات لفظية لا تغني عن الحق شيئاً.

ولعلي لا أجد بياناً أوفى ولا حجة أقطع فيما بيني وبين الأستاذ بدوي من خلاف حول معاني الإعراب إلا أن أقدم للقارئ الكريم صورة صحيحة دقيقة عن رأي المؤلف فيها، وإذ ذاك يستطيع القارئ بنفسه أن يحكم للكتاب أو عليه وأن يقدر فضل المؤلف ودقة نظره وأن يعرف إلى أي حد كان هذا النظر صحيحاً جديراً بأن يكون إحياء للنحو بكل ما في كلمة الإحياء من معنى.

فاللغة العربية لغة معربة أي تتغير حركات الحرف الأخير من كلماتها تبعاً لتغير التراكيب، وهذه أهم ظاهرة تلفت النظر في اللغة العربية، وقد كان العرب شديدي العناية بالإعراب، وكان حسهم به دقيقاً يقظاً؛ وقد قالوا: اللحن هجنة على الشريف. وقال عبد الملك بن مروان: شيبني ارتقاء المنابر وتوقع اللحن. هذا شأن حركات الإعراب ومنزلتها في اللغة العربية.

أما الحركات الأخرى التي ليست حركات إعراب وهي التي تكون في أوائل الكلمات أو في أوساطها فليست أقل شأناً في العربية من حركات الإعراب فإنها أداة للتفريق بين المعاني المختلفة، فهي تفرق بين اسم الفاعل والمفعول في مثل مكرَم ومكرِم، وبين فعل المعلوم
وفعل المجهول في مثل كَتَب وكُتِب، وبين الفعل والمصدر في مثل عِلم وعلْم، وبين الوصف والمصدر في مثل فرِح وفرَح وحَسن وحْسن، وبين المفرد والجمع في مثل أسَد وأسْد، وبين الفعل والفعَل في مثل قدِم وقدُم، وبين معان أخرى كثيرة يتبينها الناظر في مفردات اللغة العربية بسهولة وبكثرة عظيمتين.
من هذا نرى عناية اللغة العربية بالحركات على اختلاف أنواعها وحرصها على الدقة فيها حرصاً شديداً.
وقد حاول علماء النحو أن يعرفوا أن منشأ حركات الإعراب، وفكروا في ذلك طويلا وأنعموا النظر ودققوا الإحصاء، فهداهم كل ذلك إلى أن حركات الإعراب ليست إلا نتيجة لعامل مذكور في الجملة، وإن لم يكن مذكوراً فلا بد من تقديره حتى يسلم العقل بوجود حركة الإعراب لأنها عرض حادث لا بد له من محدث، ومحال أن يوجد الحادث من غير محدث؛ وقد أطالوا الكلام في العامل لأنه في نظرهم سبب حركات الإعراب، فجعلوا الأصل في العمل للأفعال، والأسماء تعمل حملا عليها، وبعض الحروف يعمل حملا على الفعل؛ وجعلوا بعض العوامل قوياً وبعضها ضعيفاً. وعلى الجملة قد وفوا العامل حقه من البحث والإحصاء، وألفوا كتباً تجمع قواعد النحو تحت عنوان العوامل. وقد عشنا على هذه النظرية طوال هذه السنين حتى أحالها الزمن إلى عقيدة ثابتة يؤمن بها الصغير والكبير، فأعطينا للكلمات المختلفة قوة ترفع وتنصب وتجزم، ولم نعطي لأنفسنا هذه القوة، ونحن الذين ننشئ الكلمات ونغيرها ونبدلها ونحن الذين نرفع وننصب ونجزم.
وقد جاء المستشرقون وحاولوا أن يجدوا أصلا لحركات الإعراب فافترضوا أنها بقايا لزوائد كانت تلحق بالأسماء، وقد انقرضت الزوائد وبقيت الحركات دالة عليها، وهذا مجرد فرض لم تقم على صحته أدلة كافية باعتراف المستشرقين أنفسهم
ثم جاء الأستاذ الجليل مؤلف (إحياء النحو) ونظر فيما قرره النحاة في منشأ حركات الإعراب وما انتهى إليه المستشرقون، أطال النظر فيما سبقه من الآراء والنظريات، وأطال الاتصال بالعربية وأساليبها الصحيحة فلم يرقه ما قرره أولئك ولا هؤلاء في منشأ حركات الإعراب، واهتدى بثاقب فكره إلى أن حركات الإعراب إنما هي إشارة إلى معنى خاص يقصده العربي حين يلتزم الفتحة أو الكسرة أو الضمة، ولم يستقم عنده أن يكون
الإعراب حكما لفظياً يتبع لفظ العامل دون أن تكون له إشارة إلى معنى خاص، أو أثر في تصوير المفهوم؛ فما كان للعرب أن يلتزموا هذه الحركات ويحرصوا عليها الحرص الشديد وهي لا تعمل في تصوير المعني شيئاً؛ ونحن نعلم أن العربية لغة الإيجاز، فالعرب يحذفون الكلمة إذا فهمت والجملة كذلك، ويهملون ما لا حاجة إليه رغبة في الإيجاز كعلامة التأنيث في الصفات الخاصة بالمؤنث، كما في أيم وظئر ومرضع، فهل يعقل في لغة هذا شأنها من الإيجاز أن تلتزم حركات إعراب مختلفة دون أن تكون هذه الحركات دالة على معان مختلفة
نرى في اللغة العربية ظاهرة التعدد في صيغ الكلمات والأدوات التي تؤدي وظيفة واحدة، ولكن لكل واحدة معنى خاص تشير إليه كصيغ الجموع المختلفة، كل صيغة لها دلالتها الخاصة، والصيغ المختلفة للصفة المشبهة لكل صيغة دلالتها الخاصة، وأدوات النفي لكل أداة معنى خاص في النفي، وأدوات الشرط المختلفة كذلك لا يعدل عن واحدة إلى الأخرى إلا تبعاً للمعنى؛ وهكذا في كل الظواهر التي نشاهدها في اللغة العربية، وما علامات الإعراب إلا ظاهرة من هذه الظواهر الكثيرة تسير على منهاجها وتأخذ حكمها، وتكون دالة على معان مختلفة، وتتغير تبعاً لتغير هذه المعاني؛ فالذي يعدل بالعربي عن حركة من حركات الإعراب إلى الأخرى إنما هو المعنى وليس عاملا من العوامل. ذلك ما أرتاه الأستاذ الجليل مؤلف (إحياء النحو) في حركات الإعراب.
اشهد ويشهد معي كل منصف أنه فتح جديد في فهم العربية
فما عسى أن يقول الأستاذ بدوي في ذلك وما عساه أن يقول في هذه العبارة (نريد

أن نفهم حركات الإعراب كما نفهم الظواهر الأخرى في اللغة العربية كصيغ الجموع المتباينة وصيغ الصفات المختلفة وأدوات النفي المتنوعة من حيث دلالة كل واحدة منها على معنى خاص؟)

وأخير لم يرق لدى الأستاذ الناقد أن تضم أبواب الفاعل والمبتدأ ونائب الفاعل تحت باب واحد هو المسند إليه وحجته أن المبتدأ لا يصح أن يكون نكرة والفاعل يصح أن يكون كذلك وللمبتدأ أحكام مع الخبر من حيث تأخره وتقدمه عليه ووقوع الخبر جملة حيناً ومفرداً حيناً آخر وليس للفاعل حظ من ذلك. والجواب عن ذلك سهل يسير؛ فلو أن الأستاذ فهم

كيف وحد المؤلف أحكام المبتدأ والفاعل وأزال وجوه التفرقة بينهما لانتفت عنده كل شبهة ولآمن بأن البابين باب واحد شطرته الصناعة الفاسدة شطرين، وذلك أننا حينما ننظر إلى المبتدأ والفاعل كشيء واحد هو المسند إليه نستطيع أن نوحد أحكامهما المختلطة؛ واهم ما يفرقون به بين الفاعل والمبتدأ أن الفعل يوحد مع الفاعل الجمع أو المثنى، وأما المبتدأ فلابد أن يطابقه الخبر، ولكن المؤلف جمعهما في هذا الحكم بقاعدة سهلة يسيرة هي أن المسند إليه إذا تقدم وجب أن يطابقه المسند في العدد وإذا تأخر وجب أن يكون المسند مفرداً وهي قاعدة مضطردة لا يقام لسبيلها والحال كذلك في التعريف والتنكير، وذلك أنه إذا تقدم المسند إليه وجب أن يكون معرفة، وإذا تأخر جاز أن يكون نكرة، والحال كذلك في التقديم والتأخير، فإذا كان المسند إليه من ألفاظ الصدارة وجب تقديمه، وإن أوقع تقديمه في لبس وجب تأخيره والعكس بالعكس، وهكذا نجمع أحكام الأبواب الثلاثة تحت باب واحد فنسهل بذلك على الدارس المبتدئ ونحببه في دراسة النحو ولا نفوت من أحكام اللغة حكماً واحداً صغيراً أو كبيراً.

وإني أسأل الأستاذ بدوي سؤالاً واحداً بعد ذلك كله: ألم يجد في كتاب إحياء النحو شيئاً واحداً يستحق التقدير والثناء حتى كان كل نقده من أول حرف إلى آخر حرف ذماً وانتقاصاً؟ لا أظن أحداً من الناس يوافقه على أن كتاباً خرج في مائتي صفحة ليس فيه موضع لثناء أو تقدير، ولو أن كتاباً خرج كذلك بالفعل لوجب على من يريد أن يحاربه أن يتلمس له موضع حسن حتى يوهم الناس أن نقده بريء خال من الهوى والتعصب.

السيد عبد الهادي

بالدراسة العليا بكلية الآداب

الكتب

كتاب إحياء النحو

اكتشاف لغوي مهم

للأستاذ يوسف كركوش

تمتاز اللغة العربية عن سائر اللغات بحركات الإعراب التي تلحق أواخر الكلم، إلا ما يقال عن بعض اللغات السامية: كاللغة السريانية: من أن لها علامات إعرابية، وهي لغة ميتة. وأما سائر اللغات سواء الحية منها أو الميتة فان أواخر كلماتها ساكنة، مهما تغير موقع تلك الكلمات من الجملة، وأما باقي أبحاث اللغة: من صرف، واشتقاق، وبلاغة، إلى غير ذلك فهي موجودة في أكثر لغات العالم

وقد بذل علماء اللغة العربية - منذ القرن الأول للهجرة - جهوداً جبارة للكشف عن حقيقة هذه الظاهرة الإعرابية، ومعرفة أسبابها، فاستنبطوا قواعد وضوابط زعموا أنها تكشف عن حقيقة هذه الظاهرة ومعرفة أسبابها. فكان من نتيجة استنتاجهم أن هذه الحركات الإعرابية متأثرة بعامل يكون في الجملة، فكأنهم اعتبروها كائنات حية تؤثر أثرها. وإنا لنعترف لهم بالفضل لتتبعهم واستقرائهم كلام العرب، منظومه ومنثوره ورحلاتهم الطويلة الشاقة لأجل مشافهتهم الأعراب: ولكنهم لم يوفقوا في استنباط هذه القواعد والدساتير

وقد أولعت منذ نعومة أظفاري - بدرس اللغة العربية ومدارستها، وقرأت كل ما وصل إلى يدي من مؤلفاتها؛ ومع ذلك لم يزل الشك يساورني في صحة هذه القواعد والدساتير التي وضعها علماء اللغة لها، هذا مع اعترافي بصحة هذه الظاهرة الإعرابية. فكنت على الدوام أتطلب وأتساءل وأجمع المعلومات لعلي أهتدي إلى تعليل صحيح لهذه الظاهرة بحيث يكون قريباً من الذوق الفطري.

وصادف أني اجتمعت بزميل لي يشاركني هذه الفكرة ويجول في ذهنه ما يجول في ذهني ويتمنى لو تسني له أن يزيل اللثام عن هذه القضية. فقد احتلت حيزاً كبيراً من عقله فكان حين صادفني هذه المرة أن قال لي قبل كل شيء: البشرى. فقلت له: ومثلك من يبشر بخير. فقال: طلع علينا كتاب من مصر لأستاذ مصري اسمه إبراهيم مصطفى واسم الكتاب
(إحياء النحو) فيه تحقيق فكرتنا. ثم ناولني نسخة من هذا الكتاب فكان سروري به عظيما لا يوصف. فقرأته بإمعان وترو متجرداً من عواطف الحب والكره، فرأيت المؤلف قد علل الحركات الإعرابية من ضم وفتح وكسر، وكذا التنوين وعدمه بتعليل طبيعي فطري يجري مع الذوق السليم. فكدت أطير فرحاً وزال عني ذلك الكابوس الذي كان جاثماً على صدري
فالكتاب جليل عظيم القدر، لا باعتبار مادته، بل باعتبار نزعته التجديدية، وترتيب معلوماته ترتيباً منطقياً لاستجلاء تلك الفكرة السامية. فهو بحق (إحياء النحو). وهذا العمل اكتشاف مهم في اللغة العربية: لإظهاره ما للغة العربية من مزايا جليلة، ولإزالته عناء البحث عن طالبيها، فبعد أن كان الطالب يحتاج إلى مدة كبيرة لمعرفة أسباب هذه الظاهرة صار يكفيه من الوقت لمعرفة ذلك أقل بكثير
وكنت أعتقد أن هذا الكتاب سوف يحدث ضجة في العالم العربي ولا سيما مصر، وأن الأقلام ستأخذه بالنقد والتحليل لإظهار حقيقته؛ ولكن - مع كل الأسف - لم يقع بعض هذا، مع أن في العالم العربي لا سيما في مصر فطاحل العلماء في اللغة العربية. هذا مع خطورة هذه المسألة، فهي جديرة بالبحث لأنها مسألة حيوية لها صلة بالتفكير والتعبير. ولو أن مثل هذا الكتاب ظهر في إحدى البلدان الغربية لأعاروه أهمية عظمى. وأني لأربأ بأبناء أمتي أن يبلغ بهم الجمود هذا الحد فيصدق فيهم قول أعدائهم من الأجانب: إن الأمة العربية أمة بعيدة عن التطور عدوة لكل تجديد.
والعجب كل العجب من الأستاذ (احمد أمين) أنه حين كتب في (الرسالة) حول موضوع (ضعف اللغة العربية) لم يجعل الضعف ناشئاً من قبل قواعد اللغة، بل اعتبره ناتجاً من قلة كفاية المعلم، وما إلى ذلك من مناهج، وتفتيش ووسائل التربية. وهذا لا ينكر أن لها أثراً في ضعف اللغة، ولكنها في المرحلة الثانية، وهي غير خاصة باللغة العربية، بل تشمل سائر الدروس
وبصفتي فرداً من أبناء الأمة العربية - أقترح: أن يشكل (مجمع اللغة العربية الملكي بالقاهرة) لجنة تنظر في هذا الكتاب وتمحصه تمحيصاً دقيقاً، وتختبر هذه النظرية التي دعا إليها المؤلف في كتابه وتضع لنا قواعد على ضوء هذه النظرية. إذ أن مثل هذا العمل من أهم أغراض المجمع المذكور، فان من جملة أغراضه أن يبحث كل ما له دخل في تقدم
اللغة العربية
(الحلة - العراق)
يوسف كركوش
كتاب في قصور دمشق
ثلاثون قصة وقصة (من لب الحياة)
تأليف الأستاذ محمد النجار
أخذ الاهتمام بالقصص يزداد في العالم العربي لما تبين من نفاسة قيمته الفنية والأدبية، وعظم فائدته القومية والإنسانية. وكانت مصر وما تزال مجلية في الحلبة؛ ثم بدا نمو هذه الحركة ونشاطها في لبنان. أما دمشق فظلت في تأخر حتى إذا ظهر كتاب (في قصور دمشق) رحب به الأستاذ منير العجلاني في المقدمة التي كتبها له واستزاد مؤلفه من أمثاله وحثه على الاستمرار في الكتابة
وأقاصيص الكتاب صغيرة تتراوح بين ثلاث وأربع صفحات تفضح - إذا صح القول - كثيراً مما في زوايا الخدور في صراحة يستهجنها بعض المتأدبين ويحبها المحافظون، وفيه كثير من الأساليب واللهجات العامية
تلذ قراءة هذا الكتاب للفتيان لأنهم يذهبون مع رغباتهم ويستطيبون لذات الحياة مهما كبحوا جماح أهوائهم وربما فسروا حكاياته مع ما يتفق وغرورهم، أما الكهول فلعلهم لا يجدون في هذه الأساطير كبير غرابة لأنها أحاديث تملأ المجالس الخاصة، وما هي

بالأمر الذي يطغي على دمشق بل هو ناحية صغيرة من نواحيها الجديرة بالاهتمام.
وليست هذه الحال تختص بدمشق وحدها ففي كل بلد من عجائب أسرار البيوت ما تعافه النفوس الأبية.
ولا ريب أن الأستاذ النجار قد عانى مر المشاق في سبيل تلقف هذه القصص وجمعها من مجالس اللذات وأفواه الهامسين وأحاديث الأندية، وهو على عنايته بإبراز هذه الصور واضحة مجردة عناية يشكره الأدب الواقعي عليها، مصلح ينبه قومه إلى هذه الأسواء وضرورة معالجتها.
(دمشق)
مظفر البقاعي
العدد 221 - بتاريخ: 27 - 09 - 1937
مصر العربية
للأستاذ محمد اسعاف النشاشيبي
أبهجتنا معشر العرب ونعشتنا كلمة مصر المعرقة في العربية والكرم في (عصبة الأمم) في هذا اليوم، ذودا عن فلسطين إحدى الولايات (المديريات) المصرية من قبل، وحدتني على أن أبعث إلى (الرسالة) مجلة الأمم العربية بهذا القول، وقد أنشأته إذ سمعت ضباح غر غمر في عربية مصر، ومصرية عمرو
لما كان مهرجان شاعر العربية الأكبر أحمد شوقي (رحمه الله) في شوال سنة (1345) وجئت القاهرة: الحاضرة اللغوية للأمم العربية كيما أجهر بكلمتي في ذلك اليوم المشهود، استهللتها بهذا الكلام: (ليست دار العربية رمال الدهناء أو هضبات نجد أو الحجاز أو إقليم الشام أو أرض العراق، بل دارها كل مكان ينطق بالضاد أهله، ويتلو فيه كتاب محمد (صلوات الله عليه) قراؤه؛ وأقوى القوم عربية بل العرب العرباء أعرفهم بأدب العربية، فأهل مصر إذن هم القبيل المقدم في العربية، وهم سادات العرب)
وهذا التاريخ المصري، وهذى أحاديثه، وهذه الإسلامية المشرقة في مصر، وهذه العربية المنورة في مصر، وتلكم الأيادي البيض، وتلكم الآثار، وهذه المساعي في هذا الزمان، وهذه كلمة مصر المجلجلة في (دار العصبة) ذائدة عن فلسطين في هذا الوقت. كل ذلك يقول لي: صدقت، صدقت!. . .
فقد ساندت مصر العاملين في إعزاز العربية وإعلائها يوم كانوا يعملون، وقد حمت مصر هذه العربية حين لا أباة ضيم ولا حماة يحمون
حملت مصر دونهم هيكل الدين وروح البيان من فرقانه
وإن كانت إنما وقت عربيتها وحمت إسلاميتها، إذ الإسلامية والعربية والمصرية كلمات في هذا الوجود مترادفات
وما يجادل في عربية المصرية ومصرية العربية إلا كافر بالشريعة الكونية، وإلا محترق محتقد على هذه الإسلامية، وإلا ناشئ أضلته على علم (وهو غافل) هذه المدرسة الغربية، وإلا وغد سمسار باع الغلي رخيصاً في سوق العلوج والفرنج والحكومات الأجنبية، وإلا غبي جاهل، ولهذا يقال:
قد اطلعت على سري وإعلاني ... فاذهب لشانك ليس الجهل من شاني
وإن مصرياً يجهد أن ينسلخ من عربيته لطالب في الدنيا محالا، ولن يكون مرغبه إلا من بعد أن يفارق نحلته، وينسى لغته، ويضمحل أدبه، ويفنى مجده في ثلاثة عشر قرناً، ويمحى حسبه، فكون مراده إنما هو بعدمه، ولن يكون هذا إلا ألا يكون هو ومكلف الأيام ضد طباعها ... متطلب في الماء جذوة نار
وإذا ذكرنا العربية فإنما نعني هذه العبقرية ذات التعاجيب المحمدية، وهذه القوة الخلقية، وهذه المقاصد القرآنية، وهذه الآداب الإلهية، وتلك الحضارة والمدنية هذه هي العربية، وإن أظل وهن، وإن جاء ضيم، فالقوة في النفوس ما بدت، والعزة في غد (إن مع اليوم غداً يا مسعدة) وإن درج أهلها الأولون أنشد المصريون المنشدون:
فان يك سيار بن مُكرم انقضى ... فانك ماء الورد إن ذهب الورد
وإن قال عربي منتم إلى العربية، ما معه من العربية شيء: لست بعربي، فليس لمصري أن يقول مقاله، ويضل ضلاله؛ إن المصري هو وارث ذاك المجد، والمصرية

هي وارثة العربية. وإن لم يكن المصري هو العربي، فليت شعري من يكون العربي؟
وإن لم تكن مصر دار العربية، فأين - يا قوم - في الدنيا دارها؟
وإن قال زنيم نيط بالمصرية: لست في شيء من العربية، قالت له المصرية: ولست في شيء من المصرية. أنكر العربية فأنكرته المصرية
وأنت زنيم نيط في آل هاشم ... كما نيط خلف الراكب القدح الفرد
إذا لم يكن المصري هو العربي كل العربي فهل العربي هو المغربي أو العراقي أو الشامي أو الحجازي أو النجدي أو اليماني أو الحضرمي أو العماني أو ذلك البدوي، ذلك الأعرابي
!!هل ذهب كل هؤلاء بمنقبة العربية وقعد المصري حجرة العربية حجر عليه. . .؟؟
إن العربية لن تنكر بنيها كبروا أو حقروا، نأوا في الدار أو قربوا، قل عديدهم أو كثروا، فكل أولئك بنوها، ولكن يحزنها ويغضبها عقوق في بنيها، وأقرب الأبناء إلى أمهم ابن في الدنيا بر. وهل رأت العربية في حين أبر بها من مصر؟
وليست العربية بالعزوة، ليست العربية نسبة، ولكنها عقيدة ونحلة وملة، ولكنها خليقة وأدب ولغة
ليست العربية نسبة، ولكنها جامعة تؤلف بين القلوب، وفيها وفي شريعتها الحرية، وليست كمثل جامعة غربية، لأهلها ضجيج وعجيج (وأولئك الأغلال في أعناقهم)
فالعربي هو ذلك المتمدن المتحضر المهذب المثقف، المتعلم العالم العزيز الأبي الناطق بلسان القرآن. وليس بعرب (خراب بادية غرثى بطونهم) ولا قراضيب في (الجزيرة) ولا مد لغفون
وآنف من أخي لأبي وأمي ... وإذا ما لم أجده من الكرام
وقد قلت من قبل: ألا إننا كلنا أجمعين عرب أو عربيون وإنه ليحق هذا لهجة عربية ألهجنا منذ القديم بها، وأدب عربي نجعنا به وترونا منه، وخلق عربي اشتملنا عليه. وما الأمة إلا لغتها وأدبها وخلقها، وكفى بذلك جامعاً، وإن النسب الواشج إلا زائدة، ولو عزا العازي كل أمة وفتش أصلها لتشظت وراحت أمم. . .
وهو قول لم يلاق مكذباً، ولم يجد أحد عنه متعقباً
وإن هذه العربية أم العلم، وربة التفكير، وزعيمة البحث والنظر - لن تقول لمصري من أبنائها - وهنالك في وادي النيل ما هنالك وهناك التاريخ الناطق، وهناك مجد باسق، فلن تقول له: طلس وطرس، بل تقول له: مجد وقدس؛ إنك قد سكنت جنتين، وكنت ذا المنقبتين، وكانت دارك مصدر المدنية، وموئل العربية قد جمعت العز من أطرافه:
سؤدد (المصري) ومجد العربي
مصر مصدر العلم والمدنية
مصر موئل العرب والعربية
مصر! حيا الله مصر! حيا الله ربعها
محمد اسعاف النشاشيبي
سلوك المرأة وسلوك الرجل
للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني
أمر النساء في كل حال عجيب. وإذا كان أحد من الرجال يفهمهن - كما ينبغي أن يفهمهن - فأنا والله بهن جاهل. ولي العذر، فما أراهن يفكرن في شأن على نحو ما أفكر أنا أو يتناولنه من الناحية التي أتناوله منها. وأحسب أن هذا الضرب من الجهل هو الوحيد الذي لا يعيب المرء أو يسقط قيمته أو يزري به. قالت لي مرة فتاة من معارفنا: (ما قولك؟) قلت: (خير إن شاء الله! نعم يا ستي!) قالت: (هل يشغلك شيء غداً؟) قلت: (إذا كنت تعنين بالشيء العمل فإنه لا ينقطع؛ على أن أمري بيد الله ثم بيدي فأشيري كيف تأمرين، والعوض على الله) قالت: (اسمع. نريد. .)
فقاطعتها: (نريد؟. هكذا؟ بلفظ الجمع؟)
قالت: (لا تقاطع من فضلك. اسمع. . . نعم أختي وبنت عمي وأنا)
قلت: (أهلاً وسهلاً. . تفضلي)
قالت: (الجو في هذه الأيام بديع. . تهيئ لنا زورقاً حسناً نظيفاً مريحاً، نركبه في النيل ونقضي يومنا كله على متن الماء، ونتغذى فيه أو في إحدى (المقاتات) التي نمر بها في طريقنا)

قلت: (اقتراح جميل، ولكن. . أنا وحدي أكون معكن؟ وفي خدمتكن؟ ارحمن تينمي يا فتيات!)
فقالت: (تستطيع أن تدعو فلاناً وفلاناً)
فدعوتهما وأعددنا الطعام ومررنا بهن فحملناهن إلى قصر النيل حيث كان الزورق ينتظر، ولم ألق إليهن نظرة حتى نزلن من السيارة وشرعن ينحدرن إلى مكان الزورق؛ فدهشت، فقد كانت ثيابهن زاهية نظيفة مكوية، بل كانت أفخر وأبرع ما رايتهن فيه، فتناولت ذقني بيدي وقلت: (هيه. . . نهارك أسود يا أبا خليل) ولم أكد أهز رأسي هزتين حتى نادتني إحداهن فنظرت إليها مستفسراً فقالت: (خذ بيدي فإني أخشى أن أزل وأقع على التراب أو تغوص قدمي فيه) فسألتها وأنا أتناول يدها: (أين تحسبين نفسك؟ في سباق الخيل؟ ما هذه الثياب التي لبستها؟)
قالت وهي تحني رأسها لتنظر إلى قدميها: (مالها؟ ألا تعجبك؟)
قلت: (تعجبني وتعجبني. . ولكنها لن تعجبك بعد نصف ساعة في الزورق)
ولا أطيل. ركبن، ووثبنا نحن وراءهن فأشرنا إليهن أن يجلسن فنظرن إلى المقاعد - ولم يكن بها سوء والله - متأففات مترددات فنفضنا لهن التراب الموهوم عن الحشايا المطروحة على المقاعد. وصحيح أنها ليست وثيرة جداً، ولا جميلة المنظر، ولكنها نظيفة. غير إن فتياتنا تبادلن نظرات تنبئ بالامتعاض ولا تنبئ بالرضى، ثم انتهين بأن جلسن متلاصقات جداً محاذرات أشد الحذر؛ وكان لابد أن أغضى عن ذلك فليس ذنبي إنهن جئن في ثياب لا تصلح إلا على الأرض اليابسة، وناولت أحد إخواني مجدافا وأخذت أنا الآخر، وتركنا الدفة لثالثنا، وقام الملاح فدفع الزورق عن الشاطئ بالمردي، ثم بدأنا نجدف، وكنت أضرب الماء برفق شديد حتى لا يطير منه شيء، ولكن رشاشاً منه كان يصيبهن على الرغم من ذلك فيصرخن ويتلاغطن ثم يتدانين ويعبسن ويمسكن عن الكلام ولا تبقى لهن عين يدرنها في المناظر التي جئن لينعمن بالنظر إليها
وأخيراً قال الذي بيده الدفة: (خذ أنت الدفة واعطني المجداف)
فلم أتردد في القبول فما كان يسرني أن أكون سبب التنغيص. واتخذ صاحبي مقعده وراح يضرب الماء بعنف فيتعالى الصراخ فلا يعني بأن يلتفت إليهن ولا يزيد على أن يقول وهو يضحك: (لا بأس! سينشف الماء ثم يفرك الوحل فلا يبقى شيء. . .) وقد حرن ماذا يصنعن لاتقاء هذا المطر، وكنت ربما ضحكت إذ أراهن يخرجن مناديل في سعة الكف وينشرنها على حجورهن كأنما من الممكن أن تستر شيئاً.
وأخيراً بلغنا مكاناً دنونا من شاطئه، وقال الملاح: إن الأحسن أن يجر الزورق بالحبل. وقام فاخرج حبلا طويلا شده إلى الزورق ووثب إلى الشاطئ وراح يجر، وقعد أحدنا عند الدفة ليضبط الزورق فلا يجنح أو يلصق بالأرض. فعاد إلى الفتيات البشر وانطلقت ألسنتهن وان كن لم ينسين موجدتهن علينا لما أصابهن من البلل. ثم تهامسن ونهضن وجعلن يصحن بالملاح وهو بعيد لا يسمع ونحن نسألهن ماذا يبغين وهن لا يبالينا أو يجبننا. وسمع الملاح فوقف وارتد إلينا، وإذا بهن يردن أن يتولين هن جر الحبل أو (اللبان) كما يسميه النواتيه. فنصحنا لهن ألا يفعلن وحذرناهن وأنذرنهن فأبين إلا أن يفعلن، وفي ظنهن أن هذا أسلم لثيابهن، وأشرح لصدورهن وأجلى للصدأ وأجلب للصحة أيضاً، فتركناهن يفعلن وأدنينا لهن الزورق من الشاطئ وحملناهن واحدة واحدة إلى الأرض. فذهبن يجرين إلى أول الحبل حيث تركه الملاح ودفعنا نحن السفينة إلى الماء مرة أخرى وكنا نراهن فإذا باثنتين منهن يتناولان الحبل معاً وكانت الثالثة تدور حولهما ولا تصنع شيئاً فمرة تكون أمامهما وتارة تكون خلفهما وهكذا، فانتهى الأمر بأن التف الحبل على سيقانهن جميعاً فصرخن ووقفن يحاولن تخليص أرجلهن مما أحاط بها فخلصت أرجلهن ولكن الحبل صار على صدورهن وأعناقهن، والزورق يضطرب بنا ونحن نحاول أن نضبطه بالمجداف. واستطعن أخيراً وبعد لأي وصراخ فظيع أن يتجنبن شنق أنفسهن، فتهامسنا بأن أولى بنا أن نسكت وندعي الجهل بما حدث وأن ننظر ماذا يصنعن بعد ذلك. ويظهر أنهن خجلن أن يقلن شيئاً فعدن إلى الحبل واستأنفن جره فحمدنا الله ولكنهن كن يمشين شيئاً، ثم يقفن فجأة وعلى غير انتظار منا، فيضطرب بنا الزورق فناديناهن. فلما تنبهن إلى أننا نريد أن نكلمهن وقفن وأقبلت علينا واحدة منهن وقفت بعيداً وأشارت إلينا تسألنا عما نريد، فصحت بأعلى صوتي: (لا تقفن) فقالت ويدها على أذنها: (إيه؟) فقلت لصاحبي: (صوتكما أقوى فكلماها

وأفهماها أن الوقوف يضايقنا ويتعبنا، ففعلا. فلما عرفت ما نريد بدأت تسألنا هل نحن مسرورون، وهل هن يحسن جر الحبل؟ فأثنينا على براعتهن، وامتدحنا حذقهن، وأكدنا لهن أن الدولة حين تحتاج إلى ربابنة ونواتية للسطول فانهن سيكن خير المرشحات أو خير أساتذة المدرسة البحرية. وكنا نرجو أن تعود إلى زميلتها فيستأنفن جر (اللبان) ولكنها تذكرت أن بها حاجة إلى منديل مما في حقيبتها فأخرجناه لها وحملناه إليها فذهبت به وإذا بثانية تعود وتصيح بنا أنها هي أيضاً تحتاج إلى منديل فناولناها إياه، وبد لها أن الثالثة قد تطلب منديلها فيحسن أن تأخذه له على سبيل الاحتياط، فأجبناها إلى ماطلبت، فذهبت ثم عادت وقالت إن الثالثة لا تريد المنديل فهي ترده لنضعه حيث كان فاطعنا ومضت، وبعد دقائق أخرى عادت الثالثة تقول: إنها رأت أن الأحسن على كل حال أن تأخذ المنديل، فدعونا الله أن يعيننا على الصبر وأعطيناها المنديل فذهبت وأوعزنا إلى الملاح أن يلحق بها وأن يتولى هو الحبل ولا يدع للفتيات إلا المظهر ولما جاء وقت الطعام تخيرنا لرقعة من الأرض خضراء ظليلة وتأهبنا للجلوس فنظرت الفتيات إلى الأرض مشفقات من البلل كأنما بقي ما يخشين على ثيابهن التي خططها الحبل بالوحل خضراء ظليلة فنشرنا لهن مناديلنا فان مناديلهن لا تصلح لشيء إلا للزينة. فجلسن عليها كالرماح استقامة، وكنا نشعر أنهن غير مرتاحات وأن الجلسة متعبة لهن، وأن خوفهن البلل ينغص عليهن ولكن ماذا كان يسعنا أن نصنع؟ ولو كان يسعنا أن ننقل لهن بعض أثاث البيت من سجاجيد وحشايا ومتكآت وما إلى ذلك لفعلنا. ولكنا لم نكن نعلم أنهن سيرتدين هذه الثياب التي تصلح للعرض ولا تصلح لرحلة على النيل.

وانحدرت الشمس قبل أن نعود إلى قصر النيل فكدن يبكين لأنهن تأخرن وكن على موعد مع الخياطة، فعجبنا لا تعادهن معها في يوم يخرجن فيه لمثل هذه الرحلة التي طلبنها وأردن أن تستغرق النهار كله. . . ولكن المرأة هكذا أبداً. . تكون لها عين في الجنة وعين في النار. ولست ألومها أو أعيبها فأنها طبيعتها التي لا حيلة لها فيها، ولكني أرجو ألا ألام - وأن أعذر - إذا كنت أشعر بالحيرة والعجز في كثير من الأحيان عن الفهم الصحيح والتقدير المرضي المريح؛ واحسب أن الرجال جميعا مثلي جهلة مساكين. ولا شك أن المرأة يحيرها كذلك مالا تفهم من طباع الرجل وسلوكه، فالعجب بعد ذلك أن الجنسين يستطيعان أن يقنعا أنفسهما بأنهما متفاهمان، وأن كل شيء بينهما على ما يرام

إبراهيم عبد القادر المازني

مصر في أواخر القرن الثامن عشر - 2

كما يصفها الرحالة سافاري

للأستاذ محمد عبد الله عنان

أشرف سافاري على القاهرة بعد رحلة ممتعة في النيل، فلم ترقه العاصمة ولم تبهره مناظرها كما بهرته مناظر السكندرية؛ ذلك أن القاهرة التي كانت خلال العصور الوسطى أعظم مدن الإسلام، انتهت في أواخر القرن الثاني عشر إلى مدينة متواضعة تحيط بها التلال والخرائب ويصف لنا سافاري خطط العاصمة المصرية يومئذ، وضيق شوارعها وأزقتها؛ ولكن القاهرة كانت مع ذلك تلفت النظر بمساجدها الثلاثمائة وقلعتها التاريخية المنيفة، ويقدم إلينا سافاري عن القلعة وعن أبنيتها وسكانها صورة شائقة، فيقول لنا إنها فقدت مناعتها القديمة منذ اخترع الديناميت، وان لها مدخلين تحرسهما ثلة من الانكشارية وستة مدافع مصوبة نحو مسكن (الباشا) ذلك أن الانكشارية يمالئون البيكوات المصريين، والبيكوات هم الذين يملون إرادتهم على الباشا، وفي داخل القلعة قصر سلاطين مصر السالفين، قد غلب عليه العفاء والخراب، ولكن بقيت منه عدة أعمدة فخمة وجدران زاهية؛ وفي أحد أبهائه المهجورة تصنع الكسوة النبوية التي يحملها أمير الحج كل عام. ويسكن الباشا بناء كبيراً يطل على (قره ميدان)، ويعقد الباشا الديوان ثلاث مرات في الأسبوع في غرفة الديوان الشاسعة، وقد خضبتها دماء البكوات المصريين الذين فتك بهم الباب العالي قبل ذلك بأعوام قلائل. أما اليوم فهم سادة مصر، وليس لمثل السلطان أية سلطة فعلية، وإنما هو أداة في أيديهم يحركونه طبق أهوائهم، بل هو سجين في القلعة لا يستطيع أن يغادرها دون إذنهم. أما الانكشارية فيسكنون في قصر صلاح الدين وقد بقيت منه أطلال تدل على عظمته

السابقة، وأربعون عموداً من الجرانيت الأحمر؛ وإلى جانبه توجد منظرة عالية تشرف على القاهرة، يرى منها منظر المدينة الرائع بميادينها ومآذنها وحدائقها وهنا لا يتمالك سافاري نفسه من أن يصيح: (أن المطل من هذه المنظرة لتأخذه نشوة من التأملات اللذيذة) ولكن يغشاه في الحال كآبة، فيقول لنفسه: (أن هذه البلاد الفنية التي كانت عصوراً ملاذ العلوم والآداب والفنون يحتلها اليوم شعب جاهل بربري يسومها سوء الخسف؛ أجل إن الطغيان ليسحق بنيره الحديدي أجمل بلاد العالم؛ والظاهر أن شقاء الإنسان يزداد بنسبة ما تقدمه الطبيعة لإسعاده. . .)

هكذا يقدم لنا سافاري ذلك المنظر المحزن منظر مصر الإسلامية وقد أودى الحكم التركي الغاشم بكل عظمتها وبهائها السابقين.

ويصف لنا سافاري ثغر بولاق الذي كان مدخل القاهرة يومئذ، ومرساه الضخم الذي يغص بمئات السفن، وما به من الخانات التي خصصت لسكنى التجار الأجانب وتخزين بضائعهم. وفي مياه بولاق أيضاً كانت ترسو سفن النزهة البديعة التي يتخذها البيكوات وغيرهم من الأكابر للنزهة والسمر في النيل أيام الصيف الحارة ولا سيما في الليالي المقمرة. ثم يصف الرحالة بعد ذلك جزيرة الروضة والمقياس، ويستعرض تاريخ مقاييس النيل وقصة وفائه؛ وهنالك في الروضة على مقربة من المقياس كانت طائفة من القصور الفخمة التي خصصها البيكوات للتنزه فيها مع حريمهم وهي منعزلة تحيط بها الرياض الفيحاء، ولا يسمح لإنسان بالاقتراب منها ولا سيما حينما يوجد بها حريم الأمراء.

أما الحياة الاجتماعية المصرية فيخصها سافاري بكثير من عنايته، ويفرد لها عدة رسائل شائقة؛ وهو يصف المصري بالكسل، ويقول لنا إن الجو يؤثر في عزيمته، ومن ثم فانه يميل إلى الحياة الهادئة الناعمة، ويقضي يومه في عمله وفي منزله، ولا يعرف المصري صخب الحياة الأوربية وضجيجها، وليست له أذواق أو رغبات مضطرمة. ونظام العائلة المصرية عريق في المحافظة، فرب البيت هو السيد المطلق؛ ويربي الأولاد في الحريم ويدينون للوالد بمنتهى الخضوع والطاعة والاحترام. ويعيش أفراد الأسرة جميعاً في منزل واحد، ويتمتع الوالد بكل مظاهر التكريم والإجلال ولا سيما في شيخوخته. ويجتمع أفراد الأسرة حول مائدة الطعام جلوساً على البسط؛ وبعد الغذاء يأوي المصريون إلى الحريم حيناً بين نسائهم وأولادهم؛ وفي المساء يتريضون في النيل في قوارب النزهة، ويتناولون العشاء بعد الغروب بنحو ساعة. وهكذا تجري الحياة على وتيرة واحدة. ويشغف المصري بالتدخين ويستورد الدخان من سورية ويخلط بالعنبر. وللتدخين أبهاء خاصة منخفضة يجتمع فيها السيد مع مدعويه؛ وبعد انتهاء الجلسة يأتي الخادم بقمقم تحترق به العطور، فيعطر للمدعوين لحاهم، ثم يصب ماء الورد على رؤوسهم وأيديهم.

والمرأة المصرية ماذا كانت أحوالها في ذلك العصر؟ يقول لنا سافاري إنها كانت كالرقيق

لا تلعب أي دور في الحياة العامة؛ وإذا كانت المرأة الأوربية تسيطر على العروش، وتقود الآداب والعادات، فان دولة المرأة في مصر لا تتعدى (الحريم) ولا علاقة لها بالشئون العامة. وأعظم أمانيها أن تنجب الأولاد، واهم واجباتها أن تعني بتربيتهم. والحريم هو مهد الطفولة ومدرستها، وفيه يربى الأولاد حتى السابعة أو الثامنة. كذلك يعني النساء بالشئون المنزلية، ولا يشاركن الرجال في الظهور، ولا يتناولن الطعام معهم إلا في فرص خاصة، ويقضين أوقات الفراغ بين الجواري والغناء والسمر؛ ويسمح لهن بالخروج إلى الحمام مرة أو مرتين في الأسبوع. وهنا يصف لنا سافاري حمامات القاهرة، ومناظر الاستحمام والزينة، وكيف يشغف النساء بالذهاب إلى الحمام مع جواريهن، وهنالك يقضين أوقاتاً سعيدة بين مجالي التزين واللهو، ويستمعن في الأبهاء الوثيرة إلى الغناء وقصص الحب

وتستقبل المرأة زوارها من النساء بأدب وترحاب، ويحمل الجواري القهوة، ويدور الحديث والسمر، وتقدم أثناء ذلك الفاكهة اللذيذة، وعند الانتهاء من تناولها تحمل الجواري قمقم ماء الورد فيغسل المدعوات أيديهن، ثم يحرق العنبر وترقص الجواري. وفي أثناء هذه الزيارات النسوية لا يسمح للزوج أن يقترب من الحريم، إذ هو مكان الضيافة الخاصة، وهذا حق تحرص المصريات عليه كل الحرص. وقد ينتفعن به أحياناً

لتحقيق أمنية غرامية، إذ يستطيع العاشق أن ينفذ إلى الحريم متنكراً في زي امرأة، فإذا لم يكتشف أمره فاز ببغيته، وإذا اكتشف أمره كان جزاءه الموت. والمرأة المصرية مفرطة في الحب والجوى، مفرطة في البغض والانتقام، وكثيراً ما تنتهي الروايات الغرامية بفواجع مروعة

وتوجد طبقة خاصة من نساء الفن هي طبقة القيان (العوالم)، وهؤلاء العوالم يمتزن بالذلاقة ومعرفة الشعر والمقطوعات الغنائية، ولا تخلو منهن حفلة، وتقام لهن منصة يغنين من فوقها، ثم ينزلن إلى البهو ويرقصن في رشاقة ساحرة، وأحياناً يبدين في صور مثيرة من التهتك، ويدعون دائماً في كل حريم، وهنالك يروين القصص الغرامية ويخلبن الألباب بذلاقتهن ورشاقتهن وفصاحتهن.

وهكذا يحدثنا سافاري بإفاضة عن الحياة الاجتماعية المصرية في أواخر القرن الثامن عشر، ولأحاديثه في هذا الموطن قيمة خاصة؛ فهي أحاديث باحث مطلع درس وشهد بنفسه، وملاحظات عقلية مستنيرة، تمتاز باتزانها ودقتها فيما نلاحظ وفيما تصف وتعرض

وأخيراً يصف لنا سافاري آثار هليوبوليس والجيزة؛ ويقدم لنا عن الأهرام وأبي الهول صوراً شعرية ساحرة، ويستعرض مختلف الروايات عن أصلها وبنائها منذ هيرودوت إلى عصره. ويصف لنا منفيس وأطلالها، ويحدثنا عن الجيزة وخططها وتاريخها وعن الفسطاط ومعالمها وكنائسها وآثارها، كل ذلك بإفاضة ممتعة تتخللها مقارنات وملاحظات تاريخية قيمة؛ ثم يحدثنا بعد ذلك عن رحلته في دمياط وضواحيها، وكيف تتبع في رحلته سير حملة القديس لويس الصليبية منذ نزولها في دمياط وسيرها بعد ذلك حتى مدينة المنصورة. ويقدم إلينا خلاصة تاريخية لهذه الحملة الشهيرة مشتقة من المصادر الإسلامية ومذكرات دي جوانفيل مؤرخ الحملة وأحد شهودها

وإلى هنا تنتهي رسائل سافاري عن الوجه البحري ومدينة القاهرة والحياة الاجتماعية المصرية، وهذه الرسائل تشغل الجزء الأول من مؤلفه عن مصر، وهي أهم وأقوم ما في المجموعة. أما بقية الرسائل، وهي تشغل الجزأين الثاني والثالث، فيخصصها سافاري لوصف رحلته في الوجه القبلي، ووصف مدنه وآثاره وواحاته، ثم وصف الجو والإقليم والزراعة والتجارة، وديانة المصريين القدماء وآلهتهم، والنيل وخواصه الأزلية؛ وهذه الرسائل تحتوي كثيراً من البحوث والملاحظات القيمة، بيد أنها لا تقدم إلينا جديداً يعتد به، ولذا اكتفينا بالإشارة إليها

هذه خلاصة شاملة لرسائل العلامة المستشرق سافاري عن مصر في أواخر الثامن عشر، وهي رسائل لا شك في قيمتها وأهميتها؛ وإذا استثنينا مذكرات الجبرتي، فإن رسائل سافاري تعتبر أنفس وثيقة من نوعها عن أحوال مصر في هذه الفترة المظلمة من تاريخها؛ وتبدو قيمة هذه الرسائل بنوع خاص فيما تقدمه إلينا من صور الحياة الاجتماعية المصرية بإفاضة لا نجدها في مصادر أخرى؛ فهي من هذه الناحية وثيقة ذات أهمية خاصة. وقد كانت بحوث سافاري بلا ريب مصدراً من أقوم المصادر التي انتفع بها علماء الحملة الفرنسية فيما بعد حينما وضعوا موسوعتهم الشهيرة في (وصف مصر) بعد ذلك بنحو ربع قرن

تم البحث

(فينا في أوائل سبتمبر)

محمد عبد الله عنان

على تمثال فوزي المعلوف

كلمة الأستاذ فليكس فارس

في حفلة إزاحة الستار عن تمثال الشاعر فوزي المعلوف في

سبتمبر في مدينة زحلة - لبنان - 12

عندما أزيح الستار عن هذا النصب كأنه إنسان عين لبنان، وحبة القلب في بلاد العرب، رأيت الذرى المحدقة بهذا الوادي تميد من جهاتها الأربع وقد أطلت من ورائها طغمات أصنام تتراشق نظرات الاستغراب وتتبادل هتفات الاستنكار

إنني أعاينها بالجرح الوسيع فتحته في القلب أدواء البلاد ونكبات الأمة، واسمع صخبها وضجيجها بالإذن التي لم تزل تدوي فيها زفرات البائسين وصيحات المشردين والشهداء

أولئك هم أصنام الشعب المستضعف الفلول، استفزهم ما راود أمجادهم من حذر، وخامر أحلامهم من وساوس، فتراكضوا من مقاعد الزعامات والمناصب المنتزعة بدهاء الجهل ودسيسة المعجزة، ومن أبواب الهياكل والمعابد وجوانب القوى المسيطرة على العناصر الحائرة المتعثرة، هرعوا يتصايحون:

نحن أرباب هذه الأرجاء وأسياد شعبها. . نحن الأحياء يعبدنا الأحياء، فمن ترى هذا الصنم الجامد لا يملك سمعاً ولا بصراً يرفع على مثل أنصابنا فيحني الناس الرؤوس أمامه خاشعين؟

من هذا الدخيل الجامد الصامت تقحمه الهيكل قوة مجهولة وتفرض به على النفوس عبادة لا توجه إلينا، محرقة عند قدميه بخوراً لا يتعالى نحو تيجاننا؟ وصاح أحد صغار الأصنام بأسياده الجسام: أفما عرفتموه؟ إنه ذلك الفتى الضعيف الناحل الذي كان يحدجنا بلفتات الاحتقار ويقرع أسماعنا بأناشيد زهوه واغتراره. إنه هو الذي أنكر ألوهيتنا المتعددة السائدة على عشرات العناصر المتقاطعة، فادعى أن للوطنية إلهاً واحداً وأن قطعاننا قطيع واحد لراع واحد هو حق الحياة

أفليس هذا الصنم الجامد، ذلك الفتى الذي رأى في عزتنا مذلة لقومه، وفي عظمتنا صغارا لبلاده، فتوارى وفي دمعته نار وفي أنينه إرعاد

فقالت طغمة الأصنام: ومن يجرؤ على رفع هذا الإنسان المتحجر إلى مصاف الأرباب فيقتعد المنصة العالية فوق مستوى الرعية؟

أوصل هذا الإنسان إلى نفوذ سر السيادة فرقص على الحبلين، وتعارج على الساقين، موهما الشرق انه ذو الحول والطول وراء ستائر الغرب، ثم عاد موهما الغرب أنه يقود من بلاده قطعاناً له تخديرها إذا شاء واستنفارها إذا شاء؟

ألهذا الرجل منبسطات السهول ومرتفعات الأنجاد ليستغلها بالسياط تلهب ظهور العاملين فيستقطر من جلودهم نضارة ويقيم على عبوديتهم زعامته. .؟

أعرف أن يستغل نزعات طائفة أو مطامح عنصر أو تعصب فئة فاستنبت زعامته من الضغائن وأنماها من الأحقاد؟

أورث مالاً من جدوده فابتاع من متسولات الضمائر مقاماً يسمع الناس منه روائعه وبدائعه؟

أجهل لغة قومه أم تجاهلها، وأعرض عن تقاليد أجداده أم استنكرها، محاولا اقتباس مظاهر تتمرد سريرته عليها؟ هل أقام المآدب وأحيا المراقص فخاصر واستخصر ليثبت أنه آهل للمدنية وقيادة الشعوب إلى النور أم هو توسل على الأقل بالمتابعة متخذاً منا موقع الذنب؟

بأية فضيلة من فضائلنا تحلى هذا الابن ليرفعه من حوله إلى مقام الأرباب؟

ووجمت الأوثان التي عبدت حتى الأمس القريب متسائلة عما إذا كان العهد الجديد المشرقة أنوار ضحاه ولو بعد حين سيرفع لأمثال هذا المتمرد من الأموات أنصاباً وسينادي بأمثاله من الأحياء أرباباً. إن أنوار الحق تتفجر على كل قطر عربي؛ ففي لبنان كما في مصر والعراق وسوريا وبلدان الجزيرة كلها أبطال يقوضون مقاعد الأصنام في السياسة كما قوضها من قبل في الدين رسل الله وأنبياؤه. وها هي ذي أوثان الأمس تتلمس رؤوسها بسواعدها المرتجفة متراجعة بخطوات من فقد ثقته بنفسه

اغربي أيتها الأوثان أيا كنت ومن أية جهة طلعت رسومك على الآفاق، فما النصب الذي يحييه أحرار الأمة الآن بالصنم الذي يزاحمك في هيكل الوثنية، وقد آن لها أن تضمحل.

ما نصبنا إلا تمثال عزتنا الجريحة وقوميتنا المضللة؛ إن هو إلا الرمز الكامل لآلامنا وجهادنا في المرحلة التي قدر علينا أن نجتازها، ليرد الاختبار سوانا إلى محجة الصواب ولنعرف نحن أن نميز بين طريق سلامتنا ومهاوي انقراضنا.

ليس المقام مقام تأبين وتفجع على من يمثل هذا التمثال فإن صفحات تاريخ الأدب مليئة بكلمات أمراء البيان عمن خشع الغرب لبيانه الشرقي وما حلق فوقه من متقدميه ولا من معاصريه بيان. ولئن كان مأتم فوزي من أروع الأيام وأفجعها على الشرق العربي بأسره فإن يوم فوزي إنما هو اليوم الذي يرتفع فيه تمثال صفحة خالدة طبعت عليها مساوئ فترة الانتقال وفجائع طور التجاريب.

أي أخي فوزي! يا شاعر الأمة المشردة. إنني وأنا أنظر إلى ابتسامتك المرة وإشراق

جبينك المتجهم اسمع صوتاً يقرع الفضاء من أصداء هذا الوادي مردداً قولك:
أنا الغريب فلا أهل ولا وطن ... إذا انتسبت أمام الناس وانتسبوا
ومن يكون غريباً في موطنه ... لا بدع إن أنكرته الأرض والشهب
ويليه، صوت آخر يتردد على ذلك الشاطئ الحزين صداه
قسما بأهلي لم أفارق عن رضى ... أهلي وهم ذخري وركن عمادي
لكن أنفت بأن أعيش بموطني ... عبداً وكنت به من الأسياد
أسمع هذا الإنشاد فيخيل إلي أن صيحات جيل كامل في أمة مروعة فقدت قوميتها فخسرت أوطانها
إن لخطرات الحظ تأثيرها على الأمم كما لها تأثيرها على الفرد؛ وليس للفرد كما ليس للمجموع أن يظفر من سلسلة الوقائع إلى مستقر يستحدثه فجأة لنفسه؛ غير أن هنالك قوة سمها الإرادة الجزئية إن شئت تتمرد على الانقياد لما يضير، فإذا هي تنبهت صمدت بوجه التيار بالمقاومة السلبية حتى يعبر الكاسح فتتمكن من استئناف سيرها نحو وجهتها، وإن هي استسلمت وجبنت فقدت الشعور بذاتها ومشت متطايرة مع العاصف ينثرها هباء على مراكضه. . إن هذه الأمة التي كونت شخصيتها من مبادئ واحدة في الأصل ومن ثقافة انطوت سريرتها عليها منذ أجيال، ومن بيان وعي علوم المتقدمين، وما قصر عن استيعاب علوم المتأخرين لا يستقيم لها أمر ولا يستعاد لها مجد ما لم تتوصل إلى إحياء حضارة تتوافق وما كمن فيها من فطرة وحوافز
لقد مرت بهذه الأمة أدوار من التاريخ قضت على استقلالها وحضارتها فذهبت قطعاناً مبددة تتراكض وراء كل ناعق يجزها ويحز رقابها، ولو أن العناية لم تستبق لنا في كل حقبة
أنموذجا لكياننا ورسماً لما كنا ولما يجب أن يكون لما بقي لنا من صفاتنا الأصلية شيء نستدل به على حقيقتنا
إن سريرة الأمم المبتلاة بالانحطاط المرهقة بالمظالم تنكمش منسحبة من كتل الشعب لتتجلى من حين إلى حين لمعات أنوار في بيان عباقرته المتمردين. وإذا نحن استعرضنا فيلق المجاهدين من أول منبه للفاضلين تحت الأطلال إلى هذا المنتصب بيننا الآن كأروع رمز لشخصية الأمة الكامنة وراء تشردها وتقاطعها، لما رأينا واحداً من هؤلاء المجاهدين ينزع مثل هذه المنازع الضليلة التي يتوغل فيها المشككون الحائرون في هذه الأيام
إذا شئنا أن نتبين حقيقة موقفنا من أنفسنا ومن سوانا، وإذا صعب على البعض منا أن يتميز طريقه إلى قوميته ووطنيته فليتنصت إلى ما تصدوا به أجواء البلدان العربية كلها من أقوال المصلحين الذين عاشوا بآمال أمتهم وماتوا بعللها وأدوائها
أولئك المضطهدون هم أولى بإنارة سرائرنا ممن كانت حياتهم لهم لا للناس، فما شعروا بذل الأمة لأنهم استغلوه، وما أحسوا بأنهم غرباء في أوطانهم لأنهم أنكروا كيانها ومالئوا على حقها
ما يثير النعرات الدينية والإقليمية في هذه البلاد إلا الأنانيون الذين يرون في تبدد الأقوام تجارة رابحة لسعايتهم، أما الأرواح الجبارة التي أشبعت من مبادئ الشرق العليا حرية واستقلالاً ومجداً فأنها تمر بأجنحتها محلقة فوق كل عنصر ثقافته من وحي الشرق، وإلهامه وبيانه من لغة كفلت حياتها قوة لا تطاولها قوة. . .
لقد كان زمن أمكن فيه للأمة أن تبعث جسماً واحداً حين مزقت كفنها وشقت لحدها، ولكنها انتثرت بين أنامل الجامعين وقد عبثت بالرمة أهواء الحياة بعد أن جمعتها روعة الموت، فإذا بالميت الواحد هياكل عظام عديدة تهب من مرقدها منفرطة يتسلق كل منها ذروة لاستقبال أنوار الضحى وأوائل شعاع الشمس
تلك سانحة من الدهر ولت ولن تعود ما لم نستعدها بعشرات الأعوام جهود من يذكرون أن جميع هذه الهياكل القزمة، وقد بدأت تدب فيها الحياة، إنما هي هيكل جبار واحد جرعه سيف واحد وتسجى طوال الأجيال جثة واحدة في قبر واحد
لا يضع للأمة دستورها الحقيقي إلا من مثلوا سريرتها وثقافتها شاملة لروح المذاهب والعناصر كلها؛ وما أدري أن بين عباقرة الشرق العربي أحياء وأمواتا من سجن روحه بين جدران طائفته وحطم جناحي عبقريته في قفص إقليمه منكراً وطن فكرته الواسع الأرجاء. . .

هنالك تحت ظلال الأرز نصب لم يزل يهتف من أعلى ذرى لبنان بقوله:
أنا مسيحي ولي الفخر بذلك، ولكنني أهوى النبي العربي الكريم، وأحب مجد الإسلام وأخشى زواله. إنني اسكن المسيح شطراً من حشاشتي ومحمداً الشطر الآخر
أنا شرقي ولي الفخر بذلك؛ ومهما أقصتني الأيام عن بلادي أظل شرقي الأخلاق، سوري الأميال، لبناني العواطف
ذلك هو نداء جبران! فبماذا تجيبه يا فوزي؟
أفما أنت شاعر الأمة المشردة؟ أفما تمازجت في روحك كل عظمة من وحي أنبياء الشرق جميعهم، ومن إلهام عباقرته وفروسيته أبطاله في كل زمان ومكان؟ . . .
افترضي أن يضرب حولك من لبنان نطاق يوقفك في طريق النهضة وقفة تمثال أودنيس في جبيل وباعال وباخوس بين أعماد بعلبك المحطمة؟ . . .
لا وحقك يا فوزي، ما أنت في تقدير أخيك الذي قاد أوائل خطواتك نحو قمة الخلود، وفي تقدير كل نافذ لروحك ومدرك لعظمتك إلا المثل الأعلى للوطنية الحقه التي عشت من أجلها شريداً ومت من اجلها شهيداً. . .
اليوم لا ترى حولك إلا فئة قليل عديدها تطوف ممجدة فيك الشاعر المبدع الكبير، ولكنك سترى غداً أفواجاً من كل عنصر ومن كل قطر عربي تتوارد إليك لتحي فيك بطلاً من طليعة الفيلق الذي حطم سلاسل الأمة بتحطيم أصنامها والقضاء على أرباب شركها وأوهامها
فليكس فارس
محمد بن جعفر الكتاني
بمناسبة مرور عشر سنوات على وفاته
للأستاذ محمد المنتصر الكتاني
تمهيد
في تاريخ الرجال كثير من الخلاف يكاد يعجز الباحث والمؤرخ عندما يريد التوفيق - وتاريخ رجال المغرب ورجال المشرق في هذا سواء - فبينا أنت تقرأ عن خالد مثلا انه ولد في القرن الثاني إذا بك تجد في تاريخ آخر أنه مات في القرن الرابع، ثم هو نفسه تارة يصوره لك بعض المؤرخين في صورة العابد العالم الثقة الصدوق، وحيناً تقرأ عنه عند غير المؤرخ الأول انه لم يكن بالعالم ولا الثقة وإن هو إلا كذاب مضل. وفي كتب التراجم أمثلة لهذا النوع كثيرة.
ويريد جمع من النقاد معرفة السبب فتعييهم المعرفة ويملهم تعداد الأسباب والاحتمالات فيقفون عندها دون جزم بواحد منها
وعندي أن لذلك أسباباً كثيرة أهمها:
(1) فقدان الثقة في كثير من المترجمين. إذ هؤلاء يكتبون - عمداً - ما توحيه إليهم أغراضهم وإن خالفت ما يعرفون.
(2) جهل بعضهم بحالة المترجم، فهم إذا سئلوا عنه حملهم الاعتداد الكاذب بالنفس أن يجيبوا بصفات لو قدر وعاش المسؤول عنه وسمعها لنفاها وأنكر أن تكون فيه؛ وقد يضطر هذا المجيب لكتابة ما أجاب به فيزيده تنميقاً وتزويراً في جمل مغرية مشوقة يستر بها تضليله وكذبه.
(3) الخصومة المذهبية. فترى المؤرخ في هذه الحالة يهتم اهتماماً مريباً بالبحث عن النقائص، حتى أنه ليجهد نفسه إلى حد الإعياء ليخرج له معايب من قصص وحوادث تافهة لا يؤبه لها عادة. وكنا نحسن الظن في هذا الخصم المذهبي لو اعتنى بالمزايا اعتناءه بالنقائص ولكنه لا يعرج له على مزية ولو كانت كوضح الشمس، وبالعكس الحب المذهبي، فبقدر ما يخفى من مزايا الأول ومحاسن يستر هذا الثاني العيوب والمخازي.
(4) الاستسلام لإحدى عاطفتي الحب والبغض، فذاك صديق المؤرخ أو سلف لصديقه توجب عليه المجاملة والإطراء المتبادل أن يخضع لمقتضيات هذه الصداقة فيحسن القبيح ويقبح الحسن ويعرف المجهول ويجهل المعروف، وبالعكس لو كان المترجم عدواً له أو سلفاً لعدو؛ وقد يكون الحامل على الحب أو البغض غير الصداقة والعداوة
(5) الخوف من ذي نفوذ أو سلطان، فهو إذا تكلم بالحقيقة عذب وأهين فيتحاشا هذه الإهانة وذاك العذاب - إذ لم يكن من الكلام بد - بالتقية متأولا على أنها مذهب لكثير

من طوائف المسلمين إن لم يكن ديناً فتديناً! وقد يستغني عن التأويل. وهذا السبب الخامس لم يكد يخلو منه أحد من مؤرخي المتقدمين والمتأخرين
الجبن الأدبي أو يسمونه بفقدان الشجاعة الأدبية، فهو إذا تكلم خاف ألا يقبل كلامه (6) أو يتهم فيه بغرض، ومن خصائص هذا الجبان الأديب الخوف من النقد لحد الهلع، وإن تحمس يوماً واقتحم هذه الأوهام وكتب شيئاً لا يجرؤ أن يوقعه باسمه الصريح بل يكتفي بالرمز؛ وهذه العلة هي داء كثير من الثقات في هذا العصر لو تغلبوا عليها لأنتجوا وأفادوا
وأزيدك شيئاً وهو أني لا أرى علاجاً لهؤلاء أنفع من وجوب اعتبار الشروط المطلوبة في رواة الحديث من عدالة وضبط ومعرفة في مؤرخي الرجال، فكما أن المحدث لا تقبل روايته إذا فقد منه أحد الشروط الثلاثة فكذلك المترجم لا يلتفت لكلامه إلا إذا عرفت ثقته وعدالته ومعرفته بالرجل الذي يترجم له معرفة يثبت سندها ومصدرها؛ وبهذا فقط تسلم الأعراض من الأغراض وتحفظ الحقوق فلا يوضع رفيع ولا يرفع وضيع لهذه الأسباب التي جعلتها كقواعد جامعة لما لم أذكر من العلل ولغيرها سقطت قيمة كثير من كتب التراجم قديماً وحديثً. وتمتاز الحديثة منها (والحمد لله الذي لا يحمد على شر سواه) بالتفنن في أساليب الطعن والغمز واللمز ببراعة لا يفطن لها الكثير من الناس إلا قارئ عنى بها عناية خاصة أو قارئ أتيحت له معرفة دخائل جامعيها ونواياهم. أضف إلى هذا ما فيها من تراجم قوم لم يعرفوا بين عشيرتهم حتى بالطلب قد أغدقوا عليهم من بحور العلم ما غمرهم ومن جبال السنة ما دك كواهلهم دكا، ومن صفات النبل والكرم ما أصبحوا به ملائكة تعوزهم الأجنحة إلا أن معرفة مرافقيهم بهم قصتها، ومن ضروب الإصلاح والإرشاد ما يشرحه العارفون بلغتهم على النقيض من ظواهر اللفظ والمعنى، وهنا يجمل
المذهب القائل بان لكل لفظ ظهراً وبطناً واحداً ومطلعاً.
وبعد فهذه ترجمة إمام كبير عرفه الناس قبلي وترجموه لكن باختصار وعلى غير هذا الأسلوب، تربطني به صلة هي صلة الوالد بالولد، بل صلة الروح بالجسد؛ ولكي يطمئن قارئي ويهدأ روعه أعاهده عهداً أدين بوفائه ألا أكون أحد أولئك المترجمين الستة؛ وسأحمل نفسي على تناسي هذه الصلة الكريمة زمناً؛ وسأعني بالحق المجرد ولو كان علي أو عليه مقتصراً على ذكر حياته - دون تحليل - في شيء من التفصيل وتاركاً كثرة تلك التعاليق الفضفاضة التي اعتادها الناس اليوم والتي إن دلت على شيء فإنما تدل على نفس المؤرخ أكثر مما تدل على نفسية المؤرخ له، ولا يفرغ إليها غالباً إلا من فقد مادة القول في أحوال من يترجمه وما جرياته. وفي اعتقادي أن ذلك مما يشوه الحقائق التاريخية ويغطيها بحجاب كثيف يعسر على الناقد النزيه تمزيقه ويقصي القارئ عن تفهم الأشياء بعقله لا بعقل سواه غير متأثر ببيئة أو مذهب
وقد رتبت حياته على فصول، فأذكر أولاً أسرته ثم نسبه فنشأته فمشايخه فتلاميذه، معرجاً على وصف خلقه وخلقه ومذهبه ومعارفه وثناء الكبار عليه ومدائح الشعراء فيه وتعلق الملوك به، ثم أرجع فأتحدث عن رحلاته ومؤلفاته وشرح العلماء لها أو ترجمتها أو نقدها واختم الترجمة بحادثة وفاته ورثائه ونقله فذكر مترجميه فأوهام بعضهم فمصادر الترجمة
وقد أخالف هذا الترتيب أو أسهب في فصل وأختصر في آخر مضطراً في الإسهاب والاختصار لما بيدي من ثروة المادة أو فقرها
أسرته
تنحدر أسرة الإمام ابن جعفر من سلالة الفاتح بن الفاتح إدريس بن إدريس المطلبي الهاشمي الحجازي ثم تتشعب بطوناً وأفخاذاً حتى تنحصر في ملك زواوة الكتاني يحيى بن عمران
كانت فاس مقر أسلافه في ظلال ملوك دولتهم الأدريسية التي ملكت مائتي سنة وثلاث سنين سوى شهرين تقريباً وكان عملها بالمغرب من السوس الأقصى إلى مدينة وهران وقاعدة ملكهم مدينة فاس ثم البصرة، وكانوا يكابدون مملكتين عظيمتين ومتغلبين كبيرين هما دولة العبيديين بمصر وأفريقيا ودولة بني أمية في الأندلس، وكانوا ينازعون الخلفاء

إلى درك الخلافة العظمى ويقعدهم ضعف سلطانهم وقلة مالهم بالنسبة إلى هاتين الدولتين
وفي سنة 317 تغلب موسى بن أبي العافية السفاح البربري على جميع بلاد المغرب بعد حروب وفتن طالت وأزمنت بينه وبين الأدارسة انتهت أخيراً بانتصاره والانتقام منهم انتقاماً خسيساً فقتل كثيراً وذبح كثيراً ومن أفلت منهم أجلاهم عن بلادهم وأخرجهم من ديارهم مغلوبين على ملكهم مطرودين عن دار عزهم التي بناها أسلافهم وفروا بأجمعهم إلى قلعة حجر النسر فتبعهم السفاح إليها وشدد عليهم الحصار وحاول استئصالهم والقضاء عليهم لولا تقريع رؤساء المغرب وأكابر دولته له إذ قالوا (أتريد أن تقطع دابر أهل البيت من المغرب وتقتلهم أجمعين؟ هذا شيء لا نوافقك عليه ولا نتركك له) فخاف قولهم (ولا نتركك له) واعتبره تهديداً بالثورة عليه فارتحل عنهم لفاس وخلف عليهم قائده أبا الفتح التسولي في ألف فارس يمنعهم من التصرف
وقد ذكر الإمام المقري في كتابه الكنوز أسماء جماعة من الأدارسة الذين فروا من قلعة حجر لهذا الحصار المخنق الذي تركه عليهم بن أبي العافية، وذكر المواضع التي فروا إليها، فكان من بينهم جد أسرة الإمام الملك يحيى بن عمران. ولفظ المقري: (ثم فر إلى زواوة الكتاني أمير المؤمنين يحيى بن عمران بن عبد الجليل بن يحيى بن يحيى بن محمد بن إدريس)
وما أن وطئ يحيى بن عمران هذا التراب زواوة حتى بايعه أهلها ولقبوه بأمير الناس. يؤخذ هذا من كلام بن جزى في مختصر البيان حيث عرف الكتاني يحي وهو يتكلم عنه بملك زواوة أمير الناس. ومن كلام المقري حيث نعته بأمير المؤمنين بل صرح ببيعة قبائل زواوة ليحيى العلامة الشريف الزكي المدغري قال في درته: خرج هذا الجد - يعني يحيى - من فارس مع أبناء عمه واستقر معهم في حجر النسر ثم انتقل إلى جبل زواوة حوز الجزائر فاراً بنفسه وبويع بذلك الجبل وسمي أمير الناس.
ونقل عنهم هذا جماعة من متأخري المؤرخين
ويدل على وجود هذه الإمارة أو هذه الدولة التي لم أعرف من ملوكها غير يحيى بن عمران ما خلفت من معاهد وآثار في القطر الجزائري لا تزال مائلة إلى اليوم مما لا يكون عادة إلا من أثر الملوك والدول. ومن هذه الآثار مسجد سيدي الكتاني بقسطنطينية، قال
عنه مؤرخ الجزائر الأستاذ احمد توفيق المدني: هو من أجمل وأبدع مساجد القطر الجزائري. ومنها مدرسة سيدي الكتاني التي بجانب المسجد قال عنها المؤرخ المدني: ولا تزال إلى يومنا مدرسة علم. وذكر في النبذة أن لها أوقافاً وناظراً ومدافن لبعض أهل العلم
وبما سقت من النقول والأدلة على إمارة الكتاني يحيى يظهر خطأ العلامة القاضي محمد الطالب ابن الحاج إذ يقول عنه في كتابيه الأشراف ونظم الدر: وكان يعرف بأمير الناس مع كونه لم تتقدم له ولاية إذ لم أقف على من ذكره من الأمراء. وإذا علمت أن حجة القاضي بن الحاج في نفي الإمارة عن يحيى إنما هي عدم وقوفه على من ذكره من الأمراء علمت وهن هذه الحجة بوقوف غيره على من ذكره منهم كابن جزى الكلبي والمقري والشريف المدغري - وكلهم أقدم منه - وغيرهم ممن نقل كلامهم؛ على أن قول القاضي: ولعل ذلك - يعني شهرة يحيى بالكتاني - لظهور الخباء من الكتان أيام إمارة بعض أسلافه ما يشعر باضطرابه في نفي هذه الأمارة إذ المعروف عند كافة من أرخ للعائلة - وهم كثير سيأتي ذكر بعضهم - أن يحيى هذا هو أول من استبدل خيام الصوف والشعر بالكتان أيام إمارته هو لا إمارة بعض أسلافه كما يزعم بن الحاج ويؤكده إجماع المؤرخين - وبن الحاج منهم - على أن يحيى بن عمران أول من لقب بالكتاني لهذا السبب
وفي بحر القرن السادس في دولة السلطان المرشد عبد المؤمن ابن علي الموحدي رحمه الله رجع أسلافه من زواوة إلى المغرب الأقصى واستوطنوا مدينة شالة وقيل بل استوطنوا قبيلة بني الحسن، ووفق الإمام في النبذة بين القولين بأن قبيلة بني الحسن كانت إذ ذاك من عمالة شالة فهي في حكم المحل الواحد. وهو توفيق وجيه، وتسمية الممالك باسم قواعدها استعمال شائع بين كل الناس منذ القدم، ويجوز في النبذة أن يكون الراحل الأول من زواوة هو الشريف محمد بن عبد الله بن هادي بن

أمير الناس الكتاني يحيى وأن يكون ولده الشريف أبا بكر حفيد حفيد الكتاني الأمير وفي سنة 656 أو 654 كما ذكر جماعة من المؤرخين، وقال الشريف الفضيلي سنة 666 أو 664 انتقل أسلاف الأمام رحمه الله من شالة إلى مكناسة الزيتون، وأفاد مؤرخ لا أعرفه! إن المنتقل الأول إلى مكناسة هو الشريف موسى بن أبي بكر بن محمد

واشتهر منهم بهذه المدينة علماء أجلة وفقهاء مهرة وعارفون كبار ترجم لبعضهم مؤرخ

البيت المالك النقيب ابن زيدان في تاريخ مكناس

وفي آخر القرن التاسع كما حقق الإمام رجع من مكناس إلى فاس مدينة الآباء والجدود أول قادم منهم وهو الشريف محمد بن قاسم بن عبد الواحد ونزل بحي عقبة بن صوال وبقيت بها منهم فرقة انقرضت في أواخر القرن الثاني عشر وهم أولاد الشريف أحمد بن علي بن أحمد ولم تزل فاس عشهم إلى الآن سوى أفراد اختاروا السكنى بغيرها من مدن المغرب وأخرين طوح بهم الزمن إلى السنكال وصعيد مصر ودمشق

وكان أسلافه في كل هذه المدن التي حلوا بها كقبائل زواوة وتلمسان وضواحيها وشالة ومكناس الذروة والسنام لشهرتهم بينهم بالدين المتين والتقوى والعلم والفقه والشرف المتواتر

قال ابن خلدون في مقدمة العبر على شرف بني ادريس - وآباء الإمام منهم - إنه قد بلغ من الشهرة والوضوح مبلغاً لا يكاد يلحق ولا يطمع أحد في دركه إذ هو نقل الأمة والجيل من الخلف عن الأمة والجيل من السلف

وقال العلامة القاضي محمد الطالب أبن الحاج في نظم الدر واللآل: واشتهر هنالك - زواوة أولاده - الملك الكتاني يحيى - بصراحة الشرف، وظهروا ظهور النار على الشرف. قال ثم انتقلوا من زواوة إلى بني الحسن من عمالة ومنها لمكناسة الزيتون وكان لهم فيها الصيت الشهير بصراحة النسب وعلو المكانة وعظيم الحظوة عند ملوك بني مرين، ومنها انتقلوا إلى فاس ومن لدن انتقلوا إليها وأهلها يعظمون قدرهم، ويعدون في المحافل فخرهم، ويثبتون تواتر شرفهم ويتنافسون في مصاهرتهم، ويتفاخرون بمجاورتهم ومصاحبتهم

(له بقية)

محمد المنتصر الكتاني

في سبيل الإصلاح

بحث في الوظيفة والموظفين

للأستاذ علي الطنطاوي

الوظيفة في اللغة: ما يقدر للرجل في اليوم من طعام أو رزق أو نحوه؛ والوظيفة العهد والشرط؛ والتوظيف تعيين الوظيفة؛ والمواظفة الموافقة والمؤازرة والوظيفة في العرف عمل يقوم به الرجل للمنفعة العامة، (أي المنفعة المشتركة بين جميع الأفراد الساكنين في المكان القومي) ويأخذ عليه أجره من الخزانة العامة

طبيعة الوظيفة ومنشؤها

البحث في منشأ الوظيفة يقتضي البحث في ظهور الحكومة لأنها مجموع الموظفين، أو بالعبارة الثانية مجموع الأشخاص الذين يقومون بأعمال ضرورية لا تقتصر منفعتها عليهم وحدهم بل تمتد إلى الهيئة الاجتماعية التي يكون لهم عليها حق الطاعة والانقياد وقد أكثر الباحثون من الكلام في منشأ الحكومة وظهر في ذلك كثير من النظريات أشهرها نظرية (العقد الاجتماعي) التي أثارها الفيلسوف الإنكليزي هوبس (1588 - 1679) واشتهر بها من بعد جان جاك روسو، وكان لها أكبر الأثر في الثورة الفرنسية الكبرى؛ غير أنها سقطت الآن، وأصبحت في رأي العلم أسطورة خرافية، واجمع العلماء على اطراحها، لأن هذا العقد لم يوجد أبداً، وهوبس وروسو وان اختلفا في المبدأ - فرأى الأول أن الإنسان مفطور على الشر، وأن الإنسان ذئب الإنسان واعتقد الثاني العكس - وان اختلفا فيها فهما متفقان على أن الإنسانية اجتازت دوراً طبيعياً مطلقاً من كل القيود، قبل أن تدخل في الحياة الاجتماعية وتنشئ الحكومة، وتلك فرضية باطلة. والحقيقة إن الإنسانية لم تعرف هذه الحياة الطبيعية ابداً، وانما عاشت

من البدء حياة اجتماعية ساذجة تتمثل في القبيلة والأسرة والجماعة. وهذا الذي يراه العلماء المحدثون مطابق لما جاء في الكتب السماوية

ولن نفيض في هذا البحث لأنه ليس من غرضنا تحقيق المقال في منشأ الحكومة، ولكن غرضنا عرض مسألة (الوظيفة والموظفين) عرضاً اجتماعياً، وبيان صلتها بالحياة العامة،

لتعالج وينظر فيها في هذا العهد الذي تقف فيه مصر والشام وغيرهما من الأقطار العربية على مفترق الطرق تصفى حساب الماضي تصفية عامة، فتبقى على الصالح وتلقي الفاسد. لذلك ندع الكلام في منشأ الوظيفة، وننظر إليها نظرنا إلى (ضرورة اجتماعية) نشأت من ميل الإنسان الفطري إلى الحياة الاجتماعية. وما ظهر في هذه الحياة من حاجات جديدة ليست حاجة فرد دون فرد، ولكنها حاجة المجموع، استلزم القيام بها انقطاع جماعة من الناس إليها تكفل لهم الناس بالمعيشة وعاهدوهم على الطاعة ليمكنوهم من إنجاز عملهم الذي انقطعوا له، على نحو ما يفعل الذين ينتسبون إلى جمعية أو نادٍ أو شركة، حين ينتخبون جماعة منهم يديرون الشركة أو الجمعية ويجعلون لهم راتباً معيناً ويعطونهم حق اتخاذ القرارات ويتعهدون بطاعتها وتنفيذها؛ غير أن جماعة الموظفين أو الحكام لم تنشأ بعقد كهذا العقد، ولكنها نشأت بالتدريج وبشكل طبيعي. والراجح إنها كانت تستند في أول أمرها إلى القوة والطغيان، وأنها كانت إرادة طرف واحد، هو الطرف القوي (الحكام) اضطر الفريق الثاني (الشعب) إلى قبولها والخضوع لها، لأنه ضعيف ولأنه رأى وجود هذا الحاكم القوي الظالم أخف الضررين وأهون الشرين؛ إذ لولاه لكانت الحالة فوضى وإذن يكون كل قوي حاكماً على كل ضعيف، فيكون بدل الظالم الواحد ألف ظالم

ثم تبدل هؤلاء الحاكمون الأقوياء على مر الأيام حتى استحالوا أخيراً موظفين خاضعين لنوع من الأنظمة والقوانين يختلف رقيها وشدتها باختلاف الممالك والبلدان

أما طبيعة هذه الوظيفة فليس لها شبيه في الحقوق الخاصة

وخير ما يمكن أن يقال فيها أنها تمثيل شخصية الدولة الحقوقية، والتعبير عن إرادتها، وقديماً كان يشبهها فريق من العلماء بالوصاية، ويرون الحكام بمثابة أوصياء على الشعب، ثم اتضح أن الوظيفة لا تشبه الوصاية بشيء، وأنها اقرب إلى الوكالة. فساد الرأي بأن الحكام وكلاء عن الشعب يقومون بأعمالهم بالنيابة عنهم، ويعبرون عن إرادتهم؛ بيد أن هذه الوكالة تحتاج إلى موافقة جميع الأفراد، وهذا غير واقع ولا ممكن.

فما هي طبيعة هذه الوظيفة إذن؟

إنها كما قلنا من طبيعة خاصة لا شبيه لها في الحقوق الخاصة. (وغاية ما يستطاع أن يقال في هذا الشأن هو تشبيه الحكام - كما أشار إلى ذلك الأستاذ - بالمتبرعين بالعمل، أي

بأفراد يقومون بإدارة مصالح الدولة من دون أن يعهد إليهم بها من قبل جميع الأفراد الذين تتألف منهم الجماعة، ولكن هذا التبرع يختلف عن مثيله في الحقوق الخاصة بأنه (لا يحتاج إلى إجازة المتبرع له

وكون الوظيفة ضرورية يبرر هذا الوضع الشاذ للسلطة العامة، أو هيئة الحكام أو الموظفين

حقوق الموظفين وواجباتهم

تبين أن تقسيم الهيئة الاجتماعية إلى طبقة الحكام (أعني الموظفين) والمحكومين (أي الشعب)، وتكليف المحكومين بالعمل والكسب لإعالة الحاكمين ضرورة حيوية، ولما كانت القاعدة في الضرورة أنها تقدر بقدرها. وان لها أحكاماً خاصة. وجب أن يمنح هؤلاء الحكام (أي الموظفين) أقل قسط ممكن من الحقوق، لتخف أحمال الشعب، وتقل أتعابه، ويحملوا أكبر مقدار من الوجائب، ليتحقق على أيديهم أكبر قسط ممكن من الخدمة العامة

أما أن يكون على الموظفين وجائب فأمر أساسي اقتضته طبيعة الوظيفة؛ أما أن يكون لهم حقوق، فأمر ناشئ عن تلك الوجائب، يستحيل قيامهم بها دون الحصول على هذه الحقوق.

وأول الوجائب في الوظيفة أن تكون الغاية من إحداثها تحقيق منفعة عامة ضرورية لا يستغني عنها ولا يمكن تحقيقها إلا بإحداث هذه الوظيفة، وبغير هذا الشرط لا تكون

الوظيفة مشروعة، بل تكون شكلاً من أشكال الاستبداد كما لو أحدثت لمنفعة شخص أو لإرضائه، أو لتأمين مصلحة خاصة لحزب من الأحزاب، أو جمعية من الجمعيات السياسية

وثانيها أن يختار من الأشخاص أقدرهم على تأمين هذه المنفعة وأن يراعى في اختياره الكفاية الشخصية والمواهب الذاتية، لا الأسرة ولا اللون الحزبي ولا الشفاعات.

ولهم بعد ذلك حق الطاعة على الرعية من غير أن تحتاج عقودهم وأعمالهم ومقرراتهم إلى المصادقة الفردية من جميع المحكومين أو تحتاج إلى حكم قضائي. يؤيد ذلك اعتبار الحكام (الموظفين) منتخبين من قبل الشعب، وحائزين لثقته، وأنهم (لما هم عليه من الصفات والمزايا) اقل خطأ من سائر الأفراد، وأنه لو أعطي الأفراد حق الاعتراض على كل العقود العامة وإقامة الدعاوى دائماً لأدى ذلك إلى الفوضى وعرقلة سير القضايا العامة وضياع المصلحة التي من أجلها أوجدت الحكومة

وبديهي أن حق الطاعة لا يكون للحكام إلا إذا اتبعوا الدستور وساروا على القوانين والعادات المرعية

ومن حق الموظفين الذين انقطعوا عن الكسب لأنفسهم وعن تأمين مصالحهم الخاصة أن تؤمن هذه المصالح من قبل الدولة وأن يمنحوا بعض الامتيازات، ويتمتعوا ببعض الحصانات.

أي أن للموظف قبل كل شيء أن يأخذ راتباً من خزانة الدولة ولكن كيف يقدر هذا الراتب؟ وما هو الأسلوب الصحيح لتعيين مقداره المشروع؟

جاء في البخاري عن عائشة: (أن أبا بكر رضي الله عنه لما استخلف قال: لقد علم قومي أن حرفتي لم تكن تعجز عن مئونة أهلي وشغلت بأمر المسلمين فسيأكل آل أبي بكر من هذا المال)

وكان الذي فرضوا له برديه إذا أخلقهما وضعهما واخذ مثلهما، وظهره (دابته) إذا سافر، ونفقته على اهله، كما كان ينفق قبل أن يستخلف؛ فرضي بذلك

وهذا الأسلوب طبيعي ومقبول، ولكنه شخصي لا يصح اتخاذه قاعدة عامة، لأنه يؤدي إلى الفوضى، ولا يجعل للرواتب أسلوباً معروفاً، ولا أصلاً ثابتاً، ثم إن فيه حيفاً على الموظفين المقتصدين الذين كانوا يعيشون قبل الوظيفة عيشة ضيقة أو النابغين المفلسين الذين لا يجدون قبل الوظيفة ما ينفقون، كما أن فيه منفعة للمسرفين وتشجيعاً لهم على إسرافهم. وقد يرد هذا الاعتراض الأخير بان الموظف لا يعطي إلا ما فيه تأمين حاجاته الضرورية، غير أن في ذلك ظلماً للموظف ظاهراً

فما هي القاعدة المقبولة إذن في هذه الرواتب؟ . . .

هي أن يعطي الموظف اقل بقليل مما يستطيع أن يحصله من العمل الحر، أو ما يحصله رجل مكافئ له في المواهب والسجايا والكفاءة من عمل مشابه لعمله؛ وهذا تقدير معقول دائم الاعتبار يختلف باختلاف البلدان والشعوب، وغناها وفقرها، ورقيها وانحطاطها، وكون ما يعطاه الموظف أقل بقليل مما يستطيع تحصيله في العمل الحر، ناشئ عن فكرة الدوام في الوظيفة بالنسبة للعمل الحر والراحة والاطمئنان فيها؛ فالتاجر لا يضمن لنفسه مقداراً من الربح كل شهر، كما تضمن الدولة للموظف راتبه، والتاجر مهدد بالإفلاس

والضياع، وليس على الموظف شيء من ذلك. ثم إن الدولة توفر للموظف من راتبه قسطاً كبيراً يكفيه ويغنيه أيام مرضه وتقاعده عن العمل، والتاجر موكول إلى نفسه وللرواتب ضابط آخر هو ألا تزيد نسبتها في الميزانية العامة عن الخمس (عشرين في المائة) وهذا طبيعي لأن الغاية من الحكومة ضمان المنفعة العامة، وهؤلاء الموظفون وسيلة إلى هذه الغاية. أفيعقل أن تكون الوسيلة غاية؟ أيعقل أن يأخذ الأعضاء الإداريون في الشركة نصف الأرباح؟ كذلك لا يعقل أن يأخذ الموظفون نصف موازنة الدولة رواتب لهم

وقبل أن ندع الحديث عن وجائب الموظفين وحقوقهم نعرض هذه المسالة: هل الموظفون عمال يقومون بعمل بعينه ثم إذا وفوه كانوا أحراراً في أوقاتهم وأعمالهم، أم هم مقيدون خارج الوظيفة ببعض القيود؟ وبالعبارة الثانية: ما هي علاقة الأخلاق والسلوك بالوظيفة؟ لا أعني التفكير والاتجاه السياسي أو العمل الأدبي، فإنه لا خلاف في أن للموظف أن يفكر كما يشاء أو يعمل أي عمل علمي أو أدبي أراد، ويأتي كل ما

يجيزه القانون لغيره من الأعمال العامة ولكن أعنى السلوك الشخصي، واكثر الناس على التفريق بين الأخلاق الاجتماعية، كالصدق والأمانة والأخلاق الشخصية كالعفاف فلا يرون ما يمنع الموظف إذا كان أميناً على أموال الدولة، قائماً بما أسندت إليه من عمل أن يسلك سبيل اللهو، وينتهز اللذات، ويلبي صوت نفسه وجسمه، ولا يرون ذلك قادحاً، ولا يجدون له صلة بالوظيفة

وهذا الرأي باطل كل البطلان، لا سيما في بلاد كبلادنا لا يزال الناس ينظرون فيها إلى الموظف (والموظف الكبير على التخصيص) نظرة إجلال وإكبار، ويتخذونه قدوة ويسلكون مسلكه، وقديماً قيل: الناس على دين ملوكهم، فإذا فسد الموظفون فسدت الأخلاق العامة، ثم إن من الوظائف ماله علاقة ماسة بالأخلاق وما ينبغي في صاحبه الكمال حتى يكون في نظر الناس سالماً من الشوائب منزها عن المعايب كوظائف المعارف (التعليم) والعدلية (القضاء)، جاء في الحديث: إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم. فما ظنك بمدرس يقوم في النهار واعظاً معلماً، يوفى التبجيل، يكاد يكون رسولا. . . فإذا كان الليل اجتمع هو وتلميذه في الحانة أو الماخور، أو اجتمع معه على الباطل. . . وما ظنك بمفتش يدخل الصف على المدرس، ممثلا القانون والأمة والدين، يراقب ويسجل ويكون لقراره صفة التقديس فلا يرد ولا يكذب، وتكون مقدرات المدرس معلقة به، ما ظنك بهذا المفتش

إذا ذهب في المساء يؤم الحانات أو يطرق أبواب المعلمات. . . أو يأتي المنكرات؟

وقل مثل ذلك في القاضي، بل ربما كان احتياج القاضي إلى الكمال، في كل أحواله، وفي كافة أموره، أشد من احتياج المعلم، لأنه يجلس مجلس الأنبياء، ويقوم مقام رسول الله (ص)، لذلك عنيت القوانين الشرعية، بأخلاق القاضي فلم تكتف بالعلم، وإنما اشترطت فيه بعض الشروط الأخلاقية، فأوجبت فيه أن يكون حكيما فهيما مستقيما أميناً مكيناً متيناً (محلة - مادة: 1792) وقيدته ببعض القيود فألزمته اجتناب الأفعال والحركات التي تزيل المهابة (مادة: 1795) ومنعته من قبول هدية الخصمين أبداً (1796) ومن الذهاب إلى ضيافة كل من الخصمين قطعاً (1797) الخ

فيا حبذا لو عمل بهذه الأحكام، ووضع مثلها للمدرسين ورجال المعارف خاصة، وللموظفين عامة

وقد يعترض معترض بان هذه قيود لا يجوز أن يقيد بها الموظف، بل يجب أن يتمتع بحريته كما يتمتع بها كافة الناس، والجواب أنها قيود حقيقة، ولكنها ضرورية لتأمين الغاية من وجود الموظفين، وهي المنفعة العامة، فإذا كانت هذه القيود شاملة الموظفين، وإذا دخلوا في الوظيفة على معرفة بها، لم تعد قيوداً اضطرارية وإنما تكون بمثابة شرط اختياري، ثم إن في امتيازات الموظفين وحقوقهم التي يمتازون بها من سواد الشعب ما يبرر تقييدهم ببعض القيود اللازمة

تعيين الموظفين

درسنا الوظيفة على أنها ضرورة حيوية، الدافع إليها والغاية منها المنفعة العامة، وأبنا أن الواجب في اختيار الموظفين، ملاحظة قدرتهم على تحقيق هذه الغاية وكفاءتهم للقيام بها، وهذا هو الحق الذي يقضي به العقل والنقل، جاء في الحديث عن ابن عباس: من استعمل رجلا من عصابة وفيهم من هو أرضى لله منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين

وفي الحديث عن يزيد بن أبي سفيان قال: قال لي أبو بكر الصديق حين بعثني إلى الشام: يا يزيد إن لك قرابة عسيت أن تؤثرهم بالإمارة، وذلك أكثر ما أخاف عليك بعدما قال رسول الله (ص): من ولي من أمر المسلمين شيئاً فاستعمل عليهم أحداً محاباة فعليه لعنة الله لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً حتى يدخله جهنم.

وكان الشأن في المسلمين الأولين أنهم يفرون من الولاية ويخشونها، ولا سيما القضاء فربما عرض عليهم فأبوا، فنالهم أذى فصبروا واحتسبوا ولم يقبلوا. وحديث الأئمة في هذا الباب أبي حنيفة ومالك وغيرهما مشهور معروف، والأحاديث في التنفير من طلب الوظيفة كثيرة جداً حتى عقد لها الحافظ عبد العظيم في (الترغيب والترهيب) باباً مستقلاً. جاء في الحديث الصحيح (الذي رواه الشيخان البخاري ومسلم) عن عبد الرحمن بن سمرة: يا عبد الرحمن لا تسال الإمارة، فانك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها، وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها

وروى أبو داود الترمذي عن أنس عن النبي (ص) أنه قال: من ابتغى القضاء وسأل فيه شفعاء وكل إلى نفسه ومن أكره عليه أنزل الله عليه ملكا يسدده
وروى مسلم وأبو داود عن أبي ذر قال: قلت يا رسول الله ألا تستعملني؟ فضرب بيده على منكبي، ثم قال: يا أبا ذر: إنك ضعيف وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها
وكان النبي (ص) لا يولي أحداً حرص على الولاية أو سألها. جاء في الحديث (الذي رواه البخاري ومسلم وأبو داود) عن أبي موسى. قال: دخلت على النبي (ص) أنا ورجلان من بني عمي، فقال أحدهما: يا رسول الله، أمرنا على بعض ما ولاك الله تعالى. وقال الآخر مثل ذلك. فقال: إنا والله لا نولي هذا العمل أحداً سأله أو أحداً حرص عليه
هذا هو الأصل في تعيين الموظفين، يختار الأصلح للعمل، الأقدر عليه وهو مقيم في بيته، ويحتال عليه بالإقناع وبالتهديد حتى يقبل مكرهاً، فانتهى الأمر عندنا إلى ما يعلمه الناس كلهم، وأصبحت تعرض المائة من الموظفين فلا تكاد تجد اثنين من أهل الكفاءات، وإنما تجد من أدخلته الوظيفة شفاعة شفيع، أو جاه وسيط؛ وخير شفيع اليوم (شفيع النواب) وخير وسيط (الأصفر الرنان) أو غير ذلك مما يعلم ولا يقال، وما في قلب كل قارئ منه غصة، وما يحفظ منه كل قارئ حوادث وأخباراً. . .
الموظفون في بلادنا
. . .وما دمنا في الحديث عن بلادنا. وما دامت غايتنا الإصلاح فلنصور الداء كله
قدمنا الكلام في أن الوظيفة ضرورة تقدر بقدرها وان عدد الموظفين يجب أن يكون معلقاً
بالمنفعة العامة، فلا يقل عن العدد اللازم، كيلا يحمل الموظفون ما لا طاقة لهم بحمله فتتعطل المصلحة، ويقف دولاب العمل، ولا يزيد حتى يرهق الشعب، وأن نسبة الرواتب يجب ألا تتجاوز خمس الموازنة وان ينفق الباقي على المصلحة ذاتها كما ينفق جل أرباح الشركة على المنفعة العامة للأعضاء كلهم، لا على منفعة مجلس إدارتها القائم عليها
على حين أننا نرى في بعض هذه البلدان العربية بلداً يأخذ
موظفوه خمسة أسباع الموازنة (57) وينفق سبعان فقط (27)
على المصلحة ذاتها. . . أليس معنى هذا أن الشعب كله
أصبح خادما لهذه الفئة، بدل أن تكون هي خادمة له؟ وان
غاية الوظيفة حياة الموظفين وسعادتهم لا المنفعة العامة الضرورية؟
وقدمنا بان حد الراتب أن يكون أقل بقليل مما يحصله الموظف في العمل الحر على حين أن الراتب عندنا يزيد أضعافاً مضاعفة على ما يحصل من العمل الحر. بل لا نسبة بينهما مطلقاً وقد نشأ عن ذلك أن كان عندنا طبقتان طبقة مترفة سعيدة هي طبقة الموظفين، وهي الأقل عدداً، وطبقة مرهقة متألمة شقية هي طبقة جمهور الشعب. وإني لأقول (عن استقراء وبحث) إنه ليس في المائة ممن أعرف من الموظفين اثنان أو ثلاثة يستطيعون إذا أخرجوا من وظائفهم، تحصيل نصف الراتب أو ربعه من العمل الحر، ذلك أن علو الوظائف وكثرة الراتب لم تكن قائمة على الكفاءة، بل مر وقت كانت تقاس فيه كفاءة الموظفين بمقدار اتصالهم بالأجنبي المسيطر وتزلفهم إليه. فنشأ عن هذا أن اتسعت الهوة بين الشعب والحكام (أي الموظفين). وحمل لهم الشعب في نفسه اشد البغضاء، وأمر النقمة، حين رأى المئات من المكلفين لا يقوم ما يدفعونه كلهم من الضرائب ينتزع انتزاعاً من أفواه عيالهم وأعناق بناتهم - لا يقوم براتب موظف واحد كبير. وحين رأوا في القانون خروقاً كثيرة يسقط منها المال على الموظفين الكبار، فيأخذونه بلا ورع ولا حياء من أجور سفر إلى تعويضات إلى غير ذلك مما أضرب عليه مثالا واحداً شاهدته بعيني في إحدى البلدان
العربية: جاء مفتش اللغة الإنكليزية من داره التي لا تبعد عن المدرسة اكثر من خمسمائة متر ماشياً على رجليه، فلبث في المدرسة نحواً من نصف ساعة، ثم ذهب لشأنه فعلمت علم اليقين أنه قدم إلى الوزارة القائمة الآتية (مصروفات تفتيش):
فرش صاغ

أجرة سيارة (من أقصى المدينة إلى المدرسة) 40
ثمن أوراق وأقلام للتفتيش 10
ثمن غداء ومصروفات متفرقة 30
المجموع 80
فاخذ ثمانين قرشاً (وهي اليوم اكثر من مائة فرنك) ولم ينفق منها فلساً واحداً
الوظيفة في بلادنا قد خرجت عن الأصل الذي قررناه في أول هذه المقالة، فلم تعد ضرورة حيوية ولم تعد غايتها المصلحة العامة، بل أصبحت باباً للكسب وطريقاً إلى المعيشة وأصبحت قبلة الناشئين وهدفهم، لا تخلو وظيفة إلا أقدم عليها المئات من الشباب المتعلمين ولو كانت وظيفة عامل بريد أو كاتب ديوان ولو كانوا ليسانسيين ودكاترة، وتوصلوا إلى رضا الرؤساء (وأكثرهم من بقايا العهد البائد) بشتى الوسائل الباطلة والطرق الدنسة الملتوية، ثم إذا فاز منهم من فاز ثابر على إطاعتهم لأن بقاءه معلق بهم ورقيه موقوف على رأيهم؛ وإذا كان هذا الفائز في الوظيفة شريفاً، أو كان على بقية من المبادئ التي تلقاها في المدرسة، واحب أن يعيش في الوظيفة بإخلاص وشرف واستقامة، ذاق الأمرين واصلاه الرؤساء حرباً حامية، حتى يخرج أو يخرج غير مودع ولا مأسوف عليه
ضاع الشرف واضمحلت الأخلاق ومات النبوغ فكم من نابغ موهوب وعبقري نادر دفن نبوغه وعبقريته في وظيفة خاملة. الوظيفة في بلادنا خصيمة النبوغ. هذا الرافعي الذي لم ينشأ في العربية في كل عصورها كاتب أبلغ منه عاش ومات كاتباً في محكمة صغيرة، وهؤلاء الجاهلون في أرفع وظائف المعارف، والظالمون في أعلى درجات القضاء. . .
إن مسألة الوظيفة عقبة من أشد العقبات في طريق هذه الشعوب العربية الناهضة، فيجب أن ينظر إليها ويبحث فيها، ويوليها الكتاب والمفكرون وأولوا الأمر والحكام الوطنيون أكبر العناية، ويحلونها من الاهتمام في أرفع مقام

علي الطنطاوي

من وحي الشجرة الضالة

على طريقة الشعر المنثور

للأستاذ خليل هنداوي

- 1 -

أتدرين لماذا أحبك أيتها الشجرة القديمة
التي اشتركت جذورها مع جذور الزمان. . .
لا احبك لأنك قوية عالية المناكب غليظة الجذع، ولا أحبك لكهولتك التي لا تزال تتدفق بالحياة كالشباب، ولا أحبك لأنك رمز القدم. . .
احبك لأمر واحد وأحب معه كل قديم من أجله. . .
لأن في القديم شيئاً من حيواتي الغابرة التي لا أعيها
وربما كان لي عين إلى أعماقك!
وربما كان لي ثغر في عروقك. . .
وربما رأيت الحياة بك مرات كثيرة. . .
إنك أقدر على تفسير اللاشعور في نفسي من نفسي. . .

- 2 -

ما أضل أولئك الذين يظنون انهم استطاعوا أن يقولوا:
(قد وجدنا ما أضعنا)
أيستطيعون أن يتمثلوا ما أضاعوا حتى يجدوه؟
لو كان الشيء الذي أضعته واحداً لقلت:
ما أهون الأمر!
ولكني أضيع كل يوم شيئاً ولا أجد هذا الشيء. . .
وشقائي أنني كلما ذهبت أفتش عن هذا الضائع، أضعت معه شيئاً آخر كان معي!
فحياتي أشياء ضائعة، وسعي ضائع وراءها.
فأين تريدون أن أجد أجزاء نفسي التي تناثرت مني على طريق العمر؟

وبينا كنت أحمل هذه الأجزاء كعوامل لسعادتي وحياتي أمسيت أحملها ذكريات ثقيلة
هل بإمكاني أن أطرح هذه الذكريات عني كما تطرحين أيتها الشجرة هذه الأوراق البالية عنك كل خريف؟
أتعاودك ذكرى الأوراق المتساقطة بعد أن يكسوك الربيع سواها؟
فإذا لم تعاودك ذكرى الورقة الأولى فلماذا تعودين إلى إبداع الورقة الجديدة - كل ربيع - على مثال الورقة الأولى؟
أليست الورقة الأولى هي مصدر إلهامك ومدار حياتك؟ وحقك! أينما رأيت أوراقك قلت: هذه الورقة الأولى!
دعيني إذاً أفتش في هذه المسارب قبل أن تغمض عيناي. . .
لأقول: هنا سحبت قدميها مرة، ففي هذا المكان جزء منها فلأحاول أن أوقظ هذا الجزء. . .
وأقول: هنا جلسنا ذات يوم وضحكت لنا الحياة. فلأحاول أن أستعيد هذه الضحكة من الآن من التي طوتها
وأقول: هنا تركت بقية منها لم تعد تحملها نفسها ولا يجدها أحد سواي. فلأجرب أن أستنقذ هذه البقية من النسيان!
وأقول: هنا يعبق الجو بأشذاء وعطور من جسدها يوم كان يتفتح للمياه كالزهرة، فلأجرب أن أغمر روحي بهذه الأشذاء وهذه العطور.
وهنا يطفح المكان بألوان محاسنها التي تحولت. . . فلأعمل على إحياء هذه الألوان الباهتة.
وهنا أمس أشياء كثيرة! أحسها ولكني لا أقدر أن أمسكها لأنها أفلتت مني كما أفلتت منها. . .
دعيني إذاً أفتش عن أجزاء نفسي في كل مكان، قبل أن يطو يني الزمان.
- 3 -
أيها الزائر لحدي - هنا - لا تكثر التأمل في الأرض حيث ذرات جسدي تقيم لأنك لن تجدني هناك. . .
ولكن تأمل في الشجرة التي تغمرني ظلالها وتحنو علي أغصانها وتشدو لي أطيارها
إنك تجدني فيها على كل ورقة تتحرك، وفي عصارة كل عود يرتجف، وتسمع همسي في كل خشخشة منها!
أنا ميت في الأرض، وحي في الشجرة.
خليل هنداوي
-
الفلسفة الشرقية
بحوث تحليلية
بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين
- 23 -
الفلسفة الصينية
أخلاق العصر الأول أو الفلسفة العملية
أشرنا في الفصل السابق إلى أن فلسفة الخاصة لم تتأثر ألبته بأفكار العامة ولم تحمل أي طابع من طوابع العقلية الشعبية ونجزم هنا بأن عكس ذلك هو الذي وقع أي أن العامة هي التي تأثرت بفلسفة الخاصة، ولكنه تأثر أخلاقي فحسب، وإنما نقول فحسب، لأن فلسفة الخاصة النظرية ليس لها على عقيدة العامة إلا آثار طفيفة لا تكاد تذكر، فبينما نرى فلسفة الخاصة تعجز عن رفع الجماهير إلى الإيمان بـ (شابخ - تي) وهو السلطان الأعلى نشاهد فلسفتها العملية تسود الشعب كله خاصة وعامة، بل وتلون عقيدة الجمهور بذلك اللون الأخلاقي الراقي
نحن نعلم أن الصينيين كانوا يرون أن السماء كائن متحرك تبعاً لقانون منظم، وهذا القانون يربط القوى الثلاث: السماء والأرض والإنسان ربطاً محكماً، وإن كان لكل واحدة من هذه القوى في الظاهر طريق خاص أو غاية مقصود تحقيقها. فغاية السماء تسمى: (تيان تاو). وغاية الأرض تسمى: (توتاو). وغاية الإنسان تسمى: (جين تاو) إلا

أن هذه الغايات ليست في الحقيقة إلا غاية واحدة، وهي غاية العالم أو قانون الطبيعة أو واجب الموجودات
لهذا الارتباط المحكم بين تلك الغايات الثلاث أثره العميق في كل شيء، إذ لا يكاد اضطراب بسيط يحدث في أحدها حتى يتردد صداه في جميع جزئيات الآخرين، فمثلا إذا حاد الإنسان عن الطريق السوي، فاقترف جريمة من الجرائم حدث في الحال اضطراب في السماء والأرض، وليس الكسوف والخسوف والزلازل وظهور الكواكب ذوات الأذناب
والجدب والأوبئة ليس كل ذلك إلا نتائج جرائم الإنسان وحيدته عن الطريق المستقيم، فإذا ما حدث في السماء هذا الاضطراب الناشئ من سلوك الإنسان وأعقبه اضطراب الأرض عاد الأثر من جديد إلى السماء فتضاعف اضطرابها. ولهذا تقول (أونج فان) أو القاعدة العظمى، وهي أقدم مستند فلسفي صيني: إن سلوك احترام من يستحق الاحترام يجلب الغيث في الوقت المراد والتبصر يجلب الحرارة في الوقت المراد والتمرن على التأمل يجلب البرودة في الوقت المراد، وحكمة الملك تجلب الهواء في الوقت المراد. ولكن الفظاظة تديم المطر من غير انقطاع، والكسل يديم الحرارة من غير انقطاع، والتهوس يجلب البرد من غير انقطاع، واحتقار ما يستحق الاحترام يجلب الجدب، والحماقة تجلب العاصفة)
وإذا رأينا أن الصين يربطون المظاهر الطبيعية بالفضائل والأخلاق إلى هذا الحد، استطعنا أن نجزم بأن الواجب هو الذي كان له القيادة العليا في هذا الشعب، وبأن كل فرد كان يحاول بقدر طاقته أن يكون فاضلا حتى لا يكون مجلبة للوباء أو للجدب فتشقى بسببه الأمة جمعاء، ولكن الفضيلة عندهم لم تكن تتحقق بعمل أو ببضعة أعمال خيرية وإنما هي كمال الخلق وتحقيق الاستنارة التامة للنفس، واتباع الصراط السوي في كل شيء، ذلك الصراط الذي هو موجود بالفطرة لدى كل روح بشرية والذي هو برهان احترام النفس الإنسانية وارتباطها بالسماء. وأكثر من ذلك أن المستصينين الذين اشتغلوا باللغة الصينية عثروا في دراساتهم على أن كلمة: (تاو) التي هي الطريق المستقيم أو الغاية المثلى لكل الكائنات أو تحقيق الواجب تدل أيضاً على نصيب الإنسان الممنوح له من السماء، وهذا برهان آخر على ارتباط الفضيلة والواجب بحظ الإنسان في الحياة عند هؤلاء القوم.
وعند الصينيين أن الإنسان خير بفطرته، لأنه جزء الطبيعة والطبيعة هي الإله، ولكن الإنسان ليس مجبراً على اتباع طبيعتها الخيرة دائماً مثل النبات أو الحيوان، وإنما هو كائن مفكر له كسب واختيار قد يبعدانه أحياناً عن الصراط السوي الذي هو صوت السماء أو صوت الطبيعة. أما الخير الموجود في نفسه، فليس كامل التكوين، وإنما هو موجود على هيئة استعداد فقط وعليه هو أن يحققه حتى تصبح الفضيلة طبيعة عملية له.
وهنا أحسب أني لست في حاجة إلى التنبيه إلى أن الصينيين قد سبقوا الرواقيين إلى هذه
النظرية بعدة قرون حيث قرر هؤلاء الأخيرون أن الإنسان هو جزء الطبيعة التي هي الاله، وأنه خير بفطرته، وأن الشر لا يقع منه إلا إذا حاد عن طبيعته، وأن هذه الحيدة لا تأتيه إلا من التفكير وحرية الاختيار.
وعلى ذكر حظ الإنسان الذي تمنحه إياه السماء ينبغي لنا أن نشير هنا إلى أن القدر كان عند الصينيين على نوعين: الأول هو الأقدار الناشئة عن أفعال الإنسان نفسه، وهذا النوع لا يمكن تعديله أو التغيير فيه. والنوع الثاني هو الحظ الذي تبدأ السماء بتوزيعه على الإنسان، وهذا يمكن تلطيفه أو تحويل شره إلى خير كما ينص على ذلك كتاب (شو - كينج)
رفع الصينيون إلههم إلى أسمى آواج الكمال الخلقي فنزهوه عن الظلم وعن الاستثناء (المحسوبية) فمن المستحيل مثلاً أن ينزل بالبشر الآلام والازدراء اتباعاً لهواه، أو أن يطرد من رحمته إنساناً لم يجرم، أو أن يعفو عن آثم لم يقلع عن إثمه كما كان يفعل آلهة البابليين والعبرانيين؛ وإنما هو إله فاضل يمنح النعمة والسعادة للأخيار، ويقسو إلي أقصى حدود القسوة على المجرمين والشرار. وفي هذا يقول كتاب (شو - كينج) ما نصه. (إن الفضيلة وحدها هي التي تؤثر في السماء، وإنه لا يوجد أمام الفضيلة ألبته

شيء بعيد بحيث تعجز عن اللحوق به، وإن المتكبر منخفض، والمتواضع مرتفع؛ فإذا لاحظت ذلك، فإنك ستسير على صراط السماء. . .)

من الفضائل الهامة التي نصت عليها الأخلاق الصينية الرحمة التي تجب للصغير على الكبير، وللضعيف على القوي، وللفقير على الغني. ويحدثنا أحد العلماء بأن الآية الموجودة في الإنجيل في هذا الصدد موجودة بنصها في اقدم الكتب الصينية وهي: (إنما السعداء هم الرحماء) راجع الإنجيل وكتابي (شو - كينج) و (إي - كينج)

ومما لا شك فيه هو أن الفلسفة العملية الصينية لم تكف لحظة عن مهاجمة العنف وعن الأمر بالرحمة في المعاملات، بل وعن إفهام الأقوياء والأغنياء أن الضعفاء والفقراء خير منهم؛ وأن هذه الخيرية سر غامض كامن وراء هذه المظاهر السطحية الخداعة من غنى وقوة وجاه. ومن هذا ما يقوله كتاب (إي - كينج): (إن الهواء الذي يصفر في السماء إنما هو تصوير لقوة الرجل الذي يظهر صغيرا، وإن الرجل الذي يمشي فوق ذيل النمر دون

أن يعضه هو الذي سينجح، وإن التواضع يخلق النجاح، وإن الحكيم المتواضع يستطيع (أن يجتاز البحر الأعظم

ويعلق أحد الباحثين على هذا بقوله: ولكننا يجب علينا ألا نفهم أن الرحمة التي تدعو إليها الديانة الصينية هي الرحمة التي تجر إلى الضعف، وإنما هي الثبات في وداعة والصلابة في تحقيق الواجب. وعلى الجملة هي المقياس المضبوط في كل شيء أو هي الاعتدال أو التوسط في كل شيء، وهذا التوسط كانوا يسمونه: (تشونج) أي الفضيلة في ذاتها، وفيها يقول (إي - كينج): (إن احتمال فظاظة الأفظاظ في وداعة، واختراق الأنهار في ثبات وشجاعة، وعدم إهمال البعيد، وعدم الانشغال بالغير، كل هذا مجتمعاً هو الذي يحقق السير في طريق الاعتدال الوسط)

وهناك نص يعد من أقدم نصوص كتاب (شو - كينج) يقول: (إن الفضائل التي تصير الإنسان غاية في الكمال: هي الممنونية مع الجد، والتخلي مع الثبات، والحشمة مع البساطة، والحزم في السلطان مع الحكمة، وسهولة الانقياد مع القوة، والصلابة في الاستقامة مع الوداعة، والرحمة مع التمييز، والشدة مع الإخلاص، والشجاعة مع العدالة. فإذا اتبع رعاياك هذه المحامد، فإنهم سيكونون مستقيمين في الطريق السوي)

من خلال هذا كله نلمح في سهولة أن الأخلاق الصينية قد أقيمت منذ أقدم عصورها على أساسين جوهريين: الأول المثالية العليا والثاني سعادة المجتمع. ويعلق العالم (زانكير) على هذا بقوله: ولقد فهم بعض الباحثين أن الأخلاق الصينية نفعية جافة فظة. وفي الواقع أن النظرة السطحية المتسرعة في فلسفة الصينيين لابد أن تنتج هذه النتيجة، إذ لا يكاد الباحث يتصفح كتبهم حتى يلتقي فيها بقاعدة (الفضيلة طريق السعادة) أو (السعادة غاية الفضيلة) فإذا كان الباحث من أولئك الذين لا يكلفون أنفسهم التعمق جزم بنفعية هذه الأخلاق، بل بأنانيتها ولكن نظرة فاحصة، وتأملة دقيقة، تظهران أن السعادة المقصودة ليست هي سعادة الفرد، وإنما هي سعادة المجتمع، وليس ذلك النجاح الموعود به لمكافأة الفضيلة هو نجاح الشخص، وإنما هو النجاح في تحسين أحوال البيئة العمرانية التي يقيم فيها الفضلاء. وفي الحق أن الثرة عند الصينيين من أقبح الرذائل، وان الغيرية أو الإيثار في رأيهم ن أجل الفضائل، وأن الفضيلة بوجه عام تنحصر في الخضوع الحر الذي يصدر من الفرد نحو مجتمعه صدوراً إدارياً، لأن ذلك المجتمع الممثل في أوامره الحية إنما هو عندهم صور أمينة للأوامر السماوية. وهكذا نرى أن القانون والحرية هما الدعامتان الجوهريتان للخلاق الصينية، وفوق ذلك فهما تذكراننا بعبارة (كانت) القيمة، وهي: (إن السماء التي تسطع نجومها فوق رأسي هي عين القانون الأخلاقي الذي في داخل نفسي)

نظام الأسرة

كان لرب الأسرة في الصين كما كان في روما حق الحياة والموت على جميع أفرادها بدون استثناء ودون أي تذمر أو اعتراض، ولكن بقدر ما كان أرباب الأسر في روما قاسي القلوب متحجري الأكباد لا يبالون بتضحية فرد أو عدة أفراد في سبيل هوى من الأهواء أو شهوة من الشهوات. كان رؤساء الأسر في الصين على العكس من ذلك تماماً تفيض الرحمة من قلوبهم، وينبع الحنان من بين جوانحهم، ولا يسلكون مع جميع

أفراد أسرهم إلا سبل العدالة والاستقامة، ولا يتخذون في معاملاتهم إياهم رائداً غير الفضيلة، وإن كانوا لا يتوانون لحظة واحدة في اتخاذ أقسى أنواع الحزم إذا تطلبت الحالة الأخلاقية أو الاجتماعية ذلك. أما واجبات المرؤوسين نحو رؤسائهم في الأسرة من احترام وإخلاص وطاعة فإننا نكتفي بما أشرنا إليه منها عند حديثنا عن الأخلاق العامة.

السلطان

تنتقل السلطة إلى الملك عند الصينيين من السماء مباشرة، ولهذا يجب أن يكون فاضلاً، مستقيماً، حكيماً، بل قديساً منزهاً عن النقص، لأنه الابن الحقيقي للسماء؛ وليست البنوة المادية هي المعتبرة، بل إن الاصطفاء المعنوي هو كل شيء، وإن منحة السماء لا تتوقف على جاه ولا مولد، وفي هذا يقول (شو - كينج): (إن من يستضيء بالفضيلة الساطعة هو وحده الذي يمكن أن يسمو ولو كان ابن فلاح) وهذه القاعدة الأخلاقية تعلن في صراحة أن (الإمبراطور) إذا حاد عن الصراط السوي، فإن السماء تسلب منه السلطة؛ وهذا طبيعي لأن الملك مادام قد قطع برذيلته صلته الداخلية بالسماء، فيجب أن تزول صلته الخارجية بها. ولقد تجسمت هذه الفكرة حتى خصص (كونفيشيوس) فيما بعد في قانون العقوبات الذي أنشأه مادة لعقاب الفرد الذي يفقد صلته بالسماء.

أقنعت هذه النظرية الملوك بأن الحكم بحد السيف والخنجر مستحيل، وبأن السلطة الوحيدة الدائمة إنما هي المنبثقة من الفضيلة، وفي هذا يقول كتاب (إي - كينج) في وعظ الأمراء: (إن القوانين القاسية لا تستطيع أن تحقق الرخاء، وإن نصيب الحزم يساوي نصيب الخيرية، وإن القسوة يجب أن تقف عند التوسط، فإذا ما تعدته فقدت نتيجتها النافعة. ومن يطبق القانون بوداعة مع حزم، وبخيرية مع قسوة معتدلة، يفز بالشهرة، إذ يكون قد أدى وظيفته على وجه الكمال. إن الشعب إذا أحس بقسوة القانون عصاه دون اقل تأنيب من الضمير) ويقول أيضاً: (إن الوداعة الداخلية، والحزم المعتدل، والترضية الممنوحة للجميع من غير استثناء، والأمانة، والاستقامة، كل ذلك هو الذي يحقق تحسين حال الشعب ويعظم امتداد الثقة حتى تتناول الخنازير والأسماك)

لم تكن هذه القواعد الأخلاقية عند الصينيين مجرد نظريات علمية تسجل في الكتب دون أن تحقق في الواقع، كلا، وإنما كانت أخلاقاً عملية طبقها الشعب: عامته وخاصته وملوكه. ومن هذا السمو الأخلاقي العملي ما تحدثنا به الأساطير الصينية عن أحد ملوك عصر ما قبل التاريخ، وهو (هوانج - تي) أي الإمبراطور الأصفر الذي عاش حوالي القرن السابع والعشرين قبل المسيح، والذي تمثله لنا الأسطورة مثلاً أعلى للفضيلة والحكمة، وإن كانت الكتب المقدسة لا تذكر عنه شيئاً

أما (شو - كينج) فهو يحدثنا أن بلاد الصين كانت سعيدة قوية في عهد ملوك الأسرتين: الأولى والثانية أي أسرتي (هيا) و (شانج - إين) لأن ملوكهما كانوا فضلاء وحكماء؛ وكذلك امتدت السعادة إلى أول عهد الأسرة الثالثة التي أسسها (وين - وانج) الحكيم الذي كان يطلق عليه اسم الملك المهذب، والذي هو النموذج الأعلى لكونفشيوس، والذي ساهم بخطه في نسخ (إي - كينج) وقد حكم في سنة 1122 قبل المسيح غير أن السلطة انتقلت إلى ملوك غير مستقيمين فسلبت السماء سلطتها منهم، وسقط الشعب في حضيض التنازع والتفرق، واخذ صغار الحكام يستأثرون بالسلطة. وعلى الجملة ساد الشقاء والبؤس تلك البلاد خمسة قرون كاملة انتهى بانتهائها هذا العصر وبدأ العصر الذي سنتحدث عنه في الفصل الآتي

(يتبع)

محمد غلاب

الخريف

للشاعر شارل هوبر ميلله فوي

ترجمة السيد عارف قياسه

ميلله فوي شاعر فرنسي رقيق من شعراء القرن التاسع عشر (1782 - 1816) طبع بطابع الحزن العميق. تجرع كأس الحمام والغصن أملود والشباب ريق، عقب هزال ألح عليه إلحاحاً فحطم جسمه تحطيما. نظم ميلله فوي مراثي عديدة - وبذاك نبه ذكره

وعلا شأنه - ولعل أشهرها
أحس الشاعر الشاب بالموت يدب في مفاصله اللدنة وأعضائه الغريضة فعمد إلى يراعته وقرطاسه واثبت هذه الآية الشعرية يبكي فيها حياته الفقيدة وشبابه الراحل وغصنه الذاوي. وأنت حين تقرأ غير هذه المرثية مما سجلته يراعة (ميلله فوي) تحس بالكآبة تسيل من كلماته وتفيض وتفيض حتى تغمر قلبك فلا تستطيع أن تحبس عينك (عن إرسال أدمعها
(عارف)
تناولت يد الخريف الغابات فنضت عنها ثيابها، وعرت الأشجار من أوراقها الذاوية، وكست أديم الغبراء بطبقة صفيقة منها، ففقدت الغابة سرها، وصمت البلبل الغريد عن الشدو
شاب مريض تبلغت به العلة - أفعم الأسى فؤاده في فجر حياته، ودب دبيب الموت في جسمه في ميعة صباه - اخذ يطوف بخطى بطيئة متمهلة في الغابة العزيزة على سنيه الأولى وينشد هذه الألحان:
أيتها الغابة التي أحب! وداعاً ما بعده من لقاء. المنية تنشب أظفارها في جسمي.)
حدادك أنذرني بجدي العاثر. إني أرى في كل ورقة تساقط آية من آيات موتي
أي عرافة (أبيدور) المشئومة! لقد قلت لي:
(ستذوي أوراق الأشجار وستصفر في نظرك ولكن للمرة الأخيرة)
السرو الخالد المتموج المياد أرخى فوق رأسه أفنانه الطويلة وابتدرني قائلاً:
(سيذوي شبابك. سيذوي قبل ذوي عشب المرج وعسلج الهضاب)
يا لله! هاأنذا أقضي نحبي. مسني قر نكباء حر جف
أرمي ربيع حياتي يتلاشى (كتلاشي الشموع في زفرة اللظى الحمراء)
تساقطي أيتها الورقة الزاهقة تساقطي!
غشاؤه على الأبصار وحجاب الأعين هذه السبيل
إنها تخفي علي يأس أمي مقري في الغد
ولكن إذا توجهت حبيبتي - مع دلوك الشمس - شطر المسلك المنعزل، شعثاء الشعر، مشقوقة الجيوب تبكي علي، أيقظي بهمساتك الخفيفة ظلي القرير.
قال ذلك، ثم طفق يبعد. . . وبلا إياب
الورقة المتساقطة أخيراً أعلنت انطفاء شعلته
تحت السنديانة شق لحده. ولكن حبيبته لم تأت لزيارة جدثه، وراعي الوادي هو الوادي هو الوحيد الذي يكدر صفو الرمس بوقع أقدامه
حماه (سوريا)
عارف قياسه
تطور علم الكلام
في رسالة إنقاذ البشر من الجبر والقدر
للأستاذ محمد علي كمال الدين
تتمة ما نشر في العدد الماضي
يظهر للباحث عنوان المرتضى (بيان القدرة والمقدور) ومن قوله عن زعم جهم بأن ما يكون في العبد من كفر وإيمان ومعصية فالله فاعله. يظهر أن المرتضى يرى أن نظرية جهم في خلق الأفعال هي عينها نظرية القدر، وهي هي نظرية الجبر؛ وقد صرح بذلك في رسالته في معرض صفات الله عند نهاية صفحة 40 بقوله: (سبحانه وتعالى عما وصفه به القدرية المجبرة المفترون) وعليه يكون القدر في عنوان كتابه: (إنقاذ البشر من الجبر والقدر) عطف تفسير على الجبر
كما يظهر أيضاً من قوله: ولما أحدث جهم القول بخلق أفعال العباد قبل ذلك ضرار بن عمرو بعد أن كان يقول بالعدل فانتفت عنه المعتزلة واطرحته. يظهر أن النظرية العدلية كانت هي السائدة بين طبقات الأمة حتى بعد حدوث الاعتزال أي بعد القرن الأول، وأنها سبقت نظرية الاعتزال في الحدوث وسبقت نظرية خلق الأفعال؛ وأيضاً عند تدقيق أسطر المبحوث عنها ولا سيما ما يخص ضرار بن عمرو نستنتج النقط الآتية:
إن واصلاً وعمراً هما رجلا الاعتزال وإن ضراراً كان معتزلياً؛ ونعرف هذا من (1)

أستتباع المرتضى انتفاء المعتزلة على ضرار بخروجه عما كان عليه واصل وعمرو بعد أن كان على رأيهما واخذ عنهما
(2) إن الزمن الذي حدث فيه الاعتزال هو عند المائة الأولى، ويدل على ذلك أن ولادة واصل كانت سنة 80 والعادة تقضي أن المرء لا يكون عالماً قبل أن يتجاوز العشرين من عمره وبإضافة العشرين إلى الثمانين تكمل المائة، وهو نتيجة طبيعية للتطور العقلي فإن للجدل العنيف بين طبقات الأمة في تكفير ذوي الكبائر أو تفسيقهم يؤدي عادة إلى خلق جماعة وسطى لذوي الكبائر منزلة بين المنزلتين
(3) إن الزمن الذي حدثت فيه نظرية خلق أفعال العباد يكون بعد المائة الأولى بدلالة اطراح المعتزلة لصاحبها ضرار لأنه وافق جهماً في نظريته الجديدة؛ ونرجح أن يكون الزمن الذي حدثت فيه النظرية هو المدة المحصورة بين وفاة الحسن البصري سنة 110 وبين مقتل جهم سنة 131. على أن هذا الزمن المفروض حري أن تحدث فيه النظريات العلمية لكثرة انتشار العلم والدرس مع ازدياد عدد العلماء وشدة تضارب الآراء والأهواء
(4) في هذا الظرف الذي حدثت فيه نظرية جهم ظهرت آراء ومقالات غريبة لم يصرح بها المرتضى؛ غير أنه أضاف في عرض حديثه عن ضرار انه خلط تخليطاً كثيراً وقال بمذاهب خالف فيها جميع أهل العلم. ولم أجد مسوغا للمرتضى في عدم تصريحه بنوع هذه الآراء في حين أن صاحب الملل والنحل ذكر كثيراً منها. ولو أن المرتضى ذكر بعضها لوجدنا من مقدمته سلماً كاملاً للتطور الفكري. ونعود الآن إلى بقية أجزاء المقدمة، قال:
(ثم تكلم الناس بعد ذلك في الاستطاعة فيقال إن أول من أظهر القول بأن الاستطاعة مع الفعل يوسف السمني، وإنه أستزله إلى ذلك بعض الزنادقة فقبله عنه؛ ثم قال بذلك حسين النجار وانتصر لهذا القول ووضع فيه الكتب فصارت مذاهب المجبرة بعد ذلك على ثلاثة أقاويل: أحدها أن الله تعالى خلق فعل العبد وليس للعبد في ذلك فعل ولا صنع، وإنما يضاف إليه لأنه فعله كما يضاف إليه لونه وحيويته، وهو قول جهم. الثاني أن الله تعالى خلق فعل العبد، وأن العبد فعله في استطاعة حدثت له في حال الفعل لا يجوز أن تتقدم الفعل، وهو قول النجار وبشر المريسي ومحمد بن برغوث ويحيى بن كامل وغيرهم من متكلمي المجبرة نحو الشاعرة وغيرهم)
قبل تحليل هذا القسم نلفت نظر القارئ إلى كلمة المرتضى (مذاهب المجبرة) بدون أن يقرنها بكلمة القدرية، فهي وإن لم تدل على رجوعه عن رأيه في مرادفة الجبر والقدر ولكن يشم منها حدوث كلمة جبر ومجبرة، وأنها غلبت في نسبتها إلى جهم وجماعته بدلاً من لفظة القدر التي حاول أن يهرب عنها الفريقان المتطاحنان، ولو أردنا التماس سبب لغلبة جهم في هذا التملص من صفة (القدرية) ربما وجدناه في مطابقة فهم العامة لمعنى كلمة الجبر مع النظرية ولا سيما وإن جهماً ونظريته وأصحابه فرس أقحاح، فهم أحرى أن يتحاشوا ويعملوا على الخلاص من وصمة الحديث (القدرية مجوس هذه الأمة)
ولنعد إلى بحثنا فقد استأنف المرتضى بحثه مراعياً تدرج الموضوعات بمقتضى تاريخها وتسلسلها الطبيعي فعرض لنا صورة من الجدل الذي جد بعد قرن وربع قرن بين علماء الجبر أنفسهم إضافة إلى النقاش الحاد بينهم وبين العدلية والمعتزلة؛ فهذا ضرار لم يأخذ بنظرية صاحبه جهم كما هي، بل حاول الجمع بينها وبين لون من الاختيار فقال: إن الإنسان وإن يكن مجبراً على خلق الأفعال فإن هذا الجبر لا يتنافى على رأيه مع الاستطاعة على القيام بالعمل، أي أنه لا يتنافى وجود فاعلين على أن يكون أحدهما كالقوة البخارية والثاني كالآلة المحركة؛ وزاد أن هذه الاستطاعة سابقة على حدوث الفعل بخلاف جهم الذي سلب هذه الاستطاعة من أساسها، وادعى أن إسناد الأفعال للإنسان على سبيل المجاز لا على سبيل الحقيقة كما يسند إليه لونه وحيويته، وكما يقال أمطرت السماء، وكسفت الشمس، وخسف القمر إلى غير ذلك
والذي يرمي إليه المرتضى حدوث بحث وموضوع جديد في علم الكلام هو بحث الاستطاعة ولم يعين وقت حدوثه كما هي عادته ولكن سنة التطور العقلي تقضي بأن حدوثه إذا لم يكن في حياة جهم أي قبل سنة 131 فعقيب مقتله. على أن تعدد الآراء في بحث الاستطاعة مع تعقد النظريات يدل على طول زمن البحث فيها كما تقتضيه

الأبحاث الفلسفية التي غمرت المجتمع بعد عهد المنصور أي بعد سنة 136. . . وعليه سوف لا يجد غرابة في بعد الزمن الذي حدث خلاله الرأي الثالث في الاستطاعة أو القول الثالث من أقاويل المجبرة كما اصطلح المرتضى وهو قيل سنة 189 أي قبل زمن وفاة يوسف بن خالد السمني صاحب هذا القول؛ على أنه إذا كان الرأيان أو القولان الأولان يقرران نفي الاستطاعة مطلقاً أو وجودها سابقة على الفعل فبمقتضى التطور لا مناص أن يكون القول الثالث هو حدوث الاستطاعة حتى الفعل حيث لا رابع لها. بقي علينا أن نعرف السبب الذي ساق المرتضى إلى نسبة هذا القول للزنادقة. أقول إن اقتران تحقق الاستطاعة مع الفعل صريح بأن هذا الاستطاعة أمر غير ذهني فلا يمكن أن يتصوره العقل مجرداً بل يتحقق خارجاً كما تتحقق الحرارة مع النار، وهذا عين مقالة الزنادقة القائلين بعدم وجود أمور ذهنية غير واقعة تحت الحواس، لذلك نسب المرتضى إليهم هذا القول

أما شخصية يوسف بن خالد السمني هذا وهل نسبته هذه إلى مذهب (السمنية) من مذاهب الهند القديمة فذلك ما لم أستطع تحقيقه الآن لانعدام المآخذ لدي

ولكن الذي يلفت نظر الباحث اهتمام المرتضى بهذه المقالة: الاستطاعة مع الفعل، فقد جعلها مفتاحاً إلى مقالة كثير من المجبرة مثل بشر بن غياث المريسي المتوفى سنة 218، ومحمد بن عيسى الملقب ببرغوث، ويحيى بن كامل من أصحاب بشر، وأيضاً الحسين بن محمد النجار الذي وضع في هذه المقالة الكتب وغيرهم. فكأن المرتضى يشير إلى أن تاريخ اتساع علم الكلام وتشعب نظرياته عند المسلمين بدأ عند هذه المقالة ومنها أخذ يزداد توغلاً وعمقاً فكثر فيه المؤلفون والمجادلون والمجالدون؛ غير أن تحقيق تطور هذه النظرية الذي هو موضوع بحثنا يحتاج إلى دقة وبحث واستقصاء أكثر ولا سيما وقد شغلت عهداً طويلاً يبتدئ من سنة 131 ويستمر إلى سنة 218 وهو عهد وفاة بشر المريسي ثم إلى عصر الأشعري وهو سنة 300.

والآن نأتي على آخر أجزاء المقدمة، قال المرتضى:

(ثم تكلم الناس من بعد ذلك فيما اتصل بهذا من أبواب الكلام في العدل واختلفوا فيه اختلافاً كثيراً والكلام في ذلك أوسع أبواب العلم)

فكان العدل هو العامل الأكبر في خلق علم الكلام فقد ابتدأ مع أول نظرية وهي نسبة المعاصي لله أو للعبد نفسه، واطرد مع جميع نظرياته، وأخيراً أصبح العدل موضوعاً مستقلاً لدى المعتزلة بل اصبح أوسع أبواب العلم كما يقول المرتضي؛ غير أن المجبرة والصفاتيه والأشاعرة تحاشوا التوغل فيه كما تتوغل المعتزلة

جدول تطور علم الكلام

الآن وقد أنهينا مقدمة المرتضي مع تطور علم الكلام الذي أرتاه وحاولنا البرهنة على صحة رأيه في هذا التطور فلا ندري إن كنا موفقين في بعض هذه البرهنة أو غير موفقين، غير أن القارئ ربما أدرك ما لاقيناه من العناء في هذا السبيل. وإكمالاً للفائدة رأينا أن نلخص رأي المرتضي بالتطور في الجدول الآتي:

النظرية
أصحابها
نقيض النظرية
أصحابه
الزمن
نسبة المعاصي لله
نسبتها للإنسان والقول بالعدل
السلف
من 60 إلى 100
تفسيق ذوي الكبائر وتكفيرهم
السلف والخوارج
منزلة بين المنزلتين
المعتزلة
100 - 110
القدر أو الجبر ونفي الاستطاعة

جهم بن صفوان
الاختيار ومطلق الاستطاعة
السلف والمعتزلة
110 - 131
الجبر والاستطاعة قبل الفعل وعنده
ضرار بن عمرو
الاختيار ومطلق الاستطاعة
السلف والمعتزلة
131 -
الجبر والاستطاعة حال الفعل
يوسف السمني وبشر المريسي
الاختيار ومطلق الاستطاعة
السلف والمعتزلة
131 - 218
الجبر والاستطاعة حال الفعل
النجارية والأشاعرة
الاختيار ومطلق الاستطاعة
المعتزلة
218 - 324
نتيجة البحث ورأينا الخاص

يلاحظ القارئ أنا حاولنا أن نتلمس رأي المرتضي نفسه لنكشفه أمام القارئ كيما يمكنه أن يستخلص منه طريقة تطور علم الكلام. وقد آن لنا أن نعرض أمام القارئ آراءنا الخاصة والنتائج التي حصلنا عليها، وللقارئ أن يأخذ بها أولا يأخذ. وهي تتلخص في أربعة أمور: زمان علم الكلام، المكان الذي نشأ فيه، عوامل تكوينه، صبغته

(1) أما الزمن الذي نشأ فيه علم الكلام فهو عصر خلافة الإمام علي وحركات الخوارج وجدالها معه، وأول نظرية هي بحث المعاصي والكبائر وتكفير مرتكبيها سنة 38

(2) المكان الذي نشأ فيه علم الكلام هو العراق وبعض ما جاوره من بلاد الفرس بدلالة أن هذه الأقطار كانت منبت الخوارج ومراكز حروبهم ونظرياتهم فضلاً عن أن معظم علماء الكلام كانوا من أهل هذين القطرين

(3) إن عوامل تكوين علم الكلام لم تكن دراسية بالأساليب والمناهج التي نعرفها بل كونتها ثورة فكرية عامة صدع بها الدين والكتاب المقدس وسندتها قابلية الفرد والمجتمع وغذتها الخميرة العلمية الموروثة تلقيا وتلقينا من دراسة الأمم والمدارس القديمة من سريانية وكلدانية وحيوية وجنديسابورية وحرانية وعبرية وإسكندرية، فكانت هذه الثورة الفكرية بما كان لها من مقومات ومغذيات هي المدرسة الكبرى لعلم الكلام وناهيك بالمجتمع مدرسة عظمى سريعة النمو طيبة النتاج

(4) كانت صبغة علم الكلام منذ نشأته الأولى في الصدر الأول فطرية، فمشت نظرياته بمقتضى العقلية العربية الإسلامية، وقد كفلتها الذهنية الخصبة فتوصلت إلى نتائج تلك النظريات طفرة ومن دون تعمل، وأخذت بها كآراء صحيحة وإن لم تراع الترتيب والتبويب العلمي. ولا أظن أن هذا الأسلوب من الدراسة يمنع من أن ندعوه علم الكلام أو يمنع من اصطباغ معتنقي نظرياته بصبغة علماء الكلام. وعليه يكون لعلم الكلام دوران: أولا صبغته الفطرية وهي تبتدئ منذ سنة 38 وتنتهي سنة 136؛ والدور الثاني صبغته الفلسفية الحاضرة وتبتدئ منذ عصر الترجمة سنة 136هـ

وتقريباً للأذهان سنضرب للقارئ مثلاً يرتضيه الخيال ويتفق مع النواميس الاجتماعية، فربما أعطانا صورة لتلك الثورة الفكرية، وهذا المثال هي الثورة الثقافية والاجتماعية الماثلة لدى الشعوب والحكومات الشرقية التي استقلت بعد الحرب العامة فقد شاهدنا هاته الشعوب والحكومات كيف سارعت وتطورت في دراسة نواحي الاستقلال وما يلابسها من نظريات اجتماعية وسياسية ومدنية وقضائية وعلمية وفنية وعسكرية وما إلى ذلك من خصومات الحضارة الأوربية وأساليبها - درست جميع ذلك بطريقة

عملية تلقينية وبأساليب التفكير والتجربة والتقليد إذ لم تكن لدى تلك الحكومات ما يصح أن يقال لها مدارس فنية أو عسكرية قضائية أو اقتصادية، ومع ذلك وجدنا ابن الريف والفلاح الأمي قد سارع في تلك البلاد إلى تلقي الأنظمة والفنون الحربية بما فيها آلاتها وأدواتها الميكانيكية كما وجدنا الحضري ساق السيارة والباخرة والقطار، والتاجر والصانع أصبح سياسياً أو إدارياً أو صحافياً أو مهندساً في حين أن معظم هؤلاء وأولئك لم يكونوا قد سمعوا بشيء في ذلك فضلا عن مشاهدته والقيام بما يتطلب. والأغرب من ذلك كله أن جميع هؤلاء الفنيين أو المدربين الشرقيين قد نجحوا ومهروا ببضعة سنين

ونحن نرى في هذا المثال صحة المقارنة وانطباقها مع تلك الموجة العربية الإسلامية كل الانطباق إلى درجة لم يبق معها مجال للحيرة والشك في سرعة قبول المسلمين لنظريات علم الكلام وفي كيفية امتزاج هذا العلم وأشباهه مع الدين الإسلامي

(العراق. النجف)

محمد علي كمال الدين

في الأدب العربي

دعبل الخزاعي الشاعر المتمرد

للأستاذ عبد الحليم عباس

قال دعبل: مضى علي ستون عاماً ما تصرم منها يوم إلا وقلت فيه شعراً. وقد يكون مغالياً في هذا ولكن الشيء الذي ليس فيه مغالاة أنه نظم كثيراً أضعاف ما خلص إلينا، فقد ضاع الكثير من شعره؛ وليس هذا الضياع بالمستغرب، وإنما المستغرب أن يصل إلينا شيء من شعره فقد كان الرجل طلعة، ومرعباً بهجائه. وحسبك أن تعلم أن من جملة من أقذع في هجومهم خمسة من الخلفاء، وفئة صالحة من الأمراء والوزراء والقواد، ثم كان إلى جانب ذلك شيعياً. أفلا ترى أن الزمن كان متسامحاً إذ أبقى على شيء من شعره؛ على أن هذه البقية كافية للحكم على شعره، وتقديره من حيث الجودة، ولكنها لا تكفي أبداً لدراسته من الناحية النفسية، فليس يمكننا أن نعرف معرفة صحيحة أسباب تمرده، ولا أن نجزم في الحكم على بواعث ثورته؛ وقصارى جهدنا أن نفترض وأن نتخذ من الكلمة الصغيرة ترد في سيرته مفتاحاً للغوص على هذه النفس العجيبة. . .

كان البحتري يتعصب لشعره، ويفضله على مسلم بن الوليد، ويقول في أسباب هذا التفضيل: (إن شعره أدخل في كلام العرب من شعر مسلم. . .) أما إنه أدخل في كلام العرب من شعر مسلم فمما لا يمتري فيه اثنان، بل لعله أدخل في كلام العرب من شعر كل الشعراء الذين تقدموه في الدور الأول للدولة العباسية؛ وأما أنه خير من مسلم فالبقية الباقية لا تجيز لنا هذه المقارنة. هو متين السبك، شديد أسر التراكيب، فحل الأسلوب، حتى لو دعته الضرورة أن يقول شعراً في أقل الأمور التي لا تدعو إلى الاحتفال بالشعر ولفظه، قال:

أسر المؤذن صالحٌ وضيوفه ... أسر الكمى هفا خلال الماقط

بعثوا إليه بنيه ثم بناتهم ... ما بين ناتفةٍ وآخر سامط

يتنازعون كأنهم قد أوثقوا ... خاقان أو هزموا كتائب ناعط

وما هذا المؤذن الذي أسره صالح وضيوفه، كأنهم أسروا الخاقان وهزموا الكتائب؟ ديك دجاج لا أكثر ولا أقل. أتينا بهذه الأبيات، لندلل على أن دعبل لا يتنزل عن فحولة اللفظ حتى في أتفه المواقف. . ولكن واأسفاه لقد ضاع جلة هذا الشعر الفحل. ولنترك الآن الأسف والحكم على شعره فليس ذلك بمجدٍ شيئاً. . ولندرسه على ضوء ما تبقى من شعره ومن سيرته

والآن أيهما الشقي بصاحبه: أدعبل وهو يحمل خشبته - على حد تعبيره - فلا يجد من ينزو به الغيظ وتثور به الحمية فيصليه عليها، أم أهل عصره وهم يتجرعون غصص ثورته، ويصطلون بنار هجوه، يمدحهم مرة فيغدقون عليه النعم، ويتملقونه بالهبات، عله يفيء إلى الرضا، ولكنهم ما يعتمون - لا لشيء إلا أن دعبل أراد - أن يرو الرضا ينقلب سخطا، والمدح هجاءً مقذعاً، لا تشفع فيه عارفة، ولا ينهنهه الخوف من سلطان.

لم يترك وزيراً ترهب صولته، ولا قائدا يخشى فتكه، إلا شنع عليه حتى الخلفاء رقى إليهم، فأقض مضاجعهم، وبعث فيهم من الوجل أضعاف ما بعث فيه سلطانهم. تصافي والمأمون - عقب هجائه لأبيه - فلا أذن سمعت، ولا قصيدة اشتهرت حتى كان كما يقول تاريخ عصره أول داخل على الخليفة، وآخر من يترك مجلسه، ولكنها أيام. . .
وإذا ببغداد تنشد قصيدة جديدة في هجو الخليفة من نظم دعبل
ويأخذ الرشيد بطبعه، وهو الخامل بعد لم تعرفه أندية الشعر ولا محافل بغداد، وتصله هبته قبل أن تراه عينه، ثم يموت الرشيد فيكون رثاؤه إياه. . .
قبران في طوس: خير الناس كلهم، ... وقبر شرهم هذا من العبر
لا ينفع الرجسُ من قرب الزكيِّ ولا ... على الزكيِّ بقرب الرجس من ضرر
والرجس هاهنا هو الرشيد. . .
ونعجز إن نحن لاحقناه، نذكر من تصدى لهجائهم، فحسبك أن تعلم أنه لم يسلم منه - كما يقولون - أقرباؤه ولا عشيرته الأدنون، فقد هجا خزاعة، وما خزاعة غير قبيلته التي أراد أن يكون فيها نسبه، فالبعض يهمس همساً خفياً - فرقاً منه - أنه دعي النسب في خزاعة. فأيهما الشقي؟ اهو بعصره، أم عصره به؟
أما هو فقد استمرأ طعم الشقاوة، بل نظن أنه كان يجد فيها لذته
ما أطول الدنيا وأعرضها ... وأدلني بمسالك الطرق
الحق أن أهل عصره هم الأشقياء به، هو بلاء صب عليهم في أرفه العصور وأحلاها: لقد طبع - أبو علي - وهذه كنيته - على الهجاء، وما هو بالهجاء، وإنما الحريق يأتي على العدو والصديق، فم علة هذا؟ أهي نفس فطرت على الشر بطبيعتها؟ أم أن هناك دوافع وحوافز ساقته إلى النقمة وقسرته على هذا التمرد؟ هذا ما نحاول جهدنا أن نتلمسه في سيرته وما نأسف - من أجله - على ضياع الكثير من شعره
وأول ما يتبادر للذهن انه قد يكون في عقيدته الدينية تعليل لنقمته على عصره، فقد كان شيعياً كما أسلفنا، أشاد بمدح العلويين فمن المحتمل أن يكون انساق مع عاطفته الدينية، فاخذ يشنع على العباسيين، الخلفاء والوزراء وكل من له صلة بهم؛ على أن هذا إن يصدق على شاعر فعلي غير دعبل، فالعصر العباسي شهد ثلاثة من الشعراء المتشيعين، دعبل، والسيد الحميري، وديك الجن، واوسطهم أخلصهم للعلويين، السيد الحميري هو الذي اتخذ مدح العلويين مجالاً لشعره، أما الاثنان الآخران فقد كان تشيعهم من النوع الحقيقي - إن صح هذا التعبير - انهمك الشاعر السوري في رثاء جاريته وردة، وفي البكاء والحنين على جوار أخر. . . أما دعبل فقد وجد في الهجاء متسعاً يلهيه عن التشيع. . . لم تعرف له في العلويين قصيدة عبقرية خلا واحدة
مدارسُ آياتٍ خلتْ من تلاوةٍ ... ومنزلُ وحيٍ مقفر العرصات
صحيح أنها صادقة اللوعة، تنم عن إخلاص، وهو شيء لا ننكره، وإنما الذي نذهب إليه وتؤيده سيرته نفسها أن يكون مصدر نقمته على الذين هجاهم نظرته إليهم كمغتصبين أو كأعوان لمغتصبي حق أبناء علي، وإلا فما يمنعه أن يلمح إلى أفضليتهم في خلال هجائه للعباسيين على الأقل؟ مرة واحدة ذكرهم في هجو الرشيد
وليس حيٌ من الأحياء نعرفه ... من ذي يمان من بدو ومن حضر
إلا وهم شركاءٌ في دمائهم ... كما تشارك أيسارٌ على جزر
وليس يرد على هذا المأمون جد في طلبه لهذه القصيدة فغير دعبل يستشعر الخوف، أو يتدبر العواقب. أليس هو القائل للمأمون نفسه:
إني من القوم الذين سيوفهم ... قتلت أخاك وشرفتك بمقعد
شادوا بذكرك بعد طول خموله ... واسترفعوك من الحضيض الأوهد
والقائل المتوكل:
ولست بقائل قذعاً ولكن ... لأمر ما تعبدك العبيد
وللمعتصم:
ملوك بني العباس في الكتب سبعةٌ ... ولم تأتنا عن ثامن لهم كتب
كذلك أهل الكهف في الكهف سبعة ... خيارٌ إذا عدوا وثامنهم كلبُ
وشيء آخر إذا كان كرهه للخلفاء، ومناصبته إياهم العداء، تشيعاً لأبناء علي، فما ذنب أقربائه؟ ما ذنب عشيرته خزاعة، بل ما ذنب هؤلاء الذين ليس لهم من جريرة غير موافقة أسمائهم للقافية في شعر دعبل

ما جعفر بن محمد بن الأشعث ... عندي بخير أبوة من عثعث
عد البيوت التي ترضى بعشيرتها ... تجد فزارةً العكلي من نسبك
إذن فلم تكن العقيدة الدينية هي كل السر في هذه الثورة، وعامة هذا الهجاء، لعله تعصبه للقحطانية على النزارية، لا على الأرجح، لأن من بين من هجاهم من ليسوا من نزار، بل نظن أن هذه كلها دوافع جاءت متاخرة، وإنما السر كله في تركيبه
يقول لأحد أصدقائه: ما كانت لامرئ عندي من منةٍ إلا وتمنيت موته. فما عسى يرى علماء النفس في هذه الخاطرة؟؟ أباء منحرف عن وجهته؟ كيفما يكن فما هو بالرجل الخير هذا الذي يود أن يكافئ المحسن إليه بتمني الموت له
وما ترى فيمن تهتاج نفسه لقول الشعر، فتضيق عليه فنون الشعر إلا أن ينشئه هجاء، فإذا سأله سائل: لمن؟ قال: (لم يستحقه أحد بعد، حتى إذا ما لاحاه أحد، ذكر اسمه فيه، ونشره في الناس
ودعبل يعلل هذه الظاهرة في نفسه بأن الهجاء آخذ بطبع الشاعر من المديح وأن الناس له أرهب. وقد قال مثل هذا بشار وقد يكون بشار صادقاً بالقياس لنفسه، بل هو صادق ما في ذلك شك، ولكن دعبلاً قد أخطأ في تعليل ظاهرة الهجاء فيه؛ إنه مسوق إليه بطبيعته، إنه يفتن فيه، ويتخذه مجالاً لفنه، كما يتخذ بعض الشعراء الغزل مجالاً للقريض
وعدا هذه الطبيعة المتمردة والناقمة فيه منذ نشأته الأولى، فقد كان يرافق الشطار واللصوص، واتهم مرة بالقتل
وبقي هذا الخلق ملازماً له كل حياته، فكان يلاقي قطاع الطرق يؤاكلهم ويؤانسهم، فلا يؤذونه (ولا هو يتعرض لهم بأذى) قال أحدهم: ما زلت أعرف فيه مشية الشطار هو ناقم ولكنك لا تلمح فيه هذه النقمة إلا هينة لينة، فلا يشكو الزمن كما يشكوه غيره . . .من كبار الناقمين، كأنه أعلى من أن يضج بشكوى
حملت على زمنٍ ظالعٍ ... فوف تكافى بشكر زمن
وهو إذ يتهجم على الأحياء ويستفد جهد ثورته، لا يوازن بين قدره وأقدارهم كما يفعل ابن الرومي في الهجاء، ولعل مرد هذا إلى أن دعبل لم يكن معجباً بنفسه كما كان ابن الرومي الذي أضعف أدواته الشعر
وإذا كان الهجاء آخذا بطبع الشاعر، فما باله يكره ملاقاة الخلفاء أمنية كل شاعر؟ أراد ابن المدبر أن يقدمه للخليفة فاعتذر أحد أصدقائه: إن أبا علي موسوم في الهجاء ومنيته أن يخمل ذكره. فقال دعبل لصديقه: ما عدوت الذي بنفسي
ولسنا نحب أن نختم هذا الفصل دون أن نشير إلى شيء من التسامح الذي تحلى به عصره. أحب أبو مسعد المخزومي أن يوغر عليه صدر المأمون فأنشد هجاءه فيه، . . .فقال: أجبه، قال: لو أمرتني أن آتيك بالذي على منكبيه لفعلت. قال: أما هذه فلا
إن العصر الحديث جد محتاج إلى ملوك وأمراء ووزراء يستبقون القتل والسجن لغير رجال الأدب
(شرق الأردن)
عبد الحليم عباس
هكذا قال زرادشت
للفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه
ترجمة الأستاذ فليكس فارس
حكمة البشر
ليست الأعالي ما يخيف بل الأعماق، فعلى الجرف تحدق العين في الهاوية وتمتد اليد نحو الذرى فيقبض الدوار بالإرادتين على القلب
أفتعلمون أيها الصحاب ما هي إرادة قلبي المزدوجة؟ إن الخطر المحدق بي على منحدري إنما هو اتجاه نظري إلى الذروة بينما تتلمس يدي مستنداً في الفضاء. وما أعلق إرادتي إلا على الإنسان فتشدني إليه مرهقات القيود لأنني منجذب منه إلى الإنسان المتفوق فإليه تندفع إرادتي الثانية. إنما أنا أحيا بين الناس كالضرير لا يعرف من حوله، كيلا تفقد يدي ثقتها من الوقوع على مستند مكين
أنا لا أعرفكم، أيها الناس، تلك هي ظلمتي أتلفع بها وتعزيتي ألجأ إليها
فأنا جالس أمام الباب متوجهاً إلى الأوغاد صائحاً بهم: إلي يا من يريد أن يخدعني

إن أول حكمة بشرية أعمل بها هي أن أستسلم لخداع الناس فلا أضطر إلى الوقوف أبداً موقف الحذر لأن في الناس من يخدعون
ولو أنني وقفت هذا الموقف في العالم أكان يتسنى للإنسان أن يثقل منطادي فيمنعه من الانفلات والانطلاق إلى أبعد الآفاق؟
إن إغفالي للحذر إنما هو عناية تسهر علي لإيصالي إلى ما هو مقدور
إذا أنت امتنعت عن الشرب من كل كاس فإنك هالك ظمأ، فإذا أردت أن تبقى طاهراً بين الناس فعليك أن تتعود الاغتسال بالماء القذر
لكم ناجيت قلبي، فقلت له: صبراً أيها القلب الهرم، إنك لم تفلح بهذه النقمة فتنعم بها كأنها نعمة
وهذه حكمتي البشرية الثانية: إنني أداري المغرور بأكثر مما أداري الفحور، لأن الغرور الجريح مبعث كل النائبات، في حين أن العزة الجريحة تستنبت جرحها ما هو خير منها
إذا لم يحسن الممثلون لرواية الحياة أدوارهم فيها فخير لك ألا تشهدها؛ وليس أمهر من أهل الغرور في التمثيل لأنهم يقومون بأدوارهم وكل إرادتهم متجهة إلى اكتساب رضى المشاهدين وإعجابهم، وهم لا يدخرون وسعاً في سبيل خلق شخصيتهم وتمثيلها، لذلك يلذ لي أن أنظر من خلالهم إلى الحياة فهم خير دواء للسوداء. إنني أداري أهل الغرور لأنهم أساة أحزاني المقيمون الإنسان ممثلا أمام عياني
وفوق ذلك فمن له أن يسير الأعماق في تواضع المغرور فأنا أريد له الخير وأشفق عليه بسبب اتضاعه، فهو يريد أن يقتبس منكم ثقته بنفسه متغذياً من نظراتكم، متسولاً الثناء من تصدية أكفكم. إن المغرور ليصدق أكاذيبكم إذا ما أحسنتم إيرادها عنه، فما هو إلا حائر يشك بأعماق نفسه في قيمة نفسه
إذا كانت الفضيلة الحقيقية تجهل ذاتها فالمغرور كذلك لا يعرف شيئاً عن تواضعه
أما حكمتي البشرية الثالثة فقائمة على إنني لا أدع لاستحيائكم سبيلا إلى تنفيري من مشاهدة الأشرار، فأنا أسر بالنظر إلى ما تخلق حرارة الشمس من عجائب المخلوقات كالنمور وأشجار النخل والأفاعي ذوات الأجراس. ولكم بين الناس مثل هذه المخلوقات العجيبة أفقستها حرارة الشمس أيضاً، وفي الأشرار أيضاً من البدائع الشيء الكثير. . .
إن أوفركم عقلا لا يبلغ في نظري منتهى الحكمة، كذلك لا أرى الشر إلا مبالغاً في وصفه. ولكم تساءلت مشككا: لماذا لا تزال الأفاعي تطن بأجراسها؟
إن لكل شيء مستقبله حتى الشرور، فالظهيرة البالغة التناهي في إشراقها لم تنكشف للإنسان حتى اليوم. لكم من أمور تعتبر شروراً في هذا الزمان وهي لا تتجاوز الثلاث عشرة قدماً حجماً، ولا الثلاثة أشهر بقاء، وغداً سيولد ما هو أعظم منها. ولا بد من أن تخلق الحياة التنين المتفوق خليقاً بالإنسان المتفوق، فان شموساً محرقة ستدخل حرارة الإبداع في الغابات الغضة الرطبة لم تمسسها يد بعد
لا بد من أن تصبح وحوشكم نموراً وعقاربكم تماسيح، فيجد القناص في الغاب ما يرضيه
والحق أن فيكم كثيراً من المضحكات يا رجال العدل والصلاح. ولشد ما يضحكني خوفكم ممن دعوتموه إبليساً. لقد بعد المجال بين روحكم وكل عظيم، فإذا ما لاح لكم الإنسان المتفوق بصلاحه أورثكم خوفاً ورعباً. فانكم، ايها الحكماء والعلماء، ستولون الأدبار إذا ما
لفحتكم الحكمة المشعة على الإنسان المتفوق في غبطته وعريه.
لقد وقعت عيني عليكم، آيها العظماء، فأدركت هذا السر، وهاأنذا أعلنه لكم، إنكم ستصفون الإنسان المتفوق الذي أنبئكم به بأنه شيطان الشياطين.
أتعبني هؤلاء العظماء، وأشدهم إرهاقاً أوفرهم عظمة، فأنا أتوق إلى اجتياز مرتبتهم فأفوتها وأنا أتجه إلى الإنسان المتفوق
لقد عرتني هزة عندما شاهدت خيار العظماء في عريهم فشعرت بجناحين استنبتهما ساعداي لأحلق بعيداً عنهم في آفاق الدهور الآتية. إنني أتوجه إلى الدهور البعيدة، إلى الظهيرات الغارقة بأنوار لم يحلم بها الفن من قبل، فهنالك تتجلى الآلهة خجولة من كل ما يقع من حوادث على الأرض.
ليتني أراكم متنكرين، أيها الاخوة والأقرباء، أهل الصلاح والعدل، فتبدون بحللكم وقد

نفخها الغرور، وليتني أجلس بينكم متنكراً أنا ايضاً، كيلا أعرف من أنتم ولا أعرف من أنا، لأن هذه آخر حكمة من حكم البشر.
هكذا تكلم زارا. . .
مناجاة. . .!
حبيبي! إنْ دنا ثغري ... إلى خدَّيْك لهفاناَ. . .
فلا تغضَبْ! فقد يُغرى الْ ... هوى باللثم أحياناَ!
وما ذنبي إذا ما كن ... تُ في وجدي مِنَ الناسِ؟!
هو الحبُّ! وما في الحبِّ (م) ... يا فتَّانُ مِن باسِ
فقم نمرح مع الأطيا ... ر إنَّ الله يرعاناَ!
وبادِلْني - فداك الرُّو ... ح - أنفاساً بأنفاسِ!
حبيبي! نم على كَفِّي ... لأروي العين مِن حُسْنِكْ!
وأسقي روُحيَ الظَّمْأى ... إلى الأنوار مِن دَنَّكْ!!
وأطوي ساعةً همِّي ... وآلامي وأكدارِي
وأحيا بين أحلامي ... وأنغامي وأشعارِي
وترنو ساعةً عينا ... يَ في صَمْتٍ إلى عَيْنِكْ!
وثغري خاشِعُ يمُلي ... على أذْنَيْكِ أسْرَارِي!
حبيبي! هاتِ لي وحدِي ... رحيق الخلْدِ مِن ثغرِكْ!
ودعني ارشف الألحا ... ن والأشواق مِن شَعرِكْ!!
لأهدِي نفسِيَ الحيْرى ... واروِي قلبيَ الصَّادِيَ
وأسْتَافُ الصَّبابة والْ ... هوى مِن نورك الهادِي!
عشقتُ الحسْنَ فيكَ وما ... عَشِقْتُ الحسْنَ في غيْرِكْ!!
فهيَّا قم بنا نشدو ... مع الأطيار في الوادي!
عبدْتُ اللهَ في مجرَا ... بِ أشواقي وأشجانِي!
وفيما شاهدَتْ عيْني ... وفيما قال شيطانِي!!
وفي الأطيار والأنها ... ر والأزهار والعُشْبِ
وفي حِسِّي وفي رُوحِي ... وفي نفسِي وفي قلبي!
وفي الحسْناءِ أبْصِرُها ... فأهواها وتهواني!!
وأنشدها من الأشعا ... ر ما يوحيه لي حُبِّي!
وداعاً يا هوَى نفسِي ... عرفْتُ الحبَّ والوَجْدَا!
ومَن تامَتْهُ غانيةٌ ... يرى في غَيِّهِ رُشْدَا!
وداعاً! قد وهبْتُ الحبَّ (م) ... آهاتي وأنفاسي
وأوهامي وأحلامي ... وتفكيري وإحْسَاسِي!
فدعني! ليس في دُنْيا ... يَ ما يُرْجى وما يُهدا!
فلم يترك ليَ المحبو ... بُ ما أعطيهِ للنَّاسِ!!
(إسكندرية)
محمود السيد شعبان
حظي من الناس!
لي الله من مستهدف شفَّه السقم ... فليس له روح يقوم بها جسم //
مشت في حياتي والشباب مصاحبي ... هموم لها في محو آثاره هُّم
حياة يعاف الهامدون صروفها ... وينكر مسراها به الدم واللحم
لأجمل منها في تجهمه البلى ... وأحلى مذاقاً من لذاذتها السم
نصيبي من دنياي مالأ أحبه ... وحظي من أبنائها الكاشح الفدم
وحولي ممن يظهرون لي الرضا ... قلوبٌ إذا هبت سخائمها سحم
محضت صحابي الأقربين مودتي ... وباعد عني كيد أعدائي السلم
فمالي أصلي الشدّ في وحدتي وما ... لقلبي تغشاه الكآبة والغم
وما للآلي في الغيب قد نذر وادمي ... وجوههم تندى وأحقادهم تنمو
إذا لم يكن غير الرياء خليقة ... فأجدى لهذا الكون من أهله العقم
ألا أيها الشاكي الذي ليس ينتهي ... متى ينجلي عن فجر أيامك الوهم
طويت على يأس شبابك كله ... ولو شئت لم تيأس ولم يرعك السقم

أتشقى بما قالوا ويؤذيك ما لغوا ... وتشفق من عدوانهم كلما هموا؟
وتجزع إما نال منك معاشر ... ضئال لهم في كل مخزية سهم؟
عزاءك إن ضافت فؤادك غمة ... فإن سمام البغي ترياقها الحلم
وصبرك للأعداء أنفي لكيدهم ... وشكواك من ظلم اللئيم هي الظلم
(حمص)
رفيق فاخوري
القصص
من أساطير الاغريق
غرام أورورا
للأستاذ دريني خشبة
رأته على رمال الهلسبنت يرتع ويلعب، فوقفت تملأ عينيها وقلبها بجماله، ثم نظرت إليه وهو يداعب البحر المضطرب، ويتواثب فوق عبابه الزاخر، فسحرها قوامه، وفتنتها قسماته، ونسيت أنها ربة الفجر الوردية الهيفاء، وأن من ذكران الآلهة من هو أكثر من هذا الشاب تيتون - بن بريام ملك طروادة - جمالاً وأشد فتنةً وأخلق بحب ربة جميلة لعوب مفتان، مثل أورورا. . . ولكن ماذا يصنع أهل هذا العالم في قلوبهم، ولا سلطان لأحدهم على فؤاده؟ يستوي في ذلك الأرباب وغير الأرباب
لقد كان تيتون يتقلب بين الموج، فتتقلب نفس أورورا في جحيم من الهوى، وتتلظى في سعير من الحب، وتنجذب نحو الفتى الجميل المفتول بكل ما فيها من نورانية وقداسة. . . وكان يبرز من الماء ليستجم على الشاطئ الناعم الوادع، فتكاد تجن به، وتود لو ترشف قطرات الماء التي تنحدر على جسمانه ذي العضل وتتلألأ في ثنايا شعره الأسود الفاحم
وطفقت توسوس لها نفسها المغرمة بالأماني! وتزخرف لها الأحلام، فصممت أن تتكشف له، وتتبرج على مقربة منه، وتدل وتميس، عسى أن تأسر لبه، وتسبئ قلبه، فيسلس قياده، وينخذل فؤاده، دون مشقة أو عناء. . . ولكن تيتون أبى، واستكبر قلبه أن يلين؛ ولم يستطع ذلك المرمر الناصع الذائب في ساقيها، ولا هذا الورد المتفتح في خديها، ولا الأبالسة الراقصة في عينيها وفوق ثدييها، أن ترقق من عناده، أو تنتصر على فؤاده، أو تسكب في نفسه صبابةً أو هوى
- إذن أنت ما تشتهي!
- أشتهي ماذا أيتها الغادة؟ أذهبي فاعرضي مفاتنك الرخيصة على غيري!
- ومن أنت حتى تكلم أورورا ربة الفجر هكذا؟
- أورورا؟ كيف؟ ما يدريني؟
- أجل، أنا أورورا. . . انظر
وأخذت ترف في الهواء، وتسبح في السماء، وتغوص في الماء، وتأتي من آيات الإعجاز ما بهر تيتون
- الصفح إذن يا ربة؟!
- لا صفح إلا أن تهب لي حبك، وتلقي بين يدي قلبك!
- وكيف، وأنا بشري عاجز، ولا ألبث أن أفني في بضع سنين، وهذا أبي الضعيف الشيخ قد خطب لي حسناء من بنات الملوك؟
- (أما أنك عاجز فلا؛ وأما أنك لا تلبث أن تفنى في بضع سنين فسأهبك الخلود، وسيخلعه عليك زيوس سيد الأولب فلا تموت أبداً، بل تحيا كالآلهة إلى لا نهاية الأزل؛ وأما أبوك الضعيف الشيخ فلا أحب إليه من أن يراك في كل ما ذكرت، ولا سيما إذا علم أنني سأكون لك من دون هذه الفتاة التي خطبها لك، والتي لا تلبث أن يخط الشيب رأسها، ويعصر الزمان عودها فتجف، وتذوي، وتحملها أنت كأثقل الأعباء إلى القبر. . . حيث الدود والذباب، والكلاب والذئاب. . .)
- ولكن. . . ألا تأذنين لي في لقاء أبي؟
- لن يكون هذا أبداً. . .
- هذه قسوة يا ربة!
- ستفتنك هذه القسوة بعد قليل
وانطلقت تداعبه وتلاعبه، وتضاربه وتقالبه، حتى زالت عنه وحشته، فأنس إليها، وأقبل

بكل مشاعره عليها، واتفقا على الرحيل من فورهما إلى اولمب، فانطلقا يطويان الرحب
- من هذا يا بنية؟
-. . .؟. . .
- صيد جميل، ومجازفة جديدة؛ أليس كذلك؟
- أجل يا أبي، وليست مجازفات أبنائك أروع من مجازفاتك
- مجازفاتي أنا؟ أية مجازفات يا أورورا؟
- مجازفاتك الغرامية التي لا تحصى مع الغيد الرعابيب من عبادك
- أي غيد رعابيب يا أورورا؟ جراءة بالغة!
- لعل الإله الأكبر، سيد الأولمب، قد نسى! على كل حال فسيدة الأولمب حيرا العظيمة لا تنسى. . . لقد شهدتك تلهو مع يو، وتعبث مع لاتونا، وتتساقى كؤوس الغرام مع يوروبا. . و. . . و. . .
- أسكتي. . . إنك ابنة لا خير فيك. . . وماذا تبتغين لهذا الشاب الغرانق الجميل يا أورورا؟
- الخلود. . . الخلود يا أبي. . . ينبغي أن يعيش أبداً. . . لن يموت. . . لن يموت. . . ألا تراه جميلاً يا أبتاه؟ ألا تبهرك منه وسامته وقسامته؟ ألا تنظر إليه كيف هو عبل قوي عبقري سمهري؟ لقد لقيته عند شاطئ الهلسبنت، ورأيته يشق اليم فعلقه قلبي، وهويته نفسي. . . وكان الموج يلفه في أعرافه، ثم يسجد تحت قدميه كأنه يقبلهما، فلما خرج من الماء، رأيت الدنيا كلها تحف به، وتغازله وتناغيه، فلم أر أن يفوز به غيري، ولا أن يستأثر بجماله سواي، وقد رضى أن يتبعني إلى أولمب، فتفضل يا أبتاه وامنحه الخلود، فالموت لمثل هذا الجمال قسوة هائلة، وذبول هذا الحسن شيء مخيف جداً. . . ينبغي أن يعيش إلى الأبد حبيبي تيتون. . . أليس كذلك يا أبي؟ أليس كذلك؟ أليس خليقاً بالخلود كالآلهة؟
وتقدم تيتون فسجد بين يدي سيد الأولمب، وتفضل رب الأرباب فمنحه الخلود. . . وا أسفاه! ألا ليته ما فعل. . . ألا ليته ما فعل؟!
قال زيوس وهو يحدث نفسه:
(أذهبي يا أورورا، سأعذبك بهذا الحبيب، وسأنتقم لكبريائي منك، وسيكون تيتون عبئاً ثقيلاً على قلبك، وسيعيش إلى الأبد بجانبك كما اشتهيت، وسأعلمك كيف تستحبين أن تكلمي أباك كما فعلت. . . فوعزتي وجلالي لأعذبنك بألف حبيب وحبيب!)
وعاشت أورورا مع حبيبها أحسن عيش وأجمله، واستمتعا بسنين كانت أشهى من الأحلام، وأنجبا طفلهما اليافع الجميل ممنون فكان لهما كالقبلة الحلوة فوق ثغر الحياة الباسم
ومرت الأيام، وأورورا جميلة وردية كما هي، لأنها ربة، ولأن قوانين الزمان من قدم وحداثة لا تجوز على الآلهة لأنه لا أول لهم ولا انتهاء؛ فأورورا جميلة دائماً، وردية أبداً لا يني قلبها يخفق بالحب وينشده، ويهيم بالجمال ويفتقده، ونفسها عاشقة وامقة كذلك، وإن أماني الغرام تجيش في صدرها دواماً، فهي إن خلت إلى حبيبها تيتون ألزمته فنوناً من العزل، وضروباً من النجوى، إذا صبر لها الشباب، واحتملها الصبا، فليس المشيب بصابر لشيء منها، ولا محتمل القليل الأقل من تكاليفها، ولا له جلد على أفانينها
- ما هذه الشعرة البيضاء التي بزغت في سواد شعرك كما تبزغ نجمة الفجر في أخريات الليل يا حبيبي؟
- أية شعرة بيضاء يا أورورا؟ ربما كانت نذير المشيب يا حبيبتي)!
- المشيب؟! كلمة غريبة لم اسمعها إلا منك! ماذا تعني؟)
- آه! أنتم معشر الآلهة لا تعرفون المشيب، أما نحن، معشر البشر، فسرعان ما يذهب صبانا، ويولي شبابنا، فنشيخ ونهرم، وتصبح لنا رؤوس مجللة بشعر أبيض يشبه إبر الشوك، يقول الشعراء إنه نور قبيح يسعى بين أيدي الكهول ليشق لهم ظلام القبور!!
- يا للهول؟ إن هذا الضرب من خيال الشعراء يخيفني!
- اطمئني! أنا باق إلى جنبك آخر الدهر. أليس قد وهبني الخلود سيد الأولمب؟
- بلى! ولكن. . .
- لكن ماذا؟

- هذه الشعرة البيضاء التي قال فيها شعراؤكم ما قالوا؟
- الشعرة البيضاء؟ ما لها هذه الشعرة البيضاء؟ ليست شيئاً ما دام سيد الأولمب قد وهبني الخلود؛ إن الذي أفزع الشعراء من الشيب هو ما ينذر به غروب شمس الحياة!
- ولكن الشعرة البيضاء تنذر بأكثر من هذا؟
- آه! قد فهمت ما يوسوس في صدرك؟ ألم أعد جميلا يا أورورا؟
- بل أنت ما تزال جميلا يا حبيبي.
- إذن لا عليك من هذه الشعرة البيضاء.
وتمتعا سنوات أخريات؛ ولكن الشعرة البيضاء أصبحت شعرات وشعرات، حتى غلب نور المشيب حلك الشباب؛ ولم تعد لطرة تيتون المصفوفة تلك النضارة وهذه اللمعة، وذلك السحر الذي كان يرف مع النسيم على جبينه المشرق الناصع فيثير الغرام في قلوب
العذارى. . . بل حال لونها الأسود الفاحم، ونبت فيها قتاد شائك تنفشه الرياح على جبين متغضن بآسر ذي أسارير، يبعث الرهبة في أفئدة العفاريت!
- تيتون!
- نعم يا حبيبتي!
- لا! لا! لا تناديني بهذا النداء.
- ولمه؟
- لم يعد يصلح. . . لقد اشتعل رأسك شيباً، وتغضن جبينك، وترهل خداك وبرزت عظامهما، وغارت عيناك جداً وانطفأ فيهما بريق الشباب الغض، والصبي الغريض. وعضلاتك لقد عصرتها السنون يا تيتون! وي! مالك تنحني هكذا؟ هل ضاعت منك درة ثمينة، فأنت تبحث في أديم الأرض بعكازك هذا الغليظ؟ آه! بل ضاع منك شبابك أيها الشيخ الهرم فأنت تبحث عنه في هذا الثرى!
- حسبك يا أورورا. . . حسبك يا ربة!
- (لا، أبداً، ليس حسبي، أغرب عني أيها المسخ الشائه ظل في عقر الدار حتى أرتد إليك!!
وانطلقت ربة الفجر الوردية غاضبة صاخبة، وذهبت تطوي الفيافي وتهيم في الرحب، حتى كانت من غير قصد عند شاطئ الهسبنت، حيث لقيت لأول مرة حبيبها الجميل الشاب تيتون أبن بريام ملك طروادة، منذ نصف قرن من الزمان!! أواه تيتون!! يا للذكريات الحلوة التي تطيف بالقلب كما تطيف أطيب الأحلام بعيني نائم!! هنا، على رمال ذلك الشاطئ الهادئ، وبين طيات ذلك الموج الذي يبدو كأنه لم يتغير، رأت أورورا الوردية تيتون البارع، وشعره الأسود الفاحم يتهدل على جبينه الوضاح، ثم لا يلبث أن يستوي حين تمر عليه أمشاط الأمواج. وهنا. . . ثارت عاصفة الغرام القديم في قلب ربة الفجر الوردية لأول مرة، وشب لظى الحب ملء جوانحها. . . وفوق هذه الرمال السافيات تكتشف أورورا لتيتون الفتى لتخلب لبه وتملك عليه قلبه، ولكنها ما استطاعت إلى ذلك من سبيل، حتى تقلبت تحت قدميه، وتبرجت بين يديه، فرضى ما عرضت عليه، وانطلق معها إلى أولمب! فما لها اليوم غاضبة على تيتون؟
مشت على شاطئ غرامها الأول فثارت في فؤادها الذكريات وأرسلت عينيها تفتش بين طيات الموج الجياش عن تلك الصورة الحبيبة الرائعة، التي تطفو هناك. . . هناك فوق ذاك الثبج كحلم جميل. . . صورة تيتون وهو يصطرع مع اليم فيصرعه، ويغالب اللجة فينتصر عليها. . . ثم جلست على صخرة مشرفة على البحر الممتلئ بالذكريات. . . وطفقت تبكي!
لا ريب أنها عنفت نفسها على ما صنعت أمس مع تيتون! ما ذنبه؟ ما جريرته؟ بأي حق تنعى عليه شيبته ولا يد له فيها؟ ولماذا تخزه بقوارص الكلام لأن جبينه تغضن وأمتلأ بأسارير الكبر؟ ولماذا تعيب عليه عينيه الغائرتين المنطفئتين؟ ولم تذكره بشبابه وتتهكم عليه فتقول له إنه يبحث عنه بعكازة في التراب؟
لا ريب أنها كانت قاسية، ولا ريب أنها لامت نفسها، لأن كل تلك الأفكار ترددت في أعماقها؛ وقد سألت روحها المتألمة ألف سؤال فلم تستطع أن تراها محقة فيما صنعت. . .
وعادت أورورا أدراجها إلى تيتون البائس الهرم فهشت له وبشت، وراحت تملق له،

وتتحايل على قلبها ترجو لو تستطيع ن تخدعه فيسبغ هذه الكومة المتراكمة من القبح والشوه والدمامة؛ قبعت في ركن سحيق تحمل أوضار السنين وتنوء بكارثات الليالي ولبثت تتغفل نفسها بضع سنين؛ ولكن للآلهة كما للبشر قوة محدودة من الاحتمال، ومدى غير واسع من الصبر؛ وقد جاهدت أورورا نفسها مجاهدة طويلة شاقة، عادت بعدها إلى التبرم بتيتون، والضيق بشيخوخته الثقيلة، والنقمة على تلك اللحظة الأسيفة التي لقيته فيها، ونوبة الجنون التي جعلتها تتورط لدى سيد الأولمب فتسأله أن يهب حبيبها نعمة الخلود

- وفيم كل هذا الحزن يا أختاه؟

- وما العمل للخلاص منه؟

- أنت المخطئة، ذلك لا ريب فيه

- مخطئة! وكيف؟ هل كنت علمدة أن أقصد إلى الهلسبنت لأراه ثمة؟

- أبداً وليس هذا ما عنيت

- إذن كيف كنت مخطئة؟

،لأنك سألت سيد الأولمب أن يهب حبيبك الخلود، ونسيت أن تسأليه أن يديم له شبابه ويحفظ عليه صباه. إذن كنت تمتعت بجماله الفتان أبد الحياة!! أليس كذلك يا أورورا؟

- بلى، هو ذاك ولكن. . . لقد سبق السيف العذل!

- على كل حال هناك من هو أجمل من تيتون فلا تبتئسي

- أجمل من تيتون؟ وكيف الخلاص من تيتون قبل كل شيء؟

- (لا أيسر من ذلك، إسحريه!

- أسحره؟! آه، أسحره؟ فكرة يا أختاه! ولكن من هو هذا الشاب الوسيم الذي عنيت أنه أجمل من تيتون؟

- وي! لابد من صيد آخر قبل أن تطلقي سراح الصيد القديم؟

- لا بد يا أختاه لابد؟

- إذن فاذهبي إلى جبل هيماتوس حيث يرعى سيفالوس الجميل قطعانه!

- (ثم. . .؟

- ثم عودي فاسحري تيتون واخلصي منه!

- وماذا ترين أن أسحره إليه؟

- إنه عجوز هرم يدب على عكاز. . . ألا تسحرينه (نطاطا)؟

- بلى! فكرة أخرى نابغة يا أختاه!

ولقيت أورورا حبيبها الجديد سيفالوس الراعي فهويته وشغفته حبا؛ أما تيتون فيا ويحه، ويا ويح للعشاق من قلوب العذارى!

إنه ما يزال إلى اليوم يثب مع آلاف الجنادب في الحقول والغيطان بعد إذ سحرته أورورا

دريني خشبة

البريد الأدبي

مصاير تراث أسبانيا الفني

ماذا كان مصير ذخائر أسبانيا الفنية بعد عام من حرب أهلية طاحنة سحقت في طريقها كل شيء؟ لقد أثار مصير هذا التراث الفني العظيم جزع جميع الدوائر العلمية والفنية في جميع أنحاء العالم، وهو جزع من حقنا أن نشاطر فيه بنوع خاص؛ ذلك أن بين هذا التراث آثار وذخائر إسلامية عزيزة هي البقية الأخيرة من ذكريات الأندلس الإسلامية. وقد رأت حكومة الجمهورية الأسبانية إزاء هذا الجزع أن تدعو العلامة الأثري الإنكليزي السير فريدريك كنيون إلى إسبانيا ليتحقق بنفسه مما بذلته الحكومة من جهود عظيمة لصون هذا التراث؛ فاستجاب السير كنيون إلى هذه الدعوة وطاف أياماً بمدريد وبلنسية، وعاين الأماكن التي نقلت إليها المخطوطات والصور والتحف الفنية، ونشر نتائج تحقيقه في جريدة التيمس. وخلاصتها أن الحكومة الجمهورية قد استطاعت أن تنقذ معظم تراث أسبانيا الفني، وان مجموعة قصر (برادو) التي ظن أنها أتلفت، وهي من أعظم المجموعات الفنية قد نقلت على عجل إلى بلنسية، وحفظت في قلعتها المنيعة في صناديق غير قابلة للحريق؛ وحفظت مجموعة البسط والمنسوجات الملكية أيضاً في أحد أبراج القلعة، ومنها عدة من مجموعة الدوق ألبا

الشهيرة. أما مجموعة الأسكوريال من الكتب والمخطوطات، وهي التي تضم بينها المكتبة العربية الأندلسية، فقد نقل منها نحو ألف مخطوط إلى بلنسية؛ ونقل إليها أيضاً مجموعة كبيرة من نفائس المكتبة الوطنية، وحفظت باقي الكتب والمخطوطات بمدريد في مستودعات أمينة أحيطت بجميع الوسائل الممكنة للصيانة والإنقاذ. ومن ذلك يتضح أن جميع محتويات مكتبة الأسكوريال الشهيرة، ومنها المجموعة العربية الأندلسية التي تضم نحو ستة آلاف وخمسمائة مخطوط عربي قد أنقذت من ويلات الحرب، وحفظت سليمة إلى اليوم، وذلك بالطبع يثلج صدر كل عربي وكل مسلم ولا زالت مجموعة كبيرة من الصور تحفظ بقصر (برادو) غير تلك التي نقلت إلى بلنسية وفيها كثير مما حمل من قصر الأسكوريال؛ ونقلت مجموعة كبيرة من الذخائر المختلفة من صور وتحف خزفية وأثاث وتماثيل إلى أقبية المتحف الأثري، وإلى أقبية كنيسة سان

فرنسيسكو، وهي وإن لم تنظم وتصنف فان كل قطعة منها تحمل تعريفها أما مجموعة الدوق ألبا الشهيرة فقد أصابها بعض التلف، وقد هدم قصر الدوق ألبا المسمى قصر (ليريا)، ولكن أنقذت معظم محتوياته ونقلت مجموعة الصور إلى بلنسية، وكذلك الأواني الذهبية والفضية، والبسط الثمينة. أما المكتبة فقد أنقذت أيضاً ونقلت إلى دار البلدية، وكذلك نقل إليها عدة من قطع الأثاث التي أمكن إنقاذها وأما مجموعة طليطلة فليس يعرف مصيرها؛ وقد نقلت الحكومة بعضها مما كان في الكنيسة الكبرى قبل إخلائها، ولكنها تركت الباقي ومنها صور جريكو وإنجيل سان لويس الشهير وغيرها، ولا يعرف ماذا أصاب هذه الذخائر بعد استيلاء الثوار عليها

صور بالفرنسية من الحياة المصرية الشعبية

من الآثار التي أخرجتها أخيراً بالفرنسية أقلام مصرية كتاب للسيدة قوت القلوب هانم الدمرداشية عنوانه (الحريم) وقد أصدرته دار النشر الفرنسية (جايمار) ضمن المجموعة التي يشرف على إصدارها الكاتب الكبير بول موران؛ ومهد له بول موران نفسه بمقدمة جميلة نوه فيها بما يحتويه الكتاب من صور ساحرة تطبعها البساطة، وتمثل في ألوان زاهية طرفاً من الحياة المصرية في المجتمعات الشعبية؛ ويقول لنا بول موران في خاتمة كلمته إن هذه الصور التي استخرجت من روائع مصر المضطرمة تبعث إلى النفس متاعاً وحرارة وتقترب منا، وتلمح فيها من خلال (النسمات الساحرة أن شمسها هي شمسنا: شمس البحر الأبيض المتوسط

أما الصور التي يقدمها بول موران إلى قرائه فهي: شم النسيم. عقد الزواج. ليلة الحناء. ميلاد. طلاق. قهوة الهانم. ليلة من ليالي رمضان. العيد. ليلة في القرافة. يوم الأضحى. العودة من الحج. سوق البطيخ. مقهى في مصر القديمة. الذكر في جامع سيدي المغربي. المدير في القرية. . . وغيرها وهي صور مألوفة لنا نعرف جميعاً كيف تدور في أوساطنا الشعبية؛ ولكن الطريف هو أن هذه الصور تقدم إلينا بالفرنسية في ألوان أخرى يرى فيها القارئ الغربي متاعاً خاصاً قد لا تسبغه عليها صورها الأصلية؛ وتقدم إلينا المؤلفة هذه الصور المختارة من الحياة المصرية الشعبية بأسلوب بسيط، ولكنه لاذع في مواطن كثيرة ينم عن تمكنها من تفاصيل هذه الصور، وتذوقها لروح هذه التقاليد الغربية التي أخذت

تختفي شيئاً فشيئاً من الحياة المصرية. وإذا كان ثمة ما يبعث إلى الأسف فهو أننا لم نوفق بعد إلى إخراج صور من حياتنا الشعبية باللغة العربية تنبو عن ذلك الابتذال الذي يقترن بتصويرها عادة، وتنفث ذلك الروح اللاذع الذي يسبغه عليها الطابع الأجنبي

آراء جديدة في التربية للكاتب ولز

عقد أخيراً في إنكلترا مؤتمر للتربية برياسة الكاتب الباحث الاجتماعي الشهير هـ. ج. ولز، بسط فيه آراءه في التربية، وهي آراء طريفة خلاصتها أن المواد التي تدرس للنشء يمكن تقسيمها إلى قسمين: قسم يعمل لتكوين الذهن البشري، وقسم لتلقين المعارف. ويرى ولز أنه يجب أن يخصص للقسم الأول ثلاثة أرباع الوقت. ويحمل ولز على نظم التعليم الحاضرة، وخصوصاً في تعليم التاريخ والجغرافيا ويرى من السخف أن تحشد في رؤوس التلاميذ أسماء الأنهار والجبال والمدن، وقصص حب الملوك والملكات والمعارك الحربية السخيفة على النحو الذي تلقى به. ومن رأيه أن تعليم التاريخ يجب أن يدور حول تاريخ النوع البشري، وما وفق إليه الذهن البشري من

الاختراعات العظيمة وتأثيراتها الاقتصادية والاجتماعية في حياة المجتمع؛ أما التاريخ القومي الذي يتخذ اليوم أداة لبث الدعايات المختلفة فيجب أن يكون قطعة من التاريخ العام. ومن العبث أن يحكم على الماضي لصالح الحاضر، أو على الحاضر لصالح الماضي كما هو الشأن اليوم في معظم الدراسات

ولآراء ولز في تعليم التاريخ قيمة خاصة لأنه أستاذ هذه المادة وقد سبق أن عالجها في فرص كثيرة، وكتابه الشهير في خلاصة تاريخ العالم يتأثر بهذا الاتجاه الجديد الذي يريد أن يسير فيه تعليم التاريخ

علم أوراق البردي

دارت في مؤتمر أوراق البردي الدولي الذي عقد أخيراً في اكسفورد مناقشة حول تعريف (علم البردي) (بابيرولوجي) فذكر العلامة السير كنيون أنه يشك في وجود علم حقيقي يمكن أن يطلق عليه هذا الاسم، وأنه من الواجب أن نعترف بأنه لا يوجد مثل هذا العلم، أو أنه إذا وجد فهو علم محدود المدى. وعلم البردي هو العلم الذي يبحث في جميع الكتابات التي تلقيناها على صفحات البردي؛ والمبرر الوحيد لمعاملته كوحدة علمية خاصة هو أن النقوش

التي تلقيناها تتعلق في جميع الأحوال إما بزمن خاص أو موضوع خاص أو بهما معاً. ولقد تلقينا عن طريق البردي معلومات عن الإنجيل والتوراة هي أقدم معلومات من نوعها؛ وقد ألقت ضياء على تاريخ الكتب المقدسة في عصور مظلمة جداً، وردت كثيراً من النصوص إلى أصولها، وأثبتت أن الفساد لم يتطرق إلى النصوص أيام العصر البيزنطي فقط. كذلك تلقينا عن طريق البردي معلومات كثيرة عن الكتابات اليونانية، وتلقينا عن طريقها معلومات نفيسة عن مصر الفرعونية خلال عصر يربي على ألف عام.

والسير كنيون هو أعظم العلماء الأخصائيين في مباحث البردي، وقد بدأ مباحثه فيها منذ نحو خمسين عاماً. ومؤتمر البردي المشار إليه هو الخامس من نوعه. وقد شهده مائة وخمسون عالماً من جميع الأنحاء.

من خطبة واصف غالي باشا الثانية في عصبة الأمم دفاعا عن فلسطين

(إني أشترك من صميم فؤادي مع مندوب نروج في الثناء على مهمة عصبة الأمم وعلى أعمال الدول المنتدبة في مختلف البلدان الواقعة تحت الانتداب، كما أني أقدر الخدمات الجليلة التي يقدمها الذكاء اليهودي للعالم في جميع ميادين النشاط البشري، ولكني لا أكتم أسفي لأن الخدم التي أداها العرب للحضارة عامة وللحضارة الأوربية بنوع خاص أهمل أمرها ولم ينوه بها التنويه الكافي)

(وأنا لا أريد أن أتوغل في هذا البحث ولكني أقول على سبيل التذكير إن أوربا في القرون الوسطى لم تطلع على آثار اليونانيين إلا من التراجم العربية، وإن الفلاسفة والشعراء العرب أثروا تأثيراً عظيماً في الفلسفة والشعر في أوربا الجنوبية، وإن تأثير الفروسية عند العرب في أخلاق القرون الوسطى التي كانت جافية في أول الأمر ساعد على تهذيبها وتثقيفها وتجميلها)

استخدام اللغة العربية في الإذاعة الدولية

من أخبار جنيف أن سكرتارية عصبة الأمم العامة ستدرس في آخر الدورة كيفية استخدام اللغة العربية في نشرات الإذاعة اللاسلكية التي تهم التعاون الفكري، وقد وافقت اللجنة

بالإجماع على استخدام اللغة العربية، على أن هناك حاجة للقول بأن الأموال المرصودة في ميزانية السنة الحالية لا تساعد على نشرات الإذاعة اللاسلكية في مدى كبير، ولكن السكرتارية مصممة تصميما صادقاً على أن تبدأ في تنفيذ القرار وستخصص مبلغاً لهذه الغاية. والبعض يأمل في أن تعطى مصر إعانة مالية كبيرة للبدء في الدعاية التامة.

والإذاعة باللغة العربية فرض أساسي على مصر لأنها أكبر وأغنى البلاد التي تتكلم هذه اللغة. ومع ذلك فمن العدل أن تشترك في ذلك جميع البلدان التي يهمها الأمر بما تسمح به وسائلها المادية

وواجب كذلك على البلدان الأوربية الكبيرة التي لها عدد كبير من الرعايا العرب، كما

أنه واجب على البلدان العربية الأخرى التي هي من أعضاء أو من غير أعضاء عصبة الأمم أن تساهم في هذا العمل، فمسألة التعاون الفكري متعلقة لا بالبلدان التي هي أعضاء في عصبة الأمم، بل بجميع البلدان

إلى سيدي الأستاذ الزيات

أشكر لك رأيك فيما كتبت من مقالات عن فقيد الأدب العربي المرحوم مصطفى صادق الرافعي، وأعتذر من عدم استطاعتي تقديم شيء لهذا العدد والعدد السابق؛ وأنت أعلم بما علي من واجبات ثقال في هذه الأيام تحول بيني وبين كثير مما أحب، وأعد بأن أرسل الجزء التاسع من هذه المقالات للعدد الآتي؛ وأرجو أن تتهيأ لي الظروف التي تعينني على الاستمرار في كتابة تاريخ الرافعي وفاء للرجل الذي وقف حياته للدفاع عن الإسلام والعربية، فلما مات أوشك أن ينساه من المسلمين والعرب إلا قليل من أهل الوفاء. والسلام عليكم ورحمة الله. . .

(شبرا)

محمد سعيد العريان

وفاة الأستاذ كابيتان

توفي الأستاذ هنري كابيتان العضو في المعهد الفرنسي والأستاذ في كلية الحقوق بباريس، والأستاذ كابيتان معروف لدى كثير من المصريين الذين تلقوا علومهم في كلية الحقوق بباريس، حيث كان الفقيد يدرس القانون المدني منذ سنين طويلة. وقد توفي عن 72 عاماً. وكان إلى جانب عضويته في المعهد، عضواً في أكاديمية العلوم الأدبية والسياسية والمجلس الأعلى للمعارف، كما كان يمثل فرنسا في الهيئة الدولية لتوحيد القانون الخاص. وللفقيد مؤلفات قانونية كثيرة جلها خاص بالقانون المدني، وله في (سبب الالتزام) نظرية معروفة.

وكان الأستاذ كابيتان رئيساً للجنة الامتحانات التي جاءت السنة الماضية لامتحان طلبة مدرسة الحقوق الفرنسية في القاهرة وقد طلب من الأستاذ كابيتان حينذاك الإسراع بالعودة إلى باريس بسبب وفاة نجله.

رواية المصدور

تأليف الأستاذ كرم ملحم كرم

للسيد جورج سلستي

أطلت القصة الحديثة على الأدب العربي مستحيرة الوضاءة مكتملة العناصر والتكوين، فهفت إليها الأبصار هفوها إلى الجمال المتألق الضاحي، وتعلقتها الأفكار تعلقها للجديد المستطرف الأخاذ، وتشربتها النفوس بلذة وشغف؛ ونفوس الأدباء أبداً ظمأى للخمرة العلوية يترع الفن بها أقدامهم فيعبون منها ولا يرتوون

والقصة اليوم - وهي تتبوأ الذروة في الأدب - رسالة من رسالات الفكر النير يزفها هدى للناس فنان ملهم، ومشعل من مشاعل الثقافة الشاملة يحمله للورى عبقري فذ؛ رسالة تمشي بالناس نحو هدف من أهداف الإنسانية الكبرى، ومشعل ينير لهم من خفايا نفوسهم ما يجهلون.

فلا غرو إذن - وللقصة هذا المقام الرفيع - إن رأينا أدباءنا يعالجون فنها الساحر على ضوء النظريات الحديثة، ويقدمونها للقراء نتاج ما وصلت إليه قرائحهم من قدرة على تفهم أسرار النفس البشرية الغامضة، واستطاعة على الإبانة عن الشعور بالحق والحب والجمال.

والأستاذ كرم ملحم كرم استهوته القصة وهو أديب ناشئ طرير العود، وقد طلع على الناس بمجلته الروائية الأسبوعية (ألف ليلة وليلة) وهو محرر في جريدة (الأحرار) فعرفنا به أول أديب في قطر الشام وقف جهوده كلها في سبيل الفن الروائي. وهو لا يزال منذ عشر سنوات خلت حتى اليوم يتحف الأدب بروايات شائقة جلها يمت إلى القصص العالي الرفيع، ولا سيما الموضوعة فقد بلغ الكثير منها في الحوار والتحليل وسرد الوقائع شأواً بعيداً في الجودة

و (المصدور) قصة إنسانية، وقائعها مستمدة من صميم الحياة، محورها الحب الشهيد وقطبها العاطفة المقهورة، تتلخص في أن طالباً من أبناء الموسرين هام بحب قروية عذراء أهلها خدم في أملاك أبيه في ضواحي المدينة، وهامت هي به كذلك دون أن

يأبها الهوة السحيقة التي تفصل بين مقاميهما. وعاهدها على الزواج مهما اعترضته العراقيل،
وعاهدته على الوفاء حتى الموت
وهنا يبدأ النضال الشريف في سبيل الحب الطاهر الوثيق بين القلبين الكبيرين، ومن هنا تبدأ الآلام النفسانية المرهقة التي لا تنتهي إلا بمأساة فاجعة
فأهل الحبيب المعمود لم يكادوا يدرون بما يتأجج في فؤاده من هوى مبرح لربيبة نعمتهم حتى ثارت ثائرتهم، وحتى راحوا ينهون فتاهم عن هذا الحب الأعمى الغرار تارة باللطف والحسنى، وطوراً بالتهديد والوعيد، وحتى حالوا بينه وبين تردده على أملاك أبيه في (نهر الكلب) مسرح حبه ومرتع أمانيه
وأهل الفتاة الولهى ما علموا بهوى ابنتهم لابن سيدهم ومولاهم حتى خشوا أن تحل بهم النكبات من جراء هذا الحب المتهور الطائش، ويطردهم أسيادهم من المزرعة التي صرفوا فيها سني حياتهم الهانئة على ما فيها من عناء ووصب، فزجروا الفتاة وعنفوها وزينوا لها حب أبناء القرى العف البريء من المآثم، ونعوا عليها حب أبناء المدن المتقلب الأرعن المليء بالجرائم، فما كانت لترعوى عن غيها في رأيهم وضلالها
ورأى الأهل جميعاً أن يلجئوا إلى الحيلة والإكراه فأوهموا الفتاة أن ابن سيدها الذي تجرأت فرفعت إلى عليائه عينيها الخاطئتين قد تزوج ولم يعبأ بوعوده لها ولا بعهوده، وأرغموها على خطبة من لا ينبض بحبه فؤادها المولّه، فاسودت في نظرها الحياة، وآثرت أن تترهب على أن تزف لغير الحبيب ففرت إلى الدير بعد أن وضعت بعض ثيابها على ضفة النهر في يوم عاصف الأنواء لتوهم أهلها أنها انتحرت
وضللوا الفتى، فقالوا له إن فتاته خطبت إلى فتى من بيئتها أليق بها منه وأنها ستتزوج في العاجل بعد قليل، وأنها سعيدة كل السعادة في حبها الجديد لخطيبها الفلاح
وحتموا عليه أن يتزوج بالفتاة التي انتقوها له لينعم، فرضخ لإرادتهم القاهرة وبنى بابنة بيت رفيع العماد ليشقى!
ولم يلبث أن عاف زوجته واجتوى منزله، وراح ينفق ماله ويبذل شبابه بين الأقداح والغواني لينسى حبه الشهيد البكر، فهزل جسمه وانكفأ لونه من الإدمان في الشراب والإسراف في طلب الهوى الأثيم؛ وما زال كذلك حتى عراه السقام، وعشش في صدره السل الوبيء
في مصح ظهر الباشق بلبنان التقى الحبيبان على غير ميعاد بعد طول البعاد لقاءً مراً على حلاوته الظاهرة، فتى ينفث رئتيه، وراهبة نذرت نفسها لله تعتني بالمرضى من عباده البائسين. فآسته بحنانها في أيامه القلائل المعدودات؛ وبين يديها الطاهرتين، وعلى مرأى من الأبوين الجانيين، فاضت روحه إلى باريها تشكو جور الآباء وجنايتهم على الأبناء
هذه هي القصة بظاهرها، وهذا هو هيكلها؛ أما روحها، أما التحليل الدقيق لنفسيات أبطالها، أما المواقف الغرامية العذرية، وأما ما يتخللها من مفاجآت حادة عنيفة ولطيفة رفيقة معاً، وأما السبك المتين والوصف الأنيق. فهذا ما ملأ به الأستاذ كرم مائتي صفحة تقرأها مندفعاً وأنت تود ألا تنتهي؛ وهذا ما أود من القراء الكرام أن يستمتعوا بمطالعته مثلي، وينعموا في لذة قراءته كما نعمت، فليس الخبر كالخبر، ولا السماع كالنظر
قوام القصة اليوم المقدرة على سرد الحوادث في حينها وعلى تحليل أبطالها تحليلاً نفسانياً متقناً وعلى الإبانة عن هذين العنصرين الرئيسيين - السرد والتحليل - بالأسلوب الشائق الممتع، واللغة الصحيحة الفصيحة من غير ركاكة ولا إسفاف
والأستاذ كرم لم تغب عنه هذه الحقائق عندما كتب (المصدور) فوضعها نصب عينيه فوفق بذلك إلى حد بعيد
وإن يكن من شيء آخذه عليه في هذا الصدد فهو صورة زوجة شفيق بطل القصة؛ فقد جاءت مشوهة لا يرضى عنها الذوق الفني.
فشفيق مال بعد زواجه القهري إلى الدعارة والشراب يدفن فيهما إخفاقه وآلامه، وهذه. ثورة من ثورات النفس الجامحة، ونزوة من نزوات اليأس القاتل التي تجتاح من كان مثل شفيق وفي حالته، ولكن ما بال زوجته تنحدر إلى مثل هوته وهي التي لم ترغم على الزواج منه كما أرغم هو؟ وما بالها تتمرغ في مثل حمأته وقد بنت به

بمطلق رضاها.
أما الأسلوب في القصة فشائق جذاب، ولغته متينة عالية وألفاظه عذبة منتقاة وليس فيها من الخطأ اللغوي إلا النزر اليسير
وما كنا نرغب أن نتعرض لذكرها لولا ضننا بهذا السفر النفيس أن تعلق به أمثال هذه الهنات.
قال المؤلف: (حازت منها نظرة دميعة) وصوابها: دمع أو دمعة يقال: امرأة دمعة ودمع بغيرها إذا كانت غزيرة دمع العين ورجل دميع.
صوابها: البائس من بئس الرجل إذا نزل به عدم أو بلية يرمم لها؛ وأما (الحب البئيس) البئيس فمن بؤس الرجل إذا اشتدت جرأته فان كان هذا مراده فلا غبار عليها.
صوابها: العيش المر (العيش المرير).
صوابها: الفجوع من صيغ المبالغة أي الكثير اللهفة والأسف أو فاجع (نواحها الفجيع) اسم الفاعل.
صوابها: المجدل بتشديد الدال ومعناها المصروع على (زوجها المجندل أمام الموقد) الجدالة من جدل الفارس قرنه أي رماه على الأرض الصلبة.
على أن أمثال هذه الهفوات اليسيرة لا تذهب برونق الكتاب ولا تنقص من قيمته.
ويقيننا أن كرماً سيتداركها في الطبعة التالية إن شاء الله.
جورج سلستي
العدد 222 - بتاريخ: 04 - 10 - 1937
مقتضيات الحروب الحديثة
للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني
كانت الحرب في الأزمنة القديمة لا تدور أرحاؤها إلا بين الجيوش: أي بين الجماعات المجعولة للقتال والمدربة عليه ولا عمل لها في الحياة إلا هذا؛ ومتى غلب جيش جيشاً وألحق به هزيمة تضعضعه وتمنع أن تكون له قدرة على الكر انتهى الأمر ووضعت الحرب أوزارها وسلم المغلوب للغالب بما تفرضه القوة الراجحة. ولكن الحال اختلفت في عصرنا هذا وصارت الحرب صراعاً بين الأمم والشعوب لا بين الجيوش المحترفة وحدها؛ وهذا بعض ما أفضى إليه التقدم الآلي في النواحي المختلفة. فلم تعد الجيوش وحدها تكفي، ولم يبق من الممكن الاجتزاء بها والتعويل عليها وحدها كما كان الحال في العصور الغابرة، بل صارت الحالة تدعو إلى إعداد الأمة كلها للحرب وتدريب كل فرد من أفرادها على فنونها وتهيئته لما تقتضيه حاجاتها ومطالبها؛ وما نرى من عناية الدول المختلفة بأن ينشأ شبانها نشأة عسكرية من الصغر وتدريبهم على الحركات الحربية واستعمال أدوات القتال البرية والبحرية والجوية لتكون منهم للدولة ذخيرة تستمد منها وتعتمد عليها إذا وقعت الواقعة. وقد توسعت الدول في هذا الاستعداد حتى امتد الأمر إلى المرأة، فالطالبات أيضاً لهن فرق يتعلمن هذه الحركات العسكرية ويحملن البنادق ويتدربن على تسديدها إلى الأهداف وعلى مشقات الحياة في الخنادق فضلا عن واجبات التمريض والصناعات اللازمة للحرب مثل الذخيرة وما إلى ذلك؛ وهو توسع في الأهبة لا حيلة فيه ولا مفر منه إذا شاءت الأمة أن تأمن وتطمئن بعد أن صار من السهل أن يتخطى العدو الجيوش الراصدة له وأن يمطر القرى والمدن وابلاً من القنابل المخربة والغازات الفتاكة. وبعد أن أصبح كل شيء وكل مكان صالحاً لأن يكون غرضاً للعدو وميدان للقتال
ولم يسع الأمم العربية والشرقية إلا أن تحتذي هذا المثال، وإلا أن تنسج على ذلك المنوال. ففي تركيا تتدرب الفتيات كما يتدرب الفتيان على أساليب الحرب وآلاتها بلا فرق. وفي العراق أدخل التعليم العسكري في المدارس الثانوية، فكل طالب فيها يتلقى هذا التعليم كما يتلقى غيره من العلوم والمعارف المدنية في الساحات المجعولة لذلك؛ وقد سميت فرق الطلبة: (فرق الفتوة). وكنا قد شرعنا في مثل ذلك في مصر ولكن على غير نهج مقرر أو
خطة مرسومة معروفة الوسائل والغايات؛ وذلك أن الجامعة رأت في العام الماضي أن تعنى بالتربية الرياضية وألبست الطلبة أردية خاصة واستقدمت لتدريبهم رجالاً من رجال الجندية، ورغبت في تدريبهم على استعمال البنادق فاستأذنت أولي الأمر، وقيل أنهم أذنوا، ولكنا لم نر أثراً لهذا الإذن، وكان ذلك ختام ما بدأته الجامعة

أما في هذا العام فإن المرجو والمنتظر أن يكون هذا الأمر جدا، أو هو ينبغي أن يكون كذلك. وقد طلبت البعثة العسكرية البريطانية التي جيء بها لتدريب الجيش المصري إدخال التعليم العسكري في المدارس الثانوية وفي الجامعة على الأخص. ولا غرابة في هذا الطلب أو الاقتراح، فإن البعثة تدرك أدق ما يقتضيه التطور الحديث في الحرب ومطالبها، فإن الجيوش لا تكفي ولا غناء لها - مهما بلغ من ضخامتها ووفاء عدتها ووفرة أسلحتها - ولا مهرب من أن تكون الأمة كلها جيشاً عند الحاجة بعد أن انتفى الفرق من حيث التعرض لحملات العدو بين الذين يكونون في الصفوف الأولى من خطوط القتال والذين يكونون في بيوتهم أو قراهم في أقصى طرف من البلاد ولاشك أن الحرب بلاء ونقمة، وأن الرقي الآلي الحديث قد جعلها آفة ماحقة، ولكن الرجاء في السلامة من هذا البلاء لا يكون بالاكتفاء بالإنحاء عليها، وبسط اللسان فيها، والقول بأنها شر مستطير وخراب شامل؛ وإنما يكون الرجاء في أخذ الاهبة، واستيفاء العدة، ولاسيما إذا كانت البلاد مكشوفة كبلادنا ومطموعاً فيها ومهددة بالغزو في أي لحظة تستعر فيها نار الحرب كما نحن مهددون

على أن التدريب العسكري أو الرياضي - إذا آثرت هذا اللفظ الذي لا يزعج - حسن في ذاته ومحمود، بغض النظر عن الأغراض الحربية؛ ويكفي أنه يقوم الأجسام، ويصلح الأبدان، ويهذب النفس ويقويها، ويجعل المرء على العموم أكفأ وأقدر على القيام بفرائضها والاضطلاع بتكاليفها

على أنا أمة مهددة بأن تصبح بلادها أوسع ميادين الحرب وأهولها إذا شاءت المقادير أن تشب نارها بين دول الغرب، فلا حاجة بنا إلى قول شيء في فضل التربية الرياضية ومزيتها وقيمتها فقد صار الأمر لا معدى عنه بحكم الظروف والأحوال لا بالاختيار والرأي والهوى. وهذه الأحوال تقضي علينا بأن نختار أحد أمرين: الأول أن نوطن أنفسنا على أن

تأكلنا أول دولة تطمع فينا وتتاح لها فرصة العدوان علينا، فإذا آثرنا هذا المصير الزري فليس علينا حينئذ إلا أن نقعد منتظرين من يجيء ليستولي علينا؛ والثاني نوطن أنفسنا على الذود الواجب عن حقيقتنا والدفاع عن حريتنا واستقلالنا ورد كل عدوان عليهما، فإذا كان هذا هكذا فالأمر بين، وعلينا إذن أن نعد العدة لهذا الدفاع وأن نتخذ له كل أهبة يفرضها التطور الحديث في الحرب ووسائلها وأساليبها وآلاتها؛ ولابد حينئذ من تهيئة الأمة لمطالب هذه الحرب المخوفة على نحو يكفل للدولة الانتفاع التام بقوى الرجال والنساء فيها جميعاً، فللنساء ما يستطعن أن يحسن من الأعمال، ولا خفاء بهذه فإنها معروفة، وعلى الرجال أن يكون كل واحد منهم مستعداً لحمل السلاح والسير إلى حيث تحتاج إليه الدولة لعمل من أعمال الدفاع القومي؛ ولا يتسنى هذا إلا إذا دربنا الفتيان من الآن في المدارس والجامعة على إتقان ما عسى أن يطالبوا به إذا دعاهم داعي الوطن

وقد يتوهم البعض أن هذه الدعوة التي أرسلها لا تخلو من إسراف وشطط ومبالغة في تصور الأخطار وتجسيمها والتهويل بها، ولكني أعتقد أن الأمر على خلاف ذلك وأن الحال على نقيضه وأعني بذلك أننا أسرفنا في الاطمئنان وبالغنا في الإخلاد إلى دواعي الأمن والثقة والاستراحة إلى انتفاء المخاوف؛ وقد آن لنا جداً أن ندير عيوننا فيما حولنا، وأن نتدبر دلالة ما نرى، وأن نمد بصرنا إلى أبعد من يومنا الحاضر. والمثل يقول: (من مأمنه يؤتى الحذر) فكيف بالذي لا يحذر شيئاً، ولا يتقي أمراً؟ وهب أنه لا مطمع فينا فإن خلو بلادنا من وسائل الدفاع الكافي، وضآلة عدتنا يغريان بنا الطامعين. ومازال الضعف إغراء كافياً للقوى بالوثب. ولنحن غير أهل للاستقلال إذا لم نحسن الحرص عليه والضن به ولم نعد العدة لطول الذود عنه والكفاح دونه. وقد يجيء زمن تبطل فيه الحروب وتعيش فيه الأمم إخواناً متآزرين متعاونين؛ غير أنه إلى أن يجيء هذا الوقت السعيد لا يسع أمة تعرف لحقها في الحياة قيمته وتدرك ما تقتضيه المحافظة عليه إلا أن تستعد للحرب دونه. وعسير جداً أن تحيا أمة عزلاء في أمان من المخاوف بين أمم مدججة شاكية في البر والبحر والهواء

إبراهيم عبد القادر المازني

الفيلسوف الحاكم

للأستاذ عباس محمود العقاد

شهدنا بعد الحرب عجباً من عجب السياسة والرآسة لم يشهده جيل واحد من تاريخ بني الإنسان
شهدنا موسيقاراً على رأس دولة، وفيلسوفاً على رأس دولة أخرى، وهو قبل ذلك ابن حوذي وتلميذ حداد، ونقاشين وأفقيين على رؤوس دول أخرى يجلسون على عروش القياصرة والخواقين، ويسوسون شعوباً كبيرة بلغ بعضها الذروة من الحضارة والنظام أحب هؤلاء جميعاً وأولاهم بعطف النفس الإنسانية فيما نظن هو الفيلسوف الحاكم (مازاريك) الذي قام على جمهورية التشك والسلواق بعد الحرب العظمى، وقضى نحبه في الشهر الغابر وهو في السابعة والثمانين
قرأت له قبل أن أسمع الشيء الكثير عن سيرته في الجهاد الوطني وعن مساعيه في السياسة الدولية: قرأت له كتابه الحافل عن (روح الروسيا) فأكبرت منه اطلاعاً واسعاً يخيل إليك أن صاحبه لن يفرغ معه لعمل من الأعمال الجسام. وخلاصة ما يقال في الكتاب أنه لم يدع فيلسوفاً واحداً من الأقدمين أو المحدثين إلا ألم برأيه وتعقب الصلات الفكرية والاجتماعية بينه وبين عقول الدعاة البارزين من فطاحل الروسيين ووقعت لي بعد هذا الكتاب شذور من تواليفه الكثيرة يكفي لبيان نطاقها الواسع وموضوعاتها المختلفة أنها تناولت التنويم المغناطيسي كما تناولت فلسفة باسكال وهيوم، وتناولت أدب الصقالبة كما تناولت الثورة العالمية، وصدرت في ذلك كله عن صدر رحب بريء من العصبية والضغينة وعن ذهن شامل مفتح المنافذ على شتى الأنحاء
في تاريخ هذا الرجل عبر لا تنتهي لمن شاء أن يتأمل في أخلاق الناس وفي موازين العدل والأنصاف بين الأمم، وفي ضعف الإنسان ولو كان من الحكماء وكان من الحاكمين
كنت أقرأ الثناء عليه وأقرأ الزراية على (روجر كازمنت) الشهيد الأيرلندي في وقت واحد
وكنت أقرأ الثناء والإزراء على عمل واحد في وقت واحد وصحافة واحدة، فأعجب للعقول وأعجب للأهواء، وأعجب لمن خطر لهم أن يقولوا مرة من المرات ولو من قبيل التجوز والمزاح: كل شيء بالعقل في هذه الدنيا!! وما في هذه الدنيا شيء إلا ،وللعقل فيه حيرة
وللضلال فيه جانب مقرون بجانب الهداية
هرب مازاريك من بلاده واتفق مع الحلفاء على تأليف جيش من أبناء وطنه الأسرى والمبعدين، ونجح فكان من الأبطال وأقام في قصور هابسبرج، ومات بين التعظيم والمحبة والإطراء
وصنع (روجر كازمنت)، ما صنع مازاريك فهرب من بلاده واتفق مع الألمان على تأليف جيش من أبناء وطنه الأسرى والمبعدين، وفشل فكان من الخونة المجرمين، وسيق إلى القبر وهو ينظر إلى الشمس السافرة ويهتف: ما أجمل هذا الصباح! ولكنه كان صباحه الأخير
والصحف البريطانية يومذاك تذكر هذا وتذكر ذاك، فأما مازاريك فبطل كريم، وأما كازمنت فخائن أثيم. ويتبع ذلك ما يتبع الإخفاق والخزي من فرية المفتري، وأكذوبة الكاذب، واجتراء اللئيم
كان مازاريك في صباه عوناً للمستضعفين ولو كانوا مبغضين منبوذين، وكان نصيراً للحق ولو كان الباطل أدنى منه إلى الشهرة والإعجاب. فدافع عن اليهود في بلاد لا يطاق فيها اسم أبناء إسرائيل، وزيف الأسانيد الموروثة التي يفخر بها أبناء قومه ويعتدونها من تراث الوطن الحرام المضنون به على النقد والتشكيك، فكان أبوه أول من صدق فيه تهمة القادحين وذهب إليه يستأديه بعض المال الذي قبضه من مصارف اليهود، وكان الغلاة من دعاة الوطنية في بلاده أول من تبرأ منه وخاض في عرضه حتى قال قائلهم: (إن عاراً على وطنه أن يكون بين نسائه امرأة حملت في بطنها مازاريك)
ودارت الأيام دورتها فإذا بهذا العار هو عنوان وطنه، وهو القائل باسمه والكاتب باسمه والوكيل الذي اجتمع وكلاء بلاده بعد الحرب العظمى يعلنون على الملأ الأوربي أن كل ما وقعه مازاريك في ديار الهجرة والاغتراب هو صك نافذ على البلاد تدين به وترعاه

وجرى حديث مستفيض بين الحاكم الفيلسوف وبين المؤرخ المشهور أميل لدفج استغرق أياماً، وجمعه لدفج في كتاب جاوزت صفحاته ثلاثمائة صفحة، واختار له عنواناً: (حامي الديمقراطية- أو مازاريك يتكلم)

من قرأ هذا الكتاب سمع أفلاطون وأرسطو يتكلمان في العصر الحديث؛ غير أن الإيمان

بالديمقراطية فيه أكبر من إيمان صاحب المدينة الفاضلة وصاحب السياسة المدنية، لأن الحاكم الفيلسوف لا يعدل بالحرية الفردية نعمة من نعم الأرض ولا نعم السماء؛ وينعى على كارل ماركس كما ينعى على موسوليني أنهما يطويان الفرد في الحكومة، ويضحيان بالواحد على مذبح الجملة؛ ويسأله لدفج أيهما أحق لديه بالتقديم والإيثار: السلطان أو الحرية، وإرادة الحكومة أو إرادة الأفراد؟ فيقول: (ليس في وسعي أن أعتقد أن ضمير الفرد مطوي في ضمير اجتماعي واحد. إذ ليس في الدنيا من شيء محقق غير الضمائر الفردية. وليس أمام السياسة إلا أفراد اجتمعوا على هذا النحو ليتألف منهم مجتمع واحد يكون على ضروب شتى ومنها الفاشية. أما أنا - وأنا من الفرديين - فليس يسعني أن أسيغ فكرة الإدماج أو إلغاء الأفراد، وأن تكون الحكومة أو الأمة أو الشعب ممثلة في شخص واحد. ولا أنسى أن هنالك علماء اجتماعيين ودعاة سياسيين يقبلون ما يسمونه ضمير المجتمع وينكرون ضمائر الأفراد متفرقين، ولكنها فكرة لا يقرها العلم، ومصدرها النزعة الأرستقراطية في السياسة. . .)

ووددت لو أن (مازاريك) حين مات كنت محتفظا له بتلك الصورة التي تناسقت وتلاحقت من جهاد الشباب ومن ثورته في الكهولة، ومن بحوثه ومصنفاته، ومن رسالة الديمقراطية التي قام بها على سرير الدولة كما قام بها من قبل على منصة التعليم وعلى منبر الدعاية

ولكن الفيلسوف الذي يستبقي في الحكم صورة أفلاطون أو صورة (السياسة الغدرية) إن هو إلا أسطورة من أساطير الخيال، نتوهمها بالنظر ونترسمها بالأمل، ولا نلمحها بعين الواقع ولو أغضينا عن كثير

قبل أن يقضي الموت قضاءه في الحاكم الحكيم بأشهر معدودات وقع لي كتاب عن أوربا الوسطى للكاتب الإنجليزي هنري بوتسي أسماه (اليد السوداء على أوربا) أحصى فيه مظالم الشعوب الصغيرة التي ضمتها معاهدة فرساي إلى حكومات لا تحبهم ولا يحبونها، ومنها شعب السلواق المضمومين إلى حكومة (مازاريك) رسول الديمقراطية ونصير كل شعب مظلوم أيام كان الظلم نازلا بتلك الشعوب من آل هابسبرج!

وكان مازاريك قد عاقد وكلاء السلواق المقيمين بالولايات المتحدة في السادس والعشرين من شهر مايو سنة 1915 أن تكون حكومتهم مستقلة في داخل الدولة على مثال الولايات

المتحدة الأميركية، وأن يكون لهم مجلسهم النيابي، ومحاكمهم التي يضعون لها شرائعها، ولغتهم في التعليم والإدارة والحياة العامة

فلما جاء يوم الإنجاز وقامت الدولة التي مهد لها أولئك الوكلاء إذا بأرضهم مستعمرة مملوكة، وإذا بهم أتباع مسخرون، وإذا بالعقد المبرم قصاصة مهملة، وإذا بالحاكم الحكيم يتحلل من عقده فيلجأ إلى حيلة لم يلجأ إليها عاهل من عواهل هابسبرج ولا متحذلق عندنا من صناع الفتاوى وطلاب الحيل الشرعية، فيقول لوكلاء الشعب المهضوم إن العقد إنما أبرم في يوم بطالة رسمية عند الأمة الأميركية، وذلك في شرع البلاد التي أبرم فيها مبطل لشروطه ناقض لفحواه!

ويلي ذلك قصة أليمة من قصص المظالم والدعايات الكاذبة، بحت فيها الأصوات وذهبت فيها صرخات المغلوبين على آذان عصبة الأمم كما تذهب زمجرة البحر الصاخب بين أجواز الفضاء

سيرة الرجل عبرة لا تنقضي ودروس لا تنفد. أولها: أن الفيلسوف لم يسلم من لوثة الحكم والسياسة ولو أضمر الخير وأسلف الجهاد الطويل في قضايا المظالم والشكايا

وثانيها: أن الديمقراطية لا تسلم في وطن تختلف أجناسه ولغاته وأديانه وطبقات الحضارة فيه إلا على أساس (الولايات المتحدة) التي يستقل فيها كل فريق بالحكم والتشريع

وثالثها: أن أوربا الوسطى لا تزال كما كانت قبل الحرب العظمى غيلاً تصطرع فيه

ضواري الأحقاد ويوشك أن يندفع بالعالم مرة أخرى إلى حرب لا تؤمن لها عاقبة وإننا على ما أنتاب الديمقراطية من خيبة، وما تعاورها من نقض وتقويض، لا نزال على إيمان وثيق بها أنها هي كهف السلام ومعقل بني الإنسان، ومآل الحكم في المستقبل البعيد إن لم يعجل لها النصر في مستقبل قريب

فالدول الديمقراطية لا تبغي الحرب كما تبغيها الدول الدكتاتورية، وبريطانيا العظمى وفرنسا والولايات المتحدة لا يخشى منها على سلام العالم كما يخشى من إيطاليا وألمانيا واليابان والجمهوريات الروسية

ولقد يقال إن بريطانيا العظمى وفرنسا والولايات المتحدة إنما تسالم الدول الأخريات لأنها شبعت من المستعمرات فلا حاجة بها إلى المشاكسة ولا إلى اقتحام المشكلات، لكنه

اعتراض وجيه في ظاهره غير وجيه في لبابه. إذ أن المسالمة والاكتفاء شأن جميع الدول الديمقراطية ولو لم تكن لها مستعمرات ولا أسواق مملوكة في بلاد المستضعفين؛ وهذه الدنمرك والسويد والنرويج وسويسرة لا تمتلك أرضاً وهي من اليسر والرواج في حال يحسدها عليه المالكون؛ وربما خلت من الجند والسلاح فليس بها إلا قليل من الشرطة وما يحتاجون إليه من أداة

إنما الحقيقة أن الدكتاتورية والحرب قرينان لا يفترقان، لأن الدكتاتورية لا تقوم إلا على عسكرية، والعسكرية لا تستقر طويلاً بغير قتال، ولا أمان للعالم كله إلا باتجاه سريع إلى الديمقراطية يقصيه من زبانية الاستبداد سواء كانوا من أهل اليمين أو من أهل الشمال

عباس محمود العقاد

الفنادق والمقاهي التاريخية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كما أن الآثار والأطلال والذكريات الباقية تستمد جلالها من الحوادث والمناسبات التاريخية التي ارتبطت بقيامها، فكذلك تستمد جلالها من الزمن؛ وقد يكون الزمن كل شيء فيما تتشح به الأطلال الدوارس أحياناً من روعة الخلود؛ وأقدم الهياكل والآثار هي بلا ريب أعرقها من هذه الناحية؛ فالقديم مهما كانت ضالته من الناحية التاريخية أو الفنية يبعث إلى النفس أثراً خاصاً ويحملها إلى تلك العصور الذاهبة الذي يرجع إليها ويرتبط بها

فما بالك إذا كان هذا الأثر أو الصرح القديم لا يزال كسابق عهده يقوم بمهمته التي أنشئ لها منذ الأحقاب المتعاقبة، ويمتلئ حياة وبهجة، ويساير العصر، ويربط الحاضر بالماضي بأوثق الصلات؟

لسنا نريد أن نحدثك في هذا المقال عن معاهد أو آثار تاريخية من هياكل أو صروح أو معاهد أو غيرها مما أصطلح على اعتباره آثاراً تاريخية تمتاز بقيمتها الفنية وبالمناسبات العظيمة التي أنشئت من أجلها؛ ولكنا نريد أن نحدثك عن نوع آخر من هذه المنشآت التي قامت دون مناسبة تاريخية خاصة لتقوم بمهمة من مهام الحياة العادية، ثم استطاعت أن تغالب صروف الزمن، وأن تحمل رسالتها المتواضعة خلال أحقاب وأحقاب، وأن تبقى إلى اليوم قائمة بنفس مهمتها، وأن تكتسب بذلك جلال القديم وروعته

نريد بذلك الفنادق والمقاهي التاريخية

أنه لمن الشائق حقاً أن تنزل في فندق ما، أو تجلس في مقهى أو مطعم ما، فيقال لك إن هذا الفندق أو المطعم أو المقهى يرجع قيامه إلى أربعة قرون أو خمسة، وأنه لا يزال كما نشأ باسمه وأوضاعه القائمة لم يتغير منه شيء إلا ما اقتضاه الزمن من أعمال الصيانة، وإن كثيراً من الشخصيات التاريخية العظيمة قد مرت به قبلك، ونزلت حيث تنزل أو جلست حيث تجلس. إن في ذلك ما يذكي الخيال ويبعث إلى النفس جلالا خاصا هو جلال هذه الأحقاب الطويلة التي مرت بهذه النشأة المتواضعة، وجلال تلك الشخصيات التاريخية العظيمة التي مازالت ذكرياته وأشباحها تطوف بالمكان وتسبغ عليه من روعتها ما لم يسبغه التاريخ

ولقد آنست هذه المشاعر في كثير من المنشآت الاجتماعية التاريخية التي أتيحت لي زيارتها خلال تجوالي في العواصم الأوربية وآنستها هذا العام بنوع خاص خلال رحلة

قمت بها في بلاد التيرول النمسوية. فذكرت أننا في مصر لا نعرف اليوم أمثال هذه المنشآت، ليس فقط لأن أحداث الزمن لم تبق منها على شيء، بل لأننا أيضاً فقدنا في عصور الانحطاط خلة الاستمرار، فلا نعرف في مصر منشأة تجارية أو اجتماعية أو فندقاً أو مقهى أو غيرها من المنشآت المماثلة تخطت قرناً محافظة على قديمها، متصلة بحديثها، وهو ما يعتبر من الأمور العادية في العواصم الأوربية حيث يرجع كثير من هذه المنشآت إلى أحقاب وقرون. ولقد عرفنا هذه المنشآت في العصور الوسطى، فكان للقاهرة فنادق ومقاهٍ، تخطت دولاً وعصوراً وهي تقوم بمهمتها الاجتماعية. وإنه ليحضرني الآن منها مثلٌ هو فندق مسرور أو خان (مسرور) الذي يحدثنا عنه المقريزي في غير موضع، والذي لبث عصوراً مهبط الواردين إلى القاهرة من كل صوب يتناقل السياح اسمه في جميع الأقطار الإسلامية، والذي تذكره قصص ألف ليلة وليلة في مواضع مختلفة ترجع إلى عصور مختلفة كأنه علم على القاهرة، وكانت القاهرة أيام السلاطين تموج بأمثال هذه المنشآت المعمرة من ربط وفنادق وخانات ووكالات شهيرة دثر معظمها أيام العصر التركي. وفي خطط المقريزي بيانات شائقة عن هذه المنشآت التي لعبت مدى عصور دوراً كبيراً في الحياة الاجتماعية المصرية.

أما اليوم فإن القاهرة التي تغص بالآثار والصروح التاريخية العامة لا تعرف شيئاً من هذه المنشآت الخاصة التي يسبغ عليها القديم جلاله، والتي تساير الحياة الاجتماعية في عصورها ومراحلها المتعاقبة

مما يلفت نظر السائح في مدينة أنزبروك عاصمة التيرول فندق (النسر الذهبي) وهو صرح متواضع يقوم على صف من الحنايا المعقودة على الطراز القوطي؛ ولكن هذا الصرح المتواضع يقوم حيث هو، ويؤدي نفس مهمته في إيواء السياح وإطعامهم منذ نحو خمسمائة عام، وفي مدينة انزبروك القديمة التي تمتاز بدروبها الضيقة وأبنيتها القوطية العتيقة، عدة من هذه الفنادق والمطاعم القديمة التي طوت أجيالاً عديدة من حياتها؛ ولكن (النسر الذهبي) يمتاز عنها جميعاً بتاريخه المجيد. فقد حفلت غرفه الضيقة وأبهاؤه

المنخفضة التي لم يغير تعاقب الزمن شيئاً من أوضاعها بكثير من الملوك والعظماء في مختلف العصور؛ وقد وضعت على بابه لوحتان من الرخام نقشت عليهما أسماء هؤلاء الملوك والعظماء وتواريخ نزولهم فيه؛ ولفت نظرنا بين هذا الثبت بنوع خاص اسم أمير تونس حيث نزل في فندق النسر الذهبي مع حاشيته في سنة 1540م، واسم يوهان فولفجانج فون جيته شاعر ألمانيا الأكبر حيث نزل فيه سنة 1798م، وأسماء عدة أخرى من ملوك أوربا وأمرائها نزلوا فيه في القرن السادس عشر أو السابع عشر أو الثامن عشر؛ وإن الإنسان ليتلو هذا الثبت التاريخي الحافل متأثراً، وهو يرجع بذهنه إلى تلك التواريخ والعصور البعيدة فيأخذه شعور من الإجلال والروع لهذا القديم التالد الذي مازال يمتلئ حياة ورغبة في مسايرة الزمن. ولقد كان مقام جيته في فندق (النسر الذهبي) حادثاً ذا أهمية خاصة خلدت ذكراه إلى يومنا بإقامة مطعم باسم جيته إلى جانب الفندق مازال مقصد الواردين من كل صوب؛ يجذبهم اسم الشاعر وذكراه قبل أن تجذبهم الأطعمة الشهية التي يتناولونها، وروح الشاعر ترفرف عليهم

وتوجد بالمدينة أيضاً عدة منشآت أخرى من فنادق ومطاعم وأبهاء للنبيذ يرجع معظمها إلى قرنين أو ثلاثة قرون ومنها بهو النبيذ الشهير (أوتوبرج) الذي يرجع قيامه إلى نحو قرنين. ولا زال حيث هو يشرف على نهر (إن) ويقوم بنفس مهمته في استقبال الآكلين والشاربين

وفي العاصمة النمسوية فينا جملة كبيرة من هذه الفنادق والمقاهي التاريخية التي قطعت قروناً من أعمارها، وشهدت عصور الإمبراطورية الزاهرة، ولم تؤثر في حياتها أحداث الزمن، ولا زالت تقوم في جنبات العاصمة النمسوية تستطع بالليل كأنها قطع من النور؛ وهي تزهو جميعاً بماضيها كما تزهو بحاضرها. وقد يضيق بنا المقام إذا حاولنا هنا تعداد الأمثلة، وربما أتيحت لنا بعد فرصة أخرى للتحدث عن هذه المقاهي الشهيرة التي تلعب أكبر دور في الحياة الاجتماعية النمسوية. ولكنا نذكر سبيل على التمثيل مثلين يلفتان النظر بحق: أولهما مطعم (لنده) الشهير الذي يقوم حيث هو منذ

أكثر من خمسمائة عام في شارع (البرج الأحمر)، (روتنتوم) والذي شهد حصار الترك الأول للعاصمة النمسوية سنة 1570م، واحتفل منذ حين بمرور خمسمائة عام على قيامه، ومن الشائق أن ترى تاريخ

إنشائه منقوشاً على ما يقدم إليك من آنية الطعام، فيذكرك دائماً بعمره المديد وماضيه الحافل؛ والثاني مثل (منزل الطرب) الشهير في حي براتر، وقد أنشئ في أوائل القرن السادس عشر، ولا يزال يقوم حيث هو؛ وهو اليوم مطعم ومرقص، ولكنه كان من قبل منزل راحة ورياضة ملكيا؛ وقد بدأ حياته الجديدة من نحو قرن وكان خلال القرن الماضي مسرحاً لعدة من الحوادث الاجتماعية الشهيرة، وكان بالأخص منتدى محبوباً للأرشيدوق رودلف فون هبسبرج ابن الإمبراطور فرانز يوسف وولي عهده، يقصده مع صحبه لقضاء السهرات المرحة، ولا زالت ذكريات هذا الأمير المنكود الذي زهق في ريعان شبابه في ظروف غامضة، ماثلة في هذا البهو الأنيق تطوف بزائريه، وتذكرهم بالمأساة الشهيرة التي اقترنت بمصرعه في يناير سنة 1889م

وفي معظم العواصم الأوربية نجد أمثال هذه المنشآت تذكر السائح المتجول بالمناسبات والعصور التي قامت فيها، وتقدم إليه طائفة من الذكريات السابقة التي يلذ استعراضها وتأملها

وهذه المنشآت الاجتماعية القديمة فضلا عن كونها تزين العواصم الجليلة، تلعب في الواقع دوراً عظيماً في الحياة الاجتماعية الخارجية؛ وكثير منها يعتبر بحق نوعا من الآثار القيمة التي تجب المحافظة عليها لا من الوجهة الأثرية أو الفنية لأن معظمها يتطور ويتجدد من هذه الناحية مسايراً للعصر وللحياة، ولكن حرصاً على قديمها وعلى تراثها من الذكريات القديمة التي امتزجت بحياة المدينة وحياة الشعب. ولا زلنا نذكر بهذه المناسبة تلك الضجة التي قامت منذ أعوام في الصحف الفرنسية بمناسبة هدم البناء القديم الذي كان يشغله الملهى الباريزي الشهير المسمى (بالطاحونة الحمراء) (مولان روج) عندما أريد تجديد الشارع الذي يقوم فيه فقد ثارت الصحف يومئذ لهذا الأجراء وعز عليها أن يختفي هذا الملهى الشهير الذي امتزجت فيه ذكرياته الساحرة بالحياة الباريزية الليلية حيناً من الدهر، وأصبح من أشهر المنتديات الاجتماعية التي تجذب كل زائر لباريس

وفي معظم الأحيان تقترن أسماء هذه المنشآت الاجتماعية القديمة بأسماء كثير من الشخصيات التاريخية، فنجد مقهى أو منتدى معيناً يؤمه كتاب العصر وشعراؤه، وفي هذا المقهى يجتمعون ويتسامرون، ويكتبون وينظمون، وفيه تتفتح مواهب الكثير منهم، وفيه

يتألق نجم بعضهم وتسبغ أسماؤهم فيما بعد على المكان كثيراً من رنينها وشهرتها. فمثلا نجد اسم (المقهى الإنكليزي) (كافيه أنجليه) الذي سطع في باريس في أواخر القرن الماضي يقترن بأسماء كثير من أعلام السياسة والتفكير والأدب في هذه الفترة، وفيه بزغ مجد الكثير منهم

والخلاصة أن الفنادق والمقاهي التاريخية تستحق أن تؤرخ كما تؤرخ الهياكل والصروح الأثرية، وإذا كانت الهياكل والصروح العظيمة تجد دائماً من يتصدى لدراستها وتاريخها من النواحي الأثرية والفنية، فإن الفنادق والمقاهي تستحق أن تدرس من وجوه أخرى تمت بأكبر الصلات إلى تاريخ المجتمعات التي تقوم فيها، وتاريخ الأخلاق والعادات الشعبية، وهي وجوه لا تخفى أهميتها. ولقد قرأت منذ أعوام في إحدى الصحف الفرنسية عدة مقالات شائقة لأحد مشاهير الكتاب (حياة مقهى باريزي عظيم) فأعجبت بطرافتها وتلاوتها وودت لو أننا نستطيع أن نقدم إلى قرائنا مثل هذه الصور الاجتماعية الساحرة. ورحم الله مؤرخنا الكبير تقي الدين المقريزي إذ فطن منذ خمسة قرون إلى أهمية هذه النواحي الاجتماعية في حياة الأمصار العظيمة فأنفق أعواماً طويلة من حياته في دراسة الأحياء والدروب والصروح والمعاهد والمنتديات الاجتماعية، وقدم إلينا في (خططه) مجموعة من الصور الاجتماعية والشعبية لمدينة القاهرة حتى عصره ولم ينس الفنادق والمقاهي التاريخية

في منتصف سبتمبر (بادن فينا)

محمد عبد الله عنان

الأزهر وطريق إصلاحه
ربط حاضر الأمة بماضيها
للدكتور محمد البهي قرقر

ليست فكرة إصلاح هذا المعهد العظيم حديثة النشأة؛ وليست كل محاولة لإصلاحه كانت ناجحة؛ وليس كل من قام بأمر الإصلاح كان فيه موفقاً. ولا أريد هنا أن أسرد الأدوار التي مر بها الإصلاح، وعدد الخطوات التي أخفق فيها المسعى، والأخرى التي كان له فيها بعض النجاح؛ إذ كل باحث في أمره يوقن أن الخطوة الأولى التي كانت موفقة فيه هي التي خطاها الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، وأنه هو الذي يعتبر أول مصلح كانت له فكرة، وبجانبها شخصية ذات إرادة مستقلة، وبسببه حافظ الأزهر على حياته، وإن كانت حياة الهرم الذي تعوزه زيارة الطبيب الحاذق من وقت إلى أخر. وبالرغم من وهن هذه الحياة كان ما قام به الأمام هو دور المصلح وداعية البطولة في زمنه

استمر الأزهر بعد ذلك في حياته التي يحس فيها بضعف، تارة يشتد إذا لم يجد في طبيبه صفة المهارة - وكثيراً ما كان ذلك - وطوراً يخف إذا واتاه القدر بمن يواسيه أكثر ممن يطببه. تغيرت فيه عدة مناهج واستبدلت نظم بأخرى باسم الإصلاح؛ ومع ذلك لم يتم إصلاح أو لم يتكون أساسه، لأن الإصلاح الذي يجب أن يكون، وبعبارة أخرى الذي يحمل عليه قانون الوجود الحالي المبني على تنازع البقاء وحياة الأصلح ليس علاجاً مؤقتاً وإنما هو إيجاد حياة من نوع أخر، حياة فتوة لها قوة ممانعة ومقاومة وقوة كفاح وهجوم. ظل أمره كذلك حتى هيأ القدر له، وشاء أن يكون تلميذ الإمام، رجلا من أولئك الذين لهم عقول مستقلة بعيدة المدى في التفكير، ولها قوة إرادة في التنفيذ في صمت ورزانة. فأول خطوة ضرورية رآها للإصلاح أنه عمل على إشعار الأمة بالأزهر واتصال الأزهر بالأمة، فحياته إذن يجب أن تكون من نوع حياة الأمة، ومصر أمة ناشئة فتية

أيدت هذا العمل عقلية أخرى من هذا الطراز - وعقول الإصلاح دائماً متفقة متجانسة - ولكنها أشعرت الأمة هذه المرة بصورة أخرى هي أن لا غنى للأمة المصرية ولا للعالم الإسلامي عن الأزهر. ولكن كيف يؤدي رسالته الوطنية والعالمية في القرن العشرين؟ تنبهت الأذهان وعني الكتاب والباحثون في الشئون الاجتماعية والعلمية بهذا الموضوع ودونوا لهم آراء في ذلك وآسف أني لم أطلع عليها. وقد يجوز أن يكون هؤلاء قد عالجوا الموضوع من نواح عدة، وأظهروا رغباتهم الإصلاحية لهذا المعهد التاريخي الكبير في صور يرون فيها مهمته في العصر الحديث. ربما يكون بعضهم قد تناول مثلا تحديده كمدرسة عالية لفئة خاصة من الأمة يجب عليها قبل الالتحاق بها استيفاء شروط مخصوصة ودراسة إعدادية على نمط خاص أو غير ذلك من التنظيم والمناهج ولا أريد أن أبحث الآن: كيف يكون الأزهر معهداً نظامياً كمعاهد الحكومة العالية، لأني لا أبغي أن يكون الأزهر على هذا النمط الآلي، وإنما أريد أن أبحث: كيف يتحول الأزهر إلى جامعة علمية حديثة مع الاحتفاظ بصبغته الماضية التي خولت له أن يكون هو المدرسة الوطنية الوحيدة في مصر في الوقت الحاضر بحكم اعتمادها على ثقافة الأمة الموروثة، والتي منحته صفة روحية باعتبار أنه المكان الأول في العالم الإسلامي للعناية بالدين ونشره، ثم كيف يكون الطريق العملي لذلك، إذ كثيراً ما كتب دعاة الإصلاح وكثيراً ما حاول القائمون بأمره أن يصلحوه، ولكنها كانت كتابة يغلب عليها الخيال، ومحاولة كان أساسها تقليد نظم مدارس أخرى: مدارس وزارة المعارف التي هي في نفسها أيضاً بناء مرقع رعوي فيه تقليد رسوم متباينة؛ وهذه المحاولة كادت تخرجه عن الغرض الذي يجب أن يكون له الأزهر والذي كان له منذ قرون مضت وغاية الأزهر (أولا) تهذيبية علمية وطنية، لأنه يقوم بتربية جزء عظيم من أبناء الأمة ويعده فوق ذلك لتولي عدة مصالح في الشعب، لا يمكن تعويضها فيها، لها قيمتها في إصلاح نواحيه الخلقية والاجتماعية، وبالأخص في رعاية الأسرة التي هي الدعامة الأولى في بناء الأمة. و (ثانياً) دينية عالمية لأنه المرجع الأول لحل المسائل الدينية التي لها ارتباط وثيق بالشؤون الاجتماعية والاقتصادية لأمم العالم الإسلامي والتي يتوقف تقدم تلك الأمم أو تأخرها بنسبة كبيرة على فهم الروح الدينية (الفقهية) أو عدم فهمها لهذه المسائل الحيوية

ومن يفكر أو يحاول أن يحمل غيره على أن يعتقد أن غاية الأزهر روحية بالمعنى الكنسي، فمبعث تفكيره هذا التقليد السلبي الذي طغى على النواحي العقلية في مصر الحديثة، ومنشأ محاولته جهل أو تجاهل بالتاريخ أو سوء فهم للإسلام وللأزهر ولأثره في
تكوين النهضة الوطنية، أو هو نفسه لا يقيس الوطنية إلا بمقياس العاطفة، وما كانت العاطفة في يوم من الأيام إحدى الدعامات في بناء راسخ!
ولكن الأزهر الآن يؤدي مهمته كما كان يؤديها في الغابر من تلقين ما للماضي من ثقافة؛ وربما يدَّعى أن هذا التلقين وحده لا يعد الناشئة للكفاح في الحاضر ولا يقرب فهم المسائل الدينية والاجتماعية من ضوء الواقع الحالي، فذلك التلقين لا يفي لهذا بالغاية من وجود الأزهر، لأنه أداء جزء من مهمة يجب أن يتصل به تواً أداء البقية وهي ربط الحاضر بالماضي. وهذا هو الطريق العملي، فيما أظن، لتحقيق غاية الأزهر التهذيبية والدينية
ربط الحاضر بالماضي ليس معناه ضم ثقافة أجنبية جديدة على حدة إلى ثقافة الماضي، وإضافة علوم حديثة مستقلة إلى ما كان للأمة في الأزمان الغابرة، وإنما هو السير في البحث العلمي على أثاث الثقافة الموروثة، ولكن في ضوء مقتضيات العصر الحاضر. وهذا السير يتطلب التخصص في العلوم المختلفة ولكن في موضوعات الفن الواحد. فمثلا في الفقه يجب أن يكون هناك أساتذة فنيون في موضوعاته مزودون بثقافة أخرى لها ارتباط وثيق بالموضوع المتخصص فيه. فيجب أن نرى أساتذة في الفقه الجنائي، وهو يشمل على سبيل التقريب: الديات وفرض مبدأ التعويض المالي. التعزير بالحبس. القصاص. إعفاء الوالي من إقامة الحد إذا رأى المصلحة العامة في ذلك. . . وأساتذة في الفقه المدني والتجاري، وهو يشمل على سبيل التقريب: عقود البيع، نظرية الربا وربط الفائدة. الرهن. الايجارة، الشفعة. عقود الشركات المختلفة. مبدأ الضمان والكفالة. الهبة. الوصية. . . وأساتذة في فقه الأحوال الشخصية، وهو يشمل على سبيل التقريب: عقد النكاح، حقوق الأسرة. النفقة، الإرث، نظرية إثبات النسب والتبني وعلاقة ذلك بالمجتمع وتكوين الأسرة. نظرية الحضانة الفردية وارتباطها بنظرية قيام الدولة بالعناية بالأطفال إجبارياً لشقاق في العائلة أو طروء جنون على أحد الزوجين أو مشاكل ذلك. . . وأساتذة في الفقه الإداري والسياسي، وهو يشمل على سبيل التقريب: معاملة الأجانب ونظرية الأقلية في اعتبارها هيئة منعزلة لها احترام عاداتها ما لم تخل بنظام الأكثرية وعليها ضريبة (الجزية) للقيام برعايتها وحفظ مصالحها. مبدأ الجهاد. قوانين الأسر والعتق. مبدأ الشورى في نظام الحكم الداخلي. مبدأ التفويض للوالي. الاستقلال في السياسة الخارجية وإعلان الحرب (نحو العدو مثلاً)
وفي الفلسفة والأخلاق يجب أن يكون هناك أيضاً فنيون في موضوعاتها المختلفة على هذا النمط، فأخصائيون في فلسفة الإسلام، وتشمل على سبيل التقريب: محافظة الإسلام على وحدة الأمة والرغبة في عدم تصدعها. نظرية الإيمان بوحدة الخالق. تفضيل صلاة الجماعة. ضرورة الاجتماع كل أسبوع في مكان واحد لا فرق بين غني وفقير ورفيع ووضيع لتجديد عهد الإخاء وهو الغرض من صلاة الجمعة. ضرورة اجتماع أغنياء مسلمي العالم في أول مكان للدعوة الإسلامية كل عام لتذكر عهد النشأة والاستمرار في التمسك بالعقيدة والعمل على نشرها، وهو الغرض من الحج. العمل على إشعار ذو النفوذ المالي بوجوب العطف على الفقراء إبقاءً لمالهم في أيديهم وقمعاً لثورة نفسية بين الطبقات المعدمة ربما تتبعها ثورة أخرى اجتماعية (بلشفية) تقلب نظام الحكم في الأمة وتنزع رؤوس الأموال من أيدي أصحابها. . وهو الغرض من الزكاة. وأخصائيون في الفلسفة الإسلامية، وتشمل على سبيل التقريب: لا حكاية ما قال ابن سينا وتبعية ابن رشد لأرسطو طاليس وأمثال ذلك مما ينقل فحسب، وإنما قبل كل شيء بيان منزلة الفلسفة الإغريقية، وهي الفلسفة الإلهية وعلاقتها بعلم (التوحيد) الإسلامي، ثم مقدار نصيب الإسلام من هذا العلم. ثم بيان مساهمة العلماء الإسلاميين ومساهمة الثقافة الإسلامية في خلق فلسفة إسلامية وتكييفها. . .
وأخصائيون في أخلاق الإسلام والأخلاق الإسلامية: وتشمل على سبيل التقريب: المبادئ الخلقية التي جاء بها الإسلام. مقارنة ذلك بالنظريات الأخلاقية الإسلامية التي

أشتغل بها علماء الإسلام والتي قد لا يمت بعض مبادئها إليه بصلة إيجابية. مقارنة ذلك أيضاً بالنظريات الخلقية الحديثة. دراسة المبدأ الخلقي ونظرية اعتباره المطلق أو المقيد. . .

وهذا التخصص ليس تبويباً جديداً أي صورياً فحسب، وإنما هو أبحاث علمية مستقلة يجب على من يقوم بها دراسة ما يشبهها في الثقافات الأخرى حتى يتكون مبدأ المقارنة والاستنتاج، ثم يتبعه مبدأ التطبيق العملي، وهما من عوامل التقدم في البحث العلمي، لأن حكاية ما قيل فقط لا يسمى بحثاً فضلا عن وصفه بالعلمي. فأستاذ الفقه الجنائي مثلاً يجب أن يدرس علم النفس الجنائي: الذي هو مختص ببحث أنواع الإجرام النفسي، ثم بحث

التشريع الجنائي الحديث وكيفية بنائه على التجارب النفسية بوساطة هذا العلم. وأستاذ الفقه المدني والتجاري عليه أن يلم بالنظم الاقتصادية الحديثة. وأستاذ الفقه السياسي ينبغي أن يلم بالتاريخ الاقتصادي والسياسي وبفلسفة الحرب وفلسفة مبدأ حكم الأقليات

وبواسطة هذا يتسنى لهؤلاء الأساتذة لا بيان مزايا الدين الإسلامي فحسب في هذه الموضوعات مثلاً، بل حمل الأمم الإسلامية على الاعتماد في تشريعها الحديث في كل أنواعه على مبادئ الفقه الإسلامي، ثم في الوقت نفسه رد حملات العلماء الأجانب على الإسلام التي سببها الجهل أو الرغبة في إبعاد المسلمين عن أتباع دينهم باسم (خدمة العلم) و (حرية البحث) حتى يدب فيهم ضعف الشقاق، بين المصمم على أتباعه وبين الواهم في التخلي عنه، بين (الرجعي) و (المجدد) وبين (القديم) و (الحديث). وما خدمة العلم هنا إلا الرغبة في السيادة واستمرار سيطرة (الحضارة الأوربية) على الشرق الإسلامي

وعلى هذا النمط في التخصص يسير الأمر في العلوم الأخرى. وبخاصة تجب مراعاة هذه القاعدة بدقة في قسم الوعظ والإرشاد. ففضلا عن أن تتبع فيه دراسة أساليب التبشير الحديث يلزم دراسة نفسيات الشعوب الإسلامية المختلفة وعاداتها ولغاتها.

وبناء على هذه الدراسة الأخيرة ينشأ التخصص والتوزيع، فيجعل: قسم للوعظ والإرشاد للشعب المصري: فالنوع الحملي منه: يتولى قبل كل شيء بحث نفسية المجرمين ونوع الأجرام الذي يرتكب بكثرة بمساعدة الإحصائيات الرسمية لذلك، ثم دراسة أسلوب الوعظ الذي يمكن أن يؤثر في مثل هذه النفسية ويحملها على الإقلاع أو التقليل من هذا الإجرام. . .

والنوع الثقافي الأخر: يتولى الأعداد لتهذيب شعبي مبني على البساطة، وكيفية الخطابة في المساجد، وإعطاء دروس للشعب فيما هو في حاجة إليه من الثقافة الخلقية والواجبات الفردية والجمعية

ويجعل قسم للوعظ والدعاية: لشعوب الشرق الأدنى

ويجعل قسم للوعظ والدعاية: لسكان الشرق الأوسط والهند وجاوة

ويجعل قسم للوعظ والدعاية: لشعوب البلقان

ويجعل قسم للوعظ والدعاية: لسكان السودان والحبشة وجنوب أفريقيا

ويجعل قسم للوعظ والدعاية: لسكان أمريكا الجنوبية

وفي كل قسم من هذه الأقسام تدرس فضلاً عن لغة الشعب، القواعد الخلقية التي يسير عليها، والمذهب الفقهي السائد فيه. وبناء على هذه الدراسة تحدد موضوعات الوعظ الديني التي تجب دراستها في كل قسم، لأن الغاية من الوعظ هي حمل الشعب بطريقة التأثير في نفسه على اتباع قواعد خلقية معينة يقتضيها النظام العام لحفظ وحدة الأمة وبغية سعادتها. والغاية وإن كانت واحدة فأن الطرق إليها مختلفة لضرورة اختلاف النفسيات التي تخضع في تكونها إلى الوراثة والتربية الأولى والمجتمع فيما بعد، وهذه العوامل ليست متشابهة في كل أمة

هذا فضلا عن دراسة نفسيات هذه الشعوب وثقافتهم هي في نفسها دراسة إسلامية يرجى من ورائها تعارف الأمم الإسلامية وتزايد الرابطة بينها

وبهذه الأهمية أصبحت دراسة علم النفس التجريبي اليوم، ومن خصائصه وصف النفسيات المختلفة للأفراد والأمم، العامل الأول في السيطرة على النفوس إما لغرض إصلاحها أو بغية استعمارها. ولم يعن الأوربيون بدراسة النفس الشرقية على ضوء

التجارب والسلوك الشخصي وكذا بقية الأمم الضعيفة وإنشاء المعاهد المختلفة لدرس ثقافاتهم وأديانهم ولغاتهم حباً أفلاطونياً في العلم وغراماً خيالياً بالبحث، وإنما عنوا بها رغبة في السيطرة والاستعمار العسكري أو التجاري

وإذا كان التخصص في الموضوعات الفنية يحتاج إلى الاتصال بالأوساط العلمية الأخرى، الأجنبية عن الأزهر، فإن التخصص في أقسام الوعظ أشد احتياجاً إلى الاتصال بالشعوب الإسلامية المنتشرة في بقاع الأرض ودراسة أحوالها النفسية والشعبية لبناء الوعظ على أساس متين تكون من ورائه الفائدة محققة، وتتقوى بذلك رابطة مصر العلمية والأدبية بالأمم الإسلامية الأخرى، وهي رابطة يجب أن تحافظ عليها لأنها سبب عظمة مصر فيما بينها وتعلق تلك الشعوب بها

وبهذا يكون للأزهر صلة حية بالشعب إذ يصبح المدرسة العالية لثقافة وطنية مؤدية لمقتضيات العصر الحاضر، ومعهد البحث للتشريع الوطني الحديث؛ وفي الوقت نفسه يقوم برسالته الروحية في بقية العالم الإسلامي، ومن ورائها يؤدي رسالة مصر الأدبية في الخارج. وما هذه المنزلة العالية التي تتمتع بها مصر اليوم في الشرق إلا لهذه الصلة

الروحية واعتقاد أن مصر تملك أكبر مكان للدراسات الإسلامية كما تملك مكة المكرمة أول مكان للدعوة إلى الإسلام. ولولا الأزهر لما نالت مصر تلك المنزلة بين الأمم الشرقية، فهي تمثل سياسياً تقريباً في كل بلدان العالم الأخرى التي لا تتصل بالإسلام اتصال تدين، وتنفق على ذلك مبالغة جسيمة، ومع هذا فمصر الحديثة صاحبة النهضة التي لا تقل شأناً عن نهضة كثير من بلدان أوربا الجنوبية والشرقية مازالت هنا في أوربا هي مصر الأفريقية

إن الأزهر قارب أن يبلغ ألف سنة، وتلك مفخرة لم تصل إليها إحدى الجامعات العالمية بعد، والعالم يريد أن يرى رؤية محسوسة مبلغ التطور الذي وصل إليه والذي هو مقياس نهضة مصر العلمية الوطنية، لا التقليدية، ويعرف أي القواعد يسير عليها في بحثه، وأية نظرية يأخذ بها في تأدية رسالته، بعدما وقف بالبحث عند طريقة القرون الوسطى زمناً طويلاً وبعدما كان في حيرة من أمر رسالته، حيرة سببها عدم معرفته بها

إن مصر اليوم والعالم الإسلامي يشهد بما لفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي من عمل جدي ملموس في إصلاح هذه الجامعة العالمية ويعترف بقدرته على إتمامه اعترافاً مرجعه الاقتناع بأن له شخصية مصلح في التاريخ الحديث، وما أقل وجودها في العالم وأندرها في مصر وأشدها ندرة بين الأزهر. كل يعقد عليه أملاً كبيراً، أمل البناء والتشييد في الإصلاح. كل يرتقب ثورة فكرية، وانقلاباً إصلاحياً له حدثه التاريخي؛ فالوقت تأخر، والحاجة ماسة، والعقول متهيئة لهذا الانقلاب، والنفوس ملت هذه التعديلات الصورية

مولاي المراغي: إذا كان المصلح الأول والوحيد قبلك وهو الأستاذ الأمام، قد حافظ على حياة الأزهر فحسب، ولم يتركه لك فتياً بل سلمه إليك كهلا يعاني ألم الضعف، فإن ذلك ما أمكنه وأمكن زمنه معه أن يؤديه للأمة والتاريخ؛ ولكنك أنت في زمن توفرت فيه وسائل الإصلاح وانبثقت روح الشباب والتجدد في كل شيء، فمهمتك من هذا النوع، ولها حباك القدر بتلك الشخصية، وبتأديتها ستكون موضوعاً للتاريخ والبحث

محمد البهي قرقر

دكتور في الفلسفة وعلم النفس وعضو بعثة الإمام الشيخ محمد عبده

صاحب النحلة السنانية

رسالته، دهاؤه، بيانه

لأستاذ جليل

ذكر العلامة الأستاذ محمد كرد علي مقاله المحقق: (ابن العديم وتآليفه) في (الرسالة) الغراء - الجزء 220 في 14 رجب 56 - سنانا الإسماعيلي (صاحب النحلة السنانية أو الحشيشية) وروى أبياتاً من شعره، وأشار إلى رسالته إلى السلطان صلاح الدين. وقد رأيت أن أنشر تلك الرسالة الأنيقة لنفاستها، وقد نقلت - كما قال ابن خلكان - من خط (القاضي الفاضل) وما قولك في شيء يعجب عبد الرحيم البيساني فينسخه

بنفسه؟ ثم أورِدُ ما أملاه صاحب (شذرات الذهب) من أنباء سنان هذا وفيه حديث عجيب في الكيد أو الدهاء ما بلغ دهاة مناكير مبلغه، ولا سمع السامعون شبهه. ثم أروي (بياناً) لسنان إلى جماعته لجلالة قيمته في تاريخ النحل وقد عثر عليه العرباني (م. ستان جوارد) ونقله إلى الفرنسية. و (البيان) يبين لنا أن (أبا الحسن راشد الدين) قد ادعى دعوى الجماعة في الألوهية أو حاولها، ولم يشأ أن يحتكرها في القاهرة محتكرون، ويستبد بها فاطميون - كما يقولون - أو عبيديون، وهو قد عرف من (أسرار الدعوة. . .) ما عرفوه. . . وما حل في مصر حل مثله في الشام. . .

الرسالة

يا للرجال لأمر هال مُفظِعهُ ... ما مر قط على سمعي توقّعهُ
قام الحمام إلى البازي يهدده ... وكشّرت لأسود الغاب أضبعه
أضحى يسد فم الأفعى بإصبعه ... يكفيه ما قد تلاقي منه إصبعه
يا ذا الذي بقراع السيف هددني ... لا قام مصرع جنبي حين تصرعه
إنا منحناك عمرا كي تعيش به ... فإن رضيت وإلا سوف ننزعه

وقفنا على تفاصيله وجمله، وعلمنا ما هددنا به من قوله وعمله، فيا لله للعجب من ذبابة تطن في أذن فيل، وبعوضة تعد في التماثيل. ولقد قالها من قبلك قوم آخرون فدمرنا عليهم وما كان لهم من ناصرين. أو للحق تدحضون، وللباطل تنصرون (وسيَعْلَمُ الذين ظلموا أيَّ مُنقلَبٍ ينقلبون). وأما ما صدر من قولك في قطع رأسي، وقلعك لقلاعي من الجبال الرواسي، فتلك أماني كاذبة، وخيالات غير صائبة، فإن الجواهر لا تزول بالأعراض، كما أن الأرواح لا تضمحل بالأمراض. كم بين قوي وضعيف، ودني وشريف! وإن عدنا إلى الظواهر والمحسوسات، وعدلنا عن البواطن والمعقولات، فلنا أسوة برسول الله في قوله: ما أوذي نبي كما أوذيت. ولقد علمتم ما جرى على عترته، وأهل بيته وشيعته، والحال ما حال، والأمر مازال، ولله الحمد في الأولى والآخرة، إذ نحن مظلومون لا ظالمون، ومغصوبون لا غاصبون (وقل جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا) ولقد علمتم ظاهر حالنا، وكيفية رجالنا، وما يتمنونه من الفوت، ويتقربون به إلى حياض الموت. قل (فتمنوا الموت إن كنتم صادقين. ولن يتمنوْه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين) وفي أمثال العامة السائرة: (أوَ للبط، تهددين بالشط) فهيئ للبلايا جلباباً، وتدرع للرزايا أثواباً، فلأظهرَنَّ عليك منك، ولأفنينهم فيك عنك. . . فتكون كالباحث عن حتفه بظلفه، والجادع مارن أنفه بكفه (وما ذلك على الله بعزيز) فإذا وقفت على كتابنا هذا فكن لأمرنا بالمرصاد، وأقرأ أول (النحل) وآخر (صاد)

الخبر

وفي سنة (588) توفي راشد الدين أبو الحسن سنان بن سلمان مقدم الإسماعيلية، وصاحب الدعوة بقلاع الشام. وأصله من البصرة، قدم إلى الشام في أيام نور الدين، وأقام في القلاع ثلاثين سنة، وجرت له مع السلطان صلاح الدين وقائع وقصص، ولم يعط طاعة قط، وعزم السلطان على قصده بعد صلح الفرنج، وكان (سنان) قد قرأ كتب الفلسفة والجدل

قال المنتجب: أرسلني السلطان إلى سنان مقدم الإسماعيلية ومعي القطب النيسابوري، وأرسل معنا (تخويفاً وتهديداً) فلم يجبه بل كتب على طرة كتاب السلطان: (الأبيات في الرسالة المتقدمة) ثم كتب بعد الأبيات خطبة بليغة (هي تلك الرسالة) مضمونها عدم الخوف والطاعة، فلما يئس صلاح الدين منه جنح إلى صلحه، ودخل في مرضاته

قال اليونيني في تاريخه: إن سناناً سير رسولا وأمره ألا يؤدي رسالته إلا خلوة، ففتشه السلطان صلاح الدين فلم يجد معه ما يخافه فأخلى له المجلس إلا نفراً يسيراً فامتنع من أداء الرسالة حتى يخرجوا فخرجوا كلهم غير مملوكين صغيرين فقال: هات رسالتك، فقال:

أمرت ألا أقولها إلا في خلوة فقال: هذان ما يخرجان

قال: ولِمَ؟

قال: لأنهما مثل أولادي

فالتفت الرسول إليهما وقال: إذا أمرتكما عن مخدومي بقتل هذا السلطان تقتلانه؟

قالا: نعم، وجذبا سيفيهما. فبهت السلطان، وخرج الرسول وأخذهما معه فجنح صلاح الدين إلى الصلح وصالحه. ودخل في مرضاته

البيان

بسم الله الرحمن الرحيم: فصل من اللفظ الشريف للمولى راشد الدين عليه) السلام، وهو أفضل البيان تقوتي بربي لا إله إلا هو العلي العظيم. أيها الرفقاء، غبنا عنكم غيبتين: غيبة تمكين وغيبة تكوين؛ واحتججنا عن أرض معرفتكم، فضجت الأرض، وتقلقلت السموات، وقالت: يا باري البرايا الغفور، فظهرت بآدم، وكانت الدعوة حواء، فحوينا على قلوب المؤمنين الذين ضجت أرض قلوبهم شوقاً إلينا، فنظرنا في سماء نفوسهم رحمة منا، فمضى دور آدم ودعوته، ونفذت رحمة منا في الخلائق حجته. ثم ظهرت بدور نوح فغرقت الخلائق في دعوتي، فنجا بدعوتي ولطفي من آمن بمعرفتي، وهلك من الخلائق من أنكر حجتي. ثم ظهرت في دور إبراهيم على ثلاث مقالات: كوكب وقمر وشمس فخرقت السفينة، وقتلت الغلام، وأقمت الجدار جدار الدعوة فنجا بلطفي ورحمتي من آمن بدعوتي؛ وخاطبت موسى بخطاب ظاهر غير محجوب للسائل هرون، ثم ظهرت بالسيد المسيح فمسحت بيدي الكريمة عن أولادي الذنوب فأول تلميذ قام بين يدي يوحنا المعمداني، وكنت بالظاهر شمعون، ثم ظهرت بعلي الزمان وسترت بمحمد، وكان المتكلم عن معرفتي سلمان، ثم ذر أبو الذر الحقيقي في أولاد الدعوة القديمة بقيام قائم القيامة حاضراً موجوداً فما تم لكم الدين حتى ظهرت عليكم براشد الدين فعرفني من عرفني وأنكرني من أنكرني، وأنا صاحب الكون وما خلت الدار من أفراخ القدم. أنا الشاهد والناظر، ولي الرحمة في الأول والآخر، فلا يغرنكم تقلب الصور؛ تقولون فلان مضى وفلان أتى، أقول لكم أن تجعلوا الوجوه كلها وجهاً واحداً، ما يكون في الوجود حاضراً موجوداً صاحب الوجود! لا تخرجوا عن أمر ولي عهدكم من عربها وعجمها وتركها ورومها فأنا المدبر، ولي الأمر والإرادة. فمن عرفني باطناً قد تمسك بالحق، ولا تكمل معرفتي بغير ما أقول. عبدي اطعني واعرفني حق معرفتي أجعلك مثلي حياً لا تموت وغنياً لا تفتقر، وعزيزاً لا تذل. اسمعوا وادعوا تنتفعوا. أنا الحاضر وأنتم الحاضرون بحضرتي. أنا القريب الذي لا أغيب، فإن عذبتكم فبعدلي، وأن عفوت عنكم فبكرمي وبفضلي، أنا صاحب الرحمة (وولي الغفر والحق المبين، والحمد لله رب العالمين، وهذا بيان

هذا بيان راشد الدين وقد نشر أمثاله من رسائل العبيدين بعد حين

(قارئ)

الأزهريون والخدمة العسكرية

للدكتور محمد عبد الله ماضي

في الأيام الأخيرة قامت ضجة حول ما أشيع من عزم وزارة الحربية المصرية على وضع تشريع يقضي بتجنيد حملة القرآن الشريف، وطلبة العلم بالمعاهد الدينية، حتى إن بعض الهيئات المحترمة قررت استنكار هذا الأمر، ورأت فيه ما لا يتناسب وحرمة الدين، وما يتنافى مع تكريم أهله. ولعل لأصحاب هذا الرأي بعض العذر، ولعل لديهم من القرائن البعيدة عن جوهر الموضوع وما حملهم على الاستنكار، وجعلهم يرون في مثل هذا التشريع مساساً بكرامة الدين وأهله؛ ولكني أريد هنا أن أحاول معالجة موضوع التجنيد العام في ذاته، وأن أبين رأي الإسلام فيه

ولابد لنا أن نعرف أولاً أن غزيرة الكفاح من الغرائز البشرية ذات الأثر الفعال في حياة الأفراد، وفي نظام الجماعات وتكوينها؛ ولقد كان هذا الأثر واضحاً في كل العصور، وفي جميع تطورات الجماعة من البسيطة الهمجية إلى الراقية المتحضرة. فالكفاح الدائم بين الأفراد والجماعات من سنن الطبيعة وقوانينها مادامت الطبيعة وما عاش الإنسان؛ وهو الوسيلة لبقاء الأصلح، وفناء العاجز الضعيف؛ وهو إذاً سبيل الحياة الدائمة المتواصلة، كما يقول نوفيكوف وبقية أصحاب نظرية الكفاح من علماء الاجتماع

والحرب نوع من أنواع الكفاح القاسية التي نراها لا تزال تتكرر في مختلف العصور بالرغم من بغض الناس لها، وبالرغم مما تجره وراءها من ويلات. وإن الدعوة إلى السلام الدائم بين جماعات الشعوب أمر محمود، ولكنه لا يغير من الواقع شيئاً، وحلم لذيذ لم نر إلى الآن أن الوقائع التاريخية والحوادث الاجتماعية تساعد على تحقيقه.

ففي الحوادث التي وقعت في السنوات الأخيرة بين الشعوب المنتسبة إلى عصبة الأمم - حصن الدعوة إلى السلام الدائم - وفيما تكرر ويتكرر من اعتداء قويهم على الضعيف منهم ما يبين لنا أن دعاة السلم لم يتعدوا في دعوتهم حدود القول، ولم يأتوا بشيء عملي لتحقيق ما يدعون إليه

فلا غرابة إذن إذا كنا نرى الأمم القوية في كل العصور تنادي بالسلام وهي تستعد للحرب؛ أما الشعوب الضعيفة فإنها تتخدر أعصابها بالدعاية إلى السلم، وتصم آذانها عن نداء الواجب صيحة السلام التي يرسلها القوى المدججة بالسلاح معمياً، حتى لا تزال هذه الأمم

الضعيفة في عمى عن الحقائق، فريسة له، عاجزة عن الدفاع عن نفسها أمام هجماته، وميداناً لتحقيق مطامعه. والشعوب الحية العزيزة، التي تشعر بالكرامة، وتأبى الضيم والمذلة على استعداد دائم للدفاع عن نفسها، ورد اعتداء المعتدي، فهي تأخذ أفرادها بالمران على الأعمال الحربية، تقوي أجسامهم، وتربي العزة في نفوسهم، وتحبب إليهم التضحية بالنفس والنفيس في سبيل دفع الاعتداء عن أمتهم، ورد المهانة وسلامة الكرامة، والاحتفاظ بالحرية. فالروح العسكرية، وتربية الشعب تربية عسكرية أمر لابد منه لكل أمة تريد أن تعيش مرفوعة الرأس، عزيزة الجانب بين الأمم؛ أمر لابد منه لأشعار أفراد الشعب بمعنى العزة والكرامة، وحتى يؤمنوا بأن الموت العزيز خير من الحياة الذليلة

هكذا صنعت وتصنع الأمم الحية الكريمة، وهكذا كان شأن الأمة الإسلامية في مبدئها، وفي العصر الذي كان المسلمون يعملون فيه بتعاليم الإسلام الصحيحة قبل أن تختلط بالمبادئ الدخيلة التي أعطيت صبغة الإسلام وهي ليست منه في شيء. فكما تأمر مبادئ الإسلام بتعليم النشء وتثقيفه، فهي تأمر أيضاً بأخذه بأنواع الرياضة، وتدريبه على فنون الحرب. وقد جاء في الحديث الشريف (حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتابة والسباحة والرمي) وفي التعليق على حديث (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، ألا إن القوة الرمي. ألا إن القوة الرمي. ألا إن القوة الرمي) يقول صاحب نيل الأوطار: وكرر ذلك للترغيب في تعلمه (الرمي) وإعداد آلاته؛ وفيه دليل على مشروعية الاشتغال بتعليم آلات الجهاد، والتمرن فيها، والعناية في إعدادها، ليتمرن بذلك على الجهاد ويتدرب فيه، ويروض أعضاءه

وليكن لنا في رسول الله أسوة حسنة، وهو المثل الأعلى للرجولة الكاملة، فلقد ساهم عليه السلام بنفسه في كثير من أنواع الرياضة، والتمرينات الحربية، فسابق في العدو، ورمى، وصارع؛ ولقد شاهد اللعب بالحراب، واشترك في سباق الخيل. كان يفعل كل هذا، ويأمر به، ويشجع عليه أفراد أمته، حتى النساء منهم، فلقد كان يسابق عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها جريا على الأقدام، فمرة تسبقه ومرة يسبقها. أرأيت كيف أن هذا لا ينافي الوقار والشرف والعلم والفضل وعلو السن؟! هذا هو حكم الإسلام في الرياضة البدنية؛ وهذا هو حكم الإسلام في الخدمة العسكرية، وتعليم أفراد الأمة فنون الحرب، وأخذهم بآداب الجندية

ولم تزل الشعوب قوية عزيزة الجانب حتى أخذت روح الجندية تضعف في نفوس أفرادها،

وأخذ استعدادهم للدفاع عن حمامهم يضعف ويقل؛ فأخذ العدو يهاجم بما لا حول لهم به ولا قوة، حتى وصلت بهم الحال إلى ما هم عليه من الضعف، وحتى استعبدهم الغير؛ وما فتئت الدول المستعمرة في العصور الأخيرة تعمل على قتل روح الجندية، روح القوة والرجولة في الأمم الإسلامية المغلوبة على أمرها، لتطول مدة حكمها لها، ولتأمن جانبهم في الدفاع عن أنفسهم. عملت على هذا، ووضعت لتنفيذه خططاً مدبرة محكمة، كان من أشدها خطراً عندنا في مصر قانون البدل والإعفاء من الخدمة العسكرية؛ إذ ظن المعفون خطأ أن في ذلك ميزة لهم وشرفاً اكتسبوه؛ وكانت نتيجة هذا الأجراء المدبر أن انحصرت الخدمة العسكرية في أفراد الطبقة الفقيرة الجاهلة من الشعب؛ وعومل هؤلاء أثناء تأدية الخدمة من رؤسائهم معاملة إذلال وقهر، غرست في نفوسهم البغض لما هم فيه، وقتلت فيهم الروح المعنوية التي لابد لها منها لانتصار الجنود إذا اشتدت الخطوب، ووقع القتال؛ هذه الروح المعنوية التي جعلت العشرين من جند النبي وأصحابه يغلبون مائتين، والمائة يغلبون ألفين

هذه العوامل وغيرها ولدت في نفوس الشعب عندنا بغض الخدمة العسكرية وتحقيرها، حينما تفخر الشعوب الحية بها وتعتز؛ وبهذا فقد شبابنا كثيراً من معاني القوة والرجولة. ومن عجائب الدهر أن تجعل الخدمة العسكرية عقوبة للطالب الأزهري يعاقب بها إذا رأى ولاة الأمور خروجه عن النظام، وقرروا إنزال العقاب به؛ فهم حينئذ يمحون اسماه من سجلات الطلبة الأزهريين ويبلغون الجهات المختصة لتحرمه من امتياز الإعفاء من الخدمة، وتعاقبه فتجعله يؤدي الخدمة العسكرية - كما وقع ذلك في بعض عصور الأزهر الغابرة -

ألا إن هذا عكس الحقائق، ووضع للأمور في غير نصابها؛ هذه الروح يجب أن تزول، وأن يحل محلها روح الشعور بأن الجندية شرف لا عقوبة

الواجب على أولي الأمر بعد أن حصلنا على معاهدة الاستقلال، وأطلقت يدنا من عقالها في كثير من الشئون أن يصلحوا ما أفسده الدهر من أمر الخدمة العسكرية في بلادنا. وإذا أراد أن يسلم لنا شرفنا فلنعمل على تربية روح العزة والكرامة، ولنتعهد روح الرجولة بما ينميها في نفوس الأفراد، فيجب أن تكون الخدمة العسكرية عامة إجبارية على كل من

يصلح لها من أبناء الشعب بلا تفريق بين طبقة وطبقة، وبغير تمييز بين أهل حرفة دون حرفة، ليشعر أبناء الشعب جميعاً بالأخوة والمساواة، وليدخلوا جميعاً مدرسة الرجولة

وعلى جميع طبقات الأمة أن ينادوا بهذا، ويطالبوا ولاة الأمور بتنفيذه؛ وعلى حملة القرآن الشريف، والأزهريين منهم خاصة - من أصحاب الامتياز المزعوم - أن يطالبوا أولي الأمر مع المطالبين، بل في مقدمتهم بالتجنيد الإجباري العام، فإنهم أبناء الأمة، وعليهم أن يشركوا إعداد أنفسهم للدفاع عنها إذا دعا الداعي. ولهم أن يفخروا بشرف الانخراط في سلك الجندية، فلقد حان الوقت ليخرج الأزهريون من عزلتهم، وليأخذوا أنفسهم بتعاليم الإسلام الصحيحة، وينفوا ما زيف عليهم منها

فليس من الإسلام أن حملة القرآن الشريف، وطلبة الأزهر يعفون من خدمة العسكرية، فالإسلام دين الرجولة يمقت كل ما يمت إلى التخنث بصلة؛ وليس من الإسلام هذا الوقار المزعوم الذي يتخيله العامة عندنا في المشية المتثاقلة المتئدة البعيدة عن النشاط وخفة الحركة، فلقد كان النبي عليه السلام يسير ملقياً جسمه إلى الأمام مسرع الخطو ثابته.

محمد عبد الله ماضي

دكتور في التاريخ والاجتماع وعضو بعثة تخليد ذكرى الشيخ

محمد عبده بألمانيا

في تاريخ الأدب العربي

كليلة ودمنة

للأستاذ عبد الله محمود إسماعيل

لست أزعم أن أدلة هذا البحث - على قوتها - مما لا يستطاع نقضه أو أضعافه. ولست أزعم أن موضوع البحث مما لم يسبق لبعض الأقلام تناوله. ولكن الذي أستطيع زعمه أن أكثر ما سأعتمد عليه في تدعيم وجهتي طريف مبتكر لا يشينه سطو ولا تعكره إغارة

وقد يكون مرجع الفضل في إثارة هذا البحث إلى رسالة صغيرة كتبها عن ابن المقفع الزميل (الأستاذ محمد قابيل) ذهب فيها مذهب بعض المستشرقين من القول بأن نسبة كتاب كليلة ودمنة إلى غير عبد الله بن المقفع يعوزها الدليل القوي، وأن الكتاب في مجموعه لا يخرج عن حكايات وضعها ابن المقفع أو نقلها عن الآداب الدخيلة. يريد بذلك ألا يجعل للكتاب أصلا في الفارسية أو الهندية بهذا الاسم، وهو يؤيد اختياره هذا بما يلمس في الكتاب من بلاغة عبارة، وقوة أداء، وخلو من المسحة الدخيلة، مما لا يتهيأ لكتاب مترجم حرص فيه على الأمانة؛ وبأن مؤرخي الهنود وعلماء أوربا يجهلون كتاباً بهذا العنوان والتبويب في الهندية، كما يجهلون شخصي (بيدبا) و (دبشليم) وكلا الدليلين ساقط، لأن هذه القوة البلاغية في الترجمة، وسبك الألفاظ وفق أرجح أساليب العربية ليس مما يستغرب من ابن المقفع وقد (كان في نهاية الفصاحة والبلاغة مضطلعاً باللغتين - العربية والفارسية - فصيحاً بهما)

وما لنا نذهب بعيداً وفي المكتبة العربية الآن كتب مترجمة عن الفرنسية والإنجليزية

والألمانية أتت، على الرغم من سحر بيانها وشريف أسلوبها، أمينة على الأصل، حريصة على روح المؤلف، وهذه قصة البائسين لحافظ بك. ورفائيل وفرتر للأستاذ الزيات، فقد جاءت مع الأصل كالحسناء وخيالها في المرآة. وتلك حالة لا يجد فيها المترجم كبير عناء متى كان متمكناً من لغة المنقول عنه والمنقول إليه، خبيراً بآدابهما، وطرائق الحسن فيهما. كما كان الشأن مع ابن المقفع

على أنني لا أرى هناك ما يحمل على التمسك بالحرفية والأمانة في ترجمة مثل كتاب كليل ودمنة، فليس هو بالكتاب العلمي الخطير، ولا القصة الفنية التي يذهب التصرف فيها شيئاً

من جمالها وروعتها، وهو في النهاية لا يعدو أن يكون كتاب تخريف وسمر للخواص وأرباب البيان على الرغم من هذه الطنطنة التي ملأت صدر الكتاب. ولاشك أن ابن المقفع كان يفهم هذا فأباح لنفسه بعض التصرف في الأصل فرفع بذلك عن قلمه كثيراً من الحرج والتهيب

أما ما يقال عن جهل مؤرخي الهنود وعلماء أوربا بدبشليم وبيدبا، وبكتاب له هذا الاسم والتبويب في اللسان الهندي، فلا يمكن أن يتخذ منه دليل قاطع على وضع ابن المقفع للكتاب، فإن صلاحيته للقول بهذا أضعف من صلاحيته للقول بأن الفرس هم وضعة الكتاب، فقد نقل هذا الرأي أحد مؤرخي القرن الرابع الهجري؛ قال محمد بن إسحاق النديم: (فأما كتاب كليلة ودمنة فقد أختلف في أمره، فقيل عملته الهند، وقيل عملته ملوك الإسكانية، ونحلته الهند، وقيل عملته الفرس ونحلته الهند، وقال قوم أن الذي عمله بزرجمهر الحكيم) الفارسي. على حين لم أعثر في الكثير الذي قرأته من المراجع القديمة على من يصرح بأن ابن المقفع هو واضع الكتاب

وإن هذا التأييد التاريخي للقول الثاني مع ما ذكروا من أن المراجع الهندية والأوربية تجهل وجود كتاب كليلة ودمنة في السنكسريتية، كما تجهل وجود ملك يسمى دبشليم ليجعلني أميل إلى الأخذ به وترجيحه على ما سواه. ولن يضعف منه تاريخ المسعودي لدبشليم الملك ضمن من ذكر من ملوك الهند الأقدمين وقوله أنه الواضع لكتاب كليل ودمنة، فإن جل ما كتبه عن هذه العصور القديمة لا يخرج عن دائرة الجمع الذي لا يقوم على أساس صحيح من التحقيق والتحري، ويكفي لصدك عن التعويل على ما كتب أن تعرف أنه جعل ملك (دستلم) أو (دبشليم) مائة وعشرين سنة؛ وأن ما ذكره بعد ذلك عنه وعن (فور) سابقه لا يتجاوز ما ذكر في مقدمات كليلة ودمنة؛ الأمر الذي يحملنا على الظن بأن المسعودي ما عرف هذين الاسمين إلا عن طريق هذا الكتاب

وليس ببعيد على الفرس وضع كتاب كليلة ودمنه وإلباسه هذا الثوب الهندي، فهم جيران الهنود وإخوانهم في جنسيتهم الآرية يشركونهم في ذكائهم وتعقلهم وخيالهم (وهم أول من صنف الخرافات وجعل لها كتاباً وأودعها الخزائن، وجعل بعض ذلك على ألسنة الحيوان)

ولا محل للاعتراض هنا بأن الكتاب ولو كان من عمل الفرس لتضمن شيئاً من المجوسية

والمذاهب الفارسية الأخرى؛ لأنه لم يوضع لتدوين عقيدة أو إذاعة مذهب ديني خاص؛ وهذا كتاب (مزدك) الذي نقله عن الفارسية ابن المقفع وأبان بن عبد الحميد، (فإن أول ما يتبادر إلى الذهن أن الكتاب يبحث عن مذهب مزدك، ولكن الأستاذ (براون) ذكر في كتابه (تاريخ آداب الفرس) نقلا عن (نولدكي): أنه كتاب أدب وضع للتسلية، ويعد في مصاف كتاب كليلة ودمنة ولا تضر قراءته مسلماً)

على أننا لو سلمنا باحتواء الأصل على شيء من هذه المذاهب الفارسية، فإننا نرجع نقاء الترجمة العربية منها إلى ما ذكرنا من تصرف ابن المقفع، ولعل الذي حمله على هذه التصفية عقيدته الإسلامية الجديدة أو خوفه من تشكك المنصور فيه إن سمحنا لأنفسنا بالطعن في صدق إسلامه

وإن مما يكاد يحملنا على الجزم بأن ابن المقفع ناقل لكليلة ودمنة لا واضع له ما ذكره صاحب الفهرس من أن جماعة من النقلة عن اللسان الفارسي - وفيهم من عاصر ابن المقفع أو قارب وقته - قاموا بترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية. قال العلامة جورجي زيدان: (يظهر أن بعض الأدباء حسد ابن المقفع على شهرة الكتاب فأعادوا نقله، واشتغل بعضهم بنظمه، وتصدى آخرون لمعارضته). ولا غير هذا يفسر لنا سر

الاختلاف الذي ذكره ابن النديم في عدد أبواب الكتاب، فقد قال: (هو سبعة عشر باباً، وقيل ثمانية عشر، ورأيت أنا في نسخة زيادة بابين)
وكان أقدم من نقل الكتاب إلى العربية نظماً أبو سهل الفضل بن نوبخت الفارسي من خدم المنصور ومن العاملين في خزانة الحكمة لهارون الرشيد (وقد كان معوله في علمه على كتب الفرس) ثم عبد الله بن هلال الأهوازي، نقله ليحيى بن خالد البرمكي في خلافة المهدي سنة 165 هجرية، ثم أبان بن عبد الحميد اللاحقي، قال محمد بن اسحق (وقد نقل من كتب الفرس وغيرها ما أنا ذاكره: كتاب كليلة ودمنة، كتاب السندباد، كتاب مزدك. . .) وقد كان أبان هذا (صديقاً للبراكمة، متصلا بهم اشد اتصال. . . وكان أديبهم الرسمي) ومن المختصين بالرشيد. ويظهر أن نقله الشعري - على جدته - كان على جانب من الجودة فقد (أعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف دينار وأعطاه الفضل خمسة آلاف دينار، ولم يعطه جعفر شيئاً وقال: ألا يكفيك أن أحفظه فأكون روايتك؟!)
ولو قدرت الحياة لهذه التراجم الأخرى أو لبعضها لقطعت الشك باليقين، ولوضعت بين أيدينا الدليل المادي على أن موقف ابن المقفع من الكتاب لم يكن إلا موقف المترجم البليغ والمهذب البصير؛ أما وقد نالها من عوادي الزمان وتقلب الأحداث ما أودعها عالم الفناء فليس لنا إلا الاعتماد على دراسة ما بقى مما كتبه عنها الثقات من رجال الأدب والتاريخ، وما اقتبسته كتبهم عن بعض هذه التراجم، وفي هذا وذاك كثير من الغناء والعزاء
ولئن ذكرنا بالفضل صاحب الفهرس لما أفادنا في هذا المقام فلا يسعنا إلا أن نذكر بمزيد الإعجاب فضل إبراهيم الصولي، فقد نقل لنا في كتابه الأوراق ستة وسبعين بيتاً من ترجمة أبان النظمية، ولولاه ما بقي لنا منها إلا الأبيات الأربعة التي ذكرها أبو الفرج وهي لا تغني في البحث شيئاً
وفي هذه الطائفة التي ذكرها الصولي من المنظومة دليل آخر على أن أبان استقى من مصدر فارسي، وأنه لم يعتمد على نسخة ابن المقفع، إذ لم يقع له من عباراتها إلا ما جاء وليد المصادفة أو الاستعانة وهو نادر، كما يلاحظ على منظومته قلة تداخل حكاياتها والاقتصاد في سوق الحكم، وربما ذكر الشيء في غير الباب الذي وضعه فيه ابن المقفع
ابتدأأبن نظمه بالبيت المعروف: -
هذا كتاب كذب ومحنة ... وهو الذي يدعي كليله دمنة
ثم ذكر في الأبيات الأربعة التي تليه أن الكتاب من عمل الهند وصفوا فيه الآداب على ألسنة البهائم، ليشتهي السخفاء هزله وليعرف الحكماء فضله: -
وهو على ذاك يسيرُ الحفظِ ... لَذٌّ على اللسان عند اللفظ
ثم أتى الصولي بعد ذلك باثنين وعشرين بيتاً يبدو أنها ليست من هذا التمهيد الذي وضعه أبان؛ وإنما هي من باب برزويه تبدأ عند مناجاة هذا الحكيم نفسه بقوله: (يا نفس أما تعرفين نفعك من ضرك؟! ألا تنتهين عن تمني ما لا يناله أحد إلا قل انتفاعه. . .) وفيها يحدث نفسه بأن الدنيا بما لنا فيها من أحباء وأصدقاء كثيرة الآلام، وأنه لا ينبغي للإنسان أن يعرض نفسه للهلاك في سبيل جمع ما يرضي به أهله ومحبيه؛ وأن في النسك وترك الدنيا لمن يشقى بها النجاة من الشرور. وختم أبان الأبيات بالإقرار الوجدانية وأنه مرتهن بعمله إن خيراً فخير وإن شر فشر؛ ثم اقتبس الصولي من باب الأسد والثور تسعة وأربعين بيتاً في مواطن مختلفة من الباب ذكر فيها طرفاً من الحديث الذي دار بين كليلة ودمنة حول التقرب من الملك ثم كيد دمنة للثور عند الأسد؛ ثم تحدث عن المال وما فيه من عز وجمال، وامتدح العقل ومشورة غير أهل التهمة
ولكي يتضح بعد المنظومة عن ترجمة ابن المقفع نلفت النظر إلى أن حديث المال الذي ذكره أبان في باب الأسد والثور جعله عبد الله في باب الحمامة المطوقة. وإليك الأبيات التي ذكرها في هذا الموضوع لتتحقق بعد الموازنة من صدق ما ارتأينا من المباينة بين الترجمتين:
الأهل والأخوان والأعوان ... عند ذوي الأموال حيث كانوا
والمال هادي الرأي والمروّه ... وهو على كل الأمور قوه

والمال فيه العز والجمال ... والذل حيث لا يكون المال
وربما دعا الفقيرَ فقرهُ ... إلى التي يُحبط فيها أجرهُ
فيخسر الدين كما كان خسر ... دنياه والخسران ما لا ينجبر
وليس من شيء يكون مدحا ... لذي الغنى إلا يكون بَرْحا
على الفقير ويكون ذما ... كذاك يدعى وبه يسمى
فإن يكن نجداً يقولوا أهوج ... كذاك عند الحرب لا يعرج
وهْو إذا كان جواداً سيّداً ... سُمي للفقر مُضيعاً مفسدا
أويك ذا حلم يُقل ضعيف ... أويك بساماً يُقل سخيف

وقد يظن كثير من الأدباء أن ابن المقفع عرف كيف يخلد اسمه باختياره ترجمة كتاب كليلة ودمنة أو ادعائه ذلك؛ ولكن الذي لا يتطرق إليه الاحتمال عندي أن كتاب كليلة ودمنة إنما كتب له الخلود، وبقي على توالي الأحداث والأيام لأن عبد الله ابن المقفع تصدى لترجمته فألبسه هذا الثوب الرائق من بلاغته وتهذيبه ومعرفته. ولقد يدهش أصحاب ذلك الظن إذا قلنا لهم إن الكتاب لم يكن له في الفارسية من الخطر ما صار له بعد نقله إلى العربية على يد ابن المقفع، ولكن دهشهم سيتبدد متى عرفوا أن الفرس أنفسهم حينما رأوا الكتاب في صورته الجديدة المنسجمة استولى عليهم الإعجاب، وأخذوا ببلاغته فنقلوه إلى الفارسية مرة أخرى، وأهملوا أصوله التي بين أيديهم فأذهبا النسيان؛ حتى لقد ذكر ابن النديم أنهم نقلوه (إلى اللغة الفارسية بالعربية) ليتمكن من يتكلم الفارسية ولا يكتبها من قراءته بالحروف العربية التي سرى استعمالها بينهم

وأني لأسأل نفسي الآن عن المصير الذي كان ينتهي إليه كليلة ودمنة لو لم يكن عبد الله بن المقفع ضمن من ترجموه!! إنه ول شك مصير مظلم؛ أو قل هو المصير الذي انتهت إليه التراجم والنقول الأخرى

(أسيوط)

عبد الله محمود إسماعيل

محمد بن جعفر الكتاني

بمناسبة مرور عشر سنوات على وفاته

للأستاذ محمد المنتصر الكتاني

تتمة ما نشر في العدد الماضي

وكان أسلافه يعرفون قديماً بعدة ألقاب: بالكتانيين وأمراء الناس والزاويين وشرفاء عقبة ابن صوال، وحديثاً بالكتانيين فقط

فأما شهرتهم باللقبين الأولين: فنسبة إلى جدهم الأول أمير الناس الكتاني يحيى بن عمران الذي يعده المؤرخون أول ملك مغربي استعمل في معسكراته خيام الكتان فنسبوه إليها، وما كانت تعرف قبله غير خيام الصوف والشعر، وأول ملك بويع باسم أمير الناس، فلزم بنيه لقبه الأول إلى اليوم، وورثوا عنه الثاني ردحاً من الزمن ذكر هذا القاضي بن الحاج في كتابيه نظم الدرر والأشراف، والشريف المدغري في الدرة، وأبو زيد السيوطي المكناسي ووالده أبو بكر في كتابيهما في الأنساب

وأما شهرتهم باللقب الثالث: فنسبة إلى زواوة وهي قبائل بربرية كبيرة مواطنها في الجزائر (بنواحي بجاية ما بين مواطن كتامة وصنهاجة، أوطنوا عنها جبالاً شاهقة متوعرة، تنذعر منها الأبصار، ويضل في غمرها السالك) فر إليها الكتاني يحيى حين تغلب السفاح بن أبي العافية على ملك أسلافه فنصبوه ملكا عليهم وتدبرها بنوه من بعده قرنين كاملين وثلاثين سنة تزيد قليلاً أو تنقص قليلا

ذكرهم بهذا اللقب ابن عمرو العبدي في كتابه الكوكب الساني في النسب الكتاني

وأما شهرتهم باللقب الرابع فنسبة إلى حي معروف من أحياء فاس يعرف بعقبة بن صوال، كان نزولهم به أول ما رجعوا من مكناس في آخر القرن التاسع

عرفهم به القاضي بن الحاج في الأشراف وعلى هذا اللقب وضع فيهم كتابه الشهير (نظم الدر واللآل في شرفاء آل عقبة ابن صوال) وبه ذكرهم أيضاً الشريف القادري في الدر السني

ولا يعرف اليوم أحدهم بلقب من تلك الألقاب الثلاثة - أمراء الناس، الزاويين، شرفاء

عقبة بن صوال - التي أصبحت تاريخية وفي بطون الكتب ليس غير، ولا أدري إذا كانت بعض الأسر بالجزائر أو غيرها من الأقطار التي أقاموا بها لا تزال تحمل أحد هذه الألقاب

واللقب الأول والأخير هو (الكتاني) فقط الذي بقي علماً لآبائه من القرن الرابع إلى الآن

ولعل من العبث أن أعيد القول فأذكر أنه تقدم في السلافة أئمة أعلام شاركوا في توريث التراث المحمدي، فهدوا وعلموا وعذبوا وألفوا، وفي الخزائن العامة والخاصة الدليل الناطق، وقد بلغ ما عده بعضهم من مؤلفاتهم فيها المئين وكتب المؤرخين طافحة بتراجمهم

ومن منهم لا يعرف (علي بن موسى) و (عبد الواحد بن عمر) وولده (أحمد) و (محمد بن أحمد بن علي) و (محمد بن عبد الوهاب) و (المأمون بن عمر) و (إدريس بن الطائع) ومَنْ من المغاربة يجهل (جعفر بن إدريس) وأولاده الأربعة صاحب الترجمة، و (أحمد) و (عبد الرحمن) و (عبد العزيز) و (عبد الكبير بن محمد) وولده (الشهيد محمد) و (عبد الكبير بن هاشم) و (الطاهر بن حسن) و (عبد الحفيظ بن محمد) رحمة الله عليهم أجمعين

اشتهر بلقب (الكتاني) قديماً خلق كثير في الأندلس والمغارب الثلاثة وبغداد ودمشق لا يمت واحد منهم لأسلاف الإمام بصلة، فيهم الوالي الأمير والمحدث والفقيه والطبيب الأديب وو. . . وقد وقفت على تراجمهم عند عياض في المدارك والخطيب في تاريخ بغداد والسمعاني في أنسابه وابن الجزري في طبقات القراء والذهبي في التذكرة وتاريخ الدول والميزان والضوء اللامع والحافظ في اللسان والدرر الكامنة وابن عثمان النابلسي في مختصر طبقات الحنابلة وابن القاضي في الجذوة والقادري في النشر وابن جعفر (المترجم) في السلوة

وقد عني بتاريخ أسلافه جمهرة من المؤرخين قديماً وحديثاً وأولهم - فيما أعلم - أبو عبيد البكري صاحب المسالك الذي يعد كالمعاصر للملك الكتاني يحيى بن عمران إذ أبو عبيد مات في آخر القرن الخامس والكتاني مات في آخر القرن الرابع

وهأنذا مورد طائفة من الكتب التي فيها تاريخ أسلافه بعضها خاص بهم والبعض الآخر مذكورون فيها ضمن باقي الأسر المغربية عرفت من القسم الثاني (المسالك والممالك) لأبي عبيد و (تاريخ الأدراسة) للبرنسي و (أنيس الأنيس) لا أعرف مؤلفه (وكتاباً) للأزوارقاني و (مختصر البيان في نسب آل عدنان) للشيخ الإمام المقرئ أبي العباس أحمد بن محمد بن

عبد الله بن جزي الكلبي و (معدن الأنوار في التعريف بأولاد النبي المختار) الإمام أبي العباس أحمد بن محمد بن عبد الله المقري التلمساني و (ابتهاج القلوب بخبر أبي المحاسن وشيخه المجذوب) للشيخ الإمام عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي وهما نسختان: قديمة وقع له فيها خلط كثير أجمع على نقدها وتزييفها نطقاً وكتابة كل من وقف عليها من المؤرخين والنسابين - وفيهم شيخ أخوة الجماعة محمد وجماعة من آل بيته - وجديدة نقحها واستدرك فيها على نفسه، وتجديد المؤلف لهذا الكتاب بنفس العنوان الأول معناه عنده التنبيه على عدم اعتماد النسخة القديمة خصوصاً وقد زاد في الجديدة أشياء لم تكن في الأولى وحذف منها ما تعثر فيه قلمه من الأخطاء، وكلا النسختين في متناول اليد. . . و (درة التيجان ولقطة اللؤلؤ والمرجان في الإعلام بغرر الأنساب وذكر بعض الأشراف ذوي الأحساب) للإمام الكبير محمد بن محمد بن محمد الدلاني البكري و (شرحها) للعلامة المشارك محمد بن أحمد بن محمد بن عبد القادر الفاسي و (الدر السني في بعض من بفاس من أهل النسب الحسني) للعلامة الكبير الشريف عبد السلام بن الطيب القادري و (التنبيه من الغلط والتلبيس في بيان أولاد الإمام محمد بن إدريس) للفقيه العالم المؤرخ الشريف محمد بن أحمد بن علي الكتاني، وكتاباً في (الأنساب) للشيخ الإمام أبي بكر بن محمد السيوطي المكناسي، وكتاباً آخر في (الأنساب) أيضاً لولده الإمام النسابة أبي زيد السيوطي و (عقد اللآلئ المستضيئة النورانية لنفي ظلام التلبيس في سلالة مولانا إدريس بن إدريس) له أيضاً، وكتاباً فيه الجواب على أسئلة تتعلق بالسبطين) للشاعر الكاتب أحمد بن عبد القادر القادري و (الروضة المقصودة والحلل الممدودة في مآثر بني سودة) و (السر الظاهر

فيمن أحرز بفاس الشرف الباهر من أعقاب الشيخ عبد القادر) كلاهما للأديب الكبير العلامة الشريف سليمان بن محمد الحوات و (سلوك الطريق الوارية في الشيخ والمريد والزاوية) للصوفي الواعظ الكبير الشريف محمد بن علي المنالي الزبادي و (تحفة الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب) للمؤرخ الأديب الشهير أبي القاسم بن أحمد بن علي بن إبراهيم الزياني و (الدرة الفائقة في أبناء علي وفاطمة) للعلامة الشريف الزكي بن محمد المدغري و (الإشراف على بعض من بفاس من مشاهير الأشراف) للعلامة المؤرخ القاضي محمد الطالب بن حمدون بن الحاج و (الدرر البهية والجواهر النبوية) للعلامة النسابة الشريف إدريس بن أحمد الفضيلي

وأما الكتب الموضوعة فيهم خاصة فعرفت منها (الكوكب الساني في النسب الكتاني) للفقيه العالم المدرس مبارك بن عمر العبدي الأسفي و (نظم الدر واللآل في شرفاء عقبة ابن صوال) للقاضي ابن الحاج صاحب كتاب الأشراف المتقدم ذكره، وشرفاء عقبة هو اللقب الذي كان يعرف به أسلاف الإمام في القرن العاشر كما ذكرت قريباً و (الروضة المنيفة في النسبة الكتانية الشريفة) لقاضي حد كورت الحالي العلامة المؤرخ عبد الحفيظ الفاسي و (الرياض الربانية في الشعب الكتانية) لوالد المترجم شيخ الإسلام الشريف جعفر الصادق و (النبذة اليسيرة النافعة التي هي لأستار جملة من أحوال الشعب الكتانية رافعة) للإمام المترجم و (الجوهر النفيس في النسب الكتاني) لأخي المترجم العلامة الكبير الشريف عبد الرحمن و (منتهى الأماني في التعريف بالنسب الكتاني) و (الجوهر المكنون في ذكر فرع الحلبي المصون) كلاهما للعلامة الشريف طاهر بن حسن الكتاني و (المظاهر السامية في النسبة الشريفة الكتانية) لصاحب التراتيب الإدارية

هذا مجمل تاريخ أسلافه في المغربين - الأقصى والأوسط - وبهذا فقط اعتنى مؤرخو المغرب وكنت أحسب كغيري أن سلفه لم يرحلوا إلى الشرق قديماً وبالحري أن يكون لهم فيه ذكر أو تاريخ حتى كشف (الغيب) عن خطئي وتقصير جميع مؤرخينا إذ ثبت لهم أن بالشرق الأقصى - جاوى - تاريخاً خالداً ومجداً لا يبيد

لما رجع الأستاذ الهاشمي التونسي من رحلته الطويلة لبلاد جاوى مر في طريقه على مصر فاستقبله الصحافي السيد محي الدين رضا مندوباً عن جريدة المقطم ليسأله عن حالة جاوى العامة، فأجابه الرحالة التونسي بحديث مسهب نشرته المقطم في عدديها الصادرين في 13 و 14 سبتمبر سنة 1929 ونقلته عنها مجلة الدهناء الجاوية التي تصدر بمدينة سورابايا في عدديها (19 و 20) من السنة نفسها الموافق لربيع الثاني سنة 1348. أقتطف من هذا الحديث ما يتعلق ببحثي، قال الأستاذ الهاشمي: (. . . الجاويين - الإسلام اعتنقوه في أواخر المائة الثامنة من الهجرة وأوائل دينهم القرن التاسع على يد طائفة من رجالات المغاربة من أسرة الكتاني الموجودة إلى اليوم في مراكش حسبما هو مكتوب ومنقوش على المشاهد وألواح المرمر التي فوق قبور أولئك الدعاة والتي لا تزال ماثلة واضحة القراءة بخطوط بديعة، وهذه القبور تعرف حتى الآن بين عامة الجاويين بقبور المغاربة في مدينة (نبتام) في أقصى الجزيرة الغربي ومدينة (سورابايا) في أقصى الجزيرة الشرقي ومدن (الطوبان) و (شربون) و (سومدانج) و (دماك) في قلب الجزيرة الجاوية ومن يراجع تاريخ سديو الفرنسي ير في الفصل المعقود لتقدم العرب في الملاحة كيف أن عرب الأندلس والمغرب أول من أجتاز جزائر الخالدات إلى خليج غينيا ورأس الرجاء الصالح متوجهين رأساً إلى أقصى الشرق من طريق أقصى الغرب

وحين كنت بالأزهر الشريف سنة 1353 سألت عن هؤلاء المغاربة الدعاة الطلبة الجاويين - وهم كثير بالأزهر - فأجابوني بما معناه: من الطفل الرضيع إلى الشيخ الفاني في جاوى كلهم يعرفون أن الكتانيين المغاربة هم من هدى الله للإسلام على يدهم خمسين مليوناً من القطر الجاوي، وهذه أضرحتهم الفخمة في مختلف مدن بلادنا المعمور (لا تزال ناطقة بذلك ما دامت جاوى جزءاً من أجزاء

ولما كنت لا أعتبر تاريخ دخول الإسلام لجاوى رابطة عائلية فحسب بل أعتبره صلة متينة بين جاوى والغرب

ولما كنت لا أعرف سوى ما قصه عليه الأستاذ الهاشمي وأيده لي الطلبة الجاويون بالأزهر
ولما كنت في شك مما نشر في المقطم حيث تتبعت كل ما كتبه زعيمنا الإسلامي العلامة شكيب أرسلان في تعاليقه على حاضر العالم الإسلامي فلم يذكر كون الدعاة الناشرين للإسلام بجاوى هم من آل الكتاني، على أنه صرح بأنهم مغاربة، وتركني أشك في هذا ما أعتقده فيه من الإطلاع الواسع الذي (أعدم نظيره) في هذا العصر على الدقيق والجليل من أحوال الأقطار الإسلامية النائية ويكفي للتدليل على ما أقول تعاليقه الريانة فوائد وعلوماً على (حاضر العالم الإسلامي) فضلا عن عشرات المؤلفات التي يتحف بها العالم الإسلامي بين حين وآخر وكلها مشهورة بل محفوظة عن (ظهر قلب) فأنا أرجو من سمو الأمير وحضرة الرحالة التونسي وسماحة العلامة الكبير مؤرخ جاوى الحبيب محمد ابن عبد الرحمن ابن شهاب العلوي الحضرمي ومن كل له من له خبرة واطلاع على الموضوعات أن يفدونا - مشكورين مأجورين - عن وقت دخول هؤلاء المغاربة الكتانيين إلى جاوى،
وعن أسمائهم وتراجمهم وما سبب رحلتهم هذه الطويلة - من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق - وهل تركوا عقباً بها، وبماذا يعرف اليوم مع ذكر المصادر بأي لغة كانت المطبوع منها والمخطوط

محمد المنتصر الكتاني

شد الرحال إلى الجبال

للأستاذ عز الدين التنوخي

وأخيراً عاد الأمير شكيب أرسلان من جُنَبرة إلى لبنان! وبعد أن قرت عين المسافر بالإياب، وألقى عصاه بين أهله والأحباب، حركني وصديقي الشيخ محمد بهجة البيطار شوق مبرح إلى زيارة أمير البيان في رحابه، فشددنا الرحال إلى الجبال، أو بالحري أدرنا العجلات نحو الهضبات؛ وأحب أن يرافقنا في السيارة لهذه الزيارة: الشيخ بهجة الأثري البغدادي والشيخ ياسين الدّواف النجدي والشيخ علي الطنطاوي الدمشقي الذي لا يجهله قراء الرسالة. ومازالت سيارتنا بسم الله مجراها ومرساها تصعد في الجبال تارة وتصوب في بطون الأودية أخرى حتى بلغنا العشية عين صوفر عرين الأمير. فعلمنا أنه في كورة الشوف يرد الزيارة لوفود القرى التي استقبلته يوم رجوعه إلى ربوعه، وكان علينا أن نكتب إليه بزيارتنا من دمشق، فذلك الإهمال أو النسيان، قد دهانا بهذا الإخفاق أو الحرمان، ولم يخفف شيئاً من حسرتنا إلا علمنا بأن أمير البيان سيهبط الغوطة بعد أيام قليلة، ولذا عولنا على العودة إلى الفيحاء من طريق الفالوغة وفيها خليل لنا مصطاف يقال له إبراهيم، ولما هبطنا بالسيارة واديه، وحللنا ناديه، ونلنا قسطنا من الراحة وحظنا من الراح نهضنا لامتطاء سيارتنا فأقسم علينا: لا رحيل لكم اليوم ولا براح، فلم نجد بداً من النزول عليه مكرهين ومكرمين
وغداة غدٍ صعدنا إلى (عين الصحة) المعدنية في جبل الفالوغة والتي تعلو سطح البحر بنحو 1500 متر، وقد اشتهرت بأنها للرمل حطوم، وللأطعمة هضوم، اشتهار (عين بُقين) في وادي الزبداني من مصايف دمشق. وأخبرني الكيماوي الثقة الذي حلل الماءين أن ماء بقين أخف مياه الشام في الثقل، وأشفاها لآلام الكلى والعلل، وإنما سميت بعين بقين لأن المريض إذا عب منها عبتين، أو شرب كما يقول العامة بقين، هضم الطعام وشفى الكليتين
وإلى جانب عين الصحة مقهى صغير تناولنا فيه صبوحنا من صهباء الماء والخبز المرقوق واللبن الخاثر والبيض المسلوق؛ وقد شاركنا في رحلة الصباح هذه وفي الاصطباح صديقان كريمان: القاضي خليل رفعة والصوفي شمس الدين، وتخلف في الفالوغة السيد إبراهيم معتذراً وقد خشي أن يبهره الصعود، فاغتاظ رفاقه لتخلفه هذا لأن
شرط المرافقة الموافقة، وأغروني بهجوه فقلت لهم على العين، هذين البيتين، ومسحة الارتجال بادية عليهما:

إذا لم تزر فالوغة ورياضها ... ولم تشهد الجنات حولك ألفافا

وإن أنت لم تصعد إلى عين صحةٍ ... ولم تروَ منها لم تكُ الدهر مصطافا

وعلى يسار المقهى خيام أربعة من الطيارين الفرنسيين مع أزواجهم وأطفالهم، وبذلة

أحدهم تتألف من سريويل قصير أزرق وقميص شفاف أبيض، والنحور والصدور والظهور حواسر، والأفخاذ والسوق والأقدام ظواهر؛ وهؤلاء الرفاق يأتون من مطار رياق للاستشفاء بالماء والهواء، فيقضون في الأسبوع يوما كاملا في مثل خيام الكشافة ويعيشون فيها عيشة الكشافة ومعهم جميع أدوات المطبخ فلا يحتاجون في طهي الأطعمة إلى شيء غير ماء العين. ولعل الارتياض على الحياة الكشفية في الصغر قد ذلل لهم في الكبر صعابها وألان لهم رقابها وجعلهم يبتغون لها الوسائل والأسباب

وفي نحو الثامنة من الصباح وقفت على العين سيارة ترفع علماً فرنسياً صغيراً يدل على أن ركابها من المفوضية الفرنسية ببيروت وفتح الباب فنزل منها أبوان شيخان وأطفال ثلاثة يحمل كل منهم عصاً ذات زج كالمزراق، وعلى ظهره حقيبة الجند، وعلى رأسه قبعة كبيرة تحاكي مظلات اليمن والجزائر، وفي رجله حذاء صفيق الجلد ناتئ المسامير يذكرنا بمداس الأصمعي الذي قال فيه: (نعم قناع القدري هذا)

وألتفت إلي رب المقهى قائلاً: هذان الجدان هما المسيو بريال وزوجه، وهؤلاء الثلاثة الأولاد أحفاده؛ يأتي بهم في الأسبوع مرة ليصعد إلى قمة الجبل، ويترك على العين سيارته وهو يرتاض بذلك وزوجه العجوز التي جاوزت الستين، ويروض أحفاده على حياة الجنود، والغربيون يعودون أطفالهم صغاراً ما يضطرون إليه كباراً، مجارين في ذلك غرائز الطبيعة؛ لأنا نشاهد الأولاد يركبون العصي استعداداً لركوب الجياد، ونرى البنات يكثرن الوقوف أمام المرأة تعوداً لما يعملنه وهن أمهات

إن حياتنا الشرقية ركود وكسل، والحياة الغربية حياة نشاط وعمل؛ فالجماعة منا إذا خرجوا إلى ظاهر المدينة للتنزه جلسوا على ضفة بردى أو النيل أو الفرات، وأخذ بعضهم يغلي شراب الجاء، وشرع الآخرون في الحديث أو الغناء، وإلى جانبهم مضطجعون، أو على الأرائك متكئون؛ وإذا خرجت رفقة من الأوربيين إلى التنزه وأخذوا في الارتياض بأنواع الرياضيات والألعاب، فهذا يلاكم وذا يصارع، وهذا عداء وذلك وثاب، وهذان فريقان يجران الحبل، أو يتقاذفان الكرة بالراحة أو القدم؛ فالتنزه في عرفنا للطعام والشراب أو الاضطجاع أو السماع؛ وفي عرف الغربي للعدو والوثب والصراع، والحركة يراها بركة، والتواني والسكون هلكة

ثم التقينا على العين بإخوان لنا من رجال العراق، فتجاذبنا أطراف الأحاديث إلى أن تحدثنا عن الانقلاب العراقي الأخير فحمدنا الله على حدوثه، ولم يستشر فساد أو تعم فتنة، وعلى إرساله لإنقاذ الموقف الخطير ذلك الرجل الإداري الحكيم، والجندي العربي الصميم (السيد جميل المدفعي) الذي قضى حياته في الدفاع عن حوزة العروبة، والذي أجمعت الكلمة لسلامة دواعي صدره على الثناء عليه وعلى محبته، والاعتصام في هذا المأزق الضيق بعروته، ثم ودعنا إخواننا بعد أن تزودنا من شرب الماء عبا، ونزلنا راجعين إلى حمانا ونحن نمتع العيون بسواحر المناظر من وادي حمانا الذي غنى باسمه من قبلنا لامرتين، وكان منظر الصنوبر الأخضر على الجبال أروع هاتيك المناظر وأبدعها وأشدها للعين بهراً وللقلب سحراً، فقد جعل كل من أصحابي يترنم ببعض الأغنيات، وجعلني أرتجل الشعر مغنياً بهذه الأبيات:

أَوَادي حّمانا سقيت وأخصبت ... رُباك مغاني الحسن والحسناتِ
شهدتُ لقد شَاهدت فيكَ صنوبراً ... يبدّد ما في القلبِ من حسراتِ
وخلت الغواني في الجبال حواملاً ... مِظلاّتهن الخضر والنضراتِ
وسربَ نعامٍ أبصر السيل هادراً ... فأسندَ مرتاعاً إلى الهضباتِ
هل المسكُ من هاماتك الخضر فائحٌ ... أم المسك من غاداتك العطِرَاتِ
لَطبتَ أيا وادي الصنوبر وادياً ... وباركنّ الله من شجراتِ!

(دمشق)

عز الدين التنوخي

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

أعمق الساعات صمتاً

ماذا جرى لي يا صحابي؟ لقد سادني الاضطراب فأضعت هداي وأراني مندفعاً بالرغم مني إلى الرحيل والابتعاد عنكم وآسفاه
أجل، على زارا أن يعود إلى عزلته، غير أن الدب يرجع إلى مغارته كئيباً حزيناً. ماذا جرى لي ومن ترى يضطرني إلى الرحيل؟
إنها (هي) مولاتي الغاضبة، لقد كلمتني فأعلنت لي إرادتها وما كنت ذكرت لكم اسمها حتى اليوم، هي أعمق ساعاتي صمتاً وهي نفسها مولاتي القاهرة، كلمتني أمس وسأقص عليكم ما جرى فلا أخفي عنكم شيئاً كيلا يقسو قلبكم علي وأنا أفاجئكم برحيلي عنكم
أتعلمون ما هي خشية من يستسلم للكرى؟ إنه الذعر يستولي على الإنسان من رأسه إلى أخمص قدميه، لأن أحلامه لا تبتدئ ما لم تنسحب الأرض من تحته
إنني أضرب لكم أمثالا، فأصغوا إلي:
أمس عند أعمق الساعات صمتاً خلت الأرض من تحتي وبدأت أحلامي
وكان العقرب يدب على ساعة حياتي في خفقانها، وما كنت سمعت من قبل مثل هذا السكوت يسود حولي ويروع قلبي
وسمعتها (هي) تقول لي، ولا صوت لها: إنك تعرف هذا يا زارا
فصحت مذعوراً عند سماعي هذه النجوى وتصاعد الدم إلى رأسي
فعادت هي تقول، ولا صوت لها: أنت تعرف هذا يا زارا ولكنك لا تعلنه
فانتفضت وأجبت بلهجة المتحدي: - أجل أنني أعرف هذا ولكنني لا أريد أن أعلن ما أعرف
فقالت (هي) ولا صوت لها: أصحيح أنك لا تريد؟ لا تخف نفسك وراء هذا التحدي يا زارا
فأخذت أبكي وأرتعش كالطفل قائلا: ويلاه، أريد أن أصرح، ولكن هل ذلك بإمكاني؟ أعفني من هذه المهمة لأنها تفوق طاقتي
فقالت، ولا صوت لها: وما أهميتك أنت يا زارا قل كلمتك وتحطم
فقلت: أهي كلمتي ما يهم، فمن أكون أنا؟ إنني انتظر من هو أجدر مني بإعلانها وما أنا أهل لأصطدم بالمنتظر فأنحطم عليه
فقالت، ولا صوت لها: وما أهميتك أنت مادمت لم تصل بعد إلى ما أريده من الاتضاع؟ وما أقسى ما يتشح به الاتضاع، وما أصلب جلده
فقلت: لقد تحمل جلدي اتضاعي كثيراً؛ فأنا ساكن عند قاعدة ارتفاعي ولم يدلني أحد بعد على ذراه العاليات، ولكنني تمكنت من سبر أغواري ومعرفتها.
فقالت، ولا صوت لها: أي زارا، وأنت المعد لنقل الجبال من مكان إلى مكان. أفما بوسعك أن تنقل أغوارك ومهاويك أيضاً؟
فقلت: لم تنقل كلمتي الجبال بعد، فإن ما قلته لم يبلغ حتى آذان الناس، لقد أتيت إلى العالم غير أنني لم أتصل به بعد.
فقالت، ولا صوت لها: وما يدريك. .؟ إن الندى يتساقط على العشب في أشد أوقات الليل سكوتاً.
فأجبت: لقد هزأ الناس بي عندما اكتشفت طريقي ومشيت عليها، والحق أن رجلي كانت ترتجفان إذ ذاك، فقال لي الناس: لقد ضللت سبيلك يا زارا، بل أصبحت لا تعرف أن تنقل خطاك
فقالت، ولا صوت لها: وأية أهمية لسخريتهم؟ لقد تخلصت من الطاعة يا زارا فوجب عليك أن تأمر الآن. أفلا تعلم أن من يحتاج الجميع إليه بأكثر من احتياجهم إلى أي شيء إنما هو من يقضي في عظائم الأمور؟
إن القيام بالكبائر صعب، وأصعب من هذا أن يأمر الإنسان بها. إن ذنبك الذي لا يغتفر هو أنك ذو سلطان ولا تريد أن تحكم
قلت: ليس لي صوت الأسد لأصدر أوامري
فقالت - كأنها تهمس همسا -: لا يثير العاصفة إلا الكلمات التي لا صوت لها؛ إن من يدير
العالم إنما هي الأفكار التي تنتشر كأنها محمولة على أجنحة الحمام. عليك أن تسير يا زارا كأنك شبح لما سيكون يوماً في آتي الزمان؛ وهكذا تندفع في سبيلك إلى الأمام وأنت تتولى الحكم

فقلت: إن الخجل يتولاني
فعادت تقول، ولا صوت لها: عليك أن تعود طفلا فيذهب خجلك عنك؛ إن غرور الشباب لما يزل مستولياً عليك لأنك بلغت الشباب متأخراً، ولكن على من يريد الرجوع إلى طفولته أن يتغلب على شبيبته
واستغرقت في تفكيري وأنا أرتجف، ثم عدت إلى تكرار كلمتي الأولى قائلاً: لا أريد.
وعندئذ ارتفع حولي صوت قهقهة مزقت قلبي وصدعت أحشائي
وقالت (هي) للمرة الأخيرة: أي زارا، إن أثمارك ناضجة، غير أنك لم تنضج أنت لأثمارك، فعليك أذن أن تعود إلى العزلة لتزيد في قساوتك ليناً
وعاد الضحك يتعالى، فشعرت أنها انصرفت عني (هي) وعاد الصمت يسود بأعمق مما كان حولي، أما أنا فبقيت منطرحاً على الأرض سابحاً في عرقي
والآن، وقد أعلنت لكم كل شيء أيها الصحاب، فهأنذا أعود إلى عزلتي وما أخفيت عنكم شيئاً. أرحل عنكم بعد أن علمتكم أن تعرفوا من هو أشد الناس تكتماً ومن يريد أن يكون كتوماً
وا أسفاه، أيها الصحاب، إن لدي ما أقوله لكم أيضاً، ولدي ما أبذله، فلماذا لا أبذله الآن؟ ألعلني أصبحت شحيحاً؟
وما نطق زارا بهذا حتى أرهقه سلطان حزنه لأضراره إلى الرحيل، فبكى منتحباً وما تمكن أحد من تعزيته، ومع هذا ما أرخى الليل سدوله حتى ذهب زارا وحده تحت جنح الظلام متخلياً عن صحبه
(يتبع)
فليكس فارس
خواطر
في الموت والخلود
للأديب عبد الوهاب الأمين
لي صديق لا يخشى الموت لأنه لا يفكر فيه، ولهذا الصديق فلسفة رائقة في الاطمئنان، تعجبني لأنني لا أعتقد بها؛ وقد حاولت أن أحاوره فيها فرأيت أنه يحتمي بالعقل ويجعله مدار التفكير، ولا يقيم وزناً لعاطفة الخوف من الموت أو الجزع من لقائه، فهو مطمئن أولاً، ومعتقد بتفاهة الموت ثانياً؛ وقد أختلط هذا الاطمئنان بذاك الاعتقاد فتشكل منهما شعور جديد، فكأن صاحبي هذا لا يفكر بعقله بل يفكر بعاطفته
يقول صاحبي:
(إن الموت خاتمة طبيعية محتومة لحياة الإنسان، فالتفكير فيه عبث لا طائل تحته، مادام أن التفكير، مهما طال وعمق، لا يغير تلك النتيجة المحتومة، حتى ولو صدقت ادعاءات بعض المشتغلين بالعلم من أمر إطالة العمر، أو تجديد الشباب، فإن هذين لا يعنيان الخلود. فلو فرض إن إعادة الشباب كما يصورها الدكتور (فرونوف) صحيحة ومؤكدة علمياً، فإن من الصحيح والمؤكد كذلك، إن نهاية هذه الحياة، مهما طالت، هي الموت؛ والتفكير في الموت مهما كانت كيفيته، سخيف لا طائل تحته
هذا لو كان التفكير في الموت في حد ذاته لا يؤثر تأثيراً سيئاً في أعصاب الإنسان، أما وأنه يورث السوداء، ويسيء إلى الأعصاب، بل ينهكها، ويضع غشاوة بين ناظري الإنسان وبين مناظر الحياة، فأحرى بالعاقل ألا يشتري بسعادة الاطمئنان والغفلة قلق التخوف وانتظار الشر، وان يستمتع بالحياة كما تأتيه لا أن يضع في كأسها سم التخوف والتفكير في الموت)
فاعترضت قائلاً:
(إن التفكير في الموت سخيف كما تقول، ولكن الإنسان يفكر في الموت بالرغم منه، وهو لو وجد سبيلا إلى النسيان والغفلة عنه لما تردد في ذلك، ولكني أجدني في بعض الأحايين ترهقني أخيلة الموت وأنا على أتم ما أكون صحة وراحة بال، ولا يكون تفكيري هذا بإرادة مني، فإني لا أرغب أن أشوب حالة الراحة التي أنت فيها بقلق غير مرغوب)
فقال:
(إن هذا الوهم الذي تمكن منك بسيط، فأنت تعتقد حين يردد ذكر الموت على خاطرك أن ذكره لا يرتفع من وهمك، وتتصور العجز، ومن تصور حالة من الأحوال النفسية

واعتقد أنه فيها، فهو فيها لا محالة؛ وكذلك من يتصور أنه مريض اعتقاداً جازماً، فأنه (يمريض
قلت: فما الحل إذن؟
فقال:
فلو فكر .(إن أبسط الوسائل للتخلص من هذه الأحوال النفسية هو الرجوع إلى العقل) المرء واستعمل عقله استعمالا صحيحاً في هذه القضية، فإن الرهبة والجزع من الموت لا يزولان منه فحسب، بل يرى فيهما مثالاً من أمثلة السخف تدعو إلى الرثاء.
إن الخوف من الموت بالطبع يستلزم وجود الألم. أي أن الإنسان لا يخشى الموت إلا) لأنه يتصور أن فيه ألماً جسمياً أو روحياً؛ وقليل من التروي يؤدي إلى سخافة هذا الرأي، فإن حالة الموت لا تكون إلا إذا انتفت الحياة الشاعرة، أو القدرة على إدراك الألم في الإنسان. أي أن الإنسان لا يموت إلا وهو مائت، ولا يشعر بألم الموت لأنه لا يشعر بالألم إلا الجسم الحي. ومادام الجسم حياً فهو غير ميت طبعاً، وإذا مات فإنه لا يشعر، وفي كلتا الحالتين ليس هنالك ألم ولا موضوع للألم يخشاه الإنسان
هذا إذا كان أساس الخوف هو تصور وجود الألم، أما إذا كان أساسه الفزع من فقدان) الحياة، فإن الأمر أدعى إلى الرثاء! فإن الذي يخشى أن يفقد شيئاً يحبه أحرى به أن لا يفكر في فقدانه، فالتفكير في ذلك مدعاة إلى تشويه حسن ذلك الشيء، وهؤلاء السوداويون الذين يدعون حب الحياة وهم يفكرون دوماً أن هذه الحياة زائلة وأنهم فاقدوها لا محالة مخطئون ولا شك، وأحرى بالمرء أن يعيش كما جاء إلى الدنيا، فلا (يسأل ولا يضع موضوعاً للتسآل أمام عينيه، فإنه سيموت قبل أن يصل إلى جواب
وقد جرني التفكير فيما يجري في هذا السبيل إلى التفكير في (الخلود) ضد الموت وعدوه، فالمرء بطبيعة الحال يخشى الموت ولا يرغب فيه، وهو بذلك كأنه يريد الخلود، فما هو الخلود يا ترى؟ وكيف يرى الحياة مخلوق خالد، لو أمكن تصوره؟
وقد قرأت كثيراً في كتب الأدب عن الفكرة التي تمثل للأديب في صدد الخلود، والحياة الخالدة و (الفردوس) ولكني لا أكتم القارئ أنني لم أستطع أن أرضي شعوري الفني بلذة الحياة الخالدة، فضلاً عن أني لا أستطيع أن أفهم كيف تكون هناك (حياة) في (خلود)! كما أن من المعلوم أيضاً أن الخلود لم يجد من الأدباء على وجه العموم التفاتاً جدياً بل كان في أكثر كتابات الكاتبين الرمزيين والخياليين فقط؛ ولعل الأستاذ المازني أشد أدباء العربية سخرية بالخلود وبالأدب الخالد.
ومادمنا في حديث الخلود في الأدب فما هو يا ترى المقصود به؟ وأي أدب خلد أو سيخلد؟ وهل في وسع المرء أن يتصور للخلود عمرا؟
لا ريب أن تاريخ الأدب لا يتعدى بضع مئات من السنين، وأرجو أن لا يسارع القارئ فيذكر لي أوراق البردي وشعراء الفراعنة فهذه الآثار لم تخلد - إن صح أنها خلدت - لأنها من الأدب بل لأنها من التاريخ. . . فما قيمة مئات السنين هذه في عمر الدنيا؟ وهل هذه المئات من السنين هي المفهوم من معنى (الخلود) في الأدب؟ إن كان ذلك فما اشد بؤس الأدب وما أحوجه إلى خلود أطول عمراً!
هذا في الأدب، أما في حياة الفرد فالرزء أعم كما أسلفنا، وبالرغم من أن جميع البشر يتمنون الخلود فإنه ليس أبرد منه وأخلى من السعادة المموقة. وأمامي قطعة من شعر العقاد لعله لم يقلها في هذا المعنى، ولكنه يستفاد منها وهي:
لو علمنا حظنا من يومنا ... ما بكى الصبية في غض السنين
أي كنز قد سفكناه على ... حسرات تضحك القلب الحزين!
حجبت عنا مزايا عمرنا ... فبكى من هو بالصفو قمين
وقضينا العمر لا ندري بما ... بين أيدينا وندري ما يبين
نجهل الورد فنرميه ولا ... يجهل الشوك الفتي وهو طعين
أترانا لو علمنا حظنا ... من غد نقنع بالحظ الرهين؟
أم ترانا نحمد الخطب إذا ... حان علماً بالذي سوف يحين؟
إن شكونا قيل لا تشكو فقد ... أنصفتكم هذه الدنيا الخؤون
لو درى الطفل بما سوف يرى ... شقي الطفل بما سوف يكون
والمازني يقول في أحد كتبه ما مؤداه: تعساً للجيل الذي يكون في حاجة إلى أدبنا هذا. وهو

يقولها في سخرية، فلعله لا يقصد أن يقتصر على هذه السخرية فقط فإن في هذه الكلمة معنى حقيقياً عظيم الأهمية
(بغداد)
عبد الوهاب الأمين
نقل الأديب
للأستاذ محمد إسعَاف النشاشيبي
231 - وأما بذل بقول فمحال
في (محاضرات الأدباء): كان محمد بن بشير ولي فارس فأتاه شاعر فمدحه فقال: أحسنت! وأقبل على كاتبه وقال: أعطه عشرة آلاف درهم، ففرح الشاعر، فقال: أراك قد طار بك الفرح بما أمرت لك. يا غلام، أجعلها عشرين ألفاً. فلما خرج قال الكاتب: جعلت فداك! هذا كان يرضيه اليسير، فكيف أمرت له بهذا المال؟! فقال: ويحك! أو تريد أن تعطيه ذلك؟ إنما قال لنا كذبا سرنا، وقلنا له كذبا سره، فما معنى بذل المال؟ أما قول بقول فنعم، وأما بذل بقول فمحال
232 - فتركتها للناس لا لله
أبو جعفر القرطبي:
وأبي المدامة وما أريدُ بشربها ... صلَفَ الرقيع ولا انهماك اللاهي
لم يبق من عصر الشباب وطيبه ... شيء كعهدي لم يحل إلا هي
إن كنت أشربها لغير وفائها ... فتركتها للناس لا لله
233 - راقه باعتداله وهندسته
في (أدب الكتاب) للصولي: كتب سليمان بن وهب كتاباً إلى ملك الروم في أيام المعتمد (العباسي) فقال: ما رأيت للعرب شيئاً أحسن من هذا الشكل، وما أحسدهم على شيء حسدي إياهم عليه
وإنما راقه باعتدالته وهندسته وحسن موقعه ومراتبه
234 - وهذا أيضاً مما يكتب
كان أبو حاتم السجستاني يكتب عن الأصمعي كل شيء يلفظ به من فوائد العلم حتى قال فيه: أنت شبيه الحفظة تكتب لغط اللفظة. فقال أبو حاتم: وهذا أيضاً مما يكتب
235 - الحجاج الكهاكه
في (الفائق) للزمخشري: الحجاج كان قصيراً أصعر كُهاكِهاً: هو الذي إذا نظرت إليه كأنه يضحك وليس بضاحك، من الكهكهة
236 - فأجتمع له العمى من جهتين
ابن الأثير في كتابه (المثل السائر): بلغني عن أبي العلاء ابن سليمان المعري أنه كان يتعصب لأبي الطيب حتى أنه كان يسميه الشاعر، ويسمي غيره من الشعراء باسمه، وكان يقول: ليس في شعره لفظة يمكن أن يقوم عنها ما هو في معناها فيجيء حسناً مثلها. فيا ليت شعري أما وقف على هذا البيت:
فلا يبرم الأمر الذي هو حالل ... ولا يحلل الأمر الذي هو يبرم
فلفظة حالل نافرة عن موضعها وكانت له مندوحة عنها لأنه لو أستعمل لفظة (ناقض) لجاءت اللفظة قارة في مكانها. لكن الهوى - كما يقال - أعمى. وكان أبو العلاء أعمى العين خلقة وأعماها عصبية. فأجتمع له العمى من جهتين
237 - لصحت بهذا البيت
في (الكنز المدفون): روى عن الشيخ العارف بالله أبي العباس السياري أنه قال: لو صحت صلاة بغير قرآن لصحت بهذا البيت:
أتمنى على الزمان محالا ... أن ترى مقلاتيَ طلعةَ حرِّ
238 - بأنامل الحور على النور
قال جحظة في أماليه: حدثني أبو حرملة قال: قال علي بن عبيدة الريحاني: حضرني ثلاثة تلاميذ لي فجرى لي كلام حسن فقال أحدهم: حق هذا الكلام أن يكتب بالغوالي على خدود الغواني
وقال الآخر: بل حقه أن يكتب بقلم الشكر في ورق النعم
وقال الآخر: بل حقه أن يكتب بأنامل الحور على النور
239 - وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم

قال الحريري في كتابه توشيح البيان: كان أحمد بن المعذل يجد بأخيه عبد الصمد وجداً
عظيماً، على تباين طريقيهما؛ لأن أحمد كان صواماً قواماً، وكان عبد الصمد سكيراً خموريا وكانا يسكنان في دار واحدة ينزل أحمد في غرفة أعلاها وعبد الصمد في أسفلها، فدعا عبد الصمد ليلة جماعة من ندمائه، وأخذوا في القصف والعزف حتى منعوا أحمد الورد، ونقضوا عليه التهجد، فاطلع عليهم وقال: (أفأمن الذين مكروا السَّيئاتِ أن يخسف الله بهم الأرض)
فرفع عبد الصمد رأسه وقال: (وما كانَ الله ليعذِّبهم وأنتَ فيهم)
240 - جمال، جلال، كمال
قال أحد العلماء: تجلى الله على المسجد الأقصى بالجمال، وعلى المسجد الحرام بالجلال، وعلى مسجد الرسول بالكمال
فذلك يوقف النواظر، وذاك يملأ الخواطر، وهذا يفتح البصائر
241 - وتسكينها حركات الطرب
في (المُغرب في حلي المَغرب): قال أمين الدين بن أبي الوفاء شاعر الفسطاط في مغن مبدع:
تنبّأ محمدٌ في فنّه ... وآيته أن شدا أو ضربْ
بقول أعاجم أوتاره ... أقاولُ تخرس فصْح العربْ
فتحريكُها سكنات الأسى ... وتسكينُها حركات الطربْ
242 - رأينا العفو من ثمر الذنوب
في (خاص الخاص): كان الصاحب إذا أنشد بيت السلاميّ
تبسّطنا على الآثام لما ... رأينا العفو من ثمر الذنوب
يقول: هذا (والله) معنى قد كان يدور في خاطر الناس فيحومون حوله ويرفرفون عليه ولا يتوصلون إليه على قرب مأخذه، حتى جاء السلامي فأفصح عنه، وأحسن ما شاء، ولم يدر ما رمى به
243 - بيضاء وخضراء وسوداء
يونس النحوي: الأيدي ثلاث: يد بيضاء، ويد خضراء، ويد سوداء. فاليد البيضاء هي الابتداء بالمعروف، واليد الخضراء هي المكافأة على المعروف، واليد السوداء هي المن بالمعروف
244 - . . وامش حيث شئت
سأل رجل أحد الأئمة: إذا شيعنا جنازة فقدامها أفضل أن نمشي أم خلفها؟
. . .فقال: اجهد أن لا تكون عليها وامش حيث شئت
البعاد
للأستاذ فخري أبو السعود
أه ما أَعذَبَ البِعادَ وإن أَز ... رَى عليه من قبلِنا العاشقونا
إنني أشتهي البعاد زمانا ... مثلما اشتهي التواصل حينا
لا أُحِبُّ اللقاء عهداً مقيما ... مستمراً به تُقضِّي السنونا
ما أَلَذَّ الهوى لقاً ووداعاً ... وكتاباً أَدَّى التحايا أمينا
إن هذا البعادَ يُذكي بيَ الح ... بَّ ويحي ولائي المكنونا
فأُفَدِّيكِ في النوى بحياتي ... حيثما تُصبحين أو تُمسينا
وأحيِّيك كلما ذكَّرتني ... ك رياضٌ رقَّتْ علينا غصونا
وأَرى أَن ودَّنا يعبر السه ... ل ويَرْقَى الربى ويطوي الحزونا
إن هذا البعاد يبعث بي الأَشْ ... واقَ حَرَّى ويستجيش الحنينا
ويُعيد العِذَابَ مِن ذكرياتي ... وقديماً في عهدنا ودفينا
ويثير المنى بنفسي ولن أَلْ ... قَى بأسمى المنى سواك قمينا
أتمنى اللقا بيوم لنا أر ... جِعُ فيه إليك أو ترجعينا
أتمنى اللقا وفيكِ وفاءٌ ... باتَ عندي بأن تَبِّري ضمينا
حُّبنا مِن صِفاتِهِ أنه بَرٌّ ... وثيق الذمام يعلو الظنونا
وأَحَبُّ الأيام عنديَ ما أرْ ... قُبُ فيه لقاءَك الميمونا
أُنْفِقُ العمرَ مسرفاً فإذا أَق ... بَلَ يومُ اللقاء كنتُ ضنينا

كلَّ حين لنا لقاءٌ سعيدٌ ... ووداع أَطوي عليه شجونا
وتزين في البعاد جمالا ... ورواء وبهجة وفتونا
وتزين في الشمائل إِينًا ... ساً وعطفاً كما أُحبُّ ولينا
وتزيدين كلَّ حينٍ سموّاً ... وعلوّاً فَاتَ الذرى والقنونا
أنتِ كنز من المحاسنِ أُخفي ... هـ نفيساً عن ناظريَّ ثمينا
كي أراه إنْ عُدتُ أبغيه قَدْ زا ... دَ جمالاً يسبي النهى والعيونا
كلَّ يوم أُجدِّد الحبَّ بالبُع ... د وأُحْيي منه فنوناً فنونا
فكأَني عشقتُ أَلفاً ومازل ... تُ الفتى الوافيَ الذي تعرفينا
ما أَحَبَّ الهوى افتقاداً ووِجدا ... ناً وقرباً حينا وبعداً شَطُونا
فخري أبو السعود
فريسة البغاء
للأستاذ ضياء الدين الدخيلي
شلت يد قادتكِ للهاوية ... وانتبذت جهلاً سواء السبيل
ورغبة جياشة عاتية ... عمت فأغرتكِ بمرعى وبيل
جنايةَ المجتمع الفاشل ... كُسِفتُ في حمأة آثام
طويت دون لذة العاجل ... تاريخ أجيال وأقوام
للشهوة العمياء أَسلمت لم ... ترعى نواميس صلاح العباد
فعدت من خزي بإكليل ذم ... شعار موت النفس نهب الفساد
يا أم ضيعتِ وكنتِ الحنون ... لو راعت الأمة آمالها
قد عاقبتها بالضياع السنون ... إذ وأدت بالشر أشبالها
أمسيت فيناً شبحاً للفناء ... وكنت للنوع ضمان الخلود
صلتِ عليه بجراثيم داء ... كم هدمت آلامه من وجود
النجف الأشرف - العراق
ضياء الدين الدخيلي
رسالة الفن
الفن الهندي
للدكتور أحمد موسى
مقدمة
كان لما كتبناه على صفحات (الرسالة) من الأثر ما شجعنا على مواصلة البحث والتحرير في موضوع ظننا لأول وهلة أنه ليس من الموضوعات التي يقبل القراء على قراءتها إقبالهم على غيرها، وقد وصلتنا رسائل عدة، استفهم كاتبوها مرة عن بعض التفاصيل وأخرى امتدحوها فيها خطتنا في الدرس والبحث، وثالثة يطالبوننا بأن نكثر من الكتابة عن الفن الشرقي على وجه الخصوص.
ولما كان تاريخ الفن لا يعنى بعينه دون سواه، ولما كانت رغبتنا هي العمل على إيجاد ثقافة فنية أقرب إلى الكمال، وغايتنا هي الوصول إلى ما يسمو بذوق القارئ، فيستطيع تقدير الجمال والتعرف على ناحية فذة في تاريخ الحضارة الإنسانية كلها، وجدنا أننا نستطيع الآن أن نبدأ بدرس الفن الهندي - وهو فن شرقي - لاسيما وقد فسرنا مميزات الفن المصري، وأوضحنا في شيء من الإسهاب آثار أكروبوليس أثينا، وآثار بابل وآشور كما تناولنا بالبحث بعض أقطاب الفن أمثال روبنز ورمبراندت وجويا وليوناردو وميكيلانجلو ورفايللو دون عناية بترتيب زمني أو مدرسي وقصدنا بذلك تبسيط الدرس
على أن درس الفن الهندي يكاد يكون من الدراسات المعقدة ولاسيما أن معرفتنا بتفاصيل العقائد الدينية في تلك البلاد تكاد تقرب من المعرفة الإجمالية، كما أن المعالم الأولى للفن الهندي مفقودة تماماً بالنظر إلى أن المشيدات الفنية أقيمت كلها من الخشب في أول الأمر فتلاشت معالمها بمضي القرون وأصبحنا أمام آثار حجرية بدأت بعد الوصول بالفن الهندي إلى درجة عظيمة تستحيل معها معرفة المرحلة الابتدائية لهذا الفن؛ كل هذا إلى أن الهند محاطة من الشرق والجنوب والغرب بالمياه، ومن الشمال بجبال عظيمة، جعل الفن الهندي قائماً بذاته لا تجد له نظيراً بين الفنون

الأخرى من الوجهة العامة. نعم يرى الدارس المدقق أوجه الشبه بينه وبين الفنون الأسيوية، ولكننا هنا لا نتعمق في البحث والاستقصاء، وكل
ما نريده هو الإحاطة الإجمالية، وفهم أبرز المميزات للفن الهندي، والوقوف على مدى ما وصل إليه الفنان في هذا المجال
وخير وسيلة وابسطها لهذه الغاية هي تقسيم الفن الهندي إلى ثلاث مراحل: الأولى مرحلة البراهمة التي أستمر أثر حضارتها إلى حوالي سنة 250 ق. م. والثانية مرحلة البوذيين التي بدأت عندما نادى بوذا بمذهبه في القرن السادس قبل الميلاد، وظلت حتى كان المذهب البوذي هو الدين الرسمي للبلاد بواسطة الملك أسوكا حوالي سنة 250 ق. م. أما المرحلة الثالثة فهي المرحلة البراهمية الجديدة التي بدأت عند إدماج المذهب البوذي في المذهب البراهيمي صاحب الغلبة في القرن السابع بعد الميلاد.
وقد بلغ الفن الذروة فيما بين القرن الثامن والثاني عشر بعد الميلاد، وبعدئذ دخل الإسلام بسطوته إلى تلك البلاد من القرن الثاني عشر
وبدأ الفن الهندي بمعناه الكامل في المرحلة البوذية حيث توجد أقدم الآثار الجديرة بالتسجيل والدرس والتي يرجع عهدها إلى عصر الملك أسوكا
وخير الأمثلة عليها المباني بأعمدتها التذكارية في (الله أباد) و (دهلي) وغيرهما، وفيها كلها أقيمت هذه العمائر لتسجيل النصر لبوذا
وطراز الأعمدة التذكارية يتخلص في أنها أقيمت على قواعد مستديرة الشكل تحمل تيجاناً على هيئة زهرة اللوتس وعليها الأسد رمزاً لبوذا
هذا إلى جانب بناء مجموعات من الأعمدة التذكارية على قواعد مستديرة الشكل تحمل مباني صامتة من الحجر المحروق، وقد أخذ شكلها التكويني هيئة القباب، وإلى جانبها خصصت غرفة صغيرة لدفن الأجسام المقدسة، أحيطت جميعها بسور عالٍ ذي بوابة كبيرة من الخشب. وأقدم أنموذج لهذا النمط البناء المسمى ستوبا سانتشي، يرجع تاريخه إلى عصر أسوكا، وقد بلغ ارتفاعه سبعة عشر متراً، وبه أربع بوابات ذات نقوش وزخارف بديعة.
هذا إلى جانب المعابد المنحوتة في الصخر والتي يتمثل فيها الفن الهندي البوذي تمثيلاً جيداً، نحتها وهيأها البوذيون، وكانت النمط الذي سار عليه البراهميون فيما بعد. فأنشأوا المعبد على هيئة مربع قسموه بواسطة الأعمدة إلى ثلاثة أجنحة (أشبه بالكنائس بازيليكا)
فكان الجناح الضيق منتهياً بفتحة كقبلة صغيرة على هيئة نصف دائرة وضع فيها تمثال بوذا أو صورته. أما الحوائط فكانت كلها مزخرفة ومنقوشة، وإلى جوار هذا المربع غرف كثيرة وطرق ومسالك وردهات. كل هذا منحوت في الصخر مما يثير الإعجاب حقاً، كتلك التي نحتها المصريون في الصخر أيضاً (راجع الرسالة - الفن المصري، العمارة المصرية)
أما المدخل العام فكانت واجهته جميلة التكوين، تأخذ بلب الناظر إليها لما فيها من مظاهر العناية الفائقة والدقة المتناهية، هذا إلى جانب التماثيل والمنحوتات التي لا تقل قيمة فنية عن بقية البناء.
أما الدعامات والأكتاف الساندة فكانت مختلفة التكوين سائرة على غير قاعدة هندسية فنية ثابتة. والناظر إليها يرى أنها تشبه في بعض أجزائها تلك التي عملت على الطراز الباروكي في أوربا لولا ما غلب على حلياتها من الخيال الشرقي
وكانت الأعمدة حيناً مضلعة، وقد بلغت أضلاع بعضها أحياناً الستة عشر ضلعاً؛ وكانت التيجان أعلاها مربعة الشكل أو على قطعة حجرية ذات ثمانية أضلاع أو مربعة الشكل أيضاً. وكانت حيناً آخر مستديرة تسير على طولها قنوات رفيعة وتيجانها مستديرة مرة، وعلى هيئة كرة منبعجة مرة أخرى
وأهم وأبرز نماذج لهذه الأنماط المعمارية تنحصر في حدود الهند الشمالية الغربية بالقرب من بمباي وكارلي وأدشونتا وبهايا وإيلورا، وأقدم هذه كلها يرجع تاريخه إلى سنة 150 ق. م، وأعظمها وأشهرها وأجملها أقيمت في وقت الانتقال من الديانة البوذية إلى البراهمية بين سنة 500 وسنة 800 بعد المسيح
وتعد معابد إيلورا الصخرية على الخصوص من عجائب العمارة الهندية وتشمل الطرازين البوذي والبراهمي معاً، وبعض هذه المعابد على سفح الجبل الجرانيتي،

وبعضها الآخر منحوت فيه من الداخل وكلها تقرب من ثلاثين معبداً وديرا
(له بقية)
أحمد موسى
القصص
(القصة الخالدة التي أوحت إلى شاكسبير بروميو وجوليت)
من أساطير الإغريق
التوت الأبيض والتوت الأحمر
أو (بيرام وتسبيه)
للأستاذ دريني خشبة
كان أجمل شباب بابل، وكانت أجمل حسانها
كانت فتنة في فتنة، في جسم قوي، وقلب حمي، وخلق حيي، وقوام مفتول، ونفس حلوة ساكنة سجواء. . . وكانت قسيمة وسيمة، خفية لطيفة، غضة كالورد عطرية كأنفاس البنفسج؛ تفتر عن فم خمري شتيت، وترنو بعينين دعجاوين نجلاوين؛ وترسل شعرها المغدودن على ظهرها العاجي تارة، وصدرها المرمري أخرى، يداعبه النسيم، وتقبله الآلهة، وتنتظم فيه حبات القلوب
وكان بيتاهما متلاصقين، فكان يراها وكانت تراه، وكان يلقاها وكانت تلقاه؛ وكانا يتلاعبان في الصغر، طفلين كالملائكة ثم شبا، فكانا ينفران إلى الخلاء والأدغال، ويلتقيان عند النبع القريب، ويتسلق بيرام أشجار التوت الأبيض - ولم يكن التوت الأحمر قد عرف بعد - فيهز أغصانها وأفنانها، ويساقط الثمر الشهي اللذيذ على سندس العشب، رطباً جنياً. . . فتأكل تسبيه، وتقر به عيناً!!
ثم ترعرعا أيضاً؛ ودبت الحياة الحلوة الجميلة، حارة متدفقة زاخرة، في قلبيهما الصغيرين؛ وأخذ الفؤادان الصغيران يثبتان إلى الأعين السعيدة النقية الطاهرة، يرى كل إلى صاحبه، ويتزود كل من جمال أخيه زاد الهوى وذخيرة الحب، للأيام المقبلات ولم يعرفا أنه الحب، ذاك الذي يخفق في صدريهما أول الأمر ولكنهما عرفاه، وعرفاه معرفة كلها شجو وكلها حنين حين ألح عليهما وحين كانا يفترقان أشوق ما يكونان إلى لقاء، وأصبى ما يكونان إلى اجتماع. . . ثم عرفا كيف يتشاكيان وكيف يتباكيان وكيف يكون
الليل جحيما حينما يقبل فيفصل بينهما بظلامه، ويجمع بين روحيهما بسهده ودموعه وطويل أنينه، وكيف يكون فردوساً خالداً حينما يجمع بينهما في يقظة أو منام
ولم يقو بيرام على عذاب البعد، فاتفق وتسبيه على أن يكلم أباه ليكلم أباها في الخطبة، ولكن الوالد أبى واستكبر، ورفض أن تكون هذه الفتاة التي هي مطمح أبصار شبان المدينة زوجة لولده، وكذلك أبى والد الفتاة؛ ثم شجر الخلاف واتسع، وكثرت شياطينه، وأحيا عداوات قديمة، فتدابر القوم وتناكروا ولكن ما في قلبي الحبيبين ظل على ما كان عليه؛ بل ألهب البعد الذي جرت إليه الخصومة أوار حبهما، فازداد هياماً، وذابا غراماً، وكانت عداوة أهليهما عليهما برداً وسلاماً
ولم يعد يفكر إلا فيها، ولم تعد تفكر إلا فيه، وراح ينظم الشعر يتغنى به برحاءه، ويرسل موسيقاه يكلم بها السماء عسى أن ترق له آلهتها فترحمه مما يقاسي. . . وراحت هي تبكي وتتكلم بلغة الدموع إلى نفسها الملتاعة، وترسل آهاتها في صميم الليل تردد بين النجوم الخفاقة الكلمى تتوسل إلى أرباب الرحمة والحب أن تدرك بلطفها ضعف الحبيبين المظلومين
وتصدعت السماء، وانهمرت شآبيب الرحمة، وانهل فيض الحنان، وأمرت الآلهة فزلزلت الأرض زلزالها. . . وكانت الغرفة التي ينام فيها بيرام ملاصقة للغرفة التي تنام فيها حبيبته تسبيه، وكان يفصلهما جدار مشترك بين المنزلين المختصمين، فأحدث الزلزال في هذا الجدار صدعاً صغيراً كالشعرة، فوصل هواء الغرفتين، وحمل كلام الحبيبين، وأخذت موسيقى بيرام وغناؤه ينسابان إلى غرفة تسبيه، وأخذ بكاء تسبيه وآهاتها تنساب في غرفة بيرام؛ وأخذت النجوى الحلوة، والشكوى الجميلة، وغزل الكلام، وحنين القلوب، ينتقل في بروج هذا الجبل الشق كأنها كواكب السعد تحدوها الآهات الملتهبة، وتذهب بها القبلات الحارة، ترف بأجنحة من أثير من فم إلى فم. . . تسبيه، تسبيه - !

- من؟ من يناديني؟
- تسبيه، هو أنا، أنا بيرام!
- من أين تتكلم؟
- من هنا. . . ألم تشعري بالزلزلة؟
- آه! شعرت بها في العشاء الآخرة ليلة أمس
- إنها أحدثت في الحائط الذي يفصل بيننا شقا. . . وأنا أكلمك منه
- بيرام!
- تسبيه!
- إذن لقد رثت الآلهة لحالنا!
- واستجابت دعائنا يا تسبيه، لقد كانت حركتها موسيقاي!
- إذن كنت تعزف وتتغنى، بينما كنت أبكي وأئن وأذوي!
- لا! ولكني كنت أسكب نفسي دموعاً على أوتار القيثار!
- يا لقسوة هذا الجدار يا بيرام! إنه يفصل بيننا بشدة!
- هو على كل ارحم بنا من أبوينا. . . أليس قد انفرج ليصل حديثنا؟
- نشكره، إن من الصخر لما يتفجر منه الماء!
- نشكره جداً يا تسبيهـ. . وأشكره أنا خاصة لأنه فرج عن قلبي بالتحدث إليك
- بيرام!
- حياتي!
- هل الجنة أجمل من سجننا هذا؟
- أنه أجمل من أنظر الجنان يا تسبيه!
- وهذا الظلام! أليس هو أضوء من سنا الضحى؟
- لأننا نتحدث فيه يا أختاه!
- أحب أن اسمع موسيقاك يا ببرام تتدفق في روحي خلال هذا الجدار
- ليس أحب إلي من ذلك يا تسبيه
- أنا لم أسمعك تغني مذ تناكر أهلونا
- سأفعل إن وددت!
- وماذا عساك تغني؟
- كل أغنياتي التي ترنمت بها فيك؟
- ألا تغني شيئا آخر؟
- للآلهة! لأنها أنعمت عليّ بحبك!

وهكذا كانت أحاديث الحبيبين المعذبين كلما جنهما الليل، وضمها غاشي الظلام؛ أحاديث كأوشية الروض، وأفواف الزهر ونجوى البلابل، ممزوجة بعبرة أو عبرتين يريقانهما على جفاء الأهل، ولدد الطباع، وقسوة الأيام

ولم يحتملا هذه الحال طويلاً، فلقد شفهما الهوى، وأنحلتهما الصبابة، وفعل الحب في قلبيهما الضعيفين أفاعيله. ففي ليلة سافرة البدر، ساجية النسيم، صمتت فيها الطبيعة، وتكلم القمر، دار بين العاشقين الحديث الأتي:

- تسبيه؟!
- بيرام!
- أوشك القمر أن يكون بدراً يا حبيبتي!
- إنه جميل الليلة، وحبذا لو ظل جميلاً الليالي المقبلة. . .
- إن القمر جميل دائماً. . . أليس هو ابتسامة هذه الدنيا في ليالي العاشقين؟
- لكنه صامت أبداً. . . إنه أبكم لا يعي!
- سو. . . لا تقولي ذلك يا تسبيهـ. . قد تسمعك ديانا فتغضب!
- هل يتكلم؟ هل يفهم؟
- أما أنه يتكلم فحق. . . لكنه لا يتكلم بلسان كلساننا. . .
- أنه يتكلم بلسان من فضة يا تسبيه، لسان له رنين حلو في أعماق الروح. . . ثم هو يفهم آلام المحبين لأنها تصعد إليه مع أهاتهم. . .
- خيال شاعر وفلسفته!
- بل هو الحق يا حبيبتي! لقد كان يكلمني وكنت أكلمه. وكان يفهمني وكنت أفهمه،

كان يكلمني بآراده وأضوائه، وهي لسان صامت ولكنه بليغ لسن، وكنت أكلمه بوجداني مرة، وموسيقاي أخرى، فكان يضحك في الأولى، ويرقص في الثانية. . . تسبيه!
- ماذا يا بيرام؟
- أتمنى لو غمرتنا أشعة القمر غداً، في هذا السهل المنبسط
- غداً؟ وكيف؟
- ولم لا؟ ألا ترغبين؟
- وكيف أرفض؟ أنا أتمنى ذلك
- إذن سنلتقي!
- وكيف أفعل يا بيرام؟
- تنسرقين إذ نام أهلك. . . ولن يشعر بك أحد
- وأين نلتقي؟
- عند مقبرة نينوس
-. . .؟. . .
- ألا تعرفينها؟
- مكان رهيب!
- لكنه جميل رائع! سنجلس ثمة بين يدي القمر ونتحدث، ونشفي أنفسنا مما تجد!
- وتعزف وتغني؟
- وقد نبكي!
-. . .؟. . .
- اتفقنا! أليس كذلك؟
- اتفقنا
- إذن أنتظرك، إذا لم أجدك هناك، عند النبع القريب. تحت التوتة البيضاء! وكذلك تفعلين
- أفعل ماذا؟
- تنتظرينني ثمة إذا سبقتني!
- ترى ماذا تبتغي ديانا مني؟
- لا شيء. . . لا شيء. . .

ما كان أجملها من ليلة سطع في حوشيها القمر، ودحرج لآلئه على مياه النبع، ودغدغ بأضوائه العشب وأفنان الشجر فتبسمت وتضاحكت، ونشر في أجوائها بخوره المصاعد من مجامر الورد، ومداهن البنفسج، احتفاء بمقدم تسبيه! يا لجمال الطبيعة! لقد كان كل ما فيها

موسيقى صامتة تنشر أحلى النغم حوالي هذه الحبيبة التي انسرقت تحت إسدال الظلام تمشي كالقطاة وترسل من فوق رأسها خماراً رقيقاً كسحابة الصيف تستر ما وراءها وليست شيئاً! لقد كانت تتوجس في نفسها خيفة وهي تدب في سكون الليل، كما يسري الحلم الجميل في خلد النائم

وذهبت تطوي الطريق وفي رأسها ألف فكرة عن هذه المجازفة؛ وبلغت مقبرة نينوس آخر الأمر، ولكنها لم تجد حبيبها عندها. ترى؟ ماذا عوقه؟ لقد كان رخام المقبرة نظيفاً ناصعاً، ولقد كان شبح الفناء جاثماً فوقها يلمع في ضوء القمر، كأنه يتلاعب بالسنين والأحقاب، وكأنه يسخر من كل شيء فوق الأرض! وبدا للفتاة الضعيفة كأنه يرقص كالسكران فوق الشاخص الرخامي، ولكنها أخذت تصرف عن عينها رؤى عفاريت الليل، وتصاوير الوهم المريض؛ ثم سخرت من خوفها وذكرت التوتة البيضاء، والنبع الذي عندها، فارتدت إليهما لتجلس ثمة، ترتقب زورة الحبيب

وجلست عند جذع التوتة، وجعلت تحدج الثمر الأبيض، وتشتهي لو سقط منه شيء تأكله حتى يحضر بيرام. . . ثم سمعت دبيباً يقترب، فلم تشك أن بيرام قد أقبل، ونبض قلبها بشدة وانذرفت من عينها عبرة لم تفكر هذه اللحظة أن تذرفها. . . ثم أبطأ الدبيب. . . ووثبت تسبيه تمد عينيها الثاقبتين في أرجاء الدنيا الصامتة الرهيبة، ولكنها لم تر شيئاً، وعادت عفاريت الليل ترقص في وهمها، ولكنها لم تبال، وجعلت تجاهد نفسها مجاهدة لينة مرة، عنيفة مرة أخرى، وهي في هذا وذاك تفكر في حبيبها بيرام، وتضرب في تأخره أخماساً لأسداس. . . ثم ذعرت الفتاة ذعراً كبيراً، وساخت الأرض

تحت قدميها المرتجفتين أو كأن قد. . . ذلك إنها لمحت شبح لبؤة تخرج من دغل قريب فجأة، ثم تيمم شطر النبع الذي تعرش من فوقه التوتة. ماذا؟ إنها لبؤة ضارية أقبلت ترتوي من ظمأ ملح وجواد شديد. . . وهي تتبهنس مع ذاك كأنها عروس ولكن من الجن

وأطلقت الفتاة ساقيها للريح، ولم تحفل بها اللبؤة، لأنها قد افترست فريسة قبل ساعة ونهشتها، وهذا فمها ملوث بالدم الغريض الدافئ. . .

لم تصنع اللبؤة شيئاً، إلا أنها رأت الخمار الأبيض الذي كانت تسبيه ملتفعة به، ملقى على الأرض، فعاثت فيه، وكأنما أرادت أن تمسح فمها به، فلوثته بالدم، ثم هممت نحو النبع

فارتوت على مهل، وعادت أدراجها نحو الدغل الذي تركت فيه فريستها لتأتي على بقاياها

أما الفتاة فقد ظلت تجري حتى بلغت شجرة ضخمة وجدت في أصلها فراغاً فاختبأت فيه، وراحت تلهث من الذعر والتعب، وتتمنى أن ألا ترتد اللبؤة إليها. . . وقد أيقنت أن ديانا، إلهة القمر، قد سمعتها حين عابت على البدر عيه وبكمه، فساقت إليها هذا الوحش في هذا الليل

ولم يمض طويلاً على تلك الأحداث حتى أقبل بيرام وفي نفسه لهفة، وبقلبه قلق، فقصد إلى مقبرة نينوس فلم يجد عندها شيئاً؛ ووقف قليلاً يبحث عن تسبيه في كل شيء! في شجيرات الورد وفسائل الزنبق، وفي العشب الخائف المذعور حول المقبرة؛ وتولاه طائف من الوجد والذهول فراح يبحث في السحابة الرقيقة البيضاء التي انتشرت على وجه القمر في هذه اللحظة، مشبهة خمار تسبيه على وجهها الرقيق الناحل. . . ثم ذكره ميعاده عند النبع القريب تحت التوتة البيضاء، فانثنى ميمما شطرها. . .

(يا للهول! ويا للفزع الأكبر!! ما هذا؟ خمار حريري أبيض؟ لمن هذا الخمار يا ترى؟ أواه! إنه خمارها لا ريب! لقد شهدتها تلتفع به مراراً! يا أرباب السماء! ما هذا الدم؟ وا أسفاه عليك يا تسبيه! لقد قتلتك الوحوش فلن أراك بعد اليوم! أنا السبب يا حبيبتي! لقد جررت عليك هذا باقتراحي الضال! ألا ليت أمي لم تلدني! أي وحش ضار اغتذى بك يا تسبيه؟ أيها القمر القبيح الأبكم لم أغريتنا بهذا اللقاء؟ أنت تستر الآن حياء وخجلا من فعلتك التي فعلت، وكنت بالأمس سافراً متبرجا! أغرب أيها الأصفر كصفرة الموت فلا جمال فيك! رد علي موسيقاي وأغاني فأنت جبس لئيم لا تستأهل منها شيئاً! هات كل ما عندك لي هات! هات دموعي وأشجاني وآهاتي! هات سهدي وعبادتي ومناجاتي!

قتلت تسبيه تحت سمعك وبصرك ما أقساك يا صاحب الليالي المواضي! أوه. . . ولكن. . . لا. . . أنا الذي قتلتها، لا ذنب لك يا قمر. . . إني أستغفرك؛ أبق كل ذكرياتي عندك، فلا أمن عليها إلا أنت! أما أنا. . . فهلم يا حسام أسكن هنا. . . في حبة القلب. . . أروَ من هذا الدم الدافئ فلا أمل لصاحبك في الحياة بعد اليوم .. .)

وألقى الفتى المسكين نظرة على كل شيء حوله، لا حرصاً على الحياة المرة؛ ولكن لينظر إلى كل ما نظرت إليه تسبيه قبل أن يأكلها الوحش، وليتزود من الأثر الذي تركته في

الوجود عيناها الحزينتان المفزوعتان. . .

ثم أغمد سيفه في صدره. . . وسقط يتجرع سكرة الموت!

وهدأ روع تسبيه، فبرزت من مكمنها في أصل الدوحة، لنرى من أين كان يتردد في أذنيها هذا النداء الحبيب. وكان شبح اللبؤة ما يزال يتمثل لها فيفزعها في الفينة بعد الفينة، ولكنها كانت تسير بخطى وئيدة، لأنها ما شكت مطلقاً في أن النداء لحبيبها، ولأن الصوت الفضي الذي كان يمتزج بأضواء القمر فيغمر أذنيها وقلبها، كان ما يزال يداعب أذنيها الصغيرتين. . . ثم بدا لها أن تحث الخطى حتى تنبه بيرام إلى وجود لبؤة في هذا السهل الجميل جعلته كالفلاة. . . فأسرعت، وأسرعت!!

- من هذا المستلقي على حفاف النبع؟ هو من غير شك!

ثم أسرعت أكثر من ذي قبل

- بيرام؟ ما هذا؟ السيف في صدرك؟ لِمَهْ؟ حبيبي! رد علي! كلم تسبيه! هاأنا ذي! لم قتلت نفسك يا بيرام؟ آه! هذا الخمار الأبيض! وَيْ! إنه ملوث بالدم؟ عاثت فيه اللبؤة

الملعونة!
- تس. . . سبيه!
وأرسل القتيل هذا الاسم المحبب وحشرجة الموت تعتلج في صدره، ثم فتح عينه قليلاً فرأى فتاته تبكي فوق رأسه، فتبسم. . . ثم مات!
- بيرام! لا! لا تمت! لابد أن تعيش من أجلي!
ولكنه مات برغم هذه الأماني
- إذن أنا التي قتلتك يا حبيبي؟ أشهدي يا توتتنا البيضاء!
ثم رفعت بصرها إلى فوق، ولكنها بدلاً من أن ترى الثمر الشهي الأبيض، رأت ثمراً أحمر يقطر دماً قانياً
- أوه! رويت من دمه أيتها الشجرة فضرجت ثمرك من حبنا وسعادتنا؟! تعالوا يا أهل! تعالوا أيها القساة! فتشوا عن الرحمة في قلوبكم المتحجرة اذرفوا دموعكم علينا. . احذوا أن تفرقوا بعد اليوم بيننا، فقد ربطت بين جسومنا المنايا. . . لقد أبيتم في أن نجتمع في الحياة فلا تفرقوا بيننا بعد الموت. . . وداعاً أيها القمر. . . وداعاً فقد ظلمناك!)
ثم جذبت السيف من صدر حبيبها وأغمدته في صدرها بعد أن قبلت بيرام الميت قبلة الوداع. . . وسقطت تتخبط في دمائها جانبه. . . ثم عالجت سكرات المنون فوضعت رأسها الجميل، وشعرها المغدودن فوق صدره. . . ولفظت ثمة آخر أنفاسها وأقبل أهلوهما في الصباح فبكوا كثيراً، واستغفروا لذنوبهم، ثم أقاموا للحبيبين قبراً واحداً من الرخام الناصع عند حفافي النبع. . . تحت التوتة الحمراء!
دريني خشبة
البريد الأدبي
أسطورة الاطلانطس
هل كانت الاطلانطس التي مازالت مستقى خصباً لأقلام القصصيين حقيقة قارة أو منطقة مفقودة؟ لقد ظهرت في العصر الأخير عدة قصص رنانة عن خرافة (الاطلانطس) وكان أخرها رواية لبيير برتران عضو الأكاديمية الفرنسية. ولكن (الاطلانطس) ما تزال خرافة يكتنفها الغموض المطبق. وقد حاول كاتب إنجليزي هو جيمس برايمول أخيراً أن يدرس قصة (الاطلانطس) دراسة تاريخية علمية، فوضع عنها كتاباً سماه (الاطلانطس المفقودة) جمع فيه كل ما ورد في الروايات القديمة والحديثة وفي التقاليد المأثورة، وفي الشعر والقصص عن هذه الأسطورة، وفي رأيه أن هذا (الاطلانس) لابد أن تعني شيئاً ولو أن ما يحيط بها من الغموض يحول دون معرفة الحقيقة، وأن هذه القارة ربما كانت على الأغلب جزائر (آزورس) في عصر غابر جداً قد يرجع إلى عشرة آلاف عام قبل المسيح. والواقع أن الأسطورة تثير في الإنسان الجانب الشعري قبل أن تثير فيه الناحية العلمية؛ وإذا كانت جزائر (الآزورس) يمكن أن تكون فرضاً أول للقارة المفقودة، فكذلك يمكن أن تكون قادسة وقرطاجنة؛ وهنالك غير ذلك فروض كثيرة ذهب إليها مختلف الباحثين. وأما الحوادث التي ترتبط بهذه الأسطورة فلا حصر لها، وهي قد ترجع إلى عصر الأهرام أو عصر أفلاطون، وأفلاطون ممن تحدثوا عن (الاطلانطس)؛ بيد أن مستر براموبل يرى رواية أفلاطون خارقة مستحيلة إذ يقول أن (الأطلانطس) أو القارة الوسطى قد اختفت في الماء في يوم واحد، لأن العوامل الجيولوجية لا تحدث أثرها بمثل هذه السرعة الخارقة؛ ومن جهة أخرى فإن أسطورة (الأطلانطس) ليست في ذاتها أكثر إغراقا من أساطير تاريخية أخرى لها مكانة في التاريخ، فحصار طراودة وقصة هيلين التي خلدها هوميروس في الإلياذة؛ وقصة ملكة سبأ التي شغلت الباحثين والرواد في الأعوام الأخيرة وأمثالهما من الروايات المغرقة التي تبدو مع ذلك ذات مسحة تاريخية هي من نوع أسطورة الاطلانطس، ولو أنها من الناحية الزمنية ترجع إلى عصور أكثر ظلاماً وغموضاً، وعلى أي حال فإن كتاب (الاطلانطس المفقودة) يقدم إلينا مجموعة من الروايات والفروض الشائقة التي تتعلق بهذه الأسطورة منذ فجر التاريخ إلى عصرنا
مر، مرير، ممر
نقد السيد جورج سلستي في (الرسالة) لفظة (المرير) في (رواية المصدور) وقد كان العلامة الشيخ إبراهيم اليازجي قد أنكر هذه الكلمة في مجلته (الضياء) كما أنكر ألفاظاً

عربية صحيحة غيرها. والشيخ إبراهيم والسيد جورج كلاهما مخطئ في نقد تلك اللفظة، فالمرير مثل المر والممر؛ وهي في كتب اللغة وكلام العرب ورسائل البلغاء، قال (أساس البلاغة) للإمام الزمخشري: (وشيء مر ومرير وممر) قال:

إني إذا حذرتني حذور ... حلو، على حلاوتي مرير

ذو حدة، في حدتي وقور

وفي نهج البلاغة - وصوّاغه من أئمة الفصاحة والبلاغة: (وإن كان ذا مشقة شديدة ومذاقة مريرة)

. . .فقال: المر، أو المرير، أو الممر، إذا اقتضت ذلك حال، ولكل مقام لفظ ومقال (الإسكندرية)

* * *

أوراق البردي ونصوص التوراة

ظفر المنقبون في العصر الأخير بكثير من أوراق البردي التي تتضمن نصوصاً من التوراة في عصور مختلفة، ووجدت معظم هذه النصوص الأثرية ضمن أوراق البردي المصرية؛ وقد استطاع المستر شستر بيتي المثري الإنكليزي المعروف في مصر بأنه من أكبر هواة الآثار أن يحرز عدة من أوراق البردي الهامة التي تلقي ضوءاً على نصوص التوراة الأولى؛ ووصفت هذه الوثائق أخيراً وترجمت نصوصها في كتاب بقلم العلامة الأثري الإنكليزي السير فردريك كينون، وعددها أثنتا عشرة وثيقة منها عدة تكون قسما من نسخة من التوراة كتبت في القرن الثالث الميلادي. وهذه التوراة كما يصفها السير كينون كانت مجموعة واحدة تحتوي على ستة وخمسين صفحة من البردي لصقت معاً ونظمت في ملف؛ وقد استطاع السير كينون أن يقرر بالاعتماد على هذه الوثائق كثيراً من الحقائق التاريخية التي تتعلق بتطور النصوص ونتائجها؛ وأهم هذه الحقائق هو أن نص التوراة كما ورد في كتاب (إيسيا) ليس هو أصح النصوص التي انتهت إلينا. وهنالك بعض وثائق أخرى ترجع إلى القرن الرابع الميلادي وكلها مما يعاون في تتبع النصوص وتحقيقها

الرئيس مازاريك والحركة الفكرية

فقدت الحركة الفكرية في أوربا الوسطى بوفاة الدكتور مازاريك محررا تشيكوسلوفاكيا ورئيسها السابق ركنا من أهم أركانها. ذلك أن الرئيس الراحل لم يكن وطنياً وسياسياً عظيما فقط بل كان أيضاً مفكراً وكاتباً مبرزاً، وقد درس الفلسفة واشتغل في شبابه بالتدريس وكان مدى أعوام طويلة أستاذاً للفلسفة في جامعة براج؛ وله رسائل وبحوث فلسفية قيمة. كذلك أشتغل الرئيس مازاريك بالصحافة والأدب، وله عدة أثار أدبية ونقدية لها مكانة في أدب أوربا الوسطى، وكان الرئيس مازاريك أيضاً من أعظم هواة الكتب، وقد جمع أثناء حياته مكتبة عظيمة كانت كعبة الزوار من كل صوب، وقد تركها لأمته

رحلة في بلاد التركستان

لا تزال التركستان الصينية من المناطق التي يجهل العالم الخارجي الكثير من أحوالها؛ وقد وقعت في الأعوام الأخيرة بهذه البلاد النائية عدة أحداث وتطورات سياسية هامة لفتت إليها الأنظار، وزارتها عدة بعوث أوربية لتكشف ما هنالك من الحوادث والظروف، ولتدرسها من الوجهة الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية، وكان من هذه البعثات بعثة أوفدتها الحكومة الإنكليزية إلى مدينة أورمش في أعماق التركستان سنة 1935 لتعقد الصلات السياسية والتجارية بين إنكلترا والحكومة الجديدة؛ وكانت هذه البعثة برياسة السير أريك تيشمان، يعاونه ثلاثة من المغول واثنان من الصينيين؛ وسافرت البعثة من بكين في سيارتين كبيرتين تتقدمهما قافلة من الجمال تحمل البنزين والمؤن؛ واخترقت البعثة صحراء جوبى الشاسعة مدى ألف وخمسمائة ميل إلى أورمشي؛ ثم سارت منها إلى مدينة كشغر عاصمة التركستان الصينية فقطعت بذلك نحو ألفين وخمسمائة ميل في أربعين يوماً. وقد دون السير تيشمان رحلته ودراساته لهذه الأقطار المجهولة في كتاب ظهر أخيراً عنوانه (الرحلة إلى تركستان) ومرض السير تيشمان مدى حين في كشغر، ولكنه استطاع أن يتم مهمته. وأن يخترق بعد ذلك صحراء البامير المروعة على ظهر مهر،

ومنها انحدر نحو حدود الهند الشمالية الغربية، ثم عاد إلى الصين عن طريق الهند ويقدم إلينا السير تيشمان في كتابه خلاصة قيمة عن تاريخ التركستان الصينية، وعن أحوالها وظروفها الحالية؛ ويفيض في وصف الفيافي الشاسعة والجبال الشامخة التي شاهدها، وفي وصف الأجناس البشرية التي لقيها في طريقه، ولغاتها ومعتقداتها وأساليب الحياة

في دار المحفوظات النمسوية

يتردد صديقنا الأستاذ عنان الذي يقضي الآن أجازته في فينا على دار المحفوظات النمسوية ليدرس الملفات الخاصة بحياة ولي العهد السابق رودلف فون هبسبرج وبمصرعه المؤسي في حادثة مايرلنج الشهيرة، وقد كانت هذه الملفات السرية التي تحتوي على كثير من الوثائق المخطوطة محفوظة في قصر (البورج) ولم يتح لإنسان أن يطلع عليها إلا بعد الحرب الكبرى حيث نقلت المحفوظات الإمبراطورية إلى محفوظات الدولة؛ وبين هذه الوثائق مذكرة خطية مستفيضة عن مصرع الأمير رودلف في قصر مايرلنج مكتوبة بقلم كبير حاشيته الكونت فون هويوش وفيها يفصل الظروف والعوامل النفسية والاجتماعية التي دفعت بالأمير إلى الانتحار. وينوي الأستاذ عنان بعد دراسة هذه الملفات أن يضع مؤلفاً عن مأساة مايرلنج الشهيرة مستسقي من أوثق المصادر والمراجع

بعثة ثقافية مصرية إلى فرنسا

وجهت الحكومة الفرنسية الدعوة إلى الحكومة المصرية لإيفاد ثلاثة من خريجي كلية الآداب واثنين من خريجي كلية الحقوق لزيارة فرنسا والإقامة بها عاماً دراسياً كاملا وقد خصصت جمعية أصدقاء الشرق لكل مبعوث مصري من الذين تقرر الجامعة إيفادهم عشرة آلاف فرنك طول مدة الإقامة على أن تتكفل أيضاً بنفقات الانتقال على البواخر الفرنسية والسكك الحديدية المصرية والفرنسية

وقد تلقت وزارة المعارف أمس الأول كتاباً من قنصل فرنسا يطلب إليها فيه دعوة المبعوثين لمقابلته والتعرف إليهم. ونذكر في هذا الصدد أن جمعية أصدقاء الشرق بباريس لم تضع للبعثة برنامجاً وإن كان المفهوم أن الدعوة مقصود بها توطيد صلات الصداقة

وإيجاد علاقات أدبية وثيقة بين الشعبين المصري والفرنسي عن طريق إيفاد مثل تلك البعثات؛ وقد وقع اختيار الجامعة على أعضاء البعثة وسيغادرون مصر في هذا الشهر

الحياة الطبيعية للإنسان 150 سنة

وصل الأستاذ (لازارف) مدير معهد البيولوجيا في روسيا - بعد سنوات من البحث - إلى أن العمر الطبيعي للإنسان ينبغي أن يكون 150 سنة وأن السبب الوحيد لعدم مقدرة الجيل الحاضر على الوصول إلى هذا السن هو عدم الاهتداء إلى سر التغلب على عملية التفكك في الجسم الإنساني. ويعتقد الأستاذ أن الإنسان يصل إلى عنفوان قوته في سن العشرين وبعد ذلك تبتدئ عملية التفكك وأنه سوف لا يمضي وقت طويل حتى يتمكن العلم من وقف هذه العملية وبذلك يتمكن الجزء الأعظم من سكان العالم من التعمير مائة وخمسين سنة. وربما استخدمت في ذلك مجهزات كيميائية أو أشعة خاصة يستطيع بها المخ أن يحتفظ بقوة وظيفته. ويستدل الأستاذ على تأثير هذا في بعض الأمراض التي كانت تعتبر عضالة منذ خمسين سنة وقد أصبحت الآن سهلة الشفاء

تعيين سكرتير لجمعية مارك توين في مصر

اختارت جمعية مارك توين الدولية مستر جون هوجورف ليكون سكرتيراً لها في مصر وهذه الجمعية مؤلفة على نمط أندية شكسبير، وتتجه أغراضها إلى نشر كتابات مارك توين وتشجيع الملكات الأدبية من أية جنسية كانت، ولها فروع في الولايات المتحدة الأمريكية، والإمبراطورية والبريطانية وفرنسا وإيطاليا وألمانيا واليابان وغيرها من البلاد. ويؤيد جمهورها كثيرون من أقطاب العالم بينهم السنيور موسوليني ومستر هوفر، وايرل بلدوين، ومستر رامسي ماكدونالد، والجنرال سمطس؛ ومن أعضائها ستيفن كيلوك، وأوجيني أونيل، وجيوفاني بابيني، وويلز وأندريه موروا

فلسطين والسياسة الإنجليزية الجديدة

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

آثرت الحكومة البريطانية أن تغلط في فلسطين غلطتها في مصر، فاعتقلت رجال اللجنة العربية العليا، وحملتهم في بارجة حربية تمضي بهم الآن إلى سيشيل. وهذا عين ما صنعته في مصر لما ضاقت بالحركة الوطنية فيها ذرعاً، وتوهمت أنها إذا قبضت على رجال الوفد سهل عليها بعد ذلك أن تكفل الراحة لنفسها، والاطمئنان على تحقيق غاياتها في مصر. فذهب الزعماء إلى سيشيل وبقوا فيها ما شاءت السياسة البريطانية، فلم تخمد الحركة الوطنية، ولم يعدل المصريون عن مطالبتهم بالاستقلال، ولم يكفوا عن السعي لاسترداد حريتهم القومية، ولم ترجح كفة المعتدلين بعد أن أقصى الذين كانت تسميهم المتطرفين، وانتهى الأمر بالإفراج عن المعتقلين وإطلاق سراحهم وعودتهم إلى وطنهم، ثم لم تجد السياسة البريطانية بداً من الرجوع إلى هؤلاء المتطرفين وغيرهم من زعماء البلاد للاتفاق معهم على حل تستقر به العلاقات بين البلدين على حدود معقولة معروفة

والذي فعلته السياسة البريطانية في مصر وأخفقت فيه، ولم تجد منه جدوى، تفعله الآن في فلسطين، وما نظن بها إلا أنها ستخفق هناك أيضا. فإن رجال اللجنة العربية العليا ليسوا رجال تهييج، ولا هم الذين يحرضون على أعمال الإرهاب أو الاغتيال التي أثارت ثائرة البريطانيين، وأغرتهم بهذا العنف الذي تأخذ به زعماء العرب الآن، وإنما هم رجال سياسة يطالبون بحق بلادهم ويدافعون عنه، ويسعون للفوز به بالطرق المشروعة. ومن غرائب التفكير المقلوب أن الصحف البريطانية تقول في تعليقها على هذا الاعتقال والنفي إن القبض على المتطرفين خليق أن يفسح المجال لغيرهم من المعتدلين، ويشجعهم على الظهور والمعالنة بآرائهم التي كانوا يخافون الجهر بها. وتنسى هذه الصحف أن الأمر ليس أمر اعتدال وتطرف، وإنما هو أمر حق للبلاد يطلبه الجميع بلا فرق، ويجمعون عليه بلا تفاوت أو شذوذ أو اختلاف. ومن البعيد جداً أن يجرؤ أحد على التقدم باسم الاعتدال والمعتدلين بعد أن نكلت الحكومة البريطانية برجال اللجنة العربية العليا. وأخلق بكل عربي من أهل فلسطين أن يستنكر هذا العنف الذي لا مسوغ له، وذاك الظلم الذي ينزل برجال اللجنة العربية. والمعقول أن يمتنع العرب - متطرفوهم والمعتدلون منهم إذا صح أنهم فريقان - عن التقدم إلى الإنجليز لمفاوضة أو مباحثة قبل أن يرفع الظلم عن إخوانهم. وإذا صح أن في فلسطين اعتدالا وتطرفاً وأن المعتدلين كانوا يخشون الظهور بآرائهم الحقيقية أمام المتطرفين - وهو ما لا نعتقد أنه صحيح - فالبداهة تقول إن هؤلاء حقيقيون أن يخشوا الظهور الآن بعد الذي كان من الاعتقال والنفي حتى لا يتهموا بالتواطؤ مع البريطانيين على إقصاء رجال اللجنة العربية عن الميدان

فالذي فعلته الحكومة البريطانية لا خير فيه ولا جدوى منه؛ وكل ما هو خليق أن يثمره هو أن يوقع في روع العرب أن بريطانيا ممالئة للصهيونية، ومناوئة للعب؛ وأنها تلجأ الآن إلى وسائل الضغط والعنف والتخويف والإرهاب بعد أن أعيتها الأساليب السياسية. وإلا فلماذا تختص بريطانيا العرب بهذا العنف وتخاشنهم على حين تسالم الصهيونيين وتحاسنهم؟ وإذا كانت حوادث الاغتيال التي وقعت هي التي استوجبت اللجوء إلى هذه الأساليب العنيفة، فقد كان يحسن بالحكومة البريطانية أن تذكر أن الذين اغتيلوا كان أكثرهم من العرب، وأن ممن وقع الاعتداء عليهم بعض زعماء العرب أنفسهم، وأن هناك اغتيالات وقعت من الصهيونيين أيضا، وهذا ما لاشك فيه. فلماذا تأخذ العرب وحدهم بذلك وتدع الصهيونيين؟ على أن زعماء العرب لم يكفوا قط عن دعوة الشعب إلى التزام السكينة والهدوء وضبط النفس والمحافظة على اتزان الأعصاب حتى في أعصب الأوقات، لأنه ليس مما يساعد على تحقيق غاية العرب ويكفل للزعماء الفوز بالحصول على ما ينشدون من الحرية ومن المحافظة على حقوق البلاد أن يقع اضطراب يمكن أن يستغله خصوم القضية العربية وأنصار الوطن القومي والصهيونية. فحوادث الاغتيال التي وقعت هي في الحقيقة معاكسة لمساعي العرب وإساءة إليهم؛ ولو وسع زعماء العرب أن يقطعوا دابرها ولما ترددوا، ولكنهم ليسوا الحكومة، وليس أمر الأمن والنظام إليهم، ولا في أيديهم زمامه؛ فمن أشد الظلم وأصرخه أن يؤخذوا بما يشكون هم منه، ويرون فيه إحباطاً لسعيهم ومناوأة لهم

ومن الواضح أن هذا مظهر اضطراب شديد في السياسة البريطانية، فقد كان المفهوم من موقف ممثليها في عصبة الأمم أنها لم تعد ترى في مشروع التقسيم حلاً مقبولاً لمسألة فلسطين، وأنها ستعيد النظر في الأمر؛ بل لقد صرحت أنها تنوي أن تبعث إلى فلسطين
بلجنة أخرى تتناول الموضوع بالدرس والبحث من جديد، وتفاوض رجال العرب وزعماءهم وممثلي الصهيونية لعلها تهتدي إلى حل آخر يكون أكفل بإرضاء الفريقين. وكان المفهوم أيضاً أنها بهذا تفسح لنفسها في الوقت وترجئ الحل إلى أن يتيسر؛ ولا يتفق هذا وسلوكها العنيف، فإن الذي يريد المفاوضة والتفاهم لا يلجأ إلى الشدة والضرب على الأيدي والتحبيس. ومن عساها تفاوض أو مع من ترجو أن تتفاهم إذا كانت تشرد الزعماء في نواحي الأرض وتقصيهم؟ أتفاوض العامة أو من يا ترى؟ وما هي الجدوى على كل حال من هذه السياسة العنيفة؟ سؤال نلقيه ونحن نتعجب، فإن اعتقال رجال اللجنة العربية لا ينفع أحداً من الإنجليز أو الصهيونيين، لأن هؤلاء الرجال إنما يمثلون رأي الأمة ويتكلمون باسمها، والإنجليز يشاءون أن يشكوا في ذلك، وأن يزعموا أن هناك معتدلين مستعدين للظهور والتقدم متى خلا المجال من هؤلاء المتطرفين الإرهابيين. وسيرى الإنجليز أنهم في هذا مخطئون كخطئهم في اعتقال زعماء المصريين مرتين ونفيهم أولا إلى مالطة ثم جزيرة سيشيل. وسيتبين الإنجليز أنهم أوغروا صدور العرب بلا موجب ومن غير عوض، وحملوا العرب في كل مكان على إساءة الظن بالسياسة البريطانية بعد أن كان العرب يعتقدون أن بريطانيا حليفة طبيعية لهم، وأنها أولى بصداقتهم ومحالفتهم. ولا ندري ماذا تكسب بريطانيا من اسخاط العرب وإيغار صدورهم؛ ولكنا ندري أن يأسهم من صداقتها ومن إمكان التفاهم بالعدل والإنصاف قد يدفعهم إلى ما تكره بريطانيا ويحملهم على النظر في أمرهم من ناحية جديدة، وعلى طلب حقهم بوسائل جديدة. فإذا كان في هذا مكسب للسياسة البريطانية فإنه ينقصنا أن نعرفه. ولن يكون العرب إلا معذورين إذا التمسوا حقهم من طريق آخر غير طريق الاعتماد على روح العدل والإنصاف عند بريطانيا

إبراهيم عبد القادر المازني

في التاريخ السياسي

حوادث الشرق الأقصى

والحرب بين الصين واليابان

بقلم باحث دبلوماسي كبير

تضطرم الحرب في الشرق الأقصى بين الصين واليابان منذ ثلاثة أشهر؛ وهي حرب غير رسمية، بدأت لأسباب تافهة، واتسع نطاقها بسرعة، وأضحت خطراً حقيقياً على السلام. ومن المحقق أنها لم تكن لتنشب لو لم ترد اليابان نشوبها. وأن اليابان تشهرها على الصين وفقاً لخطة مقررة، وتحقيقاً لغايات بعيدة المدى؛ وهي ليست في الواقع إلا خطوة جديدة في سبيل تنفيذ السياسة التي رسمتها اليابان لبسط نفوذها على الصين واستعمار مناطقها الغنية تباعاً؛ وقد بدأت هذه السياسة منذ سنة 1) 31 حينما غزت اليابان ولاية منشوريا بحجة المحافظة على مصالحها وأرواح رعاياها من فوضى الإدارة الصينية، وانتهت بفتح هذه الولاية واقتطاعها من الصين، وإقامة حكومة صورية فيها تخضع لرأيها وتأتمر بأوامرها؛ وكان فتح اليابان لمنشوريا اعتداء صريحاً على الأراضي الصينية تؤيده القوة الغاشمة وحدها؛ ولكن اليابان لم تحفل بما أثاره الاعتداء يومئذ لدى الدول العظمى من ضروب الاحتجاج والتوجس، ولم تحفل بنوع خاص بتدخل عصبة الأمم ولا بما اتخذته ضدها من قرارات تقرر مسئوليتها وعدوانها، بل قابلت هذا التدخل بالانسحاب من العصبة، ومضت في تنفيذ خطتها بجرأة لا مثيل لها. ولم تكتف بفتح ولاية منشوريا والاستيلاء عليها، بل حاولت أن ترغم الصين على الاعتراف بهذا الفتح، فبعثت جيوشها إلى الأقاليم المجاورة لتقضي على كل مقاومة صينية، وغزت ثغر شنغهاي لكي تهدد حكومة نانكين الوطنية وتحملها على الخضوع لمطالبها؛ ولكن الحكومة الوطنية قابلت القوة بمثلها، واستطاعت أن ترد القوات اليابانية عن ثغر شنغهاي بعد معارك طاحنة، ووقفت الأمور يومئذ عند هذا الحد وقنعت اليابان مؤقتاً بغنيمتها الأولى

ومن ذلك الحين واليابان تفصح بين آونة وأخرى عن خططها ونياتها نحو الصين بأعمال

وأقوال لا تترك مجالاً للشك في مقاصدها الحقيقية؛ فهي لم تكد تستقر في منشوريا حتى
عادت تهدد الأقاليم الصينية الشمالية في منطقتي شاهار وجيهول، وتغير عليها من آن لآخر لمختلف الأعذار والحجج. ولما كانت الحكومة الصينية الوطنية في ظروف لا تمكنها من إرسال جيوشها إلى تلك الأقاليم النائية، فقد تركت أمر المقاومة للجيوش المحلية؛ ولكن الجيوش المحلية قاصرة الأهبة والعدد، ولا يضمن ولاؤها دائماً؛ ومن ثم استطاعت اليابان بتفوقها الحربي أن تبسط على منطقة شاسعة من الأقاليم الشمالية شبه حماية عسكرية. كل ذلك وحكومة نانكين الوطنية تستغيث بعصبة الأمم وبالدول العظمى التي ضمنت بمعاهدة (الدول التسع) استقلال الصين وسلامة أراضيها، فلا تجد مغيثاً غير الاحتجاج والتصريحات العقيمة؛ واليابان فيما بين ذلك تتوغل تباعاً في أراضيها لا تلوي على شيء

ومنذ عامين طلعت اليابان على الدول بتصريح جديد في غاية الخطورة، خلاصته أن اليابان لا تطيق بعد أي تدخل جديد من الدول الغربية في شئون الصين، وأنها تعتبر أي محاولة جديدة من جانب الدول الغربية لتوسيع نفوذها أو مناطق امتيازها في الصين عملاً غير ودي بالنسبة إليها. ولم تقصد اليابان بهذا التصريح الذي صيغ على مثال تصريح منرو الأمريكي أن تعلن عطفها على الصين أو تضامنها معها ضد عدوان الدول الغربية، كما قصدت السياسة الأمريكية باعتناق الرئيس منرو وطبقته منذ نحو قرن بهذا المعنى بالنسبة للدول الأمريكية، ولكنها قصدت غاية أخرى أبعد مدى، وهي أن تجعل من الصين ميداناً لنشاطها الاستعماري دون الدول الأخرى، وأن تستأثر وحدها بتوسيع نفوذها السياسي والاقتصادي في مناطقها الغنية، وان تقتطع من أراضيها ما استطاعت كما فعلت بالنسبة لكوريا ومنشوريا. وعلى هذا الأساس الغريب أرادت اليابان أن تفهم فكرة الجامعة الأسيوية وأن تطبقها، فهي ترى أنها أحق الأمم باستعمار الصين، وأنه إذا كانت الصين لا تستطيع أن تنظم شئونها وتجمع كلمتها ولا أن تدافع عن نفسها الاستعمار الغربي، فان اليابان تأخذ على نفسها تلك المهمة بوضع الصين تحت نفوذها وحمايتها، وبذلك يمكن في نظر اليابان أن تحقق فكرة الجامعة الأسيوية ومبدأ آسيا للأسيويين. وقد كان لهذا التصريح وقع عميق في أوربا وأمريكا، ولكنه مر كما تمر باقي الحوادث في الشرق الأقصى أمام نظر الدول وسمعها ولم يثر سوى الاحتجاجات الدبلوماسية العادية. ذلك أن أوربا مشغولة بمشاكلها الخاصة، والدول العظمى متخاصمة مفرقة الكلمة، ولم يعد للجبهة الأوربية القديمة قيمة دبلوماسية ذات شأن؛ واليابان تعرف هذه الظروف وتستغلها، وتعرف أن سياسة المفاجأة والأمر الواقع في الشرق الأقصى لا يمكن أن تلقى في مثل هذه الظروف من أوربا الممزقة المشغولة بخصوماتها وخلافاتها مقاومة يعتد بها

وعلى هذا المنوال قامت اليابان في العام الماضي بحركتها لفصل الصين الشمالية عن الصين الجنوبية، وحاولت بالقوة القاهرة أن تملي إرادتها على زعماء الشمال وعلى حكومة نانكين وأن تفرض على الولايات الشمالية نوعاً من الحكم المستقل يكون تحت إشراف السلطات العسكرية اليابانية، وقرنت الوعيد بالعمل فغزت الأقاليم الشمالية وهددت بكين العاصمة القديمة، ووجهت بلاغاً نهائياً إلى الحكومة الوطنية؛ بيد أن الحكومة الوطنية أبت أن تذعن للوعيد؛ ولكنها اضطرت أن تترك الشمال لمصيره، واستطاعت اليابان أن تحقق مشروعها بإرغام زعماء الشمال على إنشاء إدارة مستقلة عن حكومة نانكين

ولم تمض على هذه الحركة التي تفصح عما وراءها بضعة أشهر حتى شهرت اليابان على الصين تلك الحرب الجديدة التي يتسع نطاقها يوماً عن يوم، والتي شملت الشمال والجنوب، والبر والبحر والهواء؛ وانتحلت اليابان لإثارتها عذراً تافهاً هو أن حامية بكين أطلقت النار على جنود يابانية كانت تقوم بمناورات في البقعة المجاورة وظهر فيما يبعد أن جنود الحامية اعتقدوا خطأ أن اليابانيين ينظمون على الحامية هجوماً حقيقياً. ولو كانت اليابان تعمل عن حسن نية وتقصد الانتصاف لجنودها فقط لاكتفت بالإجراءات الدبلوماسية التي تتخذ في مثل هذه الأحوال من طلب الاعتذار والتعويض؛ ولكن اليابان، وهي تعمل وفقاً لخطة استعمارية مرسومة، اتخذت هذا الظرف ذريعة للقيام بحركة جدية واسعة النطاق لتحقيق خطتها، فوجهت إلى الحكومة

الوطنية إنذاراً نهائياً بقبول مطالبها الخاصة بفصل الأقاليم الشمالية، وغزت جنودها في الحال إقليم شاهار، وبعثت جيشاً وأسطولاً إلى شنغهاي أعظم الثغور الصينية، ونفذت قواتها البحرية إلى النهر الأصفر (ينج تسي) متجهة إلى نانكين عاصمة الصين الوطنية، وضربت الحصار البحري على جميع شواطئ الصين، ونظمت على العواصم الصينية الآهلة مثل كنتون ونانكين وبكين عدة غارات جوية فتكت بالسكان الآمنين، وما زالت الجيوش اليابانية تتدفق على الصين من الشمال والجنوب، ونطاق الحرب يتسع بسرعة مروعة. أما الحكومة الصينية الوطنية فقد رفضت منذ البداية كل المطالب اليابانية وأعلنت عزمها الثابت على مقاومة الاعتداء بكل قوتها؛ وأعلن الماريشال تشانج كايشك رئيس الحكومة الوطنية وقائد جيوشها أن الصين سوف تقاوم حتى يجلو آخر ياباني عن الأراضي الصينية. وهكذا اضطرمت الحرب في الصين بين الجيوش اليابانية المغيرة وبين الجيوش الصينية المدافعة، ومع أنها لم تعلن بعد بصفة رسمية، فإنها تكاد تشمل اليوم كل المناطق الهامة في الشمال والجنوب ويتلخص الموقف ألان فيما يأتي: غزت الجنود اليابانية شاهار وزحفت على شانص شمالاً؛ ونفذت إلى شانغهاي والنهر الأصفر جنوباً، وهذه هي أهم ساحات القتال لأن فيها تقع معظم مناطق الدول الممتازة مثل بريطانيا العظمى وفرنسا وأمريكا. وتجد اليابان مصاعب جمة في التقدم في هذا الاتجاه نحو نانكين عاصمة الصين الوطنية، لأن الدول تأبى إخلاء مناطق امتيازها وتنذر اليابان بسوء العاقبة إذا وقع الاعتداء عليها. وقد ارتكبت الجنود اليابانية أكثر من حادث أثار احتجاج الدول مثل إلقائها القنابل على سيارة السفير البريطاني وجرحه. وتشتد المقاومة الصينية في هذه المنطقة بنوع خاص لأنها مركز الحكومة الوطنية ومجمع قواتها. وقد كانت اليابان تؤمل أن تحرز نصراً سريعاً يرغم الصين على قبول مطالبها؛ ولكنها ما زالت بعد ثلاثة أشهر من القتال حيث بدأت، ولم تذعن الصين ولم يهن عزمها؛ وقد اضطرت اليابان إزاء ذلك أن تعلن أنها ستمضي في الحرب إلى النهاية: وألقى البرنس كونوي رئيس الحكومة اليابانية تصريحات رسمية حدد فيها أغراض اليابان من الحرب بما يفيد أن اليابان ترمي إلى تحطيم الجيوش الصينية الوطنية وحزب الكوفتباح (الحزب الوطني) لأنها هي التي تثير روح الخصومة والمقاومة ضد اليابان، وأن اليابان على استعداد لمهادنة حكومة صينية جديدة تقبل التعاون معها؛ فإذا لم تقبل الصين هذا التعاون السلمي فان اليابان على أهبة لحرب طويلة الأمد. والمفهوم من هذه التصريحات أن اليابان تؤمل أن تفضي هزيمة الجيوش الوطنية إلى قيام حكومة صينية جديدة مستعدة لقبول مطالب اليابان في استقلال الصين الشمالية والاعتراف بحكومة منشوكيو (منشوريا)، ومنح اليابان امتيازات اقتصادية كبيرة، وقبول المستشارين اليابانيين في معظم الإدارات الهامة؛ أو هي تؤمل بعبارة أخرى قيام حكومة تخضع لوحيها ورأيها وسلطانها

ولكن تطور الحوادث لا يؤيد هذه الآمال، بل لقد أفضى اعتداء اليابان بالعكس إلى نتائج

هامة لم يكن يتوقعها اليابان؛ فان الخطر على كيان الصين القومية أثار في الصين روحاً جديداً، وجمع كلمة الزعماء والقادة المحليين، فانضموا جميعاً إلى الحكومة الوطنية في مقاومة الغزو الياباني، ومن أسطع الأمثلة على ذلك أن الحزب الشيوعي الذي كان أخطر منافس للحكومة الوطنية، أعلن انحلاله ووضع قواته العسكرية تحت تصرف الحكومة الوطنية؛ وهكذا تلقى اليابان أمامها بدلاً من الصين الممزقة المتخاصمة جبهة موحدة تجمع على الكفاح والمقاومة؛ وهكذا يثير الخطر الخارجي ضرام الوطنية الصينية مرة أخرى بعد ما فترت في الأعوام الأخيرة، ويمد الصين بقوى معنوية عظيمة في هذا الصراع الذي يقصد به تمزيق وحدتها والقضاء على كيانها القومي. وسيكون الفصل في هذا الصراع للقوة المادية قبل كل شيء، ولكن لا ريب أن اليابان تزج بنفسها في مغامرة عظيمة خطيرة العواقب، وهي قد تحرز اليوم بتفوقها الحربي بعض الانتصارات العاجلة، ولكن الصين قطر بل قارة عظيمة مترامية الأطراف، ذات موارد هائلة، وكلما طالت الحرب ثقل عبئها على اليابان وعلى مواردها المحدودة؛ هذا إلى أن الصين الوطنية قد اكتسبت في الحروب الأهلية المتوالية خبرة

عسكرية لا بأس بها؛ وسوف نرى في المستقبل القريب ماذا تسفر عنه هذه الحرب الاستعمارية التي لا سند لها من الحق أو العدالة أو القانون

ياقوت

للأستاذ محمد كرد علي

كان مولد ياقوت عبد الله شهاب الدين في بلاد الروم سنة 574 وأخذ أسيراً وهو صبي فقيل له الرومي، واشتراه في بغداد تاجر يعرف بعسكر الحموي فنسب إليه فقيل له ياقوت الحموي أيضاً. ونشأ نشأة إسلامية فجعله سيده في الكتاب يتعلم ما يستفيد هو منه في ضبط متاجره، وقرأ شيئاً من النحو واللغة، وشغله مولاه بالأسفار ثم أعتقه في سنة 596، فاشتغل بالنسخ بالأجرة، وحصل بالمطالعة فوائد، وعاد مولاه فأعطاه شيئاً وسفره إلى كيش وعُمَان؛ ولما عاد ياقوت من سفرته كان مولاه قد مات، فأعطى أولاد مولاه وزوجته ما أرضاهم به، وبقيت بيده بقية جعلها راس ماله وسافر بها وجعل بعض تجارته كتباً، وسهل عليه بتجارته أن يطوف الشام والعراق والجزيرة وخراسان، واستوطن مرو ودخل خُوارَزمْ وغيرها، أو كما قال عن نفسه إنه جاب البلاد ما بين جيجون والنيل. وأقام مدة في حلب عند الصاحب الأكرم القفطي المصري وزير حلب، وأهدى إليه كتاب معجم البلدان، وفي حلب مات سنة 626هـ

لقي ياقوت في حياته هناء وشقاء، شهد وقائع التتر في خراسان، ووصف ما فعلوه في بلاد الإسلام، وانهزم منهم لا يلوي على شيء، وفقد ثروته حتى عد من المفلوكين. وكان مرة في دمشق فناظر بعض من يتعصب لعلي بن أبي طالب، وجرى بينهم كلام، فثار الناس عليه ثورة كادوا يقتلونه فسلم منهم، وخرج من دمشق منهزماً إلى حلب. وقال عن نفسه إنه كان قدم نيسابور في سنة 613 وهي مدينة الشاذياخ فاستطابها، وصادف بها من الدهر غفلة خرج بها عن عادته، واشترى بها جارية تركية ما رأى أن الله تعالى خلق أحسن منها خَلقاً وخُلقاً، وصادفت من نفسه محلاً كريماً، ثم أبطرته النعمة فاحتج بضيق اليد فباعها فامتنع عليه القرار، وجانب المأكول والمشروب حتى أشرفت نفسه على البوار، فأشار عليه بعض النصحاء باسترجاعها فعمد لذلك، واجتهد ما أمكن، فلم يكن إلى ذلك سبيل، لأن الذي اشتراها كان متمولاً، وصادفت من قلبه أضعاف ما صادفت منه، وكان لها إليه ميل يضاعف ميله إليها، فخاطبت مولاها في ردها على ياقوت بما أوجبت به على نفسها عقوبته، فقال في ذلك قصيدة منها:

أئِنُّ ومن أهواه يسمع أنتي ... ويدعو غرامي وجده فيجيب

وأبكي فيبكي مسعداً لي فيلتقي ... شهيق وأنفاس له ونحيب

ومن جملة ما ألف ياقوت من الكتب ثلاثة مطبوعة، أولها (معجم البلدان) وثانيها (المشترك وضعاً والمختلف صقعاً) وثالثها (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) أو طبقات الأدباء. رتب معجم البلدان على حروف المعجم وذكر فيه أسماء البلدان والجبال والأودية والقيعان، والقرى والمحال والأوكان والبحار والأنهار والغدران والأصنام والأوثان مضبوطة بالشكل. واعتمد في تأليفه على من كتب قبله في الجغرافيا من العرب، وعلى اللغويين ودواوين العرب والمحدثين وتواريخ أهل الأدب، والتقط من أفواه الرواة وتفاريق الكتب، وما شاهده في أسفاره وحققه بنفسه من أسماء البلدان ما عظمت به فائدته. وفي كل ما كتب ظهرت إجادته وما ينقله عن غيره قد يكون فيه نظر، ويتبرأ هو من عهدته. فقد قال مثلاً في مدينة الصفر: ولها قصة بعيدة من الصحة لمفارقتها العادة، وأنا بريء من عهدتها، إنما أكتب ما وجدته في الكتب المشهورة التي دونها العقلاء. وقال فيما نقل عن الصين: هذا شيء من أخبار الصين الأقصى ذكرته كما وجدته لا أضمن صحته، فإن كان صحيحاً فقد ظفرت بالغرض وإن كان كذباً فتعرف ما تقوله الناس، فان هذه بلاد شاسعة ما رأينا من مضى إليها فأوغل فيها وإنما يقصد التجار أطرافها. فكأن ياقوت بما ينقل من الأوهام والخرافات إلى جانب الحقائق الثابتة يريد ألا يخلي كتابه من كل أطروفة ولو كانت سخيفة ليستفيد منه الجاهل، ويتفكه به العالم، ويتعلم المتعلم الأديب، ويقتبس الباحث. وتوسع خاصة في الكلام على المدن التي أنشأتها العرب وحرص على الإلمام بأخبار فتوح البلاد وحاصلاتها وأموالها وعمرانها وعادياتها ومصانعها وأخلاق أهلها، وما وقع فيها من الوقائع التاريخية المهمة وما قيل فيها من الأشعار البديعة، فأمتع قارئه بكل مفيد، بحسب ما وصل إليه علمه وعلم جيله، أو قرأه في كتاب، أو استقراه بنفسه ونقله عن الثقات. وهذا القسم

جماع ما في معجمه مما أدركه في عصره، أو اقتبسه من الأصول المتقنة في خزائن مرو، قال: وكانت سهلة التناول لا يفارق منزلي منها مجلد وأكثر، وبغير رهن تكون قيمتها مائتي دينار. وما كان يفارق مرو لولا ما عرا من ورود التتر إلى تلك البلاد، وما كان لهم من الأثر القبيح في خرابها. ويتألف من الأبيات والقصائد التي استشهد بها ياقوت في معجم البلدان ديوان

جميل، يحوي كل ما يفيد من رائق الشعر، وكذلك من عجائب البلدان الخليقة وأخلاق الناس، ودرجة الرفاهية والثروة في عصره، وأفاض في كلامه على البلدان بذكر من خرج منها أو نسب إليها من الأعيان، ولا سيما رجال الحديث. وكتابه خاص ببلاد الإسلام والشرق وذكر بعض أسماء المدن في بلاد الإفرنج وهو يتحفظ فيما ينقل عن حال البلاد الأخرى. ومما قال في الروم: (وفي أخبار بلاد الروم أسماء عجزت عن تحقيقها وضبطها فليعذر الناظر في كتابي هذا، ومن كان عنده أهلية ومعرفة، وقتل شيئاً منها عليَّ، فقد أذنت له في إصلاحه مأجوراً)

أما كتاب (المشترك وضعاً والمفترق صقعاً) فقد انتزعه بنفسه من معجم البلدان، واقتصر فيه على ما اتفق من أسماء البقاع لفظاً وخطا، ووافق شكلاً ونقطا، واقترن مكاناً ومحلاً، توفيراً لوقت المطالع الذي يحب السرعة في تلقف الفوائد، وبعداً به عما ذكره في معجمه الكبير من الاشتقاق والشواهد والنكت والفوائد والأخبار والأشعار.

ودعا ياقوت على من يختصر بعده كتابه معجم البلدان، وما خلا مع هذا من بضعة مؤلفين حاولوا ذلك وفيهم صفي الدين عبد المؤمن سمى مؤلفه (مراصد الاطلاع) قال ياقوت في الكلام على اختصار كتابه: اعلم أن المختصر لكتاب كمن أقدم على خلق سويّ فقطع أطرافه فتركه أشل اليدين أبتر الرجلين، أعمى العينين، أصلم الأذنين، أو كمن سلب امرأة حليها فتركها عاطلاً، أو كالذي سلب الكمي سلاحه فتركه أعزل راجلاً. وقد حكي عن الجاحظ أنه صنف كتاباً وبوبه أبواباً، فأخذه بعض أهل عصره فحذف منه أشياء وجعله أشلاء، فأحضره وقال له: يا هذا إن المصنف كالمصور، وإني قد صنفت في تصنيفي صورة كانت لها عينان فعورتهما، أعمى الله عينيك، وكان لها أذنان فصلمتهما، صلم الله أذنيك، وكان لها يدان فقطعتهما، قطع الله يديك، حتى عدَّ أعضاء الصورة. فاعتذر إليه الرجل بجهله هذا المقدار، وتاب إليه عن المعاودة إلى مثله

بقي أن نطلق القول في كتاب ياقوت الثالث وهو (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) وقد جمع فيه ما وقع إليه من أخبار النحويين واللغويين والنسابين والقراء المشهورين والإخباريين والمؤرخين والوراقين المعروفين والكتاب المشهورين وأصحاب الرسائل المدونة وأرباب الخطوط المنسوبة وكل من صنف في الأدب تصنيفاً، مثبتاً وفياتهم ومواليدهم وتصانيفهم وأخبارهم وأنسابهم وأشعارهم. قال: فأما من لقيته أو لقيت من لقيه، فأورد لك من أخباره وحقائق أموره مالا أترك لك بعده تشوقاً إلى شيء من خبره. وقال جمع للبصريين والكوفيين والبغداديين والخراسانيين والحجازيين واليمنيين والمصريين والشاميين والمغربيين وغيرهم على اختلاف البلدان، وذلك على حروف المعجم أيضاً. وقال في الاعتذار عن نفسه، وعمن يقول له إن الاشتغال بأمر الدين أهم: (إن هذه أخبار قوم عنهم أخذ القرآن والحديث، وبصناعتهم تنال الإمارة ويستقيم أمر السلطان والوزارة وبعلمهم يتم الإسلام، وباستنباطهم يعرف الحلال من الحرام) وإن كتابه هو علم الملوك والوزراء والكبراء يجعلونه ربيعاً لقلوبهم، ونزهة لنفوسهم. وإرشاد الأريب من أوسع كتب التراجم؛ وقد لا تتعادل التراجم فيه، فيكتب في الرجل العشرين والثلاثين صفحة حتى لم يبق زيادة لمستزيد؛ وقد يكتب في العظيم أيضاً أسطراً معدودة وخصوصاً في أواخر الكتاب حتى ليظن من لم يقف على ترجمة المترجم به أنه من المغمورين. وما أدري إن كان أتى ذلك من المؤلف أم من النساخ والناشرين. وعلى كل فإرشاد الأريب أو الجزء الذي طبع منه كنز ثمين للأدب، ومنجم فيه الركاز والذهب، فرائد يلتقطها صاحبها ولا سيما وأن ياقوت نقل كتب جليلة ضاع بعضها على نحو ما نقل من كتب مرو وقال إن أكثر فوائد معجم البلدان منقول من خزائنها

وقال في كتابه إرشاد الأريب أيضا: وربما قال بعضهم إنه تصنيف روميّ مملوك، وما عسى أن يأتي به؟ إن القوم لا ينظرون ما قيل إنما يسألون عمن قال. ولو عاش

ياقوت ورأى بعد أكثر من سبعة قرون كتابيه معجم الأدباء ومعجم البلدان اللذين لا يستغني عنهما باحث ولا أديب وأنهما من الكتب الأمهات التي حوت كل طريف مفيد تزيد على القرون حسناً وتتبين حاجة الناس إليها، لأغتبط وعرف أن ما كان يقوله الناس فيه، قالوه في أمثاله في كل عصر ثم ذهب لغط المتقولين والطاعنين وثبت علم العالمين والمتأدبين والباحثين

محمد كرد علي

إلى لبنان

صور وخواطر

للأستاذ علي الطنطاوي

لقيني الأستاذ عز الدين التنوخي، وكنت قادماً من سفر فقال لي: هلمّ!

قلت: إلى أين؟

قال: إلى الجبل نزور أمير البيان، ورجل الإسلام شكيب أرسلان

قلت: ما أعدل والله بزيارته شيئاً؛ ولكني آت من سفر ولم أبلغ داري

قال: اطمئن فان الدار في محلها لم تطر، وما عليك أن تراها غداً؟

قلت: ما علي من شيء، وسرت معه. ولم أعد أرى السفر شيئاً، لأني أصبحت في هذه السنين الأواخر كذلك الذي كان (موكلاً بفضاء الله يذرعه) فلا أكاد ألقي عصا التسيار وأحط الرحال من سفر، حتى أتهيأ لآخر. أطوّف ما أطوّف، ثم آوي إلى هذه الغرفة الصغيرة أجلس بين ركام الكتب أحسب ما كسبت من هذا العناء الطويل، فلا أجدني كسبت إلا صوراً في الذاكرة أضمها إلى صور، وذكرى في النفس أجمعها بذكري، وصفحة في دفتري أضيفها إلى صفحة أسعد بتدوينها، وأسرّ ببقائها، وإن كنت لا أدوّن إلا الأقل مما أراه وأشعر به، ولا أذكر إلا التافه مما يمر بي. وإن كنت أعلم أن صور الذاكرة إلى امحاء، وذكريات النفس إلى ضياع، وقصص الدفتر إلى السكين والنار لا يزهدني ذلك بها، ولا يصرفني عنها، لعلمي أن الحياة نفسها ستموت، والوجود سيعدم، ولا يبقى في الوجود إلا الموجد

وكنا خمسة في السيارة: الأستاذ التنوخي، وأنا، والأستاذ الشيخ بهجة البيطار، والأستاذ الشيخ بهجة الأثري، والشيخ ياسين الرداف معتمد المملكة السعودية في دمشق سابقاً. . .

خرجنا من دمشق مع الغروب. . . وكان اليوم جمعة، وكانت ليلة قمراء، فسالت الطرق بالدمشقيين على عادتهم في مثل هذه الليالي فامتلأت جوانب بردى، والمرجة الخضراء، والربوة، ووادي الشاذروان أجمل أودية الدنيا وأحلاها - بخير الفتيان، وأجمل الفتيات، وأحلى الأطفال؛ فلم يكن أمتع للعين، ولا أشهى للقلب، من ذلك المشهد. فسرنا في هذا العالم الساحر، مترفقين متمهلين، لأننا لا نمشي في طريق وإنما نمشي في بحر من العيون

والقلوب والمفاتن جمع كل جميل بارع أخاذ، حتى بلغنا دمّر:

والحور في دمّر أو حول هامتها ... حور تكشف عن ساق وولدان

فوقفنا نمتع الأنظار بحوْرها وحورها، وشموسها وبدورها؛ وأنت مهما عرفت دمشق لا تزال ترى فيها أبداً جمالاً تجهله ولا تعرفه، ففي كل يوم جمال جديد، وفي كل مكان فتنة جديدة، فلا تدري أين تقف، وماذا تنظر، وأيا تفضل؟ أوادي الشاذروان أم جنائن الغوطة، أم جبال بلودان، أم العين الخضراء، أم سهول الزبداني، أم العيون التي لا يحصيها عدد؟. . .

سقى الله ما تحوي دمشق وحياها ... فما أطيب اللذات فيها وأهناها

نزلنا بها واستوقفتنا محاسن ... يحنّ إليها كل قلب ويهواها

لبسنا بها عيشاً رقيقاً رداؤه ... ونلنا بها من صفوة اللهو أعلاها

سلام على تلك المعاهد إنها ... محط صبابات النفوس ومثواها

رعى الله أياماً تقضت بقربها ... فما كان أحلاها لديها وأمراها

خلينا الهامة وجمرايا بلدة ابن واسانة والوادي كله عن أيماننا، وأسندنا إلى الجبل نستقبل الصحراء إلى ميسلون بلاط شهدائنا، ومشهد أبطالنا، ومبدأ تاريخنا الحديث، ومثوى الأسد الرابض يوسف العظمة، الذي وقف هو وأشبال دمشق العزل الأقلاء في وجه ثاني دولة قوية ظافرة، فما ضعفوا ولا استكانوا ولا جبنوا، وما زالوا يقاتلون

ويدافعون عن العرين ثابتين ما ثبتت الروح في أجسامهم، حتى أعجزهم أن يعيشوا أشرافاً فماتوا أشرافا؛ فكان موتهم حياة لهذه الأمة التي حفظت العهد وحملت الأمانة؛ وكانت قبورهم مناراً أحمر في طريق هذا الشعب المجاهد المستميت لن يقف أو يتباطأ حتى يأخذ (الكل) الذي (أعطى) الآن (بعضاً) منه، ولن ينام حتى يرى هذه الصحراء قد آضت جنات ألفافا، تحمل الزهر الذي لا يسقى إلا بالماء الأحمر الملتهب تحمل أزهار الحرية

سيبقى هذا اللحد لتمر عليه الأجيال الآتية، الأجيال الحرة العزيزة، فتذكر جهاد أسلافنا، وتعرف الثمن الذي دفعوه، ولتعلم أن القوة إن غلبت الحق حيناً، فان الحق يصنع القوة التي يغلب بها دائماً

سأذكر ما حييت جدار قبر ... بظاهر جلق ركب الرمالا
مقيم ما أقامت ميسلون ... يذكر مصرع الأسد الشبالا
تغيب عظمة العظمات فيه ... وأول سيد لقى النبالا
مشى ومشت فيالق من فرنسا ... تجر مطارف الظفر اختيالا
أقام نهاره يلقى ويلقى ... فلما زال قرص الشمس زالا
فكفن بالصوارم والعوالي ... ووسد حيث حال وحيث صالا
إذا مرت به الأجيال تترى ... سمعت لها أزيزاً وابتهالا

ثم أخذت السيارة تصعد بنا في مسالك ملتوية مستديرة تزيغ الأبصار من استدارتها وعلوها، حتى إذا ظننا أننا بلغنا قنة الجبل تكشفت لنا قنن فإذا نحن لا نزال في الحضيض، وما فتئنا نعلو ونتسلق وندور حتى حاذينا (بلودان) درة المصايف الشامية، وبدا لنا فندقها الفخم الضخم أكبر فندق في سورية كلها (إي ولبنان) الذي بنته الحكومة ليملأ الخزانة مالاً والجيوب ذهباً فملأ النفوس فساداً، والأخلاق انحطاطاً، لما أنشئوا فيه من بلايا وطامات زعموها حضارة ورقيا، ورأيناها الموت الأحمر والبلاء الأزرق فكنا حين نبيع الأخلاق بالمال كمن يطرد ابنه من بيته ويربي فيه ذئبا. . .

ثم عدنا نهبط، وهذه سنة الحياة: (ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع) ولا علا رجل إلا هبط، إلا رجلاً علا بعلمه وبأخلاقه ومواهبه، فذاك الذي لا يهبط أبداً بل يزداد رفعة، لأن علمه لن ينسى، وأخلاقه لن تذهب، ومواهبه لن تضيع، أما من علا على قوائم الكراسي وأعناق الشعب، فأحْرِ به أن يسقط مهما استمر علوّه وطال بقاؤه

أقول: إننا ما زلنا نهبط حتى انتهينا إلى سهل البقاع الخصب الأفيح الجميل، الذي يفصل لبناننا (الشرقي) الأجرد المهيب الرهيب الذي أدرّع المهابة، واتشح بوشاح الخلود، ولاحت عليه سمات الجلال، والجد والوقار، ولبنانهم (الغربي) المرح الفرح الخضر الجميل، الذي اتزر بالسحر، وارتدى رداء الشعر، وكلاهما أخّاذ فاتن، ولكن الأول جليل والثاني جميل، والجنات الخالدات والفراديس الباقيات، في دمشق على سفح لبنان الشرقي. . . قال شوقي:

نبئت لبنان جنات الخلود وما ... نبئت أن طريق الخلد لبنان

وأنت حين يحتويك لبنان الغربي تحسّ بجماله وروعته ولكنك تشعر انك أنت له، وأنك جزء منه، ولكنك تحس حين تكون في لبناننا أنه هو لك، وأنه جزء منك، وشتان بين ما تكون أنت في قلبه، وما يكون هو في قلبك، وأنت حين تكون في لبنان الغربي تجد يد الإنسان لم تبق من جمال الطبيعة إلا قليلاً، وتجد أكثره في المدن الكبرى، ولكنك حين تكون في لبنان الشرقي تجد الطبيعة الحلوة الفاتنة التي لم تبدلها يد الإنسان، وإنما أحاطتها بإطار يحفظها ويظهر جمالها

وقد زعموا الجبلين جبلاً واحداً، صدعته حوادث أرضية (جيولوجية) من زمن قديم، لا أدري متى كان لأني لم أدركه ولا أدركه أبي، أعني آدم عليه السلام الذي توفى في الأمس القريب. وعلى ذكر آدم. . . أليس من العار علينا أن نقيم حفلات الذكرى والتكريم لفلان وفلان ممن خدموا البشرية وننسى هذا الرجل العظيم الذي كان له اكبر الأثر في خدمة البشر؛ ولم لا يفكر الناس في إقامة حفلة تذكارية كبيرة لهذا الرجل، يشترك فيها عارفوا فضله، ومن (بقي) حقيقة من نسله؟

قلت: إن الجبلين كانا جبلاً واحداً، والأمتين فيها أمة واحدة، ولكنك واجد في هذه المسافة التي لا تتجاوز الساعتين جمهوريتين مختلفتين، وعَلَمين متباينين، وحدوداً كحدود ألمانيا وفرنسا. . .

. . . . . .ألقاب مملكة
!وسبحان خالق الهر، وخالق الأسد، وخالق كل شيء
وأنخنا رواحلنا (أعني وقفنا سيارتنا، ولم يكن معنا رواحل ولا راحل) في شتورة، عروس السهل، نستريح فيها قليلاً قبل أن نتسلق بالسيارة الجبل الذي لا تبلغ الطير ذراه، ونصبح في نصف طريق السماء. وإذا أنت شئت أن تتصوّر مبلغ ما نعلو، فتصوّر شارعاً طوله قرابة كيلين اثنين، قد وقف على رأسه، وكنت أنت فوقه تطلّ على الدنيا من عل. . .
علونا في جبال شجراء ضاحكة، نجتاز القرى المتناثرة على السفوح والذرى ونرى الينابيع تتدفق من أعالي الصخور، وتسيل في بطون الأودية حالمة سكرى. وما زلنا في علو ولفّ ودوران، حتى بلغنا ظهر البيدر حيث صرنا فوق السحاب، لا على المجاز أو المبالغة كما يقول الشعراء، بل على الحقيقة التي يشاهدها الناس فقد كان السحاب يمسّ الذرى التي تحتنا ويلفح وجوهنا ويحجب عنا السهل والسفوح، وكنا نعلو عليه أحياناً فلا يبلغنا ولا يمسنا، ونراه يمر من تحتنا، أشبه شيء بالغبار الأبيض تحمله الريح. حتى درنا تلك الدورة
الكبير، وأشرفنا على وادي (صوفر - حمانا) العظيم أوسع أودية لبنان وأجملها وقد أزدهى بالصنوبر وانتثرت على سفوحه عشرات القرى ولاحت مبانيها العظيمة وقصورها الشمّ
والروابي توسدت راحة السح ... ب ونامت على وشاح مرفق
والذرى البيض في العلاء نسور ... حومت تكشف الخفي المغلق
نشرت في الفضاء أجنحها الزه ... ر فأسنى بها الوجود وأشرق
والقرى غلغلت بأخبية الغي ... ب وضاعت بين الغمام المنمق
والينابيع ضاحكات من الزه ... وترامى فيها السنا وتألق
وتراءى البحر البعيد كحلم=مبهم راجف الخيال ملفق
سرقته السماء في الأفق النا ... ئي فمن أبصر الخضمات تسرق
تمر على الإنسان ساعات بل لحظات ينسى فيها العالم المادي، وهذه الحياة القصيرة الناقصة، ويحس كأنه يعيش بنفسه حياة أكمل وأجمل، تخالط نفسه مشاعر لا عهد له بها، ولا يقدر على وصفها، وتغمر قلبه لذة لا يعرف أي شيء هي، فيشعر أنه انتقل إلى عالم سحري جني عجيب، كهذه اللحظات التي تمر علينا في غمرة التأمل النفسي، أو في هزة الموسيقى، أو في نشوة الحب، أو حين الاستغراق في العبادة والمناجاة. . .
هذه هي اللحظات التي تمرّ عليك حين تشرف وادي (صوفر - حمانا) أو تجلس في الشاغور، أو تصعد إلى عين الصحة في فالوغا. . .
لست أريد الدعاية للبنان، وما لبنان في حاجة إلى دعاية، وما في لبنان سرير في فندق، أو غرفة في دار إلا وقد امتلأت حتى أننا لم نجد في صوفر وقد وصلناها ليلا مكاناً نبيت فيه، وكلما دخلنا فندقاً خرجنا منه بخفي صاحبنا حنين الاسكاف. . . حتى قادنا المطاف إلى فندق لطيف معتزل، قاعد في منتصف الطريق بين صوفر وبحمدون، ولم يكن بعده فندق نأوي إليه. فتعلقنا بصاحبه، وتوسلنا إليه وأطمعناه حتى رضى أن يعد لنا مكاناً في الردهة (الصالون) فقبلنا، ووضعت لنا سرُرُ صغار كسرر الجند وطلبة المدارس الداخلية جاء بها من بيته، فحمدنا الله عليها
ولما دخلنا الأوتيل: عمامتان عاليتان على رأسي البهجتين: بهجة العراق وبهجة الشام، وعقال نجدي فخم على هامة أمير من أمراء نجد، ونحن الاثنان (المطربشان) الأستاذ عز الدين وأنا، تعلقت بنا النظار ودارت حولنا الأبصار، وحفّ بنا شباب يسلمون علينا. . . .فقلنا: وعليكم السلام يا إخواننا. . . فما راعنا إلا أنهم ضحكوا وضحك الحاضرون
فقلت لأحدهم: من فضلك قل لي، لماذا تضحك؟
هل تجد في هيئتي ما يضحك يا سيدي؟
فازداد الخبيث ضحكا، فهممت به. فوثب الحاضرون وقالوا: يا للعجب! أتضرب فتاة؟
قلت: وا فضيحتاه! فتيات بسراويل (بنطالونات) وحلل (بذلات)؟ وأين الشعر وأين اللحم؟
قالوا: أنت في لبنان

قلت: عفواً، لقد حسبت أني في لبنان
وفررنا ونحن مستحيون. نحاول ألا نعيدها كرّة أخرى ولما خرجت في الليل لمحت في طريقي واحدة من هؤلاء النسوة فحيتني، فقلت لها: مساء الخير يا مدموازيل
فقالت: مادموازيل إيه يا وقح؟
قلت في نفسي إنها متزوجة وقد ساءها أن دعوتها بالمدموزايل (الآنسة) وأسرعت فتداركت الخطأ وقلت: بردون مدام
قالت: مدام في عينك قليل الأدب، بأي حق تمزح معي أنا (فلان) المحامي
قلت: بردون، بردون
ووليت هارباً، فذهبت إلى صاحب الأوتيل فرجوته أن يعمل لنا طريقة للتفريق بين الرجل والمرأة، فدهش مني ووجم لحظة؛ ثم قدر أني امزح فانطلق ضاحكا
. . .قلت: إني لا أمزح، ولكني أقول الجدّ وقصصت عليه القصة
قال: وماذا نعمل؟
قلت: لوحات صغيرة مثلا من النحاس، كالتي توضع على السيارات لبيان رقمها، أو على الدراجات. . . يكتب عليها رجل. امرأة. تعلق في الصدر تحت الثدي الأيسر أو تتخذ حلية من الذهب أو الفضة عليها صورة ديك مثلا أو دجاجة، أو. . . أو شاة أو
. . .خروف، أو شيء آخر من علامات التذكير والتأنيث
فراقه اقتراحي وقبله على أنه نكتة، ولكنه لم يفكر بالعمل به لأنه لم يجد حاجة إلى هذا التفريق ما دام المذهب الجديد يقول بمساواة الجنسين؟
ولم نطل الإقامة في صوفر، لأننا لم نجد الأمير شكيب فعدنا أدراجنا إلى دمشق
(دمشق)
علي الطنطاوي
الأدباء المحترفون
للأستاذ مصطفى جواد
الأدب في كل أمة غذاء النفوس من كدر المادية المُبْرَأَة من أمراض الطمع والجشع، السالمة من إسار المكايد والخدائع؛ والأدباء في كل شعب هم الطبقة الرفيعة في المراتب البشرية، المحلقة في سماء الصفاء بأجنحة لطف ارق من الهواء. والمادية لا تؤمن بدين الأدب ولا عطف لها على البشرية ولا رحمة، فالأديب نورانيّ والمادة بهيمية ترجع بالإنسان إلى عصور كان ينازع فيها الوحوش فرائسها، وبعد الشبع والري من الدنيا نفائسها؛ وكلما رقى العقل في الصناعات انخفضت العاطفة واستبدت المادية واستحكمت الوحشية، فلولا الأدباء بين الناس كالنجوم الزهر في السماء الدنيا لبدا ليل المادية اشد ظلاماً وأهول منظراً. ولعله سيأتي زمان يتخفى فيه الأدباء كما كان الأنبياء يتستّرون من الناس في أول الاستنباء، ورأس المحنة وأيام الدعوة، خشية الاستهزاء والإزراء والتعذيب والتقتيل، وإذن لا يعصم الأدباء يوم ذاك من ضربة المادية إلاّ شبه جمهورية أفلاطون وإلا مثل المدينة الفاضلة التي أفكر فيها فيلسوف فاراب. أما ما فعله الشيوعيون لأدباء الشيوع في روسيا من قصرهم في قريةٍ نزهةٍ وإمدادهم بضروري المادة ليستهتروا بالاستشاعة ويدعوا إلى التشارك فهو أخلق بالأدب المبتذل والشعور المنتحل والعواطف المعطوفة والنفوس المأسورة والانفعالات المكبوته. فما أغنى الشيوعيين عما فعلوا وما كان أحرى الأدباء بالإباء على هذا الازدراء! وكلما علت امتاز الأدباء عن أهل المادة وعبدة الحيوانية، فيعيشون منفردين معتزلين كالمتصوفة في الربط الهادئة إلا من تسبيح وتحميد، وكالرهبان في الأديار الواجمة إلا من تكفير وارتسام، يزرعون فيحصدون ويغرسون فيجتنون، لا تجارة تلهيهم ولا تكالب يقسيهم ولا انخداع يؤذيهم، فهم حينذاك صفوة الصفوة، وأيتام الإنسانية وملائكة البشر، يضيع أحدهم بين الناس كما يضيع إذا هبط بين البشر، بل هو أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام، فويل لأهل الأدب من شر قد اقترب.
الأدب عدوّ المادة، والمادة غائلة الأدب. وأعني بالأدب في كل ما أسلفت من القول (مولدات العواطف ونتائج العقول من وصف حزين وأسباب حزنه، ونعت فرح وأسباب فرحه، مزخرفاً ببدائع الكون، أو مطلياً ببهرجه وغلوائه، ممهداً له بوصف الجمال وذكر القبح وتبيان الخلق أو سوئه والتصريح بالمدح والقدح، فيكون ذلك للأدب كالحلي للعروس أو كالحطب للنار) وحد هذا الأدب (حركة العواطف واشتغال العقل والتأسيس

على الحقيقة والخيال) فهو - كما قدمنا - غذاء النفوس البشرية الرائقة وحبيب الإنسانية وربيب الحقيقة والامكان؛ فالمحترف بحرفة المادة لا يقدر على دخول جنة الأدب؛ والأديب لا يستطيع الخروج إلى جهنم المادة وما أعفه عن ذاك. فكيف يبلغ امرؤ أن يتردد بين الجنة والنار ويجمع بين السلم والحرب؟ وإذا ما رأينا واحداً قد ألم بالبرزخ تنفح إليه نسمات جنة الأدب من أمام، وتلفحه شرارات المادة من وراء، فهو لا أديب ولا مادي بل صاحب اختيار في الاختبار، ثم يصير إمّا إلى الجنّة وإما إلى النار، فلذلك ومن ذلك قل الأدباء المحترفون لجمع المادة واحتجان البيضاء والصفراء؛ وإنما سميناهم على سبيل أدب القدماء؛ وهم في رأينا (برزخيون) وصلهم الأدب كوصوله لمن قال (وجادت بوصل حين لا ينفع الوصل) وماتوا وهم في عهد الاختبار والفتن والمحنة. ومن الأدباء من يضطره الزمان إلى الاحتراف فيستدفع الحرفة ضنك الزمان، ولو ترك ونفسه وأنجى من ذل الحاجة ما لجأ إلى الحرفة ولا قاربها. ومن الأدباء المحترفين أبو القاسم نصر بن أحمد بن نصر بن مأمون الخبزأرزي، نسبة إلى حرفته (خبز الأرز) فقد كان هذا أميّاً لا يتهجى ولا يكتب، وكان يخبز الأرز بمربد البصرة في دكان له، وينشد الناس أشعاراً مقصورة على الغزل، والناس يزدحمون عليه، ويطربون باستماع شعره، ويتعجبون من حاله وأمره؛ وكان أبو الحسين محمد بن محمد المعروف بابن لنكك البصري الشاعر المشهور - مع علو قدره عند البصريين - ينتاب دكانه ليسمع شعره، وقد اعتنى به وجمع له ديوانا؛ وذكره الثعالبي في اليتيمة، والخطيب في تاريخ بغداد، وياقوت الحموي في معجم الأدباء، وابن خلكان في الوفيات. قال ياقوت: (وكان ممن يفضلون الذكور على الإناث، فكان أحداث البصرة يلتفون حوله، ويتنافسون بميله إليهم، ويحفظون شعره لسهولته ورقته) وقد نزل نصر هذا بغداد وأقام بها دهراً طويلاً وقرئ عليه ديوانه فيها. حدّث الخطيب بسنده إلى أبي محمد عبد الله بن محمد الأكفاني البصري، قال: خرجت مع عمي أبي عبد الله الأكفاني الشاعر وأبى الحسين ابن لنكك وأبي عبد الله المضجع وأبي الحسن السماك في بطالة عيد، وأنا يومئذ صبي أصحبهم، فمشوا حتى انتهوا إلى نصر بن أحمد الخبزأرزي وهو جالس يخبز على طابقه، فجلست الجماعة عنده يهنئونه بالعيد ويتعرفون خبره، وهو يوقد السعف تحت الطابق، فزاد في الوقود فدخّنهم، فنهضت الجماعة عند تزايد الدخان؛ فقال نصر ابن احمد لأبي الحسين بن لنكك: متى أراك يا أبا الحسين؟ فقال له أبو الحسين: إذا اتسخت ثيابي؛ وكانت ثيابه يومئذ جُدَداً على أنقى ما يكون من البياض للتجمل بها في العيد؛ فمشينا في سكة بني سمرة حتى انتهينا إلى دار أبي أحمد بن المثنى، فجلس أبو الحسين ابن لنكك وقال: يا أصحابنا، إن نصراً لا يخلي هذا المجلس الذي مضى لنا معه من شيء يقوله فيه، ونحب أن نبدأه قبل أن يبدأنا واستدعى دواة وكتب:

لنصر في فؤادي فرط حب ... أنيف به على كل الصحاب
أتيناه فبخرنا بخوراً ... من السعف المدخن للثياب
فقمت مبادراً وظننت نصراً ... أراد بذاك طردي أو ذهابي
فقال: متى أراك أبا حسين ... فقلت له: إذا اتسخت ثيابي

وأنفذ الأبيات إلى نصر فأملى جوابها فقرأناه فإذا هو قد أجاب:

منحت أبا الحسين صميم ودي ... فداعبني بألفاظ عذاب
أتى وثيابه كقتير شيبٍ ... فعدن له كريعان الشباب
ظننتُ جلوسه عندي لعرسٍ ... فجئت له بتمسيك الثياب
فقلت متى أراك أبا حسين ... فجاوبني: إذا اتسخت ثيابي
فإن كان التقزز فيه خير ... فَلِمْ يكنى الوصي أبا تراب

وحكى الخالديّان الشهيران في كتاب الهدايا والتحف أن الخبزأرزي بن نصر بن احمد هذا أهدى إلى ابن يزداد والي البصرة فصاً وكتب معه:

أهديتُ ما لو أن أضعافه ... مطرح عندك ما بانا
كمثل بلقيس التي لم يبن ... إهداؤها عند سليمانا
هذا امتحان إن ترضهُ ... بإن لنا أنك ترضانا

قال ابن خلكان (وأخبار نصر ونوادره كثيرة وتوفي في سنة سبع عشرة وثلاثمائة. وتاريخ وفاته فيه نظر، لأنه ذكر في تاريخه أن احمد بن منصور النوشري المذكور سمع

منه سنة خمس وعشرين وثلاثمائة) قال الخطيب: (روى عنه مقطعات من شعره المعافى بن زكريا
الجريري واحمد بن منصور النوشري وأبو الحسن بن الجندي وأحمد بن محمد العباس الأخباري وغيرهم؛ وذكر النوشري أنه سمع منه ببغداد بباب خراسان في سنة خمس وعشرين وثلاثمائة) والصحيح أن وفاته في سنة 327 كما ورد في معجم الأدباء، ومما أورده له ابن خلكان:

خليلي هل أبصرتما أو سمعتما ... بأكرم من مولى تمشي إلى عبد؟
أتى زائراً من غير وعد وقال لي: ... أجلك عن تعليق قلبك بالوجد
فما زال نجم الوصل بيني وبينه ... يدور بأفلاك السعادة والسعد
فطوراً على تقبيل نرجس ناظرٍ ... وطوراً على تعضيض تفاحة الخد
ألم يكفني ما نالني من هواكم ... إلى أن طفقتم بين لاهٍ وضاحكِ
شماتتكم بي فوق ما قد أصابني ... وما بي دخول النار في طرّ مالكِ
كم أناس وفوا لنا حين غابوا ... وأناس جفوا وهم حضّارُ
عرضوا ثم أعرضوا واستمالوا ... ثم مالوا وجاوروا ثم جاروا
لا تلمهم على التجني فلو لم ... يتجنوا لم يحسن الاعتذارُ
بات الحبيب منادمي ... والسكر يصبغ وجنتيه
ثم اغتدى وقد أبتدأ ... صنع الخمار بمقلتيه
وهبت له عيني الكرى ... وتعرضت نظراً إليه
شكراً لإحسان الزما ... ن كما يساعدني عليه
كم أقاسي لديك قالاً وقيلا ... وعدات تترى ومطلاً طويلا؟
جمعة تنقضي وشهر يُوَلّي ... وأمانيك بكرةً وأصيلاً
إن يفتني منك الجميل من الفع ... ل تعاطيتُ عنك صبراً جميلا
والهوى يستزيد حالاً فحالاً ... وكذا ينسلي قليلاً قليلاً
ويكَ لا تأمننْ صروف الليالي=إنها تترك العزيز ذليلا
فكأني بحسن وجهك قد صا ... حت به اللحية: الرحيلَ الرحيلا
فتبدلت حين بُدّلت بالنو ... ر ظلاماً وساء ذاك بديلا
فكأن لم تكن قضيباً رطيباً ... وكأن لم تكن كثيباً مهيلا
عندها يشمت الذي لم تصله ... ويكون الذي وصلتَ خليلا
رأيت الهلال ووجه الحبيب ... فكانا هلالين عند النظر
فلم أدر من حيرتي فيهما ... هلال الدجى من هلال البشر
ولولا التورّد في الوجنتين ... وما راعني من سواد الشعر
لكنت أظن الهلال الحبيبَ ... وكنتُ أظن الحبيبَ القمر
وذاك يغيبُ وذا حاضر ... وما من يغيبْ كما من حضر

ومما ذكره له ياقوت الحمويّ:

شاقني الأهل لم تشقني الديار ... والهوى صائر إلى حيث صاروا
جيرة فرقتهم غربة البي ... ن وبين القلوب ذاك الجوارُ
. . . . كم أناس رعوا لنا حين غابوا

إلى آخر الأبيات المتقدّم ذكرها منقولة عن الوفيات

فلا تمنَّ بتلفيق تَكلّفُهُ=لصورةٍ حسنها الأصلي يكفيها
إن الدنانير لا تجلى وإن عتقت ... ولا تزاد على الحسن الذي فيها

وأورد له الخطيب:

بأبي أنتَ من مَلولٍ ألوف ... رُضتني بالأمان والتخويفِ
حار عقلي في حكمك الجائر العد ... ل وفي خلقك الجليل اللطيفِ
أنتَ بالخصر والمؤزّر تحكي ... قوّة الشوق بالفؤاد الضعيفِ
ليس عن خبرة وصفتك لكن ... حركات دلّت على الموصوفِ
لك وجه كأنه البدر في التم ... م عليه تطرّق من كسوف

وأغرب ما في الحياة هذا الرجل المشهور بمزاورة اللذات وملابسة الشهوات وقوفه موقف الحكيم المتنصح والعفيف المتنطس فتسمع منه قوله:

كم شهوة مستقرّة فرحاً ... قد انجلت عن حلول آفاتِ

وكم جهول تراه مشترياً ... سرور وقتٍ بغم أوقات
كم شهوات سلبن صاحبها ... ثوب الديانات والمروءات
وقد جمع جملة من الحكم وأشتاتاً من الأخلاق وركاماً من التجارب في قوله:
لسان الفتى خنق الفتى حين يجهل ... وكل امرئ ما بين فكيه مقتل
إذا ما لسان المرء اكثر هذره ... فذاك لسان بالبلاء موكل
وكم فاتحٍ أبوابٍ شر لنفسه ... إذا لم يكن قُفل على فيه مُقفل
كذا من رمى يوماً شرارات لفظه ... تلقته نيران الجوابات تشعَل
ومن لم يُقيّد لفظه متجمّلاً ... سيطلق فيه كل ما ليسَ يجمل
ومن لم يكن في فيه ماء صيانةٍ ... فمن وجهه غصن المهابة يذبلُ
فلمْ تحسبنَّ الفضل في الحلم وحده ... بل الجهل في بعض الأحايين أفضل
ومن ينتصرْ ممن بغى فهو ما بغى ... وشرّ المسيئين الذي هو أوّلُ
وقد أوجب الله القصاص بعدله ... ولله حكم في العقوبات منزلُ
فان كان قولٌ قد أصابَ مقاتلاً ... فان جواب القول أدهى وأقتل
وقد قيل في حفظ اللسان وخزنه ... مسائل من كل الفضائل أكملُ
ومن لم تقرّ به سلامةُ غيبهِ ... فقربانُهُ في الوجه لا يتقبّل
ومن يتخذ سوء التخلف عادةً ... فليس لديه في عتاب مُعوَّلُ
ومن كثرت منه الوقيعة طالباً ... بها عزّةً فهو المهين المذلّلُ
وعدلٌ مكافأة المسيء بفعله ... فماذا على من في القضية يعدل
ولا فضل في الحسنى إلى من يخسها ... بلى عند من يزكّو لديه التفضل
ومن جعل التعريض محصول مزحه ... فذاك على المقتِ المصرّح يحصلُ
ومن أمن الآفات عجباً برأيه ... أحاطت به الآفات من حيث يجهل
أعلمكم ما علمتني تجاربي ... وقد قال قبلي قائل متمثّل:
إذا قلت قولاً كنت رهن جوابه ... فحاذر جواب السوء إن كنت تعقل
إذا شئت أن تحيا سعيداً مسلماً ... فدبّر وميّز ما تقول وتفعل
وذكر له الخطيب أبياتاً ثلاثة تدل على ارتباكه في الهوى وهي:
ما جفاني من كان لي أنِساً ... أنِست شوقاً ببعض أسبابهْ
كمثل يعقوب بعد يوسف إذ حنْ ... ن إلى شمّ بعض أثوابهْ
دخلتُ باب الهوى ولى بَصرٌ ... وفي خروجي عميتُ عن بابِهْ
(بغداد)
مصطفى جواد
الفلسفة الشرقية
بحوث تحليلية
بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين
- 24 -
الفلسفة الصينية
العصر المنهجي
لم يكد حكم أسرة (تشو) ينتهي حوالي القرن السابع قبل المسيح حتى هوت بلاد الصين في أعمق أنواع الفوضى والاضطراب، وظلت ترزح تحت نير هذا التدهور السياسي والاقتصادي والأخلاقي نحو خمسة قرون. فلما ضيقت هذه الأزمة الاجتماعية الخناق وأحكمت الضغط، كان من الطبيعي أن تنفجر العقول الجبارة بعد أن استاءت الضمائر النبيلة؛ وكان من الطبيعي كذلك أن يحدث هذا الاستياء وذلك الانفجار آثاراً بارزة في الحياة الاجتماعية عامة، وفي الحياة العقلية بنوع خاص، وهذا هو الذي كان، إذ لم يكد ينتهي الثلث الأول من القرن السادس حتى كان كوكب تلك الشخصية البارزة الممتازة وهي شخصية (لاهو - تسيه) قد سطع في سماء الصين سطوعاً أعقبه انفجار ينبوع عبقرية أخرى فاقت الأولى عمقاً وسمواً، وتكاتفت وإياها على رفع الفلسفة الصينية إلى صفوف منتجات الأمم الراقية، تلك هي عبقرية (كونفيشيوس) عرف (كونفيشيوس) (لاهو - تسيه) ولكنه لم يكن معه على وفاق في الآراء الفلسفية، بل كان وإياه على طرفي نقيض في أهم النظريات، إذ لم يكد (كونفيشيوس) ينضج

ويعلن مذهبه حتى لاحظ الناس أن بين المذهبين خلافاً جوهرياً في القواعد الأساسية؛ ولم يكن هذا الخلاف حول عقيدة دينية أو رأي نظري، وإنما كان في الفلسفة العملية، لأنه نشأ من سؤال هام دعت إليه الحالة الاجتماعية في بلاد الصين، وهو: (ما هي الوسيلة الناجعة لإنقاذ البلاد من هذا التدهور؟)

بينما كان (لاهو - تسيه) يرى أن التنسك والزهادة واحتقار الحياة العملية هي الوسيلة لهذا الإنقاذ المفتقد، كان (كونفيشيوس) يعلن أن الوسيلة الوحيدة لهذه النجاة هي العناية الفائقة بتنظيم الحياة العملية على أساس الخير الأخلاقي الذي ينتهي حتما إلى الصلاح الاجتماعي، وصرح أن الاهتمام بالعمران المنظم والقضاء على الرذائل التي تنخر في بناء صرحه هما وحدهما الكفيلان بإعادة الرفاهية والهدوء إلى الدولة، وقد كان من المفهوم بعد تأسيس هذا الخلاف أن يتسع البون بين هذين المذهبين في أكثر نظرياتهما الهامة، وهذا هو الذي حدث بالفعل

غير أنه ينبغي لنا أن نشير إلى أن محاولة حل هذه المشكلة ليست من مستحدثات هذين الفيلسوفين، وإنما هي محاولة قديمة ترجع إلى عصر ما قبل التاريخ؛ غاية ما هنالك أن ذلك الخلاف كان في الماضي نظرياً فحسب، لأن البلاد لم تكن قد هوت بعد في هذا التدهور، أما في هذا العصر فقد أضحت هذه المشكلة عملية يجب الاعتناء بها الآن وبعد أن ألمعنا إلى هذين الفيلسوفين هذه الالماعة العاجلة نريد أن نتناولهما في شيء من التفصيل بادئين بأولهما

لاهو - تسيه

حياته

ليست هذه الكلمة اسمه ولا اسم أسرته، وإنما معناها: (الأستاذ القديم) أو (العالم القديم) أو (الحكيم القديم)؛ أما اسمه الحقيقي، فهو (بي - يانج)، واسم أسرته (لي) وقد دعاه الناس بعد موته: (تان)، وهو لقب مشرف كان الصينيون يطلقونه على الحكماء بعد موتهم

ولد هذا الحكيم في سنة 604 قبل المسيح في قرية (كيو - جين) بمملكة (تشو) التي هي الآن في مقاطعة (أونان) وكل ما يعرفه التاريخ الصحيح عن حياته هو ما يحدثنا به (سي - ما - تسيان) أقدم مؤرخ صيني من أنه أمضى الأكثرية الغالبة من حياته في (تشو). وفي أواخر حياته عين مديراً لدار المحفوظات الملكية، ولكن أحداً لا يعرف ما هي الوظائف التي شغلها هذا الحكيم قبل هذه الإدارة ولا كم سنة قضاها فيها، وإنما روى لنا هذا المؤرخ انه حينما تقدمت به السن اعتزل الخدمة في الحكومة، وانسحب إلى وادي

(هان - كو) حيث اعتزل الناس جميعاً وظل فيه عاكفاً على تأملاته الفلسفية أميناً لمبادئه الأخلاقية. وفي أثناء هذه العزلة جاءه (بين - سي) وهو أحد اخصاء تلاميذه الأوفياء وألح عليه قائلا: (من حيث إنك أردت أن تدفن نفسك في هذه العزلة الموحشة، فأنا أتوسل إليك أن تؤلف كتاباً لتؤدبني به) فلم يسع هذا الحكيم بازاء ذلك الرجاء الجار الملح إلا أن يجيب تلميذه إلى سؤله، فألف كتاب (تاو - تي - كينج) وعلى اثر فراغه من كتابته غادر ذلك الوادي الذي عرفه الناس فيه وانسحب إلى حيث لم يره بعد ذلك أحد

وقد حدثنا (سي - ما - تسيان) أيضاً أنه أعقب بعده ابناً يسمى (تسونج) صار بعد أبيه من عظماء الدولة؛ وكان قائداً كبيراً من قواد جيوشها، وأن مشاهير رجال المملكة الذين لعبوا أهم الأدوار السياسية والاجتماعية فيها كانوا من ذريته

أما الأساطير الشعبية فقد أحاطت هذا الحكيم بغابة كثيفة من الروايات والحوادث التي ثبتت الاستحالة الزمنية في بعضها، وتحقق الاستبعاد في بعضها الآخر، كما أنه قد غلبت الحقيقة على البعض الثالث. فمن هذه الأساطير ما يحدثنا عن تلك المقابلة الهامة التي حدثت في سنة 525 قبل المسيح بين (لاهو - تسيه) و (كونفيشيوس) وما دار فيها من محاورات بين الحكيم والشيخ الهادئ الواثق مما يقول، وبين العبقري الشاب المتحمس المفعم بالآمال العذبة في المستقبل المنير

تحدثنا هذه الأسطورة أن الشيخ أعلن في حديثه أن إصلاح الحياة الاجتماعية بوساطة النشاط العملي مستحيل، وأنه لا يتيسر إلا بوساطة التنسك والزهادة والاعتزال، وانه لم يقل بهذا الرأي إلا بعد تجارب طويلة استغرقت سبعين سنة، وأن (كونفيشيوس)

حينما سمع من الحكيم الشيخ هذا الرأي، لم يتردد في الحكم عليه بأنه خاطئ باطل، وبأن نتيجته هي الخمول واليأس؛ ثم سأله قائلاً: (إذا كان واجب كل فرد من أفراد الدولة أن ينسحب في كهف من الكهوف، فمن ذا الذي يعمر المدن، ويفلح الأرض وينشئ الصناعات، ويديم النوع البشري على سطح الأرض؟ وإذا كان هذا الاعتزال من واجب الحكماء فحسب، فمن ذا الذي سيربي الإنسان ويؤدبه ويصون الفضيلة والأخلاق؟)

وتحدثنا هذه الأسطورة أيضاً أن المقابلة بين هذين الحكيمين كانت من أجل هذا الخلاف فاترة، وان سوء التفاهم قد ساد بينهما على اثر هذه المحاورة. ويعلق أحد المستصينيين)

على هذا النبأ بقوله: (ما دام قد ثبت تاريخياً أن (لاهو - تسيه) كان مديراً لدار المحفوظات في مدينة (لو) في نفس التاريخ الذي زار فيه (كونفيشوس) هذه العاصمة، بل إنه قد ثبت أنه زار دار المحفوظات نفسها وطلب الاطلاع على بعض ما فيها من وثائق قديمة كانت دراسته في حاجة إليها، أفليست هذه الظروف كلها تدعونا إلى تصديق الأسطورة لاسيما إذا كان ما حدثتنا عنه من خلاف صحيحاً صحة علمية؟)

ومن هذه الأساطير أيضاً ما يروى لنا أن (لاهو - تسيه) بعد أن اعتزل الخدمة ارتحل إلى بلاد الهند واخذ ينشر تعاليمه هناك، وقد تلاقى مع (بوذا) فتتلمذ هذا الخير عليه، وتلقى عنه تلك المعارف الصينية القيمة التي كانت فيما بعد أساساً لمذهبه

ويستبعد الأستاذ (زانكير) صحة هذه الأسطورة، لأن (بوذا) لم يولد بعد هذا الحكيم بمائة وخمسة وعشرين عاما؛ وإذا صح سفره إلى الهند، فلا يمكن أن يصح لقاؤه مع شخص بقى على مولده خمس وأربعون سنة، فضلا عن نشأته واستعداده لتلقي العلم؛ فإذا أضفنا إلى هذا أن حكيمنا لم يعتزل الخدمة إلا بعد بلوغه سن الثمانين استطعنا في سهولة أن نجزم باستبعاد صحة هذه الأسطورة

هناك أسطورة ثالثة تنبئنا بأن هذا الحكيم قد كتب ألف كتاب، منها تسعمائة وثلاثون في شرح فن الحياة العملية والأخلاق والسلوك والمعاملات الإنسانية، والسبعون كتاباً الباقية في السحر، وعلى الأخص في صنع التمائم التي يجلب حملها السعادة للأحياء

لا ريب أن هذه الأسطورة لا تقل عن سابقتها بطلانا، لأن هذا الحكيم لم يثبت عنه أنه كتب غير كتاب (تاو - تي - كينج) الذي أشرنا إليه آنفا، والذي خصصه لتسجيل مذهبه الفلسفي. بل إن النقاد المحدثين يجزمون بأن هذا الكتاب على حالته الراهنة ليس من تأليف (لاهو - تسيه) وإنما هو مجموعة من آرائه وحكمه مضافاً إليها آراء وحكم لبعض القدماء الذين سبقوا عصر هذا الحكيم، ويرجحون أن هذا الكتاب قد كتب بعدة أقلام مختلفة، بعضها لتلاميذ هذا الحكيم، والآخر لبعض المتمذهبين بمذهبه

مذهبه

اختلف الباحثون المحدثون في المذهب النظري لهذا الحكيم اختلافات شتى جعلت اليقين عسيراً على كل من يحاول الحكم على هذه الفلسفة (اللاهو - تسية) والسبب في وقوع كل

هذه الاختلافات بين العلماء هو صعوبة معنى كلمة (تاو) التي اتخذها هذا الحكيم عنواناً لكتابه؛ ولكن ليس معنى هذا أن تلك الكلمة كانت في الأصل غامضة أو عويصة؛ كلا، فقد مرت بنا في عصر ما قبل التاريخ وعرفنا أن معناها إما (الصراط السوي) وإما (واجب الإنسان) أو (الفضيلة العليا) أو (الغاية المثلى) ولكن الصعوبة حدثت من المعنى الجديد الذي أسبغه حكيمنا على هذه الكلمة حين اختارها عنواناً لكتابه الفلسفي ولم يصرح في تحديده بكلمة قاطعة؛ بل ترك الباحثين يستنتجون هذا المعنى الحديث من المشاكل التي درست في هذا الكتاب؛ فلما عالج العلماء الأوربيون هذا البحث ذهب كل منهم مذهباً يناقض مذهب الآخر؛ بل إن بعضهم ألقى سلاحه بازاء هذا العنوان وانسحب من الميدان؛ ومن هذا القسم الأخير المسيو (دينيس سورا) الذي أعلن أن هذه الكلمة غير مفهومة. وإذاً فالمذهب النظري لهذا الحكيم غير مفهوم. أما الأستاذ (زانكير) فقد أفاض في شرح هذه الكلمة وتعقب مراميها المختلفة تعقيباً يروي غلة الباحث الشغوف. وخلاصة ما قاله في هذا الشأن أن هذه الكلمة تحمل من المعاني ما لا يمكن أن يؤدى بلفظة أوربية. ولهذا يكون خاطئاً كل من حاول ترجمتها بكلمة واحدة من لغاتنا الحديثة، بل الواجب ترجمتها بجملة طويلة أو بعدة كلمات، فمن

معانيها مثلا: الروح الأزلي المشتمل على جميع القوى الحيوية، والكائن النقي، والجوهر الأساسي لكل موجود، والحياة الحقة لكل كائن، والمدبر العام للكون كله، وفوق ذلك كله فهذه الكلمة قد احتفظت بمعانيها القديمة التي كانت له في عصر ما قبل التاريخ، وهي: الصراط السوي، والفضيلة، والواجب، والغاية، والتطور، ولكن ينبغي أن نعلم أن هذا التطور ليس إلا أثراً ظاهراً لهذه القوة، أما هي نفسها فثابتة لا تتغير

واكثر من هذا أن (لاهو - تسيه) يصرح بأن (تاو) هو الـ (في ذاته)، بل هو الكائن الغير القابل لِمُدْرِكِيَّة العقل البشري، لأن أي كائن متى حصره التفكير الإنساني ووضع له اسماً مُحدِّداً، فقِد فَقَدَ نقاءه ولا نهائيته

ولا شك أن من يلقي نظرة عاجلة على المدرسة الأفلاطونية الحديثة ويستعرض ما قاله (أفلوطين) عن الإله يجد الشبه عظيماً بينه وبين هذا الرأي

(يتبع)

محمد غلاب

الفروسية والتربية

للسيد جرجيس القسوس

كلمة تمهيدية

يعاني العلم مشقة كبيرة في التوفيق بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة؛ وما عرف التاريخ منذ بدئه حرباً أشد هولاً من هذا النزاع بين الفرد والمجموع برغم محاولة الفلاسفة وعلماء الاجتماع ورسل الأديان التوفيق بينهما. إذ تؤثر الجماعة المحافظة، وتكره كلَّ ظاهرة يرجى من ورائها انتقاض كيانها وهدم صرح نظمها وتقاليدها. بيد أنه ينهض أحياناً فردٌ يشهر عليها حرباً عواناً فيصطدمان، فإن كتب الخلود انتصر عليها، وغلا طمس أثره وراح ضحية شذوذه

ولقد برهن التاريخ أن الحق في أغلب الأحيان للقوة، لذا ترى أن عدد أسماء العظماء في التاريخ قليل جداً إذا ما قيس بعدد من خضع لأحكام الجماعة وسلطتها، وتمشى بموجب تقاليدها ونظمها. والعظيم بحق هو من فاضل الجماعة وغلبها، وتمكن من أن يسيرها حسبما يراه صالحاً

أما في العصور الوسطى فقد كانت للجماعة السلطة التامة على الفرد، دينياً وعلمياً واجتماعياً. فهناك الكنيسة تستأثر بالسلطة الدينية، وترى أن ما تسنه للفرد على الأرض من شرائع وقوانين يُسنُّ في السماء، وتتسلح ضده محاكم التفتيش والقطع والتأديب، وتتذرع بكل سلطة زمنية فوق الدينية لتقي حقها الذي هو حق الجماعة، وتحارب الزنادقة وهم - في رأيها - من شذّوا عن مبادئها وخالفوا أحكامها. ويلحق الكنيسة نظام الرهبنة وقد حل هذا النظام محل معاهد التربية في نشره الفضيلة، وتعزيزه ناحية من نواحي الرسالة النصرانية. وهنالك الطريقة الزهدية التي دعت إلى الزهد وعيشة التقشف والاتصال بروح الله في الحياة الدنيا، فسيطرت بذلك على فكر الفرد وحياته الروحية وقيدتهما مدة ليست قصيرة

أما الطريقة هيمنت على عقل الفرد، ووضعت له قواعد وحدوداً ثابتة، ليس له أن يتعداها أو يشذ عنها في حياته الفكرية. أما الاجتماع والسياسة فمعهدهما - كما سترى - لم يختلف كثيراً عن فعل غيره من الأنظمة والمعاهد التي ذكرناها

كل هذه الأنظمة تعاونت وتضافرت على صيانة الحضارة في العصور الوسطى وخاصة المظلمة منها، لكنها كانت تتوخى دائماً إعلاء كلمة الجماعة واخفات صوت الفرد، فحالت بذلك دون تقدم الحضارة تقدماً حثيثاً، إذ كلما حاولت سفينة الحضارة الإقلاع، ألقت الجماعة مرساتها لتوقفها وتعيقها عن السير المطرد. والصراع بين الفرد والمجموع قائم على هذا الأساس. فالفرد يبتغي رفع المرساة وتحطيمها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، بينا الجماعة تريد خلاف ذلك. ومهمة التربية والتعليم في كل عصر ومكان - كما بينا - التوفيق بينهما، وإصلاحهما إصلاحاً يكفل معه تقدم الحضارة. وسنتناول في هذا المقال الفروسة ونرى كيف كان مرساة للنظم والمبادئ الاجتماعية والأخلاقية، وما كان فضله على التربية خصوصاً

الفروسة، طبيعتها، نشأتها

الفروسة في أكمل وضع لها: نظام أو معهد اجتماعي لا ديني (من حيث نشأته)، ذو مبادئ، ومثل اجتماعية وأخلاقية عالية قائمة على قواعد وتقاليد رسمية راسخة. ومن

شروط الانتظام في هذا السلك أن يكون المرء حر المولد، شريف المنبت، (أو يكون قد نال النبل من أحد الملوك)، يملك ضيعة، ويستطيع أن يعول نفراً من الضعفاء. ولم تمنح العضوية إلا لمن زاد عمره على الحادية والعشرين، اللهم إلا في آخر عهد هذا النظام، فقد كانت تمنح لأبناء العائلات المالكة الذين لم يبلغوا، أو تجاوزا السن القانونية لنيل هذه العضوية. وكان لابد لكل طالب من أن يقضي مدة معينة يجوز في خلالها بعض الامتحانات والمراسيم، ويتقن العلوم والفنون، ويتحلى بالسجايا التي يقتضيها شرف هذه المهنة. وقد اقتصرت العائلات النبيلة على هذا النوع من التربية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد، خصوصاً مع عدم توفر العلوم فيه كما سترى

كانت مبادئ الفروسية ومثلها العليا خليطاً مما ورثته عن النصرانية والحضارة الرومانية، واحتفظت به من عادات قبائل البربر الجرمانية وطباعها. وكان للفروسة صبغة عسكرية في القرون التي تلت سقوط الدولة الرومانية حتى القرن التاسع والعاشر للميلاد، فكل ملك أو بارون أو لورد أو نبيل، سافر أو ناضل على ظهر جواد، وكان له اتباع وحشم عُدَّ فارساً: فالفروسة والإقطاع هما في الحقيقة توأمان من حيث نشأتهما وشيوعهما. ولقد

ازدهر نظام الفروسة واستكمل نموه منذ الغزوات الصليبية الأولى في القرن الحادي عشر للميلاد، وما فتئ ينمو حتى أوائل القرن السادس عشر. فكان المعهد التربوي الوحيد خلال تلك القرون للعائلات النبيلة والمالكة، حتى جاء عصر العالية، فحلت هذه محل الفروسة وغيرها من المعاهد والطرائق التي سبق الإيماء إليها

مبادئها وصفاتها

لعهد ليس بالبعيد كانت هناك مبادئ وصفات تؤهل الفرد لاكتساب لقب (جنتلمان) تلك التي إذا ما حازها عُدَّ فارساً. من هذه المبادئ والسجايا الشجاعة والأنفة واحترام النفس والانتصاف للشرف واللطف والرقة في المعاملة ونكران الذات وطلب الشهرة عن طريق الحرب، وغير هذه من الصفات الخشنة كالشراسة والقسوة والغضب إلى حد الجنون، والتبهرج والإسراف والرغبة في الحياة العسكرية العنيفة الجافة، والإيمان القويم بالله. وكما إن للرهبنة فضلاً على الناحية الدينية من علمي التربية والأخلاق، فللفروسة فضل على الناحية اللادينية منها، إذ رفعت من شان فكرة لدى قوم غلاظ الطباع، وذلك بأن فرضت عليهم شروطاً وقواعد لابد لهم من مراعاتها مدة انضوائهم تحت لواء الفروسة. ولو أنعمنا النظر قليلاً في هذه الفكرة لألفينا انه حينما وجدت الطاعة والخدمة، وجد معها الاستعباد والقسوة. فإذا كان تشجيع الطاعة والخدمة من حسنات الفروسة، فتعزيز الاستعباد والإذلال هو من سيئاتها

ولم تكن الفروسة في الواقع إلا خادمة للرسالة النصرانية، فقد ولدت في معهد الكنيسة، ثم نشأت وانتشرت تبشر بمبادئها، وتنشر النصرانية بين برابرة الجرمان. وحينما تحولت الكنيسة إلى السلطة الزمنية تستنجدها وتستفزعها لمهاجمة المسلمين في عقر دارهم، كانت الفروسة أول من لبى نداءها. وقد كان لاتصال الفروسة بالكنيسة اثر ملموس في خلق الفارس، فكان لابد له، إذا نشد الكمال، من أن يتوخى مبدأ الاعتدال في حياته وأن يستسلم لأسياده وينقاد إليهم انقياد الأعمى، ويتضع لمن هم دونه رتبة، ويشفق على الضعفاء والفقراء ويحسن إليهم، وأخيراً أن يجل الجنس اللطيف كل الإجلال

ويجازي من نكث هذه الشروط بأن يطلب للبراز مع غيره مبارزة قد تؤول إلى هلاكه. بذا وبغيره من الوسائل السلبية والإيجابية، وبالمزاولة الطويلة ثبت نظام الفروسة ورسخت

قواعده ومبادئه رسوخاً متيناً، وانتشر انتشاراً عمّ مختلف طبقات المجتمع البشري في أوروبا حقبة طويلة من الزمن.

ومن الصفات التي لم يكن يقتضي اكتسابها تعليماً خاصاً ومجهوداً كبيراً الشجاعة والإقدام؛ بيد أن ما يرافقهما من التمرن على حمل السلاح واستعماله، والتفنن في ركوب الخيل، أمور يتلقاها الفرد في سلك الفروسة. وما يصدق على الشجاعة يصدق على الشهامة واحترام السيدات، فإن ذلك لم يكن يقتضي تعليماً رسمياً. على أنه لابد لاكتساب كل سجية مطبوعة بطابع الفروسة الخاص من وقت طويل وعناء كبير لدقتها

وتعقدها. وفيما يلي نبذة للمؤرخ (كورنشْ) تبين باختصار مبادئ الفروسة وأثرها في حياة الفرد والمجموع يقول:

(لقد علمت الفروسة العالم واجب الخدمة الطوعية الشريفة ورفعت من شأن الشجاعة، والخضوع لحكام السلطة، ووقفت قوتها العسكرية على خدمة الدين، وشجعت السخاء والإحسان والإيمان القويم ونكران الذات والشهامة؛ وفوق كل هذا إجلال السيدات. ومع أن للفروسة فضلاً كبيراً على علمي التربية والأخلاق فمثالبها شتى، لأنها كانت تشجع بعض الرذائل كالغرور وحب القتال وازدراء الرعاع والتهتك والخلاعة. ولا مراء في أن هذا المعهد - على ماله من مناقب ومثالب - كان ملائما لروح العصر والبيئة اللذين نشأت فيهما.)

نظامها ومنهاجها

للتربية في هذا النظام ثلاث مراحل، تبتدئ أولاها من السنة السابعة وتنتهي بالرابعة عشرة، ويسمى الفتى في هذا العهد وتبتدئ المرحلة الثانية من السنة الخامسة عشرة وتنتهي بالحادية والعشرين، ويطلق على الفتى في هذه السن لقب (الرفيق) أما المرحلة الثالثة والأخيرة فتبتدئ من السنة الحادية والعشرين، وفيها يعرف الفتى بالفارس

كان يجري التعليم والتمرين في معهد بلاط أحد الملوك أو قلعة أحد النبلاء. ففي قلاع النبلاء يجري التعليم الخاص بالطبقة التي هي دون النبلاء. أما النبلاء فيبعثون أولادهم إلى بلاط الملك حيث يخدمون في حاشيته؛ وفي كثير من الأحيان يمارس أبناء الملوك الخدمة في قصور آبائهم كسائر أبناء النبلاء، ولم يجر التعليم في بيوت العامة لندرة وسائله، وقلة معدات التمرين فيه؛ لهذا كانت دور النبلاء وقلاعهم وقصور الملوك مزدانة بالفتيان

والفتيات طيلة سني التعليم والتمرين، ولقد كان للفتيات كما للفتيان حق ونصيب من التربية في هذا المعهد، فقد كان في عصر الإقطاع شريعة تقضي بأن يرث النبيل ضياع آباء الفتيان والفتيات الذين هم في خدمة النبيل، وتخوله حق السلطة على أولئك الفتيان والفتيات والتصرف بهم كما يشاء قبل أن يدركوا سن الحادية والعشرين. فأدى هذا الحق، أعني التحكم في أولاد الميت وبناته إلى تزويجهم حسبما يراه النبيل صالحاً، بهذا كان التزاوج بين الفتيان والفتيات شائعاً جداً في قلاع النبلاء، وخصوصاً في القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد. وطبيعي أن يقوم النبيل بكل ما تتطلبه معيشة هؤلاء الفتيان والفتيات ماداموا قاصرين وعاجزين عن القيام بذلك من تلقاء أنفسهم

أما الفتيات فقد كُنَّ يتلقين العلوم والفنون المنزلية من خياطة ونسج وموسيقى وغناء ثم الفرنسية وبعض اللاتينية. وكانت تعلم هذه العلوم في مدارس الأديرة؛ من هذه في إنكلترا دير (دارتْفوردْ) في كنتْ، وقد اختصَّ ببنات العائلة المالكة، ودير (كاروْ) قرب نوردش وكان خاصاً ببنات الطبقة النبيلة، ومدرسة دير ماري في ونشستر وغيرها. وبعد أن تتم الفتاة تحصيلها في هذه المدارس تعود إلى قلعة النبيل المتولي أمرها، حيث تكتسب صفات الفروسة، وتجالس الفتيان في (الصالون) حتى تصل إلى اختيار زوجها منهم. وغالباً ما دفعت هذه العادة الكثيرين إلى أن يبعثوا بناتهم وأبنائهم إلى هذه القلاع، ليلتحقوا في خدمة النبيل ظاهراً، وينشدوا التزوج باطناً. فالتزوج هو في الحقيقة غاية ما كانت ترمي إليه تربية الفروسة في هذه المرحلة، لأن من كان خليقاً بالزواج عن هذه الطريق كان جديراً بنيل شرف الفروسة

نعود الآن إلى الوصيف لنرى كيف يتدرَّج في مراحل هذه التربية حتى يصبح فارساً. ينشأ الوصيف والوصيفة مع نساء حاشية النبيل حتى السنة السابعة، وفي خلال هذه المدة يكون الوصيف قد ألف ركوب الخيل، وتعلم هو والوصيفة القراءة والكتابة وبعض مبادئ العلوم البسيطة التي تقتضيها الخدمة المنزلية. وكلما تقدم الوصيف في السن، تعقدت العلوم التي يتلقاها وصعبت. فحينما يصل سن السابعة يشرع في تعلم فنون الصيد واللعب بالسيف والترس ورمي القرص والرمح. وليست هذه الفنون سهلة المنال يظهر؛ ففن الصيد مثلا يتطلب إلماماً بقوانين الغاب وهو ينقسم إلى قسمين: -

(1) صيد الغزال وما كان من فصيلته وعلى شاكلته

(2) والبيزرة؛ وهذا القسم ضرب معقد من ضروب الصيد يقتضي معرفة بأنواع الطيور

وكيفية اقاتتها وتدريبها على الصيد. وعدا هذا يتعلم الوصيف أصول المصارعة والملاكمة والجري وركوب الخيل واللعب بالسيف والرمح ومبارزة الدببة والجواميس. كان الوصيف مشغوفاً بهذه الفنون العملية كل الشغف، لأنها كانت ذات أثر مباشر في حياته؛ لهذا لم يُعن كثيراً بتعلم القراءة والكتابة والموسيقى. بيد أن إعراضه عن هذه العلوم النظرية إلى غيرها لا يعني عدم اهتمام مدارس الفروسة بها، فقد كان للوصيف فرصة سانحة ليتعلم فيها العزف على بعض الآلات الموسيقية والتدرّب على الغناء. وقد تخرّج في هذا المعهد المنشدون الكثيرون الذين كانوا يرحلون من بلد إلى آخر، ويحلون حيث غواة الموسيقى وعشاق الفن. ولقد عنيت بعض العائلات المتدينة بتعليم الموسيقى والنشيد الديني، فكان منها مدارس خاصة، عدا نظام الفروسة

كان الوصيف يصرف أوقات فراغه في الخدمة المنزلية، ومشتركاً في حياة النبيل العائلية؛ فتراه يرافق سيدته (زوجة النبيل) أنى ذهبت، ويقوم بخدمتها المنزلية بكل طاعة وإذعان. ومن الخدمات البسيطة التي اختص بها تجفيف عرق سيدته، وذب الذباب عنها ساعة نومها بمروحة لا تكاد تفارق يده طيلة أشهر القيظ

وما يكاد الوصيف يشب ويصبح (رفيقاً) حتى يشرع في تعلم فنون جديدة كفن المناداة وهو فن معقد يقتضي إتقانه ومجهوداً كبيرين، و (تقطيع اللحم) وهذا أيضاً فن قائم بذاته، وقد أهمل وتنوسي على مرور الزمن. وأهم واجباته المنزلية في هذا العهد تحضير الموائد، فهو الذي يقطع اللحم - كما قلنا - ويتناولصحون الأطعمة وكؤوس الخمر من الوصفاء، ويوزعها على الضيوف. وعلى الرفيق أن يُعدّ فراش النبيل، وأن يتولى سياسة حصانه، وان يقوم بتعبئة البنادق وصقلها وتنظيفها. وعليه أن يرافق سيده في سفراته الطويلة، ويتولى رعايته وحراسته في الليل، فلا يغمض له جفن ما دام سيده نائماً. وعلى (الرفيق) أن يلقن كل ما تقتضيه الخدمة المنزلية، وتتطلبه الحياة العملية كركوب الخيل، وتعلم اللغات الألمانية والإنكليزية وبعض اللاتينية (أما الوصيفات فالفرنسية)، والعزف على الناي والقانون، والرقص والغناء ولعبة الشطرنج، ومبادئ الفروسة وقوانينها. ومن الكتب

التي كانوا يعتمدونها في تعلم مبادئ الفروسة وصفاتها في إنكلترا خصوصاً كتاب (سلوك الغلام على المائدة) لقروستست ' وعلى (الرفيق) أن يرافق زوجة النبيل في روحاتها وجيئاتها وأن يلاعبها الشطرنج ويراقصها ويعزف ويغني لها. أما علاقته معها فعفيفة غاية العفة، بريئة غاية البراءة، قلما تؤدي إلى الفعل المنكر، لنه بمرافقته وإذعانه لها يكتسب صفة من أسمى صفات الفروسة وأنبلها، ألا وهي إجلال الجنس اللطيف وإيناسه. وكان يتجلى هذا الشعور في المرحلة الأخيرة من مراحل الفروسة وخصوصاً في أوان المبارزة. فعندما تعقد حفلات المبارزة تهرع إليها أجمل الفتيات وأنبلهن؛ وقد تستغرق الحفلة الواحدة ثلاثة أيام أو أكثر. وللمبارز إذا انتصر على خصمه أن يجرده من سلاحه وجواده، وأن يمر بالفتيات، فيتعهدهن بنظره حتى يقع بصره على إحداهن، فيختارها لتسمى ملكة الحب والجمال فتتوج بإكليل وتشرف على بقية الحفلات بينا السيدات يحطن بها من كل جانب، راغبات في التقرّب منها تشرفاً وللكنيسة أثرٌ ملموس في حياة الفارس، فتراها إذا ما قارب السنة الحادية والعشرين من عمره، سيطرت عليه، ووجهت حياته السلمية والحربية إلى ما فيه خيرها ونفعها. فتعرض له بعض المراسيم والامتحانات الدينية المعقّدة التي لابد له من اجتيازها. أهم هذه ما يجيء في الحفلة النهائية التي يصبح فيها (الرفيق) فارساً؛ وتستغرق هذه الحفلة أحياناً عدة أسابيع، فيصرف بضعة أيام في الصوم وليلة في إحدى الكنائس القديمة المظلمة، مسترسلا في التأمل والتفكير، ثم يستحمّ، ويعترف عند أحد الكهنة، وبعد ذلك تعقد الحفلة النهائية، ويترأسها أحد الكهنة، وفيها يخلع عليه الكاهن ثوباً أبيض رمز الطهر والنقاوة، وآخر أحمر إشارة إلى ما سيسفكه من الدم في الدفاع عن مبدئه ودينه، وسُتْرةً سوداء قصيرة تذكره بشبح الموت الذي سيلقاه دون خوف أو وجل، ثمّ يصغي إلى عظة بليغة يلقيها الكاهن عن حياة الفروسة. وفي النهاية يقسم الفارس يمين الفروسة الرسمي وخلاصته: (أن يذود عن الكنيسة، ويكافح الشرار، ويحترم رجال الدين، ويجل الجنس اللطيف، ويصون الضعفاء، ويحسن إلى الفقراء، وألا يحجم عن سفك دمه في الدفاع عن بني دينه وجنسه). ثم ينادي فارساً باسم الله، والقديس

جورج، والقديس ميخائيل، ويناول السيف والمهماز ويلطم على وجهه لطمة خفيفة رمزاً إلى آخر إساءة يستطيع أن يصفح عنها، وإلى حياة العنف والجهاد التي سيحياها

ويقضي الفارس السنين العشر الأولى التي تسبق السنّ القانونية للالتحاق بالفروسة في الدرس المتواصل، والاستعداد الدائم لهذه الحفلة التي تعد أكبر حادث في حياته.

ولقد ورد في رسالة كتبها دي روم لتلميذه الملك هنري دي جاند في صغره بعض الموضوعات والدروس التي يتعلمها (الرفيق) والصفات التي لا مناص له من اكتسابها لكي يكون فارساً، منها الإحسان والشجاعة والاعتدال؛ والقسم الخير من الجزء الثاني من هذه الرسالة ذكر واجبات (الرفيق) نحو الكنيسة. أما الفصل السابع فيقتصر على الموضوعات العلمية كتعلم اللاتينية والإلمام بالفلسفة، وعلم البيان وهذا خاص بأبناء الأمراء والملوك، وعلم الحساب الذي لابد منه لإتقان الموسيقى، وتعلم الهندسة التي لا غنى لطالب علم الفلك عنها. كل هذه العلوم خاصة بأبناء الطبقة الوسطى وهناك عدا الفنون السبعة المعروفة فنون وعلوم أخرى لابد للطالب من تعلمها وهي:

(1) العلوم الطبيعية لأنها تتعلق بطبيعة الأشياء

(2) علم ما فوق الطبيعة لأنه يبحث عن الله وملائكته

(3) علم اللاهوت

(4) علم الأخلاق لأنه يعلم الفرد ضبط نفسه

(5) علم السياسة لأنه يعلم إدارة المدن والممالك

وشعار الفارس في حياته - كما رأيت - الدين والحب والحرب، فهو الخادم الأمين المطيع للكنيسة ولسيدته التي تمثل الجنس اللطيف كله، ولسيده الذي يمثل الملوك والنبلاء

وترى مما تقدم أن الفروسة لعبت دوراً باهراً في تاريخ التربية خصوصاً والحياة الاجتماعية عموماً، وأن منهاجها لا يقل عن منهاج الجامعات والمدارس القرن الثالث عشر للميلاد خصوصاً؛ وأثره في أدب الإفرنج لا يقل عن آثره في التربية والاجتماع والسياسة. فقد أصبح مستقى فياضاً لآدابهم، وعلى الفروسة تدور بعض القصص الرائعة والقصائد الحماسية والأناشيد الشائقة؛ وحسبنا في هذا المقام أن نذكر أن الرجوع إلى العصور الوسطى عموماً والفروسية خصوصاً لاختيار الموضوعات الأدبية كان من اكبر خواص ومظاهر العصر الابتداعي في الأدب الإنكليزي في القرن التاسع عشر. واثر هذا

ظاهر في بعض قصص سرْ ولتر سكوت وخاصة (إيفنهو) (وتلسمان) (والأبوت) وفي إحدى قصص وليم أعني (هنري إزموند) وفي غير ذلك العصر من عصور الأدب الإنكليزي كعصر الياصابات مثلا وخصوصاً في بعض ملاهي شكسبير مثل (جعجعة ولا طحن) و (رجلا فيرونا) (وكما تشاء)

والمقام يضيق عن التوسع في هذه الناحية، فعسى أن يقوم من بين الأدباء من يجد في نفسه الكفاية للبحث في علاقة الفروسة بكل من الأدب والسياسة وفضلها وتأثيرها عليهما.

جريس القسوس

الجامعة الأمريكية: بيروت

مصادر هذه الرسالة

1. '
2. '
3.
4.
5. '

6 25ص (أحسن ما كتبت) في (الفروسة) عن عنان الله عبد الأستاذ مقالة.

أبحاث تاريخية جديدة

الإسلام في غرب أفريقية

مدى انتشاره في تلك الأقاليم ومبلغ أثره في الأهلين

للأديب جمال الدين محمد الشيال

تقدمه
بدا الإسلام في شبه جزيرة العرب. . . ومنها انتشر سريعاً في مختلف أنحاء العالم فوصل إلى الصين شرقاً امتد إلى الأندلس والمحيط الأطلسي غربا. وأينما وصل الإسلام ونشأت حضارة إسلامية جديدة أخذت عناصرها من حضارة الإقليم الهرمة المحطمة ومن حضارة الدين الجديد وتعاليمه. . . ثم استقرت هذه الحضارات، كل حضارة في إقليمها الخاص بها. . . وظهرت لها بمرور الزمن مميزات خاصة. . . ولكن هذه الحضارات كانت تتصف بصفات مشتركة تجتمع فيها عند نقطة واحدة تميزها جميعاً. . . تلك هي أنها حضارات إسلامية
وفي كل بلد من هذه البلاد الإسلامية وجدت معاهد للعلم ونشأ العلماء في كل فن. . . ونبغوا. . . ورحلوا. . . ونشروا دينهم. . . وكتبوا الكتب تتحدث عن كل علم وفن. . . وتصف كل قطر عرفوه أو رحلوا إليه أو نقلوا إليه دينهم. . .
وكانت بلاد المغرب إحدى تلك الأقاليم التي انتشر فيها الإسلام وإحدى تلك الأقاليم التي نشرت الإسلام في طول الصحراء وعرضها حتى وصل إلى حدود الكمرون جنوباً وإلى شاطئ المحيط الأطلسي غرباً. . . وقد تحدث المؤرخون الإسلاميون عن هذه الجهات في كتبهم ورحلاتهم. . .
فأبو عبيد البكري الأندلسي وابن فياض الأندلسي وابن خرداذبة كلهم يتحدثون عنها وعن حدودها فيقولون: (فأول بلاد المغرب مما على ساحل البحر الرومي مدينة أنطابلس المعروفة ببرقة، وآخرها مما على ساحل البحر الأعظم مدينة طنجة، وطنجة هذه آخر بلاد المغرب المحقق وما بعدها من البلاد فإنما هو في الجنوب إلى أن يأتي بلاد الحبشة والهند. . .)
أما ابن بطوطة فقد جاب الصحراء المسلمة واتصل بقبائلها وملوكها ووصل حتى بلدة كارسخو بين نهري النيجر والشنغال. وابن بطوطة رحالة عاش في النصف الأول من القرن الرابع عشر، وقد طاف في معظم الجهات الإسلامية المعروفة في ذلك الحين ومنها غرب أفريقية؛ وقد أحببت أن أنقل عنه أخبار انتقاله باختصار لتكون دليلاً مادياً على وصول الإسلام لتلك الجهات وإن كان الرجل يخلط خلطاً غريباً بين نهري النيل والنيجر، ولكن له في الواقع عذره لجهل العالم كله في ذلك العصر بأواسط أفريقية ومنابع أنهارها. يقول ابن بطوطة:
(ثم سرنا من زاعزي فوصلنا إلى النهر الأعظم وهو النيل وعليه بلدة كارسخو؛ والنيل ينحدر منها إلى كابرة، ثم إلى زاغة؛ ولكابرة وزاغة سلطانان يؤديان الطاعة لملك مالي. . . وأهل زاغة قدماء في الإسلام ولهم ديانة وطلب للعلم؛ ثم ينحدر إلى تنبكتو، ثم إلى كوكو، ثم إلى بلدة مولي من بلاد الليمين - وهي آخر عمالة مالي - ثم إلى يوفي، وهي من اكبر بلاد السودان، وسلطانها من أعظم سلاطينهم؛ ثم ينحدر إلى بلاد النوبة وهم على دين النصرانية؛ ثم إلى دنقلة، وهي اكبر بلادهم وسلطانها يدعى بابن كنز الدين أسلم أيام الملك الناصر؛ ثم ينحدر إلى جنادل، وهي آخر عمالة بالسودان، وأول عمالة أسوان من صعيد مصر)
(ثم سرنا من كارسخو فوصلنا إلى نهر صنعرة، ثم رحلنا إلى بلدة ميمة فنزلنا منها على آبار بخارجها، ثم سافرنا منها إلى مدينة تنبكتو، ومن تنبكتو ركبت النيل في مركب صغير منحوت من خشبة واحدة، ثم سرت إلى مدينة كوكو وهي مدينة كبيرة على النيل؛ ثم سافرت منها إلى تكدَّا، ووصلنا إلى كاهر من بلاد السلطان التكركري؛ ثم سرنا بعد ذلك خمسة عشر يوماً في برية لا عمارة فيها إلا أن بها الماء، ووصلنا إلى الموضع الذي يفرق به طريق غات الآخذ إلى ديار مصر وطريق ثوات، وسرنا من هنالك عشرة أيام ووصلنا إلى هكار وهم طائفة من البربر ملثمون، وسرنا من بلاد هكار شهرا، ووصلنا يوم عيد الفطر إلى بلاد برابر، ثم وصلنا إلى بودا وهي من أكبر قرى ثوات، وأقمنا ببودا أياماً ثم سافرنا في قافلة، ووصلنا في أواسط ذي القعدة إلى مدينة سجلماسة. . . الخ)
وهو إذ يتحدث عن معدن النحاس ص320 يقول (ويحملون النحاس منها إلى مدينة كوبر من بلاد الكفار - وإلى زغاي - وإلى بلاد برنو وهي مسيرة أربعين يوماً من تكدا وأهلها مسلمون ولهم ملك اسمه إدريس. . .)

من هذا نستبين بكل وضوح أن أقصى ما وصل إليه ابن بطوطة غرباً هو مدينة (كارسخو) وهو في كل تلك المنطقة التي طاف بها يذكر أنه كان ينزل بسلطان الولاية المسلم فيرحب به ويجمعه بقضاة الولاية وعلمائها. غير أن ابن بطوطة لم يصل إلى شاطئ المحيط من جهة الغرب في حين أن الإسلام كان منتشراً في غانة في ذلك الحين كما سنرى من قول ابن خلدون المعاصر لابن بطوطة في كتابه (المغرب في تاريخ الدول الإسلامية بالمغرب) وهو يبدأ بتحديد بلاد المغرب وغرب أفريقية على عهده، وقوله في ذلك ثقة لأنه نشأ في تونس وتنقل في معظم بلاد المغرب كتلمسان وبسكرة وبجاية وغيرها. واتصل بالحكام في كل تلك الأقاليم، وله كتابه المشهور (العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر)

حدود المغرب كما جاءت في كتاب (المغرب) لابن خلدون

إن المغرب قطر واحد متميز الأقطار، فحده من جهة الغرب البحر المحيط، وعليه) كثير من مدنه مثل طنجة وسلا وأدفو وأنفى وأسفى، وهي كلها من مساكن البربر وحواضرهم؛ وأما حده من جهة الشمال فالبحر الرومي المتفرع من هذا البحر المحيط يخرج في خليج متضايق ما بين طنجة من بلاد المغرب وطريف من بلاد الأندلس؛ وأما حده من جهة القبلة والجنوب فالرمال المستهيلة الماثلة حجزاً بين بلاد السودان وبلاد البربر، ويعرف عند البادية بالعرق، وهذا العرق سياج على المغرب من جهة الجنوب مبتدئ من البحر المحيط وذاهب في جهة الشرق على سمت واحد إلى أن يعترضه النيل الهابط من الجنوب إلى مصر فهنالك ينقطع؛ وأما حده من جهة الشرق فيختص بطرابلس وما وراءها إلى جهة المغرب مثل أفريقية والزاب والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى والسوس الأدنى والأقصى. هذا هو المغرب في العرف لهذا العهد (وهو الذي كان في القديم ديار البربر ومواطنهم

ومن هذا نرى أن ابن خلدون في وصفه للبلاد أدق بكثير من غيره من كتاب العرب؛ وتبدو لنا دقته من وصفه لتفرع بحر الروم من البحر المحيط، وتبدو لنا دقته بوضوح بعد هذا

بقليل عندما يتتبع العرق حتى يصل إلى النيل. وسيبدو لنا ابن خلدون أكثر دقة عند كلامه عن شعوب البربر، وقد أردت أن أبدأ بوصف جونستون لهذه الشعوب ثم أتبعه بوصف ابن خلدون؛ وسنرى بعد قراءة الوصفين أن ابن خلدون على تقدم عصره كان أجمل وصفاً وأدق تعبيراً من جونستون. ولا غرو فابن خلدون ابن تلك الفيافي والبلاد. وسنأتي الآن بتقسيم جونستون لجماعات البربر: في أوائل القرن السابع كان الجنس الليبي أو بربر شمال أفريقية الذين كانوا يسكنون كل المنطقة بين الحدود الغربية لمصر (بعد واحة سيوه) شرقاً وساحل مراكش غرباً ينقسمون إلى :-

البربر الشرقيون أو الليبيون (لواتا وهوارة وأوريغا ونفوسة ويسكنون قيرينيقا وطرابلس وتونس وجزءاً من شرق الجزائر (1)

البربر الغربيون أو صنهاجة وكانوا يشغلون سواحل الجزائر وغربيها وكل مراكش حتى يصلوا إلى حدود الصحراء جنوبا (2)

أقتم لوناً وقد انحدروا من وقد يتصلون في الأصل بالغولا الذين سكنوا في القرن السابع أجزاءً كانت تقل أو تكثر من الإقليم الصحراوي جنوب الجزائر وتونس ومراكش (3)

ومن زناتة انحدر البربر المزاب الحديثون وقبائل الورجلي وبنو مرين الذين أسسوا أسرة حكمت البربر فيما بعد

وقد دفع كثير من زناتة السود إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط في فترات مختلفة، كما أن كثيرين من البربر الشرقيين أو الليبيين قد دفعوا إلى قلب الصحراء تحت تأثير العرب الفاتحين ومنهم نشأت مزقة الطوارق فيما بعد. وكذلك هاجر كثيرون من البربر الغربيين أو الصنهاجيين في القرن السابع إلى الصحراء جنوباً واستقروا شمال نيجيريا وشمال حدود السنغال فليس هناك من شك أن كلمة (اسم قبيلة من قبائل البربر) قد أخذت من صنهاجة ثم حرّف البرتغاليون زناجا فيما بعد فأصبحت (سنغال)

وفي القرن السابع كذلك كانت هناك علاقات تجارية بين زنوج جنوب وشرق ليبيا ووصلت هذه العلاقات حتى كانم وبحيرة شاد ودارفور وكردفان، فكانت هذه الطرق أكبر مسهل للعرب في فتوحهم المستقبلة للسودان وبلاد المغرب

هذا ملخص تقسيم جونستون لهذه القبائل. ولنر الآن ماذا يقول ابن خلدون في وصفها قال:

(هذه الأمم السودان من الآدميين هم آهل الإقليم الثاني وما وراءه إلى آخر الأول، بل وإلى آخر المعمور متصلون ما بين المغرب والمشرق يجاورون بلاد البربر بالمغرب وأفريقية وبلاد اليمن والحجاز بالوسط، والبصرة وما وراءها من بلاد الهند بالمشرق؛ وهم أصناف وشعوب وقبائل أشهرهم بالمشرق والحبشة والنوبة، وأما أهل المغرب فنحن ذاكروهم، وأما نسبهم فإلى حام بن نوح)

(وعد ابن سعيد من قبائلهم وأممهم تسع عشرة أمة فمنهم بالمشرق الزنج على بحر الهند ولهم مدينة منبسة وهم مجوس ويليهم بربرا، والإسلام لهذا العهد فاش فيهم ولهم مدينة مقدشوا على البحر الهندي يعمرها تجار المسلمين، ومن غربيهم وجنوبهم الدمادم وهم حفاة عراة؛ ويليهم الحبشة وهم اعظم أمم السودان وهم مجاورون لليمن على شاطئ البحر الغربي منه؛ ويليهم البجا وهم نصارى ومسلمون ولهم جزيرة مدينة دنقلة غرب النيل وأكثرهم نصارى؛ ويليهم زغاوة وهم مسلمون ومن شعوبهم تاجرة؛ ويليهم كانم وهم خلق عظيم والإسلام غالب عليهم ومدينتهم حيمي ولهم التغلب على بلاد الصحراء إلى فتران؛ ويليهم عن غربيهم كوكو وبعدهم نقارة والتكرور ولمى وغنم وجابي وكوري وانكرار ويتصلون بالبحر المحيط إلى غانة في الغرب)

(ولما فتحت أفريقية المغرب دخل التجار بلاد المغرب منهم فلم يجدوا فيها أعظم من ملك غانة. كانوا مجاورين للبحر المحيط من جانب الغرب وكانوا أعظم أمة ولهم اضخم ملك، وكانت تجاورهم من جانب الشرق أمة أخرى فيما زعم الناقلون تعرف بصوصو. ثم بعدها أمة أخرى تعرف بمالي. ثم بعدها أمة أخرى تعرف بكوكو ويقال لها كاغو. ثم بعدها أمة أخرى تعرف بالتكرور. ثم إن أهل غانة ضعف ملكهم وتلاشى أمرهم واستفحل أمر الملثمين المجاورين لهم من جانب الشمال مما يلي بلاد البربر واعتزوا على السودان واستباحوا حماهم واقتضوا منهم الأتاوات والجزى، وحملوا كثيراً منهم على الإسلام فدانوا به؛ ثم اضمحل ملك أصحاب غانة وتغلب عليهم أهل صوصو المجاورون لهم من أهل السودان واستعبدوهم وأصاروهم في جملتهم. ثم إن أهل مالي كثروا أمم السودان في نواحيهم تلك وأستطالوا على الأقاليم فتغلبوا على صوصو وملكوا جميع ما بأيديهم من ملكهم القديم، وملك أهل غانة إلى البحر المحيط من ناحية الغرب وكانوا مسلمين يذكرون

أن أول من أسلم منهم ملك اسمه (برمندانة). ثم يذكر ابن خلدون بعد ذلك من تولى الحكم بعد هذا الملك حتى يصل إلى الملك ساكورة (سبكرة) فيقول عنه: (وحج أيام الملك الناصر وقتل عند مرجعه بتاجور وكانت دولته ضخمة اتسع فيها نطاق ملكهم وتغلبوا على الأمم المجاورة لهم وافتتح بلاد كوكو وأصارها في ملكة أهل مالي فاتصل ملكهم من البحر المحيط وغانة بالمغرب إلى بلاد التكرور في المشرق، واعتز سلطانهم وهابتهم أمم السودان وارتحل إلى بلادهم التجار من بلاد المغرب وأفريقية. . الخ)

هذا هو كلام ابن خلدون وقد تعمدت أن أنقله في هذه السطور الكثيرة لأنه قد شرح ما ألم به ابن بطوطة وما أجمله جونستون، فمن كلام ابن خلدون نستطيع أن نفهم بوضوح أي القبائل كانت تسكن في كل تلك الأقاليم، ونستطيع أن نفهم بوضوح أي هذه القبائل كانت تدين بالإسلام وإلى أي حد وصل الإسلام؛ ولكن ابن خلدون عاش في أوائل القرن الرابع عشر كما قلنا وهو إذ يتحدث عن هذه الديار يتحدث عنها كديار إسلامية انتقل إليها الإسلام من مختلف الجهات واستقر بها وأثر في أهلها، ولكننا قد نتساءل بعد هذا: كيف دخل الإسلام إلى تلك الجهات وكيف اقتحم على أولئك الزنوج غاباتهم وإحراجهم وبيوتهم ومدنهم؟ وكيف أثر في الأهلين وفي عاداتهم وأخلاقهم؟ هذا ما سنتناوله الآن بالبحث

(يتبع)

جمال الدين محمد الشيال

الهيكل

لشاعر الحب والجمال لامارتين

ترجمة السيد عارف قياسة

مهداة إلى أستاذنا الزيات اعترافاً بما لترجمته من فضل على)
(المترجمين
(عارف)
ولج الشاعر ذات مساء بيعة قرية، فإذا ضوء خافق ينير ظلمتها، وإذا نفسه الطاهرة) تجيش بالخواطر، وإذا قلبه الخاشع يفيض بالشعر، وإذا هو يخرج من البيعة ويمتشق (يراعته ويسجل هذه القصيدة في صفحة الخلود:
ما أحيلاه حين يصعد الشفق إلى القبة الزرقاء، وقد سبق محفة الليل الهادئة الوادعة، وحين يتنازع النور والظلام عرش الغبراء. ما أحيلاه إذا ما ضرب في أعماق الوادي، والقلب عامر بالتقوى، زاخر بالورع، مولياً وجهه شطر الهيكل القروي حيث تخلع الطبيعة على أروقته الساذجة ثوباً من الأشنة، وحيث تزال الحجب وتكشف الأغطية، وحيث تتحدث السماء إلى قلوب طفحت بالتقوى
تحية أيتها الغابة المقدسة! تحية يا أيها الحقل الذي رفرف الحمام فوقه، يا حارس أجداث القرية! إني لأبارك أرماسك المتواضعة في غدوي ورواحي. ويح الأولى مشوا على رفات العباد اختيالا! جثوت على ركبتي أمام قبورهم إجلالا وقد رنت أقدامي في صخرة الهيكل. الليل ساج داج، والضوء خافت مرتعش في المحراب، ينبعث من سراج وهاج، تألق قرب (المذابح) المقدسة، سراج يتلألأ حين يبسط الكرى أجنحته على الكون رمز الإحسان الساهر، ماسح مدامع البؤساء، وجامع آهات الأشقياء
دلفت إلى الهيكل، فلم يرن أذني غير اهتزاز فِنائه تحت وقع أقدامي الموزونة. أيتها الجدران المباركة! أيتها المذابح المقدسة! إني لفريد وحيد، وإن نفسي لتود لو سكبت أمامكن آلامها الممضة، وغرامها المضني، وأودعت السماء كلمات خفية، ستدرك كنهها هي وحدها، وستسمعنها أنتن وحدكن
ولكن لِمَ أزهف إلى تلك المذابح غير هياب ولا وجل؟ أي ربي العظيم! إني لأجرؤ أن أحمل في هذا الهيكل الخاشع قلباً يرمضه الألم، ويضنيه الغرام. رحماك ربي! إني لأحس بالرعدة تسري في كياني! اغفر ما اجترحت في بيتك من خطايا وآثام. كلا! إن نار الجوى التي تلتهمني لا تصبغ وجهي بحمرة الإثم. الحب طاهر ما أذكت الفضيلة لظاه، نقي نقاوة من أخلصت لها الوداد. إن غرامي ليلذع قلبي ولكن بجذوة مقدسة، فالصبر يشرفه والشقاء ينقيه ويطهره
لقد ذكرته إلى الغبراء، وإلى الطبيعة الحسناء؛ ذكرته أمام مذابحك المقدسة في غير وجل ولا إشفاق، وإني لأجرؤ على ذكره أمام عظمتك أيها الرب القدير! أجل! لقد تمتمت شفاهي بأسم إلفير برغم ما قذفه هيكله من الروع في فؤادي. إن ذلك الاسم الحبيب الذي تعيده الأجداث إلى الأجداث، وتهمس به الأموات في آذان الأموات، ليكدر سكون المقبرة الرهيب كما يكدره شقي زفر آهة معولة
تحية أيتها الرموس المقرورة! تحية أيتها المنازل المقدسة! لقد أعاد صدى الليل سويعاتنا السعيدة واويقاتنا الحبيبة حين أذريت دمعي أمامكن. شاهدت السماء مدامعي المسفوحة فقرت عيني وطابت نفسي
لعل (إلفير) التي تساهر وحيدة صورتي الحبيبة، تدلف في تلك اللحظة إلى معبد داج، مخضلة العينين بالدموع، وتجثو أمام المذابح القفرة تودع آلامها وأشجانها كما أودعت آلامي وأشجاني
حماة (سوريا)
عارف قياسة
نقل الأديب
للأستاذ محمد اسعاف النشاشيبي
مكشوف الرأس - 245
في (شذرات الذهب) لابن العماد الحنبلي: في سنة (456) توفي عبد الواحد بن علي بن برهان العكبري النحوي صاحب التصانيف، قال الخطيب: كان مطلعاً بعلوم كثيرة منها النحو واللغة والنسب وأيام العرب، وله أنس شديد بعلم الحديث. وقال ابن ماكولا: سمع من ابن بطة، وهب بموته علم العربية من بغداد؛ وكان أحد من يعرف النساب ولم أر مثله؛ وكان فقيهاً حنفياً، أخذ الكلام عن أبي الحسين البصري وتقدم فيه. وقال ابن الأثير: له اختيار في الفقه، وكان يمشي في الأسواق مكشوف الرأس

246 - عن ابن الرومي عن النرجس. .
ابن الرومي:
أرى حسن هذا النرجس الغضّ مخبراً ... عن الله أن ليس النبيذ محرما
247 - وكنتم قبله سراً يموت في ضلوع كاتم
مهيار:
ما برحت مظلمة دنياكم ... حتى أضاء كوكب في هاشم
نبلتم بهِ وكنتم قبلة ... سراً يموت في ضلوع كاتم
248 - نوارة لا تحتمل أن تحك بين الأكف
سئل أبو العباس بن البناء، وكان رجلا صالحا، في قوله تعالى: (قالوا إن هذان لساحران) لِمَ لَمْ تعمل إن في هذان؟ فقال: لما لم يؤثر القول في المقول، لم يؤثر العامل في المعمول
فقال له: يا سيدي، هذا لا ينهض جواباً فإنه لا يلزم من بطلان قولهم بطلان عمل إن
فقال له: إن هذا الجواب نوارة لا تحتمل أن تحك بين الأكف
249 - رفه
في (اليتيمة): كان سيف الدولة قلما ينشط لمجلس الأنس لاشتغاله عنه بتدبير الجيوش،
وملابسة الخطوب، وممارسة الحروب. فوافت حضرته إحدى المحسنات من قيان بغداد، فتاقت نفس أبي فراس إلى سماعها، ولم ير أن يبدأ باستدعائها قبل سيف الدولة، فكتب إليه يحثه على استحضارها:
محلُّك الجوزاء أو أرفعُ ... وصدرك الدهناء أو أوسع
وقلبك الرحب الذي لم يزل ... للجِدّ والهزل به موضع
رفِّهْ بقرع العود سمعاً غداً ... قرع العوالي جُلّ ما يسمع
فبلغت البيات المهلبي الوزير فأمر القيان بحفظها وتلحينها، وصار لا يشرب إلا عليها
250 - كيف يصبح؟ كيف يمسي؟
عبيد الله بن العباس الربيعي:
يا شادناً رام إذ مرّ ... في السعانين قتلى
تقول لي: كيف أصبحت؟ ... وكيف يصبح مثلي!
البديع الهمذاني:
يا سائلي، كيف تمسي؟ ... أخو الهوى كيف يمسي!
251 - الصلاة رحمة
في (كتاب أخبار النساء) لابن قيم الجوزية: قال بعضهم: سمعت يحيى بن سفيان يقول: رأيت بمصر جارية بيعت بألف دينار فما رأيت وجهاً أحسن من وجهها صلى الله عليها!
فقلت له: يا أبا زكريا، مثلك يقول هذا مع ورعك وفقهك؟.
فقال: وما تنكر علي من ذلك؟! صلى الله عليها وعلى كل مليح! يا ابن أخي، الصلاة رحمة
252 - يحترس بها من الغيلان
في (الموشح) للمَرْزُباني: قال احمد بن عبيد الله مما أنُكر على أبي العتاهية قوله لما ترفق في نسيبه بعُتبة:
إني أعوذ من التي شعفت ... مني الفؤاد - بآية الكرسي
وآية الكرسي يهرب منها الشياطين، ويُحترس بها من الغيلان - كما روي عن ابن مسعود في ذلك - وأبو العتاهية مع رقة طبعه، وقرب متناوله، وسهولة نظم المنثور عليه،
وسرعته إلى ما يعجز المتأني بلوغه - لا يخلو من الخطأ الفاحش والقول السخيف
253 - لأن العناية من ثم
قال أبو بكر بن العربي في رحلته: كان بمدينة السلام إمام من الصوفية يعرف بابن عطاء، فتكلم يوماً على يوسف وأخباره حتى ذكر تبرئته مما نسب إليه من مكروه.
فقام رجل من آخر مجلسه - وهو مشحون بالخليقة من كل طائفة - فقال: يا شيخ، يا سيدنا، فإذن يوسف همّ وما تمّ

فقال: نعم لأن العناية من ثمّ
فانظر إلى حلاوة العالم والمتعلم، وفطنة العامي في سؤاله، والعالم في اختصاره واستيفائه
ما زعزعتك - 254
روى أن رجلا مر ببشار وهو مستلق على قفاه في دهليزه كأنه فيل! فقال يا أبا معاذ إنك تقول:
إنّ في برديّ جسماً ناحلاً ... لو توكأت عليه لانهدمْ
وإنك لو أرسل الله الريح التي أهلكت عاداً ما زعزعتك
فإنها قد مثلت في الضمير - 255
ضرير:
وغادة قالت لأترابها: ... يا قوم، ما أعجب هذا الضرير!
- أيعشق الإنسان ما لا يرى؟ ... فقلت - والدمع بعيني غزير:
إن لم تكن عيني رأت شخصها ... فإنها قد مثلت في الضمير
لو رآه ابن ليون لاختصره - 256
كان ابن ليون التجيبي - وهو من شيوخ لسان الدين بن الخطيب - مولعاً باختصار الكتب، وتآليفه تزيد على المائة
ومما حكى عن بعض كبراء المغرب أنه رأى رجلاً طوَّالا فقال لمن حضر: (لو رآه ابن ليون لاختصره) إشارة إلى كثرة اختصاره للكتب
فلا يزال عليه أوبه طرب - 257
مما يستحسن في وصف العود قول ابن القاضي:
جاءت بعود تُناغيه ويسعدها ... فانظر بدائع ما خصت به الشجر
غنت على عودها الأطيار مفصحة ... غضاً فلما ذوى غنى به البشر
فلا يزال عليه أو به طربٌ ... يَهيجه الأعجمان: الطير والوتر
وتشبهوا أن لم تكونوا مثلهم - 258
في رسالة (أخلاق الكتاب) للجاحظ: حدثني عمر بن سيف أنه حضر مجلس أبي عباد ثابت بن يحيى يوماً في منزله وعنده جماعة من الكتاب فذكر ما هم عليه من ملائم الأخلاق، ووصف تقاطعهم عند الاحتياج، وعدم تعاطفهم عند الاختلال فقال:
معاشر الكتاب، لا أعلم أهل صناعة أملأ لقلوب العامة منكم، ولا النعم على قوم أظهر منها عليكم. ثم إنكم في غاية التقاطع عند الاحتياج، وفي ذروة الزهد في التعاطف عند الاختلال. وانه ليبلغني أن رجلاً من القصابين يكون في سوقه، فيتلف ما في يديه، فيخلي له القصابون سوقهم يومه ويجعلون له أرباحهم فيكون بربحها منفرداً، والبيع منفرداً، فيسدون بذلك خلته، ويجبرون منه كسره
هكذا قال زرادشت
للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه
ترجمة الأستاذ فليكس فارس
المسافر
وكان قد انتصف الليل عند ما توجه زارا إلى أكمة الجزيرة وهو يجد في السير ليبلغ الشاطئ الآخر عند بزوغ الفجر إذ كان يقصد الإبحار من هذه الجهة حيث ترسو بعض المراكب لتقل طلاب المهاجرة من الجزر السعيدة
وتذكر زارا الرحلات التي قام بها منفرداً منذ صباه فمرت بمخيلته رسوم الجبال والتلال والذرى التي تسلقها في حياته فقال: (ما أنا إلا رحالة ومتسلق مرتفعات وما تستهويني منبسطات الأرض ولا يستقر بي مقام. ومهما قُدّر عليّ ومهما وقع لي فلا تعدو الحوادث أن تكون في نظري رحلة واعتلاء. فما لي أن أرى من الآفاق إلا ما انطبع منها في نفسي. ولقد مضى الزمن الذي كان لي فيه أن أتوقع الحوادث من خطرات الحظ. وهل لي أن أنال من الدهر شيئاً لم يستقر في نفسي من قبل؟ إن كل ما يطرأ عليَّ بعد الآن إنما هو ذاتي العائدة تكراراً بعد انفراطها وتمازجها في الأشياء وتصاريف الزمان. غير أنني أصبحت الآن على مدرج آخر الذرى أمام أصعب مسلك ما اقتحمت مثله في حياتي، فأنا أبدأ الآن أشد رحلاتي عناء وأرعها وحشة وأنىّ لمثلي أن يتجنب مثل هذه الساعة التي تهتف قائلة: إنك على مبدأ طريق المجد

حيث تتداخل الذرى في المهاوي. أنت تسير على هذه الطريق وكنت تراها قبلاً آخر ما تقتحم من أخطار فأصبحت لديك آخر ملجأ تهرع إليه
إنك تسير على طريق المجد فعليك أن تتذرع بالحزم الأوفى لتقطع بنفسك خط الرجوع على نفسك
إنك تسير على طريق المجد، فأنت منفرد عليها لا يزحمك أحد من ورائك، وقد محت أقدامك آثار خطاك على ما وراءك من المسالك، ولاحت كلمة المستحيل بعينيك على آفاق هذه الطريق
ولابد لك إذا ما خلت المدارج تحت أقدامك أن تتسلق قمة رأسك إذ لا سبيل لك للاعتلاء إلا إذا اتجهت إليه وغلى ما وراءه وأنت تدوس على قلبك، وهكذا سيشفيك ما كان يحلو لديك
إن من أفرط في ادخار جهوده لا يلبث حتى يُبتلى بالخمول، تبارك كل جهد يشد العزم، فلا خير في أرض تدر اللبن والعسل؛ ومن يطمح إلى الإحاطة بأمور كثيرة فليتدرب على إرسال أبصاره إلى ما وراء حدود ذاته. وعلى كل متسلق للذرى أن يتعزز بمثل هذا الحزم إذ لا يسع من يتحرى الأمور متجسساً بفضوله إلا الوقوف عند أسهل الأفكار مثالا. وأنت يا زارا تطمح إلى الإحاطة بالعلل وإلى نفوذ خفايا الأمور، فعليك أن تحلق فوق ذاتك فتجتازها متعالياً حتى ترى ما فيك من كواكب متصاغرة في كل أفق دون أفقك الرفيع
أجل إن ذروتي إنما هي حيث أقف ناظراً إلى الأعماق فأرى فيها ذاتي وكواكبها، تلك هي آخر هضبة اطمح إلى بلوغ قمتها)
بهذا كان يناجي زارا نفسه وهو يصعد المرتفع معللا بالتعاليم الصارمة ما في قلبه من جراح
وعندما بلغ الذروة انبسط البحر أمام ناظريه فوقف مبهوتاً واستغرق في صمت طويل، وكانت السماء لا تزال تتألق بالنجوم والهواء يهب بارداً على الأكمة
وهتف زارا حزيناً: (لقد تبينت ما قُدّر عليَّ، وهاأنذا مستعد للأقدام فهذه آخر عزلة أقتحمها
سأنحدر إليك أيها البحر المظلم المنبسط عند أقدامي، أنت الليالي المفعمة بالأحزان، أنت القضاء والقدر أيها الخضم البعيد
إنني أقصد أرفع جبالي مقتحما أبعد أسفاري فعلي إذاً أن أهبط إلى مهاوٍ أبعد في أغوارها من كل ذروة رقيتها حتى الآن
عليَّ أن أذهب من الأسى إلى أغوار ما رسبت في مثلها من قبل فاصل إلى قرارة ما في الأحزان من ظلمات. ذلك ما قدّر عليَّ فأنا على أهبة لاقتحامه
لقد تساءلت فيما مضى عن منشأ الجبال فعرفت أخيراً أنها نهدت من البحار كما تشهد صخورها وجروف ذرواتها، فما يبلغ الأعلى مقامه إلا لانطلاقه من المقام الأدنى)
هكذا تكلم زارا وهو ماثل على قمة الجبل تدور به لفحات الصقيع، ولكنه ما بلغ الشاطئ ووقف بين نتوءات صخوره حتى حل عليه التعب وتزايدت أشواقه فقال:
إن البحر هاجع أيضاً فعينه الوسنى تحدجني بلفتات غريبة وأنفاس الحرى تهب عليَّ.)
إنه مستغرق في أحلامه يتقلب مضطرباً على جافيات مسانده. إنني أستمع لهديره كأنه يئن بتذكارات مفجعات، وقد يكون هذا الهدير نذيراً بالشؤم آتي الزمان
إنني أشاطرك الأسى أيها المدى المظلم الوسيع، فأنا بسببك ناقم على نفسي أتمنى (لو طالت يدي فأنقذك من أصفاد أحلامك
وانتبه زارا فإذا هو يضحك ساخراً من ذاته فتمرمر وتساءل عما كان سيبلغ به حماسه إلى إطلاق إنشاده لتعزية البحار، وعما إذا كان سيستمر مضعضعاً في سكرة غرامه واستسلامه فقال: (لقد عرفتك في كل زمان يا زارا تقتحم الأمور الخطيرة بلا كلفة وبلا مبالاة، وقد رأيتك طوال حياتك تدغدغ الوحوش المفترسة فكان يكفيك منها أن تهتاج حبك بأنفاسها الحرى وبنعومة مخالبها لتجتذبك إليها
ليس من خطر اعظم من الحب يحدق بالمستغرق في عزلته فإن المنفرد يحب كل شيء يتنسم فيه الحياة؛ وما اعجب جنوني بالحب وتساهلي فيه)
هكذا تكلم زارا وقد عاد إلى الهزء بنفسه؛ غير انه تذكر من هجر من خلانه إليه أنه يسيء إليهم بتفكيره فيهم، فنقم على نفسه وانقلب من ضحكة إلى البكاء فسالت

دموعه مريرة يتمازج فيها الغضب والشوق

فليكس فارس

العلويين والتقمص

في أوقات مختلفة، لكتاب مختلفين، نشرت (الرسالة) مجلة الأدب الراقي والفن الرائع، بعض الآراء عن بعض المعتقدات والمذاهب المتفرعة عن الإسلام بحثها الأستاذ عنان على سبيل التاريخ، وغيره على ضوء المعلومات الحديثة والاختبارات الشخصية

وقد أجمع الكتاب والناس على أن الدروز يؤمنون بالتقمص؛ وقد كان إجماعهم في هذه المرة صادقا لا يلوثه شك. أما أنا فأقول إن العلويين (النصيرية) يؤمنون بالتقمص كإخوانهم الدروز. ولست أطلع بهذا النبأ طلوع من يجهل. فلقد تحريت هذا الاعتقاد بنفسي بين إخواننا فألفيته موجوداً مستساغاً لا شك فيه ولا غبار عليه. وللعلويين في اعتقادهم هذا حكايات جميلة، ونكت حلوة لا بأس إذا نقلنا (للرسالة) شيئاً منها قال لي أحدهم: ألا تعتقد يا أخي بالتقمص وقد أوجسنا من دلائله ما حملنا على الإيمان به أشد الإيمان وأقواه؟ قلت: ما هذه الدلائل؟ قال: اسمع، ولدٌ في قرية (كذا) يقصد امرأة مات زوجها عنها ويدعى أنه تحول إليه، يذكرها بعهود الصبا، وبأيام قضاها وإياها، ويحدثها بأسرارهما الزوجية السالفة، فتدهش لهذا وتعجب وتهبه من مالها الكثير وتؤمن أنه رجلها الراحل. قلت: هذا لا يكفيني. قال: إن كان لا بد فدونك:

لا شك أنك تعرف في القرية الأجير (فلاناً) وقد تدرك احترام معلمه له، وقد ترى حب أم معلمه له الحب الجم، وحياءها منه الحياء الكثير، ولا بد أنك لحظت في كفه آثار طلق ناري يظهر لك عتيقاً. قلت: وما تعني بهذا؟ قال:

أما الأجير فإنه أب للمعلم، وزوج لأمة، وهو يعاتبها لتزوجها بعد وفاته، إنه أكد أبوته العتيقة بآثار الطلق وبحوادث وأعمال صدقها بعض قدماء القرية، وقد جرت بينهم وبين الراحل أمثالها، ولو علمت أنه أتى عالم النور يوم مات أبو معلمه لصدقت بعض الشيء مما أقول

ذاك ما روى الرجل أثبته للتأكد من إيمانه بهذا المذهب، وهذا ما حدث لي معه. وقد روى بعضهم أن اعتناق التقمص إنما يثير عدم مبالاة بالحياة، وقد رأينا من العلويين الشيوخ شيئاً من هذا، وقد رأينا من بعضهم شجاعة ربما كان من جملة بواعثها - غير طبيعتهم الجبلية في سوريا - اعتقادهم بمذهب التقمص.

حماة (سوريا)

محسن شيشكلي

رسالة الشعر

الشعر

للأستاذ فخري أبو السعود

ألا يا صدى النفس قد بات حاكياً ... تترجم عنها شجوها والأمانيا
تبوح بذكراها وتحكي شعورها ... وتروي رُؤَاها صادقاً والمعانيا
وتكشف من أسرارها كل مبهم ... خبيراً بأغوار السريرة داريا
لأنت نديم النفس في صَبَوَاتها ... وإنْ عَنَّ خطب كنت أنت المواسيا
لها منك في الأشجان يا شعرُ مَفْزَعٌ ... تُدافِعُ عنها اليأسَ بالبِشْرِ ماحيا
وأنت قرين البأس والمجد والعلى ... وكم تلهم العليا وتوحي التساميا
وما أنت ألفاظٌ تُصاغ لباقةً ... ولكنْ شعورُ النفس قد فاض طاميا
مَعِينٌ بنفْس المرء يجري ترقرُقاً ... إذا حَسِبتَه غِيضَ جَرْجَرَ داويا
أهَاب به من حادث الدهر نازلٌ ... فأقْبلَ دفَّاقاً يلبّي المناديا
وما كنتُ يوماً نَاظمَ الشعرِ إنما ... غدوتُ له في صفحة الكون تاليا
أقلّب من ديوانِ ذا الكونِ صفحةً ... تلي صفحةً أتلوه للناس راويا
صحائفُ ما تَبْلَى على الدهر جِدَّةً ... وكم بات تَالوها عظاماً بواليا
صحائف حُسْنٍ قد عبدتُ صفاتهِ ... وصورتُ منه في القصيد مَجَاليا
وأودعته آمالَ أمسٍ وَهَمَّه ... وأيام حسْنٍ قد مضت ولياليا
إذا رُحتُ أتلوها ما خططتُ رأيتُني ... كأنِّيَ أحيا ذلك العهد ثانيا
وما العيش إلا أنْ تَرَى فتنة الورى ... وتودِعها من بعد ذاك القوافيا

فلا عشتُ إلا ناظراً متمِلّياً ... أُهذِّبُ شعراً يَعرِضُ الكونَ حاليا
يصوّر حِسنَ الأفْق بالشمس سافراً ... ويرسم سحر البدرِ يغْشَى الدياجيا
وأقدامَ طودٍ حفَّها الموجُ غاسلاً ... وهاماتِ هضبٍ لَفَّها الغيم كاسيا
ويحكي ائتلاف النور والظل والشذا ... ويحكي خُفَوقَ الغصن بالغيث ناديا
ويحكي خرير النهر يجري مُسَلْسَلاً ... وألحانِ طير بات في الغصن شاديا
أميرُ الفُنُونِ الشعرُ جَمَّع شملها ... وأترعَ منهنَّ النفوس الصواديا
رَوَى كلَّ عينٍ ناقشاً ومصوراً ... وكلَّ سَمَاع شادياً ومناجيا
وفيه مجالٌ للخيال وملعب ... بهِ الفكرُ يُدني كلَّ ما كان نائيا
ويمضي مع الأحلام في كل مذهب ... وترْمِي به شتى الطيوف المراميا
ويخلُق منها عالَماً بعد عالَم ... مليئاً بأسباب المسرات حاليا
ويدفعه حبُّ البعيدِ فينثني ... مع الريح يمضي أوْ إلى النجم راقيا
ويَصْدَع أنيارَ الثرى وقيودَه ... ويمْرَحُ في طلْق السمواتِ ساريا
ويمعن في ماضي الزمان مُجَوِّلاً ... ويسبُر محجوباً من الغيب آتيا
ويجمع أطراف الحياة وتلتقي ... على وِرْدِهِ الأجيالُ شتى تواليا
فخري أبو السعود
من الشعر الرمزي
تعالي. . .!
للأديب محمود السيد شعبان
تعالَيْ نشرب الكأس الـ (م) ... تِي عتَّقها الرَّبُّ. . .!
وأحْلاها لِكَيْ يصبو ... إليها الثَّغرُ والقلْبُ
كُؤُوس لَمْ تحرِّمْها ... دِياناتٍ ولا رُسْلُ!
إذَا طاشَ الحِجا يوماً ... ففيها اللُّبُّ والعقْلُ!!
وفيها السِّحْرُ والإلها ... مُ والنَّشْوَةُ والحُبُّ!
تعالَيْ!. . . مالنا نشقَى ... وفي إمكانِنا الوَصْلُ؟
خَيالٌ أنتِ في فكرِي ... أُحيِّي فيهِ أحلامِي. .
تعالَيْ! لا يُرَوِّعْكِ الـ ... أسَى يا بِنْتَ أوْهامي!
عشقتُ السِّحْرَ والأحلا ... مَ والدنيا التي فيكِ!!
وما زال الهوَى بالشِّع ... رِ والألحان يَبْنيكِ!
تعالَيْ! إنَّنِي صَدْيَا ... نُ في بَيْدَاءِ ايَّامي
وثغرِي ظامئٌ يا ليْ ... تَني أرْوِيهِ مِنْ فِيكِ!!
تعالَيْ أدفئِي صدرِي ... وما يحوِي بأنفاسِكْ!
تعالَيْ زاوِجِي ما بيْ ... نَ إحسَاسي وإحسَاسِكْ
تعالَيْ يا ابْنَةَ الآما ... ل نقْضِ العمرَ لاهِينَا!!
وهيَّا نَنْفُضِ الأشجا ... ن يوماً مِن أيادينا
وَصُبِّي النورَ في كأسِي ... وصُبِّي الوَجْدَ في كاسِكْ!
وَبُثِّي رائعَ الأحْلا ... م حِيناً في أمَانِينَا. . .
تعالَيْ! رافقِي ذَاتِي ... تعالَيْ! غازِلِي حِسِّي. . .!
تعالَيْ! أسْقِكِ الأسْرا ... رَ مِن دَنِّى ومِن كأسِي!
فما في الوَحْدَةِ الخرْسَا ... ءِ ما تهْوَاهُ ألحانِي
وهذا الصَّمْتُ لا يرضا ... هُ لي حُبِّي وتحْنانِي
أريدُك كَيْ أجاهدَ فِي ... كِ عن طوْعي هوى نَفْسي!
فما لَكِ لا تُلبِّينِي ... إذَا ما الطُّهْرُ لبَّانِي؟!
تعالَيْ! بَدِّدِي شجْوِي ... تعالَيْ! جدِّدِي قلبي
فما يهنْيكِ أنْ أحيا ... على الدنيا بِلا حُبٍّ!
وأنْ تبقَى معي نفْسي ... بِلا إلْفٍ يُوافيها!
وتحيا ما ترى في النا ... سِ إنساناً يواسِيها!
دعينِي بالهوَى أشدو ... إلى أنْ يَنْقَضي نَحْبي. . .
لأمضِي غيرَ محزُونٍ ... على الدنيا وما فيها!!
أرادَ الحسْنُ يا قلبي ... لنا أنْ نعشَقَ الدنيَا!

وشاء اللهُ إذ أوْحَى ... إلينا الشوقَ أَنْ نحيا!!
أخذْنَا الحبَّ والنجوَى ... عن الأطيار تَلقِينَا. . .
وتامَتْنَا رُؤَى الدنيا ... فكاد القبحُ يُصْبِينَا!!
فؤادِي! قد طوَى هذا الْ ... هوى عنَّا الأسَى طَيَّا
فأنشدْ رُوحِيَ السَّكْرى ... نشيداً للمُحِبَّينَا!!

الفن الهندي

للدكتور أحمد موسى

العمارة

- 2 -

قلنا إن من أهم النماذج الفذة للعمارة الهندية مجموعة معابد إيللورا الصخري، لأنها شاملة لكلا الطرازين البوذي والبراهمي ومبنية على سفح الجبل الجرانيتي؛ فضلاً عن كونها جميلة التكوين رائعة النقوش والزخارف. واهم هذه المجموعة مما يمكننا تناوله بشيء من التنويه هنا معبد كايلاسا الذي نحت في الصخر ثم فصل منه فأصبح كأنه قائم بذاته، ويبلغ ارتفاعه ثلاثين مترا، وصحنه مقسم إلى خمسة أجنحة فصلت عن بعضها بقوائم، وحوائطه الخارجية مليئة بالمنحوتات التمثيلية بلغت كلها غاية الدقة؛ وعلى المدخل يوجد فيلان كبيران على اليمين واليسار؛ وهذا يذكرنا مع الفارق بما كنا نراه على مدخل المعابد المصرية كالمسلتين اللتين اعتاد المصريون إقامتهما عند مداخل معظم معابدهم

وأعقب ذلك الفن البنائي الهندي اتجاهاً جديداً في مرحلة أسماها مؤرخو الفن المرحلة البراهمية الحديثة، وأهم معابدها التي ساروا في تشييدها على نمط الطراز البوذي، لا من النحت في الصخر فقط، بل أيضاً من حيث الوضع التكويني والإنشائي بالذات، فضلاً عن تشييدهم المعابد قائمة بنفسها. أما من حيث الطراز الفني فقد اختلف الإجراء والاتجاه في شمال الهند عنه في جنوبها، وهذا مقبول بالنظر إلى بعد الشقة بين الشمال والجنوب وكانت صفة معابد الشمال أنها أقيمت مكعبة الشكل في مجموعها التكويني، قد توسطها صحن مربع أو ما يقرب من هذا الشكل، وتعلوه قبة مربعة الجوانب السفلى الملاصقة للحوائط ومنتهية في آخرها بالتقاء الخطوط الزّاويّة، فكانت بذلك أشبه بهرم مقوس الأضلاع

وقبل الوصول إلى الصحن وبالقرب من المدخل عملت ردهة تؤدي إليه على نفس الطراز. أما المظهر الخارجي العام للمعبد فكان كثير التعاريج والأضلاع المتشعبة وواجهاته مغطاة بالتماثيل وكلها من الحجر الرملي. ويوجد كثير من طراز هذه المعابد في

مقاطعة أوريسا في الشمال الشرقي

وقد توسعوا في التصميم الكلي للمعبد بإضافة مبان ملحقة به، لها قباب ينطبق عليها الوصف السابق؛ وأقيمت المعابد على هذا النحو في مقاطعة راجا أو راجبوتانا وخير الأمثلة التي يمكنني أن أسوقها مما يستحق الإعجاب كثيراً معابد كاجوراو وتبلغ الأربعين عدّاً معظمها راجع إلى القرن العاشر بعد المسيح، وهي تعتبر بحق المثل الفنية للعمارة الهندية إجمالا، وتبلغ مساحة المعبد الواحد مساحة كتدرائية مسيحية، ولم يتركوا أي معبد دون شحنه بالزخارف والمنحوتات على واجهاته وبداخله وتعتبر مجموعة معابد دجانيا (طريقة دينية معينة) من الدرجة الأولى في الفن الهندي. منها معبدان قائمان على قمة جبل أبو (ش3) يرجع تاريخهما إلى القرنين الحادي عشر والثاني عشر وهما مبنيان من الرخام الناصع، ويحيط بالصحن ستون حقلا حملت سقفها على أعمدة عديدة رائعة

أما المعابد الجنوبية فأبرزها دون نزاع أسموها الباجودا وهي عبارة عن مجموعة مبان متجاورة أحيطت بأربعة حوائط من جهاتها الأربع، وفي واحدة منها وجد المدخل (جوبورا) بتكوين ذي طراز نموذجي للفن الهندي أسفله بناء مربع وأعلاه سقف على هيئة هرم مدرج ناقص، أي أن قاعدته العليا مسطحة وقد بلغت درجاته الخمس عشرة. وفي داخل البناء ردهات وصالات ذات أعمدة خصص بعضها للحجاج (تشولتري)، ولميختلف المكان المقدس (فيمينا) في شكله الكلي عن النمط الذي ساروا عليه في إنشاء المدخل إلا أنه مربع الأرضية

وعلى ذلك تميزت المعابد الجنوبية عن الشمالية بهرمها المدرج وصالاتها وردهاتها ذات العمدة ومبانيها التي عملت من الآجر.

ولعلنا نسجل هنا أهم ما أقيم في المرحلة الزمنية المنحصرة بين القرن العاشر والقرن السابع عشر من روائع هذا الطراز، فباجودا تانجورا بمدخلها البالغ طوله 61 متراً وباجورا سرينينجام وطول واجهتها كيلو متر تقريباً، وباجودا شيللا بروم ومادورا كل هذه تجل عن الوصف، ولا تدع مجلا للشك بأن الفن الهندي - وإن كان الدرس المفصل به عسيراً بالنظر إلى الأطراف النائية لهذه البلاد - من أهم الفنون الشرقية التي يجب علينا

العناية بها والفات النظر إلى ما فيها من جمال وروعة

احمد موسى

البريد الأدبي

ترجمة جديدة لجان جاك روسو

كتبت حياة جان جاك روسو فيلسوف النفس والطبيعة مراراً وتكراراً؛ وحتى لم تحرم العربية من ترجمة لروسو وتحليل لنظرياته وكتبه بقلم الدكتور هيكل بك، ولكن الباحث في حياة روسو يجد فيها دائما من الجديد والطريف ما يشجع على استعراضها وتصويرها. وقد صدر أخيراً بالألمانية كتاب جديد عن حياة روسو عنوانه (الأحلام والدموع) ? بقلم الكاتب النمسوي هانز يوليوس فيلي تناول فيه حياة المفكر من ناحية جديدة هي ناحية العاطفة والمشاعر؛ وربما كانت هذه الناحية من حياة روسو هي أخصب وأدق ناحية في شخصية ذلك الذي أراد أن يصوغ الحياة طبقا للعاطفة والمشاعر الإنسانية. والواقع أنك إذا حاولت أن تحكم على شخصية روسو من أعماله وحوادث حياته فقط، فان مثل هذا الحكم لا يمكن أن يتفق مع خلال هذه العبقرية العظيمة، بل يتنافى مع كل ما فيها من الاضطرام والسمو؛ وإذا كان روسو هو ذلك الروح المضطرم الذي يرتفع بالفكرة الإنسانية إلى أسمى مواطنها، وإذا كان هو مؤسس المذهب (الرومانتيكي) وإذا كان قد نفذ بتأثيره الساحر إلى عبقريات مثل جيته وشلر، فإن في جوانب حياته الخاصة ما يلقي حجابا على عبقريته وسمو خلاله، فهو، وهو الذهن الحر، يأبى مدى ثلاثة وعشرين عاماً أن يسبغ على شريكة حياته وأخلص النساء إليه - تيريز ليفاسير - شرف الزوجية، ويقول لنا إنه تزوجها رغبة ودون إرادة؛ وهو المؤسس لمذهب جديد من التربية، يرغم زوجته على أن تبعث بأولادها الخمسة إلى ملجأ اللقطاء؛ وهو رجل النفس والعاطفة يطأ بقدميه أقدس وأعمق عواطف زوجه، وهو في جميع أعماله وتصرفاته ينم عن أثرة عميقة لا تتفق مع النظريات الإنسانية والأخلاقية السامية التي يبشر بها في كتبه؛ على أن مواطن الضعف الشخصي والشهوات الشخصية لا يمكن أن تكون مقياساً للحكم على عبقرية ما من نواحيها العامة، وقد كان روسو عبقرية لا شك في عظمتها، فيجب أن يحكم عليه من هذه الناحية العامة ليس غير

هذه الصور كلها يقدمها إلينا يوليوس فيلي بقوة وإفاضة، ويقف بنا طويلا عند حياة تيريز وشخصيتها الساذجة، إلى جانب حياة المفكر الأثرية، وهو يرى في تيريز شخصية إنسانية

تحمل على الاحترام والعطف، ويرى أنها كانت مثالاً للتضحية، وهو على العموم يصور لنا روسو رجل النفس والعاطفة قبل كل شيء

على مثال نوبل

رفع ألفرد نوبل المثري العظيم، بهبته الطائلة التي رصدت جوائز لأقطاب التفكير والسلام في أنحاء العالم، اسم أمته - السويد - إلى السماكين؛ وفي كل عام توزع جوائز نوبل العظيمة إلى مستحقيها بين آيات التقدير والإعجاب للمحسن العظيم. واليوم يتقدم مثر سويدي آخر هو المالي الكبير اكسل فنرجرين، ويوقف من ثروته الطائلة مبلغ ثلاثين مليوناً من الكرونات على الأعمال والمباحث العلمية، والجهود العقلية التي تفيد الإنسانية كلها بوجه عام. وقد نظمت هذه الهبة العلمية على مثل هبة كارينجي المشهورة، وسيبدأ تنفيذ ما فيها في حياة الواهب على يد مجلس مؤلف من الواهب وزوجته وخمسة آخرين من بين رجالات السويد المشهورين. وقد استطاع المحسن الجديد أن يحرز ثروته الطائلة كسلفه العظيم نوبل من بعض المخترعات

الصناعية. وهو يعنى عناية خاصة بالمشاريع العلمية والفكرية؛ وقد اشترى أخيراً الجريدة السويدية المشهورة (نيا دا جلجت الهاندا)، ووقفها للدعوة إلى التفكير المستقل وإلى معاونة الحركة الفكرية وتشجيعها

وهكذا تنافس السويد أمريكا في رصد الهبات العلمية، وتحرز من هذه الناحية ظفراً بعد ظفر؛ وسيكون لهبة فنرجرين من الأثر المعنوي العظيم ما لهبة سلفه نوبل؛ وستكون دعامة جديدة في صرح التقدم العلمي والإنساني

إحياء النحو لإبراهيم مصطفى

جاء في مجلة الآداب الشرقية التي تصدر بالألمانية عن هذا الكتاب بقلم طاهر خميري ما يأتي: -

الكتاب يقتصر على معالجة إعراب الاسم في العربية جاعلاً هدفه إبدال القواعد الكثيرة المبنية على نظرية العامل بأخرى أقل منها عدداً وتقوم على أساس من طبيعة اللغة (ص 195)

والمؤلف إذ أغضينا عن استثناء واحد (ص 43) يستعين بمصادر عربية فقط وأساس الفكرة أن الضمة علم المسند إليه والكسرة علم الإضافة بينما الفتحة لا تدل عل شيء بل الحركة الخفيفة التي تهرع إليها اللغة مادام الأمر لا يدور حول إسناد أو إضافة (ص 50). أما تفاصيل هذه النظرية فيناقشها المؤلف في صورة واضحة ملزمة وإن لم تكن كل أجزائها في نسق واحد من الإقناع

فالمؤلف مثلا - على حق كل الحق إذ يتخذ من إغفال علامة النصب في كل من جمعي المذكر والمؤنث السالمين (ص 111) مؤيداً لنظريته السالفة وإن كان الطريق مفتوحاً أمام احتمالات أخرى؛ ولكن ليس كذلك حكمه بأن اسم إن كان ينبغي له حقاً أن يرفع لولا أن النحاة ضلوا في هذه النقطة (ص 64)، هذا الحكم الذي يبنيه على مستثنيات قليلة يحوم حولها الريب وعلى نظائر لا صلة لها بما نحن فيه

كذلك كان المنتظر أن كل بحث حول علامة النصب يتخذ له من المفعول به نقطة ارتكاز ولكن مما يلفت النظر أن المؤلف أعرض عن ذلك إعراضاً تاماً

ومما يدعو إلى السرور أن باب الاجتهاد في النحو العربي قد فتح أخيراً على يد مؤلف عكف على موضوعه سبع سنين صدق فيها الاعتكاف (أنظر المقدمة) يحدوه الأمل في أن يشيد بناء النحو العربي من جديد، ولهذا لا يسعنا إلا أن نتجه إليه شاكرين

هذا ولما كان المؤلف يعتزم إخراج جزء آخر في الفعل وقد أكد هذا العزم فصرح بأن عنده مبادئه وتخطيطاته كاملة، كان لنا ألا نسد الطريق أمام كلمة أخيرة

وإنه من الضروري الذي لا مفر منه في عمل من هذا القبيل ألا يغفل عن متابعة الخطوات الأخيرة في مباحث علم اللغة العام فان هذا - مثلا - كان حرياً بلا شك أن يحفظ من زلل كثيرة في استنباط نتائج قد يؤدي إليها كون تغير المعنى بمساعدة الحركات من خصائص اللغة العربية (ص 45) اهـ

عقد مؤتمر عالمي في القاهرة للبحث في مسائل الشريعة الإسلامية

كانت الجامعة الأزهرية قد اشتركت في مؤتمر تاريخ الأديان الذي عقد أخيراً في مدينة لاهاي، وقد رفع المندوبون الأزهريون إلى فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر تقريراً ضافياً ضمنوه المناقشات والقرارات التي اتخذها المؤتمرون فيما يتعلق بالبحوث الإسلامية التي تقدمت إلى المؤتمر

وقد عني فضيلة الأستاذ الأكبر بدراسة هذا التقرير، واجتمع مراراً بحضرات المندوبين الأزهريين وكان معهم الأستاذ عبد الرزاق السنهوري بك عميد كلية الحقوق ومندوب الجامعة المصرية في هذا المؤتمر. وعلى أثر هذه الاجتماعات اتصل فضيلة الأستاذ الأكبر بالدوائر الرسمية المختصة وتحدث معها فيما كسبت من النتائج العملية في هذا المؤتمر وما أفادته الجامعتان المصرية والأزهرية من الاشتراك فيه.

وقد علمنا أن الآراء انتهت إلى أن في الشريعة الإسلامية من مسائل التشريع الجنائي والمدني والتجاري ما يصح أن يؤلف قواعد ذات صبغة قانونية يمكن الأخذ بها في مختلف التشريعات الحديثة كالوقف والوصية والميراث وشروط البيع والشراء والإيجار إلى غير ذلك من مختلف المسائل الشرعية ذات الصفة العامة

ثم رؤي أن كثيراً من التشريعات الحديثة اقتبست أحكام بعض هذه المسائل وجعلتها

جزءاً من القانون العام، وان من الإنصاف أن نسمع آراء علماء القانون في هذه المسائل حتى يمكن تمحيصها وتكون ملائمة لروح هذا العصر
لذلك استقرت الآراء على عقد مؤتمر عام في مدينة القاهرة يدعى إليه مندوبو الجامعات والهيئات العلمية في العالم لتعرض عليه هذه المسائل للبحث فيها ولتقرير صلاحيتها لتكون أساساً ومصدراً في التشريع الحديث
وقد تقرر أن تقوم مشيخة الأزهر بالاشتراك مع الجامعة المصرية بالدعوة إلى هذا المؤتمر، وجرت بحوث في كيفية تأليف اللجنة التحضيرية التي تبحث هذا الموضوع وتحدد الموضوعات الإسلامية التي تعرض على المؤتمر وتعين الزمان والمكان لانعقاده. وقد انتهت هذه البحوث إلى أن تؤلف هذه اللجنة من بعض علماء الأزهر وبعض رجال القضاء الشرعي ورجال القانون وستنظم هذه لدعوة جميع البلدان الإسلامية

تعديل التقويم الغريغوري

طلبت سكرتيرية لجنة المواصلات في عصبة الأمم إلى الحكومة المصرية موافاتها برأيها فيما يتعلق بالتقويم الغريغوري واقتراح تعديله
وقد رأت وزارة المعارف أن تساهم في هذا الأمر مساهمة جدية فأحيل الموضوع إلى أحد كبار موظفيها المبرزين في المسائل التاريخية لبحثه ووضع تقرير عنه
ونذكر في هذا المقام أن في أوربا وأمريكا هيئتين علميتين تسعيان لتعديل التقويم الجريجوري وتبذلان الجهد لدى لجنة المواصلات والمرور بالعصبة لتحقيق أغراضهما وغايتاهما. وقد رأت هذه اللجنة أن الموضوع خطير لاتصاله بحياة الشعوب والأفراد جميعاً، فوجهت الدعوة إلى الأمم الممثلة في العصبة وغير الممثلة، فتألفت من مختلف الممالك والأقطار هيئات محلية ولجان أهلية لدراسة هذا الموضوع واقتراح الوسائل التي يمكن أن ينفذ بمقتضاها؛ حتى إذا ما استجمعت اللجنة الآراء والمقترحات في أنحاء العالم، تقدمت إلى العصبة لدراسة الموضوع جملة في اجتماعها
وقد لخصت لجنة المواصلات الفكرتين الأوليين اللتين تشير بهما هاتان الهيأتان العلميتان في أوربا وأمريكا
فالاقتراح الأول يرمي إلى جعل عدد شهور السنة 12 شهراً ويوماً واحداً في السنين البسيطة ويومين في السنين الكبيسة. وأن يسمى اليوم الأول (يوم السنة) ويكون عقب شهر ديسمبر، ثم يسمى اليوم الثاني (اليوم الكبيس) ويكون عقب شهر يونيو ومن خصائص هذا الاقتراح أن يجعل الشهر 31 يوماً ليناير وأبريل ويوليو وأكتوبر، و30 يوماً في الشهور الأخرى. وبذلك يكون مجموع شهور السنة الاثني عشر هو 364 يوماً. ومن مزاياه أيضاً أن تبدأ السنة بيوم (أحد) وأن تبدأ شهور يناير وأبريل ويوليو وأكتوبر بيوم (الأحد) وشهور فبراير ومايو وأغسطس ونوفمبر دائماً بيوم (أربعاء)، وشهور مارس ويونيو وسبتمبر وديسمبر بيوم (جمعة)
أما الاقتراح الثاني فيرمي إلى جعل السنة 13 شهراً وأن يكون عدد أيام الشهر 28 يوماً، على أن يضم إليها يوم واحد في السنين البسيطة وفق الاقتراح المتقدم. أما الشهر الثالث عشر فيكون موقعه عقب شهر يونيو ويسمى (الشهر الوحيد) ومن مزايا هذا الاقتراح أن يجعل الشهور متساوية في عدد الأيام والأسابيع وأن يجعلها جميعاً مبتدئة بيوم واحد هو يوم (الأحد). ويذهب أصحاب هذا الاقتراح إلى أن فوائده كثيرة متعددة من النواحي الزراعية والمالية والاقتصادية والحسابية والتعليمية وهي تلخص
فيما يلي:
1 - جعل كل شهور السنة متساوية الأيام، ويجعل الأيام ثابتة لا تتغير، وبهذا يمكن معرفة تاريخ أي يوم إذا عرف موضعه في أي أسبوع من أسابيع الشهر، وكذلك يمكن معرفة اسم اليوم إذا عرف تاريخه
2 - توحيد الأيام، فيسهل تنظيم الأعمال الخاصة والعامة، كصرف الأجور ومعرفة أيام الأسواق والمواسم والأعياد والإجازات وافتتاح الدراسة وانتهاؤها. الخ
3 - تقسيم الشهر إلى أربعة أسابيع متساوية، فيسهل تطابق الحسابات الأسبوعية والحسابات الشهرية، ويرتفع الخطأ الذي ينشأ عادة من اختلاف الشهر وأسابيعه

4 - تسهيل مقارنة الإيراد والمنصرف في كل شهر في الشئون التجارية والمالية والمنزلية
5 - لما كانت أجزاء الأسابيع تلغي وفق هذا النظام، فإنه يسهل وضع الإحصاءات، إذ يعطي مقياساً ثابتاً لإيرادات الحكومة وصادراتها ووارداتها
هذا هو تلخيص الاقتراحين. وستبدأ الوزارة في دراستهما ولما كان هذا الموضوع لا يعني الحكومات وحدها، بل يتصل بحياة الهيئات والجماعات والأفراد فإن الوزارة ترحب بكل ما يبدي من الرأي في هذا الموضوع

إلى صديقي الأستاذ علي الطنطاوي

تتعب نفسك يا صديقي وتتعب المنطق معك إذا حاولت أن تجادل من يفهم أن ما ينشر في (الرسالة) بغير إمضاء يجب أن يكون لرئيس تحريرها، ثم يعين الاسم على هذا الفهم، ويقيم المناقشة على هذا الأساس. ومن بدائه الصحافة كما تعلم أن ما ينشر في الصحيفة من غير إمضاء إنما ينسب إليها لا إلى شخص بعينه؛ ورئيس التحرير مسئول، ولكن مسئوليته ليس معناها في اللغة ولا في الاصطلاح أنه يكتب ما لا يمضيه غيره. فأعف قلمك يا صديقي من مثل هذا الجدل، وأجره بما عودت قراءك المعجبين بك من ملهمات الحق والخير والجمال

الزيات

من أساطير الإغريق

يوم القيامة. . . أو طيش فيتون

للأستاذ دريني خشبة

عاد الفتى الساذج فيتون إلى أمه الحسناء الهيفاء كليمين، بعينين مغرورقتين، ونفس مكلومة، وفؤاد خافق متصدع، فجرى بينهما هذا الحديث:

- مالك يا حبيبي! لماذا تبكي؟
-. . .؟. . .
- لا. لا. . . فيتون يبكي؟ هذا عجيب! أيكون أبوك أبوللو وتبكي؟!
- أبوللو أبي؟ كذب، كذب!
- كذب؟ وكيف يا فيتون! أمك كذابة؟
- لا. لا. عفواً يا أماه! أنت لا تكذبين، ولكن ربما يكون كلامك سخرية بي!
- ولم أسخر بك يا بني؟
- الأولاد في المدرسة يغمزونني في أبي، وكلما حلفت لهم أن أبى أبوللو ضحكوا!
- دعهم يضحكوا يا فيتون. ماذا يضيرك؟
- يضيرني أنني لم يعد لي وجه أريق ماءه بينهم، لابد إذا كان أبوللو أبي أن ألقاه
- تلقى أبوللو؟
- ولم لا؟ أليس الأبناء يلقون آباءهم؟ فلم لا ألقى أبي؟ أأنا بدع من الناس؟
- لست بدعا، ولكن أبوللو في بلاد بعيدة. . . إنه في الهند!
- ولم لا أذهب إلى الهند لأرى أبي؟ صفى لي الطريق بحق الآلهة عليك يا أماه
- أذهب إلى الأرض التي تشرق من أفقها ذُكاء. فهناك ترى أباك

وذهب إلى الهند التي تقع في مشرق الشمس مباشرة؛ وكان عند شاطئ المحيط قصر باذخ منيف، لا يبلغ البصر مداه، ولا يدرك الطرف أوله ولا آخره. . . وكان مع ذاك قائماً على عماد رفيعة من ذهب ركبت فيها ماسات كبيرة ذات سناء وذات لآلاء. وكان سقفه العظيم المطعم بالعاج المصقول يلمع، ويكاد سناه يذهب بالأبصار؛ أما أبوابه فصيغت من الفضة الخالصة ونقشت فيها أبهى الرسوم؛ وافترّ فلكان فصور فوق الجدران بالرسم البارز

الأرض والبحر والسماء بما فيها من قُطّان؛ فأقام في الأرض غابها وأدغالها ومدنها وأنهارها وجبالها ووديانها. . . حتى آلهتها. وأبرز في البحر عرائسه المائسات الفاتنات، فجعل منهن سابحات يتواثبن فوق الموج، وجالسات على النؤي يمشطن شعورهن الداكنة التي تحكي خضرة البحر، وراكبات على ظهور السمك وحيوان الماء يتلاعبن ويتضاحكن. . . وجعلهن ذوات صور متشابهات وغير متشابهات، دليلاً على حذقه وجليل قدرته؛ وجعل فوق هذا كله صورة السماء بكل بروجها الإثني عشر، بحيث جعل منها ستة إلى اليمين، ومثلها إلى اليسار. . . خَلْقَ فلكان، ومن أحسن من فلكان خلقا؟!

وهكذا كان قصر الشمس آية من آيات الفن عجبا، ومع هذه الأبهة البالغة والعظمة الأخاذة، فقد تقدم فيتون غير هياب، ودخل في غير وجل، وكان يلمح اللمحة من الرسوم الجميلة والتصاوير الساحرة، ثم يسلك في سبيله قدما حتى كان في البهو الأعظم الذي يستوي في صدره أبوه، على عرش ممرد ناصع، تنعكس منه أضواء لامعة خاطفة، تبهر النظر، وتُخَسّي الأبصار. وسار الفتى مسافة قليلة، ثم وقف مكانه عَشِيّاً من شدة الخطف والإيماض، ولم يدر أيان يذهب؛ وكان أبوه متشحاً بوشاح فضفاض أرجواني، وعن يمينه وعن يساره وقفت الأيام والشهور والسنون، ثم الساعات في صفوف منظومة متلاحقة؛ ثم وقف الربيع - وتمثله هنا امرأة - وفوق رأسه إكليل جميل من الغار والزهر؛ ومن بعده وقف الصيف، وقد نضا جيب قميصه عن صدره، وقبض على حزمة من سنابل القمح الناضجة بيمينه؛ ثم همَّ الخريف متهالكاً على نفسه، وعلى قدميه أثارات من عصير العنب. . . أما الشتاء بدأ شيخاً وقوراً جلل الشيب رأسه، وتراكم الثلج والبرد على شعره الناصع

وقد لمح أبوللو ولده فيتون حيث سمر مكانه، وقد خطفت الأضواء بصره، وأخذه المنظر العجيب الذي سحره عن نفسه، فيهتف به ويباركه ويقول:

- فيتون! فيم قدمت يا بني! لأمر ذي بال، ليس من ذاك بد؟

- أوه! يا نور السموات والأرض يا فوبوس: يا أبي إن أذنت لي أن أناديك بهذا النداء! إن كنت حقاً ابنك فزودني ببرهان أقدمه للناس حين أقول إني أنا ابن أبوللو

- برهان؟

- اجل، هب لي من لدنك برهاناً يثبت أبوتك لي، فلقد استهزأ بي التلاميذ، وفضحوني في بنوتي لك. لابد من دليل، هل تسمع؟ لا بد من دليل!

- لا عليك يا بني! لك ما أردت. على أنه كان ينبغي أن تصدق كل ما قالت لك أمك؛ وأنا من جهتي لست أنكرك، فأنت ابني وأنا والدك، والآن سل ما شئت فأني مانحك أيّاً ما تريد

- صحيح يا أبي؟

- أولا تصدق ما أقول؟

- بلى، ولكن ليطمئن قلبي!

- صحيح يا بني، وأقسم لك بهذه البحيرة المقدسة التي يحلف بها الآلهة

فيلتفت فيتون حوله ليرى البحيرة، ولكنه لا يجد لها أثراً

- وأين هي تلك البحيرة يا أبتاه!

- ولد ظريف يا فيتون! أنا ما رأيتها قط، ولكنا نحلف بها في كل أمر جلل يا بُني!

- إذن هب أن أسوق محفة الشمس يوماً واحداً بدلاً منك

- وي! فيتون! أي طلب هذا؟

- لابد!

- محال يا ولدي! أنت حدث، ثم أنت بشري من بني الموتى! سل ملء الأرض ذهباً أمنحك ما تريد!

- كلا، كلا. . . لابد أن أسوق محفة الشمس من المشرق إلى المغرب ليراني سفهاء التلاميذ، وليتأكدوا أنني ابن أبوللو!!

- إنها ستحرقك وتحرق التلاميذ إخوانك قبل أن يروك!

- لا. . . لن تحرقني، أنت قادر على أن تجعلني أحتمل كل شيء! أَلَسْتَ إلهاً!

- بلى، ولكن. . .

- لكن ماذا؟ لابد، محال أن أسألك شيئاً آخر!

- يا بني إن ليس في طوقك، إنك ضعيف صغير، والعمل الذي تطلب أن تتولاه شاق حتى على الآلهة، إني أقوم به والرعب يملأ قلبي، وأنا من أنا يا فيتون. . . إن سيد الأولمب نفسه الإله الأكبر، جوف، جل سناؤه، وتقدست أسماؤه، لا يستطيع أن يسوق عربتي الملتهبة ذات اللظى يوماً أو بعض يوم، فما بالك أنت؟ إن الثلث الأول من الطريق صعب المرتقى لأنه يميل قليلا قليلا عن خط العمود؛ وخيلي ترقى مزالفه في صعوبة ليس بعدها صعوبة؛ والثلث الثاني عال شديد العلو، لأنه يرتفع فوق قمة العالم، حتى لأجزع

أنا نفسي من أن أنظر إلى أسفل تقية للدوار يأخذ في رأسي حين أرى إلى البحر المتمرد والبطاح الشاسعة والجبال الشم تزدلف من تحتي؛ أما الثلث الأخير فحدور شاق كمهاوي الجبل إذا وقفت عليه فوق شَعَفَتِهِ، ولذا فهو يقتضي الحذر وَحصْر البصر؛ حتى إن تأثير الواقف في نهايته ليتلقاني، يرتعد من الخوف عليّ، والرثاء لي، خشية أن أتردى في هاوية اللانهاية. هذا، ولا تنس السماء التي تجري فوقي لمستقر لها، بكل ما فيها من كواكب وأجرام، فإذا غفلت لحظة، أو أخطأت قيادة العربة، جرفتني في دورتها إلى حيث لا أعلم أين تذهب أو تستقر بي. ثم تدبر معي قليلا يا فيتون، إذا أنا سمحت لك بقيادة العربة، فماذا يصيبك من الهلع حين تنظر إلى السُّفل فترى الأرض تلف، والسباع تهمهم في الأدغال، والناس يكظون المدن، والآلهة تطل من قصور الأثير، والأشباح تسري حواليك كالسمادير؟ ماذا من الروع يعتريك يا ولدي؟ هل تستطيع أن تكبح جماح الخيل أو حتى تملك ألاَّ يفلت العنان منك؟ إنك ستمر بين قرني الثور أمام الحوت، وعلى مقربة فكي العقرب وذراعي السرطان. . يا بني! هل تستطيع أن تقود الخيل التي تنفث اللهب من مناخرها وأفواهها وسط هذه الدُّنى الدائبة؟ اختر لنفسك يا بني ولا تجعل الناس يقولون أهلكه أبوه)

وتشبث فيتون وركب رأسه، ولم يشأ أن ينكل قيد شعرة؛ فلم يسع أبوللو أن ينطلق به حيث عربة الشمس! العربة العظيمة المطهمة، المصنوعة كلها من الذهب الخالص، وقليل من الفضة المزركشة بالآلي والجوهر، وأحجار الماس التي تعكس أشعة الشمس جميعاً فتضاعف أضواءها، وتزيد كثيراً في لآلائها

وتقدمت ربة الفجر ففتحت أبواب المشرق، ونضرت بالورد طريق أبوللو؟ ثم أخذت النجوم تثب كالحمائم قِبَلَ المغرب وفي أثرها نجمة الصبح فريدة كأنها الورقاء وتلفتت أبوللو إلى الساعات المنتشرة عن جانبيه، فأمرهن أن يسرجن الخيل، فأطعن، وقصدن إلى إسطبل الكبير حيث وجدن الخيل قد التهمت كفايتها من العلف المقدس، فوضعن في أفواهها اللجم، وأسرجتها بكامل عدتها

وتناول أبوللو وجه ولده فنصحه بطيوب إلهية، وضمخه بدهن كريم، ثم قطر في عينيه قطرات من ماء أولمب، كي يقوى الفتى على تحمل الحرارة الفائقة، والصبر لضوء الشمس القوي؛ ثم وضع على رأسه الصغير هالة النور الربانية، وأشار إليه فاستوى على العربة العظمى التي تجر الشمس، فتنير أقطار السموات والأرض، وقال يوصيه:

(- أي بني! ها قد استويت على عربة أبيك التي ما قادها من قبل أحد غيره، ولا يقدر عليها أحد سواه! أي بني فاشدد إليك أعنة الخيل، وتجنب أن تلهبها بهذا السوط، فهي قد مرنت على الطريق وهي لا تبطئ حتى تحتاج إلى أن تساط. أي بني ولا تنحرف عن شمالك أبداً، وظل منتهجاً سبيل الاستواء الذي هو الدائرة الوسطى من الدوائر الخمس؛ وأحذر أن تعلو إلى الدائرة العليا أو أن تسفل إلى الدائرة السفلى؛ وسترى أثار رحلاتي من قبل، فسر على دربها تصل إن شاء الله. أي بني ولا ترتق معارج السموات فتصيب مساكن الآلهة، ولا تهو قريباً من الأرض فتجعل كل ما فيها جرزاً، بل خذ الطرق الوسطى أبداً، فإن خير الأمور أوساطها. . . فإذا أفلتت الأزمة من يديك، فظل حيث أنت، ولا تذهب مذاهب شتى في رحب السماء. وسأتولى أنا بعد ذلك إنارة الأرض والسموات. أي بني وما دمت قد اخترت لنفسك برغمي، فلا أقل أن تعي نصيحتي والسلام عليك)

ورد فيتون على أبيه السلام. . . وانطلق من أبواب المشرق وطفقت الخيل الصافنات تنفث اللظى فتموه السحب بالذهب، وتسابق أنفاس النسيم التي تهب هي الأخرى رخاءً من أبواب المشرق

وعجبت الخيل بعد شوط قصير من هذا الحمل الخفيف الذي لا عهد لها به؛ وعجبت أكثر حين أحست بالعربة تتأرجح خلفها كالزورق الذي ليس له صُبرَةٌ تثبت به في مهب الأعاصير

وجمحت الخيل. . . وانطلقت في غير طريقها المعهود. . . ولأول مرة ارتفعت حتى كادت تتلمس الدبين الأكبر والأصغر، فثار ثائرهما من لفح الحر؛ ولأول مرة كذلك تحرك الثعبان المنحوى فوق نجم الشمال حين أحس الدفء فنفث سمه الذعاف، وفرت من طريقه الكواكب. . . ونظر فيتون تحته، فرى الأرض تلف كالخذروف فريع قلبه، وزلزلت نفسه، وسقطت من يديه أعنة الخيل فجرت به في السفل حتى اقتربت

من الأرض. . . ونظر وراءه. . فرأى أنه لم يقطع من الثلث الأول إلا أقله؛ ثم نظر أمامه فوجد أكثر الطريق
وأوعره، فزادت حيرته واسقط في يديه، وترك كل شيء للقضاء والقدر. . . وضاعف ربكته نسيانه أسماء الجياد. . . وحدث أن ارتفعت هذه فجأة. حتى كانت قاب قوسين من فكي العقرب، ذلك الهولة المخيف الذي أوشك يبتلع العربة بمن فيها. . وشدهت ديانا ربة القمر حين رأت عربة أخيها تتخبط في الآفاق، وتصطدم بالكواكب، فتحدث الشهب، وتحرق العوالم السماوية: (ترى ماذا أصاب أبوللو؟ مسكين! لا بد انه نام. على كل حال سيستيقظ!) ولكن العربة هبطت فجأة حتى صارت في سماء الأرض، وحتى صارت الأرض منها على مدى رمية سهم. . . فما هي إلا لحظات حتى شبت الحرائق في كل الأرجاء. . . هاهي ذي الغابات العظيمة تشتعل. . . وهاهي ذي ألسن النيران ترقص في كل فج. . . وهاهي ذي الوحوش تجري هنا وهناك ثم تسقط في كل البقاع. . . والمدن! المدن العامرة الآهلة. . . إنها تحترق بمن فيها من شيوخ ضعفاء ونساء وولدان. . . أما الشباب! فوا أسفاه على الشباب! إنهم يجرون كالجان إلى البحار والمحيطات والأنهار والينابيع! وهاهم أولاء يقذفون بنفوسهم فيها. . . ولكن! وا أسفاه! إن مياه البحار والمحيطات والأنهار والينابيع تغلي وتفور، ويعب عبابها بالحمم، فالشباب يستجيرون فيها من الرمضاء بالنار! لقد بادت أمم بتمامها، واختبأت أمم في الغيران والكهوف وشقوق الأرض والجبال. . أما الطيور فقد خربت أوكارها ووكناتها، ولم يسلم منها إلا ما لاذ بأفحوص أو أدحى. . . ومسكينات عرائس البحار! لقد شحبت ألوانهن، وذوي جمالهن وغُصْنَ في الأعماق مع السمك يلتمسن الماء البارد، ولجأت أسراب منهن إلى البحار الجنوبية، وآثرن أن يعاشرن البنجوين.! أما قمم الجبال العالية التي ظلت منذ الأزل مجللة بركام الثلج، فقد خلت حللها الناصعة، وحلت عمائمها المخملية، وصارت تلتهب. . . فهذه طوروس الشماء، وتلك القوقاز العاتية، وهاتيك الألب المزهوة. . . كلها تهب. . . كلها تقذف بالحمم. . . حتى أولمب مثوى الآلهة، لقد غدا كومة عالية جداً من النار.
ولقد كانت الصحراء اللولبية فراديس يانعة ولكن فيتون المجنون حولها إلى رمال وكثبان، ولولا أن أدخل النيل رأسه في كثيب مهيل منها لجف ماؤه، وتبخر في السماء كله، ليجري في كوكب آخر! وهكذا فعل الفرات وأخوه، وكذاك صنع الكنج والسند. . . فشكراً لكل الأنهار التي ضنت بنفسها من أجل سعادة البقية الباقية من النوع البشري! يا له يوم قيامة؟! لقد ضجت الآلهة في الأرض، وكلما حاول نبتيون الجبار إله البحار أن يخرج رأسه من اليم ليجأر بالشكوى إلى أخيه كبير الآلهة، خاف وذعر أن تحرقه الشمس الهوجاء التي يسوق عربتها فيتون. . ولولا أن جازفت أمنا الأرض فبرزت من المحيطات وهتفت بجوف العظيم، لأصاب من بقي العذاب الأليم. . . لقد قالت له: (يا جوف العلى؟ يا رب الأرباب! إصغ إلي، واستجب لدعائي! ما هذا الذي نامت عيناك عنه فذهب بزرعي وضرعي؟ أهذا جزاء خصوبتي وما تهب عبادك من حَبّ وأبٍ وعنبٍ وقضبٍ وحدائق غُلب؟! أهكذا تكون عاقبة إخلاصي في مكافأة عبادك الذين يقيمون لك الهياكل ويبنون باسمك الصوامع والمعابد؟ ماذا من القرابين يا رب الأرباب يذبح باسمك بعد أن يهلك كل ما عليَّ من قطعان وأسراب ورعال؟ ثم هذه العوالم التي ما أنشأتها إلا بعد عناء وجهد! كيف تدع هذه الشمس الرعناء تأتي عليها جميعاً، وتصير كل شيء في ملكك إلى هيولي؟ استيقظ يا جوف واستمع، وأدركنا بلطفك هذه الساعة التي نحن فيها أشد ما نكون في حاجة إليك. آمين!)
وهب جوف من سباته العميق على جؤار ربة الأرض؛ وأبصر فرأى ما حل بالعالم الجميل من تدمير ووبال. . . فألم وتصدع. . . ونظر إلى عربة الشمس ينتفض فوقها غلام يافع عرف فيما بعد أنه فيتون بن أبوللو فهاج وماج، واخذ صاعقة من أكبر صواعقه وأقتلها، ثم أحكم تسديدها إلى الراكب المجنون. . وأرسلها تقصف وتعزف. . . وتهز الأفلاك. . . فأصماه وأرداه!!
وسقط الغلام الأحيمق من عُلْوِ العالم يتقلب في نهر إريدانوس المتدفق في سهول إيطاليا. . . حيث مات. . . واستراحت الدنيا كلها منه! وعادت الشمس إلى ربها. . . أبوللو المسكين. . . فهو يجري بها إلى اليوم لمستقر لها!!
أما كليمين البائسة، فهي إلى اليوم تبكي ولدها. . . وقد بكته معها أخواتها، وكن في

كل صباح يذهبن إلى النهر الذي سقط فيه فيسكبن دموعهن، حتى رثت لهن الآلهة، فسحرتهن إلى أيكات ثلاث من شجر الحور، فهن حانيات على النهر منذ ذلك اليوم حنو المرضعات على الفطيم
وكلما سكبن دموعهن حارت إلى كهرمان كريم
وحزن سيكنوس، صديق فيتون، على خدن صباه، فجمع رفاته وبنى لها قبراً من الرخام تظله الشجرات
دريني خشبة
العدد 224 - بتاريخ: 18 - 10 - 1937
الحرب
للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني
كان الذي يقول - قبل بضع سنوات - إن الحرب واقعة وأن العالم مقذوف به في جحيمها لا محالة، يعد من المنجمين الذين يُقرأ كلامهم للتسلية ولا يحمل على محمل واحد من محامل الجد؛ أما الآن فإن الحرب على كل لسان وفي كل ذهن وإن كانت كل دولة تقول وتؤكد إنها لا تريدها ولا تسعى لها وأنها تحاول أن تتقيها جهدها. والحق أن المرء لا يكاد يصدق أن دولة ما - مهما بلغ من وفاء عدتها - تقدم على إضرام نار الحرب في الدنيا وتعرض المدينة للبوار، وكيان العالم للتقوض والانهيار. وهي شرارة واحدة تطير فإذا الدنيا كلها براكين تقذف بالحمم فقد مضى الزمن الذي كان يسع أمتين فيه أن تتقاتلا ما شاءتا، وبقية الأمم وادعة ساكنة وآمنة مطمئنة لا تكاد تعني بما يجري في ساحة الحرب، وصرنا إلى زمن كل ما يحدث فيه له رجعة وصداه في كل زاوية وركن من هذه المعمورة. ولا أمل في هجوم مختلس وزحف سريع فإذا النصر قد خرجت به أمة والهزيمة قد بائت بها أخرى. ولم تعد الحرب قتالاً بين جيش وجيش بمنعزل عن الأمم والشعوب بل أصبحت تدور بين الأمم نفسها بكل ما تمتلك من وسائل التدمير والتخريب ومعدات الدفع والتوقي، وليس الذي يصيب غير المحاربين من البلاء والنكبات والتقتيل دون الذي يصيب الذين هم في الصفوف. ولا فرق في الحقيقة - أو لم يبق ثم فرق - بين مجند يحمل سلاحه ويسير إلى حيث يؤمر، وآخر يقيم في بيته بين أهله وأبنائه ويذهب إلى عمله الذي يكسب منه رزقه؛ وقد يكون الجندي أحسن حالاً لأنه يجد على الأقل من يعني بتدبير وسائل الوقاية له وتوفير الطعام والشراب وتمكينه من الراحة على قدر المستطاع، أما أهل المدن والقرى من شيوخ ونساء وأطفال وغير هؤلاء وأولئك ممن لا يؤخذون للحرب فيفاجئون في أية ساعة من ساعات الليل أو النهار بالتخريب والتدمير والتقتيل من غير أن تكون لهم أمثال الوسائل المتوفرة للجندي الذي في الصف للدفاع والهجوم، ومقابلة كل طارئ بما يستدعيه.
نقول إن المرء يصعب عليه أن يصدق أن دولة تجازف بالإقدام على الحرب واحتمال تبعة إضرامها في العالم لأن أهوالها أفظع من أن تسمح بهذا التصديق، ولأن النصر فيها
كالهزيمة من حيث الخراب الذي يحل بالفريقين المحتربين، ولأنها لا بد أن تطول حتى تستنزف القوى جميعاً بعد أن أصبحت جهاداً بين شعوب لا مجرد اعتراك بين جيوش؛ حتى النساء صرن يجندن أو يدربن على أعمال الجنود، أو يستخدمن على الأقل في المصانع والمستشفيات من ثابتة ومتنقلة وفي سوق السيارات وغير ذلك مما يسهل أن يقمن به وهن بعيدات عن الصفوف الأولى للمحاربين
ولكن الأمم على الرغم من هول الحرب تبدو ماضية إليها بسرعة، ولا تكاد تلوح بارقة من الأمل في اتقائها واجتناب كارثتها الشنيعة، فكل دولة تكدس السلاح والذخيرة وتحث المصانع على العمل المتواصل، وكل مجهود موجه إلى استيفاء الأهبة في كل باب ولكل احتمال. والشعور بالاستعداد - أي بالقوة - يغري بالتهور كما يمكن أن يصد عنه، فالذين يقولون إن أحسن وسيلة لمنع الحرب هي الاستعداد لها مصيبون ومخطئون في آن معا. فما من شك في أن علم الدولة التي تحدثها نفسها بالحرب أن غيرها مثلها استعداداً لمقابلة الشر بمثله، خليق أن يبعثها على التردد الطويل والحساب الدقيق للعواقب، ومتى بدأ الحساب فالأحجام مرجح لأن المفاجأة الحاسمة مستحيلة في هذا الزمان، وعند كل أمة من الرجال والعقول والمواهب مثل ما عند

الأخرى - ونعني أمم الغرب على الأقل - وكل دولة تستطيع أن تستدرك ما يظهر لها من النقص بسرعة كافية. وقد جرب العالم هذا في الحرب الكبرى، ومعلوم أن ألمانيا فاجأت الحلفاء يومئذ بالغازات الخانقة فما لبث الحلفاء أن اتخذوا الكمائم ثم ما عتموا أن اهتدوا إلى صنع الغازات فصاروا يرسلونها على الألمان كما كان يرسلها الألمان عليهم. واحتاجت بريطانيا إلى بعض المواد التي لا غنى عنها لصنع الذخائر - وكانت قد أصبحت منقطعة أو عزيزة المنال - فاحتثت همم علمائها فهداهم البحث والتجريب إلى ما يحل محل هذه المواد ويغني غناءها وهكذا. ولا شك أن كل أمة تعول على سلاح لديها أكثر مما تعول على سواه ولكنها لا تستطيع أن ترجو طول الانفراد به وبمزيته بعد أن تلح به على أعدائها في الحرب

غير أن وفاء العدة يغري من ناحية أخرى بالغطرسة ومحاولة التحكم، ومتى صارت الأمم كلها شاكية مستعدة فأخلق بذلك أن يجعلها أضيق صدراً عن احتمال الغطرسة والشموخ. والأعصاب تتلف في مثل هذه الأحوال. وقد يكون تلف الأعصاب أجلب للحرب من أي

سبب أو باعث آخر، ولهذا ترى أنصار السلم ينصحون بالسكينة واتزان الأعصاب وضبط النفس والحرص على ذلك مهما بلغ قوة الشعور بالاستفزاز

وأسوأ ما في الحالة أن الحرب تدور رحاها شيئاً فشيئاً وفي مكان بعد مكان حتى ليخشى أن تنتشر وتعم الدنيا؛ ونارها توقد بلا إعلان. ففي أسبانيا لا تدور الحرب بين فئتين من الأمة وإنما هي بين دول شتى في الحقيقة لكل منها مآربها وغايتها وسلاحها الذي تجربه وتختبر فعله وغناءه. وفي الصين قامت الحرب بلا إنذار أو إعلان وقد تضطر دولة أو دول أخرى غير الفريقين المتحاربين أن تخوضها معهما فتتسع الدائرة ويعظم الخطب ولا يؤمن اندلاع النار في قارات أخرى. فإذا ظل هذا يحدث في رقعة بعد رقعة من الأرض فماذا يكون المصير؟ وحيال هذه الحالة لا ندري كيف يسع إنساناً أن يطمئن إلى استقرار السلم وإمكان تفادي الحرب؟ إن كل ما يسعى له أنصار السلم والمشفقون على العالم وحضارته هو أن يحصروا هذه الحروب في مناطقها حتى لا تعدوها أو تمتد إلى سواها كما يفعل رجال المطافئ حين يرون النار قد شبت في بيت أو مصنع، وليس هذا من التشبيه أو التمثيل فإنها النار هنا وههنا بلا فرق أو تفاوت سوى أن نار الحريق أهون من تلك التي يؤججها التدبير المحكم.

ومن العسير أن يتكهن المرء بشيء فقد صار العالم يعيش يوماً فيوماً فإذا مضى يوم ولم تتفاقم فيه أزمة ولم يستفحل فيه خلاف حمد الله وشكره ورجا أن يجيء الغد بما يفرج من الكرب أو يرجئه أو يلطفه على الأقل.

إبراهيم عبد القادر المازني

كلبي (بيجو)

للأستاذ عباس محمود العقاد

أنا أكتب هذا المقال عن (بيجو) وهو ينظر إلي، ثم يذهب ويعود ليطل مرة أخرى ولا يدري أنني أكتب عنه وأشيد بذكره؛ وكل ما يدري أنني جالس في هذا المكان الملعون الذي يحب كل مكان في البيت غيره، وهو كرسي المكتب.

ففي كل مكان في البيت يراني مستعداً لملاعبته واستجابة نظراته، والتفرج على فنونه وألاعيبه وقفزاته، أو يراني مستعداً للإشارة إليه واستدعائه فإذا هو واثب وثبة واحدة إلى حيث يستوي على مكانه بجانبي، ويغريني بملاطفته ومجاملته أن أبذل له الملاطفة والمجاملة وأحييه بعبارات التودد والمجاملة.

ينتظر مني ذلك في كل مكان إلا كرسي المكتب. . . فإذا جلست إليه لأكتب أو لأقرأ فهو حائر لا يدري ما يصنع: يدنو من الكرسي إلى مسافة قصيرة، ثم يرفع رأسه وينظر، ثم يعيد النظر كرة أخرى، ولعله يسأل نفسه: ما بال صاحبي لا يناديني ولا يجيبني؟ وما بال عينيه تتجهان أمامه وقلما تتجهان ناحيتي؟ فإذا طال عليه التساؤل والترقب رجع أدراجه وغاب هنيهة ثم عاد إلى المكتب يترقب كلمة النداء، أو نظرة الاستدعاء، أو لمسة التربيت والاحتفاء؛ ولا يزال كذلك حتى ييأس ويسأم فيولي وجهه شطر ألعوبة يتلهى بها، أو شغلة أخرى من الشواغل البديعة التي يفرضها على نفسه ولا يفرضها أحد عليه، وأولها حراسة الباب والعواء على من يصعدون السلم أو يهبوطنه!

وقد تبعني اليوم إلى المكتب ونظر إلي قليلا ثم غادر المكان الملعون يائساً عابساً دون أن يلح في الانتظار والمناورة، لأنه تعلم بالمرانة الطويلة أن الانتظار في هذا المكان لا يفيد، وأن الكلب العاقل الرشيد هو الذي يغادر مكان الكتب والأوراق بغير تدبر ولا تأمل ولا إطالة. والحق معه حتى في آراء الأناسي العقلاء الراشدين!

وقد أردت اليوم أن أدهشه وأخلف عادته فرفعت رأسي من الورق في بعض جيئاته وصحت به منادياً: بيجو! بيجو! تعال. . . إن كتابتي اليوم تعنيك. ألا تريد أن تقرأ ما كتبت؟ فوجم ولم يكد يصدق أذنيه. وتردد لحظة، ثم قفز إلى الكرسي فالمكتب حيث الورق الذي أخط عليه هذا المقال. . . كأنه يريد حقاً أن يقرأه ويستطلع ما فيه، وكأنه لا يفضل بالعقل والرشد أولئك الآدميين الذين يعنيهم ما يكتب عنهم الكاتبون كما ظننته لأول وهلة! ولكنه ما لبث أن أخافني من أسلوبه في القراءة والمطالعة، لأنه هو والتمزيق في عرفه شيء واحد. وهل هو بدع في أسلوبه وهذا شأن كثير من الآدميين الذين أكتب عنهم؟ فنحيته برفق وحملته إلى الباب وأرسلته في الدهليز، وعدت إلى المكتب فأقفلته ولا أزال أسمع نباحه يلاحقني بلهجات تتراوح بين الاستغراب والشكاية والسباب!

ويجب أن أعترف للقراء بأن كلبي (بيجو) ليس بكلبي على التحقيق، ولكنه كلبي في شريعة الدعوة والاغتصاب، أو هو كلب صديقي العزيز (فيفي) الذي لم يجاوز السنتين إلا منذ شهرين، ولا أخاله إلا مطالبي به قريباً بعد أن زال الموجب لإقصائه وهو انحراف صحته في موعد التسنين، وفيما أصابه على أثر ذلك في مصاب أنقذه الله من خطره الشديد.

والأصل في المصائب أن تجمع بين الأصدقاء لا أن تفرق بينهما كما افترق فيفي وصديقه بيجو. . ولكن اللوم في هذا الافتراق على صداقة بيجو دون غيرها - أي على إفراطه في الصداقة لا على تقصيره فيها - فمعاذ الله أن يتهم كلب بخيانة الأصدقاء كان بيجو يرى (فيفي) على سريره ساكناً من التعب والإعياء فلا يحسب أن شيئاً تغير بينه وبين مولاه، ويقفز إلى السرير ليعرض خدماته التي لا يكل عنها ولا يتوانى فيها، وهي المواثبة والملاعبة واصطناع العض والمصارعة، ومولاه في شاغل عن ذلك ولكنه هو لن يقبل العذر ولن يعرف شاغلاً أهم من تلك الخدمات المرفوضات.

وإذا أقبل الطبيب وصرخ (فيفي) من مقاربته وجسه وفحصه كما يصرخ جميع الأطفال من جميع الأطباء فما هي إلا لمحة كأسرع ما يكون لمح البصر وإذا بأنياب (بيجو) توشك أن تنغرس في ساق الطبيب الذي يعتدي على مولاه بما يبكيه!

أما إذا ربطوه اتقاء لهذه المفاجآت فلا راحة ولا قرار في البيت كله، لا لمولاه العزيز ولا للنائمين حوله أو الساهرين عليه

لهذا عوقب (بيجو) على إفراط صداقته بالنفي من جوار مولاه في أثناء توعكه وانجراف مزاجه، ورضيت أنا أن أتولى مؤاساته وحراسته أيام منفاه، حتى تنجلي الغاشية فيعود إلى مأواه

وما انقضت فترة وجيزة حتى أصبح (بيجو) شخصية من شخصيات البيت المعدودة، وحتى فرض على نفسه واجبات وأعمالاً لم يفرضها أحد عليه، ولكنه يغضب ويتذمر إذ أنت قاطعته فيها أو عوقته عنها، كأنك تحسبه مخلوقاً عاطلاً لا يصلح لعمل ولا يؤتمن على واجب. . .

عرف الفرق بين جرس التليفون وجرس الباب، فلا يدق هذا أو ذاك إلا أسرع إلى الإجابة، وغضب من الخادم كلما سبقه إلى غرضه فتظاهر بعضه والوثوب عليه. ومن عجائب ذكائه أنه إذا سمع جرس الباب أسرع إلى الباب ولم يفعل كما تعود أن يفعل حين يسمع جرس التلفون. ومع أن جرس الباب يدق في المطبخ حيث يكون الخادم ولا يدق في المكان الذي يجري إليه. ولعله عرف أن فتح الباب هو المقصود بدق الجرس في المطبخ كلما جرى الخادم لفتحه على أثر سماع دقاته، ولكن تفريقه بين الجرسين براعة تشهد له بالقدرة على مزاولة الأعمال والواجبات ومن الأعمال والواجبات التي فرضها على نفسه ولم يفرضها عليه أحد أنه لا يدع إنساناً ولا حيواناً يصعد السلم إلا أدركه بنباح الاحتجاج من وراء الباب فيعدو أمامي ويعود إلي ولا يزال يرقص ويتوثب حتى أجزيه على استقباله بالتحية الواجبة والتربيت المحبب إليه.

ألأجل الطعام يهش لي (بيجو) هذه الهشاشة ويرعاني هذه الرعاية؟ أنا أود من الباحثين في طبائع الحيوان أن يراجعوا ملاحظاتهم وأحكامهم في أسباب التآلف والمودة بين الحيوان والإنسان، فإن إطعام الكلب ولا شك سبب من أسباب وفائه وتعلقه بأصحابه، ولكن لا شك أيضاً في أن الكلاب تفهم للمودة أسباباً غير الإطعام وتدرك معنى من معاني الصلة النفسية ليس مما يرتبط بالمنافع؛ وأوضح دليل على ذلك أن (بيجو) يعتبر نفسه تابعاً لمولاه (فيفي) ولا يعتبر نفسه تابعاً لأبيه أو خادم أبيه، وكلاهما يطعمه ويلاطفه ويسقيه. أما (فيفي) فهو لا يطعمه ولا يسقيه ولا يتورع عن خطف طعامه إذا ساغ في مذاقه، وقد يتبرم به فيضربه أو يقبض على لسانه أو يضع إصبعه في عينه، وبيجو في كل ذلك لا يقابل الأذى بمثله ولا يفتأ متعلقاً بالطفل أشد من تعلقه بآله وذويه.

فلما زارني (فيفي) مع أبيه بعد شفائه ونجاته من خطره كان المعقول المنظور أن يخفف (بيجو) إلى الأب الكبير الذي يعني بإطعامه وإيوائه، ويشمله بمودته وحبائه، ولكنه ألتفت

أول ما التفت إلى (فيفي) العزيز دون غيره، وتهافت عليه يعانقه ويلحس وجهه بلسانه ويئن أنيناً من فرط حنينه وفرحه؛ وجهدنا جهداً شديداً في التنحية بينه وبين مولاه الصغير لفرط ما أرهقه بتحياته ومجاملاته، وكنا سبعة منا أستاذ في علم الزراعة والحيوان، وأخ له أديب جم الإطلاع، وصديق مهذب من أدباء الموظفين، وسيدة إنجليزية وابنها اليافع، ووالد فيفي وكاتب هذه السطور، فأتعبنا الكلب الأمين الودود جد التعب ونحن نبعده من هنا فيرجع من هناك على حال من اللهفة والاشتياق تجلب الدمع إلى الآماق. فماذا بين بيجو ومولاه فيفي من البر والمجازاة غير الصلة النفسية التي لا شأن لها بالطعام والشراب؟ ولماذا يحسب نفسه تابعاً للطفل ولا يحسب نفسه تابعاً لأبيه؟ أنه لا يفقه أنهم أهدوه إلى فيفي الصغير ليكون لعبته وحارسه وعشيره، ولكنه قد يفقه أنه نده وقرينه بواشجة الطفولة والملاعبة الصبيانية، وهي على كل حال واشجة غير وشائج المنافع والطعام والشراب

ويشبه هذا في الدلالة على إدراك الخلائق العجماء للصلات النفسية أن (بيجو) لا يطيق (الطاهي) احمد حمزة ولا يرتاح إلى رؤيته ولا يسمع النداء على أسمه حتى يحسبه تهديداً له بالعقوبة والإقصاء، وهو مع هذا يألف فراش المنزل (محمدا) ويهش له ويستريح إلى مصاحبته في المنزل وفي الطريق. . فلم كانت هذه التفرقة عنده بين هذا وذاك؟؟ كلاهما يقدم له الطعام، ويزيد صديقه (محمد) بتجريعه الدواء الذي يتعاطاه لعلاج السعال أحياناً وهو يمقته وينفر منه أشد النفور. غير أن الطاهي (أحمد حمزة) يتحاشى (بيجو) خوفاً من النجاسة فيشعر (بيجو) بجفائه ويلقاه بمثله، ويحتمل التجريع والغصص من زميله لأنه يحتفي به ويأنس إليه.

من إدراكه (للمعاني) الفكرية أنك إذا لمسته بالعصا وهو غافل عن رؤيتها فهو لا يبالي ولا يحفل ولا يحسبك غاضباً أو قاصداً لعقابه، ولكنه إذا ألتفت إليك ورأى أن العصا هي عصا التأديب التي تخوفه بها ظهر عليه الرعب، أو ظهر عليه الأسف والتوسل، كأنه يقرن بالعقاب معنى غير معنى الضرب وألمه، وهو استياء سيده وأعداده له عدة العقاب.

والخلاصة أن (بيجو) مخلوق مفيد ومخلوق أنيس، وهو أفيد ما يكون في المكتبة التي يبغضها ويستثقل ظلها، لأنني استفدت على يديه فوائد جليلة وأنا أقرأ بعض الكتب الحديثة في علم النفس وعلم الاجتماع.

يقول علم النفس أن التعاطف في التربية والتعليم أنفع وأنجع من تبادل الأفكار؛ وبيجو يؤكد لي ذلك، لأنني أرى منه أن الكلاب أسرع تعلماً من القردة، وهي أرفع في مرتبة التكوين والإدراك؛ وإنما فاقت الكلاب القردة بسرعة التعلم لأنها عاشرت الإنسان طويلا فاتصلت بينه وبينها العاطفة وإن لم يتقارب بينه وبينها تركيب الأعصاب والدماغ.

ويقول علماء الاجتماع من أنصار (الفاشية) إن الغرائز لا تتبدل، وإن الحرب والعدوان غريزة الإنسان، فلا فائدة لوعظ الواعظين بالسلام، ونصح الناصحين بالإخاء والعدل والمساواة. وبيجو يدحض ذلك أيما ادحاض، لأنه قد تحدر من سلالة الذئاب فما زالت به التربية والمصانعة حتى أصبح حارس الأطفال والحملان، وقد كان قبل ذلك آفة كل طفل من بني الإنسان، وكل صغير أو كبير من أبناء الضأن.

ويعد (بيجو) بحق من أحسن الشراح للعالم الروسي العظيم (بافلوف) صاحب التجارب المشهورة في أخوان بيجو من الكلاب الروسية. . . فأنه جرب أن الكلب يسيل لعابه إذا شاهد الطعام، فقرن بين تحضير الطعام له ودق الجرس على مقربة منه، فإذا بفمه يتحلب كذلك كلما دق الجرس ولو لم تصحبه رؤية الطعام، فبنى على ذلك مذهبه في مقارنات العواطف ومصاحبات الشعور وظواهره الجسدية، وجاء علماء النفس والتربية فاستفادوا من ذلك فوائد شتى في علاج الخوف والجشع والعادات الذميمة التي يصعب علاجها في بعض الأطفال، فجعلوا يقرنون الشيء المخيف بالشيء المحبوب ليعودوا الطفل أن يسكن إليه ولا يخشاه، ويقرنون الشيء المرذول الذي يحبه الطفل بالشيء المزعج الذي يصده عنه وينفره من إتيانه، ليقلع عن ذميم الخلال بداهة وعفواً بغير أمر ولا إلحاح.

بيجو خير مفسر لهذا المذهب النافع الذي كان الفضل الأول فيه لواحد من أبناء جنسه، فقد عهدته في منزله الأول وليس أبغض إليه من السلسة والطوق، لأنهم كانوا يقيدونه بهما في حديقة الدار كلما أضجرهم بعبثه وفضوله، فلما جاء عندي وليس للمنزل حديقة واسعة أطلقه فيها أصبحت السلسة والطوق من أحب الأشياء إليه وادعاهما إلى طربه وابتهاجه، لأنه تعود كلما ربط بالسلسة والطوق أن يخرج مع الخادم لغشيان الطريق وقضاء ساعته المنذورة للمرح والرياضة في الخلاء!

ولبيجو فنون أخرى يشارك في تفسيرها وتفهيمها، وفضائل شتى يتبرع بهداياها ومزاياها،

وإن في بعض هذا لما هو حسبنا من تقدير للأستاذ بيجو والصديق بيجو والزائر الكريم بيجو. . . الذي نخشى أن نسطو عليه، لفرط ما نستفيد منه ونأنس إليه.

عباس محمود العقاد

في أي عصر تعيش مصر؟

للدكتور محمد البهي قرقر

لكل عصر من عصور التاريخ التي حصل فيها انقلاب تطوري للشعوب والعقل الإنساني على العموم، طابع خاص يتميز به عن غيره. ومن أهم تلك العصور التي كان لها حدث تاريخي عظيم في ذلك الانقلاب وخصوصاً في نشأة الدول وتطور النظم الحكومية عصر القرون الوسطى والعصر الحديث.

فالاستبداد أي قيام طائفة بعينها بالحكم في الرعية وادعائها أنها وحدها هي التي تصلح للحكومة والمختارة للسيادة - ظاهرة من الظواهر التي تكون طابع عصر القرون الوسطى. فهذه الطائفة كانت ممثلة في رجال الكنيسة، وكان مصدر اختيارها على حسب زعمها هو الله، وحكومتها تعرف في التاريخ السياسي بالـ

وهنالك ظاهرة أخرى لا تقل عن سابقتها شأناً في تكوين هذا الطابع، وهي ظاهرة التمسك بالنصوص القانونية والجمود في تنفيذها ولو كان في ذلك التضحية بالمصالح الحيوية للرعية وعدم التمشي مع ما تتطلبه العدالة العامة التي هي الغرض المقصود من أي قانون وضعي أو مصبوغ بالصبغة الدينية، وهذه الظاهرة تعرف في تاريخ التطور العقلي بالـ

وكون تلك النصوص في هذا الوقت كانت لها صبغة دينية لا يغير من قيمة هذه الظاهرة ولا من كنهها وهي التمسك بالنصوص القانونية من حيث هي نصوص، كما أن كون الطائفة الحاكمة كانت من القساوسة وأرباب الكنيسة لا يبدل من حقيقة الظاهرة الأولى وهي أن الحكم كان استبداديا، إذ أتصاف الطائفة التي حكمت والنصوص القانونية التي سادت في هذا العصر بالوصف الديني لا يدل إلا على مصدر حكم السلطة التنفيذية، وإلا على مصدر التشريع، كما أن الوصف بالديمقراطية في العصر الحديث لا يعين أكثر من أن مصدر الأمرين جميعاً هو الأمة. أما كون القانون في ذاته أو الحكومة في نفسها عادلة أو غير عادلة فليس بضروري أن يكون مرتبطاً ارتباطاً تاماً بالمصدر، وإنما هو شيء آخر سبيل معرفته الناحية العملية في الحياة الإنسانية، وكونه طبق مصالح الأغلبية من الرعية أو ليس على وفقها. فقد يكون مصدر الحكم جمعياً، وهو الأمة مثلا في الحكم الديمقراطي والذي هو مظنة العدل، ومع ذلك لا يكون طبق مصلحة السواد الأعظم من

الشعب؛ وقد يكون فردياً كما في الحكومة الاستبدادية والتي هي مظنة الجور، وبالرغم من هذا يكون وفق ما تتطلبه المصلحة العامة في الأمة، إذ الواقع إنه في الحكم الديمقراطي قد لا تمثل الحكومة في أسلوب الحكم رأي الأكثرية وإنما تمثل قوة الزعيم الشخصية التي تمكنه من الاستيلاء على نفوس الأغلبية، أو الضعف النفسي للأغلبية التي يجعل قيادها سهلا والتحكم فيها أمراً هيناً.

وسواء اعتمدت تلك الطائفة حقاً في حكومتها وفي تعلقها بالنصوص القانونية على المبادئ الصحيحة للدين المسيحي أم على تعاليم الكنيسة أي تعاليم تلك الهيئة التي تمكنت باسم الدين وهو هو دائماً الوسيلة القوية في تملك الشعور الإنساني، من سيادة أرستقراطية دامت مدة طويلة، سواء أكان هذا أو ذاك فذلك بحث أخر خارج عما أريده هنا.

وهناك أيضاً ظاهرة ثالثة كانت أيضاً من مكونات طابع عصر القرون الوسطى، وهي اتجاه التعليم نحو الناحية التي كانت تقصد إلى الإنسانية المحضة ? وربما نشأت هذه الظاهرة من تلون الحكم والنصوص القانونية بلون ديني في ذلك الوقت، لأن الدين لا يعرف جنساً من البشر بعينه ولا يقصد إلى تهذيب أمة لكونها أمة مخصوصة، وإنما لكونها جماعة إنسانية، ولعلها كانت نتيجة لرغبة تحقيق الفكرة الإمبراطورية للكنيسة. وتحقيق مثل هذه الفكرة يتأثر تأثراً سلبياً بالدعاية لمبدأ التعليم القومي.

فالأمة الإنكليزية مثلاً في العصر الحديث - وكذا كل أمة لها سياسة استعمارية عالمية - تعلم الناشئة فيها سياسة الحكم الإمبراطوري والعمل لأداء (رسالة) إنجلترا في الإمبراطورية الإنكليزية على يد رجال الشعب الإنكليزي وحدهم، وهي تربية قومية محضة، ولكنها في الوقت نفسه تعلن خارج بلادها وفي حدود إمبراطوريتها تأييد التعليم الدولي وأن الغاية منه بلوغ الكمال في الإنسانية، لأن ذلك من الوسائل السلمية لضمان بقاء الاستعمار وضغط الشعور القومي في البلاد الخاضعة لها من طريق ظاهرة المحبة والإخلاص.

أما القانون الخلقي لهذا العصر فكان العمل للسلام الإنساني والاعتراف لكل من القوي والضعيف والمفكر والأبله وغير هؤلاء من نوعي الإنسان بالتمتع بالحياة كاملة على حد سواء. وربما كان ذلك نظرياً فقط لأن حوادث التعذيب التي تنسب إلى الجهة العليا يومئذ

أي إلى الكنيسة ضد العلماء يصح أن تكون دليلاً على أن السلام الذي كان يعترف به كمبدأ خلقي كان يقصد به عدم إثارة أي نزاع ضد الطائفة الحاكمة وهي الطائفة المنتخبة من الله والموكلة بأمره في الخلق.

وهكذا اليوم مثلاً دعوة السلام التي تقرر كمبدأ سياسي دولي والتي تذيعها جمعية عصبة الأمم في كل يوم وكل مناسبة ليست إلا أمراً نظرياً يقصد منه ترك القوي يتمتع بسيادته على الأمم الضعيفة في أكبر قسط من الراحة وهناءة البال دون أن تزعجه مطالبها القومية ورغبتها في الاستقلال بالسيادة.

والعصر الحاضر يتمتع بطابع مخصوص تنم عنه جملة ظواهر تكاد تكون على الضد من الظواهر السابقة.

فالديمقراطية، أي كون الشعب هو الذي يباشر حكم نفسه بالأسلوب الذي يختاره: بالأسلوب البرلماني أو الشيوعي أو الفاشي تكون جزءاً كبيراً من هذا الطابع.

كذلك سياسة الواقع ? ومراعاة المصالح القومية ظاهرة أخرى لهذا العصر. وقد تكون هي وحدها محور المشاكل الدولية اليوم، والسبب الرئيسي في شل عصبة الأمم وإظهارها بالمظهر الخيالي الذي يتضاءل أمام الحقيقة، فضلا عن أنها منذ خلقت لم تكن إلا حلماً لذيذاً للأمم الضعيفة، وستاراً ولكنه شفاف، يكشف دائماً عن مقاصد القوى وسياسته ذات الوجهين.

ولعل من سياسة الواقع واتباعها رفض نظرية التعليم الدولي وبناءه على الأسس القومية وتوجيه نحو الصالح الوطني، واستبدال الغرض (الوطني) بالآخر الإنساني. وهذه ظاهرة أخرى توضح طابع هذا العصر.

أما قاعدته الخلقية فهي تحقيق مبدأ تنازع البقاء والاعتراف بأن الصالح للحياة هو القوي والأصلح المنتج. ولعل الإيمان بهذه القضية الخلقية نتيجة للشعور الوطني الذي ساد الأمم والدويلات، وتمكن من نفوس الجماعات البشرية المختلفة في الجنس

والعادات اللغة. فإحساس كل أمة بوجوب استقلالها وخضوعها لسيادتها الذاتية فحسب أذكى قوة النضال فيها وحفظها من التوزع داخل الأمة في مكافحة الأحزاب السياسية الوطنية بعضها بعضاً ثم صوبها نحو الخارج: أي أن كل أمة وجهت قوة الكفاح نحو الأمم الأخرى دفعاً لما عساه
أن يحدث من خطر يذهب بسيادتها الذاتية. ومن النتائج الضرورية للكفاح بقاء القوي واستمرار تمتعه بالحياة. وهو حادث طبيعي؛ غير أنه أخذ في العصر الحديث صفة خلقية ونال استحساناً عقلياً وتأييداً عملياً، وهذا هو الذي جعل تلك القضية الخلقية من مميزات هذا العصر.
أما الدعوة إلى السلام العالمي الذي ينادي به نظام جنيف، والذي ربما يتنافى في الظاهر مع إقرار مبدأ تنازع البقاء إقراراً خلقيا، فهي دعوة مدخولة وأقرب إلى الخديعة منها إلى نداء إنساني عام يرجى من ورائه سعادة الجماعة البشرية، لأن القائم بها يفهم من السلام العالمي ترك النائم في أحلامه واستسلام الضعيف لضعفه واستمرار المستعمر في اذلاله، بينما هو يمثل لديهم جميعاً دور الحكم الذي اختير للفصل من خالق العالم.
تلك مظاهر العصرين ومنها يتكون طابعهما. فإذا نظرنا الآن إلى مصر، إلى مركز النص القانوني وقيمته فيها، وإلى نظامها الحكومي، وإلى المبدأ الخلقي للسياسة العملية فيها، وأخيراً إلى مبدأ التعليم واتجاهه، إذا نظرنا إلى كل هذا فهل يمكننا أن نظفر بحكم قطعي على طابع الحياة فيها؟ وهل يتهيأ لنا بصفة حاسمة أن نقول إن مصر تعيش في وقتنا الحاضر، أو في عصر القرون الوسطى، أو أنها لا تعيش في كليهما؟ وإذن في أي عصر تعيش هي؟
لنسترجع هذه الظواهر واحدة واحدة ونستعرضها في مصر حتى يكون الحكم نتيجة صحيحة لمقدماته.
أليست الـ والمبالغة في تقديس القانون من حيث هو (نص) قانوني فقط هي التي تحمل على أن يقوم برياسة الوظائف الفنية الكبرى التي تحتاج إلى تخصص وخبرة تامة في الفن كوظائف الصحة والتجارة والاقتصاد والمعارف. . . رجالُ كل مؤهلاتهم أنهم درسوا القانون الجنائي أو القانون المدني أو الدولي مثلاً؟ أليس شأن هؤلاء كشأن القساوسة في العصور الوسطى الذين ولوا الوظائف المدنية الفنية وليس لهم مؤهلات إلا أنهم من رجال الكنيسة ومدرسة القانون الديني؟
لماذا هذا الظلم وهذا الإجحاف الذي يصيب الفلاح سنوات وسنوات بسبب قانون تحريم تعديل ضريبة الأطيان قبل مضي ثلاثين سنة على وضعها أو تعديلها؟ أهذا شيء آخر غير
التمسك بالنص القانوني وإن ذهبت مصالح الشعب الحيوية ضحية ونفذ الظلم في صورة (مشروعة) في صورة قانون؟
لماذا تترك (العقبة القانونية) تتحكم في إنجاز مشروع مجلس المعارف الأعلى وهو المجلس الفني في أمور التعليم وفي سياسية البلد الثقافية سنوات عدة ولو سادت مع ذلك الفوضى في تعديل برامج التعليم وذهب وقت الرئيس، الرجل (القانوني) الذي يجب أن يكون وقته خالصاً لمصالح الأمة في دراسة تكميلية فنية شخصية أي دراسة شئون التربية التي لا تغنيه عنها شيئاً دراسته القانونية؟ أهذا أمر آخر غير التمسك بالنصوص القانونية من حيث هي نصوص فقط؟
لماذا يضحي بالكفايات الشخصية في العمل الحكومي؟ ولماذا يسود هذا القانون البيروقراطي قانون الوظائف الأوتوماتيك الذي يجعل المكافأة بالعلاوات على مدة الخدمة لا على نوعها؟ وربما يقال إنه قانون عادل لأنه يحرم طريق الاستثناء! ولكن لم لا تكون قاعدة الاستثناء هي الكفاية بدل المحسوبية؟ ولم لا تجعل الجدارة الشخصية مع مراعاة الأقدمية بعض المراعاة مبدأ للترقية المادية؟ أمن عدل القانون أن يحرم على الناس استخدام مواهبهم الشخصية في المصالح العامة؟ أمن عدله أيضاً أن يكون من جماعات الإنسان آلات أوتوماتيكية، أو من عدله أن يشجع الكسل ويعترف له باستحسان شرعي؟ أم ذلك كله هو التمسك بنص القانون من حيث هو نص فحسب؟
لماذا يقدم رجل عادي إداري - وكذا كل رجل صاحب نبوغ خاص يحمله دائماً على استقلاله في تفكيره ويهيئ له نضوجاً خاصاً في قوة التمييز بين العمل للمصلحة

والطاعة (للنص) القانوني - من كبار رجالات مصر المصلحين الذين هم ثروة الأمة وذخيرتها إلى المحاكمة أمام هيئة عليا بحجة أنه نفذ إصلاحاً قبل تسلمه الرد بالموافقة من الوزارة المسئولة؟ أيقدم مصلح للمحاكمة لأنه حول مستنقعاً كبيراً كاد يقضي على سكان عاصمة إقليم من أهم أقاليم الوجه البحري إلى متنزه عام وشيد عليه معهداً للثقافة العقلية: مكتبة البلدية بدمنهور، وداراً أخرى لتلك الغاية على طراز آخر: سينما البلدية، وملعباً رياضياً لتقوية أجسام الشبيبة ومساعدتها على التمتع بالصحة في الشباب والشيخوخة، كل ذلك في زمن وجيز وبإرادة نافذة؟ أيقدم للمحاكمة لأنه عطف على الفلاح واعترف بنصيبه في الحياة وباشتراكه في معنى الإنسانية وبمركزه في الإنتاج الاقتصادي لمصر فاستعمل معه أسلوب اللين في تحصيل الضرائب التي يدفعها للموظف الحاكم وفي الواقع لخادمه الذي يجب أن يكون تحت تصرفه ولمصلحته في كل لحظة وبكل عناية؟ ما ذنبه إذا كانت الجبهة العليا الحاكمة تجري في تنفيذها للمشروعات على أسلوب بيروقراطي وتتمسك (بنص) قانوني كم ذهبت مصالح حيوية ضحية له. وكم دام إنجاز بعض المشروعات الهامة سنوات طويلة وقد كان لا يستغرق أكثر من أشهر معدودة لو فهمت الروح القانونية. أليست فكرة معاقبة رجال الإصلاح على هذا النحو هي فكرة الكنيسة في القرون الوسطى ضد من كان يريد أن يحكم عقله مرة ما في فهم النصوص القانونية؟

هل يفهم الإنسان شيئاً آخر سوى تحكم النص القانوني وحده إذا عرف أن أحد الكنستبلات المالطيين في بوليس الإسكندرية أعيد للخدمة ثانية بعد عزله وفقاً لنص المعاهدة، لأنه تجنس بالجنسية المصرية؟ إنني أعرف رجلين من الأرمن هنا في هامبورج تجنسا بالجنسية المصرية. أنا لم أدهش من شعور أحدهما يوم قابلني في سنة 1935 في وقت اشتدت فيه حركة الطلبة بالقاهرة للحصول على غرض شريف: للحصول على دستور سنة 1923. إنه لم يستح أن يجرح عاطفتي الوطنية إذ يفاجئني بقوله: ماذا يقصد هؤلاء الطلاب أولاد العرب من حركتهم هذه؟ ألا يستحون من مطالبة بريطانيا بالتخلي عن حكم مصر؟ ألم يفهموا للآن أنها تمدنهم وتحد من همجيتهم؟ لم أدهش حقاً لهذا لأني أعلم أن تجنسه بالجنسية المصرية لا يمكن أن يكيف شعوره بكيفية مصرية مهما حاول ذلك، كما لم أدهش منه يوم قابلني هو بعينه في شهر يونيه الماضي وجعل يردد لي حبه وتعلقه بمصر وفخره أنه يحمل على صدره العلم المصري، لأني أعلم أيضاً أنه يستتر وراء هذا العلم من مطاردة بعض أفراد النازي هنا له، لأن سحنته يهودية ولأنه هو وأخاه من التجار الأجانب الذين هم تحت مراقبة البوليس لسوء سمعتهم الأخلاقية واتباع حيل اليهود الدنيئة في كسب الربح.

ولو سوغ التجنس بالجنسية المصرية لهذا المالطي حقوقاً أخرى سياسية لما كان ينبغي أن يجيز له مباشرة عمل متصل بنظام الأمة الداخلي، ولكنه (النص) القانوني الذي لا يفرق بين مصري ومتمصر له من الطبائع النفسية وطرق التفكير ما يبعده أشد البعد عن طبيعة المصري أو العربي المتمصر مثلا؛ والسلوك العملي للإنسان خاضع لطبائعه النفسية ونوع تفكيره

وغير هذا من الحوادث كثير. فإذا ذهب من يريد الإسلام عن اقتناع لا عن محاولة وإكراه إلى قنصلية مصرية في الخارج ليسجل إسلامه فيها كهيئة رسمية تمثل أمة إسلامية تحتل المكان الأول بين أمم العالم الإسلامي لم يصل إلى غايته، لأن نص القانون المصري يحرم ذلك تجنباً لإشكال دولي بينما يبيح أعمال التبشير الإكراهية في مصر المسلمة التي يقول عنها الأستاذ المراغي إنها سرقة أرواح واغتصاب نفوس عملاً بحرية الأديان. ولكنه النص القانوني.

بجانب هذه الظاهرة: ظاهرة التمسك بالنص القانوني التي هي إحدى ظواهر عصر القرون الوسطى، نجد ظاهرة أخرى من ظواهر العصر الحاضر وهي الظاهرة البرلمانية التي لا تبيح استبداد الفرد أو الطائفة الأرستقراطية بالحكم. ولكن بالرغم من وجود هذا النظام الشكلي فإن أهم مكونات طابع العصر الحاضر لا يجدها الباحث إذا فتش عنها في مصر الحديثة.

فالسياسة العملية السائدة اليوم في مصر ليست سياسة الواقع ومراعاة الصالح

الوطني؛ وغاية التعليم ليست قومية وطنية بل دولية بكل معانيها، إذ أعز أماني مصر الحديثة خدمة (الإنسانية) والعمل على تلاشي الفوارق الطبيعية قبل تكوين أمة مصرية يشعر كل فرد من أفرادها بأن عليه واجباً نحو نفسه ونحو وطنه. كما أن النظرة الخلقية التي تلقى استحساناً عند الطبقة الحاكمة والتي تشبعت بها نفوسهم هي تأييد السلام العالمي الموهوم، والعمل لقضية السلام، والافتخار بالاشتراك في جمعية المحافظة على السلام الدولية التي قضى عليها بالموت منذ خلقت.

فأنا لا أدري إذا كانت مصر تعيش في القرون الوسطى لهذا المظهر السائد اليوم: مظهر التمسك بالنصوص القانونية ولو كان فيه التضحية بالمصالح الحيوية وعدم تحقيق معنى العدالة. ولكن المظهر البرلماني يحول دون الحكم بذلك، لأن مظهر السلطة في ذلك الوقت كان استبدادياً قاصراً على الطبقة المختارة من الله أم إنها تعيش في العصر الحاضر لوجود هذا المظهر الشعبي؟ ولكن سياستها ليست سياسة الواقع ومراعاة المصالح القومية كما أن أسلوبها في التعليم هو الأسلوب الدولي، وقاعدتها الخلقية ليست إقرار مبدأ تنازع البقاء.

أم أنها تعيش في كلا العصرين؟ ولكن محال على أمة فتية رشيدة تسير في طريق التطور الطبيعي أن تجمع حكومتها بين الأضداد. وإذن لا بد أن تكون ظواهر أحد الطابعين خادعة

وأغلب ظني أن مصر لم تدخل بعد في العصر الحاضر صاحب الطابع الوطني؛ ولكنها تقطع الآن الفترة السابقة له، وهي فترة مملوءة بالأخطار الجسيمة التي تمس حيوية الشعب، فترة الحرية الكاذبة التي تطغي على كل ناحية من النواحي العقلية والخلقية وتتجاوز الحدود الطبيعية، فترة الرغبة في التخلص مما يسمى (قديماً) - وخير الوطن في التمسك به - والنزوع إلى الجديد المبهم غير المحدود الذي تلوكه الألسن ولا تفهمه عامة الشعب بل وكثير من خواصها - وهو لهذا خطر - فترة التحرر

فإذا قوي في الأمة شعور التمسك بالوطن وبالقديم؛ وقوي الشعور بالمحافظة على ما كان للأمة والاعتزاز به في أي ناحية، كان ذلك ابتداء الحياة في العصر الحاضر

محمد البهي قرقر

دكتور في الفلسفة وعلم النفس وعضو بعثة الأستاذ محمد عبده.

في تاريخ الجمعيات السرية

طائفة سرية عجيبة تعيش في عصر المدنية بأساليب - 1 همجية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

قامت الجمعيات والطوائف السرية في جميع العصور والمجتمعات وتنوعت مبادئها وغاياتها الدينية والسياسية والاجتماعية، ولعبت مختلف الأدوار في تكوين الآراء والعقائد، وذهبت في الغلو والإغراق كل مذهب، وتركت أثارها في جميع الأمم والمجتمعات التي قامت بها.

ولكن التاريخ لم يسجل صفحاته السرية الحافلة سيرة أغرب وأروع من سيرة جماعة سرية من البشر الهائمين اصطلحوا على التوسل لتحقيق مبادئهم الروحية المزعومة بتشويه الإنسان وتعطيل مهمته الاجتماعية بطريقة بربرية اعتبرت في جميع الأمم والعصور وحشية مثيرة تطاردها الأمم المتمدينة بمنتهى الشدة والصرامة، تلك هي (طائفة المجبوبين) (سكوبتسي) التي قامت في روسيا في أواسط القرن الثامن عشر، ولا تزال قائمة حتى اليوم، والتي تعتبر الجب وسيلة النقاء من الدنس وطريق الخلاص الأبدي من آثام هذه الدنيا.

ولقد عرف التاريخ منذ أقدم العصور أمثلة من هذا النوع اعتبرت فيها هذه الوسيلة الهمجية ضرباً من التضحية السامية التي ترتفع بصاحبها إلى مراتب التقديس، وظهرت بين بعض طوائف الرهبان في أوائل عصور النصرانية، وذاعت حيناً بين رهبان الكنيسة الشرقية، ولكنها كانت دائماً مثار الإنكار من الناحيتين الدينية والإنسانية.

وعرفت معظم العصور والأمم طوائف الخصيان والمجبوبين من العبيد والخدم، وعرفتها المجتمعات الحديثة حتى أواخر القرن الماضي، ولكن طوائف الخصيان كانت تحشد دائماً من الرقيق بسائر أنواع؛ وكان نظام المجتمع منذ فجر التاريخ قائماً على

التفرقة بين طوائف المجتمع، وكان الرق مشروعاً في هاتيك العصور، وكان الرقيق متاعاً مباحاً تجري عليه سائر التصرفات، وكان الخصي أو الجب وسيلة بربرية لأعداد طوائف من الحشم
تمتاز بصفات خاصة تؤهلها لخدمة القصور والبيئات الرفيعة؛ وقد استطاعت طوائف الخصيان أن تشق طريقها إلى السلطة والنفوذ في مواطن كثيرة؛ ولكنها كانت تعتبر دائماً من الناحية الاجتماعية من الطبقات الدنيا، وكان ينظر إليها دائماً في كثير من الرثاء والإشفاق لأنها تعاني حالة اجتماعية منافية للأوضاع الإنسانية الطبيعة.
ولكن المجتمعات المتمدنة تنكر اليوم الرق وتعتبره ضرباً من ضروب الهمجية الذاهبة.
وتعتبر القوانين المحدثة الخصي أو الجب من أشنع الجرائم التي يمكن أن تقع على إنسان، وتعاقب مرتكب الجريمة الشائنة بأقسى العقوبات، بل تعاقبه بالإعدام كالقاتل العمد سواء بسواء.
ومع ذلك ففي قلب أوربا المتمدينة تقوم إلى اليوم تلك الطائفة السرية العجيبة طائفة (سكوبتسي) وشعارها تلك الجريمة المثيرة جريمة الخصي أو الجب كوسيلة إلى السعادة الروحية والخلاص الأبدي.
وترجع الرواية قيام هذه الطائفة السرية إلى أواخر القرن السابع عشر على يد فلاح يدعى دانيلو فليبوف؛ ولكنها عرفت يومئذ بجماعة (أهل الله)، وتزعم الرواية أن دانيلو هذا ألقى ذات يوم جميع الكتب المقدسة في نهر (الفولجا) وقال إنه لا يوجد كتاب يحقق سلام الروح الأبدي سوى الروح القدس ذاته؛ ثم صعد إلى الجبل مع نفر من أنصاره؛ فنزلت عليه سحابة من النور، ونفذ إليه الروح القدس؛ وزعم أنصاره أن الإله قد مثل في شخصه على مثل ما يزعم الدروز بالنسبة لشخص الحاكم بأمر الله.
وتتلخص تعاليم فليبوف فيما يأتي: أن الإله الذي قد بشرت به الأنبياء نزل إلى الأرض لينقذ أرواح البشر؛ وليس ثمة من إله غيره، ولا تعاليم غير تعاليمه؛ وعلى المؤمنين أن يطيعوه؛ وألا يشربوا الخمر، وألا يرتكبوا الزنا، وألا يتزوجوا؛ وعلى من تزوج ألا يقرب زوجته، وعليهم ألا يسرقوا، وأن يحتفظوا بسر تعاليمه، وأن يحب بعضهم بعضاً، وأن يؤمنوا بالروح القدس. وتبنى فليبوف بعد ذلك فلاحاً آخر يدعى سوسلوف وزعم أنه هو ابنه المسيح، واختار سوسلوف له أثنى عشر رسولاً، وتوفي سنة 1714، ودفن في أحد الأديار.
وبعد وفاة سولسوف تمثلت روح المسيح على حد زعمهم في شخص لوبكين وهو جندي
من فرقة الاسترلتزي؛ وعلى يديه انتشر مذهب الطائفة في كثير من الأديار بين الرجال والنساء معاً. ولما استفحل أمره قبض عليه وأعدم سنة 1732 وأخرجت جثته فيما بعد وذر رفاته في الهواء؛ وقبض على كثيرين من أشياعه وحوكموا بتهمة المروق والكفر ونفي كثيرون منهم إلى سيبريا؛ ولكن هذه المطاردة لم تخمد من حماسة أولئك الكفرة المتعصبين فاستمروا يبثون مبادئهم في الخفاء، ويتعاقب في زعامتهم مسيح بعد آخر؛ وكانوا يقيمون شعائرهم سراً في جوف الليل في بعض الضياع أو الأنحاء المهجورة، وفي أواخر القرن الثامن عشر تطورت مبادئ الطائفة وتوسع بعض دعاتها في تفسير تعاليم فليبوف، وقال إن الزواج المحظور هو الزواج الكنسي فقط وأن (الأخ) يستطيع أن يتصل بأخته اتصالاً روحياً؛ ولم يلبث أن ذاع بينهم الاختلاط الجنسي الحر، وكان هذا الاختلاط يتخذ أحياناً صوراً مثيرة، فتعقد جماعتهم بالليل، وتنتهي شعائرهم المزعومة بمناظر مروعة من الفجور والفسق.
وكانت هذه نقطة التحول في مبادئ طائفة (أهل الله): ذلك أن فريقاً من المؤمنين رأى في هذه الحياة الجنسية الشائنة خروجاً على تعاليم فليبوف التي تحتم التزام الفضيلة والعفة، ورأوا في (الجب) خير وسيلة للتخلص من الشهوات والموبقات الآثمة؛ ومن هنا ظهرت طائفة (المجبوبين) (السرية سكوبتسي) واكتشفت السلطات الضحايا الأولى لهذه الدعوة البربرية في سنة 1772في مقاطعة أرومل؛ وظهر من التحقيق الذي أمرت الإمبراطورة كاترين بإجرائه أن الدعاة يزعمون أنهم يرسمون للبشر طريق الخلاص الأبدي، وأنه يجب على المؤمن ألا يذوق الخمر، وألا يعاشر النساء، ويجب على الفتيان والفتيات ألا يتزوجوا، كما يجب على المتزوجين أن يضربوا عن الاتصال الجنسي؛ وظهر أيضاً أن الدعاة استطاعوا أن يؤثروا على كثيرين من

الفلاحين، وأن يحملوهم على قبول الخصي أو الجب المطبق تحقيقاً للعفة والسعادة الأبدية. ولم تستطع السلطات يومئذ أن تظفر بزعيم الطائفة الحقيقي؛ ولكن ظهر فيما بعد أنه فلاح يدعى سلفانوف، وهو فتى في الثلاثين من عمره، هادئ المزاج، كثير التأمل والهيام، عارف بالقراءة والكتابة وهو ما كان يندر في ذلك العصر؛ وكان يبشر بدعوته بعبارات صوفية غامضة، وكان من زعماء (أهل الله) ولكنه راعه من رآه من ذيوع الفسق بين المؤمنين، فبدأ دعوته ضد (السحر) النسوي أصل كل بلاء وإثم، وأخذ يدعو إلى (النقاء المطلق)؛ وهذا النقاء لا يتحقق في رأيه إلا بمجانبة كل بواعث الضعف ولا سيما الإغراء الجنسي، والكبرياء، والأنانية، ولا سبيل إلى تحقيق هذا المثل الأعلى إلا (بقتل الجبة) أو بعبارة أخرى إعدام الأعضاء الجنسية والتخلص من آثامها.

واستطاع سلفانوف أن يحشد حوله ،(سكوبتسي) (هكذا نشأت طائفة المجبوبين) جماعة من التلاميذ والأشياع معظمهم من الفلاحين البسطاء؛ ولم تكشف السلطات أمره إلا في سنة 1775 إذ قبض عليه وجلد وعذب مراراً، ثم نفي إلى سيبريا؛ وقبض على كثيرين من أشياعه المجبوبين، وجلدوا، وحكم عليهم بمختلف العقوبات.

ولكن الدعوة البربرية لم تخمد مع ذلك، فحملها تلاميذ سلفانوف ورفعوه إلى مرتبة التقديس وأسموه (بالمنقذ) وجاوزت الدعوة طبقة الفلاحين إلى الطبقات الأخرى، فانتظم في سلك الطائفة جند وتجار وغيرهم خضعوا جميعاً لهذا التشويه الهمجي؛ وزعموا أخيراً أن سلفانوف هو الإنسان الوحيد الذي مثلت فيه روح المسيح، وأنه سيعود قريباً. أما سلفانوف فلبث يرسف في منفاه في أركوتسك زهاء عشرين عاماً، ثم استطاع الفرار أخيراً ولم تهتد السلطات إلى أثره.

وفي العام الثاني ظهر في قرية بيخوفو على مقربة من موسكو شخص يرتدي أسمالاً بالية، وقد حزم بطنه بسلاسل من الحديد وبدت عليه آثار السقم والورع، فالتف حوله بعض الفلاحين، وكان يصلي بينهم بلغة مجهولة؛ ولم يمض سوى قليل حتى ظهرت معجزاته إذ استطاع أن يشفي أمراه مريضة، وأن يحول الخمر إلى ماء؛ وفي ذات يوم أخذ يتكلم بالروسية وزعم أنه القيصر (بطرس فيدروفتش) ولم يكن هذا الدعي سوى سلفانوف نفسه، رأى في حوادث البلاط الروسي يومئذ منفذاً جديداً لدعوته؛ والقيصر بطرس فيدروفتش أو بطرس الثالث هو زوج الإمبراطورة كاترين، وقد توفي سنة 1762 في ظروف مؤسية غامضة، واتهمت زوجته بتدبير مصرعه لأنهما كانا على خلاف دائم؛ وكان القيصر مصاباً بالضعف الجنسي، وكانت زوجه تبغضه ويبغضها لفجورها؛ ولكنه كان محبوباً من بعض طوائف الشعب لنزعته الحرة وخلاله الرقيقة، وكان من مآثره التي زادت في حبه أن أفرج عن آلاف عديدة من المنفيين لأسباب دينية؛ فلما توفي على هذا النحو الغامض ذاعت حول وفاته أقاويل وروايات كثيرة، وزعم كثيرون أنه لا يزال على قيد الحياة، وقام أكثر من دعي يدعي بأنه القيصر بطرس، ومن أشهر هؤلاء بوجاتشيف زعيم القوزاق الذي أثار حيناً في مقاطعة الأورال، ثم هزم وأعدم. واتخذت هذه الأسطورة على يد سلفانوف وأشياعه صبغة جديدة، خلاصتها أن المسيح تمثل لآخر مرة في شخص القيصر بطرس الثالث، وان أمه العذراء اليزابيث ولدته بمعجزة ثم تخلت عن العرش لوصيفة لها تشبهها كل الشبه، وذهبت تعيش بين (أهل الله) في مقاطعة أوريل باسم الفلاحة آكولينا إيفانوفا. ولما كبر بطرس وزوج بالإمبراطورة كاترين اكتشفت زوجه أن به عنة فاعتزمت قتله والاستيلاء على العرش من بعده؛ ولكن بطرس علم بأمر هذه المؤامرة، فترك العرش وغادر بطرسبرج (لكي يقاسي مع أهل الله) وقتل مكانه مجبوب يشبه كل الشبه؛ واختفى القيصر حيناً ثم قبض عليه، وعذب كما عذب المسيح، ونفي مدى عشرين عاماً في مكان سحيق، ولكنه استطاع أن يفر، وأن يعود متشحاً بكل مجده وعلاه.

تلك هي الأسطورة التي مزجها سلفانوف بشخصه، وحاول أن يستغلها من الناحيتين السياسية والدينية؛ ولكنه لم يلبث أن وقع في يد السلطات مرة أخرى، فقبض عليه في موسكو سنة 1797، وزج إلى دار المجانين في بطرسبرج؛ وأراد القيصر بول الأول (وهو ابن القيصر بطرس الثالث وكاترين) أن يرى ذلك الدعي الذي يزعم أنه أبوه، فاستدعى سلفانوف إليه وجرت بينهما محادثة تنبأ فيها سلفانوف للقيصر بموت سريع

عنيف. ولبث الدعي في سجنه طيلة حكم بول الأول، وقبض أيضاً على تلميذه ورسوله (شيلوف) وسجن حتى موته وغدا قبره مزاراً يحج إليه المجبوبون من سائر الأنحاء.
وفي عهد القيصر اسكندر الأول تنفست طائفة المجبوبين الصعداء، لأن القيصر الجديد كان ذهناً حراً في معنى من المعاني؛ وفي عهده صدرت عدة مراسيم تحريرية، ومنها مرسوم بالكف عن مطاردة المجبوبين (لأنهم بفعلهم الذميم قد عاقبوا أنفسهم بأنفسهم عقاباً كافياً) وعلى ذلك أطلق سراح المعتقلين منهم، وانتدبت لجنة خاصة لبحث جميع المسائل المتعلقة بالطائفة، وأفرج أخيراً عن سلفانوف بتدخل سيد بولوني من ذوي النفوذ يدعى ألكسي اليانسكي، وكان من المتصوفين الهائمين، فأعتنق مبادئ الطائفة وكان أول أعضائها من خاصة المثقفين، وقد لعب فيما بعد دوراً عظيماً في تطورها وتقدمها.
وسنرى فيما يلي كيف عاشت هذه الطائفة السرية العجيبة خلال القرن التاسع عشر عصر العلم والنور، وكيف أنها لا تزال قائمة حتى يومنا في ظل النظام البلشفي، وفي قلب أوربا المتمدينة.
(للبحث بقية)
فينا في أوائل أكتوبر
محمد عبد الله عنان
الدمام
لأستاذ جليل
اللعَس سواد مستحسن يعلو شفة المرأة أو سواد في حمرة
قال (التاج): لعس كفرح لعسا، والنعت ألعس وهي لعساء من فتية ونسوة لُعس: في شفاهم - وشفاهن - سواد
وفي اللعس جمع اللعساء يقول الزمخشري: (إذا رأيت أبكاراً لعساً، وعجائز قُعسا فقل: لعاً وتعسا!!) قل: لعاً للأبكار اللعس، وتعساً للعجائز القعس.
نعم ما يوصينا به إمام عظيم في اللغة والأدب ونحلة المعتزلة! الحق أن شيخنا الزمخشري لا يستحي. . .
فاللعس هو صبغ الله، صباغ الله، (صبغة الله، ومن أحسن من الله صبغة؟)
ومن هوى كل من ليست مُموِّهةً ... تركتُ لون مشيبي غير مخضوب
وإذا أحب محب أن يرشف ريق رشوف أو يرف شفتيها، أو يترضبها، فإنه يرجع بخير، إذ ما في صبغة الله إلا الطهر، وإن سمى حاسد أو عذول هذا الرضاب بغير أسمه فقال: هذا بصاق! فليس ثمة ضير.
تقول:
هذا مجاج النحل تمدحه ... وإن ذممت تقل: قيء الزنابير
وقد رفضت المترقشات المتقينات المتنمصات المتشمات تلك الصبغة، صبغة الله، وركضن إلى صبغة العطار والصيدلاني فكان تبديل خلق الله وتصويره. وجاء من ذلك - من تلك الدواهي - هذا الوشم في الجسد واليد والوجه واللثة والشفة. وقد (لعن الله الواشمة والمستوشمة) كما (لعن الله النامصة والمتنمصة) لكن الخبيثات ما يبالين لعناً ولا ذماً، ولا يحسبن للأخرى حسابا
كان وشم الشفاه في القديم، وجاءت اليوم هذه (الحمرة) فيها، هذا (الموت الأحمر) وأمسى (التحمير) دين كل شابة وتابة. . .
وكأن أولئك الحور العين الحسان الكواعب وهن مقلات مدلات بجمالهن، ذوات أبهة، مزدهيات - فكأنهن والغات في دماء صرعاهن، صرعى عيونهن!
وكأن شفة الرجل بعد تلك الرشفات خطم ضار في الفلا مفترس.
إنه لما عمت وطمت هذه البلية التي (ليس لها من دون كاشفة) وكنا من خدام هذه اللغة رأينا أن يوضع لها لفظة فكانت كلمة (الدمام) المسماة بالفرنسية فتقول - يا زير النساء وطلبها إن شئت أن تقول - رأيت في قهوة أو ملهى أو معهر في (شارع عماد الدين).
شارع عماد الدين! هذا شارع هاري الدين، هائر الدين، موهي الدين. . .
فتقول: رأيت فتاة مثل الدمية أو رأيت دمية، أمامها قشوتها أو عتيدها، وهي تدم شفتها بالدمام، وهو دمي في الشفة!

!!ليس دمي في جيدها؛ إن دمي في الشفة
دمُك أنت - زيرَ الغواني - لا دمي فإنه
لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي ... شيئاً تتيمه عين ولا جيد
(ن)

بين العلم والأدب

للأستاذ عبد الكريم الناصري

قرأت في العدد (219) من (الرسالة) الغراء مقالة للأستاذ علي الطنطاوي يقارن فيها بين العلم والأدب، ويفاضل بينهما، ويقضي في أمرهما؛ فوجدته (لم يدع مذمة إلا ألحقها) بالعلم، (ولم يترك مزية إلا نحلها) الأدب، كأنما (الأمر قد انتهى والقضية قد فصلت) وحكم للأدب على العلم (فلم أدر متى كانت هذه المنافرة، وأين كانت هذه المفاخرة، ومن هو الذي جلس في منصة القضاء، ومن الذي زعم أنه وكيل العلم حتى أخزاه الله على يديه، وأذله به؟)

والذي لاحظته على الأستاذ وعجبت له أن يتوسع في مفهوم الأدب توسعاً كثيراً، بينما يبخل بذلك على العلم ويضيق معناه كل التضييق؛ فهو يقول: (إن الأدب ضرورة للبشر ضرورة الهواء) (لأن البشرية لم تعش ساعة واحدة من غير أدب) ولكنها (عاشت قروناً طويلة من غير علم، وما هو إلا طفل ولد أمس ولا يزال يحبو حبواً). . . وذلك لأن الأدب بمعناه الواسع يشمل (كل ما كان وصفاً للجمال وتعبيراً عنه) فكل (من يعني بالجمال ويتذوقه، بل كل من يذكر الماضي ويحلم بالمستقبل ويحس باللذة والألم واليأس والأمل يكون أديباً، ويكون الأدب - بهذا المعنى - مرادفاً للإنسانية، فمن لم يكن أديباً لم يكن إنساناً). . . أما العلم فهو هذا العلم المنظم الطرائق المقرر الأصول، هذا العلم الذي ولد أمس، علم نيوتن وداروين وإينشتين!!

كلا يا سيدي، ما هكذا تقام الموازنات، ولا هكذا تعقد المفاضلات. فإذا كنت قد توسعت في معنى الأدب كل هذا التوسع، حتى جعلته مجرد الإحساس والشعور، فمن العدل والإنصاف أن تتوسع في معنى العلم أيضاً، فتجعله مجرد التفكير والمحاكمة العقلية، فبغير ذلك لا تكون لموازنتك ولا لمفاضلتك قيمة أو معنى، لأن الأصل في المقارنة بين شيئين أن يكون أساسهما مشتركا. . .

فالعلم بمعناه الواسع قديم قدم العقل، لا (طفل ولد أمس) والمحاكمة العقلية - أي العلم - هي الفارق بيننا وبين العجماوات، فيكون العلم - بهذا المعنى - مرادفاً للإنسانية، فمن لم يكن عالماً لم يكن إنساناً. . . أليس كذلك؟

كما يقول الكاتب: (كلمة الحب، لمكان (إن أول كلمة قالها الرجل الأول للمرأة الأولى) الغريزة من نفسه). . .

وهذا صحيح، فإن الأدب - في أعمق معانيه وأصدقها - تعبير عن الغرائز الحيوانية والبشرية؛ وقد بدأ الأدب منذ قال (الأديب الأول) ما قال (للأديبة الأولى) وكان من نتيجة اشتغالهما بالأدب واهتمامهما به، أن أخرجا مما كانا فيه، وهبطا إلى هذه الدنيا - مما يدل على أن شؤم الأدب على أصحابه بدأ منذ ذلك العهد - ثم أستمر بعدهما القتل والتخريب واتباع الغرائز وإطاعة الشهوات، وأستمر الأدب يصور ذلك كله، ويعبر عنه وينبه إليه، ويقويه في الأذهان، ويحييه في النفوس، ولولا العلم والعقل وسنه القوانين والأنظمة للجماعات، ووقفه الأفراد عند حدهم، وحده من شرتهم، لعم البلاء وعظم الخطب، ولفسدت الأرض ومن عليها!

يقول الأستاذ علي: (إن أكثر البشر استغنوا عن العلم ولم يفكروا تفكيراً علمياً) بينما (لم يستغن أحد عن الأدب ولم يعش إلا به)

وهو في هذا القول أيضاً يقصد بالأدب المعنى الواسع الذي وضعه له، ويقصد بالعلم المعنى الضيق الذي ارتضاه له. . . ولقد بينا خطأ هذا القول، وبينا أن (الفصيلة البشرية) تتميز بالمحاكمة العقلية عن بقية الحيوانات، وأن من غير الممكن أن تتصور إنساناً بغيرها، أي بغير علم.

فإذا أردنا أن نجد، أي نقصد بالعلم والأدب معنيهما العاديين، وجدنا أن كثيراً جداً من الناس يستغنون عن الأدب، وليس لديهم خيال الأدباء، ولا سمو مشاعرهم ومثلهم، بينما نجد سوادهم الأعظم لا يستغنون عن العلم، ونتائجه، ومن وسائل المواصلات، إلى وسائل التسلية والترويح عن النفس، إلى غير ذلك مما لا يعد ولا يحصر؛ كما أننا

نجد هذا السواد الأعظم يفكرون تفكيراً علمياً. أجل، يفكرون كما يفكر ميليكان وجيمس جينس واينشتين. . . فان منطق العامة ومنطق العلماء واحد في (النوع) وإنما الاختلاف في (الدرجة). وهذه الحقيقة تخفي على الكثيرين، وإن كانت من بسائط علم المنطق الحديث، بل إن منطق العلماء موجود عند البشر جميعاً، لأن (الاستقراء) و (الاستنتاج) هما الميزتان اللتان تميزان العقل البشري عن سائر الحيوانات. والغسالة، كما يقول هكسلي، تستخدم في اكتشاف أن البقعة التي على الثوب هي بقعة حبر، عين المنطق الذي استخدم في اكتشاف السيار نبتيون.

أما سؤال الكاتب: (هل بلغ أحداً أن أديباً نظر في معادلة جبرية، أو قانون من قوانين الفيزياء، أو أحس الحاجة إلى النظر فيها؟) فانه غريب حقاً. وما كنت أنتظره مطلقاً من الأستاذ الطنطاوي. . . فهل بلغك يا أخي أن بول فاليري، أمير شعراء فرنسا، كان عالماً رياضياً قبل أن يكون شاعراً، وأن جوتيه، أعظم شعراء الدنيا بعد شكسبير، كان عالماً بيولوجياً قبل أن يكون شاعراً، وأن هـ. جـ. ولز، عميد أدباء الإنجليز، كان أستاذاً في الجيلوجيا، وأن أشتغاله بهذا العلم لا يزال إلى اليوم يطبع أدبه وتكهناته وتنبؤاته؟؟ ماذا تريد بعد هؤلاء الجبابرة من أمثلة؟؟

الأدب لا يستطيع بحال من الأحوال أن يستقل عن العلم، والقول باستقلاله خطأ شائع يجب تصحيحه. . .

يقول الشاعر العظيم وردزورث: (إن الأشياء التي يستطيع الشاعر أن يستمد منها ويستوحيها موجودة في كل مكان) وإن (عيني الإنسان وسائر حواسه وإن كانت لا ريب خير مرشد له وهاد، فإنه يسير في كل طريق ويتبع كل جو يستفز مشاعره ويستثير أخيلته، ويستطيع أن يحرك فيه أجنحته)

ويقول وليم هنري هدسن المحاضر السابق بجامعة لندن: (نستطيع أن نقول إن الشاعر العظيم حقاً هو مفكر عظيم في الوقت نفسه. وهو لذلك لا بد أن يهتم، ويتأثر باكتشافات العلم المتفرقة وبقضاياه ومساجلاته، أو على الأقل بالحركات الفكرية التي تثيرها هذه. إن معارف العصر الجديدة، وكل ما تحدثه من التغيرات في معتقدات الناس الموروثة وآرائهم التقليدية في النظام الكوني وعلاقاتهم به، وكل ما تقدمه لهم وتضعه أمامهم من المشاكل والمسائل، لا محالة تسحره جوانبها العاطفية والروحية سحراً لا يقاوم؛ ثم أن ما يتراءى وراءها من خير للبشرية ومطامحها وآمالها أو من شرور، لا بد أن يسترعي التفاته ويستدعي اهتمامه. وعلى فرض أنه لا يتخذ موضوعات تأمله المباشر، فإنها تدخل إلى شعره من مسالك خفية لا تعد ولا تحصى، فتلونه بلونها وتطبعه بطابعها، كما تدخل في تفكير عصره الجاري فتلونه بلونها وتطبعه بطابعها إذن فبعيد كل البعد عن الحق أن الشاعر لا صلة له بالعلم ومعارفه، بل هو على الضد من ذلك، لا يستطيع مطلقاً أن

يتجاهل نتائجها الكبيرة تجاهلاً تاماً، وإذا كان من ذوي العقول الفلسفية فإنه يجد الاطلاع عليها ومحاربتها فيما يتصل منها بكل مسألة ومصلحة تعود إلى حياة الإنسان العليا واجباً عليه وفرضاً). . . (إن استنباط العواطف والأحاسيس من المعرفة العلمية - عملية بطيئة حتما؛ ولكن من مقاييس عظمة الشاعر كمفكر أن يقدر على أن يرى إمكان الاستنباط وعلى أن يساعد - بإدراكه المعاني الروحية للحقائق العلمية - على تتميمها وتكميلها)

ويدع الكاتب تفريقه (الفلسفي)، ويفاضل بين العلم والأدب من الناحية النفسية. فيقول: (إننا نعلم أن العلم يبحث عن الحقيقة فهو يستند إلى العقل، أما الأدب فيتكئ على الخيال، ثم ينظر في العقل والخيال: أيهما أعم في البشر وأظهر؟. . فيرى أنه الخيال (من غير شك) بل إن هذا الخيال ليمتد إلى صميم الحياة العلمية، فالعلم إذن مدين للخيال أي للأدب)

ولكن من المبادئ الأولية في الأدب أن (التفكير) عنصر من عناصره الرئيسية الأربعة. فالأدب إذن يستند إلى العقل أيضاً. ومن ذا الذي يستطيع أن يزعم أن مسرحية (أهل الكهف) كلها خيال؟!!

فإذا كان العلم مديناً للخيال أي الأدب، فالأدب مدين للعقل أي للعلم. والنتيجة أن ليس هنالك تفاضل، ولا دائن ومدين. . . أليس كذلك؟!

أما أن الخيال أعم في البشر من العقل وأظهر، فغير صحيح والأدلة والأمثلة التي جاء بها الأستاذ لا تثبت أن من الناس من يملكون خيالاً ولا يملكون عقلاً، ليقال إن الخيال أعم من العقل، ولا أثبتت أن الذين يملكون خيالاً واسعاً أكثر من الذين يملكون عقلاً قوياً، ليقال إن الخيال أبرز في البشرية وأظهر نعم (ليس في الناس من لا يقدر على استعمال الخيال). ولكن ليس في الناس من لا يقدر على استعمال العقل، وإذا كانت عقول بعض الناس (محدودة القوى) ومحاكاتهم العقلية ضعيفة، فإن خيال الكثيرين محدود القوى ضيق المجال أيضاً. وإذا لم يكن في الناس من يعجز عن (تخيل حرارة النار وامتداد ألسنة اللهب) فليس فيهم من لا يدرك أن اقتحام اللهب، والدخول في وسط النار، يحرق جسمه ويقضي عليه! وقولك إن كثيراً من الناس (لا يقدرون على استعمال العقل على وجهه) لا معنى له، لأن جميع الناس يستطيعون أن يستقروا ويستنتجوا، وإنما الاختلاف كما سبق القول في الدرجة والمقدار

ولا أريد ههنا أن أبحث عن الصلة بين (العقل) والخيال؛ لأن المقام لا يتسع لذلك؛ ولأني أريد أن أساير الأستاذ في فروضه ونظرياته حتى يكون الرد. . . أوجز. ولكن لا مانع من أن أساله هذا السؤال: ما السر في قلة أدب القصص والخيال في الشرق عامة بالقياس إلى أدب المقالة والتفكير؟

ثم يقول الأستاذ علي: (أنا إلى هنا في القول بأن الحقيقة في صف العلم والجمال مع الأدب) (والواقع غير ذاك. ذلك أن العلم في تبدل مستمر وتغير دائم). (في حين أن الأدب باق في منزلته، ثابت في مكانته) (ولا يعتريه تغيير ولا تبديل). فأين هي الحقيقة؟ وأي الشيئين هو الثابت؟ وأيهما المتحول؟

كلا هذين الرأيين مخطئان، ولننظر أولا في الرأي الثاني: فالأدب متغير متبدل دائماً. لأن الأدب يصدر عن الشخصية ويخاطب الشخصية، وبما أن شخصيات الناس تختلف، فكل شخص يفهم من قصيدة بعينها ما لا يفهمه شخص آخر؛ ومعنى ذلك أن الحقائق العاطفية والمعاني الروحية التي أراد الشاعر أن يوصلها إلى نفس القارئ قد ضاعت وزالت، وبتعبير أدق، قد تحولت إلى ملايين من الحقائق والمعاني. وهذا هو السبب في اختلاف النقاد على الأثر الأدبي الواحد. بل إن الشاعر نفسه قد يعجز بعد مضي زمن قصير أو طويل على استعادة معانيه العاطفية التي أودعها قصيدته. وإلى جانب هذه المعاني المتبدلة المتحولة تجد ما يحتويه (الكتاب العلمي الذي ألف منذ خمسين سنة) هي نفس حقائق الطبيعة، والذي لا (نقبله) منه اليوم هو نظرياته (كما سترى بعد قليل).

فإن قلت: إن المهم ههنا أني أقرأ اليوم الديوان الذي نظم منذ ألف سنة ولا أقبل الكتاب العلمي الذي كتب منذ خمسين سنة لأن ما في الأول من صفات القوة والجمال وسمو الموضوع هو الذي يبقيه ويخلده. كما أن نسخ النظريات و (القوانين) الجديدة لتلك التي سبقتها هو الذي يدعوني لرفض الثاني. قلت: هذه النظرة إلى بقاء الأدب أقبلها على تعارضها مع الحقيقة التي ذكرتها على تغيره، لأن غايتي من هذا المقال أن أدفع التهم التي ألصقتها بالعلم لا أن أبحث في الأدب أو أفاضل بينه وبين العلم فلننظر الآن في تغير العلم الدائم، والكتاب الذي (لا يقبله طالب ثانوي) . . .

يتلخص عمل العلم في أنه يجمع مقداراً من الحقائق، ثم يحاول أن يضع لها قاعدة عامة تربطها وتفسرها جميعاً، على أن تنطبق كل ما يكشف من الحقائق بعد وضعها. فإذا أكتشف حقيقة أو أكثر لا تتفق معها عدل عنها إلى قاعدة أخرى، أعم وأشمل، وهكذا (يتدرج) العلم من قاعدة إلى قاعدة أوسع، أي تنطوي على حقائق أكثر. إن العلم لا يرى في هذه القواعد والنظريات والقوانين أكثر من (فروض). ولكن بهذه الفروض وحدها يستطيع أن يكشف الحقائق، لأن كل فرض ينبه إلى حقائق جديدة، ولأن العلماء حين يضعون فرضاً لا يكتفون به ولا يسكنون إليه، بل يجدون في البحث والملاحظة والاستقراء وابتكار الآلات واستنباط الوسائل التي تعينهم على الوصول إلى بيانات أوفى، وحقائق أكثر. وهذه تقابل مع الفرض الموضوع، فان تعارضت معه وضع فرض أشمل. إذن فوضع فرض جديد معناه كشف حقائق طبيعية جديدة - لا تغير في الحقائق السابقة - ومعناه أيضاً (تقدم) - لا تغير - من فرض إلى أخر أشمل.

ومن ذلك نستطيع أن نستنتج بسهولة أن الطالب الثانوي لا يرفض الكتاب الذي ألف

منذ خمسين سنة، بل يقبله، ويقرؤه، ولكن النسخة التي بين يديه هي طبعة جديدة من ذلك الكتاب منقحة وموسعة. . .

وزيادة في توضيح المسألة أدع السر جيمس جينس يرد على الأستاذ الطنطاوي:

(إن الغرض العام للعلم هو أن يسير إلى مثل هذه النظريات ويصل إليها، ولا نستطيع مطلقاً أن نعتبر نظريةً ما نهائية أو حقيقةً مطلقة، إذ من المحتمل أن تظهر حقيقة جديدة ترغمنا على ترك هذه النظرية؛ وقد يحدث ذلك للنظرية النسبية ولو أنه بعيد الاحتمال؛ وإذا ما حدث ذلك برغم استبعاده فإن الوقت الذي أنفق في تكوينها لم يضع سدى، بل سيكون تدرجاً إلى نظرية أوسع وأكمل، تتفق مع عدد أكبر من الظواهر الطبيعية. من ذلك يظهر العلم للرجل العادي متغيراً دائم التغير دائراً حول نفسه مخالفاً لنظرياته الأولى، ولكن العالم يراه دائم التقدم، يرقى من نظرية إلى أخرى، تحظى كل نظرية منها باتفاقها مع حقائق تزيد على التي أزاحتها، ورائده الوصول إلى هدفه الأسمى وهو النظرية التي تفسر ظواهر الطبيعة الكاملة)

ثم ينظر الإنسان في نتائج العلم ويسأل: ما هي فائدة هذا العلم؟ وماذا نفع البشرية؟ يريد أن يقول: ما هي فائدة هذا العقل؟ والجواب على ذلك سهل ميسور. فالعقل لم يوجد إلا ليستخدمه الإنسان في الدفاع عن نفسه، والتغلب على أعدائه من الحيوان، وفي حفظ بقائه، وفي الرقي بحياته وتوفير أسباب سعادته بعد ذلك، ولولا هذه الغاية لما وجد أصلاً. . . ولقد جرب العقل الفلسفة فوجدها عاجزة كل العجز عن إبلاغه هذه الغاية، لأن الفلسفة كما لا يخفى عليك كلام في كلام؛ والكلام لا يستطيع أن يقتل حشرة، أو يهلك مكروباً، أو يصنع طيارة. لذلك تركها وأساليبها و (قيمها) وخرافاتها، وسلك هذا المهيع السوي، والطريق الواضح، طريق العلم. . . فلم يلبث حتى رأى نتائجه المحسوسة الباهرة. . . فالعلم إذن آخر مظهر من مظاهر الرقي العقلي، وآخر اتجاه اتجه إليه العقل. وليس من البعيد جداً أن يتفق العلم والفلسفة والدين على أية صورة من الصور، ولكن دوره سيظل هو هو لا يتغير ولا يتبدل ودوره هذا لا يقتصر على تخليص البشرية من جميع أعدائها ولا على إسعادها مادياً، فحسب، بل هو يشتمل على إسعادها فكرياً، وتلك هي غايته العليا

تقول: (إن الاختراعات ليست خيراً كلها، وليست نفعاً للبشرية مطلقاً) وهذا صحيح، أو هو صحيح إلى حد ما؛ والمفهوم منه أن أكثر الاختراعات خير، وإن لم تكن كلها خيراً؛ ولكنك لا تلبث حتى تنقضه بهذا التقرير (الحسابي) الحاسم، وهو أن العلم (شره بخيره والنتيجة صفر). . . صفر!!

وتقول: إن العلم (سهل المواصلات وهونها، فقرب البعيد، وأراح المسافر، ووفر عليه صحته ووقته، ولكن هل أسعد ذلك البشرية؟)

بالطبع والأدلة موجودة في السؤال. ولكنك ترى غير هذا الرأي، وتجيب جواباً لا صلة له البتة بالسؤال. فوسائل المواصلات الحديثة لم تسعد البشرية، ولماذا؟ لأننا لم نعد نتحمل آلام المسافات الطويلة، أو نتعرض لمخاوفها، فخسرنا الصور والمشاعر (وصرنا نقطع طريقنا إلى القبر عدواً ونحن مغمضو عيوننا. . . لم نر من لجة الحياة إلا سطحها الساكن البراق!). . . وهذا بالطبع دليل ساطع قاطع على أي وسائل المواصلات الحديثة لم (تسعد) البشرية. . . صحيح!!

ثم تقول إن العلم تغلب على كثير من الأمراض، ولكنه هو الذي جاء بها، جاءت بها الحضارة، (وهذه فكرة خاطئة عن صلة العلم بالحضارة، وليس هذا موضع بحثها) فهو لا يزال مديناً. . تقول هذا ناسياً ناحية مهمة، وهو أن الحكم على العلم وموقفه من الأمراض

لا ينبغي أن يبنى على وضعه الحاضر فقط؛ فإذا كان العلم قد تغلب هذه المدة القصيرة على كثير من الأمراض واكتشف جراثيمها، وصنع السموم المضادة لها، فإنه سيتغلب عليها جميعاً، ويفني الجراثيم على أخرها، وكذلك يقضي على عدو آخر فظيع للبشرية، وهو الحشرات؛ وعندئذ تستريح البشرية وتسير قدماً إلى الأمام - وفي النجاح الذي أحرزه إلى اليوم خير مؤيد لما أقول. . .

إن هؤلاء البدو الذين يرفع من حياتهم الأستاذ علي سيتحضرون حتما؛ لأن التحضر يجري بحكم قانون طبيعي قاهر. وهؤلاء البدو ليسوا سعداء، كما يظن، لأنه لا يمكن أن

يكون سعيداً من يفترس أخاه لقبضة من العشب، أو جرعة من الماء. ونحن يجب أن ننظر إلى فتوحات العرب نظرة اقتصادية قبل كل شيء. . .
ثم أن هنالك فرقاً بين سعادة وسعادة. وسعادة اينشتين حين يقع على حقيقة جديدة، ليست هي سعادة زنوج أفريقيا، أو بدو نجد، لأن سعادة الإنسان الراقية أعلى من سعادة الإنسانية المنحطة، وهذا الفرق يشبه تماماً الفرق بين الرواية البوليسية السخيفة وبين (هاملت) وبين (اللذة) التي يحصل عليها القارئ العامي من قراءة الأولى، وبين (اللذة) التي يحصل عليها المثقف من قراءة الثانية. فلننظر إلى طبيعة اللذة والسعادة قبل كل شيء.

عبد الكريم الناصري
الفلسفة الشرقية
بحوث تحليلية
بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين
- 25 -

الفلسفة الصينية
العصر المنهجي - (لاهو - تسيه)
فلسفة العملية

يغالي بعض الباحثين حين يصف (لاهو - تسيه) بأنه ميتافيزيكي فحسب ولا شأن له بالفلسفة العملية أو الأخلاق كما يصف (كونفيشيوس) بأنه عملي لا يأبه للميتافيزيكا، وإنما الحقيقة أن لكل منهما رأياً قيما في الأخلاق، وهذا طبيعي، لنهما اغترفا من منبع واحد، وهو فلسفة عصر ما قبل التاريخ، ولكن الخلاف قد دب بينهما حول الوسيلة التي توصل إلى الخير والكمال، فبينما كان (لاهو - تسيه) يرى أنها التنسك واحتقار المادة وإهمال الحياة العملية وعدم الإكثار من القوانين، ويرى أن عصر الأباطرة الذين شرعوا القوانين واللوائح كان عصر تدهور وانحلال تلا العصر الذهبي الذي كان الملوك فيه لا يعرفون القوانين، ولا يهتمون بالعقاب، كان (كونفيشيوس) على العكس من ذلك يرى أن العصر الذهبي هو عصر أولئك الملوك الذين قننوا القوانين ووضعوا القواعد التشريعية، ولهذا كان يتخذهم نماذج يسير على مناولهم. وإذن، فالاثنان أخلاقيان يريدان الكمال والسعادة للأمة، وإنما يختلفان في الوسيلة فحسب، وقد شرح (لاهو - تسيه) رأيه في الأخلاق العملية فقال ما نصه: (بقدر ما يكثر الملك من القوانين واللوائح، يهوى الشعب في البأساء؛ وبقدر ما يكون لدى الشعب من وسائل الغنى والرفهنية، تكون حالة الأسرة والوطن رديئة؛ وبقدر ما تتضاعف الأوامر الشديدة يكون عدد اللصوص والمجرمين في نمو وتضاعف) وعلى الجملة، كان المثل الأعلى من الملوك في رأيه هو الملك الذي تجهل رعيته الوجود جهلاً تاماً

وعنده أن المعرفة الظاهرية رديئة، لأنها لا توصل إلا إلى حقائق نسبية، ومن حيث إن الغاية المقصودة هي الحقيقة المطلقة في ذاتها، فينبغي ألا ننشغل إلا بما يوصل إلى هذه الحقيقة، ولا يوصل إليها إلا الاتحاد التام، والامتزاج الكامل بـ (تاو) ولا يتيسر هذا الامتزاج بالتربية ولا بالتثقيف الظاهري، كلا، فهاتان الوسيلتان معدومتان الفائدة، وإنما هو يتحقق بالعزلة التامة ولذلك فالقديسون الذين يريدون الاتصال بـ (تاو) واتباع الصراط السوي، يجب عليهم أن ينبذوا كل ثقافة وينسحبوا إلى مكان مقفر ويعيشوا كما كان أهل العصور الغابرة يعيشون ممتزجين بالقوة غير المرئية، وهو يصف هذه الحالة فيقول: يكون خائفاً كمن يختلق سيلا في الشتاء، متردداً كمن يخشى أن يراه جيرانه، جدياً كأجنبي في محضر ضائفه، بارداً كالثلج حين يتحلل، جافاً كالخشب الخام، فارغاً كالوادي، وفي العموم أن المثل الأعلى للخيرية في رأي الفيلسوف هو الطفل الذي يولد على الفطرة بريئاً نقياً، وأن الوسائل التي توصل إلى الكمال هي: الحياء والضعف والبساطة و (الؤووي) ومعناه العزلة والتخلي عن كل عمل، وسلوك الصراط السوي

غير أن هذا كله ليس معناه أن (لاهو - تسيه) قد أمر بإهمال المسئولية الاجتماعية، كلا، بل هو قد حض بالعكس على العناية بالجمعية البشرية، وأعلن أن الأنانية وإهمال خدمة

العمران من الرذائل الكبرى وقد سبقت تعاليمه الآمرة بالغيرية والمحبة العامة تعاليم المسيحية بنحو ستة قرون، ولم يكن تبشير (لاهو - تسيه) بحب الغير ناشئاً عن عاطفة، وإنما كان منبثقاً من منبع الواجب والالتزام اللذين كانا يملكان عليه تفكيره وحواسه وعنده أن القديس هو الذي يحكم الشعب ويسوسه، ولكن لا بالقوة والقسوة، بل بالمثل الأعلى الذي يقدمه مثبتاً به أنه فوق الطبيعة، وأنه لا يحكم شعبه بالقوانين والعقوبات، ولا يخضع الشعوب الأخرى بالحروب، وإنما يعامل الجميع ببساطة الطفل وطهارته؛ هذا هو وحده الأمير الذي تنتظره الصين وتعول عليه في محنتها

أحسب أنك ترى بعد كل هذا معي ومع الأستاذ (زانكير) أن (لاهو - تسيه) كان فيلسوفاً لا تنزل به عبقريته إلى ما هو أدنى من صفوف أفلاطون والقديس (أوجوستان) و (كانت) وأنه إذا كان قد أخفق أو ضل السبيل في بعض أفكاره، فإن التبعة في ذلك واقعة على

التدهور الذي كان ميزة عصره وخاصيته، وإذا لم يكن مذهبه قد أزهر فيما بعد كما أزهرت مذاهب الإغريق، فإن لذلك سببين: الأول أنه لم ينشئ في حياته مدرسة لنشر فلسفته، والسبب الثاني أن الطبيعة الصينية لم تكن تتلاءم مع تعاليمه المغالية في التنسك والسلبية، وهذا لم تكد فلسفته تعرف في أوربا حتى أزهرت في البيئات الاشراقية إزهاراً لم تعرف له نظيراً في منبتها الأصلي

أو (اللاهو - تسيه) (التاوايسم)

بعد أن توفي (لاهو - تسيه) نشأ من ميتافيزيكيته مذهبان: (التاوإيسم) الفلسفي و (التاوإيسم الديني)، وكلاهما نشأ من (تاو) وهو عنوان كتابه الذي أشرنا إليه. فأما (التاوايسم) الفلسفي فقد أنقسم فيه تلاميذ الحكيم إلى عدة أقسام، فبعضهم تخصص في دراسة المعرفة وما يمكن أن يحصله الإنسان منها، وهل هذا المتحصل مفيد أو غير مفيد. والبعض الأخر قصر بحثه على دراسة الظواهر الطبيعية وما تحتويه من أسرار، ولكن لما كان الجميع متأثرين برأي أستاذهم الذي أسلفناه، وهو القائل بأن (التاو) غير قابل للمدركية البشرية، فقد كان من الطبيعي أن يعلنوا أن العقل الإنساني قاصر على إدراك (المطلق) وبالتالي هو قاصر عن إدراك بعض الحقائق الموجودة

هناك فريق ثالث من تلاميذ هذا الحكيم لما يئسوا من إدراك العقل البشري لكنه (التاو) لم يجدوا أبداً من أن يعلنوا أن ما لم يدرك بالعقل، يدرك بوساطة السحر؛ وهنا نشأ مذهب (التاوإسيم) الديني وهو مزيج من قواعد سحرية، وتعاليم تصوفية، ولما كان هذا القسم الأخير لا يعنينا كثيراً في دراستنا الحاضرة فقد آثرنا أن نقصر إشارتنا هنا على (التاوايسم) الفلسفي ومن أشهر أولئك التلاميذ الذين أحيوا مذهب أستاذهم بعد موته وواصلوا سلسلة بحوثه هو (بين - سي) الذي سار على ضوء تعاليم أستاذه فكتب بحوثاً قيمة حول نظرية المعرفة ونقد العقل البشري وأبان قصوره عن إدراك (المطلق) ومن مشاهير هؤلاء التلاميذ أيضاً (لين - تسيه) الذي كان من أعلام عصره الإجلاء والذي كتب بحوثاً هامة حول كثير من المشاكل الفلسفية، ولكن مما يدعو إلى الأسف أن ما عثر عليه من مؤلفاته وجد مشوهاً متناقضاً مما يدل على أن بعض الأيدي قد عبثت به وقد عاش هذا الحكيم في القرن الخامس قبل المسيح.

هناك حكيم آخر من أولئك التلاميذ، وهو: (تشوانج - تسيه) الذي عاش في النصف الثاني من القرن الرابع قبل المسيح وعاصر (مانسيوس) الذي سنتناوله بعد أستاذه (كونفيشيوس)

يروي لنا المؤرخون إن هذا الحكيم شغل في مطلع شبابه مركزاً سياسياً هاماً، ولكنه لم يكد ينضج حتى عاف السياسة واعتزل الخدمة وقصر حياته على البحث والتأليف، وفي أثناء ذلك بلغت كفايته مسمع الملك، فبعث إليه رسوله بهدية عظيمة وطلب إليه أن يقبل منصب وزير في الدولة، فلما عرض عليه الرسول ذلك أجابه بقوله: إن هذا المبلغ عظيم إذا قيس إلى حالتي وإن منصب الوزير منصب محسود، ولكن ألم تر في حياتك أن الثور الذي خصص للذبح في أحد المعابد ثم أخذوا يطعمونه حتى سمن ثم أحاطوا جسمه قبل ذهابه إلى المذبح بالحلي والمجوهرات ليكون منظره جميلا، ألم تر أن هذا الثور ساعة دخوله إلى المعبد يتمنى أن لو كان خنزيراً صغيراً حتى يعفى من الذبح، ولكن هذا التمني لا يجديه فتيلا؟ أذهب إذن من هنا ولا تهني بمحضرك فأنا أفضل أن أنام في قناة حمئة مليئة بالأوحال على أن أذعن لتقاليد البلاط والتزاماته.

ويحدثوننا كذلك أن هذا الإفراط في التمسك بالكرامة والمحافظة على حرية الرأي قد جر عليه حياة مليئة بالصعوبات والأشواك، ولكنها مليئة كذلك بالاحترام، والإجلال إلى حد أن روت لنا إحدى الأساطير أن أخرى زوجاته من كانت الأسرة المالكة

مؤلفاته ومذهبه

روى التاريخ أن هذا الحكيم قد كتب ثلاثة وثلاثين كتاباً وأن هذه الكتب كلها قد جمعت تحت عنوان واحد وهو: (المناهج الحقيقية لزهور بلاد الجنوب) ولكن المدققين من المؤرخين يرون أنه لم يثبت له شخصياً إلا نحو عشرة كتب كتبها بخطه؛ أما الباقي فهو مجموعة مكونة من آرائه وآثاره مع شروح وتعاليق تلاميذه.

أما مذهبه فيمكن أن يدرس من ثلاث نواح: الناحية الأولى النظرية؛ وفيها لم يكن يختلف عن أستاذه (لاهو - تسيه) في شيء، إذ هو يرى معه أن العقلية البشرية قاصرة عن إدراك (التاو) بواسطة المعرفة الثقافية التي لا تتناول إلا الحقائق النسبية أما (المطلق) فهو لا يعرف إلا عن طريق الانفعال النفساني، وإن كل محاولة لمعرفة هذا (المطلق) عن طريق التفكير المنطقي آيلة ضرورة إلى الفشل المحقق بعد أن تقود صاحبها إلى صحراء قاحلة

من السفسطة والضلال، لأن المنطق لا يصل إلى نتائجه إلا بالتحليل؛ ولو أصبح تحليل (المطلق) ممكناً، لخرج عن كونه (مطلقا)

أما الناحية العملية من مذهبه: فهي وإن كانت مؤسسة على الأصول الجوهرية من آراء (لاهو - تسيه) إلا أنها تطورت عن المذهب القديم كثيراً. ولإيضاح هذه الناحية العملية أجرى فيلسوفنا الشاعر محاورة بين روح السحاب وبين الضباب؛ ثم بسط مذهب على لسان الضباب فقال: (صير قلبك حازماً وتجنب كل تدخل في أي شيء؛ أي ألزم الـ (وو - وي) أو (اللاعمل) ودع الأشياء تتطور حسب ناموسها الطبيعي، ولا تأبه لجسمك وأغلق عينيك وأذنيك، وانس كل ما يربطك بالعالم الخارجي، وامتزج بالمبدأ الأول. فك وثاق قلبك، ومد روحك؛ وعد إلى عالم (اللا إدراك) فإذا تحقق ذلك رجع كل كائن إلى الصدر المبدئي العام، وعاد كل شيء إلى منشئه دون علم منه بهذه العودة واجتمع كل موجود، وتوحد الجميع كما كانت الحال في البدء، ولم يصبح كل كائن مريداً ولا قادراً على البعد عن هذه الوحدة المطلقة الأبدية)

ويعلق أحد المستصينين على هذا بقوله: ينبغي ألا يتسرب إلى الأذهان أن تنسك (شوانج - تسيه) كان نوعاً من الحرمان والرهبنة على نحو ما هو موجود في الديانات الهندية والمسيحية، كلا، فالحكيم في رأيه لا يستحق هذا الاسم إلا إذا ترفع عن جميع الآلام وتخلص منها وأخضعها لإرادته. أما متنسكو تلك الديانات فهم تحت الآلام لا فوقها، وهذا فرق عظيم يجب أن يعني به الباحثون

بهذا الفيلسوف تنتهي أرقى الحركات العقلية حول (التاوايسم) الفلسفي بعد أن أزهرت إبان القرنين: الخامس والرابع قبل المسيح إزهاراً ساعد عليه تعطش الشعب إلى السعادة والهدوء في وسط معمعان هذا التدهور السياسي والعمراني الذي أشرنا إليه آنفاً

هذا، وسندرس ما عرض له (التاوإيسم) من تطورات في العصور التاريخية التي تلت هذا العصر، ولكن بعد أن ننتهي من دراسة أعلام المذهب الآخر وهم: (كونفيشيوس) وأشياعه

(يتبع)

محمد غلاب

للأدب والتاريخ:

مصطفى صادق الرافعي

1880 - 1937

للأستاذ محمد سعيد العريان

- 9 -

قطعتني زحمة العمل أسبوعين عن مواصلة الكتابة وقامت بيني وبين الواجب؛ ثم ألح) عليّ المرض أسبوعين يغدو ويروح بين الليل والنهار، فلا أهم أن اشرع القلم لأستأنف حديثي حتى يقطعني الإعياء ويقعد بي العجز. فما كان من صمتي في الأسابيع الأربعة الماضية فهو من ذاك، ولعله عذر يبلغ بي عند الأصدقاء الذين ظنوا بي ما ظنوا لهذا

الصمت الطويل فأوسعوني في رسائلهم عتباً وملامة، فكان عتابهم آية من آيات الود الصافي وحسن الإخاء)

الرافعي في سنوات الحرب

كان الرافعي - رحمه الله - شاعر النفس، مرهف الحس، رقيق القلب، قوي العاطفة: يرى المنظر الأليم فتنفعل به نفسه ويتحرك خاطره ويتفطر قلبه؛ وتقص عليه نبأ الفاجعة فلا تلبث وأنت تحكي له أن تلمح في عينيه بريق الدمع يحبسه الحياء. ولقد كان الرافعي يقرأ فيما يرد إليه من بريد قرائه كثيراً من المآسي الفاجعة يسأله أصحابها الرأي أو المعونة، فما يقرؤها إذ يقرؤها كلاماً مكتوباً، ولكنها تحت عينيه حادثة يشهدها ويرى ضحاياها فما تبرح ذاكرته من بعد إلا مع الزمن الطويل.

ولقد وقعت الحرب واستعرت نارها في الميادين البعيدة لا يبلغ إلينا منها نار ولا دخان ولا يراق دم، ولكنها أرسلت إلى مصر الفقر والجوع والغلاء، فما كان ضحاياها في مصر بالجوع والمتربة أقل عديداً من ضحاياها هناك في الميدان. . . كيف كان يعيش العامل المسكين في تلك الأيام؟ رباه! إنني ما أزال أذكر يوم أرسلني والدي - وأنا غلام بعد - أستدعى النجار لعمل عندنا فوجدته جالساً في أهله يأكلون: كانوا ستة قد تحلقوا حول قصعة سوداء فيها كومة من فتات الخبز أدامه الماء، تتسابق أيديهم إليه في نهم كأنما يخشى

كل واحد أن تعود يده إلى القصعة بعد الأوان فلا يجد اللقمة الثانية. . .!

هكذا كان يعيش نصف الشعب في تلك الأيام السود مما فعل القحط والغلاء، لأن أقوات الشعب قد حملت إلى الميدان لتخزن في دار المؤن وقتاً ما، لتقذفها من بعد قنابل المحاربين وتذروها رماداً في الهواء. . .!

ونظر الرافعي حواليه فارتد إليه البصر حسيراً مما يرى ويسمع، فاحتبس الدم في عينيه ولكن قلبه ظل يتحدث بمعانيه

ومضى عام وعام والحرب ما تزال مستعرة، والبؤس تتعدد ألوانه، وتتشكل صوره، وتحشد آثاره؛ والرافعي دائم الحديث إلى نفسه وهو يحمل من هم الشعب في قلبه كبير، حتى امتلأ الإناء يوماً ففاض. . .

في بعض اللحظات التي تفيض فيها النفس بالألم، يحس الإنسان كأنه شيء له نظام في الكون إرادة وتدبير، وأن من حقه أن يقول للمقدور: لماذا أنت في طريقي. . .؟ فتراه في بعض نجواه يتساءل: ربِ لم كتبت علي هذا. .؟ لماذا حكمت بذلك. .؟ لماذا قدرت وقضيت. .؟ ما حكمتك فيما كان. .؟ ألم يكن خيراً لو كان ما لم يكن. . . .؟ ثم يثوب إلى نفسه ويفيء إلى الحق، فيعود معتذراً يقول: لقد ظهر حكمك، ودقت حكمتك فمغفرةً وعفواً. . .!

وتظل حكمة الله مطوية في ظلمات الغيب، لا يتنورها إلا من غمره شعاع الإيمان وسطع في قلبه نور الحكمة، أما الذين تعبدتهم شهوات أنفسهم فهم أبداً في حيرة وضلال.

في لحظة من تلك اللحظات أغمض الرافعي عينيه وراح يفكر، وفي رأسه خواطر يموج بعضها في بعض؛ ثم فاءت نفسه، فرفع رأسه وهو يقول: (ربِ، ما أدق حكمتك وأعظم تدبيرك. .!) وأفاض الله عليه ورفع عن عينيه الغطاء. . .

وعاد ينظر إلى الناس يأكل بعضهم بعضاً، ويسرق بعضهم أقوات بعض، ويتزاحمون على الحياة فيسارعون إلى الموت؛ فدمعت عيناه ولكنه كان يبتسم، وعاد يقول: (حكيم أنت يا رب! ليتهم وليتني. . . ليتهم يعلمون شيئاً من حكمة الله في شيء من أغلاط الناس!. . . كل شيء في هذا الكون العظيم يجري على قدرٍ منك وتدبير حكيم!)

ثم شرع يؤلف كتابه المساكين

كتاب المساكين

أخرج الرافعي كتابه هذا في سنة 1917، وهو الكتاب الرابع مما ألفه الرافعي في المنثور، وثاني ما ألف في الأدب الإنشائي، ويعرف به الرافعي في الصفحة الأولى منه فيقول: هو كتاب (أردت به بيان شيء من حكمة الله في شيء من أغلاط الناس) وقدم له بمقدمة بليغة في معنى الفقر والإحسان والتعاطف الإنساني يقول فيها: هذا كتاب حاولت أن أكسو الفقر من صفحاته مرقعةً جديدة. . . فقد والله بليت أثواب)

هذا الفقر وإنها لتنسدل على أركانه مزقاً متهدلة يمشي بعضها في بعض، وأنه ليفلقها بخيوط من الدمع ويمسكها برقع من الأكباد ويشدها بالقطع المتنافرة من حسرة إلى أمل وأمل إلى خيبة وخيبة إلى هم؛ وأقبح من الفقر ألا يظهر الفقر كاسياً أو تكون له زينةً إلا من أوجاع الإنسانية أو المعاني التي يتمنى الحكماء لو أنها غابت في جماجم الموتى الأولين. . .)

والكتاب فصول شتى، ليس له وحدة تربط بين أجزائه، إلا أنه صور من الآم الإنسانية كثيرة الألوان متعددة الظلال، تتلقى عندها أنة المريض، وزفرة العاشق، ودمعة الجائع، وصرخة اللهفان المستغيث؛ فهنا صورة (الشيخ علي) الرجل الذي يعيش بطبيعته فوق الحياة وفوق الناس لأنه يعيش بنعمة الرضى، وإلى جانبه قصة الغني الشيخ الذي حسب أنه سيطر على الحياة لأنه ملك المال، وهذه صاحبته الحسناء الصغيرة التي انتشلها الشيخ بماله من الفقر الجائع فوهب لها المال ولكنها سلبها نعمة الشعور بالحياة، وهذه، وهذه. . . من صور المساكين الذين يعيشون يحتسون الدموع أو يتطهرون بالدموع.

وأول أمر الرافعي في تأليف كتاب المساكين، أنه كان في زيارة أصهاره في (منية جناج) فلقي هناك الشيخ علي، والشيخ علي هذا رجل يعيش وحده ليس له جيب يمسك درهما، ولا جسد يمسك ثوباً، ولا دار تؤيه، ولا حقل يغل عليه؛ يجوع فيهبط على أول دار تلقاه يتناول ما يمسك رمقه، ويدركه النوم فيتوسد ذراعه حيث أدركه النوم من الدار أو الطريق، رجل يعيش بطبيعته فوق كل آمال الناس، وآمال الحياة، ولقيه الرافعي وأستمع إلى خبره فعرف من فلسفته فلسفة الحياة، ووجد عنده الحل لكل ما في نفسه من المشكلات، فكان هذا الكتاب من وحي الشيخ علي الفيلسوف الصامت في الرافعي الأديب، واجتمعت له مادة الكتاب في مجلس واحد لم ينطق فيه أحد بكلمة.

ويصف الرافعي الشيخ علي فيقول:

(. . . هو حليم لنفسه غضوب لنفسه، وكذلك هو في الخفة والوقار، والضحك والعبوس، والزهو والانقباض، وفي كل ضدين منهما لذة وألم؛ كأنه جزيرة قائمة في بحر لا يحيط بها إلا الماء فلا صلة بينهما في المادة وإن كانت هي فيه؛ فالناس كما هم وهو كما هو يرونه من جفوة الزمان أضعف من أن يصاب بأذى، ويرى نفسه من دهره أقوى من يصيب بأذى؛ ويتماشونه رأفة ورحمة، ويتحاماهم أنفة واستغناء؛ ثم إن مسه الأذى الرقيع أو سقيط أحسن إلى الفضيلة بنسيان من أساء إليه، فيألم وكان ألمه مرض طبيعي، ولا فرق عنده في هذه الحال بين أن يمغص بطنه بالداء أو يمغص ظهره بالعصا. . .! وهو والدنيا خصمان في ميدان الحياة غير أن أمرهما مختلف جداً . . .فلم تقهره الدنيا لأنه لم يطمح إليها ولم يقع فيها، وقهرها هو لأنها لم تظفر به وهو رجل سدت في وجهه منافذ الجهات الأربع كلها إلا جهة السماء، فكأنه في . . .) الأرض بطل خيالي يرينا من نفسه إحدى خرافات الحياة، ولكنه مع ذلك يكاد يخرج للدنيا تلك الحقيقة الإلهية التي لا تغذوها مادة الأرض، ولا مادة الجسم، فهي تزدري كل ما على الأرض من متاع وزينة وزخرف وكل ما ردت عليك الغبطة من بسطة في الجسم أو سعة في المال أو فضل في المنزلة؛ وكل ما أنت من إقباله على طمع ومن فوته على خوف. . .

(. . . فهو أجهل الناس في الدنيا وأجهل الناس بالدنيا. . . وأنت إذا سطعت له بالجوهرة الكريمة النادرة فلا يعدو أن يراها حصاة جميلة تتألق، وإن هولت عليه بألوان الخز والديباج حسبك مائقا لم ترقط نضارة البرسيم وألوان الربيع. . .)

هذا هو الشيخ علي الذي أوحى إلى الرافعي كتاب المساكين ونسب إليه القول فيه ورده إلى إلهامه، وهو عنده النموذج الكامل للرجل السعيد والفيلسوف الناضج.

ولقد فرغ الرافعي من كتاب المساكين في سنة 1917؛ وفرغ الشيخ علي من دنياه بعد ذلك بقليل، ولكن روحه ظلت تعمل في نفس الرافعي وتملي عليه وتلهمه الرأي إلى أخر أيامه بعد ذلك بعشرين سنة؛ والواقع أن الرافعي كان يؤمن بفلسفة التسليم والرضى فيما لا طاقة له به، إيماناً كان مادة حياته ونظام عمله، وإيمانه ذاك هو الذي كان يفيض عليه إمارات

المرح والسرور حتى في أعصب أوقاته وأحرج ساعاته، فكنت لا تراه إلا مبتسماً أبداً أو ضاحكاً ضحكة السخرية والاستسلام.
كتاب المساكين الذي يقول عنه المرحوم أحمد زكي باشا: (لقد جعلت لنا شكسبير كما للإنجليز شكسبير، وهيجو كما للفرنسيين هيجو، وجوته كما للألمان جوته)
هو كتاب أجتمع على إخراجه سببان: أهوال الحرب التي حطت على مصر بالجوع والقحط والغلاء؛ والشيخ علي الجناجي.
(شبرا)
محمد سعيد العريان
أبحاث تاريخية جديدة
الإسلام في غرب أفريقية
مدى انتشاره في تلك الأقاليم ومبلغ أثره في الأهلين
للأديب جمال الدين محمد الشيال
تابع ما نشر في العدد الماضي
كيف عم الإسلام غرب أفريقيا
1 - في المدة بين سنتي 640و642 تم لعمرو بن العاص فتح مصر. ومنها استطاع عبد الله بن أبي سرح وعبد الله بن الزبير فيما بعد فتح طرابلس وتونس والجزائر.
2 - وفي سنة 661 كانت واقعة صفين المشهورة وانشق بعدها قوم على علي بن أبي طالب فسموا بالخوارج. وقد هاجرت فئة منهم إلى شمال أفريقية ونزلوا بشواطئ تونس، وقد استمرت بقاياهم حتى قبيل الحرب العظمى في جزيرة جربا وهناك انتشرت آراؤهم. ومن هذه الجزائر انتقلت هذه الآراء إلى شمال أفريقية حتى ساحل مراكش الأطلسي؛ وبعد سنة 720 أصبحت الخارجية مذهب الأهلين من البربر.
3 - وفي سنة 669 استقر حكم العرب في شمال أفريقية، وعين عقبة بن نافع حاكما على أفريقية (تونس الحالية)؛ وفي سنة 673 أنشئت القيروان لتكون حاضرة لحكم المسلمين. وفي سنة 681 تقدم عقبة نحو الغرب بجيشه حتى وصل إلى المحيط الأطلسي.
4 - وبعد سنة 795 تولى حكم أفريقية موسى بن نصير وتقدم في فتوحه حتى استولى على مراكش إلا مدينة سبتة وهناك لم يجد العرب صعوبة في نشر الإسلام دين الفطرة. وتمكن موسى من فتح الأندلس بعد ذلك على يد قائده البربري طارق بن زياد.
5 - وتولى حكم أفريقية بعد هذه الأدراسة ثم الأغالبة وتبعهم أسرات أخر حتى أتى الفاطميون فورثوا الحكم وأغاروا على مصر واستقلوا بها باسطين نفوذهم على أفريقية وصقلية.
6 - وفي المدة التي بين القرن السابع ومنتصف القرن الحادي عشر كان العنصر العربي في شمال أفريقية أقلية يمثلون في آلاف من الجنود والحكام ورجال الدين. ولكنهم
استطاعوا بمرور الزمن أن يفرضوا دينهم ولغتهم وحكمهم على ملايين من البربر.
7 - وحوالي سنة 1045 نزل بالشاطئ الأيمن للنيل قبائل بني هلال وبني سليم آتين من أواسط بلاد العرب وابتدءوا يعملون على إثارة الشغب في مصر العليا؛ ولكي يتخلص منهم حكام مصر الضعفاء في ذلك الحين حرضوهم على أن يغزوا شمال غرب أفريقية. فعبر الصحراء منهم ما يقارب من المائتي أو الثلاثمائة محارب حتى وصلوا إلى حدود تونس وطرابلس واستقروا هناك.
8 - وبعد مدة يسيرة رحل إلى مصر قبائل أخرى من شبه جزيرة العرب؛ ووصلوا إلى النيل الأوسط. وعلى النيل الأزرق (في سنار) أنشئوا امبراطورية الفنج العظيمة التي استقرت من القرن الرابع حتى القرن التاسع عشر. ومن النيل الأعلى قاد هؤلاء الأقوام حملات كثيرة متتالية نحو وسط وغرب أفريقية. ومن نسل هؤلاء تكونت قبائل لا زالت تعيش حتى اليوم حول بحيرة شادو في دارفور وواداي وشمال السنغال ونهر النيجر.
9 - وفي القرن الحادي عشر أيضاً نشأت فرقة المرابطين. وعلى أيديهم اعتنق سكان سينيغمبيا ونيجريا الإسلام.

10 - وتلت دولة المرابطين دول كثيرة كدول الموحدين والحفصيين وغيرهم، وكانت كل دولة تبدأ حكمها بنشر مذهبها الديني، وبالتالي كانت تدفع كثيراً من البربر أثناء نشر دعوتها إلى اعتناق الإسلام.

11 - وفي عهد الملك السعدي السادس (المنصور الذهبي) وصلت مراكش إلى أقصى قوتها، وشملت مملكة نيجرية واسعة.

12 - وفي نهاية القرن الخامس عشر قامت في مصر العليا وغرب السودان أسرة مسلمة زنجية. وتولى أحد هؤلاء الزنوج الحكم، واتخذ تمبكتو حاضرة لملكه. ومنذ ذلك الحين أصبحت هذه المدينة مركزاً علمياً وتجارياً لغرب ووسط أفريقية. ولقد أثرى حفيد هذا الملك (إسحاق بن سوكيا) وزادت قوته وبدأ النزاع بينه وبين الإمبراطور الموري أبي العباس المنصور. وتمكن الجيش الموري بقيادة جودر باشا من هزيمة إسحاق والاستيلاء على تمبكتو. وأتى بعد جودر قائد آخر أكثر شجاعة وإقداماً منه وهو (محمود باشا) فأتم الفتح الموري للسودان حتى وصل إلى بورنو وسنيغمبيا. ولم تتضاءل قوة الموريين إلا في القرن الثامن عشر بعد قيام الغولا وهجوم الطوارق.

ويقول جونستون: (ولربما كانت مراكش تستطيع أن تغزو شمال أفريقية وتحكمه في القرن السادس عشر - لولا أن وصلها الترك. . .) - ونحن لا نستطيع أن نقر جونستون على هذا القول. . . إلا إذا كانت الحكومة القائمة في مراكش حينذاك قوية تستطيع أن ترد اعتداء الغرب عنها. . . ولكن الحقيقة أن الحكومة في كل بلاد الغرب في ذلك الوقت كانت ضعيفة أمام نشاط ممالك غرب أوربا وخاصة أسبانيا - فإنها بعد أن قضت على دولة الإسلام فيها سعت وراءه تطارده في شمال أفريقية وغربها. . . وجونستون نفسه يقول: (ولما استنجد أهل الجزائر وتونس بقراصنة الترك ضد اعتداءات مسيحي أسبانيا في القرن السادس عشر - انتهز سلطان الترك وأنشأ مناطق تركية في الجزائر سنة 1517 وفي تونس سنة 1573 وفي طرابلس سنة 1551. . .)

في هذا القول نرى أن ثورة الغضب المسيحي في أسبانيا على المسلمين لم تكن قد هدأت؛ بل إننا لنحسها بين ثنايا كلمات جونستون قوية ملتهبة دفعت أهل المغرب للاستنجاد بالترك ورضوا نجدة القراصنة منهم. وحقيقة أن الترك الذين نزلوا بشمال أفريقية كانوا قراصنة لم يتعدوا الشاطئ إلى الداخل، ولم يمضوا إليهم أراضي وملكاً جديداً بل اكتفوا بمهنتهم القرصنة وسلب سفن المسيحيين. ولو أنهم حاولوا ملكاً في الجنوب لاستطاعوه، ولغدت أفريقية الشمالية كلها مسلمة إسلاماً حقاً متصلاً بالعالم الخارجي الآن؛ ولكنهم على كل حال حموا شمال أفريقية من الغرب الساحق الماحق هذه المدة الطويلة. وها نحن أولاء نسمع كل يوم اضطهاد الطليان والفرنسيين والأسبان للمسلمين في طرابلس وتونس والجزائر. ومع هذا فإن الإسلام في ذلك الحين لم تقف موجة انتشاره، بل كان مجرد الجوار أو الاتصال بين المسلمين والوثنيين في جميع قبائل السودان حتى حدود الكمرون - كان مجرد الاتصال كافياً لنشر الإسلام في تلك الجهات كما سنرى بعد.

لم تخضع مراكش كجاراتها للحكم التركي ولكنها تأثرت بنواح تركية مختلفة، فقد أخذت عن الترك نظام الملبس ونظام تعبئة الجيوش ولقب الباشا وغير ذلك من الأمور، ولكن مراكش بقيت مستقلة، بل لقد أعلن حاكمها المنصور نفسه خليفة سنة 1538بعد انتصاره على البرتغال وبعد أن رأى الخلافة العباسية تنقرض من مصر، وتنتقل إلى تركية.

غير أننا سنرى أن نوع الحكم لم يكن له من التأثير قدر ما كان للثقافة الإسلامية العربية، فمهما أنتقل الحكم إلى أيدي الترك أو الإغريق او السلاف أو الزنوج المستعربين فإن الأثر الإسلامي والثقافة الإسلامية امتدت حتى شملت كل شمال أفريقية والسومال وسناو، ونوبيا وكردفان ودارفور وواداي وبورنو وأراضي الحوصا والصحراء ومعظم سينغمبيا وآفاقاً متسعة داخل حدود النيجر وعلى طول شواطئ الفلتا الأعلى كما أعتنق أهالي كل تلك الجهات الدين الجديد: دين الإسلام.

جهات نجهلها

ولقد كنت أحس عند قراءتي عن هذه المناطق لذة غريبة فلقد كنت أكشف لنفسي الأستار عن آفاق واسعة شاسعة من العالم الإسلامي يجهلها معظم المصريين وتجهلها

برامج تعليم التاريخ في مدارسنا المصرية، ولكننا بعد هذا التمهيد نستطيع أن نصور الحالة التي كان عليها كل شمال أفريقية في هذه الكلمات:

كانت موجة التأثير الإسلامي تتسع طوال العصور الوسطى فتشمل كل يوم آفاقا جديدة من شمال أفريقية، وامتدت الموجة فشملت بعض الصور الحديثة؛ ولكن أوسع حلقة من حلقات هذه الموجة وآخرها تلاشت بانتهاء القرن التاسع عشر، وبتلاشيها تركت البربر المستعربين يحكمون شمال وشمال غرب أفريقية، والترك المسلمين يحكمون شمال شرق أفريقية، والزنوج المستعربين يحكمون النيجر والسودان الأوسط، وبعض العرب يحكمون النيل الأعلى وساحل نوبيا وعرب عمان واليمن وحضرموت يحكمون ساحل أفريقية الشرقي. وامتد نفوذهم إلى الداخل حتى وصل إلى إقليم البحيرات والكنغو الأعلى.

ولنتحدث الآن عن أثر الإسلام في بعض هذه الولايات كمثل للولايات الأخرى، وليكن حديثنا عن نيجريا والسودان الأوسط.

حضارة جديدة

كان لدخول الإسلام في أفريقية تأثير هام على سكانها وخاصة في السودان الغربي. ولم يقتصر تأثير الإسلام على التغيير الواضح الذي أحدثه في الأهلين من الناحية البشرية، بل لقد حمل معه إلى هؤلاء الأقوام حضارة جديدة منحت الأجناس الزنجية أخلاقاً وثقافة لا

زالت تميزهم في حياتهم السياسية ونظمهم الاجتماعية. ولقد رأينا كيف أن كثيراً من الهجرات القبلية العديدة خلال ألف سنة الأخيرة حدثت تحت ضغط الإسلام ضغطاً مباشراً أو غير مباشر؛ بل إننا لنرى أن ثورة الفولاني السياسية في القرن التاسع عشر ودخول الكانمبو إلى بورنو كان تحت تأثير الإسلام. ولقد كان للإسلام كذلك تأثير عميق في لغات نيجريا الرئيسية، فمعظمها تحوي كثيراً من الألفاظ العربية التي لا تزال تستعمل حتى اليوم.

والإسلام الآن دين السواد الأعظم من سكان أرض وبورنو بل لقد نفذ الإسلام إلى كثير من القبائل الوثنية التي لم يصلها التبشير المسيحي بعد، وكما أن الإسلام دخل في هذه الجهات من الشمال فإن الشمال أشدها وأكملها إسلاماً - وإن كان الإسلام في نوبيلاند ويوروبالاند له نصيب كبير من القوة والانتشار ومع هذا فهناك مساحات شاسعة لم يدخلها الإسلام بعد.

ونحن لا نعرف إلا قليلاً عن حالة المسلمين خلال القرون السابقة لجهاد الفولاني. ولو أننا وثقنا بأقوال ليو الأفريقي فإن أهالي كاتسينا وكانو كانوا برابرة نصف عراة في منتصف القرن السادس عشر. وعلى الجملة فالحوصا قد يكونون أيسر قيادة وأسرع تأثراً بالدعوات الدينية من غيرهم. وفي سنة 1804وضع الشيهو عثمان (قد تكون شاه أو شيخ ثم حرفت) لبلاط جوبير نظاماً هو خير قليلاً من النظام الوثني، وقد بقي الأهلون يصلون للموتى ويمجدون الأولياء الراحلين ويسمحون لنسائهم بالخروج سافرات. ولقد لاحظ (أولدفيلد في رابا أن ابنة عثمان زايكي حاكم نوبيلاند الفولاني تحمل في يدها زجاجات برتغالية مملوءة بالمشروبات الروحية، فشرب الخمر وعقيدة الخلود لازالا سائدين.

ولا زالت بعض الطقوس الوثنية تقام عند تولية الأمير العرش؛ ورؤساء (اكوين المسلمون في هارداوا عند انتخابهم يقدمون فروض الطاعة للشجرة المقدسة.

والقرآن لديهم هو الكتاب المقدس؛ بل إنهم ليستشفون بشرب الحبر الذي كتبت به آيات القرآن. وهم ما زالوا يعتقدون في السحر والتعاويذ، ولكنهم يتقون شر السحر بالآيات القرآنية والاحجبة يحيطون بها رقابهم وأذ رعتهم وأوساطهم والمسلمون في تلك الأقاليم عند بناء منازلهم يدخنون الطلاسم لتقيهم شر الأرواح الخبيثة.

من هذا كله نرى أن الإسلام من الناحية الروحية لم يستطع تماماً استئصال شأفة الوثنية أو إزالة خرافاتها لانقطاع الصلة وبعد الشقة بينه في تلك الجهات وبين ديار الإسلام القوي الحق. ولكن الإسلام من الناحيتين السياسية والاقتصادية بادئ الأثر في هؤلاء الأقوام. لقد حمل الحضارة إلى هذه القبائل المتبربرة، ودعا جماعات الوثنين المبعثرة إلى وحدات مرتبطة، وسهل التجارة بين هذه المناطق وبين العالم الخارجي، وبذلك استيقظت الغرائز التجارية الكامنة في نفوس الحوصا والنوبي واليوروبا والبري

بري وحملهم على الظهور بمظهر لائق، ورفع مستوى معيشتهم بأن خلق لهم جواً اجتماعياً راقياً؛ وبث في نفوس المسلمين الشعور بالعزة واحترام النفس والغير. فتفوق المسلمين في تلك الجهات على غيرهم من الناحيتين الثقافية والسياسية يرجع إلى تعاليم دينهم؛ فنحن لا ننسى أن الإسلام حمل إليهم فن القراءة والكتابة. . . والآن أصبح زنجي السودان بعد أن حرم عليه الإسلام شرب الخمر وأكل لحوم البشر وسفك الدماء رفيقاً لسكان العالم المتحضر.

(البقية في العدد القادم)

جمال الدين محمد الشيال.

نقل الأديب

للأستاذ محمد اسعاف النشاشيبي

فافشر ما شئت - 259

في (الغيث المسجم) للصفدي: حكي أن بعض الوعاظ كان على منبره يتكلم في المحبة وأمور العشق وأحواله، ومد أطناب الإطناب في ذلك فقام إليه بعض الجماعة وقال:

بعيشك هل ضممَت إليك ليلى ... قبيل الصبح أو قبّلتَ فاها

وهل رفّت إليك فروعُ ليلى ... رفيفَ الأقحوانة في نداها

فقال الواعظ: لا والله

. . .فقال له: فافشر ما شئت

تغزل برجليها - 260

قال ابن الجوزي في الشذور: قال ثابت بن سنان المؤرخ: رأيت في بغداد امرأة بلا ذراعين ولا عضدين، ولها كفان بأصابع معلقات في رأس كتفيها لا تعمل بهما شيئاً، وكانت تعمل أعمال اليدين برجليها، ورأيتها تغزل برجليها، وتمد الطاقة وتسويها.

وإنه لمفوه - 261

كن للمكارم بالعزاء مُقَنَّعاً ... فلعلّ يوماً لا ترى ما تكرهُ

فلربما أستتر الفتى فتنافست ... فيه العيون وإنه لمموَّهُ

ولربما خزن الكريم لسانه ... حذرَ الجواب وإنه لمفوَّهُ

ولربما ابتسم الكريم من الأسى ... وفؤاده من حرَّه يتأوَّهُ

ألله، ألله - 262

قيل لصوفي: لم تقول: ألله، ألله، ولا تقول: لا إله إلا الله؟

فقال: نفي العيب حيث يستحيل العيب - عيب

بين إمامين - 263

قال الحريري: قد غلظ الأصمعي في تصغير (مختار) غلطاً أودع بطون الأوراق، وتناقلته الرواة في الآفاق؛ وذاك إن أبا عمر الجرمي حين شخص إلى بغداد ثقل موضعه على الأصمعي إشفاقاً من أن يصرف وجوه أهلها عنه، وتصير السوق له، فأعمل الفكر فيما يغض منه فلم ير إلا أن يرهقه فيما يسأله عنه، فأتاه في حلقته، وقال له: كيف تنشد قول الشاعر:

قد كن يخبأن الوجوه تسترا ... فاليوم حين بدأن للنظار

أو حين (بدين)؟ فقال له: (بدأن) قال: أخطأت، فقال (بدين) قال: غلطت، إنما هو حين (بدون) أي ظهرن؛ فأسرها أبو عمر في نفسه وفطن لما قصده، وأستأني به إلى أن تصدر الأصمعي في حلقته، واحتف الجمع به، فوقف به وقال له: كيف تقول في تصغير (مختار) فقال: (مخيتير) قال: أنفت لك من هذا القول! أما تعلم أن اشتقاقه من الخير وأن التاء فيه زائدة؟ ولم يزل يندد بغلطه ويشنع به إلى أن أنفض الناس من حوله.

إلا الماء - 264

سئل جحظة البرمكي عن دعوة حضرها فقال: كان كل شيء بارداً فيها إلا الماء

خذه عني - 265

في (الأغاني): ولي قضاء مكة الأوقص المخزومي فما رأى الناس مثله في عفافه ونبله، فأنه لنائم ليلة في جناح له إذا مر به سكران يتغنى:

عوجي علينا رَبَّة الهودج

فأشرف عليه فقال: يا هذا، شربت حراما، وأيقظت نياما، وغنيت خطأ! خذه عني! فأصلحه وانصرف

266 - ردوها عليَّ

في (الغرر الواضحة) أربج على الحجاج في صلاته فلم يجسر أحد أن يهديه لما ضل عنه، فتلا قوله تعالى (رُدُّوها عليَّ) فردت عليه. فلله دره! ما أحسن ما أجال فكره حتى أدرك به الفهم العازب، ولم تبطل صلاته بكلامه. قيل للحسن (البصري): أتى رجل صاحباً له في منزل، وكان يصلي فقال: أدخل؟ فقال في صلاته (أدخلوها بسلام آمنين)، فقال الحسن: لا بأس

267 - زلق وقع في الطين

في (صيد الخاطر) لابن الجوزي: ما زال المتيقظون يأخذون الإشارة من مثل هذا حتى كانوا يأخذونها من هذا الذي تقوله العامة ويلقبونه بـ (كان وكان) فرأيت بخط ابن عقيل عن بعض مشايخه الكبار أنه سمع امرأة تنشد:

غسلت له طوال الليل ... فركت له طول النهار

خرج يعاين غيري ... زلق وقع في الطين

فأخذ من ذلك إشارة معناها: يا عبدي إني حسنت خلقك وأصلحت شانك، وقومت بنيتك، فأقبلت على غيري فانظر عواقب خلافك لي. وقال ابن عقيل: وسمعت امرأة تقول من هذا (الكان والكان) وكان كلمة بقيت في قلقها مدة:

كم كنت بالله أقل لك ... لذا التواني غائلة

وللقبيح خميرة ... تبين بعد قليل

قال ابن عقيل: فما أوقعه من تخجيل على إهمالنا لأمور غدا تبين خمائرها!

268 - المتنبي الأول

في (المختلف والمؤتلف) للآمدي: كان الأخطل الضبعي شاعراً، وادعى النبوة، وكان يقول: لمضر صدر النبوة ولنا عجزها. فأخذه عمر بن هبيرة فقال ألست القائل:

لنا شطر هذا الأمر قسمة عادل ... متى جعل الله الرسالة تُرْتَبا

قال: وأنا القائل:

ومن عجب الأيام إنك حاكم ... علي، وأني في يديك قصير

قال: أنشدني شعرك في الدجال. قال أغرب ويلك! فأمر به فضربت عنقه

269 - فرجت وكان يظنها لا تفرج

في (الغرر والدرر): أمالي أبي القاسم المرتضى: روي الصولي أن منشداً أنشد إبراهيم بن العباس وهو في مجلسه في ديوان الضياع:

ربما تكره النفوس من الأمر ... له فرجة كحل العقال

قال: فنكت بقلمه ثم قال:

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ... ذَرْعاً، وعند الله منها مخرج

كملت فلما استحكمت حلقاتها ... فرجت وكان يظنها لا تفرج

فعجب من جودة بديهته

270 - وما زالت الأشراف تهجي وتمدح

في (مؤنس الوحدة) لابن الأثير:

أهدى إلى سيف الدولة صدقة بن منصور بن مزيد كتاب ففتحه لينظر فيه، فوقعت عينه منه على هجاء بني أسد فأطبقه ثم قال:

وما زالت الأشراف تهجي وتمدح

إصلاح

في النقلة (250) في البيت الثاني: (وكيف) والصواب: (كيف)

غنىً. . .؟!

للأستاذ سيد قطب

غنيَّةٌ أنتِ بالتعبير قد ذَخَرَتْ ... أطواءُ نفسك منه زادَ أحقاب

وهبتني منه أشتاتاً منوَّعةً ... وزدتنِي منه في جود وإسهاب

في كلِّ جارحة عنوانُ ملحمة ... من الحديث، وسرٌّ جِدُّ جذَّاب

تقصُّ تاريخها في فنِّ رواية ... منسَّقِ النبر ذي لحن وإطراب

وإِن تاريخها أقصوصة جمعتْ ... تجاربَ الكون في أحلام أرباب

تجارب الكون في سحر وفي فتنٍ ... من نضرة الروض أو من وحشة الغاب
ومن سناء الداري في تألقها ... ورهبة الكون في جنح الدجى الخابي
ومن غموض الصحاري في مجاهلها ... والعيلم الرحب يطغي جد صخَّاب
ومن صِيالِ الضواري في تقحمها ... ومن أغاريد أطيارٍ وتَنْعاَبِ
وفرحة الظافر النشوان خافقة ... تختال معجبةً في خطو وثّاب
هذا حديثك بينا أنت صامتةٌ ... وعيتهُ كله في صمت محراب
فهل بلغتُ مدَى ما أنت زاخرةٌ ... من التجارب في خلق وإنجاب؟
لا. لا وحقكِ لم أبلغْ سوى طرفٍ ... من الحديث على وَفْر وإطناب
وخلف ذلك كنز كله طُرَفٌ ... يزيد مذخورُه في كف وهّاب
وإن عندك ما تعطينه أبداً ... للسائلين بإفصاح وإغراب
العين. ماذا تقص العين من خْبرٍ ... مسلسلٍ في حنايا النفس منساب؟
وما الذي أبدعت للفن إذ همست ... للأمنيات فلبَّتْ بضع أسراب؟
وأفصحت عن حنين كامنٍ وهوى ... يسري الهويني شَفُوفاً بين أهداب؟
والثغر وماذا يبث الثغر من قُبَلٍ ... في صمته العذب، بل في سحره السَّابي
وإن فيه لقبلاتٍ قد ارتسمت ... من بعد ما نضجت، لِلأَّثم الصابي
والجسم. ماذا يقول الجسم قد خفقت ... فيه الحياة، وتاهت تيهَ غلاَّب؟
يقول ما تعجزُ الدنيا برمتَّها ... عن أن تقول بتصويرٍ وإعراب
خلاصة أنت من فن الحياة حوت ... جميع ما تبدع الدنيا لإعجاب
غنية أنت بالتعبير قد ذخرت ... أطواء نفسك منه زاد أحقاب
(حلوان)
سيد قطب
يأس
للسيد جورج سلستي
يا حبيبَ الفؤادِ أسرفتَ في الصَدِّ ... وإني من غير صدٍّ أذوبُ!
وَتَجَنَّيْتَ يا حبيبي ومن غي ... ر تَجَنٍّ تكادُ روحيَ تزهقْ!
شفَّ جسمي النوى فبتُّ ولي جس ... مٌ بخيطٍ من الذِّماءِ مُعَلَّقْ!
فترفَّقْ فَدتْكَ روحي فمالي ... بين كل الورى سواك حبيبُ!
يا حبيبي أحسُّ من ألم البُعد ... وشَجْوِ النوى بقلبيَ يبكي
وبصدري المكبوت أرمضَه الحبُّ ... فأدمي منهُ الحنايا الحِرارا
وبرأسي كأنما سَوْرةُ اليأ ... سِ أطاحتْ بلبّهِ فاستطارا
يا لقلبي الباكي وصدري المدمَّي ... من حبيبٍ قضى بهجري وتركي!
إيه يا هاجري جراحي تنادي ... كَ وقلبي اللهيفُ يهفو إليكا!
كلُّ ما بي يدعوكَ فارجعْ بحقِّ ال ... وفا إليَّ قبل وفاتي
عُدْ ولو ساعةً أمتّعُ عينيَّ ... بضاحي مرآكَ قبل مماتي
ذاك حسبي من الحياة ودعني ... بعد هذا أموتُ بين يديكا!
جورج سلستي
من طرف أهل الحرف
ذكرتني مقالة الأديب البحاثة الأستاذ مصطفى جواد البغدادي (الأدباء المحترفون) وما رواه فيها من سيرة (الخبز أرزي) وشعره بإخوان له في الأدب والحرفة، فرأيت أن أملي بعض طرائقهم مضافاً إلى تلك المقالة البغدادية في (الرسالة الغراء):
قال علي بن ظافر: كان الوزير أبو بكر بن عمار كثير التطلب لما يصدر عن أرباب المهن من الأدب الحسن فبلغه خبر (ابن جامع الصباغ) فمر على حانوته وهو آخذ في صناعة صباغته، والنيل قد جر على يديه ذيلا، وأعاد نهارهما ليلا، فأراد أن يعلم سرعة خاطره، فأخرج زنده ويده بيضاء من غير سوء وأشار إلى يده وقال: كم بين زند وزند؟ فقال ابن جابر:
ما بين وصل وصد
فعجب من حسن ارتجاله. ودخل ابن عمار هذا سرقسطة فبلغه خبر يحيى القصاب السرقسطي، فمر عليه ولحم خرفانه بين يديه، فأشار ابن عمار إلى اللحم وقال:
لحم سباط الخرفان مهزول

فقال يحيى:
يقول للمفلسين: مه، زولوا
وكان يحيى السرقسطي ترك مهنته مدة ثم عاد إليها فكتب إليه الوزير أبو الفضل بن حسداي:
تَركت الشعر من عدم الأصابِهِ ... وملت إلى الجزارة والقصابه
فأجابه يحيى:
تعيب عليّ مألوف القصابه ... ومن لم يدر قدر الشيء عابه
ولو أحكمت منها بعض فن ... لما استبدلت منها ذي الحجابه
وإنك لو طلعت عليّ يوماً ... وحولي من بني كلب عصابه
لهالك ما رأيت وقلت هذا ... هزبر صيّر الأوضام غابه
فتكنا في بني العتري فتكا ... أقر الذعر فيهم والمهابه
ولم نقلع عن الثوريّ حتى ... مزجنا بالدم القاني لعابه
ومن يعتز منهم بامتناع ... فإن إلى صوارمنا إيابه
ويبرز واحد منا لألف ... فيغلبهم وتلك من الغرابه
وحقك ما تركت الشعر حتى ... رأيت البخل قد أوصى صحابه
وحتى زرت مشتاقاً حميمي ... فأبدى لي التهجم والكآبه
وظن زيارتي لطلاب شيء ... فأقصاني وغلّظ لي حجابه
وكان مظفر الذهبي مصوراً؛ ومن قوله:
كلفت بتصوير الدُّمي في شبيبتي ... وأتقنتها إتقان حر مهذب
وحاولت عنها رجعة ومدحتكم ... فلم أخل من تزويق زور مكذب
وكان نجم الدين يعقوب بن صابر منجنيقياً؛ ومن شعره:
كلفت بعلم المنجنيق ورميه ... لهدم الصياصي وافتتاح المرابط
وعدت إلى نظم القريض لشقوتي ... فلم أخل في الحالين من قصد حائط
قال ابن خلكان: كان ابن صابر المنجنيقي جندياً في ابتداء أمره، مقدماً على المنجنيقيين ببغداد، ولم يزل مغرىً بآداب السيف وصناعة السلاح والرياضة، ولم يلحقه أحد من أهل زمانه في فهمه لذلك، وصنف كتاباً سماه (عمدة السالك في سياسة الممالك) يتضمن أحوال الحروب وتعبئتها وفتح الثغور وبناء المعاقل، وأحوال الفروسية والهندسة والمصابرة على الحصار، والقلاع والرياضة الميدانية، والحيل الحربية الخ؛ وكان شريف النفس متواضعاً؛ وهو شاعر مجيد ذو معان مبتكرة، وجمع من شعره كتاباً سماه (مغاني المعاني) وكانت له منزلةً لطيفة عند الإمام الناصر، توفي سنة 626، ولابن صابر:
قالوا بياض الشيب نور ساطع ... يكسو الوجوه مهابة وضياء
حتى سَرت وخَطاته في مفرقي ... فوددت ألاّ أفقدَ الظلماء
وعدلت وأستبقي الشباب تعللا ... بخضابها فصبغتها سوداء
لو أن لحية من يشيب صحيفة ... لمعاده ما اختارها بيضاء
ومن الأدباء المحترفين السراج الوراق وأبو الحسين الجزار ونصير الدين الحمامي.
قال ابن حجة في (خزانته): (وتعاصر السراج هو وأبو الحسين الجزار والنصير الحمامي وتطارحوا كثيراً وساعدتهم صنائعهم وألقابهم في نظم التورية) ومن قول السراج الوراق:
يا خجلتي وصحائفي سود غدت ... وصحائف الأبرار في إشراق
وموبّخ لي في القيامة قال لي: ... أكذا تكون صحائف الوراق؟!
وقال الجزار:
كيف لا أشكر الجزارة ما عشت ... حفاظاً وأرفض الآدابا
وبها صارت الكلاب ترجيني ... وبالشعر كنت أرجو الكلابا
وكتب إليه نصير الدين الحمامي:
ومذ لزمت الحمام صرت به ... خلا يداري من لا يداريه
أعرف حر الأشيا وباردها ... وآخذ الماء من مجاريه
فأجابه أبو الحسين الجزار:
حسنُ التأتي مما يعين علي ... رزق الفتى والحظوظ تختلف

والعبد مذ صار في جزارته ... يعرف من أين تؤكل الكتف
وفي كتاب (المغرب في حلي المغرب): حضر الجزار بين يدي الصاحب الكبير كمال الدين عن أبي جرادة مودعاً وقد أزف رحيل الصاحب عن مصر سنة (645) فاتفق أن وجه سلطان مصر شيئاً من التمر الذي يصل من أعلى الصعيد في المركب المبشر بزيادة النيل على وجه البركة، فأمر الصاحب أن يقدم فأكل الجزار في جملتهم، وقال في ذلك ارتجالاً فأتي بأبدع تورية.
أطعمتنا التمر الذي ... للبركات قد حوى
لله ما أطيبه! ... لو لم تشبه بالنوى
(الإسكندرية)
(* * *)
القصص
من أساطير الإغريق
مصرع بروكريس
للأستاذ دريني خشبه
رأته أروروا حينما كان الصبح يتنفس أنفاسه الندية العطرية يثبت فوق الجبال ويصيد الوحوش بين الأدغال، فهامت به، ووقفت تعبده، وتروي من جماله، وتسقي نفسها الصادية أبداً إلى كل ريان مفتان. . . وحاولت أن تكلمه فشاح بوجهه، وتصدت له فأعرض عنها، ثم أنطلق في أثر ظبي فلم يزل به حتى أرداه وانحنى يحمله. . ولكنه وجد مكانه أورورا. . .! وجدها متجردة تمرغ جمالها تحت قدميه، فنفر نفرة جرح بها كبرياء ربة الفجر الوردية، وجعلها ترمقه بعيني أفعى، تود لو تنفث في صدره سمها فترديه.
أنا اورورا، ربة الفجر والندى، حبيبة الزنبق والبنفسج والورد، لا أروق هذا الإنسي) المخلوق من تراب!! وحق أبي لأسرنه ولأسجننه، ولأجعلنه يتلوى تحت قدمي، ويبكي من أجل قبلة أمن بها عليه!)
وأرسلت رقية من رقاها الساحرة فنشرت الظلام على عينيه والنسيان في قلبه، وبات لا يملك لنفسه حلاً ولا عقداً. . . ثم حملته إلى كناسها في شعاف الأولمب، وحبسته ثمة، وأذهبت عنه طائف السحر فأدرك ووعى، وهب مذعوراً ثم غرق في شيء كالحلم لما رأى العماد من ذهب، والطنافس من عجب، والكأس حفها الحبب، والندامى والطرب، وكل راقصة كالخيال يراقصها أمرد كالطيف، فتميل وتختال ويتأود كالسيف. . . وأورورا مع هذا وذاك تدل وتتبرج، وتفوح وتتأرج، كأنها ربيع بأكمله، زخرف الدنيا بالزهر، ووشاها بالروض، وابتعث فيها المرح والحياة
- أين أنت إذن؟ سيفال! أين أنت؟
- أين أنا؟
- ألا تعرف؟ هذه غرفات الأولمب!
- الأولمب؟!
- أجل. . . أولمب أربابك
- محال! لن يكون الأولمب هكذا!
- ولمه؟
- لأن الأولمب مأوى الصالحين! أليس الآلهة أجدر منا بالتقوى؟ ما هذا؟ أحمر ورقص وطرب. . . وفسق في الأولمب؟
- لا. . . ليس هذا الأولمب. . . لن يكون الأولمب هكذا!!
- بل هو الأولمب يا سيفال! وليس ما ترى هنا إلا قليلا مما هناك! هل ترى فينوس؟ ألم تصل لها؟ أنظر من هذه الكوة فهي تطل على حديقتها!
- وأنا ما شأني؟ أريد أن أذهب!
- تذهب؟ تذهب إلى أين يا سيفال؟ لن تبرح عاكفاً على اللهو الذي ترى!
- لا، لن يقوى الأولمب كله على قهري!
- ها. ها. . . مضحك. . . أنت مضحك يا سيفال! كل الأولمب؟
- أؤكد لك!
- ولمه؟

- لأني أحب زوجتي وأقدسها. . . إنها جميلة جدا
- أجمل من أورورا؟! أليس كذلك؟
- أجمل من أورورا لدى كل من ينظر بعيني زوج أمين مخلص!
- أنت عنيد يا سيفال! إنك تزدريني!
- بل أنا أنتصر للفضيلة التي كان ينبغي أن تتنزل علينا من الأولمب! من جاء بي هنا؟
- أنا. . .
- ولماذا؟
- أنت تعرف!
- لا أعرف شيئاً. . . والذي أعرفه لا يليق بشرف ربة! أرجو أن تطلقي سراحي!
- إذن أنت تفضل علي زوجتك! أهي أجمل مني؟ ألا تزال تعتقد هذا يا سيفال؟
- أنا أفضل زوجتي لأنها لم تتلوث. . . ولا زلت أقول إنها أجمل منك لأنني أنظر إليها بعيني لا بعينيك!
- زوجتك أجمل من ربة الفجر الوردية؟
- أجمل من ربات الأولمب جميعاً، إلا من تجملن بمثل روحها، ولست منهن!
- أيها التعس!
- ولم أكن تعساً وأنا اسعد الناس بزوجتي بروكريس!
- بروكريس! ها! عرفتها! إحدى وصيفات ديانا! حقيرة مثلك! أغرب من وجهي أيها القذر! إذهب! إذهب إلى زوجتك بروكريس التي تفضلها على أورورا؛ ستتمنى يوماً أنك لم تعرفها، وأنها لم تكن زوجتك. . . إذهب. . . إذهب!)

وبلغ بيته وهو يلهث من التعب، ويرتجف مما ألم به، فلقيته زوجته الجميلة الحسان بابتسامة شفت صدره، وقبلة ذات حميا أذهبت بعض ما وجد. . . إلا أنه كان ينتفض آنة بعد آنة، ويعود فيبتسم، ثم تغرورق عيناه بدموع نقية كاللؤلؤ كلما نظر إلى زوجته، حتى هجس وسواس في قلب بروكريس فقالت له:

- ماذا ياسيفال؟ أتخفي عني ذات صدرك؟
- كلا، ولكنها أورورا. . .
- ماذا؟ ماذا صنعت بك ربة الفجر؟
- كانت تحاول أن تسحرني عنك. . . أو. . . تشركني فيك على الأقل؟!
- ؟. . .
ولكنها فشلت. . . لقد أذللت كبرياءها
- وهل استطعت؟ إنها جميلة وصناع، ولها في الغزل الصارخ أساليب خارقة يا سيفال. . .
- لقد قهرتها وأساليبها. . . إن قطرة من معين إخلاص تطفئ لظى جحيم يا بروكريس!
- لا ريب يا حبيبتي. . . أنا أمزح فقط. . . سيفال، عندي لك مفاجأة طيبة
- مفاجأة! أية مفاجأة يا بروكريس؟
- تعال. . . افتح هذه الغرفة
- أوه! ما هذا. . . كلب عظيم، من أين يا بروكريس؟ إنه سينفعني كثيراً في صيدي
- ومفاجأة أخرى أعظم! أنظر في ركن الغرفة!
- هه! حربة! لم أر قط مثل هذه الحربة! إنها ليست من صنع البشر! آه! إنها من صنع فلكان لا شك! البشر لا يجيدون أن يصنعوا مثل هذه!
- إحزر إذن ممن الهديتان؟
- من الملك!
- وأنى لي أن يهدي الملك إلي؟
- ممن إذن؟
- إحزر!
- لا أدري!
- إنهما من ديانا يا سيفال! أهدتهما إلي هذا الصباح!
- من ديانا؟ آه لقد ذكرت ذلك أورورا
ماذا ذكرت لك أورورا؟
- أنك كنت إحدى وصيفاتها!

- وأي ضير علي أو عليك في هذا؟ أليست هي إحدى تابعات أبوللو؟ لقد كانت وما تزال تتمنى أن لو كانت إحدى وصيفات ربة القمر!
- لا ضير، لا ضير يا بروكريس
- إني أهب لك ما أهدت ديانا إلي!
- أشكرك!
- الكلب لا تسبقه الريح، والحربة لا تخطئ الغرض
- وظل سيفال يعود أصيل كل يوم إلى زوجته مثقلاً بشتى أنواع الصيد؛ وأحب كلبه وحربته حباً لا يعدله إلا حبه بروكريس
- واشتهر أمر الكلب في الإقليم كله، وذاع صيته، حتى لقد أخطأ بعض أفراد الشعب في حق بعض الآلهة، فسلط عليهم ثعلباً سلقاً لم يستطيعوا مكافحته، ولم تقو كلابهم له على طراد، فاجتاح ماشيتهم، وأتى على دجاجهم، وعاث في حقولهم، ونفش في زروعهم، ولم يدروا كيف خلاصهم منه، حتى سمعوا بكلب سيفال فرجوه فيه، كيما يطلقه في أثر الثعلب
فيريحهم من شره. . . وانطلق ليلاب - وهذا هو أسم الكلب - وراء الثعلب، كما يمرق السهم عن القوس، أو كما تمرق النظرة الخاطفة عن العين النجلاء؛ وما انفك يحاوره ويداوره، وينبح به فيزلزله، حتى هم أن يفتك به ويمزقه إرباً. . . ولكن حدث أن كانت الآلهة تطلع من فلال الأولمب، تتفرج بهذا الطراد، وشرح صدورها بمرآه، فالتفت بعضها إلى بعض، وعز عليها أن يقتل كلب إلهي ثعلباً إلهياً أمام الملأ من الناس، فقضوا لتوهم أن ينقلب الاثنان فيكونا تمثالين من المرمر الناصع، فهما كذلك إلى اليوم!!
وأسف سيفال على كلبه، وأنقلب على عقبيه غضبان صعقا. . . ولم يزل في كل يوم، وفي مثل تلك الساعة التي حاقت بكلبه العزيز هذه النازلة، يتوجه إليه، ويقف قليلاً عنده، حاناً لذكراه، آناً على ما حل به، ثم ينطلق بعد، وفي يديه رمح ديانا، فيصيد الظباء وليس معه ليلاب
وانطلق مرة في إثر ظبي فأنهك قواه، ونال منه الإعياء، وانسدح على العشب الأخضر في فيء دوحة باسقة، ثم راح يتخلج من شدة التعب؛ وكان الوقت ظهراً، وكان القيظ قد أجج الدنيا حوله فتفصد العرق من جسمه المنهوك، وتراخت عضلاته ووهنت روحه، وأنشأ يردد كلاماً كالأغنية يرسله هكذا:
أين أنت يا نسمة؟ يا ابنة الربيع اللعوب
يا منعشة الروح المتعبة، أين أنت؟
هلمي يا نسْمة، هلمي إلى سيفال،
فهو مشوق إليك، يرجو لو تنفسين عنه؛
هلمي يا نسمة ففرجي عن سيفال المضني،
وهبي على رأسه الملتهب، وصدره المكروب؛
لقد كنت يا نسمة، يا أحلى قُبل الحياة،
تداعبين جبيني، وتنعشين نفسي،
فماذا حال بينك وبيني، يا نسمة الربيع،
وساقية الحب، ورسول المحبين. . .
وكانت أورورا ما تفتأ تتعقب سيفال في كل فج، وترقبه في كل حنية؛ وكانت تقف في صورة بلبل فوق رأسه، مختبئة في أفنان الدوحة التي نام في ظلها؛ فلما سمعته يتغنى غناءه، ضحكت واستبشرت، وانتهزتها فرصة نادرة للإيقاع بينه وبين زوجته، وانطلقت من فورها إلى بروكريس، حين تكشفت لها في صورة إحدى صويحباتها:
- بروكريس!
- مرحباً بأعز الحبيبات، ماذا جاء بك في هذا القيظ؟
- نبأ أسود ما كنت أؤثر أن أحضر إليك به!
- نبأ اسود؟ يا للهول! ماذا؟
- أرجو أن لا أثير سخطك علي. . .
- كلا. . . كلا. . . عجلي أرجوك!
- سيفال!
- ماله؟

- أتذكرين يوم رويت لي ما كان من أمره مع أورورا؟
- لم أنس! ولكن مال سيفال؟
- يبدو لي أني لم أكن مصيبة في تبرئته! لقد نفيت شكوكك فيم ذهبت إليه من الميل إلى ربة الفجر، وقلاه لك لما عرف إنك كنت وصيفة ديانا!
- وماذا حدث بربك؟
- إنه يحب فتاة أخرى اسمها نسمة! إنه مولع بها أشد الولوع!
- لا أصدق!
- لا تصدقين؟ وهل أنا كاذبة؟
- وكيف عرفت؟ هل أوحي إليك؟
- بل سمعته يهتف بإسمها، ويشدو بحبها، ويتغنى أحر الغناء!
- لا أصدق، لا أصدق، سيفال لا يحب واحدةً سواي!
- هل لك في أن تسمعي غناءه بأذنيك يا صديقتي!
- وأين هو؟
- قريب من الدغل الذي عند النبع. . . سأحضر لك حصاناً صافناً
وغابت أورورا، ولم تتلبث طويلاً، بل عادت بعد هنيهة ومعها حصانان مطهمان، ركبتاهما وأسرعتا إلى الدغل. . . وكان فؤاد بروكريس يخفق كالعاصفة، وكان وجهها قد شحب وامتقع حتى صار كالليمونة، وكانت ألف فكرة تزحم رأسها وتثور فيه كالبركان، وكانت ما تنفك تحدث نفسها بالهواجس فتقول: (نسمة؟ ترى ما نسمة هذه؟ عروس من عرائس البحر؟ أم غادة من غيد السوق؟ أم ربة كأورورا من ربات الأولمب؟ أهي جميلة؟ أهي أجمل مني؟ ألها عينان كعيني؟ ألها روح تستطيع أن تمتزج بروح سيفال بقدر ما امتزجت به روحي؟ أهكذا ياسيفال؟ لقد غلبت اليقين على الشك يوم أن ذكرت لي أمر أورورا معك، فلم تعد الشكوك لتفترسني؟ يا ترى؟ ألست تعود إلى أصيل هذا اليوم مثقلاً بصيدك كسابق دأبك؟ حنانيك يا آلهة السماء!) فكانت زفراتها لا تخفي على أورورا، فكانت هذه تسليها وتواسيها
واقتربا من الدوحة التي نام تحتها سيفال وراح يغني. . . وأشارت أورورا إلى الزوجة البائسة فاختبأت في الحشائش الطويلة القريبة من سيفال، بعد أن تركت جوادها بعيداً من المكان. . . وهناك أنصتت بكل سمعها وقلبها، فسمعت زوجها ما يزال يتغنى باسم نسمة ويقول:
يا نسمة إلامَ أهتف بك يا نسمة!
يا نسمة يا أحب شيء في هذه الحرور!
تعالي قبلي خدي ووجنتيّ وجبيني!
كم أنا مشتاق إلى نسمة يا سماء!
فابعثيها رَخيةً نديةً، عليلةً بليلة!
تنعش فؤادي وتثلجْ برفيفها صدري
وكان ما خافت بروكريس أن يكون! فها هو ذا سيفال يهتف باسم حبيبته نسمة ويتغنى، ويتمنى لو جاءته تقبل خديه ووجنتيه؛ وها هو ذا يضرع إلى السماء أن ترسلها رخيةً نديةً تشرح الصدر وتثلج الفؤاد. . . فماذا بعد هذا؟ وأي برهان وقد سمعت الأذنان؟ (إذن لقد كذب علي في الأولى، ولن يكذب علي في الثانية. . . إذن لقد صبا فؤاده إلى أورورا، وما يزال فؤاده يصبو إلى الغانيات من كل جنس وفي كل فج. . . آه للنساء الضعيفات من
الرجال الأقوياء. . . ويلي عليك يا سيفال. . . ويلي عليك وألف ويل!)
وعاثت الوساوس في صدرها، وانقلبت أضواء الظهر الساطعة ظلاماً داجياً في عينيها الحزينتين، فأرسلت آهةً عميقةً قطعت بها على سيفال غناءه، فهب الفتى مذهولاً مروعاً، وحسب أن وحشاً يتربص به في الحشيشة، فجمع قوته، وتناول حربته - حربة ديانا التي لا تخطئ - وأطلقها إلى المكان الذي صدرت منه الهمهمة، وذهبت الحربة لتستقر في صدر بروكريس!!
وا أسفاه!
لقد جرى سيفال ليرى هذا الصيد الجديد، فماذا رأى؟
- بروكريس؟؟ يا للهول؟ أهو أنت؟

-. . .؟. . .
- وماذا جاء بك الساعة يا حبيبتي؟
- لا. . . شيء. . . فقط. . . لا تتزوج. . . نسمة، من بعدي!
- نسمة؟ أوه! إنها لا شيء. . . لقد كان الجو متأججاً من الحر يا حبيبتي. . . وكنت أتمنى أن تهب علي نسمة من الريح تروح علي!. . .
- أحق. . . هذا؟. . .
- هذا هو الحق وحبك يا بروكريس
- إذن. . . سلام. . . عليك
- بروكريس! بروكريس! لا! لا تغمضي عينيك دوني؟ افتحيها لسيفال!
ولكنها ماتت. . . وماتت بيد زوجها وحبيبها الأمين الوفي!
. . .وودعت الحياة وليس في قلبها إثارة واحدة من الشك في حبه وإخلاصه
وأرسل الفتى أنينه في الأفاق، ورفع وجهه ليقلبه في السماء بالشكوى، ولكنه رأى. . . أورورا. . واقفة تبتسم وتضحك. . فجن جنونه. . . وانطلق هائماً على وجهه، لا يلوي على شيء، ولا ترقأ له دموع. . . حتى مات!

دريني خشبة

البريد الأدبي

حادث عظيم في الصحافة البريطانية

وقع في يوم أول أكتوبر الجاري حادث عظيم في الصحافة الإنكليزية بل في الصحافة العالمية بأسرها، فقد اختفت جريدة (المورنن بوست) أقدم الصحف اليومية الإنكليزية، وفقدت كيانها المستقل لتندمج في منافستها القوية جريدة (الديلي تلغراف). ومنذ أول أكتوبر تصدر الديلي تلغراف باسمها الجديد وهو (الديلي تلغراف والمورنن بوست) ونستطيع أن نقدر أهمية هذا الحادث الصحفي متى علمنا أن (المورنن بوست) قطعت إلى اليوم مائة وخمسة وستين عاماً من حياتها المستقلة، وأنها لبثت مدى حياتها الطويلة دائماً من أعظم الصحف البريطانية وأقواها نفوذاً. وقد أنشئت المورنن بوست في سنة 1772، واستمرت تصدر بانتظام حتى اليوم وكانت نزعتها دائماً دستورية محافظة، ولكنها كانت تصطبغ دائماً بنزعة استعمارية وإمبراطورية عميقة، وكانت دائماً أشد الصحف البريطانية معارضة للسياسة التحررية، ومن ثم فقد كانت أشد خصومة لسياسة الحكم الذاتي سواء أكان في أرلنده أو الهند كما كانت من أشد خصومة للحركة الوطنية المصرية وللمعاهدات المصرية الإنكليزية. أما جريدة (الديلي تلغراف) منافستها القديمة ووراثتها اليوم فقد أنشئت في يونيه سنة 1855، على يد أسرة لادسون الشهيرة، واستمرت تحت إشرافها وإدارتها حتى سنة 1928إذ انتقلت ملكيتها من اللورد برنهام آخر أصحابها من أسرة لادسوف إلى اللورد كامروز صاحبها الحالي. وكانت الديلي تلغراف أول جريدة إنكليزية بيعت ببنس واحد (أربعة مليمات) وهو ما أعتبر يومئذ مغامرة صحفية جريئة لأن الصحف كانت تباع يومئذ بأربعة إلى خمسة بنسات، وكان صدورها في أربع صفحات فقط. أما اليوم فهي تصدر في اثنتين وثلاثين صفحة من القطع الكبير وتباع أيضاً ببنس واحد.

ونشأت (الديلي تلغراف) حرة في نزعتها السياسية، وكانت تناصر سياسة جلادستون في أواخر القرن الماضي، ولكنها تطورت في اتجاهها السياسي شيئاً فشيئاً حتى غدت محافظة اتحادية وأخذت تشاطر منافستها القديمة نزعتها الاستعمارية، ولكن بأسلوب أكثر اعتدالا وأقل تطرفاً، وجمعت الديلي تلغراف أقطاب الكتاب في أواخر العهد الفكتوري، وتألق فيها نجم طائفة كبيرة من أعظم الصحفيين؛ وتولت الأنفاق على بعثة استانلي الاكتشافية سنة 1874 - 77. ولهلم 1908 ومن أشهر مواقفها الصحفية حديث نشر للقيصر سنة الثاني، فكان له أعظم صدى، وكاد يزعزع عروش آل هو هنزلرن، وكان من نتائجه أن استقال البرنس فون بيلوف رئيس الحكومة الألمانية. والديلي تلغراف اليوم من أكبر الصحف الإنكليزية حجماً، وأعظمها نفوذاً، وأوسعها انتشاراً؛ وقد كانت تطبع حتى سنة 1928، أعني أيام أن كانت في حوزة اللورد برنهام 84 ألفاً، ولكنها مذ خفضت ثمنها ثانية إلى بنس واحد في سنة 1930، ارتفع عدد المطبوع منها إلى 532ألفاً وهو رقم انتشارها اليوم

وقد صدرت الديلي تلغراف عددها الأول في عهدها الجديد بعد أن ضمت إليها منافستها القديمة بكلمة مؤثرة قالت فيها إنها ترحب بقرائها الجدد قراء المورنن بوست القدماء، وأنه إذا كان اختفاء المورنن بوست تلك الجريدة الدستورية القوية يعتبر محنة قومية، فإن القراء يستطيعون بعطفهم ومؤازرتهم أن يخففوا وقعها، وأنها باحتفاظها باسم منافستها القديمة إلى جانب اسمها تدلل على ولائها للقضية المشتركة التي دافعتا ومازالتا تدافعان عنها. وأعلنت في مقال آخر، سردت فيها تاريخ الجريدتين، أنها سوف تحافظ أبداً على مبادئ الولاء والحرية والتسامح التي سارت عليها حتى اليوم، وستكون أبداً عند حسن ظن قرائها وأصدقائها.

الكتاب المصريون باللغة الفرنسية

اهتمت الصحافة الفرنسية بالمجموعة التي نشرها المسيو روبربلوم من نفثات أقلام الكتاب المصريين الذين يكتبون باللغة الفرنسية، وبكتاب (عودة الروح) الذي وضعه الأستاذ توفيق الحكيم، ونقله إلى الفرنسية المسيو موريك برين. فقد نشرت جريدة (البتي باريزيان) في القسم الأدبي مقالاً للمسيو جان فينيو الرئيس السابق لجمعية الأدباء تحدث فيها عن كتاب مصر وآثارهم في الفرنسية ووجوب معرفة أسمائهم ومؤلفاتهم باللغة الفرنسية ليطلع عليها القراء في فرنسا، وليأخذ هؤلاء المؤلفون مكانتهم في أسرة الفكر الكبيرة، وقد خص المسيو جان فينيو كتاب (عودة الروح) للأستاذ توفيق الحكيم بقسم من بحثه إذ قال:

(إن هذا الكتاب الحي الطريف موضوع باللغة العربية كما أن كتب فينيبير موضوع باللغة العبرية. وقد نقله إلى الفرنسية موريك برين، وهو من أفضل ممثلي الثقافة الفرنسية بالقاهرة. وقد غير عنوان الكتاب بالفرنسية واستبدله بعنوان (رواية نهضة مصر) وهنا وجه لمناقشته في هذا الاستبدال لأن القسم الاجتماعي بل القسم الأدبي والسياسي لا يتألف منهما الكتاب كله. فالمؤلف يستهل كتبه بنكات مسلية عن حياة الطبقة الوسطى في القاهرة - وهي حياة بسيطة ضيقة يعني أصحابها بأمور تافهة - وهم يقولون أن الشرقيين يقفون عند الأمور السطحية الخفيفة ولكن يوجد ثمة عدة حوادث وقعت للشاب محسن المتيم بحب جارته سنية الحسناء، وقد كان يجب أن يراعي جانب الإيجاز في الكلام عن هذا الموضوع. ثم أن الحادثين اللذين يطلق هذا التلميذ لسانه في الكلام عنهما منصرفاً عن تتمة تصريحاته الغرامية - يستطاع الاستغناء عنهما.

وبما أن الموضوع يدور على (عودة الريح) فقد كان يجب أن يبين المؤلف كيف فقدت تلك الروح. وهذه النقطة مصروف النظر عنها، ومهما يكن من الأمر فأن القسم الثاني من الكتاب وحوادثه تجري في إحدى ضواحي القاهرة في منزل والدي محسن يظهر لنا أنه أفضل قسم في الرواية، وفيه وصف لوالدي محسن اللذين كانا من أصحاب الأطيان الموسرين، بيد أنهما كانا أنانيين يعاملان الفلاح بقسوة.

ولدينا محاورة بين موظف بريطاني وعالم فرنسي تبين لنا الأماني الطامحة التي يمتاز بها هذا الجنس من البشر. فنحن نقرأ في الكتاب بعض عبارات تقتضي التأمل كالحديث الذي دار في القطار الذي سافر به محسن إلى أطيان والده، فإن أحد المسافرين وهو مصري الجنسية قال في عرض كلامه عن البلدان الأوربية (هذه بلدان خالية من الإخاء خلافاً لبلادنا حيث نرى الأقباط والمسلمين أخواناً)

وهذا الكلام موضوع نظر يبعث على التساؤل بعد مطالعة (مجموعة الكتاب المصريين باللغة الفرنسية) ورواية توفيق الحكيم عن الأفكار الأدبية الكبيرة، وعما إذا لم يكن الهدف الأسمى الديني، آخذاً في الانحطاط عن مستواه الأصلي في العالم، على أن الإنسان لا يسعه إلا إبداء الدهش من رؤية فضائل الدين الإسلامي القديمة مفقودة من هذه الكتب المختلفة وعدم اهتمام المؤلفين بها. ولم تنفرد أوربا بافتقارها إلى الحب الحقيقي وهو دون سواه قادر على تجديد شباب الأمم والنفوس)

وقد كتبت السيدة تريز هربان مقالاً عن رواية (عودة الروح) نشرته في جريدة (ليجور) وإليك بعض ما جاء فيه:

(إن مصر تظل في نظرنا أرض الماضي وهي ترتبط بحكايات النيل وأسرار الأهرام ولا نزال نسترشد بفنها وديانتها مدة طويلة وربما ظللنا مدة طويلة أيضاً صارفين النظر عن الاهتمام بحاضرها

ولا نجد مندوحة عن الاعتراف بالجميل للكاتب العربي توفيق الحكيم وموريك برين) مترجم روايته لكشفهما أسرار مصر الأخرى، أي مصر الفلاحين، والطبقة المتوسطة (المقيمة في ظلال الرموس المصممة على البقاء في الحياة

الحياة في القطب الشمالي

يفيد التقرير الأخير الذي أرسله الرفيق (بابانين) رئيس البعثة القطبية العلمية السوفيتية أن هذه البعثة دهشت عند ما رأت بعض الحيوانات والطيور الحية في المحيط المنجمد الشمالي

وقد كتب الرفيق (بابانين) من محطة القطب الشمالي يقول أنه يستفاد (اعتماداً على رواية (نانسن) أن كثيراً من الخبراء يشيرون إلى أن المحيط المنجمد الشمالي خال من الأحياء، على أننا شهدنا ظاهرة في غاية الأهمية، ذلك إننا سمعنا في اليوم الذي وصلنا فيه إلى القطب زقزقة طائر، فخيل إلينا في الحال أنه قد جئ به على إحدى الطيارات. على أنه ظهرت هنا بعد ذلك طيور أخرى من أنواع مختلفة.

وكان الرفيق شيرشوف (العالم المائي الذي يرافق البعثة) يجد دائماً كميات كبيرة من متباين أنواع السمك في مختلف الأعماق)

سرقة لوحة زيتية قيمة من متحف ليبزج

سرقت في صباح يوم 10 أكتوبر الجاري من متحف ليبزج لوحة زيتية للرسام الألماني لوكاس موللر المعروف باسم لوكاس كراناخ.

وتمثل اللوحة المسروقة رسماً فضياً لموسى الكليم وفي يده الألواح التي كتبت عليها الشريعة اليهودية، وظهر في مؤخر الصورة الشعب اليهودي.

وقد رسمت هذه اللوحة منذ حوالي 400سنة، وكانت تعد من أثمن اللوحات الموجودة بمتحف ليبزج وتقدر قيمتها بخمسة وعشرين ألف مارك تقريباً.

والذي تهمنا معرفته هو أن لوكاس كراناخ هذا فنان ألماني أصيل ولد سنة 1472 بكراناخ في أوبر فرانكين، وكان مصوراً خاصاً لقصر الأمير فريدريش العاقل بفيتيمبرج، واشتغل بكثير من الأعمال كالصيدلة وبيع الكتب إلى جانب اشتغاله بالفن، وكان له مصور كبير للتصوير.

وقد اختير عمدة لبلدة فيتمبرج المذكورة سنة 1537 وكان صديقاً حميماً لمارتن لوثر صاحب المذهب الديني المعروف، ومات سنة 1553في نفس البلدة.

وكان كراناخ أهم أستاذ في الفن الألماني في كل منطقة سكسونيا دون نزاع، وقد غلب على فنه في أول أمره طابع الدقة والقوة في إبراز المميزات الشخصية واستمر كذلك حتى سنة 1520 إلا أنه بعدئذ تهاون بعض الشيء في إخراج قطعه فجاءت ناعمة وأقل قوة مما سبقها.

والدارس للوحاته يلاحظ أنه كان ميالاً إلى الوجوه المربعة وكثيراً ما جعل سيقان النساء أطول من القدر المناسب.

ويعتبر كراناخ مصوراً ألمانياً شعبياً متبسطاً في اختيار مواقفه تخير ألوانه من تلك التي تميل إلى المرح والبهجة.

وله عدة لوحات كثيرة بالزيت وبالقلم الرصاص وبالحفر على الخشب محفوظ معظمها في ألمانيا وقليل منها في فيينا وفلورنسا وغيرهما

والعبرة هنا هي أن الزمان لم يمنح مصر بعد فناناً يستطيع تاريخ الفن أن يسجل اسمه من حيث الاتجاه الجديد أو الابتكار أو المقدرة الفذة؛ ذلك لأننا قوم نسجل لأنفسنا بأنفسنا النبوغ والعبقرية دون حاجة إلى تسجيل التاريخ.

ا. م

المستشرقون والإسلام

علمنا أن الأستاذ الشيخ عبد الرحمن حسن رئيس الوفد الذي قام بتمثيل الأزهر في مؤتمر تاريخ الأديان قد رفع إلى فضيلة الأستاذ الأكبر مذكرة تتضمن أسماء الكتب العلمية التي وضعها المستشرقون في مختلف المسائل الإسلامية، وجاء بعضها محرفاً وبعضها لا يفيد

حكمة الشارع، ثم بولغ في تحريف مدلولاتها ومعانيها على نحو يتعذر معه فهم أحكام الإسلام على وجهها الصحيح

وقد أشار الأستاذ في مذكرته إلى أن هذه الكتب تدرس في بعض الجامعات العلمية

على أنها صورة صحيحة لما جاء في الشريعة الإسلامية من أحكام وقواعد، وبما أن مؤتمر الشريعة الإسلامية - الذي رؤى أن يعقد في القاهرة - سيتناول بالبحث هذه المسائل، فمن الواجب أن ندرس هذه الكتب دراسة كاملة لتقول مشيخة الأزهر فيها كلماتها في هذا المؤتمر

وقد وافق فضيلة الأستاذ الأكبر على هذا وأصدر أمراً إلى إدارة المعاهد الدينية بأن تطلب إلى المكتبات الشهيرة في إنجلترا وفرنسا وألمانيا لتبعث إلى المشيخة بهذه الكتب التي ذكرت في قائمة خاصة وستؤلف لجنتان إحداهما من كبار رجال القانون وبعض المتضلعين في اللغات الأجنبية لتطلع على هذه الكتب ولتنقل ما جاء فيها خاصاً بالمسائل الإسلامية إلى اللغة العربية. والثاني من كبار علماء الأزهر لتقوم بوضع الأحكام الصحيحة لهذه المسائل على أن تعد بياناً يشمل جميع الأخطاء التي جاءت في هذه الكتب ليلقي في المؤتمر باسم مشيخة الأزهر.

في المجمع اللغوي

وضعت مذكرة لعرضها على صاحب المعالي وزير المعارف بتحديد موعد افتتاح المجمع اللغوي في دورته الخامسة.

وقد تم طبع مجلة المجمع في دورته الثالثة وستوزع قريباً وبدئ بطبع مجلة الدورة الرابعة الماضية. وسيجري المجمع في دورته الجديدة على نظامه العادي، نظراً لتأخر صدور القانون الجديد الخاص بالمجمع؛ وكان مجلس النواب قد أقر هذا القانون في دورته الماضية ولكن مجلس الشيوخ أرجأ التصديق عليه إلى الدورة الجديدة.

كليات المقاصد والكلية الشرعية

كتب إلينا أستاذ فاضل من أساتذتها يقول:

زار سعادة العشماوي بك وكيل وزارة المعارف المصرية كليات المقاصد والكلية الشرعية

التي أنشأها سماحة الأستاذ الكبير مفتي لبنان لتعد الطلاب للدراسة العالية في الأزهر الشريف، ولتنشئ الجيل الجديد الذي يجمع بين الثقافة الإسلامية والثقافة الحديثة، فسر منها سروراً عظيماً، وزار قاعاتها ومكتباتها، وحضر درساً في الأدب العربي للأستاذ علي الطنطاوي ودرساً للأستاذ الشيخ محمد الداعوق، فكان إعجابه شديداً وأعلن أنه على استعداد لقبول اثنين من طلاب الكلية في دار العلوم العليا في مصر بلا امتحان، فكان ذلك مكرمة عظيمة لسعادته تشكرها له الكلية خالص الشكر، وترجو أن يرى أثارها الطيبة في تقدم الكلية وازدهارها، وتوثيق الصلات بين مصر والأقطار الشقيقة في أقرب وقت، ونأمل من الرسالة (المجلة العربية الكبرى) أن تبلغه هذا الشكر على صفحاتها.

جمعية فرنسية إسلامية في باريس

ألفت أخيراً جمعية فرنسية إسلامية في باريس غايتها تعزيز الصداقة وتنمية العلاقات الفرنسية الإسلامية على قاعدة المساواة بين جميع أعضائها والتعلق المتين باحترام العقائد والآراء والابتعاد عن التبشير

وستتخذ هذه الجمعية مكتباً لها على مقربة من الجامع فتجعله مركز صداقة وتربية وتعاون. وسيؤلف هذا المكتب من: قاعات درس لعمال شمال أفريقيا الموجودين في منطقة باريس، ومكتبة تحتوي على مؤلفات فرنسية وعربية، وغرفة للمطالعة مجهزة بكتب عديدة عربية وفرنسية وقاعات للمحاضرات وعرض الأشرطة السينمائية

وهذا النادي سيعد لأن يصبح مركز ثقافة فرنسوية وعربية وستنشر فائدته في فرنسا وأفريقيا الشمالية والشرق القريب بفضل العلماء والأدباء والفنانين والفلاسفة العرب والفرنسيين الذين سيترددون عليه.

ذكرى مؤرخ كبير

أحتفل أخيراً في مدينة فالنسيين بفرنسا بذكرى المؤرخ الفرنسي الشهير (فراوسار) لمناسبة انقضاء ستمائة عام على مولده إذ أنه ولد على أرجح الروايات سنة 1337،

وقد أتخذ الاحتفال أهمية خاصة، لأن فراوسار يعتبر في الواقع عميد المؤرخين الفرنسيين في التاريخ الفرنسي فهو أول من كتب التاريخ في فرنسا بروح جديد، وأول من فهم أن التاريخ

شيء أكثر من القصة والرواية، وقد كان التاريخ حتى عصر فراوسار يكاد يمتزج بالقصة والأسطورة دائماً، وكان لا يزال خاضعاً لوحي الكنيسة، وكان المؤرخون هم الرهبان غالباً، فكان التاريخ مزيجاً من الروايات التي يصوغها رجال الذين حسبما تملي أهواء الكنيسة، وكانت الملوكية والشعب والحروب والحوادث جميعاً ينظر إليها من هذه الناحية، ويحكم عليها طبقاً لهذه الروح، ولكن فراوسار استطاع أن يتحرر من هذه الروح وأن يكتب التاريخ على أنه سجل الحوادث الجارية. وقد دون حوادث عصره في كتاب شهير يعتبر من هذه الناحية ذا قيمة تاريخية خاصة، وهو تاريخ فرنسا وإنكلترا وعلائقهما في عصره؛ ويعرف هذا المؤلف عادة (بتاريخ فراوسار) ويعتقد أنه أول مؤلف فرنسي وضع نهج التاريخ الحديث ومهد لتطوره كرواية حرة للحوادث والشئون ونستطيع أن نقارن فراوسار من هذه الناحية بمؤرخنا العظيم ابن خلدون، فكلاهما عاش في نفس العصر، وكلاهما استطاع قبل غيره أن يفهم روح التاريخ الحقة، وأن ينظر إليه من ناحية جديدة، وأن يعامله باعتبار أنه أكثر منقصة ورواية تخضع لتأثير العوامل الدينية أو السياسية، ولكن ابن خلدون كان بلا ريب أوسع آفاقاً من فراوسار؛ ولم يرتفع فراوسار أو غيره من المعاصرين إلى تلك الأفاق الرفيعة التي سما إليها ابن خلدون، والتي جعلت منه أول فيلسوف اجتماعي، وأول مؤسس لفلسفة التاريخ وأصول الاجتماع.

في نادي القلم العراقي

اجتمع نادي القلم العراقي مساء اليوم الثاني من هذا الشهر في دار أحد أعضائه السيد توفيق وهبي وتلا السكرتير رسالة وردت من نادي القلم الإنكليزي يطلب فيها ترشيح أحد كبار أدباء العراق لتعيينه عضو شرف أسوة بالأمم الممثلة فيه.

فقرر المجتمعون ترشيح معالي الأستاذ الشيخ محمد رضا الشبيبي رئيس نادي القلم العراقي وزير المعارف لهذه العضوية الفخرية وقد ألقى في هذا الاجتماع الدكتور متي عقراوي فصولاً من رسالة حول التعليم الإجباري فكانت مدار مناقشات دقيقة.

الكتب

يوميات نائب في الأرياف

للأستاذ توفيق الحكيم

محاورات أفلاطون

ترجمة الأستاذ زكي نجيب محفوظ

للأستاذ محمود الخفيف

تفضل الأستاذ الحكيم فأهدى إلي كتابه (يوميات نائب في الأرياف) وكنت قد قرأت فصولا في مجلة الرواية؛ بيد أني عدت فتلوته وقد انتظمه مجلد واحد فألفيتني أكثر استمتاعاً به وأكبر محبة له ولصاحبه.

المؤلف الفاضل غني بشهرته عن التعريف، عرفه جمهور القراء وأحبوه في (أهل الكهف) ووثقوا من مواهبه الفنية في تلك القصة الرائعة وفي أختها (شهرزاد) وزادتهم مؤلفاته بعد ذلك معرفة به، وارتياحاً إلى فنه، وابتهاجاً بتوفيقه. والحق عندي أن توفيق الحكيم قد صار في (القصة المصرية) أحد أعلامها الأفذاذ، بل لقد خطا بها وهي بعد في طفولتها خطوات سريعة وثيقة حتى لقد غدا في هذه الناحية (كعبد الوهاب) في الموسيقى وكالمرحوم (مختار) في فن النحت، وحق لمصر أن تفخر به كما تفخر بهما. ولست أعني بالإشارة إلى (القصة المصرية) تبريزه فيها وحدها فلقد كتب له النجاح في ذلك الفن في أوسع حدوده ورأيناه موهوباً كما يقول أهل الفن كما رأيناه يجمع إلى موهبته ثقافة من الطراز الأول. والقصصي يخلق أولاً وفيه القصة: في نفسه أسلوبها وروحها، وفي رأسه الميل الشديد إلى صوغها وإعلانها. وقل مثل هذا عن كل ذي فن.

والكتاب الذي أحدثك عنه ضرب من القصة إذ تجاوزنا عن أصولها المصطلح عليها فهو كما ترى اسمه (يوميات). غير أن الأستاذ قد ألبسه ثوب القصة في مهارة عجيبة تعد في ذاتها ناحية من نواحي نبوغه في هذا الفن. فقد جعل من (ريم) ومن حادثة مقتل (قمر الدولة) سلكا ينتظم أجزاءها ويتسلط على القارئ من أول الكتاب إلى أخره؛ ويمكنك أن تعتبرها نوعاً من القصص الإصلاحي على نحو ما كان يجري عليه دكنز في فنه وما كان

يتوخاه منه، وهنا نرى من الأستاذ الحكيم مسلكا جديداً في القصص لم ينزل به عن مستواه في مسلكه السالف في أهل الكهف وشهرزاد، تلك الناحية الفلسفية التي حلق بها في أفق عال فسيح. أجل رأينا في هذا الكتاب من مستلزمات الفن ومن آياته ما يعجب ويطرب! رأينا أولاً عنصر التشويق كما تجلى في خلق حادثة القتل ثم إخفاء القاتل والبحث عنه، وكما يتجلى في شكل أدق وأجمل من ذلك الوصف الشعري الجميل الفائق لتلك الفتاة الريفية (ريم) ذلك الوصف الذي عطف عليها القلوب، وجذب إليها النفوس، وأكسب القصة مسحة من الجمال السامي كانت تظهر فيه نظرات الأستاذ الفلسفية؛ ورأينا كذلك في القصة عنصر الفكاهة ناضجاً حلواً تسيغه الأفئدة وتعلق به، كما رأينا دقة الوصف وشموله في غير التواء أو تعقيد؛ ورأينا خبرة الأستاذ بالوسط الذي يكتب عنه تلك الخبرة المدهشة التي لم يدق عنها معرفة العبارات المحلية التي كان يجريها على ألسنة أشخاصه على اختلاف أعمارهم وطبقاتهم وفصائلهم. هذا إلى وصف الأشخاص أنفسهم حتى لكأنك تراهم وتسمع إليهم. وهاأنذا أحد أبناء الريف أشهد ما وجدت في وصفه شذوذاً ولا لمحت فيه مسحة من خيال. ورأينا في القصة إلى جانب ذلك كله النقد الصحيح الذي يرضيك؛ نعم قد يحسب بعض القراء ممن لم يروا مثل هؤلاء الأشخاص الذين وصفهم الأستاذ، كالقاضي الأهلي والقاضي الشرعي مثلاً أن عنصر (الكاريكاتير) زائد في بعض أوصافه، ولكن الذين رأوا في الحياة مثل هؤلاء شهدوا له بالصدق، وأعجبوا بطريقته وطلبوا منها المزيد

فوق هذا كله أو قل بهذا كله تحققت للكتاب ناحية فريدة وهو أنه سجل لعصر من عصورنا، فيه كثير من ألوان حياتنا في بيئة من بيئاتنا، سوف تقرأه الأجيال المقبلة وترى فيه من نواحي اللذة ما يحببه إليها ويكسبه بذلك طول الحياة. ولن أفرغ من هذه العجلة دون أن أطلب ملحاً من الأستاذ الحكيم أن يجري قلمه على هذا النحو في نواحي حياتنا الأخرى فيرينا يومياته في بيئة الموظفين مثلاً في (الدواوين) أو في غيرها من الجهات فما أحوجنا إلى هذا النوع من القصص يجري به قلم فنان.

أنتقل بالقارئ بعد ذلك إلى الكتاب الثاني (محاورات أفلاطون) وقد أضطلع بنقله إلى العربية الأستاذ زكي نجيب محمود ونشرته لجنتنا المباركة الناهضة (لجنة التأليف والترجمة والنشر)

عمل الأستاذ زكي كما ترى عمل المعرب، وقد يحسب البعض أن التعريب أمر هين لا يكلف صاحبه عناء، ولا يكشف عن مقدرة أدبية؛ ولكن الذين مارسوا هذا العمل والذين يقدرون الأمور حق قدرها، يعرفون أنه من أشق الأعمال ومن أقطعها حجة في معرض التدليل على المقدرة والكفاية الثقافية، وحسبك أن تذكر ما بين اللغات من تباين وتفاوت في الأساليب والتراكيب والاصطلاحات والمجازات وغيرها من ضروب التعبير، وأن تذكر ما تفتقر إليه اللغة العربية من الألفاظ التي تقابل ما استحدث من الألفاظ العلمية في اللغات التي ننقل عنها، لتعلم مقدار الجهد الذي يعانيه المعرب.

وفوق ذلك فهناك ما هو أهم من اللغة في ذاتها؛ هناك أصول الترجمة الصحيحة وما تتطلب من شروط، وأهمها في رأيي الإلمام التام لا باللغتين فحسب، فذلك قد يتوفر للكثيرين، ولكن الإلمام التام بالفن الذي يترجم. وعندي أن الذي يتعرض لترجمة فن من الفنون لا يفهمه حق الفهم، إنما يكون كسالك الصحراء أضلته دروبها أو ذهب بلبه فضاؤها الشاسع وقد جهل صواها، وتاه عن مبدئها ومنتهاها. أما الذي يترجم عن فهم وخبرة ووثوق من الموضوع فإنه كالربان الماهر عرف وجهته واتخذ إليها سبيله؛ نعم يكون الفاهم الموضوع من فهمه هذا ما يعينه على التعبير الصحيح، وما يجعل اللغة ذاتها طيعة في يده مواتية له فلا يتعثر ولا يقف ولا تظهر في عمله الركة ولا يشوبه الإبهام والتناقض والاضطراب.

والأستاذ زكي كما عرفته من قرب وكما عاشرته وصاحبته فيلسوف بطبعه، لا ترى الفلسفة فيه أثراً من آثار الثقافة فحسب، بل هي مظهر من مظاهر الطبع قبل هذا. تحدثه في أي أمر فيفلسفه، إن صح هذا التعبير؛ لذلك كان شغفه بالفلسفة ومسائلها نتيجة ميل ذاتي، وذلك لعمري سبيل العلم الصحيح. والذين لا يعرفونه إلا فيما كتب يشهدون له بطول الباع في هذه الناحية. وهل نسينا فصوله الممتعة في الرسالة؟ وهل نسينا كتابيه اللذين أشترك في وضعهما مع الأستاذ العلامة أحمد أمين وهما (قصة

الفلسفة اليونانية) و (قصة الفلسفة الحديثة)؟
إذا عرفت هذا عن زكي، وعرفت معه أنه متين في لغته، ضليع في الإنجليزية، أدركت مقدار نجاحه في ترجمة هذا الكتاب الذي أحدثك عنه. الحق أني معجب بهذه الترجمة، محتكم فيما أقول إلى الذين قرءوا الكتاب فصولاً متتابعة في الرسالة قبل أن يجمع في
سفر. ذلك أني أخشى أن يحمل البعض كلامي على المجاملة لما بيني وبين زكي من صداقة. وإذا كانت عين الرضى عن كل عيب كليلة، فتلك العين من ناحية أخرى ترى من المحاسن ما يخفى على غيرها وما يدق على أي عين سواها على أني لو وجدت في تلك الترجمة عيباً ما ترددت في ذكره بل وفي إبرازه
هذا عن الترجمة، أما عن الكتاب في ذاته فهو من تلك الكتب التي يعد نقلها إلى لغة معينة خدمة جليلة لتلك اللغة هذا لأنه من كتب الثقافة العالية التي أحدثت أثراً كبيراً في النهضات الفكرية للأمم التي ترجمته. وحسبك أن ترى سقراط كما يصوره تلميذه أفلاطون في ذلك الحوار، وأن ترى طرفاً من فلسفته في الأخلاق والحياة الإنسانية، وأن ترى أسلوبه في التفكير وتلمس أوجه الصواب فيما يطرق من مسائل، وأن ترى خلقه القويم وتحس عظمة روحه وقوة نفسه، ونقل ذلك الكتاب إلى لغتنا بالذات مكمل لناحية من نواحي النقص من ثقافتنا ولذلك فهو مظهر من مظاهر نهضتنا الفكرية الحديثة.
الخفيف
العدد 225 - بتاريخ: 25 - 10 - 1937
أي زمان هذا؟!
فرغ الشيخ منصور من قراءة (الأهرام) ثم ألقاها من يده الراعشة على الوسادة وقال بلهجة الساخط القانط: (أي زمان هذا؟) هل أتى أمر الله وقامت القيامة؟
وكنا خليناه لنفسه ساعة شغلها بالنظر في الجريدة، وشغلناها في شأن من شؤونه. فلما تحرك هذه الحركة العصبية، وقال هذه الجملة التعجبية، أقبلنا عليه نستفهمه الأمر ونناقله الحديث. والشيخ منصور هذا فقيه نابه من فقهاء الأزهر القديم، قضى عمريه في خدمة الدين وعلومه وهو على الحال القروية الأولى من بساطة الطعام والمنام والملبس، فلم يشْك داء ولم يشرب دواء قط!
أولاده مثقفون مترفون، يشغلون المناصب الرفيعة ويسكنون المنازل الأنيقة وينعمون بمتع الحضارة؛ ولكنه لا يزال هو وزوجه الشيخة يعيشان في دارهما العتيقة في حي الباطنية على النمط الأول: يأتدمان بالفول، ويتفكهان بالتمر، ويستصبحان بالزيت. ولا يخرجان - إن خرجا - إلا لصلة رحم أو لزيارة ضريح. والشيخ لا ينفك يحمد الله على أنه لم يركب سيارة، ولم يغش قهوة، ولم يشهد حفلة، ولم يتعلق بشيء من أسباب الدنيا إلا بما لا بد منه لسلامة البدن والدين؛ فلولا أنه يقرأ الصحيفة كل صباح، ويسمر مع نفر من تلاميذه كل مساء، لكان بينه وبين هذا العالم المتغير (كمال الانقطاع). وهو اليوم يدخل في حدود التسعين من سنيه قطيعَ القيام قعيدَ الغرفة، إلا أنه سليم الحواس شاهد اللب؛ ويرى أن الفضل فيما يتمتع به من طول العمر ونقاء الجسم وفراغ البال، إنما يرجع إلى الإيمان بحكمة الله والرضى بقسمة القدر. وبلغه أن قوماً من العلماء يسكنون في أحياء الأغنياء، ويستطيلون على الناس بالجاه والثراء، وأن أحدهم بلغ من ترفه وسرفه أن اشترى ثلاجة بعشر جنيهات، فاستهال الخبر، وتعاظم الأمر، ثم بكى وقال: يا حسرتا على الدين والعلم! إن العالم إذا امتلأت عينه من الدنيا، فرغ قلبه من الدين!
سأله أحدنا: ماذا قرأت يا مولانا في الجريدة فأنكرته على الزمان؟ فأجاب بلهجته تلك: حرب داخلية في الغرب، وحرب خارجية في الشرق، وحرب عالمية تترقب في البحر، وتتوثب في البر، وتتنزى على ألسنة الساسة المساعير من أبناء المدنية وربائب الحضارة؛ ثم سقوط الفرنك في سورية، وحبوط السياسة في فلسطين، وهبوط القطن في مصر، وقنوط الناس في كل مكان من صلاح الحال وانفراج الأزمة؛ ثم وباء الدنج الذي يؤازر
الملاريا والأنفلونزا على خمود الحياة وشل الحركة. لقد كنا لا نرى الموت إلا حيث تكون الشيخوخة الفانية، ولا نسمع بالمرض إلا قُبيل الموت المرغوب، ولا نعرف من

الأطباء إلا طبيب المركز يوم يزور القرية كل أربع سنوات، فيأمر بتسوية التلال، وكنس الأزقة، ورش الحيطان الخارجية بالجص؛ وكانت النفوس راضية مطمئنة تسبح في فيض من نعيم السلام والدعة، لا يُرمضها حقد على إنسان، ولا يقلقها حرص على شيء؛ وكان الناس لا يعلمون عن أوزار الحرب إلا ما يتسقطون من أنبائها الحين بعد الحين بين العثمانيين والمسكوف؛ وكانت السلامة أدوم، والأعمار أطول، والأرزاق أيسر، ورحمة الله أقرب، وأمة الرسول بخير

أما اليوم فكأنما أصاب الناس سُعار من الجحيم فلا يبرحون بين عمل دائب، وهم ناصب، وطمع شره، وتنافس دنيء، وعداوة راصدة. ثم فشا الطب ففشا المرض، وانتشر العلم فانتشرت الجريمة، وفاض الخير وغاضت البركة، واستبحرت المدنية المادية فخَفَت بين ضجيجها الآلي صوت الضمير، وهلك في عبابها المزبد سلام النفس. وكان الظن بالمدنية والعلم أن ينزعا من نفوس بني الإنسان غرائز الحيوان، ويهيئا لهم حياة الجنة التي حرمتهم إياها رذيلة الطمع. فهل رُفع الإيمان من الأرض حتى عم الناس هذا البلاء، وأصاب العلماء منه ما أصاب الجهلاء؟

فقلت له يا شيخنا! كان عدد الناس في صدر أيامك قليلاً، وخير الله بالنسبة إليهم كثيراً؛ فكانت الحياة وادعة، والنفوس قانعة، والجوارح عَفّة والجوانح سليمة. وبراءة الصدور من الحسد تصل قطيعة القلوب بالألفة، وترفه لغوب العيش بالمعونة؛ وخلو البال من الهم يدفع المرض عن الجسم، ويصد الرذيلة عن الروح. فلما جاءت المدنية الكاذبة وفرت وسائل الصحة، ومدت أسباب الأمن، فزاد النسل أضعافاً مضاعفة، وكثرت الحاجات كثرة فاحشة، فتزاحم الناس على موارد الرزق، وتكالبوا على مواد العيش؛ ثم أيأستهم هذه المدنية من عزاء الدين، وشككتهم في ثواب الله، وأرابتهم في غَناء الخُلق، فعادوا في حضارتهم الزاخرة بعجائب العلم كأوابد الوحش، لا يقودهم إلا غريزة الحي، ولا يحكمهم إلا قانون الحياة. والله وحده يعلم كيف المصير

فقال الشيخ منصور في تسليم المصدق واستسلام المؤمن:

الأمر لله يا بني! لا يقع في ملكه إلا ما يريد. نسأله تعالى أن يبقينا فيكم على سلامة، ويخرجنا من دنياكم على خير)

احمد حسن الزيات

الحظ المعاكس

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

الذين يعتقدون أنهم مضطهدون في الحياة وأن كل من في الدنيا وما فيها من ناس وأشياء يناوئهم ويكيد لهم ويناصبهم معذورون، وإن كان الأطباء يقولون أن هذا مرض؛ فقد تتوالى المصادفة على وتيرة واحدة لا تختلف أو تتنوع حتى يكبر في وهم المرء أن هناك عمداً، فيروح يعذر بن الرومي الذي حكوا أنه كان إذا رأى النوى مبعثراً أمام باب البيت يرتد داخلاً ويقعد عن التصرف في يومه ذاك إيثاراً لطلب السلامة مما يتوهم أنه لا محالة ملاقيه من السوء والشر

حدث يوماً أني بكرت في القيام من النوم ليتيسر لي أن أكتب ما ينبغي لي أن أكتبه في ذلك اليوم، ثم أخرج لقضاء عدة حاجات لا سبيل إلى إرجاء واحدة منها. فأما الكتابة فاستحالت لأن الآلة الكاتبة تعطلت لعلة لم استطع أن أهتدي إليها، ولأني لم أجد في البيت كله لا حبراً ولا قلماً ولا شيئاً مما يستطيع المرء أن يكتب به، فابتسمت - فما بقيت لي حيلة - وقلت: (صدق المثل. . . باب النجار مخلع) وحدثت نفسي أن هذا يفسح الوقت لقضاء الحاجات الأخرى، فارتديت ثيابي وخرجت من الشقة متوكلاً على الله، فلم أكد أضع رجلي على الدرج حتى زلت قدمي، فنهضت متوجعاً على يدي ورجلي فقد هاضني الاصطدام بالدرجات وحدثت نفسي أن ساقي على الأقل لا ينقصها هذا الرض الجديد، ثم نفضت التراب عن ثيابي - بحكم العادة فإن السلم نظيف - ومضيت متحاملاً على نفسي إلى (الجراج) ولكن السيارة أبت كل الإباء أن يدور محركها. ولست حديث عهد بالسيارات ولا اعرفني عجزت عن علاج حرانها إذا كان لأسباب عارضة، ولكن الأمر استعصى عليَّ في ذلك الصباح حتى كدت أجن، فتركتها واستأجرت سيارة وفي ظني أنها أسرع من الترام وما إليه، فلم نكد نقطع كيلو واحداً من الطريق حتى عرض للسائق راكب دراجة خرج فجأة من زقاق، فأراد السائق أن يتقي أن يدوسه ويزهق روحه فاصطدم بحافة الرصيف وكاد يقتلني أنا أو يحطمني

على الأقل. فنقدت الرجل ما استحق من الأجر وقلت: الترام أسلم وكنا عند محطته، فوقفت ثلث ساعة أنتظره وهو لا يجيء لسبب لا أدريه؛ وأنا أحتمل المشي مهما طال، ولكني لا أحتمل الوقوف خمس دقائق، فأحسست أن بدني قد تضعضع وأن ساقيّ أصبحتا لا تقويان على حملي، وإن كنت دقيقاً خفيفاً - وزناً ولا دماً - ورأيت مركبة خيل مقبلة فأسرعت إليها وركبتها، والقارئ أعرف بمركبات الخيل، وأكبر الظن أنه رأى كيف ينام الجواد وهو يوهمك أنه يجر المركبة. . . ما علينا. . . سرنا دقائق بسرعة كيلو وربع في الساعة وإذا بالترام الذي نفد صبري وتهدم جسدي وأنا أنتظره يدركنا ويمر بنا كالبرق الخاطف ويتركني أتحسر على العجلة التي صدق من قال إنها من الشيطان لعنه الله. وأوجز فأقول إن كل باب طرقته في ذلك اليوم الأسود ألفيته مسدوداً، وإن كل رجل أردت أن ألقاه وجدته مسافراً أو مريضاً، فاقصرت خوفاً على الباقين الذين كنت أريد أن أقابلهم أن يدركهم الموت. ولاشك أن بن الرومي كثرت تجربته لأمثال هذه المصادفات فصار يؤثر اختصار الأمر والنكوص من البداية اتقاء لمعانات الخيبة التي مل تكررها ولم يكن يجد فيها لذة وله العذر وأذكر أنه كان معنا في المدرسة الابتدائية تلميذ مجد مجتهد وذكي بارع، وكان حرياً بالنجاح والسبق في أي امتحان، ولم يكن لأحد منا أمل في مزاحمته، ولكنه كان قبل كل امتحان يصاب بمرض يقعده عن أداء الامتحان. وكنا نحن على نقيضه لا نصاب بمرض حتى ولا بزكام خفيف، وكان يتفق أن ينذرنا المدرس أنه مختبرنا غداً مثلاً في الجغرافيا فتهبط قلوبنا إلى أحذيتنا، فقد كانت الجغرافيا أثقل ما نتلقاه من المعارف والعلوم في المدارس الابتدائية لأنها كانت عبارة عن أسماء خلجان وأنهار وجبال ورؤوس وبلدان ليس إلا؛ وكان حفظ هذه الأسماء التي لا آخر لها يسود نور الضحى في عيوننا، ولا أعلم ماذا كان يفعل سواي، ولكني أعرف أني كنت أنشد المرض بكل وسيلة أعرفها فأروح أقف ساعة وساعتين في تيارات الهواء، وأصب الماء البارد على رأسي في الشتاء وأتركه مبلولاً للهواء وفي مرجوي أن أزكم أو أحم فلا يحدث من ذلك شيء، وأضطر إلى الذهاب إلى المدرسة فما بي بأس يصلح أن يكون مسوغاً للتخلف وأعاني الاختبار الذي أنذرنا به، وألقي جزاء العجز عن الحفظ، وتمضي الأيام وأنا صحيح معافى، وإذا بأحد المدرسين يبشرنا بأنه سيذهب بنا إلى حديقة الحيوان في يوم كذا فنفرح ونعد طعامنا ونمني النفس بيوم جميل نلعب فيه وننط ونمتع العين بمنظر القرود والفيل ذي الخرطوم - أبو زلومة كما نسميه - والأسود. ويصبح الصباح الذي أحلم به فأهم بأن أرفع رأسي عن الوسادة فإذا به أثقل من حجر الطاحون، فأستغرب وأتحسسه فلا أجده مشدوداً إلى شيء، فأسأل أمي فتقبل عليّ وتجسني ثم تقول: (أنت سخن. . لا بد من شربة حالاً) فأصيح: (ولكن كيف أذهب إلى جنينة الحيوانات إذا شربت الشربة؟) فتقول: (جنينة الحيوانات؟ أنت مجنون؟ نم نم. . . لا جنينة الحيوانات ولا غيرها. . .) فأتحسر وأقول لنفسي: (بقى يا رب تشفيني يوم امتحان الجغرافيا وتمرضني يوم جنينة الحيوانات؟ الأمر لله) وأرقد وتجيء الشربة فأتجرعها بكرهي، وبعد ساعتين اثنتين تهبط درجة الحرارة إلى الحد الطبيعي

ومن غرائب الدنيا أن فيها متزوجين يسخطون على نسائهم ولا يريدونهن - ولا يدري أحد لماذا تزوجوهن إذاً - ورجالاً يطلبون الزواج ولا يجدون النساء الموافقات، وفقراء لا يكادون يجدون الكفاف ولهم من البنين تسعة أو عشرة أصحاء يأكلون الزلط كالنعامة؛ وأغنياء يسر الله لهم الرزق وأدر عليهم أخلاف الثروة يشتهي الواحد منهم أن تكون له طفلة واحدة ولو كانت عوراء أو كسيحة. وترى بنات دميمات ثقيلات الدم والروح يتزاحم الشبان عليهن ويطرحن أنفسهم تحت أقدامهن وهن لا يردنهم ولا يشجعنهم ويرفضن أن يكن زوجات لهم وإن كانوا صالحين وأحوالهم حسنة وسيرهم مرضية. وترى بنات جميلات رشيقات ممشوقات يفتن العابد بالحسن والظرف وحلاوة الطبع وطيب الحديث وبراعة الذكاء، ولكنهن مسكينات لا يرغب فيهن أحد ولا يباليهن مخلوق ولا يحلم بوجودهن لا شاب ولا كهل. قالت لي مرة واحدة من هؤلاء الجميلات المسكينات - اعني المنبوذات - إن أغلب ظنها أن العنس هو كل حظها من الدنيا. فتألمت وقلت لها: (يا شيخة حرام عليك. . . أهذا كلام تقوله شابة في العشرين من عمرها؟) قالت: (هذا اعتقادي. . . وأي شيء هناك يغري بالأمل؟. . إن الناس يطلبون

المال) قلت: (مالك جاملك وعقلك وحسن تدبيرك وأخلاقك الطيبة) قالت: (أشكرك ولكنك لن تستطيع أن تحيي أملاً مات. . . إني أدرى منك. . .) فتذكرت فتاة هي مثال مجسد للدمامة وثقل الدم وقلة العقل فقلت: (إذا كانت فلانة قد وفقها الله إلى زوج صالح كريم. . .) فقاطعتني وقالت: (هذا هو الذي يحدث دائماً. . . أليس حظ فلانة هذه مدهشاً؟ من كان يتصور؟ اللهم لا اعتراض. . .) قلت: (إنك مازلت صغيرة فاصبري) قالت: (بالطبع. . . ثم إنه لا حيلة لي إلا الصبر ولكنه لا يسعني إلا أن أرى وأتعجب. . . هل تعرف إن كل من زارتنا خاطبة

- وإن كانت لم تصرح ببواعث الزيارة - ذهبت ولم تعد؟. . وليس هذا فقط بل سمعنا من معارفنا أن هؤلاء الزائرات الخاطبات عبنني بكيت وكيت (وذكرت لي عيوباً ليس فيها شيء منها) وإن كل حديث جرى مع أبي في أمر الزواج انتهى بالانقطاع بلا سبب نعرفه) فلم يسعني إلا أن أرثي لها. فليس كل ما تعانيه إبطاء الحظ عليها بل شر من ذلك الإيلام الذي تحدثه صدمة الخيبة كلما نشأ الأمل. وقد كان من أثر ذلك أنها صارت تجنح إلى التمرد أحياناً على المجتمع وعلى حالاته وما يكون بين الناس فيه؛ فلولا أن لها من عقلها وحسن تربيتها وازعاً قوياً. . .

وقالت لي مرة وأنا ماض بها إلى بيت خالة لها: (شف. . . أنا لا أخرج قط إلا مع أبي أو أخي أو معك أحياناً. . ولكني واثقة أن الناس يعرفون وجهي ولا يعرفون صلتك بنا سيرونني اليوم واثقة أيضاً أنهم سيعتقدون أنك. . . أنك. . . غريب. . . وأني خارجة معك للنزهة أو. . . وأني باختصار بنت فاسدة الأخلاق. . . وواثقة فوق هذا أنهم سيعنون بأن يذيعوا هذا عني كأن لهم ثأراً عندي. . . فما رأيك؟)

فقلت لأخفف عنها: (المصيبة واحدة. . . أنا أيضاً رجل تقي ورع أخاف الله وأتقيه ولي زوجة وأولاد؛ وأنا واثق أن ناساً يعرفونني ولا يعرفونك سيروننا فيقول كل منهم في سره أو لصاحبه: شف. . . شف. . . أما إن معه لبنتاً!!! يا ابن الـ. . .)

فضحكت فقالت: (هذا أحسن. . . ليس في وسعنا أن نصلح الكون إذا صح أن به حاجة إلى الإصلاح، ولكن في وسعنا دائماً أن نتلقى ما تجيء به الحياة بابتسامة حلوة كابتسامتك وإن لم يرزق كل إنسان مثل هذا الفم الجميل)

. . .وهكذا الدنيا دائماً

إبراهيم عبد القادر المازني

في تاريخ الجمعيات السرية

طائفة سرية عجيبة تعيش في عصر المدنية بأساليب همجية

تتمة البحث

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كان عهد القيصر إسكندر الأول أصلح عهد لنمو الحركات الروحية السرية في روسيا. ففيه أنشئت في بطرسبرج عدة محافل سرية لمزاولة الشعائر والتجارب الروحية، وكان قوام هذه الحركة عدة من سيدات الطبقة العليا مثل البارونة بكشفدن ومدام تتاريبوفا. وكان الأكابر والخاصة يشهدون هذه الحفلات الروحية التي اشتقت رسومها وشعائرها من رسوم بعض الجمعيات السرية الوثنية قبل جمعية (أهل الله) وطائفة (سكوبتسي) ذاتها؛ ووقع القيصر نفسه تحت تأثير البارونة فون كرورنر الشهيرة، وهي سيدة اشتهرت يومئذ بنزعتها الصوفية والروحية وكان لها أكبر الأثر في توجيه سياسة القيصر، وفي سير الحوادث والشؤون؛ وكان القيصر يعتقد أن مؤازرة هذه الحركات الروحية هي خير وسيلة لمكافحة حركة البناء الحر (الماسونية) والجمعيات السرية الأخرى التي كانت منها طائفة (سكوبتسي)، ولكن طائفة (سكوبتسي) أو طائفة المجبوبين لقيت في عهد إسكندر الأول كما قدمنا فترة صالحة للنمو، واستطاعت بما خول لها من الحرية والتسامح أن تلم شعثها، وأن تنشط لإذاعة مبادئها، واستطاعت بالأخص أن تنفذ إلى الطبقات المستنيرة التي لم تصل إليها من قبل. وغدا سليفانوف في شيخوخته كأنه ملك غير متوج تحج إليه الوفود من كل صوب، وتنهال عليه العطايا والمنح؛ وكثرت أموال الطائفة، واشتد نفوذها، وقدم اليانسكي وهو زعيم الطائفة الفكري إلى كبير الوزراء رسالة وضعها عن مبادئ الطائفة ومثلها، وفي يبرر إجراء (الجب) بحرارة، ويقترح على القيصر مشروعاً للإصلاح السياسي تنقل بمقتضاه السلطة الفعلية إلى طائفة (المجبوبين)، ويبقى القيصر رئيس الدولة بالاسم تحت

زعامة سليفانوف الروحية؛ فأثارت هذه الجرأة اهتمام القيصر وحكومته بأمر المجبوبين مرة أخرى، وقبض على اليانسكي، وسجن في أحد الأديار. أما سليفانوف فقد ترك حراً نظراً لشيخوخته وضعفه، بعد أن وعد بالكف عن الدعوة إلى الجب والاقتصار على الدعاية
الروحية
على أنه لم يف بهذا الوعد، بل استمرت الدعوة الهمجية وذاعت بين طبقات كثيرة، واعتنقها عدد من الأغنياء وذوي النفوذ، وبلغ عدد المجبوبين في هذه الفترة آلافاً كثيرة. وانتظم في سلك الطائفة يومئذ وصيف سابق للإمبراطور بطرس الثالث (فيدوروفتس) يدعى كوبليف، وأخذ يؤكد أن سليفانوف إنما هو القيصر بطرس بلا مراء، وإن القيصر إسكندر يعرف جيداً أن جده يعيش بين المجبوبين منذ عهد بعيد؛ وأسبغ سليفانوف على هذا الداعية لقب (النبي)؛ وهكذا أصبح سليفانوف يزعم أنه المسيح وأنه القيصر معاً
واكتشف حاكم بطرسبرج الكونت ملورادفتش أن ابني أخيه قد وقعا في شرك (المجبوبين) وأن أحدهما قد كابد بالفعل عملية الجب فثار سخطاً؛ وضاقت حكومة القيصر ذرعاً بهذا الاجتراء المجرم الذي لم تنج منه حتى طبقة النبلاء، فانتدبت في سنة 1820 لجنة سرية للتحقيق. وبعد البحث قرر قرارها على اعتقال سليفانوف. وفي الحال اعتقل الداعية، ولكن في رعاية ورفق، وألقي في دير سوزدال؛ فارتاع أنصاره، وحاولوا السعي لإطلاق سراحه، ولكن الحكومة كانت هذه المرة جادة ثابتة العزم. ولما رأى الزعماء أن السلطات تتربص بهم وترقب حركاتهم عمدوا إلى أساليب السرية القديمة، وأخذوا يعملون في الخفاء، ويتظاهرون بأنهم من أخلص أنصار الكنيسة، ولكن السلطات قبضت على معظم زعماء الطائفة وزجتهم في مختلف الأديار والقلاع. وتوفي سليفانوف في معتقله سنة 1832؛ ولكن (المؤمنين) يعتقدون إلى اليوم أنه حي، وأنه سيعود ليتولى السلطات في روسيا ويقيم يوم الحساب على نحو ما يعتقد الدروز في عودة الحاكم بأمر الله
ولم يخمد نشاط هذه الطائفة السرية العجيبة خلال القرن التاسع عشر، بل لبثت دعوتها تتسرب إلى جميع الطبقات؛ ونفذت الدعوة إلى الجيش بكثرة، واكتشفت السلطات مئات من (المجبوبين) في كرونستات وفي القوقاز، وأمر القيصر أن تؤلف من هؤلاء الخصيان فرقة خاصة في الجيش. وفي سنة 1842 قدم جند هذه الفرقة إلى القيادة بلاغاً قالوا فيه أنهم لا يعترفون بالقيصر، وإن القيصر الحقيقي هو بطرس الثالث الذي اعتقل في سوزدال وأعلنت وفاته كذباً، فقبض على زعماء الفرقة ونفوا إلى سيبيريا
وتوالت محاكمات دعاة (السكوبتسي) خلال القرن التاسع عشر، وأدمجت في قانون العقوبات الروسي العقوبات الآتية: وهي أن يعاقب الشخص الذي يقوم بتشويه نفسه بالنفي إلى سيبيريا؛ ويعاقب الذي يقوم بتشويه (بخصي) شخص آخر بستة أعوام في الأشغال الشاقة؛ ويعاقب الدعاة بالنفي إلى سيبيريا؛ ويعاقب الشخص الذي يقوم بإيواء الدعاة في منزله عقاب مرتكبي جريمة التشويه
ومن أشهر قضايا (المجبوبين) في هذه الفترة، محاكمة وقعت في سنة 1869 أمام محكمة جنايات تمبوف، وفيها حكم بالنفي على مكسيم بلوتتزين، وهو تاجر غني كان يأوي في منزله تسع نساء مشوهات؛ ذلك أن هذه الطائفة البربرية كانت تجتذب إليها النساء أيضاً، وكان تشويه النساء يجري بقطع أجزاء من الثديين أو بانتزاعهما، وكذلك بتشويه أعضاء أخرى؛ وكان يخرج من هؤلاء النسوة المشوهات بين آونة وأخرى (مريم) تزعم أنها أم المسيح المزعوم. وكان بلوتتزين من أكابر الدعاة، وكان يعتبر من (أنبياء) الطائفة وله نفوذ عظيم في الولاية كلها. وفي سنة 1876، كانت محاكمة رنانة أخرى أمام محكمة جنايات مليتوبول، وفيها ظهر أمام القضاة مائة وستة وثلاثون مجبوباً حكم على معظمهم بالنفي. وكانت هذه المحاكمة الشهيرة خاتمة حركة سرية واسعة النطاق تعدت حدود روسيا إلى رومانيا، وذهب ضحيتها مئات من الفلاحين والعمال. وكان الدعاة قد أخذوا إزاء اشتداد المطاردة في روسيا يتسربون إلى رومانيا وهنالك أسسوا لهم (محافل) سرية في ياسي وجلاتز؛ وظهر في جلاتز بين الدعاة شخص يدعى ليسين وهو روسي من موسكو، وكان يمتاز بنوع من الهيام الصوفي،

فالتف المؤمنون حوله ولقبوه (بالمنقذ) وزعموا أنه القيصر بطرس الثالث. وصرح ليسين لأنصاره أنه أعظم من المسيح، لأنه أتى لأجل المجد وليس كالمسيح لأجل المعاناة، وأسبغ صفة الأنبياء والحواريين على عدة من أنصاره؛ وذاعت الدعوة الجديدة في رومانيا بسرعة، وهرع الخصيان من كل صوب لتحية المسيح الجديد؛ وبعث ليسين رسله يبشرون بقيامه؛ ثم سار بنفسه في حفل من أنصاره إلى بطرسبرج ليقدم نفسه إلى (القيصر الظاهر)؛ ولكنه اعتقل مع زملائه في الطريق. وقامت السلطات بتحقيق واسع النطاق في أمر المجبوبين استغرق أربعة أعوام، وقدم إلى محكمة مليتوبول مائة وستة وثلاثون متهماً، وكان جلهم من الفلاحين ومعظمهم شبان ومنهم شيوخ قلائل وأحداث لم يجاوزوا الخامسة عشرة؛ وكانت في الواقع أشهر محاكمات هذه الطائفة السرية المدهشة

واعترف بعض (الأنبياء) المتهمين أثناء المحاكمة بكثير من أسرار الطائفة وإجراءاتها ورسومها الوثنية. ولكن ليسين (المسيح والقيصر) صرح أمام قضاته بأنه غير مذنب، وأن المؤمنين قد اختاروه وفقاً للنبوءات المقدسة، وأن رسل الطائفة يبشرون بالمسيح الجديد وفقاً لتعاليم الإنجيل، وإنه لا يزال على عقيدته مخلصاً لمبادئه ورسالته، وأنه منذ شبابه يبحث عن السلام والحقيقة فلم يجدها إلا لدى طائفة (سكوبتسي)؛ وألقى آخرون من الدعاة تصريحات روحية وفلسفية، وأشادوا بنقاء المثل التي ينشدها المجبوبون؛ وقضت المحكمة في النهاية على ليسين بالأشغال الشاقة ستة أعوام، وقضت على آخرين من الأنبياء بالأشغال الشاقة لمدد مختلفة، وقضت على معظم المتهمين الآخرين بالنفي إلى سيبيريا

وفي أوائل هذه القرن بعد ثورة سنة 1905 سمح للمجبوبين أن يختاروا مكان إقامتهم، فهرع كثير منهم إلى روسيا؛ وقدر عدد المنتمين إلى الطائفة يومئذ في روسيا بخمسة عشر ألفاً، وجرت بعد ذلك عدة محاكمات أخرى اتهم فيها الدعاة بالتحريض على (الجب) وقضي على مئات منهم بالسجن والنفي

وفي ظل النظام البلشفي استطاعت الطائفة أن تجوز العاصفة بسلام بالرغم مما لحق زعماءها الأغنياء من فقد ثرواتهم وأملاكهم الواسعة؛ ورأى الدعاة أن يسايروا النظام الجديد اجتناباً للمطاردة وقام منهم داعية يدعى ارماكوف، فوجه إلى جميع (المؤمنين) خطاباً مفتوحاً يناشدهم فيه أن يجانبوا الغنى والكبرياء والشح، وأن يعودوا إلى الحياة الأخوية الساذجة التي دعا إليها سليفانوف، واقترح أن ينتظم أبناء الطائفة في جماعات روحية مشتركة، ووضع للطائفة نظاماً تعاونياً جديداً على أساس الشيوع؛ وحمل ارماكوف على الاختلاط الجنسي، ووصفه بأنه أعظم عقبة تحول دون تحقيق الصفوة الإنسانية لمبادئ الحياة الرفيعة؛ وتبعه داعية آخر يدعى منشنين، وأذاع في سنة 1928 رسالة قال فيها إن مصائب الإنسانية كلها، وجميع المنازعات والجرائم والحروب، هي نتيجة الغريزة الجنسية. ثم يقول ما يأتي: (ما الذي يدفع إنساناً إلى الاختلاس والجريمة؟ هي الغريزة الجنسية. وفي كل مكان نرى عيادات الأمراض السرية، وفي كل يوم تقع آلاف من حوادث الإجهاض وقتل المواليد؛ ولقد كان العالم وما يزال غاصاً بالبغاء والبغايا، وكل ذلك يرجع إلى فعل الأعضاء الجنسية) ويقترح منشنين كعلاج لهذه المحنة الإنسانية أن يعاني

الرجال عملية (الجب) في سن النضج، ويقول إن ذلك لا يضير الإنسانية في شيء

وفي سنة 1929 اكتشفت السلطات السوفيتية محافل سرية للمجبوبين في موسكو ولننجراد. وظهر من التحقيق أن الدعاة يرتكبون جريمة التشويه، ويبشرون في اجتماعاتهم السرية باقتراب حكم القيصر بطرس الثالث؛ فقبض على كثيرين من الزعماء والدعاة، وحوكموا أمام المحكمة الثورية، وقضي على كثير منهم بالسجن (لأنهم يذيعون خرافة دينية تقترن بها فائدة مادية، ولأنهم ارتكبوا جرائم الضرب والجرح). ووقعت في سنة 1930 محاكمة رنانة أخرى في لننجراد حيث قبض على كثيرين من أعضاء الطائفة وبينهم عدة من أكابر الأغنياء السابقين، وعدة من العاملات؛ فقضت المحكمة على الزعماء بالسجن، ولكنها قضت ببراءة الضحايا من العمال والعاملات. وظهر من التحقيق أن الطائفة تعمل بنشاط في جميع أنحاء روسيا، وأنها تبذل كل الوسائل وكل صنوف الإغراء لاجتذاب الأنصار، وأنها لا تحجم عن ارتكاب صنوف الإفساد والوعيد والعنف لتحقيق غايتها؛ وأنها تستظل في دعايتها ببعض نصوص

الإنجيل والتوراة، وتعمد إلى خصي الأطفال وبذل العطايا للفقراء الذين يرتضون التشويه، واستخدام اليتامى ثم تشويههم بعد ذلك. وتجري عملية التشويه دون رسوم معينة بل تجري حيثما أمكن؛ ويأخذ الداعي على الضحية دائماً عهداً وثيقاً بالكتمان. وظهر أيضاً أن الدعاة يجتمعون تحت جنح الظلام في مصلى خفي يقام فيه حاجز بين الرجال والنساء، ويرتدي (المؤمنون) ثياباً بيضاء ويحملون الشموع المنيرة، ويتلون صلوات من تأليف رسلهم ودعاتهم، ويتمايلون أثناء الصلاة في حركات عنيفة تبلغ أحياناً درجة الهيام

وهكذا نرى أن هذه الطائفة السرية التي قامت منذ القرن السابع عشر على مبادئ وثنية، وأساطير روحية سخيفة، والتي تتوسل إلى تحقيق مثلها بأشنع الأساليب البربرية، لا تزال تقوم إلى اليوم في قلب أوربا، وفي قلب روسيا السوفيتية التي يغمرها جو من الإلحاد والإنكار لم تعرفه من قبل أمة من الأمم. على إن قيام هذه الطائفة الهمجية في قلب روسيا بالذات أمر يمكن فهمه وتفسيره، ففي قفار روسيا النائية توجد مجتمعات من الفلاحين يسحقها الجهل والفقر، وتنحدر في سذاجتها إلى مستوى يدنو من الهمجية، وفي هذه المجتمعات الساذجة المتأخرة تفشو الخرافات والأساطير الدينية بصور مروعة تذكرنا

بأساطير الوثنية الأولى؛ وفيها بالذات استطاع الدعاة أن يحشدوا ضحاياهم. بيد أننا قد رأينا أن دعوة المجبوبين قد وصلت في العصر الأخير إلى طبقة المثقفين والنبلاء. وأعجب من ذلك أن تقوم مثل هذه الطائفة إلى اليوم تبشر بمبادئها ورسومها الهمجية. ولكن روسيا بلد العجائب؛ ومن الصعب أن نتصورها قطعة من أوربا المتمدنة، وقد كانت وما تزال اليوم مسرحاً لأغرب الدعوات والمذاهب والأساطير

(فينا في أوائل أكتوبر)

محمد عبد الله عنان

التشريع والقضاء في العهد الفرعوني

للأستاذ عطية مصطفى مشرفة

- 1 -

قبل أن نتكلم عن تاريخ القضاء في مصر، ينبغي أن نمهد بكلمة عامة تتناول حالة المصريين في عصورهم الأولى قبل أن تنشأ فكرة القانون بينهم وقبل أن يخضع نظامهم لقواعد معينة مرتكزة على قوة الدولة تحدد سلوكهم وتنظم ما بينهم وبين غيرهم من علاقات

تدل الآثار المصرية على أن النوع الإنساني قطن مصر منذ أزمان عهيدة، وأثبت أكثر الباحثين في تاريخ الأجناس البشرية أن هذا النوع الإنساني عندما استوطن وادي النيل أخذ في استثمار أرضه، فظهرت الأسرة تبعاً لثبات المعيشة واستقرارها وأصبحت النواة الاجتماعية الأولى للمجتمع المصري. وكانت الأم في الزمن الغابر هي قطب دائرة الأسرة إذ لم يعرف الطفل إلا والدته؛ ثم ظهر الأب وأصبح له السلطة العليا عليها فخضع له جميع أفراد أسرته من زوج وولد ونزيل ورقيق

قامت إذن الحياة الاجتماعية الأولى عند قدماء المصريين كما قامت عند غيرهم من الأمم القديمة على جماعة الأسرة؛ ذلك بأن الإنسان مدني بطبعه ليس في قدرته أن يظل منعزلاً عمن حوله، فهو محتاج دائماً إلى مساعدة غيره له في كل أطوار حياته فالأسرة إذن هي أول خلية اجتماعية وجدت في الجنس البشري؛ وهذه الوحدة الاجتماعية الأولى اشتملت على جمع من الأفراد ربطتهم عاطفة القرابة وجمعتهم صلة الدم، وكانوا يخضعون خضوعاً تاماً في أموالهم وأرواحهم لرجل فيهم هو أب الأسرة أو جدها؛ فكان هذا الرئيس هو الذي يوفي بعهودها ويطالب بحقوقها ويقضي بين أفرادها، وكانت كلمته فيهم بمثابة فرض يطيعه أفراد أسرته ولو كان ظالماً؛ وكان أفراد الأسرة متضامنين يحافظون على أموال أسرتهم وحقوقها ويحمون أفرادها ويتحملون أعمال كل فرد فيها، فعلى كل منهم تقع مسؤولية أخيه ونتيجة جرمه، لأنهم متضامنون في الشر والخير معاً، فلكل منهم أن يطالب بحق أخيه، وعلى كل منهم أن يأخذ بثأر أخيه ثم اتسعت دائرة الأسرة على مر الأيام تبعاً لازدياد النسل حتى أصبحت عشيرة تتكون من

عدة أسر ترجع إلى أصل واحد وتدين بعقيدة دينية واحدة؛ ثم اتسعت دائرة العشيرة فتحولت إلى قبيلة تتكون من مجموعة من العشائر تضم جمعاً من الأفراد تربطهم رابطة القرابة أو المصاهرة أو المصادقة أو الضرورة للتعاون على اتقاء الأخطار؛ ثم توطنت القبيلة في الإقليم، وكانت مصر مكونة من عدة أقاليم كثيراً ما كانت تتحارب، فيتغلب إقليم على آخر ويضمه إليه. وقد أدت هذه الحروب إلى تكوين مملكتين عظيمتين إحداهما في الشمال والأخرى في الجنوب، إلى أن وحدهما (مينا) أو (ميناوس) أو (مصرايم) أول ملوك مصر بجعلهما مملكة واحدة تخضع لسلطانه سنة 3400 ق. م فكان بذلك أول مؤسس لأسر الفراعنة. لذا قال (أرسطو) في الكتاب الأول من السياسة: إن الأسرة هي مصدر الدولة وأساسها الذي تقوم عليه

وإذ اتضح لنا أن الأسرة هي أول جماعة فطرية وجب علينا أن نبين كيف كانت تلك الخلية الأولى من الوجهة القانونية وعلى أي قاعدة حددت صلاتها وعلاقاتها بين أفرادها من جهة، وبين الجماعات الأخرى من جهة ثانية

كانت سلطة رب الأسرة أو رئيس العشيرة أو شيخ القبيلة مطلقة، يقضي بين أفرادها بما يشاء لا ينازعه في قضائه منازع؛ وتمتد سلطته إلى أموالهم امتدادها إلى أرواحهم. وكان يدير شؤونها الداخلية ويتولى أمورها الخارجية أمام الجماعات الأخرى وفقاً للتقاليد والعادات، فكانت كلمته قانون الأسرة بين أفرادها كما كانت القوة هي القانون الذي يحكم صلاتها مع الجماعات الأخرى؛ فهي التي كانت تفض كل نزاع مهما كان نوعه، سواء أكان هذا النزاع مدنياً أم جنائياً، فمن كتب له النصر وتمت له الغلبة كان الحق والعدل في جانبه. فكانت القوة تحمي الحق بل كانت تخلقه وتوجده؛ فمن كان قوياً استطاع أن يحصل على كل حقه، ومن كان ضعيفاً فات عليه من حقه على نسبة ضعفه؛ وكان الانتقام الفردي هو طريق عقاب الجاني أو الجناة، وكان للمجني عليه أو لأي فرد في أسرته أن يقضي رغبة الانتقام التي تجول في صدره فيختار من طريق العقاب ما يزيل به حقده على كل مرتكب للجريمة. وقد يقوم أفراد أسرة المجني عليه بمهاجمة أفراد أسرة الجاني لتضامنهم في الأخذ بالثأر، ولاعتقادهم بأن جرم الدم لا يمحوه إلا الدم إذ لم يكن هناك من قوانين وقواعد تنظم استعمال ذلك الحق كما لم يكن هناك من سلطات عليا تحدد العقوبة وتشرف على تنفيذها

كان الأخذ بالثأر إذاً حقاً وواجباً معاً؛ وكثيراً ما كان عبئاً ثقيلاً يقع على أفراد أسرة الجاني فتختار أهون الشرين وذلك بتسليم الجاني إلى أصحاب الدم، وبذلك تتخلى عن المعتدي إما خوفاً من الهزيمة وإما اجتناباً للحرب ورغبة في حقن الدماء. وقد تكتفي أسرة المجني عليه إذا وجدت نفسها أمام خصم قوي بالصلح تلقاء تعويض أو فدية تؤخذ من الجاني حتى تغض النظر عن طلب الثأر، وبذلك نشأت فكرة شراء الجريمة بالمال، وسمي ذلك بالدية أو بدل الصلح على الجريمة؛ فكان القاتل ينجو من العقاب إذا أفلح في الصلح مع أهل القتيل. ولم يكن المال الواجب دفعه ثمناً للصلح متساوياً في جميع الجرائم المتعددة من حيث الجسامة، بل اختلف كثرة وقلة بحسب مركز الجاني والمجني عليه معاً رفعة وضعة وبحسب مركز أسرتيهما وبحسب الإهانة التي لحقت الأسرة المعتدى عليها. بسبب الجريمة قامت العدالة إذن وتأسست على المصلحة المادية المؤيدة بالقوة والمعززة بها؛ وشاع نظام المبارزة الذي هو التجاء صريح إلى حكم القوة لفض نزاع مدني أو جنائي، فكان المنتصر هو صاحب الحق؛ وأصبحت المبارزة وسيلة قضائية أخرى لفض النزاع بين المتخاصمين

ثم خطا المجتمع المصري القديم خطوة أخرى إلى الأمام تبعد بعض الشيء عن حالة الوحشية السابقة، فركن إلى مهارة الخصمين لفض النزاع، فشرع مثلاً مساجلات غنائية بين الخصمين يكون المنتصر فيها صاحب الحق، أو ترك ذلك إلى المصادفة كإلقاء الخصمين مكتوفي اليدين أو الرجلين أو هما معاً في الماء، ومن أشرف منهما على الغرق كان هو مقترف الذنب؛ أو يكوى به اللسان أو أي عضو آخر في الجسم بحديد محمى، ومن يمتنع منهما كان امتناعه دليلاً على أنه المذنب، إلى غير ذلك. وكانوا يلجئون إلى هذه الوسائل وأشباهها في تعرف الحق لاعتقادهم أن الله لا يخذل صاحب الحق أبداً

ثم تدرجوا في الرقي فاختاروا (وسيطاً) يفصل في النزاع بحكمته بينهم، وانتهى التدرج

إلى قبولهم (حكماً) يفصل في منازعاتهم، فحل (الحكم) محل (الوسيط) وبذلك أقبل الناس إلى شيوخ العشائر وإلى رؤسائها وإلى رئيس القبيلة وإلى كل شخص عرف بأصالة الرأي وصحة الحكم ليفصلوا فيما شجر بينهم من نزاع، فكان قضاء مضطرباً غير ثابت لأنه لم يصدر عن قانون مسنون يمده بقواعده، ولا يستند إلى سلطة عليا تتولاه وتؤيد أحكامه ولو

بالقوة عند الاقتضاء، لأنهم كانوا غير ملزمين بالالتجاء إلى هذا (الحكم) ولا مجبرين على اتباع قراراته، بل لم يكن هو نفسه مجبراً على الفصل بين من يحتكمون إليه؛ وكانت القوة هي الملاذ الأخير يلجأ إليه من لم يرض بنتيجة التحكيم لفض النزاع. ثم خطت الأمة المصرية بعد ذلك خطوات سريعة إلى الرقي إذ أحلت النظام القضائي محل الطرق السابقة وحتمت الالتجاء إلى المحاكم لتفصل في النزاع وفق قانون معين مسنون

نشوء فكرة القانون عند قدماء المصريين

لما كان الإنسان محتاجاً إلى زاجر يزجره أو رادع يردعه فقد أحس منذ القدم وجوب وضع القواعد والقوانين التي تحدد له مدى سلوكه ونشاطه وتحفظ له حقوقه وتقي الناس اعتداءه؛ لهذا وجب أن نتكلم عن المظاهر الأولى التي برزت فيها فكرة القانون في المجتمع المصري القديم وكيف استقل وتباعد عن المصلحة المادية المعززة بالقوة

لما نشأت المدينة كوحدة سياسية وتكونت من جماعات هذبتها العقائد الدينية وثنية كانت أم سماوية، وخضعت تلك الجماعات لسلطة رئيس الإقليم أميراً كان أو ملكاً، نشأت عندئذ فكرة القانون مستقلة عن القوة

كان قدماء المصريين يعتقدون أن المعبودة (ما) أو (معت) هي إله العدل والحق؛ لذا وضعوا على تاجها ريشة نعامة، وكانت تدل عندهم على العدل. وكانوا يقولون إن (توت) أو (طهت) أو (تحوت) المعروف عند اليونان باسم (هرمس) نزل إلى الأرض ووضع لسكان وادي النيل القدماء القواعد الأساسية للقوانين المدنية والجنائية فاعتبروه رب القوانين وإله كل المعارف؛ وكانوا يقولون عنه إنه أول مشروع مصري يحتذي وينسج على منواله. ويزعمون أنه ترك كتباً قيمة في التشريع وفي نظم القضاء، ولكنا لم نهتد إلى شيء من تلك الكتب. وكانوا يعتقدون أن للعدالة إلهاً يوحي بالحكم لمن يرفع إليه النزاع من الكهنة أو السحرة. وكان من نتيجة اعتقادهم أن قوانينهم منزلة عليهم من السماء وأنها صادرة بوحي الآلهة ومشورتهم أن صبغ القضاء عندهم بالصبغة الدينية التي أكسبته الإجلال والوقار. ثم تكونت بمضي الزمن وتكرر الحوادث والمنازعات المتماثلة أو المتشابهة وصدور أحكام مصدرها الإلهام - عادات مرجعها الإلهام ليس لها صفة إلزامية، وإنما تستمد قوتها من صفتها الدينية ومصدرها الإلهي المنسوبة إليه؛ ثم تولى القضاء حفظ

هذه العادات والتقاليد القانونية ومفسريها من زعماء الكهنة أو الأشراف (إما لضعف السلطة الملكية وإما لاتساع المملكة وعجز الملك عن القيام بالقضاء بين أفرادها) واحتكروا معرفتها وساعدهم على الاستئثار بمعرفة هذه القوانين جهل العامية من المصريين، فأصبحوا يفسرونها بحسب ما تمليه عليهم شهواتهم ويطبقونها بحسب ما يكون فيه منافعهم ويؤولونها بما يؤيد استمرار سلطتهم واتساع نفوذهم؛ ويسمى هذا العصر بعصر التقاليد غير المدونة. ولما كثر ظلمهم لعامة الشعب المصري وظهر للشعب سوء نيتهم قلبوا لهم ظهر المجن وطالبوا بتدوين هذه العادات وتلك التقاليد في نصوص تنشر على الناس جميعاً حتى يعرف كل شخص في الأمة حقوقه وواجباته؛ وبذلك بدأت مرحلة تدوين القانون. وقد جمعت تلك القواعد العرفية في نصوص كتبت في ألواح من الفخار أو الخشب أو البرنز وباشرت الحكومة إصدارها ونشرها في الناس

ولقد كانت القوانين المصرية في دورها الأول ذات صبغة دينية، وكانت تميل إلى الإنصاف والعدل كما كانت مشربة بمكارم الأخلاق فأصبحت بذلك قريبة إلى المثل الأعلى للحق؛ ثم تشبعت بعد ذلك بالمسحة المدنية وبخاصة عندما ضعف نفوذ الكهنة بمصر

ويرجع ظهور التشريع بمصر إلى القرن الخمسين ق. م إذ في هذا القرن تعلم

المصريون الكتابة عندما وضع لهم (تحوت) إله القانون ما وضع من قوانين ثم جمعها لهم سنة 4241 ق. م وعلى مر السنين بعثرت تلك القوانين فجاء الملك (بوخوريس) مؤسس الأسرة الرابعة والعشرين (718 - 712 ق. م) وجمعها ثم عدلها ووضعها في مجموعة واحدة نظم بها المعاملات المدنية والأحوال الشخصية وبذلك سميت بمجموعة بوخوريس عند المصريين وبقانون العقود عند الإغريق فيما بعد ذلك وقد عمل في مصر في مجموعة قوانين بوخوريس هذه بعد أن امتدت إليها يد التنقيح أكثر من مرة في العهد الفرعوني وطبقت على المصريين أيام حكم الإغريق والرومان لمصر حتى سنة 212م حيث أصدر الإمبراطور الروماني كراكلا (211 - 217م) قانوناً منح به الرعوية الرومانية لسكان الإمبراطورية الرومانية وكانت مصر جزءاً منها، وبذلك طبقت في مصر القوانين الرومانية

(يتبع)

عطية مصطفى
مشرفة بكالوريوس في الآداب في التاريخ ودرجة ليسانس في الحقوق

الاجتهاد لا يزكو مع الفوضى

للأستاذ علي الزين

- 1 -

لقد اتفق لي منذ سنين خلت أن ضمني مجلس في إحدى القرى مع بعض العلماء المجتهدين - بعرف أنفسهم - وكان فيمن حضر هذا المجلس ضابط فلسطيني من إخواننا أهل السنة. وما أن استقر المقام بالجميع حتى تنحنح فضيلة العالم وانطلق يتحدى في كلامه مواضع الخلاف بين أهل السنة والشيعة بكل ما في نبراته من اعتداد بأحقية الشيعة، وبكل ما في قلبه من حرص على توجيه الأنظار نحوه، وبكل ما في لهجته من عنجهية ونبو عما تقتضيه اللياقة من الاحتفاء بالضيف الفلسطيني ومراعاة عواطفه كمسلم سني أو كرجل قانون لا رجل دين يحسن الجدل ويستسيغه في مثل هذه الموضوعات: وكان بيت القصيد في حديث مولانا الاجتهاد وخطره - من حيث الإباحة والحظر، وأثر ذلك إيجاباً وسلباً في الدين والعلم والعقل أيضاً، ثم كيف أن الشيعة - دون غيرهم من الفرق الإسلامية - استقلوا بهذا الفضل وفاقاً للأحاديث النبوية، وطبقاً للمأثور من أقوال العلماء والحكماء والمؤرخين، وما إلى ذلك من شواهد على فضل الاجتهاد وفوائده. كل ذلك جرى والضابط الفلسطيني واجم تحاشياً لهذا المجتمع الشيعي وتهيباً من هذا العالم الأرستقراطي الذي لم يترك مجالاً لغيره في الكلام، أو جهلاً بالموضوع، أو استخفافاً بالتحدث عنه لغير مناسبة لا أدري؛ غير أن هذا الحديث أثار حفيظتي من العالم لا لشيء سوى أن يتملق العامة بالانتصار لمذهبهم أمام رجل سني، كما استفز عواطفي هذا الوجوم من رجل غريب بروحه وميوله عن المجلس قد فوجئ بما لم يكن يترقبه ويألفه من حديث، فاندفعت للاعتراض بما أوحته إليّ هذه الحال من خواطر وأفكار يمكن أن يفترضها ويقدرها الشيعي وغير الشيعي من المسلمين إذا اضطره الأمر إلى أن يتجرد من عصبيته، وأهاب به المقام للتمسك بكل ما يمكن أن يقال في تحرير موضع النزاع. ولكن مكان مثل هذا العالم في مثل هذا المجلس من العامة لم يدع سبيلاً إلى إتمام كلامي وتوضيح مرادي، بل اضطرني كما اضطر غيري إلى السكوت والإصغاء لو كان في الإمكان أن يسكت الفكر العنيد، أو يرتاح الضمير الحر بدون أن يفضي بمكنونه ويفرغ سورته في قالب من اللفظ وسمط من البيان،

فرحت أرفه عن النفس بعد الانصراف عن هذا المجلس بتسجيل تلك الخواطر وكتابة هذا المقال؛ بيد أنه لم يكن لي من الشجاعة الأدبية أو من الاعتداد بما كنت أكتبه آنئذٍ ما يجرئني على النشر، فطويت المقال فيما طويت من الأبحاث وجعلت مع الأيام أترقب المناسبات والفرص التي تهيئ لي نشره إلى أن أقامت الرسالة الغراء تعالج هذا الموضوع - موضوع الاجتهاد - وتشجيع الأقلام على تمحيصه بحثاً وتفكيراً، فحولت وجهي نحوها معتداً بإنصاف الأستاذ الكبير - صاحب الرسالة - وعطفه على مثل هذه الموضوعات التي تتوالى على صفحات مجلته، وإن كنت قد خالفت أولئك الباحثين في لهجتي ومنحاي، اعتقاداً مني بأن المجاملة والمداورة والتملق في مثل هذا المقام لا

تسمن ولا تغني، بل هي إلا إغراء المتعنتين بتعنتهم وجمودهم أقرب منها إلى تأييد المخلصين والأخذ بيدهم إلى مكامن الداء ومواضع العلة، وهي كذلك إلى التلبيس والإبهام أقرب منها إلى الصراحة والجهر بالحق الذي يجب أن يقال في محاربة العرف الزائف ومعالجة الأهواء المريضة، وتقويم الأفكار المستعبدة، من حيث لا يغني التردد والخوف عن الثقة بالنفس والإقدام بالقول والعمل شيئاً

لا جرم أنه كان في إقفال باب الاجتهاد بعض التقييد للحرية والاستقلال في الرأي، وبعض الحجر على العقل والفكر والمنطق أن تجري مجراها الطبيعي الذي أعدته الشريعة السمحاء وهيأته طبيعة الحياة الحرة: ولا جرم أنه كان في فتحه على مصراعيه تعزيز للعلم وتحرير للفكر والمنطق، وتنزيه للإسلام - دين الفطرة - عن الجمود والضيق لو قد انتهى بنا الأمر إلى ما كان يجب من الانطلاق مع نتائج التحرير العلمي والفكري، وجعل الدين - بذلك - مآلاً للمحبة وغاية للاتحاد وتفسيراً للحياة من سائر الوجوه والنواحي تفسيراً يقره منطق الحياة الحكيم، وتكبره الفطرة الإنسانية الحرة

أما والنتيجة ليست - بجميع ذيولها - كما يظن ويفترض لا أحسب أنه كان في فتح باب الاجتهاد على هذا النحو من الاضطراب والفوضى التي نجدها عند علمائنا اليوم - خدمة للعقل والدين أكثر مما كان في سده وإقفاله عند غيرهم

فها نحن أولاء معشر الشيعة الإمامية ممن استمروا على القول بالاجتهاد وخطوا . . . على ضوئه خطوات واسعة في العلوم الدينية والإسلامية وتأنقوا ما شاء لهم التأنق في علوم الكلام، والحديث، والتفسير، والفقه، والأصول، وإنهم لتأنقهم وتوسعهم في هذا الأخير قد أحالوه إلى مزيج من الفلسفة والنظريات الغريبة وأوشكوا أن يخرجوا ببعض مباحثه عن حدود المعتقدات الشيعية كما هو الشأن في بحث (اتحاد الطلب والإرادة) على ما قرره صاحب الكفاية - ها نحن أولاء قد استحال عندنا الاجتهاد أو كاد أن يستحيل - بتشعب أفكار الباحثين وتعسفهم في التفكير والتخييل وتسامحهم في النتائج إلى نوع من الافتراضات والوساوس والشكوك، يستطيع معها ضعاف الوجدان والعقيدة من ذوي الأهواء والمآرب الشخصية أن يستنبطوا لكل مأرب حكما، وأن يخلقوا لكل عسف عذراً، وأن يمهدوا لكل شذوذ في القول والفعل قياساً وشكلا، يدرأ عنهم التهم، ويحتفظ لهم بثقة الجمهور، ويشحذ لهم من منطق الدين شركاً للصيد وسلاحاً للنقمة، من حيث لا يستطيع - مع هذه الوساوس والشكوك - من يحتاط لدينه ووجدانه أن يجزم بحكم من الأحكام الفرعية إلا فيما شذ وندر من الأحكام التي لا تتسع للتأويل والافتراض والجدل

ذلك إذا كان الذين يتخصصون بتلكم العلوم الدينية من ذوي الكفايات والمواهب السامية، فكيف بنا إذا كانوا من البله والحمقى الذين من شأنهم أن يكونوا عرضة للتلبيس ومظنة للأوهام وأرجوحة للأهواء السياسية والمنبهات العصبية، أو الذين لا يتعلمون هذه العلوم في الغالب إلا احتفاظاً بتقاليد آبائهم وإلا ذريعة للرزق والاكتساب؟

أفترى أن الأمة أو أن الدين - بمثل ذلك - يمكن أن ينتهي إلى غاية أو يستقر على رأي؟ أم هل يمكن مع هذه الحال أن تكون النتيجة إلى غير ما نحن عليه اليوم من فوضى الاجتهاد وإطلاق العنان لكل طامح ولكل معتوه يسول له غروره وجشعه أن يستغل هذا الاسم ويدنس روحانيته بما يوسوسه له الهوى وحب الذات من فتاوى وأحكام وبدع يرسلها إرسال المسلّمات، ويصرفها تصريف المطمئن إلى صوابه، وكفايته، وإخلاصه؟ أم هل يمكن أن تؤول بنا الحال إلى غير ما منينا به في جبل عامل من تنابذ العلماء وتجريح بعضهم بعضاً ومحاولة كل منهم أن يذهب إلى خلاف ما ذهب إليه الآخر في تحريمه وتحليله وتقريبه وتبعيده؟

أم هل لنا مع كل هذا - ومع تيقننا من أن الدين الإسلامي إنما وجد لخير الإنسان وصالحه وتوجيهه نحو المثل العليا التي توحد بين أفراده وشعوبه وتجعلهم إخواناً في السراء والضراء - أن نقول إن فتح باب الاجتهاد عندنا كان أجدى على الدين من سده وإقفاله

عند إخواننا السنية؟ هيهات هيهات! ولو أن الذين أوصدوا باب الاجتهاد لم يتأثروا بعوامل زمنية واعتبارات سياسية بأن انقطعوا فيما وقفوا عنده واختاروه من المذاهب، لما كان أكثر انطباقاً على جوهر الكتاب والسنة وأقرب ملائمة لمنطق الحياة الاجتماعية والعقلية، وأشد اتساقاً مع دواعي الاحتياط والحزم واختلاف الأيام والظروف، وتطور الحاجات. . . لكان إقفاله على ذلك النحو من الإحكام والاعتدال - في تلك الأيام العصيبة والظروف الحرجة - أجدى على الإسلام من فتحه على هذا الشكل من الفوضى والتسامح والاسترسال مع كل شذوذ وتعسف وادعاء شخصي، وأضمن لمنعته واتحاد كلمته، واتساق سلطانه

هذا وإن الأمر الذي ما انفك يقلق بال كل أريب ويريب خاطر كل مفكر - وللاجتهاد حكمته البالغة ومزيته العظمى في ترويض الأصول العلمية وتصريف الأحكام على ما توجبه ضرورات الحياة ويقتضيه تطور أحوالها واختلاف دواعيها وجعل الدين (بذلك) يتسع لأبعد مدى في تطورها وتقدمها - خمولنا نحن الشيعة حملة لواء الاجتهاد وتخلفنا في ميادين الحياة على اختلاف أنواعها وفروعها، دون بقية الفرق الإسلامية التي حُلئت عن نعمة الاجتهاد ولم ترزق مرونة منطقه ورحابة صدره تخلفاً لم ينفع معه استقلال إيران الشيعية في السلطان ونزولها على آراء المجتهدين وامتثالها لإرادتهم في كل شأن من شؤونها وفي كل طور من أطوارها، طول هذه الحقبة الغابرة من الدهر ثم جمود أكثر أولئك المجتهدين منا وتحرجهم تحرجاً يغري الناس بالجمود والتقليد، ويميت فيهم حياة العزة والطموح، كأنما أوتوا منطق الاجتهاد ليحاربوا كل جديد في الحياة، ويطاردوا كل مصلح، ويفرضوا على الناس حياة الاتكال الراتبة، وعيش الاعتزال المبتور، أو ليختصروا هذه الشريعة الكونية ويضيقوا هذه السهلة السمحاء، ولا يوجهوا كبير عنايتهم وجهودهم لغير هذه الفوارق والتقاليد المذهبية التي أوشكت أن تكون - بحكم ذلك الخلاف والتعصب الإسلامي العام - بمنزلة الأصل للكتاب والسنة، يؤول ما التبس منهما واختلف على حسب المألوف والمعتبر من ذلك لدى كل فرقة من فرق الإسلام

ثم ما الاجتهاد إن لم يكن في جملته ومآله عبارة عن استقلال الفقيه في تفسير الكتاب والسنة، واستنباط الأحكام الشرعية من ذلك لكل واقعة من وقائع الحياة قديمها وحديثها على حسب المنطوق والمفهوم، وعلى مقتضى العموم والخصوص، والإطلاق والتقييد، وما إلى ذلك مما توضحه القرائن ويقره الذوق والمنطق؟ وهو بهذا المعنى محدود النطاق ليس لعقل المجتهد باصطلاحنا ولا لخياله أن يتجاوز به ما وراء الجمل والألفاظ في الكتاب والسنة، فإنه على فرض أن تنص القرائن الحالية والمقالية - وفرض المحال - ليس بمحال - على معنى من معاني الكتاب والسنة لا يساعد على استخراج الحكم الذي يقتنع به العقل ويستسيغه الذوق ويتفق مع ماجريات الحياة، لا يستطيع المجتهد أن يتجاوز النص في حكمه ويراعي مقتضى العقل المجرد، والذوق السليم، لنتحلل من إطلاق القول: (أنه كان في سد باب الاجتهاد حجراً عاماً على العقل)

ثم ما يدرينا من أن يكون هم من أوصدوا هذا الباب آن ذلك بعد أن اتضحت عندهم أكثر أحكام الفقه وقضاياه واطمئنوا إلى تحرير نصوصه وأدلته:

أولاً - الاحتياط من أن تتعدد المذاهب الإسلامية إلى غير نهاية وأن يكثر الخلاف ويستحكم حتى تتفرق الكلمة ويتمكن الدخلاء والدساسون من الكيد للإسلام، فتنحل قواه، وتلتبس حكمته، ويضطرب قصده، وتنعكس الآية (إنما المؤمنون إخوة)

ثانياً - تحرير الفكر وتوجيهه إلى باقي النواحي العلمية والفكرية التي استقبلها الإسلام في أوج نهضته وازدهار مدنيته وحضارته - باعتقاد أن مجاهل الحياة المتشعبة وحاجات الإنسان المتعددة المتنوعة أبعد مدىً وأوسع نطاقاً من أن تنحصر أو تتضح أو تحد بما ينطوي عليه الفقه والأصول من أحكام وقواعد ليقتصر البحث عليها كما كانت الحال إذ ذاك

هذا وإذا كان الاجتهاد في الفقه لا يعدو في جملته ومآله أن يكون من قبيل الاجتهاد في تفسير الجمل والمفردات اللغوية والتمييز بين الحقيقي وبين المجاز، والمنقول، والمشترك منها، بعد البحث عن تاريخ نشأتها، وعما كان يلابسها آن ذلك من قرائن

حالية ومقالية وما كان يتصل بها ويكتنفها من عوامل الاجتماع والسياسة ومن خصائص الزمان والمكان، ثم عما رافق تطورها وتنقلها في الأيام، والجماعات، والأشخاص، من تحوير وتغيير. وكما

أنهم هنا قد اختلفوا بين القول بإباحة التفسير بالرأي وبين القول بعدمه، وترددوا بين القول بجواز الاشتقاق والتصريف، والوضع للمستحدثات من المعاني وبين القول بعدمه. ثم انتهى بهم الخلاف والتردد إلى عدم الاطمئنان للفرد مهما كان شأنه، وإلى الاتفاق على تأليف مجمع من العلماء الاختصاصيين يوكل إلى مجموعه التصرف فيما يتفقون عليه من رأي

فلماذا لا يكون واقع الأمر هناك - في الفقه - كذلك؟ ولماذا لا ننتهي بعد هذا النزاع الطويل العريض الذي أحكمه ووسعه استئثار الفرد وتمادي الفوضى إلى ما قد انتهى إليه علماء اللغة من تأليف مجمع من علماء الدين على اختلاف مذاهبهم ونحلهم ثم إنشاء (مجلة) لتحرير البحث في مواضع النزاع بينهم وتعميم ما يقرره منطق العلم والدين، والحياة الحرة، ويفرضه التجرد لمحض الحق والخير؟

وعلى فرض أن تصطدم هذه الوسائل - في أول الأمر - بما قد فطر عليه الجمهور من جمود في الطبع، واحترام للشائع من أوضاع وتقاليد، والتمسك بالمألوف من عرف ورواية، أو أن تحدث هذه الأبحاث رد فعل في الأوساط الإسلامية كما هو الشأن في كل فكرة جديدة - علميةً كانت أو دينيةً - لا تنسجم مع الشائع والمألوف من عادة وقول - إنه على فرض أن يكون ذلك كله في أول الأمر، فلابد لهذه الوسائل في النهاية من أن تقوى وتسلس لنتائجها الأفكار والعقول وتراض على مقرراتها الأذواق والنفوس من عامة المسلمين وخاصتهم ولاسيما إذا استمرت معها عواطف المصلحين وحججهم الدامغة وتضافرت على تأييدها وتقريرها في المجتمع الإسلامي الحياة في تطورها والثقافة في تقدمها، وإلا فالاتكال على المصادفات أو ما يشبه الاتكال عليها - في الإصلاح والتأليف - عجز وقنوط لا يقتنع به المصلح المعتد بصواب مبادئه، وسداد خططه، وسمو غايته، ولا يليق بالأمم المتفائلة الطامحة

أجل! ماذا يمنع حماة الدين وقادة الفكر في العالم الإسلامي أن يؤلفوا لجنة دائمة أو لجاناً من العلماء الاختصاصيين الذين عرفوا بمرونة الرأي وسمو الفطرة وسلامة الذوق، وهيأت لهم الظروف أن يضيفوا إلى ثقافتهم الدينية ثقافة اجتماعية عالية تشعرهم بواجبات الحياة وواجبات الدين، وتمكنهم من التوفيق بين ما التبس أو تفاوت من نواميسهما - يوكل إلى هذه اللجنة تسوية الخلاف القائم بين المذاهب الإسلامية وتحرير النصوص والأدلة على

ضوء العلم وسداد المنطق النزيه، وتعديل الأحكام والنواميس وتقريرها على وجه تذوب فيه النعرات والفوارق، ويستقيم القصد والغاية، ويستمر العمل والسير على المنهج القويم اللاحب

وهل ذلك بعزيز على همم المخلصين من القادة إذ هم احترسوا في أخذ النصوص والأدلة والأحكام، مما جره عليها عادي الزمن وتصادم العصبيات وتزاحم المذاهب السياسية والدينية وتنازع الأهواء الشخصية والحزبية، من تلبيس، واختلاق، وتصحيف وإدغام

ثم راعوا في تفسيرها وتوجيهها، تجدد الحياة واتساع أفقها وتطور مقتضياتها، وتشعب ضرورياتها وكمالياتها عما كانت عليه في صدر الإسلام وعهد أئمته الأول

فإنه لم يبق في إمكان الفرد أن يقوم بمثل هذه المهام - مهام الاجتهاد - كما ينبغي ويجب حتى في الطائفة الواحدة من طوائف المسلمين، لأن الدين بالنظر لتوسع أبحاثه وتشعب فروعه، ولأن الحياة بالنظر لتعقدها وتطورها المستمر، قد أصبحا أكبر من أن يستقصي حقائقهما ويستكنه أسرارهما ويطابق بين داعيهما فرد مهما كان، ليوكل إليه بمثل هذه المهام الشاقة ولأن الفرد مهما كانت عبقريته ومهما كانت جهوده لا يمكنه أن يكون منزهاً عن الخطأ معصوماً من الزيغ حرياً بأن يستقل بجهود أمة وتراث أجيال، ويتصرف بمقدرات الأفكار والعواطف الدينية

ولكن مثل هذا العمل الإنساني الخطير لا أحسبه يتم على وجهه الأكمل ويكون له أثره الفعال في جميع الأوساط الإسلامية إذا لم تتحفز (النجف) ويهيب بها داعي النهضة إلى

أن تجاري (الأزهر) وتتلافى هذه الفوضى السائدة في مدارسها وفي كتبها الدراسية وفي أساتذتها وتلامذتها، ثم في الاجتهاد والتقليد أيضاً بالعمل على تنظيم تلك المدارس ومراقبة الأساتذة والتلامذة والكتب الدراسية فيها، وإعداد اللجان الاختصاصية لتعديل برامج التعليم وتوسيع هذه البرامج، ثم تحوير الكتب الدراسية أو تغييرها وترتيبها على حسب عقلية التلامذة وعلى حسب مراتبهم العلمية، لتتضح بذلك السبل أمام الطالب وتقرب النتائج ويتوفر عليه من الوقت والنفقة ما يزيد في نشاطه وطموحه إلى أن يتثقف ثقافة عالية تيسر له بعد الاختصاص بما يختص به من علوم الدين أن يتذوق الدين وأن يتذوق الحياة بدون

مشقة، وأن يتفهمهما ويؤدي فرائضهما على الوجه الصحيح الأكمل لكي يتهيأ للنجف نفسها من وراء ذلك كله أن تتفاهم مع الأزهر، وتجعل للاجتهاد - بالتعاون معه - المحل المرموق والأثر البالغ في نفوس المسلمين وعقائدهم وآدابهم

ثم لكي يتسنى للمعهدين الخالدين ويروق لهما على هدى الاجتهاد وبركة الائتلاف أن ينزلا عن بعض التقاليد، وينظرا للدين وللحياة نظراً مجرداً يرتفع بالدين عن كل هذه الحواشي العفنة البالية، ويسمو بالإنسانية عن كل هذه الفصول التي تثير الريب وتشعب الظنون، وتوسع الخرق بين الأخوين، نظراً حكيماً ملؤه الإخلاص والسمو، يخطو بالإسلام والإنسانية خطوة الأبدية الكبرى إلى الأمام، إلى الاتحاد، إلى السعادة الأبدية والحياة الخالدة

وإلا فإذا دامت النجف على ما نعهدها من الأوضاع المدرسية فمسافة الخلف بعيدة بين المعهدين بعد الفوضى عن النظام، والبداوة عن الحضارة، لا يمكن أن تغني فيها الأقوال والمجاملات عن العمل والإخلاص شيئاً

(النبطية - جبل عامل)

علي الزين

مصطفى صادق الرافعي

1880 - 1937

للأستاذ محمد سعيد العريان

- 10 -

الرافعي شاعر الأناشيد

ولع الرافعي منذ نشأته في الشعر بالأناشيد الوطنية والأغاني الشعبية، يفتنّ في نظمها، ويبدع في أوزانها وأساليبها؛ ففي سنة 1903 أخرج في الجزء الأول من ديوانه بضع قصائد وطنية، تفيض عاطفة وتشتعل حماسة؛ واشتهر من بينها قطعته (الوطن) التي يقول في مطلعها:

بلادي هواها في لساني وفي دمي ... يمجِّدها قلبي ويدعو لها فمي

وذاعت على ألسنة تلاميذ المدارس، يحملهم المعلمون على استظهارها في دروس المحفوظات إلى يومنا هذا، كما اشتهر كثير من قصائده الوطنية وأغانيه الشعبية. وجاء في هامش ديوانه بعد تمام هذه المقطوعات: (قد تمت القطع التي نظمت للنشء من تلامذة المدارس، وقال ناظمها: إنه إذا وجد الناس أقبلوا عليها أقبل هو على نظم غيرها مما هو أرقى، غير مبال بوعورة هذا المسلك الذي لم يسلكه قبله أحد. فها نحن أولاء ننتظر من الصحفيين وشبان العصر أن يأخذوا بيده في هذا المشروع، حتى لا يغيض ما بقي في ذلك الينبوع. . .)

ثم دأب على نظم أمثال هذه الأغاني، ينشر منها طرفة رائعة في كل جزء من ديوانه، فنشر نشيد الفلاحة المصرية، وأرجوحة سامي، وغيرهما، وأذاع في الصحف كثيراً مما نظم من (أغاني الشعب)

وإنك لترى الرافعي في هذه الأغاني والأناشيد، له طابع وروح غير ما تعرف له في سائر شعره، فتؤمن غير مضلل أن الرافعي هبة الزمان للعربية ليزيد فيها هذا الفن الشعري البديع الذي تقطعت أنفاس شعراء العربية دونه منذ أن أنشد شاعرهم في الزمان البعيد: (نحن بنو الموت إذا الموت نزلْ. . .) ثم لم يقل أحد من بعده شعراً يترنم به في الحرب،

. . .أو يدعو إلى الجهاد، أو يستنفر إلى المعركة، حتى أنشد الرافعي

ويقيني أن اسم الرافعي إذا كتب له الخلود بين أسماء الشعراء في العربية، فلن يكون

خلوده وذكره لأنه ناظم ديوان الرافعي، أو ديوان النظرات، أو المدائح الملكية في المغفور له الملك فؤاد، أو قصائد الحب والغرام بفلانة وفلانة من حبائبه الكثيرات، ولكنه سيخلد ويذكر لأنه شاعر الأناشيد. . .

ونهضت الأمة نهضتها الرائعة في سنة 1919، ودوّي صوت الشعب هاتفاً: إلى المجد إلى المجد، إلى الموت أو الحرية؛ وصاح صائح الجهاد يدعو كل نفس من داخلها، فإذا الأمة صوت واحد؛ على رأي واحد إلى هدف واحد؛ وإذا مظهر رائع من مظاهر الإيمان بحق الموجود في وجوده يتمثل في كل مصري، ويستعلن على كل لسان في مصر واجتمع رأي طائفة من رجالات مصر على أن يكون لهذه النهضة نشيد يعبر عن أمانيها وغايتها، ويكون أغنية كل مصري، تجتمع عنده خواطر نفسه، وخلجات فكره، وهمسات قلبه؛ فيكون صوتها من صوته، ولحنها من أحلامه، وبيانها من معاني نفسه.

وتلفّت الناس يفتشون عن ذلك الشاعر الموهوب الذي يؤملون أن تتحدث الأمة بلسانه وتهتف بشعره. وأعلنت لجنة النشيد عن جائزة وضربت أجلاً. . .

وتبارى الشعراء في الافتنان والإجادة، وتقدم كل شاعر ببضاعته، وتقدم الرافعي فيمن تقدم؛ ولكن اثنين لهما مكانهما وخطرهما بين شعراء العصر لم يتقدما بشيء إلى لجنة النشيد: هما شوقي أمير الشعراء، وحافظ شاعر النيل. أما حافظ فلأنه من المحكمين في اختيار النشيد، وأما شوقي. . . من يدري؟

وكان على رأس لجنة النشيد الوزير العالم والأديب، الأستاذ جعفر ولي باشا، فكأنما عز عليه أن ينتهي الأجل المضروب فيتقدم الرافعي، ويتقدم الهراوي، ويتقدم عبد الرحمن صدقي، ويتقدم غير هؤلاء ممن يقول الشعر، وممن لا يحسن إلا أن يزن فاعلاتن ومفعولاتن على كلام، ولا يتقدم شوقي وحافظ

ونسأت اللجنة الأجل المضروب، وسعى الساعون إلى الشاعرين الكبيرين ليحملوهما على الاشتراك في المباراة؛ فأما حافظ فأصر وأبى، وأما شوقي. . . يرحمه الله، لقد كان حريصاً على أن يقول الناس في كل مناسبة: لقد قال شوقي. . . ولكن ماذا يقول ذلك اليوم؟

وكان لشوقي نشيد، أنشأه منذ عهد لتفتتح به (فرقة عكاشة) موسمهما التمثيلي؛ فماذا عليه لو تقدم بهذا النشيد القديم إلى لجنة المباراة؟

وتقدم شوقي إلى اللجنة بنشيده المشهور:

بني مصر مكانكمو تهيَّا ... فهيا مهِّدوا للمجد هيَّا

وتساءل الأدباء بينهم: لماذا مدّت اللجنة الأجل المضروب؟ فلم يلبثوا أن جاءهم الجواب الصريح؛ فعرفوا أن اللجنة لم تفعلها إلا حرصاً على أن يكون النشيد المختار من نظم شوقي. . .

عندئذ نجمت ثورة أدبية حامية، وتمرد الأدباء على اللجنة وحكم اللجنة، وهل كان لهم أن يطمئنوا إلى عدالتها وقد ذاع الحكم قبل موعد الفصل في القضية؟

وكان الرافعي على رأس الثائرين، فأنشأ بضع مقالات في (الأخبار)، وللأخبار يومئذ مذهبها السياسي وكاتبها الأول هو المرحوم أمين بك الرافعي؛ فسحب الرافعي نشيده من اللجنة قبل أن يسمع الحكم فيه، وراح يعلنها ثورة صاخبة على اللجنة وأعضاء اللجنة، وعلى شوقي وأنصار شوقي، وقال في نشيده ما يقال وما لا يقال، وتابعه جمهرة من الأدباء؛ فكتب المازني والعقاد في (الديوان)، وكتب غير المازني والعقاد؛ وشوقي رحمه الله رجل كان على فضله ومكانته وعلى منزلته في الشعر، ضيق الصدر بالنقد والناقدين؛ فمن هذا كان بينه وبين الرافعي شيء من يومئذ، إن لم يكن من قبل يوم نشر الرافعي مقاله في (الثريا) عن شعراء العصر في سنة 1905؛ فما التقيا من بعد حتى لقيا الله؛ على أن أحداً من أدباء العربية لم ينصف شوقي بعد موته ولم يكتب عنه مثل ما كتب الرافعي عن شوقي في مقتطف ديسمبر سنة 1932، وهو نموذج من الأدب الوصفي أحسبه نادر المثال فيما يكتب الكتاب عن الأدباء المعاصرين

ومضت لجنة المباراة في طريقها غير آبهة لما يقال، ومضى الرافعي في ثورته؛ ثم لم يلبث أن جمع لجنة غير اللجنة، من أصدقائه وصفوته، والآخذين عنه، لتنظر في نشيد الرافعي وحده

وأصدرت اللجنة الأصيلة حكمها، فكان الفائز الأول هو شوقي، وفاز من بعده الهراوي وعبد الرحمن صدقي، وأعلنت اللجنة الأخرى أن نشيد الرافعي هو النشيد القومي

المصري. . . وسبّقت بين المغنين جائزة، ليصنعوا لحناً لنشيد الرافعي
إلى العلا، إلى العلا، بني الوطن ... إلى العلا، كلُّ فتاةٍ وفتىً
وفاز الموسيقار الكبير الأستاذ منصور عوض بالسبق إلى اللحن والجائزة!
ليس من همي هنا أن أوازن بين نشيدي شوقي والرافعي؛ فقد مات نشيد الرافعي
(إلى العلا. . .) بعدما سبقه نشيد شوقي إلى الموت بعشر سنوات، ولم تُجْدِ كل
المحاولات في بعثه ونشره. . . وإن كان لي أن أقول شيئاً هنا في الفرق بين النشيدين
فهو أن أصف كيف كان استقبال الناس لنشيد الرافعي واحتفائهم به في كل مكان،
وكيف كان نشيد شوقي
لقد سمعت نشيد الرافعي أول ما سمعته في حفل رسمي أقيم لإذاعته بطنطا في
سنة 1921 أو 1922 بمسرح البلدية؛ فما أحسب أني رأيت نشيداً احتفل له الناس ما
احتفلوا لنشيد الرافعي يومئذ؛ فإذا كان قد مات بعد ذلك بسنين وجر عليه النسيان
أذياله، فما أظن ذلك كان لضعف فيه أو نقص يعيبه، ولكننا نعيش في شعب أكبر
فضائله أن ينسى. . . وعند الله الجزاء. . .!
اسلمي يا مصر
وتطورت الفكرة الوطنية فتمثلت بشراً في سعد زغلول؛ فهو المصري الذي لو أرادوا
أن يمثلوا ذلك الشعب العريق إنساناً تراه العين لما وجدوا إلا صورته، ولو سألوا: من
الرجل الذي يقول أنا الأمة صادقاً غير محتال لما وجدوا غيره. . .
وتطورت فكرة النشيد القومي عند الرافعي فرأى رؤياه في منامه، فلما أصبح ألف
نشيده (اسلمي يا مصر) وما كان هم الرافعي عندما ألفه أن يجعله نشيداً قومياً؛ إنما
قصد إلى أن يجعله بياناً رمزياً على لسان سعد، أو كما يقول الرافعي في خطابه إلى
سعد في جبل طارق:
وما أردت بإظهار نشيدك إلا أن تظهر في كل فرد من الأمة على قدر استعداده،)
ويبقى اسمك الجليل مع كل مصري على الدهر ليكون مصدراً من مصادر إمداده
ويقولون إنه نشيد يقربك من الأجيال الآتية، وأنا أقول إنهم هم يتقربون به إليك،)
ويجدون منه الوسيلة لتقبيل اسمك المحبوب إذ لا يستطيعون مثلنا تقبيل يديك،
ويعلمون في كل زمن من شرح هذا الاسم الكبير أنه الرجل الذي خط قلم الأزل كتاب
نهضته الكريمة، واختاره
الله للأمة كما اختار الأنبياء إلا أنه نبي الفكر والعزيمة. . .)
قلت: إن الرافعي لم يكن يعني بإنشاء نشيده (اسلمي يا مصر) أن يجعله نشيداً قومياً،
فإنه لمطمئن إلى أن نشيده (إلى العلا. .) ماض في طريقه إلى هذا الهدف؛ إنما كان
يعني أن يضع في هذا النشيد صوت سعد كما تصورت حقيقته في نفسه؛ لكن نشيده
ما كاد ينشر ويذاع، حتى أبدت البلاد رأيها؛ فقام الطلبة والأدباء والفنانون يدعون
دعوتهم إلى اتخاذه نشيداً قومياً لتجعل صوت سعد في هذا النشيد صوت البلاد، ولتتخذ
ما فيه من معاني المجد شعاراً لكل مصري، أن كان صوت سعد يومئذ هو صوت كل
مصري
وتألفت اللجان في مختلف البلاد لإعلانه وإذاعته، وتسابق الملحنون إلى ضبط نغمته
ورسم لحنه؛ فكان أسبقهم إلى ذلك الموسيقار منصور عوض، والموسيقار صفر علي؛
واللحن الأول أدق اللحنين وأوفاهما بالغاية؛ ولكن اللحن الثاني أذْيع وأعم، وبه تنشده
فرق الكشافة المصرية بعد إذ صار نشيدها الرسمي
النشيد القومي في سنة 1936
ونجحت الدعوة نجاحها المؤمل، فصار نشيد (اسلمي يا مصر) هو نشيد مصر القومي
من سنة 1923 إلى سنة 1936 حين أعلنت الحكومة عن المباراة العامة لتأليف نشيد
قومي يهتف به الشعب وتعترف به الحكومة
في هذه الفترة كان الرافعي على نية إنشاء نشيد وطني جديد، إجابة لرغبة تقدم بها
إليه شبان الوفد؛ فما أذاعت الحكومة بيانها عن المباراة حتى تقدم بنشيده الجديد:
حماةَ الحمى، يا حماة الحمى ... هلمُّوا، هلموا لمجد الزمن
لقد صرخت في العروق الدما ... نموت، نموت، ويحيا الوطن
كما تقدم بنشيده الآخر: (اسلمي يا مصر)؛ ولأمر ما استبعدت لجنة المباراة النشيد
الثاني، ومنحته الجائزة الثانية على النشيد الأول. وما أريد أن أعرض لرأي اللجنة

وحكمها في هذا النشيد الجديد، فذلك باب من النقد الأدبي ليس من قصدي التعرض له في هذا المقال؛ فإن للتاريخ الأدبي حكمه في هذا الشأن، يوم تُنسى الأحقاد وتمحى العداوات

ليس ما ذكرت هو جهد الرافعي في الأناشيد، وليس بهذا وحده يستحق أن نخلع عليه هذا اللقب الذي لا أرى غيره من شعراء العربية جديراً به؛ فما أستطيع أن أحصي كل ما أنشأ

الرافعي في هذا الباب، وحسبي أن أذكّر بنشيده الخالد الذي أنشأه في سنة 1927 ليكون شعار (الشبان المسلمين)، فهنا، في هذا النشيد، يُعرف الرافعي الشاعر المسلم المجاهد الذي وقف قلمه وبيانه على خدمة المسلمين والعرب

أما (نشيد الملك)، و (نشيد بنت النيل)، و (نشيد الطلبة) الذي أنشأه ليكون به هتاف تلاميذ المدرسة الثانوية بطنطا - فذلك من البيان له فصل بعنوانه في تاريخ الأدب العربي

البحر المنفجر

في أناشيد الرافعي عامة، تعرف له طابعاً وروحاً ونغمة هي سر نجاحه فيما ألّف من أناشيد، ويميل في أناشيده الوطنية خاصة إلى إبراز معنى القوة في سبك اللفظ ولحن القول؛ ولو أنك سمعته مرة وهو في خلوته الشعرية يحاول شيئاً من هذه الأناشيد لسمعت لحناً له رنين يشترك فيه صوت الرافعي، ونقر أصابعه على المكتب وخفق نعله على أرض المكان؛ وعلى أن الرافعي كان أصم لا يسمع قصف المدافع، فإنه كان لا يستوي له النظم إلا في مثل هذه الحال. واسألوا صديقنا الأستاذ مصطفى درويش المحقق بوزارة المعارف: ماذا رأى وماذا سمع يوم صحب الرافعي من طنطا إلى القاهرة وكان يؤلف في القطار نشيده (حماة الحمى. . .)؟

واسألوا الآنسة ماري قدسي معلمة الموسيقى بوزارة المعارف تحدثكم عن خبر الرافعي يوم جلس إليها وهي تعالج تلحين نشيده (بنت النيل) ويوم جلست إليه تعزف له على البيانة لحنها لنشيد (اسلمي يا مصر) وهو يسمعها بعينيه تتبعان أصابعها على المعزف وهو ينقر على الأرض بعصاه ورجليه، وينفخ شدقيه وفي أذنيه وقر ثقيل. . .!

هذه النغمة التي كانت تتمثل للرافعي في سمعه الباطن وهو يعالج نشيداً من الأناشيد، كان لها أثرها الفني في عمله، وهي هي التي كانت تشعره أحياناً بالعجز عن أن يجد في موازين الشعر العربي النغمة التي كان يريدها في أناشيده كطبل الحرب؛ فلما هم أن يضع نشيد الطلبة:

مَجْداً مَجْداً مَدْرَستي ... مدرستي مَجْداً مَجْداً

عن علمي عن تربيتي ... مدرستي حَمْداً حمداً

لم يجد له نغمة تلائمه فيما يعرف من بحور الشعر، فاخترع له هذا الميزان الذي يزنه به

قارئه، وسماه: (طبل الحرب) ولكن صاحب المقطم أشار عليه أن يسميه (البحر المنفجر) وتفعيلاته (فَعْلٌ، فَعْلٌ، فُو) مكررة في كل شطر، مع بعض علل في الميزان يمكن إدراكها بالموازنة بين الشعر وتفعيلاته

هذا هو الرافعي شاعر الأناشيد، وهذا جهده وما بلغ؛ وقد كان على نية إصدار ديوان من شعره سماه: (أغاني الشعب) جمع فيه ما أنشأ من الأناشيد الوطنية، وأغاني الجماعات والطوائف لولا أن عاجلته المنية. فلو أن أدباء العربية ذكروا يوماً أن عليهم واجباً لإمام من أئمة الأدب العربي كان يعيش في هذا العصر فاجتمعوا على العناية بآثاره وإتمام رسالته الأدبية، لأخرجوا لقراء العربية ذخراً من الأدب العربي والبيان الرفيع لا يقدر على إنشاء مثله جيل كامل من مثل أدباء هذا الزمان. . .!

ورحم الله جماعة تألفت منذ بضعة أشهر لتأبين الرافعي في شهر أكتوبر، وأوشك شهر أكتوبر أن ينتهي وما استطاعت الجماعة أن تثبت أن فيها حياة. . .!

يرحمك الله يا مصطفى، وفي ذمة الله ما جاهدت لهذه الأمة التي لا تعرف الجميل!

(شبرا)

محمد سعيد العريان

الكميت بن زيد

شاعر العصر المرواني

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

تمهيد

في الأدب اجتهاداً لم يغلق بابه كما أغلق في الفقه وغيره من علومنا الشرعية، وقد كان لامتياز الأدب بهذا على غيره من العلوم أثر كبير في ازدهاره في هذا العصر، وفي وصوله إلى ما لم يصل إليه في عصر من العصور السابقة، وهو في هذه النهضة المباركة شغل الطالب في معهده، والتلميذ في مدرسته، بل شغل الناس جميعاً على اختلاف أنواعهم ومذاهبهم. ولو أن غير الأدب من العلوم كان له حظه من فتح باب الاجتهاد لم يصر إلى هذا الجمود الذي صرف الناس عنه، وجعلهم يكرهون النظر فيه، ويخشون ما يصيبهم من العنت إذا خرجوا عن مألوفه

وللنفس حاجات في هذا الاجتهاد المغلق تجعلها تحن إليه الفينة بعد الفينة، فإذا خشيت العنت أو أصابها فيه شيء من العنت عدلت عنه إلى غيره حباً في المسالمة، أو يأساً من حال الناس في هذه الناحية؛ ولا تجد مثل الأدب في رحابة صدره للاجتهاد، وعدم ضيق أهله بأثر الاجتهاد فيه، فتلج بابه، وتسلى عنها به ما يصيبها من أذى الناس وجحودهم لفضل المخلصين العاملين فيهم

وهأنذا الآن بصدد الكتابة عن الكميت بن زيد الأسدي، وبصدد التنويه بالفتح الجديد الذي فتحه في الأدب العربي بهاشمياته، لأرفعه بها إلى درجة الزعامة على شعراء عصره (عصر بني مروان) ولأبعد جريراً والفرزدق والأخطل عن هذه الدرجة التي اتفق الناس على منحها لهم، ولا عليّ من مخالفة الناس فيما ذهبوا إليه في زعامة الشعراء في هذا العصر، فليس في الأدب كفر ولا إلحاد ولا غيرهما مما يرمي به الباحثون جزافاً في هذه الأيام

ونحن إذا بحثنا في هذه الزعامة الشعرية التي عرفها الناس لجرير والفرزدق والأخطل نجد أن ملوك بني مروان هم الذين روجوا لهذه الزعامة، وهم الذين شغلوا الناس بهؤلاء الشعراء عن الكميت وغيره ممن يخالف سياستهم، ويناوئ بشعره ملكهم، ويناصر به غيرهم من منافسيهم، وقد مضى عهد بني مروان ومضت بعده عهود وعهود، وكان لحب التقليد الذي مني به الإسلام والمسلمون أثره في بقاء الناس على هذه الزعامة الشعرية

وإنما روج ملوك بني مروان لجرير والفرزدق والأخطل لأنهم وجدوا في شعرهم انحرافاً عن الجادة التي يجب أن يكون الشعر عليها، ووجدوا فيه ما يخدم مآربهم في حكم الأمة الإسلامية حكماً مطلقاً لا يقيدهم فيه قانون سماوي أو وضعي، وفي الاستئثار لأنفسهم وأنصارهم بأموال هذه الأمة وخيراتها، يصرفونها في اقتناء القيان، وشراء الجوار الحسان، وإشباع شهواتهم في هذه الحياة، والقضاء على روح المقاومة للظلم في الأمة حتى تخضع لهم، وتستكين لحكمهم؛ ولا نستثني منهم في ذلك إلا الملك الصالح عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، فقد سار في حكمه القصير على خلاف سيرتهم، وأشاح بوجهه عن أولئك الشعراء الذين كانوا يروجون لهم

ولم يكن مثل جرير والفرزدق والأخطل في ذلك إلا كمثل من يعيش منا الآن بعقول القرون الماضية، ولا يتأثر عقله بشيء من العصر الذي يعيش فيه، فهكذا كان أولئك الشعراء يعيشون بعد الإسلام بعقول الشعراء الذين لم يدركوا عهده، ولم تعمل في نفوسهم رسالته، ولم تؤثر في قلوبهم هدايته، ولم يهذبهم تقويمه وإصلاحه، فاستعملوا شعرهم في خدمة أغراضهم وقضاء مآربهم، وتملقوا به ملوك بني مروان طمعاً في أموالهم ودنياهم، ولم ينظروا فيه إلى الأمة وما تطلبه من الشعر الذي يوقظها من غفلتها، وينهض بها من كبوتها، ويحارب عوامل الفناء التي تعمل عملها فيها، بل ساعدوا خصومها عليها، وعملوا بشعرهم على تفريق كلمتها، والرجوع بها إلى حالة الجاهلية، فكان شعراً رجعياً جامداً بغيضاً، ولا تسري فيه روح الحياة، ولا يصح أن يمون صاحبه به زعيماً في الشعراء

فإذا نظرت في شعر الكميت بن زيد وجدته يمثل لك عصر بني مروان تمثيلاً صادقاً، لا أثر فيه للخداع والغش، ولا يشوهه الحرص الممقوت على الصلات والجوائز. وخيل إليك أنك تعيش في عصر بني مروان مع الذين عاشوا فيه، وأن ظلمهم وإفسادهم حاق بك كما حاق بهم، فأخذ قلبك يضطرب بالحقد عليهم، وأخذت نفسك تضطرم

بالثورة على ملكهم، وتنشد في ملكاً آخر يسود فيه العدل، وينتصر الحق على الباطل، وتنهض به الأمة،
وينتظم لها أمر دينها ودنياها
فهو شعر حي ناهض يدعو إلى الحياة والنهوض؛ أما شعر جرير والفرزدق والأخطل فهو شعر ميت جامد يدعو إلى الموت والجمود، ولم يكن الخضوع لزعامة هذا الشعر إلا أثراً من آثار الروح الشيطانية المستولية على النفوس منذ فقد في المسلمين الحكم الصالح، وأخذوا يعيشون عيشة آثمة جاهلية، يضيع فيها الحق، وينتصر عليها الباطل، وتنشر فيها أعلام الشر، وتطوى أعلام الخير، فأظلمت العقول، والتبست عليها الأمور، فصارت ترى الباطل حقاً، والشر خيراً، والإثم طاعة وبراً، وجمدت على هذا بطول الزمن حتى صارت حالها تدعو إلى اليأس في إصلاحها، وإزالة هذه الغشاوة عنها على أني فيما أراه من زعامة الكميت على شعراء عصره أذهب في هذا مذهب بعض العلماء والشعراء كانوا يتعصبون له ويقدمونه في الشعر على غيره من الشعراء جميعاً. قال أبو الفرج الأصبهاني: أخبرني محمد بن القاسم الأنباري، قال حدثني أبي، قال حدثنا الحسن بن عبد الرحمن الربعي، قال حدثنا احمد بن بكير الأسدي، قال حدثنا احمد بن أنس السلامي الأسدي، قال سئل معاذ الهراء: من أشعر الناس؟ قال: أمن الجاهليين أم من الإسلاميين؟ قالوا: بل من الجاهليين، قال: امرؤ القيس وزهير وعبيد بن الأبرص. قالوا: فمن الإسلاميين؟ قال: الفرزدق وجرير والأخطل والراعي. قال فقيل له: يا أبا محمد ما رأيناك ذكرت الكميت فيمن ذكرت؟ قال: ذاك أشعر الأولين والآخرين

وقال أبو الفرج أيضاً: أخبرني الحسن بن علي الخفاف، قال حدثنا الحسن بن عليل العنزي، قال حدثني احمد بن بكير، قال حدثني محمد بن أنس الأسدي السلامي، قال حدثني محمد بن سهل راوية الكميت قال: جاء الكميت إلى الفرزدق لما قدم الكوفة فقال له: إني قد قلت شيئاً فاسمعه مني يا أبا فراس، قال: هاته، فانشده قوله:

طَرِبتُ وما شوقاً إلى البيض أطْرَبُ ... ولا لعِباً مني وذو الشوق يلعبُ
ولكن إلى أهل الفضائل والتُّقَى ... وخير بني حوَّاء والخير يُطْلَبُ

فقال له: قد طربت إلى شيء ما طرب إليه أحد قبلك، فأما نحن فما نطرب ولا طرب من كان قبلنا إلا ما تركت أنت الطرب إليه

وفي رواية أخرى عن محمد بن علي النوفلي، قال سمعت أبي يقول: لما قال الكميت بن زيد الشعر كان أول ما قال الهاشميات فسترها ثم أتى الفرزدق بن غالب فقال له: يا أبا فراس إنك شيخ مضر وشاعرها، وأنا ابن أخيك الكميت بن زيد الأسدي، قال له: صدقت، أنت ابن أخي، فما حاجتك؟ قال: نفث على لساني فقلت شعراً فأحببت أن أعرضه عليك، فإن كان حسناً أمرتني بإذاعته، وإن كان قبيحاً أمرتني بستره، وكنت أولى من ستره عليّ. فقال له الفرزدق: أما عقلك فحسن، وإني لأرجو أن يكون شعرك على قدر عقلك، فأنشدني ما قلت، فأنشده:

طَرِبتُ وما شوقاً إلى البيض أطْرَبُ

قال فقال لي: فبم تطرب يا ابن أخي؟ فقال:

ولا لعباً مني وذو الشوق يلعبُ

فقال: بلى يا ابن أخي فالعب فإنك في أوان اللعب، فقال:

ولم يُلهني دارٌ ولا رسم منزل ... ولم يتطرّبني بنانٌ مُخضَّبُ

فقال: ما يطربك يا ابن أخي؟ فقال:

ولا السانحات البارحات عشية ... أمر سليم القرن أم مر أغضب

فقال: أجل لا تتطير، فقال:

ولكن إلى أهل الفضائل والتقى ... وخير بني حوَّاء والخير يطلبُ

فقال: ومن هؤلاء ويحك؟ فقال:

إلى النَّفر البيض الذين بحبِّهمْ ... إلى الله فيما نابني أتقرَّبُ

قال: أرحني ويحك من هؤلاء؟ قال:

بني هاشم رهط النبِّي فإنني ... بهم ولهم أرضى مراراً وأغضبُ
خفضتُ لهم مني جناحي مودَّةً ... إلى كَنَفٍ عطفاه أهل ومرحبُ

وكنت لهم من هؤلاء وهؤلا ... مُحباً على أني أُذمُّ وأغضبُ
وأَرمى وأَرْمى بالعداوة أهلَها ... وإني لأُوذَى فيهمُ وأؤنَّبُ
فقال له الفرزدق: يا ابن أخي أذع ثم أذع، فأنت والله أشعر من مضى، وأشعر من بقى
وهذه الهاشميات من الدرر اللوامع في سماء الشعر العربي، وبها يسمو شعر الكميت على غيره من الشعر، وقد أجاد فيها في مدح بني هاشم والدعاية لهم، وتصوير حكم بني مروان
تصويراً شنيعاً ينفر الناس منه، ويدعوهم إلى الثورة عليه، حتى هيأ النفوس إلى تلك الثورة التي قام بها بعده أبو مسلم الخراساني، فقضى على حكم المروانيين، وأقام بعده حكم العباسيين الهاشميين
ولاشك أن الشعر الذي يبلغ به صاحبه هذه المنزلة العالية ويستطيع به أن يقيم دولة ويقعد دولة، هو الشعر الذي يستحق به صاحبه الزعامة على شعراء عصره، لا ذلك الشعر الذي لا يعد وأمره أن يكون ألفاظاً جوفاء لا طائل تحتها، ولا ثمرة في هذه الحياة لها
وقد شهد الفرزدق شهادة أخرى لهذه القصائد، فقيل له: أحسن الكميت في مدائحه في تلك الهاشميات، فقال: وجد آجراً وجصاً فبنى
عبد المتعال الصعيدي
دراسات في الأدب الإنكليزي
جون ملتون
للأستاذ خليل جمعة الطوال
تمهيد
لقد كانت إنكلترا قبل الحكم الأليزبثي غارقة في بحر خضم من الحروب الدينية والمنازعات المذهبية، وكان أدباؤها منقسمين إلى عديد البطانات السياسية المتضادة التي كانت لا تفتأ تتناحر فيما بينها على اجتناب حبل الرأي في الأمة، ومقاليد الأمور في الحكومة، والمراكز الملحوظة في السيادة، وصرفتهم هذه الحروب الدينية السياسية عن طبيعتهم، واجتاحتهم إلى ميادينها الدامية، كما يجتاح السيل الأتيُّ قطعة من الخشب، أو قصبة من القش. فلا عجب إذا تضيفت شمس الشعر - في إنكلترا - للمغيب، ولا عجب أيضاً إذا تعطلت في الناس أخيلتهم المتوثبة، ومشاعرهم المشبوبة، وصدورهم المليئة بالأحاسيس الوثابة، والعواطف الجياشة، إذ ليس في البيئة السياسية ثمة ما يغذي هذه الأمور، أو يثير أسبابها ويوقد جذوتها
وما هو إلا أن اعتلت اليصابات سدة العرش، وتسنمت عاليها وتقلدت بيدها الحديدية زمام المملكة وأعنتها، حتى سارت في خطتها على المبادئ القويمة اللاحزبية، فأباحت الناس على مختلف طبقاتهم ومللهم الحرية المطلقة في معتقداتهم، فخمد بذلك روح التناحر المذهبي - ولو إلى حين - وانفرط عقد هذه البطانات السياسية المتضادة، إذ قطع التسامح الديني الذي أوجدته اليصابات أسباب تضادها، فاستيقظت مشاعر الشعراء وعواطفهم على هدوء ريح هذا التعصب المذهبي الممقوت، وأخذت أخيلتهم المتوثبة تتحرر من أصفادها وقيودها التي كبلتها بها البيئة السياسية مدة من الزمن ليست بالقصيرة. وقد ساعد على هذه النهضة المباركة ذوق الملكة الأدبي، إذ استدنت الأدباء إلى قصرها وقربت الشعراء من بلاطها، فكان عملها هذا وتشجيعها للأدباء بمثابة التعويض العادل للآداب عما خسرته تحت نقع تلك الحروب المذهبية - السالفة الذكر - التي خلقها تكالب الكاثوليك والبروتستنت على السيادة
وما هي إلا فترة من الزمن حتى توفيت اليصابات، فأخذ الأدباء عامة، والشعراء خاصة، ينحتون سبلهم الوعرة في صخر السياسة الأصم بكل عناء وجهد، إذ كان موتها كالريح الهادئة أذكت سعير تلك النار المذهبية الخامدة، فعادت النفوس إلى شنشنتها القديمة من التخاذل والانقسام الديني. والتف الأدباء ثانية، كل حول بطانة خاصة، يناصرها في الجهر والخفاء، ويذود عنها بلسانه وقلمه، وإذ كان الدين علة هذا الانقسام وسبب تحزب هذه الأحزاب، فقد كان نتاج الأدباء إذ ذاك، متسماً بالميزات الدينية، والمظاهر الحزبية. وخير من نلتمس هاتين الظاهرتين بوضوح وجلاء في آثاره (جون ملتون) وهو الذي سنعرض لدراسته في هذه الكلمة العجلى

شخصيته وحياته

لملتون شخصية فذة محاطة بستر كثيف من الغموض والإبهام، ليس من الهين علينا خرقه؛ يدل على ذلك: تشعب الأحكام فيه، وتباين وجهات النظر إليه، وتناصر الآراء عليه. فبينا نرى المعجبين بسمو شخصيته، والمفتونين بسحر شاعريته، يوغلون في تقديسه وتبجيله، ويبوؤونه وشكسبير سناماً واحداً من الشهرة والعظمة ولا يرون (لفردوسه) في الشعر مثيلاً إلا بالرجوع إلى الإلياذة والأوذيسة - إذ بالكثيرين من خصومه يجردونه من جميع مواهب الشاعرية السامية، ويجهدون الفكر في تسقط سقطاته، وتقصي هفواته، والإحاطة بكل ما من شأنه أن ينتقص من شاعريته وينال من شخصيته. أما الفريق الأول فزعيمهم (وليم هزلت)، وأما الفريق الثاني فعلى رأسهم (جونسون)؛ ولا تظهر الحقيقة بين حالتي الإغراق في الإعجاب، والتحذلق في التغرض إلا مجسمة مكبرة، ومشوهة ملفقة، فلا عجب إذا قلنا إن ملتون كان ولم يزل غامض الشخصية، مكتوم الطوية. ونحن إذ نعرض له بمثل هذه الكلمة العجلى، فلسنا ندعي أن فيها فصل الخطاب الذي لا يرد، ولا التوفيق بين مختلف هذه الأقوال المتبلبلة والأحكام المتشعبة، وإنما نريد توجيه اهتمام الناقدين، وجهود الباحثين إليه، وعرض مختلف المقالات فيه، تاركين - ما أمكن - للقارئ الكريم الحرية في إمازة غثّها من سمينها

ولد ملتون في (برودستريت) بلندن، وكان والده كاتباً؛ وإذ كان من أهل اليسر والرخاء فقد كان شديد الرغبة في تعليمه تعليماً جامعياً عالياً. ولقد كانت طفولته النادرة تنبئ بما سيكون له من المجد المخبوء في جوف المستقبل، وليس أدل على طموحه وعبقريته وتحفزه للوثوب إلى قمة المجد من تلك المقطوعات الشعرية الجميلة التي نظمها وهو لا يزال بعد في ربيع صباه، تائهاً بكبرياء فتونه

كان ملتون طويل القامة، ساهمَ الوجه، شتيت الثغر، أبلج الحاجبين، ذا عينين نجلاوين، أشم الأنف، سخامي الشعر رجلَه، مليح الفم، معتدل الأعضاء، وكان (كما يروى عنه) بارع الجمال، تعشق منظره العين، وترتاح لحديثه النفس، وهو - إلى جانب ذلك كله، مزهوّ بنفسه معجب بخلقه، ومعتد بذكائه، تشهد بذلك آثاره العديدة، وأساليبه الشعرية المستعصية؛ وما أسلوب الشاعر في قصيدته إلا صورة لطبعه، ومرآة لأخلاقه

مكث ملتون في بيت والده في (هارتون) حتى منتصف العقد الثاني من عمره، حيث عاش تحت كنفه عيشة مترفة رخية، لا ترنق صفوها الأكدار والأحزان، ولا تعبث بهنائها الهموم والأشجان، فشب محباً للحرية، وما من شيء يضع في جذوة نفسه المتوقدة، أو يقل من شباة عزيمته المتحفزة، وإذ ليس من شاغل يشغله بأمور عيشه، فقد كان منصرفاً إلى افتعال الشعر والعبث به، وإلى احتذاء أساليب أفذاذ الشعراء في القريض. وفي عام 1624 أدخله والده مدرسة في كمبردج، فأقبل على الدرس لا يلوي عنه إلا حين يجهده الفكر، فنال بذلك استحسان معلميه ومديح عارفيه، إذ برّ جميع أقرانه، واشتهر بين سائر لداته بذكائه اللامع، وفطنته المتوقدة. وفي عام 1632 أنهى علومه الجامعية ونال درجة السامية فغادر كمبردج راجعاً إلى بيته في هارتون، حيث أكب على مطالعة الآداب الكلاسيكية مدة خمس سنوات تمكن في خلالها من الإحاطة بجميع ما فيها من رائع النثر وجيد الشعر. أما اللغة الإنكليزية، فقد بلغ اطلاعه عليها حدّ الإحاطة بجميع أوابدها المستعصية. وليس أدل على ذلك من مطالعة ملحمته الشهيرة المعروفة (بالفردوس المفقود) إذ تحتاج في كل صفحة إلى الاستعانة بالمعجم عشرات المرات

وبعد أن قضى في هارتون خمس سنوات في الجد والمطالعة، أخذ يطوف في أنحاء أوربا، ويتنقل بين مدنها العامرة وعواصمها الزاهرة، فتلقحت بذلك عبقريته بعناصر أدبية جديدة، وتجلت مواهبه عن جراثيم شعرية سامية، لطفت من عرام نفسه، وليّنت شيئاً من حرونة طبعه، وزادت في قيمة إنتاجه. ففي عام 1638 ذهب إلى إيطالية، وكانت إذ ذاك كعبة الأدب، ومثابة الفن، وقبلة الشعراء والمتأدبين. يحجون إليها في كل عام ليردوا شرعة آدابها الرائعة، وليروِّحوا عن أنفسهم من عنائها، وذلك بالتمتع بسمائها الصافية، وأشجارها الباسقة، ومناظرها المتناسقة. وقد زار من مدن إيطالية فلورنسة، واجتمع

فيها غير مرة بأعظم علمائها وهو غاليلو، ومنها عرج على رومة وهي العاصمة، والمثابة العزيزة لسائر أنواع الفن؛ ثم سار منها إلى نابولي، وهناك قرع سمعه نبأ الحروب الداخلية التي شبت في إنكلترا عن اصطدام حق الملوك الإلهي برغبة الشعب الملحة في الحصول على حقوقهم كاملة غير منقوصة، ولهذا فإنه لم يتم رحلته بل رجع إلى وطنه وهو يقول: إنه لمن المزري بالرجل أن ينشد الراحة في السفر، بينما مواطنوه يجالدون في سبيل حريتهم

ملتون والسياسة

وبرجوع ملتون من رحلته تبتدئ حياته السياسية، وهي دور مليء بالجهود الجبارة والأحداث الخطيرة؛ ولئن كان إذ ذاك مأخوذاً بنزق الشباب وتهور العاطفة إلا أنه أظهر في ميدان السياسة من الحنكة والدهاء والمرونة الدبلوماسية ما لا طاقة على مثله إلا لذوي النبوغ والعبقرية. كان حبل السياسة إذ ذاك مضطرباً بين حق الملوك الإلهي وبين ديمقراطية الشعب؛ وأحياناً بين البروتستنتية المصلحة، والكاثوليكية المبالغة في المحافظة على تقاليدها - ولو بليت - وكان ملتون خصم الملكية اللدود، وعدو البابوية الأزرق، فلا عجب إذا انهال عليهما بكثير من الامتهان والزراية، أو تسقط لهما كل ما من شأنه أن يحط من جلالهما أو ينال من عظمتهما

لقد ناهض الملكية كثيراً، وقاومها مقاومة غماء الجبين، حتى أنه لم يدع سانحة تمر إلا اهتبلها منددا بعيوبها ومثالبها، شاهراً ظلمها ومساوئها؛ كما ناصر الطهريين كثيراً في تقويض دعائم الكاثوليكية. والطهريون في ثورتهم على الكاثوليكية ومن ورائها الملكية، أشبه ما يكونون في التاريخ العربي بالخوارج في ثورتهم على العلويين أولاً والأمويين ثانياً؛ ووجه الشبه بينهما اختلاط الدين بالسياسة في مبادئهما. وما مبادئ الطهريين التي هبوا متشمرين للنضال السياسي في تحقيقها، إلا صورة من المبادئ الوهابية في جزيرة العرب. ولقد كانت الدعوة الطهرية في بادئ أمرها دينية محضة، أي كدعوة الخوارج إبان خروجهم على عليّ، ولكنها - كمثيلتها - لم تلبث أمام أرستقراطية الملوك أن تنكرت لهم،

واصطبغت لمجالدتهم بالصبغة السياسية، فقد ناهض الطهريون الملوك مناهضة عنيفة، وأنكروا عليهم حقهم الإلهي في السيادة والسلطة، وانتزعوا لفظه من أفواههم بعد أن كانوا يتشدقون بمضغه تشدق من يمضغ لقمة دسمة. وما انتصار النظام الدستوري في إنكلترا وانهيار دعائم الملكية إلا رمزاً لانتصار المبادئ الديمقراطية على الأرستقراطية، بل صورة لانتصار الطهريين على جميع منافسيهم، ذلك الانتصار الذي أملى على ملتون ملحمته الشهيرة المعروفة بالفردوس المفقود، وهي صورة حية لما كان عليه الدين إذ ذاك من التبلبل والانقسام، تطلعنا على مدى ما وصل إليه الطهريون في جهادهم لتدعيم أسس حرية الشعب الدينية والسياسية تلك الحرية التي أنجبت أمثال دن، وبنيان، وملتون

ومن كتابات ملتون السياسية رسالته المعروفة: وقد كتبها عام 1649 دفاعاً عن إعدام الملك - ذلك الإعدام الشنيع الذي صوره فيما بعد بصورة ترتعد منها الفرائص وتقشعر لها الأبدان في كراسته المعروفة

وإذ كان ملتون ظهيراً لكرمويل ومساعداً له ضد الملكية الظالمة، فقد عينه هذا بعد تسنمه سدة الحكم بمدة وجيزة - أي عام 1649 - ترجماناً له في قسم السكرتارية اللاتينية، وكان عمله ترجمة جميع الدواوين والرسائل إلى اللغة اللاتينية، إذ كانت اللاتينية إذ ذاك هي اللغة السياسية الوحيدة المتفق عليها بين جميع دول أوربا

(يتبع)

خليل جمعة الطوال

أبحاث تاريخية جديدة

الإسلام في غرب أفريقية

مدى انتشاره في تلك الأقاليم ومبلغ أثره في الأهلين

للأديب جمال الدين محمد الشيال

تتمة

ولقد حمل إليهم الإسلام أيضاً نظام الحكم الديموقراطي. ذلك أن نظام الإدارة في الإسلام نظام ديموقراطي - لا فارق بين رجال الدين وعامة الشعب - فرئيس

المقاطعة هناك هو الليمان (ويبدو لي أنها محرفة عن لفظة الإمام بالعربية) ويختار من بين أفراد الشعب، وكل الصفات التي يراعيها الناس أثناء انتخابه هي أن يكون على خلق طيب وأن يكون ملماً بالقرآن إلماماً لا بأس به. ومن وظيفته أن يؤم الناس في الصلاة. وليس هناك نظام مركزي يوحد بين هؤلاء الليمانز فكل منهم مستقل في إدارته. ويزود الليمان هو والمالم (وأرجح أن أصلها معلم، فوظيفته تعليم الناس ولابد أن يكون على علم ولو قليلاً بالقرآن) بما يقدمه الناس لهم من عطايا عن طيبة خاطر. ومهمة هؤلاء المعلمين تعليم الصغار؛ غير أن أكثر اعتمادهم في الكسب على التمائم التي يقدمونها للناس. والمعلمون كذلك أطباء يستخرجون الأدوية من جذوع الشجر وأوراقه. ومعظمهم طفيليون على المجتمع، بل إن بعضهم يستخدم تلامذته لسؤال الناس. وكثير منهم ممن ذهبوا إلى مكة وحجوا البيت الحرام يشاع تقديسهم؛ وهم يستغلون هذه الإشاعات الخيالية طول المدة الباقية من حياتهم. ولكننا برغم هذا لا نعدم أن نجد بين هؤلاء المعلمين من يحيا حياة كلها تقوى وورع وسعي لنشر العلم. وفي معظم الولايات الإسلامية تقام الصلاة كل يوم كما يحتفل المسلون بعيدي الفطر والأضحى إذ يسمونهما & أي العيد الأصغر والعيد الأكبر

المذاهب الدينية

ويعتبر سلطان سكوتو الرئيس الروحي لجميع مسلمي السودان الأوسط حيث يسمونه ولقد امتد نفوذه في أوائل هذا القرن حتى شمل تمبكتو غرباً وأجادز شمالاً (ولكن هذا النفوذ لم يشمل بورنو حيث يتمتع الشيهو بمركز ديني يضاهي مركز سلطان سكوتو) وهناك مذاهب دينية مختلفة تعمل على تقدم الإسلام ونشره، أهمها مذاهب القادرية والتيجانية والسنوسية. وللمذهبين الأولين أتباع كثيرون في مختلف أنحاء نيجيريا، وخاصة مذهب التيجانية الذي أسسه أحد أساتذة بلاد المغرب واسمه (سيدي أحمد التيجاني) وكثير من ثورات السودان المحلية يرجع لتأثير هذا المذهب في السودانيين. أما مذهب السنوسية فلم يتعمق إلى الجنوب كثيراً؛ لقد بلغت دعوته شمال نيجيريا وله بعض الأتباع في سكوتو وبورنو. وليس هناك ما يميز أتباع هذه المذاهب عن بقية المسلمين سوى رغبتهم وسعيهم للتطهر، وسوى حلقات الذكر التي يقيمونها في الحين بعد الحين (وإن كانوا لا يفهمون معنى ما يقولون أثناء الذكر كما يقول والمساجد منتشرة في كل مدن الإسلام، أما في القرى فالمسجد قطعة من الأرض مسورة بحاجز من الخشب

الإسلام ينتشر وإن كان المسلمون لا يبشرون به

لا يوجد بين المسلمين الآن إرساليات تبشيرية تعمل لنشر الإسلام، ولكن الإسلام ينتشر عفواً بين تلك الجماعات دون بذل مجهود. والجهاد عند المسلمين واجب لنشر دينهم بين الوثنيين ولكننا لو عرفنا أن الجانب الأعظم من دخل الفولاني يعتمد على تجارة الرقيق بدا لنا السبب في عدم اهتمام هؤلاء كثيراً بالتبشير لدينهم بين الوثنيين ومع هذا فقد كانت هناك إرساليات تبشيرية هامة في أوائل حكم الفولاني. فإن لاندر يحدثنا أنه قابل في معلمين من الفولاني أرسلهم أمير نوبي لينشروا تعاليم الإسلام بين السكان الوثنيين

غير إن الإسلام لم ينتشر في تلك الجهات نتيجة سعي الإرساليات قدر ما انتشر نتيجة جذب ثقافة المسلم العالية لجيرانه الوثنيين. والآن بعد سهولة المواصلات أصبح المسلمون أكثر اتصالاً بالوثنيين، وكانت نتيجة هذا أن الوثني الذي يتعدى منطقة إقامته يرى أن من الصالح أن يعتنق الإسلام، وأن يتبع المسلمين في أسلوب حياتهم، لأنه سريعاً ما يدرك ضيق دينه إذا قارنه بعالمية الإسلام؛ وهو إلى هذا كله لا يجد صعوبة في انتقاله من الوثنية إلى الإسلام، فهو بالمعاشرة يستطيع بسرعة أن يستسيغ نظم الدين الجديد. والوثني كذلك يرى أن المسلم متسامح وأنه يعيش في منزل أنظف من منزله ويرتدي ملابس خيراً

من ملابسه، وله بالعالم معرفة أوسع من معرفته. فلا غرو بعد هذا إن فضل الوثني الإسلام فاعتنقه. والوثني عندما يسلم يغسل جسمه كله ثم يعلن إسلامه في المسجد

نظم التعليم في تلك الجهات

وهناك مدرسة في كل بلدة من بلاد الإسلام يديرها معلم من الأهلين، ويرسل إليها الأطفال في سن مبكرة غالباً بين الثالثة والرابعة، يرسلهم آباؤهم إلى هذه المدرسة

فراراً من الجهد الذي يبذلونه لرعايتهم. ومن هؤلاء المعلمين من يمارس التجارة إلى جانب مهنة التعليم. أما الأطفال فهم يستمعون إلى دروسهم في العادة ساعة في الصباح وساعة في المساء، وهؤلاء الأقوام لا يهملون تعليم بناتهم. ويتلقى التلاميذ دروسهم عادة قبل شروق الشمس وبعد غروبها حتى يستطيع الصبية منهم خدمة الحقول أثناء النهار

وأول ما يتعلم الأطفال الصلاة، ثم يعلمون كيف يقرأون القرآن، ثم يتلقون بعض الواجبات الدينية كشروط الوضوء وطرق الاغتسال وغيرها. والأطفال يقرأون العربية جميعاً وراء معلمهم بصوت مرتفع منغم. وإذا تقدم الأطفال في السن وكبروا علموا شيئاً من تفسير القرآن؛ غير أن نظم التعليم العامة عندهم تسير على نهج آلي. فمعظم الأولاد يحفظون القرآن كله أو بعضه، وهم لا يفقهون له معنى. بل أن أكثر المعلمين هناك ثقافة لا يعرف شيئاً عن التطور الفكري الذي يسود العالم الإسلامي اليوم. وإن كان هناك نفر من النيجيريين على درجة كبيرة من العلم والثقافة فمنهم شيهو دان فوديو وقد ألف كتاباً في اللاهوت وابنه بلو وهو نحوي ومؤرخ مشهور وغيرهم كثيرون. ولا يتقاضى المعلمون مرتبات غير الهدايا التي تقدم إليهم. وعندما يتم الولد دراسته يأخذ المعلم من أهله حملاً أو عنزة ومع هذا فإن 3 % من المسلمين فقط هم الذين يقرءون ويكتبون

فضل الإسلام في توحيد هذه القبائل المبعثرة

يبدو لنا بعد هذا بوضوح كيف أن نظم الإسلام الاجتماعية والسياسية توافق الزنوج كل الموافقة خصوصاً وإن الزنوج السودان يسود بينهم الدم الحامي أو دم البحر الأبيض المتوسط. فالإسلام إذ يفرض على هؤلاء الناس الختان ويبيح لهم تعدد الزوجات ويمنعهم عن أطعمة خاصة ويحرضهم على أن يكونوا أحراراً، لا يطلب منهم المستحيل، بل إن

يقول (إن الإسلام إذ يفرض على الزنوج عبادة الله لا يفرض عليهم جديداً فإن في نيجيريا يعتبرون إله السماء هو المسيطر والمنظم للعالم)

وبعد هذا فإنا لا ننسى كيف حمل الإنسان إلى هؤلاء الأقوام الشعور بضرورة الوحدة، فلقد جمعهم بعد تفرقة. والفضل كل الفضل للإسلام إذ كون من تلك القبائل المبعثرة وحدات متحدة قوية؛ بل إن ميك يعترف بالفضل للإسلام إذ وحد هؤلاء الناس حتى استطاع الإنكليز أن يحكموهم هذا الحكم غير المباشر. وإن كان المسلمون في تلك الجهات هم الذين يتولون أمورها ولهم قيادة الرأي العام فيها

لقد رأينا كيف اتسعت موجة الإسلام واتسعت حتى تلاشت في القرن التاسع عشر وابتدأت حركة الاستعمار ووجد المستعمرون أن مصدر الصعاب التي قامت في طريقهم هو الإسلام والخلاف الديني بينهم وبين أهالي الجهات المستعمرة. ولذلك فهم يبذلون الآن جهدهم لنشر المسيحية حيثما حلوا. وهم يجذبون الناس إليهم بمختلف الوسائل التي تحمل طابع الإنسانية، فهم ينشئون المستشفيات والمدارس ودور اللهو والكنائس وغيرها. ثم هم يجتهدون أخيراً أن يحولوا بين مسلمي السودان وزنوجهم لينشروا بينهم المسيحية. ولكن واجب المسلمين الآن أن يلقوا بالدعوة من جديد حتى تبتدئ الموجة ثانية وتتسع. . وتتسع حتى تصل إلى هؤلاء الأقوام فتحسن من تعليمهم وتعمل على تقوية إيمانهم. ولا أحسب أن هناك قطراً يصلح لهذه المهمة غير مصر؛ ولا أحسب أن معهداً في مصر يصلح لهذه المهمة غير الأزهر، ورجال الأزهر. فهل يفكر القوم في هذا؟!

جمال الدين محمد الشيال

المراجع

1 -
2 - 1930.
3 - ; 1913
4 -
1 - 1848 ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار المغرب. طبعة لايدن سنة

ابن خلدون: المغرب في تاريخ الدول الإسلامية بالمغرب طبعة لايدن 1847 - 2
المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب طبعة لايدن سنة 1847 - 3
ابن بطوطة: رحلته المسماة (تحفة النظار. . . الخ) - 4
نقل الأديب
للأستاذ محمد اسعاف النشاشيبي
271 - فإن لم ينتهوا راجعت ديني
كان أبو المطراب من لصوص الحجاز فتاب فظُلم فقال:
ظلمتُ الناس فاعترفوا بظلمي ... فتبت، فأزمعوا أن يظلموني
فلست بصابر إلا قليلاً ... فإن لم ينتهوا راجعت ديني
272 - الشاهد عند الحاجة
قال أبو العيناء: ما رأيت قط أحسن شاهداً عند حاجة من ابن عائشة. قلت له يوماً:
كان أبو عمرو المخزومي يصلك ثم جفاك، فقال:
فإن تنأ عنا لا تِضرْنا، وإن تعد ... تجدنا على العهد الذي كنت تعلم
273 - ما زلت تخفي الصدقات
مر الفرزدق بالحكم بن المنذر بن الجارود فاستسقاه ماء، فقال: هلا لبناً يا أبا فراس؟ قال: ذاك إليك. فملأ له عُساً من خمر، وأمر فحلبت عليه لقحة فصعدت الرغوة فوق الشراب وأتاه به فشربه حتى صك بالعس جبهته، وانتفخت أوداجه، واحمرت عيناه، فمسح سِباله وقال: جزاك الله خيراً! فإنك ما زلت تخفي الصدقات، ونعمّا هي
274 - وهذا ينتسب عرضا
سئل رجل عن نسبه فقال: أنا ابن أخت فلان. فقال أعرابي: الناس ينتسبون طولاً، وهذا ينتسب عرضاً
275 - بل يزوج
كان ذئب ينتاب بعض القرى ويعيث فيها، فترصده أهلها حتى صادوه وتشاوروا في تعذيبه. فقال بعضهم: تُقطع يداه ورجلاه، وتدق أسنانه، ويخلع لسانه. وقال بعضهم: بل يصلب ويرشق بالنبال. وقال بعضهم: بل توقد نار عظيمة ويلقى فيها. وقال بعض الممتحنين بنسائه: لا، بل يزوج. وكفى بالتزويج تعذيباً! وفي هذه القصة يقول الشاعر:
رب ذئب أخذوه ... وتمارَوا في عقابهْ
ثم قالوا:
زوِّجوه ... وذروه في عذابهْ
276 - فأما البخاري وكافر فما سمعناه
قال ابن العمار الحنبلي: كان عبد السلام بن عبد الوهاب بن عبد القادر الكيلاني - ويلقب بالدكن - أديباً كيساً مطبوعاً عارفاً بالمنطق والفلسفة والتنجيم وغير ذلك من العلوم الردية! وبسبب ذلك نسب إلى عقيدة الأوائل
رأى عليه والده يوماً ثوباً بخارياً - كان عبد الوهاب كثير المجون والمداعبة - فقال: والله هذا عجب! مازلنا نسمع (البخاري ومسلم) فأما (البخاري وكافر) فما سمعناه!
277 - كفيتنا مؤونة مراجعته. . .
كتب القاضي أبو يوسف كتاباً وعن يمينه إنسان يلاحظ ما يكتبه، ففطن له أبو يوسف، فلما فرغ من الكتابة التفت إليه وقال: هل وقفت على شيء من خطأ؟
فقال: لا والله ولا حرف واحد
فقال له أبو يوسف: جزيت خيراً حيث كفيتنا مؤونة مراجعته. ثم أنشد:
كأنه من سوء تأديبه ... أُسلِم في كُتاب سوء الأدب
278 - فانظر إلى حجر صلد يكلمنا
قال أبو عامر البرياني في الصنم الذي بشاطبة:
بقيةٌ من بقايا الروم معجبة ... أبدى الثبات بها من علمهم علما
لم أدر ما أضمروا فيه، سوى أمم ... تتابعت بعد سموه لنا صنما
كالمبرد الفرد، ما أخطا مشبهه ... حقاً لقد برد الأيام والأمما!
كأنه واعظ طال الوقوف به ... مما يحدث عن عاد وعن إرما
فانظر إلى حجر صلد يكلمنا ... أسمى وأوعظ من قُسّ لمن فهما
279 - وأنتم كدود الخل

في (إرشاد الأريب) لياقوت: حدث الرئيس أبو الحسن هلال قال: قلت لجدي أبي اسحق
تجاوز الله عنه - وهو يشكو زمانه: يا سيدي، ما نحن بحمد الله تعالى إلا - (الصابي)
في خير وعافية ونعمة كافية. فما هذه الشكوى التي تواصلها، ويضيق صدرك بها، ويتنغص عيشك معها؟ فضحك وقال: يا بني، نحن كدود العسل قد نقلنا منه إلى الخل فلهذا نحس بحموضته، ونأسى ونحزن على ما كنا فيه من العسل ولذته. وأنتم كدود الخل ما ذقتم حلاوة غيره، ولا رأيتم طلاوة ضده
280 - با اين تيمار بايد اندكي شادي
في (عيون الأخبار): قال علي بن هشام: كان عندنا بمرو قاص يقص فيبكينا، ثم يخرج بعد ذلك طنبوراً صغيراً من كمه فيضرب به ويغني ويقول:
با إين تيمار بايَدْ أندكي شاكي
معناه: ينبغي مع هذا الغم قليل فرح
281 - ولكن بدموعي!!!
نَوْرَزَ الناس ونورزتُ ولكن بدموعي! وذكت نارهمُ والنار ما بين ضلوعي!
282 - قبل أن يبادرني بالعقوق
تزوج أعرابي على كبر سنه، فقيل له في ذلك، فقال: أبادره باليتم قبل أن يبادرني بالعقوق. . .
قطعتان من روائع أدب الغرب
1 - حنين إلى الوطن
للشاعر الناثر: شاتوبريان
ما أكثر ما تكن جوانحي من ذكريات عِذاب
عن البلد الجميل الذي فوق أرضه ولدت، وتحت سمائه ترعرعت!
أختاه، ما أجمل تلك الأيام التي أنفقناها في فرنسا!
دمت يا بلادي محطاً لغرامي ومنية لفؤادي!
هل تذكرين يا حبيبتاه أمنا الرءوم
حين كانت تضمنا إلى صدرها الحنون
باسمة الثغر، متهللة الوجه بقرب موقد كوخنا
وحين كنا نلثم معاً شعرها الأبيض الجميل
هل تذكرين؟
هل تذكرين يا أختاه ذلك القصر الباذخ
وقد خوّص في النهر بقدميه
وذلك البرج القديم، المسرف في لقدم
حيث يقرع الناقوس مؤذناً بانبلاج الصبح وعودة النهار
هل تذكرين؟
هل تذكرين تلك البحيرة السجواء
وقد داعبها السنونو بأجنحته الخفيفة السوداء
والقصب المياس وقد طأطأت هامه الرياح النكباء
ومليكة النهار الفتانة، وقد احتُضرت فوق ثبج الماء
هل تذكرين؟
هل تذكرين صديقتي (هيلانه)، رفيقة الحياة الحنون
هل تذكرينها في الغابة حين كانت - وهي تقتطف الزهرة البديعة
تسند صدرها الجياش إلى صدري
وتضم قلبها الخفاق إلى قلبي
هل تذكرين؟
أواه! من ذا الذي يعيد إليّ (هيلانه)
وطودي وتلك السنديانه؟
ذكرياتهم هي التي ترمض أحشائي بالألم
آناء الليل وأطراف النهار
دمت يا بلادي محطاً لغرامي ومنية لفؤادي

الفراشة - 2
للامارتين
تولد حين يذر قرن الربيع، وتقضي لما يرفرف الموت فوق أكمام الورد:
تسبح وقد امتطت جناح النسيم، في سماء صافية الأديم
وتتأرجح على أكمام أزاهير لا تكاد تتفتح
فيسكرها عَرْف نفاح، ونور لماح، وزرقة بهيجة
تنفض الغبار عن جناحيها والميلاد حديث
وتطير صاعدة إلى السموات العلى خفيفة كالنسيم
تلك حياة الفراشة المشرقة
إنها لتحكي الرغبة: تمس كل شيء ولا تقع أبداً على شيء
ثم تعود أخيراً إلى السماء تنشد اللذة الفقيدة
حماة
(سوريا)
عارف قياسه
إحياء النحو
أهدى الأستاذ إبراهيم مصطفى أستاذ اللغة العربية بالجامعة المصرية كتابه النفيس (إحياء النحو) إلى صديقه الشاعر الراوية الأستاذ أحمد الزين، فأجابه الأستاذ على هديته الثمينة بهذه الأبيات:
// لَوْ كانَ عَصْرُكَ لِلمَواهِبِ مُنْصِفا ... لَدَعَاك حَقًّا (سِيبوَيهِ مصطفى)
أَحْيَيْتَ للفُصْحَى لِساناً مُرْهَفاً ... سَلَّت عليه الأَعْجَمِيَّةُ مُرْهَفَا
لَوْ عَاصَرَ الدُّؤَلِيَّ فَضْلُكَ لَمْ يكُنْ ... لِلنَّحْوِ غيرُكَ وَاضِعاً ومُصَرِّفَا
شَرُفَتْ بِكَ العَرَبُ الكِرَامُ وَإِنَّها ... لَجَدِيرَةٌ بك أن تِيهَ وتَشْرُفَا
أَلْقَتْ وَدِيعَتَها إليك فَصُنْتَها ... لا وَانِياً عنها ولا مُتَكَلِّفَا
للهِ سِفْرٌ أنت ناسِجُ وَشْيِهِ ... أَزْرَى بما نَسَجَ الرَّبِيعُ مُفَوِّفَا
كَمْ مَذْهَبٍ في النَّحْوِ عادى مذهباً ... فَجَرَى بَيَانُكَ في الْعُدَاةِ مُؤَلِّفَا
وَتَنكَّرَتْ سبل الهدَى فِيهِ إلى ... أَنْ لاَحَ نُورُ حِجَاكَ فيهِ مُعَرِّفَا
أحمد الزين
القصص
من أساطير الإغريق
بومونا
للأستاذ دريني خشبة
عروس من عرائس الغاب يترقرق الجمال في إهابها الوردي وتلتمع في فمها الرقيق الخمري ثنايا من اللؤلؤ الرطب، وتبسم. . . فتثور من عينيها وشفتيها أسراب من النحل في قلوب العاشقين، تلسعهم، وتسقيهم رحيقاً!!
هي بدع من عرائس الغاب؛ فهي لا تغشى الأنهار تتلاعب في طيات أمواجها؛ وهي لا تحب البحر لا هادئاً ولا متمرداً؛ وهي تكره الغابة لأنها تعج بالأفاعي والوحوش، ومنظر هذه حين يساور أحدها الآخر يبعث في نفسها اشمئزازاً، ويثير فيها غضباً على الطبيعة الظالمة التي جعلت الضعيف فريسة للقوي يذله ويقتله. . . ثم يأكله
لذلك أولعت بومونا بالحقول الساكنة الهادئة، إلا من نشاط الحياة يسري فيها فتهتز وتربو، ثم تكتسي بالسندس، وتنضر بالزهر، وتطن بموسيقى اليعاسيب. . . وأولعت كذلك بالحدائق. . وقد غرست حديقتها على عُدْوَة النهر، وسوّجت عليها بسياج من شوك، ثم جعلت لها بوابة جميلة عرشت فوقها عساليج الشّبر والياسمين. . . وكانت تقضي في جُنينتها أكثر وقتها، ولو استطاعت لم تبرحها قط، لأن الزنبق الغض، والنسرين الجميل، وأكمام الورد، وهالات البنفسج، ونضرة الشقائق، وأرج التفاح، وعبق الرياحين، وشذى أزهار الخوخ العقيقية، وابتسامات الأقاح، ولآلئ الندى المبعثرة فوق العشب. . . كل هذا كان أحب إلى قلبها الخلي، ونفسها العزوف، من هؤلاء الناس، والآلهة، وأنصاف الآلهة، الذين كانوا ينتظرون أوبتها في المساء إلى دارها، فيقفون في طريقها، ليفوز من يفوز منهم بنظرة أو خطفة أو لمحة، يعود بعدها إلى منزله مصدع القلب، حائر الروح، خفق الأحشاء موهون القوى!

وكأيّن من قائل لآخر:
- أرأيت بومونا هذا المساء يا صاح؟
- الحُسّان المفتان! أجل والله. . . رأيتها، وأورثتني ألف حسرة يا صديقي!
- أوَ مشغوف أنت بها حباً؟
- ومنذ الذي لم تشغفه بومونا حباً، وقد تبلت قلوب الآلهة؟
- إني أغار من كلماتك أيها الصديق. . . فاقصر!
- وأنا أغار من غيرتك، فاذهب لطيتك!!

ويكاد أحدهما يحرق صاحبه بالشرر الذي ينقدح من أغوار قلبه. . . عن طريق عينيه. . . ثم يمضي كل في سبيله. وهكذا تعادى الناس في بومونا، وهكذا تنافس الجميع في حبها حتى الآلهة فلقد رآها أبوللو وجن بها جنوناً، ولقيها مارس وفتن بها فتوناً. . . ولكن العروس كانت لاهية عن الجميع، لا يتفتح قلبها لحب ولا يرق قلبها لشكاة القلب المغرم الصب؛ وكل ما كان يصبيها، ويشغل بالها، هو هذا الفردوس الحبيب، الذي لا يضايقها بكلمات الغزل، ولا يضجرها بالأنظار الجائعة؛ بل يحييها دائماً بالابتسامات البريئة وبالرّوْح والشذى

غير أن واحداً من عشاق بومونا كان يعدل لا حبه لها حب، ولا يسمو إلى افتتانه بها افتتان. . . فتى لمحها مرة تطوي الطريق قبيل الشروق إلى حديقتها، فوجده منجذباً إليها، مجنوناً بها، فتبعها، وجعل يقلب عينيه في مفاتن شعرها المتهدل فوق ظهرها وكتفيها، حتى ليكاد يقبل العقبين الرائعتين، اللتين أخذتا تعلوان وتهبطان على ثرى الطريق، كأنهما ختم الطبيعة في صك البكور أو زهرتان من اللوتس، ترشفان سلافة الندى. . . وكان جسمها الرخص يتأود كالخيزران، وساقاها الناصعتان المرمريتان تضيئان في غبشة الصبح، فتضرمان في قلب فرتمنوس نيران الحب، وتزلزلانه زلزالاً عظيماً

وعرف الفتى ميعادها، فكان يصحو مع الفجر، ويهرع إلى الطريق، ويلبث يعد الدقائق والثواني كأنها ساعات بل أيام بل دهور وآباد. . . حتى إذا أقبلت، شعر بقلبه يخفق، وأعصابه تذوب، وأحس كأنه خفّ على الأرض، وغدا طيفاً يوشك أن يسري مع نسيم الصباح الذي تنشقه بومونا. . . له الله! لكم منّى نفسه بقبلةٍ يطبعها على هذا الفم الشتيت تُذهِب حرّ قلبه وتشفي صدى روحه الظامئة المتعطشة، ولكنه كان يعود أدراجه كل صباح بعد أن يتأثر سالبة لبه، ولا لب له، ولا قلب معه، ولا مداوي لجراحات فؤاده إلا دموعه

يسكبها عبرة في إثر عبرة، وإلا آهاته يرسلها من أعماقه فتزيد فؤاده جراحاً!

وذوى فرتمنوس وذبل شبابه، وشَفّه الهم وأضوى جسمه الفكر، واستسلم لبكاء طويل يتعلل به، وغناء يشبه العويل، يرسله في نبرات تشبه الأنين، يضمنه بثه، وينظمه شكواه، ويلف فيها بقايا فؤاده المعذب، ويودعه النُّطَف الأخيرة من روحه الحيرانة، ويذهب به في الليلة المقمرة فتجتمع حوله الوحوش، وتسكر بموجع أنغامه الهوام، ويرقص من فوقه الشجر. . . ثم يبكي كل هؤلاء له. . . ويعود من حيث أتى!

ولقيته مرة فينوس فرقت له، ورثت لحاله، وراعها أن يلقى محب كل هذا العذاب، في هوى عروس غاب، فجلست إليه تسامره وترفه عنه

- أهكذا يقتل الناس الحب يا فرتمنوس؟
- إي وحقك يا ربة! لقد نال مني هواها، ولم أعد أفكر في أحد سواها!
- مسكين! وهل كلمتها قط؟
- مرة واحدة اجترأت أن أهتف باسمها، ولكنها أشاحت وأعرضت عني
- وفيم تطمع إذن؟
- أطمع في رضائها، وأطمع بعد ذلك في العيش في ظل حبها
- وإذا لم ترض؟
- سأعيش لحبها وآلامي! ولكن؟
- ولكن ماذا يا فرتمنوس؟
- ألا تساعدينني يا ربة الجمال؟ ألا تتفضلين فترققي قلبها عليّ؟
- عندي فكرة!
- أضرع إليك يا ربة!

- سأمنحك قدرة التشكل، وتستطيع أن تبدو في أي صورة شئت
وانحنت ربة الحب والجمال فتناولت من ماء الغدير قطرات، ثم نفثت فيهن وتمتمت بكلمات سحرية، ونظرت إلى الفتى في ظرف ودل، ونثرت الماء في وجهه
- والآن، فكر في أي صورة تنقلب إليها
وأخذ فرتمنوس يتقلب في صور شتى. . . وكلما حاول أن يرتد إلى صورته الأولى لم يستطع، فتضاحكت فينوس وقالت له:
- فكر أيضاً في صورتك الأصلية قليلاً. . .
وسرعان أن عاد إليها. . . ثم ودعته ربة الجمال والحب وهي تقول له:
- تستطيع الآن أن تلقى بومونا، وسأرى ما يسوقك إليه ذكاؤك! ورفت فينوس فكانت في سماء الأولمب!
واستطاع فرتمنوس أن يدخل حديقة حبيبته في أي لحظة شاء. وكان يدخلها في صورة بلبل غرد، ما يزال يغني ويهتف حتى يلفت إليه أنظار بومونا وأسماعها؛ وكان يتبعها أينما ذهبت فيقف على أقرب شجرة، ثم يرسل أغاني الحب وأغاريد الغرام، فتنسكب في أذني عروس الغاب، فتقف لتسمع لحظة، ثم تأخذ في عملها كأنها لم تسمع شيئاً. . . فيتضايق الفتى، ويطير أسوان أسفاً. . .
واستمر على هذه الحال أشهراً، وكل يوم يمر يزداد بالعروس هياماً، ويفنى فيها حباً، حتى خيف عليه من المرض؛ وأحس هو أن ريب المنون يسري في عظامه، وبرد اليأس يوشك أن يوقف نبضات قلبه؛ ثم بدا له آخر الأمر أن يزور حبيبته في صورة أخرى تختلف عن تلك الصور البلبلية التي اعتاد أن تراه فيها، ثم عول هذه المرة - إذا لم يفز بحبيبته بومونا - على أن ينتحر تحت قدميها في صورة البلبل الحزين!
رأى أن يزورها في صورة عجوز شمطاء! ولم لا؟ أليس عجائز النساء أقدر على إيلاف قلوب العذارى من كل أحد غيرهن؟ أليس لهن حديث طلي يتصل من حيث ينقطع، ويتشقق عن كل خرافة حلوة وكلمة طيبة، وبأسلوب ظريف يشبه (تنميل) الخمر في أطراف السكارى؟!
وقف فرتمنوس في ظل أيكة باسقة نامية في منعرج قريب من حديقة بومونا، ثم طفق يفكر في صورة عجوز طيبة القلب، سمحة الملامح، وراح يتخيل شعرها الأشمط وذوائبها الخلس وغدائرها الزُّعر، ويديها عريَتي الأشاجع، وعينيها الغائرتين، وجبينها المجعد، ووجهها المعروق. . . فكان له كل ذلك، ثم كانت له هيبة ووقار وأسْر، في سكينة ودعةٍ وحسن سمت. . . وأضفى عليه حِبَرة سوداء فضفاضة، وجعل في قدميه خفين هرمتين، وفي يده عكازاً مقوساً ما أشبهه بصولجان الموت!
ثم جعل يدب في هيئته تلك، حتى كان لدى باب الحديقة فطرقه؛ وكانت بومونا تقطف الزهر وتضع منه باقات تقدمها لصويحباتها عرائس الغاب في مثل ذلك اليوم من كل أسبوع. . . فلما لمحت العجوز تتهالك على نفسها بباب حديقتها، أسرعت إليها وحيتها أحسن تحية وألطفها، ثم فتحت لها وأدخلتها، وكانت الخبيثة - أو كان الخبيث - تبالغ في إظهار الضعف وتعمُّل الإعياء، فكانت بومونا تسندها من هنا، وتشد أزرها من هناك. . .
حتى وصلتا آخر الأمر إلى ضُلّة وارفة ذات أفياء، يعرش فوقها كرم نضير تدلى جناه الحلو الناضج، يغازل العيون والأحشاء؛ وأشارت العروس إلى العجوز كي تجلس على إحدى الأرائك التي صُفت عليها الوسائد والحُسْبانات ففعلت، ولكن. . .؟ بعد أن أخذت بفَوْدَي بومونا. . . وطبعت على ثغرها القبلة الأولى الحارة. . . قبلة الأماني والأحلام!!
لقد شُدهت بومونا من أسر هذه القبلة، لأنها من تلك القُبَل الفاترة الباردة التي تخرج من شفاه العجائز كزمهرير الشتاء، بل كانت قبلةً ناعمةً فيها خمر ولها جُمَيّا، وفيها شعر وموسيقى، وفيها روح وامقة صادية كانت تتردد على شفتي العجوز كأنما حاولت أن تلقي في صدر الفتاة بكل أسرارها!!
ولولا أنها كانت عجوزاً حَيْزَبوناً لعشقتها بومونا. . .
ووثبت الفتاة فقطفت عِزقاً من العنب وقدمته للضيفة العجوز. . . ولكنها بدلاً من أن تجدها تهش للثمر الجني الشهي وجدتها غائبة عن رشدها. . . أو. . . كالمغشي عليها! ترى! ماذا أصاب أخانا فرتمنوس المختبئ في جلد هذه العجوز؟! آه! مسكين! إنه لم يكد يفيق من سحر القبلة، حتى رفع بصره إلى بومونا، فشهد العجب العاجب، والجمال النادر، والحسن الباهر، والرونق والبهاء والرواء!! لقد شهد الساقين

الجميلتين والقدمين الصغيرتين وشهد الركبتين الرائعتين الملتفتين. . . وقليلاً من الفخذين اللجينيتين. . . فاستطير لبه، وصبا قلبه، وشردت أفكاره، وغشي عليه؟!
ولما أفاق - أو أفاقت العجوز - سألتها ماذا أصابها، فشكت وطأة السنين وضعف البدن، وتهافت أعضائها من الكبر؛ ثم شكرت لها عِزق العنب، وأخذت في أكل حباته، وهي تخالس العروس النظرات. . . ثم نظرت إلى الكرم العارش فوقهما، وأرسلت من أعماقها آهة طويلة حامية، ثم قالت تحدث الفتاة:
- أرأيت يا حبيبتي (!) لو نما هذا الكرم على الأرض من غير أن يحمله هذا العريش، هل كان يُؤتي أكله، ويحلو عنبه كما هو حلو هكذا؟
- كلا يا أماه! هذا شيء بدهي!
- تعنين أن الكرم لا يستغني عن هذا العريش!؟
- طبعاً!
- ولا غناء للعريش من غير كرم!
- لا يكون منظره جميلاً رائعاً كما يكون ومن فوقه الكرم!
- عجباً لكن والله يا عذارى!! تعرفن ذلك، ولا تفكرن في عطلكن!!
- أوَ عاطل أنا يا أماه؟ ماذا تقولين!
- عفواً يا ابنتي. . . فإن لك ألف حلية من جمالك الذي لا جمال مثله. . . إنما قصدت أنكن تزهدن دائماً في أن يكون لكُن أزواج كما لهذا الكرم عريش. . . لاسيما أنت يا صغيرتي بومونا إني أعرف أن كل شباب المدينة مولعون بك، وكل أمراء النواحي متيمون في هواك؛ وأعرف أيضاً أن منهم من يتعذب بالليل، ويذل بالنهار، لأنك ترفضين أن تمنحيه نظرة حين يلقاك في الطريق، وقد وقف لهذا اللقاء ساعات وساعات. . . بل أعلم يا أجمل عرائس الغاب أنك قد برزت هيلين الهيفاء، وبنلوب اللعوب في كثرة العشاق الذين يعبدون جمالك، وتخبت قلوبهم لحسنك، وتتصدع صدورهم من هول ما تهجرين وتصدين. ماذا؟ لم يا بُنيَّتي لا تختارين لنفسك من بينهم كفءً يقاسمك هذه الحياة وتقاسمينه، ويشركك في هذه الحديقة الفيحاء وتشركينه، ويبسم لك وتبسمين، ويواسيك وتواسين؟ ما غايتك من هذه الوحدة، وأنت بها في منفى، ولو أينعت حولك ألف ألف بنفسجة، ومثلها من الورود والرياحين؟ وهذا الفتى المسكين الذي اسمه. . . اسمه. . . اسمه ماذا؟ آه! فرتمنوس! ذكرت أني سمعت أنه يحبك حباً أورثه السهد، وأولاه الضنى، حتى لم يبق منه هواك إلا حشاشة تترقرق دموعاً في عينيه، وتتأجج نيراناً في صدره. . . لم لا ترحمينه يا بومونا؟ لم لا ترثين له يا أجمل عرائس الغاب؟ إنه ليس إلهاً ولا نصف إله، ولكنه خليق بحبك جدير بأن تكوني له من دون العالمين، لأنه مغرم بك أكثر من كل عشاقك؛ وهو ليس كجميع العشاق، لأنه لم يحببك إلا عن بصر بك، وتقدير لحسنك، ولأن عشاق هذا الزمان مفاليك لا ألباب لهم، فهم ينظرون النظرة فتهيج شياطين الهوى في صدورهم، ثم ينظرون النظرة إلى حسناء أخرى فتنجذب شياطينهم إليها، فإذا لقيتهم ثالثة لم تأب تلك الشياطين أن تتصرع تحت قدميها. . . أما فرتمنوس، فقد أحبك ولم يشرك حسناء في هواك، لأنه لا يرى لك في قلبه شريكة تسمو إلى إخمصيك. . . ارحميه يا بومونا، اعطفي عليه، وانظريه كأنه يتوسل إليك بلساني، ويشكو لك بثه بعيني (!). . . ألا تخافين أن تقتص له فينوس منك؟ ألا تعلمين أنها تتأثر للعشاق من كل حبيبة قاسية القلب؟ ألم تعرفي ما صنعت بالقاسية أناجزَرْتيه؟
- ومن أناجزرتيه يا أماه؟ وما قصتها؟
- ألا تعرفينها؟ ولا تعرفين مأساة الفتى إيفيس؟
- وما مأساة إيفيس؟ قصيها عليّ بالله عليك!
(لقد كان إيفيس فتى جميل المحيا وضاء الجبين، ولكنه كان من صميم الشعب؛ وكانت أناجزرتيه من بنات الأعيان الموسرين. . . وكانت بينهما من أجل ذلك هوة سحيقة لم تمنع إيفيس من حب الفتاة لدرجة الجنون. وكان كلما لقيها غشيه من الغرام ما لو حمله جبل لناء به، ولكن الفتاة كانت تعرض عنه ونزْوَرّ، وتطوي الطريق عجلاته إلى قصرها الباذخ المنيف ذي الشرفات. . . وكان الفتى يتبعها بقلب وامق متصدع ولكنها كانت تدخل من باب الحديقة الحديدي ثم توصده من دونه، فيقف ثمة يتزود منها نظرات الموجع اللهفان من خلل القضبان، ثم يذرف دموعه، وينثني إلى داره، وليس

في قلبه إلا حبها مع ذاك، ولا في عينيه الباكيتين إلا صورتها! وطالما كان يهب من نومه في جنح الليل فيطوي الطريق مُفَزَّعاً، حتى إذا كان لدى البوابة الحديدية وقف عندها، وعانق قضبانها، وبكى ما شاءت الآلهة، وتغنى آلامه وغرامه، ثم ارتد وقد تضاعف وجده، وازدادت صبوته. . . وكم ذا رأته أناجزرتيه فكانت تحقره وتسخر منه، بل كانت لا تعفيه من كلمة قارصة، أو غمزة تهكم واستهزاء، ولم يشفع لديها ما قاله مرة لمرضعها العجوز وما بث من شكاة، بل زادها ذلك قسوة وعناداً. . . ولما جد به الجد، ولم يكن بد مما ليس منه بد، ذهب إليها في ضحوة ضاحكة من ضحوات الربيع، ثم تعلق بالبوابة، وكانت حبيبته ترتع وتلعب في حديقة القصر، فهتف بها وقال: (أيتها القاسية أناجزرتيه اسمعي! لقد قهرت قلبي وغزوت نفسي وتم لك النصر! فهنيئاً لك! تَغَنّي أناشيد الفرح واللذة الصارمة لأنك قتلت إيفيس! اعقدي فوق هامتك إكليل الغار لأنك أذللت قلبه العزيز، ومرغت في التراب روحه العالية. . . ولكن أصغي إليّ يا متحجرة القلب. . . لقد عولت على أن أشرب كأس المنون، ولكني آثرت أن أشربها أمامك إن لم يكن بين يديك، لتتلذذ عيناك بهذا المنظر الموجع الأخير، وليبتهج قلبك بآخر صورة من صور انتصاراتك عليّ. . . بيد أني أهتف بك يا آلهة السموات أن تثأري لي، وأن تجعلي لي ذكراً في قصص المحبين يتناقله الخلف عن السلف، ويتذاكره الناس في طويل العصور والآباد. . .) وكانت السماء كلها تصغي لما يقول إفيس فلبّت واستجابت. . . وكان قد ربط حبل مشنقته في قضبان البوابة، وجعل أنشوطتها في عنقه، فلما انتهى من مقالته ألقى بنفسه. . . وقبضت روحه! ولم تتحرك أناجزرتيه مع ذاك، بل أرسلت خدمها الذين نقلوا الجثة إلى أم الفتى وهم يبكون ويضجون. . . وصرخت الأم المفجوعة وولولت على وحيدها، ثم حمل الجثمان في إران إلى المقابر، ومر الموكب الحزين من الشارع الذي فيه قصر الفتاة القاسية، فصعدت لتنظر إليه، ولكنها ما كادت ترى إلى الجثة مسجاة في النعش حتى تثلجت عيناها، ثم استحالتا إلى رخام بارد. . . وروعت لما أصابها، وأرادت أن ترجع قليلاً، ولكنها لم تستطع لأن الرخام سرى في قدميها أيضاً. . . ثم في ساقيها. . . ثم في ذراعيها. . . ثم في جميع جسمها. . . أما قلبها، فقد كان رخاماً منذ زمن بعيد. . . وكذلك تحولت أناجزرتيه إلى تمثال ما يزال محفوظاً في متحف فينوس بسلاميس. . . عظة وذكرى .. .)

وكأنما عملت القصة عملها في نفس بومونا. . . فانذرفت من عينيها الحزينتين عبرتان حارّتان. . . ونظرت لترى إلى العجوز. . . ولكن. . . لقد كان فرتمنوس العاشق الحزين الجميل القوي يجلس مكانها، ويأخذ برأس الفتاة على صدره. . . فقالت له:

- من أنت أيها الفتى؟

- أنا. . .

وانفجر في بكاء شديد وقال:

- حبيبك فرتمنوس يا بومونا. . .

فقالت: أهو أنت؟

وتبادلا قبلات أشهى من الشهد، وأشد أسراً من الخمر. . .

دريني خشبة

البريد الأدبي

معرض عظيم للحضارة الرومانية

احتفل أخيراً في رومة بافتتاح معرض عظيم إحياء لذكرى الإمبراطور أوغسطوس (أوكتافيوس) منشئ الإمبراطورية الرومانية، وذلك لمناسبة انقضاء ألفي عام على وفاته، وسيبقى المعرض مفتوحاً مدى عام كامل؛ وقد جمعت جميع الآثار والتحف الفنية المتعلقة بالإمبراطور أوغسطوس وعصره وأصلحت، وأقيمت في مواقع مناسبة، وساهمت في ذلك العمل العلمي الجليل جميع المتاحف الإيطالية، ومعظم المتاحف الخارجية التي تحتفظ بآثار من عصر أوغسطوس، وفي مقدمتها المتحف البريطاني؛ وأصلح أثر أوغسطوس العظيم في رومة وهو (الأوغسطيو) أو قبر أوغسطوس الذي يضم رفاته ورفات زوجه وأخته وبعض خلفائه، وغدا أعظم مناظر هذا المعرض. وقد استغرق العمل لإعداد هذا المعرض العظيم خمسة أعوام، وأشرف على تنظيمه من الناحية العلمية العلامة الأثري الأستاذ جليو جليولي، وبذل جهوداً عظيمة ليحقق أمنية

(الدوتشي) في أن يكون المعرض صورة عظيمة خالدة من الحضارة الرومانية؛ وقسم المعرض إلى خمسين قسماً، وجمع فيه نحو ثلاثة آلاف تمثال وصورة ونقش من آثار العصر، ومائتي نموذج تمثل الأثاث الروماني، ومجموعات كثيرة من الأنواط والنقود الرومانية؛ والمقصود أن تقدم هذه الأقسام المختلفة صورة بارزة من الحياة الرومانية في مختلف نواحيها، من الأسرة والحياة الخاصة إلى الدولة والحياة العامة، والجيش والبحرية والتجارة والصناعة والزراعة والعلوم والفنون. وقد أقيم نموذج كامل لمنزل روماني في هذا العصر، مؤثث بنماذج من أثاث العصر وحفل القسم الحربي بنماذج من السلاح والعدد المعاصرة؛ وأفرد قسم خاص للدين جمعت فيه تماثيل الآلهة الرومانية، وآلهة الأمم التي كانت خاضعة للدولة الرومانية؛ وللنصرانية قسم خاص بها جمعت به نماذج وتماثيل تمثل حياة المسيح والرسل والشهداء حتى عصر قسطنطين، هذا وستلقى خلال العام الذي يقوم فيه المعرض سلسلة قيمة من المحاضرات العلمية والأثرية عن الإمبراطورية الرومانية وعصر أوغسطوس والحضارة الرومانية، ويشترك في إلقائها أعظم الأساتذة الإيطاليين

ولما كانت إيطاليا الفاشية تضطرم اليوم بروح إمبراطورية فهي تريد أن تحيي مناظر رومة الإمبراطورية؛ وقد عمل السنيور موسوليني كثيراً في هذا السبيل، وبذل عناية خاصة لتجميل رومة، وإقامة الأبنية الجديدة الضخمة، وشق الشوارع العظيمة وإصلاح الآثار والهياكل والقناطر الرومانية القديمة، وإعادة كثير من الأسماء اللاتينية؛ وشجع السنيور موسوليني أيضاً كل الأبحاث الأثرية والعلمية المتعلقة برومة القديمة وحضارتها، وصهرت في هذا الباب في الأعوام الأخيرة كتب ومباحث قيمة وقد كان عصر الإمبراطور أوغسطوس أعظم عصور رومة، وكانت رومة في عصره حاضرة العالم السياسية والفكرية، وكانت ملاذ العلوم والآداب، فلا غرو أن تتخذ إيطاليا الفاشية عصره رمزاً للعظمة الرومانية وأن تعمل لإحياء ذكراه بكل ما وسعت من حماسة وتكريم

ضوء جديد على تطور الأجناس

اشتهر العلامة الإنكليزي السير جيمس فرازر منذ ربع قرن بمباحثه ونظرياته عن تطور الأجناس البشرية، وله مؤلف جليل كبير في هذا الفن عنوانه ولكن نظريات الأجناس البشرية تطورت في العصر الأخير تطوراً عظيماً، واستطاع السير فرازر أن يخرج من دراساته ومباحثه المختلفة في هذا الميدان بنظريات جديدة يضمنها اليوم مؤلفاً جديداً تحت عنوان وهذا المؤلف الجديد يعتبر في بابه مجهوداً بديعاً سواء من حيث الوضوح في عرض الآراء والنظريات، ومن حيث الدقة العلمية والفنية. وللسير فرازر ثلاث نظريات شهيرة في تطور الأنواع البشرية ومؤثراتها تتلخص فيما يأتي: الأولى نظرية الروح الخارجية، والثانية نظرية الرسوم السحرية التي تجري لزيادة محصول الغذاء، والثالثة نظرية التجاذب غير الزوجي لإنتاج النوع البشري. والسير فرازر يلقي ضوءاً جديداً على هذه النظريات، وعلى تفاعلها في تطور الأجناس، وهو لا زال على رأيه القديم من أن الإنسان الأول كان يعمل عامداً لاجتناب مساوئ الازدواج وأن الإنسان المتوحش له آراء معينة في ضرورة الزواج، ويلجأ السير فرازر في التدليل على نظرياته إلى العوامل الجغرافية، ويقول لنا إن الشعوب المتجاورة تمكن المقارنة بينها، ويمكن تقدير الظروف التي أثرت فيها نظم كل في الآخر. وهو لا يسلم بالرأي الحديث القائل بأن التفاعل الثقافي بين الأمم أشد تأثيراً في تطورها من الاختراع المستقل. ومن رأيه أنه مع التسليم بأهمية الصفات الفردية أو صفات الجماعات، ومع التسليم بأن الإنسان يستطيع الاضطلاع بمقدار من الاختراع المستقل، فإن الأمم مدينة في تطورها على الأغلب إلى عامل التقليد؛ ولنا في اللغات القومية المختلفة أكبر شاهد على ذلك

ويرى العلامة فرازر في أوستراليا أصلح معهد لدراسة التطورات البشرية، ففي هذه القارة الساذجة لا تزال تمثل عادات الإنسان الأول والعصر الحجري، وهي العادات التي عرفتها أوربا وعرفها العالم قبل فجر التاريخ؛ كذلك في جزر المحيط والهند وأفريقية وأمريكا لا تزال تمثل آثار بارزة من ذلك العهد الذي هو أول عهد لتطور النوع الإنساني

تمثال لبلزاك

لم يحظ الكاتب الأشهر أنوريه دي بلزاك كمعظم الكتاب الأعلام من معاصرين ولاحقين بتمثال يخلد ذكره في باريس، تلك العاصمة العظيمة التي أحبها وخلد حياتها الاجتماعية في أوائل القرن الماضي في كتبه ورواياته. وكان المثال رودان قد تقدم منذ سنة 1898 بنموذج برونزي لتمثال لبلزاك ولكنه رفض يومئذ. وأثار رفضه جدلاً عظيماً في الصحف والدوائر الأدبية. ومنذ العام الماضي تألفت في باريس جمعية كبيرة تضم نحو خمسمائة من أقطاب الأدباء والعلوم والفنون لتقوم ببذل المساعي اللازمة لإقامة تمثال لبلزاك من أصل نموذج رودان، وبالفعل استطاعت أن تحصل على موافقة مجلس بلدية مدينة باريس على أن تعين بذاتها ميداناً يصلح لإقامة تمثال الكاتب الكبير، ثم اقترحت أن يكون هذا الميدان هو شارعي ملتقى بومبارناس وراسباي وهما في أعظم شوارع باريس. وسيعرض نموذج رودان أولاً في بهو الفنون الجميلة، ثم يصنع تمثال لبلزاك على نمطه، ويقام بعدئذ في الميدان المذكور، وبذلك يحظى بلزاك بتمثاله بعد مضي أكثر من ثمانين عاماً على وفاته، وتزدان العاصمة الكبيرة بتمثال كاتبها العظيم

أفريقية مستودع الماس

كان المعروف حتى الآن أن إقليم الترنسفال وناتال في جنوب أفريقية يضم أعظم مناجم للماس في العالم، ولكن المباحث الأخيرة دلت على أن مستعمرة (سيراليوني) البريطانية في غرب أفريقية قد تصبح في المستقبل القريب مورداً من أعظم موارد الماس في العالم. ففي سنة 1930 عثر المستر بوليت أحد مندوبي القسم الجيولوجي على قطعة كبيرة من الماس في إحدى بقاع المستعمرة؛ فاهتم المعهد الإمبراطوري بالأمر، وأجريت في هذه البقعة مباحث فنية أسفرت عن نجاح مدهش إذ بلغ المستخرج من الماس من هذا المنجم الجديد في سنة 1936 أكثر من نصف مليون جنيه. والمنجم الآن في يد إحدى شركات الماس الكبيرة تستغله طبقاً للامتياز الممنوح لها في مساحة تقدر بنحو أربعة آلاف ميل في شرق سيراليوني.

ويقول مستر بوليت مكتشف المنجم إن أصناف الماس التي استخرجت تضم جميع الأنواع المعروفة من الأنواع الرديئة إلى أثمن وأبدع الأنواع، وقد استخرج المنقبون ذات مرة ياردة مربعة فقط نحو مائتين وخمسين قيراطاً من الماس، وهي نسبة مدهشة. وتزن القطع المستخرجة عادة من 12 إلى 144 قيراطاً، وقد وقع المنقبون ذات مرة على قطعة زنتها 78 قيراطاً من أفخر أنواع الجواهر وبلغت قيمتها نحو خمسة آلاف جنيه. والمنظور أن يكون لهذه المناجم الجديدة في المستقبل القريب شأن عظيم في إنتاج الماس، وربما غدت مثل مناجم الترنسفال مورداً من أعظم موارد الماس في العالم.

ذريعة وباريكاد

الذريعة لغةً الوسيلة. يقال فلان ذريعتي بمعنى وسيلتي. والذريعة أيضاً عند العرب الناقة التي كانوا يختفون وراء جنبها لصيد الحيوانات المفترسة. كان الصياد يعين الموضع الذي ربما تأتي منه الفريسة، فينيخ ناقته في مكان قصيّ ويختفي وراء جنبها حتى تأتي وتهجم على الناقة. فإذا دنت منها صوّب الصياد نبلته إليها فيصيبها فاختفاء الصياد وراء جنب الناقة للوقاية من هجوم الوحش وانتظاره إياه في شيء من الأمن ومحاربته عن بعد، ثم هجوم الحيوان الوحشي على الناقة وتعرضه للخطر الكامن وراءها وهي رابضة، ينبهنا إلى حيلة من حيل الإفرنج في حروبهم الداخلية إذ يسدون الطرق بأكداس من أثاث بيوتهم كموائد ومقاعد تحول بين ناصبي الحيلة وبنادق أعدائهم فيطلقون على تلك الأكداس الواقية لفظة (برِّكاد) وإقامة الأكداس لها عبارة مشهورة وهي

فهل من الجائز ترجمة اللفظة الفرنسية (بركاد) بلفظة (ذريعة) وعبارة بعبارة (نصبوا الذرائع؟)

فإلى أرباب اللغة وحماتها أوجه هذا السؤال راجياً الجواب عنه على صفحات الرسالة الغراء ولهم جزيل الشكر

احمد العربي

طالب بكلية الآداب بباريس

الصلات الثقافية بين مصر وجاراتها الشرقية
دأبت وزارة المعارف المصرية في السنوات الأخيرة على تقديم المساعدة إلى جاراتنا الشرقية، رغبة في توسيع الثقافة المصرية
وقد عاونت وزارة المعارف المدارس الحجازية في العام الدراسي الماضي، إذ مدت بعض مدارسها بمدرسين مصريين أكفاء على نفقتها الخاصة
وقد تلقت الوزارة نبأ من جدة جاء فيه إن إحدى المدارس الأهلية تلقى ضيقاً مالياً، وأن بها مدرسين مصريين يقومان منذ أمد غير قريب بالتدريس فيها وأن المدرسة تطلب إلى وزارة المعارف المساهمة في دفع نصيب من مرتبيهما
وقد أصدر معالي وزير المعارف قراراً بإعانة هذين المدرسين رغبة من الوزارة في السير على خطتها المرسومة
تصويب
جاء في قطعة (الدمام) في العدد (224) في الصفحة (1694) في السطر (19): (زير الغواني) بفتحة على الياء، وهذا تطبيع، وفي مثل هذه الكلمة (الغواني) تقدر الحركة في حالتي الرفع والجر، وتظهر في حالة النصب، وهي هنا مجرورة بالإضافة
(ن)
الكتب
أخبار أبي تمام للصولي
لأستاذ جليل
حبيب الطائي، أو أبو تمّام، أو أبو التَّمَام، أو ملك القريض الأول - والملك الثاني هو المتنبي، والبحتري نائب ملك ثم أمراء (كبار وصغار) ووزراء، والمعري شيخ إسلام، وبن الرومي إمام (خليفة) خوارج، وقواد وعمال ولايات (ولاة) ورعايا وجنود وقَدِيديون، ولا ملك ثالث في المملكة - حبيب هذا شاعر عبقري أيّ شاعر، ومنزلته هي منزلته، وشعره هو شعره، فما تقريظ أو تقحيم بنافعه، ولا تعييب بضاره؛ إنه الشاعر ذو العبقرية والإبداع، وإنه في سماء القريض الشمس ذات الضياء الباهر والإشعاع؛ وقد كان الشعر قبل أبي تمام تجربةً وتمريناً، ومقدمةً وتمهيداً؛ وكان كلاماً، ثم جاء بن أوس وبن الحسين فقالا - وغيرهما مثلهما لا يقول -: (لأبي تمام استخراجات لطيفة، ومعان طريفة لا يقول مثلها البحتري) (نحسن أن نقول ولكن مثل هذا - مثل قول المتنبي - لا نقول)
وإن الباعث اليوم على هذا القول هو كتاب في أخبار (الحبيب) ظهر، وهو كتاب: (أخبار أبي تمام) تأليف أبي بكر محمد بن يحيى الصولي
وكتاب يصنفه إمام الأدباء وسيد الظرفاء أبو بكر الصولي طرفة تحفة دونها كل طرفة. وقد أبى الله أن يضام هذا الكتاب (كما ضيم من قبلُ ديوان هذا الشاعر بتلك الطبعات المخزيات المحرفات. . .) فسخر له أدباء مهذبين مثقفين ثلاثة، وهم (خليل محمود عساكر، ومحمد عبده عزام، ونظير الإسلام الهندي) - أبٌ وابنٌ وروحُ قُدُس كما تقول النصارى - فحققوه أبلغ تحقيق راجعين في كل مشكلة إلى الأساتذة الأجلاء: (الأستاذ احمد أمين، والدكتور طه حسين، والأستاذ أمين الخولي، والدكتور كراوس، والأستاذ إبراهيم مصطفى) وطبعته (لجنة التأليف والترجمة والنشر) في مصر أكمل طبع، واختارت له الكاغد الجيد
طالعت هذا الكتاب فألفيت الصولي قد سطر فيه من أخبار أبي تمام ما لم نره في تصنيف من كتب الأدب قبله، وروى أقوالاً لأئمة كبار في هذا الشاعر لم يطرفنا إياها غيره، وهي تعالن معالنة بعبقرية (الطائي الأكبر) وعلو منزلته. (قال عمارة بن عقيل: لقد عصفت رائية طائيكم هذا بكل شعر في لحنها. لله دره! لقد وجد ما أضلته الشعراء حتى كأنه كان
مخبوءاً له). و (قال الحسن بن وهب: وأما الشعر فلا أعرف مع كثرة مدحي له وشغفي به في قديمه ولا في حديثه - أحسن من قول أبي تمام في المعتصم بالله، ولا أبدع معانيَ، ولا أكمل مدحاً، ولا أعذب لفظاً؛ ثم أنشد (البائية العبقرية) ثم قال: هل وقع في لفظة من هذا الشعر خلل؟ كان يمر للقدماء بيتان يستحسنان في قصيدة فيجلون بذلك، وهذا كله بديع جيد) وللقصيدة واحد وسبعون بيتاً. وأما رسالة الصولي إلى مزاحم بن فاتك في أول الكتاب فهي كتاب وحدها، على حدة. وقد أملتها البلاغة

الصولية الطلّة العذبة العربية، وفيها العلم والنّصَفة
وفي (أخبار أبي تمام) أشياء هينة الخطب أذكرها ليهتم بها في الطبعة الثانية بعد مدة قريبة إن شاء الله:
ففي الصفحة (56) في السطر (5): (خفت إعراضك) وفي الحاشية: (في الأصل: خفت غرضك، ولعل الصواب ما أثبتناه) قلت: الأصل (غرضك) هو الصحيح، والغرض الملل والضجر، وجملة (كرهت إملالك) بعدها - تحقّ ذلك. والصولي لم يخف إعراض صاحبه لكنه خاف - إذ طوّل كما حسب - ضجره، والغرض الضجر
وفي الصفحة (89) السطر (8) (وأرعف كلَّ ذي قلم خيانته) فهل أرعف هي أزعف (بالزاي) أو أزعفت أي أهلكت قتلت قتلاً سريعاً؟
وفي الصفحات (218) (223) (244): (كالمعائب، من معائب، المخائل) بالهمز، وهي بالياء في المعايب والمخايل، والقاعدة الصرفية معروفة
وفي الصفحة (123) في السطر (12)
وفوّارة ثأرها في السما ... ء فليست تقصر عن ثارها
جاءت الهمزة في أول عجز البيت وهي من ملك الصدر في عروضه (في السماء) والبحر من المتقارب والقبض في عروضه كثيرة بل هو عند بعضهم أحسن من التمام
وفي الصفحة (150):
سقى عهدَ الحمىَ سَبَلُ العهادِ ... ورَوَّض حاضر منه وبادي
كتبت (روَّض) بالبناء لما سمي فاعله وهي بالبناء لما لم يسمَّ فاعله. ولو أراد أبو تمام الأول لقال: (أروض) وروّض الغيث الأرض: جعلها روضة، وأروضت الأرض ألبسها النبات، أو كثرت رياضها
وفي الصفحة (217)
نجمان شاء الله ألاّ يطلعا ... إلا ارتداد الطرف حتى يَأفلا
جاءت (يأفلا) بالهمز وهي في البيت مخففة لأن الألف ألف التأسيس
وفي الصفحة (230)
فلعل عينك أن تعين بمائها ... والدمع منه خاذل ومواسي
رويت (مواسي) بالواو، وواساه لغة ضعيفة أو رديئة كما في (الصحاح والتاج) لآساه
وفي الصفحة (235)
اجإي بهذه الصورة (عربي عربياجإيّ ماترام):
أجئي - أقعد وإن لم تكن للهمزة قاعدة نحوية مضبوطة مجمع عليها حتى اليوم
وفي الصفحة (238) السطر (9):
وفي الحاشية: (أرب: أقام بالمكان أو زاد) قلت: ليس للأرب (هيّجتَ مني شاعراً أَرَبّا) قبلة (جهة صحة) يتوجه إليها معنى، فهي (الأزبّ) بالزاي أي المنكر الداهي، والأزب من أسماء الشياطين كما في (التاج) وأصل الأزب الكثير الشعر وكذلك أصل الزباء وهي من الدواهي الشديدة، ومثلها الشعراء وفي (مجمع الأمثال): جاء بالشعراء والزباء أي بالداهية الدهياء
هذه هي الأشياء القليلة في الكتاب وهو (340) صفحة. وإذا عرفت أن هناك مصنفاً ضبطه أديب مشهور، له صيت، وطبعته مطبعة، فصادف فيه ناقده قرابة ألف غلطة - أعوذ بالله من ذلك!! - تجلت لك فضيلة هذا الكتاب: أخبار أبي تمام أو أبي التّمام
والسلام
(قارئ)
رسالة النقد
النحو والنحاة
بين الأزهر والجامعة
للأستاذ محمد عرفة
كتاب ألفه الأستاذ محمد عرفة المدرس بكلية اللغة العربية في مناقشة كتاب (إحياء النحو) للأستاذ إبراهيم مصطفى المدرس بكلية الآداب. وقد بحث الكتاب فيما أشكل من مسائل النحو وأبهم من علله وأسبابه
وقد أراد مؤلفه أن ينشر منه فصل معاني الإعراب بمناسبة ما دار في الرسالة من جدل حول معاني الإعراب

معاني الإعراب
يرى مؤلف (إحياء النحو) أن بينه وبين من تقدمه من النحاة خلافاً في حركات الإعراب؛ فهم يرون أن هذه الحركات اجتلبها العامل وليست تدل على شيء من المعاني؛ فالإعراب حكم لفظي خالص يتبع لفظ العامل وأثره، وليس في علاماته إشارة إلى معنى ولا أثر لها في تصوير المفهوم
أما هو فيرى أن حركات الإعراب دالة على معان، وأنه قد استكشف أصلاً عظيماً وهو أن من أصول العربية الدلالة بالحركات على المعاني وأنه رأى أن الضمة علم الإسناد وأن الكسرة علم الإضافة، وأما الفتحة فهي الحركة الخفيفة عند العرب يلجئون إليها إذا لم تكن بهم حاجة إلى أن يبينوا أن الكلمة مسند إليها أو مضافة. انظر كتاب إحياء النحو ص22 و41 و48 و194 تر المؤلف قد وضح طريقه وهو أن المتقدمين جعلوا الإعراب حكماً لفظياً، وأن علاماته لا تدل على معنى، وأنه قد هدى إلى معان لعلامات الإعراب خفيت على النحويين. وهذا عمل جليل وابتكار وإبداع لو تم له
ومشايعة المؤلف على هذا الرأي ظلم عظيم للنحاة المتقدمين منهم والمتأخرين؛ وإن من غمط النحاة حقهم، ومن ظلم تاريخ النحو أن ننسب إلى النحاة أنهم كانوا يرون أن علامات الإعراب لا تدل على معنى ولا تؤثر في تصوير المفهوم. وإننا إذا شايعنا المؤلف على هذه
الفكرة رأى سكان الأقطار العربية ومن يأتون بعدنا أننا لم نفهم النحو، وأن مصر تدرس النحو وتقرأه في كتب المتقدمين والمتأخرين ولا تفهم أقوالهم الواضحة فتعزو إليهم ما لم يقولوه
وأنا أبادر إلى بيان رأي النحاة في علامات الإعراب وأقرر أنهم جميعاً - لا مستثنياً أحداً - يرون أن الحركات علامات على معان تركيبية؛ وأنهم قرروا أن الضمة علم الفاعلية، وأن الفتحة علم المفعولية، وأن الجر علم الإضافة، وأنه لا فرق بين ما ذهب إليه الأستاذ من أن الحركات أعلام على معان، وما ذهب إليه النحاة. وأنا أؤكد للأستاذ المؤلف أنه ما من نحوي واحد ذهب إلى أن الإعراب حكم لفظي خالص وليس في علاماته إشارة إلى معنى ولا أثر في تصوير المفهوم، وأنى أتحدى - وأنا أقصد ما أقول - من يخالفني أن يقيم الدليل على ما يقول
إن علماء النحو جميعاً يرون أن الحركات دوال على معان وقد صرحوا به تصريحاً جلياً أليسوا قد ذكروا في سبب وضع النحو أن أبا الأسود الدؤلي سمع قارئاً يقرأ (إن الله برئ من المشركين ورسوله) بالجر فقال: معاذ الله أن يكون بريئاً من رسوله. اقرأ (إن الله برئ من المشركين ورسوله) بالرفع؛ فالكلام واحد ولم يتغير فيه إلا حركة اللام، فإذا حركت بالجر أدى إلى كفر، وإذا حركت بالرفع أدى إلى معنى مستقيم لا كفر فيه. فهل كانوا يرون ذلك وهم يرون أن حركات الإعراب لا تدل على معنى ولا أثر فيها لتصوير المفهوم؟
أليسوا يذكرون أن أبا الأسود سألته ابنته: ما أحسن السماء يا أبت (برفع أحسن وجر السماء) فقال: نجومها. فقالت: لا أريد هذا أنا أتعجب من حسنها. فقال: ما هكذا تقولين، قولي ما أحسن السماء (بفتح أحسن ونصب السماء) هل كانوا يحكون هذا ويتداولونه في كتبهم وهم يرون أن الحركات لا تدل على معنى في لغة العرب؟
أليسوا قد عرفوا العامل بأنه ما به يتقوم المعنى المقتضى للإعراب؟ أليس ما حكوه من قول بن مالك:
ورفع مفعول به لا يتلبس ... ونصب فضلة أجز ولا تقس
كان كافياً لأن ينبه المؤلف إلى أنهم يعتقدون أن علامات الإعراب دوال على المعاني؟ فالبيت معناه أن الرفع علامة الفاعلية والنصب علامة المفعولية؛ فإن كان هناك موضع تميز فيه الفاعل عن المفعول بغير العلامة فأعط كل واحد منهما علامة الآخر مادام لا يلتبس ككسر الزجاجُ الحجرَ فإنه معلوم هنا الكاسر من المكسور. أليسوا قد ذكروا أن الأصل في الأسماء الإعراب وعللوا ذلك بأنها هي التي تتعاور عليها المعاني المقتضية للإعراب كالفاعلية والمفعولية الخ؟ أليسوا عند تفسير القرآن أو الشعر يعربونه أولاً ثم ينزلون المعنى على حسب هذا الإعراب ويعربونه إعراباً آخر فينتظم نظاماً آخر ثم ينزلون المعنى على حسب هذا النظم؟
وذلك كقوله (إنما يخشى الله من عباده العلماء) بالنصب، والمعنى عليه أن الذين

يخشون الله هم العلماء، وعلى القراءة التي ترفع لفظ الجلالة وتنصب العلماء يكون المعنى لا يخشى الله أحداً إلا العلماء

إن النحو كله مبني على أن حركات الإعراب دوال على معان تركيبية مقصودة من الكلام، ومن لم يفهم هذا الأصل لم يقدر أن يفهم علم النحو ولا آراء المفسرين ولا آراء علماء العربية في تفسير الشواهد والقصائد من الشعر

فإذا لم يقنعك هذا دليلاً على أن علماء النحو يعتقدون أن علامات الإعراب دوال على معان، فسنأخذ في بيان أصرح، وسننقل لك من كلامهم ما هو أوضح

قال الخضري في حاشيته على بن عقيل في ص30 في بحث المعرب والمبني: (وإنما أعرب المضارع لشبهه الاسم في أن كلاً منهما يتوارد عليه معان تركيبية لولا الإعراب لالتبست. فالمتواردة على الاسم كالفاعلية والمفعولية والإضافة في ما أحسن زيداً، وعلى الفعل كالنهي عن كلا الفعلين أو عن أولهما فقط أو عن مصاحبتهما في نحو لا تعن بالجفا وتمدح عمراً. ولما كان الاسم لا يغني عنه في إفادة معانيه غيره كان الإعراب أصلاً فيه بخلاف المضارع يغني عنه وضع اسم مكانه كأن يقال في النهي عن كليهما ومدح عمرو وعن الأول فقط، ولك مدح عمرو، وعن المصاحبة مادحاً عمرا. فكان إعرابه فرعاً بطريق الحمل على الاسم. هذا ما اختاره في التسهيل)

وقال بن يعيش في شرح المفصل للزمخشري في ص72 من الجزء الأول:

(والإعراب الإبانة عن المعاني باختلاف أواخر الكلم لتعاقب العوامل في أولها. ألا ترى أنك لو قلت ضرب زيدْ عمرْ وبالسكون من غير إعراب لم يعلم الفاعل من المفعول؟ ولو اقتصر في البيان على حفظ المرتبة فيعلم الفاعل بتقدمه والمفعول بتأخره لضاق المذهب ولم يوجد من الاتساع بالتقديم والتأخير ما يوجد بوجود الإعراب. ألا ترى أنك تقول ضرب زيد عمرا، وأكرم أخاك أبوك، فيعلم الفاعل برفعه والمفعول بنصبه سواء تقدم أو تأخر

فإن قيل فأنت تقول ضرب هذا هذا، وأكرم عيسى موسى وتقتصر في البيان على المرتبة، قلت هذا شيء قادت إليه الضرورة هنا لتعذر ظهور الإعراب فيهما. ولو ظهر الإعراب فيهما أو في أحدهما، أو وجدت قرينة معنوية أو لفظية جاز الاتساع بالتقديم والتأخير)

وقال الزمخشري في المفصل ص71

(القول في وجوه إعراب الأسماء)

(هي الرفع والنصب والجر وكل واحد منها علم على معنى؛ فالرفع علم الفاعلية، والفاعل واحد ليس إلا: وأما المبتدأ وخبره وخبر إن وأخواتها، ولا التي لنفي الجنس، واسم ما ولا المشبهتين بليس فملحقات بالفاعل على سبيل التشبيه والتقريب، وكذلك النصب علم المفعولية، والمفعول خمسة أضرب: المفعول المطلق والمفعول به والمفعول فيه والمفعول معه والمفعول له. والحال والتمييز والمستثنى المنصوب والخبر في باب كان، والاسم في باب إن والمنصوب بلا التي لنفي الجنس وخبر ما، ولا المشبهتين بليس ملحقات بالمفعول

والجر علم الإضافة، وأما التوابع فهي في رفعها ونصبها وجرها داخلة تحت أحكام المتبوعات، ينصب عمل العامل على القبيلين انصبابة واحدة)

وقال بن يعيش في شرحه ص72:

(وجوه الإعراب. يريد بها أنواع إعراب الأسماء التي هي الرفع والنصب والجر، لأنه لما كانت معاني المسمى مختلفة: تارة تكون فاعلة وتارة تكون مفعولة وتارة تكون مضافاً إليها كان الإعراب المضاف إليه مختلفاً ليكون الدليل على حسب المدلول عليه. .

وقوله (وكل واحد منها علم على معنى) يريد الرفع والنصب والجر كل واحد منها علمٌ على معنى من معاني الاسم التي هي الفاعلية والمفعولية والإضافة. ولولا إرادة جعل كل واحد منها علماً على معنى من هذه المعاني لم تكن حاجة إلى كثرتها وتعددها؛ ثم قال فالرفع علم الفاعلية فقدم الكلام على الفاعل من بين المرفوعات ولاسيما المبتدأ لمشاركته في الإخبار عنه،

وذلك لأن الفاعل يظهر برفعه فائدة دخول الإعراب الكلام من حيث كان تكلف زيادة الإعراب إنما احتمل للفرق بين المعاني التي لولاها وقع لبس؛ فالرفع إنما هو للفرق

(بين الفاعل والمفعول الذي يجوز أن يكون كل واحد منهما فاعلاً أو مفعولاً
كلام الأستاذ إبراهيم مصطفى صريح في أن النحاة جعلوا الإعراب حكماً لفظياً خالصاً، ولم يروا في علاماته إشارة إلى معنى ولا أثراً في تصوير المفهوم. وكلام النحاة صريح لا لبس فيه أيضاً في أن الإعراب حكم معنوي وأنهم يرون أن الحركات دوال على معان وبينوا كل معنى، وكل حركة تدل عليه، والنحو كله مبني على ذلك لا يمكن أن نفهم قواعدهم، ولا أن نفهم اللغة العربية إلا على ذلك، وهو من الوضوح بحيث لا يخفى على مبتدئ في تعلم النحو بله الدارسين له والمتخصصين فيه
ليت شعري، ماذا نفهم في هذا الموقف المحير، موقف الأستاذ من نصوص المتقدمين في هذه المسألة؟ أنفهم أنه فاته وجه الصواب فيها، وهو من وقف حياته على دراسة النحو، ووقف سبع سنين من عمره في بحث هذه المسائل؟
أم أفهم أن المؤلف لم يخف عليه وجه الصواب في هذه المسألة عند النحويين ولكنه نَفِسَهُ عليهم وأغرم بالتجديد، فحرمهم علمهم وتجاهل هذه النصوص التي تتكرر في كل كتاب
إنني حاولت نفسي على فهم ذلك، ولكن منعني أن الأستاذ إبراهيم حجة ثبت وهو كما يقول الدكتور طه حسين في المقدمة (له أمانة في الرأي والنقل جميعاً)
على أن هذا البحث الشخصي لا يعنينا فسواء علينا أكان هذا أم ذاك، إنما الذي يعنينا هم أن ننصف شيوخ العربية وقد كاد يظلمهم بعض من تربوا في حجورهم وتثقفوا على أيديهم، وأن ننير تاريخ علم العربية. فإن كنت قد بلغت بعض ذلك فجدود ساعفت؛ وبحسبي أن أؤدي في هذا الكتاب ديناً في عنقي لقوم راحوا وخلفوا هذه الثروة العلمية في النحو والصرف واللغة والبلاغة
جمال ذي الأرض كانوا في الحياة، وهم ... بعد الممات جمال الكتب والسير
محمد عرفة
العدد 226 - بتاريخ: 01 - 11 - 1937
الخريف في الريف
دعنا الآن من القاهرة! فبشرُها الباسم قد استسرَّ في قطوب الطبيعة، وشجرها الوارف قد اقشعر من رياح الخريف، وهدوءها الشاعر قد غاب في صخب الفتنة؛ وكأنما خفقت في جوها المستنير الصفو أبابيلُ سودٌ من طيور الليل!
دعنا الآن من القاهرة! فقد أصيب علمها بداء السياسة، ونُكب رأيها بتدليس الهوى، وامتُحن خُلقها بشهوة المنفعة؛ وكأنما فرغ القادة من جهاد الأجنبي ليشوي بعضهم بعضاً في حريق الوطن!
دعنا الآن من القاهرة! وتعال نرفه عن حواسنا وأعصابنا في سكون الريف الآمن، وفي كنف الفلاح المؤمن، حيث الهوى جميع، والخريف ربيع، والطبيعة الكهلة رُواء وغناء وسحر!
يقول (هوجو): (إن الخريف هو الربيع انبعث من القبر ناسياً حُلاه وحُلله) ولكن الخريف المصري في الريف هو الربيع الحق في نضرته وزينته وعطره؛ فبينا ترى الحقول المتصلة في بياض الدمقس أو صفرة النضار، يجردها سبتمبر من القطن الحريري الأشوك والرز العسجدي الهائج، إذا بها في خضرة السندس أو زرقة اللازورد يكسوها أكتوبر أعواد الذرة اللَّفاء وقصب السكر الوريق ونبات البرسيم المؤزر؛ فأينما أدرت بصرك لا تجد إلا رياضاً شجراء من شراب وحب، ومروجاً فيحاء من زهور وكلأ. ثم ترى النيل في أعقاب فيضانه كذوب التبْر ينساب هادراً في الترع والقنوات، فيجعل من ضفاف الجداول، وحفافى الطرق، وحواشي الغيطان، سلاسل زبرجدية من الريحان والعشب. وتنزل على الفلاح المكدود سكينة الرضى والأمل، فينقلب شاعراً يتهادى في ظلال الذرة الخفاقة على مدرجة الطريق المخضوضر، وفكره مستغرق في الله الذي يضع البركة في غيطه، أو في المرأة التي تجلب السعادة إلى بيته
هاهو ذا بعد صيفه الجديب المجهد، يستنشي نسيم الراحة بين أولاده على مصطبة الدار، أو بين بهائمه على رأس الحقل، ويتربص بقطنه المخزون الثمن الربيح، ليقضي دينه فيستريح، ويزوج ابنه فيفرح، ثم يكسو عواري الأبدان (بالدبلان) و (الشيت)، ويمحو مرارة الأفواه بالرمان والبلح؛ وترى القرية بذكورها وإناثها تعيش من فسحة هذا

الأمل، ودعة هذه الحياة، وبهجة هذه الحقول، في فيض من الرخاء والغبطة لا يسممه كيد، ولا
تكدره منافسة
خريف الريف وربيعه يتفقان في الخصوبة والبهجة، ويختلفان في الحيوية والطبيعة. فبينا تجد ربيع أبريل ومايو موّاراً بالحياة، فواراً بالعاطفة، هداراً بالهتاف، يجعل من كل حي حركة لا تني ورغبة لا تخمد، إذ تجد ربيع أكتوبر ونوفمبر ساجي النهار، سجسج الظل، ساكن الطائر، ينفض على كل امرئ دعة الطمأنينة، وسكون التأمل، وروعة العبادة. فالمشية وئيدة الخطوات، والوقفة بعيدة النظرات، والجلسة طويلة الصمت، والشبان والشواب يتبادلون التحايا بغمز العيون وافترار الشفاه، كأنما هم وهنّ نشاوي من رحيق عجيب يعقد الألسن، ولكنه ينعش الروح، ويوقظ القلب، ويبسط المشاعر! أي جمال أملك للنواظر والخواطر من جمال السماء الريفية وقد زينتها رياح الخريف بقزعات من الغيم الرقيق كأنها القطعان البيض ترتعي في المروج الخضر؟ هذه السماء بألوانها السحرية المختلفة التي تتعاقب عليها بتعاقب الساعات، تنطبق على أرض كرقعة الفردوس لا ترى فيها خلاء ولا عراء ولا وحشة، ولا تسمع فيها لغواً ولا تأثيماً إلا هتاف الطير الحائمة على أعذاق النخل اليانعة وسنابل الذرة النضيدة، وإلا شَدَوات الرعاة قد كوموا الحشيش أمام الماشية وتحلقوا حول النار المشبوبة يشوون عليها الأمطار والسمك، ثم يأكلون ويغنون في لذة وبهجة
عهدُنا بالريف في أيام الخريف أن يكون بنجوة من الهم وسلامة من الكآبة. فالأهراء طافحة بالحب، والمخازن مفعمة بالقطن، والغيطان كاسية بالزرع، والجيوب غنية بالمال، والنفوس رخية بالرجاء؛ ولكن ما بال فتيان القرية وفتياتها على غير ما نعهد: يمشون ساهمين، ويقفون واجمين، كأنما غاب عن كل عين حبيب، ومات في كل نفس أمل؟
ألا تراهم يا حسن يدافعون الأسى عن وجوههم ببسمات مكذوبة لا تخدع النظر عن الكمد الباطن؟
ماذا يصنعون يا صديقي والدائن يقتضي (القسط)، والصراف يطلب (المال)، والمالك - يريد (الإيجار)، والأسرة تبتغي (الكسوة)، والقطن وهو سداد هذا العوز كله يصبح عقدة المشكلة وغَلَق الأزمة؟ فثمنه البخس لا يفي بأكلاف زرعه، بَلْهَ ما يُحمل عليه من الأسباب، ويناط به من المنى
هاهم أولاء بنوهم وبناتهم كانت أحاديث أحلامهم أن يتزوجوا في هذا العام الذي يتزوج فيه مليكهم المحبوب، تفاؤلاً بطالعه وتيمناً بجده، فرد هذا الكساد الموئس أحلامهم أضغاثاً وأطماعهم وساوس. فكيف تطمع مع ذلك أن ترى البسمة التي تعهد، وتسمع الأغنية التي تحب؟
فقلت له والأسف يغلب على صوتي وكلامي: مهما يكن من الأمر فإن خريفكم أجمل من ربيع الشعراء، وعبوسكم أنبل من بشر الكبراء، وغيمكم أفضل من صفو القاهرة
احمد حسن الزيات
فلسفة الأسماء
للأستاذ عباس محمود العقاد
أقام السير رونالد ستورز طويلاً في القاهرة، واشترك في كثير من حوادث مصر والشرق الأدنى قبل الحرب العظمى وبعدها، وأعطى نفسه نصيباً وافياً من المتعة بالأدب والفنون ولاسيما الموسيقى والتصوير إلى جانب اشتغاله بالسياسة خافيها وظاهرها. وقد لقيته مرة أيام البحث في تحويل (الأوقاف) من ديوان إلى نظارة، وكان يومئذ (سكرتيراً شرقياً) لدار الوكالة البريطانية، فبدأنا الكلام بروايات برناردشو والنقد الإنجليزي الحديث، ثم استطردنا إلى أعمال الاحتلال والإدارة الوطنية فقال: أظن أن ديوان الأوقاف مختل لأنه المصلحة الوحيدة التي ليس عليها رقابة أجنبية! ولا أدري أكانت هفوة لسان منه أم كان سبراً لغوري واختباراً لمقدار ما يستبيحه من الأقوال والآراء على مسمع مني في صدد الأوقاف وتحويلها إلى رقابة الحكومة. فقلت له: إن المجلس البلدي الإسكندري أعظم اختلالاً من ديوان الأوقاف وهو مملوء بالرقابة الأجنبية. فاستدرك كلامه الأول وأخذنا في حديث آخر، وانصرفت وهو يقول بعد انصرافي للأستاذ حسين روحي الذي كان واسطة التعارف بينه وبيني: (صاحبك لا يزال

في بداية الشباب)
ولم أره بعد ذلك، ولكني سمعت بمشروعاته الكثيرة ومنها ما حدثني به في تلك الزيارة، كإحياء صحيفة (المؤيد) وإنشاء بعض الصلات الأدبية والفكرية بين الغرب والشرق على أيدي المثقفين من الأوربيين والمصريين. ثم وصل إلينا في هذا الشهر كتابه الذي أسماه (تشريقات) أو مشرقيات، وضمنه تاريخ حياته في مصر وفلسطين وقبرس وبلاد العرب وغيرها من الأقطار الشرقية القريبة، فإذا هو كتاب حافل بالملاحظات واللمحات كما ينتظر من تعليقات رجل سياسي فنان حسن المراقبة للناس والمتابعة للحوادث والأحوال. ولقد أخطأ في بعض هذه الملاحظات واللمحات خطأ ربما ساقه إليه حب الزخرفة والتنميق. ولعلنا نعود إلى بيان بعضه في مقال آخر، ولكني أردت في هذا المقال أن أقف عند ملاحظة لاحظها على أسماء الخدم والخصيان في قصر الأميرة نازلي وغيره من القصور، وهي أنها محصورة في محاكاة الجواهر والرياحين قلما تخرج عنها، لأنني عنيت بهذه الأسماء في بعض الأوقات ودار البحث فيها بيني وبين أناس من المشتغلين بعلم النفس في المدارس المصرية العليا، فعللوها تعليلاً يخالف ما اعتقدت ولا يوافق المتواتر عن تاريخ الزنوج والعبيد
كنا في إحدى المكتبات العامة فدخل إليها خادم زنجي له اسم من أسماء الجواهر، فقال أستاذ واقف معنا: ألا ترون (مركب النقص يفعل فعله في أسماء هؤلاء الخدم؟ إنهم يشعرون بما لهم من بخس القيمة فيعوضونها بنفاسة الأسماء!)
وكان هذا التعليل يستقيم على ذلك الوجه لو أن الخدم الزنوج يختارون الأسماء لأنفسهم ولا يختارها لهم النخاسون والسادة الذين يشترونهم، ولكن الواقع أنهم يسمون بغير علم منهم، وعلى غير معرفة باللغة العربية ولا بأسماء الجواهر والرياحين فيها أو في غيرها
وإنما الحقيقة على ما يبدو لي أن رغبة السادة هي الملحوظة في التسمية لا رغبة العبيد والخدم المبيعين، ولهذا يقصرون تسمية العبيد على نوع من أربعة أنواع بين الأسماء: المقتنيات النفيسة وما شابهها من الرياحين الجميلة، أو ألفاظ التفاؤل، أو الشهور والأيام التي تم فيها الشراء أو تمت فيها الولادة، وإلا فكلمة عبد مضافاً إليها اسم من أسماء الله الحسنى كعبد الله وعبد الكريم وعبد الباسط وما يشعر بالتفاؤل والدعاء خاصة
فالخصيان والعبيد يسمون بجوهر وفيروز ومرجان وياقوت ولؤلؤ وألماس كأنهم قنية نفيسة يباهي بها صاحبها؛ ويلحق بهذا تسميتهم بريحان وكافور ونرجس كأنهم من أدوات التجمل والزينة في البيوت
فإن لم يكن هذا فهم يسمون بما يدل على التفاؤل والاستبشار بالخير بعد شرائهم، فيدعونهم بسعيد وبخيت وسرور وفرحات وقدم خير وخوش قدم وما إلى ذلك من ألفاظ التمني والرجاء؛ والملحوظ في ذلك هم المالكون كما أسلفنا لا العبيد والجواري فإن لم يكن هذا ولا ذاك فأسماء العبيد تكثر فيها أسماء الأيام والشهور والمواسم مثل خميس وجمعة وشعبان ورمضان ومحرم وعيد وربيع، لأن مالكيهم حين يشترونهم لا يعرفون لهم سمة يسمونهم بها غير اسم اليوم أو الشهر الذي كان فيه الشراء
عنيت باستقصاء هذه الأسماء ودلالاتها في بلدي أسوان حيث تعيش جمهرة من الزنوج السود، وحيث يندر بيت لا يكون فيه عبد أو جارية من بقايا أيام الدراويش
ثم التفت إلى الأسوانيين أنفسهم فتبين لي من أسمائهم وحدها أن البلدة (عصبة أمم) عجيبة
يلتقي فيها أناس ترجع أصولهم إلى جميع القارات ما عدا القارة الأمريكية، فمنهم من هو في أصله تركي أو كردي أو من فارس وأعلى العراق، ومنهم من هو عربي أو مغربي أو حبشي، ومنهم من هو مجري أو بشناقي أم من أهل البلقان، وبعضهم لا يذكرون هذه الأصول وإن دلت عليها حروف وإضافات في الألقاب
على أنني لم أكن أحفل بالدلالات الجغرافية والتاريخية كما كنت أحفل بالدلالات النفسية والاجتماعية، ففي هذه دليل أمتع من كل دليل على قرابة الإنسان وتشابه العقائد والخوالج بين البشر وإن باعدت بينهم البحار والصحاري وآماد الدهور
كنت أعجب لأناس يدعون بأسماء الكلاب والحشرات، وأحسب أنها ألقاب تحقير

أطلقها عليهم الأعداء أو المتهكمون الماجنون ثم غلبت عليهم فعرفوا بها بدلاً من أسمائهم، ولكني علمت أن أسماء الكلاب والحشرات هي أسماؤهم التي دعاهم بها آباؤهم وأمهاتهم، وأن الآباء والأمهات قصدوا إلى ذلك قصداً ليعيش لهم أولئك الأبناء، كأنما يحقرونهم ويشبهونهم بالحيوان الأعجم والحشرة المهينة ليزهد فيهم الموت ويأنف من أخذهم إليه!

والعجيب أن هذه العقيدة كانت سارية في يونان القديمة ومصر القديمة والشرق القديم، ولا تزال سارية حتى اليوم في بعض القبائل الأفريقية التي تؤمن بالأرواح الشريرة وتخاف منها على أطفالها وصغارها، وتحصنهم منها بمحصنات شتى إحداها حقارة الأسماء أو بشاعتها. ولا شك أن اسم (معاوية) مثلاً وهي الكلبة التي تعاوي الكلاب يمت بصلة إلى هذه العقيدة، كما يمت إليها اسم هريرة وما إليه

ولحقارة الأسماء وبشاعتها سبب آخر غير تزهيد الأرواح الشريرة فيها، وذاك هو التخويف بها أو احترام (الطواطم) المعبودة حيث كان الأقدمون يتبركون بها ويعتقدون أن أسلافهم من سلالتها

ففي القبائل المقاتلة التي تعيش على الغارة ولا تزال في خوف من الإغارة عليها يسمى الرجل بما يكره الأعداء، وترى بينهم من يدعونه ذئباً أو أسداً أو حنظلة أو جمرة أو حرباً وما إلى ذلك من المخوفات والمنفرات

وفي القبائل التي تؤمن أو كانت تؤمن (بالطواطم) يسمى الرجل كلباً أو ثعلباً أو صقراً أو نسراً كما يتفق من أصول الطواطم القديمة الباقية بعناوينها وإن نسيها أبناء القبيلة

ويقول السائحون بين القبائل التي على الفطرة إنهم يكرهون البوح بأسمائهم ويستريبون بمن يسألهم عنها، لاعتقادهم أن الاسم جزء من الإنسان من عرفه استطاع أن يسلط على صاحبه أرواح الشر والمرض واتخذه هدفاً يقذف عليه المتاعب والملمات. ونحن المتحضرين المحدثين نحسب أننا بعيدون مترفعون عن هذه الطبقة المسفة من طبقات العقول الآدمية، حتى نسمع (سحاراً) يسأل عن اسم المقصود بالسحر واسم أمه فنعلم أن المسافة بيننا وبين الفطريين أقرب مما نتوهم، ولاسيما في سراديب الظلام التي يهبط إليها من يهبطون ساعة الفزع أو ساعة الضغينة

ولا ريب أن حياة الأمة بين ماضيها وحاضرها تتمثل كثيراً في أسماء أبنائها؛ فنعلم أن الأقوام التي تنحصر أسماؤها في الظواهر الطبيعية سماوية كانت أو أرضية إنما هي أقوام فطرية لم تدرك من العلامات غير هذه الظواهر لتمييز الرجال والنساء، وأن الأقوام التي تظهر فيها أسماء الصناعات كالنجار والحداد والقصاب والزيات والعطار والعقاد قد تقدمت أشواطاً في الحضارة، وأن الأقوام التي تظهر فيها العناوين الاجتماعية قد عرفت بذخ الملك وألقاب التشريف ومراتب الطبقات، وأن الأقوام التي يذكر فيها الحرب والبطش والعداء قد درجت على الغزو ورعاية الماشية، والتي يذكر فيها الهدى والرشد والصلاح وأوصاف الفضائل قد أخذت بقسط من الدين وفلسفة الإخاء، وقس على ذلك ما تنم عليها معاني الأسماء وتراكيبها

بل ربما استطلعنا تاريخ الأمة السياسي من بعض الأسماء. فاسم (تفيدة) في مصر يدل على أن المصريين كانوا زمناً من الأزمان يتشبهون بالترك تشبه المحكومين بالحاكمين، إذ الاسم في أصله عربي صحفه الترك من (توحيدة) لأنهم ينطقون الواو فاء ولا ينطقون الحاء، فأصبح تفيدة ونقلناه نحن عنهم نقل المحاكاة

بل ربما عرفت الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها الرجل من دلالة اسمه واسم أبيه، فالأغنياء مثلاً قلما يسمون أبناءهم بعبد الغني أو عبد الرزاق، والمثقفون قلما يسمون أبناءهم بالأسماء المنسوبة إلى أماكن وبلاد إلا لمناسبة مفهومة، فالرجل المثقف لا يسمي ابنه (حجازي) أو (حبشي) وهو لم يولد في الحجاز أو الحبشة أو في موسم حج وعلاقة حبشية، ولا يسمي ابنه (مرسي) وهو لم يولد في مرسية ولا في مكان إلى جوار المرسي

أبي العباس وما شابه ذلك من المناسبات

وربما ألممت بقبس من تاريخ الأسرة وتكوين ذريتها إذا سمعت اسم رجل أو امرأة منها. . . فإذا سمعت في الصعيد باسم (قنعنا) فاعلم أنها اسم بنت لها أخوات ثلاث أو أربع، ويغلب أن تسمى إحداهن (رضينا) والأخرى (حمدنا) وهكذا مما يشف عن الغيظ وعن الخوف مع ذلك من التمرد والشكاية

ونحن نعرف أسماء كثيرة تكذب مسمياتها: حسن وهو دميم، وبدر وهو مظلم، وعزيز وهو ذليل، وصادق وهو كاذب، وسليم وهو شديد الإيذاء، ولكني لا أعرف اسماً يكذب مسماه أدل على المجون والظرف من اسم (قبيحة) جارية الخليفة (المتوكل) وقد كانت أشهر جواريه بالصباحة وروعة الجمال؛ ولخير ألف مرة أن يفاجأ الإنسان هذه المفاجأة من أن يترقب الحسن فيخيب رجاؤه بمرأى قبيح ومخبر لئيم. ومن سمع اسم (قبيحة) قنع بجمال يسير ليرضى ويبتهج، أما من سمع اسم (جميلة) فهو يحسب أنه مغبون مخدوع إن لم ير هذه الجميلة في الذروة العليا من الجمال

إن فلسفة الأسماء بحث ليست له نهاية، وفيما تقدم نموذج لمن يشوقه أن يسترسل فيه

عباس محمود العقاد

المحفوظات التاريخية المصرية

متى تنظم بطريقة علمية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

عرضت لي منذ بضعة أعوام فرصة لزيارة دار المحفوظات المصرية بالقلعة، ولست أذكر الآن من زيارتي سوى ممرات حجرية ضيقة تفضي إلى غرفة عتيقة شاسعة قد طرحت فيها الأوراق الصفراء أكداساً على الأرض، وغصت جنباتها وزواياها برزم متناثرة من الوثائق القديمة؛ ولم يكن يومئذ بالدار سجلات أو فهارس منظمة، ولم تكن تعرف محتوياتها بالضبط ولم تلفت محتوياتها حتى اليوم أنظار الباحثين

وفي أواخر هذا الصيف زرت دار المحفوظات النمسوية بمدينة فينا، وترددت عليها مراراً لمراجعة بعض الملفات والوثائق التي تتعلق ببعض مباحثي فدهشت لما رأيت من دقة التنظيم وحسن التنسيق وسهولة البحث والمراجعة، وشهدت كيف يستطيع الباحث أن يعمل في جو من النظام والترتيب، وكيف يتاح له أن يظفر في الحال بما يطمح إلى مراجعته من الوثائق والملفات، منسقة مصنفة طبق الموضوعات والتواريخ، مدونة في سجلات دقيقة تدل في الحال على ما فيها، وترشد الباحث إلى غايته بأيسر أمر

وقصدت أيضاً إلى دار مجموعة الصور التاريخية النمسوية - وهي من أعظم المجموعات العالمية في نوعها - لأشاهد صوراً لبعض الشخصيات التاريخية، ولأستأذن في نقلها، فقدمت إليّ الصور المطلوبة في دقائق معدودة، واخترت في الحال للنقل منها ما شئت؛ ذلك لأن هذه المجموعة الحافلة قد نظمت بمنتهى الدقة ورصدت محتوياتها مرتبة وفق العصور والتواريخ والأسماء، ويكفي أن يلقي الموظف المختص على السجل المعين نظرة ليعرف في الحال إن كانت الصور المرغوبة ضمن المجموعة، وليستخرجها في الحال من مكانها

أعجبت بهذا النظام الدقيق الذي يوفر على الباحث كثيراً من الوقت والعناء، وذكرت في كثير من الأسف ما انطبع في ذاكرتي من مناظر دار المحفوظات المصرية، وكيف أن هذه الدار التي تغص جنباتها العتيقة بكثير من وثائق التاريخ المصري في مختلف عصوره - ولاسيما العصر التركي وعصر محمد علي - لا زالت بحالتها الساذجة، وأكداسها المختلة المجهولة مغلقة على البحث والتحقيق

إن لدور المحفوظات مهمة من أجل المهام التاريخية والعلمية فهي مستودع الماضي وسجلاته ومستودع وثائقه السياسية والدينية والاجتماعية؛ وهذه السجلات والوثائق هي أهم مصادر المؤرخ والمحقق، وهي أصدق الدلائل على أحوال عصرها لأنها تصطبغ غالباً بالصبغة الرسمية، ومنها الوثائق الملوكية والإدارية والعسكرية ومنها الوثائق والمعاهدات الدولية المختلفة؛ ثم هناك الوثائق السرية التي لم تعرف في عصرها، وهي أنفس ما في دور المحفوظات، تتلقاها من مكامنها في عصر متأخر أو تحتفظ بسريتها فترة من الزمن حتى يختتم العصر الذي صدرت فيه ويختتم آثاره؛ وتقدر هذه الفترة عادة بخمسين عاماً، تعرض بعدها هذه الوثائق لأنظار البحث والتحقيق؛ وفي دور المحفوظات الأوربية كنوز من الوثائق المختلفة الملوكية والإدارية والدولية التي ترجع أحياناً إلى عصور متأخرة، والتي تلقي أعظم ضوء على تواريخ الأمم الأوربية وعلائقها في مختلف العصور

ولنا في دار المحفوظات النمسوية التي حظينا بالتردد عليها ووقفنا على بعض

محتوياتها ونظمها خير مثل لما يمكن أن تؤديه المحفوظات المنظمة من خدمات جليلة للبحث والتحقيق؛ فهذه الدار التي يرجع تأسيسها إلى نحو قرنين، والتي تشكل الآن جناحاً كبيراً من دار وزارة الخارجية، تعتبر من أهم مصادر البحث والتحقيق في شئون التاريخ الأوربي منذ القرن الرابع عشر؛ ويطلق على الدار اسم (محفوظات الأسرة والبلاط والدولة) , - دلالة على صفتها الشاملة، فهي مستودع محفوظات الأسرة أعني أسرة آل هبسبرج، ومحفوظات البلاط، ومحفوظات الحكومة والدولة، وبها مجموعات هامة من الوثائق الملوكية والسياسية والإدارية والدولية، وبها على الأخص طائفة كبيرة من الوثائق السرية التي تتعلق بأعمال المجلس السري أو مجلس البلاط الخاص، وقد نظمت محتوياتها في مراحل متعاقبة تشمل جميع عصور التاريخ النمسوي والتاريخ الأوربي العام حتى سقوط الإمبراطورية النمسوية في سنة 1918، ويرجع أقدم أقسامها إلى عصر القيصر فرديناند الأول في أوائل القرن السادس عشر، وتشمل الوثائق السياسية والدينية والإدارية والعسكرية عصور التاريخ الإمبراطوري حتى سقوط الإمبراطورية الرومانية المقدسة في سنة 1806؛ وأهم أقسامها بلا ريب هو مجموعة وثائق مجلس الدولة السري ومجلس البلاط الخاص، والمجلس الاستشاري، وهي الهيئات الثلاث التي كانت تشرف منذ أواخر القرن السادس عشر على شئون الإمبراطورية، وتحدث بأعمالها وسياستها أعظم الأثر في مجرى السياسة الأوربية، وفي هذا القسم طائفة كبيرة من وثائق التاريخ الأوربي العام، وبه على الأخص مجموعة نفيسة من وثائق عصر الوزيرين الشهيرين كاونتز وزير الإمبراطورة ماريا تيريزيا، وقرينه ماترنيخ أعظم شخصية سياسية في التاريخ الأوربي في أوائل القرن التاسع عشر؛ ثم هنالك قسم المحفوظات السياسية، وهو يحتوي على مجموعة عظيمة من الوثائق التي تتعلق بالسياسة الداخلية والسياسة الخارجية، والمراسيم والبروتوكولات المختلفة، والمعاهدات والاتفاقات والمكاتبات الدولية، ولاسيما خلال القرن التاسع عشر، ووثائق الحكومة القيصرية منذ عصر ماريا تيريزيا حتى سقوط الإمبراطورية في سنة 1918، ثم قسم الوثائق الدستورية، وهو يضم مجموعات مختلفة من أوراق المجالس الإمبراطورية والمحلية حتى العصر الأخير. ولوثائق الأسرة، أعني أسرة آل هبسبورج قسم خاص يضم كثيراً من الوثائق والأوامر والتقارير الخاصة بالقياصرة وأعضاء الأسرة بوجه عام؛ وكذلك للبلاط قسم خاص يضم الوثائق المتعلقة به وبهيئاته المختلفة؛ وأخيراً يوجد ثمة قسم خاص للوثائق والمجموعات العلمية والتاريخية التي يهبها كبار العلماء والهواة إلى دار المحفوظات وقد أفردت دار المحفوظات النمسوية معرضاً خاصاً لطائفة من التحف والوثائق التاريخية النادرة، يضم عدة مخطوطات لاتينية وقوطية قديمة، وقرارات إمبراطورية ترجع إلى عصور متأخرة وعدة معاهدات ومكاتبات تاريخية شهيرة رأينا من بينها مكاتبة طويلة من السلطان سليمان خان إلى القيصر، يلقب فيها (بسلطان سلاطين الشرق والغرب، صاحب ممالك روم وعجم وعرب. . الخ) وصورة معاهدة تركية نمسوية عقدت سنة 1189هـ بشأن تنظيم الحدود بين الدولتين، ومعاهدة أخرى صادرة من السلطان عبد المجيد خان، وقرارات مؤتمر فينا الشهيرة الذي نظمت فيه حدود الدول الأوربية وأحوالها عقب سقوط نابوليون وعليها توقيعات أعضاء المؤتمر، وغير ذلك من التحف والوثائق التاريخية النادرة.

ولنعد بعد ذلك إلى دار المحفوظات المصرية فنقول إنه من أشد بواعث الأسف أن تبقى هذه الدار على حالها من الخلل والفوضى، وأن تبقى بذلك مغلقة دون البحث والتحقيق،

وإذا كانت محتويات هذه الدار لم تعرف بعد بطريق الحصر الدقيق؛ فإنه لا ريب أن هذه الأكداس المبعثرة من الأوراق والوثائق التي تغص بها أركانها وجنباتها، تضم كثيراً من الوثائق التاريخية والسياسية والإدارية الهامة ولاسيما في أواخر العصر التركي وعصر محمد علي؛ وإنا لنذكر بهذه المناسبة أن المغفور له الملك فؤاد الأول كان قد اهتم بأمر هذه المجموعة منذ أعوام، وندب لها بعض الموظفين الذين يعرفون التركية لنقل ما فيها من الوثائق التركية إلى العربية، ولسنا نعرف ماذا تم في أمرها بعد، وهل حققت أمنية الملك الراحل على نحو مرضي، وهل بدأ القائمون بأمر هذه الدار بتنظيمها وحصر ما فيها في سجلات منظمة تدل على ما فيها؛ ذلك أن الوقت قد حان

لأن يكون لنا دار محفوظات منظمة على أمثال دور المحفوظات الحديثة، تصنف محتوياتها بأسلوب علمي طبق العصور والموضوعات، وتحمل إليها أشتات الوثائق والأوراق القديمة المبعثرة في مختلف المصالح والجهات، وتعرض محتوياتها لأنظار الباحثين والمحققين، تمدهم بمواد وحقائق جديدة تؤيدها الأدلة والوثائق التي لا ريب في صحتها

ونحن نعرف أن دار الكتب المصرية تضم طائفة كبيرة من أوراق البردي ومن الوثائق التاريخية، ومنها أعلام شرعية وحجج أوقاف ومراسيم إدارية قديمة وغيرها، وقد عهدت دار الكتب أخيراً إلى أحد العلماء الأجانب بتنظيم مجموعتها من أوراق البردي وتنظيمها وتصنيفها في كتاب خاص؛ وأما الوثائق الأخرى فهي مبعثرة في فهارسها لا تجمعها رابطة ما؛ كذلك يوجد في محفوظات وزارة الأوقاف، والمحكمة الشرعية العليا، وبعض المصالح الحكومية الأخرى أوراق ووثائق تاريخية قديمة في غاية الأهمية، وهذه كلها مهملة تبلى في ظلمات الأروقة الرطبة، ولا يكاد ينتفع أحد بمراجعتها إلا في ظروف شخصية نادرة. فمن الواجب أن تجمع هذه الأشتات كلها في دار محفوظات عامة تكون مرجع البحث العام؛ ومن المحقق أننا سنظفر من ذلك بتراث جليل، لا يقل في أهميته ونفاسته من الناحية القومية عما تحتفظ به دور المحفوظات العامة في الأمم الأخرى

لقد نشأت دار الكتب المصرية في ظروف متواضعة، وبدأت بثروة أدبية قليلة حملت إليها من بعض المساجد والمجموعات الخاصة؛ وهاهي ذي اليوم ولما يمض على إنشائها نحو نصف قرن تغص بتراثها الزاخر من مخطوط ومطبوع، وتتبوأ مكانة بين دور الكتب

العالمية؛ فلنبدأ بإنشاء دار محفوظات مصرية منظمة تقوم إلى جانب دار الكتب، وتعاون البحث والتحقيق من جانبها، وتمد المؤرخ المصري بمادة جديدة نفيسة، ونحن على يقين من أنه لن تمضي فترة يسيرة حتى تغدو دار المحفوظات المصرية، كما غدت دار الكتب، مقصد العلماء والباحثين من جميع الأنحاء

(الباخرة كوثر في 24 أكتوبر)

محمد عبد الله عنان

الوحدة

للدكتور إبراهيم مدكور

مدرس الفلسفة بكلية الآداب

شبح يهولنا اسمه، ويزعجنا رسمه؛ مع أنا لو عرفناه لألفناه، ولو خبرناه لتعشقناه؛ ووحشة نفر منها فرارنا من الخطر الداهم، أو العدو المهاجم، ولو ثبتنا لها في صبر وجلد لكسبنا المعركة وأصبحنا بوحدتنا سعداء؛ وعزلة قد يضيق لها الصدر، وتنقبض النفس، ولكنها عادة لا يمكن أن تكتسب إلا بشيء من الدربة والمران؛ ورياضة لا تخلو من مجهود أو عناء. وكيف لا تكون مجهدة وهي تقف حجر عثرة في سبيل بعض الغرائز الكامنة، وتحرم الفرد من لذائذ المجتمع ومغرياته الخادعة، فتحول دون غريزة حب الاجتماع وسد حاجتها، وتعارض صلات القرابة والمودة في امتدادها وانبساطها؛ بيد أنها في كل هذه أشبه ما يكون بالدواء الممض يتعاطاه المريض لما يرجوه بعده من برء وشفاء

حقاً إن الوحدة طب للنفوس وعلاج للأرواح، نستطب بها من ويلات المجتمع وآلامه، فتقينا ولو زمناً لهيب الحقد والحسد وسموم القيل والقال، وتبعدنا ولو إلى حين عن مظاهر الشره والجشع وظلم الإنسان لأخيه الإنسان، فلا تقع العين على وجوه شاكية، ولا تسمع الأذن أصواتاً باكية، ولا يقر اللسان مكيدة، ولا تقاسم اليد في جريمة، ولا تسعى القدم إلى خطيئة. وقديماً قالوا تشفي الوحدة من المجتمع بقدر ما يشفي المجتمع من الوحدة. وبالوحدة نداوي كذلك أمراض القلب والروح ونعالج أنفسنا بأنفسنا، فنخرج من زمرة الأهل والأخوان وتيار الحياة الهائج المائج إلى حيث السكون والتأمل، ونبدد تلك السحب الكثيفة التي نسجتها الجمعية حولنا، والأضواء البراقة التي تعشى لها أبصارنا لنرى بعين الحقيقة والاعتبار. ولم تكن الوحدة عبادة إلا لأنها توبة وندم وتهذيب وتطهير

وقد عرفت لها الأديان هذه المنزلة فدعت إلى الخلوة والاعتكاف الذي لا يراد به مجرد

أوراد تتلى أو أناشيد يترنم بها، بل يُقصد أن تُعرض صفحة الحياة على بساط البحث وتعقد محكمة الضمير في جو هادئ ساكن وتقضي بقضائها العادل إن بالبراءة أو الاتهام. وما أحوجنا إلى هذه الرقابة وهذا الحساب الدقيق دون انقطاع! ولكن جد الحياة ولهوها وحلاوة العيش ومرارته تصدفنا عن ذلك وتلقي بنا في بحر لجي لا سكون فيه ولا اطمئنان. ونحن

فوق هذا مولعون بستر هفواتنا وتغطية زلاتنا، نسترها على الناس وعلى أنفسنا، ونتجاهلها وكل الأدلة قائمة عليها: مغالطة مدهشة وصلف كاذب وغرور غريب. وإنك لترى الفرد يأتي أمراً يأباه العرف وينكره الدين، فيسارع إلى أن يعد نفسه في صف المحافظين على التقاليد والمتدينين طمعاً في أن ننسى فعلته وتخفى خطيئته. وقد نفهم هذا التصنع إن أراد أن يرضي به من حوله؛ فأما أن يخدع به نفسه فتلك حماقة حمقاء وغفلة عمياء؛ وما منا من أحد إلا لاحظ أنه إذا حاسب نفسه على ذنب ارتكبته، أو إثم اقترفته، عز عليها هذا الحساب، وقد تأبى وتستكبر وتشرد وتجمح. وكثيراً ما تفر إلى المجتمع لتنزوي في ركن من أركانه وتضل في منعرجاته وعطفاته. والجناة والمجرمون أنفر الناس من العزلة والوحدة وأرغبهم في الجلبة والضوضاء التي تخدر أعصابهم فلا يحسون ولا يشعرون. فلم يكن بد من أن تستثيرنا التعاليم السماوية إلى الخروج من هذا التجاهل المزري والتنكر المرذول

والتصوف وهو فلسفة الوحدة يرى أن علاج الروح لا يتم إلا إن شخص الإنسان أدواءه بنفسه، ووقف على عيوبه مباشرة وبدون واسطة، ثم تعهدها بالتقويم والإصلاح. ويعتقد أن المرء أقدر على هذا التقويم إذا خلا إلى نفسه وخلص من شو اغله؛ فإنه يلتقي بحسناته وسيئاته وجهاً لوجه، ولا يجرؤ على المبالغة في الأولى ولا على إنكار الأخرى. وإذا صح أن الطبيب هو الذي يقود المريض نحو طريق البرء والعافية، فلاشك أن المريض هو الذي يقطع هذا الطريق بقدميه. على أنه لا يكاد يوجد طبيب يستطيع أن يتكهن بعلة قبل أن يعرف ظروفها ومكوناتها، ولا أن يصف دواء قبل أن يقف على حقيقة الشكوى وموضع الألم. فإذا أضحى العليل آسياً كان أعرف الناس بعلته وأقدرهم على علاجها. لهذا تعشق الصوفية الوحدة، وحببت إليهم الخلوة التي يستطبون فيها من آلامهم ويداوون أمراض نفوسهم. حقاً إنهم ينشدون وراء الفراق تلاقياً، ويأملون بعد الهجر وصلاً، ويرجون في الوحشة أنساً، ولكنهم لن يصلوا إلا عن هذا الطريق الوعر والمسلك الصعب. فالوحدة وسيلة لتهذيب النفوس والأرواح وسلم الوصول إلى الغبطة والسعادة

وليس أثرها مقصوراً على الروح فحسب، بل يتعداها إلى العقل. ففيها تنضج الأفكار وتختمر الآراء وتتمحص الحقائق؛ وفوق سطحها الهادئ تنفجر ينابيع الحكمة، ومن سمائها

الصافية تتنزل آيات النور والمعرفة. فلولاها ما نعمنا بكثير من الأدب الرائع والخيال العذب والشعر الرقيق؛ وفي غير جوها لا يستطيع أن يتوفر عالم على فرض يحققه، أو فيلسوف على نظرية يناقشها ويحللها؛ وبدونها لا يجد السبيل مصلح إلى وضع نظمه السديدة ومبادئه القويمة. وإذا تتبعنا تاريخ الأنبياء والعظماء والقادة والمصلحين والفلاسفة والمفكرين وجدنا أن أشدهم تعلقاً بالمجتمع وشئونه أرغبهم في ساعات خلوة يدبر فيها ما اضطلع به من مهام جسام. ولئن كانت الجمعية تمدهم بقدر كبير من الغذاء العقلي فهم في مسيس الحاجة إلى ساعات فراغ يمثلون فيها هذا الغذاء، ويتعهدون هذه البذور لتخرج للناس أينع الثمرات. ففي ردهات الأكاديمية ومتنزهات الليسيه أخرج أفلاطون وأرسطو أكمل وأتم فلسفة عرفت في التاريخ القديم. وفي غار حراء أعد (محمد) صلى الله عليه وسلم نفسه لقبول الوحي الإلهي والتعاليم السماوية. ولولا خلوات العلماء اليوم المستمرة وعزلتهم في تجاربهم الدائمة ما خطا العلم خطوة واحدة إلى الأمام. وهاهو ذا بعض الساسة المعاصرين يحتذي حذوهم، ويسير على سننهم؛ فإذا ما حز به أمر لجأ إلى نفسه فاستفتاها في غير جلبة ولا ضوضاء. ففي الخلوة صفاء عزّ أن يتوفر في المجتمع؛ وفيها ضياء إن مرت به سحب حياتنا الصاخبة خسفته. وفي العزلة تفكير وروية ونظر وتأمل لعل جيلنا الحاضر الذي انغمس في بحار المادية أحوج ما يكون إليها

هذه هي الوحدة في أثرها الروحي والفكري والأخلاقي والعقلي. وهنا نتساءل: هل نحن

نقدرها قدرها ونتعلق بأهدابها؟ وهل يعنى الكثيرون منا بلحظات فراغ يطمئنون فيها إلى أنفسهم ويركنون إلى أشخاصهم؟ وهل عوائدنا وتقاليدنا تحترم ساعات الوحدة والانفراد؟ لا أظن؛ فإن المقاهي والأندية تأكل نصف أعمارنا أو يزيد، وبيوتنا مبغضة إلينا كل البغض فلا نقصدها إلا للنوم أو الطعام أو الشراب. وقد يصل الأمر بالطالب أن يذاكر دروسه على قارعة الطريق، وبالأستاذ أن يحضر أعماله في مجتمع الإخوان، وبالقاضي أن يدرس قضاياه في ناد عام. وكأننا نأبى إلا أن نفكر جهرة كما أن نتكلم جهرة، وأن نشترك في كل شئ لأنا لا نحسن الاستقلال بشيء، وإذا ما شاء أفراد أن ينظموا أوقاتهم ويخلصوا إلى أنفسهم ساعة أو ساعتين كل يوم عدا عليهم الزوار فقصدوهم على غير موعد، وأطالوا مكثهم لديهم. وبذا أصبحنا لا يشعر واحد منا أن وقته ملكه بحال

إبراهيم مدكور
كلية الآداب

التشريع والقضاء في العهد الفرعوني

للأستاذ عطية مصطفى مشرفة

- 2 -

أثر القانون الحمورابي في قانونهم القديم

يعتبر القانون الحمورابي منبعاً استقى منه القانون المصري القديم بعض مواده، فالشريعة البابلية من أقدم شرائع العالم وهي أقدم من شريعة موسى بل تتقدمها بعدة قرون. وقد عرفت تلك الشريعة باسم شريعة حمورابي نسبة إلى الملك (حمورابي) سادس ملوك بابل الذي عاش حوالي سنة ألفين ق. م

ويقول المؤرخون بأن الملك (حمورابي) بعد أن دون عادات بلاده وضعها في مواد شملت المسائل التجارية والمدنية والجنائية، وأنها كانت في مستوى أرقى مما كانت عليه قوانين البلاد الأخرى، فكان مما نصت عليه (الوراثة) فجعلت مال المتوفى ينتقل بأكمله إلى ورثته، وبذلك وضعت للشرائع الأخرى الحجر الأساسي لكيفية انتقال الحقوق إلى الغير، وجعلت للموهوب له ملكية ما وهبه إليه الواهب. ويكفي الشريعة الحمورابية فخراً أن الشرائع السماوية جاءت ببعض المبادئ التشريعية الموجودة إذ ذاك فيها، فقد جعل حمورابي بعض مواد شريعته وفق قوله تعالى: (الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى) فالله تعالى قد كتب على المسلمين القصاص في القتل والجروح كما كتبه على بني إسرائيل من قبل، فقال تعالى: (النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص) فقد كانت شريعته تنص على أنه (إذا سمل أحدهم عين حر تسمل عينه، وإذا كسر أحدهم عضو حر يكسر له عضو، وإذا خلع أحدهم سن رجل من طبقته تخلع سنه)

ومما هو جدير بالذكر أن حمورابي فصل السلطة التنفيذية عن السلطة القضائية وعهد بالقضاء إلى من يتخرج في مدرسة التشريع في بابل

ولما ساءت الحالة السياسية في بابل بعد موت ملكهم (حمورابي) واشتدت المظالم وعمت الفوضى البلاد، هجرها كثير من العلماء نفوراً من الضيم واستوطنوا بعض الممالك الأخرى ثم نشروا ثقافتهم وتشريعهم وعلمهم بتلك الممالك؛ وكان حظ مصر من تلك الشريعة الحمورابية وفيراً، إذ استوطن بعضهم البلاد المصرية ونشروا فيها حضارتهم البابلية، ثم ضرب المصريون بسهم وافر في التشريع وأدخلوا في تشريعهم تعديلات جمة وافقت روح عصرهم، وبذلك بذوا أساتذتهم الحمورابيين وعلوا بالتشريع المصري علواً كبيراً، وخصوصاً عندما أنشئوا مدارس التشريع في طيبة وغيرها لتغذي القضاء بنوابغ المشترعين

أثر القانون المصري القديم في القانونين الإغريقي والروماني

تدل الاستكشافات الأثرية والمباحث العلمية الحديثة على أن اليونان والرومان يدينون لمصر بكثير من المبادئ القانونية؛ فمنذ أوائل العصر التاريخي هبط مصر، بفضل الصلات البحرية والتجارية، بعض علماء اليونان مثل فيثاغورس وهيرودتس الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد ودرسوا نظمها وقوانينها. كذلك حضر إلى مصر عام 559 ق. م المشرع الإغريقي صولون، فلما عاد إلى بلاده أدخل في تشريعها ما

اقتبسه من مجموعة قوانين بوخوريس وأدمجه في قانون صولون الذي وضع في أثينا في مبدأ القرن السادس ق. م ومما أخذه المشرع صولون من قانون بوخوريس مبدأ أن المدين لا يجوز حبسه، لأن التنفيذ يجب ألا يتعدى مال المدين ويتجاوزه إلى شخصه. وقد أخذ صولون من قانون أمازيس أحد ملوك الأسرة السادسة بعد العشرين فكرة معاقبة كل متعطل ومن مالت نفسه إلى الراحة وعدم العمل فيما يدر عليه من المال الحلال ما يسد به رمقه وحاجات أسرته

كذلك اقتبس الرومان الكثير من القوانين المصرية وأدمجوها في قانون الألواح الأثني عشر الذي وضع في روما في منتصف القرن الخامس ق. م فقد أثبت العالم الفرنسي الأستاذ ريفيو وهو ممن وقفوا حياتهم على دراسة القوانين عند الأمم القديمة أن القوانين الرومانية ترجع إلى القوانين التي وضعها قدماء المصريين، إذ أن قانون الألواح الأثني عشر الذي هو أساس القوانين الرومانية مستقى من القوانين المصرية وأنه لا يتيسر معرفة كنه القوانين الرومانية ولاسيما المدنية منها إلا إذا فهم الإنسان أصولها التي وضعها قدماء المصريين فقد قال الأستاذ ريفيو ما تعريبه (إن المبادئ القانونية البحتة التي نص عليها

قانون الألواح الأثني عشر مأخوذة من القوانين التي وضعها قدماء المصريين) وعندما هبط رسل روما بلاد اليونان لتحضير قانون الأثني عشر لوحاً أخذوا كثيراً من قانون صولون اليوناني الذي وضع في أثينا في أوائل القرن السادس ق. م وقد نقل الرومان عن القوانين المصرية طريقة التعاقد الشفاهية التي كانت تتم عند المصريين في جميع عقودهم بقسم أي صنك يصدر من المتعهد للمتعهد له بأنه سيؤدي إليه ما اتفقا على أدائه، وقد أطلق الرومان على هذا الشكل من التعاقد فيوجه المتعهد له للمتعهد القسم بقوله أتقسم - فيجيب المتعهد أقسم وكانت تشبه طريقة التعاقد هذه ما يسمى عند الرومان بالـ

كذلك أخذ الرومان عن المصريين طريقة تحرير العبيد بواسطة محاكم دينية أعدت خصيصاً لذلك، كما شرع (أمازيس) طريقة الإشهاد بالميزان في كافة العقود الناقلة للملكية ولاسيما في البيع والتبني، وهي الطريقة التي نقلها الرومان في تشريع الألواح الاثنى عشر. لذا يمكننا أن نقول بحق أن القانون الروماني قد أخذ أيضاً مبادئ كثيرة عن القوانين المصرية في مختلف العصور بعد صبغها بصبغة رومانية. ولا غرو فقد بلغت القوانين المصرية إذ ذاك من الرقي ما جعل ديودورس الصقلي - وهو مؤرخ يوناني عاش في القرن الأول قبل الميلاد - يقول عنها: (إنها كانت جديرة بالإعجاب وأعجب بها العالم فعلاً)

القضاء عند قدماء المصريين

تبعاً لسنة التقدم الاجتماعي وتنوع الصلات الاجتماعية والاقتصادية وتهذيب الأفكار والنفوس شعر قدماء المصريين منذ القدم بحاجتهم لقاض يفصل في خصوماتهم ويحمل في يده ميزان العدل فيقر الحقوق في نصابها ويرفع الظلم ويدفع الأذى ويستخلص حق الضعيف من القوي؛ غير أن النظام القضائي في العهد الفرعوني يشوبه بعض الغموض لسببين: أولهما قدم عهده، وثانيهما قلة المصادر التي كتبت عنه؛ غير أنه مما لا جدال فيه أنه كان للملك كل السلطة العمومية إدارية وقضائية، بل كانوا يؤلهونه ويقدسونه ويحترمونه احترام العبد للسيد، ويعبدونه في حياته ومن بعد مماته، ويسمونه بأسماء الآلهة، فهو المحيي الدائم، وهو الإله الرحيم، أو الإله الأعظم، إلى غير ذلك

كان هذا الفرعون إذن خليفة الإله وظل الله في أرضه؛ فهو رئيس الديانة وحامي الدين والمدافع عن الوطن وأراضيه، وهو السيد الآمر الناهي في جميع مرافق البلاد، فهو رئيس الدولة ومصدر جميع سلطاتها وكان يستمدها من الآلهة رأساً

كان الملك يباشر القضاء إما بنفسه وإما بواسطة موظفيه الدينيين أو المدنيين. ولم يكن هؤلاء القضاة منقطعين لأعمالهم القضائية، بل كان بعضهم من الكهنة وبعضهم من كبار العلماء يختارهم الملك للقضاء مضافاً ذلك إلى وظائفهم. وكان للملك الرأي الأعلى في القضاء بالرغم من أنه كان يسمح لغيره بالفصل فيه. وكان لأي فرد من رعايا الملك أن يطلب الإنصاف منه إذا ظلم، فيعيد الملك النظر في القضية ويفصل

فيها بنفسه. وكان للملك الحق المطلق في النظر والفصل في القضايا؛ وله أن يستعمله بنفسه أو ينيب غيره فيه بناء على التماس يرفع إليه من المتظلمين عن حكم اعتبروه جائراً وقد فصل فيه غيره. وكانت هذه الحالة الأخيرة هي الشائعة، فكان الملك لا يجلس للقضاء في الأكثر إلا إذا اشتكى أحد رعاياه من الحكم الصادر عليه وطلب منه التدخل

كانت مصر مقسمة إلى عدة أقاليم يدير شؤون كل منها رئيس هو حاكم الإقليم ونائب الملك فيه؛ وكانت له كل السلطة العمومية من إدارية وقضائية على جميع أنحاء إقليمه. وكان إذا جلس للقضاء وجب عليه أن يشرك معه مجلساً مكوناً من قضاة يعينهم الملك؛ وكان لهذا المجلس بعض المدونين. وانقسم كل إقليم إلى مراكز عدة، وانقسم كل مركز إلى عدد من المدن والقرى تكوّن جملة نواح؛ وكان في كل ناحية محكمة يختار قضاتها من أهلها وتنظر في القضايا البسيطة، وكانت أحكامها قابلة للنظر فيها من المحكمة العليا التي كان مقرها عاصمة القطر، فلم تكن السلطة التنفيذية إذن مستقلة عن السلطة القضائية، فالوزير الأكبر كان رئيس الحكومة، وهو في ذات الوقت رئيس المحكمة العليا وله سلطة القضاء في المملكة. كذلك كان حكام الأقاليم رؤساء لمحاكمها. وكان الحكم يصدر متوجاً باسم الملك؛ وكان يطلق على القضاة لقب (ساب) وكانت وظيفة القاضي يرمز لها بالهيروغليفية بصورة ابن آوى. وكان القضاة يؤدون قسماً يلزمهم الطاعة لجميع أوامره متى كانت عادلة. وكانت القوانين تسجل في دار العدل ويعتبر تسجيلها في هذه الدار بمثابة نشر لها، إذ بمجرد تسجيلها تسري على أهل البلاد. أما المراسيم فكانوا لا يسجلونها في دار العدل، بل كانت تنفذ بمجرد ختمها بخاتم الدولة

كان القضاة في زمن الفراعنة من القسس المتخرجين في مدارس التشريع في معابد منفيس وطيبة وآن (أو عين شمس) وكانت المحكمة الكبرى بمدينة طيبة تؤلف من ثلاثين قاضياً يختارون من فطاحل الكهنة المتضلعين في المسائل القانونية، بنسبة عشرة عن كل مدينة من تلك المدن الثلاث، وأعطيت الرياسة لأكبرهم سناً، كما منح الرئيس مرتباً أكبر من بقية إخوانه القضاة. وكان على معبد المدينة الذي ينتخب الرئيس منه أن يرسل إلى المحكمة بقاض آخر حتى يصير عدد القضاة في المحكمة بما فيهم الرئيس واحداً وثلاثين قاضياً. وكان رئيس المحكمة الكبرى إذا جلس للحكم بين الناس يضع في عنقه سلسلة ذهبية معلقاً بطرفها حجر كريم على شكل تمثال إله العدل (ما) أو (معت)؛ وكان يدير هذا التمثال على الأعضاء عندما يدلي كل برأيه، فإذا تم ذلك نطق الرئيس بالحكم. وكانت توضع على منصة القضاء أثناء انعقاد الجلسات ثمانية مجلدات ضخام تحوي كل القوانين المصرية القديمة

وكانوا ينتخبون قضاتهم ممن وسعت تجاربهم وعظمت معلوماتهم الدينية والدنيوية وكثرت ثقافتهم العلمية، وكانت أحكامهم محترمة ونافذة. أما مرتبات القضاة فكانت تصرف لهم من خزينة الملك وقد كثرت أنواع المحاكم عندهم بحسب اختصاصها فوجدت المحاكم الأسرية أو المنزلية التي كانت لا تتناول إلا المسائل البسيطة، وكان قاضيها رئيس الأسرة الذي خول السلطة التأديبية على جميع أفرادها. وكما وجدت المحاكم المدنية عند قدماء المصريين ذات الدرجات الثلاث: جزئية بالقرى والمدن، وابتدائية بعواصم الأقاليم، واستئنافية بعاصمة الدولة، كذلك وجدت المحاكم العسكرية والقضاء الإداري الذي كان يصل بين الأفراد والجهة الإدارية كالمنازعات التي تقع بين دافعي الضرائب وبين الموظفين المكلفين بجبايتها. كذلك وجد القضاء الجنائي بنوعيه العادي الذي يفصل في قضايا الأفراد، وغير العادي الذي ينظر في الجرائم التي تمس الملك أو الدولة بصفة عامة؛ وكانت تتولاه المحكمة الخاصة، وكان يدخل ضمن تشكيلها نفر من رجال الجيش. وكان القضاء الجنائي العادي على درجتين: الدرجة الأولى محكمة المدينة أو محكمة الإقليم وتستأنف أحكامها أمام الملك أو مجلس الملك الخاص كما وجدت محاكم دينية لتحرير العبيد منذ الأسرة الحادية والعشرين، فكان إذا ظلم السيد عبداً له لجأ العبد لمعبد من المعابد

واحتمى بتمثال أحد الآلهة، فإذا اقتنع كهنة المعبد بظلامته قضوا بجعله من حيث الشكل عبداً للإله الذي احتمى به، وبذلك تزول سلطة السيد عنه ويصبح حراً. وسمح لكل مصري حر ظلمه أحد الحكام أو جهة إدارية أن يلجأ إلى إله يحميه من هذا الظلم

(يتبع)
عطية مصطفى مشرفة
الفلسفة الشرقية
بحوث تحليلية
للدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين
- 26 -
الفلسفة الصينية
العصر المنهجي - كونفيشيوس
حياته
ليست كلمة (كونفيشيوس) هي الاسم الصيني الصحيح لهذا الحكيم، وإنما هو تركيب (لَتَّنَهُ) الأوربيون كما اقتضت طبيعة لغاتهم إذ أصلها (كونج فوتسيه). فأما (كونج) فهو اسم الأسرة، وأما (فووتسيه) فمعناها الأستاذ المبجل
ولد هذا الحكيم في مدينة (تسيئو) سنة 551 قبل المسيح من إحدى الأسر الملكية الماجدة التي أثبت تاريخ دوحات الأسر العريقة أنها تصعد إلى عهد أسرة (تشو) في القرن الحادي عشر قبل المسيح، وأن رئيس هذه الأسرة في ذلك العهد الغابر الذي سبق مولد (كونفيشيوس) بأكثر من خمسة قرون كان يدعى دوق (دي سونج)
تزوج (شوليانج - هي) والد حكيمنا للمرة الأولى وعاش مع زوجته زمناً طويلاً دون أن يرزق بولد، وكان إذ ذاك حاكماً على مدينة (تسيئو) فلما بلغ من العمر سبعين سنة تزوج مرة ثانية فرزق هذا الحكيم الذي منت به السماء على الصين، ليحفظ تراثها الغابر، ويبعث مجدها الدائر، ويسطع في سماء مستقبلها سطوعاً يسجل اسمها بين أسماء الأمم الخالدة؛ ولكنه لم يكد يبلغ العام الثالث حتى توفي والده وترك الأسرة في حالة من الضنك يرثى لها، بيد أن مجد الأسرة وسمعتها الأدبية ساعداها على تربية هذا الطفل وتثقيفه كما يتثقف أبناء طبقتها من الأثرياء، وقد كونت هذه التربية العالية (كونفيشيوس) تكويناً قيماً كان أساس تلك الفلسفة الباهرة
لا يعرف التاريخ عن حياته الخاصة أكثر من أنه متزوج في التاسعة عشرة من عمره، وأنه لم يكن موفقاً في زواجه، ففارق زوجته بعد بضعة أعوام من تاريخ الزواج، ولكنه أعقب منها غلاماً وفتاة زوجها فيما بعد لأحد تلاميذه الأوفياء، وأنه بعد زواجه بزمن يسير عين مراقباً في إحدى إدارات الزراعة فكان هذا التعيين ثقيلاً على نفسه، لأنه كان يراه من ناحية غير متناسب مع سمو مكانته، وكان من ناحية ثانية متنافياً مع مواهبه وثقافته، ولكن ضرورة البأساء قد ألجأته إلى قبوله فقبله على مضض؛ ثم ظل يتحرق إلى مهنة التعليم التي كان يعتقد أنه خلق لأجلها، فلما حيل بينه وبينها أخذ يقوم بها في أسرته، وأخيراً عين أستاذاً في مدينة (لُو) حيث كرس مجهوداته كلها للعلم والتعليم والبحث وراء الحقيقة، ونشر الفضائل الأخلاقية. وكان منزله أرقى ناد في المدينة يجتمع فيه أجل الشبان المهذبين الراغبين في العلم والأخلاق والتقدم الاجتماعي؛ وكان جميع المهذبين من شيوخ وشبان مفتونين بما حواه رأس هذا الحكيم الشاب من معارف سامية. وفي الحق أن رأيه كان موسوعة لعلوم عصره وفنون زمنه. وإليك ما يصف به نفسه في كتاب (لون - يو): (في الخامسة عشرة كنت أفرغ كل عنايتي في الدراسة، وفي الثلاثين كنت أسير بخطى أكيدة وحازمة فوق صراط الفضيلة، وفي الأربعين لم يكن لدي أي ريب، وفي الخمسين كنت أحيط علماً بناموس السماء، وفي الستين كنت أفهم كل ما تسمعه أذني، وفي السبعين كانت كل رغبات قلبي متجهة إلى عدم مخالفة أية قاعدة أخلاقية)
في سنة 525 قبل المسيح ارتحل إلى (لو) مدينة (لاهو - تسيه) ليكمل معارفه بالاطلاع على محفوظات الدار الملكية كما أشرنا إلى ذلك آنفاً؛ وبعد أن أقام بهذه المدينة سنة عاد إلى بلده. وفي سنة 516 شبت حرب أهلية بين كبار الملاك في مقاطعته، فغادرها إلى مقاطعة أخرى، فاستقبله رئيسها أعظم استقبال، وأخذ يستنصحه في كثير من نواحي الحياة، ولكنه لم يتبع نصائحه في حياته العملية، فلما قدم إليه المال رفضه الحكيم قائلاً: (إن الرجل الفاضل لا يتسلم من المال إلا بقدر ما يقوم به من الأعمال، وإني قدمت إلى الأمير نصائح فلم يعمل بها، فإذا حسب بعد ذلك

أنني سأقبل ماله فهو بعيد عن فهمي)
وبعد إقامته خمسة عشر عاماً في هذه المقاطعة عاد إلى بلاده، وكانت المياه فيها قد رجعت إلى مجاريها، وهناك عين مديراً أعلى لمدينة (تشونج - تو) فمكنه هذا التعيين الجديد من
أن يخرج مبادئه إلى حيز العمل وأن يحقق أفكاره العمرانية الراقية. إذا صدقنا ما يقوله أحد معاصريه المؤرخين، جزمنا بأن عصره كان عصر إعجاز في النجاح الإداري. فالرقي الذي ظهر في تلك المدينة والسلوك الأخلاقي الذي استحدث فيها جعلا أمراء المدن الأخرى يتخذونها نموذجاً لمدنهم، بل إن دوق مدينة (لو) سأل (كونفيشيوس)
عما إذا كان من الممكن تطبيق قواعد إدارته على جميع مدن الدولة، فلما أجاب بالإيجاب عينه الدوق نائباً للسكرتير العام للدولة ثم وزيراً للحقانية فلم يكد يتولاها حتى انقطعت جميع الجرائم وتعطل تطبيق قانون العقوبات تعطيلاً تاماً، لأنه لم يعد في الدولة جانون يطبق عليهم
لا ريب أن في هذا شيئاً من المبالغة، ولكن الذي لاشك فيه هو أن البلاد قد قطعت في عهد إدارة (كونفيشيوس) شوطاً بعيداً في التقدم الأخلاقي والعمراني والسياسي، وأن هذا الحكيم قد أعاد إليها صورة العصر الذهبي وأشعرها من جديد بالرخاء والسعادة.
وبمعاونة صديقيه (تسيه لو) و (تسيه يو) اللذين كانا يشغلان وظيفتين عاليتين من وظائف الدولة قد تمكن من تقوية سلطة الأمراء وإضعاف قوة الأسر المتمردة فاستتب الأمن وسادت السكينة في البلاد
غير أن هذه النعمة لم تدم طويلاً، إذ لم يكد حكيمنا يصل إلى أوج الشهرة الحقة حتى حسده جماعة من معاصريه وهيأوا للدوق أسباب اللذة؛ فلما أفرط فيها أصم أذنيه عن سماع نصائح (كونفيشيوس) فهدده هذا بالاستعفاء إن لم يستقم ويُعْنَ بمرافق الدولة. فلما أصر الدوق على عناده لم يسع الحكيم إلا اعتزال الخدمة، وقد فعل، فاستقال في سنة 496
ومنذ هذا التاريخ أخذ (كونفيشيوس) يرتحل من بلد إلى بلد حتى آخر حياته دون أن يقيم في بلد أكثر من ثلاثة أعوام، وكان يستقبل في كل مكان بالإجلال والإعظام، ولكن لم يتبع نصيحته أي ملك، بل كثيراً ما تعرضت حياته للخطر، وكان قلبه من أجل ذلك مفعماً بالمرارة والحزن في جميع أسفاره التي كان لا يرافقه فيها إلا تلاميذه المخلصون والتي أذاقته من التشاؤم واليأس ما دفعه يوماً إلى أن يسائل نفسه قائلاً:
(هل أنا إذن، يقطينة مرة لا يستطيع أحد من بني الإنسان أن يذوقها)
بعد أن أنهكته هذه الأسفار المختلفة ألقى عصا التسيار في مدينة (لو) وكانت سنه إذ ذاك تسعة وستين عاماً فاستقبله دوقها الجديد بكل ترحاب وإجلال، ولكنه نهج نهج أسلافه فلم يتبع نصائح الحكيم في أي شأن من شؤون الدولة، فلم يكن ذلك جديداً على نفس
ولكن الذي حطم قلبه في هذه الشيخوخة هو أنه رأى بعينيه الفانيتين (كونفيشيوس) موت ابنه الوحيد وتلميذيه المختارين (هُوِي) و (تسيه - لو). فلما حلت به هذه الكارثة أحالت الدنيا في نظره ظلاماً، ولكنها لم تقعده عن واجبه في الحياة، فكرس الشهور الأخيرة من حياته لجمع ونسخ الكتب القديمة المقدسة التي أشرنا إليها في حديثنا عن مصادر الفلسفة الصينية
وأخيراً هوى هذا الكوكب في اليوم الحادي عشر من الشهر الرابع من سنة 478 قبل المسيح بعد مرض لم يدم إلا أحد عشر يوماً
كونفيشيوس وجد حقاً
كتب أحد المؤلفين الإنجليز وهو: (هـ. ج. ألين) كتاباً سخيفاً بعنوان (كونفيشيوس أسطورة) عانى فيه عَرَقَ القِرْبة كما يقول العرب لإنكار (كونفيشيوس) ومحاولة تصويره في صورة الأساطير الخيالية. ولست أحب أن أرد على هذا المتعالم الإنجليزي بأحسن من تعليق الأستاذ (زانكير) الذي اقتطف منه ما يلي: (في ذلك العصر المحزن أي الربع الأخير من القرن التاسع عشر الذي كان الناس يظنون فيه أن العلم ينحصر في الإنكار والشك في الحوادث والشخصيات التاريخية الثابتة، فأنكروا (لاهو - تسيه) و (بوذا) والمسيح. في ذلك العصر الأسيف هب إنجليزي خامل، بنية إنشاء الضجيج حول اسمه الذي لولا هذا الإنكار لما ذكره أحد، فزعم أن (كونفيشيوس) أسطورة من

الأساطير، ولكن إذا كان ينبغي لنا أن نشك في وجود حكيم (تو) فلست أدري لماذا نحن نؤمن بوجود (سقراط) و (يوليوس قيصر) و (شارلمان) بل، ولكي لا ننسى الإنجليز في ردنا نقول لهذا الزاعم أيضاً: وكذلك يجب أن نؤمن بوجود (غليوم الفاتح)، وأظن أنه ليس لدينا من الأسباب ما يحملنا على إنكار واحد من هؤلاء

ولكن لحسن الحظ قد بدأ العقلاء يعدلون عن النظر إلى هذا النوع من العلم نظرة جدية

أما الذي لا يقبل الريبة بحال: فهو أن (كونفيشيوس) - بالرغم من قلة مصادرنا العلمية عنه - قد وجد وجوداً حقيقياً لأن تلاميذه ومعاصريه قد أعطونا عنه صوراً مادية وأخلاقية أمينة

أخلاقه الشخصية

إن أهم ما اشتهر به هذا الحكيم من أخلاق سامية هو الهدوء الذي لا حد له؛ إذ حدثنا تلاميذه أنه لا الظلم المروع، ولا الألم المبرح، ولا الخطر المميت، كانت تهزه أو تحدث في نفسه أقل اضطراب. ومن هذه الأخلاق أيضاً ما يروونه لنا عن وداعته الفائقة، وتواضعه المنقطع النظير الذي يصفه لنا هو شخصياً فيقول: (كيف أستطيع أن أشبه نفعي بالحكيم أو بالرجل الذي يعمل للفضيلة؟! إن كل ما أستطيع أن أقوله عن نفسي: هو أنني أقهرها على محاولة مساواتهما بدون ملل، وعلى تعليم الآخرين دون انفكاك)

ومع ذلك فقد كان عنده ثقة عظيمة في نفسه وفي رسالته الأخلاقية، غير أنه كما أن تواضعه لم يهنه أمام من هم أقوى منه، كذلك ثقته بنفسه لم تدفعه إلى الكبرياء على من هم دونه

ومن محامده الجليلة أنه لم يسمح يوماً لعاطفته أن تتعدى حدودها المرسومة لها في أي ناحية من نواحي حياته العلمية أو العقلية حتى قيل عنه: إن التفكير العاطفي لم يجد له مكاناً قط بين تعقلاته. وقد كان هذا القول حقاً إذ أنه حين سأله تلاميذه عن رأيه في حكمة (لاهو - تسيه) القائلة: (أحبوا أعداءكم كما تحبون أصدقاءكم) أجاب بقوله: (إذا أحببتم أعداءكم وكافأتم بغضهم إياكم بحب من جانبكم، فبماذا إذاً تكافئون حب أصدقائكم؟ كلا، بل أجيبوا على البغض بالعدل وعلى الحب بالحب)

ولكن ليس معنى هذا أنه كان جافاً محروماً كل عاطفة نبيلة، كلا، لأنه كان يحمل بين جنبيه قلباً يفيض بالعطف على أصدقائه وتلاميذه، وبالحب الحار لوطنه، وبالإشفاق القوي على الضعفاء

(يتبع)

محمد غلاب

رؤيا (مرزا)

للكاتب الإنجليزي أديسون

بقلم الأستاذ محمود الخفيف

قال أديسون:

قد اتفق لي حينما كنت في تلك المدينة العظيمة، مدينة القاهرة، أن اشتريت بثمن بخس بعض المخطوطات الشرقية القديمة التي مازلت محتفظاً بها

وبين تلك المخطوطات التي صادفتها مجموعة تسمى (رؤى مرزا) قرأتها في سرور عظيم ثم عولت على تقديمها إلى القراء إذ لا أجد لدى غيرها أسرى به عن نفوسهم؛ وسأبدأ بأولى تلك الرؤى وهأنذا أترجمها كلمة كلمة فيما يأتي:

في اليوم الخامس لظهور القمر ذلك اليوم الذي كنت أقدسه جرياً على عادة جدودي ارتقيت تلال بغداد العالية بعد أن أديت فرائض الصباح، لأقضي هنالك بقية اليوم في التأمل والصلاة

وبينما كنت أنعم هناك بالهواء الطلق على قمم الجبال، إذ وجدت نفسي غارقاً في تأمل عميق حول حياة الإنسان وما يكتنفها من غرور، وإذ كنت أتنقل من فكرة إلى فكرة فقد ناجيت نفسي قائلاً: (حقاً إن الإنسان خيال، وإن حياته حلم). وبينا أنا كذلك أعمل الفكر، إذ أخذت عيناي رجلاً في زي الرعاة على رأس صخرة تقع غير بعيد مني، وكانت في يده آلة موسيقية، فلما رآني أنظر إليه رفعها إلى شفتيه وجعل ينفخ فيها ألحانه؛ وكان صوت تلك الآلة فائق الجمال كما كانت تنبعث منها طائفة من النغمات

الرخيمة لم يسبق أن صادفت مثلها رونقاً وطرباً. ولعمري لقد صورت لي تلك الألحان هاتيك الأنغام السماوية العذبة التي تقابل بها أرواح الصالحين حينما تصعد إلى الجنة، هنالك حيث تذهب عنها آثار آلامها الأخيرة وحيث تتأهب لما أعد لها من النعيم في ذلك المكان السعيد، وسرعان ما اهتز قلبي في انتشاء عجيب

وكثيراً ما أخبرت من قبل أن الصخرة القريبة مني مسكن جني، وأن كثيراً ممن مروا بها قد سمعوا تلك الألحان الموسيقية، ولكني لم أسمع قبل اليوم أن ذلك الموسيقار يظهر للأعين

وقد أنعش ذهني بأنغامه العذبة وهيأ فكري لسماع محاورته وأنا أنظر إليه نظرة الحائر،

فلما استوثق مني أشار إليّ أن أسير إلى حيث يجلس. ولقد اقتربت منه باحترام يليق بطبيعته العلوية، ولما كان قد تملك قلبي بأناشيده الحلوة فقد ألقيت بنفسي على قدميه وعيناي تذرفان الدمع

فنظر إليّ الجني نظرة عطف وحنان سرعان ما جعلته أليفاً إلى نفسي، وسرعان ما بددت تلك المخاوف التي ساورتني وأنا أدنو منه، ومد يده فرفعني عن الأرض وتناول يدي قائلاً: (مرزا! لقد سمعتك وأنت تناجي نفسك فاتبعني)

واقتادني إلى أعلى صخرة بين تلك الصخور ثم وضعنني فوق أعلى قممها وقال:

(ولِّ وجهك نحو الشرق وأخبرني ماذا ترى هنالك؟) -

قلت: (إني أرى وادياً مترامي الأطراف يخترقه مجرى هائل من الماء)

قال: (إن الوادي الذي تراه هو (وادي الشقاء)، وإن المجرى الذي يخترقه هو جزء من ذلك المجرى العظيم (مجرى الأبدية)

فقلت وما السبب في أن هذا الجزء من المجرى يخرج في أوله من خلال ضباب كثيف ثم ينتهي عند آخره إلى ضباب كثيف؟

قال (إن ذلك الجزء الذي ترى هو قسم من الأبدية تعبرون عنه بالوقت وتقيسونه بالشمس، وهو يمثل الحياة من أولها إلى منتهاها)

ثم قال: (أنظر إلى هذا البحر الذي تكتنف الظلمة طرفيه وحدثني عما ترى فيه)

قلت: (إني أرى قنطرة كبيرة في هذا الخضم)

قال: (إن هذه القنطرة ليست إلا الحياة الدنيا، فانظر إليها بإمعان)

نظرت فرأيتها مكونة من ثلاث حلقات تكون في مجموعها عشر أقواس؛ ثم شاهدت إلى جانبها عدداً من الأقواس المحطمة يصل بها الفرد إلى ما يقرب من المائة، وبينما كنت أعد هذه الأقواس أخبرني الجني أنها كانت في أول أمرها تبلغ الألف عدداً، ولكن فيضاناً هائلاً قد اكتسح معظمها وترك القنطرة على تلك الحالة المتهدمة التي كنت أراها

قال الجني: (أخبرني ماذا ترى فوق تلك القنطرة؟)

قلت: (إني أرى جموعاً من الناس تسير فوقها وأرى الضباب يكتنف نهايتها)، ولكني لما أمعنت النظر قليلاً شاهدت بعض الناس يسقطون من أعلى القنطرة إلى العباب المتلاطم تحتها

وازداد إمعاني فرأيت عدداً من (الأبواب المسحورة) أو الفخاخ كان لا يلبث المار إذا مسها بقدمه أن يهوى من خلالها إلى اليم ويذهب إلى غير رجعة. وكانت تكثر هذه الفخاخ عند أول قنطرة؛ وكان كثير من الناس لا يكادون يظهرون من تحت الضباب حتى رأيتهم يسقطون من خلالها إلى البحر؛ غير أنها كانت تقل تدريجياً نحو الوسط، ولكن لتعود إلى كثرتها عند نهاية الأقواس السليمة

ولقد شاهدت بعض الناس يسيرون سير المقيد الموثق فوق الأقواس المتهدمة، ولكنهم كانوا قليلين، وما لبثوا أن رأيتهم يسقطون الواحد تلو الآخر بعد أن أخذ منهم التعب، وبلغ من نفوسهم الجهد من جراء هذا السفر الطويل

وقضيت وقتاً غير قصير أتأمل في هذا البناء العجيب وما يحوي من مختلف الأشياء. وتالله لقد بلغ من نفسي أن أرى بعض الناس يسقطون وهم في لحظات سرورهم وفترات انتشائهم، وكانوا يتعلقون بكل ما قرب منهم علهم ينجون من هذا السقوط؛ وكنت أرى غيرهم يهوون في هذا القرار السحيق بينما كانوا يرفعون أبصارهم نحو

السماء في تأمل وتفكير
ورأيت غير هؤلاء جماعة كانوا يلهون سعياً وراء الحصول على بعض الفقاقيع الزاهية التي كانت تخلب ألبابهم، وبينما هم يحسبون أنهم على قاب قوسين منها، كانوا يهوون في هذا الخضم الزاخر
وتبينت من خلال هذا العماء قوماً يحملون في أيديهم نوعاً من السيوف البواتر، بينما كان يحمل غيرهم بعض القاذورات وهم يدفعون بها المارة فيمرون على تلك الفخاخ التي لم تكن في طريقهم فإذا هم فيها يغرقون. ولما رآني الجني أتأمل في هذه المناظر المحزنة قال (دع عنك هذا فقد أطلت النظر إليه)
ثم قال: (حول نظرك عن القنطرة وانظر هل ترى شيئاً غيره لا تستطيع أن تفهمه؟)
قلت: (إني أرى جماعة من الطير تحوم باستمرار حول القنطرة ثم تعود فتسقط فوقها من حين إلى حين. أرى عدداً من النسور والعقبان والغربان وأرى أشكالاً عجيبة وطيوراً مزعجة أجسامها آدمية نسوية ولها أجنحة مخيفة، وأرى طائفة من الغلمان ذوي أجنحة
(يتجمعون في تزاحم حول الأقواس الوسطى
قال الجني: (إن ما تراه إنما يمثل الحسد والطمع والوساوس والأوهام واليأس والحب وغيرها من الهموم والعواطف التي تحيط بحياة الإنسان)
وهنا تنهدت تنهداً عميقاً وقلت: (وا أسفاه! إنما خلق الإنسان عبثاً، فهو فريسة للشقاء والفناء يذوق العذاب في حياته ثم لا يلبث أن يبتلعه الموت)
وتالله لقد أشفق عليّ الجني إذ سمعني أنطق بهذا وأمرني أن أحول بصري عن هذا المنظر الذي يثير الشجن وخاطبني قائلاً: (كفى نظراً إلى الإنسان في حياته الأولى إذ يأخذ أهبته إلى حياة الخلود وانظر إلى هذا الضباب الذي يحمل إليه الموج هؤلاء الذين يسقطون في اليم)
فحولت نظري كما أمرت، ولست أدري هل زاد ذلك الجني قوة إبصاري أم هل أزال بسحره جزءاً من ذلك الضباب الذي كان أكثف من أن تخترقه العين، فقد رأيت الوادي وقد فتح من نهايته وتكشف عن محيط واسع تتوسطه صخرة فتقسمه قسمين متساويين؛ ولقد تجمعت السحب فوق أحد هذين القسمين فلم أر فيه شيئاً، ولكني رأيت في الآخر محيطاً واسعاً تتناثر فيه طائفة من الجزر لا عداد لها؛ وكان سطح تلك الجزر مغطى بأشجار الفواكه والزهور تتخللها غدران صغيرة عديدة، واستطعت أن أرى أناساً يلبسون فخم الثياب وتكلل هاماتهم الزهور وهم يمشون بين الأشجار أو يجلسون حول النافورات أو يضطجعون على سرر من الزهر، واستطعت أيضاً أن أسمع ترنم الطيور الشادية وخرير المياه المتدفقة مختلطة بأصوات الناس وأنغام الموسيقى
ولشد ما أبهج نفسي أن رأيت ذلك المنظر الرائع وتمنيت لو أتيح لي جناحا نسر فأطير إلى هذا المكان السعيد، ولكن الجني أفهمني أن لا سبيل إليه إلا سبيل الموت؛ ثم خاطبني قائلاً (إن الجزر الخضراء التي تراها أمامك والتي تغطي سطح البحر على مد البصر أكثر عدداً من الرمال التي تغطي شاطئ ذلك البحر، ويوجد وراء هذه الجزر التي تراها أعداد أخرى لا يصل إليها نظرك ولا يمكن أن يتسع لها خيالك، وتلك هي مساكن الصالحين بعد الموت، وهم يحلون بها كل حسب درجة صلاحه، وفيها من ألوان النعيم ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين. أو ليست تلك الجنان يا مرزا جديرة بأن يسعى الإنسان إليها؟ وهل تكون الحياة
شقية إذا كانت وسيلة إلى تلك الغاية السعيدة؟ وهل تخشى الموت الذي يذهب بك إلى مثل هذا النعيم المقيم؟ كلا لا تحسبن الإنسان قد خلق عبثاً. وكيف يخلق عبثاً من أعدت له هذه السعادة في تلك الخبأة البهيجة؟)
وهنا خاطبت الجني قائلاً: (هل لك أن تطلعني على ما تحت هاتيك السحب التي تحجب القسم الآخر من الأسرار؟ ولما لم أتلق جواباً عن سؤالي درت رأسي لأخاطب الجني مرة أخرى، ولكني لم أجد أحداً بجواري، فتلفت ثانية نحو المنظر الذي كنت أراه أمامي ولكني لم أجد في مكان الموج الزاخر والقنطرة ذات الأقواس والجنان الخضراء سوى وادي بغداد المستطيل وقد وقفت الثيران والأغنام والإبل ترعى العشب

على جانبيه.

محمود الخفيف

أبو الفرج الببغاء

للأستاذ عبد العظيم علي قناوي

أبو الفرج الببغاء أديب سامق البناء أدبه، فله الشعر العذب الرقيق، والنثر الحلو الرشيق. إذا أنشدت شعره كنت كمن يسرح طرفه في حديقة فينانة أريضة، غانية بمختلف الأزهار، ساحرة بموسيقا الأطيار، قد انتظمت أسماطاً وقلائد، وضمت أوساطا وخرائد؛ تجيل فيها بصرك فلا تدري أي شعابها تسلك؛ فوصفه يهدي إليك صورة أروع من المصوّر، يعرض عليك الحقيقة مرصعة بالخيال، والخيال موشي بجمال الحقيقة؛ ومدحه فرائد يطول بها جيد الممدوح، ولآلئ ليس لها مثال، بل هي مضرب الأمثال. فمن ذلك الذي يوصف بمثل قوله:

يا عارضاً لم أشم مذ كنت بارقه ... إلا رويت بغيث منه هطّال

رويدَ جودك قد ضاقت به هممي ... وردَّ عني برغم الدهر إقلالي

لم يبق لي أمل أرجو نداك به ... دهري لأنك قد أفنيت آمالي

من هذا الذي يبلغ نداه أن يرغم الدهر ويفني الأمل؟ ولا يطاول الجوزاء فيطولها، ويسامي السماء فيسمو عليها، وخمرياته وتشبيباته وتشبيهاته فعلها في الرءوس دونه معتق المدام، وأثرها في النفوس أنكأ من أثر الحسام، فكل شعره يبهر من يراه ويسحر من ينظر فيه، فهو أزاهير من الجمال، وطاقات من الحسن والروعة تحير الألباب وتخلب الأبصار. وإنه لمما يشق على النفس الشاعرة أن ينفرط عقد لا يجيد تنظيمه غير راسمه، أو ينتكث نظم لا يحسن تنضيده سوى ناظمه، فلا محيص حينئذ من أحد أمرين كلاهما محبب إلى النفس مرهف الحس؛ إما أن تستوعب ذاكرتك ما قرأت فتلتهمه روحك بعد أن أنتهبه بصرك، وإما أن ترسمه في مخيلتك ليرقى برسمه خيالك وترق بصوره آثارك

نسبه: ينتسب أبو الفرج إلى قبيلة عريقة في عربيتها لا تفرعها قبيلة شرفاً وخيماً هي قبيلة بني مخزوم؛ وولد بنصيبين في أوائل القرن الهجري الرابع، ولم أعثر على مصدر يحقق لي سنة مولده. ترجم له الخطيب البغدادي في الجزء الحادي عشر من تاريخ بغداد فقال عنه: (عبد الواحد بن نصر بن محمد أبو الفرج المخزومي الحنطبي الشاعر المعروف بالببغاء. كان شاعراً مجوداً وكاتباً مترسلا، مليح الألفاظ جيد المعاني حسن القول في المديح والغزل والتشبيه والأوصاف)

وترجم له أبو منصور عبد الملك الثعالبي في الجزء الأول من كتابه يتيمة الدهر فقال: (هو أبو الفرج عبد الواحد بن نصر المخزومي من أهل نصيبين نجم الآفاق، وشمامة الشام والعراق، وظرف الظرف، وينبوع اللطف، وأحد أفراد الدهر في النظم والنثر، له كلام بل مدام بل نظام من الياقوت بل حب الغمام. . .) إلى آخر ما نعته به من أوصاف

أما سبب تلقيبه بالببغاء فلثغة كانت مدار أحاديث طريفة ومحاورات ظريفة بينه وبين صديقه أبي اسحق الصابي نورد بعضها لأن في قصصها متعة ولذة. رُوي أن كلاً من أبي الفرج الببغاء وأبي اسحق الصابي كان يشتاق رؤية صاحبه ويتلهف على اللقاء به ويتمنى أن يجتمع به بأي ثمن؛ وكانا يتكاتبان دون تلاق فتعارفت رسائلهما قبل تعارف شخصيهما. واتفق أن قدم أبو الفرج بغداد، فكان أول ما يهمه أن يبحث عن صديقه فإذا هو معتقل، فزاره في محبسه ولم يُثنِّ زيارته، فعتب عليه الصابي بقصيدة منها:

أبا الفرج اسلم وابق وانعم ولا تزل ... يزيدك صرف الدهر حظاً إذا نقص

مضى زمن تستام وصلي غالياً ... فأرخصته والبيع غال ومرتخص

وآنستني في محبسي بزيارة ... شفت كمداً من صاحب لك قد خلص

ولكنها كانت كحسوة طائر ... فواقاً كما يستفرص السارق الفرص

وأحسبك استوحشت من ضيق محبس ... وأوجستِ خوفاً من تذكرك القفص

فأجابه الببغاء دون ريث مع رسوله:

أيا ماجداً مذ يمّم المجد ما نكص ... وبدر تمام مذ تكامل ما نقص

تقنصت بالألطاف شكري ولم أكن ... علمت بأن الحرَّ بالبرد يقتنص

وصادفت أدنى فرصة فانتهزتها ... بلقياك إذ بالحزم تنتهز الفرص

فإن كنت بالبَبْغاء قدما ملقبا ... فكم لقب بالجور لا العدل مخترص
وبعد فما أخشى تقنص جارح ... وقلبك لي وكر ورأيك لي قفص
فأنهي الحديث إلى عضد الدولة غريم الصابي فأعجب به وكان سبباً من أسباب العفو عن الصابي وإطلاقه، فرأى أن يكون أول ما ينشده وصف الببغاء وذكر محاسنه والتلميح بفضل أبي الفرج وذكائه فأرسل أرجوزة منها:
ألفتها صبيحة مليحه ... ناطقة باللغة الفصيحهْ
عدت من الأطيار واللسانُ ... يوهمني بأنها إنسان
ومنها وهو آخرها:
تلك التي قلبي بها مشغوف ... كنيت عنها واسمها معروف
نشرك فيها شاعر الزمان ... والكاتب المعروف بالبيان
وذاك عبد الواحد بن نصر ... تقيه نفسي عاديات الدهر
فأجاب أبو الفرج بأرجوزة منها:
من منصفي من حكم الكتاب؟ ... شمس العلوم قمر الآداب
أضحي لأوصاف الكلام محرزاً ... وسام أن يلحق لما برزا
وهل يجاري السابق المقصر؟ ... أم هل يساوي المدرك المعذَّر؟
ومنها بعد أن أطال في وصف الببغاء:
لو لم تكن لي لقباً لم أختصر ... لكن خشيت أن يقال منتصر
وإنما تنعت باستحقاق ... لوصفها حذق أبي إسحاق
شرفها وزاد في تشريفها ... بحكم أبدع في تفويفها
فكيف أجزي بالثناء المنتخب ... من صرَّف المدح إلى اسمي واللقب
ومن أبدع ما مدح به اللثغ ما كتبه الصابي إلى أبي الفرج:
أبا الفرج استحققت نعتاً لأجله ... تسميت من بين الخلائق بَبَّغا
بياناً منيراً كاللجين مضمنا ... نضاراً من المعنى أذيبا وأفرغا
فلو لامرئ القيس انتدبت مجاريا ... كبا أو لقس في فصاحته صغا
ومنها:
وما هجنت منك المحاسن لثغة ... وليس سوى الإنسان تلقاه ألثغا
أتعرفها فيما تقدم خاليا ... بعير إذا ما صاح أو جمل رغا
فيالك حرفاً زدت فضلاً بنقصه ... فأصبحت منه بالكمال مسوغا
وبعد فلنترك حديث اسم أبي الفرج ولقبه، ولنتحدث عن حياته الأدبية لنصل منها إلى دراسة شعره ونثره
اتصل أبو الببغاء فتى بأمير حلب سيف الدولة علي بن حمدان وهو حينذاك حلبة آمال الأدباء وكعبة رجاء الشعراء، يملأ أفواههم بالنضار، فيملئون أرجاء ملكه بروائع الأشعار، ويرفع أقدارهم بمنحه، فيرفعون عقائرهم بمدحه، وليس ذلك من مثله بمستغرب، فإن صلته بهم وشيجة فهو أديب مجيد وشاعر رقيق تهزه الأريحية وتتملكه موسيقى الشعر، فيسح عليهم وسميه وتهمي ديمه، ولأنه رأى أن يتشبه بعظماء الخلفاء ممن قربوا الشعراء وأدنوا مجالس الأدباء والعلماء كعبد الملك والرشيد والمأمون فغمرهم بلجينه ليروي منبت عزهم ومعين شعرهم ومهبط وحيهم وسماء فيضهم، ولأن دولة الأدب سناد قوي لدولة السياسة وعماد حصين لرجالها يذيعون حسناتها ويذودون عن رجالاتها، فجمع حوله من فحول الشعراء من لم يجتمع مثله لأمير أو خليفة قبله؛ فالمتنبي وأبو فراس الحمداني، والصابي والموصلي والببغاء والوأواء وغير أولئك وهؤلاء جعلهم في حياطته ينشدون محامده ويدبجون مدائحه، ولا يعرف تاريخ الأدب ممدحاً مدح بعشرة آلاف بيت من عيون الشعر سوى سيف الدولة. قال الثعالبي في يتيمته في ترجمة سيف الدولة:
(كان كل من أبي محمد عبد الله بن محمد القاضي الكاتب، وأبي الحسن علي بن محمد الشمشاطي قد اختار من مدائح الشعراء لسيف الدولة عشرة آلاف بيت)
ولأن سيف الدولة كان أرفع أمراء الدولة قدراً وأوسعهم مُلكاً وأقواهم سلطاناً هرع إليه الشعراء وكان زعيمهم من يصل سببه بأسبابه
لذلك ولغيره سار أبو الفرج في ركابه فعاش طوال عمره وفياً له ولابنه من بعده، فمدائحه فيض قلبه ونبعة حبه لا رغبة في ولاية، ولا خوفاً من وشاية، ومتى كان الشعر

باعثه الشعور ومصدره الوجدان، بلغ أقصى الجودة والإحسان؛ ولاشك أن اللهى تفتح اللهاة. قيل إن سيف الدولة ضرب دنانير للصلاة عليها اسمه ورسمه وأمر عقب ضربها بعشرة منها لأبي الفرج فانطلق منشداً:

نحن بجود الأمير في حرم ... نرتع بين الشعور والنعم
أبدع من هذه الدنانير لم ... يجر قديماً في خاطر الكرم
فقد غدت باسمه وصورته ... في دهرنا عوذة من العدم

فزاده عشرة أخرى، فهو لهذا قمين بالوفاء له لم يتغير عن وده في قربه أو بعده، ولكن هذا لم يمنعه أن يمدح غيره من لداته لا من عداته، ولعل هذا يرسل إلينا قبساً من أخلاقه

وسيكشف لنا ما سنقدمه من شعره ونثره عن خلال كريمة وموعدنا بدراسة نثره وشعره عدد تال

(المعادي)

عبد العظيم علي قناوي

من وحي الشجرة الضالة

على طريق الشعر المنثور

للأستاذ خليل هنداوي

- 1 -

ما تقول الشجرة. . .
من هو هذا الضال الذي ملأ سكينتي نداؤه؟
وما عسى يفعل الضال في ظلالي؟
أيبتغي مني هداه؟
وكيف يجد هداه من لا ينطوي قلبه على هدى؟
أنا لست ضالة وإن رأيتني في وحدتي ووحشتي:
أنا لست صامتة وإن لم تسمع لساني!
أنا لم أعتزل رفيقاتي ولو شئت الاعتزال لما استطعت!
وكل ما بي من جذور يتصل بجذورهن تحت الأرض الصامتة،
وكل ما يجري في عروقهن من دم الأرض يجري في عروقي!

- 2 -

لا تحدثني عن الاعتزال!
إن التفكير في الاعتزال هو مرض الحياة!
نحن هنا في دائرة الوجود الشاملة يتصل بعضنا ببعض!
أيستطيع عالم من هذه العوالم المختلفة أن يحيا منعزلاً!
نحن على ضلال ما ظللنا نطلب الاعتزال!

- 3 -

ألا أين هذه النار التي ستضرمنا؟
ألا حبذا النار!
لأنها عصر موحد. . . لا يترك وراءه إلا الرماد!
ينبغي لنا أن نحول رماداً حتى نشعر بالاتصال!

- 4 -

لست ضالاً إلا حين تعتقد أنك جئتني منفصلاً!
وأنت ترى أن كل جذورك متعلقة بجذور الأرض
وأن خيالك متمنطق بجميع آفاق السماء!
أأنت قادر على بتر جذورك وقطع خيالك
ومن أمامك ومن ورائك سلسلة حلقاتها لا تتناهى!

- 5 -

إن في جسدي جزءاً منك
وفي جسدك جزءاً مني. . .

ونحن لا ندرك هذه الأجزاء الغريبة فينا حتى نقدر على اقتلاعها، لأنها أجزاء تآخت مع أجزائنا

- 6 -
لم تخلق الحياة جزءاً يستطيع أن يحيا منفصلاً!
حتى الأموات الذين أكملوا دوراتهم يبقى اتصالهم بأرواحنا!
وهل يستطيع الأحياء أن يعيشوا بغير أموات؟
إنهم في يقظاتهم يمشون وراء خواطرهم وأفكارهم!
. . .وهم في أحلامهم يعيشون في جزائرهم النائية
أن إبادة الحياة لبعضها الموجود ثم تكريرها لبعضها المفقود هما سواء في معنى الاتصال!. . .
. . .قل معي كما أقول
لتدخل كل الأكوان في روحي فإنها واسعة جداً!
. . .ولتتزاحم كل الآفاق في عيني فإنها لا تضيق
وليتمثل لي الفناء كاشراً عن أنيابه فلن يروعني
. . .لأنني جزء هائم من أجزاء الحياة الثابتة التي لا تقدر الحياة نفسها على هضمي
هي تحملني تائهة من مكان إلى مكان!! إلى التربة التي أنجم فيها جديداً لأناجي فيها كل
الأكوان
- 8 -
. . .قل للحياة
اصنعي بي ما تريدين! فأنا حياة مثلك!
واجعليني إذا شئت رماداً لغذاء الزهور المتفتحة. . . إنني سأغذيها بقلبي!
. . .لأن هذه الزهور المتفتحة تدري مثلي أنها تأكل رماد زهور كانت تحيا مثلها
ليس سر الحياة في الذرة أن تشعر بأنها حبة!
إن سر الحياة في كل ذرة أن تؤدي الغاية من حياتها ثم تمضي لتأتي الذرة الثانية التي نشأت في حضنها. . .
أنت من حياتك تمثل كل يوم هاتين الذرتين، فمثلهما على وجههما الأسمى الذي تنشده الحياة
خليل هنداوي
الحرف العربي والإفرنجي
لأستاذ جليل
قرأت في (الرسالة الغراء) قطعة (الدمام) التي فيها شرح اللعس. . . ووصية الزمخشري. . . - ولن نعمل بها - بلن الاعتزالية - إن شاء الله - فلما وصلت إلى (شارع عماد الدين، هذا شارع موهي الدين) كركرت وقهقهت، وقلت في نفسي: لو ماشت جماعة من العرب أصحابنا الكماليين في اتخاذ تلك الحروف المسماة باللاطينية لأمسى محي الدين موهي الدين وتذكرت حديثاً طريفاً أحببت أن أقصه على قراء الرسالة:
في الإسكندرية رجل تركي يكتب بالعربي، والدجاج يخطب أيضاً ويكتب. . . وهو مولع بحرية القول، والحرية - يا أخا العرب - من غرائز هذا الجيل (التركي) منذ القديم. . . وقد عرفت مصر حرية القوم المعرفة البليغة المتقنة. . .
ولاقاني هذا الرجل ذات يوم وعلق يطنب في تقريظ الكماليين، وفي تجديدهم، وفي هذه الحروف التي استبدلوها بالقديمة، فقلت له: يا شيخ، اسمع: أما ذلك العظيم فإن إجلالي إياه ينسف هرفك به. ووالله ما ذكرته في وقت إلا تذكرت أبيات حفص بن الأحنف الكناني في ربيعة بن مُكَدّم:
لا يبعدَنّ ربيعةُ بنُ مكدّم ... وسقى الغوادي قبرَه بذَنوب
نفرتْ قَلوصي من حجارة حَرَّةٍ ... بُنيت على طَلْق اليدين وهوب
لا تنفري (يا ناق) منه فإنه ... شِرّيب خمر مِسعرٌ لحروب
لولا السفار وبُعْدُ خَرْق مَهْمهٍ ... لتركتها تحبو على العرقوب
فالرجل فوق ما في نفسك، وهو بطل من أبطال هذا الزمان؛ وأما ذلك التجديد فليس لليوم أن يقضي فيه قضاءه، وللغد الحكيم فتنظر أأحسن القوم أم أساءوا. وأما تلك الحروف الإفرنجية فما عمل الكماليون شيئاً، كانوا يكتبون من اليمين، فصاروا يكتبون

من الشمال
قال: لم أفهم
قلت: الحرف العربي هو الحرف الإفرنجي نفسه، والحرف الإفرنجي هو الحرف العربي عينه (وأنفه)
قال: زدني إيضاحاً
قلت: هات نُتفة ورقة، رَ، أنظر، تكتب اللام من اليمين بالعربي هكذا (ل) وتكتبها بالإفرنجي من الشمال هكذا وتكتب النون العربية بهذه الصورة (ن) والإفرنجية بهذه الصورة بسبب رقمك إياها من جهة الشمال، والجيم العربية هي هذه (ج)، والجيم الإفرنجية هي هذه وهذه سيننا (س) وهذه سين الفرنج وقس على ما ذكر ما لم يذكر.
وللجهة (جهة اليمين أو الشمال) أثر فيما تخاله اختلافاً، فالحروف واحدة غير أن الحضارة العربية - التي مدّنت أوربة كما يقول الإفرنج - قد نقحت الحرف العربي وحسنته؛ فالاختلاف الظاهر هو من حرف تقدم وارتقى وهُذّب، ومن حرف وقف. ولو استبدل مثلُ الصيني بحرفه الحرف العربي أو اللاطيني لكان له عذر مقبول، ولكن قومك قل لهم: (أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير؟!)
ولما ندب الكماليون ذلك العالم الأوربي منذ بضع سنين ليفتش المدارس العالية في اصطنبول، وشاهد من تقهقرها بتغيير الحروف ما هاله، نصح للترك أن يعودوا سريعاً إلى الحروف العربية
فلما أوريت صاحبنا التركي الذي يكتب بالعربي حراً ما أوريته، وأنبأته بحديث العالم الغربي وجم وجوماً (فبُهت الذي كفر، والله لا يهدي القوم الظالمين)
(الإسكندرية)
(* * *)
مصطفى صادق الرافعي
1880 - 1937
للأستاذ محمد سعيد العريان
- 11 -
1 - (إن المرأة للشاعر كحواء لآدم، هي وحدها تعطيه بحبها جديداً لم يكن فيه؛ وكل شرها أنها تتخطى به السموات نازلاً. . .)
2 - (إن النابغة في الأدب لا يتم تمامه إلا إذا أحب وعشق. . .)
3 - (إن ملكة الفلسفة في الشاعر من ملكة الحب؛ وإنما أولها وأصلها دخول المرأة في عالم الكلام بإبهامها وثرثرتها. . .)
(الرافعي)
الرافعي يعشق. . .!
أتراني أستطيع الحديث عن الرافعي العاشق فأوفّي القول وأبلغ الغاية. . .؟
وهل يكون لي أن أدعي أنني أكتب في هذه الصفحات تاريخ الرافعي إذا أنا لم أعرض لحديث الرافعي العاشق. . .؟
وهل خَلتْ فترة في حياة الرافعي من الحب؟
ذلك الرجل الذي لا يتخيله أكثر من لم يره إلا شيخاً معتجر العمامة مطلق العذبة مسترسل اللحية مما قرءوا له من بحوث في الدين وآراء في التصوف وحرص على تراث السلف وفطنة في فهم القرآن مما لا يدركه إلا الشيوخ بل مما لا يدركه الشيوخ. . .
هذا الذي يكتب إعجاز القرآن وأسرار الإعجاز، والبلاغة النبوية؛ ويصف عصر النبوة ومجالس الأئمة وكأنه يعيش في زمانهم وينقل من حديثهم. . .
هذا الذي كانت تتصل روحه فيما يكتب - من وراء القرون - بروح الغزالي، والحسن البصري، وسعيد ابن المسيّب؛ فما تشك أن كلامه من كلامهم وحديثه من إلهام أنفسهم. . .
هذا الذي تقرأ له فتحسبه رجلاً من التاريخ قد فر من ماضيه البعيد وطوى الزمان القهقري ليعيش في هذا العصر ويصل حياة جديدة بحياة كان يحياها منذ ألف سنة أو يزيد في

. . .عصر بعيد
!. . .هذا الرجل كان عاشقاً غلبه الحب على نفسه وما غلبه على دينه وخلقه . . .
إن الحديث عن حب الرافعي لحديث طويل؛ فما هي حادثة أرويها وأفرغ منها، وحبيبةٌ واحدة أصفها وأتحدث عنها؛ ولكنها حوادث وحبيبات، وعمر طويل بين العشرين والسابعة والخمسين، لم يشرق فيه صباح ولم يجنّ مساء إلا وللرافعي جديدٌ في الحب؛ بين غضب ورضى، ووصل وهجر، وسلام وخصام، وعتب ودلال، وحبيب إلى وداع وحبيب إلى لقاء. . . وشابَ الرافعي وما شاب قلبه، وظل وهو يدب إلى الستين كأنه شاب في العشرين. . . ومات وعلى مكتبه رسالة ودادٍ من صديقة بينها وبينه جواز سفر وباخرة وقطار، وكان في الرسالة موعد إلى لقاء. . .!
وقلت للأستاذ الزيات مرة وبين الرافعي وبين أجله عام: هل لك في موضوع طريف عن الرافعي أنشره لقراء الرسالة؟ إن للرافعي في الحب لحديثاً يلذ ويفيد. . .
قال: ومن لي بهذا؟
قلت: أنا لك
قال: ولكنه حديث يُغضب الرافعي!
قلت: وعليّ أنا أن يرضى. . .
وذهبت إلى الرافعي فأفضيت إليه بعزمي. قال: أو تفعلها؟ أفكان لهذا مجلسك مني كل مساء تسترق السر لتدخره إلى يوم تنشره فيه على الناس بثمن. . .؟
قلت: لو أنه كان سراً لم يعلمه غيري ما عقدت العزم على شئ ولكنك يا سيدي. . .
وما كان للرافعي سر يستطيع أن يطويه بين جوانحه يوماً وبعض يوم، فكأنما أذكرتُه ما كان ناسياً؛ فعاد يقول: وماذا تريد أن تقول في حديثك عن حبي؟
قلت: حديثاً لو همّ غيري أن يجعل منه مقالاً لقرائه لما كان الرافعي هو الرافعي عند من يقرؤه، ولكن أحسبني أنا وحدي الذي أستطيع أن أقول إن الرافعي كان يحب فما أغيّر شيئاً من صورة الرافعي كما هو في نفسه وكما هو عند من يعرفه. . . إنني أنا وحدي الذي أعرف الحادثة وجوّها وملابساتها وما كان في نفسك منها؛ ولعلي يوم عرفت كنت أسمع نبضات قلبك وخلجات وجدانك ومرمى أملك وما كانت غايتك في الحب ومداك. أما غيري
فهل تراه يعرف إلا الحادثة؟ وحسبه أن يقول: إن الرافعي يحب. . . ثم تكون الفضيحة التي تخشاها وأنت منها طاهر الإزار. . .
واستمع الرافعي إلى حديثي ثم أطرق هنيَّة وعاد يسألني: وهل أقرأ ما تعدّه قبل أن تنشره، أو يكون يومك كأمسك؟
قلت: لك ما تريد
قال: أنت وشأنك!
وأجمعت أمري، وأعددت فكري، وتهيأت للكتابة، ثم شغلتني العناية بطبع (وحي القلم) وتصحيح تجاربه عن الوفاء بما وعدت. . . ومات الرافعي!
فإن يكن في الحديث عن (الرافعي العاشق) حرج فلا عليّ فقد استأذنته فأذن، وما أكتب الآن إلا مستمداً من روحه، راوياً من بيانه، ولديّ شهودي من كتبه ورسائله، وما يعرفه أصدقاؤه وصفوته. وإذا كان الرافعي قد خفت صوته إلى الأبد فلا سبيل إلى أن أسمع رأيه فيما أكتب عن تاريخ قلبه، فإني لمؤمن شديد الإيمان بأنني ما أزال في رضاه ومنزلتي عنده وإن كان بيننا هذا البرزخ الذي لا أعرف متى أجتاز إليه فأسمع من حديثه ويسمع من حديثي!
الحب عند الرافعي
وهل في الحب عار أو مذمة؟
. . .هذا سؤال يجب أن يكون جوابه إلى جانبه قبل أن أمضي في هذا الحديث
أما الحب الذي أعنيه - وكان يعنيه الرافعي - فشيء غير الحب الذي يدل عليه مدلول هذه الكلمة عند أبناء هذا الجيل. . .
إن الحب عند الناس هو حيلة الحياة لإيجاد النوع؛ ولكنه عند الرافعي هو حيلة النفس إلى السمو والإشراق والوصول إلى الشاطئ المجهول؛ هو نافذة تطل منها البشرية إلى غاياتها العليا وأهدافها البعيدة، وآمالها في الإنسانية السامية؛ هو مفتاح الروح إلى عالم غير منظور تتنوّر فيه الأفق المنير في جانب من النفس الإنسانية؛ هو نبوّة على

قدر أنبيائها: فيها الوحي والإلهام، وفيها الإسراء إلى الملأ الأعلى على جناحي ملك جميل. . . هو مادة الشعر وجلاء الخاطر وصقال النفس وينبوع الرحمة وأداة البيان كذلك كان الحب عند الرافعي، ولذلك كان يحب. . . وسعى إلى الحب أول ما سعى على رجليه، منطلقاً بإرادته ليبحث في الحب عن ينبوع الشعر، فلما بلغ أغلق الباب من دونه فظل يرسف في أغلاله سنين لا يستطيع الفكاك من أسر الحب؛ وكانت (عصفورة) أول من فتح لها قلبه فسيطرت عليه وغلبته على نفسه؛ وكانت سنه يومئذ إحدى وعشرين. . .

وبلغ الرافعي بعصفورة إلى غايته، واشتهر (شاعر الحسن) وترنم العشاق بشعره وما بلغت عصفورة إلى غايتها. ثم مضى كل منهما إلى طريق. وأتمّ الرافعي طبع ديوانه. وكما ينتهي الحب الذي هو حيلة الحياة لإيجاد النوع إلى الزواج أو إلى الغاية الأخرى ثم يبدأ في تاريخ جديد - كذلك انتهى حب الرافعي وعصفورة وأنجب ثمرته الشعرية، ثم كان تاريخ جديد. . .

وعلى مثال هذا الحب كم كانت له حبيبات وكم أنجبت ثمرات؛ وإنه ليخيّل إليّ أن الرافعي كان كلما أحس حاجةً إلى الحب راح يفتش عن (واحدة) يقول لها: تعالي نتحابّ لأن في نفسي شعراً أريد أن أنظمه أو رسالة في الحب أريد أن أكتبها. . .!

ولقد سمعته مرة يقوله لإحداهن. . . وسمعت إحداهن مرة تقول له: متى أراني في مجلسك مرة لتكتب عني رسالة في (ورقة ورد)؟

على أن الرافعي كان له إحساس عجيب في مجالس النساء، وكان لهن عليه سلطان وله سحر وفتنة. وهو في هذه المجالس فكِه مداعب رائق النكتة لا تملك السيدة الرّزَان في مجلسه إلا أن تخرج عن وقارها؛ وكانت هذه أداته في استمالتهن حين يلتمس الوحي أو يجد الحاجة إلى أن يقرأ شعراً في عينٍ ساحرة. فإذا استوى له ما أراد عاد إلى مكتبه لينشئ وينظم وتنتهي قصة الحب

وكان يسمي كل جميلة (شاعرة) لأنها هي تمنحه الشعر، و (الشواعر) عنده طبقات، على مقدار ما يبعثن فيه من الشاعرية ويرهفن من إحساسه؛ ففلانة شاعرة كالمتنبي، وهذه كالبحتري، وتلك بنت الرومي، ورابعة بشار بن برد، وخامسة عبد الله عفيفي أو شاعر الرعاع. . .!

وحين يجلس في شرفة قهوة (لمنوس) بطنطا وتمر به الجميلات في رياضتهن أو في حاجتهن، تسمع ثبتاً حافلاً بأسماء الشعراء يبدأ من مهلهل بن ربيعة وينتهي بفلان الذي يؤمل أن يكون أمير الشعراء بعد أن يموت كل الشعراء. . .!

هذه لمحات أذكرها على غير صلتها بالموضوع لأنها تشير إلى بعض عناصره؛ على أنني وقد بلغت هذا القدر من الحديث لم أبدأ القول بعدُ عن حب الرافعي الذي حاولت هذا المقال لأتحدث عنه

إنها حادثة وقعت في تاريخ الرافعي وسنه ثلاث وأربعون سنة فأنشأته خلقاً جديداً، كانت دعابة من مثل ما قدّمتُ فأوشكت أن تكون علة، فلما اختار الله له أنقذه بكبريائه من دائه، ولكنه خلّف في قلبه جرحاً يَدمَى، ولكنها كانت بركة في الأدب وثروة في العربية

من تكون هذه الشاعرة التي غلبته على إرادته فغلبها بكبريائه؟ ما شأنها وما خبرها؟

هذا موضوع حديثي في العدد القادم

محمد سعيد العريان

دراسات في الأدب الإنجليزي

جون ملتون

للأستاذ خليل جمعة الطوال

تابع ما نشر في العدد الماضي

على أن كرمويل ما لبث أن توفي، فكان موته زلزالاً عنيفاً قوض دعائم ذلك الدستور الذي شاد بيده الحديدة بنيانه؛ وزاد في الطين بلة ضعف خلفائه السياسي، فعادت الملكية إلى مكانتها السابقة، وكان طبَعيّاً أن تنتقم من البرلمانيين، وتثأر منهم لعرشها المغصوب وعزها المسلوب. أما ملتون فقد أدرك ما للملكيين عنده من الثأر الجسيم، وذلك لما نالهم منه من الطعن والامتهان والزراية، فأوجس خيفة من شرهم وانتقامهم، فتوارى عن عيونهم مدة من الزمن تجنباً لكيدهم؛ إلا أن هؤلاء بثوا وراءه

العيون والأرصاد، فتمكنوا من القبض عليه، وزجوه في غياهب السجن وغرموه غرامات مالية فادحة؛ ثم سيق للمحاكمة، وقد كاد يحكم عليه بالإعدام لو لم يدافع عنه أمام المحكمة أشهر رجال المحاماة في ذلك العصر

وفي عام 1662م اعتزل ملتون السياسة، إذ فقد بصره وأصبح غير قادر على الاتصال الفعلي بالهيئة البشرية الاجتماعية، والإشراف على أحداثها السياسية والدينية والاجتماعية، فقصر وقته لذلك على الدرس والاجتهاد، وأكب على التأليف حتى نبه صيته في جميع الأوساط الأدبية كشاعر فذّ وكاتب بليغ، ومع اعتزال ملتون الفعلي للأمور السياسية فقد ظل يهز الرأي العام بكتاباته وشخصيته الفنية بعد الأخرى، وهو وفيذ وحدته، ووحيد عزلته. وما هي إلا ثلاث سنوات قضاها في عقر بيته منعزلاً عن المجتمع حتى أخرج للعالم ملحمته الشهيرة المعروفة بالفردوس المفقود وهي أعظم سفر أدبي في سجل الأدب الإنكليزي؛ وقد لا نجد لها حتى اليوم مثيلاً إلا بالرجوع إلى الملاحم العالمية السبع

الفردوس المفقود

لقد أجمعت الآراء على أن ملحمة الفردوس المفقود في الأدب الإنكليزي كالإلياذة في الأدب اليوناني والكوميديا الإلهية في الأدب الإيطالي، وأنها في شهرتها الواسعة هي الثالثة لهاتين الملحمتين العالميتين. ولئن وجد فيها بعض المتحذلقين من نقدة الأدب مجساً لمشارطهم

ومغمزاً لمباضعهم، إلا أن ذلك لا يمنع الأديب المنصف من أن يرى فيها للأدب الإنكليزي تعويضاً عادلاً لركوده وتغلب الموجة السياسية عليه في عهد الإحياء

لم ينظم ملتون هذه الملحمة المشهورة دفعة واحدة، ومن المؤكد أن ابتدأ نظمها بعد أن اعتزل السياسة، وبعد أن فقد بصره. ولقد أملى أبياتها على أكثر من كاتب واحد، يدل على ذلك نسخها الخطية الأصلية التي لا تزال محفوظة في مكتبة (كلية ترنتي) في (كمبردج). وقد طبعت لأول مرة عام 1667 في عشرة أجزاء، ثم نقحت وزيد عليها جزءان آخران، وطبعت في المرة الثانية في اثني عشر جزءاً وذلك عام 1674. أما موضوعها فقد استمده من الكتاب المقدس، وأوحى إليه بمادتها الجزلة ذلك النزاع الخطير الذي قام في إنكلترا من اصطدام المبادئ الديمقراطية التي ترمي إلى رفع لواء حرية الشعب الدينية والسياسية بالمبادئ الملكية الأرستقراطية التي غايتها جعل شئون الأمة وحريتها في أيدي الملوك كالآلة الصماء يديرونها في لهوهم وعبثهم أنى شاءت لهم أنانيتهم وكيفما رغبت أهواؤهم. وإذ كان لا بد للأدب الحي من أن يصور المجتمع في سلمه وحربه، ويجاري الزمن في تقلبه وتطوره، فقد صور ملتون ذلك النزاع الخطير الذي خاض غماره في ملحمته هذه تصويراً دقيقاً لا مزيد عليه

لقد كان الدين إذ ذاك مشتجر الآراء، ومصطرع البطانات، ومحور الخلاف بينها؛ وكان لا بد لمن أراد أن يكون مبرزاً في هذا الميدان الديني من أن يكون ملماً بجميع النصوص الدينية، ولذلك أقبل الأدباء على الكتاب المقدس يتدارسونه وعلى الإنجيل يتدبرونه، طمعاً في الشهرة والفوز؛ وقد كان ملتون أبعدهم في ذلك غوراً وأكثرهم في الدرس مطالعة واجتهاداً يحفزه عليه سُعاره للشهرة، وحبه للجاه، وطموحه للسمو والمجد؛ ناهيك بتوقد فطنته، وطاعة ذهنه، وتوثب شاعريته، ولذا فلا عجب إذا رشحت دراساته للدين، وتغلغله في ثناياها بمثل ملحمة (الفردوس المفقود) التي اختلف الأدباء على تقديرها، وانقسموا إزاء تمجيدها شأن انقسامهم إزاء كل أمر خطير، إذ كانوا في ذلك بين منتقص ذي هوى لم يسلم من الغلو والإسراف، ومطنب في المديح لم يسلم من التحذلق والإغراق؛ وليس أدل على هذا من هذه الفقرات الموجزة التي نثبتها فيما يلي بإسنادها إلى أصحابها تاركين للقارئ حريته في تمييز غثّها من سمينها

رأي جونسون

لقد مهد جونسون لرأيه في ملتون بما قرره (بوصو) عن الشاعر المجيد إذ يقول: (الشاعر الفذ المجيد هو الذي ينظم قصيدته وينشرها لغاية سامية ينشدها ومثل عليا يتطلبها، وتكون الحقيقة فيها هي بيت القصيد بل أسها الذي تقوم عليه؛ وما الخيال بجانبها إلا أداة طيعة يمهد بتلفيقه سبل الوصول إلى غايته المنشودة ومُثُله العليا المقصودة)، ثم جعل من هذه الفقرة الموجزة دستوراً للنقد ومحكاً للشعر يعرف بها غثُّ القصائد من سمينها - ولو إلى حد - وأخيراً قال: لقد ألف ملتون ملحمة الفردوس

المفقود ليمهد للدين سبله الوعرة التي ضلت فيها عديد البطانات وليدحرج من هذه السبل تلك الصخرة الناشزة التي تحطمت عليها مختلف العقائد، وتنكرت أمامها أكثر الحقائق؛ ولعله لم يكن له من غاية أخرى سوى نظم الحقائق الدينية، ونقلها إلى الغير عن طريق القلب لا العقل، وبصورة لا أثر فيها البتة لالتواء اللاهوت وإبهامه، ولتعسف المنطق واحتمال تأويلاته، ولكنه لم يوفق إلى ذلك، إذ جمح به الخيال حتى أخرجه عن دائرة الحقيقة، وشردت به الشاعرية المتوثبة حتى أبعدته عن منطقة المعقولات؛ فجميع أغراضه متنكرة كأنها لغز غامض، وتعابيره ملتوية كأنه يقول شيئاً ويريد غيره، وصوره شائهة حتى لكأنها من تلفيق الخيال المحض الذي لا حقيقة له في الوجود. وبالجملة فإنه ليس فيها من أثر لما يريد خلا ما كان من بعض القوافي الممقوتة المصطنعة، والألفاظ المزركشة الآبدة، والتعابير المستعصية الغامضة، التي يند عنها الطبع وينشز منها الذوق

رأي ماكولي

الفرق بين أشعار ملتون ودانتي كالفرق بين الكتابة الهيروغليفية المصرية والكتبة التصويرية المكسيكية؛ فبينا يصور الثاني احساساته صورة لفظية كاملة، وينفض عليك عواطفه كما جاشت في صدره واعتلجت في قلبه، إذ بالأول لا يزيد في وصفه على الإشارة الغامضة، ولا في تصويره عن الصورة المبهمة للشيء - أي المسودة - ذلك يصف الأشياء بجزئياتها، وهذا يحيطها بستر كثيف من التورية البعيدة، والاستعارة الدقيقة، التي لا تظهر معها إلا بعد إعمال الفكر وكد الخاطر. وأكاد أجزم جزم اليقين أن ليس بين الأدباء من قرأ ملحمة الفردوس المفقود فعلقت شحنتها بشغاف قلبه، أو هزت نبراته وتراً من أوتار حسه. وعندي أنها ليست في الشعر إلا كالأحاجي في اللغة، ولولا ثوب الشهرة الفضفاض الذي يضفيه الأدباء على ملتون في غير استحقاق لكانت ملحمته هذه صفراً على هامش الأدب؟؟!

رأي هزلت

لقد كان شكسبير يعنى بنقد المجتمع وسوءاته أكثر من اعتنائه بنقد الديانات وطوائفها، وكان أيضاً ينظم الشعر بدافع الفطرة الشعرية الكامنة في نفسه لا بحافز الشهرة الذاتية، ولهذا كان مغايراً لملتون كل المغايرة؛ وذلك لأن ملتون كان مصاباً بسعار الشهرة، وشديد التمسك والتعصب لمبادئه الطهرية الدينية. لقد كان كلاهما شاعراً فذاً، إلا أنه بينما يسير الأول - شكسبير - وراء خياله وعاطفته، إذ بالثاني - ملتون - يُسيّر خياله وعاطفته وفق إرادته؛ فعاطفة الأول هي التي تدفعه إلى قرض الشعر، بينا إرادة الثاني هي التي تستكره خياله على النظم؛ ذاك تتسم أشعاره بعفو الخاطر وبداهة الفطرة وتوقد العاطفة، وهذا تتسم قصائده بجهد الفكر، وغزارة المعرفة، ومسحة العقل، وتصنع الخيال، وبرود العاطفة؛ ذاك تتسم أشعاره بحرارة القلب الملتهبة، وهذا بغزارة العقل الرائعة

لقد كان ملتون محباً للوحدة، على حين كان شكسبير مغرماً بالمجتمعات الزحمة، ولذا فبينا يصور الأول - على العموم - نفسه بأشعاره، إذ بأشعار الثاني صورة جلية لمحيطه، ومرآة مجلوة تنعكس عنها مرئيات بيئته. كان ملتون مشغوفاً بالدرس والمطالعة، بينا كان شكسبير لا يجد اللذة والراحة إلا في مطاوي الطبيعة ومناجاة أسرارها ومحاكاة مرئياتها. ذاك - أي ملتون - يمثل بأشعاره قوة العقل وسلطان الإرادة، وهذا يمثل حرارة العاطفة وسلطان القلب

على أنه ليس في هذا ما يمنعنا من أن ننظر إلى ملحمة الفردوس المفقود نظرنا إلى الإلياذة والأوديسة - أو القدس المحررة - لتاجور؛ ذلك لأنها وإن كانت تتسم بقوة العقل وجبروته إلا أن فيها من حرارة العاطفة ما ينماث له القلب، ويعتلج له الصدر. ولئن دقتْ تعابيره، والتوت أغراضه، وسما أسلوبه في بعض المواضع، فما ذاك إلا لسمو الفكرة التي يصورها ودقة التعبير عنها ولأنه يخاطب بأشعاره الخاصة لا العامة لم يتقيد ملتون في ملحمته (الفردوس المفقود) بالتزام قافية واحدة، وليس ذلك لعجزه وضعفه، فقد كانت القوافي أطوع لخاطره من بنانه، كيف لا وهو أعلم بأوابد اللغة وشواردها؟ ولكن لأنه رأى في القافية قيداً للعاطفة يجب التحرر منه

(البقية في العدد القادم)
خليل جمعة الطوال
نقل الأديب
للأستاذ محمد اسعاف النشاشيبي
283 - الله والنبي والعيد العربي
(في رسالة لأبي الفضل أحمد بن الحسين الهمذاني (بديع الزمان:
إن عيد الوَقود لَعيدُ إفك، وإن شعار النار لشعار شرْك. وما أنزل الله بالسذق سلطاناً، ولا شرّف نيروزاً ولا مِهرجاناً. وإنما جعل الله (تعالى) النار تذكرة ومتاعاً، ولم يضرب لها عيداً، ولم يجعلنا لها عبيداً. الله والنبيّ، والعيد العربيّ، والتكبير الجهير، وتلك الجماهير، والملائكة بعد ذلك ظهير، والرحمة صوباً وصبّاً، والبركات فيضاً وفضاً، والموسم الطاهر من لغو الحديث. هذا هو العيد، وذلك هو الضلال البعيد. . .
284 - والوجوه قباح . . .
الإمام أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن:
لا يوحشنَّك أنهم ما ارتاحوا ... مما جلاه عليهم المُداحُ
فهمُ كقوم عُلّقت بإزائهم ... بيضُ المرائي والوجوه قباحُ
285 - إذن تستوي
سمع بعض الحكماء رجلاً يقول:
قلب الله الدنيا!
فقال: إذن تستوي لأنها مقلوبة
286 - رسالة. . .
قال صاحب البدائع: خرج المعتصم بن صُمادح صاحب المَريّة يوماً إلي بعض متنزهاته فحلّ بروضة قد سفرت عن وجهها البهيج، وتنفست عن مسكها الأريج، وماست معاطف أغصانها، وتكللت بلؤلؤ الطلّ أجياد قضبانها. فتشوّف إلى الوزير أبي طالب بن غانم أحد كبراء دولته فكتب إليه بديهاً بورقة كُرُنب بعود من شجرة:
أقبلْ أبا طالب إلينا ... واسقط سقوط الندى علينا
287 - لئيم العطاس
في (كامل) المبرد: يروى أن عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس - أتته وفود من الروم، وقام السِّماطان فأتى برجل منهم، وعطس أحد من السماطين، فأخفى عطسته فقال له عبد الملك لما انقضى أمر الوفد: هلاّ - إذ كنت لئيم العطاس - أتبعت عطستك صيحة حتى تخلع بها قلب العِلج
288 - سرقت حمرة الخدود الملاح
ابن الزقاق الأندلسي:
ورياض من الشقائق أضحت ... يتهادى بها نسيم الرياح
زرتها والغمام يلطم منها ... زَهرات تفوق لون الراح
قلت: ما ذنبها؟ فقال مجيباً: ... سرقت حمرة خدود الملاح!
289 - ليس الهوى بالاختيار
في (نهاية الأرب): قال رجل من أهل المدينة كان أديباً ظريفاً طلاباً للأدب والملح: كنت يوماً في مجلس رجل من قريش، ومعنا قينة ظريفة حسنة الصورة، ومعنى فتى من أقبح ما رأته العين، والقينة مقبلة عليه بحديثها وغنائها. فبينا نحن كذلك إذ دخل علينا فتى من أحسن الناس وجهاً فأقبل عليّ صاحب البيت فقال: إن في أمر هذين لعجباً، قلت: وما ذاك؟ قال: هذه الجارية تحب هذا (يعني القبيح الوجه) وليس لها في قلبه محبة، وهذا الحسن الوجه يجدها وليس له في قلبها محبة. قال المدني: فقلت لها: تختارين هذا وهو أقبح من ذنوب المصرين، على هذا الذي هو أحسن من توبة التائبين!
فقالت لي: ليس الهوى بالاختيار، ثم أنشأت تغني وتقول:
فلم تُلمِ المحبَّ على هواه ... فكلُّ متيمٍ كلفٍ عميدِ
يظنّ حبيبَه حسناً جميلاً ... وإن كان الحبيبُ من القرود!
290 - رحمة الله عليه
(في سيرة عمر بن عبد العزيز) لابن الجوزي: قال إبراهيم ابن هشام بن يحيى بن يحيي العناني: حدثني أبي عن جدي قال: كنت عند هشام بن عبد الملك جالساً، فأتاه

رجل فقال: يا أمير المؤمنين، إن عبد الملك أقطع جدي قطيعة فأقرّها الوليد وسليمان حتى استُخلف
عمر (رحمه الله) نزعها. فقال له هشام: أعدْ مقالتك، فقال: يا أمير المؤمنين إن عبد الملك أقطع جدي قطيعة فأقرها الوليد وسليمان، حتى إذا استخلف عمر (رحمه الله) نزعها. فقال: (والله) إن فيك لعجبا! إنك تذكر من أقطع جدك القطيعة ومن أقرها فلا تترحم عليه، وأنا قد أمضينا ما صنع عمر رحمة الله عليه. . .

الورد والياسمين - 291

قال هبة الله محمد النصيبي: كنت في زمن الربيع والورود في داري بنصيبين، وقد أحضر من بستاني من الورد والياسمين شيء كثير، وعملت - على سبيل الولع - دائرة من الورد تقابلها دائرة من الياسمين فاتفق أن أدخل على المهذب والحسن ابن البرقعيدي الشاعران فقلت لهما: اعملا في هاتين الدائرتين. ففكرا ساعة ثم قال المهذب:

يا حسنها دائرةً ... من ياسمين مشرق
والورد قد قابلها ... في حلة من شفق
كعاشق وحبّه ... تغامزا بالحدق
فاحمرّ ذا من خجل ... واصفر ذا من فرق

فقلت للحسن: هات، فقال: سبقني المهذب إلى ما لمحته في هذا المعنى وهو قولي:

يا حسنها دائرة ... من ياسمين كالحلي
والورد قد قابلها ... في حلة من خجل
كعاشق وحبه ... تغامزا بالمقل
فاحمر ذا من خجل=واصفر ذا من وجل

فعجبت من اتفاقهما في سرعة الاتحاد، والمبادرة إلى حكاية الحال!

أخاف ألا أموت في أوله - 292

قيل لخالد بن صفوان: مالك لا تنفق؟ فإن مالك عريض
قال: الدهر أعرض منه
قيل: كأنك تؤمل أن تعيش الدهر كله
قال: لا، ولكن أخاف ألاّ أموت في أوله

الغني والفقير

للكاتب الفرنسي لابروبير
بقلم الأديب يوسف جوهر

جيتون لامع البشرة، طلق المحيا، ممتلئ الخدين، عينه حادة مقتحمة، ومنكباه عريضان، وصدره منصوب ومشيته مزهوة مختالة، يتكلم باعتداد، ويستعيد من يحدثه، ثم لا يكاد يسيغ ما يفضي به إليه. يخرج منديلاً فخماً ويفرغ أنفه في جلبة شديدة، يبصق بعيداً، ويعطس عالياً جداً؛ ينام في الليل وينام في النهار، ويغط في المجتمعات؛ يشغل من المائدة وفي المجالس مكاناً أكثر من غيره؛ يكون وسط زملائه عندما يتنزهون، يقف فيقفون، يستأنف السير فيسيرون؛ يقاطع ويخطّئ من يتكلمون ولا أحد يقاطعه، ويصاخ السمع لحديثه مهما أطال الكلام؛ كل الناس من وجهة نظره، والجميع يصادقون على ما يرويه؛ إذا جلس تراه قد استلقى في كرسيه ووضع ساقيه الواحدة على الأخرى، وقد عقد جبينه وخفض قبعته على عينه حتى لا يرى أحداً، أو يجذبها عن جبهته ليُرى كيف تكتسي بالعتو والصلف. وهو مهذار ضحوك سريع الضجر، معتدّ بنفسه غضوب، جرئ على المعتقدات، سياسي. وهو كتوم لمشاكل الساعة؛ وهو يعتقد في نفسه العبقرية وقوة العقل. ذلك لأنه غني. . .

لفيدون عينان غائرتان، ولون محترق، وأعضاء يابسة، ووجه نحيل؛ ينام قليلاً، ونومه خفيف جداً. وهو مهموم مشدوه كأنه صاحب ذهن بليد، فهو ينسى أن يقول ما يعرف أو يتحدث عن الحوادث التي يعلم، فإذا ما جازف أحياناً روى بركاكة. يعتقد أنه يثقل على من يتحدث إليه، ويتكلم باقتضاب وتهيب. يذهل عن الإصغاء فلا يناقش؛ يصفق ويبتسم لما يحدث به الآخرون؛ يجري ليؤدي لهم خدمات صغيرة، وهو مجار متملق مطيع، هو كتوم لشئونهم حييّ، يمشي برفق وقلق كأنه يخشى أن يطأ الأرض؛ يسير وقد خفض عينيه لا يجسر على رفعهما في وجوه المارة، ليس له بطانة لتستمع؛

يجلس خلف من يتحدث؛ يزن في نفسه ما يقال ويتراجع إذا ما رمقه أحدهم؛ هو لا يشغل مكاناً ولا يملأ مقعداً؛ يسير وقد زوى كتفيه وأمال قبعته على عينه كي لا يراه أحد؛ يختبئ ويتوارى خلف معطفه، تختفي عن عينه الطرقات والأروقة إذا ما ازدحمت بالناس لأنه لا يجد وسيلة للمرور من غير أن يُعترض، والانسلال من غير أن يُرى، إذا ما دعاه أحد للجلوس جلس على حافة المقعد؛ يتكلم خفيضاً في المناقشة ويتلعثم، غير أنه صريح فيما يختص بالشئون العامة، ناقم على الظروف؛ له فكرة غير متطرفة عن الوزراء والوزارة. هو لا يفتح فمه إلا ليجيب؛ يسعل ويفرغ أنفه مستتراً بقبعته؛ يبصق فيكاد يلوث نفسه، ينتظر حتى يصير منفرداً ليعطس، فإذا ما اضطر عطس في غفلة من الجماعة، وهو لا يساوي في نظر الناس لا تحية ولا ترحيباً. ذلك لأنه فقير. . .

يوسف جوهر

عبادة جديدة؟!

للأستاذ سيد قطب

لك يا جمال عبادتي ... لك أنت وحدك يا جمال
تُعصى تعاليمُ الطغا ... ة، أو الهداة على ضلال
ويخالَف التشريع جه ... راً، أو خفاءً في احتيال
وتجانَبُ الأديانُ أو ... تُنسى وتهجرُ عن ملال
وأراك وحدك يا جمال ... تَلقى الخضوعَ والاحتفال
والحبَّ والإيمانَ من ... كل الأنام بكل حال!
المال معبود الحيا ... ة المستذل قوى الرجال
هو بعض قربان النفو ... س إلى مقامك في ابتهال
وأرى الألوهة فيك تو ... حي بالعبادة في جلال
ما أنت إلا مظهر ... منها تُوشِّيهِ الظلال
فإذا عبدتك لم أكن ... يا حسن من أهل الضلال
بل كنت محمود العقي ... دة في الحقيقة والخيال
أعنو لمن تعنو له ... كل النفوس بلا مثال
متفرقاً في الكون في ... شتى المرائي والخلال
فإذا تركز هاهنا ... بَطَلَ التمحل والجدال!

رسالة الشعر

القطة

للأستاذ فخري أبو السعود

بادلتُها الوداد من زمانِ ... كأكرم الأصحاب والخلان
تهش لي حين تراني بشراً ... وتعقص الذيل وتحني الظهرا
تمسح بي فراءها الصقيلا ... ترتقب التربيت والتدليلا
لها فراء ناعم كثيفُ ... مهدَّل مرجَّل نظيف
تخطر فيه خطرة الثريِّ ... في خير ثوبٍ مونق عصريِّ
مجدَّدُ اللمعة والرواءِ ... تلبسه في الصيف والشتاء
تغسله بِطَرَفِ اللسانِ ... أجملْ بذيَّاك اللسان القاني
وقد بدا من فمها الأنيق ... بين ثنايا الدر والعقيق
ثيابُنا والفرشُ والوسادُ ... أو حِجْرُ مَن شاءَتْ لها مِهادُ
تنام في الظهر وكلّ آنِ ... وتسهد الليل بلا أشجان
تجوس في الدار وفي الحديقَهْ ... تطلب فأراً تبتغي تمزيقَهْ
تَحْمَرُّ عيناها وتخضرَّانِ ... كما بدا في الليل كوكبان
أنيقة السكون والحراكِ ... رشيقة الوثاب والعراك
ما اهْتَزَّ شيءٌ دون ناظرَيْها ... إلاَّ أصابتْه بمخلبَيْها
مِن كُرَةٍ أمامها تَمُرُّ ... أو ذيل ثوبٍ حولها يُجَرُّ
أو أَنْمُلِي في الطرس أو أهدابي ... أو شَفَتي تَهتزُّ في الخطاب
يا حُسْنَها حيثُ مَضَتْ مِن تُحفَهْ ... إن جَثَمَتْ في البهو أوْ في الشُّرْفَه
تدلف من دوح إلى خميلَهْ ... كنِمرٍ يمشي إليك غِيلَهْ

وآنَةً تزحف كالأَفاعي ... وآنة تهجم كالسباع
مُكْرَمةٌ حيث مضت أميرهْ ... عزيزة ما بيننا أثيره
سعيدة بعيشها راضيَهْ ... مُدِلَّةٌ بنفسها آبيه
لها وداد بيننا أكيدُ ... يحمله الكبير والوليد
أحببتُ فيها صورة من نفسي ... وكلِّ مخلوق وكلِّ جنسِ
يُنبئُ عن ودي وعن وفائي ... نَظْمِيَ فيها الشِّعْرَ وَاُحتفائي
فخري أبو السعود
ذكريات الهوى
للسيد جورج سلستي
يا نفسُ خلِّي ذكريات الهوى ... وانسي فكم أشقَتْكِ ذكرى الغَرامْ!
ذادتْ عن الأجفانِ طيبَ الكرى ... وحرمتْها من لذيذِ المنامْ
وسربلتْ جسمي بثوبِ الضنى ... وألبستْني حلَّةً من سقام
وأنزلتْ بي ذكرياتُ الهوى ... شتى الرزايا والخطوبَ الجِسام
كأنني أصبحت مُسْتودعاً ... للهمِّ والأحزان دون الأنام
لا تذكري يا نفسُ ما قد مضى ... واُسلي فقد يقضي عليكِ الحنينْ
وصلتِ أطرافَ الضحى بالدجى ... من وَلَهٍ حتى متى تسهرين؟
صدّعتِ بالآهاتِ هدْءَ الدجى ... وشقَّ صمتَ الليل منكِ الأنين
ورحتِ لما اشتدَّ فيكِ الظما ... ترتشفين الدمعَ لا ترتوين
أصبحتِ بين الناسِ أمثولةً ... وبتِّ فيهم عِبرةَ العاشقينْ
أغرقتِ في التذكارِ يا مهجتي ... وشقوةُ الإنسانِ تذكارهُ
فَعَصَفَتْ بي عاصفاتُ الشقا ... وصوَّح اللذاتِ إعصارُهُ
وكلُّ منْ داوى الأسى بالأسى ... أربتْ وزادتْ فيه أكدارُهُ
وذكرياتُ الحبّ بحرٌ طما ... يجتاحُ نفسَ الصبِّ تيَّارُه
والحبّ نارٌ أججتْ في الحشا ... وكم فتى أودتْ به نارُهُ
ربَّاهُ حظّي كالدجى فاحمٌ ... محلولكٌ ما فيه غيرُ السوادْ!
أنّى مشتْ منِّي الخطى لا أرى ... على سبيلي غيرَ شوكِ القَتادْ
قد عِيلَ صبري يا إلهَ السما ... وبلغَ السيلُ الزُبى والنجادْ
أَغلق كوى التذكار في خاطري ... وانزعْ شعوري واجعلنِّي جماد
إحساسيَ الجاني على عيشتي ... والشاعرُ الحسّاسُ أشقى العباد
جورج سلستي
-
ليتني
للأديب محمود السيد شعبان
أظْلَمَ الكونُ فَمَنْ فيهِ نِيامْ ... غيرَ قلبٍ في دُجَى اللَّيلِ يَسِيحْ!
هتَفَ النجمُ بهِ: يا ابْنَ الظلامْ ... ما الذِي تَهَوى مِنَ الليلِ القبيح؟!
قالَ: أهوَى وَحْشَتَهْ!
قال: أهوى ظُلْمَتَهْ!
قال: أهوى فيه أطيافَ الهمومْ ... وأنينَ العاشقِ الباكي الحزينْ
وأناجي البدرَ فيهِ والنجومْ ... مُنْشِداً وحدِي نشيدَ العاشِقِينْ
ساهداً أحرُسُ حبِّي!
ساهراً أعبُدُ رَبِّي!
إيهِ يا ليلَ الأماني والحنينْ ... دَعْ فؤادِي فِيكَ يحيا بالمُنَى!
إِنَّنِي يا ليلُ مِنْ ماءٍ وطِينْ ... ليتني كنتُ شُعاعاً مِن سَنَا!
ساطعاً يهدِي الأناماَ!
لامعاً يمحُو الظلاماَ!
ليتني كنتُ على خَدٍّ أسِيلْ ... دَمْعَةً يشرَبُ مِنها وَرْدُهُ!
دمعة تجري على خَدٍّ جميلْ ... قدْ حَلاَ لِي وصَفاَ لِي وِرْدُهُ
حيثُ لا أخْشَى رقيباَ
أوْ بعيداً أو قريباَ!

ليتني ضَمَّةُ معْمُودٍ صَرِيعْ ... قد تلاقَى بعد هجرٍ بحبِيبِهْ!
يَخْفُقُ القلبُ لها بيْنَ الضلوعْ ... كذبالٍ يَتَلَوَّى فِي لهِيبِهْ!!
ليتني كنتُ عِناقاً
أو صُدوراً تَتَلاَقَى!
ليتني قُبْلَةُ ظمآنٍ علىَ ... شفَتَيْ حَسنْاءٍ يهواهاَ فُؤَادُهْ!
قبلة طابَتْ ولذَّتْ مَنهلاً ... هي خمر العاشقِ المُضْنَي وَزَادُهْ!
هيَ كأسٌ مِن عقيقٍ!
مَلأُوها بالرَّحيقِ!!
ليتني آهَةُ محزُونٍ كئيبْ! ... ليتني أَنَّةُ مظلومٍ ينوحْ!
إِنَّي أهوَى البكا أهوَى النحيبْ ... إنَّ قلبي بِدُموعي يستريحْ!
فدعُوني يا رفاقِي. . .
فالبكا حُلْوُ المذاقِ!!
ليتني قَطْرَةُ ماءٍ فوقَ زَهْرَهْ ... في رياضٍ باسماتٍ لِلنَّدَى!
إنَّ طَلَّ الفجرِ ما أعَجبَ أمْرَهْ ... يَمْلأُ النفْسَ جلالاً وهُدَى!
جَلَّ باريهِ تَعالىَ
ملأ الدُّنيا جَمالاَ
ليتني كنتُ فَرَاشاً هائماً ... جَالَ في الروضِ فحيَّاهُ العَبِيرْ!
أقْطَعُ العيْشَ وحيداً حائماً ... بيْنَ روضٍ وسماءٍ وغدِيرْ!!
ذاكراً حُلْوَ الأمانِي
ناسِياً مُرَّ الزَّمانِ!
ليتني سَجْدَةُ شَيْخٍ في صَلاَتِهْ ... يعبُدُ اللهَ الذِي يَرْهَبُ بأْسَهْ
ليتني زَفْرَةُ مَيْتٍ في مَماتِهْ ... حَطَّمَ الدَّهرُ ويا لَلْهَوْلِ كأْسَهْ!
إنَّنا أهل التراب
قد خُلقنا لِلْعذابِ!
ذاكَ ما أهوَاهُ من دُنيا الشُّرورْ ... ذاكَ ما أَرْضاَهُ مِنْ دار الفَناءْ
عالَمٌ كادَ على الناسِ يَثُورْ ... مُذْ طَغَوْا فِيهِ وَلَجُّوَا في العَدَاءْ
هَلْ لِنفْسِي مِنْ مُؤَسيٍّ
قَبْلَ أَنْ تأفُلْ شَمْسي؟!

(الإسكندرية)

محمود السيد شعبان

القصص

من أساطير الإغريق

خرافة جاسون - 1

للأستاذ دريني خشبة

غلب بلياس الظالم أخاه إيسون على مُلك تساليا، فهام الملك على وجهه في أقصى الأرض، وهامت معه زوجته الملكة الصالحة السِميديه، وطفلهما الوحيد اليانع جاسون. . . وعرجا في تطوافهم بأستاذ أخيل العظيم شيرون، فدفعا إليه بالطفل يهذبه ويؤدبه، وينشّئه على الفروسية ومكارم الأخلاق؛ ورجواه أن يكتم سرهما عنه حتى يشب ويترعرع، ويبلغ أشده، فيثير في صدره الحمية، ويرسله ليثأر لأبويه، وليستخلص العرش من غاصبه. وأخلص شيرون في تربية جاسون الإخلاص كله، وكان يردفه خلفه ليعلمه الرماية، وهو شرف عظيم لم ينله من تلاميذه غير أخيل الخالد، وغير جاسون. . . ثم مرت الأيام، وشبّ الفتى على غرار أستاذه، فلم يكن في الدنيا بأسرها أحملُ منه لسيف، ولا أرمى لسهم، ولا أرجح في تفكير، ولا أوفر في حظ من جمال وكمال. ووقفه شيرون على سر أبويه، وما كان من اغتصاب عمه بلياس عرش والده؛ فثار ثائر الغلام، وارّلزل قلبه، وضرب برجله يود لو يخرق الأرض فيكون عند الظالم، فيذرو عظامه في الريح!

ووعظه شيرون، وأوصاه بالصبر وطول الأناة وإعمال الروية وحذره أن يعيث فساداً في الأرض، ونصحه أن يكون رحيماً بالضعفاء، وألا يألو جهداً في مساعدة من يطلب منه المساعدة، وألا يكون عداؤه لعمه سبباً في عدائه لجميع الناس. . . وأعطاه الفتى

موثقه، ثم اخترط سيفه، وربط على قدميه وساقيه نعليه الذهبيتين، وودع أستاذه وحياه أحسن تحية، وانطلق يذرع الرحب إلى يولكوس، حاضرة تساليا
ولقي في طريقه سيلاً زاخر العباب، فوقف حياله ينظر ويفكر، ويدبر لنفسه خطة يعبره بها. وكان السيل جياشاً ينحدر من شعاف الجبل القريب، فيجرف في سبيله الجلاميد والنّؤى، وتظل تتدحرج ويضرب بعضها بعضاً فتنسحق وتتفتت، فراعه أن ينزلق وسطها، ويكون مصيره مصير جلمود منها. . . وفيما هو يعمل فكره، وفيما هو يتلفت يمنة ويسرة،
إذا به يرى عجوزاً تابّةً تدب على عكاز غليظ، مقبلة نحوه، مادة ذراعها المعروقة مستغيثة لهفى: (بُني! بُني! انتظر أرجوك! انتظر يا ولدي!!) من هذه؟ لا يدري جاسون. بيد أنه انتظر حتى أقبلت العجوز وسألها عن شأنها، فتوسلت إليه أن يحملها على ظهره ليعبر بها مجرى السيل! ووجم جاسون قليلاً، ولكنه ذكر وصاة شيرون أستاذه، فتبسم، وانحنى للمرأة فاحتملها على كاهله القوي العتيد، ثم رجاها أن تدفع إليه بعكازها يتوكأ عليه ففعلت، وتقدم بخطى وئيدة، ولكنها أكيدة، إلى مجرى السيل لا يفكر في نؤيه وجلاميده، ولا جيشانه واصطخابه، بل يفكر في أنه يجب أن يؤدي يداً لهذه العجوز التي استغاثت به. . . وعبر مجرى السيل، وبلغ عُدْوته الأخرى بعد عناء وجهد، ووضع على الرمال اللينة المتطامنة حمله. . . ولكن. . . يا عجبا!! أين هي المرأة العجوز الحيزبون؟ أين الكومة من الجلد المتهافت، والعظام النخرة، التي كانت ترهق كاهله؟ لقد ذهبت، ووقف مكانها شباب رائع، وجمال فتان، وغادة حُسّان مفتان!!
- يا للآلهة! من أنت بحق السماء يا ربة؟
- أنا؟. . . ألا ترى إلى هذا الطاووس المزهو بذيله وألوانه أيها العبد الصالح؟
- أوه؟! أو أنت جونو؟
وسجد جاسون بين يدي الربة، سيدة الأولمب، ثم أذنت له أن ينهض، وأخذت برأسه فباركته، وسألها أن تهبه رعايتها في حله وترحاله فوعدت، ثم رفت في أثير السماء التي تفتحت لها أبواباً، وغابت عن بصر جاسون!
ووقف الفتى لحظة مسبوهاً مشدوهاً ثم انطلق في طريقه. . . وراعه بعد مرحلة طويلة أن يرى إلى قدميه فلا يجد إلا نعلاً واحداً في إحداهما. . . أما الأخرى، فقد ذكر أن السيل انتزعها من قدمه واحتملها، وهو لا يستطيع استعادتها، لأن حمله كان يرهقه!
ثم بلغ يولكوس
ورأى جمعاً حاشداً حول ملكها بلياس، الذي وقف ينحر الذبائح، ويقرب القرابين للآلهة، ويفرق حواياها في الفقراء! فدافع الناس، وشق طريقه إلى الهيكل حيث وقف الملك، ثم سار إلى عمه قُدُماً، حتى كان قبالة المذبح. . . وما كادت عين صاحب العرش - أو غاصبه - تقع على الفتى الذي يلبس نعلاً واحدة حتى شحب لونه، وغاضت الدماء الوردية
من خديه، وأخذ قلبه يخفق ويضطرب اضطراباً شديداً. . . ذلك لأنه ذكر تلك النبوءة التي تنبأ له بها أحد سحرائه، والتي حذرته من الشاب الذي يقبل من بلاد بعيدة لابساً نعلاً ذهبيةً واحدةً في إحدى قدميه في حين يكون هو مشغولاً بتقريب القرابين للآلهة!! إن هذا الشاب يقتله!!
وأمر حراسه بالقبض على الفتى وإحضاره إلى غرفة العرش فجيء به إليها، ولم ينتظر جاسون حتى يبدأه عمه بالكلام، بل وقف أمامه جباراً يغلي الدم في عروقه، وطلب إليه أن يعتزل الملك، ويخلع التاج، ويعطي الصولجان صاحبه، وأن يعيد الحق إلى نصابه. . . (لأنك انتهزت ضعف أبي الذي أوهن منه عظامه، واشتعل رأسه شيباً. فعَتَوْتَ عليه، وألبت عليه الأوشاب من مرتزقة الجند، ورعاع الشحاذين والأفاقيين، فلبست تاجاً ليس لك، واستويت على عرش تزعزعه الجريمة من تحتك، ثم حاولت أن ترشو الآلهة وتخدع السناء بالأضحيات والقرابين، ولكنك لا تخدع إلا نفسك فالتمس لها السلامة من موت يبغتك، ومغبة وبال يحيط بك. . .)
وكان بلياس يسمع هذه الكلمات الثائرة كأنها سهام تملأ أذنيه، ومنايا تطير حول قلبه. . . بيد أنه استعد لها بالمكر، وتهيأ لصيدها بالخدعة، فتبسم لابن أخيه وقال: (ماذا تقول يا جاسون؟ أتحسبني يا بني قد سلبت أباك عرشه، وغلبته على صولجانه؟؟ كلا والله يا

بني كلا. . . ولكن. . . ليسكن طائرك قبل كل شئ. . . فلقد دعوت نفراً من (رعاياك!) لوليمة إلهية، وقد أقبلوا من كل فج، وهم ينتظروننا الآن، وليس من حسن الرعاية ولا من مروءة الملوك أن يستأنوا عن مواعيدهم، فهلم تلقهم يا جاسون، وترحب بهم، فإذا فرغنا وفرغوا من طعامهم، عدنا سوية لنبحث هذا الأمر الذي أهمك وأقلقك، وملأ فؤادك بالوساوس والأراجيف؛ وسترى أن الذي أنبأك هذا النبأ زخرفه عليك، وشوه حقيقته في نفسك، بدليل هذه النيران التي تنقذف كلمات من فمك!! تعال. . . مرحباً بابن أخي جاسون! لشد ما أنا مشتاق إليك يا حبيبي!)

ثم قبله في جبينه قبلة صفراء قاتلة، أفتك من قبل التماسيح؛ وانطلقا إلى البهو الكبير، حيث صُفّت الأخاوين الحافلة بأشهى الآكال وأطيب الأشربات، وحيث جلس المدعوون إليها صفوفاً وصفوفاً وألوفاً وألوفاً. . .

وجلس جاسون فأكل وشرب، ثم أخذت الموسيقى تعزف فتشرح الصدور الحرجة، وتشفى النفوس من كل حرد؛ واعتلى المنصة التي أقيمت في صدر الحفل جماعة من المنشدين ورواة القصص، شرعوا يسردون قصصهم، ويتناشدون أشعارهم، ويروون من أنباء الأبطال ما يأسر القلوب ويسحر الألباب، حتى أن جاسون نفسه كان يصغي إليهم وكأنه يتلقى وحياً من السماء يتنزل على قلبه، ويدعوه إلى فعال الفتية الأبطال

قال أحد المنشدين (واسمعوا أيها الناس حكاية الملك الذي صبا قلبه إلى امرأة غلبت فؤاده وسحرته بجمالها عن زوجته وأم طفليه، فبنى عليها، ولم يبال أن ينقض ركن الأسرة وينهار عمادها. . . ذلك هو أتماس أحد ملوك تساليا في الزمان القديم. ولقد فزعت الملكة البائسة وخشيت أن يصيب طفليها مكر ضرتها فاعتزمت أن ترسلهما إلى ملك كولخيس ليكونا بنجوة من إينو الخبيثة. . . وفيما هي واجمة تفكر في ذلك إذا هرمز الأمين يتنزل من السماء فيسألها وتجيبه:

- نيفيل أيتها العزيزة؟ فيم تفكرين حزينة هكذا؟

- هرمز؟ تباركت يا رسول السماء! أفكر في ولدي هذين وما عسى أن يصيبهما من مكر إينو. . .

- لا عليك يا حبيبة الآلهة، إنني مساعدك، كفكفي دموعك!

- شكراً يا إله الرحمة، سأسبح لك ما حييت!

- وأين تحسبينهما يكونا في سلام وأمن يا نيفيل؟

- لا يكون ذلك إلا عند ملك كولخيس، ولا أدري كيف أرسلهما إليه؟

- لا أهون من هذا، فانتظري طرفة عين!

ومضى الإله فغاب برهة، ثم رجع ومعه كبش عظيم ذو فروة ذهبية وقرنين وحوافر من خالص الإبريز، فقدمه إلى الملكة المحزونة ليركبه طفلاها، ولينقلهما إلى ملك كولخيس؛ وسجدت الملكة شكراً لهرمز، ثم ودعت طفلها فركسوس، وابنتها هِلّه، وطبعت فوق جبينهما وخدودهما ألف ألف قبلة، ودعت لهما؛ ثم انطلق الكبش في الأثير يطويه بين بكائها الطويل وآهاتها التي لا تنتهي. . . وطفق الكبش يعرج في السماء، ويخطف فوق الممالك، حتى كان فوق بحر صاخب مضطرب، تقلبت أمواجه، وتناوحت زوابعه، فنظرت الفتاة المسكينة هِلّه تحتها لترى ما هنالك، ولكنها فزعت فزعاً شديداً حينما رأت سراطين البحر وحلازينه تقتل وتحترب ويأكل بعضها بعضاً، فارتجفت رجفة هائلة، وانفلت صوف الفروة من قبضتها فسقطت من عَل وجعلت تهوي حتى تردّت في البحر وابتلعتها أمواجه. . . ومنذ ذلك الوقت، وهذا المكان يعرف من أجل ذلك باسم (الهلسينت) نسبة إلى الفتاة البائسة هِلّه! ومضى الكبش يستبق الريح، ويطوي العوالم، حتى وصل إلى مملكة كولخيس، فهبط قليلاً قليلاً، حتى إذا كان على الأرض نزل الفتى فركسوس فصلى للآلهة، وذرف الدمع على أخته، وسلم على الملك الذي هش له وبش، وأحسن لُقياه وأكرم مثواه، ثم شحذ سكينه وتلّ الكبش لجبينه، وكبر وسبح باسم جوف، وبأسماء آلهة السماء وجزر الحيوان قرباناً لهم جميعاً. . . وسلخ الجلدة الذهبية وقدمها هدية للملك الذي فرح بها فرحاً شديد، ولأنها كانت تعدل كل ما في كنوز الملوك من ذهب. . . وقد ربطها الملك في سنديانة باسقة، ووكل بها تنيناً هائلاً ليحرسها وليسهر عليها من كل سارق رجيم. . . ومنذ ذلك اليوم والفروة التي تعدل ألف كنز معلقة لا تمتد إليها يد، ولا يجسر أحد أن يقترب منها وإلا جازف بنفسه

(. . .وأصبح لقمة سائغة للتنين
ولحظ بلياس كيف زاغت عينا جاسون عندما سكت المنشد، فانتهز الفرصة، وانطلق يغريه بالاستيلاء على الفروة الذهبية، ليكون بها أعز الملوك وأضخمهم غنى، وأوفرهم ثراء؛ ثم ليخلد اسمه بين أسماء الأبطال الذين دوخوا الممالك، وأتوا من الفعال ما جعلهم أنشودة المجد في فم الزمان. . . (ولم لا يا ابن أخي؟ لقد علمت أن أستاذك الذي نشأك، وهذبك وأدبك، هو شيرون السنتور الأكبر، أستاذ أخيل العظيم؛ وقد خلد أخيل اسمه على أسوار طروادة، وأعلى ذكره في جميع الأنام، فلم لا تذهب إلى كولخيس لتحصل على الفروة الذهبية إما سَلْماً وإما حرباً، وأنت من أنت في أبطال الوغى، وصناديد الحروب؟ ألست أرمى الناس لسهم، وأضربهم بسيف، وأحذقهم طعاناً برماح؟ إنها فرصة المجد لمن يبتغي المجد يا جاسون، فلا تضعها! لا تقل (بل حسبي أن أحكم الناس) فالناس يعشقون أشجع الناس. . .) وهكذا طفق بلياس المخادع يزخرف للفتى، حتى هاج في صدره الشاب نائم المنى وأبعد الآمال. . . فرضي جاسون بالاضطلاع بهذه المجازفة، وظن أنها من اليسر بحيث لا تستعصي على شجاعته. بيد أنه عندما خلا إلى نفسه، وراح يفكر في الوسيلة التي يبلغ بها مناه، بدت له حقائق أسقطت في يده، وجعلته يتخاذل، ويندم على الوعد الذي وعد عمه؛ غير أنه ذكر ما قال له أستاذه شيرون من ضرورة احترام الوعد، وربطه بالشرف، فصمم على السفر إلى كولخيس وجلس يفكر فوق عدوة النهر، وكانت سمادير اليأس تملأ بظلماتها عينيه، فلم يهتد إلى الوسيلة!!. . . وانطلق إلى غرفته فقضى فيها ليلة ليلاء مثقلة بالهم والفكر. . . ثم انبلج الصبح، فانطلق إلى هيكل جونو عند دودونا. . .
- جونو. . . جونو. . . لقد كدت أنسى جونو. . . يجب أن أصلي لجونو، فقد وعدتني أن تدركني بغوثها كلما حزبني أمر. . . لقد حملتها على كتفي هذين في صورة عجوز شمطاء! وهي ستحمل عني هذه المرة!)
ووقف بجانب المذبح يرجو ويتوسل ويصلي؛ وكانت سنديانة هائلة - هي الناطقة بنبوءات جونو - نامية وراء المذبح، فسمعها جاسون تهتف باسمه وتقول:
- لبيك أيها الفتى لبيك! لبيك وسَعْدَيك يا جاسون! يا حبيب جونو لبيك! كفكف غوارب دمعك فسترعاك الربة وتحفظك. . . تعال! اصعد فوقي! اقطع أحد أغصاني واصنع منه عصاً، واجعل لها رأساً على هيئة السفينة التي تحملك إلى كولخيس وسيبنيها آرْجس لك، وذلك بإشراف مينرفا. . . ولتكن العصا معك دائماً، ولكن لا تنقلها من السفينة فهي حارستها، وكلما ألم بك خطب أو حز بك أمر، فارجع إليها فهي تكلمك وتشير عليك. . .) وسكتت السنديانة، وصنع جاسون العصا، وذهب عند سيف البحر ليرى عمال آرجس، بإشراف مينرفا، قد فرغوا من السفينة الهائلة وأنزلوها الماء. ففرح واستبشر، وسماها (آرجو) نسبة إلى صانعها ثم أعلن عن حاجته إلى نفر من شجعان هيلاس، يقاسمونه مجازفته، فاجتمع إليه عدد غير قليل، منهم هرقل الجبار وكاستور وأدمتوس وتيزيوس وأرفيوس وبولكس ويليوس. . . وأعدوا ميرتهم، واستكثروا من ذخيرتهم، ثم همت الفلك، واحتواها الماء
(البقية في العدد الآتي)

دريني خشبة

البريد الأدبي

قضية صحفية خطيرة

قرأنا في البريد الإنكليزي الأخير تفاصيل قضية أدبية خطيرة ظهرت فيها شدة القانون الإنكليزي على اللغة القاذفة وأساليب الجدل المستهجنة؛ فقد نشرت جريدة (أكشن) وهي جريدة حديثة تناصر المبادئ الفاشية مقالاً حملت فيه بشدة على جريدة (الديلي تلغراف) الشهيرة، فنسبت إليها أنها واقعة تحت نفوذ جماعة من الماليين والدوليين، وأنها تعمل لخراب البلاد والإمبراطورية البريطانية وتمكين نفوذ العصبة الدولية من ناصية السياسة البريطانية؛ وتناولت في مطاعنها اللورد كمروز صاحب الديلي تلغراف، فذكرت أنه ينتمي إلى أصل يهودي، وأنه بهذه الصفة يخصص جريدته لمناصرة اليهودية الدولية والمالية العليا. فرفعت الديلي تلغراف وصاحبها الأمر إلى القضاء وطلبا تعويضاً ضخماً عن هذا القذف المزدوج. وللصحافة الإنكليزية تقاليد سامية في الأساليب

الكتابية وفي المناقشات الحزبية تجعل مثل هذه المطاعن خارجة عن كل ما تبرره الخصومة السياسية من صنوف الجدل. والقانون الإنكليزي صارم جداً في مثل هذه المواطن التي تساق فيها الأقلام إلى القذف المثير؛ ومن ثم فقد حكم القضاء للورد كمروز ولجريدة الديلي تلغراف بتعويض قدره عشرون ألفاً من الجنيهات على الجريدة الفاشية وأصحابها وناشريها، من ذلك مبلغ 500ر12 جنيه للورد كمروز نفسه، والباقي لشركة جريدة الديلي تلغراف. وقد كان لهذه القضية الأدبية وتطوراتها صدى عميق في جميع دوائر الصحافة والأدب

والذين يقرءون الصحف الإنكليزية يعجبون حقاً بأساليبها الرفيعة في المناقشات الحزبية وجميع ضروب الجدل الأخرى، ويقدرون ما تمتاز به من الأدب الجم والتعفف عن المطاعن الشخصية المحضة؛ فالصحافة الإنكليزية مثل أعلى في هذه الناحية، ومن ثم كانت صرامة القضاء الإنكليزي في الحكم على كل ما يعتبر خروجاً على هذا المبدأ السامي

أرقام عن معرض باريس

نشرت الصحف الفرنسية أخيراً بعض إحصاءات عن معرض باريس تبين سير الأحوال السياحية التي ترتبت على قيام المعرض؛ فمن ذلك أن عدد الذين استفادوا من التذاكر المخفضة لزيارة المعرض بلغ حتى شهر سبتمبر سبعة ملايين، وزار المعرض في يوم واحد من أيام سبتمبر نحو أربعمائة ألف زائر، فكان هذا رقماً قياسياً لم يسبق تسجيله في أي معرض دولي سابق؛ وزار قصر اللوفر حتى سبتمبر 759 ألفاً، وزار قصر فرساي مليون و744 ألفاً في حين أن زوار فرساي في مثل هذا الفصل لا يزيدون عادة على ربع مليون؛ وصعد إلى سطح قوس النصر في هذا الفصل مليون و750 ألفاً في حين أن هذا العدد لم يبلغ في مثل هذه المدة في العام الماضي أكثر من 369 ألفاً؛ وزادت نسب السفر في خطوط الملاحة المفضية إلى الثغور الفرنسية من 19 إلى 227 في المائة حسب الخطوط، وزادت النسبة في خطوط البحر الأبيض وحدها 66 في المائة؛ واستهلكت باريس في شهري يوليه وأغسطس نحو مليون ونصف كيلو من اللحم؛ وزادت إيرادات المسارح الباريزية منذ افتتاح المعرض أربعين مليون فرنك، وهي زيادة لم تعرفها من قبل قط

على أن معظم الخبراء يرون هذه الأرقام بعيدة عن تحقيق ما كان معقوداً على قيام المعرض من الآمال؛ فقد كانوا يقدرون مثلاً أن يزور المعرض منذ افتتاحه حتى شهر أكتوبر عشرون مليوناً، والآن لا يمكن أن يبلغ عدد الزائرين أكثر من نصف هذا العدد؛ وكان المظنون أن تكاليف المعرض يمكن تحقيقها في المدة التي قررت لافتتاحه أي حتى آخر نوفمبر، ولكن إدارة المعرض منيت في ذلك الأمل بصدمة عنيفة؛ ولذلك يرجح أن تقرر الحكومة الفرنسية امتداد المعرض خلال العام القادم. ويقال إنها قد بدأت فعلاً بمفاوضة الدول الكبرى للموافقة على إبقاء معروضاتها، والمنتظر أن يتم التفاهم على ذلك في المستقبل القريب، ثم تذيع الحكومة الفرنسية قرار الامتداد قبل نهاية شهر نوفمبر الآتي

كتاب جديد عن كرمويل

يعتبر الإنكليز أن الطاغية الوحيد الذي تولى الحكم في تاريخ إنكلترا هو أوليفر كرمويل زعيم الثورة الإنكليزية الدستورية التي انتهت بإعدام الملك شارل الأول؛ وقد صدر أخيراً كتاب عن حياة كرمويل وأعماله بقلم المؤرخ الإنكليزي موريس آشلي عنوانه (أوليفر كرمويل، الطاغية المحافظ) وقد كان حرياً بمؤلف مثل هذا الكتاب أن يتأثر في تصويره للطاغية الإنكليزي بروح الطغيان المعاصر، وأن يحاول المقارنة بينه وبين الطغاة المعاصرين من حيث الغايات والأساليب. ولكن الأستاذ آشلي لم يحاول هذه المقارنة، ذلك

لأنه يعتبر كرمويل بعيداً عن هذا الجو، ويعتبره طاغية محافظاً بالغريزة، يؤيد سلطانه بهيبته وماضيه. ويعرض لنا الأستاذ آشلي تاريخ كرمويل بإسهاب، ولاسيما في الفترة القصيرة التي تلت إعدام الملك شارل الأول، ويحلل أساليبه في الحكم وسياسته الخارجية والمالية والدينية والاجتماعية بدقة وبروح من الإنصاف المدهش؛ ويقول لنا إن كرمويل كان إدارياً بعيد النظر لم تذهب روعة الطغيان بحسن تقديره ولم تؤثر في وسائله؛ وإذا كان كرمويل لم يبد كل ما كان يريد من التسامح الديني فذلك لأنه غلب

على أمره في هذه الناحية فقط، ولم يستطع أن يحتفظ بكامل حريته. ولقد كان كرمويل في الوقت نفسه دستورياً يدعو البرلمان ويحافظ على سلطانه، ولكن الجيش كان هنالك يملي إرادته. ويؤيد الأستاذ آشلي نظريته في أن كرمويل كان محافظاً بكثير من أقوال كرمويل في خطبه ورسائله، ويقول لنا إن كرمويل كان يواجه جميع المسائل بنفس الروح التي يواجه به المسائل العسكرية؛ فإذا كان النظام الذي شاده كرمويل لم يعمل طويلاً بل انهار عند موته، فذلك لأنه لم يكن متفقاً مع روح التقاليد الإنكليزية، ولكنه مع ذلك كان نظاماً جديراً بالتقدير والاحترام

وقد لقي كتاب الأستاذ آشلي كثيراً من التقدير في دوائر النقد والتاريخ، واعتبر من أحسن الكتب التي صدرت في هذا الموضوع

مترسة

اطلعت على سؤال الأديب المهذب السيد (أحمد العربي) - لله هذا الاسم! - وهذا ما أقوله:

التفسير الحق للذريعة هو ما جاء في (لسان العرب):

الذريعة مثل الدريئة جمل يُختل بها الصيد، يمشي الصياد إلى جنبه فيستتر به، ويرمي) الصيد إذا أمكنه، وذلك الجمل يسير أولاً مع الوحش حتى يألفه؛ والذريعة السبب إلى وفي (الأساس): (ومن المجاز: فلان ذريعتي إلى فلان، (الشيء وأصله من ذلك الجمل وقد تذرعت به إليه)

فـ (الذريعة) هي ذريعة ختل لرمي الصيد، لا طريقة وقاية من شر أو كيد. فلن تلاقي - وذلك معناها - الكلمة الفرنسية

وهناك كلمة قيلت لها منذ مدة طويلة هي (المترسة) ولم يجد الناقلون ما يضارعها، دع عنك ما يفضلها، وأنا لا أنفر منها، ففي (المخصص والمصباح والقاموس): (كل ما تترست به فهو مترسة لك) وفي شرح القاموس (ضبطه بكسر الميم)

فهذه العربية لتلك الفرنجية، و (تترسوا بالمتارس) للجملة الفرنسية ولكل حرب عدة وعدد، ولكل قتال مترسة ومتارس

الإسكندرية

(* * *)

جهود الفنانين في مصر الحديثة

يسر لجنة تخليد عظماء مصر بجمعية هواة الفنون الجميلة بالإسكندرية أن تعلن أنها تستعد بعونه تعالى لإخراج مطبوع ضخم يضم بين دفتيه أشهر آثار الفنانين المعاصرين في مصر الحديثة مع فذلكات خاصة عن تواريخهم ومجهوداتهم الفنية وكلمات تفسر أعمالهم وتنقدها ومقدمة مع بيان موجز عن أثر الفنان المصري القديم بقلم عظيم قدير

واللجنة ترجو من حضراة الهواة والفنانين أن يعاونوها في تحقيق مهمتها الفنية الجليلة ولزيادة العلم عن المشروع يُرجع إلى مدير الجمعية الأستاذ حسن كامل شارع الوراق رقم 13 بميدان المحطة

جائزة نوبل للسلام

تبحث الآن اللجنة المختصة بجامعة ستوكهلم في ترشيح من يصلح للحصول على جائزة نوبل للسلام هذا العام. وجائزة السلام قدرها نحو عشرة آلاف جنيه تمنح كل عام لإحدى الشخصيات التي خدمت السلام في أي ناحية من النواحي. وقد ظفر بها من قبل عدة من أقطاب السياسة العالمية مثل أرستيد بريان رئيس الوزارة الفرنسية الأسبق، والدكتور شتريزن وزير الخارجية الألمانية السابق؛ وظفر بها عدة من الكتاب السلميين مثل السير نورمان انجيل الكاتب الإنكليزي، والهرفون أوسيتسكي الكاتب الألماني، وقد ظفر بها في العام الماضي، وكانت لذلك ضجة في ألمانيا انتهت بتحريم الحكومة الألمانية ترشيح أحد من رعاياها لنيل جوائز نوبل. وفي هذا العام يرشحون عدة في مقدمتهم الزعيم الهندي الكبير مهاتما غاندي، واللورد بادن باول مؤسس حركة الكشافة الدولية، والكاتب النمسوي

ريخارد كودن هوفي، وغيرهم ممن برزوا في خدمة السلام بجهودهم وأقلامهم ودعاياتهم؛ وربما كان غاندي هو الذي تختاره اللجنة من بين المرشحين

برناردشو والمسرح القومي

من الغريب حقاً أن تبقى إنكلترا حتى اليوم بلا مسرح قومي. وقد وجه برناردشو الكاتب المسرحي الطائر الصيت بهذه المناسبة إلى الأمة الإنكليزية كلمة لاذعة نعى فيها هذا النقص البارز في حياتها الفنية والثقافية. ومما قاله: إن الأمة الإنكليزية لا تشترك في الاعتماد الخاص بإنشاء المسرح القومي لأنها ترغب عن مثل هذه المؤسسة، ولابد من أن يفرض إنشاؤها فرضاً على شعب لم يتحرر تماماً من الهمجية، ولا يزال يعتقد أن الفنون الجميلة إنما هي مظاهر للخلاعة، وأن باب المسرح هو أحد أبواب جهنم، وليس في ذلك شيء جديد أو غريب؛ فمن الحقائق التاريخية المعروفة أن المعاهد الثقافية يجب أن تفرض على الشعب بواسطة الحكومات أو الأفراد المستنيرين الذين يعلمون أن مثل هذه المعاهد ليست ترفاً ولا لهواً، بل هي على العكس من ضرورات الحياة المتمدنة. ولو أن المعاهد الأوربية العلمية ترك إنشاؤها لرغبة الجمهور وأهوائه في العطاء والمن لماتت جميعاً في مهدها، ولكانت أوربا اليوم أكثر همجية مما هي عليه. ثم إن المسرح القومي إذا وجد لا يستطيع أن يعيش وحده، ولابد له من مديرين وممثلين أكفاء وكتاب مسرحيات بارعين، ويتوقف وجود هؤلاء على مقدرته على الدفع والتعويض

هكذا يخاطب الكاتب المسرحي الكبير أمته بأسلوبه الفكه اللاذع ويوجه إليها قوارص الكلم لأنها لم تبد حماسة في مشروع إنشاء المسرح القومي. وإذا كنا في مصر نشعر بأشد الحاجة إلى مثل هذا المشروع الثقافي العظيم، فإنه من المحقق أنه لا يمكن أن يقام بالاكتتاب العام؛ ولابد أن تنهض به حكومة مستنيرة تقدر أثر الفن والثقافة المسرحية في ترقية أذواق الشعب ومداركه

تاريخ غانية شهيرة

قد تستحق غانية شهيرة أن تترجم وتؤرخ كما يؤرخ ملك أو قائد أو مفكر عظيم؛ فقد لعب الغواني دورهن في التاريخ، وكان بينهن طائفة شهيرة استطاعت أن تؤثر في مصاير العروش والأمم؛ ويكفي أن نذكر في هذا الموطن أسماء مثل بومبادور، ودوباري. وكان عصر لويس الرابع عشر بالأخص عصر الغانيات الشهيرات، ومن هؤلاء امرأة اشتهرت بجمالها وذكائها ونفوذها الاجتماعي، هي نينون دي لانكلو؛ وقد ترجم هذه الغانية الشهيرة من قبل غير كاتب، وظهر أخيراً تاريخ جديد لها بقلم مسيو جان جودال بعنوان (نينون دي لانكلو، غانية عظيمة في عصر لويس الرابع عشر) , وتاريخ نينون هو في الواقع رواية غرامية اجتماعية ساحرة، تمتاز بكثير من الأناقة والظرف، ولكنها تتكشف أيضاً عن مواطن مريبة كثيرة؛ فقد اتهمت نينون من أهل عصرها بأنها كانت ساحرة تزاول السحر الأسود، وتتعاقد مع الشيطان للاحتفاظ طويلاً بجمالها. واتهمت أيضاً بأنها تسببت في موت ولدها الشفالييه دي فلييه، وأنها جلبت الشؤم والنحس على كثيرين من أصدقائها؛ ولكن نينون كانت مع ذلك نجماً ساطعاً في مجتمعها، وكانت صديقة لأعلم عصرها مثل موليير ولافونتين، وكان لها بهو رائع يختلف إليه عظماء العصر وأمراؤه. وكانت نينون ابنة جندي وموسيقي مغامر وأم ورعة، فاستقت خلالها من الناحيتين، وتلقت تربيتها الأولى في الدير، ولكنها فرت منه فيما بعد؛ وكان مولدها سنة 1620، وتوفيت سنة 1705، وعرفت فولتير فتى حدثاً، ونفحته بعطية يشتري بها كتباً؛ وكانت في عصرها ملتقى الوصل بين التيارات المتضاربة؛ من الخلاعة إلى السياسة والفلسفة، وكانت من أعلام الفكر الحر، وكانت أديبة رفيعة الثقافة كما كانت غانية ماجنة ساحرة، وكان لها أثر عظيم في صوغ الخلال النسوية في عصرها تلك هي الشخصية التي يتناولها جان جودال في كتابه؛ وهو يقص علينا حياة نينون بأسلوب شائق يستمد سحره وقوته من حياة نينون نفسها، ومن الألوان المختلفة التي اتشحت بها خلال حياتها الطويلة الحافلة

الكتب

ابن المقفع

تأليف الأديب عبد اللطيف حمزة

للأديب محمد فهمي عبد اللطيف

الوجه في إفراد شاعر أو كاتب من الماضين بالتأليف هو - كما يقول الرافعي رحمه الله - أن تصنع كأنك تعيده إلى الدنيا في كتاب وكان إنساناً، وترجعه درساً وكان عمراً،

وترده حكاية وكان عملاً، وتنقله بزمنه إلى زمنك، وتعرضه بقومه على قومك حتى كأنه بعد أن خلقه الله خلقة إيجاد، يخلقه العقل خلقة تفكير.

وهذا كتاب (ابن المقفع) وقد وضعه الأديب عبد اللطيف حمزة، وحاول فيه هذه المحاولة، واجتهد في إدراك تلك الغاية، فأخذ كاتب العربية بالقول من جميع جهاته، وتناوله من كل ناحية يمكن أو تصح أن تلابسه، وكان أن جرى في ذلك على مذهب الناقد الفرنسي المشهور (تين) الذي يرى أن الكاتب صنيعة لعوامل ثلاثة: (الجنس، والبيئة، والزمان) ولذلك فقد تناوله من جهة شخصيته فتكلم عن حياته ولونه السياسي ومصرعه وأخلاقه ومكانته ونظرته إلى المثل الأعلى وزندقته وما قيل فيها، ثم انتقل إلى الكلام عنه في فنه وعبقريته، وعرض له مصلحاً اجتماعياً وكاتباً له أسلوبه وطريقته، واهتم بتحقيق آثاره وخص بعضها بالتحليل والدرس، وأطال القول خاصة في كليلة ودمنة، ثم ختم كتابه بالقول في الأثر الأدبي لابن المقفع، أثره في الشعراء وأثره في الكتاب، وأثره في القصة، وأثره في العقل الشرقي بوجه عام

فالأديب الفاضل قد توسع بالموضوع حق التوسع، ودخل عليه من كل ناحية يمكن أن تتصل بابن المقفع، وهو في كل ناحية للقول يعن كثيراً بأن يستعرض آراء السابقين في الرجل فيناقشها مناقشة حادة عنيفة، ينتهي من ورائها إلى نقض ما يراه جديراً بالنقض، وإلى تأييد ما يراه حقيقاً بالتأييد، ثم يتقدم برأيه الشخصي محاولاً أن يحتج له ما وسعته الحجة، وأن يتلمس له ما يمكن أن يكون هناك من دليل، ولست أزعم لك أني معه في كل ما انتهى إليه من الرأي، ولكني - كما يقول الأستاذ أحمد أمين - قد أخالفه في بعض ما

ذهب إليه من النتائج، وقد أخالفه في طريقة عرض بعض الفصول والأبواب، وقد أخالفه في تعميم الحكم أحياناً حين يحسن التخصيص - بل إني لأراه قد يفرض الرأي في بعض الأحيان فرضاً ولو لم يقم عليه شبه دليل. ومثال ذلك ما نقله عن أستاذه طه حسين (ص31) من (أن صلة ما لا بد موجودة بين أشعار صالح بن عبد القدوس وأبي العتاهية، وبين شاعر يوناني قديم هو آبيدوس عرف بفن من فنون الشعر اليوناني هو فن الشعر التعليمي؛ ثم قال: (وعندي أن ليس هناك ما يمنع العباسيين من أن يتصلوا (كذا) بهذا الفن من فنون الشعر الذي لا يتعارض والدين، ولكني لا أعلم كيف تسنى لهم هذا الاتصال وليس في المصادر العربية ما يدلنا على ترجمة لهذا الفن الشعري ولا لغيره من الفنون الشعرية عند اليونانيين). والواقع أن الدكتور طه قد ألقى رأيه فرضاً من غير دليل، وهو رجل يدرس الأدب بالفرض والتخمين؛ ولاشك أن الأديب حمزة قد تورط إذ أخذ برأي أستاذه هذا وتابعه على مذهب (ليس ما يمنع) وإني لأعجب كيف يقول: إن صلة ما لا بد موجودة بين شاعري العربية والشاعر اليوناني، مع أنه (لا يعلم كيف تسنى لهم هذا الاتصال وليس في المصادر العربية ما يدلنا عليه)

هذا ولقد تورط حضرته مرة أخرى في مطاوعة أستاذه، إذ رأى (ص80) أن السبب الوحيد أو من الأسباب في قتل ابن المقفع (رسالة كتبها توشك أن تكون برنامج ثورة موجهة إلى المنصور وهي رسالة الصحابة) قال: (وفي هذه الرسالة نجد تشريعاً جديداً من عمل الكاتب يقترحه على الخليفة ليعمل به في أمور شتى كان أهمها أمر القضاء) والذي نراه أن رسالة الصحابة على ما ينطق به موضوعها ليست برنامج ثورة، ولكنها في الواقع برنامج إصلاح رفعه الكاتب إلى الخليفة، لأن فيه توطيداً لملكه، وتقوية لنفوذه؛ وكأني بالكاتب قد كتب هذه الرسالة يريد بها المثوبة عند الخليفة. والواقع أن الأديب حمزة قد أبعد كثيراً في تلمس الأسباب التي أودت بحياة ابن المقفع وانتهت به إلى تلك النهاية الأليمة؛ مع أن السبب ظاهر واضح. . . وهل قتل الرجل غير (السياسة) قاتلها الله؟! تلك التي طالما طاحت برقاب وهوت برؤوس، كمثل ما صنعت بعبد الحميد الكاتب وبشار بن برد وغيرهم من الكتاب والشعراء

وثمة أحكام تخالف المؤلف في الأخذ بها، فأنا مثلاً لست معه في تصحيح تلك الرواية التي

نقلها عن إسلام ابن المقفع (ص56) ولا في تلك التي أثبتها عن معارضته للقرآن، كما أني لست معه في أن بن المقفع (أوذي في سبيل حرية الفكر) وأنه كان (عدواً للعرب يسخر منهم) وأنه كان (زنديقاً ملحداً) إلى غير ذلك من الأحكام التي يتلمسها المستشرقون للرجل بالحق والباطل. ولقد كان في تقديري أن أناقش الأديب حمزة

الرأي لولا أني رأيت المجال محدوداً، وأني لست بصدد الكلام على بن المقفع، ولكني بصدد القول في (كتاب) . . .

بقي القول في أسلوب الكتاب وهي ناحية مهمة في تقدير الأثر الأدبي وتعيين قيمته؛ ولست متجنياً على الأديب الفاضل إذا تنقصت أسلوبه في بعض نواحيه، فهو ينهج نهج أستاذه الدكتور طه في تكرير اللفظ، ومرادفة الجمل، والإكثار من الحشو والاعتراض، ولكنه لا يُحكم ذلك ولا يجوّده، وربما تهافت إلى حد لا يطيقه الذوق، كأن يقول: (وهذا وهذا وهذا عدا الكتب الأخرى) وكأن يقول: (ويذهب به ما ذهب بنفوذ الأعراب وتقاليد الأعراب وعقول الأعراب) وأكثر من هذا فقد يهضم حق اللغة كأن يقول: (وقد كان القدماء يخشون من وضع الكتب. . . ولعلنا نخشى كذلك من وضع الكتب) وكأن يقول: (ثمناً غالياً وغالياً بأكثر مما يتصور الناس) وكأن يقول: (ولعل كتاب الأدب الكبير يكون أصدق مثل لما نقول) و (كان) لا تنقاس زيادتها إلا بين ما وفعل التعجب ولا تكون إلا بلفظ الماضي. وما أريد أن أتقصى وإنما أريد أن أنبه الأديب الفاضل لعله يتلافى هذه الهنوات وأمثالها في الطبعة القادمة إن شاء الله، خصوصاً وهو ربيب قسم اللغة العربية في كلية الآداب؛ ثم هو يزعم أنه يتصوف تصوفاً علمياً وأدبياً فيعكف على العلم والأدب آصائل النهار ونواشئ الأسحار، وما يليق (بمتصوف) الأدب أن يكون أسلوبه في شيء من التهافت وضعف التأليف؛ وما يليق به أن يفنى في غيره، وإنما الواجب أن يكون له طريقته ونهجه، فإن الفناء في شخصية أخرى (فناء)

على أن الأديب حمزة والحمد لله ليس من المكابرين في قيمة الأسلوب فهو يرى أن (من حق الأسلوب أن يجود وليس كاتب ولا عالم ولا مؤرخ إلا ويجب (؟) أن يصرف في العناية أقصى ما يستطاع) ولكنه يعتذر عن نفسه بأن (الوقت لم يتسع للتجويد في الأسلوب) وأنا لا أدري ما الذي ضيق عليه الوقت، وما الذي حمله إلى إخراج كتابه قبل أن يستكمله تجويداً وتحريراً كأنه لم يعلم أن المرء ما يزال في فسحة من عقله حتى يؤلف

كتاباً. . . وكأنه لم يعلم أن الناقد لا يقدر الأثر الأدبي إلا من حيث هو هو في مادته، وليس مما يعنيه مراعاة المسافة والزمن، ولقد سألت صديقنا الأستاذ الزين الشاعر فقلت له: أراك تتنطس في حوك شعرك حتى لتقضي في ذلك الوقت الطويل. فقال: نعم! لأني لا أريد أن أفوت ثلمة يتقحم منها الناقد. وإن القارئ ليقرأ وهو مطمئن، فليكتب الكاتب وهو أكثر اطمئناناً

أما بعد، فأنا مقدر للأديب حمزة ما صرف من جهد في البحث والاطلاع وإخراج هذا الأثر النافع، ولعل كتابه - على ما أعرف - هو أوفى بحث خرج عن ابن المقفع للآن، وإني لأرجو له أبحاثاً أوفى وأتم، وأشمل وأعم، فتكون كالإعجاز بعد الإرهاص؟

محمد فهمي عبد اللطيف

العدد 227 - بتاريخ: 08 - 11 - 1937

سورية!

للدكتور عبد الوهاب عزام

سورية الجميلة ذات الخمائل الوارفة، والجنات الناضرة، والمياه الثارّة!

سورية مراح الفؤاد، ونزهة الطرْف!

سورية الكادحة التي يجهد أهلها في السهل والجبل يُخرجون بالماء القليل شتى الثمرات، وينبتون به يانع الجنات، سوريةُ بَرَدى والعاصي!

سورية الصابرة التي وفرت الأيام نصيبها من النكبات والأزمات، المجاهدة التي تجادل عن نفسها، وتجاهد عن شرفها، دفاع البطل الأصْيَد الأعزل، يمضي بجنانه ويده يشق الأهوال إلى غايته، ويحطم الخطوب إلى طلبته، مجاهداً مثابراً، مرزّأً صابراً

سورية التي لم تجف فيها دماء الشهداء، ولم تنقطع سلسلة النوائب!

سورية التي تفيض بالذكرة المجيدة، والسير الخالدة، وتمتّ بالرحم الواشجة، والقربى الواصلة، والجوار والذمام!

سورية الجميلة الحبيبة، الكادحة المجاهدة الصابرة، فجئها السيل كقطع الليل، ودهمها القضاء من السماء، فاستحالت جبالها أنهاراً، وسهولها بحاراً! طغى السيل بالناس والدواب، وجرف القرى والضياع، وذهب بالزروع والثمار

فهذه جثث الغرقى منثورة في السهول، وأنقاض الدور تغص بها الأودية، وتحت الماء

والطين عتاد البائسين، وذخيرة المساكين، وما أبقت الأزمات، من ثياب وأقوات.
فانظر إلى الشمل المبدّد، والأمل المخيّب، والهلع والفزع، والفاقة والجزع! انظر إلى الدموع الجارية، والنظرات الهالعة، والخدود الضارعة، والعقول الذاهلة، والقلوب الحائرة، واستمع زفرات الأحياء على الأموات! وبكاء الأولاد أو نحيب الآباء والأمهات! استمع فكم أنّة كليم، وآهة يتيم!
إن الشاعر المحزون الواله ليخيل إليه أن مجرى السيل خليق أن يكون مجرى الدمع؛ ويذكر قول أبي العلاء:
ليت دموعي بمنى سيّلت ... ليشرب الحُجاج من زمزمين
لك الله يا سورية! تركتك منذ قليل تعانين ما تعانين، وارتقبت أن تتطاير الأخبار بما نؤمل
من انتعاشك، وما نرجو من نهوضك، فما راعنا إلا نبأ السيول الجارفة المدمرة. ولكن في صبرك وجهادك عزاء، وكل غمرة إلى انجلاء؛ وإن وراء هذا الظلام فجرا، وإن مع العسر يسرا
هذه سورية في نكبتها؛ فمن ندعو لنجدتها؟ إن ندعو العرب فأهل النجدة، وأولو الحمية، وحفَظة الجوار، ورُعاة العهد؛ في قلوبهم الراحمة لهؤلاء المنكوبين رجاء، وفي قرابتهم العاطفة عزاء، وفي أيديهم السخيّة ما يخفف البلاء. وهم للبائس خير وزر، وللاجئ أمنع عَصَر
وإن ندع المسلمين والنصارى فالدين يأمرهم بالتراحم ويحفزهم إلى المواساة؛ وإن لإخوانه فيهم لنُصراء رحماء يجيبون دعوة المضطر، ويمسحون دمعة المحزون، ويفرجون كربة المكروب، أن عليهم أن يمسحوا هذه القلوب الدامية، ويرفقوا بهذه الأكباد الواهية
بل أدعو البشر أجمعين والإنسانية كلها دعوة عامة شاملة، وأستنجد القلوب الرحيمة لا أستثني أحداً، أن تمد الأيدي الآسية إلى هذه الألوف التي يعوزها القوت واللباس والمأوى
يا معشر الكتاب والشعراء! كيف تقسو في هذه المحنة القلوب، وتجمد في هذه الكارثة الدموع، ويصمت في هذه الفاجعة البيان، ويخذُل القلم واللسان؟
إن ما بين دمشق إلى المعرة للسيل غارات، وللدمار آيات، وللشعر مقالاً، وللبيان مجالاً
دمشق العظيمة تستغيث، والمعرة الخالدة تستنجد؛ فيا أدباء العربية والإسلام! أحيوا الهمم واشحذوا العزائم. ويا أحباء أبي العلاء! هذا شيخ المعرة في بيانه، يستنجدكم لجيرانه:
يقول:
كيف لا يشرك المضيقين في النع ... مة قوم عليهم النعماء؟
ويقول:
من حاول الحزم في إسداء عارفة ... فليُلقها عند أهل الحاج والشُكر
ومن بغي الأجر محضاً فليناوِ لها ... برّا فقيراً وإن لاقاه بالنكر
فألقوا بمعروفكم هؤلاء الأبرار الشكرُ تجمعوا الحزم والخير في مكرمة. ولا تحقروا ما تسعفون به وإن قل. واستمعوا إليه يقول:
إذا طرق المسكين دارك فأحبُه ... قليلاً ولو مقدار حبة خردل
ولا تحتقر شيئاً تساعفه به ... فربّ حصاة أيّدت ظهر مجدّل
عبد الوهاب عزام
المزاح البارد
للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني
كان لنا في المدرسة الابتدائية مدرس لا نراه إلا معبّساً - لا يفتر له ثغر ولا تنبسط له أسارير وجه، ولا تلمع عيناه بنور البشر، لفرط ما يزوي ما بينهما، ولكنه على هذا كان لا يكف عن ركوب زملائه المدرسين ورئيسه الناظر أيضاً بالدعابة التي تجيء أحياناً خفيفة محمولة، وسائغة مستظرفة، وأحياناً أخرى تكون سمجة ثقيلة لا تطاق. فمن لطيف مزحه أن العادة جرت في المدارس بأن يصوّر التلاميذ مع أساتذتهم في آخر العام المدرسي لتبقى الصور ذكرى لعهد التعلم فصففنا أمام المصور - القصار من

أمثالي في الصدر، والطوال وراءهم، وجلس المعلمون على كراسي أعدت لهم أمامنا وجيء بكرسي كبير ذي مسندين للناظر، وكان رجلاً جهولاً ولكنه طيب القلب، وجعل صاحبنا يروح ويجيء هنا وههنا ليسوي الصفوف كما يزعم، ويقدم واحداً ويؤخر آخر، ويقبل ويدبر، والناظر قلق يصيح به: (اخلص بقى يا فلان أفندي) فيقول: (حالاً. حالاً إن الله مع الصابرين) ويمضي فيما هو فيه من التسوية والتعديل. وكانت العادة أيضاً أن توضع خلف الصفوف خريطة أم مصور جغرافي كبير فادعى أنه نسي ذلك وذهب يعدو إلى حجرة المدرسين ثم عاد يحمل مصوراً ملفوفاً وعلقه وأبقاه مطوياً ثم صاح بنا: (الآن انظروا كلكم إلى عدسة المصور) ففعلنا ونشر هو المصور الجغرافي وأخذت الصورة فطوى الخريطة وحملها وذهب بها فأعادها إلى حيث كانت، وجاءت الصور وأدى كل من يرغب الاحتفاظ بنسخة منها الثمن المفروض ومضى بها إلى بيته فرحاً مسروراً. ثم تأملناها على مهل في البيوت فإذا مكتوب وراءنا بالخط الثلث: (حيوانات الدنيا)، ولا أحتاج أن أقول أن معلمنا نشر خلفنا مصوراً لحيوانات الأرض من أبقار وجاموس وحمير وخيل وأسود وفيلة الخ لا للكرة الأرضية وقاراتها. . .

ومما أذكره في باب المزاح العملي أن واحداً من أصدقائي كاد مرة يخرب بيتي، فقد زارني فلم يجدني وكنت يومئذ في بيت عتيق له فناء رحيب، فوقف يصفق وينادي، فلما قالوا له إني خرجت قال: (سبحان الله العظيم وهل هذا كلام؟ يُشْبُك بنات الناس ويهرب؟)

وعدت إلى البيت وأنا خالي الذهن مما حدث، فلما دخلت على أهلي قلت: (السلام عليكم)

كما هي عادتي فرأيت أمي تنظر إليّ مقطبة ثم ترخي عينها إلى الأرض، فالتفت إلى زوجتي فإذا هي تنظر إلى الحائط ولا تحول عينها عنه، كأنما عليه رسم ساحر؛ فاستغربت وأنكرت هذا الاستقبال الحافل بالنذر ولكني آثرت التباله، وأقبلت على أمي أريد أن أقبل يدها فتناولتها فنزعتها بعنف وحولت وجهها عني والدمع متحير في مآقيها فزاد عجبي وقلت: (مالكم. . . جرى إيه؟) فصاحت أمي بي: (رح. . . رح إلى حيث كنت

ووجدت زوجتي لسانها فقالت: (أيوه رح إلى حيث كنت)

فتأملتها ملياً وأنا أحك رأسي وأحاول أن أهتدي إلى سر هذا اللقاء الغريب فلم يفتح الله عليّ بشيء، فقعدت أمامهما وجذبت وجهيهما إليّ وقلت: (خبراني ما هي الحكاية فما أعرف شيئاً أستحق من أجله أن ألقى منكما هذه الجفوة)

فأفصحت أمي قليلاً وقالت: (شف بنات الناس. . .)

فقاطعتها: (بنات الناس؟ أي بنات وأي ناس؟

قالت: (هل خطبت؟)

فوثبت إلى قدمي وصحت: (خطبت؟. . خـ. . خـ. .)

فقالت زوجتي: (ألا ترين كيف يتلعثم؟ إن هذا إقرار)

فصرخت وأنا أكاد أجن: (أي إقرار يا ستي؟ أين عقلكم يا خلق الله؟ ألا تكفي غلطة واحدة؟)

ولا أحتاج أن أقول أيضاً أني خرجت بحماقتي من ورطة فوقعت في ورطة. فقد اقتنعت أمي وزوجتي بأن الزواج من أخرى لم يخطر لي على بال، وإن هذا كان مزحاً ثقيلاً من صاحبي ولكن زوجتي ظلت إلى آخر عمرها تذكر قولي: (ألا تكفي غلطة واحدة؟)

ومن الفصول الباردة ما حدث مرة في بيت قريب لنا وكان قد دعانا إلى سهرة في مصر الجديدة حيث كان يسكن، وكان بين الضيوف اثنان من المصريين الذين تعلموا في ألمانيا، فاقترح أحدهما أن يدعو صديقاً له من الألمان ليسمعنا قطعة موسيقية ألمانية فكاهية، وقال إنها: (تميت من الضحك) وأيد زميله قوله، فقبلنا وذهب رب الدار معهما لدعوة هذا الألماني الذي بُشرْنا بأنه سيميتنا من الضحك وكانت شقته في العمارة نفسها فما لبثوا أن عادوا ومعهم رجل وقور، ذو لحية كثة، ووجه رزين، ونظرة صارمة، فجعلت أتعجب فيما بيني وبين نفسي كيف يسع هذا الرجل أن يضحك أحداً كائناً ما كان ما يغنيه أو يعزفه. وكان الشابان يكلمان الرجل بالألمانية التي لا نعرف منها حرفاً. وجلس الرجل إلى

البيانو وشرع يدق فلم يبد لنا - أو على الأقل لي - أن في الأمر ما يضحك؛ وكان جاداً وكان وجهه ساهماً كأنه يحلم، وغنى وهو يدق بصوت عميق قوي فالتفت إلى أحد الشابين فألفيته يبتسم فقلت: أبتسم مثله وأستر جهلي باتخاذه قدوة، وصرت بعد ذلك أخالس الشابين أو أحدهما النظر وأفعل كما يفعلان فإذا ابتسما ابتسمت، وإذا ضحكا ضحكت، وإذا قهقها أطلقتها مجلجلة؛ ولم أكن وحدي في هذا الاحتذاء فقد كان المدعوون مثلي جهلاء - أعني باللغة الألمانية - وقد خطر لهم كما خطر لي أن يحاكوا الشابين. وكنت ربما عجبت لمطربنا فقد كان إذا ضحكنا أو قهقهنا يرمينا بنظرات حامية فالتفت إلى الشابين مستغرباً ما يبدو عليه من الغضب والغيظ والنقمة فهمس في أذني أحدهما أن هذا هو المضحك. . . هذا الجد الصارم على الرغم مما في القطعة التي يغنيها وما في تلحينها من الفكاهة الواضحة فهززت رأسي كأني فهمت وازددت اقتناعاً بأن الأمر مضحك ولاشك ورحت أقهقه. ثم استغنيت عن النظر إلى الشابين والاقتداء بهما ورحت أضحك على مسئوليتي كما يقولون وخلعت ثوب الجهل والتقليد، ولبست ثوب الدعوى العريض الفضفاض

وأخيراً نهض الرجل عن كرسيه وأدار فينا عيناً تقذف بالشرر وخرج مغضباً محنقاً يبرطم ويبرجم ونحن نتبادل نظرات الإنكار لهذا السلوك العجيب فهل كان ضحكنا يا ترى أقل مما يجب؟ هل خيبنا أمله ببلادتنا؟ لا بل بجهلنا فقد كان ما يغنيه قطعة مبكية من مأساة مشهورة، وكان الرجل المسكين يعتز بأدائها على الوجه الصحيح، فكاد يجن إذ كنا نتلقى ذلك بالهزء والسخرية. وقد اعتذرنا إليه بعد بضعة أيام - لما فهمنا الحقيقة وعرفنا أنها كانت مزحة قبيحة - ولكن المسكين كان قد تعذب ليالي لا ليلة واحدة.

إبراهيم عبد القادر المازني

إلام يسير العالم؟

طريق الحرب وطريق السلام

بقلم باحث دبلوماسي كبير

إلام يسير العالم؟ هل يوفق إلى التغلب على أزماته واضطراباته الحاضرة أم يسير حتماً إلى حرب جديدة تغمره بالويل؟ هذا سؤال يتردد اليوم على ألسنة جميع الأمم والأفراد؛ ولكن أشد المتفائلين لا يسعه إلا أن يسلم بأن العالم يجوز حالة من القلق والفوضى لا تبعث إلى الطمأنينة والرضى، بل نستطيع أن نقول إن العالم يسير اليوم إلى مستقبل محفوف بالنذر والمخاطر؛ فأينما سرحنا البصر ألقينا الأمم تجيش بالخصومات والمشاكل الداخلية والخارجية وتعاني متاعب العطلة والفاقة والأزمات الطاحنة، وتسودها حالة ظاهرة من القلق والتشاؤم؛ وفي أمم عدة تقوم نظم عنيفة طاغية تضطرم بروح الثورة على كل النظم والمبادئ القائمة، وعلى كل العهود الدولية، وتسحق في الداخل كل الحقوق والحريات العامة وتسلب الفرد كل المزايا والخواص الإنسانية، وتعد الشعوب لمعارك دموية تخوضها في سبيل أحلام ومطامع غامضة من السلطان والسيادة. وفي أكثر من ميدان تضطرم اليوم حروب عنيفة قاسية، تجني شر الجنايات على شعوب آمنة مسالمة، وتحصد أرواح البشر بأروع الأساليب والصور، ولا يجد المضرمون لنارها وازعاً يردهم عن جرائمهم لأنهم لا يؤمنون إلا بالقوة الهمجية وخصومهم ليسوا مثلهم على استعداد للالتجاء إليها

هذه هي صورة العالم اليوم، وهي صورة تحمل على التشاؤم أكثر مما تحمل على التفاؤل، فلم يبلغ العالم منذ الحرب الكبرى ما يبلغه اليوم من الاضطرام والاضطراب والفوضى؛ وكل ما هنالك يدل على أنه يجتاز مقدمات العاصفة كما كان يجوزها في سنتي 1913 - 1914، ولأسباب تشبه في معظمها تلك التي أدت إلى الانفجار في سنة 1914؛ ذلك أن الحرب الكبرى قامت لعاملين أساسيين هما الخصومات العنصرية والمطامع والمنافسات الاستعمارية، وتلك الخصومات والمطامع والمنافسات هي التي تثير اليوم معظم الأزمات الدولية، وإليها يرجع بالأخص ما يعانيه العالم اليوم من أسباب القلق والاضطراب والفوضى؛ فالحرب في الشرق الأقصى بين الصين واليابان، والحرب الأهلية الأسبانية وما يترتب عليهما من أزمات خطيرة تهدد سلام العالم؛ والمنافسة الشائكة بين إيطاليا وإنكلترا

على سيادة البحر الأبيض المتوسط؛ وما تدعيه إيطاليا وألمانيا كل لنفسها من حقوق استعمارية، وما يحفزهما إلى المبالغة في التسلح والاستعداد للحرب: كل ذلك يرجع

إلى شهوة التوسع والاستعمار، وإلى المنافسة الاقتصادية والاستعمارية بين أمم كإيطاليا وألمانيا واليابان ترى أنها حرمت دون حق من نصيبها المشروع في أسلاب الأمم الضعيفة وميادين الاستعمار الشاسعة وبين أمم مثل إنكلترا وفرنسا تتمتع كلتاهما بأملاك استعمارية ضخمة وموارد اقتصادية عظيمة، وتحرص كل الحرص على ما بيدها من هذا التراث الذي ترمقه الأمم الأخرى بعين الحفيظة والجشع، وإلى هذا العامل الاستعماري يرجع أيضاً ما تعانيه الأمم المغلوبة من الآلام والمتاعب المادية والمعنوية؛ فالاضطرابات الدموية التي تجيش بها فلسطين منذ أشهر، والحركات القومية التي تجيش بها تونس والجزائر ومراكش، وما تنزله الأمم الغالبة بهذه الأمم المغلوبة من ضروب القمع المنظم احتفاظاً بسلطانها وسيادتها، إنما هي أيضاً وليدة هذه الشهوة الاستعمارية التي لا تخبو، والتي لا تعرف حقاً ولا عدالة ولا أي اعتبار إنساني

ولقد كان غزو إيطاليا للحبشة إحدى هذه الفورات الاستعمارية البربرية، كما كان غزو اليابان من قبل لولاية منشوريا الصينية، وكما هو اليوم شأنها في الحرب التي تشهرها على الصين دون رأفة ولا هوادة؛ ولم يكن موقف الأمم الأخرى بالأمس إزاء الاعتداء على الحبشة، أو موقفها اليوم إزاء الاعتداء على الصين إلا وجهاً آخر من وجوه المأساة، فهذه الأمم لا تحاول أن تعترض سبيل الأمم المعتدية لأنها تؤمن دونها بالحق وترغب في الذود عنه، ولكن لأنها تخشى أن تظفر الأمم المعتدية دونها بمغانم وأسلاب استعمارية جديدة تزيد في ثروتها وقوتها وخطرها

هذا عن العامل الاستعماري؛ وأما العامل العنصري فيرجع إليه أيضاً قسط كبير في إثارة الخصومات والقلاقل الدولية. ولقد كانت الخصومة السلافية الجرمانية من أهم العوامل التي عاونت إضرام نار الحرب الكبرى؛ أما اليوم فهنالك الدعوة الآرية أو دعوة الأجناس الرفيعة والأجناس المنحطة التي تشهرها ألمانيا الهتلرية في وجه العالم؛ وهنالك الخصومة الآرية اليهودية التي تذكي ضرامها بكل ما وسعت؛ ثم هنالك مشكلة الأقليات القومية التي تتخذ في أوربا الوسطى صوراً حادة تبث الحقد والحقيقة بين الأمم والعناصر المتجاورة،

وتنذر بتكدير السلم من آن لآخر

بيد أنه يوجد في المعترك الدولي الحاضر عامل جوهري آخر لم يعرفه العالم قبل الحرب الكبرى؛ وذلك هو الخصومة المضطرمة بين جبهتين مختلفتين من النظم والمبادئ السياسية والاقتصادية والاجتماعية؛ فالنضال بين الفاشيستية والديموقراطية يشغل اليوم فراغاً كبيراً في المعترك الدولي، ويثير أزمات دولية خطيرة تنذر بتقويض صرح السلم بين آونة وأخرى. والفاشيستية تذكي الأحقاد القومية والجنسية بصورة عنيفة تثير أعصاب الأمم المختلفة وتحول دون تفاهمها، وتعمل بكل ما وسعت لتمزيق العهود الدولية، وتدعيم نظرية القوة الغاشمة، وجعل الحرب هي المثل الأعلى للأمم؛ وهي بذلك تحمل أكبر تبعة في خلق الأزمة الدولية الحاضرة، وإثارة القلق الذي يساور جميع الأمم، وتكدير جو السلام، والتمهيد بحركاتها وتهديداتها العسكرية لحرب جديدة تبدو نذرها في الأفق حيناً بعد حين

هذه الصورة المضطربة المروعة لأحوال العالم رسمها الرئيس روزفلت في خطابه الذي ألقاه أخيراً في شيكاغو وحمل فيه على (نظم الإرهاب والانتهاك) التي فرضتها بعض الحكومات على العالم منذ بضعة أعوام، وعلى تدخل هذه الحكومات تدخلاً غير مشروع في الشئون الداخلية لبعض الأمم الأخرى، وعلى غزو الأراضي الأجنبية انتهاكاً للمعاهدات والعهود الدولية؛ وتساءل الرئيس روزفلت: كيف يقال إننا في أوقات سلم والغواصات تتربص بالسفن الآمنة فتغرقها دون سبب ودون إنذار، والقنابل تلقى على المسالمين الآمنين ومنهم نساء وأطفال أبرياء دون حرب ودون مبرر من أي نوع. هنالك أمم تزعم أنها تطلب الحرية وتقدسها ولكنها تنكرها على الأمم الأخرى؛ وهنالك شعوب بريئة تضحي لتحقيق شهوة سلطان وسيادة لا تبررها أي عدالة أو أي اعتبار إنساني؛ ومع ذلك فإن هؤلاء الذين يلعبون بالنار ويعملون على تكدير السلم لا يبلغون في رأي الرئيس روزفلت أكثر من عشرة في المائة من مجموع شعوب العالم. وأما التسعون في المائة الباقية فهي شعوب ترغب في السلام، وتستطيع بل يجب عليها أن تجد الوسيلة لكي تحقق رغبتها في صون السلام، وأنه يستحيل عندئذ على أية أمة

مسالمة أن تلوذ بالعزلة والحياد من حالة الفوضى والاضطراب الدولي التي يخلقها انتهاك الحقوق
وصوت الرئيس روزفلت هو صوت الأمم الديموقراطية؛ والدول التي يعنيها، وهي المنتهكة للحقوق والمعاهدات، المقدمة على تكدير السلم وعلى الفتك بالآمنين والمسالمين، هي الدول الفاشستية والاستعمارية، أو بعبارة أخرى هي ألمانيا وإيطاليا واليابان؛ ولكن الديموقراطية أبدت في الأعوام الأخيرة كثيراً من ضروب الضعف والتردد، وبالغت في التمسك بالألفاظ والوعود، ولم تحاول أن تؤيد كلمتها بوسائل فعالة إزاء العابثين بالحقوق والمنتهكين لحريات الأمم؛ واستطاع هؤلاء بما رأوا من أحجام الدول الديموقراطية وتخاذلها أن يقدموا على تنفيذ مشاريعهم بجرأة لا مثيل لها؛ فقد ذهبت الحبشة ضحية لتهاون الديموقراطية ووعودها الخلابة، واستولت عليها إيطاليا في غمر النار والدم بينما كانت عصبة الأمم والدول الديموقراطية من حولها تردد أنشودة الحق والمعاهدات والعقوبات الاقتصادية؛ وذهبت أسبانيا الجمهورية فريسة الدسائس الفاشستية وما زالت تعاني أكثر من عام أهوال حرب أهلية لم تقصدها، ولم يثر ضرامها ويمدها بالوقود سوى أولئك الذين يرون أن يشقوا إلى أطماعهم طريق النار والدم؛ وهاهي ذي اليابان تتوغل في الصين وتثخن في جنباتها وتفني جيوشها وشعوبها دون إعلان حرب ودون مبرر سوى ما ترمي إليه من تحقيق شهوتها الاستعمارية؛ كل ذلك والدول الديموقراطية تقنع بالاحتجاجات اللفظية وعقد لجان عدم التدخل والمؤتمرات التي لا طائل تحتها
والخلاصة أن الفاشستية المضطرمة تجيش بمشاريعها وتعمل لتحقيق شهوتها في الاستعمار والسيادة غير مكترثة لما تهدد به سلام العالم من الأزمات والأخطار؛ ذلك أنها لا ترى أمامها سوى طريق العنف والدم؛ والديموقراطية من جانبها تلوذ بالأحجام والمطاولة وتؤثر التراجع على الاصطدام الخطر؛ ذلك أنها ترغب عن الحرب وتفتدي سلامها بكل ما وسعت؛ ولكن النضال يصل اليوم إلى ذروته، ولابد أن تضطر الديموقراطية عاجلاً إلى العمل إذا لم ترد أن تفلت القيادة من يدها وتغدو تحت رحمة الفاشستية المتوثبة. فماذا يكون مصير السلام يومئذ؟ وهل يؤدي الاصطدام إلى الانفجار الخطر، أم تستطيع الديموقراطية بما تملك من وسائل الضغط المادي والمعنوي أن تقف هذا التيار المتوثب في الوقت المناسب فتنقذ بذلك سلامها وسلام العالم؟ يقول لنا العلامة فيريرو، وهو من ثقات التاريخ والسياسة: إن ما تعانيه أوربا الآن من الاضطراب والفوضى يشبه ما عانته منهما على أثر عقد معاهدة فينا عقب سقوط نابوليون؛ ومعاهدة فرساي تشبه معاهدة فينا في فساد الأسس والمبادئ التي قامت عليها؛ وإن الأزمات والأخطار العسكرية التي تواجهها أوربا ترجع إلى ما يسميه فيريرو (باستعمار الخوف)؛ فإن إيطاليا واليابان تنحدر كل منهما من مغامرة إلى أخرى للاحتفاظ بما كسبته من الأراضي من طريق غير مشروع على نحو ما كان يفعل نابوليون عقب كل انتصار من الاندفاع في مغامرة جديدة للاحتفاظ بثمرة انتصاره. ويرى فيريرو أن ألمانيا التي استطاعت حتى الآن أن تجتنب هذه المغامرات يمكن أن تعد عاملاً جوهرياً في تأييد السلم إذا رأت أن تجانب هذا التيار المتوثب وأن تضع يدها في يد الديموقراطية الغربية؛ أما إذا اندفعت ألمانيا في هذا التيار فويل للسلام عندئذ. هذا ما يراه العلامة فيريرو، ونحن معه في أن الخطر على السلام إنما يرجع بالأخص إلى نزعات الفاشستية ومطامعها الاستعمارية، وأن مستقبل السلام منوط بموقف الديموقراطية. فإذا هي يئست من الحلول والوسائل السلمية، واستطاعت عندئذ أن تعتزم أمرها، وأن تقابل الوعيد بالوعيد والضغط بمثله تؤيده استعداداتها ومواردها الضخمة، فإن تيار الفاشستية لا يلبث أن ينكشف ويخبو. وفي رأينا أن الساعة قد حلت لأن تسلك الديموقراطية هذا المسلك؛ وفي يقيننا أنها فاعلة بلا ريب.
(* * *)

التشريع والقضاء في العهد الفرعوني
للأستاذ عطية مصطفى مشرفة
- 3 -
كان يفصل في القضاءين المدني والجنائي حتى القرن الثالث عشر ق. م بمصر هيئة

واحدة؛ وفي عهد الأسرة التاسعة عشرة وهي من الرمامسة فصل القضاء المدني من القضاء الجنائي وأصبح لكل منهما محكمة خاصة به في الإقليم. وكان يرأس المحكمة المدنية في طيبة رئيس كهنة (آمن) ويجلس معه عشرة من الكهنة، أما المحاكم الجنائية فكان يرأسها (دجا) أي ممثل السلطة التنفيذية في الإقليم ورئيسه، وكان يساعده موظفان كبيران هما بمثابة محلفين، ونائب الملك (نم) الذي كان يمثل النيابة. أما الدعوى المختلطة أي التي تجمع بين طرفين أحدهما مدني والآخر جنائي فكانت المحكمة الجنائية تنظرها مضافاً إليها ثلاثة قضاة مدنيين يكونون في الأكثر من رجال الدين. وعندما تدخل الكهنة في القضاء في القرن الحادي عشر ق. م في عهد الأسرة العشرين زاد نفوذ الإله آمن فاستفتي في المسائل الجنائية ثم عظم نفوذه بمضي الزمن حتى أصبحت فتاوى آمن في خلال حكم الأسرة الحادية والعشرين أحكاماً نافذة في جميع الأقضية التي تعرض عليه جنائية أو مدنية أو تجارية أو إدارية؛ فكان يعرض عليه المتهمون ليفصل في قضاياهم بالوحي المنزل من عنده، وكان يدير الإجراءات بحضرته رئيس الكهنة فيقدم كتابين أحدهما يثبت البراءة والثاني يقرر الإدانة، فإذا وضع الإله إصبعه على الأول بريء المتهم، وإذا وضع الإله إصبعه على الثاني أدين. وأحياناً يحضر المتهم أمام تمثال آمن ثم يذكر رئيس الكهنة الوقائع أمام التمثال عندما ينتهي من ذكر تلك الوقائع يسأل رئيس الكهنة الوثن إن كان المتهم مجرماً أو بريئاً، فإذا هز الإله رأسه بالنفي برئ المتهم، وإن هز الإله رأسه بالإيجاب اعتبر المتهم مجرماً

قال الأستاذ ارون بيفن في كتابه (البطالسة) عن آمن: (وكان الوثن ككل أوثان التنبؤ مجبولاً بحيث يحدث عدداً محدوداً من الإشارات، فيحرك رأسه أو يلوح بذراعيه أو يشير بيديه؛ وكان يعهد إلى كاهن أن يشد الحبل الذي يحرك الوثن ثم ينطق بالنبوءة؛ وكان الجميع يعرفونه معرفة تامة، ولكن لم يدر بخلد أحد أن يتهمه بالغش أو يرميه بالخداع فإنه

كان عندهم الأداة التي يستخدمها الإله وبالأحرى آلة سيره، وكان الروح يلبسه في برهة خاصة، والروح هو الذي يحرك الصنم ويحرك شفتي الكاهن بما يريد؛ فالكاهن يعير يديه وصوته، ولكن الإله هو الذي يقدر أعماله ويوحي إليه بما يخرج من كلمات) وإذا كان المتهم غير معروف على وجه التحديد عرض المتهمون جميعاً على تمثال آمن الذي يشير بيده إلى المتهم منهم، أو يقول عنه مثلاً (هذا هو السارق). فإذا أنكر المتهم ما اتهمه به آمن أعاد آمن اتهامه، فإذا صمم على الإنكار بعد ذلك سيق إلى السجن وهناك يلقى من العذاب ما يجعله يقر بجرمه، إذ لا يمكن نسبة الكذب إلى الإله آمن. وعند اعترافه بأنه مذنب يساق مرة أخرى إلى آمن الذي يسمع اعترافه ويصادق عليه، وعندئذ يقدم المتهم للمحكمة الجنائية التي تحكم عليه بالعقوبة نتيجة لهذا الاعتراف. غير أن نفوذ الإله آمن قد ضعف في عهد الأسرتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين وهما من اللوبيين وأصبح الرجوع لفتاواه شكلياً بحتاً، ثم استرد بعض نفوذه بين سنتي 721 و 718 ق. م

ولما تبوأ الملك بوخوريس مؤسس الأسرة الرابعة والعشرين عرش مصر أزال التدخل الديني وأعطى للقضاء صبغته المدنية السابقة؛ غير أن استيلاء الأثيوبيين على مصر وانتمائهم لآمن أعاد له سلطته القضائية السابقة ولكنها ضعفت في عهد الملك أمازيس (أحمس الثاني) أحد ملوك الأسرة السادسة والعشرين، وبذلك قضى على سلطة آمن قضاء مطلقاً، وأعاد للقضاء صبغته المدنية التي كان عليها زمن الملك بوخوريس فأعاد أمازيس المحاكم الجنائية والمدنية وفق نظام رمسيس الثاني (رمسيس الأكبر) أي إلى ما كانت عليه المحاكم في القرن الثالث عشر ق. م وبذلك أعيد الاختصاص في المواد الجنائية إلى محكمة دجا وفي المواد المدنية إلى محكمة القضاة الكهنة كما كان متبعاً من قبل. ولم يحرم أمازيس الكهنة من الفصل في القضايا المدنية لسببين: أولهما أن القضايا المدنية تتطلب علماً ومعرفة بالقانون، والثاني أن هذا العلم وتلك المعرفة لم يتوفرا إلا لرجال الدين إذ ذاك، ولكن أمازيس ألغى طريقة الفصل في القضايا بواسطة الوحي الديني، أما القضاء الجنائي فنظراً لبساطته وسهولته بقي الفصل في أموره للملك إما بنفسه وإما بقضاة يعينهم

ولقد فصل قدماء المصريين بين وظيفة القضاء ووظيفة الاتهام إذ ظهر منذ الأسرة

الثانية عشرة وظيفة لسان الملك وكان شاغلها بمثابة النائب العام في زماننا؛ وكانت مهمته أن
يباشر التحقيق وأن يقيم الدعوة العامة وأن يأمر بالقبض إن وجد لذلك مسوغاً. وكانت له بجانب وظيفته القضائية هذه اختصاصات أخرى مالية وإدارية. وقد أمكننا أن نعرف وظائفه على وجه التحديد في عهد الرمامسة أي في عهد الأسرة التاسعة عشرة.
وكانوا يسمونه تارة (لسان الملك) وأخرى (فم الملك) وثالثة (نِمْ) وكما أن للنائب العام في زماننا وكلاء يباشرون الدعوى نيابة عنه في الجهات الأخرى المختلفة كذلك كان (للسان الملك) وكلاء يسمون دِنُو في الأقاليم وكانوا يباشرون الدعوى العامة أمام محاكم الأقاليم الجنائية، وكان عضو النيابة يدخل في صميم تشكيل المحكمة الجنائية عادية كانت أم غير عادية. وكان يثابر على حضور الجلسات، وكان يذكر اسمه عقب القضاة وقبل الكتبة في محاضرهم؛ وكان قدماء المصريين يعترفون للمؤسسات الدينية بالشخصية المعنوية وبذلك سمحوا لها بالتقاضي أمام المحاكم. وكان للمحكوم له أن يحجز على أموال المحكوم عليه. وكان للأفراد حق رفع الجنحة المباشرة إلى المحكمة إذا لم تقم النيابة العمومية أي (لسان الملك) ووكلاؤه برفع دعاويهم
ووجد بكل محكمة قلم لتلقي العرائض وآخر للمحفوظات تحفظ به سجلات الأحكام، وكانت محاضر جلسات المحاكم الجنائية العادية مكتوبة ومطولة تشمل كل التحقيقات من أسئلة وأجوبة واستجوابات وشهادة شهود إلى غير ذلك، وكان يقوم بتدوينها كتبة يدخلون في تشكيل المحكمة
وقد فطن قدماء المصريين إلى ما في المرافعات الشفهية من ضرر قد يصيب العدل في صميمه نتيجة لتأثر القضاة بفصاحة اللسان فمنعوها وجعلوا معظم الإجراءات مكتوبة؛ وكان للمحكمة أن تنتدب الخبراء لمعاينة مكان الحادث أو لإجراء الكشف الطبي على المجني عليهم وفحص المتهمين
وقد أشفق قدماء المصريين على قضاتهم من فصاحة المحامي وحسن دفاعه وسحر بيانه وما قد يؤدي إليه ذلك أحياناً من الإغضاء عن الحق والقانون فلم يقروا نظام المحامين عن الخصوم أمام المحاكم واعتقدوا أنه قد يكون في بلاغتهم وفصاحة لسانهم وحسن منطقهم ما يغشي على الحقيقة فيتأثر القضاة بهم لما في البيان من السحر. وكانت الطلبات تعرض في مذكرات، ولكل من طرفي الخصوم الحق في الرد عليها كتابة، فيشرح المدعي دعواه
بالتفصيل في عريضة دعواه ويرفق بها كل مستنداته ثم تعرض تلك العريضة على المدعى عليه ليطلع عليها ويرد عليها بمذكرة مكتوبة معترفاً أو منكراً بعض أو كل ما جاء فيها، ثم تترك الفرصة مرة أخرى للمدعي للرد على ما جاء بمذكرة المدعى عليه ويترك لهذا الأخير فرصة الرد الأخير على المدعي بمذكرة ثانية فكان المدعى عليه هو آخر من يقرأ له القاضي وكان يحصل هذا التبادل في المذكرات قبل الجلسة. ولا تصدر المحكمة حكمها إلا بعد الإطلاع على المستندات المقدمة من طرفي الخصوم ونظر جميع الأوراق المختصة بالدعوى وتمام المداولة واستشارة قوانين الدولة. وكان التأني في إصدار الحكم من أهم صفات القضاة حتى لا تجرهم العجلة إلى السقوط في مهاوي الخطأ. وكانت جلسات المحاكم تعقد علانية ويؤدي الشهود يميناً قبل أداء شهادتهم أمام المحكمة في الدعاوى الجنائية والمدنية. أما صيغة اليمين فهي (أقسم بآمُن وبالملك أن أقرر الحقيقة ولا أقول كذباً؛ فلئن كذبت فلتجدعن أنفي ولتصلمن أذني ولأنفين إلى إتيوبيا أو إلى خارج الحدود) ووجدت السجلات العقارية التي كانت تسترشد بها المحاكم إذا فصلت في نزاع عقاري فإذا شعرت المحكمة بأن المستندات المقدمة من الخصوم والمثبتة للملكية غير كافية لإثبات الحق أمرت بإجراء تحقيق تكميلي تسد به هذا النقص ثم تصدر حكمها مشتملا على خلاصة أقوال الطرفين في النزاع والأسباب ونص الحكم. أما المحكمة الخاصة التي كانت تنظر في القضاء الجنائي غير العادي فكانت تصدر حكمها بغير إعلان الأسباب. وكانت التحقيقات فيها سرية ومحاضرها موجزة. وكانت فكرة العقاب عند قدماء المصريين لا تنطوي على الانتقام الشخصي وكانوا يعتقدون أن حق معاقبة المجرم وتنفيذ العقوبة فيه مفوض إليهم من القوة الإلهية. وقد عرف قدماء المصريين الحبس الاحتياطي وصرحت به قوانينهم

بعض نماذج من التشريعات المصرية المدنية والجنائية في قوانينهم

قلنا إن ديودورس الصقلي امتدح القوانين المصرية، وقال إنها جديرة بالإعجاب وإن العالم أعجب بها فعلاً. ويؤسفنا أن نقول أن هذه القوانين التي بهرت العالم برقيها والتي غذته بمبادئها ما زالت دراستها مهملة في بلادنا. وإنه ليعز علينا أن نعترف بأنه على الرغم من أهميتها التاريخية والفنية لم نعثر في بحثنا إلا على بعض المصادر الأوروبية والعربية التي بحثت فيها. جمع (تحوت) إله القانون القوانين المختلفة بعد أن وضعها لقدماء المصريين، وكان ذلك في سنة 4241ق. م؛ إلا أن هذه القوانين قد بعثرت وشتت أغلبها بعد ذلك، ولم يتمكن من جمعها إلا الملك بوخوريس الذي عدلها وأفرغها في مجموعة واحدة نظم بها الأحوال الشخصية والمعاملات المدنية. كانت التعهدات على اختلاف أنواعها قبل الملك بوخوريس تحصل مشافهة إذ لم تكن كافة العقود تحصل بالكتابة وإنما كانت تتم بيمين أو (صنك) يصدر من المتعهد للمتعهد له بأنه سيؤدي إليه ما اتفقا عليه، ثم أطلق لفظ (صنك) بعد ذلك على العقد نفسه. ونحن نرجح بأن لفظ (سند) هي بعينها (صنك) المصرية القديمة. وكان يشترط حضور عدد من الشهود ذكوراً كانوا أم إناثا حتى يمكن إثبات العقد. ولم يكن من الجائز تعدد أحد طرفي العقد عندهم فإذا تعدد اعتبروا شخصاً واحداً، ويقولون (تكلم فلان وفلان بفم واحد أو بلسان واحد) وكان لا يترتب على العقد الالتزام من طرف واحد؛ وكان إذا تخلف المتعهد عن الوفاء بما التزم به أكره على الأداء بالعقاب البدني مع الحكم عليه بغرامة تعادل نصف قيمة الحق المدعى به؛ ولم يكن التقادم معروفاً في القانون المصري القديم قبل عهد الملك بوخوريس

قلنا إن الأصل في العقود ولاسيما البيع وهو من أهمها أن لا يكون البائع والمشتري أكثر من واحد، لأن تعدد طرفي العقد لم يعترف به قانونهم فكان إذا تعدد البائعون اعتبروا متضامنين فيما بينهم، وإذا تعدد المشترون وكانوا من عائلة واحدة صار أرشدهم وكيلاً عنهم. وكان يترتب على البيع المنعقد باليمين أمام الشهود أن يلتزم البائع بتعهدين أولهما تسليم سندات الملكية وثانيهما منع كل تعرض للمشتري. واشترطوا ذكر هذين التعهدين صراحة في العقد بادئ ذي بدء ثم عدلوا عن ذكرهما صراحة في العقد عندما كثر استعمالهما وأصبحا يفهمان ضمناً في العقد. وقسم القانون المصري القديم الأموال إلى منقولة وثابتة، وقسم الأموال المنقولة إلى جامدة وحية. وكانت تلك الأموال بجميع أقسامها السالفة الذكر ملكاً لملك مصر يمنحها لمن يشاء؛ وقد احتفظ الملك في الأموال الثابتة بحق الرقبة وأعطى حق الاستغلال لمن يشاء من رعيته

(يتبع)

عطية مصطفى مشرفة

الطريقة العلمية

في الحضارة والحياة

للأستاذ محمد أديب العامري

كيف ذهب العمر؟

يرى بعض علماء الحياة أنه قد مر الآن ما يقارب مليون سنة على وجود الإنسان على وجه الأرض. ويرى بعضهم أن هذا كثير فينزل العدد إلى نصف من ملايين السنين. ومهما يكن من أمر الخلاف بين العلماء في ذلك فالمؤكد عندهم على كل حال أن عمر الإنسان على الأرض لا يقل عن ربع مليون

ومن المعلوم أنه قد مضى الجزء الأكبر من هذه الحقب الطويلة دون أن يكون للإنسان في المدنية طَوْل يذكر، ولكن عشرة آلاف السنة الأخيرة شاهدت من تفجر عقل الإنسان ما تقر به الآثار إلى اليوم، كما أن النصف الأخير فقط من هذه الآلاف العشرة هو الذي يعرفه إنسان التاريخ في حضارة الدنيا

فحضارات العصور الحجرية والفلزية وحضارات الآشوريين والمصريين واليونان والرومان والهنود والصينيين والفرس والعرب والحضارة الحاضرة، هي النتاج البشري المهم الذي نذكره حين ندرس التاريخ

ومن الواضح أن المدنية الحاضرة أزهى هذه المدنيات وأعلاها وأكثرها ديموقراطية وتمهيداً لرفاهية الإنسان وسعادته وأن هذه المدنية الزاهية العظيمة قد ظهرت ونمت، ولا تزال تنبئ بنمو أعظم، فيما لا يزيد على الـ250 سنة الأخيرة. ومع ذلك كله فما يزال مفكر مثل ويلز يقول: (إننا لم نشهد بعد الفجر الأول الباكر للتاريخ الإنساني) وليس من غرضنا أن نبحث هذا الآن، ولكن ويلز محق، فليس تاريخ البشر في طابعه الأكبر إلى اليوم إلا سلسلة من المجازر الوحشية والمجاعات والتدمير والغارات والسطو. فإن يكن هذا جديراً بعقل الإنسان وفكره فإن فجر الحضارة قد طلع منذ أيام رجل جاوي القردي. ولعل النوع الإنساني إذ ذاك كان أشد حضارة فقد كان أشد ضراوة وأشد فتكاً؛ وإلا فإن تاريخ النوع البشري لم يخط منه إلى الآن شيء يستحق ألا يمحى

ومع أن الواقع يؤيد ما يقول ويلز فإننا نحب أن نحسب للمائتين والخمسين سنة الأخيرة حساباً خاصاً؛ فقد خطت فيها الحضارة البشرية خطوات إن تكن راجفة فإنها واعية؛ وإن تكن في بعض صفحاتها مخزية، فإنها في بعضها لامعة مشرقة. فقد رافق هذه المدنية متاعب وآثام نحن نعاني اليوم أشد أدوارها مرارة، ولكن المؤكد لدى التدقيق هو أن هذه المتاعب ستزول إذ تمحوها الأفكار البشرية العالية يوم تصفو المدنية نفسها للنوع الإنساني خالصة من كدرها وويلها. والنظر في هذه المتاعب لا يهمنا في بحثنا الحاضر كذلك، وإنما يهمنا هنا إزالة الريب الذي يحدثه بعض الكتاب إذ يقولون إن المدنية الحاضرة لم تكن أشمل المدنيات وأرقاها وأبعدها تمثيلاً لاتجاه التطور الإنساني في معارج التقدم

فحساب الـ250 سنة التي نمت فيها هذه المدنية بالنسبة إلى ربع المليون كحساب سنة في الألف. فما الذي ضيع على تاريخ البشر هذه السنين كلها فجعلها هباء أو كالهباء؟

إن السر في ذلك هو (الطريقة العلمية) فهي طابع المدنية الحاضرة والعامل الأساسي في سرعة خطاها وسعتها

فما هي هذه (الطريقة العلمية)، وكيف أدت إلى إسراع خطوات النهضة الحاضرة، وكيف يمكن أن نفيد منها في حياتنا الاجتماعية والسياسية اليومية؟

كيف كان الناس يفكرون؟

كان الناس من قبل يؤمنون بالأرواح يصورونها لأنفسهم، ويثقون بالأذكياء منهم (العلماء) ثقة عمياء. فقد كفى أن يقول أرسطو أن الهواء عديم الوزن حتى مضى قوله هذا صحيحاً دون ريب قروناً عديدة. وقد كان يكفي هوميروس أن يقول إن الأرض مستوى مستدير حتى يؤمن الناس بقوله دون تحقيق أو يعارضوه دون تحقيق. لم تكن نظرة الناس قائمة على التجربة والاختبار؛ ومع أن النهضة العربية كانت أحدث النهضات ومن أبعدها قياماً على البحث والتحقيق، فقد تخللها جدل غيبي عابث كثير وإيمان أعمى كثير. فإذا قال القزويني إن الهواء ينقلب ماء إذا برد كان على الناس أن يصدقوه، لأنه يؤكد أنه ما افترى شيئاً مما أورد في (عجائب المخلوقات) فإذا كان الذي يقرر الحقائق العلمية لا يسأل عن براهين وأدلة، راده الغرور أكثر الأمر، وجال ذهنه في المغيبات والمعميات يخترع للناس ويضع. وإذا كان من حق كل متكلم أن

يتكلم في رأيه عن أمر لم يخبره بالتجربة كان كل روائي الذهن عالماً مدهشاً، وساد في الناس سفسطائيوهم وكذابوهم والمتجرئون منهم على الحق والعلم

وهكذا بطأت خطوات العلم في التاريخ منذ عرف الإنسان إلى ما قبل القرون الثلاثة الأخيرة، حتى وصل الناس إلى مفتاح هذه السرعة الهائلة في الوصول إلى النتائج العملية والآراء النظرية في مدنيتنا الحاضرة. هذا المفتاح هو الطريقة العلمية، فكيف بدأت (الطريقة العلمية) بدءها الواضح في تاريخ الناس؟

كيف يفكر العلماء؟

يروى لأرسطو قوله: (لو استطعت أن أجد نقطة في الكون تصلح محور ارتكاز لرفعت الأرض كلها على رافعة). وقال ديكارت شيئاً مثل ذلك، ولكنه كان أبعد أثراً في تاريخ الفكر البشري. قال: (لو كنت أستطيع أن أجد حقيقة لا ريب فيها لبنيت عليها كل العلوم) - حقيقة واحدة فقط! هذا يدلك على مبلغ شك الرجل (العلمي) وحذره في

كل ما يرى ويسمع. فليس شيء عنده حقاً حتى يتضح بالوسائل التي تدفع كل شك؛ وليس شيء ينفى إلا بعد براهين النفي كاملة. فموقف الرجل العلمي تجاه المسائل هو موقف الحياد التام

وإذا لم يعتبر ديكارت (1596 - 1650) نفسه أول واضع لأساس الطريقة العلمية في التفكير البشري الفلسفي، فلا ريب أنه من أول الواضعين، كما يعتبر جاليلو (1564 - 1642) مؤسس الطريقة العلمية التجريبية في العلوم

ويمثل كل من الرجلين في ميدانين من ميادين التفكير البشري (الرجل العلمي) الذي امتلأت جوانحه بملازمة الصفات التي يتصف بها أمثالهما من العلماء

فالرجل العلمي يعشق الحقيقة ويصبر على الوصول إليها. هو ذو عين يقظة حذرة ترى الدقائق في الأشياء المعرضة للبحث والدراسة. وما أشد هذه الخاصة ندرة! فإن عدداً من الناس يشهد حفلا فإذا سئلوا بعد انفضاضه عن عدده تشعبت أقوالهم عجباً، وتداخلت عواطفهم إلى حد يفسد الوصف ويشوه الواقع. فالرجل العلمي قوي الملاحظة صحيحها، دقيق الوصف لها. قال السير ميخائيل فوستر في خطاب له في رياسة المجمع البريطاني: (يكتفي الرجل - الرجل غير العلمي - بقوله (تقريباً) و (حوالي)، أما الطبيعة فليس عندها من ذلك شيء. ليس من طريقها التوحيد بين شيئين مختلفين مهما دقت شقة الخلاف بينهما،

حتى ولو كان الخلاف يقاس بأقل من جزء من الألف من الميليغرام أو الميليمتر) فكلما أغفل المرء دقائق هذه الفروق بين الأشياء في العلم ضل؛ ومهما يكن من أمر صراعه واجتهاده في الوصول إلى الحقيقة على أساس هذا الإغفال فإنه مخفق في النهاية. لا محالة أن العلم لا يعرف إلا الدقة المطلقة؛ والذي لا يصبر على هذه الدقة لا يستطيع أن يكون عالماً. ولم يخلق كل الناس ليكونوا علماء. على إن التمرس بالدقة في الوصول إلى الحقائق أمر لازم في التربية

والرجل العلمي متأن متحفظ، فهو لا يسرع في إبرام حكمه على شيء حتى تتوفر لديه الأدلة كافية عليه. وإن من أكثر ما يصم الباحث هو الوصول إلى استنباطات فجة قائمة على عدد قليل من الحقائق. لا يتعجل الوصول إلى فرض جديد أو نظرية حديثة ليتعجل شيئاً لنفسه، فإن الفرض أو النظرية إذ تنهار فيما بعد تنهار على صاحبها. وهو لا يتحيز إلى نفسه ولا إلى أي فرض أو نظرية. إنه ينظر إلى الحقائق مجردة

والرجل العلمي إنسان واضح صافي الذهن صافي الفكرة. وهو يعي أنه يدرك الأمور على حقائقها. فأنت تعرف أن بعض الناس يؤكدون أنهم يعرفون أشياء على وجه ما، فإذا الحقيقة أنها على وجه آخر. إنهم لا يعرفون متى يعرفون شيئاً ومتى لا يعرفونه. وهؤلاء لا يمكن أن يكونوا علماء أو تتم لهم ثقافة. وكما أن الرجل العلمي واضح الفكرة فهو صافي العبارة كذلك. إنه حين يعبر عن شيء يعبر عنه بأبسط الكلمات وأوجز العبارات؛ ومن هنا كانت لغة العلم الصحيحة سهلة. وأثر الأسلوب العلمي في أدب العصر فانتحى السهولة الممتنعة. فالرجل العلمي لا يستعمل لفظة تحتمل معنيين أو جملة تشير إلى مفهومين، بل تكون عبارته قاصدة واضحة

وبالجملة يكون الرجل العلمي رجل ثقافة وعقلية علمية. فهو بطبعه يحب الصدق والوضوح والإيجاز والتدقيق في قبول ما يعرض على عقله من حقائق وأقوال

ونجمل فنقول: إن الطريقة العلمية في بحث مسألة من المسائل تقتضي:

1 - أن يجمع العالم من الحقائق والمشاهدات على المسألة التي يبحث فيها جهد ما يستطيع. ويجب أن يتأكد من صحة الحقائق والمشاهدات بالقياس الدقيق

2 - أن ينسق ما يصل إليه من الحقائق

3 - أن يكوّن بناء على الحقائق فرضاً يؤول هذه الحقائق جملة

4 - أن يجرب صحة الفرض بحقائق أخرى. فإذا قوي الفرض أدرك مرتبة النظرية

5 - ويمكن أن تحيط النظرية بجميع الحقائق التي تبحث عنها بعد تجربة واختبار طويلين فتصبح قانوناً، وهو أقوى تعبير يجمل الحقائق العلمية

ولنضرب مثلاً يوضح الطريقة العلمية:

فالناس يعرفون الآن أن المادة ليست متلاحمة الأجزاء. فبين أجزاء قطعة من الحديد وإن ظهرت مصمتة فراغ كبير. واضح مثلاً أن بين أجزاء الفلين فراغ يملؤه الهواء أو فراغ مطلق لا شيء يملؤه. فالذي يشاهد أن الفلين يمتص الماء يفكر في الفراغ الذي

ملأه الماء، فيخطر بباله أن لا بد وأن يكون بين أجزاء الفلين فراغ. فإذا ما لاحظ أن قطعة السكر تمتص الماء كذلك اشتد خاطره بأن هنالك مادة غير الفلين يتخلل الفراغ أجزاءها. فإذا ما لاحظ أن قطعة السكر تذوب في الشاي ترجح لديه أن بين أجزاء الماء نفسه فراغ تملؤه دقائق السكر الذائب. ذلك نمط من الحقائق يجمعها العالم، ويرافق جمعها في ذهنه فكرة توحد بين المشاهدات التي يقصدها منها. فهذه الفكرة هي الفرض

فإذا ما انطلق العالم يفتش عن مواد أخرى ويلاحظ ما إذا كان يفصل بين دقائق أجزائها فراغ، ويرى أن هنالك كثيراً جداً من المواد يصدق عليه ما خطر له في الفرض أكد فرضه فجعله نظرية

والنظرية التي يمكن أن تستنبط من مثالنا هذا هي أن بين جزئيات المادة فراغ. فإذا صادف العالم المحقق أثناء بحثه مادة كالبلاتين شديدة التماسك لا يبدو للمرء أول وهلة أن بين أجزائها فراغا حاول بكل وسائله الممكنة أن يعرف ما إذا كان هذا المثل يرد النظرية أو يؤيدها. فإذا ردها عاد العالم إلى حقائق أخرى، فإذا كانت المشاهدات الجديدة غير ممكنة التأويل على أساس النظرية المقترحة سقطت وبحث عن غيرها، وإلا فإنها تتأيد وتصبح بمنزلة القانون العام.

فأسلوب البحث العلمي واضح المعالم بيّن الطريق. وهو يقتضي كما مر عقلية خاصة وإرادة خاصة وشمولاً خاصاً في النظر لا يتاح لكثيرين. واتباع هذا الأسلوب الواضح هو الذي خطا بالعلم هذه الخطوات الواسعة، وفسح للعقل البشري هذه الآفاق العجيبة الطريقة العلمية والحياة

إن أسلوب التفكير العلمي نافع جداً في العلاقات بين الناس. والتفصيل في ضرب الأمثلة على ذلك يحمل على الإطالة أكثر مما أطلنا

فنحن نشاهد ضعف قوة الملاحظة في التلاميذ والناس. والشرق لا يختلف عن الغرب، ولكن الغربيين أخذوا بأساليب البحث العلمي زمناً فقويت عندهم ملكة المشاهدة واتزنت عقول كثيرين منهم وترفعت عن الأوهام والأخذ بالظواهر؛ وكان لهذا أثر كبير في حياتهم السياسية والاجتماعية. ولا ريب أن أخذنا بأسباب المدنية الحاضرة سيؤدي بنا ما أسرعنا باتخاذنا هذه الأسباب إلى الغاية نفسها؛ وفي هذا الخير كل الخير فكثيرون منا ما يزالون يأخذون بظاهر الأقوال سواء أجرت هذه مجرى حقائق العلم أو حقائق الحياة. ويعزى كثير من الركود والسوء في مجتمعنا إلى هذا الأخذ البسيط.

يقال لنا مثلاً إن مرافق الحياة والإنتاج في بلادنا ضعيفة، فنأخذ بظاهر هذا القول ونتقاعس عن وسائل الإنتاج العلمي فيشتد بنا الخوف والتزاحم

ومن مظاهر حياتنا اتهامنا الشديد للذين يصيبون منا شيئاً من النباهة. وهذا خلق عام في الناس، ولكن شدته عندنا ظاهرة. فما أن ينبغ نابغ حتى تدور الألسنة فيه بالكذب والافتراء. ومما يدل على ضعف الروح العلمية في الناس تصديقهم بمفتريات وادعاءات لا تنطبق على الواقع ولا يصدقها العقل. وهم يأخذون بهذه المفتريات بضعف النظرة العلمية فيهم. فالذي يحملك على رأي في إنسان لم تعرفه أنت بنفسك كالذي يحملك على القول بأن الهواء غير ذي وزن دون أن تزنه - كلا الأمرين يدل على فقدان النظرة العلمية

(السلط)

محمد أديب العامري

أبو الفرج الببغاء

للأستاذ عبد العظيم علي قناوي

- 2 -

قدمت طرفاً عن نشأة أبي الفرج وعن حياته الأدبية، فلأقدم طرفاً من شعره ونثره محاولاً أن أكشف في أثناء عرضي لها عن مكنون معانيها، وروائع أخيلتها، بما يقر عين الكاتب، وينقع غلة الشاعر، فأحيي شعراً كاد أن يندثر، وأذيع أدباً قد غمر، بينا صاحبهما كان في عصره غمر البديهة وفير النباهة. ولا أكاد أفهم لماذا ضن الزمان على أبي الفرج بما وهبه لمن هم أدنى منه مكانة وأقل قدراً، ممن ذاع في عصرنا أدبهم، وصارت ملء الأسماع والأبصار أسماؤهم؛ إلا إذا اعتقدت أن للأدب جَدّاً قد يكون لامعاً فينشر تاريخ صاحبه، وقد يكون خابياً فيأفل بأفوله صيت كاتبه؛ وهذا هو نصيب أبي

الفرج من أدبه، ولكني أرجو أن أقضي حقوقاً نام قاضيها، وأوفي ذكر أيادٍ على اللغة لم تجد من يوفيها، فيتنبه علية الكتاب ورافعو ألوية الأدب في مصر إلى أمثال الببغاء ممن لفهم الدهر في طياته، وطواهم بين إمعاته ونكراته، وكانوا في إبان نهضة اللغة من النابهين، وفي عصور ازدهار الأدب من الفحول النوابغ، فيحيون تراثهم وينشرون للأدباء سيرهم، ويقرئوننا شعرهم ونثرهم

طرق أبو الفرج جميع أغراض الشعر المتداولة في عصره إلا ما يبعد صاحبه عن النبل والمروءة ويسمه بسمة الفحش والسفاهة أو ينظمه في سمط السلطاء، فلم يكن هجاء مقذعا بل كان يربأ بنفسه عن أن تكون في منزلة دنيا فيتناول الأحساب يعرضها أو الأعراض ينهشها، كما كان يفعل ذلك أكثر شعراء عصره. وإنه ليبدو لنا من دراسة شعره أنه كان رقيق الحاشية سجيح الخلق نبيل المروءة محبباً إلى علية القوم وعامتهم، يرى أن له مكانة ترفعه عن اللغو، وتسمو به عن الهجو. وإليك ما يشعرنا به من شعره قال:

أكُلُّ وميض بارقة كذوب؟ ... أما في الدهر شيء لا يريب؟
تشابهت الطباع فلا دنئ ... يحن إلى الثناء ولا حسيب
وشاع البخل في الأشياء حتى ... يكاد يشح بالريح الهبوب

وفيها يقول:

أبى لي أن أقول الهجر قدر ... بعيد أن تجاوره العيوب

وإذن فاعتداده بنفسه، وعرفانه قدرها، هو الذي حدا به إلى الترفع عن الهجاء. ولقد كان أبياً عزيز النفس لا يتحمل منة ولا يستكين عن ذلة ويدعو إلى القناعة شأن شعراء الزهد في عصره:

ما الذل إلا تحمل المنن ... فكن عزيزاً إن شئت أو فهن
إذا اقتصرنا على اليسير فما ال ... عِلة في عتبنا على الزمن

ومع أن هذا الشعر قد يكون صادراً للحكمة وإرسال الأمثال فإنه يدلنا على صفاته ويشي إلينا ببعض خلاله. كذلك لم يكن من الرقعاء الماجنين أو الخلعاء المستهترين، وإن هو قد ألم في صدر شبابه بما تدعو إليه نزوات الشباب، وأتى في باكورة صباه ما يصبو إليه من لا يزال غض الإهاب، لكنه مع هذا كان عنيف اللسان شريف البيان، تقرأ حوادثه الكاعب الغانية والشمطاء الفانية فلا تجد الأولى ما يريق حياءها أو يبعث الخجل إلى وجهها، وإن وجدت الأخرى ما يهيج أشجانها ويتصباها، ويبعث فيها ذكريات أيام شبابها وصباها؛ وهذه قصة تريك حقيقة ما نقول:

تخلّف عن الغزو مع سيف الدولة بدمشق، وكانت سنه قرابة العشرين؛ ويظهر أنه أحس وخز الضمير وتأنيب الشهامة، فأخذ يتسلى عن تخلفه بارتياد الحدائق والرياض، ويتعزى عن اتهامه بالقعود بالقصف والمجون، فقصد إلى دير مران، واختار له من رهبانه سميراً هو أقلهم في الرهبنة حظاً، وأديرت بينهما الراح، وإذا راهب آخر يوحي إليه بطرفه يستقدمه إليه، فانتحيا ناحية، فسلمه رقعة فضها فإذا هي دعوة إلى زيارة أرسلها صاحبها في عبارة رقيقة وأبيات رشيقة ختمها بهذين البيتين:

فإن تقبلت ما أتاك به ... لم تشِن الظنَّ فيه بالكذب
وإن أتى الزهد دون رغبتنا ... فكن كمن لم يقل ولم يجب

فصحا من سكره، وتخيل الداعي في نثره وشعره ملكاً كريماً، أو عاشقاً نبيلا، فكان جوابه على دعوته ما ذكره في وصفه لتلك الحادثة إذ يقول:

وكان جوابي طاعة لا مقالة ... ومن ذا الذي لا يستجيب إلى اليسر
فلاقيت ملء العين نبلا وهمة ... مُحَلَّى السجايا بالطلاقة والبشر

فاستقبله غلام (كأن البدر ركب على إزاره) واقتعدا وغلاميهما غارب اللذة وتناهيا نوادر الأخبار وتناهبا روائع الأشعار على كؤوس المدام، فما شملتهم بالفرح الشمول حتى أمر المضيف غلامه بالغناء فغنى:

يا مالكي وهو ملكي ... وسالبي ثوب نسكي
نزه يقين الهوى في ... ك عن تعرض شك
لولاك ما كنت أبكي ... إلى الصباح وأبكي

فانتشيا من راحين، وطربا بمدامين، واستسلما للمرح، وأسلما زماميهما إلى النشوة والفرح، فاقترح المضيف على الضيف (أن يشي ليلتهما بشيء يكون لها طرازاً

ولذكرها معلماً) ففعل وأنشد ارتجالاً:

وليلة أوسعتني ... حسناً، ولهواً، وأنساً
ما زلت ألثم بدراً ... بها، وأشرب شمساً
إذ أطلع الدير سعداً ... لم يبق مذبان نحساً
فصار للروح مني ... روحاً وللنفس نفساً

فطربوا وقصفوا ما طاب لهم الطرب والقصف، وقد وشى ليلتهما بقصيدة طويلة جميلة النسج سنية الخيال نورد منها قوله:

جَنينا جنيَّ الورد في غير وقته ... وزهر الرُّبا من روض خديه والثَّغر
وقابلنا من وجهه وشرابه ... بشمسين في جنحي دجى الليل والشَّعر
وغنى فصار السمع كالطرف آخذاً ... بأوفر حظ من محاسنه الزُّهر
وأمتعنا من وجنتيه بمثل ما ... تمزج كفاه من الماء والخمر
سرور شكرنا منة الصحو إذ دعا ... إليه، ولم نشكر به منة السكر
مضى وكأني كنت فيه مهوماً ... يحدث عن طيف الخيال الذي يسري

أليست أبياته كلها وهي في موقف ينسي الحياء سخية به كريمة بالاحتشام؛ ليس فيها هناة تأخذها عليه فتاة، ولا خيال تعافه الحييات أو تتنكر له الناسكات؟

ويذكرني وصف ليلته أبياتاً لشاعرنا العظيم محمود سامي باشا البارودي حذا فيها حذو أبي الفرج، فوصف ليلة قال:

وليلة من ليالي الأنس صافية ... بلغت بالراح فيها كل مقترحي
قتلتها بعد أن نام الخلي بها ... بغادة لو رأتها الشمس لم تلح
فكيف لا تدرك الأفلاك منزلتي ... والبدر في مجلسي والشمس في قدحي

ولكن شتان بين الليلتين، فليلة البارودي إحدى ليالي أنسه الكثيرة، وهي لم تزد على أنها ليلة صافية، بلغ فيها مقترحه لا أمنيته؛ وما أسهل ما يبلغ الإنسان ما يقترح! أما ليلة الببغاء فليلة فريدة في حسنها حافلة بلهوها مفعمة بأنسها؛ وكيف لا تكون كذلك وهو يلثم بدراً ويرشف شمساً؛ أما صاحبه فإنه يجالس البدر أو يخالسه، وينظر إلى الشمس كما ينظر إليها عابر سبيل، وفرق بين من يلثم ويشرب، ومن يجالس وينظر، وأين هو من قول الببغاء؟

فصار للروح مني ... روحاً وللنفس نفساً

وكان على المحتذي أن يفوق المحتذى به، ويجلي في الميدان الذي اختاره لمنازلته فيه لا أن يجيء مصلياً بينا الأول مرتجل والثاني متئد، ولكن ذلك ما لم يستطع له شاعرنا بلوغاً. ولننتقل إلى الحديث عن شعره

تأثر أبو الفرج في شعره خطوات شاعرين ملأ ذكرهما الآفاق، وذاع صيتهما في الشام والعراق، هما أبو تمام والبحتري، فقد كان اسماهما في عصره لا يزالان أرفع أسماء الشعراء فتأثر بهما، فأولع بالبديع ولعاً شديداً، وأوغل فيه أعظم إيغال، فإنك لا تكاد تجد بيتاً ليس فيه نوع من أنواع البديع، وهذا هو ما أخذه عن أبي تمام، ولكنه لم يغرب في ألفاظه إغرابه ولا تعمد الكلمات الجزلة والعبارات الضخمة ذات الموسيقى الصاخبة والرنين القوي التي أوخذ عليها أبو تمام، حتى وجد في عصره من النقدة من ينكر عليه عبقريته بل شاعريته، فإن كلفه بالإغراب وشغفه بضخامة الألفاظ كان سبباً في غموض بعض معانيه. وأخذ عن البحتري الألفاظ العذبة والأخيلة الشائقة التي لا تصك الآذان، ولا تثقل على الأسماع، ولا تدفع بالقارئ إلى قطيعة الشعر جرياً وراء المعجمات تارة، وإمعاناً في تفهم المعميات من المعاني أخرى، فأخذ من طريقتيهما بالحسنيين، وكاد يجلي في الحلبتين. ولا أدعي أنه بذهما أو ساواهما ولكني أعتقد أنه عدا خلفهما فلم يتخلف، ونهج بعض نهجهما دون أن يتكلف، فشعره سهل معبد لا تكتنفه جنادل، ولا تحوطه مفاوز، بل هو مما يلذ الأديب العريق، ويفهمه المتأدب الرقيق. وسأورد من شعره غير ما أوردته في مناسباته ما يروق غير مدقق في الاختيار ولا متحر الجودة؛ لأني أرى شعره طبقة واحدة، ووحدة غير متنوعة، لأنه نبعة صادقة. فاسمعه يصف ولهه بحبه، وهيامه بمالك لبه، فهو يرى أن قربه وبعده يستويان عنده لأن الوصل لا يطفئ غلة ولا يبرئ علة، والبعد لا يزيد تأجج شوقه، ولا يؤرث نار وجده، فقد بلغ كلاهما النهاية وأوفيا على الغاية، وهي مبالغة طريفة ساقها في لفظ ساحر قال:

حصلت من الهوى بك في محل ... يساوي بين قربك والفراق
فلو واصلت ما نقص اشتياقي ... كما لو بنت ما زاد اشتياقي
وقد طُرق هذا المعنى من قبله، فلعله ألم به فسطا عليه، أو جاء من توافق الخواطر، وكلاهما جائز. وهذان بيتان في هذا المعنى لعليه بنت المهدي قالت:
إذا كان لا يسليك عمن تحبه ... تناء ولا يشفيك طول تلاقي
فما أنت إلا مستعير حشاشة ... لمهجة نفس آذنت بفراق
ولكنه تخلف عن علية فقد بلغت غرضها في بيت، أما هو فاحتاج بيته الأول إلى بيت ثان يوضح غرضه ويبين قصده. وهذا معنى آخر من المعاني المطروقة قبله لم يأخذه كما سبق إليه بل جود فيه وحسن حتى ليخاله القارئ معناه المبتكر، قال:
من ضر من بعد السرور ببعده ... لو كان يجمل في صيانة عبده
يبدو فأطرق هيبة ومخافة ... من أن يؤثر ناظري في خده
قد صرت أعجب أن علة طرفه ... ليست تؤثر علة في وده
أخذ هذا المعنى من قول أبي تمام:
ومضمخ بالمسك في وجناته ... حسن الشمائل ساحر الألفاظ
أبدا ترى الآثار في وجناته ... مما يجرحها من الألحاظ
وتراه سائر دهره متبسماً ... فإذا رآني مرّ كالمغتاظ
في القلب مني والجوانح والحشا ... من حبه حر كحر شواظ
وقد زاد الببغاء على معنى أبي تمام أن إغضاءه لسببين: أولهما هيبته وجلالته، وثانيهما خشيته أن يؤثر طرفه في وجنته. ولعله مما يشين المحبوب أن يرى دائماً مجرح الوجنات مخدد الخدود من تلك الألحاظ اللواحظ والعيون النواظر، وأحسب أنه أخذ معنى أبي تمام
في قوله:
ومهفهف لما اكتست وجناته ... حلل الملاحة طرزت بعذاره
لما انتصرت على عظيم جفائه ... بالقلب كان القلب من أنصاره
كملت محاسن وجهه فكأنما اق ... تبس الهلال النور من أنواره
وإذا ألح القلب في هجرانه ... قال الهوى لا بد منه فداره
وإلى عدد تال وموعد قريب.
(المعادي)
عبد العظيم علي قناوي
للأدب والتاريخ
مصطفى صادق الرافعي
1880 - 1937
للأستاذ محمد سعيد العريان
- 12 -
- لقد وضعك حسنك في طريقي موضع البدر؛ يرى ويحب ولا تناله يد ولا تعلق بنوره ظلمة نفس، لكن كبرياءك نصبتك نصبة جبل شامخ: كأنه ما خلق ذلك الخلق المنتثر الوعر إلا لتدق به قلوب المصدعين فيه. . . كوني من شئت أو ما شئت، خلقاً مما يكبر في صدرك أم مما يكبر في صدري؛ كوني ثلاثا من النساء كما قلت أو ثلاثة من الملائكة، ولكن لا تكوني ثلاثة آلام. انفحي نفح العطر الذي يلمس بالروح، واظهري مظهر الضوء الذي يلمس بالعين، ولكن دعيني في جوك وفي نورك. اصعدي إلى سمائك العالية، ولكن ألبسيني قبل ذلك جناحين. كوني ما أرادت نفسك، ولكن أشعري نفسك هذه أني إنسان. . .!)
(هو)
- (إن أمي ولدت نفسي ونفسي هي ولدتني، فلا ترج أن تصيب في طباع أنثى وإلا ضل ضلالك أيها الحبيب. . .)
- (هي)
هو وهي؟
(رجل وامرأة كأنما كانا ذرتين متجاورتين في طينة الخلق الأزلية وخرجتا من يد الله معاً؛ هي بروعتها ودلالها وسحرها، وهو بأحزانه وقوته وفلسفته . . .

(كانا في الحب جزءين من تاريخ واحد، نشر منه ما نشر وطوى ما طواه؛ على أنها كانت له فيما أرى كملك الوحي للأنبياء، ورأى في وجهها من النور والصفاء ما جعلها بين عينيه وبين فلك المعاني السامية كمرآة المرصد السماوي؛ فكل ما في رسائله من البيان والإشراق هو نفسها، وكل ما فيها من ظلمات الحزن هو نفسه!)

لم تكن (هي) أولى حبائبه ولكنها آخر من أحب؛ عرفها وقد تخطى الشباب وخلّف وراءه أربعين سنة ونيفا حافلة بأيام الهناءة مشرقة بذكريات الهوى والصبابة والأحلام، وكان بينهما في السن عُمرُ غلام يخطو إلى الشباب. . .

سعى إلى مجلسها يوم (الثلاثاء) سعي الخلي إلى اللهو والغزل، يلتمس في مجلسها مادة الشعر، وجلاء الخاطر، وصقالة النفس؛ ومجلسها في كل (ثلاثاء) هو ندوة الأدب ومجمع الشعراء؛ وجلس إليها ساعة، وتحدث إليها وتحدثت إليه، وكان كل شيء منها ومما حولها يتحدث في نفسه. ولمسه الحب لمسة ساحر جعلت في لسانه حديثاً ولعينيه حديثاً. وطال انفرادها به عن ضيوفها؛ فما تركته إلا لتعتذر إليهم فتعود إليه. . .

وقامت تودعه إلى الباب وهي تقول: (متى تكون سعادتي بالزيارة الثانية؟) فنهى النفس عن الهوى ونسأ الأجل إلى غد. . .!

ووقع من نفسها كما وقعت من نفسه، فما افترقا من بعدها إلا على ميعاد؛ ومحت صورتها من ماضيه كل ما كان من أيامه وكل من عرف، لتملأ هي نفسه بروعتها ودلالها وسحرها؛ وانتزعها هو من أيامها فما بقي لها من أصحابها وصواحبها غير مُصْيَفٍ مشغلةً في الليل والنهار

وكان الرافعي أول من يغشى مجلسها يوم الثلاثاء وآخر من ينصرف، فإن منعه شيء عن شهود مجلسها في القاهرة كتب إليها من طنطا وكتبت إليه على أن يكون له عوض مما فاته يومٌ وحده. . .

كان يحبها حباً عنيفاً جارفاً لا يقف في سبيله شيء، ولكنه حب ليس من حب الناس، حب فوق الشهوات وفوق الغايات الدنيا لأنه ليس له مدى ولا غاية. لقد كان يلتمس مثل هذا الحب من زمان ليجد فيه ينبوع الشعر وصفاء الروح، وقد وجدهما، ولكن في نفسه لا في لسانه وقلمه، وأحسّ وشعر وتنورت نفسه الآفاق البعيدة، ولكن ليثور بكل ذلك دمه وتصطرع خواطره ولا يجد البيان الذي يصف نفسه ويبين عن خواطره. . .

بلى، قد كتب ونظم وكان من إلهام الحب شعره وبيانه، ولكنه منذ ذاق الحب أيقن أنه عاجز عن أن يقول في الحب شعراً وكتابة، ومات وهو يدندن بقصيدة لم ينظمها ولم يسمع منها أحد بيتاً، لأن لغة البشر أضيق من أن تتسع لمعانيها أو تعبر عنها، لأنها من خفقات القلب

وهمسات الوجدان

و (هي) أديبة فيلسوفة شاعرة؛ فمن ذلك كان حبها وكان حبه (من خصائصها أنها لا تعجب بشيء إعجابها بدقة التعبير الشعري. . . إنها تريد أن تجمع إلى صفاء وجهها وإشراق خديها وخلابتها وسحرها، صفاء اللفظ وإشراق المعنى وحسن المعرض وجمال العبارة، وهذا هو الحب عندها. . .)

(ولا يستخرج عجبها شيء كما يعجبها الكلام المفنن المشرق المضيء بروح الشعر؛ فهو حلاها وجواهرها؛ وما لسوق حبها من دنانير غير المعاني الذهبية؛ فإنها لا تبايعك صفقة يد بيد، ولكن خفقة قلب على قلب)

وكذلك تحابا، وتراءيا قلباً لقلب، وتكاشفا نفساً لنفس، ومضى الحب على سنته. ونظر الرافعي إليها وإلى نفسه وراح يحلم، وخيل إليه أنه يمكن أن يكون أسعد مما هو لو أنها. . . ولو أنها كانت زوجته. . . ثم عاد إلى نفسه يؤامرها فأطرق من حياء. . .

وكانت خطرة عابرة من خطرات الهوى أطافت به لحظة وما عادت. وقالت له نفسه وقال لنفسه، فكأنما انكشفت له أشياء لم يكن يراها من قبل بعيني العاشق، وأوشكت القصة أن تبلغ نهايتها وتنحل العقدة، فجاءت كبرياؤه لتخط الخاتمة. . .

وراح الرافعي يوماً إلى ميعاده، وكان في مجلسها شاعر جلست إليه تحدثه ويحدثها؛ ودخل الرافعي فوقفت له حتى جلس، ثم عادت إلى شاعرها لتتم حديثاً بدأته، وجلس الرافعي مستريباً ينظر؛ وأبطأت به الوحدة، وثقل عليه أن تكون لغيره أحوج ما يكون إليها، ونظر إلى نفسه وإلى صاحبه، وقالت له نفسه: (ما أنت هنا وهي لا توليك من عنايتها بعض ما تولي الضيف. . .؟)

فاحمر وجهه وغلا دمه، ورمى إليها نظرة أو نظرتين، ثم وقف واتخذ طريقه إلى الباب. واستمهلته فما تلبث، وكتب إليها كتاب القطيعة . . .. . .!
وعاد إليه البريد برسالتها تعتذر وتعتب وتجدد الحب والإخلاص في أسطر ثلاثة، ولكن الرافعي حين وجد كبرياءه نسي حبه، وكان هو الفراق الأخير. . .!
كان ذلك في يناير سنة 1924
وثابت إليه نفسه رويداً رويداً، وخلا إلى خواطره وأشجانه ليكتب رسائل الأحزان!
ومضت ثلاث عشرة سنة لم يلتقيا وجهاً لوجه، إلا مرة في حفل أدبي في طنطا؛ فما كانت إلا نظرة وجوابها، ثم فر أحدهما من الميدان وخلف الآخر ينتظر. . .
على أن الرافعي لم ينس صاحبته قط، وعاش ما عاش بعد ذلك اليوم وما تبرح خاطره لحظة، وما يأنس إلى صديق حتى يتحدث إليه فيما كان بينه وبين (فلانة)، ثم يطرق هنيهة ليرفع رأسه بعدها وهو يقول: (هل يعود ذلك الماضي؟ إنها حماقتي وكبريائي، ليتني لم أفعل، ليت. . .!) ثم ينصرف عن محدثه إلى ذكرياته، ويطول الصمت. . .
وكان لا ينفك يسأل عنها من يعرف خبرها، حتى عرف أنها سافرت إلى الشام تستشفي منذ عام فأقامت هناك، فهفت إليها نفسه وتحركت عاطفته إليها في لون من الحب وغير قليل من الندم؛ فكتب إلى صديقة في (دمشق) لتزورها في مستشفاها وتكتب إليه بخبرها؛ فكتبت إليه:
(بالصدق يا صديقي إنني كلما استعدت بذاكرتي وصية (فلانة) المؤلمة . . . . . ونتيجتها المحزنة، تعتريني حالة انقباض شديد وحزن لا حد له. . . إن الموت في مثل هذه الحالات يعد كنزاً ثميناً لا يحصل عليه إلا السعيد. وإني أتهمك قانوناً . . بأنك كنت السبب فيما نابها، فماذا عليك لو لبيت الدعوة؟ آه، لقد كنت قاسياً وفي منتهى القسوة، فهل كان يحلو لك تعذيبها بهذا الشكل، وإلا فماذا تقصد من هذه القطيعة؟ إن المرأة على حق حين تظن، لا بل حين تعتقد أن الرجل. . . . . لا، السكوت أولى الآن. . .)
أما هذه (الوصية) التي أوصت بها (فلانة) زائرتَها لتبلغها إلى الرافعي، فلست أعرف ما هي؛ فقد قص الرافعي هذا الجزء من الخطاب قبل أن يصل إليّ، ولست أعرف أين خبأه من مكتبه، ولعل ولده الدكتور الرافعي يدري، فإن كان عليه حقاً للأدب أن يحتفظ بما عنده من الرسائل إلى أوانها، فسيأتي يوم تكون فيه هذه الرسائل شيئاً له قيمته في البحث الأدبي
قلت: إن الرافعي قطع ما بينه وبين صاحبته منذ ثلاث عشرة سنة لم يلتقيا إلا مرة، ولكنه كان يكتب لها وتكتب له رسائل لا يحملها ساعي البريد، لأنه كان ينشرها وتنشرها في ثنايا ما تنشر لهما الصحف من رسائل أدبية، يقرؤها قراؤها فلا يجدونها إلا كلاماً من الكلام في موضعها من الحديث أو المقالة أو القصة، ويقرؤها المرسل إليه خاصة فيفهم ما تعنيه وما تشير إليه، ثم يكون الرد كذلك: حشواً من فضول القول في حديث أو مقالة أو قصة؛ هي
رسائل خاصة ولكنها على أعين القراء جميعاً وما ذاع السر ولا انكشف الضمير، وفي أكثر من مرة والرافعي يملي عليّ مقالاته - كان يستمهلني قليلاً ليُعَيِّث في درج مكتبه قليلاً فيخرج ورقة أو قصاصة يملي عليّ منها كلاماً، ثم يعود إلى إملائه من فكره، وأعرف ما يعنيه فأبتسم ويبتسم ثم نعود إلى ما كنا فيه؛ وتنشر المقالة، فلا نلبث أن نجد الرد في رسالة تكتبها (فلانة) فيتلقاها الرافعي في صحيفتها كما يفض العاشق رسالة جاءته في غلافها مع ساعي البريد من حبيب ناء. . .
هي طريقة لم يتفاهما عليها ولكنهما رضياها، وأحسب ذلك نوعاً من الكبرياء التي ربطتهما قلباً إلى قلب، والتي فرقت بينهما على وقدة الحب وحرقة الوجد والحنين. . .!
وكنت مع الرافعي مرة بالقاهرة في شتاء سنة 1935، فقال لي: (مِلْ بنا إلى هذا الشارع!) ولم تكن لنا في ذلك الشارع حاجة ولكني أطعته، وانتهينا إلى مكان، فوقف الرافعي معتمداً على عصاه، ورفع رأسه إلى فوق وهو يقول: (إنها هنا، هذه دارها، من يدري، لعلها الآن خلف هذه النافذة. . .!)
قلت: (مَن؟) قال: (فلانة!)
قالت: (ولكن النوافذ مغلقة جميعاً ولا بصيص من نور؛ فأين تكون؟)

قال: (لعلها الآن في السيما. إذا كان الصباح فاغْدُ عليّ مبكراً لنزورها معاً، إن بي حنيناً إلى الماضي. . . ليتني. . . ولكن أترى من اللائق أن أزورها بعد كل ما كان؟)
قلت: (وما يمنع؟ أحسبها ستسرّ كثيراً بلقياك. . .!)
قال: (إذن في الصباح، ستكون معي، ولكن احذر، احذر أن تغلبك على قلبك. . . أو تسمح لخيالك أن يسبح وراء عينيك. . . إنها فاتنة!)
قلت: (لا، إنها عجوز، فما حاجتي بها. .؟) وضحكت مازحا
فزوى ما بين عينيه وهو يقول: (وَيْ! عجوز، إنها أوفر شباباً منك!)
قلت: (قد يكون لو وقفت بها السن منذ اثنتي عشرة سنة. . .!)
قال: (صدقت. . .! اثنتى عشرة سنة. . .!)
وسكتَ وسكتّ حتى أوصلته إلى الدار، فلما كان الصباح غدوت عليه فأذكرته موعده، فابتسم ابتسامة هادئة وهو يقول: يا بنيّ، إنها ليست هناك، إن (تلك) قد ذهبت منذ اثنتي
عشرة سنة، أما (هذه) فأظنني لا أعرفها. . . إنني أحرص على الماضي الجميل أن تتغير صورته في نفسي. . بحسبي أنها في نفسي .!)
ثم يلبث بعد ذلك أن جاءه أنها سافرت إلى الشام لعلة في أعصابها .!)
(لها بقية)
محمد سعيد العريان
الكميت بن زيد
شاعر العصر المرواني
للأستاذ عبد المتعال الصعيدي
- 2 -
سيرته
ولد الكميت بالكوفة سنة ستين للهجرة، وهي السنة التي قتل فيها الحسين رضي الله عنه، وكان أهل الكوفة قد دعوه ليبايعوه في بدء عهد يزيد بن معاوية، فسار إليهم من مكة إلى أن وصل إلى كربلاء، فقتله فيها جيش عبيد الله ابن زياد
وكانت الكوفة عاصمة العراق وما إليه من بلاد فارس وما حواليها، وكانت أيضاً مهداً للتشيع العلوي من يوم أن اتخذها علي رضي الله عنه عاصمة لخلافته، كما كانت دمشق بالشام مهداً للتشيع الأموي بتأثير معاوية رضي الله عنه، ولعلهما بهذا أرادا أن يستغلا العصبية القديمة بين العراق والشام، فقد كانت هناك منافسة شديدة في الجاهلية بين عرب العراق وعلى رأسهم دولة المناذرة، وبين عرب الشام وعلى رأسهم دولة الغساسنة. ولم يترك علي (ض) المدينة التي كانت عاصمة الخلفاء قبله إلى الكوفة إلا ليكون له أهل العراق على معاوية وأهل الشام، ويساعدوه على أن تكون الخلافة بعاصمتهم، فتحيا بها بلادهم، ويكون خيرها لهم، ولا يستأثر به أهل الشام دونهم؛ وهذا إلى ما في العراق من الرجال والخصب، فيضاهي بهذا خصب الشام بالمال والرجال، ويجد من الحاقدين على معاوية وبني أمية ما لا يجده في مكة والمدينة
وقد كان الكميت من بني أسد بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن معد بن عدنان، وهو الجد الأعلى للنبي عليه الصلاة والسلام، فنشأ بين من نزح من قبيلته من البادية إلى الكوفة، وأخذ عن علمائها من أهل الحضر علوم الدين والأدب، وكانت له جدتان أدركتا الجاهلية فكانتا تصفان له البادية وأمورها، وتخبرانه بأخبار الناس في الجاهلية، فإذا شك في شعر أو خبر عرضه عليهما فتخبرانه عنه، فتأثر من هذا وذاك بثقافة البدو والحضر، واجتمع له علم غزير بلغات العرب وغريبها وأشعارها وأيامها ومفاخرها ومثالبها، وروى
الحديث وغيره من العلوم الدينية، وقد ذكر صاحب الأغاني بعض رواياته في الحديث فليرجع إليها من يريدها
ولم يقصر الكميت نفسه على العلم والأدب، بل كان يأخذ نفسه بقول الشعر والاستماع إليه، ولكن ميله إلى هذا لم يكن يبلغ ميله إلى العلم والأدب. ويحكى أنه وقف وهو صبي على الفرزدق وهو ينشد أشعاره، فراع الفرزدق حسن استماع الكميت وأخذه الزهو والخيلاء، فلما فرغ من إنشاده أقبل على الصبي وقال له: هل أعجبك

شعري يا بني؟ فأجاب الكميت: لقد طربت لشعرك طرباً لم أشعر بمثله من قبل، فانتشى الفرزدق، وأخذ العجب منه كل مأخذ، وقال للصبي في نشوة المفتون: أيسرك أني أبوك؟ فقال الكميت: أما أبي فلا أريد به بدلاً، ولكن يسرني أن تكون أمي. فحصر الفرزدق، وقال: ما مر بي مثلها

فلما أتم الكميت دراسته اشتغل بما كان يغلب ميله إليه من العلم والتعليم، فكان يعلم الصبيان بمسجد الكوفة، ولكن عشيرته من بني أسد كانت تريد منه أن يكون شاعرها الذي يعلي من شأنها، وينشر من مفاخرها، وينافح عنها أعداءها، وقد صار الشعر في الدولة المروانية كما كان في الجاهلية مفخرة القبائل العربية فتعلقت به تلك القبائل كما كانت تتعلق به في جاهليتها، فأخذ بنو أسد يرغبون الكميت في قول الشعر، ويحملونه على الانصراف إليه والتفرغ له، ويحكون في ذلك أن عمه وكان رئيس قومه أخذ الكميت يوماً وقال له: يا كميت لم لا تقول الشعر؟ ثم أخذه فأدخله الماء وقال: لا أخرجك منه أو تقول الشعر، فمرت به قنبرة فأنشد متمثلاً:

يالكِ من قُنْبُرَةٍ بِمَعْمَرِ ... خلا لكِ الجَوُّ فبيضي واصفري

ونَقِّري ما شئت أن تُنَقِّري

فقال له عمه ورحمه: لقد قلت شعراً فاخرج، فقال الكميت لا أخرج أو أقول لنفسي، فما رام حتى عمل قصيدته المشهورة، وهي أول شعره، ثم غدا على عمه فقال: اجمع لي العشيرة ليسمعوا فجمعهم له فأنشد:

طَرِبْتُ وما شوقاً إلى البيض أطْرَبُ ... ولا لعباً منِّي وذو الشوق يلعبُ

وقد طعن الأستاذ زكي مبارك في صحة هذه القصة، وذكر أنه ليس بمعقول أن تكون هذه القصيدة أول شعره، لأن فيها من القوة ما يقطع بأنها ليست بداية شعرية، وإنما هي صرخة

شاعر فحل طال منه الصيال

ولا وجه عندي لهذا الطعن في صحة هذه القصة، لأن هذه القصيدة: (طربتُ وما شوقاً إلى البيض أطرَبُ) من قصائد الهاشميات، وقد ثبت من غير هذا الطريق أن هاشمياته على العموم وهذه القصيدة على الخصوص كانت أول ما قاله من الشعر، وواضح أنه لا يراد من هذا إلا أنها أول ما قاله من الشعر الجيد الذي يعتد به، فلا يمنع أن يكون له شعر قبل هذا الشعر ترقى فيه إلى أن وصل إلى درجة هذا الشعر الجيد

فلما أرادته عشيرته أن يكون شاعراً ينافح عنها ويصاول أعداءها، صرف نفسه إلى قول الشعر وتفرغ له حتى أجاد إنشاءه، وكان قد ورث التشيع لأهل البيت عن بيئته بالكوفة التي نشأ فيها، ولم يكن للشيعة في عهده شاعر يتعصب لها وينشر دعوتها كما كان لبني مروان من الشعراء الأخطل وغيره، وكما كان للخوارج الطرماح بن حكيم وعمران بن حطان، فرأى أن يكون هو شاعر الشيعة وناصر دعوتها، والمشيد بذكر أهل البيت والناشر لفضلهم

وقد كانت الشيعة في ذلك الوقت تعادي بني مروان والخوارج معاً؛ ولكن العداوة بين الشيعة والخوارج لم تكن تبلغ درجة العداوة بينها وبين بني مروان، لأن الخوارج كانوا قد اشتغلوا بعداوة بني مروان بعد أن صار لهم الأمر، وتناسوا عداوتهم للشيعة بعد انصراف الأمر عنهم، فاشترك كل من الشيعة والخوارج في مناهضة الدولة المروانية، ومناوأتها بسيوفهم وألسنتهم، وكان اشتراكهم في معارضة هذه الدولة سبباً في تخفيف ما بينهم من العداوة

ولهذا كان تعصب الكميت في شعره للشيعة موجهاً إلى بني مروان وحدهم، ولا يدخل في أولئك الخوارج الذين لقي الشيعة منهم ما لقوا في عهد علي رضي الله عنه، بل لم يمنع ذلك التعصب الكميت من إخلاص المودة للطرماح بن حكيم من شعراء الخوارج، فقد كان بينهما من الخلطة والمودة والصفاء ما لم يكن بين اثنين، حتى إن راوية الكميت قال: أنشدت الكميت قول الطرماح:

إذا قبضتْ نفسُ الطِّرِمَّاح أخلقتْ ... عُرَى المجد واسترخى عنانُ القصائِد

فقال الكميت: إي والله، وعنان الخطابة والرواية

وهذه الأحوال كانت بينهما على تفاوت المذاهب والعصبية والديانة، فقد كان الكميت شيعياً عصبياً عدنانياً من شعراء مضر متعصباً لأهل الكوفة، وكان الطرماح خارجياً صفرياً قحطانياً عصبياً لقحطان من شعراء اليمن متعصباً لأهل الشام، فقيل للكميت:

فيم اتفقتما هذا الاتفاق مع اختلاف سائر الأهواء؟ فقال: اتفقنا على بغض العامة والعامة التي اتفقا على بغضها كانت في ذلك الوقت جمهور الأمة من خاصة الناس وعامتهم، فقد استكانوا لحكم بني مروان حين طال عليهم أمده، وخضعوا لظلمهم ولم يعنهم إلا أمورهم الخاصة، كشأن العامة في كل وقت وفي كل أمة، ولا يزال بغض الحكومات القائمة يقرب الآن بين معارضيها، وينسيهم ما بينهم من عداوات، واختلاف في المشارب والأهواء

فنصب الكميت نفسه لمناهضة بني مروان بشعره، وهم أصحاب الملك في الناس، وأخذ ينصر عليهم أهل البيت والأمر مدبر عنهم، وليس هناك مطمع فيهم، وإنما هو سبيل اتخذه لنفسه يرضي به عقيدته، وينأى بعلمه وشعره أن يتخذهما أداة كسب كما فعل ذلك غيره من الشعراء، فكان يقول الشعر للشعر ويتخذه وسيلة لإرضاء نفسه وعقيدته، ويجاهد به في إصلاح حال أمته، ويؤدي به ما يجب على الشاعر في عصره، ولا يهمه بعد هذا ما يفوته من دنيا الملوك، ولا ما يصيبه من عنتهم وإرهاقهم وقد أراد ثراة أهل البيت أن يثيبوه على ما يقوم به من نصر دعوتهم، وإنشائه القصائد الطوال في مدحهم والإشادة بذكرهم، فكان يعرض عما يعرضونه عليه من الصلات والجوائز، ويذكر أنه يريد من ذلك وجه الله تعالى، ونصرة الحق الذي يدين به، وقد حدث صاعد مولى الكميت قال: دخلنا على أبي جعفر محمد ابن علي فأنشده الكميت قصيدته التي أولها:

مَنْ لقلبٍ متيَّمٍ مستهامِ

فأمر له بمال وثياب، فقال الكميت: والله ما أحببتكم للدنيا، ولو أردت الدنيا لأتيت من هي في يديه، ولكنني أحببتكم للآخرة، فأما الثياب التي أصابت أجسامكم فأنا أقبلها لبركاتها، وأما المال فلا أقبله، فرده وقبل الثياب

وحدث أيضاً فقال: دخلنا على فاطمة بنت الحسين رضي الله عنهما، فقالت: هذا شاعرنا أهل البيت، وجاءت بقدح فيه سويق فحركته بيدها وأسقته للكميت فشربه، ثم أمرت له بثلاثين ديناراً ومركب، فهملت عيناه وقال: لا والله لا أقبلها، إني لا أحبكم للدنيا

وحدث محمد بن سهل صاحب الكميت قال: دخلت مع الكميت على أبي عبد الله جعفر بن محمد في أيام التشريق فقال له: جعلت فداك ألا أنشدك؟ فقال إنها أيام عظام، قال إنها فيكم، قال هات، وبعث أبو عبد الله إلى بعض أهله فقرب، فأنشده فكثر البكاء حتى أتى على هذا البيت:

يصيبُ به الرَّامونَ عن قوس غيرهمْ ... فيا آخراً أسْدَى له الغيَّ أوّلُ

فرفع أبو عبد الله يديه وقال: اللهم اغفر للكميت ما قدم وما أخر، وما أسر وما أعلن، واعطه حتى يرضى

عبد المتعال الصعيدي

الحكم في مباراة الأقصوصة

اجتمعت لجنة التحكيم في مباراة الأقصوصة التي اقترحتها مجلة الرواية وجعلت للفائز فيها جائزة قدرها خمسة عشر جنيها، يوم الأحد الماضي مؤلفة من حضرات الأساتذة: محمد فريد أبو حديد، توفيق الحكيم، إبراهيم عبد القادر المازني، محمود تيمور، ثم صاحب هذه المجلة، ونظرت فيما تجمع من الأقاصيص المتسابقة، ثم قررت النظام الذي تتبعه في قراءتها وفحصها. وستجتمع مرات أخرى متوالية حتى يصدر حكمها فننشره في الرواية والرسالة وبعض الصحف.

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

للدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

الفلسفة الصينية

العصر المنهجي - كونفيشيوس

مؤلفاته

تنقسم مؤلفات هذا الحكيم إلى قسمين. فأما القسم الأول فهو مجموعة شروحه

وتعليقاته على الكتب المقدسة التي نسخها بخطه ثم أحاطها بطائفة ضخمة من معارفه العامة وآرائه الشخصية في الدين والفلسفتين النظرية والعملية، كما أن تلاميذه قد أحاطوا الأقسام الفلسفية من هذه الكتب بشروحهم وتعليقاتهم كذلك إلى حد أن اختلطت على الباحثين آراؤهم بآراء أساتذتهم

وأما القسم الثاني فهو كتبه الخاصة التي وضعها وضمنها مذهبه وعارض في بعضها مذاهب من سبقوه وعاصروه من الفلاسفة الذين أسلفنا الحديث عنهم في الفصول السابقة.

وهذا القسم أيضاً ممتزج بآراء التلاميذ على نحو ما امتزجت آراء سقراط بمذهب أفلاطون وإن كانت آراء حكيمي الإغريق قد وضحت وتبين منها ما للأستاذ وما للتلميذ بفضل علماء العصر الحديث الذين نخص منهم بالذكر العالمين الفرنسيين (ريفو) و (بريهييه)

القسم الأول

يحوي هذا القسم كل الكتب المقدسة الهامة التي سبقت عصر (كونفيشيوس) ولكن الذي يعنينا هنا هو الكتب الرئيسية وهي: (وي - كينج) أي الكتب الخمسة. فأما (شو - كينج) و (شي - كينج) فقد كان حكيمنا معنياً بهما عناية فائقة إلى حد أنه اتخذ مما فيهما من صور مُثله العليا التي يجب أن يحتذيها العلماء والملوك؛ ولم يعرض المستصينون لتحقيق ما احتواه هذان الكتابان وتبين ما للأستاذ فيهما وما للتلاميذ من شروح وتعليقات. وأما (إي - كينج) فقد وجد عليه الباحثون شروحاً مطولة، وتعليقات مسهبة، وتقريرات مطنبة، فدرس العلماء كل هذه دراسة دقيقة خرجوا بعدها مقتنعين بأن هذه المطولات مزيج من آراء: (كونفيشيوس) وتلاميذه، ولكنهم لم يستطيعوا إلى الآن أن يحلوا هذه المشكلة تماماً فيبينوا ما للأستاذ وما للتلاميذ. وأما (لي - كي) فقد ضاع أكثره، لأنه حين أحرقت الكتب لم يكن متداولاً كغيره ففقد منه ما فقد، والجزء القليل الباقي منه وجد - فيما يظهر - بدون شرح ولا تعليق، لأنه كتاب طقوس دينية أكثر منه أي شيء آخر، فلم يكن هناك داع للشرح أو للتعليق. وأما كتاب (تشون - تسيو) ومعناه: (يوميات الربيع والخريف) فهو الكتاب الوحيد الذي لم يَرتبْ أحد من الباحثين المدققين في نسبة ما عليه من شروح وتعليقات إلى (كونفيشيوس) وحده. ويؤكد أولئك الباحثون أن هذه التعليقات هي أسمى بكثير من النصوص الأصلية للكتاب، لأن هذه التعليقات تدل على علم واسع ودراية شاملة بالتاريخ الصيني القديم والمعاصر لهذا الحكيم بدرجة أدهشت علماء العصر الحديث

القسم الثاني

يتكون هذا القسم من أربعة مؤلفات تدعى بالصينية (سي - شو). وتعبيرنا في جانب هذه الكتب بألف أو وضع فيه شيء من التجوز، لأن المستصينين يكادون يجمعون على أن الحكيم أملى بعض هذه الكتب على تلاميذه إملاء كما حاورهم أو حاضرهم بالبعض الآخر فرووه عنه وأثبتوه مقترنا باسمه دون تغيير ولا تبديل. وليس هذا فحسب، بل إن كتاب (لون - يو) أحد الكتب الأربعة وأكثرها انتشاراً قد وجد مكتوباً بأسلوب أحد الذين تتلمذوا على تلاميذ (كونفيشيوس) بعد أن روى له أستاذه عن الحكيم الأكبر ما رواه شفهياً من الآراء والأفكار بنصوصها وعباراتها. ويحتوي هذا الكتاب على مجموعة من آراء مقتضبة وجوامع كلم، ومحادثات مع التلاميذ وملاحظات هؤلاء على آراء أساتذتهم وهلم جرا. وليس لهذا الكتاب - على سعة ذيوعه وتداوله - أهمية فلسفية عظمى

أما الكتاب الثاني وهو (تا - هيو) أو الدراسة الكبرى فهو دراسات وجيزة لبعض الآراء والمشاكل الفكرية في صورة أمثلة وحكم، وقد كتبه (تسيه سي) حفيد كونفيشيوس) ولكن (تشو - إي) أحد شراح (كونفيشيوس) الصينيين في القرن الثاني عشر يؤكد أن النصوص الأصلية لهذا الكتاب قد وجدت مثبتة بخط الحكيم نفسه وأن حفيده لم يزد على شرحها والتعليق عليها. ولا يرى العلماء في هذا الرأي بأساً إذ يحتمل أن يكون هذا الحفيد قد استولى على نصوص جده وأضاف إليها مذكرات من معارفه الخاصة المتواترة في الأسرة عن هذا الجد. ويرى بعض آخر من الباحثين أن هذا الحفيد لم يجد في الغالب نصوصاً مكتوبة من هذا السفر، وإنما وجد روايات شفوية مأثورة عن جده فأثبتها بأسلوبه. وأما الذي شرحها وعلق عليها، فهو (تسانج - تسيه) أحد تلاميذ

(كونفيشيوس)
أما الكتاب الثالث، فهو (تشونج - يونج) وهو أهم كتب هذا الحكيم الفلسفية، لأنه هو الكتاب الوحيد الذي يحوي مذهبه، والمؤلف الجوهري الذي يعتمد عليه الباحثون في فهم المدرسة (الكونفيشيوسية)، ويتكون هذا الكتاب من مقدمة واثنين وعشرين فصلا فأما المقدمة فقد كتبها حفيده السابق الذكر، وهي مجموعة وافية من الآراء الأساسية في أخلاق (كونفيشيوس) سمعها هذا الحفيد من جده مباشرة فأثبتها في المقدمة وشرحها شرحاً مفصلا في بقية الكتاب
ويرى (ألين) الإنجليزي و (فون إركس) الألماني أن هذا الكتاب ليس إلا مجموعة مشوهة من (تاويسم)؛ فأما الأول فيرى الأستاذ زانكير أن من العبث الرد عليه، لأنه هو الذي زعم أن (كونفيشيوس) أسطورة، وأما الثاني فالسبب الذي خدعه وأوقعه في هذا الخطأ هو أنه وجد أن هذا الكتاب يحتوي على شيء غير يسير من التنسك الذي يشبه ميول (لاهو - تسيه) فاستبعد صدور هذه الآراء عن (كونفيشيوس)، ولكن هذا خطأ بحت، لأن (كونفيشيوس) ليس مادياً جافاً ولا نفعياً أثراً، وإنما هو حكيم جليل قمين بأسمى الأخلاق
وأما الكتاب الرابع فهو مجموعة كتب (مانسيوس) السبعة التي سنعرض لها عند حديثنا عن هذا الفيلسوف
منهجه وتأثيره
يشبه منهج (كونفيشيوس) منهج (سقراط) كثيراً، إذ هو يحاول أن يرشد تلاميذه إلى الحقيقة، ولكن لا عن طريق التقليد والتحفيظ، بل عن طريق البحث الشخصي الذي يتدرج من المحسات إلى المعقولات، ويصعد من الماديات إلى المعنويات؛ فتارة يلمح إلى البرهان الحق تلميحاً خفياً، وأخرى يشير إلى تناقض الباطل إشارة غامضة ثم يقود التلاميذ في طريق المحاورة قيادة منطقية محكمة إلى أن يعثروا على الحق بأنفسهم أو يهدموا الباطل بمجهوداتهم الشخصية المراقبة بإرشاد الأستاذ. وفي هذا يقول: (أنا لا أعلِّم من لا يشتهي أن يفهم، ولا أساعد على الكلام من لا يحاول أن يوضّح أفكاره)
ومن منهجه أيضاً أنه كان يضع أمام تلاميذه مُثُلاً حية من أخلاق الحكماء والملوك السابقين أو من المأثورات الدينية العالية أو القصائد الشعرية المفعمة بالفضيلة أو الحوادث التاريخية التي تصلح لأن تتخذ نماذج للسمو والنبل، وكان يسلك هذا المنهج في تعليم تلاميذه الفلسفة والأدب والفن والأخلاق
ويروي المؤرخون أن تلاميذ هذا الحكيم الذين استفادوا من منهجه بلغ عددهم في حياته ثلاثة آلاف تلميذ، وأن عدداً كبيراً من بين هؤلاء التلاميذ شغلوا في الدولة مناصب هامة وأنهم كانوا العنصر الأساسي للعلماء والأدباء الذين حكموا الصين أكثر من ألفي سنة، لأن (كونفيشيوس) قد أحسن تأديبهم فلم يخلق فيهم الميل إلى الانزواء واليأس، وإنما بث في نفوسهم روح الإصلاح والانتصار والسيادة، ولهذا لم تكن حلقات دروسه مقصورة على التلاميذ، بل كانت تضم بينها عدداً ضخما من كبار النبلاء والأرستوقراطيين الذين وجدوا فيه أكبر محقق لعظمة الصين المنشودة فدفعتهم وطنيتهم إلى الاغتراف من نمير علمه الصافي وإلى محاكاة أخلاقه السامية النبيلة
وفي الحق أن كونفيشيوس يجب أن يعد في طليعة أفذاذ الرجال الذين خلقوا المدنية الصينية، بل المدنية العالمية؛ إذ هو الذي أنشأ السياسة الصينية القيمة، وهو الذي وضع قواعد أخلاق الأسرة على الأسس الفلسفية المحترمة، وهو الذي قسم الفلسفة العملية إلى فروعها الثلاثة: الأخلاق الشخصية، وتدبير المنزل، وسياسة الدولة أو المدينة الفاضلة؛ فسبق بذلك أرسطو وأفلاطون كما سنشير إليه حين نعرض لأخلاقه النظرية. وليس هذا فحسب، بل هو الذي رفع علم التاريخ في الصين إلى مصاف العلوم الأخرى عند الأمم الراقية، وهو أول من أناروا سبيل علم المنطق للذين أتوا بعده فزادوا عليه ما جعله قميناً بالاحترام والإجلال
غير أنه على الرغم من ذلك كله لم يصادف في حياته نجاحاً باهراً كما أسلفنا. والسبب في ذلك الإخفاق هو أخلاقه المتينة التي لم تسمح له أن يتملق أعظم الملوك والأمراء مرة واحدة في حياته، ولا أن يحني رأسه إلا للحق وحده، فضايقت هذه الأخلاق القويمة المبطلين من الطغاة والمتجبرين. وكانت نتيجة ذلك أن ربح فيلسوفنا الفضيلة

وخسر الحياة المادية
على أن الشعب لم يلبث أن تنبه إلى حكمة (كونفيشيوس) الخالدة القائلة: (إن الجوهر الأساسي العملي للشعب يجب أن يكون هو الأخلاق، وإن سياسية الدولة لا تنجح نجاحاً حقيقياً إلا إذا أسست على الأخلاق)
لما تنبه الشعب إلى هذه الحكمة وآمن بها وأخذ يطبقها تطبيقاً عملياً دقيقاً أخذت أحواله العامة تتحسن شيئاً فشيئاً حتى بلغت الأوج. والفضل في ذلك كله راجع إلى التماسك الأخلاقي الذي وضع هذا الحكيم بذوره في تعاليمه القيمة الجليلة
(يتبع)
محمد غلاب
دراسات في الأدب الإنكليزي
جون ملتون
للأستاذ خليل جمعة الطوال
تتمة
خلاصة الفردوس المفقود
تقع هذه الملحمة بعد تنقيحها في اثني عشر جزءاً، وقد نقلها العلامة دريدن والشاعر الفذ (لوريت إلى أوبرا) تمثيلية بطولية، وذلك بإذن مؤلفها عام 1674؛ وجعلا عنوانها وإليك خلاصة موضوعها:
(1) يحتوي الجزء الأول من هذه الملحمة على خلاصة موجزة لها. وبعدها يصف ملتون كيف أن الشيطان يتمرد على الله تعالى مع طغمة من الملائكة الأشرار، فيسقطهم الله في جهنم المتقدة حيث يفقدون الوعي مدة وجيزة، وبعدها يثوبون إلى رشدهم، ويقف إبليس فيهم خطيباً، ويذكرهم بالنبوة التي جاء فيها أن الله سيخلق خليقة جديدة وعالماً جديداً، ويقترح عليهم أن ينتقموا من هذه الخليقة الجديدة التي سيخلقها الله - لمجدهم الضائع
(2) فيعقد الملائكة الأشرار وعلى رأسهم إبليس اجتماعاً هاماً في مجلس إبليس الخاص ويدرسون فيه هذا الاقتراح وطرقة تنفيذه، فيقر أمرهم على إيفاد أحدهم إلى ذلك العالم لينشر فيه روح الشر، ولينصب فيه فخ المكيدة، فيتعهد إبليس أمر هذه الرحلة الخطرة، ويشرع بها وهو غير عابئ بما فيها من الصعوبات الجمة، فيصل أبواب الجحيم وقد سهر على حراستها وحشان غريبان مخيفان، فيتخطاهما بكل صعوبة وجهد. وبعد سفر طويل يواجه ذلك العالم الأرضي الجديد
(3) ثم يُبصرُ الله تعالى، وهو جالس على عرشه الشيطان وهو مسرع نحو ذلك العالم الجديد، فيشفق على خليقته الجديدة من شره، ولكنه يعدُ بإرسال ابنه فدية. أما الشيطان فيواصل السير حتى يصل إلى الشمس ويتقابل هناك مع (أوريال) - ملاك الشمس - فيرشده هذا إلى طريق العالم الجديد الذي جعله قبلته، فيسلكها حتى يصل إليه، وهناك يستريح على قمة أحد الجبال
(4) ثم يبحث عن طريق الجنة، فيتسلل إليها بعد أن يتقمص جسم (غراب الماء وهناك يجثم على غصن من أغصان شجرة الحياة، ويأخذ في التطلع حوله، فيدهشه جمال الجنة الرائع، ثم ينظر آدم وزوجه حواء أثناء رجوعهما من صلاة العشاء للاستراحة
(5) وفي الليل ترى حواء حلماً مزعجاً، وتقصه في الصباح على آدم فيفسره هذا بما يسكن من روعها، ثم يذهبان للصلاة وبعدها يشرعان في الشغل في الجنة
(6)، (7)، (8) ثم يرسل الله الملاك رفائيل إلى آدم فيحذره من مكيدة إبليس، ويدور بينهما حديث طويل جداً
(9) ويعلم حارس الجنة بوجود إبليس فيطرده منها، ولكنه يرجع إليها ثانية في الليل بشكل الضباب، ثم يتقمص جلد حية. وفي الصباح التالي تقترح حواء على آدم أن يشتغل كلٌ منهما منفرداً عن رفيقه فيلبي اقتراحها، فيجد الشيطان الفرصة سانحة لتنفيذ مكيدته. فيسير إلى حواء ويغريها أن تأكل من الثمرة المحرمة، فتأكل وتناول بعلها فيأكل هو أيضاً
(10) فيحكم عليهما الله تعالى بالعذاب والموت ويطردهما من الفردوس. أما الشيطان فيرجع إلى بطانته مسروراً جذلاً
(11) ثم يندم آدم وحواء على إثمهما، ويطلبان منه تعالى الصفح، فيصفح عنهما ولكنه

لا يرجعهما إلى الجنة ثانية
بل يعدهما بإرسال ابنه ليكفر بموته عن خطيئتهما (12)
أشعاره وشاعريته
قال العلامة (جون دريدن) وهو من معاصري ملتون: لقد جمع ملتون في شعره بين الجيد والرديء، وبين الجليل والمبتذل، وذلك لأنه كثيراً ما كان يعتسف النظم على غير حضور بديهته أو شبوب عاطفته؛ ولكن هذا لا يضع من مكانته كشاعر فذ ومفكر نابغ؛ إذ ليس من الضروري أن يكون الشاعر حاضر الخيال متوقد العاطفة في كل مناسبة يشعر فيها. وهل من الضروري أن تكون الشمس دائمة الإشراق والنور لنستدل على وجودها في الكون؟؟؟ ولست أرى مثيلاً لهذا القول إلا رأي سلم الخاسر في شعر أبي العتاهية إذ يقول: شعر أبي العتاهية كساحة الملوك، فيها الدرُّ والساقط. . .
ولئن لم يكن ملتون متوثب الشعور في جميع أشعاره، لقد جمع في شعره بين إحساس العاطفة ورزانة العقل، أو قل بعبارة أوضح بين الشعر كفن والفلسفة كميزان لجميع الفنون والعلوم. تدل على ذلك قصائده العديدة التي تحمل خلال جميع أبياتها جرثومةً من مسحة العقل وأثراً من عمق التفكير. وما أشعاره في الحقيقة إلا قبس من النور يومض في عتمة تلك الحروب المذهبية السياسية الحالكة التي اندلعت في إنكلترا بسبب تحطيم الأرستقراطية على صخرة الديمقراطية الناشزة. وهل أوحى إلى ملتون بملحمة الفردوس المفقود غير ذلك النزاع الذي خاض غماره؟ أم هل كانت أشعار ملتون جميعها إلا صورة جلية تتبين منها حقيقة ذلك النزاع؟
ابتدأ ملتون يعبث بالشعر ولما يبلغ بعد الثالثة عشرة من العمر. ولئن كانت أشعاره إذ ذاك خالية من ابتكار المعنى إلا أنها كانت - بالنسبة لصغر سنه - تحمل بين أسطرها جراثيم النبوغ والتفوق. فهذه قصيدته الشهيرة المعروفة والتي نظمها عام 1629 تكاد تكون لروعتها وجمالها خير قصيدة غنائية في الشعر الإنكليزي، بل هي من فتىً حدث كملتون لم يبلغ بعد حدّ نضوج العقل والعاطفة، أروع قصيدة على الإطلاق. . .
وفي عام 1633 نظم ملتون قصيدتين رائعتين وهما:
و (2) وقد أجمعت آراء الأدباء على أنهما خير نموذج للجيد من شعره، وذلك لما ' (1) فيهما من الدقة البالغة في التصوير والحرارة الملتهبة في الشعور. وفي عام 1634 نظم قصيدة القومس وهي قصة شعرية دراماتيكية، يكثر فيها ظهور الأحراج والأشباح الغيبية، ولكنها ليست من دقة الفن بقياس قصص شكسبير الدراماتيكية التي من نوعها - كدرامة كما تحب مثلا - وذلك لأن شكسبير كان شاعراً بالفطرة، وبارعاً في تمثيل سوءات المجتمع وعاداته؛ وهو إذ ينظم القصيدة فكأنما يصور بالألفاظ عواطفه الحساسة، وينحت في صخر اللغة مشاعره الوثابة، بينما كان ملتون - مع اعترافنا به كشاعر فذ - مبالغاً في التصنع، ومسرفاً في إجهاد القريحة، واستفزاز المخيلة، فمعانيه - في معظمها - تكاد تقرب من الابتذال في شيوعها، وأخيلته إلا القليل منها مستكرهة على الشعر، ثقيلة على الطبع لشذوذها. وليس أدل على هذا من مناجاة كومس لليدي!! ولعل خير قطعة في هذه القصيدة هي تلك التي تمثل الشجار بين ليدي وكومس، وذلك لأنها قطعة فنية من نفس ملتون الثائرة المتمردة التي تهزها الثورة أكثر مما تحركها الدعة والطمأنينة، ولأنه في هذه القطعة إنما ينفض علينا مكنون طويته ويصور لنا دخيلة نفسيته. وإليك تحرير المعنى في هذه القصيدة:
يذهب أخوان وأختهما إلى حرج عظيم كثيف، فتضل الأخت طريقها في هذا الغاب، فيتركها أخواها هائمة على رأسها تائهة في طريقها، ولا يهتمان ألبتة بما تقاسيه في ذلك الحرج المخيف من مرارة الجوع، وحرارة العطش، وألم الوحدة، ووحشة الغابة التي ترتعد منها الفرائص. ويذهبان بعيداً عنها في جمع ثمر العليقي؛ حتى إذا تضيفت الشمس للمغيب عادا إلى بيتهما تاركين في الغابة القفر أختهما الوحيدة ضحية للألم والجوع، وفريسة للوحوش والسباع
فأنت ترى أن مثل هذا التخيل الفسل المكروه ليس من الحقيقة في شيء، إذ ليس من الممكن للطبع البشريّ مهما أوغل في التحجر والقساوة أن يتصور وقوع مثل هذه المأساة الخيالية الملفقة!!

أما الصونيتس فقد كتبها في فترات متقطعة ومناسبات كثيرة. ويذهب جونسون في نقده لملتون إلى أن - الصونيتس - ليست من الفن الشعري بدرجة تستحق أن توضع في غربال النقد. ولكنها مع ذلك عذبة اللفظ طلية الأسلوب. وفي عام 1644 ألف الـ وهي رسالة نقدية دافع فيها عن حرية الطبع والنشر دفاعاً قيماً في وقت بلغ فيه التزمت حداً عظيماً. أما الفردوس المسترجع فقد ألف عام 1671 وهو يمتاز عن بقية مؤلفاته الشعرية بميزات سامية كثيرة سنوردها في مقالاتنا الآتية التي سنكتبها عنه، وفي ذلك العام أيضاً ألف قصيدة الـ وسنعرض لها أيضاً فيما بعد

أسلوبه

لم يكن أسلوب ملتون على نمط واحد في جميع أشعاره، فقد كان مشرق الديباجة سلس العبارة حيث تكون الفكرة مختمرة في رأسه، والعاطفة متوثبة في صدره، ولكنه حين كان يعتسف النظم كانت تجيء أشعاره ملتوية العبارة، غامضة المعنى، ووعرة الأسلوب

وتدل أشعاره العديدة التي كتبها بخط يده والتي لا تزال محفوظة في مكتبة كلية ترنتي في كمبردج على أنه كان مولعاً بصيد أوابد الكلمات، واستقصاء غريب الألفاظ. ومما تجب الإشارة اكتظاظ أسلوبه بالكلمات اللاتينية المهجورة

قال العلامة ماكولي في مقالته عن ملتون: ألم تسمع قط بتأثير الشعر السحري وبتياره الكهربائي العنيف؟ ألم تسمع قط بالأسلوب الرائع الذي يقيد عليك مشاعرك ويهز منك جميع أوتار حسك؟ أما سمعت قط بالشعر الذي يأسر القلب، ويذيب العاطفة؟ إن هذه الصفات جميعها إن هي إلا من مدلولات شعر ملتون وأسلوبه. . . لم يكن ملتون بارعاً في ابتكار المعاني، إلا أنه كان كثيراً ما كان يتناول المعاني المبتذلة الشائعة فيسبكها في قالب لفظي متين يزيد في روعتها وجمالها ويجعل منها أفكاراً سامية تسحر العقل وتذهب اللبّ. على أنك لو بدلت كيفية صياغتها اللفظية، أو حوَّرت ولو قليلا أسلوبها الذي صيغت به لما كان لها أي أثر في نفسك أو تقدير في قياسك

خاتمة حياته وموته

لقد عاش ملتون وهو في عنفوان الشباب عيشة مترفة رخية، شأن أبناء ذوي اليسر والجاه، ولكن الدهر أبى ألا أن يقلب له ظهر المجن، ويجرعه كأس الشقاء المرة حتى الثمالة. ففي عام 1652 غشيت إحدى عينيه، ثم ابتدأت المصائب تنثال عليه بغير حساب، فقد شُرد وطُرد وغرم في أمواله وأملاكه ثم أصيب بداء النقرس. ونفي خارج وطنه وأهله أكثر من مرة. وأخيراً عزل من منصبه السياسي الذي كان يتبلغ براتبه. وفي عام 1662 فقد عينه الأخرى فتم عماه؛ إلا أن هذه المصائب كلها لم تضع من عنجهيته، ولا فلت من شباة نفسه، بل صادفها وتقبلها بقلب وادع مطمئن وصدر عامر بالإيمان والثقة بالنفس. ولئن كان لها من أثر يذكر في نفسه فذلك أنها شحذت قريحته وأرهفت إحساسه، ووثبت شعوره، وزادته جلداً على الدرس، ومثابرة على الاجتهاد

تزوج ملتون ثلاث زوجات. والراجح أنه لم يكن موفقاً في غرامه ولا سعيداً في زواجه. وقد توفي في شهر نوفمبر عام 1674 في مزرعة بنهل تاركاً وراءه زوجه الثالثة، وثلاث بنات. وقد قبر في مقبرة. وبعد وفاته بسنين عديدة أقيم له نصب تذكاري في وست منستر أبي. وهكذا بات ملتون مزملاً بنبوغه وشهرته، تئن رفاته في جدثها من ظلم المنتقصين المغرضين، وغلو المناصرين المفرطين.

خليل جمعة الطوال

أسانيد البحث

1 -

2 - 1779.

3 -

4 -

5 -

6 - 1825

7 -

8 -

نقل الأديب
للأستاذ محمد اسعاف النشاشيبي
293 - لا أدخل مكاناً فرقت فيه بين متحابين
في (تزيين الأسواق) من لطف الفقيه أبي بكر محمد بن داود (الظاهري) ورقته أنه كان يدخل الجامع من باب الوراقين فهجره أياماً. فسئل في ذلك فقال: دخلت يوماً فرأيت متحابين يتحادثان، فتفرقا منذ رأياني، فآليت ألا أدخل مكاناً فرقت فيه بين متحابين
294 - نموذج من نثر أبي تمام
في (رهبة الأيام): كتب أبو تمام مع أخيه سهم بن أوس إلى علي بن اسحق (والي دمشق وأعمالها) كتاباً يذكر فيه حرمته به، ومنازلته إياه في الفندق في (سرّ من رأى) وضرب له في كتابه مثلاً فقال: (ومثلي مع الأمير - أعزه الله - مثل عجوز كانت بالكوفة من جَرم قضاعة، وكان الوالي على الكوفة رجل من عُكل. فأجرم ابن العجوز جرماً، فحبس، فتعرضت العجوز للوالي على ظهر الطريق، وقالت: أصلح الله الأمير، لي حاجة، ولي بالأمير وسيلة. فقال ما حاجتك؟ وما وسيلتك؟ قالت: حاجتي أن تطلق ابني من محبسه، ووسيلتي إليك أن الشاعر جمعني وإياك في بيت السوء حيث يقول:
جاءت به عُجُزٌ مقابَلةٌ ... ما هُنّ من جَرم ولا عُكل
وأنا امرأة من جرم، وأنت رجل من عكل. فأمر بإطلاق ابنها. وأنا أقول: وسيلتي إليك (أيها الأمير) منازلتي إياك في الفندق بسر من رأى مع فتور الماء، وكثرة الذباب) وكتب إليه في أسفل الكتاب قصيدة نونية
295 - أن كان وضاح إلا مفتيا لنفسه
في (أغاني) أبي الفرج قال يوسف بن الماجشون: أنشدت محمد بن المنكدر قول وضاح اليمن:
إذا قلت يوماً: نوّليني، تبسمت ... وقالت: معاذ الله من فعل ما حرم!
فما نوّلت حتى تضرّعت عندها ... وأعلمتها ما رخص الله في اللمم
فضحك وقال: إنْ كان وضاح إلا مفتياً لنفسه!
296 - أفتراك مني تفلتين
كان العباس بن علي (عم المنصور) يأخذ الكأس بيده ثم يقول لها: أما المال فتبلعين، وأما المروءة فتخلعين، وأما الدين فتفسدين! ويسكت ساعة ثم يقول: أما النفس فتسمّحين، وأما الهم فتطردين، أفتراك مني تفلتين؟ ثم يشربها . . .
297 - أربعة أحاديث
قال أبو بكر بن داسة: سمعت أبا داود (سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني) يقول: كتبت عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) خمس مائة ألف حديث، انتخبت منها ما ضمنته هذا الكتاب (يعني كتاب السنن) جمعت فيه (4800) حديث ذكرت الصحيح وما يشبهه ويقاربه. ويكفي الإنسان لدينه من ذلك أربعة أحاديث أحدها قوله - عليه السلام -: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى)؛ والثاني قوله: (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه)؛ والثالث قوله: (لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يرضى لأخيه ما يرضاه لنفسه)؛ والرابع قوله: (الحلال بيّن والحرام بيّن، وبين ذلك أمور مُشَبّهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه، ومن وقع في الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه. ألا وإن لكل ملِك حمى، ألا وإن حمى الله في الأرض محارمه. ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله: ألا وهي القلب)
298 - فالطباع جوامح
أبو الجوائز الحسن بن علي بن محمد بن باري:
دع الناس طرّا واصرفِ الود عنهمُ ... إذا كنت في أخلاقهم لا تسامح
ولا تبغ من دهر تظاهر رَنقه ... صفاء بنيه؛ فالطباع جوامح
299 - إنه الله!!!
في (تاريخ بغداد): قال أبو القاسم عبيد الله بن سليمان: كنت أكتب لموسى بغا، وكنا بالري، وقاضيها إذ ذاك احمد بن بديل، فاحتاج موسى أن يجمع ضيعة هناك كان فيها

سهام ويعمرها، وكان فيها سهم ليتيم، فصرت إلى احمد بن بديل وخاطبته في أن يبيع علينا
حصة اليتيم ويأخذ الثمن، فامتنع وقال: ما باليتيم حاجة إلى البيع، ولا آمن أن أبيع ماله وهو مستغن عنه فيحدث على المال حادثة فأكون قد ضيعته عليه. فقلت فإنا نعطيك في ثمن حصته ضعف قيمتها، فقال: ما هذا لي بعذر في البيع. والصورة في المال إذا كثر مثلها إذا قل. فأدرته بكل لون وهو يمتنع؛ فأضجرني فقلت له: أيها القاضي، إلا تفعل فإنه موسى بن بغا!
فقال لي: أعزك الله، إنه الله تبارك وتعالى!!
فاستحييت من الله أن أعاوده بعد ذلك وفارقته، فدخلت على موسى فقال: ما عملت في الضيعة؟ فقصصت عليه الحديث، فلما سمع: (إنه الله) بكى وما زال يكررها ثم قال: لا تعرض لهذه الضيعة وانظر في أمر هذا الشيخ الصالح، فإن كانت له حاجة فاقضها، فأحضرته وقلت له: إن الأمير قد أعفاك من أمر الضيعة وهو يعرض عليك قضاء حوائجك فدعا له وقال: هذا الفعل أحفظ لنعمته، وما لي حاجة إلا إدرار رزقي، فقد تأخر منذ شهور أضرني ذلك. فأطلقت له جاريه
300 - كان ينسج الشمال باليمين
قال عليّ (رضي الله تعالى عنه) للأشعث بن قيس الكندي: إني لأجد بثَّة الغزل منك. فسئل (رضي الله تعالى عنه) فقال: كان أبوه ينسج الشمال باليمين . . .

في أعقاب الخريف

للأستاذ محمود الخفيف

أَلْقَى على الدوح فتورَ الكرى ... فلاحَ كالناعِسِ
لا تستبينُ العين فيما ترى ... من أفقه العابس
غيرَ الأسى في جوه منذرا ... بليليَ المكتئب الدامس
يَبكْرُ بني في الأُفْقِ هذا القطوبْ ... وهذه الكُدْرَةُ في لونه
وتُجْفِلُ النَّفْسُ لهذا الغروبْ ... وحُمْرَة المحزون في جفنه
يا ويْلَتا تلك الرؤَى أفْرَخَتْ ... في قَلْبَي المسْتَسْلِم اليائس!
أسْلَمَني للوجْدِ هذا الخريف ... في لَفْتَةِ الراحِل
وأنكرتْ أذْناي هذا الحفيف ... من عُودِهِ الناحِلِ
يَلْمَحُ لي منه خيالٌ مُطِيفْ ... لكل شيءٍ هالِكٍ زائِلِ
أوْرَاقُه تَهْبُ رياح المساءْ ... تُلْقَى بها مُصْفَرَّةً ذابِلَهْ
تسوقُها مُعْجَلَةً للفناء ... قافَلةً في إثرِها قافِلَهْ
تَطَايرت كما تَطيرُ المنى ... من لمحةِ الوَهْم إلى الباطِلِ
حَطَّتْ على الدَّوْح بنات الهديل ... ساهمةً عانيةْ
للشَّفَقِ الباكي بهذا الأصيل ... ما فتئت رانيه
طالعَها منه شتاء طويلْ ... عِشاشُها في كفه واهيه
قد أشبهتني الوُرْقُ في غُمَّتي ... لكنها تذهل عن أمسها
وكل شيءٍ مُوقِظٌ مُهجَتي ... حتى رياح الليل في همسها
أسْمَعُ في هسيسها أنَّةً ... بالأمسِ كانت نَغْمَةً شادِيَهْ
شَبَّابةُ الراعي بأنغامِه ... في مِسْمَعي صاخِبَهْ
يا لاعباً طيوف أحلامِه ... خافقة لاعبه
تَبَّهت القلبَ لآلامه ... إذ بَعَثَتْ أحَلامَهُ الذاهبه!
يا ليتني أذهل عما مضى ... أوْ أَرْعَوِي بَعْدَ فواتِ الأمَلْ
يا ليت مثلك هذا الرضى ... يا ناعماً ما ذاق إلا الجذَلْ
تَغَنَّ ما شِئْتَ ودع لي الجوى ... هَوَاكَ لمْ تَعْلَقْ بهِ شائِبَهْ!
يَسْتَيْقظ القلبُ إلى وجده ... في أُخْرَيات الخريف
يَعُودُ ما لم يَنْسَ من عهده ... فَهْوَ وَجيعٌ لهيف
تَغَرَّبَ (الطائِرُ) عن عُوده ... وخَلَّفَ القلب لهذا الوجيف
ما روعةُ الكون وما سِحْرُهُ ... وكلُّ حُسْنٍ باعث للشجَنْ؟!
هذا الخريفُ هاجني ذكره ... هل أرْتجي في ظِلِهِ من سكن؟؟
تَغَرَّبَ الطائِرُ لم ألْقَهُ ... في مَرْبَعٍ بَعْدُ ولا في مصيف!

يا سائلاً يُنْكِرُ أشْجاَنِيهْ ... ما كُنْتُ بالمدَّعي
يا صاحِ لو كُنْتَ تَرى ما بِيَهْ ... بكيتَ حظّي معي
تبَسُّمِي يَحْجُبُ أتراحَيه ... كالرَّمْسِ تحت الزَّهَرِ المُمْرِعِ!
ما أنا بالشاكي ولكنها ... أُغْنيةٌ ضاقت ضلوعي بها
أُغْنيةٌ صاغ الجوى لحنها ... وأُجْبِرَ القَلْبُ على سَكْبِها
يا أيُّهاَ المُنْكِرُ أشْجاَنيهْ ... وُقِيتَ ما أضمرُ في أضلُعي
قد أغرق الدَّوْحَ فتُورُ الكرى ... فلاحَ كالناعِس
لا تستبين العين فيما ترى ... من أفقِهِ العابس
غيرَ الأسى في جَوِّه منذرا ... بَلْيلَيَ المكتئبِ الدامِسِ
الخفيف

رسالة الفن

فرانز شوبير

1797 - 1828

للأديب عبد الرحمن فهمي

كانت حياة شوبير القصيرة حياة كفاح قضاها تاركاً للأجيال التي بعده حظاً من المتعة أوفر مما كان لنفسه. وهو أشهر الموسيقيين النمساويين ولد بفينا عام 1797 ولا تزال عاصمة النمسا إلى اليوم تحيي ذكرى ميلاده

وأبوه ابن فلاح من منطقة مورافيا كان يدير مدرسة صغيرة في قريته ويستعين بإيرادها على عول أسرة كبيرة كان فرانز من بينها

وسيرة فرانز إحدى سير العظماء الذين أنجبهم العالم. بدأ أبوه يعلمه العزف على آلة موسيقية مماثلة (للربابة) وكانت أسرة شوبير تمتاز بحذق العزف على الآلات الموسيقية فنبغ في هذا الفن نبوغاً جعله يفوق أخوته وهم أكبر منه سناً. فلما بلغ السنة الحادية عشرة بعثت به أسرته إلى مدرسة تابعة لكنيسة صغيرة ليتعلم بها الترتيل، وتقدم معه إليها أولاد عديدون كانوا يتسلون انتظاراً لدورهم في امتحان القبول بالتهكم على فرانز لصغر سنه ورثاثة ملبسه، ولكنه بعد أن قبل بالمدرسة استبدل بلباسه لباس المدرسة الرسمي الأنيق في حين لم يقبل بها الطلاب الآخرون لفشلهم في الامتحان

وكانت هذه المدرسة مكاناً طريفاً للدرس، يكون تلاميذها فيما بينهم مجموعة موسيقية (أركسترا) يمرنون كل يوم في الدرس. وكان فرانز في أول الأمر غير ظاهر بين زملائه الذين كانوا جميعاً يكبرونه سناً، ولكن حذقه في الفن لفت إليه نظر رئيس الفرقة وهو صبي يدعى سبون ويقول عنه: (وبحثت عن هذا العازف الحاذق فوجدته صبياً صغيراً على عينيه منظار يدعى فرانز شوبير) ومن ثم أضحى سبون وفرانز صديقين حميمين

واستطاع فرانز يوماً أن يؤلف قطعة موسيقية، إلا أنه عجز عن الحصول على الورق الخاص بكتابة الموسيقى (النوتة) لفقره، فأعانه صديق له بالمال. وهكذا بدأ تاريخ الموسيقي الصغير. وكانت غرفة التمرين بالمدرسة قاسية البرد شتاء، والطعام لا يملأ بطون التلاميذ لعدم كفايته، فهو يقدم في وجبتين ضئيلتين إحداهما عند الظهر والأخرى في الثامنة مساء. وعلى رغم ذلك استطاع فرانز في فترة الدراسة أن يخرج عدة (نوتات) موسيقية لاشك في أنها كانت تظهر أحسن من ذلك لو أن أساتذته أخذوه بالنظريات الموسيقية التي أهملتها المدرسة في تعليمها وتركت لهذا العبقري الصغير الحرية في الجموح دون أن تصقله بتغذية روحه الفني بالنمو المنتظم المطرد؛ غير أن أخذه الدرس على ساليري فيما بعد - وهو موسيقي مشهور - جعل أسلوبه في هذا الفن ينضج وينمو وينتظم

ولا ننس أنه أتى على شوبير حين من الزمن بعد إتمام الدراسة بهذه المدرسة كان فيه بائساً لأنه عاد إلى قريته واضطر أن يعلم التلاميذ في مدرسة أبيه القروية القراءة والكتابة. ومَن أشد بؤساً من معلم لم يُخلق لمهنة التدريس؟ إلا أنه كان صاحب ذمة فأخلص للعمل الذي ينال عليه أجراً لكنه لا تكاد تنقضي ساعات التدريس حتى كان يهرع إلى داره ويخلو بنفسه في غرفته وقتاً طويلا منكباً على عمله الخاص ملقياً عن نفسه كل حمل خارجي؛ وشوبير الشاب النابغ كان يحمل بين جنبيه عبقرية فذة في

فن الموسيقي وتفانياً وإخلاصاً في ميدان الصداقة. هيأ لنفسه أصدقاء عديدين في فترة التعليم وأحاط به أصدقاؤه كما تحيط الهالة بالقمر وكثيراً ما خففوا عنه بؤسه ومتاعبه

ولم يكن قد بلغ الثامنة عشرة عندما ألقي أول (أصواته) الموسيقية بالكنيسة وأعقب ذلك بتلحين قطعة أخرى؛ ثم أنشأ فرقة موسيقية تتكون منه رئيساً ومن أخيه عازفاً على الأرغن ومن موسيقي كان مدير مدرسة الترتيل التي تخرج هو فيها، ومن صديق يغني الأدوار الرئيسية. ونستطيع أن نتصور السرور والإعجاب اللذين لاقى بهما أبوه هذا العبقري الصغير حتى لقد ابتاع له نوعاً من البيانو مشهوراً في ذلك الوقت واستعان على ثمنه بما اقتصده مما حصل عليه بعرق جبينه طوال حياته

وأول فشل صادف شوبير كان وهو في التاسعة عشرة من عمره عندما أنشأت الحكومة مدرسة للموسيقي فيما جاور بلدته والتمس أن يقبل بها مديراً بأجر إن كان واحداً وعشرين جنيهاً فقط في العام الواحد إلا أنه كان يفضل كل ما عدا مهنة التدريس عليها. فلما لم يعين لهذا المركز يئس يأساً شديداً، ولكن الحياة عوضته عن ذلك خيراً، فإن صداقته الجديدة

لشاب يدعى شوبار أدخلت في نفسه انشراحاً وحبوراً وتحولت حياته إلى حياة جديدة وترجع هذه الصداقة إلى سماع شوبار بشهرة فرانز الفنية من بيت سبون فقرر أن يزوره في داره فلقيه بعد أن عاد من المدرسة القروية جالساً إلى مكتبه تتكدس حوله أكوام المخطوطات الموسيقية

رغب أبوه في هذا الوقت في أن يقوم ابنه بتعليم تلامذة مدرسته الأحرف الموسيقية، ونفذ الابن هذه الرغبة إلى حين حتى نجح شوبار بإلحاحه عليه بالعودة معه إلى فينا فهجر التدريس ورجع معه حيث تقاسما العيش فرحاً معترفاً بجميل صديقه إذ بتمام الصداقة بينهما تقدم سير مصنفاته تقدماً سريعاً في جو هذه الحرية الجديدة. ولكنه برغم ذلك لم تتقدم حالته المادية بسبب إسرافه وتبذيره وعدم انتظامه في معاملة الناشرين. بل إن الحالة أدت به إلى أن يبيع أغانيه مرة بما يساوي أربعة قروش للأغنية الواحدة؛ إلا أنه خفف من هذه الحالة كثيراً اشتراكه هو وأصدقاؤه في العيش حتى أن القبعات والمعاطف كانت على الشيوع فيما بينهم جميعاً. وهذا النوع من الحياة وما كان يتخلله من فترات يقضيها فرانز مع أصدقائه في الجبال الهنغارية بقي على هذا الأسلوب حتى آخر أيامه القصيرة. ولذلك لا نعجب إذا كنا نراه يرفض بلباقة ما كان يُعرض عليه بين حين وآخر من وظائف العزف على الأرغن علماً منه أنه غير جدير بعمل يحتاج إلى الاستقرار والنظام

ولم يُسمع عنه أنه وهن يوماً أو تباطأ في عمله الخاص، بل كان يجلس إليه في الساعة التي يستيقظ فيها؛ بل إن حمى العمل إذا أصابته دفعته إلى الكتابة والقراءة في الوقت الذي كان عليه أن يهجع فيه للنوم

وبرغم أن الحياة صدمته صدمات عنيفة لم تستطع أن تغير من خلائقه، فقد كان شوبير الطائش الغافل ذو الفكر المضطرب المثل الأعلى للصداقة، المحبوب من كل معارفه، المتواضع الذي لا يعنيه من أمر الظهور شيء. أما قده فلم يكن جميلاً، وأما طلعته فلم تكن بهية، فهو في كل أدوار حياته (فرانز شوبير الصغير ذو المنظار على عينيه) ويحسن أن نعرف أنه ألف فرقة موسيقية قبل وفاته بعام واحد وافتتح بها صالة كانت تزدحم بالمتفرجين، وأصابه منها ربح يعادل اثنين وثلاثين جنيهاً، ولكنه أتى عليها سريعاً. ويدل على إسرافه أن باجانيني الموسيقي المشهور جاء إلى فينا ليطرب جمهورها لأول

مرة فحجز شوبير لنفسه أغلى مقعد ليحظى بسماعه، ثم عاد فحجز مقعدين له ولصديقه ودفع هو أجرهما. وعلى هذا النمط من التبذير أضاع نصيبه فيما كان قد ربحه. لم يتزوج شوبير قط؛ وكان إذا سئل في ذلك أجاب بأنه متزوج لموسيقاه ومنذ بلوغه الثامنة عشرة بدأ يُخرج للعالم تصانيف كثيرة أدهشت كثرتها الموسيقي العادي فكتب في عام واحد ثماني روايات غنائية (أوبرات). وكان ذا ميل إلى الشعر يقرأ منه ما تقع عليه عيناه فيختار منه ما يَعُد غرضه وجَمُل معناه، ثم يلحنه فإذا به كنغمة عذبة من نغمات طير مغرد. ويحكى أنه عاد أصيل يوم أحد إلى داره من نزهة خلوية فقابل أحد أصدقائه في حديقة فندق القرية وأخذا يتسامران، وكان بيد صديقه

مجلد لشكسبير يطالعه فانتزعه شوبير منه وتصفحه فوقع نظره على سطر معناه (أنصت واستمع إلى صوت القبرة) وتساءل (لِمَ لا يكون معي الآن ورق لكتابة الأحرف الموسيقية؟) وسرعان ما رسم له صاحبه خطوطاً مهيئاً له طلبته على قائمة حسابه بالفندق وعليها بين ضجة المكان وصخبه خط فرانز الأغنية المشهورة: (أنصت واستمع إلى صوت القبرة) ملحناً إياها. وفي المساء لحن أغنية أخرى من رواية أنطونيو وكليوباترا؛ وكذلك لحن الأغنية المحبوبة (من هي سلفيا؟) وكان في هذا الباب تياراً جارفاً لا يقف عند حد، فلا يقع تحت ناظريه شعر إلا لحنه. وقد قال شومان في ذلك: (إن كل ما لمسه شوبير كان يتحول إلى موسيقى) وقال لِيسْت (يُعد شوبير أعرق شعراء العالم الموسيقيين) ووصفه كتاب سيرته (بأنه ملك كتاب الأغاني) وكلهم محقون في ذلك فإنه أخرج في حياته القصيرة ما يقرب من الستمائة أغنية

وحل وقت هجر فيه شوبير عمله وتركه نسياً منسياً فقد أرسل يوماً مقداراً من مخطوطات أغانيه الجديدة إلى صديق له؛ وحدث أن زاره بعد أسبوعين من ذلك الوقت وكان يعزف على البيانو مغنياً أغنية أعجب بها فرانز فسأله (لمن هذه الأغنية الجميلة؟) فأجابه: (إنها لك!)

وكان شديد الإعجاب بما كتبه فيمور كوبر يدلك على ذلك كتابه لصديقه شوبار: (صديقي شوبار إنني منذ أحد عشر يوماً لم أتذوق طعاماً ولا شراباً لأني طريح الفراش مريض. . . فأشفق عليّ وأنا في هذه الحالة البائسة بزيارتك لي لتقرأ عليّ ما أنا غير مستطيعه. وقد

كنت قرأت لكوبر (الجاسوس والدليل وطلائع الجيش) فإن كان لديك غير ذلك له فلتتفضل عليّ بإحضاره معك) (صديقك)

وكانت غرفته مزدحمة جداً بالمخطوطات المبعثرة هنا وهنالك، وذلك لأنه لا يكاد ينجز عملاً حتى يبدأ في غيره أغنية كان أو ترتيلة أو أوبرا أو غير ذلك مما لم يخلق شوبير إلا لها. ولن نستطيع أن نتصور الكثرة المطلقة التي كان يخلفها لنا لو أنه عاش أكثر من ذلك؛ إلا أن المنية وافته ولما يبلغ الواحد والثلاثين عاماً.

عبد الرحمن فهمي

بكالوريوس في الآداب

القصص

من أساطير الإغريق

خرافة جاسون - 2

للأستاذ دريني خشبة

مساكين هؤلاء الآرجونوت!

لقد كانت رحلة شاقة مضطرمة بالمتاعب، مليئة بالأشجان، في بحر لجي وأمواج كالظُلل، ظلمات بعضها فوق بعض، وأهوال جسام يأخذ بعضها برقاب بعض، وطريق كله سعالي وأغوال

لقد لقي الأبطال الصناديد من أمرهم رهقاً أي رهق. . . فلقد أرسوا مرة بأرض شجراء باسقة الدوح، نما أيكها واستطال، وغلظت جذوعها واستوت، فبدا لهرقل أن يصطحب غلامه هيلاس وينطلق في الغابة يقطع أغصاناً تصلح لأن يصنع منها مجاذيف للآرجو، فأوغلا. . . وكانت الطريق ملتوية مُضلة. . . فلما أن قطعا من الأغصان شيئاً كثيراً، أصاب هرقل ضمأ شديد لم يصبر عليه، فأمر هيلاس أن ينطلق فيملأ جرة الماء التي كانت معهما من نبع قريب كانا يسمعان خريره يتلاشى كالصدى في سكون الغابة. . . وذهب هيلاس، وجلس هرقل ينتظره. . . ولكن وقتاً كافياً مضى قبل أن يعود الفتى. . . ثم مضى من الوقت ساعة أو نحوها. . . ثم ساعتان. . . ثم أكثر من ذلك. . . ثم أكثر. . . ماذا؟ ترى ما الذي عوق هيلاس؟ أواه! لقد كان هيلاس أجمل شباب الدنيا في ذلك الزمن، ولقد كان له جسم سمهري ممشوق، وصدر رحب أخيلي، ووجه تمتزج فيه بداوات الرجولة والفتوة بقسمات الفتنة والجمال، وعينان يترقرق في بريقهما لون من السحر لا يعرفه إلا العذارى، ولا تحسه إلا قلوب الحسان. . . وشفتان إن كانتا لرجل، فقد سرقتهما له الطبيعة الفنانة من فم غادة. . . وجبين متلألئ وضاح، لمّاح كإشراقة الشمس في مولد الصباح. . . تبارك الله ما كان أسبى وما كان أصبى، وما كان أجمل هيلاس!!

ذهب يملأ الجرة. . . وما كاد ينثني ليضرب بها الماء، حتى رأته عرائسه الغيد، الخرّد الأماليد، فشغفهن وامتلك قلوبهن، وبرزن من القاع ليسكرن بجماله، وينهلن من حسنه،

وليقسمن بسيد الأولمب ما هذا بشراً إن هذا إلا ملاك كريم!! واقتربن من مكانه، ثم لم يقوين على البعد فاقتربن أكثر، ثم تأجج الهوى في فؤاد إحداهن، وهي أجملهن، إن كان فيهن من هي أجمل من أختها، فهتفت به، فلم يجب، فجذبته من ذراعه جذبة نزل بها إلى الماء

- ماذا بالله عليك يا عروس؟

- تعيش معنا!

- أعيش معكن في الماء وأنا بشر؟

- لن تكون بشراً بعد اليوم، بل تكون إلهاً كريماً

- وأنى لي هذا وأنا غلام هرقل ومولاه، وهو ضمئ إلى جرعة من مائكن تشفي جُوادَه؟

- ومن أذن لهرقل أن يرسو بأرضنا؟ إذن هذا عقابه! تعال! سيمنحك الخلود سيد الأولمب!

وجذبنه إلى القاع. . . ولكنه لم يغرق. . . وهو يعيش إلى اليوم مع هذا السرب من الحور العين لا يخدم أحداً، ولا يجوع ولا يظمأ!

ونهض هرقل يقص أثر فتاه، حتى إذا انتهى إلى النبع، ووجد الآثار هابطة إلى الماء، إلى غير عود، صرخ صرخة تجاوبت أصداؤها في أركان الغابة، ثم جلس ساعة على حفافي المقبرة التي ابتلعت هيلاس ينشج ويبكي. . . وأقسم لا يذوقن من مائها قطرة، وأقسم كذلك لا يصحبن الآرجو في هذا السفر. . وعاد أدراجه، بعد رحلة طويلة قطعها على قدميه إلى أرض الوطن، وعاش حياته الطويلة المقاحمة لا يفتأ يذكر هيلاس، ولا يفتأ يبكي على هيلاس!

وأرست الآرجو في شاطيء تراقيا، ونزل جاسون في نفر من رجاله يمتارون، فعلموا أن ملكا أعمى يقال له فِنْيُوس، شديد البؤس، طويل الشقاء، يحكم هذه المملكة. . . ولم يكن عماه وذهاب بصره علة شقائه فحسب، بل كان ذلك بسبب طيور غريبة الخَلق، لها جسم الطير وريشه ومخالبه، ورأس الإنسان ولُؤمه وخَبَثُ طباعه. . . كانت هذه الطيور تنزل بساحة القصر الملكي، ثم تهجم على غرفة الملك كلما حان موعد الطعام، فتلتهم غذاءه، فلا تبقي ولا تذر. وكان الملك في أكثر الأحيان لا يجد لقمة واحدة يتبلغ بها. لأن هذه الطيور لم يكن من دأبها أن تبقي على شيء. . . حتى على الفتات. . . ولم يكن يردها عن قصر الملك وعن غرفة غذائه خاصة شيء مطلقاً. . . فلقد كانت تخمش وجوه الجند وتمزق جلودهم كلما حاولوا صدها عن بيت مولاهم؛ وكانت تفلت من سيوفهم وتمرق من سهامهم بخفة تخير الألباب، ولم يحدث مرة أن أصاب أحد الجنود منها غرضاً، حتى جن جنون الملك وتضاعفت بلواه، وجأر بالشكوى إلى آلهة السماء

ودهش جاسون، وذهب بالقصة إلى رفاقه الآرجونت، فتقدم إليه البطلان الضرغامتان، ولدا بوريس، يقترحان أن يذهبا معه إلى الملك المسكين فيعرضا عليه حرباً عواناً يشبان نيرانها على هذه الطيور، فأما أن يتم لهما النصر عليها، وأما أن تكون لها الكرة عليهما. . . وصادف الاقتراح هوى في نفس جاسون فانطلق معهما إلى الملك الذي هش لهما وبش، وفرح بما عرضاه فرحاً شديداً. . . فلما حان موعد الغداء، جلس الملك وضيفاه - وكان جاسون قد عاد إلى السفينة - إلى المائدة. ثم لم تمض لحظات حتى أقبلت الطيور ترنق فوقهم وتُدَوّم، فوقف البطلان وامتشقا سيفيهما، فلما هبطت ناوشاها مناوشة عنيفة، ولم يمكناها من خدش واحد تحدثه ببدنيهما، بل هجما عليها هجوماً ذريعاً وأخذا يسقطان منها عدداً كبيراً كان يهوي فوق الأرض فيلطخها بدماء حارة فائرة. . . وكلما هبطت واحدة طفقت تشكو وتبث بلسان يوناني مبين. . . ثم فرت بقية الطير. . . لكن ملكتها حطت بمكان قريب من الملك وهتفت به كي يأمر بوقف الملحمة حتى تدعو بعض جندها لنقل جثث القتلى. . . بيد أن الملك رفض طلبتها حتى تقاسمه أغلظ الأقسام وأوكدها أنها لا تعود إلى الاعتداء عليه أبداً، ولا تعود إلى زيارة تراقيا كلها أبد الحياة. . . فقاسمته ملكة الطير، فأشار إلى ولدي بوريس فأغمدا حساميهما، وذهبت الملكة وعادت بعد قليل في شرذمة من جندها، وبعد أن

ذرفت من دموعها على قتلاها حملتها وذهبت إلى غير عود. . . وبرت قسمها، فلم تزر تراقيا بعد هذا أبداً. وشكر الملك لولدي بوريس، وعرض أن يستوزرهما، فرفضا شاكرين، ليصحبا جاسون

وكأنما ذاع نبأ الهزيمة في عالم الطير فهبت جبابرته تأخذ بثأر الهاربز؛ فإنه ما كادت الآرجو تبعد عن شطئان تراقيا، حتى رأى راكبوها سرباً كبيراً من البزاة والنسور البواشق يقبل من علو كأنما تفتحت عنه أبواب السماء، ثم لا يفتأ يضرب الهواء بخواف من نحاس تلمع في أشعة الشمس كالذهب؛ حتى إذا كان فوق الآرجو طفق يضرب راكبيها بحجارة

مسومة من سجيل ألحقت بهم أذى كبيراً. . . ولم تنفع معها سيوفهم ولا قِسّيهم شيئاً، فاختبأت كل كوكبة منهم في قمرتها، وخلا جاسون إلى عصاه السحرية يستشيرها ماذا يصنع لينجو بقبيله من هذا الطير، فتكلم الرأس العجيب فأشار بأن يضرب الجنود بأغماد سيوفهم على دروعهم ضرباً شديداً فيحدث صوتاً تنزعج الطير منه، وتفر مروّعة إلى غير عود. . . ودعا جاسون جنوده ففعلوا كما أشارت العصا، وفرت الطير ذاهلةً ممزقةً في رجب السماء

وحاق بهم كوارث أخرى لا حصر لها. . . ثم اقتربوا من برزخ سِمْبِلْجِيدز الذي ليس لمسافر إلى مملكة كولخيس سبيل غيره. . . وهو مضيق رهيب يصل ماء بحرين وعلى كل من عُدوتيه صخرة هائلة، فما تزال الصخرتان تنطبقان وتنفرجان، بحيث تسحقان كل شيء يحصل بينهما فيصيرانه هباءً عفاءً كأن لم يغْنِ من قبل. . . وكأيّن من سفينة جازف ملاحوها بالمرور بينهما، فحطمتهم وعفت على آثارهم. . . ولم يدر جاسون ماذا يصنع، وجلس رفاقه يقلّبون الأكف على ما أنفقوا في مخاطرتهم هذه، وظلوا ينظرون إلى الصخرتين ساعاتٍ وساعات وهما ترتطمان وتبتعدان، وكلما سمعوا قصيفهما يجلجل في الآفاق جعلوا أصابعهم في آذانهم حذر الغشية وتَقِيّةً من الصمم. . . وخلا جاسون إلى عصا جونو يستوحيها ماذا يفعل، فما كانت غير لحظات حتى تكلم الرأس العجيب، فأشار بأن يطلق جاسون حمامةً بين الصخرتين حين تنفرجان، ويرى هل تمرق قبل أن تنطبقا عليها، ثم يرى، هل يستطيع أن يمرق ملاحوه بسفينتهم بمثل سرعة هذه الحمامة. . .؟ ودعا جاسون رجاله يستشيرهم، ثم أطلقوا الحمامة البيضاء كما أشارت العصا، وكم كان عجبهم شديداً حين رأياها تفلت من بين الصخرتين إلا ريشةً واحدة انتُزعت من ذنبها فصارت هباءً نثره الهواء! واستعدوا للمقاحمة، وطفقوا يقيسون مسافة ما بين البحرين في البحر الذي هم فيه، ثم يطلقون حمامة كالتي أطلقوا، بحيث يعملون مجاذيفهم حين تنطلق في الجو. . . وأعادوا التجربة مثنى وثلاث ورباع، حتى وثقوا من قدرتهم على قطع المسافة في مثل البرهة التي قطعتها فيها حمامتهم الأولى. . . ودفعوا سفينتهم إلى أول المضيق، وانتظروا حتى أوشكت الصخرتان أن تنفرجا، ثم أعملوا مجاذيفهم بأذرع مستبسلة، وأرواح ترتعد فَرَقاً من الموت في أبدانها، فمرقت السفينة كما يمرق السهم عن سِيَة القوس. . .

واحربا!! لقد استطاعوا أن يفلتوا بفلكهم، وإن حطمت الصخرتان سكانها، كما حطمتا ريشة ذيل الحمامة من قبل؟!

وما كادوا ينجون من هذه الموتة المحققة، حتى انسدحوا في الفلك يلهثون ويتنفسون، ويهنئ بعضهم بعضاً. . .

وبلغوا كولخيس بعد عناء وبعد جهد، ومثلوا بين يدي إيتيس ملكها الجبار، فسلّم جاسون بسلام الملوك، ثم سئل عن طلبته فقال:

- عَزّ نصر مولاي، لقد تجشّمنا مشاق هذه السفرة في سبيل الفروة الذهبية التي يقتنيها ملك الملوك، لأنه نُمي إليّ أنها كانت من تراث آبائي. . . ولا أدري كيف حصل عليها السيد بعد إذ أفلتت من كنوزنا

وقهقه الملك ملء شدقيه كالساخر المستهزئ، ثم ربت على كتف جاسون وقال:

- أيْ بني! أبق على شبابك الغض، وجمالك الفينان، وعلى شباب هذه النخبة أولي القوة والفتوة الذين معك. . .! أي فروة ذهبية يا بني تبتغي؟ وتراث آبائك من؟! لقد ذبح فركسوس الكبش بيديه أمام عيني، وسلخه بين يدي، وضحى باللحم والحوايا للآلهة، ثم أهدى إليّ الفروة الذهبية التي تعدل كنوز الدنيا بأسرها! ففيم إذن تجشمك تلك المشاق، وفيم مجازفتك بالسفر بين صخرتي سمبلجيدر؟! وفيم كل تلك المهاوي

والمهالك؟ عد يا بني إلى بلادك فهو خير لك، وأبق على حياتك، وانعم بحضن أمك الدافئ فهو أرحب لك من ميدان كله ذؤبان وغيلان، ومنايا تثير الأشجان والأحزان!
وتبسم جاسون وتشبث بما سأل الملك، فأخذ إيتيس يعظه وينصحه، فلما رأى تصميمه واستمساكه، قال له:
- (ألا أوثر كنت مخاطر أمامك إن ليّ؛ إليّ وأصغ ولكن اسمع، ولكن لك إذن ما طلبت يا بني، تلقي بنفسك في تهلكتها، ولكن مادمت قد غرتك الأماني، وازدهتك هذه النخبة من أبطال بني جلدتك، فاذهب إذن، وحاول ما استطعت أن تلجم عِجْليْ فلكان الهائلين اللذين ينقذف اللهب من منخريهما، ويفتكان بكل من اقترب منهما؛ ثم حاول بعد ذلك أن تحرث بهما الأرض الجَبوب التي تقدست باسم مارس، فإذا فعلت فازرع ما حرثت بأنياب تنين كما فعل قدموس باني طيبة، فإنك لا تلبث أن ترى الأرض تُنبت جيلاً من المَرَدَة مقنعين في الحديد
يلاعبونك بأسنة الرماح، فإذا قدرت عليهم فإن عليك أن تقتل التنين الهائل الذي يحرس الفروة الذهبية، فإذا فعلت، ولا أحسبك تفعل، فإن الفروة لك، كنزاً ليس كمثله كنز، وذخيرة من الذهب الإبريز ليست تعدلها ذخيرة؛ هذا إلى فخر يرفعك إلى عِليين، وينقش اسمك في لوحة الخلود إلى آخر الزمان!)
وسمع جاسون. . . وخفق قلبه، ووجبت روحه وجيباً محزناً ثم أخذ على نفسه عهداً أن يفعل!!
ونصحه رفاقه أن ينكث، وأشفقوا عليه أن يضحي بهم وبنفسه في مثل هذه المهالك؛ بيد أنه صمم على أن يلجم عجلي فلكان، وأن يحرث بهما الأرض الجبوب، وأن يزرع فيها أنياب التنين، وأن يحارب المردة فإما هزمهم وإما غلبوه، وأن يقتل التنين الذي يحرس الفروة الذهبية ليفوز بها، وليعود إلى الوطن بالفخر والمجد وخالد الذكر، فيحكم ويكون خير الحاكمين!
وكان يتكلم أمام رفاقه في شجاعة مُدَّعاة، وفتوة مُفتراة، فإذا خلا إلى نفسه حزن أشد الحزن، وأسلم نفسه للتفكير العميق. . . ثم استوحى عصاه السحرية فقالت له إنه ينبغي عليه أن يلقي ابنة الملك، الأميرة ميديا، فإنها مشغوفة به حباً منذ رأته يحدث أباها. . . وأنها تكاد تجن به جنوناً
- وكيف ألقى ميديا هذه يا معجزة جونو الحبيبة؟
- اتصل بإحدى عجائز كولخيس تقض حاجتك!
- ومتى ألقاها وأين؟
- يالك من فتى؟! ألم تسمع من يقول: وكم لظلام الليل عندي من يد؟ القها في جنح الليل، ولتكن له يد عندك، والقها في حديقة قصر أبيها الملك!
(التتمة في العدد المقبل)

دريني خشبة

البريد الأدبي

أزمة الكتاب والثقافة العالمية

عقد أخيراً في مدينة نيس في جنوب فرنسا مؤتمر نظمته أكاديمية البحر الأبيض المتوسط برياسة رئيسها الكاتب الكبير جورج دوهامل للنظر في مسألة ثقافية خطيرة هي أزمة (الكتاب). وقد أجمع المؤتمرون وهم رهط من كبار المفكرين والكتاب من مختلف أمم البحر الأبيض على أن مسألة الكتاب هي مسألة الثقافة العالمية كلها، وأنه لا يمكن أن تقوم بدون الكتاب أية ثقافة أو حضارة أو إنسانية أو سلام أو مثل عليا؛ ولذلك رأوا أن يعرضوا إلى المسألة من ناحيتها الدولية والعالمية
وجرى البحث في النقط والتفاصيل الآتية: هل يمكن أن تحل المجلات الدورية محل الكتاب؟ وهل يمكن أن تحل الإذاعة اللاسلكية (الراديو) مكان الكتاب والمجلة معاً؟ وهل يمكن أن يحل السينما مكان الكتاب والجريدة؟ وهل يمكن أن تشترك وسائل الإذاعة مع الكتاب أم لا يمكن إلا أن تضربه؟ وهل يمكن أن تستعمل هذه الوسائل بطريقة تتفق مع مصلحة التفكير والذهن الإنساني؟ وأخيراً هل يمكن أن يفيد تنظيم المكاتب العامة وإعارة الكتب بلا مقابل في تهذيب القراء، ويعاون في حل أزمة الكتاب؟
هذه النقط وجميع ما يتعلق بها كانت وما تزال موضع بحث المؤتمر أو محكمة الكتاب

كما يسميه المسيو دوهامل
ولا ريب أن أزمة الكتاب والثقافة مسألة عالمية وهي مسألة الحضارة كلها؛ وقد بدأت هذه الأزمة من نهاية الحرب الكبرى إذ انصرفت الأذهان شيئاً فشيئاً عن الكتب القيمة وأغرقت الشعوب المختلفة بسيل من الآداب والكتب السطحية. ثم جاءت السينما الناطقة والراديو فزادت الأزمة حدة، وطغت الصحافة من جانبها على الكتاب وأخذت بتنويع محتوياتها الأدبية والثقافية تصرف الأنظار عن الكتاب
وقد شعرنا في مصر، كما شعرت جميع الأمم المتمدنة بهذه الأزمة الثقافية الخطيرة؛ ومن ثم فإنه يجدر بنا أن نبحثها كما يبحثها غيرنا، وأن نحاول معالجتها بنفس الوسائل والأساليب.
دانونزيو في رياسة الأكاديمية الإيطالية
من أنباء رومة الأخيرة أن الكاتب والشاعر الإيطالي الأشهر جبرائيلي دانونزيو قد عين رئيساً للأكاديمية الإيطالية الملوكية. وقد علقت الصحف الإيطالية والخارجية على هذا التعيين بالاستحسان، وقال إن الدوتشي (موسوليني) بإسناده هذا المنصب لأعظم كاتب إيطالي في العصر الحديث قد أسدى خدمة جليلة للثقافة الإيطالية. على أنه يلاحظ أن هذا الاختيار لا يرجع فقط إلى خلال الشاعر الأدبية، ولكنه يرجع أيضاً إلى ماضيه الوطني؛ فلم يكن دانونزيو شاعراً وكاتباً عظيماً فقط، بل كان وطنياً وجندياً عظيماً أيضاً؛ وهو اليوم شيخ في الرابعة والسبعين من عمره. وقد بزغ مجده منذ خمسين عاماً كشاعر موهوب إذ نشر مجموعة أولى من قصائده؛ ثم توالت بعد ذلك كتبه بين منثور ومنظوم وقصص ونقد. ومنذ أوائل هذا القرن يتبوأ دانونزيو ذروة الشعر والكتابة في إيطاليا الجديدة. وفي إبان الحرب الكبرى كان دانونزيو في فرنسا، وكان يدعو في كتبه وقصائده إلى انضمام إيطاليا إلى الحلفاء. ولما دخلت إيطاليا الحرب انتظم دانونزيو في الجيش ضابطاً في المدفعية، وفقد إحدى عينيه في خدمة الطيران. وفي نهاية الحرب حدث خلاف بين إيطاليا ويوجوسلافيا على ملكية ثغر فيومي، وانتهى النزاع بأن وافقت إيطاليا على تركه ليوجوسلافيا، ولكن دانونزيو لم يرتض هذا الحل وزحف على فيومي على رأس ألف من المتطوعين واحتل الثغر عنوة وأعلن ضمه إلى إيطاليا. وهناك زاره موسوليني الصحفي يومئذ وأعجب به وبخلاله الوطنية والعسكرية العالية. ولما قام الحكم الفاشستي وتبوأ موسوليني ذروة النفوذ والسلطان حدث جفاء بين الرجلين في البداية، ولكنه لم يلبث أن زال وأحيط الشاعر الكبير بكل مظاهر التكريم، وأنعم عليه بلقب الإمارة في سنة 1925، وهو يتبوأ اليوم رياسة الأكاديمية الإيطالية ومن ورائه ذلك الماضي الحافل في الشعر والأدب والوطنية والحرب
الشرائط المصورة في خدمة المكتبات
في حين أن أنصار الكتاب يرون أن الأفلام الناطقة من العناصر الضارة التي تؤثر في رواج الكتب، يرى بالعكس خبراء المكتبات أن الأفلام الناطقة يمكن استخدامها بنجاح في خدمة المكتبات العامة وفي تذليل مهامها. هذا ما رآه المندبون في مؤتمر عقد أخيراً في
كامبردج للنظر في شئون المكتبات وتنظيمها. وقد صرح الأستاذ، واطسون دافيس أحد المندوبين الأمريكيين أنه بمرور الزمن يمكن أن تستخدم هذه الأفلام في حفظ نفائس أعظم المجموعات العالمية، وبذلك تسهل مهمة تبادلها بين مختلف العواصم والمكتبات: بل يمكن بهذه الوسيلة أن ننقل نفائس مكتبة بأسرها من قارة إلى أخرى مدونة في بعض هذه الأفلام الناطقة
وذكر الأستاذ هتون من خبراء المتحف البريطاني أن إدارة المتحف ستقوم بإخراج أفلام ناطقة من جميع الكتب الإنكليزية التي ظهرت قبل سنة 1550م، ثم ترسل نسخا منها إلى الولايات المتحدة (أمريكا). وقد صار من الميسور الآن أن تصور الصفحة الكبيرة في حجم لا يزيد على طابع البوستة، وبذلك يمكن تصوير آلاف من الكتب في أحجام صغيرة، ثم يمكن بعد ذلك لكل راغب أن يحصل بواسطة الجهازات المكبرة على صور منها في حجمها الطبيعي، أو يمكن عرضها على ستار السينما
الأدب الأردي
اللغة الأردية هي لغة مسلمي الهند، وهي من الفصيلة الفارسية، وتكتب بالحروف العربية؛ ولها أدب خاص يتأثر أشد التأثر بالآداب الفارسية والعربية. وقد ظهر أخيراً

بالإنكليزية كتاب عن الأدب الأردي بقلم الدكتور موهان سنغ الأستاذ بجامعة لاهور تحت
عنوان وهو بحث جامع في تاريخ اللغة الأردية وآدابها، من النثر والشعر والقصص،
والعوامل التي اشتركت في تطويرها، ومدى تأثرها بالأدب الإنكليزي والأدب الهندي
القديم، وما كان للقرآن الكريم والآداب العربية من أثر في تطور الثقافة الأردية وقد
تناول الدكتور سنغ بحثه بأسلوب جديد يسبغ على مؤلفه قيمة خاصة، بحيث تقرأ فيه
تاريخ الأدب الأردي كما تقرأ تاريخ الأدب الإنكليزي أو الفرنسي

بول فاليري أستاذ في الكوليج دي فرانس

أصدرت الحكومة الفرنسية أخيراً مرسوماً بتعيين الكاتب والشاعر الفرنسي الكبير
وعضو الأكاديمية الفرنسية بول فاليري أستاذاً للشعر في معهد (الكوليج دي فرانس)
وبذلك يتبوأ الشاعر الكبير فوق مكانته في عالم الشعر والأدب مركزاً رسمياً خطيراً
يستطيع أن يبث
منه إلى الشباب نظرياته الطريفة في الشعر الفرنسي

هذه بضاعتنا ردت إلينا

لما قرأت في (الرسالة الغراء) مقالة (أخبار أبي تمام للصولي) تذكرت بيتاً لهذا
الشاعر العظيم (وكم بيت بديوان) سلبه إياه أبو عبيد البكري، ووهبه للمتنبي . . .
ومقسم يعطي العشيرةَ حقّها ... ومُغَذ ِمِر لحقوقها هضّامها
ورأيت أن يُردّ اليوم الحق إلى أهله. وهذه قصة الذهب والهبة:
جاء في كتاب (اللآلي في شرح أمالي القالي) أو سمط اللآلي (الجزء الأول. الصفحة
217:)
وقال المتنبي في النسيب:
(إنسيّة الإنسان إن هيَ حُصّلت ... جنيّةُ الأبوين ما لم تُنسبِ)
وقال محقق الكتاب ومنقحه الأستاذ عبد العزيز الميمني في الحاشية: (لا يوجد البيت
في شيء من نسخ شعره (أي شعر المتنبي) وقد جمع العاجز - يعني الأستاذ نفسه -
زيادات ديوانه؛ ولعله وهم (أي البكري) في حمله البيت عليه)
قلت: قوله (العاجز) هو من تواضع العلماء، وقد أظهر في (اللآلي وسمطه) كل قوة،
وأخبر فضله أن ليس بعد هذا التحقيق تحقيق (ليس وراء عبادان قرية). ومن خصائص
الأستاذ الميمني أنه يعرف جميع المواطن التي ورد فيها بيت من أبيات (اللآلي)
ويذكرها كلها قلت أو كثرت
وهذا البيت الذي عزاه البكري إلى المتنبي، وأنكر الأستاذ عزوته، ولم يدلنا على صاحبه
على اتساع ذاك الإطلاع - هو لأبي تمام في قصيدة مطلعها -:
أحسِنْ بأيام العقيق وأطيب ... والعيش في أطرافهن المعجب
ورواية صدر البيت (المسلوب) في الديوان هو (أنسية إن حصلت أنسابها) وقبله:
وإذا رنت خلت الظباء ولدنها ... ربعية واسترضعت في الربرب
فاقرأ اليوم يا حبيب: (هذه بضاعتنا رُدّت إلينا) في (اللآلي)
(الإسكندرية)
(* * *)

وفاة المؤرخ التركي أحمد رفيق

روعت الأمة التركية في غضون هذا الشهر بوفاة عالمها المؤرخ الجليل احمد رفيق،
ولقد كانت وفاته فاجعة كبرى أصابت الأمة التركية في شعرها وأدبها وتاريخها
بدأ رفيق حياته العامة بالانضمام إلى الجيش، ثم أكب على الدراسات العلمية الدقيقة
وراح يبذل قصاراه في المطالعة والبحث والاستقصاء في العلوم التاريخية إلى أن
وهنت قواه فخرج من السلك العسكري وكان خروجه هذا سبباً في انغماره في مضمار
الدراسة العنيفة، والمطالعة المضنية، فأكب على دراسة التاريخ وهي الناحية التي كان
يميل إليها بالفطرة فدرسها درساً وافياً وشرع في تأليف مؤلفاته القيمة التي تزيد على
الاثني عشر مجلداً، وجميعها من أروع الكتب التاريخية التي نالت تقدير كبار أساتذة
التاريخ في العالم
مارس احمد رفيق الشعر والأدب فألّف ديواناً في الشعر، وأنشأ مقالات عديدة في
الأدب، فكان توفيقه في هذين الفنيين ضئيلاً بالنسبة إلى ما أصابه في التاريخ من نجاح
باهر ومكانة سامية

وأسلوب الرفيق التاريخي يمتاز من غيره بالسهولة وتبسيط المعقد من التاريخ بطريقة لا تجعل الملل يتسرب إلى القارئ
ويحزننا أن نقول أن ذلك المؤلف الكبير على رغم الخدمات العظيمة التي أسداها إلى أمته كان في أواخر أيامه فريسة للحرمان والفاقة
الكتب
كان ما كان
تأليف الأستاذ مخائيل نعيمة
للأديب محمد فهمي عبد اللطيف
كان ما كان. . . ألا إنها كلمة سحرية تفيض بالذكريات والأحلام، وتفتح على النفس آفاقاً من الماضي، وما أحب الماضي إلى النفس وإن كان كله الشقاء! ولعل هذا المعنى هو الذي لحظه الأديب اللبناني الأستاذ مخائيل نعيمة في وضع هذه الكلمة عنواناً لمجموعة من قصصه، وهي مجموعة تشتمل على ست قصص وفصل من رواية مسرحية اسمها (جمعية الموتى) كان الأستاذ قد كتبها عن المجاعة اللبنانية إبان الحرب. ونعيمة لاشك أديب قصاص، عنده طبيعة فنية، وله في فنه ميزات ومواهب، وهو في قصصه يحيا حياة روحية نبيلة كلها صفاء وتصوف، فعنده (أن الفطرة حقيقة صافية، والمدنية رياء موشى) وهو (يحب الروح النظيفة في جسم قذر، عن الروح القذرة في جسم نظيف) ومن رأيه (أن الأرض روح طاهرة في جسم طاهر لا تساد ولا تستعبد، فهي ميزان العدل الإلي، ولذلك لا تخجل من أن تنبت الوردة والشوكة والقمحة)، وإنه لينظر إلى سبل الحياة في الشرق والغرب، فيرى (الشرق يسير إلى المحجة ومركبته قلبه، وجياده عواطفه وأفكاره، وأعنته إيمانه وتقاليده المتصلة بالآزال، بينما الغرب يسير في مركبة روحها البخار أو الكهرباء، وعضلاتها لوالب ودواليب من حديد وفولاذ، وأعنتها ادعاؤه واعتداده بنفسه). ومع أن الغرب يلتفت إلى الشرق هازئاً، والشرق يبهره ما يرى فيقر للغرب بالمجد، فإن نعيمة يرفع الشرق في روحانيته الصافية، على الغرب في ماديته الملوثة؛ وهو يأسف على الشرق إذ (يطرح مركبته، ويبيع روحه، ليحصل على مركبة كمركبة جاره)، لأن الحياة المادية في الواقع (حياة مقنعة) كلها زحمة باطلة، وجلبة فارغة، وما الإنسان في وسط هذه الجلبة إلا (كالهر يلحس المبرد فيتلذذ بطعم الدم السائل من لسانه جاهلاً أنه دمه. . .)
ونعيمة أيضاً رجل باحث، يعاني النقد والدراسة التحليلية، وله (سياحات في ظواهر الحياة وبواطنها). ولاشك أن القصاص في حاجة إلى مواهب الباحث، من دقة الملاحظة،
وصواب الفكر، وحسن التقدير؛ ولكن ليس من الصواب أن يفنى شخص القصاص في شخص الباحث، حتى لا يضعف النهج القصصي في القصة كما يلاحظ في بعض قصص نعيمة؛ فهو يهتم بأن يقول لك كل شيء في نفسه، ويعنيه كثيراً أن يشرح كل شيء يعترضه؛ ومن ثم فهو يستطرد كثيراً ويخرج بك إلى كل ناحية تتصل بالحديث، ومن ثم كانت القصة عنده فكرة قويمة، وحكمة غالية، وبحثاً اجتماعيا كاملاً، ولكنها ليست على ما يجب من الاستواء الفني والاتساق القصصي، فأنت تقرأها وكأنك تقرأ مقالاً ممتعاً، أو بحثاً ضافياً؛ ولقد تعمد إلى بعض أجزائها بالحذف فما يضير ذلك، ولا هو يقطع صلة الحوادث في القصة؛ ولقد تجده يطيل كثيراً في التحليل النفسي للأشخاص إطالة قد تتحملها القصة الطويلة، ولكنها لا تليق بالقصة القصيرة. وإليك مثلاً: تلك القصة التي أسماها (ساعة الكوكو) والتي صدر بها الكتاب، فإن نعيمة قد حشاها بكثير من الحكم والمواعظ، ونقل فيها كلاماً طويلاً من كلام (بو معروف) وعرض فيها لشخصية (خطار) فحللها تحليلاً نفسانياً دقيقاً صور فيه كل شيء حتى الخواطر والأحاسيس، وساق كلاماً عن الشرق والغرب، والمادية والروحية، ولكنه ساق كل ذلك مساقاً إن اغتبط به فكر الباحث فلن يرتضيه تقدير القصاص، لأن القصة ليست خطاباً يلقى أو حكاية تروى، ولكنها حدود مرسومة، وأبعاد مقدرة، وحبكة قوية في البدء والنهاية، وخطة هي طبيعة الحياة ومظهر الواقع؛ وبالجملة فهي قطعة فنية مستوية لا استطراد فيها ولا زوغان. ولو أن نعيمة راعى ذلك في قصصه لكان من غير شك سباق الحلبة وحامل لواء القوم في القصة
أما أسلوب المؤلف فأسلوب سهل مرسل، يريده نعيمة على أن يكون أداة لإفهام

القارئ فحسب. ولقد يهمل حق البيان واللغة في بعض الأحيان، فيقدم حيث يجب التأخير، ويحذف في مقام الذكر، ويرجع بالضمير إلى غير ما هو له، كأن يقول: (ولا يزال نحو المائة منهم ينتظرون الدخول وراء السور) يريد ولا يزال نحو المائة منهم وراء السور ينتظرون الدخول. وكأن يقول: (لكنهم يبكون كلاماً، وينوحون من قلوب ضاحكة وأجواف مفعمة) يريد أن بكاءهم لا حزن فيه وأنهم ينوحون وأجوافهم ممتلئة (بالسرور)، ولكن العبارة لا تفي بما يريد، لما في صدرها من الخطأ اللغوي، ولما في عجزها من القصور. وكأن يقول في بعض تشبيهاته: (فكأن دماغي قد تحول إلى مسحوق دقيق ذرته يد خفية في هاوية
تلبدت بدخان) وهذا تشبيه لا يسوغه الذوق البياني
على أننا لو تجاوزنا عن مثل هذا فما يصح أن نتجاوز عن حق اللغة والنحو في مثل قوله: (ويلتقي الأخ أخاه) وقوله: (لنشاركه بالفرح) وقوله: (ولا يلعب بالقمار) وقوله: (كانت تحوي على صفات) وقوله: (فلنباشر يفحصهم) وقوله: (وذقنك المستطيلة وأحناكك النافرة) إلى آخر ما هنالك من التعابير التي لا أحسب أن نعيمة الناقد يرضاها من غيره. وهل من اللائق أن تكون الفكرة من الذهب وأن يكون لبوسها من الخشب؟!
ثم هناك هنوات طفيفة كأن يقول (ص57) واختلت مع جميل في مخدعها، وسياق الكلام يقضي أنها اختلت مع عزيز وما أحسب ذلك إلا سبق قلم
وفي قصة الكوكو (ص8) يقول: في حقيبتي رسالة تسلمتها في أيار سنة 1922 والذي في ذيل القصة أنها كتبت بتاريخ سنة 1915 ولعل هذا من تحريف الطابع
أما بعد، فقد كانت فترات طيبة تلك التي قضيتها في قراءة (كان ما كان)، وما أبالغ إذا قلت إن نعيمة قد غمرني بفيض من الفكرة (الروحية البحتة) التي يخدمها ويخلص لها في قصصه. وإنها لفكرة سامية ما أحوج الناس إليها وقد جرفتهم أوضار المادة الفاسدة، ولكن من لها بأمثال نعيمة في روحانيته وإخلاصه؟
محمد فهمي عبد اللطيف
العدد 228 - بتاريخ: 15 - 11 - 1937
الصيام بين عهدين
والتجدد أو التطور يصيب كل شيء فيجعله أعلى عالٍ أو يردُّه أسفلَ سافل!
كان عهدنا بالصوم قبل اليوم أن يكون عصياناً للنفس في طاعة الله، وحرماناً للجسم في مَبَرَّة الروح، ونكراناً للذات في معرفة الناس؛ فالجوارح مغلولة عن الأذى، والمشاعر مكفوفة عن الشهوة، والخواطر مستغرقة في الدعاء، بين نهار كله إحسان وتأمل وتصدُّق، وليلٍ كله قرآن وتواصل وتهجُّد؛ فلا الغنيُّ يهيج به البطر، ولا القوي تفرط عليه القدرة، ولا الفقير يتجهم له الحرمان، وكأنما زالت الفروق بين الناس فأصبحوا سواسية في نعمة الدين وسعادة الدنيا!
كان الرجل الدنيوي الشهوان إذا أقبل عليه رمضان تاب وتطهر، فلا يفتح فمه لِهُجر، ولا عينَه لفحش، ولا أذنَه للغو، ولا قلبَه لخطيئة. يقضي يومه مضطرباً في المعاش على أفضل ما يكون الخلق؛ فإذا كان تاجراً لا يدلِّس، أو صانعاً لا يزوّر، أو عاملاً لا يُفرِّط، أو معاملاً لا يخون. ويحيي ليله في استماع القرآن ومواصلة الإخوان ومُوادَّة ذوي القربى؛ فإذا ما انقضى بعض الشهر بدا عليه شحوب الصوم وذبول الصلاة وكلال السهر وخشوع الورع. فلو كنت حاضر ذلك العهد لرأيت رمضان عيداً قومياً ودينياً يؤكد أسباب القرب بين الله وعباده، ويوثق عرى الحب بين الشعب وأفراده
ذلك عهدنا برمضان الأمس؛ أما رمضان اليوم فبحسبك أن أصف لك حياة من حيوات القاهرة فيه؛ وتستطيع أنت أن تصور لنفسك الطور العجيب الذي آل إليه شهر القرآن والعبادة
هي أسرة لا أقول إنها مثال لكل الأسر؛ ولكنها استجابت لنوازع التجديد الأبله استجابة الإِمَّعَة فأصبحت تمثل ما عسى أن يكون بين التقاليد والتقليد من التناقض المضحك
ميمِ باشا يتبوأ منصباً من مناصب الدولة الرفيعة. بلغه بعد حياة طويلة كادحة، تبتدئ من القرية الحقيرة والأسرة الفقيرة والوظيفة الخاملة، وتنتهي إلى هذا الجاه العريض والثراء الضخم والمنزل المرموق؛ فهو وزوجه من عهد، وابناه وبناته الثلاث من عهد؛ والتفاعل بين هذين العهدين هو الذي أحدث هذه الظاهرة التي تجدها اليوم في أكثر

بيوت القاهرة. لابد لهذه الأسرة أن تصوم؛ ذلك حكم النشأة وسلطان العادة. ولابد كذلك لهذا الصوم المتزمت الجافي أن يتسع باله وترق حواشيه إذا ما استضاف هذه الأسرة. فهو يسبل

جناحيه الرءومين على أَسِرَّتها الوردية الوثيرة من طلوع الفجر إلى متوع النهار؛ ثم يمس بريشهما الناعم خدود الأوانس النواعس فينتبهن؛ ويهبُّ الوالدان على زقزقتهن في غرف الزينة وطنُف القصر؛ ثم يجتمع بعد قليل مجلس الأسرة لينظر في مقترحات البطون على إدارة المطبخ. فهذه تقترح، وتلك تعترض، وهذا يطلب لوناً، وذاك يطلب آخر، والباشا يدير هذا الجدل الشهي إدارة موفقة، فيعدِّل أو يكمل أو يؤجل، حتى ينتهي النقاش بثبَت حافل بالمشهيات والمقليات والمشويات والمحشوات والفطائر لا تجد بعضه في مطعم كبير

يتغير هذا الثبَت كل يوم فيطول أو يقصر، ولكن لونين فيه لا ينالهما تغير ولا يمسهما نقص: لوناً من الأرانب مطبوخة في النبيذ يحبه الباشا، ولوناً من الشرائح الوردية مطعمة بفصوص من شحم الخنزير تحبه الآنسة الكبرى سين!

هاهو ذا الباشا البطين يتذبذب وئيداً بين المطبخ والمائدة كأنه رقاص الساعة؛ في يده مسبحته الكهرمان الصغيرة يهش بها على الطهاة والخدم، وشفتاه تختلجان من غير كلام، وعيناه تتحركان من غير نظر، حتى إذا دنت المغرب خفت حركته واحتد نشاطه فأقبل على المائدة ينسق الآنية، وينضد الأكواب، ويسكب أمام كل آكل الشراب الذي تعوده؛ فهنا قمر الدين، وهنا منقوع التين، وهنا الكينا، وهناك الفرمود، وهنالك إفيان، وأمامه هو شراب صحي فاخر من صيدلية (يني)؛ ثم يدبج الخوان المخملي بنوافل المائدة من السلطات والكوامخ، ويرتب الألوان مع النادل على أصول مقررة في الفن؛ ثم يسرح بعد ذلك بصره في السماط المكتظ فيرتد إليه ملآن بالرضا والعُجب؛ فيخرج إلى الردهة، ومن الردهة إلى الشرفة، فيلقي النظرة الأخيرة على الشمس الغاربة، ثم يعود فيرى الأسرة بجنسيها لم تفرغ بعد من إعداد الأهَب للسهرة الراقصة؛ فالحلل تنتقى، والحلي تُختار، والشعور ترجل وتموج، والأظفار تدرَّم وتصبغ، والحواجب تدقق وتخطط، والخطوات واللفتات والبسمات تتكرر أمام المَرايا لتراض وتُتقن. حتى إذا انطلق مدفع الإفطار من الراديو أهرعوا إلى المائدة إهراع جنود الإطفاء إلى السيارة؛ ثم يجلس الباشا بين بنيه ويضع المسبحة المعلومة مكان القدح المجهول، ثم يرفعه إلى فيه وهو يقول: (اللهم لك صمت، وعلى رزقك أفطرت، وبك آمنت، وعليك توكلت.) ثم يقبلون على هذه الآكال وهذه الأشربة إقبال الشره الفاره! فلو رأيتهم حسبتهم صاموا العام كله ليفطروا في رمضان!

أذنت العشاء فصلاها الباشا الصالح، ولم يكد ينلفت منها حتى أخذ يُعد مقصف الليلة من النقول المختلفة، والأشربة الهاضمة، والأزهار الجنية. وأخذت الأسرة زينتها النمامة الكاشفة واجتمعت في البهو الفسيح الفخم تستقبل أسراب السيدات والأوانس ومعهن أبناؤهن وأخوتهن من الأيفاع والشباب؛ فيعزف البيان، ويخفق العود، وتشدو الكواعب، ويهزج الحاكي، ويدور الرقص على نمطيه الشرقي والغربي، فتلتف الأيدي على الخصور، وتلتصق الصدور بالصدور، وتمتزج أنفاس الكحول بأنفاس العطور، ويقف رمضان المسكين من هذه المناظر المريبة وقفة شيخ من شيوخ الدين دفعت به الأقدار إلى ماخور!

هذه والله صورة ناطقة لأسرة أعرفها ويعرف أمثالها الناس. فمن عرفها فسيقول قصَّر، ومن جهلها فسيقول بالَغ؛ والحق أنها الواقع لا تنقصه إلا تسمية الأسماء وتعيين المنزل.

أحمد حسن الزيات

الحد الحاسم

للأستاذ عباس محمود العقاد

من العقول عقل كالرسول الذي تثق بقدميه ولا تثق برأسه: ترسله وتفصل له ما يعمل في كل حالة، فإذا طرأ طارئ لم تُسلف له فيه وصية فلا عمل ولا تصريف حتى يرجع إليك. فالشيء عنده إما معمول بأمر أو متروك بأمر، وإما حسن كما تراه أو قبيح كما تراه، ولا توسط ولا تدرج بين الأمور

ومن العقول عقل كالرسول المفوض: تنبئه بمرادك ثم تكل إليه تحصيله كما يريد، فلا

تبيح ولا تمنع، ولا تقسم الأمور كما تراها، بل تدع له أن يقسم ما يشاء حين يشاء
العقل الأول لا غنى له عن الحدود الحاسمة في الكلام؛ فالشيء عنده إما أبيض أو
أسود، وإما حلو أو مر، وإما مأخوذ أو متروك؛ ولا يجوز أن يكون مأخوذاً في حال
ومتروكا في حال، ولا أن يكون حلواً ومراً في وقت واحد، ولا أن يكون بين البياض
والسواد تارة يبيض وتارة يسود على حسب الضياء والظلام، وعلى حسب الموقع الذي
تنظر منه إليه

والعقل الثاني لا يتقيد بالحدود الحاسمة ولا يحتاج إليها، لأنه يرى الدرجات بين
المسافات، ويرى الظلال بين الألوان، ويرى التشكيلات بين الأشكال

فالشيء عنده لا يكون بعيداً وحسب، ولا قريباً وحسب، وإنما يكون بعيداً بمقدار كذا
وقريباً على درجة من القرب مقسومة بين الدرجات؛ وقس على ذلك سائر ما يدركه
ويحده ويعيه

ولغات الأمم تبين لنا مقدار نصيبها من العقل المسخر ومن العقل المفوض

فاللغة التي تقل فيها (الظروف) هي اللغة التي قلما يستغني أصحابها عن الحدود
الحاسمة والأوامر المفروضة، لأنهم يجهلون الفروق ولا يدركون وجوه الاختلاف، إلا إذا
بلغت من الظهور والاتضاح مبلغ النقيض من النقيض، أو مبلغ الشيء المميز بعلامة لا
تشتبه بغيرها من العلامات

واللغة التي تكثر فيها الظروف هي لغة العقول المفوضة أو العقول المتصرفة، لأنها
تمح الفرق الصغير فلا تقف عند الحد الحاسم الكبير، وتري العمل الواحد على أشكال
متعددات، فلا تحصره في شكل واحد محدود محتوم

و (الظرف) في اللغة هو الكفيل بإظهار هذه الفروق الصغيرة، وتقسيم الدرجات بين
المسافات الواسعة. فإذا رأينا (الظروف) في لغة من اللغات فنحن إذن أمام ناس
متصرفين غير محدودين، أو أمام عقول تستنبط الفهم من بواطنها ولا تنتظر حتى يقال
لها: أفهمي هذا هكذا، وافهمي ذاك على ذاك المثال

وأحسب أن (الظروف) تقل، وأن العقول تعجز عن التصرف لسبب من سببين:

أحدهما طول عهد الاستبداد، فيتعود العقل إملاء الأوامر عليه وإسناد الفرائض إليه،
فيصدع بما يؤمر ويطيع ثم لا يتصرف، وينتظر الإرشاد والتسديد في كل خطوة وعند
كل طارئ جديد

والثاني نشأة الأمة في بيئة محدودة لم تتشعب فيها مسالك العمران ومذاهب التفكير،
فكل ما فيها فروق كبيرة بارزة، ومسافات بعيدة شاسعة، فلا محل فيها للفرق الدقيق
ولا للدرجة الصغيرة ولا للمسحة المترددة بين الألوان

وأنت تستطيع أن تفتح (معجم) اللغة من اللغات فتعرف نصيبها من الحرية أو من سعة
العمران بتلك العلامة التي لا تخطئ، وهي علامة (الظروف) المصوغة أو التي تسهل
صياغتها من الأسماء والأفعال

يضحك الإنسان ضحكة السرور، وضحكة الألم، وضحكة التشفي، وضحكة التهكم،
وضحكة الرصانة، وضحكة الطيش، وضحكة المعرفة والحكمة، وضحكة الجهل والبلاهة،
وضحكة القوة والعزة، وضحكة المجون والاسترخاء؛ وكله ضحك إذا نظرت إلى اسمه
في اللغة. . . فماذا يفيد هذا الاسم إن لم يميزه مميز من الظروف؟

وتقول مثلاً في عنوان مقال أو قصيدة: (شجاعة الجبن) فيفهم العقل المتصرف أو
عقل (الظروف) معنى ما تقول

أما العقل المغلق أو عقل الحدود الحاسمة فيعجب حتى يغرب في الضحك ويسخر
ممن يلقي إليه بذلك العنوان، لأن المسألة عنده إما شجاعة وإما جبن ولا يلتقيان.

وليس في علمه أن الجبن قد يؤدي إلى الإقدام بعض الأحيان، وأن الجبان والشجاع
في بعض المواقف سيان

ومن هنا كان استغراب الجامدين لما كانوا ينعتونه (بالتفرنج) من تلك العناوين، وما هو
بالتفرنج ولا بالوصف الموقوف على الفرنجة، ولكنه وصف شائع بين جميع العقول
التي

بلغت رشدها وخرجت على وصاية (الحدود الحاسمة) أو على وصاية الأسماء والأفعال
التي لا تميز بينها الظروف والإضافات

وليس أصعب من إفهام عقل حاسم يتحذلق ويقيم الاعتراضات على ما سمع. فأنت إذا

قلت مثلاً: إن النهار مضيء والليل مظلم، فذلك تفريق من أصدق التفريقات بين الأضداد. يسمعه العقل المتصرف فيعلم ما تعنيه لأول وهلة، ويسمعه العقل الحاسم المحدود المتحذلق فيقول لك: كيف؟ إن النور الكهربائي يضيء بعض الحجرات بالليل، وإن الستائر لتلقى الظلام على بعض الحجرات بالنهار! وقس على ذلك أمثال هذه الاعتراضات وما تنم عليه من الضيق والعجز وقلة التصرف والتواء التفكير

وإلا فانك إذا أردت أن تمنع ذلك الاعتراض وأشباهه فقد وجب عليك أن تقول: إن النهار مضيء والليل مظلم، ثم تتبع هذا التفريق بإحصاء جميع الحجرات التي تحجبها الستائر والنوافذ وجميع الحجرات التي تضيئها المصابيح الكهربائية وغير الكهربائية، وتعود فتقول: إن النهار مضيء والليل مظلم ماعدا حجرة في بيت زيد في طريق كذا في مدينة كيت وكيت بمصر بالقارة الإفريقية، وهكذا حتى تستوفي بيان جميع الحجرات في جميع الطرقات في جميع المدائن في جميع الأقطار. فإن لم تذهب إلى هذا التفصيل فأقل ما في الأمر أن تعمد إلى استثناء لا حاجة إليه ولا مزيد فيه فما الذي يدعو العقل المحدود إلى أشباه ذلك الاعتراض؟ أدقة في فهم؟ كلا! بل عجز عن إدراك الحدود بغير إملاء حاسم وعجز عن طلب المعرفة يشغله بالقشور عن اللباب وبالتوافه عن مهام الأمور

وهنا ينبعث لنا من التمثيل مثل آخر للتفريق بين العقل المتصرف المفوض والعقل الحاسم المسخر

فهل من الضروري أن يلجأ العقل المتصرف إلى التفريقات والظروف في تعبيراته؟ وهل إذا قال القائل: (إن النهار مضيء والليل مظلم) نحسبه من أصحاب اللغات الغنية التي يتكلمها المتصرفون أو من أصحاب اللغات الفقيرة التي يتكلمها المحدودون المغلقون؟

الجواب هنا ينفع فيه التصرف المطلق، ولا ينفع فيه الحسم المغلق!

الجواب هنا أن ذلك القائل يكون من المتصرفين إذا قدر أن سامعيه لا يعترضون على ذلك الاعتراض السخيف ولا يطالبونه ببيان الحجرات في جميع البيوت والطرقات والأمصار والقارات، أو باستثناء هو وذلك على حد سواء. فإذا هو سكت بعد تفريقه الموجز فسكوته خير من الإفاضة والتشعيب

وأنه يكون من المحدودين إذا قال: (إن النهار مضيء والليل مظلم) ثم سكت عن المزيد لأنه يجهل مواقع الاستثناء كما يجهلها سامعوه

فالتصرف لازم في جميع التفريقات حتى التفريق بين المتصرفين والمحدودين

ومن ثم نستطيع أن نقول: إن (الظروف) والتفريقات تكثر في اللغات الغنية، ثم نرى أن أصحاب تلك اللغات قد يستغنون عن الظروف والتفريقات ويعرفون كيف يستغنون عنها ومتى يحسن الاستغناء؛ فلا نعجل بالاعتراض ولا نحسب أننا متناقضون، لأن التصرف خليق أن ينفي هذا التناقض الظاهر عن أذهاننا وأن يغنينا عن الإسهاب حيث لا حاجة إلى إسهاب

ساقني إلى موضوع الحد الحاسم رأيٌ في علاقة الأدب والديمقراطية قرأته في كتاب (لونارد وولف) المسمى بعد الطوفان، وسأعود إليه ببعض الشرح والتعليق في غير هذا المقال

وخلاصة رأيه أن الشعراء والقاصين كانوا يرسمون للناس قبل القرن السابع عشر نماذج من طوائف وجماعات. أما بعد القرن السابع عشر وانتشار الديمقراطية فأبطال القصص (أفراد) مستقلة قلما تتكرر في غمار السواد، وليست نماذج من طبقة أو طائفة أو قبيل

وعلاقة الديمقراطية بهذا في رأي (لونارد وولف) ومن يجارونه أن المساواة قد خولت الفرد حرية الظهور فبرزت الخصائص واستحقت من الشعراء والكتاب عناية لم تكن تستحقها حين كان الجمهور أرقاماً متكررة على نموذج واحد، أو حين كان النبلاء طرازاً مرسوم المراسم لا يختلف فيه إنسان عن إنسان

رأي جميل لا شك في صدقه واحتوائه للكثير من الأصول والملاحظات ودلالته على سعة المعرفة وحسن التحليل والتعليل

ولكن ما نصيب ذلك الرأي لو وقع للمحدودين من أصحاب الحدود الحاسمة ومن
جماعة المطالبين بتعداد الحجرات إذا قيل إن النهار ضياء والليل ظلام؟
فقبل القرن السابع عشر رسم شكسبير بطله (هملت) وهو ولا ريب (فرد) بين أمراء
جميع الأزمان وليس بالنموذج المتكرر في طبقة الأمراء
وقبل القرن الأول رسم هومير أبطاله الفرسان وهم مختلفون اختلاف أفراد لا اختلاف
نماذج
فأين يذهب رأي وولف الجميل لو صدمناه باعتراضات شتى على هذه الوتيرة؟
يذهب إلى حيث نخسره ويخسره النقد وميزان الآداب، لأن وصف الشخوص بعد القرن
السابع عشر قد اختلف وكانت لاختلافه علاقة بالديمقراطية ما في ذلك مراء. وعلينا
نحن أن (نتصرف) في التفريق بين أجزاء ذلك الرأي فنضيف إلى ميزان الأدب صنجة
تعين على الضبط والتمييز. أما إذا أبطلنا الرأي وعطلناه حتى يعود لنا وولف ببيان
الحجرات المضيئة في الليل والحجرات المظلمة في النهار فنحن الخاسرون لأننا نجهل
مواقع التدقيق لا لأننا نعرف التدقيق في نقد الآراء
الحد الحاسم أو العقل المحدود هو آفة الجامدين الكبرى، وهو علة الركود في آدابنا
وفنوننا، ولكننا نتغلب عليه ونروض عقباته، ولا نستدل على ذلك بشيء أدل من زهدنا
في الجدل (البيزنطي) عاماً بعد عام
عباس محمود العقاد
كلمة موجزة
المتنبي
أبو تمام، الوزن، القافية، التجديد
للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي
في (العمدة) لابن رشيق: ثم جاء أبو الطيّب فملأ الدنيا، وشغل الناس
في (المثل السائر) لابن الأثير: وقفتُ على أشعار الشعراء قديمها وحديثها فلم أجد
أجمع من ديوان أبي تمام وأبي الطيب للمعاني الدقيقة، ولا أكثر استخراجاً منهما
للطيف الأغراض والمقاصد
في (خزانة الأدب) للبغدادي: المتنبي سريع الهجوم على المعاني
في (شذرات الذهب) لابن العماد: ليس في العالم أشعر من المتنبي أبداً، وأما مثله
فقليل
قلت ذات مرة للعربيّ الألمعيّ الأستاذ (رياض الصلح) - وقد ذكرنا المتنبي وأبا تمام -:
إن الأول كان يحلق في سماء الشعر بمعانيه، وإن الثاني كان يغوص في بحره على
. . .لآليه، فقال: قِفْ. إذن، المتنبي (طيارة). . . وأبو تمام (غواصة)
ولقد جاء الذي شغل الناس، والذي هو دهره من رواة قلائده بما جاء به وهو من تلك
القافية وذاك الوزن في سجن. ولولا هذان لأسمعك (أحمد) من القريض - الذي هو
أعجب، وأراك ما هو آنق ممّا رأيتَ وأغرب. ولولا هذان لجوّدَت الأيام أيّما تجويد
تسطيرَ ما أملي فلم يقل:
ولم تُحسنِ الأيام تكتبُ ما أملي
رُبَّ ما لا يُعبّر (الشعر) عنه ... والذي يُضمرُ الفؤادُ، اعتقادُهْ
وما قيّد الشعرَ العربيّ إلا قوافيه، وما قصَّرَ خطواته في ميادين الشؤون إلاّ تلكم
الأوزانُ (البدويّة) وإلاّ هي؛ والقافية في أكثر الأحايين هي القائلة لا القائل، والوزن هو
الوازن لا شعور الشاعر؛ فأكثر الشعر ليس لأهله لكنه للوزن أو للقافية. . . إنه مما
أتى، مما وُجد. . . ليس هو مما قُصِد. . . وكائنْ في الضمائرِ من معانٍ باهراتٍ
مدهشات قد غيبتها القوافي!
وإذا كان ذلك القديم الكريم الموروث قد كفى في شيء فثمّةَ أشياءُ لم يستقلَّ بها،
والرغائب
والمطالب في (الحضارة) في كل وقت جمّة
ولولا أنّ عبقرّيةً منتخبةً قويّة عند المتنبي قد أنكرت الجرْيَ على أساليب القوم أو
بعض أساليبهم،
إذا كان مَدْحٌ فالنسيبُ المقدَّمُ ... أكلُّ فصيح قال شعراً متّيم؟
وأرادت أن تحرر ربّها لأقام (الكندي) دهرَه من تُبّاع (الطائي) يأخذ بأخذه فلا يجاريه،

ويكدّ روحه في أن يصوغَ كما يصوغُ فلا يساويه؛ وحبيبٌ في صَوْغِهِ وغَوْصِهِ لا يلحق.
(أراد المتنبي أن يسلك مسلك أبي تمام فقصرت عنه خطاه، ولم يعطه الشعر من قياده ما أعطاه) وقّلما ضارع كبيرٌ مقلَّدٌ عظيماً مقلَّدا
ولم يستطع المتنبي - على تبريزه وارتقائه - أن يزحزح حبيباً عن مكانته، وما قدر إلا أن يقعد في عرش الشعر معه. وليس بقليل أن يقتطع من ملك حبيب ما اقتطع، ويختلج من رعاياه من اختلج. فالناس بعدهما في كل زمان حزبان: متنبيّ، وتماميّ، لكن جماعة (أحمد) أكثر عدداً، و (للحبيب) شيعة به مغرمون
وقد قالوا: أبو تمام عند الخاصة أشعر، والمتنبي أشعر عند العامة. وما أنصف المتنبي هؤلاء القائلون. إن في (السيفيات والكافوريات والعضديات) وغيرهن لآيات بينات، وإن فيهن لسحرا. وإذا كان لأبي تمام عشر قصائد علا بهن علوّاً كبيراً، فان للمتنبي قدّامهن خمسين قصيدة أو أكثر من ذلك. وقد يقول قائل - وفي قوله حق - إن طول الأجل وقصره قد أعطيا ومنعا، فلم يعمَّر (حبيب) ما عمِّر (أحمد)
وكان شيوخ ابن خلدون يرون - كما قال - أن نظم المتنبي والمعري ليس هو من الشعر في شيء - الله أكبر! - لأنهما لم يجريا على أساليب العرب
وكلام هؤلاء الشيوخ (شفاهم الله، وشفى ناقل قولهم معهم) ليس بشيء إلا شيئاً لا يُعبأ به؛ فأساليب العرب متنوعة مختلفة، وليس هناك أسلوب أوحد؛ ولكل قبيل طريقة، وللبدوي بلاغة، وللحضري بلاغة، وللإقليم أو المكان، وللخليقة والمزاج أثرٌ وسلطان؛ ولكل عصر أو قَرن زيّ ولحن. و (أحسنُ الكلام ما شاكل الزمان) والدنيا في تبدّل مستمر، (وأحوال العالم لا تدوم على وتيرة واحدة، ومنهاج مستقر) ولكل نابغة نهجٌ معلوم
فتنكّبُ المتنبي عما تنكّب عنه، وسلوكه السبيل الذي سلكه ما ضاراه بل ظاهراه في إبداعه
ونبوغه، وكان ذلك على هذه اللغة من نِعمِ الله. فتحرَّرَ (ابن الحسين) من تقليده، ومشى مشيَ المُدِلّ المستقل في تجديده؛ والمقلد عبْد، ولا يرضى بالعبودية حرّ؛ والتقليدُ عدم، والاستقلال كون، وشَعَرَ المتنبي ذاك الشعر، وأظهر (أحمد) معجزه
ولي فيك ما لم يقل قائل ... وما لم يسر قمر حيث سارا
ورأت العربية أكبر شاعر، وظهر في العرب شاعرهم
ودع كل صوت غير صوتي فإنني ... أنا الصائح المحكّي والآخر الصدى
وما الدهر إلا من رواة قلائدي ... إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا
فسار به من لا يسير مشمرا ... وغنى به من لا يغني مغرّدا
محمد إسعاف النشاشيبي
قصة واقعة
للأستاذ على الطنطاوي
أغارت سيول هائلة ليلتي 24 - 25 أكتوبر على حارستا والمعظمية والضمير من أكبر) قرى دمشق الشمالية، فخربتها ولم تدع في الضمير حجراً على حجر، وقتلت الناس بالمئات وتركت من تركت بلا مأوى ولا مال. . .)
كانت (منطرة) (سعد الخطار) أعلى منطرة في (دوما)، وكانت تطل على كروم دوما الواسعة والسهول التي تليها ممتدة إلى ثنيّة العقاب التي انحدر منها خالد مَقْدَمه من العراق في طريقه إلى اليرموك ساحة الشرف الخالد، وتشرف من هناك على جنان الغوطة تلوح من ورائها دمشق جنة الأرض أقدم مدن العالم، يرى خيالها حيال الأفق بمآذنها التي لا يحصيها عدّ، ومسجدها العظيم تتوّج هامته قبة النسر الباذخة المشمخرة، والمنائر السامقة العالية، ويرى منها قاسيون الحبيب، وهاتيك الجبال. . .
وكان سعد الخطار سيد شباب الضمير، وأشدهم أسراً، وأجرأهم جناناً، وأقواهم ساعداً. اشتغل منذ عشر سنين ناطوراً في كروم دوما، فعرف فيها بالشدة والبأس، فتجنب الناس كرْمه وابتعد عنه اللصوص والطرّاء. وكان يجول المساء في أنحاء الكرم أو ينزل إلى البلد، وخيزرانه في يده، فيجتمع النساء في طريقه ينظرن بإعجاب إلى قامته المديدة، وصدره الواسع، وأكتافه العريضة، وشاربيه الأسودين المعقوفين؛ ولكن سعداً كان مع هذه الشدة وهذا البطش رقيق العاطفة، مرهف الحس، يحمل بين جوانحه قلب شاعر شاعر. . .

كان عصر اليوم الخامس والعشرين من أكتوبر سنة 1937 وكانت السماء متلبدة بالغيوم، والأمطار ترش رشاً خفيفاً، والدنيا مظلمة ترى كأنها في ساعة الغروب، وكان سعد في منطرته ينظر إلى الكرم الواسع الذي حرسه الصيف كله، وكان موقّرا بالثمر تبدو عناقيده الحمر والبيض من خلال الورق الأخضر كأنها عقود اللؤلؤ والياقوت، يمتد إلى حيث لا يدرك البصر حافلا بالحياة، فرآه قد اصفرت أوراقه وعطل من الثمر وعاجله الخريف فذوت أوراقه واسّاقطت تطير مع الريح؛ ورأى أشجار المشمش التي كان يبصرها دائماً عن يمين الكرم خضراء زاهية، قد تجردت ولم يبق عليها إلا أوراق صفراء جافة؛ ثم هبت رياح باردة من رياح الخريف فلفحت وجه سعد، وحملت هذه الأوراق الذاوية فألقتها

في منطرته فكان يسمع لوقعها تحت المطر صوتاً حزيناً مؤلماً، فشعر سعد بالأسى يملأ قلبه. . . سيضطر غداً إلى فراق هذه المنطرة الحبيبة، وهذا الكرم الذي ثابر على حراسته عشر سنين وتعلقت حياته به، وانتثر قلبه في أرجائه، فأصبح جزءاً من حياته وقطعة من نفسه، لا غنى له عنه، ولا حياة له بدونه. . . لقد ملأوا أمس آخر صندوق (سحارة) من العنب جمعوه من بقايا العناقيد ولم يبق في الكرم ما يحرسه، فشعر كأنه يفارق ولداً عزيزاً عليه، قد رباه وتعهده بالعناية ثم فقده. . . أو لم يرافق الكرم وهو لا يزال حصرما؟ أو لم يتعهده حتى نضج وأينع؟ أو لم يشاهد التجار كل مساء وهم يأتون ومعهم العمال بالعشرات يملأون صناديق (سحاحير) العنب، وهم يغنون ويصيحون ويترعون الفضاء أنساً؟ كم بين هذا المشهد وبين مشهدهم أمس وهم يملأون آخر (سحارة) صامتين تلوح على وجوههم إمارات الحزن والكآبة؟ لم يستطع سعد أن يراهم على هذه الحال فانسل إلى منطرته ووضع رأسه بين يديه يفكر حزيناً ملتاعاً. . .

جلس سعد يتأمل هذا المشهد ذاهلاً غائباً عن نفسه والمطر يشتد ويقوى، والماء ينفذ من سقف المنطرة، وكان سقفها من ورق الكرم الجاف، ويبلل رأسه وثيابه لا يحس به ولا يحفله لأنه ابن البر وصديق الطبيعة، ولأنه كان ذاهلاً عن نفسه لم يصح حتى أسدل الليل ثوبه الأسود على الدنيا فغيب تحته هذه المشاهد كلها. . . صحا سعد فنفض الماء عن شعره وثيابه، ونشر خيمته فوق رأسه لتمنع عنه المطر، وأوقد مصباحه الألماني الذي يظهر للسائرين في هذا المرقب العالي كأنه نجم من نجوم السماء. . . وجلس يفكر. . .

ذهب به الفكر إلى بعيد. فذكر حين جاء هذه المنطرة مع عمه وابنة عمه ليلى، وكان ذلك قبل أحد عشر عاماً. لقد كان في السادسة عشرة، وكانت هي في التاسعة من عمرها، وكان عمه ناطور الكرم يحرسه منذ ثلاثين سنة، وهو الذي بنى هذه المنطرة وأعاد بناءها أكثر من عشرين مرّة إذ كانت تهدمها الرياح والأمطار والسيول. لقد تصوّر عمه بقامته العالية وجسمه المتين وظهره الذي انحنى قليلا تحت أعباء الزمان، ولحيته البيضاء. . . لقد كان عمه قوياً شجاعاً وكان سعد يعجب به كثيراً كما كان يحب ابنته ليلى. . . أحبها منذ كانت طفلة ولكنه لم يكن يعرف أنه يحبها، ولم تكن كلمة الحب دائرة على ألسنة القرويين، بل كان من العار على الشاب أن يذكرها لفتاة. . . لم يكن يعرف أنه يحبها ولكنه لم يكن

يستطيع أن يبتعد عنها أو أن يمرّ عليه يوم لا يراها فيه؛ وإذا هو لقيها وذهب معها يلعب أو يرعى العنزات أو يسوق البقرة إلى المزرعة أو يملأ الجرّة من العين، إذا كان معها ينسى الدنيا كلّها ولا يفكر في شيء. . .

ذكر حين جاء هذه المنطرة أول مرة مع عمه وابنة عمه ليلى وحين تركه عمه مع ليلى لينزل إلى دمشق، وأوصاه بأن يعتني بها، ويحرس الكرم. . .

لقد صرت شاباً يا سعد. كن عاقلا وشجاعاً. لا تدع ليلى تنزل في الليل من المنطرة. - إذا رأيت وحشاً أو سارقاً فأطلق عليه النار. لا تخف من شيء. . . هذه هي البندقية. . .

وذهب عمه، وهو يتبعه بصره. فلما غاب عن عينيه أحس سعد بأنه غدا منذ تلك اللحظة رجلا، وأنه هو حامي ليلى، وحارس الكرم، وأنه يستطيع أن يطلق النار من البندقية كما كان يفعل عمه تماماً، وتمنى من كل قلبه أن يرى وحشاً أو لصاً ليري ليلى شجاعته ورجولته، ولكنه لم ير شيئاً.

ذكر كيف قضى الليل مع ليلى، وكانت ليلة قمراء رخيّة النسيم لطيفة. فتحدثا وتبادلا

النكات، وأحس بلذة لا تشبهها لذة، ولكنه لم يمسها بيده، ولم يذكر لها كلمة الحب لأن الشرف والأمانة كانت شعار الشباب في تلك الأيام، وليلى ابنة عمه وعرضه ائتمنه عمه عليها، والله شاهد عليه. . .

وقفز به الفكر إلى بلده الضمير، وقد كبرت ليلى وحجبت عنه فلم يعد يراها إلا على العين أو في الحقل؛ ولم يكن يمنعه الحجاب من رؤيتها لأنه حجاب شرعي يظهر الوجه والكفين ويستر كل شيء، لا كحجاب المدن الذي يستر الوجه بغشاء رقيق يزيده فتنة وجمالا ثم يكشف العنق والصدر والساق وما فوق الساق، ويظهر الكف والساعد. . . فكان يحدثها ويصحبها في الطريق؛ ولم يكن بينهما سوء، لأنها خطيبته المسماة عليه منذ كانا صغيرين. . . فهي له، ولم يجرؤ شاب في القرية على خطبتها احتراماً لسعد، وخوفاً من بطشه. . .

ومرت في ذهنه صورة العرس وحفلاته، ووفود القرى المجاورة والولائم العامة في الساحات والطرق، و (الدبكات) والأهازيج. . . مرت في ذهنه مراً سريعاً، فأبصرها حية قريبة كأنما كانت أمس، وقد كانت منذ سبع سنين لم ير فيها من زوجته ليلى إلا ما يعجبه يرضيه. ولم تغضبه مرة واحدة. كانت تحيا من أجله، تهيئ له الطعام وترتب الدار،

وتنتظره حتى يجيء من عمله. فإذا جاء رآها قائمة وراء الباب منتظرة فقبلت يده، ثم أعانته في نزع ثيابه، وصبت على يديه الماء حتى يتوضأ ويغسل رأسه ووجهه بالصابون، ثم قدمت إليه الطعام، ولم تدخر وسعاً في تسليته وإيناسه. وإذا كان كئيباً أو مهموماً رفهت عنه وواسته. وأضاق مرة ولحقه الدائنون حتى هددوه بالسجن من أجل عشرين ليرة، فلم يشعر إلا وزوجته تقدمها إليه زاعمة أنها قد وفرتها من نفقات المنزل، فصدقها ووفى دينه؛ ثم علم بعد أنها باعت حليّها التي لا تملك غيرها. . .

كانت مثال الزوجة الشرقية المسلمة التي تعيش لبيتها وزوجها وتتخذه سيداً لها؛ وكان هو مثال الزوج الوفي الصالح الذي يشتغل ويحيا لزوجته وبيته، ليس له سهرة ولا خليلة ولا عادة من العادات السيئة التي تذهب الأموال وتشقي العيال. . .

ثم ذهب الفكر بسعد إلى ولده، ولده الوحيد يسار، فهاجه الشوق إليه، وبرّح به الحنين إلى بيته، وغلب على حبِّه لهذه الأرض وتعلقه بها. وكان الليل قد انتصف ولم يذق سعد مناماً فنهض ورفع طرف الخيمة فنظر فإذا السماء صافية قد انقشعت عنها الغيوم، وطلع القمر من وراء الأفق هلالاً ضعيفاً يلقي على الدنيا نوراً كابياً، فرأى الكرم أسود مظلماً فعاوده الحنين إليه والحزن على فراقه؛ وكانت منزلة الكرم من نفسه كمنزلة زوجته وولده، بل كانت هذه المنطرة أحب إليه من بيته. وجعل يتأمل الكرم فامتلأ قلبه أسى؛ وذكر ليلى ويساراً فأزمع الرحيل ولكنه اضطر إلى انتظار الفجر، ولبث صامتاً فغلب عليه النعاس فأغفى إغفاءة قصيرة ثم نهض مذعوراً يرتجف. لقد رأى حلماً مرعباً فتعوذ بالله وسأله أن يحرس زوجه وولده، ولم يطق البقاء فقام يجمع أمتعته - وما أمتعته إلا فراش ولحاف وبساط وخيمة وصندوق صغير فيه قدر وأطباق وإبريق للشاي - ويلقى على المنطرة النظرة الأخيرة كأنه يريد أن يثبت صورتها في نفسه، وأن يودع ما فيها من ذكريات لذة هي أعز ما يملك في حياته، ثم نزل إلى دابته. . .

والفجر يهم بالانبثاق راقه سكون الليل وجمال الفجر وهذه الكروم الواسعة التي استيقظت وتسربت إليها خيوط النور من ناحية الشرق فأضاءت صفحتها، فاشتد به الحنين إلى زوجته وولده، وشعر أن حبه لهما قد نما في هذه الساعة وازداد وطغى على نفسه، فجعل يتصور حركاتهما وسكناتهما، وكيف يخرجان لاستقباله، وكيف يتعلق به يسار فيرفعه إلى وجهه ويقبله؛

ورنت في أذنيه كلمة (بابا) حلوة مستحبة، وشعر بعالم من الحب والعطف والوئام يغمره، حتى أحس بنفسه يطير على متن الهواء في حلم فاتن لذيذ، فانطلق يغني شتى الأغاني القديمة وصوته العذب القوي يشق السكون ويوقظ الطبيعة، فتجاوبه الديكة من الكروم المجاورة بزقائها، والعصافير بسقسقتها الحلوة

أشرف على البلد ضحى، فتأمل الفضاء فلم يبصر شيئا، أين البلد؟ هل أخطأ الطريق؟ أم هو لا يزال بعيداً عن البلد؟ لقد نظر حوله وأنعم النظر فلم يشك أنه حيال البلد. لقد سلك هذا الطريق مئات المرات، ويستطيع أن يسلكه مغمض العينين، فكيف يخطئ أو

يضل؟ لا شك أنه على صواب، وأنه قد وصل، ولكن أين البلد؟ وأحسّ سعد كأنه قد بدأ يجنّ. أتختفي بلد برمتها أيها الناس؟
ودنا حتى وصل البلد، فلم يجد إلا أكواماً من التراب مبتلة عليها آثار الماء، تتخللها برك مالها من آخر، وحجارة منثورة في البادية نثرا، فجن جنونه، وانطلق يصيح: ليلى! ليلى! يسار! يسار! ليلى. . . ويهم شارداً على وجهه، يدور بلا وعي، وإذا بشيخ مسنّ من حكماء القرية يهتف به ثم يأخذه من يده، فيتبعه سعد صاغراً، حتى يجلسا على كومة من هذه الأكوام. . .
- هذه حال الدنيا يا بني. . . إن لله حكمة لا يعلمها أحد، فلنصبر ولنرض بالواقع، الحمد لله على كل حال. . .
- ولكن ماذا جرى يا عم؟ أين ليلى، أين ابني يسار؟
- هذا قضاء الله يا بني. لقد كنت نائماً ليلة أمس فسمعت ضجة في الطريق ولغطاً، فخرجت فإذا الناس مجتمعون، وعلى وجوههم إمارات الذعر الشديد، وهم يصغون في خوف شديد ورعب بيّن، إلى صوت عجيب آت من بعيد، فأصغيت فإذا صوت عميق مستمر لا ينقطع، فجزعنا ولم ندر ما هو؟ فقائل إنها ريح، ولكنه ليس بصوت ريح، وقائل هو من أصوات الجن، وقائل إنه رعد، وما هو كذلك، فوقفنا وتهيأنا للنضال، وحملنا السلاح، وكان الصوت مستمراً ولكنه جعل يقوى. . . ويقترب حتى تبينا فيه هدير الماء. . . إنه السيل! السيل! وطارت هذه الكلمة على الأفواه، فأسرع قوم إلى بيوت القرية العالية، يحسبونه سيلاً كالذي عرفوا من السيل، لا يبلغ هذه البيوت؛ وخاف قوم فأسرعوا إلى
الجبل، وقد أعجلهم الخوف فلم يأخذوا معهم غطاء ولا وطاء، وكنت ممنّ أم الجبل
- وليلى؟ وليلى ويسار؟
- لقد بقوا في البلد. . . اسمع يا بني، إنها لم تكن إلا ربع ساعة حتى بدا الهول، نعوذ بالله. . . لقد أقبل سيل علوّه أكثر من أربعين مترا، يتكسر ويقذف بالصخور والحجارة والأشجار فغمر أعلى بيت في المدينة، واختلط هديره العاتي بصراخ النساء وصياح الأطفال وأصوات الشباب. . .
- وليلى ويسار؟
وانحنى سعد على قدمي الشيخ يقبلهما بجنون ويصرخ:
- وليلى ويسار؟ أرجوك يا عم خبرني عن ليلى ويسار؟
قال الشيخ:
- لا حول ولا قوة إلا بالله. . . لقد أصبح الصباح وليس في المدينة حجر على حجر، ولم يبق ممن كان فيها أحد. لقد وجدت الجثث طافية على وجه البرك وغارقة في الوحل ومطمورة بالأنقاض، وجثث حملها معه السيل إلى بحيرة العتيبة، ولم ينج إلا من كان على الجبل، بقى بلا مأوى ولا مال. . .
- وليلى ويسار؟ وليلى ويسار؟
ووثب سعد هائماً على وجهه يصرخ وينادي:
لقد جنّ (سعد الخطار) حزناً على ليلى ويسار!

(بيروت)

علي الطنطاوي

التشريع والقضاء

في العهد الفرعوني

للأستاذ عطية مصطفى مشرفة

- 4 -

أما الزواج عندهم فكن نوعين: زواج مدني تكتسب فيه الزوجة بالشراء، وكان شبيهه في روما الزواج المعروف باسم الذي كان خاصاً بالعامة؛ وزواج ديني يعقد على يد أحد الكهنة، وكان يقابله عند الرومان الذي كان قاصراً على الأشراف. وكان المتبع أن يحصل الزواج المدني قبل الزواج الديني الذي يقوم بعقده أحد رجال الدين؛ فكان الزواج بذلك يتم أولا على حسب الأصول القانونية المدنية بطريق الشراء ثم يحصل الزواج الديني بعد ذلك

وكان ينص في عقد الزواج على العلاقة المالية بين الزوجين؛ وكان هذا الاتفاق

المكتوب في صلب عقد الزواج لا يخرج عن طريق من ثلاث: أولها أن يفصل مال الزوجة عن مال الزوج، وفي هذه الحالة يكون للزوجة أن تتصرف في مالها دون إجازة زوجها. ثانيهما أن يخصص بعض أو كل أموال الزوجة لمساعدة الزوج للقيام بالإنفاق على الأسرة، وفي هذه الحالة يجب على الزوج ردها بعينها إذا كانت عقاراً أو ردها بقيمها المبينة في صلب عقد الزواج إذا كانت منقولا. وثالثها أن يشترك الزوجان في بعض الأموال أو كلها. وسمح القانون للزوجة بأن تشترط في عقد الزواج أيضاً أن يدفع لها الزوج مبلغاً معينا كغرامة ونفقة لها إذا طلقها الزوج فأعطى لها حق الرهن العام على جميع أموال زوجها ضماناً لما يكون لها من الحقوق عليه. فلما جاء بوخوريس في القرن الثامن قبل الميلاد وضع القوانين التي تعتبر بحق أصل التشريع الحديث وأعطاه صبغة مدنية بعد أن كانت ذات صبغة دينية. ولقد تأثر بوخوريس عند وضعه شرائعه بقوانين حلفائه الآشوريين والكلدانيين فأخذ عن الكلدانيين مبدأ التعاقد بالكتابة، فبعد أن كان العقد يتم عند قدماء المصريين قبل بوخوريس بقسم وبحضور شهود أصبح لا يجوز إثبات حق مدعي به إذا أنكره المدين إلا إذا ثبت بدليل كتابي، وبذلك أصبح زوال الدين مرهوناً بإعطاء سنده. ثم أوجب تسجيل العقود عند كاتب التسجيل في سجلات مخصوصة نظير رسم معين فأصبح من السهل على أي شخص إثبات صحة سنده

أخذ بوخوريس أيضاً عن الكلدانيين المشتغلين بالتجارة نظام الفوائد فحددها وحرم أن تزيد الفائدة السنوية على ثلث رأس المال، كما حرم أيضاً زيادة الفائدة على ضعف أصل الدين مهما طالت المدة. وحرم بوخوريس الربح المركب، وحرم إكراه المدين الجثماني، وأبطل استرقاق المدين عند عدم الوفاء، وجعل التنفيذ قاصراً على أموال المدين دون شخصه

أما في الأموال فقد اعترف بوخوريس بالملكية العقارية للأفراد بعد أن كان لهم فقط حق الاستغلال دون حق الرقبة؛ وبذلك أباح بتشريعه هذا حق التصرف في الأراضي بعقود عرفية، وبذلك أصبحت تلك الأراضي ضامنة لتعهدات الأشخاص عند عدم وفاء الدين بعد أن كان ضمان الدائن قبل ذلك جثة والد المدين؛ وكان إذا لم يقم المدين بوفاء دينه قبل موته يحرم من ميزة الدفن وحفلاته

أما في الإيجار فقد رتب بوخوريس على عقده أن تصبح جميع أموال المستأجر مرهونة رهناً عاماً لوفاء الأجر المتفق عليه. وألغى بوخوريس الزواج الديني الذي كان يتم على يد الكاهن وأصبح الزواج مدنياً، واكتفى بالرضا فيه ليتم كباقي العقود. وكان للذكر مثل حظ الأنثى في الميراث. وكان لا يجوز للرجل أن يتزوج بأكثر من زوجة. وجعل بوخوريس حق الرهن العام الذي للزوجة على أموال زوجها يتم بقوة القانون دون حاجة للنص عليه في صلب عقد الزواج كما كان متبعاً قبل ذلك

من ذلك نعلم أن اصطلاحات بوخوريس التشريعية شملت الأموال والأحوال الشخصية والالتزامات، وبذلك أوجد للمصريين قانوناً عادلاً للتجارة والمعاملة. ويؤسفنا أن نقول: إن هذه الاصطلاحات التشريعية التي قام بها هذا الملك لم تبق طويلاً لأنه فقد عرشه بعد نحو سبع سنوات فاستولى الأثيوبيون على مصر وأسسوا بها الأسرة الخامسة بعد العشرين. وكان أول عمل لهم أن أبطلوا العمل بشرائع بوخوريس وألغوا الملكية الفردية العقارية ومنحوها للإله آمن؛ وبذا اقتصرت ملكية الأفراد على حق الاستغلال دون الرقبة، وسمح لهم بأن يتصرفوا داخل دائرة أسرتهم فقط وبعد موافقة كهنة آمن لهذا التصرف في مقايضة أرض بأرض. ولما ظهر الملك أمازيس أو أحمس الثاني - وهو من ملوك الأسرة السادسة بعد العشرين - حتم على كل مصري أن يثبت في آخر كل سنة اسمه ولقبه وصناعته

وسبل تعيشه في سجل وضع خصيصاً لهذا الأمر في محكمة الجهة القاطن بها؛ وهذا النظام المبني على تقسيم العمل وارتباط المصري بمكان نشأته كان سبباً في تماسك أفراد الأمة ورقيها اجتماعياً واقتصادياً وصناعياً. وكان عاملاً قوياً في توزيع الفلاحين على الأراضي الزراعية

تأثرت شريعة أمازيس بالشريعة الإسرائيلية بعض الشيء فأخذت جزءاً كبيراً من مبادئها عن اليهود الماليين الذين كانوا مقيمين بمصر إذ ذاك

أرجع أمازيس العمل بقانون بوخوريس فأباح لأصحاب الأراضي حق التصرف التام في

أراضيهم بأن أعطاهم حق ملكيتها التامة ثم أرجع مبدأ ثبوت العقود بالكتابة واحتفظ بحد الفوائد القانونية التي قررها تشريع بوخوريس، وجعل الالتزام بعقد ملزم لطرف واحد، وأدخل طريقة الإشهاد في الميزان في سائر العقود الناقلة للملكية وفيها البيع، فكانت تطبق على المنقولات الجامدة، المراد نقل ملكيتها، وعلى المنقولات الحية كالحيوانات والعبيد كما طبقت على العقارات لصبغة شكلية كما كانت تطبق أيضاً في التبني، وكان يجب لإتمام العقد من وجود ميزان وقطعة من النحاس والعين المراد نقل ملكيتها، فيحضر طرفا العقد والشهود، وهنا يمسك المشتري بالعين المراد نقل ملكيتها مقرراً أنه اشتراها بالثمن المقدر بالميزان، ثم يضرب الميزان بقطعة النحاس مشيراً بذلك إلى وزن الثمن. لذلك كان الميزان يستخدم لغرضين: أولهما وزن العين، وثانيهما وزن الثمن؛ وكان يحرر بهذه الإجراءات عقد كتابي

وكان يطبق في الزواج إجراءات الإشهاد بالميزان؛ وكان الزواج يتم بطريق الشراء، إلا أن الزواج الديني لم يلغ بتولي أمازيس، إذ ركن إليه نفر من المصريين المتعبدين. وبذلك بقى الزواج الديني أيضاً بجانب الزواج المدني في حكم أمازيس ردحاً من الزمن

ولقد فقدت الزوجة المركز الممتاز الذي كان لها في القانون القديم وقانون بوخوريس إذ أصبحت في قانون أمازيس هي وأموالها ملكا للزوج تحت تأثير الشريعة اليهودية. من هذا نرى أن أمازيس قد هذب القوانين المصرية وأفرغها بعد أن نقح قوانين بوخوريس في مجموعة سميت بمجموعة قوانين أمازيس سنة 554 ق. م وفي عهد الأسرة الثامنة بعد العشرين تولى الملك أمرنوت أو أمرنوس أو نفيريت واستمر

فيه حتى سنة 399 ق. م فأمر بتشكيل لجنة لتعديل مجموعة شرائع بوخوريس وتنقيحها فأدخلت اللجنة عليها التعديلات الآتية: وهي أن جعلت سريان الفوائد تبتدئ من يوم حلول ميعاد الدفع، واعترفت بعقد الرهن (الغاروقة) الذي فيه يعطي المدين عقاره للدائن يستغله وينتفع به لنفسه لحين تمام وفاء الدين. وقد استمر العمل بهذه المجموعة المعدلة بمصر أثناء المدة الباقية من العهد الفرعوني. أما قوانين قدماء المصريين الجنائية فقد صاغوها في مواد كفلت لهم استتاب الأمن واطمئنان الشعب وقطع دابر البطالة ومنع الغش والتدليس إلى غير ذلك؛ وذلك بالضرب على أيدي المفسدين ومعاقبة المجرمين بالعقاب الرادع الزاجر، فكانوا يحكمون بالإعدام بقطع الرأس أو بالشنق على كل من يحلف يميناً كاذبة أمام المحاكم، وعلى كل من يقتل نفساً عمداً بغير حق مع سبق الإصرار سواء أكان المجني عليه حراً أم عبداً، وعلى كل من رأى إنساناً يشرف على الهلاك وكان في مقدوره أن ينجيه ولم يفعل، وعلى كل من قدر على تخليص المقتول من القاتل أو القتلة بدون حق ولم يخلصه، وعلى كل من ظهر أنه يعيش بطريق غير شرعي

وكان يحكم بالعذاب ثم بالحرق حياً على كل من يقتل أحد أبويه عمداً، فتقطع أصابعه أولا ثم يحرق. وكان الحكم لا ينفذ على الحبلى حتى تضع حملها لئلا يعاقب الطفل البريء، وبذلك سنوا لنا حكمة أن العقاب قاصر على المجرم لا يتعداه إلى غيره وكانوا يبيحون إقامة الحدود على الأموات كما تقام على الأحياء فيمنعون من أتى جرماً ومات قبل تنفيذ الحكم عليه من الدفن مع الاحترام

وكانوا يحكمون بالجلد على كل من سب غيره أو وشى به. وكان جزاء الآباء والأمهات الذين يقتلون أولادهم ذكوراً كانوا أم إناثاً معانقة الجثة والبقاء بجانبها ثلاثة أيام بلياليها تحت رقابة الحراس العموميين

وكانوا يحكمون بسل لسان من يهدي عدواً مهاجماً إلى السبل أو يطلعه على أسرار وطنه ومواضع الضعف فيه. وكانوا يقطعون يد من يطفف الميزان والكيل، أو من يزيف النقود، أو يقلد خاتم الأهالي والسلطان، أو يزور في العقود العرفية أو الأوراق الرسمية. وكانوا يقصرون العقوبة على العضو الذي قام بعمل الجريمة

وكان يشَهَّر على رؤوس الأشهاد بكل ولد لم يقم بالإنفاق على أبويه العاجزين عن الكسب،

وليس للولد على الوالدين مثل ذلك. ويحكم بالتشهير أيضاً على كل جندي فر يوم الزحف أمام العدو، وعلى كل من لا ينفذ أوامر رؤسائه. وكان لمن حكم بتجريده من

شرفه وفضيحته أن يسترد شرفه واعتباره، وبذلك تنمحي العقوبة نهائياً إذا قام بأعمال مجيدة بعد ذلك لوطنه في ميدان القتال

وكان عقوبة كل من به عاهة تمنعه من إنقاذ شخص قتله آخرون أمامه ولم يبلغ الجهات المختصة عن الجريمة ومرتكبيها منع الطعام عنه ثلاثة أيام وجلده. وكان يحكم بهاتين العقوبتين معاً أيضاً على كل من كلف بالإرشاد عن قطاع الطرق وتسليمهم للمحكمة ولم يفعل ذلك. وكان يحكم على المدعي بالباطل على غيره بنفس الحكم الذي يحكم به على المتهم لو صحت الجريمة. وكان يحكم على كل من حلف من المتهمين أو الشهود بالإله آمن وبالملك بأن يقول الصدق ولم يقله بجدع الأنف وصلْم الأذنين وبالنفي في أثيوبيا أو إلى ما وراء حدود المملكة

وكان لآمُنْ أن يحكم بفقدان الشرف وما يترتب عليه الحرمان من الوظائف العامة (تم البحث)

عطية مصطفى مشرفة

أبو الفرج الببغاء

للأستاذ عبد العظيم علي قناوي

- 3 -

لأبي الفرج الببغاء في أحاديث الطيف ومناجاة الخيال شعر أفعم حسنا وجودة وعذوبة وحلاوة، ومعان ملئت جمالاً وروعة وصفاء ورقة؛ حتى لكأني به قصد إلى أن يميل ذوي الصبوة والهوى إلى وصال طيف الحبيب ورسمه لا شخصه وجسمه، فهو يعلمهم كيف يتسلون بمناجاة القلوب عن مداعبة المحبوب، ويدعوهم مفتنا إلى هذا اللون من الوصال الذي لم يدعهم إليه قبله أحد في مثل رشيق تعليله وبديع تصريفه وعجيب لعبه بالخيال وجميل استلهامه المعاني، فمن ذلك قوله:

علمت طيفك إسعافي فما هجعت ... عيناي إلا وطيف منك يطرقني

فكيف أشكر من إن نمت واصلني ... بالطيف منه وإن لم أغف قاطعني؟

فمن من العشاق المولهين لا يرقب أن يسعده ذلك الطيف الطارق، ولا يشتري الكرى بكل ما يملك إذا علم أنه لا سبيل سواه إلى الوصال، وهو داعية المتعة بالحسن والجمال، وإن الغفوة نهزة رسول الحبيب، ينتهزها ليشفي بها حر الوجيب؟ وأين من هذا قول ابن المعتز في مثل هذا المعنى وهو ملك الشعر ولاسيما في هذا الضرب:

شفاني الخيال بلا حمدة ... وأبدلني الوصل من صده

وكم نومة ليَ قوَّادة ... تقرب حِبي على بعده

وإنها لجفوة جافية - لا نعرفها في ابن المعتز - ألا يحمد من يشفيه، وألا يستحق شكره مبعوث حبيبه المصطفيه، وينسب ذلك إلى نومة قوادة لا تستأهل حمداً، ولا يستجيز لها أحد شكراً، لأنها أتت شيئاً نكراً لا أظن ابن المعتز يستميحه لنفسه في اليقظة، فكيف يستملحه في الغفوة؟ ولو أنه قال:

وكم نومة لي مزدانة ... يوصل حبيبي على بعده

لكان - فيما أرى - أكثر توفيقاً وأنبل خيالاً وأعف لفظاً وأكرم حباً. ومما قاله أبو الفرج في الطيف أيضاً:

يا طيف من أنا عبده من أين لي ... شكر يقوم ببعض ما توليه

ينأى فتدنيه إليَّ على النوى ... فأراه كالتحقيق في التشبيه

ما كان أحسن حالتي لو أن ما ... أوتيت من كرم وعطف فيه

ولا يساورني شك في أن هذه الأبيات أروع خيالاً وأسطع في معناها جمالاً من أبيات تحاكيها للبحتري قال:

طيف الحبيب ألمَّ من عُدَوائه ... وبعيد موقع أرضه وسمائه

يهدي السلام، وفي اهتداء خياله ... من بعده عَجَب وفي إهدائه

لو زار في غير الكرى لشفاك من ... خبل الغرام ومن جوى برحائه

الحق أن ديباجة أبيات البحتري ناصعة مجلوة، ونسجها مجمل مفوف، ولكني مع هذا أرى العجب العاجب من عَجَب البحتري لاهتداء خيال محبوبه إليه من بعيد عدوائه ونائي صحرائه وإهدائه السلام إليه. فكيف يكون حبيباً من يضل محبة طيفه مهما نأى عنه جسمه؟ ومن هو أولى من المحب المستهام بإهداء السلام؟ ولعل خبل الغرام هو موحي ذلك الخيال، وإلا فمن يجحد حتى غير العشاق - أن الأرواح تتناجى وتتواصل،

والقلوب تتآلف فتتراسل؛ سواء في ذلك تباعدت الأجسام أو تقاربت، وتناءت الأبدان أو تدانت؛ فتلك حقيقة لا سبيل إلى نكرانها. وهلا قال كما قال أستاذه أبو تمام:

استزارته فكرتي في المنام ... فأتاني في خيفة واكتتام
فالليالي أحفى بقلبي إذا ما ... جرعته النوى من الأيام
يا لها ليلة تنزهت الأر ... واح فيها سراً من الأجسام
مجلس لم يكن لنا فيه عيب ... غير أنا في دعوة الأحلام

واستمع إلى هذا العتب الحلو العبارة، الرقيق الإشارة، والاستعطاف البارع اللطيف يكشف به لحبيبه عن غرام ويستوحيه فيه وصله، إذ يريه أن خياله أعظم به رأفة وطيفه أكثر عليه عطفاً، إذ يواصله في غفوة العيون؛ ولو أنه وجد سبيلا إلى المواصلة في اليقظة وعلى مسمع الرقباء لفعل؛ لحظره عليه السِّنة ومنعه عنه النوم، قال:

خيالك منك أعرف بالغرام ... وأرْأف بالمحب المستهام
فلو يستطيع حين حظرت نومي ... عليّ لزار في غير المنام

ومن غزله العذب ووصفه الدقيق الممتع قوله:

يا من تشابه منه الخَلق والخُلق ... فما تسافر إلا نحوه الحدق
توريد دمعي من خديك مختلس ... وسقم جسمي من جفنيك مسترق
لم يبق لي رمق أشكو هواك به ... وإنما يتشكى من به رمق

ومثله قول أبي فراس الحمداني، وكأني بهما ينهلان من معين واحد، أو أن أبا الفرج جرى في ميدانه لما أعجبه حسن بيانه؛ وما من عابٍ عليه أن يسير على نهج أبي فراس، فهو في الشعراء ملك وفي العلياء فلك، قال:

وشادن قال لي لما رأى سقمي ... وضعف جسمي والدمع الذي انسجما
أخذت دمعك من خدي وجسمك من ... خصري وسقمك من طرفي الذي سقما

وترى أن بيتي أبي فراس أنضر معنى وأوفر حسناً، وأجزل رقة وأجمل دقة من أبيات أبي الفرج، وإن كلمة تسافر لنابية في مكانها، قلقة في موضعها، لأن الحدق لا يسافر، وإنما هو ينتقل أو يتحول، كما أن السقم لا يسترق إلا إذا كان مسترقه يسعى إلى حتفه بظلفه كما يقولون

ولو أنا أردنا لغزله العنيف استقصاء، ولنسيبه الطريف إحصاء، لطال بنا الشوط وما بلغنا الغاية؛ فلنختم غزله بأبيات بعث بها إلى حبيب رمدت عيناه فأبدع أيما إبداع في الأسى لأساه ووصف حمرة عيني حبيبه، وهي تلك التي تقذى لرؤيتها العيون، وتتأذى من النظر إليها الأبصار وصفاً جعلها مما يسعد لرؤيتها الطرف، وصورها تصويراً تطمئن له النفس، قال:

بنفسي ما يشكوه مَن راح طرفه ... ونرجسُه مما دهى حسنه ورد
أراقت دمي ظلماً محاسن وجهه ... فأضحى وفي عينيه آثاره تبدو
غدت عينه كالخد حتى كأنما ... سقى عينه من ماء توريده الخد
لئن أصبحت رمداء مقلة مالكي ... لقد طالما استشفت بها أعين رمد

والوصف في شعر أبي الفرج له المقام الأول، فجل فنون شعره يحليها الوصف، وتنتظم التشبيهات الدقيقة الخلابة، والأوصاف البارعة الجذابة؛ وإن وصفه ليبلغ ذروة الإجادة والإحسان، ويصل إلى منتهى الجمال والجلال عندما يصف الحرب، أو ما يتصل بها من حشد الكتائب وتسيير الجحافل؛ وقد عرفنا أن طبيعة كل امرئ أن يحسن فيما يحبه، وأن يجيد القول فيما يرغبه، فلعلَّ أبا الفرج كان من رجال الحرب وأبطالها. أصخ إليه يصف جيش سيف الدولة، فإنه ليصك الآذان بريح الحرب تدوي في قصيده، فقصف الرعد وزمزمته دون صهيل الخيول، ووميض البرق ولمعانه لا يبلغان بريق السيوف، وحوافر الخيل أهلة ونجوم تنافس ذكاء، تلك تضيء في السماء، وهذه تتطاير رجوماً للأعداء، وعين الشمس قد طرفها بعثيره ولكنها احتملته وجعلت منه إثمداً تحتكل به وتستشفى؛ كل ذلك في ألفاظ جزلة وعبارات ضخمة، وطبع قوي، وخيال سري؛ لا ينال من جماله ناقد، ولا يحط من جلاله حاقد، قال:

قاد الجياد إلى الجياد عوابساً ... شُعثاً ولولا بأسه لم تنقد
في جحفل كالسيل أو كالليل أو ... كالقطر صافح موج بحر مزبد
متوقد الجنبات يعتنق القنا ... فيه اعتناق تواصل وتودد

مثعنجر بظبا الصوارم مبرق ... تحت الغبار وبالصواهل مرعد
رد الظلام على الضحى فاسترجع ال ... إظلام من ليل العجاج الأربد
وكأنما نقشت حوافر خيله ... للناظرين أهلة في الحلمد
وكأن طرف الشمس مطروف وقد ... جعل الغبار له مكان الإثمد

وهذه أبيات من قصيدة أخرى يمدح بها أبا شجاع فاتك بن يانس، ويصف فيها إحدى وقائعه الحربية التي خلدتها هذه القصيدة بما جاء فيها من تشبيه رائع، ووصف جامع. وأي خلود لموقعة انقلب نهارها ليلاً غاسقاً، لا يكشف حلكته إلا كر الفرسان في الميدان ومبادلة الضراب والطعان، بأسياف لامعة، وصوارم بارقة قاطعة، حتى استحال البر بحراً بما سال في جنباته من دماء الشجعان، ورأى الأعداء أن الفرار رمز الانتصار، وأن أعظم فروسية يعتز بها أن يستطيعوا إعطاء الجياد القياد، لا أن يثبتوا للجلاد والذياد. قال:

واليوم من غسق العجاجة ليلة ... والكر يخرق سجفها الممدودا
وعلى الصفاح من الكفاح وصدقه ... روع أحال بياضها توريدا
والطعن يغتصب الجياد شياتها ... والضرب يقدح في التريك وقودا
وعلى النفوس من الحمام طلائع ... والخوف ينشد صبرها المفقودا
وقد استحال البر بحراً والضحى ... ليلا ومنخرق الفضاء حديدا
وأجل ما عند الفوارس حثها ... في طاعة الهرب الجياد القودا
حتى إذا ما فارق الرأي الهوى ... وغدا اليقين على الظنون شهيدا
لم يغن غير أبي شجاع والعلا ... عنه تناجى النصر والتأييدا

وتكفينا في وصف الحرب هاتان القطعتان فهما تغنيان عن قصائد وتبينان عما له في الوصف الحربي من قدم راسخة وأخيلة سامية؛ ولنعرض لأشياء أخرى وصفها فأجاد، فمن ذلك قوله يصف فرساً:

إن لاح قلت: أدُمية أم هيكل؟ ... أو عنَّ قلت: أسابح أم أجدل
تتخاذل الألحاظ في إدراكه ... ويحار فيه الناظر المتأمل
فكأنه في اللطف فهم ثاقب ... وكأنه في الحسن حظ مقبل

وهو من أجود ما وصفت به الجياد، ومن أحسن ما استحدث في تشبيهها بالفهم الثاقب والحظ المقبل، كما أنه أتى في وصف سرعتها بما لم يأت به الكثير ممن وصفوها قبله؛ فأي سرعة تلك التي تتخاذل الألحاظ دون إدراكها، ويحار الطرف المتأمل في معرفة كنهها؟ ومن قصيدة له في وصف النرجس وهي من خير ما قيل فيه:

ونرجس لم يعد مبيضه ال ... كأس ولا أصفره الراحا
تخال أقحاف لجين حوت ... من أصفر العسجد أقداحا
كأنما تهدِي التحايا به ... لطفاً إلى الأرواح أرواحا
يلهى عن الورد إذا مارنا ... ويخلف المسك إذا فاحا
أحبب به من زائر راحل ... عوض بالأحزان أفراحا
فانتهز الفرصة في قربه ... وكن إلى اللذات مرتاحا

وله يصف الورد، وقد ألمَّ في الأبيات بوصف مجلس الأنس فأبدع في الغرضين، وفوق فأصاب في الرميتين، وأتى بأنواع من البديع أزهر من أزهار الربيع، فأشرقت ديباجة شعره عن در منضود وأسفرت عن جوهر منظوم قال:

زمن الورد أظرف الأزمان ... وأوان الربيع خير أوان
أدرك النرجس الجني وفزنا ... منهما بالخدود والأجفان
أشرف الزهر زار في أشرف الده ... ر فَصِلْ فيه أشرف الإخوان
واجلُ شمس العقار في يد بدر ال ... حسن يخدمك منهما النيران
وأدرها عذراء وانتهز الإم ... كان من قبل عائق الإمكان

وقال يصف قدحاً أزرق قد صورت عليه تهاويل ورسم عليه نقوش وتصارير، تحسده عليها كؤوس لم تنل ما نال من زينة منحته شعراً خالداً:

كم منة للظلام في عنقي ... بجمع شمل وضم معتنق
وكم صباح للراح أسلمني ... من فلق ساطع إلى فلق
فعاطنيها بكراً مشعشعة ... كأنها في صفائها خلقى
في أزرق كالهواء يخرقه اللح ... ظ وإن كان غير منخرق

كأن أجزاءه مركبة ... حسناً ولطفاً من زرقة الحدق
مازلت منه منادماً لعباً ... مذ أسكرتها الشفاه لم تفق
تختال قبل المزاج في أزرق ال ... فجر وبعد المزاج في الشفق
تغرق في أبحر المدام فيسْ ... تنقذها شربنا من الغرق
فلو ترى راحتي وزرقته ... من صبغها في معصفر شرق
لخلت أن الهواء لاطفني ... بالشمس في قطعة من الأفق
وحسبنا من وصفه الممتع ما قدمناه ففيه صورة رائعة له، ورسم صادق لشعره، يملأ النفس روعة وإعجاباً. وإلى عدد تال نذكر أمثلة لبقية أغراض شعره ونماذج من نثره إن شاء الله

عبد العظيم علي قناوي

مقالات إسماعيلية

لأستاذ جليل

حلّ برَقّادَةَ المسيحُ ... حل بها آدم ونوحُ
حل بها (الله) ذو المعالي ... وكلُّ شيء سواه ريحُ
هذا (مَعَدٌّ) والخلائق كلُّها ... هذا (المعزّ) متوَّجاً والدينُ
هذا ضميرُ النشأة الأولى التي ... بدأ الإلهُ، وغيبُها المكنونُ
من أجل هذا قُدِّر المقدور في ... أمّ الكتاب، وكُوِّن التكوينُ
فارزقْ عبادَك منك فضل شفاعة ... واقربْ بهم زلفى فأنت مكين

هذا ما وُعِدَه العالمون والمتعلمون المثقَّفون قرّاءُ (الرسالة الهادية) من (المقالات الإسماعيلية)، وإن الناس منذ الأزمنة القديمة ليتطلعون إلى علْمِ نحلة القوم، وإن الباحثين في الشرق والغرب ليجدّون مفتشين منقبين في كل وقت عن تلك المقالات لينشروها، إذ أنّ أهلها في القديم والحديث قد خبؤوها وكتموها - ويا ليت شعري أيّان يريدون أن يعلنوها؟ - ولم تفدنا كتب (الملل والنحل) لمثل الشهرستاني والأشعري وابن حزم والبغدادي والتصانيف في (مفاضح الباطنية) لمثل الغزالي وابن تيمية - إلا نُتَفاً نُتِشت من مكنونات الجماعة نتشاً. وليس هناك كتاب معروف مطبوع ظاهر ألَمّ بمذهب (الإسماعيليين) إلا (رسائل إخوان الصفاء) فإن فيها خلاصة الإسماعيلية ملفوفة بإسلامية لَفَّ ماكر داه، وهي الإسماعيلية، هي الباطنية، وهم الدهاة دعاتها! وقد توَّه ما فيها علماءً متعمقين كأبي حيان التوحيدي وشيخه أبي سليمان السجستاني وغيرهم في المتقدمين، وحيّر حاذقين ألمعيين من المتأخرين من أعجميين وعربيين مثل (باريه دومينار) والدكتور طه حسين. ولولا أن الأمر استعجم عليهم ما قال أبو حيان وشيخه مثل الذي رواه القفطي في كتابه (إخبار العلماء بأخبار الحكماء)، وما كان الدكتور طه حسين سطر في (مقدمته) لتلك الرسائل ما سطر، ولم يكتب دومينار إلى الأستاذ أحمد زكي (رحمه الله) ذلك الكتاب. وإذا كان أمثال هؤلاء البارعين النحارير قد حاروا ودير بهم (فهم في أمرٍ مَريج) فكيف حال من هم دونهم؟

والقصد من هذا الكلام أن (مقالة) الجماعة - وإن ضمتها تلك الرسائل المطبوعة المنشورة - لم تنفك مستورة محجوبة.

وقد قال لي منذ بضع سنين (الدكتور حسين الهمداني) - وهو من شيعة الدعوة القديمة للإسماعيلية - إنه قد اطلع على مائة مخطوطة من كتب القوم منها (زهر المعاني) الذي أخذ بمؤلَّفه فيه درجة (الدكتوراه) من جامعة في لندن، وأنه عازم على نشرها أو نشر طائفة منها. أفنقول - ولم تحقق تلك الأمنية المتمناة -: (وحِيل بينهم وبين ما يشتهون) أم نرتقب تلك الكتب في المرتقبين؟

إذا ضنّ الأضنّاء بالضنائن ولم تصل أيدينا إلى تلك الخبايا في المخادع والزوايا، فليس لنا إلا غزو الغازين من الغربيين، والغازي - وإن كان قوياً - يُغزى. . . والناهب - يا أخا العرب - يُنهب. . .

وكنت إذا قومٌ غزوني غزوتهم ... فهل أنا في ذيّاك (همدانُ) ظالم

وقد قلت لإسلاميتي (الصحيحة) وعربيتي - وأنا أنسج ما ستتلوه -: قفا واسمعا ولا تتكلما. لا تجادلا ولا تناقشا، فليس المقام مقام جدَل، ولا عدْل ميَل، فالمقالات - والنّية هذه - تحكى كما وجدت، وتعطى كما أخذت؛ وإن وجد الخطأ اللغوي لا يُصلح، وإن جاء

تصحيف أو تحريف في كلمة أو جملة - حاشا الآيات القرآنية - يُستبْق، وليس لديّ نسخة ثانية حتى أرجع إليها. ورب إبقاء على شيء خير من تغييره، والقارئ الفهِم لا تخفي عليه الكلمة محرفة ولا تستبهم. ولن يصدنا ذلك عن تعليق أو حاشية ولو قلنا لأصحاب لنا أدباءَ فاضلين من (الحاكمية) و (الإسماعيلية) في بر الشام ممن لا يعبدون (العَدَم) وقد عبَد الأجداد والآباء (العبيديين) وإن كانوا هم - أي الأبناء المثقفون - بعبادتهم كافرين. فلو قلنا لهم: أطلِعونا يا جماعة على رسائلكم حتى نعارض (نقابل) هذه (المقالات) بها ونصلحها لقالوا: ما عندنا ولا نعرفها، وأنا مسلمون؛ وإنها لديهم، وإنهم يعرفونها، ولكن المتشيطنين يكتمون. . .

ولم يكن في المقالات هذا المسمى بعلامات الترقيم - إلا في اثنتين - فرأيت وضعه حتى لا تقتحم العين الصفحة قد التصق بعضُ عباراتها ببعض فكدّ البصر، وما هذا الصنع بأمر نكر

وقدرُ هذه (المقالات) عظيم. ومن عرف نحلة القوم أو ألمّ بها أدرك مما يتلوه مما نمليه ما

لا يدركه غير العارف؛ ولو درى شيئاً من اصطلاحات الباطنية الذين قالوا تائهين ضالين ما قالوه في (رسائل إخوان الصفاء) ما جاءوا خابطي عشوة، وصاروا في عصر البحث والتحقيق ضحكة. ومن قذف بمقال لا ينصره نص ولا يسانده دليل، فهو هذِر، وكلامه هدَر. . .

واعلم أن هذه الإسماعيلية لم تظهر فيها حتى اليوم كتب قديمة تبين كيفية بدئها وحقيقة حالها تبييناً صحيحاً موضحاً شافياً، ولم يهد بحث الباحثين في هذا الزمن إلى شيء من ذلك

قلت مرة لعالم عاقل إسماعيلي: دعْ قول الإسماعيلية في أصلها ودع حديث خصمها، فهل أوصلك تحقيقك الناقد، وتفتيشك المدقق، إلى مصدرها الصحيح ومنبعها؟ فقال: لا

فنحن من نشوء هذه النحلة في ظلمات بعضها فوق بعض. ولعل كتباً قديمة تنجم فتضيء هذا الليل المظلم. ورب علماء محققين لا يجتزئون بالقريب المعروف، بل يمشون أقوياء أشداء صابرين في فلوات البحث فيصلون إلى (عين المعرفة)؛ وربّ غوّاصين يغوصون في بحور البحث والتنقيب غوْصات إثر غوصات فيخرجون لنا شيئاً. ولن يجيء بالدر إلا الغواصون الماهرون

فصل في مناجاة المعز لدين الله

قال هذه:

كنت رتقك، قبل أن تظهر فيّ بفتقك، وأوجدت عني خلقك، وصدرت عني دنياك (إلهي) في الذات والأسماء والصفات. ولست أنا بك متصلا، ولا عنك منفصلا، إذ أنا بك تبعيض، وأنا راجع إليك عند النقلة والتفويض. انقلْ الصورة كيف تشاء، وأعط النور الإلهي لمن تشاء بما قدمت أيديهم ولا نضْم مثقال ذرة. (إلهي) أني كما أنت عظيم في سلطانك، وأنا قدرتك وبرهانك، وإرادتك ومكانك. (إلهي) بمعرفة بي استجبْ وسلمْ وأشرقْ ألوانك، وأني وجدتك بعد أن عرفتني التلاقي، واتلف واضمحل. (إلهي) وأفني من جهلك، وفاز وبقي من عرفني بالبداية وفصّلك. (إلهي) أترى يعرفك سواك، ويدنو منك إلا إياك، وأم يعدو إليك من خرج عن طاعتك، وطاعة حدودك وأوليائك. إلهي بك استدللت ومنك وصلت وإليك (إلهي) ليس غيري لك حجاب، فكيف الوصول إليك من غير باب، فأنا منك بحيث النهوض

والنهمة، وأنت أنا بحيث أنا القدرة والعظمة، وحيث أنا بك خلقت أولياءك، وبدعت ملائكتك وأنبياءك، فلما عرفتك كنت ذلك، إذ ليس يعرفك سواك، ويدنو منك إلا إياك، باتصالك بحدودك وأوليائك. (إلهي) إن كثرت الأشخاص، فهي أنت بلا اختصاص، وأنا منك بديت، لأني بحدودك اهتديت؛ إن عرشك عليه استويت. (إلهي) أوجدتني منك في ظاهر الأمر بصفة كانت الموجودات على دفعة واحدة، فأنت بي باطناً وأنا بك ظاهراً. (إلهي) ظهرت الموجودات كلها بي، واخترعت مني كل رسول ونبي، وأنا ابن لك وأنت أبي. أنا منك كالفيض، وشراقه وليف فليس الفيض غير الفيض، فقد غاب، واضمحل كلما في النار وذاب. (إلهي) رامت رؤساء الجهل وأهل العمى والضلال وذوي الإنكار والجحود، وأنهم خرجوا من العدم إلى الوجود، وهم في العدم. يا (إلهي) وصلت إليك،

ومنك دخلت عليك، فأنا قدرتك الظاهرة، وعني ظهرت آياتك الباهرة. إلهي حقني ابتلاؤك، لأنها حلاوة رضائك، فنفسي منك وإليك انتهت. (إلهي) ظهرت للخلق حتى يعرفوك من حدودك فحجبتهم عنك لما زادوني إنكارك، وذلك أنهم ضلوا في التكبير عن أبيهم، فلم يجدوا لهم مرشداً أبداً يهديهم، فأظهروك بي لأني أنت، وكوني بك ظاهر، وأنت فيّ حاضر. (إلهي) أنا الكرسي والمكان، والوقت والزمان، وأنا منشئ المثقلات، وأنا بك عالم ما يكون وما كان. (إلهي) أنا اسمك وموجود اسمك، وأنا البشير إليك، والدالّ عليك، والدالّ على من دالّ عليك، فمن تمسك بحدودك نجا، والصورة معادة ورآء ليس دونك حجاب غيره فقصده لا بلاء سواك بأوحد ولا لك اسم سواي فيستطاع ويعبل، وأنا صاحب البقاء، وعلى ذات النطقاء، وأنا فيّ النطق. (إلهي) قصرت لذاتك إنكار الباحثين إذ لم يقصدوا لحجابك، وأحجبتهم عن معرفتك إذ لم يدخلوا إليك من بابك، فهلكوا لما أنكروا لكلمتك، وتاهوا لما عجزوا عن معرفتك. (إلهي) أنت ذاتي ونفسي، ومعدني وقدسي، ونطقي وأنسي، ألا ففيَّ اختفيت فأشرقت، وبي اقتربت فأبرقت. أنا نظرتك بكلمتك الإلهية، وكلمتك القدسية، وذاتك الأبدية، والذات الأزلية الكلية، ونورك، وبي ظهورك، بك ظهرت وبي نهيت وأمرت، فمن عرفني فقد نزهك، ومن اتصل إليك بحدودي (فقد عرفك) فقد عرفتك أنا غيري فتكون أعدادك، ولا أنت غيري فتكون أفرادك. أنا كنت فيك رتقاً، وفيّ ذلك حقاً، فأطلقتني ولم تفصلني في وجودي. أرجوك تعيد ووقت تطلب فتقصد، فأنا منك كضوء السراج من السراج، بلا تبعيض ولا إمزاج. (إلهي) صدق المستجيب لما قال لأبيه، إلهي منك بديت، وإلى معرفتك اهتديت، وإليك توجهت، وإليك تبت، وبك منك إليك سعيت، ولو فرطت فيك لاضمحللت وتلاشيت، ولو اقتديت بغيرك أشركت وتعديت في طاعتي لك فعرفت ودركت (إلهي) كادت نفسي لعظيم امتحانك أن تجهل وتخْفَى كنه علمك وتكفر حتى ألقت عنانها بجودة من نور معرفتك، فجذِبت وتلطف قداراتها بضوء من علمك فمسكت فيه بعد ما كنت جحْت وتبتُ عندما سليت بنعمتك فتهدت بعد (أن) كانت جحدت فأورثها الثبات بالنعيم المقيم والنجاة من العذاب. (إلهي) عجزت المقصرون بنظرهم إليك وقالوا لا يجوز الصفة أن تدرك الصانع، فلو علموا أني بك استقرارهم، وأن تصديقهم هو إنكارهم. (إلهي) هل يعرفك من ليس منك ويتفكر إنما هو أنت محال. (إلهي) لم لم لا تنقل الصورة بما لا تريد، بل في وقت تريد، فلولا نظرك إليها بالمشاكلة لأفقدَت، ولولا تعطفك بالمناسبة لأبْعِدتْ. (إلهي) لقد خاب من أنكر معرفة نفسه منك، ولقد ظلم من لم يعرفك بك، وهو بك ظهر، وبي حجابك وفي حجابك استتر، وأنت الناظر بلا حركة. (إلهي) تناهوا الجاهلون في طلب معرفة حدودك وطلبوها معرفة في تيجان الملوك، فلما نظروا حدودك، نكروك. (إلهي) ناجتك المحقون وقالوا يا مبدع الأحد، من غير عدد، تختلف الأعداد بك، بقدرة منك، دعوناك فالذي عرفك منك إليك، عاد إليك. (إلهي) تحيرت العقول عند طلبتك، أتاهت الأبصار في رؤيتك. (إلهي) قالوا الجاهلون في معرفتك وما تُبَيّن فلا عرفوا، (إلهي) لقد غاب من نادى سواك، ومن عرفك بحقيقة المعرفة تيقن أنك دائم، ومن أفضل الغنائم. (إلهي) ظهرت لهم فوق المنائر، فتوهموا أنهم حصلوك بالعناصر، فأثبتوا التشبيه والتمثيل، وعدموا التنزيه والتحصيل. (إلهي) عجزوا عن إثبات النفر ولم يعلموا ما حقيقة العيان من الخبر، فالنظر حجاب عنك لا لك، والمنظور أنت به لا (هو) فيك. (إلهي) من قال إنه لا يعرفك، فقد عدمك، ومن عبدك، من غير حدودك، فقد حال إلى غائب معدوم، فأنا الذي لا تدركه الأبصار، وأنا أدرك الأبصار، وأنا اللطيف الخبير، فاللطيف الخبير، صورني بالصورة المرئية، التي هي الحدود العلوية. (إلهي) بوجود معرفتك اهتديت، وبعّدت المعصرين عنك تباركت وتعاليت. (إلهي) كنت أنت والمكان، لأن المكان هو إشارة بالفيض وتكرير الفكر بإحضار المكان، والمكان هو المركز هو الدال عليك. (إلهي) كلما

ظهرت عني صورة فظهّرتها أبدع على أولها اخفيّا لأنقلها عني (وأنا فعال لما أريد)

هذه الأولى من (المقالات الإسماعيلية) والباقيات في الأعداد الآتيات من (الرسالة) (قارئ)

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

للدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

الفلسفة الصينية
العصر المنهجي - كونفيشيوس
مذهبه

صدر (كونفيشيوس) في فلسفة النظرية عن نفس النقطة التي صدرت عنها فلسفة عصر ما قبل التاريخ، وفلسفة (لاهو - تسيه)، والتي أشرنا إليها في حينها، وهي نقطة القول بوحدة الوجود التي تفرع عنها نشوء كائن سلبي أو يتأثر عن الكائن الإيجابي المؤثر، ومن اجتماع قولي هذين الكائنين نشأت المادة، وبتأثير النفس على هذه المادة وجدت الكائنات الحية التي بين السماء والأرض

غير أن (كونفيشيوس) تعمق في هذه النقطة وصيرها فلسفية جديرة بالدراسة والتمحيص، إذ أضاف إليها أن جميع جزئيات الطبيعة مشتملة على الانسجام التام الذي هو سر جمالها وتقدمها وصلاحيتها للوجود، وأن هذا الانسجام ليس موجوداً في هذه الكائنات بطريق المصادفة، بل هو تنفيذ لإرادة إلهية مرسومة خطتها في منهج السماء، وأن هذا الانسجام محكم الوضع في جزئيات الطبيعة إلى حد أنه يظهر (ديناميكيا) وأنه هو العلة في تطور الكائنات المادية والظواهر الطبيعية، ولكن كيف ولماذا كان هذا الانسجام علة لذلك التطور؟ لم يجب (كونفيشيوس) على هذا السؤال مطلقاً، لأنه عد البحث فيه فوق طاقة العقل البشري، فوافق في هذه الناحية (لاهو - تسيه) الذي أسلفنا أنه صرح هذا التصريح أيضاً وإن كان لم يكن قد وصل إلى كشف سر هذا الانسجام وأثره العظيم اللذين وفق (كونفيشيوس) إلى كشفهما

على أن المشاهد لدينا هو أن كثيراً من الكائنات تتحرك وتعمل مقودة بالهوى، فلا تنتج هذه الحركات إلا السوء والشر والرذيلة؛ فإذا بحثنا عن علة هذا الانقياد للهوى ألفيناها الحيدة عن هذا الانسجام، فكل خضوع للقانون الطبيعي ينتج الخير والفضيلة والتقدم نحو الكمال، وكل انحراف عن هذا المنهج ينجم عنه الشر والأضطراب، لأن الطبيعة في ذاتها ليس فيها للشر أثر البتة، ولهذا كان أهم واجبات الحكيم هو محاولة رد الانسجام إلى كل جزئية فقدته، فأنتج فقدها إياه الشر والسوء. وعلى أساس هذه النظرية بنى (كونفيشيوس) مذهبه الأخلاقي وأعلن أن الواجب ينحصر في تنفيذ أوامر الطبيعة وتطبيق قوانينها القويمة كما سنشير إلى ذلك فيما بعد.

وعنده أن الإنسان مشتمل على قوتين كالطبيعة سواء بسواء؛ وأن كل الفروق الموجودة بين الأفراد البشرية ناجمة عن تغلب إحدى القوتين على الأخرى، فإذا كانت الغلبة في الإنسان مثلا للقوة الإيجابية المؤثرة، كان ذلك الإنسان حكيما بالمعنى الكامل، وإذا غلبت فيه القوة السلبية كان حكيما عادياً، وهذا النوع الأخير يظل هكذا حتى يتعرض لعواصف الأهواء والشهوات المختلفة، فإذا نجا منها ظل كما كان على الفطرة أي في درجة الحكمة العادية، وإذا غلبه الهوى فحاد به عن صراط الطبيعة السوي نزل من درجة الحكمة العادية إلى درجة العامة الذين يحدثون الشر والسوء

وعنده أن الكمال يتحقق لنوعين من البشر: الأول رجل تبدأ السماء في إلهامه الحقيقة من يوم ميلاده دون مجهود شخصي من جانبه، وهو يحصل في المبدأ على ما يحصل عليه الآخرون في النهاية، وهذا الحكيم الموحى إليه أو (شينج - جين). أما الثاني فهو الحكيم الذي يعمل على كسب الحكمة ببحوثه المتواصلة، ومجهوداته المتتابعة فيحصل على الحقيقة، وبها يصل إلى الكمال، ويسمى هذا الأخير: (كيون - تسيه) وفي هذا الصدد يقول (كونفيشيوس) في كتاب (تايو): (إن البعض يحصلون عليها (أي الحقيقة) عند ميلادهم، أما البعض الآخر فإنهم إما أن يتلقوها عن الغير وإما أن يحصلوا عليها بوساطة مجهوداتهم وأعمالهم الشخصية)

وعنده أن الإنسان الملهم هو ابن السماء الذي يحرس الصراط السوي ويرعاه بفضلها في جميع أحوال الوجود، وهو مشتمل على سر إلهي عظيم. أما الحكيم المكتسب الحكمة بمجهوداته فهو ابن الأرض الذي حمايته من الهوى والشر موكولة إلى مجهوده الخاص، والذي لا يعتمد في مقاومة ضعفه وفي احتفاظه بانسجامه الطبيعي إلا على نفسه؛

فإذا نجح اقترب من درجة الحكيم الملهم

وعنده أن حكمة وجود الحكيم الموحى إليه هي إذاعة قانون السماء والسهر على تنفيذه وإنقاذ بني الإنسان من الخروج على الصراط السوي، وما ذلك إلى رحمة بهم وإشفاقاً عليهم من الحيدة عن الواجب الذي لا تُنْقَذُ الإنسانية من الدمار والاضطراب إلا بالحرص عليه والاحتفاظ به

مطابقة الأسماء للمسميات، أو التعريفات العامة

لا تزال الأكثرية الغالبة من المثقفين والعلماء في أوروبا تعتقد أن سقراط هو أول حكيم وضع التعريفات العامة كما صرح بذلك أرسطو. وقد كنت أنا أحد أولئك الذين يؤمنون بهذه الفكرة إلى أن درست (كونفيشيوس) في شيء من الدقة، فتبين لي تبيناً يقينياً أن حكماء الصين قد سبقوا حكيم الإغريق إلى هذه الفكرة، وأن لهم فيها نصوصاً قيمة جديرة بالإعجاب، وأن الحكمة التي أعلن سقراط أنها تدفعه إلى هذا التحديد هي نفسها التي وردت في نصوص (كونفيشيوس) وهي الوصول إلى ضبط الأخلاق وتحديد الفضيلة والقبض على الحقيقة عن طريق التطابق المحكم بين الألفاظ والمعاني أو بين الأسماء ومسمياتها، إذ نحن نعلم أن (السوفسطائيين) لم ينجحوا في إفساد الأخلاق العامة في عهد سقراط إلا بوساطة التلاعب بالألفاظ، فلما أراد سقراط أن ينقذ الفضيلة حارب أعداءها بسلاح الدقة والتحديد فتم له ما أراد. وهكذا كان منهج (كونفيشيوس) إذ أيقن أنه لا سبيل إلى تنفيذ الواجب بدقة إلا بوضع جميع الأشياء في نصابها، وأن هذا الوضع لا يتحقق إلا بالتطابق التام بين القوالب ومحتوياتها، أو الألفاظ والمعاني، أو الأسماء والمسميات، وهو في هذا يقول ردّاً على سؤال وجهه إليه أحد تلاميذه قائلا: ماذا كنت تفعل لو أنك عُيِّنْتَ حاكماً على دولة؟ (كنت أبدأ أعمالي بأن أرد إلى كل مسمى اسمه الحقيقي). ولما لم يفهم التلميذ هذا الجواب سأله قائلا: وما معنى هذا؟ فأجاب الفيلسوف بقوله: (إن الحكيم يجب أن يحتاط في تبصر من كل ما لا علم له به، فإذا لم تتفق الأسماء مع مسمياتها بالضبط وقع الخلط في اللغة، وإذا وقع الخلط في اللغة لا ينفذ شيء من أوامر النظام العام، وإذا لم ينفذ شيء من أوامر النظام العام، أهملت الحشمة واللياقة والانسجام، وإذا أهملت الحشمة واللياقة والانسجام فُقِد توافق العقاب مع الخطأ، وإذا فقد هذا التوافق، أصبح الشعب مضطرباً لا يفرق بين موضع قدميه وموضع يديه. ولهذا يجب على الحكيم أن يضع لكل مسمى اسمه الذي هو له، وأن يعالج كل موجود حسب التعريف الذي وضع له)

ألست ترى معي أيها القارئ أن في هذه النصوص (الكونفيشيوسية) برهاناً ساطعاً على أن حكيم اليونان الأول لم يكن مبدع التعريفات العامة، الجامعة المانعة، ولا أول من قال بالدقة والتحديد؛ ثم ألست توافقني على أن هذه نقطة هامة تضيف إلى ما كشف من مجد الشرق صفحة فخار جديدة، وأنها لهذا جديرة بالعناية والتسجيل كما أن فيها رداً آخر يضاف إلى ردودنا السالفة على أولئك الأذناب المتفيهقين الذين أنكروا (على الشرق ميزة التفلسف النظري؟)

مما قدما يتبين أيضاً خطأ بعض الباحثين الأوروبيين الذين سلكوا في مؤلفاتهم سبيل نزع تاج الفلسفة من فوق رأس (كونفيشيوس) وَوَضْعِهِ على رؤوس: (لاهو - تسيه) و (تشوانج - تسيه) و (ميي - تي) وجزموا بأن (كونفيشيوس) لم يكن فيلسوفاً، وإنما كان أخلاقياً، ولم يكن أخلاقياً من النوع العالي، وإنما كان عملياً، بل نفعياً. فأما دعواهم أنه ليس فيلسوفاً فيبطلها ما أسلفناه؛ وأما زعمهم أنه عملي أو نفعي فسندحضه حينما نعرض لدراسة الأخلاق عنده

اعتمد أولئك الباحثون في رميهم (كونفيشيوس) بالخلو من التفلسف النظري على تصريح أثر عنه قال فيه: (إني لم أبتدع شيئاً جديداً، وإنما نقلت تراث الحكماء الأقدمين إلى العصر الذي أعيش فيه). أو (إني لست مساوياً الحكماء، وإنما أنا أحاول التشبه بهم) إلى آخر ما صرح به مما يشبه هذه العبارات ولست أدري كيف يتخذ أولئك الباحثون هذه التصريحات برهاناً على عدم فلسفية (كونفيشيوس) ولا يتخذون أمثالها من كلام سقراط برهاناً على عدم فلسفيته حين نبأته كاهنة (دلفي) بأنه أحكم حكماء الإغريق عامة، فاستكثر ذلك على نفسه وقال: (أنا لست حكيما، ولكني محب للحكمة). فلم عدوا هذا التصريح من جانب سقراط تواضعاً ومن جانب (كونفيشيوس)

برهان الخلو من الفلسفة؟؟
نعم إن (كونفيشيوس) أسس مذهبه على نظريات صينية عتيقة ترجع إلى عصر ما قبل التاريخ، ولكن هل (بارمينيد) و (أمبيدوكل) و (زينون الأكبر) و (فيثاغورس) و (سقراط) و (أفلاطون) و (أرسطو) فعلوا غير هذا؟ بل هل (ديكارت) نفسه - على تبرئه من الماضي - استطاع أن يتخلص من أسس التراث العقلي القديم؟ كلا، ولكن سُحقاً للهوى والسطحية، فإن جميع الأخطار الإنسانية ناشئة منهما أو من أحدهما. أما الذي لاشك فيه بعد كل هذا، فإن (كونفيشيوس) فيلسوف نظري عظيم، وأن جميع الباحثين الأدقاء يضعونه في الصف الأول من صفوف الحكماء، لأنهم يعتمدون في ذلك على مجموعة ماله من أراء فلسفية مبتدعة كما يتطلب النقد الحديث، وإنه أخلاقي من طراز (كانْت) و (اسبنوزا) وأمثالهما من أجلاء فلاسفة العصور الحديثة
(يتبع)
محمد غلاب
للأدب والتاريخ
مصطفى صادق الرافعي
1880 - 1937
للأستاذ محمد سعيد العريان
- 13 -
1 -) إن في الرجل شيئاً ينقذ المرأة منه وإن هلك بحبها، وإن هدمت عيناها من حافاته وجوانبه: فيه الرجولة إذا كان شهماً، وفيه الضمير إذا كان شريفاً، وفيه الدم إذا كان كريماً، فوالذي نفسي بيده لا تعوذ المرأة بشيء من ذلك ساعة تجن عواطفه، وينفر طائر حلمه من صدره، إلا عاذت - والله - بمعاذ يحميها ويعصمها ويمد على طهارتها (جناح ملك من الملائكة
2 -) ويسرف عليّ بعضها أحياناً فأتلهب عليها في زفرات كمعمة الحريق حين . . .) ينطبق مثل الفك من جهنم على مدينة قائمة فيمضغ جدرانها مضغ الخبز اليابس؛ ثم يسرف على حبها أحياناً فينحط قلبي في مثل غمرات الموت وسكراته بتطوح من غمرة إلى غمرة؛ فأنا بين نقمة تفجأ، وبين عافية تتحول، وكأنه لا عمل لي إلا أن أصعد مئة درجة لأهبط مئة درجة. . .!)
3 -) لقيتها وما أريد الهوى ولا تعمده قلبي، ولا أحسب أن فيها أموراً ستئول مآلها؛ وكنت أظن أن المستحيل قسمان: ما يستحيل وقوعه فلا تفضي إليه، وما يمكن وقوعه فتهمله فلا يفضي إليك، ولكن حين توجد المعجزة تبطل الحيلة؛ ومتى استطردك القدر الذي لا مفر منه، أقبل بك على ما كنت منه تفر)
4 -) إنها لأبلغ ذات لسان، وأبرع ذات فكر، وأروع ذات نفس؛ ولو كنا سليلي أبوة . . .) ما شهدت لها بأكثر من هذا حرفاً، ولو كان دمي من أعدائها ما نقصتها من هذا حرفاً، وعلم الله ما أبغض فيها إلا هذه التي اشهد لها. . .!)
5 -) دعني أقول لك: إني أبغض من أحبها. . وإن هذا البغض وجه آخر من الحب، . . .) كالجرح: ظاهره له ألم وباطنه له ألم!)
6 -) وكما ينشأ الكفر أحياناً من عمل العقل الإنساني إذا هو تحكم في الدين، يأتي . . .) البغض من هذا العقل بعينه إذا هو تحكم في الحب!)
(الرافعي)
شعر وفلسفة، وحب وكبرياء
أترى صوتي يبلغ إليها وهي في مستشفاها بالشام ذاهلة اللب شاردة الخيال ضائعة الأمل مستطارة القلب؟
أم ترى صوتي يبلغ إليه تحت أطباق الثرى وبيننا ستة أشهر من عمر الزمان كأنها من البعد وانفساح المدى سنوات وسنوات؟
إنه ليخيَّل إليّ أن هذا الحديث الذي أكتبه عنها وعنه هو رسالة من الغيب إلى هذه الحبيبة الواجدة المحزونة، من الحبيب الذي أحبها أعنف الحب وأرَّقه وما تراءى لها مع ذلك في عمره الطويل إلا الرجلَ القاسي الذي حطم قلبها بقسوته وكبريائه، ومات وما تلقت رسالته الأخيرة فنفذت روحُه من أقطار السموات لتمليها عليّ وفيها المعذرة والاستغفار. . .

آه لو تدرين كم كان يحبك أيتها الحبيبة!. . فهل كنت. .؟ ولكن. . . ولكن لا سبيل إلى ما فات. . .!

لقد أحبها جهد الحب ومداه، حبا أضل نفسه وشرّد فكره وسلبه القرار؛ ولكنه حب عجيب، ليس فيه حنين الدم إلى الدم، ولكن حنين الحكمة إلى الحكمة، وهفوة الشعر إلى الشعر، وخلوة الروح إلى الروح في مناجاة طويلة كأنها تسبيح وعبادة؛ وأسرف عليه هذا الحب حتى عاد في غمراته خلقاً بلا إرادة، فليس له من دنياه إلا هي، وليس له من نفسه إلا ما تهب له من نفسه!

والرافعي رجل - كان - له ذات وكبرياء؛ فأين يجد من هذا الحب ذاته وكبرياءه؟ هكذا سألته نفسه!

وأحبها أديبة فيلسوفة شاعرة تستطيع أن ترتفع إلى سمائه وتحلق في واديه وله مثل قدرتها على الطيران والتحليق في آفاق الشعر والحكمة والخيال؛ فما التقيا مرة حتى كان حديثهما فنوناً من الشعر وشذرات من الفلسفة وقليلا من لغة العشاق في همس من لغة العيون. . .

وقال لها مرة: (إن الحب يا عزيزتي. . .) قالت: (إن فلسفة الحب. . .) قال: (بل أعني حقيقة الحب ومعناه. . .) قالت: (دع عنك يا حبيبي. . . إن أحلام الحب هي شيء غير الحب، أفأنت تريد. . .؟) فاختلجت شفتاه وأطرق، وراح يسأل نفسه: (ما الحب وما فلسفة الحب؟ يا ضيعة المنى إن كان الحب شيئاً غير الذي في نفسي!) وتحدث ضميره في ضميرها فابتسمت وهي تقول: (. . . أنا ما أحببتك رجلا بل فكراً وروحاً ونفساً شاعرة، وأنت بكل ذلك ملء نفسي وملء قلبي؛ فلا تلتمس فيّ طباع أنثى وإلا ضل ضلالك أيها الحبيب. .!) قال: (فهل رأيتني يا حبيبتي إلا فكرة تطيف أبداً بك، وروحاً ترفرف حواليك، ونفساً نغترف الشعر والحكمة من وحي عينيك. . .؟) قالت: (دع عنك ذكر عينيّ يا حبيبي. إن الحب ليس هناك، إن الحب. . .) قال: (لا تحدثيني عن الحب. يخيل إلي أني أعرفه لأني أجد مسَّه على قلبي كلذغ الجمر، ولكن آه، ولكنك أنتِ. . .)

وقالت له نفسه: (إنك يا صاحبي تضرب في بيداء؛ إن الشعر والحكمة والفلسفة لا تلد الحب، فهل أحببتها أنت إلا للشعر والحكمة والفلسفة؟ ولكنك بذلك لن تجد منها الحب، إن الحب من لغة القلب، أما هذه. . .)

وكان يحبها أديبة فيلسوفة شاعرة، فعاد يباعد بينه وبينها أنها فيلسوفة شاعرة وامرأة هي كانت - إلى أدبها وفلسفتها - (فتنة) خلقت امرأة، فإذا نظرت إليك نظرتها الفاترة فإنما تقول لقلبك: إذا لم تأت إليَّ فأنا آتية إليك. . . وهي أبداً تشعر أن في دمها شيئاً لا يوصف ولا يسمى ولكنه يجذب ويفتن، فلا تراها إلا على حالة من هذين، حتى ليظن كل من حادثها أنها تحبه وما به إلا أنها تفتنه. . .

(رشيقة جذابة تأخذك أخ السحر، لأن عطر قلبها ينفذ إلى قلبك من الهواء؛ فإذا تنفست أمامها فقد عشقتها. . .

(أما أنوثتها فأسلوب في الجمال على حدة؛ فإذا لقيتها لا تلبث أن ترى عينيك تبحثان في عينيها عن سر هذا الأسلوب البديع فلا تعثر فيهما بالسر ولكن بالحب. . . . . .

(وتنظر نظرة الغزال المذعور ألهِم أنه جميل ظريف فلا يزال مستوفزاً يتوجس في كل حركة صائداً يطلبه. . . . . .)

والرافعي رجل كان - على دينه وخلقه ومروءته - ضعيف السلطان على نفسه إذا كان بازاء امرأة؛ فما هو إلا أن يرى واحدة لها ميزة في النساء حتى يتحرك دمه وتنفعل أعصابه؛ وما كان - رحمه الله - يرى في شدة الإحساس بالرجولة وفي سرعة الاستجابة العصبية إلى المرأة إلا أنها أحد طَرَفي النبوغ، أو أحد طرفي النبوَّة كما كان يقول؛ فما كان يرى له وقاية من سحر المرأة حين يحس أثرها في نفسه إلا أن يسرع في الفرار. وكثيراً ما كان يقول: (الفرار الفرار؛ إنه الوسيلة الواحدة إلى النجاة من وسوسة الشيطان وغلبة الهوى. . .!)

وقالت له نفسه: (ما أنت وهذا الحب الذي سلبك الإرادة وغلبك على الكبرياء ويوشك أن يهوى بك من وسوسة النفس وفتنة الهوى إلى أرذال البشرية. . .؟)

فكان لصوت النفس في أعماقه صدى بعيد. . .

وكان يحبها ليجد في حبها ينبوع الشعر، فما وجد الحب وحده، بل وجد الحب والألم

وثورة النفس وقلق الحياة؛ ووجد في كل أولئك ينابيع من الشعر والحكمة تفيض بها نفسه، وينفعل بها جنانه، ويضيء بها فكره؛ وكان آخر حبه الألم، وكانت آلامه أول قدْحة من شرار الشعر والحكمة. . .

وقالت له نفسه: (هاقد بلغتَ من الحب ما كنت ترجو، فلم تبق إلا الغاية الثانية وإنك عنها لَعَفٌّ كريم. . .!)

هي فتاة ذات جمال وفتنة، ولها لسان وبيان، وما يمنعها دينها ولا شيءٌ من تقاليد أهلها أن يكون لها مجلس من الرجال في ساعة في يوم من كل أسبوع، يضم من شعراء العربية ورجالاتها أشتاتاً لا يؤلفها إلا هذا المجلس المعطر بعطر الشعر وعطر المرأة الجميلة؛ أفتراهم يجتمعون في دارها كل أسبوع لتتوارى منهم خلف حجاب فلا سمر ولا حديث؟

والرافعي غيور شموس كثير الأَثرة لا يرضيه إلا أن يكون على رأس الجماعة، أو هو نفسه رأس الجماعة. . .

وقال له نفسه: (أأنت هنا وحدك أم ترى لكل واحد من هؤلاء هنا هوى وحبيبا. . .؟)

وكانت القطيعة بين الرافعي وبينها من أجل ذلك كله: من أجل أن له ذاتا وكبرياء، وما يريد أن تفنى ذاته وكبرياؤه في امرأة؛ ومن أجل أنها فيلسوفة وشاعرة، وما تجتمع الفلسفة والحب في قلب حواء؛ ومن أجل أنها أنثى وأنه رجل له دين ومروءة وزوجة ودار؛ ومن أجل أنه بلغ مبلغه منها حين وجد الألم في حبها فوجد ينبوع الشعر الذي كان يفتقد؛ ومن أجل أن الرافعي الغيور الظنين الكثير الأثرة والاعتداد بالنفس. . .!

وخُيِّل إليه حين كتب إليها رسالة القطيعة في يناير سنة 1924 أنه يبغضها، وأن هذا الحب الذي قطعه عن دنيا الناس عاماً بحاله قد انتهى من تاريخه وطواه القدر في مَدْرَجة الفناء، وأن نفساً كانت في الأسر قد خرجت إلى فضاء الله. . .

وأحس في نفسه حديثاً طويلاً يريد أن يفضي به، وشعر كأن في قلبه ناراً تَلظَّى، واصطرعت في نفسه ذكريات وذكريات، وخيِّل إليه أنه يكاد يختنق؛ فصاح من كل أولئك مغيظاً محنقاً يقول: (أيتها المحبوبة، إنني أبغضك. . . إنني أبغضك أيتها المحبوبة!)

ليت شعري، أكان الرافعي يعني ما يقول؟ أكان على يقين حين يزعم أنه يبغضها؟ أم أنه استعار للحب لفظاً متكبِّراً من كبريائه العاتية فسماه البغضَ وما هو به ولكنها ثورة الحب حين يبلغ عنفوانه فتختلط به مذاهب الفكر ومذاهب النظر فلا يبقى فيه شيء على حقيقته؟

كلا، ما أبغض الرافعي صاحبته يوماً منذ كانت ولا استطاع أن يفك نفسه من وثاقها، وما هذه الثورة التي ألهمته كتابيه (رسائل الأحزان، والسحاب الأحمر) إلا لون من ذلك الحب وفصل من فصوله وكان الخطأ في العنوان؛ فلما ثابت إليه نفسه نزع به الحنين إلى الماضي ولكن كبرياءه وقفت في سبيله، فظل حيث هو ولكن قلبه ظل يتنزى بالشوق والحنين. . .!

وجاءت صاحبته إلى طنطا بعد ذلك بقليل، مدعوَّة إلى حفلةٍ خيرية لتخطب، وكان الرافعي مدعواً لمثل ما دعيت له. وعلى غفلة التقت العيون، فدار رأس الرافعي وذُهب به، وعاد الزمان القهقري لينشر ماضيه على عينيه، وزلزلت نفسه زلزالا شديداً حتى أوشك أن تغشاه غاشية، وحاول أن يتحدث فوقفت الكبرياء بين قلبه ولسانه؛ وخشي أن يفتضح فنهض عن كرسيه منطلقاً إلى الباب؛ ولحقه صديقه الأديب جورج إبراهيم، فأفضى إليه بذات صدره وودع صاحبته بعين تختلج، ومضى. . .

وانتهى الاحتفال، ووقفت (هي) تدير عينيها في المكان فما استقرتا على شيء؛ ووجدت في نفسها الجرأة على أن تقول: (أين الرافعي؟) فما وجدت جواباً. . . وكان الرافعي وقتئذ جالساً إلى مكتبه ينشئ قصيدة لمجلة المقتطف عن بعث الحب. . .!

وكان آخر لقاء. . .!

ولقيت الرافعي في خريف سنة 1932، فتسرحنا في الحديث عن الحب، فكشف لي عن صدره في عبارات محمومة، وكلمات ترتعش، ثم قال: (. . . وإن صوتاً ليهتف بي من الغيب أن الماضي سيعود، وأنني سألقاها، وسيكون ذلك في تمام عشر سنين من رسالة القطيعة: في يناير سنة 1934. . .) وأخذ يقبض أصابعه ويبسطها ثم قال:

نعم، بعد أربعة عشر شهراً سيكون هذا اللقاء. . . إن قلبي يحس، بل إنني لموقن. . .)
بعد أربعة عشر شهراً، في تمام السنة العاشرة منذ فارقتها مغضباً، سنلتقي ثانية
وظل على هذا اليقين ،(!. . .ويعود ذلك الماضي الجميل، إنها تنتظر، وإنني أنتظر
!. . .أشهراً وهو يحصي الأيام والأسابيع كأنه منها على ميعاد
ومضت السنوات العشر، ومضى أربعون شهراً بعدها وما تحقق أمله في اللقاء، حتى
!. . .لقي الله
هذا هو الرافعي العاشق، جلوت صورته كما عرفته؛ أما هي، أما صاحبته التي كان من
تاريخه معها ما كان، فهل كانت تحبه؟ وما كان هذا الحب، وماذا كانت غايته؟
هذا حديث موعده العدد القادم، فإلى اللقاء
(شبرا)
محمد سعيد العريان
قطف الثمار
للشاعر الفيلسوف طاغور
بقلم الأديب عبد الخالق العطار
كانت حياتي أيام الصبا كزهرة. . . تفقد واحدة أو اثنتين من وريقاتها الكثيرة. . . ثم
ينسيها الربيع ما فقدت. . . إذا ما وقف ببابها يطلب إحساناً
وودعت الشباب. . . فصارت حياتي كثمرة. . . ليس لها ما تستطيع فقده. . . ولكنها
تنتظر من تهب له نفسها كاملة بكل ما تحمل من حلاوة
هل للأوراق الصفراء والزهور الذابلة أن تشارك الورود الناضرة في بهجتها بعيد
الصيف؟ وهل لا يرسل غناء البحر أنغامه للأمواج الهابطة. . . كما يشجي بها الأمواج
العالية؟
هاهي ذي اللآلئ والدرر. . . قد انتظمت في بساط يقف عليه إلهي. . . ولكن هناك
. . .كثيرون. . . ينتظرون صابرين. . . يرجون لمسة من قدمه
!ما أقل العقلاء. .!. . وما أعظم من يجلسون إلى جوار سيدهم
. . .ولكنه هو. . لقد احتوى الساذجين بين ذراعيه. . وجعلني خادمه إلى الأبد
. . .وجدت خطابه مع الصباح. . . عندما استيقظت
. . .ولم أعلم ماذا يقول فيه. . . فإني لا أعرف القراءة
مالي وذاك الرجل العاقل. . . الذي يجلس وحيداً بين كتبه؟ لن أضنيه. . . وهو الذي
. . .يستطيع أن يقرأ لي خطابي
دعني. . . دعني أضع الخطاب على جبيني. . . وأضمه إلى صدري
وعندما ينمو سكون الليل. . . وتتناثر النجوم في ظلمته واحدة إثر واحدة. . . سأبسط
!الخطاب في يدي. . . وأظلَّ صامتاً
!سيقرؤه لي حفيف الأوراق بصوت عال
!ستفنيه لي المياه وهي تندفع في مجراها
!سترتله لي سبعة نجوم هادئة. . . وسأسمع ترتيلها من السماء
!لقد ضل سبيلي. . . وأنا أبحث عما أريد
!لقد استغلق عليّ فهم ما لابد من معرفته
ولكن هذا الخطاب الذي لم يقرأ. . . قد خفف عني العبء
فصارت أفكاري كلها كالأناشيد
. . .لقد ظللت سبيلي حيث تعددت السبل
فلا في المياه الواسعة. . . ولا في السماء الزرقاء. . . أستطيع أن أجد لي طريقاً
لقد اختفى الطريق تحت أجنحة الطير. . . ووراء النجوم الملتهبة. . . وخلف أزهار
. . .الفصول المتعاقبة
فتساءلت. . . أي قلبي! ألا تحمل مع ذلك حقيقة الطريق الذي لا أراه؟
عندما كنت اختال ببطء بين كنوزي الثقيلة الموروثة. . . كنت أشعر كأني الدودة التي
. . .تعيش في الظلام. . . تتغذى على الثمرة التي ولدت عليها
إني أترك هذا السجن. . . سجن الفساد
إني لا أعبأ إذ أحطم تمثال السكون. . . لأني ذاهب في طريقي باحثاً عن الشباب
. . .الدائم

. . .سأتخلى عن كل ما لم يتحد مع حياتي
سأتخلى عن كل شيء. . . إلا ما كان خفيفاً كضحكي
. . .وسأجري خلال الزمان
و. . . آه يا قلبي. . . في عربتك الصغيرة يرقص الشاعر ويغني بينما خياله يسبح
لقد أخذتني من يدي. . . وأدنيتني إلى جانبك. . . وأجلستني أمام الناس جميعاً. . . وفي
مقام عال. . . حتى صرت ضعيفاً لا أقوى على النظر ولا السير في طريقي. . . يملؤني
. . .الشك. . . ويحيطني الوجل. . . خشية أن أعثر فيصيبني احتقار الناس
. . .ولكني تحررت أخيرا
. . .فقد دوت الصرخة. . . وقرعت الطبول إنذاراً. . . وهبط مقعدي في التراب
وتفتحت السبل أمامي!
. . .إن أجنحتي لتطير بها الرغبة إلى السماء
إني أذهب لأحتل مكاني بين النجوم التي تنطلق في منتصف الليل. . . لتغرق في الظل
اللانهائي، إني كسحابة الصيف التي تتقاذفها العاصفة. . . بعد أن ألقت عنها تاجها الذهبي
الذي ألبسته إياها الشمس قبل أن تغيب. . . فتعلقت كسيف مسلول على سلسلة من
الضوء. . . وإذا الرعد يدوي كلما اهتز السيف
وفي فرح اليائس اجري في الطريق الذي غطاه التراب. . . طريق المنبوذين. وأجيء
. . .إلى جانبك لأحييك التحية الأخيرة
. . .والطفل لا يرى أمه حتى يخرج منها
فعندما صرت بعيداً عنك. . . وألقيت بمنأى من جوارك. . . صرت حراً. . . صرت حراً. .
. فاستطعت أن أرى وجهك
على بعد وفي هذا المنخفض ينساب نهر الجومنا. . . هادئاً رائعاً. . . والشاطئ بارز
. . .فوقه. . . والتلال المظلمة والغابات المتناثرة قد تجمعت حوله
وجلس جوفندا. . . معلم الشيخ الأعظم. . . على صخرة يقرأ الأساطير. . . عندما جاءه
تلميذه راجونات. . . فخوراً بثروته فانحنى احتراماً وقال:
(لقد جئتك بهدية صغيرة. . . لا تستحق منك القبول)
. . .قالها ووضع أمام أستاذه سوارين من الذهب المرصع بالأحجار الثمينة
أمسك السيد أحدها. . . وأداره في إصبعه فبرقت الجواهر وأرسلت من الضوء. . .
وفجأة. . . أفلت من يده. . . وتدحرج على الشاطئ. . . إلى أن بلغ الماء. . . واستقر في القاع
. . .هتف راجونات. . . (يا إلهي). . . ووثب وراء السوار في الماء
أعاد المعلم بصره إلى كتابه. . . وأمسكت المياه وأخفت ما سرقته. . . وسارت في
. . .طريقها
واضمحل ضوء النهار. . . عندما عاد راجونات إلى أستاذه متعباً يتصبب عرقاً وقال: (قد
أستطيع استرجاعه لو أنك أشرت إليّ أين سقط)
أمسك المعلم السوار الآخر. . . وقال وهو يلقيه في الماء. . . . . (إنه هناك)
يا إله السموات. . . إن حديثك سهل بسيط. . . ولكن حديث هؤلاء الذين يتحدثون عنك
. . .ليس كذلك
.فما أقرب صوت نجومك إلى فهمي. . . وما أبلغ صمت أشجارك
. . .إن قلبي قد تفتح كالزهرة التي ملأتها حياتي في خميلة مختفية
وأناشيدك. . . كالطيور الآتية من بلاد الثلج النائية. . . وتريد أن تبني لها عشاً في قلبي.
. .. . . بما فيه من حرارة كحرارة أبريل
ولكم أنا قانع بانتظاري هذا الفصل البهيج
عبد الخالق العطار
الأديان والمذاهب في الحبشة
رحل الأستاذ محمد تيسير ظبيان الكيلاني صاحب جريدة
الجزيرة بدمشق إلى بلاد الحبشة فدرس أحوالها دراسة
مستفيضة ثم وضع في ذلك كتاباً يوشك أن يصدر. وقد خص
الرسالة بهذا الفصل من فصوله ننشره لحضرته شاكرين

لما لم يكن لبلاد الحبشة حتى هذه الأيام إحصاء رسمي صحيح يمكن الاعتماد عليه في تقدير عدد المسلمين وغيرهم من أتباع الديانات الأخرى فأننا نكتفي فيما يلي بنشرة زبدة ما حصلنا عليه من المعلومات المختلفة والروايات المتنوعة في هذا الموضوع

إن الأديان الرئيسية الموجودة في الحبشة هي:

الوثنية، واليهودية، والمسيحية، والإسلام، وقد تضاربت الأقوال في تقدير عدد مسلمي الحبشة فمن قائل إنهم لا يزيدون عن ثلاثة ملايين، ومنهم من يقدرهم بخمسة ملايين، ومنهم من يرفعهم إلى أكثر من ذلك؛ وكل هذا من قبيل الرجم بالغيب

أما من جهتي فمنذ ألقيت عصا تسياري في تلك البلاد أخذت أوجه كل اهتمامي إلى تلك الناحية فرحت أتغلغل في مختلف الأوساط الحكومية والشعبية حتى وفقت والحمد لله للحصول على النتيجة الآتية وهي لعمري نتيجة بحث واف وتمحيص دقيق

الإسلام

إن الإسلام هو أكثر الأديان انتشاراً في بلاد الحبشة ولاسيما بعد أن ضُم إليها مقاطعتا (الصومال الإيطالي والإرترية.) والمسلمون (كما أكد لي موظف مصري مسؤول) كانوا يؤلفون في المئة خمسة وخمسين من مجموع السكان؛ أما الآن بعد أن زالت الأسباب التي كانت تمنعهم من الظهور وبعد أن ضمت منطقة الصومال الإيطالي وجميع أهلها مسلمون، والإرترية وكثرة سكانها من المسلمين أيضاً، فاعتقد أنهم يؤلفون ستين في المئة (على الأقل) من مجموع السكان. نعم لا أنكر أن بعض المناطق ولا سيما منطقة امهرة أكثر سكانها من المسيحيين، ولكن المناطق الأخرى يتفوق فيها العنصر الإسلامي على غيره كما سيأتي

والغريب المدهش أن الديانة الإسلامية تنتشر من تلقاء نفسها بسرعة خارقة في الأوساط الحبشية (وخصوصاً في المناطق الوثنية) رغم سياسة القهر والعسف التي كانت متبعة ضد المسلمين ورغم قلة الوسائل الموجودة لدى هؤلاء لنشر ديانتهم والتبشير بها بالنسبة للديانة المسيحية التي كانت البلاد الحبشية تموج برسلها ودعاتها وبعثاتها التبشيرية المنظمة ومن ورائها الحكومات الكبرى تؤيدها والأموال الوفيرة تغدق عليها والحكومة المحلية نفسها تشد أزرها وتسهل مهمتها

حقاً إنه لسر غريب انتشار الدين الحنيف بسرعة البرق في تلك الأصقاع، وإقبال الأحباش على اعتناقه رغم جميع الصعوبات التي كانت تعترض سبيله وتقف في طريقه، ولا غرو فمظهر المسلم (وإن كان إسلامه ضعيفاً وناقصاً) جذاب يسحر القلوب ويستهوي النفوس؛ فهناك التقوى والصلاح ومكارم الأخلاق والنظافة والشهامة والتواضع والوفاء. . . الخ

ولست أرى من وراء ذلك الحط من قدر الديانات الأخرى اليهودية والمسيحية. كلا، فإنها ديانات سماوية أيضاً، ولكن الأحباش كانوا يتمسكون بقشورها ويتركون لبابها؛ فهم كانوا بذلك أقرب إلى الوثنية

قال لي الأمير عبد الله أبا جفار سلطان جما في أثناء حديثه معي: إن هذه الديار ديارنا ونسبة الأحباش إلى المسلمين نسبة واحدة للعشرين، ولاسيما في بلاد هرر والعروسي والفوارغي وجمار غوما ولمو وجيده؛ فهذه البلاد ليس فيها أثر للمسيحية؛ وأغلب أهالي برنا وواللو ودارا وحفات والدناكل مسلمون. وإذا قدرنا سكان الحبشة حسب الإحصاءات الصادرة عن القناصل والدوائر المسؤولة بعشرة ملايين (بما فيها الصومال والإريترية) فلا يقل عدد المسلمين فيها عن ستة ملايين إن لم يكونوا أكثر من ذلك

وأكثر المذاهب الإسلامية انتشاراً المذهب الشافعي. وليست للمسلمين مع الأسف مدارس عامرة وجمعيات خيرية وأدبية كما هي الحال في مختلف الأقطار الإسلامية إذا استثنينا جمعية الإشفاق الإسلامي التي تألفت في أديس أبابا في عهد الحكومة السابقة، وكان في مقدمة أعمالها تأسيس المدرسة الإسلامية التي سيأتي ذكرها

وليس بين المسلمين علماء واقفون تماماً على أسرار الشريعة الغراء إلا في مقاطعتي جما وواللو؛ ويظهر أنه يوجد في جما نهضة إسلامية لا بأس بها سيأتي ذكرها

بمناسبة مقابلتي لسلطانها الأمير عبد الله
الدين المسيحي
ويأتي في الدرجة الثانية من حيث الانتشار الدين المسيحي، وكان دين الحكومة الرسمي وأكثر المذاهب المسيحية انتشاراً:
وقد بثها البطريرك ثيودوسيوس الإسكندري في القرن السادس واتخذ (المنوفيزية) ملوك الحبشة هذا المذهب مذهباً رسمياً
وكنيسة الأحباش قائمة تحت إدارة نائب بطريرك الأقباط المعروف هناك باسم (أبونا) وكان له نفوذ كبير وسلطة واسعة تخوله خلع الملك (النجاشي)
ومن المذاهب المسيحية المنتشرة أيضاً المذهب الكاثوليكي وله مبشرون كثيرون ومرسلون عازاريون وكبوشيون
أما المذهب البروتستانتي فقليل الانتشار
الدين اليهودي
يعرف اليهود في الحبشة باسم (فلاشة) وهم يقيمون في الأقاليم الشرقية، ويقال إنهم متحدرون من القبائل اليهودية الأولى التي توغلت في تلك الجهات. ولا يزيد عددهم عن الخمسين ألفاً، ويوجد منهم في أديس أبابا نحو مائة شخص، وهم يعيشون عيشة مستقلة لا يختلطون بأحد من الأحباش، ولا يتزوجون من غير أبناء دينهم، ويشتغلون بالزراعة وصناعات النسج
العقائد الوثنية
إن العقائد الوثنية على اختلاف أنواعها منتشرة في بلاد الحبشة، ولاسيما في الجهات الغربية، والإرساليات الأجنبية تتصل بالوثنيين وتحاول التأثير عليهم. ويعبد أكثرهم الأشجار (وأخصها شجرة الجميز) والأنهار والأحجار والشمس والبهائم والنار. وقد أخبرني
شاب حبشي اسمه جرجس إبراهيم أن طائفة منهم تقطن (الفامبيلا) على حدود السودان، وهم يعيشون في العراء دون أن يستروا أجسامهم، ولهم طريقة خاصة في العبادة، وذلك أنهم يجتمعون في كل عام أمام النيل الأزرق ويرقصون ثم يقدمون له ذبيحه كقربان
ولم أستطع أخذ فكرة صحيحة عن عدد الوثنيين في الحبشة ولكنهم لا يقلون على كل حال عن مليون ولا يزيدون عن مليون ونصف
عادات وثنية غريبة
قيل لي انه توجد قبائل في جهات - وولأغا - لا تدين بدين أبداً ولها عادات غريبة جداً، منها أن الرجال لا يقتربون من نسائهم إذا كن حبالى، ويضطر الزوج في هذه الظروف أن يبيت خارج الغرفة أو المنزل الذي تبيت فيه زوجته. ولا يحق له أن يأكل معها وهو مجبر أن يحضر لها كل يوم حيواناً يصطاده وإذا أخفق فلا يحق له دخول القرية
وتمتاز هذه القبائل بصلابة الأجسام وصحة الأبدان وسلامتها من الأمراض
الدروز الأحباش
توجد طائفة في بعض مقاطعات الحبشة تسمى (بالدروز) وهي منتشرة بنوع خاص في جهات - غلامو وسيدامو - وعقيدتهم على ما قيل لي خليط من الإسلام والمسيحية واليهودية ولهم أخلاق وعادات شاذة وهم يشتغلون بالنسيج والحياكة
محمد تيسير ظبيان
فلسفة التربية
كما يراها فلاسفة الغرب
للأستاذ محمد حسن ظاظا
نريد أن ننتهي إلى تقدير واف لمعنى التربية التي تضعنا في مركز نفهم فيه الكون) ونكشف الدور الذي علينا فيه أن نلعبه، كيما نتبين كيف أنه يجب علينا، وكيف يمكننا أن نقوم بهذا الدور بكل ما نستطيع)
هكذا يقول الأستاذ في كتابه محاولاً أن يلتمس في الفلسفة تفسيراً أو تقويماً لعملية التربية. ذلك أنا سنسأل ما قيمة التربية في الحياة؟ وما قدر عمر المرء بالقياس إلى الأعمار الجيولوجية السحيقة الهائلة؟ وأي ربح يربحه الإنسان من عمله تحت الشمس؟ جيل يعيش وجيل يموت، والأرض باقية فما جدوى ذلك كله؟ لم يجب أن نعيش؟؟ لم

نُلزم بالبقاء في عالم لم نسأل عنه قبل مجيئنا إليه ولا نملك فيه حتى حق الموت؟؟! وما هي الصلة بين مركزنا في الحياة وواجبات هذا المركز؟؟

أولئك جميعاً مسائل عسيرة عتيدة يضج منها الجمهور لأنه لا يستطيع الخوض فيها بحكم عقله الذي لا ينحو نحواً كلياً يفسر به الظروف الجزئية ويسمو عليها. لذلك تراه يقول حسبنا أننا نعيش ما دام الواقع أننا نعيش!! وحسبنا أننا نتعلم ونتربى مادام الواقع أننا كذلك؟!! ولكن الفلسفة لا ترضى منه بهذه القناعة ولا تفتأ تقول له: إياك أن تغفل سؤال (لِمَ تعيش)؟ لا لشيء إلا لأنك تعيش!! ذلك أنك تتقدم من غير شك إذا ما سلطت النقد على حياتك ونظرت قبل القفز ثم بعده!! يقول الأستاذ برادلي في أصول المنطق جـ2 ص721 (إن ديانة العمل من أجل العمل فحسب، أو إن كل شيء من أجل العمل، تنتهي حتماً إلى نتيجة مهدومة في العمل نفسه)

وهكذا تقول الفلسفة للجمهور (قصدك الأساسي هو العمل، أما أنا فقصدي النظر؛ ولكن النظر مع ذلك يسير إلى جانب العمل. أنا أغوص، والعمل يستفيد من غوصي، لأنه بي - وبي وحدي - يستطيع أن يفهم لِمَ يعمل ما يعمل). ذلك أن الفلسفة لا تضرب في الهواء ولكنها تحاول أن تحدد الأشياء بحدودها المنطقية معطية إياها نهاياتها الميثافيزيقية؛ وأن العمل نفسه يصير فلسفة إذا ما نقد نفسه. لذلك لا غرو أن قالوا إن العمل الصحيح هو ذلك

الذي يشعر بنفسه!!

سيقول العمل - وهو لابد قائل - (ولكن ذلك يضايق!!) وستقول الفلسفة (إنه حقاً يضايق ولكنه بعد ضروري لأن التقدم لم يضر نفسه إلا عن طريق الغرور! لذلك لابد من هاتيك الأسئلة السقراطية الحصيفة العميقة كيما نأمن مغبة الغرور!!)

وهنا سيعجب (العمل) من قول الفلسفة، وسيبسم فتضحك (الفلسفة) وتقول له: (حسناً لقد اقتربنا! إنك قد بدأت تعجب والتعجب أول خطواتي!! وإذن فكُن معي كما يقول المثل الصيني (كل رغيفاً واشتر بالآخر زهرة!!) وتذكر دائماً أنك تكون إياي حينما تنعكس على نفسك فتختبر حقائقها وترتبها وتبوبها وتجعلها منطقية معقولة!!)

وإذن فليست فلسفة التربية أداة لفهمها فحسب؛ وإنما هي أيضاً أداة لنقدها وإصلاحها. وللفلسفة عدة صور أهمها الميثافيزيقا التي تعطينا فكرة جامعة عن الكون. ونحن في التربية إزاء كائنات راقية هي أفراد الإنسان. وعلم النفس لا يكفي قط لفهم هذه الكائنات بجميع علائقها، وإذاً فلابد من ذلك (التقدير الوافي) الذي تقدمه الفلسفة!! فترى ماذا عسى أن يكون ذلك التقدير؟؟

تبحث الفلسفة كما قدمنا في (الكليات)، وترى (الكل) ممثلاً في الجزء كما نرى الحيوان المنقرض في هيكله العظمي، والإنسان جزء من الكون. وكل أجزاء الكون ترتبط وتندمج في وحدته الكلية. والتربية من أهم تجارب الإنسان إن لم تكن أهمها جميعاً. وسؤال الفلسفة هنا هو ماذا تقوم عليه التربية من أصول، وما قيمة هذه الأصول؟؟ ذلك أن التربية أسلوب زمني يعمل لإعداد الفرد كيما يحقق نوعه بإخراج ملكاته من القوة إلى الفعل، والارتفاع به من الواقع إلى المثل الأعلى؛ ولما كانت أغلب تجارب الإنسان تقع في حيز الزمن؛ ولما كان الزمن يقص علينا قصة المجهول على لسان التطور الذي ما فتئ يعمل في الكون منذ السديم الأول إلى اليوم؛ ولما كانت التربية هي تطور في الفرد مع شعور بهذا التطور؛ ولما كانت سلسلة التطور تمتد في مجرى الزمن وتمتد حتى المطلق - أقول لما كان كل ذلك - فيما يلوح - حقاً، فإنه يرجح لدى الأستاذ هرن صاحب كتاب (فلسفة التربية) أن قصة الإنسان تتطور نحو الكمال، وأن التربية هي وسيلة ذلك التطور. وإذا صح ما يقوله (هيجل) من أن تجارب الإنسان الزمنية ليست إلا مظهراً (للدائم الخالد)، صح أن التربية من أهم هذه التجارب .!!

وتعترف الفلسفة بالعقل البشري كآخر منحة للجسم العضوي في تطوره؛ وكوسيلة للخروج من اللاشعور إلى الشعور؛ ولذلك نراها تضع يدها عليه لترقيه وتنميه معتبرة إياه أعظم أنواع الحقيقة الزمنية. ويقول هاملتون (ليس في الدنيا أعظم من الإنسان، وليس في الإنسان أعظم من العقل). ولكن من أين أتى هذا العقل؟ أمن العدم؟ أم من شيء غير عقلي؟ لابد من القول هنا (بعقل تام) قائم خلف عقلنا المحدود، وهذا العقل التام هو السبب الأول لمركز التربية في الإنسان - وهو العقل - بل وهو الضامن

!كما يقول ديكارت (الموضوعية) الحقائق العقلية ذاتها
وتكون التربية على ذلك تحقيق للإنسانية بجهد خاص قوامه الشعور بالنفس؛ ولكن ما طبيعة هذا الجهد وما صلته بالكون؟
سبق أن الإنسان جزء من كل؛ ويتبع ذلك أنه محدود في شعوره بنفسه لأنه جزء فحسب؛ هذا بينا الكل الذي يحوي الإنسان ويحوي غيره يجب أن يكون مطلق الشعور بنفسه وذو نشاط ذاتي دائب. . . وهذا الكل هو الله
ولما كان الإنسان عقلا بالقوة يتحقق بالفعل بالجهد أو بالنشاط الذاتي، ولما كانت التربية هي ذلك الجهد نفسه أو ذلك النشاط الذاتي؛ كانت عمليتها تقرب حتما ما بين الإنسان وخالقه
وإذا أخذنا بمذهب الحلول قلنا إن الله تعالى مصدر ما في الكون من قوة وحركة ونشاط. وإذن تكون المادة نشاط في نظر العالم الطبيعي، ويكون هذا النشاط درجة من الشعور في نظر الفيلسوف. ويكون الله على ذلك هو وحدة الكون الشاعرة التي تحيا الطبيعة فيها والإنسان. يقول القديس بطرس: (إننا نعيش ونتحرك ونأخذ كياننا فيه)؛ ويكون زمن التربية على ذلك هو فترة تحقيق الناشئ لأحد مظاهر الله. وذلك التحقيق يسر الله من غير ما شك. يقول فيختة (التربية تكميل خالد وطريق لجعل الجزء كلاًّ، إذ الحقيقة الكلية هي الكون أو الله. والحقيقة الزمنية هي الصيرورة. ومن أساليب الصيرورة ذلك الأسلوب الذي يصير به الإنسان ما هو عليه في الأبد. والحياة الأبدية هي أن يكون الإنسان على نحو الله)
وخلاصة القول أن التربية تقوم على أن أصل الإنسان هو الله، وأن الإنسان حر الطبيعة خالد المصير؛ وأن أساس التنشئة في الناحية البيولوجية هو ملاءمة الإنسان بين نفسه وبين البيئات المتطورة المتجددة؛ وأساسها في الناحية الفسيولوجية هو العناية بالجسد وتجميله لأنه هيكل الروح المقدس؛ وفي الناحية النفسية هو أنه لا حد لنمو العقل فلنسم به إلى المطلق؛ وفي الناحية الاجتماعية هو أن الله يظهر نفسه في الزمان خلال مثل الإنسان العليا من خير وحق وجمال، وإذا فليكن لهذا الثالوث قداسته واتزانه في حياتنا. . .
ويكون التعريف الجامع المانع للتربية في نظر الأستاذ هورن هو (أنها الطريق الأبدي للملاءمة العليا بين الإنسان الكامل جسما وعاطفة وعقلا، وبين الله ممثلا في البيئة الزمنية للإنسان)
هذا هو تفسير الفلسفة لعملية التربية. أفلا ترى أنه يرفعها ويقدسها ويجعلها جديرة منا بكل إجلال، ومن الدولة بكل عناية وتقدير؟؟
محمد حسن ظاظا
مدرس الفلسفة بشبرا الثانوية الأميرية

رسَالة الشِّعر

غب سماء

للأستاذ فخري أبو السعود

رَوِيَ الطَّرفُ والجوانحُ ريّاً ... في أصيلٍ مُشعشعِ الأضواءِ
من جمال الأشياء لمَّا تراءت ... شائقات الجمال غَب سماء
بعد يوم داجي السحاب عَبوسٍ ... دائب السَّحِّ هاطل الأنواء
غائب الأفْق لم يَبِنْ فيه حتَّى ... دَلَفَتْ للمغيب وجهُ ذُكاء
أشرقتْ في غروبها وتَبَدَّتْ ... من ثنايا السحاب باللألاء
فأحالت جهامةَ الجوِّ بِشْراً ... وأَنارتْ جوانبَ الغبراء
وأذابتْ شعاعها الصافيَ الأصْ ... فَرَ في الماء والثرى والفضاء
وكَسَتْ من ضيائها أخضَرَ الأعْ ... شابِ حُسناً ويأبِسَ الأكْلاَء
فهما يَزْهُوَانِ في رِيقَةِ القَطْ ... رِ زِهَاءً وفي شُفوفِ الضياء
واستطار النسيم بعد ركود ... وتَمَشَّى على سطوح الماء
وتراءتْ دون السطوح ظِلالٌ ... ذاهباتٌ في رعشةٍ وانثناء
إنَّ في هذه المجالي لَرَوْحاً ... وغذاءً للنفس أيَّ غذاء
تُفعِم النفسَ غبطةً وهياماً ... بخلودٍ بها لغير انتهاء
وهْيَ وَحيُ الأشعار لا ذمُّك الده ... رَ وشكوى الهوى وطولُ البكاء

هِيَ شِعْرُ الوجود أَحْرِ بهِ أَنْ ... يُلْهِمَ الشِّعْرَ أَنْفُسَ الشُّعَرَاء
خيرُ ذخرٍ للنفس ديوان شِعرٍ ... قد حوى حُسْنَ هذه الأشياء
يبسم الزهرُ فيه من كل سطر ... ويهب النسيمُ حُلْوَ الزكاء
فكأنّي أسيرُ إذْ أجتليهِ ... في رياض مُنَضَّراتِ النماء
قد تَهَادَتْ بها الأماليدُ والأرْ ... هارُ شتّى الألوان والأسماء
يصفُ المبهم الدقيقَ ويُحْصي ... كلّ شيء بالنظرة الجَلْوَاء
حاكياً مَوْقِعَ الجَمَال ومَهْوى ... فتنةِ الكون في فؤاد الرَّائي
يصف الفجرَ إذْ يهب على الأرْ ... وَاحِ رَطْبَ الأنفاس والأنداء
وضياَء الشروق ينتظم الكو ... نَ بفيْضٍ من روعة وبهاء
وضُحىً مُنْضِراً وُجوهَ الروابي ... وثغور الحدائق الغَنّاء
وأَصيلاً هِيْنَ النسائم قد شا ... عتْ بأضوائه ظلالُ المساء
فخري أبو السعود
ليلة قمراء!
للأستاذ خليل هنداوي
أُحجبي عن مقلتي بدر السما ... أنتِ في عيني وقلبي القمر!
هل لمحت الكون لمَّاع السنا ... كل شيء فيه عين تنظر
كل ما فيه سكون حولنا ... وضياء ضل فيه البصر
ولنا في الغاب ظل وارف ... وغصون للهوى تنهصر
كل دنيانا هنا، ما نبتغي؟ ... لو أردنا لتدلّى القمر
قد رآنا الليل من أشيائه ... فتولانا، ونام القدر
وكسانا النور ثوباً راجفاً ... نتراءى فيه أو نستتر
نجعل النور جناحاً وعلى ... غارب النور يطيب السفر
يبتغي البدر بأن يغريني ... ليتما للبدر عيناً تبصر
فيرى البدر الذي ألهمني ... سكرة تصحو، وصحواً يسكر!
خليل هنداوي
بين ابن زيدون وولادة
شاعر الحب. . .
للأستاذ محمد بهجة الأثري
مهداة إلى الصديق (الزيات) مصور الحقيقة والجمال والخير
(الأثري)
حيِّهِ من شاعرٍ في الغابرينْ ... عاشَ حيّاً في قُلُوب العاشقينْ
شاعرُ الحبِّ، وما أعظَمَهُ ... لَقَباً يَحْيَا به في الخالدين!
شاعرُ الحبِّ، وما الدنيا سوى ... نَغَمِ الحبِّ وشعرِ المُغْرَمين
وبقاياها فضول مُنِيَتْ ... بتعاطيها نفوسُ الأكرمين
هل يروق العيشُ في غيرِ هوى ... أو يروق العيش في غير حنين؟
لا ودلِّ الغِيدِ في فتنتِهِ ... وجلالِ الحسنِ في الخُلْق الحصين
جلَّ ما رقرقه في شعره ... من دموعٍ وزفير وأنينْ
قِطَعٌ من كبدٍ مقروحة ... صَلِيَتْ في الحب نيرانَ الشجونْ
وفؤادٍ من تباريح الصَّنى ... ذابَ إلاّ رَمَقاً لا يَسْتبين
قطّرتها شَجَناً أنفاسُهُ ... كحنَان الإلْف ناءاه القرين
وجَلَتْها فتناً أشعارُهُ ... كرُواءِ السحر، تسبي الناظرين
ضحِكٌ في دمعةٍ رقراقةٍ ... وتعالٍ في خضوعٍ مستكين
لَمحَاتٌ تنبري مسرعةً ... كوميض البرق أو نبض الوتين
من ضلالِ النفس في حَيْرتها ... وخداعِ القلب بالوصل الضنين
يرهبُ الفُرقةَ أنْ تُفْزِعَهُ ... ويخاف الدهرَ ألاّ يستكين
بين يأسٍ من يقينٍ عنده ... ورجاءٍ يبتغيه في الظنون
ما درى الأمنَ فؤادٌ عاشقٌ ... ساعةً دون ارتياعٍ من كمين
أيُّ قلبَيْنِ إذا ما اجتمعا ... وعيونٍ تتلاقى بعيون!
قفْ تأمَّلْ خفقاتٍ نطقَتْ ... بالهوى وارْنُ إلى السحر المبين

وتصوَّرْ مبسِمَيْن الْتَقَيَا ... وعناقيْنِ خَدِيناً لخدين
في أحاديثَ كأنفاس الصَّبا ... وشذا الوردِ ورَقْراق المعين
يقطعان الدهرَ في ظلّ الصِّبا ... بين لَثْم وعناق وأنين
كلَّما جَدَّ الهوى زادا به ... لَعِباً يُغْري ولهواً وحنينْ
هل ترى من غِبطةٍ رفَّتْ على ... مشهد أبدعَ يحلو ويَزِيْن؟
وقف الدهرُ عليه ثَمِلاً ... يغبِط الإلفَيْن كالصبِّ الغَبينْ
لا أخافَ اللهُ قلباً هائماً ... ببنات الحسن من حُور وعِين
يا دعاءً ما استجابَتْه السما ... لعشيقيْن على كرّ السنين
ليتها في عاشقيْ قُرْطُبة ... لبّتِ القولَ لذُلِّ الضارعين
إن ما ذاقاه في ظل الهوى ... من أفاويق حَلَتْ، عادَ وَزِينْ
ضَرَبت أيدي النوى بينهما ... والنوى أقتلُ داءِ العاشقين
النوى؟ سل بالنوى مَنْ ذاقها ... يُزِلِ الشكَّ ويُخْبِرْك اليقينْ
ظمأ بَرْحٌ، وشوقٌ دائم ... وجوىً يُذوِي، وسقم وجنون
ما لها طِبٌّ يداويها خلا ... عودةَ الوصل قريناً لِقرين
يا لساناً وقَّع الشجوَ الذي ... سَحَرَ الدنيا وهزَّ المُغْرمين
ولدتْ (ولاّدةٌ) أنغامَه ... فتناغي بأفانين اللحون
قد أصاب الحبُّ من قَلْبَيْهما ... عاشقاً طهراً ومعشوقاً رزين
ما مشى الرَّيْبُ إلى قُدْسِهما ... وهوى الناسِ ارتيابٌ ومُجُونْ
يُعْصَمُ النُّبْلُ ويُحْمى حوضُهُ ... بقُوى النفسِ وبالخُلق المتينْ
يعرِفُ الصدقَ أخو الصدقِ فَدَعْ ... كذِبَ الشكِّ وغَمْزَ الجاهلين
ربَّ حبٍّ كنمير الماء في ... صفوه: طُهْرٌ وعذب ومصونْ
(بغداد)

محمد بهجة الأثري

رسَالة الفَنّ

الفن الهندي

النحت والتصوير

للدكتور أحمد موسى

- 3 -

وبلغت الثروة الفنية في النحت الهندي مبلغاً عظيماً من الكثرة والاتقان، وذلك بالنظر إلى ما بقي منها من المعابد والمباني الأثرية الكثيرة التي كان الدافع إلى تشييدها الرغبة الأكيدة في خدمة العقيدة الدينية

وقد انقسمت منحوتات الهنود إلى قسمين أولهما النحت نصف البارز الذي بلغ حيناً درجة التجسم الكامل لولا التصاقه بالأرضية الموجودة تحته، وثانيهما النحت الكامل المعروف بالتماثيل

ولما كانت المنحوتات والتماثيل قد أنشئت للمعابد وما إليها بقصد تنسيقها وتجميلها، فإن معرفة تطور النحت الهندي معرفة صحيحة تكاد تكون غير ممكنة بالنظر إلى السبب السابق التنويه به في المقال الأول

وقد شملت المنحوتات والتماثيل المناظر الخيالية والدينية، ولكنها كانت في جوهرها بعيدة عن الاقتباس من الطبيعة. ثم حاول الفنان الهندي أن يصور الحقيقة في منحوتاته فسار متجها إلى المناظر الحربية، وإلى مناظر حياة بوذا في منحوتات نصف بارزة وجدت في توبا سانتشي

أما بقية المنحوتات البوذية بوجه عام فكانت دينية وقصصية نحتت على الحوائط الداخلية والخارجية للمعابد، وكان من بينها ما تم عمله بحالة فائقة من الدقة التي تدعو للإعجاب. وقد بلغ ارتفاع بعض التماثيل حوالي ثلاثين متراً وهذا ارتفاع هائل شابهوا فيه المصريين بعض الشبه

وسار النحت البراهمي نحو القصة والدين، إلا أنه كان أكثر تعمقاً وأبعد خيالاً؛ فأظهر لنا في وضوح حياة الآلهة والأبطال فضلا عن بعض مناظر لحيوانات خرافية ولراقصات ومغنيات خصصن لخدمة المعابد برقصهن وغنائهن

ولعل الطابع المميز لهذه المنحوتات أنها كانت لا تمثل الحقيقة الخالصة في مجموعها،

وهذا يخالف بالطبع ما سبقت مشاهدته من منحوتات الإغريق (راجع الرسالة: أكروبوليس أثينا - النحت) ولم تكن هذه الظاهرة لتمنع من تمتعها بقسط كبير من الحياة وجمال التكوين. فالآلهة التي نحتت بحيث كان لها ستة أيد كانت وجوهها وملامحها دقيقة الإخراج، بدت عليها مظاهر العظمة الدينية. هذا فضلاً عن الدقة والعناية في سير خطوطها التحديدية ولاسيما في الأشكال التي مثلت المرأة عندما عُني الفنان بإظهارها رشيقة

وتناول النحت الهندي ناحية أخرى جديرة بالتسجيل، وهي ناحية المناظر الدراماتيكية، منها قطعة مشهورة اسمها (تطاحن الآلهة)، وأخرى اسمها (أحلام الوصول) وهما وإن كانتا من المناظر الدينية، إلا أنهما أقرب إلى تمثيل النفس الفنية، وما يمكن أن تسبح فيه من خيال، وقد تمكن الفنان من إخراجهما بقوة تمثلت في إظهار فهمه للطبيعة وما يدور فيها من مظاهر الحياة

وتكاد تكون مجموعة معبد إيللورا (راجع المقال السابق) وكدشوارو من خير ما تركه الفن الهندي في النحت

أما التصوير فكانت غالبية مرسومة على حوائط المعابد، إلا أنه مع الأسف لم يبق منه شيء كثير من القطع الكبيرة

ويغلب على الظن أن أروع مصورات هندية هي تلك التي على حوائط معبد أدشونتا (القرن الخامس بعد الميلاد)، وتمثل بوذا والاحتفالات الدينية، وبعض مناظر الحروب والصيد، وكانت خالية من قواعد وأصول الرسم المنظور، ولكن هذا لا يمنع من اعتبار خطوط التحديد جيدة لدرجة أكسبت الأجسام شيئاً كثيراً من الروعة والحياة

أما الألوان فكانت قوية اختارها الهنود جذابة للنظر لما غلب عليها من دقة الاختيار وحسنه. ويتلخص التطور الذي طرأ على فن التصوير الهندي في أن المساحات المشغولة به كانت كبيرة، ثم أخذت في الصغر حتى أصبحت تقرب من تلك التي تعلق على الحوائط في أيامنا هذه، بل إن الكثير منها رسم في مساحة الكتب العادية هذه إلى أنها كانت شاملة في أول أمرها لعدة أشخاص ثم خصصت للتعبير عن الجمال أو مواقف الغرام بين رجل ومعشوقته

ولعلنا بالنظر إلى الصورة المنقولة عن حائط معبد أدشونتا نلاحظ حرص الفنان على صدق المحاكاة بالرغم من بساطة الخطوط، فالتسعة الرؤوس تكاد تكون متشابهة من حيث الملامح والتكوين. أنظر إلى الشعر وإلى العيون والحواجب والشفاه تر أنها كلها لجنس واحد من الناس

وقد أجتهد الفنان في تصوير الأيدي مختلفة الأوضاع؛ فتراه جعلها قابضة مرة على عقد وأخرى مشيرة، وثالثة منبسطة على كتف

وهذه الصورة وإن كانت بسيطة بالنسبة إلى غيرها؛ إلى أنها تعطي فكرة صادقة عن روح التصوير الهندي

أحمد موسى

البَريدُ الأدَبيّ

جلالة الملك يحضر دروس الدين في رمضان

يحرص جلالة الفاروق أيد الله ملكه على أن يحيي سنن الراشدين من خلفاء الرسول، والصالحين من ملوك الإسلام، فشاءت جلالته أن يحضر دروس التفسير والحديث التي يلقيها في المسجد الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر في مساء كل خميس من شهر رمضان. وقد كان يوم الخميس الماضي افتتاح هذه الدروس بمسجد الأبوصيري في الإسكندرية. ففي الدقيقة الخامسة والعشرين من الساعة التاسعة أقبل موكب المليك الأعظم فاستقبله على باب المسجد العلماء والنبلاء والوجهاء والشيوخ والنواب وجمهور حاشد من طبقات الشعب، ثم أخذ مجلسه المتواضع في بيت الله بين عباد الله وشرع الأستاذ المراغي يلقي درسه الجامع بعد أن مهد له بهذه الكلمة البليغة قال:

قبل أن أشرع في المحاضرة أرى لزاماً عليّ وأداء للواجب أن أفي لمولاي حضرة) صاحب الجلالة (الملك فاروق) الأول أعزه الله ببعض حقه على الإسلام والمسلمين من الثناء والشكران، فقد أعاد سنة من سنن الإسلام بتحيته وبندائه الذي أذاعه أول يوم من رمضان هي سنة الأمر بالمعروف والاعتصام بهدى الله وأوامره تصدر من ولي

الأمر، وهو أعزه الله باستماعه لمحاضرات دينية قد أرشد الناس إلى الرجوع إلى الحق وسماع آي الكتاب الكريم والسنة المطهرة
تلك نعم من الله تستوجب الشكر والدعاء بدوامها. ومما يزيدنا غبطة أن هذه الرعاية من المليك المعظم للدين جاءت في وقت نبتت فيه عند الشبان من أبناء الجيل فكرة الرجوع إلى الدين والاعتزاز به
ومما لا ريب فيه أن تعهد هذا الشعور سينميه ويقويه ويصل به إلى أبعد الغايات وأحب الثمرات. حقق الله الآمال وأدام (الفاروق) ذخراً للإسلام والمسلمين ولأهل الوطن (أجمعين)
وقد انتهى هذا الدرس الديني في الساعة التاسعة والدقيقة العاشرة فما كاد جلالته ينصرف من المسجد ويبدأ الموكب الملكي في العودة إلى قصر المنتزه حتى هبت عاصفة التصفيق والهتاف بحياة الملك الصالح، وظلت تلاحق الموكب حتى عاد إلى القصر الملكي باليمين والإقبال
الموسوعة الإيطالية (انسيكلوبيديا اتاليانا)
منذ أسابيع قلائل ظهر المجلد الأخير من الموسوعة العلمية الإيطالية (الانسيكلوبيديا أو دائرة المعارف)؛ وهو المجلد السادس والثلاثون. وإصدار هذه الموسوعة الضخمة من أعظم وأجل الأعمال العلمية التي تمت في العهد الفاشستي؛ وقد وضع مشروعها لأول مرة في سنة 1925، وكان روح المشروع هو السنيور موسوليني نفسه؛ وتبرع لمعاونة المشروع عدة من رجال المال الإيطاليين في مقدمتهم السناتور جوفاني تريكاني، وهو من أقطاب الصناعة ومن هواة العلوم والفنون؛ وانتخب العلامة السناتور جنتيلي لإدارة المشروع والإشراف على إخراج الموسوعة؛ وصدر المجلد الأول منها في ربيع سنة 1929، ووعد القائمون بأمرها يومئذ بأن المجلد الأخير منها سيصدر في سنة 1937؛ وكانوا عند وعدهم. ودعا السناتور جنتيلي، وهو من العلماء والكتاب الأجلاء، كتاب العالم وعلماءه في كل فن وفرع ليشتركوا في تحرير الموسوعة الجديدة، وأغدقت عليهم الهبات الوفيرة، ولم تعترض معاونتهم أية اعتبارات حزبية أو قومية، إذ حرص القائمون بالأمر على أن يسود المشروع كله جو علمي بعيد عن جميع الاعتبارات. وقد صرح السناتور تريكاني حين تقديمه المجلد الختامي من الموسوعة إلى السنيور موسوليني بأن الموسوعة الإيطالية اتخذت نموذجها من الموسوعة البريطانية وصدرت على طرازها باعتبارها مثلا أعلى لهذا النوع من العلم المحشود؛ وإنهم مع ذلك حاولوا بإصدارها التفوق على الموسوعة البريطانية. ومن محاسن الموسوعة الجديدة أنها لم تكن مشروعاً تجارياً بل كانت مشروعاً علمياً فقط، وإنها حسبما يصفها المشرفون عليها، قصدت إلى غاية علمية جليلة هي أن تلخص العلم الإيطالي المعاصر والثقافة الإيطالية المعاصرة؛ ولكن هنالك ملاحظة جديرة بالتقدير، وهي أن كل ما تخرجه إيطاليا الفاشستية من صنوف التفكير والثقافة يصطبغ بصبغة الدعاية العميقة للفاشستية ونظمها ومزاياها المزعومة؛ فماذا كان أثر هذه النزعة في إصدار الموسوعة الإيطالية؟ يقول النقدة الذين درسوا الموسوعة إنها جاءت لحسن الطالع مجهوداً علمياً لم تطغ عليه شوائب الدعاية القومية المنظمة؛ وإذا كانت في الواقع تعتبر أعظم وأغزر مصدر لكل ما يتعلق بالفاشستية، فإن ذلك طبيعي لا غبار عليه لأنها تصدر عن بلد النظم الفاشستية. وقد تولى السنيور موسوليني نفسه كتابة المقال المتعلق بشرح
النظرية الفاشستية، وكتب السنيور فولبي وزير الطيران تاريخ الفاشستية. وإذا كانت الموسوعة الجديدة تنم عن نزعة ثورية في النظر إلى مناحي العلوم والفنون، فهي أيضاً نزعة طبيعية في بلد يعيش في عهد تطور وثورة؛ بيد أنه يمكن أن يقال بوجه الاجمال، إن الموسوعة الإيطالية مجهود علمي جليل قبل كل شيء، وإنها مفخرة علمية خالدة لإيطاليا الفاشستية، وإنها قد استطاعت أن تحقق إلى غاية بعيدة كل ما قصده المشرفون عليها من تلخيص الثقافة الإيطالية المعاصرة، وإنها قد استطاعت أن تتحرر من كل نزعة قومية أو حزبية أو جنسية أو دينية خاصة، وإنها أخيراً فتح علمي عظيم يستحق كل إعجاب وتقدير
صور بغدادية
أصدرت مس ستارك (مذكراتها) عن بغداد في كتاب بالإنجليزية سمته وقد كتبته في

الفترة التي عاشتها في هذه المدينة الخالدة مكبة على تعلم اللغة العربية وأختها الفارسية. والكتاب على طرافته خليط من الحق والباطل والماضي والحاضر؛ وفيه - برغم مزاياه - ظلم كثير للعرب، ونسيان للجميل العظيم الذي ينبغي أن يذكره الإنجليز إلى الأبد لهذا القطر الشقيق. . . وقد كانت المؤلفة تعيش في صميم بغداد، ومن هنا كانت هذه النظرة السوداء لطرق معيشة البغداديين، والنعي على قذارة الحي الذي كانت تعيش فيه. . . ولو أن الآنسة فرايا ستارك عاشت في بعض أحياء لندن القذرة لما سولت لها نفسها إيراد ما أوردته في كتابها عن الحي البغدادي الذي لم يرغمها أحد على أن يكون مستقرها في الفترة التي قضتها في عروس مدن التاريخ. . . هذا وقد تكلمت الآنسة عن العلاقة بين العرب في العراق وبين الإنجليز فصرحت أنها تقوم على النفاق، وأن العراقيين في طول البلاد وعرضها يضمرون للأجانب عامة البغضاء والكراهية، واستنتجت ذلك من مرورها مرة وهي تزور النجف بصانع أحذية طاعن في السن ما كاد ينظرها حتى انصرف عن عمله وراح يحدجها بنظرات عدائية ارتجفت لها أعصابها. . . وهذا بطبعه استنتاج سقيم كان من المآخذ الكثيرة التي استدركتها على الكتاب صحيفة التيمس الأدبية

دور الضيافة الأدبية

منذ عامين أنشأت نقابة الصحافة الفرنسية في باريس بمعاونة الحكومة نادياً للضيافة سمته

دار الضيافة الفرنسية وأعدته لنزول الصحفيين الأجانب الذين يزورون باريس زيارة قصيرة؛ فهنالك يحتفى بهم وتقدم إليهم جميع المعاونات والمعلومات اللازمة لتسهيل مهامهم وأغراضهم العلمية والسياحية. وفي هذا العام استطاع نادي القلم الفرنسي أن يحمل الحكومة الفرنسية على أن تخصص داراً عظيمة فخمة لنزول الكتاب الأجانب الوافدين على باريس؛ وتقع هذه الدار في حي الشانزيليزيه أفخم أحياء باريس في شارع بيير شارون، ويمكن لجميع كتاب العالم الذين ينتمون إلى نوادي القلم أن ينزلوا فيها ضيوفاً على الحكومة الفرنسية؛ وقد حددت مدة الضيافة بخمسة أيام فقط نظراً لكثرة الكتاب الوافدين على الدار وفي خلالها يقدم طعام الإفطار إلى الضيوف، وتوضع تحت تصرفهم جميع المعاونات والتسهيلات الممكنة لزيارة المعالم الأثرية والفنية. ومنذ أوائل الصيف الماضي تقوم هذه الدار الفخمة بمهمتها في استقبال الكتاب من مختلف الأنحاء

ونحن في مصر في حاجة إلى دار للضيافة من هذا الطراز؛ ولا نقول إنها يجب أن تعد لاستقبال جميع الكتاب الوافدين إلى مصر، بل يكفي أن تعد لنزول الكتاب والأدباء الذين يفدون علينا من الأقطار العربية والإسلامية؛ ونحن نستقبل الكثيرين من هؤلاء الأخوة في كل عام وكل فصل، ولا نستطيع في معظم الأحيان أن نقدّم إليهم ما يجب من حسن الضيافة والمعاونة. فعلى هيآتنا الصحفية والأدبية أن تبذل السعي اللازم لدى الحكومة حتى تظفر بتحقيق هذه الأمنية التي يعاون تحقيقها في توثيق الروابط الأدبية والاجتماعية بين مصر وشقيقاتها

اكتشاف جديد لسر التحنيط

هل اكتشف العلم الحديث أخيراً سر التحنيط عند الفراعنة؟ هذه مسألة تعنى بها الأوساط العلمية في أوربا وأمريكا منذ حين عناية خاصة، وتبذل الجهود من آن لآخر للوقوف على سر ذلك المحلول العجيب الذي كانت تنقع فيه الجثث المحنطة فيكفي لحفظها من العطب والتحلل آماداً طويلة، بل آلافا مؤلفة من السنين كما تشهد به موميات الفراعنة التي تحتفظ بها مصر وكثير من المتاحف العالمية. ولقد كان التحنيط على هذا النحو فناً من فنون المصريين القدماء برعوا فيه إلى الغاية؛ ولكن تسربت منه على ما يظهر في العصر القديم معلومات إلى بعض الأمم المعاصرة كالآشوريين والفرس؛ بيد أنه لم يبلغ في حضارة من الحضارات القديمة مثل ما بلغه عند المصريين القدماء

وقد بذل العلم الحديث محاولاته لاكتشاف هذا السر مهتدياً بما كتبه المؤرخ اليوناني الكبير هيرودوت عن التحنيط عند الفراعنة حسبما شاهده ودرسه بنفسه لدى المحنطين المصريين وهم الرهبان في ذلك العصر؛ ولكن رواية هيرودوت لم تلق قط على حقيقة المواد التي كانت تستعمل ضوءاً كافياً، وكل ما هنالك أنه يتحدث عن

محلول (النترول). وفي أواخر القرن الماضي استطاع بعض العلماء الألمان أخيراً أن يهتدي إلى مركب تحفظ به الجثث المحنطة ولكن إلى أعوام قلائل
والآن تحمل إلينا الأخبار من إيطاليا أن المباحث التي كانت تجرى منذ حين في جامعة تورينو قد انتهت بالوقوف على سر المحلول الفرعوني للتحنيط، وأن الكيميائي الإيطالي السنيور سالفاتوري بيروتا قد استطاع أن يهتدي إلى محلول تحفظ به جثث الحيوانات المحنطة أعواماً طويلة دون أن يصيبها البلى، بل تبقى كأنها حية تماماً.
ويقول أساتذة المعهد الكيميائي بجامعة تورينو إن بيروتا قد استطاع حقاً أن يقف على سر التحنيط بهذا الاكتشاف؛ على أنه يبقى أن تثبت التجارب العلمية ما إذا كان هذا المحلول الذي اكتشفه العالم الإيطالي يكفي لحفظ الجثث آماداً طويلة، وهذه هي عقدة المسألة كلها. وقد كان بيروتا طالباً في معهد تورينو وتخرج فيه، ولكنه اضطر لفقره أن يلتحق بوظيفة صغيرة؛ إلا أنه شغف بالتجارب الكيميائية وأنشأ له معملاً صغيراً في منزله وأجرى فيه تجاربه؛ ولما وقفت الجامعة على جهوده سارعت لمعاونته ووضعت معملها الكبير تحت تصرفه حتى اهتدى بتجاربه العديدة إلى اكتشافه المذكور

انعقاد المؤتمر الطبي السنوي في بغداد

قررت الجمعية الطبية المصرية عقد مؤتمرها السنوي العاشر بمدينة بغداد في المدة بين 9 و 13 فبراير القادم
وسيتناول المؤتمر بحث الموضوعات الآتية:
جراحة الكبد والحويصلة الصفراوية - الملاريا - الكوليرا - موضوعات متنوعة جراحية وباطنية (من بينها الحمى المتموجة وحبة بغداد) - توحيد المصطلحات الطبية في اللغة العربية
وترجو الجمعية من حضرات الأطباء الراغبين في إلقاء بحوث عن هذه الموضوعات إحاطتها علماً بالموضوع الذي يختاره كل منهم مع ملخص بسيط عنه
أما قيمة الاشتراك في المؤتمر، فهي جنيه مصري يرسل باسم سكرتير الجمعية العام (بريد قصر العيني). وستعلن الجمعية قريباً عن البرنامج التفصيلي الشامل لحضور المؤتمر

أسبوع الكتاب الألماني

جرت عادة الجالية الألمانية في مصر أن تقيم في كل سنة معرضاً تطلق عليه (أسبوع الكتاب الألماني). وقد أقامته هذه السنة في القاعة الكبرى بالبيت الألماني في شارع الترعة البولاقية رقم 7 تحت رعاية وزير ألمانيا المفوض
ومن أهم ما عرض في هذه السنة ما كتبه الألمان عن مصر في مختلف الأزمان، إذ قدم المعهد الأثري الألماني للمعرض نخبة من المؤلفات القيمة في هذا الباب
وظل المعرض مفتوحاً يومي السبت والأحد وأقيمت في منتصف الساعة الثانية عشرة من صباح الأحد أمس حفلة موسيقية اختتم بها أسبوع الكتاب الألماني

القَصصُ

من أساطير الإغريق

خرافة جاسون - 3

للأستاذ دريني خشبة

- ولمه؟ ألست بن ملك مثلها؟ ألست صاحب عرش عظيم؟ أليس لي ملك تساليا بعد) أن أعود من رحلتي هذه؟
- بلى يا بني! ولكنها تخشى أباها أشد الخشية. أليس يرى فيك عدوه الأكبر لما تريد من استلابه الفروة الذهبية التي هي أكبر كنوزه؟
- دعي هذا الآن يا أماه، ولكن طمئنيني كان الله لك، هل تحبني ميديا حقاً؟
- ومن أنبأك هذا؟
- نبأَتْنِيه ربة من السماء لا تضل ولا تنسى!
- ربة؟ تقدس اسمها؟! من عساها تكون يا ترى؟
- هي جونو يا أعز الأمهات! لا أكذبك، إنها جونو!
- أتعرف ما تقول؟
- وهل يكذب بشر على آلهته؟

- إن كان ما تقول حقاً. فلا أذيع سراً أذاعته سيدة الأولمب، ومليكة جوف الكبير المتعال؛ أن ميديا يا بني مولعة بك ولوعاً شرد المنام من عينيها، وجعلها في أيام معدودات طيفاً لا يردد لسانه غير اسمك، ولا تذرف عيناه إلا من أجلك. . و. .
- ميديا تبكي؟ ومن أجلي؟ ولم تبكي؟
- تبكي لأنك كلفت بأمور لا تحملها الجبال! وأين أنت من عِجَلْي فلكان والأرض الجَبُوب التي لمارس؟ ومن أنت والجيش العرمرم من المردة من نبات أنياب التنين؟ ثم من أنت وما هذا كله في التنين الهائل الذي يحرس الفروة؟ حقاً لقد جازفت بنفسك حين وافقت الملك على خوض تلك المخاطرة. .
- وما الرأي إذن ولابد مما ليس منه بد؟
- الرأي أن تلقى ميديا فهي حبيبتك، وإن عندها، فضلا عن ذلك، أم كتاب السحر، ولن تبخل عليك بعلمها مهما كلفها ذلك من حَنَق أبيها، وإغضاب أربابها

لقد كان الليل يضرب على العالم بجرانه، وكانت النجوم تلتهب في فحمته كقلوب المحبين، والفرقدان يتقدان من هول الزيارة المضروبة بين العاشقة المُدَلّهة، والفتى المقاحم ذي الآمال

وأقبل جاسون فوجد العجوز تنتظره عند الباب الخلفي. . . وهمست إليه فسار في إثرها حتى كانا عند منعرج مُسَوّج بنبات ذي عساليج، يؤدي إلى رحبة واسعة ينتشر في أرجائها أرج الورود والرياحين، حتى ليوقظ القلوب النائمة، ويعطرها بفغمة الحب، ويسكرها برحيقه المختوم الذي كله لغو وتأثيم!

وهناك، كانت تنتظره ميديا بنفس غرثى، وقلب ظامئ خَفِق، فلما رأته غمرها إحساس ثائر، واستولت عليها عاطفة صارخة، لم تستطع معها إلا أن تلقي بنفسها على صدره القوي الرحب، تبلله بدموعها. . .

ووقف جاسون ساكناً هادئاً، كأنما كان يوجس خيفة من هذا الحب الذي أقبل فجأة يهاجمه ويَدّارأ عليه، ويدفع بعضه بعضاً من حوله. . . لقد كان قلبه بارداً كالثلج، وذراعاه جامدتين كالرخام. . . وكانت ميديا تبكي وتنثر اللؤلؤ من عينيها المرتجفتين، ولكنه لم يستطع أن يرد تحية واحدة من تحايا هذه الدموع. . . وكأنما كان يحس، حينما كانت الفتاة تلف ذراعيها حوله، أن حية رقطاء تتحوّى عليه، وتنفث سمها فيه. . . لماذا؟ لم تكن إلا الآلهة وحدها تدري!!

- جاسون. . . أحبك. . . أحبك من أعمق أغوار قلبي! لم أكن أعرفك قبل أن رأيتك. من الشرفة تكلم أبي، فلما رأيتك فنيت فيك. . .
- أشكرك يا عزيزتي. . . أشكرك شكراً لا أدري كيف أعبر عنه!
- جاسون! ألا تكون لي إلى الأبد؟
- أنا خادمك. . . بل عبدك إذا شئت!
- لم رَضيت لنفسك ما عرضه عليك أبي يا جاسون؟
- وماذا يخيفني يا ميديا؟ نحن الإغريق لا نرهب الردى، ولا نخاف الموت!
- هذا جميل. . . ولكن الموت أكره الأشياء وأقبحها لمثل هذا الشباب!
- قد أنتصر، والنصر، لاسيما في المخاطرات، أجمل تاج يتألق على جبين الشباب!
- هذا محال إذا لم أساعدك!
- تساعدينني؟
- أجل!
- وكيف؟
- عِدْني أولاً!
- وبماذا أعدك يا أعز الناس!
- أن تكون لي. . . أن نتزوج!
- أعدك!
- بل أعطني موثقك!
- أقسم لك!
- بل احلف بجونو؛ فهي حارستك! وأحلف بهياكاتيه!
- أ. . . أ. . . أحلف! أحلف بجونو! وبهياكاتيه!
- تحلف بجونو ماذا؟

- أحلف بجونو أن نتزوج!
- وأن يعيش كل منا للآخر إلى الأبد!
- إ. . . إ. . . إلى الأبد؟!
- إذن. . . لا ضير عليك. . . ستنجو من كل شيء يا جاسون. . . خُذْ!
- ماذا يا ميديا؟
- أسلحتك التي تقيك!
- أسلحتي!؟ هاتان عُلْبَتَان. . . وهذا حجر أسود صغير! أكل هذه أسلحتي؟ ماذا أصنع بها؟
- علبة من فضة إذا فتحتها اصّاعدت منها ريح تفل من حدة عِجْلَيْ فلكان، وتقي وجهك حر النار التي ينفثانها من منخريهما، فتستطيع أن تلجمهما، وتضع على عنقيهما النيّر حتى يكون المِقْوَم بيدك. . . أما الحجر الأسود الصغير فتقذفه وسط المحاربين الذين تنبتهم أرض مارس الجَبُوب، وإنه لحجر مُسَوَّم من سجيل، يجعلهم كعصف مأكول! وأما العلبة الصغيرة الذهبية فتنثر مما بها من طيب في وجه التنين فيسكر وتتخدر أعصابه وينام لساعته، ولك عندها أن تقضي عليه. . .
وسكتت ميديا. . .
ومدت فمها إلى جاسون، فطبع عليه قبلة فاترة خائفة ترتجف وترتعد، مما سمعت من سحر الحجر الأسود، وريح العلبة الفضية، وطيب العلبة الذهبية!!
وكان الجو العبوس القمطرير يزيد في منظر الحفل الحاشد روعةً ورهبة؛ وكان الملك الجبار يملأ بجسمه الضخم عرشه الممرد فوق الأكمة المشرفة على الأرض الجبوب المقدسة باسم مارس، وكان الناس الذين أقبلوا من كل فج مُشَاةً وعلى كل ضامر يجلسون على الشعاف وأَحْيَاد الجبال المطلة على الميدان متزاحمين متدافعين كأنهم في يوم حشر. . . وكان إخوان جاسون يجلسون عصبة بينهم وفي قلوبهم حسرات على صاحبهم، وألسنتهم ما تفتر عن الدعاء له، والتوسل إلى الآلهة من أجله. . .
وكانت ميديا العتيدة تجلس في ركن من مقصورة الملك تشعوذ وتُعَوّذ وتطلق الرُّقى. . .
ثم دق الناقوس الكبير فصمت الناس وشملهم سكون عجيب. . وانفتح باب الزّرب فبرز عجلا فلكان ثم جعلا يعصفان ويتلبطان وينفثان من منخريهما شرراً ودخاناً يختلط بهما لهب أزرق ما مسَّ شيئاً في الميدان إلا حرقه. . . حتى العشب الرطب المندّى بَلْه الهشيم اليابس. . .،. . . وبرز جاسون من مكمنه، فانحبست أنفاس الناس، وسكنت الريح، وأشرفت الآلهة من نوافذ السماء تنظر إلى هذا اللقاء العظيم. . . وأهطع أصحاب البطل وطارت ألوان وجوههم، وتحسس كل منهم فؤاده. . . ولكن جاسون الهائل خطر شطر العجلين غير هياب؛ وعليه دروعه، وفي يده سيفه؛ فلما كان قاب قوس منهما جعل يتلطف بهما، ثم فتح العلبة الفضية فصعدت منها ريح هدّأت ثورتهما وأسلست قيادهما فأسرع إلى النير فوضعه على عنقيهما وشد وثاقه، ثم ربط إليه المحراث وبدأ عمله الشاق. . . وكانت الريح السحرية قد بطل عملها أو كاد فعاد العجلان إلى سابق دأبهما من التوحش والقماص والشبوب وعاد منخراهما يقذفان دخاناً أبيض وشواظاً. . . بيد أن جاسون سيطر عليهما حتى أتم حرث الأرض كلها، ثم قادهما إلى زَرْبها وأطلقهما، وغلق عليهما، وقصد ناحية الملك يسأله أنياب التنين ليزرعها. . . فدفعها الحراس إليه وطفق يغرسها في الأرض الرحبة حتى إذا فرغ من عمله، نظر فإذا رؤوس مقنعة في خوذات من حديد تنبت من الأرض، ثم تنمو فتبرز الرقاب، ثم تظهر الصدور وعليها الدروع السابغات، ثم تشقق الأرض وتكون الجذوع كلها من فوقها، وتخلص الأذرع وفي أكفها السيوف المرهفة تلاعب الهواء. . ثم ترتفع الأفخاذ وعليها كل لأمة دلاص، ثم يقف أمام جاسون جيش عرمرم من هذه الشياطين المسلحة ترغى وتزبد وتزأر، ثم ينقض عليه الجيش بأكمله وقد شرع كل جندي حسامه، فيتلقاهم البطل بأحسن ما علمه شيرون أستاذه العظيم في قوة في كر، وحزم في فر، وحذق في تحرُّفٍ لقتال، ورسم لخطط للنضال. . .
وكان الملك ينظر إلى كل ذلك ويتعجب، وكان الشعب يفغر أفواهه من دهش وذهول. . . وكانت ميديا - برغم ما سلحت به جاسون من سحر - تمسك قلبها الخفاق

بيدين مرتجفتين. . . أما رفاق جاسون، فوا رحمتاه لهم!! لقد كانوا يرون الأبالسة يحدقون به من كل صوب، ويزلزلون الأرض تحت قدميه، فتزيغ أبصارهم وتقلب قلوبهم، وتتثلج مشاعرهم، وينظر بعضهم إلى بعض، لا يملكون لهذه الحال ردّاً ولا دفعاً وظل جاسون يناضل ويناضل، وكلما قتل عشرة وقفت مائة مكانها، وكلما جندل مائة بُدلت بألف؛ فانقذف شيء من الرعب في قلبه، وسرى إلى نفسه دبيب من اليأس كاد يقتله، لولا أن أقبلت جونو تكلمه في نسمة روحت عن قلبه، وتذكره بالحجر الصغير الأسود. . . ولكن الحجر الصغير الأسود كان في جيب صداره، فأنى له به ولو غفل لحظة عن الدفاع عن نفسه لباء بقتلة شنيعة يقطر سمها من ألف ألف سيف!!

وجعل المسكين يحاول مرة بعد مرة أن يخرج الحجر الصغير الأسود. . . ولكن محاولاته كلها ذهبت سدى. . . وكان قد بلغ منه الجهد، وتولاه الإعياء والضنى. . . فلهج لسانه فجأة باسم جونو. . . فأسرعت سيدة الأولمب لنجدته، وأخرجت الحجر الأسود من جيبه، ووضعته في يده، فقذفه جاسون وسط جيش الأعداء المحدقين، فما هي إلا طرفة عين حتى تفرقوا من حوله، ثم تصرّعوا غير مأجورين. . . وماتوا جميعاً وأهرع أصحاب جاسون إليه، وطفقوا يحيونه ويهنئونه، ويذرفون حوله دموع الفرح لما كشف عنه من غُمة هذا البلاء ثم حملوه وهم يهتفون باسمه أحر الهتاف، وأهرعت الجموع الزاخرة في آثارهم نحو البحر، وهي تفتأ تردد صيحات الإغريق، حتى خاف الملك على عرشه أن يثله شعبه، وأن يجلس عليه جاسون. . لذلك اربد وجهه، وانتشرت عليه سحابة من الكآبة والهم تملأ أساريره

وبلغ الإغريق سفينتهم فشكروا للكولخيين جميل ما حيوا به بطلهم. . . ثم خَلَوْا بعد ذلك إلى جاسون فنضوا عنه ثيابه، وضمخوه بالطيوب والعطور، ثم هيأوا له طعاماً وشراباً، من أفخر ما يقتنون. . وفي الليل أسر إليهم بسره، وانطلق ليلقي ميديا ولقيته ابنة الملك بابتسامة لم يجزها عليها بمثلها. . . ثم تركها وقتاً غير قليل تغمره بُقُبَلها وتنضح يديه وخديه وجبينه بدموعها وتعبر له عما كان يقيمها ويقعدها حينما انبرى لِعجليْ فلكان، وحين أحدق به أبالسة التنين يقاتلونه ويتكاثرون عليه، وهو صابر لهم، صامد لجموعهم، حتى قذف الحجر فانقذفت في قلوبهم المنايا

- أرأيت إذن يا حبيبي ما صنع الحجر الأسود من السحر أيقدر على مثل ذلك غير من أوتي من العلم ما أوتيت؟

- كلا!

- ما لك لا تتكلم يا جاسون؟

- الفروة الذهبية! أريد أن أفرغ من هذا الهم الطويل؟!

- الفروة الذهبية لك من غير ما ريب، فلا تبتئس! قبّلْني!

وطبع على ثغرها قبلة مَيّتَةً كانت ترتجف من شياطين السحر التي ترقص دائماً في فم ميديا. . . وانطلقا إلى الجانب القصي من الغابة المجاورة، حيث كان التنين الهائل يحرس الفروة المعلقة على شجرة السنديان، وهناك، فتح جاسون العلبة الذهبية ثم اقترب من التنين في غفلة منه، وقذف في وجهه بما كان فيها من قطرات السحر. . . فترنح الوحش المخيف الرائع؛ واستل جاسون جُرَازه، وأغمده في صدر الأفعوان الكريه، فخر يتلبط في دم غزير. . . وانقض الفتى على الفروة الثمينة التي ترجح ألف كنز فانتزعها من الشجرة. . . وعادا عجليْن إلى القصر الملكي الرهيب، حيث كانت وصيفاتها في انتظارها، وقد جمعن كل ما استطعن حمله من أذخار القصر، كما رسمت لهن ميديا من قبل وحين أوشك الجميع أن يغذوا السير إلى الآرجو. . . إذا بالفتى أبْسِرْتوس، أخو ميديا غير الشقيق، وولي عهد الملك، يقبل لبعض شأنه، فتغريه أخته بالسفر معها في رحلة جميلة إلى أبدع بلدان العالم. . . تساليا. . . ويرضى ولي العهد. . . وينطلق الجميع إلى المرفأ حيث رست الآرجو، فيركبون فيها، وتقلع بهم في موج كالجبال

في العدد المقبل (خاتمة ميديا)

دريني خشبة

العدد 229 - بتاريخ: 22 - 11 - 1937

ثورة على الأخلاق!

هل الصلاح غير النجاح؟

- ما رأيتك يا محمود على هذه الحال منذ عرفتك! أين السماحة التي تفترُّ في ثغرك، والغبطة التي تشرق في صدرك، والرضا الذي كان يجعل من حياتك نموذجاً لعلماء الدين وجهابذة العلم وفلاسفة الخلق؟

- ماذا أصنع يا صديقي والناس أصبحوا يشككونني في مزايا الأخلاق وقِيَم الفضائل؟ كنت أضطرب في دائرة ضيقة من العيش فيها كل ما في الدنيا الواسعة من لذة الروح بالأهل، وسرور القلب بالإخوان، ومتاع العقل بالكتب، ونشاط الجسم بالعمل؛ وليس فيها البُحران الذي يحدث من حمَّى الهموم، ولا الجحيم الذي يشبُّ من تحاسد الخصوم، ولا اللجب الذي ينشأ من تنافس المجتمع؛ وكنت وأنا في هذا العالم الصغير المحدود أعتقد أن القواعد التي سنها الأخلاقيون لتهذيب الإنسان من الخلال المضادة لغريزته، قد استطاعت على مر القرون أن تخفت في دمه صوت الحيوان، وأن تلائم بين موهوب الطبع وبين مكسوب العادة من تناقض الرأي وتعارض الهوى، وأن تجعل من سلطانها الغالب دستوراً لحياة الناس، فيكون بها مقياس السؤدد، وفيها سبب الرقي، ومنها وسيلة النجاح. نعم يا صديقي كنت أعتقد ذلك وأستبعد أن يكون للمدنية معنى غير الثقافة، وللثقافة مدلول غير الكفاية، وللكفاية نتيجة غير الفوز، حتى ألجأتني طبيعة عملي العامِّ إلى توسيع هذه الدائرة، فوسعتها بمقدار ما استلزمه هذا العمل من ملابسة الشعب ومراجعة الحكومة، فإذا كل ما قرأته زور، وما تخيلته وهم، وما اعتقدته باطل. ماشيت العامة على منهج الدين فلقيت الكفر، وعاملت الخاصة على هوى الخلق فوجدت النفور، وعالجت الأمور على مقتضى القانون فأدركت الخيبة؛ فذهبت أفتش في الناس عن أسباب الفوز فلم أجد من بينها سبباً يمت إلى الفضيلة أو يتصل بالكفاية. هذا الباشا فلان يملك القرى بإنسانها وحيوانها وأطيانها، وله المقعد المرفوع في البرلمان، والصوت المسموع في الحكومة، والأمر النافذ في البنوك، وهو رجل لا يزال على الفطرة الأولى من الوحشية والعنجهية والجهالة. وهذا البك فلان تشغل عمائره الخلاء والهواء من المدينة، وله على أغلب الأسر دَين، وعلى أكثر البيوت اختصاص؛ ولو سألت جيرانه الأولين عن مصدر هذا الثراء الضخم لأجابوك بلهجة المحنَق الموتور بأنه الربا الذي لا يحفل القانون، والغش الذي لا يبالي الفضيحة، والاختلاس الذي لا يخشى الله، والبخل الذي لا يذكر الموت. وهذا الموظف فلان يملك القصر المنيف في أجمل بقعة، والسيارة الفخمة من أعلى طراز، والمرتب الضخم من أول درجة، وله الوصل والقطع في أمور الناس، والمنح والمنع في أموال الدولة. فهل بلغ ما بلغ بعلمه؟ إنه لا يحمل غير الشهادة الثانوية. هل نال ما نال بكفايته؟ إنه لا يحسن غير الإمضاء في الموضع الذي يضع عليه الكاتب الصغير إصبعه من الورقة. إذن لم يدرك الرجل ما أدرك إلا بفضل المرونة التي تكون فيمن خلقوا من المطاط لا من الطين، فرأسه ذو وجهين، ولسانه ذو شقين، وضميره ذو بالين، وشرفه ذو رأيين؛ يداري ويجاري، وينافق ويمالق، ويهان فيغضي، ويستباح فيبيح؛ وهو متفرق الأحاسيس فلا تجتمع له عاطفة، متنافر المنازع فلا ينسجم له رأي، معوج المسالك فلا يستقيم له مذهب

وهذا الأستاذ فلان يأكل في صحاف الذهب والفضة كالنابغة، ويخطر في مطارف النعيم والجاه كابن العميد، ويملك للناس الضر والنفع كابن عبد الملك! فلعله أصاب ما أصاب من وراء علمه وخلقه. ليت ذلك كان فتشذ القاعدة ويخطئ القياس، ولكن الأستاذ نجح وا أسفاه لأنه باع العلم بالسياسة، واشترى الدنيا بالدين، واضطرب في مهب الأعاصير حتى رفعه أحدها على متْنه، ثم استقر على المنحدر الشاهق استقرار الريشة القلقة!

ثم رجعتْ أبحث عن أسباب الفشل فوجدتها لا تخرج عن حدود الفضائل التي تعشقها ابن آدم منذ أدرك! فالعلم والصدق والصراحة والشجاعة والقناعة والأمانة والنزاهة والأنفة والحلم والتواضع والجود، كل أولئك عوائق عن درْك الغنى ونيل الجاه وكسب الشهرة. وأقوى البراهين على إقناعك أن تستقريَ أحوال المصابين بهذه الخلال فهل تجدهم إلا أواخر الموظفين في الديوان، وأخسر المتعاملين في السوق، وأضعف المتنافسين في المجتمع؟

لقد تدبرت الأمر فوجدت الفضائل لا تنتصر إلا في الروايات والقصص؛ أما التاريخ الذي

يسجل الواقع ويروي الحق فهو دامي الصفحات بأخبار الأنبياء والعلماء والفضلاء والمصلحين الذين أوذوا في سبيل الدين، وقتلوا في خدمة العلم، ونكبوا في مرضاة الحق، وشقوا في حب الفضيلة. فهل تقول بعد ذلك إن الأخلاق الفاضلة لا تزال عدة النجاح
وطريق السعادة؟
فقلت له: أما أنها طريق السعادة فنَعامِ ونَعَم. وأما أنها عدة النجاح فلا أجد في نفسي الآن قوة على تأييده؛ لأن لي في بعض المصالح مسألة لم يفسدها إلا رعايتي للخُلق، وفي بعض الوزارات مسألة أخرى لم يعقدها إلا محافظتي على القانون. فليس لك عليّ إلا أن أعرض رأيك على رجال الدين وحماة القانون ودعاة الأخلاق، ليردوا عليك ما كذب من قولك، أو يردوا إليك ما عزب من عقلك.

أحمد حسَن الزيات

بين القاهرة واستنبول

للدكتور عبد الوهاب عزام

1 - دمشق

يا صديقي صاحب الرسالة

أحسبك رأيت من قبلُ دمشق فآنقك مرآها، ونفحتك ريّاها، وآنستك ذكراها، ودارت بك منازهها وطرقها بين الماضي المجيد، والحاضر المجهود، والمستقبل المنشود. ولعلك أشرفت من قاسيون على البلد الجميل تحيط به الحدائق الشجراء متصلة بين المُزة والغوطة فسرحت الطرف والقلب في مرأى جميل ومنظر بهيج. ولا ريب رأيت بَرَدَى يتبطن الوادي، ويتسنم الجبل، وينسرب في شرايين المدينة فيسري في دورها ومساجدها وحماماتها وشوارعها، وتسمع أحياناً خريره في جوف قناة أو جدار لا تتبين مأتاه ومذهبه. ومن قبلُ قال ياقوت:

(فقلّ أن تمرّ بحائط إلا والماء يخرج منه في أنبوب إلى حوض يشرب منه، ويستقي الوارد والصادر. وما رأيت بها مسجداً ولا مدرسة ولا خانقاها إلا والماء يجري في بركة في صحن هذا المكان، ويسحّ في ميضته)

وأحسبك يا أخي مررت بمعاهدها فأحسست وقدة بين الضلوع، أو طرحت كما يقول البحتري ثقلا من الدموع

أدخلت إلى الجامع الأموي من باب جيرون ورأيت في الطريق المفضية إلى الباب صفا من العمد العادية، وتمثلت القرون تنسخ القرون، والعصور تحطم العصور، وولجت الباب العظيم إلى الصحن الفسيح فالتفت إلى شمالك فرأيت صور الدور والأشجار والأنهار مصورة بالفسيفساء منذ عهد الوليد. ثم ملت إلى اليمين فدخلت الجامع تروعك العمد العالية الضخمة تمتد في صفوف مديدة، ورأيت أمام القبلة قبة النسر الشامخة تزهى بما أشرفت على التوحيد في محرابه، وأظلت الحق في جماله وجلاله وما أحسبك رقيت في المنارة الشرقية، وشهدت في مرتقاك حجرة يقال إن الغزالي كان يعتكف فيها، ثم بلغت القمة بعد جهد فجمعت أمامك المدينة، وزويت الأرض كأنك تطالع منها صورة في رقعة فقلت:

صعدت في قمة التاريخ مأذنة ... لها من الحق والتاريخ أحجار

فإذا تركت الجامع الكبير فهناك مشاهد أخرى عظيمة، وذكريات جليلة

- هل مررت بالرجل الصالح نور الدين محمود ثم البطل المجاهد صلاح الدين يوسف؟

هل وقفت على ابن أيوب فقلت:

فيا لك قبراً على قربه ... تظل العقول به في سفر

ويالك قبراً كعين البصي ... ر يحوي العوالم منها صِغر

وهناك المدرسة العادلية وبها المجمع العلمي اليوم، والمدرسة الظاهرية حيث ضريح الملك الظاهر بيبرس وبها دار الكتب، ودار الحديث الأشرفية وكان من نزّالها العالم التقي الذي لم تأخذه في الحق رغبة ولا رهبة محيي الدين النواوي. ولا تزال حجرته بها معروفة. ويقول بعض المحدثين ولعله ابن حجر:

وفي دار الحديث لطيف معنى ... أطوفّ حول مغناه وآوي

لعلي أن أصيب بحُرّ وجهي ... مكاناً مسّه قدم النواوي

وهل صعَّدت في الصالحية إلى ضريح محيي الدين بن عربي أم نفرت من هذا الشيخ

الغريب واللغز العجيب؟ على أن بجانبه بطلاً من أبطال الجهاد وسيفاً من سيوف الجلاد: الأمير عبد القادر الجزائري. وإن أردت مزار الرجل العالم الصالح الصوفي الشاعر ذي المناقب الحميدة وصاحب التأليفات الكثيرة الشيخ عبد الغني النابلسي فليس بعيداً من ضريح محيي الدين تسلك إليه طريقاً مقفرة بها مدارس دارسة، منها المدرسة القمرية

فإذا صعدت في الصالحية فهناك من الآثار ما يشق تعداده: مدارس ومساجد ومستشفيات، وهناك جامع الحنابلة الذي قرأ به الذهبي وابن قدامة وغيرهما من كبار العلماء، والمدرسة الضيائية وكانت تحفظ بها خطوط كبار المحدثين وهي اليوم كتّاب، حتى ينتهي الصعود إلى مقبرة الصالحية حيث قبر محمد بن مالك النحوي في قبور كثيرة للعلماء والكبراء

وفي أطراف المدينة مشاهد كثيرة للصحابة فمن بعدهم. ولا تنس وقفة على قبر بلال في مقبرة الباب الصغير لترى الأذان مضمراً في كتابه، وتسمع الصوت مكنوناً في نايه، بل تسمعه جهيراً مدوّياً يملأ الفضاء، ويبلغ عنان السماء (كالخط يملأ مسمعي من أبصرا) أو كإشارات الموسيقى خطوط في البصر، ونغمات في الأذن، ووجْد في القلب. وهل الأذان

في المشرق والمغرب إلا صوت بلال مردداً قد بقي في القبة الزرقاء صدى توالت رُواته واتصلت نغماته؟

وهل جُلْتَ في الغوطة تحنو عليك أشجارها، وتترقرق عليك ظلالها، وتطالعك من بين الغصون شمسها، وتتمادى بك مسالكها بين الزروع والأشجار:

سقى الله أرض الغوطتين وأهلها ... فلي بجنوب الغوطتين شجون

وهناك ضريح سعد بن عبادة قد اعتزل الناس في مماته، كما اعتزلهم في آخر حياته:

وهل سرت إلى دوما ومررت بجَوبَر فذكرت قول القائل:

إذا افتخر القيسي فاذكر بلاءه ... بزرّاعة الضحاك شرقي جوبرا

أو قول الأمير شكيب أرسلان في الصديق الأديب الشاعر خليل مردم بك:

(وإليه تجبى جوبر وكنيسها)

يا أخي وكيف تجيش الفِكَر وتنبع الذِكَر حين يقترب المسافر من المدينة الخالدة فيلقى نضارتها ويجد رَوحها عند الهامة. فإذا أجاز إلى دُمّر فهناك بَرَدى عن اليمين والشمال متدفقاً في ظلال الأشجار - أشجار الحور الباسقات - ولله مجلس على بردى تذوب في مائه النظرات، وتتساقط عليه من الحور نغمات. فإذا بلغت الشاذروان فَغَمَك عَرف دمشق، وشممت أخلاطاً من الروائح الطيبة أمدّت بها الأشجار والأعشاب، روائح يعجز عنها الوصف إلا أن يسميها (نفحات دمشق). وهل جلست بالربوة فسمعت المعجبين بها يقولون: إنها الربوة التي ذكرها القرآن الكريم في قوله: (وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين) هناك بَردَى سبعة أنهر تجري في الوادي وعلى الصدفَين وفوق الجبل. ويخر من نهر يزيد - وهو فوق الجبل لا يرى - شلال على الربوة لا يمل الشاهد مرآه ومسمعه

أما أنا يا أخي فلست أملّ التردّد بين دمشق ودّمر أجد هناك جمالاً لا يحد، وسحراً لا ينفد. وقد رُدت هذه المشاهد مرات، ورأيت لها في القمراء آيات؛ يتمعّج بنا الوادي بين الجبال والأشجار، ومياه بردى تسيل بها ربوة أو يوسوس بها ثعب، أو يتغنى بها بستان، فلا تفتأ تسمع منه حديثاً يؤلّف مع حفيف الريح موسيقى هذا الجمال الفتان، والوادي يدور بنا دوراته، والقمر يلاعبنا بطلعاته، عن اليمين والشمال وأمام وخلف. وللقلب بين ذلك مضطرَب، وللشعر مذهب أيّ مذهب. كان يخيل إليّ أن هذه المياه الثرثارة حُزَم من

الأشعة، وأن أشعة القمر رشاش من بردى، وأن هذا النسيم المعطر مزيج من الماء والضياء ينضح وجوه السابلة: شعر تفيض به الأرض والسماء، وسحر ينفثه الماء والهواء، وإلهام يفيض به الجنان، ويعجز عنه البيان

يا صديقي قد صدق البحتري إذ قال:

إذا أردت ملأت العين من بلد ... مستحسن وزمان يشبه البلدا

يُمسي السحاب على أجبالها فِرقاً ... ويُصبح النبت في صحرائها بددا

فلست تبصر إلا واكفاً خضلا ... أو يانعاً خِضراً أو طائراً غرِدا

دمشق 22 تموز 1937
عبد الوهاب عزام
على ذكر الموسوعة الإيطالية
قصة الموسوعة الجامعة
وكيف عرفتها الآداب العربية في العصور الوسطى
للأستاذ محمد عبد الله عنان

سجل العلم الحديث فتحاً جديداً خطير الشأن بصدور الموسوعة الإيطالية (دائرة المعارف) التي بدأ صدورها منذ أعوام ثلاثة فقط، وصدر المجلد الأخير منها (وهو المجلد السادس والثلاثون) منذ أسابيع قلائل. وإذا كنا ممن لا يؤمنون بمزايا النظام الفاشستي، فإنه لا يسعنا إلا أن نحيي ذلك المجهود العظيم الذي حققه العلم الإيطالي في تلك الفترة الوجيزة، والذي يعتبر بحق مفخرة للعهد الفاشستي، خصوصاً وأن الموسوعة الجديدة جاءت حسبما يقرر النقدة مجهوداً علمياً خالصاً بعيداً عن شوائب الدعاية والأهواء

ولهذه الموسوعات العظيمة التي تحشد فيها سائر العلوم والفنون والآداب تاريخ حافل يرجع إلى أقدم العصور؛ وإذا كانت تغدو اليوم مورداً سهلا لكل طالب وقارئ بما انتهت إليه من سهولة في الترتيب والتصنيف، فإنها لم تصل إلى نظامها الحالي إلا بعد أن تقلبت في أطوار عديدة، واشترك في تنظيمها كثير من الأذهان في مختلف العصور والأمم؛ وكان لتفكيرنا العربي، حسبما نرى، نصيب يذكر في هذا الميدان

وأصل الكلمة أي كلمة (انسيكلوبيديا) التي تطلق اليوم في جميع اللغات الحية على جميع الموسوعات العلمية والأدبية يوناني، وأصل الفكرة ذاتها يوناني أيضاً؛ وكانت تعني في اليونانية القديمة مجموعة المعارف التي يجب أن يتزود بها الفتى لاستقبال الحياة العملية؛ ثم استعملها الرومان وأضحت بمضي الزمن تطلق على جميع العلوم مجتمعة في سفر واحد. وأقدم مجموعة من هذا النوع انتهت إلينا هو مؤلف بلني الكبير في التاريخ الطبيعي الذي يرجع إلى القرن الأول من الميلاد، وهو مؤلف شامل يتناول كل ما كان معروفاً في ذلك العصر من الطب والجغرافيا والتاريخ الطبيعي وغيرها من الفنون

ووضعت خلال العصور الوسطى باللاتينية عدة مصنفات شاملة من هذا النوع، وكان واضعوها بالأخص جماعة من رجال الدين الذين توفروا في تلك العصور على جمع أشتات العلوم والفنون، بيد أن هذه المصنفات القديمة كان ينقصها روح التناسق والترتيب العلمي، ولم تظهر فكرة الموسوعة (الانسيكلوبيديا) بمعناها الحديث إلا منذ القرن السادس عشر. ولم تظهر طلائع الموسوعات الحديثة بترتيبها الفني أو الأبجدي إلا في القرن السابع عشر كما سنرى

وهنا، وقبل أن نمضي في استعراض تاريخ الموسوعة الحديثة يجدر بنا أن نشير إلى الدور الذي أداه التفكير العربي في هذا الميدان؛ فقد عرفت الآداب العربية فكرة الموسوعة بمعناها الشامل، وحققت في هذا الباب جهوداً خليقة بالإعجاب والتقدير. ومنذ القرن الثالث الهجري يبدو أثر هذا الميل إلى التصنيف الشامل واضحاً في كثير من الآثار العربية، ونستطيع أن نلمس هذا الأثر واضحاً كثير من الآثار العربية، ونستطيع أن نلمس هذا الأثر في كتب مثل عيون الأخبار لابن قتيبة، والعقد الفريد لابن عبد ربه، والأغاني لأبي الفرج، وهي مصنفات يطبعها طابع الموسوعة فيما تتناول من مختلف الموضوعات والأخبار. كذلك نجد روح الموسوعة ظاهراً في كثير من المصنفات التاريخية العربية؛ فكتاب الكامل لابن الأثير مثلا يعتبر بحق موسوعة تاريخية شاملة تجمع بين مزايا التعميم والترتيب المدهش، وكتاب الوفيات لابن خلكان بلا ريب من أقيم موسوعات التراجم. ومما يلاحظ أن الموسوعة الأوربية الحديثة بدأت كما سنرى بهذا النوع من المصنفات والمعاجم التاريخية الشاملة

على أن الآداب العربية عرفت في مصر نوعاً أتم من الموسوعة الكبيرة الشاملة؛ ونستطيع أن نقول إن القرن الرابع عشر في مصر كان عصر الموسوعات؛ ففيه أخرج شهاب الدين النويري المتوفى سنة 733هـ (1333م) موسوعته الضخمة (نهاية الأرب في فنون الأدب)، وأخرج ابن فضل الله العمري المتوفى سنة 749هـ (1348م) موسوعته الجغرافية والتاريخية العظيمة (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار)؛ وفي

أواخر هذا القرن وضع القلقشندي المتوفى سنة 821هـ (1418م) موسوعته السياسية والإدارية الضخمة (صبح الأعشى)، وفي هذه الآثار النفيسة الشاملة نرى طابع الموسوعة وروحها بارزين لا من حيث الضخامة وسعة الأفق فقط، بل ومن الناحية العلمية والفنية أيضاً؛ فكتاب نهاية الأرب الذي يشغل نحو أربعين مجلداً ضخما هو موسوعة تاريخية وجغرافية وأدبية
وعلمية وفنية، يأخذ في كل من هذه النواحي بنصيب وافر؛ وكتاب (مسالك الأبصار) الذي يبلغ نحو عشرين مجلداً، هو موسوعة جغرافية وتاريخية حقة، لا يقل من الناحية العلمية والفنية عن كثير من الموسوعات الأوربية المماثلة التي صدرت في القرن السابع عشر؛ وكتاب (صبح الأعشى) الذي أصدرته دار الكتب المصرية في أربعة عشر مجلداً ضخما، هو موسوعة فذة في نوعها وقيمتها فهو (دار محفوظات) بأسرها جمعت فيه معلومات ووثائق إنشائية وإدارية وسياسية عن الدول المصرية لم تجتمع في أي مؤلف آخر
هذه الآثار العربية التي نذكرها على سبيل التمثيل لا على سبيل الحصر، تدل دلالة واضحة على أن فكرة التصنيف الجامع أو بعبارة أخرى فكرة الموسوعة الشاملة، عرفت في الآداب العربية وبلغت فيها شأناً يذكر؛ بيد أن هذه المحاولة العلمية الجليلة وقفت مع الأسف في منتصف الطريق وحالت دون تقدمها عصور محزنة من الركود والانحلال توالت على التفكير العربي
ونعود الآن إلى الموسوعة الأوربية، فنقول إن طلائع الموسوعات الحديثة ظهرت منذ القرن السابع عشر، وكان ظهورها بالأخص في فرنسا، حيث صدر في سنة 1674 معجم موريري التاريخي المسمى (القاموس التاريخي الكبير) مرتباً ترتيباً أبجدياً؛ وصدرت في سنة 1697 موسوعة بايل التاريخية المسماة (القاموس التاريخي النقدي) مرتباً على الحروف أيضاً؛ وظهرت أيضاً في أواخر هذا القرن موسوعة دربلو الشرقية المسماة (المكتبة الشرقية)؛ ثم تطور نظام الموسوعة بسرعة، فاتجهت إلى التوسع والترتيب الفني والأبجدي، وأخذت تغدو شيئاً فشيئاً مرجعاً شاملا لأشتات العلوم والفنون، وتشعبت مناحيها شيئاً فشيئاً حتى غدت مشروعاً علمياً جامعاً، بعد أن كانت مجهوداً فردياً فقط، وساهمت في إخراجها جميع الآداب الحية بأوفر نصيب
ففي إنكلترا بدأت الموسوعة الحديثة بقاموس وضعه القس جون هاريس في أوائل القرن الثامن عشر عن العلوم والفنون ثم تبعه تشامبرز بموسوعته ويعتبر تشامبرز أبا الموسوعة الإنكليزية. وفي سنة 1768، وضع ثلاثة من أهل ادنبورج، وهم وليم سميلي الطابع، واندروبل المصور الحفار، وكولن مكفر كوهار، وهو صاحب مطبعة، مشروعاً لإصدار موسوعة جامعة للعلوم والفنون والآداب، ظهرت في ثلاثة مجلدات في سنة 1771؛ وكانت هذه الموسوعة المتواضعة هي الطبعة الأولى من الموسوعة البريطانية التي هي اليوم أمثل وأنفس الموسوعات الحديثة. وظهرت الطبعة الثانية بين سنتي 1777 و 1784 في عشرة مجلدات؛ وتوالى صدور طبعاتها الجديدة حتى صدر منها إلى اليوم خمس عشرة طبعة متدرجة في الضخامة والإتقان؛ وصدرت طبعتها الأخيرة والخامسة عشرة في سنة 1934، في اثنين وثلاثين مجلداً ضخما غير الفهارس والأطالس؛ والرأي مجتمع على أن الموسوعة البريطانية هي خير موسوعة في العالم من حيث مادتها ونظامها وروحها العلمي الخالص
وفي فرنسا، بعد أن ظهرت المعاجم والموسوعات التاريخية التي أشرنا إليها، وضع المفكر الفيلسوف ديدرو وعدة من زملائه الأعلام مثل دالامبر وهولباك وجريم موسوعتهم الشهيرة التي ظهرت بين سنتي 1751 و 1772 في ثمانية وعشرين مجلداً على نمط موسوعة تشامبرز الإنكليزية؛ وكانت هذه الموسوعة التي امتازت بنزعتها الفلسفية المجددة، وبالثورة على القديم في كل شيء فتحاً عظيماً في التفكير الفرنسي، وكان لها أكبر الأثر في توجيه الذهن الفرنسي إلى الأفكار والمبادئ الجديدة التي سادت عصر الثورة الفرنسية فيما بعد. وظهرت في القرن التاسع عشر موسوعات لاروس الشهيرة، ومنها القاموس الكبير الذي يعتبر فوق مزاياه اللغوية دائرة معارف شاسعة، وظهرت منها إلى يومنا عدة طبعات مختلفة؛ وفي أواخر القرن الماضي صدرت الموسوعة الفرنسية الكبرى بين سنتي 1886، 1903 في إحدى وثلاثين مجلداً، بيد أنها بقيت على طبعتها الأولى حتى اليوم، وتخلفت بذلك عن مضمار

التجديد والاستكمال
وظهرت في القرن التاسع عشر عدة موسوعات عظيمة أخرى فظهرت الموسوعة الإيطالية لأول مرة بين سنتي 1841 و 1851 في أربعة عشر مجلداً، ثم ظهرت في أواخر القرن الماضي في خمسة وعشرين مجلداً، وظهرت أخيراً بعناية الحكومة الفاشستية في ستة وثلاثين مجلداً، صدر الأخير منذ أسابيع قلائل حسبما قدمنا فجاءت بذلك أحدث الموسوعات الأوربية وأتمها من الوجهة الفنية. وصدرت الموسوعة الألمانية في مائة وسبعة وستين مجلداً تحت عنوان (الموسوعة العامة للعلوم والفنون)، وبدأها الأستاذان أرش وجروبر سنة 1813 واستمر صدورها طوال القرن التاسع عشر ولم تكمل إلا في
سنة 1905، ولم يعد طبعها إلى اليوم. وصدرت الموسوعة الروسية حتى سنة 1905 في واحد وأربعين مجلداً، وظهرت طبعتها الثانية في ظل الحكم السوفيتي
ويوجد غير هذه الموسوعات العامة الجامعة موسوعات أخرى في نواح معينة من العلوم أو الفنون، مثل الموسوعة اليهودية موسوعة الدين والأخلاق موسوعة العلوم المتافيزيقية، وغيرها؛ ولهذه الموسوعات قيمة علمية خاصة لأنها تجمع أشتات العلم أو الفن الواحد ومراجعه كلها مرتبة أبدع ترتيب
هذه خلاصة لتاريخ الموسوعة الجامعة (الانسيكلوبيديا) وتطوراتها، نسوقها لمناسبة صدور المجلد الأخير من الموسوعة الإيطالية الجديدة؛ بيد أننا ننتهز فرصة هذه المناسبة لنلفت الأنظار إلى أمنية قديمة كثيراً ما رددتها دوائر الأدب العربي في الأعوام الأخيرة، وهي أن تعمل دوائرنا العلمية والأدبية المسؤولة لإخراج موسوعة عربية جامعة على طراز الموسوعات الحديثة؛ وقد بذلت في العصر الأخير جهود فردية في سوريا وفي مصر لإخراج موسوعة عربية، ولكن هذه الجهود لم تكن ذات قيمة علمية أو أدبية تذكر، خصوصاً وأنها بذلت في وقت لم تكن الآداب العربية قد بلغت فيه من النضج والكفاية الفنية ما تبلغه اليوم. ولم تبق الموسوعة اليوم عملا فردياً كما كانت في الماضي، ولكنها اليوم تنتظم في سلك المشاريع العلمية الجليلة التي تشرف على تنفيذها الدولة أو الهيئات العلمية القوية. ولدينا اليوم في مصر، فضلاً عن وزارة المعارف العمومية، عدة من الهيئات العلمية القوية الرسمية وغير الرسمية؛ ففي وسعها جميعاً أن تتعاون في بحث مشروع الموسوعة العربية، وفي العمل على تنظيمه وإخراجه. ومن المحقق أن مثل هذا المشروع الجليل يلقى من التأييد والنجاح في مصر وفي جميع البلاد العربية، ما لقيه حتى اليوم في جميع الأمم المتمدنة والآداب الحية.
محمد عبد الله عنان
في الإسلام ضمان للعرش والديمقراطية
للدكتور محمد البهي قرقر
كان من النتائج المباشرة للحرب العالمية الكبرى بعد أن مارست الأمم الكفاح أربع سنوات أن شعرت الطبقات الشعبية بأنها هي التي قامت بالدفاع، وأنها هي التي كانت تساق إلى ميادين القتال سوقاً، وأن غرم الحرب من الأنفس كان منها ومن الأموال كان مما تدفعه للدولة. شعرت بهذا فشعرت بأن لها الحق في قيادة الأمة في حال السلم والسيطرة على شئونها لأنها وحدها هي التي تنال أذى الحرب وتتحمل خسائرها فمن العدل أن تقودها
قوي هذا الشعور فأصبح مبدأ، وازداد هذا المبدأ تغلغلا في النفوس حتى تحول إلى سياسة عملية، قوامها نصرة الطبقات الشعبية وتمكنها من قيادة دفة الأمور، ولكن في صورة غير مألوفة من قبل
هذه السياسة العملية صحبها انقلاب رئيسي في نظام الحكومات نشأ عنه نوعان من الحكم الشيوعي والفاشستي، يتفقان في ادعاء الديمقراطية وهي تمكين الشعب من حكم نفسه تمكيناً عملياً، ويختلفان في الأسلوب تبعاً لاختلاف العوامل الاجتماعية الأخرى والغاية التي يقصد إليها
الديمقراطية الشيوعية
فالنوع الشيوعي تغالي في المعنى الشعبي وزاد في تقديسه، أو هو أساء في الواقع فهم المنزلة الشعبية؛ وتبع تلك المغالاة العداء للطبقة الأرستقراطية وازدياد السخط

على الفرد الممتاز أو السيد الحاكم بأمره. وكانت نتيجة سياسته العملية ذات شقين، أولا إبعاد ذلك الفرد الممتاز عن الحكم، واضطهاد الطبقة الأرستقراطية؛ وبعبارة أوسع الطبقة التي كانت تبيح لنفسها، إما اعتماداً على ما لها من شرف أو لما في يدها من مال، أن تتزعم الطبقات الأخرى الفقيرة والمتوسطة. وثانياً رفع الشعب إلى منصة الحكم

ولكن لم يكد الشعب صاحب هذا النظام يتولى تنفيذ التقويض من جهة والرفع من جهة أخرى حتى اصطدم بالحقيقة الواقعة، وشعر بأن زوال الرأسمالية التي ترى فيها النظرية الشيوعية السعادة المتوهمة لكل أفراد الشعب، وتولي الدولة للشئون الاقتصادية وتوزيع العمل والإنتاج على الطبقات المختلفة تحقيقاً لمساواة صورية، عمل يضاد العدالة المبتغاة،

إذ آخر أمره استبداد طائفة من الشعب بأفراد الأمة كلها على صورة قانونية

كما شعر الشعب نفسه، صاحب هذا النظام، بعدما ملك بيده زمام الأمر أن إقصاء صاحب الحق الشرعي في سيادة الدولة وهو القيصر، كان من الأسباب التي سولت لكثير من أفراد الشعب بأن له حقاً في الرياسة العامة إذ أنه يملك القسط المشترك وهو المعنى الشعبي الذي يخول له هذا. فالخصائص الأخرى في نظره عديمة الأهمية أو يجب ألا يكون لها اعتبار

ومن هذا الشعور النفسي تولدت هذه الثورات الداخلية في السوفييت الروسي، وسيستمر لهيبها ما بقي هذا الشعور، وسيظل باقياً مادام مبدأ الشيوعية يعتقد أو بمعنى آخر مادامت هذه الفئة الشعبية تملك قوة تسيطر بها على النفوس

وإذن فالمبدأ الشيوعي لا يتفق مع فطرة الجماعة الإنسانية التي لا تخضع بطبيعتها إلا إلى واحد منها تعتقد فيه مزايا لا تتوفر لكل فرد من أفرادها، وخصائصه تعلو به عن طبيعة الإنسان العادي؛ كما لا يتفق مع طبيعة الأفراد التي لا يمكن أن تكون من نوع واحد؛ فمساواة إنسان بآخر مساواة مطلقة في كل مرافق الحياة إجحاف بأحدهما لا محالة، وإنكار للقوة الكامنة في إنسان دون آخر وهي التي قد تخلق منه شخصية بارزة في أية ناحية يفضل بها غيره

إذن فهو نظام (أوتوماتيك) يحاول أن يخلق من جماعة البشر أعضاء لا إرادة لهم إلا ما يريده مباشر السلطة العليا ولا حياة لهم إلا في ظل الضغط. يريد أن ينشئ من الشعب آلات مسخرة للإنتاج العام، وأن يكون منه جبهة لمقاومة كل نظام آخر يقوم على المبدأ الوطني ويقر بشيء من حقوق التملك للفرد

فغايته إزالة الفوارق الاجتماعية والمالية والطبيعية أيضاً بين الأفراد، ثم قيام الدولة وبعبارة أخرى مباشرة الهيئة الحاكمة بأمرها - وإن زعمت أنها تحكم باسم الشعب - للإنتاج الاقتصادي. وفوق ذلك فهو يرى أن له رسالة عالمية تتمم غايته وهي حمل الشعوب الأخرى على قبول هذا المبدأ الفوضوي

ومحاولة الوصول إلى هذه الغاية إما مستحيلة من الوجهة العملية كإزالة الفوارق السابقة، وما النداء به إلا إغراء للطبقات الشعبية فقط، أو اعتداء بينٌ على الحقوق الطبيعية لأفراد الشعب فضلاً عن الإخلال بحقوق الجوار والتدخل فيما هو من اختصاص الدولة الأخرى.

فهو نظام ضد الطبيعة وضد المبدأ الخلقي السائد بين الشعوب وهو مبدأ رعاية الجوار

الديمقراطية الفاشستية

أما النظام الفاشستي فهو نظام ديمقراطي أيضاً، أي نظام مبني على سيادة الشعب لنفسه، ولكنه لا يبالغ في المعنى الشعبي ولا يسيء فهم المساواة بين أفراد الشعب فيجعلها مساواة مزعومة في الإنسانية

فهو يعترف بسيادة الفرد الممتاز: الملك أو الرئيس الجمهوري، وبوجوب المحافظة على سيادته، وبذلك منع الإغراء بالمعنى الشعبي كما أنه لم يجعله وحده سبب التفضيل. فهو إن حرم النظام الأرستقراطي، أي قصر وظائف الدولة الكبرى على طبقة مخصوصة بما لها من شرف مزعوم، إلا أنه أباح لأفراد الشعب أن يتولوا تلك الوظائف إذا وهبوا الكفاية في العمل. وإذن فأساس القيام بالخدمة العامة والانتفاع بسلطة الوظائف الكبرى ليس هو النسب الأصلي على الإطلاق، ولا هو الشعبية بدون قيد، وإنما هي الكفاية والجدارة أينما وجدت. فمعنى إقصاء الأرستقراطية عنده عن

الحكم إبعاد تلك الطائفة التي استعبدت الطبقات الفقيرة لا لسبب إلا أنها تنتسب إلى أصل قد تعوّد الحكم مع أنها في نفسها قد تكون مصابة في مزاجها العقلي ومنحطة في مبدئها الخلقي. ومعنى تقريب الشعب من الحكومة إعطاؤه هذا الحق وإزالة مبدأ (الأصل والنسب) من طريقه، أما مباشرة أمر الحكومة نفسها فذلك مرهون بالكفاية الشخصية

ولما كان النظام الفاشستي يقرر مبدأ الكفاية فانه لا يقول بإزالة الفوارق الطبيعية بين إنسان وآخر، أي لا يعمل على إهمالها وعدم اعتبارها لأن ذلك يناقض اتخاذ الكفاية قاعدة للاختيار، بل بالعكس هو يؤيدها ويتعهد القوى الفطرية في الفرد التي تؤهله لأن يقوم بعمل عام فيما بعد برعاية الدولة

ولأن الكفاية الشخصية هي مبدأ التفضيل فقد أصبحت الفوارق الاجتماعية: فوارق الطبقات المختلفة، عديمة الأهمية والاعتبار، كما أصبحت الرأسمالية قليلة الأثر في اختيار من يقوم بالأمر ويتقلد مناصب الحكومة

أما تحويل الإنتاج الأهلي إلى حكومي ومنح حق التملك للحكومة وحدها، كما ترى نظرية النظام الشيوعي تحقيقاً لمعنى المساواة الموهومة المغرية، فلا يجد قبولاً لدى النظام

الفاشستي، لأنه من الوجهة العملية عسير التحقيق فوق ما فيه من إخماد للقوى الفردية وإنكار لمنزلتها الأدبية وإنتاجها العملي أيضاً. ولكنه في الوقت نفسه يبيح للدولة التدخل في اختصاص الرأسمالية لمصلحة الفرد العامل وموازنة إنتاج الأمة، فتدخله بمثابة كف لطغيان الرأسماليين في الهيئة العاملة، أو منع محاولة ضغطهم على الحكومة في توجيهها توجيهاً معيناً لمصلحتهم الشخصية أو لغرض سياسي دولي آخر

الديمقراطية البرلمانية

والواقع أن النظام الشيوعي والفاشستي جاءا وقد وجدا أمامهما مسائل كثيرة عجز النظام الديمقراطي البرلماني عن حلها، إما تمشياً مع وجهة نظره أو لكثرة إجراءاته وطول مدتها التي من شأنها العمل على تحويل بعض المسائل الاجتماعية الصغيرة في بدء أمرها إلى معضلات تظهره فيما بعد بمظهر العاجز. ومن أهم تلك المسائل تحكم أصحاب رءوس الأموال في الطبقات الفقيرة الذي تسبب عنه هذا الجفاء الكبير والعداوة الشديدة بين صاحب العمل والعامل

فالديمقراطية البرلمانية الشائعة التي تفهم من المساواة الإخاء الشعبي والعالمي، ومن الحرية تفكير الفرد في دائرة القانون العام وعادات الأمة، ومن العمل أن يتعدى حدود المصلحة العامة إلى غيرها، هذه الديمقراطية التي تسيء في الواقع فهم المساواة وفهم الحرية إن هي نجحت في مكافحة الأرستقراطية أو على الأصح في كبح طغيانها قد ساعدت على تحكم أصحاب رؤوس الأموال بحجة (الحق المشروع) والمحافظة على حرية الفرد في تصرفه فيما يملك ولو كان في ذلك ضرر الغير وضياع المصلحة العامة. وفي الواقع هي لا تحافظ على حرية الفرد وإنما تغريه بما يخرج عن معنى الحرية الفردية الصحيحة؛ تغريه أن يتحكم بما له في الطبقة التي دونه في الثروة أو على تبذيره والإسراف فيه ابتغاء شهواته النفسية؛ تغريه بالاستخفاف بعادات غيره ومعتقد السواد الأعظم من الشعب، كل ذلك باسم الحرية. فهي تؤمن بنظرية الفرد، أكثر من إيمانها بنظرية - تقدِّس الفرد وتضحي بمصلحة المجموع. فللفرد أن يعمل ما شاء وإن فنيت الدولة في عمله. وهذا في الواقع رد فعل لحكم الاستبداد الذي سبق الحكم الديمقراطي البرلماني. فالفردية في الحكم الأرستقراطي كانت مستمرة لا لمصلحة الجماعة بل لمصلحة الفرد الحاكم. فلما جاء النظام الديمقراطي البرلماني حرر الفرد من تبعيته تبعية مطلقة للحاكم المستبد وغالى في ذلك، وكان من الطبيعي أن يفضل مصلحة الجماعة لأنها لم تكن الهدف للكفاح وإنما الذي كان مقصوداً يسعى لتحقيقه هو حرية الفرد ومصلحته

بقيت مصلحة الجماعة مغفلة وحرية الفرد معكوساً فهمها، فلما جاء النظام الشيوعي عمل من جديد على تقييد سلطة الفرد الشعبي وخصوصاً في الناحية المالية، وقصر حق التملك على الدولة التي حلت في الواقع محل الفرد في النظام الديمقراطي البرلماني.

ثم لم يكتف هذا النظام بما فعله نحو الطبقة الأرستقراطية من حد سلطتها بل بالغ في معاداتها، أو هو أساء فهم خصومتها كما أساء فهم نصفة الشعب فجاء نظاماً غير عادي ولا مألوف، نظاماً استبدادياً لا يتفق مع فطرة الفرد ولا مع طبيعة الجماعة بينما اكتفى النظام الفاشستي بما وقف عنده النظام البرلماني في وضع حد الحكم الأرستقراطي وإن خالفه في فهم معنى الحرية والمساواة. ولذا أجاز لنفسه التدخل في وضع علاقة للرأسمالية مع الفرد العامل، وهو تدخل للمصلحة العامة ولمنع الجفاء بين طبقات الشعب المختلفة. وقد كان من أثر هذا التدخل أن توحدت الأمة، وقد صارت وحدتها في النهاية عن رضا وفهم متبادل بين الطبقات، بينما يتحول اتجاه عداوة الشعب وجفائه في الأمم الديمقراطية البرلمانية من الأرستقراطيين إما إلى الطبقة الحاكمة لأنها تخص نفسها بما له وتضن عليه بما يؤمنه على حياته الضرورية ثم تنظر إليه نظرة صغار لأنها (مهذبة) دونه، وإما إلى أصحاب رؤوس الأموال لعنتهم وتشددهم في حفظ مصالحهم الخاصة

غاية أنواع الحكم الديمقراطية المختلفة ومعايبها

وإذن فالنقص الذي أخذ أسلوب الحكم الحديث على نفسه العمل لتلافيه هو عدم التوازن إما في علاقة الطبقة الأرستقراطية بالشعب، أو في علاقة أصحاب رؤوس الأموال بالطبقات الفقيرة، أو في ارتباط مصلحة الفرد بالجماعة

ومن الطبيعي أن تكون الغاية الإيجابية لأسلوب الحكم في الوقت الحاضر، ولو على سبيل الادعاء، تحقيق الإخاء والمساواة، وبعبارة أخرى العمل على سيادة العدل الإنساني

فالنظام الديمقراطي البرلماني نظر إلى هذه الغاية نظرة إفراط أو نظرة من ناحية واحدة،

فبينما هو يشل سلطة الهيئة الأرستقراطية إذا به يبيح لأصحاب رؤوس الأموال بمقتضى إفراطه في منح الفرد حريته التحكم في الطبقة العاملة؛ وبذلك اختل توازن العلاقة من جديد ولكن بين طبقتين من الشعب

والنظام الشيوعي ينظر لتحقيق هذا الإخاء وتلك المساواة نظرة هوج وخيال، فبدل أن يتناول علاقة الطبقة الأرستقراطية بالشعب، ثم علاقة أصحاب رؤوس الأموال بالطبقات العاملة، بالتسوية تناولها بالهدم، فزالت الأرستقراطية وزالت الرأسمالية واختل توازن العلاقة مرة أخرى وأصبحت علاقة حاكم مستبد، مخادع مغرر، بأفراد شعب سلبوا الحقوق الفطرية والاجتماعية بدل المساواة المزعومة

والنظام الفاشستي نظر إليها نظرة قاصرة على الحدود الطبيعية للأمة، فعمل على التوازن أيضاً، ولكن جعل مقياسه مصلحة الجماعة من الشعب؛ فلا داعي لاضطهاد الأرستقراطيين إذا لم يسيئوا لمصلحة الجماعة، كما يجب التدخل في حرية الفرد إذا هددت تلك المصلحة بالخطر. ولأن هذا النظام قصر جهوده على الأمة كان نظاماً وطنياً بحتاً، بينما المعنى الدولي متحقق بكل معانيه في النظامين السابقين قبله. ولذا كانت اليهودية العالمية من ألد خصوم الفاشستية وأعز أنصار الديمقراطية البرلمانية والديمقراطية الشيوعية وإن أزالت هذه الأخيرة نظام رؤوس الأموال لأنها لا تنكر عليهم التوطن في أي جهة

فالرأسمالي اليهودي لا يبيح لنفسه في دولة ديمقراطية فاشستية باسم حرية الفرد أن يطغى على الطبقة الفقيرة كطغيانه في فلسطين التي تتبع في سياستها الرئيسية بلداً ديمقراطياً برلمانياً. فهناك في فلسطين يباح لليهودي المالي أن يجرد العربي الساذج من كل ما يملك، وفي الوقت نفسه يذل العرب في مجموعهم باسم حرية التملك. وإذا طلب من حكومة فلسطين أن تتدخل في الأمر لمصلحة الجماعة أجابت بأنها لا يمكنها ذلك لما فيه من اعتداء على حرية الفرد. أما المصلحة العامة فهي ضحية تلك الحرية التي لم تفهم على وجهها الصحيح. وأما مجموع الشعب فلا مانع من فنائه تدريجياً مادام الفرد يتمتع بحريته التامة

والواقع أن هذا عكس الطبيعة، ولا يقر أحد في أي بقعة من بقاع الأرض أن المجموع يفنى لمصلحة الفرد كما لا يقر تضحية الشعب محافظة على تنفيذ نصوص القانون وقد يظن لأول الأمر أن النظام الفاشستي هو المعتدل من هذه النظم الثلاثة. وقد يكون في

ذلك وجه من الصحة. ولكن جمع السلطة وتركيزها في يد فرد من أفراد الشعب إن أتى بنتائج إيجابية في وقت وجيز يعجب الإنسان منها ومن عظمتهافقد لا يضمن الوفاء بأمثالها في المستقبل إذا ما انتقلت السلطة إلى فرد آخر ربما يستغل هذا التركيز لغير مصلحة الأمة. والمعروف اليوم أنه إذا كان رجال الحكم الفاشستي قد جمعوا كل سلطة في الدولة في أيديهم إلا أنهم لا يبرمون أمراً إلا بمشورة ذوي الخبرة في الأمة وبمعونتهم أيضاً وإن لم تكن لهم علاقة تبعية بالحزب السياسي. وأنا أذكر أن زعيم ألمانيا يحرص الآن على أن يتولى المناصب الاقتصادية الرجال الأخصائيون في المسائل المالية ولو كانوا من غير أتباع حزبه، كما أنه يأخذ برأي وزير الخارجية ووزير الدفاع في كل المسائل الخارجية وهما لم يتبعا في يوم من الأيام الحزب الوطني الاشتراكي

والديمقراطية معنى غير محدود. وكل نظام من نظم الحكم الثلاثة يدعي أنه هو الديمقراطي الصحيح كما ادعى كل فيلسوف من فلاسفة اليونان القدماء أنه هو وحده الذي وصل إلى الحقيقة في العالم. وفي الواقع لم تكن هناك حقيقة مطلقة ولكنها نسبية مقيدة وإذا كانت هناك حقيقة مطلقة فإنها على وفق المقدمات والدعاوى التي يفترضها الفيلسوف لنفسه

الديمقراطية الإسلامية

والآن بعدما تبين أن من معايب الحكم الديمقراطي البرلماني الجوهرية فناء المصلحة العامة أو التغاضي عنها محافظة على حرية الفرد المطلقة وعلى مصلحته الخاصة ومن معايب النظام الشيوعي أن العلاج الذي يتخذه في توازن طبقات الشعب المختلفة هو الثورة والهدم وأن أسلوب حكمه على العموم هو الفوضى المطلقة كما أن من نقائص الحكم الفاشستي عدم قابلية الفرد الشعبي الذي بيده سلطة الحكم للعزل مع احتمال طغيانه

بعدما تبين كل هذا نريد أن نعرف رأي الإسلام والحلول التي يقترحها ضماناً للتوازن، وبعبارة أخرى تجاه المسائل الاجتماعية التي يهتم بها نظام الحكم الحديث والتي هي في الحقيقة منذ بدء الجماعة الإنسانية تظهر من حين لآخر في شكل معضلات نريد أن نعرف رأي الإسلام، وهل هو مع كونه ناجعاً يتجنب تلك الأخطار التي في أسلوب الحكم الخاص؟

الإسلام ليس نظاماً روحياً، نظام كهنة وكنيسة، وإنما هو مبادئ خلقية للفرد، وقوانين عامة تحفظ نظام الجماعة. وهو بهذه الصفة يتدخل في علاقة الفرد بالفرد وتنظيم علاقته بالمجموع، وفي علاقته بالمجموع يبغي أيضاً الإخاء والمساواة، يبغي الوحدة ويعمل على تماسكها، يريد التوازن وتأسيسه على قواعد ثابتة

ولكنه في إقراره الإخاء يريد تقرير مبدأ آخر للتفضيل بدل مبدأ الجنسية الذي ساد قبل الإسلام ويسود أيضاً الآن من وقت لآخر، يريد تقرير مبدأ الكفاية والعمل (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) فالإخاء معناه عدم اعتبار الانتماء إلى قبيلة أو شعب مرجحاً ومميزاً لفرد عن آخر لمجرد هذا الانتماء كما يقصد اليوم من محاربة الأرستقراطية، وعدم جعلها القاعدة الأولى في الاختيار والتفضيل

وفي إقراره المساواة لا يرى زوال الرأسمالية، ولا منع الفرد من التملك وقصره على الدولة وحدها، وإنما يقصد المساواة أمام القانون، أمام المبادئ الخلقية، أمام التكليف بالواجبات، والقيام بالأعمال العامة. فليس لشريف أن يخلي نفسه من التكليف، ولا لحاكم أن يستبد بمصالح الأمة لنفسه اعتماداً على أنه مميز لمجاله من التهذيب (الرسمي) أو لانتمائه إلى جنس كذا أو قبيلة كذا

وفي إقراره المساواة على هذا النحو لم يمنع التفضيل لصفات أخرى، لم يحرم الفرد أن ينال جزاء مجهوده الشخصي في هذه الحياة الدنيا، ولكنه فرض عليه فيما اكتسبه من علم أو مال أن يخصص جزءاً منه لمن هو دونه: لمن هو أقل منه معرفة، أو أقل ثراءً؛ فرض أن تقرب الخاصة نفسها من عامة الشعب، حتى لا يكون هناك جفاء بين عالم وجاهل أو عداوة منشأها الحقد بين غني وفقير، حتى يكون (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا)

هذا (. . .ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) واجب العالم في علمه في أية ناحية تعلق علمه بها نحو أمته، نحو أكثريتها الجاهلة

أما الغني صاحب الثروة فواجبه في ماله الزكاة لمستحقيها، لفقراء الأمة المعوزين. وهو واجب يخف على النفس عمله، بل يسرها القيام به، لأنه تلبية لنداء الدين ورغبة ناشئة عن إحساس التدين؛ وما نشأ عن التدين والاعتقاد كان كالصادر عن التعود، كالعادة نفسها
في المواظبة على عملها وعدم الشعور بمضض في الإتيان بها
وليس من شك في أن التكليف الوضعي أي تشريع الدولة وتقنينها لا يساير التكليف الديني في نتائجه الإيجابية. فنسبة من يعتقد من أفراد الأمة بعدالة قانون وضعي أقل بكثير ممن يعتقد بعدالة قانون إلهي؛ لا لأن القانون الوضعي قد لا يطابق المصلحة العامة، بل لأنه يعتقد على العموم أن واضعه ممن يجوز بل ممن يغلب عليه الخطأ، ولكن من ينسب إليه القانون الديني هو ممن يستحيل عليه فوات الصواب في تشريعه وهكذا أثر العقيدة الدينية التي تكوِّن من نفس الإنسان جزئها الأعظم. ولذلك كان من المهمة الأولى للدين أن يخلق من التكاليف والالتزامات مبادئ خلقية تُعتقد، جزاء فعلها أو تركها منوط بالخالق القادر، وفي عالم آخر لا اطلاع لإنسان عليه في هذه الحياة الدنيا. وإذن فالشوق إلى جزاء الفعل - كالخوف من جزاء الترك - لا يقاس في تصور النفس له بجزاء القوانين الوضعية، لأنه في عالم محدود معروف فيه أقصى درجة الثواب والعقاب
والمصلح السياسي أو زعيم الدولة الذي يفهم كنه الإصلاح ويهتم بتنفيذه واتباع الشعب له لا يألو جهداً في بناء قوانينه الإصلاحية على مبادئ الدين أو صبغها على الأقل بصبغة دينية حتى يكون لها نصيب من معتقدات الشعب، وبهذا يكون لها قوة الاستقرار والدوام. والاستقرار من أهم عوامل نجاح الإصلاح
فكثير من القوانين الإنكليزية وخصوصاً قوانين العائلة الإصلاحية أسست على مبادئ فلسفية خلقية قام بها بعض الفلاسفة الإنكليز الدينيين
حتى في بعض الحكومات الفاشستية التي يُظن أنها تحارب الدين، نجدها لا تتخلى عن ربط مبادئها السياسية بالمبادئ الدينية العامة؛ فهي في الواقع لا تحارب الدين، وإنما تحارب سلطة الكنيسة، أي سلطة طائفة أخرى تتمتع بنفوذ كبير في الشعب ربما تحد من سلطة الدولة. فخطباء الحزب الاشتراكي الوطني هنا في ألمانيا يعظون الشعب في كل يوم أحد بواسطة الراديو محاولين في وعظهم إرجاع أعمالهم الاجتماعية، كمساعدة الشتاء، وخدمة العمل العام، وتنظيم هدايا عيد الميلاد التي هي أقرب شبه بزكاة الفطر في الإسلام، إلى مبادئ الدين الصحيح حتى يضمنوا للحكومة طاعة الشعب، ومن وراء ذلك تنفيذ أعمالهم الإصلاحية
فقاعدة الحكم عندهم مبنية على قيادة الرئيس وعلى طاعة الشعب له. والدين هو خير ضامن وأقوى كفيل بتلك الطاعة عن رضا واختيار ولمدة طويلة
أما بناء السياسة العامة لتركيا الحديثة على إبعاد الدين فلا يصح أن يقوم حجة على أنها مع ذلك سياسة إصلاحية ثابتة أو أنها ستنجح في جيل مقبل. فالثقافة التركية التي كان عمادها الدين قد تزعزعت من أساسها؛ ثم ما يدخله مدعو الإصلاح في تركيا الحديثة من ثقافات البلاد الأجنبية لا يصح أن يعوض ثقافة الشعب الأصلية كما لا يؤمل أن يكوِّن ثقافة ثابتة في المستقبل للشعب التركي. وما تمتعت به الحكومة التركية للآن من طاعة الشعب لها فسببه عقيدة الشعب التي لم تفن بعد من وجوب الطاعة للقائم بالأمر، فهو في الواقع أثر من آثار العقيدة الدينية
فإذا كان الإسلام يتدخل في سلطة الرأسمالية بنظام الزكاة فهو تدخل مقبول لدى النفوس بحكم ما فيها من قوة التدين، وفي الوقت نفسه هو نظام غير مرتبط بقيام فرد بالحكومة دون آخر بل هو كأي نظام ديني أبدي غير مؤقت بوقت
فتقرير مبدأ الإخاء والمساواة على النحو السابق، والاعتراف بالجزاء على المجهود الشخصي من حق التملك، ثم حصر نفوذ الفرد في حدود المصلحة العامة، هو نوع من أسلوب الحكم الديمقراطي الذي لم يصل إليه تشريع وضعي للآن. فقد رأينا كل نوع من أنواع الحكم في العصر الحديث الذي تدعي فيه أوربا أنها وصلت آخر المرحلة التي يمكن للإنسان أن يصل إليها، ومع ذلك فكل نوع منها لا يسلم من أخطار عديدة لاستحالة تنفيذه أو لعجزه عن حل بعض المشاكل الاجتماعية الكبرى، أو لأنه قد لا يضمن الوفاء في المستقبل بمثل ما حققه الآن من نتائج

وبتقرير الإسلام هذه المبادئ كان نظام توازن واعتدال. لا يترك طائفة تتحكم في أخرى حتى تلجأ الطائفة المتحكم فيها إلى عمل ثوري أهوج مبني على العاطفة وحدها غايته الهدم والتخريب. وبتقريره هذه المبادئ كان أيضاً دين الفطرة والطبيعة، أي أنه يساير الطبيعة ويقضي على ما شذ منها

ولكونه دين الفطرة والطبيعة كان لنظام الملك منه سند قوي يعتمد عليه في حكمه، لأنه مغروس في طبيعة الجماعة أن تخضع لفرد واحد منها خضوعاً ناشئاً عن عقيدة؛ وكلما

علا شأن هذا الفرد كانت العقيدة بالخضوع له أشد وأعم. وليس بلازم أن تعرف الجماعة ميزة هذا الفرد - بل من المصلحة العامة ألا تتناوله بالتحليل - وإنما يكفي أن تعتقد أنه ممتاز

فإذا كان هذا الفرد الممتاز الذي يجب أن تكون له السيادة وتخضع له الجماعة ليس من عامة الشعب أمنت حكومته انقلاباً شعبياً، ولم تكن هناك أطماع في استبداله بآخر، لأن الشعب مازال يعتقد فيه ميزة ليست لكل فرد. وكلما استقر الحكم في يد من له الأمر كانت نتائجه أثبت وأضمن لمصلحة الشعب نفسه

ونظام الملكية هو أقرب النظم الفطرية للجماعة الإنسانية، بل هو أضمن لوحدة الجماعة، لأنه يحول بين أي فرد من أفراد الشعب وبين أن تسوِّل له نفسه أنه أجدر بالقيام بالأمر من هذا أو ذاك، مما يترتب عليه ثورة داخلية لا ينطفئ لهيبها كما هو حال النظام الشيوعي اليوم

فكما يميل الإسلام إلى نظام الملكية لأنه أقرب نظم الحكم إلى فطرة الجماعة، ويفرض طاعة الأمة لرئيسها الأعلى مادام قائماً بدستور الإسلام وهو كتاب الله وسنة رسوله، كذلك يؤيد روح الشورى ويهيئ الشعب للعمل على وفق مبادئ خلقية، كمبدأ الشعور بالواجب والشعور بالحرية المهذبة والشعور بالمساواة والاعتراف بالكفايات، تلك المبادئ التي منها تتكون الديمقراطية الصحيحة

ففي الوقت الذي يأمر فيه الإسلام الشعب بالطاعة لولي أمره حتى تسلس قيادته، يقيد هذه الطاعة بقيام العدل في الرعية

وفي الوقت الذي ينادي فيه بحرية الفرد حتى فيما يعتقد لا يتركه يتعدى مصلحة الجماعة

وفي الوقت الذي يشجع فيه على اكتساب الرزق ويبيح فيه للفرد حرية التملك، يكلفه بالتنازل عن جزء مما ربحه لمن أشقاه الفقر في حياته

وهكذا يقصد الإسلام دائماً إلى التوازن والاعتدال، فهو دين الفرد والجماعة، بينما الديمقراطية البرلمانية، كما رأينا، تتحيز للفرد وحده، والفاشستية تؤيد الجماعة فحسب، والشيوعية تهدم مصلحة كل من الاثنين

ففيه كدين فطري للجماعة الإنسانية ضمان للعرش، وفيه كمنادٍ بمبدأ الإخاء والمساواة

وعاملٍ أيضاً على تحقيق هذا المبدأ بوسائل ناجعة ومنفذ لمبدأ التفاضل على حسب الكفاية والعمل لا غير، اتباع لقواعد الديمقراطية الصحيحة وحاجز حصين ضد الشيوعية الفوضوية

محمد البهي قرقر

دكتور في الفلسفة وعلم النفس

وعضو بعثة الأستاذ محمد عبده

من الأدب التحليلي

الوحدة

(مهداة إلى الدكتور إبراهيم مدكور)

للأستاذ علي الطنطاوي

إن كل عناء في الحياة مصدره أننا نحيا منعزلين. وكل . . .)

(ما نبذل من جهودنا لا نريد به إلا الفرار من هذه العزلة

جي دوموباسان (الرسالة 210)

ما آلمني شيء في الحياة ما آلمتني الوحدة. كنت أشعر كلما انفردت بفراغ هائل في نفسي، وأحس بأنها غريبة عني، ثقيلة عليّ، لا أطيق الانفراد بها؛ فإذا انفردت بها

أحسست أن بيني وبين الحياة صحارى قاحلة، وبيداً مالها من آخر، بل كنت أرى العالم في كثير من الأحيان، وحشاً فاغراً فاه لابتلاعي، فأحاول الفرار، ولكن أين المفرّ من نفسي التي بين جنبيّ، ودنياي التي أعيش فيها؟

إن نفسي عميقة واسعة، أو لعلي أراها عميقة واسعة لطول ما أحدق فيها، وأتأمل جوانبها، فتخيفني بسعتها وعمقها، ويرمضني أنه لا يملؤها شيء مهما كان كبيراً. . . وهذا العالم ضيق أو لعلي أراه ضيقاً لاشتغالي عنه بنفسي، وشعوري بسعتها، فأراه يخنقني بضيقه. . .

إني أجمع العالم كله في فكرة واحدة أرميها في زاوية من زوايا نفسي، في نقطة صغيرة من هذا الفضاء الرحيب، ثم أعيش في وحدة مرعبة أنظر ما يملأ هذا الفضاء . .

إني كلما انفردت بنفسي، فتجرأت على درسها، والتغلغل في أعماقها، بدت لي أرحب وأعجب. فما هذا المخلوق الذي يحويه جسم صغير، لا يشغل من الكون إلا فراغاً ضيقاً كالذي يشغله صندوق أو كرسي. . . ويحوي هو (المكان) كله، ويشمل (الزمان)، وينتقل من الأزل إلى الأبد في أقل من لحظة، وينتظم (الوجود) كله بفكرة، وتكاد الحياة نفسها تضل في أغواره؟

من المستحيل أن نفهم هذا المخلوق الذي ندعوه (النفس)! لذلك نخاف الوحدة ونفر منها. إننا نخشى نفوسنا، ولا نستطيع أن ننفرد بها، فنحب أن نشتغل عنها بصحبة صاحب، أو حب حبيب، أو عمل من الأعمال. . . ونخشى الحياة، ونحب أن نقطعها بحديث تافه، أو كتاب سخيف، أو غير ذلك مما نملأ به أيامنا الفارغة. وإذا نحن اضطررنا مرة إلى مواجهة الحياة، ومقابلة الزمان خالياً من ألهية تلهو بها، كما يكون في ساعة الانتظار مللنا وتبرمنا بالحياة وأحسسنا بأن الفلك يدور على عواتقنا. أفليس هذا سراً عجيباً من أسرار الحياة: يكره المرء نفسه ويخشاها، وهي أحب شيء إليه؛ ويفر منها. . . ويضيق بحياته، وهي أعز شيء عليه، ويسعى لتبديدها وإضاعتها؟

عجزت عن احتمال هذه الوحدة، وثقل عليّ هذا الفراغ الذي أحسه في نفسي، فخالطت الناس، واستكثرت من الصحابة. فوجدت في ذلك أنساً لنفسي، واجتماعاً لشملي، فكنت أتحدث وأمرح وأمزح وأضحك وأضحك، حتى ليظنني الرائي أسعد خلق الله وأطربهم؛ بيد أني لم أكن أفارق أصحابي وأنفرد بنفسي، حتى يعود هذا الفراغ الرهيب، وترجع هذه الوحدة الموحشة

انغمست في الحياة لأملأ نفسي بمشاغل الحياة، وأغرق وحدتي في لجة المجتمع، واتصلت بالسياسة وخببت فيها ووضعت وكتبت وخطبت، فكنت أحس وأنا على المنبر بأني لست منفرداً وإنما أنا مندمج في هذا الحشد الذي يصفق لي ويهتف. . . ولكني لا أخرج من النديّ ويرفضّ الناس من حولي، وأنفرد في غرفتي حتى يعود هذا الفراغ أهول مما كان، وترجع الوحدة أثقل، فكأنها ما نقصت هناك إلا لتزداد هنا، كالماء تسد مخرجه فينقطع، ولكنك لا ترفع يدك حتى يتدفق ما كان قد اجتمع فيه. . . فماذا يفيدني أن أذكر في مائة مجلس أو يمر اسمي على ألف لسان، وأن يتناقش فيّ الناس ويختصموا، إذا كنت أنا في تلك الساعة منفرداً مستوحشاً متألما؟ . .

وجدت الشهرة لا تفيد إلا اسمي، ولكن اسمي ليس مني، ولا هو (أنا) فأحببت أن أجد الأنس بالحب وأن أنجو به من وحدتي، فلم أجد الحب إلا اسماً لغير شيء، ليس له في الدنيا وجود، وإنما فيها تقارب أشباح:

أعانقها والنفس بعد مشوقة ... إليها وهل بعد العناق تدان؟
وألثم فاها كي تزول صبابتي ... فيشتد ما ألقى من الهيمان
كأن فؤادي ليس يشفي غليله ... سوى أن يرى الروحين تلتقيان

ولكن أنى تلتقي الأرواح؟ وأين هذا الحب الجارف القوي الخالص الذي يأكل الحبيبين كما تأكل النار المعدن، ثم تخرجهما جوهراً واحداً مصفى نقياً ما فيه (أنا) ولا (أنت) ولكن فيه (نحن)؟ . . .

فنفضت يدي من الحب، ويئست من أن أرى عند الناس الاجتماع المطلق، فعدت بطوعي أنشد الوحدة المطلقة

صرت أكره أن ألتقي بالناس، وأنفر من المجتمعات، لأني لم أجد في كل ذلك إلا اجتماعاً مزيفاً: يتعانق الحبيبان، ولو كشف لك عن نفسيهما لرأيت بينهما مثل ما بين

الأزل والأبد؛ ويتناجى الصديقان، ويتبادلان عبارات الود والإخاء، ولو ظهر لك باطنهما لرأيت كلا منهما يلعن الآخر؛ وترى الجمعية الوطنية، أو الحزب الشعبي، فلا تسمع إلا خطباً في التضحية والإخلاص، ولا ترى إلا اجتماعاً واتفاقاً بين الأعضاء؛ ولو دخلت في قلوبهم لما وجدت إلا الإخلاص للذات، وحب النفس، وتضحية كل شيء في سبيل لذة شخصية أو منفعة!

وجدتني غريباً بين الناس فتركت الناس وانصرفت إلى نفسي أكشف عالمها، وأجوب فيافيها وأقطع بحارها، وأدرس نواميسها وجعلت من أفكاري وعواطفي أصدقاء وأعداء، وعشت بحب الأصدقاء وحرب الأعداء. . .

إن من حاول معرفة نفسه عرضت له عقبات كأداء، ومشقات جسام، فإن هو صبر عليها، بلغ الغاية، وما الغاية التي تطمئن معها النفس إلى الوحدة، وتأنس بالحياة، وتدرك اللذة الكبرى ما الغاية إلا معرفة الله

وسيظل الناس تحت أثقال العزلة المخيفة حتى يتصلوا بالله ويفكروا دائماً في أنه معهم، وأنه يراهم ويسمعهم، هنالك تصير الآلام في الله لذة، والجوع في الله شبعاً، والمرض صحة، والموت هو الحياة السرمدية الخالدة. هنالك لا يبالي الإنسان ألا يكون معه أحد، لأنه يكون مع الله

علي الطنطاوي

الكميت بن زيد

شاعر العصر المرواني

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

- 3 -

وقد كان لهذه القصائد في نصرة أهل البيت وتأليب الناس على بني مروان أثرها في النفوس، حتى لهج بها الخاصة والعامة، وصار الناس يتقربون إلى الله والرسول بحفظها وتلاوتها ويتناقلون في ذلك رؤى عن النبي صلى الله عليه وسلم، كان الكميت يرى بعضها، وكان غيره يرى بعضاً آخر منها، فارتفعت بهذا منزلة الكميت وعلت درجته بين قومه بني أسد حتى كانوا يعدونه من مفاخرهم، ويقولون: فينا فضيلة ليست في العالم، ليس منزل منا إلا وفيه بركة وراثة الكميت، لأنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في النوم، فقال له أنشدني:

طَرِبتُ وما شوقاً إلى البيض أطْرَبُ

فأنشده فقال له: بوركت وبورك قومك

ويروي من طريق آخر أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في نومه وهو مختف بعد أن هرب من سجن بني مروان فيما سنذكره من سيرته، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: مم خوفك؟ فقال: يا رسول الله من بني أمية، وأنشده:

ألم ترني من حُبِّ آل مُحمدٍ ... أروح وأغْدُو خائفاً أترقّبُ

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: اظهر فإن الله قد أمنك في الدنيا وفي الآخرة

وحدث إبراهيم بن سعد الأسدي قال: سمعت أبي يقول: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم، فقال: من أي الناس أنت؟ قلت: من بني أسد، قال: من أسد بن خزيمة؟ قلت: نعم، قال: أهلالي أنت؟ قلت: نعم، قال: أتعرف الكميت بن زيد؟ قلت: يا رسول الله عمي ومن قبيلتي، قال: أتحفظ من شعره شيئاً؟ قلت: نعم، قال أنشدني:

طَرِبتُ وما شوقاً إلى البيض أطْرَبُ

قال: فأنشدته حتى وصلت إلى قوله:

فما لِيَ إلا آل أحمد شيعةً ... وما لِيَ إلاَ مشْعَب الحق مشعب

فقال لي: إذا أصبحت فاقرأ عليه السلام، وقل له قد غفر الله لك بهذه القصيدة

وحدث نصر بن مزاحم المنقري أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في النوم ورجل بين يديه ينشده:

مَنْ لقلبٍ مُتيَّمٍ مستهامِ

قال: فسألت عنه، فقيل لي: هذا الكميت بن زيد الأسدي، قال: فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: جزاك الله خيراً وأثنى عليه

وإذا كان الكميت قد نصر بشعره أهل البيت هذا النصر الذي كان له هذا الشأن، فإنه

وهو الشاعر العالم لم يكن يتجاوز تأييدهم باللسان إلى تأييدهم بالفعل، وكان شأنه في هذا شأن القعدة من الخوارج كعمران بن حطان الشاعر وغيره، ولا غرابة في أن يكون للشيعة قعدة كما كان للخوارج قعدة، بل إن قعدة الشيعة كانوا أكثر من قعدة الخوارج لأخذ الشيعة بالتقية. وقد روى أبو الفرج الأصبهاني أنه لما خرج زيد بن علي كتب إلى الكميت: أخرج معنا يا أعيمش، ألست القائل:

ما أُبالي إذ أحفظتُ أبا لقا ... سم فيكم ملاَمةَ اللَّوَّامِ

فكتب إليه الكميت:

تجودُ لكم نفسي بما دونَ وَثْبَةٍ ... تظلُّ لها الغربانُ حوليَ تحجلُ

ولم يكن هذا منه يغضب أهل البيت عليه، بل كانوا هم أيضاً يضنون على نفسه ضنه عليها، ويحبون أن يبقى لهم بشعره الذي يفعل في هدم بني مروان ما لا يفعله بالسيف غيره

وكان على العراق في هذا العهد خالد بن عبد الله القسري، وعلى عرش بني مروان هشام بن عبد الملك، وقد اضطربت الروايات في وصول خبر الكميت وأشعاره إلى هشام اضطراباً كبيراً، فلنسق هذه الروايات المضطربة، ثم نأخذ بعد هذا في نقدها والترجيح بينها

قال أبو الفرج الأصبهاني: كان خالد بن عبد الله القسري فيما حدثني به عيسى بن الحسين الوراق قال: أخبرنا أحمد بن الحارث الفزاري عن ابن الأعرابي، وذكره محمد بن أنس السلامي عن المستهل ابن الكميت، وذكره ابن كناسة عن جماعة من بني أسد أن الكميت أنشد قصيدته التي يهجو فيها اليمن وهي:

ألا حُيِّيتِ عنا يا مدينا

فأحفظته عليه، فروى جارية حسناء قصائده الهاشميات، وأعدها ليهديها إلى هشام، وكتب إليه بأخبار الكميت وهجائه بني أمية وأنفذ إليه قصيدته التي يقول فيها:

فيا ربِّ هل إلاَّ بك النصر يُرْتجَى ... ويا ربِّ هل إلاَّ عليك المعوَّلُ

وهي طويلة يرثي فيها زيد بن علي وابنه الحسين بن زيد (كذا) ويمدح بني هاشم، فلما قرأها أكبرها وعظمت عليه واستنكرها، وكتب إلى خالد يقسم عليه أن يقطع لسان الكميت ويده، فلم يشعر الكميت إلا والخيل محدقة بداره، فأخذه وحبس في المحبس.

وكان أبان بن الوليد عاملاً على واسط، وكان الكميت صديقه، فبعث إليه بغلام على بغل وقال له: أنت حر إن لحقته والبغل لك، وكتب إليه: قد بلغني ما صرت إليه وهو القتل إلا أن يدفع الله عز وجل، وأرى لك أن تبعث إلي حبي - يعني زوجة الكميت وهي بنت تكيف بن عبد الواحد وهي ممن يتشيع أيضاً - فإذا دخلت إليك تنقبت نقابها ولبست ثيابها وخرجت، فإني أرجو ألا يؤبه لك

فأرسل الكميت إلى أبى وضاح حبيب بن بديل وإلى فتيان من بني عمه من مالك بن سعيد، فدخل عليه حبيب فأخبره الخبر وشاوره فيه فسدد رأيه، ثم بعث إلى حبي امرأته فقص عليها القصة وقال لها: أي ابنة عم، إن الوالي لا يقدم عليك ولا يسلمك قومك، ولو خفته عليك لما عرضتك له، فألبسته ثيابها وإزارها وخمرته وقالت له: أقبل وأدبر، ففعل، فقالت: ما أنكر منك شيئاً إلا يبساً في كتفك، فاخرج على اسم الله، وأخرجت معه جارية لها، فخرج وعلى باب السجن أبو وضاح ومعه فتيان من أسد فلم يؤبه له، ومشى الفتيان بين يديه إلى سكة شبيب بناحية الكناس، فمر بمجلس من مجالس بني تميم، فقال بعضهم: رجل ورب الكعبة، وأمر غلامه فأتبعه، فصاح به أبو وضاح يا كذا وكذا لا أراك تتبع هذه المرأة منذ اليوم، وأومأ إليه بنعله فولى العبد مدبراً، وأدخله أبو وضاح منزله

ولما طال على السجان الأمر نادى الكميت فلم يجبه، فدخل ليعرف خبره، فصاحت به المرأة: وراءك لا أم لك. فشق ثوبه ومضى صارخاً إلى باب خالد فأخبره الخبر، فأحضر حبي فقال لها: يا عدوة الله احتلت على أمير المؤمنين وأخرجت عدوه. لأمثلن بك ولأصنعن ولأفعلن، فاجتمعت بنو أسد إليه وقالوا: ما سبيلك على امرأة منا خدعت؟ فخافهم فخلى سبيلها

قال: وسقط غراب على الحائط فنعب فقال الكميت لأبي وضاح: إني لمأخوذ، وإن حائطك لساقط، فقال له: سبحان الله! هذا ما لا يكون إن شاء الله، فقال له: لابد من

أن تحولني، فخرج به إلى بني علقمة وكانوا يتشيعون، فأقام فيهم ولم يصبح حتى سقط الحائط الذي سقط عليه الغراب

قال ابن الأعرابي قال المستهل: وأقام الكميت مدة متوارياً حتى إذا أيقن أن الطلب قد خف عنه خرج ليلاً في جماعة من بني أسد على خوف ووجل، وفيمن معه صاعد غلامه، فأخذ الطريق على القطقطانة وكان عالماً بالنجوم مهتدياً بها، فلما صار سحيراً صاح بنا: هوِّموا يا فتيان، فهوَّمنا وقام يصلي، قال المستهل: فرأيت شخصاً فتضعضعت له، فقال: ما لك؟ قلت: أرى شيئاً مقبلاً، فنظر إليه فقال: هذا ذئب قد جاء يستطعمكم، فجاء الذئب فربض ناحية فأطعمناه يد جزور فتعرقها، ثم أهوينا له بإناء فيه ماء فشرب منه وارتحلنا، فجعل الذئب يعوي، فقال الكميت: ما له ويله؟ ألم نطعمه ونسقه؟ وما أعرفني بما يريد! هو يعلمنا أنا لسنا على الطريق: تيامنوا يا فتيان، فتيامنا، فسكن عواؤه، فلم نزل نسير حتى جئنا الشام فتوارى في بني أسد وبني تميم. وأرسل إلى أشراف قريش وكان سيدهم يومئذ عنبسة بن سعيد بن العاص، فمشت رجالات قريش بعضها إلى بعض وأتوا عنبسة فقالوا: يا أبا خالد هذه مكرمة قد أتاك الله بها. هذا الكميت بن زيد لسان مضر، وكان أمير المؤمنين كتب في قتله فنجا حتى تخلص إليك وإلينا. قال فمروه أن يعوذ بقبر معاوية ابن هشام بدير حنيناء، فمضى الكميت فضرب فسطاطه عند قبره، ومضى عنبسة فأتى مسلمة بن هشام فقال له: له يا أبا شاكر مكرمة أتتك، بها تبلغ الثريا إن اعتقدتها، فإن علمت أنك تفي بها وإلا كتمتها، قال: وما هي؟ فأخبره الخبر، وقال: إنه قد مدحكم عامة وإياك خاصة بما لم يسمع بمثله، فقال: عليّ خلاصه فدخل على أبيه هشام وهو عند أمه في غير وقت دخول، فقال له هشام: أجئت لحاجة؟ قال: نعم، قال: هي مقضية إلا أن يكون الكميت فقال: ما أحب أن تستثني علي في حاجتي، وما أنا والكميت! فقالت أمه: والله لتقضين حاجته كائنة

ما كانت، قال: قد قضيتها ولو أحاطت بما بين قطريها، قال: هي الكميت يا أمير المؤمنين، وهو آمن بأمان الله عز وجل وأماني، وهو شاعر مضر، وقد قال فينا قولا لم يقل، قال: قد أمنته وأجزت أمانك له، فاجلس له مجلساً ينشدك فيه ما قال فينا. فعقد له وعنده الأبرش الكلبي، فتكلم بخطبة ارتجلها ما سمع بمثلها قط، ومدحه بقصيدته الرائية، ويقال إنه قالها ارتجالاً وهي قوله:

قِفْ بالديار وقوفَ زائِرْ

فمضى فيها حتى انتهى إلى قوله:

ماذا عليك مِنَ الوقو ... ف بها وإنك غيرُ صاغِرْ

درجتْ عليها الغاديا ... تُ الرائحاتُ من الأعاصر

وفيها يقول:

فالآنْ صرتُ إلى أُمَيَّ ... ةَ والأمورُ إلى المصاير

وجعل هشام يغمز مسلمة بقضيب في يده فيقول: إسمع إسمع، ثم استأذنه في مرثية ابنه معاوية فأذن له فأنشد قوله:

سأبكيك للدنيا وللدين إنَّني ... رأيت يد المعروف بعدك شُلَّتِ

أدامتْ عليك بالسلام تحيةً ... ملائكةُ الله الكرامُ وصلَّتِ

فبكى هشام بكاء شديدا، فوثب الحاجب فسكته، ثم جاء الكميت إلى منزله آمناً فحشدت له المضربة بالهدايا، وأمر له مسلمة بعشرين ألف درهم، وأمر له هشام بأربعين ألف درهم، وكتب إلى خالد بأمانه وأمان أهل بيته، وأنه لا سلطان له عليهم. وجمعت له بنو أمية فيما بينها مالا كثيراً، وودع هشاماً وأنشده قوله فيه:

ذكر القلبُ إلْفَهُ المذكورَا

وهذه هي الرواية الأولى فيما كان بين الكميت وخالد بن عبد الله وهشام بن عبد الملك بسبب تلك القصائد السابقة

عبد المتعال الصعيدي

كتاب حضارة العرب

للكاتب الاجتماعي الكبير غوستاف لوبون

للأستاذ خليل هنداوي

تمهيد

لم يسبق أن تردد لفظ المملكة العربية والأمجاد العربية في يوم مثل هذا اليوم. ففي كل صوب من كل قطر عربي يهب هذا الحلم من نومه ويزحف هذا الراقد الفاني إلى حقيقة تمد ذراعيها وتدعو إلى تحقيق وجودها. وكل شيء من هذه الأحداث عامل يسرع في بيان ضرورة هذه الوحدة التي لا يقوم للعرب كيان بدونها. وما قيمة جسد فيه عضو يتحرك وأعضاء جامدة لا تتمشى فيها حركة؟ وكأن السياسة الاستعمارية أدركت أن هذا التقسيم الذي رمت به الجزيرة العربية إنما هو تخدير موقوت فكيف تعمل على جعله تخديراً دائماً؟ فخلقت النعرات القومية التي جرفها التاريخ فيما جرف، والتي بادت من الحاضر حتى أصبحت لا وجود لها. . . ولقد فتن بهذه السياسة قوم وعادوا يتجردون من القومية العربية ويحملون على الثقافة العربية، لأنها في رأيهم ثقافة لم تحمل شيئاً للإنسانية. وإنها لدعوى ملفقة لم يخلقها إلا الوهم الذي خلقته السياسة الاستعمارية، وجاراها عليه فئة ماتت فيها الفكرة الاستقلالية. وتجاه خطر هذه الفئة المتذبذبة التي لا تعرف لها ديناً ولا لوناً من ألوان القومية وجب أن تقوم حملات صادقة لتحطيمها ودوس كرامتها إن كانت لها بقية من كرامة. وهذا واجب تبعث عليه البواعث الوطنية التي تؤمن بحق العرب وثقافة العرب وعظمة العرب!

لقد تناول تاريخ العرب رجال من الغرب، منهم من كانت تسيره الأهواء، ومنهم من كان يستلهم العقل والحقيقة وما أقل هؤلاء! وقد كان بودنا أن نكتب تاريخنا بأيدينا بالهوى والعاطفة كما يقولون، لأننا نكتبه إذ ذاك بحروف الذهب، ونرسمه بخطوط اللهب، لأنه تاريخ قوميتنا وثقافتنا وغابرنا الذي بيده أمر حاضرنا

ألا يكتب كل قوم تاريخهم كما يشاءون؟ ألا يسجل كل شعب ماضيه كما يرغب؟ فيا كارهي مجد العرب أي عار وجدتموه إلا عار الأنفة والكبرياء؟ وأي وصمة أتوا بها إلا وصمة

الفتوح والسيادة؟ ونحن نرى المجد في الخضوع للمستعمر، وفي الذل وخفض الجناح، ونحن نرى الفخر في فتح أبوابنا له يلجها من يشاء متى شاء. وكيف يلتقي فخرنا وذلك الفخر؟ وكيف يصافح مجدنا ذلك المجد؟

لن نعرض لهؤلاء النافرين من مجد العرب شيئاً تسطره أقلامنا وأهواؤنا، ولكنا عارضون لهم صفحات جليلة، كتبها رجل لا يتعصب لنا ولا يريد باطلاً ولا جزاء ولا شكورا. وإنما ينشد حقيقة ما عرف التاريخ شهيداً كمثلها بين الحقائق التي نقلها. فأراد هذا الرجل إنصاف هذه الحقيقة، وأراد إنصاف العرب بما كتب

قلت: كنت أريد أن يكتب تاريخنا بعاطفة وحرارة لأني أعتقد أن التاريخ في الأمم المتيقظة هو قلب قبل أن يكون عقلاً، لأن هذه الأمم - وهي في بدء يقظتها - لأحوج إلى قيادة العاطفة منها إلى قيادة العقل. وإذا عدت إلى استقراء تاريخ كل أمة ألفيت أن العاطفة هي القائدة الهادية، حتى إذا ما مشت هذه الأمة إلى هدفها واستقام سيرها، أخذت العاطفة تقر رويداً رويداً ويتسيطر على جموحها العقل. وهاهي ذي الأمم الغربية التي نقتفي أثرها ونمجد خيرها على رغم ما بلغت من نضج العقل ورسوخ القدم لا نقرأ تاريخها إلا موسوماً بميسم وطنيتها وعاطفتها لأن التاريخ المجرد يأتي هيكلاً مجرداً من الروح، وإذا لم ترد الأمة أن تطبعه بطابع حياتها وحاجتها، فما معنى حاجتها إلى هذا التاريخ إذن؟ على أننا لا نريد أن يأتي تاريخنا مشوهاً متحولاً مخالفاً للحقيقة، ولا نريد أن نسجله تسجيلاً كاذباً مختلقاً. ولو قدرنا على ذلك لما فعلنا، كما فعل ذلك العالم البلجيكي الذي أخذ يلوم أحد قادة الألمان على ما يرتكبون من فظائع في (بلجيكا) خلال الحرب العظمى وهدده بالتاريخ الذي سيحصي عليهم كل صغيرة وكبيرة، فما أجابه ذلك القائد إلا بضحكة استهزاء متمتماً: (هل تهددنا بالتاريخ، وما عسى يضع التاريخ؟ ونحن الألى نسجله غداً) يريد أن الظافر هو الذي يتولى كتابة التاريخ وتشويه الحقائق. إننا لا نسجل الآن شيئاً، وإنما رجال غربيون يسجلون. منهم صاحب حضارة العرب يسجل تاريخ حضارتنا كما تفهمه وتلمسه. وما أجدر هذه الفئة المنكرة الجاحدة لتاريخها وقوميتها بقراءة هذه الصفحات والنظر إلى ما راحوا يتنكرون منه ويوارون وجوههم خجلاً! وما كان أحق هذه الفئة بالتقديس لو أن لها من القوة والعبقرية والثقافة جزءاً مما لأجدادهم! ولكنهم قوم عميت منهم الأبصار والبصائر

وشغفوا برداء يلبسه جارهم لا حظ لهم منه إلا النظر إذا سمح الجار بذلك
هذا ما بعثني على تعريب هذا الكتاب الذي خرج إلى العالم منذ خمسين عاماً، ولا تزال الخزانة العربية تجهله، أو تعرفه وتتخلف عن تبنيه كأنه لا يمسها في شيء أو لا يعنيها من أمره شيء. على أنه كان خير كتاب سطره يراع غربي في التاريخ العربي. ولعل في إرجاء تعريبه سراً لأنه يخرج الآن في وهلة أصبح تعريبه حاجة ماسة لجيل عربي تيقظ على أمجاد غابرة، وعاد إليه حنينه الأول وحلمه الأسمى! ومن حق هذه الأمجاد أن نعمل على بعثها حتى تغدو أصواتاً تتردد في كل فج، وتصبح أصواتها أصداء تتجاوب في كل رجاء

قد يقول بعضهم: إن بين مصادر المؤلف مصادر واهية يظهر ضعفها، والكتاب ذاته ليس بذي قيمة كبيرة. ولقد يكون هنالك ضعف في المصادر وضعف في بعض المستنتج، وضعف في إحصاء أشياء، ولكن هذا لا يخلع عن الكتاب قيمته العلمية لأنه كتب في عهد بعيد قبل أن تكثر المواد التي جلت تاريخ العرب. وقد أبقينا على هذه الأخطاء لأن القارئ النبيه يستطيع تمييزها بسهولة، لأننا أحببنا أن ننقل الكتاب صورة صادقة أمينة يطلع القارئ خلالها على آراء الغربيين فينا إبان ذلك العصر. ولكن هذه التهمة لم يكن الباعث عليها ضعف المصادر فحسب، وإنما تعود أسبابها إلى أن المؤلف الذي يكتب عن العرب ينبغي له أن يعنى بإظهار سيئاتهم وطرح حسناتهم، وأن يعمل على تصويرهم شعباً مهدماً للمدنية لا بانياً، فجاء غوستاف لوبون العالم الجريء المنصف خارقاً عادات القوم متخطياً بدعتهم السيئة فكتب عن العرب ما لا يكتبه العرب عن أنفسهم، وفتح العيون العمي على ما لهم من حضارة وفضل على الإنسانية بوجه عام، وعلى الحضارة الغربية بوجه خاص، ولذلك لم يلق كتابه الرواج المنتظر في أمته. وناهيك بأن سياسة الغرب في ذلك العصر كانت تعد العدد وتختلق الحيل لاستعمار الشرق فكيف يروقها أن يظهر من يعدد لها فضائل هذه الأقطار التي تريد استعمارها بتهمة الوحشية ودعوة التمدين. فكان عدم رواجه نتيجة منطقية معقولة لهذه الفكرة المسمومة؛ وكانت حملات عليه كاذبة حاولت أن تطعن في العرب وفيمن ينتصر لهم. ومن دواعي الأسف أن هذه الفكرة لا تزال تصاحب هذا الكتاب، وسوف لا تزل مرافقة له حتى ينفض الغرب يده من هذه الأقطار وييأس من استعمارها!

وقد قص عليّ أستاذ صديق أنه خلال وجوده في باريس طلب إلى إحدى مكتبات المطالعة أن يطلع على هذا الكتاب فتأفف صاحب المكتبة، فقال له الأستاذ: أراك مشمئزاً، لعل الموضوع لا يرضيك! فأجابه: ليست المسألة مسألة موضوع، وإنما مسألة انتشاله من تحت أنقاض الكتب المتراكمة فوقه. فمد يده إلى خزانة ربما يطلق صاحبها عليها خزانة الكتب المهجورة والمغفلة، ولبث يقلب حتى علقت يد صاحبنا بالكتاب في قاع الخزانة!

وهذا يدل على أن الفكرة التي شوهته لا تزال ترافقه وأن الغربي قد ألقى في خلده أن كل ما يكتب عن الشرق والعرب بلهجة الإعجاب هو شيء كاذب مدسوس، وإنما الحق كل الحق فيما يتناولهما بالذم والسخرية والتحقير. وكأني بأفراد قلائل قد استطاعوا أن يطلقوا عقولهم من هذه الأوهام وينظفوا دم تفكيرهم من هذه السموم، ولكن عدد هؤلاء محدود، وما أقلهم لو استطاعوا أن يطهروا أنفسهم!

وأسباب ذلك كما قدمت تعود إلى أضاليل الغاية الاستعمارية التي استلهمت أيضاً العصبية الدينية، وتكاتفتا معاً على إخفاء محاسن العرب، وعلى اظهارهم شيئاً هو دون الشعوب. ويقيني لو أن موازناً منهم قارن بين شعب من الزنوج والعرب لشالت كفة العرب ولرجحت كفة الشعب الزنجي لأن هذا الشعب تم لهم استعماره وتحضيره وذلك لم يتم ولما يتم لهم منه شيء

أما أجري الذي أنشده من هذا التعريب فهو أمنيتي التي أرجو أني وصلت إليها في وضع لبنة واحدة في صرح المملكة العربية الحديثة وفي استجلاب كثيرين ممن ضلوا مجد أمتهم الغابر ليحثهم على بناء المجد الحاضر، وما هنا إلا صفحة من صفحات هذا الفاتح الذي ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم منه. . . فاقرءوا أيها العرب وأنفذوا منها إلى بقايا صفحات تاريخكم المجيد

(تتلوه المقدمة)
خليل هنداوي
مقالات إسماعيلية
لأستاذ جليل
- 2 -
في معرفة العقل
ومنها حدثني الحسن الموصلي عن علي بن محمد نازل سَوْرة والعباس بن محمد بن الحسين جميعاً عن محمد بن سنان الزاهدي قال: سألت لمولانا (علينا سلامه) عن أول صفات الأزل، فقال لي: العقل، فقلت: وما العقل يا مولاي؟ فقال: أنا. وما علمت أن بي يعقل العاقل، وبي ينظر الناظر، وبي يسمع السامع، وبي يبطش الباطش، وبي يتحرك الساكن، وبي يذاق الطيب، وبي يشم الروائح الطبية، وبي يحس الحواس، وبي أفاضوا الناس؟ فقال له محمد بن سنان فكيف منزلتك من الباري الأزلي؟ فقال له كمنزلة العلم من العالم لم ينفصل منه ولا هو سواه. واعلم يا محمد، أن الأزل أطلع من ذاته نوراً لم يفصله منه، ولا غاب عنه، ثم سماه عقلا، وخاطبه به، فقال له: من أنا؟ أجابه أنت وأنا منك، فقال له أدبر يعني اظهر كالمنفصل مني، فظهر ثم قال له: أقبل يعني غب فيّ واتصل بي، فاتصل فقال له به وخاطبه منه: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً قبلك إلا أنا إذ أنا معدنك، ولا خلق أبداً أحب إليّ منك، لأنك مني بديت، وأنا بك ظهرت. منك نطقت، وبك أدعو، وأنت إشارتي ونودي في سمواتي وارضي، بك آخذ حقي من خلقي، وبك أجازي من عرفني وأقرّ بي، فأنت الواحد إذ لا مثل لك، وأنا الأحد لأني متحد بك. لست حين اطلع بك حركاتي وغيبتك سكوني وأنا العلي الحميد والسلام
- 3 -
فصل في معرفة الإنسان
قال الله (تعالى): (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً) اعلم أن الإنسان هو النفس خلقت قبل الجسم زماناً طويلا، فلما ظهرت النفس بصورة الجسم ذكرت وعرفت حتى تعقل منه المعقولات أي تعرف إمام العصر والزمان؛ فإذا عرفت ارتقت إلى عالمها النوراني كما قال الله (عز وجل) (ثم ننجّي الذين اتقوا ونذرُ الظالمين فيها جِثِياً)
والجثو هو المعاد فيها. وإذا لم تعرف إمام العصر والزمان تتردد في عالم الكون والفساد على الأجساد ومحل الآلام حتى تعرف إمام زمانها وتدخل تحت طاعته؛ فإذا عرفت خلصت ونجت وارتقت، وإذا لم تعرف لا تزال تتردد حتى تعرف بعد المدد والدهور الطوال. قال بعض العارفين لولده: احرص يا بنيّ أن تخلّصها في هيكل واحد ولا في هيكل ثان والسلام
- 4 -
(فصل) اعلم (يا أخي) إن النفوس المنكرة لا تزال تتردد في عالم الكون والفساد والنشوء والبلى حتى تعقل منه المعقولات أعني معرفة إمام العصر والزمان. والسلام على من اتبع الهدى، وخشي عواقب الهوى، وأطاع الملك الأعلى، وأمر بالتقوى، وكان من الفائزين، والسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين
- 5 -
(فصل) اعلم أن الجن ثلاث طبقات: الجن الغواصة، والجن الطيارة، والجن المرَدَة. أما بعد فإن الجن الغواصة هم الحكماء الغواصون في العلوم الحقيقية، والجن الطيارة هم الحجج والدعاة الذين يطيرون في علومهم من مكان إلى مكان، والجن المردة فهم أهل الظاهر المرقبون السمع العاندون للحق في كل عصر وزمان، فاعلم ذلك. قال عليّ (علينا سلامه): من عاند الحق هان، ومن تهاون في الدين انهان. وقال أيضاً: من استغنى بعقله ضلّ، ومن عجب بعلمه زل، ومن استعان بغير الله ذل، والسلام
- 6 -
(فصل) اعلم أن دعائم الإسلام سبع، وعند أهل الظاهر خمس، وهي الصوم والصلاة والحج والزكاة والجهاد في سبيل الله (تعالى) والولاية والإمامة، أنكر أهل الظاهر الولاية والإمامة

قال النبي عليه الصلاة والسلام في حق عليّ يوم الغدير: (من كنت مولاه فعليّ مولاه. اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من نكره، وأدرْ الحق معه حيث دار) هذا في الولاية؛ وقال النبي في الإمامة: (من مات ولم يعرف إمام زمانه معرفة جلية
فقد مات ميتة جاهلية، والجاهل كافر والكافر في النار) والسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين
- 7 -
(فصل) النبي (صلعم): (تسلمت من خمس وسلمت إلى خمس، وبيني وبين ربي خمس). (الجواب): فالخمس الذي تسلم النبي منهم، فهم بحيرا الراهب وميسرة وزيد بن عمرو وعمرو بن نفيل وخديجة بنت خويلد؛ والخمس الذي سلم إليهم، فهم الأساس، والداعي، والحجة، والإمام، والوصي؛ والخمس الذين بينه وبين الله (عز وجل) فهم العقل، والنفس، والجد، والفتح، والخيال، وقوله: أنا وأهل بيتي خمس، فهم محمد، وعليّ والحسن، والحسين وفاطمة، عليهم السلام أجمعين، والحمد لله رب العالمين
- 8 -
(فصل) اعلم يا أخي أن العقل نور إلهي مشرق على ظهر العالم فيقبل كل شيء من الأشياء التي تحته تحيي قواه، فلما الإنسان أقرب بنسبه إلى العقل قبل من الفيض أكثر من جميع الموجودات، والنور هو العلم، والعلم هو العقل الإنساني والسلام
- 9 -
(فصل) اعلم يا أخي أن جهنم هي البعد من الله، وهي مركز الأرض ومحل الأجسام عالم الكون والفساد؛ والجنة هي القرب من الله وهي عالم القدس ومحل النفوس والأنوار، وعرضها كعرض السموات والأرض كما قال الله تعالى: (وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين) والحمد لله رب العالمين
حقيقة الإسلام
للأستاذ خليل جمعة الطوال
(. . . أنا لست مسلماً ولكن ذلك لا يمنعني من أن أقول في الإسلام الحق. ولقد دفعني إلى هذا ما شاع بيننا نحن المسيحيين - عن طريق المبشرين وانكشارية الدين المأجورين - من أن الإسلام دين كاذب قام على السيف وأصارحك أني كنت على هذا الرأي حتى تنبهت إلى فضائل الإسلام عن طريق الرسالة الغراء، ثم عن طريق القرآن الشريف. لذلك آليت على نفسي أن أعوض عن عدم إسلامي بنشر فضائل الإسلام بقلمي ولساني)
خليل جمعة الطوال
(. . .الإسلام دين بربري قام بقوة السيف)
(فولتير والخصوم)
بهذه الحجة الواهية ينثال على الإسلام خصومه ليشوهوا جماله، وينالوا من روحه الكبرى، وينتقصوا من تعاليمه السامية. وبهذه الحجة أيضاً يتذرع أهل الجهالة والزيغ، إذ يصمون صاحب الرسالة العربية بالكذب والشعر والكهانة، ويدعون أنه مؤسس ديانة بربرية كاذبة، تنافي مبادئها روح الحضارة، وتقف تعاليمها حائلاً دون تقدم المدنية. ولو أنهم خلوا إلى أنفسهم، ونفضوا عنها غبار التعصب، ودرسوا تعاليم الإسلام، وتدبروا آياته في هدأة من أغراضهم الذاتية، لانجابت عن بصائرهم سدف الأرجاف، ولانجلى عن قلوبهم خبث الصدور وصدأ الباطل
يزعمون أن الإسلام قام بقوة السيف. . . ويتمسكون بهذا الزعم على أنه حقيقة واقعة لا غبار عليها. ولكن فاتهم أن القوة التي أعزت الإسلام في بدر، والقادسية، واليرموك، والتي غزا بها المسلمون - على قلة عدهم وضعف عدتهم - وعتادهم العالم، وأمعنوا في جهاته
الأربع بالفتح والاستعمار، حتى وسعت إمبراطوريتهم ثلثي الكرة الأرضية - لم تكن إلا قوة إيمانهم بعقيدتهم الجديدة، عقيدة التوحيد بالله وعدم الشرك به، تلك العقيدة السامية التي استمرءوا في سبيلها النكبات، وتجشموا الأخطار والمصائب، فما لانت

قناتهم، ولا خضُدتْ شوكتهم، ولا هانت قوتهم. ولئن قام الإسلام ببضعة أسياف ونفر من الرجال، لقد قاومه أعداؤه المشركون بآلاف الصوارم، وكتائب الأبطال. وما انتصاره عليهم إلا انتصار الحق على الباطل، وما هزيمتهم أمامه إلا هزيمة القوة المادية أمام قوة الإيمان الروحية

تبارك الله!! رجل يقوم ضد أمة، فكأنه بقوة إيمانه - وهي كل ذخيرته - أمة بأسرها. فيغلبها حيناً وتغالبه أحياناً، ثم ينصر الله عبده، ويعز كلمته، فإذا القوم يسارعون فرادى وجماعات ليستظلوا تحت راية حقه، وليسترشدوا بنوره، ويهتدوا بهدايته، وإذا محمد رسول الله، ورجل الحق، وعدو الكفر يقف فيهم خطيباً عند باب البيت ليعلن فيهم مبدأ الإخاء والحرية والمساواة، فيقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له. صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده. ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدميَّ هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج. يا معشر قريش! إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء. الناس من آدم، وآدم خلق من تراب. يا أيها الناس أنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم

تلك هي مبادئ الإسلام السامية التي اهتزت لها أصنام الوثنية وهياكلها، بل تلك هي عدة المسلمين التي فتحوا بها العالم والتي لم تغن عنها (يوم ثور) جيوشُهم اللجبة الجرارة وأسلحتهم الوفيرة المدمرة

بمثل هذه المبادئ قام الإسلام يرشد الناس بنور الهداية، وحسن الموعظة، ولم يلجأ إلى السيف إلا دفاعاً عن حوزته، وإشفاقاً على رسالته، من أن تصبح مضغة استخفاف يلوكها أهل الكفر والإلحاد مدى العمر. وأي شريعة سماوية جديدة قامت ولم يؤيدها السيف في انتشارها؟ أهي اليهودية وقد كانت تأمر برجم كل خارج على الناموس؟. . . أم هي المسيحية ومازالت محاكم التفتيش بأقبائها المروعة المظلمة يتردد صداها في الآذان، وترتعد من فظائعها الأبدان؟ ولمَ نذهب بعيداً في الاستدلال والتاريخ مفعم بذكر الكثيرين من ضحايا المسيحية - أو قل على الأصح إنكشارية المسيحية - ومجازرها؟ وحسبك منها

مجزرة القديس (سان برثلمو) التي قتل فيها (25000) نفس، ومجزرة شارلمان بقبائل السكسون التي سالت فيها الدماء البريئة أنهارا؛ وما ارتكبته جيوش فيليب الثاني ملك أسبانيا وحامي ذمار الكاثوليكية في هولندا من الفظائع وضروب التمثيل التي تهتز لهولها الرواسي، وتشيب لمنظرها النواصي. وما فعله الإمبراطور فرديناند الثاني وهو من أسرة هبسبرج حين حاول أن يستأصل شأفة البروتسينتية في ألمانيا، فأرسل إليها جيوشه اللجبة، التي أخذت تعمل السيف في الرقاب والعباد، والنهب في البلاد؛ واختل الأمن، فأبيحت الأعراض، وأزهقت النفوس البريئة، وخرب خمسة أسداس المدن والقرى الألمانية، وتناقص عدد السكان فيها، حتى صار أربعة ملايين بعد أن كان ثمانية عشر مليوناً

ولِمَ نذهب بعيداً وفي الأمس تراجع البابا تلك الذكريات المؤلمة، فيبكي وينتحب لها، ولأن أهل رومية قد أقاموا (لبرونو الإيطالي) الذي أحرقته محاكم التفتيش بالقار والقطران، في حفل رائع من رجال الإكليروس، تمثالاً عظيما في المكان الذي أحرق فيه ضحية لتزمت العصر، وكفارة عن حرية الفكر

ولم تكن البروتسنتية على حداثة عهدها لتختلف عن الكاثوليكية بشيء من حيث تفتيش الضمائر ومخبآت الصدور، واضطهاد أبطال الحرية الفكرية بالسجن حيناً وبالحرق أحياناً، فتلك النيران المخيفة التي التهمت جثة (سرفيتوس الإسباني) ما يزال مشهدها ماثلاً أمام عيني كلفن وهو في جدثه، وما تزال تلك الذكرى تنتاش جثته الهامدة ورمته البالية

لقد اضطهدت المسيحية على اختلاف مذاهبها خلقاً كثيراً من ذوي الحرية الفكرية على حين كان الإسلام على درجة بعيدة من التسامح؛ ولنا من أبي العلاء المعري أكبر دليل على ذلك، فقد شك هذا الفيلسوف العظيم في جميع الأديان، واتهم بالكفر والإلحاد، ومع كل ذلك فقد عاش آمناً مطمئناً على حياته، ولم ينله من الحكومات الإسلامية أدنى أذى مع أنه قد تمادى في كفره وشكه لدرجة تكفي للحكم عليه بالقتل والحرق ومن الحق هنا أن نسجل أن جميع الديانات حتى الوثنية منها تأمر بالخير والإحسان وأن المسيحية لم تبح سفك الدماء واضطهاد الأبرياء، ولكن ما العمل وقد اضطهدت هذه

!!النفوس البريئة باسمها! وذلك إرضاء للنفوس الدنيئة، والأطماع السافلة
لقد قام الإسلام يدعو إلى التوحيد، فأعطى أهل الكتاب الحرية التامة في إقامة شعائرهم
الدينية ومعتقداتهم، ولم يعمد إلى السيف في إخضاع المشركين وردهم إلى حظيرة الإيمان بالله إلا إذا أبوا أن يلبوا دعوة الله بالحجة البينة، والموعظة الحسنة، واختاروا الحرب
أفبعد هذا يزعمون أن الإسلام دين كاذب؟! ليت شعري، أية كذبة تماشي العصر، وتساير الزمن، وتعيش مع الدهر - بين الخصوم - أربعة عشر قرناً، وتنطلي تمويهاتها على أربعمائة مليون من الناس، وتظل عندهم طيلة هذه الأحقاب موضع الإجلال والإكبار، تهز قلوبهم للرحمة وأكفهم للخير؟
ألا إن الإسلام بريء مما نسب إليه، فهو دين عربي صادق يدعو إلى توحيد الله دون أن يلجأ إلى التواء المنطق وغث التأويل. (ولئن فاتني حظي من النسب، لن يفوتني حظي من المعرفة)
هذا هو الإسلام الذي قال فيه شاعر الألمان وأعظم عظمائهم (جايتي): إذا كان ذلك هو الإسلام فكلنا إذاً مسلمون. نعم كل من كان فاضلاً شريف الخلق فهو مسلم
(شرق الأردن)
خليل جمعة الطوال
للأدب والتاريخ
مصطفى صادق الرافعي
1880 - 1937
للأستاذ محمد سعيد العريان
- 14 -
أتذكر إذ التقينا وليس بيننا شابكة، فجلسنا مع الجالسين لم تقل شيئاً في . . .)
أساليب الحديث، غير أننا قلنا ما شئنا بالأسلوب الخاص باثنين فيما بين قلبيهما؟
وشعرنا أول اللقاء بما لا يكون مثله إلا في التلاقي بعد فراق طويل، كأن في . . .)
كلينا قلباً ينتظر قلباً من زمن بعيد؟
ولم تكد العين تكتحل بالعين حتى أخذت كلتاهما أسلحتها. . . وأثبت اللقاء بشذوذه أنه)
لقاء الحب؟
وقلت لي بعينيك: أنا. . . وقلت لك بعيني: وأنا. . . وتكاشفنا بأن تكاتمنا؟)
وتعارفنا بأحزاننا كأن كلينا شكوى تهم أن تفيض ببثها؟)
وجذبتني سحنتك الفكرية النبيلة التي تضع الحزن في نفس من يراها فإذا هو إعجاب؛)
فإذا هو إكبار؛ فإذا هو حب؟
وعودت عيني من تلك الساعة كيف تنظران إليك؟)
وجعلت أراك تشعر بما حولك شعوراً مضاعفاً كأن فيه زيادة لم تزد؟)
وكان الجو جو قلبينا. . .)
(وتكاشفنا مرة ثانية بأن تكاتمنا مرة ثانية. . .؟)
(هي)
بماذا أصف مكاناً للحب كأنما مر به سر الخلود فإذا الوقت فيه لا يشبه نقصاناً . . .)
من العمر بل زيادة عليه؛ وكانت يا حبيبتي كل دقيقة وثانيتها في مجلسك الساحر كأنها بعض الفكرة والحس لا بعض الزمان والمكان. . .
وكنت وما أشعر من سحرك إلا أني بازاء سر وضعني في ساعة من غير الدنيا . . .)
وحصرني فيك وحدك. . .
وهاجمتني من يقظتي واقتحمت عليّ من حذري. . .)
وخليتني وعينيك، وخليتني وما كتب عليّ. . .)
واتسعت روحي لتشملك، فما كنت تتكلمين ولا تضحكين ولا تخطرين في غرفتك)
ولكن في داخل نفسي. .
وكنا نتكلم ولكن ألفاظنا تتعانق أمامنا ويلثم بعضها بعضاً من حيث لا تراها إلا . . .)
عيناي وعيناك
وتراءت النفسان فملأتا المكان بأفراح الفكر، واستفاض السرور على جمالك بمعنى)

كلون الزهرة النضرة هو عطرها للنظر
(. .وقلت لي بجملتك: أنا. . وقلت لك بجملتي: وأنا)
(هو)
هي وهو؟
إني لأعرفه عرفاني بنفسي، فما بي شك فيما أكتب عن حبه؛ ولقد خلطني بنفسه زمنا فإني لأسمع نجواه وأقرأ سره، وأعرف ذات صوره، فما أصف من حبه إلا مستيقناً كأنما أنقل عن لوح مسطور في فؤادي، أو أثبت من حادثة في تاريخ أيامي ماثلة في نفسي بصورها وألوانها وحوادثها فما يغيب عني منها شيء. ولولا تقاليد الناس وآداب الجماعة لمزقت النقاب عن وجه الحديث وجلوته على القراء في بيان سافر كإشراق الضحى، ولكن. . . ولكنها هي. . .
أما هي فما في يدي شيء من خبرها إلا ما حدثني به الرافعي أو حدثتني رسائله، فما أتحدث عن حبها إلا راوية يكتب ما يسمع لا ما يشهد، أو محققاً يضع كلمة إلى كلمة، ويزاوج بين رسالة ورسالة، ليخرج منهما معنى ليس في يده من حقيقته شيء إلا ما يهديه الفكر وصواب الرأي وملابسات الحادثة
وإنها لأديبة شاعرة يعرفها كثير من قراء العربية وأعرفها عرفانهم أو يزيد، وحسبي هذا مقدمات إلى النتيجة، وما يعسر على من يمسك طرف الخيط أن يصل إلى آخره. . .
لقد التقيا وما بينهما شابكة ولا يربطهما سبب؛ فما كانت إلا نظرة وجوابها حتى ارتبطا قلباً إلى قلب؛ وكان الأدب رباط بينهما أول ما كان، ثم استجرهما الحديث إلى فنون من الكلام فكشفت له عن آلامها وكشف لها عن آلامه فكان عطف وإشفاق؛ ثم تحدثت عن أحلامها وتحدث عن أحلامه، فكان الحب؛ ثم. . . ثم كانت القطيعة حين بلغ الحب غايته ونال مناله من نفسها ومن نفسه، فافترقا حين كان يجب أن يبدأ اللقاء ليتذوقا سعادة الحب ويقطفا من ثمراته. . . وضرب الدهر من ضرباته فإذا هو تحت الرغام، وإذا هي في المستشفي تتمرض من داء هيهات أن تجد له الدواء!
لم تكن (هي) تقصد الحب ولا تعمدته ولا كان هو، ولكنها أديبة تعرف موازين الكلام، لقيت الأديب الذي تعجب به ويفتنها بيانه، فأحبته (عقلاً جميلا) كما تسميه في بعض رسائلها. . .
وكان سعيه إليها يلتمس الشعر والحكمة، والشعر والحكمة هما رابطتها إليه وفاتنتها به؛ فتصنعت له لتفنه وتزيده شعراً وحكمة، ثم تصنعت لتزيده، ثم تصنعت لتزيده، ثم تصنعت لتزيد هي به؛ لأنها وجدت به نفسها، ووجدت به الشعر والحكمة والبيان؛ فأحبته (أستاذها ومرشدها) لأنه أوحى إليها ما عجز دونه الآخرون، لأنه فجر لها ينبوع الشعر وعلمها البيان هكذا تقول في بعض رسائلها. . .
وهي فتاة لم يسالمها الدهر ولم تزل منذ كانت - غرضاً لسهام الأيام، تنوشها الآلام من كل جانب، ولها نفس شاعرة تضاعف أحزانها فتجعل لها من كل همٍّ همين، وإن حواليها لكثيراً من الأصدقاء يزدلفون إليها ويخطبون ودها، ولكن. . . ولكنها تريد الصديق الذي يستمع إلى شكواها من الأيام فتستريح إليه، أكثر مما تريد الصديق الذي لا تسمع منه إلا كلمات الزلفى والتحبّب واصطناع الهوى والغرام. . . وتحدث إليها الرافعي وتحدثت إليه، وقصت عليه من أحزانها فاخضلّتْ عيناه وأطرق فوضعت يدها على يده وهي تقول:
(سأدعوك أبي وأمي متهيبة فيك سطوة الكبير وتأثير الآمر، وسأدعوك قومي وعشيرتي، أنا التي أعلم أن هؤلاء ليسوا دواماً بالمحبين؛ وسأدعوك أخي وصديقي، أنا التي لا أخ لي ولا صديق؛ وسأطلعك على ضعفي واحتياجي إلى المعونة، أنا التي تتخيَّل فيّ قوة الأبطال ومناعة الصناديد!
(!. . .وسأبين لك افتقاري إلى العطف والحنان، ثم أبكي أمامك وأنت لا تدري
وأحبته (صديقاً) تفزع إليه إذا ضاقت بآلامها وحزبتها الهموم. . .
وهي الفتاة التي لم تعرف في حياتها إلا التجهم والعبوس، ولم تعرف من دنياها إلا الجد الصارم؛ وما كان لها من عمل غير الاستغراق في الفكر، أو الاستغراق في الفن؛ وإنها لأنثى وإن كانت فيلسوفة شاعرة. . .
والرافعي رجل - كان - لا يحمل من هم، فما يدع النكتة ولا يترك المزاح والدعابة وإن الدنيا تصطرع حواليه، وإن كان القضاء منه بمرصد يراه ويتوقعه؛ وإنه ليهزل في أجدِّ

الجد وأحرج الساعات هزله في أصفى حالاته وأسعد أيامه؛ فما يجالسه ذو هم إلا سُرِّى عنه كأنما يمسح قلبه فيمحو أحزانه. . .
وتحدث إليها وتحدثت إليه، فأحبته (الرفيق الأنيس) الذي تسيطر عليها روحه فينتزعها من دنياها العابسة إلى دنياه. .
واستمعت إلى صوته يتحدث، فكان له في نفسها رنين؛ ونظرت إلى سحنته الفكرية النبيلة فرأت فيها مرآة نفس صافية لا تعرف الخداع والتزوير؛ ولمحته يبتسم، فجذبتها إليه ابتسامه لم تجد مثلها إلا زيفا على شفاه الرجال؛ ونظر إليها ونظرت إليه، وقال وقالت، وتحدث قلب إلى قلب، وتناجيا في صمت؛ وتركها وهي في نفسه، ومضى وهو في مجلسها؛ وأحست في نفسها إحساساً ليس لها به عهد؛ فتناولت قلمها لتكتب إليه: (سأستعيد ذكرك متكلما في خلوتي لأسمع منك حكاية غمومك وأطماعك وآمالك، . . .
حكاية البشر المتجمعة في فرد واحد؛ وسأتسمع إلى جميع الأصوات علّي أعثر فيها على لهجة صوتك، وأشرِّح جميع الأفكار وأمتدح الصائب من الآراء ليتعاظم تقديري لآرائك وأفكارك. . . وسأبتسم في المرآة ابتسامتك
في حضورك سأتحول عنك إلى نفسي لأفكر فيك، وفي غيابك سأتحول عن الآخرين إليك لأفكر فيك. . .)
سأتخيل ألف ألف مرة كيف أنت تطرب، وكيف تشتاق، وكيف تحزن، وكيف تتغلب على عاديِّ الانفعال برزانة وشهامة لتستسلم ببسالة وحرارة إلى الانفعال النبيل. . .
وفي أعماق نفسي يتصاعد الشكر لك بخوراً، لأنك أوحيت إلي ما عجز دونه الآخرون. أتعلم ذلك، أنت الذي لا تعلم؟ أتعلم ذلك، أنت الذي لا أريد أن تعلم. . .!)
وكان حبها إعجاباً بالعقل الجميل، ثم تقديراً لأستاذها الذي فجر لها ينبوع الشعر والبيان، ثم إجلالا للصديق الذي وجدت مفزعها إليه، ثم انعطافاً إلى الرفيق الأنيس الذي كشف لها عن أفراح الحياة، ثم. . . ثم حباً يستأثر بنفسها ويسيطر عليها في غيبه ومشهده فما لها عمل إلا أن تفكر فيه. . .
وأضلها الهوى وأضله؛ وخيل إليها أنها تستطيع أن تكون أرفعَ محلاًّ لو أنها منعته بعض ما تمنحه، وخيل إليه أنه يستطيع وقالت له: (أنا لا أشفق على آلامك؛ وهل تراني أكره لك النبوغ والعبقرية؟) وقالت له كبرياؤه وغيرته وظنونه غير ما قالت صاحبته؛ ومضى كل منهما إلى طريق والقلب يتلفت؛ وما عرفت إلا من بعد أنه يحبها حباً لا يطيق أن يتسع أكثر مما تتسع له نفس إنسان؛ وما عرف إلا من بعد أنها كانت تجافيه لتطلب إليه أن يكون في الحب أجرأ مما كان. . .
وعرف وعرفت، ولكن العقدة لم تجد من يحلها وبينهما فلسفة الفيلسوف وكبرياء المتكبر؛ وظلّ وظلت وبينهما البعد البعيد على هوى وحنين. . . حتى جاء الموت فحل العقدة التي استعصت على الأحياء. . .!
إن كثيراً ممن يعرفونها ويعرفونه ليدهشون إذ يقرءون قصة هذا الحب، وسيتناولونها بالريبة والشك؛ وسيقول قائل، وسيدعي مدع، وسيحاول محاول أن يفلسف ويعلِّل؛ ولا عليّ من كل أولئك مادمت أقص القصة التي أعرفها وأستيقنها، والتي كان لها في حياة الرافعي الأدبية تأثير يُردّ إليه أكثر أدبه من بعد، وحسبه أنه كان الوحي الذي استمد منه الرافعي فلسفة الحب والجمال في كتبه الثلاثة: رسائل الأحزان، والسحاب الأحمر، وأوراق الورد، وحسبي أنني قدمت الوسيلة لمن يريد أن يدرس هذه الكتب الثلاثة على أسلوب من العلم جديد
(شبرا)
محمد سعيد العريان
أبو الفرج الببغاء
للأستاذ عبد العظيم علي قناوي
- 4 -
أهلَّ أبو الفرج الببغاء في أعقاب عصر، وفي طلائع عصر آخر؛ أما العصر الأول فكانت الكتابة فيه جزلة مرسلة، تسير ذللاً لا أمت فيها ولا عوج، وترسل طبيعية لا تعمل فيها ولا تكلف، لا يلتفت الكاتب إلى غير المعنى الواضح الناصع في اللفظ المحكم والنسج المبرم؛ فقد كانت الأمة حينئذ - أواخر دولة بني أمية وأوائل دولة بني العباس - لا يزال بها رسيس من بداوة، وكتابها لا يفتأون ناهجين في أساليبهم نهج العروبة الخالصة، لم

تشبها كدرة العجمة. ومن كان منهم أعجمي التفكير فإنه عربي قح في التعبير، ومن أريدت له من أبناء العجم - وما أكثرهم - المنزلة الرفيعة والحظوة المكينة لدى رجالات عصره وسراة دولته، فأداته الأولى حذق العربية والتبحر فيها، وممارسة الأدب والبراعة فيه، والاحتفال له، واتخاذ صناعة الكتابة وسيلة زلفاه، وسبب علياه، والمشرع الذي يشرعه لا يحلّئُه عنه أحد، ولا يذوده دون وروده ذائد؛ هو شدو اللغة بين بدوها، ينهل من قطرها ونبعها. ولقد كان أرباب السلطان يهيبون بمن يتخيلون فيهم مخايل الفطنة والموهبة والذكاء والنبوغ أو يتوسمون منهم فوقاً وحذقاً وبراعة ونبلاً؛ يهيبون بهم أن يهبطوا أول أمرهم في البادية تشرق فيها قرائحهم عن أفكار صافية، وتجري ألسنتهم على الألفاظ السليمة الخالصة، ثم يعوجوا إلى رهط الحضر يعبُّون من أخيلته السامية، ويعلّون من معارفه الزاخرة، ولم تكن الفارسية قد زحمت العربية إلا بقَدر، والعجمة لا تزال محدودة البيئة والوطن؛ لأن كلتا الدولتين الغاربة والشارقة، أو الأموية والعباسية إبان ذلك تبغي مأرباً واحداً؛ فالأولى تريد لعرشها نهوضاً ولملكها رسوخاً، على ظبات الرماح وعلى أسلات اليراع؛ والأخرى تطلب لنجمها الصاعد سطوعاً وتبني ملكاً ثابت الأساس، فرجالهما في حاجة إلى من يملك أسماع جمهور العامة بفصاحته الصَّافية، ويخلب ألباب قارئيه من الخاصة ببلاغته الصافية؛ وما حديث عبد الحميد الكاتب إلا شاهد ما نقول من أن دولة الكتابة كانت - ولا تزال - عماداً قوياً لدولة السياسة

قام أبو مسلم الخراساني بالدعوة العلوية أو العباسية وظهر في كثير من الأقاليم، وذاع أمره

واستشرى خطبه، فأراد عبد الحميد أن يحاربه بكتبه لا بكتائبه، وأن يأسره بلسانه لا بسنانه، فكتب إليه على لسان مولاه مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية كتاباً يستصفيه وده ويستخلصه إليه، وقال لمولاه: قد كتبت كتاباً متى قرأه بطل تدبيره؛ فإن يك ذلك وإلا فالهلاك. ولكن أبا مسلم داهية الفرس ودهقانها وقائد خراسان ومحنكها لم يكن بالغر يلعب بعقله الأدب، وتشغله عن واجبه الكتب، فلم يعبأ بالكتاب ولا بالاه، بل أمر بإحراقه وتركه تذروه الرياح، وكتب على قطعة منه إلى مروان:

محا السيف أسطار البلاغة وانتحى ... عليك ليوث الغاب من كل جانب

في أعقاب عصر عبد الحميد وابن المقفع وأضرابهما وفي طلائع العصر الثاني الذي تحوّل فيه حال الكتابة وتبدل أمرها؛ إذ طغى العجم على العرب واستهتر الكتاب بالمجون والخلاعة، وصّيروا الكتابة أداة من أدوات اللهو، وسبباً من أسباب الدعة، وجعلوا لها من الأغراض ما للشعر وزيادة، أهلَّ أبو الفرج، وعلى لوائها أبو الفضل بن العميد، وقد فُتن ومن لاحقه باللفظ المبهرج والأسلوب المزخرف، فالعبارات موشحة مرصعة، والفقرات مجنسة مطبقة، وأنواع البديع في الكتابة كزهر الربيع إلا أنها لا تجيء عفو الخاطر أو ربيبة القريحة كما كانت قبلا، بل تأتي بكد ذهن وعصر مخ وإعمال فكر؛ أما المعنى فكانت له لدى كتاب هذا العصر المنزلة الدنيا، فالأفكار ضيقة، والأخيلة محصورة محدودة؛ لذلك سرى في الكتابة روح غير روحها الأول، وسار الكتاب وئيداً إلى غير النهج الأمثل. على أن ابن العميد ولداته ومنهم أبو الفرج لم يغلوا غلواً ممقوتاً، ولا تطرفوا تطرفاً ممجوجاً، فعل من أتى بعدهم ممن سار على دربهم، فلم يصلوا إلى ما وصل إليه أسلافهم، فقد كانت أخيلة ابن العميد فارسية في حلة عربية، وألفاظه زائنات معانيه، ومعانيه درر كشفت عنها ألفاظه. ولقد ضرب به المثل فقيل: (بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد) وكأني بصاحب هذا المثل يريد أن يكسف شموساً أشرقت من بعده وفي عهده، وأن يخسف بدوراً سطعت على كثبه لا فضل له عليهم إلا أن الدنيا لم تسر في ركابهم، والملك لم يقف على بابهم. وهذا أبو الفرج سرى على ضوئه وارتشف من نبعه حتى روي؛ وسار في عدوائه وضرب، حتى بلغ غاية المتأمل، ووصل إلى مرتبة المتفضل. وسأعرض قطعة من غرر نثر ابن العميد ترسل إلينا قبساً من سناه، وتكشف لنا عن سمو نثره وعلاه،

ثم أقدم بين يدي القارئ الكريم أخريات لأبي الفرج، وأترك الحكم للحاذق الفهم. ولا أظن أن الببغاء قصر كثيراً عن رئيس الكتاب سوى أن الدنيا أقبلت على الرئيس ابن العميد فمنحته محاسن غيره، وسلبت غيره محاسنه وأولته مثالب ومساوئ

كتب ابن العميد إلى أبي العلاء السرويّ وهو من أصفى خلصائه فالكتابة إليه في نهاية

الجودة كما يقول الثعالبي (لصدوره عن صدر مائل إليه محب له مناسب بالأدب إياه)
كتب إليه يشكو شهر رمضان وهو من الأغراض التي لم يحاك فيها سابقاً قال:
كتابي - جعلني الله فداك - وأنا في كد وتعب منذ فارقت شعبان، وفي جهد ونصب)
من شهر رمضان، وفي العذاب الأدنى - دون العذاب الأكبر - من ألم الجوع ووقع
الصوم، ومرتهن بتضاعف حرور لو أن اللحم يصلى ببعضها غريضاً أتى أصحابه وهو
منضج، وممتحن بهواجر يكاد أوراها يذيب دماغ الضب، ويصرف وجه الحرباء عن
التحنق، ويزويه عن التبصر يقبض يده عن إمساك ساق، وإرسال ساق:
ويترك الجاب في شغل عن الحقب ... ويقدح النار بين الجلد والعصب
ويغادر الوحش وقد مالت هواديها
سجوداً لدى الأرطى كأن رءوسها ... علاها صداع أو فواق يصورها
ومنها:
وممنو بأيام تحاكي ظل الرمح طولاً، وليال كإبهام القطاة قصراً، ونوم كلا ولا قلة،)
وكحسو الطائر من دماء الثماد دقة، وكتصفيقة الطائر المستحر خفة. .
كما أبرقت قوماً عطاشا غمامة ... فلما رجوها اقشعت وتجلت
(و)
كنقر العصافير وهي خائفة ... من النواطير يانعَ الرطب)
وهي طويلة وفيما قدمنا منها غنية عما تركنا. وقد جلت لنا طريقته في الكتابة التي
سلكها من عاصره ومن تابعه. ونعرض صوراً متنوعة من كتابة أبي الفرج علنا نؤدي
واجبه كاملا دون تحيف أو تزيد
هنأ ممدوحه سيف الدولة بظفره في إحدى وقائعه فقال من كتاب طويل:
والشجاعة أقل أدواته، والبلاغة أصغر صفاته، تطرق الدنيا إذا نطق، وينطق المجد إذا
افتخر، فالآمال موقوفة عليه، والثناء أجمع مصروف إليه، نهض بما قعدت همم الملوك
عن ثقله، وضعف الدهر عن معاناة مثله، بهمم سيفية، وعزائم علوية، فرد شمل الدين
جديداً، وذميم الأيام حميداً، بحق أوضحه، وخلل أصلحه، وهدى أعاده، وضلال أباده
فلا انتزع الله الهدى عز بأسه ... ولا انتزع الله الوغى عز نصره
وأحسن عن حفظ النبي وآله ... ورعى سوام الدين توفير شكره
فما تدرك المداح أدنى حقوقه ... بإغراق منظوم الكلام ونثره
لأن أدنى نعمة تستغرق جميع الشكر، وأيسر منة تفوت المبالغة في جميل الذكر، فأما
هذا الفتح الشريف خطره، الحميد أثره، المشهور بلاؤه، الواجب ثناؤه، الباسق فرعه،
العام نفعه، فأشرف من أن يحد بالصفات، أو يعد بأفصح العبارات)
وله من أخرى فيه أيضاً:
شهاب ذكاء، وطود وفاء، وكعبة فضل، وغمامة بذل، وحسام حق: ولسان صدق،)
فالليالي بأفعاله مشرقة، والأقدار لخوفه مطرقة، تحمده أولياؤه، وتشهد له بالفضل
أعداؤه
يقابلنا البدر من برده ... ويشملنا السعد من سعده
ولو فخر المجد لم تلقه ... فخوراً بشيء سوى مجده)
ولما مات سيف الدولة ولي نعمته كتب إلى عُدَّة الدولة يذكر له رغبته في خدمته وأن
يطوي باقي أيام حياته تحت رحمته قال:
ومن أبرز لسيدنا صفحة رجائه، ووفق للانقطاع إلى سعة نعمائه، فقد استظهر لما)
بقي من عمره، وحكم لنفسه بالفوز على دهره
فما يقدح الفقر في حاله ... ولا يطمع الدهر في قصده
وكيف وقد صار ضيف الغما ... م وهو قريب على بعده
ومن علقت بأبي تغلب ... يداه احتذى البدر من سعده
همام قضى الله من عرشه ... له بالإمارة في مهده
فطود السيادة في دسته ... وشمس الرياسة في برده)
وقد أجاب الأمير مسألته، وأناله مألكته، فكتب إليه من رسالة طويلة:
أفصح دلائل الإقبال، وأصدق براهين السعادة - أطال الله بقاء سيدنا - ما شهدت)
العقول

بصحته، ونطقت البصائر بحقيقته، ونعمة الله تعالى على الدين والدنيا بما أولاهما من اختيار سيدنا لحراستهما بناظر فضله، وسترهما بظل عدله، مفصحة بتكامل الإقبال، مبشرة بتصديق الآمال)
وفيها:
للصدق كلامه، وللعدل أحكامه، وللوفاء ذمامه، وللحسام عناؤه، وللقدر مضاؤه،)
وللسحاب عطاؤه:
دعوته فأجابتني مكارمه ... ولو دعوت سوى نعماه لم تجب
وجدته الغيث مشغوفاً بعادته ... والروض بجنى بما في عادة السحب
لو فاته النسب الوضاح كان له ... من فضله نسب يغني عن النسب
(إذا دعته ملوك الأرض سيدها ... طراً دعته المعالي سيد العرب
هذه فقر مشرقة الديباجة مزهرة الرقعة، انتظمت الحسن كله، وضمنت الجمال جميعه، فهي على - حد تعبيرنا الحديث - الشعر المنثور، أو النثر المنظوم، والدر المنضود، أو السحر المرسوم أوحى به عقل أبي الفرج، وجرى به خاطره، فسجله الزمان في كتبه؛ وما استعرضناه من نثره يبيح لنا أن نقول:
إنه كان مغرماً بالسجع القصير الفقر الموشي الحبر، فالجناس يزينه، والطباق يجمله، هذا إلى الاستشهاد بالأمثال السائرة والأبيات الشاردة
وإني أرجو أن أكون قد وفيت ما إليه قصدت من تفصيل حياة رجل غمر غمره التاريخ وطواه. فإن أكن قد بلغت فللرسالة أكبر الفضل، وإلا فعلى رمضان بعض العتب، وما توفيقي إلا بالله قصرت أو أوفيت
عبد العظيم على قناوي
نقل الأديب
للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي
الصوم في الليل - 301
في (المِراح في المُزاح) شكى عيينة بن حصن إلى نعيمان صعوبة الصيام، فقال له: صم الليل. فروى أن عيينة دخل على عثمان وهو يفطر في شهر رمضان، فقال: العَشاء
فقال: أنا صائم
فقال عثمان: الصوم في الليل؟!
فقال: هو أخفّ عليّ
فيقال: إن عثمان قال: إحدى هنات نعيمان. . .
ولا مناع أكل طعام - 302
ابن قتيبة: قدم إعرابي على ابن عم له بالحضر فأدركه شهر رمضان، فقيل له: أبا عمرو، لقد أتاك شهر رمضان. قال: وما شهر رمضان؟ قالوا: الإمساك عن الطعام. قال: أبالليل أم بالنهار؟ قالوا: لا، بل بالنهار. قال: فإن لم أصم فعلوا ماذا؟ قالوا: تضرب وتحبس. فصام أياماً فلم يصبر، فارتحل عنهم وجعل يقول:
يقول بنو عمي وقد زرت مصرهم: ... تهيّأ (أبا عمرو) لشهر صيام
فقلتُ لهم: هاتوا جرابي ومزودي ... سلام عليكم، فاذهبوا بسلام
وبادرت أرضاً ليس فيها مسيطر ... عليّ ولا منّاع أكل طعام
أعمد لصومك واتركني وإفطاري - 303
قال بعضهم: مررت بأعرابي يأكل في شهر رمضان، فقلت له: ألا تصوم يا أعرابي؟ فقال:
وصائم هبّ يلحاني فقلت له: ... اعمِدْ لصومك واتركني وإفطاري
واظمأ فإني سأروى ثم سوف ترى ... من ذا يصير إذا متنا إلى النار؟
أنا مثلك - 304
وجد يهودي مسلماً يأكل شواء في نهار من شهر رمضان فطلب أن يطعمه، فقال له المسلم: يا هذا إن ذبيحتنا لا تحل لليهود. فقال: أنا في اليهود مثلك في المسلمين. . .
فتوى - 305
قال الربيع بن سليمان: كنت عند الشافعي فجاءه رجل برقعة فقرأها ووقع فيها، فمضى الرجل وتبعته إلى باب المسجد فقلت: والله لا تفوتني فتيا الشافعي، فأخذت

الرقعة من يده فإذا فيها:
سل المفتي المكي هل في تزاور ... وضمّة مشتاق الفؤاد جناح
فوجدت الشافعي قد وقع:
فقلت: معاذ الله أن يذهب التقى ... تلاصق أكباد بهن جراح
قال الربيع: فأنكرت على الشافعي أن يفتي لحدث بمثل هذا. فقلت: يا أبا عبد الله، تفتي بمثل هذا لمثل هذا الشاب؟ فقال لي: يا أبا محمد، هذا رجل هاشمي قد بنى على أهله في هذا الشهر - يعني شهر رمضان - وهو حدث السن، فسأل هل عليه جناح أن يقبّل أو يضم - وهو صائم - فأفتيته بهذا
قال الربيع: فتتبعت الشاب فسألته عن حاله، فذكر لي مثل ما قال الشافعي، فما رأيت فراسة أحسن منها
306 - شتان بين قرى وبين رجال
في (المحاسن والمساوئ) للبيهقي: نظر المأمون يوماً إلى ابنه العباس وأخيه المعتصم فابنه العباس يتخذ المصانع ويبني الضياع والمعتصم يتخذ الرجال فقال:
يبني الرجال، وغيرهُ يبني القرى ... شتّانَ بين قُرى وبين رجالِ
307 - أنظر كيف شئت
قال ابن سعيد المغربي: كان بنو حمود من ولد إدريس العلوي الذين توثبوا على الخلافة في أثناء الدولة المروانية بالأندلس يتعاظمون ويأخذون أنفسهم بما يأخذها خلفاء بني العباس؛ وكانوا إذا حضرهم منشد لمدح أو من يحتاج إلى الكلام بين أيديهم يتكلم من وراء حجاب. والحاجب واقف عند الستر يجاوب بما يقول له الخليفة. ولما حضر عبد الرحمن بن مقانا الغنداقي الأشبوني وأنشد إدريس بن يحيى الملقب بالعالي قصيدته النونية:
أَلبرْقٍ لائحٍ من أندرين ... ذرفت عيناك بالماء المعين
لعبت أسيافه عارية ... كمخاريق بأيدي اللاعبين
ولصوت الرعد زجر وحنين ... ولقلبي زفرات وأنين
وأناجي في الدجى عاذلتي ... ويْك لا أسمع قول العاذلين
عيّرتْني بسقام وضنى ... إن هذين لدين العاشقين
قد بدا لي وضح الصبح المبين ... فاسقنيها قبل تكبير الأذين
أسقنيها مُرّة مشمولة ... لبثت في دنها بضع سنين
مع فتيان كرام نجب ... يتهادَون رياحين المجون
شربوا الراح على خدٍّ رشاً ... نوّر الورد به والياسمين
فلما بلغ إلى هذا البيت:
أنظرونا نقتبس من نوركم ... إنه من نور رب العالمين!
رفع الخليفة الستر بنفسه وقال: أنظر كيف شئت. وانبسط مع الشاعر، وأمر له بإحسان. فكان هذا من أنبل ما يحكى عنه
308 - الحمرة التي تعلو وجهها من الحياء
في (الظرائف واللطائف) للمقدسي: قيل لبنت أرسطا طاليس: ما أحسنُ ما في المرأة؟
قالت: الحمرة التي تعلو وجهها من الحياء
309 - المقابلة
في (خزانة ابن حجة): المقابلة من أنواع البديع وهي التنظير بين شيئين فأكثر، وبين ما يخالف وما يوافق. ومن معجزات هذا الباب قوله تعالى: (ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه، ولتبتغوا من فضله) ولأبي الطيب في مقابلة خمسة بخمسة:
أزورهم وسواد الليل يشفع لي ... وأنثني وبياض الصبح يغري بي
وأخبرني مولانا قاضي القضاة الشافعي نور الدين الحاكم بحماسة المحروسة المشهور بخطيب الدهشة أنه كان بحماة يهودي يطوف بالحناء والصابون على رأسه ويقول: معي حناء أخضر جديد، وصابون يابس عتيق
310 - مضطر

قال أبو سعيد السيرافي: رأيت متكلماً ببغداد بلغ به نقصه في العربية أنه قال في مجلس مشهور: إن العبد مضطَر بفتح الطاءَ، والله مضطِر بكسرها. وزعم أن من قال: مضطَر عبده إلى كذا بالفتح - كافر. فانظر أين بلغ به جهله، وإلى أي رذيلة أداه نقصه

رسَالة الشِّعر

البلبل

للأستاذ إيليا أبي ماضي

يا أيها الشادي المغرد في الضحى ... أهواك إن تنشد وإن لم تنشد
الفنْ فيك سجية لا صنعة ... والحب عندك كالطبيعة سرمدي
فإذا سكت فأنت لحن طائر ... وإذا نطقت فأنت غير مقلد
لله درك شاعراً لا ينتهي ... من جيد إلا صبا للأجود
مَرَح الأزاهر في غنائك والشذا ... وطلاقة الغدران والفجر الندِي
وكأن زورك فيه ألف كمنجة ... وكأن صدرك فيه ألف مردد
كم زهرة في السفح خادرة المنى ... سكنت على يأسٍ سكون الجلمد
غنيتها فاستيقظت، وترنحت ... وتألقت كالكوكب المتوقد
وجرى الهوى فيها وشاع بشاشة ... من لم يحب فإنه لم يولد
وكأنني بك حين تهتف قائلاً ... للزهر: إن الحسن غير مخلد
فاستنفدي في الحب أيام الصبا ... واسترشديه فهو أصدق مرشد
واِستشهدي فيه، فمن سخر القضا ... ألا تذوقيه . . وأن تستشهدي!
يا فيلسوفاً قد تلاقى عنده ... طرب الخلي وحرقة المتوجد
رفع الربيع لك الأرائك في الربى ... وكسا حواشيها بُرُود زبرجد
أنت المليك له الضياء مقاصر ... وتعيش عيش الناسك المتزهد
مستوفزاً فوق الثرى، متنقلا ... في الدوح من غصن لغصن أملد
متزوداً من كل حسن لمحة ... شأن المحب الثائر المتمرد
وإذا ظفرت بنغمة وبقطرة ... فلقد ظفرت بروضة وبمورد
تشدو وتبهت حائراً، مترددا ... حتى كأنك حين تعطي، تجتدي
وتمد صوتك في الفضا متلهفاً ... في ذلة المسترحم المستنجد
فكأنما لك موطن ضيعته ... خلف الكواكب في الزمان الأبعد
طوردت عنه إلى الحضيض فلم تزل ... متلفتاً كالخائف المتشرد
يبدو لعينك في العقيق خياله ... وتراه في ورق الغصون المُيَّد
صوراً معددة لغير حقيقة ... كالآل لاح لمعطَش في فدفد
فتهم أن تدنو إليه وتنثني ... حتى كأنك خائف أن تهتدي!
وكأنه حلم يصح مع الكرى ... فإن انتهيت من الكرى يتبدد
كم ذا تفتش في السفوح وفي الذرى ... عنقاء أقرب منه للمتصيد
يا أيها الشادي المغرد في الضحى ... أهواك إن تنشد، وإن لم تنشد
طوباك إنك لا تفكر في غد ... بدء الكآبة أن تفكر في غد
إن كنت قد ضيعت إلفك إنني ... أبكي على إلفي الذي لم يوجد!

إيليا أبو ماضي

وحي جديد

للأستاذ سيد قطب

في خِفّةِ الطيْرِ ... في نضرة الزهرِ
لاقيتُها عَرَضا ... بسّامةَ الثغر
فتّانةً تُغرِي ... بالسحر والطهر
تهفو فتحسبُها ... لحناً هفا يسري
في لَفْتةِ الجيدِ ... في خَفقةِ الصدر
موسيقي ... منغومةِ النّبْرِ (تقسيم)
يا بسمةَ الفجرِ ... يا نفحةَ العِطْرِ
أسْكرتِ وجداني ... من لونك الخمرِي
ألهبتِ إحساسي ... بالشوق كالجمرِ
وهمستِ في قلبي ... وهتفتِ في صدري

وبعثتنِي أشدو ... للحُبِّ بالشعر
وكأنني روح ... تَقْفُو خُطا سحر
مفتونة ترنو ... للكونِ في سُكْر
والكونُ يشملها ... بالأنس والبشر
عَجَبي لما ألْقى ... من لغزك السِّحرِي!
وحيٌ يوسوس لي ... في السر والجهر
حوَّلتِ عمريَ من ... شطر إلى شطر
حبَّبْتِني، عجبا! ... في عيشةِ الوكر
قد كنتُ أرهبها ... كالنَّاب والظُّفْر!
وأخالها شركا ... في البر والبحر!
إذ كنت أدْمَغُها ... بالشك والغدر
فملأتِني ثقةً ... بجمالها المُغْري
ورسمتِ لي صورا ... لفراخِها الخضر
تَرْقُو فنطعمها ... بحناننا النضر
ونَريشُ أجنحة ... من ريشها النّزر
فتطير هازجةً ... في جوِّنا الشعري
وتؤوب وادعة ... للعش كالطير!
يا فتنتي، هذا ... طيف من السحر
إن تأذني أضحى ... شطراً من العمر
فهبي لي روحا ... من رُقيةِ الثغر
هي قبلة تُمضي ... ما شئتِ من أمر
وكأنها قَدَرٌ ... بسعادتي يجري
سيد قطب
رجاء نفس
للأستاذ خليل هنداوي
لا تيأسي يا نفس واعتزمي ... صبراً، فليس اليأس من خلقي
هذا مطاف المجد فانطلقي ... قُدُماً، وهذا العز فاستبقي
جارت على عصفور روضتنا ... هوجاء تخبط خبطة القدر
والآن جدد عشه فرِحاً ... واختال يبسم بسمة الظفر
النور في الآفاق ملتمع ... فتجلببي يا نفس بالنور
والأفق قد ضحكت مشارقه ... والسحب ترقص رقصة الحور
هذا الوجود صفت مشاربه ... فترنحي كالشارب الثمل
لنجدد الآمال ثانية ... ما أوسع الأيام بالأمل!
عودي إلى دنياك ناشطةً ... نبني على الأنقاض والرمم
لم يوخ من أودي بمظهره ... للحي معنى اليأس والسأم
أنا من إذا هدمَتْ بنى وإذا ... عبس القضاء بوجهه ابتسما
أنا من إذا سأمٌ تعاورَنِي ... صيرتُ لهواً ذلك السأما. . .
خليل هنداوي
القَصصُ
من أساطير الإغريق
خرافة جاسون - 4
للأستاذ دريني خشبة
تتمة
أقلعت الآرجو وطفقت تطوي عباباً من بعده عباب، ولجة من ورائها لجة؛ وبدا الطريق كأنه يطول، والأفق كأنه يحلو لك، والسحب كأنما تتجمع من كل صوب لتنعقد فوق الآبقين بكنوز إيتيس وابنته وولي عهده. . .
ونمى الخبر المفزع إلى الملك فجن جنونه، وهب من فوره يعد أساطيله ليقتفي آثار جاسون، عسى أن يقبض عليه، ويعود بابنيه وأعز كنزه. . . وانطلق هو الآخر يطوي العباب، ويتواثب بأسطول فوق أعراف الموج، ووقف بين الملاحين يحضهم ويحرضهم،

ويستحثهم ويشجعهم، حتى لاحت الآرجو لهم كالنكتة السوداء في حمرة الشفق، أو المطوّقة الورقاء في صحيفة الأفق، فضاعفوا الجهود وشدوا الأذرع، واستبقوا إليها من كل فج؛ وكانت سفينة الملك في المقدمة كالطائر الدليل يتبعه سائر السرب؛ ونظر الأرجونوت فأبصروا السفينة تنقذف فوق نواصي الموج نحوهم، فراحوا بدورهم يعملون المجاديف ويُهدْهِدُون الشراع للريح؛ وكلما اقتربت السفينة منهم خفقت قلوبهم وشاع فيها الذعر فجمد عليه بيرده. وكانت ميديا تنظر إلى مركب أبيها وترتعد فرائصها من الغَرَق. . . وفكرت في ألف حيلة وألف سحر، ولكن أفكارها ذهبت كلها أباديد، وبطل سحرها كله فهو لا ينفع ولا يفيد. . . واقتربت سفينة أبيها حتى صارت على رمية سهم. . . وأخذ أبوها المسكين يهتف بها وينادي، ويتوسل أن تعيد إليه ابنه. . ابنه الأوحد. . . أبستروس. . . (ميديا! ابنتي! أنا أبوك! أتوسل إليك! ردي عليّ ولدي واذهبي أنى تشائين! إنه أملي في الحياة! إنه ولي عهدي وحافظ ذريتي! ميديا! أرسليه في زورق واذهبي أنت. . .!) ولكن الفتاة غَلّقتْ فؤادها وسدّت بالجحود سمعها! وا أسفاه! يا للقاسية! يا لبرودة القلب الذي لا يحس، والنفس التي لا ترحم؟ لقد أمرت ميديا بالفتى فأحضر إليها، ثم شحذت سِكّيناً وأغمدته في صدره، وتدفق الدم الحار. . . دم الشباب الفينان. . . يلطخ اليد الأثيمة المجرمة. . . اليد الشقية، يد ميديا التي طَوّعت لها نفسها المغلقة قتل أخيها، ثم تقطيعه إربْا. . .؟ ماذا خطر برأس الساحرة؟ أواه! لقد أخذت تمزق أخاها مِزَقاً مِزَقًا، وكلما اقتطعت منه شلْواً قذفت به في الماء، وأبوها المسكين المجنون يرى، فيضطر أن يتلبث عند الشلو لينتشله، ثم يتلبث عند الشلو الذي يليه. . . وهكذا دواليك، حتى انتشل آخر الأمر الرأس العزيز. . . الرأس الصغير الذي كان يبسم لأينع الآمال.، ويحلم بأجمل الأماني. . . .. رأس أبستروس. . . ولي العهد، والأمل المدّخر لأمة بأسرها

لقد انتشر الظلام في عيني الملك. . . وغمر قلبه قنوط مر. . . وأمر الملاحين فطووا الشراع، وأخذوا يعودون أدراجهم إلى الوطن في بحر هادئ كله هم، وكله حزَن؛ وجلس إيتيس وبين يديه أشلاء ولده يغسلها بدموعه، ويخضبها بالدم الذي تذرفه عيناه آه يا بني! أية فروة وأي كنز؟ ليتك خلصت لي بكل مُلكي! ميديا! غضبت عليك آلهة) - السماء يا عاقة! تبت يداك يا أغدر البنات! ألا ليت أمك لم تلدك. . .! أبستروس! رد !وهكذا ظل الملك المحزون يجتر أشجانه حتى عاد إلى الوطن (!. . .عليّ أيها الحبيب ولكن جاسون ما خطبه؟! مسكين! لقد كان ينظر إلى ميديا وهو مأخوذ بما تصنع! ولقد حاول أن يمنعها من ارتكاب هذا الإثم. . . لكنها حدجته بنظرة آمرة كان يرقص فيها ألف جني، فسكت! وهل كان في وسعه أن يفعل شيئاً؟! أليس يذكر الحجر الواحد الصغير الأسود الذي أهلك جيشاً بأكمله؟ ورد عنه كيد ألف ألف مقاتل من المردة الجبابرة؟! بيد أنه عرف الآن ماذا كان يحجز بين قلبه وبين فم هذه المرأة الهائلة حين كانت تغمر خديه وجبينه بالقبل! لقد كان السر الرهيب المطوي في صحائف الغيب هو !الذي يصون جاسون من مبادلتها حباً بحب وغراماً بغرام، وقبلاً حارة ملتهبة بمثلها وقد فكر جاسون في ملكه الضائع المغتصب، وفي أبيه الضعيف الطريد، وفي عمه الجبار العَتي، وفكر في قوة ميديا الخارقة، فآثر أن يبقي عليها عسى أن تنفعه. . . لهذا أظهر لها التودد، وتعمل في حضرتها البشاشة. . . حتى وصلت الآرجو إلى إيولكوس، حاضرة تساليا. . .

وحمل جاسون الفروة الثمينة، وقصد إلى عمه. . .

وذهل بلياس. . . وجعل يحملق في الكنز العظيم الذي أتاه به ابن أخيه. . . وجعل يلمسه بيديه كأنه لا يصدق. . . ولكن كيف لا يصدق وهذا بريق الذهب يكاد يذهب سناه !ببصر عينيه جميعا؟

ترى ماذا صنع هذا الفتى حتى وسعه أن يقهر ملك كولخيس على هذا الكنز العظيم؟) - إن الملك كان أحرص عليه من نفسه التي بين جنبيه؟ ألا كم هلك أناس طمعوا في فروة فركسوس؟ عجلا فلكان! وأرض مارس! وجيل بأكمله ينبت من أنياب التنين. . .؟ والأفعوان الهولة الذي يحرس الفروة؟ أظفر جاسون - هذا الفتى - بكل أولئك؟ (. . .جاسون ابن أخي؟ عجيب وحق الآلهة. . .؟ بل أسأله، فلابد من سر في هذا الأمر وسأله، وتبسم جاسون، وراح يلفق قصة طويلة قذف بها الرعب في جوانح عمه، وظل يتغنى بشجاعته، ويصف ما كان من ظفره بعجلي فلكان، وحرثه الأرض الجبوب،

وغرسه أنياب التنين، ثم هذه الحرب الزبون التي شبها عليه المردة وما كان من إفنائه لجموعهم، وتلك الملحمة التي قتل فيها التنين الرهيب الذي وكلت إليه حراسة الفروة العظيمة. . . ثم إنه لم يشر بكلمة إلى ميديا
وأكرم عمه مثواه. . . وكلما طلب إليه جاسون أن يتنزل له عن العرش، مطله وراوغه، وزخرف له الأماني. . . حتى أيقن جاسون أن عمه يعبث به، بل يدبر له غيلة يخلص له العرش من بعدها، ولا يعكر عليه صفو الحياة أيٌّ من تلاميذ شيرون!!
ولقي جاسون أباه، فراعه أن يرى كومة من العظام نخرها الكبر، وجللها المشيب، وأوهاها الحزن، وأوهنها الألم المتصل، وناءت تحت كوارث الزمان. . . وبكى جاسون!
ولكن أباه انتهره وقال له: (أي بني ليس لرجل مثلك شب على فضائل شيرون أن يبكي! إنما يبكي النساء والمستضعفون من الرجال. على أنه ماذا يبكيك؟ ألا إن كان يبكيك اقتلاع أبيك من العرش فلهذا عهدت بك إلى أستاذك العظيم، وأحسبه قد ذكر لك ما كان من وصاتي له حينما عهدت بك إليه يهذبك ويؤدبك. . . ولقد أصبحت رجلاً شيخاً هالكا، أما أنت فمن صباك في إبان، ومن عنفوانك في ريعان، وأنت بالعرش أحق مني وأولى، وهو بك مني ومن عمك أليق، ولن أغفر لك قعودك عنه، وليس في تساليا إلا شعب يحبك، ورعية تلهج بالثناء عليك، فشمر عن ساعدك، واطلب حقك بالقنا يا جاسون)
وذهب الفتى وقد اضطرم بين جنبيه جحيم من النقمة على عمه، فلقي أول من لقي ميديا
- ماذا، فيم أنت مقطب هكذا يا حبيبي؟
- لا شيء. . . لا شيء مطلقاً!
- لا شيء؟ وكيف؟ ألا تفهم ميديا ما في نفسك؟ حدثني ولا تخْفِ عليّ!
- لا شيء وحقك يا ميديا
- أوَ مُصرٌّ أنت على كتمان دخيلتك عني؟ إذن لقد كان أبوك يعظك!
- أجل! وبهذه المناسبة أريد أن أقول لك كلمة. . .
- قل يا حبيبي! تكلم يا جاسون!
- إن لك إلماماً تاماً بغرائب السحر، وعلم التعاويذ والرُّقَي ولقد نفعني علمك في أحرج مواقفي. . . ولن أنسى مساعدتك يوم لقيت عِجْلَيْ فلكان، وحاربت المردة، وقتلت التنين. . . إنما فعلت كل أولئك بمعونتك، ولي رجاء إليك. . .
- رجاء؟ أي رجاء يا حبيبي؟ إنما أنت تأمر. . .
- شكراً! ألا تستطيعين يا ميديا أن تردي الشباب إلى أبي؟ إنه رجل شيخ محطم، وإن الأيام لتنحدر به إلى القبر، كما تنحدر صفوانة من شاهق. . . فهل عزيز على علمك أن ترديه إلى ما ولى من الصبى؟. . . خذي من عمري فَصِلي عمره إن استطعت! أتوسل إليك يا ميديا أن تفعلي!. . .)
- اطمئن يا حبيبي فليس أيسر مما طلبت، وسأرده إلى ميعة شبابه بقليل من العناء. . . وسأزيد في عمره ما أحببت. . . على ألا تنقص سنوك شيئاً بل تزيد إن شئت؟!
لقد كان البدر تماً، والليل الفضي الجميل أروع ما ينثر لجينه على الطبيعة النشوانة، وكل ما في البرِّية نائما ساكناً، والعشب الحلو كان نائماً كذلك. . . وكانت ميديا تخطر كالشبح الأبيض بين الآكام وملء الأدغال حتى أتت إلى ربوة تشرف على كل ما حولها فصعدت فوقها. . . وتلبثت قليلا تفحص الطبيعة الرائعة في الأرض والسماء بعينيها الجبارتين ثم بدأت تتلو تعاويذها وتقرأ رُقاها. . . وترسل للنجوم صلاة سحرية كان يحملها الليل الصامت إلى أرجاء السماء وإلى القمر الحالم الساهم. . . ثم سبحت سبحاً طويلاً باسم هيكاتيه ربة السفل والسحر، وباسم تللوس ربة هذه الأرض العجيبة النائمة التي تنبت البقل
والعشب لِما تعمل ميديا. . . وصَلَّت كذلك لآلهة الغاب والأنهار والبحار والغدران، ولآلهة الرياح والضباب والسحاب، وصلت لجميع الآلهة، ولم تفتر تطلق التعاويذ وترسل الرقي. . .
ثم سكتت. . . وصمت حولها كل شيء. . . حتى الرياح كتمت أنفاسها. . . ثم تشققت السماء فكانت وردة كالدهان. . . ثم انفتح فيها باب كبير من ذهب، وبرزت منه عربة

عجيبة يجرها أفعوانان هائلان، فلم يزالا يطويان الرحب حتى كانا عند قدمي ميديا. . .
وتقدمت الساحرة وهي تبتسم فركبت في العربة، وانطلق الأفعوانان يجرانها في الهواء، ويرفان بها فوق الوديان والغيران، وفوق قلل الجبال وهضاب الأرض، وفوق الغاب الساكن المستسر، وفوق الأنهار والبحار. . . وفوق كل شيء. . . حتى انتهت إلى آخر أقطار الأرض حيث تنبت الأعشاب العجيبة التي تنفعها في سحرها. . . وهناك. . . مكثت الساحرة تسع ليال بعيدة عن العالم تجمع العشب وتنتقي البقل ذا الأسرار؛ ثم ركبت عربتها وانسابت في الهواء حتى أتت بيت جاسون، فنزلت بحملها العجيب وعرج الأفعوانان في السماء. . .

وفي الصباح، فوجئ جاسون بوجودها فذعر ذعراً يشوبه شيء من التفاؤل بعودة الشباب إلى أبيه كما وعدت. . . وأمرت أن يخلي بينها وبين إيسون حتى لا ترى عين إلى ما تصنع، ولا تنكشف أسرار سحرها لأحد ما من العالمين. . . ثم إنها أقامت مذبحين عظيمين أحدهما باسم هيكاتية ربة السفل والسحر، والآخر باسم هيب ربة الشباب، وذبحت لكل شاةً سوداء فاحمة السواد، ثم صبت على دمائهما صلاةً للربتين من خمر ولبن. . . وتوسلت بعد ذلك إلى بلوتو رب هيدز، وإلى زوجه بروز ربين، ألا يعجلا بقبض روح إيسون. . . ثم بدحت نحو الرجل فتمتمت بِرُقْية أسلمته إلى نوم عميق، وأضجعته على فراش مهدته له من الأعشاب العجيبة التي حملتها من أقصى الأرض، وطفقت بعد هذا تخطر وتدور حول الجثة، وشعرها المتهدل يداعبه النسيم، وصدرها المنكشف ناهد نحو السماء. . . حتى إذا أتمت دورات ثلاثاً وقفت، وشحذت سكيناً ماضياً، وجعلت تشعل أعواداً من عشبها وتنظمها حول المذبحين. . . ثم تناولت إدَاوَتَها التي حفظت بها أعشابها ذوات الأسرار، وحفظت بها أزهاراً فيها من الرحيق السحري ما هو آية، وجعلت فيها من

حجارة الشرق ورمال البحر المحيط، ومن البَرَد الذي جمعته أثناء رحلتها في ضوء القمر، وجعلت فيها رأس بومة وجناحيها، وحَوَايا ذئب، وبقايا من صدفة سلحفاة، ومزقاً من كبد غزال، ورأس غراب ومِنْسَره، وما إلى أولئك من آثار الحيوانات المعمرة؛ ثم صبت على ذلك كله ماء وتمتمت بكلمات، وأشعلت ناراً فجعلت عليها الإداوة بما فيها، وتركتها تغلي وتفور، وهي فيما بين هذا وذاك تعوّذ وتهمهم، وتتمتم وتغمغم، ثم تُقلب ما في الإداوة بغصن زيتون أملود. . . فما كاد السائل يفور حتى نمت في الغصن أفنان من الورق الأخضر، وحبات من الزيتون يكاد زيتها يقطر منها، وكلما نثرت منه على الأرض شيئاً نما مكانه عشب حلو أخضر كأحسن ما ينمو العشب في إبان الربيع!

ثم شحذت سكينها مرة ثانية، ثم أهوت على حلقوم الشيخ فقطعته، وتركت دمه ينبجس من الجرح الكبير حتى سال أجمعه؛ ثم إنها صبت من الإداوة في الجرح وفي الفم، كأنما تجعل منه مكان ما سال من الدم. . . وما هي إلا لحظة حتى دبت الحياة الفتية في جوارح الرجل المهدم المحطم. . . فهذا شعره يَسْوَدُّ ويصير فاحماً غربيباً. . . وهذا وجهه الجعد ذو الأسارير يمتلئ باللحم والدم، وهذا ظهره المحني يستقيم ويمتلئ قوة وعنفواناً، وهذا دم الشباب يجري في عروقه كقبل أن يكتهل، وهاهو ذا يثب كالغلام الأمرد السمهري، ويشب على إخمصيه كأرشق ما يفعل الصبيان!! وهاهو ذا الوجه يكتسي جمال العصر الخالي. . . ثم هاهو ذا جاسون يقبل من بعيد فينظر إلى أبيه وكأنه في حلم. . . ويعانقه ويهنئه. . . ويشكر ميديا. . . ويبكي!!

- أرأيت يا حبيبي؟ أليست لك حاجة بعد؟
- وكيف يا ميديا؟ إني مفتقر أبداً إلى واسع علمك، ومبين سحرك!
- أمهمة أخرى؟
- أجل يا ميديا! ألا ترين إلى والدي مطروداً من عرشه، وإليَّ يقتلني الحزن من أجل ذلك؟ ألا تصنعين شيئاً ينفعنا في ذلك؟
- ولم لا نقتل عمك؟ ألا يستحق القتل بعد كل هذه الجرائم؟
- أنا ضعيف يا ميديا. . . وهو رجل جبار وله جند. . .
- إذن أنا أكفيك مؤونة ذلك. . .

وأخذ إيسون يجوب شوارع المدينة فيراه الناس، ويعجبون لهذا الشاب الذي تدفق في بردتيه، فيسجدون له وإن منعهم الجند وطاردوهم. . . وعلم بنات الملك بما رَدّت ميديا

على عمهم من رونق الصبى، وما ألبسته من رواء الشباب. . . وكان أبوهم قد بلغ من الكبر، ورزح تحت أعباء الملك المغتصب، فوددن لو أتين له بميديا لتصنع معه ما صنعت مع إيسون. . . واتصلن بالساحرة، وأغرينها بالمال، فرحبت وقبلت مختارة أن ترد إلى أبيهن الصبى، حتى لا يغلبه على الملك إيسون ولا ولده جاسون. . . وأحضرت الإدواة بما وعت من عشب، ثم جيء لها بالشاة السوداء، ولكنها حين تمتمت بكلماتها السحرية، وكانت الإداوة تغلي بما فيها من سائل عجيب، قفزت الشاة فكانت في الإداوة، ثم قفزت منها فكانت حَمَلاً وديعاً جرى إلى السهول يرعى العشب. . . وطرب البنات حين شهدن آية السحر وإعجازه. . . ثم جيء بالملك وحراسه ليشهدوا. . . وأعطت ميديا كلا منهن سيفاً مسلولاً وتمتمت بكلمات فدارت الأرض برأس بلياس وصحبه وحراسه، فسقطوا وغطوا في سبات عميق. . . وأشارت ميديا إلى البنات أن يضربن بسيوفهن عنق أبيهن وصدره لتبدأ هي عملها. . . فتلكأن أول الأمر. . . ثم أطعن، وحركن أيديهن بالسيوف في ضعف وفرق فأحدثن به جروحاً أيقظته. . . فلما شهد بناته تأوه وتوجع وصرخ بهن: (ويلاه! بناتي يقتلنني!؟) وخافت ميديا أن يبطل سحرها فبدت في صورة إحدى بناته، واستلت سيفاً مرهف السنان وأغمدته في صدر الملك اللص. . . فمات إلى الأبد. . . وأغمض عينيه ليفتحهما في هيدز. . . وفي هيدز فقط. . .

وكانت ميديا قد هتفت بالآلهة فأرسلت إليها العربة التي يجرها الأفعوانان، وكانت قد فعلت فعلتها حين بدأ الفجر ينبلج، فركبتها ولاذت بالفرار قبل أن يكشف صنعها أحد! سبحان مقلب القلوب!! إن كل هذا السحر لم ينفع ميديا! لقد كان قلب جاسون مغلقاً دونها برغم أنه بر بوعده فتزوج منها وأولدها أطفالاً أبرياء أطهاراً نقيين كالثلج!! لقد أحب جاسون الأميرة كروزا ملكة كورنث، وأحب هذه المرة حباً صريحاً لا يشوبه ذعر. . . ولا تعكره التعاويذ. . . ولا تتلفه رُقي السحر. . . وأعلنت الخطبة، فجن جنون ميديا. . . واسودت الدنيا في قلبها وعينيها. . . وهالها نكران جاسون لجميلها الذي ناله مثنى وثلاث ورباع. . . ولِمَ لا؟ أليست هي التي مهدت له سبيله إلى العرش؟ أليست هي قاتلة بلياس.

!!إذن فالويل له

ودست إلى أميرة كورنثا ثوباً لو اجتمعت الجن والإنس لم تقدر على مثله؛. . . فلما كانت ليلة الزفاف، لبسته كروزا، ولكنها ماتت لساعتها! أواه! لقد كان الثوب مسموما. . . .. . . وكان ما به من سم يكفي لقتل شعب بأسره

ولم تكتف الساحرة بذلك، بل شحذت سكينها، وأعادت مأساة أبستروس، فقتلت جميع أبنائها من جاسون. . . وأشعلت النيران في القصر الملكي. . . وفرت إلى أثينا على العربة السحرية لتتزوج من ملكها إيجيوس، ولتلقى ثمت مصرعها

دريني خشبة

البَريدُ الأدبيّ

جائزة فاروق الأول لإحياء العلوم والفنون والآداب

أرسل حضرة صاحب السعادة الدكتور حافظ عفيفي باشا وزير مصر المفوض في لندن إلى وزارة المعارف مذكرة يقترح فيها إنشاء جائزة مالية سنوية باسم (فاروق الأول) تمنح للمصريين المتفوقين في العلوم والآداب والفنون

وقد أحالت الوزارة هذا الاقتراح إلى لجنة لبحثه فأبدت طائفة من الآراء نشير إليها فيما يلي:

وافقت اللجنة سعادة المقترح على فكرة المباريات لما لها من الأثر الحسن في نهضة التأليف وإبراز ما يجول بخواطر العلماء والمفكرين من النزعات العلمية والفكرية، بعد أن انصرف الكثيرون منهم عن البحوث والدراسات لأسباب مختلفة؛ ولكنها تشترط في الكتب التي تقدم لهذه المباريات: أن تكون مثلاً صالحاً للابتكار، وأن تكون جديرة بإحداث الأثر المرجو؛ على ألا تكون هذه الكتب مترجمة ولا منقولة إلا ما يؤخذ من ذلك على وجه الاستشهاد أو الاقتباس

وتقترح اللجنة أن تكون الموضوعات التي تعرض في هذا السبيل سبعة: تاريخ الأدب المصري، والنقد الأدبي، وتاريخ مصر، والاجتماع والتشريع والاقتصاد فيما له علاقة بمصر، ومسائل التربية والتعليم وتطبيقها في مصر. والزراعة في مصر. والعلوم في

مصر
وترى اللجنة أن تكون الكتب مطبوعة، وأن تنتظم لجان التحكيم فيها كبار العلماء والأدباء، على أن يتم اجتماع هذه اللجان مرة في كل عامين
ثم أقرت الرأي القائل: بأن تتوج الجوائز (باسم فاروق الأول) فيقال: جائزة (فاروق الأول لتاريخ الأدب المصري) أو جائزة (فاروق الأول للعلوم) وهكذا
وقد تقرر أن تعقد لجنة يرأسها وكيل وزارة المعارف وتضم الوكيل المساعد ومراقبي التعليم لدراسة هذه الآراء والمقترحات وإعداد تقرير عنها توطئة لإصدار تشريع خاص بذلك، لأنها ستكون جائزة رسمية للدولة
رامسي مكدونالد الكاتب والمفكر
لما نعى المرحوم المستر رامسي مكدونالد السياسي البريطاني الكبير ورئيس الوزارة البريطانية الأسبق أفاضت صحفنا في استعراض حياته السياسية؛ ولكنها نسيت في حياته ناحية خطيرة هي ناحية التفكير والكتابة؛ ذلك أن مكدونالد كان كاتباً اجتماعياً واقتصادياً كبيراً، وله في هذه الناحية آثار عديدة قيمة نذكر منها: (العمل والإمبراطورية) (سنة 1907)؛ (الاشتراكية والحكومة) (1909)؛ (يقظة الهند) (1910)؛ (الحركة النقابية) (1912)؛ (البرلمان والثورة) (1919)؛ (الاشتراكية الناقدة والمنشئة) (1921)، وغيرها
وقد كان مكدونالد كاتب الاشتراكية الإنكليزية ولسانها، وكتابه عن الاشتراكية الذي صدر لأول مرة في سنة 1921 ثم أصدره بعد ذلك في سنة 1924، وقت أن كان رئيساً لوزارة العمال الأولى، يعتبر من أقوم الكتب الإنكليزية التي صدرت في هذا الموضوع لا من الناحية العلمية والفنية، ولكن من ناحية أنه يعبر أحسن تعبير عن ميول الاشتراكية الإنكليزية ومثُلها. وقد كان مكدونالد مدى أعوام طويلة زعيماً لحزب العمال الإنكليزي وزعيم الحركة العملية الإنكليزية، والمعبر عن أمانيها ومثلها؛ وفي كتاب (الاشتراكية) يدلل مكدونالد بشروحه على أن الاشتراكية الإنكليزية لم تتقدم كثيراً في مثلها الاقتصادية والاجتماعية عن الاشتراكية الفابية أو الاشتراكية الإصلاحية، وإنها أبعد ما تكون عن روح الثورة الاجتماعية والاقتصادية التي ترمى إليها اشتراكية القارة الأوربية وتعمل لها. ولما تولى حزب العمال الحكم برآسة مكدونالد ظهرت هذه الحقيقة بصورة عملية في سياسة الحزب الداخلية والخارجية، وظهرت الاشتراكية الإنكليزية في صبغتها القومية العميقة. والخلاصة أن كتاب مكدونالد في (الاشتراكية) هو رسالة الاشتراكية الإنكليزية وحدها، وهو يعتبر من جانب أنصار الاشتراكية المتطرفة رجعياً في نظرياته وشروحه
جوائز نوبل
حملت إلينا الأنباء الأخيرة أسماء الفائزين ببعض جوائز نوبل لهذا العام؛ فقد منحت لجنة جامعة استوكهلم جائزة نوبل للكيمياء للعالم النرويجي كارلر والأستاذ هاويت الإنكليزي؛ ومنحت جائزة نوبل للعلوم الطبيعية للأستاذ وارسون الأمريكي والأستاذ تومسون الإنكليزي
وفاز بجائزة نوبل للآداب، وهي في الواقع أشهر جوائز نوبل، الكاتب الفرنسي روجيه مارتان دوجار ومسيو دورجار من جيل الكتاب الشبان الذين ظهروا في عالم الصحافة بادئ ذي بدء، ثم نبهت أقلامهم في عالم الأدب؛ واشتهر بالأخص بفصوله الأخبارية الشائقة. وتنقل مسيو دوجار في دوائر الأدب، وتزعم جماعة من الكتاب الشبان الذين انضووا تحت لواء مجلة الأخبار الأدبية ولبث مدى أعوام مديراً لهذه الصحيفة الأدبية الهامة، ولم يتركها إلا منذ حين، إذ حل مكانه في إدارتها الكاتب ليفبر؛ وظهرت في مجلة الأخبار الأدبية بقلم مسيو دوجار فصول ومقالات شائقة كثيرة معظمها عن مشاهدات وسياحات، وكان منها عدة فصول نشرت عن مصر، ونالت استحساناً عظيما. وله غير مقالاته الصحفية العديدة كتب وقصص تمتاز بقوة العرض وطلاوة الأسلوب
ويلوح لنا أن دوائر ستوكهلم المشرفة على جوائز نوبل أضحت تميل إلى تقدير النوابغ من الكتاب الذين لم تهيئ لهم الظروف من الشهرة والمكانة ما يتفق مع عبقريتهم، ولم تعد تتقيد كما كانت في الماضي باختيار أولئك الأعلام الذين تربعوا في ذروة الشهرة والنفوذ، ومن ثم كان اختيارها لكتاب مثل إيفان بونين، ودوجار، لم يبلغوا -

قبل فوزهم بجوائز نوبل - مكانة عظيمة من الشهرة في عالم الأدب فرفعتهم باختيارها إلى المكانة اللائقة بفنهم وعبقريتهم

كيف يشجعون الآداب والفنون

يظهر أن السويد قد وطدت العزم على أن تغدو أولى الأمم في حماية الآداب والفنون، فهي فضلاً عن جوائز نوبل الشهيرة التي تمنحها كل عام لعدة من أكابر العلماء والكتاب في مختلف الأمم، والتي تغدق بمقتضاها على الفائزين عشرات الألوف من الجنيهات كل عام، تضرب كل يوم مثلا جديداً في هذا الميدان.

وآخر ما انتهى إلينا من ذلك أن هبة جديدة قدرها مليون كرون (نحو 55 ألف جنيه) قد رصدتها دار النشر السويدية الشهيرة (ألبرت بونير) لتشجيع المؤلفين والفنانين، وذلك لمناسبة الاحتفال بعيدها المئوي. وقد أطلق على هذه الهبة (التذكار المئوي لألبرت بونير) وذلك تنويهاً بانقضاء مائة عام على صدور أول كتاب أصدرته هذه الدار؛ وخصص دخل هذا الاعتماد للمؤلفين والصحافيين الذين يكتبون باللغة السويدية والفنانين الذين يتولون

التصوير للكتب؛ وندب لإدارته مجلس يتألف من ممثلي الواهبين، والصحافة، ودوائر الأدب والفن السويدية؛ ويجري توزيع الجوائز السنوية تحت إشراف الجامعة السويدية وهكذا تضرب الأمة السويدية الأمثلة الرائعة على رفيع تقديرها لعبقرية الفكر وعبقرية الفن. وقد كان نوبل صاحب الجوائز العلمية والأدبية العظيمة من رجال المال والصناعة؛ وصاحب الهبة الجديدة، وهو الدكتور بونير من رجال المال والصناعة؛ ومع ذلك فإن أولئك الممولين استطاعوا أن يقدروا ما للآداب والفنون من الأثر العظيم في نهضة الأمم وفي ازدهار الحضارة

أما في مصر فإن الآداب لم تنل حتى اليوم تقديراً ولا تشجيعاً، لا من الجهات الرسمية، ولا من رجال المال؛ وما زالت فكرة الجوائز الرسمية لتشجيع التأليف تتردد منذ أعوام بين اللجان والجهات المختلفة دون أن تحظى بالتنفيذ العملي

محاضرات ألمانية عن الفن المصري

قرأنا في البريد الألماني الأخير خلاصة لبعض محاضرات يلقيها العلامة الأثري الألماني الدكتور جورج ريدر في همبورج عن أثر الفن المصري في تطور الفن اليوناني والفن الروماني. ومن رأي العلامة ريدر أن الفن المصري القديم بدأ من فجر التاريخ مستقلاً بنفسه منعزلاً عن غيره إلى نحو ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد، ثم اتصل الفن اليوناني عندئذ بالفن المصري؛ ودلل المحاضر على نظريته بعرض صور مختارة من تراث مصر الفرعوني غير الآثار الفرعونية المعروفة. ومن قبل المسيح بنحو ثلاثة آلاف عام لبث الفن المصري كما هو ثابتاً في أساليبه وألوانه؛ فلما وقعت الصلة بين الفنين اليوناني والمصري تأثر الفن اليوناني بالفن المصري تأثراً كبيراً، ولبث هذا التأثير ظاهراً إلى ما قبل المسيح بنحو ثلاثة قرون، ثم تطور بعدئذ إلى أصوله وأساليبه الخاصة؛ ثم كان بعد ذلك تأثر الفن الروماني بالفن اليوناني

كتاب جديد عن مأساة التامبل

هذا كتاب جديد عن لويس السابع عشر وضعه المؤرخ الإنكليزي مورتون بعنوان ولي العهد وولي العهد هو الطفل لويس شارل ولد لويس السادس عشر وماري انتوانيت، وقد

ترك وحيداً في سجن التامبل بعد قتل والده ثم والدته على نطع الجلاد؛ ولبث في سجنه الرطب القذر يلقى من حراسه أغلظ معاملة حتى مرض وأصابه انحلال مادي ومعنوي شديد. وهنا يسدل على مصير هذا الأمير الطفل حجاب كثيف، هل توفي في التامبل حسبما تؤكد الروايات المعاصرة والتقارير الرسمية؟ أم هل استطاع الملكيون أن يستبدلوا به طفلا آخر، وأن يمهدوا له سبيل الفرار إلى حيث شب وترعرع وقضى حياة مجهولة؟ هنا يضطرم الجدل وتكثر الروايات المدهشة؛ وهنا تبدو قصة الطفل الشهيد فصلا من أغرب فصول القصة. وفي أوائل القرن التاسع عشر انتحل كثيرون في مختلف الأنحاء شخصية الأمير، وزعم كل منهم أنه هو الطفل لويس شارل وأنه هو ولي العهد الفار، نجا من سجنه بأعجوبة، وكان أشدهم إلحاحاً في ذلك شخص ظهر في ألمانيا واسمه كارل ناوندورف، كان لمزاعمه صدى عميق ووصلت إلى القضاء الفرنسي. وفي عصرنا ظهرت روايات عديدة أخرى عن مصير ولي العهد قدمها إلينا

مؤرخون مثل لينونز، خلاصتها أن الأمير الطفل فر من سجنه وسافر إلى بعض جزر الهند الغربية وتوفى هنالك في بعض المشاغبات المحلية. وفي الكتاب الجديد يسرد مستر نورتون كل هذه الروايات والقصص بأسلوب شجي مؤثر يطبعه طابع علمي رزين

السينما للأمهات

قامت شركة الفحم وغاز الاستصباح البريطانية بعمل جليل لا يمت إلى أعمالها بصلة، وهو وإن يكن من قبيل الإعلان عن نفسها إلا أن له قيمته الكبيرة وأثره في أوساط التربية ودور العلم. . . ذلك أنها عملت شريطاً سينمائياً لحياة الصغار في مدارس رياض الأطفال والمدارس الابتدائية، وأنفقت عليه مبالغ طائلة من مالها الخاص فجاء آية للأشرطة التربوية، ومثالاً يحتذى. . . وقد عنيت الشركة بإظهار وسائل الحياة في مدارس الأطفال وتلك العلائق المحببة التي تقوم بينهم وبين المدرسات على المودة والمحبة والألفة والحرية التي لا حد لها. . . ويبدأ الشريط بعرض حياة الأطفال من وقت قيامهم من الفراش إلى أن يعودوا إليه، فلا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا يحصيها. . . ولما كانت الحياة في رياض الأطفال مثالاً عالياً لما ينبغي أن تكون عليه تنشئة الصغار فقد اقترحت صحيفة (عالم المعلمين) على الشركة عرضه في منتديات السيدات ودور السينما والمجتمعات العامة،

على أن يشهده فيها جميع الأمهات بالمجان، ليترك فيهن أثره المرجو، ولتضمن بريطانيا جيلاً جديداً ينشأ على وسائل علمية نيرة كان يجهلها الجيل القديم. ثم لتكون كل البيوت الإنجليزية بهذا العرض رياضاً للأطفال. . . ونحن بدورنا نقترح على وزارة المعارف عمل هذا الشريط التربوي الجميل ليعرض في طول البلاد وعرضها على الأمهات، ليقبسْنَ منه ويَقِسنَ عليه في تنشيء فلذات أكبادهن

الاحتفال بالذكرى الألفية لوفاة المعري

قررت وزارة المعارف السورية بمناسبة مرور ألف عام على وفاة أبي العلاء المعري إقامة مهرجان ألفي لإحياء ذكراه تدعى إليه مصر وجميع الأقطار العربية وقد انتهت الحكومة السورية من وضع تصميم لبناء ضريح الشاعر الفيلسوف في مسقط رأسه (المعرة) من ولاية حلب

المرحوم العلامة كمبفماير

نعت أبناء برلين الأخيرة المرحوم العلامة الدكتور جورج كمبفماير المستشرق الألماني الكبير، ورئيس جمعية الدراسات الإسلامية الألمانية وأستاذ اللغة العربية سابقاً بمعهد اللغات الشرقية ببرلين. توفي في نحو الثمانين من عمره بعد حياة علمية حافلة أسدى فيها للمباحث الإسلامية والآداب العربية خدمات جليلة؛ وكان من طبقة المستشرقين الأكابر التي تنقرض اليوم أمثال نيلدكه وزاخاو وبيكر وغيرهم من زملائه وأصدقائه. وتخصص الدكتور كمبفماير في دراسة الآداب العربية، وتبع بالأخص تطورات التفكير الشرقي الحديث والثقافة العربية المعاصرة؛ وله في ذلك بحوث نقدية عديدة نشر معظمها في مجلة معهد اللغات الشرقية ولبث مدى أعوام طويلة ركناً من أركان معهد اللغات الشرقية، ولم ينقطع عن التدريس فيه إلا في الأعوام الأخيرة إذ تفرغ لدراساته وكتاباته في مجلة العالم الإسلامي التي كان يصدرها باسم جمعية الدراسات الإسلامية والتي قطعت إلى اليوم زهاء عشرين عاماً من عمرها

وفي سنة 1928 قام الدكتور كمبفماير برحلة دراسية في مصر وبلدان الشرق الأدنى، واشترك بعدئذ في وضع كتابين انتفع فيهما بهذه الدراسة: أولهما كتاب زعماء الأدب العربي المعاصر الذي وضعه بالإنكليزية مع تلميذه وصديقه الدكتور طاهر خميري الذي يقوم الآن بتدريس اللغة العربية في معهد همبورج الشرقي، والثاني كتاب (أين يتجه الإسلام) الذي وضعه بالإنكليزية عدة من أكابر المستشرقين، وتولى الدكتور كمبفماير كتابة القسم الخاص بمصر فيه؛ وكان للعلامة الراحل أصدقاء عديدون في مصر وجميع البلاد العربية، وكان بارعاً في كتابة العربية والتحدث بها. وسنوافي القراء في فرصة أخرى بدراسة مفصلة لحياة العلامة الراحل وآثاره

معرض لذكرى لورد بيرون

وضع أخيراً في إنكلترا مشروع لتخليد ذكرى الشاعر الإنكليزي الكبير لورد بيرون بصورة دائمة، وذلك بأن يقام في المنزل الذي كانت تملكه أسرة الشاعر في قرية

(نيوستيد أبي) معرض دائم لتراث الشاعر ومخلفاته وكل ما يتعلق بحياته وشعره. وقد كان هذا المنزل الريفي الذي نشأ فيه الشاعر وأحبه أعز ما لديه، ولكنه اضطر إلى بيعه في سنة 1817 حينما سافر إلى اليونان ليدافع عن قضيتها الوطنية. وأخيراً قررت بلدية توتنهام شراءه من أصحابه الحاليين ووقفه لتخليد ذكرى الشاعر. وسيكون بين محتويات هذا المعرض الذي سمي (بمعرض بيرون) مجموعة كاملة من مؤلفات بيرون في طبعاتها المختلفة، ومخطوطات الشاعر، وأوراقه ورسائله، وأوراق أسرة بيرون كلها. وبين الخطابات التي تتألف منها هذه المجموعة خطاب مؤثر من خادم اللورد بيرون، وليم فلتشر، ينعى فيه سيده إلى أسرة الشاعر، ويصف وفاته في ميسو لونجي في إبريل سنة 1824

وقد صدر بهذه المناسبة فهرس قيم لآثار الشاعر وأوراقه وفيه وصف شامل لها: وبه أيضاً خلاصة وافية لحياة الشاعر ومذكرات مختلفة عن جوانب من حياته، وصور له ولزوجه وأمه وأخته وابنته

وهكذا يحظى الشاعر الكبير أخيراً بأثر حي يخلد ذكراه بصورة دائمة، وكانت هذه أمنية قديمة (لأصدقاء) بيرون والمعجبين بشعره وعبقريته وحياته الروائية المؤثرة

أثر تذكاري للشاعر الإنجليزي كيبلنج

أقيمت في لندن وليمة شائقة احتفالاً بافتتاح العمل لإنشاء أثر تذكاري للشاعر الإنكليزي كيبلنج ترأسه الارل اثلون وكانت برفقته زوجته البرنسس أليس ابنة الدوق البني وحفيدة الملكة فكتوريا. وقد تليت أثناء الوليمة رسالة من الملك جورج السادس يظهر بها ارتياحه إلى اجتماع ممثلين من جميع أنحاء الإمبراطورية توطئة لإقامة تذكار مناسب لشاعر يعد نبوغه تراثاً لجميع المتكلمين باللسان الإنكليزي. وقد اشترك في هذه الوليمة ألف رجل وامرأة من المعجبين بأشعار كيبلنج في كل العالم. وقد تليت رسائل من رؤساء حكومات الهنود والدومنيون تمنوا بها النجاح لهذا المشروع الذي بلغت الاكتتابات المالية له حتى الآن 35 ألف جنيه

العدد 230 - بتاريخ: 29 - 11 - 1937

ثورة على الأخلاق

للدكتور عبد الوهاب عزام

يا أخي صاحب الرسالة!

أبلغ أخي محمودا الذي لا أعرفه هذه الكلمة عني:

قرأت في الرسالة ما نقله الأستاذ الزيات من رأيك في مزايا الأخلاق والفضائل) فهالني ما قرأت، وعزمت على أن أبادر بالكتابة إليك على ضيق الوقت وفتور الصيام. وكيف لا يرتاع من يسمع أن رجلاً من ذوي الأخلاق خاب ظنه فيها فثار عليها ويئس منها؟ فاقرأ يا أخي كلمتي ثم أبِن لي رأيك من بعد:

دخل أعرابي مسجد المدينة ورسول الله وأصحابه هناك فصلى ثم دعا فقال: (اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحدا) فضحك صلوات الله عليه وقال: (لقد حجّرت واسعاً يا أعرابيّ).

وكذلك أنت يا أخي قد حجّرت واسعاً حين خيّل إليك أن دائرة عملك التي (وسَّعتها بمقدار ما استلزمه هذا العمل من ملابسة الشعب ومراجعة الحكومة) هي الأمة كلها، وأن الأمة هي العالم كله، وأن العالم الحاضر هو الزمان كله. وإن شئت أن تقول إني لم أحجّر واسعاً ولكني وسّعت محجّرا فلك رأيك، والنتيجة في الحالين واحدة

أود قبل أن أناقشك في رأيك أن أعدّك موافقي، كما وافق صديقنا الزيات، على أن الخلق الفاضل سبيل إلى سعادة صاحبه وطمأنينته ما في هذا ريب، وأن الرجل الحرّ الأبيّ الفاضل يعيش في سعة من نفسه، وعزة من خلقه، ونعيم من وجدانه، لا يدركها أصحاب الجاه العظيم والثراء العريض ممن وجدوا كل شيء وفقدوا أنفسهم، وأن الحرّ الكريم يرى نفسه في عزتها وحريتها ورضاها فوق هذا العالم الذي تباع فيه النفوس رخيصة وتبذل فيه القلوب ذليلة، ويعدّ نفسه أسداً قوياً مهيباً قد ربض حجرة من معترك الذئاب ومُهتَرش الكلاب

إنما خلافنا في النجاح في المعايش ونيل الجاه والثروة؛ أسبيله الخلق القويم أم العمل الذميم؟ وإني أعجّل لك الجواب في قضية نتفق عليها لنفرغ لما بعدها فأقول: حق أن

الرجل التقي الحرّ الأبيّ لا يرى إلى الجاه والمال إلا طريقاً واحدة هي الطريق التي يسنّها
الحق والشرف والأباء والمروءة، وأن أمام الفساق والأذلاء والأدنياء طرقاً شتى من التلصص والكذب والتزوير والخداع والنفاق والملق والذلة والشره والظلم والقسوة والأثرة وهلمّ جرّا. وحق كذلك أن من الأحرار من يخفق في عمله حين يُلزم نفسه هذه الطريق الواحدة، ويقسرها على هذه المحجة الواضحة، وأن من العبيد عبيدِ المطامع والأهواء ومرضى النفوس والأخلاق، من يظفرون في هذه السبل بما يريدون، ويبلغون الغاية التي يقصدون. ولست أجحد كذلك أن الجماعة قد تعتلّ فيكثر فيها المبطلون الظافرون، والمحقّون المحرومون. كل هذا يا أخي حق، ولكن استمع:
كثيراً ما يحرم الحر الصالح لعزوفه عن معترك المطامع وصدوفه عن الاتجار في أسواق الحياة، وتنكّبه السبل التي جعلتها سُنن الجماعة وسائل إلى الجاه والثروة. فليس إخفاق هؤلاء بأخلاقهم، ولكن بكبريائهم وتقصيرهم في اخذ الأهبة وإعداد العدة، على حين يتأهب الأشرار، ويجدّ الفجّار. فلا جرم يخفق أولئك ويُنجح هؤلاء، فإن للحياة قوانين وللمعايش سُنناً. والقرآن الكريم يقول: (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يُبخسون.) ويقول: (كلاًّ نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك، وما كان عطاء ربك محظوراً.) ولكن إذا أخذ الرجل أهبته للعراك في الحياة وتسلّح بالخلق الطيب فلن يكون هذا الخلق سبباً إلى إخفاقه وسبيلاً إلى خيبته أبدا. ربما تعتلّ الجماعة فينتصر المبطل ويخذّل المحقّ، ويفتتن بهذا كثير من الناس، ولكن هذا لا يكن ديدنا. ثم علة الجماعة لا تدوم؛ وليست الجماعات كلها عليلة. وما تزال الجماعات منذ ألّفها الله وعلّمها وبعث فيها الهداة المرشدين، ووضع لها السنن أيْداً لأنصار الحق وعوناً لأهل الفضيلة، وخذلاناً لجند الباطل والرذيلة. مازال الصانع الذي يتقن صنعته، ويحسن معاملته ويصدق وعده، أنجح عملاً وأكثر مالاً من الصانع الكذاب سيئ المعاملة. ومازال التاجر الصادق في قوله، الأمين في فعله، الذي يقلّب تجارته على شرائع من الصدق والأمانة والقناعة والإخلاص، ولا يلبس على الناس الجيد بالرديء، والغالي بالرخيص - مازال هذا التاجر أربح متجراً واملأ يداً وأحظى برضا الناس وإقبالهم من التاجر الكاذب الغاشّ الشره المخادع. أترى في هذا ريباً؟ إن كنت في ريب فابحث كما تشاء واسأل من تشاء. ولا يزال المزارع الذي يزرع الأرض فلا يتزيد فيما أنفق عليها، ولا يسرق من زرعها، بل يصدُق مالك الأرض فيما أنفق وما جنى؛ ومستأجر الأرض أو الدار الذي يشق على نفسه ليؤدي الأجرة في حينها؛ لا يزال هذا وذاك أحب إلى المالكين وأظفر بما يريد
ولا يزال الرجل الصادق الأمين في كل جماعة وفي كل طائفة موضع المودة والثقة. ينال بسيرته ما تقصر عنه ثروته؛ إن استقرض أُقْرض، وإن استعار أعير. له من ثقة الناس رأس مال لا ينال منه الخسار، وتجارة لا يدركها البوار. ربما يتَّجر في ألف وليس عنده إلا مائة، ويزرع عشرة فدادين وليس بيده إلا أجرة فدان واحد؛ ويستخدم في المتاجر والمصانع دون كفيل أو ضمين. سل يا أخي الناس في كل قبيلة، وطالع التاريخ في كل جيل
على أن الأمم في هذا مختلفات، والتاريخ درجات: أمة تسدّ الطريق على كل فاجر مخادع كذاب، وتؤثر بمالها وكرامتها كل برْ أمين صادق؛ وأمة يجد المخادعون فيها طريقاً ولكنها وعرة، ومذهباً ولكنه ضيق، ورواجاً ولكنه قليل؛ وأخرى تتسع فيها مجال الأشرار، وتروج فيها سوق الفجّار. ولكن لا تبلغ أمة من الفساد أن تسن في الرذائل سُنَناً، وتشرع في المخازي شِرَعاً تجعل الأشرار المخادعين فائزين حيثما ساروا، وتردّ الأبرار الصادقين خائبين أين توجهوا. مهما تشتد العلة فالخيبة أكثرها للأولين، والنجح أكثره للآخرين. فإذا أرادت تجعل الفساد سّنة فموتها دون الغاية، وزوالها قبل نهاية الطريق
أحسب يا أخي أن الذي لبس عليك الأمر لبساً، وملأ عليك العالم حزناً، وملأك على العالم سخطاً، أنك نظرت أول ما نظرت إلى دواوين الحكومة فرأيت جماعة من خفاف الأحلام صغار النفوس شالت كفتهم فارتفعوا، وآخرين من راجحي العقول كبار النفوس ثقلت موازينهم فنزلوا؛ فلما امتلأت نفسك أسفاً وأملك في الناس خيبة، نظرت إلى أنحاء الأمة ساخطاً متشائماً، فنفضت عليها هذا السواد، ونفثت عليها هذه

الغضبة، واتهمتها بهذه التهمة
إن دواوين الحكومة أقرب المواضع إلى ما زعمت، وأكثرها تعرضاً لما وصفت. ذلك بأن الرزق فيها لا يُنال بالسعي والكد، والجهد والدأب، والاحتكام إلى سنن الاجتماع وقوانين الطبيعة؛ ولكن الرزق فيها يُقسم بأيد قليلة، ويصرّف بآراء معدودة، فإذا فالت هذه الآراء، وطاشت هذه الأيدي، وقع الفساد، ثم شاع وعمّ حتى يبلغ أمده. وكثيراً ما تفيل الآراء وتطيش الأيدي بأهواء السياسة ومنازع التحزب؛ على أن هذا مهما كثر لا يبلغ أن يكون
قاعدة العمل وسّنة الجزاء
ولا تنس يا أخي أن هذه الدواوين حديثة عهد بأيدي الأجانب ومن تربّى في عبوديتهم؛ وكانت سنة الأجنبي أن يرفع من استسلم إليه وتوكل عليه، ولا يكون هذا الاستسلام وذاك التوكل إلا احتقاراً للكرامة وازدراء بالخلق الفاضل؛ ونحن لا نزال في أول عهدنا بالاستقلال لم تهذبنا التجارب ولم تتمكن أيدينا من وضع القواعد الصالحة، وسن السنن القديمة، وإقامة الوزن بالقسط بين الناس أجمعين
فإن رأيت جوراً في الدواوين وظلماً بين الموظفين فهي علة زائلة. فلا تنشرها على الأمة كلها، ولا تمدها على الزمان جميعه. واعلم أن الظفر للحق والخيبة للباطل، وأن النصر للفضيلة والهزيمة للرذيلة، وأنها الغمرات ثم ينجلين، والعاقبة للمتقين. والسلام عليكم ورحمة الله
عبد الوهاب عزام
النماذج والأفراد في الأدب
للأستاذ عباس محمود العقاد
أشرت في مقالي السابق إلى رأي (لونارد وولف) في كتابه (بعد الطوفان) وخلاصته أن الشعراء والقاصين كانوا يرسمون للناس قبل القرن السابع عشر نماذج من طوائف وجماعات، أما بعد القرن السابع عشر وانتشار الديمقراطية فقد أصبح أبطال القصص (أفراداً) مستقلة قلما تتكرر في غمار السواد. وعلاقة الديمقراطية بهذا التغير الواضح أن المساواة قد خولت الفرد حرية الظهور فبرزت الخصائص واستحقت من الشعراء والكتاب عناية لم تكن تستحقها حين كان الجمهور أرقاماً متكررة على نموذج واحد، أو حين كان النبلاء طرازاً مرسوم المراسم لا يختلف فيه إنسان عن إنسان
أشرت إلى هذا الرأي وقلت إنني سأعود إليه ببعض الشرح والتعليق في مقال آخر؛ وأظن أن تاريخ الآداب لا يفهم حق فهمه إلا بتجلية هذا الرأي وأمثاله والوقوف على مبلغ ما فيها من الحقيقة والتمييز بين الأدب القديم والأدب الحديث، لأن تاريخ الآداب إن هو إلا المعالم التي نميز بها عصراً من عصر وطريقة من طريقة وموضوعاً من موضوع، سواء أكان هذا الموضوع بطلاً موصوفاً في رواية أو قصيدة، أم كان عاطفة إنسانية يصورها الراوي والشاعر حسبما يراه
لقد كان اليونان يصورون الإنسان لأنه يستحق النظر إليه ويقولون: إذا كنت لا تجد من ينظر إليك فكيف تجد من يصورك؟ وعلى هذا كان تصويرهم مقصوراً على الجميل والنبيل والرائع والمشهور، وهي الصورة التي تسترعي الأنظار وتشغل الخواطر وتفعم النفوس بالفتنة والإعجاب
كان ذلك شعارهم في عالم التصوير الفني، فهل تغير اليوم هذا الشعار؟
لا. لم يتغير، ولم يزل من دأب القاصين والشعراء والرسامين والمثالين والكتاب المسرحيين أن يصوروا ما يستحق النظر، وأن يقولوا كما كان اليونان الأقدمون يقولون: إذا كنت لا تجد من ينظر إليك فيكف تجد من يصورك؟!
لم يتغير شعار الفن القديم، وإنما تغير الذين يستحقون النظر فأصبح الدميم والسقيم والوضيع والخامل مستحقين أن ينظر إليهم الناظر، وأن يبحث فيهم الباحث، وأن يتناولهم
التشريح، وأن يتعلق بعرفانهم عرفان أخلاق الإنسان وأطوار الجماعات وأدواء الأجسام وآفات الضمائر، وأصبح الهمل المنبوذون أهلاً للدرس والفحص والمراقبة مذ أصبحت جثة الميت أهلا للعناية بها ومراقبة الأدواء والأدوية فيها. فإذا قال القائل الحديث: كيف تجد من يصورك وأنت لا تجد من ينظر إليك؟ فهو معبر عن رأي الأقدمين والمحدثين على حد سواء؛ ولكنه إذا سأل: من الذي يستحق النظر أو من الذي يستحق التصوير؟

فهنا يظهر الخلاف ويتبين الفارق بين شعار الفن القديم وشعار الفن الحديث
وقد أصاب (لونارد وولف) حين قرن بين هذا التغيير وبين الديمقراطية، وأصاب أكثر من ذلك حين قال: إن الأديان فتحت باب هذا التغيير حين عرّفت الإنسان أن له روحاً مستقلاً بحسابه، منفرداً بثوابه وعقابه، معدوداً أمام الله خلقاً لا يفنى في غمار الخليقة، ولا يزال له ميزانه وكتاب حسناته وسيئاته لا يختلط بميزان غيره ولا بكتابه وتلك في الحقيقة هي أول خطوة خطاها الإنسان في إظهار (الفرد) وتمييزه من غمار الجنس كله أو الطائفة برمتها
فمنذ أصبح الإنسان (فرداً) معزولاً في حكم الدين، لا اختلاط بين حسناته وسيئاته وبين حسنات الآخرين وسيئاتهم، ولا التباس بين ثوابه وثوابهم وعقابه وعقابهم؛ هنالك أصبحت كل نفس بما كسبت رهينة، وأصبحت كل نفس حقيقة بالمحاسبة والإحصاء والمراقبة، ورسخت جذور الديمقراطية في التاريخ فلم يبق إلا أن تظهر لها على وجه الأرض فروع وأوراق وثمار
وغاية الفرق بين الفردية الدينية والفردية الديمقراطية أن حساب الدين إنما يكون في الآخرة فلا ضرورة لفرز الأفراد في هذا العالم الأرضي ولا لتمييزهم بالخصائص الدنيوية وما يتصل بها من الخلائق الاجتماعية والملامح الفكرية والأطوار السياسية
أما الديمقراطية فلا مناص فيها من التمييز بهذه المزايا ولا من فرز الناس على حسب ما يتراءى بينهم من فوارق الدنيا وعلامات الحياة وشياتها. ومن ثم بدأ التحليل النفسي بعد ظهور الديمقراطية ولم يبدأ تواً بعد ظهور الأديان؛ وكان من دواعي ظهوره مع الديمقراطية عدا ما تقدم أنها جاءت على أثر النهضة العلمية وعلى أثر انتشار العلوم والمباحث في أطوار الناس مجتمعين ومنفردين، فتيسر التحليل النفسي الذي لم يكن ميسوراً قبل ذلك في صدر المسيحية أو في صدر الإسلام، وأمكن التفريق بين الأفراد في الطائفة الواحدة والجنس الواحد، لأنهم من جهة قد ملكوا الحرية التي يبرزون بها خصائصهم ونزواتهم، وينطلقون بها مع أهوائهم ورغباتهم؛ ومن جهة أخرى قد وجدوا من يدرسهم ويطبق عليهم قواعد العلوم ويصوب إليهم مجاهر النقد والملاحظة. ولم تكن أسباب ذلك كله مهيأة عند ما جاءت الأديان بدعوة الفردية الدينية وجعلت كل إنسان (روحاً) له حسابه وكتابه وليس بالقطرة المنسية في الغمار
على أن العبقريات الرفيعة قد سبقت نهضة الديمقراطية إلى تمييز (الخصائص الفردية) على اختلافها ولو كانت في أوضع النفوس وأهونها وأبشع مياسمها. فكان المصور العظيم (ليوناردو دافنشي) يتعقب المشوهين والمسخاء في الطرقات ويغريهم بالخمر والمال، حتى يتكشفوا عن سرائر نفوسهم، ويخرجوا من حجاز الكلفة والمهابة، فيرقص منهم من يرقص، ويهذي منهم من يهذي، ويقهقه منهم من يقهقه؛ وتزداد بذلك بشاعة وجوههم وفسولة طبائعهم، وهو ناظر إليهم يترقب لمحة عارضة فيسجلها بقلمه دون أن يقطع عليهم مجانتهم وخلاعتهم. وكان شكسبير يصور عشرات النساء وكل واحدة منهن امرأة غير سائر بنات حواء في حبها وبغضها وحيلتها وكيدها وكلامها وسلوكها، حتى لا مشابهة بين صاحبة هملت وصاحبة عطيل وصاحبة مكبث وبنات الملك لير إلا في صفة الأنوثة التي تشمل جميع النساء
أما من عدا هذه الطبقة من العبقريين فأبطالهم كما قال (لونارد وولف) نماذج يشترك في صفاتها المئات والألوف، فحسن التاجر البصري مثلاً هو تاجر كسائر التجار، وهو عنوان طائفة وليس بفرد من الأفراد، وكذلك عجيب وغريب وغيرهما من أبطال ألف ليلة وليلة، هم نماذج للفرسان والأمراء، وللأخيار والأشرار وللشيوخ والشبان، لا تحس فرقاً بين أحدهم وبين غيره من أبناء قبيله وعامة أقرانه وزملائه، ولا مشابهة بينهم وبين أبطال القصص الحديثة - ولاسيما التحليلية منها - حيث ترى البطل فرداً ليس بالمتكرر وليس بالشائع بين أبناء صنعته وإخوان طرازه، وإن شابههم في صفة من الصفات فبمقدار ما يستدعيه اتفاق الصناعة واتفاق البيئة دون أن يفنى معهم في الغمار أو يغيب وراء العنوان
يلوح لي أن هذا الرأي الذي أجملته وتصرفت في تفسيره بما أخلى المؤلف من تبعاته -
هو على الجملة رأي صواب لا غنى عنه في نقد الفنون والآداب
ولكني أفضل أن أقول إن التحليل النفسي لم يكن نتيجة الديمقراطية وإنما كانت

الديمقراطية والتحليل النفسي معاً نتيجة شيء آخر: هو انتهاء الكشوف الظاهرة وابتداء الكشوف الباطنة، أو هو انتهاء السياحات الجغرافية وابتداء السياحات النفسية الإنسانية

ففي الوقت الذي ظهرت فيه القصة التحليلية كان الإنسان قد فرغ من كشف الأرض ووصل إلى أقصى مجاهل العالم المعمور

ولم تكن هناك قصة تحليلية قبل كشف الهند وكشف أمريكا وكشف المجاهل الآسيوية والأفريقية

فلما كشف كل هذه الأصقاع ووقف حب الاستطلاع والتماس الغرائب، من هذه الناحية، بدأ الالتفات إلى دخائل النفس وأخذت غرائب الأخلاق في الظهور، وأخذت العناية بها والتوفر على درسها في التقدم والشيوع

لقد كان معظم الرواية القديمة رواية رحلات ورحالين وكان الإنسان مشغولا بكشف (المكان) الذي يحيط به ويغريه بسحره ووعوده ومجازفاته، فكان شغفه بالاستطلاع والإحاطة بالدنيا مستغرقاً كله أو جله في هذه الناحية، وكان أمامه من العالم شيء يستوفيه ويستكمله ولا يزال له متعقباً متأثراً حتى ينتهي به إلى مداه

ولم يكن مجرد اتفاق ولا مصادفة أن تمت الكشوف الجغرافية وبدأت الكشوف النفسية في عصر واحد، فقد فرغ الإنسان من كشف الظاهر فانقلب إلى كشف الباطن، وعرف العجائب من البقاع المجهولة، فانثنى إلى العجائب من الخلائق الخفية، وكان هذا هو الترتيب الطبيعي المعقول في تاريخ الكشف والاستطلاع، فإن الاهتداء إلى المكان أسهل وأوجب من الاهتداء إلى سرائر الأخلاق، والعلم الذي يحتاج إليه المرء في سياحة جغرافية أقل من العلم الذي يحتاج إليه في سياحات الضمير، إذ هو في الواقع ملتقى جميع العلوم ومشتجر الفلسفات والديانات والمذاهب أجمعين

لقد بدأت الديمقراطية وبدأ التحليل النفسي معاً بعد كشف الأمريكتين وكشف الهند وكشف المجاهل الآسيوية والأفريقية، ولولا انكشاف الأرض للإنسان لبقي مشغولاً بالمجهول منها عن سرائره وخصائصه وما يتميز به الأفراد من حقوق وواجبات

عباس محمود العقاد

الكتابة وحالات النفس

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

كتب إليّ بعضهم يسألني: هل صحيح ما روته إحدى المجلات من أني لا لأكتب حديثاً للإذاعة اللاسلكية إلا قبيل موعده بوقت قصير، وأني إذا كتبته قبل ذلك بزمن طويل فالأغلب والأرجح أن أمزقه وأكتبه مرة أخرى؟ وما سبب ذلك أو داعيه؟

فأما أني أمزق شيئاً مما أكتبه - حديثاً كان أو مقالاً أو قصة - فغير صحيح، ولست أعرف أني راجعت كلاماً أكتبه أو عنيت به بعد أن أفرغ منه. فقد غدوت كالثور المشدود إلى الساقية وعيناه معصوبتان، حتى لا يدور رأسه من كثرة الدوران واللف، وكلما وقف يستريح صاح به صاحبه: (عا) ولمسه بالعصا أو السوط، فيتحرك الثور ويستأنف الدوران، لأنه أخف مؤونة وأسلم عاقبة من الوقوف. وكذلك أراني، في حياتي، وإذا كان الثور يدري لماذا يجشم عناء هذا اللف كله، فإني أدري لماذا تكلفني الحياة هذا الجهد. وليست على عيني عصابة وإني لأنظر بهما وأرى، ولكني لا أدرك ما وراء ذلك، وليس ثم سوط يلهب ظهري، ولا عصا هناك تقع عليه، ولكن الحياة تدفعني من حيث أشعر ولا أشعر، وللحياة وخز وحفز وإغراء محسوس وغير محسوس؛ ولعل الذي لا نفطن إليه أفعل وأقوى من الذي ندركه من وسائلها. وكثيراً ما أشعر أني مدفوع إلى الكتابة وأني لا أملك التحول عنها أو إرجاءها، وأني سأشقى وأسقم إذا لم أذعن لهذا الدافع الغامض، فأجلس إلى المكتب وليس في رأسي شيء سوى الإحساس العام الثقيل بالحركة وبأنها يوشك أن تتمخض عن خاطر معين أو خالجة بينة، ويكون القلم في يدي في تلك اللحظة فأخطط به على الورقة وأنا حائر، ذاهل، لا أحس ما حولي، بل لا قدرة لي على الإحساس بشيء مما يحيط بي إلا إذا حملت نفسي على ذلك حملا، وخرجت بها من ضباب الحيرة والذهول والسهو بجهد واضح، ثم تخطر لي عبارة فأخطها، وأنا لا أدري إلى أين تفضي بي، ويغلب أن يطول ترددي في البداية ثم يمضي القلم بعد ذلك بلا توقف ويستغرقني الموضوع وتستولي روحه عليّ،

فلا يبقي لي بال إلى شيء، حتى إذا انتهى الأمر ونضب المعين ألقيت القلم والورقات ورحت أتثاءب وأتمطى كأنما كنت نائماً، ويكون هذا آخر عهدي بما كتبت في يومي وقد استعملت لفظ (التمخض) وأنا أعنيه، فليس ثم أدنى فرق فيما أعلم وأحس بين التمخض بالجنين، وبين حركة التوليد في النفس؛ وكما تفتر المرأة بعد أن تضع طفلها، ولا ينازعها في ذلك الوقت شوق إليه أو تحس فرحاً به، وإنما يكون إحساسها بالفرج بعد الضيق الذي كانت فيه والكرب الذي كانت تعانيه، والراحة بعد الجهد والمشقة والعذاب، والتفتير الذي يورثها إياه ما تجشمت، كذلك يكون الأديب بعد أن يستريح من أزمة النفس أو الفكر

ويخطر لي أحياناً أني كالمسافر الذي لا يذهب إلى المحطة إلا والقطار يوشك أن يتحرك، فما أراني أكتب إلا في اللحظة الأخيرة؛ وقد ألفت أن أرجئ الكتابة مادام في الوقت فسحة، وأحسب أنه لو وسعني أن أكف عن الكتابة لفعلت، فأني أوثر الراحة على هذا العناء الباطل، وبي مثل بلادة التلميذ الذي لا يذهب إلى المدرسة إلا محمولاً على ذراع الخادم، فليت من يدري أهذه عادة اعتدتها أم هي طباع وفطرة واستعداد؟ على أني أعرفني من المرجئين في كل شيء: الدَّين أفر من أدائه ما وسعني الفرار، والنوم أكره أن أستيقظ منه، والفراش يشق عليّ أن أترك نعيمه، واليقظة أستثقل أن أنزل عنها - كل حالة أكون فيها أشتهي أن تطول وتدوم، إلا التنغيص والألم كما لا أحتاج أن أقول

وقد جربت أن أكتب ولا انشر، فكتبت رواية (طويلة) ودسستها في درج المكتب، ومضت شهور، وسافرت إلى لبنان فحملتها معي لأراجعها هناك قبل طبعها، فلما أجلت فيها عيني وجدت أن الحالة النفسية التي كتبتها بها قد ذهبت، وأن حالة أخرى قد استولت عليَّ، فحاولت أن أستعيد تلك الحالة الأولى فأعياني ذلك، فأجريت القلم في الرواية بالتبديل والتغيير، والتقديم والتأخير، والحذف والاضافة، وإذا بالرواية قد صارت شيئاً جديداً فقلت لا بأس، وطويتها، وفي عزمي نشرها بعد الأوبة إلى مصر. فلما صرت في بيتي خطر لي يوماً أن أخرجها وأتصفحها، فإذا بي في حالة نفسية جديدة لا تسمح لي بالرضى عن الرواية في صورتها الثانية. . . فأعملت فيها القلم ومسختها مرة ثانية، ومازلت بعد ذلك أرجع إليها بالمسخ كل بضعة شهور حتى يئست فانتزعت منها فصولاً تصلح أن تكون قصصاً قصيرة ومزقت الباقي. وحمدت الله على الراحة بعد طول العناء. وأيقنت أنه خير لي ألاَّ أكتب إلا إذا وثقت من النشر بعد أن أضع القلم وأذكر أن بعضهم سألني مرة (أي كتبك أحب إليك؟) فلما قلت: (ولا واحد) استغرب جوابي وأنكره، وذكرني بأني قلت مرة إن هذه المفاضلة عسيرة لأن الكتب كالأبناء، والوالد لا تخفى عليه مزايا أبنائه وعيوبهم، ولا يجهل أن هذا ذكي وذاك غبي مثلاً، ولكنه مع ذلك يحبهم جميعاً على السواء وإن كان يعرف فضل بعضهم على بعض. وهذا صحيح، على الجملة، وفي الأغلب والأعم، ولكني رجل دأبي أن أراجع نفسي، ولا تنفك حالاتي النفسية تتغير، فنظرتي إلى الشيء وإحساسي به يختلفان من يوم إلى يوم. وثم أمر آخر هو ما يتمثل لي من صور الكمال وما يبدو لي في عملي من وجوه النقص والقصور، وليس لي حيلة إلا أن أقيس ما أخرجت إلى ما كنت أحب أن يكون، وإلا أن أحدث نفسي أنه كان في مقدوري أن أصنع خيراً مما صنعت، ولو كنت أعتقد أن هذا هو غاية ما يبلغه الجهد ويصل إليه الإمكان لرضيت وقنعت واغتررت، ولكني أحس أني أقدر على خير مما أفعل؛ وقد يكون هذا إحساساً كاذباً، كالجوع الكاذب، وقد يكون خدعة من خدع الغرور، فإن يكن كذلك فإنه ولاشك بلاء، ولكنه الواقع على كل حال. وما أكثر ما أسمع من يثنى على كتاب لي، فأتركه يثني فإن الثناء حبيب إلى النفوس، وأتعجب له فيما بيني وبين نفسي وأسألها: ماذا أعجبه يا ترى؟ أما لو أن رجلاً نقد نفسه. . .؟ وأزداد غروراً، وأشعر أني فوق هذا المادح. . . ولكني أتواضع وأقول له وأنا مطرق - ووجهي فيما أعتقد وأرجو مضطرم من فرط الحياء - (أستغفر الله! أستغفر الله! يا شيخ قل كلاماً غير هذا!) الخ الخ

فإذا كنت لا أكتب إلا قبيل أوان النشر بأوجز فترة فذاك لأني بليد ولأن نفسي تتعاقب عليها حالات مختلفة فأسخط على ما كنت أرضى عنه وأذم ما حمدت، واستضئل ما أكبرت، ولا حيلة لي في ذلك. وماذا أصنع إذا كنت أحس أني مسوق إلى جسّ نفسي

وقياس قدرتها إلى ما ينبغي مما ترتسم صوره في نفسي وتتمثل لي في خواطري؟
إبراهيم عبد القادر المازني
في سبيل الإصلاح
الحلقة المفقودة
للأستاذ علي الطنطاوي
نحن اليوم (في الشرق الإسلامي) في دور انتقال ليس له وضع ثابت، ولا صفة معروفة، فلا نحن نعيش حياة إسلامية شرقية كما كان يعيش أجدادنا، ولا نحن نعيش حياة غربية خالصة كالتي يحياها الأوربيون، ولكنا نعيش حياة مختلطة مضطربة متناقضة فيها ما هو شرقي إسلامي، وفيها ما هو غربي أجنبي، وفيها ما ليس بالشرقي ولا بالغربي، ولكنه منقول نقلاً محرفاً مشوهاً عن هذا أو ذاك. بل أنت إذا دققت وأنعمت النظر في حياتنا وجدت لها جانبين مختلفين، ولونين متباينين: الجانب الذي يميل إلى المحافظة، والجانب الذي يجنح إلى التجديد. وهذان الجانبان تلقاهما في كل عهد من عهود الانتقال في التاريخ؛ ففي مطلع العصر العباسي كنت تجد في بغداد المحدثين والزهاد والفقهاء كسفيان والفضيل وأبي حنيفة، وإلى جانبهم الفساق والمجان كبشار وأبي نواس، والمتعصبين للعربية والشعوبيين، ومن كل صفة زوجان، ولكل أمر ناحيتان، وكذلك كان شأن الرومان أول اختلاطهم باليونان
قف ساعة في أي شارع كبير في أي مدينة من مدن الشرق الإسلامي واعرض الأزياء، تر الإزار والعقال إلى جانب العمة، إلى الطربوش، إلى القبعة، إلى اللاطية. حتى أن أجنبياً وقف مرة هذا الموقف فظن أن القوم في عيد المساخر (الكارنفال). وادخل عشرة بيوت تجد البيت الشرقي ذا الصحن الواسع والإيوان المشمخر والبركة ذات النوافير، إلى جانب البيت الأوربي المسقوف المتداخل الذي لا ترى فيه السماء إلا من الشرف. ولج البيت الواحد تجد الغرفة ذات الفرش العربي: الأسرّة والمتكات والوسائد والبسط والنمارق، إلى جانب الغرفة الأوربية ذات المقاعد والمناضد. . . واعرض أهل الدار تجد بين الأب وابنه قرناً كاملاً في اللباس والتفكير والعادات. وفتش عن الأب المساء تَلْقَهُ في المسجد أو قهوة الحي، ثم انظر الابن تجده في أحدث مرقص أو أكبر ناد للقمار أو للتمثيل أو المحاضرات. وانظر إلى الأم المحتجبة المصلية الصائمة، وابنتها السافرة التي لا تعرف من أين القبلة، ولا تدري ما هو الصيام. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، ولكنه تعداه إلى الثقافة والعلم
وسائر الأمور التي تتصل بحياة الأمة اتصالا ماساً، فجعل فيها هذا الازدواج وهذا التناقض. اجتمع باثنين من المثقفين بالثقافة الإسلامية والثقافة الغربية، تر الثاني ينكر المكتبة العربية جملة، ويجحدها مرة واحدة، وينبزها بالكتب الصفراء والثقافة الرجعية الجامدة، لا يدري أن المكتبة العربية أجل تراث علمي عرفه البشر وأعظمه، وأنها رغم ما أصابها من نكبات: منها نكبة هولاكو حين ألقى الكتب في دجلة حتى اسود ماؤه - فيما نقلوا - من خبرها، ونكبة الأسبان حين أحرقوا الكتب وفيها حصاد أدمغة البشر قروناً طويلة، ولبثوا ليالي يستضيئون بنورها إلى الصباح؛ ورغم ما أضاعه الجهل والإهمال لا تزال مخطوطاتها تغذي المطبعات في الشرق والغرب من خمسين سنة إلى الآن دأباً بلا انقطاع، ولا يزال فيها ما يغذيها خمسين سنة أخرى في ناحية من نواحي التفكير وفي كل فرع من فروع العلم
وتجد الأول ينكر العلم الحديث كله ويجحده بجملته ويعيش اليوم بعقل جدّه الذي كان قبل ثلاثمائة سنة، فلا علم عنده إلا علم العربية والدين والمنطق، ولا أدب إلا الأدب العربي، ولا كتب إلا هذه الحواشي والشروح التي لم تصلح أبداً حتى تصلح اليوم، والتي لا يتصور العقل طريقة في التأليف أشد عقماً منها، إذ تذهب ثلاثة أرباع جهود المدرس والتلميذ في فهم عبارتها وحل رموزها والربع الباقي في فهم مادة العلم التي لا يخرج منها التلميذ على الغالب بطائل
فرجالنا المثقفون وعلماؤنا بين رجلين: رجل درس الثقافة الإسلامية، ولكنه لم يفهم شيئاً من روح العصر، ولا سمع بالعلم الحديث، ورجل فهم روح العصر ودرس العلم الحديث، ولكنه لم يدر أن في الدنيا شيئاً اسمه ثقافة إسلامية. . . فمن أي هذين الرجلين ننظر النفع؟ لا من هذا ولا من ذاك، ولكننا ننظر النفع من الرجل الذي عرف الإسلام وعلومه، وفهم روح العصر وألم بالعلم الحديث، هذه الطبقة المنتظرة من

العلماء، هذه الحلقة المفقودة هي التي يرجى منها أن تقوم بكل شيء، وهي التي سينشئها الأزهر المعمور ودار العلوم العليا، والمدارس التي شيدت لتجمع بين الثقافتين كالكلية الشرعية في بيروت، ودار العلوم في بغداد، وبنشئها من يتخرج في المدارس العليا والجامعات ويكون ذا ميل إلى الدين، ويكون له إلمام بعلومه من هذه الطبقة ينتظر النفع والفلاح، وعلى هذه الطبقة واجبات كثيرة يجمعها أصل واحد، هو دراسة الإسلام على أساس العلم الحديث واستخراج رأيه في مشاكل العصر، وحكمه في الأحداث التي لم يعرفها الفقهاء ولم تحدث في أيامهم. وأهم من هذا كله الآن استخراج القوانين الأساسية والحقوقية والجزائية من الفقه الإسلامي، بدلاً من أخذ القوانين الأجنبية برمتها وتطبيقها في البلاد الإسلامية التي انبثق منها أعظم تشريع عرف إلى الآن وأرقاه. وهذا العمل يبدأ بالدراسات العلمية الفردية ثم يصل إلى الغاية المتوخاة، وهي أن تتم إحدى الحكومات الإسلامية العمل الذي بدأته لجنة المجلة (مجلة الأحكام العدلية) لكن بمقياس أوسع ونسبة أكبر، فلا تتقيد هذه اللجنة بمذهب واحد من المذاهب الأربعة، بل لا بأس أن تأخذ بعض الأقوال من مذهب آخر، ولا تقيد بالمذاهب الأربعة بل لا بأس أن تأخذ بقول لبعض الأئمة الذين اندثرت مذاهبهم، كالثوري والأوزاعي والليث والبطري والظاهري، إن صح مستند هذا القول، ولا تتقيد أيضاً بهذه الأقوال بل تجتهد كما اجتهد الأئمة، وتأخذ الأحكام من الكتاب والسنة رأساً، وأن تبحث عن المصلحة التي يقتضيها النص، فإن الشريعة ما أنزلت عبثاً، والأحكام لم تشرع لغواً، ولكن لكل حكم مصلحة. ومن دقق في اجتهادات الخلفاء الراشدين وجد أنهم يدورون مع المصلحة أينما دارت. هذا عمر رضي الله عنه علم أن المصلحة المرادة من إعطاء المؤلفة قلوبهم سهماً من الزكاة إنما هي تقوية الإسلام وإعزازه، فلما حصلت المصلحة وعز الإسلام أسقط سهم المؤلفة وهو منصوص عليه في القرآن الكريم. وهذه مسألة طلاق الثلاث بكلمة واحدة كان يقع واحدة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وعلى عهد أبي بكر وصدراً من خلافة عمر، فرأى عمر أن المصلحة (في أيامه) في إيقاعه ثلاثاً فأوقعه مع أن الآية صريحة في أن الطلاق مرتان (وقد عادت المصلحة اليوم في إيقاعه طلاقاً واحداً والرجوع إلى الأصل المعروف من الكتاب والسنة). وعطل عمر حد السارق في عام المجاعة. وهذا عثمان جمع الناس على حرف واحد من حروف القرآن، مع أن القرآن أنزل على سبعة أحرف لأن المصلحة تقتضي هذا الجمع. وهذا عليّ حرّق وهو يعلم حكم الله في القتل لأنه رأى المصلحة في هذا العقاب البليغ. والحكومة الإسلامية التي يؤمل منها تحقيق هذا المشروع العظيم هي مصر وحدها، لأنها الحكومة الإسلامية الكبرى، ولأنها وحدها التي ينص دستورها على أن

دينها الرسمي الإسلام، ولأن فيها الملك المسلم التقي فاروق أعز الله به الإسلام، ولأن فيها الأزهر المعمور وفيها العلماء، ولأن فيها اتجاهاً إسلامياً قوياً ظهر في السنين الأخيرة، ودعوة قوية إلى استبدال القوانين الإسلامية بالقوانين الأجنبية

ولو أني وجهت هذه الدعوة قبل عشر سنين مثلا لعرضت لها المعارضة من ناحيتين: ناحية المشايخ الجامدين، وناحية الشباب الجاحدين. أما الأول فلأنهم كانوا يعتقدون أن الاجتهاد سد بابه إلى يوم القيامة، وأن الفقهاء لم يدعوا شيئاً إلا بينوا حكمه مع أن المسألتين مردودتان، لأن سدّ باب الاجتهاد معناه الحظر على الله أن يخلق مثل أبي حنيفة، وهذا محال. ومادامت الأرحام تمتلئ، والنساء تلد، فليس مستحيلاً أن ينشأ مجتهدون وأئمة ونابغون يفوقون الأولين - ولأن الفقهاء وإن بذلوا الجهد، وفرضوا في كثير من المسائل أبعد الفرضيات، وبينوا حكمها، فإن من البديهي أنهم لم يتكلموا في المسائل التي ظهرت الآن ولم يعرفوها. وإذا كان الإمام الشافعي قد غير رأيه في أكثر مسائل المذهب، حين انتقل إلى مصر، ورأى أفقاً جديداً، حتى صار له مذهبان قديم وجديد، فلم لا يتغير الرأي في كثير من المسائل، وقد تغير العالم كله، وتبدلت الدنيا، والإسلام صالح لكل زمان ومكان، والأحكام تتغير بتغير الأزمان؟

أما الشباب الجاحدون فقد كانوا يعارضون هذه الدعوة لأنهم كانوا ينفرون من كل ما يتصل بالإسلام، أو يمتّ إلى الدين بسبب، ويموتون عشقاً لأوربة، ولكل ما له علاقة بأوربة

أما الآن فقد اعتدلت الطائفتان، فلم يبق على وجه الأرض عالم مسلم يقول بسد باب

الاجتهاد، ويدعي أن الفقهاء لم يتركوا شيئاً كان أو يكون إلا بينوا حكم الله فيه؛ ولم يبق في الشباب المتعلمين (والمثقفين حقاً) من ينفر من الدين، ويفزع من اسمه، بل إن العقلية العربية (ولاسيما في مصر) قد اتجهت نحو الإسلام اتجاهاً قوياً ملموساً؛ فعلماء مصر، وطلاب مصر، ورجالات مصر، مؤيدون للإسلام متجهون إليه، وهذا مما يسر، ويبعث الأمل في نشوء هذه الحلقة المفقودة، وإنجاز هذه الواجبات كلها والمسائل التي تحتاج إلى نظر وبحث واجتهاد كثيرة لا أستطيع الآن - ولا أريد - أن أستقريها كلها، ولكني أمثل لها بأمثلة قليلة قريبة

هذا رمضان قد جاء. أفلا يجب إعادة النظر (مثلاً) في مسألة ثبوت الهلال؟ أليست هذه الطريقة المتبعة اليوم في أكثر البلدان الإسلامية مؤدية إلى الفوضى الظاهرة والنتائج الغريبة المضحكة؟ ألم تمر سنوات ثبت فيها رمضان في بعض البلدان الإسلامية السبت، وفي غيرها الأحد، وفي أخرى الاثنين. . . إلى الأربعاء فاختلف ابتداء رمضان، من السبت إلى الأربعاء، وهو يبدأ في الواقع في يوم واحد؟ ألا يبدو هذا مخالفاً لجوهر الدين؟

أنا لا أدعو إلى بدعة جديدة، فقد تكلم الفقهاء في هذه المسألة، فمن فقهاء الحنفية من قال بأن رؤية الهلال في قطر توجب الصيام على الجميع، فلماذا لا نتخذ مرصداً منتظماً في إحدى البلدان الإسلامية، ثم تذاع نتائج رصده على البلدان الإسلامية كافة فيعمل بها؟ أنكون بذلك مخالفين أو مبتدعين، والفقهاء قد قالوا بهذا؟

ومن فقهاء الشافعية كالقفال والرملي وابن سريج من قال بالأخذ بالحساب، والاعتماد على العلم الثابت، فلماذا لا نأخذ بهذه الأقوال، ونحن في عصر ترقى فيه العلم، وصار يعرف موعد الخسوف مثلاً، بالدقيقة والثانية، ويثبت خبره عياناً، أفلا يعرف موعد ولادة القمر وظهوره؟

إن الاعتماد على الشهادة في رؤية الهلال ينتج أموراً عجيبة، من ذلك أن جماعة من قرية دوما شهدوا عند القاضي بدمشق أنهم رأوا الهلال، وأثبت القاضي رمضان اعتماداً على شهادتهم، فقال عمي الشيخ عبد القادر الطنطاوي (وهو شيخ انتهى إليه الآن علم الفلك الإسلامي في الشام) قال للقاضي: إن هذه الشهادة كاذبة وإن الهلال لا يمكن أن يرى الليلة الثانية، فضلاً عن الأولى. وذهب مع القاضي وجماعة من وجه الشام إلى دوما، وأحضر الشهود، ووقف معهم في المكان الذي زعموا أنهم رأوا منه الهلال في الجهة عينها، والساعة ذاتها، وسألهم: أين الهلال؟ فلم يروا شيئا. ثم قال واحد: هاهو، فقال الجميع: هاهو، فأخرج عمي نظارة مكبرة وأراهم، فإذا الذي رأوا غمامة طولها متران، انقشعت بعد ثوان!

وقد حدث مثل هذا كثيراً. سمعت من مشايخي، ولم أر ذلك في كتاب، أن أنس بن مالك رضي الله عنه شهد عند شريح القاضي أنه رأى الهلال، فقال له: هلم أرنيه يا عم. وذهب معه، فقال: هاهو. فنظر شريح وهو الشاب الحديد البصر، فلم ير شيئاً وأنس يقول: هاهو. . . فنظر شريح فإذا شعرة من حاجب أنس بيضاء متدلية يراها فيحسبها هلالا. . .

فأزاحها فلم يعد يرى شيئا

ومنها مسألة الطلاق، لقد بلغت مسألة الطلاق حداً لا يجوز السكوت عنه، ولابدّ من إعادة النظر فيها. وشرع قانون لها يؤمن المصلحة العامة، ويحقق غرض الشارع يكون الرجل في السوق يبيع أو يشتري، فيحلف بالطلاق على أمر، فتطلق امرأته وهي في دارها، ويتشرد أولادها، وتنهدم دار على رؤوس أهلها؛ أو يغضب من أمر فيحلف بالطلاق، مع أن الذي أفهمه أنا أن الزواج عقد يعقد قصداً يراد به ضم حياة الرجل إلى حياة المرأة، وأن الطلاق عقد مثله يراد به حلّ العقد الأول، ولا بأس أن يكون حلّ العقد بيد الرجل وحده ولكن لابدّ من ثبوت القصد، وأعني بالقصد أن يطلق الرجل وهو يفكر في معنى الطلاق ونتائجه، ويقصد فك الرابطة الزوجية فيجب أن يكون القصد شرطاً في وقوع الطلاق، ويجب أن نجد طريقة مادية لإثبات القصد، كأن يشترط تبليغ الزوجة الطلاق بواسطة موظف مخصوص ينصبه القاضي فإن طلق رجل وهو قاصد من غير واسطة هذا الموظف، يقع الطلاق ديناً، ولا تسمع به الدعوى

هذا وأنا لا أجتهد في هذه المسألة ولكن أدعو إلى الاجتهاد فيها ودرسها

وهناك مسائل كثيرة، لا أعمد الآن إلى استقصائها

متى وجدت هذه الحلقة المفقودة درست هذه المسائل كلها، فحققت حاجات العصر وأجابت مطالبه، ولم تخرج على أصول الإسلام، ولم تخالف قواعده، ودرست الإسلام من كافة النواحي العلمية والفنية والاجتماعية، فإن درسنا الحقوق الأساسية العامة، درسنا الحقوق الأساسية في الإسلام، وإن بحثنا في الاشتراكية بحثنا عن رأي الإسلام في الاشتراكية، وإن انقطعنا إلى التاريخ درسنا التاريخ الإسلامي درساً حديثاً، وإن اشتغلنا بالفلسفة درسنا تاريخها في الإسلام، وحكم الإسلام في نظرياتها ومسائلها. . . عند ذلك يمحى هذا الازدواج، وهذا التناقض من حياتنا، ونحيا حياة كاملة قد اصطبغت كل ناحية فيها بالصبغة الإسلامية وهذا هو مثلنا الأعلى الذي يجب أن نطمح إليه. . .

(دمشق)

علي الطنطاوي

مقدمة حضارة العرب

لغوستاف لوبون

للأستاذ خليل هنداوي

قد علم قراء كتبنا الأولى هذا الكتاب الحديث، وعلموا أننا بعد انتهائنا من درس الإنسان والمجتمعات ينبغي أن ننصرف إلى درس تاريخ الحضارات!

كان كتابنا الأخير (الإنسان والمجتمعات) مختصاً بوصف الأشكال المتتالية للأشكال الطبيعية والعقلية عند الإنسان، والمواد المختلفة التي تتألف منها المجتمعات. ولقد أوضحنا في ذهابنا إلى أقصى العصور الغابرة كيف تألفت الجماعات الإنسانية، وكيف تولدت الأسرة والمجتمعات، وجميع أصناف الفنون والمعتقدات، وكيف استحالت هذه المظاهر خلل العصور، وكيف كان مبدعو هذه الاستحالات!

وبعد أن درسنا الإنسان المنعزل وحركة المجتمعات، يجب علينا لكي يتم غرضنا الذي قصدنا إليه أن ندرس الحضارات الكبرى بحسب هذه المناهج التي عرضناها أجل! إن المشروع واسع، ومشاكله كبيرة. لا نتكهن إلى أي مدى نستطيع أن نصل به. ونحن نريد أن يأتي كل كتاب من هذه الكتب كاملاً مستقلاً حتى إذا استطعنا أن ننجز الثمانية أو العشرة - بما يتم هدفنا به جاء عمل تصنيفها ودرس الحضارات المختلفة عليها أمراً يسيراً!

وقد بدأنا بحضارة العرب لأن حضارتهم جلتها لنا رحلاتنا وعرفتنا بهم تعريفاً حسناً؛ وحضارة العرب هي من الحضارات التي كمل سيرها، وظهر فيها تأثير المؤثرين ممن جربنا أن نحدد عملهم ونعين تأثيرهم، وهي تعد من الحضارات التي يشوق تاريخها ومع ذلك لبثت مهملة

إن حضارة العرب تسيطر - منذ أثنى عشر قرناً - على القطر الواسع الذي يمتد من شواطئ الاطلانطيك إلى البحر الهندي، ومن شواطئ البحر الأبيض حتى رمال أفريقية الداخلية، والشعوب والقبائل التي تسكنه تدين بدين واحد وتنطق بلسان واحد، وتتلقن تعاليم واحدة، وفنوناً واحدة، وهم يؤلفون جزءاً من المملكة

إن النظر نظراً شاملاً إلى مظاهر هذه الحضارة عند الشعوب التي سيطرت عليها، وأتت بالمعجزات التي غادرتها في الأندلس وأفريقيا، وفي مصر وسوريا، وفي فارس والهند: هو نظام لم يجرب بعد! والفنون ذاتها التي يرتكز عليها صميم الحضارة العربية لم تخضع بعد لهذا الدرس الشامل! وأولئك المؤلفون القليلون الذين دنوا من وصفها كانوا يقررون أنها ناقصة، ولكن خطأ أدلتهم وأسانيدهم حال بينهم وبين تجريبها. ومن الحق الذي لا ريب فيه أن مشابهة العقائد قد رمت إلى توطيد قربى قوية الوشائج في مظاهر فنون هذه الأقطار المختلفة الخاضعة للإسلام، ولا يقل عن هذا وضوحاً أن اختلاف الذريات والبيئات يجب أن يولد تبايناً واختلافاً كبيرين. فما كانت هذه المجانسات؟ وما كانت هذه الاختلافات؟ والقارئ الذي يطلع على هذه الصفحات المختصة من كتابنا بدرس فن العمارة والفنون، سيجد أن العلم الحاضر لم يعط جواباً على هذه الأسئلة!

وكلما توغلت في درس هذه الحضارة رأيت النتائج قد اتسعت والأفق قد فسح مداه، وعلمت أن القرون الوسطى لم تعرف تاريخ الأجيال القديمة إلا بواسطة العرب، وأن الجامعات في الغرب لبثت طوال خمسة قرون تتهافت على كتبهم في الرياضيات

والمباحث العقلية والأخلاق. هؤلاء هم الذين مدنوا أوربا وعمروها بأنوار الحضارة؛ وعندما يدرس دارس آثارهم العلمية ويقف على اكتشافاتهم يجد أنه لا شعب أنتج ما أنتجوه في عهد قصير الأمد، وعندما نمتحن فنونهم نعلم حق العلم أنهم كانوا يملكون مقدرة على الإبداع لا تعلو عليها مقدرة

إن أثر العرب - على عظمته في المغرب - كان أعظم تأثيراً في الشرق ولم يعرف التاريخ عن شعب تأثيراً مثله بلغ قوته وروعته فالشعوب التي سيطرت على العالم من آشوريين وفرس ومصريين ويونان ورومان قد توارت بين أطواء الأجيال وثنايا العصور، ولم تغادر وراءها إلا ركاماً! أما دياناتهم ولغاتهم وفنونهم فقد بادت ولم يبق منها إلا ذكريات. والعرب قد تواروا بدورهم كما توارى أولئك، ولكن عناصر حضاراتهم، تلك العناصر القوية من دين ولغة وفن لا تزال حية. وهناك عدد يربو على مائة مليون (يبدو للقارئ أن إحصاء المسلمين بهذا العدد إحصاء مغلوط) يتوزعون بين المغرب والهند لا يزالون قائمين على تعاليم الرسول

فاتحون كثيرون اقتحموا الغرب وما سمعنا بفاتح واحد أراد أن يستبدل حضارة بالحضارة

التي أنشأها العرب، وكل هؤلاء الفاتحين قد اعتنقوا ديانتهم، وقبسوا منهم فنونهم، وأخذ جلهم لغتهم، وإن شريعة هذا الرسول - وإن تزعزعت في بعض مواطن - لشريعة يشبه أنها قامت لتكون ثابتة إلى الأبد. ففي الهند قد جرفت في طريقها ديانات بلغت من الكبر عتياً، وحولت مصر القديمة الفرعونية بأسرها إلى مصر العربية، وهي البلد الذي لم يؤثر فيه الفرس واليونان والرومان إلا قليلاً! والشعوب الهندية والفارسية والمصرية والأفريقية كان لها معلمون وهداة غير خلفاء محمد، ولكنهم منذ اعتنقوا شريعة هؤلاء الخلفاء ثبتوا عليها ولم يستبدلوا بها ديناً

حقاً إنها لمعجزة في التاريخ، معجزة هذا المأخوذ الرائع الذي أخضع صوته هذا الشعب الجموح الذي أعجز الفاتحين نضاله لاسم تزلزلت منه أقوى المماليك، وهو اليوم تحت أطواء لحده يخضع ملايين الناس لشريعته

إن العلم الحديث ينعت هؤلاء العظماء، ومؤسسي الديانات بالمأخوذين وللعلم الحق في هذه النظرة إذا توخينا محض الحقيقة ولكن يجب احترام هؤلاء. لأن روح جيل ما، وعبقرية شعب ما مرتبطان بهم، وسلالات كثيرة ضائعة في ظلام العصور إنما تتكلم بألسنتهم. إن هؤلاء المبدعين للمثل العليا لا ينشئون في الحقيقة إلا أخيلة، ولكن هذه الأخيلة المشكوك فيها هي التي أبدعتنا على هذا التقويم. وبدون هذه الأخيلة لم تستطع أية حضارة أن تحيا! وليس التاريخ إلا قصة الحوادث المتممة يقوم بها الإنسان ليخلق مثلا أعلى يعبده أو يجربه!

والحضارة العربية أنشأها شعب فيه ما فيه من ريح البربرية، خرج من ظلمات الصحراء العربية واقتحم معاقل الفرس واليونان وحصون الرومان وألف مملكة واسعة تمتد حدودها من الهند حتى الأندلس وأبدع هذه الآثار الرائعة التي تثير في روع كل ناظر عوامل العجب

فأي خالقين عملوا على إنشاء هذه الحضارة وهذه المملكة في بدء نشأتها؟ وما كانت علة هذه الرفعة وعلة هذا الانحطاط؟ إن العلل التي تمرس بها المؤرخون جاءت في الحقيقة ضعيفة واهية، وإن مذهباً من مذاهب التعليل لا يمكن امتحانه امتحاناً حسناً إلا إذا جرى تطبيقه على شعب كهذا الشعب

قد ولد الغرب من الشرق، وفي الشرق يجب أن نطلع على مفتاح الحوادث الماضية، إذ على سطح هذه الأرض العجيبة تهيأت الفنون واللغات وأكثر ديانات البشر. ورجالها اليوم ليسوا كرجال الأمس، لقد تبدلت الأفكار غير الأفكار والعواطف غير العواطف، والأطوار تمشي فاترة بطيئة بحيث إذا أقبل عليها الدارس استطاع أن يقف على سلسلة تلك الأعمار المطوية! فالفنانون والعلماء والشعراء يتكررون دائماً. . . كم مرة جلست إلى ظل نخلة أو فيء جدار أحد الهياكل مستسلماً إلى أخيلة طويلة تنتابني مفعمة بأخيلة ذلك الماضي المتواري، أتنهد تنهداً خفيفاً، وفي الأعماق الشاعة تتعالى مدن غريبة تتوهج قصورها وأعمدتها ومناراتها تحت سماء ذهبية. وتجوز قوافل البدو والجماعات الآسيوية ذات الألوان البراقة، وطوائف العبيد ذات الجلود البرونزية والنساء المحجبات! لقد اندثرت اليوم أكثر هذه المدن القديمة. (نينوى ودمشق

والقدس وأثينا وغرناطة وممفيس وطيبة ذات المئة باب) قصور آسيا وهياكل مصر عفاها القدم وآلهة بابل وسوريا والكلدان وشواطئ النيل لم يبق منهم إلا ذكريات، ولكن كم من أشياء مستورة في هذه الخرائب! وكم من أسرار مبثوثة يجدر سؤال هذه الذراري عنها! من أعمدة (هركول) إلى سهول آسيا الخصبة القديمة، ومن شواطئ بحر (ايجه) الأخضر إلى رمال الحبشة المحرقة

يُحمل كثير من التعاليم والعقائد من هذه الأقطار الشاسعة ويضيع فيها أيضاً كثير من المعتقدات، ودرسها يرينا كم عمق هذه الهوى التي تفصل بين الناس، وإلى أي مدى يذهب وهم أفكارنا في الحضارة الإنسانية، والإخاء الإنساني، ويبدي لنا الحقائق والمذاهب التي يخال أنها مجردة مطلقة كيف تتبدل في الحقيقة من بلد إلى بلد هنالك أسئلة كثيرة تعرض للمتأمل في تاريخ العرب، وأكثر من درس نحفظه، فإن هذا الشعب هو خير شعب حرر ذراري الشرق على اختلافها من ذراري الغرب. إن أوروبا لا تعرف عن هذا الشعب إلا قليلا، وإنما يجب عليها أن تعمل على معرفته لأن الساعة دانية حيث ترتبط مقدراتها وحظوظها بمقدراتهم وحظوظهم!

إن الخلاف بين الشرق والغرب اليوم عظيم حتى لا يرجى أن يقبل أحدهما تفكير الآخر، ومجتمعاتنا القديمة تتحمل تطورات عميقة، فمراحل العلم السريعة والصناعة قلبت قواعدنا الطبيعية والأخلاقية، والنزاع الحاد في جسم المجتمع، والألم الشامل الذي يدفعنا دائماً إلى

تبديل تعاليمنا لكي نعالج الأدواء الاجتماعية التي تنشأ عن التطور ذاته، منها خطأ التوفيق بين العواطف القديمة والعقائد الجديدة، وإبادة الأفكار التي نشأ عليها الأقدمون. هذا ما يحف بالغرب الآن، فنظام الأسرة والمنزل والدين والأخلاق والإيمان كله يتغير أو سائر في طريق التغير، والأصول التي عشنا عليها حتى الآن قد وضعتها المذاهب العصرية تحت المناقشة! وما سوف يخرج من العلم الحديث لا يستطيع أحد أن يفوه به! الجماعات تهيم اليوم وراء تعاليم بسيطة تؤلفها من نظرات سلبية غريزية، ولكن نتائج هذه السلبية لم تستشفها بعد نظراتها. هنالك الوهيات جديدة حلت محل ألوهيات قديمة، والعلم الراهن يجرب أن يذود عنها، فمن ذا يستطيع القول بأنه سوف يذود عنها في المستقبل؟

أما في الشرق فالحالة مباينة لما هي عليه في الغرب. فبدلاً من أقسامنا وأسباطنا وبدلاً من حياتنا المتوقدة نرى الشرق يعيش في وسط تسعده السكينة والراحة العميقة. وهذه الشعوب التي تؤلف بعددها أعظم نوع في البشرية قد بلغت منذ زمن طويل هذا الاستقرار الهادئ الذي يقال أقل ما فيه انه صورة السعادة. وهذه المجتمعات القديمة قد صانت من صلابتها ومتانتها ما فقدته مجتمعاتنا، والإيمان الذي فقدناه مازال الشرقيون يعتصمون به، والأسرة التي بدأت تتحول وتتشقق - عندنا - لا تزال ثابتة صلبة عندهم، والمذاهب التي أضاعت كل تأثير عندنا لا تزال مسيطرة عليهم، والدين والأسرة والتعاليم وسلطة التقاليد والعادات وكل القواعد التي جاءت بها المجتمعات القديمة والتي تقوضت دعائمها في الغرب نراها حافظت على ملامحها في الشرق، والأمر الأعجب فيها أن الشرقيين لم يفكروا في تبديل هذه القواعد أو انتقاء سواها

خليل هنداوي

صورة

المولد الأحمدي

للأستاذ إبراهيم بك جلال

خرج أهل القرى جماعات وقوافل من أسفل الأرض ومن صعيدها فكانوا أسراباً يتعاقب بعضهم على آثار بعضه، يزحمون السبل المعبدة وأشباه السبل، قد شمر الرجل عن ساقيه، وبسط على الساعد قضيباً تناط به صرة جافة، وإلى يمينه آخر ينوء كاهلاه (بغرارة) من تلك الأقراص، وثالث به رمق من سعة يوهم جاريه أن تحته مطية ويظل يحرك ساقيه كلما تحركت المطية

أما المرأة فتضن بخفيها على البلى فتجمعهما على أم رأسها فإذا أوفت على المدينة آوت إلى الخفين تمشي فيهما حجلا

وغالب هذا الحجيج مشاة حفاة سرابيلهم من أسمال ومظاهرهم فاقة ومسكنة، نفروا

خفافاً متوسمين فضلة الموائد ونهلة من طعام الحضر وحلواه
وفيهم صنوف وألوان من أهل الطريق تنم عليهم تلك القلانس وما يتدلى من عذباتها، وبأيديهم أعلام مصبغة، وحولهم صنوج تدق وطبول تدوي كأنصار المهدي يوم فتح السودان. فإذا غربلهم ناقد خرج ببضعة نفر من أهل العلم والتقى قدموا حسبة وقربى لله يذكرونه في تقى وخشية، ويتعففون عن قرابين هذا العيد، طعامهم أقراص وتمر، ومضاربهم مقفرة من زهو الدنيا، مهادهم بواري بسطت على أديم الأرض يؤثرون بها الزائر فيحل بين أدب واتضاع وعلم
أولئك هم مصابيح الدجى، وأعلام الهدى لمن كانت هجرته لله ورسوله
وفي المدينة دعة وجاه، ونسق جميل ومصابيح وبنود تخفق فوق الدروب وبأيدي الناس، وترى السوق المفضية إلى كعبة هذا الحجيج قد ترامت فيها السلع أكداساً على المناكب وفي الحوانيت، وفيها القمص والجوارب والنعال والأكسية والقلانس والجباب، ويليها عرائس الدمى المزوقة، والدفوف الموشاة، والأساور والأقراط والخلاخل والعقود والمرايا، وكل طلي تحبه بنات القرية وبنوها، ويلي ذلك باعة الحلوى والحمص جاثمين على الموائد يلوحون بالجواليق
ويجوس الخلال باعة الشراب يدقون الكؤوس، وبين هؤلاء وأولئك يندس جماعة السراق يفترصون الغرات ويفرون بأسلابهم
وللمتسولة جنود أهل بأس يرودون الأسواق والمضارب والمشارب كالذباب حول الموائد ولهم أديم من معدن الصفاقة وجلد على هوان النفس في المسألة
وإن تلك الجموع الزاخرة من أهل القرى لتحوم حول كل متجر ويمنعها الإملاق من أن تمد له يداً حتى لكأنها الحرب الضروس بين العرض الملح وبين تنحي الناس وإعراضهم وكأنما أقيمت مناحة للكساد موتاها سلع البلاد
وتبلدت ألوف الدهماء في مواقفها فنثرتها سياط الشرط بدداً ثم جمعتها يمنة ويسرة، وكلت المناكب بباب المسجد، وعز الولوج لغير السواعد وأهل البأس، وإنك لتحس بين الضجيج أنات لأضالع وأعناق تدق ثم تنجلي عن شيوخ وغلمان ونسوة يزخرون بين الصحن والرواق وحول المحاريب ولهم دوي كألسنة الرعود لا يرعون جانب الله وما ينبغي لحرمة بيته من سكينة وخشوع فيحملون على الأكف كل أبرص ومجذوم ومعتوه. ويلوذون بأشباه الرجال ذوي الأزياء المنكرة من التمائم والمسابح ويرفعون عقائرهم بالرجس والإثم عدواناً على هذا الدين الحنيف، وإيلاماً لذلك التقيِّ المغيب في آزال الله وكرامته
وعند باب الضريح طائفة من السدنة من أهل الخطر والعزة في الرقيق الموشى من الديباج وعلى تيجانهم سمات الحسب العالي يرمقون صفوف العواد والزائرين حين يلجون الباب وحين يعرجون، ولهم آذان مرهفة لترتيل آيات الذهب والفضة في خزائن النذور
لقد كان النبي صلوات الله عليه جد هذا السيد البدوي يدعو لشد الرحال إلى ثلاثة: إلى بيت الله الحرام، وإلى الحرم المدني، وإلى بيت المقدس بغير مزيد
فما أشد وجيعة ذلك السبط الهاشمي، وأهل مصر يتخذون قبره مثابة للناس. وما أبعد الوجيعة في قلوبنا معشر آل بيت النبي
إبراهيم جلال
ليلى المريضة بالعراق
للدكتور زكي مبارك
- 1 -
أخي الأستاذ الزيات
تحيتي إليك وإلى السامرين في نادي الرسالة من كرام الأصدقاء. وتحيتي إلى القاهرة التي لا تقع فيها العين إلا على نجم أزهر أو كوكب لماح. وسلامي على مصر الجديدة وعلى سنتريس. ولو شئت لسلمت على مكتب تفتيش اللغة العربية بوزارة المعارف حيث يحلو الجدل ويطيب الضجيج!
وبعد فإنك تعرف كيف رحلت إلى بغداد. أنت تذكر ولا ريب أن حكومة العراق طلبت أستاذا للأدب العربي بدرجة دكتور؛ وتذكر أن وزارة المعارف المصرية فهمت أن الغرض من ذلك مداواة ليلى المريضة بالعراق. وقد صرح بهذا حضرة صاحب العزة

الأستاذ عوض إبراهيم بك؛ وكان من المفهوم أنه لا يصلح لهذه المهمة غير مؤلف مدامع العشاق!

تلك هي الأسباب التي قضت برحيلي إلى العراق، ولولا ذلك لبقيت في القاهرة أحارب من أحارب وأسالم من أسالم، وفقاً للنزق والطيش، وطاعة لصديقنا الشيطان!

ولا أستطيع أن أصف كيف كانت الأيام التي سبقت رحيلي إلى العراق. فقد قضيتها في درس الطب النفساني والروحاني، وزودت عقلي بأهم ما يعرف أقطاب العلم الحديث، من أمثال الدكتور محجوب ثابت، والدكتور محمد عبد الحي، والدكتور منصور فهمي، والدكتور طه حسين

ولم يفتني أن أستفتي بعض المولعين بدرس المشكلات الغرامية كالأستاذ محمد الهراوي، والأستاذ محمد مسعود، والموسيقار محمد عبد الوهاب

وكان في النية أن أستفتي بعض الأقطاب من علماء الأزهر الشريف، ولكن ضاق الوقت عن ذلك

وجاء يوم الرحيل، والتفت فإذا محطة القاهرة تموج بعدد كبير من كرام الأصدقاء، وكنت أظنهم جاءوا مودعين، ثم دهشت حين رأيتهم لم يجيئوا إلا ليحمّلوني التحية إلى ليلى المريضة بالعراق!

وعند ذلك عاهدت نفسي وعاهدت الواجب أن أكون عندما يرجو المصريون والعراقيون من الظن الجميل. ولم يكد القطار يبرح محطة باب الحديد حتى أسلمت خيالي إلى مغريات الأحلام. ولما وصلت إلى بيروت رجاني بعض الأدباء أن أقيم أسبوعاً في ضيافة لبنان فأبيت وقلت كيف أتلبث في الطريق والواجب يدعوني إلى عيادة ليلى المريضة في العراق؟ وكذلك كان حالي حين وصلت إلى دمشق، فقد رجاني الأستاذ كرد علي والأستاذ عبد القادر المغربي أن أقيم مدة بالشام في ضيافة الأكرمين من أهل تلك البلاد، فأبيت وقلت كيف أتمهل في الطريق والهوى يدعوني إلى موافاة ليلى المريضة بالعراق!

ثم قضيت أربعاً وعشرين ساعة في الطريق من دمشق إلى بغداد. ولا تسلني كيف قضيت تلك الساعات الطوال، فقد كانت الساعة كألف سنة مما تعدون بسبب القلق على ليلى المريضة بالعراق

ولما وصلت ألقيت أثقالي في الفندق، ومضيت بسرعة البرق إلى وزير المعارف أتلقى تعليماته فيما يختص بذلك الروح العليل

ستمضي الشهور والسنون ولا أنسى كيف لقيت وزير المعارف في العراق، فقد بدا رجلاً شاعراً لا يهمه غير الاطمئنان على ليلى المريضة بالعراق

وجلست فتحدثت معه في كثير من الشؤون، ولكنه لم يفتح الحديث عن ليلى، فأخذ مني العجب كل مأخذ، وخشيت أن تكون (قصة) ليلى قصة مخترعة، وأنني كنت مخطئاً حين صدقتها من كبار الأطفال!

وذهبت إلى دار المعلمين العالية فأعطاني المدير جدولاً يقصم الظهر، وهو دروس في الأدب وفقه اللغة وتفسير القرآن، وليس فيه أية إشارة إلى مداواة ليلى المريضة بالعراق. فتأكدت مرة ثانية أن قصة ليلى من اختراع الخصوم الألداء الذين أرادوا أن يستريحوا مني فزينوا لي الرحيل إلى العراق

ثم خطر بالبال خاطر طريف؛ فقد حدثتني النفس بأن مرض ليلى لا يهم أهل العراق، وإنما يهم المصريين؛ وإذن فلابد أن تكون المفوضية المصرية على بينة من هذه القضية. فأخذت عربة ومضيت إلى هناك فوجدت رجال المفوضية لا يعرفون شيئاً عن ليلى المريضة بالعراق، وأن هذه القصة من أوهام الشعراء

وكذلك عرفت مرة ثالثة أن تلك الحكاية لم تكن إلا خداعاً في خداع

قضيت الأسبوع الأول وأنا في همٍّ مُقْعِد مقيم. وهل كان يعوزني أن أدرس الأدب وفقه اللغة والتفسير؟ هل ضاقت معاهد القاهرة عن رجل مثلي حتى يرحل إلى العراق ليكون أستاذاً للأدب في مدرسة عالية؟ إنما كنت أرجو أن أؤدي رسالة عجز عنها الزيات والسنهوري وعزام، ثم قضى الحظ العاثر أن أكون رجلاً (عبيطاً) لا يدرك وجه المِحال، في أحاديث الرجال

وفي الأسبوع الثاني تلقيت رسالة من القاهرة: رسالة من الآنسة جيمي التي ملكت نهاي حيناً من الزمان، وهي تسأل وتلح في السؤال عن ليلى المريضة بالعراق.

وللآنسة جيمي حقوق، فقد كانت أوهمتني في السنين الخالية أن الهوى إله معبود؛ وبالرغم من تجنِّيها في الأيام الأخيرة فقد أحسست أن إشارتها أمر يجب أن يطاع. ومنَّيت نفسي برضاها في الليالي المقبلات، حين يسمح الدهر بمسامرة الأنجم الزهر على ضفاف النيل. فهل تراني أعيش إلى ذلك العهد يا صديقي الزيات؟ وهل أعاقر الهوى من ذلك الرضاب بعد أن تدول دولة الفراق؟

ولكن ماذا أصنع؟ هل أخترع قصة جديدة عن ليلى المريضة بالعراق أصل بها إلى قلب الآنسة جيمي؟ وكيف وأنا رجل لا يجيد اختراع الأقاصيص؟ ومعشوقتي تميز بين الصحيح والمزيف من أحاديث الوجدان! رعاك الله يا جيمي وأراني وجهك الجميل؟ ما أعجب ما تصنع المقادير! هذا رجل يسأل عني بالتليفون تسع مرات في كل يوم؛ وهاهو ذا ينقلني بسيارته إلى منزله الفخم بالكاظمية، ويسألني كيف وجدت ليلى، فأتضاحك وأنا محزون، وأقرر أن ليلى اسم اخترعه العابثون من الشعراء؛ وعندئذ ينفجر الرجل بالبكاء ويقول: إن ليلى لا تزال مريضة بالعراق، ولكن العراقيين يتجاهلون ذلك، لأنهم في هذه الأيام مرضى بالجد والنشاط ولا يحبون أن يعرف أحد أنهم أهل وجدان. ولا تعجب إن كتم عنك رجال المفوضية المصرية أخبار ليلى، فهم قوم دبلوماسيون لا يرون الخروج على الوقار الذي تصطنعه حكومة العراق

وما أكاد أسمع هذا حتى أجذب الرجل من ذراعه وأمضي به كالمجنون لأعرف كيف حال ليلى، وما هي إلا لحظات حتى تقف السيارة على بيت متواضع في شارع العباس بن

الأحنف، أحد شوارع بغداد، وأطرق الباب برفق كأنني على ميعاد، وتخرج وصيفة فتقول: (من الطارق؟) فأقول: (أنا الدكتور زكي مبارك) فتقول: (أدخل بسلام، فإن ليلى تنتظرك منذ سنين)

(للحديث بقية)

زكي مبارك

ألحان صوفية

جيتانجالي

للشاعر الفيلسوف طاغور

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

جيتنجالي كلمة هندية بنغالية معناها (القرابين الغنائية) وهي أناشيد صوفية تبلغ 103 نشيد، نظمها طاغور في البنغالية ثم نقلها بنفسه إلى الإنجليزية، وشهرتها في الأدب العالمي كشهرة رباعيات الخيام، وهي تمثل الروح العالية على فلسفة طاغور من جهة، والطبيعة الصوفية المميزة للبوذية من جهة أخرى. وسننشرها كلها مترجمة بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

- 1 -

أنت خلقتني أبدياً، تلك مشيئتك. وهذا الحطام الفاني - جسمي - أنت تفرغه مرة ومرة ثم تملأه بالحياة الغضة

هذا الناي الصغير أنت علوت به وهبطت، ثم وقَّعت عليه أنغاماً سحرية خالدة، وحين لمست يداك قلبي الضعيف لمسة إلهية شاع فيه السرور وانبعث منه لحن أخّاذ، وبين يديّ الضعيفتين استقبلت آلاءك العظمى، والأعوام تتصرم وأنت ما تزال تحبوني وفي قلبي شوق وطمع

- 2 -

وحين أمرتني أن أرتل نشيدي خُيِّل إلي أن قلبي يهتز من أثر الفرح والكبرياء معاً؛ ثم رحت أتوضح وجهك فاغرورقت عيناي بالدموع

كل ما في حياتي من شدة وضيق يذيبه لحن جميل، وصلواتي تنشر عليّ جناحين رفيقين كما يفعل الطير الطروب وهو يدف بجناحيه فوق أمواج البحر

أنا أوقن أن أغانيَّ تطربك، وأني حين أغني أكون في حضرتك

وبرغم أن أغانيّ وهي تعلو مصعدة تكاد تبلغ قدميك؛ فأنا لا أستطيع أن أصل إليها

لقد عُمّ عليّ حين سيطرت عليّ نشوة التغريد، فناديتك: يا صديقي؛ وأنت إلهي

- 3 -
لست أدري كيف ترسل ألحانك، يا إلهي! وأنا - دائماً أتسمع في لهفة
إن نور موسيقاك يضيء العالم، وأنفاسها تنقل من سماء إلى سماء، وسَكْبها المقدس يحطم العوائق الصلبة لينفذ
لقد تعشق قلبي أن يسمع ألحانك، ولكن عبثاً حاول أن يظفر بصوت. سأتحدث حديثاً لا يحور إلى أغنية. بل إلى صيحة اليأس. آه إن ألحانك الأبدية قد جذبت إليها قلبي، يا إلهي
- 4 -
يا روح حياتي سأحفظ - دائماً - جسمي طاهراً لأنني أعرف أن لمساتك الرفيقة تحوطني
سأحول - دائماً - بين أفكاري وبين الأكاذيب، لأنك وأنت الحق، بعثت في قلبي شعاع الحق
سأنزع - دائماً - عن قلبي الرذائل ليظل حبي لك طاهراً فأنت تتربع في قلبي
ثم أجعل همي أن أكشف أمامك عن كل ما أعمل، لأنك أنت الذي تسبغ عليّ القدرة على العمل
- 5 -
أنا أسألك لحظة فيها الرضا أجلس فيها إلى جانبك، وأؤجل ما بين يدي من عمل إلى ما بعد
إن قلبي لا يستقر ولا يهدأ إن حرمت النظر إلى طلعتك لأغتمر في لجة من العمل المضني. . . لجة لا شاطئ لها
اليوم نفح الصيف أول زفراته لدى نافذتي، والنحل بين الزهور يرتل أنغامه
هذا وقت أجلس فيه بازائك هادئاً؛ وفي هذا الصمت والفراغ والهدوء، أترنم بأناشيد الحياة المقدسة
- 6 -
اقطفْ هذه الزهرة الصغيرة - يا سيدي - وخذها. لا تستأن! فأنا أخشى عليها الذبول والسقوط؛ لعلها لا تجد مكاناً في بستانك، ولكن شرِّفها بلمسة بنانك، فأنا أخاف أن تنطوي الأيام قبل أن أستطيع تقديمها لك هدية
إن لوها ليس أخاذا، وريحها ليس نفاذا؛ ولكن اقطفها فقد يكون فيها النفع. . . اقطفها حين تسنح الفرصة
- 7 -
لقد نزعت عني لحني الزخرف، فما فيه برقشة ولا تنميق؛ لأن زخرف القول يفسد ما بيننا، ويحول بيني وبينك، ورناته تخفي عني همساتك
إن عبارات الصلف في شعري تتلاشى أمام ناظريك يا إله الشعر. أنا جاثم عند قدميك
أريد أن تنفث في حياتي البساطة والنقاوة كنغم ساحر انبعث من نايك
- 8 -
إن الطفل الذي تثقله مطارف الإمارة، وتزينه القلائد الذهبية، لا يجد اللذة في ألعوبته لأنه يرسف في قيود من ثيابه
وهو ينزوي عن العالم خشية أن تتلوث أو تتعفر، فهو يخاف كل شيء حتى الحركة
أيتها الأم! لا تثقلي ابنك بالزينة فهي تحجبه عن تراب الأرض الصحي، وتسلبه من النهج القويم الذي يقوده إلى البهجة العظمى في حياة الإنسان العامة
- 9 -
يا لحمق الغبي الذي يحاول أن يحمل نفسه على كتفيه إن كدّه السير! يا لغفلة الشحاذ الذي يقف أمام باب داره يستكف
ألق ما أثقلك بين يدي من لا يثقله أن يحمل كل شيء، ثم لا تلتفت إلى وراء في حسرة
إن أمانيك تطفئ بأنفاسها نور السراج. حرام أن تأخذ ما ليس لك بيدين آثمتين، ولكن خذ
ما أعطيت في قناعة ورضا
- 10 -

هنا آثار سيرك؛ وهناك تطمئن قدماك. . . هناك حيث يعيش الفقير والوضيع والضائع
وإذا سجدت لك فجبهتي لا تبلغ الأعماق حيث تطمئن قدماك بين الفقير والوضيع والضائع
إن الكبرياء لن تبلغ موطئ قدميك وأنت تتهادى في ثوب من التواضع بين الفقير والوضيع والضائع
إن قلبي لا يجد السبيل إلى حيث تصحب من لا رفيق له بين الفقير والوضيع والضائع
- 11 -
دع عنك التراتيل والأغاريد والتسابيح! من الذي تتحنث له في هذا الخلاء المظلم من متعبَّدِك وبابك مغلق؟ افتح عينيك فلن تجد إلهك أمامك!
إنه هناك عند الفلاح وهو يعزق الأرض الصلبة، هو عند العامل وهو يحطم الصخور القاسية؛ إنه بازائهما تحت حرور الشمس ووابل المطر، ولباسه معفر بالتراب. اخلع طيلسانك المقدس واهبط مثله إلى تراب الأرض
التواكل؟ أين هو التواكل؟ إن إلهنا نفسه قد أخذ نفسه - في لذة - بأن يتكفل عباده؛ وهو بيننا إلى الأبد
انزع عنك تأملاتك، ودع أزهارك وبخورك! ماذا يضيرك إن مزقت ثيابك ولوّثت؟ أخر إليه، وقف بازائه كادحاً والعرق يرفضُّ من جبينك
- 12 -
إن سفري بعيد وطريقه طويل
لقد انطلقت عند أول شعاع من النور، واندفعت أضطرب في أنحاء العالم الموحش أرى هدْى أمري بين النجوم والكواكب
إنها مسافة أطول مما يخيّل إليك، وهي تجربة قاسية تنتهي إلى السهولة. . . إلى لحن
إن المسافر يضطر إلى أن يقرع كل باب ليتعرف بابه هو، وهو يضرب في أرجاء الأرض ليصل - في النهاية - إلى المحراب العظيم
لقد انطلق بصري يطوق العالم قبل أن أحشدهم وأغلق عليهم الباب ثم أقول: (هاأنتم هنا؟)
ودوت الصيحة: (أوه! أين؟) ثم ذابت الصيحة إلى عبرات تتدفق؛ ثم غمر الأرض سيل من الإيمان ينادي (أنا!)
كامل محمود حبيب
الإسلام والسيف!
للأستاذ محمد كامل حته
(مهداة إلى الأستاذ خليل جمعة الطوال)
إن من الجناية على الحق والافتراء على التاريخ أن يقول قائل إن الإسلام قد انتشر بالسيف! أي سيف كان يحمله محمد، وهو الأعزل الذي لا حول له ولا قوة، الوحيد الذي لا ناصر له ولا معين، يناله السفهاء بالأذى فلا يستطيع أن يدفع عن نفسه، ويأتمر به قومه ليقتلوه فيفر بحياته إلى يثرب؟. . .
لقد ظل محمد - صلى الله عليه وسلم - ثلاثة عشر عاماً يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، ولم يكن له من سلاح غير ثقته بالله وإيمانه بأنه على حق، ولقد لاقى هو وأصحابه في سبيل هذه الدعوة من ضروب الفتنة والاضطهاد ما لا يثبت عليه إلا الذين عمرت قلوبهم بالإيمان، واستيقنت أنفسهم من نصر الله!
كان الرسول يوماً يصلي في الكعبة، وبينما هو ساجد إذا بعقبة بن أبي معيط، يطأ عنقه الشريف حتى كادت عيناه تبرزان. . .
وخنقه بردائه خنقاً شديداً، والناس من حوله شامتون، حتى أقبل أبو بكر مشتداً وخلص الرسول منه وهو يقول: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟
ولما خرج إلى الطائف يدعو أهلها للإسلام، أغروا به سفهاءهم فترصدوا له بالطريق وأخذوا يحصبونه بالحجارة حتى تخضبت قدماه بالدماء!
ولما أبى عمه أبو طالب أن يسلمه إليهم ليقتلوه تعاهدوا على مقاطعة أوليائه من بني هاشم، ودامت هذه المقاطعة ثلاثة سنين لقي فيها هذا البيت الكريم من العنت والإرهاق أعظم البلاء. . .
وعذب عمار بن ياسر وأهله عذاباً شديداً، فكان الرسول يمر بهم وهم في العذاب

ويقول: صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنة!
ومن ذلك أن أبا جهل طعن سمية أم عمار بحربة فقضى عليها فشكا عمار ذلك إلى الرسول قائلاً: يا رسول الله، بلغ منا العذاب كل مبلغ! فقال صلى الله عليه وسلم: (اصبر أبا اليقظان، اللهم لا تعذب من آل ياسر أحداً بالنار!)
وقد استشهد أفراد هذه الأسرة الكريمة في سبيل الله، ولم يبق منهم إلا عمار الذي كان يعذب حتى لا يعي ما يقول
وممن عذب في سبيل العقيدة بلال بن رباح كان مملوكاً لأمية ابن خلف، فلما اعتنق الإسلام حنق عليه سيده وأمره بالرجوع إلى عبادة الأصنام، فلم ينصع لأمره لأنه ذاق حلاوة الإيمان، فأنزل به ألواناً من العذاب: كان يطرحه على الرمضاء، ويصهر على صدره دروع الحديد، ويضع عليه الأحجار الثقيلة حتى قُدّ ظهره! وهو يهتف دائماً: أحد، أحد، إلى أن أنقذه أبو بكر فاشتراه من سيده، وأعتقه لوجه الله . . .
وكثير غير هؤلاء ممن آمنوا بمحمد في مبدأ بعثته، كانوا يلاقون العذاب الهون والبلاء العظيم، حتى أذن الرسول صلى الله عليه وسلم لمن ليس له أنصار يحمونه من هذا العدوان أن يفر بدينه إلى الحبشة، فهاجر إليها جم غفير. واستأذن أبو بكر في الهجرة إليها فأذن الرسول صلى الله عليه وسلم له، فلما كان على مسيرة يومين، لقيه ابن الدغنة سيد قومه فسأله: أين تريد يا أبا بكر؟ قال: أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي، قال: إن مثلك لا ينبغي أن يَخرج أو يُخرج من أرضه؛ ثم رجع به إلى قريش وأدخله في جواره، على شرط أن يعبد الله
فابتنى أبو بكر مسجداً بفناء منزله، وصار يصلي فيه ويتلو كتاب الله، فكان نساء قريش وشبانهم يجتمعون حول داره، يستمعون لتلاوته، ويؤخذون ببلاغة القرءان وروعته! ففزع القوم وشكوا أبا بكر إلى حليفه، فأغلظ الحليف لأبي بكر في القول وقال له: إما ألا تستعلن بعبادتك، وإما أن تعيد إليّ ذمتي. فقال أبو بكر: إني أرد لك جوارك وأرضي بجوار الله عز وجل
فكيف اجتمع هؤلاء الناس على محمد؟ أبالسيف وهو أعزل لا يستطيع أن يعصم نفسه؟ ومتى كان السيف وسيلة لتكوين العقائد في النفوس؟
ولماذا باعوه أرواحهم يبذلونها رخيصة في سبيل دعوته؟ أطمعاً في مال وهو فقير لا يكاد يملك من حطام الدنيا شيئاً؟ ومتى كان للمال هذا السلطان القاهر على العقول والأفهام؟
كلا؛ لا بهذا ولا بذاك، وإنما بهذا الدين الحنيف الذي استحوذ على العقول وأخذ بمجامع القلوب، وبهذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي حين سمعه
وفد الحبشة من القسس والرهبان، خشعت قلوبهم وفاضت أعينهم وأسلموا لله رب العالمين، فنزل فيهم قوله تعالى: (. . . ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى، ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون، وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين)
ولقد ظل المسلمون على هذه الفتنة الطاغية فترة من الزمن، حتى إذا استفحل الخطب وعظم البلاء، شرع الله لهم القتال دفاعاً عن النفس وذباً عن الدين، فقال تعالى: (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله)، (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير)
كان موقف الإسلام إذن موقفاً سلبياً في حروبه الأولى، لا يقصد به غير الدفاع عن أهله، ورد عدوان المعتدين. فلما استقرت قواعده، وانتهت إليه الخلافة في الأرض، كان عليه أن يقف موقفاً إيجابياً لحماية المؤمنين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز، الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور)
وهذا يدل على أن الحرب في الإسلام وسيلة لدرء المفاسد وإقرار السلام، لا إرضاء

لشهوة الفتح والاستعباد. وإذا كان الإسلام قد حث على الاستعداد الحربي بقوله: (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) فإنما يرمي بذلك لإطفاء جذوة الحرب في نفوس الأعداء، وهو ما يعرف في هذا العصر بالتسلح السلمي!

وهذه مبادئه الحربية شواهد ناطقة بعدله ورحمته وإحسانه، انظر إليه يأمر بالسلم إذا جنح إليها العدو، ولو كان جنوحه خداعاً ومخاتلة: (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله، إنه هو السميع العليم؛ وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله، هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين)

وما تم في معاهدة الحديبية، يدل على مبلغ حرص الرسول - صلى الله عليه وسلم - على السلم وكراهية الحرب، فقد رضى أن توضع الحرب بين المسلمين والمشركين عشر سنين، في الوقت الذي كان المسلمون يتحرقون على القتال، وينتظرون منه كلمة واحدة، يندفعون بعدها كالسيل الجارف صوب مكة، حيث ينتصفون لأنفسهم وللإسلام من أولئك الذين أخرجوهم من ديارهم بغير حق، فكان الرسول حائلاً بينهم وبين ما يشتهون، حتى كادت تحدث بينهم فتنة عمياء لولا أن الله سلم. . .

وكان الرسول يوصي أتباعه دائماً في الحروب بقوله: (اغزوا باسم الله في سبيل الله من كفر بالله؛ لا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا كبيراً فانياً، ولا منعزلاً بصومعته، ولا تحرقوا نخلاً ولا تقطعوا شجراً ولا تهدموا بناء!)

هذه مبادئ الإسلام في الحرب، وهي أرحم بالإنسانية وأشرف غاية من المبادئ السلمية - ولا أقول الحربية - التي تطبقها الدول القوية على الأمم الضعيفة باسم المدنية في هذا العصر

وإليك هذا الموقف الرائع النبيل، حين فتح الرسول مكة، ومكنه الله من رقاب قريش، وقد وقف على باب الكعبة والناس من حوله ينتظرون كلمة الفصل: فإما موت وإما حياة! فقال لهم: ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم. قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء! فكان ذلك سبباً في إسلام قريش بأجمعها، وحقن دمائهم ودماء المسلمين

فالقول إذن بأن الإسلام انتشر بالسيف فرية باطلة، وإنما انتشر الإسلام بالحجة والبرهان، وبسماحة مبادئه ومتانة أصوله. ولا عجب فهو الذي يقول: (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها، والله سميع عليم)

(حلوان الحمامات)

محمد كامل حته

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

1880 - 1937

للأستاذ محمد سعيد العريان

- 15 -

(هي رسائل الأحزان، لا لأنها من الحزن جاءت، ولكن لأنها إلى الحزن انتهت؛ ثم لأنها من لسان كان سلما يترجم عن قلب كان حربا؛ ثم لأن هذا التاريخ الغزلي كان ينبع كالحياة وكان الحياة ماضيا إلى قبر. . .!)

(الرافعي)

رسائل الأحزان

خرج الرافعي عن مجلس صاحبته مغضباً، في نفسه ثورة تَؤجّ وفي أعراقه دم يفور، وفي رأسه مرجل يتلهب؛ وكتب إليها كتاب القطيعة وأرسل به ساعي البريد، ثم عاد إلى نفسه فما وجد فيما كتب شفاء لنفسه، ولا هدوءاً لفكره، ولا راحة في أعصابه؛ وأحس لأول مرة منذ كان الحب بينه وبين صاحبته أنه في حاجة إلى من يتحدث إليه؛ وافتقد أصحابه فما وجد منهم أحدا يبثه أحزانه ويفضي إليه بذات صدره ويطرح بين يديه أحماله. لقد شغله الحب عن أصحابه عاماً بحاله لا يلقاهم ولا يلقونه ولا يتحدث إليهم ولا يتحدثون؛ فلما عاد إليهم كان بينه وبينهم من البعد ما بين مشرق عامٍ ومغربه

بلياليه وأصباحه وتاريخه وحوادثه. وثقلت عليه الوحدة وضاقت بها نفسه، ففزع إلى قلمه يشكو إليه ويستمع إلى شكاته، فكتب الرسالة الأولى من (رسائل الأحزان) إلى صديقه الذي خصه بسره. . . إلى نفسه. . .

كان ذلك في مساء 21 من يناير سنة 1924

وترادفت رسائله من بعد مسهبة ضافية يصف فيها من حاله ومن خبره وما كان بينه وبين صاحبته، في أسلوب فيه كبرياء المتكبر، ولوعة العاشق، ومرارة الثائر الموتور، وذِلة المحب المفتون يستجدي فاتنته بعض العطف والرحمة والحنان. . .

وانتهى من كتابة (رسائل الأحزان) في مساء 17 من فبراير سنة 1924

يخاطب الرافعي نفسه في (رسائل الأحزان) على أسلوب (التجريد)، فهو يزعم أنها رسائل صديق بعث بها إليه، فتراه يوجِّه الخطاب فيها إلى ذلك الصديق المجهول يستعينه على السلوان بالبث والشكوى؛ ثم يصطنع على لسان ذلك الصديق نتفاً من الرسائل يدير عليها أسلوباً من الحديث في رسائله هو، وما هناك صديق ولا رسائل، إلا الرافعي ورسائله، يتحدث بها إلى نفسه عن حكاية حبه وآماله وما صار إليه

أو قل: إن الرافعي في هذه الرسائل جعل شيئاً مكان شيء، فأنشأ هذه الرسائل إلى صاحبته ثم نشرها كتاباً تقرؤه لتعلم من حاله ما لم تكن تعلمه، أو ما يظن أنها لم تكن تعلمه؛ فهي رسائله إليه على أسلوب من كبرياء الحب، تشفي ذات نفسه ولا تنال من كبريائه

وفي بعض حالات الحب حين تقف كبرياء العاشق بينه وبين ما يريد إعلانه، وتقف النفس وقفتها الأليمة بين نداء القلب وكبرياء الخُلق، يتمنى العاشق لو كان له ملءُ الفضاء ليهبه إلى من يحمل عنه رسالة إلى حبيبته من غير أن يعترف بأنه رسول. . .! وتكون أبلغ الرسائل عنده أن يكتب إلى حبيبته: (إنه يحبك) يعني: (أنا أحبك!) ويتحدث إليها عن نفسه بضمير الغائب وهو من مجلسها على مرأى ومسمع، ومن لفتات قلبها وقلبه على مشهد قريب. . .!

وبهذا الأسلوب تحدث الرافعي عن نفسه بضمير الغائب في رسائل الأحزان

هذا الضمير الذي لا يتحدث به متحدث إلا سمعتَ في نْبره معنى شموخ (. . .أنا) الأنف، وصَعَر الخد، وكبرياء الخُلق؛ لا يؤدي في لغة الحب إلا معنى من التذلل والشكوى والضراعة، فما تسمعه من العاشق المفتون إلا في معنى اليد الممدودة للاستجداء، وما تقرأ ترجمته في أبلغ عبارة وأرفع بيان وأكبر كبرياء إلا في معنى: (أنا محروم. . .!)

يا عجباً للحب! كل شيء فيه يحول عن حقيقته حتى ألفاظ اللغة وأساليب الكلام. . .!

وكذلك كان الرافعي يقول في رسائل الأحزان: (هو) ويعني: (أنا. . .) لأنه لا يريد أن يبتذل كبرياءه في لغة الحب. . .

إنني أحسب الرافعي لم يكتب رسائل الأحزان لتكون كتاباً يقرؤه الناس، ولكن لتقرأه هي،

وهي كل حسْبه من القراء؛ فمن ذلك لم يجر فيها على نظام المؤلفين فيما يكتبون للقراء من قصة فيها اليوم والشهر والسنة، وفيها الزمان والمكان والحادثة؛ بل أرسلها خواطر مطلقة، لا يعنيه أن يقرأها قارئها فيجد فيها اللذة والمتاع أو يجد فيها الملل وحيرة الفكر وشرود الخاطر

ولم يكتبها - كما يزعم - رسائل أدبية عامة تتم بها العربية تمامها في فنٍّ من فنون الرسائل لم يُؤثْر مثلُه فيما نقل إلينا من تراث الكتاب العرب، ليحتذيه المتأدبون وينسجوا على منواله؛ بل هي رسائل خاصة تترجم عن شيء كان بين نفسين في قصة لم يذكرها في كتابه ولم ينشر من خبرها

وبذلك ظلت (رسائل الأحزان) عند أكثر قراء العربية شيئاً من البيان المصنوع تكلَّفَه كاتبُه ليحاول به أن يستحدث فنا في العربية لم يوفق إلى تجويده. على أنه كتاب فريد في العربية في أسلوبه ومعانيه وبيانه الرائع، ولكنه بقيةٌ قصةٍ لم تنشر معه، فجاء كما تأكل النار كتاباً من عيون الكتب فما تُبقى منه إلا على الهامش والتعليق وصُلْبُ الكتاب رماد في بقايا النار. . .

فمن شاء أن يقرأ رسائل الأحزان فليقرأ قصة غرام الرافعي قبل أن يقرأه، فسيجد

فيه عندئذ شيئاً كان يفتقده فلا يجده، ولسوف يوقن يومئذ أن الرافعي أنشأ في العربية أدباً يستحق الخلود

قلت: إن الرافعي أنشأ رسائل الأحزان ليكون رسالة إليها هي، فهذا كان أول أمره فيما بينهما من الرسائل التي قلت عنها فيما سبق إنهما كان يتبادلانها على أعين القراء من غير أن يذيع السر أو ينكشف الضمير، ومن غير أن يسعى بينهما حامل البريد؛ ولقد ردّت صاحبته ردَّها على رسالته هذه برسالة مثلها بعثتْ بها إليه مع بائع الصحف والمجلات. . . ثم تتابعت رسائلهما من بعد على هذا الأسلوب العجيب

وسيأتي يوم يُدرس فيه أدب (فلانة) صاحبة الرافعي، وسيجد الباحثون يومئذ لوناً لذيذاً من البحث إذ يعثرون على رسائلها إليه في بعض كتبها ومقالاتها، وليس بعيداً أن يقرأ الأدباء يومئذ كتاباً جديداً بعنوان (رسائلها ورسائله) بتاريخها وزمانها وأسبابها، مقتبسةً مما نَشر ونشرتْ في الصحف والمجلات من مقالات وأقاصيص بين سنة 1924 وسنة 1936

أيها الباحث الذي سيأتي أوانه، ابحث عن حَشْو القول وفضول الكلام في مقالاتها ومقالاته، واقِرنْ تاريخاً إلى تاريخ وسبباً بسبب، لتنشر لنا رسائلها ورسائله في كتاب . . !.

أراني لم أتحدث عن (رسائل الأحزان) كما يتحدث كاتب من الكتاب عن كتاب من الكتب، فليس هذا إليّ، وإنما قدمت وسائل القول لمن يريد أن يقول؛ وأحسب أن كلاماً سيقال عن رسائل الأحزان من بعدُ غيرَ ما كان يُقال، وأعتقد أن الدكتور طه حسين بك لن يكرر مقالته التي قالها فيه من قبل، يوم أشهدَ الله على أنه لم يفهم منه حرفاً؛ وأعتقد أن الدكتور منصور فهمي بك لن يقتصر على قوله فيه من قبل: (إن معانيه من آخر طراز يأتي من أوربا. . .) لأنه سيجد مجالاً للقول في غير معانيه وبيانه ولكن في رسائل الأحزان شيئاً غير ما قدمت من أشيائه، ذلك لأن الرافعي - رحمه الله - كان ولوعاً بأن يضيف إلى كل شيء شيئاً من عنده؛ وتلك كانت طبيعته في الاستطراد عند أكثر ما يكتب

سيجد الباحث في رسائل الأحزان عند بعض الرسائل وفي هامش بعض الصفحات من الكتاب، كلاماً وشعراً لا يتساوق مع القصة التي رَويت. ألا إن الرافعي كانت تغلبه طبيعته الفنية في الكتابة أحياناً فيستطرد إلى ما لا يريد أن يقول؛ ليثبت معنى يخشى أن يفوته، أو ليذكر حادثة يراها بالحادثة التي يرويها أشبه، أو لأن تعبيراً جميلاً وجد موضعه الفني من الكلام وإن لم يجد موضعه من الحادثة؛ فإن رأى الباحث شيئاً من ذلك فلا يداخلْه الريب فيما أثبتّ من الحقيقة التي أرويها كما أعرفها

وسيجد في بعض الرسائل حديثاً وشعراً عن لبنان وأيام لبنان؛ وما عرف الرافعي صاحبته إلا في مصر وإن كان مولدها هناك. فليعلم من يريد أن يعلم، أن صاحبة الرافعي هذه لم تكن هي أولى حبائبه، وقد كان له قبل أن يعرفها في الغرام جولان؛ وكان بعض من أحب قبلها فتاة أديبة عرفها في لبنان، وهي سَمية صاحبتنا هذه؛ وكان بينهما رسائل أثبت الرافعي بعضها في (أوراق الورد)، ومن أجلها أنشأ الرافعي كتابه (حديث القمر)، على أن عمر الحب لم يَطُل بينهما، إذ تزوجت وهاجرت مع زوجها إلى أمريكا لتشتغل بالصحافة العربية هناك - وما تزال - فما جاء في رسائل الأحزان من حديث لبنان وذِكر أيامٍ هناك، فهو بقية من ذكرى صاحبة (حديث القمر) أقحمه في رسائله حرصاً عليه وبخلا به على الضياع

لقد كان حب الرافعي الأخير حادثة في أيامه فعاد حديثاً في فكره، ورسائل الأحزان هي أول ما أنشأ من وحي هذا الحب؛ على إن قارئه يقرؤه فما يعرف أهو رسالة عاشق ألحّ عليه الحب أم زفرة مبغض يتلذّع بالبغض قلبه؛ والحق أن الرافعي أنشأه وهو من الحب في غمرة بلغت به من الغيظ والحنق أن يتخيل أنه قادر على أن يبغض من كان يحب، بغضاً يرد عليه كبرياءه وينتقم له؛ فما فعل إلا أن أعلن حبه في أسلوب صارخ عنيف كما تحنو الأم على وليدها في عنفوان الحب فتعضه وإنها لتريد أن تقبله، أو كما تقسو ذراع الحبيب على الحبيب تضمه في عنف وما بها إلا الترفق والحنان . . .!

وطبع الرافعي كتابه وأنفذه إلى صاحبته، فكتبت إليه. . . وثارت ثورة الرافعي مرة ثانية فأصدر (السحاب الأحمر)

(شبرا)
محمد سعيد العريان
مقالات إسماعيلية
لأستاذ جليل
- 9 -
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من عرف نفسه عرف ربه) وقال عليه (فصل) الصلاة والسلام: (عرفت ربي بربي) أشار إلى أنك لست أنت إنما هو أنت بالهو أنت لا هو داخل فيك، ولا أنت داخل فيه، ولا (هو) خارج منك، ولا أنت خارج منه. وما عنى بذلك أنك موجود وصفتك هكذا بل عنى به أنك ما كنت ولا تكون إلا بنفسك لا هويتك المضنونة هي العدم، فأنت لا فان ولا موجود. أنت هو وهو أنت بلا علة من هذه العلل، فإن عرفت وجودك هكذا فقد عرفت الله تعالى وأكثر العارفين (أضافوا) معرفة الله تعالى إلى فناء الوجود وإلى فناء فنائه (فهذا) إثبات الشرك؛ فإن معرفة الله تعالى (لا) تحتاج إلى فناء الوجود، ولا إلى فناء فنائه، ولا شيء لا وجود شيء، وما لا وجود (له) لا فناء له، فإن الفناء لا يكون إلا بعد إثبات الموجود، والوجود الإضافي عدم، والعدم لا شيء، فإن عرفت نفسك بلا وجود ولا فناء فقد عرفت الله تعالى. قال السيد راشد الدين (علينا منه السلام): (لولانا بشهوتنا للأشياء لما كان إلا الله ولا شيء سواه. وفي إضافة معرفة الله تعالى (إلى) فناء الوجود وإلى فناء فنائه إثبات الشرك، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من عرف نفسه عرف ربه) ولم يقل من أفنى نفسه عرف (ربه) فإن إثبات الغير تناقض فنائه، وما لا يجوز ثبوته لا يجوز فناؤه، ووجودك ووجوده لا شيء لا يضاف إلى شيء. أشار عليه الصلاة والسلام إلا أنك معدوم كما كنت قبل متكوناً التقدر فلا أن الأزل والأبد والله تعالى (موجودون) هو وجود الأزل والأبد، وذات جميع الموجودات والوجود ولو لم يكن كذلك ما كان إلا الله وحده بنفسه لا يوجد الله تعالى فيكون رباً ثابتاً وهو محال، فليس لله تعالى شريك في ملكه ولا ند ولا كفؤ. ومن (جعل) لا شيء مع الله وهو محتاج إلى الله فقد جعل ذلك الشيء شريكا له لأنه محتاج إليه. ومن توهم موجوداً سواه قائماً به ثم يصير فائناً فناءه ويصير فائناً في فنائه فتسلسل الفناء بالفناء شركا بعد شرك. ومن كان هذه معرفته فهو مشرك لا عارف، والعارف بالله وبنفسه هو الذي يعلم أن الله كان ولم يكن معه شيء وهو الآن كان، فإن قيل: إن النفس ليست هي الله ولا الله تعالى هو النفس، قلنا: إن النفس هي وجودك وحقيقتك إلا النفس اللوامة والأمارة والمطمئنة. وأشار النبي صلعم إلى الأشياء الموجودة فقال عمّ (ربي أرني الأشياء كما هي) وعني بالأشياء كما توُهِّمَ أنها غير الله (تعالى) أي عرفني ما سواك من سائر الأشياء لا أعلم هل هي أنت أم غيرك؟ وهل هي قديمة أم باقية أم فانية؟ فأراه الله ما سواه، فإذا هي نفسه بلا وجود ما سواه، فرأى الأشياء كما هي، أعني رأى الأشياء ذات الله بلا كيف ولا أين لأنه هو تعالى هوية الكل بالحقيقة، واسم الأشياء يقع على النفس من الأشياء، فإن وجود النفس ووجود الأشياء شيئان في المشيئة التي عرفت الأشياء وعرفت النفس، ومتى عرفت النفس عرفت الرب، لأنه الذي تظن أنه غير الله ليس هو سوى الله، ولكنك ما تعرفه وأنت (لا) تراه، ولا تعلم أنك هو فإذا عدّمت إياك في ذاته بذاته لذاته علمت أنه كنه مقصودك وغاية مطلوبك وعلمت أن (كل شيء هالك إلا وجهه) أعين لا موجود إلا هو وجود لغيره مع وجوده فيحتاج (كل شيء) إلى الهلاك، ويبقى وجهه أعني لا شيء إلا وجهه، أعني لا نفس إلا نفسه، ولا وجود إلا وجوده، كذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم (لا تتبقَّ الدهر بَانَ الله) أشار بذلك لا وجود للدهر، وجود الله تعالى ووجود جميع الكائنات وجوده؛ ليس للأشياء من ذاتها إلا العدم جداً ووجودك ووجوده لا إله إلا الله وأنا لا أنا هو كما وجب وجوده وجب عدم ما سواه، فإن الذي تظن أنه غيره ليس هو غيره إذ لا وجود مع وجوده أنى وجوده ظاهراً وباطناً، ومن مات موتاً معنوياً عدمت ذاته وصفاته، وكذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم (موتوا قبل أن تموتوا) أي: اعرفوا نفوسكم واعرفوا ذاتكم العديمة لتعاينوا عين الهوية الحقيقة، وكانت كل حالة لله تعالى لأنه كان هو، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يزال العبد يتقرب بي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها) لأن حركاته وأفعاله كلها لله

تعالى لا له فالذي عرف نفسه يرى وجود ذاته بل كان جاهلاً بمعرفة وجوده؛ فمتى عرفت نفسك ارتفعت في عينيك وعرفت أنك لم تكن غير الله تعالى. وحقيقة معرفة النفس أن تعلم (أن) وجودك ليس بموجود ولا معدوم، فإنك لم تكن كائناً ولا كنت ولا تكون تعرف معنى قوله: (لا إله إلا الله)، ولا وجود لغيره ولا غيره سواه، لا إله إياه، وليس هذا بل بتعطيل الربوبية لأنه لم يزل رباً ولا مربوباً، ولم يزل خالقاً ولا مخلوقاً، خلاقيته وربوبيته
لا تحتاجان إلى مخلوق، ولا إلى مربوب، ووجود الأشياء كان الله، ولا شيء سواه، وهو الآن ولا شيء سواه، فوجود الموجودات وعدمها شيئان فلا هو إلا هو، وما سواه عدم والسلام
(* * *)
نقل الأديب
للأستاذ محمد إسعَاف النشاشيبي
إلى سيدي العلامة الأستاذ الكبير حسن حسني عبد الوهاب الصمادحي - أدام الله مجده، ونفع المشرقين بعلمه وفضله
للنشاشيبي ما هو إلا من ذلك الميراث القديم العظيم، وقد ورث الأستاذ (نقل الأديب) كما ورثت، وعرف من قدْر ما ترك الأكرمون الأولون مثل الذي عرفت، بل أكثر مما عرفت. وما أنا بالمستأثر بكنوز القوم وما أنا بالمستبد، وما أنا بالوارث الأوحد وإن هذا المال الموروث لدَثْر كثير، ولكل في التدبير والتثمير والإنفاق منه طريق. وعند الأستاذ التالدُ، وعنده - والحمد لله - الطريف؛ فهو السريّ المثري، وكم في سوق الأدب من صُعلوك وكم من صَعْفوق
وليست تسميتُه ولدَه - وكتابُ المرء ولدهُ المخلد - باسم ولدي (وقد زيد الحبيب) إلا تواضعاً؛ والعلماء الكبار يتواضعون. وعزوهُ الفضلَ إليّ بإظهاره تلك الطرائف التونسية هو أدبُ نفس، سليلُ ملك المَريّة به مشهور. فمرحباً مرحباً بـ (نقل الحبيب إلى الأديب) وحَيَّهَلْ، حيّ هلا بمتضاعف الحسن في العلم والفضل والاسم، ومد الله في عمره
محمد إسعاف النشاشيبي
311 - فإن شهرك في الواوات قد وقعا
محمد بن علي بن منصور بن بسام:
قد قرّب الله منا كل ما شسعا ... كأنني بهلال الفطر قد طلعا
فخذ للهوك في شوال أهبته ... فإن شهرك في الواوات قد وقعا
312 - الجمة السكينية
في (أغاني أبي الفرج): كانت سُكَينة أحسن الناس شعراً وكانت تصفف جُمّتها تصفيفاً لم ير أحسن منه حتى عرف ذلك وكانت تلك الجمة تسمى (السكينية)، وكان عمر بن عبد العزيز إذا وجد رجلا يصفف جمته السكينية جلده وحلقه
313 - بردي ساق وخادم . . .
ذكر أبو بكر بن العربي في رحلته أنه دخل بدمشق بيوت بعض الأكابر فرأى فيه النهر جارياً إلى موضع جلوسهم ثم يعود من ناحية أخرى. قال أبو بكر: فلم أفهم معنى ذلك حتى جاءت موائد الطعام في النهر المقبل إلينا، فأخذها الخدم ووضعوها بين أيدينا، فلما فرغنا ألقى الخدم الأواني وما معها في النهر الراجع فذهب بها الماء إلى ناحية الحريم من غير أن يقرب الخدم تلك الناحية. فعلمت السر، وإن هذا لعجيب
314 - أشهى إليّ من الدنيا وزخرفها
علي بن الجهم:
لجلسةٌ مع أديبٍ في مذاكرة ... أنفي به الهم أو أستجلب الطربا
أشهى إليَّ من الدنيا وزخرفها ... وملئها فضة أو ملئها ذهبا
315 - اللغة والدولة
في (الإحكام في أصول الأحكام) لابن حزم: إن اللغة يسقط أكثرها ويبطل بسقوط دولة أهلها، ودخول غيرهم عليهم في مساكنهم، أو بنقلهم عن ديارهم واختلاطهم بغيرهم، فإنما يقيد لغة الأمة وعلومها وأخبارها قوة دولتها ونشاط أهلها وفراغهم. وأما من تلفت دولتهم، وغلب عليهم عدوهم، واشتغلوا بالخوف والحاجة والذل وخدمة

أعدائهم فمضمونٌ منهم موت الخواطر؛ وربما كان ذلك سبباً لذهاب لغتهم ونسيان أنسابهم وأخبارهم وبيود علومهم. هذا موجود بالمشاهدة ومعلوم بالعقل ضرورة

316 - السلطان، الملك

في (طبقات الشافعية الكبرى للسبكي): مصطلح الدول أن السلطان من ملك إقليمين فصاعدا. فإن كان لا يملك إلا إقليماً واحداً سمي بالملك، وإن اقتصر على مدينة واحدة لا يسمى بالملك ولا بالسلطان بل بأمير البلد وصاحبها. ومن هذا يعرف خطأ كتاب زماننا حيث يسمون صاحب حماة سلطاناً، ولا ينبغي أن يسمى سلطاناً ولا ملكا لأن حكمه لا يعدوها، فكأنهم خرجوا عن المصطلح. ومن شرط السلطان ألا يكون فوق يده يد، ولا كذلك صاحب البلدة الواحدة، فإن السلطان يحكم عليه، وأما حكم السلطان على الملك وعدم حكمه فيختلف باختلاف القوة والضعف

317 - بطل أندلسي

في (الإحاطة في أخبار غرناطة) لمحمد لسان الدين بن الخطيب: خرج إبراهيم بن محمد بن مفرج (همشك) متصيداً وفي صحبته قارعو أوتار الغناء في مائة من الفرسان، فما راعهم إلا خيل العدو هاجمة على غرة في مائتين من الفوارس. فقال: إذا كنتم أنتم لمائة وأنا لمائة فنحن قدرهم؛ ثم استدعى قدحاً من شرابه وصرف وجهه إلى المغني وقال: غن لي:

يتلقى الندى بوجه حياء ... وصدور القنا بوجه وقاح
هكذا هكذا تكون المعالي ... طرقُ الجدّ غير طرق المزاح

فغناه، واستقبل العدو وحمل عليه بنفسه وبأصحابه حملة رجل واحد، فاستولت على العدو الهزيمة، وأتى على معظمهم القتل، ورجع غانماً إلى بلده. ثم عاد للصيد في موضعه ذلك، وأطلق بازه على حجلة فأخذها، ورأى نصلا من نصال المعترك من بقايا الهزيمة فأخذه من التراب، وذبح الطائر، واستدعى الشراب، وأمر المغني فغناه بيت أبي الطيب:

تذكرتُ ما بين العذَيب وبارق ... مجرَّ عوالينا ومَجرى السوابق
وصحبة قوم يذبحون قنيصهم ... بفضلة ما قد كسّروا في المفارق

نكبة السيل في سورية

الفاجعة!

للأستاذ أمجد الطرابلسي

عجبٌ فعالُكَ يا غَمامْ! ... أَفتكتَ في الشهرِ الحرامْ؟
يا ليت شعريَ! هل نَهم ... تَ فقمتَ تلتهم الصِّيام؟
أَعملتَ رأيكَ في الظلا ... م، وبئس غدَّارُ الظلام!
ومكرتَ، والحُلُمُ الهَني ... ءُ يُهدهدُ المُقَلَ النّيام
والغادةُ الفرحى تُقبِّ ... لُ ثغرَها صُوَرُ الهيام
والطّفلُ عانقَ أمَّه ... وغفا ودُنياهُ ابتسام
حتى الشَّبابُ الأهوجُ ال ... مِصْخابُ أسكره المنامْ
فغفا ومازالتْ تَرِ ... نُّ برأسه ذِكَرُ الغرام
والشيخُ في محرابهِ ... يبكي ويخشعُ في القِيام
يدعو لصبيتهِ الصّغا ... رِ وهم على شُرَفِ الفِطام
يدعو لهمْ منْ لا يُخَيَّ ... بُ مُرتجيهِ ولاَ يُضام
يرجو ابتساماتِ الحيا ... ةِ لهمْ وإدراكَ المَرام
ويذوبُ في صَلَواتِهِ ... نَشوانَ من أسمى مُدام
وبَنوهُ قد رقدوا ورفَّ م ... على مُهودِهُم السَّلام
فصَبَبْتَ وَبلَكَ ساخطاً ... من دونِ ذنبٍ واجترام
ماذا نقِمتَ عليهمُ ... فأذقتهم شرَّ انتقام؟
أرسلتَ صَوْبَكَ أيَّ بح ... رٍ زاخرِ الأمواج طام
في اللّيل يقتحِمُ الخدو ... رَ وأهلَها أيَّ اقتحام
ويُباغتُ الشَّملَ الجمي ... عَ مُصَدِّعاً كلَّ التئام
هَبّوا يرومون النَّجا ... ةَ، ولا نجاةَ ولا اعتصام

يَعلو نَحيبُهم فيُط ... فِئه الدَّويّ والانهدام
يا لهفَ نفسيَ! ما الفِرا ... رُ من القيامةِ إذْ تُقامْ؟
سيلٌ تَعوم بهِ العذا ... ري والولائدُ والسَّوام
والأَيكُ والوُكُناتُ وال ... هضْبُ المنيعةُ والرِّجام
لَقِفَ الحظائرِ والخِيا ... مَ وأهلَ هاتيكَ الخيام
وسطا على الأكواخِ ينسِ ... فُها ويجترفُ الحُطام
وبدا الصّباحُ كما تخضَّ ... بَ بالدّمِ القاني الحُسامْ . . .
فإذا الدّيارُ مقابرٌ ... يختالُ فيهنَّ الحِمامْ!!
يا ابن الحسينِ ألا نفض ... تَ صفيحَ قبرك والرَّغام
فرأيتَ كيفَ طغى العُبا ... بُ وغالَ دُنيا في منام!
سِرْ والصِّحابَ تَرَ المنَا ... زِلَ لا مُناخَ ولا مُقامْ
وَتَرَ الملاعبَ والحدَا ... ئقَ لا اتّساقَ ولا انتظام
لا عَنْ ميامِنكم (ضُمَيْ ... رُ) ولا وَراءَ ولا أَمام
مُحِيَتْ من الدنيا كما ... تمحوا السّطورَ يدُ الغُلام
وطوتْ معالمَها السُّيو ... لُ فلا رسومَ ولا رِمام
قَلَمونُ! يا فرحَ الشَّام! ... وفرحةُ الدّنيا الشّام
يا مرتعَ الآرام والأ ... حلامِ والحَدَقِ السِّقام
يا مهبطَ الشِّعرِ الحَلا ... لِ ومَمْرَحَ الحُسْنِ الحَرام
هل سامعٌ فيكِ السَّلا ... مَ، إذا أَطَلتُ لكِ السَّلام؟!
كلَّ الجراحاتِ التي ... نَزَفتك في قلبي دَوَام
يا جَنَّةَ الأطيارِ والأ ... لحانِ! ما فعلَ الحمَامْ؟
أتُراه قد هَجَرَ الخما ... ئِلَ والجداولَ أم أَقام
لما مضى بِوُكورِهِ ... وبزُغْبِهِ الموتُ الزُّؤام
يا مسطعَ الأنوارِ هل ... أذوَى مباسِمَكَ السِّقام؟
هل شفَّ (يَبْرودَ) الشَّحو ... بُ ولفَّ (جَيْرودَ) القَتام؟
كيفَ الحدائقُ والكرو ... مُ سُلِكْنَ في أبهى نظام؟
كيف العشيَّاتُ العِذا ... بُ وكيف في الرَّوضِ الزِّحامْ
من كلِّ هيفاءِ القَوا ... مِ وكلّ عَشّاقِ القَوام
لهفي عليكَ وللسُّيو ... لِ على جوانبكَ النظامْ
كالفلكِ في لُجَجِ البحا ... رِ السُّودِ أعياها الخصام
لا الموجُ يَرْحَمُها ولا الإ ... عْصارُ يُسْلِمُها الزِّمام
فتقطَّعَتْ عُقَدُ الشِّرا ... عِ وشَقَّ جُؤجُؤَها الصِّدام
وتناثرت أشلاؤُها ... حيناً. . . وغَيَّبَها الظَّلامْ!
(دمشق)
أمجد الطرابلسي
في مستهل الشتاء
زهرة تتغنى
للأديب أحمد فتحي مرسي
الرَّوْضُ مَعْقُودُ اللَّهَا هَاجِدٌ ... قَدْ صَوَّحَ النَّاضِرُ مِنْ زَهْرِهْ
والرِّيحُ فِي الآفَاقِ عَصَّافَةٌ ... وَالطَّيْرُ قَدْ عَادَ إلى وَكْرِهْ
يَا وَيْلَتَا! ماذا أَصَابَ الضُّحَى ... حَتَى غَدَا كَاللَّيْلِ فِي قُرَّهْ
لاَ الرَّوْضُ مَمْطُورُ الثَّرَى زَاهِرٌ ... كَلاَّ. وَلاَ الأَمْوَاهُ فِي نَهْرِهْ
وَالغُصْنُ ذَاوٍ فِي الرُّبَى ذَابِلٌ ... قَدْ صَلُبَ الرَّيَّانُ مِنْ خَصْرِهْ
يَلُوحُ كالْمَذْعُورِ فِي رَجْفِهِ ... مُنْتَفِضَ الأَطْرَافِ مِنْ ذُعْرِهْ
يَنْفُضُ فِي الرَّوْضِ وُرَيْقَاتِهِ ... والذَّاوِيَ اليَابِسَ مِنْ نَوْرِهْ
كَطَائِرٍ يَنْفُضُ عَنْ رِيشِهِ ... مَا خَلَّفَ الوَابِلُ مِنْ قَطْرِهْ
أُنَقِّلُ الطَّرْفَ فَمَا إنْ أَرَى ... إلاَّ هَشِيمَ الرَّوْضِ فِي قَفْرِهْ
هذِي الرِّيَاحُ النُّكْبُ مِنْ عَصْفِهَا ... قَدْ بِتُّ كالثَّامِلِ فِي سُكْرِهْ
وَذَا نَسِيمُ اللَّيْلِ فِي هَبِّهُ ... يَهْصِرُ بِي مَا شَاءَ مِنْ هَصْرِهْ

قَدْ خَدَّشَ الخَدَّ بأَنْفَاسِهِ ... وَأطْفَأَ المُؤتجَّ مِنْ جَمْرِهْ
فَي بَسْمَةِ الصُّبْحِ وَفِي صَمْتِهِ ... وَفِي البَهِيِّ النَّصْرِ مِنْ فَجْرِهْ
وُلِدْتُ فِي الأَفْنَانِ مُخْضَلَّةً ... فَضَمَّنِي الغُصْنُ إلى صَدْرِهْ
رَخِيَّةُ الصَفْحَةِ لَوْ مَسَّها ... ثَغْرُ امْرِئٍ ذَابَتْ عَلَى ثَغْرِهْ
أَجْرَى عَلَى خَدِّي النَّدَى قَطْرَهُ ... وَأَسْبَلَ المُنْهَلَّ مِنْ خَمْرِهْ
مَنْزِلَتِي فِي الرَّوْضِ مِنْ زَهْرِهِ ... مَنْزِلَةُ الْوُسْطَى عَلَى نَحْرِهْ
تُخَايِلُ الأَفْنَانُ بِي فِي الرُّبَى ... وَيَثْنِنِي غُصْنِيَ مِنْ فَخْرِهْ
حَتَّى إذا أَرْخَى الدُّجَى سُجْفَهُ ... وَلَفَّ هَذا الكَوْنَ فِي سِتْرِهْ
فَجِسْمِيَ الذَّاوِي عَلَى غُصْنِهِ ... لاَ تَأتَلِي الأَنْسَامُ فِي نَثْرِهْ
وَشِيكَةُ المَوْتِ وَلَمْ أَنْتَهِلْ ... مِنْ رَوْعَةِ الكَوْنِ وَمِنْ سِحْرِهْ
ماذا عَلَى الأَقْدَارِ لَوْ صَابَرَتْ ... قَدْ يَجْتَنِي الصَّابِرُ مِنْ صَبْرِهْ
كأَنَّنِي حُلْمٌ لَطِيفُ الرُّؤَى ... قَدْ طَافَ بِالوَسْنَانِ فِي فِكْرِهْ
حَتَّى إذا وَلَّتْ سِنَاتُ الكَرَى ... لَمْ يَبْقَ فِي القَلْبِ سِوَى ذِكْرِهْ
أَيْنَ الرَّبِيعُ الطَّلْقُ فِي حُسْنِهِ ... أَيْنَ الشَّذَا الْفَوَّاحُ مِنْ عِطْرِهْ
أَيْنَ السَّنَا اللَّمَاحُ مِنْ نُورِهِ ... أَيْنَ الفَمُ الوَضَّاحُ مِنْ بِشْرِهْ
كَمْ عِنْدَهُ مِنْ رَائِعٍ خَالِدٍ ... يَعْيَا اللِّسَانُ الطَّلْقُ فِي حَصْرِهْ
قَدْ مَرَّ بالرَّوْضِ قَرِيبَ المَدَى ... كَخُطْوَةِ العَجْلاَنِ فِي مَرِّهْ
وَشَيَّعَ المُبْتَلَّ مِنْ غُصْنِهِ ... وَوَدَّعَ المُخْضَلَّ مِنْ زَهْرِهْ
وّآذَنَ الدَّهْرَ بِهجْرَانِهِ ... فَرَوَّعَ الأَفْنَانَ مِنْ هَجْرِهْ
وَالدَّهْرُ أَطْوَارٌ تَقَضَّى بِنَا ... مَا مَرَّ لا يَرْجِعُ مِنْ طَوْرِهْ
وَذَلِكَ العَيْشُ بِهِ مِعْبَرٌ ... تَفَاوَتُ الأَعْمَارُ فِي عَبْرِهْ
الصَّفْوُ وَالكَدْرُ سَوَاءٌ بِهِ ... وَعُسْرُهُ أَهْوَنُ مِنْ يُسْرِهْ
وَشَرُّهُ ماضٍ إلى خَيْرِهِ ... وَخَيْرُهُ غَادٍ عَلَى شَرِّهْ
كَمْ فِي حَيَاتِي عِظَةً لِلوَرَى ... لَوْ نُبِّهَ الغِرُّ إلى أَمْرِهْ
كُفِّنْتُ فِي مَهْدِي ولمَّا أَزَلْ ... ذَكِيَّةَ الأَذْيَالِ مِنْ طُهْرِهْ
فَلَحْظَةٌ عُمْرِي. وَكَمْ يَشْتَكِي الْ ... إنسان قُرْبَ المَوْتِ فِي عُمْرِهْ
شَكِيَّةُ الإنسان مَا تَنْتَهِي ... وَإنْ يَعِشْ دَهْراً عَلَى دَهْرِهْ
مَا أَغْدَرَ المَوْتَ بأَعْمَارِنَا ... وَأَغْفَلَ الإنسان عَنْ غَدْرِهْ
وَأَلعَبَ الجَدَّ بآمَالِنَا. . . ... وَأَقْرَبَ المَولُودَ مِنْ قَبْرِهْ
(القاهرة)
(فتحي)

رسَالة العلم

الزنك كعنصر أساسي لنمو النبات

للأستاذ عبد الحليم منتصر

كان المعتقد إلى عهد قريب أن العناصر الأساسية لنمو النبات، أي التي لا يستطيع أن يتابع نموه بحالة طبيعية بدونها هي الكربون والأيدروجين والأكسجين والأزوت والكبريت والفسفور ثم الحديد والبوتاس والمغنسيوم والكلسيوم، ولم يجد العلماء كبير عناء في إثبات أهمية أي عنصر من هذه العناصر، ولم يصادفوا أية مشقة في دراسة الدور الذي يقوم به كل منها في بناء النبات، بل لقد عرفوا تفصيل كل ذلك بصورة قاطعة لم يعد الشك يتطرق إليها. فالثلاثة الأول تكون الكربوايدراتات التي توجد بالنبات، ومنها مع الثلاثة التالية، يتكون البروتبلازم ومركباته. أما العناصر الأربعة الأخرى فهي ضرورية جداً للنبات على رغم عدم دخولها في تركيب مادته. فالحديد والمغنيسيوم ضروريان جداً لتكوين مادة الخضير التي بدونها لا يستطيع النبات الأخضر تحضير مواد غذائه، كما أنه لا يستطيع تكوين النشاء إذا انعدم البوتاس من عناصر تغذيته، كذلك يدخل الكلسيوم في تكوين هيكل النبات الداخلي، أي في جُدُر خلاياه، كما أنه لازم ليكون انقسام الخلايا في الأجزاء النشطة عادياً

وليس ثمة شك في أساسية هذه العناصر التي يأخذها النبات - ماعدا الكربون والأكسجين للتنفس - من التربة. والقول بأن هذه العناصر أساسية لا يقصد منه أن غيرها لا لزوم له، بل على النقيض من ذلك قد يوجد بالنبات عشرات من العناصر

الأخرى لها بعض الأثر في نمو النبات وأزهاره وأثماره، ولكنه لا يكون لانعدامها هذا الأثر الذي نلاحظه عند حذف أي عنصر من هذه العناصر سالفة الذكر. ويمكن القول بأن هذه العناصر هي الأساسية إجمالاً أو إطلاقاً، أما غيرها فقد يكون لازماً لبعض النباتات دون البعض الآخر، ولكن فقدها بالكلية ليس قوي الأثر على حياة النبات أي ليس مهلكا له

على أن هذا الثبت من العناصر قد أخذ يتزايد على مر الأيام نتيجة لنشاط العلماء وتجاريبهم الدقيقة، فقد قال بعضهم بضرورة عنصر البورن، وأثره البالغ في تحسين المحصول وحالة البذور جودة ومناعة. . . كذلك قيل عن أهمية المنجنيز لتنشيط الخمائر،

والنحاس ودوره في التفاعلات الكيميائية بالنبات، والكلور وأثره في زيادة خضرار النبات وقلة نتحه، كذلك الفلور واليود وأثرهما في زيادة نمو النبات. وعن السليكون وأهميته في تمثيل حامض الفسفوريك في النبات، والصوديوم وفائدته في حالة قلة البوتاسيوم. وغير هذه العناصر كثير مما تحدث عنه العلماء نتيجة لتجاربهم وملاحظاتهم مما جعل بعضهم يضيفها إلى قائمة العناصر الأساسية، وإن كانوا لا يعنون في أغلب الأحوال أن تكون أساسية إطلاقاً، أي أنها لازمة لكل أنواع النبات، أو أن فقدها يسبب هلاك النبات. وسترى فيما نعرض في هذا الحديث مكان الزنك بين هذه العناصر المختلفة التي يحتاجها النبات، والآثار التي تترتب على فقده، والأخطار التي يتعرض لها النبات عند حرمانه منه، وذلك ما جعل موضوع أساسيته محل البحث والدرس عند العلماء في الوقت الحاضر

ولقد كان (رولن) أول من لاحظ ضرورة وجود الزنك لنمو بعض الفطريات، وأثبت أنه في حالة عدم وجوده يضعف نمو الفطرة ويقل ازدهارها، وقال إنه حتى في حالة عدم إضافته يكون موجوداً مع مركبات العناصر الأخرى نظراً لعدم نقائها، ولعل ذلك هو السر في تجاهل شأن الزنك. وقد عضده في ذلك (جافييه) بتجارب أجراها على الفطرة (اسبرجلس) ثم أعاد (شتينبرج) تجارب (جافييه) محاولاً تنقية مركبات العناصر التي كان يغذى بها الفطرة من أي أثر للزنك، فوجد أن نموها قد تأثر كثيراً. على أن أحداً من هؤلاء لم يقطع بأن الزنك عنصر أساسي لنمو النبات. بل لقد افترضوا آنئذ أن الزنك ما هو إلا حافز في حالة الفطرة. ولكن (رولن) أبدى رأيه في أساسية الزنك للنباتات الراقية، بيد أنه كان متحفظاً، فلم يقطع بذلك بل تركه للزمن يحققه ويمحصه وقد أثبت كثير من العلماء تأثر النبات بكمية الزنك التي تضاف إليه، ومن أخص هؤلاء (ميز) و (سومر) و (ليمان) الذين كانت تجاربهم مضرب المثل في الدقة والعناية والبعد عن مظان الضعف أو مواطن التشكيك، كاختبار الزجاج الذي تجري به التجارب للتأكد من خلوه من الزنك، كذلك خلو الماء الذي تروى به النباتات أو الغبار الذي يعلو المزرعة، أو المركبات الكيميائية التي تستعمل في المحاليل الغذائية، مثل هذه التجارب كان من أهم نتائجها إثبات ضرورة الزنك لنمو النباتات

وقد أثبت (هامس) في سنة 1932 فائدة الزنك لأشجار الليمون كما أوضح (هجلاند) في

سنة 1936 أعراض المرض الذي ينتاب كثيراً من النباتات عند حرمانها قطعياً من الزنك. كما أثبت في كثير من الحالات تحسن المحصول وزيادة النمو في الحقل بعيداً عن تجارب المعمل، وذلك بإضافة الزنك للتربة فيكون له هذا الأثر البارع من اطراد في النمو وازدياد في الإيناع إلى شفاء من أعراض المرض، فإضافة بضعة كيلو جرامات من كبريتات الزنك للفدان قمينة بزيادة محاصيل كثير من الأنواع النباتية كالقمح والشوفان والذرة والترمس والبسلة وكثير من أنواع الفاكهة. وقد أثبت (موري) و (كامب) وغيرهما أن إضافة مركبات الزنك للتربة تفيد كثيراً في حالات تبقع الأوراق وتجعدها وجفاف الأفرع، وغير ذلك من الأعراض التي تصيب النبات نتيجة حرمانه من الزنك. كان من نتائج تقدم هذه البحوث أن استطاع علماء النبات توفير ملايين من الجنيهات كانت تضيع هباء في أمريكا نتيجة لما يصيب الموالح والتفاح والجوز والعنب من التبقع والاصفرار والانكماش مما يؤثر تأثيراً بليغاً في المحصول. وقد ظهر أن السبب هو نقص الزنك، وأن العلاج هو الزنك دون سواه، ولهذا سمي المرض نقص الزنك أو الحرمان من الزنك

ما هي أعراض هذا المرض، وكيف نشخصه بدقة، وما هي طرائق علاجه بمركبات الزنك؟ سيكون ذلك موضوع حديثنا في عدد الرسالة المقبل.

عبد الحليم منتصر

القَصصُ

أقصوصة من اثيل مانن

حب في روما

للأستاذ دريني خشبة

يخطئ من يحسب أن الحب وقف على جماعة الأرستقراطيين من الناس، وخاصة الحب الرفيع السامي، الذي هو ينبوع آدميتنا والذي تبتعثه السماء في قلوبنا ليصهرها بآلامه الحلوة، وأشجانه الجميلة؛ وليفجر منها دموع الرحمة والمودة والحنان. . . وقد ينمو الحب في كوخ من قش، كما ينمو في قصر، وقد يكون في الكوخ أصدق منه في البيت ذي العماد، وقد يكون في ركن منسي، أصفى منه في جنة فيحاء. . وهكذا كان حب هذا الفتى ميشيل، الخادم الفقير في أحد فنادق روما

لله ما أقسى المقادير! لقد كان ميشيل، الفتى الإيطالي المرح، أحق بأن يكون شاعراً يودع روحه في قصائد رنانة، ينشدها ويتغنى بها، لا خادماً ينضد الوسائد، ويُعنى بالسُّرر، ويَنْفض السجاجيد. . . و. . . ينظف أحذية النازلين!! وكانت له أم لولاها ما اضطر لأن يعمل كي يكفلها، إذ مات عنها زوجها في السنوات الأولى من البناء بها. . . وكان يؤوب إليها آخر كل نهار بحبه لها، وحرصه على إسعادها، ثم بليرات قليلة تشفي السغب، وتضمن السَّتْر، وتقيم أَوَدَ الحياة. . .

وكان ميشيل يحب الموسيقى، ويغرم بالقصص الإيطالية، ويشغف بمآسي الحب، وكان يتمنى له وفق إلى أن يكون واحداً من أولئك الأبطال الذين يملأون الروايات بالدموع والآهات، وإن لم يعيشوا مع ذاك إلا في أدمغة مبتدعيهم من الكتاب والمؤلفين

وكانت تعمل معه في الفندق فتاة لم تكن في رأيه أول الأمر شيئاً مذكوراً، وإن يكن شعرها الذهبي يلفت نظره أحياناً، وساقاها الجميلتان اللتان لهما ظلال خفيفة من بنفسج الأبنين تثيران في قلبه (استلطافاً) لم يفكر مرة في أنه ينتج حباً أو يتأصل فيكون غراماً. . . لا. . . لم يفكر ميشيل مطلقاً في أن هذه الفتاة البائسة مثله، ستكون حلمه وأمنيته، وأنه من أجلها سيقضي أطول لياليه مسهداً كما يقضي الشعراء لياليهم في عوالم شاسعة من المنى والأحلام

وكان ميشيل ينقطع عن العمل نصف يوم عطلة في كل أسبوع وكانت الفتاة ماريا، من أجل ذلك ترهق بالعمل، وكان يرهقها أكثر، وجودها مع نادل آخر شرس الطباع، لئيم الخلق، يدعى فراري. . . كان يتعمد أن يترك لها كل عمل مجهد، على أن يستخف هو باليسير الأقل. . . وكان فراري ينقطع عن العمل أمسية واحدة كل أسبوع كما ينقطع ميشيل، وطالما كان يختار أمسيته في نفس اليوم الذي كان ينقطع فيه زميله، فكانت ماريا المسكينة توزع نفسها على جميع أنحاء الفندق، وكان بهو الطعام يتعبها أكثر من كل شيء، لاختلاف أمزجة الآكلين وكثرة طلباتهم، وضرورة مراعاة ترتيب النداءات، وإلا فالويل لماريا من هؤلاء (السياح) الإنجليز المتغطرسين الذين يغشون هذا الفندق دائما

وقد لحظ ذلك ميشيل، فكان يتعمد أن يبقى في أمسيته، دون أن يذهب لإجازته، ناسياً أن أمه العجوز الرؤوم المريضة المشفية على الموت، تنتظره ليسمر إليها، ويخفف عنها آلامها. . كان ميشيل ينسى هذا الواجب المقدس، ولكنه كان لا يلتفت إلى أن في عمله هذا تقصيراً، بل بالعكس من ذلك، كان يرى فيه إنسانية سامية، وعطفاً تحتمه عليه رجولته، على هذه الفتاة ذات الشعر الذهبي والساقين اللتين لهما ظلال جميلة من بنفسج الأبنين. . ولم يفكر ميشيل مرة أنه فجر الحب ينبلج في قلبه، وأنها أنفاس الغرام العطرية تجذبه كالفراش إلى هذه الزهرة الحلوة الغضة. . . كلا. . . بل لم يفكر قط في أن أمه الرؤوم المريضة كانت أحوج إليه وإلى لحظات ينفقها عليها، من هذه الفتاة اللعوب الطروب ذات الفم الدقيق، ماريا التي تعمد ألا يغادر الفندق ليساعدها وليخفف عنها هذا العبء الهائل، من رفع الأطباق وجمع الأكواب، وتنضيد البهو، وتلميع الموائد. . حتى لا يهان هذا الشعر الذهبي المغدودن الذي يرف كأنفاس الحور على صدرها الناهد وظهرها العاجي، وحتى لا ترهق الساقان الملفوفتان اللتان

!!لهما هذا السحر الجميل المنعكس من بنفسج الأبنين
ولم تشكره ماريا قط، ولم تتعب تفكيرها في السبب الذي كان يصرف زميلها عن التمتع بإجازته القصيرة، وكانت كلما همت بعمل شاق من أعمال البهو، وأقبل هو مهرولا ليؤديه نيابة عنها أنغضت برأسها الذي يتخابث صغيراً في شفق الشعر الذهبي، ومضت لطيتها، تاركة لميشيل أن يقوم بكل عسير شاق من أعمال الصالة. . . ووقفت تعبث بدمية أو بباقة من الزهر، أو تصلح صورة أو تسقي أصيصاً. . . وكان الفتى مع ذاك يخالسها نظرات
كالودق يخرج من بين السحاب، وكان مع ذاك أيضاً لا يشعر بتعب ولا يناله إعياء. . . وكان يسعد سعادة لم يكن يعرفها كلما سمع صوت ماريا يرن في فضاء البهو الكبير، فيرن جرسه الفضي في جوانحه، ويوقظ فيها أمانيه لتي كان يتصورها لياليه الخاليات ولا يظفر بتحقيقها
. . .وأخيراً عرف أنه الحب
وكانت مفاجأة حلوة لروحه الصادية أن تروى أول ما تروى من هذه الكأس المترعة بمفاتن ماريا ذات الشعر الذهبي، والساقين الملفوفتين في بنفسج الأبنين. . . وكانت مفاجأة حلوة كذلك أن تتبرج الدنيا القبيحة هكذا فتصبح جميلة سافرة بسامة، بعد أن كانت عبوساً قمطريراً معتمة حين كان قلبه لا يعرف الحب. . . ويصبح كل ما حوله ضاحكاً يتأرج ويتبرج ويهتز كما تهتز الأعطاف بالبشر
ولكن ميشيل كان حيياً. . . وكان كلما هم بمحادثة ماريا عما يجيش من حبها في قلبه ارتبك وانعقد لسانه، والتوت الكلمات فكأنها من حديد لا يلين، وخفق قلبه وأزلزل، وهرب الدم من خديه، فينصرف حزيناً محسوراً. . . ولكن نظرة واحدة إلى شعر ماريا وساقيها كانت تعيد ابتهاجه، وترد صوابه، فيرضى بالصمت الذي لا يد له في غيره . . .
وظل حبه دفيناً في قلبه يشفه ويضنيه؛ وظل هو قانعاً راضياً بأن يكون في جوار ماريا دائماً. . . وفي ظلها الوارف أمسية من كل أسبوع؛ يحمل عنها أوزارها، ويقوم بكل ما يشفق عليها أن تؤديه من مشاق
وكأنما لحظ الخبيث فراري، الكهرباء التي تزلزل أركان ميشيل فأقسم ليكيدن له؛ وكان فراري فَتىً لَعَّاباً يجيد إلى درجة الخطورة إعمال عينيه وقسمات وجهه، ويتقن زخرفة الكلمات التي تقع عليها قلوب العذارى كما يقع الفراش في النيران. . . وكان هو الآخر يرى في ماريا غادة لم تخلق لهذا العناء، وكان يزن جمالها بعقله لا بقلبه. . . أي أنه كان يراها تصلح كزوجة نافعة تجلب اليسر والرخاء للرجل الذي يحظى بها، لأنها لو عملت في فندق آخر لحصلت على أضعاف ما تحصل عليه هنا. . . ولم لا؟ أليس لها هذا الشعر الذهبي الذي هو في نفسه كنز؟ أليس لها هذا الجسم الممشوق والقد المعتدل، والخطى الراقصة التي تلفت الأنظار وتكهرب القلوب؟! إذن لينافس فراري زميله ميشيل. . .
وليطلب من مديرة الفندق استبدال أمسيته التي يستريح فيها ليعمل مع ماريا حين يكون ميشيل في إجازته، وليظفر فراري بكل ما تصبو إليه نفسه، وليتهم ميشيل، وليلفق له التهم، ولتصدق المديرة الحمقاء ما يُتهم به الفتى البائس الذي قضى عليه سوء طالعه أن يعاشر هؤلاء اللئام وأن يأكل من أيديهم كفافه، في حين كان ينبغي أن يكون شاعراً أو أديباً يسمو بأدبه على الأدباء. . . لا على خدم الفنادق. . . مسكين ميشيل! لقد كدر عليه هذا الإبليس المقتدر الملفق صفو حبه المضمر الذي يلذه بقدر ما يشقى به. . . وأثاره ومزق قلبه ما رأى من العلائق بين ماري وبينه، ما لم يستطع هو أن يظفر بشيء منه برغم كده وتضحيته وحرصه على التقرب من الفتاة والتودد إليها
وأخذت الدنيا تسمج مرة ثانية في عين الفتى، وتكتسي سربالاً أسود اللون قاتماً. . . وعادت نفسه الأديبة الشاعرة تختلج بما تختلج به نفوس الشعراء البائسين. . . وعاد يوماً إلى داره فوجد أمه تعالج سكرات الموت. . . فلما رأته أشارت إلى صليبها وهي لا تقوى على حمله، فأدناه من فمها فقبلته، ونظرت إليه بعينين مغرورقتين، ثم تمتمت بكلمات هي من غير شك دعاء له؛ ثم لفظت آخر أنفاسها. . . فذعر ميشيل وانخلع قلبه وطفق يبكي ويُعول، وينظم ألحانه فيسرها في نفسه
ولما عاد إلى الفندق بعد ثلاثة أيام، كان يحدث نفسه - إذ هو منطلق في الطريق - أن

ماريا لابد عاطفة عليه، معزيته أحسن العزاء وألطفه، جالسة إليه تواسيه وتذهب عنه الحزن. . . وكان يتصورها معه في بهو المطعم تلاطفه وتظهر له الألم من أجل وفاة أمه. . . وأنه مستطيع لابد أن يظهرها على حبه، وأن يتعرف لها بمكنون قلبه. . . وصمم على أن يكون جريئاً مقداماً هذه المرة وأن ينتهز الفرصة ليقهر هذا العذول: فراري، وأن ينحيه عن فتاته مهما كلفه ذلك، فإن لم تصخ له وتنصره عليه، فلينصرف عن هذه الدنيا المخادعة، وليَلُذ بأطراف الأرض يتبوأ منها حيث يشاء، فلن يعدم لقيمات تسد مسغبته، وقطرات من ماء تبل أواره. . . وهكذا تداعت هواجسه، وتسلسلت أفكاره؛ وكان كلما تمنى ألقى الشيطان في أمنيته، فذهب به مذاهب شتى. . . حتى إذا وصل إلى الفندق، وتسلم عمله، راح يتنسم ماريا ويتشمم عبيرها، ولكنه، وا أسفاه، لم يجد عندها شيئاً!! إنها سراب بقيعة!! لقد ذهبت ماريا. . . وذهب فراري. . . وذهبا معاً في يوم واحد، وفي لحظة واحدة، ولسبب لم تستطع مديرة الفندق أن تذكره لميشيل، لأنها لم تستطع أن تعرفه!!

وضاقت عليه الأرض بما رحبت؛ وكيف لا تضيق وقد فقد أمه وفقد هواه في أسبوع واحد؟ لقد فقد القلب الذي كان يعفو والقلب الذي كان لا يعرف. . . فقد في الأول المحبة والظل الوارف، والتسامح والرضى؛ وفقد في الثاني هذا الأمل الذي حبب إليه الحياة، وجعلها حلوة مشرقة بسامة، لأنها تضم ماريا. . . ماريا ذات الشعر الذهبي الهفهاف، والوجه المتألق المشرق، والساقين ذاتي الظلال من بنفسج الأبنين؟ أين ذهبت ماريا يا ترى؟ أين ذهب بها الشيطان فراري إن كانت قد ولت معه؟ ولماذا ذهبا معاً؟ لقد كانت تضيق به، وتشكو منه، ولا تكاد تستنشق هواء يشركها فيه؟ فأين ذهبا معاً؟ ولم ذهبا هكذا من دون أن يعلم أحد؟

وانطلق ميشيل يطوي الطريق السادرة النائمة في ظلال البلوط والصنوبر، المؤدية إلى ضاحية تيفولي، وهو ينظر بعينين موجعتين محزونتين إلى هذه الشمس الرومانية الغاربة، التي تتوهج كالجمرة الكبيرة في هشيم الطبيعة، وينظم في أعماقه ألحانه، ويستمع إلى خرير الجداول مختلطاً برنين الناقوس الكبير الذي يحيي بدقاته السماء، ويسألها للناس الرحمة. . . ولقد بدا له أن يعرج إلى هذا البيت المنيف من بيوت الله فيصلي له، ويسجد ويخبت، لعل روح ماريا تكون معه فتسجد هي الأخرى، وترق له، وتكفر عما أعرضت عنه. . . بيد أنه مضى في طريقه لا يلوي على شيء، لأن هذه فكرة واحدة من آلاف الفِكَر التي كانت لا تفتأ تطيف برأسه وهو لا يعي واشتد خبَله، وظمئت روحه إلى ماريا ظماً شديداً، وصار يلتمس لها المعاذير من هذا النكران الذي ما تعمدته ولا قصدت إليه لأنها لم تكن تدري ما يضمره لها من هيام في سويدائه، وظل يهتف باسمها في نومه كما يتغناه في يقظته، لكنه كان يتغنى به كما يتغنى الصوفي المجذوب أسراره. . . وهو لا يدري ما يقول!! وجلس مرة يقلب صحائف مجلة إنجليزية فوقع بصره على صورة ماريا. . . ماريا بعينها!؟ يا عجبا! ومن أين لماريا هذا الصيت البعيد والذكر المنتشر؟ إنها كانت مثله لا تعرف كلمة إنجليزية واحدة، وهذه مجلة للآداب والمسرح، وليس معقولاً أيضاً أن تكون ماريا قد التحقت بالمسرح الإنجليزي نجمة عظيمة من أنجمه، وليس معقولاً أيضاً أن تكون قد أصبحت في أيام معدودات أديبة واسعة الإلمام بأدب هذه اللغة الإنجليزية التي كان يحسبها ميشيل - لصعوبتها في نظره - من لغات الشياطين! فما ماريا وهذه المجلة الإنجليزية يا ترى؟ وما لها هي وما للأدب الإنجليزي والمسرح الإنجليزي؟! ونظر أسف الصورة ليقرأ اسم صاحبتها. . . ولشد ما كانت دهشته عظيمة هائلة إذ وجد اسم صاحبة الصورة (إيزابل هايس)!! المؤلفة الكبيرة والقصصية البارعة، التي طالما قرأ لها روائع وآيات مترجمة إلى لغته الإيطالية؟!

لا بأس. . . إنه لم يحصل مرة على صورة ماريا، وهاهي ذي صورة إيزابل لا تفترق عنها في شيء. . . فليحتفظ إذن بها، وليجعلها بين شموع وضاءة تلتهب بالقبس المقدس الذي يتأجج ملء قلبه. . . وليصلَّ لها كل مساء وحين يصبح. . . وليذكر في فمها الرقيق الصغير تلك الأقحوانة التي كانت تنفرج عنها شفتا حبيبته. . . ولتباركه الصورة المستعارة بكلمات صامتة لا تبين، فقد كانت ماريا لا تبين كذلك. . . وليرَ هو

في وجهها الوضاء جمالاً جديداً كل يوم جديد، وليعش على الأماني يبهرجها لنفسه، ولا بأس من أن يضع الصورة كلما نام تحرسه عند رأسه. . . وبالاختصار، لتكن حياته أحلاماً في أحلام. . .

غير أن الفندق صار شيئاَ كريهاً لا يطاق، لأن ماريا لم تعد ترسل في أجوائه أنفاسها. . . بيد أنه مع ذاك جميل محبب لأن في كل ركن من أركانه ذكرى لماريا تغذي أحلام ميشيل، وترسل دموعه كلما جفت؛ وهو مع ذاك أيضاً هيكل حبه الأول الذي استيقظ فيه قلبه من سبات العدم فخفق بنعمة الهوى. . . لهذه المتناقضات سيقيم ميشيل فيه. . . وليكن رئيس الخدم بعد شهر أو شهرين، وليتضاعف راتبه، وليشتر بجانب كبير منه كثيراً من قصص إيزابل هايس التي لم يقرأها، لأنه أصبح يرى في آثار هذه الكاتبة الإنجليزية روح ماريا. . . . وليحاول أن يتعلم الإنجليزية ليقرأ المؤلفة في لغتها، وليفشل في هذه المحاولة، فقد أوري إحساساً شريفاً نحو صورة لسيدة تشبه ماريا، وكفى بذلك برهاناً على وفائه لذكرى فتاة لم تعرف قط أنه يهواها. . .

وأقبل فوج من (السياح) عظيم من أغنياء الإنجليز فنزلوا في هذا الفندق، وأعجبوا بحديقته إعجاباً شديداً، فقد كانت ظلال الأبنين البنفسجية تعكس على نضرتها وخضرتها ألواناً شعرية تصول فيها الأرواح وتجول

وحان موعد الغداء فانتشر النازلون في بهو المطعم الوردي، وجلسوا إلى موائدهم مسرورين فرحين، وراح النُّدل بينهم وجاءوا، هذا يحمل الأطباق الحافلة، وذاك يحمل الماء المثلوج، وثالث الكامخ الإيطالي اللذيذ. . . وأشرف ميشيل على الجميع بملابسه الناصعة، ووجهه الحزين الباسم، فطفق يأمر هذا ويشير إلى ذاك، ويدعو هذه ويحث تلك، والسياح مقبلون على آكالهم وأشرباتهم آخذون في سمر هامس، وكلام رقيق. . . شأن السادة الإنجليز في كل فج. . .

ثم وقف ميشيل أمام حسناء إنجليزية فجأة ولم يرم!

ما له وقف هكذا كالتمثال ويداه مقبوضتان! إنه لا ينبس ولا يتحرك! بل سمر عينيه في السيدة المشغولة عنه بطعامها وشرابها، ولما يأبه للنداءات والأجراس التي تهتف به من كل صوب!. . . ودهش النازلون فجعلوا يحدجونه وإن لم يشتغلوا به عن طعامهم ثم استبطأته المديرة فانطلقت إليه كي ترى. . . فلما وجدته يقف عن كثب قريباً من السيدة الإنجليزية لكزته لكزة هينة لينة، لكنه لم ينتبه. . . فنظرت المديرة إلى السيدة السائحة نظرات سريعة فعرفت كل شيء

- أستميحك عذراً يا سيدتي فهذا النادل ميشيل أديب مشغوف بك، يقرأك ويكب على قراءتك، وليست لك قصة أو درامة منقولة إلى الإيطالية إلى وقد اقتناها. . . والأعجب من كل ذلك أنه اقتنى صورتك من إحدى المجلات التي تكتبين فيها، ووضعها في إطار ثمين، وأولاها من عنايته ما لم يول حياته الخاصة! أندريا! أندريا!

وأقبل الخادم أندريا فقالت له المديرة:

- انطلق إلى غرفة ميشيل فأحضر صورة السيدة إيزابل هايس!

ونظرت السيدة الأديبة إلى صورتها فدهشت لاحتفاظ النادل الإيطالي بها، وشاع فيها برغم طبعها الإنجليزي المعروف إحساس بالكبرياء والزهو. . . حتى إذا فرغت من طعامها هتفت بميشيل وسمحت له بالجلوس إليها يكلمها وتكلمه. . وكانت تجيد الإيطالية فكان الحديث بينهما جميلاً جذاباً ذا شجون. . .

ومما سحر ميشيل أنه سمع من فم الأديبة الإنجليزية صوت ماريا، ورأى فوق رأسها سلوكا هفهافة من الذهب تشبه شعر حبيبته، ووجد الجسم السمهري الممشوق هو هو جسم صاحبته وقوامها. . ولم يكن باقياً إلا أن تكون الأديبة إيطالية. . ونادلة. . لتكون ماريا. .

وسكنت إيزابل في الطابق العلوي في الغرفة الأخيرة من البهو الكبير. . . واستدعت المديرة فأوصتها ألا يرتفع للخدم ضجيج ولا لغط لأنها اختارت هذه الغرفة لتخلو إلى نفسها فتكتب ما هو مطلوب منها من القصص. . . وطمأنتها المديرة. . . وذهبت وأقبل فوج آخر من السياح، فنهضت المديرة تدبر له الغرف اللازمة. . . وكانت قريباً من غرفة إيزابل غرفة تقوم للبهو مقام مخزن. . . فاستدعت ميشيل وخادمة أخرى لتساعده في نقل الصناديق والأمتعة المحفوظة بها. . . ثم أمرتهما أن يلزما السكينة

والصمت، وألا يقطعا على النازلة في الغرفة رقم 17 هدوءها. . . (لأنها تكتب لك قصة رائعة يا ميشيل!)
وامتثل الخادمان، وأخذا يحملان ما بالغرفة. . . ولم يبق إلا هذا الصندوق الثقيل الذي لا يعرفان ماذا كان بداخله. . . فلما أخرجاه من الغرفة، وشرعا يحملانه في البهو. انفلت من يد الخامة فهوى إلى الأرض، وانتثر ما بداخله من أطباق وزجاج، فصار هشيماً، وأحدث في البهو صوتاً مزعجاً كأنما هوى الفندق كله وصار أنقاضاً على أنقاض. . . وأقبلت المديرة ترغي وتزبد وتصخب، وتلعن وتسب. . . وبرزت إيزابل كالمجنونة لأن كل أفكارها طارت كالحمام من برج رأسها. . . - كما عبرت هي - واجتمع السياح والخدم يشهدون ويتسلون بدافع الفضول. . . ثم التفتت المديرة إلى ميشيل، وهي تنظر في الوقت نفسه إلى إيزابل وقالت له: (أما أنت أيها المشئوم فمفصول من عملك، ولا حاجة للفندق بك!)
وغضب الفتى وإن لم يتكلم. . . وقبل أن يذهب لشأنه هتفت به الأديبة الإنجليزية وواسته بكلمة، ثم صافحته، ودست في يده ورقة مالية كبيرة. . . واعتذرت مع ذاك إليه، لأنها كانت سبب ما لحق به من أذى. . .
ولم يذهب ميشيل البائس ليأخذ متاعه ويمضي. . . بل انطلق كالمجنون يذرع طرقات روما العتيدة، حتى كان عند تخومها. . . وهو ما يزال قابضاً على الورقة المالية، ولا يدري ما هي؟! ثم نظر في البطاح القريبة فرأى ضاحية تيفولي ببلوطها الرائع وحورها الجميل، وشجر السرو المعجب البارز في جنباتها. . . فانطلق في طريقه إليها. . . حتى إذا بلغها، كان قد نال منه الجهد، وأحس بتعب شديد. . . ولم يكن ثمة مكان يستريح به إلى
هذه الفنادق الهائلة التي تشتهر بها هذه الضاحية. . . فلم يبال. . . ودخل أول واحد منها، ثم انحط على كرسي كبير عند مائدة، وأسند رأسه وراح يحلم بماريا. . . وبأيام ماريا. . . ويسكب دموعاً حارة. . .
له الله! كم ألف فكرة طافت برأسه الثائر وقلبه المشبوب!!
ثم أقبلت نادلة فهمست به وهو في سكراته: ماذا يطلب. . . بيد أنه كان غارقاً في هواجسه وأحلامه، فلم ينظر إلى الفتاة. . . ومدت هي يدها الصغيرة اللينة توقظه. . . أو تنبهه. . . فرفع رأسه قليلاً. . . لكنه أحسن كأنما الدنيا تدور به، وكأنما الأرض تسوخ تحت قدميه. . . وصرخ يقول:
- ماريا. . . أنت هنا. . .؟
وانهمرت دموع الفتى المسكين تغسل خديه الأشحبين. . . وقالت ماريا تجيبه، وكأنما حُلّت عقدة السحر. . . (أجل يا ميشيل أنا. . . هنا! فمن جاء بك؟)
- لقد طردوني يا ماريا. . . فذهب قلبي يبحث عنك حتى اهتدى إليك. . .
- شكراً للمقادير يا عزيزي. . . ولكن. . . أما تزال تحبني؟
- وكيف عرفت يا ماريا؟
- لقد كنت أحسبك تعبث بي. . . وهذا ما جعلني أفر مع فراري غليظ الكبد، وأتزوجه في نابلي. . . نابلي! آه لهذه البلدة المتوحشة!!
- أنتِ؟ تزوجت من فراري. . .؟
- أجل. . . ولكنه كان زواجاً منحوساً. . . لقد عشت معه ثلاثة أشهر، كانت نكداً كلها. . . والحمد لله. . . لقد قتل في شجار نشب بينه وبين عصبة من رعاع نابلي، فأراحني الله منه. . .
- إذن أنت خالصة الآن لي؟!
-. . .؟. . .
- إذن هلمي يا ماريا. . . هلمي. . .
- أهذه ورقتك؟ ماذا؟ ورقة مالية كبيرة. . . بخمسين ليرة؟!
- لا. . . إنها ليست لي، ولكنها لسيدة إنجليزية تصدقت بها علي. . .
واستقالت ماريا من فورها. . . وانطلقت مع ميشيل إلى روما. . . وقوبلا في الفندق مقابلة ثائرةً صخابة. . . ولقيتها المديرة بالترحاب، وبالغت في الاعتذار لميشيل، لأنها علمت أنه لم يتسبب في تهشيم الصندوق. . . ولكن الفتى ازور عنها، وسأل الكاتب ظرفاً كبيراً من الورق وضع فيها الورقة المالية. . . وصعد إلى الطابق العلوي فاستأذن

على إيزابل هايس الأديبة الإنجليزية فأذنت له. . . ولم يجلس، بل قدم إليها الظرف بما فيه. . . وانطلق شاكراً
وحمل متاعه. . . وصحبته ماريا إلى بيته القديم الذي لم يدخله مذ ماتت أمه. . .
وهناك، طفق الحبيبان ينفضان غبار الموت والفقر والذكريات المشجية عن الأثاث القديم. . . وكشف في صندوق أمه عن فضل قليل من المال كان حسْبه للعقد على ماريا، ولحياة ثلاثة أشهر كانت كلها عسلاً. . . وكتب خلالها قصته. . . وباعها بمبلغ كبير من المال. . .
وعاش في ظل ماريا. . . من أنبغ الأدباء الإيطاليين
(ملخصة)
دريني خشبة
البَريدُ الأدَبيّ
الأستاذ زيجفريد وأثر العلوم السياسية في تكوين الأمم
ألقى الأستاذ اندريه زيجفريد الأستاذ بالكوليج دي فرانس ونزيل مصر الآن في كلية الآداب بالجامعة المصرية محاضرة شائقة عن العلوم السياسية وأثرها في تكوين الأمم والحكومات؛ ومن رأي الأستاذ زيجفريد أن العلوم السياسية من العناصر الضرورية لتكوين الحكومات والرأي العام في الأمم الديموقراطية، وأن الأداة الحكومية يجب أن ترتكز على عناصر مثقفة من الناحية السياسية لتستطيع القيام بمهمتها؛ أما رجال السياسة فيرى الأستاذ زيجفريد أنه ليس من الضروري أن يلموا بكثير من التفاصيل الإدارية والفنية ليتولوا مهام القيادة والحكم، وليس من السهل أن يتعلموها، وللسياسي العظيم شخصية ومواهب خاصة تغنيه عن معرفتها. ففي السياسة يجب أن يكون الإنسان شخصاً ما. أما في الإدارة فيجب أن يكون الإنسان شيئاً ما
كان اللورد كيرزون نائب الملك في الهند يقول: إن الحاكم يحكم بشخصيته. بيد أن هنالك فريقاً من الساسة يجمع بين الصفتين أعني المزايا السياسية والمزايا الإدارية، ومن هؤلاء نابوليون وثيير وبسمارك وكافور وموسوليني؛ وهنالك أيضاً بعض الساسة الذين تعوزهم الصفات الإدارية والفنية حكموا بأعظم قسط من النجاح، ومن هؤلاء لويد جورج، وارستيد بريان
على أنه إذا كان الرجل العبقري يستطيع الاستغناء عن هذه التفاصيل فإن الحكومات لا تستطيع الاستغناء عنها؛ وتتفاوت كفاية الحكومات في الحكم بقدر ما تملكه من المزايا الإدارية والفنية؛ والحكومات القوية العظيمة هي التي تتمتع بأعظم قدر من هذه المزايا؛ ودراسة العلوم السياسية هي أول عنصر يمهد للتمتع بها
وبهذه المناسبة نذكر أن الأستاذ زيجفريد، فضلاً عن كونه أستاذاً بالكوليج دي فرانس، عضو بالمجمع العلمي الفرنسي؛ وله عدة كتب هامة في الاقتصاد السياسي والاقتصاد الاجتماعي؛ ومن أشهر كتبه: (الولايات المتحدة اليوم): ' ' (وأمريكا اللاتينية) ' (والأزمة البريطانية في القرن العشرين) وغيرها وهو يعد الآن مؤلفاً من هذا النوع عن مركز فرنسا في البحر الأبيض المتوسط ويعنى أثناء دراسته بمصر بملاحظة أثر مدنية البحر الأبيض في وادي النيل
دراسة علمية لتاريخ العراق الحديث
صدر أخيراً كتاب بالإنكليزية عن العراق يعتبر من خير المراجع التي صدرت عن العراق الحديث؛ وعنوان هذا المؤلف الجديد هو: (العراق: دراسة لتطوره السياسي) ومؤلفه مؤرخ ومستشرق أمريكي هو الأستاذ ب. و. إيرلاند والكتاب عبارة عن دراسة سياسية اجتماعية دقيقة لتاريخ العراق وتطوراته الحديثة حتى عصر الاستقلال. ويبدأ المؤلف دراسته منذ ظهور النفوذ البريطاني في العراق لأول مرة، حيث ظهرت جمعية الهند الشرقية البريطانية في القرن الثامن عشر ورأت في العراق مركزاً هاماً للتجارة الهندية، واضطرت للمحافظة على مصالحها التجارية أن تقوم من آن لآخر بحملات بحرية تأديبية ضد عرب السواحل
ويستعرض المؤلف تدخل إنكلترا الحديث في شئون العراق بعد زوال الحكم التركي، ويقول إن الاستعمار الإنكليزي كثيراً ما ينحدر إلى مغامرات وتجارب خاطئة؛ ولكنه كان بعيد النظر حينما استقدم الملك فيصلاً ليتبوأ عرش العراق. وقد كان الملك فيصل في رأي المؤلف من طبقة (المستبدين الأخيار) وكانت جهوده تتجه على العموم إلى خير

البلد الذي وضعته الأقدار على عرشه. ثم يقول المؤلف إن مستقبل العراق تحفه بضع الريب المظلمة، ويتوقف بالأخص على ما يبديه الشعب العراقي من جهود حازمة تشبه تلك الجهود الموفقة التي أبداها حتى وصل إلى الاستقلال؛ ويعاني العراق كثيراً من المتاعب الجنسية والطائفية، ومشاكل البدو، وهذه جميعاً تعوق تقدمه؛ ومن ثم فإن الوطنية العراقية يجب أن تتجه إلى ما وراء الاستقلال، وأن تروض نفسها على حمل أعباء الدولة والإدارة السياسية. ويمتاز الكتاب بطابعه العلمي الدقيق وكثرة مراجعه ووثائقه

العلامة كارير الفائز بجائزة نوبل

أشرنا في العدد الماضي إلى الفائزين بجوائز نوبل هذا العام وقلنا نقلاً عن الأنباء البرقية إن الذي فاز بجائزة نوبل للكيمياء هو العلامة النرويجي كارلر؛ ولكنا بمراجعة البريد الألماني الأخير علمنا أن الذي فاز بهذه الجائزة هو العلامة السويسري الدكتور باوو كارير

بالاشتراك مع الأستاذ هواث الإنكليزي

وقد منح العلامة كارير هذه الجائزة لمباحثه القيمة عن أنواع الفيتامين، وأثر ألوان النبات فيها. وملخص ترجمته أنه درس الكيمياء دراسة عميقة، ومنذ سنة 1913 وهو يشغل كرسي الكيمياء في جامعة تسيرنج، وفي سنة 1919 عين مديراً للمعهد الكيميائي؛ وفي سنة 1932 حصل الدكتور كارير على جائزة مارسيل بنوا من أجل مباحثه ورسائله عن (هيدرات الفحم) ثم ظهر بعد ذلك بمباحثه عن الفيتامين، ولفتت إليه أنظار الدوائر العلمية الدولية؛ ومن أجلها منحته جامعة برزلاو إجازة الشرف في الطب سنة 1933؛ وله عدة رسائل ومؤلفات في الفيتامين وألوان النبات تعتبر حجة عالمية في بابها

تمثال للثقافة العربية

تألفت لجنة من بعض المستشرقين الإيطاليين والشرقيين المقيمين في إيطاليا للعمل على إقامة تمثال للثقافة العربية، في مكتبة الأمير وزيانة، أسوة بالتماثيل المقامة لعباقرة الأمم الأخرى

وقد بعثت إلينا اللجنة بكتاب تضمن السؤالين التاليين، واللجنة ترجو من المعنيين بالثقافة العربية أن يجيبوا عن هذين السؤالين، وهما

1 - من هو الشخص العربي المبرز في النظم، أو النثر، أو الفلسفة، وتفوق على السلف والخلف، حتى تمثلت فيه الثقافة العربية؟

2 - متى أجمع الرأي على واحد بين الأقدمين، مثلاً، ولم يكن له صورة فهل من المستطاع رفع تمثال له؟ وإذا ما أمكن ذلك، فأي شعار أو رمز يصح أن يمثل الثقافة العربية بكل معانيها؟

والمرجو إرسال الرد على هذين السؤالين إلى سكرتير اللجنة بعنوانه الآتي:

, 6 -

معرض مدرسي لدور العلم الحديثة

أقام المجمع الملكي للمعماريين البريطانيين معرضاً عظيماً في لندن في أكتوبر الماضي (12 - 19) لدور العلم الحديثة جمع فيه صوراً شمسية ونماذج مجسمة لأحدث ما استجد

من وسائل التعليم في الممالك الراقية (الولايات المتحدة وإنجلترا وفرنسا وألمانيا وشمال غرب أوربا) وقد عني أكبر العناية بإبراز مستحدثات مدارس التعليم في الهواء الطلق. وكان مما استلفت الأنظار معروضات القسم الفرنسي، ومنها كرة هائلة جداً تمثل الأرض بجميع قاراتها ومحيطاتها وبحارها وجبالها وممالكها وأشهر أنهارها ومدنها. وقد أحيطت هذه الكرة الكبيرة بسلم عظيم دائري يبدأ من القطب الشمالي ويلف حولها حتى ينتهي إلى القطب الجنوبي، بحيث يبدأ التلاميذ زياراتهم ومشاهداتهم من أول الدرج فيرون كل دقائق العالم في جميع أرجائه حتى ينتهوا إلى القطب الشمالي. . . والعجيب أن هذا السلم يتسع لزيارة مدرسة يربي عددها على الأربعمائة من التلاميذ. . . وبعد أن ظل المعرض فاتحاً أبوابه للجماهير أسبوعاً بأكمله اقترحت الحكومة أن ينتقل في سائر أنحاء الجزر البريطانية على أن يلبث أسبوعاً في كل مدينة كبيرة ليستطيع الناس ورجال التعليم أن يلموا بما فيه، وأن يطبقوا ما يرونه ثمة

في مدارسهم؛ وسيقضي المعرض في رحلته هذه عامين كاملين حتى ينتهي منها في أكتوبر سنة 1939

تزوير وبراءة

علمت أن مجلة (المكشوف) البيروتية نشرت في أحد أعدادها الأخيرة خطاباً زعمت أني أرسلته إليها ومقالاً عن الأدب المصري نسبته إليّ؛ فأثار ذلك مني دهشة واستنكاراً لأني لم أكتب مطلقاً إلى هذه الصحيفة أي خطاب ولم أرسل إليها أي مقال؛ وما كنت أتصور أن هذه الصحيفة التي عرفت بإمعانها في الطعن في مصر والكتاب المصريين والنيل منهم تذهب في جرأتها إلى حد التزوير عليهم

فإلى أن أتخذ الإجراءات القانونية ضد الصحيفة المذكورة لأدحض هذا التزوير الشائن أعلن على صفحات الرسالة بكل قواي أني لم أرسل إليها في حياتي أية رسالة ولم أنشر فيها حرفاً واحداً

وفي هذا التكذيب الحاسم ما يكفي الآن

محمد عبد الله عنان

كذا. . .!

رأى قراء الرسالة الغراء في العدد الماضي هذه الكلمة (كذا) حاشية على كلمتين في بيتين من قصيدتي (وحي جديد)

أما الأولى فعلى كلمة (منغومة) في البيت السادس:

تقسيم موسيقى ... منغومة النبر

وهي هنا (كذا) حقيقة، كما أردتها وكتبتها، لأن (منغومة) نعت لكلمة (موسيقى) وهي مؤنثة، وتكون المعنى هكذا:

في لفتة الجيد ... في خفقة الصدر

تقسيم موسيقى ... منغومة النبر

أما الثانية فعلى كلمة (لي) في البيت الثلاثين:

فهبي لي روحاً ... من رقية الثغر

وهي هنا ليست (كذا) ولكنها غلطة في الكتابة والنقل، وصحتها (له) بدلاً من (لي)

(حلوان)

سيد قطب

لا تزال (كذا) موضوعة على (منغومة) لأن (الرسالة):

الأستاذ الشاعر أعربها ولكنه لم يذكر في أي استعمال عربي

أو في أي قاموس لغوي وجدها

لازلو مصور الملوك

نعت أنباء لندن الأخيرة فيليب دي لازلو المصور المجري الشهير الملقب بمصور الملوك لأنه قام بتصوير جميع ملوك العالم المعاصرين؛ ويعتبر لازلو من أعظم مصوري العصر الحديث، وقد ظهر نبوغه منذ أوائل هذا القرن بصورة بارزة؛ ومنذ سنة 1914 انتقل لازلو إلى لندن وعاش فيها وتجنس بالجنسية الإنكليزية؛ ومما يذكر أنه قدم إلى مصر منذ أعوام؛ وعمل صورة رسمية للمرحوم الملك فؤاد الأول، وصورتين لصاحب السمو الملكي

الأمير فاروق ولي العهد يومئذ، فحازت هذه الصور أعظم إعجاب وتقدير ويعتبر لازلو أستاذاً لمدرسة التصوير المجرية الحديثة، وله عدة مجموعات بديعة تزين متاحف التصوير الحديث في معظم العواصم الأوربية، هذا عدا ما يزين منها قصور أوربا الملوكية

لمناسبة العيد المئوي لبوشكين

نذكر أن روسيا احتفلت منذ بضعة أشهر بالعيد المئوي لوفاة شاعرها الأكبر بوشكين؛ وقد نشرت بعض الصحف الأدبية أخيراً أرقاماً مدهشة عما بيع في روسيا بهذه المناسبة من كتب بوشكين وآثاره. ويقال إن ما بيع من آثار بوشكين والكتب المتعلقة بحياته وشعره بلغ ثمانية ملايين نسخة، وذلك كله مما قامت بطبعه مكتبة الدولة؛ وبيعت مقادير وافرة من مجموعات آثار بوشكين، وترجمت إلى جميع اللغات الذائعة في روسيا مثل الأوكرانية والأرمينية والتترية؛ وقد أخرج شريط مصور (فلم) عن شباب بوشكين، وتخرج الآن أشرطة أخرى عن حياته وعن موته المؤسي

سيرانو دي برجراك للسينما
أحب المخرج الإنجليزي المعروف (مستر كوردا) أن يخرج شريطاً لرواية الشاعر المشهورة، ولكنه لم ترقه التراجم الإنجليزية لهذه الرواية، فاقترح ترجمة جديدة اشترط أن تكون حرفية تنعدم فيها شخصية المترجم؛ فقدمها إليه الكاتب الكبير همبرت ولف بعد ثلاثة أسابيع من إعلان الاقتراح. . . ولسنا ندري ماذا صنع المترجم في هذه الأيام القليلة، ولا كيف جاءت ترجمته، ولا ماذا صنع بالمقطوعات الشعرية المنتثرة في رواية إدمون روستان. . .؟! ترى هل استعان بالشياطين في نقلها إلى النظم الإنجليزي؟ سنرى حين تصل الترجمة إلى مصر
الكُتبُ
سيرة السيد عمر مكرم
صفحة مجيدة من جهاد الشعب المصري في الدفاع عن أرضه وحرياته وحقوقه
للدكتور رياض شمس
في حلكة ذلك الجزء المظلم من تاريخ مصر الذي يبدأ قبيل الحملة الفرنسية، وينتهي في أوائل حكم محمد علي باشا، تألق نجم رجل امتاز بخلقه المتين، ووطنيته الصادقة، واستحق التفاف الشعب حوله؛ فكان لا يأتمر إلا بإشارته، ولا يخضع لغير رأيه، ولا يفزع في الملمات إلا إلى شخصه العظيم. وقد استطاع هذا الرجل أن يحرز لمواطنيه بقدوته السامية، وبفضل إيمانه بقوة الشعب، انتصارات باهرة على أعداء البلاد من فرنسيين وأتراك ومماليك، وكانت نتيجة انتصارات الشعب على يديه تغيير اتجاه تاريخ مصر الحديث
وهأنذا أحاول أن ألقي نظرة خاطفة على بعض مواقف ذلك الزعيم الشعبي، لأن سيرته في الواقع هي سجل ممتاز لفترة هامة من تاريخ مصر السياسي الحديث، ولأني أجد هذه الفترة وثيقة الاتصال بتاريخنا الحاضر، وأجد فيها من العظات السياسية والاجتماعية ما ينبغي أن يظل ماثلا أمام عيني الشعب المصري، مستقراً في صميم قلوب الشباب في فاتحة عهدنا الجديد
وقد كنت أجهل قدر هذا الرجل لأني مع الأسف الشديد كغيري من غير المتخصصين، تكاد تنحصر معلوماتنا عن تاريخ العصور المصرية الماضية، ولاسيما العصر الذي عاش فيه ذلك الزعيم فيما درسناه موجزاً في المدارس الثانوية، ونسيناه عاجلاً بعد تخرجنا فيها
ولكن مؤرخاً معاصراً تربطه بذلك الزعيم صفات مشتركة من متانة الخلق، وصدق الوطنية، والإيمان الراسخ بقوة الشعب، استطاع بعد سنين طويلة من البحث والتحقيق أن يستخلص لنا من ظلمات الماضي القريب ضياء وضاحاً حجبه عن أبصارنا كر الغداة ومر العشي مدي قرن من الزمان
اقتحم الغزاة الفرنسيون بلادنا فرأى مواطننا العظيم أن أمراء المماليك لا يعنون بغير إخفاء أموالهم ثم الذهاب إلى الحرب ليبادروا بالهروب لدى الصدمة الأولى، فأهاب بالشعب أن يشمر للذود عن حياضه. وهنا أترك الكلمة للمؤرخ الجليل الأستاذ محمد فريد أبو حديد مؤلف (سيرة عمر مكرم). قال في الصفحة الحادية والخمسين:
(وكان جواب الشعب باهراً نبيلاً، إذ لبى جميعه نداء الواجب فخرج كل من في القاهرة وضواحيها من الرجال والشبان حتى لم يبق أحد إلا الضعفاء والنساء، وجاد كل منهم بما عنده من مال قليل دراهم اقتطعها الفقراء من أقواتهم وأقوات عيالهم وجادوا بها ليشتروا سلاحاً وخياماً وذخيرة. . .)
فلما هزمت المماليك في موقعة امبابة، وقرر شيوخ القاهرة أن يعلنوا التسليم للقائد الفرنسي، أنف السيد عمر مكرم أن يعود إلى القاهرة إلا إذا كانت عودته على جهاد، رغم أنه يعلم أن اسمه في طليعة الأسماء التي اختار القائد أصحابها ليحكموا البلاد بجانب الفرنسيين. وأنت تقرأ تعليق المؤلف على هذا الموقف الكريم على الصفحة 56: وما بعدها
(ولو كان نظره إلى نفسه ومصلحتها لآثر العودة كما عاد السادات والشرقاوي، على أن يكون أحد زعماء العهد الجديد، فلا يتحمل التشريد والنفي والحرمان والفقر ومعاناة الأهوال والشدائد؛ ولكنه لم يكن ينظر إلى نفسه وما تتجشمه من الأخطار وما تتكبده

من المشقة، بل كان ينظر إلى بلاد شهد أول تحركها نحو التحرر، وذكر حقها في الحياة الحرة المستقلة فلم يجد له وسيلة إلا أن يضحي بنفسه راضياً في سبيل الجهاد، مهما يكلفه ذلك من عناء. . .

مع أن مراداً وإبراهيم ومن معهما من الأمراء لو استطاعوا أن يعودوا إلى الحكم) بالاتفاق مع الفرنسيين لما ترددوا في ذلك لحظة، فلم تكن بأحدهم رغبة في الجهاد لنجاة البلاد من حكم الأجنبي، أو للمحافظة على حياتها وحريتها، بل كان كل ما يرمون إليه أن يسترجعوا السيادة، ويعودوا إلى سيرة طغيانهم وعسفهم؛ ولو وجدوا من الفرنسيين ميلاً إلى الاتفاق على أن يعودوا إلى الحكم تحت علمهم وحمايتهم لما ترددوا في ذلك. .)

ولاشك أن تأنق المؤلف في عرض موقف المماليك وبراعته في المقارنة بين الوطنية الحقيقية والمنفعة الشخصية، قد أعاد إلى ذاكرة القارئ عشرات المواقف في تاريخنا السياسي الحديث، منذ سنة 1919 إلى الآن، حيث كان قادة الأمة الأمناء يضربون عن الاشتراك في الحكم بكل صور الإضراب، ويتحملون ألوان المصادرة والنفي والسجن والتشريد، بينما يتهالك غيرهم على التقاط الفتات المتساقط من مائدة الغاصب على حساب الوطن وحرية البلاد

ثم اسمع المؤلف يروي لك في الصفحة 72 قصة ثورة مارس سنة 1800 قال: سارع (السيد عمر مكرم) إلى الخروج من عزلته إذ رأى الواجب يناديه إلى العمل. .) واجتمع في قلوب الشعب عامة عوامل تدفعه وتذكي حماسته من غضب الكريم لكرامته، وخوف الشريف على شرفه، واشتعلت العاطفة الوطنية في الصدور، تثيرها ذكريات المجد التالد من ماضي القرون، فلم يكن إلا أن صاح السيد عمر صيحته. . . حتى هبت الثورة المصرية الكبرى التي دامت تضطرب في القاهرة سبعة وثلاثين يوماً، ودخلت في أثنائها قلوب المصريين عامة في بوتقة الانصهار ليكون منها شعب جديد يتقارب فيه الأمير من العامي، ويمتزج فيه الكبير بالصغير، وتنبغ من غمرات ذلك أمة حديثة، يحس فيها الفرد بأنه للمجموع، ويحس فيها المجموع بأنه من الأفراد)

ص81 (كان السيد عمر قد عاد إلى مصر مضطراً، ثم حاول أن يقاوم الأجنبي . . . عندما لاحت له الفرصة فلم تواته الظروف وعجز، ولكنه كان لا يزال يأمل أن يبقى على جهاده حتى تحين فرصة أخرى، فلم يرض أن يقيم على أرض مصر مادامت أقدام الأجنبي تطؤها، فآثر العودة إلى الهجرة والبعد عن وطنه، وأن يتكبد المشقة والفقر ولوعة الفرقة من أحبائه وأشياعه على أن يقيم في بلاده لا يستطيع أن يتنفس فيها حراً)

ص87 (. . . وأصبح السيد عمر بعد رجوعه من الجيش المنتصر رجل مصر وزعيمها. اجتمعت فيه الزعامة والجهاد والتضحية، وقد علاه عند ذلك تاج الانتصار والانخراط في سلك رجال الدولة الجديدة. ودخل القاهرة فكان دخوله يوماً من الأيام المشهودة، إذ خرج الناس للقائه والترحيب به)

أنشأت أطالع الصفحة الأولى من (سيرة السيد عمر مكرم) فلم أكد أبدأ الكتاب حتى وجدتني عاجزاً عن تركه لحظة؛ ومازلت به حتى وصلت إلى الصفحة 219 ولما فرغت من دراسته ضممته إلى أحب مراجعي إلي، وألفيتني على ظمأ إلى نهلة أخرى من مورد تاريخنا الحديث. ذلك المورد العذب الذي طالما حالت ظروف مصر السياسية

دون تصويره للطلبة المصريين تصويراً صحيحاً يغذي الروح القومية ويذكي في الشباب المتعلم نعرة الاعتزاز بالماضي المشرف، ويبعث في نفسه حمية التطلع إلى أن يكون لبنة قوية في بناء صرح بلاده، ويزيده حرصاً على الاضطلاع بمسئولياته كمواطن شريف في بلد لم يقصر مواطنوه في الماضي قريبه والبعيد عن أداء واجبهم الوطني بكل ما لديهم من وسائل

إن الأسلوب الذي ابتدعه الأستاذ الكبير فريد أبو حديد في كتابة (سيرة عمر مكرم) ليعد بحق فتحاً جديداً، بل فتحاً مجيداً، في تاريخ المؤلفات التاريخية المصرية فقد استطاع هذا الكاتب الموهوب أن يلقي ضياء وضاء على تاريخ القومية المصرية، وأن يستخرج من الحقائق التاريخية المدعمة بالأسانيد، ذخيرة صالحة وغذاء شهياً للشباب المصري الذي كان إلى عهد قريب لا يجسر على تقليب صفحات الماضي

خشية ألا يجد فيها ما يشرف
وقد كان لنا بعض العذر، فقد عودنا المؤلفون الأجانب والمترجمون المصريون أن نقرأ صفحات الماضي في ظلال التحامل على القومية المصرية، والانتقاص من قدر أمتنا النبيلة المجاهدة
وإن كان ما نتمناه أن يتاح لطلبة مدارس مصر الثانوية أن يطالعوا سيرة عمر مكرم، وأن يحرص كل مصري يحترم نفسه ويعتبر بماضيه على دراسة هذا السفر النفيس أما المؤلف فأنا لا نستطيع أن نشكره لأنه قد دعانا إلى مائدته فقدم لنا لوناً من طعام فاخر لا عهد لنا به، فلما استوعبناه تفتحت شهيتنا إلى المزيد. وهانحن أولاء نغشى موائد الثقافة فلا نجد هذا الطراز من المؤلفات التاريخية التي نحن أشد ما نكون حاجة إلى تذوقها بعد ما تذوقنا من لذة سيرة السيد عمر مكرم
لذلك نطالب مؤرخنا النابغة أن يخرج لنا سلسلة من الكتب تكشف عن أمجاد ماضينا القريب تكون حافلة بالعظات البالغة، العظات السياسية والخلقية والاجتماعية على نحو ما ألفناه في كتاب عمر مكرم
فإذا اضطلع بهذا الواجب، وهو على مثله من النابغين فرض حتم، كان لنا أن نسميه بحق: (منصف تاريخ القومية المصرية في الأزمنة الحديثة)
رياض شمس
تصويب
ورد في فاتحة مقال (قصة الموسوعة الجامعة) الذي نشر في عدد الرسالة الماضي (ص1885) ما يأتي: (سجل العلم الحديث فتحاً جديداً خطير الشأن بصدور الموسوعة الإيطالية التي بدأ صدورها منذ أعوام ثلاثة فقط) والصواب (منذ أعوام قلائل فقط)
العدد 231 - بتاريخ: 06 - 12 - 1937
ثورة على الأخلاق
شقشقة هدرت ثم قرت
أخي عزام
قرأت مقالك البليغ في عدد الرسالة السابق، وكان محمود خصمك حاضراً فكفاني ما كلفتني من إبلاغه. وهو في هذه الساعة لين الحاشية، لأنه قام منذ هنيهة عن مائدة الإفطار الغنية الشهية، ممتلئ البطن من خير الله، رطيب اللسان بحمد الله، لا يذكر أن العالم ضيق رزق، ولا أن في الناس سوء خلق. ولذلك قال حين ذكَّرته برأيه وخبَّرته برأيك ما قال الإمام علي رضي الله عنه: تلك شقشقة هدرت ثم قرت! فكانت حاله التي حالت بين الأمس واليوم دليلاً جديداً لعلماء الاجتماع الذين يردون ثورات الشعوب المختلفة إلى العوامل الاقتصادية المحض من الحرمان والجوع. والواقع الذي لا يرفعه زخرف القول أن الناس يدورون بعواطفهم وأخلاقهم حول مادة العيش، فإن أعطوا منها رضوا، وأن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون.
على أن مجلسنا كان حافلاً بغير محمود من رجال العلم والدين والأدب وكلهم كانوا له وعليك، وليس ذهابهم إلى رأي خصيمك انصرافاً عما قررت من حميد الأثر لأخلاقنا المقدسة في ألفة الناس وسعادة النفس، فإن ذلك موضع اتفاق لا يشذ عنه إلا ميت الضمير أو مريض العقل. إنما كان موضع الجدل أن الأخلاق الفاضلة لا تصلح أن تكون عدة النجاح إن لم تكن عدة الفشل. والنجاح في جهاد العيش لا يدل على تمام معناه إذا قصدنا به الكفاف من ميسور الرزق، يصيبه الصالح والطالح، ويقنصه البازي والرخم. فإذا ضربت له مثلاً نجاح الصانع الصادق والتاجر الأمين والمزارع الوفي والعامل القانع، كانوا أحرياء أن يتهكموا بقداسة هذه الأخلاق إذا كان قصارى أمرها هذا النجاح الحقير وهي الدستور الأعلى لبلوغ السموات وامتلاك الأرض. فإن هؤلاء الطيبين الأخيار الذين وصفتهم بالقناعة وخصصتهم بالرضى لن يستطيعوا أن يكونوا يوماً من رجال المال والأعمال كصيدناوي والبدراوي وعبود. أما حين تقصد النجاح بمعناه الأتم فإنهم يرونك تنزع إلى مقالة محمود وتعلل بمنطقك السليم فشل التقي الأبي الحر بأنه (لا يرى إلى الجاه والمال إلا طريقاً واحدة هي الطريق التي يسنها الحق والشرف والأباء والمروءة، وأن أمام الفساق
والأذلاء والأدنياء طرقاً شتى من التلصلص والكذب والتزوير والخداع والملق والذلة والشره والظلم والقسوة والأثرة وهلم جرا، وأن من الأحرار من يخفق في عمله حين

يلزم نفسه هذه الطريق الواحدة، ويقسرها على هذه المحجة الواضحة، وأن من العبيد عبيد المطامع والأهواء ومرضى النفوس والأخلاق من يظفرون في هذه السبل بما يريدون، ويبلغون الغاية التي يقصدون) وما دام جوهر الرأي واحداً فالسبيل القاصدة إذن أن نطبَّ لهذه الحال بما يوائم بين طموح الناس وكرامة الأخلاق وسلامة المجتمع.

وليس هناك إلا وسيلة من وسيلتين: إما أن نصد الناس جميعاً عن هذه الطرق المتعددة، ونقصرهم على هذه الطريق الواحدة، بقوة الأديان والسلطان والتربية، وذلك ما عناه الرسول (ص) بقوله: (عليكم بالجادَّة ودعوا البُنَيَّات)؛ وإما أن نعيد النظر في قانون الأخلاق فلعل فيه ما لا يرافئ تقلب العصر وتطور المجتمع. فأما الوسيلة الأولى فقد سجل الماضي ودلل الحاضر على أنها خيال نبيل لا يقع في الإمكان، وحلم جميل لا تقوم عليه يقظة، وتعليل ذلك لا يعزب عنك فلا حاجة إلى تقريره. وأما الوسيلة الأخرى فهي على ما يرون مظنة التوفيق في الإصلاح الجديد.

ما معنى أن يظل التواضع والقناعة والزهد والمداراة والتوكل على إطلاقها فضائل وأنت ترى بعين الواقع أن المتواضع موضوع والقانع مهمل والزاهد محروم والمدارى مستذل والمتوكل عاجز؟ أليس صلف الإنجليزي أبلغ في العزة، وطمح الفرنسي أليق بالحياة، وطموح الإيطالي أخلق بالرجولة، وصراحة الألماني أدعى إلى الهيبة، واستقلال الأمريكي أضمن للفوز؟ ما معنى أن يظل الربا في عصر الاقتصاد رذيلة وقد أختلف اليوم في معناه ومرماه عن ربا (شيلوك) وأنت تعلم أن الغرب لم يستعبد الشرق إلا عن طريق بنوكه. فقد كانت تأخذ القناطير المقنطرة من أموال المسلمين بغير ربا لتقرضها إخوانهم المساكين بالربا الفاحش. ولو أنهم أخذوا رباها وأنفقوه في وجوه الإصلاح والبر لما بقى على أرضهم أجنبي، ولما ظل تحت سمائهم فقير. ولا أريد أن أعرض لغير الربا من الرذائل فلا نزال في حاجة إلى التقية والمصانعة. وإذا سلمنا أن مقياس الفضائل والرذائل هو النفع والضرر، فما كان مؤدياً إلى منفعة سمي فضيلة، وما كان مؤدياً إلى مضرة سمي رذيلة، سهل قياس الأخلاق على هذا الأساس، وأمكن بعد ذلك الاتفاق على نتيجة هذا القياس.

ذلك يا عزام قولهم بأفواههم يريدون أن يصل إليك عن طريق الرسالة. أما محمود فقد ظل صامتاً طول الحديث كأنه ليس منه في قالٍ ولا في قيل. ولا أدري إذا ما خلا جوفه من طعام رمضان الدسم المريء أيعود إلى جدالك، أم يكتفي بتعليق أصحابه على مقالك. وأما أنا فلا أزال أهيب بدهاقنة الدين وفلاسفة الأخلاق أن تتدخل جماعتهم في سوق الفضائل معدِّلة أو هادية، كما تتدخل الحكومة في سوق الأقطان مشترية أو حامية.

أحمد حسن الزيات

بين القاهرة واستنبول

للدكتور عبد الوهاب عزام

- 2 -

من دمشق إلى القسطنطينية

يا صديقي الزيات:

لعل رسالتي التي حدثتك فيها بطرف من أحاديث دمشق قد بلغتك، وهذه رسالة أخرى أطرفك فيها ببعض ما وعت النفس من مشاهد الطريق بين دمشق والقسطنطينية. وأرجو أن أواصل الرسائل من بعد:

ترددت برهة كيف آخذ طريقي من دار الأمويين إلى دار البيزنطيين. أأركب إليها البحر من بيروت وأرجع من طريق البر، أم أخترق اليبس إلى غايتي؟ وكنت ركبت السفينة بين الإسكندرية والقسطنطينية مرتين قبلاً، فقلت لنفسي: ماذا تفيدين من رؤية ما رأيت، وحافظ الشيرازي يقول:

من جرّب المجرّب ... حلت به الندامة

وماذا تُجدي عليك رؤية الدأماء صباح مساء؟ لجة واحدة وأمواج متشابهة، كأنها ساعات الزمان في بحر العمر!

صح العزم على سفر البر، فخرجت من دمشق بعد ظهر الثلاثاء 19 جمادى الأولى (27 تموز) في سيارة أعدتها شركة السكك الحديدية لإبلاغ المسافرين حمص ليركبوا منها سكة الحديد إلى حلب. وقد ابتليت برفقة ليس بيني وبينهم سبب فأرحت لساني

وأذني، وسرّحت طرفي في الفضاء، وفكري في مسارح لا تحد بين الماضي والحاضر، والقريب والبعيد. وكان للسيارة سوّاق ذكرنا بقول القائل: (قد لفّها الليل بسوّاق حُطم) فانطلق بنا لا يألو إسراعاً حتى يكاد الماء في جوف السيارة يشتعل، فيقف ريثما يفثأ الماء، والطريق أكثرها صحراء جرداء تسايرها جبال وتلال، وتزينها بين الحين والحين قرى ومدن ومشاجر ومياه، ولا سيما قرب حمص. ولم نقف على الطريق إلا في النبك لبثنا فيه قليلاً.

هذه حمص بعد سبع سنين ولات حين تلبث. إن الوقت لا يمهلك حتى لزيارة خالد بن الوليد فاصبر حتى تعود أدراجك من هذه الطريق فتقضي حق العين والفؤاد من هذه المشاهد.

بعد قليل جاءت من طرابلس عربة كعربة ديزل المعروفة في مصر، وتسمى في الشام باسمها الفرنسي (أوتومتريس) أخذت مكاني بها وانطلقت سريعة تطوي ما بين حمص وحلب، والطريق هنا أكثر ماء وشجراً وزرعاً. وفي الطريق لاحت حماة في زينات من شجرها ومائها، ونغمات نواعيرها منثورة في السهل تدور بالماء والماء بها يدور لا تفتر نهاراً ولا ليلاً وتذكرت قول القائل:

ناعورة مذعورة ... للبين حيرى سائرة
الماء فوق كتفها ... وهي عليه دائرة

وتذكرت أني حين قرأت هذين البيتين في المدرسة ظننت الناعورة هي الساقية بلسان أهل مصر، ثم عرفت فرق ما بينهما حين ذهبت إلى الشام أول مرة. ومن رأى نواعير الفيوم فقد رأى صورة صغيرة من نواعير الشام الماثلة في الفضاء على نهر العاصي عالية رائعة.

وبلغنا حلب بعد الساعة الثامنة من المساء فقصدت إلى فندق البارون. اضطرني إليه، على نفرتي من هذه الأسماء الإفرنجية في البلاد العربية، أني أنزلت به مرة، ولم أعرف من فنادق حلب غيره. وقضيت به بقية الليل. وأصبحت مبكراً إلى القطار قطار الشرق السريع. لم أر في حلب شيئاً ولم ألاق بها صديقاً. وسأعود إلى حديث حلب وحمص في رجوعي إلى الشام إن شاء الله.

وجاء القطار الفخم قد كتب عليه بالفرنسية والتركية ذات الحروف اللاتينية: (قطار الشرق السريع) وما سألت أحد عمال القطار عن عربات النوم فقال لصاحب له بالتركية: (دلّه عليها) فقلت: هذا أول العُجمة وطلائع الغربة.

أخذت مكاني بالقطار موّطناً النفس على السفر ستاً وثلاثين ساعة، ورفيقي فكري وخيالي وديوان البحتري. سار القطار والساعة سبع من الصباح، وكان شريكي في المقصورة إنكليزياً ذاهباً من العراق إلى بلده في إجازة قصيرة، ولكني وجدت عن ملازمته ميلاً ومندوحة في مقصورة أخرى خالية خلوت فيها بصاحبي البحتري. وسأحدث القارئ حديثه

بعد؛ على أني لم أذمم من الإنكليزي الشيخ صحبة، وكنت ألقاه حيناً فحيناً فنتحدث ونتفكه، وكنت أجده جالساً وبجانبه عدة السفر من البيبة والسجائر والكتب. ولست أنسى رثائي له حينما أضل منظاره فاضطرب حيناً يبحث عنه، ثم جلس كئيباً يقول: أني لا أستطيع القراءة بدونه، وكيف أقطع الطريق إلى لندرة بغير قراءة؟ إنه منظار ثمين، إنه يلائم عينيّ؛ ثم يهيج فيتهم خادم القطار بالسرقة؛ وييأس، فأعيد الأمل في نفسه، فيعود يبحث عنها وأبحث معه. وجاء الخادم يقول: لعلها في حقيبتك. ففتح الحقيبة مغضباً وأخرج ما فيها من ورق وقال للخادم بالإنكليزية - وهو عالم أنه لا يعرف منها كلمة -: أنظر! أنجدها هنا؟ أأنت على يقين أنها ليست هنا؟ أمطمئن أنت إلى أنها ليست هنا؟ ثم رجعت إليه بعد حين فإذا هو متهلل الوجه مسرور، فلما رآني وثب يريني كيف أنزلق منظاره وراء الباب وكيف وجده، فشاركته السرور وأعدنا الحديث عنه ضاحكين بعد أن أطلنا الحديث عنه آسفين . . .

وبعد ساعتين من حلب دخلنا إقليماً جبلياً مشجراً تخلل القطار فيه أنفاقاً كثيرة متعاقبة على سفوح الجبال حتى بلغنا ميدان أقبس على الحدود بين سورية وتركية، والساعة تسع وخمسون دقيقة، فوقف القطار زهاء نصف ساعة. وجاء موظف تركي فسأل: من أين؟ قلت: من مصر. قال: إلى أين؟ قلت: استانبول. قال: أمعك أشياء للجمرك؟ قلت: لا. قال: كم معك من النقود التركية؟ قلت: قليل لا يتجاوز كذا. قال: مع السلامة.

وبلغنا، والساعة ثلاث ونصف، محطة أسمها مصيص. قلت لنفسي: هذه ولا ريب المصيصة التي كانت ثغراً بين البلاد الإسلامية وبلاد الروم زمناً طويلاً. هنا نهر جيحان، وهنا مغازي سيف الدولة؛ وفي هذا الإقليم وما يجاوره نظم المتنبي ما نظم من قصائده. أليس يقول أبو الطيب لسيف الدولة:

سريت إلى جيحان من أرض آمد ... ثلاثاً لقد أدناك ركض وأبعدا

ومن قبل قال عديّ بن الرقاع العاملي:

فقلت لها كيف اهتديت ودوننا ... دُلوك وأشراف الجبال القواهر

وجيحانُ جيحانُ الملوك وآلس ... وحَزن خزارى والشعوب القواسر

أجل وهنا أطراف العواصم التي يفيض بذكرها التأريخ والشعر.

وسرنا بعد المصيصة ثلاثين كيلا شطر الغرب فاتسع السهل وانتشرت الخضراء ووافينا أطنة والساعة أربع. ندع حديث أطنة وما يليها إلى العودة، ونسير إلى الشمال زهاء ساعة فنوافي جبال طوروس، وما أعظمها منظراً جميلاً رائعاً هائلاً: سفوح مخضرة يصعّد فيها الطرف حتى يبلغ قمماً شاهقة تكاد العين تقصر دونها، قمم متنافسة متسامية إذا صعد البصر إلى إحداها انزلق على السفح ليرقى في سفح آخر إلى قمة أخرى، وإذا أسفَّ النظر إلى الحضيض فهناك الأودية العميقة السحيقة يهول الناظر عمقها ويروقه بين الحين والحين مياه تجري مسرعة مزبدة متعرجة كأنها الأراقم راعها القطار فانسابت إلى مجاحرها. وتتوالى مرائي طوروس في جمالها وجلالها واختلاف ألوانها وارتفاعها واستقالها وما يشغل العين والفكر من صورها، والقطار على السفح موف على هذه الأودية الهائلة يصعد متمهلاً وينبهر أحياناً فيقف زاحراً زافراً لا يقوى على المرتقى. فإذا أعد العدة من مائه وناره وبخاره عزم فصعد جاهداً مجهوداً. وبعد نصف ساعة على هذه السفوح تعاقبت أنفاق لبث القطار فيها نحو عشرين دقيقة كلما بشرّ الضوء بانتهاء أحدها أقبل الآخر في ظلامه يلتهم القطار.

ومن بدائع الجناس أو المقابلة في هذا الجمال البديع أذواد من الإبل في أودية طوروس، لم تذهب بجمالها وروائها مناظر الجبال العظيمة؛ وأما سرب المعزى الذي رأيته هناك فلا أدري من أي أنواع البديع مرآه هناك.

وتوالت ذِكَرُ الآل والأصحاب فإذا لساني يترنم بهذه الأبيات:

ذكرتك إذ طوروس في اللُّوح مُصعِد ... يظلّ بأهداب السحاب يُعمَّم

يطير بيَ الإعجاب بين سفوحه ... وقماته والقلب فيه مقسَّم

ويفزع من وديانه كل ناظر ... ويحتار فيه الطرف كيف يّيمم

جمال ترود العين بين رياضه ... عليه جلال بالمهابة مفعم

فأيقنت أنْ ذكراك أروع مشهداً ... وأجمل من طوروس عندي وأعظم

وانتهى بنا الإصعاد إلى مكان أسمه أولوقشلة وهو أعلى موضع في طريق طوروس؛ وبعده بقليل تلتقي الطريقان: الطريق الآتية من أنقرة، والآتية من قونية.

وجن الليل وبات القطار يسري فأصبحنا عند أنقرة والساعة سبع من الصباح:

وأستأذنك يا

صديقي أن أطوي المسافة بين أنقرة واستنبول والحديث عنها إلى العودة فكان فقد نصيبي من هذه الديار في عودتي أوفر، وأنسي بها أطول، ثم أخشى أن تمل الحديث الطويل والرسالة المسهبة. فسلام عليك إلى أن أكتب إليك.

استنبول 30 تموز

عبد الوهاب عزام

في التاريخ السياسي

مصر وإيطاليا

عبر الماضي دلائل الحاضر

بقلم باحث دبلوماسي كبير

لما كشفت إيطاليا الفاشستية في أوائل سنة 1935 عن نياتها الاستعمارية نحو الحبشة توجس أولئك الذين يشفقون على حرياتهم وحريات الشعوب الآمنة شراً، واستشعروا الخطر الاستعماري جاثماً وراء تأكيدات رومة بأنها لا تبغي من وراء اهباتها العسكرية سوى الدفاع عن أملاكها الأفريقية. ولم تمض أشهر قلائل حتى صدق الظن ووثبت إيطاليا بالحبشة وثبتها المعروفة، واستشهدت ضحية جديدة من ضحايا

الاستعمار.

وكان لهذه المأساة الاستعمارية في مصر وقع خاص؛ ولم يكن ذلك فقط لأن مصر ترتبط مع الحبشة بروابط تاريخية قديمة، ولها في الحبشة نفوذ ديني خاص بواسطة كنيستها القبطية، ومنابع نيلها تقع في الحبشة، ولكن لأن مصر شعرت على الأخص بأن خطراً استعمارياً جديداً قد استقر على مقربة منها ومن سودانها ونيلها، وأن الفاشستية الطموحة المتوثبة قد أصبحت تطوق وادي النيل من ناحيتيه، وأن استشهاد الحبشة على هذه الصورة المروعة إنما هو عبرة يجب أن يكون لها بالغ الأثر.

وقد كانت المعاهدة المصرية الإنكليزية التي عقدت في 26 أغسطس سنة 1936 نتيجة محتومة لهذه المأساة؛ ولم يكن في وسع مصر وبريطانيا العظمى أن يتجاهلا أهمية ذلك التطور الخطير في أحوال وادي النيل؛ ولم يكن في وسعهما أن يمضيا بعد في نزاع طال أمده، وأن يغفلا بذلك عن الخطر الذي تواجهانه معاً؛ ومن ثم كان عقد المعاهدة المصرية الإنكليزية عملاً حكيماً من الجانبين، وكانت ضرورة أملتها الظروف والحوادث. والآن تبدو أهمية التحالف بين مصر وبريطانيا العظمى؛ فتطور الحوادث في البحر الأبيض المتوسط، وحالة التوتر التي تسود علائق الدول الفاشستية والدول الديمقراطية، والكدر الذي يشوب علائق إيطاليا وبريطانيا، وما تبديه الفاشستية الإيطالية من بوادر التحفز والطموح، وما تقوم به من الأهبات العسكرية في جزيرة بانتلاريا الواقعة بين تونس وصقلية، وفي جزيرة رودس، وما تحشده من القوات الجرارة في طرابلس على مقربة من الحدود المصرية: كل أولئك يجب أن يلفت الأنظار، ويثير الريب، ويقضي على أولئك الذين تعنيهم هذه الحالة أكثر من سواهم بالتيقظ والحذر والاستعداد.

ولا ريب أن مصر في مقدمة الدول التي يجب أن تعنى بهذه التطورات؛ بل هنالك ما يدل على أنها ليست بعيدة عنها، وأنها لا تستطيع أن تطمئن إليها؛ وليس ذلك فقط لأن الحوادث قد جمعت بين مصر وبريطانيا العظمى، ووثقت بينهما في جبهة صداقة وتحالف دائمين، ولأن الفاشستية الإيطالية في خصومتها لبريطانيا العظمى لا بد أن تقصد إلى خصومة مصر في نفس الوقت باعتبارها حارسة لشريان من أهم شرايين الإمبراطورية البريطانية: نقول ليس ذلك فقط، بل كذلك لأن الفاشستية الإيطالية ليست بعيدة عن التفكير في مصر لذاتها.

إن الفاشستية الإيطالية تضطرم اليوم بأعظم الأحلام الإمبراطورية، وترتد ببصرها إلى الإمبراطورية الرومانية؛ وليست مصر في نظرها إلا كطرابلس ولاية رومانية سابقة. وما زلنا نذكر إشارة السنيور موسوليني في إحدى خطبه أيام الحرب الحبشية إلى مصر وقوله إنها كانت أهراء الغلال لرومة، والفاشستية ترنو في حلمها الإمبراطوري إلى مصر، ولا سيما بعد استيلائها على الحبشة. وقد دللت على ذلك في مواطن عديدة ومناسبات كثيرة وهي تحاول منذ أعوام أن تقوي نفوذها ودعايتها في مصر بمختلف الوسائل؛ وسواء أكانت الفاشستية ترنو إلى مصر من خلال خصومتها لإنكلترا، أو كانت تقصد إليها بالذات كحلم استعماري رائع يمكن تحقيقه، فان الذي لا ريب فيه هو أن مصر تواجه اليوم مرحلة من أدق مراحل تاريخها.

ولقد توالت من خلال هذا القلق الشامل تصريحات المقامات المسئولة في رومة بأن إيطاليا الفاشستية لا تضمر شراً لمصر ولا يمكن أن تفكر في الاعتداء عليها، وأنها بالعكس تشعر نحوها بأكرم عواطف الصداقة والود؛ وأما الجيوش الجرارة التي تحشد في برقة، وأما الأهبات العسكرية الهائلة التي تتخذ هنالك على مقربة من الحدود المصرية، فليست سوى إجراءات تحفظية تقرر اتخاذها منذ بعيد. هكذا نسمع من رومة بين حين وآخر، وهكذا أكد لنا السنيور موسوليني نفسه في حديث أفضى به منذ أسابيع قلائل، وهكذا يؤكد ممثل إيطاليا في مصر للحكومة المصرية كلما أبدت دهشتها وتساؤلها من سير الأحوال في برقة.

بل هنالك ما هو أكثر من ذلك، وهو أن الحكومة الإيطالية عرضت أكثر من مرة، وما زالت تعرض بواسطة ممثلها في مصر على الحكومة المصرية أن تعقد معها ميثاق صداقة وعدم اعتداء. ويقال إنها تقدمت إلى الحكومة المصرية بمثل هذا العرض حتى قبل أن تعقد المعاهدة المصرية الإنكليزية.

ومصر تغتبط بلا ريب بمثل هذه التأكيدات الودية من جانب حكومة رومة، وتود لو أنها تستطيع أن تؤمن بها وتطمئن إليها.

ولكن مصر لا تستطيع أن تؤمن ولا أن تطمئن؛ ولها في ذلك أكبر العذر؛ فالتاريخ يعيد نفسه دائماً، وشواهد الماضي قرائن الحاضر؛ ولإيطاليا الحديثة في نقض المواثيق والعهود تاريخ متصل لم تنقطع حلقاته حتى اليوم؛ وهو يدل دلالة واضحة على أنه إذا كانت إيطاليا الحديثة الناشئة قد آثرت مدى نصف قرن أن تجري على سياسة انتهاز الفرص ونقض العهود، فإن إيطاليا الفاشستية التي تجيش بمختلف المطامع والأماني لا يمكن أن تكون أحفظ للعهد وأجدر بالثقة والاطمئنان.

وإليك منطق التأريخ الحاسم: لم تكد إيطاليا الفتية تستكمل وحدتها واستقلالها في أواخر القرن الماضي حتى أخذت تساورها نزعة الاستعمار والتوسع، وتلتمس لتحقيقها جميع الخطط والوسائل؛ وكانت تتردد يومئذ بين فرنسا وألمانيا لترى أي الناحيتين أكفل للغنم؛ وكان وزيرها الشهير كرسبي رجل المطامع والمغامرات، بل يمكن أن يقال إنه هو الذي وضع أسس سياسية التوسع التي تنزل إيطاليا إلى ميدانها اليوم. فلما احتلت فرنسا تونس في سنة 1880 اضطرمت إيطاليا سخطاً لأنها كانت تطمع في احتلالها؛ وتحول كرسبي إلى ألمانيا خصيمة فرنسا يخطب ودها، وانتهى الأمر بدخول إيطاليا في المحالفة الثنائية الألمانية النمسوية التي غدت المحالفة الثلاثية من ذلك الحين (سنة 1882) ثم تجددت في سنة 1887؛ ولبثت قائمة حتى نشوب الحرب الكبرى.

ولكن ما الذي حدث عند نشوب الحرب الكبرى؟ التمست لإيطاليا الوسيلة لنقض عهود تحالفها مع الدول الوسطى والتزام الحيدة أولاً، ولم يمض عام حتى انقلبت إلى الحلفاء. ثم انضمت إليهم وأعلنت الحرب على حليفتيها القديمتين لتشترك مع الحلفاء في تحطيم الإمبراطورية النمسوية والاستيلاء على نصيبها من أسلابها.

وحصلت إيطاليا على نصيبها من أسلاب الدول المهزومة؛ وكانت أوفر الحلفاء حظّاً في أوربا لأنها فضلاً على الفوز بتحطيم الإمبراطورية النمسوية جارتها القوية وخصيمتها القديمة، استولت على التيرول الجنوبي واستيريا ودلمانيا، وكفلت بذلك حدوداً منيعة في الشمال والشرق.

ثم قامت الفاشستية الإيطالية ولم يرضها ما حصلت عليه لإيطاليا من أسلاب الحرب، بل اعتبرته غبناً لها وانتقاصاً لحقوقها فشهرت سياستها المعروفة في سبيل التوسع الاستعماري، وعززتها بالتسلح والأهبات العسكرية العظيمة، وأخذت تترقب الفرص لتحقيق مشاريعها وأمانيها.

وكانت لإيطاليا قد عقدت منذ سنة 1906 معاهدة ثلاثية مع بريطانيا العظمى وفرنسا تقضي بالعمل المشترك بينها لحماية أراضيها ومصالحها في شرق أفريقية، وتنص على وحدة الحبشة واستقلالها مع التنويه بمصالح إيطاليا في الحبشة؛ وجددت هذه المعاهدة في سنة 1925. وفي سنة 1928 عقدت إيطاليا مع الحبشة معاهدة صداقة وتحكيم، وجددت عهودها للحبشة باحترام استقلالها ووحدتها، وكانت إيطاليا من أشد المؤيدين لدخول الحبشة عصبة الأمم.

ولكن الفاشستية الإيطالية كانت في الوقت الذي تقطع فيه على نفسها هذه العهود والمواثيق تتحين الفرص، وتدبر اعتداءها سراً على الحبشة، حتى إذا سنحت الفرصة نفذت مشروعها الاستعماري على مرآي ومسمع من العالم، ولم تبال بمواثيق أو عهود، وسخرت من كل اعتراض أو احتجاج، وتم لها ما أرادت من القضاء على حريات أمة آمنة مستقلة.

ولما اضطرمت الحرب الأهلية الأسبانية ظهرت إيطاليا الفاشستية من وراء الثوار تشد أزرهم وتذكي أوار الحرب بجنودها وسلاحها، وما زالت تمضي في سياستها حتى اليوم تنفيذاً لمآرب ومشاريع استعمارية تبغي اجتناءها. ولما نظمت اليابان اعتداءها الأخير على الصين بادرت إيطاليا بإظهار عطفها وتأييدها لليابان المعتدية لأنها تسير في نفس السياسة الاستعمارية التي تسير عليها.

هذا هو ماضي إيطاليا، وهذا هو حاضر الفاشستية الإيطالية في نقض العهود والمواثيق

وتمزيق المجتمعات، وفي ترقب الفرص غير المشروعة وتنظيم الاعتداءات الاستعمارية.

والواقع أن الفاشستية الإيطالية لا تنكر جنوحها إلى هذه الخطط، فهي تنادي علناً بأن الحق للقوة وحدها، وتسخر من كل عهد أو ميثاق أو حق لا تؤيده القوة، وهي تجري على سياسة مكيافيلية خالصة تبرر لتحقيق الغاية كل الوسائل.

فكيف تستطيع مصر بعد ذلك كله أن تثق بتأكيدات رومة الودية وتطمئن إليها؟ إن التاريخ يعيد نفسه دائماً، ومصر ترجو ألا تكون ميداناً للوثبة القادمة.

ومصر لا يمكن أن تطمئن إلا لنفسها ومقدرتها على الدفاع عن كيانها، وهي تشعر شعوراً صادقاً بالخطر الذي يلوح لها في الأفق؛ ولكن مصر تثق أيضاً في مستقبلها وطالعها، وتعتزم ألا تسمح لأحد بالاعتداء عليها. ومن حسن الطالع أنها تستطيع أن تعتمد في مثل هذا الظرف على معونة صديقتها وحليفتها العظيمة بريطانيا العظمى. ومن حسن الطالع أن مصلحة مصر ومصلحة بريطانيا تتفقان هنا وتمتزجان؛ فالاعتداء على مصر يكون في نفس الوقت اعتداء على ما تعتبره بريطانيا مركزاً حيوياً لمواصلاتها الإمبراطورية.

على أن مصر يجب أن تعمل منذ الآن للاعتماد على نفسها قبل كل شئ، فنحن في عصر القوة لا في عصر الحق، ويجب أن تتذرع الأمم للذود عن حرياتها وكيانها بكل ما تدخر من القوى المادية والمعنوية؛ وهذا ما ستفعله مصر بلا ريب.

ثم إننا نؤمن من جهة أخرى بأن هذه النظم الطاغية والخطط الاستعمارية الباغية التي تصول اليوم في ميدان القوة والعدوان سوف تنهار متى وقع الاصطدام الحقيقي؛ هذا إذا لم تسارع قبل ذلك إلى تمزيق نفسها بنفسها.

(* * *)

مسكين

بين إنجليزي ولبوته

أثر العادة والتدريب في الإنسان والحيوان

كنت قد أبصرت في بعض الصحف صورة شبل مع إنجليزي وطلَّتُه أو لَبْوتَه. . . وهما يشربان الشاي (أو الشاهي كما يقولون في الحجاز) والثلاثة: الرجل والرَّجلة وأبن الليث يتناظرون صامتين. وفي الصحيفة حديث أنس الوحش، فلم أتعجب إذ رأيت هذا المسكين (أعني الشبل) يقاعد إنجليزياً، ولم أنكر، ولم أقل: إن ذلك البريطاني قد تطبع بطبع الأسد الوحشي حتى ائتلفا واصطحبا لأن الإنجليزي إنسان من الاناسية والناس لا يحتاجون كما يعرف العارفون إلى تدرب على طبيعة من طبائع الضواري والكواسر أو الجوارح، فالقرابات كما حققت علوم كثيرة في هذا الزمان بين منتصبي القامات اليوم وبين الماشيات على أربع والطائرات والزحافات واشجات قريبات؛ ووراثة الأجداد البعيدة (بل القريبة) وهي التي يقال لها في اللسان الإفرنجي ' ما زايلتهم في حين، وما ضاع والحمد لله. . . منها شئ؛ وفي كل يوم ألوف ألوف من الأدلة المثبتة المسكتة، المخجلة المخزية. وابْل من شئت ممن تفخمهم تفخيماً وتبجلهم تبجيلاً وتحسبهم - وهم من البشر - ملائكة، فإنه (يكاد أفضلهم رأياً يردّه عن فضل رأيه الرضا والسخط، ويكاد أصلبهم عوداً تنكأه اللحظة، وتستحيله الكلمة الواحدة)

(والناس شجرةَ البغي)

وجدت الناس إن قارضتهم قارضوك، وإن تركتهم لم يتركوك، وإن هربت منهم) أدركوك)

(وجدت الناس أخبْر تَقْلِهْ):

يلقاك بالماء النمير الفتى ... وفي ضمير النفس نار تَقِدْ

يعطيك لفظاً ليّناً مسُّه ... ومثل حدّ السيف ما يعتقدْ

فالناس هم الناس، و (هم - كما قال عالم إفرنجي - لم يزالوا حتى اليوم في الأفق الدور) القردي الشبنزي أو الشنبنزي) إنهم بعد لفي هذا الأفق وإن مشوا في الأرض متغطرسين متكابرين متبجحين على إخوانهم الأقربين (ذوات الأذيال. . .) بما سمّته لغاتهم تقدماً وارتقاء وإن أسمعك بعضهم - وأنت في القاهرة مقيماً - صوت الحبيبة في (نيويورك)

وأراك صورة من تهوي في بلاد (النمسة):
من في العراق يراك في طرسوسا
فالناس هم الناس:
فلا تلزمن الناس غير طباعهم ... فتتعب من طول العتاب ويتعبوا
أعود إلى أول كلامي فأقول: لا، لا، لم أقل: إن ذلك الإنجليزي قد تخلق بنحيزة ضارٍ فألف كلَّ صاحبه؛ فالإنسان - كما أثبت علم العلماء وأثبت عمله هو - سبعي بالطبع، بل ازددت بعد تلاوة ذلك الحديث إيقاناً بأثر العادة والتعويد، وإيماناً بأن التدريب يقدر أن يذلل الضاري ويقتاده - كان الله في عونه - إلى ملابسة إنجليزي (أو غير إنجليزي) ولا شئ في الدنيا أصعب من مخالطة الناس.
وفي العربية أقوال كثيرة في العادة والمرون والتضرية والتدريب والتألف. وهذا خبر حسن بارع مجزئ عن كثير في هذا المعنى، وهو في الشرح الكبير (للنهج) لأبن أبي الحديد:
صحيحٌ في (إن لم تكن حليماً فتحلم، فأنه قل من تشبه بقوم إلا أوشك أن يكون منهم) مناهج الحكمة؛ لأن من تشبه بقوم وتكلف التخلق بأخلاقهم، والتأدب بآدابهم، واستمر على ذلك ومرن عليه الزمان الطويل، اكتسب رياضة قوية وملكة تامة وصار ذلك التكلف كالطبع له، وانتقل عن الخلق الأول. ألا ترى أن الأعرابي الجلف الجافي إذا دخل المدن والقرى وخالط أهلها، وطال مكثه فيهم انتقل عن خلق الأعراب الذي نشأ عليه وتلطف طبعه، وصار شبيهاً بساكني المدن، وكالأجنبي عن الوبر. وهذا قد وجدناه في حيوانات أخرى غير البشر كالبازي والصقر والفهد التي تراض حتى تذل وتأنس، وتترك طبعها القديم، بل قد شاهدناه في الأسد وهو أبعد الحيوان من الأنس. وذكر أبن الصابي (أبو اسحق) أن عضد الدولة بن بويه كانت له أسود يصطاد بها الصيد فتمسكه عليه حتى يدركه فيذكيه، وهذا من العجائب الطريفة).
(ق)
إلى أخي النازح إلى باريز!
للأستاذ علي الطنطاوي
هذا الذي أقوله لأخي، يقال لكل طالب مسلم يدرس في)
(أوربة
(ع)
يا أخي!
لمّا دخلت (مسابقة البعثة) أمّلت لك بالفوز لما عوّدك الله من التوفيق والمعونة، وخفت عليك الخيبة لأن (الوزارة) لا تريد إلا مبعوثاً واحداً في (العلوم الرياضية) من سورية كلها، وأنى لك أن تكون ذاك الواحد؟
ولما ظهرت النتيجة، وكنت أنت الناجح في (فرع الرياضة)، وكنت ناجح في (الطبيعة) أيضاً، حمدت الله على هذه المنة، وذهبت أستعجلك بالسفر.
ولما عزمت أعددت لك ما تريد وأنا فرح مستبشر مسرور
كنت مسروراً لأني أعلم أنك ذاهب تطلب العلم، وتخدم الوطن، وتقوم بالواجب.
ولكن لم يكد يتحقق الأمر، ويأزف الرحيل، الباخرة الفخمة (ماربيت باشا) رابضة حيال المرفأ (في بيروت) تسطع أنوارها وتتلألأ، وألقي نظري على هذا البحر الهائل الذي يمتد في الفضاء أسود مثل الليل، حتى يغيب في السماء، أو تغيب فيه السماء. . . لم أكد أرى ذلك حتى أدركت الحقيقةالواقعة، وعلمت أنك مودع نازح، فغلبت عليّ العاطفة، وفاضت نفسي رقة وحناناً.
لم أستطع أن أودّعك، ولم أقوَ على رؤيتك وأنت في الباخرة، ماخرة بك عباب أليمّ، تنأى بك عني، حتى تصير نقطة صغيرة على شاطئ الأفق، ثم تنحدر إليه، وتختفي وراءه، وتختفي أنت معها، وتصبح في نظري عدماً، لأني لا أحس لها وجوداً. .
والوداع - يا أخي - جماع آلام الحياة وأساسها ومصدرها، وأشد ألوان الوداع وألمها وأمرّها وداعٌ في البحر، ذاك الذي لا يطيقه ذو قلب. .
ودعتك وداعاً عادياً، ولبثت في مدرستي ألقي درسي وأنا هادئ الجوارح ساكن الطائر، ولكن في القلب مني زلزلة، وفي الأعصاب ناراً. . .
حتى إذا عاد أخوك ناجي الذي صحبك إلى الباخرة فخبرني أنك سرت (على أسم الله)،

أحسست كأن قلبي قد هبط من هذا الزلزال كبناء هوى، وأن هذه النار قد تركت أعصابي رماداً منطفئاً فسقطت على كرسي. . . لا أدري فيم هذا الضعف، ولا أحبه في نفسي، ولكني أدري أني أتخيلك الآن وحيداً فريداً لا ترى حولك قريباً ولا صديقاً، تطل من شرفة الباخرة فلا ترى إلا السماء والماء، وقد أخذك دوار البحر فلم تجد معيناً ولا مسعفاً. وأتصورك في ذلك البلد الغريب الذي لا ترى فيه إلا وجوهاً تنكرها، وأنت الذي لم يفارق أهله قط، ولم يغب عن بيته ليلة، ولم يسافر وحده أبداً. . . فلذلك ما أحزن، وفي ذلك أفكر.

ولكنها - يا أخي - خطيئة تربيتنا الاتكالية. لو أن آباءنا عودونا، ولو أنا عوّدناك على الحياة الاستقلالية الصحيحة، وتركناك وأنت في الثانية عشر تذهب وحدك وتعود وحدك، وعودناك حمل التبعات وأيقظنا فيك شخصيتك ولم ندعها ضائعة في شخصياتنا، ودفعناك إلى استثمار مواهبك ولم نتركها معطلة، ولو فعلنا ذلك وأنت في الثانية عشرة لما خفت عليك السفر وحدك إلى باريز وأنت في طريق العشرين!

يا أخي.

إنك تمشي إلى بلد مسحور (والعوذ بالله)، الذاهب إليه لا يؤوب، إلا أن يؤوب مخلوقاً جديداً وإنساناً آخر غير الذي ذهب. . . يتبدل دماغه الذي في رأسه، وقلبه الذي في صدره، ولسانه الذي في فيه؛ وقد يتبدل أولاده الذين هم في ظهره إذا حملهم في بطن أنثى جاء بها من هناك!

إي والله يا أخي، هذه حال أكثر من رأينا وعرفنا (إلا من عصم ربك)، يذهبون أبناءنا وإخواننا وأحباءنا، ويعودون عداةً لنا، دعاةً لعدونا، جنداً لاستعمارنا. . . لا أعني استعمار البلاد، فهو هيّن لين، ثم إننا قد شفينا منه بحمد الله أو كدنا. . .

وإنما أعني استعمار الرؤوس بالعلم الزائف، والقلوب بالفنّ الداعر، والألسنة باللغة الأخرى، وما تبع ذلك من الارتستات والسينمات وتلك الطامات، من المخدرات والخمور، وهاتيك الشرور. . .

فانتبه لنفسك واستعن بالله، فإنك ستقدم على قوم لا يبالي أكثرهم العفاف، ولا يحفل العرض. سترى النساء في الطرقات والسوح والمعابر يعرضن أنفسهم عرض السلعة، قد أذلتهن مدنية الغرب وأفسدتهن، وهبطت بهن إلى الحضيض، فلا يأكلن خبزهن إلا مغموساً بدم الشرف، وأنت لا تعرف من النساء إلا أهلك، مخدرات معصومات كالدّر المكنون، شأن نساء الشرق المسلم، حيث المرأة عزيزة مكرّمة، محجوبة مخدرة، ملكة في بيتها، ليست من تلك الحطة والمذلة في شئ. . . فإياك أن تفتنك امرأة منهن عن عفتك ودينك، أو يذهب بلبك جمال لها مزوّر، أو ظاهر خدّاع. هي والله الحيّة: ملمس ناعم، وجلد لامع، ونقش بارع، ولكنّ في أنيابها السمّ. . . إياك والسم!

إن الله قد وضع في الإنسان هذه الشهوة وهذا الميل، وجعل له من نفسه عدوّاً (لحكمة أرادها)، ولكنه أعطاه حصناً حصيناً يعتصم به، وسلاحاً متيناً يدرأ به عن نفسه، فتحصن بحصن الدين، وجرد سلاح العقل توَقّ الأذى كله. . . واعلم إن الله جعل مع الفضيلة مكافأتها: صحة الجسم، وطيب الذكر، وراحة البال؛ ووضع في الرذيلة عقابها: ضعف الجسد، وسوء السمعة، وتعب الفكر، ومن وراء ذلك الجنة أو الجهنم. . .

فان عرضت لك امرأة بزينتها وزخرفها فراقب الله، وحكم العقل، وأذكر الأسرة والجدود. . . لا تنظر إلى ظاهرها البراق بل أنظر إلى نفسها المظلمة القذرة وماضيها الخبيث المنتن، أتأكل من إناء ولغت فيه كل الكلاب؟؟

يا أخي!

إن في باريز كل شئ: فيها الفسوق كله، ولكن فيها العلم. فان أنت عكفت على زيارة المكتبات وسماع المحاضرات وجدت من لذة العقل ما ترى معه لذة الجسم صفراً على الشمال (كما يقول أصحابك الرياضيون)، ووجدت من نفعها ما يعلقك بها حتى ما تفكر في غيرها. فعليك بها، استق من هذا المورد الذي لا تجد مثله كل يوم. راجع وابحث وألّف وأنشر، وعش في هذه السماء العالية، ودعْ من شاء يرتعْ في الأرض، ويعش على الجيف المعطرة. . .

غير أنك واجد في ثنايا هذه الكتب التي كتبها القوم المستشرقون عن العربية والإسلام، وفي غضون هذه المحاضرات التي يلقونها، عدواناً كثيراً على الحق، وتبديلاً

للواقع، فانتبه له واقرأ ما تقرأ وأصغ لما تسمع وعقلك في رأسك، وإيمانك في صدرك. لا تأخذ كل ما
يقولون قضية مسلمة وحقيقة مقررة، فالحق هو الذي لا يكون باطلاً، وليس الحق ما كان قائله أوربياً فانظر أبداً إلى ما قيل، ودع من قال!
ثم إنك سترى مدينة كبيرة، وشوارع وميادين، ومصانع وعمارات. . . فلا يهولنك ما ترى، ولا تحقر حياله نفسك وبلدك كما يفعل أكثر من عرفنا من روّاد باريس. وأعلم أنها إن تكن عظيمة، وإن يكن أهلها متمدنين، فما أنت من سودان أفريقية ولا بلدك من قرى التبّت. . . وإنما أنت أبن المجد والحضارة، أبن الأساتذة الذين علموا هؤلاء القوم وجعلوهم ناساً، أين الأمة التي لو حذف أسمها من التاريخ لآض تأريخ القرون الطويلة صحفاً بيضاً لا شئ فيها، إذ لم يكن في هذه القرون بشر يدوّن التاريخ تاريخه سواهم. . . فمن هؤلاء الذين ترى؟ إنما هم أطفال أبناء أربعة قرون، ولكنّ أمتك بنت الدهر لما ولد الدهر كانت شابة، وحين يموت الدهر تكون شابة. . .
لا. لا أفخر بالعظام البالية، ولا أعتز بالأيام الخالية، ولا أذكر لك الماضي لتقنع به وتنام، ولكن أذكره لك لأهز فيك نفسك العربية المسلمة، لأستصرخ في دمك قوى الأجداد التي قتلت وأحيت، وهدمت وبنت وعلمت، واستاقت الدهر من زمامه فانقاد لها طيعاً. . . إن هذه القوى كامنة في عروقك، قائمة في دمك، فليفُر هذا الدم وليثر ويضطرم تظهر ثانية وتعمل عملها.
لا تقل: ماذا يصنع طالب مثلي ضعيف في أمة قوية، فإن الأندلس المسلمة كانت بالنسبة لعصرها أقوى، وكانت روادها من طلاب الفرنجة أضعف، ولكنهم استطاعوا على ضعفهم أن يضعوا (هذه القوة) التي تعجب بها أنت، ويذوب فيها دين غيرك وخلقه. . . إن الدهر يا أخي دولاب، والأيام دول. وإن في الشرق أدمغة، وفي الشرق سواعد، وفي الشرق مال، ولكن ينقص الشرق العلم فاحمله إليه أنت وأصحابك، وعودوا إلى الشرق شرقيين معتزين بشرقيتهم الخيرة العادلة، كما يعتز الغربيون بغربيتهم الظالمة الطاغية. واعلموا أن مهمتكم ليست ورقة تنالونها، قد تنال بالغش والاستجداء والسرقة. . . ولكن مهمتكم أمة تحيونها.
يا أخي!
إذا وجدت واسعاً من الوقت فادرس أحوال القوم وأوضاعهم في معايشهم وتجارتهم وصناعتهم ومدارسهم، وابحث عن أخلاقهم ومعتقداتهم، على أن تنظر بعين الناقد العاقل
الذي يدّون الحسنة لنتعلمها، والسيئة لنتجنبها. ولا تكن كهؤلاء الذين كتبوا عن باريز من أبناء العرب، فلم يروا إلا المحاسن والمزايا، ولا كأولئك الذين كتبوا عن الشرق من أبناء الغرب، فلم يبصروا إلا المخازي والعيوب، ولكن كن عادلاً صادقاً أميناً.
وإياك وهذه الحماقة التي يرتكبها بعض الكتاب من الفرنجة حين يهرفون بما لا يعرفون، ويقولون ما لا يعلمون، كهذا الأخرق الصفيق الذي عمل أطروحة موضوعها (الحج) قدمها إلى جامعة كبرى وهو يجهل العربية، ولا يعرف أي كتاب من كتب المسلمين بحث في الحج، وإنما جمع الأخبار من الصحف ومن أفواه العامة؛ وكتب في نظام الريّ في الغوطة، وزعم أنه وفّى البحث وأتمّه، وهو لا يعرف منه إلا ما خبره به ثلاثة فلاحين لقيهم في قرية ذهب إليها، مع أن نظام الريّ في الغوطة لا يكاد يعرفه في دمشق إلا نفر قليل. . . وذاك الذي كان معلماً أولياً في بلده فصار عندنا مدير دار المعلمين العالية، فذهب مع طلابه إلى ظاهر دمشق، فمشى ينظر على جانبي طريق (الربوة) هناك وهناك. . . فوجد في الجبل أثراً للماء، فقال: من أين جاء هذا الماء؟ لا بدّ أن يكون جاء من بردى، إذ لا ماء في دمشق إلا من بردى. فماذا تكون نتيجة البحث (البحث العلمي) في هذه المسألة؟ هي أن بردى كان يصل إلى هنا. . . إذن فقد كان عرض بردى في الماضي أربعمائة متر. . . وانطلق يقرر دائماً هذه الحقيقة!
وبعد يا أخي، فأعلم أن أثمن نعمة أنعمها الله عليك هي نعمة الأيمان، فاعرف قدرها، واحمد الله عليها، وكن مع الله ترَ الله معك وراقب الله دائماً، وأذكر أنه مطلع عليك، يعصمْك من الناس ويُعذْك من الشيطان، ويوفقْك إلى الخير.
وفي اللحظة التي تشعر فيها أن دينك وأخلاقك في خطر، احزم أمتعتك وعد إلى بلدك، وخلّ (السوربون) تَنْعِ من بناها. . . وانفض يدك من العلم إن كان لا يجئ إلا بذهاب

. . .الدين والأخلاق
أستودع الله نفسك ودينك وأخلاقك، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.
علي الطنطاوي
أطراف من تاريخ الملابس عند المسلمين
للعلامة المستشرق دوزي
للأديب محمد طه الحاجري
كاد فن صناعة الملابس أن يكون مجهولاً في العهود الإسلامية الأولى، يوم كان العرب كلهم بدواً إلا قليلاً، وكانت المدن صغيرة ضئيلة الخطر، فكانت الأردية البسيطة المفردة كافية في الوقاية من البرد والحر. وما كانوا يحسبون أن من الممكن أن تصنع الملابس على أسلوب رشيق، بل كان ناسج الثوب هو وحده الذي يقوم بالأمر. ولكن العرب حين فتحوا وشيكاً قسماً كبيراً من آسيا وأفريقية وأوربا، اتصلوا بالشعوب التي غلبوها، وكانت قد وصلت إلى درجة عالية من الحضارة، فلم يلبثوا أن تركوا شيئاً فشيئاً حياة البادية، وأخذوا يستقرون في المدن. وكذلك أدركوا أن في مكنتهم أن يصنعوا لأنفسهم ثياباً أرشق مما كانوا يلبسون، فأخذوا كثيراً من زي الشعوب التي غلبوها. ولما كانت مظاهر الترف قد تقدمت عند الفرس تقدماً عظيماً، فقد أحس بلاط بغداد إحساساً مطرداً بنفوذ جيرانه ورعاياه، كما أن تقدم الحضارة والتجارة أنشأ مصانع من كل نوع. وما أسرع ما ضمت بغداد عدداً عظيماً منها، كان مقدار ما فيها من الثياب الحريرية الفاخرة، والأقمشة المصفوفة بالذهب والفضة وما إليهما، يتضاعف مضاعفة مستمرة.
أما في المغرب فكان الأمر على العكس من ذلك، إذ اختلط العرب بالمراكشيين والبرابرة، وهم شعوب جافية، دون فاتحيهم في الحضارة، فكانت مظاهر الترف مجهولة لديهم، فأخذ العرب منهم إلى حد ما زيهم البسيط الغليظ.
أما في الأندلس فقد استخلص العرب لأنفسهم جزءاً كبيراً من زي الفرسان المسيحيين، ولا سيما في العهد الأخير من عهود ملكهم. ويصرح ابن سعيد بأن أقبية عرب الأندلس كانت تشبه أقبية المسيحيين. ويقول ابن الخطيب المؤرخ، وهو يتحدث عن محمد بن سعد بن محمد بن أحمد بن مردنيش المتوفى في النصف الثاني من القرن السادس الهجري: (وآثر زي النصارى من السلاح والملابس واللجم والسروج).
أما في مصر والشام فقد عانى الزي تغيرات عظيمة بسبب غارة الأتراك.
وقد أحدث امتزاج العرب بالأجانب أن وجد دائماً اختلاف كبير بين أزياء الشعوب المختلفة
التي تكون الإمبراطورية العربية الشاسعة، حتى أنه ليستطاع لأول وهلة أن يميز عربي الشرق من عربي الغرب. ويقول ابن إياس، وهو يتحدث عن المؤرخ الشهير ابن خلدون: (واستقر لما تولى القضاء وهو بزي المغاربة فعد ذلك من النوادر) ويقول النويري وهو يروي وفاة الملك القاهر بهاء الدين أبي محمد عبد الملك بن الملك المعظم: (وكان يلبس ملابس العرب ويتزيا بزيهم ويركب كمركبهم ويتخلق بأخلاقهم في كثير من أفعاله) وحتى الذين يسكنون المدن القريب بعضها من بعض كانوا يختلفون في أزيائهم، فقد كتب أحد المغاربة - وسماه مارمول - يقول، حينما حرم فيليب الثاني على مغاربة الأندلس أن يلبسوا زيهم الوطني: (إن زي نسائنا ليس مغربياً بل هو زي مدني كما في قشتالة، وإن الشعوب الإسلامية في البلاد الأخرى لتختلف في أغطية الرأس وفي الثياب والأحذية. ومنذا الذي ينكر أن زي مراكشيات أفريقية والتركيات يختلف عما تلبسه نساؤنا في غرناطة؟ وكذلك تختلف أزياء الرجال، فليس زي فاس كزي تلمسان، وليس زي تونس كزي مراكش، وكذلك الأمر في تركيا والممالك الأخرى).
وهناك فوق ذلك اختلاف كبير في زي الطبقات المختلفة التي تتكون منها الجماعة الإسلامية حتى ليستطاع تمييز الرجل الخاصي من العامي والجندي من شكل العمامة على الأخص، وكذلك كانوا يعرفون بها المنصب الذي يشغله من يلقونه.
بيد أنه يجب ألا يؤخذ هذا القول بوجه عام إلا عند أهل المدن، أما البدو فقد احتفظوا تقريباً بالزي القديم، ولاحظوا تعاليم الدين أكثر من الحضريين.
ولقد حدث محمد (ص) أحاديث عديدة ليمنع مظاهر الترف في الثياب من أن تتغلغل

في أمته، وقد استخلص فقهاء الإسلام من هذه الأحاديث نظاماً بالمبادئ والقوانين الخاصة بالزي، وسنعرضها هنا وفقاً لما جاءت به كتب الفقه الحنفي والمالكي.

إن وظيفة الملابس، على ما يقول كتاب ملتقى الأبحر، هي ستر العورة والوقاية من الحر والبرد؛ والأفضل أن تكون من القطن أو الكتان غير مغالى فيها ولا شديدة الرثاثة. وليس أخذ الزينة حراماً متى كان لإظهار نعم الله التي تفضل بها علينا. أما حين تصدر عن الكبرياء فانه ممنوع. وكثيراً ما أوصي عظماء العرب والفرس بالتواضع في هيئة اللباس، ويقول النويري، مثلاً، وهو يمدح صلاح الدين:

ويقول في موضع آخر بمناسبة (وكان لا يلبس إلا ما يحل كالكتان والقطن والصوف) موت الأمير جمال الدين ايدغدي العزيز: (وكان مقتصداً على ملبسه يلبس الثياب القطن من الهندي والبعلبكي وغيره مما يباح ولا يكره لبسه) (راجع: , 56 , 58).

والحرير مباح للنساء محرم على الرجال إلا أن يتخذوا منه حاشية لثيابهم لا يتجاوز عرضها أربعة أصابع فذلك جائز لهم؛ ويرى البعض ألا تتجاوز إصبعيين؛ أما المالكية فيرون ألا يبلغ عرضها عرض إصبع واحد. وقد نهى النبي (ص) نهياً مشدداً عن الملابس الحريرية فقال: (من لبس الحرير في الدنيا فلن يلبسه في الآخرة) وقال: (إنما يلبس الحرير في الدنيا من لا خلاق له في الآخرة) ويجيز الحنفية للرجال أن يلبسوا ثياباً سداها من الحرير ولحمتها من غيره، وأما عكس هذا، أي أن تكون اللحمة من الحرير والسدى من غيره فلا يحل إلا في الحرب. ولا يتفق المالكية فيما بينهم في جواز لبس القماش المسمى بالخز، وهو ما سداه حرير ولحمته صوف، ولكن الأكثرين على منعه.

والأكثر استحباباً من الألوان الأبيض والأسود؛ أما الأبيض فلقول الرسول (ص): (إن الله يحب الثياب البيض وإنه خلق الجنة بيضاء).

ويقول مؤرخ أفريقي وهو يمدح عبد الرحمن الأول أول ملوك الأندلس: (كان يلبس البياض ويعتم به)، وأما الأسود فلأن محمداً (ص) كان يلبس يوم فتح مكة جبة سوداء وعمامة سوداء كذلك. أما الشيعة فعلى العكس من ذلك يحرمون السواد، إذ نقرأ في رحلات شردان ما يأتي:

ولا يلبس الأسود في الشرق ولا سيما في فارس لأنه لون مشئوم بغيض لا يمكن) أما اللونان الأحمر والأصفر فمكروهان من غير أن (النظر إليه، ويسمونه لون الشيطان نعرف سبب كراهيتهما؛ غير أني أفرض أن الأصفر مكروه لأنه لون البغض، والأحمر لأنه لون الدم. ومع هذا فكثيراً ما يلبس المسلمون ثياباً حمراء وصفراء. ويقول أبن جني والواحدي: إن الفتيات يلبسن عادة ملابس حمراء. أما الملابس الخضراء فلا يلبسها إلا أشراف سلالة الرسول (ص).

ويظهر أنه ليس بين الحنفية والمالكية والشافعية كبير خلاف في فصل الملابس، ولكن يظهر أن مذهب أبن حنبل، وهو أكثر المذاهب تشدداً، قد أبعد في التشدد في هذه المسألة.

وهو ذا ما جاء في تأريخ مصر للنويري (في حوادث سنة 716).

وفي هذه السنة فوض قضاء قضاة الحنابلة بدمشق إلى شمس الدين أبي عبد الله) محمد، ووصل إليه بتقليد القضاء من الأبواب السلطانية في يوم السبت ثامن صفر. وقريء بجامع دمشق بحضور القضاة والأعيان، وخرج القاضي شمس الدين المذكور من الجامع ماشياً إلى دار السعادة، فسلم على نائب السلطنة، ثم نزع الخلعة السلطانية وتوجه إلى جبل الصالحية وجلس للحكم في سابع عشر صفر، وما غير هيئته ولا عادته في مشيه وحمل حاجته، ويجلس للحكم على مئزر غير مبسوط، بل يضعه في يده ويجلس عليه، ويكتب في محبرة زجاج، ويحمل نعله بيده فيضعه على مكان؛ وإذا قام من مجلس الحكم حمله أيضاً حتى يصل إلى آخر الإيوان فيلقيه ويلبسه. هكذا أخبرني من أثق بأخباره؛ واستمر على ذلك، وهذه عادة السلف).

ولست أدري إن كان كل الحنابلة على هذا التواضع الشديد أم هم القضاة وحدهم؟ ويؤسفني أن ليس لدي من فقه الحنابلة ما أراجعه في هذه المسألة، بل يظهر أن هذا الفقه نادر جداً في أوربا.

ولكي نكوّن لأنفسنا فكرة عن التطورات التي طرأت على زي العرب نقارن ثوب محمد صلى الله عليه وسلم بثوب رجل من الطبقة المتوسطة من أهل القاهرة في القرن السادس عشر بعد غارة الأتراك.

كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يلبس قميصاً من القطن الأبيض تصل أكمامه إلى المعصم، وسروالاً من القماش؛ وما كان فوق القميص والسروال - فيما يظهر - إلا ثوب واحد هو الجبة؛ وهي ثوب طويل من الصوف، وحواشيه من الحرير، مفتوح من أمام، ضيق الأكمام؛ أو القباء، وهو ثوب طويل مهيأ بالأزرار من أمام. وكان يلبس في بعض الحالات - بدلاً من هذه الثياب - كساءً من القماش الغليظ، وهو عادة قطعة كبيرة من الصوف السميك رمادية اللون مخططة، ويلف بها الجسم، وهي (البردة). وكان محمد (صلى الله عليه وسلم) يلبس العمامة البيضاء أو السوداء ويرخي طرفاً منه على ظهره. وأما حذاؤه فكان نعالاً مصنوعة من جلد الإبل، مربوطة بسيرين يمر أحدهما بوسط القدم والآخر بين الإبهام وما يليه.

فنحن نرى أن زي الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان في غاية البساطة، ولا يزال هو زي أهل الصحراء في أيامنا هذه.

فالبدو لا يلبسون - مثل الرسول - إلا قميصاً من القطن، وثوباً طويلاً، وقد يستعيضون عنه بكساء من الصوف.

أما زي الرجل القاهري في القرن السادس عشر، فيتألف من عدد عظيم من الملابس - فلا تزي بحال ما تلك البساطة التي كانت تميز زي الرسول، والتي لا تزال ترى في زي البدو - فكان يلبس فوق القميص والسراويل قفطاناً من الحرير في ألوان مختلفة قد خالط بعضها بعضاً، ولهذا الثوب أكمام فضفاضة؛ ثم يلبس فوق القفطان حزاماً من الحرير أو الوبر أو الصوف، ثم جبة طويلة مفتوحة من الأمام، ذات كمين قصيرين لا يصلان إلى المعصم حتى يظهر طرفا كمي القفطان وقد تجاوز الأصابع؛ وهذا الثوب أقصر قليلاً من الأمام عنه من الخلف، وهو مصنوع من القماش الأحمر أو الأزرق أو الرمادي؛ ثم يلبس فوق الجبة ثوب فضفاض يصنع عادة من الوبر، ويزين أحياناً بالفراء، وهو الفراجية. أما غطاء الرأس فيتكون من طاقية صغيرة من القطن وطربوش أحمر وقطعة طويلة من الشاش (الموسلين) تستدير حول الرأس. وأما الحذاء فمن الجلد المراكشي الأحمر.

وجمال الثياب وعددها يخلعُ على لابسها في الشرق العظمة ويبعث على احترامه ويقول المثل الفارسي (قربت بلباس) ويفسره تافرينيه بقوله: بمقدار ما تتجمل في ثيابك، تقابل بالإجلال، وتنال الحظوة في القصر والقربى لدى العظماء. أما في مصر فهناك ما جاء من ذلك في كتاب (وصف مصر)، ' كلما كدس الناس من الثياب على أجسامهم ضاعفوا الاحترام والتقدير الذي يبغونه لأنفسهم)؛ فليس يبدو غريباً إذن أن يعنى الشرقيون بأن تكون ثيابهم نظيفة طيبة الرائحة، وقد جاء في الأغاني عبارة: (ملائمة طيبة) كما نقرأ في تاريخ مصر للنويري أنه وجد في ذخائر أحد العظماء لعبة من العنبر على قدر جسده، برسم ثيابه، توضع ثيابه عليها لتكتسب رائحتها. وورد في (ألف ليلة وليلة) هذا البيت من الشعر:

وتميس بين مزعفر ومعصفر ... ومعنبر وممسّك ومصندل

كما وردت فيه أيضاً هذه الفقرة: (لبست تلك البذلة الفاخرة وكانت مطيبة) وفي موضع آخر منه: (فقعدت تبخره فطارت شرارة فأحرقت طرفه). ويقول بوركهارت عن وهابيي نجد أنهم يعنون بتطييب الكوفية بأنواع من الطيوب وتخص الأرادن بالتطييب، ففي قصيدة للمتنبي يقول:

أتت زائراً ما خامر الطيب ثوبها ... وكالمسك من أرادنها يتضوع

أما عادة منح الثياب للدلالة على التقدير فعادة شرقية قديمة؛ ومع ذلك يقول المقريزي: إن أول من استعملها هو هرون الرشيد حينما خلع على نديمه جعفر بن يحيى البرمكي. ويسمى ثوب الشرف هذا خلعة، ثم سمى بعد هذا تشريقا. ثم لما تغلغلت هذه العادة أصبحت من القوة بحيث كان الأمير يخلع الرداء الذي يرتديه، فيلبسه الشخص الذي هو موضع تكريمه أو أجازته. ولكن يظهر أن الأمراء لم يكونوا بعد ذلك يهبون من الثياب إلا مما هو مودع في خزائن ثيابهم، أو ما كان جديداً كل الجدة؛ ولكنه كان من دلائل الشرف دائماً أن يلبس الرجل ثياباً كان الأمير يلبسها من قبل؛ ولم يفت المؤرخين أن يشيروا إلى ذلك، فمما يحكي النويري هذه العبارة: (أنعم على الأمير سيف الدين بوشربوش كان قد لبسه).

أما حين يراد معرفة أنواع الثياب التي تتألف منها الخلعة أو التشريف، فقد أشرفنا على مسألة شديدة الصعوبة؛ وإن يكن يخيل إلى أن الأمر كان يرجع، في حكم بعض الأسر، إلى اختيار الأمير المطلق؛ ومع هذا، فإذا كان فيبرس يحسب أن الخلعة كانت تتكون غالباً، أو مطلقاً، من القباء وحده، فإني أرى لزاماً على أن أدل هنا على أن هذا رأي خاطئ الأساس. وإذا كان صحيحاً أن ثوب الشرف كان يتكون، في حكم حسن باشا لليمن، من القباء، فأن الأمر لم يكن كذلك في بغداد ومصر مثلاً، فقد كانت الخلعة أو التشريف تتكون من ثياب مختلفة غير ذلك. فالنويري يذكر لنا أن الخلعة التي وهبها خليفة بغداد للملك الناصر داود كانت تتكون من قباء حريري وشربوش، كما يحكى في موضع آخر أن الخلعة التي أعطاها الخليفة العباسي المعتصم بالله كانت تتكون من عمامة سوداء وفراجية موشاة بالذهب. وتقرأ فيما بعد ذلك أن ثوب الشرف الذي منحه الخليفة كان يتألف من عمامة من الحرير الأسود المطرز بالذهب ودراعة. أما الخلعة كانت تعطى للوزير في مصر فكانت تألف من جبة وفراجية وطرحة. وكذلك كان التشريف يتكون من ثياب مختلفة. وأخيراً تدلنا عبارة أخرى للنويري على أن ثياب الشرف كانت تختلف في القماش الذي صنعت
منه، والقطع التي تتألف منها حسب مرتبة من تقدم إليه، أو حسب الخدمات التي أداها للأمير.
وكان الأمير في كثير من الأحوال، يقدم إلى جانب الخلعة خنجراً وحصاناً وأشياء أخرى. كما أنا كثيراً ما تقرأ عن خلعة كاملة وتشريف كامل.
وكانت ثياب الشرف التي يهبها الخلفاء العباسيون تكاد تكون دائماً سوداء.
ولم تكن الغاية من الثياب منحصرة لسوء الحظ، في الزينة بل كان شيطان البغض والانتقام يستعملها في انتزاع الحياة بطريقة دنيئة. ومن المعروف عند الغربيين أن الثياب كانت تستعمل في القرون الوسطى لهذه الغاية. ويكفي قليل من الأمثلة المأخوذة من التاريخ الإسلامي لإثبات أن هذا الأسلوب من الانتقام الدنيء لم يكن مجهولاً في الشرق. والنويري يقص علينا أن السلطان الأيوبي، الملك المعظم، أضمر سخطاً شديداً على قاضي القضاة لأنه أقنع أخت صلاح الدين والملك العادل ست الشام بنت أيوب أن توقف أموالها على بعض المؤسسات الدينية، فخيبت حماسة القاضي الدينية آماله. ولقد حاول الأمير عبثاً أن يجد حجة يستطيع أن ينتقم بها من القاضي، ثم لما وجد أخيراً هذه التعلة أرسل إليه وهو في مجلس حكمه، وحوله جماعة كثيرة من العدول والمتحاكمين. فلما جاءه الرسول قال له: السلطان يسلم عليك ويقول لك: الخليفة، سلم الله عليه، إذا أراد أن يشرف أحداً من أصحابه خلع عليه من ملابسه، ونحن نسلك طريقه؛ وقد أرسل إليك من ملابسه، وأمر أن تلبسه في مجلسك هذا وأنت تحكم بين الناس؛ وكان الملك المعظم أكثر ما يلبس قباءاً أبيض وكلوتة صفراء. وفتح الرسول البقجة، فلما نظر القاضي إلى ما فيها وجم. قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة فأخبرني الرسول الذي أحضر هذه الخلعة والرسالة بذلك. قال وكان السلطان أمرني أن ألبسه إياها بيدي إن امتنع أو توقف، فأشرت عليه بلبسها وأعدت الرسالة عليه، فأخذ القباء ووضعه على كتفه، ووضع عمامته على الأرض ولبس الكلوتة الصفراء على رأسه، ثم قام ودخل بيته، ومرض إثر هذه الحادثة ورمى كيده ومات؛ ويقال أن ذلك كان في يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة تسع (عشرة وسبعمائة).
ويذكر بعض المؤرخين الأسبان أن ملك قشتالة الدون انريك مات مسموماً لأن ملك غرناطة محمداً أهدى إليه حذاءين غمرا في السم.
وكانت الثياب السوداء تلبس قديماً للدلالة على الحداد، سواء في لبسها لذلك الرجال والنساء. ومن المعلوم أن زي العباسيين الأسود إنما أنتحل حداداً لموت الأمام إبراهيم بن محمد وكذلك جاءت هذه العبارة في تأريخ مصر للنويري: (شق القاهرة وهو لابس السوداء، وأعلامه كذلك، حزناً على الظاهر).
ولكن الرجال في الأزمنة المتأخرة صاروا لا يلبسون ثياب الحداد، إذ كانت تيدو كأنها دليل على عدم الصبر على ما قدر الله أما النساء فلا يزالون يلبسونها في الشرق، ولكن عند موت الزوج أو القريب الأدنى. ولا يلبسونها في موت من تقدم به العمر؛ وقد جاء في معجم الأعلام الذي وضعه ابن الخطيب أن الشاعرة الشهيرة حفصة،

عشيقة أبي جعفر أحمد بن سعيد، الشاعر الشهير ووزير صاحب غرناطة، لبست الحداد حين بلغها أن حبيبها قد قتل، ولكن هذا من غير شك شذوذ من العادة العامة.
ويكون الحداد بأن تصبغ المرأة بالنيلة قميصها وقناعها الذي تغطي به رأسها وتستر به وجهها ومنديلها صبغة زرقاء قاتمة أو قريبة من السواد. وتلبس النساء ثياب الحداد فترة الأيام السبعة أو الخمسة عشر أو الأربعين في بعض الأحيان.
أما في الأندلس، أثناء حكم الخلفاء الأمويين فكانت ثياب الحداد بيضاء. إذ نقرأ في تأريخ الأندلس للمقري هذه العبارة: (عليهم الظهائر البيض شعار الحزن).
ويلبس العرب ثياباً حمراء أو صفراء حينما يريدون الدلالة على الغضب. وقد جاء في كتاب ألف ليلة وليلة هذه العبارة: (لبس بدلة الغضب وهي بدلة حمراء). ولكن هذه العادة ربما كانت عادة تركية
أما في الغرب فكان اللون الأصفر هو الذي يدل على الغضب فقد لاحظ بيدودي سن أولون ويندوس أن ملوك مراكش كانوا إذا اعتزموا أن يسفكوا دماً لبسوا في الغالب ثياباً صفراء.

محمد طه الحاجري

أناشيد صوفية

جيتانجالي

للشاعر الفيلسوف طاغور

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

- 13 -

إن اللحن الذي جئت لأترنم به ظل مكفوفاً في نفسي للآن
وتصرمت الأيام وأنا أشد أوتار قيثاري وأرخيها.
لم يأن لي أبداً فالكلمات لم تواتني، غير أن الرغبة الملحة تتنزى في قلبي.
إن الكِمّ لم يتفتح، ولكن الريح تزف حواليه.
لم أر وجهه، ولم أسمع رنات صوته، غير أني استشعرت خطواته الرفيقة وهو يسير الهوينى أمام داري.
ومر اليوم الطويل وأنا أهيئ له مكاناً، ولكني لم أستطع أن أدعوه إلى داري لأن سرجي
كان هامداً.
وهأنذا أعيش بالأمل في لقياه، ولكن اللقيا لم تحن.

- 14 -

إن رغباتي كثيرة، وفي صيحاتي الألم؛ أفتردني في رفض قاس والرحمة منبثة في أضعاف حياتي هنا وهناك؟
وعلى مَرّ الأيام جعلتني أستأهل من آلائك العظيمة ما أنعمت به عليّ دون سؤال: هذه السماء والنور، هذا الجسم والحياة والعقل ثم نجيتني من خطر الرغبة الجامحة.
في حين كنت أتباطأ في فتور؛ وفي حين آخر كنت أهب مسرعاً إلى الغاية؛ ولكنك كنت
تخفي نفسك عني في قسوة.
وعلى مر الأيام جعلتني أستأهل منك القبول المحض بعد طول رفضك إياي، وأنت جنبتني خطر التخاذل والرغبة المضطربة.

- 15 -

أنا هنا لأردد لك الأناشيد، ولأجلس في زاوية من فنائك
لا عمل لي في دنياك، فحياتي الخاوية تتفجر عن ألحان لا غاية لها
وعند منتصف الليل، حين تدق الساعة في محربك المظلم، مؤذنة بصمت العبادة الرهيب؛
مرني، يا إلهي، أن أقف واطلب إلي لأرتل أغاني.
وبين نسمات الفجر، وقيثارك الذهبية تصدح، شرفي واطلب إلي أن أتقدم نحوك.

- 16 -

لقد لبيت الدعوة إلى مهرجان الحياة، فكانت حياتي سعيدة، أن عيني تبصران ومسمعي

تسمعان.
وكان عملي في هذا الحقل أن أعزف على قيثاري، فبذلت غاية جهدي.
والآن، أسأل: أفلم يأن لي أن أنطلق لأرى وجهك وأحييك في صمت وهدوء.
- 17 -
أنا أنتظر من أحب لألقي بنفسي بين ذراعيه. هذا هو عذري حين أبطأت، وهو ذنبي حين أهملت.
لقد جاءوا جميعاً وبين أيديهم القانون ومواده ليوثقوا به قيدي فأفلت من قبضتهم لأنني أنتظر من أحب لألقي بنفسي بين ذراعيه.
والناس يلومونني ويرمونني بالغفلة، ولا ريب فهم على حق.
انفضت السوق، وأنجز كل ذي عمل عمله، وانصرف الذين جاءوا ينصحونني وفيهم الغيظ والغضب؛ وأنا أنتظر من أحب لألقي بنفسي بين ذراعيه.
- 18 -
إن السحب تتكاثف في السماء والدنيا تظلم؛ آه، يا من أحب، لماذا تركتني وحيداً في هذا
العراء؟ عند الظهر في ساعات العمل، أندفع بين الزمر. والآن فهذا اليوم الظليل الهادئ هو لك يا من تعلق به أملي.
فإذا لم تطلع عليّ لأجتلي النور من وجهك، وتركتني وحيداً فكيف أقضي هذه الساعات الطويلة الممطرة.
أنا أحدق في السماء المتجهمة، وقلبي المضطرب يئن مع الرياح العاصفة.
- 19 -
إذا لم تتحدث حديثك فأملأ قلبي من صمتك العميق واحمله راضياً؛ سأطمئن وأنتظر كالليل لتسهر كواكبه ورأسه مطأطأ في صبر.
لا ريب فالصباح آت ليبدد الظلمات، وسيتدفق صوتك في مجاريه الذهبية يخترق أطباق السماء، وسيرفرف كلمك في جناحي لحن كأنه طيري الغريد، وتتفتح أنغامك عن زهر في أنحاء حديقتي.
- 20 -
يا أسفاً! في اليوم أينعت زهرة اللوتس. كان عقلي مضطرباً فلم أحس بها، وكانت سلتي
فارغة ولكن الزهرة طلت مكانها
الآن شملني حزن عميق، فهببت من حلمي لأستروح نسمات عطرية تحملها رياح الجنوب.
فبعثت هذه النسمات الحلوة في قلبي آلام الحنين، وتراءت لي كأنها زفرات الصيف العاشق وهو يفتش عن نصفه الآخر.
ما كنت أعلم أن هذه الزهرة على خطوات مني، وأنها هي لي، وأن الحلاوة قد تفتحت في أعماق قلبي.
- 21 -
لا بد أن أتناول غدائي على الشاطئ، ومرت الساعات متباطئة على الشاطئ. فيا أسفي!
لقد تفتح الربيع عن زهراته وأوراقه الخضراء، وأنا أضرب في الأرض منتظراً وعلى كتفي حمل من زهراتي الذابلة الذاوية.
الأمواج تضطرب في صخب، وعلى الشاطئ شجرات من الخوخ يانعة تعصف الريح بأوراقها الصفراء.
لماذا تحدق في الفضاء! أفلا تستشعر في الهواء هزات تحمل نغم لحن جاء في أضعافها
من الشاطئ الآخر.
- 22 -
تحت ظلال شهر يوليه المطير، تسير أنت في خطوات هادئة وفي صمت لا يشعر به الرقيب.
واليوم أغمض الصباح جفنيه، لا يعبأ بصفير الرياح الشرقية وهي تلح في ندائها، وقد

أسدل نقاب كثيف على وجه السماء الأزرق المتألق.
وأمسكت الغابة عن ترديد لحنها، وغلقت الأبواب؛ وأنت. . . أنت يا عابر السبيل تضرب في الطريق الصحراوي وحيداً. أوه، يا صديقي العزيز، يا من أحب، إن باب داري مفتوح على مصراعيه فلا تمر به كأنك حالم.
- 23 -
يا صديقي، أفِأنت في العراء تتم رحلة الهوى في هذه الليلة العاصفة؟ وإن السماء تئن كأنها مصدور بنفس عن نفسه.
لقد أرقت الليلة، يا صديقي وباب داري مفتوح فأنظر إليه في هذا الظلام الدامس. أنا لا أرى - في هذا الظلام - شيئاً مما أمامي، فلا أستطيع أن أجد الطريق إليك.
عند شاطئ أي نهر مظلم قاتم، لدى حافة أية غابة سوداء حالكة، وفي ثنايا أي عمق معتم مضل، جلست يا صديقي، ترسم في نفسك الطريق إلي.
- 24 -
إذا انطوى النهار، وصمتت الطيور الغريدة، وهدأت الرياح الزفزافة؛ فانشر علي قناعاً صفيقاً من الظلمة كما نشرت على الأرض أستار النوم، وكما لففت أوراق زهرة اللوتس الذابلة في غيابة الظلام.
نحِّ عن السائح الذي نفد زاده، وتمزقت ثيابه، وتشعث وأغبر، وخارت قوته، انطفأت منته، قبل أن يبلغ غايته. . . نحِّ عنه الضنا والفقر، وانفث فيه من روح الحياة ليكون كزهرة تلفعت برداء الليل الرفيق.
- 25 -
في الأمسية التي أكدّني فيها الجهد، دعني أنم هادئاً وفي نفسي الأيمان بك.
ولا تطلب إليّ أن أرهق نفسي المتعبة بعبادتك.
فأنت الذي أن حسرت عن عيني النهار نقاب الظلام ليبدو فيها النشاط والمرح من جديد بعد أن أضناها التعب والأسى.
كامل محمود حبيب
أبو إسحاق الصابي
للأستاذ عبد العظيم علي قناوي
بعثني إلى الكتابة عن أبي إسحاق الصابي رغبة حافزة في أن أربط بينه وبين أبي الفرج الببغاء أديبين عفى عليهما الدهر، ثم أراد لأدبهما بعثاً، كما ربطت بين روحيهما أواصر الأدب، فتعارفا متباعدين وتآلفا متقاربين، فقد قدمنا أن الصلة بينهما كانت في الحياة وثيقة العرا محكمة الحلق، لم تشبها شائبة حفيظة، ولقد جعلني الحديث عن أبي الفرج على ذكر متصل بأبي إسحاق لا يبرح أفق تفكيري ولا يحيد عنه، ولا يريم عن محيط ذهني ولا يقصو دونه. ولعل من أهم عوامل علوق أسمه بذاكرتي، ورسوخ شخصه في مخيلتي، أن حظه في دنياه كان كحظ صنوه، بل إنه كان أسوأ من أخيه جداً وأنكد دهراً، وأتعس رجاء وأملاً، فكلما تقدم به الأجل وأشرق له الأمل أدركته حرفة الأدب، فتضاعف عليه الألم، لا يغني عنه ما أوتى من ألمعية نادرة، ولا يصرف صروف الدهر دونه ما وهب الله له من مواهب فياضة زاخرة، فغير الدهر تنصب عليه انصباباً، ونوبة تتقاذفه تقاذفاً، وأحداث الزمان تتعاوره كهلاً أناخ به المشيب، وخطوبة تتناوبه شيخاً بما لا يقوى عليه الفتى الصليب. وهكذا دواليك: غمرات تترى، ونكبات تتوالى، ولا يجد على تعاقب الليالي إلا ضيماً، وتسومه الأيام بكرها خسفاً وظلماً؛ حتى أنشد وأنشد وتمنى، فكانت المنية هي أصدق المنى، فلله هو إذ يقول:
إذا لم يكن للمرء بدّ من الردى ... فأسهله ما جاء والعيش أنكد
وأصبعه ما جاء والعيش راتع ... تطيف به اللذات والعيش مسعد
فإن أك شر العيشتين أعيشها ... فإني إلى خير المماتين أقصد
وسيان يوما شقوة وسعادة ... إذا كان غِبا واحداً لهما الغد
وما زال هذا شأنه لا يحول حاله إلا إلى سوء، وذلك ديدنه لا يتغير أمره إلا إلى غير، وهو يندب جده آنا وآنا، ويشكو بؤسه حيناً وحينا، فلا يجد لشكواه سكينة أو أونا، ولا

يعرف إلى الحين مهيعاً أو سبيلاً؛ حتى صار ملجأ أمراض وأسقام، ومحط أوصاب وآلام.
وهاهو ذا يشكو زمانته، وآثار الهرم في كيانه وحاجته إلى محفة يتخذها بدل قدميه اللتين ناءتا بحمله، وشاركتا الدهر في استثقال ظله، وقد بعث بقصيدته تلك إلى الشريف الرضي، وقد كان يشفق عليه ويرحمه، ويأسو كلومه ويرأمه، قال منها:

إذا ما تعدت بي وسارت محفة ... لها أرجل يسعى بها رجلان
وما كنت من فرسانها غير أنها ... وفت لي لما خانت القدمان
نزلتُ إليها عن سراةِ حصان ... بحكم مشيبي أو فراشَ حصان
فقد حملت مني ابن تسعين سالكاً ... سبيلاً عليها يسلك الثقلان
كما حمل المهدُ الصبيَّ وقبلها ... ذعرت ليوث الغيل بالنزوان

فجاءت مواساة الشريف له سخية وفية، وعطفه براً سابغاً ضافياً، فقد لأم جروحه بقصيدة تفيض بالعطف أشطارها وتفعم بالود أبياتها منها:

لئن رام قبضاً من بنانك حادث ... لقد عاضنا منك انبساط جنان
وإن بُزّ من ذاك الجناح مطاره ... فرب مقال منك ذي طيران
وإن أقعدتك النائبات فطالما ... سرى موقراً من مجدك الملوان
وإن هدمت منك الخطوب بمرها ... فثم لسان للمناقب بان
مآثر تبقى ما رأى الشمس ناظر ... وما سمعت من سامع أذنان

من هذه الأبيات ندرك تعاسته وبؤسه، ونتبين آلامه وأسقامه، وما زال يغالب الزمان ويجالد الحدثان حتى أراد الله له الدعة التي طالما تمناها، وآتاه الطلبة التي كثيراً ما طلبها فعزت عليه. وافاه أجله وقد جاوز التسعين سنة حلب فيها الدهر أشطره فذاق شره مترعاً وقلما طعم خيره، وشرب كئوس البؤس دهاقاً، ولما ما ألمّ بالنعيم، ولقد كان في فتوته أسعد حالاً منه في كهولته وعاش في شبيبته أنعم بالاً منه في شيخوخته، وإليك حديثه عن ذلك في خيال صاف وديباجة مطرزة:

عجباً لحظي إذا أراه مصالحي ... عصر الشباب وفي المشيب مغاضبي
أمن الغواني كان؟ حتى ملني ... شيخا، وكان على صباي مصاحبي
أمع التضعضع ملني متجنياً؟ ... ومع الترعرع كان غير مجانبي
يا ليت صبوته إليّ تأخرت ... حتى تكون ذخيرة لعواقبي

وبعد تلك الإلمامة بحاله نتحدث عن نشأته وحياته: يروي ياقوت في معجمه أن أبا إسحاق إبراهيم بن هلال بن زهرون ولد بحران سنة ثلاث عشرة وثلثمائة هجرية، وأدركته منيته لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر شوال لسنة أربع وثمانين وثلثمائة؛ فسنه على هذه الرواية إحدى وسبعون سنة، وهو يقول في تعزيز روايته تلك: (وذكر أبو منصور الثعالبي في كتابه (يعني كتاب يتيمة الدهر) أنه بلغ من العمر تسعين سنة والذي أوردته من تأريخ حفيده، وهو به أعلم) ويقصد بحفيده أبا الحسين هلالاً بن المحسن بن إبراهيم الصابي، ويعقب الأستاذ شارح معجم الأدباء على ياقوت فيقول: (إنما قال الثعالبي إنه خنق التسعين أي قاربها) والحق أن الثعالبي ذكر سن أبي إسحاق في موضعين فقال في صدر الحديث عنه، وهو بصدد التعريف به (وكان قد خنق التسعين في خدمة الخلفاء وخلافة الوزراء) ثم قال في نهاية الفصل الذي كتبه عنه تحت عنوان وفاته (توفي في يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلة من شوال سنة أربع وثمانين وثلثمائة، وكانت سنوه إحدى وتسعين سنة قمرية).

وإني إلى تحقيق الثعالبي أميل لوجوه أعدد منها:

أولاً: يكاد أبو منصور الثعالبي يعتبر معاصراً لأبي إسحاق الصابي، فقد توفي أبو منصور عقبه بنحو خمس وأربعين سنة، وهو أمد قصير في أعمار التاريخ والمؤرخين.

ثانياً: السن التي ذكرها صاحب اليتيمة وردت في قصيدة لأبي إسحاق إذ يقول:

فقد حملت مني ابن تسعين سالكا ... سبيلا عليها يسلك الثقلان

وقد كان إنشاء هذه القصيدة قبل وفاته بنحو أربعة أشهر

ثالثاً: قد يكون حفيد أبي إسحاق صادراً في حديثه عن غير تروٍّ وتدبر للحقيقة، لأنه حديث يسمع وينسى لا كما يصدر حديث عن مؤلف يتحرى الصدق ويلتزم جادة الدقة؛ لأنه خبر يخلد ويبقى.

رابعاً: سن السبعين لا توهي جلداً ولا توهن عظماً، وإن كان صاحبها متزاحمة عليه النائبات مولعة به النكبات إلا في القليل النادر.

وسواء أكان موته عن إحدى وتسعين أم عن إحدى وسبعين فقد خلف في الأدب أخلد الأثر، وضرب في النبل والوفاء أصدق المثل، فلقد ولد ومات على دين الصابئة، والصابئون كما يقول الأمام الكبير الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى: (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر. . . الخ الآية): (قوم يعبدون الكواكب ثم لهم قولان: الأول إن خالق العالم هو الله سبحانه، إلا أنه سبحانه أمر بتعظيم هذه الكواكب

واتخاذها قبلة للصلاة والدعاء والتعظيم. والثاني: إن الله سبحانه خلق الأفلاك والكواكب، ثم إن الكواكب هي المدبرة لما في هذا العالم من الخير والشر والصحة والمرض، والخالقة لها، فيجب على البشر تعظيمها لأنها هي الآلهة المدبرة لهذا العالم، ثم إنها تعبد الله سبحانه).

على هذا الدين ولد أبو إسحاق وعليه مات في عصر الإسلام فيه مزدهر والكلمة العليا له، والمكانة المكينة في العالم لرجاله، ولا فضل لمن لم يوله قلبه، ويهب له نفسه، وإن بقاءه على صابئته - على الرغم مما يحوطه ليدل أعظم الدلالة على أن الإسلام دين سمح، أساسه العفو والأمر بالعرف، والإعراض عن المشركين دون أن يصيبهم أذى، أو ينالهم حيف، أو تحل بهم نقمة مخلوق؛ لأنه دين العقل والحجة والمنطق والموعظة الحسنة، ولولا تسامح ذلك الدين القويم ما وجد مثل الصابئ كنفاً يلجأ إليه أو وزراً يحميه، فكيف وقد عاشر الخلفاء والأمراء والملوك والوزراء؟ وكذلك عاش أمثاله في رغد ورفهية؛ عاشوا موفوري الكرامة مرفوعي الرءوس مجدودي الحياة؛ ولقد بصر أبو إسحاق بالدين الإسلامي ورغب في الإسلام وألف قلبه، وأجزل له من أجل ذلك، فلم يهد الله قلبه للإيمان؛ لأنا لا نهدي من نحب، ولكن الله يهدي من يشاء؛ لذلك لم يصخ بسمعه إلى دعوة اليقين والداعون إليها هم سادته ومواليه وأرباب نعمته ومالكو زمام أمره إن شاءوا رفعوه وأعزوه، وأن أرادوا وضعوه وأذلوه. ولقد حدث التاريخ أن عز الدولة بختيار عرض عليه الوزارة على أن يسلم، فأباها مفضلاً أن يبقى على دين آبائه الغابرين؛ وإن وفائه لملته، وإخلاصه لنحلته لمصدر عجب لمن أراد العجب؛ إذ لم يعرف عنه أنه أرتكب أمراً حرم عليه، ولا جاء وزراً نهى عنه شرعه. ويروي المؤرخون أنه حضر مائدة للوزير المهلبي بن أبي صفرة، وكان أبو إسحاق من خلانه الأدنين وخلصائه المصطفين، فامتنع عن لون من ألوان الطعام محرم لدى الصابئة، فقال له المهلبي: لا تبرد وكل معنا من هذه الباقلاء. فقال: أيها الوزير لا أريد أن أعصي الله في مأكول، فكان موفقاً في إجابته مسدوداً في مجانته. وروي أن عز الدولة بختيار بذل له ألف دينار على أن يأكل الفول وهو مما يحرم أكله أيضاً في دينه، فرفضها متعففاً وهو الفقير إليها فأين من أولئك الذين لا يتناهون عن منكرات يجترمونها، ولا يتعففون عن محرمات يجترحونها غير مبالين ما ينتظرهم من حساب شديد وعذاب

أليم؟ وآية نبله أنه مع تعصبه هذا وتشدده وتزمته في دينه كان جميل العشرة للمسلمين صادق الإخاء كريم الصنيع حسن المعونة، فكان يصوم رمضان لا تحنثاً بل تجملاً، ويحفظ القرآن الكريم إجلالاً له وعرفاناً بخطره؛ لأنه رأى فيه مهبط الحكمة ومصدر البلاغة، ومشرع اللسن والفصاحة، فظهر أثر ذلك على أسلة يراعه، وجرى على عذبة لسانه. وإليك ما يقوله أبو منصور الثعالبي في يتيمته عنه في تلك الناحية من خلقه وأدبه: (كان يعاشر المسلمين أحسن عشرة، ويخدم الأكابر أرفع خدمة، ويساعدهم على صيام شهر رمضان، ويحفظ القرآن حفظاً يدور على طرف لسانه وسن قلمه، وبرهان ذلك ما وردته في كتاب الاقتباس من فصوله التي أحسن فيها كل الإحسان وحلاها بآي من القرآن)

ومن آيات وفائه ونبله أنه كان صديقاً ودوداً للشريف الرضي حتى أتهم بأنه يدعو له بالخلافة، ويتمنى أن ينال مطمحه ويدرك مأربه، وهو لم ينف ذلك عن نفسه، بل إنه جهر به في قصيدة بعث بها إلى الشريف، وهو لا بد عالم بوقعها في نفوس أعدائه وحاسديه، ولكنه لم يعبأ بما قد يصيبه بسببها، لأنه أسير وجدانه، وينطق إذ ينطق عن شعوره وإحساسه، وما عليه إذ يرضيهما من بأس، وهذا بعض ما قاله فيها:

أبا حسن لي في الرجال فراسة ... تعودتُ منها أن تقول فتصدقا
وقد خبَّرتني عنك أنك ماجد ... سترقي من العلياء أبعد مرتقى
فوفَّيتك التعظيم قبل أوانه ... وقلت أطال الله للسيد البقا
وأضمرت منه لفظة لم أبح بها ... إلى أن أرى إطلاقها لي مطلقا
فإن عشت أو إن مت فاذكر بشارتي ... وأوجبْ بها حقاً عليك محققاً
وكن لي في الأولاد والأهل حافظاً ... إذا ما اطمأن الجنب في موضع البقا

ولقد كان مع هذا محببا إلى الخلفاء والوزراء، كلهم يطلب يده ويبتغي أن يقصر خدمته عليه دون غيره، فمنهم من كان يسلك إلى إربته طريق البذل والرفد، ومنهم من كان يطرق سبيل العقوبة والحقد، فعاش محسداً إن رضى عنه وزير غضب عليه آخر، وإن صفا له أمير جفاه خليفة. وممن اصطفاه ولم يجتوه وأحبه ولم يجفه الصاحب بن عباد، ولعل الأدب هو الذي قرب بين نفسيهما وألف بين روحيهما، فلم تقع بينهما نبوة، ولا لحق صدقتهما جفوة، فكثيراً ما بثه شكواه، واستمطر غيثه وكان موضع نجواه، ولقد كان أول أمره يأنف

أن يتصل بالصاحب مادحاً أو أن يطلب صلته مانحاً؛ حتى استوزر الصاحب فنزل عن أنفته وقنع من مطاولته بمصاحبته، وكان الصاحب يعجب به أشد الإعجاب، ويراه أحد أفذاذ الأدب، فقد حدَّث عنه أنه كان يقول: (كتاب الدنيا وبلغاء العصر أربعة: الأستاذ أبن العميد، وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف، وأبو إسحاق الصابي ولو شئت لذكرت الرابع) وكان يعني بالرابع نفسه. ويقول الثعالبي (وأما الترجيح بين هذين الصدرين أعني الصاحب والصابي في الكتابة فقد خاض فيه الخائضون، وأخب فيه المخبون، ومن أشف ما سمعته في ذلك أن الصاحب كان يكتب كما يريد وأبو إسحاق كان يكتب كما يؤمر، وبين الحالتين بون بعيد) وأحسب أنه يقصد تفضيل الصابي لأن الذي يستطيع أن يكتب ما يراد منه ويؤمر به لاشك مستطيع أن يكتب مات يرده هو، وعلى هذا فقد برع في الناحيتين وفاق صاحبه فيما قصر فيه، وإلى أمد قاصد نكمل عنه الحديث متناولين جزءاً آخر من تاريخه الأدبي.

عبد العظيم علي قناوي

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي 1880 - 1937

للأستاذ محمد سعيد العريان

- 16 -

(لا يصح الحب بين أثنين إلا إذا أمكن لأحدهما أن يقول للآخر: يا أنا. . . ومن هذه الناحية كان البغض بين الحبيبين - حين يقع - أعنف ما في الخصومة، إذ هو تقاتل روحين على تحليل أجزائهما الممتزجة. وأكبر خصيمين في عالم النفس (هما) متحابان تباغضاً. . .)

(الرافعي)

السحاب الأحمر

ترى ماذا كتبت إليه صاحبته بعد ما قرأت رسائل الأحزان فأثارت نفسه بعد هدأتها وردته من الغيظ والحنق إلى أن يقول: (يا هذه لا أدري ما تقولين؛ ولكن الحقيقة التي أعرفها: أن نفس المرأة إذا اتسخت كان كلامها في حاجة إلى أن يغسل بالماء والصابون وهيهات. .!) ويقول: (يجب على المدارس حين تعلم الفتاة كيف تتكلم أن تعلمها أيضاً كيف تسكت عن بعض كلامها)؟

من لي بأن أعرف ما كان وقع رسائل الأحزان في نفسها ما وردت به؟

إنه يتحدث في السحاب الأحمر عن التهمة والظنون، والكلام الذي لا يغسله الماء والصابون، والنجمة الهاوية، وخداع النظر في الحب، وفساد الرأي في الهوى، وطيش القلب في الاستسلام، ثم. . . ثم يحاول أن يعتذر. . .!

هنا الحلقة المفقودة في تأريخ هذا الحب، فلست أدعي المعرفة؛ ولقد كنت مع الرافعي مرة في مكتبه وبيننا السحاب الأحمر يقرأ لي بعض فصوله، فأشرت إليه عند فقرة من الكلام ليجيبني عن سؤال يكشف عن شئ من خبرها ومن خبره؛ فوضع الكتاب إلى جانبه وحدق في طويلاً ثم سكت، وسبحت خواطره إلى عالم بعيد، وراحت

أصابعه تعبث بما على المكتب من أشيائه، ثم قال: (أرأيت القلم الذي تراءى لي السحاب الأحمر في نصابه بين
عيني والمصباح. . .؟) ثم دس يده في درج المكتب فأخرجه ودفعه إلي وهو يقول:
(ضع النصاب بين عينيك والمصباح وأنظر. ألست ترى سحاباً يترقرق بالدم كأن قلباً جريحاً ينزف؟ في شعاعه هذا النور تراءت لي هذه الخواطر التي تقرؤها في السحاب الأحمر. . .) ثم عاد إلى الصمت ولم أعد إلى السؤال
أحسب أن الرافعي حين أنشأ السحاب الأحمر كان في حالة عصبية قلقة لست أعرف مأتاها ومردها، ولكن فصول الكتاب تتحدث عن خبرها في شئ من الغموض والإبهام.
لقد أنشأ الرافعي رسائل الأحزان ليكون رسالة إليها يتحدث فيها عن حبه وآلامه؛ ولست أشك أن صاحبته حين تأدَّت إليها رسائله قد فهمت ما يعنيه وعرفت ذات صدره، وأحسبها - وهي الأديبة الشاعرة - قد سرها أن تكون هي فلك الوحي لما في رسائل الأحزان من كل معنى جميل. أفتراها قد بدا لها أن تهيجه بالدلال والإغراء وقسوة العتب وتصنع الغضب لتفتنه وتزيده وحياً وشعراً وحكمة. . .؟
إن كانت هذه رسالتها إليه فما أراها قد بلغت بها إلا أن هاجت كبرياءه وأثارت نفسه، فكتب كتابه ولكن لغير ما أرادت وما قصدت إليه. . .
يقوم السحاب الأحمر على سبب واحد، يدور حول فلسفة البغض، وطيش الحب، ولؤم المرأة. . .!
على أن كل ما فيه لا يشير إلا لمعنى واحد: وهو أن قلباً وقع في أسر الحب يحاول الفكاك فلا يستطيعه؛ فما يملك إلا أن يصيح بملء ما فيه: إني أبغضك أيتها. . . أيتها المحبوبة!
وكما يفزع الشخص إذا حزبه أمره إلى أصدقائه يستعينهم ويستلهمهم الرأي في بلواه، كذلك فزع الرافعي في السحاب الأحمر، ولكن إلى أصدقاء من غير عالمه يستعينهم على أمره؛ فهذا صديقه الشيخ علي صاحب المساكين، وهذا صفيه وصاحب نشأته الشيخ أحمد الرافعي؛ وذلك أستاذه ومثله العالي في دينه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده؛ وهذه أم ضل ولداها الحبيبان، وتلك زوج يفارقها زوجها الحبيب إلى السجن؛ وهذا، وهذه، وتلك، يحدثونه جميعاً حديثهم عن الحب في رأى العين، وفي رأى القلب، وفي رأى العقل، ويحدثهم حديثه. . . فما تلمح من أحاديث هؤلاء جميعاً إلا أن الرافعي في جهاد عنيف بين قلبه وعقله، يريد أن يثبت الغلبة لعقله على هواه ليخرج من أمر صاحبته برأيه وفكره
وكبريائه، ثم لا تكون الغلبة في النهاية إلا للحب على رأيه وفكره وكبريائه.
على أن كتاب السحاب الأحمر ليس كله خالصاً لصاحبته وأن يكن من وحيها؛ ذلك أن نسقه العجيب، ومحاولة الرافعي به أن ينصرف عنها، قد شرع له في الكتاب مسالك من القول لم تكن مما يقتضيه ما بينه وبين صاحبته.
في الفصل الأول من السحاب الأحمر، يتحدث الرافعي عن فتاة (عرفها قديماً في ربوة من لبنان، ينتهي الوصف إلى جمالها ثم يقف!) وهو يعني صاحبته التي أملت عليه (حديث القمر) وإنك لتقرأ حديثه عنها، ووصفه لها، وما كان من أثرها في نفسه؛ فتسأل نفسك: أي شئ رده إلى هذه الذكرى البعيدة فأيقظها في نفسه بعد اثنتي عشرة سنة محا الزمان بها في قلبه وأثبت؟ فلا تلبث أن تجد الجواب في الأسطر الأخيرة من هذا الفصل:
(إن من النساء ما يفهم ثم يعلو في معاليه الجميلة إلى أن يمتنع، ومن النساء ما يفهم ثم يسفل في معانيه الخسيسة أن يبتذل. . .
(إن من المرأة ما يحب إلى أن يلتحق بالإيمان، ومن المرأة ما يكره إلى أن يلتحق بالكفر. . .
(من المرأة حلو لذيذ يؤكل منه بلا شبع، ومن المرأة مر كريه يشبع منه بلا أكل. . .!)
أتراه بهذا يوازن بين واحدة وواحدة، ليقول لهذه: أن تلك كانت خيراً منك؟ وهل تحسبه كان يعتقد ذلك؟ أما أنا فاعرف من أخلاق الرافعي أن هذا معنى لم يكن يعنيه، ولكنها مساومة في الحب يريد بها أن يهيج غيرة صاحبته ليردها إليه، أو أنه أراد أن ينقذ كبريائه فيزعم لصاحبته أنه لم يكن يعنيها برسائل الأحزان، لأن هنالك أخرى. . .
وتقرأ (النجمة الهاوية) في الفصل الثاني، فتسمعه يقول: (تتم آمالنا حين لا نؤمل!)

فما تشك أن هناك رسالة إليها، رسالة يمليها الحب المغيظ المحنق، يحاول فيها أن يوهمها أنها لم تعد شيئاً في نفسه، وأنه قد تمت آماله واستراحت نفسه فليس له فيها أمل ولا يتعلق بها رجاء؛ ثم يستطرد في معاني البغض والهجر والقطيعة بأسلوب قاسٍ عنيف، ولكن قلبه العاشق المفتون ينبض في كلماته؛ فما ينتهي الفصل حتى يستعلن حبه من وراء كلمات البغض وهو يقول: (أشأم النساء على نفسها من لا تحب ولا تبغض، وأشأمهن على الناس من إذا عدت مبغضيها لا تعد إلا الذين أحبوها. . .!) وأنني لأعرف الرافعي وأستمع إلى همسات قلبه، فهل ترى ترجمة هذه العبارة إلا أنه يقول: (إنني أحبك يا أشأم النساء!)؟

اقرأ في آخر هذا الفصل الصاخب قوله:

يا من على الحب ينسانا ونذكره ... لسوف تذكرنا يوماً وننساكا

إن الظلام الذي يجلوك يا قمرٌ ... له صباح متى تدركه أخفاكا

ويتحدث في الفصل الثالث عن السجين تحمله عربة السجناء إلى قضائه، وزوجته التي تحبه تشيعه بنظراتها الجازعة؛ فتعرف من وصفه لساعة الفراق بين الزوجين الحبيبين، أي خاطرة في الحب ألهمته هذا الفصل البديع، وكأنك تسمع الرافعي يتحدث فيه عن نفسه مما فعل به الفراق: (ما الفراق إلا أن تشعر الأرواح المفارقة أحبتها بمس الفناء لأن أرواحاً أخرى فارقتها؛ ففي الموت يمس وجودنا ليتحطم، وفي الفراق يمس ليلتوي؛ وكأن الذي يقبض الروح في كفه حين موتها، هو الذي يلمسها عند الفراق بأطراف أصابعه!

وإنما الحبيب وجود حبيبه لأن فيه عواطفه؛ فعند الفراق تنتزع قطعة من وجودنا) فنرجع باكين ونجلس في كل مكان محزونين كأن في القلوب معنى من المناحة على معنى من الموت. . .

ترى العمر يتسلل يوماً فيوماً ولا نشعر به، ولكن متى فارقنا من نحبهم نبه القلب . . .) فينا بغتة معنى الزمن الراحل، فكان من الفراق على نفوسنا انفجار كتطاير عدة سنين من الحياة. . .)

ويتحدث في الفصلين الرابع والخامس عن تجارة الحب، وعن المنافق، فتلمح من وراء حديثه معنى لا يريد أن يفصح عنه، وإنه لبسبب مما كان بينه وبين صاحبته؛ أفتراه يشير به إلى شئ من أسباب القطيعة؟

وفي الفصل السادس يتحدث عن حب الأم في قصة والدة ضل ولداها الصغيران ثم اهتدت إليهما:

الحب! ما الحب إلا لهفة تهدر هديرها في الدم، وما خلقت لهفة الحب أول ما خلقت) إلا في قلب الأم على طفلها. . . حب الأم في التسمية كالشجرة: تغرس من عود ضعيف، ثم لا تزال بها الفصول وآثارها، ولا تزال تتمكن بجذورها وتمتد بفروعها حتى تكتمل شجرة بعد أن تفنى عداد أوراقها ليالي وأياماً. وحب العاشقين كالثمرة: ما أسرع ما تنبت، وما أسرع ما تنضج، وما أسرع ما تقطف؛ ولكنها تنسى الشفاه التي تذوقها ذلك التاريخ الطويل من عمل الأرض والشمس والماء في الشجرة القائمة.

لا لذة في الشجرة ولكنها مع ذلك هي الباقية وهي المنتجة، ولا بقاء للثمرة ولكنها) على ذلك هي الحلوة وهي اللذيذة وهي المنفردة باسمها.

وهكذا الرجل أغواه الشيطان في السماء بثمرة فنسى الله حيناً، ويغويه الحب في) الأرض بثمرة أخرى فينسى معها الأم أحياناً!).

وتراه في فصول الثلاثة الباقية كأنما يحاول أن يروض نفسه على السلوان، ويقنعها بأن الحب ليس هو رجولة الرجل، وليس هو إنسانية الإنسان، وليس هو كل ما في الحياة من لذة ومتاع، في كلام يجريه على ألسنة شيوخه وأصدقائه: الشيخ علي، والشيخ أحمد، والشيخ محمد عبده؛ يحاورهم ويحاورونه، فنستمع في هذا الحوار إلى النجوى بينه وبين نفسه، والى الصراع بين عقله وهواه.

إن الرافعي بكبريائه وخلقه ودينه واعتداده بنفسه، لم يخلق للحب! ولكنه أحب؛ فمن ذلك كان حبه سلسلة من الآلام، وصراعاً دائماً بين طبيعته التي هو بها هو، وفطرته التي هو بها إنسان. وإنك لتلمح هذا الصراع الدائم في كل فصل من فصول السحاب

الأحمر.
وفي كتاب السحاب الأحمر، تقرأ رأي الرافعي في القضاء والقدر؛ وإنه ليشعرك برأيه ذلك مقدار ما فعل به الحب وما فل من إرادته، فتراه يؤمن بأن الإنسان في دنياه ليس له كسب ولا اختيار فيما يعمل، ولكنه قضاء مقدور عليه منذ الأزل لا طاقة له على الفكاك منه؛ وإنه على ذلك لموقن بأن لله حكمه فيما قضى وقدر وإن دقت حكمته على الإفهام:
(ألا يا ماء البحر، ما أنت على أرض من الملح؛ فبماذا أصبحت زعاقاً لا تحلو ولا تساغ ولا تشرب؟ إنك لست على أرض من الملح ولكنك يا ماء البحر ذابت فيك الحكمة الملحة. . .!).
قلت في مقالي السابق: إن رسائل الأحزان عند أكثر قراء العربية هو شئ من البيان المصنوع تكلفه كاتبه ليحاول به أن يستحدث فناً في العربية لم يوفق إلى تجويده. . . لأنه بقية قصة لم تنشر معه - هي قصة غرام الرافعي - فجاء كما تأكل النار كتاباً من عيون الكتب فما تبقى منه إلا على الهامش والتعليق وصلب الكتاب رماد في بقايا النار.
أما السحاب الأحمر فهو كتاب كامل. احذف منه فصلاً أو فصلين في أوله، وشيئاً من فضول القول في سائره، تجد فناً في العربية لا يقدر عليه إلا الرافعي، فجرده من قصته أو أنسبه إليها فأنك واجد فيه أدباً يستحق الخلود، وبياناً يزهي على البيان، وشعراً وحكمة ما زال الأدباء يدورون عليها حتى وجدوها في أدب الرافعي.
في رسائل الأحزان أراد الرافعي أن تعرف صاحبته من حاله ومن خبره ما أراد، فأغراها بالترفع والدلال عليه. وفي السحاب الأحمر حاول أن يشعرها أنه قد فرغ من أمرها وفرغت من أمره فمالها عنده إلا البغض والإهمال، وماله عندها إلا اللهفة على ما كان من أيامه. أفتراه في السحاب الأحمر قد بلغ ما أراد؟
هيهات أن يخفى الهوى!
استمع إليه يحاول أن يهيج فيها الغيرة ويبعث اللهفة ويوقظ الحنين ويؤرث البغضاء ويثير الندم؛ فلا يكاد يبلغ آخر الرسالة حتى ينسى ما قصد إليه ليدع لقلبه أن يقول:
وبلي على متدلِّل ... ما تنقضي عني فنونهْ
كيف السُّلُوُّ وفي فؤا ... دي لا تفارقني عيونهْ؟!
يرحمك الله يا صديقي!
(شبرا)
محمد سعيد العريان
فلسفة التربية
كما يراها فلاسفة الغرب
للأستاذ محمد حسن ظاظا
- 2 -
(الفلسفة بوجه عام هي المحاولة المتكررة للوصول إلى معرفة منتظمة مفهومة لصور وعلاقة ومعنى ومحمول الأشياء)
بولزن)
رأيت في المقال السابق ذلك (التقدير النزيه) الذي تقُوّم به الفلسفة عملية التربية، وتبينت إلى أي حد ترتفع التربية بذلك (التقدير) وتسمو على سائر التجارب الإنسانية. وأحب اليوم أن أتنقل بك إلى العلاقة بين الفلسفة والتربية، والى فحوى فلسفة التربية لدى الإنجليز والأمريكيين على الخصوص، تمهيداً للكلام على مسائل أخرى تختص بأغراض التربية ومنهجها، وتطبيقات العلم والديمقراطية عليها.
العلاقة بين الفلسفة والتربية قوية إلى أبعد حد. بل أن (جون ديوي) الفيلسوف الأمريكي الذي يحمل لواء التربية في هذا العصر يذهب إلى القول بأن الفلسفة اليونانية - وهي أول فلسفة دقيقة معروفة - لم تنشأ إلا من ضغط مسائل التربية على عقول المفكرين. وإذن فلم يكن (الطبيعيون الأولون) عنده إلا فصلاً في تأريخ العلم! أما الفسطائيون وسقراط، فأولئك هم الذين اضطرتهم شئون التربية في عهدهم إلى أن (يتفلسفوا)! فكان لنا منهم كلام في التربية تأدى بهم إلى كلام في الفلسفة!! ومهما يكن من أمر هذه المبالغة الظاهرة في كلام (ديوي) فلا شك أن التربية لا

تستطيع أن تستغني قط عن الفلسفة، لا في غاياتها ولا في تقدير وربط نتائج علومها الكثيرة بعضها ببعض. بل نحن إذا نظرنا في مسائل الفلسفة الكبرى وجدنا أن أغلبها يقوم محوراً لعملية التربية ذاتها.

ولقد كانت الفلسفة إلى ما قبل (العلم التجريبي) مجرد نظريات ومبادئ تخوض في متاهات ميتافيزيكية كثيرة. أما اليوم بعد أن نجح هذا العلم في إقناع العالم بنجاحه وجدارته، وبعد أن اتجهت أمريكا على الخصوص اتجاهاً (عملياً) في فهم الكون وتقدير القيم المختلفة للموجودات - فقد أصبحت (الفلسفة) تسير في التربية على الضوء الذي يبعثه العلم ولا تكاد تميل عنه إلا قليلاً، وبالأحرى هي كذلك لدى (جون ديوي) ومدرسته. فهي كما يقولون لا تستطيع أن تفهم الوجود بأكثر مما يسمح به الواقع المحدود!! وهي (في التربية) تأخذ ذلك (الواقع المحدود) من علوم الحياة، ووظائف الأعضاء، والنفس، والاجتماع، وتاريخ الثقافة والسياسة والتربية والفن والدين، ثم تكون منه نظرة كلية فيها شرح وتفسير وتقويم وتشريع!

وإذن ففلسفة التربية في هذا المذهب لا تكاد تعدو أن تكون النظرية العامة التي تجد تطبيقاتها في عملية التربية بجميع نواحيها ذلك أنها تعالج التربية كوظيفة ضرورية غير منفصلة عن الحياة بحكم طبيعة الحياة نفسها، وتنقد وتشرح الطرق والمواد المستعملة في هذه العملية على أساس تلك الوظيفة الآنفة، وتمدنا بالأصول التي تجعل التربية فعالة، وتوضح المبادئ التي تنفث الحياة في مصالح الجماعة والتي تبرر النظام القائم أو لا تبرره، كما تعطي الجماعة ذاتها شعوراً شاملاً قوياً بمعنى الأساليب المختلفة التي تباشرها في تدريب أعضائها، وبأساس هذه الأساليب وقيمتها

ولئن قال قائل أن التفكير غالباً ما يولي هارباً تحت ضغط الحوادث تاركاً العمل للعاطفة، أو الانفعال، أو الضرورة الغالبة بحيث إنا لا نستطيع دائماً (التفلسف) في أساليب حياتنا: فالجواب هو أن التفكير لا يزال بالرغم من ذلك الأداة الوحيدة التي تخرجنا من الأزمات بما يقدمه من حلول ممكنة، ووسائل محتملة، ثم هو وإن كان لا يخلق قيماً جديدة فهو على كل حال يميز بين القيم المختلفة، ويقدم لنا تلك التي توصلنا أكثر من غيرها إلى غايتنا.

وإذن فالتربية القائمة على غير فلسفة تسندها تكون كالساري بالليل من غير دليل، والتربية القائمة على فلسفة خاطئة مصيرها الفشل المحتوم. . .

والأمر في الفرد والمجتمع على السواء. فلكل فرد فلسفته الخاصة في الحياة. ولكل جيل أو مجتمع نظريته العامة التي يطبقها في سلوكه؛ وعلى قدر دقة هذه النظرية وصحتها يكون النجاح أو الفشل، والسعادة أو الشقاء.

كلمة فلسفة التربية الحديثة في اتجاهات اليوم

وإذا كان العصر الحاضر يمتاز بثلاث اتجاهات أساسية هي: الديمقراطية، والصناعة والتجارة، والعلم التجريبي، فإن الأستاذ (جون ديوي) عندما يكتب عن (فلسفة التربية) (في دائرة معارف التعليم للأستاذ منرو) لا يكاد يخرج عن هذه الاتجاهات الثلاثة. فنراه من حيث الاتجاه الأول (الديمقراطية) ينادي بتعليم الجميع وبتساويهم في فرصة إظهار كفايتهم الخاصة حتى يمسك فخ التعليم بالذكاء والنبوغ على نحو تعبير (ويلز) القصصي الفيلسوف، كما نراه ينادي باحترام الفرد ولكن على أن يؤدي واجبه في المجتمع وهو راضي مطمئن.

وهو من حيث الاتجاه الثاني (الصناعة والتجارة) يدعو إلى ضرورة إشراك العمل مع النظر في التربية، والى بث روح التعاون بين الطبقات، والى العناية بعلوم الطبيعة وعدم الإفراط في التخصص الذي يجعل من الآلة إلهاً جباراً. هذا إلى جانب غرس الذوق السليم، ومحاربة التبذل والإسفاف والترف المقيت وإضاعة الفراغ في غير متعة بريئة، والى جانب التحذير الدائم من عواقب التعسفات الرأسمالية.

أما من حيث الاتجاه الثالث (اتجاه العلم التجريبي) فنراه يلح في نبذ تلك (السلبية) البغيضة التي قد أوقفنا وما زلنا نوقف فيها الطفل إزاء عملية المعرفة، ويدعو بقوة إلى جعل التعليم عملية (كشف) يدرب فيها الطفل حواسه وقواه العقلية ويمضي فيها كما سيمضي غداً في الحياة، فيفترض الفروض أمام المشكلات ويجرب ويحقق آناً بنفسه وآناً بإرشاد الأستاذ، ذلك إلى حصر الدراسة في المواد التي يحتاج إليها العصر

الراهن من ناحية، والكمال الإنساني من ناحية أخرى.
(يتبع)
محمد حسن ظاظا
مدرس الفلسفة بشبرا الثانوية الأميرية
نقل الأديب
للأستاذ محمد اسعاف النشاشيبي
318 - ما أشبه فروع الإحسان بأصوله
البحتري: قال إبراهيم بن الحسن بن السهل: كان المأمون يتعصب للأوائل من الشعراء، ويقول: انقضى الشعر مع ملك بني أمية. وكان عمي الفضل بن سهل يقول له: الأوائل حجة وأصول، وهؤلاء أحسن تفريعاً. إلى أن أنشده يوماً عبد الله بن أيوب التيمي شعراً مدحه فيه، فلما بلغ قوله:
ترى ظاهر المأمون أحسن ظاهر ... وأحسن منه ما أسرّ وأضمرا
يناجي له نفساً تربع بهمة ... إلى كل معروف وقلبا مطهرا
ويخشع إكباراً له كلُّ ناظر ... ويأبى لخوف الله أن يتكبرا
فقال للفضل: ما بعد هذا المدح، وما أشبه فروع الإحسان بأصوله!
319 - أشعر الشعراء
في (المثل السائر) لابن الأثير: يُروي عن بشار أنه وصف نفسه بجودة الشعر والتقدم على غيره، فقيل له: ولِمَ ذاك؟ فقال: لأني نظمت اثنتي عشر ألف قصيدة وما تخلو واحدة منهن من بيت واحد جيد، فيكون لي اثنا عشر ألف بيت. وقد تأملت هذا القول فوجدته على بشار لا له، لأن (باقلا) لو نظم قصيداً ما خلا من بيت واحد جيد. وقد وصل إلى ما بأيدي الناس من شعره فما وجدته بتلك الغاية التي ادعاها لكن وجدت جيده قليلاً بالنسبة إلى رديئه، وتندر له الأبيات اليسيرة. وبلغني عن الأصمعي وأبي عبيدة وغيرهما أنهم قالوا هو أشعر الشعراء المحدثين قاطبة، وهم عندي معذورون لأنهم ما وقفوا على معاني أبي تمام وأبي الطيب ولا على ديباجة البحتري. وهذا الموضع لا يستفتي فيه علماء العربية، وإنما يستفتي فيه كاتب بليغ أو شاعر مفلق، فإن أهل كل علم أعلم به. على أن علم البيان من الفصاحة والبلاغة محبوب إلى الناس قاطبة؛ وما من أحد إلا يحب أن يتكلم فيه حتى أني رأيت أجلاف العامة وأغتام الأجناس كلهم يخوضون في فن الكتابة والشعر، ويأتون بكل مضحكة. والمذهب عندي في تفضيل الشعراء أن الفرزدق وجريراً والأخطل أشعر الشعراء أولاً وآخراً، ومن وقف على دواوينهم علم ما أشرت إليه. وأشعر من هؤلاء عندي الثلاثة المتأخرون وهم أبو تمام والبحتري والمتنبي فإن هؤلاء الثلاثة لا يدانيهم مدان في طبقة الشعراء؛ أما أبو تمام وأبو الطيب فربا المعاني، وأما أبو عبادة فرب الألفاظ في ديباجتها وسبكها.
320 - الشعر المغسول
في (الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء) لأبي عبيدة الله المرزباني: قال البحتري: دعاني علي بن الجهم فمضيت إليه، وأفضنا في أشعار المحدثين إلى أن ذكرنا أشجع السُّلَمي. فقال لي: إنه (يُخلى) وأعادها مرات ولم أفهمها، وأنفت أن أسأله عن معناها، فلما انصرفت أفكرت في الكلمة، ونظرت في شعر أشجع فإذا هو ربما مرت له الأبيات مغسولة، وليس فيها بيت رائع، وإذا هو يريد هذا بعينه: إنه يعمل الأبيات ولا تصيب فيها بيتاً نادراً كما أن الرامي إذا لم يصب من رشقه كله الغرض بشيء قيل (أخلي) فجعل ذلك قياساً، وكان علي بن الجهم عالماً بالشعر.
321 - وإنما لمعان تعشق المصور
أبو القاسم غانم بن أبي العلاء الأصبهاني:
قوم لو أنهمُ ارتاضوا لما قرَضوا ... أو أنهم شعروا بالنقص ما شعروا
لا يحسن الشعر ما لمُ يسترقَّ له ... حرّ الكلام، وتستخدمْ له الفكَر
أنظرْ تجدْ صور الأشعار واحدة ... وإنما لِمعانٍ تعشق الصور
322 - اختيار الوزن والقافية
قال الصاحب في رسالته (الكشف عن مساوئ شعر المتنبي): كنت أقرأ على (الأستاذ الرئيس ابن العميد) شعر ابن المعتز متخيراً الأنفس فالأنفس، فابتدأت قصيدة على

المديد الأول، فرسم تجاوزها، وقدَّرته يحفظها ولا يرضاها. فسألته عنها، فقال: هذا الوزن لا يقع طلبه للمحدثين جيد الشعر. فتتبعت عدة قصائد على هذا الضرب فوجدتها في نهاية الضعف. وسمعته (أيده الله) يقول: إن أكثر الشعراء ليس يدرون كيف يجب أن يوضع الشعر، ويبتدأ النسج، لأن حق الشاعر أن يتأمل الغرض الذي قصده، والمعنى الذي
اعتمده، وينظر في أيّ الأوزان يكون أحسن استمراراً، ومع أي القوافي يحصل أجمل اطراداً، فيركب مركباً لا يخشى انقطاعه والتياثه عليه.

323 - فلقى الله شبعان ريان دفيئاً

قال أعرابي وهو يدعو الله بباب الكعبة: اللهم ميتة كميتة أبي خارجة. فسألوه، فقال: أكل بَذَجاً وشرب وطبْاً من اللبن، وتروى من النبيذ، ونام في الشمس فمات؛ فلقي الله شبعان ريان دفيئاً.

324 - طلعها كأنها رؤوس الشياطين

في (الكامل): التشبيه جار كثير في كلام العرب حتى لو قال قائل هو أكثر كلامهم لم يبعد. قال عز وجل وله المثل الأعلى: (الزجاجة كأنها كوكب دري) وقال: (طلعها كأنه رؤوس الشياطين). وقد اعترض معترض من الجهالة الملحدين في هذه الآية فقال: إنما يمثل الغائب بالحاضر، ورؤوس الشياطين لم نرها فكيف يقع التمثيل بها؟ وهؤلاء في هذا القول كما قال الله: (بل كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله). وهذه الآية قد جاء تفسيرها في ضربين: أحدهما أن شجراً يقال له: (الآستَن) منكر الصورة يقال لثمره: رؤوس الشياطين، وزعم الأصمعي أن هذا الشجر يسمى الصوم. والقول الآخر - وهو الذي يسبق إلى القلب -: إن الله شنع رؤوس الشياطين في قلوب العباد، وكان ذلك أبلغ من المعاينة، ثم مثل هذه الشجرة بما تنفر منه كل نفس.

325 - إلا التنقل من حال إلى حال

في (تأريخ الطبري): قال أبو العتاهية: وجّه إليّ المأمون يوماً فصرت إليه، فألفيته مطرقاً مفكراً، فأحجمت عن الدنو منه في تلك الحال، فرفع رأسه فنظر إليّ، وأشار بيده أن ادنُ فدنوت، ثم أطرق ملياً، ورفع رأسه فقال: يا أبا اسحق، شأن النفس الملل وحُبُّ الاستطراف، تأنس بالوحدة كما تأنس بالألفة. فقلت: أجل يا أمير المؤمنين، ولي في هذا بيت. قال: وما هو؟ قلت:

لا يُصلح النفس إذ كانت مقسَّمَةً ... إلا التنقّلُ من حال إلى حال

رسالة الشعر

نكبة السيول

للسيد أحمد عبيد

(أيها الأخوان هلا عطفة=تجبر الكسر وتحيي من غبر)

هجع السامر وانقضّ السمرْ ... وتوارى البدرُ والنجم استسرّ
وسجا الليل فما من نَبْسةٍ ... بفم الليل إذِ الليل اعتكر
وخلا الأفق سوى من ومضةٍ ... تتجلى فيه آناً وتمرّ
والكرى يبعث أضغاث الرُّؤى ... زاخراتٍ بتهاويل الصوَر
غَفَل الناسُ بها من كونهم ... والرزايا راصداتٌ والغِيَر
هجعوا والمُزنُ مرجوُّ الحَيا ... والغوادي حافلاتٌ بالدِّرَر
فإذا السحبُ رُكامٌ مطبقٌ ... عابسُ الطلعة مرهوبُ النظر
وإذا السيلُ أتيٌّ ماردٌ ... عَرِمِ الطغيانِ مشهودُ الضرر
غادر السهلَ كبحرٍ مُزْبِدٍ ... طَمَتَ الأمواج فيه فانفجر
قلّما مر على شيءٍ ولم ... يَمْحُ من أعلامه كلَّ أثر
فأتى البنيانَ من آساسه ... وتعاطى كلَّ نفسٍ فعقر
لم يَئِلْ من شرّه نَبْتٌ ولم ... يَنْجُ منه حيوانٌ أو بشر
والردى يدهق في دَأمائه ... كأسَ موتٍ وهلاكٍ ما أمرّ
فترى الأشلاء تطفو فوقه ... زاهقاتِ الأنفس الطهرِ الغُرَر
رب طفلٍ أبصر السيلَ ولم ... يقوَ أن ينجوَ منه أو يفرّ
صاح يرجو نجدةً من أمه ... وأبيه وهما فيمن غمر
فعلا الجِذْعَ يُرَجِّي عنده ... نجوةً فانْبَتَّ فيه وانكسر

وفتاةٍ طَفلةٍ ناعمةٍ ... ذاتِ دلٍّ وعفافٍ وخَفَر
عصف السيلُ بها فانهتكت ... وطواها في مطاويه القدر
وغِنّي كان مرموقَ السَّنا ... حاشداً نَدْباً كريمَ المُعتْصَر
تركته النكبة الكبرى لَقىً ... يَنْشُد العيشَ ويبكي من قبر
أيها الإخوان هلاّ عطفةٌ ... تجبر الكسرَ وتحيي من غَبَر
أنفقوا مما تحبون فمن ... يفعلِ الخير يَجِدْه مُسْتَطَر
ليس يغني الدمعُ في تَسكابه ... عن بلاءٍ جلَّ أو خطبٍ أبرّ
أتبعوا سيلَ الَحَياَ سيلَ النَّدى ... ينتعشْ بعضُ الذي كان عثر
واشكروا لله إذ أنجاكم ... بالجَدَا فاللهُ يجزي من شكر
لِيَجُدْ ذو الفضل بالعفو ومن ... جاد من جُهدٍ فقد أسنى وبرّ
(دمشق)
أحمد عبيد
لوحة الشاعر
للشاعر السوداني المرحوم التيجاني يوسف بشير
الحسنُ - يهفو بجَفْنِهِ الوسنُ - ... كلُّ خبيءٍ من سحره حسنُ
للحسن عندي وللهوى صورُ
وهي لعمري وعمرُها غُرَرُ
ذخيرةٌ للفؤاد أَوْ أَشرُ
من الجمال الحبيبِ يُعتَصَر
يرقد في حِجْرِها فتىً أثِرُ ... يفتنُّ في خَلْقِها ويفتتن
سكرى لها في الحياة مُنْحَدَر ... دوني. وفي لوحتي لها منن
مسحورةٌ في الدماء تضطربُ ... تَسْمَعُ منها دويَّها الأذنُ
أطيافُ دنيا سماؤُها عجبُ
تنأى وتدنو آناً وتقترب
فيها غيومٌ وعندها سحب
تبرز آناً منها وتحتجب
أضيعُ شيءٍ في أرضها الذهب ... يجري بعيداً عن كونها الزمن
وتلك دنيا للسحر مضطرب ... فيها وللساحرين مُرتَهَنُ
تحسبها في النَّديِّ إن سمرت ... أو هزَّها في مراحها الدَّدَنُ
جنّاً نَآدَى ما غازلت طفرتْ
إلى مراقي السماء وانحدرت
وما أصابت من قُبلةٍ سكرت
تطِنُّ كالنحل كلما ظفرت
بشاطئٍ للنعيم ما عبرت ... إلاَّ على مدمع به السفن
وملعب للملاح كم خطرت ... فيه دياركم مشت مُدُن
أية دنيا هاتيك ظلَّ شبح ... من كل فَنٍّ يحفها فنن
وكنزها العبقري شقَّ قدحْ
أخي هَزارِ إن حركته صدح
أو عابَثَتْه على الدِّنان سبح
ذات ظلال سحرية وملح
أُكرومة الفن من أَسىً ومرح ... ترقد فيها القصور والدمن
لَوَّنها في الزمان قوس قزح ... وذاب فيها السرور والحزن
عودتنا الثانية
للأستاذ خليل هنداوي
غداً عندما تتهادى اللحود ... وتنفضنا من حنايا الترابْ
وقد لمستنا أكف الخلود ... وردت علينا ثياب الشباب
غداً عندما تنهلين الحياة ... شرباً ويا برد ذاك الشرابْ
وقد رف للحب كالأقحوان ... فم لا يزال عليه الترابْ
أَنخفق مثل الفراش الجميلْ؟ ... نُزوِّق ألواننا من هوانا

أَنطلع مثل زهور الحقول؟ ... ونملأ جو الهوى من شذانا
إلى أين نمشي وأنَّى نطير! ... وقد ملأ العاشقون اللحودْ
وفي كل صوب تهب الحياة ... ويحيا الهوى، ويفيق الوجودْ
تعالى إلى لحدنا المطمئن ... نجدد سيرتنا أو نُعيدْ
لقد كان مثوى فناء عتيق ... وأصبح مأوى غرام جديدْ!
خليل هنداوي
رسالة العلم
الزنككعنصر أساسي لنمو النبات
للأستاذ عبد الحليم منتصر
- 2 -
أعراض مرض الحرمان من الزنك
لقد اصبح من السهل تشخيص هذه الحالات المرضية، التي تعتري النبات، نتيجة لحرمانه من الزنك، وذلك بعد التجارب العديدة التي أجريت، والملاحظات القيمة التي أبديت، وبعد أن ظهر جلياً أن علاج هذه الأعراض لا يكون إلا بإعطائه حاجته من الزنك، على أن يكون ذلك بإحدى الطرائق التي سنوردها فيما بعد.
وأظهر هذه الأعراض ما يعتري الأشجار التي تتساقط أوراقها خريفاً، وذلك بأن تظهر الأوراق عند حلول الربيع، في قمم الأفرع الصغيرة، لا يتجاوز طول الورقة بوصة، ويكون عرضها نحو ربع البوصة، وهي إلى جانب ذلك محمرة اللون، جافة قليلاً، قصيرة العنق، مبقعة في الغالب. وقد تكون هذه الأفرع ذاتها محملة في غير قممها بأوراق سليمة لا أثر لهذه الأعراض عليها؛ بيد أن مقاومة هذه الأجزاء مؤقتة، أي أنها لا تستطيع متابعة النمو الطبيعي مدة طويلة، وفي الحالات الشديدة تظهر الأعراض نفسها عليها هي الأخرى، فترى أوراقها صغيرة مبقعة ذات أشكال غير طبيعية. وقد لوحظ أن مثل هذه الأشجار قد تذوى وتموت بعد عام أو عامين على الأكثر، وإن أظهر بعضها مقاومة مرض الحرمان من الزنك مدة أطول.
وفي الحق أن هذه الأعراض تختلف باختلاف الأشجار أو النبات، فهي في المشمش غيرها في الكريز أو التفاح والجوز واللوز والموالح وغيرها، وما ذلك إلا لأن درجة الاحتمال ليست واحدة، حتى إنه ليصعب على غير ذي الدربة تمييز هذا المرض من غيره إذ تشابه أعراضه أعراض سواه.
كما أن من المحقق أن ثمار مثل هذه الأشجار المصابة لا تكون طبيعية الشكل والحجم، فالخوخ والبرقوق تكون ثمارها صغيرة مفرطحة ومدببة أطرافها، كذلك المشمش والليمون.
وذلك علاوة على النقص البين في المحصول. وعلى الجملة فإن أشجار الفاكهة في الحدائق وغيرها من أشجار الزينة تبدي أعراض مرض الحرمان من الزنك، بيد أن درجات احتمالها ومقاومتها متفاوتة، فعلى حين تكون أشجار الخوخ والكريز مثلاً قد أذبلها وأذواها هذا المرض، أو لعله قد صيرها مشرفة على الهلاك، يكون غيرها من جوز ولوز وتفاح وكمثرى وبرقوق وعنب ومشمش وتين وموالح أكثر مقاومة، وإن كان حتماً أنها تصل إلى نفس المصير ما لم تسعف بالعلاج ولن ترضى بغير الزنك بديلاً.
وتختلف درجة مقاومة النبات للمرض تبعاً لطبيعة التربة التي ينمو بها، فهو أكثر مقاومة إذا ما كانت الأرض طينية، قادر على احتمال نقص الزنك من ألوان غذائه فيها. أما إذا كانت الأرض رملية أو كانت حصباء، فأن أعراض المرض لا تلبث أن تظهر إذا كانت كمية الزنك غير مناسبة لحاجة النبات منها.
ومن الملاحظات التي سجلت على الخوخ أنه بعد أن تابع نموه مدى أعوام خمسة كان يعطي فيها أوفر محصول. ظهرت أعراض تأثره بنقص الزنك في أواخر صيف العام الخامس، وكانت النتيجة موت أغلب الأشجار خلال ثلاثة الأعوام التالية؛ وعندما زرعت مكانها أشجار أخرى ظهرت أعراض المرض في العام الأول مباشرة. وعندما عولجت بالزنك اطرد التحسن وزاد المحصول.
طرائق العلاج
وتتلخص طرق علاج مرض الحرمان من الزنك فيما يأتي من الوسائل التي جربت وثبتت صلاحيتها:

1 - إضافة محلول كبريتات الزنك إلى التربة.
2 - وضع قطع من الزنك في ثقوب تعمل لهذا الغرض في جذوع الأشجار وفروعها.
3 - وضع كبريتات الزنك في ثقوب بالشجرة.
4 - رش الأوراق بكبريتات الزنك والجير.
5 - الرش بأكسيد الزنك.
6 - الرش - بعد سقوط الأوراق - بكبريتات الزنك.
7 - الرش بكلورور الزنك.

على أنه لوحظ أن العلاج عن طريق التربة هو من أنجع هذه الوسائل، وخاصة إذا وضع مركب الزنك غير بعيد من الجذع.

وقد وجد أن وضع نحو ثلاثمائة كيلو جرام للفدان الواحد مذراة فوق أرضه تبقى نافذة الأثر في العلاج مدى ثلاث سنوات تباعاً. كما أن وضع مائة كيلو جرام فقط، توضع بالملعقة قيد قدمين من جذع الشجرة يعطي نفس الفائدة ولذات المدة.

أما العلاج عن طريق حقن الجذع بكبريتات الزنك في ثقوب تكون متقاربة، يوضع في كل ثقب من جرامين إلى ثلاثة، ثم يقفل الثقب بالشمع؛ مثل هذه الطريقة لم يخب مفعولها مطلقاً في علاج أمراض الحرمان من الزنك، بل أن أثرها ليبقى مدة ثلاث سنوات على الأقل؛ إلا أنه وجد أن الخشب الرخو يتأثر بهذه الطريقة، كما أن الثقوب قد تكون سبباً في جلب أمراض أخرى، وذلك إذا أهمل إحكام غلقها.

كما أن إدخال قطع من الزنك أو الحديد المغطى بالزنك (وتفيد المسامير العادية في بعض الحالات) في الجذع والفروع، يعطي نفس الأثر من علاج حاسم سريع للمرض، إلى تقدم محسوس في نمو النبات ودرجة إزهاره وإثماره. ويستحسن في هذه الحالة أن يدق عدد من المسامير على أبعاد وأغوار مناسبة. وقد ثبت أن هذه الطريقة هي أنجع الطرائق المذكورة إطلاقاً، فهي أقواها مفعولاً وأدومها أثراً. ومما يستحق الملاحظة في هذه الطريقة أننا إذا ثبتنا مسماراً أو عدداً من المسامير في أحد الأفرع فأن أثر العلاج يتبدّى واضحاً جلياً على الجزء من الفرع الذي يبدأ بموضع المسمار أو المسامير وينتهي بالقمة، على حين يظل الجزء من الفرع الذي يبدأ من هذا الموضع نفسه وينتهي بالجذع الرئيسي أو الأرض، يظل هذا الجزء كما هو لا تبدو عليه أي علائم التحسن أو آثار العلاج.

وطريقة الرش هي أيضاً بارعة الأثر في كثير من الحالات، فقد وجد أن رش الأوراق بمزيج مكون من عشرة أرطال من كبريتات الزنك ومائة جالون من ماء الجير، مفيدة جداً كعلاج لأعراض مرض الحرمان من الزنك، وخاصة للموالح والمشمش والعنب، وإن كان من الحق أن نقول: إنها كانت غير وافية بالغرض في بعض حالات أخرى. وقد وجد أنه في حالة استعمال هذه الطريقة يحسن أن يعاد رش الأشجار المصابة مدى عامين متتاليين إذا كان مرض الحرمان قد أثر تأثيراً سيئاً على النبات.

كيف تؤثر طبيعة التربة وصفاتها الكيميائية في سير مرض الحرمان من الزنك؟ وكيف يستجيب النبات لهذه المؤثرات؟

وما هو الدور الذي يقوم به الزنك في النبات؟ سيكون ذلك موضوع حديثنا في عدد الرسالة المقبل إن شاء الله تعالى.

(يتبع)

عبد الحليم منتصر
ماجستير في العلوم

القصص

مشهد غرامي من أنتوني ترولوب

غرام راهب

للأستاذ دريني خشبة

لم يكن لَبقاً سيدنا الحَبْر الجليل - المستر سلوب - حين حاول هذه المرة أن يُنَقّل فؤاده حيث شاء من الهوى. . . فلقد عرف الناس أنه مشغوف بالسيدة (. . . بولد) وأنه يسعى جهده ليحظى بها زوجة مثرية غنية ذات مال وذات جمال، وذات ريع ثابت يَقُدْره العارفون بألف أحمر رنان تقبضها غير منقوصة كل سنة. . . عرف الناس هذا، وحرص سيدنا الحَبْر الجليل على ألا تفلته هذه الفرصة النادرة التي تضمن له غَرْفةً من

!!كنوز قارون في كل مطلع عام جديد، فيضمن نوال الدنيا و. . . حسن ثواب الآخرة
ولم يكن أحد يعيب عليه قط مجازفته الغرامية هذه، لأنها كانت في سبيل الزواج. . .
والزواج شيء عادي أقرته الأديان ونزلت به الشرائع. . . أما أنه راهب فلا بأس، فإنها
رهبانية ما فرضها الله على أحد، فلم يفرضها سيدنا الحَبْر الجليل - المستر سلوب -
على نفسه؟!
وسيدنا الحَبْر الجليل رجل يعرف حق الدنيا كما يعرف حق الآخرة ويعطي لقلبه من
هذه الدنيا تسعة وتسعين من أنصبتها المائة المقسمة بينه وبين عقله. . . لذلك كان
شعوره يطغى على تفكيره. . . وكان هواه المتقد وعاطفته المشبوبة لا يتفقان
ومركزه الذي أساسه أن يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر والبغي.
فلقد عرف هذا الحَبْر السيدة (. . . بولد) الأرمل، بعد أن مات زوجها، وبعد أن ترك لها
هذه الثروة الهائلة التي أسالت لعاب المستر سلوب، وشبت أطماعه. . . فلم ير بأساً
أن يصل أسبابه بأسبابها، وأن يملقها ويدهن لها، وأن يزخرف لها حباً يوهمها به أن له
ناراً تتأجج في قلبه، وتندلع بين أضالعه. . . وكان للأرمل الغنية شيء من الجمال غير
قليل. . . وإن كان جمالها يذهب به كثرة اللحم والشحم، وقصر الرقبة واستكراش
البطن، وترهل الثديين قليلاً. . . ولكن وجهها كان ذا رواء وسيماء، خصوصاً حين تعالجه بالأصباغ
والدمام، وسائر فنون التطرية. . . لقد كانت تجلب له حسناً مصنوعاً يغري المساكين
من أمثال سيدنا الحَبْر الجليل المستر سلوب، فكيف وقد حازت هذا الثراء الضخم،
والغنى الواسع، والدخل المضمون؟. . . إنها ما أغنى وما اقنى، فلم لا يغضي الحَبْر
الجليل عن بعض العيوب التي جرها الشحم واللحم؟ ولم لا يذكر أنه هو الآخر ليس
وسيماً قسيماً، ولا نحيل القد ممشوق القوام، ولا له لفتة الظبي ولا خيلاء الطاووس!؟
بلى، ينبغي أن يذكر لحيته الهائلة التي تحجب عين الشمس عما تحتها من وجه مكلثم،
وصدر كأنه نصف جبل حملته ساقا عفريت. وهكذا ينبغي أن يخجل قلبه المنهوم
بالجمال قليلاً، فنظرة خاطفة في المرآة تقنعه بمحاسن الأرمل السيدة بولد، ونظرة
أخرى إلى ثروتها الكبيرة تجعلها أجمل حسان الدنيا.
ولكن قلب الحَبْر الجليل ليس من هذه القلوب الرطبة التي تقنع بصيد واحد، لا سيما
إذا كان هذا الصيد وثناً من أوثان الدنيا التي تغري بالذهب، وتجذب بالثروة، وتتكلم
بالدنانير. . لا. . ليس لمثل هذا الصيد يخفق قلب الراهب الذي يشغفه الجمال فهو
ينبض له، وتجذبه مفاتن الحسن فهو يهيم بها. . . إن لمثل هذا القلب في هذه الدنيا
حقوقاً يقتضيها من خدود الغيد وعيون الخرَّد الأماليد، وهو لا شأن له بالذهب الذي
يضمن سعة الحياة ورغد العيش وإقبال الأيام. . . ومن أجل ذلك فليس لقلب المستر
سلوب من هذه الأرمل الغنية نصيب، فهي صيد نفيس سمين لأطماعه، ومن أجل ذلك
فلينطلق هذا القلب في دنيا الجمال ينشد صيده، فهو لا يعنيه أن يعكف على وثن من
الذهب يتعبده ولا يهواه.
هذه هي السيدة. . . بولد. . . أما السينورة نيروني، فزوجة وفية للسينور نيروني من
كبار رجال السياسة والطب، وقد تزوجها السينور لجمالها البارع، ولهذه الألغاز العميقة
التي تمتلئ بها عيناها السحريتان؛ وتلك الظلال الحزينة الفاتنة التي تموه جبينها بمثل
ظلال الغروب. . . وليس شك أن السينور يحبها ويحرص على مرضاتها، وأكبر ما
يعطف قلبه عليها أنها مقعدة، أو كالمقعدة، لأنها أصيبت بلين في عظام ساقيها بعد أن
بنى عليها. . . ولسنا ندري إذا كانت السينورة تحبه، أو تحب أحداً من العالمين. . .
فلقد عبست للحياة وتنكرت لمباهجها وأول هذه المباهج الحب. . وكان السينور يفرط
في منحها حرية الاجتماع بمن تشاء، والخلوة بمن تحب؛ وكانت هي كالعنكبوت الصناع
التي لا تفتأ تنسج
شراكها للذباب، فلم يكن أحد يخلو إليها حتى تصمي قلبه بنظرة أو نظرتين من عينيها
القتالتين فتزلزله ويصبح لها عبداً وبها هائماً وكأنما كانت تنتقم لنفسها من الناس فهي
تعذبهم بالحب الذي لم تبُله، وتكوي قلوبهم بالغرام الذي لم تعرفه. وقد أولعت بذلك
حتى صار طبعاً ثانياً لها، وهي لا تستحي أن تفخر بذلك وتباهي به، فتقول لأختها: (إنها
لا تعجز عن إذلال قلوب الجبابرة وقسرهم على التمرغ تحت قدميها. . .) ولم يكن
بدعاً إذن أن يكثر عشاقها حتى يربوا على العشرين. . . وكان أحرهم شغفاً بها هو هذا

الحَبْر الجليل العلامة المستر سلوب، الذي لم يكد يراها حتى نسى نفسه ووسوس له شيطانه، فعقد أواصر بأواصر السينور نيروني، ثم بأواصر السينورة من بعد. . . وأي بأس في أن يحتفظ بالسيدة بولد لنفسه الأمارة الطماعة، وبالسينورة لقلبه المنهوم بكل هيفاء حسناء. . . لا بأس قط. . . فليضع في قوس كيوبيد وَترين عردّين، وليْر كيف يصيب بهذه القوس إن كان مثله يحسن أن يحمل مثلها. . . ثم ليكن جريئاً. . . فلا يبالي رجال الكهنوت وهذه المعاطف الفضفاضة السود، ومقالة السَّوء التي يثلبونه بها. . . وليزر السينور نيروني في الوقت الذي لا يكون السينور موجوداً فيه في منزله، ولا جرم أن السينورة ستلقاه حينئذ، وسيشرب في حضرتها قدحاً من القهوة. . . وربما أمرت له بكوب من نبيذ بردو يبعث الدم حاراً في عروقه فيزداد جرأة وإقداماً، وقد يجد الفرصة الجميلة فيكشف عن خبيئة قلبه لهذه السيدة اللعوب. . . ليس ضير أن يفشل مرات ومرات في البوح لها. . . على أن السينورة الحصيفة اللبيبة قد عرفت ما يجتاح قلبه من حبها لأول زَوْرَة من زياراته الصباحية المفتعلة التي حسب أنه شرفها بها. . . ولقد كانت السينورة واسعة الثقافة، بل كانت أكثر من ذلك، كانت فيلسوفة بفطرتها، تجيد الفلسفة التطبيقية في كل أحوالها. . . وكانت تجيد ذلك على الخصوص مع رجال الدين. . . فما بالك بحبر جليل من عظمائهم ينسى نفسه بين يديها، وينسى وظيفته في الحياة، وينسى دقات الناقوس التي توقظ الغافلين وينسى بيانه الذي يرهب به ويرغب. . . وينسى كل شيء. . . حتى صور القديسين والحواريين التي كانت تهاجمه كلما خلا إلى السينورة فلا يأبه بها، ولا يعنى بهتافها به كما يعنى بانتقاء العطور التي يضمخ بها نفسه، والبنيقات التي يحرص أن تكون نظيفة ناصعة، وبكل ما يظهره فتى في عين السينورة، من منديل جميل وقفاز جديد. . . و

وذهب الراهب الوقور ليسأل كعادته عن السينور فلم يجده، وأدخل إلى السينورة فلم تعن به إلا كما يعني الصبية بغماز الشص ينبه عن فريسة السمك. . . ووجدها كدأبها دائماً مضطجعة فوق كنبة وثيرة عند مكتبها الفخم، وبيدها يراعها الأبنوس الثمين، وأمامها صحيفة تخط فيها كلاماً قالت عنه وهي تتخابث إنه خطاب أوشكت أن تكتبه للحبر الجليل. . . ثم مدت يدها الجميلة البضة لسيدنا الراهب فتناولها في يده المرتجفة، وانحنى برأسه الكبير ولحيته المنكرة فلثمها، وهو يخيل إليه أنه يسرق القبلة الذهبية من كنوز سليمان. . . يا له من منظر عجيب!! لقد كان شيء كبير هائل شائه كرأس ثور، ينحني فيبحث في زهرة يانعة جنى عليها المنجل فقذفها في طعامه. . . . . بل كان أغرب من هذا. . . لقد كان كالتنين الهولة يغازل فينوس ربة الحسن!

- . . .لقد أوشكت أكتب إليك، فأما وقد جئت، فلألق بما كتبت في سلة المهملات

- لا. . . لن يكون مصير ما تتفضلين بكتابته إلى هذا المصير. . . لأحتفظ به إلى الأبد، فإذا كان لا بد من إبادته، فلأحرق له بخوراً ولألق به في ناره! أليس كانت ديدو تصنع مثل هذا؟

- أنا لا أحترم ديدو هذه أيها الأب. . . لقد كنت أوثر أن تكون ديدو مثل كليوبترة حين رأت ما حاق بحبيبها فآثرت أن تلحق به، حتى بين المطرقة والسندال. . . أيها الأب الكريم مستر سلوب، أرجو ألا تخلط بين جد الحياة وبين عبث الحب!)

وصبغت حمرة الخجل وجنات الحَبْر الجليل لأنه أيقن أن السينورة تعرض بما بينه وبين المسز بولد، وأنها تشتهي أن تذله كما أذلت عشرين عاشقاً لها من قبل. . . ثم لم تشأ أن تقسو عليه فقالت تعبث به متلطفة:

- ماذا؟ إني ما أزال أقولها لك في صراحة: لا تخلط بين عبث الحب وجد الحياة. . . إن أمامك ثروة واسعة، ومدينة من الذهب شاسعة، وإنك تشتهي أن تكون صاحبها، فأقدم بحزم، ولا تتلف أطماعك بهذا الحب الطارئ؛ فإن كنت في عرض الدنيا زاهداً، فأحب كما ينبغي أن يكون الحب. . . هب الحب كل قلبك فالحب يكره أن يشركه أحد في القلب. . . فإذا أبيت إلا أن تصيب الحسنيين فأعلم أنك من الآن فاشل. . . فأيهما تؤثر أيها الأب: المال، أم الحب والجمال؟!

وطافت برأسه طائفة من الأفكار، ولكنها طافت بسرعة البرق، فقال: (بل الحب، ولا شيء غير الحب. . . الحب الذي ينبغي أن يقهر كل رغبة وأن يسود جميع الأطماع. . .)

- بل آثر أن تستمع إلى نصيحتي، وتذكر ما بعد نشوة الأسبوعين أو الثلاثة الأسابيع من

عمر الحب. . .! إنها الخيبة وانعكاس الأمل. . . إنه ما حدث في الأساطير لنميزيس التي لم يحب أحد كما أحبت ولا أكتوى عاشق بمثل ما اكتوت. . . أن التفاني في الحب يعني الفشل فيه. . . والحب الصحيح يعدل الفنوط من جني الثمرة المشتهاة. . . أو لم تحب جولييت؟ أو لم تحب ديدو؟ وهايدي كذلك! وترويلوس؟ ألم يحب حباً طمس رجولته؟

- بلى. . . لقد أحب ترويلوس ولكن تغفلته حبيبته، ويستطيع كل إنسان أن يحب ولا يكون ترويلوس، فليس كل النساء كرسيدز!

- هذا حق، ولكن عدم الإخلاص ليس كله من جانب المرأة، بل لكم النصيب الأوفى فيه. . . فلقد أخلصت إملوجين، فماذا كان جزاؤها؟ ألم يتهمها زوجها أنها صبت إلى أول ضيف انفردت وإياه لأول مرة في غيابه؟ وديدمونا؟ لم خنقها بعلها؟ ألم تكن مخلصة وفية؟ وأوفليا؟ ألم تجنّ بإخلاصها؟ إنه يبدو لي ألا سعادة في الحب إلا في خاتمة القصة الإنجليزية! أما هذه الدنيا السحرية ففي ذهبها وجمالها وفتنتها وخيراتها سعادة محسّة لا مراء فيها. . . سعادة يسع كل أحد أن يهنأ بها ويرشف ما شاء من معينها. . .

وارتبك الحَبْر الجليل قليلاً ثم قال: (أوه! كلا. . . إن كل هذه الدنيا بجميع ما حوت من حطام لا يمكن أن تؤدي إلى السعادة!)

- إذن ما الذي يستطيع أن يجعلك سعيداً أيها الأب؟ ما المعين الذي لا ينضب، الذي تنشد منه سعادتك؟ لن تقول ألا معين لك، فلكل من الناس معينه الخاص!

وغلب الحَبْر خباله الديني فأجاب: (قد يبحث الإنسان عن سعادته فيعييه البحث، ذلك لأننا نبحث عنها دائماً في هذه الأرض، وهي لا تكون إلا في السماء!!)

- صه، ويلك! إنك تقول بلسانك ما ليس في قلبك. . . إنها تعاليمكم التي لم تستطع أن تشفي أطماعكم في هذه الدنيا. . .! إذا لم يكن شيء من السعادة حقاً في هذا العالم الفاني فلم جاهدت أن تكون قساً وجاهد أصحابك معك؟ لم طمعتم في حطام هذا الفناء وتشبثتم به؟

- ذلك لأني لم أطّهر من شوائب آدميتي، فإن لي كما لجميع الناس أطماعاً. . .

- صدقت، ولذلك قلت لك إنك تقول بلسانك ما ليس في قلبك، وإنك تسلم بما لا تؤمن، وإنك تبيع للناس عظات لا تعتقد بصحتها. . . لقد كان القديس بول مؤمناً حقاً، ولذلك لم تفسد الدنيا بكل ما فيها من زخارف تعاليمه؛ وكان مثله القس اللاهوتي المتزمت، الذي قضى نصف عمره قائماً فوق عمود في أرض الفراعنة. . . أنا أجل هؤلاء واضرابهم، لأنهم يؤمنون بالشيء فيبدو إيمانهم في كل ما يصدر عنهم. . . فإذا دعا رجل الدين إلى فضيلة ولم يكن متحلياً بها، فتعساً له، وتعساً للفضيلة تخرج من فمه فتكون رغاءً. . .

وانعقد لسان الحَبْر الجليل فلم يحر جواباً. . . وأنى له أن يستذكر تعاليم مولاه التي أعطى مركزه ليبشر بها بين الناس ما دام الشيطان يملك زمامه، ويؤجج نيران الجحيم بين يديه. . . ثم أنى له أن يجسر على هذه التعاليم فيذلها لشهواته، وهو يعلم ويؤمن، أن مولاه الإله محيط به، ما تكاد تكون له نجوى إلا هو عالم بها؟! وقد طربت السينورة لما بدا عليه من بدوات الحيرة والقلق والأرتباك، فقالت له: (يبدو لي أن ذكاءك وتوقد ذهنك يسلمان بهذه القضايا، بيد أنني ألحظ أن قلبك وعاطفتك عميَّان عنها، أليس كذلك؟)

- قلبي!! أنك أنت التي توجدين ثغرة هائلة بين ذهنك وبين قلبك، بين ذكائك وبين عاطفتك. . . إني أتهمك بما تتهميني به. . .)

ثم حمل كرسياً ودنا من السينورة بحيث لم يعد يحجز بينهما إلا زاوية المكتب الفخم الذي كانت تكتب عليه، وكانت يدها الجميلة الساحرة ممتدة عليه، فبلع سيدنا الحَبْر الجليل ريقه، ووضع يده الثقيلة الملتهبة عليها. . . فقالت له:

- هذا يعني أنك. . . تحب! وأنك تجعل مني جنَّةً مقمرة لأحلامك؟!

- ولم لا! إن حبك يصلح لأن يكون جنة واسعة مقمرة لأحلام ملك!

- لأحلام ملك؟ هه! بل قل لأحلام رئيس أساقفة يا عزيزي المستر سلوب!! ولمه؟ إنكم دائماً تعسلون لنا زخرف القول أيها الرجال! وأنتم خاصة أيها الأحبار أمهر الناس في توشية الكلام. . كن شجاعاً يا عزيزي المستر سلوب وانظر إلي بمجاميع عينيك.

وكانت قد سحبت يدها الجميلة الساحرة بعيداً من يده فنظر إليها بعينيه الجائعتين المنهومتين نظرة الوامق الملتاع، ومد يده ليقبض على يدها، لكنها رمقته بعينيها الجميلتين الصارمتين وقالت له: (لقد رجوتك أن تحول حماسة يديك الجبارتين إلى عينيك الحالمتين
(. . .يا مستر سلوب لكنك لم تفعل
وكان قلب الحَبْر الجليل قد انماث من لوعة الحب، وتعذيب الحبيبة، فصرخ شاكياً:
- أوه مدلين!!
فتبسمت عن ثنايا كاللؤلؤ وقالت له: (حسن، أن أسمي مادلين، هذا لا ريب فيه، ولكن أحداً من العالمين لا يجرؤ أن يناديني به إلا أن يكون من أسرتي، أفتريد أن أفهم من ذلك يا مستر سلوب أنك تحبني وتتعشقني؟!)
وارتبك الحَبْر الجليل، ولم يدر ماذا يصنع، لأنه إنما أتى إلى بيت السينور ليجلس جلسة غرامية من غير أن يصرح بلسانه أنه يحب، فلما بدهته هي بهذا السؤال لم يستطع إلا أن يجثو على ركبتيه أمام الأريكة، ويصرح أنه إنما يحب السينورة حقاً، ولكن لا كما يحب الناس!! فلما قالها. . . بدهته السينورة بسؤال آخر فقالت:
- (والآن، أتستطيع أن تخبرني متى تتزوج بالسيدة ألينور بولد؟)!
ولم يستطع المسكين إلا أن يقول: (ولأمر ما ترمينني بتهمة النفاق والتغرير بك يا عزيزتي؟
- نفاق! أنا لم أقل شيئاً من هذا أيها الأب! ولكنه يبدو لي أنك تحب أن تدافع عن نفسك فيما يتعلق بي؟ فلم هذا؟ لم لا تبقي دفاعك لتقدمه بين يدي السيدة ألينور؟ إنها هي التي ستتزوج منك، أما أنا فامرأة ذات جمال راقتك، وليس هذا شيئاً، ألا ما أبرعكم في التخريج يا رجال الدين؟
- لقد بحت لك يا عزيزتي السينورة أنني أحبك. . أهواك. أعبدك. . . فلم تعيّرينني؟
- أعيرّك؟ يالله! هلم أيها الأب فخبرني! ألا تتزوج من السيدة ألينور بولد؟
- لا. . . لن يكون هذا!
- بل أؤكد لك أنك من عبَّادها!
- وأنا أنفي ذلك من كل قلبي!
- ولم لا أيها المستر سلوب؟ إنها أولى النساء بك. . . بل تزوجها تكن لأطفالك أما ولبيتك ربة. . . ثم لا تنس أنها أرمل جميلة ذات ثراء!
- ألا ما أقساك يا سينورة!
- أو تلك قسوة؟
- أجل. . . إذ كيف يصبو فؤادي الذي هو لك إلى امرأة سواك!؟
- إذا كانت هذه قسوة أيها الأب، فماذا إذا صرحت لك أني لا أملك أن أبادلك حباً بحب ولا عاطفة بعاطفة؟ فإذا كنت لا أملك هذا، فخبرني كيف أجزيك على حبك؟ أأجزيك عليه بأن تحضر كل يوم فتسبح بحبي وتذكر محاسني! أواه! ما أقساك أيها القدر!!
وكان الأب الجليل ما يزال راكعاً بين يدي مادلين، فلما أهوت على قلبه بهذا التصريح هب منتفضاً كالغراب (!) الذي بلله القطر، وجلس على كرسي قريب.
- وهل تسمحين أن أعطف عليك. . . مجرد عطف. . . على ما نابك؟
- تعطف عليّ؟ بل تريد أن ترثى لي لأني شبه مقعدة؟ إني إذن أحتقرك!
- أوه مادلين! أردت أن أقول (أحبك!)
ثم انقض على يدها الضعيفة الجميلة يمطرها آلاف القبل. . . فقالت له بعد إذ لم تستطع أن تذوده:
- هذا جميل! ولكن لنفرض أن السينور نيروني فاجأك الآن، فماذا عساك أن تفعل؟
وأفاق من سكرة حبه على الاسم المخيف فقال: (سينور نيروني؟!)
- (أجل. . . سينور نيروني؟ أترسله إلى الأسقف وزوجه السيدة برودي؟
- ولم تسألين؟
- لم أسأل؟ إني أحببت أن تعلم أن هناك رجلاً لا تذكره يدعى السينور نيروني؟!
- لا. . . بل أنت تنسين قلبك حين تذكرين السينور زوجك! إنك لا تحتفظين له بإثارة من الحب لأنه غير خليق بك
- القلب مرة أخرى؟! مالك كيف تتكلم أيها الأب؟ تريد أن تقول أن المرأة التي لا

تضمر حباً لزوجها لها الحق في أن تخونه؟ أو على الأقل لها ألا تخلص له! والذي يقول هذا كبير أساقفة الكنيسة الإنجليزية
واشتعلت الجحيم في رأس كبير الأساقفة، وعجب كيف تذله امرأة مقعدة كالسينورة نيروني، وتمنى لو استطاع فجعلها تسجد بين قدميه تطلب حبه كما فعل هو، وتمنى كذلك لو انتزع حبها من قلبه فقذف به من حالق. . . ولكن شتان بين أن يتمنى المرء وبين أن
يقدر، فلقد سحقته السينورة لأنها عرفت من مآسي الحياة ما لم يعرف القس، وبلت من تجاربها ما لم يبل. . . وذلك أنه ما كاد يرفع عقيرته بالاحتجاج حتى غلبه هواه، وسجد مرة أخرى تحت قدميها يستعطف كالتلميذ الذليل. . . لكنها وصلت سخريتها به فقالت له:
- ولم لا تضحي حبك أيها الأب ما دام زيفاً وبهتاناً!
- زيف وبهتان؟ أتريدين أن تقولي أن حبي لك زيف؟
- زيف وأي زيف!! وإلا، فافرض أنني حنثت في سبيلك بيميني أن أكون إلى الأبد مخلصة لزوجي وفية لاسمه الذي حملت، وأنني زللت لأرضي حبك وأشفي لوعتك، فهل ترضى إذا أخرجت من هذا البيت أن تذهب معي فنقف أمام المذبح لتعلن للملأ أنك رضيتني زوجة لك. . .؟ أنا. . .؟ هذه المقعدة التي لا يسندها في فؤادك إلا مسحة من الجمال تفتنك الآن، ولا تدري ماذا تكون في غد؟ - ولكن الحَبْر الجليل لم ينبس ببنت شفة، فقالت مادلين: (ماذا؟ تكلم! ماذا تضحي من أجلي إذن إذا ضحيت لك بكل ما عرفت!؟)
فقال الأب: (لو أنك حرة الآن لرضيتك زوجة لا أرضى بها ملء الأرض ذهباً!)
فقالت مادلين: (لو أنني حرة! أنا حرة! هاأنا ذي حرة! لننطلق إذن من هنا. . . هلم فاحملني إلى دارك! لم تقف جامداً هكذا؟)
. . .لكن الأب لم يبد مع ذاك حراكاً
- آه! لقد خشيت أن تضحي الدنيا الواسعة المترعة بالخيرات من أجل امرأة مقعدة مثلي! إذن فهلم نكون صديقين. . . صديقين فحسب. . . لا تنس هذا (. . .
وانحط على الكرسي القريب منها، ثم تناول يدها الجميلة الساحرة وطفق يقبلها أكثر وأحر مما فعل قبل. . . حتى لكأن الدرس القاسي الذي تلقاه لم يكن له أثر. . . وزاد الطين بلة فقال وهو يبكي:
- (مادلين. . . مادلين. . . قولي إني أحبك. . . قولي يا مادلين!)
وهنا سمع وقع أقدام في الخارج فنهرته السينورة وهي تقول: (صه أيها الأب! إن أمي قادمة وأخشى أن تشهد دموعك. . . هلم فأصلح من شأنك. . .)
ووثب الأب الجليل مروعاً. . . ولم يعن بإصلاح شأنه. . . بل أنطلق على وجهه من الباب الخلفي، ولم يعد أحد يسمع به. . . لأنه لم يذهب إلى الكنيسة منذ ذلك اليوم. . .
(ملخصة)

دريني خشبة

البريد الأدبي

إلى صحف القطر الشقيق

نشرت في عدد (الرسالة) الماضي على أثر ما علمته من أن جريدة المكشوف البيروتية نشرت خطاباً ومقالاً زعمت أني أرسلتهما إليها - كلمة موجزة كذبت فيها هذه الواقعة بطريق حاسم وقلت أن ما فعلته المجلة المذكورة إنما هو تزوير شائن.
والآن بعد أن أطلعت على بعض الصحف البيروتية التي نقلت المقال المزعوم أو علقت عليه (وذلك لأني لم أستطع الحصول على عدد المكشوف الذي حدث فيه النشر المزور) عرفت أن الصحيفة المذكورة قد عمدت إلى مقال قديم كنت قد نشرته في (السياسة الأسبوعية) سنة 1931 واقتضبت منه عبارات مسختها وزعمت أنها مقال أرسلته إليها، ونشرت إلى جانبه الخطاب الذي زعمت أنها تلقته مني.
وقد أرادت الجريدة المذكورة أن تلقى بذلك من روع قرائها أنني أؤيد الحملة الدنيئة المستمرة التي تشهرها على التفكير المصري والكتاب المصريين، والتي لا تلقى هنا وهنالك سوى ما تستحق من الإعراض والزراية، وأرادت أن تدلل على ذلك ببعض فقرات اختلستها من مقالي المذكور.

فأقرر هنا أني كتبت هذا المقال منذ سبعة أعوام لمناسبة حالة أدبية معينة لاحظت أعراضها يومئذ، ورأيت في تلك الأعراض بعض وجوه ضعف يجب إصلاحها وتداركها.
والحركة الأدبية المصرية ليست معصومة، ولم يقل أحد إنها بلغت ذروة الكمال، بل هي ككل حركة فكرية واجتماعية قابلة للنقد والإصلاح؛ ولكن لما كانت الحركة الأدبية المصرية تثب بخطى الجبابرة فان هذه الآراء لا يمكن أن تعبر إلا عن الوقت والظروف التي قيلت فيها.
أما أن تعمد جريدة المكشوف إلى اقتضاب بعض ما ورد في هذا المقال ثم تزعم أني أرسلته إليها، بل وتذهب في الافتراء إلى أبعد من ذلك فتقرن المقال المزعوم بخطاب تدعي أني أرسلته إليها فأقل ما يقال في ذلك إنه عمل إجرامي دنيء.
ما كان لمثلي أن ينزل إلى مثل ذلك فيمالئ وريقة عرفت بحقدها المضطرم على الثقافة المصرية، وعلى النيل من ثقافة بلاده التي يعتز بها، والتي يتشرف هو بأن يشترك في
حمل لوائها الخفاق.
ولقد رأيت في بعض صحف القطر الشقيق بعض مقالات وتعليقات على هذه الدسيسة الأدبية المثيرة، نشرت بلا ريب بحسن نية، ولما كان من المتعذر على أن أكتب إليها جميعاً فإني أكتفي بأن أوجه إليها هذه الكلمات على صفحات الرسالة لتقف منها على الحقيقة ولتذيعها نصرة للحق والأنصاف.
أما الصحيفة القاذفة المزورة فأمرها إلى القانون يحاسبها، وإلى الرأي العام يصدر حكمه عليها.
محمد عبد الله عنان
ذكرى وفاة أبي الفرج الأصبهاني
في انتهاء عامنا الهجري هذا يكون قد مضى ألف سنة على وفاة المؤلف العظيم أبي الفرج الأصبهاني علي بن الحسين الأموي المرواني الذي يعد من أعاظم المؤرخين والبحاثين، فقد بلغ عدد ما عرف من مؤلفاته خمسة وثمانين مؤلفاً من أثمن المؤلفات العربية في التاريخ والاجتماع والأدب، وأشهرها (الأغاني)؛ وقد أجمع المؤرخون على أنه لم يصنف مثله في هذا الباب، ولولاه لضاع شعر الجاهلية والإسلام؛ وقد ألفه في مدة خمسين سنة ولم يزل هذا الكتاب المطبوع في 21 مجلداً منذ ألف سنة حتى اليوم ينبوعاً صافي المورد، ومنهلاً عذب الارتشاف، يرده الأدباء والمتأدبون وهم ظماء، ويصدرون عنه وهم رواء. فكم من أديب نابغ قد تخرج عليه، وعلم من أعلام البيان العربي كان يرجع بيانه إليه، وشاعر فحل زكت شاعريته ونمت موهبته بالرواية عنه والأخذ منه. . .
وقد عن لي بهذه المناسبة - مناسبة مرور ألف عام على وفاته - أن أقترح على علماء العراق وأدبائه وأهل الفن فيه إقامة مهرجان ألفي في بغداد موطن المؤلف التي كتب فيها جميع مؤلفاته وتوفي فيها بعد أن خلد اسمها إلى أبد الدهر. ولا أظن أن من الأقطار العربية من يتأخر عن الاشتراك في هذا الاحتفال وتعديد مناقب رجل جمع بين علوم الدين والدنيا في الإسلام.
(كربلا)
عباس علوان الصالح
وفاة علامة هندي عظيم
نعت إلينا أنباء الهند الأخيرة العلامة الهندي الكبير السير جاجاديس شندرا بوزن أعظم علماء النبات المعاصرين، توفى في نحو الثمانين من عمره؛ وكان مولده بالهند في سنة 1858، ودرس في كلكوتا وكامبردج؛ وبدأ حياته أستاذاً في جامعة كلكوتا، وتخصص في علم النبات وأبدى فيه براعة خاصة. ثم انقطع بعد ذلك لدراسة حياة النبات، ووفق أثناء تجاربه إلى عدة اكتشافات باهرة لفتت إليه أنظار العالم، وكان أهمها ما أثبته بالتجارب العلمية وهو أن النبات كأي إنسان يشعر ويحيا، وله كالإنسان نبض يمكن جسه وإحصاؤه؛ ولإثبات نظريته الجديدة اخترع السير بوز آلة سماها (كرسكوجراف) تسجل حياة النبات ونبضه، وتكبرها بنسبة مائة ألف مرة؛ وبهذا الآلة يمكن مشاهدة نمو النبات وتأثره بالعوامل الجوية، وبالعناصر الغريبة التي يلقح بها كالأسمدة أو السموم أو غيرها. وقد عرض السير بوز تجاربه في أنحاء العالم فحازت

إعجاب العلماء وتقديرهم جميعاً. ومما يذكر أنه قدم إلى القاهرة في شتاء سنة 1927، وعرض تجاربه أمام جمهور من العلماء والمشاهدين فأدهشهم جميعاً بما عرضه من حركات النبات ودلائل حسه ونبضه. وللسير بوز عدة آلات دقيقة أخرى اخترعها لتسجيل الحياة النباتية، وله عدة كتب تعتبر في هذا الباب مرجعاً وحجة، منها: (الجهاز العصبي للنبات)، (حركات الحياة في النبات)، (تهيج النبات)، (جواب النبات) وغيرها؛ وهو يعتبر عميد العلوم النباتية في العصر الحديث.

مذكراتي في نصف قرن

منذ أيام قلائل صدر القسم الثالث والأخير من كتاب (مذكراتي في نصف قرن) بقلم الأستاذ الجليل أحمد شفيق باشا وقد استطاع قراء القسمين الأولين من هذه المذكرات النفيسة أن يقدروا اليد الجليلة التي أسداها الأستاذ شفيق باشا لتاريخ مصر الحديث بتدوين هذه المذكرات ثم بإخراجها؛ وكان تدوينها في الواقع عملاً دقيقاً شاقاً شغل حياة مدونها، بيد أنها كانت سلوى حياته لا يغفل عنها، ولا ينسى متابعتها قط مهما ادلهمت من حوله الخطوب والحوادث؛ وكان فوق ذلك أجدر الناس بتدوينها، وأقدرهم على الاستفادة من عبر الحوادث وفهم أسرارها وتطوراتها؛ ذلك أنه كان مدى ثلث قرن شخصية بارزة في القصر الخديوي، بل كان مدى أعوام طويلة اعظم رجال البطانة الخديوية نفوذاً وأشدهم تأثيراً في توجيه الخديو؛ وكان بحكم منصبه ومراقبته لسير الأمور من أكثر الناس إطلاعاً على سير الحوادث، وعلى أسرار الوثائق، وأكثرهم فهماً للرجال العموميين. فما يقدمه إلينا من مذكراته هو أصح وأدق ما يستطيع مؤرخ معاصر أن يقدمه عن حوادث عصره.

ويشمل القسم الثالث من هذه المذكرات النفيسة مرحلة الحرب الكبرى وما بعدها، من سنة 1915 إلى سنة 1923؛ ونحن نعرف أن الخديو عباس حلمي كان منذ صيف 1914 متغيباً في استانبول، وأن الخلاف وقع بينه وبين الإنكليز منذ نشوب الحرب الكبرى، فلم يعد بعد ذلك إلى مصر، وأنه لعب أثناء الحرب أدواراً خطيرة، واشترك في كثير من مشاريع السياسة الألمانية التركية نحو مصر. وقد كان المؤلف خلال هذه الأعوام المدلهمة إلى جانب مولاه في المنفى مع نفر من كرام المصريين، يتتبع عن كثب تطورات الحوادث ويقيدها. وهو يقص علينا في مذكراته ناحية من المأساة لم تكن مصر خلال الحرب تدري شيئاً عنها؛ ومن الصعب أن نتتبع محتويات الكتاب في هذا المقام الضيق، ولكنا نستطيع أن نقول باختصار إنها كل حياة الخديو السابق وكل حركاته وأعماله منذ سنة 1915 إلى سنة 1920 وهي صفحة غريبة مشجية من تاريخ مصر السري لا نعرف عنها سوى القليل؛ ومن حولها معلومات وتفاصيل كثيرة عن المصريين الذين اشتركوا فيها أو اتصلوا بها، ومنهم كثير من الزعماء اللاحقين؛ ويقرن المؤلف ذلك بتفصيل أعماله وحياته وصلاته مع الخديو وغيره حتى عوده إلى الوطن من المنفى في سنة 1923.

ونحن نهنئ الشيخ الوقور أحمد شفيق باشا بتوفيقه في إتمام ذلك العمل الجليل الذي استغرق أعواماً كثيرة من حياته واقتضى منه جهوداً عظيمة تستحق تقدير مواطنيه وتقدير التاريخ؛ أمد الله في حياته الحافلة النافعة.

الآداب الفرنسية وجائزة نوبل

تحدثت الصحف الفرنسية لمناسبة فوز الكاتب الفرنسي روجيه مارتان دوجار بجائزة نوبل للآداب عن الكتاب الفرنسيين الذين ظفروا قبله بهذا الشرف، فذكرت إنهم قلائل جداً بالنسبة إلى من ظفروا بجوائز نوبل من الأمم الأخرى، وهم لا يتجاوزون خمسة: أولهم سولي برودوم، وقد حصل عليها في سنة 1901؛ والثاني الشاعر البروفنسي مسترال، وقد حصل عليها في سنة 1904 والثالث رومان رولان، وقد حصل عليها سنة 1916؛ والرابع أناتول فرانس، وقد حصل عليها سنة 1921، والخامس الفيلسوف هنري برجسون، وقد حصل عليها سنة 1928؛ ومنذ عشرة أعوام لم يظفر كاتب فرنسي بجائزة نوبل، في حين أن الآداب الإنكليزية أو الألمانية أو الإيطالية لا يكاد يمضي عام أو اثنان حتى تظفر إحداهما بهذا الشرف.

ولكن الصحف الفرنسية ترى من جهة أخرى أن الآداب الفرنسية كانت موفقة من

الناحية المعنوية أعظم توفيق، لأن أولئك الذين حصلوا على جوائز نوبل منذ قيامها إلى الآن هم خيرة ممثليها في مراحلها المختلفة؛ وقد كان مارتان دروجار حقاً ممثلها من نوع يستحق التقدير العالمي.

والمعروف أن لجنة استوكهلم قد منحته جائزة نوبل من أجل قصته الشهيرة (تيبول) التي تقف حوادثها عند صيف سنة 1914، والتي استؤنفت بعد ذلك خلال الحرب الكبرى؛ وهي القصة التي ظفر من أجلها أيضاً بجائزة مدينة باريس الكبرى التي رتبها بلدية باريس لأحسن مؤلف قصصي أو تاريخي، ثم توجتها عقب ذلك جائزة نوبل. وقد أحدث حصوله على جائزة استوكهلم دهشة في بعض دوائر الأدب الفرنسي إذ كانت تتوقع أن يكون الفائز بها هو الشاعر الكبير بول فاليري، ولكنها اغتبطت على أية حال لأن الفائز بها فرنسي.

جائزة نوبل للسلام

وعلى ذكر جوائز نوبل أيضاً نقول أن الذي فاز بجائزة نوبل للسلام هو السياسي الإنكليزي الكبير اللورد روبرت سسل، وذلك من أجل جهوده في سبيل قضية السلم العالمي. وقد درس اللورد سسل في جامعتي إيفون واكسفورد، وخاض حياة سياسية باهرة، وانتخب عضواً في مجلس العموم منذ سنة 1904 وتقلب في المناصب الكبيرة حتى غدا في سنة 1918 وزيراً للخارجية.

ولقد لعب دوراً كبيراً في مؤتمر الصلح وإعداد دستور عصبة الأمم؛ ومثل إنكلترا في جلساتها مراراً ثم ناب عن إنكلترا في لجنة السلاح، وكان له في أعمالها مواقف نبيلة دلت على تحمسه في مناصرة قضية السلم. واللورد سسل من أعظم أنصار عصبة الأمم ومبدأ السلامة الإجماعية. وقد استقال من جميع المناصب الحكومية ليتفرغ لخدمة قضية السلم، وله في ذلك مواقف وخطب رنانة؛ وله كتاب قيم عنوانه (سبيل السلام) ضمنه خطبه وأحاديثه السلمية، وكلها تدل على تمكنه من موضوعه. وهو في الوقت نفسه من أشد خصوم النظم الفاشستية، وله في شأنها حملات خطابية وكتابية شديدة، وهو اليوم في الثالثة والسبعين من عمره، ولكنه لا يزال يعمل لخدمة السلام بهمة الشباب.

مواطن الجواد قبل التاريخ

عثر المنقبون في سفالوف في جنوب السويد على عظام قديمة ظهر من فحصها أنها عظام الجواد الوحشي، وأنها ترجع إلى نحو عشرين ألف سنة. ويرى العلماء الرسميون الذين فحصوها أنها بلا ريب من بقايا الجواد القديم المنقرض، وقد كانت هذه المسألة مثار خلاف بين العلماء، فجاء هذا الاكتشاف مؤيداً لأقوال القائلين بأن الجواد كان ضمن الحيوانات التي تعيش في هذه المناطق منذ عصر ما قبل التاريخ.

بريطانيا العظمى وفلسطين

صدر في إنجلترا منذ أسابيع هذا الكتاب عن فلسطين الشقيقة للكاتب الإنجليزي هربرت سيد بوتهام. وقد تصفحناه فوجدناه كتاباً مغرضاً أغلب الظن أنه طبع بأموال يهودية ليبشر بالدعاوة لليهود في سائر أنحاء العالم على العموم وفي إنجلترا وبين أنصار حزب المحافظين على الخصوص. . . فلقد سرد تاريخاً مملاً مشوهاً لفلسطين منذ أن فتحها محمد علي الكبير إلى اليوم واعتبر هذا الفتح مبدأ لحركة الدعاوة لإنشاء الوطن القومي لليهود الذي لم يتحقق إلا في السنوات الأخيرة، وقد اعتبر اليهود سفراء المدنية الغربية إلى الشرق، وتبجح فنعى على العرب قلة عرفانهم بهذا الجميل الذي أسدته إليهم بريطانيا إذ سخرت لهم الذهب اليهودي والذكاء اليهودي لينهضا بهم، كأن العرب كانوا قد نسوا مدينتهم ومجدهم وافتقروا إلى السحت لإحياء ماضيهم الغابر. ومما يثير عجب القارئ ويبتعث ضحكه أن ينعى المؤلف على بريطانيا استخذاءها تلقاء العرب (الذين يعتبرون التأدب البريطاني جبناً والرحمة الإنجليزية ضعفاً فترد وفودهم إلى لندن ليملوا شروطهم كأنهم انتصروا على بريطانيا في معارك حربية. . .) ولسنا نعرف أن بريطانيا قد استخذت يوماً في فلسطين فيما يتعلق بالجانب العربي، اللهم إلا أن يعتبر المؤلف ضرب السكان بالنار ونسف المدن بالديناميت استخذاءً. ولسنا نعرف أيضاً ماذا كان من نكران العرب لجميل بريطانيا؟ أفمن هذا النكران وقوف العرب صفاً بجانب الإنجليز

في الحرب الكبرى ضد إخوانهم المسلمين؟ أم من هذا النكران تمسكهم ببلادهم وافتداؤهم لها بدمائهم؟ ما كان أجمل أن يذكر المؤلف كيف سند العرب بريطانيا في الشرق، ولو لم يفعلوا لتغير مجرى التاريخ، وتغير تبعاً لذلك وجه الأرض. . .
وبعد، فليقرأ الفلسطينيون هذا الكتاب ولينظروا في وقاحته، فقد عرض بالسوء لرجالاتهم، وجرح بالباطل زعماءهم وهم برد مزاعمه أولى.

العدد 232 - بتاريخ: 13 - 12 - 1937

ثورة على الأخلاق

معدة قرقرت ثم استقرت

للدكتور عبد الوهاب عزام

فأما صاحبك فقد ساءتني حربه وسلمه، وهو في سلمه اشد إساءة وأعظم جناية؛ صورته لي غاضباً للأخلاق، راثياً للفضيلة، ثائراً على الناس، يقذفهم بالتهم، ويرميهم بالحمم؛ يشتط في غضبته ويغلو في ثورته، فقلت: حر غضب فأخطأ، وكريم ثار فجار، وأبيٌّ برٌّ أسخطته المذلة، وهاجه الفجور، فانطلق لا يقف عند حد. ثم صورته قنوعاً مستسلماً فقلت: وا سوأتا! أهذا المبطان جادلت، وهذا الجبان نازلت؟ لقد كان جهاداً في غير عدو. لم تكن شقشقة هدرت ثم قرت، بل معدة قرقرت ثم استقرت. وما الشقاشق إلا لفحول الجمال، وأشباههم من فحول الرجال.

وأما أنت يا أخي الزيات فما أحسبك إلا شريك محمود في رأيه، أو أصاحب وحيه؛ قدمته للكلام ونطقت على لسانه، وعرضته للنضال ونزعت في قوسه، ولا أقول أقمته مقام الوثن من سادنه، والصنم من كاهنه. فلما تبين انه في الخصام غير مبين، وفي المآزق غير دفاع، وفي المعارك لا يثبت للمصاع؛ وإنه لجوع يثيره، وشبع يرضيه، أبدلت به جماعة حسبتهم أقوم بحجتك، واشد هيبة في صدور خصومك فقلت: (على أن مجلسنا كان حافلاً بغير محمود من رجال العلم والدين والأدب، وكلهم كانوا له وعليك) واكبر ظني أن هؤلاء (رجال العلم والدين والأدب) شركوا محموداً في المائدة. وإلا فكيف جمعهم بمحمود المجلس وقد (قام منذ هنيهة عن مائدة الإفطار الغنية الشهية)؟ والعجيب أن تذهب المائدة بثورة محمود وتثير سخط هؤلاء. ولعله كان أثبتهم على المائدة حملة، وأطيشهم في الصحاف يداً. ولعلهم آثروا القناعة، واصطنعوا الحياء، وتمسكوا بالأخلاق فحرموا، فكانت ثورتهم على الأخلاق.

وبعد فموضع الخلاف بيننا هذه القضية: هل الخلق الفاضل سبيل النجاح؟ قال محمود إبان ثورته: لا، وقلت: نعم نعم. وضربت مثلاً الصانع المجيد، الحسن المعاملة، الصادق الوعد، والتاجر الأمين المخلص، والمزارع الأمين. ثم قلت: (ولا يزال الرجل الصادق الأمين في كل جماعة وفي كل طائفة موضع المودة والثقة؛ ينال بسيرته ما تقصر عنه ثروته، إن

أستقرض اقرض، وإن استعار أعير، الخ) فبأي هذا يرتاب أصحابك؟ يقولون: ما أهون الأخلاق إن كان قصاراها هذا النجاح الحقير ويقولون إن الذين ضربتهم مثلاً من الأخيار لن يستطيعوا أن يكونوا يوماً من رجال المال والأعمال كفلان وفلان - وأنا يا صديقي ما خصصت بقولي ضرباً من النجاح دون ضرب. ولم يكن ذكري التاجر والصانع والمزارع إلا مثلاً و (إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما، بعوضة فما فوقها) ولا أتم الآية إشفاقاً على أصحابك أني أقولها كلمة عامة شاملة: الخلق الفاضل، في اغلب الأحوال، سبيل إلى النجاح في كل طرائق الحياة؛ إن اخفق حينا نجح أحياناً، وإن أكدى مرة أورى مرارا. فالحاكم الخير، والرئيس البر، والقائد الصالح، والمؤلف الصادق، والأديب النزيه، والصانع والتاجر والزارع، بل الموظف، كل أولئك اقرب إلى النجح واظفر بالطلبة في اكثر الأحوال من أمثالهم من الأشرار، بعد أن يتخذوا للمقاصد سبلها، ويعدوا لكل أمر عدته. فان قصروا في الأهبة وتوانوا في اتخاذ العدة فماذا يجديهم الخلق وحده؟ إن بعض الأخيار تجنبوا المعارك، وأشفقوا من المهالك، وضيعوا الحزم، فلما أوفت بهم الأعمال على نتائجها التبس الأمر على كثير من الناس فحسبوا إخفاقهم بما استمسكوا بالحق والخلق الطيب، وخالوا نجاح أضدادهم بما ركبوا إلى غاياتهم مراكب الباطل والرذيلة. فقل لهؤلاء: أعيدوا النظر واحسنوا التفكير، ولا تقصروا النجاح على المال فيجور بكم المنطق؛ فهناك الكرامة والجاه والرياسة والزعامة، وهناك الطاعة والمودة. وانظروا إلى الزعماء الذين يسوسون الأمم أهم من

أصحاب المال؟
وقلت في مقالي السابق: إن للأخيار إلى مقاصدهم سبيلاً واحدة، وللأشرار سبلاً شتى، ولكن هذه السبيل الواحدة أحرى بان تؤدي إلى الغاية، وتوفي على المطلوب. فقلت إن أصحابك يرون في قالتي هذه نزوعاً إلى رأي محمود. ثم قلت: (ومادام جوهر الرأي واحداً فالسبيل القاصدة أن نطب لهذه الحال بما يوائم بين طموح الناس وكرامة الأخلاق وسلامة المجتمع) ثم قلت انه لا معدى عن إحدى وسيلتين: أن تحمل الناس بالدين والسلطان على سبيل الحق الواحدة وذلك (خيال نبيل لا يقع في الإمكان)، وأما أن نعيد النظر في قانون الأخلاق، وهذا (على ما يرون مظنة التوفيق في الإصلاح الجديد)
وجوابي انه ليس في كلامي نزوع إلى رأى محمود إلا أن تقطع المقدمات بعضها عن بعض، ويفصل بين أول الحجة وآخرها. وإما الدعوة إلى إعادة النظر في الأخلاق فأنا لم اعد في مقالي جملة الأمر إلى تفصيله. لم أجادل عن خلق بعينه، ولم اقل أن خلقا ما صالح لهذا الزمن أو غير صالح، ولكني قلت إن الأخلاق الفاضلة التي تتفق عليها أمة أو أمم لا تكون سبلا إلى الخيبة والحرمان. وإن أردت أن نعيد النظر في الأخلاق فما أنا بمنكر أن الأخلاق تقبل بعض التغير، ولكني لا أخال إعادة النظر ستغير تغيراً ذا بال فيما سارت عليه الأمم منذ هداها الوجدان والعقل إلى سبل الخير؛ ولن تحلل هذه الإعادة رذائل كالكذب والسرقة والتزوير والظلم، أو تحرم فضائل كالصدق والأمانة والعدل. ومهما تكن النتيجة فالأخلاق القديمة أو الجديدة لا تكون قرينة الخيبة والشقاء.
وقد ذكرت أيها الأخ الكريم أخلاقاً تجعلها مثلا لما تريد تغيره. ذكرت التواضع والقناعة والزهد والمداراة والتوكل، وهذه أمور يختلف فيها النظر وليست من قواعد الأخلاق. فقل فيها ما يهديك إليه النظر الصائب. ورأيي أن التواضع محمود ما لم يكن ذلة، والقناعة حميدة بقدر ما تحول بين الإنسان وبين الشره والاستكلاب. فان كانت ضعفاً في الهمة وعجزاً عن الإدراك فهي رذيلة. وكذلك الزهد. وأما التوكل فان يكن استكانة للحادثات، وخنوعاً لكل ما هو آت، فلا يرضاه إنسان؛ وان كان ثقة بالنفس وانطلاقا في سبل الحياة لا ترده دون غايته المشاق والأهوال فما أحوج الناس إليه.
يا أخي: قد أساء العجز والذل تأويل هذه الأمور. أنت تعرف أن المثل الأعلى للرجل المسلم أن يكون طماحاً إلى ابعد غايته، واثقاً بنفسه إلى غير نهاية، حراً لا يقر بعبودية، أبياً لا يقيم على دنية؛ يرى نفسه قائماً في هذا العالم بالقسط قد وكل الله إليه تصريف الأمور وتقسيم الأرزاق، والهيمنة على الأخلاق. وأين هذه مما فهمه الناس من التواضع والتوكل. الخ
وأما الربا فلا يتسع المقام للكلام فيه. وحسبك هذه الثورات الثائرة حوله، والمعارك الهائجة فيه بين البلشفية والرأسمالية. وأما قياس الأخلاق بالنفع والضر فقد ذهب إليه بعض علماء الأخلاق، ولكن مذهباً ينتهي إلى منفعة الجماعة وضررها لا منفعة الفرد وضرره. ولن تقوم لأمة قائمة أن جعلت مقياس أخلاقها نزوات كل إنسان ونزغات كل فرد.
وبعد فيا صديقي ارني حدت عن الموضوع الأول استطراداً معك، فارجع إلى محمود احمده
على ثورته مخطئاً، وأذمه على هدوئه مصيباً. فقد تمثل لي في الأولى حرا ثائراً يريد أن يقلب نظم الأخلاق في الأمة، وتمثل لي في الثانية ثُكلةً نكساً مبطاناً لم يدع على المائدة فتاتاً، ولم تدع فيه المائدة فيه بقية لهمة أو عزيمة أو ثورة. فرحمه الله جوعان ثائراً، وأخزاه الله شبعان خائراً
عبد الوهاب عزام
هل الحرب ضرورة؟
للأستاذ عباس محمود العقاد
جرئ من يقول أن الحرب ليست من ضرورات الطبيعة الإنسانية في هذا الزمن الذي قلما نسمع فيه إلا حديث حرب وخوفاً من حرب واستعداداً لحرب وبحثاً في محالفات ومؤتمرات ليس الغرض منها إلا اتقاء العداوات والحروب.
والواقع أن محاربة الحرب في العصر الحاضر تحتاج إلى كل ما في الإنسان من شجاعة، وكل ما عنده من رأى، وكل ما ينطوي عليه من سجية، لأنه يحارب أقوى

القوى متضافرات متشابكات: يحارب قوة المال وقوة السلاح وقوة الجهل وهي أقوى عناصر هذا الثالوث.

وربما كان خير الميادين للغلبة على الحرب ميدان الثقافة وما يلحق به من ميدان التربية والتعليم. فإن التربية تصلح ما أفسدته التربية، ثم تزيد فتصلح ما لم تفسده قبل ذلك، وهي على كل حال سلاح لا غنى عنه في هذا الميدان، لأن وسائل السلم كلها لن تفيد في تعويد الناس غير ما تعودوه ما بقيت تربيتهم وتثقيفهم عقولهم على الحال التي هي عليه

في طليعة الكتاب المعنيين بفلسفة الحرب (الدوس هكسلي) حفيد العالم الإنجليزي هكسلي الكبير.

وهو وأقرانه في هي هذا الجهاد الإنساني الشريف لا يبحثون عن الحرب بحث الصحف والأخبار والمؤتمرات والوزارات، فإنهم يعتقدون وهم على حق فيما يعتقدون أن سياسة الأمم اعمق وأخفى واعرق من هذه الجوانب التي يتناولها السواس وتلغط بها صحف الأخبار، ولكنهم يبحثون الطبيعة الإنسانية وينقبون في تواريخ الأمم ليعرفوا منها ما هو طبيعي أصيل، وما هو عرضي قابل للتهذيب والتبديل. ومعظم النابهين بين كتاب هذه الطائفة ينتهون إلى أن الحرب بدعة طارئة وليست ضرورة من ضرورات الطبيعة الإنسانية ولا قانوناً من قوانين الاجتماع، وهذا هو الرأي الذي يلوح غريباً ممعناً في الغرابة للذين سمعوا وطال سماعهم لقوانين تنازع البقاء وإرادة القوة وإرادة الحياة، وحسبوا أن هذه القوانين ودوام الحرب معنيان مترادفان

كتاب (الغايات والوسائل) هو آخر كتب هكسلي في هذا العام، وإن كان قد ردد فيه بعض

الآراء التي شرحها في كتبه السابقة منذ سنوات.

وفصل الحرب في هذا الكتاب من أبرع الفصول التي كتبها هذا الأديب اللوذعي المطلع القدير، وهو الفصل الذي نلخصه في هذا المقال، ونعتقد إننا - نحن المصريين والشرقيين - خلقاء أن نبحث الحرب من هذه الناحية بعد أن طال حديثنا عنها من نواحيها العرضية التي تجيء وتذهب مع الأخبار، بل لعلنا أحوج ما نكون إلى تدعيم بحوثنا كلها على هذا الأسس وعلى هذه الأصول

يقول هكسلي ما خلاصته أن الحرب ظاهرة إنسانية لا وجود لها في عالم الحيوان، لأن الحيوان يتقاتل في إبان الثورة الجنسية أو طلباً للطعام أو لهوا ولعباً في قليل جداً من الأحايين، وليس من الحرب بالبداهة أن يقتل الذئب الشاة أو تلعب الهرة بالفأر، فإنما هذا شبيه بعمل الجزار حين يقتل ما يطعمه الناس، أو شبيه بعمل الصياد حين يتعقب الثعلب والأرنب. نعلم أن بعض علماء الحياة وعلى رأسهم السير أرثركيث يزعمون أن الحرب كالمنجل في يد الطبيعة تقطع الفاسد وتبقي من أفراد الحضارة وشعوبها كل صالح للبقاء

ولكن هذا كما هذا ظاهر لغو فارغ، لأن الحرب تقضي على الشبان والرجال الأشداء وتترك الضعفاء والشيوخ الذين لا يذهبون إلى الميدان. وقد دلت التجربة على أن اعنف الشعوب وأصلحهم للحرب لم يكونوا قط افضل الشعوب وارفعها في مراتب الأخلاق والثقافة، إذ ليس انفس بني الإنسان وأغلاهم قيمة في معيار الحضارة أوفاهم (نزعة حربية) وضراوة في حومة القتال.

وأوجز ما يقال في هذا الصدد أن الحرب تختار الأفراد على طريقة عكسية فتفني الأقوياء وتترك الضعفاء، وإنها تختار الشعوب على سنة المصادفة والمناسبات الموقوتة، فكثيراً ما تفنى الشعوب المقاتلة وتترك الشعوب الموادعة، وكثيراً ما كان انطباع الأمة على الحرب طريقاً لها إلى الوبال والاستئصال.

والذي يدل اكبر دلالة على أن الحرب أليست طبيعة في الإنسان ولا في الاجتماع إنها لم تظهر في التاريخ إلا بعد ظهور درجة من الحضارة ونوع من الحكومة، فهي مجهولة بين قبائل (الإسكيمو) التي تسكن الأصقاع الشمالية حتى اليوم. وقد كانت مجهولة في أطوار الإنسانية الأولى فلم يعرف عن الإنسان في تلك الأطوار انه اتخذ السلاح للقتال وحب

الغلب والسيادة، إنما كان يتخذ السلاح لدفع الضواري أو لصيد بعض الحيوان وصحيح أن (تنازع البقاء) قانون قائم في عالم الإنسان كما هو قائم في عالم الحيوان،

ولكن من أين لنا أن تنازع البقاء مستلزم داوم الحرب كما ألفناها ونألفها في الحضارات الغابرة والحاضرة؟ ومتى شوهد الحيوان وهو يتجمع مئات وألوفاً ليقاتل بعضه بعضاً من فصيلة واحدة؟ فليس في عالم الطبيعة كلها ظاهرة تشبه اجتماع جيش لمحاربة جيش آخر، ولم يعلم قط أن قطيعاً من الذئاب احتشد الهجوم على قطيع مثله، أو أن سرباً من الطير فعل مثل ذلك على سنة الآدميين في الحروب.

فالقول بان الحرب قانون طبيعي قول لا يستند إلى اصل من الطبيعة الحيوانية في حالي التفرد والاجتماع، إنما هو تفسير خاطئ لقانون صحيح.

إن الآداب الأوربية قد شوهت الأخلاق حتى وهم الناس أن التضحية بالحياة أنبل ما يستطيعه الإنسان، وان الشهيد أي الميت الحسن على زعمهم افضل من الرجل العامل أي الحي الحسن. وعلى خلاف ذلك كانت آداب الشرقيين في الهند والصين، فعند اتباع كنفشيوس أن المغامرة بالحياة لا تليق، وان الحكمة افضل من الشجاعة البدنية، وان العاملين في السلم افضل من العاملين في القتال وان الفضيلة العليا أن يحجم المرء عن الكبرياء والعدوان ويروض نفسه على الوداعة ومجازاة الإساءة بالإحسان

ولما جاء المسيح بدين الوداعة والمسالمة دخلت المسيحية بين شعوب أوربا المقاتلة فجعلوا (الاستشهاد) غاية الغايات في النبل والفضيلة، لأنهم هكذا ينظرون إليه في الآداب العسكرية حتى التبست دعوة السلام بدعوة القتال.

أما في الهند فالحضارة البوذية تأبى العدوان على أحد من الأحياء وتوصي بمحاربة الشر بالكف عن مقابلته بمثله، وهو ما يسمونه عندهم (اهمسا) أي اجتناب الأذى مع الأحياء كافة حتى ما يؤذيه الآخرون طلباً للطعام.

وفي شرع البوذيين أن (الغضب) رذيلة دائماً وان الإكراه محظور في جميع الأحوال، فشاعت البوذية وعمت بين مخالفيها دون أن تلجأ إلى اضطهاد أو جاسوسية أو محكمة تفتيش

وعلى هذا، وعلى ما تقدم من نفي ضرورة الحرب، يسوغ لنا أن نعتقد أن الدعوة إلى إلغاء الحروب ليست بالدعوة التي تقاوم مجرى الطبيعة أو تعارض تيار السفن التاريخية، وانه من الجائز أن يشيع السلام في وقت من الاوقات، وبخاصة في العصور المقبلة القريبة بعدما استفحل خطر الحرب وتعذرت النجاة منه على المسالمين في البيوت والمقاتلين في خطوط النار.

واستطرد الكاتب إلى إجمال أسباب الحرب فقال ما خلاصته أنها أسباب نفسية قبل أن تكون اقتصادية أو سياسية كما يزعم الاشتراكيون ورجال السياسة، وان كان هذا لا يمنع أن لها أسباباً اقتصادية تعالج بترياق غير ترياق الدماء.

فمن أسباب الحرب الخوف، فهو يدفع إلى الاستعداد، والاستعداد يضطر الأمم إلى الحرب، لأنه يهيئ الأذهان لها بكثرة التوقع والشك في إمكان اجتنابها، وأحرى أن يكون ذلك في العصور الحديثة والبلاد المتحضرة، حيث اصبح السلاح عرضة للتغير والبلى بعد قليل من سنوات، فمن العسير أن تنفق الدول الملايين ثم تلقى بها في التراب.

ومن أسبابها شيوع الملل في الحضارة إذ يشيع الكفر بالأمثلة العليا فتعود الحياة عبئاً ثقيلاً لا غرض له ولا وجهة ولا متعة فيها أمتع من الإهاجة واستفزاز الشعور، والحرب تهيج النفوس فتدفع الملل والسآمة وتقل حوادث الانتحار كما ثبت من إحصاءات علماء النفس وفي طليعتهم دركيم وهلباش.

ومن أسباب الحرب الحرب نفسها حين تهجم أمة على أمة أخرى لانتزاع موقع لازم للتحصين ودرء المخاوف واتقاء الهجوم

ومن أسبابها المجد الكاذب وطغيان الأقوياء وتحويل أنظار الشعوب في الأزمات إلى ما يشغلها عن الثورة والانتقاض

ومن أسبابها التربية القائمة على الإفراط في اتباع النظام فان الإفراط في النظام ينشئ (العقلية العسكرية) ويجني على استقلال الأفراد، فتسهل قيادتهم إلى ما يريده القابضون على أعنة الأمور. ولو تربى الأطفال مستقلين لما استطاع القادة سوقهم إلى المجازر كما تساق الأنعام.

أما الأسباب الاقتصادية والسياسية فهي دون ما تقدم في القوة وصعوبة العلاج، وسنعود إليها والى مناقشة آراء الكاتب في غير هذا المقال
على أن الرأي الذي نود أن نختم به مقالنا هذا هو إصرار هكسلي على السخر بكل ما يقال عن الحروب التي تختم الحروب
فعنده أن التاريخ الإنساني ليس (كرة أرضية) يخرج فيها الإنسان إلى اليابان فيلقى نفسه في أقصى المغرب من طريق الشرق البعيد
إنما التاريخ الإنساني خط مستقيم، فإذا أردت أن تتقدم فيه إلى إلغاء الحرب فلن تصل إلى وجهتك بالرجوع إلى الوراء
عباس محمود العقاد
القلب الغريب
في ليلة عيد
للدكتور زكي مبارك
أخي الأستاذ الزيات
هل تذكر ما حدثتني به منذ سنين؟ هل تذكر انك تشهيت مرة أن توجه إليّ خطاباً على صفحات البلاغ عنوانه (من غريب إلى غريب) وكنت الغريب في بغداد وكنت الغريب في باريس؟
ولم تحدثني عما أوحي إليك أن تفكر في إنشاء ذلك الخطاب، فهل أستطيع أن ارجح أن ذلك كان بعد أن نشرت أنا رسالة (من غربة إلى غربة بين القاهرة وباريس) تلك الرسالة التي فضحت بها مكتوم صدري ومكنون هواي؟
على أنني لن اكتب مثل تلك الرسالة مرة ثانية فقد انتهى عهد الغربة بالقاهرة، وقضى الحب أن اشهد كيف تنهمر دموع الملاح يوم رحيلي إلى العراق
انتهى عهد الغربة بالقاهرة، وحل عهد الاغتراب عن القاهرة، فمن يردني إليها ليلة أو ليلتين لأقضي حق التحية، تحية المغاني الآهلة التي كانت تتشوق إلى العيد، لتراني مع العيد!
ليتك يا صديقي تعرف نعمة الله عليك في بلد لك فيه أهل وأحباب، ولا أراك الله حسرتي وعذابي وأنا أتجرع كأس الغربة في ليلة عيد!
ولكن هل من السياسة أن أعلن غربتي في بغداد، وقد لقيت فيها أهلاً بأهل وجيراناً بجيران؟
إن قيل ذلك فأنا أعلن إني لا أعاني غربة العقل وإنما أعاني غربة القلب
وكيف أعاني غربة العقل ومحاضراتي يشهدها المئات من عشاق العلم والبيان، ولا أخطو خطوة إلا وأنا محوط بالعطف والإعجاب، ولا ادخل نادياً إلا تلقاني أهله وسامروه بالترحيب والتبجيل؟
ولكن هل يكتفي مثلي بحياة العقل؟ يا ضيعة العمر إن كتب علينا ألا نظفر بغير الثناء من عقلاء الرجال! وما أضيق العيش إن كانت لا تلمع بروقه إلا من صرير القلم وسواد المداد!
إن الحياة العلمية ليست إلا خدعة يتلهى بها أرباب القلوب. وهل يخفي عليك ما يعانيه رجل مثلي حين يعود وحيداً إلى منزله بلا أنيس ولا رفيق؟ هل يعزيه حينذاك أن يتذكر انه كان منذ لحظات يعاقر الفكر والرأي وهو يلقي محاضرته على جمهور من العلماء والأدباء؟
ليتك تراني وأنا ادخل إلى غرفتي شارد اللب فأزيح الستائر عن النوافذ ثم أطفئ المصباح لأقف وجهاً إلى وجه مع ظلام بغداد. ويا رحمة الله من ظلام بغداد في لياليها الطوال!
ولكن ما الذي يدعوني إلى معانقة الظلام في بغداد؟ لا اعرف ولكن يخيل إليّ أن الظلام يؤنسني بعض الإيناس، لأنه يوهمني أني في فترة من الزمن تأنس فيها القلوب بالقلوب، وتسكن الأرواح إلى الأرواح. وربما كان الظلام في غرفتي فرصة طيبة أتبين فيها بصيص النور في منزل قريب أو بعيد فأتمثل أخيلة النجوى والعتاب، وأتوهم ضجيج المرح في ليالي الوصال
أما بعد فهذا غروب اليوم التاسع والعشرين من شهر رمضان وهذا مكاني على المائدة في المطعم الذي تخيرته بشارع الرشيد، وهذه أطياف ترد على القلب، من أحباب

القلب، أطياف من مصر الجديدة والزمالك، تلك البقاع التي لم تر فيها النجوم قلباً مثل قلبي، ولم تسدل ستائرها على هوى اعنف من هواي. . . وليقل من شاء ما شاء!
واسأل جاري على المائدة: هل ثبتت الرؤيا؟
فيجيب: سنعرف ذلك بعد ساعة أو ساعتين
وأخرج فأتصفح الوجوه في شارع الرشيد بلا نفع ولا عناء، ثم أميل على الشرطي أسأله:
هل ثبتت الرؤيا؟
فيجيب: لم تثبت، ولكن المحكمة تنتظر برقية من النجف
فأدمدم: برقية من النجف؟ وهل يسر من في النجف أن يفطر من في بغداد؟ إن كان الأمر لعلماء النجف فسيضيفون إلى الصوم يومين، ولولا أن يفضحهم الهلال لزادوا الصوم أسبوعين
واذهب إلى نادي المعارف لأسمر لحظات مع الزملاء من المدرسين فيفرحون بلقائي ويسألون: كيف غبت امس؟ فأجيب: غبت أمس لأحضر اليوم. ولكن حدثوني هل عندكم أخبار عن الهلال؟ فيجيبون: سنعرف ذلك بعد الساعة العاشرة. فأقول: والشمس تغرب في الخامسة فهل يمكن أن يكون بين الخامسة والعاشرة مجال لرؤية الهلال؟
وبعد لحظة تحول إبرة المذياع إلى مصر فاسمع فتاة تباغم المستمعين فتقول: سادتي وسيداتي، وهذا آخر العهد برمضان! فأقول: يا إخواني، يا حضرات الأساتذة يا مسلمين يا أولاد الحلال، هذه في مصر ليلة العيد.
فيجيب أحدهم وهو يبتسم: علمت شيئاً وغابت عنك أشياء. ألم تعلم أننا صمنا يوم الجمعة، وصام المصريون يوم الخمس، فهم حتماً يسبقوننا إلى العيد؟
فأقول: من هنا تعلمون أن مصر تقدمت في كل شئ، فلها السبق في الصوم ولها السبق في العيد وانصرف محزون الفؤاد هذه غرفتي موحشة لا يؤنسني فيها غير أرواح الموتى من المؤلفين وسيكون الغد يوم عمل، لأن يوم الوقفة لا عطلة فيه في بغداد، وإذن فسأعطي غداً درساً في التفسير، وهو درس متعب لأنه في الكشاف، وفي آية يختلف فيها أهل السنة مع أئمة الاعتزال
وكيف اعد هذا الدرس، يا رباه وأنا اعرف أنها ليلة عيد في مصر الجديدة وفي الزمالك، ويا ويلتاه من لوعة القلب حين أتمثل مصر الجديدة والزمالك؛ وغضبة الله على من تمر بباله خاطرة ملام وأنا اردد أسماء تلك المغاني، حرسها الله وأدام لأهلها نضرة النعيم
بسم الله الرحمن الرحيم
(يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وانتم لا تشعرون)
قال جار الله الزمخشري. . .
هذه طلقة مدفع!
وقال ابن حجر في الرد عليه. . .
وهذه طلقة ثانية!
وكيف نوفق بين القولين؟
وهذه طلقة ثالثة!
ولكن ما الساعة الآن؟
الساعة العاشرة! إذن ليست هذه مدافع السحور ولا مدافع الرفع، وإنما هي مدافع العيد
وأطفأت المصباح وتلفت إلى النافذة لأرى ظلام بغداد وقلت هذه ليلة عيد بالإجماع، فلأرح نفسي من الكشاف، ولجاجة صاحب الكشاف ولأقبل على قلبي أتبين ما فيه من فطور وندوب.
تذكرت أنني كنت اكتب رسالة وجدانية في كل ليلة عيد ثم انقطعت رسائلي بعد إذ مات أبي يرحمه الله، لأنني أنفت أن ابكي بعده على غرض مضيع أو هوى مفقود ثم بدا لي في هذه الليلة أن أبي لا يسرة في قبره أن تعيش مهجتي بلا لوعة، ومقلتي بلا دمعة وكان يرحمه الله جذوةً من الوجدان

وعدت إلى الظلام استلهمه واستوحيه فلم أجد من أحاوره غير الرجل الحزين الذي اسمه احمد، احمد حسن الزيات
صديقي!
هل تذكر فكاهتك الطريفة إذ تحدث إخوانك انك عرفتني أول مرة عن طريق البوليس؟ هل تذكر أن البوليس دعاك مرة إلى زيارة المحافظ فتوجست خيفةً ثم رأيت أن الخطب هين لأنك دعيت لتتسلم رسالة من الشيخ زكي مبارك الذي اعتقلته السلطة العسكرية أيام الثورة المصرية؟
ألا فلتعلم أن الحظ قضى عليك إلا تتلقى مني رسالة إلا في ظروف تحيط بها شبهات، فان كانت الرسالة الأولى في عهد ثورة فهذه أيضاً في عهد ثورة، وربما كانت هذه اعنف وافظع لأنها تحدثك عن صديق حزين يناضل الأرق والسهاد في ليلة عيد
صديقي!
لا تعجب من رجل يضنيه الحزن والإبتئاس مع أنه ينهض بأثقل الأعباء، فدنيا القلب غير دنيا العقل والشواغل الجسام لا تلهي الرجل عما يساوره من لواذع الإحساس، وأنا رجل يؤمن بان القلب أدق ميزاناً من العقل وكيف لا يكون كذلك وهو يأخذ هدايته من الفطرة، على حين لا يهتدي العقل إلا بالبراهين، وهي في الأغلب تقوم على مقدمات لا تخلو من تضليل
صديقي
هذه الساعة الأولى بعد منتصف الليل، وستقرأ هذه الرسالة فتذكر انك أرقت في ليلة العيد بلا سبب معروف فلتفهم حين تقرا هذه الرسالة أن ذلك الأرق إنما كان هدية أرسلها إليك الغريب في بغداد، الغريب الذي يوحي الحزن إلى أشقياء الغرباء والآن أطفئ المصباح لأعانق الظلام في المدينة السحرية التي شقي بليالها ملايين الرجال فلا أرى غير بصيص ضئيل لمصباح أقامته الحكومة على شاطئ دجلة، فافهم أنني أخاطب الأموات لان مصابيح الحكومة لا تدل على شيء ولا يهتدي بها غير لصوص الجيوب
الآن تهدا بغداد بعد أن تسدل أستارها على الغافين من السعداء والبائسين، ويبقى المسهد الغريب الذي لا يعرف ربيع القلب، ولا نعيم الجفون
في هذه الليلة تهدأ جُنوب، وتقلق جنوب، وجنبي هو الجنب الحائر تحت سماء بغداد.
في هذه الليلة تتلفت عيون فلا تراني، عيون كنت لها أمتع من إغفاءة الفجر، وانضر من بياض الصباح في هذه الليلة تشتاقني أكبادٌ رقاقٌ علمتها كيف تطيب ليالي الأعياد ولكن لا باس، فسنعيش حتى نرد ديون الهوى، وسيعلم من أبكاهم الفراق أن الدمع لا ينفع، وسنرجو إلا يسمحوا لنا بعد هذه المرة بالتعرف إلى محطة باب الحديد.
أخي الأستاذ الزيات
لا انتظر منك دمعة عند قراءة هذا الخطاب، ولكن لي إليك رجاء، فاحفظ عهد أخيك ولا تمش في شوارع القاهرة إلا مشية الخاشعين، فليس في تلك المدينة بقعة إلا ولي فيها صبوات، وليس فيها شارع ولا مشرب ولا ناد إلا ولي فيه أحباب وخلان ولو شئت لكلفتك تبليغ التحية إلى أصفياء القلب في مصر الجديدة، وفي الزمالك، ولكن مثلك وا أسفاه لا يؤتمن على نقل التحية إلى أسراب الملاح، فلتكن (الرسالة) رسولي إلى من أذالوا غاليات الدموع يوم رحيلي إلى العراق والسلام عليهم وعليك
من الغريب الحزين
زكي مبارك
حرق الميت
العرب أول من أعلن (بقاء المادة)
لأستاذ جليل
وصى (مكدونالد) الإنجليزي الاسكتلندي من رؤساء الوزراء السابقين في بلاد البريطانيين قومه أن يحرقوه إذا هلك فاحرقوه في هذا اليوم. وحرق الميت طريقة هندية برهمية، وقد زينها (المعري) في (اللزوميات) للناس فقال الخبيث - جزاء الله جزاءه -:
فاعجب لتحريق أهل الهند ميتهم ... وذاك أروح من طول التباريح
إن حرقوه فما يخشون من ضيع ... تسري إليه ولا خفيٍ وتطريح

والنار أطيب من كافور ميتنا ... غبا وأَذهب للنكراء والريح
ومن اجل هذا وغيره اتهم الرجل بالتبرهم، ففي (لسان الميزان) لابن حجر: (من عجيب رأى أبي العلاء تركه كل مأكول ل لا تنبته الأرض شفقة على الحيوانات حتى نسب إلى التبرهم)
والبرهمي يتقرب بالحريق إلى الله. وقد يحرق بعضهم نفسه (جسمه) بنفسه وهو حي متفنناً في إحراقه، فقد قال (البديع) في إحدى رسائله:
وربما عمد أحدهم - يعنى الهنود - فاتخذ لرأسه من الطين إكليلا، ثم قور قحفه (فحشاه فتيلاً، ثم أضرم في الفتيل ناراً ولم يتأوه، والنار تحطمه عضواً فعضواً)
وغير البرهمي إنما يفر بالحرق من الله - وهل من الله (ياغر) مفر - ففي (الفائق) للزمخشري: (أن رجلاً رغسه الله مالاً وولداً حتى ذهب عصر وجاء عصر، فلما حضرته الوفاة قال: أي بني، أيَّ أب كنت لكم؟
قالوا: خير أب
قال: فهل انتم مطيعي؟
قالوا: نعم
قال: إذا مت فحرقوني حتى تدعوني فحما، ثم اهرسوني بالمهراس، ثم أذروني في البحر
في يوم ريح، لعلي أضل الله
وهيهات أن يضل الله، أن يفوت الله هارب من عذابه (أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون)
وهيهات أن يضمحل في الوجود شئ؛ إن (الكتاب) يقول: (أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً، إن الله على كل شيء قدير) (يا بني إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير) والعلم العربي قد أعلن (بقاء المادة) ونادى أن لا تلاشي للأشياء. قال عبد الحميد بن هبة الله في كتاب شرحه لنهج البلاغة: (إنا نرى الحيوانات الميتة إذا دفنت في الأرض تتقص أجسامها وكذلك الأشجار المدفونة في الأرض؛ على أن التحقيق أن المحترق بالنار والبالي بالتراب لم تعدم اجزاؤه، وإنما استحالت إلى صور أخرى)
ذلك قول الله، وقوله الحق. وهذا قول العلم العربي المثبت بالعلم الغربي فلن يضل الله محروق أو غريق أو مفرفر في الغيل مأكول، ولن يضيع في العالم ضائع ولن يعدم في الوجود كائن. إن الطبيعة خزانة الله حافظة أمينة (وكان الله بكل شيء محيطا) (فويل للذين ظلموا من عذاب يوم اليم)
الإسكندرية
(* * *)
فلسفة التربية كما يراها فلاسفة الغرب
للأستاذ محمد حسن ظاظا
- 3 -
خلق الله تعالى الإنسان وأودعه بذرة كماله المنشود، ثم) المنشود ثم تركه للمعلم ينمي فيه هذه البذرة حتى إذا ما اشتد ساعده واصل تربية نفسه بنفسه محققاً إرادة السماء)
,
بينت في المقال السابق ما بين الفلسفة والتربية من علاقة، وذكرت فحوى فلسفة التربية الحديثة لدى جون ديوي ومدرسته وسأتناول في هذا المقال معنى التربية وضرورتها وقدرتها:
أما معناها فكان وما زال موضع خلاف في التصور والتعبير، فمثلاً دائرة معارف تقول: (إن كل شيء يعلم الإنسان وان التربية على الخصوص هي صب الأطفال في قالب خاص) (أنظر فصل كيف نتصور التربية) (التربية تطور متناسق للملكات يتفق وطبيعة العقل)؛ هذا بينما يقول بستالوتزي: (كل عمل المعلم هو أن يمنع ما يعرقل طبيعة الناشئ حتى تستطيع أن تنمو نمواً طبيعياً على مثال صورة الله تعالى)، وبينما يقول ديوي: (التربية هي الأسلوب الذي يصير المرء في امتلاك متواصل متزايد لنفسه ولقواه، بواسطة الاشتراك المتواصل المتزايد في أعمال الجنس)

هذا ويعلل لنا الأستاذ أمين مرسي قنديل عدم الاتفاق على تعريف جامع مانع للتربية بقوله: (التربية من حيث هي علم لم يستقر، بعد فهي لا تزال في دور التحول والتكوين) (انظر أصول التربية والتعليم ج 2ص35)

ومهما يكن من شيء فالأستاذ هورن التربية على نحوين: نحو عام هو تلك (العملية) الطويلة الهائلة التي يتعلم فيها الجنس البشري تحت رعاية ذلك (الروح الأبدي) المتجلي في الطبيعة والإنسان؛ ونحو خاص هو (عملية) المدرسة منذ روضة الأطفال إلى نهاية المدرسة العليا. ولذلك كانت دراسة التربية من حيث معناها العام دراسة للمدنية بأجمعها

ودراستها من حيث معناها الخاص دراسة لتاريخها ومثلها الأعلى وفنها العملي وفلسفتها (انظر هذا عن معناها. وأما ضرورتها فها هو (هربارت) يقول: (إنها (أي التربية) مهمة دينية ورسالة مقدسة!) وهاهو (كانت) يزعم (أن الإنسان لا يصير إنساناً إلا بها)!! ولا شك إنا نستطيع أن نلمس ضرورتها في نواح عديدة أهمها الثلاث الآتية:

1 - الناحية النفسية

ذلك إنا إذا أخذنا طفل (الرجل المتمدن) وألقيناه في إحدى الغابات، وفرضنا أن الطبيعة سترعاه حتى يستطيع أن يطعم نفسه ويدافع عنها، لوجدنا أن نشأته بين الأشجار ستكون بدائية بحتة ترجع بالإنسانية آلاف السنين إلى الوراء

وكذلك قد لوحظ أن الطفل الاسكتلندي الأصل إذا ما انتقل إلى الوسط الفرنسي تغير كثيراً وأضحى غير زملائه في وسطه الأول

ومعنى هذا أن الوراثة الاجتماعية تعدل في الوراثة البيولوجية تعديلا خطيراً. ومادام الأمر كذلك فمجال (الإمكان) في التربية إذن فسيح، ومجال سلطانها على مستقبل الناشئ، بل والعالم كله، من حيث السعادة والشقاء، والتقدم والتأخر، إذن عظيم وخطير! يؤيد ذلك قول تورندايك في (إن التربية اعظم مساعد للناس جميعاً على تحقيق خيرهم المطلق) وقول الأستاذ آدم سمث في (إن الفرق في كثير من الأحيان بين الفيلسوف ورجل الشارع ناشئ في العادة من التربية اكثر مما هو ناشئ من الطبيعة)، وقول هيوم (هما المران والممارسة ينشئان العامل الماهر)

بل إن البعض ليذهب إلى اكثر من ذلك فهم يدعون أن علم الوراثة سيستطيع أن يقدم للتربية في الغد ما يمكنها من (خلق) العقل والجسم المنشودين!!

2 - الناحية الاجتماعية

والإنسان فضلا عما تقدم كائن اجتماعي. ولما كانت الحياة في ذاتها نمو وتطور وتجدد كانت التربية هي الأداة الفعالة التي يستطيع المجتمع أن يحفظ بها كيانه ويجدد نفسه. وكلما تعقدت أساليب الحياة في المجتمع احتيج إلى تربية نظامية دقيقة، والأفراد يموتون ولكن الجماعة تبقى!، والصغير محتاج - كما يواصل حياة الجماعة فيما بعد - إلى أن يأخذ من

الكبير الذي سيموت تاركاً له التراث الأكبر!، فيجب إذن (ترقيع) الجماعة دائما! وإلا فلا يجد الصغير درعاً يساعده على البقاء! ومعنى هذا أن التربية في الجماعات المتمدنة قد أصبحت تقوم مقام الصلاحية للبقاء في الحيوانات والجماعات المتوحشة!

زد على هذا أن الجماعة لكيما تكون وحدة ناجحة سليمة يجب أن تتحد في المطامح والعقائد والفهم العام. وليس كالتربية وسيلة لتحقيق مثل تلك الوحدة الناجحة. ذلك أنها ترتب الميول المراد تنميتها وتساعد عملية النمو؛ كما أنها تطهر وترفع مستوى العادات الاجتماعية القائمة؛ وتوجد بيئة متوازنة، هي المدرسة، تعد الطفل لمواجهة البيئة الكبرى. . .

3 - ناحية النمو

ويقول السير جون آدمز إن اغلب تعاريف التربية تحوي معنى النمو. فكومنيوس وبستالوتزي مثلاً يتفقان في أن العقل كالبذرة ينمو من الداخل. والحق أن الحياة في الفرد وفي المجتمع وفي تاريخ الكائنات جميعاً ليست إلا عملية نمو هائلة متسلسلة ينطق بها لسان التطور؛ ويحتاج النمو الصالح إلى مرونة تجدها التربية في الطفولة والشباب. وبهذه المرونة نتعلم من التجربة ونكتسب العادات الآلية التي تضمن لنا السيطرة على الطبيعة، وحسن التكيف في الموقف الجديد، والاختراع والابتكار والخلق والإبداع

وما دام الأمر أمر نمو فان المدرسة الحديثة تعارض فكرة الأعداد (للغد فحسب) كل المعارضة حتى لا تصرف المتعلم عن فرصة الحياة الحاضرة بما فيها من ميزات
يقول (ديوي) في (المدرسة والاجتماع ترجمة الأستاذ قندلفت): (لا يتاح لأمة أن تفي حق الأمانة لنفسها إلا بان تكون أمينة على إنماء أفرادها التي تتألف منها. ولا عامل كالمدرسة ينيلها ما تريد)
بقي بعد ذلك أن نتكلم عن قدرة التربية كما أشرنا إلى ذلك من قبل. والحق أننا نستطيع أن نتحدث هنا دون أي حرج. وها هو ذا إرازمس , يقول انه لو سيطر على التربية بضع سنوات لغير الدنيا. وبسمارك يردد: (إن من يدير المدرسة يوجه مستقبل الأمة. . .) وقديماً حاول أفلاطون أن يخلق المدينة السعيدة الفاضلة بالتربية. وحديثاً يسود الإنجليز ويستمدون عظمتهم من تربيتهم لا من جيوشهم وأساطيلهم.
وأخيراً إذا كان العالم يسير اليوم متشائماً نحو الحرب والدمار فلأنه قد نشأ نفسه وا أسفاه
على أساس من تربية فلسفتها البقاء للأصلح، وقوامها الوطنية الكليلة والقومية الحمقاء!!!؟
لذلك كله يرجو دعاة السلام والإصلاح من التربية خيراً جزيلاً؛ ويحاولون جهدهم أن يستغلوا (إمكانات) علم النفس في تعديل الغرائز وتهذيبها والتسامي بها أيما استغلال، ولكنهم يشعرون - واشعر معهم - انهم لا يزالون بعد في حاجة قصوى إلى إقناع الساسة والشعوب بفلسفتهم الجديدة القائمة على أن العالم هو الوطن الأكبر، وعلى أن الإنسانية في التعاون والتعاضد والبناء والتشييد، لا في التنابذ والتحاسد والتخريب والتدمير. .!!
فهل يستطيعون لهذا الإقناع سبيلا وأبواق الحرب تهرف في كل مكان بدعاية مجنونة، ورجال السلاح ينفثون سمومهم وأحقادهم ومطامعهم في نفوس بريئة لا تملك النقد ولا تعرفه؟؟
وكيف السبيل لذلك الإقناع ورجال الحرب يسيطرون على الحكومات ويوجهون برامج التعليم إلى حيث تتحقق فلسفتهم الجوفاء؟؟
ومصر في عصرها الديمقراطي المستقل الراهن أترى للتربية فيها فلسفة ناضجة؟؟
وإذا كان لها فلسفة ما: أفلا تتطلب هذه الفلسفة تعديلا يلتئم وحاجات العصر الجديد من ناحية، ويتمشى وحقائق علوم التربية الحديثة من ناحية أخرى؟؟
ذلك ما أدعوك للتفكير فيه أيها القارئ العزيز على ضوء الحقائق التي ذكرتها وساذكرها؛ وما اعدك بتناوله بعد الفراغ من هذا الموضوع

محمد حسن ظاظا
مدرس الفلسفة بالمدارس الثانوية

مجادلة طريفة واقعة حول معجزات الإسلام

للأستاذ خليل جمعة الطوال

هل تطلبون من المختار معجزة ... يكفيه شعب من الأحداث أحياه
وكيف ساس رعاة الإبل مملكة ... ما ساسها قيصر من قبل أو شاه (غنيم)

استويت إلى مكتبي المتواضع، وفي النية أن اكتب فصلا (للرسالة الغراء) عن نخاسة الأعراض وتجارة الزواج في شرق الأردن؛ وفيما أنا أفكر في عناصر الموضوع وطريقة الدخول إليه واستجمع له الخواطر الشاردة، والأفكار الطافية فوق هموم العيش والإفلاس، إذ بطارق يقرع على الباب ثلاث قرعات متوالية، ثم يقتحم الغرفة بدون استئذان ويجلس بالقرب مني على مقعد خشبي قديم أشبه ما يكون بمقاعد مقهى العتالين في باب العامود. وكانت بادرة الفكر أن أحوله عن هذا المقعد الوضيع الذي لا يتفق ومكانة الزوار، ولكنه تشدد عليّ وأبى إلا أن يلازم مكانه الذي ظل جالساً فيه وكأنما يستجمع قواه ليقفز
كان طوالاً أجناً، ياسر الوجه، أترم الثنية اليسرى، متغطرفاً وعواعاً، قد تفشغ الشيب في لمته وذقنه الحليق، توضحته فتبينت في أسارير وجهه قصة طويلة، إلا أنها خفية المعنى، عديمة الإبانة، غامضة الإشارة فألقيت عليه تحية المساء ثم سكت عله يبدأ

الحديث ولكنه ظل مبرطما، ينكث السجادة بعصاه دون أن ينبس ببنت شفة فتنهمت كعادتي؛ فحدجني بنظرة شزرة حسبت فيها سخط الإنس والجن ثم اخذ يتثاءب ويتمطى فكأنما كان يحمل حملاً ثقيلاً أزيح عنه بالتثاؤب، إذ انبسطت أسارير وجهه، وزال برطامه، ولكنه ظل مع ذلك مطرقاً لا يتكلم فاستثقلت جلسته - كما قد يستثقل القارئ هذا الحديث - وقلت لنفسي لا بد من أن استدرجه إلى الحديث وإلا فهذا المجلس المكروه إن طال سيضيق عطني ويستفز كامن عصبيتي، فاهتبلت فرصة تثاؤبه وابتدرته بالحديث قائلاً:

- الحمد لله على سلامة الشيخ

- وهل يعرف المتعلم رباً فيحمده؟. . . أنت ملحد. . . كافر. . . درزي لا دين لك درزي. . .! أليس للدرزي دين. . .! يا شيخ (فتذكرت الحكمة القائلة: داروا سفهاءكم) كيف تتهمني بالكفر؟

- كيف أكفرك. . .! ألست مسيحياً أباً عن جد؟

- بلا! وليت ذلك لم يكن؛ إذن لكنت حراً في نوع صوفيتي مع الله؟ وفي تكوين عقيدتي بالله. . .!

- أفلا تعتقد بقول المسيح: من ليس معي فهو علي؛ وبقوله يخاطب الكهنة: من سمع منكم فقد سمع مني، ومن احتقركم فقد احتقرني؟ ثم الست الزاعم بان الإكليروس هم انكشارية الدين المأجورون؟ وذلك نصرة لبدعة فاسدة ادعاها رجل كاذب يدعى محمد. قل لي هل يستوي النور والظلام؟

- لا. لا يستويان

- فكيف إذن تجمع بين المسيح - الذي هو طريق الحق والحياة - ومحمد؟ وكيف تدافع عن محمد وأنت من جند المسيح؟

- يا سيدي!. . . قل لي أمن الإيمان أن نمتهن بقية العقائد؟. . . ثم ما رأيك في الشريعة الموسوية؟. . أليست - في حكمك - شريعة كاذبة لأنها ليست من تشريع المسيح؟. . وهل كان الرسل لينسخ اللاحق منهم شريعة السابق أم ليكملها؟ وهل فاتك قول المسيح ما جئت لأنقض بل لأتمم؟. . فموسى ومحمد إذن حكمهما من حيث الصدق والكذب واحد

- حاشا! حاشا أن اعتقد ذلك فشتان بين موسى كليم الله الذي أنقذ أمته وجعل العصا في يد فرعون حية، وأخرج من الصخر الأصم مياهاً نقية، وبين محمد - نبيك - الذي لم تؤثر عنه مكرمة، ولا سمعت له معجزة

- وأية مكرمة افضل من إخراج محمد قومه من حظيرة الشرك إلى حظيرة التوحيد؟

- ليته لم يفعل ذلك. إذن لسهل على المسيحية أن ترد هذه الخراف الضالة إلى قطيعها

- ولم تردها الآن مادامت ضالة عن القطيع. . .!

- هيهات ذلك، هيهات أن يفلت الحمل من مخلب الذئب

- بل هيهات أن يسلم الذئب من رصاصة الراعي وعصاه، وان يصل الباطل إلى قمة الحق وذراها. والآن دعنا نحسم هذا الجدل العنيف، وقل لي ما الذي تشترطه على محمد لتتم له النبوة؟

- الأمر واضح فلا نبوة بغير معجزة

- وأنا معك في ذلك، وإلا لادعى النبوة كل مشعوذ، ولصار الناس جميعهم أنبياء. والآن أعرني سمعك لأبين لك معجزة الإسلام

لقد كان العرب في جاهليتهم يعبدون إما الأصنام التي كانوا يقيمونها من بعض الحجارة والمعادن، وإما بعض مظاهر الطبيعة المتعددة كالشمس والهواء والبحر والسماء، ولكن العربي المتبدي لم يكن يقدم لآلهته هذه التي راح يلتجئ إليها كلما حز به أمر أو داهمه خطر الذبائح والقرابين، ولا كان يقيم لها الشعائر الدينية والمراسيم، كما كان يفعل الآشوريون والفينيقيون ومن إليهم، بل لم يكن يتحرج عن إهانتها وتحطيمها ولا سيما إذا استقسم عندها بأقداحه فخرج منها ما يكره - كما فعل امرؤ القيس بن حجر الكندي - ذلك لان العربي في الجاهلية كان قلما يهتم بما وراء الطبيعة

ولقد تسربت إليهودية والمسيحية إلى جزيرة العرب فارتدتا عنها بالإخفاق والفشل

ذلك لان أحلام الأولى وأمالها، وأسرار الثانية ومعمياتها؛ فمن إله متأنس، إلى رب مصلوب إلى أقانيم ثلاثة بجوهر واحد إلى استحالة الخبز والخمر إلى جسد ودم؛ كانت جميعها مما ينفر منها الطبع البدوي الساذج، أما الإسلام وإن اصطدم بالعنجهية العربية، وتصارع مع وثنية البادية حيناً من الدهر، فإنه تمكن أخيراً من أن يظهر عليهما بالنصر، ذلك لأنه دين يتساوق مع العقل والقلب، يسوي بين الدين والدنيا، ويجعل الفقير بذمة الثري، فهو في حقيقته مجموعة قواعد خلقية سامية، ومبادئ اجتماعية مثلى، وهل الدين في حقيقته إلا إصلاح النفس ولأخلاق في الفرد، وإقامة الفضيلة واجتثاث السوءات في المجتمع؟

ولئن كان معجزة موسى أن حول العصا أمام فرعون حية، لقد كانت معجزة الإسلام ابلغ منها، ذلك لأنه حول مادية النفسية البدوية الضارية التي طبعت على حب الغزو والنهب، وعلى استباحة المنكرات إلى شعلة روحية تشع في أرجاء الكون بنور المبادئ العالية، والفضائل السامية.

ولم نذهب بعيداً في الاستدلال؟ وهذا البدوي الجلف الذي كان بالأمس ينفر من ظل الدين، ويستحل جميع أنواع المنكرات، ولا يتحرج من سفك الدماء البريئة باسم مجد القبيلة

وجاهها، تثخنه اليوم باسم الدين والتوحيد أسنة المشركين في أُحد جراحاً ما زالت تثعب دماً، وتمزق إهابه نبال الفرس في القادسية وقسي الروم في اليرموك، فيستقبلها بصدر عامر بالإيمان، ويستمرئ آلامها غير جزع ولا هياب، ذلك لان معجزة الإسلام أخرجت نفسه من حدود هذا العالم المادي الضيق الذي يتعين بجهات الأرض الأربع، إلى عالم روحي فسيح يتعين بعقيدة التوحيد، وبحدودها الأربعة التي هي: التقوى في الدين، والحرية، والإخاء، والمساواة في الدنيا.

ولئن كان فتى الجزيرة قبل الإسلام راعي ابل وغنم، تختلف عنقه بين نيري الفرس والروم وتصعر خده أيدي الغزاة الطامعين من بقية الشعوب، فأنه اليوم بفضل المعجزة الكبرى التي تزحزح لإشراقها أس الإيوان، وانصهر من حرارتها التاج والصولجان، قد فتح ثلثي الكرة الأرضية في اقل من ثلثي قرن. فهذا خالد بن الوليد الذي لم ينهزم قط في حياته يفتح دمشق وهذا عمرو بن العاص يوغل في الديار المصرية، وهذا طارق بن زياد يعبر المضيق الذي لا يزال يحمل اسمه حتى اليوم، يريد أن ينفذ من الشطوط الإسبانية إلى سفوح جبال البرينية ثم إلى غسقونيا وبوردو. وهذا موسى بن نصير يسرح بخيول مضر وعدنان في شرق الأندلس وغربها؛ في قرطبة وطليطلة، وأشبيلة، وقادس، وغرناطة، وغيرها

ثم انظر إلى هذا الفتى الذي لم يتجاوز السابعة عشرة من العمر بعد، كيف اخترق السند وظل ممعنا بفتوحاته، حتى ادخل الهند ضمن الإمبراطورية الإسلامية. أليس بفضل معجزات الإسلام يربط هذا الفتى (تورس) غرب باريس ببحر الهند على ما بينها من الشقة الواسعة والمسافة النائية؟

أفلا يعد معجزة في الإسلام أن يضاهي عصر المأمون في بغداد عصر بركليس في اثينة، وعصر الناصر في الأندلس عصر أغسطس في رومية؟ ونحن الذين كنا بالأمس نرعى الإبل والشاء ونأكل الضباب والعظاة.

انظر إلى ما يقوله فينا (غوستاف لوبون) في كتابه (زعم المؤرخون أن التأثيرات العلمية والأخلاقية العجيبة التي أثرها المسلمون في العالم كان بفضل مادياتهم، ولكن لا يصح اليوم أن نجهل أن هذه المؤثرات قد دامت في مجراها حتى بعد أن أضاع المسلمون

مادياتهم ونفوذهم السياسي، فإن المسلمين في الصين يزيدون على عشرين مليوناً، وفي الهند على خمسين، ولا يزال هذا العدد في نمو وإن المسلمين بعد الرومان هم الأمة الممدنة الوحيدة التي نجحت في نقل تهذيبها الاجتماعي ودينها وأوضاعها وعلومها إلى العناصر المختلفة التي افتتحها وتسربت بينها. هذا التأثيرات لا تضمحل بل على العكس نراها آخذة في النمو، تتعدى الحدود التي بلغتها في أيام القوة المادية. إن القرآن وما اشتق منه هو إلى الفطرة بحيث يلتئم مع حاجات الناس الأولية، حتى أن قبوله آخذ حكمه على مر الدهور لا يعوقه عائق؛ وحيث ينزل المسلمون ولو كانوا تجاراً سذجاً تتدخل أوضاعهم ومعتقداتهم وكلما توغل الرواد من أهل المدينة الحديثة في

صميم أفريقية شاهدوا قبائل تنتحل الإسلام. والمسلمون الآن يمدنون قبائل أفريقية على نحو ما يستطيعون ويجاهدون في تلك القارة الغربية على حين يطوف الأوربيون في الشرق فاتحين كانوا أو متجرين ولا يتركون وراءهم أثراً لنفوذ أدبي أفبعد هذه الشهادة تطلب من الإسلام معجزة وله في سجل التاريخ مثل هذه الصفحة الرائعة المجيدة؟

(شرق الأردن)

خليل جمعة الطوال

أثر حروب محمد علي في الأدبين الألماني والفرنسي

للأديب السوداني المبارك إبراهيم

لم يكد يتولى محمد علي الكبير حكم القطر المصري باسم الدولة العلية، في أوائل القرن التاسع عشر، حتى بات يتحين الفرص لبسط ظله على الأقطار المجاورة. ففي عام 1818 م انتصر على الوهابيين في الأراضي الحجازية. وفي عام 1821 م وحد بين شطري وادي النيل بضم السودان لمصر، وفي عام 1832 م كانت بلاد الشام تدين بالطاعة والولاء لمحمد علي

وعندما توترت العلاقات بينه وبين حكومة الباب العالي سير جيوشه ليغزو تركيا ويخضعها لسلطانه، بدلا من أن يظل هو خاضعا لسلطانها! ففي ديسمبر 1832 هزمت الجيوش المصرية الجيوش التركية هزيمة منكرة، وباتت على مسير بضعة أيام من استامبول عاصمة سلاطين آل عثمان!

لقد كان طموح محمد علي إلى السيطرة والحكم لا يقف عند حد، إذ كان يتوق إلى إنشاء إمبراطورية مصرية مترامية الأطراف لا تغيب عنها الشمس! على أن هذا التوسع الاستعماري من جانب محمد علي لم يرق الأسد البريطاني، فوقف في طريق محمد علي يزمجر غاضباً ويكشر عن أنيابه ويلوح بذيله! وتحت ضغط الظروف القاهرة اضطرت جيوش محمد أن تنسحب من الأراضي التركية قبل أن يهاجمها هذا الليث الإنجليزي الهصور، وغيره من دول أوروبا التي لا يرضيها تقدم الحكام الشرقيين في الميادين السياسية والحربية، وبهذا التدخل من قبل الدول الأوربية بات الرجل المريض (تركيا) في مأمن من مداهمة محمد علي له والإجهاز عليه لان هذه الدول الأوربية كانت تطمح في الاستيلاء على تركة الرجل المريض (الأراضي التركية) واقتسامها فيما بينها. وقد وضعت هذا الدول أيديها فعلا على معظم هذه الأملاك التركية

وفي عام 1840 م ابرم الأسد البريطاني والدب الروسي، والنسر البروسي، اتفاقية سياسية تدعى اتفاقية لندن، فكان فيها القضاء المبرم على الإمبراطورية المصرية التي كان يحلم بإنشائها ذلك الحاكم الشرقي العصامي العظيم محمد علي. إذ قسرته هذا الاتفاقية التي تآمرت فيها هذه الدول عليه أن يتخلى عن الولايات التركية التي استولى عليها بحد السيف

في بلاد الشام وشبه جزيرة العرب

هذا، ولما كانت فرنسا صديقة لمحمد علي، تقف إلى جانبه وتشد أزره، فقد سلبتها هذه الاتفاقية هي أيضا حقها في الشاطئ الأيسر من نهر الرين، ومنحته لألمانيا فعسكرت فيه بعض كتائبها

ومن جراء هذه الاتفاقية التي أضاعت جزءا من أملاك فرنسا تحمس الرأي السياسي العام في باريس، حتى أن الملك لويس فيليب نفسه صرح بأنه مضطر إلى لبس القبعة الحمراء، وأن ينزع عن النمر كمامته. وهو يعني بذلك المناداة بالثورة الحربية في وجه ألمانيا

وبعد هذا التمهيد نقول: إن هذه الأزمة السياسية الدولية التي سببتها حروب محمد علي قد دعت إلى صراع أدبي عنيف بين أدباء ألمانيا وفرنسا ترك أثراً حياً في الشعر الألماني والفرنسي

قالوا إن الشاعر الألماني بيكر كان جالساً ذات يوم مع أصدقاء له في إحدى الحانات، يشرب الجعة ويطالع الصحف السياسية الواردة من فرنسا. وبعد أن رجع الشاعر إلى داره نظم وهو تحت تأثير نشوة الخمر وحماسة السياسة، قصيدته (أنشودة الرين) فما كادت تنشر حتى لحنت وراح يترنم بها الألمان في غدواتهم وروحاتهم

والقصيدة هي:

لم ينالوا الرين ذلك النهر الألماني الحر
وإن كانوا يطلبونه بنعيبهم كالغربان الجشعة!
لن ينالوه ما دام يترقرق ساكنا في ثوبه الأخضر!
وما دام هناك مجداف يضرب في مياهه!
وما دامت الصخور قائمة وسط مجراه!
وما دامت الكاتدرائيات الشاهقة تعكس خيالها في مرآته!
لن ينالوا الرين ذلك النهر الألماني الحر
لن ينالوه ما دام الفتيان الحديدو القلوب يغازلون الفتيات الممشوقات القوام!
وما دامت هناك سمكة تسبح في أعماقه!
وما دام على شفاء المنشدين أنشودة تردد!
لن ينالوا الرين ذلك النهر الألماني الحر
لن ينالوه حتى تدفن عظام آخر رجل في طيات أمواجه!

ولما ذاق الشاعر الألماني بيكر حلاوت الشهرة عقب ذيوع هذه الأنشودة بعث بنسخة منها إلى شاعر فرنسا الكبير لامارتين، وكان ذلك منه على سبيل الأدب والتحدي معاً!

غير أن لامارتين كان داعية سلم ووئام ولم يكن في يوم من الأيام بوقاً للحرب والخصام؛ وكان يقول: أنا ابن الإنسانية قبل أن أكون ابن فرنسا؛ ولتهلك أمتي إذا كان في هلاكها حياة الإنسانية

ولهذا جاءت قصيدته في الرد على الشاعر الألماني تفيض بروح المحبة والسلام وقد دعاها فعلاً: (مارسيليز السلام) ومنها:

يا نهر الرين يا نيل الغرب!
يا كأس تستقي منها الأمم!
سر حراً متكبراً في مجراك بين عرض شاطئيك!
واحمل في طياتك مطامع الشعوب الساكنة المرتوية من مائك الشيم!
لن يدنس بعد اليوم بلور مياهك دم الفرنسي الأحمر، ولا دم الجرماني الأزرق كما أن البارود لن يقوض بعد اليوم الجسور الممتدة فوقك بين الشعبين كاليد الممتدة للمصافحة!

سر في مجراك يا نهر ولا تبال إذا كان الذين تحملهم أو ترويهم هم قاطني شاطئك الشرقي أو الغربي. وطن كل إنسان هو الإقليم الذي يمتد إليه عقله، فأنا مواطن لكل إنسان يفكر، فالحقيقة هي بلادي!

النسر والثور يشربان من مياهك فليقترب إذن الإنسان وليشربا من مياهك!

وعندما نشر رد لامارتين هذا على أنشودة الشاعر الألماني قابله الشعب الفرنسي بشيء من الفتور عظيم وذلك لخلوه التام من الروح الحربي والحاسة الوطنية، حتى أن فريقاً من النقاد اتهم لامارتين ظلماً بعدم الإخلاص للوطن في حين أن الشاعر معروف بوطنيته الصادقة، ولكنه كان يمقت الدعاية للحرب وإراقة الدماء البريئة، وترميل النساء، وتيتيم الأطفال وتخريب المدن الجميلة العامرة

ولقد كانت الصالونات الأدبية في باريس في ذلك الأوان لا حديث لها إلا (أنشودة الرين)
لبيكر، و (مارسيليز السلام) للامارتين

وكان صالون مدام جيرارون غاصاً ذات يوم برهط من أدباء فرنسا وعلى رأسهم الشاعر الشهير الفرد دي موسيه، وكان الحديث يدور رد لامارتين، فأنبرت ربت الصالون تقول:

لا مشاحة في أن قصيدة لامارتين آية في البلاغة ولكنني كنت أوثر رداً اكثر إيلاماً منها، فأنا متطرفة في الوطنية، ولا تزال عقيدة الوطن راسخة في ذهني وكم كنت أود لو تصدى واحد من شعرائنا لذلك الشاعر الألماني المتحمس، فكال له الصاع صاعين!

فقال لها الفرد دي موسيه: وأنا على رأيك يا سيدتي. وهنا صاح به الحاضرون: عليك بالرد إذن. . . عليك بالرد، وقد أحاطوا به ملحين. ثم اقتادوه إلى حديقة لدار، وأوصدوا باب الصالون دونه، بعد أن زوده بالورق والقلم، ولفافتين من التبغ! ولم يمص إلا وقت وجيز حتى أتوا إليه فوجدوه قد احرق اللفافتين ونظم القصيدة التالية في الرد على نشيد الرين وهي: -

قد نلنا الرين نهركم الألماني!
وقد وسعه جام من جاماتنا!
فهل لأنشودة يسير بها القوم هازجين أن تمحو الأثر العظيم الذي تركته حوافر جيادنا المصبوغة بنجيع دمائكم؟!
قد نلنا الرين نهركم الألماني!
فان في أحشائه جرح يسيل دامياً من عهد ما مزق (كونديه) القائد الفرنسي الظافر ثوبه
الأخضر!
ولا شك في أن الأبناء لمارون حيث مر الآباء!
قد نلنا الرين نهركم الألماني!
أين كانت فضائلكم الجرمانية يوم كان بابليون القدير يبسط ظل سلطانه على سهولكم؟!
وأين وقع آخر عظم من عظام رجالكم؟!
قد نلنا الرين نهركم الألماني!
فان كنتم نسيتم تاريخكم، فإن بناتكم اكثر احتفاظا بذكرانا منكم، فقد صببنا في كؤوسنا
نبيذكم الأبيض!
قد نلنا الرين نهركم الألماني!
وإذا كان الرين لكم فاغسلوا فيه ثيابكم
وإذا ما تكلمتم عنه فاخفضوا الصوت، فكم كنتم من غربان في اليوم العصيب حول النسر
المحتضر: بابليون
فليتدفق نهركم الألماني بسلام
ولتنعكس خور كاتدرائياتكم الغوطية في مياهه!
ولكن أحذروا، فإن أناشيدكم الخمرية قد توقظ الأموات من رقادها الدموي!
فما كاد موسيه ينتهي من إنشاد قصيدته النارية على السامعين حتى دوى المكان بالتصفيق وتعالى هتاف الاستحسان والتقريظ
وعندما تلقت القصيدة الصحف الفرنسية نشرتها في أمكنه بارزة، مشفوعة بالتهليل والتكبير
وقد ازداد بسببها هياج الرأي العام في فرنسا وألمانيا
وكان من الضباط الألمان من أرسلوا إلى الشاعر الفرنسي دي موسيه رسائل يدعونه فيها للمبارزة!
ولكن دي موسيه أجاب: إذا لم يكن من المبارزة بد، فهو لا يبارز إلا رصيفه الشاعر الألماني بيكر. ولكن بيكر لم يلبي الدعوة
ويقال أن هذا الصراع الأدبي بين شعراء فرنسا وألمانيا في عام 1840 م كان من ضمن الشرر الذي أشعل نار الحرب بين الشعبين بعد مضي ثلاثين سنة، عام 1870م، وهي الحرب المعروفة في تاريخ أوربا بحرب السبعين.
أم درمان السودان
المبارك إبراهيم
في وجه الثورة على الأخلاق
للأستاذ أمين الخولي
الأستاذ بكلية الآداب
يا صاحب الرسالة
أبلغت قراءك ثورة محمود على الأخلاق فتحدث إليه الأستاذ عزام، وسكت محمود حين امتلأ بطنه؛ لكن كان المجلس حافلا بغير محمود من رجال العلم والدين والأدب، فكانوا كلهم لمحمود وعلي عزام. . . وإما كان موضع الجدل أن الأخلاق الفاضلة لا تصلح أن تكون عدة النجاح أن لم تكن عدة الفشل. . . وإن هؤلاء الطيبين الأخيار الذين وصفهم الأستاذ عزام بالقناعة، وخصهم بالرضا، لن يستطيعوا أن يكونوا يوماً ما من رجال المال والأعمال كصيدناوي والبدراوي وعبود

فل نسأل الثائرين عن هذا ثم ننتقل إلى غيره: لم لا تصلح الأخلاق الفاضلة أن تكون عدة النجاح؟ هل يتحدث الواقع الصحيح بهذا؟ لا اظن؛ بل اعتقد دائماً أن فشل الفاشلين لعجزهم أو ضعفهم أو نقصهم يعلل بالفضيلة والأخلاق وإلا فهل خرج إلى ميدان واحد من الحياة رجلان تساوى فهمهما لهذه الحياة، وتساوى تسلحهما لما يبغيان من غاية، وكان أحدهما نبيلا، والآخر فسيلا فنجح الثاني وسقط الأول، أو نجح الثاني اكثر من نجاح الأول بغير فارق إلا فضيلة الأول ورذيلة الثاني؟ لا أظن، فلو كانا في عمل حر ولهما هذا التساوي التام لأكد الواقع أن أي مجتمع مهما اشتد فساده سيجد في فضيلة الأول نوعاً من الدقة والثبات، وسبباً للطمأنينة إليه، ويدفعه كل أولئك إلى الإعجاب به وإيثار معاملته؛ بل لا شك في أن الثاني السافل لن ينجح إلا إذا اصطنع هذه الفضيلة وحقق آثارها بل ادعاها في غير مناسبة كما هو شان أعداء الفضيلة دائماً. ولو تخلفت هذه النتيجة فنجح النذل أو زاد نجاحه لغير فارق آخر بين الرجلين فما أظن هذا يكون إلا عن نسبة من الندرة تؤكد القاعدة ولا تهدمها؛ وأنا كفيل بان تجد دائماً في مثل هذه الحالة فارقاً في الكفاية والاستعداد واليقظة وما إلى ذلك

وإن ذهب وهم القارئ - كما ذهب وهم أصحاب هذه الثورة - إلى أن النذل سيصطنع بعد الكفاية والاستعداد أساليب منحطة لا يلوى عليها النبيل، فقد فاته أن يقظة النبيل تقضي عليه باحتياط نبيل لهذه الأساليب، وعمل على كشفها وفضحها، وإلا كان ناقص الاستعداد محدود الفهم لواقع الحياة ونذالة الأنذال، وعاد النقص على استعداده ولم يكن الذنب لفضيلته.

هذا حين يتحد الميدانان؛ لكن الثائرين سيقولون إن الميادين متعددة وسبيلها إلى الوصول مختلفة، وسيتخير النذل أقصرها وأسرعها فيصل في غير مشقة، على حين يكد الفاضل فيصل متأخراً ولا يصل إلا لبعض الشيء. فهب أحدهما اتجر في الغلال أو الأقطان لأنه فاضل، واتجر الثاني في المخدرات أو الرقيق الأبيض لأنه لا يبالي؛ حسن، سيربح الأول ربحاً يسيراً ثابتاً غير مهدد بالتضحية من اجل حمايته أو الوصول إليه لأنه اكشف الوجه واضح الطريق، ربحاً غير مهدد بالمطاردة، غير مهدد بالمخاطرة، غير مهدد بالمرض، وقصف العمر سريعاً؛ وسيربح الثاني ربحاً وافراً سريعاً يبذل غير القليل منه لحمايته أو الوصول إليه، ربحاً مهدداً بالخطر، مهدداً بقصر العمر اثر الجهد والاحتيال والمجازفة بل مهدداً بالموت السريع، والفضيحة العاجلة. . . إلى آخر مالا أزعج القارئ به من آفات تكفي ايسر نظرة متأنية لتبينها وتشهد بان لذة زوجة شريفة من زوجية غير سعيدة اكثر في مجموعها وأقوى في جملتها من لذة مومس هائلة، لا تزيد حياتها في ذلك على بضع سنوات حين تطول حياة الزوجة عقوداً بعد تلك السنين والعملية الحسابية المادية تحدث نتيجتها دائماً لو احسن حساب اللذائذ والآلام، والخسائر والمكاسب بان الفضيلة قد اختيرت لعائدتها فوق ما فيها من النبل، وان ليس الفشل لسبب خلقي بل لغيره دائماً

وهنالك الوظائف والدواوين لجريان الأمر فيها على الهوى واضطراب السياسة قد تظهر ميداناً غير خاضع لهذه القاعدة، ميداناً قد ترتفع فيه نسبة الشذوذ والتخلف لكن حتى هذا الميدان تنتهي فيه النظرة المتأنية إلى تلك النتيجة نفسها، فلو دخله موظفان قد تساويا في كل شيء، واختلفا في الخلقية لم يهن أن ينجح النذل لنذالته لا غير إلا حين يسلك طرائق يأباها الشريف فيتقدم هذا كلما اضطرب الميزان وضعف الرئيس، لكنه تقدم غير مطرد؛ انه تقدم مهدد بمثل ما يهدد تاجر المخدرات أو قريباً منه طفرة سريعة ونكسة غير بطيئة؛ ولا اقل مم ألم الخوف والفزع بعدم ثبات الحالة، وتغير السيد والرأس والناكسة والعجز عن دعوى الفضيلة والكرامة التي يحرص مثل هؤلاء على ادعائها. آلام تنتهي بها العملية الحسابية إلى قريب من نتيجتها المطردة؛ وفي الجانب الثاني لذائذ لا يرضى الشريف أن يدع مكانه مستبدلا بها آلام خصمه، ولو ساومته على ذلك لرفض. هذا إذا كان كل الفرق بينهما الأخلاق؛ أما إن وجدت شيئاً وراء ذلك كما هو الكثير الغالب، بل الذي يقع دائماً، من لباقة وحسن بيان، ومعرفة بالرغبات، ومرونة في العمل، وطلاقة وجه، وما إلى ذلك، فقد عادت اللائمة على وخامة الثاني ونقصه لا على أخلاقه، ولم تكن الأخلاق سبيلا إلى الفشل ولا عائقاً عن النجاح

أما دعوى الثورة أن الطيبين القانعين المخصوصين بالرضا لن يستطيعوا أن يكونوا يوماً ما من رجال المال والأعمال كفلان وفلان فدعوى يقول الأستاذ الزيات على لسان أصحابها: ما معنى أن يظل التواضع والقناعة والزهد والمداراة والتوكل على إطلاقها فضائل؛ كما يقول: أليس صلف الإنجليزي ابلغ في العزة، وطمع الفرنسي أليق بالحياة، وطموح الإيطالي اخلق بالرجولة، وصراحة الألماني ادعى إلى الهيبة واستقلال الأمريكي اضمن للفوز؟

تلك هي الدعوى؛ لكن هذا المعنى للفضائل التي عدت معنى لا تعرفه خلقية دينية، ولا تقره خلقية فلسفية؛ فإنما التواضع أن تكون رفيع القدر فلا تتغطرس، وليس التواضع إتضاعاً. وإنما القناعة أن تملك فلا تشره، وليست القناعة ترك مادة الحياة وإفساح الطريق لعاد أو غاصب. إنما الزهد أن تستطيع فلا تنهم، وليس الزهد العجز عما في الدنيا والحسرة على ما في أيدي الناس. وإنما التوكل أن تقدم واثقاً لا أن تحجم عاجزاً. وأما المداراة فما عرفناها بين الفضائل. والخلق والدين يقرران أن صلف الإنجليزي قبيح افضل منه عزة المؤمن الذي يرى العزة لله ولرسوله وللمؤمنين فحسب. وطمع الفرنسي قبيح أليق منه قيام المتدين وذي الخلق بحق الحياة وواجبها. وطموح الإيطالي مفتعل اصل منه تلك العزة الروحية وهذا الإباء الساعي لإعلاء كلمة الحق، المتقدم إلى الدنيا بمهمة اجتماعية، وعمل إنساني يرغم من اجله ويجهد في سبيله. واستقلال الأمريكي بعض مغامرة الذي يقدم واثقاً بإحدى الحسنيين. وصراحة الألماني بعض شجاعة الذي لا يخشى في الحق لومة لائم. وما هذا الذي يعيب الثائرون من صور التواضع المتضع، والزهد العاجز، والقناعة المحرومة، والتوكل الخامل، إلا صور لا تعرفها الأخلاق ولا يفشل أصحابها لأخلاقهم بل يفشلون لفشل أخلاقهم.

وأما هذا الربا الذي جاء في عداد تلك الأخلاق فمسالة اقتصادية عملية، لا خلقية أدبية؛ وهي فكرة اقتصادية، يقرن فيها النظام الإسلامي الكامل الذي قررها بالنظم الاقتصادية الأخرى ليحكم لهذا أو ذاك، وليست تلك المسالة من أسباب الثورة على الأخلاق في شيء

ويعرض الأستاذ الزيات على لسان تلك الثورة أن يكون مقياس الفضائل والرذائل هو النفع والضرر، فما كان مؤديا إلى منفعة سمي فضيلة، وما كان مؤدياً إلى مضرة سمي رذيلة. وهذا مقياس لا يأباه الدين ولا الخلق، فالمذهب المنفعي قديماً وحديثاً معروف بين مذاهب الخير؛ ولكن ليس بهذا اليسر والسهولة التي تفهمها الثورة على الأخلاق وتأخذ فيه باللمحة الطائرة. فما المنفعة المحكمة؟ وما المضرة المتقاة؟ أمنفعة الفرد أم منفعة الأسرة أو الأمة أو العالم؟ المنفعة المادية الحاسية أم المنفعة المعنوية العقلية أم هما أم فرع منهما وما هو؟ المنفعة العاجلة أم المنفعة الآجلة أم هذه وتلك؟ ومتى تكون هذه ومتى تكون تلك؟ وإذا تعارضت منفعة ومضرة فكيف يوازن بينهما وبأي شيء؟ وإذا وجدت منفعتان في عملين فكيف يفاضل بينهما وبأي شيء؟ وإذا وإذا. . . من مضايق شائكة يسلكها الباحث ليخرج منها بمقياس للأخلاق منفعي. وقد انتهى كل أولئك الباحثين على اختلاف ما بينهم إلى أن هناك فضيلة ورذيلة، واحبوا هذه، وثاروا على تلك؛ فلن يكون تحكيم المنفعة منهياً للثورة على الأخلاق. وهأنذا قد حكمت المنفعة فيما مضى من موازنة بين نجاح تاجر الغلال وتاجر المخدرات فلم تخرج النتيجة شاهدة بفشل الأخلاق

وأخيراً يا صاحب الرسالة: اسمح لي أن أحملك رسالة إلى الثائرين. قل لهم: استعدوا للحياة بعد فهمها فهماً صحيحاً قبل أن تلقوا تبعة فشلكم على الأخلاق. ولا تحكموا على الفضائل بعمل الناس فتحكموا بفشل الأخلاق، لأن للفضائل حقائق ثبتت على الاختبار، وأيدتها التجربة بعد بحث لا تزال الإنسانية تمنحه قوتها وجهدها. وانظروا إلى النتائج البعيدة والقريبة للأعمال، ودققوا في الموازنة بين فاشل وناجح فبل أن تحكموا بان هذا فشل لأخلاقه دون غيرها، وهذا نجح برذائله دون غيرها. ولا تظنوا طيبة القلب وسلامة الضمير والبعد عن إيذاء الناس وسائل وأسلحة تكفي وحدها للنجاح كما ظن ظانون أن

الإيمان وحده كاف لهزيمة الأعداء؛ لأن الله قد سير هذا الكون على نواميس لا تتخلف، وجعل الميزات المعنوية والنفسية مرجحات بين من تساويا مادياً وفهما النواميس فهماً

واحداً؛ وبدل أن تهيب بدهاقنة الدين وفلاسفة الأخلاق أن يتدخلوا في سوق الفضائل
معدلين، أهب بزعماء الثورة أن يتدخلوا في تقدير الحياة مدققين؛ فان ثاروا بعد ما
كملت لهم هذا الدقة فعلى الدهاقنة أن يعيدوا النظر فيعدلوا ويحوروا
أمين الخولي
أناشيد صوفية
جيتانجالي
للشاعر الفيلسوف طاغور
بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب
- 26 -
لقد دلف إليّ وجلس إلى جانبي ولكني لم استيقظ. يا لتعس هذه النومة، ويا
لشقاوتي!
جاء والليل ساج وفي يده قيثاره، فرن نغم لحنه العذب خلال أحلامي
يا اسفاه، اهكذا تضيع ليالي؟ آه، لماذا أحرم - دائماً - النظر إليه وأنفاسه تداعبني في
نومي؟
- 27 -
النور؛ أوه، أين هو النور؟ أشعله بنار الرغبة المتأججة
ها هو المصباح ولكنه لا يضيء أبداً؛ انه مظلم كحظك يا قلبي! آه، إن الموت خير لك
إن البؤس يقرع بابك ليوحي إليك بان سيدك يقظان يناديك إلى ميعاد الهوى في غسق
الليل
السماء مثقلة بالغيوم والمطر ما يبرح يهطل مدراراً، وأنا لا اعرف ماذا يضطرب في
جوانحي، ولا اعي له معنى
إن وجهي يكفهر لومضات البرق، وقلبي يتلمس طريقه إلى حيث موسيقا الليل تناديه
النور؛ أوه، أين هو النور؟ أشعله بنار الرغبة المتأججة! السماء ترعد، والرياح تهب
هوجاء تملأ الفضاء، والليل قاتم كالصخرة السوداء؛ فلا تدع الظلام يخيم علينا وأشعل
مصباح الهوى بنور حياتك
- 28 -
إن صلابة الرأي عقال يتألم قلبي حين أحاول أن أتخلص منه
إن الحرية هي كل ما ابتغي، وأنا استشعر الخجل حين أتمناها
أنا أومن بان بين يديك الثراء العريض، وانك أنت صديقي الحميم، ولكني لا أجد في
نفسي الجرأة على أن أزيل كل ما يملأ حجرتي من بهرج
إن هذا السجف التي يسترني هو كفن من التراب والموت أنا ابغضه غير أني أضنى به
إن ديوني كثيرة وخطاياي أعظم، وعيوبي التي أخفيها في نفسي تثقلني؛ وحين انطلق
لأطلب إليك الإحسان تسيطر عليّ رعدة شديدة خشية إلا تتقبل صلاتي
- 29 -
إن في هذا البناء - جسمي - شبحاً يذرف الدمع في خلوته وأنا دائماً في شغل شاغل
أشيد حوله سوراً عالياً، وعلى مر الأيام أرتفع سمكه فعميت عن حقيقة وجودي وأنا
في ظلامه القاتم
لقد أخذتني العزة بهذا السور الشامخ فاندفعت اطليه بالطين والرمل خشية أن تكون
به
فرجة، ولكن ما بذلت من جهد أعماني عن حقيقة وجودي
- 30 -
ها أنا أتيت وحيداً لأفي بوعدي؛ ولكن من هذا الذي يتبعني في دجى الليل وسكونه؟
وعبثاً تحولت عن طريقي لأضلله
إنه يثير الغبار وهو يمشي الخيلاء وهو يردد قولي في صوت أجش
إنه روحي الضئيل - يا الهي - وهو لا يستشعر الخزي، وانا استحي ألج بابك برفقته
- 31 -
قلت: (يا أيها السجين؛ خبرني، من ذا الذي قيدك هنا؟)
قال: (هو سيدي، لقد ظننت إني أبذ كل إنسان على الأرض بما لدي من ثراء وقوة،
وبين

يدي بيت المال وهو ينضم على كل ما يملك مليكي. وحين يغلبني النعاس انطرح على
فراش كان في - يوم ما - سرير سيدي؛ وحين استيقظ أجد نفسي سجيناً في بيت
المال)
قلت: (يا أيها السجين؛ خبرني، من ذا الذي صنع هذه السلسلة الصلبة؟)
قال: (بيدي الصناع ابتدعتها وخيل إلي أن قوتي الكامنة ستقبض على العالم كله وأظل
أنا
طليقا في أمان، فقضيت عمراً من عمري أهين هذه السلسلة استعين بالنار والمقامع
الحديدية الشديدة؛ فلما فرغت من عملي وتمت حلقاتها وجدت نفسي مقيداً بها)
- 32 -
لقد حاول أحبائي على الأرض جهدهم أن أعيش بين أيديهم في أمان؛ ولكن حبك أنت
يفوق حبهم. أنت يا من تكفل حريتي أنهم يلازمونني دائماً خيفة أن أنساهم، وها هي
الأيام تمر سراعاً وأنت ما تزال تتستر خلف الحجب
وإذا لم أتوسل إليك في صلواتي، وإذا لم أحفظك في قلبي، فحبك لي ما يزال ينتظر
حبي
لك
- 33 -
وحين يسفر وجه الصبح يفدون إلى داري رمزاً ويقولون (سننزل في هذه الغرفة
الضيقة)
ثم يقولون (سنشد أزرك في عبادة ربك لننال فضل إحسانه) ثم قبعوا في ركن في
هدوء
وتواضع
وفي هدأة الليل تدافعوا إلى هيكلي المقدس في صخب، يستلبون القرابين من
محراب
الرب في شره
- 34 -
هب لي بعض نفسي فأذكرك كلك
هب لي بعض عزمي فاشعر بك في كل مكان، وانزع إليك في كل عملي وأحبوك بحبي
في كل آن
هب لي بعض نفسي فلا استخفي منك
هب لي بعض هذه الأغلال فأنا مقيد بمشيئتك، وما تريده فهو آت. . . هذه القيود هي
قيود حبك
- 35 -
حين يطمئن الفؤاد فلا يستولي عليه الذعر فيرتفع الرأس عالياً
حين تكون حرية الرأي،
حين لا يتصدع العالم شيعاً وتفرق بينه الحدود الضيقة،
حين تنبعث الكلمات من أعماق الحقيقة، حين يمد التناحر الدائم ذراعيه صوب الكمال،
حين يهتدي الرأي الناضج إلى طريقة السوي فلا يضل في متاهات التقاليد البالية،
حين تجذب العقل إليك. . . إلى الفكرة والعمل الأبديين إلى سماء الحرية؛ انزع - يا
الهي - عن وطني سباته العميق
- 36 -
ها هي صلواتي إليك - يا الهي -: حبذ أصول العوز من قلبي؛
امنحني القدرة على أن احمل أفراحي وأتراحي معاً
امنحني القدرة على أن اخلق من حبي عملاً صالحاً
امنحني القدرة على إلا انهر فقيراً وألا أخرّ على ركبتي أمام غطرسة الجبار
امنحني القدرة على أن أسمو بعقلي فوق السخافات الأرضية
ثم امنحني القدرة على أن انزل في رضا عن كبريائي أمام مشيئتك
- 37 -
يتراءى لي كأن رحلتي قد انتهت عند الغابة، عند آخر نزوة من نزوات قوتي ... ها هو
الطريق قعد اغلق أمامي، ونفد زادي وآن لي أن استريح في سكون الظلام

ولكن يخيل إلي أن إرادتك لا تجد في النهاية، فحين تموت الكلمات الرثة على شفتي يتفجر القلب بنغم عذب، وحين تنسد أمامي المسالك القديمة يتفتح أمامي عالم جديد فيه العجائب

- 38 -

إنني أهفو إليك، إليك وحدك - دع قلبي يرددها مرات ومرات في غير نهاية. إن الوساوس التي تلح عليّ صباح مساء، لتصرفني عنك، إن هي إلا جوفاء خداعة حين يتوارى الليل خلف سجوفه ينتظر بسمة الفجر، ترن في أعماق قلبي صيحة: إنني أهفو إليك، إليك وحدك

حين تعدو العاصفة الهوجاء في طريقها تبتغي الهدوء فتبدد هي السكون في صولة ويأس.

في هذا الحين تعصف ثورتي الجامحة بحبك وهي ما تزال ترسل صيحاتها: إنني . . أهفو

إليك، إليك وحدك

كامل محمود حبيب

الكميت بن زيد

شاعر العصر المرواني

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

- 4 -

وأما الرواية الثانية في سبب المنافرة بين الكميت وخالد بن عبد الله فقد نقلها أبو الفرج الأصبهاني من كتاب محمد بن يحي الخراز، قال حدثني احمد بن إبراهيم الحاسب، قال حدثني عبد الرحمن بن داود بن أبي أمية البلخي، قال كان حكيم بن عباس الأعور الكلبي ولعاً بهجاء مضر، فكانت شعراء مضر تجيبه ويجيبهم وكان الكميت يقول هو والله اشعر منكم. قالوا فاجب الرجل قال أن خالد بن عبد الله القسري محسن إلي فلا اقدر أن أرد عليه. قالوا فاسمع بإذنك ما يقول في بنات عمك وبنات خالك من الهجاء؛ وانشدوه ذلك، فحمى الكميت لعشيرته فقال المذهبة:

(ألا حُيِّيتِ عنَّا يا مَدِينا

فاحسن فيها، وبلغ خالداً خبرها، فقال لا أبالي ما لم يجر لعشيرتي ذكر فانشدوه قوله:

ومن عجبٍ علي لَعَمْرُ أمٍّ ... عَذَتْكَ وغير هتيَّا يمينا

تجاوزتَ المياهَ بلا دليلٍ ... ولا علم تَعَسُّفَ مخطئينا

فانك والتحوُّلَ من مَعَدٍّ ... كهيلةَ قبلنا والحالبينا

تخطتْ خيرهم حَلْباً ونَسْئاً ... إلى الوالي المغادر هاربينا

كعنزِ السُّوءِ تنطح عالفيها ... وترميها عِصيُّ الذابحينا

فبلغ ذلك خالداً فقال: فعلها والله لأقتلنه. ثم اشتري ثلاثين جارية بأغلى ثمن، وتخيرهن نهاية في حسن الوجوه والكمال والأدب، فرواهن الهاشميات، ودسهن من نخاس إلى هشام بن عبد الملك فاشتراهن جيمعاً. فلما انس بهن استنطقهن فرأى فصاحة وأدباً، فاستقرأهن القران فقرأن، واستنشدهن الشعر فأنشدنه قصائد الكميت الهاشميات، فقال: ويلكن من قائل هذا الشعر؟ قلن: الكميت زيد الأسدي، قال: وفي أي بدل هو؟ قلن: في العراق ثم بالكوفة، فكتب إلى خالد: أبعث إلي برأس الكميت بن زيد. فبعث خالد إلى الكميت في الليل فأخذه

وأودعه السجن. ولما كان من الغد أقرأ من حضره من مضر كتاب هشام واعتذر إليهم من قُتله، وآذنهم في إنفاذ الأمر فيه في غد. فقال لأبان بن الوليد البجلي وكان صديقا للكميت: أنظر ما ورد في صديقك، فقال عز عليّ والله ما به. ثم قام أبان فبعث إلى الكميت فأنذره فوجه إلى امرأته، ثم ذكر الخبر في خروجه ومقامها مكانه كما ذكر من تقدمه، وقال فيه: فأتى مسلمة بن عبد الملك فاستجار به، فقال: إني أخشى ألا ينفعك جوراي عنده، ولكن استجر بابنه مسلمة بن هشام، فقال: كن أنت السفير بيني وبينه في ذلك، ففعل مسلمة وقال لابن أخيه: قد أتيتك بشرف الدهر، واعتقاد الصنيعة في مضر، وأخبره الخبر

فأجاره مسلمة بن هشام، وبلغ ذلك هشاماً فدعا به ثم قال: أتجير على أمير المؤمنين بغير أمره؟ فقال: كلا ولكني انتظرت سكون غضبه. قال: أحضرنيه الساعة، فانه لا

جوار لك. فقال مسلمة للكميت: إن أمير المؤمنين أمرني بإحضارك. قال: أتسلمني يا أبا شاكر؟ قال: كلا ولكني احتال لك. ثم قال له: إن معاوية بن هشام مات قريباً، وقد جزع عليه جزعاً شديداً، فإذا كان من الليل فاضرب رواقك على قبره، وأنا ابعث إليك بنيه يكونون معك في الرواق فإذا دعا بك تقدمت إليهم أن يربطوا ثيابهم بثيابك، ويقولوا هذا استجار بقبر أبينا ونحن أحق من أجاره

فاصبح هشام على عادته متطلعاً من قصره إلى القبر. فقال: من هذا؟ فقالوا: لعله مستجير بالقبر. فقال: يجار من كان إلا الكميت، فإنه لا جوار له، فقيل: فإنه الكميت قال: يحضر أعنف إحضار، فلما دعي به ربط الصبيان ثيابهم بثيابه فلما نظر هشام إليهم اغرورقت عيناه واستعبر وهم يقولون: يا أمير المؤمنين، استجار بقبر أبينا وقد مات، ومات حظه من الدنيا فاجعله هبة له ولنا، ولا تفضحنا فيمن استجار به. فبكى هشام حتى انتحب، ثم اقبل على الكميت فقال له: يا كميت أنت القائل:

وإنْ لا تقولوا غيرها تتعرَّفوا ... نواصيها تردى بنا وهي شُزبُ

فقال: لا والله ولا أتان من أتن الحجاز وحشية، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه، ثم قال: أما بعد - فإني كنت أتدهدى في غمرة، وأعوم في بحر غواية، أخنى على خطلها، واستفزني وهلها، فتحيرت في الضلالة، وتسكعت في الجهالة، مهرعاً عن الحق، جائراً عن القصد، أقول الباطل ضلالاً، وأفوه بالبهتان وبالاً، هذا مقام العائذ مبصر الهدى، ورافض العماية، فأغسل عني يا أمير المؤمنين الحوبة بالتوبة، واصفح عن الزلة، واعف عن الجرمة، ثم قال:

كم قال قائلكم لعاً ... لك عند عثرته لعاثِرْ
وغفرتُمُ لذوي الذنو ... ب من الأكابر والأصاغر
أبني أُميَّةَ إنكم ... أهلُ الوسائل والأوامر
ثِقتي لكل مُلِمَّةٍ ... وعشيرتي دون العشائر
أنتم معادنُ للخلا ... فة كابراً من بعد كابر
بالتسعة المتَتَابعي ... نَ خلائفاً وبخير عاشر
والى القيامة لا تَزَا ... لُ لشافعٍ منكم وواتر

ثم قطع الإنشاد عاد إلى خطبته فقال: إغضاء أمير المؤمنين وسماحته وصباحته مناط المنتجعين بحبله، من لا تحل حبوته لإساءة المذنبين، فضلاً عن استشاطة غضبه بجهل الجاهلين.

فقال له: ويلك يا كميت، من زين لك الغواية، ودلاك في العماية؟

قال: الذي أخرج أبانا من الجنة، وأنساه العهد فلم يجد له عزما

فقال: إيه أنت القائل:

فيا موقداً ناراً لغيرك ضوءُها ... ويا حاطباً في غير حبلك تحطبُ

فقال: بل أنا القائل:

إلى آل بيت أبي مالكٍ ... مُناخٌ هو الأرحب الأسهلُ
نَمُتُّ بأرحامنا الدَّاخلا ... ت من حيث لا يُنكرُ المدخل
بِمُرَّةَ والنَّضْر والمالك ... ين رهطٌ هم الأنبل الأنيل
وبارَي خزيمةَ بدرَ السما ... ءِ والشمسَ مفتاحُ ما نأمل
وجدنا قريشاً قريش البطا ... حِ على ما بنى الأوَّلُ الأوَّل
بهم صلح الناسُ بعد الفسا ... دِ وحيص من الفتق ما رَعبُلوا

قال له: وأنت القائل:

لا كعبد المليك أو كوليدٍ ... أو سليمانَ بعدُ أو كهشامِ
منْ يمتْ فقيداً ومن يحَ ... يى فلا ذُو إلٍّ ولا ذو ذمامَ

ويلك يا كميت، جعلتنا ممن لا يرقب في مؤمن إلا ولا ذمة، فقال: بل أنا القائل يا أمير المؤمنين:

فالآن صرتُ إلى أُميَّ ... ةَ والأمور إلى المصايرْ
والآن صرت بها المصي ... ب كمهتدٍ بالأمس حائر
يا ابن العقائل للعقا ... ئل والجحاجحة الأخاير
من عبد شمس والأكا ... بر من أُميةَ فالأكابر

إن الخلافة والإلا ... ف برغم ذي حسد وواغر
دَلفا من الشرف التلي ... د إليك بالرِّفدِ الموافر
فحللتَ مُعتلجَ البطا ... ح وحلَّ غيرك بالظواهر
قال له: فأنت القائل:
فقل لبني أُمية حيث حلوا ... وإن خفَت المهندَ والقطيعا
أجاع الله من أشبعتموهُ ... وأشبع من بجوركم أجيعا
بمرْضِيِّ السياسة هاشميٍّ ... يكون حياً لأمته ربيعا
فقال: لا تثريب يا أمير المؤمنين إن أردت أن تمحو عني قولي الكاذب، قال بماذا؟ قال بقولي الصادق:
أورثتهُ الحَصانُ أمَّ هشام ... حسباً ثاقباً ووجهاً نضيرا
وتعاطى به ابن عائشة البد ... ر فأمسى له رقيباً نظيرا
وكساه أبو الخلائف مروا ... نُ سَنيَّ المكارم المأثورا
لم تجهم له البطاح ولكن ... وجدتها له معاناً ودورا
وكان هشام متكئاً فاستوى جالساً وقال: هكذا فليكن الشعر يقولها لسالم بن عبد الله بن عمر وكان إلى جانبه، ثم قال: قد رضيت عنك يا كميت. فقبل يده وقال: يا أمير المؤمنين إن رأيت أن تزيد في تشريفي، ولا تجعل لخالد عليّ إمارة، قال: قد فعلت وكتب له بذلك وأمر له بأربعين ألف درهم وثلاثين ثوباً هشامية وكتب إلى خالد أن يخلي سبيل امرأته، ويعطيها عشرين ألفاً وثلاثين ثوباً، ففعل ذلك
وأما الرواية الثالثة فقد قال فيها أبو الفرج الأصبهاني: اخبرني احمد بن عبد الله بن عمار، قال حدثنا النوفلي علي بن محمد بن سليمان أبو الحسن، قال حدثني أبي قال: كان هشام بن عبد الملك قد اتهم خالد بن عبد الله، وكان يقال له إنه يريد خلعك فوجد بباب هشام يوماً رقعة فيها شعر، فدخل بها على هشام فقرأت عليه، وهي:
تألَّق برقٌ عندنا وتقابلت ... أثافٍ لِقِدْر الحرب أخشى اقتبالَهَا
فدونكَ قِدْرَ الحربِ وَهْيَ مُقرَّةٌ ... لكفَّيك واجعل دون قِدْرٍ جِعَالَهَا
ولن تنتهي أو يبلغَ الأمرُ حدَّهُ ... فَنَلْهَا برْسل قبل ألاّ تنالها
فَتَجْشمَ منها ما جَشمَتْ من التي ... بُسَورَاءَ هَرَّتْ نحو حالكَ حالها
تَلاَفَ أمورَ الناس قبل تفاقُم ... بعُقْدَةِ حزمٍ لا تخاف انحلالها
فما ابرم الأقوامُ يوماً لحيلة ... من الأمر إلا قلَّدُوكَ احتيالها
وقد تخْبرُ الحربُ العوانُ بسرِّها ... وإن لم تَبُحْ من لا يريد سؤالها
فأمر هشام أن يجمع له من بحضرته من الرواة فجمعوا، فأمر بالأبيات فقرأت عليهم فقال شعر من تشبه هذه الأبيات؟ فأجمعوا جميعاً من ساعتهم أنه كلام الكميت بن زيد الأسدي، فقال هشام: نعم هذا الكميت ينذرني بخالد بن عبد الله، ثم كتب إلى خالد بخبره وكتب إليه بالأبيات، وخالد يومئذ بواسط فكتب خالد إلى واليه بالكوفة يأمره بأخذ الكميت وحبسه، وقال لأصحابه: أنه بلغني أن هذا يمدح بني هاشم ويهجو بني أمية فأتوني من شعره هذا بشيء فأتوه بقصيدته اللامية التي أولها:
ألا هل عَمٍ في رأيه متأمل ... وهل مدبر بعد الإساءة مقبل
فكتبها وأدرجها في كتاب إلى هشام يقول فيه: هذا شعر الكميت، فإن كان قد صدق في هذا، فقد صدق في ذاك
فلما قرئت على هشام اغتاظ، فلما قال:
فيا ساسة هاتوا لنا من جوابكم ... ففيكم لعمري ذو أفانين مقول
اشتد غيظه، فكتب إلى خالد يأمره أن يقطع يدي الكميت ورجليه ويضرب عنقه، ويهدم داره ويصلبه على ترابها. فلما قرأ خالد الكتاب كره أن يستفسد عشيرته، وأعلن الأمر رجاء أن يتخلص الكميت، فقال: لقد كتب إلي أمير المؤمنين، وإني لأكره أن أستفسد عشيرته وسماه فعرف عبد الرحمن بن عنبسة بن سعيد ما أراد، فأخرج غلاماً له مولداً ظريفاً، فأعطاه بغلة له شقراء فارهة من بغال الخليفة، وقال: إن أنت وردت الكوفة فأنذرت الكميت لعله أن يتخلص من الحبس فأنت حر لوجه الله والبغلة لك، ولك على بعد ذلك إكرامك والإحسان إليك فركب البغلة وسار بقية يومه وليلته من واسط إلى الكوفة فصبحها، فدخل الحبس متنكراً، فخبر الكميت بالقصة، فأرسل إلى امرأته وهي ابنة عمه يأمرها أن تجيئه ومعها ثياب من لباسها وخفان ففعلت، فقال: ألبسيني لبسة

النساء ففعلت، فخرج فمر بالسجان فظن انه المرأة فلم يعرض له، فنجا وانشأ يقول:
خرجتُ خروجَ القِدْحِ قدْحِ ابنُ مُقبِلٍ ... على الرَّغم من تلك النوابحِ والْمُشْلِ
علَيَّ ثيابُ الغانياتِ وتحتها ... عزيمةُ أمرٍ أشبهتْ سَلَّةَ النّصْلِ
وورد كتاب خالد على والي الكوفة يأمره فيه بما كتب به إليه هشام، فأرسل إلى الكميت ليؤتى به من الحبس فينفذ فيه أمر خالد، فدنا من باب البيت فكلمتهم المرأة وخبرتهم أنها في البيت وأن الكميت قد خرج، فكتب بذلك إلى خالد فأجابه: حرة كريمة فدت ابن عمها بنفسها، وأمر بتخليتها، فبلغ الخبر الأعور الكلبي بالشام، فقال قصيدته التي يرمي فيها امرأة الكميت بأهل الحبس ويقول:
(إسْودِينَا وحْمِرِينَا)
فهاج الكميت ذلك حتى قال:
(ألا حُيِّيتِ عنَّا يا مدينَا)
وهي ثلاثمائة بيت لم يترك فيها حياً من أحياء اليمن إلا هجاهم وتوارى وطلب فمضى إلى الشام فقال شعره الذي يقول فيه:
(قِفْ بالديار وقوفَ زائِرْ)
ويقول:
يا مَسْلَمُ ابن أبي الولي ... د لَميِّتٍ إن شئتَ ناشر
اليوم صرتُ إلى أُمَيَّة والأمور إلى المصاير
فأذن له ليلاً، فسأله أن يجيره على هشام، فقال: إني قد أجرت على أمير المؤمنين فأخفر جواري، وقبيح برجل مثلي أن يخفر في كل يوم، ولكني أدلك فاستجر بمسلمة بن هشام
وبأمه أم الحكم بنت يحيى بن الحكم، فإن أمير المؤمنين قد رشحه لولاية العهد، فقال الكميت بئس الرأي، أضيع دمي بين صبي وامرأة، فهل غير هذا؟ قال: نعم، مات معاوية بن أمير المؤمنين وكان يحبه، وقد جعل أمير المؤمنين على نفسه أن يزور قبره في كل أسبوع يوماً - وسمى يوماً بعينه - وهو يزوره في ذلك اليوم، فامض فاضرب بناءك عند قبره واستجر به، فإني سأحضر معه وأكلمه بأكثر من الجوار فعمل ذلك الكميت في اليوم الذي يأتيه فيه أبوه، فجاء هشام ومعه مسلمة فنظر إلى البناء فقال لبعض أعوانه: انظر ما هذا؟ فرجع فقال: الكميت بن زيد مستجير بقبر معاوية بن أمير المؤمنين فأمر بقتله، فكلمه مسلمة وقال: يا أمير المؤمنين إن إخفار الأموات عار على الأحياء فلم يزل يعظم عليه الأمر حتى أجاره

(إنه ليس معي إلا ظلالها، ولكنها ظلال حية تروح وتجيء في ذاكرتي. وكل ما كان . . . ومضى هو في هذه الظلال الحية كائن لا يفنى، وكما يرى الشاعر الملهم كلام الطبيعة بأسره مترجماً إلى لغة عينيه، أصبحت أراها في هجرها طبيعة حسن فاتن مترجمة بجملتها إلى لغة فكري
كان لها في نفسي مظهر الجمال ومعه حماقة الرجاء وجنونه ثم خضوعي لها خضوعاً لا ينفعني. . . فبدلني الهجر منها مظهر الجلال ومعه وقار اليأس وعقله، ثم خضوعها لخيالي خضوعاً لا يضرها. . .
وما أريد من الحب إلا الفن، فإن جاء من الهجر فن فهو الحب. . .)
(كلما ابتعدت في صدها خطوتين رجع إلي صوابي خطوة)
لقد أصبحت أرى ألين العطف في أقسى الهجر، ولن أرضى بالأمر الذي ليس بالرضا، ولن يحسن عندي مالا يحسن ولن أطلب الحب إلا في عصيان الحب. أريدها غضبى، فهذا جمال يلائم طبيعتي الشديدة، وحب يناسب كبريائي. ودع جرحي يترشش دماً، فهذه لعمري قوة الجسم الذي ينبت ثمر العضل وشوك المخلب، وما هي بقوة فيك إن لم تقو أول شيء على الألم. . .

أريدها لا تعرفني ولا أعرفها، لا من شيء إلا لأنها تعرفني وأعرفها. . . تتكلم ساكتة) (. . .وأرد عليها بسكوتي. صمت ضائع كالعبث ولكن له في القلبين عمل كلام طويل
الرافعي
أوراق الورد
هدأت ثائرة الرافعي هوناً ما، وفاءت إليه نفسه، واعتدلت مقادير الأشياء في عينيه، وعاد إلى حالة بين الرضى والغضب، وبين الحب والسلوان؛ فاستراح إلى اليأس. . . لولا إثارة من الحنين تنتزع به إلى الماضي، وبقية من الشوق واللهفة على ما كان وفرغت أيامه من الحادثة لتمتلئ من بعد بالشعر والحكمة والبيان
ومضت سبع سنين والحياة تذهب به مذاهبها، والذكرى تغشاه في خلوته وتداعبه في أحلامه، والأمانيّ التي بعثرتها الكبرياء بدداً في أودية النسيان تتخايل له في شكول وألوان، وخواطره من وراء ذلك تعمل، ونفسه الشاعرة تحس وتشعر وتنفعل بما يتعاقب عليها من الرُّؤى والأحلام. وأتم نظم قصيدته البارعة في (أوراق الورد) في سنة 1931
أوراق الورد هو طائفة من الخواطر المنثورة في فلسفة الحب والجمال، أنشأه الرافعي ليصف حالة من حالاته، ويثبت تاريخاً من تاريخه، في فترة من العمر لم يكن يرى لنفسه من قبلها تاريخاً ولا من بعد
ويقول الرافعي إنه جمع في أوراق الورد رسائلها ورسائله. أما رسائله فنعم ولكن على باب من المجاز، وأما رسائلها فما أدري أين موضعها من الكتاب، إلا رسالة واحدة وجزازات من كتب ونتفاً من حديثها وحديثه
بلى، إن في أوراق الورد طائفة من رسائله إليها، ولكنها رسائل لم تذهب إليها مع البريد، بل هي من الرسائل التي كان يناجيها بها في خلوته، ويتحدث بها إلى نفسه؛ أو يبعث بها إلى خيالها في غفوة المنى، ويترسل بها إلى طيفها في جلوة الأحلام إلا رسالتين أو ثلاثاً مما في أوراق الورد. . . فلما أتم تأليفها وعقد عقدتها، بعث بها إليها في كتاب مطبوع بعد سبع سنين من تاريخ الفراق!
ولكن أوراق الورد ليس كله من وحي (فلانة)، وليست كل رسائله في الكتاب إليها؛ فهنالك الأخرى، هنالك صاحبة (حديث القمر)، تلك التي عرفها في ربوة من لبنان منذ تسع عشرة سنة، وهنا فلانة. . .
هما اثنتان لا واحدة: تلك يستمد من لينها وسماحتها وذكرياتها السعيدة، معاني الحب التي تملأ النفس بأفراح الحياة وهذه يستوحيها معاني الكبرياء والصد والقطيعة وذكريات الحب الذي أشرق في خواطره بالشعر وأفعم قلبه بالألم!
لقد مضت سبع سنين منذ فارق صاحبته (فلانة) كان قلبه في أثنائها خالصا لها، ولكن فكره كان يدور على معاني الشعر يلتمسه من هنا ومن هناك؛ فلما اجتمع له ما أراد ضم أوراق الورد إلى أشواكه، وأخرجها كتاباً للفن أولا ثم لها من بعد
هو كتاب ليس كله من نبضات قلبه الذي يعشقها وما زال متيماً في هواها، ولكن فيه إلى جانب ذلك فكر المفكِّر وعقل الأديب وحيلة الفنان
بلى، إنه كان يحبها حباً لا يتسع القلب لأن يشرك فيه غيرها فكان (قلبه) لها من دون النساء جميعاً، ولكن الذكريات كانت تتوزع (فكره) فتوحي إليه من هنا ومن هنالك ومما يستجد على خواطره من بعد في معاني الحب والبغض والود والقطيعة
هو كتاب يصور نفسه وخواطره في الحب؛ ثم يصور فنه وبيانه في لغة الحب؛ ثم. . . ثم لا يصور شيئاً من بعد ما كان بينه وبين صاحبته على وجهه وحقيقته، إلا أن يتدبر قارئة ويستأني ليستخلص معنى من معنى على صبر ومعاناة في البحث والاستقراء
فما رأيت من رسالة فيها اللهفة والحنين، وفيها التذلل والاستعطاف، وفيها تصنع الغضب ودعوى الكبرياء، وفيها المنى الحالمة تواثب بين السطور في خفة الفراشة الطائرة؛ وما رأيت من معنى تحاول أن تمسكه فيفلت؛ فهو فصل يؤدي أداءه في قصة هذا الحب العجيب
وما قرأت من رسالة تصف ما كان في خلوة نفس إلى نفس، وتقص عليك في لغة الماضي حديث قلب إلى قلب، وتكشف لك عن سر الابتسامة ومعنى النظرة، وتتحدث إليك عن جمال الطبيعة وفلسفة الكون؛ فهو ذكرى من الماضي البعيد، كان حباً في القلب فصار حديثاً في الفكر، ثم استتبع شيء شيئاً

وما قرأت من قول مزوق، وبيان منمق، ومعنى يلد معنى، وفكرة تستجر فكرة، وعبارة تتوكأ على عبارة؛ فهو من أداء الفن وولادة الفكر.

ولقد تجد رسالة كلها حنين ولهفة، أو حادثة وذكرى، أو فن من الفن؛ ولقد تجد كذلك رسالة غيرها تجمع هذه الثلاثة في قرن؛ ففيها قلب ينبض، وذكر تعود، وبيان مصنوع فإذا أنت عرفت هذه الثلاثة، عرفت الكتاب، وعرفت صاحبه، وخرجت منه بشيء يبدأ أوراق الورد بمقدمة بليغة في الأدب يتحدث فيها عن تاريخ رسائل الحب في العربية

بأسلوب هو أسلوب الرافعي، وإحاطة هي إحاطته، وسعة اطلاع لا تعرفها لغيره؛ وهذه المقدمة وحدها هي باب في الأدب العربي لم ينسج على منواله ولم يكتب مثله، تذكر قارئها ذلك النهج البارع الذي نهجه الرافعي العالم المؤرخ في كتابه (تاريخ آداب العرب) فكان به أول من كتب في تاريخ الأدب وآخر من كتب. . .

وتأتي بعد هذا الفصل مقدمة الرسائل، وفيها سبب تسمية الكتاب، وهو شيء مما كان بينه وبين صاحبته؛ يقول إنه كان في مجلسها يوماً ومعها وردة؛ فأخذت تحدثه عن الحب وعمر الحب، وعن الورد وعمر الورد، وكأنها تقول له: إحذر أن تجعل حظك من الوردة اكثر من أن تستنشيها على بعد من دون لمسة البنان، وأحذر في الحب. . . قال: (ثم دنت الشاعرة الجميلة فناطت وردتها إلى عروة صاحبها، فقال لها: وضعتها رقيقة نادية في صدري، ولكن على معان في القلب كأشواكها. . . فاستضحكت وقالت: فإذا كتبت يوماً معاني الأشواك فسمها أوراق الورد. . . وكذلك سماها)

ويمضي في هذه المقدمة يتحدث عن حبه، وآلامه في الحب ورأيه في الحب، وشيء مما كان بينه وبينها؛ ثم يتحدث عن نهجه في هذه الرسائل، وما أراد بها وما أوحاها إليه؛ في أسلوب كله حنين وكله شوق وألم

ثم تأتي بعد ذلك فصول الكتاب متتابعة على ما أوضحت طريقها من قبل: فيها حنين العاشق المهجور، وفيها منية المتمني وفيها ذكريات السالي، وفيها فن الأديب وشعر الشاعر؛ وفيها من رسائلها ومن حدثيها. . .

من أراد أوراق الورد على أنه قصة حب في رسائل لم يجد شيئاً؛ ومن أراده رسائل وجوابها في معنى خاص لم يجد شيئاً؛ ومن أراده تسلية وإزجاء للفراغ لم يجد شيئاً؛ ومن أراده نموذجاً من الرسائل يحتذيه في رسائله إلى من يحب لم يجد شيئاً؛ ومن أراده قصة قلب ينبض بمعانيه على حاليه في الرضى والغضب، ويتحدث بأمانيه على حاليه في الحب والسلوان - وجد كل شيء

وهو في الفن فن وحده، لا تجد في بيانه ومعانية ضريباً له مما أنشأ الكتاب وأنشد الشعراء في معاني الحب؛ على أنه بأسلوبه العنيف وبيانه العالي وفكرته السامية في الحب، لا يعرف قراءه في العربية. وكم قارئ استهواه عنوان الكتاب وموضوعه فتناوله بشوق

ولهفة، فما هو إلا أن يمضي فيه إلى صفحات قليلة حتى تسلمه يمناه إلى يسراه إلى الزاوية المهملة في مكتبته، ثم لا يعود إليه. . . وكم قارئ كان لا يعرف الرافعي الشاعر الثائر العنيف في حبه وبغضه وكبريائه، فلما قرأ أوراق الورد عرفه فأحبه فاستخلصه لنفسه فما يعرفه من الأدباء إلا أنه مؤلف أوراق الورد

وكم وكم. . . ولكن أوراق الورد ما يزال مجهولاً عند اكثر قراء العربية وإن كان في مكتباتهم، لأن القارئ الذي يلذه أوراق الورد ما زال يتعلم في المدرسة كيف يقرأ ليستفيد ويضم فكراً إلى فكره، لا ليتسلى ويهرب من فكره! لأن العربية ليس لها قراء. . .!

ليت شعري أفي العربية كلها شاعر يستطيع أن ينظم ورقة واحدة من أوراق الورد أو يجمع معانيها في قصيدة؟ ابحثوا عن جمهور هذا الشاعر وقرائه يوم تسمعون قصيده. . .

أرأيت إلى المنجم الذي يمتد في الأرض ويتغلغل بعروق الذهب؟ إنه كنز، ولكن منذا يصبر على المعاناة في استخراجه والبلوغ إليه إلا أن يكون صاحبه أيد وقوة؟ إنه كنز يطلبه الجميع ولكنك لن تجد في الجميع من يقدر على استخلاصه من بين الصخور المتراكبة عليه وحواليه من طبقات الأرض إلا الرجل الواحد المحظوظ الذي يكون معه الصبر

إن أوراق الورد منجم من المعاني الذهبية، لو عرفه المتأدبون من شبابنا لوضعوا يدهم على أثمن كنز في العربية في معاني الحب والجمال يكون لهم غذاءً ومادة في الشعر والبيان
وكان الرافعي - رحمه الله - يعتز بأوراق الورد إعزازه بأنفس ما أنتج في أدب الإنشاء ويباهي ويفتخر؛ وما احسبه تعزى عن صاحبته بقليل إذ تعزى بما لقي من النجاح والتوفيق في إنشاء أوراق الورد؛ وكما تجد الأم سلوتها في ولدها العزيز عن الزوج الحبيب الذي طواه الموت، وجد الرافعي العزاء في أطفال معانيه عن مطلقته العنيدة. لقد فارقها ولكنه احتواها كتاب . . !
إن الأم لا تنسى زوجها الحبيب إذا فارقها وخلف بين يديها بضعة منه، ولكنها تجد العزاء عنه بشيء منه وإن قلبها ليخفق بذكراه في عيني هذا الحبيب الصغير. وكذلك لم ينس الرافعي ولكنه وجد السلوان. . . لقد أفلتت من يده ولكنها خلفت ذكراها معه، ذكرى حيةً ناطقة تتمثل معاني وكلمات في كتاب يقرأه كلما لج به الحنين فكأنه منها بمسمع ومشهد قريب!
يرحمه الله! لقد مات ولكن قلبه ما يزال حياً ينبض يتحدث عن آلامه وأشواقه في قلب كل محب يقرا كتابه فيجد فيه صورة من قلبه وعواطفه وآماله. . . يرحمه الله!؟
(طنطا)
محمد سعيد العريان
هنا ينتهي حديث الرافعي العاشق لنبدأ عنه من الأسبوع المقبل إن شاء الله في حديث جديد
الفلسفة الشرقية بحوث تحليلية
للدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين
- 29 -
الفلسفة الصينية
العصر المنهجي - كونفيشيوس
الأخلاق عنده
جزم اكثر المستصينين بأن غاية (كونفيشيوس) من فلسفته العملية كانت إصلاح الهيئة الاجتماعية في عصره، وإحداث تجديد أخلاقي وعمراني وسياسي في الدولة، ولكن العالم المحقق (زانكير) يرى أن هذا غير صحيح، ويصرح بأن حكيمنا لم تكن له غاية تحقيق الواجب في ذاته، وأن النظريات التي ترمي إلى المنفعة أو إلى السعادة أو التي تعلل الأمر والنهي الأخلاقيين بعلة خارجة عن الواجب لا أثر لها في مذهبه وهو في هذه الناحية يشبه (كانت) في رأي الأستاذ (زانكير) إذ كلاهما يأمران باتباع الواجب لذاته لا لشيء آخر، وهو يستدل على صحة رأيه بالنص الآتي من كلام (كونفيشيوس) في كتاب (لون - يو): (إن الحكيم يتعطش إلى الفضيلة، والرجل العامي يتحرق إلى اللذائذ المادية، وإن الحكيم يعنى بأن يلاحظ الواجب ويذعن له والرجل العامي لا يهتم إلا بأن يتصيد ما فيه من فوائد، وإن الحكيم لا يفهم في العموم إلا الواجب، أما العامي، فهو لا يفهم إلا منفعته)
لا ريب أن هذا النص يؤيد الأستاذ (زانكير) فيما ذهب إليه لأنه صريح في أن الحكيم لا يأبه إلا للواجب في ذاته، وأنه إذا حاد عن هذا الطريق فاكترث بأي شيء آخر كلذة أو منفعة هوى إلى صفوف العامة والجماهير، والآن وبعد أن أثبتنا أن (كونفيشيوس) كان في مقدمة القائلين بـ (الفيذاتية) المطلقة، نريد أن ندرس مذهبه الأخلاقي على ضوء نصوصه كما هي طريقتنا دائماً في هذه الدراسات.
قال (كونفيشيوس) في كتاب (تشونج - يونج) ما نصه: (إن الطبيعة هي الإرادة الإلهية الخالدة، وإن الحياة بحرية أو اتباع الطبيعة هو واجب الإنسان أو (تاوو)، وإن معرفة الواجب هي الدين نفسه. إن الواجب هو ذلك الشيء الذي ليس بمسموح لأحد إبعاده لحظة واحدة، لأنه لو سمح بالبعد عنه لحظة لما اصبح هو الواجب، ولهذا يعنى الحكيم في شيء من الانتباه بما لا يرى في داخله ويخشى في شيء من القلق ما لا يسمعه بأذنه، ويجب ألا يعالج بالكشف ولإيضاح إلا ما هو مخفي في داخل نفسه، ويجب ألا

يكون شيء أوضح لديه من أعمق طيات قلبه، ولأجل ذلك يلقي الحكيم بنفسه بين أعطاف هذه المعالجات التوضيحية كلما خلا بنفسه، وحينما تكون النفس غير مهتاجة بأحاسيس حب أو غضب أو حزن أو سرور يقال عنها أنها في حالة الاعتدال أو (تشونج)، وحينما تتولد هذه الأحاسيس في النفس دون أن تتجاوز الحد المعتدل، قيل عن هذه النفس: أنها في حالة الانسجام (تاوو) وإذاً، فالاعتدال هو الأصل، والانسجام هو القانون العام وحينما يلحق الاعتدال والانسجام غايتهما يسود النظام في السماء (وعلى الأرض، وتنمو جميع الكائنات

من هذه النصوص يتبين مذهب هذا الحكيم في لأخلاق جيداً، وتتضح فكرته عن الواجب والاعتدال والانسجام، ومن الجملة الأخيرة بنوع خاص نلمح مذهب (كانت) قبل وجوده بأكثر من أربعة وعشرين قرناً، وهو القائل بان الاعتدال هو أصل أساسي في النفس، وبأن الحيدة عن الصراط المستقيم طارئة على الإنسان بسبب أحاسيس الحب والبغض والغضب والرضى والسرور والحزن، وبأن الحرية الأخلاقية هي منشأ مسئولية، وبأن الانسجام ضرورة سماوية لبقاء العالم ونموه وسيره نحو الكمال وما أقوى الشبه بين نص (كونفيشيوس) القائل: (وحينما يلحق الاعتدال والانسجام غايتها يسود النظام في السماء وعلى الأرض، وتنمو جميع الكائنات) ونص (كانت) القائل: (إن كل ما لو عم لصلحت الأرض هوالخير، وكل ما لو عم لفسدت الأرض هو الشر) بل ما أحكم الصلة بين نص (كونفيشيوس) القائل: (إن الاعتدال هو الأصل والانسجام هو القانون العام) وبين نص (كانت) القائل: (إن إرادة كل فرد عاقل معتدل هي المؤسسة للقانون العام)

يرى (كونفيشيوش) كما يرى (كانت) أن كل إنسان إذا حقق الانسجام الطبيعي وثبته في داخل نفسه كما شاءته الإرادة الالهية، فقد حقق الواجب، وهو يرى كذلك أن الحرية النفسية

يجب أن تسبق تأدية الواجب، وأن الإرادة البشرية ليست موفقة دائماً لتحقيق الواجب، وإنها تستطيع أن تبتعد عنه، ولكن ليس معنى هذا الابتعاد أن يتغير الواجب، كلا، بل هو كما تبعته الإرادة البشرية أو لم تتبعه، وهذا يدل - كما يرى الأستاذ (زانكير) - على أن قانون الأخلاق هو معتبر في ذاته أو هو مطلق عام لا شخصي مقيد، ولولا ذلك الإطلاق وهذه العمومية لما كان قانوناً أخلاقياً لكل أفراد الإنسانية، بل للسماء والأرض وعنده أيضاً أن جميع أفراد بني الإنسان متساوون أمام هذا القانون الأخلاقي، وأنه في درجة من الوضوح لا تخفى على أي فرد، لأن العلم به فطري، وهو يرى لذلك أن الواجب لا غاية له إلا ذاته، وأنه إذا لوحظت في تأديته غاية أخرى من منفعة أو لذة أو أية غاية أخرى خرج عن كونه واجباً عاماً وأصبح غير صالح للجميع، لأن الناس يختلفون في غاياتهم الشخصية، فإذا أخضعنا الواجب لبعض تلك الغايات المتباينة لم يعترف به الآخرون الذين ليس لديهم مثل هذه الغايات، وبهذا يفقد كل شئ.

وعنده أيضاً كما عند (كانت) أن العمل إذا قصد به غير وجه الواجب سقطت قيمته الأخلاقية وأصبح نفعياً، وأن اتباع الإرادة للواجب يصيرها سامية فوق اعتبارت الحياة العامية، وإن الحكيم يشعر في داخل نفسه عند أداء الواجب بأقصى أنواع السعادة وهو في كل هذا يقول: (إن الإنسان ذا الأخلاق الكاملة (جين) هو الذي يقدم المتعب المضني على النافع اللذيذ ولا يلتفت عند أداء الواجب إلى ما يستفيده منه) ويقول أيضاً: (إن الإنسان بدون الأخلاق لا يستطيع أن يحتمل الفقر ولا الغنى وقتاً طويلاً. وإن الأخلاقي يجد في الأخلاق كل ترضية وإن الحكيم لا يصيره شرهاً نهماً إلا كنز الفضيلة) لا ريب أن عدم احتمال الفقر عند غيبة الأخلاق أمر مفهوم لأن من تعوزه فضيلة الصبر يتعذب بمرارة الفقر، أما عدم احتمال الغنى في تلك الحالة فلعل الحكيم يقصد به أن الغنى في حالة فقد الفضيلة خطر لا يحتمله حتى صاحبه. بقي علينا الآن أن نشرح كلمة (جين) الواردة في هذا النص الذي أسلفناه لك كما فهمها المستصينون، ومعناها: الأخلاق، أو الواحد لأجل الجميع، أو الفرد للمجموعة.

وجه بعد ذلك سؤال إلى (كونفيشيوس) من معاصريه قالوا له فيه: كيف يتبع الإنسان الواجب دائما؟ وما هي الوسيلة العملية لتحقق هذا الواجب؟ وما هو ذلك الصوت الذي تقول انه ينادي دائما بالإذعان للواجب؟ وأي ضمان يطمئن الإنسان على أنه سائر دائماً في طريق الواجب؟ فأجاب بقوله: إن الطريق العملي لتحقق الواجب هو الإذعان لهذا

الصوت الداخلي، وإن الضمان المطمئن هو إدمان مراقبة النفس حتى يكشف جميع دواخلها، فإذا حصل للفرد هذا الكشف وصل إلى درجة الحكمة، لأن القلب حينما يقوده الهوى ينسحب إلى الشر دون أن يشعر فيصبح الإنسان يرى ولا يبصر ويسمع ولا يعقل. والعلة في هذا هي أن العواطف والأهواء تسود أعمالنا وتمنعنا من أن نحكم أحكاماً صحيحة على أنفسنا وعلى العالم الخارجي.

أحسب أن الباحث لا يجد عسراً في ربط هذا الجواب الأخير بقول حكيم اليونان الأول: (اعرف نفسك بنفسك) تلك الحكمة التي وجدها (سقراط) - فيما تقول الأساطير الإغريقية - مكتوبة بالذهب على عتبة معبد (دلفى) واستغلها فكان أساساً صالحاً لفلسفته وفلسفة تلميذه العظيم (أفلاطون) بل إنها ظلت تتغلغل ساطعة في غيابات المستقبل حتى كانت أحد أسباب جلال (ديكارت) وخلوده حيث صرح بعد اثنين وعشرين قرناً بقوله: (إني لما كشفت الأنا حملت مصباحه الذي على سناه كشفت كل اللاأنا)

على أن الأمر لم يقف عند هذا الحد، بل أن الأستاذ (زانكير) يرى أن فلاسفة اليونان الذين قالوا بمبدأ (اعرف نفسك بنفسك) لم يتنبهوا إلى العقبات التي تعترض سبيل الإنسان عندما يحاول هذه المعرفة، وهو يصرح بأن (كونفيشيوس) إن لم يزد على أولئك الفلاسفة في هذه النقطة فهو من غير شك يساويهم فيها. وبناء على ذلك، فالقائلون بأن (كونفيشيوس) حتى لو كان قد تنبه إلى معرفة النفس بالنفس فإنه قصر في معالجة العقبات الناشئة من هذه المحاولة هم على خطا في هذا الرأي، لأن تلك العقبات لم يعرض لها إلا علماء النفس في العصور الحديثة. وإذن، ففلاسفة الإغريق وحكيم الصين في هذا الموقف متساوون

يختلف (كونفيشيوس) مع (لاهو - تسيه) في وسيلة الوصول إلى الكمال الخلقي، فأما (لاهو - تسيه) فهو يرى أن التأمل النفساني كافٍ لوصول الإنسان إلى الكمال أو إلى تحقيق الانسجام المطلق في جميع حركاته. والانسجام عنده هو المسمى بالسكون الطبيعي الذي لا ينقصنا إلا حينما ننشغل بالظواهر، ومتى فصمنا عرى صلاتنا بها عاد إلينا. أما (كونفيشيوس) فيرى أن من المستحيل قطع صلاتنا بالظواهر الخارجية وإن كل محاولة في

هذا السبيل فاشلة، وإن الإنسان لا يصل أبداً إلى الانسجام المطلق في جميع حركاته وإنما يصل إلى انسجام نسبي يقترب من الإطلاق بعض الشيء، وإن التأمل وحده ليس كافياً، وإنما يجب أن تضم إليه الثقافات والمعارف الخارجية، بل أن الثقافة هي الجوهر الأساسي للوصول إلى المعرفة والفضيلة الكاملتين، وهو لهذا يقول: (إن الشغوف بالدراسة يمنح الفضيلة الحكمة، وإن من يقوم بمجهود يمنح فضيلة حب الإنسانية، وإن الذي يحمر وجهه خجلاً من أنانيته يمنح فضيلة القوة) وهذه الفضائل الثلاث هي عنده الواجب أو ضروريات الكمال. وهو يرى أن الدراسة المحققة للثقافة والفضيلة يجب أن تتناول حقائق الأشياء: معنوياتها ومحساتها تناولاً دقيقاً مؤسساً على النقد الذي لا يعرف هوادة ولا ليناً، ولا يخضع لرحمة ولا عاطفة ولا هوى، فإذا نبت الدراسة عن هذه العوائق أنتجت أسمى النتائج وأرقاها. وفي هذا يقول: (حينما تدرس طبيعة الأشياء عن قرب وبانتباه تصل المعرفة إلى أعلى آواجها. وحينما تبلغ المعرفة أقصى آواجها تصبح الإرادة كاملة، وحينما تصبح الإرادة كاملة تصير حركات القلب منظمة متفقة مع القانون. وحينما تصبح حركات القلب منظمة يتخلص الإنسان من الآثام. وبعد أن يتخلص الفرد من الآثام يشرع في توطيد دعائم النظام والانسجام في الأسرة. وإذا ساد الانسجام في الأسر بلغ الحكم في المدينة درجة الكمال، وإذا بلغ الحكم في المدينة حد الكمال استمتعت الإمبراطورية بالسلام التام)

أحسب انه بعد كل الذي قدمناه من آراء هذا الحكيم القيمة وبعد هذه الموازنة التي أسلفناها بينه وبين أولئك الفلاسفة القدماء والمحدثين لا معنى لأن يغمطه بعض الباحثين الغربيين حقه فيرموه تارة بأنه ليس فيلسوفاً، وأخرى بأنه عملي أو نفعي. وأحسب كذلك أنه لا ينبغي أن نتأثر في حكمنا على هذا الفيلسوف بذلك التشويه الذي أصاب مذهبه بعد عصره، بل يجب علينا أن نضع نصب أعيننا ذلك السمو الفلسفي، والنبل الأخلاقي اللذين تفيض بهما مؤلفات (كونفيشيوس) وأن نذكر دائماً أنه وضع للمتفلسف ثلاثة شروط أساسية، الأول الإخلاص الكامل في كل ما يخطوه من

خطوات علمية أو عملية. الثاني البدء بدراسة (الأنا) ليتوصل به إلى كشف كل (اللاأنا). الثالث الدراسة النقدية العميقة لجميع الأشياء الخارجية. فإذا لاحظنا كل هذا جزمنا بأن كل من لا يسمو بهذا الفيلسوف إلى الصف الأول من صفوف مفكري الإنسانية كان غير موفق في دراسته وحكمه.

(يتبع)

محمد غلاب

رسالة الشعر

الليل. . . .

للأديب محمود السيد شعبان

!!أَسْبِلْ على الدُّنيا سُتُورَ الكَرَى ... وَلُفَّها يا ليلُ في ضُلْمَتِكْ

!الصَّمْتُ في وادِيكَ حَيٌّ يُرى! ... والوَحْدَةُ الخَرْسآءُ في عُزْلَتِكْ

!والموْتُ في ناديكَ يَرْعَى البَشَرْ ... يا مَوْطِنَ الُهلْكِ وَمثْوَى النَّهَمْ

!وفي دياجيكَ يَطِيشُ القَدَرْ ... وَيفْتِكُ الَهمُّ وَيَطْغَى السَّأْمْ

أأنْتَ مَعْنىً مِنْ معَانِى الرَّدىَ ... أَمْ أَنْتَ طَيْفٌ مِنْ طُيُوفِ الملَلْ؟

!قدْ ضاَعَ في وَادِيكَ عُمْرِي سُدَى ... وماَ جَنَتْ كَفَّاىَ إلاَّ العِلَلْ

!يا مَوْطِنَ الأَشْباَحَ يا اُبنَ العَدَمْ ... ماَ أناَ مَنْ يخشاكَ أَوْ يَرْهَبُكْ

!وفي فُؤَادِي غَيْهَبٌ مِنْ أَلَمْ ... يَرْوِى دُجاَهُ بالأَسَى غَيْهَبكْ

!!أَطَلْتُ يا لْيلُ إِلَيْكَ النَّظَرْ ... فماَ رَأَتْ عَيْناَىَ شَيْئاً يُرَى

ياَ وَيلَتاَ لِي كَيْفَ أَهْوِى السَّهَرْ ... وكلُّ مَنْ فِي الارْضِ يَهْوَى الْكَرَى؟

!!نَمْ يا فُؤَادِي كلُّ شَيْءٍ هُناَ ... أَغْفَى عَلَى أُمْنِيَّةٍ تُرْتَجَى

!وَهَدْهَدَتْهُ ياسَماتُ الْمنُى ... في هَدْأَةِ اللَّيْلِ وَصَمْتِ الدُّجَى

!لَمْ تُبْقِ لي الأَيَّامُ مِنْ مَأْمَلِ ... في حاضِرِي أَرْجُوهُ أَوْفي غدِى

!قدْ غَاضَتِ الآمالُ مِنْ جَدْوَلِي ... وقدْ نَفَضْتُ الآنَ مِنْها يَدِى

!مالي ولْلأَحْلاَسِ تُعْيِي الْبَصَرْ ... ولَيْسَ لي في الليْل إِلْفٌ يُرى

يا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ جفَاَنِي الْبَشَرْ ... أَمْ أَنَّنِي وحْدِي جَفَوْتُ الْوَرَى؟

!يا نَجْمُ ماذَا في الدُّجَى أَعْجَبَكْ ... اللَّيْلُ يا نجمُ عُبَابُ القَدَرْ؟

أَأَنْتَ يا نجمُ تُحِبُّ الْحَلكْ ... أمْ أنْتَ مِثْلِي مُولَعٌ بالسَّهَرْ؟

!!يا ساَهِداً لَمْ يَدْرِ مَعْنَى الْكَرَى ... كُنْ مُؤْنِسِي إِنِّي وَحِيدٌ هُناَ

!أَماَ تَرَانِي قَدْ هَجَرْتُ الوَرَى؟ ... فَلَيْتَنِي أَسْطِيعُ هَجْرَ الدُّناَ

!!أَلِيَّةً يا نَجْمُ قُلْ لِلسَّحَرْ: ... تعالَ إِنِّي قَدْ سَئِمْتُ الْغَلَسْ

!!ما في الدُّجَى مِنْ مُنْعَةٍ لِلْبَصَرْ ... ولَيْسَ في وَادِيهِ إلاَّ الَخرَسْ

!يا رَاقِداً حَفَّتْ بِهِ العَافِيَةْ ... ودَاعَبَتْ أَجْفاَنَهُ الَحالِمَةْ

!أَلَمْ تُثِرْ أَشْجاَنِىَ الباكِيَةْ ... لَفْحَ الأَسَى في نفسِكَ النَّاعِمَةْ؟

!!عَلَى سَرِيرِ الوَرْدِ نَمْ إِنَّنِي ... على سَرِيرِ الشَّوْكِ أَسْتَشْهِدُ

!!أُرِيدُ أَنْ أَبْكِي فَلاَ تَلْحَنِي ... لَعَلَّ هَذَا الدَّمْعَ لِي يُسْعِدُ

!!نَمْ يا حَبِيبِي لاَ يَرُعْكَ الأَسَى ... ماَ أناَ في الظَّلْماَءِ إلاَّ شَبَحْ

!أَوْ زَوْرَقٌ في بَحْرِهِ ماَرَساً! ... أو تاَئِهٌ عَنْ دَارِهِ قَدْ نَزَحْ

!نَمْ يا حَبِيبِي ناَعماً لا تَخَفْ! ... مِنْ عاَبِرٍ أَضْناَهُ طُولُ السُّرى

!وَهَبْ لِرُوحِي قُبْلَةً مِنْ تَرَفْ ... لَعَلَّ عَيْنِي تَسْتَطِيبُ الكَرى

يا لَيْلُ مالِي مِنْ حَبِيبٍ فَلاَ ... تَسْأَلْ فُؤَادِي: فِيمَ ذِكْرُ القُبَلْ!؟

!هَذَا خَيالٌ زَائِفٌ ماَسَلا ... عَنْ ذِكْرِهِ قَلْبٌ يُحِبُّ الْغَزَلْ

!يا وَهْمُ ما أَحْلاَكَ مَوَّهْ مَعِي ... عَيْشِي بِأَطْيَافِ الرُّؤَى اِلخادِعَهْ

!وَاُسْكُبْ لُحُونَ البِشْرِ في مِسْمَعِي ... وَأَمْلأْ حياتِي بالمُنَى الرَّائِعَهْ

!!يا وَيْحَ قلبِي ماَتَ فِيهِ الهوَى ... وماَ تَبَقَّى مِنْهُ غيْر الخبَلْ

!وَكانَ ماَ كانَ فلَمَّا انْطَوى ... مَضَى الرِّضى عنْهُ وغاَضَ الجذَلْ

!وهاَمَ في الظلمةِ بِى يَسْأَلُ: ... أَيْنَ الهوى يا لَيْلُ أَيْنَ المرَحْ؟

!يا قلبُ لا تَسْأَلْهُ ماَ يَجْهَلُ! ... وَدَعْ لِمَرْ ضَلَّ الأَسَى والترَحْ

!!يا لْيلُ دَعْنِي قدْ دَهاَنِي القَلَقْ! ... وَحَطَّمَتْنِى عادِياَتُ القَدَرْ

!وَارْحَلْ فقد يَذْهَبُ عنِّي الأَرَقْ ... إِنْ اُنْتَشَتْ رُوحِي بِعِطْرِ السَّحَرْ

قدْ أَقْبَلَ الفجرُ فلاَ تَيْأَسِي! ... ما ضاَعَ يا نَفْسِي اصْطِباَرٌ سُدَى!
وأَغْمِضِي جَفْنَيْكِ ثُمَّ انْعسِي! ... ولاَ تَخَافي إِنْ أَتاَكِ الرَّدَى!!
(الإسكندرية)
محمود السيد شعبان
على زهرة ذاوية
للسيد جورج سلستي
عَبَثَتْ برونقِها يدُ الدهرِ ... وبدا البِلى بعروقِها يَسري
وتناثرتْ اوراقُها - وَثَوَتْ ... فوق الثرى - كتَنَاثرِ الدرِ
لهفي على حسنٍ تصحّوهُ ... أيدي العفاءِ وسطوة الغدرِ
كانتْ تَزيُنُ الرَّوضَ روعتُها ... وتضمِّخُ الأرجاَء بالعطرِ
كانت وكان الفجرُ يعبدها ... بين الرياض ولم تكنْ تدري
جاسَ الغرامُ فؤاده وكوى ... منه الضلوعَ بلمسهِ السحري
فبدا له، فأراقَ مهجتهَ ... فيها، فكانتْ ديمة القطر
ليس الندى إلاّ دماه، ألا ... لله من فعل الهوى العذري
يا زهرة روَّيتُها بدمي ... وسقيتُها بمدامعي الحمرِ!
نامي بحضنِ الأرض هانئةً ... إنَّ الردى خيرٌ من العمرِ!
إنَّ الحياةَ لَمَرَّةٌ أبداً ... ملأى من الآثام والشرِّ!
أسقتنيَ الأيامُ من مَدَرٍ ... وغذتنيَ الأقدارُ بالمرِّ
صافَ الهنا عنِّي، وقد نَفَرتْ ... مني السعادةُ كالظِبا العُفْرِ
قد كان لي يا زهرتي أملٌ ... لكنما اودى به دهري
وحبيبةٌ كالصبح طلعتُها ... غَدَرَتْ كأنَّ الحسنَ بالغدرِ
يا زهرتي، يأتي الربيعُ غدا ... وينمِّق الجنّاتِ بالزهرِ
نامي بحضنِ الأرض حالمةً ... بمجيئهِ، وببسمةِ الفجرِ
لكنّ آمالي وقد غَربتْ ... ليست تعودُ؛ غلبتُ في أمري
لك في مماتكِ عودةٌ وأنا ... بعد المماتِ أظَلُّ في قبري!
(بيروت)
جورج سلستي
الأسرار
للأستاذ إيليا أبو ماضي
يا ليتني لص لأسرق في الضحى ... سرّ اللطافة في النسيم الساري
وأجس مؤتلق الجمال بأصبعي ... في زرقة الأفق الجميل العاري
ويبين لي كنه المهابة في الربى ... والسر في جذل الغدير الجاري
والسحر في الانغام والالوان وال ... أنداء والأشذاء والأزهار
وبشاشة الموج الخصيب ووحشة ال ... وادي الكئيب وصولة التيار
وإذا الدجى ارخى عليَّ سدوله ... أدركت ما في الليل من أسرار
فلكم نظرت إلى الجمال فخلته ... ادنى إلى بصري من الأشفار
فطلبت وإذا المغالق دونه ... وإذا هنالك ألف ألف ستار
باد ويعجز خاطري إدراكه ... وافِتِنْتَي بالظاهر المتواري!
إيليا أبو ماضي
رسالة العلم
الزنك كعنصر أساسي لنمو النبات
للأستاذ عبد الحليم منتصر
تتمة
بينا في المقال السابق الأعراض التي تبدو على النبات المحروم من عنصر الزنك من بين ألوان غذائه، وأتينا على طرائق علاج هذه الحالات المرضية التي تعتريه بإعطائه حاجتهمن هذا العنصر، ووعدنا بتفصيل العلاقة بين طبيعة التربة وصفاتها الكيميائية وبين سير هذا المرض وتأثر النبات به ودرجة احتماله إياه ومقاومته له. فقد ثبت من التحاليل الكيميائية الدقيقة التي أجراها (هبرر) و (إلين) و (بوجز) أن النبات لا يستخلص كل الزنك الذي بالتربة ولكن لسبب ما - لعله الحموضة أو القلوية الموجودة

أكثر من اللازم - يجعل التربة تحبس زنكها عن النبات، فإذا كانت قلوية كان السبب عدم ذوبان مركبات الزنك في هذا المحلول القلوي. وإذا كانت حامضة كان السبب عدم سهولة الاحتفاظ بالزنك في المحلول بالتربة، ويكون آنئذ سريع الانتشار. فمن ذلك نرى أن هناك علاقة بين ظهور أعراض المرض وبين درجة الحموضة أو القلوية للتربة، بمعنى أن المرض يظهر ويشتد في درجة حموضة أو قلوية خاصة، على حين لا تبدو آثاره في درجة أخرى. فقد وجد أنه إذا كانت درجة القلوية من 7 إلى 7. 3 تكون أعراض المرض شديدة جداً، بل يندر أن ينجو من خطره أقوى أنواع النبات احتمالاً، لأن درجة احتفاظ التربة بالزنك في هذه الحالة تكون ضعيفة مسرفة في الضعف. أما إذا كانت هذه الدرجة من 8 إلى 9 في ارض طينية فانه يندر أن تتأثر الأشجار كثيراً بنقص الزنك لان مثل هذه التربة تحتفظ بالزنك إلى درجة كبيرة، وهي في الوقت نفسه لا تحبسه عن النبات

ومن العوامل الطبيعية التي تؤثر في سير المرض حرارة الجو وكمية الضوء، فهو في الشتاء حين الحرارة منخفضة وكمية الضوء قليلة ضعيف الانتشار؛ وعلى نقيض ذلكتكون الحال في الصيف.

وهناك من الحقائق ما يثبت أن في التربة المصاب نباتها من العوامل ما يمنع الجذر من

امتصاص الزنك، أو المساهمة في نقله إلى قمم الأشجار أو سائر أعضاء النبات. وقد وجد في بعض الأشجار التي تعاقبت على إصابتها السنون دون علاج أن كثيراً من أجزاء الجذر قد ماتت فعلاً. والمرجح أن عنصر البوتاسيوم لا يلبث أن يخرج من قلف الجذر في النبات المصاب، فقد ثبت أن ما به منه لا يتجاوز 10 إلى 25 % من البوتاسيوم الموجود بقلف الساق أو بقلف جذر نبات سليم أو معالج بالزنك. وبما أن الزنك يتحد بمركبات عضوية، ويكون أحد مقوماتها غير العضوية، فربما كان خروج البوتاسيوم يساعد على استمساك الجذور بزنكها واحتفاظها به، فلا يتصاعد إلى القمم. وكانت نتيجة التحاليل الكثيرة التي أجريت إثبات تجمع الزنك بالجذر في بعض الحالات على أن الواقع أن معالجة الأشجار بالرش، أو بإيلاج قطع الزنك في الفروع دون التعرض للتربة، من شأنه أن يشفى النبات ويجعله في حالة جيدة، مما يدل على أن الجذر برغم عدم جعل العلاج عن طريقه مباشرة، يقوم بوظيفته الطبيعية في سهولة ويسر

ومن الإحصاءات البديعة ما قدمه (باركر) عندما قارن بين الأشجار المعالجة برش الزنك وتلك التي لم تحظ بهذا العلاج، إذ وجد أن الشجرة المعالجة قد أعطت 477 رطلاً من الثمار على حين كان ما أنتجته الثانية لا يزيد على 56 رطلاً فقط؛ وذلك فضلاً عن أن ثمار الأولى أكبر حجماً وأجمل منظراً، وهي بالتالي أسرع نفاذاً في السوق، لكثرة الإقبال عليها من المستهلك. كذلك وجد (باركر) في حالة البرتقال (أبو سرة) أن محصوله قد تضاعف فاصبح ستة أمثاله قبل العلاج

وقد بينا أنه في حالة وضع قطع من الزنك في الفرع تظهر آثار العلاج في الجزء من قمة الفرع إلى مكان الزنك فيه، نمواً وإزهاراً وإثماراً على حين يكون الجزء الأسفل ما يزال يعاني آثار المرض، وإن ثبت أن بعض التحسن يبدو عليه بعد ذلك كنتيجة لاطراد التقدم سنة بعد أخرى، وذلك من آثار الصحة والنشاط التي ستتبدى في الأوراق بعد العلاج، فيعم خيرها على النبات كله بالتدريج.

وقد أوضح بعض الباحثين منهم (آرك) و (هجلاند) الأثر الذي تنتجه الكائنات الدقيقة التي توجد بالتربة في ظهور هذا المرض أو اشتداد آثاره، تلك التي كانت نتيجة إبادتها بالفورمالين أو الحرارة أو الأثير زوال الأعراض السالفة أو تخفيف بعض آثارها مما يدل على أن لهذه الكائنات فعلاً في إظهار المرض وسيره. ولكن الواقع أن معالجة التربة بهذه الطرائق أي المطهرات أو الحرارة غير متيسرة إلا في الصُّوَب (بيوت زجاجية لتربية النبات) ولذلك فهي غير مجدية في الحقول أو الحدائق. أما إضافة الزنك إلى التربة فأنها أكيدة النفع محققة الغرض

على أننا نتساءل الآن: ماذا عسى أن يكون هذا الدور الذي يلعبه الزنك في النبات؟ فالمعروف أن لكل عنصر يدخل النبات دوراً يقوم به في تغذيته وتركيبه، أو في العمليات الفسلجية التي تجري به. ولما كانت نسبة الزنك في النبات ضعيفة جداً

خصوصاً إذا قورنت بأي عنصر من العناصر الأخرى، فهي لا تكاد توازي جزءاً واحداً لكل ألفين أو ثلاثة آلاف جزء من الأزوت مثلاً. بيد أن نقص الزنك أنتج مرض حرمانه كما رأينا من الآثار السيئة الشديدة التي تصيب النبات من هذا الحرمان. وذلك رغماً من أن الزنك لا يدخل دائماً في تركيب البروتيلازم أو مركباته، كما هي الحال مع الفسفور أو الكبريت أو الأزوت. والمعتقد أن للزنك دوراً هاماً يقوم به في بعض العمليات الفسلجية بالنبات، وخاصة عمليات التأكسد التي لولاها لتكونت مواد ثانوية ضارة هي التي تؤخر النمو وتكون السبب في ظهور البقع والأوراق الصغيرة المحمرة وغيرها من الأعراض؛ كما أن له أثراً آخر قد لا يقل عن سالفه، وهو أن مركب الزنك يعتبر عاملاً مساعداً يسرع بالعمليات الكيميائية وخاصة ما يتصل منها بالمواد الكربوايدراتية. ودليلنا على ذلك شدة الأعراض في الصيف إذ يكون اليوم طويلاً فتتجمع المواد النشوية كذلك في حالة الأشجار التي تتساقط أوراقها شتاء؛ فهذه الأعراض تبدو قوية الأثر آنئذ بسبب تراكم المواد النشوية فتتحسن حالته في أوائل الربيع، وذلك عندما يأخذ النبات أهبته ويستأنف نشاطه، فيستغل ما تجمع فيه من مواد لنموه. وقد ظهر من المشاهدات والبحوث العديدة التي أجريت في هذا الصدد أن عنصراً غير الزنك لا يستطيع أن ينتج نفس الأثر أو يمنع عوارض المرض، فقد استعملت مركبات الكوميوم والزئبق والفضة والنيكل والكروم والبورق والتيتانوم فكانت النتائج سلبية. وكذلك الحال باستعمال مركبات الصفيح والزركونيوم والتنجستن والموليبدنوم.

من هذه الحقائق مجتمعة، يصح لنا أن نعتقد أن الزنك عنصر أساسي للنبات، سواء منه الفطريات أو النباتات الراقية. وإن من المناسب إضافته إلى ثبت العناصر الأساسية الهامة التي تلزم لكي يحيا النبات حياة طبيعية هادئة، وحتى تستقيم له أسباب نموه وإراقه وإزهاره.

ولعل الصعوبة التي كانت تحول دون هذا الاعتبار إنما ترجع إلى الحقيقة الواقعة من أن كمية ضئيلة منه تكفي، ثم أنه من السهل وجود مثل هذه الكمية في المركبات الكيميائية المختلفة التي توجد بالتربة أو التي تضاف إليها، وذلك لان مركباته ذائعة الانتشار جداً مع المركبات الأخرى عندما تكون غير نقية، أو غير تامة النقاء. ولقد رأينا كيف أن عدم وجود الزنك بين عناصر الغذاء يسبب مرض الحرمان الذي أشرنا إليه في هذا الحديث، وأن علاجه يكون بالإضافة إلى التربة، أو في ثقوب بالجذع والفروع، أو بدق مسامير مطلية بالزنك، أو برش مركبات الزنك على الأوراق والفروع. أما المقدار الذي يضاف إلى التربة فإنه يختلف تبعاً لطبيعة التربة والنبات والكائنات المجهرية التي بالتربة. كما أن المرجح حتى الآن أن الدور الذي يقوم به الزنك في العمليات التي تجري بالنبات هو دور العامل المساعد في بعض التفاعلات التي تتصل بتمثيل المواد الكربوايدراتية.

عبد الحليم منتصر
ماجستير في العلوم

القصص

من روائع القصص الواقعي الإسلامي

عمار بن ياسر

لأستاذ دريني خشبة

(يا ابن سمية، لا يقتلك أصحابي، ولكن تقتلك الفئة الباغية!)
(حديث شريف)

- 1 -

(عير من اليمن)

الحارث - ولم لا تعود معنا يا أخانا إلى اليمن؟

ياسر - اليمن وطني، ولكني والله أشم ريحاً بمكة لا تهب إلا من السماء؛ وإن قلبي ليهفو إلى مسراها. فاذهبا أنتما حتى يأذن الله!

مالك - يا أخانا، أنأتي إلى الحجاز لنعود أربعة إن وجدنا أخانا الضائع، فلا نعود إلا اثنين؟ أي ريح هذه التي تهب من السماء وإنك لتهفوا إلى مسراها؟

ياسر - والله يا ابن أم ما أدري. وما أكاد أنصح لكما ألاّ تعودا أدراجكما حتى ننشقها

جميعاً. . .
مالك - بل تبقى أنت ونرتحل نحن غداة غد. . .
ياسر - ومع ذاك فلا أحب إليّ من أن تبقيا!
الحارث - بل تبقى أنت ونرحل نحن
- 2 -
(في مضارب بني مخزوم)
ياسر لأعرابي - عم صباحاً يا أخا العرب
الأعرابي - عم صباحاً! من أنت؟ ومن أي البطون أقبلت؟
ياسر - أنا رجل يمني أقبلت في عير معي أخوي لنبحث عن أخ لنا رابع أبق
الأعرابي - ما عن ذاك سألت!
ياسر - بلى، وأريد أن أحالف سيد هذه العشيرة. فمضارب من هيه؟
الأعرابي - مضارب سيد العرب أبي حذيفة بن المغيرة ابن عبد الله بن عمر بن مخزوم وإنه لقادم فألقه إن شئت!
(يقبل أبو حذيفة)
أبو حذيفة - ممن الرجل وماذا يبغي؟
ياسر - يمني يعربي قحطاني يبغي أن يحالف سيد العرب فيخلص له!
أبو حذيفة - على عهد بعل وهبل!
ياسر -. . .!. . .
أبو حذيفة ينادي: يا كعب. . . يا كعب. . . خذ الرجل فاعهد إليه بالإبل!
- 3 -
أبو حذيفة - وحق بعل وهبل يا ياسر إنك للمخلص الأمين وإني مزوجك أمتي الجميلة العاقلة سمية هذه
ياسر -. . . الحمد لله!
أبو خذيفة - بل لهبل!
ياسر - الحمد لله لي ولك يا سيدي على ما رزقني
أبو حذيفة - إحمد هبلاً وإحمد بعلاً يا ياسر، فإنهما الإلهان!
- 4 -
(في مقابر بني مخزوم)
ياسر - لفي هذا الثرى ترقد يا أبا حذيفة! أما والله انه لا بعل نفعك ولا هبل. . . أما والله لقد عجل بك الموت عن الطريق السوي. . .
عمار - ماذا تقول يا أبتاه! ما الطريق السوي؟. . .
ياسر - والله يا بني إنا لفي زمان أظلنا فيه فيء نبي، وإني لأجد شميمه، وإني والله تخلفت عن أعمامك فلم أضرب بطون المطي إلى اليمن من اجل هذا لأن اليهود تقول أنه من
قريش
عبد الله - وما بكاؤك هذا كله على أبي حذيفة؟
ياسر - أكرم مثواي وزوجني سمية أمكما فرزقتكما منها يا بني؛ وقد أعتقني فما رضيت أن أفارقه. ولشد ما أخشى أن أهون بعده!
- 5 -
(بيت بالصفا بلحف أبي قبيس)
ياسر - اسمعي يا ابني ما أحلى ما يقرأ محمد والمسلمون معه!
عمار - وماذا يقرءون يا أبي؟
ياسر - يقرءون ما يقضي إلى محمد وحيه من الله. لله ما أحلى ولله ما أعلى!
عبد الله - أليس هو من عند بعل يا أبتاه!
ياسر - بعل حجر لا ينطق وهم خلقوه. ولله لقد حام حين بعل!
عمار - ولم لا ندخل فنقرأ معهم يا أبي؟
ياسر - والله إني لهذا جئت إلى الصفا يا بني ووالله إني لأجد الريح التي تنشقتها مذ قدمت من اليمن. ومن اجلها استأنيت الحجاز وخالفت أخوي!
عمار - إذن نطرق الباب لنكون من السابقين!

ياسر - والله لنكونن منهم بإذن الله. . اطرق يا بني فلقد شرح الله صدورنا لهذا الأمر
(عمار يطرق الباب)
صوت الداخل - (من؟
عمار - مؤمنون بمحمدٍ يريدون رسول الله!
الصوت - حباً حباً إخواننا في الله!
ياسر - يدك يا رسول الله. أشهد وبنيَّ أنه لا إله إلا الله وإنك رسول الله
(يمد له الرسول يمينه فيبايعونه)
ياسر - انطلق يا عمار فآت بسمية تشهد معنا وتغنم هذا الخير، إن ههنا مؤمنات مسلمات خابتات خاشعات!
- 6 -
(رمضاء مكة وقت الظهيرة)
(يقدم بنو مخزوم ومعهم عمار وأبوه ياسر وأمه سمية)
أحدهم لياسر - نم يا صاحب محمد! ذق عذاب السعير الذي ينذرنا به نبيك!
(ويضربه ويضع الحجارة على صدره)
أحدهم لعمار - وأنت يا ابن الأمة! قل كفرت برب محمد! قل! اخلع هذه الثياب فلنفصلن لك ثياباً من رمضاء مكة تكويك وتشويك
(ينزع عنه الثياب ويقيده ويحثو التراب على رأسه)
أترى إلى هذا الجعل؟ قل هو ربي! قل هو خير من إله محمد! قل آمنت ببعل وود ويغوث ويعوق وهبل، وكفرت بإله محمد!
عمار - بل الله الله! الله ربي وبعل حجر أنتم خلقتموه!
(الكافر يركله ويحمي حديداً في نار موقدة ويكويه به)
الكافر المخزومي - قل كفرت بإله محمد أو أسمل عينيك
عمار - اقض ما أنت قاض. إنما تقضي هذه الحياة الدنيا!
الكافر - انظر إلى أبيك وأمك كيف يتعذبان! ألا تستر أمك فتكفر بمحمد وإله محمد يا ابن الأمة!
عمار - بل يصبران لبلاء الله كما اصبر. . . الله. الله. الله!
أحدهم لسمية وهو يعذبها - انظري يا أمة بعل، هذا زوجك وهذا ولدك، إلا تكفرين بإله محمد فنرسلك ونرسلهما؟
سمية - وكيف وقد هداني الله؟ لعذابكما أهون من حر جهنم. بل ربي الله لا اعبد إلا إياه. . .
الكافر المخزومي - وولدك هذا الذي يكوى بالنار؟
سمية - يصبر اليوم خير من ألا يصبر غدا!
الكافر المخزومي - ولن أدعك حتى تكفري بمحمد
(يضربها على يافوخها فتحتضر)
سمية - بل ربي الله! آمنت بالله وبرسوله
(يمر رسول الله فيرى ما يقع بآل ياسر)
رسول الله - (صبراً آل ياسر! موعدكم الجنة. صبراً آل ياسر! موعدكم الجنة)
آل ياسر - لقد بعنا لك أنفسنا يا رسول الله فانظر ما يفعل السفهاء بنا
سمية - صوت من؟ الرسول الكريم! محمد! آمنت بك يا محمد! آمنت بك يا محمد! اشهد يا محمد ما يصنع بنا بنو مخزوم. . .
الكافر المخزومي - تعال يا محمد فخلص عبيدك!
(ويضربها الكافر بحجر كبير على رأسها فتموت ويستعبر النبي)
الرسول الكريم - يا رب. يا رب. يا رب!
أبو جهل (يحضر فيشهد فيقول لياسر) - يا فاجر تكفر بأربابك وأرباب آبائك؟ ها هو ذا محمد أدعه يمنعك!
(يمضي أبو جهل فيحثو التراب على رأس الرسول ويعود)
أرأيت ها هو ذا محمد! تركت دين أبيك يا ياسر وهو خير منك. لنسفهن حلمك ولنفيلن رأيك!
(يضربه ويمضي)

أبو سلمة المخزومي - يا لقومي! أتقتلون أناساً أن يقولوا ربنا الله!
أبو جهل - اسكت يا أبا سلمة أو لنرجمنك ونضعن شرفك!
- 7 -
(النبي والصحابة يبنون مسجد المدينة)
مدني لأنصاري - من أخوكم هذا الرجل الآدم الطوال المضطرب الأشهل الذي يحمل لبنتين ولا يحمل أيهم إلا لبنة واحدة؟
الأنصاري - ألا تعرف من هذا؟ إنه حبيب نبينا الرجل المؤمن الذي ما تعذب أحد من المسلمين كما تعذب. . . هذا عمار بن ياسر. . .
المدني - ومن هذا الرجل النظيف المتنظف يحمل اللبنة ويجافي بها عن ثوبه، فإذا وضعها نفض كفيه ونظر إلى ثوبه، فإذا أصابه شئ من التراب نفضه؟
الأنصاري - هذا الرجل الصادق عثمان بن عفان
(علي بن أبي طالب يرى ما نصنع عثمان فينشد)
علي بن أبي طالب:
لا يستوي من يعمر المساجدا ... يدأب فيها راكعاً وساجداً
وقائماً طوراً وطوراً قاعداً ... ومن يرى عن التراب حائداً!
(عمار يسمع علياً فيحفظ ما يقول وينشده فيسمعه عثمان)
عثمان - يا ابن سمية ما اعرفني بمن تعرض. لتكفن أو لأعترضن بهذه الجريدة وجهك
(النبي يسمع ما يقول عثمان)
عمار - جلدة ما بين عيني وأنفي، فمن بلغ ذلك منه فقد بلغ مني. . .
بعض المسلمون لعمار - إن رسول الله قد غضب فيك ونخاف أن ينزل فينا قرآن!
عمار - أنا أرضيه كما غضب!
(يقصد نحو النبي)
عمار - يا رسول الله مالي ولأصحابك؟
رسول الله - ومالك ولهم؟
عمار - يريدون قتلي. . . يحملون لبنة ويحملون عليّ لبنتين
(النبي ينفض عنه التراب بيديه الكريمتين ويطوف به)
النبي - ويح عمار! تقتله الفئة الباغية. . . يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار. . . للناس أجر ولك أجران، وآخر زادك من الدنيا شربة لبن
- 8 -
(سنة 37 هـ يوم صفين في الفتنة بين علي ومعاوية)
مجلس شورى
علي بن أبي طالب بعد خطباء - أيها الناس! أنه قد بلغ بكم وبعدوكم ما قد رأيتم، ولم يبق منهم إلا آخر نفس، وإن الأمور إذا أقبلت اعتبر آخرها بأولها، وقد صبر لكم القوم على غير دين حتى بلغوا منكم ما بلغوا، وأنا غاد عليهم بنفسي بالغداة فأحاكمهم بسيفي هذا إلى الله!
(خطباء كثيرون يرون الحرب ويرى غيرهم الموادعة)
عمار بن ياسر - أما والله لقد أخرجها إليك معاوية بيضاء، من أقر بها هلك ومن أنكرها هلك. مالك يا أبا الحسن؟ أشككتنا في ديننا ورددتنا على أعقابنا بعد مائة ألف قتلوا منا ومنهم؟ أفلا كان هذا (الاحتكام إلى كتاب الله) قبل السيف وقبل طلحة والزبير وعائشة؟ قد دعوك إلى ذلك فأبيت، وزعمت أنك أولى بالحق، وأن من خالفنا منهم ضال حلال الدم، وقد حكم الله تعالى في هذا المال ما قد سمعت. . . فإن كان القوم كفاراً مشركين فليس لنا أن نرفع السيف عنهم حتى يفيئوا إلى أمر الله، وإن كانوا أهل فتنة فليس لنا أن نرفع السيف عنهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله. والله ما اسلموا ولا أدوا الجزية ولا فاءوا إلى أمر الله ولا طفئت الفتنة. . .
علي - والله إني لهذا الأمر كاره!
- 9 -
(في حرب صفين)
عمار - أيها الناس! ائتوني بضباح من لبن في قدح أروح له حلقة حمراء (يشرب ويحمد الله ويقول:) إن رسول الله قال لي إن آخر شربة أشربها من الدنيا شربة لبن. . .

اللهم إنك تعلم أني لو أعلم أن رضاك في أن اقذف بنفسي في هذا البحر لفعلته. . .
اللهم انك تعلم أني لو أعلم أن رضاك في أن أضع ظبة سيفي في صدري ثم أنحني عليها حتى تخرج من ظهري لفعلت. وإني لا أعلم اليوم عملاً هو أرضى لك من جهاد هؤلاء الفاسقين، ولو أعلم أن عملاً من الأعمال هو أرضى لك منه لفعلته. . .
(عمار يهتف بالمسلمين من أصحاب علي)
- ألا من يبتغي رضوان الله علية ولا يؤوب إلى مال ولا ولد. . .؟
- (يقصد إليه مسلمون كثيرون فيهتف بهم)
- أيها الناس! اقصدوا بنا نحو هؤلاء الذين يبغون دم عثمان ويزعمون انه قتل مظلوماً؛ والله ما طلبتهم بدمه، ولكن القوم ذاقوا الدنيا فأستحبوها واستمرءوها وعلموا أن الحق إذا لزمهم حال بينهم وبين ما يتمرغون فيه من دنياهم. ولم يكن للقوم سابقة في الإسلام يستحقون بها طاعة الناس والولاية عليهم فخدعوا اتباعهم أن قالوا إمامنا قتل مظلوماً ليكونوا بذلك جبابرة ملوكا. . تلك مكيدة بلغوا بها ما ترون. . . ولولا هي ما تبعهم من الناس رجلان. . . اللهم إن تنصرنا فطالما نصرت وإن تجعل لهم الأمر فادخر لهم بما أحدثوا في عبادك العذاب الأليم!
(ويمضي بمن معه من المحاربين)
عمار - يا عمرو بن العاص
عمرو - ما لك يا عمار؟
عمار - تباً لك بعت دينك بمصر! تباً لك تباً! طالما بغيت في الإسلام عوجاً. . . يا عبيد الله بن عمر بن الخطاب!
عبيد الله - ما لك يا عمار؟
عمار - بعت دينك من عدو الإسلام وابن عدوه؟
عبيد الله - لا، ولكن اطلب بدم عثمان
عمار - أشهد على علمي فيك انك لا تطلب بشيء من فعلك وجه الله عز وجل، وانك إن لم تقتل اليوم تمت غداً، فانظر إذا أعطى الناس على قدر نياتهم ما نيتك!. . . أما والله لقد قاتلت صاحب هذا الراية مع رسول الله ثلاثاً، وهذه الرابعة ما هي بأبر ولا اتقى
(عمار يهجم بمن معه ويقول لهاشم حامل الراية)
تقدم يا هاشم. . . الجنة تحت ظلال السيوف، والموت في أطراف الأسل. وقد فتحت أبواب السماء وتزينت الحور العين؛ اليوم ألقى الأحبة محمداً وحزبه
(يهجم عليه أبو غادية المزني من أصحاب معاوية فيقتله)
أبو غادية - إليك أيها الرجل فأنا قاتله. . .
عقبة بن عامر - بل أنا صاحبه. إليك إليك. . . لي رأسه أحتزه بسيفي!
أبو غادية - فتذهب بها إلى معاوية!
(ويقبل معاوية ومعه عمرو بن العاص)
عمرو بن العاص - والله إن يختصمان إلا في النار!
(ينصرف الرجلان بعد تسليم الرأس)
معاوية - ما رأيت مثل ما صنعت! قوم بذلوا أنفسهم دوننا تقول لهما إنكما تختصمان في النار
عمرو - والله ذاك! والله إنك لتعلمه، ولوددت أني مت قبل هذا بعشرين سنة. . لقد أسلم قبلي وقبلك وأوذي ما لم نؤذ، وأحبه رسول الله، وحضر كل وقائع النبي. . . وقال الرسول تقتله الفئة الباغية!
معاوية - ويك يا عمرو! أنحن الذين قتلناه. . لقد قتله من أخرجه لهذا اليوم!
عليك السلام يا عمار. . . ليت قوماً غير المسلمين قتلوك!

دريني خشبة

البريد الأدبي

كتاب عن الصحاري المصرية

من الكتب التي استرعت الأنظار أخيرا في إنكلترا وأمريكا كتاب صدر عن الصحاري المصرية بقلم الماجور جارفيس بك عنوانه: (صحراوات ثلاث) وقد كان جارفيس بك

مدى ثمانية عشر عاماً حاكماً إدارياً في الصحاري المصرية وكان إلى عامين حاكم محافظة سيناء، ثم أقيل من الخدمة فيمن أقيل من الموظفين الإنكليز، وعكف على إخراج كتابه. وقد درس جارفيس بك خلال خدمته الطويلة أحوال الصحاري المصرية من الوجهة الجغرافية والوجهة الاجتماعية، ودرس اللغة العربية ولهجات البدو دراسة حسنة، فكتابه ثمرة لدراسة مستفيضة. وهو يقص علينا تجاربه الأولى حينما أرسل إلى العامرية محافظاً للصحراء الغربية ليشرف على ضبط الأمن والنظام في منطقة صحراوية شاسعة يجهل خواصها وأحوال سكانها. ومن رأيه أنه خير لأهل هذه الواحات النائية أن يبقوا على حالهم من البداوة والتأخر؛ وهو أيضاً خير لحكامهم، وتزداد مهمة الحاكم صعوبة كلما تقدم هؤلاء البدو في المعرفة والتمدن. غير أنه قد أضحى من المستحيل اليوم أن تطبق هذه النظرية بعد أن تطورت طرق المواصلات السريعة، وانتشرت الطيارة والراديو، وخرجت الصحراء عن عزلتها القديمة، وأضحت ترتبط بالعالم المتمدن. وهنا ينظر جارفيس بك إلى مهمته نظرة استعمارية فيحمل على مواطنيه الذين يضطلعون بمثل مهمته، ويجهلون كيف تساس هذه المجتمعات المتأخرة، وكيف تحشد لواء المستعمر. على أن كتاب جارفيس بك يحتوي بالرغم من صبغته الاستعمارية على كثير من المعلومات القيمة، وقد زين بكثير من الخرائط والرسوم

شاعر إنكليزي كبير يحاضر بالقاهرة

دعت كلية الآداب بالجامعة المصرية الأستاذ لاسيل ابركرومبي الشاعر الإنكليزي الكبير ليلقي بالقاهرة بعض محاضرات عن الشعر الإنكليزي والشعراء الإنكليزية وستبدأ هذه المحاضرات اليوم 13 ديسمبر بمحاضرة عن الشاعر (بن جونسون) ثم تعقبها محاضرات أخرى

والأستاذ ابركرومبي من أعظم الشعراء والنقدة المعاصرين في الأدب الإنكليزي؛ ويعتبر اليوم بعد وفاة توماس هادري وكبلنج ودرنكوانز عميد الشعر الإنكليزي. وهو عضو في الأكاديمية البريطانية؛ وقد شغل منصب الأستاذية في عدة من الجامعات الإنكليزية الكبيرة مثل جامعة ليدز وجامعة لندن، وموضوعه الشعر والشعراء. وهو يشغل اليوم في إنكلترا نفس المكانة التي يشغلها زميله وقرينه الشاعر بول فاليري في فرنسا وسيكون ضمن محاضراته أحاديث عن التجديد في الشعر الغنائي والتجديد في فن الدرامة، وهما من الموضوعات التي اختص بدراستها وله فيها آراء جديرة بالتقدير.

رينه دوميك

نعت أنباء باريس الأخيرة الكاتب الفرنسي الكبير رينه دوميك سكرتير الأكاديمية الفرنسية. وكان دوميك مدى ثلث قرن في طليعة الكتاب والصحفيين البارزين؛ وقد بدأ حياته أستاذاً للأدب في كلية استانسلاس، ثم عالج الكتابة في الصحف فلم يلبث أن ظهر بصفاء أسلوبه وقوة نقدة. ولما تبوأ مركزه في الصحافة العالمية، اشتغل حيناً في جريدة (الديبا) ثم دعي إلى التحرير في مجلة العالمين الشهيرة وهنالك ظهر على صفحات هذه المجلة العظيمة إلى جانب زميله وصديقه الكاتب الكبير جول ليميتر. ولبث دوميك أعواما طويلة يعمل في أسرة مجلة العالمين، وكان لجهوده أثر بارز في تقدم هذه الصحيفة في العصر الأخير. واستقر المطاف بدوميك أخيراً في الأكاديمية الفرنسية حيث عين سكرتيراً دائماً لها. وهنالك بذل دوميك أيضاً جهوداً عظيمة في تنظيم الأعمال العلمية والاجتماعية. واشتهر دوميك بأسلوبه الذي يغلب عليه طابع الدقة والتحقيق. وله عدة مؤلفات أدبية ونقدية أشهرها كتابه في تاريخ الأدب الفرنسي.

كتاب جديد عن مكتشف أمريكا

صدر أخيراً بالفرنسية كتاب جديد عن كريستوف كولمبمكتشف أمريكا عنوانه (سر كريستوف كولمب) بقلم الكاتبين شارل دي جافري ورينه لي جانتي وفيه يحاول الكاتبان تمحيص جميع الأساطير التي ذاعت حول مولد كولمب وشخصيته وجنسيته؛ ودحض المطاعن والروايات القاذفة التي ثارت حول أعماله في أواخر حياته وقد أسبغت هذه الروايات على سيرة المكتشف وعلى خلاله كثيراً من الريب، وألقت على بطولته

حجاباً كثيفاً. ويعترف الكاتبان أن بحثهما النقدي المستفيض لم يبدد كل غموض في حياة المكتشف العظيم، بيد أنه يلقي عليها كثيراً من الضياء الجديد

وفاة أديب عراقي في القاهرة

توفي الأستاذ محمود السيد سكرتير مجلس النواب العراقي يوم الجمعة الماضي بمستشفى الروضة على أثر عملية جراحية خطيرة ظل ثلاثة أشهر يكابد غصصها بعيداً عن وطنه، غريباً عن أهله حتى قضى نحبه المحتوم بين عناية أطبائه وعطف أصدقائه وقد أوصى وهو في سياق الموت أن يدفن في القاهرة. والأستاذ الشاب محمود السيد كان من السابقين الأولين في ميدان الأقصوصة، وقد بدأ شوطه فيها بداية حسنة، وهو وتيمور وصاحب الحاصد البغدادية طلائع النهضة القصصية في العالم العربي. رحمه الله رحمة واسعة وعزى فيه الشباب العراقي خير العزاء

الرطانة واللغة الإنجليزية

لما فتح العرب فارس والشام ومصر فشت الرطانة في اللغة العربية. ونقصد بالرطانة ما أطلق عليه المؤرخون (اللحن) وقد أثرنا الرطانة لأنها أعم، إذ اللحن لا يعدو الخطأ في الإعراب. وما حدث للغة العربية منذ ثلاثة عشر قرناً يحدث مثله اليوم للغة الإنجليزية. فقد فشت في آسيا الشرقية وجزر المحيط الهادي رطانة إنجليزية أطلقوا عليها هذه اللفظة بدجن، فقالوا وهي خليط من الإنجليزية والصينية لا يعسر على الإنجليزي أن يفهمها بعد أسابيع من إقامته هناك. . . وقد فشت هذه الرطانة الإنجليزية في دور العلم والمعاهد الصينية ولاسيما في هونج كونج التي تنفذ منها الثقافة الإنجليزية إلى قلوب الصينيين. . ويحاول الإنجليز جهدهم تخفيف هذه الرطانة ولكنهم لا يفلحون

باكونين

صدر في إنجلترا في الأسبوع الفارط كتاب عن الفوضوي الروسي باكونين هو أكبر مؤلف في غير الروسية عن هذا الرجل السياسي الخطر الذي يرجع إليه الفضل في الحركة النهلستية التي أقضت مضجع القيصر وأقلقت بال حكومته، والتي كمنت في الشعب الروسي البائس، لتنفجر في هذه الثورة الجامحة الهدامة التي قام بها لنين وتروتسكي

واتباعهما. . . ومؤلف الكتاب هو الأديب المؤرخ الإنجليزي الكبير ا. هـ. كار. . . وقد استطاع أن يلم بحياة المترجم إلماماً يثير الإعجاب ومن أحسن ما قال فيه: (فلإن تكن جهود باكونين قد انتهت آخر الأمر إلى أيدي عصابة من الأبالسة، فليس الذنب ذنب تعاليمه، فالرجل كان ينشد لروسيا حرية وحكومة صالحة أمينة على مرافق الأمة، لا حكومة جبارة حمراء، تستمد حمرتها من الدماء الزكية التي تسفكها. . . وقد كان باكونين غولاً يرتعد منه القيصر، فلما فر الزعيم من وجهه إلى أوربا ناشد قياصرتها باسم المودة أن تقبض عليه وتبعث به إليه. . . وقد فعلوا. . . فقد قبض عليه في درسدن وحوكم بتهمة التآمر على سلامة الدولة وحكم علية بالإعدام، وأرسلت به الحكومة إلى النمسا ولا ندري لماذا، فأيدت الحكم عليه بالإعدام محاكمها الإمبراطورية. . . ثم أرسل من هناك إلى روسيا، فصدر عليه نفس الحكم؛ ثم خفف بالنفي إلى أصقاع سيبريا. . . وقد ظل هناك بضع سنين. . . وكتب إلى القيصر يستعطفه ويرجوه أن يمنح البلاد بعض الحقوق الدستورية، ولكن القيصر سخر بكتابه. . . غير أن باكونين فر من منفاه، واستطاع أن يركب البحر إلى أمريكا، ومنها إلى أوربا، ووصل إلى كوبنهاجن، ولكن عيون القيصرية كانت تترصده، فثنى عنانه إلى فرنسا، واستقر في ليون، يعاني شظف العيش ويتجرع غصص الحياة، حتى وافته منيته سنة 1875). هذا وقد تأثر كبار أدباء الروس بتعالم باكونين وفي مقدمتهم دستوفسكي وتولستوي وترجنيف

تطور القصة البوليسية

تشغل القصة البوليسية اليوم أوسع مكان في الأدب القصصي، بل هي اليوم احب أنواع القصص الشعبي وهي تستهوي الشباب بنوع خاص، ومن ثم كانت العناية بتهذيبها وصقلها اليوم. ويعتقد البعض خطأ أن القصة البوليسية حديثة العهد بين أنواع القصص؛ والواقع أنها قديمة النشأة وتجد مادتها في التاريخ بكثرة غير أنها اتخذت في العصر الحديث صبغتها الفنية الجديدة، واصبح بطلها التقليدي رجلاً مغموراً لا أسرة له،

يستهويه بحث الغامض وتحقيق القضايا المعقدة ومطاردة الجناة البارعين في التستر والتخفي. وقد كان هذا البطل في البداية يقدم إلينا في صور وصفات بغيضة أخصها القسوة والخشونة وحب التنكيل والتشفي؛ وفي مثل هذه الصورة يبدو لنا (جافير) أحد أبطال قصة (البؤساء) لفكتور
هوجو؛ ولكن هذه النزعة تطورت في العصر الأخير تطوراً ظاهراً وغدا بطل الرواية البوليسية شخصاً محبوباً يتصف بالتواضع والبراعة والخلال الحسنة، ويحب الخير، ولا يقسو إلا على المجرمين العابثين. وكان أول من قدم إلينا هذا النوع من الأبطال الكاتب الفرنسي (أميل جابوريو)، وهو بلا مراء أعظم كتاب القصة البوليسية في فرنسا؛ وتلاه بعد ذلك جمهرة من الكتاب البارعين أضحت أبطالهم البوليسية شخصيات محبوبة تثير الإعجاب. ومن هؤلاء السير كونان دويل مبتكر شخصية شرلوك هولمز؛ وبوتسون دي تيراي مبتكر شخصية روكامبول اللص البارع والبوليس المدهش معا؛ وموريس لبلان مبتكر شخصية أرسين لوبان وغريمه الشرطي جانيمار، وغيرهم. وتتجه القصة البوليسية اليوم إلى نوع من القصص التهذيبي المفيد بعد أن ظهر أنها أحب أنواع القصص إلى الشباب.

الكتب

قصة معمل الذهب

القصة الثالثة عشرة من القصص المدرسية

للأساتذة: سعيد العريان، أمين دويدار، محمود زهران

للأستاذ أبو الفتوح محمد التوانسي

عنوان القصة الجديدة من القصص المدرسية وهي أولى المجموعة الثالثة من هذا القصص الرفيع، فماذا يوحي هذا العنوان الطريف العجيب الذي يثير الرغبة ويهيج الشوق؟

لا شك عندي أن الطفل سيسر حين يطالع قصته، وسيغرق في الضحك حين يعلم أمر الأب توت مع الشقي حابي، وسيدفعه هذا وذاك إلى إدراك جمال القصة، وقريب من أذهان الطفولة تلك الأسمار الشائعة التي لا يزال يرويها عامة القصاص في القرية من حكايات العفاريت التي يتخللها كثير من صور المسخ والتقمص. وفي إعتقادي أن هذا أثر عريق من آثار مصر القديمة في عهدها الأسطوري لا زال عالقاً بالأذهان، رغم تقادم الحقب وامتداد الزمن؛ فالشراب الذي يحيل الحيوان الناطق إلى حيوان نكير الصوت شبيه بالكيمياء الذهبية، وتلك خرافة قديمة

وما زالت الخرافة عند الشعوب منشأ الفلسفات والأديان؛ فالقصة التي تصوغ الحقيقة الواقعة في أسلوب خرافي هي أدنى إلى منازع الطفولة، وقصة معمل الذهب تقوم على فكرة من هذه الفكر التي تنتهي حتما إلى غرض تهذيبي، وإذا فماذا يفهم الطفل من قصته الجديدة؟ سيعرف بلا ريب أن السرقة التي حرمتها الأديان لا تليق بكرامته، لأن مصيره ربما كان كمصير اللص حابي ومن لف لفه.

فإذا انتقلنا من هذا العرض الموجز ألفينا في القصة أسلوباً قصصياً بارعاً، نسج برده طبع قصصي، فهو يملك سمع الطفل ويحرك فيه شهوة القراءة، ثم يمنحه زاداً لغوياً نافعاً ويسوقه في رفق إلى تذوق التعابير الصحيحة التي هي الغاية من تعليم اللغة. فقصة معمل الذهب وشقيقاتها السابقات طريق سهل واضح المسالك إلى تعليم الإنشاء العربي. وما تزال طريقة هذا الفن في مدارسنا في حاجة إلى التجويد، وإن تكن قد بلغت منزلة مشكورة من

الإجادة الفنية في حسن الاختيار والتصرف والشرح. والأمر في قبضة المعلم الحازم الذي يولد من القصة موضوعات شائقة في الإنشاء. وما أحب هذا النوع من الكتابة الفنية لدى الأطفال والناشئين من تلاميذنا! ومما يرفع من شأن القصص المدرسية في جملتها وعنايتها الصادقة بتصحيح التراكيب والمفردات التي كان يظن أنها في فسولة العامية، وليس هذا بالأمر الهين فهو مما يحتاج إلى جهود متضافرة، واطلاع شامل، وخبرة تامة بأساليب اللغة العامية أما الخيال في هذه القصة وفيما سبقها فبعيد مداه، ليس له أفق محدود، وهذا العنصر من عناصر القصة متى أجاده المؤلف وواتاه فيه الطبع أكسب القصة سحراً وتأثيراً.

هذا وقد بلغ التحليل النفسي الغاية في دقة الوصف، وأثر ذلك واضح في تصوير بطلي

القصة الأب توت، ذلك الحكيم الكيماوي، وحابي الأثيم الذي كم ذاق صنوفاً من الشقاء. وقد أصاب مؤلفو القصص المدرسية في هذه الناحية توفيقاً كبيراً يدل على قدرة عجيبة في فهم طبائع الأشخاص، ودراسة ممحصة لأحوال البيئة المصرية، تجد ذلك في العرض الدقيق في سائر القصص للعادات والتقاليد والأوضاع الاجتماعية في بيئتنا، مع صدق في اللهجة، وجمال في الفن وبساطة في التعبير، وابتكار متجدد، فتلك جريدة التلميذ الملحقة بقصتنا الجديدة نوع مستحدث ومستطرف يرمي إلى غرس الملكات الأدبية في نفوس الناشئين

وكل ذلك مما يجعل القصص المدرسية مورداً عذباً لدراسة عقلية نافعة، ومثلا عليا للتلميذ تحببه إلى الفضيلة وتعمل على رفع مستواه الخلقي، وتشحذ من عزيمته، وتقوي من استقلاله الفكري

وبعد فماذا في تلك القصص؟ إنها مجهود أدبي في أدب الطفل يسير في طريق تحقيق الغاية من إيجاد الأدب القومي الذي يجمع بين الموروث عند العرب في الثقافة اللغوية، وبين موضوعات البيئة التي نعيش فيها.

فإلى من يهتمون باللغة القومية في العهد الجديد من المسئولين وغيرهم نوجه الحديث، فإن في تشجيع ذلك المجهود شداً لأزر الفصحى في المدارس

(الجيزة)

أبو الفتوح محمد التوانسي

العدد 233 - بتاريخ: 20 - 12 - 1937

الأخلاق

بين النجاح والفشل

تعال يا صديقي! جعلتموني مظهراً لثورتكم على الأخلاق فحسب الناس أني ثائر معكم عليها وهي مصدر سعادتي ومنبع رضاي. فلماذا لا تمضي ما تقول باسمك كما يفعل كل رجل له رأي وفيه صراحة؟

فقال صاحبي وقد استوى على المقعد الذي يحبه من المكتب وكفَّاه تدوران على عدد مطوي من الرسالة أظنه الأخير:

إن مقال الثائر المجهول كقبر الجندي المجهول يعبر عن فكرة ويرمز لطائفة. ولو كان ذلك رأيي الخاص لأمضيتُه، ولكنه رأى جميع المنكوبين بأخلاقهم وإخلاصهم اضطرب على لساني حديثاً بعدما اضطرم في نفوسهم ثورة. ولقد كان فيما قلتُ وقال الإخوان تفريج لما كرَب صدورنا من وقاحة الحال وصراحة الواقع؛ غير أن في نفسي بعد أن قرأت هذا العدد كلمة

قلت وماذا تريد أن تقول بعدما أجرَّتْ لسانَك الأخلاقُ بعقلين متيني الحجة من عقول دعاتها وحماتها؟

فقال: (إن الأستاذين الجليلين عزاماً والخولي أطلا علينا من قُدْس الأقداس وكلمانا بلغة الدين الذي يتجاهل الكفر، ولهجة الحق الذي يتناسى الباطل. وقدس الأقداس كما تعلم مكان بين النجوم ينزله الأحبار والفلاسفة فينظرون إلى السماء أكثر مما ينظرون إلى الأرض، ويتصلون بالملائكة أكثر مما يتصلون بالناس، ويدبرون أمر هذا الكوكب المظلم على أنه مَرَاد الصلاح الخالص والخير المحض، فلا يريدون أن يقيموا وزناً للمنكر، ولا أن يلقوا بالاً إلى الشر، حتى أنهم ليغفلون ذكر الفواحش في كتب الدراسة ليجهلها الناشئ، كأنما جهلك الشيء يمحوه من الوجود! والشر منذ معصية آدم وجريمة قابيل قسيمُ الخير في الأرض. والرذيلة هي الطبيعة الحرة لهذه الحياة، أما الفضيلة فهي قيد لها وحدٌّ منها

لا أريد أن أقول لعلماء الأخلاق زاوِجوا بين الخير والشر ينتج منهما مزاج مستقل لا هو الخير كله، ولا هو الشر كله، فتلك تجربة نعوذ بالله من غوائلها إذا طاشت؛ ولكني أطلب إليهم أن يعالجوا مشكلة الفضائل على أساس التسليم بأن للرذائل جاذبية ومنفعة، وأن

مصلحة الفرد لا ينبغي أن تذوب هذا الذوبان في مصلحة الجماعة. ذلك أدنى إلى أن يكون العلاج أنجع والشفاء أتم. أما أن تكون القاعدة في رأي الأستاذ الخولي أن الفاضل لابد أن ينجح، والرذيل لابد أن يخيب، إذا تساويا في الاستعداد والاجتهاد والكفاية، فإذا وقع العكس كان شذوذاً يؤكد هذه القاعدة ولا يهدمها، فذلك على ما

أظن حكم لا يصححه القياس ولا يناصره الواقع. وليس الأستاذ الخولي بالرجل الذي نضرب له الأمثال من الماضي، ونذكر له الشواهد من الحاضر، فإنه يعلم علم اليقين أن تاريخ الدنيا يسجل في كل زمان وفي كل مكان أثر الرذيلة الخطير في النجاح الخارق، سواء أكانت الرذيلة في الناجح أم فيمن يلابسه. هذان فرسان رائعان اشتركا في خصائص القوة والفتوة، ثم ضُمِّرا على نمط واحد، وركبهما في السباق فارسان على كفاية واحدة؛ فلو أنهما تراكضا بالحق لاستوليا معاً على الأمد؛ ولكن صاحب أحدهما حقنه بمادة يعرفها بياطرة السباق ويحظرها القانون، فجعلت من كل شعرة فيه جناحاً بلغت به الغاية قبل أن يتوسط قِرْنه الميدان. وأحرز الفرس المحقون الرهن الضخم فأصبح ملك الخيل وسبع الليل. وشبيه بهذين الفرسين رجلان تماثلا في الشهادة والكفاية والاستعداد والخلق، ثم سارا معاً في طريق الحياة جنباً إلى جنب، وكان لأحدهما زوجة جميلة لبقة، فحقنت زوجها حقنة تعرفها هي، جعلته في اليوم التالي سيداً للناس ورئيساً على الآخر. لا يستطيع المسبوق أن يستعد لمثل هذه الرذيلة لأنه لا يعرف مأتاها، ولو عرف لما استطاع أن يحتقن بمثل هذه الحقنة وهو عالم. ولو تقصينا أسباب النجاح السريع - وهو الكثرة الفاحشة - لوجدنا هذه الحقنة هي جماع تلك الأسباب في شكول مختلفة. وحصر الدعة واللذاذة في الثراء الحلال البطيء آت من شعور الأستاذ نفسه. فإنه إذا لم يجد المراءة والهناءة إلا في لحم الخروف، وجدهما ألوف غيره في لحم الخنزير. وإذا عد الأستاذ تاجراً من تجار الغلال أثري بطيئاً وهو وادع بفضل الخلق، عددنا له ألفاً من تجار المخدرات أثروا سراعاً وهم آمنون بفضل الشُّرَط

يقولون إن نجاح الأخلاق الفاضلة مشروط باستعداد الفاضل. والاستعداد أهبة الكفاح ووسيلة النجاح ما في ذلك شك؛ ولكن كيف اتفق أن يكون أكثر الأراذل قادرين وأكثر الأفاضل عجزة؟ لقد ذكَرْنا بذلك فكاهة من قال إن أكثر أهل الجنة الأغفال والبُله من النساك والمشعبذين والجهلة، وأكثر أهل النار العباقرة والأفذاذ من الفلاسفة والحكام والقادة.

لم لا يجوز أن يفسَّر هذا النقص العام في الفضلاء بأنهم يُلزمون أنفسهم الطريق الوعر إلى الغاية البعيدة، بينما يجد غيرهم إلى الغاية الواحدة ألف طريق؟

لقد سرني أن فسر الأستاذان الجليلان ما عبنا من بعض الفضائل هذا التفسير، فإنه - وإن كان أبعد المعاني عن فهم الناس لهذه الأخلاق - أقربها إلى القصد الذي تتوخاه من التعديل والإصلاح. ولعلك تلمح في هذا التفسير اعترافاً مضمراً بأن من الفضائل ما (. . . . . .لا يلائم بمفهومه الشائع طبيعة هذا العصر ولا روح هذا المجتمع و

ورأيت صاحبي يتمكن في مقعده الوثير، ويسحب سيكارة من علبته الأنيقة، ويريد أن يرخى للحديث العنان. فقلت له: حسبك! حسبك! فقد انتهت الصفحة وضاق الوقت. وليته اتسع حتى أسرد عليك حديث أحد السعداء الناجحين بالأخلاق أفضى به إليَّ قبل أن تدخل علي، فربما وجدت فيه ما يرضيك ويهديك. فإلى فرصة أخرى

أحمد حسَن الزيات

وكان صباح

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

جاء يوم العيد، وطلع نهاره، وارتفعت شمسه، وأنا لا أرى أحداً يدخل عليّ فيقرئني السلام ويحييني تحية الصباح، ويهنئني بهذا العيد الجديد، ويتمنى لي كثيراً من أمثاله، وأمثال أمثاله إن شاء الله. شيء بارد!! أين هذه الزوجة التي كنت أظنها صالحة، والأولاد الذين كنت أرجو أن يكونوا بررة؟؟

وأنا يحلو لي الحديث على الريّق، بين نوبات التثاؤب والتمطي تحت اللحاف أو الملاءة، ولا أذكر أني عدمت قط من يحدثني في صباح - حتى قبل أن أستيقظ! - يدخل عليّ أحد الصغيرين اللعينين فأسمع صوتاً ناعماً يناديني: (بابا. . . بابا) فأتقلب في فراشي وأحدث نفسي أن هذا حلم، ولكن الصوت يلح عليّ بالنداء (بابا. . . بابا) فأفرك عينيّ بيد، وأدس الأخرى تحت الوسادة لأخرج الساعة وأنظر، فإذا هي الخامسة صباحاً! فأصيح: (يا خبر أبيض. . .! ما لك يا ولد!؟ فيقول (صباح الخير) فأقول: (أي خير يا أخي؟ حرام عليك!) فلا يعبأ بي، ولا يشفق عليّ، ويقول (هات القرررش) - هكذا ينطقها - فأحتال لأصرفه عني برفق وأقول له في جملة ما أقول (اذهب إلى أمك. . .

خذه منها) فيأبى اللعين أن يتزحزح ويقول: (نائمة!) فأحدق في وجهه مستغرباً وأسأله (نائمة؟ بالذمة؟) فيؤكد لي أنها نائمة، فأقول (وأنا؟؟) فيقول (صاحي!) فأقول (تمام. . . في محله. . . لا بأس. . . ولكن القرش تحت الوسادة التي تريح عليها أمك النائمة خدها الأسيل، فاذهب إليها وادفع يدك تحت المخدة. . . بقوة. . . وخذ القرش، فإذا لم تجده هناك، فستجده لا محالة بين أسنانها، فإنها ماكرة، فافتح لها فمها وانتزعه من بين أضراسها)

فيضحك الخبيث وقد راقه الكلام، ويسألني (وإذا عضتني؟) فأطمئنه وأؤكد له أني سأعضها انتقاماً له! فيذهب عني مسرورا. . .

أو تقبل الخادمة، ويحسن أن أقول إن لها في بيتي عشر سنوات، فتقف على رأسي وراء شباك السرير وتقول بصوت خافت ولكنه ملح: (سيدي. . . سيدي. . .)

فأنظر في الساعة التي تحت الوسادة، وأقرض أسناني من الغيظ، ولكني أتجلد وأقول: (يا صباح الفل، نعم يا ستي. . . هل تريدين أن أفسر لك حلماً؟)

فتبتسم - أعرف أنها تبتسم وإن كنت لا أراها - وتقول (هل تريد الشاي خفيفاً أو ثقيلاً؟)

فأتنهد، فإن هذا سؤالها كل يوم منذ عشر سنوات، وأقول لها ما قلت كل يوم في هذه السنوات العشر:

(خير الأمور الوسط يا شيخه!)

فتسأل (نعم؟)

فأقول على سبيل الشرح (متوسط. . لا بالخفيف ولا الثقيل. . ماذا تصنع الست؟)

فتقول: (نائمة)

فأقول: (يا بختها! ليتني كنت الست في هذا البيت السعيد!)

فتقول الفتاة معترضة (يا سيدي!)

فأقول: (اسمعي. . . إذا كنت تحبين ألا أكون الست، فاذهبي إلى هذه الست التي تغط في نومها إلى الآن (الساعة الخامسة) وأيقظيها وقولي لها إني أصبح عليها وأقبل وجنتيها، واسأل عن الشاي الجديد أين خبأته؟ افعلي هذا، والله يحفظك)

والدعاء للخادمة واجب، فما ثم شاي جديد، ولا خبأت الست شيئاً، ولكن لماذا يزعجني كل من في البيت في هذه الساعة المبكرة دونها؟

ويعلو الضجيج، ثم تدخل الست مرغية مزبدة، وهي تصيح بي: (ألا يمكن أن تكف عن هذا العبث؟ حرام عليك يا شيخ. . والله ما نمت إلا ساعتين)

فأقول (كالقطط. . . تأكل وتنكر. . . أنا أيضاً لم أنم إلا دقائق. . . ضاع الليل كله في أحلام. . .)

فتنحي عني اللحاف، وتشد يدي، أو رجلي، وهي تقول (طيب قم. . .)

فأصيح بها (إلى أين؟)

فتقول (وهل أنا أعرف؟ قم والسلام، وليكن هذا جزاؤك على إقلاق راحتي)

فأقول: (اتقي الله يا مسلمة)

فتقول: (ولماذا لا تتقيه أنت؟)

فأؤكد لها أني سأتقيه من الآن فصاعداً، وأرجو أن تتركني أنعم بالرقدة، ولكن هيهات، فقد استيقظ كل من في البيت، فلا سبيل بعد ذلك إلى راحة أو نوم

ولكن الساعة قاربت التاسعة في يوم العيد، ومازال البيت ساكتاً على خلاف عادته، فقلقت عليهم ونهضت، ودخلت غرفهم واحدة واحدة، ونظرت في وجوههم وجسست نبضهم لأطمئن، وأردت أن أستوثق وأن أنفي كل شك في أنهم مازالوا أحياء وبخير وعافية، فوضعت أذني على صدورهم - أعني قلوبهم - لأسمع دقاتها، ولم يكفني هذا، فقد كانت بقية من الشك تختلج في صدري، فما رأيتهم يتحركون، فرحت أقرص هذا وأشد أذن ذاك لأرى هل يحسون أو لا يحسون، فقاموا جميعاً فزعين يصيحون ويحتجون، فلما سكنت الضجة قليلاً قلت لهم: (ما هذا النوم؟ قوموا يرحمكم الله وتعالوا هنئوني)

فمشوا ورائي وحفوا بي حيث جلست، وأقبلوا عليّ يسألونني؛ وتعلق بي الولدان اللعينان فرحين، ووقف الباقون ينتظرون أن أفضي إليهم بالسر، فأغرقت في الضحك ثم قلت وأنا أنهض:

(أليس في البيت شيء يؤكل؟ إني أتضور جوعاً)
فقالت الزوجة الصالحة: (شيء يؤكل؟ هل تعني أنك أزعجتنا جميعاً على هذه الصورة الفاضحة، لا لسبب سوى أنك تريد أن تأكل؟)
فقلت: (اسمعي يا امرأة. . . لا تجدفي. . . إن الطعام شيء مقدس. . . لا تذكريه إلا بلهجة الاحترام والتوقير. . . فما خلقنا إلا لنأكل. . . على الأقل هذا ما يبدو لي أنا. . . لا تقاطعي من فضلك. . . أنت تظنين أنك خلقت لتنامي. . . ولكنك مخطئة. . أوه جداً. . . الأكل أحلى، وأوفق، وأليق بالحي. . . أما النوم؟ ما الفرق بالله بين الميت والنائم؟)
فقاطعتني وقالت: (يعني ضحكت علينا وأجريتنا وراءك بعد أن أوهمتنا أن هناك داعياً للتهنئة. . .؟)
قلت: (كلا. . . لم أضحك على أحد. . . أليس اليوم يوم عيد؟ تعالوا إذن قبلوا يدي بأدب، وهنئوني، وادعوا لي بالسعادة وطول العمر. . . مالكم؟)
ولم أسمع جواب السؤال، ولم أعد أعنى بأن أسمعه، فقد شغلت عنه بالنار التي اندلعت في بدني، من القرص الذي انهال به عليّ الكبار والصغار، حتى خيّل إليّ أني في خلية من خلايا النحل، لا في بيت يسكنه آدميون. . .
وقلت وأنا أنظر إلى وجهي في المرآة: (ليتكم تفعلون بي هذا كل صباح. . لقد صار وجهي أكبر. . وأحمر. . وأحلى. . ما شاء الله!)
فقالت الزوجة الصالحة: (كابر. . . كابر. . .)
قلت: (لا مكابرة. . . هي الحقيقة. . . لقد صار خداي كالوردتين. . .)
قالت: (حسن. . . سنصبحك ونمسيك بما يحفظ لك حمرتهما. مستعدون يا أولاد؟)
فصاحوا جميعاً: (أيوه. . .)
فقعدت، وقد نويت أن آخذ بثأري. . .
وكان صباح. . .

إبراهيم عبد القادر المازني

ليلى المريضة بالعراق

للدكتور زكي مبارك

- 2 -

ودخلت أعدو خَلْف الوصيفة في بصر زائغ، وقلب خفاق، فلم أكد أتبين مدخل البيت، وعثرت قدمي على السلم عثرة خفيفة سلم الله منها ولطف، وانتهيت إلى غرفة صغيرة فيها أريكة وثلاثة مقاعد، وتركتني الوصيفة وزاحت تدعو ليلى، فتلفت أدرس أساس الغرفة في لهفة وشوق، فوجدت على الحائط قطعة من القطيفة نقش عليها هذا البيت:

يقولون ليلى بالعراق مريضةٌ ... فيا ليتني كنت الطبي المداويا

ورأيت بجوار تلك القطيفة صورة السيدة نادرة التي جمعت عواطف العرب حول ليلة بفضل ما أبدعت في ترجيع هذا البيت، ورأيت فوق المنضدة كتابين: رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده، وذكريات باريس للشيخ زكي مبارك، فيا عجباً كيف جاز لمنزل ليلى أن يجمع بين الهوى والضلال!

وغابت ليلى ولم تعد الوصيفة، واستمر الحال كذلك عشرين دقيقة، فدفعني الملال إلى التلهي بالنظر في سلة المهملات، وما أدري كيف وقعتُ في هذا الفضول، فهل تصدقون أني رأيت بين الخطابات الممزقة رسالة من (فلان) يؤكد لها أن زكي مبارك أديب وليس بطبيب؟ سامحك الله يا دكتور فلان، ولا أراك نعمة الهوى والجنون!

لعل ليلى في زينتها، وإلا فكيف أعلل صبرها عن لقائي كل هذا الزمن الطويل؟

ثم فتح الباب، ودخلت امرأة ملفوفة بالسواد لا تقع العين منها على شيء، ولم لا أقول دخل شبح أسود نحيل كأنه عود الخلال؟

وانحط ذلك الشبح على أحد المقاعد، ولكن هذه الجفوة لم تمنع قلبي من تواتر الخفوق. وبعد لحظات طوال كأعمار الأحزان تكلمت ليلى

رباه! ماذا أسمع؟ إن أذنيّ لا عهد لهما بمثل هذا الصوت المتكسر الناعم الحزين ومضت ليلى تتكلم وتسهب، ولكني لم أفهم شيئاً، فقد كنت مشغولا بدرس طبيعة هذا

الصوت، هذا الصوت الذي يذكرني بتلك الفتاة التي خفق القلب لها أول خفقة، والتي قلت فيها أول قصيدة، وسكبت عليها أول دمعة، تلك الفتاة المنسية التي تنام في قبر مجهول
تحت سماء سنتريس
ما هذا الصوت؟ يا رباه! أفي الحق أني سمعت أمثال هذه النَّبرات على كثرة ما طوَّفتُ في البلاد؟
لا أكذب الحق، هذا جوهر لم أشهد مثله في سنتريس ولا باريس، وإنما هو من جواهر العراق، هو صوت تحدر عن تلك الإنسانة التي قال فيها أحد المفتونين في بغداد:
وكأنَّ رَجْعَ حديثها ... قِطعُ الرياض كسِين زهرا
هو صوت تحدر عن تلك الإنسانة التي قال فيها أحد القدماء:
رُهبانُ مديَنَ والذين عهدتُهم ... يبكون من خوف العذاب قُعودا
لو يسمعون كما سمعتُ حديثها ... خروا لعزةَ ركَّعاً وسجودا
هو صوت ليلى يا بني آدم، ليلى المريضة بالعراق، ولو سمعه الشيخ فلان لسال منه اللُّعاب
ثم انتبهت، فقلت في نفسي: إن ليلى بخير، فهذا الصوت الضعيف يحمل قوة تهد رواسي الجبال
ثم انطلقنا نعدد في شجون الأحاديث، فسألتني عن مصر، وسألتني عن صاحبة الذهبية التي ترسو على الشاطئ الأيمن خلف جسر إسماعيل؛ فعجبت من أن تصل أخباري إلى ليلى وهي مريضة بالعراق، وقلت: إن تلك الإنسانة بخير، ولكنها تركت الذهبية وعادت إلى منزلها بمصر الجديدة، وقد صحا القلب يا ليلى فلم يَعُد بيننا تلاق منذُ ربيع سنة 1935 والله المستعان على مكاره الصدود!
فتنهدت ليلى وقالت: حتى أنت تنسى العهود! وماذا خليت لِغُلْف القلوب؟
ومضت تتحدث عن الحياة الأدبية في وادي النيل، وسألتني عن كثير من الأدباء، فكنت أذكرهم جميعاً بما يحبون أن يذكروا به في بغداد، ورأيت أن أكون أميناً في تبليغ التحيات فقلت: إن الأستاذ الزيات يسلم عليك. فقالت: لا أحب أن أسمع اسمه. فقلت: وكيف؟ فقالت: هل تصدق أنه أقام سنين في بغداد ولم يسأل عني؟ فتشجعت وقلت: لعل له عذراً وأنت تلومين! ذلك رجل يتهيب أقاويل المرجفين
واستطردت فقلت: ولعل الدكتور السنهوري قام بالواجب.
فضحكت ضحكة عالية كادت تخرق النقاب وقالت: السنهوري أغلظ كبداً من ذلك!
فقلت: وما صنع الدكتور عبد الوهاب عزام؟
فأجابت: أوَ كنت تحسبني أنتظر زيارة الدكتور عزام؟ إنه رجل أديب، ولكن انشغاله بالتحريم والتحليل لم يترك في قلبه مجالاً لرقيق الأحاسيس
فقلت: لقد مرّ الأستاذ أحمد أمين ببغداد منذ سنين، فماذا فعل؟
فقالت: هو رجل صافي الذهن، ولكن يظهر أنكم أوهمتموه في مصر أن العالم الحق لا يليق به أن يُشغَل بشؤون الوجدان
ثم أغرقتْ في صمت مُوحِش حسبتُه لوناً من العتاب
وجاءت أقداح الشاي، فتجرأتُ وقلت: وأين أكواب الصهباء؟ نحن في حضرة ليلى وتحت سماء بغداد!! فقالت: أنا امرأة مسلمة ونحن في رمضان؟ وأنتَ؟
فقلت: وهل حسبتني من الكافرين؟
وفهمتُ أنني أخطأت فغيّرت مجرى الحديث
- مولاتي ليلى!
- نعم، يا مولاي!
- إنما جئت للعناية بصحتك، كما تعلمين
- أعرف ذلك، وهو فضل سأذكره ما حييت. سأذكر أن الحكومة المصرية كانت أعرف الحكومات الشرقية بالواجب نحو امرأة عليلة أوحت ما أوحت من الشعر والخيال ثم أضرعها الداء فتناساها الأهل والأقربون
فقلت: البركة في الحكومة العراقية
فقالت: الحكومة العراقية؟ سامحها الله! هل تصدق يا دكتور أن الحكومة العراقية تبيح لمحطة الإذاعة أن تذيع جميع الأغاني والأناشيد، إلا الصوت الحزين:

يقولون ليلى في العراق مريضة ... فيا ليتني كنت الطبيب المداويا
وهنا تنبهت إلى أني لم أسمع هذا الصوت في بغداد
فقلت: وكيف تحرِّم الحكومة العراقية هذا الصوت؟
فأجابت: إن الحكومة في هذا الزمن لا تعرف غير الجيش والرماح والسيوف والمدافع، وهي تبغض أحاديث الوجدان كل البغض، ولا يرضيها أبداً أن يتحدث إنسان عن ليلى المريضة بالعراق
فقلت: وكيف يصح ذلك وعندكم وزير مشرق الجبين هو المدفعيّ، وعندكم وزير أديب هو الشبيبي؟
فقالت: أما المدفعيّ فله من اسمه نصيب، لأنه منسوب إلى المدفع؛ وأما الشبيبي فلا تغرّنك بسماته العِذاب، فقد كان شاعراً فيما سلف، أما اليوم فهو من دواهي العراق، العراق الذي يعبد النضال
ومرت لحظات صمت كانت أبلغ من الإفصاح
- مولاتي ليلى!
- نعم يا مولاي!
- إنما جئت للاهتمام بصحتك
- أشكر لك يا دكتور، ولكنك تكرر هذه العبارة. فماذا تريد؟
- أريد أن أرى وجهك ويديك
- وهل تريد أن تخطبني؟
- ليس هذا ما أريد، فلي بحمد الله أهلٌ وأبناء
- إذن ماذا تريد؟
- اعقلي يا ليلى، إن الأمر كله جِدّ، والأمة المصرية تهتم بصحتك أبلغ اهتمام، وقد نزلت الحكومة عند إرادة الأمة فأوفدتني إليك، ثم بالغتْ في الاحتياط فأوعزتْ إلى الدكتور علي باشا إبراهيم أن يقترح على الجمعية الطبية أن تجعل مؤتمرها المقبل في بغداد، وأنا أحب ألا يعقد المؤتمر إلا وأنتِ في عافية الفرس الجموح، فإن لم يمكن ذلك فلا أقل من أن أقدِّم للمؤتمرين تقريراً ضافياً يشهد بأنني لم أضع الوقت في التعرف إلى عيون الظباء. وسيَقْدَم الدكتور محجوب ثابت وهو من خصومي، الألدّاء، وأخشى أن يشي بي فيصرح لمعالي الأستاذ نجيب الهلالي بك بأنني لم أكن في الحرص على مهمتي من الصادقين
وبدأت ليلى فكشفت عن يديها، فانخلع قلبي من الرُّعب، حين وقع البصر على تلك الأنامل الصُّفر الدِّقاق
فتماسكتُ وقلت: وعيناك؟
فألقت النقاب عن وجه مليح التقاسيم كان له في ماضيه تاريخ جميل، وتأملت أنفها مرات ومرات فرأيت فيه أخيلةً من الملاحة قلما يجود بمثلها الزمان
ثم ارتقيتُ فوقعتُ على عينيها وقُوعَ الطائر الظمآن على الوِرد النمير
الله أكبر! ما هذا السحر المبين؟ أأنت مريضة يا ليلى ولك هاتان العينان؟
فابتسمت وقالت: صدق الدكتور فلان حين كتب إليّ أنك أديب ولست بطبيب!
فقلت: إنما أريد بعث الطمأنينة في قلبك المروعّ يا مريضة العراق
وقضيت ساعتين في مسامرة ليلى ثم استأذنت في الانصراف، والله المحمود على نعمة ذلك الحديث
والآن أوجه القول إلى الأمة المصرية، الأمة القلقة على المريضة بالعراق، ولاسيما الأستاذ محمد الهراوي الذي دسّ في جيبي دينارين على المحطة، أجرة برقية أرسلها من بغداد ليطمئن على ليلى المريضة بالعراق، إليهم أوجِّه الكلام فأقول:
بني وطني:
إن ليلى تملك عنصرين مهمين من عناصر الحياة: رخامة الصوت، وملاحة العينين؛ ولكنها مع ذلك فريسة الضَّنى والنحول، وسأبذل جهد الجبابرة لأصل بها إلى ساحل النجاة
وقد كلفت السيدة جميلة المقيمة بشارع صريع الغواني أن تحتال في دعوة وصيفة ليلى لقضاء سهرة بريئة في منزلي بشارع الرشيد، فإن حضرت تلك الوصيفة فسأعرف سِرَّ ليلى. سأعرف كيف قضت أهوال الحب بأن تصل إلى ذلك النحول

فإن تمت لك المحاولة فقد أصل إلى شيء، وإن لم تتم فستذهب جهود المؤتمر الطبي أدراج الرياح
وأنا أرجو صديقي الأستاذ الزيات أن يقف أطباء مصر على تفاصيل هذه المعضلة، فما أحب أن يعودوا خائبين، فيسيئوا إلى سمعة الحكومة المصرية بلا موجب معقول
وأنت أيتها السيدة التي اسمها جميلة، والتي زعمت أنني فتى جميل، اسمعي؛ ليس يهمني بالدرجة الأولى على حد تعبيركم في بغداد أن تغسلي ثيابي، وأن تحضري لي مائدة فخمة في كل أسبوعين؛ يا بخيلة، وإنما يهمني أن تقودي وصيفة ليلى إلى منزلي، إلى غرفة
الاستقبال يا لئيمة لا غرفة السرير، فإن عند تلك الفتاة أسراراً تكشف المحجوب من حياة ليلى المريضة بالعراق
يا جميلة! لقد كنت في صباك جميلة، فكوني عندما أرجوه من محمود الظنون
يا جميلة! أنا أنتظرك مع وصيفة ليلى في الساعة العاشرة من مساء السبت المقبل، والله بالتوفيق كفيل
(للحديث بقية)
زكي مبارك
مصرع شجرة الدر
للأستاذ محمد عبد الله عنان
كانت كليوباتره آخر ملكة جلست على عرش مصر الفرعونية، وكانت شجرة الدر أول وآخر ملكة جلست على عرش مصر الإسلامية. وكانتا كلتاهما آية الجمال والسحر، وعنوان البطولة والحزم، زينة الملك، وملاذ العرش والدولة؛ وقد لقيتا كلتاهما مصرعها في ظروف روائية مؤثرة؛ ولكن بينما تحيط الأسطورة بحياة كليوباترة وتكاد تغمر حوادث مصرعها، إذا بشخصية شجرة الدر تبرز واضحة خلال الفترة القصيرة التي تبوأت فيها عرش مصر، وإذا مصرعها مأساة قصر تحيط بها جميع العوامل والظروف التي تجتمع حول مآسي القصور
لم تكن شجرة الدر كما تريد أن يصورها القصص أحياناً، غانية قصر تعتمد على سحرها النسوي فقط في تبوء المكانة التي سمت إليها؛ ولكنها كانت فوق سحرها الجم، امرأة رفيعة الخلال وافرة الذكاء والعزم؛ بدأت حياتها جارية وحظية للصالح نجم الدين أيوب ولد الملك الكامل ملك مصر مذ كان نائباً عن أبيه بالولايات الشرقية. ولما توفي الملك الكامل، وتولى ولده الملك العادل دون أخيه الأكبر الصالح نجم الدين، وأعلن الصالح الثورة على أخيه بقيت شجرة الدر إلى جانبه في جميع الوقائع والخطوب التي خاضها، وشاركته مرارة الحرمان والأسر. ولما خلع الملك العادل وتولى الصالح مكانه ملك مصر في سنة 637هـ تألق نجم شجرة الدر وتبوأت ذروة النفوذ والسلطة وغدت كل شيء في البلاط وفي الحكومة. وكان الصالح قد فتنته خلالها الرفيعة فأعتقها وتزوجها، ورزق منها ولداً يدعى خليل. ولم تبق بعد حظية تسمو بجمالها وسحرها، ولكنها غدت سيدة القصر الشرعية، وأم ولده المحبوب؛ كانت هذه الجارية التركية أو الرومية تلعب يومئذ في بلاط القاهرة نفس الدور الذي لعبته من قبل صبح النافارية (البشكنسية) جارية الحكم المستنصر وأم ولده المؤيد في بلاط قرطبة. ولما توفي ولدها خليل حدثاً بعد ذلك بأعوام قلائل، لم تزعزع هذه الضربة الأليمة مركزها، بل لبثت محتفظة بنفوذها وتأثيرها في توجيه الشئون
ولما قدم الفرنج الصليبيون إلى المياه المصرية بقيادة ملكهم لويس التاسع في أوائل سنة 647هـ (1249م)، وحاصروا دمياط، كان الملك الصالح مريضاً وكان البلاط في حيرة،
وكانت مصر تضطرب من أقصاها إلى أقصاها؛ فأبدت شجرة الدر في هذه الآونة العصيبة ثباتاً مدهشاً، واستطاعت بعزمها وبراعتها أن تسير الشئون، وأن تشرف على أحوال الدفاع؛ ثم توفي الملك الصالح بعد ذلك بأشهر قلائل، فأخفت شجرة الدر نبأ وفاته، حتى استقدم ولده توران شاه من الشام، ولبثت مدى حين تخرج الأوامر والمناشير ممهورة بالعلامة السلطانية. ولما وصل توران شاه إلى مصر وتقلد الملك باسم الملك المعظم، أساء السيرة، واختلف مع شجرة الدر ومع مماليك أبيه، فأتمروا به وقتلوه لنحو شهرين فقط من ولايته، واتفقوا على تولية شجرة الدر، فتبوأت عرش

مصر في عاشر صفر سنة 648هـ
وكانت ولاية شجرة الدر حادثاً فريداً في التاريخ الإسلامي، فلم تجلس امرأة قط من قبلها أو بعدها على عرش مملكة مسلمة مستقلة؛ وكان للحادث وقع عميق في العالم الإسلامي حتى قيل إن الخليفة المعتصم بالله العباسي نعى على مصر أن تجلس على عرشها امرأة، ونعاه بعض فقهاء العصر. وشعر المماليك الذين ولوها بهذا الشذوذ، فعينوا إلى جانبها أميراً منهم هو عز الدين أيبك التركماني ليكون مقدماً للعسكر ومشرفاً على الشئون. ودعى لشجرة الدر على المنابر، ونعتت في الخطبة (بالجهة الصالحية ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين، أم خليل المستعصمية، صاحبة السلطان الملك الصالح) وكانت علامتها على الأوامر والمراسيم: (والدة خليل). وتولت شجرة الدر الأمور بحزم، وكان الجيش المصري قد استطاع في تلك الأثناء أن يقف زحف الصليبيين وأن يسحقهم في موقعة المنصورة الشهيرة (المحرم سنة 648)؛ وأسر لويس التاسع وعدد كبير من أمرائه، وبدأت مفاوضات الصلح بين الفريقين، فأشرفت شجرة الدر على هذه المفاوضات، وانتهت بانسحاب الفرنج من الأراضي المصرية والإفراج عن ملكهم لقاء فدية كبيرة؛ وأبدت شجرة الدر في ذلك كله براعة ومقدرة تخلق بأعظم الرجال
على أن شجرة الدر كانت تشعر بضعفها كامرأة فرأت أن تتزوج من عز الدين أيبك، فتقوي بذلك مركزها كملكة، وتدعم عصمتها كامرأة. ولما شعرت أن هذا الزواج لم يحقق كل شيء، ورأت أن جلوسها على العرش قد أثار الفتنة في الشام ويخشى أن يثيرها في مصر، نزلت عن العرش لزوجها، وجلس أيبك مكانها على عرش مصر باتفاق المماليك البحرية باسم الملك المعز، وذلك في آخر ربيع الآخر، وبذلك لم يطل ملك شجرة الدر أكثر
من ثمانين يوماً
وعادت شجرة الدر امرأة وزوجاً فقط، ولكنها لبثت كما كانت أيام زوجها الأول الملك الصالح سيدة القصر والبلاط، وكان المعز طاغية ظلوماً، ولكنه كان يخشى هذه المرأة القوية التي رفعته إلى الملك، ويصدع بأمرها ووحيها؛ وكانت شجرة الدر كثيرة الغيرة بالرغم من كونها قد جاوزت سن الشباب، فأرغمت المعز على طلاق زوجته الأولى، وكانت تحدث بينهما المناظر العاصفة من وقت إلى آخر. ولما سئم المعز هذه الحياة الزوجية النكدة فكر في اختيار زوجة أخرى، وبعث بالفعل إلى بدر الدين صاحب الموصل يخطب ابنته؛ ولعله لم يكن في الوقت نفسه بعيداً عن التفكير في التخلص من شجرة الدر، والتحرر من نيرها المرهق؛ ولكن شجرة الدر كانت ترقبت حركاته ومشاريعه، فثارت نفسها سخطاً وكبرياء، وأدركت بثاقب فكرها وخبرتها لدسائس القصر أنها إذا لم تبادر إلى التخلص منه، فإنه سيعاجلها بالتخلص منها فلم تضع وقتاً، ولجأت إلى دهاء المرأة وخديعتها؛ وكان المعز يقيم منذ أيام في مناظر اللوق بعيداً عنها، فبعثت إليه تتلطف به وتدعوه إلى قصر القلعة، فاستجاب إليها المعز؛ وكانت قد رتبت له من غلمانها خمسة ليقتلوه، وعلى رأسهم الخادم سنجر الجوهري. وفي مساء اليوم الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة 655هـ ركب المعز إلى القلعة، فاستقبلته شجرة الدر بحفاوة، وبعد أن مكث حيناً دخل الحمام فانقض عليه الغلمان الخمسة وهو عار لينفذوا فيه حكم الإعدام الذي أصدرته شجرة الدر. وتنقل الرواية إلينا عن مصرعه روايات مثيرة، فيقال إن القتلة أخذوا بخصيتيه حتى زهق، أو أن شجرة الدر أخذت تضربه بالقبقاب على رأسه وهو يستغيث حتى أجهزت عليه. وعلى أي حال فقد تمت الجريمة وقتل المعز قتلة مروعة بتحريض زوجه الغادرة الخؤون
وحاولت شجرة الدر على أثر ذلك أن تقيم في السلطة أميراً آخر تستتر وراءه في الحكم فلم توفق؛ ونادى الأمراء المعزية بتولية الملك المنصور ولد المعز، وهو يومئذ صبي في نحو الخامسة عشرة، ووافق الأمراء الصالحية على توليته اتقاء الفتنة؛ وامتنعت شجرة الدر بجناحها بالقلعة مع نفر من خدمها وجواريها، وطالب الأمراء المعزية بالقبض عليها، وحاولوا اقتحام الدار فمنعهم الأمراء الصالحية حماية لشجرة الدر، وكادت تقع بين الفريقين

فتنة لولا أن تعهد الأمراء المعزية بتأمين شجرة الدر وعدم التعرض لشخصها. وفي اليوم التاسع والعشرين من ربيع الأول أخرجت شجرة الدر باتفاق الفريقين من جناحها الملكي واعتقلت في البرج الأحمر أحد أبراج القلعة مع بعض جواريها، وقبض على الخدم الذين اشتركوا في الجريمة وزعيمهم سنجر وصلبوا جميعاً، وأعدم عدة كبيرة من الغلمان والطواشية، وقبض على الوزير الصاحب بهاء الدين بن حنا بتهمة الاشتراك في الجريمة، ولم يفرج عنه إلا بعد أن افتدى نفسه بمبلغ طائل

وأصر الأمراء المعزية بعد ذلك، بتحريض الملك المنصور وأمه، على معاقبة شجرة الدر، واعترض الأمراء الصالحية أياماً؛ ولكنهم كانوا الفريق الأضعف فلم تغن معارضتهم شيئاً. وفي يوم السبت الحادي عشر من ربيع الثاني (أو الجمعة 17 منه على رواية أخرى) نفذ المماليك المعزية إلى البرج الأحمر، وقبضوا على شجرة الدر، وحملوها إلى أم الملك المنصور لكي تتولى عقابها بنفسها. وهنا يقول لنا المقريزي (فضربها الجواري بالقباقيب إلى أن ماتت في يوم السبت؛ وألقوها من سور القلعة إلى الخندق وليس عليها سوى سراويل وقميص، فبقيت في الخندق أياماً، وأخذ بعض أراذل العامة تكة سراويلها، ثم دفنت بعد أيام - وقد نتنت وحملت في قفة - بتربتها قرب المشهد النفيسي؛ وكانت من قوة نفسها، لما علمت أنها قد أحيط بها، أتلفت شيئاً كثيراً من الجواهر واللآلئ كسرته في الهاون)

وهكذا زهقت تلك التي لبثت مدى أعوام طويلة زينة البلاط المصري وصاحبة الحول والسلطان فيه؛ وزهقت بنفس الأسلوب المروع الذي زهق بها زوجها الملك المعز؛ وكان القصاص مثيراً ولكن عادلاً، وكان الفصل الأخير مأساة قصر بدأت رائعة باهرة، ثم انحدرت إلى ظلمات الجريمة

محمد عبد الله عنان

حياة الأمة العربية بين الماضي والمستقبل

للأستاذ ساطع بك الحصري

مدير الآثار العامة في بغداد

يسرني أن أحيي فريق الكشاف العربي، تحت سقف هذا البناء القديم، باسم دائرة الآثار القديمة

إنني أحيي فريق الكشاف العربي باسم دائرة الآثار العربية مع علمي بأن الكثيرين من الحضور سيستغربون قولي هذا وسيتساءلون: ما شأن الآثار القديمة في الأعمال الكشافية؟

في الواقع أيها السادة أن الكشاف يمثل (الشباب المتجدد) وأعمال الكشافة كلها بمثابة (استعداد للمستقبل) في حين أن هذه البناية هي (موئل القديم) وكل ما فيها (مثال الماضي ومرآة التاريخ) فجمع الكشافة في هذه البناية القديمة بين القاعات المملوءة بالآثار القديمة، يظهر في الوهلة الأولى كأنه (الجمع بين الأضداد) مثل (الجمع بين الماضي والمستقبل)

غير أنا، أيها السادة، إذا تعمقنا في البحث قليلاً نضطر إلى التسليم بأن الماضي والمستقبل ليسا متناقضين إلا من حيث المعنى اللغوي؛ أما من جهة العمل الاجتماعي فإنهما مرتبطان متلازمان، فإن الماضي منبع المستقبل دائماً، كما أنه من عوامل الدفع إلى الأمام في كثير من الأحيان ولاسيما في حياة الأمم التي تستفيق من سباتها وتنزع إلى النهوض بعد الرقود

لقد قال أحد المفكرين: (إن الأموات لا يرقدون في المقابر في حقيقة الأمر، بل إنهم لا يزالون يعيشون في نفوس الأحياء ويسيطرون على الكثير من أعمالهم في كثير الأحيان) إن هذا القول يحتوي على قسط كبير من الحقيقة ولاسيما في حياة الأمم.

فلأجل أن نقتنع بذلك جيداً يجدر بنا أن نلقي نظرة عامة على أهم مقومات الأمم

إن كل أمة من الأمم تكون شخصية معنوية تتصف بالحياة والشعور وتمتاز ببعض النزعات والميول

إن حياة الأمة تقوم بلغتها بوجه عام، أما الموت بالنسبة إلى الأمة فليس - في حقيقة الأمر - إلا في الحرمان من اللغة الخاصة بها. إن الأمة التي تدخل تحت حكم دولة أجنبية تفقد استقلالها وحريتها، تصبح مستعبدة لها ولكنها لا تفقد حياتها ما بقيت

محافظة على لغتها، فقد قال أحد المفكرين: (إن الأمة المحكومة التي تحافظ على لغتها تشبه السجين الذي يمسك
بيده مفتاح باب سجنه) إنها تبقى حية ما بقيت محافظة على لغتها؛ إنها تبقى مستعدة للتحرر والاستقلال مادامت مستمسكة بلغتها. أما إذا فقدت هذه اللغة فإنها تكون قد فقدت الحياة؛ تكون قد اندمجت في الأمة المستولية عليها وفقدت كل ما لها من عناصر الكيان. إنها تكون قد زالت من عالم الوجود وبتعبير أقصر (ماتت) بكل معنى الكلمة. إن اللغة التي تكون بهذه الصورة هي (روح الأمة وحياتها) وتمثل (أهم عناصر القومية وأثمن مقوماتها). أليست ميراث الأجيال الماضية وهدية الحوادث التاريخية بوجه عام؟ أفلا يحق لنا أن نقول إنها تربط الماضي بالمستقبل دائماً؟.

هذا ويجدر بنا أن نلاحظ، أيها السادة، فضلا عن كل ذلك أن الحياة ليست كل ما يهم الوجود. فإن هناك شيئاً آخر لا يقل أهمية عن الحياة وإن كان تابعاً له، ألا وهو الشعور. إن للأمم شعوراً كما للأفراد. فالشعور القومي بالنسبة إلى حياة الأمم مثل الشعور الشخصي بالنسبة إلى حياة الأفراد.

قلنا إن حياة كل أمة من الأمم تقوم بلغتها، ويجب أن نعرف في الوقت نفسه أن شعور كل أمة من الأمم يتكون من ذكرياتها التاريخية الخاصة بها

فالأمة التي تحافظ على لغتها وتنسى تاريخها، تكون بمثابة فرد فاقد الشعور، بمثابة فرد يغط في النوم، أو بمثابة مريض في حالة الإغماء. نعم إنه لا يزال على قيد الحياة، ولكن حياته هذه لا تكتسب قيمة إلا إذا استيقظ من نومه واستعاد الشعور الذي فقده مدة من الزمن

فيحق لنا أن نقول إن إهمال التاريخ القومي يكون بمثابة الاستسلام للذهول والكرى؛ وأما نسيان التاريخ المذكور فيكون بمثابة فقدان الشعور. . .

هذه حقيقة يعرفها جيداً رجال الحكم والاستعمار ويستفيدون منها دائماً، فهم عندما يستولون على أمة من الأمم يبذلون قصارى جهدهم لإبعاد ذاكرتها عن تاريخها الخاص. إنهم يتوسلون بكل الوسائل الممكنة لتخدير الأمة وتنويمها عن طريق الحيلولة بينها وبين تاريخها القومي. إنهم يعرفون جيداً أن الشعور القومي عند الأمم المحكومة يأخذ في الخمود والتضاؤل كلما أسدل النسيان سدوله على (التاريخ القومي) إلى أن ينعدم تماماً بنسيان التاريخ الخاص نسياناً تاماً

أما عودة الشعور القومي إلى مثل هذه الأمم المحكومة فلا تتم إلا باستعادة الذكريات التاريخية. إن حركات النهوض والانبعاث وجهود الاستقلال والاتحاد عند تلك الأمم تبدأ بوجه عام بتذكير الماضي واستلهام التاريخ. استعرضوا تواريخ استقلال الأمم التي كانت مغلوبة على أمرها، ثم نهضت وتخلصت من ربقة الاستعباد تفهموا جيداً منها أن حب الاستقلال يتغذى بذكريات الاستقلال المفقود، والتوقان إلى السؤدد والمجد يبدأ بالتحسر على السيادة الماضية والمجد السالف، كما أن الإيمان بمستقبل الأمة يستمد قوة من الاعتقاد بماضيها الباهر؛ والنزوع إلى الاتحاد يزداد شدة وحماسة بتجدد ذكريات الوحدة المضاعة. . .

ومما يجب أن يلفت أنظارنا في هذا المضمار أن خطة استلهام الماضي والاستفادة من التاريخ تظهر للعيان حتى في أعمال الأمم التي تقوم بثورات عنيفة وتحاول قلب حياتها الاجتماعية رأساً على عقب بصورة جدية وفورية. إن تلك الأمم تثور في حقيقة الأمر على (الماضي القريب) وحده، وتحاول في خلال ثورتها هذه أن تستمد قوة من الماضي البعيد. أنعموا النظر في تاريخ ثورات ووثبات تلك الأمم - مثل اليابان وتركيا الحديثة - تجدوا فيها أيضاً، بجانب حركات التجديدات الجندية، اهتماماً متزايداً بالأبحاث التاريخية، وتغلغلاً مستمراً في استخدام التاريخ لتقوية الروح القومية وإيجاد النزعات التجديدية

إن أمر الاهتمام بالتاريخ والالتفات إلى الماضي ليس من الخطط الخاصة بالأمم التي كانت في حالة تأخر وسبات، بل هي من الأمور التي تشمل جميع الأمم بدون استثناء. تعمقوا في دراسة أحوال أرقى الأمم العصرية، وأنعموا النظر في أحسن الشوارع والميادين في أرقى المدن الحديثة تجدوا في جميعها آثار اهتمام عظيم بالماضي والتاريخ، تجدوا في جميعها عدداً كبيراً من الأنصاب والتماثيل والألواح التذكارية وسلسلة طويلة من المهرجانات والاحتفالات يقصد منها تذكير الماضي للناس، وترسيخ

التاريخ في الأذهان
ولهذه الأسباب كلها أقول في كل حين: إن الماضي منبع فياض للمستقبل والتاريخ قوة مهمة في حياة الأمم
ولهذه الملاحظات رأيت من الواجب على فريق الكشاف العربي أن يذهب إلى سامرا ليقضي يوماً كاملاً في التجوال بين أطلالها، ويطلع على الآثار الباقية من عند الإمبراطورية العربية العباسية فيها، ثم يعود إلى هنا ليجتمع معنا في هذه البيئة التاريخية
ويتأمل مدة في ماضي أمتنا العزيزة، ويستمد من ذكريات هذا الماضي قوة جديدة لجهوده القادمة. ولهذا أقدمت على تحيته باسم دائرة الآثار القديمة
إنني لا أحب المغالاة في مثل هذه الأمور، بل أنزع دائماً إلى مجابهة الحقائق من كل وجوهها. وبعد أن شرحت لكم ما أعتقده في خطورة الدور الذي يلعبه التاريخ في حياة الأمم أرى من واجبي أن أقول لكم كلمة عن مضاره أيضاً، لكي أحذركم منها
إن الحياة الاجتماعية غاية في التعقد؛ والعوامل الاجتماعية في منتهى التشابك. ولذلك قلما نجد بين تلك العوامل ما هو مفيد على الإطلاق، ومجرد عن الشوائب والأضرار في كل الأحوال. إن الفوائد والأضرار في الحياة الاجتماعية تتشابك بشكل غريب، فاقتطاف الفوائد مع توقي الأضرار يحتاج إلى يقظة كبيرة وانتباه شديد في معظم الأحوال
إن تأثير التاريخ والماضي في حياة الأمم، لا يشذ عن هذه القاعدة العامة، فإنه أيضاً قد يصبح مضراً في بعض الأحوال
فإن التاريخ يكون مفيداً عندما يفرغ في شكل (قوة دافعة) تحركنا إلى الأمام كما ذكرت لكم؛ غير أنه يصبح مضراً إذا أخذ شكل (قوة جاذبية) تدعونا إلى العودة إلى الوراء. فلا يجوز لنا أن نعتبر الماضي هدفاً نتوجه نحوه، ونسعى للعودة إليه، بل يجب علينا أن نجعل منه (نقطة استناد) نستند إليها في سيرنا إلى الأمام، يجب علينا أن نكون منه قوة فعالة حافزة تدفعنا نحو المستقبل الجديد، وبتعبير أوجز: شعارنا في هذا الباب يجب أن يكون: (تذكر الماضي، مع التطلع إلى المستقبل دائماً)
واسمحوا لي أن أشرح لكم قصدي من هذا الشعار بذكر بعض الأمثلة:
كلكم تعلمون أن سيرة خالد بن الوليد من أجلِّ السير التي سجلها التاريخ، فيجب علينا أن ندرسها بكل اهتمام؛ ولكن لماذا ولأي قصد؟ ألقصد الحصول على دروس في فنون التعبئة والحرب؟ كلا؟ فإن الخطط الحربية التي كانت تضمن النجاح والنصر في عصر خالد بن الوليد لا يمكن أن تفيد في هذا العصر بوجه من الوجوه. ولا مجال للشك في أن الخطط الحربية التي تضمن النصر والنجاح في عصر الدبابات والطيارات والغواصات والمدافع الضخمة والقذائف الهدامة والغازات الخانقة - تختلف كل الاختلاف عن الوسائل التي كانت تؤدي إلى النصر في حروب العصور السالفة. فكل من يحاول أن يجد في خطط خالد بن الوليد دروساً في فنون الحرب قابلة للتطبيق في العصر الحاضر يكون قد أقدم على عمل لا يتفق مع العقل والمنطق
غير أنه يجب أن نعرف أن الحروب لا تتم بالوسائط والقوى المادية وحدها، بل إنها تحتاج إلى قوى معنوية متنوعة فضلاً عن القوى المادية، أهمها: الوطنية الصادقة، والإيمان بإمكان النصر مع الإقدام على إحرازه بحزم وثبات، وجرأة وشجاعة لا تتأخر عن نوع من أنواع التضحية. إن هذه القوى المعنوية لعبت ولا تزال تلعب دوراً هاماً في الحروب في جميع العصور، مهما كانت الوسائط المادية المستعملة في خلالها، سواء أكانت من نوع السهام أم الدبابات، أم الجمال أم الطيارات. إن سيرة خالد بن الوليد مملوءة بأمثلة عليا عن هذه القوة المعنوية؛ وإذا ما أقدمنا على درس سيرة خالد بن الوليد يجب أن ندرسها لكي نستفيد من تلك القوى المعنوية؛ وإذا ما بحثنا عنها يجب أن نبحث عنها بقصد استثارة قوى معنوية مماثلة لها، لا بقصد محاولة الحرب على الطريقة التي مشى خالد بن الوليد عليها
وكذلك كلكم تعلمون بأن أجدادنا العظام أسدوا إلى الطب من الخدمات ما لا ينساه التاريخ، فيجب علينا أن ندرس تلك الخدمات، ونطلع عليها ونتذكرها دائماً، ولكن لماذا؟ وبأي قصد؟ هل يجوز لنا أن نفعل ذلك بقصد الاستفادة من آراء كبار أطباء العرب في

مداواة الأمراض؟ لا مجال للشك في أن ذلك يكون في منتهى السخافة. يجب علينا أن ندرس خدمات العرب للطب، لا بأمل أن نجد في اكتشافاتهم ما يفيدنا في أمر التطبيب والمداواة، بل لنزداد مباهاة بأعمال أجدادنا العظام، ولنزداد إيماناً بحيوية أمتنا الكامنة، ولنحصل على دوافع باطنية تحفزنا على القيام بخدمات تشبه خدماتهم الغالية.
إن أطباء العرب القدماء خدموا الطب خدمة كبرى، ومشوا في مقدمة العالم في هذا المضمار قروناً عديدة. إن خدمات هؤلاء يجب أن تولد في نفوسنا طموحاً لإحراز مكانة عالية في الطب الحديث، مثل المكانة التي كان أحرزها هؤلاء في العصور التي عاشوا وعملوا فيها
ولذلك قلت إنه يجب علينا أن نستمد من التاريخ قوة معنوية، تثير في نفوسنا نزعات التقدم إلى الأمام، وتحفزنا إلى العمل لمجد المستقبل
أما أهم النزعات التي يجب أن نستلهمها من التاريخ فهي في نظري الإيمان بحيوية الأمة العربية، وبإمكان حصولها على مجد جديد لا يقل شأناً عن المجد الذي كانت نالته في سالف
العصور
إننا في حاجة إلى مثل هذا الإيمان في هذا الزمان أكثر من أي زمان آخر، لأن المصائب انصبت على العالم العربي من كل حدب وصوب. ومن المعلوم أن كثرة المصاعب والمصائب تفتح باباً إلى تسرب الفتور والقنوط إلى القلوب التي لا تتجهز بالأمل القوي، ولا تتقوى بالعقيدة الراسخة
ونحن نعلم أن الأمل من أهم عوامل السعي والعمل، وأما القنوط فهو من أفعل دواعي التقاعد والشلل. ولهذا السبب نستطيع أن نقول: إن تطهير القلوب من شوائب الفتور والقنوط وتجهيزها بالأمل والإيمان يجب أن يكون من أهم أهداف العاملين، ولاسيما في الظروف التي أحاطت بالعالم العربي في خلال هذه السنين
وبهذه الوسيلة، وقبل أن أختم كلمتي هذه أود أن أذكركم بإحدى الأساطير اليونانية، وهي (أسطورة باندور):
باندور كانت إلهة جمة الخصال تكونت من عطايا جميع الآلهة: أعطتها كل إلهة من الآلهة الموجودة في ذلك الحين شيئاً من خصالها، ولهذا السبب سميت هذه الإلهة الجديدة باسم (باندور) بمعنى (عطية الكل)
عندما غضب جوبيتير على هرقل وأراد أن ينتقم منه فكر في إغرائه بواسطة باندور، فسلمها علبة سحرية، وطلب إليها أن توصلها إليه من غير أن تفتحها وتطلع على ما فيها. وحملت باندور هذه العلبة، غير أنها لم تستطع أن تتغلب على ميل الاستطلاع في نفسها، ففتحت العلبة في طريقها؛ وعند ذلك أخذ يخرج من العلبة جيش عرمرم من المساوئ والشرور، وينتشر في الأرض بسرعة العاصفة مع أزيز هائل. اندهشت باندور من كل ذلك، وأخذت تبذل كل ما لديها من قوة لإعادة إقفال العلبة بسرعة؛ غير أنه قد خرج من العلبة جميع الشرور قبل أن تتمكن من ذلك، ولم يبق فيها إلا شيء واحد، وكان ذلك الشيء الذي بقي في العلبة مقابل جميع تلك المساوئ والشرور هو (الأمل)
إن حالة العالم العربي الآن تشبه الحالة التي حدثت عند انفتاح علبة باندور المذكورة في هذه الأسطورة. لقد انتشرت المصائب والشرور في العالم العربي، ولم يبق بين أيدي أبنائه شيء غير (الأمل)، فيجب علينا ألا ننسى أن الأمل هو من أهم عوامل العمل، ولابد أن
نحرص عليه كل الحرص فلا نترك سبيلاً إلى تسلل القنوط إلى قلوبنا. فليكن قلب كل واحد منا شبيهاً بعلبة باندور (يحفظ الأمل) بل لا يكتفي بحفظه فيسعى إلى تغذيته وتقويته إلى أن يتحول إلى (إيمان لا يتزعزع) يدفعنا إلى العمل المتواصل بروح التضحية والإخلاص.
ساطع الحصري
إلى الأستاذ الزيات
تكيف الأخلاق الفاضلة
للأستاذ خليل جمعة الطوال
- بلى يا محمود! وهل تشك في ذلك. . .! إن الأخلاق الفاضلة هي مبعث كل سعادة، وأس كل نجاح، ولولا فضيلة الخلُق لكان للعالم شأن غير هذا الشأن. فهي الصخرة

الناشزة في طريق الكفر التي تحطمت عليها أصنام الوثنية في قريش؛ وهي القوة العظيمة التي بدَّلت نواميس الطبيعة التي لا تتبدَّل يوم هرب موسى بشعبه من ظلم فرعون الطاغية؛ بل هي العدة الوافرة التي تسلح بها المسلمون في جهادهم فجعلت سيوف المشركين في أيديهم خشبا، وحملها العرب في فتوحاتهم فإذا بها لغم تداعت له جوانب الإيوان وشرفاته، وتلاشت فيه أبهة التاج ومجوهراته. ولكن ما العمل فقد تطور الحال، واستحال الزمان، ولم يعد ابن الأمس - المتوحش على زعمنا - في قياس هذا العصر بإنسان، ولا أخلاقه الرجعية بالتي ترجح فيها كفة الفضيلة في الميزان؟

يا أخي! إنها (لموضة) تعم كل شيء، وتجتاح كل ما في سبيلها، وتخضعه لحكمها؛ فلا فرق في ناموسها بين الأخلاق الفاضلة والسراويل المخرفجة التي يلبسها خصيان الأتراك. ومتى انتشرت (الموضة) فعار على الإنسان أن يتخلف عنها. ولقد نظرتُ في تاريخ المدنية فرأيت فيه أزياء من الأخلاق بعدد (موضات) الملابس، ورأيت أن الأخلاق تتكيَّف بالزمن وملابساته، تكيف الجسم بالمحيط ومؤثراته. وما تعمل الأخلاق غير هذا. . . إنها مكرهة عليه لتحتال لنفسها على البقاء وتنجو من يد الفناء، فهو طريقها في شهوة الخلود، ولا محيص لها عن سلوكه. ألا فانظر كيف يقلم الإنسان أظفاره لاستغنائه عنها، ويدرمها (بالمونيكير) مجاراة للموضة، وكيف حسر عن رأسه ليظهر شعرةُ السبطُ اللامعُ المطيب بأطايب (الموضة) أفلا يسفر بعد هذا عن أخلاقه!. . .

ولقد نظر في ناموس الأخلاق، فرأى أن الفضائل التي كانت فيما مضى قائمة به إلى معالي الأمور، حافزة له على عظيم المآثر، هي القاعدة به اليوم عن عالي الرتب، وعريض الجاه؛ وهي السالكة به طريق الفشل، والصادة له عن محجة النجاح؛ فلا عجب بعد هذا أن يتنكب جادتها، ويصد عن ورد شرعتها؛ فالكرمُ الذي كان يتهالك عليه المرءُ فيما مضى، إذ كان طريق السؤدد

ومحمدة ما فوقها من محمدة أصبح اليوم - في عرف هذا العصر - تبذيراً وهوساً. وأعوذ بالله ممن يرميه الناس بالتبذير، ألا يتهمونه بالهوس؟ والحلم أصبح ضعفاً وعجزاً، والتقوى تزمتاً ورجعية، والحياءُ نقصاً في الرجولة وأنوثة. وما الفضائل الجلى، والخطوة البالغة، والمكانة السامية إلا في الطباع اللئيمة، والكذب الصراح، والتملق الشائن، والخلق اللدن، والمثالب الفاضحة، والسفالة الواضحة.

هي الأخلاق تنصهر بالموضة وتميع، ومتى ماعت جرت - حسب قوانين السوائل من فوق إلى تحت - من ذروة سمو النفس، إلى دركة حيوانية الطبع، وتشكلت بشكلها والعياذ بالله!

أين ذاك الزمان الذي كان يتنافس فيه الأقران على اجتذاب حبل الفضيلة بوأد حيوانية الطبع، وعلى سمو النفس بصلب سفالة الشهوة، وعلى زعامة الخلق بإنكار أنانية الذات، مِن هذا العصر الذي تدلت فيه معنويات الفضيلة، فحبل الشهوات البهيمية على الغارب، وخسة الطبع والقحة هما من الأخلاق في ذروتها، والتبجح الكاذب مدار الحديث في كل مجلس وناد؟ والأغرب أن الناس إنما يتجاحشون على الرذيلة باسم الفضيلة، ويتمرغون في حمأة الموبقات باسم الأخلاق، ويرتكبون اللتيا والتي باسم التجديد! التجديد الذي شمل الأخلاق وعم الفضائل، فحور فيهما وبدل، ما حور وبدل في الثياب

استعرض الناس على اختلاف طبقاتهم وبيئاتهم، وانظر علامَ يتجاحشون! أعلى الصدق وهم يرونه آفة على جمع المال الذي احتكرته المخاتلة والخداع؟ أم على الحياء وقد أصبح صاحبه مقروناً بالحرمان، كما أصبحت الحظوة من مدلولات القحة؟ أم على الكفاية وقد تغير مقياسها - بتغير الموضة - ولم تعد دليلاً على مقدار رسوخ قدم صاحبها في العلم والعرفان، ولا على مقدار ما في نفسه من معنويات الشرف، وطهارة الوجدان، وإنما على مقدار ما له من جاه عريض، وأصل أثيل، وعلى عدد ما في بطانته من أرباب الرتب الملحوظة، والألقاب الضخمة، والشخصيات المنفوخة: إن صح هذا التعبير كالأفندية! والباكوية! والباشوية! كلا ليس على شيء من هذه الفضائل يتجاحشون، ولِمَ يتجاحشون عليها وهم يرونها - جميعها - قد اختلطت، وتفاعلت، وتركبت في جوهر واحد فقط هو الوظيفة؟

أفلا تراهم يشترون أحط الوظائف دركة بماء وجوههم اللدنة ونخاسة سمعتهم السافلة، وفضيلتهم الدابرة، حتى إذا ظفروا بها بطروا، وضحوا في سبيل استبقائها والحرص عليها بجميع أخلاقهم وبضمائرهم الموبوءة، وما ذلك إلا ليكونوا من ذوي الزلفى، وليثملوا بنشوة الغرور، إذ يقول فيهم الناس، تزلفت إلى البيك في الديوان وزرت الأفندي في الديوان، وتوسطت في الأمر لدى الباشا في الديوان

قد يسوءك الأمر ويغمك، ولكن الأخلاق الفاضلة غير مسئولة عن ذلك لأنها تطورتْ وأنت تحجرتَ - في عرف أهل الموضات - وتقدمتْ فتخلفتَ

يا أخي! لقد تلقحت أخلاقنا الفاضلةُ الأصيلة بأخلاق سِفلة الشعوب الوضيعة فنغلت وصارت كالخنثى، لا هو ذكر ولا أنثى، بل كالبغل ليست فيها أصالة الحصان ولا ضعف الأتان

هي (الموضة) يا عزيزي. . .! وقد أبت الأخلاق إلا أن تتكيف بها، فتصبغت وتطيبت ثم تدلت وانتهت إلى هذه الحالة التي تشكو منها. وما شكاتك إلا شكاة الفضائل بأسرها، والأخلاق العالية بكاملها. هي (الموضة) وعبثاً يحاول الإنسان أن يجاري المدنية ولا يجاريها، فهي من مقوماتها الأولى، ومستلزماتها الرئيسية

أفبعدَ هذا - يا محمود - تطمح إلى النجاح في القرن العشرين وعدتك له عدة الجدود الغابرين؟

(شرق الأردن)

خليل جمعة الطوال

صور وخواطر

بعد المرض

للأستاذ علي الطنطاوي

يقولون إن الإنسان يأكل ليعيش، ولكني أعيش في هذه الأيام لآكل. آكل بشراهة . . . ونهم، حتى أحس الامتلاء ولا يبقى في المعدة مكان لذرّة. . . فأدع الطعام آسفاً، وأنظر إلى الأطباق وما فيها نظرة المودّع الحزين، ثم أقوم إلى كتابي فأفتحه، أو إلى شباكي أطلّ منه، أتلهى بهذا أو بذاك حتى أحس أو أتوهم أني أحس جوعاً، فأدعو بالطعام، أو تمضي ثلاث ساعات، فآكل ولو لم أكن جائعاً. . . ألم يقل لي الطبيب: كلْ كلّ ثلاث ساعات؟!

ذلك لأني لبثت عشرين يوماً أشتهي قطعة الخبز، فأطلبها وألح في طلبها، فتمتنع عني، وأحرمها فأراها في منامي، وأحلم بها في يقظتي تجسمها لي أمانيّ وأفكاري، فأتخيل أين قد نلتها، فإذا أنا لم أنل إلا هذا اللبن (الحليب) الذي برمت به واجتويته، والذي يفضل المريض رؤية عزرائيل على رؤيته يطالعه في الصباح وفي المساء، والذي كرهت لأجله كل أبيض، حتى بياض الفجر وبياض النحر. . . والذي أصبح قذىً في عيني لا أطيق رؤيته، وسمّاً في فيّ لا أقدر على تذوقه. . . ثم فرّج الله عني بعد الضيق وأنالني ما أشتهي من الأطعمة وأريد، فكيف لا أهجم عليها بشراهة ونهم، وكيف تبلغ بي الحماقة أن أقوم عن المائدة وفي الأطباق بقية؟

لا أكاد أشبع من الطعام ولا من القراءة، ولا من النظر في هذا الفضاء الفسيح، وهذه الجنات المتسلسلة تبدو من شباكي يعانق بعضها بعضا، حتى يستلقي آخرها في أحضان قاسيون. لا أكاد أشبع من شيء، لأني خرجت من هذا المرض كمن ولد ولادة جديدة، فهو لا يعرف الدنيا قط وهو ينظر إليها بعيني طفل ذكي يدهشه كل شيء ويود لو يمتلكه ويأكله أو تحتويه يده. . . ولأني خرجت منه ضعيفاً مهدوداً، ولقد كنت من قبله قوياً نشيطاً. استحممت يوماً في البحر، ثم خرجت منه متوثباً متحفزاً، أكاد أطير مما أحس في جسمي من النشاط، فسرت على الشاطئ حتى حاذيت الصخرة (الروشة!)، تلك الصخرة القائمة في البحر كأنها الطاق العظيم، أو كأنها قوس نصر، أقامه الماء الهيّن الليّن الذي انتصر بصبره وثباته في جهاده، على هذه الصخرة العاتية المتكبرة، فجعلها فارغة جوفاء، ولا تزال على عتوها وكبرها سنة الله في المتكبرين، لا يكونون إلا فارغين. . . تلك التي يدعونها في بيروت صخرة الانتحار، لأن المجانين أعداء أنفسهم وأوطانهم، يلقون بأنفسهم منها يثبون إلى. . . إلى جهنم! وكانت الشمس مائلة إلى المغيب، تمنح البحر آخر هباتها، فيبدو براقاً لامعاً، قد لبس حلّة من النور، فأكبرت هذه المخلوقات: الشمس والبحر

والصخر، ووقفت صاغراً حيال عظمة الطبيعة وجلال الطابع (جلّ جلاله)، ثم غلب عليّ هذا النشاط الذي أحسّ، وبلغ دماغي فملأه ادعاء وكبراً وغروراً؛ والمرء في فكره وعواطفه خاضع أبداً لحالة جسمه، ودرجة صحته، فرأيت هذا الصخر إلى زوال قد عبث به الماء، والماء إلى ذهاب قد بخرته الشمس، والشمس إلى غياب قد ابتلعها البحر، ورأيتني وحدي الذي يبقى، أنا الذي فتّت الصخر، وأنا الذي أذلّ البحر، وأنا الذي اتخذ الكون كله معمل تجارب لعقله وسخّره لمنفعته، وأنا الذي يحوي في صدره عالماً أكبر من هذا العالم، ونوراً أبهى من هذه الشمس وعواطف أعمق من هذا البحر، وأرقّ من هذا الماء، وأشد من هذا الصخر. . .

وذهبت إلى المدرسة، وأنا أقول (أنا)، والعياذ بالله من (أنا) فإنها كلمة إبليس. . . ذهبت ماشياً فأكلت من ساعتي أكل من لبث في البحر ساعتين، ومشى ساعة كاملة، من (الروشة) إلى الحرج، وكانت سكرة النشاط، ونشوة (أنا) لا تزال ضاربة في رأسي، فذهبت مع الطلاب أمشي وأعدو وأثبت، وأفعل كل ما لا يفعل عاقل، ولم أعد إلى المدرسة إلا غارقاً في العرق فشربت قازوزتين مثلجتين من (القازوز)، وصارعت. . . واغتسلت بالماء البارد، ونمت فأصبحت مريضاً!

يا لهذاالمغرور الأحمق الذي أصاب ذرة من العلم، وعبث بالكون عبث الوليد، يرفع ويضع فلم يعد يرضيه إلا أن يدّعي الألوهية، أو (يؤلّه هذا العلم). . . يا لهذه القوة الكاذبة، وهذه السطوة الفارغة، هذا القويّ الجبار الذي فتت الصخر، وأذلّ البحر، يذله مخلوق من أصغر مخلوقات الله، لا تراه لهوانه العين؛ يعيش الملايين منه في قطرة ماء، مخلوق واحد من أضعف المخلوقات يلقي الإنسان محطوماً، ويطّير هذه الأفكار كلها من رأسه حتى يعود ذليلاً خانعاً. . . فكيف ويحك لو أصابك الله بعذاب من عنده؟ يا للأحمق المغرور!

أصبحت فإذا أنا قد نسيت أفكار الأمس ونسيت الأمس كله وأحسست بالبعد عن الدنيا التي آلفها وأحبها. ولقد انقطعنا مرة في قلب جزيرة العرب، وتهنا في رمالها الموحشة سبعة عشر يوماً نسير وراء حدود العالم مع الوحش والآكام، والشمس والعطش والموت، فما أحسست بأني بعيد عن الدنيا ولا بلغ بي ذلك كله ما بلغ بي هذا المرض القصير. . . لقد أصبحت بلا ماض ولا مستقبل ولا حاضر إلا هذا الحاضر الضيق الأليم الذي يستقر في بطني حيث (الزائدة) الملتهبة، وفي خاصرتي حيث الرمل في الكلية. اصطلحت عليّ العلل، واجتمعت المتناقضات، فالالتهاب لا يطفئه إلا كيس الثلج، ونوبة الرمل لا يصلحها إلا الماء الحار، فإن داويت هذه زدت تلك، وإن عالجت تلك انتقضت هذه. . .

أنساني المرض كل شيء، حتى ما أذكر أني كنت يوماً من الأيام أمشي وآكل وأشرب واقرأ وأكتب وأمارس أنواعاً من الرياضة، ولا أذكر أني كنت أستطيع التفكير في آلاف المسائل وأعالج المئات من الأمور، وماتت الدنيا في عيني، وأصبح هذا الألم دنياي كلها، فأنا أطلق الفكر من عنانه، فلا يخرج عنه، ولا يجول إلا فيه، يتخيل أبشع أنواع المرض، وأفظع ألوان الخطر ثم ينطلق الفكر إلى العملية التي أكد الأطباء أنه لابد منها، فلا يكاد يشرع في تصورها حتى تسود الحياة في عيني، وأراها كلها ألماً وشراً، وأتمنى أن لو كان أبي على مذهب المعري، أو لو أن أمي لم تلدني. . . ويوسوس لي الشيطان أن ما حق أبيك في أن يقضي عليك فيجيء بك، أليست حياتك متعلقة بك وحدك؟ فهل استشارك فيها، أو هو قد ضحى بك وبحريتك وسعادتك في سبيل لذته، أو هو لم يفكر فيك أبداً، ولم تخطر له على بال؟. . . فأرى الشيطان يريد أن يزيدني على مرض جسمي مرض ديني، فألعن الشيطان وما جاء به، وإن مما يجيء به الشيطان لما يسمونه فناً وابتكاراً وتجديداً، ولكنه يبقى أبداً فناً شيطانياً. . . أدع هذا وأعود بفكري إلى سرير العمليات الذي حملني إليه المدير مرة ووكل بي الممرضات، وأقام عليّ طالبين يحرسانني، وذهب إلى الطبيب يحضره فوثبت أحمل أوجاعي وأناضل دون حريتي حتى بلغت الشارع حافياً، وركبت إلى الكلية أول سيارة رأيتها وأنجاني الله من العملية والأطباء. والأطباء - والرجاء عدم المؤاخذة - قوم برئوا من العاطفة وانبتوا من الشفقة يشقون بطون الناس - نسأل الله السلامة - ويخرجون أمعاءهم فيضعونها في طبق. . . ويكسرون جماجم البشر، ويعبثون في أدمغتهم ويفعلون ما لو فعله

غيرهم للحقه الشرط، واصطف له القضاة، وفتحت له أبواب السجون، وأعدت له حبال المشانق؛ ثم يتصدرون المجالس يفتخرون بأنهم أصدقاء الإنسانية أفأعطيهم بطني ليشقوه، ويردوني مريضاً بعد إذ أنا معافى وأتعجل الداء بنفسي؟ أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين

لم يكن يفزعني شيء وأنا مريض مثل ما يفزعني الليل بسواده وامتداده. كنت أخافه أشد الخوف، وأحسب لمجيئه الدقائق والثواني، وأرقبه كما يرقب المحكوم ساعة القتل، ذلك أني لم أكن أستطيع النوم ولا أطيق الجلوس، وإنما أستطيع أمراً واحداً، هو الاضطجاع على قفاي أحدّق في السقف ليلاً ونهاراً. . . ولطالما رأيت في السقف بقعة سوداء، فخيل إليّ لطول التحديق فيها، أنه حية تريد أن تنقضّ عليّ أو رتيلاء كبيرة ذات تسع وتسعين رجلاً وعشرة رءوس، أو مجموعة من العقارب أو عفريت من الجن، أو جني من العفاريت، فأصيح فزعاً وأنطلق أهذي هذيان محموم حرارته أربعون. . .

إني لأضحك الآن، وأكركر من الضحك حين يعيدون عليّ ما كانوا يسمعون مني إذ أهذي، وأرى فيه صورة واضحة لكثير مما نقرأ في الصحف والمجلات ينشره أصحابه على أنه أدب، ويقرؤه الناس على أنه ثرثرة وهذيان محموم!

وكان أحبّ شيء إليّ وأنا مريض أن يكثر الناس من حولي، ثم يتحدثوا شتى الأحاديث لأخلص من وحدتي وأتسلى عن ألمي وأذكر جانباً مما في الحياة. . . ولكني كنت أسمع أصواتهم كأنها خارجة من جوف بئر سحيق، أو أعماق مغارة بعيدة، وأراهم من خلال ضباب كثيف، فلا أتبين صورهم ولا أصواتهم، وسرعان ما أملّ منهم وأطلب جديداً.

كانت أيامي متشابهة متشاكلة، فكنت أحب أن أجد كل لحظة شيئاً جديداً ضعفت قواي وضاعت إرادتي ولم يبق لي طاقة على المشي، ولا قدرة على المحاكمة العقلية، ولم يبق حياً فيّ إلا لساني. . . أكل ذلك لأن جرثومة صغيرة دخلت جسمي. . .؟ يا لضعف هذا الإنسان القويّ!

تألمت في هذا المرض لكني تعلمت. تعلمت في الحياة درساً جديداً، وما الحياة إلا دروس. . . هو أن المرض نعمة ليس بنقمة، وأنه لازم للإنسان لا يدرك قيمة الصحة ولا يعرف معنى الحياة ولا يرجع إلى نفسه إلا إذا مرض، هنالك يدرك معاني هذه الأشياء التي يمرّ بها وهو صحيح مراً سريعاً لأنه مشغول عنها بما لا نهاية له من الصغائر والترهات، وإن للمريض - قبل كذة الصحة - لذتين، لذة هذا العطف الذي يحاط به والحب الذي يغمره،

ولن أنسى أبداً عطف مدير الكلية وناظرها عليّ وحبّ الطلاب إياي وإني لأسيغ ذكرى الألم إذا تصوّرت هذين الطالبين اللذين كانا يقيمان الليل كله بجانبي، إذا قلت آه أو انقلبت من جنب إلى جنب كانا واقفين أمامي. آثراني على أهلهما وفضّلاً راحتي على راحتهما، أما عطف اخوتي وأهلي فلست أذكره. . .

ولذة أخري، وهي اللذة الكبرى التي يجدها ساعة يلجأ إلى الله، ويدعوه مخلصاً مضطراً، وكنت إذا وصف لي مريض به مثل ما بي اليوم، يُدار بي من الرثاء له، والخوف مما هو فيه فلما غدوت مريضاً، لم أجزع ولم أخف، وكانت تمر بي لحظات أضيق فيها بهذا القيد إلى السرير وهذا الألم، ويبلغ بي الضيق في الليل أقصاه، ولكنها كانت تمر بي لحظات كنت أرضى فيها كل الرضى، وأفئ فيها إلى ربي، وأرى ما أنا فيه امتحاناً لصبري، ونعمة من الله تزيد في أجري، فأطمئن ويبلغ بي الأمر إلى أكثر من الاطمئنان إلى نوع من اللذة الخاصة لا أشعر بمثلها في الصحة، وإلى لون من النشاط والقوة لا أعرفه قط وأنا معافى، وأحسب أن لو أصبت بأشد الأمراض وأقواها، وأنا أقدر على هذا الرضا، وأحس هذا الاطمئنان لما وجدت فيه إلا لذة. هذا ما كنت أجده لا أبالغ ولا أتخيل، فأرجو أن يصدقني القراء، وهذه نعمة من نعم الله الخفية على الإنسان، ومظهر من مظاهر القوة الهائلة التي أعطاه، فلا يحكم الإنسان على المريض أو البائس بظاهره. فيشك في عدل الله ورحمته، ولكن ليدخل إلى الداخل، لعل وراء الجدار الخرب قصراً عامراً، ولعل خلف الباب الضخم كوخاً خرباً، ولعل في هذه الثياب الرثة، وهذا الجسم الممزّق البالي نفساً مشرقة سعيدة وإنساناً كاملاً. . .

وتعلمت من المرض أن المساواة التامة هي سنة الله في الحياة. انظروا المرض هل يعرف غنياً أو فقيراً؟ هل يمتنع منه الملك الجبار رب القصر والحراس؟ وهل تمنع أبوابه وجنده هذا المخلوق التافه الصغير من الدخول؟ سد الأبواب، وأغلق النوافذ،

وأقم الجند بالسلاح، وعش في صندوق مغلق، إنه يدخل مع الهواء الذي تنشقه، والماء الذي تشربه، والطعام الذي تأكله، ويحتل جسمك، ويعيش في عينك وفمك، ويسبح في دمك
ترفع عن المساكين، وتكبر على الفقراء يرجعك المرض إلى صفوف المساكين والفقراء، فتألم كما يألمون، وتصيح مثل ما يصيحون، وكل ما في الحياة يسوّى بينك وبينهم؛ هل
تنشق أيها الغني من الهواء هواء معطراً، وينشقه الفقير بغير عطر، أم إن الهواء وهو قوام الحياة لك وله، قد سوى فيه بينك وبينه؟ هل تشرب ماء العيون معسولة مذاباً فيها السكر، ويأخذها الفقير ملحاً أجاجاً. . إن الهواء والماء والشمس والقمر والصحة والمرض والولادة والموت كل أولئك سطور خط فيها الله على صفحة الحياة: إن الناس متساوون. هل سمعتم أن ابن الملك يولد إذ يولد مرتدياً الحرير، يمشي على رجليه إلى سريره ويلقي بنفسه خطبة ميلاده، ويشرف من شباكه على شعبه، وابن السوقي يولد أخرس عارياً؟ افتحوا القبر المجصص الفخم، وارفعوا ما فوقه من نصب وتماثيل وكتابات ونقوش هل تجدون فيه عظاماً تضوع بالمسك، وتفوح بالند، لأنها كانت تلبس الحرير، وترتدي الديباج؟
هذا ما تعلمته من المرض!
وبعد، فلقد أطلت الكلام، وآن أوان الطعام، ولابد من قطع هذا الحديث! وأنا أحمد الله على الصحة والمرض، وأحمده على كل حال
(بيروت)
علي الطنطاوي
التزوج بالغربيات
تحريمه بفتوى وقانون
لأستاذ جليل
هلاكُ الشيوخ والشبان منا معشر المصريين على التزوج بالغربيات أجلَ أن نهدّم (قاصدين أو غير قاصدين بُلْهاً أو متفلسفين) الأسرة المصرية بل الأمة المصرية - أجبر على كتْب هذه السطور:
قال الله تعالى: (اليومَ أُحِلّ لكم الطيبات، وطعامُ الذين أوتوا الكتاب حِلّ لكم، وطعامكم حلّ لهم، والمحصناتُ من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهنّ أجورهنّ محصنين غير مسافحين ولا مُتخذي أخدان ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عملُه، وهو في الآخرة من الخاسرين)
صدق الله العظيم، وقول الله بيّن، وظاهرُه طوَّع لائمةٍ نكاحَ الكتابية: اليهودية والنصرانية. بيد أن لنزول الآيات أسباباً يوردها المفسرون، وقد يكون المغزى في آية غير ما يلوح أولَّ وهلة. والصحابة والتابعون هم أدرى بكتاب الله ومراميه من تابعي التابعين ومن مجتهدين مولدين محدثين (وللمجتهد فضل وقدر وأجر) فقد جاء في (مفاتيح الغيب):
كان ابن عمر (رضى الله عنهما) لا يرى التزوج بالذمية، ويحتج بقوله: (ولا تنكحوا) المشركات حتى يؤمنّ) ويقول: لا أعلم شركا أعظم من قولها: (إن ربها عيسى) ومن قال بهذا القول أجاب عن التمسك بقوله تعالى (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب) بوجوه: (الأول) إن المراد الذين آمنوا منهم، فإنه كان يحتمل أن يخطر ببال بعضهم أن اليهودية إذا آمنت فهل يجوز للمسلم أن يتزوج بها أم لا، فبين تعالى بهذه الآية جواز ذلك. (الثاني) روي عن عطاء أنه قال: إنما رخص الله تعالى في التزوج بالكتابية في ذلك الوقت لأنه كان في المسلمات قلة، وأما الآن ففيهن الكثرة العظيمة، فزالت الحاجة، فلا جرم زالت الرخصة. (الثالث) الآيات الدالة على وجوب المباعدة عن الكفار كقوله (لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء) وقوله: (لا تتخذوا بطانة من دونكم) ولأن عند حصول الزوجية ربما قويت المحبة، ويصير ذلك سبباً لميل الزوج إلى دينها، وعند حدوث الولد فربما مال الولد إلى دينها، وكل ذلك إلقاء للنفس في الضرر من غير حاجة. (الرابع) قوله تعالى في خاتمة هذه
الآيات: (ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله، وهو في الآخرة من الخاسرين) وهذا من أعظم المنفرات عن التزوج بالكافرة، فلو كان المراد بقوله تعالى: (والمحصنات من

الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) إباحة التزوج بالكتابية لكان ذكر هذه الآيات عقيبها (كالتناقض، وهو غير جائز
وروى محمد بن جرير هذا الخبر معنعنا:
من نساء أهل الكتاب من يحلّ لنا، ومنهم من لا يحل لنا، ثم قرأ: (قاتلوا الذين لا) يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية) فمن أعطى الجزية حل لنا نساؤه، ومن لم (يعط الجزية لم يحلّ لنا نساؤه
فهذا الخبر يُحلّ نكاح النصرانية المصرية (القبطية العربية) لا النصرانية الغربية الأوربية، الأمريكية، و (حنانيك) كما قال الشاعر وجاء في مثل. وفصل الخطاب في هذا الباب عندي وعند كل مصري (مسلم أو قبطي) حريص على وقاية المصرية وصونها ونجاتها - هو خطة (الفاروق) - رضي الله عنه - فقد جاء في (جامع البيان):
شهر بن حوشب قال: سمعت عبد الله بن عباس يقول: نهى رسول الله (صلى . . .) الله عليه وسلم) عن أصناف النساء - إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات - عن كل ذات دين غير الإسلام. وقال الله (تعالى ذكره) ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله. وقد تزوج طلحة بن عبيد الله يهودية، وتزوج حذيفة بن اليمان نصرانية، فغضب عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) غضباً شديداً حتى هَمَّ بأن يسطو عليهما، فقالا: نحن نطلق يا أمير المؤمنين، ولا تغضب، فقال: لئن حلّ طلاقهن لقد حلّ نكاحهن ولكن أنتزعهن منكم صغرة قَمْأة)
إن هذا الشر، شر نكاح الغربيات قد اشتد واستفحل بل استأسد، فإذا لم يُدرك الناسَ في مصر رجالُ الدين والدنيا وشيخ الإسلام ومفتيه وهيئة كبار العلماء، بالدواء الناجع، بالفتوى المحرِّمة، والقانون المانع، دارئين بذلك هذا البلاء، هذه الداهية الدهياء، هذا التزوج بالغربية - فحولقْ (أيها المصري) واسترجعْ، واقرأ الفاتحة (على الأسرة) وقل السلام على (الأمة)!
وإني في هذا المقام أذكّرُ عاملا بقول الله: (وذكّرْ فإن الذكرى تنفع المؤمنين) رئيس الدولة
وشيخ الإسلام بأن (موسوليني) الطلياني و (هتلر) الجرماني قد سارا سيرة (الفاروق) في التحريم. فحرّم الأول على قومه نساء الأحبوش أو الحُبشان، وحرَّم الثاني بنات يَهود. وما لامهما في الناس لائم. وحري بمن امتلّ ملة (الفاروق) - ومن أعرف بدين الله من عمر؟ - أن يستن بسنته، وينقذ من شقاء الدنيا وعذاب الآخرة بني أمته، والله يقول: (أنا لا نضيع أجر المصلحين) (أنا لا نضيع أجر من أحسن عملا)
اللهم، إني قد بلغت في (الرسالة) الإسلامية، العربية، وقلت، وذكّرت
اللهم، اشهد
(الإسكندرية)
(* * *)
أناشيد صوفية
جيتانجالي
للشاعر الفيلسوف طاغور
بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب
- 39 -
حين يتصلّب قلبي ويتحرّق، صب عليّ رشاش رحمتك
حين ينزع الحنان من على الأرض، ابعث إلي بنشيدك العذب
حين يعلو ضجيج العمل فيشمل كل مكان فيباعد بيني وبين الناس جميعاً، أرسل إلي - يا إله الصمت - فيض الهدوء والأمان
حين يخرّ قلبي الضعيف ساجداً في عزلته، افتح الباب - يا مليكي - وتعال إليّ في أبهة الملك
حين تعمي الرغبة الملحة قلبي وتنفث فيه الغواية، إليّ - أيها المقدس - في برقك ورعدك
- 40 -
لقد كفّ غيثك - يا إلهي - عن قلبي الظمآن منذ أيام وأيام، والأفق قفر ليس فيه

غمامة رقيقة ولا أثر قطرة واحدة
وإذا شئت فانفخ من عواصفك الهجوم ما يحمل ريح الموت ثم املأ السماء بالبرق الخاطف
ولكن رُدَّ عني - يا إلهي - هذه الحرارة المتسعرة الصامتة فهي في شدتها وقسوتها تلفح القلب بنار اليأس القاتل
ثم دع سحائب الرحمة تنهل علينا من علٍ كأنها نظرات أم عطوف ترى الأب يتنزّى غضباً فتترقرق فيها عبرات الحنان
- 41 -
يا من أحب، أين مكانك من وراء الزمر، وأنت تتوارى في ظلالهم؟ إنهم ينطلقون على الطريق التّرب، يمرون بك فلا يلتفتون إليك؛ وأنا هنا أنتظر الساعات الطوال في قلق وبين يدي الهدايا، وحين يمرون بي يلتقطون زهوري واحدة واحدة وسلتي تكاد نفرغ
لقد تصرَّم النهار، وجاء الليل ينشر ظلامه، والنعاس يداعب جفنيّ، والناس ينطلقون إلى دورهم، وفي أعينهم نظرات التهكم والسخرية، وفي قلبي الخجل. إنني هنا أنتظر في جلسة الشحاذ، أرخي فضل ثوبي على وجهي، وحين يستخبرونني أعرض عنهم في صمت
أوه، كيف أخبرهم بأنني أنتظرك وأنني منك على ميعاد؟ كيف أستطيع أن أقول لهم إنني أقدم فقري مهراً لك؟ آه، سأكتم كبريائي في أعماق قلبي
أنني أقضي الساعات على الحشائش الخضراء أحدق في السماء وأرخي لخيالي العنان
أحلم بساعة اللّقيا الجملية - فيخيل إليّ أن النور يسطع وأن الرايات الذهبية تخفق فوق مركبتك، والناس على جانبي الطريق يحدقون في ذهول حين يرونك تهبط من عليائك لتنتزعني من التراب، ولتجلس إلى فتاة فقيرة ترتدي الأسمال، وهي تضطرب من أثر الحياء والكبرياء كأنها حشرة تتهادى بين نسمات الصيف
إن الساعات تمر وأنا لا أحس صوت عربتك. كم حفل مر بي في ضجة ولجب فيه سحر الأبهة! أفتبقى أنت من ورائهم تتوارى في صمت وأنا أقضي حياتي أنتظر عبثاً أبكي وقلبي يتفطر؟
- 42 -
في بكرة الصباح سمعت همسة: ستبحر معه في قارب، أنتما معاً فقط، وما في العالم من يعرف شيئاً عن هذه السفرة، فهي إلى غير غاية وإلى غير نهاية
في أضعاف ذلك اليم اللانهائي وعند بسمتك الرقيقة الهادئة ستحور أغانيّ إليّ لحن طليق كالموج. . . لحن لا تحده الألفاظ
أفلم يأن لي؟ أفلا يزال هناك ما يشغلك عني؟ يا أسفا! لقد أسدل الليل أستاره على الشاطئ ونزع الطير إلى وكره
من يدري متى ترفع السلاسل ويندفع القارب فيتوارى في أحشاء الليل كأنه آخر شعاع من أشعة الطّفَل؟
- 43 -
ما كنت أهيئ نفسي للقياك حين وجدت السبيل إلى قلبي، فدخلت إليه - يا مليكي - دون إذن كأنك واحد من الشعب غريب عني، فطبعت على لحظات من عمري بطابع الخلود
واليوم كشفت عن تلك اللحظات - على حين فجأة - فألفيتها منثورة على التراب وعليها خاتمك ومزاجها ذكرى أيام قليلة من حياتي الغابرة فيها الأسى والطرب في وقت معاً
لا ترتد عني محتقراً سني طفولتي حين كنت ألهو باللعب في التراب، فإنه ليتراءى لي أن خطواتي وأنا أدرج في حجرتي بين اللعُب تشبه تلك التي يدوي صداها بين النجوم
- 44 -
إن متعتي في أن أجلس على جانب الطريق أنتظر وأرقب الظلام وهو يطارد النور، والمطر وهو يتعقب صفاء الصيف
ورسلك يمرون بي وعليهم بشرى السماء يحيونني وينطلقون في سبيلهم فيهتز قلبي طرباً وأنا أستروح النسمات الحلوة
من الفجر لدن الغسق وأنا جالس بازاء بابي لأنني أوقن بأن فترات السعادة آتية لا

. . .مرية فيها، آتية حين أرى
في هذا الحين سأخلو إلى نفسي أبسم وأترنم والهواء يتضوع بأريج الوعد
- 45 -
أفلم تحس وقع خطواته الهادئة؟
هو آت. . . آت. . . ودائماً هو آت
في كل لحظة وحين، في كل يوم وليلة؛ هو آت. . . آت. . . ودائماً هو آت
لقد شدوت بألحان كثيرة ما تزال رناتها تقول: (هو آت. . . آت. . . ودائماً هو آت)
في اليوم الصحو العطر من شهر أبريل، وعلى طريق الغابة هو آت. . . آت. . . ودائماً هو آت
في عبوس الليلة المطيرة من شهر يوليه، وعلى مركب السحب المزمجرة هو آت. . . آت. . . ودائماً هو آت
إن خطواته هي التي تسحق قلبي في لحظات الأسى والحزن ولكن لمسات قدميه الذهبية
هي التي تبعث الطرب في قلبي مشرقا
- 46 -
لست أدري منذ كم من الزمان وأنت تهفو تريد لقياي؛ وما تستطيع شمسك ولا كواكبك أن تحجبك عني إلى الأبد
ما يزال وقع قدميك يرن في مسمعيّ كل صباح وكل مساء، وما يزال وحيك يهتف في قلبي ويناديني سراً
لست أدري لماذا تضطرب حياتي في هذه الأيام، وفي قلبي نبضات السرور
لكأني أرى الأيام تهم لتنجز عملي، وأنا أستروح النسيم الحلو يبشرني بقدومك
- 47 -
أوشك الليل ينحسر وأنا أنتظر عبثاً. إنني أخشى أن يحضر والفجر، وقد غلبني النعاس والتعب معاً. فيا صاحبي دع الطريق أمامه مفتوحاً ولا تقف في سبيله
وإذا لم توقظني خطواته فلا تفزعني أنت عن منامي؛ فما أريد أن يزعجني عند انبثاق الفجر، لحن الطائر الغرّيد، ولا زفيف الريح. ذرني هادئاً في نومي ولو جاء سيدي إلى بابي
أيها النوم، أيها النوم اللذيذ، إنك تنتظر لمساته لتطير عني. آه، سنفض نورُ بسماته عن عينيَّ ثقلَ الكرى، وهو أمامي كأنه حلم لذيذ يلمع بين ظلمات الهجوع
فليأت أمام ناظريّ كأول شعاع أضاء وكأول شبح بدا. إن نظرّاته ستبعث في حياتي العابسة أول هزات الطرب. وحين أعود إلى نفسي فلتكن عودتي إليه هو
- 48 -
إن صمت الفجر العميق يمزقه رجع تغريد الطير؛ والأزاهير نشوى على جانبي الطريق، وبين تفاريق السحب تنثر الثروة الذهبية؛ أما نحن فنهرع إلى العمل في شغل لا نلتفت
ليس في ألحاننا النشوة والطرب؛ ولم تنطلق إلى القرية طلباً للفائدة؛ ولم تنفرج شفاهنا عن كلمة أو ابتسامة، وما تريثنا على الطريق؛ ولكن رحنا نستحث الخطو كلما انطوى الزمن
تكبدت الشمس السماء والبط يمرح تحت وارف الظل، وأوراق الشجر تضطرب في الهاجرة، وغفا الراعي في ظل شجرة الرند يحلم؛ أما أنا فاستلقيت إلى جانب الغدير مرسلاً أطرافي المكدودة على الحشائش
لقد سخر مني صحابتي وانطلقوا في سفر فلم يعقب واحد منهم ولم يستأن، ثم غابوا عند الأفق. لقد اجتازوا مهامه ومروجاً وبلاداً نائية عجيبة. لك المجد يا من تملك الطريق اللانهائي! إن السخرية واللوم أفزعاني عن مكاني، وإن لم أجد الرضا في نفسي فلقد فقدت نفسي في أعماق الخشوع الجميل. . . فقدتها في ظلال النشوة الغامضة
إن وشي الشمس الجميل انتشر في بطء على قلبي فإنساني ما انطلقت على أثره فأسلمت عقلي - في غير عناد - إلى مباهج الظل والأغاني
وأخيراً حين استيقظت من سباتي وجدتك إلى جانبي تنزع عني النوم بابتساماتك. كم

خشيت أن يكون الطريق إليك طويلا وعراً، وأن يعجزني أن أصل إليك!
كامل محمود حبيب
بين القاهرة واستنبول
للدكتور عبد الوهاب عزام
- 3 -
المتحف العسكري
يا أخي صاحب الرسالة
سلام عليك. لا أقول هذه ثالثة الرسائل خيفة أن تقول في نفسك (ثالثة الأثافي) بل أقول هذه الرسالة الثالثة أرسلها إليك من استنبول لأصف لك مما رأيت خرجت من مسكني في تقسيم أؤم المتحف العسكري ومعي زميلي الدكتور زيادة، فلما أجزنا الجسر - جسر غلطة شرعت السماء تردّنا، حتى إذا بلغنا ساحة أياصوفيا وملنا شطر قصر (طوب قبو) انهمر المطر فأوينا إلى الباب، وهو باب شاهق واسع عليه الطغراء السلطانية، يمتدّ على جانبه سور عال كأسوار القلاع، أوينا إليه مع من ألجأهم المطر؛ وازداد المطر انهماراً فطال بنا الوقوف. ولست أنسى مشهداً رائعاً شهدته هنالك: إلى اليسار سبيل السلطان أحمد في جمال هندسته وحسن نقشه، وحليٍّ من الخط والمعنى تتجلى بها أبيات من الشعر أطافت به؛ وإلى اليمين جامع أياصوفيا يبدو جانب من قبته ومأذنتان من مآذنه الأربع؛ وأمامي على بعد جامع السلطان أحمد في جلال قبابه. وجمال بنائه، قد علت قبته ومآذنه السّت أهّلةٌ ذهبية يزيدها المطر اشتعالاً. وهيهات أن تذهب بنور التوحيد سُدَف الدجن أو شآبيب المطر، وجامع السلطان أحمد أجمل جوامع استنبول في رأيي وأكثرها إضاءة في قلب الداخل وعينه. ما يزال الطرف يتقلب بين جدرانه وأساطينه وقبابه حتى إذا بهره الجمال والجلال استراح إلى مرأى البحر من خلال النوافذ الزجاجية الجميلة. وقد دخلته قبل ثماني سنين، فلما رأيت هذه الأساطين الأربع الهائلة قلت (يا لك أربعة أساطين حملت الدنيا والدين!)
خف المطر فأسرعنا صوب المتحف العسكري فإذا هو مقفل إلى الظّهر فأوينا إلى باب (الضربخانة). ولما أذن المطر بالمسير انصرفنا نسير في أرجاء المدينة. ثم عدنا إلى المتحف، وهو في كنيسة قديمة اسمها سنت أدنيا، رُصّت خارجه مدافع كثيرة جاهدت في
عصور مختلفة. فيها مدفع كبير بجانبه قذائف مكورة من الحجر وقد نقش عليه بالعربية بيتان يدلان على أنه من مدافع سليمان، وأنه صنع سنة 928هـ وهناك مدافع أخرى نقش عليها أسماء صانعيها؛ وأمام المتحف قنبلة سوداء مخروطية طويلة هي بعض ما ألقاه الأسطول الإنكليزي على الجيوش العثمانية حينما سدّت طريق الدردنيل بأبدانها وإيمانها
وفتحنا الباب فإذا دهليز على جانبيه تمثالان لجنديين دارعين من انكشارية القرنين الثامن والتاسع من الهجرة. ثم سلكنا الدهليز بين بنادق كثيرة من صنع القرن الماضي والقرن الحاضر. ولست أستطيع ولا أستحسن أن أصور لك كل ما رأيت في هذا المعرض العظيم من تاريخ الصناعات ومجد العثمانيين وعبر التاريخ: أكدس من الوقائع والعبر، يضيق عنها النظر والفكر، وإنما أصف لك ما غلب على الذاكرة، من بينها: المتحف كنيسة قديمة تقوم على ساحتها قبة كبيرة عالية ويدور بها طبقتان من الأروقة سرنا في الرواق إلى اليمين ودرنا معه فإذا بنادق ومدافع وآلات حربية كثيرة ومناظر لبعض الحروب، حتى انتهينا إلى سيارة في نوافذها ثقوب؛ فهذه السيارة التي قتل فيها المرحوم محمود شوكت باشا وهو صدر أعظم في عهد السلطان محمد الخامس؛ وبعدها صور وآثار كثيرة لمتأخري القواد العثمانيين: علمدار مصطفى باشا ومختار الغازي وأنور وغيرهم. ثم خرجنا إلى وسط الكنيسة فرأينا في صدرها صورة الغازي مصطفى كمال باشا بجانبها أنواع من الأسلحة القديمة والحديثة. وسرنا قليلاً فإذا درع قديمة تتخطاها العين غير حافلة، حتى إذ أوقفها التطلع قرأت عليها: (درع الفاتح) فأخذها جلال الذكرى وأدركت فرق ما بين المظاهر والحقائق، بجانب الدرع سيوف من ذلك العهد وتروس محكمة الصنع منها ترس محمود باشا أحد الصدور في عهد الفاتح، وترس يعقوب جلبي بن السلطان مراد الأول. ويقال إن السلطان بايزيد أمر بقتله وهو

يتعقب العدو في موقعة قوصوه الأولى سنة 791، ثم سيوف لسليمان القانوني فيها سيف كتب عليه:
على الله في كل الأمور توكلّي ... وبالخمس أصحاب العباء توسُّلي
ورأينا بعد هذه خوذات أهداها نابليون إلى السلطان سليم الثالث، وعلماً رفعه العثمانيون في موقعة قوصوه الأولى، ثم مخلفات السلطان عبد الحميد. وهكذا نطوي العصور في لمحات. فالفاتح وبايزيد وسليم وعبد الحميد طواهم التاريخ في سجله، وجمعهم الزمان في معرضه،
فدار بهم الزائر في خطوات، وحواهم بطرف في نظرات، وقبض الدهر هذه العصور المتطاولة في كلمة واحدة: (الماضي) . . .
وفي الدهليز الذي إلى اليمين سنان رمح كان للإمبراطور جستنيان، وبركار كان للمعمار سنان. قلت لنفسي: شتان ما بين السنانين هذا للحرب والفناء، وهذا للعمران والبقاء. قد فنيت آثار سنان جستنيان، وللفناء كان طعانه، وبقيت آثر بركار سنان، وللبقاء كان بنيانه. وحسب سنان خلودا هذا الجامع الرائع والأثر العظيم الذي يدل على الصانع: جامع السلطان سليمان. على أن هذه اليد الماهرة المعمرة شادت في أرجاء المملكة أربعمائة بناء (عمر المعمار سنان أكثر من مائة عام وتوفى سنة 996 ودفن في الجامع الذي ينسب إليه في استنبول) وبعد هذين صورة تمثل الأمير البطل عبد القادر الجزائري وهو يقابل القائد الفرنسي بعد معاهدة تفنة سنة 1838م
وفي الطبقة الثانية تماثيل كثيرة تمثل رجال الدولة وخدم الملوك في أزيائهم القديمة. فهذا شيخ الإسلام على أريكة قد جلس أماه أعوانه، وهذا قاضي العسكر بجانبه قاضي مكة وآخرون. وهذا أغادار السعادة، وهذا قزم كان يضحك السلاطين، وهذه صور الانكشارية في أزيائهم العجيبة، وهذا الجلاد واقفاً كالقضاء ينفذ أمر السلطان - صور من التاريخ مبكية مضحكة، وفي هذه الطبقة خرائط مجسَّمة تمثل القسطنطينية وما يحيط بها، وألواح فيها آيات من القرآن أو كلمات مأثورة . . .
وبعد فحسبي اليوم هذه السطور. ولعل الرسالة الآتية تبلغك عما قليل، والله يرعاك
والسلام عليك
استنبول 3 أغسطس سنة 1937
عبد الوهاب عزام

للأدب والتاريخ
مصطفى صادق الرافعي
1880 - 1937
للأستاذ محمد سعيد العريان

- 18 -

كتب كاتب في العدد الأخير من مجلة المقتطف الغراء شيئاً بعنوان (سيرة الرافعي)) فيه أشياء أعرفها ويعرفها قراء الرسالة، وفيه أشياء لا أعرفها ولم أسمع بها على طول صحبتي للرافعي وما رويت من خبره عن أهله وخاصته، وفيه أشياء أنا على خلافها؛ ولو كان لي أن أعرف مصادر الكاتب إلى هذا العلم لاتهمت نفسي؛ ولكني أحسب كل مصادره أنه يسرف في الاستنباط، فرجائي إليه أن يمايز بين أجزاء الكلام ليعرف ما هو له وما هو للحقيقة، فإن فكر المفكر غير حوادث التاريخ، وما تراه أنت رأياً في الحادثة قد يراه غيرك على نقيض؛ والحياة حادثة وقصة واحدة لا خلاف فيها، ولكنها على اختلاف من ينظر فيها من أهل الرأي والفلسفة قصص وحيوات؛ وإن عليّ للرافعي لديناً يدعوني إلى السهر على تراثه، فمن ذلك أرى عليّ أن أتوجه إلى الكاتب بهذا الرجاء، وأن أتوجه بالعتب إلى الأستاذ فؤاد صروف القائم على تحرير المقتطف، وهو الخبير بموازين الكلام، وهو هو الذي كان للرافعي صديقاً من خاصة أصحابه وأصفيائه)
(العريان)

الرافعي الناقد

سأحاول في هذا الفصل أن أتحدث عن شيء مما كان بين الرافعي وأدباء عصره، وإنه لحديث شائك، وإنني منه لفي حرج شديد. لقد مات الرافعي ولكنه خلف وراءه صدى بعيداً مما كان بينه وبين أدباء عصره من الخصومات الأدبية؛ فما أحد منهم إلا له عنده

ثأر، وفي صدره عليه حفيظة أو له عليه معتبة. ولقد اهتزت بلاد العربية كلُّها لنعي الرافعي وما اختلجت نفس واحد من خصومه فكتب إلى أهله كلمة عزاء، إلا رجلاً واحداً هو الدكتور
طه حسين بك، إذ كتب برقية إلى ولده؛ فلا جرم كان بذلك - على تفاهته - أنزهَ خصوم الرافعي وأعرَفهم بالأدب اللائق!
ولقد مضى بضعة أشهر منذ ترك الرافعي دنياه؛ فهل رأيتَ أحداً منهم كتب شيئاً عنه يناله بالمدح أو المذمة؟ وهل رأيت اللجنة التي اجتمعت لتأبينه قد استطاعت أن تحمل واحداً من هؤلاء على أن يشاركها فيما تعمل لتأبين الرافعي، أو قل لتأريخ عصر من عصور الأدب قد انطوى تاريخه بين أعيننا ويوشك أن يضيع في مدرجة النسيان؟
ليت شعري أكان الرافعي من الهوان في المنزلة الأدبية بحيث لا يذكره ذاكر من زعماء الأدب العربي ولما ينقض على موته بضعة أشهر، وبحيث تجتمع له لجنة التأبين وتنفض وتحدد الموعد ثلاث مرات ثم لا تجد من يتقدم إليها ليقول في تأبين الرافعي فتوشك أن تنسأ الأجل إلى غير ميعاد. . .؟
ولكنه هو - يرحمه الله - الذي ألَّب على نفسه هذه العداوات حياً وميتاً. لقد كان ناقداً عنيفاً حديد اللسان، لا يعرف المداراة ولا يصطنع الأدب في نضال خصومه. وكانت فيه غيرة واعتداد بالنفس؛ وكان فيه صراحة وصرامة؛ وكان له في الأدب مذهب وحده؛ وكان فيه حرص على اللغة (من جهة الحرص على الدين، إذ لا يزال منهما شيء قائم كالأساس والبناء: لا منفعة فيهما معا إلا بقيامهما معا) وكان يؤمن بأنك (لن تجد ذا دِخْلة خبيثة لهذا الدين إلا وجدتَ له مثلها في اللغة). . . فكان بذلك كله ناقداً عنيفاً، يهاجم خصومه على طريقة عنترة: يضرب الجبان ضربة ينخلع لها قلب الشجاع!. . .
اقرأ له في أول كتاب المعركة: (. . . إنما نعمل على إسقاط فكرة خطرة، إذا هي قامت اليوم بفلان الذي نعرفه، فقد تكون غداً فيمن لا نعرفه؛ ونحن نرد على هذا وعلى هذا برد سواء، لا جهلّنا من نجهله يلطّف منه، ولا معرفتنا من نعرفه تبالغ فيه. . . فإن كان في أسلوبنا من الشدة أو العنف، أو القول المؤلم أو التهكم، فما ذلك أردنا؛ ولكنا كالذي يصف الرجل الضال ليمنع المهتديَ أن يضل، فما به زْجرُ الأول بل عظة الثاني. . .)
وأول ما أعرف للرافعي في النقد، مقاله في الثريا عن شعراء العصر في سنة 1905؛ ثم مقاله في الرد على المرحوم المنفلوطي في المنبر، وكان نشر مقالاً يعارض به رأي الرافعي في الشعراء وينتصف به لصديقه المرحوم السيد توفيق البكري، فكتب المرحوم
حافظ إلى الرافعي يقول: (قد وكلت أمر تأديبه إليك. . .!)
ثم كانت مصاولات أدبية بينه وبين الجامعة المصرية غداة نشأتها في سنة 1908، ثم مقالات عن الجديد والقديم، والعامية والفصحى، في مجلتي البيان والزهراء؛ ثم خصومة بينه وبين لجنة النشيد القومي في سنة 1921؛ ثم وقعت الواقعة بينه وبين الدكتور طه حول كتاب رسائل الأحزان في سنة 1924 في السياسة الأسبوعية؛ فكان هذا أول ما بينهما؛ ثم كانت المعارك العنيفة بينه وبين العقاد، وبينه وبين عبد الله عفيفي، وبينه وبين زكي مبارك، إلا ما لا ينتهي من المصاولات بينه وبين أدباء عصره على أن أشهر هذه المعارك شهرةً هو ما كان بينه وبين طه وبينه وبين العقاد، بل لعلها أشهر وأقسى ما في العربية من معارك الأدب، وإنها لجديرة بأن يؤرخ بها في تاريخ النقد كما كان العرب يؤرخون بأيامهم. . .!
وإنني لأشعر أن عليّ واجباً أن أكشف عما أعرف من الأسباب الخاصة أو العامة التي نشأت بها هذه الخصومات الأدبية أو انتهت إليها، وإنني لأشعر بجانب ذلك أنني أكلف نفسي بهذا فوق ما أستطيع
إن كل ما تناولته إلى الآن من تاريخ الرافعي كان له هو وحده، فلا عليَّ مادمت مطمئن النفس إلى ما أكتب؛ أما الآن. . . أما الآن فسيكون إلى جانب اسم الرافعي أسماء، وإنهم لذوو حول وسلطان، فما أدري أيرضون ما أكتب عنهم أم يسخطون. ولقد رأيت ما فعلتْ بالرافعي شجاعتُه فمات لم يذكره أحد منهم أو يترحم عليه؛ وما أنا كفء لهذه العداوات، ولست لها بأهل، وما لي طاقة بالدفاع عن نفسي، ولا لي أنصار ذوو لسان وبيان، وما تهون عليَّ نفسي. . .!

ولكن. . . ولكن من عَذيري يوم الحق من كتمان الشهادة؟ ولكن. . . ولكن ما أنا إلا راوية يكتب ما رآه لا ما ارتآه. ولكن. . . ولكنَّ فلاناً وفلاناً اليوم أناسيّ تصول وتجول، وإنها غداً لصفحات من التاريخ تتحدث. ولكن. . . ولكن التاريخ قد وقع فلا سبيل إلى مَحْوٍ فيه أو إثبات. ولكن. . . ولكن الندم على ما كان لا يمحو من تاريخ الإنسان ما كان. . .

فهذا عذري عند فلان وفلان ممن يتناولهم حديثي بما يغضب أو يسوء، فإن كان لي عندهم عذر من الكتمان إن كتمت الشهادة فليحدثوني لأطوي من الحديث ما قد يغضب أو يسوء. .

أمَا وإن تاريخ الرافعي في هذا الفصل هو تاريخ الأدب في جيل من الأدباء، فإن كان من حق أحد أن يعتب عليّ لنشر هذا الفصل فإن حق الأدب لأوجب؛ وما أريد من فلان وفلان شيئاً، وما لي عندهم حاجة ولا لهم عليّ يد؛ فليغضب من يغضب للحق أو لنفسه فلا عليّ من غضبه أو رضاه، وإني لماض فيما أنا بسبيله. . .

بين الرافعي وطه

في سنة 1922 كانت السياسة الأسبوعية هي صحيفة الأدب والثقافة؛ وفيها كان يعمل الدكتور طه حسين في الأدب وفي السياسة معاً؛ ولم يكن بين الرافعي وطه يومئذ شيء يثير ثائرة في الصدر، أو يدعو إلى عتاب وملامة، ولكنّ إرهاصات كانت تسبق ذلك ببضع عشرة سنة. . .

كان طه حسين في سنة 1909 هو الطالب المرموق في الجامعة، وكان الرافعي الشاعر ماضياً في الشعر على سنته، لا يعرف له أحد مذهباً غير الشعر؛ فلما نشر مقاليه المشهورين في (الجريدة) ينقد بهما أساليب الأدب في الجامعة، تنبهت إليه العيون؛ فلما أنشأ كتابه تاريخ آداب العرب في سنة 1911، عرف الأدباء الرافعي العالم المؤرخ الرواية، وعرفه طه حسين الطالب بالجامعة.

أفكان الطالب طه حسين يرشح نفسه من يومئذ ليكون أستاذ الأدب بالجامعة، فنفس على الرافعي أن يؤلف كتاباً في تاريخ آداب العرب فكتب ينقد كتابه ويقرر أنه لم يفهمه، ثم يقررها ثانية في نقد (حديث القمر) وثالثة في (رسائل الأحزان)؟

الحق أن الرافعي كان يطمع في أن يكون إليه تدريس الأدب في الجامعة منذ أنشئت الجامعة، وقد كشف عن رغبته هذه في مقاليه الأول والثاني بالجريدة؛ ولكن طه يومئذ كان طالباً في الجامعة، فمن الإسراف في المزاح أن ننسب ما كان بينهما من بعدُ إلى النفاسة أو المنافسة على كرسي الآداب في الجامعة! ولكنه صدر من تاريخ هذه الخصومة الأدبية له قدره في هذا الفصل فلابد من الإشارة إليه

ونفخت السياسة الأسبوعية في الأدب روحاً جديدة، واتخذت لها أسلوباً في الدين وفي العلم وفي الأدب، قال عنه جماعة من الأدباء: إنه إلحاد وكفر وضلال. وقالت طائفة: إنه المذهب الجديد في الدين والعلم والأدب. ثم مضت السياسة بما تكتب وبما تفسح من صدرها للكتاب، تقسم الأدباء إلى فرق ومعكسرات، وقديم وجديد، ورفعت في الجهاد راية. . .

والرافعي رجل - كان - فيه عصبية للدين، وعصبية للقديم؛ فأيقن منذ قرأ العدد الأول من السياسة الأسبوعية أن سيكون له شأن مع السياسة وكتاب السياسة في غد. . .

ونال الرافعي رشاش من بعض المعارك وإنه لبعيد عن الميدان، فأحس في نفسه رغبة في الكفاح فتحفز للوثبة. . .

ودسّ كلمةً إلى طه يذم أسلوبه بما يشبه المدح، ويعيب عليه التكرار وضيق الفكرة، فنشرها طه في السياسة قبل أن يستبين مغزاها وما ترمي إليه. . . ثم عرف وتهيأت أسباب الحرب ولم يبدأ أحدٌ بالعدوان. . وتربّص الرجلان في انتظار السبب المباشر لبدء المعركة. . .

ثم أصدر الرافعي رسائل الأحزان، فسعى راجلاً إلى دار السياسة ليهدي إليها كتابه. وهناك التقى الرافعي وطه حسين وجها لوجه. . . ونظر الرافعي إلى طه، واستمع طه إلى حديث الرافعي، وتصافح الخصمان قبل أن يصعدا إلى حلبة المصارعة، ونفخ الدكتور هيكل بك في صفارة الحكم، وبدأت المعركة. وكانت مشادة حادة خرج الرافعي يتحدث عنها وصمت طه

لمن يا ترى كانت الغلبة؟ الرافعي يقول: أنا. . . ولكن طه لا يتكلم، والدكتور هيكل ضنين بالحديث
ومضت فترة، ثم نشر طه حسين رأيه في رسائل الأحزان في السياسة الأسبوعية، فرفع راية العداء وأعلن الحرب. ورد الرافعي يقول:
يسلّم عليك المتنبي ويقول لك:
وكم من عائب قولاً صحيحاً ... وآفته من الفهم السقيم!
ثم مضى في رده يهزأ ويسخر ويتجنى ويتحدى، في مقال طويل تقرؤه في ص 109 - 122 من كتاب المعركة؛ وطارت الشرارة الأولى، فاندلعت ألسنة النار فما خمدت حتى أحدثت أزمة وزارية، وأنشأت جفوةً بين سعد وعدلي، وأوشكت أن تؤدي بعلي ماهر إلى
. . .المحاكمة، وهزّت دوائر البرلمان، ثم انتهت في النيابة العمومية
وفي الأسبوع المقبل بقية الحديث عما كان
(شبرا)
محمد سعيد العريان
أبو إسحاق الصابي
للأستاذ عبد العظيم علي قناوي
- 2 -
لعل أبا اسحق الصابي أصدق مثل يضرب لمن يماري في وجوب نزول الآباء على إرادة الأبناء فيما يحبون من فروع العلوم أو ينزعون إليه من آفنان الفنون، وأن خير ما يؤخذ به المتعلم هو الرغبة الحافزة لا الرهبة القاسية، إذ لا يرتجي كثير نجاح في قسر الأبناء على علم بعينه يريده الآباء، ولا أخذهم بدراسة مخصصة لا يبغيها أولئك ويحتمها هؤلاء، فإن ذلك قاتل لملكاتهم رافع بهم إلى الاستيئاس من النجاح، أو على الأقل الأدنى نازع بهم إلى القصور في كل علم، والتقصير فيما لا يميلون إليه من الفن، وضارب بهم في مهامه لا يعرفون وجه المحجة فيها، وموقع بهم في مفاوز إن نجوا منها فبعد لأي وعناء؛ ولاسيما متى كان ذكاؤهم محدوداً ونبوغهم قاصراً. ورضى الله عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب حيث يقول: (لا تقسروا أبناءكم على آدابكم، فإنهم خلقوا لزمان غير زمانكم) وإذا كان رضوان الله عليه قد قصد بالتأديب معناه الأخص فهو على وجه العموم أولى، ويشموله كل أدب أجدى
دفعني إلى تلك التقدمة أني رجل تربية من واجبي تنبيه الأذهان إلى ترك الحرية العلمية للتلميذ ينهج فيها نهجه الذي يحبه. فلقد حاول أبو الحسن والد إبراهيم الصابي تعليمه منذ نشأته صناعة الطب وحذق الحكمة سيرا على سنن آبائه ونهجا على منهج أسلافه، إذ كان جلهم رجال طب وحكمة. وبذل في سبيل ذلك غاية الجهد، وجهد لتنفيذ أربته إلى أقصى غاية، وقد وجد من ابنه سميعاً ومن إبراهيم مطيعاً، لا عن رغبة وحب، بل عن رهبة وأدب، وقسر وزجر. ولو غير أبي إسحاق لرمى بكلام أبيه عرض الأفق، ولكنه كان باراً بأبيه عالماً بواجبات الأبوة لا يعصى له أمراً وإن جاء قاسياً، ولا يخالف له رأياً وإن بدا له رأياً خاطئاً، وإن هذه النزعة فيه نزعة البر والحدب والحب والولاء ليعبر عنها شعره تعبيراً قوي الأسر صادق النزعة، فهو أي أن الإنسان بعد فقد والديه ليس شيئاً مذكوراً، وأنه يعيش في الدنيا غريباً، لأنه لا يجد فؤاداً يحنو عليه ولا عيناً ترمقه، وأنه يعيش - متى كان حي الوجدان - جنيب صفاء وأليف شقاء، فمن هذا قوله:
أسرة المرء والداه وفيما ... بين حضنيهما الحياة تطيب
فإذا ما طواهما الموت عنه ... فهو في الناس أجنبي غريب
ولا يختلف شأنه مع أبنائه عن شانه مع والديه، فإنه ليعطف عليهم عطف الأم الرءوم لا الأب الرحيم، ويتجاوز عن جرائرهم ويجعل هفواتهم دبر أذنه، حتى لا تقع عليهم لعنة الله ولا تحق فيهم كلمته؛ شأن الأب الكريم، وشيمة الرجل الحليم الحكيم. وهو إذ يتحدث عن ذلك يتحدث في زهو، ويقصه في فخر معلما أولئك الآباء القساة طرائق في التربية تسعدهم وتسعد أبناءهم، ومتى أغنت النظرة فلا حاجة إلى الكلمة، وفي مثل ذلك يقول:
أرضى عن ابني إذا ما عقني حذَرا ... عليه أن يغضب الرحمن من غضبي
ولست أدري بما استحققت من ولدي ... أقذاء عيني وقد أقررت عين أبي

واستمع إليه يرد على رسالة وردته من ابنه أبي علي المحسّن كان قد كتبه تسلية له في إحدى نكباته، وجاء في رسالة أبي علي هذان البيتان:

لا تأس للمال إن غالته غائلة ... ففي حياتك من فقد اللّهى عوض
إذ أنت جوهرنا الأعلى وما جمعْت ... يداك من تالد أو طارف عَرَض

فكتب تلك الأبيات التي أحسبها من حبات قلبه نسيجها، ومن عبرات عينيه نظيمها، فكل حرف شفقة وعطف، وكل كلمة بر ورحمة، قال:

يا درة أنا من دون الردى صدف ... لها أقيها المنايا حين تعترض
قد قلت للدهر قولاً كان مصدره ... عن نية لم يشب إخلاصها مرض
دع المحسّن يحيا فهو جوهرة ... جواهر الأرض طرا عندها عرض
فالنفس لي عوض عما أصبتُ به ... وإن أصبت بنفسي فهو لي عوض
أتركه لي وأخاه، ثم خذ سلبي ... ومهجتي فهما مغزاي والغرض

فلا غرو إذا ما نزل، وهذا خلقه وتلك شيمه، على أمر أبيه كارهاً، وأطاعه تكلفاً، وجامله فيما كلفه إياه مصانعاً، فتعلم الطب مخلصاً في تعلمه، وإن لم ينته عن التعرض لما تصبو إليه نفسه، ويرغب فيه طبعه، فكان يزاول في أوقات خلوته وسويعات فراغه من كتب الحكمة - أشتات علوم اللغة والأدب وما إليهما، فإن علم أبوه ذلك عنه نهاه وزجره، حتى يأخذ فيما يؤهله له، ولا يصرف وقته فيما لا غناء فيه في نظره. وأجدر بي أن أسوق

حديث أبي إسحاق عن نفسه في هذا الموقف، فإنه يقول: (كان والدي أبو الحسن يلزمني في الحداثة والصبا قراءة كتب الطب والتحلي بصناعته، وينهاني عن التعرض لغير ذلك، فقويت فيها قوة شديدة، وجعل لي برسم الخدمة في (البيمارستان) عشرون ديناراً في كل شهر، وكنت أتردد إلى جماعة من الرؤساء خلافة له، ونيابة عنه، وأنا مع ذلك كاره للطب، ومائل إلى قراءة كتب الأدب، كاللغة والشعر والنحو والرسائل والأدب؛ وكان إذا أحس بهذا مني يعاتبني عليه، وينهاني عنه، ويقول: يا بني لا تعدل عن صناعة أسلافك. فلما كان في بعض الأيام ورد عليه كتاب من بعض وزراء خراسان يتضمن أشياء كثيرة كلفه إياها، ومسائل في الطب وغيره سأله عنها، وكان الكتاب طويلا بليغاً، قد تأنق منشئه وتغارب. فأجاب عن تلك المسائل، وعمل جملا لما يريده، وأنفذها على يديّ إلى كاتب لم يكن في ذلك العصر أبلغ منه، وسأله إنشاء الجواب عنه. قال: فمضيت وأنشأت أنا الجواب، وأطلته وحررته، وجئت به إليه، فلما قرأه قال: يا بني سبحان الله! ما أفضل هذا الرجل وأبلغه! فقلت له: هذا من إنشائي، فكاد يطير فرحاً، وضمني إليه، وقبلني بين عيني، وقال: قد أذنت لك الآن، فامض فكن كاتباً

ومن ذلك اليوم هجر أبو إسحاق الطب إلى الأدب وقلى الحكمة ليواصل اللغة، فكان كاتباً أريباً وشاعراً مجيداً، جرى اسمه في كل مجلس، سواء في ذلك مجالس الأنس والنحس، وحلق في كل أفق لا يبالي أكان الأفق ساطعاً أم ملبداً، وبرع في كل فن حتى صار ملء الأسماع ومهبط الآماق؛ ولله در واصفه إذ يقول:

أصبحت مشتاقاً حليف صبابة ... برسائل الصابي أبي إسحاق
صوب البلاغة والحلاوة والحجا ... ذوب البراعة سلوة العشاق
طوراً كما رق النسيم وتارة ... يحكى لنا الأطواق في الأعناق
لا يبلغ البلغاء شأو مبرز ... كتبت بدائعه على الأحداق

وإن أدبه - كما يقول معاصروه - لسلوة الحزين، وشفاء الكليم، وأنيس المسافر والمقيم، وسمير الصديق والحميم، مما يدل على أنه كان أمة عصره ونابغة دهره، يشهد له بذلك البعيد والقريب، والعدو والحبيب، ولن أبلغ في وصف أدبه الغاية كما بلغ لداته، فهذا أحدهم يقول:

يا بؤس من يمني بدمع ساجم ... يهمي على حجب الفؤاد الواجم
لولا تعلله بكأس مدامة ... ورسائل الصابي وشعر كشاجم

ولكنه لبؤس حاله ونكد طالعه نشأ في عصر أفعم بالفتن، فسياسته مختلة، ورياسته معتلة، والخلافة اسم ليس له مسمى، ورسم لا حقيقة، وملوك الديلم تتأرث بينهم الأحقاد، وتحاك الدسائس وتفشو الفتن، والرجل ذو المروءة لا يسلم روحيّاً وحسيّاً، فإما النفاق فيسخر ضميره لكل حاكم، ويكتب بكل قلم، ويأكل على كل مائدة، ويمنح

عقله كل راغب، ويعطي لسانه كل خاطب؛ وإلا فالمحابس مفتحة، والسلب والنهب أيسر عقاب. ولقد كان إبان شبابه قبل أن تستشري الفتن، ويتنزى الاضطراب وتتأصل في النفوس السخائم، يتسامى ويتصاعد، وجده يتعالى ويتماجد، حتى صار من العظماء الممدوحين لا من الأدباء المادحين، فسعى إلى أبي الطيب المتنبي راغباً إليه أن يمدحه بقصيدتين ولا يمنعه رفده، أو يقطع عنه سيبه بل يرفده بخمسة آلاف درهم، فبعث إليه المتنبي قائلاً: (والله ما رأيت بالعراق من يستحق المدح غيرك، ولا أوجب عليَّ في هذه البلاد أحد من الحق ما أوجبت، وإن أنا مدحتك تنكر لك الوزير (يقصد المهلبي) وتغير عليك لأنني لم أمدحه، فإن كنت لا تبالي هذه الحال، فأنا أجيبك إلى ما التمست، وما أريد منك مالاً، ولا عن شعري عوضاً؛ فتنبه إلى موضع خطئه ولم يعاوده بعدئذ. وإن دلنا ذلك الحديث الذي رويناه عن ياقوت على شيء فإنه يدل على سمو نفسه واعتزازه بقدره، فمن أسمى من ممدوح المتنبي؟ كما يدل على علو منزلته لدى أبي الطيب، وعلى أن هذا كان شديد الإخلاص وفير الوفاء لصداقته، فلو قد فعل دون تحذير أو تنبيه لبكرت عليه النكبات، ولفقد ولياً طالما بذل له رفده، ولعب على ضوء وده

وكان لذيوع اسمه بين الكتاب والشعراء موجدة إن نأى ومحبة إن دنا في نفوس الملوك والوزراء، وما أكثرهم في ذلك العصر، فهو إن أخلص لهذا عوقب، وإن والى ذلك عوتب، وإن لزم الحيدة أنب، وإن أعلن عن رأيه أدب، فهو ملوم في كل حال، مستحق العقوبة في كل زمان ومكان، فكان نزيل السجن مسلوب الوفر، وهذا ما جناه على نفسه. فلو أنه أطاع أباه وانصرف إلى الطب لعاش سعيداً ومات سعيدا، ولكنه تنكب الطريق السوي فكان من أمره ما سنفصله في مقال تال

عبد العظيم علي قناوي

يوميات نائب في الأرياف

للأستاذ أحمد الزين

أهدى الأستاذ توفيق الحكيم إلى الشاعر الراوية الأستاذ أحمد الزين كتابه (يوميات نائب في الأرياف) فأجابه الأستاذ الزين على هديته بهذه الأبيات:

إنْ يفخر العَربُ الكرام بكاتب ... فَلْيَفْخروا بيراع ذاك النائبِ
قلمٌ بتصوير السَّرائرِ مُولَع ... غَيْبُ النفوس عليه ليس بغائب
يَسري إلى طي الصدور شعاعُه ... أمضى وأنفذ من شهابٍ ثاقب
يصف النفوس كما بَرَاها ربها ... ويميط عنها كلَّ ثوبٍ كاذب
فكأَنما يدعو النفوس فتلتقي ... في الطرس سافرة سفور الكاعب
سحر البيان يبين كل خفية ... أين المصوِّر من يراع الكاتب
إيهٍ أديبَ الشرق، هات روائعا ... قصصاً تُوَشِّيها بظرف خالب
وأَفِض على اللغة الكريمة ثروةً ... فالعُرْب أشْكرُ أمة للواهب

أحمد الزين

رسَالة الشِّعر

وحي المصيف

بين الأمواج وفوق الشاطئ

للأستاذ محمد الأسمر

ليس الفؤادُ وإن حرصتَ بسالِم ... فاقرعْ على ما كان سنَّ النادمِ
ناديته - والموج فيما بيننا - ... فأجابني: دعني فما من عاصمَ
الذنبُ ذنبي حيث أنزل لاهياً ... في البحر أسبحُ بين سرب حمائم
ما كُنَّ من وُرْقِ الوكور وإنما ... وُرْقٌ هزأنَ بكل ريش ناعم
يَسْبَحْن فوق الماءَ ألين ملمساً ... منهُ وأبهى من فرند الصارم
سِرْبٌ تقاسمَ مهجتي ومضى بها ... فرحان يلعبُ كالإوزِ العائم
وعلى الرمالِ من الحسان جآذرٌ ... كدراهمٍ نُثِرتْ حيالَ دراهم
متبسماتٌ للهواء وللهوى ... يَمْرحْنَ مَا يمرحْنَ غير أواثم
مستلقياتٌ كاللآلئ رونقاً ... نهبَ النواظر، والخيال الهائم
لكأنَّ (بحر الروم) أخرج دُرَّه ... فمشت به الأمواجُ جِدَّ رواغم
حملته وهي غواضبٌ وأتت به (ال ... مصطافَ) بين هماهم وزمازم

أو ما تراها لا يقر قرارها ... في كل ناحيةٍ زئيرُ ضراغم
قذفتْ به فوق الرمال أوانساً ... من نسل أعراب، ونسل أعاجم
فوق الظهور أو البطونِ رواقدٌ ... متناوماتُ الجفن غير نوائم
حيث الهواء الطلقِ، والشمس التي ... تَفْترُّ عن ثغر هنالك باسم
جاذْبَنِني عقلي فطاوعَ بعدما ... قد كان لي في البحر ألومَ لائم
فالآن لا قلبي، ولا عقلي معي ... إلا خيالاً مثل حلم الحالم
محمد الأسمر
طيفها. . .
للأديب محمود السيد شعبان
يا مَنْ أراها بِرَغْمِ البُعْدِ دَانيَةً ... ولاَ يَراها برغْم القُرْبِ مَنْ تَصِلُ!
لا تَجْحَدِي خاطراً قد جَالَ في خَلَدِي ... أَوْحَتْهُ لِي مِن سَموَاتِ الهوى رُسُلُ
أَوْ تُنكِري ما رَأَتْ نفسِي وما نظرتْ ... فَالدَّمْعُ يَشْهَدُ إنْ أَنْكَرْتِ والقُبَلُ!
يا طَالَما زُرْتِنِي والفجرُ مُبْتَسمٌ ... وطَالَما جِئْتِنِي واللَّيْل مُنْسَدِل!
أَلَسْتِ أنتِ التي أَنْشَدْتِنِي نَغَماً ... هو الرِّضَى والهوَى والشَّوقُ والغَزَلُ؟!
أَلَسْتِ أنتِ التي أَهْدَيْتِنِي قُبَلاً ... كالسِّحْرِ يَكْمُنُ في طيَّاتِهِ الخَبَلُ؟!
تذكَّري لا تقولي: لَسْتُ ذاكرةً ... فإنَّما البشْرُ قد أنْسَاكِ والجَذَلُ!!
يا طيْفَها هل تراني كنْتُ في حُلُمٍ ... أَمْ أَنَّه الحقُّ لاَ مَيْنٌ ولاَ خَطَلُ؟!
ذهَبْتَ يا طيفَها عنِّي إلى وطنٍ ... تَقَطَّعَتْ دُونَهُ الأسْبابُ والسُّبُلُ
فكْيفَ أحياَ غريباً عنكَ مبتعداً ... والحسْنُ فنٌّ فريدٌ فيكَ مكْتَمِلُ؟!
أَمُدُّ كَفِّيَ أرجو أنْ تصافِحَنِي ... فلاَ تَمُدُّ يداً نحوِي وتَرْتَحِلُ!
تعالَ يا طيفها زُرْنِي كمن كَرُمُوا ... ولا تكن مثل مَنْ ضَنُّوا ومن بَخِلُوا!
خَلَّفْتَنِي مُفرداً لهفانَ لا وَطَرٌ ... بِه أُعَلِّلُ أنْفَاسِي ولا أَمَلُ!
أَضُمُّ ظِلَّكَ مِن شوْقٍ فيتركني ... يا حسرتاهُ وحيداً ثم يَنْفَتِلُ!
وَالآنَ. . . يا طيْفَها أَقْبِلْ لِتَنْهل مِن ... موارِدِ الحبِّ طهْراً مثل مَن نهلوا!
(الإسكندرية)
محمود السيد شعبان
أنا نبأ كاذب
- جبران - عن نعيمة
للأستاذ خليل هنداوي
ويا ناعتي بسمو الخيال ... أنا نبأ كاذب فاجر
لقد سكن الوحش في باطني ... وإن لان مني لك الظاهر
يُهذب نفسي الخيال الرقيق ... ويغمرني بالهدى غامر
ولكنني أبداً في انخفاض ... يجاذبني طبعي الماكر
ويغلب فيَّ الدنيءُ البريءُ ... ويسطو على الشاكرِ الغادرُ
وتنزع نفسي إلى فحشها ... وثوبي - بعين الورى - طاهر
أتزعم أني لطبعي قهور ... إذا شئتُ، وهْو لي القاهر
أأقهر إرث زمان طويل ... بنفسي، فأنت إذا جائر!
عوالم أحمل آثارها ... من الشعر يخطئها الناظر
عوالم تنبثُّ في اللاشعور ... يُقَادُ بها الوعيُ والخاطر
وتحسَبُ أنيَ كون حديث ... وفيَّ انطوى العالم الغابر
وهل أنا إلاَّ صدى للبعيد ... يردده صوتي الحاضر!
خليل هنداوي
صورتان
للأستاذ زكي المحاسني
أيا صورةً منسيةً وهي في نفسي ... أشاهدها مادمت أصبح أو أمسي
مددت إلى الأوراق كفاً وعهدها ... قديم كأني كنت أعهدها أمسِ
تلمستها مثل الذي نال ضائعاً ... ولم أدر أن الكهرباء لدي اللمسِ
رجفت وأصماني من الحزن سكتة ... بقيت لها حيناً كأني من الخرسِ
بكيت على تلك المباسم في الثرى ... وعهدي بها كالورد مخضلة الغرسِ

فيا طول ذاك النأي ما منك رجعة ... وهل يرجعن الدهر ميتاً من الرمسِ
أقبل منك الرسم وهو بقية ... كما قنع الصديان من فضلة الكأس
على مَ التجافي يا حبيبي وإنما ... خلقنا لكي نحيا أليفين في أنسِ
فوالله مهما عشت لست ببائع ... هواكَ ولو أمعنتَ بيعي في بخسِ
لو أن المنى حقت لجزنا مع الهوى ... إلى مطلع الأفلاك حتى مدى الشمس
تعالي أمثل فيك رسماً مجدداً ... لصورة محبوب تصور في حسي
وأُعظِم فيك الطهر والحب والوفا ... كما تُعْظَمُ الأوثان في الهيكل القدسِ
يناديكِ، لو أسمعتِ، بي كل خافقٍ ... فإن قلتِ كذابٌ فها كبدي جُسّي
إذا شئتِ بيضتِ الحياة بناظريَّ ... وخليتِ لي دنياي ترقص كالعُرسِ
وإلاَّ تشائي الحب كوني صديقتي ... أجدْكِ عزاءً لي إذا عضني بؤسي

زكي المحاسني
أستاذ اللغة العربية في تجهير دمشق

القَصصُ

أقصوصة من مرجريت ستين

الحلقة الأخيرة

للأستاذ دريني خشبة

(هل الحياة الحب؟ أم الحياة العمل)

لقد كانت مفاجأة عجيبة حقاً من تلك الفتاة الجميلة العذراء (ديانا. . .) حين ذكرت لصديقتها الآنسة تمارْ كوري أنها متزوجة! فلم تكن الصديقة الوفية تعرف عن صديقتها إلا أنها تحب الفتى القسيم الوسيم كليف صولوي، وأن الفتى القسيم الوسيم صولوي يحبها، إن لم يكن يتعبدها، وأنه إنما رحل منذ عشر سنوات إلى كندا الإنجليزية يلتمس الثراء الضخم والغنى الوافر ليضمن لمعبودته نعيم الخلد بما ضمنت له نعيم الحب، وليهيئ لها عيشة رغداً، لا يتلف جمالها عمل، ولا يذهب بروائها عناء. لذلك قالت لصديقتها حينما سألتها سبب هذا الكتمان الطويل إنهما أرادا بذلك أن يضمن أحدهما الآخر أثناء هذا البعاد الطويل

وقد جلست ديانا تشكو لصديقتها ما تحس به من شتى الأحاسيس نحو فتاها صولوي الذي عرفته وأحبته حين الصبا في شَرْخه، والشباب في ميعته، والقلب في فتوته، وربيع الحياة في إبانه. فكانت هذه السنوات العشر بما حَوّرت وطَوّرت، وبدلت وغيرت. فكأنما القلب غير القلب، والسمع غير السمع، والحياة غير الحياة!

ذلك أن الفتاة ديانا، ذات القوام والقد، والجيد والخد، والفم الأنيق والأنف الدقيق، والجمال والفِتنْ. . . اليتيمة مع كل ذلك، والتي أضفى يُتمها على جمالها ظلالاً من السحر العميق اضطرت أن تبرز إلى ميدان الحياة لتجاهد في سبيل قوتها بعد إذ ارتحل حبيبها إلى أمريكا بشهر واحد، لأن عّمتها التي كانت تكفلها وتكفيها عناء العمل. . . ماتت بعد هذا الشهر أيضاً ولم تترك لها من حطام الحياة إلا نصيباً نَزْراً من المال ظل يَتَسقط من راحتيها اللتين لم يعرفا مَساكا حتى لم يبق منه إلا دريهمات وساعدتها صديقتها تمارْ كوري فقدمتها إلى أحد بيوت النشر الإنجليزية فربطوا لها راتباً بسيطاً. وكان عملها ثمة أن تقرأ الرسائل الكثيرة المتنافرة ذوات الخطوط المختلطة، التي كان أكثرها أشبه بفرق من راقصات الزنوج يترنحن على القراطيس. ولم تلبث ديانا أن خبرت من الحياة تجاريب لم تعرفها من قبل كان محورها جميعاً المال. . . المال!. . . المال الذي تدور حوله كواكب الآمال السيارة، والذي بدونه يقف دولاب كل شيء. . . حتى دولاب الحب، كما بدأت ديانا تعتقد!

لقد كانت تشهد كيف تتم الصفقات في البيت الذي تعمل فيه، وكيف كان أصحاب العمل يجنون أشهى الثمرات بقليل من الجهد، حتى لا يكاد أحدهم يبذل في سبيل المئات التي يحصل عليها آخر كل سنة بعض ما يبذلها أبسط الموظفين في الشركة. . من أجل ذلك دأبت ديانا تدخر مبالغ صغيرة من راتبها التافه، حتى إذا اجتمع لديها قدر غير قليل أخبرت صديقتها تمار فعقدت أسبابها بأسباب خبير مالي من رجال الأعمال يدعى لويس كراوفورد، له دراية واسعة بالصيرفة، فنصح للفتاة بالمضاربة في أحد البيوت المالية المربحة بنصف ما معها، حتى إذا غنمت شيئاً عادت فضاربت بنصف ما

تملك. . . وهكذا. . . واعتمدت ديانا على الله، ثم على هذه الآمال البراقة التي تولدت في نفسها مذ وضعت رجليها في شركة النشر. . . وضاربت كما أشار المالي لويس. ولشد ما شدهها أن ربحت مبلغاً لم تكن قط تحلم به منذ أن ضيعت مائة الجنية التي تركتها لها عمتها. . . ودق قلبها البشائر واتسعت أمامها آفاق الأماني، واصطبغت أحلامها ببريق الذهب وقويت إرادتها وثبتت عزيمتها، فضاربت بنصف ما اجتمع لها من المال، وقد صار شيئاً كثيراً في حسبانها. . . وربحت. . . وفرحت فرحاً شديداً بهذا الحظ المواتي. . . وتعلمت أشياء لم تكن تعرفها. . . دروس الحياة وأفانين المال وعجائب العمل. . . وضاربت مرة ثالثة ورابعة. . . واجتمع في قبضتيها كنز من الذهب رَوّأ لها الآمال ووسع في قلبها الأماني، حتى لباتت تفكر في شراء بيت النشر الذي تعمل فيه!

أما كليف صولوي. . . الفتى القسيم الوسيم، ذو العينين الزرقاوين اللتين تختلط بزرقتهما خضرة الأطلنطيق الواسع الخضم فقد عمل هو الآخر وجد، وسعى واجتهد، واشترى مرجاً واسعاً من مروج كندا الشاسعة، جلب له قطيعاً من الغنم الأمريكي ذي الصوف الغزير، وجعل في الله رجاءه أن يغل له المال الوفير ليبني لحبيبته ديانا القصور والعلالي

وتصرمت سنون خمس؛ وكتب صولوي إلى منية نفسه خطاباً يقول في شطره: (لم أستطع بعد يا حبيبتي أن أشيد لك القصر الذي حلمنا به، على رغم جهادي الطويل الشاق. . . إن هو إلا مرج شاسع حلو العشب، لا ينقصه إلا شخصك المعبود ليكون جنة ذات أعناب!) وتناولت ديانا يراعها وجلست تكتب إلى حبيبها وقد اختلطت في قلبها دنيا الأطماع بعالم الحب والأحلام: (حبيبي! لشد ما أود أن أجتاز الأطلنطيق إليك الآن. . . الآن. . . في هذه اللحظة. . . لأشفي حاجات الفؤاد المعذب. . . ولكن أصغ إلي. . . ألا نستطيع أن نتلبّث هكذا. . . كما نحن (!) حلقة أخرى من الزمان! خمس سنوات أخرَ يا صولوي، وأعود إليك امرأة ذات مال يا حبيبي! ألا نحتاج مالاً كثيراً نعمل به في مَرجك الشاسع فيضمن لنا حياة واسعة مخفرجة، نقضي نصفها كل عام في إنجلترا ونصفها الثاني في أمريكا؟ يا حبيبي! ألا تكون حماقة منا أن نهجر الطريق الذي يؤدي إلى أبدع الأماني بعد أن قطعنا نصفه. . .؟) وعندما ذهبت لتلقي بالخطاب في صندوق البريد، ذرفت دموعاً غزيرة، وتجاوب صدى وقع الخطاب في الصندوق في فراغ قلبها الذي ما يزال حب صولوي يملأه. . .

وكتب إليها صاحبها يقول: (أختاه! لقد علمتنا السنوات الخمس الماضية دروساً صارمة في فن العيش. . . علمتنا الأنفة والكبرياء. . . إننا الآن في مباراة عقيمة. . . وكل منا يشتهي أن يكون السابق المجلي. . . لقد نسيت أن أذكر لك في خطابي السابق أن المرج الذي أُنَضِّره لك ليكون جنتك الفيحاء، هو مرج من أبناء الطبيعة الذين لم تتلفهم المدنية، ولم تفسد سليقتهم الحضارة ذات البهارج. . . ولو أنك وافقت لصار بك الفردوس الموعود. . . ألا ما أروع السكون هنا؟ لا ضجيج كما هو عندكم في لندن. . . على كل سأبذل جهدي فأبتني القصر المشيد الذي يليق بأبهة مليكتي. . .!)

وجازفت ديانا فاشترت شركة النشر؛ وقد أحدثت هذه الخطوة الجريئة انقلاباً قوياً في حياتها، فقد باتت لا تفكر إلا في تنمية مواردها، ومضاعفة النجاح الذي كان لهذه الشركة قبل أن تحمل الاسم الجميل الجديد: (هـ. بْلَنْدِلْ) وقد اتسعت أعمال الشركة فعلا، واضطرد تقدمها، وبعث كل ذلك في نفس ديانا كثيراً من الزهو وكثيراً من الخيلاء، وكثيراً من هذا الشعور الذي هو نتيجة نجاح الطفرة وأثر من آثارها لذلك كانت مفاجأة غريبة ألا تعلم تمار كوري، أعز صديقات ديانا وأوفاهن، إلا ذلك اليوم،

بزواج صديقتها من حبيبها كليف صولوي، وهو موشك أن يصل من كندا، بل هو واصل منها غداً بعد غياب عشر سنوات

ما كان أطولها ليلة مملوءة بالهواجس، مزدحمة بالوساوس، عاجَّةَ بالأفكار، هذه الليلة التي تقلبت فيها ديانا على فراش القلق وما كان إلا من ديباج. . . وما كان أشقاها بهذا الشوك الذي يخز جسمها الغض، وما لبست إلا شفا أنعم من خدود الورد. .

لقد باتت تفكر في الـ (هـ. بلندل) وأولئك العمال الكثيرين الذين أصبحت هي ضرورة

لهم، وهؤلاء العملاء الذين يصبون أنهار الذهب في خزائنها. . . وتلك الأبهة وهذه العظمة. . . والحياة العالية الأرستقراطية المحفوفة بالوقار. . . ثم تنتقل من كل ذلك إلى هذا المنفى السحيق وراء الأطلنطيق في ذاك المرج النائي المهجور. . . ولكنها كذلك كانت تفكر في حبيبها صولوي القسيم الوسيم فتذكر أحلام الصبا وأفاويق الشباب وموسيقى القبل، وتذكر أيضاً أنه زوجها الذي ارتبطت به برباط السماء العلوي المقدس. . . وتذكر فوق ذلك جميعاً أنها لا تستطيع الحياة بغير صولوي كما لا يستطيع صولوي الحياة بدونها. . . وهنا تتحير وترتبك، وتسبح في بحرٍ لجي تتقاذفها أمواجه فتعلو بها وتسفل

وتنظر إلى رأسها في المرآة فلشد ما تذهل وتراع! لقد رأت أولى شعراتها البيض نذيراً صارخاً من مارد الشيب الجبار يؤذن بخاتمة الثلاثين. . . فتزعج وتنزعج. . . وترسل في المرآة آهة تغطيها بضبابة تستر ما افتر باسماً ساخراً من شيبها!.

ولبثت ترهف أذنيها لرنين جرس الباب. . . فقد دنا موعد وصول صولوي. . . ولم تشأ أن تنزع الشعرة البيضاء، بل آثرت أن تتركها حيث هي ليشهد حبيبها حقيقة ما كان. . . وهي بذلك قد سخرت من نذير الشيب الذي شاء أن يسخر هو منها. . .

ورنَّ الجرس. . . وأهرعت إلى الباب فتلقت حبيبها ملء ذراعيها، وضمها هو إلى صدره الواسع الرحب بذراعين مفتولتين جبارتين، لم تكونا له قبل أن يرتحل إلى كندا، ثم انحنى على الفم الرقيق المرتجف يقبله، وما كاد يفعل حتى قاومت ديانا. . . وجاهدت حتى انفلتت من صولوي، وفرت منه إلى ركن الردهة القصي! ووقفت ثمة تحدجه، وتقلب فيه عينيها الثاقبتين!

لقد كبر صولوي وتغيرات معالم شبابه! ما هذا الصدر العظيم والعضل المكتنز والوجه ذو الأسارير؟ وعيناه؟ أين زرقة السماء التي كانت تختلط بخضرة الأطلنطيق؟ وأين هذا الكوكب الدري الذي كان يتألق في أغوارهما فيرسل منهما بريقاً أي بريق؟ وما هذه الملابس الغليظة الخشنة والحقائب الثلاث البالية؟ وما هذه السحب الكثيفة من دخان التبغ يرسلها صولوي فيتلف بها سماء الحب القديم الصافية. . . لقد وقف كليف المسكين، وقد أشعل لفافته ينفث الدخان من فمه! فيتلف على ديانا أخيلتها، ويمسخ أمانيها. . .

ثم انفجرت ضاحكةً وانفجر ضاحكا

- أوه! حبيبي! هلم! أدخل أولا! لقد شببت!

- (. . .أجل يا حبيبتي! هَيَّا. . . لقد أحضرت كنوزي لأضعها بين يديك.

وانحنى صولوي فحمل الحقيبتين الكبريَيْن، وحملت ديانا الحقيبة الصغرى، حتى إذا بلغت غرفتها الفخمة التي تدير منها أعمال شركتها، لم يلبث كليف أن قال:

- (حبيبتي، إني لا أطيق أن أنظر إلى هذه الغرفة ما لم تكوني أنتِ فيها!)

وفهمت ديانا ما يقصد صولوي أن يقول، فقالت له. . .

- لا عليك، فسنصعد سوية إلى الطابق العلوي يحملنا؛ إذ لا أحد معنا يحمل هذه الحقائب المثقلة عنا. . .

ومضيا في سبيلهما صعدا، وظلت ديانا تنظر إلى بعلها الذي كان يبدو كأنما تقدمت به السن عشراً على عمره، بينما كانت تبدو هي، برغم الشعرة البيضاء، كأنما تأخرت بها السن عشراً عن عمرها. . . وظلت كذلك تفكر فيما قال عن غرفة إدارتها. . لقد أحست أن روحه نفرت من هذه الغرفة التي بعثت الكبرياء والعجب في نفسها، وهذا أقل ما تفعله فترة من الزمان قدرها عشر سنوات

- هذه غرفة الخادمة يا صولوي. . . لقد ذهبت لتمضي الليلة عند أهلها

وفتحت باب الغرفة فدهش صولوي لما فيها من أثاث ورياش. . . وعجب كيف يغطي سرير خادمة هذا اللحاف الإيطالي الموشى، وكيف تزين أركان غرفتها هذه الأصص الفاخرة من السوسن المصنوع الجميل!

- أما تلك فغرفتي. . . أنظر. . . أتراها جميلة؟

ونظر صولوي فذهل. . . وسرعان ما ذكر أيامه القريبة بمرجه القفر في فلوات كندا، وكوخه الموحش الخشن ذا السرير الحديدي الصدئ، والأرائك البالية، التي ظل يتقلب فوقها طوال عشر سنوات، لا يفكر في زخرفتها وتوشيتها! ووضع يديه في جيبيه

خاشعاً وقال:
- أحسب أنه آثر لدينا أن نستأجر خصاً في ريف لندن فنعيش فيه شهراً قبل أن نحضر إلى هنا. . . ألا توافقين؟)
وفهمت ما يريد أن يقول هذه المرة أيضاً فقالت: (ما أجمل أن يكون هذا. . .!)
وحان موعد العشاء، فذهبت به إلى حجرة الطعام الغنية الحافلة، حيث راعته المائدة النظيفة الناصعة، التي صُفت فوقها الأطباق والأكواب وكؤوس الخمر، وقوارير البلور، وملاعق الفضة ذوات الطنين وذوات الرنين. . . وأكلا. . . ودار بينهما هذا الحديث:
- لن تمضي خمس سنوات يا ديانا حتى يكون لك القصر الذي حلمنا به في مرجنا الواسع الجميل. . . لقد اشتريت لك حصاناً يا له من حصان. . . وأسميته هصار. . . وستروقك منه قوائمه البيض التي تشبه جوربات الربيع. . . إنني إذن أستطيع أن أعين وكيلا عني فنقضي نصف كل سنة في إنجلترا كما أشرت!)
وكانت صدمة لروح ديانا هذه السنوات الخمس. . . هذه الحلقة الأخرى من الزمان الطويل اللانهائي. . . ولمه؟ أليست هي الآن في رغد من العيش؟ ما الذي يقسرها على ذلك المنفى البعيد الموحش الخشن؟ إذن، فلتصارحه!
وروت ديانا قصتها، وكادت تجلس كأفروديت الساحرة على عرش جمالها، ثم طلبت إليه، أو أومأت إليه، أنه ينبغي أن يهجر مرجه ليعمل معها في الـ (هـ. بلندل): فقال صولوي واجماً: (سأنظر في هذا. . . سأنظر!) ثم عبس وبسر، وغاب من عينيه هذا الملاك الكريم الحالم، وأطل مكانه شيطان رجيم مارد، ثم قال: (طبعاً. . . إنك لن تتركي كل هذه الدنيا التي تلفت حواليك لتذهبي معي إلى أمريكا فتبني لي عشاً هناك. . .!) وكان روح الازدراء تتدفق في لهجته المرة، فروعت ديانا وقالت تجيبه: (ماذا يا صولوي! اهدأ ماذا أصابك؟ إني لم أرد أن أسوءك؟) لكن صولوي لم يهدأ، بل زادت ثورته، واشتدت حدته، فقالت ديانا: (تالله يا صولوي إن كل هذه الدنيا التي تحيط بي لا تهمني. . . أنظر. . . أترى هذه الصورة الصينية الفاتنة؟ إنها أثر قيم اشتريته بالمئات. . . وصديقتي تام تقدر عمرها بالقرون. . . أنظر. . .) ثم قذفت بالصورة إلى المدفأ فذهبت بها ألسن النيران.
- لا أدري والله ماذا تعنين بهذا؟
- أعني أنني لا تهمني زخارف الحياة كما زعمت!
- إذن ماذا يهمك؟
- يهمني هذا العمل العتيد الذي بذلت له جهدي وقواي. . الـ (هـ. بلندل) يا صولوي! كيف أدعه يتلاشى!؟)
- غير أنك كنت تعلمين أنني قادم إليك!
- أجل، كنت أعلم هذا، بيد أنك تقول إنك في حاجة إلى خمس سنوات أخر، إلى حلقة ثالثة لتضمن لنا عيشاً هانئاً، وكيف؟ كم بقي من العمر لنقضي منه خمس سنوات تضيع عبثاً وعناء؟ وهذا العمل العظيم الذي شدته؟ كيف يضيع هو أيضاً عبثا؟ بل أقيم أنا هنا، لأنني أصبحت ضرورة لحياة كثيرين، أما هناك، أما في المرج البعيد النائي، فإنني أكون عبئاً عليك وعلى نفسي، وقد تقتلني الوحشة والركود يا صولوي! ماذا أكون هنالك؟ ماذا أعمل وقد تعودت العمل؟ أأكون متعة فقط؟
- لا. لا رأيت في حياتك مكروهاً كهذا المكروه! وكيف تكونين متعة لراعي قطعان!
- خمس سنوات أخر؟ ثم ماذا؟ ما الحياة يا صولوي حتى تريدها أن تحتمل كل هذا؟ لقد علمتنا الحياة فنونها القاسيات. . لقد علمتنا أن ننظر إليها بعين غير العين التي تعودناها في الصبا. . لقد كشفت لنا عن المعميات يا حبيبي! لقد وضحت لنا حقائقها بقدر ما غاضت أحاسيسها وترهاتها!)
- وما هي هذه الحقائق بالله عليك!؟
- هي الصراحة والجد، والجهاد والعمل، والتحصيل الذي يضمن للإنسان حياة طيبة موفورة قليلة البؤوس، حياة كريمة تتفق وكبرياء المرء، يرضى بها عقله، كما يستريح إليها جسمه!)
- وإذا عرضت عليك هذه الحياة، ولكن في مرج بكندا فلم ترفضين؟
- لشد ما يعزب عنك ما أريد يا صولوي! إن المادة لا تهمني إلى هذا الحد، ولكن يهمني

ألا تتعذب روحي في هذا الركن من أركان الدنيا. . . أنا لم أتعود هذا اللون من الحياة الذي
تريده لي يا حبيبي، وقد أحتمله لوقت قصير، بيد أنه لا جرم أنني سأضيق به، وعندها يُقضي على كل شيء. . . حتى على حبنا!
- لا تتحدثي عن حبنا أرجوك! إنني أرى ما وراء الأكمة! إني أرى ماذا تضمرين! بل كوني صريحة. . . ماذا يرضيك بعد هذا. . .؟
- ولم لا أبقى أنا حيث أنا الآن حتى تشيد قصرك وتعد العدة لحياتنا المنشودة، وأستطيع بذلك أن أدير أعمالي الواسعة هنا، ثم نلتقي بعد أية فترة من الزمان. . . بعد عام أو عامين أو أكثر أو أقل. . .؟
- إذن تريدي أن تَقصريني على خطتك دائماً. . . توجهينني حيثما تريدين وكيفما تشائين. . . لا. . . لقد تكلمت عن الوحشة والوحدة فيما مضى وفيما خفت أن يأتي. . . إذن. . . أنا لا أربطك
- ثم. . .؟
- ثم لا شيء. . . إنك إذا استعملت أحداً في عمل لك ولم يؤده لك حسب هويتك استغنيت عنه واستعملت غيره مكانه، أليس كذلك؟
وسرت قشعريرة من الذعر في جسم ديانا، وبدا الارتباك في محياها، فلم يعبأ صولوي وقال متماً حديثه: (أنت تفضلين عملك المالي على أن تكوني زوجة لرجل راع صاحب قطعان في كندا، أليس كذلك؟ لا بأس، فزوجة الراعي لن يكون لديها وقت طويل للأعمال المالية. . .
- هل تريد أن تجعلني أفهم أنك قد عولت على الاستعاضة بامرأة سواي؟
- لقد أخلصت لك سنوات عشرا في جميع أمري. . . ولشد ما آسف على هذا البله الذي حصل مني!
- صولوي!
- لا. . . بل لابد من إنقاذك من هذا الغل الذي وضعته بإخلاصي حول عنقك. . . فلا تبتئسي ولا تحزني. . . لابد أن يتبدل الأمر غير الأمر!
- بل أنت تحب امرأة أخرى!
- . .ولم لا؟. . . على الأقل امرأة تعني بشأني. . . لقد أخلصت لي، وصدقتني الحب فَرَئْ لنفسك فقد صرحت لك!
- إنك تعني الطلاق. . مضحك. . مضحك جداً يا صولوي!
- عرفت إذن! لا خير! فلقد أخطأنا حينما كنا صغيرين فلم لا نتدارك خطايانا وقد شببنا. . . اسمعي يا ديانا ينبغي أن أذهب الآن. . . سأنزل في فندق، وسأخبرك عن اسمه بعد، وإذا احتجتك فسأدعوك في التلفون. . .
- صولوي. . . صولوي. . .!
وفي اليوم التالي لقيت صديقتها تمار كوري، فلما سألتها عما كان قالت لها ديانا: انتهى كل شيء، حيث كان ينبغي أن يبدأ كل شيء!
- ماذا تعنين؟ أتقصدين أنك قذفت به من حالق بعد أن انتظرته كل هذه السنوات العشر؟
- بل هو قد قذفني من حالق يا أختاه! لقد ظهر أنني كنت كَلاًّ عليه. . . أليس هذا عجيباً؟
- أكبر ظني أن هذا كان نتيجةً لخطئك؟ ماذا قلت له؟
- قلت له إنني لا أستطيع أن أهجر عملي هنا في الـ (هـ. بلندل) لأعيش في قفار كندا. . . ماذا كنت أقول له غير هذا؟ أذلك يعني أن حبي له قد نقص؟
- فو. . .!! يا بلهاء! بمثل هذه الحماقة يفلت من يديك كليف؟ يا له من كنز؟ ما الذي عوقك كل هذه السنين الطوال إن لم يكن هو حبك لصولوي؟ وما الذي عوقه هو الآخر؟ ما الذي جاء به من كندا؟ لقد كان لك في لويس كراوفورد، أو في الشاب ستيفن، خير زواج لو أردت ذلك منذ سنين، فما الذي حال بينك وبينهما؟ أليس هو حبك وجميل وفائك لصولوي؟ والآن؟ أتدعينه يفر منك هكذا؟ يا بلهاء؟ يا حمقاء؟
- يا أختاه فكري قليلا فيما عسى أن تكون حياتي في كندا بعد هذه السنين العشر الحافلة في لندن الصاخبة. . . سنوات عشر يا تام! كلها جِهاد. . . كلها قتال. . . كلها

حرب على الحياة!
- حرب! إي والله! الحرب التي تتعشقين! أنت لا تهوين سواها! الحرب التي كوَّنت لك الـ (هـ. بلندل!) أليس كذلك؟ ومم كونت لك هذه الحرب أعمالك الباهرة؟ من دريهمات أريتها لي يوم لقيتني قبل أن تلتحقي بعملك الذي در عليك أخلاف الرزق فأعماك!! إنك من أجل الـ (هـ. بلندل) ترفضين ما عرضه عليك كليف من السعادة في أكناف مرجه بكندا،
وقد علمت أنه عمل أبهر من عملك أضعافاً مضاعفة. . . الـ (هـ. بلندل!) هذه اللعبة! بل هو الفتى الخبيث ستيفن الذي فتنك، والذي تظنين أنه يضمن لك حياة الخلد في باحات لندن! يا ديانا! لقد عرفت ستيفن قبل أن يعرفك فاحذري. . . إنه يصبو إلى ثروتك ليعتصرها ثم يقذف بك. . . ثم لا يكون الـ (هـ. بلندل) بنك إنجلترا بعد. . .؟
- ليس ما تقولين حقاً يا تام!. . .
- شْو. . . دعيني أتم حديثي. . . إنك لا هم لك إلا الحرب والقتال. . . حتى أصدقاءك تحاربينهم. . . حتى الرجل الذي أحببته وأحبك فأخلص لك الحب. . . بل هناك حد إذا وصلت إليه الكبرياء انقلبت فصارت غفلة وحماقة. . . ولقد وصلت إلى هذا الحد بأذن الله!
- تعنين أنه ينبغي أن أذهب فأنتظر السعادة في قفار كندا بعد خمس سنوات طوال. . . يبنى لي بعدها صولوي بيتاً يضمني ويؤوي أبنائي؟
- لابد أن يصل كليف إلى كل مطمحه يوماً ما. . . ولكن لا تنسي خطاباته إليك، فلقد شهدت أكثرها. . . لا تنسي أنه دعاك إلى كندا قبل خمس سنوات فأبيت، فوافقك، فلم لا توافقين اليوم. . .؟ ثقي أن كل حرب إلى نهاية، ولقد حاربت بما فيه الكفاية. . . واعلمي أن ما أنت مقبلة عليه لن يحيق شره إلا بك!
- ماذا تعنين؟
- أعني أن الكبرياء التي تحسبينها لك الآن ستكون له. . أعني أنه هو الذي سيرفضك فيقف مكانك وتقفين مكانه، وتنعكس الآية، ويصعب عليك إصلاح الحال!
- وكيف وقد انتهى كل شيء يا تام؟
- بل لم ينته كل شيء يا أختاه. . . المرأة التي عركت الحياة لن تفقد وسيلة لبلوغ مآربها. . . وكيمياء الحظ ماهرة صناع
وجلست ديانا في غرفة إدارة الـ (هـ. بلندل) مضطربة كاسفة البال. . . وطفقت تذكر ما كان من حبها لصولوي، وإخلاصها له طيلة هذا الزمان، ثم ما كان من لقائه هذا اللقاء المضني. . ثم هذا الحب الذي زعمه لها أنه يشغل قلبه. . ورددت حديث صديقتها وسبب نعمتها تمار كوري، وراحت تسائل نفسها: ما عقبى هذا الجهاد الطويل الذي كانت تتخذه
سبباً فأصبحت تتخذه غرضاً. .؟ وجعلت تتخيل هذه المرأة التي سحرت حبيبها فشغلته عنها؟ من هي؟ وما جمالها؟ وما مالها؟ وما جسمها. . . وجعلت تقارن كل ذلك بنفسها. . . .. . ثم تبسمت حين ذكرت مرج صولوي والحصان الذي اشتراه لها وقوائمه البيض
واستيقظت في باكورة الصباح فدقت التليفون إلى الـ (هـ. بلندل)، وكلمتها إحدى العاملات فأخبرتها أنها لن تنزل إلى الشركة اليوم. . . وعجبت العاملة لذلك أيما عجب، إذ لم يحصل أن تأخرت المديرة خلال السنوات الخمس لأي سبب من الأسباب.
. وانتظرت ديانا أن يكلمها صولوي في التلفون كما وعد فلم يصنع، ولم يرسل أي خطاب منه يعلمها به ماذا انتهى إليه عزمه. . . ورن جرس التلفون فجأة فدق معه قلبها. . .
- مِسْ بلندل؟ هنا محل المصور لمشيرييرزـ . . لقد طلب إلينا شخص يدعى كليف صولوي أن نعطيه صورة لك عن إحدى السلبيات التي لك عندنا، فهل نفعل؟
- لا بأس، ولكن هل أعطاكم عنوانه؟
- كلا. . . ولكنه حدد يوم الأربعاء لتسلم الصورة
- هل التي تكلمني هي المس موريس؟
- أجل يا مس بلندل، أنا هي. . .
- أرجو إذا حضر المستر كليف لتسلم الصورة أن تدعيني في التيلفون وأن تعطليه لديك حتى أحضر لمقابلته، فهل تذكرين!؟

- بكل تأكيد يا مس!
. . .وهكذا كان كليف صولوي أبعد في لندن منه في كندا، لولا هذه المفاجأة التليفونية
. . .ورن جرس التليفون يوم الأربعاء، فدق قلب ديانا معه. . . ولكن بشدة
- . . .مس بلندل. . . المستر كليف هنا
- أرجو أن تذكري ما أوصيتك به. . . سأصل حالاً
- . . .أخشى ألا نستطيع حجزه طويلا. . . لقد احتج بأن عنده ميعاداً قريبا
وأهرعت ديانا المسكينة إلى تحت ووجدت لحسن الحظ سيارة ركوب لدى الباب
. . .فطارت بها إلى الأستوديو
. . .وا أسفاه. . . لقد أخذ كليف الصورة ومضى لطيته
واسودت الدنيا في عيني ديانا. . . وعادت في سيارتها تترنح في شوارع لندن ذات
الضجيج. . . ولم تسمح في عينها لندن كما سمجت ذلك اليوم، ولم تكره صخبها كما
. . .كرهته الساعة
ثم لمحت كليف واقفاً عند عمود مصباح وسط الشارع المزدحم فجأة فأشارت إلى
السائق فوقف، ونزلت وهي لا تكاد تعي وذهبت من فورها إلى حبيبها، غير عابئة بآلاف
السيارات التي تطوي الشارع. . . والتي أشار إليها الشرطي ذو الذراع البيضاء فوقفت
. . .جميعا
- صولوي. . . ما هذا الظرف الذي تحمله؟
وانتزعت منه الظرف الكبير الذي كان يحمل دعوى طلاقها فمزقته قصاصات
. . .قصاصات، وبعثرت الوريقات في الشارع. . . والناس ينظرون ويبتسمون
- صولوي. . . سأتبعك. . . سأتبعك ولو إلى القطب الجنوبي. . . سأعيش معك. . . لن
نفترق. . . ستكون هذه السنوات الخمس حلقة تجاريبنا الأخيرة!

دريني خشبة

البَريدُ الأدَبيّ

مشروع جديد لدراسة القانون

وضع معالي وزير المعارف بصفته الرئيس الأعلى للجامعة المصرية مشروع إصلاح
جديد لدراسة القانون في كلية الحقوق؛ وأهم عناصر المشروع الجديد هو تخفيض مدة
الدراسة من أربعة أعوام إلى ثلاثة، وإنشاء قسم جديد لإجازة الدكتوراه تجري الدراسة
فيه باللغة العربية، وتكون مدتها سنتين. وقد كان دراسة الحقوق حتى الآن تستغرق
أربعة أعوام؛ ولم يكن بالكلية من قبل قسم للدكتوراه، فكان الطلبة المصريون الذين
يرغبون في الحصول على هذه الإجازة يقصدون بعد إتمام دراستهم بمصر إلى جامعات
فرنسا؛ وأنشئ أخيراً قسم للدكتوراه بكلية الحقوق ولكنه لم يحقق الغاية المرجوة من
إنشائه لأن الدراسة فيه كانت بالفرنسية، وكان الإقبال عليه لذلك ضعيفاً. وينص
المشروع الجديد على حذف بعض مواد الدراسة التي أضحت غير ضرورية حتى تكون
دراسة الأعوام الثلاثة شاملة لكل ما هو ضروري فقط. والواقع أن توحيد القوانين
الأهلية والمختلطة، وتقدم القضاء المصري بجهاته المختلفة في ميدان التوحيد،
وتمصير الإدارة الداخلية مما يسهل تبسيط الدراسة القانونية التي كانت تحتوي من
قبل على عناصر كثيرة من الدراسات القانونية والإدارية والمالية لم يبق لها اليوم
ضرورة. ومن جهة أخرى. فإن المشروع الجديد يقرب إلى طلبة الليسانس دراسة
الدكتوراه ويشجعهم بذلك على التقدم في دراسة العلوم القانونية العليا. وقد كان لهذا
التعديل في مناهج الدارسة وقع حسن لدى طلبة الحقوق

مجمع اللغة العربية الملكي

يفتتح مجمع اللغة العربية الملكي المصري دورته الجديدة في الثامن عشر من
ديسمبر، والمفهوم أن هذه الدورة ستكون خاتمة اجتماعات المجمع طبقاً للنظام
الحالي. وفي خلال الدورة البرلمانية الحاضرة ينتظر أن يوضع نظام جديد للمجمع ينص
على الزيادة في أعضائه وعلى تنظيم اختصاصاته وتوسيعها، إذ لا يخفى أن المجمع
الحالي قد أنشئ في ظروف خاصة، وقصد به إلى تحقيق غاية ضيقة، وأن عناصر
مصرية تمتاز بمكانتها العلمية الرفيعة قد أبعدت عنه لاعتبارات خاصة؛ والمفهوم أن
هذه العناصر ستتبوأ مكانتها الحق في المجمع الجديد؛ وسيكون المجمع الجديد أداة
لغوية علمية صالحة للعمل المثمر

لخير اللغة العربية وتقديمها وتدعيم نهضتها، وسيجري على خطته من الاستعانة بالعناصر الممتازة في هذا الميدان من أبناء البلاد العربية الأخرى وكذلك من العلماء المستشرقين، على أن تتخذ هذه المعاونة صورة المراسلة العلمية والمؤتمرات العامة كما هو متبع في الهيئات العلمية المماثلة في أوربا

مؤتمر الرمد الدولي

اختتم مؤتمر الرمد الدولي الذي عقد بمدينة القاهرة منذ 8 ديسمبر الجاري أعماله في الرابع عشر منه. وهذا المؤتمر هو الخامس عشر من نوعه؛ وقد وجهت مصر الدعوة إلى عقده بها منذ عام، واشتركت في إجابة الدعوة معظم الدول الكبرى وفي مقدمتها إنكلترا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا وأمريكا. وشهد المؤتمر وفود كبيرة من أعلام الطب المردي في أنحاء العالم. وقد كان لعقد هذا المؤتمر في القاهرة أهمية خاصة، لأن مصر تعتبر موطن الأمراض الرمدية؛ وقد تقدمت بها مباحث الرمد تقدماً عظيماً، ولأطبائها الرمديين شهرة عالمية. وقد نوه أعلام الأطباء الأجانب في المؤتمر بما كان للعرب من فضل عظيم في هذا الميدان. ومما هو جدير بالذكر أن هذا هو أول مؤتمر رسمي يفتتحه صاحب الجلالة الملك فاروق الأول بعد توليه الملك، وقد آثر حفظه الله أن يفتتحه باللغة العربية بعد أن كانت المؤتمرات المماثلة تفتتح دائماً باللغة الفرنسية، وبذلك وضع جلالته سنة جديدة نبيلة

معهد فرنسي جديد للدراسات الاجتماعية

قررت مدرسة الحقوق الفرنسية بالقاهرة أن تفتتح قسما جديداً يسمى معهد الدراسات الاجتماعية المصرية؛ وقد بدأت الدراسة بالفعل في هذا المعهد الجديد منذ 16 الجاري؛ وصرح مديره الأستاذ بوابيه أن الدراسة فيه ستجري على مثل الدراسة في مدرسة العلوم السياسية بباريس، وأنها ترمي إلى توسيع الثقافة القانونية والسياسية والاقتصادية، وإعداد الطلاب للالتحاق بالأعمال في الشركات الأجنبية ونستطيع أن نذكر بهذه المناسبة أن فرنسا تبدي في العهد الأخير عناية خاصة نحو تدعيم نفوذها الثقافي في مصر؛ فمنذ أسابيع قلائل افتتحت في هليوبوليس مدرسة فرنسية جديدة (ليسيه)، ويفد إلى مصر في كل شتاء عدة من الأساتذة والكتاب الفرنسيين يلقون

المحاضرات المختلفة وينوهون دائماً بما لفرنسا من مكانة ثقافية قديمة في مصر. وفرنسا تشعر أن صرح ثقافتها القديمة في مصر قد وهنت أركانه منذ بعيد ولم يبق منه إلا أطلال الجيل الماضي. وقد جاء اتفاق مونترو بإلغاء الامتيازات الأجنبية ضربة جديدة لهذا النفوذ الثقافي، ولم يبق في وسع مدرسة الحقوق الفرنسية أن تمضي في مهمتها؛ فافتتاح معهد الدراسات الاجتماعية هو محاولة جديدة للتمشي مع العهد الجديد، واستدراك بعض ما طرأ على الثقافة الفرنسية في مصر من عوامل الوهن والضعف

دور مصر في بناء الحضارة

ألقى العلامة الدكتور هارتمان محاضرة في بهو قصر ميرابل بمدينة سالزبورج تحدث فيها عن (الدور الذي أدته مصر في تاريخ الحضارة) فذكر أن مصر القديمة بلد العجائب من وجوه كثيرة، فهي مهاد الأديان والعبادات الأولى، ومهد الفنون والبناء؛ وليس من شك في أن الحضارة المصرية القديمة كان لها أثر عظيم في بناء الحضارة الأوربية ما يزال ماثلا إلى عصرنا. وقد كان اليونانيون القدماء الذين يعتبرون من آباء الحضارة الأوربية، يعتبرون المصريين أساتذتهم في الحكمة المقدسة وفي كل ضروب المعارف والحضارة؛ وكانت مصر أول مهد في التاريخ لفنون النحت والتصوير، وقد وضع المصريون القدماء المباحث الأولى لمسائل العالم الخالدة، وهي المولد والحياة والموت، ودعوا فكرة الخلود والبعث ومثلوهما في النقوش والقربان، وتحتفظ مصر الفرعونية بأقدم آثار في هذا الميدان. وليس من ريب في أن تقاليد الموت الفرعونية مازالت تمثل في كثير من تقاليدنا، وقد أوضح الدكتور هارتمان محاضرته بعدد من الصور البديعة

وهذه المحاضرة التي ألقاها الدكتور هارتمان أخيراً هي واحدة من سلسلة من المحاضرات الأثرية والتاريخية التي يلقيها أثناء موسم الشتاء عن حضارة مصر الفرعونية وتاريخها

الصحافة والترجمة بكلية الآداب
تفتتح كلية الآداب بالجامعة المصرية قريباً قسماً جديداً للصحافة والترجمة والتحرير يلتحق به الحائزون لإجازة الليسانس في الآداب، وسيسد هذا القسم الجديد فراغاً كانت الحاجة تدعو إلى سده؛ وسيكون مهداً حسناً لتخريج شباب يجيدون الترجمة والتحرير والأعمال
الصحفية الفنية
المعجزة، الشعبذة
في (الرسالة) الغراء - الجزء 232 - في (مجادلة في معجزات الإسلام) للسيد خليل جمعة الطوال - هذا القول: (الأمر واضح فلا نبوة بغير معجزة - وإلا لادعى النبوة كل مشعوذ) والمعجزة في (الأديان) هي مضادّة السنن الكونية، والسير الطبيعية. والعلماء الغربيون المتحررون يكفرون بالمعجزات ويرونها شعبذات، ويقولون: إن الأنبياء لم يأتوا بها، وإنما نسبها أتباع تلك الشرائع بعد حين أو قرون إلى شارعيها. ولهم في موسى والمسيح (صلوات الله عليهما) ووجودهما أقوال كثيرة. ففقدان (المعجزة) عندهم في دين هو من مزايا ذاك الدين. وهم يسخرون من كل نحلة تدعيها، ويعيبون كل طائفة تؤمن بها. ومن أئمة هؤلاء القوم في بلاد الغرب (م. جيو) صاحب كتاب (اللادينية في المستقبل) وهو كتاب مهم احتوت عليه خزانة (فريدريك نتشه) وقد قرأه هذا المفكر الجرماني، وله في ذلك الكتاب تعاليق ذات بال. وهذا ما أورده (م. جيو) في مصنفه في مبحث فيه أرويه بلغته، قال:
' ' , , , ; -
فلو تعلّم صاحب (الخليل) وعقل كلام هذا العالم الفرنسي لاستحى من أن يقول في (المعجزة) ما قاله إن كان من أهل الحياء
وبعد فليعلم من يجهل أن معجزات رسول الله (صلى الله عليه وسلم) التي كتبتها مؤلفات المسلمين تزيد على معجزات النبيين كلهم أجمعين قاطبة
(قارئ)
إلى الأستاذ عبد الله عنان
اطلعت على الكلمة التي استنكرت بها فرية صاحب (المكشوف) في بيروت بنشره مقالات لك قديماً وادعائه أنك أرسلت إليه عتاباً لطيفاً مع المقال. وقد عجبت قبل ذلك وداخلني الشك في العتاب والمقال، وقلت في نفسي كيف أقدم الأستاذ عنان على هذا التملق والاستخذاء لجريدة عرفت مراميها التجارية في بث الفتنة وإيقاع العداوة بين الأدباء فضلا
عن إمعانها في التزوير والطعن على قادة الأدب العربي في القطر المصري الشقيق. ولما رأيت الأستاذ أبا شبكة يعلق على مقالك في صحيفة (الجمهور) أبديت استغرابي بمقال نشرته (صوت الأحرار) ومما قلت فيه: (ومن الغريب أن يستخذى الأستاذ عنان فيبعث للمكشوف بعتاب لطيف ومقال عتيق عرض فيه لوجوه الضعف في الحركة الأدبية المصرية، ترضية لجريدة عرفت غايتها في شن الغارة على أدب إخواننا المصريين، وكان ينبغي أن يربأ بقلمه عن الخوض في هذا المجال حرصاً على كرامته) أما وقد أعلنت مرتين استنكارك لتزوير صاحب (المكشوف) وإقامتك الدعوى الجزائية عليه - وأنت المحامي - فإني أعتذر إليك عما كتبت بنية خالصة. ولا ريب أن الصحافة اللبنانية تستنكر مثلك هذا التحرش، فتنصح صاحب (المكشوف) بالإقلاع عن خطته الشائنة، أو تدعو كل عربي لمقاطعة صحيفته القاذفة، إن الباطل كان زهوقا
(دمشق)
وداد سكاكيني محاسني
إلى الأستاذ علي الطنطاوي
تعقيب على بعض ما جاء في رسالته إلى أخيه بباريس
عفا الله عنك أيها الأخ الكريم
أيجدر بك - وأنت المنتصر للشرق الغيور على الإسلام - أن تجعل من بلد شرقي مسلم مضرباً لأمثال السوء؟ لئن كان عيب السودان لونهم الأسمر أو بشرتهم القاتمة، فإن خلف تلك السمرة وذلك القتام قلوباً عامرة بالإيمان، ونفوساً أبيّة تَعِفُّ عن مواطن المسكنة وتربأ عن الهوان، وعقولاً على نزر ما تلقى من الثقافة - بحكم مركز

السودان السياسي - جبارة دائبة التفكير فيما يعلي شأن بلادها، لا تخلد إلى الراحة ولا تستمرئ الخمول
سل مصر الشقيقة تنبئك عنا وتصل أسباب التعارف بينك وبين أخيك النائي، فقد حان الوقت الذي يجب أن يعرف فيه بعضنا بعضاً حتى نعمل يداً واحدة فننهض برسالة الشرق والإسلام. وإن تذرع الأخ بأنه إلى غير سوداننا قصد فلا ينس أن كلمة (السودان) شاملة وأنه لابد أن يلحقنا كِفْلٌ من المسبة
عفا الله عنك أيها الأخ الكريم! على أني لازلت معجباً بما تكتب، فخوراً بغيرتك على الإسلام وانتصارك للشرق. وأصدقك القول بأني على رغم ما اضطرني إلى إثبات هذه الكلمة لم أقف قراءتي دون خاتمة الرسالة
(أم درمان - سودان)
(سوداني)
جاءنا من إخواننا السودانيين رسائل كثيرة في هذا (الرسالة)
المعنى فاكتفينا بهذه الرسالة لاعتدالها وإيجازها.
في المسرح الروسي الحديث
يقاسي المسرح الروسي الحديث كثيراً من العنت بسبب الدكتاتورية الفاسدة التي يفرضها الطاغية ستالين. . . وقد كان المظنون أن البلشفية الروسية هي أشهى ثمار الأدب الروسي الذي تقدمها ومهد لها، ووضع لها في قلوب الفقراء أسساً من الثورة والتبرم والاشمئزاز من الوسائل القيصرية العاتية في حكم الشعب، وهو ما نلحظه واضحاً تمام الوضوح في قصص دستوتفسكي وتولستوي وترجنيف وتشيخوف ومن إليهم من أعلام الكتاب الروسيين. . . وكان المظنون أيضاً أن فقيد روسيا العظيم جوركي سيقف حائلا بين الأدب وبين طغيان الحكومة التي حاولت إفساده بإخضاعه لنظمها واستخدامه للتبشير بين الجماهير، فلما شجر الخلاف بينه وبين رجال الثورة في إبانها استبشر المغرمون بالأدب الروسي خيراً، ولكنهم سرعان ما فوجئوا بعودة جوركي إلى روسيا وصلحه مع طغاتها، وصيرورته مبشراً بتعاليمهم، بل من أشد المتحمسين لهم، حتى خاب الظن، ووثق الجميع أن مجد الأدب الروسي قد انهار، وأنه ركد ركوداً لا أمل في انتعاشه منه قط. . . ولولا أن كان جوركي أديباً بطبعه، ولولا أن حياته امتدت في ظل البلشفية، لكانت نكبة الأدب الروسي بتعاليمها نكبة حاسمة، إلا أن هذا الرجل الذي لم تلهه حياة الفراغ والدعة قد ستر هذا النقص فيما جناه هذا النوع الفوضوي من الحكم على الأدب في روسيا، فلما مات خبا آخر قبس من هذه النار المقدسة التي ظلت أعواناً تؤجج قلوب الروسيين ومشاعرهم. . .
وقد هال موت جوركي رجال الحكم في روسيا وعلى رأسهم ستالين، وهوبا ينصرون الأدب فيما يخيل لهم عن طريق المسرح، وهم يبذلون جهود الجبابرة لإقالة عثرته، بيد أنهم لمبالغتهم في جعل المسرح للبلشفية، لا البلشفية للمسرح، ومبالغتهم أيضاً في بلشفة كل ما يتعلق بالتمثيل قد باءوا بالفشل من حيث كانوا ينشدون النجاح. . . وهم يعترفون بهذا، ولذا دأبوا على إبراز درامات جوركي على أكثر مسارحهم، حتى أن روايته الأخيرة (بيجور بوليشوق) تمثل في الليلة الواحدة في أكثر من ستة مسارح من مسارح العاصمة. . . وتبدو الروح البلشفية المفتعلة في درامات أكثر الكتاب، إما لاضطرارهم إلى إرضاء الحكومة وتملقاها، وإما لعجزهم عن وصل ما انقطع من جهود أسلافهم العظام. . . فهذه درامة (الأرستقراطيين) للكاتب نيقولا بوجودين تكاد تكون حرباً على الأرستقراطية التي يجهلها شباب روسيا تمام الجهل. . . وكذلك رواية إيفان كوشرجا (الساعاتي والدجاجة) إن هي إلا درامة فارغة برغم الطبل المدوي الذي دقه النقاد الروسيون لها، وبرغم الجائزة السنية التي نالها صاحبها بسببها. على أن بعض الكتاب الذين احتفظوا باستقلالهم قد استطاعوا أن يكتبوا قطعاً فنية رائعة وإن تكن تحمل الطابع البلشفي أحياناً. . . ومن هؤلاء الكاتب فسوفولود فشنفسكي مؤلف (المأساة التي تبشر بالخير) والتي اضطر أن يقحم عليها روحاً من نوع الميلودرام إرضاء للسادة الحاكمين
ومن أعجب العجب خمول كتاب نابهين مثل كرشون وأفينوجنيف. . . ويبدو أن سبب خمولهم عائد إلى عدم استطاعتهم هضم هذه الدكتاتورية التي يفرضها ستالين وأذنابه على روسيا، وهي الدكتاتورية التي حاربوها من قبل في شخص القيصر نفسه

العدد 234 - بتاريخ: 27 - 12 - 1937
رجل سعيد
وعدتك أن أقص عليك حديث الرجل السعيد بخلقه ودينه عسى أن تجد فيه ما يبرد غيظك ويرد حلمك ويقر بالك. وهأنذا اليوم أسوق إليك هذا الحديث على سرده:
دخل علي هذا الرجل وأنا مكب على عمل دقيق حافز، فلم يسعني حين رأيت ما عليه من سمت الوقار وسيما الخير إلا أن أدع ما في يدي وأفرغ له
- نعم يا سيدي
- أنا رجل من أهل. . . قرأت ما كتب في الرسالة عن الأخلاق ونكولها أمام الغرائز الوصولية في الإنسان، فسأني وأيم الله أن تشتبه المعالم حتى يضل الهادي، وتعترك الظنون حتى يشك المؤمن. وليس لي قلم أضعه بين هذه الأقلام فيدلها على موضع الحق أو يعينها على مقطع الحكم، فآثرت أن أشخص إليك لأكون أمامك مقالاً حياً يقرر، ودليلاً ناطقاً يؤيد
وفي الحق أن الرجل كان في بزته العربية المهندمة، ولهجته الطبيعية المتزنة، كأنما ينطق عن وحي الفضيلة العليا. فقلت له: أتظن أن الفاضل ينجح بمحض فضله في هذا العصر الآلي الأصم؟
فقال: لا أظن، وإنما أعتقد؛ ولا أنكر مع هذا الاعتقاد أن الفضيلة وعرة الطريق، وأن الخير صعب المرتقى. وفي قول الرسول الكريم: (حفت الجنة بالمكاره)، و (القابض على دينه كالقابض على الجمر) ما يصدق ذلك. ولكن الفضائل تعليم وتعويد ورياضة؛ فإذا أوف غرسها في النشء، وضعف أثرها في المجتمع، دل ذلك على فشل التربية لا على فشل الفضيلة.
أنا رجل واسع الثراء سابغ النعمة؛ وقد جمعت مالي الوفر من ذلك الطريق السوي الذي ألزمني إياه أبي منذ الصغر؛ فليس في نصابه قرش زائف ولا متر مغتصب. ورثت عن أبي الدين الصحيح على أنه دستور الدنيا، والخلق الصريح على أنه جوهر الدين؛ ثم زاولت التجارة بالصدق والصبر فاستغنيت، واقتنيت العمائر والضياع فأثريت، وأديت الصلاة فوصلت ما بيني وبين الله، وآتيت الزكاة فأصلحت ما بيني وبين الناس. ثم أحصنت نفسي بالزواج الباكر فوهبت البنين، وعصمت شهوتي من المتع الحرام فرزقت العافية. وطهرت قلبي من الطمع الحاسد والخصام الحاقد فأوتيت السكينة. ثم جهلت البنك
فجهلت الربا والدين، وأنكرت المحكمة فأنكرت العداوة والظلم، ووضعت فضل مالي في أيدي ذوي الخلق من التجار يحفظونه لي ويستثمرونه لهم، وجعلت أرضي في ذوي الدين من الزراع يريعونها علي ويستغلونها عليهم، ومسست بالمواساة والرحمة قلوب البائسين حولي فسللت منها الضغينة؛ ثم كان لي في كل مبرة سهم، وفي كل مستشفى سرير، وفي كل مشروع وطني يد. فأنا أمشي في الناس ملحوظ الشهادة محفوظ الغيب، لا تمتد يد إلى مالي لأنه مبذول للسائل والمحروم، ولا ينبسط لسان في عرضي لأن جاهي موقوف على العاطل والمظلوم، ولا يأتمر أحد بحياتي لأن وجودي أمان للشقي من البؤس والجريمة
أما سعادتي في نفسي وولدي فهي أعظم وأتم من سعادتي في عملي ومالي: أجدني كنف الرجاء لكثير من الأسر الفقيرة، ومصدر العزاء لطائفة من القلوب الكسيرة؛ وأرى في كل نظرة وفي كل بسمة وفي كل كلمة معاني لا تتناهى من العرفان والحنان والشكر، فتعظم سعادتي في نفسي، وتجمل دنياي في عيني، ويغمرني شعور من عزة المؤمن وزهو الخاشع، لأن حياتي لها هذا الخطر في حياة بعض الناس. ثم أنظر إلى بني الثمانية فأرى في وجوههم صورتي، وفي صدورهم محبتي، وفي شعورهم عاطفتي، وفي ميولهم رضاي، وفي آمالهم مناي، فأقبل يدي ظاهراً وباطناً وأقول لنفسي: احمدي الله واشكريه فإن علياً لن يموت، وإن ثراءه لن يبيد، وإن بناءه لن يتقوض!
ذلك كله يا سيدي بفضل الخلق. فإذا كان قد تهيأ لمثلي على جهله بقواعد المدنية وضروريات العلوم أن يجمع بمعونة الله وحده هذه الثروة الضخمة وليس له رأس مال من إرث ولا فيض رزق من حكومة، وإن ينال هذا الجاه العريض وليس له نسب عريق في أسرة ولا سبب وثيق إلى سلطان، وأن يخلق من حوله هذا النعيم المقيم فيغرق

فيه أهله وعشيرته وبيئته، وأن يرفع بناء الأخلاق الفاضلة في بنيه بالتربية وفي أهله بالقدوة وفي مواطنيه بالتقليد، فكيف لا يستطيع معلمو المدرسة ووعاظ المسجد ومشرعو البرلمان أن يخلقوا في كل مكان هذه البيئة وتلك الجنة فيصلح المجتمع ويسعد العالم؟

فقلت له وقد أعجبني عقله وأمتعني حديثه: يا سيدي، إن من سعادتك وسعادة الناس بك أنك صاحب عمل لا صاحب علم، ورجل عزيمة لا رجل رأي. ولو كنت من كهنة العلم لصعدت إلى قدس الأقداس وظللت تقرأ الفلسفة والأخلاق لرياضة العقل أو للذة المعرفة أو لشهوة الجدل، ثم رميت الناس من عليا سمائك بالآراء المتعارضة والأحكام المتناقضة لتصطرع في المطابع حيناً ثم تموت في الكتب

لا يزال المربون يا سيدي يجادلون في أغراض التربية ويجربون نظرياتها المختلفة في حقولهم الخاصة. فليت شعري وشعرك أيتاح لهؤلاء في دهر من الدهور أن يقبضوا على أعنة الأمم ويتولوا القيادة في ركب الحياة!؟ أدع الله للناس أن يلهمهم من الحق ما ألهمك، وأن يعلمهم من قواعد الخير ما علمك!

قال صاحبي الثأر وقد شبا وجهه بشي من الإيمان والاطمئنان: وهل تستطيع أن تعد كثيراً من الناس على غرار هذا الرجل؟ فقلت له: يا صاحبي! ليست المسألة مسألة إحصاء وعد، إنما هي مسألة إمكان وواقع. ومتى ثبت أن الأخلاق الفاضلة استطاعت أن تصنع من هذا الرجل هذا المثال، فلم لا تستطيع أن تصنع غراره ملايين من الرجال؟

أحمد حسن الزيات

هل الحرب ضرورة؟

للأستاذ عباس محمود العقاد

- 2 -

ظهور المذهب في الأمة شيء، وشيوع العمل بذلك المذهب شيء آخر

لكن ظهور المذاهب مع هذا لا يخلو من دلالة قوية على طبيعة الأمة ومعدن أخلاقها وطرائق معيشتها، ولو لم يعمل به الناس أو يتقيدوا بأحكامه في الحياة اليومية

فالجنود والفلاسفة ورجال المال وأصحاب التجارات الواسعة موجودون في بلاد الحضارة كافة، وربما تساوت (النسبة) بينهم في العدد والقوة والجاه، ولكن مما لاشك فيه أن البلد الذي (مثله الأعلى) رجل الحرب غير البلد الذي يتخذ له (مثلاً أعلى) من الرجل الغني أو من الرجل الحكيم أو من الرجل الزاهد. فإذا ظهر في الصين حكيم يوصي الناس بالوداعة وحب السلم وكراهة القتال فليس بالمعقول ولا بالميسور أن يشيع العمل بوصاته حتى يمتنع ظهور الجند ووقوع القتال بين تلاميذه ومريديه؛ ولكن ليس بالمعقول كذلك إن نسوي بين هذا البلد وغيره من البلدان التي يتمنى حكماؤها شيوع الحرب أو شيوع الثروة أو شيوع الزهد والرهبانية، إذ يكفي أن يتمنى الإنسان شيئاً ليكون مختلفاً في تفكيره وشعوره ممن لا يتمنونه وقد يتمنون نقيضه، ولا يسوى بينهم بعد ذلك أنهم يشتركون في عمل واحد يعمله بعضهم مضطراً مسوقاً إليه، ويعمله بعضهم مختاراً شديد الرغبة فيه

لقد أوصى حكماء الصين بالسلام وبغضوا الناس في الحرب وفيمن يجعلها صناعته وهمه وهجيراه، فليس معنى هذا أن حرباً لم تقع في الصين وأن حكيماً لم يظهر بين أهلها يحثهم على الكفاح كلما دعت إليه حاجة أو قضت به مصلحة سياسية؛ فقد ظهر من الصينيين فلاسفة بالغوا في تمجيد الحرب كما يبالغ فيها اليوم فلاسفة المذاهب (الفاشية) أو مذاهب العسكريين. وقال أحدهم وهو (كنج سوف يانج): (إن الأمة التي تجتمع فيها القوة حقيقة أن ترهب وتصبح عظيمة البأس والمهابة؛ أما الأمة التي تلهو بالكلام فهي وشيكة التمزيق. ولو أن ألفاً اشتغلوا بالزرع والحرب وواحداً بينهم أشتغل بنظم القصيد ورواية التاريخ وتنميق الأحاديث لأفسد عليهم أعمالهم أجمعين. . .) إلى أمثال هذا الكلام الذي يخيل إلى قارئه أنه من عربدة المعسكرات لا من نصائح الوعاظ والحكماء

ظهر في الصين من قال بهذا وظهر فيها من قال بغيره وهو الفريق الغالب والقدوة العامة المرموقة من الأكثرين، وربما كان ظهور الحكماء المسالمين وانتشار حكمتهم

هو الباعث إلى ظهور المخالفين لهم وإغراقهم في دعوة الحرب وآداب القتال، كما يصيح الإنسان ويبالغ في الصياح كلما أحسن أنه ضائع الصوت والصدى محتاج إلى جذب الأسماع ولفت الأنظار؛ وإنما عبرة هذا جميعه أن النيات لها دلالة قوية وليست الدلالة كلها للأعمال والوقائع؛ فإذا رأينا أناساً ينوون السلم ويحاربون فليس بالصحيح أن نسوي بينهم وبين من ينوون الحرب ويحاربون: هم مختلفون وإن تشابهوا في عمل واحد، ونحن رابحون إذا أشعنا دعوة السلم وإن لم يتبعها على الأثر شيوع السلم وبطلان القتال

ومن الأشياء التي لها دلالتها في العصر الحديث كثرة الناعين على الحروب بين الأمم الحرة، وكثرة المنكرين لمظاهر الزهو التي كانت تحيط فيما مضى برجال الفتوح والغزوات، فسيكون لذلك كله أثره كما كانت له دلالته وكانت له دواعيه. وحسبنا أن العمل في هذه الوجهة ليس بالعبث ولا بالعقيم، بل حسبنا أنه واجب محمود، بل حسبنا أنه ليس بذميم، ليكون ذلك من أسباب المضي فيه والإقبال عليه

يقال إن الضراوة ليست من طبيعة الوحش في حالة التأبد والسهولة. ويقول هدسون: إن ألبوما - وهو من أشد السباع الأمريكية - لا يهجم على أحد إلا وهو مدافع عن حياته. ويقول كومستوك: إن الثعابين والدببة وغيرها من السباع لا تتعلم الضراوة إلا حين يظهر بينها الإنسان ويوغل بينها في الصيد والاعتداء والتحرش والإيذاء. وحسبنا من ذلك أن الضراوة ليست أصلاً في الخليقة حتى بين السباع والعجماوات، وإنها ضرورة وليست بشهوة مطلوبة، وأنها تحول إذا امتنعت الضرورة وتغيرت الأسباب. فلا نزعم كما يزعم الفاشيون أن تربية الإنسان على الحرب فضيلة متى ثبت أن الحرب رذيلة ليس عنها محيد: ذلك خطأ لا ريب فيه، لأنه لم يثبت أولاً أن الحرب طبيعية في الأحياء، ولن يثبت بعد ذلك أن الرذيلة تصبح فضيلة مرغوباً فيها متى علمنا أنها عسيرة الاجتناب

ولست أكبر من شأن الدلالة التي أشار إليها الكاتب (الدوس هكسلي) صاحب كتاب الغايات والوسائل حين قال: إن الإنسان في دور الفطرة لم يكن يعرف الحرب على نظامها المعروف بين أصحاب الحضارة، فإن الرجل الذي يحارب ليس بأبشع ولا أقسى من الرجل الذي يقتل بعد تدبير وإصرار؛ ولعله أقل بشاعة وقسوة لأنه يقتل وهو مهتاج مستثار بما يثير الجنود في حومة الصراع. إلا أنني أومن بما تواترت به الآراء عن قلة الضراوة بين الأحياء التي تعيش على الفطرة في حالة التبدي والسهولة، فإن ذلك معناه أن الحرب آفة قابلة للعلاج في زمن من الأزمان، وأنها متى بطلت أسبابها الأولى ووضحت أضرارها الجسام وكثر المصابون بتلك الأضرار خفيت من عالم الإنسان المتحضر كما خفيت من عالم الإنسان الفطري أو من عالم الحيوان

وربما لاح عجيباً للمصريين أن يعلموا أنهم أول أمة في العالم قد اخترعت (فن الحرب) على النظام المعروف؛ فقبل الحضارة المصرية لم تكن حرب منظمة ولا تعبئة مدروسة ولا حركات يتعلمها القادة كما يتعلم صناعته كل ذي صناعة محفوظة الأصول والقواعد؛ وإنما كانت هناك مشاجرات يدخل فيها استخدام السلاح ولا تعتمد في فنون التعبئة على نظام سابق. فما أعجب أن يكون المصريون الموادعون هم اسبق الأمم إلى اختراع فن القتال! وما أعظم ما في ذلك من دواعي التفاؤل عند أناس ودواعي التشاؤم عند آخرين! فأما التفاؤل فذاك لأن هذه العجيبة دليل على أن الحرب ضرورة معيشة في بعض حالات الحضارة الأولى، وليست بشهوة مقرونة بالوحشية التي تناقض الوداعة والمسالمة؛ وأما التشاؤم فذاك أن يقول القائل: هذا شأن الموادعين فكيف بالضراوة المقتحمين؟!

ومع هذا نقول ويقول هكسلي: إن علاج الحرب نفسي وليس باقتصادي على زعم الاشتراكيين أصحاب التفسير المادي للتاريخ، وإن المعيشة تابعة لحالة النفس قبل أن تكون الحالة النفسية تابعة للمعيشة. فهذب الرجل وأصلح من ذوقه وتفكيره ينتقل من منزل إلى منزل ومن حي إلى حي ومن كساد إلى كساد ومن طعام إلى طعام، وهكذا يكون العلاج لآفات الأمم في هذا الزمان

وقد وعدنا في المقال السابق أن نلم بأسباب الحرب الاقتصادية كما يراها مؤلف الكتاب. فأهمها وأسبقها تاريخاً في نظره هو التماس المرعى الخصيب وانتزاعه من

أيدي مالكيه؛ ثم تبدل هذا الباعث في زماننا فحل التماس الأسواق محل التماس المرعى الخصيب، وأدى التماس الأسواق إلى إنشاء المصانع في البلاد المستعمرة فقام النزاع بين المصالح في أيدي الأقوياء والضعفاء على السواء

ومن أهم أسباب الاقتصادية معامل السلاح ونفوذ المنتفعين بترويج الأسلحة بين المتحاربين. وليس من العلاج الناجع في رأي هكسلي أن تستولي الحكومات على هذه المعامل فتبطل الدعاية للحروب، لأن الحكومات تحتاج إلى المال كما تحتاج إليه الشركات؛ ويزيد على المشكلة مشكلة جديدة وهي أن الحكومات أقوى على الجملة من الشركات

ويمضي الكاتب في سرد أمثال هذه الأسباب مجتهداً في إبراز غرضه الأصيل من كتابة الكتاب وهو تغليب العوامل النفسية على العوامل الاقتصادية وتوجيه الأذهان إلى ابتغاء العلاج الأدبي مع العلاج الاقتصادي في وقت واحد. وخلاصة العلاج الأدبي ترجع بنا إلى مذهب كمذهب أهل الهند أو مذهب المتصوفة القائلين بأن عظمة الإنسان على مقدار استغنائه عن قيود اللذات والشهوات وقيود الأوجاع والهموم، وأن المثل الأعلى في التربية هو الترفع عن الحاجات وليس الخضوع لها والانقياد لغوايتها. أما خلاصة العلاج الاقتصادي فهي العناية بالوسائل الزراعية التي يجريها الدكتور ولكوكس صاحب كتاب (الأمم تعيش على مواردها الداخلية)؛ وفحواها أن الأمة بالغاً ما بلغ عدد سكانها قادرة على استخراج طعامها من أرضها إذا هي عمدت إلى تطبيق بعض الأساليب العلمية التي حققها بالتجربة المشهودة. ويتوقع هكسلي أن طريقة ولكوكس ومثلها طريقة الأستاذ جريك في كليفورنيا ستحدثان في العالم انقلاباً شاملاً لا يذكر إلى جانبه انقلاب الصناعة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، إلا كما تذكر التوافه واللمم في معرض الأخبار الجسام

وجميع هذه الخلاصات إنما هي فهرس للعناوين يشوق من يعنيه الأمر إلى المراجعة والاستقصاء. فإذا راجع واستقصى علم أن الجزاء أكبر من العناء، وأن من مباحث الزراعيين في عصرنا هذا ما يلذ القارئ كما يلذه البحث في الأدب والفن والفلسفة وأصول العقائد وقوانين الاجتماع، فلا سبيل إلى علاج عالمي يعصف بآفات القرون الأولى ويحيط بعواملها الفكرية والشعورية ما لم يكن مصحوباً بدراسة هذه الشؤون

عباس محمود العقاد

ليلى المريضة بالعراق

للدكتور زكي مبارك

- 3 -

. . . في صباح يوم السبت توجهت إلى بهو أمانة العاصمة لأؤدي واجب التحية، تحية العيد إلى وزراء الدولة. وقد ظنني فخامة الرئيس عراقياً، لأني كنت بالسدارة، فسرني ذلك. وكانت فرصة طيبة عيدت فيها على رجال كنت أحب أن أذهب إليهم في منازلهم؛ وراقني أن يعرف العراقيون مكاناً عاماً يلتقون فيه يوم العيد، وهي عادة حسنة كنت دعوت إليها في الرسالة التي قدمتها للمباراة الأدبية الرسمية: رسالة (اللغة والدين والتقاليد)

وتلفتّ فرأيت الدكتور حسين كامل يشير اليّ، وما هي إلا لحظة حتى كانت يد كريمة تصافحني وتقول: أنا الدكتور شوكة الزهاوي رئيس الجمعية الطبية العراقية. وقد سألت عنك مرات لأن أسمك يرد كثيراً في المخابرات التي تجري بيننا وبين الجمعية الطبية المصرية. والحمد لله على أن اهتديت إليك بعد التشوف والاشتياق

ثم أستطرد فقال: إيش لون ليلى؟ (واللون في عرف العراقيين هو الحال في عرف المصريين)

فقلت وأنا أبتسم: ستعرف ذلك يوم ألقي بحثي في المؤتمر الطبي عن ليلى المريضة بالعراق

فقال: عجل بدفع الاشتراك ليحفظ لك مكانك بين الخطباء

فأخرجت ديناراً لم يكن معي سواه وقلت: إليك الدينار في سبيل ليلى! والله المستعان

والظاهر أنه لم يعرف شيئاً عن الرسالة التي كلفت الأستاذ الزيات تبليغها إلى الجمعية الطبية المصرية (ولا تغضب يا صديقي الزيات من كلمة تكليف، فكذلك قلت، وما

أكذب عليك)
وفي المساء ذهبت إلى نادي المعارف واشتركت في استقبال الكشافة السورية، وألقيت خطبة تناسب المقام. وما كادت تنقضي الحفلة حتى عدوت إلى منزلي لأنتظر وصيفة ليلى
وجاءت الساعة العاشرة ولم يحضر أحد، فقلت في نفسي: هذا جزاء الفضول!
ثم تذكرت أني أؤدي خدمة وجدانية سيذكرها التاريخ فأنشرح صدري بعض الانشراح وهدأت، ثم أخذت أقلب أوراقي في سكون واطمئنان
وبعد نصف ساعة أحسست يداً رفيقة تطرق الباب، فخففت إليه في وقار مصنوع وفتحته بدون أن أسأل عن أسماء الزائرين. وما الحاجة إلى ذلك وأنا أعرف جوهر الزيارة في نصف الليل؟ وليتها كانت زيارة تذكر بالأيام الخوالي حين كنت أدرس الطب في باريس، وحين كنت أترك الباب بلا رتاج لتدخل الصغيرة المحبوبة حين تشاء إنها زيارة جرداء ستنقضي في السؤال والجواب، وأنا اليوم طبيب مسؤول عن رعاية الحرمات
دخلت جميلة أولاً، وتبعتها ليلى. دخلتا ملفوفتين، مع أن المرأة جميلة جاوزت الستين؛ وشعرت بشيء من الخجل للفقر البادي في غرفة الاستقبال، ثم تماسكت حين تذكرت أن هاتين المرأتين تفهمان بلا ريب أني طبيب غريب وأن الوقت لم يتسع لتأثيث العيادة والبيت
- يا جميلة، ما أسم هذه الوصيفة؟
- اسمها ظمياء، ولكن ما ذنبي عندك يا دكتور حتى تغير اسمي؟
فقلت: لن أذكر أسمك الصحيح في علاج ليلى، لأني لا أريد أن تغتنمي الفرصة فتصبحي علماً على حسابها يا حيزبون!
وأخذت المرأة في اللجاجة ولكني انصرفت والتفت إلى ظمياء
- إيش لون ليلى؟
- بخير، يا دكتور، وقد سرت في روحها البشاشة منذ الوقت الذي رأتك فيه، ولكن في نفسها منك شيء
فقلت وأنا منزعج: وما هو ذلك الشيء؟ أعوذ بالله من كيد الشياطين!
فأجابت: كتب إليها كثير من أدباء مصر يؤكدون أنك أديب ولست بطبيب
فقلت: هؤلاء دساسون، وقد آذوني قبل ذلك أبلغ إيذاء، فقد كنت خطبت فتاة في باريس وطاب لي معها العيش، إلى أن تدخل المفسدون وحدثوها أني متأهل، وأن لي خمسة أبناء. وأنا يا آنستي رجل محسود لا أخطو خطوة إلا وحولي رقباء لا ضمائر لهم ولا قلوب
فقالت: ولكن ليلى رأت في صدور كتبك أنك دكتور في الآداب
فقلت: هذا تواضع مني، لأن الطبيب الحق لا يقول إنه طبيب، ومع ذلك فلا بأس من إخبارك بكل الحقيقة لتبلغي ليلى فتطمئن. عندي يا آنستي ثلاث دكتوراهات: الأولى في الآداب، والثانية في الطب، والثالثة في القانون
فتهلل وجه ظمياء وقالت: الآن فهمت ما ينشر في الجرائد من أنك تلقي محاضرات في كلية الحقوق
فقلت: هو ذلك يا آنستي. وستقرئين في الجرائد بعد حين أني ألقي محاضرات في كلية الطب!
والآن ندخل في صحيح الغرض من هذه الزيارة الليلية، ولندرس الموضوع من جميع الأطراف، لأني لا أستريح إلى دعوتكما لزيارتي مرة ثانية، فإن العيون تترصدني من كل جانب، وسمعة الطبيب هي كل ما يملك، وأنت في الحق فتاة حسناء وأخشى أن تحيط بي من أجلك الظنون
فتنهدت وقالت: العفو يا دكتور! إن مرض ليلى هدني ولم يبق مني على شيء
فقلت وقد غاظني أن تحسبني أتغزل: أسمعي، ليس الوقت وقت دلال، أنت هنا في خدمة الواجب، أجيبي على الأسئلة بصدق وصراحة، واحذري عواقب المداورة في الجواب
- هل ترين ليلى امرأة مصونة؟ هل يحيط بسمعتها قليل من الشبهات؟
- ليلى مصونة كل الصيانة يا دكتور، بالرغم من كثرة الحواسد لم تستطع امرأة أثيمة

أن تقول في حقها كلمة سوء، فهي مثال الطهر في بغداد، وحديثها كالعطر في جميع أرجاء العراق
- وكم سن ليلى الآن؟ وكيف كان ماضيها في الحياة الزوجية؟
- هي في حدود الأربعين، ولا تزال عذراء
(وعندئذ دونت في مذكرتي أن المرأة التي تصل إلى سن الأربعين وليس لها زوج ولا أطفال معرضة لكثير من الأمراض، وهذه أهم نقطة أعرضها للدرس في المؤتمر الطبي)
ثم رفعت بصري إلى ظمياء وقلت: ولكن كيف أتفق أن تعيش ليلى كل هذا العمر عذراء؟
فتلجلجت الفتاة ثم لاذت بالصمت، فنهرتها بعنف، فأجابت وما تكاد تبين:
- كانت تحب الضابط عبد الحسيب
- ومن هو الضابط عبد الحسيب؟
- فتى كان في الجيش العراقي وأبوه من مصر وأمه من لبنان
(للحديث بقية)
زكي مبارك
ضبط النفس
للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني
علمتني الحياة ضبط النفس، والحياة مع الأسف مدرسة ولكنها فيما يبدو لي عقيمة، فإن الدروس فيها لا تنتهي، ولا يكاد المرء يظن أنه حذق بعضها وآن له أن ينتفع بما تعلم منها حتى تسلمه الأقدار إلى العفاء! ففيم كان طول التتلمذ هذا؟ وما خيره إذا كان العمر ينتهي به؟ وما الفرق إذن بين الجهل والعلم والطيش والحكمة؟ ولماذا يعني المرء نفسه بالنظر والتدبر والتحصيل؟؟
قلت هذا مرة لصديق إنجليزي فلم يستغربه، لأنه لا جديد فيه، ولكنه سألني: (أيشق عليك هذا؟) فاحتجت أن أدير عيني في نفسي لأتبين، فما أدري والله أهو يشق أم يهون. ثم قلت له: (لا أظن. . فإني حائر. . أجهل ما تنطوي عليه نفسي. . ولكني أريد أن أفهم وأن أهتدي إلى الحكمة. . . فإني أراني أتعب وأكد في التحصيل والنظر. . . وسأقضي حياتي كلها في هذا، ثم يجيء يوم فأطوى. . . ويطوى معي كل ما تعبت في إفادته ولم أنفع به أحداً. ولو أني كنت أموت ويبقى ما أفدت لأختلف الحال، ولكن عقلي يبطل، وإحساسي ينعدم، فكأني ما عشت ولا كنت. فما هذا الموت الذي تموت به كل المعاني الحاصلة، والحكمة المستفادة، والمعارف والاحساسات؟ هذا هو الذي يثقل علي، وإن كان لا مفر منه. وفي سؤالك ما يشعر أنك لا تستثقله كما أفعل، وهذا راجع إلى طبيعة المصري، فأنها غير طبيعتكم. نحن المصريين يختلط في نفوسنا الشعور بالحياة بالشعور بالموت، وتفكيرنا في هذه بتفكيرنا في ذاك. حياتنا كلها وآثار آبائنا الأقربين والأقدمين تثبت ذلك، ولكنكم تفكرون في الموت كأنه شيء مستقل عن الحياة، يعترضها ولكنه ليس منها، هو عندكم طارئ غريب. . . أو قل إنكم لا تحسون به كإحساسنا نحن. . .)
وقصصت عليه قصة تجلو فرق ما بيننا وبين الإنجليز في هذا، وتلك أن سيدة استأجرت غرفة في بيتها في لندرة روت لي يوماً أن جارها توفي أبوه، وقالت إنه الآن مسجى على سريره في غرفته ينتظر يوم الدفن، وكان الابن يحب فتاة ويشتهي أن تكون زوجته، وقد تودد إليها وأطلعها على ما يجن لها من الحب وخطبها فشكرته وأسفت واعتذرت، وكان له صديق يحب الفتاة أيضاً وينافسه عليها، وقد ظفر منها بكلمة القبول في نفس اليوم الذي
مات فيه أبو صاحبه، فزاره ليعزيه، ثم لم يسعه إلا أن يفضي إليه بما يملأ قلبه من السرور وأن يبلغه أن الفتاة رضيت أن تكون زوجته، فأحتمل الرجل الصدمتين: صدمة الموت وصدمة الحرمان، وتناول زجاجة الويسكي وناول صديقه كأساً وتناول هو أخرى، قالت السيدة: وقد ظلا يشربان إلى الهزيع الثاني من الليل. وقد كانت تروي لي هذه القصة وهي معجبة بسعة صدر ذلك المفجوع في أبيه وفي حبه، وعظم ضبطه لنفسه؛ ولم يكن إعجابها به لأنه أستقبل صديقه وراح يسامره وأبوه الميت لا يزال في البيت فإن الموت مألوف لا جديد فيه، ولا خير من تقطيع القلب حسرات من جرائه، وإنما

كان الإعجاب لأنه أحتمل الهزيمة في ميدان الحب على هذا النحو الكريم
مثل هذا لا يمكن أن يحدث في مصر. ولو أن اثنين تنافسا على فتاة، لما كان من
سلامة الذوق أن يذهب الفائز بها إلى مزاحمه ليطلب منه تهنئته بذلك ومشاركته في
سروره، فإن هذا في عرفنا أشبه بأن يكون شماتة ومكايدة، فكيف إذا كان أحدهما
أبوه ملفوف في أكفانه ينتظر أن يحمل إلى قبره؟
وأكثر ما نراه من مظاهر الحزن أو الجزع عندنا من التكلف ولاسيما بين النساء. ولكن
لماذا يتكلف المصريون هذا ويحرصون على إبدائه؟ أترى تكلفهم هذا يرجع الأمر فيه
إلى الجهل أم إلى شعور بشيء في الطباع؟ لا أدري، ولكن الذي أدريه أن التجلد يكون
مما يتحدث به الناس ويلهجون بذكره، كأنما الأصل هو الجزع. وإني لأذكر أني تظاهرت
بالاطمئنان، وتكلفت الابتسام لما ماتت أمي، بين يدي، وكنت أخادع أخي وأخادع
سيدات كثيرات كن في تلك الساعة في البيت، وقد كرهت أن ينفجرن بالصراخ
والعويل واللطم، وأمي بينهن في ثيابها التي كانت تلبسها لما حضرتها الوفاة، فلما
عرف أخي ما دبرت ساءه هذا مني وكبر عليه أني زعمت له أنها نائمة وهي ميتة،
وأني تبسمت وكان حقي أن أبكي، وبقي أياماً لا يكلمني، وإذا لقيني ترقرقت الدموع
في عينيه؛ ولا أدري ماذا كان يجديه أن يعلم أن روحها فاضت قبل ساعة أو بعد ساعة،
وأحسب هذا من الحزن، ولم أكن دونه حزناً، بل لعلي أعمق منه حزناً عليها، ولكنه
كان عليّ ما لم يكن عليه من الواجبات في تلك الساعة فاحتجت إلى خنق شعوري
حتى أفرغ من الأمر على ما أحب
وكانت لي طفلة صغيرة ماتت، فاحتلت حتى استطعت أن أواريها التراب وأمها تعتقد أن
بنتها لا تزال على قيد الحياة، وكانت الأم مريضة، وقد أوصاها الطبيب بالتزام السكون
واجتناب الحركة والأنفعال، فلم يسعني أن أفعل إلا ما فعلت، وكان هناك عامل آخر
غير الموت يزيد في ألمي، وذاك أني موقن أن الإهمال هو الذي جر الموت، والآجال
بيد الله، ولكن لكل شيء سبباً، وكانت البنت قد أصيبت بالحصبة، فاحتجنا - لمرض
أمها - أن نكل العناية بها إلى خادمة كنا نظنها حاذقة ذكية، فأصيبت البنت بالتهاب
رئوي قضى عليها وأودى بها؛ غير أن ما كان كان، ولا حيلة فيه لإنسان. فكظمت
غيظي، وكتمت ألمي، وتشددت لأعين الأم المسكينة على الصبر. وجاءني بعض
الأصدقاء يعزونني في المساء فألفوني أبتسم وأضحك وأمزح فتعجبوا، ولا محل
للعجب في الحقيقة، وأحسب الأمر قد صار عندي عادة وما أظن بي إلا أني أصبحت
(كالحانوتي) والمرء مما تعود
ولم أكن هكذا في صغري. وإني لأستحيي أن أقول كيف كنت أحمق طياشاً قليل الصبر
سريع التأثر، ولو شئت لقصصت على القارئ مائة حكاية وحكاية، ولكني لا أنوي أن
أفضح نفسي، وقد صرت يهون على كل شيء إلا أن يراني الناس لا أملك زمام
نفسي، ولا أستطيع ضبطها وكبحها. ومن العسير أن أعرف البواعث التي أغرتني بهذا
الكبح وزينته لي حتى أصبحت لا يسخطني شيء كأن يتلفت زمام النفس من يدي.
وفي وسعي أن أقول في هذه البواعث، ولكني لا أحسب أني قادر على الإحاطة بها أو
مهتد إلى الخفي منها. وما ذكرت الموت إلا لأنه في مصر مما يغتفر الجزع حياله، وإن
كان المرء يلقى في حياته ما هو شر منه وأدهى، وقانا الله السوء ولطف بنا. ولم تهن
علي الحياة، ولكني مللت طول الحيرة التي يورثنيها النظر في وجوهها وأضجرني
العجز عن الاهتداء والفهم، فنفضت يدي يائساً وقلت فليكن ما يشاء الله أن يكون،
ولأعش كما يتيسر لي أن أعيش والسلام، ولأدع عناء التفكير والنظر لمن أراد أن
يحطم رأسه، فإني أنا لا أشتهي هذا التحطيم، وقد جربته فلن أعود إليه. ومن هنا قلة
مبالاتي. وماذا أبالي بالله؟
إبراهيم عبد القادر المازني
هل انتهت السياحات والكشوف الظاهرة
في القرن السابع عشر أو بعده؟
للأستاذ أديب عباسي
إذا كتب الأستاذ الكبير - العقاد - أطرف وأبدع، فلا يسع القارئ الذي يصح أن نطلق
عليه هذا الاسم إلا أن يقرأ ما كتب الأستاذ. وإذا قرأ له القارئ فلا يسعه إلا أن يقرأ

مترفقاً مستأنياً، فليس الأستاذ العقاد بالذي تستطيع أن تقرأ له على الطريقة الأمريكية، طريقة الخطف واللمح والقراءة بالأسطر والفقرات بدل القراءة بالجمل والكلمات. وليس ذلك لإبهام في الرأي الذي يبسط الأستاذ أو التياث في الرأي الذي يشرح، وإنما هو راجع إلى خصلة التركيز الشديد والعمق الصادق التي تتسم بها كل آثار العقاد. وإذا قرأ القارئ الحصيف ما يكتب الأستاذ العقاد هذا النوع من القراءة المتئدة المترفقة فالأرجح أن يخرج مما قرأ له على وفاق معه لا يشوبه تردد الإبهام ولا شك المداورة. ذلك بأن الأستاذ، في صميم ما يكتب، لا يحاول أن يكتب ليفحم، إنما يكتب ليفهم، ويناقش ليقنع لا ليدهش. أقول هذا لمناسبة ما كتب الأستاذ في موضوعي (الحد الحاسم) و (النماذج والأفراد في الأدب) اللذين نشرا في عددي 228 و 229 من الرسالة. هذان المقالان يكادان يكونان نموذجاً لما تتصف به كتابات العقاد من العمق وسلامة المنطق وقوة التوجيه مع الشمول والإحاطة. ومن هنا بادرت أتهم نفسي بالتواء القصد عليها حينما رأيتني أخالف الأستاذ فيما ارتأى ختام موضوعه الثاني فأرى هذا الرأي الذي أبسطه في بقية هذه الكلمة، ولكنني برغم ما اتهمت نفسي واعدت قراءة الموضوع لم أوفق إلى شيء يردني إلى رأي الأستاذ أو يوافق بين رأيه ذاك، ورأيي الذي أبسطه هنا ليتكرم فيصلحه لي، إن رآني مخطئاً، أو يصلح رأيه إن رآني مصيباً

لخص الأستاذ في مقاله الأخير رأياً للأستاذ أدولف وولف في علاقة الديمقراطية والدين بظهور الخصائص المستقلة في الصور الأدبية بعد القرن السابع عشر فقال: (فمنذ أصبح الإنسان فرداً معزولاً في حكم الدين لا اختلاط بين حسناته وسيئاته وبين حسنات الآخرين وسيئاتهم ولا التباس بين ثوابه وثوابهم وعقابه وعقابهم، هنالك أصبحت كل نفس بما كسبت رهينة، وأصبحت كل نفس حقيقة بالمحاسبة والإحصاء والمراقبة، ورسخت جذور الديمقراطية فلم يبق إلا أن تظهر لها على وجه الأرض فروع وأوراق وثمار)

وكان من هذه الفروع - كما يرى الأستاذ - ظهور الخصائص الفردية والسمات المميزة والفوارق القوية في الصور الأدبية الحديثة. هذه الخصائص والسمات والفوارق يجعلها الأستاذ وولف - كما لخصه لنا الأستاذ العقاد - رهناً بظهور التحليل النفسي الذي كان بدوره رهناً بشيوع الروح الديمقراطية والنظر إلى الفرد نظرة خاصة فاحصة، فلا تفنى معالم شخصيته ومظاهر سلوكه في غمار الجمهور والنماذج التقليدية المرسومة. إنما يؤثر الأستاذ العقاد، في ختام موضوعه، أن يرجع التحليل النفسي والديمقراطية معاً إلى شيء آخر (هو انتهاء الكشوف الظاهرة وابتداء الكشوف الباطنة، أو انتهاء السياحات الجغرافية وابتداء السياحات النفسية الإنسانية)

هنا يسمح لنا الأستاذ العقاد أن نخالفه ويسمح لنا أن نسأل: أصحيح أن الكشوف الظاهرة أو الكشوف الجغرافية انتهت في القرن السابع عشر أو حواليه، ومن ثم بدأت الكشوف الباطنة للنفس كنتيجة لانصراف الذهن البشري عن الدراسات والسياحات الظاهرة إلى الدراسات والسياحات الباطنة؟! إنني أشك في صحة هذا الزعم، بل أكاد أنفيه قاطعاً

ليست السياحات الظاهرة وقفاً على الضرب في مجاهل الأرض واكتشاف كل رجأ من أرجائها، وليس الاستشراف للمجهول في خارج حدود النفس الإنسانية قاصراً على الحدود الجغرافية لقارات الكرة الأرضية؛ فهناك السماء بعوالمها الشاسعة، وأكوانها المبثوثة في رحاب الكون وأسرارها المحيرة؛ وثمة الذرة بصفاتها العجيبة وسلوكها الغريب وأسرارها الدقيقة؛ وهناك أمواج الأثير من ضوء وحرارة وكهرباء وأشعة كونية وخلافها؛ وهناك النبات والحيوان؛ وهناك ما يسيطر على كل أولئك من قوانين خالدة وقوى منظمة. أفبعد كل هذه العوالم العجيبة نستطيع أن نقول: لقد انقضى عهد الكشوف الظاهرة في القرن السابع عشر أو انتهى مجالها؟! كلا! والدليل القاطع هذه الكشوف الرائعة التي انتهى إليها الإنسان في سياحاته بين أجواز الفضاء ورحاب الكون أو في حقائق الذرة ومعاقلها المنيعة. ومن يستطيع أن يقول: إن الكشوف الظاهرة التي تمت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وبداءة هذا القرن في عوالم الطبيعة والحياة تقل روعة وأسراً للخيال وشدها للإنسان عن أروع المغامرات الجغرافية التي تمت في القرن السابع عشر أو بعده؟ ثم هذه الكشوف

الجغرافية ذاتها هل انتهت حقاً في القرن السابع عشر؟ أين مغامرات سكوت وشاكلتون وبيرد وغيرهم؟ قد يقال هذه المغامرات منها ما جاء متأخراً ومنها ما لم يقع إلا في أوائل هذا القرن، ولكن هذا في اعتقادي ليس بالشيء المهم، فالتطورات الفكرية والنفسية العامة تحسب بالأجيال والقرون، ولا تحسب بالأيام والشهور والسنين.

وقد يسأل الأستاذ العقاد: إذن بماذا نفسر ظهور الدراسات الباطنة، وما تلاه من تأسيس علم النفس التحليلي الذي تهداه أدباء الأجيال الحديثة في كتابة القصة التحليلية؟ وأجيب أن هذه الدراسات الباطنة للنفس كانت مظهراً عادياً يتساوق مع المظهر العام لنشاط الفكر البشري في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، فلما كشفت الكشوف الفلكية والطبيعية والكيميائية والفزيولوجية، كشف كذلك الكشوف في مجاهل النفس وخوافي الحس. فمنذ اصطنعت الطريقة العلمية في البحث وأخذ العلماء يجرون على أسلوب المشاهدة والفحص والاختبار اتخذت دراسة النفس خطة منظمة مجدية، فظهر أولا علم النفس العام، وتلاه علم النفس التحليلي؛ ولكننا نعود ونقول: إن هذه الدراسة لم يكن الحافز فيها والباعث عليها انتهاء الكشوف الظاهرة، وإنما كان الحافز عليها اتساع هذه الكشوف وسيرها على خطة علمية منظمة مجدية شملت الجماد والحيوان والإنسان جميعاً. هذا وأحب أن أقرر هنا أن الدراسات النفسية لم تحد ولم تخرج عن حدود الحدس والتخمين وإيهام الفلسفة الذي قيدها من زمن أرسطو، إلا حينما تابع رجالها أسلوب العلم الطبيعي في المشاهدة والاختبار، بل لقد استفادت الدراسات النفسية فائدة مباشرة مما كشفه البحث من العلاقة الوثيقة بين تركيب الجسم الفزيولوجي ومظاهر النشاط الفكري والنفسي. ومن هنا كانت الدراسات النفسية باعتبار الزمن تابعة للدراسات الطبيعية مقلدة لها في أسلوبها مستفيدة من حقائقها. وقد بلغ من اعتماد علماء النفس اليوم على الطريقة العلمية في البحث بحيث غدوا لا يؤمنون بأسلوب الاستبطان والدراسة الذاتية وأضحى همهم أن يدرسوا النفس البشرية دراسة موضوعية مبنية على المشاهدة الظاهرة والاختيار المنظم

وجملة ما نريد أن نقرره هنا أن الكشوف والسياحات الخارجة لم تنته قط في القرن التاسع عشر، بل هي زادت واتسع نطاقها في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وبداءة هذا القرن إلى الحد الذي يكاد يكظ الأذهان ويتخم الفكر. وإذن ليس صحيحاً أنه جاء يوم انقطع

فيه الإنسان الباحث المفكر عن الكشف الظاهر فتسنى له مع ذلك الانقطاع أن ينصرف إلى السياحات الداخلية والكشوف النفسية. والصحيح أن الإنسان الباحث تنبه إلى الكشوف الباطنة لما ارتفع مستوى البحث والتطلع وأتسع نطاقه ومجاله حتى شمل كل موضوعات النظر والبحث وفيها صفات الإنسان النفسية والفكرية.

أديب عباسي

الحضارة المصرية في عهد الدولة القديمة

بحث للعلامة الأثري اريك بيت

للأستاذ أحمد نجيب هاشم

جغرافية مصر وأثرها

ليست هناك بلاد يمكن أن يتتبع فيها أثر البيئة في طبيعة أهلها أكثر من مصر. فلفهم الحضارة التي قامت في مصر القديمة يجب علينا أولا أن نصف المظاهر الطبيعية لهذا القطر

تنقسم مصر قسمين لكل منهما ميزات خاصة: مصر العليا، ومصر السفلى. والأولى شريط من الوادي يمتد من رأس الدلتا أو القاهرة الحالية إلى الشلال الأول، وهي مسافة يبلغ طولها 547 ميلا، ولا يزيد عرضها في أي أتساع على أثني عشر ميلا، وقد لا تزيد في جهات على مائة ياردة. ويقع هذا الجزء في منخفض حوالي ثلاثمائة قدم عن مستوى الأراضي المحيطة به. ويرى فريق من الجغرافيين أن النيل هو الذي حفر لنفسه هذا الوادي العظيم أيام أن كانت الصحراء التي تحيط به غزيرة الأمطار. ويقول آخرون: إن هذا الوادي العيبي كان بمثابة الخط الأقل مقاومة للمياه المتجمعة في الجهات المرتفعة في الجنوب

عاش ساكن الصعيد في واد ضيق يحد أفقه من الجانبين صخور جيرية تقع في أعلاها الصحراء، وهي أرض تكاد تكون عديمة الأثر في حياته. وقد قسم المصري الأرض إلى نوعين: الأرض السوداء، وهو أسم أطلقه على وادي النيل بسبب لون تربته الداكن، والأرض الحمراء، وأراد بها الصحراء الرملية. وكانت معرفته بالممالك الأجنبية بسيطة إن لم تكن معدومة، فكان يرمز إليها في لغته الهيرغليفية كأنها بلاد جبلية بالنسبة لسهل مصر المستوي. وأتخذ المصري مجرى النيل مرشداً له في غدواته وروحاته، فالشمال عنده هو الجهة التي يجري إليها النهر، والجنوب الجهة التي يجري منها. فكان يقول صعد أو نزل مع النهر بمعنى سار جنوباً أو شمالاً، وعلى ذلك لما بلغ المصري نهر الفرات ببلاد العراق سمى ذلك النهر بذي المياه المنعكسة المجرى التي تنزل مع النهر أي تسير جنوباً بدلاً من أن تجري شمالاً. وليس هناك ما يدل على عزلة المصري القديم من اعتقاده هذا

أما في الدلتا فقد كانت الأحوال مختلفة كل الاختلاف إذ أن هذا المثلث المستوى والذي هو حديث التكوين نسبياً يكاد يكون خالياً مما يحدد أفق سكانه. ولابد أنه ظهر لهم كأنه سهل متسع يمتد حتى الأفق في كل الجهات لا تتخلله تلال ولا مرتفعات؛ بيد أن شروط العمل على الأرض كانت شبيهة بدرجة كبيرة بمثيلتها في الصعيد

ولا ريب أن أتساع الأفق أمام سكان الدلتا وانعدام صخور الصحراء مما بث شعور الحرية في كل جهة، أنتج على عقولهم نتيجة مخالفة. وكان من سوء الحظ أن رسوب غرين النيل في الدلتا مضافاً إليه حاجة الزراعة جعلت أغلب المدن الفرعونية القديمة وراء علم الباحث، ولذا لا يمكننا أن نقدر الدور الذي لعبه في تطور التاريخ المصري القديم

أما من حيث الجو فمعروف أن الوجهين البحري والقبلي يتمتعان بجو جميل على العموم، ويسقط المطر في الدلتا ويكاد ينعدم في الصعيد، وقد ينهمر عليه سيل غزير مرة في كل عشر سنوات

وتشتد الحرارة في الصعيد وتزداد شدتها كلما اتجهنا جنوباً. هذه هي أهم المظاهر الطبيعية لمصر، ولا يقل عنها أهمية موقعها الجغرافي، وهي تحمي مدخل أفريقية ضد الغزو من جهات أسيا الغربية، فقد كانت تلك الأجزاء على الدوام مركزاً للاضطرابات التي كانت أحياناً تشتد جداً إذا كان سكانها يميلون إلى الهجرة إلى دلتا مصر الخصبة، وتكررت غزواتهم وكان لكل نتائج وقتية. ولا شك أن هذه الغزوات حالت دون الاطراد في تقدم مصر. ففي كل مرة خرجت فيها مصر من الضربة التي أصابتها استنفذ هذا الخروج كثيراً من نشاطها، وكان من الممكن أن تستنفذه في نيل تقدم حقيقي

ولم تكن الدلتا أسلم في جهة الغرب منها في جهة الشرق، فهناك عاشت قبائل ليبية لم تقتصر في سكناها على الإقليم الساحلي، بل نزلت أيضاً في الواحات التي تمتد جنوباً داخل أفريقية؛ وربما استولى بعضها فعلا على الجزء الغربي من الدلتا في عصر ما قبل الأسرات. وعلى كل حال كانت هذه القبائل الليبية طول التاريخ المصري القديم تنتهز ضعف الحكومة في مصر أو قيام نزاع داخلي فيها فتنقض على الأراضي الخصبة التي اعتقدت إنها ميراثها القديم

أما الصعيد فلم تهدده غزوات تقريباً؛ إذ ليس له جيران في الشرق ولا في الغرب؛ ثم إن الصحراء نفسها كانت بمثابة سد منيع ضد أي إغارة من الجهتين

أما من جهة الشمال والجنوب فقد كان من السهل الدفاع عن البلاد بمقدمة حربية لا تزيد على ميل أو ميلين بل لا تزيد أحياناً على بضع مئات من الياردات

وكانت الدلتا من جهة الشمال سداً منيعاً ضد غزو الأسيويين من الشرق والليبيين من الغرب

أما من جهة الجنوب فإن القبائل المتوحشة في النوبة العليا والسودان لم تزعج مصر إزعاجاً يذكر إلا في عهد الفاتح بعنخي في القرن الثامن قبل الميلاد

على ذلك نرى الأحوال في الصعيد كانت تنعم بالاستقرار الذي كان ينقص الدلتا. وفي كل مرة تقع فيها الدلتا فريسة للغزو الأجنبي نرى الصعيد ينجو منها ويصل تقدمه السياسي والاجتماعي، بل يكون على استعداد عندما تتخلص البلاد من غزاتها الأجانب أن يعيد المياه إلى مجاريها في الداخل والعمل على توسيع ملكها في الخارج مصر قبل الأسرات

كانت مصر العليا والنوبة قبل قيام الأسرة الأولى في يد جنس واحد له مدنية واحدة ونسميه شعب ما قبل الأسرات. ولا يزال البحث العلمي يكشف لنا شيئاً عن هؤلاء القوم الذين يمكننا أن نتبع حوادثهم في مقابر البدارى، وعندما نسمع عنهم لأول مرة لا نراهم متوحشين بل نجدهم قد عرفوا النحاس ولهم فنونهم وحرفهم؛ وأهم من كل هذا أنهم عرفوا الزراعة واشتغلوا بها

وهذه الحقيقة الأخيرة هي أساس فهم حياة مصر الاجتماعية، فنظامها قائم على الزراعة - ولا نعرف أين نشأت لأول مرة بل ليس من المؤكد أيضاً أنها ظهرت في تلك الجهات مثل وادي النيل أو الفرات حيث الظروف أكثر مناسبة لها، وإنما يمكننا أن نقول إن الزراعة وما تطلبته من صناعات تقدمت بسرعة بعد أن قامت في مصر وأخذت تؤثر في أخلاق الناس ونظمهم

أما الصيد وهو إحدى الوظائف الثلاث الهامة التي أشتغل بها الإنسان الأول فلم يلعب دوراً هاماً في الحياة المصرية. نعم يرجح أن الصحراء التي تقع على جانبي وادي النيل كانت

تأوي كثيراً من الحيوانات المتوحشة، فهناك لوحة يرجع تاريخها إلى ما قبل الأسرات عن حملة منظمة أرسلت لصيد الأسود. ثم نرى في مقابر أشراف المصريين القدماء طول مدة تاريخهم مناظر تمثل أصحابها وهم يقومون بحملات لصيد الأسود والفهود والوعول مستعملين لذلك السهام. على أن الصيد كان ولا يزال عندهم وسيلة من وسائل الرياضة عند الأشراف ولم يتخذه الأهالي وسيلة للارتزاق؛ فإن هؤلاء كانوا يحصلون على حاجاتهم من اللحوم من طيورهم وحيواناتهم المستأنسة. وفي الوقت نفسه يظهر أن صيد الوعول وغيرها من حيوانات الصحراء الصغيرة التي تربى وتسمن وتقدم على المائدة مع (الدواجن المألوفة) كان ذلك من الأشياء التي تمارس لتكون مرتزقاً

أما الطيور والسمك فقد كانت برك الدلتا ملأى بكثير منها، وكانت تصاد بشباك ثم تربى للأكل. وقد عثر على بقايا الفخاخ التي كانت مستعملة لذلك. والمقابر ملأى بالرسوم التي تمثل الطيور

وقد أتخذ النبلاء صيد الطيور وسيلة للرياضة أيضاً فترى من هذه الرسوم صوراً تمثل النبيل في قاربه المصنوع من البردي وهو يصيب الطير بعصاه

وقد أولع المصريون بصيد السمك إذ كان طعاماً أساسياً للأهالي. وكان الصياد يصيده بالشص؛ أما النبيل الذي يتخذ هذا الصيد وسيلة من وسائل الرياضة والتسلية، فقد كان يصيده برمح. وقد كانت هذه الطريقة في الأصل مستعملة في عصر ما قبل الأسرات كما يستدل على ذلك من الحراب المصنوعة من العظام والنحاس التي عثر عليها الباحثون

هكذا لم يكن المصريون الأوائل صيادين بمعنى الكلمة فلم تدفعهم الحاجة إلى تتبع فريستهم مما يجعل شعب الصيادين متنقلاً غير مستقر، فقد يفر الأسد وعجل البحر أو الفيل من الصعيد إلى النوبة ثم إلى السودان ولكن المصري لم يحاول أن يقتفي أثرها قد يختلف علماء الأنتربولوجيا في النقطة الآتية: هل من الممكن لشعب أن ينتقل من طور الصيد إلى طور الزراعة دون أن يمر بطور الرعي؟ ولكن هذه المسألة لا تعنينا هنا فإننا نجد في مصر في عهد ما قبل الأسرات، الزراعة والرعي قائمين جنباً إلى جنب

ولهذا السبب لا يمكننا أن نعتبر المصريين قوماً رعاة بمعنى الكلمة، وليست مصر على أي حال بلاداً من طبيعتها الرعي. أجل قد يكون من الجائز أن الزراعة لم تشمل كل البلاد في

الزمن العريق في القدم، وأنه كانت هناك أرض مغطاة بالأعشاب مخصصة للماشية. على أي حال فإن أراضي الرعي في عهد الدولة القديمة كانت قليلة في الصعيد لدرجة كبيرة حتى اضطر القوم أن يرسلوا ماشيتهم في عهدة رعاة إلى الدلتا مدة أشهر الصيف. ولعل هذه الحال تغيرت فيما بعد وأصبحت كما هي اليوم حيث تربي الماشية على علف خاص يزرع لها

أستأنس المصريون قليلاً من الحيوانات منها الماشية التي اتخذوا منها اللبن وزودت الأغنياء باللحوم وأستعملها فوق ذلك وسيلة من وسائل النقل. وإن أهم حيوان في هذه

الناحية كانت الإبل. أما الغنم فلم تقتصر الفائدة على لحومها بل كانت هامة أيضاً لأصوافها؛ ثم استعملت الخنازير فيما بعد (للدوس) فوق البذور بعد بذرها ومن الحيوانات التي استأنسها المصريون الجدي والكلب السلوقي والقط؛ أما الحصان فلم يعرف إلا بعد دخول الهكسوس مصر. وكذلك ظل الجمل مجهولاً حتى عهد اليونان وكان للثور أهمية كبيرة كأهمية الجاموسة في العصر الحالي. وكان الفلاحون يعملون على تسمينه بإعطائه خميرة من العجين إذا قل غذاؤه الطبيعي. وكان الرجال يحلبون البقر بدلاً من أن يقوم النساء بهذه العملية

وترى في النقوش التي تمثل لنا حياة المصريين (جنباً إلى جنب) مع الحيوانات المستأنسة صورة غزالة خجلة، وكانت هذه من الأطعمة الفاخرة للأغنياء وقد عملوا على تسمينها بإعطائها خميرة - كما كان الحال مع الماشية - وليس هناك ما يدل على أنها ربيت، بل يرجح أنها كانت تصاد من الصحراء بشباك أو فخاخ

ولم يستأنس المصريون الطيور إذ كانت برك الدلتا ملأى بالبط على أنواعه، وأدرك القوم أن صيدها بالشباك وتسمينها في مدة قصيرة قبل ذبحها للأكل أوفر لهم من الإنفاق عليها لاستئناسها

وهنا يجب أن نذكر أن الدجاج لم يعرفه المصريون حتى عهد الدولة الحديثة عندما عادت إحدى حملات تحوتمس الثالث بأشياء عجيبة من بينها طيور (تبيض كل يوم بيضة)

على أن الزراعة كانت أهم ما أشتغل به أكثر المصرين على الأقل في فترات معينة من السنة، فقد كان النيل كريماً من ناحية وقاسياً من ناحية أخرى على البلاد: فهو كريم بما

يجلبه من غرين يلقيه على تربة الأرض فيجعل السماد غير ضروري تقريباً، وهو قاس لأنه بمجرد أن يتم فعل هذا يأخذ في الانخفاض فيصعب على الفلاح أن يروي أرضه منه. وإذا كانت مصر شحيحة الأمطار كانت سعادتها متوقفة على نشاط الزراع ومجهودهم في رفع المياه من النهر وتسييرها في قنوات وترع إلى أرضهم. والغريب أن الطريقة التي استعملوها لذلك هي نفس الطريقة التي يستعملها الفلاح اليوم أي بالشادوف

أهم المحصولات

كانت أهم المحصولات في العصر القديم والقمح والكتان؛ وكانت طرق الزراعة غاية في البساطة، فحينما ينخفض ماء النيل يحرث الفلاح الأرض بمحاريث من الخشب كان يجرها في عصر المملكة القديمة الثيران، ثم يبدر الحبوب وتدوسها الغنم كي تغرسها في الأرض (وقد استخدمت الخنازير فيما بعد في هذه العملية) ثم يلي ذلك أسابيع يقضيها الفلاح في العمل بنشاط أمام الشادوف. فإذا طاب الزرع حصد الفلاح القمح وترك العيدان في الأرض، ونقل القمح المحصود في شكل حزم على الحمير إلى الجرن، وهناك تدوسه الحمير والماشية، ثم يذرى في الهواء بمذراة من الخشب فينفصل التبن عن القمح (الحب) ثم يوضع القمح في الزكائب وينقل إلى مخازن خاصة تتكون من بناء من اللبن كالقباب له فتحة صغيرة في أعلاه يصب القمح منها، وفي أسفل البناء باب لسحب الغلال حسب الحاجة. وكان الكاتب يشرف على هذه العملية فيدون في لفائف ورق البردي التي يحملها ما يخزن من الغلال زكيبة زكيبة وما يخرج منها

وقد استعمل الشعير والقمح في صنع الخبز وعمل الجعة. وزيادة على هذه المحاصيل كانت هناك نباتات أخرى أهمها الخضر المختلفة وخصوصاً البصل، وكان غذاء أساسياً؛ ثم فواكه كثيرة أهمها التمر والتين والعنب، وكانت تكثر زراعته في الدلتا، وقد صنع المصريون من التمر نوعاً من النبيذ والعرق

توحيد القطرين

كانت مصر قبل الأسرة الأولى منقسمة إلى مملكتين منفصلتين: مملكة الوجه القبلي ومملكة الوجه البحري. وكانت هاتان المملكتان مقسمتين إمارات لكل منها طوطم خاص كان بمثابة

علم الإمارة الذي كان يحمل أمام رئيسه. ومما لا شك فيه أن بعض هذه الرموز كانت اسماً للمقاطعة باللغة الهيرغليفية، وكان البعض الآخر رموزاً للقبيلة؛ ومن هذه الرموز

ما هو في شكل حيوان كالأرنب والوعل
ويعتقد العلماء أن أصل هذه الرموز راجع إلى إن مصر كان يسكنها في وقت ما قبائل مستقلة، كل قبيلة ترمز لنفسها بنوع خاص من الحيوانات أو النباتات يكون معروفاً لجميع أهلها ويميز كل قبيلة من غيرها
وحدث قبل قيام الأسرة الأولى أن انضمت قبائل الوجه القبلي وكونت مملكة واحدة، وكذلك فعلت قبائل الوجه البحري ثم قامت محاولات لتوحيد القطرين، وتم ذلك على يد رجل واحد عرف باسم مينا. ويرجح أنه بقيام الأسرة الأولى انتهى الدور الطوطمي بمدلولاته الاجتماعية؛ وأهم ما تركه من آثار مجموعة الآلهة التي في جسم إنسان ورأس حيوان مثل تحوتي ورمز له بطائر أبي منجل، وسبك ورمز له بالتمساح، وحوريس ورمز له بالصقر
كان اندماج القبائل في كل من الوجهين القبلي والبحري أمراً طبيعياً، لأن انتشار الزراعة أدى إلى الرغبة في الاستقرار وإدراك المصلحة المشتركة؛ أما انضمام الوجهين إلى بعضهما فقد كان أقل ضرورة، إذ كون كل منهما وحدة جغرافية قائمة بنفسها؛ ولذلك يرجح أن هذا الضم تم على يد رجل ذكي دفعته أطماعه إلى ذلك. هكذا استطاع مينا أن يوحد القطرين وأصبح الميدان حراً لظهور شعور قومي. ومع أن المصريين حافظوا على ذكر هذا الضم وحرصوا على إظهاره في ألقاب الملك وفي أسماء دواوين الحكومة إلا أن الاندماج كان في الواقع تاماً وأبدياً فأصبحت مصر منذ ذلك الوقت - عدا فترات الفوضى القصيرة - مملكة واحدة
(البقية في العدد القادم)
أحمد نجيب هاشم
أستاذ بمعهد التربية للبنات
نجوى للشمس الغاربة
للكاتب الفنان الفرنسي (بيير لوؤيس)
للأستاذ خليل هنداوي
أركاس - أيتها الغادة ذات العينين السوداوين. . .
ميلينا - لا تمسني!
أركاس - لن أمسك، وإنما سأظل بعيداً عنك يا أخت أفروديت! أيتها الغادة ذات الغدائر المدلاة كالعناقيد، إنني أقف على حافة الطريق لا أستطيع أن أتزحزح عنه لا إلى من ينتظرونني ولا إلى من غادرتهم
ميلينا - اذهب! إنك تنطق عبثاً، يا راعياً بدون قطيع! ويا سارحاً في الطرق المبهمة! إذا لم تستطع أن تتبع الطريق فخض خلل الحقول، ولكن لا تدخل في حقلي يا من لا أعرفك. أذهب وإلا دعوت. . .
أركاس - ومن عسى تدعين في هذه العزلة؟
ميلينا - الآلهة الذين ينتظرونني
أركاس - آه أيتها الغادة الصغيرة! إن الآلهة هم أبعد عنك مني الآن. ولو أنهم كانوا حولك لما منعوني أن أقول لك إنك جميلة. إنهم يباهون فخورين بوجهك لأنهم يعلمون أنه أثر رائع منهم
ميلينا - أسكت أيها الراعي وأبرح هذا المكان فإن أمي منعتني أن أسمع أية كلمة من رجل. إنني هنا أرعى نعاجي حتى غروب الشمس. لا أريد أن أسمع أصوات الفتيان العابرين الطريق مع ريح المساء.
أركاس - ولماذا؟
ميلينا - لا أعلم السبب، ولكن أمي تعلمه خيراً مني. . . لم يمر علي ولادتي فوق هذا السرير القائم من أوراق الشجر إلا ثلاثة عشر عاماً؛ وإني سأكون غبية جاهلة إذا أغفلت عمل ما تطلبه مني أمي.
أركاس - إنك لم تفهمي أيتها الصغيرة عن أمك الحسنة العاقلة المحترمة. . . إنها حدثتك عن الرعاع الذين يعبرون البراري والعقد في أذرعهم والسيوف مشهورة بأيديهم. إن هؤلاء لئام بالنسبة إليك لأنك ضعيفة وهم أقوياء. وهم في الأقطار التي نزلوها ذبحوا عذارى كثيرات لهن مالك من الجمال. ولو رأوك لما أشفقوا عليك. ولكن مثلي أي شر يحمله لك؟ ليس لي إلا جلد على كتفي وخاتم في يدي. حدقي في مليا،

هل ترينني مرعباً؟
ميلينا - لا أيها الراعي، إن كلماتك عذبة سوف أصغي إليها طويلاً. ولكن الكلمات الأعذب هي الأغدر عندما يتوجه بها رجل إلى واحدة منا
أركاس - وهل إلى جواب من سبيل؟
ميلينا - بلى!
أركاس - بماذا كنت تحلمين تحت الزيتونة السوداء خلال عبوري؟
ميلينا - لا أريد أن أقول
أركاس - أعرف ذلك
ميلينا - قل إذن
أركاس - إذا أذنت لي بالدنو منك وإلا لبثت صامتاً، لأنني لا أستطيع أن أقول إلا همساً. لأن هذا سرك لا سري. إنك تريدين أن أقترب منك وأن أتناول يدك
ميلينا - بماذا كنت أحلم؟
أركاس - بنطاق العذراء!
ميلينا - آه! من قال لك؟ هل قلت ذلك عالياً؟ هل أنت إله أيها الراعي فتقرأ ما يرتسم من بعيد في عيون الفتيات؟ لا تنظر إلي هذه النظرة ولا تحاول أن تقرأ ما أفكر فيه الآن. .
أركاس - إنك تحلمين بنطاق العذراء وبذلك المجهول الذي سيحله بمثل هذه الكلمات العذبة التي رحت تخشينها. . فهل تكون إذ ذاك هذه الكلمات غادرة؟
ميلينا - إنني لم أسمع أبداً مثلها
أركاس - ولكنك تسمعين كلماتي وترين عيني
ميلينا - لا أريد أن أراهما
أركاس - إنك تنظرينهما في حلمك
ميلينا - أيها الراعي. . .
أركاس - عندما آخذ بيدك لماذا تجفين؟ وعندما يلتف ذراعي على صدرك لماذا تنحنين؟ ولماذا يبحث رأسك الضعيف عن ذراعي؟
ميلينا - آه أيها الراعي
أركاس - كيف تكونين عارية هكذا بين ذراعي إذا لم أكن بعلك؟
ميلينا - لا لا، إنك لن تكونه. دعني وحدي، إن أحشائي ترعد من الخوف فأذهب عني! إنني لا أعرفك. دعني! إن يدك تؤلمني، لا أريد
أركاس - لماذا تتكلمين بلهجة أمك؟
ميلينا - ليست أمي هي التي تكلمك وإنما أنا! إنني عاقلة فاتركني أيها الراعي. إنني لأستحيي أن أفعل ما فعلت (تاييس) أو (فيليرا) أو (كلوا) اللواتي لم ينتظرن ليالي أعراسهن
أركاس - ولماذا؟ وما عسى أن أصنع لك؟. . . على أنني أهجرك وأتركك وحيدة. أذهبي! لماذا لا تذهبين؟
ميلينا - ذرني أذرف الدمع
أركاس - أتخالين أنني أحبك حباً ضعيفاً يأذن لي بتركك وحدك؟ وهل كنت أتكلم من بدء إصغائك إلي لو لم أطلب إليك إلا لحظة سرور قد تستطيع أن تمنحني إياها كل الراعيات؟ ألم تعلمك عيناي شيئاً؟ ولكنك لا تنظرين فيهما، في عيني. . إنك توارين عينيك وتبكين. . .
ميلينا - بلى!
أركاس - إذا شئت فإني أسفح على قدميك حياة كلها حب وكلمات عذبة، وألف بذراعي جسدك، وألقي رأسي على صدرك، وفمي على فمك، وأنت تحلين غدائرك المعقودة لتغمري قبلاتنا بالعطف والرقة
اسمعي! إذا شئت أقمت لك كوخاً أخضر الأفياء من الغصون الزاهرة والأعشاب الندية تصيح خلالها الصراصير الشادية ذات الألوان الذهبية اللامعة. هنالك تقلقين عليّ كل الليالي، وعلى السرير الأبيض الذي يغطيه جلدي الممدود سيخفق قلبانا إلى الأبد قلباً على

قلب
ميلينا - آه دعني أذرف الدمع أيضاً!
أركاس - بعيدة عني؟
ميلينا - على ذراعيك، وفي عينيك
أركاس - يا محبوبتي! المساء يلف الكون، والنور يتوارى كأنه كائن مجنح نحو السماء، والأرض قد غمرها الظلام، ولا يرى في الأعلى إلا طريق المجرة الطويلة التي تسطع كنهر من النجوم حول حقلنا. ما أشد هذا الستار اللامع!
ميلينا - إنه لامع جداً. قدني إلى حيث تشاء!
أركاس - تعالي! فالغاب الذي نجوس خلاله بين الغصون الحانية هو غاب عميق، حتى الإلهات يخشين سلوكه في النهار. هنالك لا يرى - على طرقه - من يتبع خطوات الجنيات. هنالك لا يرى - بين أوراقه - العيون الخضراء واقعة على عيون الرجال الخائفة. ولكنا لن نخاف ما دمنا معاً أنت وأنا. . .
ميلينا - لا. . . إنني أبكي بالرغم مني، ولكني أحبك وأتبعك. إن إلهاً في قلبي. حدثني. . . حدثني أيضاً. إن إلهاً في صوتك
أركاس - أسدلي غدائرك على عنقي، وأرخي ذراعك حول أزاري، وضعي خدك على خدي. خذي حذرك، هنا حجارة وصخور؛ واخفضي عينيك، هنا جذور؛ والأعشاب لها حفيف خفيف تحت أقدامنا العارية؛ والثرى ندى، ولكن صدرك حار تحت يدي
ميلينا - لا تبحث عن صدري فإنه صغير، ليس بجميل. في الخريف الغابر لم أر منه إلا ما رأيته يوم ولادتي. . . إن صويحباتي يسخرن مني. ولكن في الربيع وجدته ينمو مع براعم الأشجار. لا تدغدغه هكذا. إنني لا أستطيع أن أمشي
أركاس - تعالي، نحن هنا في الظلام، لا أرى وجهك. نحن هنا شيء لا هو أنا ولا هو أنت. لا تعطني شفتيك. أريد أن أرى عينيك. تعالي إلى هذه الشجرة الكهلة التي تسطع تحت رواء القمر. إن ظلها يزحف نحونا فاتبعيه. . .
ميلينا - إنه ظل ضخم كالقصر
أركاس - قصر عرسك الذي تتفتح أبوابه لنا في أعماق الليلة السرية
ميلينا - أسمع ضجة، هذا حفيف النخيل
أركاس - النخيل النامي في موكب العرس
ميلينا - وهذه النجوم
أركاس - إنها المشاعل
ميلينا - وهذه الأصوات
أركاس - هي الآلهة
ميلينا: أيها الراعي! دخلت هذا المكان عذراء (كأرتميس) التي تضيء لنا بعيداً خلل الغصون السوداء والتي قد يمكن أن تسمع عهودنا. فلا أعلم هل أحسنت صنعاً في أتباعك حيث سلكت. ولكن نفخة في صدري، وروحاً ولدها صوتك، إنك منحتني السعادة كشيء خالد بإعطائك إياي يدك
أركاس - أيتها الغادة ذات العينين السوداوين. لا أبوك ولا أمك هيئا اتحادنا بغناك أو غناي. إننا فقيران فنحن إذن حران. وإذا كان أحد سهل قراننا هذا المساء فهم آلهة الأولمب الذين يحرسون الرعيان!
ميلينا - يا زوجي، قل لي ما اسمك؟
أركاس - اسمي أركاس. وأنت ما اسمك!
ميلينا - اسمي ميلينا. . .
خليل هنداوي
للأدب والتاريخ
مصطفى صادق الرافعي
1880 - 1937
للأستاذ محمد سعيد العريان
- 19 -
بين الرافعي وطه (2)
لم تكن بداية هذه المعركة تنذر بما آلت إليه، فما كانت في أولها إلا خصومة بين

مذهبين في الأدب وأسلوبين في الكتابة، فما لبثت من بعد أن استحالت إلى حرب شعواء يتقاذف فيها الفريقان بألفاظ الكفر والظلال والإلحاد والغفلة والتعصب والجمود، وانتقلت من ميدان الأدب واللغة إلى ميدان الدين والقرآن، ثم إلى ميدان السياسة والحكومة والبرلمان، ثم إلى ميدان القضاء. والدكتور طه رجل لا تستطيع أن تفرق بين مذهبه في الأدب ومذهبه في الدين، ولا بينهما وبين مذهبه في السياسة. والرافعي رجل كان لا يفرق بين الدين والأدب، ولا يعرف شيئاً منهما ينفصل عن شيء أو يتميز منه، ولكنه في السياسة كان يتحلى بفضيلة الجهل التام، فلا تعرف له رأياً في السياسة تؤاخذه به أو تناقشه فيه، لأنه كان لا يعرف من السياسة إلا حادثة اليوم بأسبابها، لا بأصحابها. وكم جر عليه هذا الجهل السياسي من متاعب! وكم ألصق به من تهم! ولكنه هنا كان من عوامل توفيقه في هذه المعركة

في سنة 1925 كانت الحكومة للأحرار الدستوريين ولأصدقائهم. والأحرار الدستوريين حزب طه حسين، نشأ بينهم ووقف قلمه على الدعاية لهم. فلما رأى علي ماهر باشا أن يضم الجامعة المصرية إلى وزارة المعارف، أنضم معها الدكتور طه حسين أستاذ الأدب العربي بالجامعة.

ومضى الدكتور طه يحاضر طلابه في كلية الآداب محاضرات في الأدب الجاهلي، على الأسلوب الذي رآه لهم؛ فلما استدار العام جمع طه محاضراته في كتاب أخرجه للناس باسم (في الشعر الجاهلي)؛ وقرأ الناس كتاب الدكتور طه حسين بعد أن سمعه طلابه منجماً في

كلية الآداب، فقرءوا رأياً جديداً في الدين والقرآن رجح ما كان عندهم ظناً بالدكتور طه حسين وكتاب السياسة الأسبوعية. فقال الأكثرون من القراء: هذا كفر وضلال. وقالت طائفة: هو خطأ في الفكر وإسراف في حرية الرأي. وقال الأقلون: بل هو الأسلوب الجديد لتجديد الآداب العربية وتحرير الفكر العربي. وظل الرافعي ساكتاً، إذا لم يكن قد قرأ الكتاب بعد، فما نبهه إلى خطره إلا مقالان نشر أحدهما الأستاذ عباس فضلي القاضي في السياسة الأسبوعية، وكتب ثانيهما الأمير شكيب أرسلان في كوكب الشرق، فكان فيهما الإنذار للرافعي بأنه قد آن أوانه. . .

وانتضى الرافعي قلمه وكتب مقاله الأول فبعث به إلى جريدة (كوكب الشرق)، ثم مقالات ثلاثاً بعده، ولم يكن قد قرأ الكتاب ولا عرف عنه إلا ما نشرت الصحف من خبره؛ فكانت المعركة بذلك في ميدانها الأول: خصومة بين مذهبين في الأدب وفي الكتابة وفي طرائق البحث. على أن الرافعي لم ينس في هذه المقالات أن له ثأراً عند طه، فجعل إلى جانب النقد الأدبي في هذه المقالات شيئاً من أسلوبه المر في النقد، ذلك الأسلوب الذي لا يريد به أن يفحم أكثر مما يريد أن يثأر وينتقم. ثم تلقى كتاب الدكتور طه حسين فقرأه، فثارت ثائرته لأمر جديد. . .

لقد كان شيئاً منكراً أن يزعم كاتب أن له الحق في أن يتجرد من دينه ليحقق مسألة من مسائل العلم، أو يناقش رأياً من الرأي في الأدب، أو يمحص رواية من الرواية في التاريخ؛ لم يكن أحد من كتاب العربية ليترخص لنفسه في ذلك فيجعل حقيقة من حقائق الدين في موضع الشك، أو نصاً من نصوص القرآن في موضع التكذيب؛ ولكن الدكتور طه قد فعلها وترخص لنفسه، ومنح نفسه الحق في أن يقول قالةً في القرآن وفي الإسلام وتاريخ الإسلام؛ وقرأ الرافعي ما قال طه، فغضب غضبته للدين والقرآن وتاريخ المسلمين، ونقل المعركة من ميدان إلى ميدان. . .

وكان طه في أول أمره عند الرافعي كاتباً يزعم أن له مذهباً جديداً في الأدب، فعاد مبتدعاً مضلاً له مذهب جديد في الدين والقرآن؛ فكما ترى البدوي الثائر لعرضه أن ينتهك، كان الرافعي يومئذ؛ فمضى يستعدي الحكومة والقانون وعلماء الدين أن يأخذوا على يده ويمنعوه أن تشيع بدعته في طلاب الجامعة. . . وترادفت مقالاته ثائرةً مهتاجة تفور بالغيظ

وبالحمية الدينية وبالعصبية للإسلام والعرب، كأن فيها معنى الدم

ونسي في هذه المقالات كل إعتبار مما تقوم به الصلات بين الناس، فما كان يكتب نقداً في الأدب، بل يصب لهيباً وحمما وقذائف لا تبقي على شيء. وكان ميدانه في جريدة كوكب الشرق، وكوكب الشرق يومئذ هي جريدة الأمة وجريدة سعد وجريدة الشرق العربي كله؛ فمن ذلك لم يبق في مصر قارئ ولا كاتب إلا صار له رأي في طه

حسين وفي دينه، وإن للأمة من قبل لرأياً في وطنيته ومذهبه، وحسبك بها من وطنية في رأي الشعب، وطه حسين هو عدو سعد
ووقفت الدوافع السياسية إلى جانب الرافعي تؤيده وتشد أزره، وإن لم يكن للرافعي في السياسة باع ولا ذراع
وبلغت الصيحة آذان شيوخ الأزهر، فذكروا أن عليهم واجباً للدفاع عن الدين والقرآن فجمعوا جماعتهم إلى جهاد
وتساوقت الوفود إلى الوزارة تطلب إليها أن تأخذ طه بما قال؛ وإن طه لأثير في وزارة الأحرار الدستوريين وأصدقائهم، ولكنها لم تستطع أن تتجاهل إرادة الرأي الإسلامي العام. . .
ومضى الرافعي في حملته تؤيده كل القوى وتشد أزره كل السلطات
ونشطت النيابة العمومية لتنظر في شكاوي العلماء وتحدد الجريمة وتقترح العقاب، فعرف الدكتور طه حسين أن عليه وقتئذ أن يقول شيئاً، فكتب كتاباً إلى مدير الجامعة يشهده أنه مسلم يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ولكن الرافعي لم يقنع فمضى في النقد على جادّته
ولم تجد الجامعة في النهاية بداً من جمع نسخ الكتاب من المؤلف ومن المكتبات لتمنع تداوله، لعل ذلك يرد الفتنة التي توشك أن تعصف بكل شيء حتى الجامعة، ولكن الرافعي لم يقنع فأستمر في حملته على الدكتور طه حسين، وظهيرُه يومئذ هو الدكتور زكي مبارك. . .!
لقد كانت هذه المقالات التي ينشرها الرافعي في كوكب الشرق صيحةً مدوية وصلت إلى كل أذن؛ فما أحسب أحداً في أدباء العربية وقرائها قد فاته منها شيء. لقد كان المصريون
وقتئذ مكمومة أفواههم عن السياسة والحديث في شئونها فلعلهم وجدوا في هذه المقالات ما يعزيهم عن شيء بشيء، إذ كان طه عندهم يومئذ ما يزال هو طه حسين عدو سعد، ومحرر جريدة السياسة، وعضو الأحرار الدستوريين
لا أزعم أن اهتمام الناس جميعاً في مصر بهذه المقالات لأنهم جميعاً قد صار لهم في شئون الأدب رأي، أو لهم في الذود عن الإسلام حمية، لا؛ ولكنه نوع من التعصب السياسي جاء اتفاقاً ومصادفة في هذا الوقت نفسه ليكون تأييداً لقول الله وانتصاراً لكلمته؛ على أن هذه المقالات بإقبال الناس عليها - لسبب أدبي أو لسبب سياسي - قد بعثت روحاً دينية كانت راقدة، وأذكت حمية كانت خامدة، وألفت قلوباً إلى قلوب كانت متنافرة، ونبهت طوائف من عباد الله كانت أشتاتاً لتعمل للذود عن دين الله وإني لأذكر مثلاً مما كان من إقبال الناس على هذه المقالات أنني - وكنت طالباً. . . لم أكن أطيق الانتظار حتى يجيء بائع الصحف إلى الحي الذي أسكنه لآخذ منه كوكب الشرق، بل كنت وجماعة من الطلاب نستعجل فنقطع الطريق من المنيرة إلى باب اللوق راجلين لنشتري من الأعداد المبكرة المسافرة إلى حلوان، لنقرأها قبل أن يقرأها الناس
وتطورت السياسة المصرية، وتخلى زيور باشا عن الحكم، وعادت حكومة الشعب يؤيدها برلمان سعد؛ وعكف نواب الأمة على تراث الحكومة الماضية يفتشون عن أخطائه؛ وما يزال في آذانهم صدى يرن عما كان من أمر الجامعة وأمر طه حسين، فأبدى البرلمان رغبته في محاكمته. وقال النواب: نحن نريد. وقالت الحكومة: وأنا لا أريد. وتشاد عدلي رئيس الحكومة وسعد رئيس النواب؛ فقامت زوبعة، ونشأت ضجة، وحدثت أزمة وزارية، ولوح عدلي بالاستقالة، وأصر سعد على وجوب تنفيذ رأي الأمة، وتعقدت المشكلة. . .
وسعى الوسطاء بالصلح بين الزعيمين؛ فما كان الحل إلا أن يتقدم النائب الجليل عبد الحميد البنان بشكواه إلى النيابة العمومية فتسقط التبعة عن الحكومة، وينفذ رأي الأمة، ثم تسير القضية إلى غايتها أمام القضاء وكان بعد ذلك ما كان
وإذ كان انضمام الجامعة إلى وزارة المعارف عملاً من أعمال علي ماهر وزير المعارف، فإن ما ثار حول الجامعة بسبب الدكتور طه حسين قد دعا نائباً أو نواباً إلى اقتراح محاكمة علي ماهر بما فعل للجامعة، وبما غير من نظام التعليم العام من غير أن يكون ذلك من حقه

الدستوري. . . ولكنه ظل اقتراحاً لغير التنفيذ
ليست كل هذه الحوادث من تأليف الرافعي، ولكنها شيء يتصل بتاريخه وله أثر فيه أي أثر؛ فلولا ما كان من الخصومة بين الرافعي وطه، لما قامت هذه الضجة، ولا ثارت هذه الثائرة، ولما كان في التاريخ الأدبي أو السياسي لهذه الحقبة شيء مما كان على أن هذه المعركة قد خلفت لنا شيئاً آخر، هو أغلى وأمتع، ذلك هو كتاب: (المعركة تحت راية القرآن) وهو جماع رأي الرافعي في القديم والجديد، وهو أسلوب في النقد سنتحدث عنه بعد
ولقد ظلت الخصومة قائمة بين الرافعي وطه إلى آخر أيامه، بل أحسبها ستظل قائمة ما بقيت العربية وبقي تاريخ الأدب؛ فما هي خصومة بين شخص وشخص تنتهي بنهايتهما؛ بل هي خصومة بين مذهب ومذهب سيظل الصراع بينهما أبداً ما دام في العربية حياة وقدرة على البقاء
وما أعرف أن الرافعي وجد فرصة ليغمز طه في أدبه، أو وجد طه سانحة لينال من الرافعي في فنه ومذهبه، إلا أفرغ كل منهما ما في جعبته. وكم مقالٍ من مقالات طه حسين قرأه علي الرافعي فقال: اسمع، أنه يعنيني. وكم مقال أملاه علي الرافعي أو قرأته له فوجدت فيه شيئاً أعرف من يعنيه الرافعي به. ومرة أو مرتين قال الأستاذ الزيات للرافعي: أرجو أن تعدل في أسلوب هذا المقال - مما ينشر في الرسالة - فإني لا أحب أن يظن طه أنك تعنيه بشيء تنشره في الرسالة وعلي تبعته عنده
ولما ثارت في الجامعة في العام الماضي مسألة المسجد والمصلي والدروس الدينية وفصل الفتيان عن الفتيات، كتب الرافعي مقالا للرسالة غمر فيه طه وحيا شباب الجامعة، ولم يجد الأستاذ الزيات بداً من نشره. وفتن الرافعي بمقاله ذاك وحسن عنده وقعه، فأنشأ تتمة له بعنوان (شيطان وشيطانة) يعني طه وتلميذته، ولكن الزيات وقف له واحتج حجة، رعاية للصديق القديم طه. وكان أول مقال يكتبه الرافعي فترده له الرسالة. وقد أغتاظ الرافعي لذلك غيظاً شديداً، وأحسبه مات وفي نفسه حسرة من عدم نشر هذا المقال. لو كان لي أن أعرف أين صورة هذا المقال لأوجبت على الرسالة أن تنشره بحق التاريخ الذي لا يحابي الأحياء ولا الأموات، ولكن أين أجده؟ الأستاذ الزيات يقول: لقد رددته إليه. والدكتور الرافعي يقول: لم أجده على مكتب أبي؛ وما كان بين هذا المقال وبين أجل الرافعي إلا قليل
ولم يتلاق الرافعي وطه وجها لوجه في النقد بعد هذه المعركة حول كتاب (في الشعر الجاهلي)، ولكن المعارك بينهما ظلت مستمرة من وراء حجاب، تنتقل من ميدان إلى ميدان
ولما أشترك الرافعي في المباراة الأدبية في العام الماضي، ونال في بعضها من الجائزة دون ما كان يطمع، لم ينسب ذلك لشيء إلا لأن طه كان عضواً في اللجنة. . . وطه خصم عنيد. . .
أما بعد فهذا شيء للتاريخ أثبته على ما فيه، ليس فيه رأيي ولا رأي أحد معي؛ ولكنه شيء مما حكاه لي الرافعي أو قرأت في كتبه، فكتبته في موضعه من هذا البحث بضمير المتكلم ومالي فيه إلا الرواية، وذلك حسبي من العذر إن كان علي معتبة أو ملام
(شبرا)
محمد سعيد العريان
ثورة على الأخلاق
للأستاذ علي صرطاوي
إلى الأخ محمود بواسطة الأستاذ الزيات
قرأ أصدقاؤك والمعجبون بأدبك في الأقطار الشقيقة شكواك البليغة في عدد الرسالة (229)، فعتبوا عليك، وأسفوا أن تمر بسمائك سحابة صيف من مآسي الحياة في ظرف من الظروف الأليمة التي يطيش فيها حلم الحليم، فتحجب عن بصرك ذلك القبس الإلهي الذي كان يجب إليك أن تحترق كالشمعة لتنير الطريق إلى الذين لا يعرفون الفضيلة في الدنيا؛ وأن تتحمل كل ما في الألم من مرارة وما في الاضطهاد من معنى، في سبيل الأخلاق الفاضلة والذود عنها والدفاع عن حرمتها، فتنقلب في

طرفة عين إلى خصم لدود يطعنها تلك الطعنات القاتلة، فكنت كالذي أوشك أن يتم جداراً لاقى النكد في بنائه، فأنقلب إليه يهدمه إلى وجه الأرض لأن حجراً وقع عليه لا يجادلك فيما ذهبت إليه في شكواك إنسانٌ في الدنيا، ولا يوافقك على الأسباب التي أدعيتها علة النجاح من له دين وتفكير إلا إذا كنت تريد أن يتدهور البشر إلى مستوى العجماوات حيث يعيشون للطعام والشراب، وأن يتلاشى ذلك التراث الإنساني الثمين الذي ورثته البشرية عن الأنبياء والمصلحين.

إن نجاح التاجر الذي يغش ويسرق، والموظف الذي يتلون حسب الظروف، والظالم الذي لا تعرف الرحمة طريقاً إلى قلبه، لا يقوم دليلاً على ما ذهبت اليه، ولا شأن للأخلاق فيه، إذ ليس ذنب الماء العذب أن يزعم مريض أنه كريه المذاق، ولا الشمس المشرقة أن يجادل في رؤيتها أعمى. فالذنب يا سيدي الكريم هو ذنب المجتمع المريض الذي يسمي الأشياء بغير أسمائها، فيرى الجبل شجرة، والحجرة كتاباً، والجمرة تمرة. ولو كان لنا مجتمع تعيش فيه الصراحة والجرأة الأدبية ويشرق عليه نور الخلق الفاضل والتربية العملية الدينية الصحيحة، لتضور أمثال هؤلاء جوعاً فيه وراع الدكتور عزام طعنك في الأخلاق على النحو الذي قرأه الناس جميعاً، فأسرع يكتب إلى صاحب الرسالة كلمته البليغة لتصل إليك في العدد (230) وظن القراء أن فيما أورده الدكتور من الآراء الصائبة ما يكفي لإرجاعك إلى الحق، والرجوع إليه فضيلة؛ وانتظروا

أن يقرءوا ذلك في العدد (231) وإذا بصديقك الزيات يقول إن المجلس الذي أبلغك فيه رأي الدكتور، وكان حافلا بغيرك من رجال العلم والدين، كانوا لك وعليه، وأنك ظللت صامتاً ولم تحر جواباً

لقد أعجبني صمتك، لأن السكوت دليل على التسليم، ولكني لم أرض أن يزعم أن مجلسك كان حافلاً برجال العلم والأدب والدين، ويقول على لسانهم بأن السبيل (القاصدة إذن أن نطب لهذه الحال فيما يوائم بين طموح الناس وكرامة الأخلاق وسلامة المجتمع، وليس هناك إلا وسيلة من وسيلتين: إما أن نصد الناس جميعاً عن هذه الطرق المتعددة ونقصرهم على هذه الطريق الواحدة بقوة الأديان والسلطان والتربية، وذلك ما عناه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: (عليكم بالجادّة ودعوا البنيَّات) وإما أن نعيد النظر في قانون الأخلاق فلعل فيه ما لا يرافئ تقلب العصر وتطور المجتمع. فأما الوسيلة الأولى فقد سجل الماضي ودلل الحاضر على أنها خيال نبيل لا يقع في الإمكان وحلم جميل لا تقوم عليه يقظة، وتعليل ذلك لا يغرب عنك فلا حاجة إلى تقريره. وأما الوسيلة الأخرى فهي على ما يرون مظنة التوفيق في الإصلاح الجديد)

يزعم أصدقاؤك أن إلزام الناس طريق الفضائل عن طريق الأديان والسلطان والتربية (خيال نبيل لا يقع في الإمكان، وحلم جميل لا تقوم عليه يقظة) ويؤكدون أن الماضي قد سجل ذلك، وأن الحاضر قد دلل عليه . . .

أما السلطان فأوافقهم على ذلك إذ:

لا ترجع الأنفس عن غيها ... ما لم يكن منها لها زاجر

وأما الأديان، فأي ماض قد سجل ذلك؟ هل قرأ أصدقاؤك التاريخ العربي قبل الإسلام وبعده؟ من هم أولئك الذين كانوا يأكلون الدم والميتة، ويئدون البنات، ويتزوج العشرة منهم امرأة واحدة؟ ومن هم أولئك الذين صهرتهم حرارة الدين فأخرجت منهم أبا بكر وعمر، ووطئت خيولهم الصين وسهول اللوار، وملئوا الدنيا والتاريخ عدلاً، وخاطب خليفتهم في بغداد السماء بأن تمطر أنى تشاء فالخراج لهم؟

إذا تعلم أفراد المجتمع الدين تعلماً عملياً صحيحاً، وساروا على صراطه المستقيم، فعسير أن يعيش بين أفراده مثل من ذكرهم صديقك الزيات. فعلة العلل أننا لا نعرف الناحية

العملية من الدين. . . وهذا ما كان سبباً في تهكم أحد رؤساء الجامعات الأوربية على دروس الأخلاق النظرية التي وجدها في أحد برامج بعض المدارس العربية العالية. . .

إذ قال بأن الشرقيين لا يزالون في الضلال يعمهون حين يظنون أن في المستطاع تكوين الخلق الفاضل بعيداً عن الناحية العملية. وأما الحاضر الذي دلل على ضعف الدين، فهو حاضر لا يمت إلى الدين بشيء

والإصلاح الجديد الذي يراه أصدقاؤك يجلب على المجتمع الدمار والبؤس والفوضى التي يئن تحتها المجتمع الأوربي في مظاهر مدنية النار والحديد
ويرى أصدقاؤك في صلف الإنجليزي العزة، وفي طموح الإيطالي الرجولة، وفي طمع الفرنسي الحياة، وفي صراحة الألماني الهيبة، وفي استقلال الأمريكي الفوز، ويرون في قناعة العربي الإهمال، وفي زهده الحرمان، وفي مداراته الذل، وفي توكله العجز.
ولست أظنهم ينصفون الحقيقة في هذا الرأي، فمقياس الفضيلة هو مقدار الناحية العملية الصالحة منها، وحسب أصدقائك أن يقارنوا بين فضائل من ذكروا، وبين فضائل العربي وهو قريب من عهد الرسالة، وهي منتزعة من صميم الدين، والتي لا تمت بصلة إلى الأسماء التي تطلق عليها الآن، وهو على أبواب مدينة حمص حينما هاجمها الروم للمرة الثانية، فتدفع تلك الفضائل العربي أن يعيد لأهل المدينة الجزية التي أخذها منهم، فيرفضون أخذها ويدفعون الروم بكل ما يملكون. والأمثلة كثيرة، وثقافتك الواسعة وعروبتك الصادقة في غير ما حاجة إلى إقامة دليل
وأما الربا فيريدون ألا يظل في عصر الاقتصاد رذيلة، وحجتهم أن الغرب لم يستعبد الشرق إلا عن طريق بنوكه، وأن ربح الأموال التي كانت تضيع على المسلمين في البنوك، لو صرفت على طرق الإصلاح ووجوه البر لما بقي أجنبي في أرضهم ولما ظل تحت سمائهم فقير. والواقع لا يدل على ذلك أبداً، فلقد حرم الدين الربا لحكمة لا نستطيع بعقولنا المادية المحدودة إدراكها. ويجب أن يبقى كذلك عملاً بأوامر الدين.
وأما استبعاد الشرق عن طريق البنوك، فمسألة فيها نظر وليست قضية مسلمة، ودليل ذلك أن الإنجليز كانوا يطمعون في مصر منذ سنة 1845. ويقرأ ذلك من يشاء في رحلة الإسكندر وليم كنج لاك في بلاد الشرق الأدنى في السنة المذكورة التي سماها (يوثين) حيث تنبأ وهو أمام
أبي الهول باحتلالهم مصر قبل أن تشق قناة السويس. وأما طرق الإصلاح ووجوه البر، فلو صرفت عليها الزكاة التي فرضها الدين لما بقي فقير بين المسلمين
وبعد فسيضل الخلق الفاضل عدة النجاح مادام هنالك دين في الدنيا والسلام عليك.
(جينين)
علي صرطاوي
أناشيد صوفية
جيتانجالي
للشاعر الفيلسوف طاغور
بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب
- 49 -
لقد هبطت عن عرشك لتقف بازاء باب كوخي
كنت جالساً وحدي في زاوية أترنم بألحان ألقيت أنت إليها سمعك فهبطت عن عرشك لتقف بازاء باب كوخي
وفي فنائك أحتشد العظماء والأغاني تتردد هناك في كل حين؛ غير أن لحناً بسيطاً أرتفع بين هذه الأغاني فجذبك إليه؛ هو لحن قصير فيه الشجن أختلط بموسيقى العالم العظمى فهبطت ومعك هدية من زهر. . . هبطت لتقف بازاء باب كوخي
- 50 -
وانطلقت أتكفّف الناس وأنتقل من باب إلى باب على طريق القرية. ثم بدت عربتك الذهبية عند الأفق كأنها الحلم اللذيذ فعجبت: ترى من يكون ملك الملوك هذا!
ولمع الأمل في نفسي وخيل إلي أن أيام السوء قد انقضت فوقفت أنتظر الهبات، وهي تعطي في غير سؤال، والمال وهو ينثر هنا وهناك
ووقفت العربة بازائي. وحين وقع بصرك علي دلفت نحوي وعلى شفتيك ابتسامة، فاستشعرت السعادة في نفسي؛ وعلى حين فجأة مددت إلي يمناك وأنت تقول: (ماذا عندك لتهبه لي؟)
آه! إنها دعابة ظريفة أن تمد يدك تسأل شحاذاً. واضطربت وسيطرت عليّ الحيرة ثم تناولت من سلتي أصغر حبة قمح. . . تناولتها في بطء وقدمتها إليك
لشد ما عجبت حين أفرغت سلتي عند الغروب، فألفيت بين متاعي الحقير حبة من

ذهب في قدر حبة القمح، فرحت أبكي في حرقة وأسى لأنني لم أجد في نفسي القوة على أن أقدم إليك كل ما أملك

- 51 -

أظلم الليل وانتهى عملنا اليومي، وخيل إلينا أن آخر ضيف قد قدم لأن أبواب القرية غلقت؛ غير أن قائلاً قال: (سيأتي الملك) فسخرنا منه وقلنا: (لا، لا يمكن!)

وبدا لنا كأن طارقاً يدق الباب فقلنا إنه الريح؛ ثم أطفأنا المصابيح وانطلقنا إلى الفراش؛ غير أن قائلاً قال: (إنه رسول!) فضحكنا منه وقلنا: (لا، بل هي الريح!)

وفي أعماق الليل دوى صوت فخيل إلينا - والنعاس يغالبنا - أنه هزيم الرعد؛ ثم زلزلت الأرض زلزالها، واضطربت الحيطان ففزعنا عن مراقدنا، وقال قائل: (إنه صوت عربات) فقلنا في صوت الحالم: (لا، إنه جلجلة السحب!)

وفي جوف الليل رن في مسامعنا دوي الطبل، ونادى مناد: (هبوا، لا تنوا!) فوضعنا أيدينا على قلوبنا والخوف ينفضنا نفضاً شديداً، وقال قائل: (ويلي، هاهي ذي راية الملك تخفق!) فاندفعنا نصيح: (لقد أزف الوقت فلا تتكاسلوا!)

لقد جاء الملك، ولكن أين المشاعل؟ أين الأكاليل؟ أين العرش ليستوي عليه؟ يا للفضيحة، يا للعار! أين الدار؟ أين الزينة؟ فقال قائل: (عبثاً تصيحون، حيوه بأيد فارغة وادعوه إلى حجراتكم المعطلة. . .)

افتحوا الأبواب، واعزفوا الألحان! ففي جوف الليل جاء الملك إلى بيتنا الموحش المظلم. إن الرعد يزمجر في السماء وإن البرق يزيح أستار الظلام. هات فراشك البالي وأفرشه في الفناء؛ فهو قد جاء على حين بغتة مع العاصفة الهوجاء. . . هو رب الليل الحالك المهيب. . .

- 52 -

لقد أردت أن أطلب إليك عقد الورد الذي تحلي به جيدك غير أني لم أجسر، فانتظرت حتى تبرح عند الصباح. وحين غادرت وجدت بقايا منثورة على الفراش، وفي السحر رحت أفتش عن الوريقات المفقودة كأنني شحاذ

آه، ماذا وجدت؟ ماذا تركت ذكرى هواك؟ إنك لم تترك الزهر ولا العبير ولا زجاجة عطر بل سيفك العظيم يتألق كشعلة من لهب، وهو ثقيل كالصاعقة. لقد أخترق نافذتي أول شعاع

فتيٍّ من أشعة الصباح فهم الطير يسقسق ويسأل: (أيتها الفتاة، ماذا أصبت؟) لا، لم يكن الزهر ولا العبير ولا زجاجة عطر، بل هو سيفك المهيب

وجلست أفكر في دهشة: ماذا عسى أن تكون هذه الهدية؟ لم أجد له مخبأ، وإني لأخجل أن أتقلده وأنا حطام متهدم، وإنه ليؤذيني إن ضممته إلى صدري، ولكني سأحمل في قلبي هذا الشرف. . . هذا العبء الثقيل من الآلام. . . هذه الهدية الغالية والآن لم يبق في هذه الدنيا ما أخافه لأنك أنت نصيري. لقد نزعت عن رفيقي الموت، فسأفديه أنا بروحي. إن سيفك معي لأحطم به قيودي فلا يبقى في هذه الدنيا ما أخافه سأنزع عن نفسي - منذ الآن - زخرف الحياة؛ ولن أتوارى بعد - يا مليك القلب - في ركن أبكي، ولن أستحي أو أرقق من خلقي فأنت قد حبوتني سيفك لأزين به فلن أتحلى بسواه من زينة الحياة

ما أجمل سوارك وقد زينته النجوم، ورصعته كواكب الحلية؛ غير أن سيفك أحلى منه في عيني وهو يلمع كأنه جناح طير فينشو المقدس، وقد انتشر في أشعة الغروب الحمراء، إنه يضطر كأنه آخر أحاديث الحياة حين يسيطر الألم على الإنسان في ساعة الاحتضار فيذهله عن نفسه؛ ثم هو يتألق كأنه شعاع الوجود الطاهر حين يرسل شرارة حامية فتلتهم كل العواطف الأرضية

ما أجمل سوارك وقد زينته كواكب الحلية! غير أن سيفك - يا إله الرعد - قد رصع بجمال باهر يفوت الوصف ويفوق الخيال

- 53 -

لن أطلب إليك شيئاً؛ ولن أذكر اسمي عند مسمعيك. وحين تنأى عني سأقف في صمت. لقد كنت لدى البئر وحدي والظل وارف، والفتيات ينطلقن إلى دورهن، يحملن جرارهن المترعة؛ لقد ناديني: (تعال معنا، إنه يضنيك أن تنتظر من لدن الصباح حتى الظهر) غير أني ترددت حيناً ثم ذهلت عن نفسي وسط الخواطر المضطربة

ما سمعت دبيبك حين جئت، وكان في نظراتك الأسى حين وقع بصرك علي، وكان في صوتك أثر الأين والتعب حين قلت: (آه، إنني مسافر ظمآن) ففزعت عن أحلامي لأصب الماء في كفيك، فحفت الأوراق من فوقنا، وانبعث شدو الطير يمزق سكون الظلام، وفاح
أريج عطر الزهرات من منعطف الطريق
ووقفت صامتاً في خجل حين سألتني عن أسمي، ماذا أسديت إليك فتسأل عن أسمي لتذكرني؟ ولكن ذكرى الماء الذي أطفأت به حرتك ستعلق بقلبي وتبعث فيه الرضى.
إن ساعات الصباح قد انطوت، والطير يغرد في كلال، والأوراق تحف من فوقي، وأنا جالس إلى نفسي أفكر وأفكر
- 54 -
ما يزال الفتور يسيطر على قلبك، والنعاس يستولي على عينيك
أفلم يبلغك أن الزهرة تحكم بين الشوك في كبرياء؟ أستيقظ؛ أوه، انتبه! لا تدع الزمان يمر عبثاً
عند نهاية الطريق الصخري وفي بلاد الوحدة الطاهرة. . . هناك يجلس صاحبي في عزلة، فلا تخدعه. أستيقظ؛ أوه، انتبه!
ماذا لو أن السماء تلهبت واضطربت في قيظ الظهيرة المحرق. . . ماذا لو أن الرمال المتأججة نشرت لظى الظمأ. . .
أفلا تجد الطرب في قرار قلبك؟ أفلا تتفجر قيثار الطريق - في كل خطوة من خطواتك - عن لحن شجي فيه الألم؟
- 55 -
إن رغبتك تامة فيّ، وإنه أنت الذي هبطت إليّ؛ فمن عسى أن يكون حبيبك - يا إله الملك - إن لم أكُنْه؟
لقد اتخذتني لك شريكاً أقاسمك هذا الثراء العريض؛ ففي قلبي السرور اللانهائي أستمده منك، وفي حياتي مشيئتك تسيطر عليّ
لهذا زينت نفسك - وأنت ملك الملوك - بالجمال الخلاب لتأسر قلبي، ولهذا بذلت حبك في سبيل من تحب، فظهرت للأعين كاثنين امتزاجا معاً
- 56 -
أيها النور، أيها النور الذي تشرق على العالم، وتقبل العيون وتنفث البهجة في القلوب!
آه، إن النور يرقص - يا عزيزي - في أعماق حياتي إنه يضطرب بين أوتار قلبي؛ إن السماء تنفرج، والريح تهب عاصفة، ورنات الضحك تتردد على الأرض
إن الفراش ينشر أجنحته على لجة النور، والزنبق والياسمين يضطرب فوق موجها
لقد تحطم النور فوق كل سحابة - يا عزيزي - إلى قطع من لجين استحالت إلى جواهر تتألق
إن البهجة تتناثر - يا حبيبي - على أوراق الشجر فيعم السرور، وإن نهر السماء يفيض على شاطئيه فيملأ الطرب كل مكان
كامل محمود حبيب
فلسفة التربية كما يراها فلاسفة الغرب
للأستاذ محمد حسن ظاظا
- 4 -
جولة في أغراض التربية
أوردت لك فيما سبق تفسير الفلسفة للتربية، وكشفت عما بينهما من علاقة، وأبنت ضرورة الأولى للثانية، ثم تناولت الثانية ذاتها ببعض الشرح والتحديد. وأحب اليوم أن أجول بك في (أغراض) هذه (العملية الكبرى) التي اصطلحنا على تسميتها بالتربية والتعليم!
لِمَ يتعلم الناس؟ وفيم تقام لهم هذه المدارس وتلك الجامعات التي تنفق فيها الجهود الطائلة والأموال الجسيمة؟ أظنك قد أصبحت ترى معي أن من حق الفلسفة بل من واجبها أن تناقش ما عسى أن يكون لهذه (العملية الكبرى) من أغراض، علها تستطيع أن تهدينا إلى (الغرض الأسمى)!
والحق أنه إن لم يكن للتربية غرض واضح محدود صريح فإن عمليتها لا تعدو أن تكون

ضرباً في الهواء مصيره الفشل المحتوم!؛ ولما كانت حياة (الأفراد) على ظهر الأرض واحدة لا رجعة لها ولا تكرار؛ ولما كانت (التربية) هي الأداة التي تعدنا لهذه الحياة الواحدة القصيرة، فإنه لا شك في ضرورة (إيجاد) ذلك (الغرض الأسمى) الذي نستطيع به - وبه وحده - أن نستغل (العمر) إلى أبعد حدود الأستغلال، وأن نتمتع به إلى أقصى وأرفع حدود التمتع

ولكنك تعلم أن الفلسفة حينما تعرض لمثل هذا (المشكل) لا تستطيع أن تنجو من ذلك (التباين) الهائل الذي يبدو في أغلب مذاهبها

يقول الأستاذ بولزن في أسلوب عذب رشيق (يريد المرء أن يلعب ويتعلم، وأن يعمل ويكتسب، وأن يملك وينعم، وأن يكون ويخلق، وأن يحب ويعجب، وأن يطيع ويحكم، وأن يجاهد ويفوز، وأن يردد الشعر ويحلم، وأن يفكر ويبحث وأن يجرب علاقة الابن بأبيه، والتلميذ بأستاذه، والخادم بسيده، وأن يعيش قنوعاً؛ أخا بين أخوة، وصديقاً بين أصدقاء، وزميلاً بين زملاء، ومواطناً بين مواطنين، وحبيباً وعدواً، وزوجاً ووالداً ومربياً؛ كل ذلك

على نحو طبيعي خاص؛ فإذا ما تحقق له ذلك شعر أن حياته قد كملت، وأنتظر النهاية الأخيرة برضا وارتياح، لأنه سيلحق بعدها بآبائه وأجداده.)

وأنت ترى أن ذلك الغرض طويل غير محمل وإن كان صحيحاً في كل أجزائه، وأنه يرمي إلى تكوين الفرد الاجتماعي الناجح السعيد.

ويقول فيخته (إن غرض التربية هو تكوين الوطني العارف بحقوق الوطن وواجباته).

ولكن من ذا يستطيع أن يحصر الحياة في دائرة الوطنية فحسب؟ أليست الوطنية إحدى نواحي الحياة الشاملة الفسيحة؟

ويقول هربارت (إن غرض التربية هو تكوين إنسان عارف بحقوق الإنسانية؛ وإن غايتها القصوى هي اكتساب الفضائل والتحلي بمكارم الأخلاق). ولكن ترى ما هي حقوق الإنسانية التي يتركها لنا هربارت غامضة من غير ما تفسير؟ وإذا كانت الأخلاق هي غاية التربية القصوى، فأين يقع (التفكير الخالص) من هذه الغاية وقد وضعه (ارسطو) فوق جميع الغايات عندما ينصب على أسمى موضوعات التفكير وهو الله؟

ويقول ديوي (إن غرض التربية الأسمى هو النمو) ولكن ما معنى النمو وما مقياسه المضبوط؟ يلمس (ديوي) بنفسه ذلك الغموض ويرسم لنا مثلاً أعلى (للإنسان النامي) فإذا هو (كائن ذو عادات بصيرة حساسة بعيدة النظر خاضعة لمسئوليات أكثر). وذلك قول جامع ولكنه لا يخلو مع ذلك من غموض. . .

ويقول الأستاذ ريدجر (تلائم التربية بين الفرد وبين عناصر البيئة المعترف بها في الحياة الحديثة، وهي تعمل على تنمية وترتيب وتدريب قواه حتى تصبح ذات (فاعلية) مشروعة النفع) وذلك أيضاً قول دقيق لولا ما قد ينتاب (هذه الملاءمة) من القضاء على روح الثورة في الناشئ. تلك الثورة التي نريدها منه كلما رأى ما هو جدير بها في حياة المجتمع

ويقول الأستاذ تورندايك (إن أقصى غايات التربية هو غرس رغبة (الخير) وتكوين القدرة على الحياة السعيدة والمتعة النبيلة البريئة) ولكن ترى ما هي الحياة السعيدة ذات المتعة النبيلة البريئة؟ أما نحتاج هنا لتحديدهما؟

أما (سبنسر) فيلسوف التطور فيقول (إن غاية التربية هي أولا وقبل كل شيء حفظ الحياة). ولكن من الثابت الواضح أن (حفظ الحياة) وسيلة وليس بغاية؛ إذ في سبيل أي شيء نحفظها؟ يقول سبنسر نفسه: (إن واجب التربية هو الأعداد للحياة بأوسع معانيها. وأهم ما في الحياة هو الحكم الصائب في كل الاتجاهات وجميع الظروف، ثم تربية الجسم والعقل، ثم الإعداد للعائلة والسعادة والوطن وخدمة المجتمع) وذلك كلام له وجاهته الخاصة دون ما شك. ولكن ألسنا نرى فيه إغفالا أو شبه إغفال لناحية الشعور بما فيه الدين؟

ويبسط لنا الأستاذ ريدجر غرض الملاءمة الآنف في فصل طريف فحواه الحياة بالعقل والروح ثم بالجسد في جو خلقي دائب التجدد، يقوم فيه الدين إلى جانب الفن، ويتسلط فيه الإنسان تسلطاً عاقلاً على البيئة، شاعراً أنها وطنه الذي يجد فيه المتعة العقلية والفنية، منتفعاً في نفس الوقت بكل ما فيها مما يفهمه ويقدره

أما الأستاذ فيقول إن غرض التربية (هو النمو المتشابه لقوى الفرد) وذلك قول له طرافة من الناحية النفسية التي تطالبنا بإيجاد التوازن بين قوانا بحيث لا يطغي فيها العقل على العاطفة، أو العاطفة على العقل، ولكنه لا يزال بعد مفتقراً إلى (تشريع) يوجه هذا النمو المتشابه به في نواحيه المنشودة

وأما أبناء العم سام فأغراض التربية عندهم هي:

(1) التمدن العاقل (2) المهنة الموفقة (3) الفراغ الممتع (4) عضوية الأسرة الناجحة (5) الصحة الحسنة (6) المعاملات الطيبة

ولكن واضح أن ذلك المستوى شعبي بحت لا يتناول (الفكر الراقي) كما ينبغي أن يتناوله

وتلك كما ترى آراء كثيرة توسع من مدى فكرنا وإن كانت لا تقف به عند رأي حازم جازم لأن طبيعة (الغاية الأخيرة) ذاتها تتطلب ذلك الخلاف مادام أن الأفراد أنفسهم هم الذين يتناولونها بالبسط والتحديد لأنها غايتهم. ويشعر الأستاذ ديوي نفسه بصعوبة الموقف فيقول: (ليس للتربية غاية أو غرض خاص، ولذلك يجب أن نأخذ في حسابنا نشاط من يراد تعليمهم وحاجاتهم الطبيعية والاكتسابية عندما نحدد للتربية والتعليم أغراضهما)

ويعقب الأستاذ يعقوب فام على هذا الرأي بقوله: (ليس التعليم منفصلاً عن الحياة حتى يقال إنه وسيلة لها، بل هو والحياة أمر واحد) ومعنى ذلك أن غاية التربية هي هي غاية الحياة. فترى ماذا عسى أن تكون تلك الغاية؟ أهي ذلك الثالوث الأقدس الذي ينادي به الأستاذ فيكتور كوزن في كتابه الطريف ثالوث الخير والحق والجمال؟ أم هي (التفكير الخالص)

في أسمى موضوعات التفكير كما يقول أرسطو؟

ومهما يكن من شيء فإن الأستاذ (ديوي) يعطينا مقياساً طريفاً نطبقه على الأغراض (المطروحة) لنختبرها به وهو: (1) قيام الغرض على الظروف الراهنة (2) وقدرته على القيادة والمرونة (3) والاتفاق التام بينه وبين الوسيلة. ثم هو يعطينا مقياساً آخر نقيس به مواد الدراسة هو (درجة وطريقة ما تجلبه على الطالب من شعور بيئته الاجتماعية، وما تمده من قدرة يفسر بها قواه الخاصة من ناحية قابليتها لخدمة المجتمع) ويفسر لنا الأستاذ (باجلي) مدى هذه (القابلية) بقوله: (إنها تتضمن أن يكون المرء فاعلاً في المجتمع منتجاً أو مرشداً الناس إلى الإنتاج، متدخلاً في مجهودات الآخرين بأخلاقه الصالحة، عاملاً على تكميل القوى الاجتماعية أي إنجاح الجماعة)

ويعزز الأستاذ ديوي نفسه ذلك الرأي بقوله: (أعتقد أن كل تربية يجب أن ترمي إلى مشاركة الفرد في الوجدان الاجتماعي)

ولا بأس من أن نختم هذا الفصل بقول الأستاذ وهو: (أننا لا نستطيع أن نحصر أغراض التربية في غرض واحد، وكل ما هنالك أن التربية يجب أن تشمل الإبقاء على الماضي إبقاء لا يستر عيوبه ولا يعمينا عن خيرات الحاضر، ثم الوقوف على الأزمنة والبيئات والطبقات المختلفة حتى نوسع من مدى اتصال الناس بعضهم ببعض، ثم تمدين ومحو الوحشية من بينهم، أي انتشال العقول من الأدوية المظلمة، والعواطف من الغرائز الحيوانية، ثم غربلة الناشئين وتوجيه كل منهم إلى الطريق الذي يتفق وميوله الخاصة حتى يبلغ أقصى ما هو كفء له، ثم غرس العادات الحسنة من غير استبعاد الناشئ لها)

وبعد، فماذا تريد أن أقول؟ وأي الأغراض تحب أن أزجيها إليك؟

أليس من الخير أن نترك هذا الباب مفتوحاً لرجال التربية في الشرق، كما يدلوا فيه بآرائهم السديدة، ويرسموا لنا تلك (الغاية الأخيرة) التي يجب أن ينشدها الشرق في تربيته على الخصوص؟

ثم أنت ترى المعاهد في مصر كثيرة والخريجين أكثر، فهل تستطيع أن تتبين وراء تلك المعاهد (غرضاً واضحاً محدوداً) وهل تستطيع أن تتلمس (الطريقة) التي يحقق بها هذا الغرض وما عسى أن يكون فيها من ضعف وقوة؟

أحب أن تفكر في هذا قليلاً. لا، بل كثيراً

(شبرا)
محمد حسن ظاظا
مدرس الفلسفة بالمدارس الثانوية
هكذا قال زرادشت
للفيلسوف الألماني فردريك نيتشة
ترجمة الأستاذ فليكس فارس
الرؤى والألغاز
- 1 -
وعندما تناقل البحارة خبر وجود زارا بينهم وكان بلغهم ذلك من رجل دخل السفينة معه قادماً من الجزر السعيدة ساد الجميع شيء من القلق وباتوا يتوقعون حدثاً في وجوده، غير أن زارا بقي يومين جامداً تساوره أحزانه؛ تحدق فيه الأنظار فلا يلتفت، وتوجه إليه الأسئلة فلا يجيب. وأخيراً أصغى لما يقال حوله متوقعاً سماع أبحاث لها خطورتها تدور على هذه السفينة القادمة من بعيد والمتجهة إلى أماكن سحيقة. وما كان زارا لينفر من الأسفار البعيدة ومن الأخطار، وبعد أن أصغى طويلاً حلت عقدة لسانه فأنطلق يقول:
- إليكم أيها الشذاذ الجريئون أياً كنتم، أيها المستسلمون للشراع الغدار على هائجات الأمواج
إليكم أيها الثملون بخمرة الأسرار، المنجذبون بين خيوط الظلمات والأنوار، إلى نغمات كل شبابة تنوح في المجاهل الخفية. إنكم تنفرون من تلمس طريقكم بيد مرتجفة على ما نصب من دليلات الحبال إذ تفضلون الإدراك بالحس على الإدراك بالاستقراء إليكم دون سواكم أوجه الخطاب لأخبر بما تجلى من ألغاز وبما خطر من رؤى لأشد الناس استغراقاً في عزلته.
لقد اجتزت الغسق في أشد فتراته وجوماً. اقتحمته وقد تقلصت شفتاي وعلا وجهي الاغبرار وكنت شاهدت من قبل شموساً كثيرة تجنح إلى الغروب
رأيت أمامي طريقاً يتسلل على جروف المرتفعات، طريقاً وعراً تعرى جانباه من كل نبات فدفعت عليه أقدامي أتحداه فأسمع صريف حصاه تحتها.
مشيت صامتاً أحاول تثبيت الحصى المتطايرة بخطواتي لأنجو من الانزلاق عليها واعتليت فإذا بروح الكثافة وهو عدوي الألد يشد بي إلى الأعماق، واعتليت أيضاً فإذا بهذا
الروح المطبق عليّ كالقزم من الناس والخلد من سكان الأوجار يسكب في أذني ودماغي كلمات ثقيلة كالرصاص فسمعته يقول لي متمهلاً هازئاً:
أي زارا أيها الحجر المدعي الحكمة، لقد رشقت نفسك إلى ما فوق، ولكن أي حجر أرتفع ولم يسقط عائداً إلى مصدره؟
أي زارا أيها الحجر الحكيم المنقذف إلى العلا ليزعزع الكواكب في مدارها ما أنت إلا القاذف والمقذوف معاً، فلابد لك من السقوط ككل حجر يرشق إلى ما فوق. لقد حكمت بالرجم فكان حكمك به على نفسك، وهذا الحجر الذي فوّقته سيرجع ساقطاً عليك
وسكت القزم طويلاً حتى ضاقت من سكوته أنفاسي، فالرفيق الصامت يشعرك بوحشة الانفراد أكثر مما تشعر بها وأنت وحدك لا رفيق لك
وارتقيت أيضاً وأنا تائه في تفكيري وأحلامي شاعراً بتزايد الضيق في صدري كأنني عليل نبهته أضغاث أحلامه فاستفاق ليشعر بأوجاعه
غير أنني أعهد بنفسي قوة أسميها شجاعة وهي القوة التي أرغمت بها كل وهن في نفسي، بهذه الشجاعة تذرعت فصحت بالقزم قائلاً:
إن واحداً منا يجب عليه أن يتوارى
ما من قاتل كالشجاعة التي تهاجم، وما من فيلق يتقدم إلا وفي طليعته الأنغام الحاديات
إن أوفر الحيوانات شجاعة إنما هو الإنسان الذي قهر بشجاعته سائر الحيوانات وتغلب على جميع الأوجاع ماشياً وراء حاديات الأنغام بالرغم من أن أوجاع الإنسان أشد ما في الكون من أوجاع

وللشجاعة أيضاً فضيلة ردع الدوار المستولي على الرؤوس حين تحدق في الأعماق، وما من موقف للإنسان لا هاوية تحته وما عليه إلا أن يحدق ليرى المهاوي من أي موقف في مواقفه،

إن الشجاعة خير ما يقتل فإنها تقتل الإشفاق أيضاً؛ وما من هاوية أبعد قراراً من الإشفاق لأن نظر الإنسان ليذهب وهو يسبر الآلام إلى أقصى مدى يبلغه عند سبره الحياة نفسها

إن خير ما يقتل إنما هي الشجاعة إذا هاجمت، لأنها ستتوصل أخيراً إلى قتل الموت نفسه لأنها تقول في ذاتها: (يا للعجب! أهذا ما كانت الحياة؟ إذن لأرجعن إليها مرة أخرى) إن

في مثل هذه العقيدة أشد حداء يدفع إلى الإقدام. ومن له أذنان سامعتان فليسمع

واستوقفت القزم قائلاً: يجب أن يبقى أحدنا ويفنى الآخر. إنني أنا الأقوى لأنك لا تدرك أعمق أفكاري، وما أعمقها إلا فكرة لا قبل لك باحتمالها. فارتمى القزم عن كتفي فخف حملي، فإذا بهذا القزم يجلس القرفصاء على حجر أمامي، وإذا نحن تجاه باب كأنه وجد صدفة هناك فقلت لرفيقي:

أنظر إلى هذا الباب فإن له واجهتين، وهنا ملتقى مسلكين لم يبلغ إنسان أقصاهما، أحدهما منحدر يمتد إلى البرية، والآخر مرتفع يمتد إلى البرية الأخرى، والمسلكان يتعارضان متقاطعين عند هذا الباب وقد كتب أسمه على رتاج واحد (الحين)

فقلت: أتعتقد أيها القزم أن من يتوغل في إحدى هذين المسلكين يبقى معتقداً بأن اتجاه أحدهما معارض لاتجاه الآخر؟

فقال القزم بازدراء: إن كل اتجاه على خط مستقيم إنما هو اتجاه مكذوب، فالحقيقة منحرفة لأن الزمان نفسه خط مستدير أوله آخره

فأجبته قائلاً: لا تستخف بالأمر أيها الروح الكثيف وإلا غادرتك فتعطب حيث أنت، ولا تنس أنني أنا حملتك إلى الأعلى. تفكر في (الحين) الذي نحن فيه الآن، فإن من بابه يمتد سلك أبدي لا نهاية له متراجعاً إلى الوراء، فإنما وراءنا البرية يا هذا

أفما كان لزاماً على كل شيء معزز بمعرفة السير أن يجتاز هذا السلك فيما مضى؟ أفما تحتم على كل شيء له طاقة الوصول أن يكون قد وصل فيما مضى فأتم سيره وعبره؟

وإذا كان كل موجود الآن قد وجد من قبل فما هو اعتقادك في هذا الحين؟ أفما كان لهذا الباب وجود سابق؟

أفما ترى الأشياء كلها متداخلة، وأن هذا (الحين) يجر وراءه كل ما سيكون، بل يجر نفسه أيضاً؟

أفما يتحتم والحالة هذه على كل معزز بقوة السير أن يندفع مرة أخرى على هذا المسلك المتجه إلى فوق؟

أنظر إلى هذه العنكبة التي تدب على مهل تحت شعاع القمر! أنظر إلى شعاع القمر نفسه وإلى ذاتي وذاتك مجتمعتين تحت هذا الباب تتهامسان بأسرار الأبد! أفما تعتقد أنه لابد أن نكون وقفنا جميعاً من قبل في هذا المكان؟

أفليس علينا أن نعود أيضاً للتدفع تكراراً على المسلك الآخر الذاهب أمامنا متصاعداً مستطيلاً مروعاً؟ أفما لزم علينا أن نعود تكراراً وأبداً؟

هكذا كنت أتكلم بصوت يتزايد انخفاضه وقد أرعبتني أفكاري وما كمن وراء أفكاري فإذا بي أسمع نباح كلب على مقربة منا

خيل إليّ أنني سمعت مثل هذا النباح من قبل، ورجعت بتذكاري إلى الماضي فإذا هو يسمعني هذا النباح في أبعد أيام طفولتي ويمثل لي مثل هذا الكلب الذي أراه الآن وقد وقف شعره ومد رقبته مرتجفاً في أشد الليالي سكوناً حيث يتراءى للكلاب أيضاً أن في العالم أشباحاً

ونبه نباح الكلب إشفاقي إذ تذكرت أنه عندما عوى منذ هنيهة كان القمر يطل من وراء البيت صامتاً كالموت؛ ومنذ هنيهة كان هذا القمر يستقر فوق السطح كقرص ملتهب يراود ما ليس له، وذلك ما أثار غضب الكلب لأن الكلاب تؤمن بالسارقين والأشباح

عندما سمعت هذا النباح للمرة الثانية عاودني الإشفاق تكراراً
أين توارى القزم الآن ومعه الباب والعنكبة وأحاديث المناجاة؟ أكنت في حلم
فاستفقت فأنا الآن وحيد بين جرداء الصخور لا سمير لي غير شعاع القمر المنفرد في السماء
ولكنني رأيت رجلاً مسجى على الأرض وكان الكلب يقفز وقد أقشعر جلده وهو يهدر هديراً، وإذ رآني قادماً نحوه بدأ بالنباح فتساءلت عما إذا كنت سمعت من قبل كلباً ينبح بمثل هذا الصراخ المستغيث
والحق أن ما رأيت في ذلك المكان ما كنت رأيت مثله، لأنني شاهدت أمامي راعياً فتياً
ينتفض محتضراً، وقد أرتسم الروع على وجهه وتدلت من فمه أفعى حالكة السواد،
فتساءلت عما إذا كنت رأيت قبل الآن مثل هذا الاشمئزاز والشحوب على وجه من الوجوه. لعل هذا الراعي كان يغط في رقاده عندما أنسلت الأفعى إلى حلقه وانشبكت فيه
وبدأت أسحب الأفعى بيدي، ولكني شددت عبثاً، فسمعت من داخلي صوتاً يهيب
بالراعي قائلاً: عض عليها بأسنانك ولا تني حتى تقطع رأسها، وهكذا سمعت بهذا الهتاف أصوات
رعبي واشمئزازي وضغينتي وإشفاقي كأنها صوت واحد يتعالى مني
فيا أيها الشجعان المحيطون بي، أيها الشذاذ المكتشفون يا من تقتحمون مجاهل البحار مستسلمين للشراع الغدار وأنتم تسرون بالمعميات والألغاز، عبروا رؤى المنفرد وحلوا ما رأى من معميات وقد كمن فيها ما كان وما سيكون
أيّ هذه الرموز يدل على ما فات وأيها يدل على ما هو آت؟
من هو الراعي الذي اندست الأفعى في فمه، ومن هو الإنسان الذي سيصاب بمثل هذه الداهية الدهماء؟
على أن الراعي بدأ يشد بأسنانه منفذا ما أشرت به، وما لبث أن تفل دافعاً برأس الأفعى إلى بعيد، ثم أنتفض ووقف على قدميه
وتبدلت هيئة الراعي فلم يعد راعياً حتى ولا إنساناً، إذ جلله الإشعاع وضحك ضحكة ما سمعت حياتي مثلها
لقد سمعت يا أخواني ضحكة ليست من عالم الإنسان ولم أزل منذ ذلك الحين أحترق بشهوة لا أجد ما يطفئها. إن شهوة هذه الضحكة تنهش أحشائي فكيف أرضى الموت بعد الآن
هكذا تكلم زارا
(يتبع)
فليكس فارس
رسالة الشعر
وحشة!
للأستاذ أمجد الطرابلسي
ما أرى الينبوع في هذه الفلاه=فالتمسه اليوم في أعماق نفسك!
أيها الغربانُ يا شؤمَ الربوعِ ... انعبي ما شئتِ في صدري وقَرّي
يُنشدُ الشاعرُ في عرسِ الربيع ... وأنا أستلْهِمُ الوحشةَ شعري!
هذه الصّحراءُ ما بين ضلوعي ... كاد يُذوي شوكَها فرطُ صَداها
أَعولتْ في الصَّدرِ تَسْتَجدي دموعي ... فأبى مُسْتكبِرُ الدمع وتاها
هذه الصّحراءُ حولي أين سرتُ ... تفزعُ الجِنَّانُ من وحشتِها
قد عوى في جوِّها الويلُ المُشِتُّ ... وتنزّي الرملُ في شُعلتِها
تتعبُ الأعينُ في آفاقِها ... كشراعٍ بينَ أمواجِ العُباب
ويَضِجُّ الغمُّ في أعماقِها ... ضجَّةَ الأغلالِ في دارِ العذاب
يا لصحراوَيْنِ في قلبي وحولي ... أتمنَّى فيهما لمعَ سراب
أنا ما بينهما أرقبُ ظِليّ ... فأراهُ سَلوتي وسْطَ الرّحاب
أيّها الوحشةُ خَلّي العنكبوتْ ... تنُسجِ الأكفانَ في أحناءِ صدري
وانشري اللّيلَ على كهفي الصَّموتْ ... وأصبِغي باليأسِ والأهوالِ فجري
أظمئي زهري وزيدي سَأمي ... وارتعي في خاطري يا وَحشتي!

!!أنا منْ صمتِكِ أَغذو نَغَمي ... وَبِوَيْلاتِكِ أسقي جنّتي
إنّ غَمّاً لم يزلْ في الصّدرِ يُطوى ... هو كنزي ومَعينُ الشّعرِ عندي
لا تُهنْه أيّها القلبُ بشكوى ... إنّ فيها هونَ آمالي ومجدي
إيهِ يا نضوَ الفلا حسبُك صمتا ... غّنِّ في الوَحدةِ ألحانَ التَّصافي
لستَ بالشاعرِ يا قلبيَ حتّى ... تُطلعَ النّرجسَ من شوكِ الفيافي!
عَبَثاً تخرسُ في الصَّدرِ اللّحونْ ... أيّها المُصْحِرُ صَنّاً وإباء
أنت كالبلبلِ في هام الغصونْ ... عيشُهُ أنْ يُسكرَ الروضَ غِناء
يَتَمّنى الصّمت - لو كانَ مُتاحا - ... ضَرَمٌ في صَدرِهِ مُسْتَبْسِلُ
!!لا الجوى لا الغَمُّ لا الويلُ جِراحا ... تُسكتُ البلبلَ، عاشَ البلبلُ
أيّها الضاربُ في عُرضِ الصَّحارى ... تَتَمنَّى واحة تأوي إليها
عَبَثاً تطلبُ في الصَّحراءِ دارا ... تطرحُ الأعباء ما بينَ يديْها
!أيها الهارب من دُنيا الجُحودْ ... إنَّ في صدرك أنغامَ الوفاء
!أيها المُدلجُ في ليلِ الجُمودْ ... إنَّ في نفسكَ آفاقَ الضِّياء
أيها الظمآنُ في هذا العَدَمْ ... أنتَ نبعٌ ترتوي منهُ الظّماءْ
!أنتَ فيه يائسٌ تشكو السَّقمْ ... وَهْوَ منْ يأسكَ يستسقي الرّجاء
غنّ هذا الموتَ ألحان الحياهْ ... وأسقِ صحراوَيْكَ من خَمرةِ حِسِّكْ
!ما أرى الينبوعَ في هذي الفلاهْ ... فألتمسهُ اليومَ في أعماقِ نفسِك
(دمشق)
أمجد الطرابلسي
الصدى والنرجس
للأستاذ خليل هنداوي
مهداة إلى الأستاذ دريني خشبة
نرجس كان فتى سليل إلهين من آلهة الماء، فأحبته (الصدى) فصد عنها وجفاها،)
فشكت أمرها إلى الآلهة (هيرا) زوجة (أبولون) فلم يذعن ولذا مسخه أبولون زهرة
هي زهرة النرجس، فكانت على غراره مصوبة برأسها لأنه كان يقف على حوافي
الغدران وينكس رأسه ليستجلي جماله في مائها. أما الصدى فأصابها الهزال حتى لم
(يبق منها إلا القدرة على ترديد الأصوات
أيها الرجل! لا تصم سمعك عندما تناديك المرأة فهي شيء غير الحب والجمال
(خ. هـ)
نرجس
على وجنتيه يرفُّ الشباب ... وتزهو على الفجر ألوانه
ومن مُقلتيهِ يشعُّ الضياء ... كأن الكواكبَ أخدانه
يفيض على الكون من حسنه ... كأن حمى الحسن أوطانه
تمثَّلَ في قلب كل الحسان ... فكان الرجاء، وكان المثل
لكم تهادى عليه القلوب ... وكم تتهادى عليه المقل
!على كل ثغر يطوف أسمه ... كأن أسمه - عندهن - الأمل
رأته التي راعها حسنه ... فراحت تذيع جواها به
وظلت تلازم محرابه ... كراهب دير بمحرابه
!فيا من رأى من جفاها الكرى ... موزعة النفس في بابه
لقد شفها منه هذا النفور ... وصيَّرها الحب مثل الخيال
أيشعر رب الجمال الفتون ... بما في قلوب المها للجمال
فقالت: لآتيه في خلوة ... أبث هواي له في اعتزال
وأشكو وأبكي لما حف بي ... فيرحم ما سال من أدمعي
وإمَّا أستخف كشفت الضلوع ... وأعلنت ما تحتوي أضلعي
وأمَّا نبا قلت: قف يا فتى! ... لتشهد عن كثب مصرعي
فيرسم في مقلتي حسنه ... وتسقط شكواه في مسمعي
ويلبث مستعبراً مشفقاً ... ويحنو كئيباً على مضجعي
!وإذ ذاك أغفو على راحة ... لأن حبيبي يقيم معي

لقاء
رأته مُكباً على دافق ... كمن تتراءى له خاطره
فما مدَّ عيناً لمن أقبلت ... ولا لفت الطرف للزائره
ولكنها وجمت وهلة ... تلملم آمالها الحائره
رأت وجهه في رقيق الغدير ... يرى الحسن منه ولا يشبع
فقالت: أتيتُ بلا موعد ... إلى حاجة لم تكن تُدفع
فكان على زهوه ذاهلاً ... عن الصوت، يصغي ولا يسمع
أما راق عينيك حسني النضير؟ ... وهذا المقبل والمعتنق؟
لقد لثم الفجر ثغري الصغير ... وضرَّج خدَيَّ لونُ الشفق
صفا كل معنى بجسمي الرشيق ... وراق به كل شيء ورق. . . .
تسللتُ والفجر في غبشة ... جرى في حواشي الدجى تبره
وجئتك يقتادني لاهب ... من الوجد لا يتقى حره
أتغفو على الحب غفو الخلي ... ومضناك يقتله صبره؟
هنالك غيد تطير الأماني ... بهن لحسنك أني ائتلق
ولكنني شبح هائم ... أبيت على أرق أو قلق
تعال! فما بيَ إلا رمق ... وإلا تباريح تُذكي الحُرق
أراك تميل ولا تطمئن ... فأهو عليَّ! ولا تبخل
ألا رشفة منك فيها الرحيق ... تقطر من ريقك السلسل
ألا قبلة يا حبيبي النفور! ... ولكنه سار لم يحفل!
في قمة الأولمب
وزفَّت إلى قمة الآلهات ... وقد هالها منه ما هالها
وقصت على (هير) ما عالها ... وأذهب في الحب آمالها
فحنت لها آلهات الألمب ... وكل بكى أو تباكى لها
لقد لج بي الوجد يا ربتاه ... فقولي له يعطني ما أشاء
أهم بتقبيله عنوة ... فيزجرني زاجر الكبرياء
فنادوه حتى يلبي النداء ... فزاد عتوًّا. . فكان الجزاء
نرجس والصدى
تعالين يا فاتنات الوجوه ... تأملن في النرجس الهائم
لقد مسخوا شخصه نرجساً ... يظل على الماء كالحائم //
يطيف بكل مسيل رقيق ... ويحدق في حسنه الناعم
مهبك يا ريح زاكي الأريج ... فمن أين يا ريح نفح العبير؟
حنت حين هبت على نرجس ... شذاه العبير، هواء العذير
وقد بلَّل الماء أعراقه ... فطاب النسيم ورق النمير
وأما الصدى فهي ولهى تجوب ... من القفر كل بعيد المدى
وتحسب كل نداء نداه ... فتمضي تجيب النِّدا بالنِّدا
لقد شحبت من أساها الصدى ... فليس تردد إلا الصدى. . .
خليل هنداوي
-
من مشاهد دجلة في الشتاء
للأستاذ محمد بهجة الأثري
ويومٍ ببغدادَ في شَتْوَةٍ ... كما تلسَعُ العقربُ الشائلةْ
فليس الدثارُ يقي بردَها ... ولا النارُ مشبوبةً هائلةْ
ترى المرَء يَصْلى بكانونها ... وتأخُذُه رجفةٌ خاذلةْ
لمحتُ بدجْلَةَ فيه أمْرَءًا ... تجرَّدَ كالإبْرَةِ العاطلةْ
فطوراً يُكِبُ على جسمه ... كما تَرْحَضُ الرَّيْطَةَ الغاسلةْ
وطوراً يعومُ بتَيّارها ... كما انْسابتِ الحيَّةُ الوائلةْ
يغوصُ كما الصخر يُلْقى بها ... إلى أنْ تَظُنَّ بهِ النازلةْ
فيطفُو على مَتْنها جائِلاً ... شبِيهَ الحَبَابِ طَفَتْ جائِلةْ
تَفَنَّنَ في عَوْمِهِ جاذِلاً ... كراقصةٍ رقصةً جاذِلةْ

نظرتُ إليه وبي دهشةٌ ... كما يَجِمُ القلبُ في الآزِلهْ
تعجَّبْتُ منه ومن حالتي ... ولي حالةٌ عكسه حائلهْ
حرامٌ عليَّ سوى فائِرٍ ... من الماء في القيظِ في القائِلهْ
تعجَّبتُ منه ولو راءني ... لَقَهْقَهَ قهقهةً هازلهْ
كلانا عجيبٌ. فسُبْحانَ مَنْ ... برا الناسَ شاكِلةً شاكِلهْ
ترى خَلْقَه ظاهراً جائراً ... وباطنه حكمةٌ عادِلهْ
تدِقُّ عن الفهم أسرارُها ... وإنْ بَلَغَ الرتْبَةَ الكامِلهْ
هو الكونُ أحْجَّيةٌ أعجزتْ ... بنى الأرضِ قافلةً قافلهْ
عَلَوْا لُجَّهُ الغَمْرَ من آدَمٍ ... وغاصُوا وما عَرَفُوا ساحلهْ
بدائعُ دَلَّتْ على مُبْدِعٍ ... وأعْظَمُها القوّةُ العاقلهْ
فلا يَزْعُمَنْ جاهلٌ فِطنَةً ... فَيَجْحَدَ من جهله جابِلَهْ
ألا إنما العقلُ مُسْتَبْصِرٌ ... فهل ينزِع النزعة الجاهلهْ؟!

(بغداد)

محمد بهجة الأثري

رغبة

للشاعر الألماني شيللر

للسيد عارف قياسه

من يستطيع أن يتصور غبطتي وابتهاجي، حين أجد مخرجاً من هذا الوادي، حيث سحب الضباب الصفيقة تنعقد في وجوه، وتتلبد على عدوتيه، وأقذف بنفسي في الفضاء الرحيب

ثمة تصافح عيني هضبات ضاحكة مستبشرة، كللتها خضرة أبدية، وزينتها فتوة سرمدية وا حسرتاه! ليتني عصفور! ليت لي أجنحة! إذن لدوّمت ثمة ورّنقت فوق هاتيك الربى وتلك الهضبات

فلطالما رنت في أذني ألحان علوية، ليس لي بها من عهد، أفلتت من موسيقى ذلك العالم الطرب المفراح

ولطالما بلغني أريجه العبق الفواح، ممتطياً أجنحة النسيمات الرقيقة، فسطع في أنفي ثمة أرى أثماراً ذهبية اللون تتألق خلال الأوراق الكثيفة ونباتات تتلألأ بالنوار، لا تخاف قر الشتاء ولا صبارته

تالله ما أرغد الحياة وأهناها فوق هاتيك الربى حيث تذهبها بآرادها شمس أبدية! ولكن أمواج تيار جياشة مزبدة، تخطر الاقتراب عليّ، وتمنعني من الدنو، وتملأ قلبي فرقاً ورعباً

فالزورق ينوس قرب الشاطئ ويرجحن، ولكن وا حسرتاه ليس له من ربان يدير دفته! وماذا يضير؟ فلنلجه في غير وجل ولا إشفاق، فإن شرعه لمنشورة. . . فلنأمل ولا نقنط، ولنجترئ ولا نفرق، ومن يرج النجاة فليسلك مسالكها

إن أعجوبة فريدة تستطيع أن تنقلني إلى ذلك العالم الجميل المفعم بالأعاجيب والمليء بالمعجزات.

(حماه - سوريا)

عارف قياسه

القصص

قصة شرقية من كاتلين رودس

زبيدة

للأستاذ دريني خشبة

من دأب الزائرات في بعض الممالك الإسلامية أن يلبسن كَوْثاً أحمر يخلعنه لدى باب حجرة الزائرين ليراه الرجال فلا يدخلوها ما دمن فيها. وهذه قصة الزوج المسكين صادق علي، الذي رأى الكوث الأحمر فلم يستطع أن يلج باب الحجرة ليلقى زوجه بعد سفر طويل عبر الصحراء الملتهبة المتلظية، وما حل بصاحب الكوث من دمار

زبيدة ابنة الصائغ فتاة جميلة بارعة الحسن ساحرة اللفتات، تميس كالغصن الرطب في الروضة الفيحاء، وتبسم كالزهرة الناضرة في الخميلة الغناء. . . لم تكد تبلغ من العمر سنتها الثانية عشرة حتى حبسها أبوها في ظلام الخدر، وأسبل على بدرها

السافر خمار الأسر، كما تعود الشرقيون أن يفعلوا ببناتهم إذا ما بلغن هذه السن المبكرة، التي تعد فيها الفتاة لزواج مبكر كذلك، بينما يكون بناتنا (في إنجلترا) يتلاعبن في الحدائق، ويتثقفن في المدارس، دون أن تبدو عليهن بداوات الأنوثة الفائرة الثائرة، التي هي أول إرهاصات الزواج

وكان جميع موسري المدينة ينتظرون اكتمال شباب الفتاة ليخطبوها من أبيها لأبناهم، وكان كل منهم حريصاً أشد الحرص على أن يفوز بها لأبنه دون جميع الناس. وكانت حمرة الخوخ التي تتأرج بالعطر من خديها، وتفتير النرجس الذي ينفث السحر من عينيها، ثم هذه القسمات التي تتحوى حول فمها الدقيق الرقيق. . . كان جميع ذلك مخلوقاً للحب، موقوفاً على الهوى، غير ميسر إلا لشباب غض مثله ريان كما إنه ريان وتقدم الأباء إلى الصائغ يخطبون زبيدة، ولكن الصائغ كان يغلو في تقدير مهرها ليتخلص ممن لا يراه كفءاً لها، وطمعاً منه ألا يكون أحد قد قبض لأبنته مهراً أكثر من مهر زبيدة. ولم لا؟ أليست زبيدة أجمل فتيات المدينة وأرشقهن وأوفرهن فتنة وأخفهن روحاً؟ وهي مع ذاك كاتبة قارئة تحفظ قدراً غير قليل من آيات الله وحديث الرسول وقصائد الشعراء، ثم

هي تجيد الإنشاد والغناء حتى لا يغني مثلها بلبل، ولا يجيد أن يرسل مثل نغمها ناي ولا عود. . . أضف إلى ذلك كله مهارة فائقة في الحياكة وأشغال الإبرة وشواغل المنزل. . .

وكان أغنى أغنياء المدينة - صادق علي - رجلاً شيخاً، أشرف على الستين، وكان صديقاً للصائغ، يقضي كل يوم شطراً من فراغه عنده؛ وكانت أسعد لحظاته تلك التي يرى فيها زبيدة الصغيرة تلهو بعرائسها أو تبعث بِبِلْيها، وهي مشرقة أمام الدكان بين أترابها كالقمر الحالم بين الأنجم الحَسْرى. . . ولم يكن أحد يفكر في أن هذا الشيخ الذي أوهنه الكبر قد ثوى في فؤاده من حب زبيدة ما لم يثو في أفئدة الشبان اليوافع؛ وأنه صمم على أن يشتري هذا الجمال وذاك الكمال بذهبه الذي لا يكاثره في ضخامته أحد. . . فلما تقدم خاطبا زبيدة إلى أبيها، هش الرجل وبش، وعده فخراً أي فخر أن يصهر إلى صادق علي ذي الكنوز والضياع والأملاك الشاسعة، والقصور المنيفة العامرة وذعرت زبيدة أيما ذعر لما صعقها أبوها بهذا النبأ. وكيف لا تذعر وهي تعرف الرجل أحسن المعرفة، وطالما قدمت له أقداح الشاي المعطر، وفناجيل القهوة العربية، في دكان أبيها؟ وكيف لا تذعر، وهي يعز عليها أن يذبل شبابها الفينان، في هاتين اليدين المثلوجتين، وتحت ظلال تلك الشيبة الناصعة، وهذا البدن المهزول المعروق. . . إن سنيها الثلاث عشرة لتنوء تحت كلكل السنين الستين التي يرزح تحتها هذا الرجل. . . وإن حمرة الخوخ وتفتير النرجس وقسمات الخدين وجنة بدنها الخصب الناضج، لأعز من أن تشرك صادق علي في قبره القريب! فلم لا تفزع الفتاة من النبأ المزعج الذي فجأها به والدها في أمسية شقية فتقول له:

- أبتاه! عمرك الله ماذا تقول؟ ما أظنك إلا ساخراً بي! إن صادق علي رجل عادل، وأحسبه لا يرتضي هذا الظلم الذي يوشك أن يحل بي، فهو شيخ عجوز طاعن في السن، وأنا بعد فتاة صغيرة لم تكد تنقضي طفولتي، فأين أنا وأين هو. . . لا لا يا أبي. . .

فيتلطف أبوها ويقول: (هذا حق، إلا أنه يا ابنتي رجل موسر غني ضخم الثراء، وقد مهرك مهراً لم تمهر بمثله فتاة في المدينة؛ وهو مع هذا يحبك وسيحرص عليك كروحه، وحين تصبحين زوجة سيحترمك الجميع وتكونين على رأس السيدات قاطبة. . . ثم هو برغم سنه قوي فتي مفتول العضل، غض الإهاب موفور الشباب. . .

فتعبس الفتاة وتقول شاكية: (أوه يا أبي! ولكني لا أستطيع أن أحبه. . . هل ضقت بي ذرعاً يا أبي فتريد أن تقذف بي ولما أستمتع بعد بشبابي؟! دعني أعش معكم قليلاً يا أبتاه! دعني أستمتع بالشباب الحلو، وأهنأ بأفاويق الصبا الغريض!

وأتقد عينا الأب الجشع بالغضب، وهم أن يبطش بزبيدة المسكينة التي تقدمت في سذاجة وخوف، فطوقت أباها بذراعيها اللدنتين، وأسندت رأسها الصغير إلى صدره الكبير، وانطلقت تبكي

- أسكتي يا ابنتي! إن الفتاة العاقلة المهذبة هي التي لا تضطر أباها إلى أخذها بالشدة، بل ما على الوالد إلا أن يأمر، وما عليها إلا أن تطيع. إنني لست كهؤلاء الآباء الذين

نشأوا أبناءهم على احترام العصا، ولكنني أرجو ألا أضطر إليها إذا ركبت رأسك ولم تصيخي ولم تسمعي!

وأزلزل قلب الفتاة، وذكرت ما كان يعاملها أبوها به من اللطف والظرف والرقة والرفق، وأنه ما ساءها قط بضرب ولا تأنيب، وأنها، وما تزال، كانت كل شيء له في هذه الحياة، لأنه لم يكن له ولد غيرها، وأنه طالما جلب لها اللعب، وترضاها بالدمى. . .

فسكنت وقالت: (عفواً يا أبي. . .) وسر الرجل التاجر، وقبل أبنته وقال: (الآن أنت ابنتي حقاً. . . أنت زبيدة المؤدبة المهذبة المطيعة. . . غداً يحضر صادق علي فينثر ذهبه تحت قدميك، ولا يمضي شهر حتى تزفي إليه

وكان لزبيدة خادمة نوبية أبنوسية السواد، وكانت بها حفية وعليها عطوفا، فأهرعت إليها زبيدة تقول:

- فاطمة! فاطمة! هل علمت؟ لقد أمر أبي أن أتزوج من صادق علي العجوز الغني الأرمل الذي سنه أضعاف سني؟! وهو يقول إنني سأزف إليه قبل شهر، فهل رأيت؟ آه يا فاطمة أنا لا أطيق هذا! ساعديني بربك حتى أنجو من هذا العذاب

- آه يا صغيرتي العزيزة! لا بد أن تتم مشيئة أبيك! حقاً إن صادق علي رجل عجوز أرمل، ولكنه غني واسع الغنى، وستنعمين عنده بما لا تحلم به فتاة!

فجحظت عينا زبيدة، وقالت للنوبية المشئومة:

- حتى أنت يا فاطمة! وسري الذي ألقيته إليك أمس؟ هل نسيته؟

فوضعت النوبية إصبعها الأبنوسي في فمها المرجاني، وأنشأت تقول:

- صه! أسكتي يا صغيرتي! إياك أن تنبسي بهذا الهذر بعد فقد يذهب به طائر سوء إلى من تكرهين أن يعلمه. . . حقاً، أنا لم أنسى ما قصصت عليّ من غرام عمران الشاب صاحب الناي. . . ولكن هذا العبث لابد أن ينتهي الآن، ويجب ألا تلتقيا بعد اليوم!

- بيد أنني أحبه يا فاطمة! إنه جميل ويافع. . . وعزفه أحب إليّ وأحلى من غناء النسيم في أفنان شجرات اللوز، وصفاء عينيه أوقع في النفس من صفاء الماء النمير في الغدير. . . إن له لملمساً ناعماً كأوراق الورد يا فاطمة! أواه لو أنني زففت إليه بدلاً من صادق علي!

- حسبك! إنك إذن كنت تلقينه! والله لو علمت بهذا لفضحتك عند والدك منذ أسابيع!

وهكذا اسودت الدنيا بأسرها في فؤاد الفتاة، فلقد كانت ترجو أن تعينها فاطمة على بلواها، فانعكست الآية، وأنتشر ليل أحزانها من وجه النوبيه البغيض

لقد أحبت زبيدة عمران، وأحب عمران زبيدة، لأنهما نشآ في مهد الطفولة الناعم، وشبا على غرار الشباب الغريض، فبارك الله قلبيهما، ومشى عليهما بيده الرحيمة الطاهرة. ولما وقفا مرة قبيل حجاب زبيدة، تحت ظلال أشجار البرتقال في حديقة بيت الصائغ، نقل الأرج الحلو شذى حبهما من قلب إلى قلب، وعرفا لأول مرة سر الوجود، ونظر بعضهما إلى بعض نظرات عميقة جديدة مغرورقة بالدموع، تنسكب من أغوار الفؤاد لا من أطراف العين. . . وظلت أشجار البرتقال هيكلهما الحبيب، يتناجيان في ظله ويتشاكيان، هي في الثالثة عشرة أو في فجر الرابعة عشرة؛ وهو في الثامنة عشرة، أسود العينين، مسبل الشعر، وضاح الجبين؛ ثغره الباسم كالأقحوانة، وخده المكسو بالخمل مهيأ للقبل، وشبابه اليانع كنضرة الحديقة، وماءة حسنة تسكب نداها في روح زبيدة، القسمة الوسيمة، المفتان الحسان التي لها هذا الفم وذاك الجسم. . . تبارك الله!. . .

يا للقضاء الساخر! لقد قطف الحبيبان جنا القبلة الأولى. . . القبلة الشهية السحرية التي غيرت معالم الأرض، ودارت برأسيهما حولها. . . في صبيحة اليوم الأسود الذي تكلم فيه الصائغ مع فتاته، فصعقها بالنبأ المشئوم

لقد باتت زبيدة ليلة يا لها من ليلة، تتقلب على فراش من الشوك، وتجتر صنوفاً مهلكة من الهموم، وتطيف برأسها المتقد شهب من الأفكار تقذف روحها بالصواعق. . . حتى إذا

انبلج الفجر، وأنفلق الصباح، وثبت كالقطاة من سريرها الكئيب وطوت الدرج دون أن تنتعل حذاء يقي قدميها المعبودتين، وذلك مخافة أن توقظ أحداً من النُّوام الأشقياء، ثم انفلتت إلى الحديقة قبل أن يهتف المؤذن هتاف الصباح الرهيب: (الله أكبر! الله أكبر!) وقبل أن تنتثر أوراق الورد على جبين المشرق. . . ومضت إلى الهيكل. . . بيت

المقدس الحبيب. . . إلى شجرات البرتقال، ووقفت ثمة ترتقب عمران الذي كان منها على موعد. . . ولم تبال بقطرات الندى التي كانت تهل معطرة بفغمة الورد، وعبير أزهار اللوز، وروح الزئبق والياسمين، لأنها ملائكة الحب تجبر القلوب الكسيرة، وتمسح الدمع من عيون العشاق. . .

وأقبل عمران في ظلام البعد يسكب في آذان الطبيعة النائمة موسيقاه، ويساعد المؤذن التقى بنايه الفردوسي، فتصحو البرايا وتهتف مع المؤذن ومع عمران: (الله أكبر)

وروع عمران ما رأى من وجوم حبيبته، وما لمح من لؤلؤ دمعها الذي يوشك أن ينهمر: (ماذا؟ زبيدة! ما لك يا حبيبتي؟ لقد كنا بخير أمس! فماذا؟ ما بالك باهتة هكذا كأننا في أخريات رمضان؟) ولفت زبيدة ذراعيها الحبيبين حول عنق فتاها، وجعلت تصعد آهاتها وتقول: (آه يا حبيبي! لقد كان ما لم يكن في الحسبان. لقد خطبت! وقضى أبي أن أزف إلى صادق علي العجوز الأرمل بعد شهر من الزمان!)

وتصدع قلب الوامق المحب، وبكى، وبكت معه زبيدة؛ وطفقا ينعيان أحلامهما، ويتغنيان آلامهما، ولا يدريان ماذا يصنعان. وكان الفجر الحزين يبكي معهما بدموع الندى وجلسا على العشب المبلل ساعة، وزبيدة نائمة غارة في صدر حبيبها، وكلما حاول عمران أن يتكلم انحبس منطقه وتكلمت جفونه، ولم يملك إلا أن يغمر حبيبته بالقبل، يطبعها في شعرها المغدودن، وفوق جبينها الشاحب، وعلى صدرها المرتجف، حتى ذر قرن ذكاء، وآذنتهما بالفراق، فهب الفتى المتبول يعانق زبيدة وزبيدة تعانقه، ويقبلها وتقبله. . . ثم افترقا. . . هي كالشبح في ظلال الأشجار إلى القصر الرهيب، وهو كسير القلب، مهيض الجناح. . . إلى. . . الصحراء، لا يدري أيان يذهب

وجعلوا يسمنون زبيدة فيقدمون لها كرات الشهد معجونة بالأفاويه، ويدسمون لها السمان، ويبالغون في انتقاء الآكال. . .

ولكن زبيدة مع ذاك جعلت تشحب وتشحب، ويذبل جسمها ويضوي، وأبوها القاسي يرى ذلك فيحزن، ثم يواسيها بكلمة جافة فتبدي له الرضى. حتى إذا كانت ليلة الزفاف، وخرجت الفتاة من الحمام، وسيقت إلى سجن زوجها، أخذت تودع الحديقة عن كثب، وترمق هيكل الحب المقدس تحت ظلال البرتقال، وتذرف العبرات الحرار، وفاطمة الخبيثة تشهد ولا تتصدع، بل تبسم وتتفكه. . . وتزغرد وتغني. . .

ومضت الأيام. . . ولم يأل صادق علي جهداً في ملاطفة زبيدة ومداعبتها، ولم يترك حلية من ذهب أو ماس أو لؤلؤ إلا اشتراها لها مهما كان ثمنها. . . ولكن الفتاة كانت مع ذاك تشحب وتشحب، ويشتد شحوبها. . . لأنها لم تنس عمرانها الفتى الجميل الذي زاد جماله وتضاعف حبه بازدياد كراهتها لصادق علي. . .

ولم يكن الشيخ العجوز يسمح لزبيدة بمغادرة باب القصر. . . حتى ولو إلى الحديقة الواسعة الفيحاء التي تحيط به، فكانت تصعد إلى السطح، لتتنسم أخبار حبيبها في أديم السماء، ولتنشق عبير الحب القديم على أجنحة الذكريات!

فبينا هي على السطح يوماً إذا بها تسمع موسيقى حلوة في حديقة القصر، وإذا الموسيقى إرنان ناي كناي حبيبها. . . فأطلت لترى من صاحب الناي، فوجدت بستانياً يجمع الأوراق المتناثرة فوق عشب الحديقة. . . وكأنما جذبته روحها اللهفانة فرفع رأسه إلى السطح. . . والتقت الأعين. . . وعرف كل حبيبه

لقد عمل عمران بستانياً لدى صادق علي. . . لينشق الهواء الذي تنشق منه سالبة لبه، وساكنة قلبه. . . وهو مع ذاك لا يحلم بلقائها. . .!

ودارت الأرض مرة أخرى. . . واستيقظت آمال وأحلام!

وكان يحس عمران هذه اللحظة السعيدة التي يرى فيها كل أصيل وجه حبيبته، وتلتقي عيناه بعينيها. . . لكن الحب أجرأ من هذا وأشجع. . . وهو لا يبالي أن يسلك سبل الجحيم ليصنع ما صنع يَاوْلو وفرنشيسكارا. . . فتبدلت النظرة فصارت ابتسامة ثم تمتمة، ثم تلويحاً بأعواد من الياسمين. . . ثم محاولة لقاء. . .

ولقي صادق زوجته فشدهه منها تبدل حالها وتدفق الدم الشاب الفتي في خديها. . . وأخبرها أنه مزمع سفراً طويلاً في الصحراء قد لا يعود منه قبل أسبوع، لأن الشيطان نزغ بين نفر من أقاربه، فهو ذاهب لإصلاح ذات بينهم، وإحلال الصفاء محل الجفاء فيهم؛ ثم أوصاها بالقصر، وحذرها - في تلطف - من مغادرة بابه، حتى يؤوب. . .

ووعدته أن تكون عند ظنه بها، وفية له، حفية به، عاملة على ما فيه رضاه!
وسافر صادق علي. . . واستطاعت زبيدة أن ترسم الخطة للقاء عمران. . . وكلمته حين أمنت مكر الخدم وقت غدائهم، خلال (مشربية) مشرفة على الحديقة، فاتفقا أن يزورها في زي امرأة (!) وأن يعد لذلك كوثاً أحمر وملاءة سوداء ونقاباً. . . وأن يتخذ اسماً مستعاراً، وليكن (مرسينه). . . ولم يكن أحد من الخدم يعرف من هي هذه السيدة مرسينه التي تريد لقاء سيدتهم، ولكنهم لم يشكوا قط في إحدى زائرات القصر، ولهذا كانت الخادم، بعد إذ تقدم أكواب الشاي المعطر، أو أقداح القهوة العربية، للسيدة مرسينه، تنسحب من الطابق كله. . . فيخلوا الجو للحبيبين المشوقين!!
ومضى الأسبوع على أحسن حال بينهما من تساقي الحب وتشاكي الهوى، وبلّ أوار القلوب، ثم جاء رسول من لدن صادق علي يحمل رسالة من مولاه، أن قد شجر خلاف آخر، وأنه قاض أسبوعاً آخر عند أهله. . .
وفرح عمران أيما فرح. . . وطفر قلب زبيدة. . . وما كان أجمل عمران وهو يبث حبه إلى فتاته، وهو يعانقها في شدة وحرارة ويقول: (أسبوع أخر؟ وما سبعة أيام يا زهرة حياتي وننفصل بعدها، وتقبل الشفتان الكريهتان فتقطف القبل الحلوة المعسولة من فمك الرقيق الدقيق، وينحط الصدر البغيض الميت فوق صدرك الناهد الأغيد، وتنقلب السلاسل الذهبية التي تربط قلبينا بأغصان الورد فتؤذي قلبك بأصفاد من حديد؟!)
بيد أن صادق علي أنجز أعماله في ثلاثة أيام أو نحوها، وأقبل يحث المطي عبر الصحراء، فوصل قبل ميعاده. . . وصل والمحبان يرشفان كؤوس الهوى، ويتبادلان سلافة الحب، فلما أقبل الزوج مشوقاً إلى لقاء زوجه، نظر فوجد الكوث الأحمر لدى الباب، فلبث قليلاً، وجعل يروح ويجيء، وينتظر بجدع أنفه أن ينصرف الزائر فلا ينصرف. . ثم يسأل الخادم فيعلم أنها امرأة تدعى مرسينة (تطيل اللبث يا مولاي عند سيدتي، وتحضر إلى هنا كل يوم. . . و. . . و. . .)
ويمضي الرجل المسكين فيدخل إلى الحمام ليذهب عنه غبار السفر
ويصعد الخادم فيرهف سمعه، وينصت ليسمع حديث من في الغرفة. . . ولكنه بدلاً من أن يسمع حديثاً ترن في أذنيه قبل فضية، وآهات موجعات. . . ثم ينصت. . . فيسمع شكوى ونجوى. . . وسباباً مقذعا، فيعلم السر. . . ويسقط في يده: (تالله لو علم مولاي لذبح حبيبها أمام عينيها)
وفضل الخادم أن ينقذ الموقف، فنقر بإصبعه على الباب واستوى عمران وأستتر. . .
- أدخل!
- سيدتي. . . لقد عاد مولاي صادق علي فجأة. . . وهو يريد أن يراك! وارتبكت زبيدة، وأسقط في يدي عمران
- لا بأس. . . أذهب أنت!
وتبادل الحبيبان القبل مع ذاك، ثم فتحت له زبيدة شباك (المشربية) فانفتل منه وقد لبس الكوث الأحمر
وخرجت زبيدة لتلقى زوجها وهي مطمئنة آمنة. . . ولكن ساعة بأكملها مضت دون أن يخرج من الحمام. . . ومضت ساعة أخرى. . . وأرخى الليل سدوله. . . وأمرت الخدم فأوقدوا السرج. . . وآثرت أن تذهب إلى الحمام لتلقى زوجها. . . وما كادت تفعل حتى برز صادق علي من إحدى الغرف وقد بدل ثيابه، فعانق زبيدة عناقاً حاراً وطفق يغمرها بقبل لا جنية ولا مشتهاة!
- قط ما عرفت الشوق كما عرفته في هذا السفر يا زبيدة!
- . . .؟. . .
- لقد أحضرت لك هدايا وألطافاً جمة. . . يا غلام! أحضر السلال والحقائب
وأحضر الغلام السلال والحقائب، وطفق صادق علي يحل الأربطة، ويخرج عقود اللؤلؤ وأقراط الذهب وأساور الفضة، ثم يضع كل ذلك موضعه من عنق زبيدة وجيدها وأذنيها وذراعيها. . . ثم فتح حقيبة وأخرج ثوباً ثميناً موشى فخلعه عليها فبدت فيه كامرأة هرون الرشيد!
- هذا جميل. . . أشكرك
- وأجمل منه الهدية التالية. . . يا غلام. . . أحضر السفط! وأحضر الغلام السفط الكبير

فقال صادق علي:
- أما والله لا يفتح السفط إلا زبيدة. . .
فارتجفت يدا زبيدة كأن فيهما كهرباء، وفتحت السفط، ثم جعلت تخرج ما فيه من طرف وتحف. . .
ولكنها اقشعرت فجأة، حينما اصطدمت يداها بكوث أحمر. . . ثم بثوب فيه شيء ثقيل. . .
ماذا. . . وا حرباه!! رأس عمران الجميل. . . الرأس الذي كان يرسل عينيه الساحرتين الدعجاوين في عينيها الوامقتين المشغوفتين. . .! الرأس الذي كان لسانه يصوغ أحلى عبارات الغزل! الرأس الذي كان فمه ينفخ في الناي فترقص الملائكة. . .
- أحزينة أنت زبيدة!!
- اقتلني. . . اقتلني يا صادق!
- لا. . . بل أعاقبك بأشد من القتل! ستعيشين لي! انظري! هاتان الشفتان المرتعشتان ستنطبقان على شفتيك برغمك. . . لا شفتا عمران! وهذا الوجه المكلثم المجعد الشائه سيزعجك دائماً. . . وهذا الصدر الثقيل سيضايقك أبداً. . . ستكونين لي (. . .بعد عمران يا زبيدة! لن يشركني فيك أحد بعد اليوم! أليس كذلك؟ ها ها. . . ها ولفت الدنيا برأس زبيدة، ولكن فكرة طافت بدماغها فجأة فجثت تحت قدمي صادق علي، وطفقت تتوسل وتتضرع، وتلف يديها على وسطه، حتى إذا لمست خنجره، انتزعته بقوة، ثم أغمدته في صدرها. . .
- لا لأن أكون لك أيها المسخ، وسأكون إلى الأبد لعمران. . . سأضل وفية لك يا عمران. . . لك وحدك. . . يا. . .! عمران
الشباب للشباب يا شرق. . . وإلا. . . فالكوث الأحمر يعمل عمله
دريني خشبة

البريد الأدبي

جوائز أدبية مصرية

تنشر الرسالة في هذا الباب كثيراً من أنباء الجوائز الأدبية التي ترتبها مختلف الأمم لتشجيع الآداب والعلوم، ولكنها لم تستطع أن تنشر حتى اليوم أنباء (الجوائز الأدبية المصرية) ذلك لأن هذه الجوائز لم توجد مع الأسف حتى اليوم؛ بيد أنه مما يدعو إلى الغبطة أن تكون وزارة المعارف قد فطنت أخيراً إلى هذا النقص، فأمامها الآن مشروع قدمه منذ حين صاحب السعادة الدكتور حافظ عفيفي باشا سفير مصر في لندن يقضي بإنشاء خمس جوائز أدبية تمنح للمتفوقين من كتاب العربية في الآداب والعلوم؛ وقيمة هذه الجوائز ألف جنيه لكل منها مائتا جنيه قد تزاد إلى مائتين وخمسين، ويمنح منها أربع للمصريين، وترصد الخامسة لأبناء الأقطار العربية الشقيقة. ولم توضع نصوص المشروع النهائية بعد، ولكن هناك تفكيراً في أن يكون باب التشجيع والمنافسة مفتوحاً لكل كتاب العربية من مختلف الأقطار في جميع الموضوعات الأدبية العامة مثل الشعر وتاريخ الأدب والقصة والقطع المسرحية وأمثالها؛ وأما الموضوعات المصرية المحضة فتقصر المباراة فيها على المصريين. وعلى أي حال فإن الغاية الأساسية من ترتيب هذه الجوائز هي تشجيع الآداب العربية بصفة عامة، وهي غاية نحمدها ونرجو أن توفق الجهات المختصة إلى تحقيقها. ذلك أن الأمر لا يتعلق هنا بوزارة المعارف فقط، ولا يكفي فيه أن ترتب جوائز خمس؛ فهنالك الجامعة المصرية وكلياتها المختلفة، وهنالك الجامع الأزهر وكلياته المختلفة، وهنالك مختلف الهيئات العلمية والفنية، فهذه كلها يطلب إليها أن ترتب الجوائز الأدبية والعلمية. وإذا كانت وزارة المعارف تعتمد في كل عام نحو عشرة آلاف جنيه لتشجيع الحركة المسرحية، وتغدق من هذا المبلغ معظمه على الفرق التمثيلية الأجنبية، فإنه يكون من التقتير الواضح أن ترصد ألف جنيه فقط لتشجيع الحركة الأدبية. لذلك نحب أن نعتبر مشروع الجوائز الحالي بداية فقط نرجو أن تثمر ثمرها المرغوب، وأن تؤازرها جميع هيئاتنا العلمية، فترتب كل جوائزها لتشجيع التفكير العربي في مختلف نواحيه

إغلاق مقهى أدبي شهير

من أنباء باريس أن مقهى (كافيه ده كرواسان) الشهير قد أغلق نهائياً بعد أن لبث مدى

تسعين عاماً منتدى للأدباء والصحفيين. وكان هذا المقهى التاريخي يقع على زاوية شارع مونمارتر عند التقائه بشارع كرواسان الصغير؛ وقد اشتهر منذ أواخر القرن الماضي بأنه مقهى الأدباء الناشئين. ثم غدا قبيل الحرب مجمع الصحفيين يحتشدون فيه صباحاً ومساء ليكتبوا أخبارهم أو مقالاتهم؛ وهكذا كانت تحرر فيه معظم الصحف الباريزية، وتعقد فيه الاجتماعات الأدبية والصحفية. وكان صاحبه مسيو فيدمان أديباً يشرف على كثير من الاجتماعات الأدبية التي تعقد في مقهاه. ومما هو جدير بالذكر أن جان جوريس الكاتب الفرنسي والزعيم الاشتراكي الشهير قتل في أغسطس سنة 1914 أثناء جلوسه في شرفة هذا المقهى

وقد تحول تيار الأدباء والفنانين في العهد الأخير من مونمارتر إلى مونبارناس، وأخذت مقاهي مونمارتر ومطعمها الشعبية تواجه الأزمات نظراً لانصراف أصدقائها القدماء عنها، بينما أخذت مقاهي مونبارناس، ومعظمها جديد، تزخر بعملائها الجدد، وقد عرفت مقاهي هذا الحي الباريزي الشهير دائماً بأنها مجمع الفنانين، ولكنها اليوم تغدو أيضاً مجمع الأدباء والكتاب من كل ضرب

اقتراح إنشاء جامعة عراقية

أقام أدباء بغداد حفلة تكريم للدكتور زكي مبارك فألقى في تحيتهم خطبة جاءت في ختامها الكلمة الآتية:

لقد رحلت عن مصر وأنا مصمم على الاستبسال في الدعوة إلى إنشاء جامعة) عراقية، فلما وردت العراق لم أجد من يشجعني على تحقيق ذلك الأمل النبيل، وصارحني بعض الرجال بما يعترض إنشاء الجامعة العراقية من عراقيل فأنا أنتهز هذه الفرصة لتسجيل هذه الرغبة بطريقة علنية، وأصافح بيمناي أنصارها الأوفياء، وأدعوكم إلى الكتابة عن هذه الأمنية في كل يوم، والكلام عنها في كل مجتمع، والإلحاح بها على جميع الوزراء. وأعلموا أن من العار أن تخلو بغداد من جامعة وباسمها الخالد تتعطر الأفواه في جامعات الشرق والغرب

إن الحجة في أيدينا أيها الزملاء، فعندنا نواة الجامعة العراقية، عندنا النواة السليمة لأربع كليات، فلنبادر بتأسيس الجامعة العراقية بصفة رسمية، ولنبادر بخلق الصلات العلمية

والأدبية مع الجامعة المصرية وجامعة باريس، ولنقرر منذ هذه الساعة أن نفتتح الجامعة بمهرجان مشهود في آذار المقبل، شهر الأزهار والرياحين

أيها الصحفيون الشرفاء

لقد كنتم عند ظن الوطن الغالي في ظروف كثيرة، فشدوا من عزائمكم لنصرته هذه المرة، وحققوا أشرف غاية لحملة الأقلام وهي إعزاز العلوم والآداب والفنون

أيها الزملاء

لقد كرمتموني بهذا الاحتفال الرائع، فهل تعرفون متى أرد لكم هذا الدين النبيل؟ سأرده يوم يتقرر بفضل مسعاكم إنشاء الجامعة العراقية، ويومئذ لا أكتفي في تكريمكم بألوان الحلوى وأكواب الشاي، وإنما أعقر لكم الذبائح من عرائس الشعر الجميل)

وقد نوهت جميع الجرائد العراقية بهذه الدعوة التي صادفت هوى من أنفس الحاضرين وفيهم أقطاب التعليم بوزارة المعارف العراقية

المهرجان الملكي لجماعة الأسبوع الصحي

رأت جماعة الأسبوع الصحي أن تقيم لمناسبة زواج جلالة الملك الميمون مهرجاناً في إبان الزفاف، تسهم فيه بنصيبها في أفراح الأمة، وتعلن عظيم سرورها بذلك الأملاك الكريم. وقد تألفت من بين الأعضاء القائمين بهذا المهرجان لجنة أدبية لتدعو الشعراء والكتاب والخطباء والزجالين إلى مبارزة بيانية تقام في مكان وزمن يعلن عنهما فيما بعد. وإن في التقدم إلى تلك المباراة تسجيل فخار وشرف لما لموضوع القول من جلال الخطر، وسمو الشأن، وكرم المنصب، وشرف المحتد، وعلو القدر بين العالمين وإن ميدان البيان البليغ لمتسع، شباب رائع فتي، وعقل ألمعي، وقلب تقي، وخلق عظيم، ودين مكين، قد ضرب أروع الأمثال للشباب الطاهر، فسارع إلى الزواج، وهو سنة الإسلام ونصف الدين، وبادر إلى إحصان، ليكون أسوة حسنة لشباب مصر في إجابة دعوة الرسول الأمين

وإن اللجنة لتتقدم داعية رجال الأدب إلى تلك الحلبة الطاهرة المباركة ليتقدموا إليها بشعرهم، وخطبهم، وكتاباتهم، وأزجالهم وأدعيتهم الضارعة إلى الله تعالى أن يبقي مليك مصر خائنة الأعين وما تخفي الصدور

ومن يقع الاختيار على كلامه يكن له حق إلقائه في يوم المهرجان، أو يسجل في كتاب يرفع إلى مقام المليك، وينشر بين الناس تذكاراً خالداً. وستضع اللجنة جوائز مختلفة لمن يحوز قصب السبق في المباراة. وإن أقصى ميعاد يرسل فيه الأدباء ما تجود به قرائحهم هو يوم الاثنين 10 يناير سنة 1938

وترسل إلى الأستاذ محمد عبد الجواد المدرس بدار العلوم العليا بالمنيرة بمصر

مقرر اللجنة

محمد أبو زهره

المدرس بكلية الحقوق

معركة الفاشستية والديمقراطية

يتخذ النضال الدولي يوماً فيوماً صورة صراع واضح بين معسكرين من المبادئ الخصيمة: الفاشستية والديمقراطية؛ وهذه الظاهرة تستغرق اليوم اهتمام المفكرين والساسة في جميع الأمم.

وقد ظهر أخيراً كتاب يتناول هذا الموضوع بقلم الكاتب السياسي الأمريكي هاملتون ارمسترنج عنوانه (إما نحن وإما هم) ونحن يقصد بها الكتلة الديمقراطية، وهم يقصد بها الكتلة الفاشستية. ويستعرض الكاتب ظروف هذه المعركة بقوة ووضوح، وهو يدرسها ويستعرضها منذ أعوام في مجلة الشئون الخارجية الأمريكية التي يشرف على تحريرها ببراعة. ومن رأيه أن توجد اليوم بين هاتين الكتلتين من المبادئ هوة لا يمكن إجتيازها، وإن إحداهما ستقتل الأخرى بلا ريب؛ وكل ما هنالك هو السعي لمعرفة من يكون الظافر. فهل تنتصر الشعوب الحرة وتلك التي تريد أن تستعيد حريتها، أم تنتصر عصبة الفاجرين الحمقى الذين يريدون أن يجعلوا من البشرية أداة حية لخدمة الحكم المطلق؟

ويدحض الكاتب بقوة الزعم الذي تستتر وراءه الفاشستية منذ حين وهو أنها تخاصم الشيوعية وتعمل لسحقها؛ ومع أنه ليس بالاشتراكي ولا بالشيوعي فإنه ديموقراطي في تفكيره مؤمن بمبدأ سيادة الشعب وحكومة الشعب. وهو يرى أن الحرية هي أسمى ما يمكن أن يتمتع به شعب حر، ولكنه يحمل على تلك الديمقراطية البرجوازية التي تعترف بعجزها

عن تهيئة الأعمال للعاطلين وفتح الأسواق للأعمال والتجارة، ومحاربة الصناعات المحتكرة، وتخفيض مستوى العيش؛ مثل هذه الجماعة أو الحكومة ليست جديرة في نظره بالبقاء والحياة، وليست بالأخص جديرة لأن تخاصم وتناضل أنواع الحكم الأخرى ويشرح الكاتب نظرياته بأمثلة عملية من حوادث التاريخ الحديث والمعاصر؛ ويرى في المسألة الإسبانية ومسألة الصين أعظم ميدان لاصطدام القوتين الخصيمتين، ويحمل بشدة على سياسة الدول الديمقراطية في هاتين المسألتين، ويرى فيها دلائل الاضطراب والضعف. وفي اعتقاده أنه ليس ثمة ما يحمل الدول الديموقراطية على كل هذه التقديرات الخطيرة التي ترتبها على مقابلة الهجوم بمثله، وإنه قد يكون الخطر في الميدان الدولي أقل بكثير إذا قامت الدول الديموقراطية بعمل ما مما لو استمرت في موقفها السلبي الحاضر

روح العصر في معرض باريس

كانت المعارض إلى عهد قريب تعنى بإبراز البهارج التي تلفت الأنظار، وتثير إعجاب البسطاء، وإن عنيت أحياناً بعرض مدى التقدم الذهني في أمة من الأمم. ففي المعرض البريطاني الذي أقيم في عام 1851 أنشئ هذا البيت العظيم الجميل الذي أطلق عليه (القصر البلوري)، والذي دمره الحريق أخيراً وكان دائماً آية ذلك المعرض، وحامل ذكراه للأجيال؛ وفي معرض باريس الذي أقيم عام 1889 أنشئ برج إيفل، وكانت النزعة التي تمخض عنها نزعة فرعونية كالتي حدت بزوسر وخوفو وخفرع إلى بناء الأهرام، وإلا فقد كان الفولاذ الذي أستخدم في بناء هذا البرج كافياً لبناء أسطول صغير يدفع بعض الأذى عن فرنسا. أما في معرض باريس الأخير (1937) فقد تجلى روح العصر، وتناسى العارضون بعض هذه العنجهية التي كانت تجعلهم يبنون القصر

البلوري ويقيمون برج إيفل. هذا وإن يكن المعرض الأخير يفوق كل المعارض السابقة رونقاً وعظمة وجلالا. وأحسن ما يشهد لهذا المعرض بتفوق روح العصر هذه الدار العظيمة التي أقيمت في المعرض، والتي أطلق عليها (دار الاستكشاف) والمراد الاستكشاف العلمي الذي تدين له الحضارة الحديثة بكل ما تتيه به على غابر القرون. فقد حشدت في هذه الدار الهائلة جميع الاستكشافات التي أدت إلى تقديم الإنسانية، وخطت بالعالم أشواطاً بعيدة نحو الكمال. وهي مع ذاك لم تهمل الاستكشافات القديمة التي كانت سبباً مباشراً أو غير مباشر لما أبدعته القرائح الحديثة. . . فبينا ترى جهازاً أتوماتيكيا (آليا) يكلمك ويشرح لك نظريات نيوتن وجاليليو في الحركة والجاذبية إذا بك تنظر إلى جهاز آخر يوضح لك كيف تستنبط الكهرباء بأبسط الوسائل، وكيف استخدمت الكهرباء بعد الاهتداء إليها في الإضاءة وتحريك الآلات ونقل الصوت باللاسلكي والصور بالتلفيزون. . . وتسير بضع خطوات فترى فوقك العالم السماوي بأكمله، وقد جرت فيه كل النجوم والكواكب، ووضحت فيه سدم المجرة، وهكذا تعرف من الفلك ما كان يعوزك أن تعرفه في أعوام. . . ثم تنتقل فترى معهداً للحياة يضع بين يديك لامارك وهكسلي وداروين، ويريك كيف تدرجت الحياة من الذر إلى هذا العالم الحافل بعجائب المخلوقات. . . وأنت فيما بين هذا تشهد التجارب المدهشة لإثبات قوانين مندل في الوراثة واستكشافات باستير وكوخ في عوالم المكروب. . . وقل مثل ذلك في كل ما أفاد العلم في البر والبحر وتحت الماء وفي أجواز الفضاء. . . وقد تكلفت هذه الدار ملايين الفرنكات، على أنها عوضت ما أنفق عليها، إذ قد زارها حسب إحصائية المعرض في المدة من 25 مايو إلى 7 أكتوبر الماضي 1 , 600 , 038 زائراً دفعوا جميعاً رسوم الدخول. وزارها غير هؤلاء 400 , 000 طالب وعالم وأستاذ، من جميع أنحاء الأرض، وعقدت فيها المؤتمرات العلمية الطريفة لتبادل الآراء ومناقشة أحدث المستكشفات

ألف ليلة بالإنجليزية

ما يزال كتاب ألف ليلة وليلة موضع إعجاب الأمم الأوربية عامة والإنجليزية خاصة، ولقد ظهرت ترجمات كثيرة لبعض قصص الكتاب في لغات شتى، ولكنه لم يترجم ترجمة كاملة إلا هذا العام، وقد ظهرت الترجمة بالإنجليزية في أربعة أجزاء $ تعرض للبيع بأربعة جنيهات وربع الجنيه، وهو ثمن يبهرنا نحن الشرقيين ويزعج جيوبنا، ولكنه يدل على الروح العالي الذي يتقبل به الإنجليز كنوز المؤلفات الرفيعة. ومترجم ألف ليلة هو الأديب الإنجليزي الكبير بويس ماتر، وقد وضع نصب عينيه وهو يترجم الكتاب أن يتحاشى العيوب التي ظهرت في ترجمة جالان الفرنسية (1704 - 1712) وترجمة لينز الإنجليزية (1840م) وترجمة سير ريتشارد برتون (1880م) - ولم يفته أن ينتفع بمحاسن الترجمة الفرنسية التي وضعها الدكتور ج. ماردروس (1899) وقد قلد هذه الترجمة في بعض صورها فنقل الأشعار العربية إلى شعر إنجليزي رائع، وإذا عرفنا أن المترجم شاعر فذ علمنا إلى أي حد وفق في نقل أشعار ألف ليلة

إلى الأخ السوداني

كنت قادماً من بيروت. فلم أكد أنزل من السيارة حتى استقبلني من كان في (مكتبة عرفة) وهي مجمع الأدباء في دمشق، بكلمتك الرقيقة الصادقة ونصبوا من أنفسهم محامين عنك، فوجهوا إلى أمر العتاب، وأشد الملام، حتى اضطررت إلى الأعتراف، لأني لم أجد لنفسي عذراً، وقديماً قالوا الاعتراف يذهب الاقتراف

أي والله يا أخي إننا إخوة وإن أختلف الألوان، وتباينت الديار، وحد بيننا الشرق، ووحدت بيننا الآلام والآمال، وآخى بيننا الله من فوق سماواته، قال الله تعالى: (إنما المؤمنون إخوة). وللسودان والله على سواد بشرتهم، أطهر أفئدة، وأسمى نفوساً، وأدنى إلى الفضيلة والحق من كثير من بيض الجلود. وما أردت والله إلا أولئك السود من سكان أفريقية الوسطى، وكانت كلمة أسرعت إلى اللسان، قبل أن يتدبرها الجنان. فمعذرة يا أخي وشكراً لك على حسن ظنك بي، والسلام عليك ورحمة الله

من أخيك: علي الطنطاوي

الكومنترن أو الشيوعية الدولية

ترددت كلمة الكومنترن هذه الأيام بمناسبة الاتفاق الثلاثي الذي تم بين ألمانيا وإيطاليا ثم اليابان لمقاومة الشيوعية - وكثير من القراء لا يعرفون ما هو الكومنترن الذي هو

في الحقيقة اسم منحوت من كلمتي أي شيوعية أي دولية، فالكومنترن هي الشيوعية الدولية وهو أسم جديد للدولية الثالثة التي تحكم روسيا الآن. . . والمدهش أن روسيا اليوم لا أثر فيها لتعاليم الكومنترن الأصلية التي وضعها الزعيم لينين، ولكن الحكومة الروسية تدأب على نشر هذه التعاليم خارج حدودها لأنها ألد أعداء السلام العالمي تصويب

وقع في مقال (مصرع شجرة الدر) الذي نشر في العدد الماضي تحريف في علمين أولهما (ثوران شاه) وصوابه توران شاه والثاني الخليفة المعتصم العباسي وصوابه المستعصم بالله

العدد 235 - بتاريخ: 03 - 01 - 1938

الرسالة في عامها السادس

ننقل اليوم خطوتنا السادسة في سبيلنا القاصدة إلى غايتنا البعيدة؛ وليس لنا عدة غير الإيمان، ولا زادٌ غير الصبر، ولا عونٌ غير الله. وعَسِيٌّ بالمؤمن الصابر المتوكل أن يبلغ وإن طال الأمد!

تعودنا منذ صدرت الرسالة أن نتحدث إلى قرائها وأصدقائها في مثل هذا اليوم من كل عام، نجدد لهم العهد الذي أعطيناه، ونعرض عليهم الشوط الذي قطعناه، ونتصل من وراء الغيب بأرواحهم العارفة العاطفة الآسية؟، نسترفه بنجواها من الشُّقَّةِ الجاهدة، ونستعين بهداها على المرحلة الجديدة.

أما العهد فإننا نجدده ونؤكده. ولله علينا ألا يحله إلا خروج النفس أو نكول العافية. وأما الشوط فكان رهَقُه محنة المجاهد وبلاء الدليل. انبثقت على جانبيه العوائق المثبطة من إلحاح المرض وغلاء الورق واضطراب السياسة ونغل الصداقة وشيوع الأدب الهزيل، فثبتت الرسالة في مكانها لا تهِن، واستقامت في طريقها لا تحيد. وطريقها هو الطريق الوحيد الذي سنَّه الخُلق الفاضل؛ وهو أقرب الطرق إلى الغاية لأنه مستقيم. على أن استقامته طالما كانت - وا أسفاه - علة الإبطاء والبعد. فقد يعترضك وأنت مطمئن إلى السير فيه النهر الذي لا يُعبر، أو الجبل الذي لا يجتاز، أو العقبة التي لا تقُتحم، أو السبع الذي لا يُهاجم؛ فتقف مضطراً تعالج هذا العائق بالعزيمة والحيلة والجهد، لأن الأخلاق الرقيبة لا تنفك تهيب بك من جهاتك الست:

(لا تتنكب الجادّة المثلى، ولا تزغ عن الصراط السوي).

وتنظر حواليك فلا تجد إلا الفراغ والوحشة، لأن الركب الذي كنت تسايره راعه الأمر وخذله الصبر وأعجلته الغاية، فتبدد ذات اليمين وذات الشمال يرتاد المسالك السهلة، وخلّفك وحدك على سواء الطريق عرضة للجوع والخوف! فإذا سمعت من هذا السائر المتروك صرخة ثائرة فاعزُ حدتها إلى الحائل الذي قام، وإلى الرفيق الذي نكص!

ليس من طبع الرسالة أن تمالق الرغبات بالتَّمْنية، ولا تستميل الشهوات بالوعد. فإن العمل الصامت أنطق الأدلة على توخي الحق؛ والماضي المعلوم أضمن الوثائق للمستقبل المجهول.

هذه مجلدات الرسالة التسعة! أليست هي شهادتها الصادقة على أنها أوفت بما عاهدت القراء عليه من إحياء الأدب القديم، وإنشاء الأدب الحديث، وتدعيم الأدب المصري بقواعد الفن، وتطعيم الأدب العربي بنتاج الآداب الأخَر؟

أليست هي ديوان العرب المشترك جمعت فيه الأشتات إلى الأشتات، ووفقت بين الأصوات والأصوات، ثم ألّفت من هذه الآلات المنفردة جوقة موسيقية متحدة تسكب في مسامع الوجود أناشيد الخلود؟

أليست هي كتاب الشرق الجديد تجد في صفحاته المشرقة روحيته وريحانه، وتحس في معانيه ومراميه إلهامه وإيمانه؟

إن الإشادة بمجهود الرسالة حق علينا لأولئك الأقلام الكريمة التي أخلصت لله وللناس وللفن فجعلت منها هذه المجموعة التي لا تجد لها مثيلاً في عصر من عصور اللغة.

ليت شعري متى تغلظ الأيام فنكتب هذه الكلمة السنوية خالية من الشكاة والألم؟ هيهات هيهات لما نَوَد! إن شكوى الرسالة في كل عام هي شكوى الأدب في كل يوم. وستدوم إن شاء الله ما دامت الحكومة لا تبالي الأدب، والطبقة المتعلمة لا تقرأ الجد، والكثرة الفاحشة لا تعرف القراءة.

قلنا وقال الناس لولاة الأمر إن الأمة لا يمكن أن تكون جسماً من غير عقل، ومنفعة من غير عاطفة، ومادة من غير أدب؛ وإن الحكومة التي لا يعدو همها إصلاح الأرض وتوفير العدة وتقويم البدن لا تخلق إلا مجتمعاً من الشهوات الفاجرة والنزوات الثائرة والغرائز الخشنة؛ وإن المدرسة وحدها لا تستطيع مهما انفسخ ذرعها واتسع مداها أن تربي العقول وتهذب الأخلاق وتثقف العواطف. فأخطروا ببالكم أولئك المجاهدين في سبيل الروح، المجدين في خدمة الفكر، الذائدين عن قدس الخلق؛ أولئك هم الأدباء الأحرار الأبرار الذين يبلغون رسالة الحق في كتاب، أو يؤدون أمانة الخير في صحيفة. أعينوهم على أكلاف العيش بالرعاية، وشجعوهم على إجادة الإنتاج بالجوائز ولا تكلوهم إلى هوى النفوس وجهل العامة فينطفئوا انطفاء السراج في عين الأعمى، ويموتوا ميتة البلبل في أذن الأصم.

ولكن الأديب كتب عليه أن يجاهد ويجالد ويضحي. لا يستمد العون إلا من ربه، ولا يلتمس العزاء إلا من قلبه، ولا يبتغي الثواب إلا من سلطان ضميره.

والرسالة لا تملك أن تحيد عن الطريق الوعر الشائك الذي نهجه الله لعباده المصطفين من رجال الدين والعلم والأدب. وحسبها أن تحيا بالعمل سعيدة، وأن تموت في الجهاد شهيدة!

على ذلك تجدد العهد لأصدقائها وقرائها مرة أخرى، معتمدة على فضل الله، معتدة بإخلاص القلب، معولة على إتقان العمل؛ وفي بعض ذلك الضمان الأوفى والسند الأقوى والمرفأ الأمين.

أحمد حسن الزيات

في الأدب وغيره

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

زارني مرة لفيف من الشبان قال قائلهم: إنهم جاءوا ليسألوني عن رأيي في الأدب ويستفتوني في مسائل، فساءني هذا ولم يسرني، فقد كنت مشغولا، وكان العمل الذي ينبغي أن أفرغ منه كثيرا، فسألت الذي كان يتكلم: (كم سنك؟ ولا تخش أن أذيع السر؟).

قال (اثنتان وعشرون).

قلت (يا أخي، أني كنت في مثل سنك صاحب رأي، في الأدب وغيره، وصاحب مذهب أدعو أليه وأحاول هدم ماعداه؛ وكان لي ديوان شعر مطبوع، وزوجة ووظيفة أيضا. ولا أنكر أن رأيي قد تغير في مسائل كثيرة، ولكن هذا لماذا؟ إنه دليل على أني أديم النظر والتفكير والتدبر، ولعلي كنت في أمسي على صواب، وعسى أن أكون في يومي على خطأ، ولكن المرء لا يطالب بالتوفيق، وإنما عليه أن يسعى، وأنا اذكر لكم هذا لأني أتعجب لكم واستغرب أمركم. فلماذا بالله لا تنظرون بعيونكم، ولا تفكرون بعقولكم؟ ولماذا ينبغي أن اتعب أنا لكم - أقرأ وأحصل وأفكر وأنخل وأغربل، وانتم مستريحون ليس عليكم ألا أن تتجشموا تعب الحضور إلى هنا، وإلا أن تؤدوا أجرة الترام، أو الأمنيبوس، ومن يدري لعلكم آثرتم المشي فإنكم شبان أقوياء، والأحذية التي تبلى يؤدي ثمنها آباؤكم فلا خسارة عليكم تشعرون بها، وليبق القرش فوق القرش ليتيسر أن تقضى السهرة في مرقص!).

فضحك أحدهم، ورآه الآخرين يضحك، فأبتسم البعض وقهقه البعض، فقلت، وأنا أحس أن عفريتا قد ركبني: (صحيح قولوا. . . كم كتابا عنيتم بأن تشتروا في حياتكم منذ عرفتم الكتابة والقراءة إلى الآن - أعنى غير الكتب المدرسية التي لا تفتحونها إلا لأداء الامتحان؟).

فلم يجيبوا، وماذا عسى أن يقولوا، وأنا أعرف أن هذا الجيل يندر فيه من يحصل من العلوم أو الفنون أو الآداب شيئا غير ما يتلقى في المدرسة؟ وحتى الذي يفيده في المدرسة ينساه بعد الامتحان، ولم يسعني وأنا أحاول أن أوقظ نفوسهم وأبث فيهم روح الطلب إلا أن أذكر كيف كنا في صبانا نفرح بما يجتمع في أيدينا من المال القليل ونخف به إلى المكاتب ونروح ندير عيوننا في مئات الكتب المرصوصة على رفوفها ولا نخرج إلا وقد نفذ ما معنا أو كاد.

وكان الذي أسخطني على هؤلاء الشبان هذا الكسل والاعتماد على الغير، والرغبة في

إفادة المعرفة - كائنة ما كانت قيمتها - بلا عناء أو مشقة. ومن أدراهم أن ما يسمعون مني أو من سواي هو الصواب؟ وهم يتلقون ما تفضي به إليهم منرأى ناضج أو فطير بالتسليم والتصديق وبلا مناقشة.

وأحسست من هيئاتهم ونظراتهم أن الأولى بي أن أدخر جهدي، فأسلمت أمري لله وقلت لهم: (تفضلوا. . . سلوا ما بدا لكم).

فأدنوا كراسيهم، وقد نسوا العلقة التي استقبلتهم بها، وأقبلوا عليّ يسألونني عن الأدب والغاية منه، فضحكت وقلت: (والله ما أعرف له غاية؛ وإني لحي، ولكنى أجهل الغاية من الحياة، فكيف تريدون مني أن أعرف الغاية من الأدب؟ وأعترف أني كنت قبل سنوات طويلات المدد، قد أقنعت نفسي بأن للأدب غاية، وكان الذي جسم لي الوهم هو ما قرأته في هذا الباب، فرحت أنسج على منواله وأقول كلاماً شبيها به؛ ويتفق أن يقع في يدي شيء مما كتبته في ذلك الزمان فلا يسعني أن أضحك ساخرا، لأنه كان من الجهل أو التقليد - كلا. لا أعرف غاية للأدب. . . وقولوا ما شئتم، ولكن الحقيقة هي أني نظرت ونظرت، وحدّقت، وحملقت، حتى كادت عيني تخرج، فلم أر شيئاً؛ وأني فكرت وفكرت، فلم يهتد عقلي هذا إلى شيء. وكل ما اعرفه هو أني أزداد حيرة كلما علت بي السنّ، وإن كل ما كنت أعده من الحقائق الثابتة يخامرني الآن فيه شك كبير. . . والسبب في ذلك، فيما يبدو لي، هو أني أتلقى ما أقرأ بالتسليم، أما الآن فأنا أجادل وأكابر بالخلاف في كل شيء، وقد ينتهي بي الأمر ألي التسليم والموافقة، ولكنى أجد لذة في هذه المكابرة).

فسألني بعضهم: (لماذا قل الشعر السياسي في هذا الزمان؟).

قلت: (لا أدري، وعسى أن يكون السبب أن الناس صاروا أصح فهما للأدب، وأتم إدراكا له، وأكبر عقولا، وأوسع نفوسا. نعم أظن هذا هو السبب، فقد كان الشعر السياسي هو الذي يكثر فيه القول، وكان شعراء ذلك الزمان إذا قالوا في غير الحوادث لا يفعلون ذلك إلا على سبيل التسلي، وليقال عنهم إنهم يجيدون النظم في كل باب. ولكن الناس يدركون الآن أن شعر الحوادث ليس إلا باباً واحداً صغيراً من مئات وآلاف من أبواب القول، أو من (بواباته). ولم يكن شعر الحوادث شيئا مستحدثاً أو جديداً، لأنه لم يكن أكثر من ضرب من التقليد للشعر القديم، فكما كان المتنبي يقول في حروب سيف الدولة، كذلك كان شوقي يقول في الخديوي وأعياده ورحلاته وفي السلطان وأعماله، ثم بعد ذلك في الحوادث السياسية التي يلح عليه أصدقاؤه أن ينظم فيها كلاما. وكان حافظ يقول في العميد البريطاني وفي سياسة الأنجليز، لأنه لم يتصل بأمير كما اتصل شوقي، فحل الشعر أو الرأي العام عنده محل الأمراء الذين كان الشعراء السابقون ينظمون الشعر لإرضائهم، واقتضت المنافسة بين الرجلين أن يكون حافظ شاعر الشعب، كما كان شوقي شاعر الأمير. وقد تغير كل هذا، وزهد الأدب الحديث في التقليد، ونظر رجاله بعيونهم، وأحسوا بأعصابهم، وفكروا بعقولهم، ففتحت لهم آفاق رحيبة جداً صرفتهم عن القول في الحوادث العارضة، وشغلتهم بما هو أعمق وأصدق في الحياة؛ فلست تراهم يقولون في الحوادث إلا إذا استفزت نفوسهم وحركاتها تحريكا قويًّا يجري الشعر على ألسنتهم، لا تكلُّفا ولا تقليداً، بل لأنهم لا يسعهم في هذه الحالة إلا أن يقولوا. ولاشك أن ثم أسباباً أخرى، أسوق منها على سبيل التمثيل، أن الأدباء يعمل أكثرهم في الصحف، وهم يكتبون كل يوم تقريبا في الحوادث، فلا معنى لأن يقولوا الشعر فيها أيضا، إلا إذا عرضت مناسبة فذة قوية تحرك النفس كما قلت. والكتابة أسهل، والإقناع بها أقرب، والشعر لا يصلح للجدل السياسي كما تصلح الكتابة، ولكني أعتقد أن صحة الإدراك للأدب هي السبب الأول، كائنة ما كانت الأسباب الأخرى. ولا مانع من أن يقول الشاعر في السياسة والحوادث إذا أحس دافعاً إلى ذلك، كما يقول في غير ذلك إذا بعثته البواعث).

فنهضوا، ومدوا أيديهم ليصافحوني، وتمتم بعضهم بالشكر، فابتسمت وقلت لهم (والله إني لتحدثني نفسي بأن أنقض لكم كل ما سمعتم مني، وأن أثبت لكم أن كل ما قلت خطأ في خطأ، وأن الصحيح والصواب غير ذلك. وإني لقادر على هذا. والسر في قدرتي أني أراكم أهملتم هذه العقول التي ركبها لكم الله؛ ولا شك أن له سبحانه وتعالى حكمة في خلق عقول لا يريد أصحابها أن ينتفعوا بها. فليتكم تستطيعون أن

(تعيروني بعضها ما دمتم لا تنتفعون بها، فإن رأسي قد كل وتعب ومل.
فضحكوا وانصرفوا، وقعدت وأنا أهز رأسي وأمط بوزي آسفا متعجباً. . .

إبراهيم عبد القادر المازنى

ليلى المريضة بالعراق

للدكتور زكي مبارك

- 4 -

- ضابط في الجيش العراقي أبوه من مصر وأمه من لبنان؟ كيف اتفق ذلك يا ضمياء؟
- لذلك يا سيدي تاريخ. . .
- انتظري قليلا. . . قبل أن ندخل في تاريخ ليلى مع الضابط عبد الحسيب، أحب أن أسال: هل كان حبها ذلك الضابط أول حب؟
- نعم يا سيدي أول حب.
- منذ كم سنة أحبت ذلك الضابط؟
- منذ أثني عشر عاما.
- تذكري يا ظمياء أنك قلت إن ليلى في حدود الأربعين فهل يُعقل أن تظل عذراء القلب إلى الثامنة والعشرين؟
- نعم يا سيدي، وما أقوله تشهد به الست جميلة، وتعرفه الخالات والعمات والجارات في شارع العباس بن الأحنف وشارع صريع الغواني.
- ولكن هذا غير معقول، فما يمكن أن تظل فتاة عذراء القلب إلى الثامنة والعشرين!
- أنت يا سيدي غريب بهذه المدينة ولا تعرف النساء في بغداد.
- بغداد في عينك يا ظمياء! وهل بغداد تحمى المرأة من أن تكون لها عين تنظر وقلب يميل؟
- أؤكد لك يا سيدي أن ليلى لم تحب أحدا قبل الضابط عبد الحسيب.
- ولكن كيف اتفق أن تظل بلا زوج إلى الثامنة والعشرين؟
- لقد حفيت أقدام الخاطبين وهي ترفض بلا سبب معقول.

(فدونت في مذكرتي أن الفتاة التي ترفض الزواج، ويطول بها ذلك، لابد أن تكون أصيبت بنوبة حب، ولا بد أن يكون ذلك الحب صور لها فحولة الرجل في صورة فلسفية أو أدبية، ولكن هذا الحب سيظل مجهولا ما دامت ليلى تكتمه، وما دام النساء اللائى يحطن بها يتمتعن بقسط وافر من الغفلة، على قلة ما نرى من النساء الغافلات. ويظهر أن موقفي سيكون دقيقا في المؤتمر الطبي، لأن المؤتمرين سيسألون عن الصور الفلسفية والأدبية لفحولة الرجال في أخيلة النساء، ولكن لا بأس فهي فرصة طيبة لشرح آراء شيث بن عربانوس في هذه القضية. على أني سأجد مفاتيح هذا السر المدفون حين أقف على قصة الضابط عبد الحسيب، وربما كان من الخير أن أرجع إلى البحث الممتع الذي نشره الدكتور عبد الواحد بك الوكيل عن أثر الحب في الأمراض العصبية).

- دكتور! ماذا تكتب؟
- اسمعي يا بلهاء.
- هذا جزاء من يصنع الجميل!
- أستغفر الله! إنما أردت أن أقول اسمعي يا ظمياء. أنا يا بنيتي أقيد ملاحظات تنفعني في مداواة ليلى؛ ومرضها كما تعلمين عصيب، وأحب أن أستعد لمداواتها أتم استعداد، والله المعين.

(ولكن ألا يمكن أن يقال إن ليلى مرضت في صباها بالغفوة الروحية، ولم تفق إلا في الثامنة والعشرين؟ ومن يصدق حديث الغفوة الروحية؟ لقد كنت الطبيب الوحيد الذي استكشف هذا المرض الخبيث، وألقيت عنه محاضرة في باريس بعد أن أديت الامتحانات النهائية في الطب، ثم نشرت خلاصة بحثي في المجلة الطبية المصرية، ولم أظفر، واأسفاه، بغير السخرية يواجهني بها زملائي في مصر، ويراسلني بها أساتذتي في باريس).

- دكتور، ألا ترى كيف أقفقف من البرد؟
- اسمعي يا بلهاء، فما عندي لك دفء.

(وما الذي يمنع من انتهاز هذه الفرصة الثمينة، فرصة انعقاد المؤتمر الطبي في بغداد،

لإعلان نظرية الغفوة الروحية بطريقة دولية؟ إن الشواهد تحت يدي، فأنا أعرف ناسا بأعيانهم انخرطوا في سلك الكهنوت وهم شبان، وعاشوا عيش الطهر والعفاف إلى سن الثلاثين. ثم استيقظت أرواحهم فجأة فهربوا من الكنائس والصوامع وأقبلوا على الدنيا إقبال المنهومين، ومنهم صديقي فلان الذي عرفته في حانات مونمارتر سنة 1927 وصديقي فلان الذي عرفته في مرقص الكوبول سنة 1933، ولكن كيف أقول هذا الكلام في المؤتمر الذي يعقد في بغداد وأنا أشتغل بالتعليم في بغداد؟ الخطب سهل: أنا أتكلم في المؤتمر باسم
الدكتور مبارك الطبيب، والناس جميعا يعرفون أني أحرزت الدكتوراه في الطب قبل أن أحرز الدكتوراه في الآداب).

- دكتور، أروح؟

- وين تروحين؟ اجلسي يا بلهاء.

- أنا اسمي ظمياء.

- اجلسي يا ظمياء.

(ولماذا أفضح نفسي في المؤتمر بأحاديث مونمارتر ومونبارناس؟ لماذا لا أكتفي بالشواهد التي أعرفها في مصر؟ ألم يكن صديقنا فلان من أعف الناس في صباه؟ ألم يكن يحوقل ويستغفر ويسترجع حين يطرق أذنيه بيت من النسيب؟ رحمة الله على أيامه الطيبات، أيام كنا نتقرب إلى الله بتقبيل يمناه! فمن يصدقني اليوم إذا قلت إنه كان في صباه فتى عفيفا؟ وكيف يصدقني الناس إذا ادعيت ذلك وهو اليوم ألطف ما جن وأظرف عربيد؟!).

- دكتور!

- اخرسي يا بنت!

- شنو؟

- ما أدري شنو!!

(إن حال ليلى في جوهره يرجع إلى فرضين: الفرض الأول أن تكون رأت في مطلع صباها صورة مست شغاف القلب ثم اختفت تلك الصورة، وظلت المسكينة تترقب ملامحها في أوجه الخاطبين بدون أن يتحقق لها رجاء، فلما وقع بصرها على الضابط عبد الحسيب رأت فيه ملامح الحبيب الضائع فأقبلت عليه وقد استيقظ هواها القديم يقظة مرعبة ضجت لها بغداد؛ والفرض الثاني أن تكون أصيبت بالغفوة الروحية، ذلك المرض الخطر الذي تفردت باستكشافه والذي سيجعل لي مقام صدق في عالم الطب، وقد عاشت المسكينة تحت سيطرة هذا المرض إلى أن بلغت الثامنة والعشرين ثم عوفيت فجأة، فكانت عيناها الناعستان وابتسامتها الساحرة من نصيب الضابط عبد الحسيب).

- دكتور! طال مقامي عندك، وليلى ستظن الظنون!

- أي ظنون يا ظمياء؟

- قد تحسبك كالطبيب فلان الذي خُرِّبت عبادته بسبب امرأة ألمانية كانت تزوره في العشيات.

- وأنت تلك الألمانية يا ظمياء؟ ما هذا الغرور الفظيع الذي لا تخلو منه امرأة شوهاء!

(وهنا ضحكت المرأة جميلة ضحكةً رجت أركان البيت).

- اعقلي يا ظمياء! أنا رجل غريب، والغريب يدخل سجن الفضيلة وهو راغم. فأنت في حماية هذا التخوف، تخوف الغريب من قالة السوء. وسأعيش في بلدكم ما أعيش، ثم أخرج بأذن الله وأنا أبيض الصحائف وضاح الجبين.

- هل معنى ذلك أني في أمان؟

- في أمان يا ظماء، سبحان الله!

- أنت تهينني! فأنا عندك فتاة شوهاء لا تهيج الغواية في قلوب الرجال!

(وهنا دونت في مذكرتي أن المرأة لا يسرها أن تكون في أمان، لأنها لا تكون في أمان إلا حين تزهد فيها القلوب. وأشهد أن ظمياء فتاة شريفة، ولكن تغلب عليها نزعة الجنس، فهي تحب أن يكون شرفها بفضل التصون، ويؤذيها أن تصل إلى الشرف عن طريق الزهد، الزهد فيما تدعيه لنفسها من حسن مرموق).

- دكتور، أروح؟

- وين تروحين؟ حدثيني عن قصة ليلى مع الضابط عبد الحسيب.
- كانت بداية القصة في سنة 1926 حين ثار حزب الشعب على المرحوم عبد المحسن عبد المحسن السعدون، وكانت الجرائد العراقية أطنبت في وصف المعرض الزراعي والصناعي الذي أقيم في الجزيرة بالقاهرة في ذلك التاريخ، وكانت ليلى ضجرت من ضجيج السياسة في بغداد فاستأذنت والديها رحمهما الله لترى ذلك المعرض علها تنسى ضجيج بغداد، فرفض أبوها، وشجعتها أمها، والمرأة تغلب الرجل حين تشاء، فلم ينتصف شهر آذار، شهر الأزهار والرياحين، إلا وليلى تطالع سِفر الحياة على شواطئ النيل وطن مولاي الطبيب.

(للحديث بقية)

زكي مبارك

سنان شيخ الجبل

صفحة من تاريخ الأدب السياسي

للأستاذ محمد عبد الله عنان

في القرن السادس الهجري (القرن الثاني عشر الميلادي) كانت الأمم الإسلامية تجتاز مرحلة عصيبة من تاريخها، ففي هذه الحقبة استقر الفرنج الصليبيون في فلسطين وثغور الشام، وقامت مملكة نصرانية لاتينية في بيت المقدس في قلب ديار الإسلام، وانقسمت الكتلة الإسلامية في المشرق إلى دويلات صغيرة متنازعة؛ ونشب بين الإسلام والنصرانية في تلك المهاد صراع مستمر طويل الأمد؛ وكانت المعارك سجالا بين هذه القوى الخصيمة المتفرقة؛ ولكن الفرنج الصليبين احتفظوا لأنفسهم مدى حين بنوع من التفوق؛ ذلك لأن الخلافة الفاطمية كانت تجتاز مرحلة انحلالها، وكانت الإمارات الإسلامية في شمال الشام مشغولة بمعاركها المحلية؛ وكان الفرنج ينتهزون الفرص السانحة فيعملون على إذكاء الخلاف ويظاهرون أميراً على أمير، ويحققون لأنفسهم ما استطاعوا من الأسلاب والمغانم.

ففي تلك الفترة العصيبة المضطربة كانت الشام فوق كونها مسرحا للحروب الأهلية والمعارك الصليبية المتواصلة مسرحا لنشاط بعض الجماعات السرية التي الفت فرصتها في تلك الفوضى السياسية والاجتماعية الشاملة، وكانت في مقدمة هذه الجماعات طائفة فرسان المعبد أو الداوية، وطائفة الاسبتارية، وطائفة الإسماعيلية الباطنية؛ وكانت الأولى والثانية طائفتين نصرانيتين ظهرتا بعد قيام المملكة الصليبية، وأنشئتا في البداية لبواعث وظروف دينية، ثم انقلبت كلتاهما بعد ذلك إلى جمعية سرية فدائية وكانت الثالثة تحسب ضمن الطوائف الإسلامية المذهبة، وقد أنشئت في أواخر القرن الخامس على يد داعية إسماعيلي بارع هو الحسن بن الصباح الحميري، ونظمت أولا في شمال فارس، حيث استحالت غير بعيد إلى عصابة إرهابية قوية تعتصم ببعض القلاع المنيعة، وتعتمد في تنفيذ مآربها على الإرهاب السياسي والاغتيال المنظم؛ وفي أوائل القرن السادس لما اشتدت مطاردة الأمراء السلاجقة للإسماعيلية في فارس، فر بعض دعاتهم إلى الشام، ولبثوا حيث يبثون هناك دعوتهم سراً؛ وكان الأمراء المحليون مثل صاحب حلب وصاحب دمشق يلجئون أحيانا إلى هؤلاء الدعاة الخطرين في تنفيذ مشاريعهم واغتيال خصومهم،

وبذلك أضحوا قوة سياسية يحسب حسابها، ولما كثر جمعهم وقوى أمرهم طلب زعيمهم بالشام بهرام الاستراباذي من صاحب دمشق حصنا يأوي إليه مع أنصاره، فأقطعه قلعة بانياس (سنة 520هـ)، فتحصنوا بها، ولم يأت منتصف القرن السادس حتى كانت لهم في الشام سلسلة من القلاع المنيعة بين طرابلس وحماة، يتخذونها قواعد للإغارة والدفاع، وحتى غدوا عاملا قويا في حوادث هذا العصر وتطوراته.

كان الدواية والاسبتارية يعملون في البداية لخدمة القضية الصليبية ونصرة الأمراء الصليبين، وكانت نظمهم ووسائلهم تشبه من بعض الوجوه نظم الإسماعيلية ووسائلهم من حيث اعتمادهم على التآمر والدس والاغتيال المنظم، ثم استحالوا غير بعيد إلى جماعات سرية نفعية ترتكب جرائمها، وتبحث عن مغانمها حيثما استطاعت دون النظر إلى اعتبار الدين أو القومية؟ أما الإسماعيلية فإنهم بالرغم من ثوب الرياء المذهبي الذي أسبغوه على عقائدهم الدينية والسياسية، ظهروا على مسرح الحوادث طائفة مغامرة لا عهد لها ولا ذمام تبحث وراء طالعها في هذا المعسكر أو ذاك، وتتقلب في

خدمة المسلمين والفرنج طبقا للحوادث والظروف، وتدس ما استطاعت بين أمراء الفرنج وأمراء المسلمين لتجني ثمار دسها؛ وكان يحسب أعظم وأقوى الأمراء من الفريقين؛ وقد ارتكب دعاتها عدة جرائم سياسية رنانة ذهب ضحيتها جماعة من أكابر الأمراء والقادة، وكان لها أثر كبير في تطور الحوادث والمعارك في بسائط الشام.

كان الإسماعيلية يمثلون في الشام نفس الدور الذي كان يمثله زملاؤهم في فارس، وكان أولئك الدعاة والمتآمرون الأذكياء يبثون أينما حلوا بذور التوجس والروع، وكانوا يمتنعون بقلاعهم الشاهقة يتحينون فرص العمل الخفي الغادر؛ وكان الفدائية منهم - وهم الذين يناط إليهم تنفيذ الجرائم السياسية - رجالا من أخطر طراز يمتازون بالإقدام المدهش، لا يتهيبون الموت، ولا يردهم عن غايتهم شيء؛ ولم يتخذ زعماء الإسماعيلية قط لقب السلطنة أو الإمارة، ولكنهم كانوا يقنعون بلقب المقدام أو الشيخ أو شيخ الجبل؛ وكان هذا اللقب الأخير يطلق بنوع خاص على زعيم الإسماعيلية في الشام، وإن كان الرحالة مركوبولو الذي عرف الإسماعيلية ودعاتهم في فارس يحدثنا بأن كبيرهم ينعت أيضا بشيخ الجبل؛ وعلى أي حال فإن كلمة الشيخ تعني هنا السيد أو الرئيس خلافا لما ذهب إليه الرواة الفرنج المعاصرون من اعتبارهم الشيخ هنا بمعنى (الرجل العجوز)، وهو خطأ شائع في معظم التواريخ الفرنجية.

وكان مقدم الإسماعيلية أو شيخ الجبل في الشام في أواسط القرن السادس زعيماً وافر الجرأة والذكاء هو راشد الدين سنان ابن سلمان؛ ولا تعرف الرواية سناناً إلا بأنه مقدم الاسماعيلية، ولا تحدثنا عن أصله ونشأته، ولكن لاريب في أنه أحد أولئك الدعاة المغامرين الذين يكتنف الغموض حياتهم الأولى، ثم يظهرون فجأة على مسرح الحوادث. وكان مقره في حصن مصياب (أومصياف) على مقربة من طرابلس وهو يومئذ أمنع حصون الإسماعيلية بالشام؛ وكان هذا الداعية الإسماعيلي يخفي مشاريعه ومطامعه الدنيوية تحت ستار من الورع المؤثر، ويبدو دائما في صفة الإمام الديني، ويرتدي الثياب الخشنة، ويعظ أنصاره طول اليوم من فوق رابية، ويحيط كل حياته بحجاب من الغموض حتى قيل إنه لم يوقظ نائماً أو أكلاً أو شارباً؛ على أنه كان بالرغم من هذه المظاهر الورعة الخلابة مغامراً لا ذمام له، يتربص فرص الوثوب والفتنة، ويتقلب في خدمة الصديق والعدو معاً؛ ولم ير سنان بأسا من مخالفة الفرنج الصليبين، فنراه يتصل بأموري ملك بيت المقدس، ويرسل إليه الداعي بهاء الدولة سفيراً ليسعى لديه إلى إعفاء الإسماعيلية من الجزية التي تعهدوا بدفعها؛ ونجح السفير في مهمته، ولكن قتلة الداوية (فرسان المعبد) حين عودته؛ وخشي ملك الفرنج عواقب هذه الجريمة، فاعتقل القتلة وقضى عليهم بالسجن، وذلك استبقاء لمودة الإسماعيلية واتقاء بطشهم.

ولعب سنان في حوادث هذه الفترة دوراً عظيما؛ ومع انه لم يكن قويا بجسمه وقواه المادية، فقد كان قويا بدسائسه ووسائله الإرهابية الخطرة؛ وكان أمراء الشام المسلمون يرهبون جانبه ويلتمسون محالفته؛ ولما تألق نجم صلاح الدين وقبض على زمام الأمور في مصر اتجهت أبصار خصومه إلى الإسماعيلية أو الحشيشية كما تسميهم الروايات المعاصرة، لما عرف من انهم كانوا يأكلون أوراق الحشيش؛ ففي سنة 569هـ (1173م) دبر أنصار الدولة الفاطمية الذاهبة مؤامرة لقلب حكومة القاهرة، واغتيال صلاح الدين، وفكروا في الإستعانة بالفرنج كما فكروا في الاستعانة بسنان شيخ الجبل، فبعثوا إليه ليدبر كميناً لاغتيال السلطان (صلاح الدين) على يد بعض الفدائية سواء في الشام أو في مصر

ووعدوه بالمنح والعطايا الجزيلة؛ ولكن سرعان ما افتضحت المؤامرة وقبض على مدبريها وأعدموا، ولم تسنح الفرصة في هذه المرة ليعمل شيخ الجبل؛ ولكن الفرصة سنحت غير بعيد؛ ففي أوائل سنة 571هـ (1175م) كان صلاح الدين على رأس جيشه في شمال الشام على مقربة من حلب، وكان من برنامجه سحق الإمارات المستقلة التي تمزق الشام وتجعل منه فريسة هينة للفرنج الصليبين؛ وكان أتابك الموصل عز الدين مسعود يخشى على ملكه إذا استولى صلاح الدين على الشام، فاتفق مع سنان شيخ الجبل على اغتيال صلاح الدين أثناء وجوده بالشام؛ وكان الإسماعيلية أو الحشيشية يرون في تقدم صلاح الدين خطراً داهماً على سلطانهم فكانوا يرحبون بكل

مؤامرة أو مشروع لسحقه؛ ففي الحال بعث سنان بعض الدعاة الفدائية إلى معسكر السلطان (صلاح الدين) فاندسوا إليه متنكرين. وفي ذات مساء استطاع أحدهم أن يصل إليه وهو في خيمة بعض الأمراء يفحص خطط الدفاع، ثم انقض عليه وطعنه في رأسه بخنجره، وكان صلاح الدين يعرف غدر الباطنية ويحترز منهم بارتداء الدروع المصفحة، فحالت قلنسوته الصلبية دون إصابته؛ فحول القاتل عندئذ خنجره إلى خده فجرحه جرحا شديدا، ثم دفعه إلى الأرض وحاول أن يجهز عليه؛ وذهلت بطانة السلطان لهذه المفاجأة الغادرة مدى لحظة، ولكنهم بادروا إلى القاتل، وطعنه أحد الأمراء بسيفه فأرداه؛ فبرز من جوانب الخيمة آخرون من الباطنية الفدائية متنكرين في زي الجند، وحاول أحدهم أن ينقض على السلطان، فتلقاه بعض البطانة وقتلوه، واشتد الاضطراب والهرج، وقتل في هذه الواقعة عدة من الدعاة الإسماعيلية؛ ونجا صلاح الدين من خناجرهم بأعجوبة، وانهار مشروع شيخ الجبل وحلفائه مرة أخرى.

وأدرك صلاح الدين ما يحيق به وبسلطانه من الخطر من غدر الإسماعيلية ومؤامراتهم، فعول على مهاجمة قلاعهم وسحق نفوذهم، فسار إليهم في العام التالي (سنة 572هـ)، وحاصر مصياب أمنع قلاعهم، وفيها مركز زعامتهم؛ فاستغاث سنان شيخ الجبل بصاحب حماة وهو خال السلطان، ورجاه أن يشفع لديه فيهم، وتعهد له بالتزام الحيدة والولاء نحو السلطان، وهدده في نفس الوقت إذا أبى هذه الشفاعة، فخشي الأمير من وعيدهم، وبذل وساطته لدى السلطان حتى أقنعه بالعفو عنهم، فغادر قلاعهم بعد أن أخذ عليهم المواثيق والعهود؛ ولزم الإسماعيلية وزعيمهم بعد ذلك خطة الولاء نحو السلطان إما خشية سطوته،

وإما لأنهم خشوا رجحان كفة الصليبيين إذا اختفى صلاح الدين من الميدان.

ولبث الإسماعيلية من بعد شيخهم سنان زهاء قرن آخر، يمتنعون بقلاعهم في الشام، وينتهزون فرص المعارك والأحداث المختلفة ليظهروا على مسرح الحوادث حيثما آنسوا الغنم، وشغل بلاط القاهرة عنهم طوال هذه الحقبة بمكافحة الفرنج ورد الخطر الصليبي؛ فلما كان عهد الظاهر بيبرس، سارت حملة مصرية إلى الساحل في سنة 668هـ (1269م)، وحاصرت قلاع الإسماعيلية، واقتحمت مصياب أمنع حصونهم ومقر زعامتهم وخربت قلاعهم ومزقت قواهم كل ممزق؛ وبذلك انهار نفوذهم في الشام كما انهار في فارس قبل ذلك بقليل واستحالت هذه الطائفة الإرهابية الخطرة بعد ذلك إلى شراذم لا أهمية لها سواء من الوجهة السياسية أو المذهبية، وانتهى بذلك تاريخها الحافل بالجرائم والمؤامرات المدهشة.

محمد عبد الله عنان

في ليلة رأس العام

أنا. . . بين الطبيعة والله!

للأستاذ علي الطنطاوي

انصرف الطلاب إلى بنية النوم حين سمعوا الساعة الكبيرة تطنّ عشر طنات، وخلت ردهة المكتبة ونشر عليها الصمت أجنحته السود، فلم أكن ألمح في خلاله إلا رنين طنّات الساعة وأصداء أصوات الطلاب الذين كانوا هنا منذ لحظة واحدة يتسامرون ويتحدثون. . . ترن هذه الأصداء في أذني، فإذا أنا أراها بعيني تتراقص بين طيات الصمت الأسود حتى تنحدر إلى أغواره العميقة، ويشمل السكوت الرهيب بنية التدريس (في كلية بيروت الشرعية) ويتمدد في أبهائها وغرفها وممراتها. . .

فجلست أصغي إلى أناشيد الصمت التي كانت تسمع من حولي باستمرار فأجدها تملأ قلبي مرارة وأسى. . .

ثم رفعت رأسي فجأة إلى التقويم فنظرت فيه وجمد بصري عليه. . .؟ أمن الممكن هذا؟ أيحدث هذا كله في هدوء. . . يموت في هذه الليلة عام ويولد عام، يمضي الراحل بذكرياتنا وآلامنا وآمالنا إلى حيث لا يعود أبداً، ويقبل القادم فاتحا ذراعيه ليأخذ قطعة من نفوسنا، وقسما من حياتنا، ولا يعطينا بدلاً منها شيئاً. . . وهل الحياة إلا أعوام فوق أعوام؟ وهل النفوس إلا الذكريات واللذائذ والآلام؟

وجلست بين المأتم والمولد أفكر وأتذكر وأحلم. . . ولقد تعودت أن أجلس هذه الجلسة كلما تصرّم عام، أصفى حالي مع الحياة، أنظر ماذا أخذت، وماذا أعطيت، وأراقب هذه القافلة من السنين التي بدأت مسيرها منذ. . . منذ بدأ الزمان، لست

أدري متى بدأ الزمان، والتي تنتهي حيث لا يدري أحد.
تعودت أن أعطي نفسي من فكري ساعة في العام، أفكر فيها في نفسي وفي الوجود. . .
نظرت فلم أجد إلا كتاب التفسير أحضر منه درسي الذي سألقيه غدا، وكتب البلاغة التي أكسر بها دماغي وأدمغة الطلاب في غير طائل. . . فنحيتها كلّها ووجدت ركام (الوظائف) التي يجب علي أن أنظر فيها وأصححها، وأقرأ كل ما تفيض به هذه القرائح الفتية من سخف وهراء، يدعوه أصحابه (إنشاء). . . فبعثرتها في غيظ وحنق. . .
أنا في هذا البلاء منذ عشر سنين، عشر سنين يالها من دهر طويل! كان ربيع حياتي، وزهرة شبابي، أضعته كله في هذا العناء، فماذا استفدت؟ لا شيء إلا أن أحرقت نفسي كالشمعة لأضيء لهؤلاء الفتية طريقهم إلى المجد، هؤلاء الذين أحببتهم وأخلصت لهم الحب، وعشت بهم دهراً ولهم، واعتصرت ماء شبابي لأنضر شبابهم، ثم فرّق الزمان بيني وبينهم، فلم أعرف مكانهم من الشام أو العراق، ولم يعرفوا مكاني لأنهم لم يفكروا في أن يعرفوه. . .
إذن فأنا أحترق كالشمعة! يا للحقيقة المرة المروّعة! يا لشمعة شبابي التي ذوت وخبت وأوشكت أن تنطفئ!
إني أعيش في العدم، أعيش في الماضي بالذكرى، وفي المستقبل بالأمل، مع أن الحاضر وحده هو الموجود، لقد مضى الغد إلى حيث لا رجعة ولن يأتي المستقبل أبدا. . .
أين هو هذا المستقبل؟ ومن ذا الذي يستطيع أن يصل إليه؟ لقد جلست في مثل هذه الليلة من العام الذي يموت الآن، في شرفة منزلي بالأعظمية (بغداد) أحلم بالمستقبل بهذه الليلة التي كانت هي مستقبلي، أسعى إليها، وأؤمل أن أدركها، فلما أدركتها صارت (حاضرا)، وطفقت أسعى إلى مستقبل آخر. إنني كالثور يسعى ليدرك حزمة الحشيش التي يراها على شبر واحد منه فيهلكه السعي، ولا ينالها أبدا، لأنها معلقة بقرنيه تسعى أمامه!
يومض شعاع الأمل من بين فرج الغد، فنسعى لندركه فلا نجده إلا سرابا. إن الأمل مصباح لا يضيء إلا من بعيد. أفليس من سخافات الفكر الإنساني أن يضع في اللغة كلمة الأمل ولفظة المستقبل؟ أليس وجودهما في المعاجم دليلا على تأخر البشرية وانحطاطها، وأنها لم تدرك بعد حقائق الحياة؟
لقد كنت في (الأعظمية) غبيا جاهلا، لأني كنت مطمئنا متفائلا. كنت كلما ودعت بالخيبة عاما، انتظرت آمالي عند آخر، ولكني صحوت الآن فلا آسف على ماض، ولا أؤمل في مستقبل.
لقد قدر علي ألا أشهد ولادة العام إلا غريبا عن موطني بعيدا عن أهلي تارة في مصر، ومرة بالحجاز، وحينا في العراق. وهاأنذا الآن غريب من جهتين: هذا السد الهائل من الجبال: جبال لبنان بيني وبين أخوتي في دمشق؛ وهذا البحر الواسع بيني وبين أخي في باريس؛ والدهر والأبدية بيني وبين آمالي؛ والقبر بيني وبين والديّ؛ وأنا بعد هذا كله غارق في كتب البلاغة، (ووظائف) الإنشاء، نسيت مشروعاتي الأدبية التي رسمت خططها، وأقمت أسسها، وأهملت بحوثي ومطالعاتي، وبعت ذكائي ومواهبي وشبابي برغيف من الخبز. . .
هذا ما قدر عليّ، وإني راض بما قدر!
إني أعيش الآن بلا غاية، ولكن غايتي أن أعيش، أن أثبت وجودي في هذه الدنيا، كتلميذ كسلان ما جاء ليتعلم، ولكن ليعدّ في التفقد موجودا، أو موظف خامل مقصر. . .
فلماذا إذن أعيش؟
الآن لي حق الحياة؟ فلماذا لا يكون لي إذن حق الموت؟ ألا أملك أنا أمر نفسي، ولكن من أنا؟ ومن نفسي؟ أأنا اثنان في واحد؟. . .
إنني لا أستطيع التفكير في هذا. . .
وملأ نفسي الشعور بالوحشة، وأحسست في نفسي وفيما حولي فراغاً مخيفاً، وشعرت كأن هذه الغرفة تتسع ثم تتسع، حتى صار بين الجدران فضاء لا يدركه البصر! ثم ضاق بي الفضاء - حتى كدت اختنق فيه، فخرجت إلى الشارع. . . وكان موهن من

الليل. . .
تركت ميدان البرج يضحك بالكهرباء، ويرقص على ألحان الأشعة، التي تنسكب على الميدان من ذرى البنى الرفيعة فتغمره بجو فاتن وتسيل على جوانبه، وتنسج فوقه شبكة من الأشعة منسوجة من ملايين الخيوط الملونة بمئات الألوان، وتركت الناس يحتفلون بعيد رأس السنة، يتأملون معاني الوجود، وفلسفة الخلود، وحقيقة الزمان في هذه المراقص الصاخبة، الغارقة في الخمر والعهر. . .
ويممت شطر البحر أمشى في الطرق المظلمة المنعزلة الخالية إلا من أعقاب السابلة ممن هو حليف البؤس أو الرذيلة فخلا الجو لفكري فانطلق. . .
قالت النفس: إن العالم يموت، أفلا نودّعه بحسرة. . . أو نسكب على جثته عبرة؟
فلم يعرف العقل ما هو الموت ولم يصدق بوجوده. . .
قال العقل: ما هو الموت؟ إن كان انتقالا من حال إلى حال فليس موتا؛ وإن كان الموت
عدما فإن العدم ليس له وجود أبداً.
قلت: ولكن أبي قد مات؟
قال: لا، إنه لم يمت، تذكره ويعيش حيّاً في ذاكرتك، وليس في الذاكرة شيء ليس له وجود في الواقع.
قلت: وأين يوجد؟
قال: لست أدري، هو في ذاكرة الكون.
قلت: إن العام يموت الآن!
قال العقل: إن العام (365) يوما وبعض من اليوم هو ست ساعات و (47) دقيقة، وبعض منها هو (33) ثانية، وبعض الثانية فلنفرض هذا البعض (20) ثالثة، وبعض الرابعة فلنفرض هذا البعض (25) خامسة وبعضا. . . وهكذا يمشي العقل حتى يصل إلى أصغر الأجزاء الزمنية، ولكنه لا يزال يمشي لا ينتهي أبدا. . . إن عام الهجرة مثلا لا تزال له بقية في الوجود، أجزاء من الزمن بالغة في الصغر حدا لا يدركه العقل، ولكن تدركه الذاكرة. . . إن هذه البقايا هي ذكريات الأعوام في نفس العام الجديد!
قلت: إني لم أفهم شيئا!
وقفز عقلي فجأة من أجزاء الزمن الصغيرة إلى الزمان المطلق، وراح يمشي على هذا الخط الطويل يقطعه في لحظة، ولكنه لا يستطيع أن يبلغ طرفيه، فلا يني يحاول بلوغهما ولا ينقطع عن السؤال. . . إلى أين ينتهي هذا الخط؟ من أين يبدأ؟ أليس له نهاية؟ ما هي اللانهاية؟
وذهب العقل يفكر: إن عمر عشر حشرات ساعة من عمري، وعمر عشرة رجال ساعة من عمر الصحراء، وعمر الصحارى كلها ساعة من عمر الشمس، فما هي الساعة إذن؟ ما هو العام؟ ما هي حقيقة الزمان؟
وما هو المكان؟ إني لم أر مكانا قط، ولم أر إلا موجودات لا أعرف نهايتها، ولا أدرك آخرها، فكيف لي أن أرى مكاناً ليس فيه شي؟ ما حقيقة المكان والزمان؟ ما عمرهما؟ ماذا وراءهما؟
ألا أستطيع أن أعرف هذا العالم الهائل الذي تحجبه عن عيني هذه الطبيعة كما تحجب الكف الدنيا الواسعة وهي كف واحدة. . .
وضجرت من هذه الفلسفة، فانصرفت عن العقل وتركته يهذي وحده.
وكنت قد بلغت البحر، فوقعت في حجر الطبيعة أتأمل وأناجي وأحلم. . .
لقد نفضت يدي من الناس ولجأت إلى هذه الطبيعة السخية الوفية الوادعة الجميلة أجد عندها أنس نفسي وراحة قلبي، أنظر إليها فتمحى هذه الأبعاد والمسافات، وتبدو لعيني لوحة فنية حافلة بالألوان التي لا يستطيع أبرع مصوّر أن يجمعها في لوحة. ومن لعمري يصوّر ألوان الغروب، أو ألوان الزهر في الروض أو يثبتها على لوحة بالألفاظ والأوزان أو بالأصبغة والألوان؟ إن الطبيعة أبرع في الألوان، ولكن الفن البشري أبرع في الأصوات. إن الطبيعة ليست موسيقية فنانة. . . عندها من الألوان مالا نهاية له ولكن ليس عندها إلا هدير الموج، وخرير النهر، وحفيف الأشجار، وتغريد البلابل، وسجع الحمام، وقصف الرعد. . . هذه موسيقاها، ومن هنا كانت الموسيقى أسمى الفنون لأنها ابتكار وتجديد، على حين أن الأدب والتصوير تقليد. . .

هذه الطبيعة التي أجد في حماها الحب والعاطفة والجمال، كلما لجأت إليها فراراً من الناس، وضيقا بالحياة، وما ذهبت مرة إلى بسّيمة وأطللت من (بيت طه) على هذا الوادي الصغير الذي يشبه همسة حلوة من همسات الحب، أو بيتاً بارعاً من قصيدة الجمال، إلا نسيت الدنيا كلها وأحسست أني مع حبيب قد وضع رأسه على فخدي، ونام. . . هذا الوادي الذي تجري فيه العين الخضراء لينة الأعطاف، فاتنة المحاسن، كأنها فتاة مدللة تخطر بحسنها وفتنتها على سفح الجبل، تغمز بردى بعينها وتغريه بجمالها وهو يلحقها جريا في بطن الوادي، متحدراً متكسراً كشاب قوي متين العود، جهير الصوت، قد اكتملت رجولته كما اكتملت أنوثتها، وأشجار الحَوْر (حُور كواشف عن ساق) يرقصن في عرس الفتاة المدللة والفتى القوي، رقصة الحب، يتمايلين على العروسين وقد تعانقا بعد قليل، وضم الفتى عروسه حتى اختفت بين ذراعيه، وطار بها إلى دمشق، لتكون جلوتها في الغوطة جنة الأرض. . .

وهذه الجبال الحمراء، تقوم على الباب، تحرس الوادي أن يدخله واش أو عذول يفجأ العروسين العاشقين، وتمنع الشمس الملتهبة أن تدنو منهما أو تعكر عليهما خلوتهما، فيبقى

الوادي جنة تري من تحتها الأنهار، والدنيا من حوله في جحيم الصيف. . .

غبت في تأملي وأنا على شاطئ البحر فلم ينبهني إلا المطر يساقط على وجهي ويديّ، فنظرت فإذا السحب قد نسجت في السماء ليلاً آخر، وإذا المطر يهبط بشدة، ثم يستحيل بردا طياشا؛ ثم تهب الريح وتجن الطبيعة جنونها، فتنطلق تعول وتولول، وتنتف شعرها، وتحطم كل ما بلغته يدها، فماجت نفسي واضطربت كهذا البحر الذي يزمجر ويلكم صخور الشاطئ حتى تكل سواعده، فيستلقي على الرمال فلا تكون إلا لحظة حتى ينزل سوط الرياح على ظهره دراكا، فيهب فزعاً مرتاعاً، ويعود إلى ضرب الصخر في غير ما طائل، والريح تدير هذه المعركة كلها، تقفز على رؤوس الجبال، وتبعثر البرد يمينا وشمالاً، وتنثر الرياح ثم تجمعها ثم تعبث بها. . .

جنت الطبيعة جنونها، ولكني لم أخفها ولم تكبر في عيني، وإنما ازدريتها وأبغضتها، ما هذه المخلوقة الضعيفة العاجزة التي لا يدري بها أحد من سكان هذا الكون الواسع؟ لقد رأيتها من قمة لبنان نقطة، فكيف يراها المشتري؟ وهل يعبأ نجم القطب بثورتها وجنونها. .؟

وانصرفت إلى نفسي أفكر آسفا. . .

إن العام يتصرم وليس حولي صديق أطمئن إليه، وأحمل معه أعباء الوداع، وأشاركه دمعة يذرفها معي على الفقيد الراحل، وبسمة يمنحها هذا المولود الجديد. . .

عرفت أن الصداقة ليس لها وجود، فنفضت يدي منهم ولجأت إلى الطبيعة أتخذها صديقي المخلص وأوليها حبي وقلبي فكانت هذه هي النتيجة. صادقت مجنونة طياشة بكاشة لا تعرف إلا التخريب والتدمير وتجهل ما هو الحق، وما هو الشعور؟

أهذا كل ما لي عندك يا صديقتي؟ ألجأ إليك في ساعة من أحرج ساعات حياتي قد تركت فيها أهلي وعفت صحبي لألقى بنفسي في أحضانك، وأخفي وجهي بين ثدييك، وأنشق عبيرك الطاهر، وأغتسل بدموع محبتك وعطفك، وأدفن آلامي في صدرك، فلا تلفينني إلا بهذا الجنون وهذا العويل؟

كلا، إنك لا تعرفين الحق ولا الشعور!

وأين لعمري مكان الشعور من الطبيعة؟

أنا أشعر بجمال الربيع، ولكن هل يشعر الربيع بجمال نفسه؟ لقد رأت الكونتس دي نواي في الطبيعة مخلوقا حيا ذا شعور وعانقت الربيع، وجالست المساء، ولكن ماذا رأى الربيع في الكونتس دي نواي؟ هل يفرق الربيع بين الفتاة تقطف الزهرة لتقدمها بفمها إلى حبيبها، والبقرة تقطف الورقة لتملأ بها معدتها.

وأنت أيها الجبل؟ كم رأيت من الفواجع التي تفتت الأكباد وتذيب القلوب، فهل شعرت بشيء منها؟ هل حزنت هل تألمت؟

أشعرت بالأمس القريب يوم عصفت الأثرة برؤوس نفر من القواد، فأطفئوا بأفواههم شعلة السلام، وملئوا العالم ظلاماً ثم نهضوا يبنون من الجماجم مجدهم في التاريخ، فلما امتلأت الأرض بالدم وتغطت بالجثث، وغسلت بالدموع، وتجلببت بالآلام والأوجاع والثكل واليتم، ولما كان الأمهات يبكين أبناءهن الذين ضاعت قبورهم كما ضاعت

أسماؤهم، والأطفال يهتفون: بابا. ينادون من ليس يجيب. . . كان القواد العظماء يحتفلون بالظفر. . . أشعرت بشيء من ذلك يا لبنان؟ أشعرت بالأرامل والصبايا والأطفال يفتشون عن الخبز. . الخبز الأسود، فلما لم يجدوه توسدوا رجلك ونظروا إليك صامتين. ثم ماتوا جائعين. . كما مات ألوف وألوف في سبيل مجد القواد الظافرين!

ألان قلبك الذي قدّ من جلمد الصخر؟ أذرفت يا لبنان من عيونك الصافية دمعة حنان؟ وكم رأيت يا لبنان من متع الحب! وكم أوى إليك العاشقون فاستظلوا بظلك، وتعانقوا في حجرك، وشربوا خمر العيون، وسكروا بنجوى الحب، وتحدثوا بوسوسة القُبَل، ونسوا الدنيا كلها والزمان والطبيعة، ونسوا أنفسهم حين التقت الشفاه بالشفاه، وأغمضت العيون لترى القلوب مفاتن هذا العالم المسحور وتستمتع بهذه الدنيا المعطرة الحلوة المغنية دنيا القبلة الكاملة.

أهاج ذلك عاطفتك يا لبنان؟ أحرك قلبك كل ذلك أيها الشاب التياه الذي يخطر بحلله الخضراء الزاهية ويتيه بعطره الخالد؟

فأين هو مكان الشعور من الطبيعة؟

أأنت أيها البحر الرقيق السيال أرهف شعورا وأرق عاطفة؟ أيحزنك منظر البؤس والشقاء، وأنت تلتهم الأحياء، وتخنق البشر، وتفتح فاك لابتلاعهم، أأنت ذو الشعور؟. . .

أين هو الشعور؟ وأين أجد العاطفة في الطبيعة؟ أأبتغيها في البركان الهائل المحرق، أم في العاصفة العاتية المدمرة؟

وأين هو الحق في الطبيعة؟

أنا أرى في الطبيعة عاصفة تكسر الأغصان، وتقلع الأشجار؛ وأرى صاعقة تهدم الدور؛ وأرى سيلا يجرف المدن، ويكتسح في طريقه كل شيء؛ وأرى البركان الثائر؛ وأرى الرياح العاتية. كل هذا وجود مادي للقوة، فأين هو الوجود المادي للحق؟

لقد اتضح الأمر، وخسرت صديقتي الطبيعة الجامدة الظالمة الميّتة. . .

فلمن ألجأ؟

لمن ألجأ ويحك يا نفس؟ هذا العام يوشك أن يموت!

فعجزت النفس ولم تجب، وانطلق العقل يتفلسف، قال: إن في الطبيعة لحسّاً وتمييزا، ضع ذرة واحدة من الفحم، وخمسا من الأيدروجين يأخذ الفحم أربعا ويدع الواحدة، ومهما ضاعفت العدد تبقى النسبة ثابتة، أفليس هذا دليلا على أن الجماد يميز؟

وضع الذهب بين عشرة معادن وألق عليه الزئبق فإنه يعانق الذهب ويدع كل ماعداه، أفليس في هذا دليل على أن في الجماد شعورا وعاطفة؟

ولكني لم أنتبه لما قال العقل؟

ونظرت إلى البحر فقلت: ما البحر؟ ما الطبيعة؟ أنا لا أرى إلا هذا العالم المادي؛ ولكن ماذا وراء المادة من عوالم؟ إن الروح أول محطة في طريق هذه العوالم، فهل استطعنا أن نبلغها؟ إن العقل البشري يمشي إليها منذ بدأ صناعة التفكير، ولا يزال في الطريق لم تبن له معالمها. . . إنه تعب وملّ ويئس. . . افتح الآن أي كتاب من كتب (علم النفس). . . إنك لا ترى في فهرسه اسم الروح ولا النفس. . .

وفكرت في العام الراحل فقلت: ما هو العام؟ ما وجوده؟ ما حقيقته؟ ولم أسمع جواباً فأغمضت عينيّ كما أغمضت قبة الأعظمية عينيها منذ عام، ولكني لم أحلم ولم أتذكر، وإنما لبثت صامتا محدقا في غير شيء كالأبله أو المشدوه، وتركت عقلي المغرور يتيه وحده في قضاء اللانهاية. . . إنه لا يستطيع أن يعرف شيئا مما وراء المادة. . . كما أن عقل الجنين لا يقدر أن يعلم شيئا عن هذا العالم ولا يؤمن بوجوده. . .

وكنت قد نسيت الطبيعة الجامدة الميتة التي لا شعور فيها ولا عاطفة، ونسيت هذه المخلوقات التافهة الحقيرة التي يدعونها (الناس)، ونسيت هذه الذرة التائهة في رياح الوجود التي اسمها (أنا)، وتوجهت إلى العظيم الباقي الذي هو وحده الخير المطلق والحق والجمال. . . توجهت إلى الله أسأله أن يلبس هذا العام القادم ثوب السعادة، ويضفي على العام الراحل حلة الغفران. اللهم آمين.

(بيروت)
علي الطنطاوي
بين القاهرة واستنبول
للدكتور عبد الوهاب عزام
- 4 -
متاحف طوب قبو سراي
يا أخي صاحب الرسالة:
سلام عليك والله يرعاك
أكتب إليك اليوم بعض ما شهدته أمس في متاحف قصر طوب قبو الذي كان مباءة السلاطين عصورا متطاولة. وعسى أن أكتب إليك من بعد طرفا من تاريخ هذا القصر الأفيح الذي يمتد على إحدى هضاب المدينة من جامع أيا صوفيا إلى رأس السراي (سراي بورنو) على بحر مرمرة:
للقصر أسوار بعد أسوار. الأبواب الخارجة تؤدي إلى حدائق واسعة. وقد ذكرت في رسالتي السابقة أحد هذه الأبواب حين ألجأني المطر أليه.
سرنا في الحديقة حتى انتهينا إلى باب آخر أسمه باب السلام فولجناه إلى حديقة أخرى واسعة تحيط بها أروقة، ويبدو فيها إلى اليسار بناء ذو قباب، أمامه رواق جميل. دخلنا فإذا حجرتان تتصل بهما حجرة مغلقة. اسم هذا البناء (قبة آلتي) أي تحت القبة. وكان في العصور الغابرة مجلس الوزراء. وكان الوزراء من اجل هذا يسمون وزراء القبة أو جلاّس القبة (قبة نشين). فالحجرة التي إلى اليسار فيها أرائك للوزراء تتوسطها أريكة الصدر الأعظم.
ويرى فوق مجلس الصدر نافذة عليها شباك من الحديد ناتئ كان السلاطين يشرفون من هذه النافذة ليسمعوا مفاوضة الوزراء أو يروا استقبال الصدور السفراء. وكتبت إلى جانب النافذة كلمة الشهادة وطرتان، بخط السلطان أحمد الثالث، والحجرة التي إلى اليمين كانت للكتّاب وفيها طرة للسلطان مصطفى الرابع، وسجادة يقال إنها نسجت قبل خمسة قرون. وكانت الحجرة المغلقة لاستراحة الكتاب.
وبني هذا البناء في عهد سليمان القانوني سنة 933.
ووراء هذه البَنيّة برج يعلو في الهواء 42مترا عليه منظرة تطّلع على المدينة كلها وكان حوله بناء.
وعلى مقربة من (قبة آلتي) حجرة كبيرة هي اليوم خزانة الأسلحة القديمة أسلحة الملوك والأمراء. يرى الداخل أمامه بلطات كثيرة من سلاح مماليك مصر، والى يمينه خزائن زجاجية يطّلع فيها على سيوف لبايزيد وسليمان. وهذا سيف السلطان الغوري وهذا سيف طومان باي. وأما سيف قايتباي هذا فقد طبعه من حديد وجده عند الحجرة النبوية سنة 881. وهذان سيفان لمحمد الفاتح؛ هذا الطويل المحلى للمحافل، وهذا القصير العاطل للمعارك.
وبينا نتأمل هذه السيوف ونعجب من قدمها، أرانا المعرض ما هو ابعد في التاريخ وأجل شأنا؛ هذا سيف عليه اسم معاوية وهذه سيوف أموية طويلة مستقيمة، وهذا سيف لعبد الله بن عمر، وآخر لكعب الأحبار. وهذا السيف الطويل العريض المذّهب قائمه قد كتب عليه: (معاذ بن جبل كاتب رسول الله) بل هذا سيف عثمان بن عفان. سعدت حينا بالذِكَر ولم أكدرها بتحقيق الأسانيد.
وتقدمت قليلا لأرى دروعا لمماليك مصر: وهذه درع كاملة: قميص وسراويل وعلى الصدر أضلاع من الحديد.
ومشيت إلى جانب آخر من الحجرة فرأيت الأقواس والسهام ريشها ونصالها، والجُعَب، وهي قِسيّ تركية من نبات القرنين العاشر والثالث عشر هـ. وهذه جعاب (تراكش) محلاة مزركشة، وهذه درع هنجارية محلاة الصدر بالذهب والفصوص الكريمة، وهذه درع كتب عليها اسم الشاه عباس الصفوي، ولا أدري أي العباسين الأول أم الثاني؟
وليت شعري لمن هذه الدروع التي اتخذت جُنة من الآيات والدعوات تقرأ عليها: يا خفيّ الألطاف نجنا مما نخاف. فالله خير حافظا، يا مالك الملك، يا منجي من المهالك، أنت الباقي وكل شيء هالك. وبيِّن أن السجع يقتضي أن يكون: يا مالك الممالك الخ ولعله تحريف الكاتب أو الطابع.

سنتقدم ونمر إلى خفتانات من الجلد أو النسيج الصفيق ومغافر من الجلد والحديد. بل هذه مغافر للخيل؛ والفرس صديق الفارس في المآزق يحتاط له كما يحتاط لنفسه. وكانت الخيل
تلبس المغافر على رؤوسها والتجافيف على أبدانها. وفي شعر أبي الطيب:
حواليه بحر للتجافيف مائج ... يسير به طود من الخيل أيهم
ثم ترى قوائم أعلام يعلم الله ما شهدت من ظفر وهزيمة، ثم بنادق من عصور مختلفة فيها المحلى بالصدف الذي يضرب بالزند والصوان، وفيها بنادق القلاع الثقيلة، وضروب أخرى كثيرة.

- 2 -

تركنا خزانة السلاح وسرنا حتى اجتزنا الباب الثالث إلى رحمة واسعة، ويفضي الباب إلى رواق مستطيل مع الجدار، وعلى الباب من الداخل كتابة وثلاثة ألواح مستديرة فيها أسماء السلاطين وتواريخ ولايتهم ووفاتهم من عهد عثمان إلى محمد السادس وهي تشغل لوحين ونصف الثالث، وبقي الفراغ فيه ناطق بانتهاء الدولة.

وأمام الباب حجرة يتقدمها رواق. وهي حجرة العرض (عرض أوده سي) وكانت مجلس السلطان لمقابلة السفراء، ورجال الدولة أيام الأعياد وفيها سرير منجد تعلوه قبة من الخشب المصنع المزين وكان أثاث الحجرة وزينتها من آيات الإتقان والبذَخ ولكنها احترقت سنة 1273 وبقي بعض آثارها.

وفي جانب الحجرة نافورة يقال إنها كانت تفتح حين يُسر السلطان حديثه حتى لا يسمع الذي في الخارج.

وفي الرواق الذي أمام الحجرة حجر من المرمر يقال إن قتلة السلطان سليم الثالث وضعوا جثّته عليه وأروها للصدر علمدار مصطفى باشا.

وتقدمت فملنا ذات اليمين إلى (الخزينة) وفيها من نفائس التاريخ وأعلاق الملوك ما يكل الطرف دون تأمله؛ الحجرة الأولى والثانية بهما أدوات الطعام والقهوة من الصيني الجميل في ندرة من الألوان، وفتنة من بدائع النقش، صحون وطسوت وأباريق وفناجين، وأدوات من البلور والنحاس المذهب، وخوانات من الفضة ومواقد الخ الخ.

هذه المرائي اللألأة تبهر العين حيثما توجهت فتشغل الناظر عن التفكير فيما وراءها من التاريخ. قلت ماذا أرى وماذا أدع؟ هذه للعابر متعة دقائق، وللباحث درس أشهر، وللمفكر عبرة الدهر.

ثم حجرة الملابس، ياله منظرا مهيباً ومقاماً هائلا! صف ينتظم السلاطين من الفاتح إلى عبد المجيد. هاأنت ذا في حضرة السلاطين الذين رجفت بهم الأرض قرونا وامتلأت صفحات التاريخ أجيالا. هوّن عليك لا تُرَع. ما هي إلا ألبسة تحملها أعواد. أجل! هذه الجبة، وهذه العمامة الكبيرة، وهذه الشارة (سرغوج) التي تعلو العمامة محلاة بالماس، وهذا الخنجر المذهب الذي تثقله هذه الزمردة الكبيرة - أجل هذا لباس الفاتح وزينته وسلاحه، ولكن لا تُرَع إن هو ألا لباس على أعواد. اضحك إن شئت، وتحدث كما تشاء، ولا تأخذك هيبة الفاتح وصولته، وإن شئت فقف خاشعا مطرقاً مفكراً فإنها ذكرى واقعة وتاريخ ماثل، فإذا أخذتك سورة الذكرى واستشعرت رهبة الملك فارفع رأسك وانظر فليس أمامك الفاتح، ولكن جبته وقفطانه وعمامته وخنجره.

وانظر بجانبه ملابس بايزيد الصوفي: عقد من الزمرد حول حلقة من الجواهر يزين هذه العمامة، وعلى مقبض الخنجر ثلاث قطع من الفيروزج زرقاء صافية. وتقدمت فوقفت أمام سليم وسليمان! ولست أبالي حضرة سليم وسليمان، فقد ذهب الدهر بسليم وسطواته، وذهبت الريح بملك سليمان.

وانظر إلى من بعد سليم وسليمان: هذان سليمان الثاني ومحمد الرابع على رأسيهما عمارتان تخالفان ما رأيت قبلا، عمارة حمراء عليها لفافة صغيرة، وشارة عظيمة جداً؛ ثم انظر العمائم الطويلة المضلعة على رأس مصطفى الثاني ومن بعده.

وهذا محمود الثاني الذي بذل في الإصلاح جهده وبطش بالإنكشارية بطشته في زي أوربي على رأسه طربوش عليه قطيفة سوداء وشارة. ثم عبد المجيد على رأسه الطربوش والشارة فقط. وهكذا يسير التاريخ متمهلا من أبهة الماضي واستقلاله وجلاله إلى يسر الحاضر وتقليده وجماله.

وفي وسط الحجرة صوالج لعبت بالأمور حتى لعبت بها الأقدار. وليت شعري ما خَطبُ

هذا المهد السلطاني الصغير؟ بل أي طفل من بني السلاطين ترجّح فيه، وأي يد من أيدي الأميرات أو الخادمات هزته؟ وماذا كان حظ صاحبه من هذا المهد إلى ذاك اللحد؟

وأما هذا العرش العظيم المسبغ الجوانب ذو القوائم الأربع فيقال إنه عرش الشاه إسماعيل. . .

وبعد فيا صديقي الزيات! أخشى أن يطول الحديث فليقف الكلام عند عرش إسماعيل وموعدنا الرسالة المقبلة إن شاء الله.

والسلام عليكم ورحمة الله.

عبد الوهاب عزام

أناشيد صوفية

جيتانجالي

للشاعر الفليسوف طاغور

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

- 57 -

انتظم في نشيدي الأخير كل فنون الطرب: الطرب الذي يكسو وجهه بخضرة النبات المتراكم؛ الطرب الذي يبعث التوأمين - الموت والحياة - في أنحاء الأرض يطوفان معا؛ الطرب الذي يهبط جارفاً في ثنايا عاصفة فينفث في الحياة روح اللذة والمرح، الطرب الذي يستقر في هدوء وعبراته على زهرة اللوتس الحمراء وهي تتفتح؛ الطرب الذي ينثر كل ما يملك على الثرى ثم هو لا يستطيع حديثا.

- 58 -

نعم، أنا أوقن بأن هذا ليس شيئا سوى حبك، يا حبيب القلب! هذا الشعاع الذهبي المتألق على أوراق الشجر، هذه السحب المتكاثفة وهي تسبح في الفضاء، هذا النسيم العليل وهو يهب ندياً يداعب وجهي.

لقد ملأ نور الصباح عينيّ، وهو رسالتك إلى قلبي، إن وجهك يطل على من علٍ، وعينيك تحدقان في، وقلبي يلمس قدميك.

- 59 -

على شاطئ بحر الكون اللانهائي يتلاقى الأطفال، ومن فوقهم السماء تمتد في سكون إلى اللانهاية، وبازائهم الأمواج المضطربة تزمجر، وعلى شاطئ بحر الكون اللانهائي يتلاقى الأطفال في هياج ومرح.

وهم يتخذون من الرمال قصورا، ومن الأصداف الفارغة لعبا؛ ويشيدون من الأوراق الذابلة قوارب يدفعون بها على صفحة الماء الغمر في لذة. إن الأطفال يجدون السلوة على شاطئ بحر الكون.

إنهم لا يستطيعون السباحة ولا يعرفون كيف تلقى الشباك. إن الغواص يندفع يفتش عن اللآلئ، والتاجر ينطلق على الفلك يجمعها، ولكن الأطفال يجمعون الحصى وينثرونه لأنهم لا ينقبون عن الكنوز الخفية، فهم لا يعرفون كيف تلقى الشباك.

البحر يموج كأنه يقهقه، ورمال الشاطئ الصفراء تشف عن بسمة رقيقة، والأمواج إلى جانب الأطفال تردد أغاني لا معنى لها كأنها صوت أم تهدهد طفلها وهو في مهده. إن البحر يداعب الأطفال، ورمال الشاطئ الصفراء تشف عن بسمة رقيقة.

على شاطئ بحر الكون اللانهائي، يتلاقى الأطفال والعاصفة تزمجر في الفضاء، والسفن تتحطم في مجاهل الأمواه. الموت هناك، وهنا الأطفال يلعبون. على شاطئ بحر الكون اللانهائي يتلاقى الأطفال لقاءهم العظيم.

- 60 -

أفيستطيع إنسان أن يعرف من أين يهبط النوم الذي يداعب جفني الطفل؟ نعم، إن الإشاعة تدوي أنه يتخذ له مسكنا في القرية الجميلة التي بين تفاريق الغابة الظلماء لا ينيرها سوى الشعاع الضئيل المنبعث من الفراش المضيء، هناك تتدلى زهرتان فيهما الحياء والفتنة تنفثان ريح النوم فينطلق ليقبل عيني الطفل.

أفيستطيع إنسان أن يعرف من أين تهب البسمة الساحرة التي ترسم على شفتي الطفل وقد غمره النوم؟ نعم، إن الإشاعة تدوي أن شعاعاً رفيقاً ندياً انبعث من القمر وهو هلال فلمس حافة سحابة من سحب الخريف وهي تكاد تتلاشى، فولدت - أول ما

ولدت - الابتسامة في أحلام الصباح الندي. . . هذه هي الابتسامة الساحرة التي ترتسم على شفتي الطفل حين يغمره النوم.
أفيستطيع إنسان أن يعرف أين كان يتواري النشاط الحلو الرقيق الذي يضطرم في أطراف الطفل؟ نعم، حين كانت الأم فتاة ألقت بقلبها في هدوء بين خفايا الحب. . . الحب، إنه هو النشاط الحلو الرقيق الذي يضطرم في أطراف الطفل.
- 61 -
حين أحمل إليك - يا بني - اللعب الجميلة الملونة أستطيع أن أعرف لماذا ارتسمت هذه
الألوان على السحب، على الماء، ولماذا صبغت الأزهار اليانعة بألوان جذابة. . حين أحمل إليك - يا بني - اللعب الجميلة الملونة، حين أغني أمامك لترقص على نغم أغاني؛ أعرف حقا لماذا تنبعث الموسيقى من حفيف أوراق الشجر، ولماذا يرسل الموج ألحانه في قلب الأرض الصامتة. . حين أغني أمامك لترقص على نغم أغاني.
حين أقدم لك الحلوى فتتقبلها في شغف؛ أعرف أنا لماذا امتلأ كأس الزهرة رحيقا، ولماذا انضمت الفاكهة على عصير حلو. . . حين أقدم لك الحلوى فتتقبلها في شغف.
حين أقبل جبينك - يا عزيزي لتبسم؛ أستطيع أن ألمس اللذة في شعاع الصباح المنير، وأن أحس النشوة التي تنفثها في نسمات الصيف. . . حين أقبل جبينك لتبسم.
- 62 -
أنت عرّفت علي أصدقاء لا أعرفهم، وحبوتني بمكان في كل دار وليس لي واحدة منها، وأنت كشفت لي عن كل مبهم، ومننت علي برفيق في الغربة.
إن قلبي ليضطرب حين أهجر مأواي الذي سكنت إليه. لقد نسيت أن القديم يتحدر إلى الحديث فيعيش معه، وأنك أنت أيضا.
بين صراع الحياة والموت، على هذه الأرض أو على سواها، تقودني أنت أنى شئت. . . وأنت رفيقي الأوحد في هذه الحياة الأبدية، رفيقي الذي تجذب إليك قلبي بنفثات من الطرب المجهول.
إن الذي يعرفك لا يستشعر الغربة في هذا العالم ولا تسد في وجهه الأبواب. أوه، تقبل صلواتي كي لا أفقد لذة لمساتك - أيها الفرد - في سبيل المجموع.
- 63 -
عند منحدر النهر الموحش، وبين الحشائش النامية سألتها (يا سيدتي، إلى أين تذهبين وأنت تسترين سراجك بين طيات ملاءتك؟ إن داري مظلمة خاوية فأعيريني ضوءك!) فأرسلت من عينيها السوداوين نظرات نفاذة اخترقت أستار الظلام، واستقرت علي حينا ثم قالت (لقد جئت إلى النهر لأضع مصباحي على صفحة الماء حين ينطفئ مصباح النهار) فوقفت وحيداً بين الحشائش أرقب نور مصباحها الخافت وهو يتناثر بدداً على صفحة الماء.
وفي صمت الظلام سألتها: (يا سيدتي، لقد همد مصباحك فإلى أين تنطلقين ومعك سراجك؟ إن داري مظلمة خاوية فأعيريني ضوءك!) فأرسلت من عينيها السوداوين نظرات نفاذة استقرت علي حيناً، ثم قالت: (لقد جئت لأقدم مصباحي إلى السماوات) فوقفت أرقب الضوء الخافت وهو يضطرب - دون جدوى - في الفضاء.
وفي أعماق الليلة الظلماء سألتها: (يا سيدتي، لماذا تضمين مصباحك إليك؟ إن داري مظلمة خاوية فأعيريني ضوءك!) فتلبثت قليلاً تفكر نظرت إلي وقالت: (لقد جئت بمصباحي لأنضم إلى الحفل) فوقفت أرقب الضوء الخافت وهو يغوص وسط المصابيح.
كامل محمود حبيب
من الشعر الإنجليزي.
القبرة
للشاعر العبقري الإنجليزي (شيللي)
للأستاذ خليل هنداوي
تعد هذه القطعة أكمل ما جاء في الشعر الإنجليزي وقد نظمها صاحبها في إيطاليا،) وهو في الثامنة والعشرين من عمره. وقد قالت امرأته: إنه كان في أحد أيام الصيف (يتجول في الغابات وقد سمع صوت قبرة، فأوحت إليه قصيدة من أسمى قصائده

(خ. هـ).
سلاما عليك أيتها الروح المرحة!
أنت لستِ بطائر
يا من تسكبين من السماء ومن الطباق المجاورة
ألحانا مبتكرة - علينا - يطفح قلبك بها
تطيرين إلى الأعلى، دائماً إلى الأعلى
وتنقذفين من الأرض كسحابة من نار،
وتطيرين فوق الأعماق الزرقاء
شادية وأنت محلقة
محلقة وأنت شادية لا تنتهين.
وفي لمعات الشمس الغاربة التي يسطع لها السحاب
تسبحين وتركضين كفرح طليق متوثب بدأ سباقه؛
صفرة المساء الأرجواني تنتشر حولك
وكنجمة غمرها نور النهار الواضح تصيحين متوارية،
ولكني لا أزال أسمع هتافك الطروب.
الفضاء والأرض مفعمان بصوتك
كعهدهما عندما يرسل القمر أشعته من وراء سحابة منعزلة
في الليلة الصافية
والسماء يفيض على حواشيها شعاعه
خرير الينابيع بين الأعشاب اللامعة
والأزهار النائمة التي ينبهها المطر
وكل ما أطرب وأفرح وسر ألا يفوق لحنك منه شيء
علمنا أيها الطائر!
أي جمال في أفكارك!
فإني لم أسمع مقطوعة في حب أو خمر تفجر في النفس كمثل
ما يفجره لحنك من الغبطة الإلهية
إن الحان العرس وأغاني النصر إذا قيست إلى ألحانك لا
تبدو إلا ضجة فارغة أو فراغاً لا معنى له.
لأية غايات تترامى ينابيع صيحاتك الفرحة؟
أية حقول وأية أمواج أو جبال؟
وأية مشاهد في الأرض أو في السماء؟
وأي حب للقريب؟ وأي جهل للشقاء؟
إن العناء لا يسكن مع فرحك الظاهر القوي؟
وخيال الضجر لا يَمسُّك أبداً
إنك تحيين ولكنك لم تعرفي أبداً شبح الحب الكئيب
سواء كنت نائمة أو يقظى، فإن لك أفكاراً على الموت اثبت
حقيقة مما نحلم به
وإلا فكيف تسبح أنغامك كالأمواج البراقة؟
إننا ننظر أمامنا ووراءنا، وإنا لنشحب بعد الفناء؛
وضحكتنا الأكثر صفاء هي مشوبة ببعض الألم؛
واجمل أغانينا الأغاني التي ترجع لنا أفكارنا الكئيبة،
على أننا لو قدرنا أن نجتنب الخوف والبغض والكبرياء
ولو ولدنا لكي لا نبكي أبداً،
فإني لا ادري كيف لا يستطيع فرحك أن يستعطف أنفسنا!
إن فنك الذي يزدري الأرض
يكون - عند الشاعر - افضل من أوتار الألحان الرائعة
ومن كل الكنوز التي تصونها الكتب.
آه لو علمتني - أيتها القبرة - نصف فرحك الذي يعرفه قلبك
أو صوتاً مطرباً يفيض من شفتي يسمعه مني الناس كما اسمع الآن

قبرة شيللي
للشاعر الإنجليزي توماس هاردي
كتبت في إيطاليا حيث كتب شيللي مقطوعته الشهيرة (القبرة)
هنا بعض شيء - حول هذا المكان - يستريح ملاصقاً أمينا للأرض الناسية العمياء
بعض شيء ترك قلب الشاعر فياضاً
قبضة مجهولة من تراب لا يُرى
تراب القبرة التي سمعها شيللي وخلدها لكل الأزمان
على أنها لم تعش إلا كمثل عصفور من العصافير
ولم تعلم أنها أصبحت مخلدة
قضت حياتها العذبة ثم سقطت يوما كتلة من ريش وعظام.
أما سؤالك كيف هلكت وهي ترجع أنشودة الوداع
وأين استقر رمادها
فهذا أمر مجهول.
ربما تستريح تحت عيني في التراب
وربما تخفق بين أوراق الرياحين
وربما تنام في ظاهر لون عنقود يتلون في منحدر التلال
بعيداً عن البحر
ألا فتشن عنها أيتها الجنيات!
ألا فتشن عنها هذه القبضة الصغيرة من الرماد من غير ثمن
وخذن آنية موشاة بالفضة مغشاة بالذهب، مرصعة باللؤلؤ
إننا سنضعها فيها بأمان، ونسلمها إلى أبد الزمان
لأنها بلغت ذروة الذهول السامي في التفكير والألحان
خليل هنداوي
فلسفة التربية
كما يراها فلاسفة الغرب
للأستاذ محمد حسن ظاظا
- 5 -
الديمقراطية والحياة المثلى
(أية قطعة من الخليقة هو الإنسان؟ كم هو عظيم في عقله وليس بمحدود في ملكاته؟ وكم هو رائع وسريع في صورته وحركته؟ وكم هو كالملاك في عمله وكالإله في فهمه؟ إنه جمال العالم وتاج الحيوان!!)
شكسبير - هملت.
(على التربية اليوم أن تصلح الأخطاء التي فشلت السياسة في إصلاحها، وأن تخدم قضية الديموقراطية أفضل خدمة).
عرضت عليك في المقال السابق ألواناً من أغراض التربية وصوراً، وأشرت إلى دقة الموضوع وصعوبته، ثم تركته مفتوحاً لرجال التربية في الشرق كيما يدلي كل منهم فيه برأيه الخاص؛ وأعود اليوم فأجول بك في (الحياة المثلى) ما دمنا نريد من التربية أن تعدنا لمثل تلك الحياة. . .
ولكن ترى ماذا عسى أن تكون هذه (الحياة المثلى) لذلك (الإنسان العظيم) الذي تصوره شكسبير؟؟ وأي علم من العلوم، أو فن من الفنون، يصلح للخوض في ذلك الموضوع غير الفلسفة والشعر؟؟ ومن أين تستمد التربية هذه الحياة إذا هي لم تستمدها من الفلسفة والشعر؟؟
الحق أن الناس قد اختلفوا وما زالوا يختلفون في تصورهم للحياة، وأن الفلاسفة والشعراء قد تباينوا تباينا عظيما فيما قد رسموه لها من (مثل عليا) دافعوا عنها ودعوا الناس إليها! وأنت ترى بعد ذلك أن الموضوع خطير كل الخطورة ما دامت حياتنا هنا واحدة لا عودة لها ولا تكرار!
إذن فيم تقوم (الحياة المثلى)؟ أفي الزراعة وحكمة الأقدمين كما يقول (غاندي)؟ أم في السرور كما يزعم (ماتيو أرنولد)؟ أم في العمل بالتئام مع إرادة حاكم الكون كما

يردد (زينو)؟ أم في النشاط الفكري الدائر حول أسمى موضوعات الفكر - وهو الله - كما يؤكد (أرسطو)؟ أم في إشباع الحاجات الطبيعية دون إفراط أو تفريط كما يطالب (سبنسر)؟ أم في التأمل في الجمال المطلق كما يسمو (أفلاطون)؟ أم في حياة الفضيلة كما نصح الرواقيون؟، أم في الحياة الطبيعية البعيدة عن العلم والفن كما صرح (روسو)؟ أم في أداء الواجب فحسب كما ألح (كانت)؟

تلك جمعياً تصورات (للحياة السعيدة) فيها من التشابه والاختلاف الشيء الكثير. ولقد حاول (ديوي) في نزعته الاجتماعية الجارفة أن يدلي برأيه في الموضوع فقال: (إن السعيد من الناس هو من ينظر إلى قوى نفسه من ناحيتها الاجتماعية فلا يدبر أمراً أو يرغب فيه إلا بالإشارة إلى أثره في الجماعة التي هو جزء منها. ذلك أن سعادته إنما تقوم في تنمية (النشاط الاجتماعي) دون النظر إلى ما عسى أن يكون في ذلك من لذة أو ألم) ومعنى ذلك أن الإنسان - مهما سما في الفكر أو اغتنى بالمادة - لا يستطيع أن يتذوق السعادة الحقة إلا في ظل الجماعة التي هو جزء منها، والتي لها عليه واسع الفضل وعظيم النعمة؛ وليست هذه النزعة في الواقع إلا صدى لتيار (الديمقراطية) الذي أغرق بأمواجه المدوية الجارفة خرافة (التفريق بين الناس)، وحمل (الشعب) على ظهره إلى فردوس الكرامة والرقي!

وماذا عسى أن تكون هذه الديمقراطية؟ وماذا عسى أن تكون تطبيقاتها في التربية؟ أما هي فيعرفها (ديوي) بأنها (حكم الشعب لأجل الشعب وبالشعب)! ويفسرها بأنها اشتراك الأفراد في المصالح العامة بحرية تامة وفي دائرة الخير العام؛ هذا بينا يعرّفها (باستور) (بأنها النظام الذي يمكن الجميع من تحقيق أقصى مجهوداتهم).

وأما تطبيقاتها في التربية وفي غير التربية فخطيرة وعظيمة بحيث لا يكاد يتسع لها مثل هذا البحث. . . وحسبك أن تعلم آثارها في نظام الحكومة، ونظام العمل والعمال، ونظام التعليم الشعبي، بل نظام العالم كله كما يتصوره السلميون العالميون لتعلم حقيقة ما أقول:

وهاهو ذا (وولف يشترط في أعمال الفرد الديمقراطي أن (تكون شائقة جذابة وإلا دفعت به إلى الفساد الخلقي)!

وهاهو ذا (هوبهوس) يحرم الحرب في الديمقراطية لأنه يراها تقتل (الحرية)، وهذه - كما تعلم - أساس الديمقراطية.

بل هاهو ذا الأستاذ يرى مع (ديوي) وغيره أن الديمقراطية يجب أن تسود التربية في جميع مراحلها وتطبيقاتها ويرجو من التربية ذاتها أن تكون خير مساعد في نشرها كيما تستطيع غدا أن تصلح تلك (الأخطاء الهائلة) التي رزح العالم تحت أثقالها سنين طوالاً، وكان الجاني عليه فيها سياسة عمياء، ونزعة حمقاء، وجهل مطبق!

تطبيقات الديمقراطية على التربية

وما دمنا هنا إزاء التربية فلا بد من أن نجعلها صالحة لخلق ذلك المجتمع الديمقراطي المنشود - لابد من أن نجعلها تعد الفرد لا لملء مركز خاص كما كان الحال في (خرافة الطبقات)، بل لخلق مركز مناسب يعمل فيه كوحدة مرنة متسقة محترمة قادرة على مواجهة التغير المنتظر في كل وقت، وغير خاضعة لسياسة تعسفية مفروضة!

ولم ذلك؟ ألم تفشل مدارسنا الراهنة في تعليمنا أن الحياة مغامرة فيها من المفاجآت القاسية بقدر ما فيها من المداعبات الهينة؟ ألم تخرج لنا أولئك المتكبرين المتعجرفين الذين لا يصلحون لشيء غير ملء المقاعد وتسويد الأوراق، والذين تقوم بينهم وبين الشعب هوة من الإنسانية الكسيرة، والكرامة المهيضة والشرف المذبوح؟

نريد إذن عالماً أحسن؟! عالماً لا تثور فيه الحرب، ولا تطغى الآلة، ولا يذبح فيه (العلم المادي) الإيمان فيؤخر السمو الخلقي ويعوقه عن اللحاق بالتقدم العلمي!! عالماً لا يدخل عليه التغير الحتمي فيغرق أبناءه في جحيم من الفوضى كما نرى في كل مرحلة انتقال تجتازها أمة من الأمم أو مجتمع من المجتمعات!!

وسبيل ذلك كله هو تحويل (المدرسة والتدريس) إلى (شيء آخر) تنمو فيه شخصية الطفل، وتقوى على مواجهة الظروف، وتكون مرنة لا تأسرها العادات، وذات فراغ كاف بريء يكسبها حكمة العلم ورقة الفن ويسمو بها فوق الآلات!! ذلك إلى عمل (مفهوم) وشائق وجذاب، وإلى ثقافة راقية تفهم صاحبها مركزه في الكون ووظيفته في الجماعة التي يجب أيضا أن تكون مفهومة لديه!! ثقافة خالية من (لصوص التاريخ

وسفاكيه) كما يقول هازئاً (برناردشو) وبذلك يكون لدينا عضواً فعالاً، متعاوناً مستقلاً، عادلاً، يحترم المعارضين،
ويشك، وينقد، ويجازف، ويسمو في إنسانيته فوق العجماوات، عضواً يرى السلاح حقارة كما يقول (برتراند رسل)، ويمقت البدع الدينية ومروجيها من ذوي الطيالس واللحى، عضواً كله إقدام وتفاؤل وأمل، لا خوف وتردد ويأس. . .
وستسأل بعد ذلك عن الأساس الفلسفي الديمقراطي؟! وسأجيبك أن الله الذي خلق الإنسان (على مثله وصورته) ما كان ليرضى له ذلاً أو استعباداً، أو أي مظهر آخر من مظاهر الاستبداد الذي يخمد إنسانيته ويعوقها عن كمالها المنشود.
أوَ ليس (الإنسان) عظيماً في عقله، وغير محدود في ملكاته، ورائعاً في صورته، وسريعاً في حركته؛ وكالملاك في عمله، وكالإله في فهمه؟ لأنه جمال العالم وتاج الحيوان؟
إذن فما لنا نأبى عليه إنسانيته الرفيعة هذه، ونلقي به في هوة فيها ما شئت وما لم تشأ من حيوان وشيطان؟
(يتبع)
محمد حسن ظاظا
مدرس الفلسفة بالمدارس الثانوية

للأدب والتاريخ
مصطفى صادق الرافعي
1880 - 1937
للأستاذ محمد سعيد العريان
- 20 -
تحت راية القرآن
الجديد والقديم. . .! هنا ميدان الخصومة بين الرافعي وأدباء عصره؛ فمنذ نحله أديب منهم زعامة المذهب القديم في مقال كتبه لمجلة الهلال سنة 1923، نشط الرافعي ليجاهد هذه الدعوة التي يدعون إليها بتقسيم الأدب إلى قديم وجديد؛ إذ لم تكن هذه الدعوة عنده إلا وسيلة إلى النَّيل من العربية في أرفع أساليبها، وسبيلاً إلى الطعن في القرآن وإعجاز القرآن، وباباً إلى الزراية بتراث الأدباء العرب منذ كان للعرب شعر وبيان. ومن ذلك اليوم نصب الرافعي نفسه ووقف قلمه على تنفيذ دعوى التجديد؛ فجعل همَّه من بعد أن يتتبع آثار الأدباء الذين ينتسبون إلى الجديد ليردَّ عليهم ويكشف عن باطلهم. وما كان يرى في عمله ذلك إلا أنه جهاد لله تحت راية القرآن؛ فمن ذلك كان اسم كتابه الذي جمع به كل ما كتب في المعركة بين الجديد والقديم، من سنة 1908 - 1926.
هو كتاب لم ينشئه ليكون كتاباً، ولكنها مقالات تفرقت أسبابها واجتمعت إلى هدف واحد، وكانت مزقاً مبعثرة في عديد من الصحف والمجلات فجمعها بين دفتي كتاب، فاجتمع بها رأي الرافعي في القديم والجديد على اختلاف أسبابه ودواعيه وما كُتب له؛ على أنك لا تكاد تبلغ من صفحات هذا الكتاب إلى الصفحة المائة من أربعمائة حتى يخلو الميدان من كل أنصار الجديد إلا رجلاً واحداً هو الدكتور طه حسين بك، ويتوجه إليه الخطاب والرد في كل ما بقي من صفحات الكتاب؛ فكأنما أنشأه الرافعي وجمعه كتاباً للرد عليه هو وحده، وكأنه هو وحده الذي يدعو إلى الجديد وينتصر له ويحمل رايته؛ فإذا أوشكت أن تفرغ من الكتاب فرغت من الرافعي ومن رأيه ومن حديثه، لتقرأ جلسة من جلسات البرلمان يرأسها سعد ويتداول الحديث فيها طائفة من النواب عن طه حسين ورأي طه حسين في الأدب
وفي الدين وفي القرآن، ويحتدم فيها الجدل بين حكومة عدلي وبرلمان سعد في شأن هو إلى الأدب أدنى منه إلى السياسة؛ وإنها لجلسة ممتعة خليقة بأن تكون في موضعها من كتب الأدب وتاريخ النقد الأدبي.
وليس الكتاب على استواء واحد في أسلوبه؛ ففي المقالات الأولى منه تقرأ رأي الرافعي هادئاً متزناً فيه وقار العلماء وحكمة أهل الرأي ورحابة صدر الناقد البريء؛ فإذا وصلت من الكتاب إلى قدر ما، رأيت أسلوباً وبياناً غير الذي كنت ترى، وطالعتك من صفحات الكتاب صورة جَهْمةٌ للرافعي الثائر المغيظ المحنق، جاحظ العينين كأنما

يطالب بدم مطلول، مزبد الشدقين كالجمل الهائج، منتفخ الأنف كأنما يشم ريح الدم، سريع الوِثاب كأن خصماً تراءى له بعدما دار عليه طويلاً فهو يخشى أن يفر، وهو هنا يعني طه حسين وحده!

وليس عجيباً أن ترى هذين اللونين من النقد لأديب واحد بين دفتي كتاب؛ فإن هذه المقالات وإن صوَّبتْ إلى هدف واحد قد اختلفت دواعيها وأسبابها ومن كُتبت له؛ وقد كان بينها في التاريخ الزمني سنوات وسنوات، والكاتب المتجدد لا يثبت على لون واحد من عام إلى عام.

على أنك تقرأ للرافعي من هذا الكتاب رأيه في طريقة تدريس الأدب بالجامعة غداة تأليفها سنة 1908، فتراه يدعو إلى مذهب جديد في تدريس الأدب، وتقرأ له - من الكتاب نفسه - ردَّه في سنة 1926 على طه في طريقته الجديدة لتدريس الأدب، فتراه ينكر عليه هذا الجديد؛ فتعلم من هذا وذاك أن الرافعي لم يكن يعني بحملته أن يناهض كل جديد، بل كانت غايته أن يردَّ إلى الأفواه كل لسان يحاول بدعوى الجديد أن يتنقص من القديم ليخلص من ذلك إلى النيل من لغة القرآن ولغة الحديث ومن تراث أدباء العربية الأولين.

ليس يعنيني هنا أن ألخص رأي الرافعي في الجديد والقديم، فمراجع البحث عن رأيه في ذلك واسعة مستفيضة، إنما قصْدت إلى تعريف هذا الكتاب إلى قراء العربية في عرض موجز ووصف كاشف؛ أما ما دون ذلك فله من شاء من أهل الرأي والنظر، وله مني غير هذا المجال من الحديث.

والآن سأتجاوز الفصول الأولى من الكتاب لأتحدث عن أسلوبه في سائره؛ ويبدأ هذا الجزء

من صفحة 104 - 405 وفيه تفصيل ما كان بين الرافعي وطه حسين منذ بدأت الخصومة بينهما حول (رسائل الأحزان) إلى أن انتهت عند مجلس النواب حول كتاب (في الشعر الجاهلي)، وهو فصول عدة، فيها ألوان من النقد مختلفة، وأساليب في البيان متباينة؛ ففيها التهكم المر، وفيها الهجوم العنيف، وفيها المصانعة والحيلة، وفيها رد الرأي بالرأي، وفيها تقرير الحقيقة على أساليب من فنون النقد، وفيها المراوغة ونصب الفخاخ للإيقاع، وفيها الوقيعة بين فلان وفلان، وفيها الزلفى إلى فلان وفلان، وفيها العلم والأدب والاطلاع الواسع العميق، وفيها شطط اللسان ومر الهجاء؛ وفيها فن بديع طريف، فيما حكى الرافعي عن كليلة ودمنة. . .

ولكن اكثر هذه الفصول يطرد على مثال واحد إذا أنت نظرت إليه في جملته، فيبدأ كل فصل منها بأسلوب اليم من التهكم يفتنّ الرافعي فيه فنوناً عجيبة حتى يبلغ نصف المقال؛ ثم يميل إلى طرف من موضوع الكتاب المنقود، فيتناوله على أسلوب آخر هو اقرب الأمثلة إلى ما ينبغي أن يكون عليه النقد الأدبي، لولا عبارات وأساليب هي لازمة من لوازم الرافعي في النقد إذا كان بينه وبين من ينقده ثأر. . . بلى إنها نموذج عال في النقد العلمي الصحيح لولا تلك العبارات وهذه الأساليب!

كليلة ودمنة

على أن مبالغة الرافعي في التهكم قد شققت له فنوناً من المعاني والأساليب، لولا الناحية الشخصية منها لكانت نماذج لها اعتبار وقيمة في أدب الإنشاء؛ وأبدع هذه الأساليب حديثه عن كليلة ودمنة وما نحلهما من الرأي في طه حسين. وكليلة ودمنة كتاب في العربية نسيج وحده، لم يستطع كاتب من كتاب العربية أن يحاكيه منذ كان ابن المقفع، إلا مصطفى صادق الرافعي. وكانت أول هذه المحاكاة اتفاقاً ومصادفة، في مقالة من مقالات الرافعي في طه حسين؛ إذ أراد أن يتهكم بصاحبه على أسلوب جديد، فبعث كليلة ودمنة ليقول على لسانهما كلاماً من كلامه ورأياً من رأيه؛ فلما أتم تأليف هذا الفصل عاد يقرؤه، فإذا هو عنده يكاد من دقة المحاكاة وقرب الشبه أن ينسبه - على المزاح - إلى ابن المقفع فلا يشك أحد في صدق روايته، فنشره بعدما قدم له بالكلمة الآتية: (عندي نسخة من كتاب كليلة ودمنة ليس مثلها عند أحد. . . ما شئت من مثل إلا وجدته فيها؛ وقد رجعت إليها اليوم فأصبت فيها هذه الحكاية. . .

قال كليلة: أما تضرب لي المثل الذي قلت يا دمنة؟ قال دمنة: زعموا أن سمكة في) ومضى في اختراعه وتهكمه حتى انتهى إلى رأي دمنة في الدكتور (. . . . . .قدر ذراع

طه حسين. . .
ثم استمر ينقل عن (نسخته الخاصة) من كليلة ودمنة ما يجعله مقدمة القول للتهكم فيما يلي من مقالات في الرد على الدكتور طه حسين، فنشر منها ثمانية فصول طريفة ممتعة في كتاب المعركة. وإن قارئ هذه الفصول الثمانية ليرى فيها لوناً طريفاً من أدب الرافعي، لو أن الظروف واتته لأتمه فأنشأ به في العربية إنشاء جديداً له خطر ومقدار. على أن الرافعي لم يكن يقصد أول ما قصد أن يتمه كتاباً، إنما دفعه إلى إنشاء هذه الفصول السبعة بعد الفصل الأول، ما لقي من استحسان القراء لهذا اللون الجديد من أساليب التهكم في النقد؛ وأحسب أن الدكتور طه حسين نفسه كان معجباً بهذه الفصول الثمانية من كليلة ودمنة مع ما يناله فيها مما يؤلم ويسيء، كما كان يعجب فلان بما ينشر بما ينشر له من الصور الرمزية الساخرة لأن فيها فناً ومقدرة. . .!
وانتهى الرافعي من حديث كليلة ودمنة بعد انتهاء هذه المعركة وظل مهملاً (نسخته الخاصة) ست سنين بعد ذلك، حتى تذكرها في سنة 1932 أو 1933 في إبان المعركة بينه وبين العقاد حول (وحي الأربعين) فنشر الفصل التاسع منها في البلاغ بعنوان (الثور والجزار والسكين) ثم نشر في الرسالة سنة 935 الفصل العاشر بعنوان (كفر الذبابة!) يعني بها مصطفى كمال وحركته الدينية، وفصلاً آخر لا أذكره.
وقد كان في منية الرافعي أن يتم هذه النسخة من كليلة ودمنة يعارض بها كتاب ابن المقفع أو يتمه، ولكنه لم يوفق، وكان في ذلك خير؛ فهذه الفصول في موضعها من الكتب التي نشرت بها اجمل وأخف، وإفرادها بالنشر يحملها على تكلف الصنعة ويباعد بينها وبين أذواق القراء. على أن هذه الفصول لا اتصال بينها في موضوعها بحيث تصلح للنشر متساوقة متتابعة كما تتساوق الفصول والأمثال في كتاب ابن المقفع.
هذا مجمل الرأي وملخص الموضوع في كتاب المعركة تحت راية القرآن وما احتواه. وهو وكتاب آخر اسمه (على السفود) خلاصة مذهب الرافعي في النقد وأسلوبه في الجدال؛
وفيهما أشلاء المعركتين الطاحنتين بينه وبين طه وبينه وبين العقاد، بدمائهما، ورمامهما، ولهيبهما المستعر، ودخانهما الخانق، وغبارهما الكثيف. .
لو تجرد هذان الكتابان من بعض ما فيهما لكانا خير ما أنتجت العربية في النقد، واحسن مثال في مكافحة الرأي بالرأي مع الاطلاع الواسع والفكر الدقيق. ولكن وا أسفا، إن الإطار يحجب ما في الصورة من جمال، فمنذا - غير مالك الصورة - يستطيع أن يحطم هذا الإطار ليجعلوا الصورة في جمالها على أعين الناس!
(شبرا)
محمد سعيد العريان
نهضة القصة في لبنان
للسيدة وداد سكاكيني
كان من حظ لبنان أن هبت عليه ريح الثقافة اللاتينية بعد الحرب الكبرى، فدبت في أرجائه حياة أدبية جديدة نفخت في أبنائه روحاً طوحاً، فذاق المتعلمون منهم أطيب ثمار الآداب الفرنسية؛ ومنها فن القصة الذي كان له في نهضة فرنسا الحديثة تأثير كبير سايرها في شتى مناحي الحياة. وليس بغريب أن يسمو فن القصة في أمة ناهضة استيقظت على صرير الأقلام الحرة، فقد عرف قادتها في الرأي والتفكير كيف يشقون الدروب للموهوبين في القصة والأقصوصة فكرموهم اجمل تكريم وضمنوا لهم حياة راضية حفزتهم للإجادة بالتنافس، فتسابق البارعون منهم إلى المجامع العلمية والندوات الأدبية يرفعون إليها قصصهم لينالوا جوائزها المعدة للفائزين.
وأولى هذه الجوائز التي ظهرت في فرنسا اعترافاً بالسمو الأدبي جائزة غونكور، وما تزال موضع رجاء يتطلع إليه الأدباء بلهفة وإكبار. وقد تعد لديهم أعلى مكانة وأرفع قدراً من مقعد خالد في الأكاديمية. وهناك جائزة فمينا وميركورد وفرانس والشاعر مالارميه، كما أن المجمع الفرنسي يهب كل عام آلاف الفرنكات للمجيد في كتابه القصة.
ليس بعجيب كما أسلفت إذا كانت الأمة الفرنسية تعني وهي في أوج مجدها بالفن القصصي وتحذو حذو الروس لتمهيد السبيل لعباقرة الرواية الذين استطاعوا أن

يخلقوا بفنهم الرفيع آفاقاً جميلة تعيش فيها جماعات وأفراد تترفع عن الإسفاف وتدنو من الكمال، إذ ليس مثل القصة وسيلة لسرور الأسرة ورفعة الوطن ورقي المجتمع. ويحق للقصة أن يسطع نجمها في الآداب العالمية لأنها اصدق مصور للحياة بأفراحها وأتراحها، تؤدي أغراض الإنسانية المنوعة على الوجه القريب الكامل، وتبث في النفوس ما ترمي إليه من أهداف وآراء بسهولة وإغراء.

ولقد تأثرت ناشئة لبنان في عهده الجديد بآداب الفرنسيس الطريفة فذاقوا حلاوتها، ونشقوا عبيرها، وكان من إقبالهم عليها وفهمهم إياها ما نراه اليوم من شغف ظاهر بفن القصة ومحاولات موفقة في إنشاءها وترجمتها، وتوجيهها إلى الصدق والإبداع.

إذن لم يشهد لبنان نهضة في الفن القصصي إلا منذ عهد غير بعيد لأنها في أدبه العربي الحديث وليدة الأمس القريب، وكما يكون كل عمل في أوله غثاً وكل غيث قطراً، فكذلك ابتدأت القصة حياتها في لبنان، وكان أول من اطلع من أفقه شمسها في نهضتها الحديثة كرم ملحم كرم، فقد انشأ مجلته (ألف ليلة وليلة) لتكون عاملاً قوياً في بناء القصة العربية، فكان يزجي لقرائه كل أسبوع هدية أدبية إما من وضعه أو تعريبه، وما يزال هذا دأبه منذ عشرة أعوام ونيف، ولكنه برغم ما أوتي من موهبة فنية مرهفة ولسان عربي مبين لم يطبع قصصه الأسبوعية إلا قليلا بطابع الآداب الرفيعة، فقد دعته مساوقة اكثر القراء إلى أن ينزل بقصصه إلى مراتبهم ووفق متناولهم من ثقافة أو معرفة؛ وعذيره في ذلك أنه يقدم للمجموع ما يفهم ويرغب ويعود عليه بما يثبت قدمه في عمله الصحافي. فلو أن الحكومة اللبنانية تسير على غرار الحكومات في الغرب فتخصص الإعانات المالية والجوائز للكتاب الذين لهم في يقظة الشعب وتغذيته وإصلاحه أكبر الأثر كي يتوفروا على أعمالهم الأدبية ويخلوا إلى تجويدها والتفوق بها بسكينة واطمئنان للمعاش - لكان هذا الأديب زعيم القصة بلا منازع في نهضتها الحديثة بلبنان. بيد أن الأستاذ كرماً مع انهماكه بجهده المرهق الموزع بين الصحافة والأدب استطاع أن يخلد فنه القصصي في روايتيه (صرخة الألم) و (المصدور) وبعض أقاصيصه البارعة التي كفلت له منزلة القصصي العربي في عصرنا الحديث. على أن مجهوده في سبيل القصة بلبنان سيسجله تاريخ هذا الفن العريق بأحرف من نور. ولن ينسى فضله المنشئون المخلصون الذين عرفوا من تأليفه وتعريبه معنى القصة فسلكوا سبيله، بالاقتداء والاحتذاء، فكان له فضل البادئين السابقين إلى توجيه الفن القصصي اتجاهه الراهن.

وحين ملأ الأستاذ كرم أجواء لبنان وبيئاته بشذا رواياته قام نفر من نوابغ الكتاب ينشرون القصة والأقصوصة في معناها الحديث. وهذه الطائفة من الأدباء وفقت في محاولتها ففتحت في الأدب القصصي فتحاً مبيناً، إذ اتسع أفقه وتوفرت موضوعاته ورأينا من اجله حدباً عليه وتشجيعا لكتابه، فقد أقامت مجلة (الدهور) البيروتية مباراة للأقصوصة عام 934 فاز بجائزتها الكاتب فؤاد الشايب وهو من أدباء الشام الذين يملئون ما يكتبون بأدب الصراحة والحياة.

وفي العام الماضي تبرع الشاعر يوسف غصوب بجائزة للأقصوصة العربية في جريدة (المكشوف) اللبنانية تعزيزاً لهذا الفن الذي يقدره الشاعر وله فيه صور خالدة. وقد نالت جائزة غصوب كاتبة هذه السطور. وما انفك الأدب العربي في لبنان مولياً وجهه شطر القصة موالياً السير إلى الأمام بهمة المضطلعين بتسديد خطواته من الأعلام الغُيُر.

على أن من البر بالحقيقة ومن الواجب عليّ - خدمة للتاريخ - أن أذكر أديبين كان لهما اثر واضح في النهضة القصصية الجديدة، فقد كتبا الأقصوصة ببراعة وشجاعة فوفقا فيها وتهافت قراؤهم عليها، فاستحقا الشكر لدفعهما النشء العربي عن تلك الأقاصيص المبتذلة التي تنشرها الصحف التجارية لتسلية القراء ولهوهم.

لقد نوهت الأقلام في العامين الماضيين بقصص الأديب الموهوب توفيق يوسف عواد الذي أكب على كتابة الأقصوصة التي تمثل الطبقة الدنيا في المجتمع اللبناني، وكان الفن معواناً له على وصف البؤس العنيف الذي يفتك بأبناء الشوارع والصعاليك وذوي العاهات. غير انه يغلب على نسج قصصه الأسلوب الصحفي بحكم عمله اليومي. وقد نشر مجموعتين: (الصبي الأعرج) و (قميص الصوف) والأمل معقود بهذا الشاب، فان له شأناً في القصة اللبنانية. وأقول اللبنانية لان قصصه موسومة بكل ما هو لبناني

إقليمي. وليس هذا بضائره فإن أكابر القصصيين في عصرنا يمتاز كل منهم بوصف ناحية من نواحي الحياة أو بدرس أطوار جماعة من الناس أو بتصوير الألوان المحلية في البيئة التي يعيش في جوها، ويتنفس هواءها ويرى نورها.

وبينما الناس معجبون بباكورة عواد القصصية أقبل عليهم أديب رفيع العماد هو خليل تقي الدين. لقد نشر قصصه العشر أو التسع على الأصح لان إحداها مترجمة لا موضوعة فرفع بأسلوبه المشرق وديباجته الأنيقة قدر الأقصوصة العربية، ورأينا في قصصه التي سلخها من صميم الحياة ما هو حري بأن يتخذ مثالاً للرواية الفنية الحديثة.

لا أعدو الحقيقة ولا أغلو إذا قلت إن هذه البوادر الطيبة كانت تباشير النهضة القصصية في لبنان ففيها الأمل كل الأمل بتقدمها وازدهارها. وكيف كان الأمر ليقظة القصة ونهضتها في لبنان، فإن مصر اليوم زعيمة القصة العربية، وهي السباقة في حلبتها والقدوة لغيرها، ولن ينزع منها زعامتها الأدبية هراء حاسد ولا حملة حاقد.

هذا قول عاجل. وسأعود قريباً إلى دراسة المؤلفات اللبنانية في القصص وتحليل مضامينها
وألوانها.

وداد سكاكيني

الحضارة المصرية في عهد الدولة القديمة

بحث للعلامة الأثري أريك بيت

للأستاذ أحمد نجيب هاشم

(تابع)

دل قيام الملكية الواحدة في مصر على تقدم عظيم، تقدم جعل كثيرين يعتقدون انه راجع إلى إغارة شعب أجنبي أكثر حضارة، ولكن المستكشفات الحديثة لا تؤيد هذا الرأي. أجل إن مقابر الأسرة الأولى تفوق بمراحل مقابر ما قبل الأسرات مباشرة، ولكن يجب أن نتذكر أن هذه المقابر الأخيرة إنما هي مقابر عامة الناس، ولم يعثر على مقابر ملوك ما قبل الأسرات، فلا يصح أن نقرن مقابر عامة الناس في عصر ما بمقابر ملوك في عصر آخر.

والحقيقة نفسها توضح لنا كيف أن الكتابة تظهر فجأة في الأسرة الأولى بشكل بعيد عن حالتها الأولية، إذ كان الخط المستعمل هو الخط الهيراطيقي، وهو كما لا يخفى اختزال الهيروغليفي فلابد أذن أن يكون هذا الأخير مستعملاً قبل حكم الأسر بزمن طويل. وإذا قصرنا أنفسنا على نوع واحد من المقابر رأينا أن الانتقال من قبل الأسرات إلى عهد الأسرات حدث تدريجياً. ثم إن الأعمال الفنية في الفترة الأخيرة السابقة للأسرات ومن أهمها لوح (نارمر) الإردوازي ومقبض سكين جبل العرك تدل على أن فن الأسرة الأولى هو ثمرة نمو تدريجي لأهل البلاد.

أما وقد قامت الملكية فكان لابد للأنظمة الاجتماعية والسياسية أن تتطور إلى حد بعيد، ولم يكن الملك المصري في أول الأمر ألا رئيساً محلياً ممتازاً.

وكان رئيس القبيلة حاكماً وكاهناً أكبر ومشرعاً لقبيلته فأصبحت هذه الوظائف كثيرة على الملك بعد أن اندمجت القبائل قهراً وطوعاً وأصبحت مصر مملكة واحدة، لذلك اضطر أن يتنازل عن بعض هذه الوظائف، ولكنه ظل نظرياً الكاهن الأكبر لكل إله، فنراه في نقوش المعابد يرأس كل الحفلات الدينية الهامة، وإذ كان من المستحيل أن يوجد في مكانين في آن واحد كان لابد أن ينوب عنه كهنة، وبذلك نرى في أيام المملكة القديمة نواة طائفة الكهنة المحترمين آخذة في التكون.

ولا نعرف شيئاً كثيراً عن تاريخ الملكية في عهد الأسرات الثلاث الأولى؛ فإذا وصلنا إلى الأسرة الرابعة وجدنا مادة كثيرة نستطيع أن نكون منها صورة هامة عنها، ومع ذلك يجب أن نذكر أن مادتنا هذه تتكون إلى درجة كبيرة من ألقاب، وهذه قد تكون مضللة لاسيما وأن فرعون كان يغدقها عن سعة على المقربين إليه حتى اضطر أصحاب الوظائف الحقيقية أن يلجئوا في كثير من الظروف إلى إضافة كلمة الحقيقي بعد لقبهم تمييزاً لهم عن غيرهم.

الحكومة المحلية

كانت حكومة البلاد في يد إدارات محلية تشرف عليها الحكومة العليا وعلى رأسها الملك. وكانت الولاية هي الوحدة الإدارية ويرأسها الأمير أو حاكم الإقليم، وكان حاكماً

وقاضياً ومديراً في ولايته وهو فوق ذلك الكاهن الأكبر لإلهها المحلي ويتمتع بحرية كبيرة داخل حدود ولايته.

على أن هذا الحاكم كان مسؤولاً أمام الحكومة العليا عن ضرائب ولايته، وعن إدارته لها إلى حد ما. والظاهر أن انقسام البلاد إلى إمارات على هذا الشكل هو أثر لانقسامها إلى قبائل قبل هذا التاريخ. وكان الأمراء يتوارثون الحكم في الولايات بعد موافقة الملك لان الأرض نظرياً كانت كلها ملكه.

الحكومة العليا

وليست معلوماتنا عن الحكومة العليا اكثر منها عن الحكومة المحلية إن لم تكن أقل؛ فالملك هو الرئيس الأعلى، وفي عهد الأسرة الثالثة بدأ فرعون يختار وزيراً لمساعدته في المسائل القضائية والإدارية، ونجد أن ملوك الأسرة الرابعة يختارون وزراؤهم من أبنائهم، ثم أصبح فرعون يختار وزيره بعد ذلك من أسرة أخرى إذا شاء. وكان أكثر رجال المملكة مسؤولية لأنه كان الرئيس المباشر لأعمال الموظفين في الحكومة الفرعونية كافة من إداريين وكتبة من أكبرهم إلى أصغرهم، وكان يشترط فيه أن يكون بارعاً في فن العمارة، ومن أهم وزراء الأسرة الثالثة الوزير الحكيم (امحتب) الذي برع في الطب والعمارة وشيد لمليكه زوسر هرم سقارة المدرج.

ويساعد الملك غير الوزير عدد من الموظفين، وكانت أعمال خزانة الدولة في يد بيت الفضة والشونة المزدوجة إشارة إلى الشونة الملكية، كذلك نسمع عن كنوز الإله أي الملك وكنوز ملك الوجه البحري (وهذا من غير شك لقب قديم ظل بعد اتحاد القطرين) ونقرأ أيضاً عن مراقبي بيت الفضة ومخازن الغلال. ويرجح أن تجزئة إدارة القطر المصري بين وجهيه لم تذهب إلى أبعد من التجزئة الاسمية، وقد حافظ المصريون على هذا الازدواج الاسمي في مصالح الحكومة، مع أن وجهي مصر انضما معاً تحت إدارة واحدة، وإنما فعلوا ذلك احتراماً للقديم الراسخ في الأذهان ولكن بالرغم من أن الملك اضطر أن يتنازل عن بعض وظائفه إلا انه ظل ملكاً مطلقاً.

من السهل أن نتبين مزايا هذا النظام وعيوبه، فمتى كان فرعون قوياً يمكنه أن يضع حداً لمطامع الأمراء فالنظام سليم لأن الحكومة في كل إقليم كانت في يد أشخاص خبيرين بالشئون المحلية. أما إذا كان الملك ضعيفاً فان تلك السلطة الهائلة التي يتمتع بها الحكام المحليون تصبح خطراً على الدولة يهدد كيانها، ولهذا السبب عينه يرجع سقوط الدولة القديمة في نهاية الأسرة السادسة ثم إغارة الآسيويين أثر ذلك على الدلتا فقد أخذت قوة الأمراء تزداد تدريجياً على حساب الملكية.

والآن علينا أن نسأل كيف كان نظام المجتمع في ذلك العصر؟

الملك وبلاطه

كان على رأس الدولة الملك وبلاطه، وقد كونوا بيروقراطية كبيرة تهتم بالألقاب اهتماماً عظيماً فنرى ألقاب البعض يقرب عددها من الثلاثين أو الأربعين اغلبها لا معنى له، وبجانب هذه البيروقراطية المركزية نجد بيروقراطية أخرى مشابهة لها في قصبة كل إمارة، وكان لكثير من هؤلاء الموظفين أملاك واسعة في ولاياتهم.

الفلاحون

يفصل الموظفين عن الفلاحين بون شاسع، لان هؤلاء كانوا يشتغلون كعبيد في مزارع الملاك، يحرثون الأرض ويروونها، ويتعهدون الماشية والأغنام، ولا نسمع عن وجود طائفة وسطى بين الطبقتين الآنفتي الذكر؛ فإن كان هناك طبقة من هذا النوع - ولابد أن التجار وأصحاب المهن والحرف كونوا طبقة - فإنها لم تكن غنية بدرجة تكفيها لأن تفاخر

بفضائلها في مقابر منقوشة نقشاً جميلاً، ولابد إنها كانت معتمدة على نفسها ولم تعد من طبقة الخدم، لأننا نجد الأمراء يولعون برسم خدمهم على جدران مقابرهم. كذلك لا نعرف شيئاً عن مركز الكهنة الاجتماعي، وإنما نعرف أن عددهم كان وافراً، وانهم كانوا يعيشون على الهبات التي تقدم إلى المعابد؛ وإن صح لنا أن نذكر تعميماً عن الحياة في المملكة القديمة فإننا نميل إلى القول بأن الأمراء وكبار الموظفين كانوا سعداء الحظ بينما كان الفلاحون تعسين فهم عبيد يلحقون بالضياع الواسعة، وينتقلون من مالك إلى آخر كأنهم جزء لا يتجزأ عن الأرض ليس لهم حقوق على أسيادهم، إذا ارتكب واحد منهم أقل هفوة فالجلد المضني عقابه، وأشد من هذا وأنكى أنه لم يكن

لهم سيد واحد بل اثنان، فإذا جاء الفيضان وغطى ماؤه الأرض واصبح العمل في الحقل مستحيلاً لمدة طويلة كان على الفلاح أن يقوم بعمل آخر في خدمة الملك، إذ عليه أن يذهب لينقل الأحجار التي قطعها العمال من المحاجر الواقعة تجاه منف فيشتغل هو وزملاؤه تحت إشراف موظفي الحكومة، وينقلون الأحجار فوق الحقول المغطاة بالمياه إلى حيث يريد الملك أن يبني هرمه، ولم يكن لهذه العملية نهاية فإن أول ما يفكر فيه الملك عند إخلائه العرش هو بناء مقبرة له، فإذا أتمها قبل أن يموت أخذ يحسن ويوسع فيها، وإذا انتهت أيامه فهناك هرم خلفه لابد من بنائه.

وقد اهتم المصريون القدماء كما نفعل اليوم بفيضان النيل، وهذا أمر طبيعي فإن سقطت الأمطار بغزارة على الجبال القائمة في الجنوب الشرقي من مصر خافوا فيضاناً عالياً يهدد حياتهم، ويغرق جزءاً كبيراً من أراضيهم، وإن قلت الأمطار توقعوا فيضاناً منخفضاً يتلوه قحط ومجاعة في البلاد، فكانوا إذا اقترب وقت الفيضان يتحدثون عن النعم التي يغدقها عليهم (نيل طيب) ويبدؤون في البحث عن الوسائل التي يجب عليهم اتخاذها وقت الخطر، إذ كان كل واحد منهم يتأثر بهذا الحادث السنوي - كل حريص على محصوله - أما موظف الحكومة فعليه أن يحسب مقدماً مقدار ما ستأخذه الحكومة من محصول كل شخص، وهذا هو الضريبة الرئيسية. كذلك كان يعد الحازمون من الحكام العدة لإطعام فقراء إقليمهم إذا ما انخفض الفيضان، ويخزنون الحبوب للمستقبل أن كان المحصول اكثر من المتوسط.

(البقية في العدد القادم)

أحمد نجيب هاشم

رسالة الشِّعر

تحية الرسالة في مستهل عامها السادس

للأستاذ محمود الخفيف

البَسي الحسن ردآء ... واملأي الدنيا رُوَآء
ابزغي كالشمس نوراً ... وحياة وعلاَء
أَقرضي الشرقَ سَنَاهُ ... وخُذِي الحمدَ جَزَآء
واسحبي في المجدِ ذيلاً ... لم يُعَوَّدْ خُيَلاَء
وارفعي للنجم طرْفاً ... أبداً يَهْوَى السمَاَء
وانشري ما سِرْت في الأر ... ض طموحاً وإباَء
واجعلي عهدَك في الشَّرْ ... قِ سلاماً وإخاَء
أيْقِظِي العِزَّةَ فيه ... والعلا والكبْرِياَء
جَدِّدِي رُوحاً بها أُم ... س على الدُّنْيا أُضَاَء
لَمَعَتْ في طور سينا ... ومَشَتْ تَبغي حِراَء
إيهِ يا شمسُ، بها الشر ... ق مع النيل استضاَء
جَمَعَتْ فَضْلاً وعلماً ... وجَلالاً وذكاَء
الشبابُ الطامحُ الحُرُّ ... اجْتَلى فِيكِ اللواَء
سار في ضوءك للعل ... ياء ما شِئتِ وشاَء
رقرقي الأضواء في الآ ... فاق واجتازي العَمَاَء
وابعثي فيها من الرأ ... ي وميضاً وسنَاَء
احْفِزِي للفوز أبنا ... ءً كرَاماً بُسَلاَء
ذَكِّرِيهِمْ عَهْدَ قَوْمٍ ... رفعوا أمس البناَء
عصبة شقوا إلى العزّ ... ة والنصر الجوَاَء
يا ابنةَ الصَّادِ لَكُمْ أُحْ ... سَنْتِ في الصَّادِ البَلاَء
قد سما فَضْلُك حتى ... فَاتَ في القَدْرِ الثناَء
دانَ بالفَضْل لك اليا ... نعُ والغَضُّ سواَء
وجَدَا عِنْدَكِ خِصْباً ... وحيلةً ونَمَاَء
وجَنىً حُلْوَا وسَلْسَا ... لاً وظِلاًّ وشِفَاَء
وجَمَالاً عَبْقَرِيّاً ... وصفاءً وبهاَء
أنْتِ أَوحَيْتِ إلى الأفْ ... رَاخِ في الرَّوض الغِنَاَء
وبعثتيهم عن الماض ... ين سلوى وعَزَاَء

أنْتِ قَرَّبْتِ على البُعْ ... دِ بَنِيكِ الفصحاَء
وحَشَدْتيهم على الح ... ق جنوداً أوفيَاَء
فِتْيَةً صاروا بِمَسْعَا ... كِ لِمِصْرٍ أوْلِيَاَء
طُفْتِ بالكأس دهاقاً ... وسَقَيْتِ النُّدَمَاَء
أدَباً كالكوْثرِ العَذْ ... بِ نَقَاءً وَصَفاَء
فيهِ آمالُ بِلادٍ ... بِتْنَ لِلْمَجْدِ ظِمَاَء
وسُلافاً من حَدِيثٍ ... يَمْلأُ القَلْبَ انتشاَء
كنسيم الصُّبْح يجرِي ... عَاطِرَ الذَّيلِ رُخَاَء
باعثاً ذِكرى عهودٍ ... قد تواثبْنَ انقضاَء
وبيَاناً مثل وَشيِ الرَّ ... وض قد رَاقَ ابتدَاَء
يُعْجبُ الرَّاسخَ صوغاً ... واتِّسَاقاً وجَلاَء
وَيُرى النَّاشئَ فنّاً ... يتوَخَّاهُ اقتداَء
ضمَّ للقلب معاً والع ... قْلِ رِبّاً وغِذَاَء
يا عَرُوساً عِيدُها يُو ... حِي إلى النَّفْسِ الوفاَء
لَسْتُ أنسىَ لكِ عِندي ... مِنَناً غُرّاً وِضاَء
كشَفَتْ يُمْنَاكِ عن عَيْ ... نِي وعن قلبي الغِطاء
حُزْتُ في حِجْرِكِ فَضْلاً ... وصَحِبْتُ الفُضَلاء
يا عَرُوسَ السِّحْرِ والحِك ... مةِ مُلِّيتِ البقَاء
وتَزَيدْت عَلَى الدَّ ... هْرِ عُلُوّاً وارْتقَاء
عشْتِ للفُصْحَى لواء ... وَمنَاراً وَرَجاء
(القاهرة)
الخفيف
نجوى الحرية
للأستاذ محمد بهجة الأثرى
الحسنُ أنتِ مثالُهْ ... والكونُ أنتِ جمالُهْ
وأنتِ في دَيْرِ قلبي ... تسبيحُهُ وابتهالُهْ
عَبَدْتُ فيكِ الكمالا ... كما عَبَدْتُ الجمالا
ما أنتِ إلا مَلاكٌ ... عن العيوبِ تعالى
أَشْبهتِهِ رِفَةً والْ ... تماحَةً وخَيالا
فما أَرى لكِ بين الْ ... مَلا - لَعَمْري - مثالا
وإنما أنتِ معنى ... في الكونِ أعيا مِثالُهْ
رُوحٌ ولكنْ مُجَرَّدْ ... نَعَمْ، ونُورٌ مُجَسَّدْ
غشَّاه، وهو لَمُوعٌ، ... إِفْرِنْدُهُ فَتَوَقَّدْ
تألُّقَ البَرْقِ في الأفْ ... قِ وَهْوَ يُنْضَى ويُغْمَدْ
والبَدْرِ في صفحةِ الما ... ءِ والنسيمُ تَنَهَّدْ
يا بَسْمَةَ الكونِ أنتِ الْهَوَى ... وأنتِ وصالُهْ
البَدْرُ لاحَ تِماماً ... يَفيضُ منكِ سَنَاهُ
والزَّهْرُ فاحَ ذكيّاً ... يَنمُّ عنكِ شَذَاهُ
والقَطْرُ ساح نقياً ... يَرْوي صفاكِ صَفاهُ
والفَجْرُ لاح بَهيّاً ... من وجنتَيكِ ضياهُ
والطيرُ ناحَ شجيّاً ... عليكِ منكِ انْفعالُهُ
رقَّتْ حواشيكِ حتى ... رقَّ الهوا لِخِلالِكْ
لكن قلبكِ قاسٍ ... علي مُريدِ وِصالِكْ
بَخِلْتِ حتى خَيَالاً ... فَمَنْ لَه بخيالِكْ؟
أَينَ الوُعودُ اللواتي ... مَنَّيتَني باقْتبالِكْ؟
شهرُ الصيام تَوَلى ... فالعيدُ أين هِلالُهْ؟
غُمَّتْ عليهِ السماءُ ... أم طاولَتْ (أسماءُ)؟
بلى، وما كانَ ظِني ... ألاّ يكونَ انجِلاءُ
مارَسْتُها فتأبَّى ... عليَّ منها الوَلاءُ

ألهكذا كلّ حسنا ...َء ما لديها وَفاءُ؟
يا وَيْحَ صَبٍّ تَعايا ... في الوَصْل عنه غزالُهْ
يا رَوْحَ قلبي المُعَنَّى ... كلُّ الوعودِ رِياحُ
ما في الأماني أمانُ ... إنْ لم يُعنك السلاحُ
تلك العروسُ ولكنِ ... أين الصِداق المتاحُ؟
قد زاحَمَتْكَ عليها ... مناكبُ وصِفاحُ
فاحتلْ عليها عسى أنْ ... يُجْدِي الكريمَ احتيالُهْ
(بغداد)
محمد بهجة الأثرى
أحب وأحتقر!
للأستاذ أمجد الطرابلسي
أُحبُّ الجبالَ الشّامخاتِ كأَنّها ... على جَبهةِ الدّنيا تصولُ عواتيا
تَضاحَكُ من عصفِ الرياحِ وزأرها ... وتحتضنُ السيلِ الحَرونَ المُعادِيا
وتلهو عن الزّلزالِ وهْوَ مُزَمْجَرٌ ... يَضجُّ ببطنِ الأرضِ غضبانَ واريا
وأحتقرُ الكُثبانَ تُرعشها الصِّبا ... ويفزعها الإعصارُ إن مَرَّ لاهيا
وتحملُها الأرياحُ أنى توجَّهت ... ألاعيبَ في أسفارها وألاهيا
وَإِنّي لأهوى السَّيلَ يَنْحَط مزبداً ... ويَدفُقْ جَيَّاشاً ويهدِرُ صاخبا
عَتِيّا على السَّدِّ المنيع يَدُكُّهُ ... ويحملُهُ نحو السُّهول خَرائبا
يمرّ على العُشْبِ الضعيفِ مُسامِحاً ... ويلتقفُ الدّوح العَنيدَ المغالبا
وتحقرُ عيني جَدولاً في خميلةٍ ... يحوِّل طفلُ الحيِّ مجراهُ لاعبا
يكَدِّرُهُ حتى النسيمُ ملاطفاً ... ويُفزِعُهُ حتى فمُ الطفلِ شارِبا
أُحبُّ العُقابَ الجوْنَ يختال في الذرا ... ويركَب متنَ الجوِّ جذلانَ باسما
ويخترقُ الريحَ العَصوف لقصدِه ... ولو حطَّمتْ من جانحيه القَوادما
يموتُ ولا يشكو الجراحَ ولا ترى ... له آكلاً بينَ الأنامِ وهاضماً
وأحتقر الورقاءَ تألفُ سجنَها ... وتبكي ما تلقى من الناسِ راحماً
وهل غيرُ ضَعفِ الوُرْقِ سوَّغَ حَبْسَها ... وصَيَّرَ شدواً نوحَها والمآتما
وإني لأهوى نحلةً تدهَمُ الرُّبا ... فتنهلُ من ثغرِ الزهورِ رحيقَها
ترشَّفُ من كأسِ الأقاحي صبوحَها ... ومن خمرةِ الوردِ النَّدِيِّ غَبوقَها
حَصَانٌ تَروعُ العاشقينَ بوخزها ... إذا ما تَمَنّوا لو يذوقونَ ريقَها
وتحقرُ عيني نملةً تألفُ الوَلى ... وتملأُ من بَخْسِ الفُتاتِ خُروقَها
تدِبُّ على الأقدامِ هُوناً وذلةً ... وتسلكُ من تحتِ النِّعالِ طريقَها
أُحبّ شَموخَ الدَّوحِ في ربواته ... يُجابهُ هَوْلَ العاصفاتِ ويثبُتُ
أبيّاً على حربِ الأعاصيرِ ظافراً ... تكُرُّ جموعاً حولَهُ فَتَشتَّتُ
وإنْ خرَّ في الميدانِ بعد نضالِها ... تراها عليه نائحاتٍ تُصَوِّتُ
وَأَحتقرُ الأعشابَ تحني رُءوسَها ... فتسلَمُ من رَيْبِ المنونِ وتُفْلِتُ
تدورُ مَعَ الإعصارِ حيثُ يُديرها ... ويلطِمُها هوناً فترضى وتسكُتُ
وإني لأهوى الليث يستعذبُ الطوى ... ويأنفُ أن يُدنى إلى جيفةٍ يدا
يسيرُ أَشَمَّ الأنفِ مستكبرَ الخُطا ... فترتجفُ البيداءُ إن راحَ أو غدا
ويَجْبهُ وحشَ البيدِ في حُرِّ وَجْهها ... ولا يَدَّري أعداءه مُتَصَيِّدا
وتحقرُ عيني ثُعلباناً مخادِعاً ... جَباناً خليعَ القلبِ يغدِرُ بالعِدا
يُصيبُ فُضالاتِ السّباع وينثني ... ليشكرَ رزّاق العبيدِ ويَحْمدا
أحبُّ الفتى يَفري الفلاةَ مُهَجّراً ... فلا يشتكي أيناً ولا يتظلّمُ
إذا لذَّعتهُ الشَّمْسُ سَدَّدَ وَجْهَهُ ... إليها حديدَ الطَّرفِ لا يتبرَّمُ
ويمشي على الرَّمضاء مُتَّئِدَ الخُطا ... جَليداً، ونيرانُ الرمالِ تضرَّمُ
وأحقر نكساً يستظلّ بغيره ... ويخفضُ رأساً وهو شاكٍ يدَمْدِمُ
تساورُهُ الأشباحُ في القفرِ رَهْبةً ... فَيَرْعَشُ منهُ القلبُ والطَّرفُ والفَمُ
أحبُّ الفتى والغُلُّ يثقلُ عُنُقَهُ ... وسيفُ الأعادي بينَ عينيهِ مُشْهَرُ
يصيحُ بأعلى صوته ينكرُ الأذى ... ويضحكُ من بطشِ الطُّغاةِ ويَسْخَر
ويشمخُ بالأغلالِ رأساً وإن غدتْ ... تَحُز ومن أنيابها الدَّمُ يَقْطُرُ

وأحتقرُ الأحرارَ يحنونَ رأسهم ... وليس عليهم سَيِّدٌ أو مُسَيْطِرُ
إذا كانَ قلبُ المرءِ عَبْداً ورَأيُه ... فَقُل لي - هُديتَ الخيرَ - ماذا تُحَرِّرُ
(دمشق)
أمجد الطرابلسي
القصص
أقصوصة من لويزا ألكون
في عيد الميلاد
للأستاذ دريني خشبه
قبل أن يتنفس صباح عيد الميلاد استيقظت الفتاة (جو) والفجر لم يكد ينبلج في الأفق الشرقي، ولا الخيط الأبيض قد انسرق من زجاج النافذة لينير ظلام الحجرة الدافئة. . . ولكن جو استيقظت مشوقة إلى هدايا العيد، ومدت يدها الصغيرة المرحة إلى جوربها المعلق في (شباك) السرير ليملأه الملاك بأحب اللعب. . . ولشد ما شعرت بالخيبة حين وجدت الجورب فارغاً مما أمّلت أن يمتلئ به، فكتمت أنفاسها، وأخفت حسراتها في أغوار قلبها، ودست يدها تحت الوسادة التي تحدرت فوقها دموعها. . . بيد أن أصابعها اصطدمت بشيء يشبه الكتاب تحت الوسادة، فأمسكت به، فإذا هو كتاب حقاً ذو جلد سميك مقوى، لم تدر من وضعه هنا. . . وقفزت من فراشها، وأشعلت المصباح، ونظرت في الكتاب، فراعتها جلدته الجميلة الزرقاء، وصوره الخلابة الملونة، وطبعه الأنيق المتقن. . . وقرأت فيه قليلاً فعرفت انه قصة حاج يطوف بأقصى الأرض ليبلو أعاجيب الدنيا. . . فتبسمت جذَلاً، وبادرت إلى أخواتها توقظهن:
- (ماجي! انهضي يا أختاه. . . لقد أهدى إلى الملاك كتاباً فيه صور جميلة. . . بت! قومي! استيقظي! انظري إلى الكتاب الذي أهداه الملاك إلي! إيمي! هلمي فتفرجي. . .!).
واستيقظت ماجي فسألت أختها وهي تفرك عينيها أين وجدت الكتاب؟ فلما أخبرتها أنها وجدته تحت الوسادة، دست ماجي يدها تحت وسادتها فوجدت كتاباً مثل كتاب أختها، ولكن جلدته خضراء، ورأت فيه صوراً رائعة ملونة أجمل من الصور التي في كتاب أختها. . . ففرحت فرحاً شديداً. . . ولما استيقظت بث، وجدت هي الأخرى كتابها ذا الجلدة الحمراء، وكذلك وجدت إيمي كتابها، ولكن إيمي وجدت جوربها ممتلئاً بالحلوى والمُلَبس والفستق، فصاحت بملء فيها صيحة الفرح، وراحت تنافس أخواتها وتفخر عليهم. . . وقد أحس أخواتها بانتصارها حقاً، واتهمن الملاك الكريم بأنه لم يعدل في القسمة، وإلا فإنه كان ينبغي أن يملا جورباتهن كما ملأ جورب إيمي. . . وطال حوارهن، واشتد صخبهن، وكان حواراً وصخباً مملوءين بالضحك، مفعمين بالاستبشار بعيد الميلاد السعيد. . . وكانت بهجة تلقين بها العيد قبل مطلع الشمس كالبهجة التي يتلقى بها الطفل قبل أن يولد.
وذهبت جو إلى غرفة أمها - وكان أبوها على سفر - لتوقظها فلم تجدها، وظنت لساعتها أنها ذهبت إلى الكنيسة لتشكر للملاك الكريم ما أتحف بها بناتها من الكتب الجميلة ذوات الصور الملونة، وما. . أتحف به إيمي من الحلوى. . فعادت جذلانة إلى الغرفة، وما كادت تتحسس جوربها المعلق في (شباك) السرير حتى وجدته مثقلاً! فاستبشرت وطفر قلبها، وأفرغت ما في الجورب فوجدت قدراً هائلاً من الفستق المعالج بالسكر والكستناء المثلوجة. . . شيء عجيب حقاً، لقد تحسست الجورب منذ ساعة فلم يكن فيه شيء من هذا. . . لله ذاك الملاك الكريم البار. . . وعجب البنات عجباً شديداً، فذهبت كل تتحسس جوربها فوجدته مفعماً. . . فطرن من الفرح، واشتد الصخب من جديد وعلا الضحك. . . وأشرقت الشمس. . . ووقفت جو وسط أخواتها تهتف كأنها إمبراطور: (أخواتي! اسمعي يا بث، أصغي يا ماجي. . . انتبهي يا إيمي لنبق على الحلوى حتى تعود أمنا فتشركنا فيها. . . ولنشرع من الآن في قراءة الصفحة الأولى من الكتاب الجديد، حتى إذا عادت الوالدة سرت بذكائنا سروراً لا مزيد عليه. . . وبذلك نرضي الملاك الكريم الذي أتحفنا بالكتب وبالحلوى، ولم يعدنا صغاراً فلم يتحفنا بما كان أحجى أن يتحفنا به من اللعب. . . هو ملاك كريم على كل حال فلنشكره قبل أن نبدأ. . .
ورفع الصغار أيديهم إلى السقف. . . وركعن على ركبهن ورحن يشكرن الملاك الكريم،

ثم اعتدلن، وأخذن في قراءة الصفحات الأوليات. . . وكان منظرهن كمنظر الملائكة الأطهار الأبرار الأخيار. وإن تكن إيمي الصغرى لم تكن تفكر في هذا الملاك الذي ضايقها بهذا الكتاب، ولم يتحفها بلعبة تفخر بها على أترابها إذا كان الصباح، وبرز الأطفال في الشارعيتنافسون ويفخرون. . . ولم تكد تفهم من اجل هذا سطراً واحداً من الصفحة الأولى من كتابها، بل سمرت وجهها في الصورة الملونة، وراحت تفكر وتدمن التفكير، في شح هذا الملاك الكريم باللعبة التي لا محيص منها في عيد الميلاد! ولم يكد الصغار ينتهين من قراءتهن حتى دخلت أمهن وفي إثرها حَنّة الخادمة العجوز، مثقلين بكثير من اللعب وشيء غير قليل من الرقائق والشطير والفطير وحلوى الكاكاو للإفطار ولقينها بالبشر، ولقيتهن بقبلة سعيدة طبعتها على جبين كل منهن إلا إيمي الصغيرة فقد طبعت لها قبلة طويلة على خدها. . وسرعان ما غفرت إيمي للملاك الكريم ما كان منه من شح بلعبة عيد الميلاد حين أخذت حصانها الخشبي الكبير فَعَلتْ صهوته، وأنشأت تمرح وتصخب، وتقول: (كتاب! أنا لم اقرأ حرفاً واحداً من الصفحة الأولى يا جو. . .) ولكن جو نظرت إليها في ظرف، ثم قالت لامها: (ولكنا قرأنا الصفحة الأولى كلها يا أماه، وسنقرأ كل يوم صفحة أو صفحتين حتى نفرغ من كتبنا. . . حقاً أن بابا نويل لملاك كريم) فردت بت تقول: (ويظهر أنه يجيد الرسم ويحذف التلوين يا أماه! انظري صوره الجميلة التي رسمها في كتابي). . . فتضاحكت أخواتها، ولكن ألام الرزينة لم تضحك، فتساءلت جو: (لم لا تضحكين يا أماه؟ فيم تفكرين؟ في أبي. .؟ سيأتي حالاً. . . هو لا شك يفضل أن يقضي عيد الميلاد بيننا!) فقبلتها أمها قبلة تفيض حناناً وحباً، ثم قالت: (اسمعن يا صغيراتي. . . لقد ذهبت فأحضرت لكنَّ اللعب من بابا نويل، وحينما كنت عائدة سمعت أنيناً في منزل جارتنا الفقيرة، فطرقت بابها ففتحت الباب إبنتها الكبرى، فلما سألتها ما هذا الأنين ذكرت لي أن أمها كانت تلد، وأنها وضعت غلاماً لا تدري فيم تلفه لتقيه البرد، وقالت لي إنهم لا يملكون حطباً يستدفئون به ولا طعاماً يأكلونه في هذا العيد السعيد، فدخلت فسلمت على ألام، ورأيت وليدها، ورأيت الصغار محتشدين في الفراش الفقير وهم ينتفضون من البرد، ويلتصق بعضهم ببعض ليستدفئوا. . . وراعني أن يطلب أخوهم الوحيد الأصغر طعاماً فتنظر إليّ أمه، وتمتلئ عيناها بالدمع ولا تقول شيئاً. . . منظر مؤلم حقاً يا جو. . . أليس كذلك يا بت؟)

وتنظر جو إلى أخواتها، وتتبلل عيناها بالدمع، وتقول: (مؤلم جداً يا أماه! وتقول إيمي: (وأين بابا نويل؟ لِمَ لم يرسل إليهم حلوى وفطيراً كما أرسل ألينا؟ فتقول ألام: (يظهر أنه نسي يا إيمي. . . جو. . . أليس يحبنا الله ويدخلنا جناته إذا نحن حملنا حلوانا وفطيرنا، وذهبنا لنفطر مع هؤلاء المساكين!)

فتسكت جو لحظة، وتنظر إلى أخواتها، ثم تقول: (والله إنها فكرة جميلة يا أماه. . . هيا. . . سأحمل جوربي كله بما فيه من كستناء وفستق) وقالت بت: (وأنا أيضاً. . . ولكن الحلوى لا تشبع الجوعانين. . . هاتي الفطير يا حنة) وتقول ماجي: (لا. . . سأحمل أنا الفطير. . . لتحمل حنا الحطب. . .) أما إيمي، فقد نظرت إلى أمها مرة، والى الكتاب أخرى، ثم قالت: (وأنا. . . سآخذ هذا الكتاب لأفرحهم بصوره. . . أنا لا أستغني بحال عن حلواي!) فضحكت ألام، وضحكت حنة، ولكن جو قالت لأختها جادة: (سندخل نحن الجنة ونتركك ببابها يا إيمي؟) فقالت الفتاة وقد صدقت قول أختها: (بل ادخل قبلكن. . . سآخذ لعبتي أيضاً. . .)

وحملت كل منهن حلواها. . . وتذكرت جو اللعب، وما عساها تبعث في المساكين من مرح في هذا اليوم المبارك، فأسرعت إلى الدولاب فأخرجت كال اللعب القديمة، وكان فيها (طراطير!) من العام الماضي، فأحضرتها، وألبست كلا من أخواتها طرطوراً، ثم انطلق الجميع بأحمالهن إلى بيت جارتهن. . ولم يكن الشارع قد ازدحم بكثير من المارة، فكن يتضاحكن مرة، وينتفضن من البرد الشديد أخرى. . .

وطرقن الباب فانفتح. . . وتقاطرن داخل البيت، وأخذن ينشدن نشيد عيد الميلاد، ويملأن البيت سعادة وبهجة. وقصدن إلى السرير فأيقظن الصغار. . . وأسرع هؤلاء وعيونهن تفيض دمعاً ودهشاً. . وجعلوا يحملقون في الملائكة الأطهار اللائى جئن يسعفنهم بالحلوى والغذاء والسعادة. . . أما حنة فقد أوقدت الحطب. . . وأما ألام

البارة فقد أخذت الوليد من أمه البائسة ولفته في مزق أحضرتها لهذا الغرض، ثم جلست تواسي الوالدة المسكينة بكلمات طيبات.
وأقبل المساكين والمسكينات على الفطير يلتهمونه التهاماً، كأنهم قد لبثوا أياماً دون أن يذوقوا طعاماً. . . وكان البنات يشهدن ويعجبن، لأنهن لم يرن ناساً يأكلون بهذه السرعة، ولا طعاماً يزدرد بهذا الشره. . . ولكن جو كانت تنظر وتتألم ثم تصطنع العبث وتجهد أن تضاحك الصغار ما استطاعت. . . ثم إنها أخذت الطراطير من أخواتها، فجعلتها على رؤوس البائسين. . . وهنا أخذ هؤلاء يضحكون ويقهقهون. . . ونسوا ما كان بهم من فاقة وعوز وجوع، حين دبت الدماء حارة في أبدانهم من الشبع، فلما أخذت جو تفرق اللعب القديمة بينهم ثارت بينهم وبينهن عاصفة من المرح، وسرت فيهم موجة جارفة من السرور. . . وقالت فتاة منهن صغيرة: (شكراً لك يا بابا نويل، لقد حسبنا أنك نسيتنا،
ولكنك أرسلت إلينا اللعب والطعام والحلوى. . . والنار. . . النار اللذيذة التي تؤججها أمنا حنة. . . فشكراً لله وشكراً لك. . . وشكراً لأخواتنا هؤلاء. .) وكانت ألام تصغي إلى ما تقول ابنتها، وعيناها تفيضان بالدمع. . فتواسيها ألام الأخرى، وتمسح عبراتها بأطيب الكلم الصالح. .
وعادت العائلة المقدسة أدراجها إلى المنزل.
وجلسن حول المائدة كعادتهن كل يوم، فقدم لهن الفطور العادي من لبن وجبن وخبز، فاقبلن عليه، واحتسين الشاي، وأحسسن إحساساً عميقاً بسعادة فذة في نوعها. . . سعادة لا تقدر الحلوى ولا يستطيع الكستناء ولا الفستق أن يصنع شيئاً منها. . سعادة الخبز والبر. . . وسعادة التقوى. . . وسعادة الله!
وجلست ألام مع ذاك تشكر بناتها، وتذكر لهن ما كان يصنع القديسون والشهداء في هذا اليوم من ضروب الإيثار وفنون التضحية. . . وكان البنات يصغين في لهفة واشتياق ويكاد الدمع ينهل من عيونهن.
ونهضت كل إلى لعبتها لتفرح بها.
ونظرت إيمي إليهن. . . وكانت قد حملت حصانها فأهدته لجماعة المساكين. . . ولم يهمنا قط أن تكون عاطلا وأخواتها حاليات. . فتأثرت ألام، وانطلقت معها إلى بائع اللعب، فاشترت لها حصاناً اكبر من الذي تصدقت به على الفقراء، فعادت إيمي وقلبها يفيض بالبشر، وراحت تفاخر أخواتها، وأخواتها مع ذاك قانعات راضيات.
وبينا هن ضاحكات مستبشرات، إذا بطارق بالباب، فتمضي حنة لترى، وتعود لتذكر أن الجار الغني، صاحب القصر المنيف القريب، يريد لقاء سيدتها. . .
وتلقاه السيدة في غرفة زائريها المتواضعة. . . ويشدهها منه أن ترى معه سلة كبيرة بها أشياء فهمت أنها هدية. . .
- مرحباً يا سيد! عيد سعيد أن شاء الله!
- عيد سعيد يا سيدتي.
ترى ما الذي جاء بهذا الرجل الغني في هذا الصباح؟ لقد عرف عنه انه رجل عزوف عن الناس، عزوف لأنه غني. . . هو يرى نفسه من طبقة غير طبقة هؤلاء المساكين الذين إذا
تصدقوا بحلوى عيد الميلاد لم يجدوا حلوى غيرها! فماذا جاء به، وهو هو الذي كان يمر بصاحب هذا المنزل فلا يقرئه السلام من عظمة وكبرياء. . .! لقد كان فيه انقباض دائماً. . . وكان يشيح بوجهه عن أخوته من بني آدم. . . فماذا جاء به اليوم؟ ثم ما هذه السلة التي غطاها بورق كثيف؟ هذا تطور عظيم في حياة هذا الجار الجافي الغليظ المتكبر، فما باله يا ترى؟
- لقد شهدت يا سيدتي ما صنعت صباح اليوم، فتأثرت من عاطفتك الكريمة وإيثارك العجيب!
- عفواً يا سيدي. . . أشكرك.
- ولست ادري إذا كنت مخطئاً. . .
- مخطئاً في أي شيء. .؟
- لقد رأيت أن أقدم لصغارك شيئاً من الحلوى تعوض عليهم ما تصدقوا به. . . فلقد علمت منذ أيام أن زوجك الفاضل قد فصل من عمله لخطأ ارتكبه. . . وانتم لابد في

ضيق مالي. . . فإذا تفضلت فأخذت هذا القدر القليل من المال أكون شاكراً.
وهنا. . . إحلولكت الدنيا بأسرها في عيني ألام، وضاع ما شعرت به منذ الصباح من الغبطة والبشر، وانقلب الهناء الذي غمر قلبها في عيد الميلاد هماً وغماً وابتئاساً!
- ماذا تقول يا سيدي؟
- أقول إنني شهدت ما صنعت للعائلة البائسة، وتأثرت جد التأثر من صنيعك الجميل، ومع ما أنت فيه من الضيق.
- وأنت ما شأنك وما أنا فيه؟
وارتبك الرجل وتلعثم لسانه، وانشأ يقول:
- لا. . . لا. . . شيء. . . فقط. . . أدرت أن أساعدك!
- على كل حال أنا أشكرك، ولكني أسائلك: هل بهذا الأسلوب تفهمون الخير أيها الأغنياء؟
- لا افهم ما تقولين!
- لا تفهم ما أقول، فكيف إذن فهمت أننا محتاجون، ولم تفهم أن جارتنا البائسة كانت في اشد العوز والحاجة إلى مساعدة أمثالك!
- هذا حق. . . هذا لا ريب فيه.
- وما دام هذا حقاً، فلم لا تفعل؟!
- لقد أخطأت.
- أذن لقد أحضرت لنا حلوى في هذه السلة؟
- اجل. . . بقد فعلت؟
- وماذا دفعك إلى هذا؟
- محبة الخير، وتأثري بما شهدت.
- وكيف لم تتأثر بما علمت من بؤس جارتنا؟
- لا ادري والله!
- أذن تذهب إليها بهذه السلة فهي في اشد الحاجة إليها، ولا تنس أيضاً أن تنفحها بالمال الذي أعددته لنا. . .
- سأفعل! اسمحي لي بالانصراف إذن!
- لا. . . انتظر قليلاً! أتحب يسوع أيها العزيز؟
- وكيف لا احبه!
- أذن فاخرج من مالك عن شيء يكفل الستر لجارتنا. . فإنك غني جداً. . . أتعرف أن وزجك قد مات؟
- لا والله. . . لم أكن أعرف!
- أذن لقد عرفت مبلغ فاقتها!
-. . .؟. . .
- أذن فانك خارج عن بعض مالك لها ولأبنائها. . . هل علمت أنها وضعت غلاماً سادساً اليوم؟
- لا والله. . . لم أدر إلا منك!
- أذن فقد لمست بيديك مبلغ حاجتها إلى بر أمثالك!
-. . .؟. . .
- انطلق إذن! سأزورها اليوم وسأرى ماذا تصنع!
وانطلق الغني ذو الجاه والثراء الضخم. . . ولكن. . . إلى داره.
وبعد ساعة أو نحوها طرق البيت صاحب الدار، ووجهه طافح بالبشر، ضاحكاً متهللاً. . . وزف البشرى إلى زوجته، واخبرها أنه بُرِّئ، وعاد إلى عمله، ومنح مكافأة مالية. . . وقد احضر حلوى كثيرة لأطفاله، ولعباً شتى لعيد الميلاد. . . فلما قصت عليه قصة الصباح، وما كان من أمر جارهم الغني، تمتم وعيناه تغرورقان بالدمع: (إذن. . تعيش المرأة وأولادها معنا. .)

دريني خشبه

البريد الأدبي

الآداب والشعر عند المصريين القدماء

ألقى العلامة الأستاذ الدكتور شايدل أستاذ الأثريات المصرية بجامعة لايبزج محاضرة

شائقة في متحف الجامعة على الآداب والشعر عند الفراعنة، فذكر أن الفراعنة فضلاً عما تركوا لنا من النقوش وأوراق البردي الأثرية الفياضة بالمعلومات التاريخية والقضائية والطبية، قد تركوا لنا تراثاً أدبياً بمعنى الكلمة؛ فمن ذلك باب القصص الخرافي، وقد ترك الفراعنة لنا منه نوعاً معروفاً هو القصص المتعلق بدخول اللصوص إلى خرف الكنوز الملكية ومن إحدى هذه القصص اقتبس الشاعر الألماني بلاتن مسرحيته المشهورة: (كنز رامسنيت)، وهناك نوع آخر من القصص النثري يتعلق بتواريخ الملوك وسير الآلهة، وتمجيد الحوادث التاريخية الهامة. أما الشعر الغنائي فانه يتمثل في الأناشيد الدينية الحماسية والتوسل إلى القوة العليا. ومن أناشيد الحب التي تمثلها أنشودة سالومنيس. وقد وجدت على جدران القبور أغنية عمال، ومنها أنشودة شهيرة تجري على لسان الذين يحملون الهودج ويختتمونها بطلب العطية. على أننا نجد اعظم ثروة أدبية للفراعنة في كتب الموتى التي توضع في التابوت إلى جانب الموتى، ففيها أقوال ومواعظ أخلاقية، وفيها أحاديث الحكمة التي تشرح للناس كل شؤون الحياة، وتصرف الإنسان إزاء الضيف، وإزاء المستجير، وعلاقة الزوجين وواجباتهما. وفي هذه الأحاديث نجد الأدلة على سمو تفكير المصريين القدماء. ومما هو جدير بالذكر أن الشعر عند الفراعنة لم يصدر عن لسان شاعر بعينه، ولكنه صادر عن مجموعة الشعب وباسم الشعب.

العلم والدين

كانت العلاقة بين العلم والدين وما تزال من أهم المسائل التي تشغل الذهن البشري في كل عصر وقطر؛ وقد كان لها في تفكيرنا العربي نصيب وافر، ولابن رشد الفيلسوف في ذلك رسالة شهيرة. على إنها اتخذت في العصر الحديث صورة نضال عنيف بين الدين والعلم على أثر الاكتشافات البيولوجية والطبية الحديثة التي قام بها علماء مثل داروين ولامارك في أصول الأنواع وغيرها. وأنكر بعض العلماء الأقطاب مثل باستور أن يكون بين العلم والدين اتصال أو اتفاق. ورأى مفكرون من الغلاة مثل الفيلسوف مكس نرداو أن العلم يهدم الدين؛ ولكن رأى كثير من العلماء أيضاً أن لا تناقض بين العلم والدين، وان الوفاق بينهما ممكن غير مستحيل.

وقد صدر أخيراً في هذا الموضوع كتاب خطير بقلم العلامة الدكتور جورج ريجار الأستاذ بجامعة لوزان عنوانه (دراسة بيولوجية وعلمية لمسائل الدين العظمى) ريجار طبيب وعالم وبارع، وهذا ما يسبغ على بحثه قيمة خاصة. وقد تناول في كتابه جميع المسائل الهامة التي تتعلق بهذا الموضوع الدقيق، مثل الجبر، والتحكيم الحر، والأخلاق البيولوجية، والمعاناة والألم والله والدين. ويلجأ المؤلف في عرضه لهذا الموضوعات الدقيقة إلى الوقائع المادية، ثم يستخلص منها النتائج الفلسفية والأخلاقية. ومما يلفت النظر أنه على رغم مادته العلمية الخالصة يبدو مؤمناً، وهو يحاول أن يدعم أيمانه بالأدلة العلمية والعقلية، ويقدم أدلته بصورة متزنة معقولة؛ وهو يعارض بشدة أولئك الذين يرون في العلم عدواً لدوداً للدين. على أنه يرى من جهة أخرى أن التعاليم الدينية يجب أن تتطور وأن تساير العقل الوضعي حتى يمكن أن يفتح الطريق لقيام العقائد الروحية في صورة تلائم اتجاهات التفكير الحديث.

وعلى مثل الدكتور ريجار نشر العلامة الأثرى الدكتور فيجال أخيراً رسالة يدلل فيها على أن المباحث الأثرية والتاريخية في تراث مصر القديمة تقدم إلينا كثيراً من الأدلة والحوادث المادية التي تتفق تمام الاتفاق مع منطوق كثير من السير والتعاليم الدينية.

الرافعي وخصومه

أخي الأستاذ الزيات

تحيتي إليك، وإلى الوجوه التي أحبها بنادي الرسالة، وجوه الأدباء الأمجاد الذي يرون في مسامرتك معاني لا يجدونها في الطواف بشارع فؤاد وشارع إبراهيم وشارع . . .

وبعد فهل تعلم أني صبرت طويلاً على الأستاذ محمد سعيد العريان؟ لقد صبرت عليه لغرض نبيل يعرفه، ويعرفه أصدقاء تحملهم أقدامهم إلى الزمالك ومصر الجديدة. ولكن للصبر حدود، فقد شاء أن يسم أدباء مصر بميسم العقوق حين زعم أن خصوم الرافعي لم يرثوه. وهو قد شاء أن يضيفني إلى خصوم الرافعي مع أن الخصومة لم

تشبَّ بيننا غير خمس مرات. وإن الجزع ليبلغ مني كل مبلغ حينما أتذكر أني كنت آخر من خاصمه
الرافعي في دنياه، ولكن الأديب العريان نسي أو تناسى أني كنت أول من رثى الرافعي في خطاب نشرته جريدة المصري، وأثنى عليه كل الذين قرؤوه وعدوه دليلاً على وفاء الخصوم الشرفاء.
ولم أتفرد برثاء الرافعي يوم مات، فقد رثاه الأستاذ ألمازني بمقال بليغ نشرته جريدة البلاغ، ونشرت الرسالة وغيرها مقالات كثيرة تشهد بأن المصريين لم ينسوا ذلك الفقيد.
فكيف صح للأستاذ العريان أن يزعم التفرد بإحياء ذكرى الرافعي؟
إنني أرجوه أن يتثبت مما يقول، فإن له في هذه المقالات أخطاء كثيرة. وقد آذاني ما كتبه عن (فلانة) التي جلست معي جنباً إلى جنب أربع سنين في الجامعة المصرية، وعرفت من شؤونها ما لا يعرف. وآذاني وآذى الحقيقة بما كتب عن الدكتور طه حسين، لأنه يوهم قراءه بان الرافعي كسب المعركة، مع أن التاريخ الذي نسيه يشهد بأن الدكتور طه حسين كان معقول القلم واللسان بفضل الإشارات التي صدرت إليه بأن يترك العاصفة تمر حتى لا يهزم أنصاره أمام الحكومة وأمام البرلمان.
وجملة القول أن ما كتبه ذلك الأديب عن خصوم الرافعي يحتاج إلى تصيح. فإن لم يرجع إلى الأسانيد فسنعاونه على تحرير هذه المسائل بعد حين. والسلام.
زكي مبارك
ضيف العراق
الاحتفال بتوزيع جوائز نوبل
قرأنا في البريد الأخير تفاصيل الاحتفال الفخم الذي أقيم في ستوكهلم في العاشر من ديسمبر احتفاء بتوزيع جوائز نوبل على مستحقيها من مختلف الأمم. والعاشر من ديسمبر هو تاريخ وفاة الفرد نوبل المخترع السويدي الكبير وواقف هذه الجوائز الشهيرة.
وعقد الاحتفال في بهو الموسيقى الكبير بحضور ملك السويد وأعضاء الآسرة الملكية، ورجال الحكومة، وممثلي الدول الأجنبية؛ وبعد أن ألقى رئيس لجنة الهبة خطابه قدم الفائزين بالجوائز تباعاً، وكان كل يتسلم من يدي ملك السويد التحويل المالي والشهادة الفخرية والشارات الذهبية التي يستحقها. وكان أول المتقدمين الأستاذان: دافيد سون
الأمريكي، وتومسون الإنكليزي، وقد نالا معاً جائزة العلوم الطبيعية، وكلاهما قام بأبحاث هامة في مسالة تعرض البلور للتيارات الكهربائية. ثم تقدم الأستاذان هوارث الإنكليزي وكارير السويسري، وقد نالا معاً جائزة الكيمياء، وذلك لمباحثهما عن أنواع الفيتامينات. وتلاهما الأستاذ زنث جيرجي المجري وقد نال جائزة الفسيولوجيا والطب من أجل مباحثه في عمل الأكسوجين والهيدروجين في حرق أغذية الجسم البشرى. ثم تلاه الكاتب الفرنسي روجيه مارتان دوجار الذي فاز بجائزة الأدب من أجل قصته الشهيرة (آل تيول)
وأقيمت في مساء نفس اليوم في (البهو الذهبي) مأدبة فخمة جريا على الرسوم المعتادة وخطب فيها مسيو دوجار، فنوه بالدور العظيم الذي تؤديه الآداب لخدمة السلام، وقال إنه يعتبر أن فوزه بجائزة نوبل لم يكن من أجل كتابه فحسب، ولكن بالأخص من أجل المعنى السلمي الذي يمثله هذا الكتاب، وما ورد فيه عن صيف سنة 1914 من الصور المؤثرة، وأن في عبر الماضي ومآسيه ما يكفي لأن يحمل الأمم على التبصر والاعتبار.
إليك
قرأت في كلام أديب مشهور هذه العبارة: (إليك الدينار في سبيل فلانة) يقصد بإليك هاك، خذ. فتذكرت نقد الأستاذ عبد العزيز الميمني في (سمط اللآلئ) وهو (الذي يستمله العصريون كلهم ولا أستثني منهم أحداً، إليك بدل هاك هو غلط فاحش) والنقد حق، وقوله (لا أستثني منهم أحداً) باطل وخطأ متفاحش. وهذا الإطلاق شيء عجيب، ففي العصر كثيرون لم يغلطوا فيما نقده، منهم حضرته (اعني الأستاذ الميمني) وإن غلط في غيره. . .

وإليك من أسماء الفعل. قال سيبويه في (الكتاب): (وإليك إذا قلت: تنحَّ. وحدثنا أبو الخطاب أنه سمع من العرب من يقال له: إليك، فيقول: إليّ، كأنه قيل له: تنحّ، فقال: أتنحّى).

وفي (النهاية): (وفي حديث الحج: وليس ثمَّ طرد، ولا إليك، إليك، هو كما يقال: الطريق الطريق، ويُفعل بين يدي الأمراء، ومعناه تنحَّ وابعدْ، وتكريره للتأكيد).

وممن غلط في (إليك) هذه من المتقدمين مهذب الدين أحمد ابن منير الطرابلسي في قصيدته المشهورة التي مطلعها:

عذبتَ قلبي يا تَتَرْ ... وأطرت نومي بالفِكَرْ

فقال في أحد أبياتها:

وإليكها بدويةً ... رقت لرقها الحضرْ

(الإسكندرية)

(? ? ?)

فردنند دلسبس ومحمد سعيد باشا

لفردنند دلسبس صفحة من تاريخ مصر الحديث تجمع بين مجده الباهر وشقاء المصريين بهذا المجد. . . وقد قرأنا كتاباً ألفه عن هذا الفرنسي الكاتب المؤرخ الكبير هـ. ج. سكونفليد وأصدره منذ أسابيع، وتناول فيه بطبيعة الحال نشأة دلسبس والصداقة المتينة التي كانت بين والده وبين عزيز مصر الكبير محمد علي. وأول مجيء دلسبس ليعمل قنصلاً لفرنسا (الذي نعرفه أنه عين مساعداً للقنصل الفرنسي في مصر) في الديار المصرية، وكيف قرأ كتاب المسيو لوبير مهندس الحملة الفرنسية عن مشروع شق قناة تربط البحر الأحمر بالبحر الأبيض إذ هو في المحجر الصحي قبل دخوله مصر. . . ثم الصداقة التي توثقت بين الأمير محمد سعيد وبين دلسبس والتي عقدت أواصرها (أطباق المكرونة!) تلك الأطباق التي كان لها الفضل الأكبر في شق قناة السويس. . . وقد أغرقنا في الضحك الممزوج بأشد الآلام عندما قرأنا ما ذكره المؤلف من حديث هذه المكرونة العجيبة وهو تخريج سيكولوجي عجيب يقفنا على الطرائق الحديثة في كتابة التاريخ، ومدى ما يلقف به المؤرخون براهينهم في تعليل الحوادث. . . فلقد ذكر المؤلف أن محمداً علياً لم يعجبه أن يرى ولده سعيداً ذا جسم ضخم كثير اللحم والشحم فحرم عليه ألوانا من الطعام وأمر إلا يقدم إليه شيء منها، ثم عهد به إلى فردنند ابن ماتيو دلسبس صديقه الحميم فعلمه ركوب الخيل وحبب إليه فنوناً من الألعاب والرياضة البدنية. . . ولكن هذه الرياضة كانت تجهد الأمير الصغير وتورثه جوعاً شديداً، ولم تكن مقادير الطعام التي تقدم إليه لترد مسغبته، فكان ينسرق من القصر ويهرول إلى منزل فردنند فتقدم له هناك أطباق المكرونة، فيقبل عليها إقبالاً شديداً. . . ومن هنا، تضاعف هيام سعيد بفردنند، فلما ولي أمر مصر بعد عباس، كان فردنند قد ترك القطر وتقلب في مناصب سياسية هامة أشهرها هذا المنصب

الذي مهد له القيام بالدور الخطير الذي لعبه في سبيل تقريب وجهة النظر بين دولته، والجيوش الفرنسية وبين زعيم إيطاليا مازيني. . . وما إن علم فردنند بتربع صديقه سعيد على أريكة مصر حتى أرسل إليه يهنئه فأرسل إليه سعيد يستدعيه. . . وكانت ذكريات أطباق المكرونة أول حديث دار بينهما بعد هذا الفراق الطويل. . . وفي نفس اللحظة تكلم دلسبس عن مشروع قناة السويس فوافقه سعيد باشا ونسى وصايا أبيه بوجوب الأعراض عن هذا المشروع. . . ومن المؤرخين من يعزو نجاح المشروع إلى شغف سعيد باشا بركوب الخيل وإعجابه بدلسبس كراكب ماهر. . . وسيان. . .

تجديد قصر هشام بن عبد الملك

من أخبار دمشق أن مدير الآثار كتب إلى وزارة المعارف السورية يطلب إليها رصد 25 ألف ليرة سورية في ميزانية دار الآثار لتجديد قصر هشام بن عبد الملك المكتشف في قرية الحير وإلحاق هذا القصر ببناء متحف دمشق الجديد.

وقد كتبت الوزارة إلى رياسة مجلس الوزراء للموافقة على هذا المبلغ فعاد الجواب بالموافقة بعد أن اتخذ المجلس قراراً رقم 195 بهذا الشأن.

لذلك أرسلت وزارة المعارف إلى رياسة المجلس النيابي استناداً على كتاب مدير الآثار بلزوم اعتماد المبلغ المذكور في ميزانية الآثار لتتمكن من إعادة قصر هشام

الذي يعد من أكبر الآثار في البلاد السورية ونظراً لقيمته من الوجهة التاريخية والأثرية.

مدارس الفوهور العجيبة

لا تني النازية الهتلرية تبتكر الغرائب لخلق ألمانيا الجديدة. ومن آخر أنبائها أنها اعتزمت إنشاء أربع مدارس حديثة ليتعلم الشبان فيها ما يسمونه هناك أو مراقبة التطور العالمي، أو ما يعني بالإنجليزية إن خاننا التعبير العربي. وستضم كل من هذه المدارس ألف تلميذ من خيرة شباب ألمانيا؛ ويختار طلبتها بشروط خاصة من حيث الذهن والجسم. ويمكث تلاميذ كل مدرسة عاماً واحداً في مدرستهم ينقلون بعده إلى مدرسة أخرى - فيبدأ التلاميذ تعلمهم في مدرسة بوميرانيا التي تبعد عن شمال برلين أربع ساعات بالقطار، ثم ينقلون إلى المدرسة الثانية عند الحدود البلجيكية ليلبثوا بها عاماً ينقلون بعده إلى المدرسة الثالثة

عند شاطئ بحيرة كونستانس في أقصى الجنوب، ثم ينقلون إلى مدرسة مارينبرج عند الحدود الشرقية. وسيتعلم التلاميذ في هذه السنين الأربع أرقى الأساليب السياسية وفن الحياة على أن تناط بهم بعد تخرجهم كل الوظائف التي يراد بها تنوير الشعب وقيادته وبث روح الوطنية بين أفراده. ومعنى هذا أن يأتي يوم لا يتولى وظيفة من وظائف الدولة رجل جاهل بما تتطلبه الدولة ويقتضيه مستقبل ألمانيا. . . أما كيف يعد الأطفال للالتحاق بهذه المدارس فتتولى الدولة انتخاب الصبية في سن العاشرة على أن تلحقهم بمدارس خاصة حتى يبلغوا الثماني عشرة، ثم ينخرطون بعد ذلك فيما يسمي (معسكر العمل) حيث يقضون ستة أشهر يباشرون خلالها أعمالاً عامة تعودهم شظف العيش والحياة الخشنة، حتى إذا انتهت الأشهر الستة انخرطوا في صفوف الجيش حيث يعملون في فصائله المختلفة لمدة عامين يلتحقون بعدهما في وظائف الدولة لمدة سنة يستطيع كل منهم خلالها أن يتزوج ويكون أسرة؛ فإذا تصرم العام اختير من بين الجميع ألف طالب كدفعة أولى لمدارس الفوهرر، ويطلق عليهم حينئذ لقب أو الشباب (الجنتلمان) - وسيتحرى في اختيار هؤلاء أن يكونوا جميعاً من طول واحد، وأن تكون صدورهم من مقاس متفق عليه، وأن يكونوا ألمانيين خلصاً ومن جنس نوردي آري لم يمتزج بدم جنس آخر إلى ما قبل سنة 1800. . . وسينشئون في هذه المدارس تنشئة إسبرطية بكل معاني الكلمة فيزاولون الرياضة ويشبون على الشجاعة والإقدام والتضحية.

أما المنهاج الدراسي، فسيتعلم التلاميذ في مدرسة بوميرانيا ثقافة العصرين الحجري والحديدي. . . وبالطبع سيقحم مجد ألمانيا في هذين العصرين إقحاما قومياً. . . وفي مدرسة الحدود البلجيكية سيلقنون دروساً في الديانة المسيحية باعتبارها إحدى السياسات التاريخية فينقد المذهب البروتستانتي كما ينقد المذهب الكاثوليكي بحرية مطلقة. . . أما في مدرسة الجنوب البافارية فسيتعلمون النازية الحديثة وعلم الأجناس الجديد من وجهة النظر الهتلرية. . . فإذا ذهبوا إلى مدرسة الحدود البولندية تعلموا ثمة فنون الدعاية الجديدة والمشروعات المتعلقة بسياسة ألمانيا الشرقية كما تناولها هتلر في أل

وليتساءل القارئ بعد هذا: إلى أين تسير ألمانيا؟!

جوائز جونكور وفمينا

منحت أكاديمية جونكور أخيراً جائزتها السنوية للكاتب البلجيكي شارل بلسنييه من أجل كتابة (الزواج) الذي صدر منذ عام؛ وهذه أول مرة تمنح فيها هذه الجائزة الفرنسية كاتباً غير فرنسي، وليس في قانون أكاديمية جونكور ما يحرم نيل جائزتها على غير الفرنسيين؛ ولكنها تجري في ذلك منذ نشأتها على تقاليد الأكاديمية الفرنسية التي تقضي بالا يتشرف بعضويتها غير الفرنسيين. ولكن حدث في صيف هذا العام أن زار وفد كبير من أعضاء الأكاديمية البلجيكية زملاءهم أعضاء الأكاديمية الفرنسية، وكانت الكاتبة الشهيرة كوليت قد منحت عضوية الأكاديمية البلجيكية، لأن النساء لا يقبلن في الأكاديمية الفرنسية. فرأت أكاديمية جونكور من جانبها أن تخرج على تقليدها القديم، وأن تمنح جائزتها للكاتب المتفوق في الكتابة بالفرنسية، واختارت لذلك شارل بلسنييه.

ونالت مدام رايمون فنسان جائزة (فمينا) عن روايتها (الريف) وهي كما يدل عنوانها قصة نصف الحياة الريفية. وقد نشأت مدام فنسان نشأة ريفية ولم تتلق دراستها

المدرسية إلا في سن متأخرة، ولكنها تتمتع بمواهب أدبية بديعة.
ونال الكاتب الناقد رومان روسل جائزة الحلفاء الأدبية عن روايته (واد بلا ربيع)
رسالة النقد
أبو تمام والمقتطف
لأستاذ جليل
قالت مجلة (المقتطف) الغراء في حديثها عن كتاب (أخبار أبي تمام) للصولي: (أبو تمام أمير من أمراء العصر العباسي، خرج لأهل عصره بجديد لم يألفوه فخرجوا عليه، وساعد في ذلك وجود البحتري فناصره الناس، وفضلوا رقته ورشاقة ديباجته على تعاظل أبي تمام وتعمقه، وطالت الخصومة، وكسب الأدب منها ما كسب من كتب النقد، وكان مما كسبه كتاب الصولي الذي أراد به الانتصار لأبي تمام على كتاب الآمدي (الموازنة بين أبي تمام والبحتري) الذي ناصر فيه مؤلفه البحتري.
قول المقتطف: (أبو تمام أمير من أمراء العصر العباسي) فيه بعض التسامح، فما كان حبيب أميراً من الأمراء، وما ترفعه عندنا إمارة، ولن تخفضه قروية؛ وفلاح عامل أو عالم خير من آلاف من أمراء أغبياء كسالى، وقد كان ابن آوس فلاحاً ابن فلاح من قرية جاسم.
قول المقتطف: (خرج لأهل عصره بجديد لم يألفوه فخرجوا عليه) فيه لبس كثير، فقد جاء أبو تمام بما جاء به ورأى الناس إبداعاً ونبوغاً وعبقرية فبهرهم ذلك واستجادوه واستجزلوه وتقبلوه (ولم يخرجوا على صاحبه) ولم ينكر ذاك الشعر العلوي العبقري ولم يعبه إلا جاهل أو حاسد أو عدو. ومتى تخلص النابغون أو العبقيريون من مناكرين ومعادين؟ وإن عاب الطائي مثل ابن الأعرابي ودعبل فقد أجله أيما إجلال مثل المبرد وابن الزيات. وقصة أرجوزة حبيب وابن الأعرابي (وهي مشهورة) تبين مقدار العداوة إذا اشتدت وجارت. ودعبل، أقواله وأهاجيّه مساخر دعبلية. . . وقد أعلن أبو الفرج في كتابه (الأغاني) والصولي في (أخبار أبي تمام) مقاصد ناقدين في نقدهم حبيباً. قال أبو الفرج: (هم أقوام يتعمدون الرديء من شعره فينشرونه ويطوون محاسنه، ويستعملون القحة والمكابرة في ذلك ليقول الجاهل إنهم لم يبلغوا علم هذا وتمييزه إلا بأدب فاضل وعلم ثاقب) وقال الصولي: (صنف ألف في الطعن عليه كتباً ليجري له ذكر في النقص إذ لم يقع له حظ في الزيادة، ومكسب بالخطأ إذ حرمه من جهة الصواب) وإن شاعراً أخمل في زمانه خمسمائة شاعر - إلا واحداً - كلهم مجيد لا يستبدع أن يعاديه معادون، وينبحه شويعرون، وينغر
عليه ويغلي شعراء مبرزون. ومن يقرأ شعر ابن الرومي في البحتري يستعجب ويستغرب في الضحك، يقول في مقطوعة خلاصتها: (أن الشاة لا تجزع من ألم الذبح ولا السلخ لكنها تشفق أن يكتب في جلدها شعر البحتري).
قول المقتطف: (فناصر الناس البحتري وفضلوا رقته ورشاقة ديباجته على تعاظل أبي تمام وتعمقه) هذا القول هو الظلم العبقري، وللمعاظلة معانٍ كلها شر؛ والتعمق هنا هو التنطع. وهذا تصوير لشعر ابن أوس مستشنع، ووصف منكر. ولو قالت (المقتطف) وفضلوا رقة البحتري على جزالة أبي تمام لاقتربت من الحق، فقد قال صاحب (المثل السائر): (أعلم أن الألفاظ تجري من السمع مجرى الأشخاص من البصر، فالألفاظ الجزلة تتخيل في السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار، والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذوي دماثة ولين أخلاق ولطافة مزاج؛ ولهذا ترى ألفاظ أبي تمام كأنها رجال قد ركبوا خيولهم، واستلأموا سلاحهم وتأهبوا للطراد. وترى ألفاظ البحتري كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات وقد تحلين بأصناف الحلي) وهي طبيعة المرء (أو مزاجه) تدعوه إلى طريقة في القول بل عقيدة في الدين فيستقيد لها ويستجيب. ولن تضير ذا الرقة رقته، ولن تعيب ذا الجزالة جزالته؛ وقوة حبيب ما حرمته لطفاً، وسهولة البحتري ما منعته فحولة. فوصف صاحب المثل هو قول عدل في شعر الطائيين من جهة الألفاظ؛ وأما من جهة (الاستخراجات اللطيفة والمعاني الطريفة) كما يقول المبرد أو لطف المعاني وسموها أو العبقرية الشعرية، فالبحتري دون أبي تمام، والوليد في ذلك تلميذ حبيب. وما أصدق البحتري إذ يقول: (أنا والله تابع لأبي تمام، لائذ به، آخذ منه، نسيمي يركد عند هوائه، وأرضي تنخفض عند سمائه) وفي (الموشح): (سرقات البحتري من أبي تمام نحو خمسمائة بيت) وعندي أنها أكثر مما

قال. وهنا نكتة تروي في هذا المقام: رآني ذات يوم أديب شاعر أقرأ في كتاب فقال: ما هذا؟ قلت: شرح ديوان أبي تمام. فلما أبصر الكتاب وعرفه قال: هذا ديوان البحتري. قلت: نعم. ففهم النكتة. وليس القصد من هذا الكلام تنقص البحتري وتهجينه، بل تقرير الحق وتبيينه. والبحتري هو صاحب القول الطل الجميل، وهو في الشعر العربي ثالث ثلاثة ما جاء قبلهم ولا بعدهم مثلهم. وأستاذ الاثنين - على إبداعهما وعلوهما - هو حبيب. وإن شئت فقل كما قال المتنبي: (حبيب أستاذ كل من قال الشعر بعده) وأبو الطيب
يدري بما يقول، ويعرف ما يعني، وهو خريجه وإن لم يجثُ بين يديه، ومعاني أبي تمام في أبيات المتنبي سوافر غير متلثمات، ينطقن بالحق فصيحات.
وعناية حبيب بألفاظه مثل عنايته بمعانيه لا كما جاء في (موازنة الآمدي): (إن اهتمامه بمعاينة أكثر من اهتمامه بتقويم ألفاظه، وأنه إذا لاح له المعنى أخرجه بأي لفظ استوى من ضعيف أو قوي) فإن هذا قول باطل، الحق يعانده، والأدلة تدحضه، وسبك حبيب العجيب يكذبه؛ فليس في العربية شاعر احتفل في المعنى واللفظ معاً احتفال أبي تمام، فهو إذا غزا المعنى العالي أنزله من اللفظ في خير مكان؛ فهو محكم المعنى مرصّن اللفظ (وإذا لم ينهض بالمعنى الشريف الجزل لفظ شريف جزل لم تكن العبارة واضحة، ولا النظام متسقاً؛ وتضاؤل المعنى الحسن تحت اللفظ القبيح كتضاؤل الحسناء في الأطمار الرثة). وفي (العمدة) لابن رشيق قال: (قال بعض من نظر بين أبي تمام وأبي الطيب: إنما حبيب كالقاضي العدل يضع اللفظة موضعها، ويعطي المعنى حقه بعد طول النظر والبحث عن البينة، أو كالفقيه الورع يتحرى في كلامه ويتحرج خوفاً على دينه؛ وأبو الطيب كالملك الجبار يأخذ ما حوله قهراً وعنوة، أو كالشجاع الجريء يهجم على ما يريده لا يبالي ما لقي، ولا حيث وقع)
وقد حقق حبيب جل شعره، وأحكم نظم أكثره، وله المتوسط، وله الرديء، والجيد جيد، والغث غث، فصف كلاً بصفته، ولا تلبس الحسن بالقبيح، وخذ الطيب وذر الخبيث، (وليست إساءة من أساء في القليل وأحسن في الكثير مسقطة إحسانه) كما قال أبو الفرج
قول المقتطف: (وكان مما كسبه كتاب الصولي الذي أراد به الانتصار لأبي تمام على كتاب الآمدي: الموازنة بين أبي تمام والبحتري) فيه تسامح كثير، فقد ألف الصولي كتابه والحسن ابن بشر الآمدي شادٍ لم يجادل ولم يوازن ولم يؤلف شيئاً. وليس في الكتابين دليل على أن أحدهما قصد مناقضة الآخر. فالصولي ينعى على جماعات مقالات لهم زائغة، والآمدي يوازن بين الطائيين وضلعه مع الوليد على حبيب. وممن يعنيهم الصولي أدعياء في الأدب أو علماء من دعاة القديم، والآمدي أديب يكبر الشعراء المحدثين.
المقتطف مجلة أجلها، وكيف لا أعظم صحيفة منشئها علامة العرب ومعلمهم (الدكتور يعقوب صروف) لكنها قالت فقلت.
قارئ
العدد 236 - بتاريخ: 10 - 01 - 1938
التأليف والنشر في مصر
للدكتور عبد الوهاب عزام
حدثني بعض الأصدقاء أن أحد أصحاب المعالي وزراء الدولة في الحكومة القائمة دعا إليه جماعة من الكتاب وحدثهم في تنشيط التأليف في مصر ومكافأة المؤلفين ووعد في هذا وعوداً حسنة الخ
وهذا رأي محمود نرجو أن يتلوه العمل فيؤتى ثمراته بعد حين؛ وهذه فرصة أنتهزها للتنبيه إلى أمر طالما أهم المفكرين من قراء العربية في الشرق والغرب، وطالما ترددت منه الشكوى وأخذت به مصر قبل الأقطار الأخرى؛ ذلكم أمر النشر نشر الكتب القديمة والحديثة التي مات مؤلفوها. فهو أمر تتحكم فيه الفوضى. يستطيع الواحد من تجار الكتب أن يعمد إلى كتاب من الأمهات في الأدب أو التاريخ أو غيرهما، ويعهد به إلى من يصححه ويقدمه للطبع. وحسب هذا المصحح أن يستطيع قراءة الكتاب قراءة يتصرف فيها خياله وحظه القليل من العلم، ونشاطه التي تحده المكافأة القليلة التي ينالها من الناشر، ووجدانه الذي لا يحفل بالأمانة العلمية كثيراً. وأحياناً يتصدى لنشر

الكتب بعض العارفين بأساليب النشر الحديثة، فيعهد بتصحيحه إلى بعض الأسماء النابهة، ويتخذ من وسائل الترويج ما يشاء له طمعه في الربح والصيت؛ فيستبشر الأدباء ويرجون خيراً ويتربصون على قلق حتى يظهر الكتاب فيكبوا على قراءته فإذا الأمر لا يعدو ما ألفوه من طرق النشر التي لا تصوب غلطاً، ولا تزيل شكاً، ولا تنال طمأنينة القارئ

لا يعوز الباحث أن يتابع الأدلة من الكتل المشوهة، أو الكتب التي بذل في تصحيحها جهد قليل قصر بها دون الغاية:

نشر بعض الناشرين كتاباً قديماً في الفرق الإسلامية فمر على أغلاطه لم يعرض لها وحرف بعض عبارات ظنها غلطاً وهي صواب. وحسبي أن أذكر من فعلاته هذه الواحدة: ذكر المؤلف رجلاً فنسبه إلى قبيلة وقال إنه (من ثَوْر هَمْدان) أي قبيلة ثور إحدى قبائل همدان لا من قبيلة ثور الأخرى إحدى قبائل مضر. فحرف الناشر الكلمة إلى (ثغور همذان) وأمتن على القراء في الحاشية بأنه أدرك الحق في هذه الجملة المحرفة. وأذكر أن ناشراً عمد إلى ترجمة كتاب كلستان للشيخ سعدي الشيرازي الشاعر الفارسي العظيم فطبعه

وكتب على صفحة العنوان: (كتاب جلستان: بقلم العلامة جلستان الفارسي)

وليس العهد بعيداً بكتاب معجم الأدباء، وما أهمل من غلطاته، وحرف من عباراته، وزيد عليه من شرح يتجلى فيه الخطأ والفضول. وقد أخرج للناس في موكب من التشهير والترويج، وهو في الحق حري أن يكون عيباً لمن أخرجه وعاراً على وزارة المعارف التي احتملت التبعة فيه فكتبت على صفحة العنوان: (راجعته وزارة المعارف). وكنت كتبت خمس مقالات في نقد الجزأين الأول والثاني ثم وعدت القارئ أن أعود إلى النقد بعد أن تطبع الأجزاء الأخرى لأبين أهي خير من هذين الجزأين أم مثلهما. ولعلي أفي للقراء بهذا الوعد بعد هذا المطال الطويل. بل كتب الأدب التي بأيدي الطلاب في مدارس الوزارة فيها كثير من الغلط وإذا وقع الغلط والتحريف في مثل هذه الكتب فماذا يرجى من الكتب السوقية التي يتولى نشرها تجار أكبر همهم النفقة القليلة والربح الكثير؟

كان أسلافنا يكتبون الكتب بأيديهم إذ لم تكن عندهم من وسائل الطبع والتصوير ما عندنا. فكان عليهم أن يصححوا كل نسخة من كل كتاب. وقد اضطلعوا بهذا العمل الفادح جهد طاقتهم وبذلوا فيه من فكرهم وعافيتهم ونومهم وراحتهم ما تشهد به آثارهم وأخبارهم. كان المتأدب منهم يقرأ الكتاب على أديب ثقة، ويكتب عليه أنه قرأه على فلان، ويغلب أن يكون الشيخ الذي قرء عليه الكتاب قد قرأه على آخر، وهكذا حتى تنتهي القراءة إلى المؤلف أو الشاعر أو الكاتب. ويكتب هذا السند المتصل على الكتاب فيعلم قارئه أن بيده كتاباً عمدة يطمئن إليه، بل فعلوا هذا في الدواوين المتواترة التي يتداولها الحفظ والنسخ كل حين كديوان المتنبي. وعندنا اليوم نسخ من الديوان تحمل سندها من أبي الطيب إلى سبعة قرون أو أكثر من بعده. وهذا العكبري شارح الديوان في القرن السابع لم يجز لنفسه أن يشرحه حتى قرأه على شيخين من شيوخ الأدب: مكي بن ريان بالموصل، وعبد المنعم بن صباح التيمي بمصر. وقد وضع أسلافنا أصولاً اصطلحوا عليها وسموها (أصول السماع) بينوا فيها كيف يتثبت راوي الخبر أو راوي الكتاب حتى يتحرز عن الغلط جهده.

ومن عجيب ما يروى في هذا ما حدثني به بعض الثقات أن القاضي عياضاً ذكر في كتابه (الإلماع في أصول السماع) أن أبا علي القالي صاحب الأمالي أعار الحكم المستنصر الأموي خليفة الأندلس كتاباً من كتبه وطالت غيبة الكتاب عنه. فلما رد إليه أبطل الرواية

به وقال لا آمن أن يكون قد أصابه تحريف وهو في يد غيري

ذلكم جهد السلف ودأبهم في التثبت، على ما حملهم هذا من عناء ونصب. فكيف وقد تيسر طبع الكتب بما خلقت المدنية الحاضرة من وسائل - كيف نتهاون في التصحيح والتحقيق فنخرج كتباً تنوء بأغلاطها؟ إن ناشر الكتاب اليوم يكفيه أن يصحح نسخة واحدة لتصح له آلاف النسخ فيتواتر الكتاب، ويؤمن عليه الغلط والتحريف، والزيادة والنقص من بعد. ليت شعري بأي عذر نعتذر، وبأي تعلة نتعلل؟ لا عذر ولكنه التهاون والكسل أو القصور والجهل ليس فيها خيار لمتخير

فالذي نرجوه أن تؤلف الحكومة أو تكل إلى الجامعة، تأليف هيئة لمراقبة النشر وبخاصة نشر الكتب القديمة فلا يؤذن لناشر أن ينشر كتاباً حتى تتوثق هذه الهيئة أن القائمين على تصحيح الكتاب هل لتصحيحه وإخراجه على حال يسكن إليها أولو العلم والأدب. ولهم في لجنة التأليف والترجمة والنشر أسوة حسنة ومثال صالح ذلكم أقرب إلى التحقيق، وأبعد من الفوضى، وذلكم أجدر بنا وأولى بسمعتنا، وأحفظ لتاريخنا وآدابنا. فإن توهم متوهم أن الخطب في هذا أمم يوكل إلى الزمن إصلاحه ولا يحتاج إلى عناية الأمة والحكومة فليسأل الباحثين من علمائنا وأدبائنا ليشكوا إليه ما قاسوا من الكتب المحرفة، والنصوص المضللة. وإنا لراجون أن تبادر الحكومة إلى تبشير الأدباء بما تعتزم في هذا الأمر العظيم ثم تتبع البشرى العمل والوعد الإنجاز

عبد الوهاب عزام

في عليين

للأستاذ عباس محمود العقاد

سلفادور مدرياجا أديب إسباني كان أستاذاً للدراسات الإسبانية بجامعة أكسفورد. ثم ظهر في عالم السياسة الأوربية على أعقاب الثورة التي قام بها في بلاد الأسبان جمهرة الأدباء والمثقفين، فمثل حكومته في عصبة الأمم والولايات المتحدة وفرنسا، وراجت تواليفه التي تتمثل فيها عبقرية بلاده، فترجمت إلى معظم اللغات الغربية وقد لازمته روح الأدب حتى في أعماله السياسية فرويت له طرائف شتى أثناء المناقشات المحتدمة في مشاكل الدول وأزمات الحكومات، ومنها انه حضر (مؤتمر السلاح) وسمع ما يقترحه كل فريق من الدول القوية من تقييد هذا السلاح أو السماح بذاك على حسب اختلاف العدة عند كل فريق، فأصغي إلى الأعضاء الجادين في مناقشاتهم ومساجلاتهم ثم قال:

أيذكر مسيو لتفينوف خرافة الحيوانات التي اجتمعت للبحث في التقليم والتجريد؟ لقد) نظر الأسد في ذلك المؤتمر إلى النسر ثم قال: علينا أن نلغي المخالب؛ ونظر النمر إلى الثور ثم قال: علينا أن نلغي القرون؛ ونظر الثور إلى النمر ثم قال: علينا أن نلغي الأظافر؛ ونظر الدب إليهم أجمعين ثم قال: بل نلغي كل شيء إلا حق الصراع والعناق!)

وعجب الناس من هذه المؤتمرات التي تجتمع ثم تفترق، وتفترق ثم تجتمع، وهي لا تأتي بنتيجة وتعلم أنها غير آتية بنتيجة. فذهب إليه مراسل بعض الصحف وسأله: ما جدوى كل هذا الاجتماع والافتراق وكل هذا الافتراق والاجتماع؟ وما يعني الساسة المحنكون بهذا العناء في غير طائل؟ فكان جواب مدرياجا للمراسل:

أسمعت قصة الصبي اليهودي؟ إن كنت لم تسمعها فاعلم أن صبياً يهودياً تعود أن) يصرف ريالاً أرباعاً ثم يصرف الأرباع سنتيمات ثم يعود فيرد السنتيمات في دكان آخر إلى أرباع فريال صحيح؛ وهكذا كل يوم بغير تحول ولا انقطاع. فتعقبه بعضهم يوماً بعد يوم ولحق به في طريقه بين الدكاكين فسأله كما تسألني الآن: فيم هذا العناء على غير جدوى؟ قال الصبي: لابد من يوم يقع فيه بعض الناس في خطأ حساب، ولن أكون أنا بعض الناس هؤلاء!)

وقس على ذلك طرائفه التي يتناول بها معضلات السياسة بين الجد والمزح والنوادر والأمثال

آخر كتاب لهذا الأديب اللبق الأريب ظهر في اللغة الإنجليزية هو كتابه (في عليين) وهو على هذه الوتيرة محاورات وأمثال ومحادثات وقعت كما تخيلها في عليين بين أرواح العظماء المرفوعين إلى السماء:

منها روح فولتير الفرنسي وجيتي الألماني وكارل ماركس زعيم الاشتراكية وواشنطون ونابليون وماري ستيوارت ونخبة من طراز هؤلاء

وهي غير مقصورة على أرواح الأموات دون الاحياء، بل يشترك فيها بعض الأحياء الذين يستدعيهم أولئك العظماء من الأرض في حالة النعاس أو حالة الغيبوبة

ويدور البحث بين هذه الأرواح في كل ما يخطر لتلك العقول من مسائل الفن والسياسة والاجتماع، ويتخلل ذلك كلمات بعضها مخترع وبعضها مما روي عن قائليه أثناء الحياة؛ وقراءتها من أمتع ما يطلع عليه القارئ في الأدب الحديث

من أمثلة ذلك أنهم اختلفوا على مشاركة الولايات المتحدة للأوربيين في حل

المعضلات العالمية. فأمر واشنطون باستدعاء روح من رجال مجلس الشيوخ المعارضين في ذلك. فجاء الروح وكان أول ما استشهد به قول الرئيس واشنطون في خطاب الوداع، وجرى الحوار على هذا المنوال

الشيخ - ولم يا سيدي؟ إن الجواب لظاهر. وتوقيراً لذكرى الرئيس واشنطون أعيد كلماته التي يعيها جميع الأمريكيين في أطواء القلوب. . . لقد قال: (إن لأوربا طائفة من المصالح الأولية التي لا مصلحة لنا فيها أو تكون علاقتنا، بها جد بعيدة، ومن ثم نتورط في أسباب الخلاف والشقاق التي لا تني تتعاقب وتتلاحق، وهي أسباب غريبة عن شواغلنا، فليس من الحكمة أن نزج بأنفسنا في غمارها، ونعقد الروابط المصطنعة بيننا وبينها، في أحوال سياستها المألوفة أو علاقات الصداقة والعداوة بين أجزائها)

ثم قال: (إن سياستنا هي أن ندير شراعنا بعيداً عن رياح الدول الأجنبية)

فالتفتوا جميعاً إلى القائد واشنطون فإذا به يقول:

واشنطون - عجيب! إنني لم. . . متى قلت ذلك يا حضرة الشيخ الموقر؟

الشيخ - أخالك أنت الرئيس واشنطون إنك لشبيه بتمثالك ولكن ليس بالشبه كله، أفأنت الرئيس واشنطون بعينه؟

واشنطون - نعم يا سيدي: ما يخلد منه

الشيخ - إني سعيد بلقائك أيها الرئيس. إن الكلمات التي سمعتها هذه اللحظة مقتبسة من خطاب وداعك

واشنطون (متذكراً) - وما ذاك؟

الشيخ - حسن أيها الرئيس. إنه الخطاب الذي ألقيته لدواع لست اذكرها الساعة، ولكني أذكر منها أنك ألقيته يوم اعتزمت ألا تغزو ميدان الانتخاب للرآسة

واشنطون - أغزو؟ أنا ما غزوت قط ميدان الانتخاب، ولكني أفهم ما تعنيه وإن كانت عباراتك غريبة عني بعض الغرابة

الشيخ - لم تكن من عباراتك. إلا أننا نحفظ دروسك عن ظهر قلب. لا اشتباك في المسائل الأجنبية!

واشنطون - ومع هذا يا حضرة الشيخ أقول لك إن الابتعاد عن حوافر الخيل سياسة حسنة لصغار الجراء، ولكنها ليست بالسياسة الحسنة لكبار الأفيال

ومن أحاديث الرسالة كلمة توجهها ماري ستيوارت إلى الشاعر جيتي - وهو أستاذها ودليلها في السماء - فتقول له:

إنك أيها الأستاذ العزيز تطلب (الحرية في النظام) ولكني أرى أن الحرية راجحة على النظام، لأن الحرية خلاقة موجدة. أما النظام فقصاراه أن يحفظ ما هو موجود، وهو يحفظ كل شيء؛ ويا له من شيطان مسكين: يحفظ ما يستحق الحفظ وما هو حقيق بالتلف والزوال، وكأنه ربة البيت المجنونة بالشح والتدبير، فهو يحيط الحياة بنطاق من حديد؛ ثم تأتي الحرية - حرية الأرواح القوية - فتحطم النطاق ولا تزال تفتحه فتحاً (يوسع أطراف الحياة)

ومن أقوال ماري ستيوارت في هذا الحديث: (ليست الحياة متاجرة، ولكنها مقامرة. وليست هي مقامرة الرجل مع رجال آخرين، وإنما هي مقامرة الرجل مع الحياة نفسها)

ويقول فولتير في بعض أحاديثه: (لست أزعم أنني موضع ثقة الإله وأنني مؤتمن على سره كالدكتور جيتي الذي يطلع على الأسرار الإلهية! بل إنني معترف بقلة الفهم لأساليبه، ومن ثم لست على يقين من أسباب لجميع هذه الأشياء)

فيقاطعه واشنطون قائلاً: لابد من أسباب على كل حال. فتصيح بهم ماري ستيوارت: أفكل شيء يجري على حكم العقل وحكم أسبابه؟ ما أحسب ذاك!

فيجيبها كارل ماركس: (ليست الدنيا مستشفى مجاذيب)

فيعود فولتير قائلاً: (أحقاً؟ لست أدري، ولكن إذا جرت الأمور على هوى أتباعك الاشتراكيين وأتباع الإمبراطور - يعني نابليون - العسكريين. فمن يدري؟)

ومن فكاهات فولتير في الرسالة قوله: (إن مذهب الشيوعيين الذين يدعون إلى استيلاء الحكومة على كل شيء لا يختلف عن مذهب الرهبان الذين يقولون باستيلاء الكنيسة على كل شيء) ثم يقول: (إن الشيوعيين هم الطبقة العصرية لطائفة اليسوعيين! الغاية تبرر الواسطة، وإلا فالأقوال الحتمية والتعميم والطاعة، كأنما

الإنسان جثة ميتة باختياره، وإلا فهو جثة ميتة على الفور بغير اختيار، ولا احتمال لمذهب غير المذهب، ثم لابد من تسليم البضاعة. . .)
ويدور بعض الأحاديث في الرسالة عن الحرب كما يلي:
. . .كارل ماركس - حرب. حرب. في أوربا كثير من أسباب الحرب غيري أنا
جيتي - على التحقيق، ولكن أوربا كانت تعالج إصلاحها ومحوها، واليك مثلاً عصبة الأمم
كارل ماركس - فشل كامل!
جيتي - أتراك تنفض يديك من الشيوعية عند أول تجربة فاشلة؟
كارل ماركس - كلا! لأنني موقن بنجاحها الأخير
جيتي - وكذاك نجاح العصبة الأخير لا شك فيه
نابليون - لا. لا يا دكتور جيتي. هذا يدهشني أن أسمعه من رجل حكيم كما عهدتك
جيتي - إنما دهشتي من دهشتك
نابليون - نهاية كل قول أن الحضارة قائمة على القوة
واشنطون - كلا. بل الحضارة قائمة على العقيدة
كارل ماركس - العزة الإلهية مرة أخرى!
واشنطون - ليس هذا ما عنيت الساعة يا سيدي. وإن كنت أرى أننا لو تعمقنا في الرأي الذي أبديته فنحن منتهون لا محالة إلى العزة الإلهية
نابليون - ولكنك حين تقول إن الحضارة قائمة على العقيدة أيها الجنرال ماذا تريد؟
واشنطون - أعني الصلة الروحية التي تبعث الناس إلى عمل يعلو على مآربهم الحيوانية القريبة. أفتحسب أن جنودك ماتوا من أجلك لأنك أكرهتهم على ذلك؟
نابليون: إنما أحسب جيشي دعامة حضارتي، وإن جيشي على كل حال قوة!
واشنطون - ما كان جيشك إلا شجاعة، وإيمان بك، وحب لفرنسا
نابليون - ومدافع وذخائر وطعام
واشنطون - كل أولئك (مادة ميتة) بغير العقيدة
نابليون - أتريد عقيدة بغير مدفع؟
واشنطون - خير من مدفع بغير عقيدة
جيتي مخاطباً نابليون - فالمي يا سيدي! تذكر معركة فالمي؟ لقد غلبت العقيدة بغير المدفع على المدفع بغير العقيدة في تلك المعركة. إنني معك أيها الرئيس، وإني لشاكر لك إجابة الإمبراطور وإن كان توجيه سؤاله إلي لعجبه من إيماني بعصبة الأمم. ولقد أردت أن أقول له إنني لم أؤمن بالعصبة إلا لإيماني بأن الجماعة من الناس ينبغي أن تبادر إلى حكم نفسها ساعة وجودها أو ساعة شعورها بوجودها، فأما وجد الشعور بالجماعة الدنيوية فالحكومة الدنيوية لابد لها من وجود)
ومناقشة أخرى تدور بين فولتير وكارل ماركس عن سخافة الروايات الروسية الحديثة، فيشير ماركس إلى أسباب اقتصادية لسخافتها، ويعود فولتير فيقول:
فولتير - حتى تثبت أن غباوة جماهير المدينة نجمت من أسباب اقتصادية
كارل ماركس - حقيقة ذلك ظاهرة
فولتير - بل هي على نقيض ذلك، فما الأسباب الاقتصادية إلا وقائع ثانوية؛ أما الوقائع الأولى فهي دوافع النفوس
كارل ماركس - كلمات وليس إلا كلمات
فولتير - أأنت فأر مدينة أم فأر خلاء (تلك حقيقة ثانوية أما الحقيقة الأولى فهي أنك فأر
على كل حال)
وجيء إلى السماء بوليام جننجز بريان الذي حارب أستاذاً لأنه علم مذهب داروين في بعض المدارس الأمريكية
قال فولتير - فما هو إلا أن ارتفع إلى هنا حتى مثل بين يدي العزة الإلهية. فتهلل وليام جننجز بريان بشراً، ولكنه لم يلق ترحاباً من جانب العزة الإلهية. فقال وهو في حماسة تشغله أن يلمح ما حوله من قلة الترحاب في هذا الجو لأنه قد صعد في الأرض بحماسة كافية لأجواء عديدة: رب. هأنذا. لا يزال يغشاني غبار المعركة. لقد كانت حرباً زبوناً، ولكن الظفر كان لنا
فأجابه الله بصبره السماوي - إن لغة المعركة والحرب والظفر لا تعجبني

قال بريان - لكنك يا الله رب الجنود. أو ليس هذا اسمك في كتاب العهد القديم؟
قال الرب في حلمه السرمدي يلطف ما به: لقد كنت يومئذ ناشئاً ألهم أنبياء إسرائيل
إلهام الناشئين! ولعلك نسيت أنني أرسلت إليكم منذ عشرين قرناً رسول حب وسلام
فحار بريان ثم توسل قائلاً وهو في ريب مما يسمع: ولكني يا رباه قد حاربت أعداءك
فوسعه حلم الرب وسدده إلى الصواب وهو يوحي إليه أن ليس لي يا بني أعداء. كل
ما لي يا بني خلائق
فاضطرب الكتابي المسكين والشك يأكل قلبه، وصاح. لكن آراء دارون رباه تخالف
أقوال كتابك
فأكد له الله قوله في حلم وحزم: (كل ما أخلص كاتبوه في كتابته فهو وحي من عندي،
وكل ما استقام على الصراط فهو من مصدر الاستقامة)
وفي بعض المحادثات يقول ماركس لجيتي: إن من يعمل يعيش. فيقول جيتي: إنك إن
أقمت حق العامل على عمله لا على صنعته الإنسانية قتلته، ولاسيما حين تكثر الآلات
وتقل الحاجة إلى الأعمال والعاملين
وهكذا تفيض الرسالة بالطرائف التي لها مثل هذه الطلاوة أو هذه الدقة أو هذه
الفكاهة. وقد رأيت أن أشرك قراء العربية في نصيب منها حتى ينقلها ناقل برمتها
وهي قلما تربي على مائة صفحة صغيرة
عباس محمود العقاد
ليلى المريضة في العراق
للدكتور زكي مبارك
- 5 -
أخبار قصيرة
1 - اعترضت مجلة الحاصد على عبارة (ليلى المريضة بالعراق) وقالت: إن البيت
المشهور يجعلها مريضة في العراق لا بالعراق، وتسألنا عن معاني الباء، ولكنا نعرف
أن الجدل في النحو أخرج سيبويه من بغداد وهو محموم، فلنصرح بأن الباء في العنوان
القديم لم يكن لها في ذهننا معنى غير الظرفية، على حد ما قيل
ومن يك أمسى بالمدينة رحله ... فإني وقيار بها لغريبُ
فاتركنا يا سيد أنور ما تركناك!
2 - نشرت جريدة البلاد كلمة لحضرة سكرتير الإذاعة اللاسلكية ينفي بها ما نشر في
مجلة الرسالة عن إغفال اسطوانة السيدة نادرة:
يقولون ليلى في العراق مريضة ... فيا ليتني كنت الطبيب المداويا
ويؤكد أنه لم تصدر أية إشارة من أية جهة بمنع هذه الأسطوانة من الإذاعة، ونجيب
بأننا سمعنا ذلك الكلام من ليلى وهي عندنا أصدق
3 - كثر الاستفهام عن السيد الذي يقيم بالكاظمية والذي تفضل فهداني إلى منزل
ليلى، ولكن لذلك السيد مكانة اجتماعية تجعل من العسير أن نصرح باسمه في هذه
الأحاديث الوجدانية
4 - طلب جماعة من أدباء بغداد أن أعلن أن ليلاي غير ليلى الزهاوي، فإن الزهاوي
كانت ليلاه هي العراق، وأنا أصرح بأن ليلاي في بغداد هي ليلى المريضة في العراق،
وهي معروفة لجميع الناطقين بالضاد
وبدت لي ظمياء فتاة شاعرة العواطف حين وصفت آذار بأنه شهر الأزهار والرياحين.
وغلب الأدب على الطب فأحببت أن أعرف كيف رأت مصر وكيف رأت النيل. والحق
أن ظمياء في جوهرها فتاة مليحة، ولكني أغالب نفسي فأقول إنها شوهاء مداراة
للمرأة جميلة
التي تفحص أسارير وجهي بعينين كأنهما عينا العقاب، وما أدري والله كيف نجحت في
اصطناع التجمل والتوقر وكنت طول حياتي مفضوح النظرات
- ظمياء
- نعم يا مولاي
- كيف كان طريقكما إلى مصر يا بنيتي؟ بالسيارة أم بالطيارة؟
- لم يكن السفر بالطيارة مألوفاً في سنة 1926 وإنما ذهبنا بالسيارة إلى الشام، ثم
اخترقنا فلسطين حتى وصلنا إلى قناة السويس، وقد قضينا على شاطئ القناة ثلاث

ساعات مرت كلمحة الطرف بفضل ما غرقنا فيه من التأملات
- وهل التأمل يقصر الوقت يا ظمياء؟
- لا أعرف يا سيدي الطبيب، وإنما أذكر أن ليلى كانت تحفظ قصيدة شوقي في قناة السويس فظلت تنشد طول الوقت وهي في حلاوة الرشأ النشوان
- لا أعرف أن لشوقي قصيدة في قناة السويس، وإنما أعرف أن له فيها آية من آيات النثر الفني
- لا. يا سيدي، هي قصيدة
- هل تحفظين منها شيئاً؟
- أحفظ المطلع:
تلك يا ابْنَيَّ القناه ... لقومكما فيها حياه
- هذه ليست قصيدة يا ظمياء
- ليلى تقول إنها قصيدة
- القول ما قالت ليلى! ثم ماذا يا ظمياء؟
- كانت ليلى تنشد ما تنشد ثم تحاورني في أمر المصريين الذين حفروا القناة، ومن رأي ليلى أن حفر القناة أعظم عمل قام به المصريون في التاريخ
- ولكنها أضرت مصر يا ظمياء
- هذا يا سيدي كلام الساسة لا كلام الأطباء. وهل يضر مصر أن تكون صاحبة الفضل على العالمين فتنشئ من المرافق ما بخلت به الطبيعة القاسية على الإنسانية؟ إن الحياة يا
سيدي الطبيب لا تنهض إلا بفضل التضحية، وقد ضحت مصر بمالها وسلامتها في سبيل الإنسانية، وسيجزيها الله على ذلك خير الجزاء
- هذه فلسفة يا ظمياء، وما تهمني الآن، ثم ماذا؟
- ثم دخل الليل ونحن على الشاطئ، وطلع القمر فتحول الوجود إلى موجة فضية تفتن القلوب، ونظرت إلى ليلى فرأيت انعكاسات القمر على وجهها آية من آيات السحر والفتون
- دخلنا في الغزل يا ظمياء
- أنت الذي شجعتني على الوصف يا مولاي
- اسمعي، هنا سؤال مهم: هل رأيت ليلى على القناة في حال تختلف عما كنت تعهدين وهي في بغداد؟
- أنا أصغر من ليلى سناً كما تعرف
- مفهوم، مفهوم، وهل تخفى على مثلي هذه الفروق!
- لم أكن أعرف يومئذ ما هو الحب، لولا علاقة سطحية بابن عمي عبد المجيد
- يظهر أنك فتاة متعبة وحمقاء. ما شأني بعلاقاتك السطحية أو العميقة مع ابن عمك عبد المجيد؟
- أنا أريد يا سيدي أن أقول إني لم أكن يومئذ أدرك كيف تتغير أسارير الفتاة حين يطلع القمر، أو حين يهب النسيم، وإنما فطنت إلى ذلك بعد ما ثارت العواصف حول ليلى. وأقول لك إني فهمت الآن أن ليلى كانت تتأهب لحب مجهول، فقد كان للقمر على وجهها أضواء وظلال يطير لها لب الحكيم، وقد مددت ذراعي فطوقتها فانعطفت علي وقبلتني قبلة عطف لن أنساها ما حييت!
وهنا تذكرت الوجه الذي كان القمر يسبغ عليه ألوان الأضواء والظلال، وجه الإنسانة) النبيلة التي أتحفتني بصورتها الغالية لأدفع بها ظلام الليل في بغداد. وكدت أتنهد ثم تماسكت ولي قدرة على ضبط النفس في بعض الأحوال)
- كفى، كفى
- تحب يا سيدي أن أصف كيف رأينا القاهرة أول مرة؟
- إن كنت تحبين ذلك. . .
- أحب أن أقول لتسمع الست جميلة، فهي تحب ذلك
- وأنا أيضاً أحب أن أسمع وصف القاهرة، فقد طال شوقي إلى القاهرة
- تعرف يا سيدي محطة باب الحديد؟
- أراها يا بنيتي في طيف الخيال!

- لقد أرهقنا الحمالون. . .
- أنت يا ظمياء تتكلمين بلغة السائحين. إن لمحطة باب الحديد سحراً لا تعرفينه يا حمقاء
(ثم سكت لحظة، فقد تذكرت أني زرت تلك المحطة أكثر من مائة مرة على غير ميعاد، لأشهد أسراب المودعين والمودعات في القطار الذي يقوم إلى بور سعيد كل مساء. وتذكرت أني كنت أضحى بمكاني في قطار البحر فلا أصعد إليه إلا بعد أن يدق الناقوس لأمتع عيني وقلبي بالحسن الذي يموج فوق الرصيف وتذكرت الفتاة التي استقبلتها في تلك المحطة عند منتصف الليل في الشتاء الماضي، تلك الفتاة التي جاءت من نورمنديا خاصة لتزور معي الأهرام في ليلة قمراء. تذكرت وتذكرت حتى كاد يفضحني الدمع، ولله الأمر من قبل ومن بعد، وهو وحده يعلم ما يقاسي قلبي من الغربة بين القلوب)
- ثم ماذا يا ظمياء؟
- ثم اخترقنا شارع كامل
- هو اليوم شارع إبراهيم
- أفادك الله!
- يا لئيمة، فيك أشياء من دعابة بغداد!
- ثم نزلنا عند أسرة عراقية تقيم في شارع قصر النيل، وكانت ليلى قد تعبت فظلت في البيت يومين كاملين
- وهل في الدنيا إنسان يرى القاهرة أول مرة ثم يحبس نفسه في البيت يومين؟
- قلت إن ليلى كانت تعبت، والحق أن ربة البيت الذي نزلنا فيه نهتنا عن الخروج، لأننا نزلنا القاهرة ملفوفتين بالثياب على نحو ما ترى عقائل بغداد، وكانت تلك السيدة تخشى إن خرجنا بتلك الصورة أن يرانا الجمهور من الغرباء، والغريب لا يسلم من فضول الناس. وفي يومين اثنين أحضرت تلك السيدة الكريمة ما ترى أن نلبس من الثياب. أما أنا ففرحت بثيابي ورأيت أني تجددت؛ وأما ليلى فقد غضبت أشد الغضب وأعلنت أن الخروج بهذه الثياب ينافي الحياء. وفي الحق أن ليلى بدت في تلك الثياب كالحورية الهاربة من الفردوس، فقد كان يجب أن تمشي في الجادة وهي سافرة الوجه، وكان الثوب المصري يكشف بعض الطلائع من صدرها الجميل. ولو رأيت ليلى في تلك الساعة وهي غاضبة لرأيت العجب العجاب، فقد توهمت المجنونة أن الشبان المصريين سيخطفونها حين تقع أبصارهم على حسنها المرموق، وبلغ بها الوهم أن تزعم أن خطفها سيكون فضيحة للعراق
(وعندئذ قهقهت ربة البيت وقالت: اسمعي يا ليلى، إن المصريات لا يخرجن إلى الشارع بهذا الثوب وإنما يلبسن فوقه المعطف. فسكنت ليلى قليلاً، ثم لبست المعطف فوق الفستان، ونظرت في المرآة فرأت أن حالها مقبول، ولم تر بأساً من الخروج بهذه الصورة لرؤية المعرض)
- ثم ماذا؟
- وخرجنا فعبرنا جسر قصر النيل
- هو اليوم جسر إسماعيل
- أفادك الله!
- يا مضروبة، هل تخرجت في الأزهر الشريف!
- دخلنا المعرض، أو دخلت أنا ثم تبعتني ليلى، وقد كانت على غاية من التهيب والاستحياء، ثم رأينا أفواجاً من الشبان قيل إنهم طلبة الجامعة المصرية وعلى رأسهم أستاذ يشبه سيدي الطبيب
(وهنا ابتسمت ابتسامة خفيفة لأنه لا يبعد أن أكون ذلك الأستاذ، فقد كنت صحبت جماعة من تلاميذي لزيارة المعرض، فيهم إبراهيم رشيد وإبراهيم نصحي ومحمود سعد الدين الشريف ومحمود محمد محمود ومحمد عبد الهادي شعيرة ومصطفى زيور وعزيز عبد السلام فهمي ومحمد حمدي البكري وعبد الحميد مندور ومحمود الخضيري، ويسرني أن أقول إنهم أصبحوا اليوم رجالاً يتشرفون بخدمة الوطن الغالي. ثم شعرت بحسرة لاذعة حين تذكرت أنه كان يمكن الفرار من أولئك الطلبة الشياطين لرؤية من

في المعرض، ولعلني كنت أعثر بليلى فأصبح من أقطاب الشعراء، ولكن ما فات فات فاقتل نفسك إن
(شئت يا صريع الملاح
- ثم ماذا يا ظمياء؟
- ثم طوفنا بالمعروضات فلم يرقنا غير معروضات سليم عبده
- مات، يرحمه الله
- يا عيني، لقد كان رجلاً لطيفاً، ومن عنده اشترينا أشياء كثيرة، وقدم إلينا هدايا لا نزال نحتفظ بها إلى اليوم
- ثم ماذا؟
- ثم ركبنا القطار، قطار المعرض، وكان أمامنا شاب يسارقنا النظر بعينين خضراوين، فتكلفت الشجاعة وهممت بزجره، ولكن ليلى ضغطت على يدي فاعتصمت بالصفح الجميل
(للحديث بقية)
زكي مبارك
فلسفة التربية
كما يراها فلاسفة الغرب
للأستاذ محمد حسن ظاظا
- 6 -
تطبيقات الديمقراطية على التربية والثقافة المثلى في جماعة ديمقراطية
(إن الإنسانية التي تخلصت من الرق تستطيع التخلص من الحرب)
(سير فردريك بلوك)
(يستطيع التاريخ أن يغير عقل الأمة أو يصلحه تبعاً لطريقة تدريسه)
(موسار)
عرفت في المقال السابق كيف يؤمن (جون ديوي) وغيره بالديمقراطية كمحور (للحياة المثلى)، وكيف يريد أن يتخذ من التربية وسيلة فعالة لتحقيق تلك (الحياة)؛ وسترى في هذا المقال ما تتطلبه الديمقراطية في المعلمين والمتعلمين والمدارس والمواد وطرق التدريس جميعاً
1 - في المعلم
وأنت تعرف من هو المعلم. هو الذي قال فيه شوقي إنه كاد أن يكون رسولاً، وإنه ذلك الذي يبني أنفساً وعقولاً!!؛ ولقد حاول (فروبل) أن يبرر عمله (العظيم) فقال: (إنه جزء من الكون، فعمله إذن جزء محدود في الكون، ومركزه يلتئم تماماً ومركز الكون، ولذلك عندما يفرض قوانينه على الطفل لا يفعل أكثر من إخضاعه لقوانين الوجود الخالدة)،
وقال: (تتعارض القوى في الطبيعة لتتلاشى وينشأ منها قوة جديدة. وكذلك الأمر بين المعلم والمتعلم). . . هذا المعلم يجب أن يكون (ديمقراطياً) أولاً وقبل كل شيء، ديمقراطياً في خلقه الخاص، وديمقراطياً في طريقة احتكاكه بالتلاميذ حتى لا يحجر على شخصياتهم. زد على ذلك أن (الدولة) يجب أن تكون (ديمقراطية) معه هي أيضاً! يجب أن تشركه في وضع (المقرر)، ويجب أن تطلعه على الكتب المدرسية، ويجب أن تأخذ رأيه في أنسب طرق التدريس لأنه المنفذ الروحي والمادي للخطط الموضوعة، فما يجوز أن تفرض عليه هذه الخطط فرضاً، ولأنه المتصل بالعقول الناشئة فهو أقدر من غيره على فهم استعدادها، ولأنه المجرب لهذا المنهج أو ذاك فيجب أن يكون لرأيه التقدير الواجب؛ أما أن تبعث إليه البرامج ويساق سوقاً إلى تدريسها، وأن يحمل النشء على الرجوع إلى كتب يراها هو غير متمشية وما انتهى إليه من رأي، وأن يقترح ويكتب، ويصرخ ويستغيث دون ما جدوى، كأنما هو في واد والدولة في واد آخر - فذلك كما ترى هدم لركن من أركان التربية جدير وخطير، وإغفال لتجارب ناطقة لا سبيل إلى التقدم السريع إلا بالاستفادة منها

2 - في المتعلم
وأما هذا فما يجوز أن يكون شخصية سلبية تستمع إلى الدرس دون ما فكر، وتحفظه وتعيه على أساس (الطريقة الصماء) وتذهب إلى المدرسة كارهة وتخرج منها مسرورة، فإذا كانت الحياة المستقلة طار المعلم وانمحى، وحل الكسل والفراغ الآثم والاستمتاع الحقير، هذا إلى الفشل في معالجة أهون مسائل الحياة، والى الكبرياء والترفع عن (السوقة) والأعمال الحرة! أجل!. . . ما يجوز شيء من هذا. . .! وإنما يجب أن نسير معه على أساس البحوث النفسية الصحيحة التي تقول مثلاً إن (العقل) إذا مر في الحياة بمشكل راح يحدده ويفكر في وسائل حله، فيفترض الفروض ويحققها ويمتحنها؛ أو أن الشيء لا يثير الاهتمام ولا يعلق بالذاكرة إلا إذا كان شائقاً ومتصلاً بالحياة اتصالاً وثيقاً. . . إلى آخر هذه النظريات التي نعرفها ولا نعرف السبيل إلى تحقيقها. . .! وإذن فلتكن موضوعات الدراسة على هيئة مشاكل يقف الطفل حيالها (موجباً) أي محدداً ومفترضاً ومحققاً ومجرباً، ولتكن بقدر الإمكان متصلة بالحياة حوله حتى يستسيغها في مراحله الأولى، ويقبل عليها بلذة وشغف، وبذلك وبغيره ،ننتهي إلى جعل (التعليم) عملية لذيذة لا أهوال بها ولا مكاره وجعل (المعرفة) متعة سامية بريئة يقبل (المتخرجون) على التزود منها أثناء فراغهم بدلاً من الجلوس في المقاهي وغير المقاهي مما تعرف وما لا تعرف يا قارئي العزيز!، هذا إلى خلق الشخصية الديمقراطية التي تتعاون مع غيرها في المسائل العسيرة كما تعاونت بالأمس في موضوعات الدراسة، والتي تستطيع أن تكافح حقاً في الحياة وتحتقر (الديوان) وتمضي إلى الكفاح بجرأة وبأس وإقدام. . .

3 - في المدرسة
وأما المدرسة فهي كما تعلم البيئة التي تعدنا للحياة الخارجية، ولذلك يجب أن يشملها التغيير، وأن تنقلب انقلاباً خطيراً؛ ومعنى هذا أن تصبح دار عمل وتجريب شائق لذيذ مجهد كله حرية وتعاون واحترام؛ ففيها يزرع التلاميذ الشجرة ويشاهدون نموها ويسجلونه قبل أن يقرؤوا عنه، وفيها أدوات البناء والطهي، والغزل والنسج، وأشغال الخشب والإبرة وما أشبه؛ ويقف المدرس هنا ليضع الطفل أمام التجاريب ويشعره بحاجته الماسة إليها. وبذلك تكون المدرسة كما يقول الأستاذ (يعقوب فام): (صورة مصغرة للمجتمع البشري، فهي إذن ليست وسيلة للجمعية البشرية. والفرق بينها وبين المجتمع هو أولاً أنها صورة مصغرة له، وثانياً أنها يسهل التحكم في عواملها بخلاف المجتمع، وثالثاً أنها غير معقدة؛ فهي ليست إذن مكاناً للتعليم فقط، وإنما هي للأطفال دنيا يعيشون فيها ويصرفون جهودهم ونشاطهم ثم يتعلمون). . . (ومثل هذه المدرسة لا تشوق دون جهد، ولا تجهد دون تشويق، وإنما يتأتى ذلك عن ربط المادة نفسها بحياة المتعلم)
وعلى ذلك لا يكون الطفل فيها دائرة معارف متحركة فحسب وإنما يكون آخذاً بناصية الوسائل والأدوات والمصادر التي تساعده في البحث الذي يجريه بنفسه متعاوناً ومسترشداً. وهكذا يستطيع أن يعيش وينمو على أساس الديمقراطية والعلم. . .
ههنا إذن تعاون بحت، وتنافس في الكيف لا في الكم، وتعليم للحياة بالحياة، وعمل منتج ذو غاية، ودرس لمواد متصلة لا منفصلة انفصالاً لا مبرر له، واحترام للعمل والعاملين، واكتساب للنظرة العلمية التجريبية الصحيحة، علم مقرون بعمل، وغني إلى جانب فقير، وعمل طامح مستبشر يرنو إلى شيء أكثر من ورقة ممهورة بخاتم الوزير!

4 - في الثقافة
ويتبقى بعد ذلك أن نقرر روح الثقافة المثلى في الجماعة الديمقراطية. وحسبك أن تعلم أن هذه الثقافة لا تفرق بين النظر والعمل تفريقاً كبيراً، وتنظر (للتغير) كقانون عام يتطلب المرونة المطلقة والتجديد السريع، ولا تأخذ بغير الطريقة العلمية التي لا طلاسم فيها ولا خزعبلات؛ ولا تفرق بين مسلم ومسيحي ويهودي خشية أن تلوث تاريخ العالم بالدماء كما قد تلوث طوال الماضي الأثيم. الدين عندها لله والجميع لديها إخوان. ثم هي لا تستعبد الفكر قط، ولا تغرس فيه الأفكار الاجتماعية أو السياسية الخاطئة بالإيحاء الآثم. العقل عندها مقدس فما يجوز أن تشوهه، ومثلها الأعلى في قيمة الدراسات هو ما تقدمه من خير يكمل الفرد والجنس، ومذهبها التوازن بين

الجسد والقلب والعقل حتى لا يؤدي الأمر إلى وحشية رائعة من جانب أحد أركان هذا الثالوث ضد الركنين الآخرين وغايتها خلق ذلك الرجل المثقف الثابت في تتبع ما يريد، المستعد لتعديل خطته إذا لزم الأمر، المتفتح العقل لكل ما تقدمه العلوم والفنون، النابذ للأحكام التقليدية متى ما اقتنع بخطئها، المرحب بالأفكار الجديدة، ولكن بعد نقدها وتمحيصها، المتقدم للمساعدة كلما استطاع، والمقنع المجتمع بأهليته للثقة والاحترام. ذلك الرجل الذي لا يسيء إنساناً بقصد أو بغير قصد، والذي يترك مالا يعرف لأنه لا يقوى على معرفته، والذي هو أبداً مطمئن البال ومصدر راحة لنفسه ولغيره. ذلك الذي هو حكيم لسعة اطلاعه، والذي لا يحكم إلا بعد تمحيص وروية والذي يحسن مخاطبة الناس جميعاً برقة ولباقة وظرف؛ والذي يعرف معنى ما يقول ويتكلم بصراحة ووضوح وجلاء، ذلك الذي يعبر بفكره الزمان والمكان ويفهم نفوس الغير سريعاً. ذلك الذي يعلم شيئاً عن كل شيء، وكل شيء عن شيء ما، فلا تكون (الإنسانيات) وغيرها عنده مجهولة كل الجهل؛ ذلك الذي ليس باللاذع في نكاته، وليس بالمسرف المتبذل في شهواته، لأن الجسد عنده هيكل الروح المقدس؛ ذلك الذي إذا شهد التمثيل المحزن أو المضحك استمع له في صمت وجلال وانفعل في صمت وجلال! ذلك الذي لا يذهب إلى الحرب إلا مقتنعاً بجدارة السبب والذي يعيش مسروراً دائماً مهما أخطأ، فإذا مات لم يطمع في أن يسجل له ذووه على قبره مفخرة واحدة!!

وهذه الثقافة كما ترى تدعو للعالمية بكافة الطرق، وتستبدل بأبطال الحرب أبطال الإنسانية والعلم، وتدرس التاريخ تدريساً بعيداً عن العصبيات الوطنية كما نصح المسيو موسار في

مؤتمر التربية الخلقية الذي عقد بباريس منذ أعوام، أعني أنها لا تعتبر نابليون بطلاً مغواراً وقائداً عظيماً بقدر ما تصوره مصلحاً لم تبق من آثاره إلا تلك الأعمال السلمية النافعة.

(يتبع)

محمد حسن ظاظا
مدرس الفلسفة بالمدارس الثانوية

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

1880 - 1937

للأستاذ محمد سعيد العريان

- 21 -

شاعر الملك فؤاد

وهذا فصل آخر مما يتصل بموضوع الحديث عن الرافعي في النقد؛ إذ كان هو أول ما بين الرافعي والأستاذ عبد الله عفيفي؛ فإني لأقدم به للقول عن خبر ما كان يبنهما من الخصومة التي مهدت للرافعي من بعد أن ينشئ كتابه (على السفود) في نقد ديوان الأستاذ العقاد

في سنة 1926 كان ناظر الخاصة الملكية هو المرحوم محمد نجيب باشا، وكانت السياسة المصرية تسير في طريق ذي عوج، مهد لطائفة من رجال الحكم والسياسة أن ينشئوا حزباً ينسبون إليه الولاء للقصر؛ فهيئوا لطائفة غيرهم من السياسيين أن يزعموا أنهم أولياء على حقوق الشعب، حراص على سلطة الأمة، فنشأت بذلك قوة بإزاء قوة، وتناظر سلطان وسلطان، وكان لكل طائفة لسان وبيان. . .

في تلك الآونة، تقدم المرحوم محمد نجيب باشا إلى الرافعي أن يكون شاعر الملك؛ فلقي ذلك العطف الكريم بحقه من الشكر والرضى وعرفان الجميل

وشاعر الملك أو شاعر الأمير لقب قديم في دولة الأدب، وله في تاريخ العربية تاريخ، منذ كان النابغة والنعمان، وزهير وهرم بن سنان، والأخطل وبنو أمية، والنواسي وأبو العتاهية في بني العباس، والبحتري في إمارة المتوكل، والمتنبي في بلاط سيف الدولة؛ إلى شعراء وملوك لا يحصيهم العد. ولا ننس في تاريخ مصر الحديث أن نذكر الشاعرين: أبا النصر، والليثي؛ وليس بعيداً عنا أمير الشعراء المرحوم شوقي بك (شاعر الحضرة الفخيمة الخديوية)، وقد كان من الولاء والحب لمولاه بحيث لم تطمئن

السلطة الحاكمة إلى بقائه في مصر بعد خلع الخديو عباس، فنفته إلى الأندلس ولقد كان شاعر الملك قبل الرافعي هو الشاعر المرحوم عبد الحليم المصري؛ فلما مات

تطلعت إلى موضعه نفوس الشعراء؛ وكان أكثرهم زلفى إلى هذا المنصب هو المرحوم حافظ إبراهيم، إذ كان ما يزال في نفسه شيء يهفو به إليه، مما كان بينه وبين شوقي من المنافسة الأدبية في صدر أيامه على رتبة شاعر الأمير

وعاد الرافعي إلى الشعر بعد هجر طويل؛ إذ كان آخر ما نشر من الشعر هو ديوان النظرات في سنة 1908، ثم لم يقل بعهد إلا قصائد متفرقة في آماد متباعدة، لحادثة تنبعث لها نفسه، أو خبر ينفعل به جنانه. وكان أكثر ما قال الشعر فيما بين ذلك، في سنة 1924، في إبان العاصفة الهوجاء من حب فلانة، وأكثر شعره عنها منشور في كتبه الثلاثة التي أنشأها للحديث عن هذا الحب؛ ثم انبعث البلبل ينشد أهازيجه من جديد، على الشجرة الفينانة في حديقة قصر الملك، فصغت إليه القلوب وأرهفت له الآذان. . .

واستمر يرسل قصائده في مديح الملك لمناسباتها، من سنة 1926 إلى سنة 1930، حتى وقع بينه وبين الأبراشي باشا أمر - بعد موت المرحوم نجيب باشا - فسكت، وعاد ما بينه وبين الشعر إلى قطيعة وهجران، بعد ما أنشأ الخصومة بينه وبين عبد الله عفيفي. . . وعند الأستاذ إسماعيل مظهر تفصيل ما سأرويه من خبر هذه الحادثة بعد وقصائد الرافعي في مديح الملك فؤاد نظام وحدها في شعر المديح: تقرأ القصيدة من أولها إلى آخر بيت فيها، فتقرأ قصيدة في موضوع عام من موضوعات الشعر، ليس من شعر المديح ولا يمت إليه؛ فلولا بيتان أو أبيات في القصيدة الخمسينية أو السبعينية يخص بهما الملك ويمدحه، لما رأيتها إلا قصيدة من باب آخر، تسلكها فيما تشاء من أبواب الشعر إلا باب المديح. إقرأ قصيدة الخضراء - يعني الراية - وقصيدة الصحراء في رحلة الملك إلى الحدود الغربية، واقرأ غيرهما؛ فإنك واجد فيه هذا الذي ذكرت، وواجد فناً في الشعر تعرف به الرافعي في المديح فوق ما عرفت من فنونه؛ فإذا حققت هذه الملاحظة في مدائح الرافعي وثبتت عندك، فارجع إلى تاريخ هذه الفترة من السياسة المصرية ثم التمس لها تفسيراً من التفسير، أو فارجع إلى تاريخ الرافعي نفسه واذكر ما تعرف من أخلاقه تعرف تفسيرها ومعناها

لقد كان الرافعي يجهل السياسة جهلاً تاماً، ولكن كانت فيه أخلاق السياسي ناضجة تامة: من الاحتيال، والروغان، وحسن الإعداد للتخلص عند الأزمة. بلى كانت له أخلاق السياسيين في إبداع الحيلة والاستعداد للمخرج. ولكن لم يكن له في يوم من الأيام هوى مع أحد من أقطاب السياسة، أو يعرف له رأياً فيها، أو يدري من خبرها أكثر مما يدري رجل من سواد الناس يقرأ جرائد المتطرفين والمعتدلين على السواء

ولم يكن للرافعي أجر على هذا المنصب في حاشية الملك، إلا الجاه وشرف النسب، وجواز مجاني في الدرجة الأولى على خطوط سكة الحديد، ودلال وازدهاء على الموظفين في محكمة طنطا الكلية الأهلية، حيث كان يعمل جنباً إلى جنب مع مئات من الكتبة والمحضرين وصغار المستخدمين. . . . . !

ولكنه إلى ذلك قد أفاد من هذا النسب الملكي فوائد كبيرة؛ فقد تعطف الملك الكريم فأمر بطبع كتاب (إعجاز القران) على نفقة جلالته؛ كما أذن بإرسال ولده محمد في بعثة علمية لدراسة الطب في فرنسا؛ فظل يدرس في جامعة ليون إلى سنة 1934 على نفقة الملك، حتى شاء الإبراشي باشا لسبب ما أن يقطع عنه المعونة الملكية ولم يبق بينه وبين الإجازة النهائية غير بضعة أشهر، فقام أبوه بالإنفاق عليه ما بقي. ومن أجل ما كان يرسل إلى ولده كل شهر في فرنسا من نفقات العيش والجامعة كان هو يعمل في (الرسالة) بأجر، وإن عليه من أعماله الخاصة ما ينوء به جسده وتنتهك أعصابه. . . !

قلت إن الرافعي ظل في حاشية الملك فؤاد إلى سنة 1930 ثم كان بينه وبين الأبراشي باشا أمر - بعد موت المرحوم نجيب باشا - فسكت؛ إذ خشي أن تعصف به السياسة أو تعبث به الدسائس فترمي به إلى تهلكته. . .

حدثني الرافعي قال: (كنت في عهد نجيب باشا أذهب إلى القصر فيلقاني بوجه طلق، ويحتفي بي، ويبسط لي وجهه ومجلسه، ويثلج صدري بما يروي لي من عطف المليك

ورضاه؛ فما أغادر القصر إلا وأنا اشعر كأن نفسي تزداد عمقاً وتمتد طولاً وتنبسط سعة؛ ثم جاء الأبراشي باشا، فلم تدعني داعية إلى لقائه حتى كان يوم وجدتني فيه منطلقاً إلى هناك، لأسأله في أمر من الأمر. . .

قال: (وذهب الساعي إليه بالبطاقة ودعاني إلى الانتظار، فجلست، وما أظن إلا أنها دقائق ثم أدعى إليه. . . وطال بي الانتظار، ومضت ساعة، وساعة، وساعة، وأنا في هذا الانتظار بين الصبر والرجاء؛ وحولي من ذوي الحاجات وجوه عليها طوابع ليس على وجهي منها، ونظرت إليهم والى نفسي فضجرت، فعدت أستأذن عليه وقد جال بنفسي أنه قد نسي مكاني، فعاد إليّ حاجبه يقول: الباشا يعتذر إليك اليوم، ويسألك أن تمر به غداً في الساعة كذا. . .

قال الرافعي: (وآذاني ذلك ونال مني، ولكني اعتذرت عنه. فلما كان الغد، جاءني النبأ ينعى إلي زين الشباب المرحوم أمين الرافعي بك؛ فآدني الهم وثقل علي، وضاقت نفسي بما فيها وتوزعتني الوساوس والآلام؛ وما نسيت وأنا أمشي في جنازة الفقيد العظيم أن علي موعداً بعد ساعات، فما هيل عليه التراب حتى كنت في طريقي عدواً إلى القصر وفاء بالوعد الذي اتعدت، وجعلت من وراء ظهري ما علي من واجب المجاملة لمن جاءوا يعزونني في أخي وابن عمي وصاحب الحقوق علي. لقد كان الذي مات زعيماً من زعماء الوطنية له مقداره، ولكني جعلت الوفاء بالوعد فوق ما علي من الواجب للزعيم الذي مات؛ وإنه لأخي، وإن في أعراقه من دمي وفي أعراقي وإن في دمي. . .!

قال: (ووقفت بالباب أنتظر أن يؤذن لي فأدخل، وطال بي الانتظار كذلك جمرات تتلهب. ومضت ثلاث ساعات وأنا في مجلسي ذاك أطالع وجوه الداخلين والخارجين من غرفة الباشا ولا يؤذن لي. . .!

قال الرافعي: (وهاجت كبريائي وثارت حماقتي. . . لا أكذبك يا بني، إن في لحماقة. ولكن. . . إن صرامة عمر بن الخطاب قد انحدرت إلي في أصلاب أجدادي من النسب البعيد؛ ولكن صرامة عمر حين انحدرت إلي صارت حماقة. إن هذه الحماقة عندي يا بني هي تلك البقية من صرامة عمر، بعد ما تخطت إلى هذا الزمن البعيد في تاريخ الأجيال. . .!

قال: (ولما بلغ الحنق بي مبلغه نهضت وفي يدي عصاي، فتقدمت إلى الباب خطوة فدفعته بالعصا وأنا مغيظ محنق، فإذا أنا أمام الإبراشي باشا وجهاً لوجه، والى جانبه رجل أوربي يحدثه. . .، فلم أعبأ، ولم أكترث، ولم أذكر وقتئذ أين موضعي وموضعه، فقلت ما كنت أريد أن أقول، وانتصفت لنفسي، وثأرت لكبريائي. وأحسبني قد خرجت يومئذ عن حدود اللائق في الحديث معه، ولكني لم ألق بالاً إلى شيء من ذلك. وما كان في نفسي إلا أنني قد قلت ما ينبغي أن أقول لأحفظ كرامتي وأصون نفسي، ولا علي بعد ذلك من غضبه ورضاه. . .

ولكن. . . ولكنه مع ذلك لم يغضب، ولم يعتب، بل اعتذر إلي وألح في الاعتذار. . .) وصدقته حين ابتسم. . .!)

وأسرها الابراشي باشا في نفسه؛ فلما كان الموسم التالي نظم الرافعي قصيدته وأرسل بها إلى القصر، ورصفت حروفها مشكولة في مطبعة دار الكتب - كما جرت العادة - ثم أرسلت بحروفها مجموعة إلى الجريدة المختارة، ومعها قصيدة أخرى مرصوفة مشكولة مزينة، من نظم الأستاذ عبد الله عفيفي المحرر العربي بديوان جلالة الملك. ونشرت القصيدتان جنباً لجنب في جريدة واحدة، وعلى نظام واحد، وكلاهما في مدح الملك، فما يفرق بينهما في الشكل إلا توقيع الشاعرين في ذيل الكلام

وقرأ الرافعي قصيدة منافسه الجديد، فثار وزمجر، وقال لمن حوله: (أترون كيف يصنع بي؟ إنه يريد أن ينال مني. (يريد الأبراشي) أهذا شعر يقرن إلى شعري؟ أيراني وإياه على سواء؟ أيحسب أن الأدباء سيخدعهم هذا الزخرف في الطباعة فيجعلون صاحبه شاعراً من طبقتي أو يجعلونني شاعراً من طبقته؟ أيراني من الهوان بمنزلة الذي يرضى عن هذا العبث؟ أفيريد أن يمهد لصاحبه حتى يخلعني عن مرتبة (شاعر الملك) ليجعله مكاني؟ أم يراه أهلاً ليقاسمني المنزلة والمقدار عند صاحب التاج. . .)

ومضى الرافعي يومه يفكر ويقدر، وما كان إلا في مثل حال الرجل الذي يعود إلى داره التي يملك فإذا له فيها شريك يحتلها بقوة ساعده لا بحقه؛ فما يجد له حيلة في إجلائه عن الدار إلا أن يرفع أمره إلى القاضي. . . وكان القاضي عند الرافعي في هذه القضية هو الرأي الأدبي العام، فرفع أمره إليه. . .

وتحدث بنيته إلى صديقه الأستاذ إسماعيل مظهر صاحب مجلة العصور، فأوسع له صفحات من مجلته ليبدأ الحملة على الأستاذ عبد الله عفيفي في مقالات عنيفة صارخة بعنوان: على السفود!

وما كان الرافعي يجهل أنه يتناول موضوعاً دقيقاً حين يعرض لنقد هذا الشاعر؛ فإنه ليعلم علم اليقين أن هذه المقالات سيكون لها صدى بعيد، تصل به إلى آذان لا يسره أن تعلم من كاتب هذه المقالات، فتنكر وأخفى نفسه. . .

(لها بقية)

محمد سعيد العريان

في سبيل الإصلاح

أخلاقنا. . .

للأستاذ علي الطنطاوي

نحن اليوم (في أكثر بلدان الشرق الإسلامي) في دور يقظة، ومطلع نهضة، ولكل نهضة جسم وروح؛ أما الجسم فهذه السياسة وما يتصل بها، وهذه الدواوين الحكومية وما يكون فيها، وهذه القوانين والأنظمة وما ينشأ عنها؛ وأما الروح فهو الأخلاق والعقائد والمثل العليا. فروح الحكم الإخلاص والقناعة والعدل بين الناس، وروح الوظيفة الاستقامة ومعرفة الواجب، وروح الديمقراطية الإرادة المشتركة وضمان المصلحة العامة، وروح المدرسة تنشئة جيل المستقبل على المثل العليا، وروح الصحافة نشر الحق والفضيلة والخير. . . فهل امتدت نهضتنا إلى الروح، أم هي قد اقتصرت على الجسم وحده، لم نعن إلا به، شأننا في كل أمر من أمورنا حين نهتم بالقشور ونقف عند الظواهر؟

الجواب عند القراء، لا حاجة إلى إثباته في هذا المقال. ولكن الحاجة ماسة إلى كتاب ومربين وعلماء، يستقرون أخلاقنا التي نحن عليها، ويصنفونها ويقومونها، ويرون ما يجب أن يبقى فيعملون على تثبيته ونشره، وينظرون ما ينبغي أن يبدل أو يعدل، فيسخرون المدرسة والصحافة والقوانين لتبديله وتعديله، لنتشأ أمة المستقبل على الأخلاق الصالحة التي تستطيع أن تبلغ بها ما تريد من مجد وعلاء، وتتبوأ المكان اللائق بها بين الأمم، وتلقي هذه الأخلاق التي ورثناها من الحكم التركي الطويل، وبلغت بنا قعر الهاوية التي نحاول اليوم النجاة منها، ونعود إلى أخلاقنا الإسلامية التي قبسها منا الغربيون فأفلحوا بها ونجحوا. . .

من هذه الأخلاق التي يجب أن نتخلص منها أننا لا نعرف التعاون ولا نقدر أن نعمل مجتمعين. فالفرد منا عامل منتج، ولكن الجماعة عاجزة عقيمة، ومن نظر إلى انتشار الشركات في الغرب على اختلاف أنواعها، والجمعيات على تنوع غاياتها، والأحزاب والنوادي، ورأى ما عندنا من ذلك رأى أنه ليس إلى المفاضلة من سبيل. . . وعلة ذلك الأنانية المفرطة، والأثرة الجامحة، وحب الذات الطاغي، فالرجل منا يريد أن يكون هو كل شيء في الجمعية أو الشركة، رئيسها إن كان لها رئيس، أو ناموسها (سكرتيرها) إن لم يكن رئيس، وعضو الإدارة إن كان مجلس إدارة، وأن يكون له الرأي إن أخذت الآراء. . بل إنا نرى كلاً منا يعطل أعمال الآخرين ويبطلها، ويعمل على هدمها، بينما نراه مؤمناً بلزومها، معتقداً بالحاجة إليها، ساعياً إلى القيام بمثلها، فهو يعرف الحاجة إلى ناد أدبي ولكنه يحارب النادي لأنك أنشأته أنت؛ وهو يعلم الحاجة إلى مدرسة دينية ويدعو إليها، ولكنه إذا رآها قد فتحت ونالت قسطاً من النجاح أصلاها حرباً حامية، وجعل أكبر همه هدمها وتخريبها. ذلك أن دعوته الأولى لم تكن عن إخلاص ولم يكن يريد بها وجه الله والمصلحة، ولكنه يريد الفخر والشهرة والنفع واللذة، فلما رآك أنت السابق إليها والذاهب بفخرها، خان المصلحة وعصى الله ليرضي أثرته ويستجيب لأنانيته. . وهو شاعر بالحاجة إلى جمعية خيرية يسعى إلى تأليفها بحماسة وجد ودأب قد ملأت فكرتها نفسه وحياته فهو لا يتحدث إلا بحديثها، ولا يشتغل إلا لتأسيسها، فإذا تم له

الفلاح بعد التعب والكفاح وقامت الجمعية ولم يكن هو الرئيس أو هو الناموس انفصل عنها وحاربها حرباً لا هوادة فيها وسعى إلى هدم ما بناه بيده. . .

هذا داء من أشد أدوائنا الخلقية، إن لم نعالجه فشت جرثومته في جسم الأمة، فشلت أعضاءها وعطلت أعمالها:

متى يبلغ البنيان يوماً تمامه ... إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم؟

وأين هو الإخلاص، وأين هو الصدق، فيمن يدعو إلى الخير أو الدين أو الفضيلة، وغايته استغلال الدين والخير والفضيلة لمصلحة نفسه وإطاعة هواه؟

ومن هذه الأخلاق أننا لا نعرف قيمة الوقت، وأنا نضيع أوقاتنا سدى، ونذهب أعمارنا عبثاً لا نعرف لها قيمة وهي أثمن ما نملك. وإذا كان فينا من يحسن الاستفادة من وقته، وينفقه في علم أو أدب أو شيء مما ينفع الناس، لم يعدم من الثقلاء من يضيع عليه وقته، ويسرق عمره ولا يتوهم أنه أساء أو أخر. . . وما أظن أن في القراء من لا يذكر حادثة في هذا الباب. . . كنت ذاهباً إلى المدرسة ذات مرة، وكان علي محاضرة لم يبق دون موعدها إلا مسافة الطريق، وكنت مسرعاً لا أكاد أبصر طريقي فاعترضني رجل كبير كان ناظراً للمدرسة الثانوية التي كنت فيها وله في البلد حرمة ومقام، فأقبلت عليه أحييه وأفهمته برفق أن علي محاضرة قد حان موعدها فقال: طيب. . . لحظة. وانطلق يتكلم، فلا والله ما سكت إلا بعد ساعة ونصف ساعة ألقى هو فيها المحاضرة علي، وأنا أتململ وأتحرك ويربد وجهي وأحس النار تشتعل في عروقي. . . فلما انتهى قال:

- أظن أننا وقفناك. . . عدم المؤاخذة!

قلت: أستغفر الله، ومضيت عنه. . .

هذه علة أخرى من عللنا الأخلاقية. . . لا شك في أنها من أشدها وأدواها لأن حفظ الوقت ألد وسيلة إلى النجاح، وخير طريقة لرفعة الفرد والمجموع. أذكر أن الدكتور نمر تحدث إلى قراء المقتطف في العدد الخاص بعيد المقتطف بين لهم أن أثمن ما استفاده من الأمريكان في كليتهم هو تقدير الوقت، وأن ذلك هو الذي أعانه وزميله الكبير الدكتور صروف على النجاح وأتاح لهما تحقيق هذا المشروع العظيم، والأمريكان خاصة والغربيون على التعميم يعرفون كيف يستفيدون من أوقاتهم، فيقوم أحدهم في اليوم بأعمال لا تقوم بمثلها الجماعة منا في أسبوع. وكذلك كان أجدادنا الذين تركوا هذه الآثار العلمية الضخمة، وكان فيهم من بلغت تصانيفه الثلاثمائة فما فوقها. . كانوا يحسنون الاستفادة من أوقاتهم، ولا يدعون دقيقة واحدة تمر إلا في عمل مفيد، أو راحة مقدرة، أو قضاء حق لله أو للجسم أو للعيال. . والوقت لا يضيق بعمل إذا عرفنا طريق استغلاله والانتفاع به. ولو أحصى الواحد منا ما يذهب من عمره هدراً في المقاهي أو دور اللهو، وفي الأحاديث الفارغة، ومطالعة الصحف الجوفاء، والمجلات المؤذية، وقدر ما يمكن أن يعمل في مثل هذا الوقت من جليل الأعمال ونافعها لهاله الأمر ورأى شيئاً عظيماً

وانظر إلى التلميذ إذا دهمه الامتحان كيف يقرأ الكتاب في ليال ويحفظه كله، والموظف إذا اضطر إلى العمل، أو الصحفي إذا كان موسم من موسم الصحافة، والمؤلف إذا طمع في الجائزة الكبرى؛ انظر إلى هؤلاء كلهم، وانظر إلى هؤلاء الأفراد الممتازين الذين يشتغلون بالسياسة ويبرزون فيها، ويؤلفون في الأدب وينبغون فيه، ويطالعون كثيراً من الكتب، ولا يقصرون في حقوق أنفسهم وأهليهم، وحقوق الناس، تعلم أن الوقت واسع جداً، ولكن الجاهل المهمل يضيقه على نفسه

ومن الأخلاق التي يجب أن نتعلمها تقدير المصلحة العامة. وإهمالنا هذه المصلحة باب آخر من أبواب الأثرة (الأنانية) منشؤه أن أكثر الحكومات التي تتالت على بلدان الشرق الإسلامي في هذه القرون الأخيرة لم تكن من الشعب ولا إلى الشعب، ولم تكن تحرص على مصلحته، فزالت ثقته بها، ونظر إليها نظره إلى عدو مقاتل، وغدا يرى كل أذىً يلحقه بها، أو مال يستلبها إياه، أو حق لها يضيعه، يرى كل ذلك بطولة وفخراً، وغدا كل واحد منا يسعى جهده ليفر من الخدمة العسكرية أو يحتال بحيلة تنجيه من دفع الضرائب، أو يتوسل بوسيلة إلى اختلاس مال الخزينة. ولعل له في ذلك عذراً، هو أن الخدمة العسكرية كانت لحماية الحكومة دون الشعب، والضرائب لحياتها هي؛ وكان

مال الخزينة مالها ينفق على أفرادها. ولا تزال الموازنة عندنا إلى الآن مصروفاً ثلثاها على الموظفين رواتب لهم وأجوراً، والثلث أو ما دونه على المصلحة التي أنشئت من أجلها الحكومة

ونحن في حاجة إلى التخلص من هذا المرض. نحن في حاجة إلى الإيمان بأن مصلحة الفرد في مصلحة المجموع وأن رفعته في رفعة الأمة. . . يجب أن تسأل الأم ابنها كل ليلة؟ ماذا عملت لأجل الأمة؟ بماذا خدمت اليوم الوطن؟ هل أحسنت إلى سائل؟ هل تبرعت بقرش لجمعية خيرية؟ هل تعلمت مسألة نافعة؟ هل كنت مهذباً مع رفاقك؟

ويجب أن يسأل كل منا نفسه هذا السؤال عندما يضع رأسه على الوسادة قبل أن يستسلم إلى النوم

ومن هذا الباب إطاعة القوانين واحترام النظام، ذلك الذي لم نتعلمه بعد ولا نعرفه أبداً لأن زماناً غبر (ولم يتبدل بعد) كانت القوانين والأنظمة توضع فيه لغير مصلحتنا وتفرض علينا فرضاً فتعودنا ألا نطيعها وألا نحترمها، ولكنا دخلنا اليوم في طريق الاستقلال (أو كأن قد) وصرنا نضع قوانيننا (إلى حد ما) بأنفسنا فيجب أن يتبدل ذلك كله وأن يرسخ في نفوسنا احترام القوانين وإطاعتها، لا خوفاً من العقاب بل لأن إطاعتها واجبة

ومن هذا الباب أو ما هو شبيه به احترام الراحة العامة. نمت ليلة في فندق كبير في بيروت، فنزل في الغرفة اللاصقة بغرفتي جماعة من أكابر حلب حلوا بعد نصف الليل فبعثوا أحدهم بحاجة لهم إلى السوق، فلما بلغ الشارع ذكروا حاجة أخرى يأمرونه بقضائها فأطل أحدهم من شرفة الطبقة الخامسة وناداه وكلمه بصوت يوقظ الموتى، فلم يبق حي في الفندق إلا قام. ولما عاتبوه ولاموه لم يستطع أبداً أن يفهم أو يتصور أنه أتى أمراً نكراً

وانحدرت مرة من الأعظمية إلى بغداد في سيارة عامة من هذه السيارات التي يسمونها هناك (الباص) فركب معنا جزار معه خروف مسلوخ وضعه على ركبته وألقى برقبته على ثيابي، ورأيت الناس ينظرون إليه نظر المقر الموافق فاضطررت إلى النزول من غير أن أشتبك معه بقتال

وكثيراً ما نسمع رجلاً أو جماعة يمرون في الشارع قبيل الصبح فيأخذهم الطرب فيغنون بمثل الصوت الذي ذكره ربنا في الكتاب، ولا يقدرون أو يتصورون أنهم يسيئون إلى أحد

ولا يمضي على الواحد منا يوم لا يرى فيه ما يسوء ويزعج من بصاق في الترام أو المقهى، أو حديث في المكتبة العامة، أو خصومة حامية في المسجد، أو غير ذلك من المزعجات المنغصات التي لا يزيلها إلا عناية المدرسة بتعليم الطلاب احترام الراحة العامة، وحث الصحف الشعب على ذلك. . .

ومن الأخلاق التي يجب أن نسرع إلى تعلمها احترام الواجب والاستقامة والإصغاء إلى صوت الضمير. إن المعلم لا يتورع إذا أمره رئيس أو رجاه صديق أو نالته منفعة، أن ينجح التلميذ الذي يستحق السقوط في الامتحان، وأن يزيد في الدرجات وأن يفعل كل شيء؛ والقاضي لا يمتنع عن تبرئة الظالم وعقاب المظلوم؛ والوزير لا يتقاعس عن إيثار الشفاعات والوساطات على الكفايات والشهادات؛ والطبيب لا يبالي بأن يجهض أو يأتي كل أمر يستطيعه مادام في ذلك لذة له أو فائدة؛ والموظفون يقبلون الرشوة والناس يعطونها؛ ولا تكاد تجد من عرف الواجب عليه وأكبره إكباراً، وضحى في سبيل القيام به بكل شيء. ولا أعني أن كل المعلمين أو القضاة أو الوزراء أو الأطباء متنكبون سبيل الشرف مضيعون للواجب، ولكن الذي أعنيه أن بهم من هذا شأنه، وأن احترام الواجب لم يذع فينا ولم يصبح شعاراً دائماً لنا، وأن المدرسة والصحافة والقانون وواضعه، كل أولئك مقصرون لا يولون هذا الأمر ما يستحق من العناية والاهتمام في حين أنه من الأسس الثابتة والدعائم الكبرى في بناء الأمم

ونحن في حاجة إلى تعلم الصدق، لأن الكذب قد فشا فينا وعم وأصبح أسهل شيء علينا، فنحن نكذب في الأمور الهينة ونكذب في الجليلة، ونعلم أولادنا الكذب. من منا لا يقرع بابه فيقول لابنه: قل له إن أبي ليس هنا! ومن منا يلقى رفيقاً له أو رجلاً عرفه فيقول له: كيف حالك أو زيك؟ فلا يقول له: بغاية الشوق، وهو لا يشتاقه ولا يفكر فيه،

وقد يكون مبغضاً له يرى البعد عنه غنيمة. . . فمجاملاتنا وحياتنا الاجتماعية كلها قائمة على الكذب.
ومن جرب أن يصدق يوماً كاملاً رأى العجائب، وقد أدرك ذلك العامة فجاء في أمثالهم (الصادقة): الكذب ملح الرجال، والعيب على الذي يصدق . . .
هذا وشبهه (وما أكثر أشباهه) روح النهضة وقوامها، فإذا لم تعتن به الحكومات والأحزاب والجمعيات والمدارس، ومن يشتغل بالوطنية، ويبث في نفوس الأطفال، ويوضع في نظم التربية والتعليم، كانت نهضتنا جسماً لا روح فيه!
وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن هُم ذهبت أخلاقهم ذهبوا
علي الطنطاوي
المدرس في الكلية الشرعية بيروت
الكميت بن زيد
شاعر العصر المرواني
للأستاذ عبد المتعال الصعيدي
- 5 -
وقد روى لنا أبو الفرج الأصبهاني هذه الروايات الثلاث في سبب المنافرة بين الكميت وخالد بن عبد الله، وكان عليه أن يبين لها وجه الصواب فيما تتعارض فيه من وجوه كثيرة، ولكن أبا الفرج رحمه الله لم يكن يعنى في الأكثر بنقد رواياته، وإنما كان يهمه جمعها وسردها، وعلى القارئ بعد هذا أن يحكم رأيه فيها
فالرواية الأولى تذكر أن سبب المنافرة بينهما قصيدته التي هجا فيها اليمن:
(ألا حُيِّيتِ عنَّا يا مَدِينا)
وقد اتفقت الرواية الثانية في هذا معها على خلاف قليل بينهما؛ أما الرواية الثالثة فتذكر أن سبب المنافرة بينهما شعر الكميت الذي حرض فيه هشاماً على خالد، واتهمه فيه بأنه يريد خلعه. وتفيد هذه الرواية أن قصيدة كميت التي هجا فيها اليمن كانت بعد سجنه لا قبله، وأنه قالها رداً على الأعور الكلبي في قصيدته التي رمى فيها امرأة الكميت بأهل الحبس، ويقول فيها:
(أسْوِدِينَا واحمْرِينَا)
والرواية الأولى تذكر أن خالداً روى الهاشميات جارية واحدة والرواية الثانية تذكر أنه رواها ثلاثين جارية
والرواية الأولى تذكر أن أبان بن الوليد البجلي عامل واسط هو الذي سعى في تهريب الكميت من السجن. وقد اتفقت الرواية الثانية في هذا معها على خلاف قليل بينهما، أما الرواية الثالثة فتذكر أن الذي سعى في تهريبه عبد الرحمن بن عنبسة ابن سعيد
والرواية الأولى تفيد أن خالد بن عبد الله كان بالكوفة حينما أمر بسجن الكميت. وهكذا تفيد الرواية الثانية، وإن كانت تفيد مع هذا أن خالداً قرأ على أبان بن الوليد كتاب هشام بقتل الكميت، مع أن أبان بن الوليد كان في ذلك الوقت بواسط. أما الرواية الثالثة فتذكر أن
خالداً كان بواسط حينما أمر بسجن الكميت، وأنه كتب بسجنه إلى واليه بالكوفة
والرواية الأولى تذكر أن الكميت حينما أتى إلى الشام مشت رجالات قريش في أمره إلى عنبسة بن سعيد بن العاص، فمشى فيه إلى مسلمة بن هشام فأمنه وأجاز أبوه هشام أمانه؛ أما الرواية الثانية فتذكر أنه حينما أتى الشام قصد مسلمة بن عبد الملك، وتذكر أن مسلمة لا عنبسة هو الذي مشى فيه إلى مسلمة بن هشام، وأن مسلمة بن هشام أجاره فلم يجز أبوه جواره، فاحتال له بقبر أخيه معاوية وأولاده، وقد اتفقت الرواية الثالثة معها في هذا على خلاف قليل بينهما
والرواية الأولى تذكر أن الكميت حينما عرض عليه الالتجاء إلى مسلمة بن هشام رضي به، وقد اتفقت الرواية الثانية في ذلك معها على خلاف قليل بينهما، أما الرواية الثالثة فتذكر أنه لم يرض بالالتجاء إليه، وأنه قال لمسلمة بن عبد الملك حينما عرض ذلك عليه: بئس الرأي! أضيع دمي بين صبي وامرأة، فهل غير هذا؟
وهذه هي أهم وجوه الخلاف بين هذه الروايات المضطربة، وقد يكفي هذا عند بعض الناس لدفعها كلها، وعدم الوثوق بشيء منها، ولكن ما قيمة البحث في هذا العصر إذا كانت تقنعه هذه الغاية السهلة، ويكفيه في مثل هذا أن يقول إني أشك في هذه

الرواية، أو نحو هذا مما لا يكلف الباحث عناء ولا تعباً؟ وإنما قيمة البحث الحديث في تمحيصه أمثال هذه الروايات، والاجتهاد في ترجيح بعضها على بعض، والوصول إلى الحقيقة بالتعمق في البحث

ونحن نرجع أن الهاشميات نفسها هي التي كانت سبباً في المنافرة بين الكميت وخالد بن عبد الله، لأنه لا يعقل أن يسكت خالد عن تبليغ أمرها إلى هشام بن عبد الملك، وهي من الخطورة بهذا الشأن الذي أقام هشاماً وأقعده حينما بلغته. وقد كانت هذه العهود مملوءة بالوشايات والدسائس، وكان ولاة بني مروان معرضين بهذا للنكبات الشديدة التي كانت تصيبهم منهم، ولا يخفى أمرها على من يعرف تاريخهم. ولا شك أن هذا كان يوجب على هؤلاء الولاة أن يحتاطوا لأنفسهم في مثل هذه الأمور، وألا يسكتوا عن تبليغ مثل الهاشميات إلى ملوكهم إلى أن تبلغ من غيرهم، ويتخذ بها أعداؤهم حجة عليهم عند ملوكهم

وقد يكون حديث الجاريات الحسان اللاتي رواهن خالد الهاشميات صحيحاً، ويكون هذا منه

تلطفاً في الحيلة إلى تبليغها إلى هشام بن عبد الملك، أو تخلصاً من تبعة تبليغها عند قوم الكميت وأشياعه، لأن حال الولاة في مثل هذه العهود المضطربة يكون مضطرباً بين إرضاء ملوكهم وإرضاء الرعية الناقمة عليهم. والظاهر كما يؤخذ من بعض هذه الروايات أن خالداً هو الذي سهل للكميت سبيل الهرب من سجنه، وأنه كان يسلك بذلك كله موقفاً يخرجه من هذه المشكلة. وقد أرضى هشام بن عبد الملك وجعل لنفسه بعض العذر عند أنصار الكميت، إذ كان يؤثر في سياسته ملاينة الشيعة

أما المعارضة بين الكميت والأعور الكلبي فالظاهر أنها كانت بعد سجن الكميت ورضا هشام عنه، كما يؤخذ من الرواية الثالثة لأنه كان يمدح في قصيدته التي يعارضه فيها بني مروان ويفخر بهم عليه، وقد كان قبل سجنه يطعن فيهم أشد طعن، ويهجونهم في هاشمياته شد هجاء، فلا يعقل أن يجمع في هذا العهد بين هجائهم ومدحهم والافتخار بهم، وهو لم يلجأ إلى مدحهم إلا مضطراً بعد ما لقي من السجن والحكم عليه بالقتل

ومما يؤيد هذا ما رواه أبو الفرج الأصبهاني قال: أخبرني عمي وابن عمار، قالا حدثنا يعقوب بن إسرائيل، قال حدثنا إبراهيم بن عبد الله الطلحي عن محمد بن سلمة بن أرتبيل: أن سبب هجاء الكميت أهل اليمن أن شاعراً من أهل الشام يقال له حكيم بن عياش الكلبي كان يهجو علي بن أبي طالب عليه السلام وبني هاشم جميعاً، وكان منقطعاً إلى بني أمية، فانتدب له الكميت فهجاه وسبه فأجابه ولج الهجاء بينهما، وكان الكميت يخاف أن يفتضح في شعره عن علي عليه السلام لما وقع بينه وبين هشام، وكان يظهر أن هجاءه إياه في العصبية التي بين عدنان وقحطان، فكان ولد إسماعيل بن الصباح بن الأشعث بن قيس وولد علقمة بن وائل الحضرمي يروون شعر الكلبي، فهجا أهل اليمن جميعاً إلا هذين، فإنه قال في آل علقمة:

ولولا آلُ علقمةَ اجتدعْنَا ... بقايا من أنوفِ مُصَلَّعينَا

وقال في إسماعيل:

فإن لإسماعيل حقاً وإنَّنا ... له شاعبو الصدعِ المقاربِ للشَّعْب

وكان لآل علقمة عنده يد، لأن علقمة آواه ليلة خرج إلى الشام، وأم إسماعيل من بني أسد، فكف عنهما لذلك

فهذه الرواية صريحة في أن هذه المناقضة كانت بعد الذي وقع بين الكميت وهشام من عفوه عنه، فلا يصح أن تكون هي السبب في المنافرة بين الكميت وخالد بن عبد الله، وما جرته هذه المنافرة من السجن ثم العفو، بل الظاهر أن بني مروان بعد أن وصلوا إلى إسكات الكميت، عن المضي في هاشمياته أخذوا يعملون على إبطال أثرها في النفوس، فسلطوا الأعور الكلبي على مناقضتها، وهجاء علي عليه السلام وبني هاشم جميعاً

وأما ما ذكر في الرواية الثالثة من أن سبب المنافرة بين الكميت وخالد شعر الكميت في تحريض هشام على خالد، واتهامه إياه بأنه يريد خلعه - فهو أقرب إلى الصحة مما ذكر في الرواية الأولى والثانية، ولعل الكميت فعل هذا سعياً في إفساد الأمر بين بني مروان وولاتهم، لا حباً في هشام وإرادة النصح له. وما نريد بعد هذا أن نمضي في

تمحيص ما تعارضت فيه تلك الروايات، لأن ثمرة هذا التمحيص لا توازي عناءنا فيه، ولا تذكر بجانب الملل الذي يصير بنا إليه

وقد أخذ الكميت بعد عفو هشام عنه يمدحه ويمدح ولاته ووجوه دولته، ويقبل في ذلك صلاتهم وجوائزهم، ولكن مدحه لهم في نظير ذلك كان مدحاً تجارياً كسائر ما مدحوا به من شعراء عصره، ولم يكن لغاية نبيلة كتلك الغاية التي مدح بها بني هاشم في هاشمياته

والحقيقة أنه لم يكن مخلصاً في مدح بني مروان مع ما كان يناله من دنياهم، وإنما كان يأخذ في ذلك بالتقية التي يأخذ بها الشيعة في مذهبهم جميعاً، ولم يكن ذهابه إلى هشام بالشام إلا برضا أهل البيت وشيعتهم ليحقنوا بذلك دمه، ويخلصوه مما كان يراد به

وإذا كان الكميت قد أجاد في مدح بني مروان فإنما كان ذلك منه لأنه كان شاعراً فحلاً لا يرضى أن يكون شعره في ذلك دون غيره، فكان بذلك يقضي حق شعره عليه، ولا يقضي حق بني مروان في عطائهم وبذلهم له، لأنه لم يكن من أولئك الشعراء الذين يمدحون للعطاء، كما سبق ذلك في رفضه عطاء بني هاشم على مدحه لهم. وقد قال أبو الفرج الأصبهاني: أخبرني محمد بن خلف بن وكيع، قال حدثني أبو بكر الأموي، قال حدثني إسماعيل بن حفص، قال حدثنا ابن فضيل، قال سمعت ابن شبرمة قال: قلت للكميت إنك قلت في بني هاشم فأحسنت، وقلت في بني أمية أفضل، قال: إني إذا قلت أحببت أن أحسن فلم يكن الكميت إذن يمدح بني مروان عن عقيدة كما كان يمدح بني هاشم، ولم يكن إحسانه

في مدحهم إلا لأنه إذا قال أحب أن يحسن قوله لئلا يؤخذ عليه من الناحية الشعرية؛ ولكنا نخالف ابن شبرمة فيما ذكره من أن ما قاله في مدح بني مروان أفضل مما قاله في مدح بني هاشم، لأن أشعاره في مدح المروانيين لا تمتاز عن سائر المدائح الجوفاء في الشعر العربي، ولا يصح أن تذكر بجانب الهاشميات التي سلك فيها الكميت ذلك المسلك الجديد في المدح، وقام بما يجب عليه لأمته من مقاومة ذلك الحكم الظالم

وهناك بعد هذا أخبار متوافرة تدل على ما ذكرناه من رضا بني هاشم بما سلكه الكميت مع بني مروان، وعلى أن هذا لم يقطع صلته بهم في السر والعلن، وقد كانوا مع رضاهم بمسلكه معهم يحاسبونه إذا أسرف في مدحهم، فلا يتركهم حتى يرضيهم بصرف هذا المدح عن ظاهره، فكان يؤوله على نحو ما يفعل بعض الباطنية من الشيعة في تأويلاتهم

قال أبو الفرج الأصبهاني: أخبرني جعفر بن محمد بن مروان الغزالي الكوفي، قال حدثني أبي، قال حدثنا أرطاة بن حبيب عن فضيل الرسان عن ورد بن زيد أخي الكميت، قال: أرسلني الكميت إلى أبي جعفر فقلت له: إن الكميت قد أرسلني إليك وقد صنع بنفسه ما صنع، فتأذن له في مدح بني أمية؟ قال: نعم، هو في حل، فليقل ما يشاء

وقال أيضاً: أخبرني محمد بن خلف بن وكيع، قال حدثني إسحاق بن محمد بن أبان، قال حدثني محمد بن عبد الله بن مهران، قال حدثني ربعي بن عبد الله بن الجارود بن أبي سيرة عن أبيه قال: دخل الكميت بن زيد الأسدي على أبي جعفر محمد بن علي عليهما السلام فقال له: يا كميت أنت القائل:

والآن صرتُ إلى أُمَيَّ ... ةَ والأمور إلى المصايرْ

قال: نعم قد قلت، ولا والله ما أردت به إلا الدنيا، ولقد عرفت فضلكم، قال: أما إن قلت ذلك إن التقية لتحل

وقال أيضاً: قال محمد بن أنس حدثني المستهل بن الكميت، قال: قلت لأبي: يا أبت إنك هجوت الكلبي فقلت:

ألا يا سلم مِنْ تِرْبِ ... أفي أسمآء من تِرْبِ

وغمزت عليه فيها ففخرت ببني أمية وأنت تشهد عليها بالكفر، فألا فخرت بعلي وبني هاشم الذين تتولاهم، فقال: يا بني أنت تعلم انقطاع الكلبي إلى بني أمية وهم أعداء علي

عليه السلام، فلو ذكرت علياً لترك ذكري وأقبل على هجائه، فأكون قد عرضت علياً له، ولا أجد له ناصراً من بني أمية، ففخرت عليه ببني أمية وقلت: إن نقضها علي قتلوه، وإن أمسك عن ذكرهم قتلته غماً وغلبة، فكان كما قال، أمسك الكلبي عن جوابه، فغلب عليه وأفحم الكلبي

وإذا كان ذلك كله قد تم برضا بني هاشم وتدبيرهم لشاعرهم فلا يمكن أن يؤخذ عليه شيء فيه، أو يقدح به في عقيدته وإخلاصه، بل إن في ضن بني هاشم عليه بالقتل، وإيثارهم له مواراة بني مروان على بذل دمه في سبيلهم - لدلالة كبيرة على عظم تقديرهم له، وأنهم كانوا يثقون به إلى آخر حدود الثقة

عبد المتعال الصعيدي

مقدمة حضارة العرب

لغوستاف لوبون

(تتمة)

للأستاذ خليل هنداوي

والآن عرضنا من مناهج البحث ما نخاله كافياً فيما يتعلق بدرس الحوادث التاريخية، بل سيكفي منه ذكر الأكثر ضرورة

إن تصور العلة التي تهيمن اليوم على درس الأشياء العلمية تهيمن كذلك على درس المسائل التاريخية، والمناهج التي تتعلق بهذا تتعلق أيضاً بذلك. فإن حادثاً اجتماعياً إنما يجب درسه كحادث طبيعي أو كيميائي مهما ذهب أمره، فهو خاضع لبعض مذاهب، أو قل إنه خاضع لسلسلة مرتبة من الضرورات المحتمة. فالإنسان يعمل والقوة السامية تقوده سواء دعوت هذه القوة الطبيعية أو العناية أو القدر أو الحظ. ونحن منذ الولادة حتى الموت تفيض علينا قوات من الخير والشر لا نستطيع لها قهراً ولا غلبة. وغايتنا الكبرى هي الوصول إلى معرفة بعض أحوال وأسباب من مظاهرها

وتاريخ الإنسانية نستطيع أن نعتبره سلسلة واسعة كل أجزائها متماسكة. قد تعود أجزاؤها الأولى إلى أبعد جذور في أرضنا. والحادث التاريخي مهما ذهب أمره هو دائماً نتيجة حلقة طويلة الأحداث الداخلية. فما الحاضر إلا لدة الماضي. والماضي يحمل الغد في أطوائه كجنين، وفي الحوادث الحاضرة يستطيع العقل الموهوب أن يتلو التعاقب اللانهائي للأشياء. ولكن مثل هذا العقل يبدو أنه لن يظهر أبداً. فبينا نعمل على معرفة مجموعة العاملين الذين ولدوا الحاضر ومعرفة قوة كل واحد منهم نرى من المحال إخضاع هؤلاء العاملين للتحليل. فعلم النجوم يعجز عن أن يعين بواسطة الحساب الهدف الذي يرمي إليه جسم يخضع لثلاثة أجسام فقط، فكيف والحالة هذه في مسألة تضم ملايين الأجسام؟

إن كل الشرائع الوهمية التي يخال أنها تؤخذ من دراسة التاريخ ما هي في الحقيقة إلا تثبيت امتحاني لبعض الأعمال. وبها يمكننا أن نقارنها مع الملحوظات الامتحانية التي يقوم بها أصحاب علم تقويم البلدان

هنالك مليون من الناس يستطيعون أن يتنبئوا بكل يقين عمن يموت منهم في عهد ما وفي عهد آخر، وعما ينشأ فيهم من جنايات لأن تجاريب الماضي تسهل لهم هذه التنبؤات. إن الصعود إلى أسباب الأعمال الملحوظة مستحيل أبداً، والعاملون الجازمون هم عدد كثير، واستمالة الصعود بعيداً في سلسلة الأسباب التي تعين أو تحدد حاثاً اجتماعياً قد ألقت شيئاً من الكره لعلم التاريخ في نفوس العلماء الذين حاولوا التعمق فيه. وهنالك عالم نبيه هو (رينان) نعت علم التاريخ بأنه علم حقير وهمي، لا يكاد يرفع حتى يتقوض بدون نهاية، ولا يشيد حتى يتهدم؛ وهو أحد الأشياء المهملة بعد مائة عام. على أنه سيأتي دور في حياة الإنسان نراه لا يتعلق بماضيه لمصلحة ما. وإني لأخشى جداً أن كتابة كتابنا في المجتمع الأدبي والفني الذين صححوا (ووضحوا بعض الآثار التاريخية أن يبلوا قبل أن يتلوا

والكاتب نفسه يفكر في أن المستقبل سيكون للعلوم الطبيعية لأنها هي العلوم التي ستعطينا سر الوجود والعالم والإله كما ينبغي أن يعطى هذا السر. لكل إنسان حق التأمل في هذا، ولكن شيئاً واحداً حتى الآن لم يحقق أملاً من آمالهم، ولا فكرة من أفكارهم. وهاهي ذي العلوم الوضعية لم تعطنا شيئاً عن العلة الأولى لحادث واحد، وهي لا تكتشف إلا بساطة العلاقات التي تؤلف قواها الظاهرة، حتى إذا اصطدمت

بحوادث مركبة رأيتها تتلاشى وتضل في الظنون والأحداس. إن العلوم الحديثة قد بدأت بصورة ضعيفة أن تتمتم (من التمتمة) في الجواب عن أسئلة يضعها الإنسان كل يوم. فمن المهد إلى اللحد تغرس الطبيعة طريقنا بمسائل لا تقبل الحل. ورغبتنا في المعرفة، هذه الرغبة المتأججة لا ينطفئ أوارها أبداً. العلم يستدعي أفكاراً ولكنه لا يحل مسائل. وكرتنا الأرضية ستعانق في الفضاء العوالم القديمة الباردة قبل أن يجيب أبو الهول الخالد على سؤال واحد

يجب علينا ألا نقف على باب العلوم مغررين بأنفسنا، طالبين إليها أن تعطينا مالا تقدر عليه. إنها تقدر أن تعطينا ما نتبين به حالة إنسان أو حيوان أو مجتمع أو نبات، وما نضم به صورة أمينة لدراسة عصر ما. وما نعين به سلسلة من أمهات الحوادث التاريخية. وحذار أن نطلب أكثر من هذا إلى المؤرخ

على أن العمل مع هذا هو من العسر بمكان لما يقتضيه من الاعتناء. فالمواد التي تسمح لمؤرخ أن يضم منها صورة لحضارة ما يعسر عليه جمع أطرافها. والأعسر من ذلك أن

يخرج بها إلى حيز العمل. إذ ليس في تسلسل ذراري الملوك، ولا في قصص المعارك والحروب التي تشكل لب التاريخ المدرسي نستطيع أن نبحث عن تلك المواد. وإنما نجدها في درس اللغات والفنون والآداب والمعتقدات والتعاليم السياسية والاجتماعية لكل عصر من العصور. وأما المواد الغريبة لحضارة ما فلا يمكننا أن نعتبرها نتيجة هوى الناس أو القدر أو إرادة الآلهة، ولكنها وليدة الحاجة والفكر والعاطفة في الذراري التي تجلت فيها، فإن ديناً ما وفلسفة ما وأدباً ما وفناً ما قد يحتوي على أشكال ثابتة من الشعور والتفكير ولا يحتوي على غيرها. ومما لا جدال فيه أن الأعمال والآثار تتلو علينا أفكار أصحابها. إنها تقرأ علينا أفكارهم وتسمح لنا بأن نؤلف صورة ذلك العصر. ولكن هذه الصورة تبقى ناقصة فيجب علينا أن نوضح تركيبها، لأن الشعب الذي يدرس في لحظة معينة لم يتكون في وثبة واحدة. وإنما هو وليد ماض طويل بعيد، ووليد مؤثرات مختلفة للبيئة التي نشأ فيها وخضع لها، ولذلك وجب علينا أن نرجع إلى ماضي ذلك الشعب حتى يمكننا تحليل وضعه الحاضر. وبالإمكان أن ندعو دراسة هذا التكوين القائم من مواد مختلفة متنوعة يتألف منها المجتمع بعلم الجنين. وهذه الدراسة تغدو قاعدة راسخة للمؤرخ في عمله، كما هو الحال في أن علم تشكل الكائنات الحية أصبح اليوم أمتن قاعدة وأصدق مرجع لعلماء طبقات الأرض

كائنات حية ومجتمعات يجب أن تمر بتطور بطيء يبدل مظاهرها الخارجية قبل أن تصل إلى حالات الكمال، وهذه المظاهر المختفية لا يوحيها علينا التاريخ دائماً. فكم من حدود لهذه المظاهر قد توارت حالياً! وإنما الملاحظة وحدها تسمح لنا بأن نستدعي الحدود الضرورية؛ وكالكائنات الحية نرى أن كل المجتمعات لم تبلغ بذات الأجيال انقلابها، وأنت ترى أن كثيراً منها لم يجتز بعد هذه المراحل التي انتهى العرب من اجتيازها، هذه المراحل التي تمثل صورة الماضي الثابتة. وقد يستطيع السائح في أرجاء الأرض أن يرى المجاري الرئيسية أو المراحل الأساسية لتاريخ الإنسانية منذ العهد الحجري حتى العهد الحاضر وبهذا يمكننا أن نتوصل إلى تمثيل ماضي شعب ما، وتمثيل تطور المواد التي تألفت منها حضارتها

هنالك مواد مختلفة: منها العمارة والأدب واللغة والتعليم والاعتقاد نستطيع أن نستفيد منها

في بناء تاريخ الحضارة وتكوينها، ولكن من النادر أن نملك عليها جميعها. وفي مثل هذه الحالة نجتزئ بما نقدر أن نجمعه منها لنجد المفقود! وذات النظرية التي تسمح لنا بأن نعرف حيواناً ما بمجرد اطلاعنا على قطع من هيكله العظمي هي النظرية التي يجب أن نفرضها في التاريخ، إذ أن مظهر بعض الصفات يستلزم دائماً وجود صفات أخرى على أن كل هذه المواد التي نحددها قد تكون ناقصة في بعض الحالات بالنظر إلى الوضوح، فالعلم الحديث سيترك مواد أكثر صحة ودقة للجيل القادم. وقد يسهل التنبؤ بأن مؤرخي المستقبل سيكتبون كتباً في التاريخ تختلف عن كتبنا فيه، ففي تاريخ حضارة القرن العشرين سيكون الموضوع خاضعاً بدون ريب لعنوان الأثر مرفقاً برسوم وخرائط وخطوط نافرة تمثل كل أطوار الحوادث الاجتماعية، وأن عظمة ما، وقوة ما، وبقاء ما ووزناً ما نستطيع أن نستشفه خلال خط مرسوم أو سطر مرقوم

وليس هنالك حادث نفسي أو إجتماعي مهما كان مركباً يفترض بأنه لا يمكن اعتباره كقيمة رياضية يمكن حلها عددياً، وإنما يكفي أن نجد له في مواده الضرورية مقياساً، فإن علم تقويم البلدان هو أقل العلوم الحديثة تقدماً في طريق التكوين. والذي علمنا إياه هذا العلم يسمح لنا بأن نستكشف ما سوف يعلمنا إياه في المستقبل. فإنتاج بلد وإنفاقه وغناه وحوائجه والقابلية الخَلقية والخُلقية للذرية التي تقطنه، واختلاف عواطفها ومعتقداتها وتأثير القائمين عليها، كلها أشياء قد جلاها لنا المقومون بأعداد يجمعونها اليوم

ونحن نرقب هذا الجيل القادم الذي تتبدل فيه المشاحنات التاريخية بصور وخرائط ومعارج هندسية تمثل حالة كل الحوادث الاجتماعية وأطوارها المتبدلة، وإنما يجب الجهد الكثير في انتقاء الصور الأكثر وضوحاً من الصور التي تركها لنا الماضي، ومن هذه المواد التي أحصيناها نمسك المواد الضرورية التي تقدم لنا صورة واضحة شاملة للحضارات الغابرة وتاريخ تكونها، ولكي نستطيع أن نخرج هذه المواد إلى حيز العمل وجب علينا أن ندرس هذه البقيات التي تركتها هذه الحضارات في مواطنها فإن مشهد الأشياء وحده يمكن أن يعطينا من ماضي ذلك الغيب ما لا يمكن أثراً غيره أن يعطيه. والعلوم الطبيعية والاجتماعية لا يمكن أن يتعلمها الإنسان مجردة في الكتب، ولاسيما إذا كانت المسألة الشعبية كمسألة العرب الذين تعددت آثارهم في البلدان التي

ازدهرت فيها حضارتهم وشعت مدنيتهم. فعند ذلك يجب أن تدرس بيئتهم درساً لازماً لا مندوحة عنه. وليس هناك إلا الرحلات والأسفار تنقذنا من نير الآراء المصنوعة والأوهام الثقيلة الموروثة. وسيجد القارئ الأصول التي طبقناها هنا بصورة موجزة. وهذه الأصول ستقود القارئ إلى أن يتجرد من الآراء المدرسية في أكثر المسائل التي تمس الشرقيين من ديانة محمد صلى الله عليه وسلم والرق والحروب الصليبية والعلوم والمعارف والفنون وأثر العرب في أوربا وغير ذلك. . .

على أن البقايا التي تخلفت من حضارة العرب هي بقايا كثيرة العدد، كافية لأن ندرسها بأجزائها الضرورية. إننا سنأخذ أكثرها من الآثار الفنية والأدبية والعلمية والصناعية والاعتقادية؛ ومن بين هذه الآثار كلها ستكون اكثر استيحاء من الآثار التصويرية، فهي بشكلها الملموس تكلم عقولنا بوضوح. فيها نجد التعبير الصادق عن الحاجات والعواطف والأجيال التي ولدت فيها، وفيها نحس أثر الذرية والبيئة إحساساً جلياً. ففي آثار عصر ما مهما كان نوع منتجاته يستطاع استقراء ذلك العصر استقراء تاماً. فقافلة في العصر الحجري، وهيكل مصري، ومسجد أو كنيسة، وملجأ قطر، ومخدع غانية، وحسام ذو قبضتين، ومدفع ثقيل الوزن، في كل هذا ما هو أفصح بياناً من المناقشات. ولوصف الآثار الفنية للشعب يوجد طريقة واحدة هي تقديمها؛ فإن صور (البارتنون) والحمراء وفينوس في نظرنا أفضل من مجموعة كتب يكتبها كل مؤلفي العالم عليها. ولاعتقادنا بأهمية هذه الصور التي تنقل إلى العقل الصورة الكاملة للعصر الذي قامت فيه عمدنا إلى أن نلتقط هذه المنتجات؛ والقارئ الذي يلتفت فقط إلى الصور المرسومة في هذا الكتاب قد يكون أكثر علماً بحضارة العرب وأطوارها التي تحملتها في أقطار مختلفة من قارئ قصر اطلاعه على مطالعة الكتب التي تبحث عنها، وان وضع الآثار تحت العيون يغني في الوقت ذاته عن الأوصاف المسهبة التي لا تعطي أية فكرة عن الأشياء التي تزعم أنها تصفها وقد يقال بحق: إن مائة صفحة مكتوبة لا تساوي صورة تامة بل قل - ولا غلو - ولا مائة كتاب

عندما نعمل على تحديد الأشكال نجد أن الكلمات في أية لغة غير كافية. ولاسيما إذا كان الموضوع يمس الشرق حيث تكون الصور ضرورية. هنالك بالعيون وحدها تمكن معرفة

مناظره ومعابده وآثاره الفنية والذراري المختلفة التي تولت أمره؛ والأسلوب الغني بتصويره لن يعطي أبداً ذلك التأثير الذي يعطيه مشهد الأشياء من حيث صورتها الأمينة ولكن هذه الآثار وهذه المشاهد والأعمال الفنية وأشكال الذريات وفصول الحياة إنما ينبغي أن يذهب الإنسان بعيداً في درسها، وإذا أراد درسها بأمانة فإن الصورة وحدها تستطيع أن تعطيها، ومن الصورة تأخذ الصورة الأمينة. وإن أياماً تمدها أيام لا تسمح

للفنان الماهر مهما ذهب بأن يبلغ الإتقان الذي تحققه الصورة في ثوان معدودة
إذا أريد الاختصاص فقط بتمثيل العمارات فإن فناناً ماهراً يكون له الزمن مادة لا قيمة
لها قد يصل إلى أن يتنازع مع الصورة ولكن إزاء ألوف الفصول من الحياة الشاملة
التي تؤلف جزءاً كبيراً من وجود الشعب لا يمكن أن يثار نزاع حولها. فالصورة
الحقيقية هي وحدها القادرة على تصوير الأشياء في حركاتها بأمانة من شارع حي ومن
جواد يعدو خبباً، ومن موكب عرس وغير ذلك. ومن عهد قريب شاعت مذاهب جديدة
تدعوا إلى السياحة والرحلات وقد نفذت هذه المذاهب للمرة الأولى في هذا الأثر.
وقد لعب الرسم دوره في كل شيء وعمل على أن يظهر بأمانة من عمارة، ومن
أكوان، فالصورة الشمسية يجب أن تحل محله الآن، والصورة في كتب العلم والتاريخ
والأسفار تكون الوسيلة الوحيدة، ولقد تكون شاقة في الأسفار النائية، ولكنها ضرورية
لكل مسافر ولكل عالم
فإذا كانت الصورة العامة بما تضمنت من عوامل تعطي القارئ صورة واضحة عن
الزمان الذي قامت فيه فالغاية إذن أصبحت محققة والهدف المنشود موجوداً
(انتهت المقدمة)
خليل هنداوي
قبرة شيلي
للأديب نظمي خليل
نقل الأستاذ خليل هنداوي إلى قراء الرسالة في العدد 235 قصيدة القبرة للشاعر
شيلي نقلاً مختصراً فآثرت أن أنقلها على نصها الكامل
سلام عليك أيها الروح الخفيف!
سلام عليك أيها الطائر الذي لم تلامس الأرض، ولكنك تحلق في أطباق السماء
العامرة
بينابيع الفن الأصيل حيث تنسكب في قلبك!
تشيل من الأرض وتسمو عالياً وعالياً كسحابة من نار وترفرف بجناحيك في طبقات
الجو
الصافي. ثم تشدو وأنت تحلق وتحلق وأنت تشدو!
في الأنوار الذهبية للشمس الغارقة في بحار السحب تطير وتسبح. . .!
أيها الطائر. إنك وإن كنت بعيداً عن أنظارنا، ولكني أسمع أنشودة سرورك. . .!
تملأ الأرض والجو بصوتك إذا ما خلع الليل رداء السحب وسقطت أشعة القمر الباردة
فغمرت الكون. . .!
أما أنت، فلن ندركك. فما الذي يشبهك. . .؟
إن قطرات المياه التي تسحها السحب لا تبهجنا كتلك القطرات الموسيقية التي تهبط
من
لدنك!
إنك شاعر مختبئ في ضوء الفكر يترنم بأناشيد الخلود حتى يتنبه له العالم فيحنو على
الآمال ولا يعبأ بالمخاوف
أو كعذراء كريمة الأصل في قصرها الحصين قد اختلست ساعة تسري عن نفسها جوى
الحب بموسيقاها العذبة التي تغمر خميلتها. . .
أو كحشرة ذهبية وهاجة في رض ندية ترسل لونها الشفاف في صمت وخفاء بين
الأزهار والحشائش التي تحجبها عن الأنظار
أو كوردة مستترة في أوراقها الخضراء تفتحت أكمامها بريح ساخنة ففاح شذا عرفها
القوي الجذاب. . .
إن صوت قطرات الربيع على الحشائش النضرة كان مبهجاً عذباً، ولكنها دون
موسيقاك.
خبرني أيها الخيال أو العصفور أي أفكار سامية أفكارك؟
إن لغتك أسمى من لغة الحب وحميا الكأس!
أهو نشيد مرتمين، أم أغنية نصر قد بارتك. فلم تكن إلا ادعاء كاذباً. . .!
من أي الينابيع تستقي سعادتك. . . أمن الحقول، أم من الأمواج، أم من الجبال، أم من
الأجواء، أم من السهول. .؟

!. .إن سرورك العميق الصافي لن يفتر أو يقل
!. .شبح الكدر لن يحوم حولك
إنك تحب. ولكنك لم تعرف ثمالة الحب المحزنة
تفكر في الموت يقظان ونائماً. وفي أشياء أسمى وأصدق مما نحلم به نحن الفانين وإلا
فكيف استطعت التحليق في هذا الجو البلوري
أما نحن، فإننا ننظر أمامنا وخلفنا. ونذوب أسى للشيء الغامض الخفي ويشوب سرورنا
!. .بعض الألم
إن أعذب أناشيدنا ما كانت تفصح عن أحزن الأفكار لو استطعنا أن نزدري البغضاء بالكبرياء والخوف. بل لو خلقنا لا نذرف دمعة واحدة لما عرفنا سر اقترابنا من فرحك دائماً!
أيها المزدري الأرض، إن مهارتك كانت أجدى على الشاعر من ضروب الأصوات السارة، ومن جمع الكنوز التي تحتويها بطون الكتب!
!. .هبني نصف الفرح الذي حواه فؤادك
!. .لقد خرج هذا الحنق الموسيقي من شفتي
!. .وعلى العالم أن يصغي كما أصغي أنا الآن
نظمي خليل
أناشيد صوفية
جيتانجالي
للشاعر الفيلسوف طاغور
بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب
- 64 -
أي شراب مقدس تريد أن ترشف - يا إلهي - من كأس حياتي المترعة؟
يا شاعري، أفيلذك أن ترقب خلقك من خلال عينيَّ، وأن تقف عند أذنيّ صامتاً تتسمع لحنك الخالد؟
إن دنياك عبارات تضطرب في خيالي، وإن مرحك يبعث فيها النغم الموسيقي. لقد نزلت علي عن نفسك في رضا لتستشعر حلاوة كمالك فيّ
- 65 -
تلك التي تستقر دائماً في أعماق حياتي، في تباشير الصباح اللامعة المضيئة، تلك التي ما ترفع النقاب عن وجهها أبداً في ضوء النهار، تلك - يا ألهي - هي هديتي أزفها إليك ملففة في لحني الأخير
لقد تساقطت حولها عبارات الاستعطاف كليلة؛ ورحت أستميلها عبثاً بكلمات فيها الشوق والحنين
إنني أضطرب في أنحاء الأرض وهي ما تنفك في زاوية من قلبي، ومن حولها يشب ويخبو غالي حياتي وغثها
وهي قد سيطرت على خواطري وأفعالي، على غفوتي وأحلامي؛ غير أنها سكنت وحيدة وفي منأى عني
كنم من إنسان طرق بابي يسأل عنها ثم ارتد في يأس
ليس في العالم من توضّحها وهي ما تبرح في خلوتها تنتظرك
- 66 -
إنك أنت السماء وأنت العش في وقت معاً
يا ذا الجمال، إن الذي في العش هو حُبك الذي يغمر الروح باللون والصوت والأريج
إن الصبح يسفر وفي يمناه سلته الذهبية وقد امتلأت بالزهور الجميلة يكلل بها وجه الأرض
والليل يسدل أستاره على المروج الممحلة وما فيها سوى أعشاب تعافها الأنعام، وعلى الطرقات الموحشة، وبين يديه جرته الذهبية وفيها رشفات باردة من الأمان، أتى بها من المحيط الغربي الساجي
ولكن هناك. . . هناك حيث تمتد السماء إلى اللانهاية فتجد الروح مكاناً فسيحاً ترفرف

فيه، يتألق دائماً النور الأبيض فلا نهار ولا ليل، ولا شبح ولا لون، ولا. . . ولا حديث
- 67 -
إن شعاع شمسك ينطق إلى أرضي ممتد الزراعين، فيقف بإزاء بابي طيلة اليوم ليرتد إليك وبين يديه معاني عبراتي وأناتي وأغاريدي
في لذة النشوة لففت صدرك المرصع بالنجوم في ملاءة من السحب الندية استحالت إلى أشكال وطيات ثم بهرجتها بأصباغ ما تزال تتغير
إنها براقة متقلبة، رقيقة دامعة ومظلمة، لذلك أنت تتعشقها أيها الطاهر النقي، وهذا هو السبب في أنك تخيرتها لتغطي على ضوءك الساطع المهيب بظلها الرفيق
- 68 -
إن تيار الحياة الذي يتدفق في عروقي صباح مساء هو الذي يتحدر في أنحاء العالم فيهتز على نغم لحن جميل
وهو الحياة التي تخترق الأرض مرحة في نبات لا عداد له ثم تتفجر عن موج مضطرب من الأوراق والأزهار
وهو الحياة التي تهدهد في مهد محيط الحياة والموت، بين المد والجزر
إنني أستشعر الجلال في أطرافي من أثر لمسات دنيا الحياة؛ وكأن كبريائي وهي أثر خلجات الحياة في العصور الماضية، كأنها تضطرب في عروقي هذه الساعة
- 69 -
أفلا يلذك أن تطرب لهذا اللحن الحلو، وأن تتقاذفك نشوته المروعة فتغمرك وتحطمك؟
إن كل الأشياء تندفع في طريقها فلا تستأني ولا تعقب، وما من قوة تستطيع أن توقف تيارها وهي تندفع في طريقها إلى الأمام
كن بإزاء هذه الأشياء في ميعة حضرها: الموسيقا السريعة والأيام وهي تقبل لترقص حيناً ثم تدبر. . . إن الألوان والألحان والأريج تتدفق جميعاً في المجرى اللانهائي في نشوة الطرب. . . الطرب الذي يتناثر ويتضعضع ويفنى في كل حين
- 70 -
لأن أعزز نفسي وأبعثها في جميع النواحي، فإني أنشر على ضيائك أستاراً من الظل ذات ألوان، لأن نفسي كأنها هي فتاتك (مايا)
لقد أسدلت دونك حجاباً ثم أعلنت عن ذاتك في فنون كثيرة، ولكن هذا الانفصال الذاتي حل في جسمي أنا
وتردد صدى اللحن العنيف في أضعاف السماء في أشكال مختلفة من الدمع والابتسام من اليأس والامل؛ والموج يعلو ويهبط، والأحلام تتبدد وتتجمع، ولكن فيّ بعض نفسك وعلى الستر الذي أقمت رسوم كثيرة صورتها ريشة الليل والنهار؛ ومن ورائها عرشك
وقد نسج في منحنيات غامضة أخاذة ليس فيها الخطوط المستقيمة القفرة
إن المهرجان العظيم. . . مهرجانك وإياي قد هز آفاق السماء واضطربت نغماتك وإياي في أرجاء الهواء، وانطلقت تفتش عنك وعني كل الأجيال الماضية
- 71 -
إنه هو. . . هو الباطن، الذي أيقظ الحياة في نفسي بلمساته الخفية العميقة
إنه هو الذي نفث من سحره في هاتين العينين، ووقع في سرور على أوتار قلبي لحن الطرب والألم في وقت معاً
إنه هو الذي نسج خيوط (مايا) في أصباغ حائلة من الذهب والفضة. . . أصباغ زرقاء وخضراء؛ ومن بين ثناياها أطلت قدمه، وبلمسة لمساتها ذهلت عن نفسي
إن الأيام تطلع علينا ثم تنطوي، وهو هو الذي يحرك قلبي في فنون كثيرة، وأساليب مختلفة، وخفقات من الفرح والألم
كامل محمود حبيب
الحضارة المصرية في عهد الدولة القديمة
بحث للعلامة الأثري اربك بيت
للأستاذ أحمد نجيب هاشم
(تتمة)
ولما كان الكهنة هم أكثر الناس علماً كان منهم الموظفون المسئولون عن الفيضان

وعمل الترتيبات اللازمة له فكان بمعابدهم مقاييس لمعرفة زيادة النيل، وكانت بسيطة التكوين، كل منها بئر حلزونية أو مربعة الشكل توجد على مقربة من النهر ومتصلة به فكل ارتفاع أو انخفاض في النهر يصحبه بطبيعة الحال المثل في البئر، وبالبئر أرقام تقيد هذا الارتفاع أو الانخفاض، وبها درجات يستطيع المرء أن ينزل عليها كي يقرأ مستوى المياه الذي وصلت إليه يوماً بعد يوم فيعرف مقدار الزيادة، ولما كان الفيضان يبدأ غالباً حوالي الوقت نفسه كل عام سهل على الكهنة ملاحظة هذه العملية وتدوين أرقامها، وبموازنتها بالأرقام التي قيدوها في السنوات السابقة أمكنهم أن يعرفوا حالة الفيضان المقبل إن كان مرتفعاً أو منخفضاً بالنسبة لسابقه، وبذا كان في استطاعتهم أن يحددوا الوقت الذي تفتح فيه الجسور كي تغمر المياه الأرض كلها فإن كان الفيضان مرتفعاً جداً أرسلوا تحذيراً إلى الناس كي يقيموا السدود، وكانت الحكومة في هذه الساعة تسخر كل الناس في هذه العملية، وكان للفيضان أثر آخر، ذلك أن مياهه بعد أن نغمر الأرض مدة ستة أو سبعة أسابيع كانت تمحو الحدود التي بين أرض الفلاح وزميله أو تغطيها بالطمى، فعمد المصريون إلى مسح الأرض كي يعرف كل فرد مساحة أرضه بالضبط، وبذلك بدءوا علم الهندسة إذ وجدوا في مسح الأرض أضبط مقياس وأنه أفضل من وضع أحجار على الحدود، ولا تزال مشكلة ضبط الحدود موجودة في مصر، فالنيل في أثناء الفيضان يزيد مساحة الأرض الواقعة على حدود الصحراء، ولذا يحاول الفلاحون هناك الانتفاع بهذه الزيادة التي تسمى بطرح البحر بضم جزء منها إلى أملاكهم القليلة، وقد لا تبلغ هذه الزيادة ثلاثين أو ستين سنتيمتراً كل عام ولكنها تزداد على مر السنين، ولذلك يهتم مفتشو الحكومة بحراستها كما كان يفعل زملاؤهم من آلاف السنين

الفنون

الحفر والرسم: رأينا نواة التقدم الفني في العهد السابق للأسرات إذ وصل الحفر البارز درجة عالية كما تدل على ذلك مقابض السكاكين العادية والألواح الأردوازية والتماثيل التي وجدت في (قفط) كذلك يرينا لوح (نارمر) الذي يرجع إلى أول الأسرة الأولى كثيراً من قواعد الرسم التي استعملت فيما بعد في الفن المصري، فالرسوم الدقيقة القليلة البروز كانت مناسبة لمملكة تسطع فيها الشمس ويشتد الظل، وقدر للحفر نجاح عظيم في تاريخ مصر، وليس في وسعنا أن نتتبع هذا التطور في الأسرات الثلاث الأولى لقلة الأمثلة وبعد بعضها عن بعض، ولو أن لوح قبر الملك (زت) وقطعاً صغيرة كثيرة من مقابر الملوك في (أبيدوس) تدل على تقدم مضطرد في الأسرتين الأوليين لاسيما من حيث المقدرة الفنية وحسن استعمال المواد، ثم تصل هذه الأمثلة فجأة إلى أجمل مقابر الأسرتين الخامسة والسادسة كمقبرة (تي) في سقارة فهناك نرى الفن المصري في أوج عظمته وتنتقل العين بين الرسوم انتقالاً سهلاً، وهذه هي ميزة الفن في هذه الفترة، ولكن نلاحظ أن قواعد المنظور تكاد تكون معدومة في رسوم هذا العصر ونقوشه، فإذا أريد رسم شيء فوق آخر فما على الفنان سوى أن يضعه فوقه، كذلك كان يرسم الإنسان عادة جانبياً، ولكن مع ذلك نشاهد كتفيه كأنما ينظر إليها من الأمام، وعلى هذه الطريقة استمر المصريون يرسمون نقوشهم طول عهد المملكة القديمة وبالرغم من هذه الغلطات فإن النقوش البارزة على الألواح الخشبية التي عثر عليها في مقبرة حي من الأسرة الثالثة تعد من أجمل القطع الفنية في العالم، فهي تمتاز بما تبعثه في النفس من أفكار لا نهاية لها

النحت: وقد سار النحت جنباً إلى جنب مع الرسوم البارزة، فأخرجت مصر من الأسرة الرابعة إلى السادسة أكبر مقدار أخرجته من التماثيل في تاريخها بعد ذلك. وكان الدافع إلى عمل التماثيل دينياً أكثر منه فنياً إذ اعتقد المصريون أن الشخص بعد موته يعيش في مقبرته عيشة لا تختلف كثيراً عن حياته في الدنيا فاهتموا بتحنيط جثته مخافة أن يلحق هذه المومياء العطب ورأوا ضرورة وجود التمثال حتى تحل فيه الروح، والى هذا الاعتقاد الغريب يرجع الفضل في وجود كثير من أجمل التماثيل في العالم وقد وضع المصريون بعض التماثيل من الخشب ومن الحجر، والقليل منها من الجرانيت والصوان، وصنعوا كثيراً من التماثيل من حجر الجير الملون، ومن أهم تماثيلهم تمثال (خفرع) المصنوع من الصوان وتمثال (شيخ البلد) (والكاتب الجالس القرفصاء) المحفوظ باللوفر

(وتمثال نفرت مع الأمير راع حوتب الذي وجد بميدوم وهو محفوظ الآن بالمتحف المصري)

العمارة

بدأ ظهور فن العمارة في مصر منذ أخذ إنسان ما قبل الأسرات يبطن جدران مقبرته بقوالب من طمى النيل المجفف في الشمس، ولعله استعمل هذه القوالب في بناء بيته الساذج الأول ولا يبدأ أهم دور في تطور العمارة في مصر إلا ببدء العصر التاريخي إذ استعمل الحجر لأول مرة في البناء في عصر الأسرة الأولى فبنيت أرضية مقبرة الملك (دن) بأبيدوس من حجر الجرانيت وهذا أقدم مثل معروف لنا، وبعد أن تنقضي أسرة كاملة تجد في مقبرة (خاستخموي) أول ملوك الأسرة الثالثة حجرة بأكملها مبطنة بالحجر الجيري

ولا بد أن فن البناء تقدم بخطى حثيثة في الأسرتين الأولى والثانية، وتدل الحفريات الحديثة في سقارة على أنه وصل إلى درجة عالية أيام الأسرة الثالثة، ولذا يعتبر العلماء أن هذا التقدم هو نهاية لا بداية عصر معماري عظيم فقد عثر هناك على أعمدة من الطراز الدوري وكانت النماذج الوحيدة المعروفة لهذا الطراز هي تلك التي عثر عليها في مقابر الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة في بني حسن، أي بعد النماذج السابقة بحوالي 900 سنة

ويلي آثار سقارة من حيث الترتيب الزمني معابد أهرام الدولة القديمة ومعابد الشمس في أبي صير، وإذ كانت عمارة هذا العصر معروفة لنا من المباني الجنائزية فعلينا أن نبحث أولاً تطور بناء المقبرة عند أولئك المصريين الأول

أخذت المقبرة في أواخر عهد ما قبل الأسرات تتطور في إحدى طريقين منفصلين وهما المقبرة ذات الدرجات والمقبرة التي قي شكل حفرة ولكل منهما تطور طويل في عهد الدولة القديمة

تكون كل قبر مصري من جزأين رئيسيين: اللحد وهو تحت الأرض وتدفن الجثة فيه ثم مكان العطايا وهو فوق الأرض ويضع فيه أقارب الميت الهبات اليومية من طعام وشراب وغير ذلك مما يحتاجه كي يواصل حياته في القبر، ويحتمل أن بعض المقابر الأولى كانت

خلواً من هذا الجزء أو لعله اقتصر على كوم من الرمل أو الحصى، وسواء هذا أو ذاك فقد تطور هذا الجزء منذ عهد السرة الأولى إلى شكل مصطبة ذات جوانب مائلة في أحدها كوة صماء لوضع العطايا تجاهها

وبتولي الأسرة الرابعة الحكم كانت هذه المباني البسيطة قد تطورت إلى تلك المصاطب الحجرية الهائلة التي بناها الأشراف لأنفسهم حول أهرام ملوكهم، ويقع اللحد تحت المصطبة الأولى نفسها وبداخل المصطبة حجرات لوضع العطايا من أكل وشراب

اختلف هذا النظام اختلافاً بسيطاً في الهرم، أجل كان الملك يدفن في حجرة تحت الأرض منحوتة في الصخر ويعلوها هرم كان كالمصطبة تذكاراً ظاهراً فوق القبر إلا أن الهرم لم يكن بداخله حجرات العطايا بل بنيت هذه في الجهة الشرقية منه ونظراً لكثرتها فقد أطلق عليها اسم معبد الأهرام؛ فإن كان الهرم هو تطور المصطبة كما يقول البعض فما المعبد إلا تطور الكوة الصماء التي كانت توضع العطايا تجاهها

ولما كان الهرم ومعبده قائمين على هضبة مرتفعة عن مستوى الحقول المحيطة بهما بنحو 100 قدم فقد بنى صاحبه طريقاً منحدراً مرصوفاً كي يسهل الوصول من الوادي إلى المعبد وبنى في أسفل هذا الطريق معبداً صغيراً سمي بمعبد الوادي، ويقول البعض إن زيارة المعبد الرئيسي كانت قاصرة على أقارب فرعون ورجال بلاطه وإن معبد الوادي كان لزيارة عامة الشعب

ويرى فريق آخر أن معبد الوادي لم يكن سوى مكان يتطهر فيه الزائر قبل أن يصل إلى المعبد الرئيسي، وما المعبد المعروف بمعبد أبي الهول إلا معبد الوادي لهرم (خفرع) وقد كشف الأستاذ سليم بك حسن تحت الطريق الواصل بينه وبين المعبد الرئيسي للهرم نفسه عن أقدم نفق في العالم نحته مهندس ذلك الملك العظيم في الصخر الصلب كي يختصر المسافة لمن يريد الوصول من الجهة الشمالية للهرم إلى جهته الجنوبية ويوفر عليه السير الطويل حول الطريق المذكور

وتبين لنا هذه المعابد الأولى أغلب مظاهر المباني الدينية المصرية كما نراها فيما بعد هذا العصر، فكلها متينة البناء والمسقف منها مسقف بكتل حجرية أفقية قائمة على أعمدة لا أقبية فيها، على أن المصريين لم يجهلوا طراز القبو كما يتضح ذلك من مقابر الأسرة
الثالثة. وهكذا نجد في الدولة القديمة الظاهرتين الأساسيتين في بناء المعابد المصرية، فهناك البهو ذو السقف الكامل القائم على أعمدة موزعة في كل أنحاء أرضية المعبد، وهناك أيضاً البهو ذو الأعمدة ويتكون من فناء مفتوح يمتد على جانب أو اكثر فيه جزء مسقف يقوم سقفه على صف أو صفين من الأعمدة
ومن المباني الدنين التي تنتسب إلى عصر الدولة القديمة معابد الشمس التي بناها ملوك الأسرة الخامسة في أبي صير وكانت تشبه معابد الأهرام السالفة الذكر من حيث وجود معبد الوادي والمعبد الرئيسي والطريق المنحدر الواصل بين الاثنين، ولكن بدلاً من الهرم الذي كان يقام فوق المقبرة بنا ملوك الأسرة الخامسة هرماً ناقصاً صغيراً تعلموه مسلة هي رمز إله الشمس (رع)
أحمد نجيب هاشم
نقل الأديب
للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي
326 - لا تجعل قلبك مثل السفنجة
في (مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة) لابن قيم الجوزية: قال لي شيخ الإسلام (رضي الله عنه) - وقد جعلت أورد عليه إيراداً بعد إيراد -: (لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السفنجة فيتشربها فلا ينضح إلا بها، ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة تمر الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها، فيراها بصفائه، ويدفعها بصلابته. وإلا فإذا أشربت قلبك كل شبهة تمر عليك صار مقراً للشبهات)
فما أعلم أني انتفعت بوصية كانتفاعي بذلك
327 - يزيدهم حرصاً على الإسلام
في (الأحكام في أصول الأحكام لابن حزم: أن رسول الله لما خرج إلى بني قريظة والنضير قال له أبو بكر وعمر: يا رسول الله، إن الناس يزيدهم حرصاً على الإسلام أن يروا عليك زياً حسناً من الدنيا، فانظر إلى الحلة التي أهداها لك سعد بن عبادة فالبسها، فليرك اليوم المشركون أن عليك زياً حسناً
قال: أفعل
328 - إن الاحتمال قبر المعايب
قال الأنباري في (طبقات الأدباء): كان شيخنا ابن الشجري (هبة الله بن علي) وقوراً في مجلسه، ذا سمت حسن لا يكاد يتكلم في مجلسه بكلمة إلا تتضمن أدب نفس أو أدب درس. اختصم إليه يوماً رجلان من العلويين فجعل أحدهما يشكو ويقول عن الآخر: إنه قال في كذا وكذا. فقال له الشريف (ابن الشجري): يا بني، احتمل فإن الاحتمال قبر المعايب
وهذه كلمة حسنة نافعة فإن كثيراً من الناس تكون لهم عيون فيغضون عن عيوب الناس ويسكتون عنها فتذهب عيوب لهم كانت فيهم، وكثير من الناس يتعرضون لعيوب الناس فتصير لهم عيوب لم تكن فيهم
329 - يريد أن يموت
أبو القاسم اليزيدي: كان أبو عمرو بن العلاء في مجلس إبراهيم بن عبد الله، فسأل عن رجل من أصحابه فقده، فقال لبعض من حضره: اذهب فاسأل عنه. فرجع فقال: تركته يريد أن يموت. فضحك منه بعض القوم وقال: في الدنيا إنسان يريد أن يموت!
فقال إبراهيم: لقد ضحكتم منها عربية؛ إن (يريد) في معنى يكاد، قال الله تعالى: (جداراً يريد أن ينقض) أي يكاد
فقال أبو عمرو: لا نزال بخير ما كان فينا مثلك
330 - وأرى الغيب فيه مثل العيان
أبو القاسم المحسن بن عمرو بن المعلى:
لست أدري ولا المنجم يدري ... ما يريد القضاء بالإنسان
غير أني أقول قول محق ... وأرى الغيب فيه مثل العيان:

إن من كان محسناً قابلته ... بجميل عواقب الإحسان
331 - اتفاق عجيب
قال ابن بسام: من عجائب ما جرى لأبي العلاء صاعد بن الحسين البغدادي - الوافد على الأندلس - أنه أهدى أيلاً إلى المنصور بن أبي عامر - ملك الأندلس - وكتب على يد موصله قصيدة منها:
عبدٌ جذبتَ بِضَبْعِه ورفعت من ... مقداره أهدى إليك بأيل
سميتُه (غرسيّة) وبعثته ... في حبله ليصحّ فيه تَفَؤُلي
فقضى في سابق علم الله أن ملك الروم (غرسية) أسر في ذلك اليوم الذي بعث فيه بالأيل بعينه، وسماه باسمه على التفاؤل، وكان غرسية أمنع من النجم. وسبب أخذه أنه خرج يتصيد فلقيته خيل للمنصور من غير قصد فأسرته وجاءت به، فكان هذا الاتفاق مما عظم به العجب
332 - لكن عندي عتيق سنتين
قال ياقوت: قال المرزباني: قال عبد الله بن عياش: كنت أنا وسفيان الثوري وشريك بن عبد الله (القاضي، الفقيه) نتماشى بين الحيرة والكوفة فرأينا شيخاً أبيض الرأس واللحية
حسن السمت والهيئة، فظننا أن عنده شيئاً من الحديث، وأنه قد أدرك الناس. وكان سفيان أطلبنا للحديث، وأشدنا بحثاً عنه، فتقدم إليه وقال: يا هذا، هل عندك شيء من الحديث؟
فقال: أما حديث فلا، ولكن عندي عتيق سنتين
فنظرنا فإذا هو خمار. . .!
333 - قبل مضي أسبوع . . .
في (حلبة الكميت): لشمس الدين النواجي: يقال: إن من نظر إلى البدر في ليال متعددة، وخاطبه بهذين البيتين وهو مشغوف القلب اجتمع بمن يحب قبل مضي أسبوع وهما:
يا أيها القمر المنير الزاهر ... الأبلج البدر البهي الباهر
بلغ شبيهتك السلام وصف لها ... شوقي وأني في هواها ساهر
334 - كتبه علي بن الحسن الجويني
ياقوت الحموي: كان من شيمة الجويني الكاتب أنه ما كتب شيئاً بخطه كثر أو قل، دق أو جل إلا يكتب في آخره: كتبه علي بن الحسن الجويني
رسالة الشعر
في عيد الإحسان
فاروق حبك في القلوب عقيدة
للأستاذ محمود حسن إسماعيل
نوران: نور هدى ونور تبسم ... سطعا، فراح الشعر يسطع من فمي
فهتفت: يا دنيا الملائك طهري ... وترى، ومن آيات وحيك ألهمي
هاتي لي النغم الجديد، بغيره ... ما اهتز للشعراء سمع الأنجم
هاتي فإن بعرش مصر مملكاً ... تاج العصور بمثله لم ينعم
أوفي فرحت إلى الخمائل هاتفاً: ... هاتي الشذا من زهرك المتبسم
فضي لحون الطير من لهواتها ... ومري أغانيها ترن بمرقمي
ودعي الصباح ونوره، ودعي الضحى ... وعبيره ينساب طهراً في دمي
إني سأهتف للمليك بآية ... بيضاء مثل جبينه المتوسم
مولاي! فاهتز الوجود مهللاً ... طرباً، وإن لم يشد أو يتكلم
من رام تغريداً بظلك فليكن ... لبلابل الخلد السواجع ينتمي
الله أكبر! ما لسمعك هزة ... بسوى حمام الجنة المترنم!
حبك في القلوب عقيدة ... أخذت سراها في القلوب مع الدم (فاروق)
قسمت مع الإيمان قدس مكانه ... في اروح، وهو لغيرها لم يقسم
الشرق يقرأ في جبينك آية ... فجر الربيع بنورها لم يوسم
النيل فسرها له متخايلاً: ... هذي منارة كل قلب مظلم
فيها عزاء الشرق عن آلامه ... ومناه بعد أسى وطول تجهم

الله سطرها لتاريخ الحمى ... بشرى وثوب للعلا وتقدم!
يا عاهل الإسلام كرم عصره ... وأنر به حلك الوجود المعتم
ألقت إليك يد الحنيف زمامها ... فأقلت عثرتها، وقلت لها اسلمي!
وبعثت عهد الراشدين بصولة ... شرع السماء بها حديد المعصم
فرعيت عز الصولجان ومجده ... وخطرت في ورع النبي الملهم
وحملت مسبحة كأن مدارها ... فلق الهدى للحائر المتبرم
حباتها فلذ القلوب خواشعاً ... عطلن باللثمات آمال الفم
نسق من الملك انفردت بعزه ... لسواك في التاريخ لم يتقدم
في دولة الإحسان قامت عصبة ... للخير في جنبات عرشك تحتمي
تأسو إذا جرح الزمان، وتنبري ... قدراً يكفكف دمعة المتيتم
كم ثاكل ردت فواجع قلبها ... نعماً، وأسبغت النعيم لأيم
ستارة الأعراض يغمر جودها ... ليل الحرائر في بياض الأنعم
وترابها للمعوزين غرائس ... للقوت، تثمر في خريف المعدم
تعطي ولا مَنٌّ يشوب عطاءها ... وتجود جود العدل للمتظلم
منن تدب إلى النفوس خفية ... يجري بها قدر الإله المنعم
فكأنها الأحلام تهبط في الدجى ... للبائسين بخشعة وتحرم
شرف العطايا أن تزف وحيدة ... كالسر بين تخفر وتحشم!
هي كعبة - للبؤس من إحسانها ... بشر النبات بغيثه المترحم
للعلم في أكنافها ري النهى ... ولشكوة العلات برء المسقم
مولاي أسعدها بنورك إنها ... بهداك تفرع سابحات الأنجم
همم سبقن خطى الزمان بعزمة ... أوقدتها سبق القضاء المبرم
هتفت بك الدنيا فرد هتافها ... شعب يفدي بالقلوب وبالدم!
محمود حسن إسماعيل

حوَّاء

للأستاذ إبراهيم العريض

تمثّل الحبُّ للفنان بين يدَيْ ... ذكراه كالنار تغشى طورَ سيناءِ
وقال حين رآه في تململه ... يقلّب الطرفَ بين الزهر والماءِ:
(يا من عكفتَ على الدنيا وزينتِها ... حتى صممت عن الأنغام من نائي
تحيا الحياةَ بلا إلفٍ تلوذ به ... إلا ارتيادكَ في أفياءِ فيحاءِ
حتى كأن ضلوعاً أنت حاملُها ... تُطْوَى على كبدٍ ليست بحرَّاء
هذا الوجودُ إطارٌ لا كفاء له ... وغاية الفنّ فيه رسمُ حوَّاء
لها الشبابُ الذي تَشْفى برقيته ... ما كابد القلبُ من صدٍ وإغراء
لها الجمالُ الذي تعنو لعزته ... فيما تشاهدُ من ظلٍّ ومن ماء
لها الوداد الذي تَبقى أشعّتُه ... تنير خطوَكَ في طوفان أهواء
كأنها الشمس إشراقاً. . تبادلها ... مرآةُ قلبك لألاءً بلألاء
لا تكذِبِ النفس في مجد حلُمَت به ... فلست تحسن إلا قولَ: أهواها
شغفتَ بالحسن لا تنفك تطلبُهُ ... عيناكَ. حتى ولو في كأسِ صهبَاءِ
وليس أجملَ ما في الكون من أثرٍ ... إلا اقتباساً بدا من شكل حسناء
أنظر إلى شفتيها. هل ترى زَهراً ... يفترّ عن نُقَط كالطلّ وطفاء
أنظر إلى وجنتيها. هل ترى شفقاً ... يلوح من شَعْرِهَا في وسْطِ ظلْمَاء
أنظر إلى ناظريها. هل ترى ألَقاً ... كأنه صادرٌ عن كوكب ناءِ
ما في الطبيعة من حسن فمنعكِسٌ ... عن صدرها البضِّ في عينيك يا رائي
وأطيب الطيب ما في الخلد من زَهَر ... وإنما غرسَتْها كفّ حوّاء
فكيف تُكبِرُ من شأنِ الجميلِ ولا ... تثيبُهُا عن يدٍ قبَّلتَ بيْضاء
(وما تؤمِّل في الفردوس منفرداً ... لولا رجاؤك أن تحظى بلقياها)
إبراهيم العريض

هي عيناك

للأديب حلمي عطا الله

حرقة في القلب يذكيها الألم

صدمة للنفس يتلوها الندم
وأنا وحدي أسير الليل أطوي الظلماتِ
لا أبالي ما أرى في وحدتي من عقبات
أسدل الليل جناح الحلم فوق الفلوات
ألم الليل شديد الوطءِ مرّ العبرات
هي أشجاني التي توقظ فيَّ الحسرات
يا لعينيك التي تحرمني طعم السبات:
هي عيناك التي تحرقني فأهيم
هي عيناك التي تشعلني كالجحيم
قسوة الهجر على القلب العليل تقتله
كثرة التبريح بالجسم الهزيل تثقله
هذه شكواي من عينيك يا ذات الدلال
من يراعيها ويرعاني إذا طال النضال؟
هل أذوق الشهد أم أقضي حياتي في الخيال؟
أم أقاسي الصدَّ؟ كلا، إن هذا لمحال
أنا لا أطمع في النوح ففي النوح الزوال
أنا لا أبغي سوى الوصل، فذا الوصل الحلال
هي عيناك التي تأمرني فأطيع
هي عيناك التي تذهلني فأضيع
حيفا
حلمي عطا الله
القصص
أقصوصة لاذعة من أناطول فرانس
مشعوذ المادونا
للأستاذ دريني خشبة

كان يعيش في أيام الملك لويس مشعبذ فقير من كومبين يقال له برنابا، وكان لا يني يذرع أقطار الأرض ليعرض على الناس ألعابه الخارقة التي كان يبهرهم بها في خفة وحذق وبيد صناع. وكان ينتهز أيام الصحو فينتحي ناحية في الميادين العامة، ثم يفرش على الأرض قطعة من بساط خلق لم يكن يفارقه أينما سار. . . وبكلمات يقولها، وإشارات وحركات علمه إياها مشعبذ أكبر منه سناً يجتمع حوله أطفال وغلمان ومتسكعون، ثم يسوق الفضول غيرهم فيكون في حلقة من الناس من كل صنف يستهويهم بشعبذاته، ويثير عجبهم بالبراعة الفائقة التي يقف بها سكرجة من صفيح مطلي على أرنبة أنفه، وهو مع ذاك يميل ويميد ويتخلج. . . فإذا فرغ من هذا انقلب في الهواء فوقف على رأسه ويديه، ثم راح يرسل في الهواء كرات ستاً صغيرة من نحاس أحمر لامع، فيتلقاها بقدميه العاريتين في مهارة خارقة، بحيث لا تسقط منها واحدة حتى يستوي؛ وكان الناس يختلفون في أمر هذا المشعبذ، ولكنهم سرعان ما يتفقون على أنه ألعبان داهية حين يتقوس ويتقوس، حتى يعمل بجسمه المنقلب عجلة من لحم، ثم يرسل في الهواء اثنتي عشرة سكيناً مزهفة فيظل يتلقفها بيديه في سرعة تخطف البصر وتطلق أيدي النظارة بالتصفيق، وحناجرهم بالهتاف الطويل، ثم يمطرون بساطه الخلق بالدوانق والدريهمات

ولم يكن برنابا مع ذاك بدعاً من الناس، فلقد كان واحداً من هذه الآلاف المؤلفة التي تكتسب الكفاف من العيش بعرق جبينها، وكان يشقى كما يشقى إخوانه البائسون في كل زمان وفي كل مكان، بل لقد كان نصيبه من شقوة الحياة، ومضض العيش، والأوزار التي كتب في الأزل أن تنقض ظهور الناس جيلاً عن جيل عن أبيهم آدم، كبيراً مضاعفاً. . .

ولم يكن يستطيع أن يصل عمله الشاق المضني في كل وقت، فهو واحد من مئين من الأحياء التي يعج بها العالم، ويزخر بها وجه الأرض، والتي تحتاج إلى حرارة الشمس، ودفء الهواء، لتدب الحياة فيها وتنتعش. . . لذلك كان الشتاء أكبر أعدائه، إذ كان يقاسيه كما تقاسيه الشجرة التي نفضت أوراقها، وبدت خلاله نصف ميتة. . . وكان

الصقيع الذي يغطي وجه الأرض يقضه ويزعجه، ويثلج يديه وقدميه، فتسقط الكرات وتجرحه السكاكين، ولكنهه مع ذاك يبسم ويهش، متشبهاً بالصرصر المذكور في قصة مريم الأفرنسية، والذي يشدو ويرقص جوعان من. . . البرد!! أو من الجوع. . . أو منهما معاً!! وكان لسذاجة قلبه، وقناعته، يقاسي في سكون وصمت. فلم يفكر مرة في كيفية توزيع الثروة بين الناس، ولا في علة هذا التفاوت الكبير بين أقدار البشر، وكلهم من آدم، وآدم من تراب. . . لا. . . لم يفكر برنابا الطيب في شيء من هذا ولا ذاك، بل كان مؤمناً ساذج الإيمان، وكان يعتقد أن الخير الذي فاته في هذه الدنيا لابد مواتيه في الآخرة، وأن سيئات هذه الحياة ستحتسب في صحيفته حسنات يوم يوفى للناس حسابهم. ولم يكن برنابا من هؤلاء اللبقين الألبة الذين باعوا أنفسهم لسيد الأبالسة، بل كان يؤمن بالله ولا يكفره، ويلهج لسانه دائماً باسمه، وكان يحيا حياة أمينة طاهرة كلها تقوى وعفة، ولم تحدثه نفسه مرة أن يمد عينيه إلى ما متع الله به جاره من زوجة جميلة حلوة مفتان، مع أنه لم تكن له زوجة حلال. . . وكان يؤمن بخطر المرأة على شباب الرجل وعنفوانه، وكانت له أسوة بما حدث من ذلك لشمشون كما هو مشهور مأثور

وهكذا لم يك برنابا بهيمياً ولا شهوانياً، بل هو لم يفكر مرة في هذه اللذة الدنسة التي تستعبد أمثاله من المشعبذين، بيد أنه إن سلم من ذاك، فلقد كانت تأسر لبه الخمر، وكان يرى فيها منجاة من فتنة النساء والوقوع في كيدهن؛ ولم يكن برنابا مدمناً مع ذاك، وإن حب الخمر وصبا إليها من كل قلبه، لاسيما إذا كان الفصل شتاء والطقس بارداً زمهريراً. . . فإذا استثنينا شغفه بالخمر وجدناه رجلاً صالحاً يخاف الله ويتبتل إليه، وتملأ قلبه محبة العذراء، مريم الطاهرة البتول، التي كان يخبت لها ويصفيها عبادته، ويركع بين يدي صورتها كلما دخل كنيسة فيصلي هذه الصلاة: (مولاتي! أبتهل إليك أن تباركي حياتي في هذه الدار حتى يتأذن الله فيقبضني إليه، فإذا فعل، فاشفعي لي عنده أن يفيء علي من نعيم الخلد. آمين!)

وانطلق في أمسية يذرع الطرقات غب مطر وابل حزيناً واجماً كاسف البال، وتحت إبطه كراه ومزقة البساط وفيها سكاكينه، وكل همه أن يجد خاناً يؤويه فيقضي فيه ليله على الطوى، لم يذق عشاء ولم يتبلغ بلقمة. . . فبينما هو هائم على وجهه هكذا، إذا به يرى راهباً يذرع الطريق مثله، وفي مثل الجهة التي يسير فيها، فحياه في أدب وظرف، ورد الراهب تحيته بأحسن منها، ثم قال يحدثه:

- مرحى أيها الرفيق! مالك مسربلاً بهذه الثياب الخضر من ناصيتك إلى إخمصيك. . . أذاهب أنت لتمثل البلياتشو في ملهاة خرافية؟

- كلا والله أيها الأب! إن اسمي برنابا، وحرفتي الشعبذة وحبذا لو كان عملي أن آكل متبطلاً، وأسمن واستريح من عناء الحياة!!

- أتعني ما تقول أيها الأخ برنابا؟ حذار من أن يكون في ستور كلامك لمز أو كناية! فإن أشرف عمل في هذه الحياة الدنيا هو أن تبيع نفسك لله. . . الرهبانية يا برنابا. . . إن الراهب ما ني يسبح بحمد الله، وباسم العذراء، وبأسماء القديسين! ألا وإن حياة الراهب أنشودة سرمدية ليسوع المسيح!

- وقال برنابا يجيبه: (إني أقر أنني تكلمت كما يتكلم الجهلاء أيها الأب، فعفواً ومعذرة. . . إن بيننا لبوناً شاسعاً وفارقاً عظيماً، وإنه إن يكن لشعبذاتي قيمتها عند الناس، فكذلك نسكك وترهبك مع فارق بين الصناعتين، لأنك مهما عجزت عن رقصة أقوم أنا بها في منتهى ما تتصور من سهولة ويسر، ومهما عجزت عن أن تقف سكرجتي هذه على أرنبة أنفك وتميل كما أميل، وتميد وتتخلج، فإن لرهبانيتك مع ذاك قيمتها التي لا تساميها قيمة عملي الحقير وصنعتي التافهة. . . أيها الأب الكريم! تالله إنه ليس أحب إلي من أن أنقطع مثلك للعبادة فألهج بذكر الله، وأستقل عن العلمين ليتحد قلبي بالبتول المقدسة. . . العذراء الطاهرة التي كرست نفسي وحياتي لعبادتها ومحبتها! وإنه ليس آثر عندي من أن أهجر حرفتي التي عرفت بها في ستمائة قرية وقرية، من سواسون إلى بوفيه، لكي أذهب إلى الدير، وأخلص للتأمل والعبادة والترهب!)

ووقرت سذاجة المشعبذ في فؤاد الراهب، واستشف فيه نفساً تقية وقلباً صالحاً، من

تلك القلوب النقية التي قال المسيح في أصحابها: (عليهم السلام في الأرض) فقال يجيبه: (إذن هلم معي أيها الصديق برنابا وسأدخلك الدير الذي أنا رئيسه، وإني أسأل الله الذي هدى مريم المصرية في مهامه الصحراء أن يوفقني في هدايتك إلى ما فيه خلاصك)

وهكذا أصبح برنابا (البلياتشو!) راهباً!

وبهره أن يرى إخوانه الرهبان يخلصون في محبتهم للعذراء إخلاصاً عجيباً، ويكرسون حياتهم ونبوغهم وجميع ملكاتهم لخدمة مجدها وتخليد ذكراها. . . فهذا رئيس الدير يؤلف في فضائلها المؤلفات، ويشيد فيهن حسب السنة بأياديها على العالمين وهذا الأخ موريس يتناول مسودات تلك المؤلفات فيسطرهن بيده النابغة الصناع، وبخطه الرائق الشائق على رقوق وكواغد ثم هذا الأخ الإسكندر ينقش فيهن نقوشه، ويرسم تصاويره، فيجعل مليكة السموات جالسة على عرش سليمان، وقد ربضت عند قدميها أربعة أسود ضياغم تحرسها وتسهر عليها، ومن فوق الهالة التي تنعقد بالنور حول رأسها ترف سبع حمامات ورق هن هدايا روح القدس السبع: الخوف، والتقوى، والمعرفة، والقوة، والعدالة، والذكاء، والحكمة، وجلس معها ست عذارى حسان ذوات شعر مغدودن ذهبي: الدعة، والكبرياء، والاعتزال والاحترام، والعذرية، والطاعة. . . هذا وقد سجد عند قدميها شبحان عاريان يشعان نوراً ولألاء، وكانا يمثلان الأرواح الخاطئة، وكانا يتوسلان إلى العذراء أن تدرك أصحابهما برحمتها التي وسعت كل شيء فتمنحهم الخلاص

وقد صور الأخ الاسكندر في صحيفة أخرى أمنا حواء في حضرة العذراء البتول حتى يرى القارئ كيف تتمثل الخطيئة والفداء في حواء الذليلة ومريم الشماء!

ومن أحسن صوره أيضاً صورة بئر المياه الحية، وصورة النبع، والزنبقة، والقمر، والشمس، والجنة المغلقة، وما إلى ذلك مما ورد ذكره في نشيد الإنشاد. . . فهذه، وصورتا بوابة السموات، ومدينة الإله؛ كلها صورت في محبة العذراء ورسمت باسمها

وكان الأخ ماربود كذلك من أطفال مريم المخلصين. . . وكان ما يفتأ ينحت التماثيل من الحجارة فتتشعث لحيته وشعره وأهدابه بغبار الرخام الأبيض، وتنتفخ عيناه وتنهمر مدامعه؛ وبالرغم من سنه المتقدمة، وشيخوخته الضعيفة، فلقد كان ماربود يصل ليله بنهاره في عمل التماثيل في حب مريم لتباركه، وتثبت خطاه نحو الأبدية. . . وكان يمثلها محمولة في محفة، وتتألق على جبينها هالة من أغلى اللآلئ. . . وكان ينصب أكبر النصب في تجعيد ثنايا ثوبها من فوق قدميها ليسترهما. . . القدمين الحبيبتين قدمي العذراء، اللتين قال في صاحبتهما النبي: (حبيبتي أشبه بجنة مغلقة!)

وكان يمثلها أحياناً طفلة رائعة فينانة، تكاد تنطق فتقول: (يا يسوع! أنت إلهي!)

وكان في الدير رهبان شعراء ما ينون ينظمون في العذراء المقدسة أغانيهم باللسان اللاتيني. . . وكان فيهم زجال بيكاردي ينقل أغاريدهم إلى اللسان العامي الرشيق

شهد برنابا هذه الحماسة التي جعلت إخوانه الرهبان يتنافسون في خدمة العذراء وتقديسها، وتكريس كل ملكاتهم لعبادتها بالقلب وبالذهن وباليد وباللسان؛ فحزن حزناً شديداً، وراح يندب حظه، ويبث جهله المطبق وسذاجته وقلة معرفته، وكان يمشي مرة في ظلال الحديقة الصغيرة التي يحضنها سور الدير، فجعل يتفجع ويقول: (وا أسفاً لشد ما يحزنني ألا أستطيع أن أعبد عذرائي تلك العبادة القيمة التي يؤديها رفاقي الرهبان مع ما بذلت من حبي لها، وبرغم ما وقفت كل تقديسي عليها! ما أتعسني إذن يا أم الإله! أنا هذا الجاهل الغبي الذي يعبدك بلسان لا يعي إلا أتفه الأدعية وأحقر التسبيحات، وهو مع ذاك يرددها لا كما ينبغي. . . ويلي من غبي جاهل لا قدرة له على فن جميل، ولا عمل من ورائه طائل! أين أنا مما ينحت الناحتون للعذراء البتول، وما يصور المصورون، وما ينظم أولئك الشعراء من أغراد وأوراد! وا أسفاه! إني لا أملك من كل ذلك قليلاً ولا كثيراً!)

وهكذا ظل برنابا يتفجع ويتألم

وجلس مرة يصغي إلى رفاقه بينما كانوا يتلهون بالحديث فيما بينهم، فسمع أحدهم يقص حكاية الراهب الذي عاش عمره جميعاً لا يستطيع أن يعبد العذراء إلا بهذه العبارة القصيرة المقتضبة: سلام على مريم. . . سلام على مريم. . . يرددها في صباحه وفي مسائه، ولا يفتر عن ترديدها لسانه. . . وكان إخوانه يزدرونه لجهله وقلة

عرفانه، فلما مات، وأقبلوا عليه، رأوا، ويا ما أغرب ما رأوا، أربع وردات نواضر قد خرجت من فمه، فعرفوا أنهن برزن ثمة تقديساً للأحرف الأربعة التي يتركب منهن اسم العذراء. . . وهكذا تقدس الراهب بعد موته، وبعد ما لقي من ازدراء رفاقه في الحياة الدنيا. . .

ولما سمع برنابا هذه الحكاية ابتهجت نفسه وغمر السرور قلبه وعظمت ثقته في مريم البتول الخيرة. . . بيد أنه لم يتسل بهذا المثل الجميل، لأنه كان يود لو استطاع أن يصنع مثل ما يصنع إخوانه من تقديس العذراء بالقلب واللسان وباليد. . . فراح يفكر ويفكر، ويعمل ذهنه في الوسيلة التي تنيله ما يريد. . . ولكن. . . عبثاً حاول أن يجد برنابا تلك

الوسيلة، فكان كل يوم يمضي يزيد في أحزانه، ويضاعف أشجانه

ثم استيقظ صبيحة يوم مشرق وقد بدا في وجهه البشر، وشاع في أعطافه السرور، فانطلق من صومعته إلى الكنيسة فدخلها، وأقفل عليه بابها، ثم لبث فيها أكثر من ساعة من الزمان، وخرج وقت الغداء فلم يغب طويلاً، ثم عاد إليها، وأقفل عليه الباب كما فعل في الصباح. . .

وظل منذ ذلك اليوم يذهب إلى الكنيسة في مثل هذه الساعة التي لا يفكر أحد من الرهبان في الذهاب إليها، لاشتغالهم بما أخذوا به أنفسهم من كتابة ونسخ وتصوير ونحت ونظم. . . وتبدل حال برنابا، فلم يعد يعاوده وجومه، وذهب عنه هذا الحزن الذي كان يلازمه دواماً. . . غير أن سلوكه المفاجئ قد أثار الغرابة والدهش في نفس رئيس الدير، الذي كان واجبه يقضي عليه بمعرفة كل ما يعمل رهبان الدير حتى في سرهم ونجواهم. . .

ففي إحدى خلوات برنابا، ذهب الرئيس في صحبة زميلين من أكبر رهبانه سناً، ليروا ماذا يصنع أخوهم داخل الكنسية، ووقفوا يلاحظونه من ثقوب في الباب

ما شاء الله!!

لقد شهدوا الراهب المشعبذ وقد (تشقلب!!) أمام صورة العذراء المقدسة، بحيث وضع رأسه ويديه على الأرض، ثم راح يرسل كراته في الهواء ويتلقفها برجليه، ثم يتحوى ويتكور، ويرسل سكاكينه المرهفة ويتناولها في خفة ورشاقة بكلتا يديه، كما كان يصنع في أيامه الخوالي التي أكسبته الصيت والأحدوثة وأطيب الذكر. . ولم لا يصنع؟ أليس بهذا يضع ملكاته وخبرته الفنية وطول دربته في خدمة العذراء كما يصنع رفاقه؟ وما يصنع رفاقه غير هذا؟

لكن رئيس الدير لم يفهم شيئاً من ذلك، ولم يفطن إلى غرض المشعبذ النبيل، بل صاح وصاح معه زميلاه، ولعنوه اشد اللعن بما دنس هذا المكان المقدس واستباح حرمته! لقد كان الرئيس يعرف أن برنابا رجل ساذج مغفل، ولكنه ظن هذه المرة أنه قد فقد صوابه، فاندفع داخل الكنيسة واندفع في إثره زميلاه ليقذفوا به خارجها. . . ولكن! يا للمعجزة! لقد رأوا الصورة المقدسة تتحرك. . تتحرك، وتتقدم نحو برنابا. . . وقد مدت ذراعها الجميلة

النقية، وراحت تمسح قطرات العرق التي كانت تتصبب فوق جبينه، بمنديلها الأزرق الحريري

وسجد رئيس الدير حتى مست جبهته رخام الأرض وسجد وراءه زميلاه، وجعلوا يصلون هذه الصلاة

(مباركون الذين تطهرت قلوبهم وخلت من الخبث، لأنهم سيرون الله)

دريني خشبة

البريد الأدبي

متى تستقر نظم الدراسة في مصر؟

أشرنا في هذا المكان من قبل إلى المشروعات الجامعية الجديدة التي وضعتها وزارة المعارف لتعديل نظم الدراسة في الجامعة المصرية، ومنها مشروع يقضي بتخفيض مدة الدراسة في كلية الحقوق وإنشاء قسم جديد للتخصص (الدكتوراه)؛ وكان هذا التعديل مقدمة لمشروع شامل يتناول نظم الدراسة في جميع كليات الجامعة المصرية. فالآن نقول إن النية قد اتجهت إلى إلغاء هذه التعديلات كلها؛ وقد قيل في ذلك إن القوانين الجديدة قد وضعت بسرعة ودون تمحيص، ولم يؤخذ في شأنها رأي

مجالس الكليات المختصة، وإن تعديل دستور الجامعة هو قبل كل شيء من شئون الجامعة ذاتها. وهذا كلام منطقي ومعقول؛ ولكن وراء ذلك كله حقيقة يجب أن تقدر قدرها، وهو أن هذا التعديل والإلغاء طوراً بعد طور سياسة خطرة على التعليم الجامعي فضلاً عن التعليم العام، وأنه يجب أن يوضع حد نهائي لهذه الثورات الفجائية في نظم التعليم الأساسية. ذلك أن هذه النظم مسألة قومية عامة يجب ألا تتغير بتغير الوزارات. وقد عانى التعليم وعانت الجامعة المصرية في عشرة الأعوام الأخيرة كثيراً من جراء هذه السياسة التعليمية المضطربة. وإذا كانت نظم التعليم لم تستقر بعد فإنه يحسن أن تبحث في روية وتمحيص، ثم توضع على أسس قومية ثابتة بعيدة عن العواصف والنزعات المختلفة. أما تلك التعديلات الفجائية السريعة التي أكثر ما يقصد بها تخفيف أعباء الدراسة عن جيل متبرم من الطلبة فهي خطر كبير على مستوى التعليم ومستقبل الجيل

الإسلام وكيف يعرضه كاتب تركي

كان الجنرال محمود مختار كترجيوغلو، أحد ساسة تركيا قبل الحرب قد وضع كتاباً عن القرآن وتعاليم الإسلام يعرض فيه ما يتفق مع المبادئ الحديثة من أصول الإسلام؛ وظهر هذا المؤلف بالألمانية ضمن مجموعة الكتب الشرقية بعنوان: (العالم الإسلامي على ضوء القرآن والحديث) وفي سنة 1935 ظهرت ترجمة فرنسية لهذا المؤلف بعنوان (حكمة القرآن) وبها تصدير بقلم المستشرق المعروف الأستاذ ماسنيون الأستاذ في الكوليج ده فرانس؛ وظهرت أخيراً ترجمة إنكليزية لهذه الترجمة الفرنسية بعنوان: (حكمة

القرآن) بقلم المستر جون نايش

وفي هذا الكتاب عرض لأصول الإسلام مستقاة من القرآن والحديث؛ ولكن على نمط جديد. ذلك أن المؤلف كما يبدو في مقدمته متأثر جداً بوجهة النظر الغربية ومطاعن الغرب في القرآن وأصول الإسلام. وهو يزعم أولاً أن القرآن لم يكن كتاباً منزلاً، وإنما هو من صنع النبي وصحبه؛ ثم يعرض مبادئ الإسلام وتعاليمه بصورة يحاول بها إخراج هذه المبادئ والتعاليم عن حقيقتها الإسلامية المعروفة؛ ويحاول أن يقرب بينها وبين بعض المبادئ والنظريات الغربية. وهو بهذه الصورة يعتبر في الواقع من الكتب الطاعنة في الإسلام. ومن بواعث الأسف أن يكون مؤلف هذا الكتاب تركياً مسلماً من رجال تركيا القديمة التي اشتهرت بالتمسك بأصول الإسلام. ولو صدر من أحد الدعاة الكماليين لما كان في صدوره ما يلفت النظر، لأن تركيا الكمالية دولة لا دينية. وعلى أي حال فلعل الجهات ذات الشأن تعنى ببحث هذا الكتاب الإلحادي لترى ما إذا كان يسمح بتداوله في بلد إسلامي كمصر.

(م)

إلى الدكتور زكي مبارك

يا أخي العزيز

قرأت رسالتك إلى الأستاذ الزيات؛ ولقد سرني والله أن تعنى وأنت في العراق بدفع تهمة العقوق عن أدباء مصر، وإنها لعاطفة وطنية نبيلة أعرف كل العرفان ما يدفعك إليها وأنت بعيد. ولقد كنت أتمنى لو كان دفاعك إلى جانب الحق لأدع لك أن تزهى وتستطيل بين أدباء بغداد ما شئت أن تزهى وتستطيل. ولكني لا أريد أن أظلم الحقيقة يا صديقي في سبيل رضاك. وبرغمي أن أصر على اتهام الأدباء المصريين بهذه التهمة السوداء!. . . وإلا فهل ترى العربية قد وفت دينها للرافعي لأنك والأستاذ المازني قد كتبتما مقالين في رثاء الرافعي غداة منعاه؛ ولأن طائفة كريمة من الأدباء لم تكن بينهم وبين الرافعي خصومة، قد نشروا في الرسالة مقالات في رثاء الرافعي؟ ما أهون شأن الرافعي وأهون بأدباء مصر جميعاً إن كان إلى هذا ينتهي عندهم واجب الوفاء للراحل الذي عاش في خدمة العربية وآدابها خمساً وثلاثين سنة من عمر التاريخ، كلها جهاد ونشاط ودأب، ومات ولم يجاوز السابعة والخمسين .!. . .

وتغضب يا صديقي لأني أضفتك إلى خصوم الرافعي في التعداد والإحصاء مع أن الخصومة لم تنشب بينكما غير خمس مرات؛ فمعذرة إليك أيها الصديق من هذه التهمة الباطلة لأن الخصومة لم تنشب بينكما غير خمس مرات. . . على أن لي رجاءً إلى الله - أيها الصديق - أن يكون هذا الحرص الشديد على نفي ما كان بينك وبين الرافعي من

خصومة، عاطفة صادقة ورأياً صريحاً؛ فإن شيطاناً تعرفه يهمس في أذني بأنك لم تكن لتحرص كل هذا الحرص إلا زلفى إلى أدباء العراق لأن هواهم مع الرافعي
وبعد فوالله ما كان لي أن أزعم التفرد بذكرى الرافعي ولا قلتها، ولو قلتها لما كذبت؛ ولوددت والله أن أكون آخر من يذكر في الكاتبين عن ذكرى الرافعي ولا أشهد في أدباء مصر هذا العقوق!
أما (فلانة) فخل عنك حديثها يا صاحبي، فما أظنك كنت تنتظر أن تقول لك وأنت تجلس معها جنباً إلى جنب في الجامعة: (إن بيني وبين الرافعي لشأناً مما يكون بين الرجال والنساء!)
على أني قد حددت ما كان بينها وبين الرافعي بزمانه، بين سنتي 1923، 1924، وما كان بينك وبينها يومئذ شيء ولا كانت تجلس إليك؛ لأنها كانت قد زهدت في دروس الجامعة قبل ذلك بسنوات وانقطع الود الذي كان وتجافى جنب عن جنب. . .!
فإن كنت ما تزال تنكر ما رويت من خبرها وخبر الرافعي بعد هذا فالتمس العلم عند غيري، فستجد كثيراً من أصدقائك الذين تثق بهم يعرف من خبرها ومن خبره ما أعلم وما رويت؛ وما كنت شاهد مجلسهما فأروي عن عيان، ولكنه من حديث الرافعي تحدث به إلي وتحدث إلى كثير؛ وعند الدكتور محمد الرافعي من رسائلها إلى أبيه يخطها ما يشهد لي ويحسم كل خلاف
وتزعم أنني حاولت إيهام قرائي بأن الرافعي قد كسب المعركة بينه وبين الدكتور طه حسين. فليكن هذا الزعم صحيحاً يا صديقي فلا علي منه؛ ون وقائع الدعوى لمبسوطة أما الأدباء يحكم فيها من يشاء بما يشاء؛ وليس يهمني أن يكون الحكم للرافعي أو عليه مادمت
أكتب للتاريخ
أما بعد فأين هي الأخطاء التي تراها في هذه المقالات؟ وما أصبرك عليها يا سيدي وللتاريخ حق عليك وللعربية حق؟
إنه واجب أؤديه غير مأجور عليه من أحد إلا وفاء لصديق أحللته من نفسي وأحلني من نفسه، ووفاءً للتاريخ؛ فإن كان فيما أكتب عنه شيء تراه إلى الخطأ فإن للعلم أمانة عندك لا يقيلك منها شفيع الزمالك ومصر الجديدة. . . وإنه ليسرني أن يكون الدكتور زكي مبارك هو الذي يحاول تصحيح أخطائي وبيني وبينه ما بين القاهرة وبغداد؛ ولكن احرص يا صديقي على أمانة العلم. ولا تكن أخطائي عندك من مثل ما قدمت: دعوى بلا بينة، وإلا فراحة لك أولى وأنا عذيرك
والسلام عليك ورحمة الله
(شبرا)
محمد سعيد العريان
من أوراق البردي المصرية
كتب العلامة الأثري الدكتور فريدمان، لمناسبة ما قرره مؤتمر الأوراق البردية من الانعقاد في مدينة فينا لسنة 1939، يصف مجموعة أوراق البردي المصرية والعربية القديمة التي تحتفظ بها المكتبة الوطنية النمسوية ويقول إن هذه المجموعة هي الثانية في العالم من حيث كميتها وقيمتها الأثرية، وإنها حملت من مصر إلى النمسا في أواخر القرن الماضي، واشتراها الأرشيدوق رينر ثم وهبها بعد ذلك للمكتبة الوطنية. ومن أنفس أوراق هذه المجموعة وثيقة ترجع إلى نحو ثلاثة آلاف عام، وهي وثيقة زواج تعس تبسط فيها الزوجة، واسمها أرتميزا، قصة شقائها وبؤسها، وهي يونانية تزوجت في مصر، ثم أساء زوجها معاملتها فكتبت قصتها وشفعتها بالدعاء بلعنه. وكان المعتقد في ذلك العصر أن مثل هذه اللعنة تلحق المذنب مادامت محفوظة في أحد المعابد المقدسة، وهو نوع من السحر الأسود كان ذائعاً في العصور القديمة. ثم وثيقة عربية كتبت على البردي وترجع إلى القرن الأول الميلادي وموضوعها كتاب غرام بعث به عاشق إلى حبيبته، وجملته حمامة من الحمام الزاجل إلى حيث توجد المحبوبة، وعدة كتب فرعونية من كتب الموتى وغيرها. وستعرض هذه المجموعة لأنظار العلماء حينما ينعقد مؤتمر أوراق البردي الثاني. ومن المعروف أن هذا المؤتمر قد اعرف بوجود علم جديد يسمى (علم الوثائق البردية) أو البابيرولوجيا

مغامرة علماء في القطب الشمالي
نذكر أن بعثة جوية من العلماء الروس كانت قد طارت منذ أشهر إلى القطب الشمالي، ونزلت هنالك على بسيط من الجليد وأقامت منازل من المطاط لإقامتها، وكانت الطائرات السوفيتية تمونها بما تحتاج إليه من الأغذية والشحم؛ ولكن حدث بعد أسابيع من إقامتها في هذا الجليد النائي أن انفصلت الكتلة الثلجية التي تعيش فوقها وذلك في شهر مايو الماضي وأخذت تسبح ببطء نحو الجنوب؛ وعليها من علماء البعثة الأساتذة بابانين وكرنكيل وشرشوف وفيدروف ومنازلهم وأدواتهم العلمية، وبذلت من ذلك الحين عدة محاولات لإنقاذهم من هذا المأزق دون جدوى، فاكتفت السلطات بتموينهم من الجو. وأخيراً صرح الأستاذ أوتوشميدت رئيس البعثة، وكان قد عاد إلى موسكو قبل انفصال الجليد، أنه لم يبق خطر على البعثة، لأن الكتلة الثلجية التي تعيش عليها تسير في طريقها جنوباً، وقد تصل إلى جزيرة الأرض الخضراء في شهر أبريل أو مايو، ويفصل بين القطب الشمالي وساحل الجزيرة الخضراء الشمالي الشرقي مسافة شاسعة قطعت بها إلى الآن كتلة الجليد نحو ألف وخمسمائة كيلومتر منذ 21 مايو الماضي، وهي تسير بسرعة ستة كيلومترات في اليوم. والكتلة الثلجية صلبة جداً وعمقها ثلاثة مترات ومساحتها كيلومترين. وتستعد الحكومة السوفيتية لأن ترسل إلى الأرض الخضراء سفينة الجليد (مورمانتز) لتختبر حالة الثلوج وتتصل بالعلماء المحصورين بالراديو، وتهيئ مطاراً في جزيرة رودلف القريبة من مكان الحادث
اقتراح
سيتحدث كثير من العلماء والأدباء عن الأزهر وتاريخه وشئونه بمناسبة عيده الألفي؛ وسنعلم عنه كثيراً فوق ما نعلم اليوم، على حين أن هناك معاهد عظيمة لا تقل عن الأزهر
في أمجادها وعظمتها وخدمتها للعلم والإسلام لا نعلم عنها شيئاً، كجامع القرويين في فاس، وجامع الزيتونة في تونس، وجامع النجف في العراق، على حاجتنا الماسة إلى معرفة طرق التدريس فيها وأوضاعها وأحوال طلابها ومدرسيها، لأننا في مطلع نهضة عامة وتعارف بين الأقطار الإسلامية، ولا يتم التعارف إلا إذا بدأ من المدارس والجوامع مصانع الرجال ومعامل المستقبل. فهل يتطوع بعض الأدباء من إخواننا الفاسيين، أو التونسيين، أو النجفيين، ممن له وقوف على سير هذه المعاهد وأوضاعها فينشر فصولاً مختصرة في الرسالة يبين فيها تاريخ هذه المعاهد، والأدوار التي مرت عليها، وطبقات الطلاب والمدرسين فيها، والكتب المقررة، وأصول الدرس فيها، فيخدم بذلك التاريخ والعلم والنهضة الجديدة؟
(بيروت)
علي الطنطاوي
الكتب
كتاب قصص القران
للأساتذة جاد المولى بك، محمد أبو الفضل، علي البجاوي، السيد شحاته
للأستاذ أحمد أحمد التاجي
عرض للكتاب ومنحاه
عرف الناس من سنين أن في الأدب العربي كنوزاً مخبوءة تحت الرجام، ودرراً منثورة في قاع اليم، تحتاج في استخراجها إلى الغواص الماهر. ولكن أحداً لم ينبر لتلك الكنوز يرفع عنها الأنقاض، ولتلك اللآلئ يستخرجها من الظلمات ويعرضها للأنظار
ومن بضع سنوات فقط قام نفر من الكرام - والكرام قليل - ينبشون الأطلال ويستخرجون اللآلئ، فحظي أدبنا في السنوات الآخر بما لم يحظ بمثله في السنين الخوالي
رأينا الأستاذ (الزيات) يكتب في جريدة (النديم) أولاً (والرسالة) ثانياً قصصاً رائعة اقتبسها من أنوار العربية وحلاها وجلاها، وزاوج بين الحقيقة والخيال فيها. فزفها للقراء عرائس مياسة. وكانت قصة وضاح أول ما طرق سمعي على ما أذكر في هذا المنهاج وكتب الدكتور (طه) في هامش السيرة فكان أجمل آثاره عند كثير من الناس. وتقدم

(الرافعي) إلى الميدان فجال وصال وأتى بما لم يأت به إنسان. ولكنه في بعض أقاصيصه أمعن في السير وراء الأفكار يطاردها ويولدها فاختفى وراءها فكتب فأغرب فعز أدبه على كثير من الناشئين

ومع ذلك فإننا نعتبر (وحي القلم) أعظم مجهود في إحياء روائع أدب القديم. وكتب الأستاذ الحكيم (محمد) وحباه الله التوفيق

وتنبه الأدباء لهذه الناحية، فاقتحموا المناجم، وغصوا وراء كريم المعادن، وخرجوا بملء أيديهم جواهر ونضاراً ونشروا ما عثروا عليه في المجلات والصحف فأعجبوا وأطربوا، من هؤلاء الأساتذة (الطنطاوي) و (خشبة) و (العريان) و (عين شوكة) وغير هؤلاء

وأعود الآن إلى الكتاب الذي دعاني إلى التمهيد بهذه الكلمات ألا وهو (قصص القران) فأقول إنه يسلك في نهج (وحي القلم)

إن لم يكنها أو تكنه فإنه ... أخوها غذته أمه بلبانها

رأيت فيه مجهوداً عظيماً لذلك النفر الكرام جمع حلاوة اللفظ، وإشراق الفكرة، ولطف الانسجام بين المبنى والمعنى والحقيقة والخيال. فجاء كخيال الحسناء في المرآة. ولا بدع فهو ظل لقصص الله، ولو جاز لي أن أقتبس كلمة سعد العالية لقلت: (إنه تنزيل من التنزيل، أو قبس من نور الذكر الحكيم)

جرى الأفاضل وراء ما قصه الله الذي يقول: (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القران) فأفاضوا القول في كل قصة، وبسطوا ما ذكر رمزاً في كتاب الله، وحشدوا الأسباب وعللوا، واستخرجوا الموعظة وذيلوا، وحققوا الزمان والمكان والإنسان، وصوروا البيئة بجميل الألوان، ونطقوا عن الألسنة بما يجاري الحق والتاريخ وإن كان لقاحاً بين الحقيقة والخيال، فأتوا بالعجب العجاب. والكتاب جليل الموضوع لم يطرقه أحد من قبل - على ما نعرف - بهذا البيان والاستعداد، وهو من الكتب التي تألفها الروح وتجد فيه غذاءها. غير أن بعض قصصه - وهو قليل - نزل أسلوبه عن معظمه، وأظن ذلك من ضرورة الشركة، وهو على كل حال كتاب قيم جليل

أحمد أحمد التاجي

حركة الكشف

للكشاف أحمد الشربيني جمعة الشرباصي

بين يدي الآن هذا الكتيب الصغير، دفعه إلي رسول من مؤلفه يرجوني أن أنظر فيه وأكتب عنه، وأنا رجل عفت الكتابة عن المؤلفين والكتب من زمان؛ فما بي طاقة على أن أظلم نفسي فأقول للمسيء أسأت فأتعرض لغضبه أو عتبه، وما لي طاقة على أن أغش قرائي فأقول عن الرديء إنه حسن وما فيه إلا حسن العاقبة لنفسي. . .

ولكن ما بال هذا الكتاب يدعوني إليه فأفرغ له، فلا أدعه حتى أتمه، ولا أتمه حتى أهم بالكتابة عنه، ولا أهم بالكتابة حتى تنثال علي المعاني انثيالاً ويمضي بي الفكر إلى غايته؟

لا، لم يكن هو الكتاب ما دعاني إلى ذلك بما فيه ولكن بما حوله، وليست هي مادته ولكن مؤلفه وظروفه: هذا فتى أزهري يطل عليك وجهه في الصفحة الأولى من الكتاب، بعمامته الصغيرة، وجبته المزرورة، وبنيقته المراغية البيضاء. . . وما كنت تتوقع هذا ولا شك، وأحسبك ستدهش دهشتي حين تقرأ هذا فتسأل نفسك: ما لهذا الفتى الشيخ؟ وما جاء به إلى هنا؟ وستفكر في كل جواب لسؤالك إلا أن يكون هذا الشيخ الصغير هو مؤلف الكتاب. . .

إي وربي إنه هو مؤلفه، وإنه هو هو أحمد الشربيني جمعة الشرباصي الكشاف، بعمامته الصغيرة، وجبته المزرورة، وبنيقته البيضاء. . . كشاف أزهري بعمامة! لوددت والله بما تشاء من ثمن أن أرى هذا الكشاف الشيخ في ملابس الميدان، لأرى كيف يستر ركبتيه العاريتين في سراويله القصير وعلى رأسه عمامته وعلى ظهره راويته وسفرته. . .

هاهو ذا أزهري فتي يضرب المثل لإخوانه الأزهريين في الفتوة الرحيمة التي تعمل للإنسانية. يا له من فتى متمرد! لا، لا تسموه متمرداً، إنه فتى يعرف ما عليه من تبعات الرجولة في غد فأعد للغد عدته، فلا عليه إن كان هو وحده الفتى الكشاف في الأزهر الكبير وروافده. إنني لفخور به

ليت شعري، هذه فرق الكشافة تنتظم تلاميذ المدارس عامة فلماذا لا نرى في الأزهريين فرقة كشافة؟ أترى تلاميذ المدارس اللدن الصغار أقدر على خشونة الكشافة من شباب الأزهر، أم يرون الفتوة عاراً لا تليق برجال الدين. . .؟ إنهم لأصح جسماً وأوفر نشاطاً وأقدر على مشقات الكشف والرحلة من هؤلاء الصغار، وإنهم ليعلمون علم اليقين أن دينهم هو دين البساطة التي يؤثرها الكشاف، ودين القوة التي يدعو لها الكشاف، ودين النجدة التي يعد لها نفسه الكشاف، فأين هي فرق الكشافة في الأزهر وروافده؟

إن لدي لكلاماً كثيراً أخشى أن أقوله فيغضب من لا أريد أن يغضب، فحسبي ما قدمت من قول وحسب الأزهريين، وليس حسبهم أن يكون فيهم كشاف واحد يشعر بوجود نفسه هو هذا الكشاف!

وبعد فهذه خواطر من وحي هذا الكتاب في نفسي، وما أريد أن أعرف عنه بأكثر من ذاك؛ ولكنه كتاب نافع على كل حلا: نافع للأزهريين عامة ليعرفوا به عن الكشافة ما قد يحببهم فيها فيكونون جنودها، ونافع للكشافين عامة ليبصرهم بكثير مما قد يغيب عنهم من واجبات الكشاف، ونافع لمعلمي فرق الكشافة في مختلف المدارس لعلهم يجدون فيه مادة يدرسونها،

ونافع لكل قارئ لأن فيه أبواباً من العلم والتاريخ والتسلية تلذ كل قارئ؛ وقد نفعني أنا أيضاً لأنه نبهني إلى ما قدمت من قول عن الرياضة والكشف والرحلات في برنامج دراسة الأزهريين. أترى مؤلفه قد انتفع به كما انتفع كل هؤلاء؟

بارك الله في هذا الكشاف البطل ونفع به

(س)

العدد 237 - بتاريخ: 17 - 01 - 1938

النشر في مصر

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

قرأت ما كتبه الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام عن (التأليف والنشر في مصر). وقد روى فيه أن أحد أصحاب المعالي وزراء الدولة في الحكومة القائمة دعا إليه جماعة من الكتاب وحدثهم في تنشيط التأليف في مصر ومكافأة المؤلفين ووعد في هذا وعوداً حسنة.

وهذا صحيح، فقد روى لي مثله صديق من الكتاب، ولا علم لي بما ينوي وزير الدولة أن يصنع، وأحسبه لا يزال يستطلع الآراء ويستشير أهل الذكر في هذا، فلندع له بالتوفيق، ولنسأله تعالى ألا يشغله بما هو أهم وأولى بعناية وزراء الدولة، من شئون الدولة، ولو كنت مكانه لكان حسبي أن أستطيع تنظيم أمور النشر على وجه صالح ونحو عادل، ولتركت غيري من الوزراء يحملون الأعباء الأخر.

وخلاصة التجارب في هذا الباب أن الأدب في مصر لا يُعوَل عليه في أمور المعاش، وأن الأديب الذي ليست له صناعة أخرى يرتزق منها ويحيا بها خليق أن يموت جوعاً. وقد كان المرحوم السباعي يقول على سبيل المزاح: إن الأديب ينبغي أن يكون أديباً وشيئاً آخر. . . طبالاً، أو زماراً، أو عواداً، أو غير ذلك مما يجري مجراه. والذي كان يقول هازلاً. هو الجد الصميم. ودع الطبل والزمر وما إلى هذا فما كان يريد إلا السخرية والنكتة، وكانت المرارة التي يحسها في نفسه تفيض على لسانه على هذا النحو. على أن الواقع مع ذلك أنه لا غنى للأديب في مصر عن مرتزق غير الأدب، يجعل معتمده بعد الله عليه. وما أعرف في هذا البلد أديباً وسعه أن يجتزئ بالأدب؛ ولو كان هذا مما يدخل في الطاقة عندنا لكنتُ من أحق الناس بالقدرة عليه.

وكلام فارغ كل ما يقال عن الحرفة وإدراكها للأديب، فما تفعل ذلك إلا في مثل بلادنا، وحتى أدباء العرب وشعراؤهم لم يدركهم شيء من الحرفة، وإنما كانوا هم المجانين، إلا إذا كان المقصود أن بلاء الحرفة من النفس؛ على أن هذا مبحث آخر، قد نعود إليه في فصل آخر.

وقد جربت كل وسائل النشر في مصر، وانتهيت إلى أن الأمر لا ينقصه سوى التنظيم. ففي مصر والبلاد العربية الأخرى عدد كاف من القراء يستطيع الكاتب أو الشاعر أن يعول

عليه وهو مطمئن إليه، ولكن من العبث والعنت أيضاً أن تجشم الأديب فوق عمله أن يقوم بأعباء الطبع والنشر، وأن تتوقع أن يجني من كل هذا العناء ربحاً عادلاً. وليس لهذا الخلط من نتيجة سوى الاضطراب وفقدان الحقوق. وقد جرب كل أديب في مصر أن يتولى هو هذه الأعباء جميعاً وأن ينهض وحده بها جملة، فأخفق. وليس الإخفاق ألا تجني شيئا، بل أن تجني كل شيء ولا تشعر أنك جنيت شيئا. ولا أذكر هنا ما جرب غيري، فبحسبي ما جربت، وقد نشرت كتباً توليت أنا أمر طبعها ونشرها، ونفدت في زمن معقول، ولكن أصحاب المكاتب يختلفون، ولا سبيل إلى الاستغناء عنهم، وفيهم الأمين ذو الذمة، وفيهم الطامع المنهوم الذي لا يشبع ولا يرضيه إلا أن يخطف كتبك بغير ثمن. ومع ذلك لا يسعني إلا أن أعترف بأني ربحت، وإن كنت لم أشعر بذلك ولم أر له أدنى أثر في حياتي. وإذا حسبت الحساب على الورق وأحصيت ما أنفقت وما حصلت كانت النتيجة أني جمعت مبلغاً من المال لا يستهان به، ولكنه مال على الورق، لأني أنفقت جنيهات رجعت ألي قروشاً مبعثرة ذهبت إلى الشيطان وجربت أن ينفق غيري على طبع كتبي ويتولى عني نشرها ثم نتحاسب، فوقع لي ما يضحك وما يبكي.

وأحب أن أستثني طائفة من الجادين المخلصين، وأقول بعد ذلك إن بعضهم نشر لي كتاباً طبع منه أربعة آلاف نسخة نفدت كلها في عام، وشرع يطبع لي كتاباً ثانياً، فقلت أحاسبه، وطلبت منه نصيبي، فكان جوابه الظريف أن دع الكتاب الأول فما أعرف أين ذهب، ولعلهُ سُرق أو حرق، ولنقصر الحساب - في أوانه - على الكتاب الثاني إن شاء الله!

فقلت له: يا أخي غفر الله لك! هل حسبتني هاوياً؟ أم ظننتني أني بائع كوارع؟ إن هذه صناعتي وهي مرتزقي، فإذا لم آخذ حقي فكيف بالله أعيش؟

فابتسم وربت لي على كتفي ملاطفاً، وقال: (العفو! العفو يا أستاذ، لا تقل هذا الكلام! سبحان الله العظيم!).

يعني أنه لا ينبغي لي أن أقول إن هذه صناعتي ومرتزقي! ويظهر أنه كان صادقاً وكنت أنا المخدوع، فقد عشت من غير أن آخذ منه حقي - ولا نصف مليم واحد منه!

وينفد الكتاب - عدة آلاف من نسخه - ثم يتبين لك أن الإسكندرية أو طنطا أو المنيا تسمع به وأن ما بيع بيع معظمه في مدينة واحدة هي العاصمة، والباقي رص في الصناديق وشحن على البواخر إلى الهند والعراق ومدغشقر الخ وتجيئك الكتب تترى بذلك، فتعلم أن النشر غير منظم، وأنه كان في وسعك أن تخرج للناس من كتابك أضعاف ما أخرجت لو أن هناك نظاماً.

والعلاج عندي ليس أن تعين الحكومة الأدباء، فإن هذا يفضي إلى الظلم والغبن، ولكل حكومة من تؤثرهم بعطفها وبرها؛ والأدب ينبغي أن يبقى حراً، وإلا فسد، وتعفن. ولو أن الحكومة أرادت الإنصاف وصدقت نيتها فيه، لوجدت أن الأمر يوشك أن يفشو عليها، والنتيجة المحققة على كل حال هي التمييز والغمط.

إنما العلاج الصحيح العملي أن تقوم شركة ذات راس مال كاف تتولى النشر، وتنظم أسواقه في البلدان العربية كلها، وترتب الأمر فيما بينها وبين الصحافة على نحو يكفل التنويه الوافي في أوانه، وقد استطاعت دور السينما أن تنظم علاقتها بالصحافة على وجه مرضي، فلن تعز عنه دار النشر. وبذلك يستريح الكتاب ويطمئنون على حقوقهم، ويثقون بسعة النشر ويوقنون من إمكان التعديل على ما يخرجون كما يفعل زملاؤهم في الغرب.

وفي هذه الحالة يتسنى ما لا يتسنى الآن: الطبع الجيد، والحجم الموافق، والربح المضمون، ومع ذلك انتظام عمل الأديب وإتاحة الفسحة الكافية من الوقت للتفكير والكتابة والإتقان.

هذه - فيما أعتقد - هي الوسيلة العملية؛ فإن الأسواق موجودة، والقراء يعدون بالآلاف في كل قطر، والصحافة أداة وافية: فالأمر لا ينقصه إلا التنظيم؛ وهذا لا يكون إلا بالمال الكافي، فهاتوا لي المال، ثم انظروا ماذا أصنع لكم يا إخوان! ولا تخافوا أن أبدده. نعم. ستحدثني نفسي بذلك وتحاول أن تحملني عليه، ولكني سأقاومها، وسأروض نفسي على هذه المقاومة من اليوم، فلا تخشوا شيئاً، ولا تقلقوا على

مالكم، ومع ذلك فلأن أبدده أنا خير من أن تضيعوه أنتم. ومتى كنتم تحسنون الإنفاق؟

وما كانت ظمياء تفوه بالعبارة الأخيرة حتى ابتدأت أوقن بأني سأهتدي إلى سر ليلى.
وقد عرفت أيضاً أنه لابد لي من التجمل والتوقر حتى يصل الحديث إلى مداه، فقد قضيت دهري وأنا أرعن أهوج لا أكاد أسمع الحديث عن الحب حتى يفتضح وقاري أشنع افتضاح. ولن أنسى ما حييت تلك الخسارة الفادحة التي قضت بأن يطوى عني إلى الأبد سر السيدة (ن) فقد كانت عرفت من صواحبها أن شفاءها عندي، وجاءت الشقية إلى عيادتي بشارع المدابغ، فلما فحصتها تبين أن العلة لها سبب مدفون، وكنت بحمد الله ولا أزال من أقدر الأطباء على تفرس المحجب من سرائر النفوس. . . انهدَّت تلك السيدة على المقعد، وبدأت أحاورها في ماضيها لأعرف سرَّ العلة، فما كادت تقرأ السطر الأول من صحيفة ذلك الماضي حتى طار صوابي، فوضعت يمناها على صدري، ولكن الشقية لم تمهلني وأفلت كالظبي المذعور. وبذلك طُوِي عني سرها إلى الأبد.
وكانت تلك الحادثة سبباً في انتقالي من شارع المدابغ إلى شارع فؤاد.
وما احسب ظمياء إلا صورة من السيدة (ن) وربما كانت أفظع وأعنف فهي عراقية، والعراقيون تغلب عليهم سرعة الانفعال؛ والمرأة العراقية فيما سمعت ورأيت لا تسكن إليك إلا إن ضمنت حسن الأدب وكرم العفاف، وهي عندئذ لا تحتاج إلى من يستدرجها لمعسول الأحاديث، وإنما تنطلق كالبحر الثجاج، فإذا ارتابت في أدبك. . . لا أدري ما تصنع فإن الله رحمني من أمثال هذه المواقف منذ قدمت العراق، وهو عز شأنه قادر على أن يردني إلى وطني مُشرق الجبين.
وجملة القول أني تجلدت وتماسكت، فمضت ظمياء تتحدث، ومضى المطر يقرع النوافذ كأنه عذول، وبين القلب الخافق والسحاب الدافق صلات يعرفها من يؤمنون بوحدة الوجود.
- ثم ماذا يا ظمياء؟
- ثم وقف قطار المعرض، فلم تنزل ليلى ولم ينزل الفتى ذو العينين الخضراوين. ودار القطار دورة ثانية قطعتها في ذهول.
- وأنت أيضاً تحبين يا ظمياء؟
- ألست إنسانة، يا سيدي الطبيب؟
وهنا رأيت من الحزم أن أعلن نزاهتي. فأفهمتها أني أنكر عليها هذه البدوات، لأن (الذي يهمني هو الوقوف على سر ليلى، واشهد أني لم أجد صعوبة في اصطناع هذا النفاق، فقد مرنت عليه بفضل ما ابتليت بالمنافقين الذين تقدموا وتأخرت. ويكفي ما مر بي من التجارب، وأخشى أن تقنعني الأيام بأن النفاق سيد الأخلاق).
- أنت يا مولاي طلبت أن أقص الحديث كما وقع
- كما وقع لليلى، لا كما وقع لك يا ظمياء، فأنت في عافية وليلى هي المريضة، والحكومة المصرية لم تكلفني استقصاء أخبار المتيمين في العراق، وإنما كلفتني مداواة ليلى المريضة في العراق.
- فهمت يا سيدي فهمت.
- زين، زين، ثم ماذا؟
- ثم وقف القطار فتلاحظ العاشقان.
- عاشقان؟ وهل يتم العشق في لحظة؟ هل نحن في السينما يا ظمياء؟
- وقع التلاحظ بين ليلى وبين ذلك الفتى، والتعبير بالعشق من عندي.
- شيء جميل! في أية مدرسة تعلمت يا ظمياء؟
- في المدرسة التي تعلمت فيها ليلى، وهي المدرسة التي أنشأها حكمت سليمان في سنة 1911 بعد إعلان الدستور العثماني؛ وكان حكمت سليمان مدير المعارف في بغداد، وكان تعليم الفتاة في تلك الأيام من المسائل التي يختلف حولها المسلمون، فكانت ليلى أولى فتاة قُيد اسمها في تلك المدرسة.
وهنا دونت في مذكرتي أن ليلى قديمة العهد بالثورة على مأثور التقاليد، وهذه نقطة)

مهمة سأعرضها على المؤتمر الطبي، ولعلها تكون السبب في كشف كثير من الأسرار، فالثورة على التقاليد تحدث رجة في المخ والأعصاب، كما حدثنا المسيو ديبويه وهو يحاضرنا بكلية الطب في باريس، وهو أستاذ فاضل كنت السبب فيما وقع بينه وبين زوجته من شقاق).

- وهل درتم بالقطار دورة ثالثة؟

- لا، يا سيدي، فقد خشيت ليلى أن تفطن إليها العيون فنزلت ونزل الفتى، ولكنه أقبل عليها يقول: هل أستطيع أن أرشد السيدة إلى محتويات المعرض؛ فأني أراها غريبة بهذه البلاد؟ ولكن ليلى لم تلتفت إليه، وانصرفنا ساكتين. وعرف الفتى أن سهمه أخطأ فمضى كاسف البال.

- وبعد ذلك؟

- مضينا بعد ذلك إلى البيت الذي نزلنا فيه بشارع قصر النيل، وكان الحديث على المائدة من أشهى ما يكون، فقد كانت الجرائد نشرت حديثاً لرجل مشهور اسمه سعد زغلول، وكانت ربة البيت تحب إمتاعنا بصور الجدل السياسي في مصر، فأحضرت نحو عشرين جريدة فيها الرفض والقبول لذلك الحديث، ثم أحضرت صورة كاريكاتورية نشرت في الكشكول لكاتب معمم اسمه عبد العزيز البشري فيما أتذكر، وصورة أخرى للشيخ بخيت وهو يعترض على دخول السيدات أروقة البرلمان، وكان الجو كله جو ضحك، ولكن ليلى لم تبتسم. ولعلها لم تعرف كيف كان الطعام في ذلك اليوم.

- مسكينة ليلى!

- نعم، يا سيدي، مسكينة، فقد قضت ليلة مؤرقة، ثم أزعجتني من نومي قُبيل الفجر لأستعد للعودة إلى المعرض.

- ورجعتما إلى المعرض؟

- رجعنا، رجعنا، وركبنا القطار عشرين مرة.

- عشرين مرة؟ ولماذا يا حمقاء؟

- لنرى الفتى ذا العينين الخضراوين!

- ورأيتماه؟

- ما رأيناه، وإنما رأينا أنضر منه وأصبح، رأينا فتياناً كاللؤلؤ المنثور هم الشاهد على أن مصر من الحقول التي تُنبت الجمال. وقد أمتعت عيني بمن رأيت، ولكن ليلى ظلت صريعة الهم والبلبال.

- مسكينة ليلى!

- هل تسمح لي أن ألطم يا سيدي؟

- تلطمين؟ إنك لبغدادية ظريفة يا ظمياء. ما يهمني أن تلطمي، وإنما يهمني أن أسمع بقية الحديث.

- لم تكن ليلى تقول إنها ترجع إلى المعرض لتبحث عن ذلك الفتى، وإنما كانت تدعي أنها تحب الوقوف على سر تقدم الزراعة والصناعة في الديار المصرية. وحملتها هذه الدعوى المزيفة على شراء عدة نماذج مما أنتجته حقول سملاي، وهي النماذج التي عرضها السيد محمد محمود.

- سمعت بمعروضات هذا السيد يا ظمياء.

- وكتبت ليلى مقالة في وصف المعرض نشرتها في جريدة (البلاغ).

- سبحان الله! لقد قرأت تلك المقالة في ذلك الحين وكنت أحسبها من إنشاء ليلى الصحيحة في حلوان.

- لا، يا سيدي، هي من إنشاء مولاتي، شفاها الله!

- آمين، ثم ماذا يا بلهاء؟

- قلت إن ليلى كانت تتردد على المعرض بدعوى الاطلاع على أسباب تقدم مصر في الزراعة والصناعة، أما أنا فكنت أعرف ماذا تريد، وقد استمرت هذه الدعوى أسبوعين، ثم يئست ليلى مما تريد، فلم تذهب إلى المعرض بعد ذلك.

- وبهذا انتهت القصة؟

- لا يا سيدي، فقد زعمت ليلى أنها شبعت من المعرض، وشبعت من الأخبار الحديثة في القاهرة، وصرحت بأنها تحب أن ترى القاهرة المعزية، علها ترى ما يذكرها بأحياء بغداد؛ فصحبتنا ربة البيت إلى حي يسمى الغورية، فدخلنا الحمزاوي والفحامين،

وشهدنا حارة اسمها وكالة (أبو زيد) وفيها تجارة السيد (. . . . . .) الذي يبيع أدوات السمنة للسيدات، فوقفت ليلى عنده لحظة، ثم انصرفت. وفي خان الخليلي رأينا سيدة ملفوفة كأنها من عقائل بغداد، فحيتنا على غير معرفة، فردّت ليلى التحية بلهفة واشتياق. وأحببت أن أعرف سر هذه الحماسة من ليلى، فنظرت إلي تلك السيدة فرأيت عينيها خضراوين!

- أعوذ بالله!

- تستعيذ بالله يا سيدي من ذلك؟

- نعم، أستعيذ بالله من شر العيون الخضر، فهي سبب بلائي في هذا الوجود. ثم ماذا يا ظمياء؟

- ثم عرضت تلك السيدة أن تصحبنا لزيارة معالم القاهرة وقالت إن زوجها أستاذ في الأزهر وأنه ينتظرها عند المعلم حسين الجريسي. ونظرت فرأيت ليلى تمشي وهي تَشوى من الانشراح كأنها تلمح من وراء الغيب أعلام الأمل المرموق.

وما هي إلا لحظات حتى كنا في حضرة شيخ جليل اسمه الشيخ دعّاس.

- الشيخ دعّاس؟

- نعم يا سيدي، الشيخ دعاس، وهو الذي أنجب أحمد وإبراهيم وجلبي وسيد ومحمود، وهم زينة الرجال في بلاد النيل.

- رضي الله عنهم أجمعين، ثم ماذا؟

- ثم تعلل ذلك الشيخ بضيق الوقت، ودعانا إلى تناول القهوة في منزله، فركبنا سيارته ومضينا إلى داره في حيّ الزمالك. ولما دخلنا أبصرنا فتاة هي قيد العيون، بل قيد القلوب، اسمها درية، فسألنا عنها فعرفنا أنها ابنة الشيخ دعّاس، وابنة السيدة نجلاء، ونظرت ليلى إلى تلك الفتاة فلم ترى عينيها خضراوين، وإنما رأت عيونها عسلية، وهو اللون الغالب على عيون المصريات، وهو لون ينطق عن السحر الحرام والحلال.

- اتق الأدب يا ظمياء، فأنت في حضرة طبيب!

- الطبيب يسمع كل شيء!

- أمنت وصدقت!

- ومضت درية تباغم أمها باللغة الفرنسية. فسألت عنها فقيل إنها تلميذة بمعهد الليسيه.

وهنا أجهدت ذاكرتي لأعرف من هي تلك التلميذة، ثم تذكرت أنني لم أتصل بمعهد (الليسيه إلا في سنة 1928 والحمد لله على ذلك، فما يسرني أن تكون تلميذاتي محوراً لأمثال هذه الأحاديث).

- نعم يا ظمياء.

- وبدا لليلى أن تسأل عن السر في اختلاف ألوان العيون، فأجابت السيدة نجلاء بأن درية صورة لأبيها الشيخ دعاس؛ أما ابنها فهو صورة أمه اللبنانية. فقالت ليلى: وهل اللبنانيون خضر العيون؟ فأجابت السيدة: أنا لبنانية الموطن، تركية الأصل. فقالت ليلى: ومعنى هذا أن لك ابناً أخضر العينين؟ فقالت السيدة: نعم، وهو المحروس عبد الحسيب، وهو طالب بمدرسة البوليس، وسيحضر بعد قليل.

(للحديث بقايا)

زكي مبارك

سفارة ألمانية

إلى بلاد قرطبة في عهد عبد الرحمن الناصر

للأستاذ محمد عبد الله عنان

في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) كانت أسبانيا المسلمة (الأندلس) قد بلغت ذروة قوتها؛ وكانت إلى جانب الدول النصرانية الثلاث: الدولة البيزنطية، ومملكة الفرنج، والإمبراطورية الألمانية، رابعة الدول الأوربية العظمى؛ بل ربما كانت يومئذ أعظم الدول بما اجتمع لها من عناصر الفتوة، ومنعة الجانب، وروعة الملك، ورفيع الحضارة. كانت حقبة زاهرة، تعاقب فيها في قيادة الغرب الإسلامي ثلاثة من أعظم قادة الإسلام وساسته، هم عبد الرحمن الناصر، فولده الحكم المستنصر، ثم الحاجب المنصور. وكان عهد الناصر بلا ريب أسطع هذه العهود وأعظمها، وفيه بلغت الأندلس

ذروة القوة والازدهار، وفيه قامت الخلافة الأموية في الغرب قوية موطدة، بعد أن اختفت من الشرق قبل ذلك بمائة وثمانين عاماً. وكانت قرطبة في عهد الخلافة الأموية عاصمة الغرب الفكرية والاجتماعية؛ وكانت في الطرف الآخر من أوربا تبث أضواء حضارة جديدة لم تلبث أن لعبت دورها العظيم في تكوين الحضارة الأوربية.

وقد تبوأت أسبانيا المسامة مركزها الدولي في الغرب. كان بلاط قرطبة يرتبط مع معظم الدول الأوربية بعلائق دبلوماسية منظمة؛ وكان أخص هذه العلائق مع الدولة البيزنطية في الشرق، ومملكة الفرنج في الغرب. ومنذ عهد عبد الرحمن بن الحكم (عبد الرحمن الثاني أو الأوسط) نرى سفارات الدول النصرانية تتوالى على بلاد قرطبة؛ وكان أهم هذه السفارات يومئذ سفارة تيوفيلوس إمبراطور قسطنطينية في سنة 225هـ (836 م) ومقصدها أن تعتقد الدولة البيزنطية مع الدول الأموية تحالفاً على الدولة العباسية؛ ورد عبد الرحمن على هذه السفارة بأن أرسل وزيره يحيى الغزال سفيراً إلى الإمبراطور لينظم بينهما علائق الصداقة والتحالف. وتبادل عبد الرحمن بن الحكم أيضاً السفارة مع ملك النورمانيين عقب الغزوات التي قام بها النورمانيون في الأندلس، وانتهت بردهم وهزيمتهم.

وفي عهد عبد الرحمن الناصر توالت سفارات الدول النصرانية على بلاط قرطبة، وكان أشهرها وأهمها سفارة قسطنطين السابع إمبراطور قسطنطينية في شهر صفر سنة 338هـ (950 م). وتقدم إلينا الرواية الإسلامية وصفاً شائقاً لتلك السفارة الشهيرة، وتصف لنا احتفال الناصر باستقبالهم في أروع المظاهر والرسوم، وتنقل إلينا أقوال الخطباء المسلمين في ذلك الحفل الباهر.

وفي سنة 344هـ (956 م) وفدت على الناصر سفارة من أوتو الكبير إمبراطور ألمانيا؛ وكان يومئذ أعظم أمراء النصرانية كما كان الناصر أعظم أمراء الإسلام. وكان بين الملكين العظيمين علائق ومراسلات منتظمة، بيد أنها لم تكن ودية دائماً. ولا تحدثنا الرواية الإسلامية عن سفارة أوتو (أو أوتون) إلى الناصر بأكثر من الإشارة إليها؛ بيد أنها كانت سفارة هامة، وكانت ذات غاية خاصة وذات مغزى خاص. وكان سفير الإمبراطور إلى الخليفة حبرا من أكابر الأحبار هو يوحنا أسقف جورتسي. وترك لنا يوحنا تفاصيل سفارته في ترجمة حياته وخلاصتها أنه سار إلى قرطبة ليسعى لدى الناصر في أمر المستعمرات والعصابات المسلمة التي انتشرت في أنحاء سافوا، وفي كثير من آكام الألب. وكانت غزواتها الناهبة تمتد حتى شمال سويسرا، وكان أمراء النصرانية التي تهدد هذه المستعمرات أملاكهم ورعاياهم قد فزعوا إلى الإمبراطور أوتو باعتباره زعيم النصرانية وأقوى أمرائها، وطلبوا منه أن يتوسط لدى خليفة المسلمين عبد الرحمن الناصر فيستعمل نفوذه السياسي والروحي لإجلاء هذه المستعمرات عن معاقلها أو على الأقل لوقف اعتدائها وعبثها. فنزل الإمبراطور عند تضرعهم وبعث سفيره إلى الناصر، فقصد يوحنا إلى قرطبة عن طريق فرنسا، ومعه طائفة من التحف والهدايا طبقاً لرسوم العصر. ولما وصل إلى دار الخلافة استقبل بحفاوة كبيرة، وأنزل في منزل خاص؛ ولكنه لم يقدم إلى الناصر في الحال، بل استبقي مدى حين في شبه اعتقال محوطا بالإكرام والرعاية؛ ويوضح لنا يوحنا بواعث هذا الاعتقال فيقول لنا: إن الخليفة كان يحقد على الإمبراطور لأنه كان قد تعرض للإسلام في بض كتبه إلى الناصر، واعتقل مدى حين سفيراً نصرانياً كان الناصر قد أوفده إلى بلاطه، فرأى أن يقابل تصرف الإمبراطور بمثله، ويعتقل سفيره أعني يوحنا حتى يتحقق من عواطفه ونياته. وبعث الناصر إلى الإمبراطور سفيراً، واختار لهذه السفارة قساً من رعاياه النصارى اتباعاً لتقليد جرى عليه الخلفاء في معظم سفاراتهم إلى القصور النصرانية. وكان أوتو يومئذ مشتغلاً ببعض الحروب الداخلية، فأبدى تساهلاً في قبول وجهات نظر الخليفة، ولم يثر من المجادلات ما اعتاد أن يثيره، وأكد صداقته لخليفة المسلمين. وعاد السفير إلى قرطبة يحمل إلى الناصر تحيات أوتو وتأكيداته الودية، فارتاح الناصر لهذه النتيجة، وأذن باستقبال يوحنا سفير الإمبراطور. واستقبل يوحنا استقبالا فخماً ظهرت فيه عظمة البلاط الأموي، وتحدث إلى الناصر عن مهمته وغاية سفارته. ولسنا نعرف ماذا كانت نتائج هذه السفارة، لأن يوحنا لم يحدثنا عن ذلك في روايته؛ ولكن المرجح أن وجهة النظر التي أبدتها حكومة قرطبة هي أنها ليست لها أية

علاقة بالمستعمرات العربية في غاليس وسويسرا، وأنها لا تتحمل تبعة أعمالها، ولا تستطيع أن تتدخل لديها. وهو استنتاج يؤيده صمت الرواية العربية عن ذكر أخبار هذه المستعمرات، مما يدل على أن حكومة قرطبة لم تكن تعني كثيراً بشأنها، وإن كانت بلا ريب تنظر إلى غزواتها في الأراضي النصرانية بعين العطف والتأييد.

على أن الرواية الكنسية من جهة أخرى تحدثنا عما أفضى به الناصر إلى يوحنا من الملاحظات السياسية والإدارية؛ فقد بسط ليوحنا خططه في السياسة العامة، وأنحى باللائمة على الإمبراطور أوتو لأنه يضع ثقته في أشرافه؛ ومثل هذه السياسة لا تزيد الأشراف إلا غروراً، ثم تنتهي بهم في أواخر الأمر إلى العصيان والثورة. ولهذه الملاحظة السياسية التي توردها الرواية الكنسية عن الناصر أهمية خاصة، وهي ليست إلى صدى لسياسة الخلافة الأموية وسياسة الناصر ذاته؛ ذلك أن الناصر كان يعتمد في تنفيذ سياسته على طبقة الموالي والصقالبة، ولا يثق بالأشراف وزعماء القبائل من العرب. وكان من آثار هذه السياسة أن جعل الناصر بطانته من الصقالبة المستعربين، ورفع كثيراً منهم إلى مناصب النفوذ والثقة في الحكومة وفي الجيش. وكان الناصر يخشى منافسة الرؤساء ذوي العصبية ويقصيهم عن كل نفوذ، ويخضعهم لهؤلاء الصقالبة الذين اتخذهم في يده آلات طائعة تعبر عن خططه ورغباته. وكان لهذه السياسة أثرها في توطيد سلطان العرش، والقضاء على سلطة الزعماء المحليين، وعلى مطامع الرؤساء المتطلعين، ولكنها كانت من جهة أخرى خطراً على العرش إذ عرضته لسخط الأشراف والزعماء العرب، وخطراً على الجيش إذ كان سواد ضباطه من العرب الذين يعتزون بعصبيتهم ويسوءهم أن تضار هذه العصبية ويعتدى عليها. وظهر أثر هذه السياسة في أواخر حكم الناصر إذ ظهرت أعراض الوهن والانحلال في الجيش؛ ثم ظهر خطرها على العرش فيما بعد إذ غدا عرضة لمطامع المتغلبين والمتنافسين.

تلك هي قصة هذه السفارة الشهيرة التي وجهها الإمبراطور أوتو الكبير إلى عبد الرحمن الناصر، وتشير الرواية الإسلامية إليها في عبارات موجزة مما يدل على أنها لم تفطن إلى أهميتها السياسية والاجتماعية، ذلك لأنها كانت سفارة من نوع خاص ولم تكن متعلقة بالشؤون والعلائق الدبلوماسية العامة، ولم تكن الإمبراطورية الألمانية الناشئة مشهورة في بلاد قرطبة شهرة الدولة البيزنطية أو مملكة الفرنج، ولكن التفاصيل الشائقة التي تقدمها إلينا الرواية الكنسية تدلى بأهميتها وطرافتها، وأول ما تدل عليه ما كان لبلاط قرطبة في عهد الناصر من الهيبة والنفوذ حتى في دول كألمانيا لم تكن تربطها بالأندلس مصالح أو علائق دبلوماسية مباشرة؛ بيد أن أهم ما تدلي به هذه السفارة هو صفة الزعامة والإرشاد التي كان يبدو بها بلاط قرطبة، فقد رأينا الناصر يلقي درساً في السياسة والإدارة على الإمبراطور أوتو، وهي صفة كان في ظروف الأندلس يومئذ ما يبرر اتخاذها، فقد كانت الأندلس عندئذ في أوج قوتها وعظمتها، وكانت حكومة قرطبة في نظمها السياسية والإدارية والاجتماعية نموذجاً لأعظم وأرقى حكومات العصور الوسطى؛ وكانت الحضارة الأندلسية في سائر نواحي الحياة العامة والخاصة مضرب الأمثال في الروعة والبهاء؛ وكانت نبراسا تمتد أضواؤه إلى أقاصي أوربا؛ وكان للزهراء عاصمة الناصر وبلاطه في الأمم الشمالية شهرة سحرية، حتى أن الراهبة السكسونية هروسويتا تغنت بجمالهما وروعتهما في قصائدها اللاتينية وأسمتها (زينة الدنيا).

والخلاصة أن عظمة الأندلس يمكن أن تقرأ في هذه الصفحات المطوية من تاريخ العلائق الدبلوماسية بينها وبين الأمم الأوربية أكثر مما تقرأ في تاريخها الخاص: ففي هذه الصفحات نجد صوراً كثيرة مؤثرة من ذلك الإجلال الذي كانت تفرضه الأندلس إبان عظمتها على أمم الغرب والشمال.

محمد عبد الله عنان

الفهم الفلسفي للثورة على الأخلاق

للأستاذ عبد العزيز عزت

سيدي الأستاذ الزيات

قرأنا بإعجاب في الرسالة الغراء ما كتبتموه، وما سطره أساتذة الأدب العربي في الثورة على الأخلاق، فأكبرنا فيكم نزعتكم إلى تأييد الفضيلة بهذا الأسلوب. وقد

لاحظت بجوار ذلك غياباً نسبياً للفهم الفلسفي في ذلك الحوار الأدبي، مع أن الموضوع يمت إلى صميم الفلسفة بصلة وصلات. لهذا دعاني الواجب الفلسفي أن أحرر هذه الكلمة لعلها تلقي بعض الضوء من هذه الناحية على هذا الموضوع:

فهم بعض الناس في مصر الثورة أنها النزاع بين وجهتي نظر متناقضتين؛ فهناك أنصار القديم، وهناك المجددون؛ وهناك رجال الدين، وهناك (المستغربون)؛ وهناك أصحاب الفضيلة، وهناك (المسترذلون). نزعة (التثنية) هذه في تصور الشيء وضده، هي نزعة (حربية) لا تليق بطبيعة التفكير جرتها علينا من بعيد الحضارة الفارسية التي يسودها مذهب زرادشت في كتابه الأفستا الذي يقول بتنازع قوة الشر (أهرمن) وقوة الخير (أهورا). وكذلك جرتها علينا - فيما أرجح - من قريب مبادئ الثورة الفرنسية في تصور معنى الحرية والاستقلال؛ فهناك ابن الوطن من ناحية، وهناك الملك من ناحية أخرى؛ ذلك لأن التفكير في ذاته وسيلة سلمية هادئة لخلق (التماسك) في عقلية الفرد، وخلق التماسك في عقلية المجتمع؛ وهذا التماسك هو الانتقال من حالة نوعية إلى حالة من نفس النوع يجوز لها التخصيص. فكل ثورة هي نهاية ظاهرة لحالة تطور هادئ سبقته، وتضمنت هذه الثورة؛ فهي إذاً حاضر لماضي سبق قد مهد لها، وهي حاضر كذلك لمستقبل يأتي، تمهد هي له الثورة في نظر الفيلسوف الألماني شيلنج لا يمكن أن تنفصل عن التطور وعناصره الثلاثة: الماضي، والحاضر، والمستقبل. (التطور هنا لا يقصد به نظرية داروين وسبنسر التي أثبت خطأها أستاذنا الفيلسوف لالاند في كتابه: (خداع التطور) وإنما التطور الذي نزل من فلسفة أفلاطون وقالت به المدرسة الألمانية الحديثة وخاصة هيجل وشيلنج وهو التطور المنطقي لمظاهر التاريخ عامة). فالثورة بهذا الفهم هي عنصر أكيد للسلام والتقدم.

ولنأخذ مثلاً ثورة أفلاطون في العهد القديم. هذه الثورة كما يحدثنا الفيلسوف الألماني زللر في كتابه (فلسفة أهل اليونان) الجزء الأول - جمعت بين الفلسفة الطبيعية التي سادت التفكير اليوناني إلى ما قبل سقراط، وجمعت الفلسفة المنطقية التي وجدت في عصره عند السوفسطائيين، وكذلك الفلسفة الأخلاقية التي قال بها سقراط، ففيها يلتئم عنصر الماضي وعنصر الحاضر وكذلك عنصر المستقبل، لأن فلسفة أفلاطون ضمنت الحياة للفلسفات المنطقية والأخلاقية من بعده، الأولى في تلميذه أرسطو والثانية في زعيم الرواقيين كريزيب ومن أخذ عن هذين الفيلسوفين إبان القرون الوسطى من عرب، ورومان، ومسيحيين. وهكذا بعد أن كانت الفلسفة المنطقية من قبل أفلاطون سبيلاً للشعوذة والسفسطة والثرثرة، أصبحت فلسفة محترمة تبغي إقامة العلم والبحث عن الحقيقة المجردة. كذلك بعد أن كانت الفلسفة الأخلاقية من قبله وسيلة لإخضاع الفرد في المجتمع اليوناني أو الدولة الحاكمة، أضحت سبيلاً لتحريره وتقوية إرادته.

ومثل آخر في العهد الحديث: ثورة كانت الألماني فهي قد جمعت بين تيار الماضي - بالنسبة إليه - وهو تيار فلسفة ديكارت حينما يتكلم عن ملكات العقل، وتيار الحاضر - بالنسبة إليه - وهو تيار الفلسفة الإنجليزية الممثل في فلسفة دافيد هيوم لأن (كانت) نفسه يقول أن هيوم (أيقضه من سباته الفكري). ونجد أثر هذا ظاهراً عندما يتكلم كانت في أثر الحواس في نظرية المعرفة؛ أما عنصر المستقبل فهو أن كانت كفل الحياة من بعده لفلسفات تنطق تارة باسم العلم مثل فلسفات أوجست كنت، وكورنوه وفلسفات تنطق باسم المنطق والإلهيات مثل فلسفة لاشلييه وفلسفة بوتروه (اقرأ كتاب أستاذنا العلامة الكبير لاسباكس أستاذ الفلسفة بجامعة كليرمون، ورئيس المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية، والسكرتير السابق للوزير بريان وعنوانه: (المنطق وتطور العالم).

وعليه فالثورة في التفكير هي عنصر للسلام أي التوفيق بين الماضي والحاضر الفكري، ومظهر للتقدم، أي يجب أن تكفل خلق تيارات جديدة للفكر في المستقبل.

أما الآن فلنتحدث عن الثورة (الأخلاقية). الثورة في مجال الأخلاق تتضمن الإقرار بوجود هذا المجال، وتمييزه في نفس الوقت عن المجالات الأخرى كمجال النفس والاجتماع والمنطق، والإقرار كذلك بأن له طبيعة خاصة وأصولاً للتفكير فيه، وإلا أصبح البحث

عبثاً، والجدال رغاء، وقلبت الأوضاع، وأنكر التاريخ، وجحدت المجهودات القائمة للفلاسفة. فنحن إذاً لا نوجه كلامنا إلى أصحاب الرذيلة الذين بخسوا الفضائل حقها. ولكنا نوجهه إلى الأساتذة أصحاب الفضيلة فنقول:

الثورة في مجال الأخلاق لا تبنى على إنكار الفضائل، وتجاهل أمر الثورات الأخلاقية في تطور التفكير البشري، ولكن على علاقة الفضيلة بالرذيلة أولا، وعلى استعراض التصور النوعي للفضيلة في الثورات الأخلاقية.

أما عن تحديد علاقة الفضيلة بالرذيلة فلا يمكن البحث عنها خارج فلسفة (1) الرواقيين، لأنه أعظم مبدأ أخلاقي وجد إلى الآن في تطور التفكير الإنساني، وذلك لأنه قضى على مبادئ الأخلاق التي تقدمته بتعاليمه السامية. فبينما سقراط يجتهد أن يتخذ من الأخلاق سبيلاً لتقييد حرية الفرد وإخضاعه للدولة الحاكمة في المجتمع اليوناني، نرى أفلاطون يفترض السوء في طبيعة الإنسان ويجتهد بعد ذلك أن يرفعه إلى قداسة عالم المثل. كذلك أرسطو فهو يميز وينوع بين خلق الله فيقر الرق والاستعباد، ويضع أخلاقه للسادة من الناس، والأرستقراطية التي قضت مباشرة على مبادئه وأضحى فكره ميتاً بعد حروبا الاسكندر الأكبر، لأن المجتمع اليوناني في ذلك الزمان أصبح في حاجة ماسة لمن يخاطبه بلغة قليلة التجريد - أقرب إلى الواقع منها إلى الخيال، يتحقق خلالها ذلك الفهم الواسع الذي أدركه اليونانيون باحتكاكهم بعد تلك الحروب بسائر الأمم الأخرى، لهذا لاقت تعاليم الرواقيين نجاحاً عظيماً وخاصة تعاليم كريزيب (اقرأ كتاب أستاذنا أميل برهييه وعنوانه كريزيب في مجموعة ألكان لكبار الفلاسفة) لأنها ألغت الرق، وجعلت الناس سواسية كأسنان المشط أمام القانون الأخلاقي، وافترضت الخير في طبيعة الإنسان. وأهمية هذا المذهب لا تقف عند هذا الحد لأنه ساد بعد ذلك كل العالم الروماني، وعالم القرون الوسطى في أوربا خلال آباء الكنيسة. والأهم من ذلك أخيراً أن زعماء الفكر الحديث عندما كتبوا في الأخلاق تأثروا بالرواقيين، فمثلاً ديكارت في خطاباته مع البرنسيس اليزابيث، وسبينوزا في كتاب (الأخلاق) وكانت في كتابه عن الأخلاق.

فالرواقيون آباء الأخلاق لم ينكروا في ثورتهم الفضائل ولم يبخسوا كذلك الرذائل حقها وما لها من أهمية في الحياة؛ غير أنه يستحيل في نظرهم فصل الاثنين عن بعضهما، لأن الإنسان مركب من روح وجسم وهي البداهة كلها فله شهوات تدعو إلى الرذيلة، وله غايات روحية سامية يريد تحقيقها؛ غير أن الشهوات والميل إلى الرذيلة ليست بطبيعية في الإنسان، فالإنسان كأساس خَير بطبعه، ولكن الحياة الخارجية المادية ومغرياتها هي التي تفسد عليه داخليته ونفسه الطاهرة. ولما كان أغلب الناس لا يمكنهم التضحية بمغريات الحياة الخارجية؛ أضطر الرواقيون ألا يتجاهلوا أمر الرذيلة وأثرها في التخلق فحسبوا لها حساباً بل جعلوا منها ضرورة لازمة للفضيلة؛ ويقدمون لذلك ثلاث حجج، (يجدها القارئ في كتاب أستاذنا برهييه والأستاذ بيفان

أولاَ - حجة بالمقارنة؛ فالرذيلة تابعة للفضيلة وشرط أساسي لها؛ ويضربون لذلك مثلاً جمال رأس الإنسان الذي يتضمن في نفس الوقت نوعاً من الضعف هو رقة عظامه وتعرضه في أي لحظة للأخطار الطارئة، فإذن ليس هناك جمال خالص من ضعف أو قبح يشوبه، كذلك. , ليس هناك فضيلة خالصة ولا بد للرذيلة أن تلازمها فهي ضرورية لها.

ثانياً - حجة منطقية: تتلخص في أن النقيضين متضامنان؛ فالخير يتضمن الشر في تصوره، والحسن يتضمن القبيح في إدراكه، والفضيلة تتضمن الرذيلة وهلم جرّاً. . .

ثالثاً - حجة أخلاقية: يقول الرواقيون: الرذيلة ليست من طبيعة مغايرة للفضيلة، فكلاهما من نوع واحد. وليست الرذيلة هي حرباً على الفضيلة، وإنما هي فضيلة ضالة، والعقل في تصورها وفعلها خاطئ، ومهمة الأخلاق هي العودة بما ضل إلى الطبيعة الخيرة الأولى.

هذا الفهم للعلاقة بين الفضيلة والرذيلة اضطر الرواقيين إلى تصوير نوعين من الأخلاق: أخلاق لا يصح أن نسميها (خارجية) نجدها في كتاب (الواجبات) لشيشرون، وهي تختص بمغريات الحياة الجارية وتنبني على ما يجب فعله وما لا يجب أن يفعله الإنسان في يومه، والتحقير من أهمية الماديات لتغير قيمتها بتغير الأشخاص والأزمان

والأصقاع، فهي أشياء عارضة، وينبغي الزهد فيها، والإعراض عنها، فهي أخلاق تهتم بتخفيف وطأة الرذيلة.

وأخلاق نسميها (داخلية) تبنى على رياضة الإرادة، أساسها ضبط النفس وغرضها الوصول إلى الخير المطلق، ونجدها في كتاب شيشرون المسمى وهي ما يصح تسميتها كذلك بلغة العلم الحديث (أخلاق نظرية) ترمي إلى خلق الانسجام بين إرادة الوجود في الفرد، وإرادة الوجود في العالم، وإرادة الوجود في المجتمع.

كذلك الاستعراض النوعي للفضائل في ثورات الأخلاق، يدل دلالة واضحة على أن هذه الثورات لم تكن حرباً على الفضيلة ولم تكن للحط من قيمة الإنسان إلى قدر هو أرفع منه؛ وإنما كانت برداً وسلاماً عليها، ترسم سبل الوصول إليها وإمكان تحقيقها: فالثورة اليونانية الأخلاقية كما يذكر الفيلسوف بوتروه في كتابه (مسائل في الأخلاق والتربية) كانت ترمي إلى رفع الإنسان إلى القداسة العقلية بحيث يصبح العالم بيتاً للإنسان والآلهة (أنظر كذلك شيشرون (طبيعة الآلهة)). ويتحقق حلم الرواقيين في خلق مدينة العقلاء فيسود السلام على الإنسانية، بإحسان كل إنسان إلى أخيه فلا يبقى هناك فضل (ليوناني) على أجنبي.

والثورة الدينية في الأخلاق: إبان القرون الوسطى ويمثلها فيلون الإسكندري في اليهودية، والغزالي في الإسلام، والقديس أوغسطين في المسيحية، تتلخص كلها في تلك النزعة القديمة الشرقية التي أختص بها الجنس السامي وهي فكرة الخطيئة الأولى وما تتطلبه من التحلي بالفضائل كوسيلة لإنفاذ خلق الله من وصمتهم والعود بهم إلى جنات الخلد والنعيم (أنظر كتاب مُنك (في الفلسفة العربية اليهودية)، وكذلك كتاب أستاذنا العلامة جلسن بالكليج دي فرانس وعنوانه: (المسيحية والفلسفة)).

ثم جاءت بعد ذلك الثورة الحديثة في الأخلاق تقيم الفضائل وتناصرها ولكنها تفهمها بشكل آخر جديد، فبينما نجد القداسة العقلية عند اليونان، والقداسة الربانية عند اليهود والمسلمين والنصارى، نجد القداسة العملية النفعية عند الإنجليز في شخص هبز ومدرسة بنتام وميل وسبنسر (أنظر عند الإنجليز وأيضاً سبنسر التطور والأخلاق).

أصبحت الأخلاق عندهم تهتم بالحياة الجارية وتتأثر بالفهم الرياضي فأضحت (حساباً للذات) من وجهات الكم والكيف، والبقاء، والزوال؛ وأصبح الفرد وأنانيته محوراً للأخلاق. ظهرت ثورة أخلاقية جديدة في ألمانيا هي ثورة كانت تذكرنا بآراء الرواقيين في العهد القديم لأنها ترتكز على فكرة الواجب ' المجرد عن الغايات النفعية والأغراض العارضة، وأن الإنسان في تخلقه يجب أن ينظر إلى ثلاثة أفكار: أولاً: أن يكون التخلق واحداً لكل الناس. ثانياً: أن يحترم الإنسانية في شخصه. ثالثاً: أن يتخلق وأن يملي على نفسه تخلقه دون أن يخضع في ذلك إلى مؤثر ما. لهذا كانت نهاية مبدئه الإرادة الحرة (انظر دلبوس فلسفة كانت

ونحن بعد هذا لا نريد أن نعدد الأمثلة أكثر من ذلك لنثبت أن للأخلاق والثورة عليها أو فيها طبائع وأصولاً ومبادئ لا تبرر مطلقاً ما ذهب أليه الثائرون. لهذا غضبت النفوس الكريمة وناصرت الفضائل التي هي السبيل الوحيد لوجود الضرر كمنكر، لأن ديكارت لا يفصل التخلق عن المعرفة والسبيل الوحيد كذلك لوجود الفرد اجتماعياً، لأن دور كيم لا يؤمن بقيمة الفرد إلا إذا آمنت الناس من حوله بما ينطق ويفكر. فما كتبه الأستاذ الزيات، وعزام، والخولي هو لسان المجتمع في هذا الموضوع المعبر الصادق عن المشاعر الخفية التي تكنها نفوس المصريين أجمعين من حولهم، فليكفر إذا هؤلاء الثائرون - اعتباطاً - عن آرائهم، فالرجوع إلى الحق فضيلة.

عبد العزيز عزت
خريج جامعات القاهرة وباريس، وكليرمون
عضو بعثة الجامعة المصرية لدكتوراه الدولة

فلسفة التربية كما يراها فلاسفة الغرب

للأستاذ محمد حسن ظاظا

(إذا أمسك الله تعالى بالحق في يمينه، وبالدافع الدائم إليه في يساره، ثم أمرني بالاختيار: لسقطت على يده اليسرى وقلت أعطني هذا أيها الأب الأقدس، لأن الحق الخالص ليس إلا لك).

ليسنغ
وثقافة الإنسان لا تقدر بمقدار ما قرأ من الكتب وما تعلم من العلوم والآداب، . . .)
ولكن بمقدار ما أفاده العلم، وبمقدار علو المستوى الذي يشرف منه على العالم،
وبمقدار ما أوحت إليه الفنون من سمو في الشعور وتذوق للجمال).
أحمد أمين
المنهج والطريقة
رأيت في المقال السابق كيف تمتد يد (الديمقراطية) إلى (المعلم) و (المدرسة) و
(الطالب) لتصلح من شأن التربية ما قد أفسدته النظم البالية والتقاليد الرثة، وسترى
اليوم ما ينبغي أن يكون عليه المنهج وطريقة تدريسه حتى لا يكون الأمر مجرد (إنهاك
عصبي) لا أكثر ولا أقل. . .!
يقسم الأستاذ (هورن) العلوم إلى خمس طوائف: فنية، وتشمل: العمارة والحفر
والتصوير والموسيقى والأدب والدين؛ وإرادية وتشمل: النظم والأخلاق والقوانين؛
وعلمية عقلية وتشمل: المنطق والميتافيزيقا والجمال واللغة والأخلاق النظرية؛
وعلمية مادية غير عضوية وتشمل: الطبيعة والجيولوجيا والجغرافيا والفسيوجرافيا
والفلك والمعادن والكيمياء؛ وعلمية مادية عضوية وتشمل: الحياة والنبات والحيوان
والفسيولوجيا والتشريح وتاريخ الإنسان والاجتماع والاقتصاد.
وأنت ترى أن كلاً من هذه العلوم يعالج إحدى نواحي الكون معالجة خاصة، وأنها جميعاً
ذات قيمة (ذاتية) كما يقول (هربارت) ولكنا في ناحية (الثقافة العامة) على الخصوص
مضطرون إلى التفريق بينها في الدرجة والضرورة فلا نفضل منها إلا ما يتفق وغايتنا.
ومن هنا كان ذلك الخلاف الهائل في آراء علماء التربية وأساليبهم؛ (فهربارت) يطالب
بقيمة المادة (الذاتية) بصرف النظر عن نتائجها وآثارها، و (ديوي) يصر على اختيار
المواد (النفعية) وفقاً لمذهبه العملي، و (ريدجر القائل بفكرة الملائمة مع البيئة يعطينا
قِيمَاً آلية وأخرى ثقافية. فالأولى منها التحضيري كمواد القراءة والكتابة، ومنها العملي
كمواد اللعب، ومنها (الاجتماعي) كمواد الأجناس والأديان والأخلاق والتاريخ والأدب،
ومنها (التقليدي) كالخطابة والجدل؛ أما الثانية - الثقافية - وهي أرقى القيم جميعاً،
فتدخل فيها المواد التي تحرر العقل وتهذب العواطف وترقى بالشعور، كالفلسفة
الخالصة والأدب المجرد.
هذا وقد رتب الفيلسوف (سبنسر) المواد تبعاً لأهميتها وضرورتها فجعل علوم (الصحة)
على رأسها، وتليها علوم (التربية) ثم علوم (السياسة والاجتماع) ثم علوم (الفراغ) أي
(الفنون). . .!
أما (رسل) فقد فضل المواد التي (تُبقي وتحفظ قوة الخلق والتضلع والحيوية في
الفرد، وتعينه على التمتع بالحياة ذاتها.
وأما الأستاذ (أمير بقطر) فيقول بانتخاب المواد التي تفتح على الطالب أكثر من باب
واحد.
ولقد أدلى الأستاذ (أحمد أمين) برأيه في الموضوع فقال (إذا كانت قيمة الثقافة
الذاتية هي أبداً في مقدار ما ترفعه في المثقف من وجهة النظر إلى الأشياء وتقويمها
قيماً جديدة أقرب إلى الصحة، أسلمنا ذلك إلى نتائج خطيرة، فدين خير من دين
بمقدار ما تحاول تعاليمه من رفع مستوى النظر إلى الله وإلى الحياة، وعلم خير من
علم باعتبار ما يؤدي إليه من نظر راق صحيح. وثقافة الإنسان لا تقدر بمقدار ما قرأ
من الكتب وما تعلم من العلوم والآداب، ولكن بمقدار ما أفاده العلم وبمقدار علو
المستوى الذي يشرف منه على العالم، وبمقدار ما أوحت إليه الفنون من سمو في
الشعور وتذوق للجمال.
وأنت ترى معي أن تلك النظرة من الأستاذ حصيفة كل الحصافة وبعيدة الغور وسامية
المنطق، وأن نظرة (ديوي) مشوبة بالنفع العملي الذي يشوه فلسفته الخاصة، وأن
ترتيب (سبنسر) يقلل من شأن تلك المتعة (العقلية والفنية) التي جعلها (هورن) جوهر
الثقافة
الحقيقية.
ومهما يكن من شيء فما دامت غاية التربية هي خلق الحياة الاجتماعية المثلى. وأعني
بها تلك الحياة (التي يستطيع الفرد أن يجد فيها مجالاً لتحقيق مستلزمات حياته الأدبية

والعقلية والروحية والمادية على أتم وجه بحيث يتسنى له أن ينمو ويتقدم أخلاقياً وروحياً ومادياً وعقلياً نمواً تتطلبه طبيعته وتستطيع أن تحققه الظروف مع البيئة) أقول ما دامت تلك هي غاية التربية فبجب أن نحاول تطبيق ذلك على مواد المنهج وطريقة تدريسها.

فالمادة يجب أن تكون تامة الوفاء بما تتطلبه (المرحلة) البدنية والنفسية من نمو، ويجب أن تكون محبوبة للطفل شائقة لديه لا هي بالسهلة ولا هي بالصعبة، ويجب أن تكون مستمدة من الحياة ومرنة تلائم الاختلاف بين عقول الأفراد، ويجب أن تظهر للطفل كأنها مادته الضرورية الخاصة، ويجب أخيراً أن تكون (بحيث ترتفع به إلى مستوى أرقى في العمل والشعور لا مجرد إنهاك عصبي).

وإذا كان الناقد الألماني (ليسنغ) يقول إنه يفضل (الدافع الدائم للحق) ما دام الحق الخالص ليس لغيره سبحانه وتعالى، فإننا يجب أن نتجنب حشو المنهج بالمواد ونكتفي بإثارة حب البحث في الطالب ناظرين دائماً إلى الكيف لا إلى الكم حتى يكون المتعلم دائماً ذا عقل خصب لا يهرم بكبر السن، ولا ينوء تحت أثقال معلومات مهوشة، ولا يني يبحث ويطلع بعد الدراسة محتفظاً بربيع الحياة.

وما دامت دراسة (الطبيعة) ذاتها وسيلة للاحتفاظ بالحياة وللمتعة فيها والرفاهية، فلا تعارض إذاً بين الدراسات الطبيعية العلمية والدراسات النفسية الفنية، وإذاً فليكن في المنهج ثقافة عامة توسع الإدراك وتدقق الفهم، وتاريخ وجغرافيا يزيدان في معنى التجارب الإنسانية وثروتها، وعلوم طبيعية تفتح مجالاً للعقل وتؤدي به إلى الصيغ والقوانين الكلية، ولعب يجعل الدراسة شائقة وينفس عن الغرائز، وفلسفة خلقية وميتافيزيكية واجتماعية توطد من مركز الناشئ في المجتمع والكون وتفهمه علاقة الأرض بالسماء. . .!

أما الطريقة فلا تكاد تقل خطورة عن المادة، بل أن المستحدثات في التربية لتنصب عليها بوجه خاص، ذلك أن دراسة علم النفس للطفل وقواه قد كشفت عن أصول أساسية ينبغي أن يتبعها (المعلم) في تدريسه، ومن هذه الأصول ألا تكون الطريقة (قياسية) إلا في آخر مراحل التدريب؛ أعني أنها يجب أن تكون استقرائية قائمة على المشاهدة بحيث تجعل الطفل في حالة (اختبار) حقيقية يرغب فيها لذاتها، وتنبه فكره إلى المسائل التي يعالجها، وتتيح له القدرة على تدبير هذه المسائل بمعرفته وملاحظته، وتجعله مسئولاً عن حل الحلول التي تعرض له بطريقة منظمة، وتعطيه أخيراً الفرصة التي يختبر بها فروضه ويتأكد من صحتها صحة.

هذا إلى وجوب تفهيم الطفل قيمة ما يدرس ومدى نفعه في الحياة العملية والمعنوية ليزداد جهده فيه وإقباله عليه، وليكون قلبه معه دائماً في عمله، وإلى وجوب وقوف المدرس بين بين فلا يترك الطفل يمضى إلى إشباع ميوله دون رقابة، ولا يملي عليه ما يريد إملاء قسرياً، بل يتبين ما يتحفز فيه من غرائز وميول ويقدم له ما يساعده على ما يريد.

ولما كانت الطريقة هي ترتيب المادة بحيث تكون أكثر فاعلية في الاستعمال فإنها لا تكاد تخالف المادة قط. أليس من (يأكل) يتناول طعاماً هو (الأكل) نفسه؟

وقد نجم من فصل الطريقة عن المادة قلة فرص التجاريب أمام الطفل، وسوء فهم النظام والشوق، والعناية المقيتة بالحفظ وحده، وجعل عملية التعليم ميكانيكية عديمة الروح، فأدى الأمر إلى تخشب آلي (بسبب الفصل بين العقل والنشاط الذي له من خلفه غرض يدفعه).

أفرأيت هذا كله؟ أفلاحظت ما فيه من قوة ونفع وسمو؟ إنهم هكذا يفكرون في أمريكا وكذلك يطبقون. . .

(يتبع)

محمد حسن ظاظا

مدرس الفلسفة بالمدارس الثانوية

بين القاهرة واستنبول

للدكتور عبد الوهاب عزام

متاحف طوب قبوسراي
يا أخي صاحب الرسالة
سلام عليك
وقفت بك في الرسالة السابقة على عرش الشاه إسماعيل الصفدي. وجدير أن نطيل الوقوف عند هذا العرش الذي بذلت الصناعة وسعها في هندسته وتذهيبه وترصيعه وتلوينه، ولاءمت فيه يد الإتقان بين الذهب والمينا والزمرد والياقوت، وألفت بين ألوانها تأليفاً متآلفاً مرضياً، وقد أرى فيه الذكر تتلألأ تلألؤ الجوهر.
وقفت عند هذا العرش أذكر الشاه إسماعيل هذا الملك الجبار الذي نشأ في زلازل الحادثات حتى ملك أزمة دولة مبتدأة وهو لم يبلغ الحلم؛ وما لبث أن مد سلطانه ما بين العراق إلى الهند، ثم أورث أبناءه دولة لا تزال آثارها شاهدة بمآثرهم، ناطقة بعظمة ملكهم، مذكرة بما طوى الدهر من سلطانهم.
هذا العرش ما خطبه، ما باله وخزائن سلاطين آل عثمان؟ هنالك ذكرت جلاد سليم وإسماعيل، وذكرت موقعة جالدران الموقعة التي كادت تذهب بدولة إسماعيل الناشئة؛ لولا أن عاقت سليماً العوائق. وجالدران وأرمديد وشمالي أذربيجان اصطفت فيه جنود سليم وجنود إسماعيل سنة 925 من الهجرة. قسم سليم جنوده، وجعل الانكشارية في القلب واتخذ مكانه خلفهم، وجعل المدافع وراء الجناحين وشد بعضها إلى بعض بالسلاسل. وصف إسماعيل جنوده، وتولى قيادة الجناح الأيمن مائة وخمسون ألف جندي صمدت لمثلها؛ فانظر هذه الحرب المتأججة يضرمها ثلاثمائة ألف!
ويحمل إسماعيل الفتى الشجاع، معتزاً بجنده، مفتخراً بنسبه العلوي، مصمماً أن ينتصر أو يقتل، ويشق جناح العثمانيين الأيسر ويحسب أن النصر مقبل عليه.
وتظاهر جناح العثمانيين الأيمن بالهزيمة وانقسم، فتحمل ميسرة إسماعيل وترمي بنفسها
في الفرجة بين القسمين فإذا هي أمام المدافع، وإذا النيران تأخذها من كل جانب. لا تتبدل الحال ويواتي العثمانيين الظفر.
ويسقط إسماعيل عن جواده جريحاً وينجيه من الأسر القريب الفرار إلى تبريز وبادر سليم يجمع الغنائم، ويزهى بما نال من ظفر على عدوه الجبار.
وسليم يدخل تبريز بعد ثلاثة عشر يوماً دون حرب، وكانت تبريز يومئذ دار الملك وبها خزانة إسماعيل قد جمع فيها ما أخذ من التيموريين وغيرهم من الأمراء الذين غلبوا على ممالكهم. وبينما يدبر للاستيلاء على ملك إسماعيل كله يرى بين جنوده إمارات العصيان فيرجع أدراجه قانعاً بما أحرز من نصر وما ملك من بلاده. ثم لم يقم في تبريز إلا ثمانية عشر يوماً.
هذا العرش مما غنم سليم في هذه الحرب الضروس.
وذكرت حينئذ الرجل الكبير قانصوه الغوري الذي خشي صولة سليم فمالأ الشاه إسماعيل فأفسد ما بينه وبين العثمانيين. وتتابعت الأحداث حتى كانت وقعة مرج دابق في رجب سنة 922 قبل وقعة جالدران بسنين ثلاث. وتصورت سليماً يحرز نصراً بعد آخر ويطوي مملكة بعد مملكة بجنده وعدده، ولا سيما هذه المدافع التي لم يتسلح بها محاربوه.
وعدت أتذكر ما أعقبت عداوة سليم وإسماعيل من عداوة بين المسلمين، وما أثارا من ضغينة بين أهل السنة والشيعة، وما كان القتال إلا على السلطان والجاه وإنما كانت المذاهب تعلة.
ثم تمادت الفكر وتوالت الذكر فأخذت أقيس الرجال الثلاثة واحداً بآخر، وأتذكر ما كان منهم في السياسة والعلم والأدب. وقلت: هؤلاء الثلاثة الذين سيطروا على وسط البلاد الإسلامية كانوا يمثلون ثقافة الأمراء المسلمين. وفيما أثر عن ثلاثتهم من شعر نماذج من أدب أمرائنا في القرن العاشر الهجري. وهممت أن أكتب إليك في هذا يا صاحب الرسالة ثم تذكرت أني أصف آثاراً في متحف، وأن الكلام على قانصوه وإسماعيل وسليم جدير أن يستأثر بمقال أو أكثر. ولعلي أجد فرصة بعد.
عبد الوهاب عزام

من برجنا العاجي
للأستاذ توفيق الحكيم
ما أطول حديثنا الصامت في برجنا العاجي! هذا البرج الذي يحرسه (تنين) الوحدة! وما أكثر تلك الخواطر التي تمر برؤوسنا أحياناً كالطيور العابرة دون أن نقتنص منها شيئاً! هنا داخل هذا الإطار وبين هذا السياج سأحبس ما يقع منها تحت ذاكرتي. وإن خواطري لكثيرة، لأن أوقات عزلتي طويلة؛ وليس لي علم بلعب النرد ولا غيره من وسائل قتل الوقت، فالوقت عندي هو الذي يقتلني لأني لا أعرف كيف أقتله. ولقد حاولوا كثيراً في صباي أن يعلموني تلك الألعاب التي تلهي الناس عن أنفسهم في أوقات الفراغ، ولكني كنت أنسى دائماً في المساء ما علموني إياه في الصباح؛ ولم ينفع في أمري تعليم ولا تفهيم. وخرجت من عهود الصبا دون أن أحذق لعبة أو أحجية. شيء واحد كان يلهيني ويسرني، وقد كان عندي بمثابة النرد والأحاجي: ذلك هو الجدل حول فكرة من الأفكار.
ولكم أتعبت كثيراً من أولئك الذين كانوا يلعبون معي هذا الضرب من الشطرنج في وقت من الأوقات! لقد كنت أضيع عليهم نهاراً بأكمله دون أن أمل؛ وإن رؤوسهم لتكل فما أرحمهم ولا أرحم نفسي. إن حب التفكير لنقمة. آه لو علم الناس كيف يعيش الأدباء ورجال الفكر؟! إذن فليعلموا أن القدر يوم دفع الأدباء إلى الوجود صاح فيهم ساخراً: (اذهبوا فإن لكم الفكر، ولكن. . .) ولم يتم كلامه وابتسم ابتسامة هي أبلغ من التعبير.
نعم. ما من أديب أو مفكر إلا أدرك أخيراً بعد أن قطع شوطاً من الحياة أن شيئاً آخر ربما كان أجدى عليه من الفكر قد سُلب منه إلى الأبد! إنا نحسد أحياناً بقية الناس. وإني لأتصور القدر وهو يشيع الآخرين إلى باب الوجود فيقول لهم: (اذهبوا فإن لكم الحياة. . . ولكن. . .).
أجل إنه يبتسم لهم كذلك عين ابتسامته الساخرة، ولكن هؤلاء الناس لا يفهمون مطلقاً أن القدر قد سلبهم شيئاً. وهنا الفرق بيننا وبين بقية الناس: إننا نحن رجال الفكر ندرك تمام الإدراك ما سُرق منا وما فقدناه؛ أما الآخرون فلا يعلمون. وهذا سر عذابنا نحن.
والآن وقد تكشفت لنا حياتنا الفكرية عن برج مرتفع لا خروج لنا منه؛ برج يملؤه السكون ولا نسمع فيه غير صدى أصواتنا الضائعة؛ فلنتكلم إذن بين تلك الجدران. فإن رجع الصدى يؤنس على الأقل وحشتنا.
توفيق الحكيم
أناشيد صوفية
جيتانجالي
للشاعر الفيلسوف طاغور
بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب
- 72 -
إنني أبرأ من الاستسلام، وأنا أستشعر الحرية تحوطني في لذة وطرب.
وأنت - دائماً - تفرغ في كأسي من رحيقك العطر ذي الألوان رشفةً سائغة، فتفعم هذا الإناء الأرضي.
إن دنياي ستشعل من نورك مصابيحها العديدة، وتضعها أمام محراب معبدك.
لا، لن أغلق أبواب حواسي، فإن لذاذات البصر والسمع واللمس تحمل في ثناياها نشوة منك.
نعم، إن أوهامي ستتحرّق في شعلة من مرح، وإن رغباتي ستتفتح عن ثمرة من حب.
- 73 -
لقد خبا ضوء النهار وانتشرت عتمة الغسق على الأرض، وآن لي أن أنطلق إلى الغدير لأملأ جرّتي.
ونسمات الليل تشجيها موسيقا الموج الحزينة. آه، إنها تناديني لأندفع في أضعاف الظلماء، وما في الطريق الموحش من عابر سبيل، والريح تزف زفيفاً، وصوت خرير الموج يتصاعد هائجاً من جوف النهر.
لست أدري إذا كنت سأعود إلى الدار؛ ولست أدري من عساي أن ألقى على الطريق. إن هناك في القارب الذي يرسو في الناحية الضحلة من النهر، رجلاً مجهولاً يعزف على

قيثاره.
- 74 -
إن آلاءك تفيض علينا فتسد مآربنا، ثم ترتد إليك وما نقصت شيئاً.
فالنهر يجد كل يوم عملاً، وهو يندفع إلى الغاية بين الحقول والقرى، ولكن مجراه المستمر يهفو نحو قدميك ليغسلهما.
والزهر يتأرّج فيملأ الهواء عطراً شذيّاً، غير أن غايته إن يقدم نفسه إليك.
إن الاندفاع في عبادتك لن يجدب العالم.
ومن نفثات الشعراء خذ ما يحلو لهم، ولكنك ما تزال غرضهم الاسمي الذي إليه يشيرون.
- 75 -
وعلى مر الأيام، أفتسمح لي - يا إله الحياة - أن أقف بازائك وجهاً لوجه؟ وفي خضوعي وذلتي، أفأقف بازائك - يا إله الكون - وجهاً لوجه؟
وتحت سمائك العظيمة، في وجدتي وسكوني وذلة قلبي، أفأقف بازائك وجهاً لوجه؟
وفي دنياك الصاخبة وهي تضطرب بالكد والتناحر، وبين الزمر المتدافعة، أفأقف بازائك وجهاً لوجه؟
وحين ينتهي عملي في هذه الدنيا أفأقف - يا ملك الملوك - وحيداً صامتاً وجهاً لوجه؟
- 76 -
لقد عرفتك إلهاً لي ثم تنحيت جانباً. . . فأنا لم أعرفك أخاً فأندفع إليك، ولا أباً فأنحني أمام قدميك، ولا صديقاً فأشد على يديك.
ولم أقف حيث أراك تهبط فتهدي نفسك إلي، فأضمك إلى صدري وأتخذك رفيقاً.
إنك أخ بين أخوتي غير أني لا أعيرهم انتباهاً، فأنا لا أقسم بينكم حبي، ولكني أخصك بجميع قلبي.
في حالي نعيمي وبؤسي لا أسكن إلى رجل بل أعتمد عليك أنت. إنني لأنزوي وفي نفسي أن أنزع عني ثوب الحياة لأنني لا أريد أن أغتمر في خضمها.
- 77 -
في بدء الكون، والكواكب تسطع - أول ما سطعت - في تألق، اجتمع الآلهة في السماء، وانطلقوا يغنون (أوه، ما أجمل صورة الكمال! ما ألذ الطرب المحض!).
وعلى حين فجأة دوّى صوت من بينهم (إنه ليخيل إليّ أن هناك نقصاً. إن إحدى حلقات الضوء مفقودة؛ إن كوكباً قد ضاع!).
فانقطع وتر القيثارة الذهبي، وأمسكوا جميعاً عن الغناء؛ ثم صاحوا في فزع (نعم، إن الكوكب المفقود أشد الكواكب لمعاناً، لقد كان زينة السماء!).
وراحوا - منذ ذلك الحين - يفتشون عنه في دأب ونشاط، وغمرتهم الصيحة، ففقدت الدنيا - في ثناياها - بهجتها الوحيدة!
وفي هدأة الليل وسكونه تبادلت الكواكب الابتسامات والهمسات (عبثاً تفتشون! إن الكمال التام فوق كل شيء!).
- 78 -
ليست غاية جهدي أن ألقاك على الأرض، فإذا أريد أن أستشعر - دائماً - فقد النظر إليك. . . ولكن لا تمح ذكراك من قلبي لحظة واحدة، ثم ذرني أحمل آلام الحزن لفقدك في غفلتي وفي يقظتي.
وحين أقضي أيامي بين الحشد في سوق الحياة فتمتلئ يداي بالكسب، استلبني من نشوة الربح؛ ولا تمح ذكراك من قلبي لحظة واحدة، ثم ذرني أحمل آلام الحزن لفقدك في غفلتي وفي يقظتي.
وحين أجلس على جانب الطريق أستجم من أثر الأين والبُهر، فأنشر فراشي على الثرى؛ ألقِ في روعي أن رحلتي ما تزال طويلة؛ ولا تمح ذكراك من قلبي لحظة واحدة، ثم ذرني أحمل آلام الحزن لفقدك في غفلتي وفي يقظتي.
وحين تتزيّن حجراتي وتتصاعد أنغام القيثارة وترتفع رنات الضحك، دعني أشعر كأنني لم أدعك إلى داري. . . ولا تمح ذكراك من قلبي لحظة واحدة، ثم ذرني أحمل آلام الحزن لفقدك في غفلتي وفي يقظتي.
- 79 -

أنا كأنني نُثار سحابة خريف تضطرب عبثاً في أرجاء السماء؛ آه، إن شمسي دائماً تتألق! إن لمساتك لم تحولني إلى بخار فأكون شعاعاً منك يحصي عدد الشهور والسنين التي تنفصل عنك.

وإذا كانت تلك إرادتك، وهذه هي غايتك، فاجذب إليك حطامي المنقض، واصبغه بالألوان وزينه بالذهب، ثم أرسله بين هوج الرياح ليبدو في فنون أخَّاذة.

وإذا كانت مشيئتك أن تنتهي من عملك والليل ساج، فسأذوب وأتلاشى بين أضعاف الظلام، أو في بسمة الصباح اللامع. . . في الصفاء والنقاوة.

- 80 -

في أوقات الفراغ آسى أنا على أيامي الضائعة، ولكنها - يا إلهي - لم تضع، فأنت قد بسطت يديك على كل ساعة منها.

إنك تستقر في أعماق كل شيء، فأنت تنفث في الحبة فتصبح نبتة، وتنفخ في الكِم فيتفتح عن زهرة، وتنضج الزهرة فتحور ثمرة.

لقد كنت أستشعر الجهد والضنى فاستلقيت على فراشي وفي خيالي أن كل عمل في العالم قد وقف، وعند الصباح انطلقت إلى حديقتي فألفيتها تموج بالزهر الغض.

- 81 -

إن الزمان لا نهائي بين يديك يا سيدي، وليس هنا من يستطيع أن يحصي عدد اللحظات.

الليل والنهار يتعاقبان، والدهر يتفتح ويذوي كأنه زهرة، وأنت وحدك تعرف كيف تبقى، والقرون يتلو بعضها بعضاً، تدفع زهرة برِّية صغيرة إلى الكمال.

لم يبق من وقت نضيعه فلنتدافع نحو الفرصة السانحة، فنحن فقراء يؤذينا الكسل.

وهكذا تصرم الزمن وأنا أحبو منه كل شاكٍ يعتفي، فأقفر محرابك من القرابين.

وعند الغروب انطلقت أشتد نحو بابك خيفة أن يغلق علي، غير أني وجدت أنه ما يزال في الوقت بقية.

كامل محمود حبيب

أبو إسحاق الصابي

للأستاذ عبد العظيم علي قناوي

- 3 -

لا بد للكاتب الحريص أن يتحرى النواحي التاريخية التي تتصل بالحياة الأدبية عندما يعرض حياة رجل كأبي إسحاق الصابي خبّ في السياسة ووضع، وارتفع بأسبابها ووقع؛ ليتبين هل كان بؤس ذلك الرجل طوال عمره أثر سرف في خطته، ونتيجة سفه في مسلكه؟ أم أن جيله الذي نشأ فيه هو رأس نكباته، وأس ويلاته، حتى صار البؤس على وجهه كتاباً مسطوراً، والشقاء في حياته طريقاً مرسوماً؛ لذلك أرى وصف الحالة السياسية في العصر الذي عاش فيه موجِزا.

ولد أبو إسحاق في أوائل القرن الرابع الهجري، والخلافة مزعزعة الأركان، واهية البنيان، يتبارى في تقويض دعائمها وتهوين رواسخها أمراء متعددون، وقواد متحفزون، شغلتهم نفوسهم عن دولتهم، فهم يبغون لشخوصهم ملكاً عضوداً، ولذواتهم نهوضاً وسعوداً، لا يبالون أن يبنوا ذلك على أنقاض منعة الإسلام، أو على انتهاك حرمة السلام؛ وكان المتألبون أجناساً شتى؛ فللترك طوراً القدح المعلى والنصيب الأعلى، وللديلم حيناً القوة والبطش، والمنعة والبأس، والأمة حيال أولئك وهؤلاء كأسراب القطا تتخاطفها البزاة الجارحة، أو كقطعان الحملان تتناهبها الذئاب الضارية.

وفي الثلث الثاني من هذا القرن استتب الأمر قليلاً لآل بويه واطمأن إليهم الملك، فاستولى معز الدولة بن بويه على بغداد بعد أن انتشر فيها الفساد، وطغت عليها الفاقة، واجتاحتها المخمصة؛ حتى هجرها أهلها إلى المدائن والقرى يستمطرون الرحمة، ويبحثون عن الطمأنينة والدعة، وبعد مدة خلع معز الدولة الخليفة المستكفي بالله؛ لاتهامه إياه بدسائس يحوكها ضده، وتدبيرات ينسجها في الخفاء له، وولى بعده أبن عمه المطيع لله، وكان هذا كرة صولجانها معز الدولة، وخلة سيفها آل بويه؛ يأمرون فيأتمر، ويشيرون فيصنع، ويشاءون فينفذ، أما أن يكون له من الأمر شيء، فذلك مالا سبيل إليه. وظل ذلك شأن معز الدولة يدير شئون الأمة متفرداً، ويقضي

في سياستها متوحداً، حتى أدركه المنون في منتصف القرن الرابع. فتولى الملك بعده ابنه بختيار، وتلقب بعز الدولة، وقد أشرف على
الخلافة أحد عشراً عاماً، وهو لاهٍ عن أمر وَليَه، وملك سَلبَه حتى سُلبه؛ لها بالغواني
الكواعب والمغنيات الكواكب، فبرز له منافس قوي أوتي نبلاً وبعد همة ونباهة ذكر وحسن أحدوثة هو عضد الدولة، فدخل بغداد فاتحاً، وقبض على محمد بن بَقية وزير عز الدولة وصلبه على رأس الجسر، وهو المرثي بالقصيدة الخالدة لأبي الحسين الأنباري وأولها:

علو في الحياة وفي الممات ... لحق تلك إحدى المعجزات

في هذا العصر أهلّ أبو إسحاق ودرج، وشب واكتهل، وشاب وهرم، فلا بدع أن يناله ما
ناله، ولكن البدع أن يخرج من هذا المعترك لا عليه ولا له، إذ معنى هذا أنه كان في الأدباء من النكرات، وفي رجال الدولة من الإمعات، وأن حياته لتنبئ عن غير هذا، فقد
اعتقل في عصر معز الدولة عندما أناب عن الوزير المهلبي على ديوان الوزارة والرسائل لخروج الوزير إلى الشام مقاتلاً، فقتل بعمان، وقبض على عماله جميعاً وعلى رأسهم أبو إسحاق ومن قوله وهو معتقل:

يا أيها الرؤساء دعوة خادم ... أوفت رسائله على التعديد

أيجوز في حكم المروءة عندكم ... حبسي وطول تهددي ووعيدي؟

قلدت ديوان الرسائل فانظروا ... أعدوت في لفظي عن التسديد؟

أعليَّ رفع حسام ما أنشأته ... فأقيم فيه أدلتي وشهودي

ولما فك اعتقاله خدم عضد الدولة وهو بفارس، بالشعر والكتابة يفيض عليه المدح
ويضفي الثناء حتى صار الصابي من جملة خاصته، وموضع ثقته ومحبته، ومحل رفده ورضيخته؛ وحتى همَّ بالنزوح معه إلى فارس بعد حلف عقد بينه وبين عز الدولة بختيار
خوف سطوته، وخشية بطشه وفتكه؛ لتوثق علاقته بعضد الدولة، ولكنه - وهو من
عرفنا رعاية لأهله، وحدباً على ولده - خاف أن يأخذ عز الدولة البريء بالمذنب، والمحسن بالمسيء، فينال أهله منه سوء لا يجد لرده دفعاً، ويصيبهم منه شر لا يعرف له درءا، فيكون كمن يفدي نفسه بولده، ويستخلص دمه بدماء ذوي قرابته، وما عرفنا
فيه خيانة للجار الجنب، فكيف به يسلم بنيه وذويه، ويخرج مع البازي عليه سواد؟
عرف عضد الدولة ما يعتلج في نفسه، وما يضطرب به فكره، فجعل أمنه في سربه جزءاً من الحلف، وسلامته في ولده شرط من شروط العقد، فنص فيه على حراسته
في نفسه وماله، وترك تتبعه في شيء من
أحواله. وبعد مزايلة عضد الدولة بغداد استخفى خائفاً، واستتر متوجساً شراً، حتى توسل أحد أصدقائه إلى عز الدولة وإلى وزيره ابن بقية أن يهبا له أمناً، ويبذلا له عوناً، فقبلا التوسل وتركاه طليقاً، وما لبثا أن قيداه سجيناً بإغراء ابن السراج لهما به، وفي هذا يقول ياقوت في معجمه (وجرت له في هذه النكبة خطوب أشفى فيها على ذهاب
النفس، ثم كفاه الله بأن فسد أمر ابن السراج مع ابن بقية بما عامله بالعلة التي عرضت له، فقبض عليه، ونقل القيد من رجل أبي إسحاق إلى رجله) وفي محبسه هذا كتب إلى ابن بقية يستعطفه ويستميحه:

ألا يا نصير الدين والدولة الذي ... رددت إليها العز إذ فات رده

أيعجزك استخلاص عبدك بعدما ... تخلصت مولاك الذي أنت عبده؟

وصفا له الجو، وهدأت عواصف الشر، فاستخدمه عز الدولة فأخلص، واصطفاه فكان
نعم المصطفى، وكتب له كتباً كانت مثار حنق عضد الدولة، ومدار إحنه، ولشد ما غضب عندما أنشأ كتاباً عن الخليفة الطائع لله يشيد فيه بعز الدولة، ومنه (وقد جدد
أمير المؤمنين له (أي لعز الدولة) مع هذه المساعي السوابق، والمعالي السوامق، التي يلزم كل دان وقاص، وعام وخاص، أن يعرف له حق ما كرّم به منها، ويتزحزح له عن رتبة المماثلة فيها) فقد أحفظه هذا التعريض أعظم حفيظة، واضطغن عليه أشد
ضغينة، فلما ملك بغداد سنة سبع وستين وثلاثمائة هجرية أمره أن يؤلف كتاباً في مناقبه، وفي آثار الدولة الديلمية، وذكر فتوحها، فأطاع. وبينا هو في تأليفه وتصنيفه، وتسويده وتطريسه زاره في داره عدو في ثياب صديق، وسأله عما يعمل، فزعم عنه
أنه قال: أباطيل أنمقها، وأكاذيب الفقها، فحركت القالة المزعومة في عضد الدولة
كوامن غيظه، وأثارت منه عوامل ضغنه، فأمر بإلقائه تحت أرجل الفيلة، ولولا أن

استشفع فيه من أصدقائه نصر بن هارون، ومطهر بن عبد الله، وعبد العزيز بن يوسف، لكان في ذلك اليوم من الهالكين؛ فقد أقبلوا على الأرض يقبلونها بين يدي ملكهم ضارعين مستشفعين راجين متوسلين؛ حتى صدر أمره باستحيائه مع اعتقاله، واستصفاء أمواله، فبقي في معتقله هذا ثلاث سنوات وسبعة أشهر وأياماً، وإن جاء ذكرها في شعره أربعاً على سبيل التجوز في قصيدة يسترحم بها عضد الدولة، وقد خرج لزيارة مشهد أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأولها:

توجهت نحو المشهد العلم الفرد ... على اليمن والتوفيق والطائر السعد
تزور أمير المؤمنين فيا له ... ويالك من مجد منيخ على مجد
فلم يُر فوق الأرض مثلك زائراً ... ولا تحتها مثل المزور إلى اللحد

وفيها يقول:

أمولاي: مولاك الذي أنت ربه ... إليك على جور النوائب يستعدي
وهذي يدي مدت إليك بقصة ... أعيذك فيها من إباء ورد
أتاني شتاء ليس عندي دثاره ... سوى لوعة في الصدر مشبوبة الوقد
فلو أن برد الجلد عاد إلى الحشا ... وفار الحشا الحران مني على الجلد
أزيحت لنفسي علتاها فأعرضت ... عن البث والشكوى إلى الشكر والحمد
وداويت داءي النقيضين ذا بذا ... أعدل إفراطاً من الضد للضد

ومنها:

فلا تبعدني عنك من أجل عثرة ... فإن جياد الخيل تعثر إذ تخدى
ولو كنت تنفي كل من جاء مخطئاً ... إذن لعممت الناس بالنفي والطرد
ومن زلّ يوماً زلة فاستقالها ... فذاك حقيق بالهداية والرشد
توالت شني أربع ومدامعي ... لها أربع كالسلك سل من العقد
أحوم إلى رؤياك كيما أنالها ... حيام العطاش الناظرات إلى الورد

ويبدو لي أنه أفرج عنه عقب هذه القصيدة، ولكنه ما سلم حتى ودَّع، وما هنئ حتى ووسى؛ إذ قبض عليه مرة أخرى عندما فتح بغداد للمرة الثانية بعد أن استشفع لديه قبل وصوله إليها بأبي سعد بهرام بن أردشير، وسأله أن يذكره لدى عضد الدولة، ويقيم له عذره، ويوضح له أمره؛ فكان جواب عضد الدولة العفو والمغفرة في كتاب طويل منه: (ومن كانت به حاجة إلى إقامة معذرة، واستقالة من عثرة، أو الاستظهار في مثل هذه الأحوال بوثيقة، فأنت مستغن عن ذلك بسابقتك في الخدمة ومنزلتك من الثقة، وموقعك لدينا من الخصوص والزلفة). ومنه: (فاسكن إلى ذلك واعتمده، ولك علينا - الوفاء به - عهد الله وميثاقه، وقد حملنا أبا سعد - أعزه الله - في هذا الباب ما يذكره لك. والله نستعين على النية فيه وهو حسبنا).

ودخل عضد الدولة بغداد وهو عنه راض، وبرحها إلى الموصل وهو إلى ولاء الصابي مطمئن، ولكن الوشاة - وما أكثرهم - نبشوا الدفائن، وأخرجوا كتباً من عز الدولة إلى أحد عماله بخط الصابي، وفي بعضها قدح في عضد الدولة، ورفعوها إليه، فكتب من الموصل بالقبض عليه، ولعل حديثه هو عن نفسه أدق من حديثنا عنه، فهو يقول:

(كنت جالساً بحضرة أبي القاسم المطهر بن عبد الله وزير عضد الدولة في يوم القبض عليَّ إذ وردت النوبة، ففضت بين يديه وبدأ منها بقراءة كتاب عضد الدولة، فلما انتهى إلى فصل منه وجم وجوماً بان في وجهه، فقال لي أبو العلاء صاعد بن ثابت: أظن في هذا الكتاب ما ضاق صدراً به، وقمت من مجلسه لأنصرف، فتبعني بعض حجابه، وعدل بي إلى بيت من داره؛ ووكل بي، وأرسل يقول لي: لعلك قد عرفت مني الانزعاج عند الوقوف على الكتاب الوارد من الحضرة اليوم، وكان ذلك لما تضمن من القبض عليك، وأخذ مائة ألف درهم منك، وينبغي أن تكتب خطك بهذا المال، ولا تراجع فيه؛ فوالله لا تركت ممكناً في معونتك وتخليصك إلا بذلته. وقد جعلت اعتقالك في دار كما قبض على ولديه أبي على (ضيافتي، فطب نفساً بقولي، وثق بما يتبعه من فعلي الحسن، وأبي سعيد سنان؛ وقد وفى الوزير أبو القاسم بما وعد، فسأل عضد الدولة إطلاقه واستخلافه لقيام أبي القاسم على رأس جند لقتال صاحب البطيحة فقال له: أما العفو فقد شفعناك فيه، وينبغي أن تعرفه ذلك وتقول له إننا قد غفرنا لك عن ذنب، لم نعف عما دونه لأهلنا يعني: عز الدولة والديلم، ولأولادنا بيتنا - يعني: أبا الحسن محمد بن عمر وأبا أحمد الموسوي، ولكنا وهبنا إساءتك لخدمتك وعلينا المحافظة فيك

على الحفيظة منك، وأما استخلافك إياه بحضرتنا فكيف يجوز أن ننقله من السخط والنكبة إلى النظر في الوزارة ولنا في أمره تدبير، وبالعاجل، فتحمل إليه من عندك ثياباً ونفقة وتطلق ولديه، وتقدم إليه عنا بعمل كتاب في مفاخرنا. فحمل إليه المطهر ما أمر به الملك وأطلق ولديه، ورسم له تأليف الكتاب وبقى الصابي في محبسه يؤلف حتى أتم المؤلف، فلم يفرج عنه لوقته بل قيل: إنه أخر الإفراج عنه سنة، فلما رفع إليه إحدى قصائده يطلب فيها الصفح عنه والإفراج، قرأت عليه ولديه بعض أصدقاء أبي إسحاق ومنهم أبو الريان حامد بن محمد وعبد الله بن سعدان فقبلا الأرض وقال أحدهما: إن من أعظم حقوقه علينا وذرائعه

عندنا أن عرفناه في خدمتك، وخالطناه في أيامك. قال: فإذا كان رأيكما فيه، فأنفذا وأفرجا عنه، وتقدما إليه بملازمة داره إلى أن يرسم له ما يليق بمثله، فأفرج عنه قبل وفاة عضد الدولة بأيام، وقيل بل بقي في السجن حتى أفرج عنه ابن عضد الدولة أبو الحسين تاج الدولة.

وإني أرجو غير فاخر أن أكون قد وفقت في سرد وقائع هذا الجزء من حياته، وقربت بين الروايات المتضاربة عن اعتقالاته مستنداً في ذلك الترتيب على التاريخ السياسي للدولة البويهية، وفي المقال التالي نتحدث عن كتابته.

عبد العظيم علي قناوي

علاقة الدين بين العرب والصين

بقلم بدر الدين الصيني

معتقدات الصين القديمة

كان للصينيين دين قبل وصول الديانات الأجنبية إليهم مبني على الأوهام والخرافات، كما كان الشأن في كل أمة من الأمم في الأزمان الغابرة؛ واتخذوا الأجرام السماوية والظواهر الطبيعية معبودات لهم غير معتقدين بخالق جبار يخضع لتصرفه كل شيء من الموجودات والكائنات، فكثرت فيهم الآلهة وتنوعت طرق عبادتهم.

فالحكماء الذين ظهروا في أرض الصين بعد زمن الخرافات وطلوع فجر التاريخ الصحيح، في شخصيات (لوتس و (كانفوشيوس و (مونشيوس و (مائي تس لم يأتي واحد منهم بنظام ديني يسير عليه الصينيون كافة. إلا أنهم جميعاً يعتقدون بما وراء الطبيعة، فمثلاً (الطريقة) عند (لوتس) هي شيء ليس بصورة ولا صوت يبقى دائماً، لا يفنى أبداً، ووجود قبل كل كائن مصدر لجميع الموجودات وروح تحيا بها. فهذا التعريف لطريقة (لوتس) يوافق ما نعتقد بصفات الله. وأما (السماء) في عقائد كانفوشيوس فهو صاحب السلطة الأخير الذي إذا أغاظه الإنسان بارتكاب الكبائر فلا سبيل له إلى النجاة، فلذلك يقول: (أين الدعاء من إغاظة السماء؟).

لا فرق بين (سماء) كانفوشيوس و (سماء) مونشيوس لأن الثاني تلميذ الأول، فهو يحذو حذوه في التفكير والبحث الفلسفي؛ وأما (مائي تس) فدينه دين المحبة والمؤاخاة، يحب الصلاح والسلام ويكره الفساد والقتال؛ ومبادئ حبه تشابه مبادئ الدين المسيحي، وأصول أخوته تماثل أصول أخوة الإسلام؛ لكنه لم يضع نظاماً لإظهار هذا الحب وهذه الاخوة فالكف عن القتال والنهب والامتناع عن السرقة والحسد في اعتقاده من دواعي التحاب ومقويات التآخي، وغير ذلك.

هذه الديانات كلها تخالف الإسلام في مسألة الحشر والنشر والحياة بعد الموت من جهة الاعتقاد، وفي مظاهر العبادات من حيث العمل - لأن أهلها لا يعتقدون بالحشر والنشر، ولم يأتوا بنظام خاص للعبادات - لعل هذا هو السر الذي يبقي أهل الصين في معتقداتهم القديمة مع أن أغلبهم دانوا بالديانة البوذية التي أصلها من الهند، وهذا التدين لم يحدث في

اعتقاداتهم شيئاً من التغير، مع أن الديانة البوذية قد أثرت في أدبيات الصين وفلسفتها تأثيراً بيناً. فرجل الدين من أهل الصين يدين بمجموع عقائد ومبادئ هذه الديانات المذكورة، فلذلك ترونهم يتعبدون على مبادئ كانفوشيوس حيناً وعلى (طريقة لوتس) حيناً آخر، مع أنهم يتعصبون للبوذية إن دانوا بها، أو للمسيحيين إن كانوا مسيحيين. هكذا شأنهم في أمر الدين حتى الآن.

دخول الديانات الأجنبية إلى الصين

معتقدات الصين القديمة التي ذكرتها آنفاً، بطبيعتها ومبادئ لا تنافي الديانات الأجنبية

التي كانت سائدة في آسيا أوسطها وأدناها، فسهل على البوذية أن تتسرب إلى الصين عن طريق تركستان في القرن الثاني للميلاد، وامتزجت بمعتقدات الصين، فصارت الآن ديناً شبه دين الدولة في الشرق الأقصى؛ مع أن مذهب كانفوشيوس أو (طريقة لوتس) أجدر بهذا الاحترام ولها نفوذ في كل ناحية من نواحي حياة الشعب الصيني يظل باقياً حتى يغلبه أثر الإسلام إن قدر الله للإسلام نهضة جديدة في تلك الديار في المستقبل.

من الديانات الأجنبية التي تسربت إلى الصين قبل الإسلام المانوية والمجوسية والنسطورية؛ فدخول المانوية الصين كان في القرن السابع للميلاد جاء إليها من تركستان لأن أغلب أهلها قد اعتنقوا هذا الدين قبل ظهور الإسلام، فانتشروا رويداً رويداً إلى شمال الصين وغربها حتى أسس المعابد لمعتنقيه في الشطر الأول من القرن الثامن للميلاد في بعض المدن الشهيرة، ولهم هياكل كثيرة في ولايات (هانان و (شانسي وكثرة أصحاب هذا الدين يمكن أن نعرفها من الواقعة التي وقعت في عهد (ووشونك) (841 - 846م). وكان هذا الإمبراطور متشبثاً (بطريقة لوتس) ومتعصباً لها، فاضطهد أهل الديانات الأخرى وهدم كثيراً من معابد المانوية والمجوسية والنسطورية. فقتل في عاصمة الصين وحدها 72 نسمة من راهبات المانوية ففنيت هذه الديانة من الصين بعدئذ.

أما المجوسية، كما أشار إليها سليمان السيرافي والسعودي وغيرهم من كتاب العرب، فدخلت الصين قبل الإسلام على الأقل بقرن، ولكنها لم تنتشر إلا في دائرة محدودة. فلما فتح العرب إيران وقضوا على دولة كسرى فَر يزدجرد إلى الشرق ولجأ إلى عاصمة الصين، فأنشأ فيها معبداً للمجوسيين، وكان معه جماعة من علماء المجوسية فبثوا دعايتهم

في شمال الصين، لكن هذه الديانة غير مقبولة عند الصينيين. فالذين دخلوا فيها قليلون جداً. وقد محيت آثارها في سنة 846م كما أسلفنا.

وأما الديانة النسطورية فوصلت إلى الصين في سنة 635م، وذلك بناء على ما ثبت في كتابة تاريخية وجدت بمدينة تشانغ أن - وأول من جاء إلى الصين للدعاية إلى النسطورية كان رجلاً يدعى أولوبن ويظهر من تاريخ الصين أنه استوطن تشانغ، وأنه بنى معبداً للنسطوريين يسكن فيه واحد وعشرون راهباً؛ وكان أولوبن رئيسهم؛ ثم انتشرت هذه الديانة في بعض العواصم وأنشئوا معابد فيها، فنقشوا أعمالهم في الألواح الحجرية ونصبوها في المعابد تذكيراً وتخليداً، فالعبارات التي نقشت في هذه الألواح مدونة الآن في تاريخ الصين العام.

وبعض الكتب العربية يذكر أيضاً ذهاب النسطوريين إلى الصين. مثل أبن النديم، فانه روى في الفهرست أن الجاثليق قد بعث ستة من علماء النساطرة إلى الصين للإرشاد والدعاية فمات منهم خمسة ورجع سادس وهو من أهل نجران إلى الروم بعد الإقامة بالصين نحو ست سنين في سنة 377 هـ.

وكان لهذه الديانة قدم ثابتة في نفوس الصينيين، ولعلها تؤثر في حياتهم إلى حد ما إذا طال أمدها في الصين، لكن مشيئة الله لم ترد انتشار هذه الديانة في الشرق الأقصى فطرد مبشروها، وهدمت معابدها في أواخر القرن التاسع للميلاد، وحكاية الراهب النجراني أيضاً تشير إلى ذلك.

الأغلاط التاريخية فيما يتعلق بدخول الإسلام إلى الصين

لقد أطلت في ذكر هذه الديانات الأجنبية مع أن محور بحثي في هذا الموضوع هو دخول الإسلام، وإني مضطر إلى أن أفعل هذا لأن الأغلاط التاريخية التي تتعلق بدخول الإسلام لا يمكن أن تستدرك إلا بمعرفة تواريخ هذه الديانات ودخولها إلى الصين. لقد قيل أن الإسلام قد وصل إلى الصين في عهد (كائي وانغ - من (أسرة هوي - ومعنى ذلك أن دخول الإسلام الصين قد وقع بين سنتي 589 و605 م، وهذا مستحيل لأن محمداً رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لم يبعث بالرسالة إلى العالم كافة إلا في سنة 610 م.

ومن رأي أن القائل بهذا القول قد أخطأ في هذه النقطة فحسب المجوسية التي دخلت

الصين في أواخر القرن السادس للميلاد دين الإسلام الذي دعا إليه صاحب الرسالة بعد نبوته، مغالطاً في دليله إذ قال إنها ديانة جاءت من (الغرب) بالغين ففهم من (الغرب) (العرب) ووقع خطأ فاضح دون أن يشعر أن الإسلام لم يكن له وجود في جزيرة العرب قبل سنة 610 من تاريخ الميلاد. فظهر من هذا الاستقراء أن الدين الذي وصل إلى الصين في عهد (كائي وانغ) كان في الحقيقة المجوسية لا الإسلام. وعندنا شهادة نقلية في الكتب الصينية غير تلك الدلائل العقلية التي أشرت إليها آنفاً، ونعرف أن بعض المجوسيين قد وصلوا إلى (تشانغ آن) في أول عهد (كائي وانغ) وأنشئوا المعابد وكانوا يغنون في صلواتهم فيها. ومن أناشيدهم الدينية نوع يقال له (موفوش) يوجد ذكره في (ديوان أغاني الصين) وفسر صاحب الديوان هذه الكلمة بأنها نوع من الأغاني الدينية للمجوسيين الذين وردوا إلى الصين في عهد (كائي وانغ) وهذا دليل قاطع يرد على من يدعي دخول الإسلام في هذا العهد.

أما اتصال الإسلام بالصين فكان عن طريقين: طريق البر وطريق البحر. كان قتيبة ابن مسلم الباهلي الذي فتح كاشغر في سنة 96 هـ، هو الأول الذي بعث وفداً من العرب بطريق البر إلى إمبراطور الصين أواخر تلك السنة فعرضوا عليه أحد الأمور الثلاثة: الإسلام والجزية والمحاربة. ولابن الأثير في هذا الوفد أقوال طريفة توجد في تاريخ الكامل، وللقارئ أن يرجع إليه في هذا الصدد، وأما وصول الإسلام إلى الصين بحراً ففيه اختلاف بين المؤرخين في سنة الوصول وفيمن هو أول من جاء بالإسلام إلى أقرب مرافئ الصين (كانتون).

(لها بقية)

بدر الدين الصيني

عضو من البعثات الصينية بالأزهر الشريف

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فرديك نيتشة

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

الغبطة القاسرة

وسار زارا يقطع أبعاد البحر تساوره مثل هذه الهموم، وتدور به مثل هذه الأسرار، حتى إذا تخطى مجال أربعة أيام عن الجزر السعيدة وما ترك عليها من صحبه، اشتدت عزيمته فتغلب على آلامه، وثبّت قدميه في موقفه متجهاً إلى مقدراته مناجياً سريرته وقد عاد إليها مرحها وسرورها قائلاً:

لقد فزعت إلى عزلتي لأنني تقت إليها، فأنا الآن منفرد أمام صفاء السماء ومدى البحار، وقد خطا النهار إلى عصره وما التقيت بأصحابي للمرة الأولى إلا في وقت العصر، وفي مثل هذا اليوم اجتمعت بهم للمرة الثانية. والعصر هو الساعة التي يهدأ فيها اضطراب الأنوار جميعها لأن السعادة الذاهبة بدداً منشورة على مسالكها بين السماء والأرض تتجه إلى الاستقرار في روح الضياء. وها أن السعادة تحول اضطراب النور إلى سكون.

فيا لعصر حياتي! إن سعادتي هي أيضاً قد انحدرت يوماً إلى الوادي تطلب مستقراً فلقيت هذه الأرواح النيرة تفتح لها الملجأ الأمين.

يا لعصر حياتي! لكم تخليت عن أشياء في الحياة توصلاً إلى مغارس أفكاري الحية وإلى أنوار الصباح تدور في ذراتها أسمى أماني وآمالي.

لقد طلب المبدع يوماً رفاقاً له وفتش عن أبناء آماله فأدرك أنه لن يجد إذا هو لم يخلقهم خلقاً.

لقد أتممت نصف مهمتي باتجاهي نحو أبنائي وبعودتي إليهم، وقد وجب على زارا أن يبلغ نفسه الكمال من أجل هؤلاء الأبناء. وما يحب الإنسان من صميم قلبه إلا ابنه ونتيجة جهوده، وحيث يتجلى الحب الأشد فهنالك تكمن القوة المولدة؛ ذلك ما أدركته بتفكيري.

إن أزهار أبنائي لا تزال تتفتق في الربيع والريح تهب على صفوفهم فتهزها؛ فأبنائي أشجار حديقتي ونبت خير أراضي.

إن هذه الأشجار متراصة في منابتها على الجزر السعيدة، ولسوف أقتلعها واحدة فواحدة لأغرسها متفرقة فتتعلم احتمال العزلة وتنشأ فيها الأنفة والحزم لينتصب كل

منها تجاه البحر وقد تعدب جزعها وتعقدت أغصانها كمنائر حية للبقاء القاهر.
على كل شجرة أن تشخص في مهب العواصف المترامية إلى البحر حيث يتدافع الغمر إلى قاعدة الجبل فلا تغفل ليلاً ونهاراً عن تفحص سرائرها. عليها أن تتحمل التجارب ليعلم أنها من سلالتي وأنها تحدرت من أصلي تعززها الإرادة المجالدة فتبدو صامتة حتى عندما تتكلم، وإذا ما استسلمت تبدو معطية وهي آخذة. وهكذا يتحول من يمشي على أثر زارا بإضرابه وبإبداعه إلى شخصية تحفر شريعتي على ألواحي فيكتمل بذلك كل شيء.
وهاأنذا من أجل هذه الشخصية وأمثالها أسعى إلى تكوين شخصيتي فأمتنع عن ورود السعادة مقتحماً كل شقاء في آخر تجربة أتحملها لأدرك سريرتي.
لقد آن الأوان لرحيلي وقد نبهني إلى وجوب الرحيل خيال المسافر وأطول الأزمان وأعمق الساعات صمتاً إذ نفخ الريح في فتحة القفل فتراجعت درفة الباب قائلة: هيا.
ولكنني كنت مقيداً بحبي لأبنائي يأسرني تشوقي إلى هذا الحب لأصبح فريسة لهؤلاء الأبناء فأضحى من أجلهم نفسي؛ وما الشوق عندي إلا صورة ظاهرة لحقيقة فنائي. إن أبنائي لي وفي هذا التملك يجب أن يضمحل كل شوق مستحيلاً إلى عقيدة مكينة.
وكان رأسي يلتهب بشمس محبتي فأتحرق بحرارة دمي فرأيت أشباح الشكوك تدور بي من كل جهة فتمنيت أن يلفحني قر الشتاء حتى تصطك أسناني من رعشة الصقيع، وما عتم أن اكتسح نفسي ضباب الجليد، فشق الماضي لحوده وبعثت منه الآلام التي دفنت وهي حية فيها، وما تناولها الفناء لأنها كانت نائمة طي أكفانها.
وكان كل شيء يشير إلي بأن قد حان زمن الرحيل ولكنني كنت لا أنتبه إلى هذه الدعوة حتى تحركت أعماقي ولسعتني ثائرات أفكاري. ويا ليت لي القوة للتغلب على ارتعاشي عندما أشعر بقوة التفكير في أغواري تحاول أن تخترق لها منفذاً، فإنني لا أزال أحس باختلاج قلبي عندما أتنصت لدبيب أفكاري وهي تحاول الانجلاء لي. إن في صمتك نفسه أيتها الفكرة ما يشد على عنقي وأنت أشد صمتاً من أغواري. ولكم حاولت أن أستخرجك من الأعماق أيتها الفكرة فخانني العزم واكتفيت بإضماري إياك في ذاتي. إنني لم أتصل
بعد إلى جرأة الأسد وإلى منتهى إقدامه.
إنك لجد ثقيلة في أغواري أيتها الفكرة ولسوف أجد يوماً قوة الأسد وأتخذ لصوتي زئيره فأرفعك من الغور إلى المنبسط، حتى إذا ما تغلبت بذلك على نفسي تدرجت إلى انتصار أعظم أختم به أعمالي. وإلى أن أبلغ هذا الظفر سأبقى تائهاً على بحار لا أعرف لها ساحلاً تداعبني خطرات الأحداث فأتلفت إلى ما ورائي وإلى ما أمامي ولا أعلم أين المنتهى.
ألم تحن بعد ساعة جهادي الأخير أم هي ماثلة أمامي الآن؟ والحق أن البحر والحياة يحيطان بي بجمالهما الفتان ويعلقان أبصارهما علي.
فيا لعصر حياتي، يا للسعادة تتقدم ساعة المساء، يا للمرسى في وسط العباب، يا للسكون في قلب الارتياب، إنني أحاذركنّ ولا أثق بكنّ جميعاً.
أما والحق إنني أخشى جمالكن الغدار كما يخشى العاشق ابتسامة تجاوزت حد التلطف في افترارها. إنني أرفع عني ساعة السعادة كالغيور يصد عن محبوبته ولما يزل العطف يتجلى في قسوته وجفائه.
بُعداً لك أيتها الساعة السعيدة! فقد اجتاحتني بحلولك غبطة قاسرة وأنا أتوقع أعمق الأحزان. لقد جئتني في غير الأوان.
بُعداً لك أيتها الساعة السعيدة! اذهبي واطلبي لك ملجأ هنالك في مقر أبنائي، سارعي إليهم وباركيهم قبل حلول المساء وأنيليهم سعادتي.
لقد اقترب الغسق وجنحت الشمس إلى الغروب فتوارت عني سعادتي.
هكذا تكلم زارا. . .
وبات يتوقع نزول شقائه به طوال ليله، غير أنه انتظر عبثاً إذ بقى الليل منيراً ساكناً واستمرت السعادة تخطو مع الساعات مقتربة إليه. وما لاح الفجر حتى بدا زارا يتضاحك قائلاً:
إن السعادة تتأثرني لأنني لا أتأثر النساء، وهل السعادة إلا امرأة؟
قبل بزوغ الشمس

أيتها السماء الرافعة قبابها فوق رأسي نقية صافية، أيتها السماء السحيقة وقد غادرت في أبعادك الأنوار، إنني أشخص إليك فتمتلكني رعشة الأشواق الإلهية.
أنا لا أسبر أغواري إلا إذا سموت إلى عليائك، ولا أشعر بطهارتي إلا حين يجللني صفاؤك.
إنك تحجبين نجومك كما يتلفع الإله بسنائه. أنت صامتة وبصمتك تذيعين لي حكمتك.
لقد تجليت لي اليوم في سكونك على زبد الآفاق فأعلنت لروحي المزبدة ما فيك من حب وعفاف. جئت إلي جميلة مقنعة بجمالك تخاطبيني بلا كلام وتعلنين حكمتك وما كنت أعلم ما في روحك من عفاف. أتيت إلي قبل بزوغ الشمس أنا المنفرد في عزلتي.
أنا وأنت صديقان منذ الأزل فأحزاننا واحدة كارتياعنا، وعمق أغوارنا وشمسنا واحدة أيضاً. وما نتناجى إلا لوفرة ما نعلم ثم يسودنا الصمت فنتبادل ما أعرف وما تعرفين بلغة البسمات. أفما بعثت أنوارك من مكمن أنواري أفليست فكرتك أختاً لفكرتي؟
لقد تعلمنا كل شيء سوية وتدربنا سوية على الاعتلاء فوق ذاتنا متجهين إلى صميمها مبتسمين بافترار لا تعكره الغيوم. وبلفتات صافية نغرقها في سحيق الأبعاد في حين تتدافع كالأمطار تحتنا النزعات المكبوتة وأهداف الأخطاء.
إلى مَ كانت تتوق نفسي عندما كنت أذهب في الليل شارداً على مسالك الضلال؟ وماذا كنت أطلب في تسلقي الجبال نحو قممها؟ أفما كنت أنت مقصدي أيتها السماء. وهل كانت أسفاري جميعها إلا ذهاباً مع حافز التدرب؟ وهل كان لإرادتي من هدف غير التحليق في الأجواء؟ وهل أبغضت شيئاً بغضي الغمام وكل نقاب يلفع الضياء؟ لقد كرهت بغضي نفسه لأنه يعكر صفاءك أيتها السماء.
إنني أنفر من هذه الغيوم تمر كأنها قطط برية تزحف زحفاً لأنها تختلس مني ومنك أيتها السماء الحقيقة الإيجابية الثابتة في كل شيء؛ فأنا وأنت ننفر من هذه الدخيلات المعكرات من هذه الغيوم الكاسحات، فما هي إلا كائنات مختلطة في نوعها يسودها التردد فلا تعرف أن تلعن بإخلاص ولا أن تبارك بإخلاص. وخير لي أن ألجأ إلى مغارة أو أسقط في هاوية من أن أقف أمامك يا سماء الضياء وقد عكرت صفاءك الغيوم الكاسحات. ولكم وددت لو أنني أسمر أردانها على آفاقك بسهام البروق الذهبية ثم أنزل عليها الرعود تهوى قاصفة على مراجل أحشائها. إنني أود قرعها بعصا الغيظ لأنها تحجب عني حقائقك أيتها السماء الممتدة بأغوار أنوارها فوق رأسي كما تحجب حقيقتي عنك.
لخير لي أن أسمع هزيم الرعود وولولة العواصف من أن أتنصت إلى مواء هذه الهررة الزحافة المترددة. ففي المجتمع أمثال لهذه الغيوم يسيرون مترددين بخطوات الذئاب وقد وقفت أشد بغضي عليهم.
ذلك ما ألهمتنيه السماء (على من لا يعرف أن يمنح البركة أن يتعلم إنزال اللعنات) الصافية مبدأ ينير سمائي كالكواكب في أشد الليالي قتاماً.
ما دمت فوقي أيتها السماء الصافية المتألقة بالأنوار فإنني لا أنقطع عن منح البركة وإيراد بياني إيجاباً وتأكيداً لأنير بعقيدتي جميع الأغوار المظلمة.
لقد جاهدت طويلاً حتى أصبحت مباركاً ومؤكِداً. وما ناضلت إلا لأحرر ذراعي فأبسطهما للبركة؛ وتقوم بركتي على الاعتلاء فوق كل شيء كما تعتلي السماء والسقوف المكورة وقباب الأجراس والغبطة الدائمة. فطوبى لمن يبارك هكذا. لأن كل الأشياء قد تعمدت من ينبوع الأبدية وما وراء الخير والشر؛ وما الخير والشر إلا خيالات عابرة وأحزان بليلة وغيوم متراكضة إلى الفناء.
والحق أن من البركة لا من اللعنة أن نعلم بأن فوق كل شيء تمتد سماء الصدفة وسماء البراءة وسماء الحيرة وسماء الاضطراب.
إن كلمة الصدفة لأقدم ما في العالم من نسب للأشياء؛ وقد أرجعت كل الأشياء إلى هذا النسب النبيل فأنقذتها من عبودية المقصد والهدف. وهكذا رفعت الحرية والغبطة السماوية عالياً ونصبتها كالقباب فوق جميع الأشياء إذ علمت أن ليس من إرادة أبدية تعلو بها لتبسط مقاصدها فوقها.
لقد وضعت حداً لهذه الإرادة بل لهذا الجنون وهذا الاضطراب عندما علمت أن الوقوف عند الحقيقة كان مستحيلاً وسيبقى مستحيلاً. فما هناك إلا قليل من التعقل وذرات من

الحكمة تتلقفها الكواكب لخميرة امتزجت بالأشياء جميعها ولولا الجنون لما امتزجت بها.
ليس للإنسان أن يعطي من الحكمة إلا قليلاً. غير أنني وجدت في كل مكان عقيدة لها سعادتها وهي تفضيل الرقص على أرجل الصدفة العمياء.
فيا أيتها السماء الممتدة فوق رأسي، أيتها السماء الصافية المتعالية، لقد أصبح كل صفاء فيك قائماً على اعتقادي بأن ليس في الكون عنكبة خالدة، وليس فيه من الحكمة ما تنسجه العناكب. فلتكن مجالاتك أيتها السماء مسرحاً لخطرات الصدف الإلهية، أو فلتكن خواناً يدحرج عليه الآلهة نردهم، فعلام يعلو أديم وجهك الاحمرار؟ أترى جاء بياني مبهماً أم وردت بركتي لك لعنة عليك؟ أم أخجلك أن أنفرد بك فأردت أن أتوارى وأكف عن الكلام لأن الفجر قد لاح على الآفاق؟
إن في العالم من الأغوار ما لا يدركه النهار، ومن الأشياء ما يجب كتمانها أمامه، وقد باغتنا النهار، فلنفترق.
أيتها السماء الممتدة فوق رأسي بطهرها واضطرامها. أيتها الغبطة المتجلية قبل بزوغ الشمس، لقد باغتنا النهار فلنفترق.
هكذا تكلم زارا. . . . . .
(يتبع)
عروس الماء
للأستاذ إبراهيم العريض
لذتُ خلف الغصون في ... عزلةٍ لا أملّها
وحواليَّ خضرة ... بَلَّها ما يبلها
من نُهير زها على ... جانبيه محلها
فإذا راقت السما ... ءُ بدا فيها ظلها
وزهور يلوح كال ... قُرط في الأذن طَلّها
جادها الماءُ قبلةً ... ومضى يستقلها
وانبرى البلبل الود ... يع لها يستغلها
فكأن الحياة ثمَّ ... تَ للحب. . . كلها
أنا في نشوة أحدّ ... ث نفسي بما أراه
وأرى ملء ناظر ... يّ حياة - هي الحياة
تحت ظل يكاد يش ... تعلُ الزهر في مداه
وسكونٍ يمدُّه ... بلبلٌ بالذي شداه
وكأنَّ الوجودَ يب ... سم حولي بما حواه
وإذا بي أحسُّ خل ... في حراكاً على المياه
فتلفتُّ مستري ... باً إلى النهر. . . من أتاه
آه. . . ماذا شعرتُ في ال ... إثر تحت الضلوع. . . آه
وتواريتُ في الصخو ... ر وجانبتُ حدَّها
وسددتُ الصدوع حو ... لي ما استطعتُ سدها
حذراً أن تنمّ بي ... قبلَ أن أستجِدها
نظرةً كالوميض تب ... تدرُ العينُ ردها
لا تسلني بمن رأى ... تُ فأضمرتُ ودها
إذ تمثَّلتْ كالشعا ... عِ على الموج قدها
يتهادى منعَّماً ... فترى الماءَ ضدها
كلّما دافعتَهُ جلَّ ... لَ بالشعرِ خدها
فتمنَّيتُ لو دنت ... لي قريباً كما هيه
فأرى شعرَها يبلّ ... لها وهي عاريه
وأرى طرفَها تصّ ... دُّ به صدَّ عافيه
وأرى في تورَّدِ الخ ... دِّ أشياءَ ثانيه
وأرى حُقَّتين وسَطَ ... هما بعضُ غاليه
تستمرّانِ في النهو ... ضِ وإن تَحْنُ جاثيه

وأرى الماَء قد كسا ... ها على المتن حاشيه
فغدت من مهابةِ ال ... حسنِ تبدو ككاسيه
وانثنت نحو ناتئٍ ... فانثنى الموجُ صفَّها
ترتمي فوقَ صدرِه ... بيدٍ. . . ما أخفها
فاستوت عنده بحي ... ثُ ترى العينُ نصفَها
فأمرّت على السوا ... لفِ بالرفقِ كفها
تنقضُ القطرَ عن غزي ... رٍ من الشعرِ لفها
ثم قامت فطوَّقَ ال ... ماءُ كالرَيْطِ خلفها
غير أنّي غضضتُ طر ... فيَ عن أن يشِفها
هي حوريَّةٌ من ال ... إنسِ. . . والماءُ زفها
وتخيّلتُ أنني ... قائمٌ في جِوارها
حينَ تنسابُ بالحري ... رِ - وإن لم يُوارها
حولَ ساقَين عاطِلي ... ن - يد في سوارها
ثم تحنو لترتدي ... ما نضت من وقارها
فإذا عادلت به ... سرَّةً في مدارها
أرسلت ظُلمةَ القمي ... صِ على ضوءِ نارها
وإذا ما مشت تموَّ ... جَ ما في صدارها
فتثنَّى عليهما ... فضَلةً من خمارها
واكتست. . . ثم أبصرتْ ... بي عندَ انحدارها
فاستَفزَّت. . . كأنها ... صُورةٌ في إطارها
(البحرين)
إبراهيم العريض
نقل الأديب
للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

335 - سبحان الله!

في (بغية الوعاة): الشيخ ضياء الدين القرمي العفيفي العلامة المتفنن كان إماما عالماً بالتفسير والرواية والمعاني والبيان والفقه، وكانت لحيته طويلة بحيث تصل إلى قدميه، ولا ينام إلا وهي في كيس، وإذا ركب تتفرق فرقتين. وكان عوام مصر إذا رأوه يقولون: سبحان الله! فكان يقول: عوام مصر مؤمنون حقاً لأنهم يستدلون بالصنعة على الصانع. . .

336 - ألم نسمع بفتكة جساس؟

أبو بكر بن جزي في طبيب يهودي:

ورُبّ يهوديّ أتى متطبباً ... ليأخذ ثارات اليهود من الناس
إذا جسّ نبضَ المرء أودى بنفسه ... سريعاً، ألمْ تسمعْ بفتكة جسّاس؟

337 - كنت أكون أذن أحمقين

في (ألف با) لأبي الحجاج البلوي: دخل جحا ذات يوم دار الرحا فجعل يأخذ من قمح الناس ويجعله في قفته فقيل له: لأي شيء تضع هذا؟ فقال: لأني أحمق. فقيل له: فلم لا تجعل شيئاً من قمحك في قفاف الناس؟ فقال: كنت أكون أذن أحمقين. . .

338 - أقمته مقام هزؤ

في (سرح العيون) لابن نباتة المصري: يروى أن المأمون كان قد أنحرف عن سهل بن هارون إلى أن دخل عليه يوماً فقال: يا أمير المؤمنين، إنك ظلمتني وظلمت فلاناً الكاتب. فقال: ويلك وكيف؟! قال: رفعته فوق قدره، ووضعتني دون قدري، إلا أنك في ذلك اشد ظلماً. قال كيف؟ قال: لأنك أقمته مقام هزؤ، وأقمتني مقام رحمة. فضحك المأمون وقال: قاتلك الله ما أهجاك! ورضى عنه.

339 - ولكن سليقي أقول فأعرب

في (تاريخ اليمن) لنجم الدين عمارة اليمني: جبلا عكاد فوق مدينة الزرايب وأهلها باقون على اللغة العربية من الجاهلية إلى اليوم، لم تتغير لغتهم بحكم أنهم لم يختلطوا قط بأحد من أهل الحاضرة في مناكحتهم ولا مساكنتهم. وهم أهل قرار لا يضعنون عنه.

ولقد أذكر أني دخلت زبيد في سنة (520) أطلب الفقه دون العشرين فكان الفقهاء في جميع المدارس يتعجبون من كوني لا ألحن في شيء من الكلام، فأقسم الفقيه نصر الله بن سالم الحضرمي بالله لقد قرأ هذا الصبي في النحو قراءة كثيرة. فلما طالت المدة والخلطة بيني وبينه صرت إذا لقيته يقول: مرحباً بمن حنثت في يميني لأجله. ولما زارني والدي وسبعة من إخواني في زبيد أحضرت الفقهاء فتحدثوا معهم فلا والله ما لحن أحد منهم إلا لحنة واحدة نقموها عليه.

340 - ما يقول هذا؟

في (خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر) للمحبي: مر بعض الظرفاء بغلام جميل فعثرت فرس في طين أصاب وجه الغلام منه نزر فقال الظريف: (يا ليتني كنت تراباً!).

فقال بعض المارين للغلام: ما يقول هذا؟

فقال: (ويقول الكافر: يا ليتني كنت ترابا) . . .

341 - يعشق مطلق الجمال

في (شذرات الذهب ونفح الطيب): كان ابن الفارض عشاقاً يعشق مطلق الجِمال حتى أنه عشق بعض الجِمال وولع به فكان يستأجره من صاحبه ليتأنس به، فقيل له: لو اشتريته فقال: المحبوب لا يُملك. وزعم بعض الكبار أنه عشق بَرنية بدكان عطار.

وذكر القوصي في (الوحيد) أنه كان للشيخ جوار بالبهنسا يذهب إليهن فيغنين له بالدف والشبابة وهو يرقص ويتواجد. وكان أيام النيل يتردد إلى المسجد المعروف بالمشتهى في الروضة ويحب مشاهدة البحر مساء، فتوجه إليه يوماً فسمع قصاراً يقصر ويقول:

قطع قلبي هذا المقطّع ... لا هو يصفو أو يتقطع

فصرخ وسقط مغمى عليه فصار يفيق ويردد ذلك ويضطرب ثم يغمى عليه وهكذا.

342 - الأمن، الصحة، الغنى، الشباب

في (العقد): قال الحجاج بن يوسف لخريم الناعم: ما النعمة؟

قال: الأمن، فإني رأيت الخائف لا ينتفع بعيش.

قال له: زدني.

قال: فالصحة، فإني رأيت المريض لا ينتفع بعيش.

قال له: زدني.

قال: الغنى، فإني رأيت الفقير لا ينتفع بعيش.

قال له: زدني.

قال: فالشباب، فأني رأيت الشيخ لا ينتفع بعيش.

قال له: زدني. قال: ما أجد مزيداً.

343 - ما سمعناه في كتاب الأغاني . . .

مسعود الدولة النحوي مقدم الشعراء في أيام الأفضل أحمد بن بدر الجمالي أمير الجيوش المصرية:

ما أطاقوا تأمّل الجيش حتى ... كحلت كل مقلة بسنان

غنّت البيض في طُلاهم غناء ... ما سمعناه في (كتاب الأغاني)!

344 - خلعت ما لا تملك على من لا يقبل

حكي عن الشريف المرتضى أنه كان جالساً في عِلِية له تشرف على الطريق، فمر تحته ابن المطرزي الشاعر يجر نعلاً له بالية وهي تثير الغبار، فأمر بإحضاره، فلما حضر قال له: أنشدني أبياتك التي تقول فيها:

إذا لم تبلغني إليكم ركائبي ... فلا وردت ماء ولا رعت العشبا

فأنشده إياها، فلما انتهى إلى هذا البيت أشار الشريف إلى نعله البالية وقال: أهذه كانت من ركائبك. . .؟

فأطرق المطرزي ساعة ثم قال له: لما عادت هبات سيدنا الشريف (أيده الله) إلى مثل قوله:

وخذا النوم من جفوني فإني ... قد خلعت الكرى على العشاق

عادت ركائبي إلى مثل ما ترى لأنك خلعت ما لا تملك على من لا يقبل. . .

رسالة العلم

ما بعد الطبيعة

للأستاذ محمد حسن البقاعي

كان علم ما بعد الطبيعة يعرف في القرون الأولى باسم (الفلسفة الأولى) وأول من أطلق عليه هذا الاسم هو أرسطو. أما مخترع كلمة (ميتافيزيك) فهو (آندرونيكوس من جزيرة رودوس. والسبب الذي دعاه إلى تسمية هذا العلم بما بعد الطبيعة هو أن الفلسفة الأولى جاءت في كتب أرسطو بعد الطبيعيات، فأطلق عليها اسم ما بعد الطبيعة.

أما موضوع ما بعد الطبيعة فهو درس الموجود من حيث هو موجود؛ فهي تتعمق في الأسباب وتبحث فيها أكثر من كل العلوم، أي هي تبحث في العلل الكافية لنفسها بنفسها والتي تنشأ عن كل المعلولات. ولقد حدد الفلاسفة موضوع ما بعد الطبيعة فقالوا: علم ما بعد الطبيعة يدرس الوجود المطلق وهذا الوجود يظهر لنا بصورتين:

1 - الصورة الطبيعية المادية

2 - الصورة المعنوية

فعلم ما بعد الطبيعة يدرس الطبيعة والنفس ومباحث الفكر والعالم الخارجي والداخلي وهو على نوعين:

1 - الكونيات العقلية وهو علم ما بعد الطبيعة الذي يدرس الطبيعة والمادة والحياة، فهو يبحث إذن في الطبيعة المادية.

2 - النفسيات العقلية وهو علم ما بعد الطبيعة الذي يدرس مسألة الفكر وطبيعته، والروح وماهيتها. فهناك إذن مسألتان: مسألة المادة ومسألة النفس؛ وهذان المبدءان يحتاجان إلى مبدأ يكون علة لهما وهو الإله جلّ شأنه. فعلم ما بعد الطبيعة يبحث في غاية الغايات وهو الله تعالى. ولنبدأ الآن بالبحث في المادة التي هي من الكونيات العقلية فنقول:

1 - المادة

كثيراً ما بحث الفلاسفة في المادة من القرون الأولى إلى العصر الحاضر، ويتلخص بحثها في نقطتين أساسيتين:

1 - الوصول إلى معرفة الأسباب التي تجعلنا نعتقد بوجود المادة.

2 - الوصول إلى معرفة حقيقة المادة بعد أن نقبل وجودها.

أما وجود المادة ففيه مذهبان: مذهب الرأي العام والحس السليم، ومذهب الفلاسفة. فالرأي العام يقبل وجودها لأنه كوجودنا، ولأن الحياة العملية تسمح لنا بالاتجاه في العالم الخارجي دون أن تخولنا حق الشك في وجوده. ففكرة المادة وطبيعتها لا يصعب على الرأي العام والحس السليم بيانهما بياناً واضحاً؛ فإننا نجدها مركبة من معان مألوفة. وكلنا نعتقد أن المادة هي جوهر دائم وراء الأعراض يتغير من صورة إلى أخرى دون أن ينعدم أو يزول. وإذا رجعنا إلى دستور العالم الكيميائي الفرنسي (لافوازين المسمى بمبدأ بقاء المادة القائل: (لا خلق ولا فناء في هذا العالم بل الكل في تحول) علمنا أن المادة تتحول من شكل إلى آخر؛ فالخشب مثلاً يتحول إلى رماد وغاز، ثم تتكاثف الغازات. . . وهكذا. فالمادة على كل حال موجودة لا تتلاشى. ونحن نعتقد أيضاً أن المادة غير متجانسة، فهي تتصف بصفات مختلفة باختلاف الأجسام التي تتركب منها؛ فكل جسم له مادة لا تشابه مادة الجسم الآخر؛ فمادة الكبريت غير مادة الصوديوم، ومادة الصوديوم غير مادة النحاس، وهكذا. وهذه المادة عاطلة فهي لا تتحرك من نفسها لأنها غير قادرة على تبديل حالة سكونها بحركة، أو تغيير شكل حركتها التي هي خاضعة لها.

وأما الفلاسفة فقد ذهبوا في وجود المادة مذاهب شتى، حتى أن (زينون ده ليه ' أحد الفلاسفة الخياليين في القرون الأولى بحث في إثبات وجودها (وكأن ذلك يحتاج إلى إثبات) فقال: إن فكرة المادة لو حللناها لوجدناها مجموعة متناقضات لأن العناصر التي يتركب منها جوهر المادة كالزمان والمكان والحركة كلها متناقضة. فالحركة كلها تناقض وعلى ذلك فلا وجود للمادة أصلاً. وهو ينكر وجود الحركة كما ينكر معنى الزمان بالمعنى المعروف ومعنى المكان بالمعنى المألوف. وأدلته على إنكار الحركة كثيرة، منها أن الأرنب إذا لحق أرنباً آخر وكان بينهما مسافة وكانت سرعة الخلفي نصف سرعة الأمامي فإنه لا يلحقه أبداً، لأنه بحسب الحساب الرياضي يلحقه في اللانهاية؛

وهما لا يستطيعان أن يذهبا إلى اللانهاية. فترى أن بحثه أوصله في النهاية إلى إنكار وجود المادة. وكان (ديوجين)
يعترض على زينون فيمشي ويقول: يا أستاذ؛ هاأنذا أمشي فلم تنكر الحركة؟
وقد بقيت هذه الأدلة إلى زمان (ليبنيز و (ديكارت على بساط البحث، ولكن (هنري برغسون رد عليه ردوداً كثيرة؛ كما أن حساب ليبنيز (النهاية الصغرى) ليس هو إلا رداً على زينون وأدلته الفاشلة. هذا وإن فيثاغورس وأفلاطون وتلاميذه يقررون أيضاً أن الوجود الحقيقي ليس وجود الأشياء المحسوسة بل هو وجود المعقولات فقط؛ لذلك فإن رجال الكهف (كهف أفلاطون) أي الناس كافة لا يرون إلا خيالات حقيقية. فقيمة العالم الخارجي في نظر أفلاطون الذي يعد في طليعة الخياليين هو هذه الخيالات. وقد أعطى أفلاطون للمعقولات وجوداً بالنسبة للعالم الخارجي المحسوس. لذلك فإنه يسمى خيالياً وجودياً.
أما في العصر الحاضر فقد ظهر أناس دافعوا عن الخيالية أمثال فيخته وهيكل. ولكن (بركليس) أخذ مذهب الخياليين وقال بعدم وجود العالم الخارجي مستنداً في تحليله إلى المعرفة التي توجد عندنا عن العالم الخارجي، ولكننا نعلم أن هذه المعرفة الموجودة فينا ناشئة عن الإحساس؛ وقديماً قال أرسطو: الإحساس أول العلم. فهذه الاحساسات التي هي أول العلم وأساسه هي شخصية وكيفية؛ ومجموع صفات الأجسام يمكن أن يرجع بالنسبة إلينا إلى هذه الاحساسات التي لولا وجودها عندنا لما استطعنا أن نطلع على الأجسام. فالجسم إذن هو مجموع احساسات إذا حذفت لا يبقى من الجسم شيء. يقول (بركليس) إنني لا أعرف الجوهر ولكني أعرف العرض. وهل ندرك الأعراض إلا بالاحساسات. فالاحساسات هي تغيرات نفسية تتأثر من الجوهر وتجعلنا ندرك الأعراض الناشئة عنها.
وقد قسم (بركليس) الأحوال الناشئة في الذهن والصفات الموجودة في الأجسام إلى قسمين: (1) الصفات الثابتة كالحرارة والطعم والنور (2) الصفات الأولى كالامتداد والمقاومة اللذين لا تدركهما إلا مصحوبين بصفات ثابتة مثل الحرارة والنور والطعم. فالأجسام كلها تستحيل إلى هذه الصفات الأولى والثابتة. ونحن لا ندركهما إلا بالاحساسات - كما تقدم - فكثير من معلولات النفس يبين لنا أن الإدراك والوهم متعاونان في الطبيعة وأنه لا يمكننا تمييز إحداهما عن الآخر. أضف إلى ذلك أننا عندما ندرك العالم الخارجي لا نستطيع في محاكمتنا أن يحصل عندنا منه إلا فكرة، والفكرة هنا كل الحقيقة. لذلك فأننا لا نمتزج في
نفوسنا في كل إدراكاتنا. وهذا هو نفس دستور بركليس القائل , ' - أي الوجود هو الإدراك. فهل العالم الخارجي موجود لأننا ندركه أم ندركه لأنه موجود؟ فبحسب دستور بركليس موجود لأننا ندركه.
ويمكننا في مناقشة أدلة بركليس أن نقتصر على ذكر الاعتراضات التي وجهها الوجوديون على هذه الأدلة؛ فقالوا إن احساساتنا ناشئة عن الأشياء الخارجية وهي منتظمة، ومتفقة لأننا نرى ما يراه غيرنا، فنحن إذن متفقون بالأشياء التي نراها. فالقوانين التي تخضع لها احساساتنا تجعلها معقولة في نظرنا. وهذا ما كان يدعو (ليبنيز) إلى القول: (إن إدراكاتنا ليست إلا عبارة عن أحلام مرتبط بعضها ببعض، بل هي أحلام ذات إحساس. أي أنها منبعثة من وجود خارجي) فالوجوديون رفضوا بذلك نظرية الخياليين وقالوا إن العالم الخارجي موجود. . .
أما البحث في طبيعة المادة فتناول الفرضيات التي دافع عنها العلماء فيما يتعلق بماهيتها وذلك يتخلص في نظريتين عامتين:
1 - نظرية الميكانيكية
2 - نظرية الحركة
فالميكانيكية تستدل في دراسة الجسم الاعتباري الكيفي بالاعتبار الكمي. فكل التبدلات في الأجسام يمكن أن نرجعها إلى الميكانيكية وهي تتبدل بحسب تقدم العلم؛ وأول شكل للميكانيكية هو ما نجده عند ديموقريطس الذي يقول: إن العناصر الأولى في الجسم هي الجوهر الفرد (أتوم) وهو لا يُرى ولا يتناهى الجواهر الفردة من طبيعة واحدة ولكن لها أشكالاً مختلفة؛ ويتعدد هذا الجوهر الذي هو متين صلب لا يتبدل حاله ولا وزن له. فتتكون الأجسام، ولا يوجد في هذه الجواهر حرارة ولا لون ولا صوت. فهو

يؤكد أنه لا يوجد شيء محسوس في هذه الحقيقة الوجودية التي سماها جوهر أفرد. لذلك قال: إن الجواهر لا كيفية فيها بل هي كمية؛ فهو يقربها من صفة حسية. ويمكن اعتبار نظريته هذه كتجربة أولى علمية لتوضيح الأشكال بصورة أولى ميكانيكية. ومن أشهر الفلاسفة الذين طبعوا على غرار ديموقريطس هو (أبيقور) فقد نسج في ذلك على منواله وزاد عليه بإعطائه الجوهر الفرد قوة الانحناء أي جعله يستطيع أن يغير الجهة التي يتحرك فيها إذ
جعل فيه قوة خاصة.

والشكل الآخر للميكانيكية هو نظرية (ديكارت، وسبينوزا) اللذين يعتقدان أن جميع خواص الأجسام يمكن إرجاعها إلى الحركة. ومن هنا نشأت جملة ديكارت المشهورة (أعطني حركة وامتداداً وأنا أكوِّن العالم). ولكن هذا القول يحتاج إلى برهان بل إلى براهين. فديكارت يعتقد أن الحركة والامتداد هما العنصران الفعالان في تكوين هذا العالم؛ وقد أنكر بذلك قدرة الإله وأثبت الفاعلية لأحد مخلوقاته الذي لا يستطيع أن يغير حالة سكونه بدون قوة إلهية تسيطر على الامتداد وتهيمن على الحركة فتبعث فيهما الحياة. ويظهر لنا أن رأي ديكارت فاسد، وإن كان قصده بالامتداد العاري عن كل صفة حسية كالحرارة واللون أي هو الحيز الهندسي الذي لا يوجد فيه آتوم حسي بل هو الفراغ اللانهائي.

ولقد تطورت الميكانيكية بعد ديكارت تطوراً هاماً؛ ففي العصر الحاضر، ليس الجوهر الفرد كما كان عند ديموقريطس وأبيقور بسيطاً لا يتجزأ بل هو مختلف عن رأيهما كل الاختلاف. فمبدأ الاحتفاظ بالقوة وتناقض القدرة وخاصة تشعع الراديوم هو الذي جعلهم يعتبرون الآتوم مركباً من الإلكترونات السالبة التي تدور حول عقدة مركزية موجبة ومسافاتها كنسبة بعد الأرض عن الشمس. . . فإنهم يكادون يرجعون كل الأجسام إلى عنصر واحد، حتى أن (غوستاف لوبون) قال: إن هذه الآتومات تسبح في أثير سيَّال غير مادي تتكون منه جواهر الأشياء.

يستند أصحاب هذه النظرية إلى الإحساس، فقد قال أحدهم (هلمولتز) إن الإحساس نسبي؛ فكثيراً ما يكون المؤثر واحداً وتختلف الحساسية ويختلف الإحساس وبالعكس. فالاختلافات الظاهرة في العالم الحسي ناتجة إذن عن اختلافات الحس الموجود. لذلك قيل: إن عنصر الأشياء هو واحد؛ ولهم أدلة أخرى يصلون بها إلى إثبات وصف الحادث وهي التجارب التي قام بها (هوبكنس) و (دوفريل) و (أراغو) وهي مسألة الاهتزاز والانتشار للنور. ولكنه ظهر أخيراً أن النور يكون بالتموج.

وعندما ظهرت هذه الأدلة قبلها العلماء في بادئ الأمر ظناً منهم أنها منتجة. ثم انتقدها كثيرون وأثبتوا بُعْدَها عن كنه الحقيقة. فدليلهم الذي يعلنون به أن القدرة في العالم لها كمية ثابتة لا يسمح لنا بإرجاع كل القدرة إلى قدرة واحدة. وأول شيء يجعلنا نحجم عن قبول
رأي الميكانيكية هو وجود بعض الحوادث التي لا يمكن أن تنعكس، فلو كانت ميكانيكية لانعكست. فالشمس مثلاً تشرق من الشرق وتغرب في الغرب فهذه لا يمكن أن تنعكس؛ وهذا دليل واضح على وجود قوة تحركها في هذا الاتجاه. وقد انتقد (ليبنز) رأي ديكارت فقال: إذا قبلنا أن الامتداد يجوز أن يكون فيه حركة أو سكون، فلو فرضنا جسماً مثل (ج) تحرك في هذا الامتداد وصادف جسماً آخر (ب) في حالة السكون، فهذا الأخير لا يبقى ثابتاً بل يتحرك، ولكن حركته ليست نفس حركة (ج) بل يقاومه بكتلة، وهذه الكتلة تنقص من سرعة الجسم (ج). نستنتج من ذلك أن الامتداد والحركة ليسا كافيين، ولو كانا كافيين لما كان يجب أن ينقص من سرعة (ج) وحركته.

إذن يوجد في المادة شيء غير الحركة والامتداد وهو القدرة المدخرة التي هي عبارة عن قوة تتصف بها الأجسام ولا يمكن الاستغناء عنها فهي قوة كامنة تسمى (الموناد فهي جوهر روحي تتكون من الأجسام وبواسطته يمكن تعليل المقاومة.

أما كل من دافع عن نظرية القدرة فإنه يستبدل أجزاء الآتوم بالقدرة وهي الحقيقة الجوهرية الكامنة في قلب كل الأشياء. فقد قال (أوسفالد): عندما نصاب بعصا فبماذا نشعر، أبا العصا أم بالقدرة؟ بالطبع نشعر بالقدرة التي هي الشيء الإيجابي الثابت الموجود في كل الأشياء. وهي ليست واحدة في جميع الأجسام؛ بل تتصف بأشياء مختلفة متناسبة مع شخصياتها وخواصها النوعية. والصعوبة في ذلك هي أن قوة تصدر

هذه القدرة هل هي مركبة من عناصر بسيطة بقوة الإرادة كما يظن (هوكسلي على أن القدرة الفعالة لا يمكن أن تعتبر إلا كحالة شعورية فقط؛ وهذا يمكن أن يظهر غريباً. ولكن إذا حاول الإنسان أن يهتم بما يفهمه عن القوى المتجهة الواحدة منها نحو الأخرى يرى أنه يدركهما كأنهما يتحركان الواحد نحو الآخر بسرعة ما. وعند ذلك لا يتصور إلا الحركة تاركاً القوة جانباً. وأما أن يتصور كل جزء كأنه مصحوب بشيء يشابه حالته كحالة الإرادة وهو يعلم هذه الجهة. ونحن نشك أن صعوبة التفكير بالقوة شيء غير مقابل بالإرادة. فليبيز إذن يقترب من الحلول الأخيرة عن طبيعة المادة.

(انتهى بحث المادة)

دمشق

محمد حسن البقاعي

القصص

أقصوصة من هـ. ستاكبول

أحلام فضية

للأستاذ دريني خشبة

من نجوة (بون بك) يشرف الناظر على مرأى عجيب من رؤوس الأيك النائم في الغابة، والحياة الدائبة الصاخبة في الوادي، وأبراج (تور) المنطبعة في أديم الأفق، والشعاب الملتوية بين الدوح الجبار. . . ثم. . . هذه الرقائق من الفضة تنساح في مجرى اللوار، راقصة على رنين النواقيس من فيروفلاي، مضطربة تحت أقدام أرليان، متلاشية في لا نهائية البعد مما يلي المنبع. . . في شعاف السِّفِنْ.

ومع ذاك، فلم يكن فوق بون بك غير سنديانات أربع، منهن دوحة جدة، عظيمة الجذع ذاهبة الأفنان، وإن يكن قد نخزها الزمان، ونامت قرونه في الكهف الكبير الذي احتقرته في أصلها. . . ثم شجيرات حفيدات تينع في الربيع، وتنضر في الصيف، وتتجرد فيما سوى ذلك من فصول السنة. ولم تغير الثورة شيئاً من معالم هذا الغاب، على كثرة ما غيرت من معالم فرنسا، فهذا هو العم العجوز المتداعي (جين كابوش) ما يزال يقطع الخشب من الغابة ويُحمّله إلى شاتود نيفر، وما يزال يعالج الشجر ويصيد الأرانب، ويؤدي الأعمال التي كان يؤديها أبوه وجده من قبل، والتي كان يؤديها آباؤه الأولون. . . وإن له لآباء أولين يتلاشون في لا نهائية الأزل، كما يتلاشى اللوار في ظلام السِّفِن. . . فإذا قدر لك مرة أن تلقاه في أحد شعاب الغابة، لقيت رجلاً من القرون الغابرة لا يعرف عن زماننا شيئاً، ولا تربطه بالعصر الحديث رابطة؛ وكذلك تلقى بنته الجميلة الساذجة العذراء ماري، التي إن حدثتها حدثت قطعة من الغابة لا تدري ما وراءها. . . على أنها مع ذاك تصبيك وتفتنك، وتسحرك بجمالها العميق الملغوز، وتتأرج في نفسك وقلبك كما تتأرج البنفسجة الفيحاء، لا تدري من أين يسبيك جمالها.

أما أبوها - العم جان - فقروي - لا، بل ريفي قح، يحسبه من يلقاه نابي الذوق، جافي الطبع، لأنه لا يعرف قوانين التقاليد التي تفرضها حياة المدن على سكانها، ومن هنا عدم

تمييزه بين طبقات الناس، فهم جميعاً سواء عنده، حتى رئيس الجمهورية الذي كان يجوب غاب فيروفلاي مرة، فلقيه فحياه؛ وكان جان يحتسي كأساً من الخمر، فلم يلتفت للحاكم الأعلى حتى أتى على النُّطف الأخر في الكأس، وبعد أن مسح فمه بكمه، وتجشأ وتمنّق، قال للرئيس: (أجل، أعرف أنك الرجل الذي يختاره الفرنسيون ليمثل دور الملك في باريس!). وماذا تنتظر من جَمّاع أحطاب وإنسان غاب أن يقول غير هذا؟

وربما كان للأسطورة التي تناقلها آل كابوش أباً عن أب، وجداً عن جد، في طويل الأزمان والآباد، أثر في هذه العنجهية التي تبدو أحياناً في أخلاقهم. ذلك أنهم كانوا دائماً يفخرون أن ملك الغابات في الزمن القديم كان رئيس قبيلتهم. . . فإذا كلم جان رئيس الجمهورية بهذه اللهجة، فأحجى بالرئيس أن يشكر الله، لأنه فرد عادي جداً إذا قيس بجان سليل ملوك الغاب!!

ما كان أجمل الأصيل فوق البون بك وقد جلست ماري الساذجة فوق العشب الحلو، تحت السنديانة الكبيرة، تعمل بإبرتيها في جورب الصوف الخشن الذي كانت تبيع ما تصنع منه في نهاية كل شهر لبازين العجوز تاجر الملابس في بورجه! لقد كانت تتحدث

إلى عنْزِها المربوطة في جذع السنديانة كلما ضجرت من العمل، كما كانت تغنى بصوتها الرنان الجميل فتغمر الغابة المنتشية بألحانها، وتمتلئ أجواء الوادي الساكن بأغنياتها الطورينية الحبيبة، التي لم تعرف النوتة، ولم تأخذ طريقها إلى البيان، بل احتفظت بريفيتها المقدسة لتخرج من فم ماري، كما تخرج موسيقى الملائكة من قدس السماء!

ما كان أجمل الأصيل فوق البون بك حين جلست ماري فوق عشبه، وقد أخذ الخريف يواسي الناس بأنفاسه الربيعية، وقد راحت مارجوت - العنز السعيدة - تقضم الحشيش الحلو مرة، وتصغي إلى غناء ماري أخرى. . . وماري، فيما بين هذا وذاك تعمل أناملها في الجورب الذي أوشك أن يتم، لتتم به الاثنا عشر جوربا، ولتنطلق بها فتاة البون بك إلى التاجر بازين فتتسلم منه ثمنها، وتعود بالحلوى والفطيرة فتملأ فم مارجوت!

لقد جلست ماري تعمل وتغني، بينما كان السادة الباريسيون أصحاب الفيروفلاي، وأصحاب قصرها المنيف المنيع الذي تأخذه العين في أفق الغابة فترى منه أبراجه الشواهق، يصيدون الأرانب في المتائه والمسارب، ويطلقون بنادقهم على القنافذ والثعالب، فتتردد

. . .طلقاتها في أذن ماري، وتثير في قلبها الصغير شتى الهواجس والأفكار

هكذا كانت الفتاة تفكر. . . (لا بأس، صبراً يا بازين صبراً، هاقد (!!الإبرتان الشقيتان) أوشكت أفرغ من هذا العناء الذي تشتريه مني بفرنكات معدودة لا تكاد تكفي ثمناً لمسح حذاء واحد من سادتنا. . . أوه! يالك من عقدة خبيثة! اذهبي إلى الشيطان! ألا ما أصعب إصلاح العقدة المختلطة! إنها كاللغز الذي لا يمكن حله! ما هذه الطلقات النارية يا سادة!! ارحموا الثعالب والأرانب، وارحموا أبي جان المسكين! ماذا يصيد هو إن لم تبقوا على أرنب واحد! هذا بلاء والله! أوه! وا رحمتاه لك يا أبي! إن صيد أرنب أو أرنبين أيسر عليك من قطع عسلوج واحد مع فرق ما بين الأجرين! الأغنياء! الثروة التي لا يحصيها عد!. . . . . الخ. . .).

وسمعت الفتاة صوت بوق يُدَوّي في آفاق الغابة شغلها عن إبرتيها، وعن غنائها، وعن مارجوت. . . وعن كل شيء. . . حتى عن هذه السلسلة غير المنتظمة من الأفكار الفضولية التي كثيراً ما تزدحم بها رؤوس الناس، لأتفه ما يثيرها من الأسباب.

وأرسلت عينيها في شعاب الغابة مرة، وفي مسايل اللوار أخرى، فرأت السادة الأغنياء قد فرغوا من صيدهم، وقد حمل خدمهم أحمال القنص على خيول ضخمة، وانطلق الجميع يعدون نحو القصر المنيف، كما تعدو السمادير أمام العين العشواء، وكما تنطلق أحلام النائم في كل صوب. . . حتى غابوا عن بصرها.

وعادت ماري إلى إبرتيها بعد إذ ثابت إلى نفسها. . . وبدأت تعمل وتغني من جديد! ولم تكد تفعل حتى سمعت صوتاً حنوناً يهتف بها، فأرسلت عينيها في كل حدب، ولكنها لم تر أحداً. . . وارتبكت هذه المرة، وحاولت أن تعمل، ولكن العقد اختلطت أكثر من ذي قبل، وعاد الصوت الحنون يهتف وينادي. . . ونظرت ماري، وبحثت بعينها في كل مكان، فإذا بنبيل من السادة الصيادين يناديها في السفح البعيد، ويشير إليها بيده الآمرة أن تذهب غليه.

لم تتحرك ماري، بل ظلت ساكنة صامتة. . . وكأنما غيظ النبيل من سكونها، فغمز حصانه الكبيرة غمزة فأنطلق يطوي النجوة صعداً في غير مبالاة، كأن الدنيا بأسرها ملك له ولأجداده الخيول من عهد عاد! حتى الخيل تعرف الصفاقة أضعاف ما يعرف النبلاء!

لقد كان رجلاً عملاقاً له مهابة وفي عينيه نُبْل، وله لحية خفيفة فوق صدغيه قد وخطها الشيب فجعلها سنجابية حائلة كلون السحب في أوائل الخريف. . . وكان عريض المنكبين بارز الصدر واسعه، عظيم القامة، يشغل الناظر إليه عما يلبس من غريب الثياب التي تتخذ للصيد في غاب فرنسا. . . فلا خافية النسر التي راح النسيم يداعبها فوق مفرقه، ولا الجوارب الجلدية وما فوقها من أخفاف، ولا هذه السراويل الفضفاضة التي تغطي ظهر الجواد، ولا تلك القفازات اللامعة التي تحجب يديه، ولا هذه النياشين التي تتوهج فوق صدره، والقلائد الذهبية التي تتحوى حول عنقه. . . لا شيء من هذا أو ذاك قد بهر عيني ماري كما بهرها هذا الجسد الهرقلي، وذاك الوجه الصارم، والرجل العملاق!

. . .واقترب الجواد بمن عليه
وتبسم النبيل وكأنما كانت الدنيا كلها تبتسم معه، وحيَّا ماري، ثم قال:
- (قصر فيروفلاي يا جميلتي! قصر فيروفلاي! أتستطعين أن تديني عليه، أو تعلميني الطريق التي أسلكها لأبلغه؟ لقد ضاعت سبيلي في شعاب غابتكم المضلة، فهل لك في أن تصحبيني، يا غادة؟).
لقد نظر النبيل إلى ماري فحمد الله والصدف أن ضلت سبيله، ليلقى هذه الجنّية الريفية الحسناء في هذا الأصيل الجميل من أصائل الخريف، وفوق هذه النجوة الناضرة المطلة على الغابة الشاسعة جميعاً. . . ولقد كان يبلع ريقه مرة بعد أخرى وهو يكلمها، وكان يكلمها بعينيه الجائعتين، أكثر مما كان يكلمها بلسانه اللاهث الظامئ، وكان يحس قلبه وهو يخفق ويخفق، كأنما يبتغي أن يثب إلى عينيه ليشبع من مرأى ماري هو الآخر!! يا لسحر الجمال! لقد عجب النبيل كيف عاش عمره الطويل المفعم بلا حب، وفي الدنيا العريضة مثل هذه الفتاة التي تسجد تحت قدميها القلوب!! لقد جعل جسمه يرتجف فوق الجواد، وجعل يقلب عينيه في الفتاة التي انعكست على وجهها آراد الشمس الغاربة فصبغته بالذهب، وتركت في جبينها وخديها سَفْعاً من اللهب يشبه الشفق، يزيده فمها الصغير الخبيث اشتعالاً!
- (أوه يا سيدي! إنه هناك وراء هذا الدوح، وهو قريب جداً من هنا. . . أنظر. . . هاهي ذي أبراجه تلوح وراء الغصون العارية. . . ثم هاهي ذي الطريق واضحة بينة!).
وكانت ماري قد نهضت من مكانها وهي تقول ما تقول. وتشير بيديها، فينحسر الكُمَّان عن
مرمر الذراعين اللدنتين، وطرف الثوب عن جزء من الساقين الجميلتين، فيجن جنون النبيل الجليل!
وفي الحق. . . لقد خفق قلب ماري هو الآخر، لأنه أحس بما ينبعث من عيني الرجل من الصبوة والشغف. . . وما كان يسيل في ألفاظه من الرقة والضراعة، وإن لم يعبر عنهما إلا بهذا الروح الذي يفهم من غير أن يرسم!!
ووثب الرجل من فوق جواده، ووقف قريباً من ماري، ثم راح ينظر في الأفق ويتعاشى ويقول:
- (أجل. . . هاهي ذي أبراجه! ولكن أنى لي أن أهتدي إليه في غابتكم المضلة. . . تعالي يا صغيرتي فديني عليه. . . إني أخشى أن أبيت ليلي في الغابة مع أرانبكم وثعالبكم!
- (بكل سرور يا سيدي. . . لا أحب إلى من أن أفعل. . . هلم!
- وهذه العنزة؟ أتتركينها هنا؟
- (أوه! إن مارجوت ستنتظرني هنا يا سيدي! وأين تذهب ما لم أعد إليها. . . ثم هي مربوطة مع ذاك!
- (إذن هلمي!
وانطلقا نحو السفح، ثم مضيا في طريقهما. . . هي إلى جانبه، أو في ظله! وهو، وحصانه من ورائه، ينظر صامتاً. . . ساكناً.
وفكرت ماري في اللهجة التي كان يكلمها بها فشاع فيها نوع من الزهو، ثم اتسع خيالها فوثقت أنه أحبها، بل هو يكاد يعبدها، وكان هذا الإحساس يملأ الدنيا في عينيها سعادة، وفي قلبها بهجة. . . وعرفت من ثيابه ومن منطقه أنه ليس من هذه الجهة من جهات فرنسا. . . قد يكون ضيفاً على آل فيروفلاي. . . على كل حال هو ليس من هذا الإقليم. . .
وأخذ الرجل يخلق الأحاديث ليسمع صوت ماري. . . هذا الصوت الموسيقي العذب الذي كان يملأ سمعيه وينفذ إلى أعماق قلبه كأنه رنين القُبل! وكانت هي تجيب في ظرف وتيه وأدب، فتخلب لب الرجل، وتذيب نفسه الوامقة بما تكسر من مخارج الكلمات، وما توشي في أواخر الجمل، كأنها الربيع الفينان ينثر وروده ورياحينه في أكناف الحديقة!!
ولقد كان القصر على بعد فرسخ أو نحوه من النجوة، ولقد كان قصراً عتيقاً من عهد شارل التاسع، ولكن الغابة كانت مع ذاك أقدم منه عهداً. . . بل كانت هي هي الغابة منذ كانت هناك غابات في جنبات فرنسا، ومنذ كان جد ماري ملكاً عليها في بطن

الأزل!!
وذكرت ماري هذا الجد الملك، فسرى في أعطافها الكبر القديم الذي ما يفتأ يسري في أعطاف آبائها وأهلها. . . وللحال آمنت أنها جديرة بقلب هذا النبيل، وأنه سيكون فخوراً بها!!
ونظر النبيل إلى جنبات الغابة فتغيرت في عينيه صورتها الجافة الخريفية التي انطبعت فيهما منذ الصباح، وصارت جنةً فيحاء آهلة بالحور العين أمثال اللؤلؤ المكنون، منضورة بالورد عبقة بأريج الرياحين كهذه الجنة التي وعد المتقون! لماذا؟ لم يدر الرجل. . . لكنه كان يؤول كل ذلك بوجود ماري الجميلة إلى جانبه. . . ماري، التي غيرت نظرته إلى الحياة، فجعلتها مشرقة باسمة، بعد أن كانت قمطريراً كالحة، لا تصلح لهذا العبث الذي كان يقرأ عنه في الكتب، والذي سماه الشعراء بالحب. . .
ولم تزل ماري تسلك بالرجل في هذا المنعرج وذاك المنعرج، ولم تسير به في متائه كثيرة، وتخطو به في فجاج كلهن مصائد وفخاخ نصبها أبوها للأرانب، حتى وقفا آخر الأمر لدى بوابة عتيقة. . . هي من غبر شك أعتق من القصر الذي تؤدي إليه وأذهب منه في البلى.
وكانت البوابة صغيرة واطئة، فصاحت ماري فجأة وهي تقول: (أوه يا سيدي! لن يستطيع حصانك أن يدخل من هنا. . . أوه! لقد نسيت، ليتني ذهبت بك إلى باب القصر!).
فتضاحك النبيل ثم قال: (ليس هذا شيئاً. . . إني سأربطه هنا، وهو ينتظرني كما تنتظرك. . . ما. . . ما. . . ما اسم عنزك؟).
- مارجوت يا سيدي.
- مارجوت! إي والله مارجوت. . . ولكن ما سنُّك يا عزيزتي؟
قال ذلك وقد أرسل أصابعه المرتعشة تربت تحت ذقنها الجميل وعينيه المشوقتين تسبحان في جمالها الريان!
- أنا؟ سني ست عشر سنة!
- ما شاء الله! سن فينانة! واسمك إذن!؟
وقال ذلك أيضاً بعد أن صعد آهة عميقة كادت تحرق بحرها صدره.
- ماري. . . ماري يا سيدي!
- ماري! ماري! وحسب!؟
- ماري كابوش يا سيدي!
- ماري كابوش. . . حسن جداً! ماري كابوش اسم جميل ظريف، بيد أنني سأطلق عليك من الآن اسم (زهرة الغابة!).
ثم تقدم فأخذ رأسها الصغير في يديه المتخاذلتين، وطبع على جبينها قبلة عميقة حارة، استودعها كل أماني حبه، ثم دس يده في جيبه وقال:
- (والآن. . . تقبلي مني هذا القليل. . . من. . . الذهب. . . للذكرى. . . لا للفائدة!)
ولما نظر في حافظته لم يجد بها إلا قطعة فضية واحدة. . . وحدجته ماري بعينين جريئتين ثم صاحت في رقة وحب: (أوه يا سيدي! ليست بي حاجة إلى نقود فأذكرك بها. . . إني سأذكرك إلى الأبد. . . لن أنساك!) وامتلأت عيناها بالدموع فجأة. . . وأحست بقلبها يرتعد ويخفق. . . وودت لو استطاعت فهربت في شعاب الغابة، لولا أنها نظرت إلى الرجل فوجدته مثلها ممتلئ العينين بالدموع. . . وصدره يعلو ويهبط، آية على ما فيه من مثل ما في قلبها!
- ليس في حافظتي إلا هذه. . . لتكن تذكاراً مني على كل حال!
- تذكار أحتفظ به إلى آخر رمق في حياتي يا سيدي!
- أوه! دائماً يا سيدي يا سيدي! ناديني باسمي المجرد يا ماري! أنا أدعى هنري. . .! (ليت لي مثل سنك يا ماري! ليت لي مثل سنك!).
- حسبك قلب مثل قلبي يا. . . هـ. . . هـ. . .
- هنري. . .! ماري. . . ماذا بك. . .
وجعلت الفتاة تبحث الأرض بعينيها مرة. . . وتحدق بهما في وجه هنري مرة أخرى. . . ثم تناول الرأس الصغير مرة ثانية فطبع عليه قبلتين حملتا سر قلبه، وودعها وهو يقول

لها:
- هنا يا ماري يجب أن نلتقي الليلة بعد أن يشرق القمر! وأومأت ماري برأسها الصغير. . . وانطلقت تعدو كالمجنونة في ظلام الغابة.
ولم تفتأ ماري تستعيد الذكريات الحبيبة التي لم تمضي عليها هنيهات. . . ولم تفتأ تردد هذه النداءات الجميلة (يا جميلتي. . . يا صغيرتي. . . أوه شيري!! يا عزيزتي. . . إلى . . . هذه المترادفات التي يمتلئ بها قاموس الحب، وألواح الغزل الإلهية المقدسة!
هل هو حلم؟
نبيل من أماثل نبلاء فرنسا يحب هذه الريفية الساذجة التي لا قيمة لها إلا مسحة من الجمال؟ هذا النبيل العظيم الذي يملك أن تكون له جنة من حسان باريس، تشغفه هذه القروية من بنات الغاب؟ بل هو حلم. . . بل هو حلم!
وعادت إلى البون بك ففكت رباط مارجوت، وحملت سلة أشغالها، وعادت أدراجها إلى كوخ أبيها مصدعة القلب، واجمة الروح، كاسفة البال، لا تفكر إلا في هذه اللحظة التاعسة التي لقيت فيها هذا النبيل. . أولم تلقه. . لأنها ظنت أنها كانت تحلم!
وأقبل أبوها فأعدت له عشاءه فالتهمه، ثم انبطح على فراشه الخشن فلم يلبث أن نام، وراح يغط في سبات عميق.
وجلست هي في غرفتها تجتر أحلامها، وتصور الحادث الأكبر الذي زعمته حدث لها. . . ولكن رنين القبل على. . . جبينها. .! كان ما يزال يرن ويطن. . والنداءات الغزلية كانت ما تزال تتردد في مسمعيها. . .
وانهزم الظلام فجأة فهبت إلى النافذة فرأت القمر ينبثق من الأفق الشرقي، ويكسو بنوره الأحمر البركاني جوانب السماء الرهبة. ثم ارتفع مليك الليل رويداً فابيض نوره، وجعل كلما ارتفع ينشر في الوجود أضواء ولآلئه. . . فاعتزمت ماري أن تخرج إلى موعدها. . . ولو كان حلماً حقاً. . .
وانسرقت الفتاة في ظلام الكوخ الذي كان يملأه شخير أبيها النائم رهبة ثم انفتلت إلى الغابة. . . الغابة الفضية الصامتة التي كانت حينذاك أشبه بمعابد الهنود، فجعلت تنسرب في شعابها وكلما تحرك غصن أو برز أرنب وجلت المسكينة وجلاً شديداً، وهي كانت تحرس الغابة في الليالي المظلمة من الذؤبان والسباع. ثم لم تزل تسير في هرولة. . . ولم يزل قلبها يخفق ويدق. . . ولم يزل خيالها يمتلئ بالمخاوف. . . حتى كانت عند البوابة
القديمة!
وا أسفاه! تبدد الحلم الفضي. . . إن هنري ليس عندها! وتلبثت ماري تتنسم أثر هنري. . . لكنها لم تجد شيئاً. . . فعادت محطمة ذاهلة موهونة. . . واخترقت الغابة وهي لا تخشى من أشباحها شيئاً. . . إذ ما يهمها أن يفترسها الذئب أو يحرقها العفريت؟! لا يهم. . .
ورأت أنواراً ساطعة تنبعث من الكوخ. . . وسمعت فيه ضجة. . . فخشيت أن تدخل. . . وظنت أن أباها افتقدها فلم يجدها فولت هاربة.
ولكن هنري كان قد لمحها من نافذة كوخ أبيها، فانطلق في إثرها. . . ثم عاد معها إلى الكوخ لتعانق أباها الذي يقول لها:
- (هنيئاً لك يا ماري. . . هنيئاً لك يا هنري. . . لك أكبر الشرف يا بني أن تكون سليلة ملوك الغاب زوجتك!).
وهكذا تحقق الحلم الفضي!
دريني خشبة
البريد الأدبي
العربية والإنكليزية
كنت كاتب في جريدة (الأجبشيان جازيت) عن تعلم المصرين اللغة الإنكليزية يقول إن المصرين في مقدمة الشعوب التي تتقن التكلم والنطق بالإنكليزية، ولكنهم لا يصلون في ذلك إلى براعة السويديين والهولنديين وإن كانوا يفوقون الألمان والفرنسيين في ذلك بمراحل، ويرجع ذلك إلى أن الطلبة المصريين يتلقون اللغة الإنكليزية في مراحل الدراسة الأولى من الأساتذة الإنكليز أنفسهم، ويخصصون لدراستها في الأسبوع عدة ساعات، وبذلك تتاح لهم فرصة ملائمة لتلقي نطقها ولهجتها من أبنائها الأصليين،

وبذلك ينجون من اللهجات الغريبة التي تخالطها أحياناً البلاد الأخرى.
وفي قول الكاتب كثير من الصحة، ولكنا نستطيع أن نزيد على قوله أن الطلبة المصرين لم يبلغوا في تحصيل اللغة الإنكليزية ما كان حقيقاً بهم أن يبلغوه في مثل هذه الظروف والفرص الملائمة، فالحصص التي تخصص لتدريس الإنكليزية في مدارسنا الثانوية تكاد تعادل الحصص التي تخصص للعربية، ومع ذلك فقد لوحظ أن الطلبة يلاقون في تعلمها صعاباً شديدة، وأنهم ما زالوا في تعلمها في مستوى لا يبعث على الرضى. وقد كان لهذه المسالة ضجة في العام الماضي اهتم لها رجال التعليم والمسئولون من رجال وزارة المعارف.
على أن الذي نريد أن ننوه به هنا هو أنه إذا كان للمصرين حظ من إتقان اللغة الإنكليزية سواء في التحدث أو الكتابة بها فإنه من بواعث الأسف أن يجيء هذا الإتقان في أحوال كثيرة على حساب اللغة العربية. وإذا كان ضعف الطلبة في اللغة الإنكليزية قد لفت نظر المسئولين من رجال التربية، فأن ضعفهم في اللغة العربية كان أيضاً باعثاً إلى الاهتمام والنظر.
وفي رأينا أن اللغة العربية ما زالت مغبونة الحق في مدارسنا الثانوية، وقد كان طغيان الإنكليزية والفرنسية على مناهج التعليم في الماضي مفهوماً، وكانت لذلك ظروفه وبواعثه. ومن الحق أن نقول إن هذا الافتئات عل حقوق العربية في الماضي كانت له آثار سيئة في تكوين الأسس التي قام عليها التعليم القومي في العهد المنقضي؛ ولكنا لا نفهم لماذا يبقى
هذا الافتئات باقياً إلى اليوم بعد أن تحررت برامج التعليم من القيود التي كانت تحول في الماضي دون تقديم العربية على سواها.
إن تعليم اللغات الأجنبية الحية من العناصر الجوهرية في تكوين الثقافات الحديثة؛ ولا شك أن الإنكليزية والفرنسية من أهم اللغات الثقافية، ولكن الذي نرجوه هو ألا يبقى هذا العنصر الأجنبي كما كان في الماضي أداة للغزو الثقافي والمعنوي على حساب اللغة القومية، وأن يقتصر الأمر فيه على الاغتراف من مناهل الثقافة والعرفان.
هل كانت الفيوم منزل شعب في العصر الحجري
عثر المنقبون أخيراً في بقعة أثرية على مقربة من بحيرة قارون بمديرية الفيوم على جمجمة بشرية قديمة جداً. وقد عرضت هذه الجمجمة على العلامة الدكتور دري أستاذ التشريح بكلية الطب المصرية، فقرر بعد الفحص أنها لرجل بالغ، ويغلب علي الظن أنه كان ضعيف العقل نظراً لصغر حجمها عن الطبيعي. على أن هذا الفحص التشريحي ليس أهم ما في الموضوع، وإنما هو القيمة الأثرية؛ فقد عرفت هذه البقعة المجاورة لبحيرة قارون بأنها كانت وطن شعب مصري قديم يرجع إلى آلاف السنين قبل الميلاد. ووجد فيها العلماء المنقبون ولا سيما العلامة الألماني يونكر كثيراً من الآثار التي تدل على أن هذه البقعة قد عرفت العصر الحجري. ودلّ فحص الجمجمة المشار إليها من الوجهة الأثرية على أنها لإنسان عاش منذ نحو ثمانية آلاف عام. فإذا صح ذلك فأن علم الآثار المصرية يخطو خطوة جديدة نحو معرفة التاريخ المصري القديم. ذلك لأن قدم الوثائق الفرعونية التي عثر علها ترجع إلى نحو ثلاثة آلاف عام قبل المسيح أي إلى خمسة آلاف عام؛ ولكن هذه اللقطة الجديدة إذا عززت ببعض آثار أخرى توجد في نفس المنطقة وتماثلها في القدم، قد توجه أنظار الباحثين إلى مرحلة أقدم جداً من تاريخ مصر الفرعونية.
هذا وقد أحال الدكتور دري هذه المسألة إلى العلامة في الأجناس الدكتور تيودور منود مدير متحف التاريخ الطبيعي بباريس، فأجاب بأن خواص الفلين في الجمجمة المشار إليها توجد الآن عند كثير من فصائل الزنوج في أفريقية الشمالية، وفي الصحراء الكبرى. وتاريخ هذا الإنسان مجهول، ويوجد بين القبائل المغربية قبائل تحمل جماجمها بعض هذه الخواص.
وإذن فالمسألة ما تزال موضع البحث والتحقيق.
جائزة فاروق الأول
استقر الرأي على أن يطلق على الجوائز التي أقترحها الدكتور حافظ عفيفي باشا لتشجيع الحركة الأدبية والعلمية: جوائز فاروق الأول في الأدب وفي غيره من الفروع والفنون التي يستحق صاحبها من أجلها تلك الجائزة. ورأت اللجنة جعل الموضوعات

التي تدخل في نطاق الجائزة ستة تتصل بالحياة المصرية في الأدب والقصص والاجتماع والتشريع والتعليم والزراعة.

وتقرر أن تكون قيمة كل جائزة خمسمائة جنيه وأن يكون التقدم إليها مرة في كل عامين. ورأت اللجنة توثيقاً لأواصر اللغة وتوحيداً للثقافة بين أبناء الأمم الشرقية إباحة دخول المسابقة في جوائز الأدب والقصص والاجتماع للشرقيين من أبناء العربية.

ودرست اللجنة طريقة اختيار المؤلفات، وهل ينحى فيها نحو (جائزة نوبل) أو يكتفي بأن يتقدم الكتاب والمؤلفون بكتبهم وتآليفهم مطبوعة طبعاً جيداً. وقد استقر الرأي على الأخذ بالطريقة الأخيرة.

وعند إقرار المبدأ تؤلف اللجان الفنية المختصة كل عامين لبحث ما يتجمع لديها في هذا الصدد. وقد لوحظ في جعل المدة سنتين أن تتاح الفرصة الكافية لكبار المؤلفين لإجادة ما يكتبون وما يؤلفون.

لجنة تنظيم الصحافة

يشتغل صاحب المعالي الدكتور محمد حسين هيكل بك وزير الدولة، ببحث المسائل التي درستها اللجنة الحكومية (لتنظيم جمعية الصحافة وترقية شؤونها).

وقد استقر الرأي على أن يضم إلى اللجنة أعضاء جدد من كبار الموظفين وأصحاب الصحف.

وسيرأس اجتماعها القادم صاحب الدولة رئيس الوزراء.

مهرجان الأدب في الزفاف الملكي

فكر جماعة من قادة الفكر وزعماء الدولتين الشعر والنثر في اشتراك الأدب في ابتهاج البلاد بالزفاف الملكي، وقد اجتمع فريق منهم في مكتب حضرة صاحب العزة محمد العشماوي بك وكيل وزارة المعارف وتدارسوا هذه الفكرة ثم اقروها واتفقوا على تأليف لجنة فرعية من بينهم لوضع برنامج المهرجان والاتصال باللجنة الرئيسية المعهود إليها تنظيم حفلات الزواج الملكي. وستجتمع اللجنة الرئيسية على أثر فراغ اللجنة الفرعية من مهمتها لتضع البرنامج النهائي للمهرجان.

المؤتمر الدولي السابع لتوحيد قانون العقوبات

في يوم الأربعاء الماضي تفضل حضرة صاحب الجلالة الملك فأناب عنه من افتتح المؤتمر الدولي السابع لتوحيد قانون العقوبات رسمياً في دار الأوبرا الملكية، وفيما يلي بيان موجز عن تاريخه

تألفت بعد الحرب العظمى أول هيئة اهتمت بتوحيد قانون العقوبات وهي الجمعية الدولية لتوحيد قانون العقوبات. ولما كثر عدد المشتركين فيها فكر مسيو بيلا سكرتير الجمعية العام ومندوب رومانيا الدائم لدى عصبة الأمم في عقد مؤتمرات لبحث الموضوعات التي تهتم بها الجمعية، وكان أن أنشأ المكتب الدولي لتوحيد قانون العقوبات. وقد جاء في المادة الأولى من قانونه الأساسي أن غايته دراسة اقتراحات الدول والهيئات التابعة لمجلس عصبة الأمم والهيئات الخاصة الأخرى المؤدية إلى توحيد قانون العقوبات والقيام بالأعمال التمهيدية لتحديد المسائل التي يمكن الاتفاق على توحيد القانون فيها، والسعي لعقد مؤتمرات دولية والعمل على دوام الصلة بين أعمال المؤتمرات التي تعقد. وأخذ الاهتمام بأعمال المكتب يزداد ونفوذه ينمو حتى أصبح لأكثر الدول مندوبون فيه.

وقد عقدت ستة مؤتمرات في بروكسل وباريس وفارسوفيا وروما ومدريد وفي كوبنهاجن على التوالي. وأولها مؤتمر بروكسل وقد عقد في سنة 1937.

معهد التعاون الفكري وشعبيته في مصر

كانت وزارة المعارف قد عهدت إلى عميد كلية الآداب زيارة المعهد الدولي للتعاون الفكري في خلال الصيف الماضي ووضع تقرير عنه، وقد رأى أن يبحث الأمر مع صاحب

السعادة علي الشمسي باشا ممثل مصر في جامعة الأمم قبل وضع تقريره.

ومتى تم وضع هذا التقرير بدأت الشعبة المصرية عملها. وقد صدر قرار وزاري بتأليفها من حضرات أصحاب السعادة والعزة وكيل وزارة المعارف، ووكيل الخارجية، ووكيل الحقانية، ومدير الجامعة المصرية، وعمداء كليات الجامعات، ورئيس المجمع اللغوي، وناظر معهد التربية للبنين، وناظر دار العلوم، ومدير مصلحة الآثار المصرية، ومدير دار

الآثار العربية، وأمين المتحف القبطي، ومدير دار الكتب المصرية، ورئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر، ورئيس الجمعية الجغرافية الملكية، ورئيس الجمعية الملكية للاقتصاد والتشريع، ورئيس الجمعية الطبية المصرية، ورئيس الجمعية الرمدية، ورئيس المجمع العلمي المصري، ورئيس المجمع المصري للثقافة العلمية، ورئيس جمعية محبي الفنون الجميلة، ورئيس جمعية علم أوراق البردي، ورئيس الجمعية الصحية المصرية.

وقد ترك للأساتذة أعضاء الهيئة اختيار الرئيس والسكرتير الفني لها من بينهم. وسيكون أول عمل تقوم به وضع اللائحة الداخلية لتنظيم الأعمال حتى يصدر بها قرار وزاري من معالي وزير المعارف.

حول جائزة جونكور

لاحظ بعض الأدباء كما لاحظت المكشوف أننا ذكرنا في باب البريد الأدبي في عدد سابق أن الكاتب البلجيكي ش. بليسينيه نال جائزة جونكور في العام الماضي عن كتابه (أزوجة) مع أنه نالها عن كتابه (جوازات مزورة). وهذا الخبر نقلناه عن ملحق الأحد الأدبي لجريدة النمساوية لمراسلها الباريسي. وهو صحيح ولكنه ناقصو. وبيان ذلك أن بليسينيه رشح منذ العام الماضي لنيل الجائزة بروايته الأزوجة ولكن ترشيحه أرجئ يومئذ لاعتبارات تتعلق بجنسيته لأنه غير فرنسي. وفي هذا العام قدم روايته الجديدة وانتهت أكاديمية جونكور إلى مبدأ جديد في مسألة الجنسية، وقررت أن تمنح بليسينيه الجائزة عن روايتيه المذكورتين. وهذا هو ما صرح به رئيس الأكاديمية مسيو روزني نفسه في خطابه يومئذ.

المسرح والسينما

السينما والأدب

بقلم محمد علي ناصف

في عامي 1932، 33 كان الفلم البوليسي أكثر أنواع الأفلام شيوعاً وأوفرها غلة على أصحاب الشركات.

وفي عام 1934 اختص بمرتبة النجاح الأولى الفلم الموسيقي، وجاء دور الفلم التاريخي في الموسم التالي.

ثم كان الطابع المميز لإنتاج الموسم الماضي إقدام الشركات على إخراج الأعمال الأدبية الكبرى؛ فشهدنا (حلم منتصف ليلة صيف) و (روميو وجوليت) لشكسبير و (البعث) و (أنا كارنينا) لتولستوي و (دافيد كوبرفيلد) و (قصة مدينتين) لديكنز و (مونت كريستو) و (الفرسان الثلاثة) لاسكندر دوماس الأب، و (غادة الكاميليا) لدوماس الابن و (جحيم دانتي) وغير ذلك من الأفلام التي لم تعرض للآن في بلادنا مثل (الجريمة والعقاب) لدستويفسكي و (كما تشتهي) لشكسبير.

إذا تتبع القارئ هذا البيان المجمل تبين حقيقة ناصعة: تلك أن السينما تتطور من حين لآخر، وأنها تأخذ في تطورها اتجاهاً ثقافياً يقرب إلينا معنى السينما وما تستطيع أن تحققه من آمال كبار.

لقد كان كثير من الأدباء والفنانين في أول عهود السينما يترفعون عن العمل من أجلها ويحسبونها سلعة ذات بهرج لا صلة لها بالفن، حتى صرح بعض كبار الكتاب ومنهم الكاتب الإنكليزي جورج برناردشو بأنهم لم يسمحوا بإخراج كتبهم على الشاشة. وقد كتب لويجي بيرانديللو مقالاً في إحدى المجلات الأدبية عام 1927 يحاول فيه الإقناع بفشل الفلم الناطق.

واليوم يتهافت كل كاتب وفنان على السينما، ولا نستثني أشدهم غلواً في المحافظة والاتزان. فبرنارد شو نفسه لا يشغله الآن شاغل أكثر من إعداد مسرحيتيه (جان دارك) و (بيجماليون) للسينما. فإذا علمت أنه قد أُخرج له قبل ذلك مؤلفان ولم يلقيا نجاحاً يذكر، إذا علمت ذلك، أدركت قوة إيمان الكاتب الساخر بما كان يسخر منه.

ولقد يعجب القارئ كذلك لو علم أن برنارد شو قد ظهر في فلم طويل مع زميله جون درنكوتر وسير أوستن تشمبرلن لمناسبة حفلات تتويج ملك الإنجليز.

ولقد أذيع أخيراً أن مستر ونستن تشرشل قد كلفه ألكسندر كوردا بعمل سيناريو عن حياة لورنس المعروف باتصاله بقضية العرب.

ويُعد هـ. ج. ولز الكاتب الإنجليزي المبتدع في طليعة الكتاب اهتماماً بالسينما؛ فقد

أخرج له ثلاثة كتب في العامين الأخيرين كتب هو بقلمه سيناريو أحدهما ومثله نويل كوارد وإن كان هذا الأخير قد انفرد بتمثيل دور البطولة في فلم أمريكي لم يعرض إلى الآن كل من الفيلم وممثله نجاحاً كبيراً.

ولقد شاهدنا أخيراً الموسيقار ليو بولدستكوفسكي وأوركستراه الشهير في أحد الأفلام، كما أن شركات السينما لا تدع جهداً في سبيل التعاقد مع كل فنان يصلح مادة للسينما. وقلما يظهر في عالم الفن كتاب أو مسرحية ناجحة دون أن تلقى اهتماماً من أحد الرواد. حتى لقد قيل إن إحدى الشركات راقها عنوان مسرحية فدفعت من أجل العنوان أربعة آلاف جنيه ولم تحفل بالموضوع.

ولا أنسى في هذا المجال الكاتب الفرنسي مارسيل بانيول صاحب (توباز) الذي ألف شركة سينمائية لإخراج كتبه.

كل هذه أمثلة أسوقها للتدليل على أن السينما قد أخذت تمتزج بالأدب وتتصل به اتصالاً وثيقاً وإنها كانت متعة الجماهير، فهي كذلك متعة للخاصة لا يعدلها شئ.

والسؤال الذي قد يتردد هنا: (ما مصير المسرح الآن؟)

محمد علي ناصف

العدد 238 - بتاريخ: 24 - 01 - 1938

الزواج الملكي السعيد

في صباح الخميس العشرين من يناير كانت مصر كلها نطاقاً من الولاء والدعاء والبشر حول قصر القبة العامر!

في هذا اليوم المومق، وفي هذا القصر المرموق، وضعت مصر المجيدة الخالدة تاجها الثاني على جبين ملكتها الطاهر!

في الساعة الحادية عشرة من ضحى هذا النهار الضاحك كان مولانا الفاروق يتم نعمة الله عليه بالزواج الموفق الباكر!

هل رأيت قبل اليوم أمة بأسرها تحتشد هازجة في مهرجان؟ هل سمعت في غير مصر ستة عشر مليوناً يهتفون بالحب لإنسان؟ هل علمت قبل فاروق أن اتفق مثل هذا الحب لسلطان؟

المدافع المبشرة تقصف في كل ثكنة، والموسيقى المطربة تعزف في كل ساحة، والنواقيس المجاملة تجلجل في كل كنيسة، والمذياع الجهير يرسل الأناشيد في كل جو، وهتاف الشعب المبتهج يهزج في كل نسيم، وتصفيق الجماهير المحتشدة يُدوي في كل شارع، وزغاريد العقائل والأوانس تنطلق من كل شرفة، وأدعية الترفئة والتهنئة ترتفع من كل قلب، وصوت الإمام المراغي ينبعث بالصيغة الشرعية من الحجرة الملكية رهيباً كأمر الله، جليلاً كصوت الرسول، فيربط بالدين قلباً بقلب، ويصل بالدعاء ملكاً برب، ويقرن في الدنيا تاجاً بتاج

فهل رأيت بعين الحلُم ما رأت عيناك في هذا القران؟

وهل سمعت بتاجين صاغهما الله من حب وإيمان؟

وهل أجتمع الدين والدنيا لغير فاروق في هذا الزمان؟

عهدنا بنشوة العرس تبسط قلبي العروسين؛ فإن زادت أبهجت قلوب أسرتين؛ فإن زادت أنعشت نفوس قرية

ولكن عرس الفاروق بِدْعٌ من الأعراس لم يسجل مثله التاريخ. وإلا فمتى وأين كان العرس الذي يشعر كل مواطن أنه عرسه، في بيته فرحه وفي نفسه مرحه وفي قلبه أنسه؟ لقد تبدلت الحياة غير الحياة في ثلاثة أيام على ضفاف النيل المقدس. فالجهود المسخرة لأكلاف العيش تقف، والعداوات المسعرة لمطامع النفس تبوخ، والأقلام المتسافهة على وجوه الصحف تكف، والقلوب المختلفة تأتلف على شعور واحد: هو أن وطنها مصر وملكها فاروق! فلا وساطة بين الملك وشعبه، ولا علاقة بين المرء وحزبه؛ كأنما أصبح الناس من وحدة الهوى أسرة في رقُعة أمة، وغدا الفاروق من شدة العطف أباً في عرش ملك!

قد يكون لعرس الفاروق أمثال تطاوله في الفخامة وتفاضله في السعة؛ ولكن مزيته الظاهرة أنه عرس قومي ساهم فيه كل امرئ بنبض من قلبه وفيض من جيبه. فلم يبق بلد في القطر، ولا أحد في الناس، لم يقدم إلى العريس الأعظم هدية فاخرة، أو

تهنئة خالصة، أو دعوة مستجابة! وتسأل الملايين الوافدة من كل قرية، والأمواج الدافقة في كل طريق: أمصدر هذا البشر الذي يترقرق في جباهكم، ويتألق على شفاهكم، هو هذه الأضواء الساطعة والزينات الرائعة والمباهج الخلابة؟ فيجيبونك إنما هو حب المليك الصالح وجد متنفسه في هذا الظرف السعيد فانقلب نشوة من نشوات السعادة يضيع في حمياها التدافع بالظهور، والتصادم بالصدور، والنوم على الأفاريز، والضلال في الشوارع. وهم في هذا المزدَحم الضاغط يتجهون إلى القصر ولا يذكرون غير الملك، كما يتجه الحجيج الحاشد إلى البيت ولا يذكر غير الله!

مولاي يا زين الشباب! لَنِعْمَ المثل العالي لناشئة الجيل أنت! إن في برك بشعبك، وفي إيمانك بربك، وفي إحصانك في بكور السن، وفي إقدامك على عزم الأمور، وفي ثباتك على تقلب الحوادث، لدستوراً من الخلق العظيم تصح عليه القلوب المريضة، وتنتعش به الآمال المهيضة، وتشتد به العزائم الرخوة، ويزكو عليه ثرى الوادي الحبيب الخصيب فيعود فينبت تلك الأدواح الشم التي فاء إلى ظلها وأكلها العالمَ القديم فاغتذى واسترْفه

مولاي يا أمير المؤمنين! لنعم الإمام العادل لدولة الإسلام أنت! إن في رفعك منار العدل، وفي إيثارك جانب الحق، وفي إعزازك كلمة الدين، وفي تجديدك ما رث من أسباب الخلق، وفي إحيائك ما عفا من سنن السلف، وفي أخذك نفسك الملكية الشابة بسْمت الرسالة وسيرة الإمامة، لومضةً من ومضات الروح الإلهي تبعث الحياة في هذا الهيكل العظيم الرميم فتعيده قوياً كما نشأ، عظيماً كما شب، حرياً بأن يبسط على الخافقين جناحه، ويستأنف في المشرقين دعوته وإصلاحه

مولاي يا وريث الفراعين! لنعم الملك الصالح لمصر العريقة أنت! إن في جمعك إلى مزاياك الخاصة رأيَ البعقري محمد علي في العُدة والقوة، وحب العزيز إسماعيل للحضارة والفن، وميلَ العظيم فؤاد إلى الثقافة والعلم، لضماناً لمصر الناهضة أن تساهم في بناء المدينة من جديد، وأن تصل حاضرها الطريف بماضيها التليد!

نضَّر اللهُ بالملكة السعيدة عهدك، وثَبَّتَ الله على المملكة الرشيدة مجدك، وأدام الله على الأمة المجيدة سعدك، فإنك يا مولاي لدولتك ورعيتك ومِلّتك نعم المولى ونعم النصير

أحمد حسن الزيات

زواج ملكي

للأستاذ عباس محمود العقاد

لورنس هوسمان أديب شاعر رسام إنجليزي أشتهر بمسرحياته الصغيرة التي كتبها عن حياة الملكة فكتوريا ونشرها أخيراً (نادي اليمين) الذي يعارض جماعة الشمال من أصحاب المبادئ الاشتراكية والدعوات الانقلابية. وإحدى هذه المسرحيات مقصورة على المناقشة بين اللورد ملبورن والملكة فكتوريا عن مسألة الزواج الملكي وقد دار فيها بينهما هذا الحوار:

فكتوريا - إنني لم أفكر في أحد ما على التخصيص. . . أعني أنني لم أتخذ بعد قراراً حاسماً

ملبورن - يفرج عني أن أسمع هذا يا مولاتي، وأفهم منه إذن أن صاحبة الجلالة لا تزال طليقة الرأي. . .

فكتوريا - طليقة الرأي؟ نعم. نعم، لاشك أنني صاحبة الخيار في الأمر يا لورد ملبورن

ملبورن - وكيف لا؟ هذا ما أعنيه طبعاً ولا أشير بغيره لحظة

فكتوريا - لكن هناك أموراً قد عقدت النية عليها وبتتُّ فيها

ملبورن - مثل ماذا؟

فكتوريا - أن يكون زواجي يا لورد ملبورن زواج عاطفة

ملبورن - ذلك ما يستطاع تدبيره فيما أعتقد يا مولاتي بغير مشقة

فكتوريا - أعني أنني أريد إنساناً أجل خلائقه، وأستطيع أن أحبه وأن أرتفع إليه

ملبورن - ترتفعين إليه؟!

فكتوريا - نعم يا لورد ملبورن. وربما استغربت ما تسمع؛ إلا أنني أريد زوجاً أتطلع إليه حقاً بعد أن تكمل له الدربة على المرتبة التي سيشغلها

ملبورن - آه. هو كذلك، هو كذلك. إنني واثق من إمكان وجوده. وإذ كانت صاحبة

الجلال قد أعربت عن طلاقة رأيها في هذا الصدد فعندي الساعة بيان بالأسماء المحتملة
فكتوريا - آه. لورد ملبورن، ما أعجب هذا! كم عددها؟
ملبورن - حسناً مولاتي. هم في الوقت الحاضر خمسة وحسب، ولكننا ننتظر آخرين. . .
فكتوريا - تنتظرون؟!
ملبورن - أريد أن أقول إننا نستخبر خبرهم
فكتوريا - وكيف تستخبرون؟
ملبورن - عن كل شيء يا مولاتي، وهو واجبنا المفروض علينا، فليس من شأني أن أعرض على صاحبة الجلالة أحداً يتجه إليه اعتراض على وجه من الوجوه
فكتوريا - وقد وجدت منهم خمسة حتى الساعة. . . ما أبرعك يا لورد ملبورن!
ملبورن - تحدثت يا مولاتي عن (المحتملين). . . ولا يزال الاستخبار جارياً عن الآخرين، وأنا قائم بالبحث الآن، ولعله لا يبقى منهم بعد مراجعة صاحبة الجلالة غير واحد
فكتوريا - أود أن ألقي نظرة على بيانك يا لورد ملبورن
ملبورن - إن أذنت مولاتي فبعد تمهيد وجيز عن الملاحظات التي تهديني في بحثي أعرض بياني لنظر مولاتي، ولموافقتها فيما أرجو
فكتوريا - لا يسعني أن أوافق على خمسة!
ملبورن - على سبيل المراجعة الأولى لم لا يا مولاتي؟ من خمسة يجرون تختارين السابق
فكتوريا - يجوز ألا أختار أحداً إلى زمن طويل، ولكن على كل حال هات ما عندك. إنني مصغية ومهتمة
ملبورن - إن المزايا التي يمتاز بها قرين يليق بصاحبة الجلالة هي ولا ريب مزايا فريدة أو مزايا خاصة. ولعلي لا أعدو وصفها الصحيح إن قلت غريبة. فمن الواجب أولاً أن يكون من سلالة ملكية، ومع هذا يجب ألا يكون وارثاً مباشراً أو مرجحاً لعرش من عروش الملك أو الإمارة
فكتوريا - ولم لا يا لورد ملبورن؟
ملبورن - لأن وراثته ربما جرت يا مولاتي إلى بعض المشكلات السياسية. إن تاج هانوفر قد تجاوزك إلى غيرك لأن قانون الوراثة يقصر ولاية الملك على الذكور، وتلك مناسبة سعيدة فيما أحسب، فنحن لا نحب مزيداً من تيجان هانوفر، وإن البلاد لأحسن حالاً بغير تلك التيجان
ولنعد إلى المزايا المطلوبة يا مولاتي. فالقرين اللائق بصاحبة الجلالة ينبغي فوق عراقته
الملكية وبعده عن وراثة العرش أن يكون أميراً من بيت لا هو بالصغير المفرط في الصغر ولا هو بالخطير المفرط في العظم. إذ لا مناص لنا من اجتناب المحالفات المعقدة. وينبغي بعد هذا أن يدين بالعقيدة البروتستانتية
فكتوريا - أجل. أجل. فليس في مقدوري أن أتزوج برجل (بابوي)
ملبورن - نعم يا مولاتي ليس في مقدورك. إن قانون الولاية يمنع ذلك. ثم ينبغي أيضاً أن يكون شاباً كي يصبح قرين حياة لصاحبة الجلالة؛ وينبغي أن يعرف أو يتعلم اللغة الإنجليزية، وأن يكون صالحاً لاقتباس العادات والتقاليد القومية. وإن هذه المزية الأخيرة لأصعبها جميعاً لما هو معروف من تحرج الإنجليز مع الأجانب
فكتوريا - لكني يا لورد أحسب ما تقول سيجعل الأمر مستحيلاً
ملبورن - حاشا يا مولاتي. غاية ما هنالك أنه سيضيق نطاق الاختيار. ولابد من العثور على أحد قادر بعد الاصطباغ بالصيغة الإنجليزية أن يقتبس عاداتها ومشاربها. وقد حدث هذا فإن أبن عمك الأمير جورج أوف كامبردج مثلاً يتخذ على عجب صورة الإنجليزي المطبوع، ولا تمضي سنوات خمس أو نحو ذلك حتى يتعود أن يجفو الأجانب كما نجفوهم
فكتوريا - لكن أتراك تجفو الأجانب يا لورد ملبورن؟
ملبورن - كلا يا مولاتي! كلا! وإنما أصطنع جفاءهم بعض الأحايين لأسباب سياسية
فكتوريا - حسن. وماذا بعد ما تقدم؟

ملبورن - يجمل به فوق ما تقدم يا مولاتي أن يملك بعض الثروة وإن لم تكن عظيمة؛ فإن البرلمان سوف يتكفل بما هو لازم؛ ويجمل به أن يكون صاحب سمت لائق بمقامه، وأن يكون على جانب من العقل لكن على غير جانب عظيم منه!!! إذ لا يحق له أن يتعرض لشؤون السياسة

فكتوريا - هذا حق، ولن أسمح له بالتعرض لتلك الشؤون

ملبورن - ثم ينبغي أن يكون صحيح الجسم سليم التكوين، منحدراً من (أصل أصيل). . . وهذا أصعب ما عانيناه في المسألة إذ كان (الأصل الأصيل) في الأسر الأوربية المالكة من أندر الصفات

فكتوريا - وضح من فضلك، فإني لا أكاد أفهم. ويخيل إلى أن كلمة (الأصل الأصيل) تنصرف إلى الماشية

ملبورن - هي كذلك يا مولاتي في بعض معانيها؛ بيد أنها تعني أيضاً ما ينحدر من الوالد إلى الوالد. ونحن نجدها في الوصية الثانية حيث تنبئنا أن خطايا الآباء تنصب على الأبناء؛ وكذلك الفضائل. ففي بعض السلالات الملكية قد امتزجت الخطايا والفضائل حتى لنخشى المزيد من امتزاجها والخلط بينها. ولهذا كان القران بين الأمراء الأقارب غير محمود المشورة

فكتوريا - أوه!

ملبورن - أعني على الجملة لا على التقصي. وفيما يرجع إلى بعض الفروع من شجرة أسرتكم يا مولاتي ينطبق هذا لسوء الحظ أشد انطباق. ومن ثم لم أضمن بياني أسمي أثنين من أبناء عمومتك على الرغم من ذكرهما لي، وإنهما لولا ذلك لكانا من أصلح المرشحين لتلك المكانة، وهما صاحبا السمو الأمير إرنست والأمير ألبرت من ساكس كوبرج جوثا

فكتوريا - ومع هذا كانا يلوحان لي على أتم صحة وقوة عندما رأيتهما منذ سنتين

ملبورن - في الظاهر يا مولاتي، والظواهر طالما تخدع. والمسألة بعدُ دقيقة، بل مؤلمة، غير أني لم أضمن أسميهما - اتباعاً لما عندي من الأنباء الطبية - في البيان الذي أتشرف الآن بعرضه على صحابة الجلالة (وينهض ويقدم إليها البيان فتعبره بلمحة واحدة)

فكتوريا - أوه. ولكن هل تراني أعرف أحداً منهم؟

ملبورن - جلالتك تعرفين أحدهم حق المعرفة

فكتوريا - أوه. لا أحسب. أتعني الأمير جورج؟ إنه أبن عمي أيضاً

ملبورن - في فرع آخر يا مولاتي، وليس على هذا الفرع اعتراض من ذاك القبيل

فكتوريا - أوه، لكنني لا أستطيع أن أقبل أبن عمي جورج. . . إنه. . . إنه

ملبورن - ليس من يريد أن يمس حق جلالتك في اختيارك. . . هناك غيره

فكتوريا - إلا أنني كما قلت لا أعرف أحداً منهم

ملبورن - يسهل إصلاح ذلك يا مولاتي. تدعينهم إلى البلاط واحداً واحداً ولا تقولين شيئاً، ثم تصرفينهم ولا تقولين شيئاً. أو تقولين ما بدا لك، ويبقى، أو يعود كرة أخرى

فكتوريا - لكنني أنا التي أختار. أليس كذلك؟

ملبورن - نعم أنت التي تختارين يا صاحبة الجلالة، ولا ضرورة تلجئك إلى الزواج إن أبيت

فكتوريا - أوه، لكن لابد من الزواج. هكذا كانت أمي تقول في كل حين

ملبورن - وهكذا سمعت. على أن مسألة لها مثل هذه الخطورة قلما يسمح فيها لولاء البنوة أن يؤثر في اختيار صاحب الجلالة. وإنما أقول يا مولاتي إنه على فرض أن هناك محاولة من محاولات التأثير على اختيارك في وجهة من الوجهات فالواجب يقضي على لما قدمت من أسباب أن أعارض

فكتوريا - لورد ملبورن، إنني لن أقبل معارضة ما في أمر من الأمور التي على هذا النحو. إنها لن تؤثر في رأيي لحظة

ملبورن - لا؟

فكتوريا - علي التحقيق، وربما أثرت على النقيض في وجهة أخرى

ملبورن - فهمت يا مولاتي، وأنا أشاطرك شعورك، ولا أقول كلمة أخرى، وإنما أكل المسألة إلى حسن رأيك، وإلى ضميرك

فكتوريا - أوه. ما أكرمك معي يا لورد ملبورن! وكم ذا أتعلم منك!
ملبورن - بل كم ذا أتعلم أنا من مولاتي. لقد خدمت ملكين أسن من صاحبة الجلالة، إلا أنني لم أخدم أحداً يصغي إلى المشورة بما تبدين من حكمة وحسن إصغاء
فكتوريا - (ناهضة) أستودعك إذن يا لورد ملبورن. أتبقي معك البيان أم تتركه هنا؟
ملبورن - بأذنك يا مولاتي. اذكري ما قلته أو تفضلي بنسيانه. . . فالاختيار لك وحدك وليس لأحد غيرك
فكتوريا - نعم، ولكنك لم تُرِني بعدُ صورة من الصور
ملبورن - صوراً يا مولاتي، ولماذا الصور؟
فكتوريا - لا يسعني أن أختار أحداً حتى أرى ملامح وجهه، فليس هذا بالإنصاف لهم ولا هو بالإنصاف لي
ملبورن - تستطيعين أن تأمري بدعوتهم.
فكتوريا - كلا! لا أنوي أن أدعو أحداً إن لم يعجبني مرآه
ملبورن - إن الصور لخادعة في بعض الأحيان يا مولاتي
فكتوريا - هذا صحيح. وقد رأيت منذ أيام صورة لابن عمي الأمير جورج أوف كمبردج؛ فإذا به يلوح فيها وهو جميل
ملبورن - أستطيع أن أحصل على صورهم جميعاً يا مولاتي حسب مشيئتك، ولكن المصورين في البلاط - مثلهم كمثل رؤساء الوزارات - يعرفون واجباتهم، ولا يعملون إلا ما هو منظور منهم أن يعملوه، فإن لم يقدروا على عمله فعليهم أن يذهبوا
فكتوريا - (وهي ذاهبة إلى المائدة). . . هذه صورة أرسلت إلى والدتي منذ أيام: صورة ابن عمي الأمير ألبرت
ملبورن - (وقد تبعها إلى المائدة). . . أوه. . آه. نعم
فكتوريا - لا شك أنه نشأ جميلاً. ليس في استطاعة مصور بلاط أن يتخيل صورة على هذا المثال
ملبورن - من يدري يا مولاتي؟ من يدري؟ إن الخيال ليجمح. . . فأما وقد استغنينا عن بيان الأسماء فهل أمضي الآن في جمع الصور لصاحبة الجلالة؟
فكتوريا - أوه. كلا! يا لورد ملبورن. لم أكن جادة حين ذكرت هذا
ملبورن - ولا أنا يا مولاتي. إلا أنني أتوسل إلى صاحبة الجلالة أن تفكر في هذا الأمر جادة. . . إن مصير هذه البلاد لفي هذه اليد الصغيرة (وينحني على يد الملكة مقبلاً)

هذا الحوار طريف شائق مفيد من جوانب كثيرة، لأنه يرينا نمطاً من أدب الحديث بين الملوك والوزراء في بلاط الإنجليز، ويرينا نمطاً من الشروط السياسية التي تلاحظ في زواج الملوك الأوربيين والملكات الأوربيات، ويرينا نمطاً من اللياقة التي يتذرع بها الساسة هناك إلى تصريف المسائل الدقيقة. ويحسن الإطلاع عليه، والأمة المصرية تبتهج بزفاف المليك الفاروق حفظه الله وأدام ايامه، ليتم الإطلاع على الفارق بين تقاليدنا وتقاليد الغربيين في هذه الشؤون؛ فقد فرض العرف القديم وفرضت المواقف السياسية قيوداً على ملوك الغرب لا محل لها من العادات الإسلامية والشرقية. ومن ثم كان زواج الملوك المصريين أقرب إلى الديمقراطية وإلى الحرية وإلى المعاني الإنسانية مما يكون بين الأمم الغربية، وهي فيما توحيه الظواهر مهد الحرية في مسائل الزواج.

عباس محمود العقاد

الملك الشاب رمز الأماني الجديدة

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

من أعجب الحقائق التي تقوم عليها الحياة في الجماعات الإنسانية أن جملة آرائها وعقائدها وغاياتها، هي آراء موتاها وعقائدهم وغاياتهم، وكل أمة تعرف ضرباً من تحكم الموتى في حياة الأحياء. ومن أمثلة ذلك: الوصية التي يتركها الذين يرحلون عن هذا العالم الفاني، ويخلفون بها ما لهم لهذا أو ذاك، بلا شرط أو بشرط يحتمون على الوارث التزامه. ومن أمثلته عندنا الوقف الذي تبقى شروطه نافذة جيلاً بعد جيل، ولا يكاد أحد يملك تغييراً لها، أو يعرف له حيلة فيها إلا النزول على حكمها. وكل من يعرف شيئاً من التاريخ لا يسعه إلا أن يفطن إلى سيطرة الماضي على الحاضر، وإلى أن عقول الذاهبين هي التي تسير الأحياء، أو تقيدهم كما يقيد الواقف ورثته ويحدّ من

تصرفهم فيما يخلّف لهم. وأضرب مثلاً قريباً لهذا ما نزال نقرأه في الصحف ونسمعه من أفواه الناس، من قولهم: (مبادئ سعد). وقد أنتقل (سعد) إلى رحمة ربه ونفض يده من شئونها، وخلا قلبه من همومها وآمالها، ولكن يده لا تنفك تمتد من ظلمة القبر، وتدير الرؤوس إلى هنا وههنا. وليس من همي في هذه الكلمة أن أستقصي كل مظاهر هذه الحقيقة الثابتة، فان حسبي أيسر الإشارة إليها، وفي مقدور كل قارئ أن يتوسع كما يشاء في رد حاضر الجماعة إلى ماضيها القريب والبعيد. وكل ما أريد أن أقوله هو أن كل ما تنطوي عليه الجماعة من آراء سياسية أو اجتماعية، وما لها من عادات وخصائص، له تاريخ طويل، وان كل جيل يجيء يتلقى هذا الميراث عن سلفه، وأن التغيير الذي يقع لا يكون في العادة إلا بطيئاً. وكثيراً ما يخفي أمره حتى على الذين يكونون أداة له، ولكنه يتفق أحياناً أن يقع للجماعة حادث أو حوادث ترج كيانها وتزلزل قواعد حياتها وتفكك الإطار الذي يحيط بصورتها الثابتة، وتبث صلتها - إلى حد ما - بماضيها الطويل، وتغريها بالتماس طابع آخر غير الذي درجت عليه، وتدفعها في اتجاه جديد، بروح جديدة، وخصائص لا تطابق كل المطابقة ما كان مألوفاً ومعهوداً فيها.

وقد حدث هذا في مصر مرتين فيما أعلم، فأما في المرة الأولى فكانت الرجة التي أحدثت الانقلاب السياسي والاجتماعي سببها الثورة التي قامت في سبيل الاستقلال، وهو انقلاب بعيد المدى ما على من يشك فيه إلا أن يرجع البصر إلى ما كانت عليه حياتنا معشر المصريين قبل هذه الثورة، وما صارت إليه بعدها؛ وقد تناول كل وجه من وجوه حياتنا السياسية والاجتماعية، ولم يسلم منه شيء. وقد كان من الممكن أن يقع هذا التحول بغير حاجة إلى زلزلة الثورة ورجاتها العنيفة، ولكنه كان خليقاً أن يكون بطيئاً جداً، وغير محسوس، وعلى أجيال طويلة؛ غير أن الثورة القومية عجلت به، من حيث نشعر ولا نشعر، فأصبحنا فإذا نحن أمة أخرى، لها في الحياة آراء جديدة، وعزمات لم تكن معهودة، وآمال وهموم ومساع لا نكران أنها كانت تدور في نفوس البعض، ولكن السواد الأعظم كان ذاهلاً عنها، وقد لا تكون هذه الثورة التي انطلقت من عقالها في سنة 1919 سوى موجة صغيرة من ذلك البحر الأعظم الذي أزخرت الحرب تياراته ما فتئنا نرى فعلها وأثرها في أمم أخرى كثيرة غيرنا، ولكن هذه الموجة الصغيرة كانت حسبنا، وقد جاءت بالاستقلال آخر الأمر، ولكنها جاءت بشيء اخر، فكانت ختام عهد في حياة الأمة، وبداية عهد غيره له طابع مختلف جداً.

وهنا موضع الكلام في المرة الثانية، وبها يتم التحول الذي بدأته الثورة.

كانت قيادة الأمة في الثورة التي استعرت في سنة 1919 للشيوخ، وكان الزمام في أيديهم، وكان العبء السياسي في كواهلهم، وكانوا ولاشك يمثلون آراء البلاد واتجاه النفوس فيها، وقد فازوا لأمتهم بما كانوا ينشدون لها، والذي جادوا به هو الذي قدروا عليه، ولو كان في الوسع مزيد لزادوا، ولكنهم تولوا أمراً لا يسعهم فيه اكثر مما وقفوا إليه. وقد أصبحنا بذلك أمة مستقلة، ولكنا أصبحنا بهذا أيضاً أمة محتاجة إلى مثل عليا جديدة، ومساع غير تلك التي بلغتنا هذه القاصية - قاصية الاستقلال - وقد كنا خلقاء أن نشعر بالحيرة والارتباك لو لم يقع ذلك الحادث الجديد الضخم في حياتنا، وهو ارتقاء الملك الشاب فاروق الأول عرش البلاد. ذلك أن شيوخ الأمة لا يستطيعون أن يمثلوا اكثر مما مثلوا، ولا يسعهم في العهد الجديد أن يكونوا رمز الآمال الجديدة التي أنشأها تغير كياننا السياسي

لقد صرنا أمة حديثة، كأنما أفاض عليها الاستقلال ثوباً من الشباب النضير، فهي أحس بفيض الحياة وقوتها منها بما خلعت ونضت من الهلاهيل التي كان الاستعباد يكسوها، وما صدعت من القيود العارقة التي كانت تقعد بها عن السعي وتلزمها سكون الوهن وعجز الشيخوخة. والأمم في مثل هذه الحالة يقل صبرها على حكم الأيدي التي تمتد من وراء القيود، ويكون همها ما أمامها من حياة لا ما خلعته عنها من أكفان المذلة والهوان، ويكون مطلبها رمزاً تتعلق به آمالها وترحب به آفاقها

وقد قيض الله لها ذلك الرمز، فولى أمورها ملكاً غض الشباب، شامت الخير كله من لمحاته، وآنست الرشد أجمعه من حركاته وسكناته، فافتتنت به، ولها العذر واضحاً، والحق صريحاً فما يمثل آمال الشباب إلا الشباب، وهذا هو بعض السر في السحر

الذي لملكنا: إنه شاب فياض الحيوية زاخر الآمال عظيم لثقة بأمته ومستقبلها، شديد الإيمان بالله وبالمجد الذي كتبه تعالى لها، وإنه قام على العرش قبل أن تدرك الحيرة شعور الشباب في الأمة؛ وقد كان المغفور له الملك فؤاد يدرك ذلك، ولهذا أعده للعهد الجديد خير إعداد

ومن فضل الله على الأمة أنه ملك سمح عظيم مروءة النفس، ومتواضع كريم، ورقيق حليم، ووثاب بعيد مرامي الهمة، وصادق العزم صارم الإرادة، وعالي المنزع شديد الطموح، يحب الأمة ويثق بها فإذا كان قد سحر الأمة فلا عجب. بل العجب العاجب ألا يسحرها.

ومن هنا فرحة الأمة به، وبكل ما يفرحه

وأمر آخر يجعل الأمة أعمق حباً له، وأشد تعلقاً به، ذلك أنه ليس مديناً بعرشه إلا لله جل جلاله، فقد ورث عرشه بحقه الصريح فيه، فهو لا يمكن أن يشعر بغير فضل الله عليه، وهو لهذا أول ملك حر في مطلع عهد الحرية، والأمة تدرك هذا حق الإدراك،

ولهذا يفيض قلبها بالحنو والحب كلما رأت مظاهر توجه الصادق إلى الله تعالى ويشاء الله أن يجعله موفقاً في كل عمل، فقد أسر قلوب الشعب يوم خطب لنفسه من بنات رعاياه، وقد صارت اليوم ملكتنا بسنة الله الرضية. ولو أنها كانت بنت أعرق الملوك لما كانت احب إلى هذه الأمة، ولا أندى على قلوبها، ولا أجل في عيونها، ولا أسمى فيما تحس نفوسها

لقد خلط الملك نفسه بنفوس أمته، فهي تشعر أنها منه وإليه. وتحس أنه ملكها بأدق ما تفيده هذه الإضافة من معنى

بارك الله في الملكين، وهنيئاً لهما وللأمة

إبراهيم عبد القادر المازني

مهرجان المليك

للأستاذ محمود الخفيف

يَكَرَت تُفْصِحُ عن وجدانها ... أُمَّةٌ حُبُّكَ من إيمانها
طَرِبَ اللَّيلُ على أوضاحها ... وانْجَلَى الصُّبْحُ على ألحانها
وصحا الشرقُ على موكِبِهَا ... وسِمَاتِ العيد في أوطانها
شَاعَتِ الرَّوعَةُ في أفراحها ... وتَجَلَّى الصِّدْقُ في بُرْهانها
أعْلَنَتْ بْعضَ الذي تُضْمِرُهُ ... من مَعَانٍ هن في إمكانها
أبَداً لم تَطْلُع الشَّمْسُ على ... مِثلِ ما تُبدِيه في إعلانها
مَرَحٌ في كلِّ نَادٍ ومُنىً ... تعجز الألسُنُ عن تبيانها
وأحاديث كأنفاس الربى ... تَنْهَلُ الأنفسُ من ريحانها
وأغاريدُ كما شاء الهوى ... رَنَّةُ الإخلاص في تحنانها
وَقْعُها في القَلبِ أحلى نَغْمَةً ... من هتاف الورْق في أفنانها
اسُمكَ الميمونُ في مَطلعِها ... والولاَءُ الحقُّ من أوزانها
مِهْرَجَانُ العُرْسِ لم يسلف به ... زمَنٌ في الغُرِّ من أزْمَانها
لا ولا الشَّرْقُ رأت آفاقُهُ ... مِثلَ هذا السحرِ في أركانها
عَزَّ في الهندِ على أقيالها ... وعَزِيزُ الدُّرِّ في تيجانها
وعلى هرون في أفراحه ... وليالي الأنس من بغَدانها
وأنو شروان في دولَته ... والملوك الصِّيدِ من ساسانها
مِهْرَجَانٌ تشخَصُ الدنيا له ... ومعاني البَهْرِ في أجفانها
طاوَلَ الشمسَ سناءً وسنىً ... وارتدى ما جَلَّ عن عِقْيانها
لَبِسَ الوُدَّ على زينتِهِ ... ومعاني الحب في رَيعْانها
زهَرَاتٌ لم تُقَلِّبْها يَدٌ ... أين غالي الدُّرِّ من أثمانها
لم تَشُبْهُ خُدَعُ الدنيا ولا ... سَطوَة الزائِف من سلطانها
صَفْحَةُ الوادي عليها رَوْنَقٌ ... يَمْلِكُ الحُسنَ على شُطْئانها
أخذتْ زُخْرُفَها وازَّيّنْتْ ... بِبَديعِ الوَشيِ من ألوانِها
وانْحَنى النَّهْرُ عَلَيْهَا مُعْجَباً ... يَغْبِطُ الفُلْكَ عَلَى رُبَّانها
هَزَّتِ الواديَ من أركانه ... فَرْحَةٌ وأتَتْهُ في إبَّانِها
ها هنا وَرْدٌ، وَرَيْحَانٌ هنا ... ورموزٌ زِيدَ في إتقانها

وطُيُوفٌ حُوَّمٌ خافِقَةٌ ... أرسلتها الخُلْدُ عن ولدانها
وجُمُوعٌ تلتقي مَزهُوَّةً ... بضُروب اللَّهْوِ في ميدانها
فَرْحَةٌ في الكوخ والقصرِ مَعاً ... في قرى مِصْرَ وفي بلدانها
في صَعِيدِ الأرض، في أبْطَحِها ... في ربوع النيل من سودانها
يَلْتَقي الناسُ عليها عُصْبَةً ... شيبُها والغُرُّ من شبانها
زُمْرَةُ المحرَاب من أشياخها ... ورُعاةُ الدَّيْرِ من رهُبانها
صاحِبُ الجاه على تُرْبَتِها ... وَمُجيلُ الفَأس في غيطانها
رّدَّها في العَيْنِ أبهى مَنْظراً ... قُرَّةُ الأعْيُنِ من غِلمانها
أقْبَلَت والحسنُ في غُرَّتها ... تُبْهِجُ النظَّارَ من ضِيفَانها
دَلَّهَتْ مِصرَ وفاضَتْ فَسَرَتْ ... هِزَّةٌ منها إلى جيرانها
مَلِكَ النيل تَلاقَتْ أمّةٌ ... أفْصَحَتْ بالبِشْرِ عن شُكْرَانها
شَكَرَت بَعْضَ الذي أسْدَيتهُ ... فَتَهَانيها صدى عِرْفانها
لكَ في الخير يدٌ هَطَّالَةٌ ... لا تَنِي تُغْدِقُ من إحسانها
وسَجَايَا قد تَفَرَّدْتَ بها ... أجْمَعِ الشَّعْبُ على استحسانها
قد حَمَلْتَ العِبْء فيها يافِعاً ... فَشَأوْتَ الشمْسَ في مِيزانِها
إن دجا الرأيُ عليها والتوى ... فَسَنا رأيكَ من فُرْقانها
عَشِقَتْ فِيكَ شَبَاباً ناضراً ... دبَّ مثْلَ الروح في جثمانها
تُقبلُ الدنيا فلا تُزْهى بها ... وتُطيع اللهَ في عصيانها
زدْت بالتقوى جَلاَلاً وهُدىً ... وأوَتْ مِنكَ إلى عُنْوانها
أنْبَتَ المجدُ بِمصْرٍ دَوحَةً ... أنت أزكى الشُمِّ من عيدانها
يا مليكا باهت الدنيا به ... أمةٌ تُغْليكَ عن رُغْيانها
أنت يا فاروق في مقلتها ... وهْيَ كالمقْلَةِ من إنسانها
الخفيف

من الأعراس الإسلامية الشهيرة
زواج قطر الندى الطولونية بالخليفة المعتضد بالله
للأستاذ محمد عبد الله عنان

كانت الدولة الطولونية أولى الدول الإسلامية المستقلة بمصر وكانت أقصرها حياة، ولكنها لم تكن أقلها قوة وبهاء، فهي لم تعمر سوى سبعة وثلاثين عاماً (254 - 292)، ولكنها سطعت خلال حياتها القصيرة كما تسطع الدول العظيمة. ثم انهارت فجأة كأنها صرح أسس على الرمال، ذلك لأنها تدين بوجودها وقوتها لمؤسسها العظيم أحمد بن طولون؛ فلما توفي احمد في سنة 270هـ، وخلفه ولده خُمارويه، لبثت الدولة مدى حين تحتفظ بلونها الزاهر؛ ولكن عوامل الانحلال السريع كانت تعمل لتقويض دعائمها التي لم تكن قد رسخت بعد. وكان خمارويه أميراً مترفاً ينثر حوله ما استطاع من ألوان الفخامة والبهاء، فعنى بتوسيع القطائع وتجميلها عناية فائقة، وزاد في قصر أبيه زيادات كبيرة، وأنشأ له قصراً خاصاً بذل فيه من صنوف البهاء والبذخ آيات عجيبة، وجعل فيه بركة من الزئبق الخالص، وديواناً ملوكياً فخماً عليه قبة عظيمة، وداراً للسباع، ومسارح للطيور وغيرها. وكانت هذه الألوان الزاهرة تسبغ على الدولة الطولونية مظهراً بارزاً من القوة والعظمة، ولكن النضال المستمر الذي اضطرت إلى خوضه كان يستغرق قواها ومواردها، ويعرضها لتلك الزعازع والمفاجآت التي تنذر الدول الناشئة بالفناء الكامل

وكانت الدولة الطولونية تستظل منذ قيامها بلواء الخلافة الإسمي؛ ولم يشأ مؤسسها النابه أن يخرج على هذه السلطة الروحية التي يستمد منها شرعية حكمه واستقلاله. وحذا ولده خمارويه حذوه، فدعا للمعتمد العباسي، ثم دعا من بعده للمعتضد. على أن هذا الاستظلال الإسمي بلواء الخلافة لم يحل دون تعرض الدولة الطولونية لهجمات عمال الخلافة وأوليائها الآخرين. واضطر خمارويه، كما اضطر أبوه من قبل أن يخوض غمار معارك دفاعية متصلة؛ ولما ولي المعتضد الخلافة في أواخر سنة 279هـ، بعث إليه خمارويه بالهدايا الملوكية المعتادة، فبعث إليه المعتضد بكتاب الولاية والخلع التقليدية، وانتظمت العلائق الودية بين الخلافة والدولة المصرية، بشروط وعهود

معينة. ورأى خمارويه من جهة أخرى أن يوثق هذه العلائق بمشروع معاهدة اقترحه على الخليفة، وهو أن يزوج
ابنته أسماء الملقبة بقطر الندى لولده وولي عهده المكتفي بالله؛ فوافقه المعتضد على هذا المشروع على أن يتزوج هو قطر الندى. واغتبط خمارويه بعقد هذه الصلة الوثيقة بينه وبين الخلافة، وبعث الخليفة مندوبه وصديقه الحسن بن عبد الله الجوهري المعروف بابن الخصاص إلى مصر ليتولى إحضار العروس إلى بغداد، وليشرف من قبله على أهبات القران الخلافي.
وكان زواج المعتضد بقطر الندى من أعظم الحوادث الاجتماعية في التاريخ الإسلامي، وكانت هذه الأميرة المصرية النابهة من أجمل نساء عصرها وأكملهن في العقل والخلال؛ وكانت وقت خطبتها صبية في نحو الخامسة عشرة؛ وكان أبوها خمارويه يعبدها حباً؛ فلما وقع الاتفاق على زواجها من المعتضد أحيط عقدها وزفافها بأورع ما يتصور الإنسان من مظاهر الفخامة والبهاء. وكان صداقها ألف ألف درهم، ولكن خمارويه أنفق في تجهيزها أضعاف أضعاف هذا القدر. وكان جهازها مضرب الأمثال في البذخ الطائل الذي تكاد تحسبه من مناظر ألف ليلة وليلة. وقد نقلت إلينا الرواية بعض تفاصيل مدهشة عن جهاز قطر الندى وزفافها؛ فذكرت لنا أن خمارويه قدم لابنته فيما قدم دكة أربع قطع من ذهب وعليها قبة من ذهب مشبك في كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة جوهر لا تقدر، ومائة هون من ذهب؛ ومن الحلي والثياب روائع يعجز عنها الوصف، حتى قيل إن من بينها ألف تكة من الحرير قيمة الواحدة منها عشرة دنانير؛ وهي واقعة ينوه بها المقريزي ويتخذها دليلاً على بذخ هذا العصر الطائل، ويقول لنا إن أسواق القاهرة في عصره أعني في أوائل القرن التاسع كانت تعجز عن أن تقدم تكة واحدة بهذه القيمة؛ ويقول لنا القضاعي إن ابن الخصاص، وقد تولى إعداد الجهاز والإشراف على النفقة تحقيقاً لرغبة خمارويه، حينما قدم إليه ثبت النفقة ذكر له أنه لم يبق منها للتسوية سوى (كسر) قدره أربعمائة ألف دينار، وإذن فما بالك بالنفقة كلها إذا كان هذا كسراً منها فقط!
وفي أواخر سنة 281هـ، تم تجهيز قطر الندى، واتخذت الأهبة لإرسالها إلى الخليفة. وهنا أيضاً يحب أن نرجع الذهن إلى قصص ألف ليلة وليلة، لكي نتصور ما أحيطت به رحلتها من مصر إلى بغداد من مظاهر النعماء والفخامة والترف. فقد شاء خمارويه أن يجعل لابنته من تلك الرحلة الشاقة نزهة بديعة، فأمر أن يقام على طول الطريق من مصر
إلى الشام ثم إلى بغداد في نهاية كل مرحلة منزل وثير تنزل فيه قطر الندى وحاشيتها، وتتمتع فيه بجميع وسائل الراحة. وأنفقت في هذه الرحلة مبالغ طائلة؛ وخرجت قطر الندى من القطائع في ركب ملكي عظيم يشرف عليه ابن الخصاص مندوب الخليفة وجماعة من الأعيان، ومعها عمها شيبان بن أحمد بن طولون؛ وصحبتها عمتها العباسة إلى آخر حدود مصر من جهة الشام؛ (وكانوا يسيرون بها سير الطفل في المهد، فإذا وافت المنزل وجدت قصراً قد فرش، فيه جميع ما يحتاج إليه، وعلقت فيه الستور، وأعد فيه كل ما يصلح لمثلها في حال الإقامة، فكانت في مسيرها من مصر إلى بغداد على بعد الشقة كأنها في قصر أبيها تنتقل من مجلس إلى مجلس)
ووصل ركب قطر الندى إلى بغداد في فاتحة المحرم سنة 282هـ فأنزلت في دار صاعد. وكان المعتضد غائباً بالموصل، فلما علم بمقدمها عاد إلى بغداد، وزفت إليه في الخامس من شهر ربيع الأول في حفلات عظيمة باذخة أسبغت على بغداد مدى أيام حللاً ساطعة من البهاء والبهجة. وسحرت قطر الندى الخليفة بجمالها وخلالها البارعة، وتفوقت في حظوتها لديه على سائر خطاياه. ومما يروي أن المعتضد خلا بها ذات يوم في مجلس أنس، فلما ثقل رأسه من الشراب وضع رأسه على حجرها، فلما استغرق في النوم، وضعت رأسه على وسادة وغادرت المجلس؛ فلما استيقظ ولم يجدها استشاط غضباً وناداها وعنفها على تصرفها، فأجابته: (يا أمير المؤمنين ما جهلت قدر ما أنعمت به عليّ، ولكن فيما أدبني به أبي أن قال: لا تنامي مع الجلوس، ولا تجلسي مع النيام)
محمد عبد الله عنان

من برجنا العاجي

تلك كلمة (كل شيء يزدهر في مملكة تمتزج فيها مصلحة الشعب بمصلحة الملك) قالها (لابروبير) في كتابه (الأخلاق) تقابلها كلمة أخرى في كتاب للهند عن رجل دخل على مليكه فقال له: (أيها الملك إن بقاءنا موصول ببقائك، وأنفسنا متعلقة بنفسك. .)

وضعتني هذه الأقوال لحظة موضع التأمل وقلت في نفسي إن هذه النظرة إلى (الملك) لا يمكن أن تكون وليدة الأوضاع الاجتماعية وحدها أو المبادئ السياسية أو العقائد الدينية. فالشرق والغرب لا يتفقان هكذا إلا على شيء يخرج من نبع طبيعتنا الإنسانية. إن الشعوب منذ فجر حياتها كانت دائماً ترى الأمة هي الجسم والملك هو (الرأس) بمعناهما الطبيعي (الفسيولوجي). هذا صحيح لا ريب فيه، والملك هو الحاكم المطلق في نظام الملوكية المطلقة. أما والأمة في النظم الديمقراطية هي التي تتولى الحكم فمن الحق أن نتساءل عن صحة تلك النظرة القديمة. قليل من التأمل يهدينا إلى هذه النتيجة: إن الأمم في شبابها كالفتى، تستهوي عقله كل مظاهر القوة، وتسيطر على رأسه كل أحلام الفتوة؛ فهي تجمع كل السلطة لتعطيها ذلك الحاكم المطلق الذي يدير كيانها ويحرك جسمها ويهز عضلاتها، إلى أن تمضي أيام الصبا وفورة الشباب وتدخل الأمة في طور الرجولة والاستقرار، فتحزم أمورها المادية بنفسها، وتترك مليكها يشغل بما يشغل به الرأس الحقيقي من شئون الفكر ومسائل الثقافة. وهنا نرى الملك في الشعوب الديمقراطية قد انصرف عن وظيفة الحكم المادي إلى وظيفة أخرى تشبه وظيفة الرأس في جسم الإنسان المفكر، فينقطع هو إلى التوجيه الفكري لأمته وتشجيع العلوم والآداب والفنون، وختم كل مظاهر النشاط الأدبي والمادي في الدولة بطابع الحضارة. فالملك في كل زمان ومكان هو الرأس دائماً؛ على أنه في الأمة الفتية رأس فتي، وفي الأمة العريقة رأس رجل.

توفيق الحكيم

زفاف ملكة القلوب ويلهلمينا الهولندية

للأستاذ محمد لطفي جمعة

أخي الأستاذ صاحب الرسالة:

تفضلت فطلبت إلي أن أكتب فصلاً يتصل بزفاف أحد ملوك الغرب بمناسبة الأفراح الفذة النادرة التي تقام في القاهرة لقران الملك الصالح السعيد فاروق الأول، فصادف تفضلك هوى في نفسي لأنني أشعر نحو شخص جلالته بحب وتقدير لا يعدلهما إلا ولائي لعرشه واستبشاري وتفاؤلي بعهده. وأعتقد أن عاطفتك نحو جلالته إن لم تزد على عاطفتي في هذا المضمار فهي تساويها لأن هذا الملك الشاب أثر أول ما أثر في قلوب المثقفين المهذبين أمثالك، ولذا رأيتَ أن تقف عدداً من رسالتك أو معظمه على مشاركة الأسرة والأمة أفراحهما، ونعمت الفكرة الملهمة التي ستلقى قبولاً ورضى من قرائك كافة في سائر أنحاء العالم العربي.

وأول ما خطر ببالي زفاف ملكة هولندا ويلهلمينا وزوجها الأمير ألبرت وقد شهدته بنفسي إذ كنت في سياحة في تلك البلاد العجيبة التي هي أقرب إلى القطر المصري بوديانها وخضرتها ومزارعها الناضرة وأخلاق أهلها الوادعين، وكانت الأميرة ويلهلمينا نفسها تدعى (ملكة القلوب) لما حباها الله من الجمال والجلال ورقة الحاشية، فكانت محبوبة من شعبها وإن نسب الحاسدون إليها شيئاً من الكبر والخيلاء وزعموا أنهما زالا مع الزمن بعد أن أحسنت القيام على حكومتها في رفق ولطف سياسة، وأصبحت بصيرة بوجوه التدبير والإدارة، خبيرة بتصريف الأمور، حتى كتب (فان كيكم) أحد وزرائها عقيب زفافها يقول: (إن ملكتنا أعقل أهل المملكة) ووافقه على ذلك من رفاقه الوزراء من كان لا يزال يرقب الملكة عن كثب ويدرس أحوالها وينظر إلى مستقبلها في إسطرلاب الحوادث المغيبة.

كان البرنس ألبرت خطيب الملكة من صفوة أشراف الطراز الأقدم، وكان قد ورث ثروة طائلة عن آبائه واتخذ لنفسه معلمين من الإنجليز بعد أن نال إجازات من جامعتي برلين وأكسفورد، وآوى إلى ضياعه التي يملكها في هولندا فغرس بستاناً على نمط جديد، وابتنى لنفسه قصراً على خطة من بنات فكره؛ وجعل ينفق في سبيل العناية بالمثوى وتعهد البستان وتنظيمه ما شاء الجمال وحسن الذوق، حتى استنبت أزهاراً نابغة من الخزامى والورد الأزرق

وكان يعلم أن الملكة الشابة تحبهما وتختارهما وتفضلهما على غيرهما من الأزهار فأهدى إلى جلالتها كل ما أخرجه البستان من الورد الأزرق الغض والخُزَامَى، فأصبح من أقرب
الأمراء إلى البلاط، وقبلت الملكة ووالدتها دعوته إلى حفلة شاي أنيقة أقامها في عيد ميلادها في قصره، وكانت الملكة الوالدة قد آمت من زوجها وكسرت شبابها على تربية ابنتها (ويلهلمينا) وتثقيفها وإعدادها للعرش إذ كانت ولية العهد والوارثة الوحيدة بعد أبيها وفي تلك الحفلة ظهر البرنس ألبرت أجمل مظهر وأبدعه وأروعه وكان فتى رشيق القد ممشوق القامة يختال في حُلة عسكرية فائقة. ولما علم بدنو موكب الملكتين (الوالدة والجالسة على العرش وهي التي زفت إليه بعد قليل) امتطى صهوة جواد سابح ينهب الأرض وراح يستقبل موكب المركبة الملكية، ولم تكن السيارات قد ملأت العالم كما هي الآن، فوقع من قلب الملكة الشابة خير موقع، ورنت إليه بعين الرضى والسرور حتى أنه أثناء الحفلة أوعز لأمه الأميرة بياتريس أن تلمح إلى الملكة الوالدة لتجس نبضها في الخِطبة فانتهزت الأميرة فرصة الرضى وفاتحتها، فابتسمت وقالت: (إن في أمور الدولة ما يشغلنا عن استعجال المتوقع، وفي انتظار الفرص ما يصرفنا عن استدراج البعيد) ثم أسرت لابنتها ما أسرت، فتهلل وجه الملكة الشابة التي ما زالت ترنو إلى الأمير وتخالسه النظر في إعجاب وحياء. وفي الواقع أن الأمير كان خير من يصلح للملكة على الرغم من إقبال الأميرات الأجنبيات عليه ومبالغتهن في إظهار ميولهن وأمانيهن بأن تكون واحدة منهن عروساً له. ولكنه كان عنهن منصرفاً لا يكاد يكترث لهن، فأولن ذلك بأنه لابد أن تكون لقلبه سيدة استأثرت باحتلاله وامتلاكه والتربع على عرشه. وكن في حديثهن صادقات
وكذلك كانت فئة كبيرة من الأمراء يعللون أنفسهم بحظوة القرب من الملكة الشابة والارتباط ببيتها المالك برابطة المصاهرة والنسب، ولكن والدتها ووزراءها والقيمين عليها كانوا يفضلون أميراً من خلاصة الشعب وسلالته كما فعل جلالة مليكنا المحبوب أعزه الله
وكانت ويلهلمينا الملكة الشابة في السابعة عشرة من عمرها. كان يضيء محياها الجميل عينان زرقاوان براقتان كأنهما نبعان من ينابيع ماء الحياة، ومن العجب أن ترى جذوة النار في زرقة البحر! ولها من شعرها الأصفر البراق ضفائر يضل النظر في استحسان دقتها وغزارتها، وقد صدق من وصفها بأنها تمثال فاتن من صنع الإغريق بقي مكنوناً في صميم صدر الدهر حتى كشفت عنه الطبيعة المنعمة، وأظهرته العناية الملهمة، فبدا ملكة على
الأفئدة قبل أن تكون صاحبته ملكة على العرش!! وكانت وحيدة أمها، وولية العهد، وصاحبة التاج المرموق، الذي يهيمن على ستين مليوناً من البشر في شرق آسيا الجنوبي، غير خمسة ملايين من أهل بلادها الأصلاء وهي على جانب عظيم من الثقافة والغنى ومكارم الأخلاق وكرم النفس والوداعة والرحمة، على عكس ما قال الحاسدون، فكانت أمها وأقاربها ورجال حكومتها وأهل البلاط يبالغون في ترفيهها وتدليلها. وكان ينتظر من وراء ذلك وبسببه أن يكون لها على أهلها وحاشيتها وخدمها، وكل من لابسها وجالسها، فرط جرأة وتسحب؛ ولكن الأمر كان على العكس فقد كانت وادعة متواضعة، شديدة الحياء والإيمان والتوقير لكل كبير، جمة الحنين لذكرى أبيها الذي مات وتركها في المهد صبية، وكان يتمنى أن يسهر على تنشئتها فيشهد زفافها، ولكن توفاه الموت قبل أن يدرك غايته. وقد اختلفوا في البائنة التي قبضها (البرنس كونسورت) أي الصهر الملكي الذي أسعده الحظ بزواجها، فقيل مليون كورون ذهباً، وقيل مليونان. ولكن الصحيح أنه قبض ثلاثة ملايين وتسلم زمام إحدى الجزائر المملوكة للتاج بغير شريك وهي تدر خيرات كبرى من الزرع والضرع والكنوز وبعد قليل من تلك المقابلة صار الأمير بمكانة الزوج المنتظر ولم تمض بضعة أشهر حتى تم الزفاف في مدينة لاهاي (ذي هاج) عاصمة هولندا. وكان ذلك في صيف عام 1906. وقد قضى العروسان شهر العسل على شاطئ سكفيننجن وهي ضاحية الاستحمام والاستجمام تبعد عن العاصمة بضعة أميال. وكان عقد الزواج في هيكل القصر. ومن أبدع مظاهر زينته أولئك الفتيات القرويات ذوات الفتنة الضاحكة والسذاجة المستملحة وسحر البساطة المستعذبة اللواتي اشتهرن في أنحاء أوربا

بجمالهن وعفافهن وميلهن للمداعبة البريئة. وقد رغبت الملكة الشابة أن يشتركن في زفافها، لشدة حبها لشعبها وعطفها على رعاياها ولا سيما من كان منهن في سنها ومن جنسها اللطيف

فكنت ترى بجانب جورج الخامس (وكان ولي عهد بريطانيا لأن الملك إدوارد السابع ورث العرش عن والدته الملكة فكتوريا) بثيابه الرسمية المرصعة بالجواهر والأوسمة الرفيعة، والسيف المحلى بالذهب والحجارة الكريمة، والحمائل العسجدية من المخمل الثمين وقد وضع على رأسه خوذة من الذهب الخالص وزانت وجهه لحية شقراء، وليوبولد الثاني

وهو الآخر شيخ هم أبيض الشعر وردي الوجنتين أزرق العينين، وقد أبى إلا أن يلبس ثياباً هولندية مبالغة منه في التقرب الذي يقتضيه حسن الجوار وانفرد بين الملاك بهدية من تحف الكونجو، وهي تماثيل من الأبنوس والعاج مُنزلة بالذهب تمثل آلهة وفرساناً وغزلاناً وأيائل وفيلة وطيوراً من أجمل وأروع ما وقعت عليه العين. وكان ليوبولد الثاني يملك ولاية الكونجو الحرة ملك السيد المطلق لا تشاركه فيها حكومة وكان ليوبولد الثاني بقدر قسوته على رعاياه الإفريقيين ذا حنان وشفقة على رعاياه الأوربيين، وكان يعطف على جارته ملكة هولندا لشبابها، ويرى أن يفرط في مجاملتها والحلول في نظرها محل والدها الذي كان من أصدقائه الحميمين

وكانت من المدعوات الإمبراطورة أوجيني بجلالة قدرها وعبرة شيخوختها، أتت من لندن مستندة إلى ذراع دوق كونت وقد اتشحت ثياباً بيضاء موشاة (بدنتلة) بروكسيل، قدرت ببضعة ملايين من الفرنكات، ووضعت على رأسها تويجاً من الزمرد الأخضر المتلألئ على شعر جبينها الأبيض، وزينت صدرها (بمنياتير) صورة مصغرة لولدها الأوحد (نابليون الرابع) الذي اغتاله المقاتلون في زولولاند وهو يحارب متطوعاً تحت راية الإنجليز بعد أن فقد ووالداه عرش فرنسا عقيب حرب السبعين

وقد أهدت الإمبراطورة إلى العروس حلياً وعقوداً من خزانة كنوزها، وإلى العُرْس (برنس ألبرت) سيفاً من سيوف نابليون بونابرت. وأرسلت جمهورية فرنسا هيئة شرف حربية ومدنية من الوزراء والسفراء والنواب وقد لبسوا الثياب الملكية وشارة الجمهورية (شريط مثلث الألوان) وحملوا على صدورهم نياشين الجمهورية ووسام (زايدرزي) وهو أرفع وسام هولندي، وأرسلت مستعمرات هولندا في الشرق الأقصى (جزيرة جاوي وأندنوسيا) وفوداً من سلاطينها وأمرائها، وقد زانوا الاحتفال بثيابهم الشرقية الفضفاضة وعمائمهم المرصعة بالجواهر، وكان أجملهم وأظهرهم غنى ووقاراً السلطان محمود بن تبني حليف هولندا وصاحب عرش جزيرة بيهالو - هوى، وكان حاكماً شرقياً مسلماً شديد الشكيمة واسع الحيلة، لم تستطع واحدة من دول الاستعمار إخضاعه، فحالفته محالفة الند للند؛ وكان يزين نحره وصدره بجواهر لا تقدر بمال، وأهدى إلى العروسين تحفاً قيمة منها سيوف هندية ولوحات منقوشة ومرصعة، وأقداح من الذهب للشاي وصناديق من العاج لصيانة الحلي

وكان هذا السلطان الشرقي يسير في مكان ظاهر من الموكب وحوله بقية الأمراء من وطنه. وكفاهم فضلاً أنهم سافروا في البر والبحر أربعين يوماً ليشتركوا في المهرجان قبل اختراع الطائرات.

وكانت تحمل أذيال الملكة العروس، وهي من الفراء الموشاة بالذهب والدر المنضد، فتيات وأطفال كاللؤلؤ المنثور، نشأوا في الهواء الطلق تحت ظلال أشجار البلوط ورضعن ألبان أمهات صحيحات الأبدان قويات البنية فكانوا وكن زينة الموكب. ولا مراء في أن لكل أميرة أو قرينة وزير أو عقيلة سياسي مشاركة في الاحتفال أن تبتسم من سلامة الفطرة التي كانت متجلية في وجوه الهولنديات، لأن العزلة والحرية والصحة الشاملة استنبتت ونَمت قبل الأوان في قلوبهن عواطف ونزعات وأهواء وشهوات لا تحسها ولا تدركها فتيات أوروبا الغربية. فكنت ترى بعض الأميرات والوصيفات وسيدات الشرف يضحكن في خفر ضحكاً بريئاً لا يؤثر في بساطة الجمال الهولندي وجليل محامده التي لولاها ما ظهر في تاريخ تلك البلاد (منذ الاحتلال في عهد فيليب الثاني) مثقال ذرة من العظمة الإنسانية

ولما كانت الملكة احتجاجية المذهب (بروتستنت) وكان الأمير كاثوليكياً، فقد عقد

المعقد مرتين. وألقى خطبة الزواج بالهولندية والإنجليزية والألمانية والفرنسية فان كروب متزنجر كبير أساقفة لاهاي أمام الهيكل الذي شهد زواج والدة الملكة وجدتها وحفلة إعلان استقلال (نيذرلاندز أوبيباس - (الأرض الواطئة) من حكم إسبانيا الذميم وقد ذرفت الملكة الوالدة دمعتين من دموع الفرح والذكرى لفراق زوجها وهو والد العروس، وكانت تتمنى أن يكون على قيد الحياة ليقدمها لعرسها، وقد حل محله الملك الشيخ ليوبولد الثاني لأن له من الحظوة والزلفى والدالة والوجاهة عند ملوك أوروبا منزلة رفيعة وشأناً عظيماً. وكان الأمراء الشرقيون على غاية السرور، ولم يحسوا شيئاً من التجانف والتجافي اللذين يلقونهما في بلاد الشرق من الحكام الهولنديين والإنجليز، ما عدا السلطان محمود فقد كان آية في الجد والوقار كأنه لا يخلو من التفكير والشجون على فرط اكتراث الملوك واحتفالهم بشأنه، ولكنه ممن لا تفتنهم مظاهر الأبهة ولا تأخذ بألبابهم فخفخة الحياة الدنيا

وكان الشعب مشاركاً في الأفراح ليلاً ونهاراً، ولم تبق شيخة أو كهلة أو فتاة في بيتها، وكن يلهجن بذكر العروسين ويفضن في شرح حالهما وأمرهما حتى أصبحا مجال البحث وموضع الحديث في كل شارع وطريق وزقاق ومحفل

ومن أساطير ذلك الزفاف الملكي أن الملكة العروس دست على خطيبها فتاة ذات حسن رائع من وصيفاتها وقالت لها: (اذهبي وانظري ألبرت خطيبي وافحصيه فحصاً ثم عودي فخبريني أي امرئ هو، وصفيه لي وانعتي خلاله ومزاياه وشمائله وسجاياه) ونسى واضع الأسطورة أو واضعتها أن الملكة إنما خطبت عُرْسها على عينها وتخيرته بنفسها وأحبته للوهلة الأولى، ولكن ما الحيلة في أخلاق الشعوب وخصوبة أخيلة النساء وثرثرتهن حتى فيما ليس لهن به من علم؟ وحتى لو كن من أهل الشمال الأوربي البعيدات القاصيات النائيات عن الشرق وأساطيره. ولكن المرأة هي المرأة في كل زمان ومكان من شمال القطب حيث يقطن الإسكيمو إلى جنوب أرض النار (تيراد يلفويجو)!

وما أنس لا أنس الزينات التي قامت على قدم وساق في البر والبحر، فقد أمرت الملكة ألا يخرج صائد ولا باحث عن رزقه بين الأمواج خلال أسبوع الزفاف، وأجرت على الفقراء والعائلين أرزاقاً أغنتهم عن خوض غمار البحار في سبيل القوت والصيد فحشدوا سفائنهم ومراكبهم وزوارقهم وزينوها بالأعلام والمصابيح، وأقاموا مراقص شعبية تسمى بالهولندية كيرمس أو (دعكة) يشربون فيها الجعة والجين اللاذع، ويختالون في سراويلات ملونة ويحتذون أحذية من الخشب المنحوت، وهم بين كهل وفتى يراقصون الفتيات على أنغام الموسيقى الهادئة ذات الحنين المشجي؛ ولا يدري مقدار ما يُجمل أولئك الفتيات البحريات من أهل ساحل هولندا من فتنة السذاجة المستملحة وسحر البساطة المستعذبة إلا من رآهن رأي العين. وقد كان هذا الزفاف في عرفهن طارئاً عظيماً وحادثاً جليلاً، وقد اتخذن من التحلي والتزين له واقعة وتاريخاً وذكرى خالدة. وقد صورت الصحف مناظر الموكب والأفراح والمراقص، وما أزال أذكر صورة بالألوان البهيجة تمثل امرأة عانساً في الأربعين من العمر دهنت وجهها وزججت حاجبيها لترقص مع شيخ بحار من صائدي الحيتان وقد اصطنع لنفسه لحية تحيط بذقنه وعارضيه دون أن تدنو شعرة واحدة من شفتيه

ووجنتيه، واتخذ على رأسه قلنسوة خضراء ذات صنع عجيب ووضع أعجب، وفي فمه غليون ضخم قصبته من خشب القرو، وخزانة الطباق فيه ويسمونها (الفرن) من القيشاني

أما الشوارع في يوم الزفاف وليلته فكانت تعج بمئات الألوف من أهل البلاد والسائحين والمصورين والصحفيين وأقاموا متاحف ومعارض لمتاجر البلاد ومنتجاتها من خيرات البر والبحر. ومن متاحف تلك الفترة مجموعة فريدة من تصاوير رمبراندت الهولندي ومؤسس تلك المدرسة العريقة في إتقان الألوان ومحاكاة الطبيعة في درس علم التشريح، وقد يبلغ ثمن بعضها مئات الألوف من الجنيهات

(من ذكريات قديمة)

محمد لطفي جمعه

زفاف فاروق
للأستاذ محمود غنيم

طربت لعُرسكَ مصرُ يا ابن فؤادِ ... فكأنَّ عُرسك ملتقى الأعيادِ
بالفطر والأضحى الكنانة تحتفي ... فيه، وبالنيروز والميلادِ
في كل قلب مِهرجانٌ قائم ... وبكل أُذْن قام يهتفُ شادِ
ملِك قد اقترن السرورُ بعهده ... فكأنما كانا على ميعادِ
أو ما ترى قلبَ الدجى متوهجاً ... يبدو كقلب الصبِّ يومَ بعادِ
نُقِشَتْ حواشي الِليل نقش صحيفةٍ ... بالنور لا بيراعةٍ ومدادِ
لم تبدُ أنجمُهُ لترسل ضوَءها ... لكن لتشهده مع الشهَّادِ
غنَّوْا لفاروقٍ فألفيتُ اسمه ... أشجى صدىً من ربَّة الأعوادِ
وزهت ثُريَّاتٌ حلفتُ بأنها ... ليست كنور جبينه في النادي
قذفوا (النيازك) في الفضاء فخلتُها ... مشبوبةً من عزمه الوقَّادِ
أغنته عن باقِ الزهور خلائقٌ ... نفاحةٌ مثلُ الزهور نوادِ
ماذا أقول عن البدور وعُرسِها؟ ... عرسُ البدور يجلُّ عن إنشادي
خَلِّ الشبابَ الغضَّ في ريْعانه ... وعراقَةَ الآباء والأجدادِ
ودع العلا والمجدَ ويحك جانباً ... في الصمت ما يغني عن التَّعدادِ
نثروا الزهور وقمت أنثر بينهم ... شعري، وشعري طارفي وتلادي
إن الزهور قصيرةٌ أعمارُها ... وقصائدي تبقى على الآبادِ
شعرٌ تودُّ الحورُ عند سماعه ... لو صغنَ منه قلائد الأجيادِ
قل للشبابِ أصبْتَ أيةَ قُدوةٍ ... في شخص فاروقٍ وأكبرَ هادِ
لما رأى ولَعَ الشباب بكل ما ... في الغرب صاح بهم وقال: بلادي
وبنى بها ريحانةً مصريةً ... معصومة من هُجنة الأولادِ
عذراءُ نضرت الكنانةُ عودَها ... من أهل بيت ناطقٍ بالضادِ
رَشَفَتْ من النيل العتيد رحيقهُ ... وتفيأت منه ظلالَ الوادي
ولو ابتغى شمس الضحى عِرْساً له ... لرأيتها هَبَطَت من الآراد
قل للغريب بقلبه وغرامه ... ما أقفرت مصرٌ من الأغيادِ
لا تَبْنِ بامرأةٍ وتهدمَ منزلاً ... خيرُ الزواج تزاوجُ الأندادِ
لستم بمصريين حتى تؤثروا ... مصراً بكل محبةٍ ووِدادِ
كم فوق شطِّ النيل أهيف شادنٌ ... فتن الغصونَ بقدِّه الميَّادِ
يرنو بلحظ فاتنٍ بل فاتكٍ ... فتكَ السيوف وهنَّ في الأغمادِ
من عهد (فاتنة القياصر) لم تزل ... مصرٌ مَراحَ نواعِم الأجسادِ
فاروقُ كم لك آيةٌ شعبيةٌ ... كبرى تمسُّ شِغاف كلِّ فؤادِ
أحصنتَ في شرخ الشباب وطالما ... ألقى الشبابُ إلى الهوى بقيادِ
قالوا: كبحت النفس. قلنا فارسٌ ... يعتاد منذ صباه كبحَ جيادِ
ومن الشبيبة حكمةٌ ورجولةٌ ... لا تُحْسَبُ الأعمارُ بالأعدادِ
هات المسرةَ واسق شعبك إنه ... شعبٌ إلى كأس المسرةِ صادِ
لم يستظلَّ بمثل عهدك مذ هوى ... عن عرشه فرعونُ ذو الأوتادِ
دَرَجَت قرونٌ وهو عانٍ مرهَقٌ ... يكفيه ما عاناه من إجهادِ
بعد السهاد يطيبُ للعين الكرى ... والنصرُ يُدرك بعد طول جهادِ
وطنٌ عتيدٌ من شبيبتك اكتسى ... حُلَلَ الشباب قشيبة الأبرادِ
حتى سألت: أمصرُ في شرخ الصبا ... أم مصرُ أقدم من ثمودَ وعادِ
طوقْتَ أعناق البلاد بطول ما ... أسديت من مِنَنٍ وبيض أيادِ
فعجبتُ كيف أسرت مصراً بعد ما ... حررتها من رقِّ الاستعبادِ
يا ثالثَ العُمَرَيْنِ أنت أريتنا ... بالعين ما يُروى عن الزهَّادِ
قد جئتَ في جيل يصلِّي جاهداً ... ويصوم لا لله بل للزادِ
حَرَصوا على الدنيا. وكل جديدةٍ ... تبلى وكلُّ ذخيرةٍ لنفادِ
فلعلَّ أنفسَهم بهديك تهتدي ... فتروجَ سوقُ الروح بعد كسادِ
وهي الحنيفةُ دينُ كلِّ حضارةٍ ... وعدالةٍ وهدايةٍ ورشادِ

شاء المهيمنُ أن تكون عمادَها ... هيهات يتركُها بغير عمادِ
اختلْتَ في رُد الزفاف وفي غد ... تختال في بُرد النبيِّ الهادي
إن الخلافةَ كلما ذكر اسمُها ... شخصت إليك حواضرٌ وبوادِ
يا رُبَّ يومٍ فيه قد وفدت على ... مصرٍ، ومصرُ كثيرةُ الوفَّادِ
إنَّا أوينَاها غداة تشرَّدتْ ... وَعدت على دار السلام عَوَاد
أوَمَا استعارَ التركُ منا تاجها ... لجبين (محمود) ورأس (مراد)
منذا سواكَ يعيدُ عهدَ أُمَيَّةٍ ... بدمَشْقَ والعباس في بغدادِ
أصميتَ بالتقوى صُدورَ معاشرٍ ... مسخوا محيَّا الدين بالإلحادِ
لله إذ تَردُ المصلى خاشعاً ... تسعى إليه بخطوط المتهادي
وكأنَّ ركبَكَ لا يسير على الثرى ... وكأن جبريلاً لركبك حادِ
ملك يتوّجُ مَفرِقيْه بالتقى ... نورُ الصلاح عليه أبلجُ بادِ
عجباً له يخشى الزمانُ نزالَه ... وعليه تبدو خشيةُ العبَّادِ
إنا عجمنا عودَه فإذا له ... وجهُ البدور وصولةُ الآسادِ
حلوٌ مريرٌ صارمٌ متسامحٌ ... أرأيت كيف تقابلُ الأضدادِ؟
ما عيدُه إلا غداةَ تعُدُّه ... في شعبه فرداً من الأفرادِ
عرشٌ على الدستور قام أساسُه ... فإذا به أرسى من الأطوادِ
بُوِّئْتَ يا فاروقُ عرشاً كان في ... أيدي فراعنة بمصرَ شِدادِ
هم شاركوا الأرباب في مَلكُوتها ... كم صاح صائحهم وقال: عبادي
ضِمنوا بقاء رسومِهم وجسومِهم ... والحادثات روائحٌ وغَوادِ
قم سائل الأهرامَ عن تاريخهم ... ما فصَّل التاريخَ مثلُ جمادِ
هُنَّ الثقاتُ من الرواةِ برئْنَ من ... عصبية وسَلِمْنَ من أحقادِ
فأعِدْ لنا عهدَ الجدود وهات ما ... تركوا لمن تركوا من الأحفادِ
هَات الذخائرَ والسلاحَ لأمةٍ ... عزلاَء واستكثرْ من الأجنادِ
هذا الزمانُ مسلحٌ لا يحتفي ... بعهود سِلْمٍ أو صكُوكِ حيادِ
أوما رأيت الطامعين بخيلهم ... حول الحمى يقفون بالمرصادِ
فاجعلهُ إن ذاقوه سمًّا ناقعاً ... واجعله إن مَسُّوه شوك قتادِ
فاروقُ دم واسلم لشعب مخلصٍ ... بنفيسه وبنفسه لك فادِ
سل كل قلب في الكنانة نابضٍ ... عما يريد يجبكَ أنتَ مرادي

كوم حمادة

محمود غنيم

زواج أمير عربي بأميرة هندية

للدكتور عبد الوهاب عزام

- 1 -

ماذا يخط القلم في هذا الفرح المتلألئ، والسرور المزدهر، والقلوب الخافقة، والأيدي الصافقة، والزينات الساحرة، والأضواء الباهرة؟ ماذا يخط القلم في أمة بل أمم خفقت قلوبها حباً، وانطلقت ألسنها دعاء، وتوجهت إلى هذا الوجه الأغر، والطلعة المباركة، إلى الملك الشاب الصالح جلالة الملك فاروق؟ ماذا يخط القلم إلا أن يشارك العيون متعتها والنفوس بهجتها، والقلوب أدعيتها، فيجول في مجال واسع من الفرح الحاضر، أو يقلب صفحات التاريخ عن صفحة من الجمال والسرور لألاءة، أو يطمح في المستقبل إلى حقب من المجد وضاءة تظللها السعادة واليسر، والصفاء والبشر.

قلبت صفحات التاريخ فعبرت من عرس إلى عرس حتى وقفت على عرس كان في الهند في القرن الثامن الهجري، ورأيت من غرابته وطرافته ما يؤهله لأن يعرض على قراء الرسالة قي هذا الأسبوع المبارك.

- 2 -

كان السلطان محمد بن غياث الدين تُغلُق شاه يملك دهلى وما يتصل بها وبلاد الدكن، في الربع الثاني من القرن الثامن الهجري (725 - 752هـ)؛ وكان ملكاً ذكياً سخياً عظيم البطش، جبار السطوة.

وكان يحتفي بالغرباء الوافدين عليه ولاسيما العرب وخاصة من انتمى منهم إلى بيت النبوة؛ كان يبذل لهم من ماله، ويوطئ لهم من كنفه، ويبلغ لهم من إكرامهم وإجلالهم

ما يملأ النفس عجباً.
- 3 -
وكان آل ربيعة من طيء أمراء على قبيل عظيم من العرب في أطراف الشام؛ في عهد الدولة الأيوبية ودولة المماليك؛ كان ملوك مصر يستنجدونهم في اللزبات، ويفوضون إليهم الرياسة على القبائل، ويبالغون في إكرامهم إذا وفدوا عليهم؛ وقد قدم منهم فرج ابن حية
على المعز أيبك فأنزله بدار الضيافة أياماً وأنفق على ضيافته وهداياه ستة وثلاثين ألف دينار.
وكان من أمرائهم في القرن السابع والثامن إلى آل مهَنى ابن عيسى. (وكلهم رؤساء أكابر، وسادات العرب ووجوهها؛ ولهم عند السلاطين حرمة كبيرة، وصيت عظيم، إلى رونق في بيوتهم ومنازلهم
(من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم ... مثل النجوم التي يسري بها الساري
- 4 -
قدم الأمير سيف الدين غدا بن هبة الله بن مُهَنَّى على السلطان محمد فأكرم وفادته وأنزله بقصر في دهلي يسمى: (كُشكِ لعل) أي القصر الأحمر، وأغدق عليه العطايا وأكثر الهدايا، ثم زوجه أخته الأميرة فيروز
وكان الرحالة ابن بطوطة إذ ذاك مقيماً بدهلي في كنف هذا السلطان، فشهد العرس العظيم، وتولى بعض شؤونه، ووصف زفاف الأمير سيف الله والأميرة فيروز. فانظر كيف وصف:
ولما أمر السلطان بتزويج أخته للأمير غداً عين للقيام بشأن الوليمة ونفقاتها الملك) فتح الله، وعينني لملازمة الأمير غداً، والكون معه في تلك الأيام. فأتى الملك فتح الله بالصيوانات فظلل بها المشورتين بالقصر الأحمر المذكور وضرب في كل واحد منهما قبة ضخمة جداً وفرش ذلك بالفُرُش الحسان
وأتى شمس الدين التبريزي أمير المطربين ومعه الرجال المغنون والنساء المغنيات والرواقص، وكلهن مماليك السلطان
وأحضر الطباخين والخبازين والشوائين والحلوانيين، والشربدارية والتنبول داران وذبحت الأنعام والطيور وأقاموا يطعمون الناس خمسة عشر يوماً، ويحضر الأمراء الكبار والأعزة ليلاً ونهاراً
فلما كان قبل ليلة الزفاف بليلتين جاء الخواتين من دار السلطان ليلاً إلى هذا القصر فزينه وفرشنه بأحسن الفُرُش واستحضر الأمير سيف الدين، وكان عربياً غريباً لا قرابة له، فحففن به، وأجلسنه على مرتبة معينة له - وكان السلطان قد أمر أن تكون أم أخيه مبارك
خان مقام أم الأمير غداً، وأن تكون امرأة أخرى من الخواتين مقام أخته، وأخرى مقام عمته وأخرى مقام خالته، حتى يكون كأنه بين أهله - ولما أجلسنه على المرتبة جعلن له الحناء في يديه ورجليه، وأقام باقيهن على رأسه يغنين ويرقصن وانصرفن إلى قصر الزفاف. وأقام هو مع خواص أصحابه
وعين السلطان جماعة من الأمراء تكون من جهته (الأمير) وجماعة يكونون من جهة الزوجة، وعادتهم أن تقف الجماعة التي من جهة الزوجة على باب الموضع الذي تكون به جَلْوتها على زوجها، ويأتي الزوج بجماعة فلا يدخلون إلا أن يغلبوا أصحاب الزوجة، أو يعطونهم آلاف الدنانير إن لم يقدروا عليهم
ولما كان بعد المغرب أتي إليه بخلعة حرير زرقاء مزركشة مرصعة، قد غلبت الجواهر عليها فلا يظهر لونها مما عليها من الجواهر وبشاشية مثل ذلك. ولم أر قط خلعة أجمل من هذه الخلعة؛ وقد رأيت ما خلعه السلطان على سائر أصهاره مثل ابن ملك الملوك عماد الدين السمناني، وابن ملك العلماء، وابن شيخ الإسلام، وابن صدر جهان البخاري، فلم يكن فيها مثل هذه
ثم ركب الأمير سيف الدين في أصحابه وعبيده، وفي يد كل منهم عصا قد أعدها، وصفوا شبه إكليل من الياسمين والنسرين وله رفرف يغطي وجه المتكلل به وصدره؛ وأتوا به الأمير ليجعله على رأسه. فأبى من ذلك، وكان من عرب البادية لا عهد له بأمور الملك والحضر، فحاولته وحلفت عليه حتى جعله على رأسه

وأتى باب الصرف ويسمونه باب الحرم، وعليه جماعة الزوجة فحمل عليهم بأصحابه حملة عربية وصرعوا كل من عارضهم فغلبوا عليهم ولم يكن لجماعة الزوجة من ثبات. وبلغ ذلك السلطان فأعجبه فعله

ودخل إلى المشور وقد جعلت العروس فوق منبر عال مزين بالديباج، مرصع بالجوهر، والمشور ملآن بالنساء والمطربات قد أحضرن أنواع الآلات المطربة، وكلهن وقوف على قدم إجلالاً له وتعظيماً. فدخل بفرسه حتى قرب من المنبر، فنزل وخدم عند أول درجة منه. وقامت العروس حتى صعد فأعطته التنبول بيدها. فأخذه وجلس تحت الدرجة التي وقفت بها. ونثرت دنانير الذهب على رؤوس الحاضرين من أصحابه، ولقطتها النساء،

والمغنيات يغنين حينئذ، والأطبال والأبواق والأنقار تضرب خارج الباب ثم قام الأمير واخذ بيد زوجته، ونزل وهي تتبعه. فركب فرسه يطأ به الفُرُش والبُسط. ونُثرت الدنانير عليه وعلى أصحابه وجُعلت العروس في محفة، وحملها العبيد على أعناقهم إلى قصره والخواتين بين يديها راكبات، وغيرهن من النساء ماشيات. وإذا مروا بدار أمير أو كبير خرج إليهم، ونَثر عليهم الدنانير والدراهم على قدر همته حتى أوصلوها إلى قصره

ولما كان الغد بعثت العروس إلى جميع أصحاب زوْجها الثياب والدنانير والدراهم. وأعطى السلطان لكل واحد منهم فرساً مسرجاً مُلجماً، وبدرة دراهم من ألف دينار إلى مائتي دينار وأعطى الملك فتح الله للخواتين ثياب الحرير المنوعة والبدر؛ وكذلك لأهل الطرب - وعادتهم ببلاد الهند ألا يعطي أحد شيئاً لأهل الطرب. إنما يعطيهم صاحب العرس. وأطعم الناس جميعاً ذلك اليوم. وانفض العرس

وأمر السلطان أن يعطى للأمير غداً بلاد المالوة والجزات وكنباية ونهر والة وخيل فتح الله المذكور نائباً عنه عليها، وعظمه تعظيماً شديداً.

ا. هـ

عبد الوهاب عزام

بالرفاء يا فاروق

للأديب محمد فهمي عبد اللطيف

في الروضة الشريفة المطهرة، وإلى جانب المنبر النبوي الكريم، أخذ القوم مجلسهم كما تعودوا أن يجلسوا كل يوم؛ يجلس علي وعثمان وطلحة والزبير، وسعد وابن عوف وإخوانهم من المهاجرين في سبيل الله، يتباحثون فيما يتصل بشؤونهم، ويتحدثون بما يهم المسلمين وينفعهم؛ وكان لابد أن يوافيهم عمر في مجلسهم، وينقل إليهم ما انتهى إليه من أخبار الأمصار وسير الولاة في الناس، ويستشيرهم فيما حمل إليه من الآفاق، فيشيرون عليه، ولكن عمر لم يحضر اليوم كعادته، ولقد انتظره القوم أكثر مما يجب فما وافى إليهم، قال قائل منهم: ترى ما الذي تأخر بابن الخطاب عن مجلسنا، وأنا أعلم عنه صحة البدن وتمام العافية، وما أعرف أن عنده من رجال العرب أو أن هناك ما يشغله عنا، ويحمله على الخلف والتخلف؛ فلعله قد نسي مجلسنا اليوم، وما أحسبه قد نسيه من قبل!

قال عثمان: رفقاً يا قوم بابن الخطاب، فقد ألقيتم عليه أعباءكم كلها فنهض بها صبوراً أميناً لا يألو جهداً في تدبير أموركم، ولا يدخر وسعاً في سبيل راحتكم وراحة المسلمين كلهم. ولقد وسوس الناس منذ أيام فيما بينهم بأن عمر يريد أن يعرس لنفسه، وهو جاد في اختيار الزوجة الصالحة ليفرغ لأمور الحكم بكل جوارحه، وأحسب أن الله قد وفقه لما يحبه هو لنفسه، وما يحبه له المخلصون من صلاح الحال، وسعادة البيت، فقد انتهى إلى سمعي أنه اختار لنفسه أم كلثوم بنت أبي بكر، ومن كبنت الصديق حسباً ونسباً، وصلاحاً وجمالاً؟ فإن كان عمر قد تأخر عنا اليوم، فلعله قد تأخر لهذا الأمر ليتمه على نفسه، وليفرغ منه إلى غيره، فما بالكم تلومون الرجل على فترة انتهزها لنفسه، واغتنمها لتدبير بيته؟ على أنه قد وقف عليكم كل وقته، ومنحكم جميع تدبيره. . .

قال طلحة: ولكني أعرف يا ابن عفان أن عمر قد رُد في خطبة بنت أبي بكر، وقد كان من خبر ذلك أنه لما كشف عن رغبته لعائشة أجابته إلى طلبه ووعدته بتحقيق رغبته، وقالت له: إن الأمر كله لك ونحن طوع أمرك، فأنت أمير المؤمنين وصاحب الرسول،

وخليفة أبي بكر، ولكنها إذ ذكرت الخبر لأم كلثوم رغبت عنه، وقالت: إن عمر رجلٌ خشن العيش ولا طاقة لي باحتماله، فتحيرت عائشة وأرسلت إلى المغيرة بن شعبة لعله يحتال في رد
عمر بالخير، فالتقى به المغيرة وقال له: بلغني يا أمير المؤمنين أنك خطبت لنفسك أم كلثوم بنت أبي بكر، وهذا أمر أعيذك بالله منه، وأرى من الخير لك ولها ألا يتم، وما أقول هذا رغبة بك عنها أو رغبة بها عنك، ولكني أقوله يا عمر لأني أحبك وأبغي لك سعادة البيت، فأنت تعلم ويعلم الناس جميعاً أن بنت الصديق قد نشأت في كنف أبيها، وقد كان رحمه الله لين الجانب، طويل الأناة، رحب الصدر، كبير الرفق، فتعودت ابنته ألا تعامل إلا بلين الجانب وطول الأناة ورحابة الصدر وحسن الرفق. فلما انتقل أبو بكر إلى جوار ربه انتقلت ابنته إلى جناب عائشة، وعائشة كما تعلم امرأة، عندها من العطف واللين والرفق أكثر مما كان في نفس أبي بكر. وأنت يا عمر رجل شديد المراس، قوي الشكيمة، تأخذ الناس بالشدة والعنف، وأنت على النساء أشد، وفي معاملتهن أعنف، ونحن نهابك وما نقدر أن نردك عن خلق من أخلاقك، فكيف بها إن خالفتك في شيء فسطوت بها؟ لا جرم كنت قد خلفت أبا بكر في ولده بغير ما يحق عليك، وأبو بكر مكانته في المسلمين كبيرة، وحرمته عندنا واجبة، فليس من صواب الرأي وسداده أن تكون لك ابنته على ما تعودت في حياتها ونشأت في تربيتها، وعلى ما أنت عليه من ميول وأخلاق شديدة. وإذا كنت قد كلمت عائشة، فأنا أكفيك أمر عائشة؛ وإذا كنت ترغب في الزوجة الصالحة، فأنا لك بأم كلثوم بنت علي من فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولقد انتهى الأمر على هذا التدبير يا ابن عفان، وقد علمت أن مسعى المغيرة قد ارتاحت له عائشة، واطمأن إليه عمر، وطابت به نفس ابنة الصديق
قال ابن عوف: ألا تقصرون من حديث عمر؛ فها هو ذا مقبل علينا يقتصد في مشيته، وإني لألمحه منبسط الأسارير مفتر الثغر، فلا بد أن يكون وراءه بشرى حميدة، تطيب لها القلوب وتطمئن بها النفوس، وما أتوقع من ذلك إلا الخبر فيما تتحدثون به، فانتظروا. . . وأقبل عمر على القوم بالسلام وأخذ مجلسه بينهم وهو يقول: رفئوني يا أصحاب الرسول، رفئوني يا أبناء العشيرة. قالوا جميعاً: قد رفئناك ولكن بمن يا أمير المؤمنين؟ فما انتهى إلينا في أمرك خبر قاطع، ولا صح عندنا نبأ صادع
قال عمر: إنه لخير وبركة إن شاء الله، فقد سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: كل نسب وسبب منقطع يوم القيامة إلا نسبي وسببي، وأنا والحمد لله قد وصلت به السبب ما
استطعت، فصحبته على الجهاد في سبيل الله، باذلاً في ذلك وسع الجهد وطاقة النفس. وقد أحببت أيضاً أن أتصل بنسبه فأتصل به من الجهتين وأجمع إلى نفسي الفضيلتين، وأوثق رباطي بعروته التي لا انفصام لها، وقد رأيت أن تكون وصلتي في ذلك ورباطي أم كلثوم بنت علي ابن أبي طالب، فأبوها ابن عم النبي وصاحبه، وأمها فاطمة ابنته الحبيبة، فلعلي أكون قد وفقت إلى ما أردت، ولعل الله بفضله وكرمه يجعلها لنا خيراً وعلينا بركة
قال قائل: نعم ما اخترت يا أمير المؤمنين، وحبذا ما رأيت فإنه الرأي الجميل، وأم كلثوم من الحسب والنسب في المقام الكريم، والمكان الرفيع، ولكنا نعلم أن علياً قد حبس بناته على بني جعفر، وإنه ليشتد في ذلك ما وسعته الشدة، فهل أجابك إلى خطبتك، وحقق لك رغبتك، ووصلك بنسب النبي كما تحب؟
قل عمر: إن لذلك قصة يا أخي، لو تعلمونها جميعاً لقلتم معي حيا الله ابن أبي طالب وجزاه خير ما يجزي به الرجل الكريم، والعبد الصالح، فإني إذا مددت له اليد في ذلك
قال: يا أمير المؤمنين نعم إني حبست بناتي على بني جعفر، ولكني لا أعدل بك آل جعفر جميعاً، وأنت ما أنت في صحبة النبي ونصرة الإسلام والجهاد للحق؛ غير أن أم كلثوم صبية حدثة، أحسبها لا تقوم لك بحق الزوج، ولا تستطيع أن تصبر على شدتك، وربما تحملت من ذلك فوق طاقتها. قلت: هون عليك يا ابن أبي طالب، فوالله ما على ظهر الأرض رجل يرصد من حسن صحابتها ما أرصد، وأنا إن نقلتها من كنف أبيها فسأنقلها إلى كنف ألين وأرحب. ألا تعلم أني سأرعى فيها حق الله، وحق جدها الرسول، وحق أمها فاطمة، وحقك أنت يا علي؟ وإذا صح لي أن أستهين بحقك أو حق

فاطمة، فما يصح لي أن أسخط الله وأغضب الرسول
ومع هذا كله فقد انطلق عني علي وما أجابني إلى شيء، ولا وقفني على نهاية يصح أن أنتهي إليها. وانقضت فترات قضيتها في تقليب الرأي وتدبير الأمر، والحدْس بما سيكون من أمر ابن أبي طالب معي، وإذا بأم كلثوم تحضر عندي، وإذا هي واقفة بين يدي على يدها بُرد مطوي، تقول: إن أبي يقرئك السلام، ويقول لك: إن رضيت البرد فأمسكه، وإن سخطته فرده عليه. قلت لها: بارك الله فيك وفي أبيك يا سليلة الرسول، أبلغيه أنا قد رضينا بالبرد غاية الرضا، فإن رأى أن يسبغه علينا فله الفضل.
ثم انطلقت عني وقد علمتُ أن
أباها قد قبل خطبتي، وحقق رغبتي، ثم مال عليّ علي - وكان إلى جانبه - وقال: أليس كذلك يا ابن أبي طالب؟
قال علي: هو كذلك يا أمير المؤمنين، فبارك الله لك فيها، وبارك لها فيك. واعلم يا ابن الخطاب أنه إذا كانت الرغبة منك دعتك إلينا، فإن الرغبة فيك أجابتك منا، وقد أحسن بك ظناً من أودعك كريمته، واختارك ولم يختر عليك، وقد زوجتك ابنتي على كتاب الله، إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان. وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد جعل الأصهار صلة للأرحام المتقطعة والأنساب المتفرقة، فابتهل إليه أن يزيدنا بهذا الإصهار تمكينا وصلة على ما يحبه ويرضاه.
قال عمر: وأنا قد أمهرتها أربعين ألفاً. . . وإني لأقول ما قال النبي في ذلك: اللهم بارك لي في أهلي وبارك لأهلي فيّ، وارزقني منها وارزقها مني، واجمع بيننا ما جمعت في خير، وإذا فرقت بيننا ففرق في خير، اللهم جنبني الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتني
قال الجالسون جميعاً: وإذن فبالرفاء والسعد يا أمير المؤمنين، وبالرفاء والسعد يا فاروق
محمد فهمي عبد اللطيف
زفاف بوران إلى المأمون
للأستاذ محمد طه الحاجري
سرى الخبر في بغداد أن أمير المؤمنين المأمون قد أزمع البناء على بوران بنت الحسن بن سهل. ولقد طالما كان البغداديون يتنظرون هذا الخبر، ويستشرفون له، ويمنون أنفسهم بمظاهر الفرح الشامل، والطرب الكامل، تغمر الجو من حولهم، ويتجردون فيها من همومهم، ويمسحون بها على ما بقي من آثار الفتن الماضية في ذكرياتهم. فما إن انبعث ذلك الخبر حتى سرى في بغداد كلها، وأصبح حديث القوم الشهي إلى أنفسهم، الحظي عند أخيلتهم، وانتشر في المدينة جو من السعادة والغبطة جدير ببغداد الطروب
ثم علم القوم أن أمير المؤمنين قد أجمع على أن يتم على الحسن تكرمته، ويبالغ في ملاطفته، فيجعل الزفاف في بيته؛ وأنه منحدر في دجلة إلى ضيعته في (فم الصِّلح) حيث يقيم؛ فتهيأت بذلك الفرصة السعيدة لنفوسهم المرحة، فأخذ كثير من فتيان بغداد وسرواتها يعدون العدة للخروج في موكب الخليفة. فما جاء موعد الخروج حتى كانت دجلة تموج بالسفائن والزوارق من شتى الأشكال، وقد ركبها ألفاف من الناس من مختلف الطبقات: فهؤلاء من أهل اليسار والنعمة، قد نضدت لهم الفرُش، ووفرت لهم أسباب الترف، ووسائل الطرب، من قيان مثقفات، ودفوف وعيدان، وما إلى ذلك. وأولئك من أهل الحرفة، فهم يلتمسون النجعة، ويرجون التوسعة، ويأملون أن ينا لهم من ذلك الفيض الفياض ما تثلج له صدورهمثم نزل المأمون من قصر الخلافة، وحوله أصفياؤه وأصحابه إلى السفينة المعدة له، واتخذ مكانه فيها. وسارت السفينة جنوباً تتهادى في سيرها، ومن ورائها تلك السفن والزوارق، تنطلق منها نغمات العيدان، وأصوات القيان، حتى امتلأ جو دجلة مرحاً ونشوة
وكان يسير بازاء ذلك الموكب النهري الجميل الذي يمثل النزعة الفنية البغدادية، موكب رائع رهيب يمثل القوة العسكرية العباسية، يتألف من قواد الدولة وأجنادها، وقد ركبوا خيلهم وأخذوا سلاحهم وارتدوا أروع ثيابهم؛ وسار على رأسهم العباس ابن المأمون؛ وهكذا أخذ الخليفة طريقه إلى دار صهره.
وكان الحسن بن سهل قد ترك بغداد فراراً بأعصابه الرقيقة من زحمتها العنيفة، وأبعد

في جنوبها حيث يطيب الهواء ويسود الهدوء؛ فأتخذ له قصراً ومعسكراً في بقعة هادئة جميلة،
عند (فم الصِّلح) إلى شرقي دجلة: يشرف عليه الجبل من شرقيه، وتجري دجلة إلى غربيه، وينساب نهر الصِّلح في شماله، وتضطرد من حوله الكروم والبساتين، وتنفح عليه الأزهار والرياحين.
ولما علم الرجل أن أمير المؤمنين قد أزمع تشريفه في داره للبناء على ابنته استطار فرحاً؛ ثم ما لبث ذلك الفرح أن أخذ يعبر عن نفسه تعبيرات فنية رائعة تجلت في قصره الذي أخذ يتأنق في تزيينه، حتى صار فتنة للناظرين، ويبالغ في تأثيثه، ليكون جديراً باستقبال الخليفة فيه. وكان مزاجه الشعري يملي عليه بعض الصور الشعرية الرائعة التي كان يخترعها الخيال الفارسي المترف، والتي كانت موضع الإعجاب في ذلك العصر، فيسرف في تمثيلها، ويتأنق في تصويرها، كتلك الصورة التي اخترعها الحسن بن هانئ، وافتتن بها أهل عصره:
كأن صغرى وكبرى من فواقعها ... حصباء در على أرض من الذهب
فلم يأل في ذلك جهداً؛ ففرش القاعة الكبرى التي أعدها لاستقبال المأمون ببساط نسيجه من خيوط الذهب، وقد تناثرت فوقه حبات اللؤلؤ؛ وهو يتألق ويمج الأشعة في أضواء الشموع، وأي شموع! إنها شموع مصنوعة من العنبر، تسطع بالنور وتنفح بالعطر؛ فجعل كل ذلك يبعث في القاعة جواً سحرياً أخاذاً، تسبح به الروح في أحلامها، وكأنما نرى فيه صورة من الجنة وأخيلتها.
وأما الطريق ما بين القصر ودجلة فقد مهد وحف بماء شاء الخيال المترف أن يحف به من زينة أخاذة. وقد أقام الحسن في طرفه على شاطئ النهر جوسقاً جميلاً، نضدت فيه الفرش، وأعد لاستقبال العباس بن أمير المؤمنين. وكان الحسن في ذلك اليوم الموعود جالساً في ذلك الجوسق ينتظر، حتى وصل الموكب العسكري يقدم موكب الخليفة، فاستقبله الحسن وإن وجهه ليطفح بشراً، ثم مضى به إلى القصر، ولم يمض قليل حتى وقفت سفينة الخليفة على باب الحسن في نهر الصلح، فقام إليه الرجل وهو لا يكاد يكاتم سروره بما أفاء عليه الخليفة من شرف يقصر عنه كل شرف، بزواجه ابنته، وتشريفه بيته
وأمضى المأمون ليلته في سمر وطرب، وكانت (فم الصِّلح) تموج بالوافدين عليها من أهل الدساكر والقرى ممن جاءوا يشهدون المهرجان العظيم، فضلاً عمن كانوا في موكب الخليفة
من البغداديين بين أصوات المزاهر والقيان تشق أجواز الجو، وتملؤه بأسمى مظاهر البهجة والهناءة. وقد شاء المأمون أن يمد في أسباب الفرح لهذه الأسرة، وأن يربط بين القلوب فيها، فأمضى في الليلة التالية زواج محمد بن الحسن بن سهل بابنة عمه العباسة بنت الفضل
فلما كانت الليلة الثالثة كان زفاف بوران إلى المأمون. وكان زفافاً اقترن بمظاهر النبل العربي والترف الفارسي؛ واجتمعت لديه عظمة المأمون وكرم الحسن، وكان مبعث بركة على الأسرة العباسية وعلى رجالات الدولة، وعلى أهل الحرفة، وذوي البؤس والمسكنة
فقد ذكروا أن المأمون أذن في هذه الليلة للسيدة زبيدة أن تؤدي حجها، وكانت ممنوعة منه، وكان هذا المنع أثراً من آثار الفتنة التي كانت قائمة بين المأمون وابنها الأمين
كما عفا عن إبراهيم بن المهدي، وكان أسيراً لديه، بعد الثورة التي ثارها عليه، محاولاً انتزاع الخلافة لنفسه؛ ثم خلع عليه، وقلده سيفه، ورد إليه ماله ورفع مكانه، وأتاح للأدب العربي أن يظفر بأمتع ما قاله شاعر في الشكر العميق والاعتراف بالجميل
وهكذا مسح على قلوب أسرته فشفى جراحها، واستل ما كان قد بقي عليه من حفائظ فيها. وما أمجده عملاً إنسانياً كان ذلك الزواج الإنساني النبيل مثاره ومبعث خيره
وأما الحسن فقد كان مضرب المثل في الحفاوة والترف فقد بالغ في ذلك مبالغة الرجل يرى كل شيء من ذلك قليلاً في جانب ما يشعر به، وما يحسب أنه قد ناله؛ فاستوقف أنظار الناس بإسرافه، حتى أصبح موضع أحاديثهم، ومثار عجبهم وتعجيبهم،

ومن صور ذلك الإسراف شمعة عنبر أوقدها ليلة الزفاف، تزن أربعين مناً، أي ثمانين رطلاً أو تزيد، وقد أقامها في (تَوْر) من الذهب، مبالغة في السرف، حتى لم يفت المأمون فيما قالوا أن يلاحظ هذا ويأخذه عليهم. وحسبك هذا المثل وما تقدم لتتصور مقدار ما بلغ إليه الترف في هذا الزفاف البديع

كما أقام الولائم الفخمة لكل من كان هنالك من قواده وعساكره، ورجال المأمون وحاشيته، ثم تلك الجموع الحاشدة التي اجتمعت للمشاركة في الفرح، والتي يكفي للدلالة عليها أن نذكر أن طائفة الملاحين فيها كانت تبلغ نيفاً وثلاثين ألفاً، وقد ظل كل يوم يجددها ويفتن فيها، وقد أحاطها بكل مظاهر الجمال والفرح، كما كان لا يفتأ يخلع على القوم شتى الخلع،

حتى عاد المأمون إلى بغداد بعد أن قضى هنالك سبعة عشر يوماً، كان مبلغ ما أنفق فيها على ما يقول الطبري وابن الطقطقي وغيرهما خمسين مليوناً من الدراهم

أما هباته في تلك المناسبة السعيدة، على القواد ومن إليهم من أمراء الهاشميين، فقد كانت بدعاً في أسلوبها ومقاديرها، غاية في الكرم والأريحية، تضمن لأصحابها الثراء الدائم، فقد كتب رقاعاً بأسماء طائفة من ضياعه، ثم وضعها في بطاطيخ من العنبر، ونثرها عليهم، فكل من وقعت في يده رقعة باسم ضيعة بعث فتسلمها، ملكاً خالصاً له، وتذكاراً بليغ الأثر في حياته لذلك الزواج الميمون

وحين أزمع المأمون المسير بزوجه إلى بغداد بعث إليه بعشرة ملايين درهم، فما حملت إليه حتى ثارت به أريحيته فأخذ يغدقها في قواده وأصحابه، وخدمه وحشمه، ثم مضى مع الخليفة يشيعه وعاد بعدها إلى داره قرير العين مطمئن الضمير

وأما بوران فقد مضت مع زوجها العظيم ونزلت دار الملك والخلافة، فكانت درته اللامعة، بجمالها الفتان، وذوقها المرهف وذكائها الوقاد، ومعرفتها الواسعة، وأدبها العظيم

ولقد ظل زواج المأمون ببوران غرة في التاريخ الإسلامي، بما قام عليه من أشرف معاني الوفاء والرعاية، وما اقترن به من أعظم مظاهر النبل، وأبهر دلائل الكرم والأريحية

محمد طه الحاجري

آيات القران الملكي

للأستاذ عبد العظيم علي قناوي

تيهي واثني أعطافك يا مصر، وميسي وجري أطراف الفخر، وازهي واهنئي بأطياف البشر ترفرف فوق قصور ربك، وتخفق على دور أهلك أبد الدهر؛ فهذا فاروق المحبوب المفدى، وفرقدك المشرق سؤدداً ومجداً، وسناك المعرق نبلاً وخلداً، يضم إلى آيات جلاله آية فريدة تتطامن لها العظمة، ويلبس من الطهر حلة وحيدة يختال بها فتهتف له الجلالة ويحصن دينه القويم؛ ومن غير المليك للدين حصناً، بالشمس طلعة والشرف ملكة، ويزين التاج بأنصع جوهرة في جيد المملكة، فتهفو لاسميهما المحبوبين أفئدة الأمة، وتقر بقرانهما السعيد السيادة والمعزة

وما تلك الزينات الموضونة، والأقواس المنضودة، والأعلام المرفوعة، والثريات المؤتلفة المتلألئة، والكواكب المؤتلفة المتعانقة، إلا غيض من فيض شعور هذا الشعب المجيد بولائه السعيد بوفائه، وذرة من طود استبشاره الأشم، وغبطته بهذا القران الموسوم باليمن، المعقود بناصيته السعد. وإن دلت الاحتفالات على شيء فإنما تدل على أن الأمة لا يرضيها أن تعلن عن تعلقها بشخص فاروق العظيم، وولائها لعرشه المجيد، بالكلم الطيب ترتله، والدعاء الصالح ترفعه، والأهازيج تنشدها، والأغاني تنظمها، فحسب - بل بالبشر يفيض على كل محيا، والانشراح يفعم كل فؤاد، والسرور يملأ كل نفس، والزينات والثريات يباهي بها كل بيت كواكب السماء ونجومها. ولو أتيح للشعب أن يعلن عن زهوه بمعقد مجده، وعن فخره بمناط سعده، وعن حدبه على موئل عزه بكل ما يشاء، لاستبدل بتلك الثريات أفئدة وضاءة متألقة، يقرأ فيها رب التاج سطوراً من الحب المبين، ولجعل من أكباده مواطئ لقدميه؛ فالطنافس والبسط والخز والديباج، أدنى من أن تكون للمليك في ذلك اليوم الأغر موطئاً، ولصاغ للملكة الفريدة من أحداق العيون قلائد تزهو بها على خرائد الماس والجوهر؛ ولكن حسب الشعب نعماء أن مليكه يشعر بما يضفيه عليه من الولاء

ولا يقف بنا الفرح الزاخر والسرور الساحر عن استخلاص بعض آيات القران الباهرة، وبيناته الواضحة الرائعة، التي ستخلعها على الأخلاق فترى فيها مجداً، وتضفيها على الدين فيستعيد عزة وسعداً

مثل عليٌّ جميل، يضربه زين الشباب لشباب الجيل، حفاظاً على سَنن الدين القويم، وإحياء لسُنن الرسول الكريم، ومن أولى من جلالة المليك التقي بآثار النبي تخليداً، ومن سوى جلالته يتخذ الشبان سنته تقليداً؟ فدونكم فتيان النيل وشبابه زهرات مصر اقطفوها في تقوى وإيمان، لا في طيش وعدوان، فذلكم هو المثل الأعلى للطهر فاسلكوه، والمهيع الواضح للنبل فانهجوه، والخطة المثلى للأخلاق فاحتذوها، فإنكم تحتذون بأسمى جناب، وأحب الأحباب، وحينئذ ترفعون ركن الخلق والدين، وهما لسيادة الأمم الحصن الحصين.

وفي تبكير مولانا الفاروق بالقران - في عصر طغت فيه الإباحية باسم المدنية، وجرفت فيه المادة كل معنى سام شريف، واضمحل وازع العقل واستشرى داء العاطفة - معنى عال جليل، فقد رمى - حفظه الله - إلى أن يبقى ثوبه عفاً لا تعلق به ريبة، ومحيطه طاهراً لا تحوم حوله ظنة، ودينه قويماً لا ترقى إليه شبهة، فأملك في تلك السن، لأن في ذلك كمال الإيمان، فلقد أملك رسول الله صلى الله عليه وسلم بأم المؤمنين خديجة رضي الله عنها، وسنه إحدى وعشرون سنة (على ما أرجحه من الآراء)، وفي حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام ما يدل على توفيق رب التاج في دينه ودنياه، فقد روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: (يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء) فمليكنا المحبوب الصالح ينفذ دعوة الرسول الأمين، ويدعو من يرى في جلالته نبراسه، وكل مصري يراه كذلك، إلى ذلك النهج القويم

وتخير الفاروق - أعزه الله - بصادق فطرته، وصائب إرادته، وسامي حكمته، نجيبة نبيلة، هي سليلة الطهر والشرف وربيبة العز والمجد، وتليدة الحسب والنسب، فحباها قلبه، وأولاها لبه، ووقف عليها حبه، فأعز باختياره شعبه، إذ اصطفاها من صميمه، ليمتزج دماء الملك في جلاله وصفائه، بدم الشعب في وداعته وإبائه. سنة كريمة سنها من قبله والده العظيم، فوهب الله لمصر فاروقها المجيد؛ له من خلق الملوك سناؤه وسموه، ونبله وعلوه، ومن خلال الشعب تواضعه وسجاحته، وديمقراطيته وسماحته، فَمَلَكَ بشيمه قلوب أمته، وتطلعت إلى جلالته الشعوب الإسلامية ترى فيه مجدد شباب الإسلام بفتوته، ومعيد مجد الفراعنة بحكمته، وعرف له سامي عراقته ملوك الغرب، فأحبوه مليكاً نبيلاً، وعظموه صديقاً خليلاً. ثم إن المليكة الفريدة في المرحلة الأولى من حياتها مُهجرة مثقفة، متعلمة

مهذبة، متصلة اتصالاً روحياً وثيقاً بالمُلكِ وتقاليده، فهي قد جمعت كل مؤهلات الملكة العظيمة؛ فكأن القدر والله مدبره، والدهر ورب الخلق يسيره، كان يعدها في نشأتها الأولى لهذا المستقبل العظيم ينتظرها ببشر غامر، ويمن وافر، فتتبوأ عرش الفراعنة تكلؤها عين رحيمة، ويرعاها حدب جميل. فجلالته البر الرحيم، والندب الكريم، فنشأت محبة للعلم مقبلة على دروسه لم تشغلها بحبوحة الثراء، ولا رفاهية السراة العظماء، عن أن تبذ قريناتها في رشف العلوم، وتبهر أترابها بفطنة تستشف بها المعارف، وتبعث الخشية في نفوس صويحباتها بما ترتل من آي القرآن الكريم، فكأنها كانت تعلم أن ستزف لناصر الدين والعلم والمعارف فهي تعمل لتقر عينه بما تتحلى به من أفانين العلم.

أليس كل هذا من علائم التوفيق واليمن، ومن بشائر الخير والسعد؟ وإنه لقران مبارك نتوسم أن يؤتي - إن شاء الله - أحسن الأثمار وأنضر الأزهار، وأن تعقبه أيام خالدات في جبين مصر تملأ عطف المصري تيهاً، وآلاء سنيات للإسلام ترفع له مناراً، وأياد على الوطن سخيات تعلى له شعاراً، فتنال الأمة في عهد الفاروق المفدى الحسنيين، ويبلغ مجد مصر الخافقين، وترفل فريدة في ظل رب العرش قريرة العين بخير من تظل السماء، منشرحة الصدر بالثجب من الأمراء، بسامة الثغر بما تراه من الحب والولاء، حينما تسمع القلوب والأفواه ترفع إلى الله خير الدعاء: يحيا الملك! تحيا الملكة

عبد العظيم علي قناوي

الجلوة الملكية
للأستاذ إبراهيم مأمون

أي مجد حيال مجدك يُذكر؟ ... هذه الشمسُ في رحابك تُنثَرهْ
وابنُها البدرُ من رآك على العر ... ش تجلّيت، للوراء تأخّرْ
ونجومُ السماء تنتظم الأف ... قَ توشّيه من سناك المنضَّرْ
والنهار الضحوك يبتدر الشم ... س بوجه على الأريكة أنورْ
والنسيم الحفيّ يستاف ريا ... كَ، ومن فوحه أريج وعبهر
والرياحين في الرياض تواثب ... ن يُضمّخن من شَذاك المعطّرُ
والصِّبا الغضُّ: في المواكب ينسا ... ب انسياب الجمال في الروض أزهر
والكهولات زايلت كل كهل ... في مدَى يزحم النفوس ويبهرْ
والأغانيّ رَنّحت أذنَ الده ... ر فوافى لدى زفافك يسمُر
هذه هذه أغاريد مصر؟ ... أم هو الكون بين ناي ومزهر؟
ضَجَّ في سمعه الهتاف ودوّى ... منطق النيل في البلاد وزمجر
لَهوات الطيور تبتدع الشد ... ووتوليه صوت مصر المطهر
سال لحناً على شفاه مجالي ... ها، ومن نَفحة السماء تحدّر
في أغانٍ عُهِدن في شدْو (داو ... د)، ومن لحن بُوقه تتفجّر
وهتاف جرى على قصب الخل ... د، فغنت به ضفاف الكوثر
سرتُ والشعرَ في زفافك يا فا ... روق أحدو البيان غير مؤخر
وأناديه: إيه شعري، فهذا ... هو مجلاك، والكنانة مِنبر!
هات يا شعرُ من رصين القوافي ... هات بكرَ الخيال غير مُزَوَّر
لا تطف بي على عوانس ماضي ... ك. ومِل بي إلى البيان تمصّر
فاستوى يرسلُ المعانِيَ أبكا ... راً، ويُضفي الخيال لا يتعثر
ومضى بي كما أردت إلى العر ... ش، ومن دوننا جلالةُ عبقر
فإذا الساح والمواكب فيها ... حاشدات تسبي النفوس وتسحر
وإذا الشعر لا يشاء مضياً ... وإذا بي عن المدى أتأخر!!
وإذا الحشد لا يطيق سكوتاً ... شهد العرشَ والمليكَ فكبرَّ
وإذا مصر بالهتاف تدوّي ... ذاك ركب الفاروق، الله أكبر!
عجزت ريشة المصور وارت ... دّ يراع الأديب غير مؤزَّر
وانتبذتُ القرطاس والقلم الفخ ... مَ، وأنكرت كل ما كان يُسْطر
وتسللت في الرياض لعلّي ... بجلال الرياض أحظى وأظفر
فإذا الصمت يحتوينيَ حيرا ... نَ، وشعري هناك غير مُيسَّرْ
ورأتني بلابل النيل أسْعى ... فتساءلن: ما لذاك تحيَّرْ؟
قلت: أرجو الإلهام من نفحة الر ... وض أحيّ به الزفاف الموقر
فتهامسنَ: ما لذاك؟ وعن أيّ ... ة حالٍ يرى المحاكِيَ عبَّر؟
أم عن العرش في الجلالة يبدو ... ضاحيَ الوجه، باسم الثغر، أحور؟
أم عن المُلك بات ينتظم الشع ... ب، كأن العباد للبعث تحشر؟
أم عن الليل بات يستبق الصب ... ح بوجهٍ من المواكب أقمر؟
أم عن الضوء في ائتلاق من البي ... ت يريك النهار أو هو أبهر؟
أم عن الغِيد يحتشدن جماعا ... ت وفي ركبها العفاف يُتَصَّرْ؟
أم عن الزهر في فروع العذارى ... يتهادين كالغصون تؤطّر؟
أم عن الجَلوة المهيبة تسعى ... في احتشادٍ به الكمال تخفر؟
أم عن الدين في المحاريب يجثو ... بالدعاء المجاب للعرش يجْأر؟
أم عن الجحفل العرمرم في السا ... حة يهتزّ لِلوّاء المظفرْ
أم عن الخيل في رحابك يَرقصْ ... ن وفي موطن المنى تتبخترْ؟
أم عن الحائمات هَزَّمْن في الج ... وّ ومن نشوة العلا تتهدّر؟
أفحمْتني، فقلت: ويحك ماذا ... صُغْتهِ أنت؟ فانتحتْ تتفكر!
قلت. إيه بلابل النيل شدوا ... إن وصف البيان في الحق قَصّر!
فتناجين - والحقيقة تهفو - ... هكذا الوصف، نحن في الأمر نُعذر

قلت: إيه بلابل النيل إيهٍ ... إن جُهد المُقلِّ في الحفل يشكرْ
هل أتاك الحديث من شفةِ الوا ... دي بيوم على الزمان مُشهَّرْ
أو رأيت الرحاب عادت سماء ... بسوى وجهك المضيء المدثّرْ
مهرجانٌ على المشارق ضافٍ ... يحشد الدهر رائعاً يتجمْهرْ
هذه مصر تحتفي بيفاع ... ساس بالحكمة الشئون ودبّر
يافعٌ، أروعُ الفؤاد، مُزكيَّ ... طيبُ النفس بالحنيف تَدَثّر
بلغَ الرشدَ يوم نُزِّيَ في المه ... د، وما كان في الأمور بإمَّر
من وفاء البلاد إكليله السمْ ... حُ ومن حبها المؤكد يُضْفَرْ
وله الشمس وهي تاج المعالي ... تاج عِزٍّ، على سواه تكبر!
لم يُتح قبلُ للعباهِل في الأر ... ض ولم يُتخذْ لهامةِ قيصَرْ
رامه الشعب للمُمَلَّك رمسي ... س، وللفاطميِّ رجّاه جوهَرْ
يا مليك البلاد: ذلك يومٌ ... في حَشيد الأيام لَن يتنكّرْ
خفّ في قدسه فراعنة الوا ... دي نشاوى الخطا تُدِل وتفخَرْ
وكأن الوفود من (عين شمس) ... ومن (الكرنك) المخلد تخطرْ
وكأنّ الزفاف في (طيْبة) المج ... د وحشد الجموع حول (الأقصُر)
ههنا الصِّيد من فراعنة الوا ... دي يرون البلاد في العُرس تزخر
ذاك (وادي الملوك) ينتظم الني ... ل حلالاً على السفائن تمخُرْ
فانظر النيل والمواخر فيه ... تلْق دنيا من الزمان تُنشَّرْ
تلق عرش البلاد من (آل خوفو) ... ضاحيَ الحشد بين جند وعسكر
وترى (أحمسَ) الجريَء يزجّي ... سفن المجد تستزيد وتكثرْ
وانظر السُّفْنَ في الوشائع نشوى ... إن فيها (تحتْمسَ) النيل يَزْأرْ
أمِنتْ مصْرُ مِنْ عَوادي اللّيالي ... وزمان الفاروق بالعدل أسفر

إبراهيم مأمون
المدرس بمدرسة فؤاد الثانوية بالزقازيق
عروس صاحب الجلالة فرعون الصغير
للأستاذ دريني خشبة

استيقظ أهل طيبة في هَدْأَة الفجر الأول من أيام الربيع على أصوات طبول فرعون التي أخذت تدوي في الأفق، وترن في ظلال المعابد، وتنسكب مع الشفق الوردي في أذني أمون رع وترف فوق مسلات الكرنك مع هُورس الكريم واستيقظت الآلهة كلها تبارك الجيش، وتحرس صاحب الجلالة وتغسل الأعلام المصرية المنشرة بدموع الندى. . . تلك الدموع العطرية التي كانت تترقرق من أعين الربيع مما هزّه من فرح، وما سوى فيه من شباب فرعون

واهتز حابي العظيم تحت الأسطول اللّجِب الذي صدحت موسيقاه لتمتزج بموسيقى الجيش، فتتدفق في قلوب الشعب المزدحم فوق العدوتين ألحاناً من الحماسة، ونورانية من الحب، وقدسيةً من الولاء، تنعقد فوق هامة المليك هالةً من إعزاز رعاياه، وإكليلاً من وفاء الأمة النبيلة صاحبة المجد. . .

ويل للحثيين!!

لقد أغراهم بمصر أن رأوا على عرشها الملك الشاب تحتمس فغرتهم الأماني، وهاجت في قلوبهم الأحقاد القديمة، ووسوست لهم شياطينهم أنها الفرصة النادرة التي يدركون بها ما لم يدركوه في عهد آبائه، فتألبوا، وثاروا، وجمعوا الجموع لغزو مصر ولكن. . . طاشت أحلامهم. . . ففوق عرش النيل ملك، وفي مصر أمة، وملء الوجهين قلوب فياضة بحب فرعون يوجهها أنى يشاء. . . وهاهو ذا الجيش تنتظم صفوفه كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، وهاهو ذا الأسطول يتهادى على أعراف الموج في النيل نحو الشمال. . . وهاهي مصر كلها تحملق مُغضَبة نحو المشرق، ساخرة مستهزئة بأعدائها الكلاب الذين طالما حطمتهم في ديارهم، وألبستهم لباس الذل والخوف، فلما صفحت عنهم إذا هم ينْفِرُون!

واستيقظت حَتَاسُّو، عروس فرعون، وفتحت نافذتها لتشهد المنظر الرائع، ولترى إلى زوجها الشاب يستعرض الجيش وقد استوى فوق جواده الأبيض المختال، وراح يتهادى بين صفوف الجند، كأنما يرسل من عينيه المصريتين سحراً في قلوب المحاربين، ومن

فوق رأسه تاج المملكة المتحدة يشع سناه في غبشة الصبح، فكأنما يملأ الآفاق ذَهَباً
لقد كانت ليلة طويلة دجوجية، تلك الليلة التي قضتها حتاسُّو بين وصيفتيها النائمتين الحالمتين، تفكر في مليكها الذي أقبل في المساء يودعها ويتزود منها لرحلة الغد إلى بلاد الحثيين. . . لقد كانت تراه ما يزال جالساً إليها يحدثها ويسامرها، ويرسل عينيه الحبيتين في عينيها المذعورتين، ويرسل معهما روحه فتعانق روحها، وقلبه فيتحسس قلبها، وشعوره الفائر، فيتحد بشعورها. . . ثم تذكر رنين صوته العذب الموسيقي يترقرق في أذنيها فيملؤهما بالأحلام، ورنين قبلاته الحارة الطاهرة تهمهم على فمها الشتيت الحلو فتحمل إليه سِرّ الخمر الإلهية التي لا غَوْل فيها ولا تأثيم. . . فتبكي. . .!
ولم لا. . .؟ أليس من البكاء بكاء تحمل دموعُه رسالة الروح فتذهب بها إلى الله اللطيف العلي، فتكون عنده صلاةً ليس مثلها صلاة!! ذلك بكاء المحبين. . .
ورحل فرعون الشاب بأساطيله وجنده
ولكن طيبة العظيمة لم يدم لها هذا الصفو الجميل الذي ودعت تحت بنوده ملكها. . .
ذلك أن أم العروس المصون شوهدت في فجر اليوم الثاني راكعة في المعبد الكبير أمام المذبح، بين يدي أمون رع، تبكي وتصلي، وتتوجع وتتصدع وتشكو إلى الله بثها الذي لم يعرف أحد سببه
وقد وقف الكهنة حولها في ذهول وخشوع، ولم يجسر أحد منهم أن يسألها عما ألم بها؛ بيد أن رئيس المعبد تقدم إليها آخر الأمر في أدب وضراعة، وربت قليلاً على كتفها، ثم مد يده الواهية المعروقة إلى يدها المرتجفة المحزونة، فنهضت وهي لا تكاد تعي مما يعصف بها من هم وشجو. . .
وسار الكاهن الأكبر بين يديها إلى صومعته؛ وكان الكهنة يتلون أوْراد الفجر وأناشيد الصباح فتهتز جوانب المعبد بحسن إنشادهم وروعة ترتيلاتهم، فتنهمر دموع الأم، وتقف أمام هذه الصورة، وبين ذلك التمثال باسطة ذراعيها، وداعية الآلهة، متمتمة بكلام خفي غير مفهوم. . .
- ماذا يا ابنتي! فيم مجيئك في هذه الساعة من الفجر؟ وفيم هذا البكاء وتلك الصلوات. . .؟ تكلمي. . .! ألست أباك؟
- تباركت أيها الأب. . . ولكن ليحضر نائب صاحب الجلالة، فالخطب جلل. . . وتكاد نفسي تتصدع. . .
- نائب صاحب الجلالة؟ أي خطب جلل يا أربابي؟! أمون رع!! لطفك يا ربي المقدس!
وأرسل الكاهن الأكبر رسوله إلى نائب الملك فجاء مهرولاً في ثياب النوم، وجعل يلهث من الفزع والتعب، ويسأل الكاهن فيم أرسل إليه، وماذا أصاب والدة الملكة. . . فأشار الكاهن إلى الأم الباكية، فالتفتت إليه مذهولة وقالت:
- ابنتي! ابنتي يا نائب صاحب الجلالة!
- الملكة!
- بل العروس!
- ماذا؟ ماذا أصابها؟
- لا أدري. . .! إنها ليست في القصر! لا هي، ولا وصيفتاها!
- هل فتشت الغرف؟
- كلها!
- والحديقة؟
- وطيبة جميعاً. . .
- جريمة! إن في الأمر جريمة. . . لا بد من تبليغ مولاي! وكاد النائب المسبوه يرسل صيحة ذعره في المعبد، لولا أن أشار إليه رئيس الكهنة، فصمت. . . وقال فتاح الكاهن الأكبر:
- أتحسب أن من الخير أن نحمل هذا النبأ المروّع إلى ملكٍ ذهب أمس، وأمس فقط، على رأس جنوده ليؤدب أعداءه؟ لا، لا، ليس هذا عندي برأي. . . إنها أول حربٍ يشنها الملك، فكيف نُثنيه بمثل هذا عن عزمه؟!
- فما الرأي إذن؟
- اهدأ يا نائب صاحب الجلالة، فنحن بين يَديْ أمون، ويوشك رَعْ أن يهدينا بِسَنا نوره ولألاء حكمته

ويرى الكاهن الأكبر أول شعاعة من شعاع الشمس تدخل من كوة الشرق في الصومعة،
فيأمر المؤذن فيؤذن بصلاة جامعة، لرع. . . رب المشرقين!
وينتظم الكهنة صفوفاً أمام المذبح الكبير، ويبدأ رئيسهم إنشاده، فيأخذون في ترتيل جميل، وتركع (تي)، ويركع آنبو، ويصليان مع الكهنة. . . حتى إذا فرغ الجميع من صلاتهم خلا رئيس المعبد إلى آلهته، ثم أقبل على نائب الملك وأقبل على تي بوجه مشرق متهلل وهو يَسِّبح ويقول: (بخير. . .)
بخير؟! وأي خير في أن تختفي عروس فرعون، فإذا أب من حزْبه لم يجدها؟ ومن ذا) الذي يستطيع أن يلقاه حين يصل إلى طيبة فلا تكون عروسه أول من تلقاه بها حاملةً له باقةً ناضرةً من أزهار اللوتس المقدسة؟ واأسفاه عليك يا ابنتي؟ وواأسفاه على الأحلام الضائعة(!)
وهكذا راحت تي تندب حظها، وتذرف الدمع من أجل ابنتها، وكلما زارها كبير الكهنة فواساها لم تلق بالها إليه، حتى اساقطت نفسها أنفساً، وحتى براها الحزن، وشفها الوجد، وأوهاها طول البكاء
وكتموا الخبر حتى لا يصل إلى فرعون فيفت في عضده، ويوهي من جَلَده، ويكون سبباً فيما لا يوده له إلا عدوه
ثم أرسل تحتمس رسالة إلى عروسه أخذتها أمها، فلما قَضتها، انهمرت عيناها بالدموع الحِرار من أجل حتاسو، التي أرسل الملك يخبرها أنه اجتاز حدود مصر إلى بلاد الأعداد، وأنه يقبلها على هذا البعد الشاسع بينهما، ويسألها أن تصلي له وتركع بين يدي آمون رع من أجله. . . ومن أجل مصر. . . التي يفتديها الجميع، ويعيش من أجلها الجميع، ويموت في سبيلها الجميع
واضطرت الأم المحزونة أن تزور رسالة تبعث بها إلى صاحب الجلالة على لسان عروسه تشكره فيها وتتمنى له الخير والنصر؟ وكانت الرسالة جافة خالية من روح الحب الذي يملي على صاحبه ويوحي إليه، ويُنضر طِرْسه بألوان الورد، ويعطره بأنفاسه. . . فلما قرأها تحتمس هاجت الوساوس في قلبه، وإن يكن قد تجلد وصبر ولقي فرعون أعداءه. . .
وكانت جيوشهم تغمر السهل والجبل، وقنابلهم تزحم البر والبحر، وهم على كثرتهم سابغون
في دروعهم مُقَنعون في حديدهم، تصهل خيلهم فتتجاوب أصداؤها في جنبات الوادي وترغى فتشق عنان السماء. . . وقد آنس الملك ضعفاً وقلة في ميسرتهم فانقض عليها بميمنته، واستطاع بعد عناء أن يزحزحها، لكن المدد الذي وصل من وراء المجثبتين أفسد على فرعون خطته، فتقهقر قليلاً ليأمن التفاف الأعداء، الذين غرهم نكوص ميمنة مصر، فهجموا بجموعهم كلها؛ وحمى وطيس القتال في القلب والميسرة والميمنة. . . وثار النقع. . . وارتفع أنين القتلى في كل مكان. . . وانطلق عزيز النيل يصيح في جنوده ويحرضهم ويثبت أقدامهم، ويذكرهم بمجد بلادهم. . . وكانت كلماته تثير فيهم الحمية، وتلهب صدورهم بنار الوطنية، فيهجمون غير مبالين، وينقضون على أعدائهم غير هيابين، حتى زلزلوهم عن مراكزهم. وزادهم حماسة أن رأوا قلب الحثيين ينتقض على قادته، ويولي بعض عساكره الأدبار، فاقتحموا وراءهم الحلبة وأوقعوا فيهم حتى أثخنوهم. . . وأبصرت ميمنة الحثيين وميسرتهم ما حل بالقلب فبهتوا، وخارت عزائمهم، وساعد ذلك المصريين فانقضوا عليهم كالصواعق من كل مكان. . .
وظن المصريون أنهم ظهروا على أعدائهم فجعلوا يتصايحون ويهتفون، ويهنئ بعضهم بعضاً، والعدو ما يزال صامداً في مكانه. وفطن قائد الحثيين إلى ذلك فبدا أن يذهب له في كوكبة من أشجع فرسانه فيلتف بمركز القيادة في صفوف المصريين الخلفية وسرعان ما أنفذ الفكرة
وكادت حيلة القائد تنجح، لولا أن فطن إلى ذلك أحد فرسان المصريين فصاح ببعض ضباط الجيش قائلاً: (أيها الجنود دافعوا عن ملككم. . . الحثيون يوشكون أن يحدقوا به). وتلفت الضباط فرأوا كوكبة الحيثيين مسرعة إلى مركز القيادة
فصاحوا بجنودهم، وانطلقوا في أثر الفارس الذي نبههم فاشتبكوا مع الأعداء في ملحمة هائلة، أبلى فيها بلاءً حسناً. . . وهرب الحثيون. . . ولكن الفارس المسكين

سقط جريحاً، وانبطح من فوق جواده بين القتلى العديدين. . . وتقدم إليه فارسان شجاعان فحملاه إلى المعسكر حيث ضمدا جراحه وجلسا عند سريره يواسيانه
وانتصر فرعون مصر، وطهر الأرض من رجس الحثيين! وعاد إلى معسكره فمنح الفارس الجريح أسمى ألقاب الجيش ورفعه إلى مرتبة قائد، ثم ذهب إليه بنفسه فأبدى له إعجابه
بشجاعته وحسن بلائه
وذاعت أنباء النصر في مصر فغمر الفرح رعايا فرعون، وراح الجميع يقيمون معالم الزينة على مساكنهم ومتاجرهم، وانطلقت زرافات الكهنة ترتل أورادها في شوارع المدن، وبدت طيبة في أبهى حللها، ورفرفت الأعلام على الهياكل ودور الحكومة، وتدفق حابي بالبركات في أرجاء البلاد
وذهب نائب الملك في معيته كبير الكهنة للقاء صاحب الجلالة على حدود البلاد، وليجنباه الخبر المفزع الهائل. . . خبر اختفاء عروسه. . . أو ليكونا على الأقل معينين له على تحمل الصدمة. . .
وقد سألهما جلالته عنها حين لقيهما فكتما عنه الأمر، لتتم للبلاد أفراحها! واعتزما ألا يقولا له شيئاً حتى يستقر في عاصمة ملكه
وكم حدّث عزيز مصر نفسه أنه كان أحجى بحتاسُّو لو خرجت إلى الحدود للقائه، كما خرج نائبه وكبير الكهنة وكبراء الدولة. . . . . .
لكنه مع ذاك تجلد واصطبر. . .
ووصل إلى طيبه. . . ولكن حتاسو لم تسرع للقائه، فماذا جرى؟! وبدلاً من أن تذهب حتاسو إلى قصر الملك لتهنئه، فقد ذهبت أمها الواهية المتداعية. فما إن وقعت عيناه عليها حتى سألها:
- ماذا؟ أين حتاسو؟؟
فتبسمت الأم المذهولة وقالت:
- في سريرها يا مولاي!
- في سريرها؟ أهي مريضة؟
- أجل يا مولاي
ونظر نائب الملك إلى كبير الكهنة ثم راح يسر إليه: (يا للآلهة! إن تي وفية للملك مخلصة. . . إنها تأبى أن تكون أول من يبلغ الملك نبأ اختفاء عروسه!!)
قال الملك:
- إذن نمضي نحن فنراها
ودخل صاحب الجلالة غرفة حتاسو، فوجدها طريحة الفراش، وقد ربطت فخذها وذراعها بأربطة وضمادات. . . وكانت تغط في سبات عميق، وكان وجهها مع ذلك مشرقاً جميلاً ساحراً كعادته. . . ولم يملك تحتمس إلا أن ينحني فيطبع قبلة اللقاء على فم عروسه. . .
وانتفضت حتاسو من سحر القبلة العزيزة، ولما فتحت عينيها، رأت صاحب الجلالة منحنياً فوق وجهها، ودمعة غالية تترقرق في مقلتيه. . . فهبت من سريرها باسمة سعيدة، وأنشأت تقول:
- أهنئ مولاي بالنصر الحاسم
وتحدرت الدموع من عيني الملك، ثم قال لعروسه:
- ماذا بك يا حتاسو!؟
فقالت له:
- لا شيء! جروح هينة من معركة مَجدُّو!!
- معركة مجدُّو؟
- إي يا مولاي. . . مجدُّو. . . مجدُّو! ألا تعرف الفارس أحميس الذي رفعته إلى رتبة قائد؟ هو أنا! وهاتان صاحباي:
وبعد شهر واحد لبست البلاد زخرفها وازينت واحتفلت بزفاف صاحبي الجلالة.

دريني خشبة
ليلى المريضة في العراق
للدكتور زكي مبارك

وعند هذا الحد من الحديث تذكرت ليلى
تذكرت العبارة البغدادية الطريفة التي طلت بها قلبي منذ أول زيارة، فقد قالت حين رأتني أهم بالرواح:
(فراقك صعب، سيدي)
ورأيت من الخير أن أصرف ظمياء. وكانت لي سياسة أوحاها الشيطان، فقد رأيت الفتاة تقص أحاديث الشيخ دعاس وزوجته نجلاء بحماسة سحرية، ورأيتها تطنب في وصف ابنتهما الجميلة، تلك الفتاة التي اسمها درية، وهو اسم لا أدري كيف يلذع قلبي، ولكن لا موجب للمضي في سماع ما تقول ظمياء في وصف درية، فليس من الحزم أن تقول ظمياء كل ما عندها في ليلة واحدة. وهل أضمن رؤيتها بعد ذلك إن تم هذا الحديث؟ من الخير أن أصرف هذه الفتاة وهي في نشوة الحديث فلا أتعب في رَجْعها إلى منزلي حين أشاء
ولكن كيف أصرفها وقد استأنست كل الاستئناس؟
يجب أن أصرفها بعلة طبية لتتهيأ للمرض، فقد أمسيت أشعر بوجوب أن تصبح هذه الفتاة من مرضاي؛ ولا بد للطبيب من مريض؛ وستعافى ليلى بإذن الله، فلتكن لي ذخيرة ألتمس بها البقاء في بغداد. وكذلك صوبت بصري إلى الفتاة وقلت:
ما هذا الذي أرى بوجهك يا ظمياء؟
فانزعجت الفتاة وقالت بصوت مقتول: إيش بي يا عمي؟
فقلت وأنا أتكلف الحزن: سأخبرك يا بنيتي حين أجيء لعيادة ليلى. فاذهبي الآن واستريحي، وتجنبي التعرض للتيارات الوجدانية
فخرجت الفتاة مذعورة لا تُلوى على شيء. والجمال الساذج يفتن القلوب حين يكرثه الانزعاج
فراقك صعب، سيدي
كذلك قالت ليلى
فراقك صعب. . .
أي والله، فراقي صعب، يا ليلى، وفراقك أصعب. فمتى يكون اللقاء؟
وأويت إلى فراشي في ليلة باردة لم يدفئها غير الذكريات. ثم خرجت مبكراً في الصباح فرأيت بغداد تموج بالحديث عن ليلى والدكتور زكي مبارك وانتخاب مجلس النواب
أعوذ بالله!
ثم سألت فعلمت أن مجلة الرسالة نشرت كلمة عن ليلى المريضة في العراق، فتذكرت الخطاب الخاص الذي أرسلته إلى الأستاذ الزيات منذ أسابيع. وما أتهم هذا الصديق بسوء النية في نشر ذلك الخطاب، فهو رجل عاش سنين في بغداد ولم ير ليلى بعينيه، فهو يحب أن يراها مع قرائه بأذنيه، تأسياً بقول الشريف الرضي:
فاتني أن أرى الديار بطرفي ... فلعلي أرى الديار بسمعي
ومضى يوم، ويوم، وأيام، وأنا طعمة الألسنة والعيون في كل مكان
وكانت فرصة تذكرت فيها ما جنيت على نفسي في السنين الخوالي، فقد كنت عدو نفسي من حيث لا أريد. أنا الطبيب الذي أضاعه الأدب فلم يبق أمامه غير احتراف الصحافة والتعليم. ولولا جناية الأدب لكنت اليوم عميد كلية الطب بالجامعة المصرية، وأنا عند المنصفين أعرف بالطب من العميد المعروف
تذكرت وتذكرت. . .
تذكرت العيادة التي أقمتها في الزمالك مع زميلي الدكتور أديب نشوان، وهي عيادة كان يُرجَى أن تكون مضرب المثل في عالم الطب، ولكن مقالاتي في جريدة البلاغ جنت علي فلم يعد أحد يصدق أنني طبيب
وتذكرت مجلة (طبيب القلوب) وكانت والله مجلة لطيفة، ولكني تفلسفت في الدراسات النفسية، ثم ما زلت أوغل في التفلسف حتى حسبني القراء من العابثين؛ وعطلت المجلة، ولا تزال إلى اليوم في نزاع حول ما تراكم عليها من ديون وقد نجا زميلي بجلده، وكيف لا ينجو وهو جبان! وبقيت أنا أضع الدينار بجانب الدينار لأتخلص مما جناه قلمي البليغ!

يرحمك الله يا أبي! فكم نصحتني ولم أنتصح! كم قلت إن الطبيب لا يليق به أن يتحدث في
أشعاره عن الخدود والعيون والنحور والثغور، ولا ينبغي له أن يتفجع على مواسم الروح
في مصر الجديدة والزمالك. ولكني أحسنت الظن بالناس فانطلقت أشدو وأترنم،
فكان جزائي أن أعيش عيش المشردين بين القاهرة وباريس وبغداد
تذكرت وتذكرت لو تنفع الذكرى!
تذكرت العيادة الجميلة التي أقمتها في شارع فؤاد بعد أن خُرِّبت عيادتي بشارع
المدابغ بسبب السيدة (ن)، وكانت عيادتي بشارع فؤاد تبشر بمستقبل رائع، فقد كانت
مجهزة على أحدث طراز، وكان فيها ممرضة جميلة تخلب عقول النساء قبل أن تخلب
عقول الرجال؛ ولكن الله ابتلاني بطائفتين من الناس كانوا السبب في خراب تلك
العيادة الفيحاء: الطائفة الأولى جماعة الأصدقاء الذين يرون من حقوق الصداقة أن
أداويهم بالمجان. أما الطائفة الثانية فهم الأدباء الذين جعلوا عيادتي سامراً يلتقون فيه
كل مساء. وفي تلك العيادة تألفت رابطة الأدب القديم وجمعية عطارد وأصدقاء
أفروديت. وفي تلك العيادة قامت المعارك بين القديم والجديد، وفيها نظم أول مؤتمر
لكليات الجامعة المصرية، وفيها أسست نقابة المحبين
وما لي أكتم حقائق التاريخ؟ إن هذه المذكرات لن تنشر في حياتي، ولن يراها الزيات
ولا غير الزيات. فلأدون فيها كل شيء وليقل الناس بعدي ما شاءوا؛ فسأكون في
شغل عنهم بما أعد الله للأشقياء من نعيم الفراديس. وهل يُرضي الله في كرمه أن
نشقى في الدارين؟
كانت عيادتي بشارع فؤاد هي الملاذ لكل أديب لا يجد في جيبه خمسة قروش يجلس
بها جلسة لطيفة في مشرب. . . أو مشرب. . . أو مشرب. . . ولا موجب لذكر أسماء
هذه المشارب فأصحابها لئام لا يستحقون الإعلان، وأخشى أن يعيشوا بعد أن أموت.
أليس فيهم الرجل اللئيم الذي استقبل في حانته صديقي. . فلما انصرف سألني عن
اسمه فطويته عنه. وكان اللئيم يريد أن يعرف ما هو اسم ذلك الشاب الذي يخاصر
. . .تلك الشقراء؟ وكان ذلك الصديق من كبار الموظفين بوزارة
إن القاهرة ليس فيها مشرب أمين يلقى فيه الرجل حبيبته وهو في أمان من عيون
الرقباء
وهذا الكلام الذي أدونه في مذكراتي هو السبب في خرابي، فأنا طبيب دقيق
الإحساس، ودقة الإحساس في زماننا من أشنع العيوب. ومن حسن الحظ أن هذا
الكلام سيُطوى إلى حين، لأني سأدفن مذكراتي بالمكتبة العامة في بغداد، ولن يطلبها
مجلس كلية الآداب
بالجامعة المصرية إلا بعد مئات من السنين. وستكون لكلية الآداب جهود مشكورة في
درس النثر الفني في الأدب الطبي!
ألا فليعلم الجمهور الذي يخلفنا بعد مئات السنين أن الأدب أضاع ثلاثة من الأطباء كانوا
يعيشون في مصر، وهم محجوب ثابت، وأحمد أبو شادي، وزكي مبارك
ولكن هل ضاع محجوب ثابت؟ وكيف؟ لقد اشتغل بالتمثيل السينمائي فنجح أعظم
نجاح. وقد تفضل سعادة الأستاذ طه الراوي وكيل وزارة المعارف العراقية فدعانا منذ
ليال لتناول طعام العشاء. وعلى المائدة تحدث الأستاذ منير القاضي فأشاد بنبوغ
محجوب ثابت في التمثيل وجزم بأنه أبرع من الممثل زكي طليمات. وعندئذ أحسست
الغيرة تلهب أحشائي، فهذا زميل أضاعه الأدب وحفظه التمثيل
وأبو شادي أحيته المعامل البكتريولوجية، فهو يفحص (عينات) الجراثيم ثم يخلد
أصنافها بالشعر البليغ. أما زكي مبارك فقد أضاعه الأدب جملة واحدة. وإني لأخشى ألا
يستمع إليه أحد إن وصف لمريض شربة زيت؛ ومع أنه ظفر بألقاب كلية الطب وكلية
الآداب فقد ضاع في الكليتين، فهو عند كلية الآداب رجل طبيب، وعند كلية الطب رجل
أديب، وعند الله جزائي!
ومما زاد البلاء أنني صرحت بأن ليلى تقيم في شارع العباس ابن الأحنف، وهو شارع
معروف في بغداد، فما الذي كان يمنع من اختراع أسم موهوم أضلل به أهل الفضول؟
كذلك أمسيت في حيرة وارتباك، فما توجهت إلى ليلى إلا رأيت الشارع يعج
بالمتطلعين. ويحسن النص على أن المدنية الحديثة جنت على بغداد أعظم جناية،

فليس فيها شارع ولا حارة ولا درب ولا عطفة إلا وهو مضاء بالكهرباء، وبذلك ضاع علينا الحظ الذي كان يتمتع به المتنبي إذ يقول:

أزورهم وسواد الليل يشفع لي ... وأنثني وبياض الصبح يغري بي

وفي بغداد شرطة لا تعرف التغافل الظريف الذي تصطنعه شرطة باريس. وليلى نفسها لا تخلو من عنجهية البدويات، وأنا نفسي لا أحسن الصبر وهو أقل ما يتخلق به الأطباء

وفي معمعة هذا الكرب وقع حادث ظريف، فقد تلقيت صكاً من مجلة الهلال على بنك إيسترن في بغداد، تلقيته في ساعة ضيق، فمضت إلى البنك لأتقاضاه وأنفق محصوله على نفسي وعلى بعض مرضاي من الملاح.

ولكن إدارة البنك رفضت تسليم المبلغ الميمون وقالت: هات جواز السفر، أو أحضر رجلاً يعرفك. فقلت: أما جواز السفر فلا سبيل إليه لأن المطر ينهمر والطريق كله أوحال. وأما البحث عن رجل يعرفني فهو سهل، ولكنه لا يتم بدون فضيحة البنك. فقال فريق من الموظفين: وكيف؟ فقلت: لأن مما يفضح بنك إيسترن أن يجهل زكي مبارك وهو رجل يشار إليه بالبنان في كل أرض، وفي صدره ودائع أغلى وأنفس مما تحفظ أقوى الخزائن في أعظم البنوك. وعندئذ ضج موظفو البنك بالضحك والقهقهة الساخرة؛ ولكن أحدهم ترفق وقال: أنت الطبيب الذي جاء يفتش عن ليلى والذي ينشر نتائج بحثه بمجلة الرسالة المصرية؟

فقلت: نعم!

فالتفت ذلك الموظف إلى زملائه وقال: يا جماعة. هذا هو الطبيب الذي جاء يفتش عن ليلى!

وما كاد يفوه بهذه الكلمات حتى أقبل الموظفون لمصافحتي. وفي لحظة واحدة تسامع مَن في البنك بقصتي، وقد استظرفوني جداً، بالرغم من أني أحمل أنفاً أعظم من أنف ابن حرب، كما قال الأستاذ حسن فهمي الدجاني، زميلي في أيام البؤس، يوم كنت تلميذ الشيخ سيد المرصفي بالأزهر الشريف. وصحبني ذلك الموظف إلي مكتب المدير فشربت عنده كأساً من قهوة أبي الفضل لا قهوة أبي نواس. ولم يفتني أن أسأل عن اسم ذلك الموظف الأديب الذي يقرأ مجلة الرسالة وهو في البنك - وتلك إحدى الأعاجيب - فعرفت أنه يسمى ألبرت داود يعقوب، فمضيت وأنا أرتل الآية الكريمة: (يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين)

فقد نفعني الأدب في بنك إيسترن، فهل ينفعني عن ليلى؟

وهل نفعني الأدب عند عروس دمياط حتى ينفعني عند عروس بغداد؟

أمري إلى الهوى!

ظهر المقال الثاني في مجلة الرسالة وفيه كلام عن وزير المعارف ورئيس الوزراء، وقد صارحني الأستاذ عبد الجليل الراوي بأن لذلك عواقب. . .

فليكن هذان المقالان كل ما أرسل إلى الزيات، ولتكن هذه الحوادث بداية لرجوعي إلى العقل، فأنا لا أزال شاباً، ومن السهل أن أحسن سمعتي وأن أعيد تنظيم عيادتي في شارع فؤاد، فلولا جناية الأدب لكنت اليوم أغنى الأطباء

على أنه لا موجب للندم على المقالين اللذين نشرتهما الرسالة، فقد أصبح العراق جذوة وجدانية، وصار اسم ليلى بداية كل حديث ونهاية كل حديث في الأندية والمعاهد، بغض النظر عن الفتنة التي ثارت بسبب ليلى في الرستمية، وبغض النظر عن المشاجرة التي وقعت من أجلها في كلية الحقوق. . . وينبغي أن أسجل أن هذين المقالين جذبا الأنظار إلى المؤتمر الطبي، فقد حدثني الدكتور حسين كامل أن طلبات الاشتراك بلغت المئات في أسبوع واحد. والسبب لا يخفى على من سيقرءون مذكراتي في السنين المقبلات، فقد صار مفهوماً أن ليلى ستحضر جلسة الافتتاح، وإلى ذلك أشارت جريدة البلاد وجريدة العقاب وجريدة الرأي العام وجريدة الهدف، وأنكرت ذلك مجلة الكفاح وقالت: إنه لا يليق بأمة إسلامية أن تعرض امرأة لعيون الناظرين؛ وفات مجلة الكفاح أن المؤتمر لا يعقد هذه السنة في بغداد إلا بسبب النظر في أمر ليلى المريضة في العراق

ولكن هل أسمح بخروج ليلى؟ هل ضاقت الحيل حتى أمكن الناس من رؤية ليلى؟ رباه! لقد بدأت أشعر بالغيرة على ليلى، فهل تكون الغيرة نذيراً بهبوب عاصفة الحب؟ أمري إلى الهوى!

نشرت جريدة البلاد في أبرز مكان كلمة تحت عنوان: (أنشودة اللقاء)

ثم قالت إنها تلقت قصيدة موجهة إليّ بتوقيع (ليلى المريضة) وأنها حولت القصيدة إلى الدكتور زكي مبارك راجية أن يكون له فيها شيء من العزاء

وقد تلقيت القصيدة وتأملت الخط، فعرفت أنها من ليلى غير ليلاي

ونشرت جريدة العقاب كلمة قالت فيها إنني شرعت في تعلم الطب، وذلك دليل جديد على أن شهرتي الأدبية أضاعت منزلتي في عالم الطب، فمتى يشفيني الله من الغرام بالأدب وصحبة الأدباء!

آه! آه!

هذا خبر جديد، فقد أخبرني الدكتور حسين كامل أن الزيات سيحضر إلى بغداد لشهود المؤتمر الطبي، وأنا أفهم جيداً ماذا يريد. وهل تجوز عليَّ الحَيلَ وأنا خِريج مونمارتر ومونبارناس؟ هيهات هيهات!

أترك هذا العبث في تدوين مذكراتي، وأمضي لعيادة ليلى، فقد طال الشوق إلى صوتها الرخيم و. . . عينيها الناعستين. أليست هي التي قالت: فراقك صعب، سيدي!

فراقي صعب؟ نعم، إن ليلى تقول ذلك، والقول ما قالت ليلى، ولو كره السفهاء من العذال

(للحديث بقية)

زكي مبارك

أناشيد صوفية

جيتانجالي

للشاعر الفيلسوف طاغور

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

- 82 -

يا أماه، سأنظم من عبراتي. . . عبرات الأسى. . . عقداً جميلاً أزين به جيدك

لقد أحسنت الكواكب صنعة الخلاخيل الضوئية لتزين بها قدميك، ولكن عقدي سيكون على صدرك

إن الثراء والشهرة هما بعض نفحاتكِ، وهما لك حين أمنح وحين أمنع؛ ولكن أشجاني هي لي وحدي، وحين أقدمها إليك تبدليننى بها عطفاً وحناناً

- 83 -

إنها غصة الانفصال هي التي تنتشر في أرجاء العالم فتحور في الفضاء اللانهائي أشكالاً وفنوناً عديدة

إنه أسى الانفصال هو الذي ينبعث - في صمت الليل - من نجم إلى نجم ثم يرتد إلى لحن بين حفيف الأوراق في حلوكة الليالي المطيرة من شهر يوليه

إنه الألم العميق الذي يهبط إلى قرار الحب والرغبة، إلى الآلام والأفراح في دور الناس. وإنه هو الذي يذوب دائماً فيفيض في قلبي الشاعر ألحاناً

- 84 -

حين يخرج الجند - لأول مرة - من فناء سيدهم، أين كانوا يخفون قوتهم؟ أين كانت دروعهم والسلاح؟

لقد كانوا يبدون مساكين لا حول لهم ولا جاه، وهم يحملون القِسي والسهام أول ما خرجوا من فناء سيدهم

وحين يرتدون إلى فناء سيدهم، أين يوارون قواتهم؟

لقد طرحوا السيف جانباً، وألقوا القوس والسهم، وعلى جباههم ترف نسمات السلام؛ غير أنهم خلفوا من ورائهم ثمار حياتهم حين ارتدوا إلى فناء سيدهم

- 85 -

إن الموت، وهو خادمك، يقف ببابي. لقد اجتاز البحر المجهول ليبلغني رسالتك

الليل داج، وقلبي ينتفض من أثر الرعب. . . ولكني سأحمل مصباحي، وأفتح بابي، وأرحب به، لأنه هو رسولك الذي يقف ببابي

سأتوسل إليه في ذلة وأسكب الدمع أمامه. سأتوسل إليه، وأضع كنز قلبي عند قدميه سيرتد وقد أتم عمله ونشر ستاراً حالكاً على صباحي، ونفسي الضعيفة ما تنفعك في داري الموحشة لتكون قرباني الأخير إليك

- 86 -

وفي أمل اليائس انطلقت أفتش عنها في زوايا حجرتي فما وجدتها

إن داري صغيرة، وما فقد منها قل أن يعود ثانية

ولكن اللانهاية - يا سيدي - هي قصرك المشيد، وحين رحت أفتش عنها وقفت ببابك وفي الليلة الظلماء وقفت تحت عرشك الذهبي. . . تحت سمائك ورفعت بصري إلى وجهك

جئت إلى حافة الأبدية حيث لا شيء يغني. . . لا الأمل ولا السعادة ولا وجهك وهو يتراءى من خلال العبرات

أوه، أغمس حياتي الخاوية في هذا الخضم، وأغمرها في أعماق الكمال ثم دعني استشعر - مرة واحدة - اللذة المفقودة في لمسة من لمسات خلود العالم

- 87 -

يا إله المعبد الخَرب! قد انقطعت أوتار القيثارة التي أوقع عليها لحن الثناء عليك، والنواقيس - في سكون الليل - لا تعلن عن ميعاد الصلاة لك؛ والهواء حواليك ساكن هادئ

لقد هبت نسمات الربيع في مسكنك الخالي وفي عطفيها سيل من الزهور. . . الزهور التي لا تقدم إلا في أوقات عبادتك

وعبدك، عابر السبيل؛ ما يزال يلحف، يطلب بعض رحمتك فما ينال شيئاً، وفي الغسق، حين تختلط النار والظلماء بما على الأرض من كآبة وعبوس، يرتد هو إلى معبدك الخَرب وفي قلبه الظمأ

يا إله المعبد الخرب! كم من عبد يقبل إليك في صمت! وكم من ليلة من ليالي التهجد تدبر وفي أضعافها سراج منطفئ!

وكم من صورة جميلة زوقتها يد الفن الخادع ثم هي تندفع في مجرى النسيان المقدس حين يأتي عليها الزمن

ولكن إله المعبد الخرب ما يبرح في منأى عن العبادة في إهمال مروع

- 88 -

لا صخب ولا صياح. . . تلك مشيئة سيدي؛ لذلك سأتحدث في همس، وسيكون صوت قلبي دندنة فيها نغم لحن

إن الناس يشتدون إلى سوق المِلك، وهناك البيعان؛ غير أني رجعت قبل أن يحين وقت الانصراف. . . غادرت السوق عند الظهر وهو ما يزال يموج بالناس

إذن دع الأزهار تتفتح في حديقتي وإن لم يكن قد آن أوانها، وأرسل النحل في الهاجرة يطن طنينه الضعيف

لقد قضيت ساعات طوالاً في صراع حاد بين الفضيلة والرذيلة؛ والآن هاهو رفيقي يريدني على أن ألقي بقلبي بين يديه؛ وأنا لا أدري، لعلما أراد أن يدفعني إلى ما لا خير فيه

كامل محمود حبيب

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

لعبة الدبوق - 345

في (نثار الأزهار) لابن منظور: الدبوق كرة شعر ترمى في الهواء، ثم يتلقاها الغلام ضارباً لها تارة بصدر قدمه، وتارة بالصفح الأيمن من ساقه اليمنى، راداً إياها إلى العلو على الدوام. ومن بديع التشبيه قول الأرجاني في غلام يلعب بالدبوق:

يهتز مثل الصعدة السمراء

فقدُّه من شدة التواء

كالغصن تحت العاصف الهوجاء

تراه من تمدد الأعضاء

كأنه كواكب الجوزاء

346 - إنما رغبتنا في العفاف
في (كنايات الأدباء) لأحمد بن الجرجاني الثقفي: من كناية العامة: إذا قال أحدهم: سلامتها خير من كل شيء. فقد ولدت امرأته اثنين في بطن. . .
وإذا قال: إنما رغبتنا في العفاف. فقد تزوج قبيحة فقيرة. . .
وإذا قال: لقمة البيت أطيب من كل شيء. فقد فاتته دعوة
وإذا قال: وما شهدنا إلا بما علمنا. فقد ردت شهادته في حق من شهد له. . .
وإذا قال: ما بحلال الله من بأس فقد تزوجت أمه. . .
347 - الاقتصاد، البخل
في شرح النهج لابن أبي الحديد: الفرق بين الاقتصاد والبخل أن الاقتصاد تمسك الإنسان بما في يده خوفاً على حريته وجاهه من المسألة، فهو يضع الشيء موضعه، ويصبر عما لا تدعو ضرورة إليه، ويصل صغير بره بعظيم بشره، ولا يستكثر من المودات خوفاً من فرط الإجحاف به، والبخيل لا يكافئ على ما يسدي إليه، ويمنع أيضاً اليسير من استحق الكثير، ويصبر لصغير ما يجري عليه على كثير من الذلة
348 - دع أيهما شئت وخذ الآخر
في (الأغاني): قال علي بن عبد الله الجعفري مرت بي امرأة في الطواف وأنا جالس أنشد صديقاً لي هذا البيت:
أهوى هوى الدين واللذات تعجبني ... فكيف لي بهوى اللذات والدين؟
فالتفتت المرأة إليّ وقالت: دع أيهما شئت، وخذ الآخر. .
349 - 14 يوماً. . .!
في (شذرات الذهب): حكى غير واحد أنه وجد بخط الناصر (الأموي) أيام السرور التي صفت له دون تكدير يوم كذا من شهر كذا، من سنة كذا، ويوم كذا من كذا، وعدت تلك الأيام فكان فيها أربعة عشر يوماً. . .!
350 - نسب بن حيطان
قال رجل لعبد الملك بن الزيات: أمتُّ إليكم بجواري
فقال: نسب بن حيطان. . .
نظم ذلك بعضهم فقال:
أرى الجوار نسباً بين الجدر
والعطف والرقة حيناً والخور
طباع نسوان وصبيان غرر
351 - ما الذي نستعمله مما تبيحه الشريعة
في (وفيات الأعيان): كان الأمير قرواش بن المقلّد (صاحب الموصل والكوفة والأنبار) كريماً وهاباً ذهاباً، جارياً على سنن العرب، نقل عنه انه جمع بين أختين في النكاح فلامته العرب على ذلك
فقال: خبروني ما الذي نستعمله مما تبيحه الشريعة؟. .
352 - النرجس
لما قدم علي بن سعيد المغربي المؤرخ مصر المحروسة صنع له أدباؤها وليمة في بعض منتزهاتها، وانتهوا إلى روض نرجس
فجعل أبو الحسين الجزار يطأ عيون النرجس برجليه، فأنشده ناصر الدين حسن بن النقيب:
يا واطئ النرجس، ما تستحي ... أن تطأ الأعين بالأرجل
فتهافتوا على هذا البيت وراموا إجازته فقال ابن أبي الأصبع:
فقال: دعني لم أزل محنَقاً ... على لحاظ الرشأ الأكحل
وكان أمثلَ ما حضرهم، ثم أبوا أن يجيزه غير ابن سعيد فقال:
قابل جفوناً بجفون ولا ... تبتذل الأرفع بالأسفل
البريد الأدبي
جوائز فاروق الأول
من الطوالع السعيدة لعهد فاروق الأول - حفظه الله - أن تحظى دولة الأدب والتفكير بأول قسط مشكور من حقها في التشجيع والرعاية؛ فقد انتهت وزارة المعارف بعد

طول البحث إلى إقرار مشروع خطير لتشجيع العلوم والآداب يتلخص في ترتيب ستة جوائز ثمينة للمتفوقين في مختلف نواحي التفكير؛ وقد أشارت الرسالة في عددها الماضي إلى قيم هذه الجوائز وأنواعها. وصاحب الفضل الأول في تقديم هذا المشروع هو سعادة الدكتور حافظ عفيفي باشا وزير الخارجية المصرية سابقاً وسفير مصر الحالي في لندن؛ وهو فوق كونه من رجالات مصر المعدودين مفكر وأديب بارع، وله مواقف مشهودة في تعضيد الحركة الفكرية، وهو الذي أنشأ (السياسة الأسبوعية) التي كانت قبل أعوام أعظم الصحف العربية الأدبية

ومما يذكر بالحمد لوزارة المعارف أنها لم تنس الأقطار العربية الشقيقة في ترتيب هذه الجوائز الأدبية الثمينة، فقد تقرر أن يسمح لأبناء العربية من الأقطار الأخرى بالتقدم إلى هذه المباريات في جوائز الأدب والقصص والاجتماع نظراً لما هنالك من وجوه التعميم في هذه الميادين، ورغبة في تشجيع الآداب العربية بصفة عامة، وتقوية للروابط الفكرية والثقافية بين مصر والأقطار العربية الشقيقة

ونحن نغتبط بهذه الخطوة الموفقة التي تتخذها وزارة المعارف لتشجيع الحركة الفكرية في مصر والأقطار العربية؛ ويزيدها توفيقاً ويمناً أن الجوائز الجديدة تحمل اسم صاحب الجلالة الملك (فاروق الأول)؛ بيد أننا نحب أن نرى فيها باكورة فقط، ونرجو أن توفق مصر إلى المزيد منها على يد هيئاتها ومعاهدها العلمية الكبيرة. فعلى الجامعة المصرية والجامع الأزهر أن يساهما في ذلك العمل الجليل، وأن يرتب كل منهما جوائزه الخاصة لتشجيع الحركة الأدبية والعلمية؛ وعلى جميع هيئاتنا العلمية الأخرى أن تقوم بواجبها في ذلك السبيل

المتحف الزراعي المصري

في يوم الاثنين 17 يناير الجاري افتتح صاحب الجلالة الملك فاروق الأول متحف فؤاد الزراعي بالدقي بالجيزة؛ وهذا المتحف على حداثته يعتبر في رأي الخبيرين أعظم متحف في العالم من نوعه. والفضل في إنشائه يرجع إلى جلالة المغفور له الملك فؤاد الأول. وقد بدئ بإنشائه في سنة 1930، وأراد الملك الراحل أن يكون معهد ثقافة زراعية علمية، فحملت إليه النماذج الزراعية من كل ضرب، وعرضت فيه مجموعات بديعة من الأزهار والحبوب والأدوات المنزلية، وهياكل الحيوانات المصرية الأليفة ومومياتها وأنواع الأسماك المتوطنة في النيل منذ القدم وأدوات صيدها؛ وعرضت النباتات المصرية منذ عصر الفراعنة والعصور الإسلامية. وبالجملة فقد غدا المعرض على حداثته معهداً عظيماً للثقافة الزراعية والنباتية والحيوانية خلال العصور التي توالت على وادي النيل. وسيعمل المتحف في القريب العاجل على ضم جميع التحف والعاديات التي لها علاقة بالزراعة القديمة، ونماذج من أدوات الزراعة والفلاحة والصيد التي كانت تستعمل خلال العصور المختلفة

ويقدر ما أنفق على هذا المتحف المصري العظيم منذ إنشائه إلى اليوم بنحو ثلاثمائة ألف جنيه مصري، وهي قيمة يدل إنفاقها على ما وصل إليه المتحف من الضخامة وحسن الاستعداد لأداء مهمته

وقد تفضل جلالة الملك فتفقد أقسام المتحف المختلفة، وشاهد عرض فلم علمي زراعي يبين تربية النحل وحلج القطن

ومما يبعث على الغبطة أن مدير المتحف الحالي هو مصري من الأخصائيين في الشئون الزراعية، وقد كان إلى عهد قريب من الأجانب

فصل المؤتمرات الدولية بالقاهرة

أصبحت القاهرة من العواصم العالمية التي تتجه إليها أنظار المؤتمرات الدولية، وفيها يعقد كل عام في فصل الشتاء على الأخص عدة مؤتمرات دولية هامة، بدعوة سابقة من الحكومة المصرية وقد عقد بها في هذا الفصل إلى الآن مؤتمران دوليان كبيران هما مؤتمر الرمد الدولي، ومؤتمر توحيد قانون العقوبات الذي اختتمت اجتماعاته منذ أيام قلائل. وسيعقد في القريب العاجل مؤتمران دوليان آخران هما مؤتمر القطن الدولي، ويفتتح في 26 يناير الجاري، ومؤتمر اللاسلكي ويفتتح في أول فبراير؛ والأول من المؤتمرات الدولية التي تعلق عليها مصر أهمية خاصة باعتبارها في مقدمة دول العالم التي تنتج القطن وتعتمد في مواردها على تصريف محصوله. وقد كانت مصر دائماً عضواً بارزاً في مؤتمرات

القطن الدولية وكانت لها في هذه المؤتمرات جهود مشكورة في التنويه بأحوال الزراعة القطنية وتجاربها العلمية وآفاقها وتصنيف محاصيلها. ولا يقل مؤتمر اللاسلكي عن سابقه أهمية لأن مصر أصبحت بعد تقدم اللاسلكي من أهم المراكز العالمية للمواصلات الأثيرية، وتشترك معظم الدول الكبرى في كلا المؤتمرين

محاضرة عن فلوبير بالقاهرة

ألقى العلامة الفرنسي الأستاذ هنري جيلمان نزيل مصر الآن، بدعوة من كلية الآداب، في قاعة الجمعية الجغرافية الملكية، محاضرة شائقة عن الكاتب القصصي الفرنسي الكبير جوستاف فلوبير، قدم فيها عنه لسامعيه صورة مؤثرة؛ وذكر أن فلوبير إنما يدرس في كتابات شبابه وما خلفه منها بعد موته، وأنك تجد فلوبير في أطوار حياته شخصاً يبدو في ألوان مختلفة. وقد مرض فلوبير في حداثته مرضاً عصبياً خطيراً حول مجرى حياته إلى ناحية لم يكن يتوقعها، فلم يفكر في أن ينشئ له حياة أو مدرسة، ولكنه جنح إلى التفكير العميق، وانتهى إلى اعتناق المبادئ التي جعلت منه شخصية مدهشة. وخلاصتها احتقار الوصول إلى الغايات الشخصية ورفض استخدام المواهب لتحصيل الربح المادي، وتخصيص الحياة للفن (العقيم) ومجانبة هذا المجتمع وهذا العالم. ومن ثم كان فلوبير يصور في كتبه هذا العالم بطريقة يترك الحكم عليها لقارئه، ولا يتدخل هو للتأثير فيه

على أن فلوبير لم يستطع أن يحرص على هذا المثل دائماً، فقد خرقه في حياته مرتين: الأولى بسبب امرأة هي لويز كوليه، والثانية بسبب محاولة الحصول على النجاح. بيد أنه لم يكن محباً مستسلماً، ولم تملكه المرأة إلا ردحاً ضئيلاً وانتهى بينهما كل شيء في سنة 1755؛ ولم يمض طويل على ذلك حتى اضطر فلوبير أن يسعى إلى المال والشهرة لكي يتدارك النكبة المالية التي أصابت ابن أخته، فتقدم إلى المسرح بقطعته (المرشح) ولكنه لقي خيبة أمل؛ فارتد إلى عمله وكتاباته التي كانت تلخص كلها في وصف الحياة البشرية، وكانت (مدام بوفاري) و (التربية العاطفية) و (القلب الساذج) من أروع ما كتب في هذا الميدان

ونالت محاضرة الأستاذ جيلمان نجاحاً عظيماً؛ وكان الأستاذ يلقي محاضرته بذلاقة خلبت ألباب السامعين.

أسواق الأدب بين الركود والازدهار

خطب الروائي الإنكليزي الكبير السير هوج والبول في معرض للكتب أقيم أخيراً في جلاسجو، فقال انه توجد أزمة كتب في العالم البريطاني، وأهم أسبابها تخفيض أثمان الكتب إلى حد غير معقول. وقد ترتب على ذلك أن فقد كثير من الكتاب مورد أرزاقهم؛ ووقعت الأزمة بنوع خاص على الكتب القيمة لأنها اليوم ضحية منافسة شديدة من كتب تنشر بالملايين ولا يجد القارئ وقتاً للتحقق من قيمتها. ومن رأي الكاتب الكبير أن البؤس الذي تعانيه الحركة الأدبية من جراء هذه الحالة لا يقل عما كانت تعانيه منذ ثلاثين عاماً

وقد أنشئ في إنجلترا (مجلس قومي للكتب) مهمته أن يعمل على ترقية القراءة وترويج الكتب، وهو يسعى إلى هذه الغاية بمختلف الوسائل، ومن ذلك إقامة المعارض السنوية، وإقامة أسابيع خاصة لأصناف من الكتب المختلفة؛ وقد ساعدت هذه الوسائل على تخفيف الركود الذي أصاب حركة النشر في الأعوام الأخيرة

على أنه بينما يشكو العالم البريطاني من ركود الكتب وبؤس الحركة الأدبية إذا بسوق الأدب والكتب تزدهر في روسيا السوفيتية ازدهاراً شديداً. وقد نشر أخيراً إحصاء مدهش عما أخرجته دور الكتب الروسية التي تعمل تحت رقابة الحكومة من الكتب في عهد السوفييت، خلاصته أن هذه الدور كانت تخرج في سنة 1918 في اليوم 300 ألف مجلد؛ ولكنها أصبحت في سنتي 1936 و1937 تخرج في اليوم مليوناً وربع مليون مجلد. ومن هذه طبعات رخيصة من الآداب الروسية والعالمية. ومنذ سنة 1917 إلى اليوم أخرج من كتب مكسيم حوالي 32 مليون نسخة، و19 مليوناً من كتب الشاعر بوشكين، و14 مليوناً من كتب تولستوي، وأخرجت ملايين أخرى من كتب الكتاب الروس الآخرين. هذا عدا ما تخرجه دور النشر الروسية من الترجمات للكتاب الأجانب، وأشهرهم اليوم في روسيا سنكلير، وموباسان، وهوجو، وزولا، وبلزاك، وأناتول فرانس ودكنز؛ وفي ذلك ما يدل على التقدم الهائل الذي حققته روسيا

السوفيتية في مكافحة الأمية وترقية التعليم

وفاة الأستاذ محمد صادق عنبر

يعز علينا أن ننعى لقراء الرسالة في بهجة الفرح وبهرة السرور بزفاف المليك أديباً من أعلام البيان العربي، هو الأستاذ صادق عنبر

كان الأستاذ طيب الله ثراه بقية خير من تلك الطائفة الرشيدة الصالحة التي غذت الناشئين وبصرتهم بالأساليب المشرقة منذ ثلث قرن، فكان من أنصار الديباجة القوية، والأسلوب البياني المستمد من بيان القرآن ونبعته. وكان أسلوبه يشبه أسلوب المرحوم الأستاذ الرافعي، فقد كان يعجب بفنه وطريقته، ويأخذ نفسه على الجري في حلبته. ولقد عمل في الصحافة مدة من الزمن، فاشتغل في اللواء ثم في الأخبار ثم في الأهرام، ولكنه ظل على سليقته الأدبية، وظل أسلوبه أسلوب الأديب له روعته ورونقه. وآخر ما أخرجه من الآثار جملة من الرسائل الغرامية وضعها على لسان ليلى وقيس، ونحا فيها منحى الرافعي في أوراق الورد، ثم (كلمات في كلمة) كان ينشرها منذ أيام وكان ينوي جمعها في كتاب. فلعل أصدقاءه يقومون له بحق الصداقة فيجمعوا من آثاره ما تناثر كما قام بحق الوفاء لصديقه المرحوم أمين الرافعي

تماثل النابغة مي

شق على نفس الأدباء كثيراً ما ألم بنابغة الأدب الآنسة مي من مرض لازمها نحو عامين، فحال بينها وبين القلم، وحجبها عن ميدان لها فيه جولات صادقة، وجهود موفقة، حتى برز اسمها بين الأعلام البارزين في الشرق العربي.

ولقد تناقلت الصحف العربية في مصر وسوريا ولبنان هذا الأسبوع الخبر بأن الآنسة النابغة قد تماثلت من مرضها، وقد أذن لها أطباؤها في الخروج من المستشفى الذي كانت تعالج فيه إلى منزل استأجرته في بيروت في مكان هادئ لائق، وستكون معها ممرضتها التي لازمتها مدة المرض

ونحن نرجو للآنسة الفاضلة تمام التماثل، ونسأل الله أن يسبغ عليها ثوب العافية، وأن يمد في حياتها العزيزة، فإنها ولا شك ثمرة ناضجة قلما يجود بها الزمن على الشرق الحديث

مجمع اللغة الملكي في مؤتمر بغداد الطبي

قرر مجمع اللغة العربية الملكي الاشتراك في المؤتمر الطبي العاشر المزمع عقده ببغداد في الفترة القائمة بين التاسع والثالث عشر من فبراير. وقد ذكر المجمع في مذكرته إلى وزارة المالية أن الغاية من هذا الاشتراك هو تبادل الرأي في توحيد المصطلحات الطبية في اللغة العربية، واقترح ندب الأستاذين الشيخ أحمد علي الإسكندري وعلي الجارم بك لتمثيل المجمع في تلك الدورة وقد وافقت وزارة المالية على هذه المذكرة

كتاب شائق عن شعب غريب

صدرت أخيراً ترجمة فرنسية لمؤلف يمتاز بطرافته العلمية والتاريخية هو كتاب العلامة الدانمركي بركت سميث عن قبائل الإسكيمو، وعنوانه والعلامة بركت سميث هو مدير المتحف الوطني في كوبنهاجن، وهو أشهر حجة معاصر في أحوال هذا الشعب القطبي الغريب. وتسكن قبائل الإسكيمو كما هو معروف في أطراف الجزيرة الخضراء (جرينلند) وشمال ألاسكا وعلى أطراف بوغاز بيرنج وأطراف الأرض الجديدة الشمالية؛ وكان أول من عرفه بعض الملاحين من جزيرة (ايسلنده) في القرن التاسع الميلادي، ثم عرفه النورمانيون واحتلوا شواطئ الجزيرة الخضراء حيناً حتى أواخر القرن الخامس عشر؛ وجاء من بعدهم الرحالة الإنكليزي مارتن فروبشر فازدادت معرفة العالم المتمدن بقبائل الإسكيمو. وقام المكتشفون الروس والدنمركيون برحلات عديدة في هذه الأنحاء الثلجية النائية. ولما احتلت الدانمارك أطراف الجزيرة الخضراء قام علماؤها بمباحث كثيرة عن أصل الإسكيمو وأحوالهم؛ وأنشئ في كوبنهاجن متحف طبيعي للإسكيمو هو أعظم متحف من نوعه

وقد اختلفت آراء العلماء في أصل هذا الشعب الغريب الذي لا يزيد تعداده اليوم على أربعين ألف نسمة موزعة بين هذه الأنحاء الشاسعة، فذكر بعضهم أنه من سلالة (الفليولوتين) الذين يرجعون إلى العصر (المجدليني) ولكن الظاهر أن هذا الرأي لا يعتبر نهائياً من الوجهة العلمية. وما زال علماء الأجناس والبيولوجيا والأنثروبولوجيا

يحاولون الوقوف على أصول هذا الشعب. ويمتاز الإسكيمو بقصر القامة وبسطة العظام؛ وهم ضعاف على الأغلب ويعيشون في ثلج دائم وينقرضون بسرعة. وقد رأت الأمم التي تهتم بمصير هذا الشعب والمحافظة على بقيته الباقية من الانقراض أن تعقد في شهر أغسطس الأتي مؤتمراً علمياً لمباحث الأجناس والأنثروبولوجيا، وسيكون للإسكيمو من مباحثه أكبر شأن

ويستعرض الأستاذ بركت سميث في كتابه المشار إليه تاريخ الإسكيمو وأحوالهم الجنسية والاجتماعية، ويستند في معلوماته إلى الدرس والمشاهدة الشخصية لأنه عرف الأرض الخضراء منذ حداثته، وعاش بين الإسكيمو ردحاً من الزمن، ودرس لغتهم وعاش عيشتهم، ويصف لنا عقليتهم وأحوالهم النفسية والاجتماعية ببراعة، وكتابه كالقصة الشائقة ينتقل الإنسان فيه بين عجائب وغرائب مدهشة

ويهيب الأستاذ بركت في كتابه بالأمم الأوربية أن تعمل لصون هذا الشعب المسكين من الانقراض، وأن تبذل وسعها للمحافظة على هذه التحفة الإنسانية)

هل يشفي غبار الصحراء مرض السل

من أنباء ألمانيا الأخيرة أن حواراً علمياً هاماً يدور فيها حول اختراع طبي قام به العلامة الطبيعي الدكتور أرنست جيركي لشفاء مرض السل. وللدكتور جيركي رأي غريب في ذلك وهو أن السل يمكن شفاؤه باستنشاق غبار الصحراء، وقد انتهى إلى ذلك بعد تجارب طويلة، وأنشأ بالفعل لذلك جهازاً طبياً يعرف بجهاز جيركي يمكن للمريض أن يستنشق بواسطته غبار الصحراء المودع فيه بطريقة فنية، وتفيده المثابرة على ذلك فائدة كبيرة وتنتهي بتقوية الرئتين والسير نحو الشفاء. ويقول الدكتور جيركي أن ما يلاحظ من شفاء المرضى الذين يقيمون في أعالي الجبال إنما يرجع إلى استنشاق هذا الغبار بالذات وهو يهب من الصحراء في مواسم معينة حتى يصل إلى هذه الأنحاء، وأنه يمكن بواسطة جهازه أن يستغني المرضى عن الإقامة في المناطق الجبلية والسفر إلى مصر وغيرها من الأقاليم الصحرية

وقد أنكر بعض العلماء نظرية جيركي وحمل عليه بالأخص عالم طبيعي سويسري هو الدكتور ميركوفر، وقال إن نظريته لا ترجع إلى أصول علمية، وأنها مضاربة لا تزيد عن زعم أولئك الذين قالوا من قبل بأن السرطان يمكن أن يشفى بالأشعة وأمثالها؛ وأن غبار الصحراء لا يهب إلا على شواطئ البحر الأبيض المتوسط والجهات القريبة ولا أثر له في أعالي الجبال

وما زالت النظرية موضع الجدل الشديد في مختلف الأوساط العلمية.

مناهج التاريخ العام ورأي الحكومة المصرية

تلقت وزارة المعارف من القومسيون الدولي لعصبة الأمم كتاباً انتظم مشروع تصريح خاص بإعادة النظر في الكتب المدرسية. وقد جاء فيه أن العصبة ترغب في توطيد العلاقات وتوثيقها بين الأمم والممالك المختلفة، ومن أجل هذا ترغب ألا يقف الأمر في دراسة التاريخ في المدارس عند التاريخ القومي، بل يجب أن يتضمن المعلومات الوافية عن الأمم الأخرى

ورغبة في توكيد ارتباط المصالح بين الدول، فإن الرأي يتجه في تدريس التاريخ العام إلى استنباط العناصر التي تهيئ أسباب هذا التوكيد والارتباط

وترى العصبة أن يستبعد من الدراسات التاريخية في الكتب تقرير كل إيعاز أو إيحاء، وكل تفسير للأحداث التي تثير في الناشئين روح الحقد واالكراهية، والتي يكون من نتائجها تكوين رأي في أمة ضد أخرى

ونوه سكرتير العصبة العام في كتابه باقتراح يرمي إلى إنشاء هيئات محلية في كل دولة تتصل بالشعبة الدولية في جنيف، وأن يترك لها أمر الحلول التي تؤدي إلى الأغراض المتقدمة. ولهذا حرصت جامعة الأمم على توجيه هذه الآراء والأفكار إلى الممالك والدول المشتركة وغير المشتركة فيها

وقد أحالت وزارة المعارف هذا الموضوع إلى الأستاذ محمد قاسم بك ناظر دار العلوم، فدرس المشروع دراسة دقيقة ووضع تقريراً عنه، وقد أقرته الحكومة المصرية وتقرر رفعه إلى العصبة

وقد جاء في هذا التقرير أن المناهج المصرية الدراسية تتفق والأغراض المشار إليها،

وذلك لعدة أسباب، منها ما يرجع إلى موقع البلاد الجغرافي وحكم مركزها القديم واتصالها بالشرق والغرب، فضلاً عن أن مناهج التاريخ ولا سيما في الدرجات الثانوية من التعليم بل والابتدائية لا تقتصر على الجانب القومي

وأما عن توكيد ارتباط المصالح بين الدول، وخاصة في العصور الحديثة، فان مفردات مواد التاريخ وضعت من الوجهة الفنية في مصر على قاعدة اشتراك المصالح بين الدول الأوربية المختلفة

وأشار التقرير إلى مسألة الإيعاز والإيحاء وتفسير الوقائع فقال إن الروح القومية المصرية السائدة في الكتب المصرية عامة هي روح الصداقة والود والتعاون بين أمم العالم قاطبة بغير استثناء. على أن هذا لا يمنع من تسرب بعض التعليقات التي تسيء إلى بعض الأمم في الكتب الدراسية من غير قصد، ومرجع هذا تأثر بعض المؤلفين بالمراجع الأجنبية التي يأخذون عنها فينقلون وهم حسنو النية بعض الآراء والتعليقات التي تسيء إلى بعض الدول وقد لا تتفق والواقع. وكثيراً ما يتأثر بعض المؤلفين بالبيئة التي يدرسون فيها والمراجع التي يرجعون إليها

ماني والمانوية

ما يزال العلماء الأجانب يعنون بفلاسفة المشرق عناية عجيبة، على حين لا نعني بهم نحن إلا عناية طفيفة تجيء مع تفاهتها ذيلاً لما يكتب غيرنا عنهم. . . وقد تصفحنا كتاباً بالإنجليزية عن ماني والمانوية وضعته الأديبة الفاضلة أ. س. درور وطبعته جامعة أكسفورد على نفقتها الخاصة، وحسبك هذا دليلاً على قيمة الكتاب. وقد حدث أن عُين زوج المؤلفة الفاضلة مستشاراً قضائياً في العراق سنة 1922، فانتهزت هي هذه الفرصة وكانت تسكن في بغداد، فاختلطت بأحفاد المانوية الذين لا يتجاوز عددهم خمسة آلاف في كل العراق، وعرفت الكثير عن عقائدهم وعاداتهم وطقوسهم المذهبية وحفلاتهم الدينية، ثم عقدت أواصر الصداقة بينها وبين زعمائهم فاستطاعت أن تطلع على كتبهم القديمة النادرة التي لم يتيسر لأحد العلماء الاطلاع عليها من قبل لشدة حرص أصحابها عليها واحتفاظهم بها جيلاً بعد جيل. والفصول التي كتبتها المسز درور عن المانوية قيمة حقاً، ولا نغالي إذا قلنا إنها نور جديد ألقته المؤلفة الفاضلة على هذا الدين القديم لا نكاد نجد مثله فيما كتبه ابن حزم أو الشهرستاني أو البيروني أو ابن نباتة أو اليعقوبي أو غيرهم من مؤرخي المسلمين - بل لا نغالي أيضاً إذا فضلناه على ما كتبه العلامة بيرون في كتابه عن المانوية - والكتاب خليق بأكثر من هذه الشذرة وسنعود إليه

العدد 239 - بتاريخ: 31 - 01 - 1938

من مشاهد المهرجان

كنت أمشي في شارع إبراهيم عصر يوم الأحد الرابع من أيام الزفاف الملكي السعيد، ونظري وفكري يتبعان فلول الزوار وهم يسيرون زمُراً في باحة الطريق يلقون أنظارهم الطائرة على بقايا الزينة من أقواس وأعلام، وينفقون قروشهم الأخيرة في مغريات النفس من شراب وطعام؛ وكان الملايين الثلاثة الذين ساهموا بآمالهم وأموالهم في زفاف الفاروق قد انتشروا في ميادين القاهرة وفنادقها وحدائقها ثم تركوها أشبه بمروج الربيع نفشت فيها قطعان الشاء فجعلتها كالصريم؛ ولكن هذه الأفواه الفرحة التي لم تفتر عن الضحك والهتاف، أو عن المضغ والارتشاف، قد أفعمت جيوب القاهرة مالاً وغمرت جنوبها بهجة. فكان منظر هذه الشراذم المتخلفة وهم يودعون مجال العُرس والأنس يبعث في النفوس شعور الأسف على انقضاء فترة من فترات الجنة اجتمعت فيها القلوب على السرور المصفى والوداد المحض

كنت أقول لنفسي وأنا أسير الهوينى في غمر من الصفاء استفاض على أوجه الناس حتى شاع حولهم في النسيم وشع فوقهم في الأفق: متى يتاح لسلائل الطين أن ينزعوا من صدورهم الجشع والأثرة فيعيشوا كما عاشوا في هذه الأيام حُشْداً على الخير عكفاً على الجمال خلصاً على المودة، ولهم على الله هواء يفعم كل رئة، وغذاء يتخم كل معدة، ورخاء يعمر كل قلب؟

ليت شعري أعجز ابن آدم ومعينه نور قلبه ووحي ربه وهدى عقله أن يجعل دنياه الفانية كرياض الطير مسارح للشدو ومجاليّ للبهجة ومشارع للحب، فيعيش على فضل الله كما تعيش الطير تغدو خماصاً

وتروح بطاناً وتغفوا أوامن؟ إن بقاء النفس أو القوت، وبقاء الجنس أو الأنثى، هما الأصلان لكل غاية، والمصدران لكل عمل، فهل أعيا على شريعة الخالق وفلسفة المخلوق أن تهذبا هاتين الغريزتين فتقطعا أسباب الشر وتقلعا أصول الجريمة؟

ألا. . . ولكنني شعرت فجأة بجسمي الطليق الهائم ينحصر في زحمة ضاغطة من السواعد

والأكتاف، فاطلعت فرأيتني أضطرب في سيل دافق من الأخلاط والطوائف يموج بعضهم في بعض، ويهدرون بذكر الله هديراً طغى على كل صوت وغطى على كل حركة. كان ذلك موكب الطرق الصوفية تجمعت ألوفه من جوانب القطر ليرفعوا إلى ملكهم الصالح فاروق تهنئات الطريقة. لم أستطع الخلوص إلى طوار الشارع من شدة الزحام، ولم أطق السير لا إلى الخلف ولا إلى الأمام، فتركت نفسي إلى تدافع الموكب أرسب في لججه واطفوا على أمواجه حتى أنصب في ساحة عابدين. وهناك رأيت على حواشي الميدان صفوفاً متراصة من الناس يحجزها عن الموكب الذاكر سلسلة من الجنود والشُّرط؛ ووجدت نفسي تحت البنود الخفاقة وبين الفرق الدفاقة أمام الشرفة الغربية من قصر المليك، وقد شرقت من حولي الساحة على رحبها بالطوائف المختلفة الإشارات والشارات والأناشيد، تملأ السماء بالأنغام، وتجلل الأرض بالأعلام، وتجعل من الميدان غابة من شجر الزان تسقسق تحت أفيائها الوريفة أسراب من الطيور الغريبة

أدركت القوم حال من حميا الوجد فترنحوا مهللين ومنشدين، واختلطت على غير نظام ولا انسجام هتفات الناس ونقرات الدفوف وصدحات الناي، فما كنت تسمع إلا لجباً لا يتبين فيه نشيد ولا يتميز به نغم. ثم قرَّت فورة القوم حين تنقَّل على أفواه المريدين أن جلالة الفاروق سيشرق عليهم، فخشعت الأصوات وسكنت الحركات واتجهت النظرات إلى الشرفة الملكية يرقبون منها طلعة المحيا الأبلج المومق؛ ولكن الشرفة ظلت في سدْلها القرمِزي المتوَّج كأنها شفق الفجر يبشر بالحياة والنور والبهجة قبل أن تهصر الطبيعة ستائرها الوردية عن خِدْر الشمس. فلما طال الانتظار عاد النقباء والخلفاء يرتبون ما يقول الأتباع عند تجلي المليك: - لا ينبغي أن نصفق كما يصفق الأفندية - لا يجوز أن نهتف كما يهتف العامة - قولوا في صوت واحد: الله! الله! - بل قولوا: الله أكبر! - ولم لا نقول: عاش الملك الصالح! عاش أمير المؤمنين؟

- هذه الجهة تهتف بهذا ثلاثاً، ثم تسكت فتهتف الجهة الأخرى: ليحي حامي الإسلام - أرى أن يهتف المرغنية: عاش ملك مصر والسودان، ويهتف النقشبندية: عاش خليفة الرحمن، ويقول الرفاعية. . .

- لا لا. هذه كلها هتفات لا تزكوا بأهل التصوف. اتفقوا على دعاء واحد تجأرون به إلى الله أن يحفظ عبده الفاروق لإعلاء كلمته وإعزاز دينه

وأخذت كل طائفة تروض ألسنتها على النداء والدعاء وأعينها شواخص إلى شرفات القصر ونوافذه

لعل الملك يخرج من هذا الباب يا فرحات! أظنه يطل من هذا الشباك يا مسعود! ربما يخرج إلى الميدان مع المشايخ فيعرض (الأشاير)

ثم انعقدت الألسنة وعُلقت الأنفاس واتجهت الأنظار بجاذب خفي إلى الشرفة. وهنالك تجلى ملك الناس للناس!! فهل رأيت البحر إذا مار به الإعصار، أو الغابة إذا رجفت بها العاصفة؟ لقد أصيب القوم بما أصيب به الكليم يوم الجبل، فوقعوا في بُحران من الحماسة السَّكرى لا يملكون غير حناجر تصيح، وشفاه تدمدم، وأذرع تلوِّح، وأكفٍ تصفق

تلك حال القروي الذي زعموا أنه بات ليلة القدر سهران يقلب طرفه في النجوم يرصد (الطاقة) أن تنفتح فيطلب إلى الله الغنىَ والعمر؛ فلما جاءت الساعة المرقوبة وانشقت السماء عن كوة من النور تلتهب التهاب البوتقة، التمس لسانه فلم يجده، فانطلق يعوي عواء الذئب حتى ثاب إلى نفسه فارتد من العواء إلى البكاء.

وجلال الفاروق قبس من جلالة السماء، وفيض من قداسة الأنبياء، فهل تقوى على بَهَره عين، وهل يثبت على سحره فؤاد؟

أحمد حسن الزيات

ليلى المريضة في العراق
للدكتور زكي مبارك
- 8 -
ومضيت أعود ليلى مرة ثانية، بعد أن قبْلت الصورة التي أدفع بها وحشة الليل في . . . بغداد، وبعد أن قرأت الرسائل المعطرة التي وردت من مدينة. . . وكذلك أعددت قلبي للرفق واللطف، وأنا في عالم الطب كالبلبل في عالم الأغاريد، لا أطرب إلا بعد مناجاة الأحلام، ولا يطرب إلا بعد أن تضوع من حوله أرواح الأزهار. فهل تعرف معنى ذلك تلك الإنسانة التي بلغ بها العناد أن تصرح بأنها لن تفتضح في حبي إلا يوم يظهر أنها دفعتني إلى الخلود؟ رباه! ما أصعب تكاليف الخلود! ولكن كيف ألقى ليلاي؟
إنني أخافها أشد الخوف؛ فقد بدت لي في المرة الماضية على جانب من الوعورة، ولا يبعد عندي أن تكون حمقاء، فان الجمال يورث أهله بعض خصال النزق والطيش؛ وأنا والله على استعداد لمقابلة الشر بالشر، فان رمتني بالحمق رميتها بالجنون، ولكنّ ذلك لا يقع بدون جزاء، فقد تفسد العلائق بين مصر والعراق
فراقك صعب، سيدي! كذلك قالت ليلى منذ ليال
فما الذي يمنع من الأدب؟ وهل كُتب عليّ أن أظل دهري شقيًّا لا أعرف غير الرجس؟ مالي لا أجرب الحب العذري مرة واحدة في حياتي؟ مالي أحرم قلبي أطايب العفاف؟ آمنت بالله! وهل كنت فاسقاً حتى أفوه بمثل هذا القول؟
إنك يا ربي تعلم كيف ابتدأت وكيف انتهيت. إنك يا ربي تعلم أني أشرف مخلوق سوته يمناك، مع استثناء الأنبياء؛ ولكني طبيب جنى عليه الأدب فسار في بقاع الأرض أنه من الفاسقين
كيف ألقى ليلى؟ تلك هي النقطة، كما يقول لافونتين!
ألقاها بالتجارب التي أفدتها في باريس، فقد وردت مدينة النور أول مرة في سنة 1927 وكنت سمعت أنها مدينة تموج بالهوى والفُتون، فكان أكبر همي أن أعيش فيها عيش المجانين بعد أن عانيت الأمرين من عيش الجفاف في شارع الحمزاوي وعطفة الجمالية!
ودخلت السربون، سقاها الغيث وجعل الله لها لسان صدق في الآخرين، فكانت عيني لا تقع
على الأساتذة، وإنما كانت تقع على الطالبات، وهن في دروس الأدب أكثر من الطلاب. والفتيات هناك يفهمن وحي العيون، وكان يتفق أن تلقاني فتاة بعد المحاضرة فتقول: من فضلك يا سيد، هل عندك مذكرات عن دروس المسيو شامار؟ فأجيب: نعم، يا آنستي! فتقول: هل تتفضل فتعيرني إياها لأنسخها ثم أردها إليك؟ فأقول: وهل لمثلي أن يرفض ما تطلب هاتان العينان! فتنظر الفتاة إليّ نظرة سخرية وتنصرف!
وحدث مرة أن قالت لي فتاة ريَّا الجسم كأنها من دمياط: هل لك يا سيد أن تتفضل فتعيرني مذكراتك عن دورس المسيو مورنيه؟ فقلت: لك ذلك يا آنستي، ولكني لن أعود إلى السوربون إلا بعد يومين. فهل أستطيع أن أراكِ غداً عندي في الساعة الخامسة لأقدم إليك المذكرات؟ فأجابت بالقبول بعد أن استفهمتْ عن أسم الشارع ورقم البيت
وما كاد يحين الموعد حتى كانت المائدة مجهزة بأطيب ما تعرف فرنسا من ألوان الشراب. ثم مضت ثوان ودقائق وساعات، ولم تحضر الفتاة، عليها وعلى أمها اللعنات!
وفي ذات يوم قالت إحدى زميلاتي في الدرس إنها تجيد الرقص، فقلت إني لا أحسن منه غير (الحنجلة)، ورجوتها أن تعينني على إتقان ذلك الفن الجميل، فأجابت جواباً كله إغراء.
ولكنني اشترطت أن يكون ذلك في غرفتي حتى لا يعرف أهل باريس أنني رجل (غشيم)
وانتظرت، ثم انتظرت، ثم انتظرت، ولم تحضر الراقصة الحسناء!
ولم تمض أسابيع حتى شاع في جميع أروقة السوربون أني فتى ماجن خليع، فكنت ألقي أطيب التحيات ولا يجيبني مجيب. والشيطان يشهد أني كنت في ذلك العهد أعظم مغفل عرفته باريس

ونظرت فرأيت فتياناً أقل مني فتوة وجاذبية يعيشون في ظلال الحب عيش الملوك، فعرفت أنهم يحسنون ما لا أحسن من فن الغرام، وللغرام فنون
ولكن أين أذهب؟ لقد ضاع حظي في كلية الآداب، فهل أذهب إلى كلية العلوم؟ وكيف وهي أيضاً من السوربون؟ فلم يبق إلا أن أذهب إلى كلية الطب لأقيم فيها تجارب الحب من جديد، بعيداً عن جو الأراجيف الذي خلقتُه خلقاً بفضل الغفلة والجهل وكانت فرصة عرفت فيها قيمة الشر في خَلْق الرجال. فلولا الحب ما عرفت كلية الطب؛
ولولا الطب ما شرفتني الحكومة المصرية بمداواة ليلى المريضة في العراق
أقول إني ذهبت إلى كلية الطب بعد أن صقلتني التجارب، وبعد أن عرفت أن من العيب أن أخيب في باريس وأنا شاعر سنتريس؛ فلم تمض أيام حتى كنت في تلك الكلية فتى الفتيان. وبيان ذلك أني كنت أخفي عواطفي كل الإخفاء، فكنت ألقى الفتاة فلا أحدثها عن عينيها وخديها وشفتيها ونهديها - وما أجمل نهود الفتيات في باريس! - وإنما كنت أسارع فأتحدث عن حدائق الحيوانات في القاهرة وأقول إنها أجمل ما يعرف العالم من حدائق الحيوان. فان اعترضت إحدى الفتيات وفضلت حدائق الحيوان في لندن تحمست وقلت إن هذا مستحيل، لأن مصر هي البلد الوحيد الذي يطيب فيه العيش لأنواع الحيوان!
وما كنت أكتفي بهذا، بل كنت أخترع أسماء وهمية للباحثين والمفكرين، فكنت أقول إن بلدنا هو الذي نبغ فيه فلان وهي أسماء تحلى بها بعد ذلك بعض الناس!
وفي أثناء تلك الأحاديث الوهمية تجول عيناي في أعطاف الفريسة الحسناء، فان بدا لها أن تعترض علي ما تقول عيناي، أنكرت ما تقول عيناي، وهل كنت مسئولاً عما تقوله عيناي؟ وما هي لغة العيون؟ وهل للعيون لغة؟ إنْ هذا إلا اختلاق!
وما زلت أوغل في المداهنة والنفاق حتى تقدمت إحدى الفتيات وقالت: ما أجمل عينيك يا مسيو مبارك! فتكلفت الغضب وقلت: أنا اكره المزاح! فطوقتني بذراعيها وقالت: أنا أحب الشبان العقلاء! فقلت: وأنا أحب المجانين من الفتيات؟ وكانت لحظة ستنصب لها الموازين يوم يقوم الحساب!
وفي ظلال هذا الروح الطيب مضيت لعيادة ليلى، وقد صممت على الخوض في أحاديث لا تتصل بالحب. وما قيمة التجارب إن لم تنفع وأنا في ديار الاغتراب؟
دخلت على ليلى في ليلة مطيرة غاب فيها القمر وغابت النجوم، فتفضلت حرسها الله ومدت يديها الناعمتين لمعاونتي على دَرَج السلالم، فشعرت كأن خيوطاً من نور تجذبني إلى العِلِّية، وقد تكلفت التعب والضعف لأرى كيف تجذبني تلك الأنامل الرقاق.
وكانت لحظة سحرية لا يعرفها إلا من أسدلت عليه الستائر في ليلة قمراء بالقصر الذي يعرفه القلب في الشارع رقم. . . بالضاحية. . . إحدى ضواحي القاهرة الفيحاء رباه! إن القاهرة نعمة من نعمك على عبادك، فاجعلها عامرة أبدا الآبدين، واجعلها إلى يوم
القيامة عروس الشعر والخيال، بل احفظها واجعلها شقيقة الفردوس يوم يلقى المخلصون جزاء ما يعملون! رباه! إن القاهرة هي الشاهد على أن اللغة العربية خليقة بالسيطرة في عالم العلم والمدنية. رباه! إن القاهرة من أجمل ما خلقت من المدائن فاجعلها كنانتك واحفظها من السوء حتى أعيش فيها عيش السعداء، وحتى يعيش فيها أبنائي وأحفادي وأحفاد أحفادي عيش النّضرة والنعيم، على وفاق وسلام مع جميع الأقطار العربية
كانت ليلى في زينتها، وكنت في عقلي!
وكان في نيتي أن أثير الجدل حول (قضية الأخلاق) التي اشتجرت فيها أقلام الخولي وعزام والزيات؛ وكنت أنوي أن أقرر أن المنافقين ينجحون باسم الأخلاق، فكيف لا ينجح بها الصادقون؟ وكنت أحب أن أقول أيضاً إن الثورة على الأخلاق كالثورة على الدين، فالذين يثورون على الدين لا يبغضونه من حيث جوهره، وإنما يحاربون الأبالسة الذين يسترون سوآتهم بتكلف الغيرة على الدين. وكذلك يثور على الأخلاق من يؤذيهم أن يغار المنافقون على الأخلاق. وكان من شهوة النفس أن أعلن في حضرة ليلى أن أهل البلادة يسترون تخلفهم بالأخلاق، فإذا رأوا رجلاً قوي القلب مُشرق العبقرية، أسرعوا فاتهموه بضعف الأخلاق لينفض الناس من حوله ويخلو لهم الميدان. ومن أجل

هذا كان من النادر أن يمر بهذه الدنيا رجل عظيم بدون أن تطول في تجريحه ألسنة المتخلفين والمنافقين. وهل سلم الأنبياء من ألسنة الناس؟

كان في نيتي أن أصول وأجول في حضرة ليلى، فأعظم لذة في الدنيا أن يعذب لسانك، وتقوى حجتك، في حضرة امرأة حسناء. والكلام في هذا الموضوع يسهل عليّ بفضل ما أضعت من العمر في دراسة علم النفس وعلم الأخلاق، وبفضل ما ابتلاني الدهر من معاشرة أهل الرياء

ولكن ليلى ابتدرتني وقالت:

هل قرأت العدد الأخير من مجلة الرسالة؟

وما كادت شفتاها تفصحان عن هذا السؤال حتى كاد قلبي ينخلع، فقد تذكرت أنني رجعت عن عزيمتي في طيّ هذه المذكرات وأرسلتها جميعاً إلى الزيات. وهل أخاف ليلى أكثر مما أخاف سعادة الأستاذ محمد العشماوي بك الذي أوصاني بالاعتصام بالعقل يوم سفري إلى

العراق؟ وما وجه الخوف؟ إن مذكراتي بريئة من العبث، وأنا أعيش في بغداد عيش النساك، وإن لم يكن لي فضل في هذا التنسك، فإن الحفلة التي كرمني بها أدباء بغداد جعلتني ممن يشار إليهم بالبنان، ولم يبق من ميادين الهزل غير تذكر الأحلام القديمة، أحلام القاهرة وباريس

ثم تشجعت فقلت: ماذا في مجلة الرسالة؟

فقالت: إن الأستاذ سعيد العريان يتحداك

فبلعت ريقي، وحمدت الله. وهل يؤذيني أن يتحداني كاتب من الكتاب؟ يرحم الله الأيام الماضية حين كان الأدباء يتهيبون المرور في طريقي، وحين كانت مقالاتي في جريدة البلاغ كالسيف المصلت على رقاب الكتاب والشعراء والمؤلفين. يرحم الله الأيام الماضية حين كان أعاظم الرجال يسرهم ويشرفهم أن أهجم عليهم في جريدة البلاغ. ولكن وا أسفاه! أنا اليوم أعيش في قفصين من الفولاذ. وهل كان الدكتور طه حسين يمزح حين قال: تذكر يا صديقي أنك أصبحت موظفاً في حكومتين، وأن مركزك دقيق؟

لقد قرأت كلمة الأديب العريان، ولكن لابد من التجاهل لتعيدها ليلى على مسمعي، فإن الهجوم عليّ يعذُب ويطيب حين أسمعه من ليلى. وهل كانت رخامة الصوت إلا عند ليلى، ليلى التي زعموا أنها مريضة في العراق، مع أن في صوتها من الحلاوة ما يهد رواسي الجبال؟

وقرأت ليلى:

ولقد سرني والله أن تُعْنى وأنت في العراق بدفع تهمة العقوق عن أدباء مصر؛ وإنها (لعاطفة وطنية نبيلة أعرف كل العرفان ما يدفعك إليها وأنت بعيد)

- أعيدي يا ليلى

- ولماذا؟

- أعيدي يا ليلى، ففي مصر إنسان يشهد بأني أعرف معنى الوطنية! وهل كنت في حاجة إلى من يشهد لي بصدق الوطنية؟ عشنا وشُفْنا!

- ولكنه يتهمك بعد ذلك بمصانعة أهل العراق!

- أنا أصانع أهل العراق؟ وهل صانعت أهل مصر حتى أصانع أهل العراق؟ لقد جنت عليّ الشجاعة ما جنتْ فلم أتهيب ولم أتوجع، وتركت الجبناء يتمتعون بمناصب كنت بها أحق، فكيف جاز لأديب مصري أن يتهمني بالمصانعة في معاملة أهل العراق؟

اسمعي يا ليلى. إن هذا الأديب نسى أن مجلة (الرسالة) لها في العراق قراء يعدون بالألوف، ونسي أن كلمته قد تؤذيني، وهذا الأديب الطيب القلب نسي أيضاً أن أهل العراق لن ينتظروا شهادته في عبقرية زكي مبارك، ونسي كذلك أنني لا أحتاج إلى إسناد يتفضل بها كاتب يجعل الرافعي إمام الأدباء. فأنا أعيش في مصر والعراق بفضل الله وبفضل عزيمتي، وإن كنت لا أنكر أن في مصر إخواناً كراماً يجعلون سيرتي مسك الختام في كل حديث

اسمعي يا ليلى. إن أدباء مصر لا يعرفون عواقب ما يكتبون. أليس من البلاء أن أنفق أوقات الفراغ في الدفاع عن مصر والمصريين؟ أليس من البلاء أن يكون من واجبي أن أنتقل في الأندية والمجتمعات لأصحح الأغلاط التي ارتكبها الكتاب المصريون؟ إن

مصر ليس لها مطامع في العراق، ولكن ما الموجب لحرمان مصر من مودة أهل العراق؟ إن العراقيين يروننا إخوانهم أهلاً وسهلاً! فبأي حق يستبيح ناس في مصر أن يفوهوا بكلمات ينفر منها أدباء العراق؟
إن مصر تنفق ألوف الدنانير لتؤسس صداقات ومودات في الأقطار الأوربية والأمريكية، فكيف يغيب عنها أن تنفق الكلمات الطيبات لتؤيد ما يربطها من العلائق بالأقطار العربية؟
هل يعلم أدباء مصر - ولا سيما أعدائي - أني أدفع عنهم السوء في العراق؟
اسمعي يا ليلى. إن أهل بلدكم يقولون إن زكي مبارك لا يزال يحافظ على مصريته.
وهذا حق، ولكنني أتشبث بمصر في سبيل اللغة العربية، فاللغة العربية هي الرباط الوثيق الذي سيكون في المستقبل أساس ما سيعرف الشرق العربي من قوة البنيان
وكنت وصلت إلى حد من التأثر انزعجت له ليلى. فقالت: هوِّن عليك يا صديقي!
فنظرت إليها نظرة الطفل المكروب إلى أمه الرءوم ثم قلت: ليلى، إنها سنة واحدة أقضيها في العراق!
فقالت وهي تتنهد: ستبقى عندنا طول حياتك.
فأجبت: على شرط أن تعفوني من هفوات الكتاب المصريين الذين أحمل جرائرهم صباح
مساء
فقالت ليلى: وعلى شرط أن تنسى مصر الجديدة والزمالك!
فقلت: ذلك إليك يا ليلى!
فصوبت إلي عينين عاتبتين، فعرفت أنها تبغض التشبيب
ما أجمل ليلى حين تعتب بعينيها! إن ليلى جميلة يا بنى آدم، وإنها لخليقة بأن تنسيني من في مصر الجديدة ومن في الزمالك، إن حِاز لقلب مثل قلبي أن يعرف العقوق
- ليلى!
- نعم يا مولاي!
- ليلاي!
- لست ليلاك!
- معذرة يا ليلى، فأنا طبيب جنى عليه الأدب. وهذه عبارة شعرية سبقت إلى اللسان
- ماذا تريد أن تقول؟
- أريد أن أقول. . . أريد أن أقول إني سأعيش في بلدكم سنة واحدة، أعني أنني سأفارقك بعد أشهر معدودات
- هذا وعيد؟
- لن أعيش في بلدكم إلا إذا عينتني الحكومة المصرية واعظاً في بغداد
- واعظ؟ ما هذا الكلام؟ هل جننت؟
وقد انتشيت من هذه العبارة لأن المرأة الجميلة لا تصف الرجل بالجنون إلا إذا ارتفع (بينه وبينها التكليف)
- ما جننت، وإنما أقول إن المصريين والعراقيين يحتاجون إلى من يرعى العلائق بين البلدين فلا ينشر خبر في جرائد العراق عن مصر، ولا ينشر خبر في جرائد مصر عن العراق، إلا بعد أن يمر على رجل حكيم يفهم عواقب ما تنشر الجرائد والمجلات
- وأنت ذلك الرجل الحكيم؟ آمنت بالله!
- اسمعي يا ليلى. إن المحررين في الصحف يحتاجون إلى لجام من العقل والذوق
- دع هذا، وحدثني عما تعرف من أسرار ليلى المريضة في لبنان
- تريدين (فلانة) التي قيل إنها كانت تحب الرافعي؟
- نعم! وهذه أهم نقطة تعنيني في كلمة الأديب العريان
- وأنا أريد أن أمن على مصر وأدباء مصر فأقول إني قضيت في بغداد سنة كسبت لوطني فيها ألوفاً من الأصدقاء
- أنت تمن على وطنك، والمن على الوطن لا يليق بكرام الرجال
- وماذا أصنع إذا كان وطني لا يعرف غير من يمنون عليه؟! وهل يعرف وطني أني أكتب في كل أسبوع أكثر من تسعين صفحة وأشتغل أكثر من سبع عشرة ساعة في كل يوم؟ هل يعرف وطني أني أهتم بالمصريين المقيمين في العراق أكثر مما أهتم

بنفسي؟ هل يعرف وطني أني أزور كلية الحقوق مرتين في كل يوم لأطمئن على صحة الدكاترة عزمي وفهمي وسيف؟
- ومن هؤلاء؟
- هم أساتذة في القانون لا في الطب، وهم من أبناء القرن التاسع عشر (وكانت غلطة فظيعة، فإنه لا ينبغي أن تعرف ليلى من المصريين أحداً سواي)
- حدثني عن ليلى المريضة في لبنان
- كانت ليلى المريضة في لبنان زميلتي في الدرس يوم كنا طالبين في الجامعة المصرية؛ وكنت أتقرب إلى قلبها باغتياب الأساتذة، فأزعم أن الكونت دي جلارزا لا يفهم الفلسفة، وأن الشيخ المهدي لا يعرف أسرار الأدب، وأن الشيخ الخضري لا يدرك حقائق التاريخ، وأن إسماعيل بك رأفت يجهل الجغرافيا ووصف الشعوب!
- يظهر أنها طالبة شقية!
- كانت أشقى من ليلى المريضة في دمياط
- أنا لا يهمني إلا الوقوف على أسرار ليلى المريضة في لبنان
- إنتظري، إنتظري، إن الله مع الصابرين
(للحديث بقية وبقية)

زكي مبارك

ظفر المكيافيلية

وإلام يدفع العالم هذا الظفر؟

للأستاذ محمد عبد الله عنان

لما وضع المؤرخ والفيلسوف السياسي نيكولو ماكيافلي، كتابه (الأمير) في سنة 1513 متضمناً لمذهبه المشهور في الحكم والسياسة، لم يكن يتوقع أن يغدو كتابه بعد أربعة قرون إنجيلاً لنوع جديد من الحكم يحاول اليوم أن يفرض مبادئه على العالم، ولم يكن يتوقع بالأخص أن تغدو آراؤه السياسية نبراساً لإيطاليا الجديدة يدفعها إلى طريق السلطان والقوة، أو يتصور أن هذه الآراء قد تغدو يوماً مثار حرب عالمية طاحنة بين المبادئ السياسية والاجتماعية الخصيمة. ذلك أن مكيافيلي كتب كتابه في عصر كانت إيطاليا تنقسم فيه إلى عدة جمهوريات وإمارات صغيرة، ينافس ويقاتل بعضها البعض، وتتقلب إماراتها ورياساتها بين عصبة من الزعماء والمتغلبين؛ واستوحى معظم آرائه من دراسته لأحوال هذه الدويلات الصغيرة، وهذا الرهط من الأمراء المتنازعين، واتخذ أميره الأمثل من رجال من طراز هذا العصر شقوا طريقهم إلى السلطان والملك بوسائل مثيرة من العنف والخيانة والغدر؛ وكان أقصى أمانيه حينما وضع (الأمير)، وأهداه إلى أميره وحاميه لورنز دي مديتشي أمير فلورنس، أن يكون كتابه مرشداً لأمراء عصره في تفهم أساليب الحكم التي تلائم روح العصر، وتلائم مطامع الزعامات المحلية التي كانت تضطرم يومئذ في دائرة محدودة، قوامها عدة من الولايات والمدن الإيطالية.

كانت المكيافيلية إذن شعار عصر خاص ومجتمع خاص؛ وكان طابعها القاتم، وما انطوت عليه من المبادئ العنيفة التي لا ضمير لها ولا وازع، والتي تغاضت عن كل المثل الإنسانية والأخلاقية، يسبغ عليها دائماً في نظر المجتمعات الرفيعة لوناً من الشذوذ البغيض الذي تأباه السياسة المستنيرة. ومن ثم كانت الفلسفة المكيافيلية على كر العصور مضرب الأمثال للسياسة البغيضة.

وليس من موضوعنا أن نتبسط في شرح المكيافيلية وأصولها، ولكنا نورد من أقوال واضعها هاتين الفقرتين اللتين تتضمنان لب النظرية المكيافيلية في الحكم والسياسة:

1 - (لا يستطيع الأمير العاقل وليس عليه أن يحفظ العهد، إذا كان مثل هذا الوفاء قد ينقلب ضده، وإذا زالت الأسباب التي حملته على قطعه)

2 - (ليس من الضروري أن يتصف الأمير بالخلال الحسنة التي ذكرتها، ولكن من الضروري أن يبدو كأنه متصف بها. . ولا يستطيع الأمير، ولا سيما الأمير الجديد، أن يراعي كل الأمور التي يقدر الناس من أجلها لأنه كثيراً ما يرغم لكي يحفظ الدولة على أن يتصرف بغير ما يقضي به الإخلاص والصداقة والإنسانية والدين، وإذاً فمن الضروري أن يكون ذهنه متأهباً للعمل وفقاً لتقلب الريح والجدود)

هذا هو لب النظرية المكيافيلية في الحكم. ويكفي أن نقرأ كلمة (الدولة) مكان كلمة

(الأمير) لنسبغ على هذه النظرية طابعها الحديث؛ وفي التاريخ كثير من الأمراء والطغاة الذين حكموا قبل مكيافيلي بنفس الروح والوسائل التي نادى بها مكيافيلي، وفيه كثير من الأمراء والساسة المحدثين الذين أعجبوا بمبادئ مكيافيلي وطبقوها في عصور تعتبر فيها هذه المبادئ من ألوان الغدر السياسي والاجتماعي الذي يصمم الدولة المتمدنة؛ وما زالت المكيافيلية إلى يومنا محكوماً عليها، وما زالت تعبر دائماً منافية لجميع المبادئ الحرة والإنسانية التي تقوم عليها المدنية الحديثة

على أن هذه الحقيقة التاريخية القديمة تختفي اليوم شيئاً فشيئاً؛ فلم تعد المكيافيللية في عصرنا فلسفة سياسية منبوذة، ولكنها نغدو بالعكس حقيقة واقعة تطبقها وتؤمن بها دول عظيمة. ذلك أن الفاشستية الإيطالية والأنظمة الطاغية المماثلة الأخرى تقوم في جوهرها على الفلسفة المكيافيلية؛ وقد أسبغت وسائلها وأساليبها على نظريات فليافيلي شرعية جديدة، وغدت هذه النظريات اليوم أساساً لنوع جديد من الحكم والسياسة تقوم عليه عدة دول قوية جديدة؛ ففي إيطاليا وألمانيا وروسيا تجد نظريات مكيافلي اليوم ميداناً شاسعاً لتطبيقها

وقد تناول هذا الموضوع الخطير أخيراً كاتب ومؤرخ فرنسي كبير هو مسيو لوي دي في كتاب قيم عنوانه (نحن ومكيافيلي درس فيه حياة الفيلسوف دراسة وافية، وانقل منها إلى عصر التطبيق، فذكر أن الفاشستية هي أعظم تجربة مكيافيلية عرفها التاريخ، وأن فكرة السنيور موسوليني في توحيد الشعب هي فكرة مكيافيلية محضة. (أن تكون الدولة (وفي لغة مكيافيلي الأمير) كل شيء والفرد لا شيء، وأن تكون الدولة مصدر كل السلطات والقوانين، وأن تطرح كل اعتبار أخلاقي في تحري غاياتها) هذا هو شعار الفاشستية، كما

يعرفها الأستاذ دي فيلفوس، وهذا هو شعار الدول الطاغية الأخرى التي تقوم على أصولها؛ وهذه هي نفس الرسالة التي بشر بها الفيلسوف الإيطالي في كتابه (الأمير) وكما أن الفاشستية تقوم من الوجهة العلمية على أسس المكيافيلية فهي أيضاً تؤثر لغتها وأساليبها الدبلوماسية؛ فزعيم الدولة الإيطالية يستعمل اليوم نفس الوضوح الجاف، والصراحة المثيرة، في تمجيد وسائل العنف وأساليب القوة الهمجية، ويبدي نفس الاغتباط في تمزيق جميع المثل العاطفية، ويتقدم إلى العام باسم الدولة وضرورة قيامها على أنقاض جميع العناصر والاعتبارات الإنسانية، وبأنها مصدر الحق ومجمع القوى؛ ثم هو يرجع مثله الأعلى إلى نفس الكعبة المقدسة التي مجدها مكيافيلي، وهي (روما) وعظمتها الخالدة

فالفاشستية هي إذن ذروة النجاح العملي في تطبيق الفلسفة المكيافيلية؛ وإذا كانت المكيافيلية قد استطاعت من عصر إلى آخر، وفي بعض الظروف المناسبات أن تحقق لمحات من الظفر، فإنها اليوم على يد الفاشستية تحقق ظفرها كاملاً. وخلاصة شعارها الظافر الذي نادت به منذ أربعة قرون هو شعار الدول الفاشستية المعاصرة، وهو أن النصر الحقيقي إنما هو للقوى المسلحة والوسائل المدمرة، وإن كل سياسة لا تقوم على الحقائق العملية مصيرها إلى الفشل المحقق، وإنه لا حق للضعيف والأعزل في البقاء، ولا وجود لمثل أو مبادئ مثلى لا تدعمها القوة المادية

بل ويرى الأستاذ فيلفوس أن ظفر المكيافيلية لم يقف عند هذا الحد؛ ذلك أن هذا الظفر يشمل ميادين لم تكن تصلح بطبيعتها ولا بمبادئها لاعتناق المكيافيلية وتطبيقها وهي الدول الديموقراطية؛ ولكن الدول الديموقراطية ترى نفسها اليوم مضطرة إلى أن تتحوط لخطر الدول الفاشستية المدججة بالسلاح، وأن تقابل القوة بالقوة محافظة على سلامتها وكيانها، فهي بذلك مضطرة إلى أن تقتبس نوعاً من المكيافيلية التي لا ترغبها ولا تؤمن بها، وهذه هي حقيقة محزنة، ولكنها حقيقة لا ريب فيها

هذه هي خلاصة الحقائق التاريخية الجديدة التي يبسطها الكاتب الفرنسي في مؤلفه بسطاً قوياً شائقاً؛ ونقول إنها حقائق تاريخية لا تعوزها الأدلة الواقعية. وماذا تكون المكيافيلية إذا لم تكن هي نفس النظم التي تطبق اليوم بمنتهى العنف والصرامة في إيطاليا الفاشستية، وألمانيا النازية، وروسيا البلشفية؟ إن هذه النظم جميعاً تقوم على نوع من الزعامة الممعنة

في الطغيان والاستئثار بكل السلطات، وهذه الزعامة ذاتها تستتر وراء فكرة الدولة؛ ولم يبق للفرد اليوم وجود في ظل هذه النظم المطلقة، ولم يبق له شيء من الحقوق

أو الحريات العامة، فهذه كلها تفيض وتنمحي في شخص الدولة؛ والدولة أو أولئك الذين يعملون باسمها يضعون أيديهم على مصاير الأمة أرواحها وعقولها وجسومها وكل ما ملكته أيديهم، ويتخذون من التسريع المدعم بالقوة القاهرة سلاحاً لفرض كل تجاربهم الإصلاحية على الشعب، ويزعمون أن مناهجهم الإصلاحية هي السبيل القويم لتحقيق عظمة الأمة وخير الشعب؛ وقد يعتمدون في هذا السلطان فضلاً عن قوة الجيش العامة على صفوف حزبية كثيفة من الشباب المسلح المدرب على أساليب العنف؛ وتسيطر هذه التجارب والمحاولات الإصلاحية على حياة الفرد الخاصة فضلاً عن الحياة العامة، فترسم له خطط أعماله وتفكيره واعتقاده واتجاهاته وتصرفاته كلها دون أن تكون له إرادة الاختيار أو المعارضة، وتجري هذه المحاولات جميعاً باسم الدولة التي تقبض عليها الزعامة المتربعة في دست الحكم

وهذه الزعامة المطلقة العاملة باسم الدولة هي بعينها (أمير) مكيافيلي، واستثارها وراء فكرة الدولة إنما هو نوع من النفاق السياسي الذي أوصى به مكيافيلي

وكما أن المكيافيلية تبدو واضحة أيضاً في السياسة الداخلية لهذه الدول المطلقة، فهي تبدو واضحة أيضاً في السياسة الدولية الخطرة التي تجري عليها هذه الدول في تنظيم علائقها مع الدول الأخرى؛ فالقوة في نظرها هي أساس الحق والعهود، والمواثيق الدولية لا قيمة لها في نظرها مادامت لا تتفق مع مصالحها ومراميها. وهذه هي الصورة الحديثة لمبدأ مكيافيلي في قوله: (إن الأمير كثيراً ما يرغم لحفظ الدولة على أن يتصرف بغير ما يقضي به الإخلاص والصداقة والإنسانية والدين) ولقد رأينا إحدى الدول العظمى تلغي ما بقي من تعهداتها في معاهدة الصلح، وتنكر ما وقعته من مواثيق دولية لصون السلام بحجة أن هذه النصوص والعهود تصطدم مع مصالحها الوطنية ولم يبق اليوم مبرر لبقائها بعد أن تغيرت الظروف التي أبرمت فيها، ولم تفعل ذلك إلا بعد أن آنست من نفسها قوة تدعم بها خطوتها. بيد أن الروح المكيافيلية تبدو بنوع خاص في اعتداءات بعض الدول القوية على الدول الضعيفة وغزوها أو استعمارها، وقد كان غزو الفاشستية للحبشة والاستيلاء عليها

بلا ريب أسطع المغامرات المكيافيلية في عصرنا، فقد انتهكت فيه جميع المعاهدات التي عقدت والمواثيق التي قطعت باحترام سلامة الحبشة واستقلالها، ولم تخف الفاشستية أنها أقدمت على هذه الخطوة الجريئة تحقيقاً لمطامعها الإمبراطورية

وهانحن أولاء اليوم نشهد نفس التجربة المحزْنة في أسبانيا وفي الصين

فإلى أي مصير يسير العالم في ظل المبادئ العنيفة الخطرة؟ يقول لنا مؤلف كتاب (نحن ومكيافيلي) إن مدى الشر الإنساني لم ينقص وإن العناصر السيئة في الأفراد تجمع من جديد لتطلق بعد ذلك من عقالها في أعمال العنف والشر، وأنها قد تدفع العالم إلى كارثة أفظع وأروع من كارثة الحرب الكبرى

ونخشى أن يكون في ظواهر العصر وتطورات السياسة كثير مما يدعم هذا التكهن المروع

محمد عبد الله عنان

التنويم المغناطيسي وقراءة الأفكار في القديم

لأستاذ جليل

هذا التنويم المغناطيسي قديم، وقد عرفته الحضارة العربية يوم كانت، وقيدته بالكتاب، وأثبته بعضهم في مجلة العجائب وجريدة ما وراء الطبيعة، وحاول العلماء تعليله وتفسيره فعجزت ذرائع علمهم في ذلك الوقت عما حاولوا. وهل اهتدى إليه علم الغربيين إلا منذ حين؟

وأول من ذكر التنويم المغناطيسي في العربية - وأن لم يسمه باسمه - هو (أوحد الزمان أبو البركات هبة الله بن علي بن ملكا البلدي) في كتابه (المعتبر) منذ أكثر من (800) سنة

قال الوزير جمال الدين يوسف القفطي في كتابه (إخبار العلماء بأخبار الحكماء): (هبة الله بن ملكا أوحد الزمان طبيب فاضل عالم بعلوم الأوائل، وقريب العهد من زماننا. كان في وسط المائة السادسة، وكان موفق المعالجة لطيف الإشارة. وقف على كتب المتقدمين والمتأخرين في هذا الشأن وأعتبرها واختبرها، فلما صفت لديه وانتهى أمرها إليه صنف فيها كتاباً سماه (المعتبر) أخلاه من النوع الرياضي وأتى فيه بالمنطق

والطبيعي والإلهي فجاءت عبارته فصيحة، ومقاصده في تلك الطريق صحيحة. وهو أحسن كتاب صنف في هذا الشأن)
وقال ابن أصيبعة في (عيون الأنباء في طبقات الأطباء): (أبو البركات هبة الله بن علي بن ملكا كان في خدمة المستنجد بالله (العباسي) وكان له اهتمام بالغ بالعلوم وفطرة فائقة فيها، وله من الكتب كتاب (المعتبر) وهو من أجل كتبه وأشهرها في الحكمة)
وهذه قصة ذاك التنويم كما حدث أبو البركات:
والمرأة العمياء التي رأيناها ببغداد، وتكررت مشاهدتنا لها منذ مدة مديدة قدرُها ما) يقارب ثلاثين سنة، وهي على ذلك إلى الآن تُعرض عليها الخبايا فتدل عليها بأنواعها وأشكالها ومقاديرها وأعدادها دقيقها وجليلها؛ تجيب على أثر السؤال من غير توقف ولا استعانة بشيء من الأشياء، إلا أنها كانت تلتمس أن يرى أبوها (المرءَ) الذي يسأل أو يسمعه، فيتصور الدهماء أن الذي تقوله بإشارة من أبيها، وكان الذي تقوله يبلغ من الكثرة إلى ما يزيد على عشرين كلمة، وإنما كان أبوها يقول إذا رأى ما يراه من أشياء كثيرة مختلفة
الأشكال والأنواع في مرة واحدة كلمة واحدة، وأقصاه كلمتان، وهي التي يكررها في كل قول، ومع كل من يسمع ويرى: (سلْها وسلها تخبرك؛ أو قولي له، أو قولي يا صغيرة) وقد عاندته يوماً وحاققته في ألا يتكلم البتة، وأريته عدة أشياء، فقال لفظة واحدة، فقلت له: الشرط أملك فاغتاظ، قال: ومثلك يظن أني أشرت إلى هذا كله بهذه اللفظة. واسمع الآن، ثم التفت إليها وأخذ يشير بإصبعه إلى شيء وهو يقول تلك الكلمة، وهي تقول: هذا كذا، وهذا كذا، وهذا كذا، على الاتصال من غير توقف، وهو يقول تلك الكلمة لا زيادة عليها، وهي لفظة واحدة بلحن واحد، وهيئة واحدة حتى ضجرنا، واشتد تعجبنا ورأينا أن هذه الإشارة لو كانت تتضمن هذه الأشياء لكانت أعجب من كل ما تقوله العمياء. ومن عجيب ما شاهدنا من أمرها أن أباها كان يغلط في شيء يعتقده على خلاف ما هو به، فتخبر هي عنه على معتقداتها كأن نفسها هي نفسه. ورأيناها تقول ما لا يعلمه أبوها من خبيئة في الخبيئة التي اطلع عليها أبوها. وهذا أعجب وأعجب، وحكاياتها أكثر من أن تعد. وما زلت أقول إن من يأتي بعدنا لا يصدق ما رأيناه منها)
وقد أورد ابن أبي الحديد خبر (العمياء) هذه في بحثه عن المغيبات في شرح (النهج)
وقال قبل روايته: (وقد يقع الأخبار عن الغيوب بواسطة إعلام إنسان آخر الغيب، لنفسه بنفس المخبر اتحاداً وكالاتحاد، وذلك كما يحكي أبو البركات بن ملكا الطبيب في كتاب المعتبر):
وعدّ الرازي تلك العمياء (كاهنة) فقال في تفسيره (مفاتيح الغيب): (الكاهنة البغدادية التي نقلها السلطان سنجر بن ملك شاه من بغداد إلى خراسان وسألها عن الأحوال الآتية في المستقبل ذكرت أشياء ثم إنها وقعت على وفَق كلامها.
وأنا قد رأيت أناساً محققين في علوم الكلام والحكمة حكوا عنها أنها أخبرت عن الأشياء الغائبة أخباراً على سبيل التفصيل وجاءت تلك الوقائع على وفق خبرها. وبالغ أبو البركات في كتاب (المعتبر) في شرح حالها، وقال لقد تفحصت عن حالها مدة ثلاثين سنة حتى تيقنت أنها كانت تخبر عن المغيبات إخباراً مطابقاً)
وليست (العمياء) بكاهنة، وليس الذي تقوله من أنباء الغيب، وما ذلك إلا (التنويم المغناطيسي) الذي عرفناه في هذا الزمان، وهو اليوم حرفة محترفين، ومَصيدة متصيدين. .
روى المقريزي في (عقوده) هذا الخبر ونقله السخاوي في (الضوء اللامع لأهل القرن التاسع):
كان أحمد بن عبد الخالق البدر القاهري إذا كتب له البيت من الشعراء أو نحوه في) ورقة لم يرها ودفعت إليه، ويده من تحت ذيله قرأها، ويده وثوبه يحولان بين بصره وبين رؤيتها، إلا أنه كان يمر بيده على المكتوب خاصة فيقرأ ما كتب في الورقة، امتحناه بذلك غير مرة، وشاهدت غيره يفعل مثله أيضاً)
والذي رواه المقريزي إنما هو من (قراءة الأفكار) وهو من ضروب المسمى عند الفرنج وقد رأينا المنومين يفعلونه كثيراً
وذكر القفطي في كتابه (إخبار العلماء بأخبار الحكماء) رجلاً اسمه (مخرج الضمير)

فقال: (هذا رجل اشتهر بهذا الاسم، وكان يدعى المعجز في إخراج الضمير، فانطلق عليه ذلك) ثم روى قصة من قصصه، و (إخراج الضمير) مثل: (قراءة الفكر) أو هو هي، والحكايات الصحيحة لبعض المتصوفة في المخاطبة أو المراسلة النفسية (الكهربية) هي من هذا الباب

كنت قد أقرأت حديث ذلك التنويم القديم المنومين: الدكتور سلمون والدكتور داهشاً) فقالا: هذا هو التنويم المغناطيسي بنفسه، وسلم سلمون ودُهش داهش! وسلمون هذا شاب من دمشق، وداهش فتى من بيت المقدس، وهذه الدكتورية وهذه التسمية أو التعمية هي أفنون من أفانين هذا التنويم. . . وما أقول ذلك لائماً أو عائباً، إني أعلم أن عملهما يقول لهما يا منومان، يا لا عبان، العبا كما تهويان، وتسميا وتلقبا بما تريان. . .

وكل في هذه الدنيا إما منوِّمٌ مستهوٍ وإما منوَّمٌ مسهوىً. وما الأول - يا أخا العرب - إلا مثل الثاني؛ فالمستهوِي مستهوىً، والقاهر مقهور، والمستعبد عبد، والحر غير طليق، وذو الإرادة فاقدها، والكون في موج القدر

وبصير الأقوام مثلي، أعمى ... فهلمو في حندس نتصادمْ

بل ليس الناس كلهم أجمعون غادين ورائحين وعاملين ومتناحرين على الرغيف - إلا نائمين منومين، إلا في شبه الحالة المسماة عند الفرنج وما الإنسان إلا النائم السائر (وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود)

مفتحةُ عيونهم نيامُ

وما يشعرون وما يستيقظون إلا وقت الموت. و (الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا) (ق)

النار المقدسة

للأستاذ عبد المنعم خلاف

أنضجت قلبه النار المقدسة التي أنضجت قبله قلوب رعاة القطيع. . . ورواد الطريق، وآباء الإنسانية البلهاء. . . فغدا يسير على الدنيا وله فيها زفير وشهيق مكتومان لا يحسهما إلا من يتصل به عن قرب فيفتح له قلبه الكبير الذي فيه كل آلام الناس، وكل فجائع الناس، وكل مسئوليات الناس. . . كأنه أب ذو عيال! وكأنه مسئول عن ذنوب البشر فهو يبخع نفسه أسفاً ويسيل نفسه حسرات.!

سألته مرة: لم تحمل على قلبك الدنيا؟ ولم تجتر آلامها وتمضغ أسقامها، ولست فيها حاكما ولا شرطياً! فقال: بليت بالنظرة الناقدة إلى العيوب، وبالعجز عن وسائل الإصلاح، فكان لي ما تراه من إدمان المضغ لأحاديث الشقاء وأماني الشفاء!

مات أبوه فبكت عينه وقلبه ذلك البكاء الرحيم لألم الحب والرحمة والفقد ساعات. . . ثم نامت عينه ونام جسده بجوار جثة أبيه حتى صباح الدفن والضريح كأن شيئاً لم يحدث. . . ولكنه لا ينام إذا مات من دينه أو وطنه شي. . . حتى يكاد يجن من الأرق، لولا أن يتداركه الله بالنسيان والسلوى

ينخل الرجال والأعمال، ويرى ما وراء الوجوه ويقرأ ما بين السطور. . . فتروعه عورات الحقيقة العارية في الناس. . . إذ يرى الجهل والإثم والدجل والخيانة والأنانية والبلاهة. . . فيسأل السماء: أهذه هي الإنسانية أثمن وديعة في الأرض حاكمة ومحكومة؟!

مرهفٌ حسُّه: فيرى كل شيء ويشم كل شيء ويسمع كل شيء حتى امتلأ وأتخمته الدنيا بما فيها؛ فضوي جسده، وتوسعت نفسه على حسابه

استقى لنفسه من الأنهار الكبيرة الجارية، ومن الجداول الصغيرة، ومن البرك الآسنة، وحط على الزهرة والشوكة، والجبل والحصاة والنار والماء. . . فاصطرعت فيه الأضداد.

. . .يعيش في سجن من وصايا الدين والعلم والخلق كأنه (ديدبان) فهو مسجون وسجان .

متيقظ للزمان. . . يعيش كل دقيقة. . . ويحسب كل نفس، ويصحب نفسه دائماً حتى أصيب بالذهول عن الناس.

يتكلم مع كل شيء؛ فيقول لكل حق أنت صديقي، ولكل باطل أنت عدوي. . . لا يؤمن بالذكاء؛ لأنه يدلس. . . ولكن يؤمن بالطبع لأنه صريح. . .

يريد أن يعلم الناس كيف يحبون؛ وهم يرونه ميتاً. . . فأين الملتقى؟!

يقول لهم: لا تأكلوا الثُّفل. . . والحروف. . . والحجارة. . . واكتفوا بالعصارة والمعنى والروح؛ فيقولون له: أنت تمضغ ماء وهواء. . .!
يا رحمتاه هذا ما دام حيًّا. . . فإذا مات فوا رحمتاه للناس!
إن هذا وأمثاله هم أعضاء الإنسانية وأوتادها. من أجلهم وجدت على الأرض، وإن نارهم مؤقدة من القبس الخالد الذي أضيئت به السماوات وقام عليه صلاح العالم
يكفي أن أنظر إلى واحد من هؤلاء حتى أهتدي إلى نفسي الضائعة، فأجدها تحت ركام من ضجة الدنيا. . . فأقول لها: تعالي وارمضي لفائف صدرك في هذه النار المشبوبة في هذا الرجل المحترق المضيء وتطهري بها وارجعي إليّ. . .
ولقد وجدت واحداً منهم وعشت معه سنتين، رأيت على ضوئه كل شيء في موضعه الحقيقي من الدنيا، فحملني على احترام الإنسان والثقة بما فيه من عالم طاهر مؤنس إذا صُفى جوهره من الخبث والشوائب بهذه النار
بل لقد حملني على احتقار أكثر القوالب الإنسانية التي تملأ الأسواق والشوارع. . . وجعلني أدور دورة (ديوجين) بمصباحه وأنشد مع القائل:
ما أكثر الناس! لا بل ما أقلهم! ... الله يعلم أني لم أقل فندا
إني لأفتح عيني حين أفتحها ... على كثير ولكن لا أرى أحدا
أو مع المتنبي: (أرى أناساً ومحصولي على غنم!)
أو مع الآخر:
لا تعجبنْكَ الثياب والصور ... تسعة أعشار من ترى بقر!
في خشب السرو منهمُ مَثَل ... له رُواء وما له ثمر
ويا ويلي من الإنسان! إنه يشغلني دائماً بصوره التي لا عداد لها كلما رأيت وجهاً له. . . وأقسم غير حانث أني لا أعرفه ولا أدركه، رغم خبري به في هويتي ودمي وصورتي! وإن نفسي التي بين جنبي ي القفل والغَلَق الذي حال بيني وبينه حتى عييت وبئست. . .
بل يا ويلي من نفسي واحتكاكها بما وراء الحياة الظاهرة والصور والأشخاص والمواد. . .
ومن طلبها المزيد من هذا الاحتكاك الذي يمغطسها ويتركها ذاهلة ماضية إلى غير وجه الحياة الذي يمضي عليه الناس. . .
ولكن لا. . .! بل يا لذتي من غريزة التكوين والتخريب هذه التي تريني كل شيء كامل كومة من الأنقاض. . . وكل شيء مخرب خلقاً سويا. . .!
أليس الرجل طفلاً كبيراً؟
يلذ لي أن أراقب الناس وقتاً طويلاً في الشارع، وأشبع عيني وما وراءها من أنواعه واختلافه. . . لأزداد به جهلاً. . .
بل إني أذهب إلى (السينما) لأراه في جميع بقاعه وألوان معاشه واختلاف سحنه وألوانه ولغاته، لأخرج بعد ذلك مبلبل الفكر فيه في سوء ظن تارة، وفي إحسان تارة أخرى
بل إني أطوف كل يوم قبيل نومي بخيالي عليه في جزره النائية في المحيطات، وفي القطبين، وفي خط الاستواء، وفي هضبة التبت، وفي سفوح الهند، وفي رمال العرب، وفي. . . وفي. . . لأعيش في غيبوبة الصحو قبل غيبوبة النوم!
لقد رأيته قاتلاً ومقتولاً. . . جنينا محمولاً وميتاً ملحوداً. . . عاهراً وناسكا. . . جميلاً وقبيحاً. . . رجلاً يشعر وجهومة، وامرأة بزينة ونعومة. . . عالماً يضيء استراليا وهو في أوربا، وجاهلاً فدْماً عارياً أبداً عاجزاً أن يعد أصابع يده. . . فذهبت من نفسي قداسته وانحطت هيبته. . .
والذي حارت البرية فيه ... حيوان مستحدث من جماد!
أجل! إني رأيت مخه. . . ورأيت قلبه. . . فلم أر شيئاً غريباً عما آكله من الغنم والثيران. . . ولذلك كفرت بالجسد كفراً لا إيمان بعده أبداً. . . ورحت أبحث عن الإنسان - ذلك المجهول. . . فلم أعثر إلا على لمحات عنه خلال كلمات ليست منه وإن كانت بألفاظه. وهي كما رواها محمد:
(إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد)
(وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون. . .)

(. . .ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم)
(. . .هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً)
(لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين)
يا يد الله! يخيل للإنسان العاجز أنك تخرجين الصنعة من مخابير ومسابير وعجلات ودواليب في مصانع وحظائر. وأنك تستخدمين طلاسم ولوغاريتمات ومعادلات. . . كما يفعل هو إذا أراد أن يحاكي أو يوحد بين ذرتين أو يفصل بينهما. ولذلك سألكِ إبراهيم أحد المقربين إليك: رب أرني كيف تحيي الموتى فأريته ذلك الكَيْف. ولكنه لم ير شيئاً أكثر من أنه دعا مَّوَاتاً فاستجاب له حياً! إنه لم ير شيئاً. . .
إن كل آلاتك كلمة واحدة من حرفين اثنين بِكَيْلِنَا نحن ولكنها عندكِ خارجة عن حدود التعداد والقياس
إنك يد تتكلم كلمات وراءها حقائقها المُنْجزة التي لا تنفد ولو كُتبت بما في الأرض من شجرة أقلاماً ممدودة بماء البحر من بعده سبعة أبحر. . .
قال (إسحاق نيوتن) ما معناه: إن خالق هذا الكون على علم تام بعلم الميكانيكا. . . تماماً كما يقول الطفل: إن الملك عنده مائة دينار
ومن هنا آفة الفكرة في (الألوهية) عند أكثر الناس إذ جعلوا (الله) على صورتهم وبمنطقهم. . .!
قالت القدرة المطلقة للعجز الإنساني: تَهَج هذه الأبجدية التي شئت أن تراها وحدها مني وهي حسبك من معرفة. ولكنه تخطى البُدائيات وخاض في المجاهل فضل في فلسفاته وفرضياته حتى عاد لا يرى تلك المشيئة الغالية
هذا قول (مِلِكنَ) العالم الطبيعي الذي قاس (حددوا المادة وأنا أتكفل بتحديد الروح). مقدار الشحنة الكهربائية على الإلكترون، والذي اكتشف أشعة تفوق أشعة إكس مئات الأضعاف في قوة اختراقها للمواد. . لم يتخط عقله إلى البحث في الروح قبل أن يدري ما هي المادة. . . ولعمر الحق إن مثل هذا لن يضل. . .
سأراك أيتها الشمس في عيني جديدة كل صباح. . . وأنت يا عالم الظلام وأنت أيتها الأشجار سأصحبك بلفتاتي الذهنية كلما رأيتك قائمة بالفرع ساجدة بالجزع في محراب الطبيعة. . .
ويا أيها الماء والحيوان والإنسان والجبل والحصى. . .
يا سائر ما خُلق من الآيات التي نمر عليها ونحن عنها معرضون أقسمتُ لا أبرح أراكِ جديدةً عجيبةً مثيرة للفكر في الرأس والدم في القلبِ. . . حتى لا أنسى. . . حتى لا أنسى!
عبد المنعم خلاف
من برجنا العاجي
يتساءل بعض الناس كيف لا يستطيع أدباؤنا أن ينتجوا إنتاج أدباء الغرب؟ أما أنا فأتساءل كيف استطاع أدباؤنا أن ينتجوا إطلاقاً، ولماذا هم ينتجون؟ إن موقف أدبائنا اليوم ليدعو إلى العجب. إنهم في موقف لم يقفه أدب ولا أدباء في عصر من العصور. إن المعروف في كل عصر أن الأدب يرعاه دائماً تشجيع طبقة من الطبقات. ففي عهد الأرستقراطية كان في كنف الملوك والخلفاء والأمراء والنبلاء، يتبارون في حمايته، ويتسابقون في إعلاء كلمته. وفي عهد الديمقراطية الحديثة وانعدام الأمية انتقل أمره إلى يد الشعب المتعلم فهو الذي يثيب الأديب بالتهافت على اقتناء كتبه، وهو الذي يحوطه بمظاهر الاحتفال والتقدير. أما أدبنا اليوم، فهو حائر كاليتيم بين أرستقراطية لا وجود لها، وإن وجدت فلا شأن لها بأدب ولا أدباء، وبين ديمقراطية اسمية في شعوب لم يتم تعليمها، فهي بعد لا تعنى بأدب ولا أدباء. فأنا ننتج ونحن نعرف أن إنتاجنا لا يهم الحكام ولا المحكومين، وأن ثمرات هذا الفكر الذي أضعنا من أجله كل حياتنا الجميلة لن يجنيها غير نفر قليل ممن ينظرون إلى استشهادنا بعين الرثاء. نعم إن هو إلا استشهاد، هذا الأدب في هذه البلاد. . . لا شيء غير ذلك. وإني قد سألت نفسي مراراً لمن أنشر كتبي؟ فكان الجواب: إني إنما أفعل من أجل أولئك التسعة أو العشرة من الأدباء الكرام الذين يفهمونني لأنهم يعانون عين الألم، وينتظمون معي في سلك العذاب، ويدبون مثلي على أقلامهم في تلك الحياة الطويلة الجرداء كأنها صحراء من الجليد لا يهب علينا فيها غير صقيع الإهمال من الشعب وأصحاب السلطان، ولكننا مع

ذلك نسير ونسير متجلدين، أيدي بعضنا في أيدي البعض كأننا منفيون في مجاهل سيبيريا. . . وما نحن في الحقيقة أكثر من ذلك. . . ما نحن إلا منفيون في مجاهل (فكرنا) الذي يجهله الناس

توفيق الحكيم

كلمة لبنان في مهرجان القران الملكي السعيد

للأستاذ أمين بك نخلة

باسم القلم في لبنان، بل باسم القلم اللبناني في كل أرض، بل باسم اللبنانيين في دارهم وفي

كل دار لهم على جنبات المعمور، أرفعُ هذا الصوت على النيل، في فرحة البيت المصري بصاحب التاج، فينجلي الحجاب، ويبش وقار المُلك وبأنس عرش (محمد علي) لرسول الأحبة من ارض (بشير)!

فيا فاروق، يا لابس المطرف (العلويّ) ووارث الميثاق: هذه رسالات الوفاء في يدي، أحملها إليك من وراء قنال (السويس)، من نهايات شطه الآخر، حيث لا ينبسط القتال في ظن القلوب بين بيروت والقاهرة، ولا يشطر دار الهوى في خطرات (محمد علي) وسرائر (بشير)، فكأن معاول (دي ليسبس) عند عقدة (الأبيض المتوسط) و (الأحمر)، وأوشك التلاقي بين لوني آسيا، وأفريقيا، في مخطط الدنيا، لم يُسمع لها رنّة على الساحل الشرقي من (المتوسط)!

وهكذا تسلم علاقة الماضي بين جبل المقطم وجبل الأرز، لا يحول دونها خط (السويس) في الخارطة، وهي من إرث الوجدان قبل عهد الخلائق بالورق. . .

كان التراب أمس - كما تدري - أوفر أثراً من الماء في علائق البشر، وتعمير الممالك، ونقل المدنيات؛ بل كان مدار العقل القديم في تأليف الأمم، ومزج الأجناس، قبل أن يصبح المدار على دم العرق، وهوى الضمير، ولغة الفم، ففي ذلك الأبد السحيق كان من المتحتم أن يغدو هذا الشاطئ المشرقي المنطرح من مباسط (طوروس) إلى مشارف (أسوان) ملعباً لدورين ينقص تاريخ البشر يوم يسقط لهما ذكر! لنا دور منهما ولمصر الآخر. فرجت كرة الأرض يومئذ من الحركة المشرقية. فالملعب عريض، قبالة الأمم على (المتوسط)، والرواية رواية المدنية، وأصحابها أساتذة الأزمنة في رفع الحجر إلى الجو، وإخراج النبتة من الأرض، وإبراز خاطرة البال في حلة الحرف، وربط هذه المخيّلة البشرية بالغيب العالي، فشهدت الدنيا القديمة، للمرة الأولى، كيف العهد بآفاق يراد لها وحدة، وشعوب يراد لها تأليف، وإذا الشمس لا جديد تحتها؛ فكرة من صوب مصر علينا، وكرّة من صوبنا على مصر، حتى تتعب الأزمنة بين أخذ ورد. فكان عبثاً مجيء (كنعان) من جوار الجبل اللبناني، ووادي مصر أغبر، وماء النيل هدره، فيسمح بالخضرة، هاهنا، على كل فج عميق. وكان عبثاً أن يقطع (تحتمس) إلينا، حتى يبلغ ضفاف (الفرات) ويكاد يشرف على صفرة آسيا، كما كان من العبث أن يقطع (سلاتيس) إليكم حتى يبلغ ضفاف النيل ويكاد يشرف على سواد أفريقيا. بل كان من العبث فوق ذلك أن نتلاقى على الملعب: فرعونية من جانب، وفينيقية من آخر. نمدكم بالحرف واليد والشراع، وتمدوننا بالخاطرة والصنع والوسق، فتدق البشائر في الدنيا بأول العهد بالعلم والصناعة والتجارة

ولا تقف المحاولة عند ربط صعيد بصعيد، وعلم بعلم، ومصلحة بمصحلة، بل جاوز الأمر إلى الديانة. فإذا الإله اللبناني (أدونيس) تحت القناطر في (أسوان)، وإذا الإله المصري (أوزيريس) فوق المذابح في لبنان. فألف الأول في العصبية الدينية زرقة السماء المصرية على خضرة الجبل اللبناني، كما جمع الآخر أمواج (أفقا) إلى أزباد النيل. ولكن الوحدة في التيجان والرايات وأجناس القبائل لبثت على ذلك كله غير مستطاعة، حتى إذا دار بنا الفلك بعد مليءٍ من الدهر، وطلعت علينا أمم الفتوح واحدة واحدة من الآشوريين إلى الرومان، خفقت على هذا الشاطئ المشرقي صيحة الوحدة

ثم انقلب أمر الدنيا، ثم جاء (الإنجيل)، فنوَّرت هاتيك الجهات على مقربة من لبنان ,

ثم نور لبنان بالسبب الجديد؛ وما هي حتى جاءكم مرقس يكرز، فكأنما عدنا إلى المحاولة. ويلمع في الأيام بعد ذلك ضياء من صوب (البحر الأحمر)، فتلألأ (مكة) وتغرق بلاد العرب في اللألاء (القرشي). فإذا القضية لقومية، فوق كونها لديانة. فتنقل شعاع

(القرآن) في مشرق (المتوسط) على الدروب الباقية من ذلك الغرض القديم.
وشرعت الرايات (المحمدية) تخفق في دمشق على خطوتين من جبل اللبنانيين، فأقبلنا في الزمن (الأموي) نعب من (كتاب) العرب، وندير ألسننا في الفصاحة؛ كما أقبلتم على يد (ابن مروان) تتلقون عقيدة الكتاب الجديد، وتتلقنون لسانها؛ فكان أن جَمَعت رابطة الفم بين هذا (الوادي) وذلك (الجبل)، بعد أن جُمعا تارات في المحاولة على المصلحة والعلم والديانة، وعلى دفع الفتح، وتحمل الأمم الغربية. ولكن تلك الرابطة التي تضم الفم إلى الفم، كانت أشد الروابط، فتلاقينا معاً على ملعب (المتوسط) كرة أخرى. أما الغرض القديم فكان في نقلة الزمن قد تحول من نحو إلى نحو، بل انتقل من جنس في الجمعة المشرقية إلى جنس؛ فضج الكون بالعرب، ورقصت فصاحتهم على (شنيل) الأندلس، كما رقصت على (نيل) الكنانة، وغدوا وراحوا على الممالك، حتى لقد تصايحوا بالضاد على أبواب فرنسا وتسكن العروبة بعد الدور العظيم، وتجيء العثمانية تملأ الملعب، فنعتليه ومصر؛ وتتعاقب
فصول في الرواية التركية الطويلة، وتختلف وجوه؛ وكانت مغارب الشمس قد أضاءت وطفقت مشارقها تعتم. فيرج المدفع في (عكا)، ويقطع على (بونابرت) طريق (الهند) ويرد يد الإسكندر الثاني عن تغيير خارطة العالم:
فيا صاحب الجلالة
في تلك اللَّفتة من التاريخ جاء جدك. . . وقد كان من الاتفاق أن يولد بونابرت في (أجاكسيو) خارج فرنسا في العام الذي ولد فيه محمد علي في (قَوَله) خارج مصر. فلما غلغلت الشمس الفرنسية في جوف (البركان المنطفئ) وراء (الأوقيانس)، وأخذت الشمس المصرية تتعالى في سماوات التاريخ - وكأنما أنوارها تتفلت من وحشات ذلك الغروب البعيد - كان من الاتفاق أيضاً أن ينهض عرش عصامي في الشرق، حيث يهوي في الغرب عرش عصامي؛ فيتربع (محمد علي) في مصر، ويعود الشاطئ المشرقي على يديه إلى المحاولة. وأنت تدري أن كرة الأرض قد صغر حجمها في عيون أساتذة الطمع، منذ ما قامت أوربا على قدميها، وأصبح قيد الشبر من أرض على خليج يحله فاتح في الأعصر الحديثة، بمثابة نصف قارة يخوضه في الأعصر القديمة فاتح مثله؛ فلم يخرج (محمد علي) على قاعدة الأساتذة، ولكن قيد شبره كان كبيراً. . . فصهلت خيل (طوسون) و (إبراهيم) على سيف (البحر الأحمر) المشرقي، وفي صحراوات (الحجاز)، ومشارف (نجد)، ولوّحت أعرافها تحت (إسماعيل) على (البحر الأزرق)، وخطرت عمارة (إبراهيم) بين عيني الجزائر (اليونانية)، ثم طلعت أعلامه علينا من (العريش)، فقطعت من يافا العربية إلى (قونية) التركية خلف (طوروس)، وكادت تطل على خليج (البوسفور)!
أما لبنان فأقبل على المحاول المصري الكبير في إجابة من النفس. إذ الملعب المشرقي لنا فيه سابقة الخطرات. فلا عجب أن تصبح يد (بشير) في يد (محمد علي) - وكان سيد (الجبل) قد نفضها قبل من نابليون نفسه - عند أسوار (عكا). . .! ثم تنسخ في المحاولة الجديدة صورة أختها تلك، فيرتبط الجبل اللبناني بالوادي المصري في العلْم، بعد أن ارتبط به في الحد والمصلحة واللسان؛ وفي دين (ابن مروان) ودين (مرقس)؛ فأظلنا (القصر العيني) معاً، وجمعتنا مطبعة (بولاق) على الممتعات في الفلك والزراعة والهندسة والجغرافية
وكما كانت المحاولة في الأمس العتيق تساجلاً بين نضرة من هنا ونضرة من هناك، كذلك كان الأمر في أعقاب القرن الماضي؛ يوم أصبح العلم العربي لا يطلع له قمر إلا من أرضنا، فبعثنا بالممتعات في الأدب والفن والتاريخ واللغة، وجاء الرد بعد الأخذ، وصحت المقابلة في التاريخ! وإذا كانت رياح العربية تهب اليوم من مصر ومن عندنا في آن معاً، حتى ليكاد يختلط الطيب فنتقاتل على فخر الشيوع، فما هي إلا من أهبة يأخذها التاريخ لتدوين هذا النسق الجديد من المحاولة التي لم ينقطع خيطها، والحمد لله. . .!
فيا صاحب الجلالة
شرفاً لعرشك فهو كرسي النيل، ودق ظلَّل نصف الحضارة البشرية؛ وتيهاً لمطرفك فهو ثوب (محمد علي) وقد فيَّأ نصف الحضارة العربية. فشاطر عرشك في محاولة

الشرق القديمة، وساهم مطرفك في المحاولة الحديثة؛ فإذا تسلمت بكفّيك الغضتين وديعة الماضي الباهظة، فلا خوف عليها، وأبيك (يا ابن فؤاد)! وإن لبنان الذي شرفني بالوقوف بين يديك، فوق تشرفي بالكلام باسمه، لا يبرح على العهد. فدارنا الشرق، وأهلنا العرب، ولساننا الضاد، نشمخ به في الأفلاك. . .

ويا صاحب الجلالة

مقبلٌ أنت - يا ربيع الوادي - على سنَّة الثمر، غِبَّ الزهر، فتصبح المثال العالي لجبل الشرق الطالع، في مباكرة ذلك النعيم الاجتماعي، الذي يأنس له العقل والدين، ويحمد (واديك) طيب الموسم، وينظر لبنان إلى البركة بعين الصديق. إذا شاء الله

أمين نخلة

بحث سيكولوجي

اعمل ما تخشاه

للأستاذ أحمد المغربي

من أشهر المجلات الشهرية العالمية وأوسعها انتشاراً وأغزرها فائدة، هي مجلة (زبدة القراء) التي يشرف على تحريرها نفر كبير من مشاهير الأدباء والعلماء، وقادة الفكر المحدثين. ولعل خير وصف لها تسميتها (بمجلة المجلات). ذلك لأن القائمين على إدارتها يختارون لها من عشرات المجلات أطيب الآثار الأدبية وأوثق الآراء العالمية وأحدث الأنظمة الاجتماعية وما إليها، ثم يجملونها ويوجزونها في صفحات قليلة يعرضونها على قرائهم بصورة جذابة وطريقة خلابة تستلفت أنظارهم، وتستهوي أفئدتهم، وتسحر عقولهم، فيقبلون على انتهال مواردها إقبالاً يفوق إقبال الصادي في الصحراء على موارد المال

وميزة أخرى يتحتم علي إلا أغفل ذكرها، هي أن القارئ يجد في القسم الأخير منها موجزاً لكتاب في مختلف ألوان الأدب والقصص والعلوم، تقره في كثير من الأحيان، جمعية (كتاب الشهر) وتوصي بمطالعته بعد أن تكون قد اختارته من مئات الكتب التي صدرت في تاريخ صدروه

ولا شك في أن مثل هذا العمل المثمر والإنتاج النافع يسدي إلى القراء خدمات جليلة. ذلك لأن الإنسان، بلغ ما بلغ من حب المطالعة لا يستطيع، بل إنه ليعجز عن أن يطالع جميع ما يصدر من كتب ومجلات، مهما اتسع وقته وتوفر فراغه. ولا ريب أيضاً في أن الأستاذ الزيات يشاركني في اعتقادي، ونحن في مستهل نهضتنا الفتية المباركة، بأن حاجتنا مُلِحةٌ جداً إلى مثل هذه المجلة الفريدة، مع نبل الرسالة التي تحملها رسالته، فعسى أن تكون كلمتي هذه حافزاً له في تحقيق هذه الفكرة وسد هذه الثغرة

كاتب هذا المقال الذي نقتبسه من هذه المجلة هو الدكتور هنري لنك رئيس دائرة الخدمة السيكولوجية في مدينة نيويورك. وتضم هذه الدائرة جماعة من علماء النفس الذين يقومون بإرشاد من يستشيرهم في المشاكل التربوية والمهنية والشخصية. ولا يزال كتاب الدكتور لنك الأخير: (العودة إلى الدين) يتمتع بشهرة واسعة وإقبال عظيم، بالرغم من مضي أكثر من سنة ونصف سنة على نشره

يستهل الكاتب حديثه قائلاً:

لقد نازعتني عوامل التردد والإحجام قبل أن قررت الكتابة في موضوع (الأوهام والمخاوف)، ذلك لأن طائفة كبيرة من المخاوف التي تعتور نفوس الناس، إنما هي بلا جدال تعزى إلى كثرة ما كتب في هذا الصدد. وكم كنت أتمنى لو أن لفظة (مركب الضعة أو الشعور بالحطة) لم تخرجها المطابع إلى الوجود، إذن لما خطر لملايين البشر بأنهم مصابون بذلك، ولنقص خوف من مخاوفهم ووهم من أوهامهم

والواقع أن معظم المخاوف لا تنشأ عبثاً، بل تتولد عموماً من الإغراق في المطالعة والإكثار من التفكير والكلام. فنحن نتعهدها ونرعاها ونغذيها حتى تستحيل من أمر بسيط في غاية البساطة، وشيء تافه بعيد عن الخطورة، إلى هم مقيم وعذاب أليم

إن الأم التي تكثر من مطالعة الكتب المختصة بتربية الأطفال وتحرص كل الحرص على الإحاطة بدقائقها وأسرارها تصبح شديدة المخاوف. والفتاة التي تهتم بمظهرها الخارجي وتكلف كل الكلف بأناقتها سرعان ما يزداد قلقها ويتعاظم هلعها مما يراه الناس فيها، والجماعات التي تدقق البحث في أحاديثها ومناقشاتها عن وضع البلاد يؤول تشاؤمها في الغالب إلى الخوف

وصلتني رسالة من فتاة تبتدئ كما يلي:
منذ أن بلغت السادسة عشرة من عمري كنت أخاف من التحدث إلى الغرباء. ثم) تستمر الرسالة في تعداد مخاوف أخرى، كالخوف من رئيسها، والخوف من الرجال، والخوف من سوق السيارة، والخوف من تقديم تقرير في ناد للبنات، وغيرها من المخاوف التي بلغ عددها .(وجميعها مخاوف من صعيد مشترك واحد، يقاسي منها ملايين البشر. والنتيجة لهذه المخاوف، في كل حالة تقريباً هي واحدة: نوع من الشلل الزاحف، شعور بالبؤس والاختناق والروع والرعب والهزيمة
شكا إليّ شاب بأن النوم يجفوه، وبعد أن شرح لي شرحاً سيكولوجياً مسهباً على ما أصابه سألني: (هل تستطيع أن تساعدني على التخلص من هذه الهواجس والوساوس؟ فأجبته: لا. فتوسل إليّ قائلاً: إذن، ماذا أستطيع أن أعمل؟ فاقترحت عليه أن يركض في الليل حول الحي الذي يعيش فيه حتى يكل وينصب ويبلغ به الجهد حداً يشعر معه بأنه سوف يسقط
على الأرض إعياءً. وقلت له: إن ما تحتاج إليه، هو الإجهاد؛ لقد أنهكت قواك البدنية في التفكير والتخيل والأحلام؛ فإذا ركضت ركضاً مكداً مجهداً فلا تلبث أن تشعر بالارتخاء والفتور فتنام؛ إنك لشدة ما فكرت، جررت نفسك إلى الخوف، بفكرك، وإنك لقادر على أن تفر منه بساقيك)
ولقد فعل!
قدمت إليّ والدة منذ أمد غير بعيد، هذا الملخص المهم لتاريخ حياتها: (كنت وأنا فتاة، تعروني مخاوف كثيرة تسبب لي قلقاً واضطراباً، منها الخوف من الجنون، ولقد استمرت هذه المخاوف حتى بعد زواجي. إلا أنه بعد مدة قصيرة، رزقنا طفلاً ثم انتهى بنا الأمر إلى أن أصبح لدينا ستة أولاد. ولما كنت أقوم بنفسي بجميع أعمالي البيتية كنت كلما بدأت أشعر بالقلق، أسمع بكاء الطفل أو نزاع الأطفال، فأبادر إلى تهدئة أحوالهم. أو كنت أتذكر فجأة بأن وقت الغداء قد حان، أو بأنه يتحتم عليّ أن أتم كي الملابس، فكانت المخاوف التي تنتابني تُقطع على الدوام بواجبات عائلية، وعلى مر الأيام تلاشت تدريجياً. وأنا الآن ألقي عليها نظرة لمجرد اللهو والسلوة)
وقد يكون مغزى هذه الحادثة ألا يكون للوالدين ستة أطفال، ولكن الميل إلى تقليل عدد أفراد العائلة وزيادة أوقات الفراغ، يؤدي، في الحقيقة، إلى توليد المخاوف. ومن الحقيقة أيضاً، أن الكثيرين ممن تلازمهم هواجس مقلقة، قد يجدون لذة جديدة في الحياة لو أنهم يهتمون بشئون أناس آخرين بواسطة الاشتراك في الأعمال الاجتماعية المحلية.
أنت لا تحب مثل هذه الأعمال؟
إذن، يجب أن تتذكر بأن كل خطوة في التغلب على الخوف تتطلب، في البداية، قوة إرادة
إن الذين تعلموا الغطس، مثلاً، يذكرون المصاعب التي أصابتهم. فأنت أول في الأمر، توازن نفسك ثم تميل إلى الأمام، فتتردد فترتد إلى الوراء خوفاً وهلعاً، ثم تحاول مرة ثانية فتنسحب. وأنت في كل تردد تزداد مخاوفك. وأخيراً تثور ثائرتك ويشتد غضبك من هذا الخور والجبن، فتقذف بنفسك دون أن تبالي بانحراف ذراعيك، أو تكترث لاعوجاج ساقيك. تصعد، بعد ذلك. كسيفاً مضطرباً، وتزداد حالتك سوءاً حين تسمع قهقهة أصدقائك وتشاهد سخريتهم. فلو أن مخاوفك، في هذه النقطة، حالت دون أن تقوم بمحاولات أخرى
لما تعلمت الغطس؛ ذلك لأن مخاوفك تصبح غير قابلة للقهر. ولكن لو أنك تشبثت وداومت على القيام بغطسات مؤلمة خرقاء غير لبقة، لأمكنك الغطس بهدوء ونعومة، والصعود مرتاح الفكر ناعم البال. ولقد كنت في طريقك إلى أن تصبح غطاساً ماهراً تلك هي السيكولوجية الأساسية للتغلب على الخوف، واكتساب الثقة والإيمان بكل ناحية من نواحي الحياة؛ وليس ثمة مفر من هذه الطريقة. يتحتم علينا، بين آونة وأخرى، أن نخوض جدول الحياة ونغوص فيه، فنضيف نصراً إلى نصر، وننتقل من فتح إلى فتح، متغلبين على ما يعترض سبيلنا من مخاوف وأوهام، الواحد بعد الآخر. وكما قال امرش: افعل الشيء الذي تخاف منه فان موت الخوف محقق. والواقع أن مخاوفنا هي القوى التي تكوننا حين نعالجها بشدة وحزم، وهي التي تحطمنا إذا ما

عولجت بالتردد والحيرة والتواني والتعقل
سألني شاب منذ مدة غير طويلة أن أقترح له بعض أعمال صعبة يقوم بها، وقال لي: (إن كتابك يوصي بالتمرن على الرقص وكرة السلة أو بعض المباريات الرياضية والبردج وحفلات السمر والألعاب، ويقول بأن على الإنسان أن يعمل حتى الأشياء التي ينفر منها ويبغضها؛ على أنني لم أكن أكرهها وأنفر منها فحسب، بل كنت أخاف من القيام بها. بيد أنني عزمت على تجربتها. فمر عليّ ردح من الزمن الرهيب كنت أشعر فيه بالبؤس والتعاسة وأعاني فيه عناء كبيراً وعذاباً مريعاً؛ ولكن سرعان ما زالت مخاوفي واستعدت نشاطي وانكببت على هذه المشروعات الجديدة. والواقع أنني أتمتع بحياة جديدة تضفي على نفسي ألواناً من الهناء والصفاء حتى بت أخشى أن أميل إلى حياة الراحة والترف. وأود منك أن تخبرني ببعض الأعمال التي أجد في القيام بها مشقة حقيقية.
إن هذا الشاب تعلم درس استخدام مخاوفه كواسطة للفوز والانتصار والهناء والمرح البهيج. واتجه إلى حياة أوسع نشاطاً وأغزر حيوية من الناحيتين الحيوية والفكرية والخطوة الأولى في التغلب على الخوف هي أحياناً عملية بسيطة أولية جداً. أتذكر شاباً غمرته المخاوف إلى حد كلما كان يتمكن من الكلام بصوت مسموع. كان يعمل في مصرف كبير ويعرف اثني عشر رجلاً في دائرته، إلا أنه عندما كان يذهب إلى مكتبه لا يحيي أحداً. فاقترحنا عليه أن يبدأ بتحية رفاقه من صميم قلبه قائلاً: صباح الخير، إبراهيم، يا
أهلاً، زهير،. . صباح الخير، يا سيدي، أثناء مروره بهم. فجرب ذلك وكانت تجربته مرضية مدهشة حتى أنه تشجع لتجربة أعمال أشد صعوبة كان الفوز في أحدها يقوده إلى فوز آخر
إن أكثر المخاوف شيوعاً وانتشاراً، كالخوف من الجنون أو الاضطهاد والظلم، أو الخوف من الأغراب والأجانب، أو الضعة هي عادة، نتيجة فشل الإنسان في التغلب على مخاوف صغيرة كافية وقهرها بمثل هذه الطريقة التي أشرنا إليها. إلا أنها تغري أحياناً، إلى أن الإنسان، لسبب ما، كالفشل في الحب، أو موت قريب عزيز، أو لكوارث مالية، أو لخسارة عمل أو وظيفة - ينزوي عن الناس وينسحب من أعماله المألوفة. ويتحتم على الإنسان، إذا ما مني بكارثة، خصوصاً ألا يتابع أعماله القديمة فحسب بل يوجه إرادته ويعزم عزماً أكيداً على أن يبدأ بمساع جديدة يستحسن أن تكون مكدة عنيفة
ومع أن التعاميم مخطرة جداً فإني أجرأ على القول بأن في قرار معظم المخاوف فكراً مجهداً، وجسما خاملاً، ولهذا فأنني نصحت كثيراً من الناس في سعيهم وراء السعادة أن يقللوا من استعمال رؤوسهم ويكثروا من استعمال أذرعهم وسيقانهم في عمل أو لعب مثمر نافع. فنحن نولد المخاوف بركوننا إلى الراحة، ونتغلب عليها باللجوء إلى العمل؛ وما الخوف إلا نذير الطبيعة بدعوتها إلى العمل
إن ملايين البشر الذين يعتمدون في معاشهم على المساعدات الحكومية إنما هم يربون في أنفسهم المخاوف والأوهام من حيث لا يشعرون. وقد يكون من الواجب المحتم علينا أن نضع نصف سكاننا في مخيمات الخدمة الاجتماعية - هي مخيمات تضم عدداً من الشبان في سن الدراسة الثانوية والجامعية العاطلة عن العمل، تستخدمهم الحكومة الأميركية في القيام ببعض الأعمال الاجتماعية كتعبيد الطرق وبناء الجسور والمحافظة على الغابات من الحريق الخ. . . لقاء أجور زهيدة تدفع قسماً منها إلى أهليهم كما أنها تهذبهم في المخيمات تهذيباً منظماً وتدربهم على الأعمال الفنية التي تفيدهم بعد تخرجهم فيها) حتى نستأصل شأفة المخاوف التي تقلق الأمة والخوف في أدواره الخفيفة الأولية يتخذ شكل النفور من بعض المشاريع والاشمئزاز من بعض الناس وانتقادهم، فيقيم بذلك شاهداً ودليلاً على أن الإنسان يبرر خموله المستمر.
إن العالم مليء بالمستائين والساخطين، غني بالشيوعيين والنظريين الاجتماعيين، لأنهم لا يريدون أن يغيروا أنفسهم، يتحدثون عن تغيير نظام العالم بأسره. ويظهر أن الكثيرين منهم لا يدركون انه، في أي نظام اجتماعي، مهما كان نوعه ولونه، لا بد من وجود مفاسد ومساوئ، وهم بأحاديثهم يصوبون غضبهم من العالم ويسبغون على

سخطهم وتذمرهم رداءاً من الحكمة والتعقل بدلاً من أن يسخطوا على أنفسهم ويهبوا إلى القيام بعمل صالح نافع

(بغداد)
أحمد المغربي
مدرس العلوم الاجتماعية بدار المعلمين الابتدائية

الخلود

للشاعر الفرنسي الكبير لامارتين

ترجمة السيد أحمد عيتاني

أحب لامارتين (ألفير) حباً ملك عليه حواسه ومشاعره وكاد يقرب من العبادة إلا أن القدر أبى أن يمنعه بهذا الحب طويلاً، فبينما هو يقضي إلى جانب محبوبته ألذ ساعات العمر وأعذب أوقات الحياة، إذا بالنبأ يفاجئه بأنها مريضة ومشرفة على الموت، فينال هذا النبأ منه وينظم آلامه وشجونه في تلك القصيدة التي ينظر فيها إلى الموت نظرة المنقذ الذي ينقل الإنسان من آلام الحياة الفانية إلى سعادة الحياة الأبدية

لقد آلت شمس أيامنا منذ فجرها إلى الاصفرار!
فهي لا تكاد ترسل نحو جباهنا الكليلة
سوى بضعة أشعة مرتجفة تقاوم الظلمة!
ولكن الظلمة تنمو، والضياء يتلاشى، وينمحي كل شيء ويزول!
ألا فليرتعد سواي أمام هذا المشهد! ولتخنه قواه!
وليبتعد مرتجفاً عن شفا الهوة!
وليعجز عن الاستماع بعيداً دون أن يجزع
إلى أنشودة الموت البائسة التي يتهيأ لالتقاطها، أو إلى الزفرات
المختلفة تصعدها حبيبة أو شقيق
فتعلق حول أطراف سريرها الكئيب!
أو إلى الناقوس المدوي،
تنشر دقاته المضطربة بين الملأ أن فلاناً قد قضى!
سلاماً أيها الموت! أيها المنقذ السماوي!
إنك لا تظهر لي في هذا الشكل الرهيب
الذي ألبسك إياه الوهم والرعب زمناً طويلاً!
إن ذراعك لا تحمل ذلك الخنجر الهدام!
إن جبينك ليس مرعباً! وإن عينيك ليست غادرة!
إن رباً لطيفاً يسوقك لتخفيف الآلام!
إنك لا تهلك! إنك تنقذ!
وإن يدك لرسول سماوي يحمل شعلة إلهية!
عندما تنطبق عيني المتعبة على ضوء النهار
ستأتي، وتغرق جفونها بنور أشد نقاوة منه!
ويفتح أمامي الأمل، وأنا أحلم في القبر على مقربة منك
أبوابَ عالم أبهى من هذا العالم!
تعال إذاً وأنقذني من قيودي الجسدية!
تعال وافتح لي سجني! تعال وأعرني جناحيك!
ما يلهيك؟! اظهر! ولأقذف بنفسي أخيراً
نحو هذا الكائن المجهول: مبدأي وغايتي!
من فصلني عنه؟! من أنا؟! وما يجب أن أكون؟!
إني أقضي ولا أفهم معنى الحياة!
أيتها الروح! أيها الضيف المجهول! يا من أسائلك عبثاً!
في أية سماء كنت تقطنين قبل أن تكوني فيّ؟!
أية قوة قذفت بك إلى هذه الكرة الأرضية؟!
وأية يد ألقت بك في سجنك الصلصالي؟!
أي روابط خفية، وأي عقد مدهشة

جعلتك تقيمين في الجسد، وجعلت الجسد مالكاً لك!
أي يوم تنفصلين فيه عن المادة؟
وإلى أي صرح جديد تغادرين الأرض؟
أتنسين عندها كل شيء؟!
أتعودين بعد القبر إلى الحياة؟!
أتبدئين حياة ثانية؟
أم ستعملين، وقد تجردت إلى الأبد من قيودك الفانية
على التلذذ بحقوقك الخالدة
في جوار الله مبدأك ومعادك!
أي نعم. ذاك ما أتمناه يا نصيفة حياتي!
ذاك ما جعل نفسي مطمئنة
وقادرة على النظر، دون ما ذعر إلى قسمات وجهك الوسيمة
تذوي عليها ألوان ربيعك الساطعة!
ذاك ما جعلك ترينني أبتسم
وأنا أموت شاباً فريسة تلك الطعنة التي أصبت بها!
ذاك ما جعل دموع الفرح تلمع في عيني
عند رؤيتك الأخيرة، في وداعنا الأخير!
هكذا سيقول أتباع أبيقور (!أمل باطل)!
إنهم سيقولون: (يا فاقد الشعور، يا من يخدعك غرورك الكثير!
أنظر حواليك: فكل شيء يبدأ ويتلاشى!
كل شيء يسير إلى نهاية! وكل شيء يولد ليموت!
إنك ترى الزهرة تذوي في تلك الحقول الصفراء!
والأرزة الشامخة تسقط في الغابة تحت أعباء السنين لتفنى خلال الأعشاب!
إنك ترى البحار تجف في أحواضها الناضبة!
والسماوات نفسها قد أخذت بالاضمحلال!
حتى الشمس، ذلك الكوكب الذي كتم الزمن مولده
تسير مثلنا نحو الفناء!
ولسوف يبحث البشر عنها يوماً فلا يجدونها، فيتيهون في الفضاء الفارغ!
إنك ترى الدهور حواليك، في الطبيعة كلها! تتراكم غباراً على غبار!
وإنك لترى الزمن يخطو خطوة واحدة فيطويك مع كبريائك!
وينقلب كفناً لجميع ما أنتج!
والإنسان! والإنسان وحده! يا للجنون العظيم!
يظن أن سيعود ثانية إلى الحياة في أعماق لحده!
ويحلم بالخلود، بعد أن حطمه الزمن
وحملته العاصفة إلى العدم!
ألا فليحبكم سواي يا فلاسفة الدنيا!
ودعوني ووهمي! فالأمل يجب عليّ وهو حبيب إليَّ!
إن عقلنا ليتعثر ويختلط عليه الأمرَ
نعم إن العقل ليسكت، ولكن القلب ليجيب!
أما أنا، فحينما أرى الكواكب
وقد تاهت عن طريقها السوي في السهول السماوية
يصطدم بعضها ببعض في حقول الأثير
وتنقلب دون ما غاية في السماوات المذعورة؛
حينما أسمع الأرض تئز وتتحطم!
حينما أرى كرتها الشاردة المنعزلة
تسبح بعيدة عن الشموس، باكية إنسانها الهالك!
لتضل في حقول الليل الأبدي!
حينما أكون آخر شاهد لتلك المناظر الرهيبة؛
حينما أظل محاطاً بالموت والظلمة

وبالرغم من وحدتي وجزعي
سآمل فيك أيها الكائن الحق اللطيف
وسأنتظرك أيضاً، وأنا في العوالم البالية
مؤمناً بعودة الفجر الأبدي!
ما أكثر ما غمرتني وإياك تلك الظلمة ونحن بعيدان عن العالم، يحدونا الأمل
تارة على قمم الصخور الهرمة! وأخرى على ضفاف البحيرة الكئيبة القاحلة!
أثناء مقامنا السعيد. . . حيث بدأ حبنا الخالد
لدي النظرة الأولى كما تذكرين!
لقد كانت الظلال، وهي تنحدر من وراء الجبال
بقطعها الطويلة، تحجبها عن أبصارنا!
فلا تلبث كواكب الليل الغريبة
بعد برهة من الزمن
إن تزحف دون ما جلبة أو أبهة
وترد على أبصارنا ما حجب عنها
وتسبغ على الأرض ثوباً من الأنوار الضئيلة
كما يسبغ المصباح نوره المقدس على المعابد المقدسة التي أضاءها النهار بنوره
فينير منها الهياكل بعد ما تأخذ أشعة المساء تدريجاً بالاصفرار!
هنا كنت تفتشين وكنت تنتقلين ببصري
من السماء إلى الأرض، ومن الأرض نحو السماء
وكنت تقولين: (إيه يا إلهي الخفي)
إن الطبيعة هيكل لك
إن العقل ليراك في كل بقعة تتأملها العين منها
إن هذا العالم مرآة لكمالك الذي يحاول العقل إدراكه!
وصورة له وانعكاس عنه!
إن النهار نظرتك، والجمال بسمتك!
إن القلب ليعبدك في كل ناحية!
وإن النفس لتحيا بك!
أيها الخالد الأبدي! أيها القدير اللطيف!
إن جميع تلك النعوت ليست كافية لتصوير عظمتك!
إن العقل ليعنو أمام جوهرك العظيم!
فيمجد عظمتك حتى لدى سكوته!
إلا أنه وهو ذاك العقل المنهزم يا إلهي
حينما يشعر أن الحب سر وجوده
يندفع بذاك القانون الجليل نحوك
متشوقاً إلى حبك ومتحرقاً إلى معرفتك
لقد كنت تقولين، وقد وحد قلبانا زفراتهما المتصاعدة
نحو هذا الكائن المجهول الذي نمت عليه آمالنا!
كنت تقولين ونحن جاثون أمامه وقد أجبناه في خلقه
وحمل إليه الفجر والعشاء تمجيدنا إياه!
كنت تقولين وقد أخذت عينانا المنتبشيتان
تارة تتأملان الأرض: منفانا نحن!
وأخرى تتأملان السماء مقامه هو:!
أه لو أن الله يستجيب دعواتنا في هذه الساعة التي تحاول بها نفسنا الغرارة خلاصها)
وتحطيم قيدها وإسارها!
فيرسل علينا من علياء سمائه طعنة تحررنا كلينا!
إذا لرجعت روحانا نحو منبعهما دفعة واحدة!
ولصعدتا على جناح الحب في ثنايا اللانهاية كأنهما خيط من نور! حتى تصلا، وقد
اجتازتا في سيرها العوالم معاً
أمام الله، وقد ذهلنا عن ذاتيهما

فتعيشان إلى الأبد ممتزجتين فيه!
أترينا مخدوعين بهذه الآمال؟!
أصائران نحن إلى العدم؟!
أمقدر على أرواحنا الفناء؟!
أتقاسم الروح والجسد مصيره بعد خلاصها منه! فتفنى معه في ظلمات القبر
وتتحول إلى غبار؟! أو تتلاشى كما يتلاشى الصوت في الفضاء؟!
أو لا يبقى، بعد الفراق الفادح واللوعة الضائعة
جزء يحبك من ذاك الذي كان يحبك؟!
أه يا إلفير! لا تسائلي سوى نفسك عن ذلك السر العظيم!
وانظري إلى من أحبك وهو يموت
ثم أجيبي!

أحمد عيتاني
عضو بعثة أساتذة جمعية المقاصد في مصر
للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي
1880 - 1937

للأستاذ محمد سعيد العريان

- 22 -

الرافعي وعبد الله عفيفي:

لم يكن الأستاذ عبد الله عفيفي خصماً للرافعي على الحقيقة، ولا أحسب أن أحدهما كان يرضيه أن يكون بينهما ما كان ولا سعى إليه؛ ولكن الأستاذ عفيفي في مكانه من ديوان جلالة الملك، وفي موضعه عند الإبراشي باشا، قد دارت به المقادير دورتها حتى وقفته مع الرافعي وجهاً لوجه، وجعلته بالموضع الذي لا يستطيع واحد منهما فيه أن يتجاهل أنه أمام خصم يحاول أن يظفر به. ومن هنا نشأت الخصومة بين الرافعي وعبد الله عفيفي

على أن هذه الخصومة بينهما تختلف عن سائر الخصومات التي نشبت بين الرافعي وأدباء عصره، فهنا لم تنشأ الخصومة إلا للتزاحم على رتبة (شاعر الأمير)؛ على حين كانت أكثر خصومات الرافعي ذياداً عن الدين وحفاظاً على لغة القرآن، فما كنت ترى فيها إلا التراشق بألفاظ الكفر والزيغ والمروق والإلحاد؛ أما هنا فكانت المعركة تدور وما فيها إلا التهمة بالغفلة وفساد الذوق وضعف الرأي وقلة المعرفة. . . وما بدٌّ من أن يكون في نقد الرافعي أحد هذين اللونين: الاتهام بالزيغ، أو الاتهام بالغفلة، ولا ثالث لهما. ومن هنا فقط نستطيع أن نزعم أن الرافعي لم يكن موفقاً في النقد، مع أهليته واستعداده وإحاطته الواسعة وإحساسه الدقيق؛ إذ كان أول ما ينبغي أن يتصف به الناقد هو عفة اللسان والاقتصاد في التهمة وضبط النفس. . .

وثمة شيء آخر يفرق في بين هذه الخصومة وبين سائر الخصومات: هو أن هذه المعركة كانت إيجابية من طرف واحد، على حين ظل الطرف الثاني صامتاً قاراً في موضعه، لم ينبس بكلمة ولم تبدر منه بادرة مشهودة للدفاع!. . .

كتب الرافعي مقالات ثلاثاً بعنوان (على السفُّود) في نقد ثلاث قصائد أنشأها الأستاذ عبد

الله عفيفي في مديح الملك - والسفُّود هو الحديدة التي يُشْوَى عليها اللحم - وهو عنوان له دلالته، وفيه الإشارة والرمز إلى ما حوت هذه المقالات من الأساليب اللاذعة والنقد الحامي. وإذ لم يكن توقيع الرافعي في ذيل هذه المقالات ولا كان يريد أن يُعرف أنه كاتبها - فإنه خرج عن مألوفه في الكتابة وفي نمط الكلام، فاسترسل ما شاء كأنه يتحدث في مجلسه إلى جماعة من خاصته: لا يعنيه الأسلوب ولا جودة العبارة ولا عربية اللفظ، بقدر ما يعنيه أن يتأدَّى معناه إلى قارئه في أي أسلوب وبأية عبارة؛ فكثر الحشو في هذه المقالات من الكلمات العامية والنكات الذائعة والأمثال الشعبية، ولكنه إلى ذلك لم يستطع أن يتخلص من كل لوازمه في النقد والكتابة، فبقيت له خفة الظل وحلاوة اللفظ وقسوة النقد، إلى بعض عبارات في أسلوبه تنم عليه وتكشف عن سره.

ولم يذكر الرافعي حين أنشأ هذه المقالات أنه يتناول بهذا النقد شاعراً من شعراء القصر له حظوة عند رئيس الديوان الملكي، وأن هذا الشعر الذي يفريه ويكشف عن عيبه إنما أنشأه ناظمه في مديح الملك. أو لعل الرافعي كان يذكر ذلك ولكنه يحسب نفسه بنجوة من التهمة لأنه لم يوقع بإمضائه على هذه المقالات؛ فلم يتحرج مما كتب، وألقى القول على سجيته في صراحة وعنف وقسوة، ولم يصطنع الأدب اللائق وهو يتحدث عما ينبغي أن يكون عليه الشعر الذي يقال في مدح الملك وما لا ينبغي أن يقال؛ فجاء في بعض كلامه عبارات لا يسيغها الذوق الأدبي العام عندما يتصل موضوع القول بالملك الحي الذي يحكم ويدين له الجميع بالولاء. وكأنما ركبتْه طبيعةٌ غير طبيعته خَيَّلتْ إليه أنه يكتب في نقد شاعر من الماضين يمدح ملكاً من ملوك التاريخ، فلم ينظر إلى غير الاعتبار الأدبي الخالص من دون ما ينبغي أن يُراعي من التقاليد واللباقة السياسية عند الحديث عن الملوك

وانتهت أولى هذه المقالات إلى القصر، فمالت الأفواه إلى الآذان، وتهامس القراء همساً غير خفي، ثم جهروا يتساءلون: من يكون هذا الكاتب؟ ولكن أحداً منهم لم يفطن إليه ولم يعرف الجواب، وأنفذوا دسيساً إلى الأستاذ إسماعيل مظهر صاحب العصور يسأله فلم يظفر منه بجواب

ونُشر المقال الثاني والثالث، فلم يلبث أن أنكشف السر؛ ونم الرافعي على نفسه بلسانه في مجالسه الخاصة. . . أو نم عليه أسلوبه وطريقته في النقد

وجاءه سائل من القصر يسأله ويستوثق من صحة الخبر في أسلوب السياسي البارع: (. . . وكيف تأذن لنفسك أن تقول ما قلت في شاعر من شعراء الملك، وأن تكتب عنه بهذا الأسلوب؟ أفيتفق مع الولاء لصاحب العرش أن تكتب ما كتبت لتصرف الشعراء المخلصين عن ساحة الملك. . .؟ أم تريد ألا ينطق أحد بالثناء على صاحب التاج وألا يكون أسمه على لسان شاعر؟ أم هي دسيسة تصطنع الأدب لتفض المخلصين من رعيته عن بابه. . .؟)

وغص الرافعي بريقه، وتبين الهاوية تحت قدميه يوشك أن يتردى فيها بحيلة بارعة، وأحس الإبراشي باشا من ورائه يحاول أن يدفعه بعنف لينتقم لكبريائه التي مسها الرافعي بحماقته منذ بضعة أشهر. . .

وحاول النجاة بنفسه من هذه المكيدة المبيتة، فلم يجد له وسيلة إلا الصمت فأوى إليه. وانقطع ما بينه وبين القصر من صلات، إلا الصلة العامة التي بين الملك وبين كل فرد من رعيته. وكان أخوف ما يخاف الرافعي أن تكون خاتمة ذلك هي انقطاع المعونة الملكية عن ولده الذي يدرس الطب في جامعة ليون على نفقة الملك؛ ولكن ذلك لم يكن إلا بعد هذه الحادثة بأربع سنين (في سنة 1934) لسبب آخر، ولم يكن باقياً بين الدكتور الرافعي وبين الإجازة النهائية غير بضعة أشهر كما تقدم القول

لقد كَثُر ما استغل خصوم الرافعي السياسي لينالوا منه. ولقد كثر ما اتهموه من أنه من أدوات الإبراشي باشا في محاربة سلطة الأمة، وأنه صنيعته ومولاه؛ على حين كان هذا الموقف هو كل ما بين الرافعي والإبراشي باشا من صلات الود والموالاة! فما انقطعت صلة الرافعي بالقصر إلا في عهد الإبراشي، وما كان معه يوماً على صفاء. على أنه كان تلميذاً معه في مدرسة المنصورة الابتدائية فيما أذكر. . .

ولقد كتب كاتب من خصوم الرافعي غداة دالتْ دولة الإبراشي، فصلاً مؤثراً. . . بعبارات بليغة. . . في صحيفة من صحف الشعب، يصف جناية الإبراشي باشا على الأدب؛ وكان من براهينه على ذلك أنه اصطنع الرافعي ليحارب بقلمه ولسانه سلطة الأمة. . . وقرأت هذه المقالة مع الرافعي، ونظرت إليه فإذا هو يبتسم ابتسامة مرة، ثم قال: (هذا أديب يتحدث عن جناية السياسة على الأدب. . . أرأيت. . .! صَدقَ! لقد جنت السياسة على الأدب)

لم يكن لهذه المقالات الثلاث التي كتبها الرافعي عن الأستاذ عبد الله عفيفي صدى في غير هذه الدائرة المحدودة؛ على أنها أنشأت بينهما خصومة صامتة ظلت مع الرافعي إلى آخر أيامه، وظلت مع الأستاذ عفيفي في أحاديثه الخاصة إلى أصدقائه، وإلى طلابه في كلية اللغة العربية بالأزهر. . .

فلما مات المرحوم شوقي بك في خريف سنة 1932، كتب الرافعي عنه مقاله

المشهور في مجلة المقتطف، وذكر فيما ذكر فيه أن شوقي بك لو كان مصرياً خالصَ المصرية لما تهيأت له الأسباب النفسية التي بلغت به مبلغه في الشعر؛ لأن الطبيعة المصرية لا تساعد على إنضاج المواهب الشعرية، ولا تعين على إبراز الشاعرية الكامنة في كل نفس

هو رأي أبداه فيما أبدي من الرأي، لم يقصد به التعريض بأحد أو الحط من مقداره. وقد يكون رأياً إلى الخطأ أو إلى الصواب، وقد يتكافأ فيه كِفتا الخطأ والصواب، ولكنه رأي أبداه الرافعي مجرداً من الهوى، لا يعني به إلا أن يستوفي عناصر بحثه. ولكن خصومه تناولوه على ألوان وفنون

أما طائفة فمالت به إلى السياسة، وقال قائلهم: هذا رجل ليس منا، يريد أن ينكر فضل مصر عليه وعلى آله، فيتهمها بالعقم وركود الذهن وجمود العاطفة فيجردها من الشعراء. . . ومضى في دعواه. ذلك سلامه موسى!. . .

وأما ثانيةٌ فقالت: وهذا قول يعنينا به نحن الشعراء المصريين ليجردنا من الشاعرية في قاعدة عامة لا تستثني أحداً إلا من انحدر إلى مصر وفي أعرافه دم غريب. . . ومضت هذه الطائفة تنقض دعواه وتسفه رأيه بما تسوق من الأمثال وتذكر من أسامي الشعراء المصريين

وانتضى الأستاذ عبد الله عفيفي قلمه ليكتب في (البلاغ) مقالاته الأسبوعية بعنوان (مصر الشاعرة) يذكر فيها من شعراء مصر في مختلف الأجيال منذ كانت مصر العربية، ما يراه رداً على دعوى الرافعي. ومضى في هذه المقالات بضعة أسابيع يضرب على وتر واحد، ثم ملّ هذه النغمة فراح يتصيد موضوعات أخرى من مشاهداته وآرائه في الناس والحياة؛ ولكن عنوان (مصر الشاعرة) ظل على رأس هذه المقالات يبحث عن موضوعه. . . فكان

حسْب الأستاذ عفيفي في هذه المقالات أن أنشأ هذا العنوان في الرد على الرافعي. . . .!

وقد ظل الرافعي إلى آخر عمره يذكر أيامه وهو شاعر الملك، ثم ما كان بينه وبين الإبراشي، وبينه وبين عبد الله عفيفي. وما كانت تظهر للأستاذ عفيفي في الصحف مدحة ملكية، في موسم من المواسم أو عيد من الأعياد، حتى يتناولها الرافعي فيقرأها إلى آخرها، ثم يلتفت إلى جليسه فيقول: (ماذا رأيت فيها من شعر ومن معنى جديد؟) ثم يسترسل فيما تعود من المزاح والتندر

وقد ذكرت فيما قدمت من هذه المقالات أن الرافعي كان يسمي كل جميلة من النساء (شاعرة)، فمنهن كالمتنبي، ومنهن كالبحتري، ومنهن بشار بن برد، ومنهن عبد الله عفيفي

فهذه الأخيرة عنده هي ذلك النوع (البلدي) من نساء الطبقة الثالثة، التي تبدو ملفوفة (محبوكة الأطراف) في ملاءتها السوداء، غضةً بضة، تستهويك بجمال الجسم دون جمال المعنى، وفيها أنوثة الدم واللحم ولكنها جامدة العاطفة عقيم الخيال. . .

معذرة إلى الأستاذ عبد الله عفيفي! فإنما أنا راوية أكتب للتاريخ، وما شهدت إلا بما علمت، وعلي تبعة الرواية وعلى غيري تبعة الرأي. وللأستاذ عفيفي في نفسي رغم أولئك كل إجلال واحترام

(شبرا)

محمد سعيد العريان

أناشيد صوفية

جيتانجالي

للشاعر الفيلسوف طاغور

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

في اليوم الذي يطرق الموت بابك، ماذا تقدم إليه؟

آه، سأضع أمامه كأس حياتي المترعة لكيلا يرتد صفر اليدين

سأقدم له كل ما يحلو من ثمار أيام الخريف وليالي الصيف، وكل ما كسبت والتقطت في حياتي المليئة بالجد. . . سأقدمها كلها إليه عند آخر لحظة من لحظات حياتي. . .

حين يطرق الموت بابي

- 91 -
!أيها الموت، يا من هو آخر أمل في الحياة، تعال وأهمس في أذني
الأيام تمر وأنا أرقب لقياك؛ فمن أجلك أنشأت في حياتي والسرور والألم معاً
أنا، وكل ما أملك، وكل ما آمل، وكل حين. . . كل أولئك يندفع إليك في أعماق الخفاء.
إنني أبتغي النظرة الأخيرة من عينيك ثم لتكن حياتي شيئاً تملكه أنت إلى الأبد
لقد صففت الزهور، والأكاليل تنتظر العروس. وبعد العرس ستنقلب العروس من دارها
لتلقى سيدها - في خلوة - في هدأة الليل وسكونه
- 91 -
أنا أوقن بأن اليوم الذي أحرم فيه النظر إلى الأرض آت لا ريب فيه! وأن روحي
ستفزع عني في صمت. فيسدل على عيني آخر ستار من أستارها
ولكن النجوم ما تزال تتألق في غسق الليل، والصبح ما يبرح يتنفس في حينه،
والساعات تمر جياشة كأنها الموج المضطرب وفيها اللذة والألم في وقت معاً
وحين تتراءى لي ساعتي الأخيرة يتصدع أمام عيني حجاب الزمن. فأرى من خلال
لمعات
الموت. . . أرى دنياك وفيها كنوزها المهملة؛ وما فيها سوى منزل وضيع وحياة حقيرة
دع كل ما أندفع عبثاً في إثره وكل ما أصيبه. . . دعه يمر ولكن مُنّ عليّ بكل ما كنت
أزدريه وأعرض عنه
- 92 -
لقد اعتزمت الرحيل فودعوني يا اخوتي! سأنحني لكم جميعاً في رفق ثم أنطلق
هاكم مفاتيح داري فخذوها. . . سأنزل لكم عن حقي فيها. . . ولن أطلب إليكم شيئاً
سوى كلمة عطف
لقد تجاوزنا طويلاً؛ ولقد نلت أكثر مما أستطيع أن أعطي والآن ابتسم الفجر وفزع
عني السراج الذي أضاء ركني المظلم زماناً؛ وناداني الداعي، وهاأنذا على استعداد
للرحيل
- 93 -
في ساعة الرحيل، تمنوا لي السعادة، يا رفاقي! فالفجر يلمع في السماء والطريق
أمامي لاحب جميل
ولا تسألوا عما أتزود به فأنا أندفع في طريقي قفر اليدين ممتلئ القلب بالإيمان
سألبس إكليل العرس، ولن ألبس ثياب الرحيل الحمراء القاتمة؛ ورغم أن في الطريق
مخاوف فقلبي مطمئن ساكن
ستبزغ نجوم الليل حين تنتهي رحلتي، سترن في مسمعي ألحان الدجى الشجية
تتصاعد عند باب ملك الملوك
- 94 -
لم يكن لي أن أعرف اللحظة التي أخطو فيها خطواتي الأولى نحو الحياة
أي قوة جعلتني أتفتح في هذه المتاهة الواسعة كما يتفتح كم غض في مضلات
الصحراء تحت ستر الظلام
وعلى ضوء الصباح فتحت عيني فما استشعرت في نفسي الغربة عن هذه الدنيا؛ لأن
قوة خفية لا اسم لها ولا شكل، ضمتني إليها تهدهدني كأنها أمي
بمثل هذا ستبدو أمامي هذه القوة الخفية نفسها. . . . ستبدو عند موتي كما عهدتها، وكما
أحببت الحياة سأحب الموت
إن الطفل ليصيح حين تنتزعه أمه عن ثديها الأيمن. ولكنه سرعان ما يجد في الثدي
الأيسر سلوة وغراء
- 95 -
فلتكن كلمة وداعي حين أبرح هي: إن ما رأيته هنا هو المثل الأعلى
لقد رشفت بعض الرحيق الخفي من زهرة اللوتس المنشورة على محيط النور. لهذا
فأنا سعيد. . . فلتكن هذه هي كلمة وداعي
وفي هذا الملعب اللانهائي وجدت نفسي لهوها؛ وفيه استطعت أن أنظر إليه نظرة
خاطفة. . . إليه هو الذي لا شكل له

وأرتعد جسمي كله واضطربت أطرافي بلمسة من لمساته هو. . . هو الذي لا يلمس؛ وإذا حان حَيْني فليأت. . . فلتكن هذه هي كلمة وداعي

حين أجد لذتي معك لن أسأل: من عسى أن تكون؛ فأنا لا أعرف الخداع ولا الخوف، لأن حياتي كانت صاخبة

وفي بكرة الصباح ستوقظني من غفوتي في رفق كأنك صديقي، ثم تقودني في سرعة من طريق إلى طريق

أنا - في هذه الأيام - لا يعنيني أن أدرك معنى الأغاني التي تترنم لي بها؛ غير أن صوتي يوقع اللحن، وقلبي يرقص على النغم

والآن، وقد تصرّم زمان العب، ماذا عسى أن تكون هذه النظرات الفجائية التي تتساقط علي؟ إن الدنيا مطرقة في خشوع ونظراتها معلقة بقدميك وكواكبها صامتة

كامل محمود حبيب

في المهرجان الملكي

هنيئاً لك اليوم السعيد!!

للأستاذ علي الجارم بك

صفا ورده عذباً، وطابت مناهله ... وجلَّت يد الدهر الذي عز نائله
وأقبل منقاد العنان مذللاً ... تطامن متناه، ودانت صوائله
يطأطيء للفاروق رأساً وتنحني ... أمام سنا الملْك المهيب كواهله
تلفت في الآفاق شرقاً ومغرباً ... فلم ير في أنحائها من يمائله
رآى ما رآى! لم يلق عزماً كعزمه - تقد مواضيه، وتفرى مناصله
يذوب مضاء السيف عند مضائه ... فما هو إلا غمده وحمائله
إذا ما انتضاه فالسعود أعنة ... إلى ما يرجى، والليالي رواحله
رأى طلعة لو أن للبدر مثلها ... لما انحدرت دون النجوم منازله
عليها شعاع لو رمي حائل الدجى ... لفاخر وجه الصبح في الحسن حائله
تراها فتغضي للجلال، وربما ... تشوف لحظ العين لو جال جائله
هو الشمس يدنو في الظهيرة ضوءها ... ويصعب مرآها على من يحاوله
هو الروض، أو أزهى من الروض نضرة ... إذا داعبت وجه الربيع خمائله
هو الأمل البسام، رف جناحه ... فطارت به من كل قلب بلابله
هو الكوكب اللماح، يسطع بالمنى ... وتنطق بالغيث العميم مخايله
ترى بسمة الآمال في بسماته ... وتلمح سر النبل حين تقابله
شباب كما يصفو اللجين، كأنما ... تملأ من ماء الفراديس ناهله
يفديه غصن الدوح ريان ناضراً ... إذا اهتز في كف النسائم مائله
تطلع رمح الخط يبغي اعتداله ... فعاد حسيراً ينكت الأرض ذابله
ومن أين للرمح المثقف عزمه ... ومن أن للرمح الطويل طوائله؟
إذا حفّزته الحادثات رأيته ... وقد شك أحشاء الحوادث عامله
علاء تحدَّى الدهر في بُعد شأوه ... فمن ذا يدانيه؟ ومن ذا يفاضله؟
ورأيٌ كأنفاس الصباح وقد بدا ... تشف مجاليه، وتهفو غلائله
وخلق كمخضل النسيم بروضة ... ذوائبه نفَّاحة وجدائله
يمس جبين النيل في رفق عاشق ... وتفتح أكمام الزهور مساحله
دعوت إليك الشعر فانقاد صعبه ... وقد كان قبل اليوم شُمساً جوافله
وما كدت أدعو الوحي حتى سمعته ... تبادهني آياته ورسائله
خيال إذا أرسلتُهُ إثرَ نافر ... أتت بأعز الآبدات حبائله
ولفظ كوجه الروض في ميعة الضحى ... وقد صدحت فوق الغصون عنادله
إذا قلته ألقى عطارد سمعه ... وساءل شمس الأفق من هو قائله
وإن سارت الريح الهبوب بجرسه ... فآخر أكناف الوجود مراحله
إذا ذكر الفاروق فاض معينه ... وثجت قوافيه، وعبَّت حوافله
يقول وما لي حين أكتب قوله ... من الفضل شيء أني ناقله
رأى ملكاً يحيا القريض بوصفه ... فضائله جلت، وعمت قواضله
رأى ملكاً يزهى به الدين والتقى ... شمائل أملاك السماء شمائله

رأى ملكاً كالنيل، أما عطاؤه ... فغمر، وأما المكرمات فساحله
فغرد بالأجواء باسمك طيره ... وردد في الآفاق ذكرك هادله
وصاغت لك التبر المصفى فنونه ... وحاكت لك البرد الموشى أنامله
ولم يبق من نسج السحائب زهرة ... ترف ندى إلا حوتها فواصله
وصب شعاع الشمس تاج مهابة ... لمن توَّجته بالفخار فضائله
وفك رموز السحر من أرض بابل ... لأجلك حتى استنجدت بك بابله
أعدت له عهد الرشيد فأسرعت ... إلى سدة الفاروق تشدو بلابله
وما أنت في الأملاك إلا قصيده ... تفاعليها البر الذي أنت فاعله
يهب طريح الشعر في دولة النهى ... وتلهم أسرار البيان مقاوله
حملت له الريحان يوم زفافه ... نضير الحواشي ينشر المسك خاضله
أزاحم للفاروق حشداً كأنه ... خضم من الأمواج، ضاقت سبائله
يغطى أديم الأرض عز اختراقه ... وسدت على أقوى الرجال مداخله
إذا أنت لم تعرف مدة أخرياته ... فسل طرفك المحدود أين أوائله
حملت له لريحان، أرفع معصمي ... إلى الملك الفرد الذي فاز آمله
وقد ملأ الأنس الوجوه فأشرقت ... من البشر حتى كاد يقطر سائله
طلعت على الجمع الحفيل بموكب ... يبادلك الشعب المنى، وتبادله
مواكب لم يعرف لرمسيس مثلها ... ولا خطرت في مثلهن قنابله
يحيط بها عز المليك ومجده ... وتزحمها فرسانه وصواهله
إذا امتلك الحب النفوس هفت له ... سراعاً، وأعطفت فوق ما هو سائله
رأوك فعالوا بالهتاف كأنما ... ينافس ند نده ويساجله
كأنهم جيش الغمائم أرقت ... رواعده جفن الدجى وزواجله
فلا عين إلا وهي ترتقب المنى ... ولا صدر إلا فارح القلب جاذله
وقد رفعت أعلام مصر خوافقاً ... يغازلها من الصبا وتغازله
فإن كل من عين، فإنك نورها ... وإن كان من قلب، فانك آهله
وإن كان من دهر فأنت نعيمه ... وإن كان من فضل، فانك باذله
رأى فيك هذا الشعب آماله التي ... تمنى على الأيام وهي تماطله
أحبك حتى صار حبك روحه ... ونور أمانيه الذي لا يزايله
فمن شاء برهاناً على صادق الهوى ... فتلك الجموع الزاخرات دلائله
نثرت بذور الحب في كل مهجة ... وتلك التي تهفو إليك سنابله
حياتك يا فاروق للدين عصمة ... وأعمالك الغر الجسام معاقله
منابره تهتز باسمك فوقها ... وتلتف من شوق عليك محافله
تعفر بالترب الجبين الذي عنا ... له الشرق وانقادت إليه جحافله
له لمعات المشرقي ازدهت به ... على كل أبناء الغمود صياقله
لياليك أقمار الزمان وسعده ... وأيامك البيض الحسان أصائله
قد اختارك الرحمن موضع فضله ... إذا عز موصول فقد جل واصله
هنيئاً لك اليوم السعيد الذي زها ... على الدهر لما لم يجد ما يشاكله
يذكرنا المأمون يوم زفافه ... وقد مشت الدنيا إليه تجامله
وسال به سيل النضار كأنما ... تفجر من بين السحائب وابله
وأين من المأمون أو من زفافه ... جلالة ملك أعجزت من يطاوله؟
أبى الدهر أن يلقى ليومك ثانياً ... يقاربه في نبله أو يعادله
تخيرت من وادري الكنانة زهرة ... تتيه بها جناته وظلائله
فريدة مجد، يعرف المجد قدرها ... وتزهى بها يوم الفخار عقائله
ودرة خدر أقسم الخدر أنه ... على مثلها لم تُلق يوماً سدائله
يتيه بها ضافي الشباب ونضره ... وتسمو حواليه بها، وعواطله
تخيرتها فوق السحاب مكانة ... وأصفى من الماء الذي هو حامله
حباها إله العرش أكبر نعمة ... فجلت أياديه، وعمت جلائله
فعش في رفاء بالبنين ممتعاً ... يضيء بك الوادي، ويخضر ماحله
ودم لبني مصر أماناً ورحمة ... فأنت حمى النيل الوفي، وعاهله
علي الجارم

القصص
أقصوصة سيكولوجية من كاي بوبل
كيف تنفس في قلبها الحب
للأستاذ دريني خشبة
كانت تجلس هي وجدَّتها العجوز الحَيْزَبون فوق حَيْد الجبل على مقعد خشبي صنع لهما خصيصاً في هذه الجهة لكثرة ما بَسَق فيها من الأيْك. . وكانت السماء ترسل عليها مدراراً من الغيث، وكان الهواء بالرغم من ذلك دافئاً جميلاً منعشاً
وكانت الفتاة تتلو في كتاب عن الأدب الإنجليزي، والجدة مُصغية ساكنة، فلما انهمرت شآبيب المطر أقفلت الفتاة كتابها، وراحت تصغي بدورها لهذه المحاضرة الطويلة الممتعة التي أنشأت جدتها تلقيها في حماسة عن اللغة والأدب، وعن دكنز وإليوت وثاكراي وغيرهم من فحول رجال الأدب في العصر الفكتوري وتنعى على الأدباء في هذا العصر هراءهم الذي يؤلفون فيه الكتب من غير أن تكون لهم مُثلٌ عليا يؤلفون من أجلها، ويبشرون بها بين الناس. . .
وكانت الجدة لا تبالي أن تضرب لحفيدتها الأمثال بما ورد في قصص أولئك الفحول عن الحياة والعمل والأخلاق. . . والحب. . .
فهذه بِكّي شارب بطلة قصة ثاكراي الخالدة لا ترى شيئاً في أن تنفع زوجها بمجازفة غرامية يكون فيها حبيبها رجلاً شيخاً ضعيفاً. . . وهذا لورد لِستَر في قصة سكوت لا يرى بأساً في أن تُقتل حبيبته إيمي حتى لا تقف عقبةً في سبيله إلى عرش إنجلترا. . وهذا فلان، ثم ذاك فلان. . . أما في هذا العصر. . . فماذا يصنع الأدباء؟!.
وكانت الأمثال التي تضربها الجدة المتحمسة تطن في أذن الفتاة الصغيرة كما يطن النحل في الخلية الفارغة. . . ذلك أن فؤادها كان خالياً من هذا الوحي الجديد الذي نبه فيه غرائز حواء، من غير أن تعرف الفتاة علة هذا القَبس المقدس الذي بدأ يذكو في أعماقها، والذي نعرف سلفاً أنه فجر الحب وخَيطه الأبيض الجميل
ثم حدث أن أقبل فتى وفتاة في هذه اللحظة، وطفقا يَتَوَقّلان في الجبل، فلما جاوزا، نظرت
الجدة إلى الشاب نظرة المشغوف الظمىء. . . ثم رددت طرفها في الفتاة كأنما استيقظ في فؤادها العجوز ماضيه الجميل الوارف المنَدَّى. . . المفعم بالمغامرات!! وصَعّد الفتى والفتاة. . وظلت العجوز تتبعهما بعينها المشوقتين. . . وكانت الفتاة قد حَسَرت عن ساقيها خشية أن يصيب الوحل حاشية ثوبها الوردي الهفهاف، فبدا جزء عظيم من الساقين الجميلتين. . . وكانت تدلف أمام الفتى، فحسبت العجوز وغالت في الحسبة، ثم التفتت إلى حفيدتها تقول: (عجيب جداً أمر هذا الفتى وهذه الفتاة! كل يوم في هذه الساعة يقبلان إلى الجبل ويصعدان فيه، ويغيبان في الدوح. . إن هذا أمر يثير الشك، ويبعث على الريب! تُرى ماذا يصنعان ثمت؟ شاب ريان يتدفق الدم حاراً في عروقه، وله قلب ينبض بموسيقى الحياة، وفم تخرج منه الكلمات عذبة سحرية، وعينان زرقاوان ترتسم فيهما صوَرُ هذه الدنيا لا كما ترتسم في عينين سواهما. . . ووجه مشرق وثغر باسم. . . يخلو بهذه الفتاة في تلك الغابة لغير ما سبب! ومع ذلك فالفتاة غضة يانعة. تتأرج كما تتأرج الزهرة إبان الربيع ويتورد خداها كما تتورد تيجانه. . يا للساقين!! أبداً لا يخلب ألباب الشباب مثلهما أبداً!!. . .)
ثم أفاقت الجدة من سكرتها فوجدت حفيدتها ذاهلة عن نفسها وقد أخذت القناديل الرائعة التي تحترق في سُوَيدائها تشع السناء من عينيها، وأرهفت أذنيها تتلقفان الكلام العجيب الحلو الذي كان يخرج من فم الجدة، والذي لم تكن الفتاة تحسن أن تقول مثله
- (تُرى؟ فيم تساؤل جدتي عن الفتى والفتاة؟ وفيم خلوتهما بين الأيك في مثل هذا الوقت من كل يوم؟ وأي شك يثيره أمرهما ثمة؟ شاب ريان! إلا ما أجمل هذا الوصف البديع وأنا أفهم أن يكون الإنسان رياناً، ولكن ما هذه الدماء الحارة التي تتصبب في عروق هذا الشاب؟! ذاك شيء غريب لا أفهمه! وهذه الموسيقى التي ينبض بها قلبه ماذا تكون؟ ولماذا تكون في قلبه موسيقى؟ ولم لا تكون الموسيقى في أذنيه كما هي في آذان جميع الناس؟ أية موسيقى هذه التي تكون في القلب يا ترى. .؟ وكلماته العذبة السحرية ما هي؟ قد تكون من صنف هذه الكلمات التي تقولها جدتي. . . إنها

تكون جميلة جداً إذا استطاع الشاب أن يقول مثلها؛ وأحسبه لا يستطيع، لأن جدتي كبيرة، وقد قرأت كثيراً في الأدب، ووعت كل ما جاء في القصص. . . وأنا نفسي لا أشعر بأية طلاوة فيما ترغمني على قراءته لها في
هذا الكتاب العتيق الجاف، مع أنها تكاد ترقص طرباً عند بعض فقراته؛ ولا أدري لماذا تفرح بهذا الهراء السخيف الذي لا أفهمه. لقد قصت عليّ من أمر بكا شارب والفتاة المسكينة إيمي، وان قصارى حكمي على شارب أنها سافلة قليلة الأدب لأنها لم تحب زوجها كما أحب أنا أمي. وبمثل ذلك حكمت على هذا اللورد التاعس ليستر الذي ضحى إيمي ليتزوج الملكة. . . ولكن. . . لماذا حزنت إيمي؟ ولماذا أحَبَّته؟ هل كانت يتيمة ليس لها أم تحبها ولا أب تحبه؟ ولكن هذا كله ما قيمته إذا قيس بالموسيقى التي ينبض بها قلب الشاب .(. . .
ومرت هذه الخواطر كلها في قلب الفتاة في اللحظة القصيرة التي تلت صمت الجدة، ثم سألتها حفيدة في سذاجة الصبي وطهارته
(بالله يا جدة! ما هذه الموسيقى التي ينبض بها قلب أحد من الناس؟) -
وانفرج فم العجوز عن ابتسامة كبيرة، ثم ربتت بأناملها المرتجفة على خد الصغيرة، وقالت لها: (أقرئي)، وأطاعت الفتاة، وراحت تقرأ الببغاء، ولا تكاد تفقه شيئاً مما تقرأ واعتدل الجو، وسكنت الريح، واعتز النبات ينفض قطرات المطر كالطيور الصغيرة. . . وانتشرت عصافير السنونو في السهل الفياح توقع على شجيراته ألحانها، وأشرقت الشمس لتشترك في مهرجان الطبيعة بآرادها الذهبية الناصعة. . . ولبثت العجوز تنتظر عودة الفتى والفتاة بنفس مشوقة وقلب خفِق، حتى أقبلا آخر الأمر، وفي وجه الفتى صُفرة وفي ساقيه رجفة، وقد مشت الفتاة هذه المرة في إثره، لا تعرف العجوز لماذا .. .
ولا جاوزا أرسل الفتى نظرة وسنانة من عينيه النافذتين ناحية فتاتنا حفيدة العجوز. . . ثم مضى في سبيله حتى كان في سفح الجبل. . وهنا نهضت عجوزنا مهرولة إلى السفح كذلك، وحفيدتها تتعثر في خطاها خلفها، وفي قلبها سرب من الهواجس عن هذه الموسيقى التي تستطيع القلوب أن تنبض بها. . . ثم عن هذه النظرة التي رمقها بها الشاب العابر، والتي لم تعرف بم تفسرها. .
إنه شاب ريان كما ذكرت جدتي، وإن له لعينين نفاذتين كما قالت. . . ولكن لم ألمسه) حتى أحس دمه الذي يتدفق في عروقه فأعرف إذا كان حاراً حقاً. . . وكذلك قلبه الذي ينبض بالموسيقى. . . لابد لكي يسمعها الإنسان من أن تكون له (سماعة) طبيب أو على
الأقل، لابد من أن يضع الإنسان أذنه فوق صدره، ليعرف ما هنالك. . على أن وجهه أصفر كاللوتس. . فما السبب يا ترى؟ هل هو مريض. . .؟)
وظلت هذه الهواجس تضطرب في صدرها، وجدتها تنهب الطريق في إثر الفتى والفتاة، حتى إذا كانت حذائهما، أقرأتهما سلاماً جميلاً، فرداه احسن رد وأطيبه، وافتر فم الشاب عن ابتسامة حلوة حيا بها الفتاة. . . فلم تدر كيف ترد عليه ابتسامته .. .
وجلست الفتاة تقرأ لجدتها في ضوء مصباح عليل. وجدتها ما تلبث أن تتثاءب وتتثاءب. وحتى تضايقت حفيدتها من ذلك ولم تبال أن تقول . . :
إذن نبقي القراءة إلى الصباح يا جدة، ولابد أن تذكري لي شيئاً عن هذه الموسيقى - العجيبة التي تنبض بها القلوب
فقهقهت الجدة حتى بدت نواجذها وقالت: هل تذكرين حينما كنت أزوركم وذهبنا في المساء إلى (السرك)؟ فلما انتهت الموسيقى قلت لكم إنها لِبَاخ؟) فعبست الفتاة، وقالت: (ومن باخ يا جدة؟) فأجابتها: (موسيقي عظيم يا تلدا) فقالت تلدا: (وما شأنه فيما سألتك عنه؟) فقالت الجدة: لقد كان باخ يوقع على بيانه بأنامله، وفي الحقيقة لقد كان يوقع عليه بقلبه؟) فتجهمت تلدا وقالت: (تعنين أنه كان يتكئ على البيان بصدره؟ فتضاحكت العجوز وزجرت تلدا، ثم قالت لها: (هذه يا تلدا أشياء كالعلوم التي تتلقنينها في المدرسة، هل تستطيع فتاة في السنة الأولى أن تفهم درساً من دروس السنة الخامسة؟) فهزت الفتاة رأسها الجميل وقالت: (طبعاً هذا غير ممكن!) فقالت الجدة: (فهذا مثل ذاك يا بنية!) ثم أمرتها أن تقرأ، ففتحت الكتاب وما كادت تقلب صفحاته باحثة عن الباب الذي كانت تتلوه، حتى تثاءبت جدتها بشدة، فجعلت تلدا تقلب

وتقلب إلى أن أغمضت العجوز عينيها، وألقت على سنادة الكرسي رأسها، وغطت في سبات عميق
وقذفت تلدا الكتاب على سريرها، ثم انطلقت إلى مكتبة جدتها فجعلت تقلب في الكتب، وتنظر إلى الرسوم والصور، حتى عثرت آخر الأمر على قصة دانتي الرائعة المسماة (الكوميديا الإلهية)، وكانت نسخة هذه القصة مصورة حافلة بالرسوم الزاهية بالألوان الطبيعية. . فجلست تتفرج بها، وتنعم النظر فيها، حتى اهتدت إلى الصورة الخالدة الباهرة، صورة بوْلو وفرنشسكا، وهما متعانقان في الجحيم، وقد انطبق فم بولو على ثغر
حبيبته، وراح يقبلها تقبيلاً حاراً، يخفف عنهما ما هما فيه من عذاب السعير
ولبثت تلدا تنظر في الصورة وتتعجب. . . (ترى ماذا يصنع هذا الساب الريان في هذه النار المتقدة؟ إنه يضع وجهه في وجه امرأة ويقبلها كما تقبلني أمي حينما أكون مغضبة! ألا يحس هذه النار المتأججة حوله؟ هل هذه المرأة ابنته؟ لا شك أنها ابنته، وإلا فلماذا يقبلها!)
ثم قرأت في أسفل الصورة هذه السطور:
(بَولوّ يقبّل حبيبته فرنشسكا في سواء الجحيم، غير عابئ بالنيران التي تشتعل في ساقيه وتلتهب من حوله. . . وهكذا قضى الله أن يكون الحب عزاء للمحبين حتى في وهادِ سقر. . . فهو الماء العلوي الذي يطفئ النار المندلعة بين جوانحهم والقبلة ثمرته المشتهاة، وحَمْرُه وجناه!)
وبرقت عينا تلدا، وحملت الكتاب ذا الصور إلى حيث راحت جدتها تغط وتزعج البوم بشخيرها:
- جدة، جدة، استيقظي!
- ماذا. . . ما. . . ذا. . .
- استيقظي وحياةِ أبيك!
- ماذا يا تلدا؟ لماذا لا تقرئين؟
- هاأنا ذي أقرأ والله! واسمعي:
ثم شرعت الفتاة تقرأ السطور التي تحت صورة بولو وفرنشسكا!
- ما هذا يا تلدا؟! الكتاب تأريخ للأدب الإنجليزي، وبولو وفرنشسكا شخصان خرافيان اخترعهما دانتي الإيطالي! هاتي الكتاب!
وتناولت العجوز الكتاب، ونظرت في الصورة، ثم عبست وبسرت وأقفلته لترى ما هو. . .
- هذه كوميدية دانتي من أين جئت بها؟
- من المكتبة. .
- آه يا خبيثة. . كان يجب أن أبقي المفتاح معي. . الصور التي من صنف هذه الصورة، والموسيقى التي تنبض بها القلوب، من دروس السنة الخامسة، ولا تستطيع تلميذة السنة الأولى أن تفهم دروس السنة الخامسة!
وفي صبيحة اليوم التالي قرع الباب قادم فهرعت تلدا لتلقاه
- أهو أنت؟
- أجل، هو أنا!
- وأين الفتاة التي كانت معك أمس فوق الجبل؟
- في المنزل
- وما هذا الورد الجميل! أَتُعْطيني وردة؟!
- إنه كله لك!
- كله؟!
- أجل. .
- والفتاة التي كانت معك، ألا تأخذ منه شيئاً؟
- إنها أختي!
- أختك؟ وهل أختك لا تحب الورد؟
- ومن ذا الذي لا يحب الورد؟ إنها تحبه جداً
- إذن لا آخذه كله يجب أن تبقي بعضه لأختك ثم صاحت جدتها تسألها مع من تتكلم،

فقالت للشاب:
- ما أسمك أيها الشاب. . . الر. . . يان؟
- فكتور!
فصاحت تجيب جدتها:
إنه فكتور يا جدة!
- فتكور؟! ومن فكتور؟
- أجل فكتور. . . الشاب الذي رأيناه على الجبل أمس وأقبلت العجوز الحيزبون مُهرْولة فسلمت على الشاب ودعته إلى حجرة الجلوس، فدخل ومعه باقة الأزهار الكبيرة
- مرحباً بك يا فتكور، كم أنا سعيدة بك
وكانت تتكلم وذكرياتها القديمة ثائرة كلها في صدرها العجوز والدم العجوز يتدفق في عروقها الضعيفة. . . والمفاجأة الحلوة تعقد لسانها فتأخذها ربكة مضحكة
- هذا الورد جميل. . . أوه. . . ذاك سَوْسَن ما أبهاه! وبنفسج، لمن حملت هذا يا مسيو فكتور؟
- لـ. . . لهذه الأخت الصغيرة. . . و. . . لك يا أماه
وبلعت العجوز ريقها، ونظرت إلى حفيدتها في حنق، وقالت للشاب:
- والفتاة الجميلة التي كانت معك أمس؟
فقالت تلدا:
- إنها أخته يا جَدّة
- أخته؟ حقاُ هي أختك؟
فقال الفتى (إي وربي، إنها أختي)
فقالت العجوز: (إذن. . . احمل هذه الباقة إليها. . . فهي بها أحق. .)
فقال الشاب: (ولكني قطفتها بِيدَيَّ من حديقتي هدية لحفيدتك!)
وتدخلت تلدا فقالت له: (من حديقتك؟ إذن أنت تملك حديقة؟)
فقال لها: (أجل، وهي حديقة غناء، تليق بك)
فقالت له: (وهل تأذن لي في زيارتها؟)
فقال: (ولم لا. . . إنك تكونين أبهى زهرة فيها. . .)
ولم تطق العجوز أن تسمع إلى كل ذلك، فصرخت صائحة (كفى! حَسْبُك، أرجوك)
بيد أن الفتى ما زال بها حتى وعدت أن تزوره في صحبة حفيدتها بعد يوم أو يومين وكثرت زيارات العائلة المقدسة لحديقة الفتى، وتوثقت بينهما عرى الصداقة والتحاب، وكانت أخته الجميلة التي حسبتها العجوز حبيبته من قبل تلقاهما فيأنسان إليها وذهبت تلدا مرة وحدها تزور حديقة فكتور ففرح بها أيما فرح، وقطف لها أحسن وردة وأبهاها، وجاءها بتفاحة كبيرة حمراء؛ ثم جلس بجانبها برهة، وجعل يحدق فيها بصره ثم اقترب منها فلم تبتعد. . .
ولمس جسمه جسمها فأحست بدفء ولكن ليس كالدفء الذي ينبعث من النار. . . ثم لمحت في عينيه شيئاً غريباً فلم تجسر أن تسأله عنه. . . ثم مد إليها يده فمدت إليه يدها. . . فأخذها في كلتا راحتيه
وتركت الأزهار تسقط على العشب أمامها
وأبصرت عبرة تترقرق في عينيه فسألته لماذا يبكي؟ فلم يجب
ثم ارتبك قليلاً وقال لها بلسان متلعثم: (تلدا!) فقالت له: (نعم يا فكتور؟) فقال لها والخجل يبعثر الحروف من شفتيه: (أتأذنين لي في. . . قُبلة. . .؟)
وسمعا وراءهما هاتفاً يقول:
(. . .فرنشسكا. . . بَوْلو)
فنظرا. . . فإذا هي الجدة العجوز الحيزبون
وكان هذا في سن تلدا التي لم تبلغ الثالثة عشرة. . . وبعد ثلاث سنين أخر. . . كانت موسيقى جميلة تصدح في حديقة فكتور، انتظاراً لقدوم عروسه تلدا

دريني خشبة
البريد الأدبي
المهرجانات الأدبية في موكب الزفاف الملكي

كان زفاف الفاروق الميمون موسماً من مواسم الأدب والشعر، اهتمت له جميع الهيئات الرسمية وغير الرسمية، فأعدت الحفلات الحافلة، وأقامت المهرجانات الفخمة، وتبارى الشعراء والخطباء في وصف اليوم الرائع وكلهم مجيد محسن. فأقامت جمعية الشبان المسلمين حفلة شائقة افتتحها الأمير عمر طوسون بكلمة طيبة، وأقامت اللجنة الأهلية مهرجاناً رائعاً في دار الأوبرا تكلم فيه نخبة طيبة من رجال المواهب في الشعر والخطابة، وأقامت الجامعة الأزهرية حفلاً مهيباً حضره رئيس الوزراء وخطب فيه شيخ الأزهر وكثير من الأعلام، وإنما كان أروع وأفخم جميع الحفلات والمهرجانات ذلك المهرجان الكبير الذي أقامته وزارة المعارف في دار الأوبرا الملكية في الساعة الرابعة بعد ظهر يوم الاثنين الموافق 24 يناير سنة 1938م، فقد حضره مندوب جلالة الملك، وألقى وزير المعارف كلمة الافتتاح، ثم تعاقب على منصة القول حضرات الأساتذة الشعراء علي الجارم وخليل مطران ومحمد الهراوي وعلي محمود طه، والأساتذة الخطباء عباس محمود العقاد وأحمد أمين وإبراهيم المازني وعبد العزيز البشري. وقد زاد في روعة المهرجان وأفاض عليه روح الفكاهة والبهجة أن الخطباء والشعراء عُرضوا على الجمهور عرضاً مسرحياً فكاهياً ضمن صورة تاريخية مسرحية لمجالي الشعر والأدب في عصر الرشيد وضعها الأستاذ توفيق الحكيم وهي فكرة طريفة لم يسبق إبداعها في مثل هذه المناسبات، وقد صدحت فرقة الهواة الموسيقية تحت رياسة الدكتور الحفني بالأنغام العذبة الشجية في البدء والختام

متحف فلسطين

أفتتح أخيراً في بيت المقدس متحف عظيم، قد يغدو في المستقبل القريب المتحف الثاني في الشرق الأدنى من حيث أهميته الأثرية بعد متحف القاهرة، ولهذا المتحف قصة ترتبط أيضاً بذكر متحف القاهرة؛ ففي سنة 1923 عرض المثري الأمريكي الشهير روكفلر كما نذكر، على الحكومة المصرية هبة مالية عظيمة لبناء متحف مصري عظيم، ولكن الحكومة المصرية اعتذرت من قبول هذه الهبة نظراً لما اقترن بها من شروط غير مقبولة؛ فعندئذ

تدخل بعض علماء الآثار في الأمر وفي مقدمتهم العلامة الأستاذ برستيد، وتوسطوا لدى المثري روكفلر في أن يحول مشروع الهبة إلى حكومة فلسطين، فنزل عند هذه الرغبة وقدم إلى الحكومة الفلسطينية هبة قدرها مليونان من الدولارات (أربعمائة ألف جنيه) لبناء متحف عظيم في فلسطين يضم آثار الأرض المقدسة؛ وتبرعت الحكومة بالأرض التي يقام عليها المتحف وهي تبلغ نحو عشرة فدادين تقع في الجانب الشمالي الشرقي من المدينة وتشرف على جبل الزيتون، وقبة الصخرة، وربى شرق الأردن وأقيم المتحف في هذا الموقع التاريخي على أحدث الأصول الفنية، وقسم إلى أروقة تظللها حنيات معقودة، وأقيمت في شماله حظيرة بها فسقية عربية جميلة؛ ونظمت أروقته تنظيماً تاريخياً لتكون معرضاً لتاريخ فلسطين في جميع أطواره، وجمعت فيه كل الآثار التي وجدت في فلسطين حتى اليوم، ومنها آثار العصر البرنزي حتى عصر الكنعانيين. وسيخصص فيه قسم لعرض الزخارف العربية التي استخرج معظمها من أطلال قصر هشام ابن عبد الملك التي اكتشفت أخيراً بالقرب من أريحا، وقسم آخر للتحف المصرية الآشورية، وهكذا. وقد فتح للجمهور رواق واحد هو الذي يضم آثار العصر البرنزي، وذلك حتى يتم تنظيم الأقسام الأخرى

وقد أثار افتتاح هذا المتحف الجديد اهتماماً في الدوائر الأثرية والمعتقد أنه سيكون إلى جانب آثار بيت المقدس التاريخية عاملاً جديداً في إغراء السياح من أنحاء العالم على زيارة الأراضي المقدسة

حرب الأثير

يشهد العالم اليوم أغرب حرب عرفت في التاريخ فهي ليست صراعاً بين الجيوش والقوى المادية، بل هي صراع بين وسائل الدعاية لغزو أعظم حشد ممكن من العقول والقلوب. ولم يبق الراديو أداة للدعاية القومية أو المحلية فقط بل غدا أداة للدعاية العالمية يرسل أمواجه فيما وراء البحار إلى مختلف الأمم؛ فمن محطة باري الإيطالية تسمع الأمم العربية منذ أعوام خطباً عربية في مختلف الشئون وتسمع أنباء العالم بالعربية وتسمع الموسيقى العربية؛ ولم يكن القصد من ترتيب هذه البرامج العربية في

محطة إذاعة أوربية إمتاع الأمم العربية فقط أو تحري غايات ثقافية، بل رتبت بقصد التأثير في عقول السامعين
وتوجيههم إلى ناحية معينة من التفكير السياسي. ومنذ أسابيع قلائل أنشئت في لندن محطة للإذاعة العربية تنحو نحو المحطة الإيطالية في إذاعة الخطب والمحاضرات والموسيقى العربية من العاصمة الإنكليزية؛ ومن أنها أنشئت في الحقيقة لمقاومة الأثر الذي تحدثه محطة باري في نفوس الأمم العربية، فإنها لم تسلك سبيل الدعاية المفرقة، على أنها تؤمل على أي حال أن تلطف من هذا الأثر الذي اعتبر في لندن ضاراً بهيئة إنكلترا وسمعتها في الأمم العربية. والذي يلفت النظر في أمر هذه الحرب الأثيرية الغريبة هو العبرة التي يمكن للأمم العربية أن تستخلصها منها؛ فهي في كلتا الحالتين الميدان المختار لأحداث الأثر والآثار المنشودة، وهي المقصودة بالتوجيه والتحريك، ولا ريب أن الأمم العربية ليست من الغفلة بحيث يفوتها هذا الاعتبار
في مجاهل التركستان
عاد أخيراً إلى ألمانيا العلامة الرحالة الألماني الدكتور فلشر بعد رحلة خطرة في مجاهل التركستان دامت أربعة أعوام، واستقبل في برلين بحفاوة عظيمة؛ وكان قد بدأ رحلته في سنة 1934، وذلك بقصد استكشاف الخواص المغنطيسية والمعدنية للمنطقة الشاسعة التي تقع بين الصين والهند، فقصد إلى نانكين ومنها إلى التركستان في قافلة مؤلفة من زميل له وستة من الصينيين وأربعين جملاً، ولقي من الصعاب والمتاعب ما لا يوصف من اعتداء قطاع الطريق وتمرض رفاقه، والمرض المتكرر والحر المرهق. ولما وصل إلى خوتان قبض عليه الحاكم وألقاه مع رفيقه في السجن وصادر ما يحملانه من الآلات الفلكية والعلمية؛ ولبثا في السجن ستة أشهر، ثم أفرج عنهما أخيراً بتدخل ممثل إنكلترا؛ فاستأنفا رحلتهما إلى (لي) بعد أن عبرا جبال الهمالايا الشامخة
وأنفق الدكتور فلشر أربعة أعوام في الدرس والاستكشاف وفي رأيه أن هذه المناطق غنية بالبترول ولا سيما في شرق التركستان حيث تبدو آثار الزيت ماثلة في مياه الأنهر، كذلك هناك ما يحمل على الاعتقاد بوجود الذهب في سهل كشغر نظراً لأن الأهالي يحرزون كثيراً من تراب هذا المعدن النفيس
وقد زار الدكتور فلشر هذه المناطق من قبل في سنة 1903 حيث سافر من طشقند في التركستان الروسية إلى منغوليا وكنسو، وفي سنة 1926 عاد إلى طشقند وسار منها إلى
تنجاز، ثم عاد إلى الهند بطريق كشمير، فهو بذلك من العلماء الخبيرين بهذه المنطقة وخواصها
نسائم الأستاذ الجارم
الأستاذ علي الجارم الأديب الكبير وخليفة (شوقي) في مصر عند طائفة يقول في لاميته في المهرجان الملكي:
يفديه غصن الدوح ريان ناضراً ... إذا اهتز في كف النسائم مائله
فجاء بالنسائم جمعاً للنسيم أو للنسمة، والمعروف أن جمع نسيم أنسام وجمع نسمة نَسم وسالمها نسمات، ولم ترد هذه (النسائم) في كلام إسلامي أو مولد. دع عنك المخضرم والجاهلي، والمتأخر والعصري ما هما حجة
(الإسكندرية)
(* * *)
مخطوط للموسيقي موتسارت
ظهرت أخيراً تحفة أثرية جديدة للموسيقى الأشهر موتسارت هي عبارة عن مذكراته التي كانت يكتبها (بالألمانية) عن حياته وتآليفه الموسيقية في مذكرة جيب صغيرة، وقد كانت هذه التحفة في حوزة أحد الهواة الإنكليز، فعمل أخيراً على تصويرها، وطبعها أحد الناشرين الإنكليز، ولم يغير شيئاً فيها بل نقلها كما هي في لوحات (أكليشيهات) مصورة، وبذلك يستطيع القارئ أن يقرأ فيها محتويات بخط الموسيقي نفسه
وفاة مستر كيلوج
ليس في الدنيا رجل محب لسلام العالم لا يعرف مستر كليوج صاحب الميثاق

المعروف باسمه لعدم اتخاذ الحرب وسيلة لحسم المنازعات التي تحدث بين الدول. . . هذا الميثاق الذي حمل غصن الزيتون طويلاً والذي أقرته الدول قاطبة، وكانت اليابان ثم إيطاليا أول من جعله قصاصة ورق لا قيمة لها من حيث القيمة الفعلية. . .

مات مستر كليوج في 22 ديسمبر الماضي في سن الحادية والثمانين بعد حياة موفورة مليئة بجلائل الأعمال. . . حياة غالية غزيرة الحب للإنسانية، هي المثل الأعلى لما يجب أن
تكون عليه حياة العظماء العصاميين في كل زمن ومكان

ولد كيلوج في ديسمبر سنة 1856 من أبوين فلاحين وعمل في المزرعة مع أبيه ثم تردد على مدرسة أولية تعلم فيها القراءة والكتابة ورشف قدراً تافهاً من المعلومات البسيطة أغراه بالدراسة العالية بطريق المراسلة والانتساب من الخارج حتى نال إجازته التي فتحت له باب المجد على مصراعيه فما زال يرقى من منصب إلى منصب حتى عين سنة 1924 سفيراً لبلاده (والولايات المتحدة) في لندن وفيها سعى حتى عقد ميثاقه ضد الحرب بين الدول ثم نقل إلى واشنطون ليظل سكرتيراً للجمهورية طوال رئاسة مستر كوليدج (1925 - 1929) ثم عين قاضياً لمحكمة (إلهاج كورت). . . . . وهكذا كانت حياته سلسلة من المفاخر سيزهى بها أسمه على
اسكندر قيصر روسيا وولسن رئيس أمريكا وغيرهما من خدام السلام

صومبارت والوطنية الاشتراكية

أفلحت النازية - أو أفلحت الاشتراكية الوطنية الألمانية - في خلق فلسفة جديدة ثابتة الدعائم هي الآن ألد أعداء الماركسية أو بالأخرى الشيوعية، وقد كتب العلامة فرنر صومبارت كتابه العظيم (فلسفة جديدة اشتراكية فلفت إليه الأنظار بما تناول به كتاب كارل ماركس (الرأسمالية الحديثة) من النقد المر والتجريح البارع، وقد ارتفع العلامة صومبارت بكتابه هذا إلى مرتبة هِيجل في الوطنية الألمانية، والألمانيون يتخذون من كتابه إنجيلاً جديداً يذكي فيهم روح المطامع العالية التي نفختها فيهم النازية والتي نفخها في أسلافهم هجل من قبل. وصومبارت يدعو إلى فلسفة إيجابية تأتي من الله مباشرة، فلا تعرف هذه الطريق الملتوية المكتظة بالوسطاء من قسس وأحبار ودهاقين؛ وهذا هو الذي أثار عليه الكنيسة وخلق منها عدواً داخليّاً لألمانيا النازية، بل هو أيضاً ما ألب الألمان على اليهود وحفزهم إلى طردهم خارج الوطن الألماني المقدس لأن النازية لا تعنى بشيء أكثر مما تعنى بالوحدة في كل شيء

تاريخ أبن حيان

صدر أخيراً القسم الثالث من الجزء الذي انتهى إلينا من تاريخ ابن حيان مؤرخ الأندلس مطبوعاً بعناية بعض المستشرقين وقد نشر هذا الجزء بأقسامه الثلاثة عن مخطوط وحيد تحتفظ به مكتبة (بودليان) الإنكليزية؛ وتبدو نفاسته وأهميته متى علمنا أن مؤلفه أبو مروان ابن حيان هو أعظم مؤرخي الأندلس المسلمة؛ وهو جزء من تاريخه الشهير المسمى (المقتبس في تاريخ الأندلس) وفيه يستعرض تاريخ الأندلس منذ الفتح إلى أوائل الطوائف، ويعنى عناية خاصة بترجمة العلماء، ويتعلق الجزء المنشور بعهد الأمير عبد الله الأموي (275 - 300هـ) وهو عصر من اخطر عصور الدولة الأموية، وفيه كانت ثورات الأندلس الشهيرة ومنها ثورة ابن حفصون أعظم ثوار الأندلس؛ هذا ويظن بعض العلماء المطلعين أن كتاب (المقتبس) بأكمله لم يفقد نهائياً، وأنه ربما وجدت منه نسخة في بعض مجموعات المغرب؛ خصوصاً وأنه كان حتى القرن الحادي عشر الهجري مرجعاً للكتاب المتأخرين ومنهم المقري

مقدمة ابن خلدون بالفرنسية

منذ نحو قرن وضع المستشرق الفرنسي البارون دي سلان ترجمة فرنسية لمقدمة ابن خلدون، صدرها بترجمة لحياته مشتقة مما كتبه ابن خلدون نفسه عن حياته في (التعريف) وقد لبثت هذه الترجمة عمدة المستشرقين حتى يومنا؛ وقد فكر لفيفهم في إعادة طبع هذه الترجمة وتنقيحها وإخراجها في ثوب جديد؛ وبالفعل صدرت أخيراً طبعة جديدة لترجمة دي سلان تفضل الترجمة القديمة بكثير، وهي كالقديمة في ثلاث مجلدات كبيرة، منقحة مهمشة ذات فهارس جديدة

الكتب
في منزل الوحي
بقلم الدكتور محمد حسين هيكل بك
للأديب محمد فهمي عبد اللطيف

لعل فريضة من فرائض الإسلام وشعائره لم تخدم الثقافة الإسلامية، وتنفع الأدب العربي كما خدمت في ذلك فريضة الحج وأفادت، فإن جل الذين كتبوا الرحلات، وألفوا في التاريخ الإسلامي خصوصاً تاريخ بلاد العرب، ووصف طبيعتها وجغرافيتها وتقويمها، هم من الذين كانوا يقصدون إلى أداء الفريضة المقدسة، وزيارة الروضة المطهرة. وكتاب (في منزل الوحي) إنما هو أثر من تلك الآثار التي فاض بها الشعور الإسلامي، والاتجاه الوحي نحو تلك البلاد الطيبة التي تنزع إليها النفوس، وتهفو نحوها الأرواح، وتطمئن بذكرها القلوب. وقد وصف المؤلف الفاضل كتابه وتحدث عن القصد الذي قصده من تأليفه فقال: (وليس هذا الكتاب مرجعاً من مراجع التاريخ الإسلامي، ولا شيء فيه من تقويم بلاد العرب، إنما هي وقفات وقفتها في بلاد الوحي ومنزله، أستوحي فيها مواقف محمد عبد الله ونبيه ورسوله، وهناك في هذه المواقف تجردت نفسي وسمت روحي وكررت بالعصور والقرون أطويها، ورحت أتمثل هذا الهادي الكريم، وأتمثل المسلمين من حوله، ألتمس في ذلك الأسوة والعبرة، آملاً أن أشرك فيهما إخواني المؤمنين بالله، وبما جاء من عند الله. لم أتقيد في هذه المواقف بما جاء في كتاب غير كتاب الله الكريم، ولم أخضع تفكيري لحكم غيري، وما كان لي أن أخضعه، فقد كنت أحس في كثير من هذه المواقف أنني بين القوم أسمع وأرى، وأتمنى لو كنت أجاهد معهم، فأفوز فوزاً عظيماً، وما كان لي أن أفعل ثم أخدع نفسي فأزعم أنني إذ أحدث الناس إنما أقص عليهم ما رأيته وما أحسست به في حين لا أقص إلا ما رآه غيري، وما سبقني إلى تسطيره. لقد تركت نفسي على سجيتها تتوجه بوحي روحي، وتستلهم الحق مما حولي، وتستعرض ما تستلهمه على حكم عقلي وتقدير ضميري، ثم سطرت ما اجتمع من ذلك لا أبغي به إلا رضا الله)

هذا كلام المؤلف الفاضل في وصف كتابه، وهو كلام، على ما أرى، فيه شيء من التواضع يغطي جانباً من الحق؛ وقد تكون هذه نية الدكتور هيكل في تأليف كتابه، أراده على أنه (ليس مرجعاً من مراجع التاريخ الإسلامي ولا شيء فيه من تقويم بلاد العرب وإنما هي وقفات في بلاد الوحي ومنزله) ولكنه على ما يظهر غلب على أمره فجاء كتابه مرجعاً من مراجع التاريخ الإسلامي، وجاء خير دليل يجب أن يصحبه كل راحل إلى تلك البلاد، وجاء أيضاً من أهم التقاويم لكثير من الأماكن في بلاد العرب، ثم جاء مشروع إصلاح قويم يهم من يهمهم (العناية بهذه البلاد المقدسة ودراسة حاضرها وماضيها دراسة علمية دقيقة، وما يدعو المفكرين والساسة أولي العزم ليعملوا على إصلاح هذه البلاد)، ثم هو نفحة روحية من أثر الرسول الكريم فاض بها قلب خافق وشعور دافق. فإذا كانت نية الدكتور هيكل على ما ذكرنا من قبل، فلا شك أنه قد غلب على أمره، وتجاوز رغبته في إخراج كتابه، وتحديد الموضوع الذي أراد أن يجري في حلبته؛ وهو تجاوز قد اقتضته طبيعته، ودفعته إليه صناعته، فكان ذلك في حظ العربية وحظ قرائها وحظ رواد تلك البلاد المقدسة

نعم! هو تجاوز اقتضته طبيعة هيكل، لأن هيكلاً كما نعرف صحافي، والصحافي من طبيعته لا يقف عند شيء ولكنه يحب أن يقف على كل شيء؛ ثم هو أديب دقيق الشعور وافر الإحساس يتأثر ويهتاج لكل ما يراه ويقع عليه حسه، فإذا وصف أضفى على وصفه الإحساس والشعور وخلقه خلقاً حياً كله الروعة والجلال؛ ثم هو عالم ناقد ينظر إلى كل شيء بعين فاحصة، وفكر صائب وتقدير سديد، وهذه الغريزة في نفسه هي التي جعلته يقول ما يقول عن حق (إن لحكمي المكان الأول من الاحترام عندي، وإذا لم يكن من حسن القصد أن نعجل بالحكم قبل لأن نطمئن إليه وقبل أن تتم بين أيدينا أسبابه، وكانت العجلة طيشاً غير جدير بمفكر يحترم عقله فليس من حسن القصد ولا من احترام المفكر عقله أن ينحل نفسه حكم غيره قبل أن يمحصه حتى يطمئن ضميره إليه، ومن الجمود الذي لا يقاس إليه طيش أن نأبى تقليب الأمور على وجوهها جميعاً حتى نطمئن إلى بلوغ غاية ما نستطيع من الحق فيها)

وأحب لك أن تتأمل الكتاب بنفسك، وأن تصحب مؤلفه الفاضل من (عزم السفر) حتى

(أوبة الرضا) فستقضي في ذلك سفرة سعيدة، ورحلة طيبة، يسعد فيها عقلك بكثير من العلم
والمعرفة، ويفوز منها قلبك بكثير من البهجة والانشراح، وتطيب بها روحك على خير ما تطيب به الأرواح من ذكر الماضي وأثر الدين؛ غير أني أحب لك أيضاً أن تكون صبوراً مع هيكل ما وسعك الصبر، إذ تراه يسير سيراً بطيئاً فيقف بك عند كل أثر من آثار الرسول، ينبش الماضي، ويسأل التاريخ، ويفحص المعالم، ويستوحي الروح، ويحكم العقل، ويقارن بين ما يرى وما يسمع، فإذا طفت معه مثلاً في أنحاء مكة الحديثة، فكن شديد الاحتمال إذ تراه يدخل بك في كل زاوية، وينعطف بك على كل ثنية، وينحدر بك إلى كل مغار، ويرتفع بك إلى كل نجد، ويدفعك دفعاً حتى بين النؤى والأثافي، والأحجار والصخور، ويقف بك عند كل أثر ظاهر، وكل مظهر قائم. وإذا ما صحبت هيكلاً مثلاً إلى أسواق العرب فاصبر إذ تجده يطيل عليك فيحدثك عن الأسواق الثلاث في العهود القديمة، ويتلمس لك موقع المجنة وموقع ذي المجاز، ويكشف لم عن أسباب الخصومة في الأسواق العامة؛ ثم يحدثك عما كان يجري في عكاظ وعن موقف النبي صلى الله عليه وسلم في تلك السوق، ثم يسرد الأقوال التي قيلت في ذلك من قبل محاولاً أن يطبقها على ما يرى وأن يقيسها بمقياس العقل. نعم أحب لك أن تكون صبوراً مع هيكل إذا رأيته في جميع المواقف يبحث ويتقصى ويطيل النظر والتأمل فإنه إنما يقف بك على آثار ومعالم لحياة قوم ملئوا الدنيا بمجدهم، وأسعدوا العالم بهديهم، وأفعموا التاريخ بذكرهم. أما نفس هيكل في هذه المواقف فهي نفس مطمئنة يقول هو عنها بأنها (قد سمت إلى حيث لم تسم من قبل قط) وهو يحدثك عن شعوره في ذلك فيقول: (رأيت نور الله ماثلاً في كل دقيق وجليل من خلقه، ورأيت آية الهدى متجلية يشهدها كل من أراد أن يفتح لها قلبه وبصيرته، ورأيت سنته في الكون تبتدى لكل من أخلص إلى الحق وجهة ثابتة لا تبديل لها، رأيت هذا كله رأى العين، وآمنت به إيماني بما يقع عليه حسي، وما تلمسه يدي، وأيقنت أن العلم بهذا كله هو الحياة الراضية المرضية)

وما نفس هيكل في ذلك وشعوره إلا طراز من النفس السامية على حقيقتها، وتمط من الروح الشرقية التي تمجد الدين أبداً، وتقدس المعنويات أبداً، إذ ترى سعادتها في الروحيات أكثر منها في الماديات

والظاهر أن هيكلاً في حياته الروحية الجديدة قد اتصل بالقرآن اتصالاً وثيقاً، وتغذى بألفاظه وأسلوبه كما تغذى بمعناه وروحه، وإنك لتلمح أثر ذلك واضحاً جلياً في تعابيره خصوصاً إذا ما تحدث عن معاني الإسلام تعمر القلوب، وسمو الإيمان يغمر الأرواح والنفوس. أنظر إليه وهو يصف الحجاج محرمين في طريقهم إلى مكة فيقول: طبع هذا المنظر أعمق الأثر في نفسي فهذه القوافل من المشاة والركبان تقصد إلى غاية واحدة وترجو في ربها الرجاء الأسمى. . . ليس يذكر أحدهم ما له من ثروة أو جاه أو ولد، وإنما يذكر أنه هو وهؤلاء المسافرين معه أخوة في الله وأنهم جميعاً قد أتوا قاصدين بيته، ملبين داعيه، ليشهدوه على أنفسهم وليطهروا بين يديه مما قدمت أيديهم، وليبدؤوا بذلك حياة جديدة يبتغون فيما أتاهم الله الدار الآخرة، ولا ينسون نصيبهم من الدنيا ويحسنون كما أحسن الله إليهم، ولا يبغون الفساد في الأرض. لهذا جاءوا من كل فج عميق، ولهذا ركبوا البر والبحر واستهانوا بالمشقة ونسو كل شيء إلا الله، ولهذا أحرموا آية إخائهم ومساواتهم إيذاناً بأن أقربهم إلى الله أتقاهم، ومظهراً لميلادهم الروحي الجديد، ليتخذوا من هذا الميلاد عدتهم لحياة جديدة، ولهذا تتصل قلوبهم وإن اختلفت أجناسهم وألوانهم ولهجاتهم، وهم يعبرون عن هذا الشعور بالتلبية تنفرج عنها شفاههم في حبور وغبطة مطمئنين إلى رحمة الله ومغفرته، إنه يغفر الذنوب جميعاً، لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء

فهيكل كما ترى مولع بآيات القرآن يقتبسها لأسلوبه؛ ويقحمها في عباراته، ويستخدمها استخداماً طلياً منسجماً يدل على مهارة وتمكن. ولقد بلغ من ولعه بألفاظ القرآن أن آثر كلمة (طوّع) على مرادفتها في الأستعمال، فعبر بها مراراً إلى حدّ يلفت النظر، حتى أنه ليستخدمها في مواضع قد تكون مرادفاتها أولى بها، وقد لا تؤدي المعنى إلا على شيء من التسامح، ولكن هيكلاً يؤثرها لأنها لفظة قرآنية فهي حلوة سائغة. وإن من العجيب حقاً أن يؤثر هيكل ألفاظ القرآن كل هذا الإيثار، وأن ينتفع بأسلوبه إلى هذا

الحد الذي يفوق فيه أولئك الذين شبوا على مدارسة القرآن، وقضوا أعمارهم في مزاولة عباراته والبحث في نصوصه على حين أنه قد نشأ نشأة مدنية كما يقولون، وتثقف ثقافة تتصل بالغرب أكثر مما تتصل بالشرق، وما آثاره الأولى إلا لون من ألوان تلك الثقافة الأجنبية. وإنما يسر لهيكل أن يندمج في حياته الروحية كل هذا الاندماج، وأن يتصل بثقافة القرآن وأسلوبه كل هذا الاتصال، أنه ذو موهبة فنية، وطبيعة أدبية صافية، والأديب إذا ما صفت طبيعته،
وخلصت نفسه، ينطبع على الحياة التي يريدها وكأنها حياته التي تعودها حياته، ويفنى في البيئة التي يلابسها فإذا هو صورة قوية رائعة لما فيها من الألوان والمظاهر، ويخضع حواسه في الانفعال للفكرة يريد تنفيذها فينجلي لك صادق الإحساس صحيح الغرض، وهذا هو السر في أنك ترى الكاتب أو الشاعر يدرج بين صخور البادية وعلى أشواكها فتلمح في أسلوبه وتفكيره الشدة والجفوة، ثم ينتقل إلى مطارف الحضارة فإذا به هين لين مذلل الفكر يجري أسلوبه في مثل رقة الماء والهواء. وهذا هو السر أيضاً في أنك ترى الكاتب أو الشاعر يحدثك مثلاً عن البؤس فيجيد الحديث على أنه ليس ببائس، ويقول في النسيب والغزل فيملك عليك نفسك مع أنه ليس بغزل ولا محب، فكيف بذلك الأديب أو الشاعر إذا كان صادق العاطفة، خالص الرغبة، صافي النفس والروح كهيكل في حياته الجدية؛ لاشك أنه يكون شيئاً كبيراً، ويكون أثره أثراً قوياً رائعاً كهيكل (في منزل الوحي)

وأما بعد فقد أطلت على القارئ، ولنا وقفة أخرى مع (هيكل) في منزل الوحي سيرى القراء فيها لوناً طلياً من ألوان الفكر الروحي الذي يحترم العقل ويمجد الحق

محمد فهمي عبد اللطيف

المسرح والسينما

محنة المسرح

بقلم محمد علي ناصف

تساءلنا في العدد الماضي عن مصير المسرح بعد طغيان السينما واجتذابها أنظار الأدباء والفنانين فضلاً عن توطد مكانتها بين الجماهير

وقبل أن نجيب على هذا السؤال دعنا نستمع إلى حدث لأدولف زوكور كبير مؤسسي شركة براموت السينمائية لعله يغني أو يمهد للجواب

يقول زوكور لأحد الصحفيين الأمريكيين: (إن شركته متعاقدة مع 83 ممثلاً وممثلة، منهم 64 أتوا عن طريق المسرح والباقون خمسة أطفال، وأربعة من محطات الإذاعة، واثنان من الأوبرا، واثنان من الأندية الليلية، واثنان من الفرق الموسيقية وآخران عن طريق المسابقات الصحفية، وواحد من الألعاب الأولمبية، وآخر من أحد معاهد التمثيل!!)

فالغالبية الكبرى إذن قد تخرجت على المسرح، وأكثر الباقين قد كسبوا كذلك خبرة تمت إلى المسرح بصلة

وليست هذه الحال فريدة بأمريكا؛ فان المسرح في كل بلد يمد السينما بحاجتها من الممثلين. . كما أن له نصيباً كذلك من تقديم طائفة من كبار المخرجين السينمائيين أمثال ريتهاردت ولوبتسن وماموليان وديتريل وغيرهم

نستخلص من ذلك أن تغذية السينما بحاجتها من الفنانين إنما هي خطوة تالية لنهوض كفايات مسرحية

ولكنا إذا نظرنا إلى حديث أدولف زوكور من ناحية أخرى فماذا نستخلص من وراء قوله إنه متعاقد مع 83 منهم 64 من المسرح؟

أو ليس معنى ذلك أن السينما تجرد المسرح من قواه وكفاياته، وأن المسرح أصبح وسيلة أو قنطرة عبور إلى السينما؟

أجل، هنا يتكشف الستر قليلاً عن محنة المسرح، فإذا سفرت حقيقة تلك المحنة، فإنما هي كلمة تضيء بنور يخطف الأبصار: (المال)

المال هو الذي يسلب المسرح جاهه ويقلم أظافره

المال هو الذي يخلب برقه ألباب الكتاب والممثلين والفنانين فيجذبهم من أنوار المسرح الباهتة إلى أنوار الاستديو الساطعة

والواقع أن هؤلاء الأمريكيين لا يحسبون حساباً للمال، أو أنهم يحسبون حساباً عجيباً؛

ففي العام الماضي ابتاع هاري كوهين صاحب شركة كولومبيا حقوق إحدى المسرحيات الناجحة ببرودواي بمبلغ 40. 000 جنيه، نعم أربعين ألفاً، وكان هذا رقماً قياسياً شاءت شركة راديو أن تكسبه لنفسها فدفعت خمسين ألفاً من الجنيهات في مسرحية آبوت

وقبل ذلك بعام دفع سام جولدوين 160 , 000 دولار إلى سنكلير لويس في روايته التي شهدناها في الموسم الماضي.

إلى غير ذلك من الأمثلة الكثيرة التي قد يعتبرها المرء أمثلة لشغف هؤلاء القوم بالبذخ والإسراف

فأي كاتب يستطيع أن يحمل نفسه على الاقتناع بعد ذلك بما يقدمه له الناشر أو القارئ؟ أي كاتب لا يحلم الآن بمجد هوليود ومال هوليود؟ إن عمل الكاتب في الفيلم يذاع أكثر من عمله في المطبعة بمئات المرات، فضلاً عن هذه الآلاف من الجنيهات لقد طالب محصلوا ضريبة الدخل في أمريكا ب. ج. وودهاوس أحد كتاب السيناريو بمبلغ 50. 000. . . فإذا كانت هذه ضريبة دخل، فكم بلغ إذن دخل الرجل؟!

ويستوي في التمثيل هنا المخرجون والممثلون؛ فإن ماكس ريتهاردت عاهل المسرح الكبير رأى تلامذته في هوليود يثرون ويشتهرون من الأفلام، وهو باق في فينا يشهد ركود المسرح، رأى إيرفنج تالبرج يتقاضى أسبوعياً من شركة مترو 2. 400 جنيهاً مع 10 % من أرباح الشركة، ورأى المخرج العادي يأخذ في الفيلم الواحد عشرين أو ثلاثين ألفاً من الجنيهات فلم يطل انتظاره وحزم أمتعته ورحل إلى هوليود فأخرج (حلم منتصف ليلة صيف) وهو يأخذ عدته الآن لإخراج فيلمه الثاني (وانتون)

وأبهظ الأجور في أمريكا من نصيب ممثلي السينما، فقد أصبح من الأمور العادية أن يأخذ الكوكب من الفيلم الواحد خمسين ألف جنيه، ومثل هذا الأجر كفيل باقتلاع أي ممثل من فوق خشبة المسرح

فإذا استثنينا القليل من الممثلين الذين لا تستعبدهم تماماً شهوة المال فيقسمون أوقاتهم بين

العمل في المسرح والعمل في الأستوديو مثل والتر هاستون وهنرى فوندا ومثل هيلين هايز التي تركت الشاشة وهي في أوجها، وبعد أن اكتسبت التمثال الذهبي من أكاديمية الصور والفنون لأحسن ممثلة سينمائية في أول فيلم مثلته - إذا استثنينا مثل هؤلاء فأنا لا نغالي إذا قلنا إن الدولار هو الذي هزم المسرح

محمد علي ناصف

العدد 240 - بتاريخ: 07 - 02 - 1938

المرأة والأدب

قال لي صديق أديب:

إن من يقرأ الرسالة في مصر من الأَمصار النائية، أو في عصر من الإعصار الآتية، يحسبها تصدر أو كانت تصدر في بلد ليس فيه نساء. والرسالة كما نعتقد تسجل ظواهر النهضة المصرية، وتصور مظاهر العبقرية العربية؛ فهل خلوها من أثر المرأة معناه أن المرأة لا تزال بمعزل عن نهضة الفكر في مصر، وحركة الأدب في الشرق؟ وهذا السؤال نفسه ألقاه علي أكثر من تحدثوا إلي في الرسالة أو في المرأة أو في الأدب. والجواب عنه ميسور على من عرف كيف نربي البنت ونثقف الأم ونؤلف الأسرة. فنصفنا الجميل الشاعر كما يعبرون اليوم لا تزال كثرته الفاحشة على جهالة الأمية وسذاجة الفطرة. أما قِلَّته الضئيلة فبين طبقة علمتها المدارس المصرية تعليماً فجاً لا يمهد للعقل طرائق المعرفة، ولا يكشف للنفس آفاق الحياة، فعلمها محدود بالتعليم الأولي أو التمريض العملي، وأدبها واقف عند قراءة المجلة الخفيفة وكتابة الرسالة العادية؛ وبين طبقة ثقفتها المدارس الأجنبية فهي غزيرة الأدب صحيحة الفكر سليمة الذوق لطيفة الحديث، ولكنها لا تعلم من لغتها وأدبها غير القشور، ولا تعرف عن يدنها وتاريخها غير الشُّبه، ولا تجد في مكتبتها مؤلفاً شرقياً، ولا ترى على مكتبها ريشة عربية. وقد كتبت إلي آنسة من هذه الطبقة كتاباً بالفرنسية، فلمتها على أن تُقحم هذا اللسان الغريب بين لسانين عربيين، فردت عليّ بذلك اللسان نفسه تقول ما ترجمته:

لو كنت كتبت إليك بعربيتي لحسبتني طفلة تجمجم بالكلام ولا تبين؛ ويكون من وراء)

ذلك أنك لا تفهمني ولا تفهم عني. فكتبت إليك بالفرنسية لأن الإنسان يميل بطبعه إلى جهة القدرة لا إلى جهة العجز، ويؤثر بغريزته جانب الكمال على جانب النقص. ولئن تعرضت بذلك إلى غضبك، لقد نجوت ولله الحمد من سخرك؛ وسخطك عليّ أحب إلى (كرامتي من استخفافك بي

فالطبقة الواقفة على الأعراف بين الجهل والعلم لا تستطيع بنصيبها الأخس من الثقافة أن تسُبر عقل الرجل ولا أن تصور قلب المرأة؛ فمثلها مثل الجمهور الأوسط من سواد الشعب يعلو على العامة بمتاع جسمه، ويسفل عن الخاصة بغباء ذهنه. والطبقة القائمة على البرزخ بين الشرق والغرب لا تستطيع كتلك أن تساهم في الأدب العربي بشعاع من الروح

ولا بنتاج من العقل، لأنها مصرية القلب أجنبية اللسان، تغرِّبُ بهذا وتَشرِّق بذاك، وتنام هنا وتحلم هناك، وتأكل وتشرب فيظهر أثرها في مصر، ثم تقرأ وتكتب فيظهر أثرها في الخارج. فسيداتنا العبقريات الحسان: سيزا نبراوي، ونعمت راشد، وقوت القلوب، وإيمي خير، لا يمكن أن يتصل تفكيرهن بالأدب العربي ما دمن يجهلن لغة القرآن، ويحتجن في إفهام قومهن إلى ترجمان

على أن في هاتين الطبقتين شواذ لا يستطعن لقتلهن أن يكنَّ طبقة ثالثة. وهل تستطيع أن تعد في أقطار العربية كلها أكثر من الدكتورة أسماء فهمي، والماجستيرة سهير القلماوي، والفضليات الكواتب ابنة الشاطئ وجميلة العلايلي وفلك طرزي ووداد سكاكيني؟

هؤلاء على تفاوت بينهن يُجدن التفكير والتعبير، ويعطرن من حين إلى حين وجوه الصحف وصدور المجالس بأنفاسهن العبقة وأحلامهن الجميلة؛ ولكن فحولة الأدب في أنوثة العاطفة لم نجدها في امرأة بعد (باحثة البادية) و (مي)؛ وباحثة البادية في ظلال الخلد، ومي وا أسفاه على سرير المرض!

تلك حال المرأة مع الأدب. وهي حال اقتضتها طريقة التعليم وطبيعة المجتمع وحداثة النهضة. فمن الطبيعي ألا يجد فيها الأدب رفداً من إنتاج، ولا الأديب مدداً من وحي.

ومن البديهي ألا تحس أنت في الرسالة وفي سائر المجلات سحر المرأة فتشكو الاعتلال والنقص، وألا يجد صديقنا الحكيم في المجالس والأندية عطر المرأة فيشكو الجفاء والجدب. وما دامت المرأة غائبة عن الأدب وعن المجتمع فهيهات أن يبرءا من علل الجفاف والإسفاف والسآمة والفوضى

يريد صديقنا توفيق الحكيم أن يجرب في برجه العاجي أثر المرأة الفاتنة في مجلس جماعة من الأدباء سماهم. ولقد كتبت في العدد التاسع من (الرسالة) ما يصح أن يكون نتيجة لهذه التجربة قلت: (لاحِظْ مجلساً من مجالسنا اجتمعت فيه الرجال شباباً وشيباً فماذا تجد؟ تجد الحركات العنيفة والأصوات الناشزة والمناقشات الفجَّة والأحاديث الجريئة والكلمات المندية والذوق العامي والإحساس البطيء؛ ثم لاحظْ هذا المجلس نفسه وقد حضرته امرأة، تجد الحركات تتزن والأصوات ترق والمناقشات تُنتج والأحاديث تحتشم والكلمات تُنتقى والذوق يسمو والإحساس يّدق؛ ذلك لأن الرجل حريص بطبعه على أن يُجمل سَمْته في

عين المرأة، ويحسن صوته في أذن المرأة، ويسوغ رأيه في عقل المرأة؛ والأخلاق المكتسبة تبتدئ بالتطبع وتنتهي إلى الطبع) فمتى يُتاح للمرأة يا تُرى أن تُدرك خطرها في غير الحب، وأثرها في خارج البيت، فتؤدي أمانتها على الوجه الأكمل، وتُبلغ رسالتها على الطريق الأسد؟

أحمد حسن الزيات

في معرض الآراء

للأستاذ عباس محمود العقاد

كتب الأستاذ أديب عباسي في بعض الأعداد القريبة من الرسالة مقالاً سأل في عنوانه: (هل انتهت السياحات والكشوف الظاهرة في القرن السابع عشر أو بعده؟) ثم عاد سائلاً فيه: (أصحيح أن الكشوف الظاهرة أو الكشوف الجغرافية انتهت في القرن السابع عشر أو حواليه، ومن ثم بدأت الكشوف الباطنة للنفس كنتيجة لانصراف الذهن البشري عن الدراسات والسياحات الظاهرة إلى الدراسات والسياحات الباطنة؟! إنني أشك في صحة هذا الزعم، بل أكاد أنفيه قاطعاً)

ثم استطرد في جوابه قائلاً: (ليست السياحات الظاهرة وقفاً على الضرب في مجاهل الأرض واكتشاف كل رجأ من أرجائها؛ وليس الاستشراف للمجهول في خارج حدود النفس الإنسانية قاصراً على الحدود الجغرافية لقارات الكرة الأرضية؛ فهناك السماء بعوالمها الشاسعة، وأكوانها المبثوثة في رحاب الكون، وأسرارها المحيرة؛ وثمة الذرة بصفاتها العجيبة وسلوكها الغريب وأسرارها الدقيقة؛ وهناك أمواج الأثير من ضوء وحرارة وكهرباء وأشعة كونية. . .) إلى أن قال:

من يستطيع أن يقول: إن الكشوف الظاهرة التي تمت في القرنين الثامن عشر (والتاسع عشر وبداءة هذا القرن في عوالم الطبيعة والحياة تقل روعة وأسراً للخيال وشدْها للإنسان عن أروع المغامرات الجغرافية التي تمت في القرن السابع عشر أو بعده؟ ثم هذه الكشوف الجغرافية ذاتها هل انتهت حقاً في القرن السابع عشر؟ أين مغامرات سكوت وشاكلتون وبيرو وغيرهم. . .)

ومن طرائف المناقشات أن تأتي هذه المناقشة من الأستاذ أديب عباسي تعقيباً لما أسلفناه في مقال (الحدود الحاسمة) الذي قلنا فيه إننا قد نستغني في الحدود والتعريفات عن الإحصاء والاستقصاء لما هو معلوم غني عن البيانات من ضرورات الاستثناء في كل قاعدة. فإذا قال الإنسان إن النهار مضيء وإن الليل مظلم فليس من الواجب بعد ذلك أن يحصي أيام الغيم ولا الأغوار المحجوبة التي تظلم بالليل والنهار فقد حدثت كشوف جغرافية في القرن التاسع عشر والقرن العشرين، ولكنها كلها لا تخرج عن (المتممات) التي تأتي بعد الفراغ من الأسس والأركان واستقرار البناء على نظامه الأخير. وكذلك نقول مثلاً إن القرن التاسع عشر كان قرن الانقلاب الصناعي ولا نمنع بذلك استمرار الاختراع في عالم الصناعة إلى القرن العشرين بل إلى هذه الساعة فالأرض نفسها كانت مجهولة قبل الكشوف التي بلغت أوجها في القرن السابع عشر وما حواليه والبنية الإنسانية نفسها كانت مجهولة قبل تلك الكشوف، فكان من الناس من ينازع في شكل الأرض وفي القرار الذي هي قائمة عليه؛ وكان منهم من يزعم أن الإنسان في بعض الأصقاع يشبه الكلاب أو يشبه الغيلان، ويجري التناسل بينه وبين فصائل شتى من الحيوان

فلما انتهت كشوف القرن السابع عشر انتهى الخلاف في أمر الأشكال والظواهر، وانفتح المجال للبحث في الحقائق والبواطن، أو لمعرفة الإنسان نفساً بعد أن عرفناه تركيباً ووضعناه في موضعه من عالم الأحياء الظاهرين

ولقد ذكر الأستاذ (أديب) كشوف الكواكب وكشوف الذرة وأمواج الأثير والأشعة الكونية، إلى أمثال هذه الكشوف العلمية التي حدثت بعد القرن السابع عشر ولا تزال تحدث في هذه الأيام

ولكن ما شأن هذه الكشوف وما نحن فيه؟ وأين هي من (الحاسة الاجتماعية) التي تتعلق بها القصص وأبطال الرواية وأبطال السياحات؟ أو التي تتعلق بها الديمقراطية وما لها من الأثر في وصف المجتمع وتحليل أفراده وطبقاته؟

فالسائح الذي يعود من الأقطار الأسيوية وقد روى لأبناء وطنه أنباء البذخ والفخامة ونوادر الذهب والفضة والجواهر والنفائس في أيدي الناس؛ يلهب أشواقهم ويعلق آمالهم وأحلامهم وأوهامهم أضعاف أضعاف ما يفعله كشف الذرة وما إليه من كشوف لا تتصل (بالحاسة الاجتماعية) إلا من بعيد

وألف كشف من كشوف (الذرة) لا يغير وصف الأبطال في القصص والروايات إلا أن يصل إلى اختراع طيارات أو سفن أو أسلحة أو ما شابه هذا من أمور تتصل (بالحاسة الاجتماعية) على نحو من الأنحاء

فالمعول فيما كنا نبحثه من اختلاف وصف الأبطال في القصص بين العصور القديمة والعصور الحديثة إنما هو على شعور الناس بها، أو تعلق (الحاسة الاجتماعية) بموضوعها، وليس المعول على حدوثها في عالم الواقع أو تسجيلها في دواوين العلماء و (الذرة) بعد لا يكشفها إلا عالم أو مشتغل بعلم وصناعة؛ أما البقاع فيكشفها كل من شاء الرحلة من المغامرين، ويعني بها كل من قعد وراءهم من المتخلفين، ويشتغل بها من يراقب الجماهير ويدرس النفوس ويسجل أطوار الشعوب والأفراد. فهي لا تنعزل

عن الحياة الاجتماعية ثم الحياة النفسية التي هي موضوع الروايات ومحور وصف الأبطال، وليست كذلك كشوف الكواكب أو كشوف الذرات
ولعل فيما تقدم توضيح ما التبس على الأستاذ (أديب) فهو غني عن المزيد من التوضيح
وقد كتب إلينا الأستاذ عبد الحميد العبادي يسأل عن كتاب الدكتور ويلكوكس وأسمه باللغة الإنجليزية، فذكرنا هذا الاسم في العدد الـ (236) من الرسالة، ووعدنا بالإجابة عما استوضحه الأستاذ من أثر الطريقة الزراعية الحديثة في أحوال العالم بأسره، وأنه ربما فاق في اتساعه وبعد مداه أثر الانقلاب الصناعي منذ قرن من الزمان
أما شرح الطريقة الزراعية العلمية التي تكفل لكل قطر من الأقطار أن يعيش على موارده الداخلية فليست الرسالة محله، ولسنا نحن أصحاب الاختصاص فيه
وأما الأثر الاجتماعي فيستطاع العلم به إذا عرفنا ما كان من أثر الانقلاب الصناعي في القرن الماضي، وعرفنا البواعث التي أفضت إلى ذلك الأثر ولا تزال تفضي إليه
إن الانقلاب الصناعي قد أحوج الدول إلى مستعمرات لجلب (الخامات) وبيع المصنوعات وتسخير الأيدي العاملة بأبخس الأجور
وإن الانقلاب الصناعي قد أخرج للأمم طبقات العمال وأثار بينهم وبين أصحاب الأموال ذلك الصراع الذي قوض ما قوض من دول، وأقام ما أقام من مذاهب في السياسة والدين والأخلاق
وإن الانقلاب الصناعي قد أذكى ضرام التنافس بين الحكومات، وأنشب ما أنشب من حروب وثورات
فكل هذا يتغير لا محالة إذا استغنت كل أمة عن الخامات واستغنت عن الأسواق
كل هذا يتغير إذا نجحت طريقة المجددين في الزراعة العلمية واستطاعت الأمم أن تعيش على مواردها الداخلية كما يقول الدكتور ويلكوكس في كتابه الذي أشرنا إليه
كل هذا يتغير، ويتغير معه تقسيم المجتمع وتقسيم الثروة وتقسيم عناصر الحكومة وتقسيم عوامل السياسة وما يتبعها من أهبة الحرب وأهبة الفتح وأهبة (التحالف) من جهة، والتعادى والتباغض من جهة أخرى
لا خامات في الخارج فلا مستعمرات، ولا أسواق في الخارج فلا منافسات، ولا احتكار فلا تكديس للثروة ولا نزاع بين العاملين وأصحاب رؤوس الأموال، ولا تسليح من ثم ولا توجيه للمصانع إلى غير المفيد من صناعات العمار والإنشاء دون التدمير والتقويض.
وإذا احتاجت الأمم إلى بعض الخامات أو بعض الأسواق، فإنما يكون ذلك في أمان واستقرار وتعاون واشتراك على النحو الذي يجري به البيع والشراء بين الأفراد، أو على النحو الذي يجري به التبادل بين جماعات التعاون ولا سيما في بلاد الشمال ونعني بها بلاد الدنمرك والسويد والنرويج
ذلك مجمل الدعوة التي يبشر بها المجددون في علم الزراعة والمشفقون على بني الإنسان من أهوال الحروب
والمذهب معقول في أصوله وفروعه. ولو أنه مشكوك في مقدماته أو في نتائجه لكان مع ذلك جديراً بالبحث والمتابعة والجد في تحقيق ما يستطاع من خيراته وحسناته، لأن متابعة الأحلام قد تجوز إذا عظمت الغاية وعظم الخطر المرهوب. وأي غاية أعظم من اتقاء الحروب؟ وأي خطر أعظم من خطر الفجائع التي تطبق على الشعوب المسوقة إلى تلك الحروب؟
إن متابعة الأحلام قد تجوز في هذا المقام، فكيف بالبحوث العلمية وكيف بالوقائع والأرقام؟
عباس محمود العقاد
ليلى المريضة في العراق
للدكتور زكي مبارك
- 9 -
خرجت من عند ليلى وقد انتصف الليل، فما كدت أبلغ الجادة حتى لمحت إنسانة تعدو خلفي في الدربونة فالتفت فإذا هي ظمياء
- دكتور، متى أرجع إليك؟
- حين تشائين يا ظمياء، ولكن ما الموجب لهذا الاستعجال؟

- هل نسيت البقية من قصة ليلى مع عبد الحسيب؟
- ما نسيت. ارجعي إليّ مساء الغد يا ضمياء، ومعك ماعون من الكُبّة الموصلية
لا موجب للنفاق في هذه المذكرات. إن ظمياء فيما يظهر تتشهى أن تتكلم في عبد الحسيب؛ وأنا فيما يبدو أتشهى الكلام عن درية؛ وأكرر ما كتبته من قبل: (إني لا أعرف كيف يلذعني هذا الاسم) وربما كان هذا من جنون الشعراء، فأنا شاعر مقل، ولكن الإقلال لا يمنع من التشرف بجنون الشعراء. ولعل الإقلال أدل على الجنون؛ وإلا فما كان الذي يمنع من أن أفجع العالم بعدة دواوين ليصبح شعري حديث الأدباء في سائر البلاد؟

درية! درية! ما أعذب هذا الاسم! وما أشقاني في (استلطاف) الأسماء!

رجعت إلى المنزل وأنا أتشوق إلى اقتيات النعاس، فقد كنت انتشيت في حديث ليلى، والمنتشون يتشوقون إلى الهجود؛ كذلك سمعت. ولكني صادفت ما أطار النوم من رأسي، فقد وجدت جريدة الشباب بين البريد وفيها هذه الكلمات:

(فجع الأدب والعلم ونكبت الأخلاق الكريمة بوفاة الأديب الكبير المحقق والكاتب العبقري المنقطع النظير المرحوم الأستاذ محمد صادق عنبر المنشئ الشهير واللغوي المعروف، فقوبل الخبر بحزن شديد، وألم عميق، لما أشتهر عن المرحوم من واسع العلم والإطلاع وصدق الوداد ومكارم الأخلاق)

وقد هدني هذا الخبر المزعج، ونشر أمام عيني كثيراً من الصور والأطياف، فتذكرت أني رأيت صادق عنبر أول مرة سنة 1923 في جريدة الأخبار، فسألني عمن أفضل من الشعراء فقلت: شوقي. فقال: أسألك عن الشعراء الثلاثة. فقلت: من هم؟ فقال: أبو تمام والبحتري والمتنبي. فقلت: أنا أفضل الشريف الرضي على هؤلاء الثلاثة. فاستغرب وقال: هذا كلام لم يقل به أحد سواك!

وتذكرت أني كنت أتلقى مجلة النهضة النسائية وأنا في باريس سنة 1927 وفيها رسائل وجدانية عنوانها: (الرسائل الضائعة) وهي رسائل نفيسة بقلم صادق عنبر، فلما لقيته بعد حين أثنيت عليها، فقال وهو يتوجع: ليتها كانت صحيحة، فهي خيالية! فقلت: ليتك تمضي في هذا النظام البديع!

وبعد رجوعي من باريس في سنة 1931 كان أول من سأل عني، فمررت عليه في قلم المطبوعات فحبسني ساعتين ليمتع أذنيّ برسائله: (رسائل الحب بين قيس وليلى) فقلت: أهي أيضاً رسائل خيالية؟ فتنهد وقال: لو كانت تنبئ عن وجد دفين لما كان جسمي أضخم جسم في هذه البلاد؟ فنصحته بتكلف العشق ليخف وزنه فيمسي وهو فتى رشيق؟

وتذكرت أني أردت مداعبته في جريدة البلاغ سنة 1935 فذهب إلى صديقي الأستاذ كامل كيلاني وقال له: قل للدكتور زكي مبارك: إن صادق عنبر لن يقرأ البلاغ ولن يعرف ماذا يقول؛ فليثق حضرته بأن الأرض لن تُزلزل تحت قدميّ، ولن يتقوض ماضي صادق عنبر لأن زكي مبارك يهجم عليه في جريدة البلاغ!

وتذكرت والدمع يملأ عيني أن الأستاذ محمد علي الطاهر أراد أن يحتفل بسفري إلى العراق فدعاني إلى الغداء عند العجاتي مع جماعة من أهل الأدب والعلم والبيان، كان فيهم الأستاذ صادق عنبر، ولكنه يومئذ لم يشترك في أطايب الحديث، فهل كان انتهى من دنياه؟

يرحمك الله يا صديقي، ويرحم عهدك في جريدة اللواء، يوم كان أكثر كتاب اليوم أطفالاً يلعبون!

الشجي يبعث الشجي!

هل أستطيع أن أنتهز هذه الفرصة فأدون في هذه المذكرات حادثة عجزت عن تدوينها منذ أشهر طوال؟ هل أستطيع أن أقول بصراحة إنني كنت من أشد الناس ارتياحاً إلى اصطخاب الجدل السياسي في مصر؟ لقد آن لقلبي أن يفصح عن بلائه المكنون. إن الجدل السياسي في مصر كان نعمة وارفة الظلال لأنه استطاع أن يشغل صديقي الأستاذ عباس الجمل عن أفدح نكبة أصيب بها في دنياه، وهي اختصار الغصن المطلول الذي أسمه

طاهر عباس الجمل الطالب بكلية الحقوق
آن أن أصرح بأن هذا الأديب المفقود كان يحفظ ديواني، وأنه تفضل فأسمعنيه قبل أن يذهب إلى دمياط بيوم واحد. آن أن أصرح بأن هذا الشاب كان يراني أكرم أصدقاء أبيه، وكان يرى من البر أن يحفظ أشعاري ويقتني مؤلفاتي. آن أن أبكي هذا الشاب النبيل الذي كان أطهر ضحية ظفرت بها الأمواج
لقد حضرت الذكرى الأخيرة من ذكريات سعد زغلول وكان مجلسي في السرادق يواجه مجلس النقراشي باشا فلم أسلم عليه؛ وظن بعض الحاضرين أنني خشيت أن يكون في السلام عليه ما ينقض مودتي للنحاس باشا. فهل أستطيع أن أنص في هذه المذكرات على أنني لم أخف يومئذ إلا أن يقع بصري على الأستاذ عباس الجمل فأذكره بتلك المصيبة التي تذيب لفائف القلوب؟
كان طاهر الجمل لا يلقاني في الطريق إلا دعاني إلى رؤية منزلهم الجديد في مصر الجديدة، وكان يغريني فيقول: إن لونه كالشليك!
ولكني لم أطعه ولم أر المنزل. وما أظنني سأراه في بقية حياتي، لأن جزعي على طاهر خليق بأن يقتلني إذا رأيت ما كان يهواه في دنياه
أخي الأستاذ صادق عنبر
أرأيت كيف كانت مصيبتي فيك باباً من البلاء!
إن طاهراً في نضارته كان مثلك في ذكائك؛ وعبقرية النضارة لا تقل روعة عن عبقرية الذكاء. وأنت قد تجد من يحبر الرسائل الطوال في الثناء عليك، ويقيم لك حفلات التأبين؛ أما طاهر الجمل فيستصغر ناس قدره، لأنه كان طالباً بالسنة الثالثة بكلية الحقوق، فلم يبق إلا أن أقف وحدي لبكاء تلك الزهرة النضيرة التي اقتطفها الموت في شاطئ دمياط
وما يؤذيني وأنا أكتب هذه الكلمات إلا أن تحمل نسائم الهواء إلى الأستاذ عباس الجمل أنني فكرت في طاهر، فيتذكر أنني ما عزيته فيه، فيتجدد عتبه على صديقه القديم، أو يؤذيه أن يتذكر ابنه بعد تناس؟ ولكن كيف يتناساه بعد أن نعم بوجهه وروحه سنين وسنين، وأنا ما نسيته مع أن بصري لم يقع على وجهه الجميل غير مرات؟
يا طاهر!
اذكرني عند ربك، وقل إن في سكان الأرض ناساً يحفظون الجميل!
وقضيت تلك الليلة وأنا مؤرق الجفون؛ وزاد في الغم والحزن أن الوهم خيل إليّ أن صادق عنبر قد يكون مات بسبب ليلى، مع أن ليلاه خيالية، فكيف يكون مصيري وليلاي امرأة رخيمة الصوت ساحرة العينين تقيم بشارع العباس بن الأحنف في بغداد؟!
وفكرت ثم فكرت، والشجون من جملة الأرزاق!
ولكن وقع حادث طريف خفف ذلك البلاء:
فقد صمم سعادة وكيل وزارة المعارف العراقية أن يزورني في منزلي ليؤدي واجب التحية لرجل هجر وطنه وأهله ليتشرف بخدمة الأدب العربي في العراق؛ وكانت زيارته في الليل، فراعه أن يرى الظلام يغمر السلالم والدهاليز، فاستشاط غضباً وقال: كيف يجوز لصاحب هذا المنزل وهو عضو بمجلس النواب أن يهمل الإضاءة الواجبة، وهو يعلم أن من سكان منزله صاحب النثر الفني؟ سأعرف كيف أحاسب ذلك النائب وكيف أقهره على تعميم النور في دهاليز ذلك البيت؟
فقلت وأنا أتخوف العواقب: أنا مطمئن إلى هذا الظلام يا سعادة الأستاذ!
فقال: وأنا أخشى أن تشكونا إلى مجلة الرسالة أو جريدة البلاغ ولم يمض يومان حتى نفذ النائب المحترم ما أراد سعادة الوكيل؛ ولكن ظمياء استرابت بهذه الأنوار ورفضت دخول البيت!
- ماذا تخافين يا ظمياء؟
- أخاف الأقاويل والأراجيف
- من المفهوم أنك وصيفة ليلى، وأني طبيب ليلى
- هذا كلام لا يصدقه غير المطلعين على ما جرى في هذا الشأن من المخابرات بين الحكومة العراقية والحكومة المصرية
- والجمهور؟
- أترى الجمهور يصدق حقيقة أنك جئت لمداواة ليلى المريضة في العراق؟

- خبر أسود!
- خبر أسود، خبر أبيض، خبر بنفسجي، خبر عنابي، خبر برتقالي، خبر بني، خبر خمري، أنا لا أدخل هذا البيت في هذه الأنوار وكل سكانه يعرفون أنك رجل وحيد
- نعم، أنا رجل وحيد
- وحيد، أعني تعيش وحدك
- مفهوم، يا ألأم النساء في بغداد
- إيش لون؟
- لا شيء، أقول إنه لا موجب لهذا التخوف، فأنا طبيب ليلى وأنت وصيفة ليلى
- اسمع يا دكتور، أنا أثق بأمانتك، وليلى لم تنهني عن التودد إليك، ولكني لا أقبل أن أكون مضغة الألسنة في هذا الخان
- ومن الذي سيعرف مثلاً أنك ظمياء؟
- يجب أن تفهم أنك في بغداد!
- باسم الله الحفيظ!
- أسمع يا دكتور! يظهر أنك رجل طيب أكثر مما يجب. إن التعرض لأقوال الناس كالتعرض لأقوال الجرائد؛ وربما كان كلام الجرائد أسلم عاقبة من كلام الناس، لأنك تستطيع أن تكذب ما تنشر الجرائد من الباطل فتدفع ما تؤذيك به من بهتان؛ أما كلام الناس فلا سبيل إلى دفعه لأنه ينتقل من أذن إلى أذن ومن لسان إلى لسان، ثم لا تمضي غير أيام حتى يأكل لحمك المفترون، ويأثم بسببك الأبرياء
- وماذا أصنع يا ظمياء؟
- ارحل عن هذا البيت
- وكيف بعد أن تكلف صاحبه ما تكلف في تبديد الظلمات؟
- اختلق سبباً من الأسباب
- أختلق؟!
- الاختلاق مما يجوز في بعض الأحيان

وعندئذ تذكرت أن الأستاذ بهجة الأثري كان اقترح على صاحب البيت أن ينظم الحمام ولم يفعل؛ فطمأنْتُ ظمياء. ومضيت فقضيت معها السهرة في بيت أمها، وهو منزل صغير في درب ضيق لم أسأل عن أسمه، وهو درب يشبه ما يسمونه في مصر: شق الثعبان

وفي صباح اليوم التالي قابلت حضرة النائب المحترم وذكرته باقتراح حضرة الأستاذ بهجة الأثري، فأراد أن يتحلل من الوعد فتكلفت الغضب وقلت في سخرية مصطنعة: كذلك تكون وعود النواب!!

ولم تمض غير ساعات حتى انتقلت إلى منزل آخر في شارع السموءل

ولكن كيف انتقلت بهذه السرعة في يوم واحد؟

ذلك أمر كان يعجز عنه السنهوري والزيات وعزام

والواقع أني رجل خطر جداً، فقد أمسيت أعرف بغداد كما أعرف باريس؛ ومعرفتي بهاتين المدينتين تساوي جهلي بمدينة القاهرة التي لا أعرف منها غير ثلاثة أحياء. أما الإسكندرية فلا أعرف منها غير الشاطئ الذي تعطره أنفاس الملاح في الصيف

ولكن لماذا اخترت شارع السموءل؟

لأنه شارع البنك وجميع سكانه من أهل المال، وأهل المال في الأغلب لا يعتدون على الأعراض، وإنما يعتدون على الجيوب. فالشرطة في مثل هذا الشارع لا تفكر في الفجرة وإنما تفكر في اللصوص، وكذلك تعودني ظمياء بلا تهيب، لأن المآثم في هذه الجادة قليلة الخطورة بالبال، وذلك كل ما أتمناه للسلامة من أهل الفضول

وقد عز عليّ أن يتطاول بنو إسرائيل على اسم السموءل فيسموا به شارع البنك؛ وكان السموءل على يهوديته عربياً سخي اليدين، فما كان ضرهم لو نطقوا أسمه على طريقتهم فقالوا (صمويل). ثم تذكرت أن السموءل كان أقدم من عبر عن ضمائر البنوك حين قال:

وننكر إن شئنا على الناس قولهم ... ولا ينكرون القول حين نقول

فالبنك هو الذي ينكر ما تقول، ولا تستطيع أن تنكر ما يقول، فهو الفيصل في التصحيح والتزييف

ولعل انتقالي إلى شارع السموءل يدخل على طباعي بعض التعديل. ولعلني أكتسب شيئاً من أخلاق بني إسرائيل، فان الحب يبدد ما اجمع من المال. أليس من السفه أن أراني مسئولاً عن طوائف من البيوت تُسدل ستائرها على طوائف من الوجوه الصِّباح؟ وهل رأى الناس حالاً أغرب من حالي وأنا أنفق على بيت في النمسا منذ سبع سنين لأن فيه فتاة جميلة كانت ترافقني في السوربون؟

أمري إلى الهوى!

تركت أول منزل سكنته في بغداد. ويا حسرة القلب على فراق ذلك المنزل الجميل! فقد كان صورة صحيحة للمنزل الذي كنت أسكن فيه حين كنت طالباً بالأزهر الشريف. كان صورة لربع يعقوب بالغورية، على أيامها السلام! وكانت جاراتي في ذلك الربع من الغيد الحسان، وكان فيهن اسرائيلية تأتمنني على كل شيء وتقول: الشيخ زكي مسلم ولكنه ابن حلال

وكنت حقاً ابن حلال. كنت مستقيماً أؤدي الفرائض وأقرأ الأوراد، وما تغير حالي إلا منذ استطعت أن أقول: بونجور مدموازيل! بونسوار مدام!

لم أفارق منزلي في شارع الرشيد بدون حسرة لاذعة، فقد أقمت فيه ثلاثة أشهر أنشأت فيها تسعمائة صفحة، واستقبلت فيه ظمياء تسع مرات، وهو يذكرني بمأواي القديم في ربع يعقوب الذي ألفت فيه كتاب الأخلاق عند الغزالي، واستقبلت فيه الشيخ الزنكلوني والشيخ عبد المطلب؛ ويذكرني بأول منزل سكنته في مصر الجديدة وهو الذي ألفت فيه كتاب التصوف الإسلامي، واستقبلت فيه الدكتور طه حسين والمسيو لالاند والمسيو ماسينيون؛ ويذكرني بغرفتي بشارع أراس في باريس، وهي الغرفة التي ألفت فيها كتاب النثر الفني، وسمعت فيها أنغام اللغة الفرنسية كما ينطقها بناتها، وكما يلحن بها الإنجليزيات والأسبانيات والنمسويات والألمانيات، ولا سيما الشقراء التي ما كانت تتكلم بغير الغناء:

هل الله عافٍ عن ذوب تسلَّفتْ ... أم الله إن لم يَعْفُ عنها يعيدها؟

أمري إلى الهوى!!

لقد انزعج صاحب المنزل حين رأى الحمالين من الأكراد ينقلون أثقالي، وبالغ في التلطف ليردني إلى المنزل. ولكن هيهات، فأنا طبيب أفسده الأدب والطبيب الفاسد لا يطاق

أنا أعرف أني خاصمت نائباً، ولكن يعزيني أن نواب العراق لا يلتفتون إلى المسائل الشخصية، فلن ينالني شر من هذا النائب على الإطلاق. وسأرجو الأستاذ معروف الرصافي أن يصلح ما بيني وبينه إن رأيت ما يوجب ذلك. . . وهل من الكثير أن أخرج على أصول الأدب والذوق في سبيل ظمياء؟ إن هذه الوصيفة تعرف جميع أسرار ليلى، وهي أيضاً ستحدثني عن درية. ويا لوعة القلب من طيف درية! فهل يتلطف الحظ فيمتعني بهوى امرأة تحمل هذا الاسم الجميل؟!

إن أحزاني لا تحملها الجبال، ولكن الله بعباده رؤوف رحيم؛ فهو يسوق إليّ موجبات الأبتسام، أنا الرجل الحزين الذي لم يعرف قلبه الفرح منذ سنين، وكيف أفرح وقد طلبني أبي يوم موته أكثر من خمسين مرة فلم أكد أصل إليه حتى بكته النائحات؟ انتظرت ظمياء في المنزل الجديد وأنا محزون، وأشهد أني مُكره على تأدية هذه الخدمة الوجدانية. فما أعرف كيف يصير حالي مع ليلى، ولعلها تُعافَى ويمرض الطبيب!

ودخلت ظمياء وهي تُرغي وتُزبد

- هل عرفت ما صنعت المرأة جميلة؟

- ماذا صنعت؟

- لقد مزقت قمصانك بعد أن غسلتها وكوتها

- عجيب! ولماذا؟

- لأنها قرأت في مجلة الرسالة أن أسمها جميلة، واسمها الحقيقي هو . . .

وعندئذ ضحكت ضحكة قوية كادت تمحو سطور الأحزان من القلب العميد

إن تلك المرأة لم تعرف إحساني إليها بتلك التسمية، فقد خلعت عليها اسماً أحبه أصدق الحب، ورحمتها من الاسم الذي كانت تحمله، لأنه يقربها من شيخ أبغضه أشد

البغض، ويكفي أن يكون أسمها واسمه مبدوءين بحرف الحاء
تلك امرأة حمقاءّ! ولكني لن أنسى معروفها عندي، فقد كانت أول امرأة خدمتني في بغداد. ولو رآها الجاحظ لصاغ لها عقود الثناء
- ظمياء
- نعم يا مولاي
- لا أريد أن أسمع اسم هذه المرأة مرة ثانية، ولا أحب أن أراها بعد أن مزقت قمصاني
- وأنا أكره لسيدي الطبيب أن يتصل بهذه المرأة فقد بدأت تغتابه منذ يومين
- تغتابني؟ وما عساها أن تقول؟
- تقول إنك تحب ليلى
- أنا أحب ليلى؟ وهل جننت حتى أحب امرأة عليلة لا تملك من شواهد الحياة غير صوت
بَغوم وطرف يشيع فيه التكسر والنعاس؟
- إيش لون؟
- ما أدري يا ضمياء
- الأفضل أن نعود إلى قصة عبد الحسيب
- أو قصة درية
- قصة عبد الحسيب
- قصة درية، قصة درية
- وهل تكره قصة عبد الحسيب؟
- قصي على حديث الأخوين: درية وعبد الحسيب
- وأخذت ليلى تقلب الجرائد بحضور السيدة نجلاء فرأت في السياسة الأسبوعية مقالة في رثاء أستاذ مستشرق أسمه بول كازانوفا كتبها أستاذ مستغرب أسمه طه حسين.
وتدخل الشيخ دّعاس ليشرح المراد من الاستغراب والاستشراق
(للحديث بقايا)

زكي مبارك

الأدب في العراق

كلمة تشخيصية أولى

للأديب السيد عبد الوهاب الأمين

- 1 -

الأدب بعد الحرب

دعي القرن العشرون قرن المدنية والنور؛ ولقد كانت مفاخر العصور السابقة من طراز آخر غير المدنية وغير النور، فمفهوم (المدنية) لا زال مقروناً بالحرب والدمار، ولا يزال النور مقصوراً على الماديات دون المعنويات. وقد قامت بعد الحرب العظمى هيجة صاخبة أيقظت جميع الشعوب، كان قوامها نهضة أدبية شاملة، لا تزال بقايا منها محتفظة بفعالية ظاهرة. وهانحن أولاء نرى في كل يوم دليلاً جدياً على هذه النهضة الأدبية الكبرى، فيما تستبق إليه المطابع العربية من نشر مؤلفات جديدة لشخصيات أدبية عالية من طراز لم تعهده البشرية قبل الحرب العظمى؛ فكان من الطبيعي أن يثار التسآل عن هذا الأدب وهذه النهضة الأدبية، وما محصولها وقوامها وجدواها؟ وهل الأدب لهو يزجي الإنسان به ساعات فراغه ليعتصم به من مفاسد الفراغ كما يقول الشاعر؟ أو هو ضرورة من ضرورات الحياة المدنية ودلالة على الحياة المعنوية المكتملة؟

إن كانت لهواً فالأدب كالحياة لهو لا مفر منه، وإن كان يفوقها بأنه لهو له جدواه ودلالته، وهي مقصورة الدلالة على أنها لا جدوى لها؛ وهو إحدى ضرورات الحياة الشاعرة المدركة ودلالاتها؛ وبغير فضيلتي الشعور والإدراك لا تبقى من معاني الحياة غير الناحية البهيمية التي يترفع البشر المدرك أن يقتصر عليها. والأدب - وهو وصف الحياة الصادق - مقرون بالحياة ومحمول عليها؛ فإن كانت حياة رفيعة فهناك أدب رفيع، وإن كانت منحطة فأدب منحط؛ وفي هذه الناحية يؤيدنا التاريخ تأييداً لا يستدعينا البرهان

ونعتصم بالتاريخ مرة أخرى فنراه يقول: (إن نهضة من النهضات في الشعوب العالمية لم تتم إلا بعد أن تقدمتها حركة أدبية). وقد سجل هذا التاريخ في صفحاته مجداً لفولتير ورسو كمجد نابليون وروبسبير؛ ولسنا نعني أن الأدب بصورة مجردة يتقدم ظهوره في نهضات
الشعوب، بل المقصود أن تقدم ظهوره في مثل هذه الحالات إنما هو دليل قاطع على نهضة تلك الشعوب وإنذار وبلاغ بنهضة مقبلة على الفور، وما نريد أن نعني بالأدب غير البلاغ والإنذار
هل الأدب ضرورة؟
ليس من شك في أن الأدب ضرورة
وهو ضرورة لا تشبه غيرها من ضرورات الحياة الكبرى، لأنها ضرورة شديدة الشبه بالحياة نفسها كما تقدم، وذلك لأنها حياة أخرى من دون لحم ودم. أو هي الحياة نفسها مخلدة على الورق، وفي بطون الكتب. وليس المقام مقام تمجيد للأدب ومغالبته في الحياة، وإنما هو مقام تعريف بقدره ومكانته بوجه عام، وما دمنا نريد لحياتنا العامة تقدماً واضطراداً. فأحرى بنا أن نوجه أنظارنا لتعرف آثار هذه النهضة المقبلة وما يجب أن يسبقها من البعث الأدبي
نظرتنا إلى الأدب ونتائجها
لذلك ينبغي أن نغير نظرتنا إلى الأدب، تلك النظرة السطحية التي تعودنا منذ عشرات السنين أن ننظرها إلى المحصول الأدبي وإلى أشخاص الأدباء، سواء الأحياء منهم والأموات. يجب أن نفهم أن الأدب ليس تزجية الفراغ، أو سمر العاطل، أو منادمة الميسور، أو ما يدخل في أمثال هذه المعاني مما درجنا على اعتقاده، فالأدب كما يفهم غيرنا قوة فعالة في الحياة اليومية والحياة العامة بصرف النظر عن مفهومه ودلالته
إن هناك خطراً خلقياً عظيم الأثر سنتعرض له، إذا استمرت نظرتنا إلى الأدب على ما هي عليه الآن من السطحية وقلة الشأن من جهة، ومن الخطأ الشائع في مفهومه وإدراكه من جهة أخرى. فالأديب في نظر الأكثرين منا هو الشخص الذي يعيش على هامش الحياة ولا يقيم وزناً لخارجياتها ومادياتها، ولا يسأل عما يقول أو يفعل، ويكفي أن يوصف الإنسان (بالأديب) لكي يفهم السامع أنه أمام شخص غريب الأطوار يعيش في عالم لا علاقة له بالحاضر ولا يطلب منه الاستعداد للمستقبل. وكذلك يتلقى أكثرنا كتابات الأدباء وقصائد الشعراء على أنها أقرب ما تكون إلى الآثار والعاديات
وقد كان لهاتين الحالتين نتيجتان أولاهما مادية والأخرى روحية، فالأولى أننا أصبحنا فقراء في أدبنا عالة على آداب غيرنا. فمنا من ينصرف إلى قراءة الأدب بإحدى اللغات الأجنبية إن كان يحسنها، والذين يجهلون تلك اللغات قد تعودوا القناعة بما تصدره مصر وسورية وبقية البلاد العربية من مطبوعات وكتب. والنتيجة الروحية هي هذه الحالة التي نوشك أن نحس بها جميعاً من القنوط من بعث أدبي لا نحس الحاجة إليه، ويقنعنا أن نكتفي بالتعيش على فيض مما تصدره جاراتنا العربيات من أدب يختص بهن، ولا يطمئن حاجاتنا الروحية أو يعبر تمام التعبير عن إحساسنا الفني
أدبنا كما ينبغي أن نفهمه
الأدب كما يفهمه هذا العصر لا ينحصر - كما يعتقد الكثيرون منا ممن اقتصرت ثقافتهم على نوع واحد من أنواعه - في القدرة على الأداء والتعبير الجميل، بل أصبح - بفضل الطباعة والصحافة - يضم إليه أشتاتاً أخرى من فنون لم تكن في العهد القديم تقرن به؛ وتطورت تسمياته فأصبحنا نسمع الآن (بأدب البحر) و (أدب الموسيقى) و (أدب الموقد) وما إلى ذلك من التسميات. وعهدنا نحن بالأدب أنه محصور في اللغة والبديع، والأمالي، والمقامات، وما إليها. ولكل من هذه الفنون - طبعاً - أصول ليس في مكنة الأديب أن يتعداها أو يغفل عنها؛ ومن هنا نتج الضيق فيما نسميه نحن أدباً ويسميه الغربيون عنا بينما هم يسمون الأدب باسم آخر
ولو أردنا أن نحصر مفهوم الأدب كما يذكره أبناء العصر الحاضر لما عجزنا عن ذلك فحسب، بل لكان عملنا - لو تم - ناقصاً في ذاته، بالغاً ما بلغ من كمال؛ ذلك لأن المفهوم عنه لن يقف عندما سوف نصل إلى تحديده وتعريفه، بل سيخلق وشيكاً غيره وغيره من فنون لا نستطيع منذ الآن أن نعطي فكرة عنها فنحن الآن مثلاً لا زلنا نعيش

في أدب الترسل واجترار الكلام على الأصول القديمة؛ أما في العالم فقد حدثت بعد دورنا هذا آداب جديدة: كأدب المقالة، وأدب القصة، وأدب الرواية، وأدب الترجمة ولن يستطيع أي مفكر وأديب كبير أن يتنبأ عن أدب العصر المقبل: ما هو؟ وكيف سيكون؟ وماذا يفيد؟ وما أسلوبه؟

علم الأدب

إننا نفهم الأدب الآن فهماً غريباً لا هو بسبيل فهم الأقدمين له، ولا هو على شاكلة ما يعنيه الغربيون ويصطلحون عليه؛ فقد كان شأنه في القديم عظيماً، وكان شخص الأديب عنصراً فعالاً في الحياة العامة. وحسبنا دلالة على مفهوم الأدب وفعاليته في تلك العصور ومقام الأديب في الحياة الاجتماعية أن الأقدمين كانوا يعزون الأدب فيسمونه (علماً) وهم يقصدون بالعلم ما نقصد العلم به الآن بهذه التسمية فيقولون (علم الأدب)! ويصفون الأديب بأنه عالم في علم الأدب

تطور مفهوم الأدب والصحافة

والأدب في العصر الحاضر له مفهوم تطور وترقي حتى زاد في علوه على ما كان له من المكانة في العصور القديمة، وأصبح شأنه في الحياة العامة أعمق وأخطر مما كان عليه في العصور التي سبقت المدنية الحديثة، وأصبح الإنسان لا يستطيع أن يتصور بلداً متمدناً من دون صحف وطباعة. وقد حاول أحد الكتاب أن يستمر في خياله عن مدنية كهذه، فانتهى به الأمر أن وكل نتائجها إلى الجنون. فقد أصبحت الصحافة سلاحاً وكانت في بداية أمرها لا تزيد على وسيلة بسيطة لزيادة المعلومات العامة ونشر الأخبار؛ وصارت (القصة) الفنية الأدبية وسيلة العالم في الدعوة إلى نظرية من نظرياته، والفيلسوف إلى نشر فلسفته، والسياسي إلى الدفاع والدعاوة عن سياسته، وغدا شخص الأديب متمتعاً بأكثر مما كان يتمتع به شخص الأمير من التجلة والاحترام والتقدير والمهابة في العصور السابقة

الأدب كما نفهمه نحن

أما ما نفهمه نحن عن الأدب فأنه ينحط إلى أقل من اللهو والمجانة، وبعض أساليب اللهو عندنا تستدعينا شيئاً من الجد والهمة في إحضارها والاستعداد لها، أما الأدب فلا نكاد نعتبره من الملاهي التي نجد في الحصول عليها، فان حصل من تلقاء نفسه فانه لا يكاد يعنينا إلا أن نكون نحن في حالة لهو، أو نتلقاه على أنه صنيعة لاه غير مسؤول عما يقول، في ساعة لهو خالية من خير أو من جد أو من منفعة. وهذا نهاية ما يصل إليه سوء فهم الأدب، وسوء تأويله، وخطر حالة مثل هذه لا يقتصر على تشويه جمال الأدب نفسه، بل يتعدى ذلك إلى خلق شعور العجز والمحاكاة والتقليد الأعمى كما نرى جماع ذلك في حياتنا الأدبية الحاضرة

لقد آن لنا أن ندرك حظ الأدب ومغالبته في الحياة العامة وتأثيره في إعداد الأجيال المقبلة الأعداد الذي يتفق مع ما سيحتاجون إليه من كفاءة وقدرة. ونحن مسؤولون أمام التاريخ عن إهمال الناحية الأدبية والفنية في حياتنا، كأفراد، كأمة، وكحكومة. وما دمنا نسعى إلى النهوض في جميع مناحي حياتنا العامة فأحرى بنا أن نضع نصب أعيننا ضرورة اعتبار الأدب بوجه عام من أهم ما ينبغي السعي على إحيائه والعمل على النهوض به. ولن يستدعينا العمل لهذه الغاية ما يستدعي الحياة المادية من تضحية في النفوس والأموال والكفاءات والجهود، بل كل ما نحتاجه في هذا المضمار هو تحسين نظرتنا إلى الأدب ومعناه وأثره واعتباره من الضرورات التي ينبغي أن نوحد الجهود في سبيل العناية بها في غمار ما نحن آخذون بسبيل السعي إليه من نواحي الحياة الأخرى، والكف عن اعتباره ألهية لا تستحق عنايتنا إلا بعد الإجهاد والنصب كما نتناول ألهيات الحياة وتفاهاتها. ولا نطمع في أن يصل تقديرنا هذا للأدب إلى أكثر مما وصل إليه فعلاً في أيام المتنبي وأبي نواس ومن عداهما وإن كان يحق لنا أن نحذو حذو أوربا والغرب في هذا المضمار وأن يكون تقديرنا له كتقديرهم له سواء بسواء

(للحديث بقية - بغداد)

عبد الوهاب الأمين

من برجنا العاجي

التجارب هي إحدى وسائل (العلم)، لعل ساعة (التجربة) هي أمتع لحظات (العالِم)

خطر لي مرة أن أقوم بتجربة غريبة ممتعة: أن أضع امرأة فاتنة بين إخواني الأدباء الأفاضل: العقاد وطه والمازني وأحمد أمين والزيات والبشري؛ ثم أنظر بعد ذلك ما يكون. إني على ثقة أنهم لن يناموا ليلتهم قبل أن يسطر كل منهم على الورق أشياء قد تكون من أجل ما كتبوا. إن المرأة الجميلة في مجلس الأديب لها فعل السحر. تستطيع بغير عصا أن تخرج جواهر البيان من أفواه الأدباء؛ إنا لا نكاد نجد أدباً من الآداب العظيمة لم يرو لنا خبر المرأة في مجلس الأدب؛ فإذا راجعنا الأدب العربي القديم وجدنا ذكر الجواري اللواتي كالشموس، الضاربات بالعود، اللاعبات بالنرد، الراويات للشعر؛ وإذا نظرنا في آداب الغرب في كل عصر وجدنا أخبار (الصالونات) وما فيها من أقمار كلهن ذكاء وثقافة ودلال. نعم؛ وهل يمر يوم على أديب من أدباء الغرب لا يجلس فيه إلى مائدة تزينها باقات النساء الجميلات؟! فيلبث ساعة يتحدث إلى ملكين رقيقين عن يمينه ويساره يقطر الوحي من شفتيهما، ثم يعود إلى عزلته وكتبه وورقه ليمضي في إنتاجه الأدبي، وهذا الإنتاج الذي نراه بعد ذلك آية من آيات الإعجاز! أما نحن فلا عرب بلغنا ولا غرب، ولا شموس حولنا ولا أقمار؛ ولكننا أدباء كالعناكب ننسج في الظلام، ونعيش في الجدب والحرمان؛ ومع ذلك ننتج أحياناً، وهنا حقاً آية الإعجاز! إن أولئك الذين يتهمون أدبنا الحديث بالتقصير هم قوم ظالمون أو أغرار لا يبصرون. إن أدباءنا المعاصرين لجبابرة مستبسلون، ومجاهدون مستشهدون، لم يعرف مثلهم أدب من الآداب. فما من أدب في التاريخ استطاع أن يظهر في ظروف اجتمعت على خنقه كهذه الظروف. اللهم إنَّا شهداء! اللهم إنّا شهداء!

توفيق الحكيم

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

1880 - 1937

للأستاذ محمد سعيد العريان

- 23 -

الرافعي والعقاد

لقد مات الرافعي - يرحمه الله - فانقطع بموته ما كان بينه وبين خصومه من عداوات. وما أريد أن أوقظ فتنة نائمة يتناولني لهيبها أولَ ما يتناول، فما لي طاقة على حمل العداوة، ولا اصطبار على عنت الخصومة، ولا احتمال على مشقة الجدال؛ وإنما هو تاريخ إنسان له على العربية حق جحده الجاحدون فنهضت للوفاء به؛ فإن كنت أكتب عن أحد من خصومه أو أصحابه بما يؤلم أو يسئ فما ذلك أردت، ولا إليه قصدت، ولا به رضيت؛ ولكنها أمانة أحملها كارهاً، وأضطلع بعبئها مضطراً، لأؤديها إلى أهلها كما تأدت إليّ. وإني لأعلم أني بم اكتب من هذا التاريخ أضع نفسي بالموضع الذي أكره، وأتعرض بها لما لا أتوقع؛ ولكن حسبي خلوص النية، وبراءة الصدر، وشرف القصد؛ ولا عليّ بعد ذلك مما يكتب فلان، ولا مما يتوعد به فلان؛ فإن كان أحد يريد أن يصل بي ما كان بينه وبين الرافعي من عداوة فانقطعت، أو يربط بي رابطةً كانت بينه وبين فلان فانفصمت، أو يتخذ من الاعتراض عليّ زلفى إلى صديق يلتمس ودَّه، أو يجعل مما يكون بيني وبينه سبيلاً إلى غرض يرجو النفاذ إليه، أو وسيلة إلى هوى يسعى إليه - إن كان أحد يريد ذلك فليمض على إرادته، وإن لي نهجي الذي رسمْت، فلتفترق بنا الطريق أو تلتق على سواء، فليس هذا أو ذاك بما نعى من المضيَّ في سبيلي. ومن الله التوفيق!

وهذه خصومة أخرى من خصومات الرافعي، ومعركة جديدة من معاركه. وإني لأشعر حين أعرض لنبش الماضي فأذكر ما كان بين الرافعي والعقاد، أني كمن يدخل بين صديقين كان بينهما في سالف العمر شحناءُ ثم مسحت على قلبيهما الأيامُ فتصافيا، فإنه ليُذكِّر بما لا ينبغي أن يُذكر. والموت يحسم أسباب الخلاف بين كرام الناس؛ فإذا كان بين الرافعي والعقاد عداوةٌ في سالف الأيام فقد انقطعت أسبابها ودواعيها، فإن بينهما اليوم لبرزخاً لا تجتازه الأرواح إلى أُخراها إلا بعد أن تترك شهواتها وأحقادها وعواطفها البشرية. فهنا ناموس وهناك ناموس، ولكل عالم قوانينه وشريعته؛ فما تخلص ضوضاءُ الحياة إلى آذان من في القبر، ولا ينتهي إلى الأحياء من عواطف الموتى إلا ما خلفوا من الآثار في دنياهم

هنا رجل من الأحياء، وهناك رجل في التاريخ، وشتان بين هنا وهناك؛ فما أتحدث اليوم عن خصومة قائمة، ولكني أتحدث عن ماض بعيد. والرافعي الذي يحيا بذكراه اليوم بيننا غير الرافعي الذي كان، فما ينبغي أن تجدد ذكراه ماضيَ البغضاء، وهذا عذيرى فيما أذكر من الحديث. . .

لم يكن بين الرافعي والعقاد قبل إصدار الطبعة الملكية من إعجاز القرآن غير الصفاء والود؛ فلما صدر هذا الكتاب في طبعته الجديدة أحدث بينهما شيئاً كان هو أول الخصام. . .

حدثني الرافعي قال: (سعيت لدار المقتطف لأمر، فوافقت العقاد هناك، ولكنه لقيني بوجه غير الذي كان يلقاني به، فاعتذرت من ذلك إلى نفسي بما ألهمتني نفسي، وجلسنا نتحدث. وسألته الرأي في إعجاز القرآن، فكأنما ألقيت حجراً في ماء آسن. . . . . ومضى يتحدث في حماسة وغضب وانفعال، كأن ثأراً بينه وبين إعجاز القرآن. ولو كان طعنه وتجريحه في الكتاب نفسه لهان عليّ، ولكن حديثه عن الكتاب جره إلى حديث آخر عن القرآن نفسه وعن إعجاز وإيمانه بهذا الإعجاز. . . . . أصدقك القولَ يا بني: لقد ثارتْ نفسي ساعتئذٍ ثورة عنيفة، فكدت أفعل شيئاً. إن القرآن لأكرم وأعز. . . ولكني آثرت الأناة. . .)

قال الرافعي: (وأخذت أناقشه الرأي وأبادله الحوار في هدوء وإن في صدري لمَرجلاً يتلهب؛ إذ كنت أخادع نفسي فأزعم لها أنه لم يتخذ لنفسه هذا الأسلوب في الهجوم على فكرة إعجاز القرآن إلا لأنه حريص على أن يعرف ما لا يعرف، وعلى أن يقتنع بما لم يكن مقتنعاً به؛ فأخذت معه في الحديث على هدوئي وثورة أعصابه. . . ولم أفهم إلا من بعدُ ما كان يدعوه إلى ما ذهب إليه. . .)

قال: (لقد كان العقاد كاتباً من أكبر كتاب الوفد، ينافح عنه ويدعو إليه بقلمه ولسانه عشر سنين، وإنه ليرى له عند (سعد) منزلة لا يراها لكاتب من الكتاب، أو أديب من الأدباء، وإن له على سعد حقاً؛ ولكن سعداً مع كل ذلك لم يكتب له عن كتاب من كتبه: (كأنه تنزيل من التنزيل، أو قبس من نور الذكر الحكيم) وكتبها للرافعي وليس له عليه حق مما عليه للعقاد. . .)

قال الرافعي: (. . . من هنا يا بني كانت ثورته. كانت ثورة الغيرة. . . لا ثورة الأديب الناقد الذي لم يقنع بما كتب الكتاب عن إعجاز القرآن فهو يلتمس المعرفة والاقتناع. وعرْفتُ ذلك من بعدُ، فما بدا عليّ ما في نفسي من الانفعال، ومضيت معه في الحديث في وجه جديد. قلت: أنت تجحد فضل كتابي فهل تراك أحسن رأياً من سعد؟)

قال الرافعي: (وفهم ما أعنيه فقال: وما سعد؟ وما رأي سعد؟)

قال الرافعي: (وطويت الورقة التي كان يكتب فيها حديثه فقبضت عليها يدي ثم قلت: أفتراك تصرح برأيك هذا في سعد لقرائك وإنك لتأكل الخبز في مدح سعد والتعلق بذكراه. . .؟ قال: فاكتب إليّ هذا السؤال في صحيفة من الصحف تقرأ جوابي كما عرفته الآن. . .!)

قال الرافعي: (وابتسمت لقوله ذاك وأجبته: يا سيدي، إن الرافعي ليس من الحماقة بحيث يسألك هذا السؤال في صحيفة من الصحف، فتنشر السؤال ولا ترد عليه، فيكون في سؤالي وفي صمتك تهمة لي، وتظل أنت عند قرائك حازماً أريباً بريئاً من التهمة مخلصاً لذكرى سعد!)

قال الرافعي: (وما قلتُ ذلك - وإن ورقته في يدي أشد عليها بأناملي - حتى تقبض وجهه، وتقلصت عضلاته، ثم قال في غيظ وحنق: ومع ذلك فما لك أنت ولسعد؟ إن سعداً لم يكتب هذا الخطاب، ولكنك أنت كاتبه ومزوره، ثم نحلته إياه لتصدر به كتابك فيروج عند الشعب!)

قال الرافعي: (وما أطقت الصبر بعد هذه التهمة الشنيعة، ولا ملكت سلطاني على نفسي، فهممت به. . فدخل بيننا الأستاذ صروف، فدعا العقاد أن يغادر المكان ليحسم العراك ويفض الثورة!)

هذه رواية الرافعي، حدثني بها غير مرة في غير مجلس، كما تحدث بها إلى غيري من أصدقائه وخاصته؛ فما لي فيها إلا الرواية والتصرف في بعض الكلام تأدباً مع الأستاذ العقاد وكرامة لذكرى الرافعي

على السفود

وفرغ الرافعي من مقالات عبد الله عفيفي التي كان ينشرها بعنوان (على السَّفُّود)؛ ثم ذهب
مرة لزيارة صديقه الأستاذ إسماعيل مظهر صاحب العصور، فسأله تتمة هذه السلسة
في نقد الأستاذ عفيفي، فاعتذر الرافعي وقال: حسبي ما كتبت عنه وحسْبه. قال الأستاذ مظهر: فاكتب عن غيره من الشعراء. إن في هذه المقالات لمثالا يحتذيه الذين يريدون أن يحرروا بالنقد عقولهم من عبادة الأشخاص ووثنية الصحافة!
فتنبه الرافعي إلى شيء في نفسه، وجلس إلى مكتب في دار العصور فكتب مقاله الأول من كتاب على السفود؛ وتوالت مقالاته من بعد في أعداد المجلة متتابعة في كل شهر. فلما تمت هذه المقالات نشرها الأستاذ إسماعيل مظهر في كتاب قدم له بمقدمة بإمضائه يبين فيها ما دفعه إلى نشر هذا الكتاب الذي لم يكتب على غلافه اسم مؤلفه، ورمز إليه بكلمة (بقلم إمام من أئمة الأدب العربي)
وفي الأسبوع المقبل إن شاء الله حديثنا عن الكتاب ونهجه
(شبرا)
محمد سعيد العريان
مصر وفلسطين
لأستاذ جليل
سمع الناس في الخافقين منذ أشهر كلمة مصر الإسلامية العربية في (دار العصبة) في شأن فلسطين وذلك التقسيم المقطَّع الممزِّق، وتلوا في هذا اليوم كتاب رجال من (دار الندوة) ومجلس الشيوخ فيها إلى سفير الإنكليز، وفي الكتاب ما فيه. وهذه كلمة ذات زئير ونهيم قالتها مصر منذ قرون حين سأل الغرب مثل الذي يبغيه اليوم. وقد رواها (صبح الأعشى) من (التعريف بالمصطلح الشريف)، وإنها لتنادي مفصحة مبينة على أن مصر هي مصر في كل وقت، وأنها لن تنام عن مظاهرة أخ في الدين أو العربية مستطاعة. وفي رواية (التعريف) ألفاظ عامية لا تنحط بها قيمها بل تغليها؛ وإن كثيراً من الباحثين اليوم ليهتمون بالوقوف على مثلها. وهذه هي الطرفة التاريخية:
قال في (التعريف): أما الرِّيد فَرَنسي فلم يرد له إلا رسول واحد أبرق وأرعد، وجاء) يطلب بيت المقدس على أنه يفتح له ساحل قيسارية أو عسقلان، ويكون للإسلام بهما ولاة
مع ولاته، والبلاد مناصفة ومساجد المسلمين قائمة، وإدارات قومتها دارّة، على أنه يبذل مائتي ألف دينار تعجل وتحمل في (كل) سنة، نظير دخل (نصف) البلاد التي يتسلمها على معدل ثلاث سنين، ويطرف في كل سنة بغرائب التحف والهدايا. وحسّن هذا كُتّاب. . . . . كانوا صاروا رءوساً في الدولة بعمائم بيض وسرائر سود، وهم أعداء زرق، يجرعون الموت الأحمر، وعملوا على تمشية هذا القصد وإن سرى في البدن هذا السم وتطلب له الدرياق فعز
وقالوا: هذا مال جليل معجل؛ ثم ماذا عسى أن يكون منهم وهم نقطة في بحر، وحصاة في دهناء؟
قال: وبلغ هذا أبي رحمه الله فآلى أن يجاهر في هذا، ويجاهد بما أمكنه، ويدافع بمهما قدر عليه، ولو لاوئ السلطان على رأيه أن أصغي إلى أولئك الأفكة، وقال لي: تقوم معي وتتكلم، ولو خضبت ثيابنا بالدم، وأرسلنا قاضي القضاة القزويني الخطيب، فأجاب وأجاد الأستعداد، فلما بكرنا إلى الخدمة وحضرنا بين يدي السلطان بدار العدل، حضرت الرسل وكان بعض أولئك الكتبة حاضراً، فاستعد لأن يتكلم، وكذلك استعدينا نحن: فما استتم كلامهم حتى غضب السلطان وحمى غضبه، وكاد يتضرم عليهم حطبه، ويتعجل لهم عطبه، وأسكت ذلك المنافق بخزيته، وسكتنا نحن اكتفاء بما بلغه السلطان مما رده بخيبته، فصد ذلك الشيطان وكفى الله المؤمنين القتال، وردت على راميها النضال؛ وكان الذي قاله السلطان: وَالْكم أنتم عرفتم ما لقيتم نوبة دمياط من عسكر الملك الصالح، وكانوا جماعة أكراد ملفقة مجمعة، وما كان بعد هؤلاء الترك، وما كان يشغلنا عنكم إلا قتال التتر، ونحن اليوم بحمد الله تعالى صلح (نحن وإياهم) من جنس واحد ما يتخلى بعضه عن بعض، وما كنا نريد إلا الابتداء: فأما الآن فتحصلوا وتعالوا وإن لم تجوا فنحن نجيكم لو أننا نخوض البحر بالخيل؛ وَالْكم صارت لكم ألسنة تذكرون بها القدس؛ والله ما ينال أحد منكم منه ترابة إلا ما تسفيه الرياح عليه وهو

مصلوب! وصرخ فيهم صرخة زعزعت قواهم، وردهم أقبح رد، ولم يقرأ لهم كتاباً ولا رد عليهم سوى هذا جواباً)
(الإسكندرية)
(* * *)
فلسفة التربية
كما يراها فلاسفة الغرب
للأستاذ محمد حسن ظاظا
(ليست الجماعة مجرد علاقات، ولكنها في كل منا، ثم هي ترتفع في أعظمنا إلى الدرجة القصوى)
(ماك إيفر)
(لو قد نشأ الفرد على المرونة والتجديد: لما استطاعت يد الرجعية الآثمة أن تعوق سير الحضارة، وأن تعبث بجلال الإنسانية)
(* * *)
(أليس في الطبيعة فرد مطلق غير الله تعالى، وما الفرد من بني الإنسان إلا جزء من والديه ومن خلية الحياة الأولى بل ومن الإنسانية ماضيها وحاضرها)
(برجسن) (وغيره)
الجماعة والفرد
رأيت فيما سبق بعض تطبيقات الديمقراطية، على الثقافة والمنهج، والمعلم والطالب، والمدرسة وطريقة التدريس، احب اليوم أن أكمل الناقص في ذلك، وأوضح الغامض، ولا سيما من ناحية الجماعة والفرد وما ينبغي أن يكون بينهما من علاقة ديمقراطية صحيحة تغرسها التربية الحديثة وتنميها
ما الجماعة وكيف نشأت؟ اختلف العلماء في ذلك وتباينوا؛ ومن اشهر نظرياتهم في ذلك دعوى (العقد الاجتماعي) التي قال بها (روسو) ومهما يكن من شيء فالجماعة الحق يسود
فيها التبادل كما يقول (نوفيكو)، كما أنها ليست مجرد علاقات أفراد بعضهم ببعض، ولكنها روح دافع غلاب في كل فرد كما يقول (ماك إيفر)، وها هو (هوبهوس) يقول إن الجماعة توجد في أفرادها، إن كل فرد فيها مركز اتصال، وإن هذا الاتصال يتوقف قوة وضعفاً على الفرد نفسه ويؤثر فيه، وإن الأفراد إنما يتحسن شأنهم ويرتقى باتصالهم بغيرهم
وقد يبدو للبعض أن الرجعية والبطء في التطور والتجديد طبيعة في الجماعة ثابتة، ولكن الراجح أن التربية العميقة هي المسئولة عن ذلك كله. ولذلك نرى التربية الديمقراطية تدعو إلى سعة الصدر وحرية الفكر ومرونة العادات، وتصرح قائلة على لسان (جون ستيوات مل): (ويل للزمن الذي لا يجرؤ على الشذوذ فيه إلا الأقلون)!
أما الفرد فهو أنت وأنا أيها القارئ العزيز! وكم أُحتقر وازدري في الدهورالغابرة، وحُرم حرية الفكر والحركة والحياة، وكم اعتز بشخصيته، وعلا وتكبر، واعتبر نفسه مقياساً للأشياء جميعاً من حق وباطل، وخير وشر، وجمال وقبح - في عهد السفسطائيين؛ ولو شئت الحقيقة في أمر هذا الفرد لعرفت أنه لا يستطيع أن يكون (مطلقاً) بحال من الأحوال! وهل من مطلق في الطبيعة غير الله؟ سر إلى الصحراء إذا شئت وعش هناك وحيداً إذا استطعت، فلن تجد (الجماعة) إلا محيطة بك عن يمينك وعن شمالك ومن خلفك ومن قدامك، ألم ترث عنها ما قد ورثت عن آبائك وأجدادك؟ ألا تفكر بمنطقها؟ أو لا تهجس بلهجتها؟ ثم ألا تستفيد من تجاربها العملية في كل ما تتخذ من سلاح وغطاء ودثار؟
نحن إذاً مدينون للجماعة حاضرها وماضيها بكل شيء تقريباً وإذاً فلا أقل من أن نعطيها من أنفسنا بعض هذا الدين الذي لو عشنا دهوراً لما وفيناه؛ ولكن الجماعة مع ذلك مدينة لبعض الأفراد هي أيضاً؛ إلا يقول: (كارليل) ما تاريخ الإنسانية إلا تاريخ عظمائها؟ وإذا فلا أقل أيضاً من أن تحترم الجماعة الفرد وتشجعه على خدمتها، وتسمح له بإصلاح ما فيها من عيوب والسمو بها إلى مثله العليا. وإذ كان الجمال في

الفن هو (كثرة) تسيطر عليها (وحدة) كما يرى الأستاذ (كوزن) في كتابه الفريد: (الخير والحق والجمال)، فإن (السير برسي نن) يرى أن تاريخ الإنسانية يتطور ويتقدم نحو (الفردية) المتزنة، وكلما قطع في تطوره شوطا كلما كانت الحياة أسمى وأهنأ وأرفع وأخصب

وإذا كان الأمر كذلك فماذا عسى أن تكون العلاقة الصالحة بين كل من الجماعة والفرد؟

يقول هوبهوس (يجب أن تنمو الجماعة وحدة متناسقة فلا يتضخم فيها (فرد) ويصير مارداً على حساب الجميع)

ويقول الأستاذان (ديوي وتفت) إن مقياس كل نظام اجتماعي هو: (هل يجعل قدرة الفرد حرة في زيادة الخير العام؟ وهل يسمح بمساواة الجميع في فرصة إظهار الكفايات؟) بل إن (ديوي) ليقف عند كل نظام سياسي أو غير سياسي ليرى أي دوافع يثيرها؟ وأي أثر له على من ينفذونه؟ أهو يحرر القوى؟ وإلى أي حد؟ وللجميع أو للأقلية؟ وهل تسير القوى التي يحررها في طريق معقول؟ وإذا كان النظام نظام تعليم نراه يسأل (هل يرهف الحواس ويدرب العقول؟ وهل يثير حب المعرفة في النفوس؟ وما هو نوع (حب المعرفة) هذا؟ أهو عرضي يطفو أم جوهري يغوص؟)، وهكذا دواليك. . .

بقي أن نتساءل وما (المصير)؟ إلى ما هو أحسن كما يقول المتفائلون؟ الواقع أن الجماعة في تطور دائب مستمر وإن كنا لا نستطيع أن نعتبر كل تطور نجاحاً. وبعد الوقوف على آراء - هوبهوس - وديوي - وفاجيه - وشو - ويود - ومل - وبيري - في ذلك الموضوع نستطيع أن نقول: إن (النجاح في الجماعة ليس أتوماتيكياً بل يعتمد على الإرادة والقصد، وإن الهرم في الأمة يمكن أن يجتنب تماماً بمرونة العادات، وإن مذهب (إمكان التحسين) خير من التفاؤل البحت أو التشاؤم البحت، لأنه وحده يبعث على الأمل والرجاء، ويمنع الغرور واليأس، وإن (حرية الفكر) هي أهم عامل في التطور نحو (الأحسن) وخصوصاً إذا اقترنت بنية بريئة فاضلة ونفوس حازمة عاقلة، وإن (انحطاط) العهود التاريخية المظلمة ليس غير حقارات أفراد وطوائف، وأحزاب، وجماعات، أكثر مما هو حقارات أمم وشعوب. وإذاً فتقدم الإنسان بيده لا بيد الطبيعة الصماء، وذلك طبعاً أفضل له وأشرف. وهاهو ذا تقدم العلم يقول لنا أن ليست هناك غاية موضوعة، ولكن هناك ما يمكن أو ما يجب أن يكون

ولكن تُرى من يدفع الجماعة إلى هذا (المصير)؟ وكيف السبيل إلى ذلك الدفع؟ يرى (أرسطو) أن ذلك هو واجب الحكومة وسبيله التربية، ولكن (ديوي) يخشى إشراف الحكومة لأنه يعتبرها أكثر جموداً وتلكؤاً من المجتمع، ولذلك نراه يعتمد على (الهيئات الحرة) أكثر مما يعتمد عليها؛ وهاهي ذي الحكومات كثيراً ما تخطئ في الخطط وتجني على الديموقراطية جناية نكراء، ألم تحول إيطاليا المدارس إلى ثكنات عسكرية يحرم فيها النشء من أشياء في الحياة كثيرة، ويساق سوقاً إلى نظام تعسفي مرذول فرضته سياسة خاصة قوامها الوطنية المتعصبة التي لا يضيرها احتراق بعض العالم ما دام في ذلك خير لها؟

وبعد فتلك هي الجماعة، وهذا هو الفرد كما تتصورهما الديمقراطية الحديثة، جماعة مرنة متجددة، وفرد حر خادم مطيع ثم تقدم يدفع بهما معاً نحو (الأحسن) قوامه الحرية والنية الفاضلة. . . ولما كانت التربية هي الوسيلة الوحيدة الفعالة الجديرة (بخلق) هذه الجماعة وذاك الفرد، فإنها يجب أن تكون بحيث تستطيع خلقهما خلقاً صحيحاً يقي الإنسانية آفات الرجعية والجمود، ويوفر عليها حقارات أولئك الذين يسودون صفحات التاريخ!. ومعنى هذا أن تكون المدرسة مجتمعاً صغيراً تتوافر فيه جميع الأسباب التي تحرر العقول، وتطهر النفوس، وتغرس التعاون والإيثار، وتمهد للمجتمع الفاضل المنشود. . . ويتطلب ذلك بالطبع اتباع طريقة في التدريس خاصة، والعناية بدراسة معينة، أو معاملة الطلبة على أساس ديموقراطي مرسوم؛ ولست تطمع من غير شك في أن أمر معك بكل التفاصيل. حسبك أن تعلم أن رياضة الغلبة والتعصب والأنانية والتنافس، لا تؤدي بنا إلى شيء من هذا كله، وأن حشو العقول لا يحررها ولكنه يشلها ويبلدها، وأن الاهتمام بالحروب والاطناب في سير أبطالها يبرر ما فيها من نهب وسفك وهدم وتدمير لدى الناشئ الساذج البريء، وأن الدروس الإلقائية

التي لا تطبيق فيها ولا تعاون لا تعمل أكثر من تكوين أفراد (لأنفسهم) قبل أن يكونوا لغيرهم، وان إعطاء كل شيء للطالب وتوفير مجهود البحث والاطلاع عليه يجعله اتكاليّاً عديم الثقة بنفسه والاعتماد عليها.

وأن. . . وأن. . . وأن. . . مما قلت وما سأقول، وما تستطيع أن تدركه أنت دون ذكره أو الإشارة إليه! كل ذلك لا يخلق الجماعة الديموقراطية المرنة المتجددة، ولا يتمخض إلا عن عقول العصافير، وإلا عن نفوس يملكها الركرد والخمول، وعن طوائف العصبية والانخذال، ونزعات الرجعية والأنانية والشهوة والجمود. . . وها أنت ذا ترى العالم يمجد سياسة الحروب ويدعو إليها ويجد وا أسفاه من الشعوب جنوداً مثلهم الأعلى الإسكندر وهانيبال وقيصر ونابليون. . أفكان ذلك يتأتى لو درس الطفل تاريخ الإنسانية لا تاريخ
الوحوش؟

وحسبي اليوم ذلك وإلى اللقاء حيث نرى لوناً آخر من الكلام
(يتبع)

محمد حسن ظاظا
مدرس الفلسفة بمدرسة شبرا الثانوية الأميرية

المثل الأعلى للشاب المسلم

للأستاذ علي الطنطاوي

كلما أراد الشاعر الفرنسي الأشهر بول فاليري أن يحاضر بدأ بتعريف مدلول الكلمات التي يتألف منها عنوان المحاضرة. وهذه هي عادة أجدادنا، إذا أخذوا في الكلام على علم من العلوم أو بحث من المباحث، فليس عليَّ إذن من بأس إذا اتبعتها هذه الليلة، فبدأت محاضرتي بتعريف المثل الأعلى، والكلام على صفات الشباب الأساسية، وتلخيص القول في الإسلام. . .

إنه ليس فيكم أيها السادة من هو راض عن حالته، مطمئن إليها، وليس فيكم من لا يتصور حالة خيراً منها، فإن كان عالماً فكر فيمن هو أعلم منه، وإن كان غنياً تصور من هو أغنى. فإذا صار مثل من يتصوره من الأغنياء، أو يفكر فيه من العلماء، طمح إلى درجة أعلى، ومنزلة أسمى، لا يكاد يبلغها حتى يزهد فيها، ويطمع فيما وراءها. وإذا أنتم استعرضتم أعلم العلماء، واجمل الفتيات، وأبهى الرياض، وأبرع الصور، وأفخم البنى، لرأيتم الذهن البشري، يتخيل على أهون سبيل، عالماً أكبر، وفتاة أجمل، وروضة أبهى، وبنية أفخم، وصورة أبرع. . . ثم يبالغ في التخيل حتى يستقر على مرتبة، ويثبت في منزلة لا يرى فوقها منزلة، فتكون هي المثل الأعلى

فالمثل الأعلى إذن هو أسمى ما يتصوره العقل البشري. . والمُثُل تعدد بعدد الناس، فلكل مثله الأعلى في الحياة، وعدد الأشياء فلكل شيء صورته الكاملة، ولكنها تجتمع كلها على افتراقها، وتتحد على تعددها، في أشياء ثلاثة نبه إليها أفلاطون واخذ بها الناس في كل عصر ومصر، وأجمعوا على إجلالها، واتخاذها مثلهم العليا، وغاياتهم السامية؛ وهنّ: الحق والخير والجمال

هذا هو المثل الأعلى. أما الشباب، وهل أحتاج إلى تعريف الشباب؟

الشباب الحياة، والحياة الشباب، (روائح الجنة في الشباب)
خَلَقُ العيش في المشيب ولو كا ... ن نظيراً وفي الشباب جديده

الشباب يا سادتي الواحة الفريدة في صحراء الحياة، هو الربيع في سنة العمر، هو البسمة الوامضة على ثغر الزمان القاطب. الشباب في الأمة قلبها الخافق، وعيونها الناظرة،
وأيديها العاملة

لست أعني هذا الشباب الغض الغريض، الحلو الناعم، الذي يجرح خديه لمس النسيم، ويدمى بنانه مسّ الحرير، والذي يرق حتى يسيل من العيون نظرات ساحرة مغرية، ويدق حتى يستحيل إلى فكرة تطير كالفراشة بين أزهار الجمال في روضة الحب، أو نسمة معطرة تهب من حراش فتاة فتانة، أو قبلة فيها خمر وعسل تجمع لذائذ الدنيا في رشفة مسكرة. . . لست أعني هذا الشباب الفاتن المتأنث الذي يسبي القلوب، ويسلب النفوس، ويعيش الهوى والأحلام، ويبدأ تاريخ حياته بالحاء (ح) فلا يتلبث أن ينتهي بالباء (ب). . .

إنما أعني الشباب الحي العامل القوي المتين، الذي وضع له غاية في العيش أبعد من العيش، ونظم نفسه حلقة في سلسلة شعبه، واتخذ له مطمحاً، ومثلاً عالياً، ثم عمل على بلوغه، وسعي إليه باندفاع الصواعق المنقضة، وقوة العواصف العاتية وثبات الطبيعة، وألقى في سفر حياته الراء بين الحاء والباء؛ وهل الحياة إلا حرب دائمة ونضال مستمر، فتنازع على البقاء، وتسابق إلى العلاء

لا يبقى غير الصالح، ولا يصلح غير القوي. . هذه هي الحقيقة الباهرة، هذا هو القانون المقدس الذي لا يلغيه برلمان، ولا يعبث به إنسان، ولا يخرج عليه إنس ولا جان ولا حيوان، لأنه من قوانين الله التي كتبها على صفحة الوجود يوم أخرجه من العدم، وقال له كن فكان

الجراد يأكل البعوض، والعصفور يفترس الجراد، والحية تصطاد العصافير، والقنفذ يقتل الحية، والثعلب يأكل القنفذ، والذئب يفترس الثعلب، والأسد يقتل الذئب، والإنسان يصطاد الأسد، والبعوض يميت الإنسان. . . هذه هي السلسلة الإلهية الخالدة لا تبديل لها ولا تغيير. إما أن تقتل الأسد، وإما أن يقتلك البعوض

فيا شباب! لا يغلبكم البعوض، ولكن اغلبوا الأسود!

الحق ثقيل، ولكن الحق أحق أن يقال. فأرجو إلا يغضب مَن ههنا من يحسبون أنفسهم شيوخاً إن خاطبت الشباب، وقلت إن المستقبل للشباب. ولكن من هم الشباب؟ يصف أندريه موروا الشباب بالرغبة الأكيدة في حياة العاطفة والحب، وحياة الحماسة والبطولة،

أي بالمجون والاستهتار، والميل إلى الإصلاح، والإخلاص للمبدأ والزعيم، والاندماج والفناء في المجموع (في الجمعية أو الحزب أو الأمة) وبأنهم أدنى إلى المثل العليا، وبأن شعارهم الإقدام والتعجل والسرعة وبعض الأناة والانتظار. الشباب بهذه الصفات، ليس الشباب بورقة النفوس وسجل الميلاد؛ فكل من مات قلبه، وانطفأت شعلة حماسته، وضاعت مثله العليا، وأحس بأنه قد بلغ مأمله فلم يُعدْ له أمل، فهو شيخ ولو كان في العشرين من سنه. وكل من كان له قلب، وكانت له آمال ومطامح، وكل متحمس مندفع شاب ولو شاب!

فلا تغضبوا يا سادتي الكهول إذا قلت إن المستقبل للشباب ورفعت من شأن الشباب، فإن فيكم شاباً ولو ابيضت لحاهم ورءوسهم، وانحنت ظهورهم، وتجعدت جباههم. هم شباب العزائم والقلوب! وهؤلاء الخاملون من الشباب هم الشيوخ. لا تعجبوا يا سادتي، فلقد كان شوقي شيخاً في مطلع شبابه يوم كان شاعر الأمير، ثم عاد شوقي شاباً في كهولته يوم صار شاعر الآمال والآلام، شاعر العروبة والإسلام. . .

بقي عليّ تعريف الإسلام، ولكن من العبث يا سادتي أن أعرّف الإسلام، وأنا أحاضر قوماً هم بحمد الله مسلمون، ولا يكون مسلماً من لا يعرف ما هو الإسلام، ولا صلة له بعلومه، ولا اطلاع له على أحكامه، ولا وقوف له على أمره ونهيه، وعند أمره ونهيه. إن من العبث أن أقول لكم إن ديننا إيمان وعقائد، وإسلام وعبادات، وإحسان وأخلاق، وسياسية وشريعة، وأن له في كل جانب من جوانب الحياة مصباحاً يضيء، ومناراً يهدى، وإنه لا يفارق المسلم أبداً، ولا يدعه لحظة. إن كان وحده، منفرداً بنفسه كان معه الإسلام يأمره بأن يحاسب نفسه، ويتوب من ذنبه، ويتأمل في بديع صنع الله في نفسه وفي العالم، ويستدل بالصنعة على الصانع، وبالأثر على المؤثر. (وفي أنفسكم) أكبر الدلائل، وأقوى الحجج، (أفلا تبصرون. . .؟) أو لا يتفكر هؤلاء الجاحدون (اخلقوا من غير شيء أم هم الخالقون؟). (أو لم يتفكروا في أنفسهم؟ ما خلق الله السموات والأرض إلا بالحق وأجل مسمى)، (أفلا تتفكرون). وإن كان المسلم في المجتمع كان معه الإسلام، يبين له سبيل الحكمة، ويدله على صراط الأخلاق المستقيم، ويأمره بأن يحسن استعمال هذه القوى التي وهبها له الله، فلا يتبع بها ما ليس له به علم، (ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع

والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) ولكن يستعملها في سبيل العلم، العلم كله حتى الفلك والجيولوجيا وعلم الأجناس، هذه العلوم من آيات الله. ألم يأمر الله بهذه العلوم التي يمنعها بعض مشايخ العصر؟ قال تعالى: (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين)، (إنما يخشى الله من عباده العلماء)

ينظم الإسلام العلاقة الاجتماعية خير تنظيم، ويبني الأمة أمتن بناء، يبدأ بإنشاء الأسرة فيجعل لها رأساً مسئولاً، له حق الطاعة لينتظم الأمر، وتتم المصلحة، وعليه واجب العدل والعمل، وجعل الرجل هو الرأس لطبيعة تكوينه وخلقته ونوع عمله وغايته (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) وجعل على النساء واجباً، ولكنه أعطاهنّ حقاً مثله (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف)، ورفع من شأن التربية، وجعل للمربين الأولين، للوالدين أرفع مقام، وجعل طاعتهما مقرونة بالتوحيد الذي هو رأس الدين وبيت قصيده ودعامة بيته. قال عزّ من قائل: (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً) ووضع خير القواعد وأحكمها للزواج والطلاق والإرث، وينظم الإسلام أمور الأمة، ويقيمها على أساس من الفضيلة والعدل. (قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق) ويشرع لها القوانين الثابتة المحكمة في معاملاتها، والقواعد الأخلاقية السامية في علاقاتها الخاصة، ويدعو إلى ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة والدليل الواضح والبرهان القاطع، لا بالإرهاب ولا بالترغيب. (يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً) ودعا المخالفين إلى المحاجّة والمناظرة، وإقامة الأدلة (أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم) (أإله مع الله قل هاتوا برهانكم). وعاب الإسلام التقليد والجمود واتباع الآباء والأجداد، وإهمال العقل، ودفع الناس إلى التفكير، وإقامة البراهين العقلية والأدلة اليقينية، أي أنه دعا منذ (1400) سنة إلى الطريقة العلمية التي يفخر بها علماء اليوم ويظنونها من ابتكارهم وأثراً من آثار حضارتهم. قال تعالى يذم أهل الجمود وينعى عليهم (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون؟)

إنكم تعرفون هذا كله أيها السادة لأنكم مسلمون، وإن من العيب أن ألقيه عليكم فما جئت لأعرف الإسلام، ولا أرد تعريفه. ولكن أحببت أن أوجه أبصاركم إلى مسألتين مهمتين:

أما المسألة الأولى فهي أن ديناً يضع للعقل قواعد في التفكير، ويشرع للعلم طريق البحث، وينظم حياة الفرد وحياة الأسرة، ويكون هو القانون المدني والجزائي، والقانون الدولي، والأخلاق والفلسفة - إن ديناً هذا شأنه لا يصح أن يعدّ مع الأديان التي لا تتجاوز أحكامها عتبات معابدها، ولا يجوز أن نطلق عليه ما يطلقونه عليها من أحكام. فإذا قبلنا بمبدأ فصل الدين عن السياسة مثلاً وهو مبدأ محترم، فلا يصح أن نستنتج منه وجوب فصل الإسلام عن السياسة، لأن الإسلام ليس ديناً، ولكنه دين وسياسة. هل تستطيعون يا سادتي أن تحذفوا سورة براءة مثلاً من القرآن لأنها سياسة. .؟ وإن قبلنا مبدأ استقلال العلم عن الدين لأن الدين لا يستند إلى البحث العلمي ولا إلى العقل فلا يصح أن نسحب هذا الحكم على الإسلام لأن الإسلام ليس ديناً وسياسة فقط. ولكنه دين وسياسة ومنطق وعلم. . .

هذه يا سادتي حقيقة ظاهرة ظهور الشمس، ولكن أكثر شبابنا لا يرونها، خفيت عنهم، وغربت هذه الشمس من أفق تفكيرهم، فتخبطوا في ظلام ليل أليل، فلذلك ترونهم يأخذون كل ما يقوله الإفرنج عن دينهم فيطبقونه على الإسلام، على الاختلاف بينهما، والتباين بين طبيعتيهما. . .

ولعل من هذا الباب تسمية العلماء برجال الدين وإنها لتسمية باطلة فشت على ألسنة وعم بلاؤها ونسى المسلمون أنهم كلهم رجال الدين. دين الإسلام، دين المساواة والسمو والعمل، ليس فيه طبقات مميزات من طبقات، وليس أحد أحق به من أحد، وليس فيه جماعة هم وكلاء الله، يحلون ويحرمون، وهم أصحابه الأدنون وأهلوه الأقربون، وغيرهم الأبعدون، ولكن المسلمين كلهم (أبناء النبي وعترته والفارسيين والصينيين) وكل من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله. . . لا فضل لأحد منهم على أحد إلا بالتقوى والعلم والقيمة الشخصية: (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) (لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى). . . (يا فاطمة بنت محمد، لا أغنى عنك من الله شيئاً).

فلا تقولوا للعلماء رجال الدين، ولا تحملوهم وحدهم واجبات الدين، فان رجال الدين هم كافة المسلمين. ليس عندنا إلا العلم والتقوى، فمن كان عالماً عظمناه وسألناه،

ومن كان تقياً أجببناه وأجللناه، ومن أخطأ وحرف رددناه أو ردعناه كائناً من كان ذلك المخطئ وذلك الناقد. ليس الناقد بأقل من تلك العجوز، وليس المنقود بأجل من عمر!

هذه المسألة الأولى. أما المسألة الثانية التي أحب أن أوجه إليها أنظاركم، فهي أن الدين على ما يفهمه العلماء من أهل أوربا هو الذي ينظم علاقة الإنسان بالله، وبما خلق الله من المخلوقات المغيبات وراء المادة وبالعالم الآخر، فلا علاقة له بالحياة السياسية ولا الأوضاع الاجتماعية، ولا بالقوانين والنظم، ولا يصح أن تبنى عليه الجامعة الوطنية. هذا ما يقرره العلماء الذين بحثوا في هذه الجامعة وطبيعتها وقيمتها، وفي مقدمتهم (رينان) في محاضرته المشهورة التي ألقاها في السربون سنة 1882. وهذا صحيح في الأديان ولكنه ليس بصحيح في الإسلام، لأن الإسلام ذاته وطنية، ورابطة اجتماعية معنوية، ليست قائمة على لغة ولا على أرض. ولكن على ما يسميه (أرنست رينان) بالإرادة المشتركة ويجعله أساس الرابطة الوطنية. فليس وطن المسلم مكة ولا المدينة ولا البلد الذي ولد فيه، ولكن وطن المسلم المبادئ الإسلامية، فحيثما وجدت هذه المبادئ وحيثما كان أهل (لا إله إلا الله محمد رسول الله) فثّم وطن المسلم. وعندي أن هذه الرابطة الإسلامية رابطة (إنما المؤمنون اخوة) معجزة من أعظم معجزات الإسلام لأنه أقر منذ أربعة عشر قرناً المبدأ الذي اهتدى إليه العقل البشري سنة 1882م وسار منذ أربعة عشر قرناً في الاتجاه الذي يسير فيه العالم اليوم. لقد سقط اليوم مبدأ القوميات الذي دعا إليه الرئيس ولسن بعد الحرب ونهضت المبادئ الفكرية الاقتصادية، فانقسم العالم كما ترون إلى جهات ثلاث: الديمقراطية والشيوعية والفاشية. وكما أن الشيوعي الفرنسي أخو الشيوعي الروسي ولو تناءت الديار وتباينت اللغات واختلفت الأجناس فكذلك المسلم أخو المسلم، أينما كان وكيفما كان. وكما أن الفاشيّ الإيطالي أقرب إلى الأسباني الفاشي من أخيه الأسباني الشيوعي فكذلك المسلم الهندي أقرب إليّ من غير المسلم ولو كان عربياً هاشمياً قرشياً!

وليس هذا مجال البحث في الجامعة الإسلامية، وطريق تحقيقها، فإن لهذا البحث موطناً آخر وما أردت إلا لفت أنظاركم إلى هذه الناحية من الإسلام، لأقول بأن الشاب المسلم لا يستطيع أن يندمج في أي رابطة دولية تقوم على اخوّة غير الأخوة الإسلامية، ولا يقدر أن يدعو إلى أي رابطة قومية أو جنسية لأنه ليس من المسلمين من دعا بدعوة الجاهلية. . .

(البقية في العدد القادم)

علي الطنطاوي

نظر ونقد

شعراؤنا في موكب الزفاف

كان زفاف الفاروق حرسه الله بهجة غمرت جنبات مصر، وهزت شعور أبنائها على اختلاف طبقاتهم بالجذل والسرور، فنهضوا يتسابقون في إعلان جذلهم وسرورهم بشتى المظاهر والظواهر، فإذا مصر من ذلك في صورة رائعة من الواقع رجحت الخيال، وأصغرت ما لها من الأشباه والنظائر في التاريخ، وأزرت بما يمثله القصص الموضوع عن (الليالي الملاح) في ألوان الترف والنعيم، واشتمال الأنس والصفاء، ومهارة العقل فيما أبدع، وجمال الفن فيما نوّق؛ على أنه تنفرد في هذا كله بجلال الإخلاص، وصفاء الحب، وروعة التمجيد. وسيكون للتاريخ من ذلك صفحة وضاءة مشرقة، لم تكن له في الأيام الخالية، أخشى أن يطالعها الناس فيما بعد فيقولوا: إنها تلفيق الخيال، وصنيع الكذب، كما نقول نحن في ليالي ومحافل ألف ليلة وليلة وأشباهها من القصص المختلق

لقد شهد المصريون جميعاً ذلك اليوم، وامتلأت نفوسهم وقلوبهم بروعته وجماله، واستطاع كل فرد وكل جماعة أن تعبر عن شعورها بذلك أوضح تعبير وأجمله، فكان اليوم في كل مناحيه ومظاهره يوم الشعراء؛ الشعر يبدو في مجاليه، والحسن يزهو في حواشيه. هو دنيا تفيض بالجمال والجلال، وشمس تشع على الكون نور البهاء والرواء، فأينما سرحت النظر وجدت حفزاً للشعور، وإرهافاً للإحساس، وتزكية للعواطف؛ والشعراء كما نعلم أوفر الناس شعوراً، وأرهفهم إحساساً،

،وأزكاهم عاطفة، تلك هي مواهبهم التي تميزهم عن سائر الناس
وتطوّع لهم الصناعة الشعرية دون غيرهم، فكان لا بد أن تفيض
نفوسهم بما رأوا قوافيَ كلها الإحساس بالجمال والجلال، وأن يجري
شعرهم بما في نفوسهم أوزاناً صادقة منسجمة هي لحن الزمن الباقي
على الزمن، ونغمات الأجيال المتعاقبة على كر الدهور
على هذا الاعتبار كان الشعر سجلاً خالداً لحوادث التاريخ، وعظائم الدهر، وروائع الأيام؛
وعلى هذا الاعتبار اندفع الشعراء قديماً يتحدثون عن زفاف المأمون إلى بوران، وهو
زفاف له في التاريخ خبر مشهور، وهو يشبه زفاف الفاروق في كثير من الأفراح
والمعالم؛ وعلى هذا الاعتبار أيضاً انتظرنا وانتظر الناس ما وراء شعرائنا في اليوم
الحافل، والزفاف الذي لم يعهد مثله في عصر من العصور، وقلنا: لعلهم يتركون في
ذلك للأجيال المقبلة صفحة قوية بروعة التصوير وإبداع المعاني، وجمال الأسلوب،
وانسجام الخيال، وسلامة الذوق
ولقد قال شعراؤنا في يوم الزفاف ما وسعهم القول، ففاضت أنهار الصحف بكثير من
الكلام المقفى المجنح الأشطار مقدماً بالتقاريظ والتزكية، وأقيمت حفلات متعددة
(أراق) فيها الشعراء على (مناضد) الشعر ما أعدوا لذلك من كل (خريدة عصماء)
رسم حدودها الخيال وياله من خيال. . . ونسق وشيها الذوق وإنه لذوق. . . وأبدع
معانيها العقل وأي عقل. . . وقد سمعنا الجمهور يهتز لكل ذلك طرباً، ويصفق من
العجب تصفيقاً عالياً مُدوياً أدمي الأكف، وصك المسامع، واضجر الأعصاب. ولو كان
الحكم الأدبي ومقاييس الشعر هي على ما يرى الجمهور وتقدّر الصحافة لكان شعراؤنا
على ذلك قد بلغوا الذروة التي لا تطاول، ولكان شعرهم آية الإبداع والاختراع، فمن
حقه البقاء والخلود والإجلال والتقديس، ومن الواجب علينا أن نعتز به ونفاخر، وأن
نكتبه في (القباطي) ونعلقه بأستار. . . بأستار ما لا أعرف!!
ولكن الحكم الأدبي في تقدير الفن والأدب إنما هو للذي يستطيع تعليل حكمه كما
يقول العقاد. فإذا عجز عن الحكم استطاع أن يعلل عجزه بكلام سائغ في الأفهام، ولا
يكون ذلك إلا ناقد ذو ثقافة أدبية واسعة، وطبيعة فنية موهوبة، ونظر مميز فاحص.
فهو الذي يمكنه أن يميز الجوهر من الخزف، والدر من الصدف؛ وهذا التمييز هو
المعول عليه في التقدير الحق، وهو الحكم الأدبي الصحيح الذي يرمقه المعنيون
بدراسة التواريخ الأدبية للأمم والأفراد، ثم هو الذي سيبقى على الزمن على حين تطير
الفواقع والقواقع، وتموت التقاريظ الأدبية الرخيصة، فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما
ينفع الناس فيمكث في الأرض. وأنت
أبقاك الله تعلم حق العلم أن حكم الناقد إنما يكون له هذا المقام من الإجلال والإكبار
والتقديس والتقدير إذا ما تجرد من الهوى والميل، وتنكب التدليس والتمويه، وارتفع
عن الارتباطات الشخصية وعلاقات الصداقة، وكان القصد فيه الحق للحق، والفن للفن
والأنصاف مجرداً عن كل غاية ومأرب، فان الأمور الشخصية والميل مع الهوى شر ما
منيت به أعمال الخير في كل عصر ومصر، وشر ما منى به النقد الأدبي في مصر على
الخصوص، وشر ما منى به الأدب في جميع نواحيه على تقدير صحافتنا سددها الله إلى
الرشد، فكان من وراء هذا أن ساء ظن الناس في أهل الأدب والنقد، وأصبح وجود
الناقد الحر في اعتقادهم كوجود الغول والعنقاء والخل الوفي!
ولقد انتوينا أن نتناول شعر الزفاف بالنظر والنقد على ما يتفق وحرمة النقد البريء،
وكرامة الفن المهذب، ومهمة (الرسالة) الشريفة. سنقول للمحسن أحسنت،
وللمسيء أسأت. سننظر إلى ما قيل لا إلى من قال، لا نخضع في ذلك إلا لوازع
الضمير وسلطان الحق، ومعايير الفن. ويعلم الله لقد حفلنا لذلك ما وسع الجهد،
فسبقنا إلى كل حفل، ونهضنا إلى كل جمع، واستمعنا وقرأنا كل ما قيل وما نشر حتى
ما لا يستحق أن يسمع ولا أن يقرأ. ولعلنا بهذا العمل نكون قد سجلنا على صفحات
الرسالة، وهي سجل الأدب الخالد، لوناً طريفاً من ألوان الأدب لا يخلقه إلا المناسبات
الطيبة، والفرص السعيدة، وما أقلها في تاريخ الأمم، وما أندرها في حياة الأفراد
ولا أكتمك الحق إذا قلت لك إن شعراء الزفاف قد قصروا عن الشأو، وقعدوا دون
الغاية، وخيبوا الأمل، وكان الأمل فيهم كبيراً، وخذلوا الشعر وكنا نرجو للشعر على
أيديهم نصراً مبيناً!! الأمر الذي جعلنا نعتقد اعتقاداً صحيحاً أن الميدان قد خلا من بعد

صاحب الشوقيات، وأن الشعر عند شعرائنا تلفيق وشعوذة وصناعة احتطاب على حد تعبير الرافعي يرحمه الله، فليس هناك إلا إحساس ضئيل أن دل على شيء فإنما يدل على أن في نفس صاحبه شاعرية كنبوة مسيلمة. . .

لقد كان يوم الزفاف حافلاً بمعالم الزينة والبهجة، يفيض كما قلنا بالجمال والجلال، والبهاء والرواء، فكان في كل منظر شعر، وفي كل مظهر سحر، وفي كل وضع فن، فلو فاز ذلك اليوم بشاعر كابن الرومي أو شوقي لربح الشعر والفن؛ ولكن كل هذا لم يكن له مع الأسف أدنى أثر في إحساس شعرائنا، فطاروا بخيالهم إلى عنان السماء، يصفون النجوم وجمالها، والأفلاك ومداراتها، وراحوا يُنطقون الطيور بالسجع، والعنادل بالتغريد، وقفزوا إلى الربُى قد غطاها الزهر والنور وما في مصر شبه رابية من ذلك! واهتموا كثيراً بداوود ومزماره، وعنوا جميعاً أن يُذكرونا بيوم الحشر والنشر، وكأنهم لم يعرفوا من سجايا المليك إلا الذهاب إلى المساجد وصباحة الوجه فوقفوا عند هذا الحد وما زادوا!! ثم هم قد جروا على طريقة لا تُرضى في الأسلوب الشعري. يريد بعضهم أن يقوي فيتعجرف، ويروق لبعضهم أن يلين فيسخف؛ أما الإحساس بما كان من بهجة الزفاف، وروعة الزينة، واشتمال الصفة، وفرح الشعب، وتزاحم المواكب، وعرض الجيش؛ وأما الملك يبادل شعبه على هذا كله حباً بحب، وعطفاً بعطف، كل هذا لا نجد له ذكراً في شعر الزفاف. فكأن غاية القول عندنا أن نترسم السابقين في إحساسهم وخيالهم وأسلوبهم، لا أن نقول كما نحس وعلى ما نرى وبما نسمع!!

إن شعر الزفاف في الواقع قد جاء فاقداً للخصائص المميزة، وهي لاشك كل شيء في الشعر خصوصاً شعر الوصف والمديح. فمن السهل جداً أن يحول ذلك الشعر إلى حفل آخر، ومن السهل جداً على شعرائنا أن يقصدوا به إلى أي موقف. فلو وقفوا مثلاً في يوم عيد الميلاد الملكي المقبل ينشدون شعرهم هذا للجمهور لصفق لهم الجمهور وقرظتهم الصحافة. أليس من الزوال كما يقول المعري أن يقف أحد أولئك الشعراء فيلقي مطولة في حفل حافل وكلها تمجيد لجلالة الملك وإشادة بأخلاقه وليس فيها ذكر للزفاف ولا أي خبر عنه؟! ومن يدري لعل ذلك الشاعر كان قد قال قصيدته هذه في عظيم من قبل، ولعله ينوي أن يقولها في عظيم من بعد! وقديماً دخل أحدهم على سلم الخاسر فوجده يعمل قصائد بعضها في رثاء أم جعفر وأم جعفر باقية، وبعضها في مدح رجال لم تعين أسماؤهم بعد! فقال: ما هذا يا سلم؟ قال: وما أصنع يا أخي وقد تحدث الحوادث فجأة فيطلب إلينا القول ولا يرضي منا إلا بالجيد!!

ولكن ما عذر شاعرنا وزفاف الفاروق لم يكن فجأة وإنما كان حديث الناس منذ زمن طويل يتسع لكل شيء

نحن لا نتجنى على الحق، ولا نحب أن نلقي الكلام على عواهنه، ولكن نحب أن نشرح ونعلل، وأن نقدم الأمثال والشواهد، ولذلك آثرنا أن نقف مع كل شاعر على حدة فنقرر ما له وما عليه، وموعدنا بذلك المقالات الآتية إن شاء الله

(م. ف. ع)

أناشيد صوفية

جيتانجالي

للشاعر الفيلسوف طاغور

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

سأزينك بالرايات والأكاليل علامة غلبتك علي؛ فما كان في قوتي أن أدفع عن نفسي الهزيمة

لا ريب، فكبريائي قد عُصف بها، وحياتي تصدعت عن آلام مبرحّة، وقلبي الخاوي تفجر عن لحن موسيقى كأنه اليراع المثقب، وهذه الأحجار الصماء ستحور عبرات

لا ريب في أن أوراق زهرة اللوتس لن تظل متماسكة أبد الدهر؛ وأن رحيقها المكنون سيبدو في وقت مّا

ومن خلال السماء الزرقاء ستحدق عين فيّ ثم تناديني في صمت، فأنفض عني كل شيء. . . كل ما أملك. . . ثم أتقبل القضاء المحتوم عند قدميك

حين ألقي بالدفة من يميني ألقي بها لأنه يكون قد آن لك أن تديرها أنت، وسيتم كل ما تريد في لحظات، وعبثاً هذا الجهاد
إذن ألق السَّلم - يا قلبي - وأصبر في صمت على ما مُنيت به من إخفاق، وثق بأنه من حسن حظك أن تستقر هادئاً في مكانك. . . مكانك الذي حللت
إن مصابيحي تنطفئ عند كل هبة نسيم، وإني لأنسى ذلك حين أنطلق أضيئها
غير أني سأكون - في هذه المرة - حازماً، فأظل في غسق الظلماء، أنشر فراشي على الأرض؛ وإذا طاب لك هذا - يا سيدي - فتعال إليّ في صمت، واتخذ لك مجلساً بازائي
- 99 -
لقد اندفعت إلى أعماق بحر الأشباح عليّ أجد الدرة الكاملة التي لا شكل لها
لن أبحر - بعد - على قاربي المحطم من مرفأ إلى مرفأ؛ فما أطول الأيام حين أقضيها بين أمواج تتقاذفني!
والآن، فأنا أستشعر في نفسي الشوق إلى أن أغتمر في الخلود.
سأندفع إلى مجلس السمر، حيث اللجة ما لها من قرار، وحيث الموسيقى تتصاعد
مختلطة في غير نغم. . . سأندفع إلى هناك وبين يديّ قيثار حياتي
سأوقع عليها ألحان الأبدية، وحين آتي على آخر لحن ألقي بها عند قدمي السكون
- 100 -
لقد أفنيت عمري أفتش عنك بأغانيّ. إنها هي التي قذفت بي من باب إلى باب، ومن
خلال نبراتها لمست كل ما حولي، فانكشف أمام عينيّ العالم، فأحسست به
إنها أغانيّ هي التي علّمتني كل دروس الحياة، وهي التي كشفت لي عن مسالك
غامضة، وحسرت لي عن كواكب تتألق في أفق قلبي
وهي قادتني إلى مفاوز في عالم من السرور والألم معاً؛ وأخيراً، ماذا عسى أن يكون
باب هذا القصر الذي دفعتني هي إليه والليل ناشر أستاره، فوقفت بإزائه وقد تمت رحلتي؟
- 101 -
إنني أباهي صحابتي بمعرفتك، وهم يلمسون شعاعك في كل ما أعمل فيندفعون إليّ
يسألون: (من عسى أن يكون؟) فما أدري بماذا أجيب. . . ثم أقول: (حقاً، إنني لا
أستطيع قولاً) فيتهكمون عليّ بكلمات لذاعة ثم ينصرفون عني في ازدراء، وأنت جالس هناك تبسم
وصغتُ أحاديثي عنك في أناشيد يتدفق في ثناياها السر الدقيق من قلبي، فاندفعوا
إليّ يسألون: (خبّرنا عن معاني حديثك) فما استطعت حديثاً. . . ثم قلت: (من عساه
أن يعرف؟) فابتسموا في تهكم ثم انصرفوا عني في ازدراء جامح، وأنت جالس هناك تبسم
- 102 -
في تحية واحدة إليك - يا إلهي - دع كل حواسي تنطلق فتلمس هذا الكون عند قدميك
وكما تتعلق سحائب يوليه وقد أثقلتها القطرات المكفوفة، دع قلبي ينحن عند بابك في تحية واحدة إليك
واجعل أغانيّ تنتظم كل الألحان المتضاربة في تيار واحد ثم تتدفق إلى خضم السكون لتكون تحية واحدة إليك
وكما ينطلق سرب من الكراكي وقد أهمته الغربة. . . كما ينطلق في دأب ونشاط - صباح مساء - ليبلغ أعشاشه على قنن الجبال، دع حياتي تتخذ طريقها إلى مستقرها الأبدي لتكون تحية واحدة إليك
(تمت)
كامل محمود حبيب
من أدب العمد
بين ديكي وكلبي
للشيخ حسن عبد العزيز الدالي
ديكي العزيز!
بقروش فوق الستين اشتريتك يا ديكي العزيز، بعد بحث طويل عنك في الأسواق. وما

أكثر الديكة من إخوانك أيها الديك، ولكن قليلاً منهم ما يشبهك. وأين من الديكة جمال ريشك، وطول عُرفك، وثقل وزنك، وخفة روحك؟ صفات ما اجتمعت قبلك في ديك.
فأنت الذي كنت أبحث عنه في الأسواق بذاته وعينه وخصوصيته، حتى عثرت بك! وعنيت بأمرك يا ديكي كل العناية؛ فأفردت لك جناحاً خاصاً تسرح فيه وتمرح، فتنفش ريشك الأخضر الجميل، وتخفق بجناحك الزاهي الممدود، وتدلي عرفك الأحمر الطويل، وتكركر بصوتك الموسيقي الصادح: كُر كُر كُرْ. . . . . .
بيدي كنت أقدم إليك الطعام في الأطباق الصيني في وجبات منتظمة الميعاد، شهية المذاق، مغذية سائغة، استعداداً ليومك المعهود بعد ثلاثة أسابيع، يومَ تُزَفُّ في الصحفة الكبيرة، لتكون عشاء العروسين في ليلة الزفاف. أيّ شرف كنت أعدّ لك أيها الديك؟ ولكن. . .
ليت شعري ماذا أصابك أيها الديك. . .؟ لقد كنت في زيارتك أمس بعد الغروب ورأيتك وأنت تقفز بخفتك ونشاطك إلى العريش الذي اتخذته لك بيتاً عندما يجن الظلام. . .
ويلي منكم يا معشر الديكة! لا يفارقكم الزهو والخيلاء: ففي النهار كرٌّ وفرّ وعُجْبٌ وكبرياء، وفي الليل لا يرضيك أن يمس جنبيك التراب فتأبى إلا العلاء. . .؟ بَلَى، رأيتك أمس يا ديكي في خفتك ونشاطك، وعافيتك وصحتك، وحوصلتك مملوءة، وعرفك ريان؛ فماذا دهاك في الصباح يا ديك؟
يا أسفاه وقد غدوت عليك لأقدم إليك الفطور بيميني فإذا أنت جثة هامدة، ملقى على الأرض، معفر بالتراب، تحت السرير الذي ارتقيته أمس مزهواً أمام عيني!
لقد أحزنني مرآك يا ديك على هذه الحال، وبجوارك ذلك الكلب الصغير (بيتر) الذي أصفاك الود منذ حللت الدار!
ما بك من جرح أيها الديك يُظن أن صديقك الأمين قد أحدثه بك في ثورة طيش، وما بك رضٌ يحتمل أن يكون من جراء سقوطك من مرقدك في غفوة حلم؛ وهذا مكانك دافئ لا إمكان لأن ينالك فيه برد. . . إذن فماذا. . .؟
لابد من تشريح الجثة لمعرفة سبب الوفاة. ليس في الأمر جريمة على ما أعتقد وأرى! أهي سكتة قلبية؟ أهي ذبحة صدرية؟ أهو تصلب في الشرايين. . . .؟ ليتني أعرف يا ديكي العزيز. . .!
يا للقدر! لقد كنا نأمل أن يكون تشريحك بين العروسين في ليلة الزفاف، فكيف يطاوعني قلبي أن أبدلك منهما مبضع الطبيب البيطري. . .!
هذا صديقك (بيتر) يهز ذيله في حيرة، وينكت الأرض برجليه في ألم، ويعوي من قلبه في صوت مبحوح. ماذا يريد يا ترى؟ أيطمع أن يرشدنا إلى القاتل وليس هناك جريمة؟ أم يريد أن يقوم هو بعملية التشريح وتمزيق اللحم بعد ما أصبح الديك لا يصلح للعروسين، أم. . . أم هو يبدي الحزن على صديقه الفقيد ويريد أن يحفر له قبره بيده. . .؟
من يدري أي سر يعتمل في صدر هذا الحيوان؟ لقد تركناه لحاله وما فهمنا قصده، واتجهنا إلى هذا الفقيد نفكر فيما نصنع به وأخيراً شيعناه بنظرة وداع، وعقدنا العزم على أن نجعله طعاماً لبيتر. ما أشد ظلم الإنسان للحيوان، حتى على الموت! لقد قطعنا فخذ الديك فنزعنا ما بها من ريش، ثم جعلناها وجبة الطعام لبيتر. . . ولكن. . .
يا عجبا! إن بيتر يأبى أن يأكل من لحم صديقه الذي مات، على شهوته وجوعه. ها هو ذا يعمد إلى الريش المنزوع فيجمعه بفيه ثم يغطي به هذه الفخذ العارية. لقد قام الكلب بواجبه، فكفن صديقه في أثوابه وواراه التراب!
يا للوفاء! الكلب يأبى أن يأكل لحم صديقه ميتاً وإنه لا يعف عن طعام، والإنسان - ويلي على الإنسان! - والإنسان لا يتعفف أن يأكل لحم أخيه. . . إن في الكلاب لنُبلاً وشهامة. . .!
لله أنت يا بيتر، وفي ذمة الله يا ديكي!!
حسن عبد العزيز الدالي
عمدة كفر دميرة القديم
معاودة الذكرى
تحفة من الشعر الغنائي الرائع

للشاعر الراوية الأستاذ أحمد الزين
عاوَدَ القلبَ حنينُهْ ... مَن على الشوق يعينُهْ
ويح قلبي من غرام ... هاج بالذِّكرى كَمينُهْ
يا لخّفاقٍ إذاً ما ... قَرَّ هزّته شُجونُهْ
واصلٌ مَن صَدَّ عنه ... صائنٌ من لا يصونه
خانه الصبر ولولا الص ... دُّ ما كان يخونه
يا زمانا لم تكن إلاّ ... هُنَيهاتٍ سِنينه
كنتَ رَوضاً حالياً بالو ... صل قد رَقَّت غصونه
حُلُمٌ إن يَمْحُه الده ... رُ ففي الذكرى تصونه
كلَّما مَنَّاه ظنٌّ ... عاد باليأس يقينه
آه لو تدرين ما بي ... ضاق بالقَيْد سَجينه
إنّها تدري ولكن ... لِصبا الغِيدِ فُتونه
أنتِ لي كلُّ شئوني ... ويلَ من أنتِ شُئونه
كان لي دمعٌ فمالي ... جَفَّ مِن دمعي مَعِينه
مَن لصَبٍ غَدَرَ الوا ... فِي به حتّى جفونه
سكن الليلُ فما للِ ... قلبِ يجفوه سُكونه
كلَّما ظَنَّ سُلُوّاً ... كَذبتْ فيهِ ظنونه
لا أذُودُ الحبَّ عن قل ... بي ولو شُقَّ وَتِينُه
كم فنونٍ ذاق في الح ... بِّ وللحُبِّ فُنونه
فليَذُق ما شاء منه ... ما رَعَى العهدَ أمينه
أيها اللائم دَعْهُ ... فَلهُ في الحبِّ دِينهُ
أحمد الزين
الضياء
للأستاذ أمين نخله بك
هذه القصيدة أهديت يوم نظمت إلى (مدموازيل كلير) ومن المحزن كثيراً أن تكون (مدموازيل كلير) قد غرقت في - ضمير الفناء - في أرض فرنسا، على حين أن الأدب العربي يستقبل اليوم (الضياء) فيطرب لها ويتلألأ بها، وصاحبتها التي من أجلها ألفت قوافيها وجمعت لفظاتها غائبة عن الدنيا في عتمة عميقة
فلتكن هذه القصيدة، إذن، ألطف زهرة على ألطف تراب في أرياف (إيل دة فرانس) البعيدة. . قال الأستاذ نخلة:
عاش لنا الصبحُ، ومات المساءْ ... في الصبح ألقاكِ، وألقي الضياءْ!
كأنّ لطف الله، سبحانه ... زحزح عند الصبح ذاك الغطاءْ
فالحمد لله على نعمةٍ ... تشمل حتى لون خيط الهواء!
. .إن الظلام المرتمي لّجةً ... أعمق غوراً من ضمير الفناء
يبتلع الدنيا على رحبها ... ويمسح الحسن، ويطوي الرواء
لولا الضياء السمح ما اخضوضرت ... منابت العشب، ولا ازرقّ ماء!
في دورة الجدول حمدٌ له ... وفي الأفانين عليه الثناء
ما العيشُ، لولا الضوء، ما لونه!؟ ... ما نضرةُ الرغد، وصفوُ الهناء؟!
يا ضوءُ شعشعْ، أنت عيدُ الضحى ... عيدُ الشعاع الطلق، عيدُ الفضاء
يا ناسجَ السحبِ على نوله ... أحسنتَ، فاسحبْ ذيلها ما تشاء
يا كاسيَ السنبلِ من عسجدٍ ... اخلعْ على الكرمة هذا الكساء!
إن الدوالي، وعناقيدها ... سخيّةٌ، فاسكبْ لها عن سخاء
يا ضوءُ، يا أنس المغاني، ويا ... بشائر الخير ولمع الرجاء
لك الحبورُ الذهبيّ، الذي ... راح على الوادي صباحاً وجاء!
رُبَّ شعاعٍ منكَ شكّ الدجى ... فقام بالجرح، وفي الفجر ناء
خلِّ الدجى يبكي على ملكه ... مقطّب الوجه، حوالي السماء!
من مبلغي من معمعان الهوى ... دفقة ضوءٍ، لا يليه انطفاء
أغرقُ في النور حبيبي، وفي ... زواخر الوهج وسكب البهاء. .
أمين نخله

رسالة العلم
ما بعد الطبيعة
الحياة
للسيد محمد حسن البقاعي
- 2 -

إن الإنسان ليتساءل فيقول: ما هو أساس الحياة؟ تُرى هل هو نمو الحسِّ وحركاته وألمه وعضويته؟ فهذه المسألة لا يمكن الجواب عليها إلا بالاستعانة بالعلم والفلسفة. على أن البحث في الحياة ليس إلا التفتيش عن الحي هل هو ناشئ عن مادة أو هل الحياة الموجودة في الجسد مًحصِّلةٌ لأمور مادية أم خاضعة لمبدأ روحي عقلي؟ ولعمري إن الغوص في بحث الحياة وسبر غورها ليتطلب البحث في النظريات التي وضعها الفلاسفة من القرون الأولى حتى عصرنا الحاضر. وهذه النظريات على نوعين:

(1) النظريات الآلية

(2) النظريات الحركية

أما خلاصة ما يقوله واضعو النظريات الآلية فهي: إنه من الممكن تعليل الحياة بالخواص الموجودة في كل نوع من أنواع المادة، أي يمكن تعليل الحياة بالحركة التي تصحب المادة. فقد قال (فاندال): (ليس تشكل نبات أو حيوان أو تبلور إلا حادثة ميكانيكية لا تختلف عن قضايا الميكانيك الاعتيادية إلا أن العناصر فيها بسيطة جزئية) على أن كيفية الحركة مركبة، فهي تعلل كل شيء بالمادة، مثال ذلك: تركيب الماء من ليس هو إلا تركيباً مادياً ويدعمون نظريتهم هذه بسلسلة من الأدلة الطبيعية

الدليل الأول: إننا نستطيع إرجاع كل شيء من مظاهر المادة إلى حركة، فالحرارة والنور يرجعان إلى اهتزاز وحركات فَلِمَ لا نعتبر الحياة مثلها ونرجعها إلى الحركات؟

الدليل الثاني: إن مبدأ (لا فوازيه المشهور، والمعروف بمبدأ حصانة المادة وبقاؤها لخير دليل على أن الأجساد الحية لا يوجد فيها شيء غير المواد الكيميائية التي تنتج بتحليلها تحليلاً كيميائياً، إذ أننا لو وَزنَا المواد الحاصلة بعد التحليل الكيميائي ووزنا الجسم المحلل

قبل ذلك لوجدنا هناك تعادلاً

الدليل الثالث: كلنا يعلم أن التركيب الكيميائي يعطي مُركباتٍ ذات خواص لا توجد في العناصر المركبة، فتركيب كلور الصوديوم من الكلور والصوديوم يكسب المركب خواص مغايرة لخواص كل من عنصريه فَلِمَ لا تكون الحياة مركباً ناشئاً من مركبات مختلفة؟

الدليل الرابع: لقد سمحت لنا التجارب الحديثة بمشاهدة بعض المماثلات والمناسبات الغريبة بين بعض صور الموجودات الحية وبين صور بعض الأجسام البللورية؛ فمن هنا نرى أنه يمكن إيضاح الحياة ميكانيكياً مثلها

ولكن هذه الأدلة لم تسلم من الأعتراض؛ فقد اعترض عليهم بعض الفلاسفة فقالوا: (إن العلماء حتى اليوم لم يستطيعوا أن يركبوا الحياة) غير أن هذا الاعتراض يستند إلى أساس أو هي من بيت العنكبوت. وهذا الأساس ليس إلا تلك التجربة التي قام بها (باستور) وأثبت عدم إمكان التوالد العضوي. فإذا لم يوصلنا العلم حتى الآن إلى تركيب جسم حي فلا بد أننا في المستقبل نستطيع ذلك. على أن كلام باستور: (إن الحي لا يتولد إلا من الحي) لا يمكن أخذه كمبدأ أساسي ما دام العلم في ارتقاء وتقدم مستمرين، وها هو (ليبنيز يقول: إن كل شيء في العالم يحدث ميكانيكياً. ولكن يجب أن ترتقي إلى مبدأ أعلى، وهو المبدأ الميتافيزيكي ليتجلى لنا إيضاح الميكانيكية نفسها: على أن في الحياة نظاما واتساقا خاصا لا يمكن تعليله في الحياة الميكانيكية فقط؛ مع أننا لا ننكر أن كثيراً من الحوادث الحيوية يمكن تعليها بالحوادث الميكانيكية. فقد قال (كلود برنارد ليس تكوُّن الجسم الحيوي من مجموعات عناصر كيميائية هو كل ما نمتاز به، بل هو الحياة أي القوة الحيوية التي لا توجد في الكيمياء، كاتجاه أعضائنا كل منها إلى غاية كغاية القلب وغاية المعدة. . . فنحن في هذه النظرية في عالم الأفتراض؛ لذلك نقول: إن كلاً من هاتين النظريتين: الميكانيكية والديناميكية تستطيع دحض الأخرى وتقويضها

ولقد اعترض (هنري برغسون على نظرية الميكانيكية فقال: الحياة كلها إبداعٌ فهي

مبدعة: أي أن تيار الحياة يأتي دائماً بالجديد. فالحوادث الحيوية فيها عدم تنبؤ ولا يمكننا أن نتنبأ بأن الأحفاد فيهم صفات الأجداد، وهذا ما يدعونا إلى عدم إيضاح الحياة وزيادة على ذلك فإن الحوادث الحيوية الموجودة في الجنين لا يمكن إيضاحها بصورة ميكانيكية: فنرى أن الشبكة العينية عند ذوات الفقرات ناشئة عن اتساع القسم الدماغي في الرشيم الحديث بينما هي عند النواعم مشتقة من الأدَمة أي من الخارج بصورة مباشرة لا بواسطة الدماغ. ومن هنا نرى أن العضو الواحد في حيوانات مختلفة لا يتشكل من نفس العنصر. والسبب في ذلك لا يمكن تعليله بالعناصر الميكانيكية في الرشيم ولا بشروط الإقليم والبيئة الموجودة فيها الرشيم. فتجدنا مضطرين إلى افتراض مبدأ مسيطر أي غاية واتجاه. وإذا اعترضنا على الميكانيكية والحركية هل نصل إلى شاطئ الصواب؟ كلا! فلا يسعنا لحل هذه المسألة إلا الرجوع إلى نظريات غير الحركية والآلية علنا نقرع باب الحقيقة ونلمسها بأناملنا العشر. فلنبدأ بذكر النظرية الحيوية فنقول: إن أصحاب هذه النظرية هم لروه وبارتس وكافة أطباء مدرسة (مونبيليه) وهم يعتقدون أن الحياة لم تنشأ إلا عن مبدأ خاص لا روح ولا شيء آخر، بل هو مبدأ حيوي وسط بين الروح والجسد. . . وقد تتجلى للقارئ قيمة هذا التعليل بمجرد ذكره فهو بدلاً من أن يوصلنا إلى حل هذه المسألة؛ أوجد لنا معضلة أخرى لذلك فان الحيويين مثل (بروسن) و (كابانيس وغيرهما من مدرسة باريس غيروا رأيهم فقالوا: ليست الحياة ناشئة عن مبدأ مفارق للجسد والروح؛ ولا عن خواص المادة. بل هي ناشئة عن خواص معينة حيوية من نوع ثابت معين موجود في الجسد، أي أن المادة فيها خاصة الحياة عدا خواصها المعروفة. وإذا عَرَّجنا الآن على نظرية العضوية القائلة: (إن الحياة هي وجوه الأعضاء في الجسم على هذه الصورة فهذا الوضع هو الذي أكسبها خاصة الحياة) نجد أننا لم نزل في غياهب جهل بحقيقة الحياة؛ بل كدنا أن نرتبك أكثر مما كنا فيه. إذن فلنبحث الآن في النظرية النفسية وهي النظرية التي تقول: (النفس مبدأ الحياة الأساسي). فإن الحياة تفارق الجسد عندما تفارقه النفس، وهي مبدأ العقل أيضاً فإننا نجد علاقة صحيحة بين الحياة العاقلة والحياة المادية أي أن مبدأ العقل هو مبدأ الجسد. ويثبت أصحاب النظرية النفسية رأيهم هذا بوجود الوحدة في الجسد بالرغم من هذه الكثرة، فبما أن في النفس غاية واحدة فهي إذن المبدأ الأول للحياة

ولا يمكننا إيضاح هذه الوحدة وهذا التناسق إلا بهذه الغاية الموجهة، إلا وهي النفس. على أننا لا نعرف بأية صورة تؤثر الروح في الجسد؛ وهذا الأمر شغل كثيراً من علماء النفس

وعلماء الاجتماع والفيسيولوجين، ولم يستطيعوا التوصل إلى حل معقول. فنحن إذن لا نزال في عالم الفرضيات؛ أضف إلى ذلك ما يعرضه بعض الفلاسفة على أصحاب هذه النظرية من الأسئلة، فقد قالوا: إذا كانت النفس لها تلك القدرة التي يسندونها إليها - أي هي التي تحمي الجسد - فلماذا تتركه يفسد فيزول أو يمرض؟ وكيف توضح الحوادث التي تحدث في الجسد بعد مفارقة الروح له كأن يطول الظفر بعد الموت وينمو الشعر؟ وماذا نقول إذا علمنا أن بعض البوليب التي تعيش في المياه الحلوة إذا قطعت بصورة عرضية، أي إذا شطرت شطرين، يكون كل شطر منهما ذا حياة جديدة ويعيش؟ ألم يقرروا أن النفس لا تنقسم؟ إننا نجد هذه النظرية لا تخلو من الصعوبات أيضاً. ولقد وضع (داروين وكروسي) نظرية دعيت بالنظرية الروحية الكثيرة العناصر الحيوية فتقول: (الحياة ناشئة عن الروح والجسد معاً أي عن عنصرين. فلا يعتبر الجسم مادة عاطلة لا حياة فيها، بل هو مستعمرة لحجيرات كثيرة كل منها لها حياتها الخاصة؛ والنفس توجد هذه الحياة الكثيرة العناصر وتوجهها إلى جهة واحدة) فهذه النظرية لم تكن أسعد حظاً من رفيقاتها السابقة، بل هي لا تختلف عن نظرية مدرسة مونبيليه من حيث توضيحها للحياة بالحياة نفسها

وفي ختام هذه البحث لا يمكننا إلا القول: الحياة هي قوة إلهية كامنة يبثها الله تعالى في الموضع الذي خصصه لها وهي كل جسم صالح للحياة. وقد تبين لنا أن العقل البشري منذ القرون الأولى إلى العصر الحاضر لم يكتشف كنهها، فهو إذن عاجز عن إدراك الحقيقة النهائية للحياة، ولعل الله يكشف لبعض الأدمغة الواسعة عنها فيخلص طائفة كبيرة من عناء التفكير فيها ويردعهم عن الوقوع في الزلات الجسيمة وارتكاب

الأخطاء العظيمة
(انتهى بحث الحياة ويليه بحث الروح)
(دمشق)
محمد حسن البقاعي
القصص
أقصوصة حكيمة من جولد سمث
الجندي الأجذم
للأستاذ دريني خشبة
!!يجهل نصف الناس كيف يعيش نصفهم الآخر
تلك ملاحظة عامة شائعة؛ بل ليس فيما يلاحظ الناس أكثر منها شيوعاً. . . وهي مع ذاك ملاحظة صادقة؛ فهموم العظماء ما تلبث أن تفشو وتفشو، وتذيع أنباؤها حتى تصبح مِلء الأسماع، وملء الأفواه، وحتى تصبح حَبتها قبة، وحصرِ منها عِنَبَة؛ وذلك بما يمطها به الرواة، وما يُضْفون عليها من الزخرف الزائف، والبهرج العقيم. . . ويبتعث هذا في نفوس المهمومين طائفاً من الزهو فيلتذون همومهم، ما دامت تجعلهم أبطالاً في تقدير الأغرار
هذا، وليس فخراً أن نحتمل الرُّزْء في ثباتٍ وفي جلدٍ ليسا طبيعةً فينا، ولا أصلاً في جِبلتنا، بل هما صدىً للخُيَلاء التي يثيرها فينا إعجاب الناس بنا، واستعظامهم لنا
أما العظيم حقاً، فهو الذي ينزل بساحته الخطب فيصمد له، ولا يحفل به، في حين لا خِلٌ فيواسيه، ولا صديق فيشجعه. . . بل. . . ولا بارقة من أمل فتُسرى عنه. . . ذلك رجل ينبغي علينا احترامه، ويجب أن نتخذه لنا قدوة، مهما يكن. . . من السوقة هو. . . أو من عِلية الناس
!!يا ما أتعس حظ الفقير
إن الرجل الغني إذا أصابته ضرّاء، وقد لا تكون من الضرّاء في شيء، تناقل الناس ضرّاءه، فهولوا بها، وأفاضوا فيها، بَيْنَا يُرَزّأ الفقير بأضعاف ذلك فلا يلتفت إليه أحد، ولا يعتدّ به مخلوق. . . وإن مصيبةً واحدةً من مصائبه في سحابة يوم لترجح مصائب العصبة أولى الحول من السادة العظماء في حياتهم جميعاً. . .
إن من أصغر جنودنا وبحارتنا العاديين مَنْ إن ينزل به الخطب لا تتصور فدحه عقولنا، فيصبر له في عظمةٍ وتسليم وإيمان، دون أن يشكو أو يتململ، أو يتسخط على قضاء الله،
ودون أن يُشهد الناس!. . . هذا. . . وقد تكون أيامه كلهن نوازل يأخذ بعضها برقاب بعض
لشد ما كنت أضيق ذَرْعا بأوفيد وشيشرون ورابوتين حينما كنت أقرأهم فأراهم يشكون ويبرمون ويتسخطون، ويندبون حظهم العاثر، وطالعهم النحس.،. ولماذا؟؟ لأن أحدهم لم تسعده المقادير بزيارة هذا المكان أو ذاك، مما وقر في باله أنه كان حرياً لو قطف ثمار السعادة فيه. . . وليس هذا الهم من الهموم إلا سعادة صرفة إذا قيست بما يجرعه البائسون من غصص الحياة كل يوم. . .
لقد كان أولئك يحيون في بُلهنية وسعة، يحف بهم حشمهم، ويسجد تحت أقدامهم خدمهم، لا يحملون هماً من هموم المادة، ولا يبالون كلفة من كلف الحياة. . . كل هذا بينما كان كثيرون من بني جلدَتهم يجوبون الآفاق في ظمأ ومسغبة، لا يكادون يجدون الكِنّ الذي يدرأ عنهم عاديات الجو وتقلباته. . .
كل هذه الخواطر دارت بِخَلَدي حينما لقيت فجأةً، ومنذ أيام خلت، رفيقاً بائساً كنت أعرفه إذا أنا صبي؛ يطوف في أزقة المدينة وهو يتكفف الناس، وقد جعل يقْزل برجلين إحداهما من لحم وعظم. . . والأخرى من خشب. . . ومن فوق كاهله سترة بحَّار بالية، يتوكأ بها على عُكازةٍ نابية
وهالني أن أراه قد آل إلى هذا المال. . . فلقد كنت أعرفه أميناً دائباً شديد الدؤوب إذ كان يعمل في الريف. . . فبعد أن دسست في يده ما هو حسْبُه، رغبت إليه في أن يقص علي قصة حياته، وطرفاً من أنباء مأساته. . . وأرسل صديقي الجندي الأجذم، وقد كان جندياً حقاً وإن بدا في ثياب بحار، أظافره تعيث في جلدة رأسه، ثم انكأ على عكازته، فعرفت أنه يجمع أشتات الذكريات التي تتألف من أسرابها قصته، والتي

ساقها في حديث طويل طلى هكذا:
(لا أستطيع أيها السيد أن أدَّعي أن مصائبي قد فاقت مصائب سواي، أو أنني لقيت من العنت ما لم يلق غيري، إذ أنني، فيما عدا هذه الساق المبتورة، وتلك الأصابع المجذومة، وما اضطررت إليه من المسألة والتكفف، لا أجد والحمد لله ما أشتكي منه!! وإن هذا زميلي تِبْز الذي فقد ساقيه جميعاً، وإحدى عينيه، والذي أقعده كل ذلك عن السعي وراء رزقه. . .
فأين أنا مما آل إليه؟ شكراً لله!
ولقد ولُدت في شُبْشَيَر، ومات أبي - وكان من العمال - ولما أبلغ الخامسةَ بعد، فأرسلت إلى ملجأ إحدى الكنائس ذوات الضياع. . . ورفض القساوسة أن يبقوا عليّ لأنني لم أستطيع أن أنتسب لديهم، ولأنني لم أستطع أن أخبرهم أين وُلدت؛ ومن لي بهذا وأبي - وقاك الله! - كان رجلاً آفاقياً، لا ينتهي من تطواف إلا إلى تطواف! وقذفوا بي من أجل هذا إلى ضيعة كنيسة أخرى، فأرسلتني بدورها، ولنفس الأسباب، إلى ضيعة ثالثة، فرابعة، فخامسة، وهكذا دواليك، حتى حسبتني أقضي الحياة في هذا التشرد الطويل دون أن أستقر، لولا أن تغلبت مروءة الإنسانية آخر الأمر، فخلجت إحدى الكنائس أن تطردني من ضيعتها، فبقيت ثمة، وألحقت بكُتَّابها لأتعلم الهجاء، بيد أنني وا أسفاه لم ألبث به طويلاً، إذ آنس في مُعلم المصنع الملحق بالكنيسة جسماً يافعاً وذراعاً مفتولة لا أيسر عليها من حمل المدق والمطرقة فاختارني لمعاونته في عمله. . . وبقيت هناك خمس سنوات كانت أسعد فترة في حياتي لسهولة العمل، وطراوة العيش، وإقبال الزمان. . . ذلك أنني لم أكن أعمل كل يوم أكثر من عشر ساعات (!)، ومع ذلك فقد كنت أعطي نصيباً وافراً من اللحم والشراب يتناسب مع مجهودي الضئيل، ومع أنني كنت أشتهي لو قضيت حياتي كلها ثمة فانهم كانوا يحبسونني داخل الكنيسة، بحيث لم يسمحوا لي قط أن أعدو وصيد بابها، خشية أن أفر إلى ملجأ آخر. . ولا أدري لماذا كانوا يظنون مثل هذا الظن، والكنيسة كلها كانت حِلاًّلي، وحوشها الكبير أمرح فيه حيث أشاء. .
(ثم نقلت بعد أن شببت إلى مزرعة مجاورة لأعمل فيها من مطلع الفجر إلى غسق الليل، ثم أعود إلى الكنيسة لأنام، وكنت أحمد الله على أن يسر لي أمر طعامي وشرابي، وعلى أن حبب إلي عملي الذي كنت أقبل عليه في رضي وقناعة. . . ولما مات المعلم الذي لزمته طوال هذه المدة، كان طبيعياً أن أهجر الضيعة لأشق طريقي في الحياة بنفسي، ولأكدح في سبيل رزقي فرحت أزرع الأرض، وأنتقل من قرية إلى أخرى، وأشبع إذا لقيت ما أعمله فأوجر عليه، وأجوع إذا لم ألق عملاً حتى أوشك أن أقضي من الطَّوى
(ثم حدث أن كنت ماراً ذات يوم في طريق وسط مزرعة لحاكم الإقليم فلمحت أرنباً بريا يرتع ويلعب ويقضم العشب، فوسوس الشيطان في صدري أن أحذفه بعصاي. . . ففعلت.
وقصمت ظهره، ثم هرولت إليه فحملته وأنا فرح بهذا الصيد، وما كدت أمضي حتى لقيني الحاكم صاحب المزرعة نفسه وانطلق يسبني ويلعنني، ويرميني بكل موبقة، ويشتمني فيقول ويقول. . . ثم أمر بالقبض علي، وإحضاري أمامه لأثبت شخصيتي وليرى إن كنت متشرداً أو جَوّاب آفاق. . . وقد وقفت أقبل الأرض بين قدميه وأترضاه واستعطفه، ثم جعلت أسرد له ما أعرف من أرومتي ونشأتي وآبائي، حتى لم أبق شاردة ولا واردة إلا قصصتها. ولكنه وا أسفاه تجهم وقال: إني لم أستطع أن أثبت له شخصيتي. . ثم حوكمت بعد هذا - أعاذك الله - بتهمتين عجيبتين، أما إحداهما فخرق قوانين الدولة بما قصمت ظهر الأرنب، وأما الأخرى. . . فلأني فقير معدم. . . لا أمامي. . . ولا ورائي! وأرسلوني إلى نيوجيت بلندن لأنفى من أرض الوطن في زمرة المجرمين والمتبطلين
(وبالرغم مما يزعمه الناس عن الحياة في السجن، فلقد وجدته لطيفاً ظريفاً كما وجدت أي مكان غيره في العالم. . وماذا غير أن يأكل الإنسان ويشرب ملء بطنه، وينام ملء عينيه، دون أن يعمل عملاً ما. . .! لعمري لقد كنت أوثر أن أبقى هناك إلى الأبد، لو لم يأخذوني بعد خمسة أشهر إلى الميناء، حيث شُحنت أنا ومائتان غيري من ذوي البطالة في فُلك كبيرة، ما لبثت أن همت بنا في موج كالجبال إلى مزارع

المستعمرات وراء البحار وقد تركونا لكثرتنا الهائلة ننام في ممر ضيق بين القمرات، فاختنق من اختنق، وعاش من عاش، وكانوا يقذفون بمن مات في اليم ليدفن في بطون السمك، وتالله لقد دفن فيها نصفنا أو يزيد. . . أما من نجا، فقد اعتل جسمه وخارت قواه، وهُزل هزالاً شديداً

(وبلغنا الشاطئ، وباعونا كالرقيق للمزارعين، وظللت أفلح الأرض مع العبيد، ولو قد تعلمت الهجاء لنجوت من حمارة الشمس الاستوائية، ولقمت بعمل أسهل. . . ولا أطيل عليك، فلقد لبثت في عملي المتصل سبع سنين سُرِّحنا بعدها وهفا القلب إلى الوطن. . . واشتاقت النفس إلى إنجلترا الأم التي أهواها من كل قلبي، وأخلص لها الحب من أعماقي، فلبثت أياماً أفكر في الأوبة وأعدّ لها عُدّتها، وحرصت على ألا أقع فيما وقعت فيه من قبل من تهمة البطالة والتشرد، فلم أذهب قط بعيداً عن حدود المدينة، بل رحت أذرعها مشرقاً ومغرباً وأنتظر يوم الرحيل. . واستعنت بأداء بعض الأعمال التافهة على التوقي من أعين الشرطة

وكنت أشعر بسعادة عميقة أثناء هذه الفترة التي تسبق عودة النازح إلى أرض الوطن. . . ولكن. . . حدث ما لم يكن قط في حسباني، فبينما كنت عائداً أدراجي من بعض عملي إلى منزلي، إذا رجلان قويان يلكمانني لكماً كاد يحطم رأسي، وإذا بي أهوي إلى الأرض في غير وعي. . . حتى إذا أفقت إذا هما يأمرانني أن أنهض ثم إذا هما ينطلقان بي إلى الحاكم الذي يطلب إلى ما يثبت شخصيتي! حتى إذا عجزت هذه المرة كما عجزت في الأولى، تُرك لي أن أختار إحدى اثنتين لا ثالثة لهما، فإما أن أنطلق من فوري فأعمل بحاراً على ظهر مركب يوشك أن يبحر أو أن أنضوي إلى صفوف الجند فأحارب أعداء المملكة. . . ولم يكن بد من أن أختار الجندية التي شعرت فيها بكرامتي خصوصاً بعد أن حاربت في وقعتين كبيرتين هما معركة الفال الخالدة، ومعركة فونتنوي التي لن أنساها ما حييت. . . ولم يمسسني ضر في أي منهما، اللهم إلا جُرْح هنا. . . في هذا المكان الرحب من صدري، استطاع طبيب فرقتنا الحاذق النطاسي أن يشفيه سريعاً

(وبعد أن وضعت الحرب أوزارها، ودخلنا في السلم كافة، سُرّح كثير من الجنود فكنت منهم. . . ولم استطع أن أضطلع بالأعمال الشاقة التي كنت احتملها من قبل، لأن جرحي كان يَنْغَل أحياناً فيؤلمني ويقعدني عن أي عمل. . . ثم انضممت إلى جيش شركة الهند الشرقية فحاربت الفرنسيين في ست معارك دامية، أبليت فيهن جميعاً بلاء حسناً، ولو كنت قد أسعدني الحظ فثقفت بالكتابة والقراءة لارتقيت إلى مرتبة (أونباشي). . . وشاء الجد العاثر أن يلم بي مرض يقعدني عن الحياة العسكرية المقاحمة، فيهيج في قلبي حنينه القديم، وفي نفسي توقها إلى الوطن؛ فأنتوى الأوبة من جديد، وإن في جيبي لأربعين جنيهاً حمراً رنانة. . . وكان ذلك في إبان الحرب الحاضرة؛ وكم كنت أحلم أحلاماً لذيذة سعيدة إذ أنا على ظهر الفلك، وأفكر في كيف أنفق هذا القدر غير القليل من الذهب الوهاج. . . . وكانت الحكومة في حاجة ماسة إلى الرجال، فلما أهابت بأبناء الوطن انضويت إلى الصفوف وأنا في عرض الحر، فعملت بحاراً في إحدى وحدات الأسطول، من غير أن تكون لي أية دراية بأعمال السفانة الحربية ولا غير الحربية. . . . وطالما اتهمني الربان بأني أعرف من الأعمال البحرية ما أنا مخفيه، إيثاراً للعمل الحربي في البر، فكان يضربني ضرباً مبرحاً لم يكن يخفف من أوجاعه في نفسي إلا الأربعون جنيهاً التي ادخرتها واكتنزتها في جيبي، والتي كثرتها بما ضممت إليها مما كنت أقتصد بعد وقد ضلت سفينتنا مرة، فأسَرتْنا وحدة بحرية فرنسية. . وبهذا - وا أسفاه - خسرت نقودي كلها. . . . . ونزلنا إلى البر في ميناء برست، ولم يحتمل رفاقي الملاحون زهمة السجن وهواءه الخانق، فمات أكثرهم. . . أما أنا فقد بقيت فيمن بقي؛ ويبدو أن ما تعودته من الحياة في أشباه هذا السجن، قد جعلني أحتمل ما لم يحتمل زملائي وبينما كنت نائماً على أرض السجن، وأنا ملتفع بغطائي الدافيء، إذا بي استيقظ على صوت الربان الذي جعل يلكزني لأصحو. . . وقال لي في صوت خافت، وهو يحمل مصباحاً أخفت من ضوئه: (جاك! جاك! هل لك في أن تحطم رأس (الديدبان) لنلوذ بالفرار يا صاحبي؟!) ولم يكن أحب إلي من أن أفعل. فوافقت على هذه المجازفة

التي رغبها إلى كراهيتي للفرنسيين، الذين أعدهم أمة من العبيد. . . والذين لا يلبسون في أرجلهم إلا (القباقيب!)
ولم يكن معنا سلاح ما. . . بيد أننا كنا على ثقة دائماً من أن إنجليزيا واحداً يسعه أن ينتصر على عشرة من الفرنسيين. . . وهكذا انطلقنا إلى حيث انكمش الحارسان في ركن بعينه من البرد، فانقضضنا عليهما، وانتزعنا منهما سلاحيهما، ثم حطمنا رأسيهما، ولذنا بالفرار إلى الشاطئ. . . ولحق بنا تسعة ممن بقي من أسرانا، فركبنا زورقاً كبيراً، وأبحرنا من فورنا
ولبثنا نصارع الموج ثلاثة أيام سوياً، حتى أضرّ بنا الجوع، وأوشك أن يهلكنا الظمأ. . .) ثم اقتربنا من مركب كبير فحسبنا أن يد العناية قد أرسلته إلينا لتنشلنا مما نحن فيه. . . فإذا هو مركب من كراكب (قراصين) البحر، استطاع رجاله أسرَنا. . . وكم كان فرحهم بنا عظيماً، لأننا أيد عاملة تنفعهم فيما هم بسبيله من أعمال القرصنة. . . وقد رضينا نحن بالعمل معهم، إذ كان لابد مما ليس منه بد. . . ولم يكن حظنا بساماً هذه المرة، فلقد شاء سوء الطالع أن نشتبك في قتال بيننا وبين الـ (بومبادور) القوية التي يملك قراصينها أربعين مدفعاً صالحة كلها للعمل، بينا لم نكن نملك أكثر من عشرين وثلاثة مدافع. . . ومع ذاك فقد قاومنا ما وسعنا أن نفعل، بل بدا لنا أننا نرى النصر قاب قوسين أو أدنى، في
نفس اللحظة التي تمت هزيمتنا فيها. . . وعلة ذلك كثرة من قتل من رجالنا، وقلة الأيدي التي لم يكن يسعها أن تُعمل المدافع كلها لنحوز النصر. . .
وهكذا شاءت المقادير أن أكون مرة أخرى في قبضة الفرنسيين. . . ولشد ما فزعنا) أن يرسى بنا ثانية في برست، إذن ما كان جزاؤنا إلا القتل هناك. . . ولكننا رسونا في ميناء أخرى، فنجونا. . . وقد نسيت أن أذكر لك أنني فقدت إحدى ساقيّ، وأربعاً من أصابعي، وأصبت بأربعة جروح كبيرة في هذا القتال الهائل. . . أواه يا سيدي؟! أواه لو أسعدني الحظ فكنت قد فقدت هذه الساق وتلك الأصابع فوق بارجة من بوارج الوطن. . .؟! إذن لكفلتني الحكومة، وحبست على معاشاً كاملاً طوال الحياة. . . ولكن. . .! ما حيلتي؟ إن من الناس من يولد وفي فمه ملعقة من فضة، وإن منهم من يولد وفي فمه مغرفة من خشب. . .!! على أنه مهما يكن من أمري، فأني أحمد الله القدير الذي حباني عافية وصحة، ووهبني النعيم والحرية ورزقني محبة بلادي. . . بلادي (!ذات المجد. . . إنجلترا. . . إنجلترا الأم. . . عاشت إنجلترا
ثم مضى عني، وغادرني في حيرة من رضاه بما هو فيه، وتسليمه الجميل لما صنع الله!! حقاً. . . إن التمرس بالبؤس يعلمنا كيف نستهين به، أضعاف ما تعلمنا ذلك الفلسفة!!

دريني خشبة

البريد الأدبي

مؤتمر المواصلات السلكية واللاسلكية

وهذا مؤتمر دولي آخر يعقد في القاهرة ويفتحه جلالة الملك (فاروق الأول)، هو المؤتمر الدولي للمواصلات السلكية واللاسلكية؛ وهو رابع مؤتمر دولي يعقد في القاهرة في هذا الفصل بعد مؤتمر الرمد الدولي، ومؤتمر توحيد قانون العقوبات، ومؤتمر القطن الدولي؛ وقد أشرنا إليها جميعاً في حينها. ويعتبر مؤتمر المواصلات السلكية واللاسلكية الذي عقد في أول فبراير الجاري من أعظم المؤتمرات التي عقدت في مصر في الأعوام الأخيرة إن لم يكن أعظمها جميعاً، فقد مثلت فيه ثلاث وستون دولة وهو أكبر عدد من الدول اجتمع في مصر في مؤتمر واحد. ويرجع ذلك إلى أهمية المسائل التي يعالجها المؤتمر، وإلى أهمية الدور الذي لمصر بفضل موقعها الجغرافي الفريد في المواصلات اللاسلكية. وقد كانت مصر في مقدمة الدول التي أدخلت فيها المواصلات الحديدية والتلغرافية، وهي اليوم في مقدمة الدول التي يحتم عليها موقعها الجغرافي بين قارات العالم القديم، وظروفها الدولية الخاصة، أن تكون من أعظم مراكز المواصلات اللاسلكية في العالم
وقد جرى جلالة الملك في افتتاح هذا المؤتمر على سنته المشكورة التي استنها، وهي افتتاح المؤتمرات الدولية التي تعقد في مصر باللغة العربية؛ وألقيت أيضاً خطبة الافتتاح الرسمية من وزير المواصلات بالعربية؛ وهذا تقدير كريم للغة البلاد وتشريف

يبعثان إلى الغبطة والحمد
مؤتمر طبي عربي
يعقد في التاسع من فبراير الجاري بمدينة بغداد - كما ذكرنا من قبل - مؤتمر طبي عربي دعت إلى عقده في العاصمة العراقية الجمعية الطبية المصرية؛ وسيتفضل صاحب الجلالة ملك العراق بافتتاح هذا المؤتمر الذي سيعقد في قاعة الحفلات الكبرى بسراي أمانة العاصمة، ويستمر عقده أيام عيد الأضحى؛ وقد هرع إلى شهود هذا المؤتمر عدة من أكابر الأطباء المصريين وأساتذة كلية الطب، وفي مقدمتهم علي إبراهيم باشا وسليمان عزمي باشا؛ وكذلك بادر إلى شهوده جماعة كبيرة من أطباء الأقطار العربية الشقيقة، من فلسطين وسورية والحجاز
وسيكون عقد هذا المؤتمر العربي فرصة جديدة لتقوية أواصر الثقافة الطبية والاجتماعية بين مصر وشقيقاتها
في مملكة سبأ
أذاعت بعض الصحف الخارجية أخيراً بعض بيانات أفضى بها الرحالة المستشرق الإنكليزي المعروف المستر سنت جون فيلبي المعروف بالحاج عبد الله، والذي يقيم في جدة منذ أعوام طويلة، وتربطه بالملك ابن السعود صداقة متينة - عن اكتشافاته لآثار مملكة سبأ في (الربع الخالي). وكان قد حاول اختراق هذه المنطقة قبله رحالة فتى ألماني يدعى هانز هلفريس، ولكنه وقع في أيدي البدو، ثم بعث به إلى الشاطئ؛ ومع ذلك فقد استطاع أن يلتقط بعض صور فوتوغرافية مدهشة، منها صورة أطلال مدينة حصينة على رؤوس الجبال، وبها أبنية متهدمة عالية ترتفع عدة طبقات، وآثار أطلال ضخمة تضارع الأطلال الفرعونية في روعتها؛ فحفزت هذه الصور بعض العلماء المغامرين إلى محاولة اختراق (الربع الخالي)؛ وكان الحاج عبد الله فيلبي بمركزه في المملكة السعودية، واعتناقه الإسلام، ومعرفته الواسعة للغة العربية ولهجات القبائل، أسبقهم وأقدرهم على أداء هذه المهمة؛ فجهز في العام الماضي قافلتين إحداهما من السيارات والأخرى من الجمال، واخترق الصحراء الغربية من مكة إلى المكلا عاصمة حضرموت، ثم عاد غرباً نحو اليمن، واخترق اليمن من الجنوب إلى الشمال؛ واستطاع أثناء رحلته الشاقة أن يقوم باكتشافات أثرية هامة، وأن يحقق الأسباب التاريخية والجغرافية التي أدت إلى خراب مملكة سبأ، وفي رأيه أن هذا الخراب يرجع إلى عاصمة مملكة سبأ التي كانت تحيط بها سلسلة من البراكين الثائرة، وأن الزلازل هي التي قضت عليها منذ نحو ألفي عام، كما قضت على مدينة بومبياي الرومانية الزاهرة، وبذلك انمحت مملكة سبأ من صفحة التاريخ
وقد أثارت رحلة الحاج فيلبي واكتشافاته اهتماماً في جميع الأوساط العلمية والأثرية
رابطة دولية للكتاب
تألفت في لوزان جمعية أدبية كبيرة لحماية الكِتَاب وترويجه باسم (رابطة الكتاب)، وانتظم فيها عدد كبير من أكابر الكتاب والمفكرين مثل رومان رولان وجورج دوهامل واندري
جيد وغيرهم، وقد وصف دوهامل أغراض هذه الجمعية في مقال ذكر فيه (أنها تقوم بمهمة بديعة، لا في سبيل ترقية ذوق القراء لدى جمهور عظيم من الناس فحسب، ولكن أيضاً في سبيل إذكاء ثقافة إنسانية عالمية، ومن ثم فإنها غدت تضم صفوة المفكرين في أوربا)
وتعني رابطة الكتاب الدولية عناية خاصة بحماية الذوق الثقافي بعد أن جنت عليه جهود الراديو والسينما، والصحافة الأخبارية السطحية، وبعض الناشرين الذين يتجرون في الأدب الرخيص، وإعادة الكتاب القيم إلى مركزه الرفيع. وقد انضم إلى الرابطة جماعة من الناشرين المحترمين الذين يعنون بنشر الكتب القيمة، ووضع نظام لإخراج سلسلة من الكتب والمؤلفات الرفيعة في مختلف المواد، وروعي أن تكون في الغالب كتباً جديدة؛ وستقدمها الرابطة إلى القراء بأثمان تكاليفها دون أن تسعى إلى ربح، وقد أصدرت فعلاً عدة مؤلفات نفيسة من كتب راموز ومسترال ومكسيم جوركي وتولستوي وغيرهم
جيته بطل قصة مسرحية
مثلت أخيراً في المسارح الألمانية (كوميديا) جديدة عنوانها (مقابلة مع أولريخا) بقلم

الكاتب المسرحي زجموندجراف وفيها وصف لفصل غرامي من حياة جيته شاعر ألمانيا الأكبر فيبدو الشاعر على المسرح وهو في شيخوخته عاشقاً لفتاة تدعى أولريخا ليفتوف كان قد قابلها أثناء استشفائه في مدينة مارينباد ورغب في زواجها، ولكن حالت دون رغبته ظروف خاصة، وهي واقعة حقيقية في حياة الشاعر الكبير، وقد لقيت القطعة من جراء ذلك نجاحاً عظيما

جوائز قومية ألمانية لتشجيع العلوم والآداب

في العام الماضي قررت الحكومة الألمانية أن تحرم على العلماء والكتاب والفنانين الألمان قبول أية جائزة دولية أو أجنبية للعلوم أو الآداب أو الفنون؛ وقررت من جانبها أن ترتب جوائز ألمانية قومية تمنح لأقطاب العلم والأدب الألمانيين، وتكون في أهمية جوائز نوبل من حيث قيمتها المادية والأدبية؛ ولذلك سبب قد يذكره القراء، وهو أن لجنة جامعة استوكهلم منحت في العام الماضي جائزة نوبل للسلم للكاتب الألماني كارل فون وسيتسكي، وكان لذلك صدى سيئ لدى الحكومة الألمانية لأنها تعتبر الكاتب المذكور من خصومها لأنه ديموقراطي، وكان قبل قيام الحكومة النازية يدعو إلى السلام ونزع السلاح. فلما قام الهتلريون في الحكم قبض عليه ولبث في معتقله حتى منح جائزة نوبل للسلام؛ واعتبر الهر هتلر أن في منحه الجائزة على هذا النحو إساءة لألمانيا وتعريضاً بنظمها وسياستها، فأصدر قراره بتحريم الجوائز الدولية على جميع الألمان

وقد احتفل في 30 يناير الماضي، وهو يوم ذكرى قيام الحكومة النازية في الحكم بتوزيع الجوائز القومية الألمانية لأول مرة على مستحقيها؛ فمنحت جوائز في العلوم والآداب والفنون إلى كل من العلامة الرحالة الدكتور ولهلم فلشنر الذي عاد أخيراً من رحلته الطويلة في مجاهل آسيا الوسطى، والدكتور روزنبرج الكاتب النازي الشهير، والأستاذ الدكتور زاوربروخ الجراح الشهير، والأستاذ تروست الذي توفي أخيراً، والدكتور أوجست بير. وقد استقبل الزعيم هتلر المنعم عليهم بالجوائز في يوم 30 يناير وأثنى على علمهم وعبقريتهم، وقدم إليهم بنفسه براءات الجوائز المذكورة، وهي عبارة عن نجمة من الماس في وسطها رمز الإلهة منيرفا؛ هذا عدا الهبات المالية التي سيحصل عليها الفائزون وهي كبيرة

ديوان إسماعيل صبري باشا

يسرنا أن نزف إلى قراء العربية أمنية من أعز أمانيهم طالما تاقت نفوسهم إلى تحقيقها، وهي إعداد ديوان أستاذ الشعراء وحامل لواء الشعر الحديث المرحوم إسماعيل صبري باشا. وهذا الديون الحافل بطرائف شعره يطبع الآن في مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بعد أن أتم حضرة الشاعر الرواية الأستاذ أحمد الزين ضبطه وشرحه وتصحيحه على أتم وجه وأحسنه. ولاشك في أن ظهور هذا الديوان الخالد يعد حادثاً أدبياً ذا بال في عالم الشعر، فهو بحق حلقة اتصال بين الجيل الماضي والجيل الحاضر

ويحسن بنا أن نشير إلى ما كان بين الأستاذ أحمد الزين وبين المرحوم صبري باشا من مودة وثيقة دامت سنين طويلة فلا عجب إذا تولى هو إخراج هذا الديوان وفاء لصديقه وقياماً بالواجب الأدبي نحو فنه. وقد وصل إلى علمنا أنه ستقام حفلة ذكرى للفقيد بعد إتمام طبع هذا الديوان، رحم الله صبري باشا وجعل في أثره الخالد عزاء عن فقده

مذكرات لورد بيرون

تحتفل الأندية الأدبية في إنجلترا وفي العالم بمضي 150 سنة على ميلاد الشاعر العظيم جورج جوردون بَيْرون المولود في سنة 1788 والمتوفى سنة 1824. . . وسيستفيد العالم من إحياء هذه الذكرى فائدة جليلة وذلك بما اعتزمه بعضهم من نشر مذكرات الشاعر النثرية التي كتبها بين سنتي 1819 و 1821 وهو مقيم إذ ذاك في إيطاليا والتي حال دون نشرها ما جاء فيها من تصريحات بيرون الشائنة فيما يتعلق بصلاته الغرامية والتي لا يسمح القانون الإنجليزي بتداولها في أيدي الناس لكونها من المحظورات التي يتنافى ذيوعها مع الأخلاق الإنجليزية المحافظة. . . والمفهوم أن إذاعة هذه المذكرات سيكون بموافقة الحكومة وبعد حذف الفقرات الصريحة الصارخة التي لم يبال اللورد أن يثبتها بقلمه فيها

والمعروف من تاريخ حياة بيرون أنه نشأ نشأة مستهترة لا تعرف للعرف حرمة ولا

للشرائع سلطاناً. فمن هذا أنه صبا إلى أخته وافتتن بها، ثم أتصل بها اتصالاً يخجل القلم من تسجيله هنا. . . ومن ذاك أيضاً أنه ألف جماعة خمرية كان يحتسى أفرادها الخمر من جماجم الموتى التي كانوا يسرقونها من المقابر. . . وبحسب القارئ هذان المثالان عن شذوذ الشاعر العظيم الذي كان أديب الألمان جيته يعجب به ويقول فيه إنه يصدر في شعره عن أمواج البحر الدفاقة، وينفث فيها رقة الأثير.

وكان بيرون وثنياً شديد الولوع بالإغريق. . . ومن هنا عبادته للجمال وترديده أسماء آلهتهم في شعره. . . ومن هنا أيضاً دفاعه الحار عنهم في الحرب الاستقلالية التي لاقوا فيها الرعب من البطل المصري إبراهيم باشا. . . وقد حضر بيرون حصار مسولونجي ونظم فيه إحدى غرره، ولا ندري إن كان القائد المصري قد قابله أم لا. هذا وسنفرد له فصلاً خاصاً في عدد آخر

الأدب الكاريكاتوري

كان ظريفاً جداً هذا العمل الجليل الذي ساهم به الأستاذ توفيق الحكيم في مهرجان الأوبرا للزفاف الملكي والذي أظهر فيه أدباء العصر على خشبة المسرح في رواية تمثيلية. . . ونحن نضع لهذا اللون من الأدب اسماً فندعوه الأدب الكاريكاتوري، وهو غير الأدب الهزلي أو (الكوميدي). وقد وضع أساس الأدب الكاريكاتوري الشاعر اليوناني أرسطو فان منذ أربعة وعشرين قرناً، وكان يتناول في (كاريكاتورياته) شخصيات عصره والعصر الذي سبق بالنقد والتسفيه و (التضحيك). وخص الشاعر يوريبيدز بكثير من هذه (الكاريكاتوريات)؛ ولم يستطع مع ذلك أن يقلل من قيمة مواطنه العظيم أو أن يخفض من قدره. وقد ألف شاعرنا الخالد أو العلاء كتابه (رسالة الغفران) على هذا النوح، فطاف بصاحبه ابن القارح في المحشر وفي دركات جهنم. . . وفي جنات عدن. . . وفعل مثل ذلك دانتي الليجيري في الكوميديا الإلهية

وقد كتب الأديب الكبير ولز آخر قصصه على النمط الكاريكاتوري. وقد صدرت هذه القصة في يناير الماضي واسمها (الأخوة) وهي نقد لاذع لطغاة العصر الحاضر وفي مقدمتهم هتلر وموسوليني وستالين، وبالطبع قد أطلق أسماء غير هذه على أبطاله

الإذاعة المدرسية في مصر وفي إنجلترا

في الوقت الذي تنطفئ فيه حماستنا في مصر للإذاعة المدرسية لنشتغل بالسفاسف السياسية التي استغرقت كل جهودنا ترتفع النسبة المئوية لهذه الإذاعة في إنجلترا وبلاد الغال (ويلز) فتزيد 27 % في خريف 1937 على ما كانت عليه في خريف 1936، ويرتفع عدد المدارس التي تنتفع بهذه الإذاعة هناك فتصبح (7280) مدرسة بين ابتدائية وثانوية. ويشجع هذا النجاح المطرد ولاة الأمور هنا فيفكرون في الوسيلة التي ينشرون بها الإذاعة في المدارس التحضيرية ورياض الأطفال؛ وقد انتفعت بطبيعة الحال مدراس إسكتلنده بهذه الإذاعة وإن لم يكلفها ذلك شيئاً. ويقدرون هذه المدارس الإسكتلندية بألف مدرسة أو زهائه. وكانت الموضوعات الطريفة التي ألقيت كثيرة متنوعة، ولكن التلاميذ كانوا يصغون في الأكثر لموضوعات الأسفار والرحلة في البلدان الأجنبية، ثم تلي هذه الموضوعات المتعلقة بدراسة غرائب الطبيعة؛ وقد اجتمع للتلاميذ الإنجليز عاملان هامان في تثقيفهم الحديث، وذان هما التعليم بالسينما والتهذيب بالإذاعة المدرسية، وليس من هذا شيء عندنا

الطيران والخرائط الجغرافية

معظم الخرائط الجغرافية التي بأيدينا قديم غير مضبوط، ويرجع وضعه على هذا النحو الذي نراه إلى مائة سنة على الأقل وقد أخذت صور لنهر النيل مثلاً من الجو أظهرت ما في خرائطنا القديمة البالية من الأخطاء الفاحشة التي لم يعد يخلق بنا أن نغضي عنها. وقد تنبهت لهذا أكثر الدول الأوربية ولا سيما ألمانيا، فعملت على تلافيه، وساعدها تقدم الطيران وانتشاره عندها على وضع خرائط متقنة تداركت بها ما فشا في خرائطها القديمة من أخطاء. ويقال إن في النية عقد مؤتمر عالمي لدراسة هذا الموضوع ولوضع خرائط جديدة للعالم بأسره من الجو. وحبذا لو تم هذا المشروع

مسرح روسي عجيب

من أنباء روسيا أن المخرج العظيم ماير هولد قد عصفت به ريح السياسة العاتية. . . وأن مسرحه الكبير قد أغلق. . ويذيع الشيوعيون أن ماير هولد قد وقع في فضيحة لم

يذكروا لنا ما هي وهكذا تلطخ الشيوعية مجد الأبطال الروسيين الذين أدوا لأوطانهم وللعالم أجل الخدمات. . . ومن هذه الأنباء أيضاً أن مخرجاً جديداً يدعى أوخلوبكوف قد أسس على أنقاض مسرح ماير هولد مسرحاً غريباً لم يؤسسه على ما عرفه العالم من النظام الشائع لدور التمثيل، إذ يدخل المُشاهد صالة المسرح فلا يرى ستاراً وينظر هنا وهناك فلا يجد خشبة المسرح التي تمثل فوقها الرواية. . . وأغرب من هذا أنه يجد الكراسي غير مصفوفة في اتجاه خاص يدل على مكان المسرح. . . فإذا آن أوان التمثيل وجد الممثلين معه في الصالة، ووجدهم في الشرفات (البناوير) ووجدهم في كل مكان. . . حتى في السقف. . . ويقولون إن الروايات التي تمثل ثمة موضوعة خصيصاً لهذا المسرح، لتتفق وهذه الطريقة العجيبة من طرق الإخراج. . . ويبدو أن الروايات الأجنبية، بل الروسية نفسها، التي لم تؤلف لتؤدي على هذا النمط الحديث من فن الإخراج، تسقط سقوطاً فاحشاً حين تؤدي فيه. وقد كتب أحد النقاد الألمان فصلاً مضحكاً عما شاهده في هذا المسرح، وكان قد حضر تمثيل روايات حنة كرنينا لتولوستوي وحديقة الكراز لأنطون تشيخوف ودرامة عطيل. . . فسمى ما شاهده من تمثيلها (تهريجاً شيوعياً!!)

الكتب

إلى حياة روحية

في منزل الوحي - 2

بقلم الدكتور محمد حسين هيكل بك

للأديب محمد فهمي عبد اللطيف

إلى حياة روحية تسمو بالنفس، وتضيء القلب، وتهذب العواطف، وتحد من النزعات والأهواء، وتصل أسبابنا بالسماء. . هذا هو ما يدعو إليه هيكل ويحبذه، بعد أن شهد ما شهد من مظاهر الحياة الروحية من آثار النبي العربي، ورأى كيف يفعل الإيمان الأعاجيب في مواطن لولاه ما كان للإنسان بها طاقة؛ ويعجب هيكل من الذين ينكرون الحياة الروحية ويتنكبون طريقها، ويسأل في تعجب واستنكار فيقول: (فما بال قوم في عصور وبلاد مختلفة جحدوا الحياة الروحية وكفروا بفضل الإيمان؟!) ثم يمضي هيكل ينعى على الماديين هذا الجحود لتلك الحياة، ويرده إلى خطأهم في فهم الحياة الروحية على حقيقتها، وتصويرهم لها تصويراً بعيداً عن الفهم والواقع، فهم يحسبونها خارجة على نطاق العقل، لا تخضع لقوانين العلم في تعليل الظواهر والمظاهر، مع أن سبيل الحياة الروحية الصميمة إنما هو الإحاطة بالعلم في أحدث ما وصل إليه، واتخاذه وسيلة للنظر في آيات الله وهي لا تنكر العقل إلا إذا قيد النظر وقُيد العقل معه، ومن ثم كان الجمود عدواً للحياة الروحية، ثم يلمع هيكل إلى الغاية من الحياة الروحية وصلتها بالنفوس فيقول: (والناس يستجيبون بطبيعتهم إلى الدعوة الروحية لأنهم يبغون الحق بفطرتهم، ولولا ما يمد لهم فيه دعاة المادة من أسباب الضلال إذ يغزونهم بمتع الحياة ولذاتها لانهارت فوراق كثيرة ليس يبقيها إلا هذا الضلال ولتقاربت الأمم بدل أن تتباعد، ولأخلصت القصد في سعيها إلى السلام بدل أن تجعل من نذر الحرب هياكل عبادتها، ولكانت خطا الإنسانية في سبيل التقدم ناحية الكمال أسرع وأهدى سبيلاً، ولو أن الناس لم يتنكبوا طريق الهدى لنعموا اليوم بما يلتمسونه من سعادة، ولعلهم تنكبوا هذا الطريق لأنهم بعد في جهالتهم، ولأن ما بلغوا من العلم لا يزال قاصراً دون هداهم والعلم الناقص داعية الضلال!)

وهيكل إذ يقول: (إن الناس يستجيبون بطبيعتهم إلى الحياة الروحية لأنهم يبتغون الحق بفطرتهم) يقرر حقيقة قد قررها لدين، وجاء بها الإسلام، ففي القرآن الكريم (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها) وفي الحديث الشريف (كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه)، وهيكل إذ يرى أنه لولا ما يمده دعاة المادة من أسباب الضلال، لانهارت فوارق كثيرة ولتقاربت الأمم بدل أن تتباعد. إنما يرى حقيقة لا تنكر، بل إنها حقيقة يقررها كثير من أهل الفكر والثقافة، ويرونها الملجأ الذي سيلجأ إليه العالم بعد أن يضنيه وينهكه ذلك النضال المادي العنيف، ولقد كان من حسن التوافق أن أقرأ هذا الكلام لهيكل وقد وافتني جريدة الأهرام وفيها نبأ من لندن يقول: إن اجتماعاً عقد في (هيكل) العاصمة تحت رعاية جمعية الأديان المتعددة، وقد أوضحت السيدة الناطقة باسم هذه الجمعية أن غرضها

إيجاد وحدة عالمية بواسطة التفاهم الروحي
وقد تكلم إمام جامع ووكنج فقال: (إن الوقت قد حان لجميع الأديان كي تدفن أحقادها، وتتحد على مقاومة موجة الكفر المتعالية، والتمسك بالأمور المادية في العالم وإهمال الأمور الروحية، وقال: إن جميع الأديان تأمر بالمعروف، وتنهي عن المنكر، فهي تشترك في وحدة أساسية، وهي تتفق على الإيمان بوجود الله وعلى تجلى الله للإنسانية، فيجب علينا إذن أن نتفاهم
وليطمئن هيكل وليطمئن إمام جامع ووكنج. فإن ذلك الحلم اللذيذ لابد أن يتحقق، لا أقول سيحققه فرد من الأفراد أو جماعة من الجماعة، وإنما أقول سيحققه الزمن بسنته وطبيعته وأفاعيله، وغداً سنرى وإن كنت لا أعلم متى يكون ذلك الغد أفي القريب أم في البعيد، ولكني لست مع الدكتور هيكل إذ يعلل جحود الماديين للحياة الروحية بالجهل ونقص العلم، فإن في الماديين الجاحدين أساطين العلم، ومن هم في الذروة التي لا نطاول عقلاً وثقافة، وإنما يرجع هذا الجمود على ما نرى إلى اعتقاد يقوم في أذهان أولئك الناس، وهو أن العقل كل شيء في الحياة، لا قول إلا قوله، ولا منطق إلا منطقه، فمن الواجب أن نُخضع لمنطقه كل ما نرى من المظاهر والظواهر، حتى ما يتصل بميولنا وعواطفنا، وفاتهم أن هناك القلب، يجب أن نجعل له اعتباراً كبيراً في شؤون الحياة، إلى جانب العقل، ويجب أن نعتقد بأن له منطقاً كمنطق العقل إن لم يكن أجل وأدق، وهو وحده الذي يشعرنا في
رحلة الحياة الشاقة ببرد الراحة، ويقع من نفوسنا اللاغبة موقع الماء العذب من نفس الصادي في اليهماء القاحلة، ولا شك أننا لو طاوعنا هؤلاء الناس وجعلنا العقل كل شيء لصارت الحياة جحيما لا تطاق، ولفررنا من شقائها كما يفر الناس في هذه الأيام بالموت والأنتحار، بل ولتمردنا على كثير من النظم والأوضاع والشرائع الطيبة الصالحة التي تكفل السعادة للمجتمع، والتي لا يمكن أن يجحدها الماديون أنفسهم، وأنت أبقاك الله تأمل في نفسك ساعة وانظر فيما يحف بك من النظم الاجتماعية والقيود الثقيلة التي تربطك بالمجتمع الذي تعيش فيه، والسلاسل والأغلال التي تثقل جيدك وتنقض ظهرك من واجبات نحو الأسرة والأب والأم والزوجة والوطن والدين والتقاليد وفكرات الشرف والعرض وما إلى ذلك، واستسلم إلى العقل وحده وانزل على حكمه في تلك الأمور عامتها تجده يجيبك عليها جواباً لا يرضاه العقل نفسه، لأن الطبيعة قد خصت الإنسان بشيء يمتلك ناصية عقله ويتحكم فيه التحكم كله، شيء آت من الناحية الروحية القلبية التي هي مصدر العواطف والمشاعر والتي هي مسيطر عليها، وإذن فالعقل ليس كل شيء في الحياة كما يزعم الماديون، وعبثاً حاول بعض الفلاسفة أن يجعلوا العقل حد الدين، وأن يشرعوا للناس المذاهب الفلسفية النفعية، فنشروا كتباً (في دين الطبيعة) لتأييد مذهبهم، وموهوا على الناس إذ زعموا أن العلم ينافي الدين، فوقع الإنسان في مأزق من مآزق البعد عن الشريعة الأدبية كاد يتداعى معه أساس المدنية، حاول هؤلاء أن يجدوا في عقل الإنسان وحده هادياً ومرشداً أميناً بصفته فرداً صالحاً من مجموع إنساني، يختط له خطة من السلوك والأخلاق جديرة بأن تحفظ نظام الهيئة البشرية التي يجب أن تقوم على أساس من الإحساس الأدبي، أخفقوا سعياً وضلوا سبيلاً، لأن الطبيعة لم تحبُ الإنسان بشيء من هذا. رجع الناس بعد ذلك مؤمنين بأن وازع ما بعد العقلية، أول عنصر من عناصر المعتقد الديني بل نواته، وأنه الضابط الذي يضبط علاقة الفرد بالجماعة في كل حالة من الحالات
!ولكن أي لون من ألوان هذه الحياة الروحية يجب أن يختار الشرق حتى يفوز بالغاية؟
يرى بعض المفكرين في مصر أن لون الحياة الغربية هو اللون الصالح، فراحوا ينقلون للشرق آثار الغرب في ذلك ما وسعهم النقل؛ وقد كان هيكل على هذا الرأي من قبل، ولكنه خرج عليه إذ لمس فيه الخطأ الواضح، وهو يتحدث عن ذلك فيقول: (لقد خيل - إلي زمناً
كما لا يزال يخيل إلى أصحابي - أن نقل حياة الغرب العقلية والروحية سبيلنا إلى النهوض، وما أزال أشارك أصحابي في أنا ما نزال في حاجة إلى أن ننقل من حياة الغرب العقلية كل ما نستطيع نقله، لكني أصبحت أخالفهم في أمر الحياة الروحية، وأرى أن ما في الغرب منها غير صالح لأن ننقله، لأن تاريخنا الروحي غير تاريخ الغرب، وثقافتنا الروحية غير ثقافته) وبعد أن يكشف عن وجه الفرق في ذلك يدل على اللون

الصالح للشرق من الحياة الروحية، وهو في كلامه يتحدث عن خبرة وتجربة فيقول:
وقد حاولت أن أنقل لأبناء لغتي ثقافة الغرب المعنوية والروحية لنتخذهما هدى ونبراساً، لكنني أدركت بعد لأي أنني أضع البذر في غير منبته، ورأيت أن تاريخنا الإسلامي هو وحده البذر الذي ينبت ويثمر، ففيه حياة تحرك النفوس وتجعلها تهتز وتربو، ولأبناء الشرق في هذا الجيل نفوس قوية خصبة تنمو فيها الفكرة الصالحة لتؤتي ثمرها بعد حين

وهذا كلام أصاب فيه هيكل شاكلة الصواب، وشرحه شرحاً وافياً كافياً في منزل الوحي، فجاء كتابه صفحة روحية مشرقة، وفكرة صالحة يجب أن يطالعها أبناء الشرق لتنمو في نفوسهم، فتؤتى ثمرها الطيب

محمد فهمي عبد اللطيف

المسرح والسينما

في النقد

1 - يحيا الحب

2 - جاري كوبر في نيويورك

3 - مدخل الممثلين

بقلم محمد علي ناصف

يحيا الحب

قصة هذا الفلم من النوع الكوميدي الشائع الآن في الأفلام الأمريكية وكثيراً ما تكون موضوعات هذه الأفلام تافهة، غير أنها تعوض هذا النقص بجمال الحوار وتعدد المفاجآت المبتكرة وبراعة التمثيل وحسن الإخراج. وقد جاء كذلك (يحيا الحب) من حيث فراغ الموضوع. . فلننظر إلى نواحي الفلم الأخرى

كان لحوار ركيك الأسلوب خالياً من النكتة والمفاجأة القوية. وقد أثر هذا الضعف في عمل المؤلف، وفي عمل الممثل، وفي عمل المخرج

فمن ناحية التأليف رأينا البرتقال يجنى في الصيف، وموظفاً لا يعرف رئيسَه أصله حتى ولا من شهادة الميلاد

ومن ناحية التمثيل رأينا إحدى الشخصيات خليطاً بين أستاذ في العلوم ومهرج وليس أدعى إلى إفساد عمل المخرج من أن يتعهد موضوعاً عادي التأليف ضعيف السيناريو مضطرب الشخصيات

ومآخذ الإخراج كثيرة في (يحيا الحب) أهمها في رأيي خلو الفيلم من الحركة

ولقد ذكرت أن قصة الفيلم من النوع الكوميدي ولكنها لم تعالج على هذا الأساس في كثير من الأحايين، لم يعالجها كريم في مشهد ذلك الحلم المبدد، ولم يعالجها رامي في أغانيه، ولم يعالجها عبد الوهاب في ألحانه وتمثيله، واحسب أن مشهد تكسير العود مثلا كان من المستطاع أن يكون من أجمل المشاهد الكوميدية لولا أنهم أخرجوه كأنه مشهد بطل مصروع أو مدينة مخربة

والفلم على وجع عام فقير من ناحية التمثيل إذا استثنينا شخصية رضوان باشا التي مثلها عبد الوارث عسر، ولولا اضطراب شخصية مجاهد بك (أستاذ العلوم) لأعتبر أمين وهبه من المجيدين، ولم يكن عبد القدوس في أحسن حالاته

ولقد حاول عبد الوهاب كثيراً ولكنه لا يزال في حاجة إلى محاولات أخرى ليبدو ممثلاً، ولم يكن مستحسناً ظهوره تارة بالنظارة وأخرى بدونها. وما يقال عن عبد الوهاب من التمثيل يمكن قوله عن ليلى مراد، ولو أن هذا أول أفلامها. وتمتاز ليلى بوجه حسن وعود رشيق يصلحان للشاشة، وصوتها كذلك لا شك في جماله.

وأصلح ألحان الفلم كانت في الموسيقى المصاحبة للشريط وهي من وضع عزيز صادق

أما أغاني الفلم فإذا استثنينا أغنية (يا وابور قولي رايح على فين) وأغنية أخرى على الأكثر، فإن الأغاني الباقية غير مناسبة لطبيعة الفيلم، وقد ماثلتها الألحان كذلك فكانت مليئة باللوعة والتأسي والتفجع

والتصوير في (يحيا الحب) جميل أحياناً، وأحياناً أخرى على النقيض

وما نرجوه لأفلام عبد الوهاب هو أن نحس بتطورها من حسن إلى أحسن وقد أصبحت

شركة قديمة غنية جديرة بالاهتمام والمحاسبة
جاري كوبر في نيويورك
لشركة كولومبيا من أحسن أفلام الموسم الماضي، وقد نال عنه مخرجه فرانك كابرا الجائزة الذهبية من أكاديمية الصور والفنون؛ وكانت جمهرة النقاد لا تشك في أن جائزة التمثيل من حق جاري كوبر لدوره في هذا الفيلم لو لم تذهب إلى بول ميوني في (حياة لويس باستير)، ولا يفضل عمل المخرج أو الممثل في هذا الفيلم عمل كاتبه الفذ روبرت ريسكين فالفيلم متعدد نواحي العظمة؛ ولذلك كان استديو مصر موفقاً في اختياره لعمل (دوبلاج) ينطقه بالعربية
وهذه فكرة طريفة قد تلاقي نجاحاً من الناحية المادية وخاصة وهي بداءتها، ولكني أحسب أن التقدير يختلف من الناحية الفنية، وخاصة إذا كان الفيلم قريباً من درجة الكمال كالذي نحن بصدده؛ فلو أن النقاد الذين حكموا له بالتفوق شهدوه كما يعرض الآن لتغير حتما
رأيهم؛ فجاري كوبر قد فقد جزءاً كبيراً من شخصيته بفقدان صوته مقابل صوت خال من التأثير وقوة التعبير؛ وروبرت ريسكين قد انحط أسلوبه وفترات نكتته؛ وفرانك كابرا قد أثرت هذه العوامل على مجهوده الكبير فقل شأنه
وقد يكون عمل الأستديو أقرب إلى الإجادة لو أنه بذل عناية أكبر بلغة الحوار وبتخير أصوات تلائم شخصيات الفيلم وتتمايز بعض أصواتها عن بعض، إذ أنه رغم تشابه الأصوات في الفيلم فإن أكثر من شخصية واحدة قد أنطقت بصوت واحد، وهذا اضطراب كان تلافيه من البدهيات
مدخل الممثلين
شهدنا منذ أسابيع قليلة فيلم وهو أول فيلم يمثل مدينة السينما على حقيقتها. وقد لقي بهذه الصفة - فضلاً عن استكمال صفات الفيلم الأخرى - نجاحاً مدوياً بأمريكا وأوروبا وقد أعقبه فليم عن حياة المسرح فصادف نفس النجاح إن لم يفقه في قوة الإخراج وجمال السيناريو
وهو منقول عن مسرحة ناجحة لأدنافيربر وجورج كوفمان مثلت طويلاً على مسارح برودواي. وأعدها للسينما موري ريسكيند وأنتوني فيلر وأخرجها لشركة راديو جريجوري لاكافا الذي لا تزال تذكر له (رجلي جودفري)
وقد بلغ كل من لغة الحوار والتمثيل والإخراج في هذا الفيلم مستوى رفيعاً سيظل أثره ماثلا في أذهاننا طويلا
محمد علي ناصف
العدد 241 - بتاريخ: 14 - 02 - 1938
في القرية
من أحاديث العيد
أصبحت القرية الصغيرة غارقة في ضباب أمْشير البارد الأهوج كأنها قِطَع السحاب المركوم جثمت من ثقلها على الأرض. فالجو على قول (هوجو) كستار الغيب المسدول، والنسيم على قول (ابن المعتز) كذيل الغلالة المبلول، ووجه السماء كوجه الصحراء في يوم الدجن لا ترى فيه إلا تلولاً من الغمام الجون وسهولاً من السحاب الِهَفِّ. وكانت جدران المسجد تعج بالتكبير والتهليل، وأفنية الدور تنعم بالعناق والتقبيل، والطرقات من البيوت إلى الزاوية، ومن الزاوية إلى المقبرة، تزدان بالشباب القروي القوي العامل، وهو يطفر من مرح الصبي، ويخطر في زينة العيد، فيكسب الطبيعة العابسة المقرورة بشراً من طلاقة وجهه، وقيساً من حرارة قلبه
أخذت (المناظر) والمصاطب زخرفَها بالقوم بعد أن أقاموا الصلاة لله، وأدّوا الزيارة للموتى، وقدموا التهنئة للأهل، وانفضوا ثقالاً عن سماط العيد، ودارت عليهم أكواب القرفة وسكائر الطَّباق، وتشققت بينهم مقطَّات الحديث، فترامت إلى عيد الملة بحج البيت، وعيد الأمة بمولد الفاروق، وعيد الأسرة بيوم الأضحى. وكان اجتماع هذه الأعياد السنوية الثلاثة في يوم العيد الأسبوعي من مصادفات الدهر النادرة، وموافقات القدّر البعيدة، فتألقت في وجوههم أضواء مختلفة من السرور، وتدفقت في قلوبهم أحاسيس شتى من اللذة؛ منها المنبثق عن مشرق الإيمان بالله، ومنها الصادر عن منبع الإخلاص للمليك، ومنها المنبعث عن فيض النفس الراضية تفتحت في حرارة الحب كما

تتفتح الأكمام في دفء الربيع
من الصعب أن تقيد الأحاديث المرسلة إذا جرت بين قوم لا يؤمنون بقواعد الجدل، ولا يحفلون بأمانة التاريخ، ولا يرون الحق للمتكلم أن يتم كلامه أو يشرح رأيه. وحديث الناس في القرية كشقشقة العصافير في الشجرة، تسمع كل عصفور يغرد، ولا ترى عصفوراً واحداً يسمع!
- كل عام وأنتم بخير. واللقاء في العام المقبل إن شاء الله على عرفات!
بهذه التحية وهذه الأمنية أبتدأ الحديث؛ وكأنما كان لفظ عرفات سبباً من الجذب الروحي حوَّل عواطف القوم وأمانيهم إلى مكة! فالذين حجوا أخذوا يذكرون وهم في غمرة الشوق
ونشوة الذكرى، تجلى الألوهية في مهابط الوحي، وإشراق النبوة في مطالع الرسالة، ويروون عن كل منسك حديثاً، ويقصون عن كل موقف حادثة. والذين لم يحجوا يصغون إلى صرف الحديث وهم من فعله الساحر في هيام غالب وطرب نزوع. ثم رجع الحديث مشرقَ الحواشي معطر الأطراف من الكعبة إلى عابدين، فأفاضوا في صلاح الملك الشاب وبره، إفاضة الخيال الشاعر في عدل عمر وفضل الرشيد. فهذا يقول إن جلالته يزور القرى متنكراً ليرى بنفسه منابت الشر ومواطن الفقر، فإذا كتب الله النعمة لبيت من البيوت عطفه إليه فدخله دخول الرحمة، وحل به حلول السعادة. ثم يروي الأعاجيب في هذا الباب مما تناقلته الأفواه في الأسواق ورددته الألسنة في المجالس. وهذا يذكر أن الشيخ فلاناً رأى جلالته في المنام والنبي يقبله قبلة الرضى، ويقلده سيف الخلافة، ويعَده نصر الله ما دام على النهج الواضح والعمِل الصالح والوحدة الجامعة. وذلك يقرر أن غضب الملك الصالح من غضب الله، إذا صُب على الباغي لا تعصمه منه قوة، ولا تدفعه عنه كثرة. لأن غضبه فوق الهوى والطمع، فلا يكون إلا للعدل في جوهره، وللشعب في صميم حقه
ثم انتقل الحديث من غضب الملك إلى حل مجلس النواب، فغاضت البشاشة من الوجوه وقالوا بلهجة الآسف الحزين: عدنا إلى الحرب الضروس، تفتك أسلحتها الأثيمة بالأموال والأنفس والأخلاق والقرابة. فالانتخاب بمآثمه ومغارمه هو المظهر الذي نحسه وتعرفه من مظاهر الدستور. وفترة الانتخاب هي الفرصة التي نرى فيها النائب طول الدورة البرلمانية. ومعركة الانتخاب بين الحكومة والأحزاب، وبين المرشحين والطلاب، هي التي تحمل أولياء الحكومة وأغنياء الأمة على أن يذكروا القرية، ويزوروا الفلاح، ويعطفوا على بؤس الأجير، ويمسحوا على رأس العامل، ويعدونا المواعيد، ويمنونا المنى، ويصوروا لنا البرلمان في صورة المسيح المنتظر؛ فلا ظلم وهو منعقد، ولا بؤس وهو قائم! فنقطع في رضاهم القرابة، وتنقض في سبيلهم الجوار، ونتحمل في نجاحهم العنت؛ حتى إذا فاز النائب، والتأم المجلس، وحكم الدستور، انصرف البرلمان إلى الأحزاب، واشتغلت الحكومة بالموظفين، واهتم النائب بنفسه! أما القرية والفلاح، وأما الدائرة والناخب، فمرآهم مقتحمَ العين، وشكواهم دْبرَ الأذن ذلك بعض حديث القوم. وهو على سذاجته أو قل على تفاهته أخف على القلب وأندى على
الكبد من حديث يزوره كاتب يتعاطى الأَدب، أو خطيب يحترف السياسة
أحمد حسن الزيات
من مآسي التاريخ الإسلامي
فرار عبد الرحمن الداخل
للأستاذ محمد عبد الله عنان
ليس بين أمراء الدولة الأموية، سواء في الشام أو الأندلس، من تقدم إلينا حياته وسيرته تلك الصفحة المدهشة التي يقدمها إلينا عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل؛ فقد كان هذا الأمير بطل مأساة خارقة مؤثرة؛ ولم تكن روعة هذه الصفحة في أنه أقام من العدم ملكاً عظيماً فقط، وأقام لمجد أسرته الذاهب صرحاً شامخاً فحسب، ولكن روعتها تبدو بنوع خاص في معترك المحن الأليمة التي نشأ في غمارها هذا الأمير القوي النابه. وإذا كانت حياته السياسية لا تحمل على كثير من الحب، وتبدو لنا حياة مغامر يشق طريقه إلى السلطان بوسائل ليست دائماً مشروعة، فان المحنة التي طبعت بها حياته الخاصة، وما صقلت هذه المحنة من خلاله الباهرة، لمما يستثير

منا أيما عطف وإعجاب
وقد لا نجد لحياة الداخل صورة أبلغ وأقوى من تلك التي رسمها لنا خصمه وعدو أسرته أبو جعفر المنصور العباسي إذ نعته بصقر قريش، ولخص لنا حياته المدهشة في قوله: (عبر القفر، ودخل بلداً أعجمياً منفرداً بنفسه، فمصر الأمصار، وجند الأجناد، ودون الدواوين، وأقام ملكاً عظيماً بعد انقطاعه بحسن تدبيره، وشدة شكيمته. إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان، وذلّلا له صعبه؛ وعبد الملك ببيعة أبرم عقدها؛ وأمير المؤمنين بطيب عترته واجتماع شيعته؛ وعبد الرحمن منفرد بنفسه، مؤيد برأيه، مستصحب لعزمه، وطد الخلافة بالأندلس، وافتتح الثغور، وقتل المارقين، وأذل الجبابرة الثائرين)
تلك هي حياة عبد الرحمن بن معاوية، حياة نشأت من العدم، وسلسلة حافلة بالمحن والصعاب الفادحة، تبدأ في المشرق بفرار عبد الرحمن أمام مطارديه وقتله أسرته ومغتصبي عرش آبائه وأجداده، وتنتهي في الغرب وبسائط الأندلس بالظفر والملك الموطد. ولقد كان هذا الفرار أول وأعجب فصل في هذه المأساة، وكان عنوان القدر المدهش يدبر من الحوادث الواقعة ما لا يخطر تصوره على الذهن المغرق في الخيال كانت سنة 132هـ سنة حاسمة في تاريخ الإسلام والخلافة، ففيها أنهار صرح الدولة الأموية تحت ضربات بني العباس، وقامت في المشرق خلافة جديدة هي الخلافة العباسية؛ ورأت العصبة العباسية الظافرة أن تتوج ظفرها بسحق الأسرة التي استولت على تراثها واجتثاث أصولها وفروعها، فنظمت مطاردتها الشهيرة لبني أمية، وتتبعتهم بالقتل الذريع في كل مكان، وقتلت منهم جماعة كبيرة من الأمراء والسادة ولم تبق حتى على النساء والأطفال؛ ولكن هذه المطاردة الدموية الشاملة لم تجتث الشجرة من أصلها، وشاء القدر أن يفلت بعض فروعها، وأن يزكوا ليستعيد أصله الراسخ في أرض أخرى؛ فكان ممن نجا من المذبحة الهائلة فتى من ولد هشام بن عبد الملك، اختاره القدر ليحمل مصاير الدولة الأموية إلى وجهة أخرى
هذا الفتى هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام. وكان وقت أن حلت النكبة بأسرته يقيم مع أهله وإخوانه في قرية تعرف بدير يوحنا من أعمال قنسرين، وفيها كان مولده قبل ذلك بعشرين عاماً؛ وكان أبوه معاوية قد توفى شاباً في أيام أبيه هشام، فكفله واخوته جدهم هشام؛ ولما وقعت النكبة وأمعن الظافرون في مطاردة بني أمية فر عبد الرحمن بأهله وولده إلى ناحية الفرات وحل هنالك ببعض القرى، واختفى بها حيناً يدبر أمره؛ وكان يرقب الموت في كل لحظة، ولكنه كان في الوقت نفسه يتجه بذهنه إلى مستقبل بعيد غامض. وبينا هو في هذا الجزع القاتل يدبر أمره، وإذا بجند المسودة تطوق القرية، وتستقصي آثار بني أمية؛ وإذا بعيد الرحمن يرى شبح الموت أمامه فجأة، فيحاول اجتنابه بالفرار من مطارديه
وقد انتهت إلينا عن هذا الفرار قصة مؤثرة نقلها إلينا مؤرخ أندلسي مجهول عن لسان عبد الرحمن ذاته، ونقلها عنه بعد ذلك أبو حيان مؤرخ الأندلس وخلاصتها أن عبد الرحمن حينما علم أن القرية قد غصت بجند المسودة، بادر إلى شيء من المال فحمله، وفر مع أخيه الأصغر، وهو صبي في الثالثة عشرة من عمره، وقصدا إلى شاطئ النهر (الفرات) فدل عليه بعض الخونة فما شعر إلا والخيل في أثره، فألقى بنفسه في النهر مع أخيه وأخذا يقطعانه سباحة، واستطاع عبد الرحمن أن يصل إلى الضفة الأخرى؛ ولكن الغلام عجز عن قطعه، وآثر أن يعود إلى الضفة الأولى بعد أن وعده الجند المطاردون بالأمان؛ ولكنه ما كاد يقع في أيديهم حتى انقضوا عليه وقطعوا رأسه أمام عيني أخيه وقلبه يتفطر روعة وأسى
ولما أمن عبد الرحمن خطر مطارديه سار مختفياً إلى الجنوب وقطع فلسطين ثم مصر، وهو يحمل حياته في كفه متأهباً للقاء الموت في كل لحظة. وكانت عيون العباسيين ترقبه وتشيعه خلال هذه الهضبات والفيافي الشاسعة، وتكاد تكشفه من آونة إلى أخرى؛ ولكن طالعه كان يهديه، فجاز مصر إلى برقة ناجياً بنفسه، والتجأ إلى أخواله بني نفرة، وهم بطن من بربر طرابلس وكانت أمه بربرية منهم تدعى راح، وأقام لديهم يرقب الفرص، وأنفذت إليه أخته أم الأصبغ مولييه بدراً وسالماً ومعهما شيء من المال والجوهر. والظاهر أن عبد الرحمن كان يتجه منذ الساعة الأولى

ببصره إلى إفريقية، وأن نفسه كانت تحدثه بما قد يكون له في الأندلس من شأن. فلما هدأ روعه استأنف سيره، ونفذ إلى إفريقية يحاول اختراقها؛ وكان المتغلب عليها يومئذ عبد الرحمن ابن حبيب الفهري، وكان وقت أن دالت دولة بني أمية في المشرق قد دعا لبني العباس، وكان يخشى على سلطانه من ظهور بني أمية في إفريقية، فطارد اللاجئين إليها منهم، وقتل بعضهم واعتقل البعض الآخر وصادر أموالهم. ولما شعر بظهور عبد الرحمن بن معاوية حاول القبض عليه، ولكن عبد الرحمن استطاع أن يتجنب المطاردة، وأن ينجو مع صحبه إلى المغرب الأقصى

وهنا تتفتح آمال عبد الرحمن وأطماعه؛ فعلى مقربة منه في الضفة الأخرى من البحر بلد غني زاهر من تراث الدولة الأموية الذاهبة لم تمتد إليه يد المسودة، ولم تقتحمه دعوتهم، وفيه عصبة قوية من بني أمية وأنصارهم ومواليهم، وفيه يستطيع - إذا حالفه حسن الطالع - أن يعيد بناء الصرح الذي انهار في المشرق، ويستأنف لأسرته حياة جديدة في السلطان والملك. وكانت الأندلس في الواقع، منذ انجلت عنها يد السلطة المركزية، مهبط الطامعين والمتغلبين، وكان يحكمها ويقودها يومئذ يوسف ابن عبد الرحمن الفهري؛ وكان قد وليها قبل ذلك بنحو عشرة أعوام باتفاق الجماعة عقب معارك داخلية طاحنة، ولكن حكمه لم يتوج قط بالصبغة الشرعية؛ ولم تستكن الأندلس نهائياً إلى حكمه بل كانت تتطلع دائماً إلى مصيرها وترجو أن تظفر بالاستقرار السياسي في ظل أميرها الشرعي. وهكذا فإن عبد الرحمن الأموي حينما سبر غور أحوال الجزيرة على يد بعض رسله وموالي أسرته، آنس أملاً في العمل وفي النجاح؛ ثم عبر إلى الجزيرة، والتقى في أنصاره وعصبته بيوسف

وقواته في (المسارّة) على مقربة من قرطبة في أوائل ذي الحجة 137هـ (756م)؛ وكان النصر حليفه، إذ هُزم يوسف وحلفاؤه هزيمة شديدة، ودخل عبد الرحمن قرطبة في يوم الأضحى، واستقبلت الأندلس عهداً جديداً

على أن يوم المسارة كان بالنسبة لعبد الرحمن فاتحة الظفر لا غايته؛ فقد استطاع بعد أحداث وخطوب جمة أن يجوز إلى الأندلس، وأن يفتتح عاصمتها وينتزع إمارتها لنفسه؛ ولكنه ظفر بعرش لم يتوطد سلطانه؛ وكان ثمة بينه وبين ملك الأندلس الحقيقي مراحل شاقة؛ بيد أن هذا الفتى الذي شحذت المحنة والخطوب هممه، استقبل مهمته الفادحة بعزم مدهش، وقضى بقية حكمه وحياته ثلاثة وثلاثين عاماً يغالب صعاباً لا نهاية لها. وكانت الأندلس خلال هذه الفترة كالبركان الثائر، يضطرم كل يوم في ناحية، فلا تكاد الثورة تخمد في ناحية منها حتى تضطرم في ناحية أخرى. وكان عبد الرحمن في خططه وأساليبه طوال هذه المعركة مثال الجرأة والصرامة والقسوة، بيد أنها لم تكن شهوات طاغية ظامئ إلى الدم، بل كانت أساليب عنف يمليها العنف والخطر الداهم. كان عبد الرحمن يعيش من يوم إلى يوم في غمر الخلاف والثورة والخيانة، ولم يترك له الكفاح المضطرم المستمر فرصاً كثيرة لأعمال السلم، بيد أنه خرج ظافراً من المعركة، ظافراً بإعادة الصرح الأموي الذي تهدم في المشرق؛ وتوطيد دعائم الملك الذي غلب، وإنشاء أسرة أموية جديدة في الغرب، قدر لها أن تسير بالأندلس في سبيل العظمة والفخار أحقابا

بيد أن هذا الظفر الباهر كانت تغشاه دائماً آلام نفس معذبة ذلك أن المحنة طبعت نفس عبد الرحمن وروحه إلى الأبد بطابع الكآبة والشجن؛ وهو لم ينس قط أنه سليل دوحة تقصفت واجتثت أصولها الراسخة حيث كانت يانعة زاهرة، وأنها اجتثت في مناظر دموية مروعة كان من شهودها وكاد يغدو في ضحاياها؛ ومن ثم نراه حتى آخر حياته محزون النفس يتلهف على ماضيه، ويبكي مجد أسرته، ويتحسر على فراق وطنه، وعلى نفيه وغربته وقد انتهت إلينا من شعره أبيات مؤثرة تفصح عن آلامه المعنوية مثل قوله في التشوق إلى ربوع الشام:

أيهذا الركب الميمم أرضى ... أقْر من بعضيَ السلام لبعضي
إن جسمي كما علمت بأرض ... وفؤادي ومالكيه بأرض
قدر البين بيننا فافترقنا ... وطوى البين عن جفوني غمضي

وقوله وقد رأى في الرصافة نخلة منفردة:

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة ... تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرب والنوى ... وطول التنائي عن بنيّ وعن أهلي

نشأت بأرض أنت فيها غريبة ... فمثلك في الاقصاء والمنتأي مثلي
تلك هي مأساة عبد الرحمن الداخل؛ ونقول مأساة لأن الظفر الذي اختتمت به لم ينزع عن هذه الحياة الشاقة لونها المؤسي. وقد كان الداخل بلا ريب من أعظم شخصيات التاريخ الأندلسي؛ بيد أنه في حياته الخاصة يبدو لنا دائماً ذلك الطريد تثير محنته وآلامه في النفس شجنا، قبل أن تثير أعماله الحافلة في النفس إعجاباً
محمد عبد الله عنان
ليلى المريضة في العراق
للدكتور زكي مبارك
- 10 -
أقف قليلاً حتى أستعد لتدوين ما سمعت من ظمياء. وأشهد أني سمعت بقية حديثها وأنا كاره، لأن أسم عبد الحسيب أصبح يزعجني، فهو الحبيب الأول، وأنا إن شاء الهوى سأكون الحبيب الثاني. وحماسة ظمياء في سرد القصة قد تنتهي بتذكير ليلى بماضيها فتنتكس وتضيع من يدي، لا قدّر الله ولا سمح. وهل أملك زمانها إلا إن وصلتُ بها إلى ساحل العافية؟ كتب الله لها السلامة، وشفى من أجلها جميع المرضى من الملاح!
ومن واجبي نحو نفسي أن أنص بصراحة على أني لست لئيماً كل اللؤم في هذه القضية - وما أبرئ نفسي، إن النفس أمارة بالسوء، إلا ما رحم ربي - فأنا أحب أن تُعافَي ليلى لأنفرد بهواها، ولكني مع ذلك أشعر في بعض الأحيان أني أخدمها بإخلاص، فانه يعز عليّ والله أن تُعطب سيدة لها مثل طرفها الساحر، وصوتها الرخيم. يعزّ عليّ أن تعطب مثل تلك الإنسانة وإن خلت منها يدي، وهذه فيما أظن أول مرة أشعر فيها بحلاوة الصدق، فقد مضت أعوام وأنا لا أداوي امرأة جميلة إلا هممت بخطفها من زوجها. وقد وقعت لي من ذلك حوادث سيطول عليها ندمي، حين أثب إلى رشُدي، أنا الطبيب الآثم الذي زعزع عروش السعادة في كثير من البيوت
أنا أشعر حقاً وصدقاً أن ليلى تهمني؛ وأشعر حقاً وصدقاً أني مستعد للتضحية بنصيبي من هواها؛ ولكن ما الذي يمنع من الجمع بين المزيتين: عافيتها وسعادتي؟ يمكن بسهولة أن تصير محبوبتي بلا بغي ولا عُدوان، والخلاصة أني أريد أن يُنسى اسم عبد الحسيب، ولكن كيف؟ إن قصته تهمني جداً، لأنها ستعلمني كيف أسوس ليلى، وهذا بيت القصيد، فقد أصبح مفهوماً عندي أنه كان (عبيطاً) لا يعرف ما يأتي وما يدع. وكان مصيره أن يُحرم عطف ليلى، فيمرض هو في مصر، وتمرض هي في العراق، وما احب أن أكون ثالث المرضى!
يضاف إلى هذا أن ظمياء ستتكلم أيضاً عن درية أخت عبد الحسيب؛ وهذا الاسم يهمني جداً، ولا اعرف السبب في ذلك، ولعلي أعرف بعد حين، فقد تتذكر الإنسانة التي تحمل
هذا الاسم الجميل أن الفتى الذي كان يصارحها وتكاتمه لم ينس أن جسمها كان أخصب حسم تبختر واختال في شارع فؤاد. ولعلها تمرض هي أيضاً فيُدَعى لها الطبيب الذي يداوي ليلى المريضة في العراق
درية، متى تمرضين؟ إخص عليك! بل متى تتصنعين المرض لأراك - في غير ريبة - ممدَّدة على السرير؟ متى؟ متى؟ إن بلائي سيطول!
أنا أغار من اسم عبد الحسيب، فليؤجّل حديثه لحظات، ولأدوِّن بعض الوقائع المتصلة بهذه الأحاديث
1 - بجوار دار المعلمين العالية رجل يجلس على الأرض و (يضرب الرمل) وهو معروف لسائر أهل بغداد، وهو يذكرني بأمثاله من الذين كنت أستخبرهم مصيري في الحب حين كنت أمشي بشارع الخليج. وما كنت أول محب استخبر الرمل، فزميلي البهاء زهير تنطق أشعاره بأنه كان يعرف جميع من (يضربون الرمل) بالقاهرة
أقول إني أقف دقائق كل صباح حول بساط هذا الرجل وأنا في طريقي إلى الدرس، والطلبة يمرون فلا ينتقدون أستاذهم، لأنهم سمعوا أنه أديب فيلسوف لا يهمه غير الوقوف على أحوال المجتمع. ولكن الواقع غير ذلك، الواقع أني بدأت أتخوف مصيري في هوى ليلى، وأصبحت كالطفل أصدّق كل شيء. ولكن كيف أستخبر الرمل والطلبة يغدون ويروحون وأكثرهم يحمل المصورات الشمسية، وفي مقدورهم أن يأخذوا صورتي على تلك الحال ويقدموها إلى الجرائد فأصبح محور السمر الساخر في الأندية

والمعاهد؟
الحل سهل: أنتظر ذهاب الطلبة للغداء ثم أعرج على ضارب الرمل لأشوف بختي
كذلك فعلت
ويلاه! ماذا تصنع المقادير؟
أنا أجلس أمام أحد الدراويش في بغداد لأشوف بختي، وأنا الذي غلبت الساحر الهندي
على شاطئ الإسكندرية في صيف سنة 1934؟
ليت أيامي تعود!
فما زلت أذكر كيف أعطاني ذلك الساحر الهندي عشرين ديناراً في سبيل أن أترك له
التفرد بقراءة الكف لمن يحج ذلك الشاطئ من الظبيات
وخلاصة القصة أني ذهبت في ضحى يوم صائف إلى خليج ستانلي، ونزلت بثوب البحر
إلى ملعب الغزلان، فرأيت فقيراً هندياً يقرأ الكف لفتاة ناهد تشبه أفروديت، أو تشبهها
أفروديت، فجلست بجانبهما جلسة الباحث المتعقب، لا جلسة اللاهي اللاعب، وما هي
إلا لحظات حتى قلت بصوت الواثق بصحة ما يقول: على رِسلك أيها الساحر، فأنت
فيما يظهر قليل العلم بأسرار الكف، وما يجوز لك أن تشغل فتاة بمصيرها على غير
هدى. أين تعلمت هذا العلم أيها الدرويش الجهول!
فانزعج الرجل انزعاجاً شديداً، وفقراء الهنود ضعاف العزائم والقلوب في أكثر الأحيان
ونظرت الفتاة في استغراب وقالت: وحضرتك تعرف علم الكف؟
فقلت، وأقسم ما قلت غير الصدق: نعم أعرف علم الكف وهو خير ما تعلمت في
باريس!
فانعطفت الفتاة في تخاذل وقالت: تسمح تقرأ لي كفي!
فأخذت يدها ونظرت إلى صدرها مرة وعينيها مرتين، ثم شرعت أقص عليها أخبار
المستقبل وما فيه من ابتسام وأنين
وما هي إلا دقائق حتى كنت ساحر الشاطئ
فهل تعود أيامي؟ هل تعود؟ أمري إلى الهوى!
وتخاذل الساحر الهندي وتضعضع وأقبل يسر في أذني: تتفضل بكلمة؟ فقلت: نعم.
وانتحينا بعيداً عن أسماع الظباء فقال: أعرف أنه لا يفل الحديد إلا الحديد، وأعرف ثانياً
أني أعلم منك بقراءة الكف، ولكني واثق بالهزيمة إذا ناضلتك، لأنك تحدث الفتياتِ
بأحاديث أجهلها كل الجهل، ويغلب على ظني أنك لا تقرأ الكف، وإنما تقرأ العيون، ولا
علم لي وحياة غاندي بلغة العيون
فقلت: وماذا تريد، أيها الشيخ؟
فقال: أرجو أن تبيعني هذا الميدان
وعندئذ تذكرت أني موظف في الحكومة المصرية وأن من الممكن أن يتعقبني)
مندوب (آخر ساعة) أو مندوب (روزاليوسف) أو مندوب (الصباح)، وأن من العقل أن
(أقبض ما يمكن قبضه وأترك الميدان
- وماذا تقدم يا شيخ؟
- أقدم عشرة دنانير
- أنا أترك لك هذا الميدان من أجل عشرة دنانير؟ هيهات!
- يا سيد، أنت في وطنك وأنا غريب
- ونحن لا نترك خيرات بلادنا للأجانب
- أنا لست أجنبياً بالمعنى البغيض لهذه الكلمة، فأنا مسلم مثلك وأتكلم اللغة العربية
- إنك رجل لبق يا شيخ، ولكني لا أترك هذا الميدان بعشرة دنانير
- أنا لم أغنم من هذا الموسم غير أربعين ديناراً
- أنت إذاً جهول! ولو كنت مكانك لجمعت ألف دينار في شهرين
- هذا ما وقع وأنت تعرف يا سيدي أن عمل السحر صار قليل المكاسب بفضل
المقالات التي تكتب ضده كل يوم. وأنت يا زميلي تعرف ما جنت علينا حذلقة أصحاب
الجرائد والمجلات
- إذن تدفع عشرين وتحفظ لنفسك عشرين
فقبل الرجل وقدم المبلغ، فأخذته وانصرفت
وقد علمت بعد ذلك أن عرائس الشاطئ شككن في قدرته على فهم أسرار الكف فبار

سوقه وضاع
أما أنا فمضيت في دراسة هذا العلم النفيس حتى تفوقت فيه، ولكل مجتهد نصيب
أليس من الغريب أن يكون هذا حالي في العلم بمصاير القلوب ثم أجهل مصير قلبي؟
إن هذا لدليل على ضعف القدرة البشرية، إن كان ذلك ما يرتاب فيه الزنادقة والملحدون
جلست إلى الرمل أستلهمه وأستوحيه، والأمر للهوى
- يابا، يابا
- نعي يا عمي
- لك أعداء في الشام، وسينصرك الله عليهم
- طيب، طيب! (وماذا جنيت حتى يكون لي أعداء في الشام أو لبنان؟)
- ولك أعداء في مصر، وسينصرك الله عليهم، قل آمين
- آمين، آمين!
- ولك في العراق فرد عدو (يعني عدواً واحداً)
- طيب
- ويجيء إليك فرد مكتوب
- من وين يا عمي؟
- من بغداد
- خير، خير
- وأنت تحب فرد امرأة، وأكُو ناس يحسدونك
- أكو خوف يا عمي؟
- ماكو خوف، ولكن احترس
فنفحت الرجل درهما ومضيت
وبالقرب من جامع مرجان سمعت صوتاً يناديني فالتفت فإذا أحد سعاة البريد يقدم إليّ خطاباً فعجبت من أن تفضحني ليلى إلى هذا الحد، ونظرت فرأيت العنوان مكتوباً بهذه الصورة الطريفة:
(لحضرة الأستاذ الخفيف الروح الدكتور زكي مبارك
يسلم إليه أثناء تجواله في شوارع بغداد!!)
شيء ظريف حقاً! وأي ظرف أروع وأمتع من أن تصبح دار إقامتي موزعة بين شوارع بغداد، وأن ترى مصلحة البريد أنها مسئولة عن البحث عني في شوارع بغداد؟
إن مرسل هذا الخطاب لابد أن يكون أظرف الناس. وإذا كان العنوان بهذه الصورة من اللطف فسيكون الخطاب ولا ريب آية الآيات في خفة الظل ولطف النسيم
ولكني ما كدت أفض الظرف وأنظر الخطاب حتى انزعجت. فهو بغير إمضاء وكاتبه ينهاني عن عيادة ليلى، ويهددني بالقتل. . . أمري إلى الله لا إلى الهوى!
ورأيت أن أحتاط لنفسي فذهبت أستشير صديقاً بالمفوضية المصرية سبقني إلى العراق بسنتين؛ فكان من رأيه أن أبلغ الخطاب إلى الشرطة. وأكد لي أن العراقيين لا يعرفون المزاح في هذه الشؤون. وبعد ساعة من تسلم الخطاب كنت عند سعادة رئيس الشرطة، فكان أول كلامه بعد رد التحية أن قال:
- إيش لون ليلى؟
- أهدّد من أجلها بالقتل!
وقدمت إليه الخطاب فكان يقرأ والغضب ينقله من لون إلى لون، ثم ابتسم فجأة وقال:
- ولكنه صفح عنك!
- صفح عني؟ وكيف؟
- ألم تقرأ هذه الجملة؟
ونظرت فإذا في نهاية الخطاب (ولكني عدلت عن هذا الخاطر لأني إذا قتلتك قتلت معك علماً غزيراً في الطب، وذوقاً دقيقاً في الأدب) فعجبت أن تفوتني هذه الجملة، ولكن يظهر أن انزعاجي صرفني عن استيعاب الخطاب؛ والتهديد بالقتل يصنع أشنع من ذلك. عافى الله قراء هذه المذكرات من الأسواء
ولما اطمأننت إلى صفح غريمي في هوى ليلى تشجعت وقلت: ومع هذا فأنا لا أبالي

أحداً، وقديماً قال جميل:
فليت رجالاً فيكِ قد نذروا دمي ... وهَّموا بقتلي يابثين لقوني
إذا ما رأوني طالعاً من ثَّنية ... يقولون من هذا وقد عرفوني
فقال رئيس الشرطة وهو يبتسم: يجب أن تثق يا دكتور أن العراقيين يفدون ضيوفهم بالأرواح، وهم لا يخافون عليك إلا عادية هواك
2 - تفضل سكرتير محطة الإذاعة العراقية فدعاني لإلقاء محاضرة عن الحِكم العطائية؛ وأنا فيما يظهر رجل خدّاع، فقد ظن الأستاذ فؤاد جميل أني أصلح الناس للكلام عن حِكم ابن عطاء الله؛ ولعل حياتي في بغداد هي التي هدته إلى ذلك، فقد رآني أحفظ آداب الصيام، وأؤدي الفرائض والنوافل، فظنني رجلاً تقياً، ونسى هذا الأديب أن الغريب لا فضل له في التخلق بمكارم الأخلاق. وهل يستطيع رجل مثلي أن ينحرف عن الصراط المستقيم في بغداد؟ إن استقامتي في هذه المدينة ليست إلا ضرباً من الآداب الصناعية، ولن تكون لها قيمة إلا إذا عاملني الله عز شأنه بالمثل المأثور
(يؤجر المؤمن رغم أنفه)
وهنا أشعر بأن الله تباركت أسماؤه خصني بمزية قليلة الأمثال، فأنا أحاسب نفسي قبل أن يحاسبني الناس، وأدوّن عيوبي قبل أن يدونها الكرام الكاتبون، وربما كنت الرجل الوحيد الذي يخفي حسناته - إن كانت له حسنات - حتى لا تزل قدمه في مز الق الرياء
أقول إني ألقيت محاضرة في محطة الإذاعة عن حِكم ابن عطاء الله، ولكني ما كدت أودع جمهور المستمعين حتى كان المذياع يجلجل:
يقولون ليلى في العراق مريضة ... فيا ليتني كنت الطبيب المداويا
وكانت لحظة طرب لن أنساها ما حييت، فاسم ليلى يشوقني، وبفضل ليلى رأيت العراق. وبدا لي أن أسأل عن صاحب الفضل في إمتاعي بهذا الصوت، فعرفت أنه الأستاذ يونس بحري صاحب جريدة العُقاب. ويونس بحري أديب شرب ماء النيل، وذاق لذة الأسمار في القاهرة، وعرف كيف تطيب الأصائل والعشيات في مصر الجديدة والزمالك والمعادي وحلوان، وتمرغ على الرمل المقدس: رمل الإسكندرية وبور سعيد ودمياط، وقد شاء له وفاؤه لمصر أن يؤنسني بهذا الصوت، لأنه يعرف أني طبيب ليلى، ولأنه يعرف أن السيدة نادرة حضرت نادي الصحافة منذ سنين فلم تر إلا أن تجلس بجانبي عند اخذ الصورة التاريخية ليصح لها أن تقول إنها رسمت وبجانبها قلب خفّاق
وليس من التزيد أن أقول إن محاضراتي في الإذاعة ينتظرها الناس في جميع أرجاء العراق؛ وكذلك كان إلقاء ذلك الصوت بعد محاضرتي شاهداً على حلاه الدعابة العراقية التي خلدها أبو الفرج الأصفهاني على وجه الزمان
جلست بعد المحاضرة أستمع هذا الصوت، والرفاق يضجون من حولي بالضحك وفاتهم أني صرت كالذي قال:
بكيت عينيَ اليسرى فلما زجرتها ... عن الحلم بعد الجهل أسبلتا معا
فقد كنت أعرف أن ليلى تسمع، وكنت أعرف أنها ستطرب لهذا الصوت الذي حبسه البغداديون عن أذنيها خمس سنين، وكنت أعرف أنها لو رأتني لقّبلتني. ولكن هل تقبّلني ليلى؟ ليت ثم ليت!
وخرجت من دار الإذاعة فعبرت دجلة من الكرخ إلى بغداد وأنا في ذهول، فحدثتني النفس بحلاوة الغرق في ذلك النهر الذي وعَى ما وعَى، وضيَّع ما ضيَّع، من أسرار القلوب. ثم تذكرت ديوني في القاهرة، ديوني للوجوه الصِّباح التي تعطّر بأنفاسها نسائم مصر الجديدة
والزمالك، وديوني لعرائس دمياط اللائى تفردن بنعومة الأجسام وعذوبة الأحاديث:
رباه صُغْتَ فؤادي ... من الأسى والحنين
ولم تشأ لضلوعي ... غير الجوى والشجون
فكيف تصفو حياتي ... من الهوى والفُتُون
أم كيف تُرجى نجاتي ... من ساجيات الجفون

وهل من الإثم في هوى ليلى أن أحنّ إلى هوايَ في القاهرة عروس الشرق؟
هل من الآثم في هوى ليلى أن أتذكر غَبُوقي بمصر الجديدة وصَبُوحي بالزمالك؟
هل من الآثم في هوى ليلى أن أقول إني أبذل دمي إن استطعت لأفضي ليلة واحدة في ضيافة ليلى الصحيحة في حلوان؟
متى تعود أيامي وأستأنف اختطاف القبلات في القطار بين المعادي وحلوان؟!
وما كنت أنتظر أن يخط قلمي أمثال هذه الاعترافات، ولكني أحب أن تغار الإنسانة التي سيخلّد اسمها شارع العباس ابن الأحنف في بغداد، فإن غارت فهي ليلى بنت ليل وإلا فهي صخرة تغمرها الثلوج في أقاصي الشمال
وأقسم لئن لم تنته عن تغافلها البغيض لأحدثنها عن لياليّ وأيامي في فندق مينا هاوس بسفح الأهرام؛ ولئن فعلت لأصوّبنَ إلى صدرها سهماً مسموماً لا يُرجى منه شفاه ليلى، يا بنت الفرات!
أمري وأمرك إلى الهوى، فإليه ترجع القلوب!
ألم يأن لي أن أعود إلى حديث الضابط عبد الحسيب؟
إن حديثه لن يصل إلى ليلى حتى أكون أنسيتُها كل من في الوجود. وهل أمكنَ يوماً أن يكون لي فيمن أحب شريك؟ فلتقص حديث ذلك الغريم بلا تهيب ولا إشفاق
قالت ظمياء (وما أعذب كلام ظمياء)
- وأفاض الشيخ دعاس في شرح الاستشراق والاستغراب ففهمنا أن المستشرق هو الذي يدّعي علم الشرق، والمستغرب هو الذي يدّعى علم الغرب. ثم تشعب الحديث من فن إلى فن، فانتقلنا من الأدب إلى السياسة؛ وليلى لم تشاطرنا الحديث، فقد كانت مشغولة البال بانتظار عبد الحسيب. وكانت ترجو أن يكون هو الفتى الذي رافقناه في قطار المعرض.
وبعد ساعات مرت على ليلى كأنها أعوام دخل شاب أخضر العينين، وكان هو يا مولاي، هو نفس الفتى الذي دارت معه ليلى في قطار المعرض دورتين
- وكيف كان التلاقي؟
- فرّت ليلى من وجهه فرار الظبية الضعيفة من القانص الظلوم، فانزوت في أحد أركان البيت. وألحت السيدة نجلاء في أن تتفضل ليلى بالسلام عليه، فاعتذرتْ بأن سلام الفتاة على الفتى وهي ليست من محارمه أدب تنكره حرائر العراق
(للحديث شجون)
زكي مبارك
فلسفة التربية
كما يراها فلاسفة الغرب
للأستاذ محمد حسن ظاظا
- 9 -
(يتفتح الطفل باللعب كما تتفتح الزهرة)
(فروبل)
(الفرق بين مخ أرقى قرد وأحط إنسان أكبر بكثير من الفرق
(بين مخ أرقى إنسان وأحط إنسان
(البيولوجيا)
الناحيتان البيولوجية والفسيولوجية
شرحنا في المقالات السالفة عملية التربية على ضوء الفلسفة وأشرنا إلى بعض (ما يجب أن يكون) وعلينا اليوم أن نرجع إلى (مجموعة العلوم) التي تتناول (الإنسان) بالدراسة والتحليل لنسمع كلمتها فيه، ولنتخذ من نتائجها المحتومة كل ما يفيدنا في تكوين (بطلنا المنشود)! وفي ذلك بالطبع من زيادة الشرح وتكميل النقص ما فيه ستسأل: وما هذه (العلوم)؟ وسأجيبك بأن ما يهمنا منها هو علوم الحياة ووظائف الأعضاء والنفس والاجتماع؛ ثم ستسأل: وما علاقة ذلك بالفلسفة؟ وسأقول إن من خصائص الفلسفة الحديثة النظر في مبادئ العلوم ونتائجها، والخروج منها بوحدة متسقة منسجمة فيها من المعنى الجامع، والتفسير الشامل، والاتجاه العام، الشيء الكثير. وما دمنا في التربية حيال تلك القطعة الفذة من الخليقة (وأعني بها الإنسان) فلا بد لنا أولاً من أن نحاول فهمها وكشف خفاياها، حتى لا تكون أقوالنا عنها خيالية غير

مجدية، وحتى نستطيع بعد حل لغزها بالعلوم المختلفة أن نسير بها إلى كل ما تتطلبه طبيعتها، وتحتمله قواها ويسمح به استعدادها. فترى ما هي كلمة البيولوجيا والفسيولوجيا في الإنسان؟ الجواب كما يلي:

الناحية البيولوجية

وقد أصبحت هذه الناحية هامة وجديرة بالاعتبار في التربية ولا سيما بعد أن ظهرت (نظرية التطور) ووضعت الإنسان في مكانه بين سائر المخلوقات. ولعلك تعرف أن محور البحث هنا يدور حول الكائن الحي من حيث ملاءمته بين نفسه وبين بيئته. ومع كل فلا يهمنا من ذلك في التربية إلا المخ، والطفولة، والعقل

فأما المخ فقد ثبت نهائياً أنه في (الإنسان) أكبر الأمخاخ بالنسبة للجسم، وأن (1) الفرق بين مخ أرقى قرد وأحط إنسان أكبر بكثير من الفرق بين مخ أرقى إنسان. وقد لوحظ أن القابلية للتعلم والتهذيب تتمشى من كبر المخ تمشياً مطرداً، وإذن فمعنى كبر المخ في الإنسان هو القابلية العظمى للتربية، وقيام المخ ذاته مقام الانتخاب الطبيعي وجوهرية عملية التعليم ذاتها بالنسبة للإنسان والقدرة الكبيرة على التخلص من الغرائز أو تهذيبها ما دام المخ يستطيع أن يقوم مقامها.

وأما طفولة الإنسان فهي أطول طفولة معروفة، إذ بينا يصير فرخ الطير قادراً (2) على الاستقلال بنفسه بعد أيام قليلة، لا يصير ابن الإنسان كذلك إلا في سن لا تقل عن العشرين في الشعوب الراقية على الخصوص. وإذن فالتربية السليمة هنا أداة لا مندوحة عنها لأحكام عملية النمو وتحقيق آمال الجماعة في أفرادها

بقي (العقل) وقد أثبتت جميع تجارب الباتولوجيا والتشريح والفصل الجزئي علاقته (3) التامة بالمخ المشتمل على المراكز العليا التي تقوم بالعمل المُروي تاركة الأفعال العكسية واستجابات الغرائز للمراكز السفلى في العمود الفقري. وهذا (المخ) قابل للتربية كما يقول الأستاذ ولا سيما في سن الطفولة والشباب لأنه يكون حينذاك (مرناً) سريع التأثر، وإذاً فميسور تقوية نسيجه وقواه بتكوين عادات عصبية توفر الوقت وتترك للعقل فرصة للتفكير فيما هو أرقى من (الدفاع) الذي يبدو أنه الوظيفة الأساسية للجهاز العصبي عند الحيوانات جميعاً. والتربية هنا توقظ القوى النائمة، وتحفز المستيقظة، وتربط الرذيلة بالألم، والفضيلة باللذة؛ وتغرس العادات الحسنة التي قد تعادل الغرائز في قوتها. ويؤكد الأستاذ بعد هذا أن الجهاز العصبي في الأمم المتعلمة أقدر على قبول التربية منه في الأمم الأخرى. وإذاً فالفرق بين الوحشية والتمدن هو في الحقيقة فرق بين مخ يستجيب صاحبه للغرائز الطبيعية استجابة الحيوان، ومخ يستجيب صاحبه لها استجابات حرة مهذبة معدلة فيها التسامي والتعويض، والكبت والتحوير!

ولكن هل ترمي التربية إلى جعل جميع أعمالنا آلية عديمة الشعور؟ الجواب كلا! ذلك أن العقل الآلي لا يصلح قط للظروف الاجتماعية الدائمة التغير والتشكل. وإذاً فهي ترمي إلى إدخال عنصر (الشعور) في الأعمال حتى يمكنها إحكام التصرف على ضوئه المنير، وحتى تستطيع أن تشرق به على (اللاشعور) فتضيء ظلمته، وعلى الزمن فتنبهنا إليه، وعلى (المثل الأعلى) فتطمح بنا نحوه. وهناك لا نكون مجرد (آلات) تذهب إلى العمل وتعود منه إلى البيت، ثم تخرج إلى المقهى، وهكذا دواليك على نحو أوتوماتيكي خاص؛ وإنما نكون في أعمالنا كائنات حساسة شاعرة تحيا حياة اجتماعية خصبة فيها التقليد النافع، والتضحية السامية، والمحبة النابضة، والمنافسة السليمة، والقابلية لإصلاح أنفسنا وعاداتنا كلما شعرنا بالنقص ورأينا الكمال

أما النظرة العامة التي نخرج بها من هذه الناحية البيولوجية فهي العيش أولاً ثم الكماليات، العيش ثم الفلسفة والفن؛ هذا إلى جعل (الطفل) موجباً يؤثر لا سالباً (يتأثر)، لأن المخلوقات الحية قد تشكلت بردود أفعالها أكثر مما تشكلت بالبيئة. ويقتضي بالطبع جعل المدارس دور (نشاط) نظري وعملي لا دور حشو واستماع، والنظر إلى التربية ذاتها كمعوض أساسي يسد للإنسان ذلك النقص الهائل الذي لا نجده في الحيوان، وكأسلوب من (المواءمة المثلى بين المرء وبيئته) كما يقول الأستاذ هورن

الناحية الفسيولوجية

أما هذه الناحية فتقول مع بعض مذاهب الفلسفة إن الحياة قد بدأت بالمادة ثم بالروح،

وإن الجسم والعقل لم يتلاشى بعضهما في بعض بالرغم من شدة امتزاجهما، فهما يكونان وحدة متسقة ويؤثر بعضهما في بعض تأثيراً كبيراً. ألا تنمو قوى العقل بالحس والحركة؟ أو ليست الإرادة حركة مُروَّى فيها؟ أو ليس (الشعور) - بعد هذا - صدى للإرادة والمعرفة؟

ولذلك تنحصر مهمة التربية هنا في تسليح الجهاز العصبي بردود أفعال حرة منها الاعتيادي - عن طريق العمود الفقري - ومنها المروّي فيه - عن طريق المخ - وفي الاستفادة من نتائج التجارب القائلة بأن العمل ينهك المخ فلا يكون لعمله بعد أربع ساعات

قيمة ما، وبأن المخ يحتاج إلى غذاء خاص من الهواء النقي وغيره، وبأن القوى العقلية تمر في مراحل تمتاز أولاها بسيادة (الذاكرة)، وثانيتها بسيطرة (الخيال)، وثالثتها بحكم (الفكر)، وبأن التعب العقلي يمكن أن يجتنب إلى حد كبير بتنويع العمل على المراكز المخية المختلفة، وبأن صحة الجسم واجبة والعدل بين مجهود الجسم والعقل أوجب، وبأن وبأن مما يتسع المقام لذكره. . .

هذا إلى أنها - تمشياً مع الحقائق أيضاً - تنصح بإدخال (العمل اليدوي) و (اللعب) في عملية التدريس. ذلك أنها تعتبر الأول خير أداة للتعبير عن النفي، ولتنمية العقل وتدريب الحواس، وربط المواد، وتقوية الإرادة، واكتساب الذوق الجميل، وغرس القدرة على الإنتاج، وتعويد الدقة، وحب العمل واحترام العمال، وتقدير العاملين!. وأنا لثاني - وهو اللعب - فيقول عنه (فروبل) إنه يجعل الطفل يتفتح كالزهرة ويقول عنه شلر (إن الإنسان لا يكون إنساناً إلا به) ذلك أنه بعيد الغور في طبيعة الإنسان، حتى أن الشعوب نفسها لتلعب أحياناً وتلهو كالأطفال، وأنه ذو وظيفة أساسية في الحياة وإن اختلف العلماء في كنهها، وأنه إذا ما دخل في العمل الجدي جعله سهلاً مستساغاً وهيناً محبوباً. أليس الفن نفسه صدى للعب الخيال المنتج؟ وإذاً فلا مندوحة لنا من العناية به في المدرسة والتدريس، ولا مندوحة لنا من أخذ الجميع بالألعاب التي تقوي شخصيتهم، وتجمل أجسامهم، وتبث فيهم الروح الاجتماعية والجرأة والحرية والديمقراطية والإقدام وضبط النفس والإيثار. ولكن ليكن مبدؤنا دائماً في المباريات العامة والخاصة هو أن (الخسارة بحق خير من الفوز بباطل!)، ولنتجنب ما استطعنا ألعاب المنافسات الحقيرة والعصبيات التافهة والإنهاك الشديد؛ وبذلك تكون المدرسة فردوساً يحفه المرح ويسري فيه العمل الصحي بجميع نواحيه، وتكون التربية (مواءمة عليا بين المرء النامي الجسم وبين بيئته)

وإلى اللقاء حيث أحدثك عن الناحية النفسية فالناحية الاجتماعية

(يتبع)

محمد حسن ظاظا

مدرس الفلسفة بالمدارس الثانوية الأميرية

المثل الأعلى للشاب المسلم

للأستاذ علي الطنطاوي

تتمة ما نشر في العدد الماضي

لقد انتهينا من تعريف المثل الأعلى والشباب والإسلام، فلنشرع في الموضوع:

قلت إن أندريه موروا وصف الشباب بصفتين أساسيتين: هما الحب والبطولة. أما الحب فهو عماد الحياة وركنها وأساسها، لا معدي عنه، ولا منجى منه. وأحسب أن الشباب الحاضرين، بل وكثراً من الشيوخ يصفرون لي وينزلونني عن المنبر، إذا أنا قلت لهم: (لا تحبوا)، وكيف أقولها؟ أجننت حتى أقول: (حطموا القلوب)، ودوسوا العاطفة. وماذا يبقى لنا إذا خسرنا العاطفة؟ لقد خسر أدوار عرش بريطانيا العظمى، ولكنه ربح العاطفة فلم يخسر شيئاً. لقد أنسته عينا مدام سمبسون ملك إنكلترا، فهل كان ينسيه هذا الملك الضخم، وهذا التاج المرصع، عيني سمبسون لو أنه هجرها. . .؟

العاطفة هي التي تدير دولاب حياتنا، وتسّير أمورنا كلها، أما العقل فلا يصنع وحده شيئاً. من يذكر منكم أنه مشى خطوة واحدة برأي العقل وحده؟ العقل يا سادتي فيلسوف أعمى، حكيم مقعد، ينادي بصوت خافت ضعيف. . . أما العاطفة فهي القوة، هي النشاط، هي الحياة. . .

أنا لا أقول اقتلوا العاطفة، لأن في موتها موتنا، ولكن أقول إن العاطفة تضيق حتى لا

تشمل إلا شخصاً واحداً، وتنحط حتى تنزل من قلب هذا الشخص إلى ما تحت القلب، إلى ما تحت. . . السرّة! وتسمو حتى تحيط بالمثل الإنسانية العالية، وتعمّ حتى تشمل الأمة كلها، بل الإنسانية جمعاء. فاسموا بعواطفكم عن مواطن شهواتكم، واخرجوا بها من ذواتكم، وقفوها على أمتكم وبلادكم

أحبوا، فإن الذي لا يحب لا يكون إنساناً، واذكروا واحلموا وتألموا. . . ولكن افهموا الحب بمعناه الواسع الذي يشمل كل ما هو حق وخير وجميل. . . لا المعنى الضيق العقيم، الذي لا يتجاوز حدود جسم امرأة. . . أحبوا، ولكن ابقوا مسلمين. إن للمسلم قلباً، قال الله عز وجل: (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد)، ولكن المسلمين يغضون عيونهم وقلوبهم وفروجهم (إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير

ملومين، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون). أحبوا ولكن ابقوا رجالاً. إن الرجل إذا احب لم يبكِ ويتذلل ويأرق الليل، ولم يلق شفتيه على قدمي المرأة، كما كان يفعل لامارتين، ولكنه يقوم قائما على مشط رجله، ثم يقول لها، بعينيه النافذتين، وعضلاته الحجرية، وإرادته الماضية، ورجولته البادية: (تعالي!)

أحبوا ولكن ابقوا أفراداً من هذه المجموعة البشرية التي هي الأمة، لا يقطعكم الحب منها، ويُعِدْكم إلى الحياة الفردية الوحشية، فتنكروا كل شيء، وتنسوا الدنيا، وتتجاهلوا الحياة إلا إذا أشرقت عليها نظرة من المرأة وأضاءت في أرجائها كله منها. ولا تقيموا الدنيا وتقعدوها، وتغرقوا الأرض بالدموع لأن الحبيبة المحترمة لم تمنح قبلة وعدت بها، ولم تصل وقد لوحت بالوصل، تنظمون الأشعار في هذه الكارثة، وتنشئون فيها الفصول، تبكون وتستبكون، ثم تنامون آمنين مطمئنين، والنار من حولكم تأكل البلاد والعباد. . .

الشعر شعور، فأي شعور وأي حس فيمن يرى أمة كريمة مجيدة بقضها وقضيضها، ومفاخرها وتاريخها وحياتها وأمجادها تطرد من ديارها، وتخرج من بيتها - وهي أمته، وأفرادها اخوته - لتعطى مساكنها إلى أمة من أسقط الأمم: أمة ضربت عليها الذلة والمسكنة وباءت بغضب من الله، وغضب من الناس والحق والفضيلة والتاريخ، ويرى صدورها مفتحة للرصاص، وشيوخها مسوقين إلى حبال المشانق، وشبابها في شغاف الجبال وبطون الأودية يدفعون الظلم بالدم، وأطفالها ونساءها بين لصين: لص ديار، ولص أعراض، لص يحارب بالذهب، ولص يقاتل بالبارود - ثم لا يحس بهذا كله، ولا يدري به، ولا يفكر فيه، لماذا؟ لأن الشاعر المسكين مصاب متألم. . . ماله؟ ما مصابه؟ إن حبيبته لم تعطه خدها ليقبله. . .

إن العاطفة إذا بلغت هذا المبلغ كانت جريمة.

وما دمنا في حديث الحب فلنوف الحديث حقه. إن لي تعريفاً قديماً للحب، هو أنه المرقد (البنج) الذي وضعه الله لتمام عملية التناسل التي لابد منها لبقاء النوع البشري، والتي لا يصبر الإنسان على احتمال قذارتها وآلامها لولا هذا المخدر، فأول الحب إذن ووسطه وآخره الاجتماع الجنسي والسلام، أما الحب العذري الأفلاطوني العفيف فليس إلا إحدى الأكاذيب الجميلة، التي لا يصدق بها عاقل. من أجل ذلك يشك العقلاء في عفاف المرأة

المحبوبة، وينظر المسلمون إلى الحب نظر الريبة. . . إني لألحظ في وجوهكم معنى الاستنكار والاعتراض، وأرى فيها بوادر الثورة. . . لا يا سادتي. . . أنا لا أنتقد الحب، ولا أشك في جماله، ولكن أسألكم وارجوا أن تجيبوني بإنصاف: من هو الذي يسمح لي فيكم أن أحب زوجته أو أخته؟ لا تغضبوا يا سادتي. . . فما أردت إلا التمثيل فجاء المثل غليظاً نابياً، وإني ليسرني أن تستهجنوه، لأن هذا دليل على أنكم للحقيقة أشد استهجاناً. . .

فلنعلن إذن أن هذا الحب المعروف اليوم، ما يأباه الإسلام ويتنافى مع المثل الأعلى للشاب المسلم، ولكن ماذا يصنع الشباب؟

الجواب: يتزوجون. . .

نعم يتزوجون. إن حياة الغرب حياة خطرة على نفسه وعلى المجتمع. إنه صندوق ديناميت يوشك أن ينفجر في كل لحظة فيدمر سعادة أسرة من الأسر، وينقض دعامة من دعائم الوطن. إن حياة العزب حياة فارغة من كل شيء لأنها فارغة من الزوجة

ولو امتلأت بكثير من النساء (غير الزوجات). إن أفكار العزب مهما اختلفت مناحيها وتعددت متوجهة إلى وجهة واحدة، تسعى إليها بشدة وعنف كما تسعى السيول من كل جهة إلى قعر الوادي، إنه لا يجتمع عزبان إلا نظما مؤامرة على الأخلاق والعفاف لست أبالغ. . . أنا أيضاً شاب عزب! ولكني كسائر العزاب لا أحمل ذرة من اللوم، وليس عليّ شيء من الذنب. الذنب عليكم أيها الآباء. إنكم تبيعون بناتكم. إنكم تصاهرون المال والجاه والأرستقراطية الزائفة، إن حفلات العرس وحدها تخرب بيتي العروسين. . . فما قولكم في المهر والأثاث؟ وما قولكم في شاب مثلي في رأسه شيء، وليس في جيبه شيء من مال؟ كيف يتزوج؟

لا أحب يا سادتي أن أكون منحطاً إلى هذه الدركة من الاستئثار و (الأنانية) فأستغل اجتماعكم لسماع محاضرتي لأعلن عن نفسي، وأعرضها خاطباً مستجدياً. . . ولكني أحبّ أن تفكروا في هذا الأمر تفكيراً جدياً. إننا قد شبعنا من الخطب ومللنا من المقالات، فهل فيكم أب مسلم له بنات يكون قدوة طيبة للآباء المسلمين الطيبين، فليفتش عن شاب صالح جاد فيزوجه بما يستطيع من المهر والنفقات: بخمسين ليرة سورية بثلاثين لم لا؟ أهي تجارة؟ أتريد زوجاً لبنتك صالحاً تسعد به ويسعد بها، وينشئان أسرة شريفة مستورة سعيدة

أم تريد ذهباً تبيع به ابنتك؟

هذا دواء هذا المرض العضال. هذا حل المشكلة. فإذا لم تحلوها اليوم لا تنحل أبداً، إذا لم تداووا المرض اليوم يموت المريض. . .

فيا وجهاء هذا البلد، الوجاهة بالعمل النافع، وبالتقوى والإصلاح، لا بالمال ولا بالفخفخة الفارغة، ولا بالعظمة الجوفاء ولا بالمراتب العالية، فاعملوا أو فتنحوا عن أماكنكم لمن يعمل!

وإن من الحماقة التي ليس وراءها حماقة أن تبن الأسرة الثابتة على عاطفة متبدلة متحولة. من الحماقة أن يبنى الزواج على الحب. منذَ الذي يبني داره على كِثب من الملح في طريق السيل؟ الحب فراشة حلوة، فيها أجمل الألوان ولكنها لا تعيش إلا يوماً واحداً. الحب زهرة فوّاحة ليس لها في الروض مثيل، ولكنها تذبل عند أول لمسة. من رأيي في الحب أنه لا يكون إلا إذا كان أمل، وكان مع الأمل حرمان، كالكهرباء لا تضيء المصباح إذا التقى فيها القطبان المختلفان. أنت تحب المرأة لأنك لا تقدر عليها، فتسبغ عليها من خيالك ثوباً تراها فيه أجمل الناس، فإذا قدرت عليها، وخلعت هذا الثوب عنها، عادت امرأة كسائر النساء. انظروا إلى الزوجين الحبيبين في شهر العسل، وقد ذهبا يسيحان ينعمان بالخلوة الحلوة، في اجمل البقاع، أو أكبر المدن، تحسبوا أن السعادة قد جمعت لهما من أطرافها، ولكن اقتربوا منهما تروا أنها لا تمر إلا أيام حتى لا يجدا ما يتحدثان به، إلا حديث الأيام الأولى، يوم كان أمل وكان حرمان، ثم تمضي الليالي، وتبلى جدّة هذا الحديث، فلا يبقى بينهما كلام. . .

وماذا في لغة الحب، غير (أحبّكِ) و (أحبّكَ) رددها مائة مرة فإنكم تنامون. . .

فلنعلن إذاً أن بناء الزواج على الحب وحده لا يرضاه الإسلام، لأنه لا يرضاه العقل. . .

فهل نعود إذن إلى طريقتنا الأولى: تخطب لي عمتي أو خالتي، وتنتقي لي الزوجة على رأيها، وأنزل أنا على حكمها، وأعلق مستقبلي بها، وأمضي العقد وأمشي إلى حفلة العرس، وأنا لا أعرف ما لون عين العروس وما شكل أنفها؟

هذه طريقة سقيمة عقيمة. . . فماذا نصنع إذن؟ ما هي الطريقة المثلى؟ هي يا سادتي طريقة الإسلام. إن الإسلام منح الخاطب (بعد أن يتم الرضا عنه، ويرجح جانب قبوله صهراً) أن يرى وجه المرأة وكفيها، أن يجلس معها (بحضور وليها). . . هذه هي سنة الدين، ولكن الآباء جاهلون، يأبون أن يرى الخاطب الصالح وجه الفتاة، ثم يخرجونها إلى الأسواق، متبرجة متهتكة، يرى أكثر من وجهها وكفيها الفاسق والخبيث، وكل من كان في الطريق، حتى الحمار!

إننا تركنا قواعد الإسلام، فتركنا الفلاح والنجاح

(البقية في العدد القادم)

علي الطنطاوي

المدرس في كلية بيروت الشرعية

من برجنا العاجي
فكرة الضحية وإهراق الدم للمعبود لم تزل باقية إلى اليوم. فالوثنية قد خلفت تقاليد لم يكن محوها من اليسير. إن ذبح الخروف في العيد الكبير إن هو إلا ظل باهت لتلك العهود التي كان يُدفع فيها الآدمي للذبح عند أقدام الهياكل. ولكن الزمن غير الشكل ولم يغير المبدأ. إن الإنسانية في تطورها لا تمحو شيئاً غرس في طبيعة الإنسان من قديم. . . ولكنها تبدل في لونه وطلائه، وتعدل في ملامحه وتكسوه ثياباً أخرى، وتسميه اسماً جديداً يتفق مع روح العصر الجديد. فالإنسان لا يتغير. إنما يتطور. ولم يغب ذلك عن حكمة الأديان. فهي في تعاقبها لم تنسخ كل ما رسخ من عقائد الإنسان. ولكنها أخذت أكثر هذه العقائد بالرفق، فهذبت من وسائلها وغاياتها. فالضحية الآدمية جعلتها ضحية من الحيوان؛ والغاية منها، وقد كانت إرضاء المعبود وحده، حولتها إلى إرضاء الله بإرضاء الفقير في يوم العيد
هنالك شيء ينبغي أن نتدبره إذا أردنا إحداث انقلاب في حياة البشر. الحذر كل الحذر من أن نقتلع شيئاً من جذروه، فإن ما نبت في قلب البشرية لا يقتلع. إنما نحن نستطيع دائماً أن نهذب ذلك الغرس وأن نميل به إلى حيث تريد ريحنا. وأن نبدل بما نشتهي ألوان أزهاره وثماره، وأن نولد منه أقوى الأشجار. . . وهكذا نخرج للحياة مما كان وعلى أساس ما كان، ذلك الذي يقول فيه الناس إن عين الشمس لم تره. آه! ما أصدق تلك الكلمة: لا جديد تحت الشمس. نعم. إن يد (الطبيعة) لا تبرز جديداً ولا تميت قديماً، ولا تمحو من الوجود، ولكنها تعدل وتبدل في الموجود. فلنتذكر دائماً أن لا شيء ينعدم في الطبيعة. وليست (المادة) وحدها هي التي لا تنعدم، كما يقول الكيمائيون. كل شيء لا ينعدم في هذا الوجود. إن الطبيعة لا تعرف كلمة (العدم) ولكنها تعرف كلمة (التحول)
ذلك أسلوب الخالق الأزلي
توفيق الحكيم
للأدب والتاريخ
مصطفى صادق الرافعي
1880 - 1937
للأستاذ محمد سعيد العريان
- 24 -
إنه ليتفق لهذا الكاتب من أساليب البيان ما لا يتفق مثله لكاتب من كتاب . . . .) العربية في صدر أيامها(!
عباس محمود العقاد
الرافعي والعقاد
ذلك كان رأي العقاد في الرافعي قبل بضع عشرة سنة من هذه الخصومة التي أروي خبرها. وشتان بين هذا الرأي يبديه العقاد سنة 1917 في مقال ينشره ليعرِّف بكتاب من كتب الرافعي أنشأه في ذلك العهد، وبين رأيه الأخير في المهذار الأصم مصطفى صادق الرافعي كما يسمه في سنة 1933!
إن هذه الخصومة العنيفة بين الرافعي والعقاد قد تجاوزت ميدانها الذي بدأت فيه، ومحورها الذي كانت تدور عليه، إلى ميادين أخرى جعلتْ كلاًّ من الأديبين الكبيرين ينسى مكانه ويغفل أدبه ليلغ في عرض صاحبه ويأكل لحمه من غير أن يتذمم أو يرى في ذلك معابة عليه. وكان البادئ بإعلان هذه الحرب هو الرافعي في مقالاته على السفود. .
هم ثلاثة أو أربعة من كتاب العربية في الجيل الحديث كانت لهم هذه الخلة المرذولة في النقد وفي أساليب الجدل. هذان اثنان منهم وكان للرافعي مع كل واحد من الاثنين الآخرين معركة. على أن أشد هذه المعارك عنفاً وأبعدها عن حدود الأدب اللائق هي المعركة بينه وبين العقاد!
وكان بدء هذه المعركة كما قدمت حديثاً خاصاً بين الرافعي والعقاد في دار المقتطف، حول حقيقة إعجاز القرآن، وكتاب إعجاز القرآن. وكان للعقاد فيهما رأي غير رأي الرافعي،

فكانت غضبة الرافعي الأولى لكرامة القرآن والعقادُ ينكر إعجازه؛ ولكتابه والعقادُ يجحد فضله؛ ثم كانت الغضبة الثانية للتهمة التي رماه بها العقاد حين جبهه بأنه افترى كتاب سعد ونحَلَه إياه في تقريظ إعجاز القرآن ليروج عند الشعب. . .

فثمة سبب عام أنشأ هذه الخصومة، هو إيمان الرافعي بإعجاز القرآن إيماناً لا يتناوله الشك؛ وسببان خاصان: هما رأي العقاد في كتاب الرافعي، ثم تهمته له بأنه مفتر كذاب. . .!

تُرى أي هذه الأسباب الثلاثة هو الذي أثار الرافعي فدفعه إلى الخروج عن الوقار والأدب الواجب فيما أنشأ من مقالات (على السفود). . .؟ الرافعي يقول: إنها غضبة لله وللقرآن، وللتاريخ رأي آخر سيقوله فيما بعد، لست أدري أيفارق الرأي الأول أو يلتقي وإياه على سواء. . .!

ولكن كتاب على السفود مع ذلك لا يتناول مسألة المسائل في هذا الخلاف؛ فلا يتحدث إلا عن شعر العقاد وديوان العقاد؛ ثم عن أشياء خاصة تعترض في فضول القول وحشو الكلام؛ فأين هذا مما دارت عليه المعركة من أسباب الخصام. . .؟ الرافعي يقول: هذا أسلوب من الردّ قصدْت به الكشف عن زيف هذا الأديب والزراية بأدبه؛ حتى إذا تقررت منزلته الحقيقية في الأدب عند قراء العربية، لا تراهم يستمعون لرأيه عندما يهم بالحديث عن إعجاز القرآن. وهل يحسن الحديث عن إعجاز القرآن من لا يستقيم منطق العربية في فكره، ولا يستقيم بيانها على لسانه؟. . . هكذا يقول الرافعي. . .!

ومن ثم بدأت المعركة على أعين القراء. . .

يقول الأستاذ إسماعيل مظهر في مقدمته لكتاب (على السفود):

(. . . أردنا بنشر السفود أن نرضي من أنفسنا نزعتَها إلى تحرير النقد من عبادة الأشخاص، ذلك الداء المستعصي الذي كان سبباً في تأخر الشرق عن لحاق الأمم الأخرى. . .)

(. . . ونقدم بهذه المقدمة تعريفاً لما قصدنا من إذاعة هذه المقالات الانتقادية التي أعتقد بأنه لم يُنسج على منوالها في الأدب حتى الآن!)

(وعسى أن يكون السفود (مدرسةً) تهذيب لمن أخذتهم كبرياء الوهم، ومثالاً يحتذيه الذين يريدون أن يحرروا بالنقد عقولهم من عبادة الأشخاص ووثنية الصحافة!)

أما أن تكون هذه المقالات الانتقادية لم يُنسج على منوالها في الأدب الحديث فَنَعم، وأما أن تكون مدرسة للتهذيب ومثالاً يحتذيه النَّقدةُ فلا. . فليس بنا من حاجة إلى أن يحتذي النقدةُ هذا المثال في أسلوب النقد والجدل فيزيدوا عيباً فاحشاً إلى عيوب النقد في العربية

والحق الذي أعتقده أن في هذا الكتاب - على ما فيه - نموذجاً في النقد يدل على نفاذ الفكر ودقة النظر وسعة الإحاطة وقوة البصر بالعربية وأساليبها. ولكن فيه مع ذلك شيئاً خليقاً بأن يطمس كل ما فيه من معالم الجمال فلا يبدو منه إلا أَدَمُّ الصور وأقبح الألوان، بما فيه من هُجْر القول ومر الهجاء؛ ولئن كان هذا مذهباً معروفاً في النقد للرافعي وخصمه واثنين آخرين من كتاب العربية في هذا الجيل - إننا لنريد للناقدين في العربية أن يكونوا أصحَّ أدباً وأعفَّ لساناً من ذاك. . .!

ذلك رأي قلته للرافعي - يرحمه الله - فما أنكره عليّ ولا اعتذر منه؛ فما يمنعني اليوم شيء أن أعلنه صريحاً إلى الأدباء. ولقد همّ الرافعي منذ سنوات ثلاث أن يجمع كل ما كتب في النقد بعد كتاب (المعركة) في كتاب واحد؛ فأبديت له الرأي أن يضم إلى هذا المجموع مقالات (على السفود) بعد أن يجردها مما يعيبها حرصاً على ما فيها من الفن؛ فارتاح لهذا الرأي واطمأن إليه، ولكنه لم يفعل، إذ حالت الحوائل دون تنفيذ فكرته

وإنها لخسارة أن ترى التمثال الفني البديع مغموراً في الوحل فلا تصل إليه إلا أن تخوض له الحمأة المنتنة وهيهات أن تُقبل عليها النفس؛ وإنها لخسارة على العربية أن ترى هذا الفن البديع في النقد يتكنفه هذا الكلام النازل من هجر القول ومر الهجاء

ولقد كان الرافعي نفسه يعترف بأن في الكتاب ما لم يكن ينبغي أن يقول، وبأن خصمه بما قال فيه كان يملك أن يسوقه إلى المحاكمة؛ ولكن الرافعي مع ذلك كان مطمئناً إلى شيء آخر. .

قال الرافعي: (. . . قال لي قائل: لقد قلت في العقاد ما كان حرياً أن يقفه وإياك أمام القضاء!. . . ولكني يا بني كنت على يقين بأن العقاد لن يفعلها؛ إنني كنت أهاجم العقاد بمثل أسلوبه في النقد، وإن معي لورقات بخطه لا يسره أن أجعلها دفاعي أمام المحكمة فيخسر أكثر مما يربح. ولقد قرأت من هذه الورقات على مستشار كبير فأيقن بما أنا موقن
وحكتْ لي محكمتُه .. .!)

ذلك حديث الرافعي. . . فهل كان هذا حسْبَه من العذر فيما كتب؟

على أن كثيراً من قراء على السفود لم يعرفوا كاتبه إلا بعد سنين؛ وكان في هذا خير للرافعي ولسمعته الأدبية ولمكانه من نفوس القراء؛ إذ كان العقاد يومئذ هو كاتب الوفد الأول، والوفدُ هو الأمة كلها، قراءها وعامتها وشيوخها وشبابها؛ فكان العقاد بذلك هو عند الشعب إمام الكتاب وأمير الشعراء، لا يعاديه إلا خراج على الأمة أو مارقٌ من الوطنية، ولو كانت عداوته في مسألة أدبية لا تتصل بالسياسة، ولو كانت مناقشته حول إعجاز القرآن .. .!

ثم كانت هُدْنةٌ بين الرافعي والعقاد، صمت فيها الخصمان طويلاً وكل منهما يتربص بخصمه ليضربه الضربة القاضية، فلما مات المرحوم شوقي بك في خريف سنة 1932، انتهز العقاد نهزة ليبدأ مع خصمه معركة جديدة لم تكن هي آخر العراك بينهما (شبرا)

محمد سعيد العريان

أبو إسحاق الصابي

للأستاذ عبد العظيم علي قناوي

- 4 -

كان العصر الذي نشأ فيه أبو إسحاق الصابي عصراً زاخراً بالكتاب النابغين والشعراء المجيدين ممن خلفوا للغة ثروة ثمينة خالدة، وتركوا في الأدب روحاً فريدة صافية؛ إذ لم يعدْ الخيال وقفاً على الشعر، بل تعداه إلى الكتابة والنثر، فضرب الكتاب به في ضروب متنوعة لم تعهدها العربية، وساروا به في دروب متشعبة لم يألفها من قبلهم، وإن أعزم بها وسار على نمطها من جاء بعدهم. ولعلَّ من أعظم البواعث على رقي النثر والشعر في هذا العصر ذلك الاضطراب الذي انتظم جميع شئون الدولة؛ فهناك اضطراب ديني يدفع إلى الجدل والمنافحة، والنقد والمدافعة واضطراب سياسي، يسوق إلى المؤازرة والمعاضدة، والمنافسة والمعارضة، فكان ذلك الجو المضطرب جو صفاء للغة وآدابها، وهذا العصر المكهرب عصر ازدهار للنثر والشعر على السواء، فاتسع أمام هؤلاء وهؤلاء أفق الابتكار، ولمع مجال الابتداع، وأوحى إليهم ذلك المعترك المنطق الخلاب، والخيال الصافي والبيان الرائع والنسيج الساحر، فجاء نتاجهم عصارة أذهانهم، وذوب أفكارهم، وصفوة قرائحهم؛ تعمقاً في إبراز فكَرهم واضحة جلية، وتعملاً في تنسيق آرائهم ناصعة صفية؛ لتبدو للقارئ مصقولة مستساغة يرضاها عقله البريء؛ إذ لا يعتورها وهن ولا التواء، ولا يكتنفها غموض أو إبهام، وكثيراً ما كانت تدفعهم أحداث السياسة ودفع ما قد ينتظرهم من كوارث، وخوف ما ربما استقبلهم من حوادث، فيما لو تغير مجرى الأمور إلى الكتابة اللولبية، لا تكاد تتبين مرماها، ولا تعرف مأتاها أو مؤداها، إمعاناً في الإبهام، وإيغالاً في الإبهام. وناهيك بعصر نامت فيه السكينة وصحت الفتنة، وأشرقت الأسارير، وأظلمت السرائر؛ فملوكه متنافسون، وأمراؤه متنابزون، وقواده متحفزون، لا يخشى أحد هؤلاء قربى، ولا يأبه لزلفى، كلما جمعتهم جامعة فرقتهم شيعاً مآربُ، وإذا ألف بينهم حلف نقضته دوافع، وأولئك جميعاً يريدون الأدب للسياسة فرساً ذلولا يركضون متنه وسيفاً مسلولاً يشهرونه على ضغنهم، والويل أي ويل لمن تخلف عن الطاعة أو نكص دون تنفيذ الإرادة، إنه إذن لمن المنبوذين المبغضين، ينتظره الحيف ويترصد له الظلم كل مرصد. ومن هنا كان البطش ببعض الكتاب والشعراء سنة مسنونة، فمن أمن اليوم فهو قليل الأمن والدعة غداً، ومن سعد فترات ترقبه النحس سنوات

ومن كتاب ذلك العصر الذي أسلفت وصفه الرئيس ابن العميد، والوزير ابن عباد، والكاتب أبو بكر الخوارزمي؛ ومن شعرائه أبو فراس الحمداني، وأبو الطيب المتنبي، والشريف الرضي. ولقد كان الصابئ مع معاصرته لأولئك الأفذاذ الذين قلما يجود الدهر

بأمثالهم، أو يسمح بمن يجري على غرارهم جملة - مرموق الأثر، مومو‌ق الخبر؛ يجري أسمه على الألسنة في مراتع اللهو والأنس، أو مهامه اليأس والبؤس، وتتناقل أنباءه الأندية إن أصابته غبطة ونعماء، أو مسته مخمصة وضراء، وتعمر به المحافل والمجالس متى صفرت منه المعاقل والمحابس، وهكذا دواليك يظهره تاريخه حركة دائبة، لا تقفها نعمى تركن بها الدعة، ولا تفدحها بؤسي، فتستسلم للشدة، فهو كادح في الحالين، وأداة عاملة لا يعطل محركاتها ميسرة أو معسرة. ولكأني به يشحذه طول الضراب، ويستثير شعوره أمل الثواب، ويستحيي وجدانه توقع العقاب، فيأتي بما يلذ السامع سمعه، ويعجب القارئ وقعه، وسيبرز هذا الوصف واضحاً جلياً ما سأقدمه بين يدي الكتاب من كتاباته، وما أعرضه على الشعراء من فرائد أبياته، فسنرى أن أروع نثره وأقواه ما جاء في الشكوى؛ وأرق شعره وأرقاه ما جرى في العتبى، ولقد عرف له فضله حامدوه وحاسدوه، ونفس عليه أدبه شاكروه وكافروه، وحسبه ذلك فخراً

نعم إن الصابي كان في الشكوى والاستماح، والنصح والاستنصاح قوي الصوغ والنسج رائع التصوير والخيال بارع المنطق والبرهان، لا تعوزه الحجة، ولا تنأى دون غرضه المحجة. وإذا كان (خير الأدب ما انبعث عن عاطفة صحيحة لا مريضة) فشكوى الاعتقال وذم الحبس يصدران عن عاطفة صحيحة قوية لا سقيمة ضعيفة؛ ودعك من حبس الجسم والحد من حريته، فذلك أهون خطبه وأيسر أمره، وإنما مر الشكاة تصدر عن سجين العقل معتقل الفكر مرهف الحس، فذلك إذ ينثر أو يشعر يعبر تعبيراً قوياً جياشاً يستثير به العواطف الكامنة، ويستجيش المشاعر الهامدة، ليبعث فيها عواطف ثائرة للعطف عليه ولتستحيل المشاعر الخامدة مشاعر مشتعلة للبر به، ومن يطالب مثل ذلك بالصبر والسلوى والسكون إلى البلوى وعدم الشكوى، أو يعتبر إعلان ألمه خوراً في أدبه، أو استظهار

الناس إلى معرفته ضعفاً في خلقه، متطلب في النار جذوة نار، أو هو كما قيل:

ومن البلية أن يسام أخو الأسى ... رعىَ التجلد، وهو غير جماد

ولو أن أبا أسحاق كان في سياسته كما كان في ديانته، يكتب عن إيمان، ويصدر عن عقيدة (مهما كانت حقيقتهما) لنجا بعض النجو من كثير مما أمضه، ولكنه كما يروي الثعالبي كان يكتب كما يؤمر، وكان كالمركب السهل يوجهه راكبه حينما شاء، فهو يتحدث بما يمليه عليه ربه، ويعبر عن أفكار مولاه، ومع هذا فإنه يأتي بالعجيب، فكيف به إذ يكتب عن عاطفة أو يشعر عن حافزة؟ إنه ليجمع بين اللفظ الرشيق والمعنى العميق، ومن ذلك الذي يبلغ به فنه الجمع بين لغة الألفاظ ولغة العواطف إلا الكاتب المالك عنان قلمه؟ (لأن الألفاظ (كما يقول الأستاذ أحمد أمين) لم توضع لنقل العواطف، وإنما وضعت لنقل المعاني، والألفاظ أعجز ما تكون عن نقل عاطفة الأديب إلى القارئ، فكيف أنقل إعجابي بالطبيعة، أو أنقل حباً ملأ جوانحي أو غضباً استفزني، أو رحمة ملكت مشاعري! لم توضع الألفاظ لشيء من ذلك، وإنما وضعت لنقل مقدمات ونتائج منطقية، ولكن ما حيلتنا وقد خلقنا عاجزين لم نمنح لغة العواطف، ولابد لنا من التعبير عنها ونقلها إلى قارئنا وسامعنا، لذلك استخدمنا لغة العقل مرغمين، وأردنا أن نكمل هذا العجز بضروب من الفن كموسيقى الشعر من وزن وقافية، وكالسجع وكل ضروب البديع، وليس القصد منها إلا أن نكمل نقص الألفاظ في أداء العواطف) إذا كان ذلك الرأي صحيحاً ولا أخاله غير ذلك، فقد بلغ الصابي أفقاً لم يبلغه كاتب سواه

ويجدر بنا إذ نتحدث عن نثر الصابي أن نقسمه أقساماً ثلاثة: النثر الديواني، والاخواني، والنثر العام غير المقيد بأحد هذين الوصفين

فأما كتابته الديوانية فكان يصورها باللون الذي يريده عليه سيده ويرسمها بالريشة التي يهبها له، فتارة تبرز سافرة واضحة هينة لينة، ناصعة الكلمات رقيقة الفقرات رفيعة اللمزات والغمزات، تبعث في نفس قارئها الرضا إن كان غاضباً، وتوليه العتبى إن كان عاتباً، والسكون إن كان عاصفاً، وربما لمحت في ثناياها الحكمة العابرة، والأمثال السائرة. فمن ذلك قوله يؤلف بين عز الدولة وابن عمه عضد الدولة على لسان أولهما:

والله العالم أني مع ما عودنيه الله من الإظهار، وأوجدنيه من الاستظهار، ومنحنيه من)

شرف المكان، وظل السلطان، وكثرة الأعوان - لأجزع في مناضلة عضد الدولة من أن أصيب الغرض منه، كما أجزع من أن يصيب الغرض مني، وأكره أن أظفر به، كما أكره (أن يظفر بي، وأشفق من أن أطرف عيني بيدي، وأعض لحمي بنابي
وأحسبه خشي أن يدور بخلد أحد أن عز الدولة يتهافت على مرضاة قرنه أو أنه يرهب مصاولته وضعفه، فبدأ الكتاب بأسلوب القوي الصارم، واستهله بلهجة الغالب الظافر، فذكر العز والمنعة، والقوى والمنة، والملك والسلطان، والجند والأعوان وتأييد الله له، والتفاف الأمة حوله، ثم ثنى بالغرض الذي إليه أراد، وهي فطنة وذكانة في جزالة ورصانة. ومن ذلك قوله أيضاً وفيه حكمة ومواعظ، وتبصره وذكرى، وإن أنكر عليه الحكمة إلا قليلاً الدكتور زكي مبارك في كتابه النثر الفني حيث يقول: (وقد تصفحنا رسائله غير مرة لنرى أثر الحكمة فيها فوجدناه ضئيلاً:
إن انتثار النظام إذا بدا - والعياذ بالله تعالى - لم يقف عند الحد الذي يقدر فلان أن) يقف عنده، ولم يخصص الجانب الذي يظن أنه يلحقه وحده، بل يدب دبيب النار في الهشيم، ويسري كما يسرى النغل في الأديم؛ وكثيراً ما تعدى الصحاح مبارك الجرْب، ويتخطى الأذى إلى المرتقى الصعب)
وتارة يشاء الموحي إليه صرامة وحزماً، فتقرأ له كتباً أقوى من كاتبها منة، وأرصن من منشئها قوة، تخالها إذ تقرؤها لرجل مارس الحروب، وخفقت فوق رأسه الألوية والبنود، وسبح فوق متون الجياد، وأوتي قوة وعزمة في القيادة والجلاد؛ فهو يتقمص روح مليكه، أو يستعيره قلبه الفتي عندما يهم بكتابة رسالة من هذا النوع. وكأني به يعصر فكره، ويقدح ذهنه، ويكد عقله، ليأتي بالمعاني الشاردة تتصدع لها القلوب، والألفاظ الصادعة تصك الآذان؛ فكل كلمة من كلماته وعيد ونذر، وكل فقراته نار يتطاير منها الشرر؛ وقد يخلطها أحياناً بالسخرية اللاذعة، والتهكم الساخر والهزء الممض، دون إفحاش في ذلك أو بذاءة. فمن ذلك ما كتبه على لسان عز الدولة إلى سبكتين الغزني:
ليت شعري بأي قدم تواقفنا، وراياتنا خافقة فوق رأسك، ومماليكنا عن يمينك) وشمالك، وخيولنا موسومة بأسمائنا تحتك، وثيابنا المنسوجة في طرزنا على جسدك، وسلاحنا المشحوذ على أعدائنا في يدك .)
ويقول له أيضاً:
تناولتك الألسنة العاذلة، وتناقلت حديثك الأندية الحافلة، وقلدت نفسك عاراً لا يرحضه)
وتحدث عنه فقال .(الأعتذار، ولا يعفيه الليل والنهار:
هو أرق ديناً وأمانة، وأخفض قدراً ومكانة، وأتم ذلاً ومهانة، وأظهر عجزاً وزمانة من أن) تستقل به قدم مطاولتنا، أو تطمئن له ضلوع على منابذتنا، وهو في نشوزه عنا وطلبنا إياه كالضالة المنشودة، وفيما نرجوه من الظفر به كالظلامة المردودة)
ومن هذا الطرز قوله أيضاً:
ولما بَعُد صيته بعد الخمول، وطلع سعده بعد الأفول، وجمعت عنده الأموال، ووطئت) عقبه الرجال، وتضرمت بحسده جوانب الأكفاء، وتقطعت لمنافسته أنفاس النظراء، نزت به بطنته فأدركته شقوته، ونزع به شيطانه، وامتدت في الغي أشطانه)
وإنا لنجد في كتبه ورسائله محاولة قد تكون ناجحة في هدم الرجال وتخضيد شوكتهم وتعضيد قوتهم، تلك هي التهوين من شأنهم والحط من قيمهم، فيصمهم بوصمة الذل، ويسمهم بسمة الرق؛ وذلك أحز في النفس، وأعلق بالذهن، وأجرى على الألسن؛ وربما كان حديث تنادر، وطرف فكاهة. وهو يلم بالموضوع الذي يتناوله، فلا يترك فيه فرجة إلا سدها، ولو كوة إلا رقعها، وربما استخدم في سبيل ذلك الطب الذي تعلمه في يفعه استخداماً نافعاً؛ فقد عهد الخليفة إلى عالم بالقضاء فكتب إليه يوصيه، فكانت وصاته خليطاً من حكمة الأطباء، وطب الحكماء، فذكر بأن البطنة شر الأدواء، ونبهه على أنها تذهب الفطنة، ثم بصره عواقب البطر، وخوفه آثار الشره، وأنهما يفسدان عليه أمره، ويحطان من قدره، وإليك كتابه:
وأمره أن يجلس للخصوم وقد نال من المطعم والمشرب طرفاً يقف به عند أول) حده من الكفاية، ولا يبلغ منه إلى آخر النهاية، وأن يعرض نفسه على أسباب الحاجة كلها، وعوارض البشرية بأسرها، لئلا يلم به من ذلك ملم، ويطيف به طائف، فيحيلانه عن رشده، ويحولان بينه وبين سداده)
وهذه فقرات من رسالة يصف فيها حرباً نشبت بين المسلمين والروم، وكانت الغلبة

للمسلمين، يصور فيها الحرب وقد حمي وطيسها، واشتعل أوارها، فتتخيل إذ تقرؤها أنه أحد قوادها وبطل من أبطالها؛ فإنه ليبعث النخوة في النفوس، ويثير الحمية في الرؤوس،
فكأنه يشرع الأسنة لا اليراع، ويشهر الرماح لا الأقلام؛ وإن القارئ ليحسب أن كاتب الرسالة رجل من صفوة المسلمين، وتقي من خلاصة المتقين، لا صابئ من الكفار الجاحدين، فهو يقول:
(فلما استعرت الملحمة، وعلت الغمغمة، ودارت رحى الحرب، واستحر الطعن والضرب، واشتجرت سمر الرماح، وتصافحت بيض الصفاح، تداعى الأولياء بشعار أمير المؤمنين المنصور، وتنادى الكفار بالويل والثبور، فنكصوا على أقدامهم مجدين في الهزيمة، واعتدوا الحشاشات لو سلمت لهم من أعظم الغنيمة، واستلحمتهم السيوف، واحتكمت فيهم الحتوف، وأخذ المسلمون منهم الثار، وعجل الله بأرواحهم إلى النار)
ورسائله الديوانية كثيرة، فلقد خدم عدة ملوك، وطال به العمر فاتصل بكثير من الولاة والأمراء. ولعل ما بين أيدينا من كتابته في هذا الباب قُل من كُثر، فقلما يعني المؤرخون بمثل هذه الرسائل، وإلا لكان له ولغيره ممن اتصلوا بالسلطان عن قرب أو بعد مجلدات يعيا بها العبء، فلنجاوز هذا الضرب من النثر، فقد عرضنا منه ما فيه الغناء؛ وسنتحدث مستقبلاً عن الضربين الآخرين إن شاء الله، ولن تقف بنا دورة الفلك

عبد العظيم علي قناوي

الترجمة خطرها وأثرها في الأمم المختلفة

للدكتور عبد العزيز عزت

1 - عند الرومان

تمر على الأمم في تاريخها فترات تشعر خلالها بحاجة إلى رفع نفسها إلى مستوى من سبقها من الشعوب في مضمار التقدم الفكري، فيحدث إبان ذلك نوع من الهجرة الثقافية في أنواع المعارف المختلفة وخاصة في مجال الفلسفة، لأنها حتى منتصف القرن الثامن عشر، أي قبل أن تأخذ فلسفة كانْت شكلها الحاسم، كانت تفهم بأنها مجموع العلوم الإنسانية. ومن الطرق التي تمهد لهذه الهجرة الثقافية: الحروب تارة كما حدث إبان الحروب الصليبية من اشتباك التفكير المسيحي والتفكير الإسلامي، وتارة التجارة فهي بجوار ما تحمله من السلع تحمل على وجه خاص تفسيراً لها وشرحاً عقلياً. وأمر الفينيقيّين معروف في هذا الباب؛ ومنها الرحلات وأهميتها ظاهرة عند أفلاطون وتأثره بالتفكير المصري القديم كما يلاحظ ذلك عنده في مقدمة كتابه (طيماؤس) وكذلك عن ابن خلدون في (مقدمته)؛ ومنها البعثات العلمية في خارج البلاد كبعثات فرنسا في ألمانيا، فرافيسون يشيد بذكر أستاذ شلنج واستاذنا بوجليه يشيد بذكر أهرنج وكبعثات مصر في فرنسا، فهناك من ينطق باسم جوستاف لوبون وهناك من يبشر باسم ديكارت وغير ذلك. ولكن مهما يكن لهذه الطرق من الأهمية في هجرة الثقافة، فهي في نظري ناقصة لأنها لا تخلق إلا عرفاً ثقافياً.

ومن أصول العرف عامة إلا يستقر على قرار متين، لأنه يخضع لظاهرة التقليد في المجتمعات البشرية كما يؤكد ذلك العلامة تارد في كتابه (القوانين الاجتماعية). لهذا لوم خلق قانون وضعي للثقافة يحدد شرعتها واتجاهها ويضمن لها الاستقرار والإنتاج خلال نزعة معينة، وهذا لا يمكن تحقيقه إلا بالترجمة فهي الأساس الأول الذي عليه يبنى (التماسك) الفكري في عقلية الفرد، والتماسك الفكري في عقلية المجتمع وأهمية الترجمة تتلخص في أربعة أفكار نجدها عند زعيم الأدب الفرنسي وأستاذه السابق بمدرية المعلمين العليا بباريس العلامة لانسون في (مجلة التاريخ الأدبي لفرنسا) عام 1896

أولاً - تمهد الترجمة لخلق (فكرة عامة) عن الشعب المترجم عنه، لأن الشعب المترجم إليه

سيهتم في ذلك الحين بتعرف تاريخه في كل نواحيه، وحالته السياسية والاجتماعية الراهنة، وآدابه وفنونه، وسائر أنواع نشاطه التي تكوّن حضارته في مجموعها

ثانياً - الترجمة تحقق (الاستفادة المؤكدة) في موضوعات معينة، خلال تيارات محدودة للفكر، إبان زمن معين للشعب المترجم عنه، فهي استفادة مباشرة تفصيلية تشتق من مطالعة الكتب المترجمة ذاتها

ثالثاً - الترجمة تخلق موجة فكرية فتوجه الرأي في الشعب المترجم إلى غايات معينة، هذه الموجة هي موجة (تقليدية) فهي استفادة غير مباشرة، وذلك بأن يأخذ كتاب الشعب المترجم إليه نفس موضوعات التراجم ولكنهم يعالجونها من وجهة نظرهم الخاص بهم في بلادهم، أي الاستمرار بالاستفادة المباشرة من قراءة التراجم لمعالجة موضوعات تحل بروح وطنية على ضوء ما تحتويه التراجم من علم جديد، فهي تمهد الاستمرار الوطني الأهلي (بالاستفادة المؤكدة)

رابعاً - بعد هذا ينتج عن الترجمة نوع من الانسجام بين عقلية المترجم عنه والمترجم إليه، وهذا الانسجام هو تداخل عقليتهما، وظهور نوع من التشابه في ألوان تفكيرهما، فيحصل ضرب من الاتحاد في الذوق والتفكير والميول، ويكتسب نشاط الاثنين نفس الشكل، ويتجهان إلى نفس الغاية

لهذا عندما أحس الرومان أنهم أهل حروب وسفك دماء يفرضون استعباد السيف باسم القانون والتشريع على الهادئين المطمئنين من خلق الله - ذهبوا إلى اليونان القدماء ينشدون أصول العقل، واتزان الحس، ومنطق الجمال، ليقللوا من حدة طباعهم، وتنافر غرائزهم، ولينعموا - قليلاً - بما للإنسانية من معان سامية، وآيات قدسية، وأهم من يمثل حركة الترجمة عندهم هو بلا شك، شيشرون ولقد حاول دراسة هذا الرجل كل من العلامة فان هوسدو والعلامة بومهور الأول يبحث عن أثر أفلاطون في مؤلفاته والثاني عن أثر أرسطو فيها، وذهبا إلى طريقة عقيمة في ذلك تتلخص في مقارنة النصوص وتشابه معانيها، مع أن شيشرون أخذ العلم والفلسفة في بلاد مختلفة وليس في أثينا فقط مهبط المشائين من الفلاسفة، فهو قد ساهم في تأثره العقلي لمدارس فلسفية مختلفة، فدرس بجوار ذلك على فدروس الأبيقوري، وفيلون دي لاريس ومن ينتمي إلى تعاليم الأكاديمية

الجديدة كأنطيوخس ودرس على الخصوص على ديودوتس الروافي ومن ينتمي إلى هذه المدرسة كبسدونيس ثم إنهما لم يرجعا إلى الصفات الأساسية التي تميز العقلية الرومانية وأخصها كما يذكر العلامة - الجمع - ' فحقيقة نجد عنده أثراً لأفلاطون وأثراً لأرسطو وإنما كذلك (وقبل ذلك) هناك أثر الرواقيين والأكاديمية الجديدة، فهي التي سادت تربيته عندما رحل إلى بلاد اليونان، وهي التي سادت كذلك في كل مكان في زمانه وقبل زمانه، لأن حروب الأسكندر الأكبر عاقت انتشار مذاهب أفلاطون وأرسطو سواء في المجتمع اليوناني أن المجتمع الروماني - كما يؤكد العلامة جانيه فبعد هذه الحروب حدث كما يحدث عادة بعد انتهاء كل حرب من ضعف أخلاقي لهبوط قيمة الحياة في إفهام المحاربين والانغماس في اللذات كنتيجة للانتصارات، وكذلك ضياع الفهم السياسي وأهمية الفرد في المجتمع، وكذلك انعدام الروح الدينية والاهتمام بالنتائج المادية للغزو، وهذا بطبيعة الحال يجني على التصور السامي لغايات النفس في أمور الحياة. ولما كانت فلسفة أفلاطون كأساس فلسفة (طبيعية) تهتم بفهم عالمنا الخارجي على قياس عالم داخلي هو عالم الأفكار الخالدة، ولما كانت فلسفة أرسطو كأساس فلسفة منطقية تبغي إقامة العلم والوصول إلى الحقيقة المجردة، شعر اليونان بعد تلك الحروب بحاجة إلى فلسفة جديدة تسمو بنفوسهم إلى مستوى أرفع مما وصلوا إليه، أي كانوا بحاجة ماسة إلى فلسفة أخلاقية، لهذا سادت مباشرة تعاليم الرواقيين وظل أرسطو نسياً منسياً حتى القرن التاسع الميلادي حيث ولد من جديد عند العرب، ومن جديد كذلك إبان القرن الثالث عشر الميلادي عند آباء الكنيسة في أوربا خاصة القديس البير الكبير والقديس توماس فهذه هي الحوادث التاريخية الصريحة التي بدونها لا يمكن أن يفهم المنطق التاريخي للفلسفات في جولاتها المتعاقبة

على أية حال لقد كان شيشرون (زنجياً أبيض) لأسياده اليونان القدماء في تفكيره وهو يعترف بذلك في نص صريح تعبنا في استخلاصه من مؤلفاته حيث يقول في الأتيكوس , , ما ترجمته: (إن مؤلفاتي لم أجد في كتابتها عناء كبيراً، لأنني بحثت فقط عن الاصطلاحات التي وقفت في وضعها)

وفي واقع الأمر أن أغلب مؤلفات شيشرون إن لم تكن كلها عبارة عن (ترجمة حرفية) للكتب اليونانية القديمة، بل أحياناً يعجز عن وضع الاصطلاحات لبعض التعابير اليونانية

فيتركها على حالها دون نقل، كما فعل بعد ذلك العرب في كلمة (ميتافيزيقا) و (إيساغوجي)، فهو يترك مثلاً اللفظين اليونانيين لكلمتي الأفكار والمغريات عندما يعرض للأخلاق العملية، ونجد في وضوح أثر أفلاطون ظاهراً في نواميس شيشرون وجمهوريته وفيهما يعرض فهمه للسياسة، فهو يبغي تحقيق دولة فيها تمتزج مبادئ الملكية والأرستقراطية والديمقراطية في آن واحد، حتى يستقيم ظل الحكم وتسود الطمأنينة بين عباد الله، لأن الحكومات القائمة في عهده يعتبرها صورية تتخذ من الحكم سبيلاً لفرض السيف على رقاب الناس ووضع الحبل في أعناقهم باسم الحرية تارة وباسم الصالح العام تارة أخرى. وأثر أرسطو على الخصوص في التوسكيلان وفي هورتنيوس حيث يعرض في الأول للنفس الإنسانية في أصلها وطبيعتها وقدرتها في التصور وأنواع ملكاتها المختلفة، وخاصة الشهوات والانفعالات النفسية في كل نواحيها بدقة تفوق الوصف؛ وفي الثاني يعرض للأسباب التي دعته لدراسة الفلسفة وأهمية أرسطوا في هذا الباب

(البقية في العدد القادم)

عبد العزيز عزت

خريج جامعات القاهرة، وباريس، وكليرمون

عضو بعثة الجامعة المصرية لدكتوراه الدولة

التاريخ في سير أبطاله

ابراهام لنكولن

هدية الأحراج إلى عالم المدنية

للأستاذ محمود الخفيف

- 1 -

يا شباب الوادي! خذوا معاني العظمة في نسقها الأعلى من سيرة هذا العصامي العظيم

ما أحوج بني الإنسان كلما قطعوا شوطاً في طريق هذه الحياة، أن يديروا وجوههم لحظة عن الأفق الذي يستقبلون، وأن يرجعوا إلى ما استدبروا من آفاق متطلعين إلى تلك النجوم الزواهر التي تلتمع على جوانبها، والتي ستبقى هناك ساطعة باهرة ما دار الفلك وما تصرمت السنون

أجل، وما أحوج الإنسانية أن تهتدي في سبيلها بهدى الذين رسموا لها ذلك السبيل؛ وما أحرى قافلتها كلما آدها العبء، أو أعياها السير، أو اعترضتها العقبات، أن تستأنس بقبس من تاريخ أولئك البواسل الأبرار الذين تتألف من سيرهم مجتمعة سيرة البشرية في هذا الوجود

وهانحن أولاء نتجه بعقولنا وقلوبنا إلى سيرة الزعيم (لنكولن) رئيس الولايات المتحدة، أحد أبناء الإنسانية الغر الميامين وأحد أفذاذها البواسل. ولا لوم علينا معشر الشرقيين إذا تخطينا مشرق الأرض إلى مغربها، بل إذا تخطينا الدنيا القديمة إلى الدنيا الجديدة، متخذين قبسنا في هذا الحديث من وراء المحيط. لا لوم علينا في ذلك، فأبناء الإنسانية العظماء متى اجتازوا باب الخلود صاروا للعالم كله، ولا اعتبار في ذلك لشرق ولا لغرب

وما هذه الدنيا الجديدة التي أخرجت بطل حديثنا وما فصلها في تاريخ الوجود؟ برزت الولايات المتحدة كدولة من دول العالم على حين غرة، فكان بروزها السياسي شبيهاً بما يزعمه الجغرافيون عن وجودها المادي، إذ يقولون إن أمريكا، أو الدنيا الجديدة قد برزت

من تحت الماء في حركة من حركات هذا الكوكب! وما كان بروزها السياسي في الحق إلا حركة من حركات الشعوب في هذا المضطرب الواسع الذي نسميه العالم؛ حركة لم تكن متوقعة من قبل، ولم يكن يظن أحد يوم بدأت أنها واصلة إلى ما وصلت إليه!

سمع الناس في أوربا قبل أن تنبعث الرجفة الكبرى من فرسنا بسنوات قليلة عن أنباء عجيبة تأتيهم من وراء المحيط. سمعوا عن الحرية يرف جناحاها الجميلان ويتهلل وجهها الأبلج في تلك الربوع الفسيحة التي وجه كولمبس أنظار العالم القديم إليها قبل ذلك بنحو ثلاثة قرون؛ وسمعوا عن أختها الديمقراطية ترفع علمها وتشهر سلاح الإيمان

واليقين، سلاح (جان دارك) الخالد في وجه الطغيان المربد العبوس؛ سمعوا عن مراكب من الشاي تقذف حمولتها في البحر وتأكلها النيران، وسمعوا عن جموع ثائرة تلتقي هاتفة صاخبة، وعن جنود تحشد خفافا وثقالاً، ثم ما لبثوا أن علموا أن الناس روعوا هنالك وزلزلوا زلزالاً شديداً

وجاءت الأنباء تترى بعد ذلك عن حرب طاحنة، تسمع في ضجيجها صيحات الاستقلال وحقوق الإنسان حتى ترامت إليهم الأخبار عن انتصار يتلو انتصاراً تحت راية (واشنجطون). وأخيراً علموا أن إنجلترا سلمت مغلوبة على أمرها واعترفت في عام 1783م بمولد دولة جديدة انتزعت منها انتزاعاً؛ ورأى العالم في ذلك دليلاً جديداً على أن الإيمان يفعل أكثر مما يفعل الحديد والنار!

ولدت دولة جديدة كانت قبل ذلك ولايات متنافرة متباغضة ولكنها وجدت نفسها بعد مولدها مملقة فراضت أحرارها على خشونة العيش، وما كان هؤلاء الأحرار بعد استقلالهم ليشتروا به ثمناً قليلاً وهم سلائل أولئك الذين هاجروا من قبل في سبيل الحرية إلى هاتيك الأصقاع من موطنهم الأصلي في إنجلترا. لذلك تحملوا الفاقة وأخذوا يكدحون كدحاً شديداً، وتولت قبائل منهم حين ضاقت بهم المدن أصقاعا من الأرض البكر تنمو فيها الألفاف والأحراج من وحشي النبات، يشقونها ويفلحونها، ويعيشون فيها عيشة أولية كأنما عادت الإنسانية في أشخاصهم تبدأ حياتها من جديد!

وكان هؤلاء في أصقاعهم هذه منعزلين عن عالم المدنية الانعزال كله، يقيمون الأكواخ من كتل الخشب في جوانب الغابات، ويعيشون على الصيد وعلى قليل من الزرع، ويفعلون ما كان يفعل آباء الإنسانية الأولون، يتعرضون لعشرة الطبيعة ولا يأمنون شرة الوحوش ولا هجوم القبائل الأصلية من (الهنود الحمر) ويتناثرون هنا وهناك في مساحات هائلة يمشون في مناكبها جماعات ضئيلة العدد حتى ليخيفهم الفضاء وحده ولو لم يكن فيه شيء من عوامل الخوف

في هذه البيئة الساذجة وفي كوخ حقير من الخشب يقوم وسط فضاء الطبيعة الرهيب الرحيب، فتح إبراهام لنكولن عينيه على هذا الوجود في اليوم الثاني عشر من شهر فبراير عام سنة 1809م!

خرج الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة، بل خرج إبراهام لنكولن أحد القلائل الأفذاذ الذين تفخر البشرية بانتمائهم إليها من هذه البيئة ودرج من ذلك الكوخ. وما كان ذلك ليعيبه، بل إنه لمن دواعي الفخار إن قدر لمثل هذا العظيم أن يزهي أو يفتخر. وهو لعمري مدين بجانب كبير من عظمة نفسه وسمو روحه إلى تلك البيئة التي خرج منها؛ ذلك أنه نجا على نقاء عنصره وصفاء روحه من زخرف الحياة وغرورها، ومن مفاسد المدينة وأوضارها، ومن أوهام المجتمعات وكواذب أحلامها، فخلص له معدنه الحر وبقي نقياً لم تعلق به الأوشاب؛ وصار في جميع أفعاله تتكشف جوانب نفسه عن طبيعة صادقة كأنما تتحرك عن إلهام أو تعمل بوحي! وتمثلت فيه البشرية في سذاجتها وكمالها وفي ضعفها وقوتها وفي إسفافها وعلوها؛ وصار الناس يلمحون في سجاياه براءة الطفل وتوقد عاطفته إلى جانب نزعات الفيلسوف ورجاحة عقله! وكم للفقر من يد على العظماء! وكم أخرجت مثل تلك البيئة الطليقة الخالصة من رجال أماثل ومصابيح أعلام قادوا القافلة واستقاموا على الطريقة، أو على الأصح استقامت بهم الطريقة ووضحت المحجة!

ذلك هو لنكولن الناشئ في الشوك من أيامه، وتلك هي صفاته في جملتها كما ستتضح لك فيما سيأتي من حديثه. وكأنك تقرأ سجاياه في أسارير وجهه؛ وتحس فيها ما تعوده في حياته من البأساء والضراء. فإذا نظرت إلى صورته رأيت شبح حياته الأولى في رأسه الأشعث، ولمحت زكانة نفسه في جبهته العريضة العالية المجعدة، وأحسست طيب قلبه وصفاء طويته ورقة عاطفته ونفاذ بصيرته في عينيه الوديعتين المتسائلتين، وتبينت صرامته ومضاء عزيمته في أنفه الغليظ الأشم. ثم أبصرت قوة صبره وشدة تحمله وروعة استسلامه تختلج كلها على شفتيه المضمومتين المعبرتين عن مض الحوادث، وطالعتك من هاتيك الملامح في جملتها سذاجة الأطفال وهيبة الرجال؛ ثم تهلل من وراء ذلك كله سر العبقرية الذي يدق عن كل وصف ويسمو على كل تحليل!

فتح الوليد عينيه على الوجود في لوح أقيم من الكتل الخشبية في مقاطعة كنتوكي بعد استقلال الولايات بنحو ستة وعشرين عاماً، فنما كما ينمو وحشي النبات في ذلك الإقليم! نما على ما تجود به الحيوانات من ألبانها، وتدثر بجلودها، ثم تغذى ثمار الشجر واضطجع في مهد من أوراقها الجافة كأنه فرخ من أفراخ الطير. ولما بدأ يدر الأشياء وجد عالمه في ذلك الكوخ الذي لم يكن يزيد اتساعه على أربعة أمتار في مثلها والذي لم يكن فيه من الأثاث إلا وحشية وغليظة، من جلود مجففة إلى آنية جافة شوهاء إلى قطع غليظة من الخشب سوتها فأس أبيه التي كان يراها بين آونة وأخرى معلقة على الحائط بجانب أداة أخرى كانت تبدو غريبة في عينه الغريرة، تلك هي بندقية أبيه التي كان يحملها على كتفه كلما سار نحو الغابة، فهي لذلك تختفي في النهار وترى بالليل على حائط الكوخ

وكانت الغابة أو كان الجزء المحيط منها بالكوخ هو نهاية ما يصل خيال من هذا الوجود. حسبه الآن من الوجود أن يلعب ويمرح في هذا المضطرب وإن لم يكن له فيه من رفقة سوى أخته التي تكبره بعام؛ وأن يستمع إلى ما ترويه له أمه من أقاصيص وأنباء يلتهما التهاماً وأن يصغي إلى ما تجيب به عن أسئلته الكثيرة

على أنه كان ينظر إلى الغابة نظرة الرهبة والدهشة معاً؛ وكان يعجب كلما رأى أباه مقبلاً من بين الأشجار، بندقيته على كتفه ومعوله في منطقته، وفي يده طائر أو حيوان يدفعه إلى أمه إذا وصل إلى الكوخ فتأخذه في فرحة ظاهرة وتهيئ الطعام للأب وللأسرة جميعاً

في هذه السن الباكرة يرى الغلام الحياة من قرب رؤية مباشرة، فهو يعيش كما كان يطلب (روسو) في أحضان الطبيعة حيث يرهف حسه ويقوي وجدانه ويعمق خياله وتنبسط نواحي نفسه الصغيرة وتستشف ما في هذا الكون العجيب من سحر وجمال وتستشعر ما فيه من سر ورهبة

أليس يرى من كثب كيف تطعم الأسرة وكيف تكتسي؟ أليس يرى التعاون بين الوالدين وما ينتج من راحة واطمئنان؟ أليس يرى الكدح في سبيل العيش؟ وحسبه في سنة أن يرى ذلك

وأن يلمسه

على أن مجال الحياة يتسع أمامه بعد أن تخطى سنته الخامسة إذا انتقلت الأسرة فأقامت كوخاً جديداً على طريق مطروقة كانت تؤدي إلى إحدى المدن القريبة. وهناك يرى الغلام أنماطاً من الناس غادين رائحين ويرى دواب وعربات وأشكالاً من الملابس تختلف اختلافاً كبيراً عما اعتاد رؤيته على جسد أبيه، فيتأمل ويعجب بينه وبين نفسه وفي السابعة من عمره يصحب الغلام أباه إلى الغابة، هنالك حيث بدأ يقوم بنصيبه من العمل، فيساعد ذلك الأب الذي يقطع الأخشاب ويصنع الأثاث ويبيعه، ويكسب من وراء ذلك نقوداً تحتاج إليها الأسرة، وإنه لفخور الآن بمساعدة أبيه، لا يحفل بتعب في تلك المساعدة التي يباهي بها أخته، وإن كانت هي أيضاً تقوم بنصيبها في مساعدة أمها؛ ولكن هل كانت (سارا) تستطيع أن تسوي الخشب وتجره وترتبه؟ هل كانت تستطيع أن تحمل الصيد إلى الكوخ كما كان يفعل (أيب) الصغير؟

كان لا ينقطع عن العمل إلا في أيام الآحاد، إذ يجلس وأمه وأخته وأباه أمام الكوخ فيستمع في شغف ولذة لما تلقي أمه من أقاصيص وما تتلو من حكايات مشتقة من الإنجيل. ولقد أحدثت تلك الحكايات في نفس الغلام أثراً عميقاً وظلت مسحتها الدينية تلازمه بعد ذلك في جميع أطوار حياته

وجاء بعض ذوي قرباه فأقاموا إلى جوارهم وأقبل الغلام على خاله وخالته يستزيدهما الأنباء والأقاصيص، وكم كان معجباً بتلك الخالة التي تكتب وتقرأ وتحبذ أن يتعلم الغلام القراءة والكتابة على الرغم من إعراض أبيه عن ذلك وعدم اهتمامه به

وبدا للغلام يوماً فسأل عن أسرته، وأين نشأت، وممن انحدرت؟ فسمع ردوداً مبهمة لم ترو ظمأ نفسه، وماذا كان يتوقع الغلام؟ أكان يحسب نفسه سليل سادة أكابر؟ ولكن ما كان أبعد فكره عن هذا؟ وهل رأى غير بيئته وأسرته؟

ولئن سمع غيره من الأطفال من آبائهم عما كان عليه جدودهم من عظمة وما تقلبوا فيه من نعيم الحياة ورفيع المناصب، لما كان لمثله أن يسمع شيئاً من هذا. وأنى له ذلك وهو ابن الأحراج والأدغال!؟. وغاية ما سمعه عن جده ما حدثه به أبوه ذات مرة،

أنه بينما كان يساعد أباه - جد (أيب) - في الغاب ومعه أخواه إذ انطلقت رصاصة من بين الأدغال
فأصابت ذلك الأب فخر صريعاً، وجرى الأخوان نحو الكوخ، وبرز من بين الأشجار أحد الهنود الحمر وحمله يريد أن يأخذه إلى داخل الغابة بعد موت أبيه، لولا أن صوب أكبر الأخوين بندقيته التي أحضرها من الكوخ مسرعاً، إلى رأس ذلك الهندي فأرداه قتيلاً فسمع الطفل ذلك الحديث وقد علقت أنفاسه ودق قلبه إذ رأى مبلغ ما أحدق بأبيه من الخطر، ورأى أنه أشرف على الموت لولا بسالة عمه لذهب كما ذهب جده، وهاله موت جده على تلك الصورة، وكان ذلك كل ما عرفه عن ذلك الجد، أو قل كان هذا هو نصيب جده من العظمة ومن جاه الحياة! ولكن متى كان الإنسان بجدوده وآبائه؟ وأي فضل لامرئ يرث الجاه ولا يكسبه ويُعْطى العظمة ولا يبنيها؟
تلك هي حياة (أيب) وذلك هو محيطه وهو في السابعة. أجل هي تلك حياة رئيس الولايات المتحدة في أولى مراحلها في أحراج مقاطعة كنتوكي حيث لا مدنية ولا تعليم ولا رفاهة! كلا، بل لقد ذهب الغلام إلى المدرسة في خاتمة تلك المرحلة؛ ولكن أية مدرسة هي؟ كانت كوخاً من كتل الخشب أقيم كما أقيم كوخه الذي يعيش فيه، وكانت تبعد عنه نحو أربعة أميال، وكان يذهب إليها كلما استطاع أن يطلقه أبوه من أعمال النجارة في الغابة فيجلس ساعات مع الصبية على الأرض إلى معلم يعلمهم الهجاء بأن يناولهم كتاباً واحداً يمر عليهم جميعاً الواحد بعد الآخر فيتعلمون الحروف ورسمها ونطقها! ويسأل الصبي نفسه في لهفة شديد متى يستطيع أن يكتب ويقرأ كما تفعل خالته وأمه؟ وإن ذلك غاية مبتغاه ومنتهى هواه
(يتبع)
الخفيف
جوامع النجف الأشرف
للشيخ ضياء الدين الدخيلي
من ذكرياتي التي أنتعش كلما حلقت في سمائها سويعات ممتعة ألقيت فيها محاضرة على زمرة من أساتذة العالم العربي في مدرسة، طالما حنت أضلاعها على جهابذة قادوا الرأي العام الإسلامي وبقوا مصابيح هداه في عصر كانوا هم المهيمنين على جميع مقدرات أمة القرآن. منذ بضع سنوات طرق النجف الأشرف وفد الجامعة المصرية وفي طليعته الأستاذ أحمد أمين والأستاذ الزيات حين كان رسول الأدب إلى عاصمة المأمون. إذ ذاك تحفزت لمقابلة تلك العبقريات اللامعة التي أنفقت ليالي في الاستمتاع بثمراتها الغنية بالغذاء الروحي؛ ما هي إلا خطوات أثقلتها الخواطر والعزمات حملتني أن أغادر مدرسة السيد كاظم البزدي (إحدى المدارس الإسلامية الكبيرة في النجف الأشرف) لاستقبال موكب االثقافة، وإذا بجلبته تملأ مدخل المدرسة الشمالي، فوقفت تحت مصباح زيتي يلفظ أشعته الباهتة كأنه رمز عصر ينقرض؛ في سكون المدرسة الذي زاده اعتكار الليل وروعة المفاجأة - هيبة وجلالاً - وقفت أحدث أفلاذ القاهرة عن قطعة من جسم مزقته الحوادث القاسية عن الحركة العلمية والأدبية في هذا البلد الطيب، أحاطوا بي يصغون إليّ وقد تآلفت القلوب الخفاقة وألهبت العواطف دم العروبة الإسلامية فكللنا بهالة من روابط روحية قدسية. وتمضي الأيام وإذا بسماحة السيد أمين الحسيني ورفيقه دولة محمد علي علوية يزوراننا فأجتمع بهما في نفس البنية لأحداثهما عن حياتنا الدراسية، فأجد في إقبالهما وابتهاجهما طلائع الوحدة العربية والإسلامية تتجلى متجلببة هذه النزعة للتعارف فالتآلف فالتضام؛ وحقاً إن الحركة العلمية في هذه البقعة وأساليب الدراسة - ذات أطراف وأفانين شائقة تتطلع لتفرسها النفوس تواقة لما فيها من مزايا وصبغة خاصة وليدة عوامل عديدة لم تجتمع لغير هذه المعاهد، فقد لاحظت ذلك حتى في الغربيين إذ جاءنا سرب من الأمريكان والإنكليز منذ أيام فزاروا المدرسة وبينت لهم طرفاً من سير الدراسة وترجمت لهم إلى الإنجليزية حديث بعض إخواني من أساتذة ذلك المعهد، فأثار الوضع إعجابهم ولم نشعر إلا وآلات التصوير صوبت شطرنا تلتقط المشاهد المختلفة كأنها تحاول أن تلقي علينا درساً عن تقديس السياح الغربيين للمادة المحسوسة في موضع لم يكترث فيه أبناء مصر وسورية

لغير روحياته، وكم بين الشرق والغرب من شذوذ وفوارق!
الحياة المدرسية في حاضرتنا متشعبة الأطراف، حسبي أن أزودك منها بقطفة العجلان ولمحة الطائر، مخططاً لك فكرة عامة سوف أشفعها بتفصيل واف قد يرضي الأستاذ علياً الطنطاوي ومن شاطره رغبته

يزدحم في جوامع النجف الأشرف ألوف المهاجرين لانتجاع الثقافة الإسلامية قد امتطوا ظهور الأسفار من كل حدب وصوب من شتى الأقطار الشيعية. ففيها العشرات من سورية من جبل عامل وغيره، والألوف من مختلف أنحاء إيران وفيها من سمرقند وبخارى وغيرهما من تركستان، وفيها من أذربيجان وفيها الكثير من الهند والأفغان وهضبة التبت، هذا عدا من يرتادها من أطراف العراق ومن شيعة الحجاز. لذلك قد شيدت في النجف الأشرف المدارس العديدة ذات الغرف المعدة للإيواء الغرباء حيث يكفل المجتهدون (وهم أئمة الشيعة الذين يرجعون إليهم في بيان أحكام دينهم مستنبطيها من القرآن والحديث وأسس التشريع الإسلامي) ضمان معاشهم وتجهيزهم بأهبة الدراسة، ينفقون عليهم من بيوت المال التي تصب فيها الشيعة الذهب والفضة من كل ناحية وجانب باسم الزكاة والخمس وحق الإمام وأثلاث الموتى وغير ذلك من الوجوه الشرعية

يبدأ الطالب بدراسة النحو والصرف فينكب على الأجرومية ثم شرح القطر لأبن هشام، ثم شرح ألفية ابن مالك لأبن بدر الدين (هذا منهاج الطلاب العرب، أما الفرس فيدرسون كتباً بعضها بالفارسية يلمحها مجلد باسم جامع المقدمات، ويدرسون شرح السيوطي لألفية ابن مالك) ثم يتناول الطالب مغني اللبيب لأبن هشام، ثم يشرع في المنطق فيدرس حاشية الملا عبد الله على منطق التهذيب، ثم شرح الشمسية، ويتوسع بشرح المطالع ومنطق إشارات ابن سينا وشرحه وكتب كثيرة كحاشية الخبيصي ومختلف كتب المنطق مجهداً نفسه بمراجعة الشروح والحواشي عليها بأسلوب ودراسة لا تعرف النظرة السطحية؛ ومن ثم ينكص قافلاً إلى الأدب فيدرس شرح التفتازاني المطول لتلخيص المفتاح في المعاني والبيان والبديع ويتوسع بمراجعة الإيضاح ومفتاح العلوم للسكاكي وشرح السيد الشريف للقسم الثالث منه، ولا يذر مؤلفاً في البيان إلا ويوسعه تمحيصاً

وبعد علوم البيان يخوض الطالب غمار التشريع الإسلامي وقد سبب انفتاح باب الاجتهاد

عند الشيعة أن تشعبت أطراف علم الفقه وكثرت المؤلفات فيه وفي أصوله نبدأ بدراسة (المعالم) في أصول الفقه للشيخ حسن ابن الشهيد الثاني نضم إليها كتاب (الشرائع) في الفقه للمحقق الحلي ثم ندرس (القوانين) في الأصول للمحقق القمي مع (شرح اللمعة الدمشقية) في الفقه والأصل للشهيد الأول والشرح للشهيد الثاني ثم ندرس (الكفاية) في الأصول للشيخ ملاّ كاظم الخراساني ثم في الأصول العملية (رسائل) الشيخ مرتضى الأنصاري مع كتابه في الفقه (المكاسب) ولا يقنع الطالب بهذه الكتب بل يكثر الترداد على المصادر الأخرى للتوسع فيطالع في الأصول (بحر الفوائد في شرح الفرائد) وحاشيتي سلطان والشيخ محمد تقي على المعالم و (حقائق الأصول) و (عدة) الشيخ الطوسي و (أنيس المجتهدين) و (تشريح الأصول) للشيخ ملا على النهاوندي و (خزائن) الدربندي و (منهاج الأصول) و (غاية المسئول) و (شرح العضدي) و (تهذيب الأصول) إلى غير ذلك من الكتب العديدة في الأصول التي قضيت في دراستها زمناً ذهبياً (بأوراقها الصفراء) ونطالع في الفقه (جوهر الكلام) وهو في عدة مجلدات من أهم الكتب يتوسع مؤلفه كثيراً في أبحاثه ولا يترك مذهباً في المسألة لا ينقد أدلته، و (الحدائق) و (المسالك) و (المدارك) و (البرهان القاطع) و (تذكرة العلامة) و (قواعده) و (سرائر) ابن إدريس و (الرياض) و (مستند الشيعة) و (مختلف) العلامة و (تحريره) و (جامع المقاصد) و (جامع الأعرجي) وشرح منظومة بحر العلوم و (كشف الغطاء) و (المبسوط) و (طهارة) الشيخ وهو مجلد واحد، وقد وجدت للعلامة الشيخ دخيل كتاباً في عشرة مجلدات أسماه (بأنوار الفقاهة) وإن هذه المجلدات العشرة كلها تبحث في فصل واحد في الفقه وهو فصل الطهارة فياله من توسع في البحث!.

وبعد دراسة كتاب (الرسائل) في الأصول يحضر دروس العلماء الكبار الذين يحاضرون

في التشريع الإسلامي وأصول الفقه متخللة أبحاثهم جولات في علم الرجال وفي التفسير والفلسفة (التي يدعونها هنا الحكمة) إذ يرتفع المجتهد على منبر عالٍ حيث يزدحم تحته المئات من الرؤوس (البيضاء والسوداء بعمائمها) تلك الرؤوس التي هذبتها الدراسات الفردية فعادت لا تستند إلى كتاب تفتحه بينها وبين أساتذتها كما كانت في الأول، إنما يتناول المجتهد أطراف العلم فيناقشه طلبته بكل حرية ويتنقلون في الفصول المختلفة من

دون التزام بكتاب واحد وإنما يستعرضون المذاهب في المسألة وينقدونها من جميع وجوهها على ضوء حرية الفكر ثم يرجحون ما يختارونه من الآراء، وهنا يقضي الطالب عدة سنوات حتى يدرك درجة الاجتهاد وهي ملكة يقتدر بها على استنباط أحكام الشرع لشريف من مصادرها، حينئذ يمتحنه مجتهدوا عصره ليعطوه إجازة الاجتهاد وهي الشهادة العليا. وفي السنين الدراسية الأخيرة يتجه البعض إلى دراسة الكلام والفلسفة الإسلامية فيدرس فيهما (شرح المنظومة) للسبزواري و (شرح التجريد) للعلامة الحلي و (شرح إشارات ابن سينا للخواجه نصير الدين الطوسي و (أسفار) ملا صدرا و (الشوارق) لعبد الرزاق اللاهجي و (الشفاء) لأبن سينا. والحق أن جوامع النجف الأشرف تدرس الفلسفة الإسلامية بتوسع لا مزيد وراءه. كنت أدرس شرح إشارات ابن سينا لدى شيخ فارسي يدعى (الدامغاني) فكان يتمعن في تدقيقه فلا يدرس في اليوم أكثر من نصف صفحة أو ربعها بالرغم من أن الدرس يستغرق ساعة أو أكثر وكنا نذهب إلى داره بعد الظهر بقليل وذلك في صيف النجف الأشرف تكليف شاق لا يطاق لشدة الحرارة في هذه البقعة الجافة. في هذه البلدة الجاثمة على حدود الصحراء العربية الملتهبة بضرام حصاها ولا سيما أني كنت أخرج من سراديب مدرسة السيد كاظم اليزدي التي تتوغل عميقة في الأرض حيث تغوص بك في مناخ بارد شتوي يضطرك إلى الالتحاف بما يقيك أذى البرد القارس. ولربما يتذكر تلك السراديب الأستاذان الزيات وأحمد أمين وصحبهما فقد أنزلت الوفد إلى سراديب المدرسة وحملت له المصباح وجلنا في أحشاء هذا المعهد العلمي. ولكم أعجبت تلك السراديب السياح فكتبوا عنها الكثير وهي ابتكار لطيف في التغلب على الطبيعة القاسية والتمرد على عذابها - ولكن أستاذي الدامغاني كان أقسى. فكم أجهدنا في خوض معارك الفلاسفة الدامية يقذف بنا في جحيم الخصومة العنيفة بين الخواجه نصير الدين الطوسي وبين محمد بن عمر الخطيب الرازي وكل منهما شارح للإشارات، ولكني ابتليت قبله بأستاذين درست عليهما الفلسفة في حلقتين كبيرتين تضم العراقي والفارسي والتركي والسوري الخ كأنها سفينة نوح في الأساطير، كان كل من هذين الأستاذين مفتوناً بسعة إطلاعه في المذاهب الفلسفية وما نسجه العقل البشري من أحابيل وأضاليل وما كشف النقاب عنه من حقائق ناصعة فكانا غفر الله لهما يركضان بنا في ميادين واسعة من أفكار

فلاسفة اليونان من مشائين وإشراقيين ومن محاجّات فرق المسلمة وطوائفها من أشاعرة ومعتزلة وشيعة وصوفية وباطنية حلولية إلى غير ذلك؛ فإذا حمى الوطيس بين هذه المذاهب فليس عليك إلا أن ترهف سمعك ليفيض عليك هذان الأستاذان بخلاصة جهودهما الفكرية، ألا أزيدك أن النجف الأشرف في هذا العصر تدرس الطب اليوناني القديم وفيها أطباء من خريجي جوامعها يعالجون الأمراض المختلفة حسب تعاليم شرح النفس في الطب وغيره؛ وفي جوامع النجف الأشرف يدرس علم الهيئة والفلك عدا العلوم الرياضية الأخرى؛ أما علوم الأدب من لغة وعروض وقافية وتاريخ أدب وشرح النصوص الأدبية، أما التاريخ الإسلامي والعلوم الاجتماعية، فان طلبة جوامع النجف الأشرف لا يتركون كتاباً جديداً إلا ويقتنونه موسعيه بحثاً وإنعام نظر، وقد خرجت هذه المدرسة كثيراً من الشعراء النابغين

والمكتبات في النجف كثيرة منها الخصوصية وبعضها يفتح لعامة الناس كمكتبة آل كاشف الغطاء ومكتبة المعارف. وعندي مكتبة تضم حوالي ألف كتاب كثير منها مخطوط عزيز، وقد زارها البحاثة عبد العزيز الميمني الهندي المعلق على أمالي القالي فرأى كتاباً مخطوطاً قديماً أعجبه فقال: (لو ضربن آباط الإبل إلى الصين ولم أحظ بغير رؤية هذا الكتاب لكفاني ذلك غُنما)

وإن الطلبة هنا مشغوفون باستشراق الحركات الأدبية في العالم العربي من مصر

وسورية والمهجر، ولمؤلفات (لجنة التأليف والترجمة والنشر) سوق رائجة لدينا
ولكننا لا يسعنا أن نفيض في الحديث أكثر من هذا فيمل القارئ الكريم وإنما هذه نبذة
تحدثت بها بصفتي أحد خريجي هذه الجوامع المقدسة
(النجف الأشرف - العراق)
ضياء الدين الدخيلي
رسالة الشعر
ذكرى ياسين باشا الهاشمي في الموصل
ياسين البطل
للأستاذ أنور العطار
يا صورةً ملؤُها الإحسانُ سامية ... قبستُ من وحيها الشعرَ الذي أَجِدُ
غنى بها الدهْرُ مزهُوراً برَوْعِتها ... وعاشَ يمَرحُ في أعطافها الأبدُ
يُمُّدها النورُ بالأفلاكِ ساطعةً ... حتى تكادَ منَ الأضواءِ تتَّقدُ
قالوا لمنْ صُغْتَ حُرَّ الشِّعرِ تكرمةً ... ومَنْ تُرى بثناءِ الدهْرِ ينفرِدُ
فقلْتُ (للهاشمي) الفَذِّ أَحْكِمُهُ ... وأنْتَقي الكلِمَ الباقي وأحتشِدُ
نورٌ مِنَ الإخلاصِ مُؤْتلقٌ ... مِنْ نَفْحَةِ اللهِ لم يُخْصَصْ بهِ أَحِدُ (ياسينُ)
مِنْ معْدِنِ الحزْمِ والتصميم جوهَرُهُ ... يكونُ حيْثُ يكون الرأيُ والسدُدُ
إذا العُرُوبةُ لم تسلُكْ مَحَجَّتَهُ ... يوْمَ الهزاهِزِ لم يبْرَحْ بها أَوَدُ
ضمِنْتَ للوطَنِ المجروحِ عِزَّته ... فأنْتَ آمالُهُ الكبرى وأنْتَ غَدُ
أمّا تذكرُ أياماً لهُ غَبَرَتْ ... وَملْءُ أحشائها التَّرْويعُ والسَّهَدُ
تفتَّحَتْ حُفَرَ الأَجْدَادِ صارِخةً ... وهَبَّ مِنْ رقْدَةِ الآبادِ ملْتَحِدُ
شَببتَهَا ثوْرَةً حمراءَ لاهَبةً ... تكادُ مِنَ هَوْلها الأطوادُ تْرتِعدُ
لِسَانُها في الفَضَاءِ الرحْبِ منذلَعٌ ... ووهُجها في فَمِ الجوزَاءِ منعقدُ
يسيلُ (دِجْلَةُ) صخَّاباً بها حَنِقاً ... يرْغو على ضِفتَّيْه الثأرُ والصَّمَدُ
وأنْتَ في غمراتِ الموتِ تَقْحَمُها ... تُظلُّ نفسكَ روحٌ للعلى وبِدُ
في فتيةٍ حلَبُوا الأيامَ أشْطُرَها ... وصافحوا الموتَ لم يفتُرْ لهم جَلَدُ
عاشُوا جمالَ الدُّنا حتى إذا أنزلتْ ... بهم منأياهُم بينَ الورى خَلدُوا
كأنما يبدءونَ العمرَ ثانيةً ... فإنْ هُمُ لفظُوا أنفاسَهُم ولُدوا
كأنهُمْ في فضاءِ الله ألْوِيةٌ ... دَمُ الجهادِ عَلَى أطرافهَا يقِدُ
والمخلصونَ جلالُ الكوْنِ ما طلعُوا ... والمخلصونَ سنَا الأيام ما همدُوا
في العبقَرِية أحقابُ لهمْ قُشُبٌ ... وفي البطولةِ آبادُ لهمْ جُدُدُ
حلَّقْتَ كالنَّسرِ في الجوزاءِ مرتقياً ... وخلْفَكَ الناسُ في أثوابهمْ جَمَدُوا
يرَوْنَ فيكَ مَضاءً لا كَفَاءَ لهُ ... وعَزمةً تخلُقُ الأبطالَ أو تِلَدُ
فخفَّضَوا الهامَ إعْجاباً وتكرمةً ... والناسُ إن بَهَرَتْهُمْ خلَّةٌ حمِدُوا
أُقصيتَ عن وطنٍ مارُمْتَهُ بأذًى ... وعُشتَ تبنى له العَلياءَ أو تُعدُ
تنكَّرت لك دنيا لا ذمامَ لها ... وخانكَ الصَّحْبُ والأدنَوْنَ والبعدُ
أيرتعُ الغِرُّ في أَمْنٍ وفي دعةٍ ... وأنت ناءٍ عن الأوطانِ مُبتَعدُ
من همَّ يسألُ عن (ياسينِهِ) لَهفاً ... مشى به القَيْدُ أو ألوَى به الصَّفَدُ
لما نُعيتَ إلى أرض العراقِ ضُحَىً ... ضَجَ الفضاءُ وَضَجَ السَّهل والجَلدُ
وزُوِّعَتْ فئةٌ للبغْيِ جاحِدةٌ ... حاق الشَّقاءُ بها والنَّحْس والنكَدُ
خافوك مَيْتاً وما بالميتِ من فرَقٍ ... لما نُعيتَ تهاوَوْا ثمَّةَ افتَقِدُوا
كأنهم في سَوادِ الليلِ أَخْيِلَةٌ ... لولا الخيالاتُ في دُنياكَ ما وُجِدُوا
لم يَلْبَثُوا أن توارَوْا في معايبهمْ ... وَجرَّعُوا الموتَ لم يَفطُن لهم خَلَدُ
مشت (دِمشقُ) وراءَ النَّعشِ جازعةً ... يكادُ يُصْعِقُهَا الأحزانُ والكمدُ
تَبكي ابنَها البَرَّ قد أَوْدي الحِمَامُ به ... فضاع في مَوته التبِّيْانُ والرَّشَدُ
عَمَّ الذُّهوْلُ رِباعَ الشامِ من أسَفٍ ... كأنها مُقْلَةٌ دَمِعَاءُ أو كِبَدُ
قدِ فَجَّرَ الألَمُ الجبارُ أَدْمُعَهَا ... كما تَفَجَّر يومَ العارِضِ االبرَدُ
لا الأنْسُ يضحكُ في أرجائِهَا ألفاً ... ولا النعيمُ عَلَى جناتِهَا يفِدُ
إلا الكآباتِ تَعلو الأُفْقَ غامرةً ... وللكآباتِ صوتٌ صارخٌ فَرِدُ
لَهْفِي عليها ولهف العُرْبِ قاطِبةً ... مات الحبيبُ ومات القائدُ النَّجِدُ

ياسِينُ لا تحتفِلَ كيداً رمَوْكَ بهِ ... ولا يَهولَنك ما حاكوا وما سَرَدُوا
فأنت كالشمسِ إن تَسْمُ العُيونُ لها ... ترتدُّ عنها وفي أجفانِها رَمَدُ
لم يلبث الحقُّ أن لاحت مَخَايُلهُ ... وغاب في طيِّهِ البُهتَانُ والفَندُ
إن أرجَفوا فضلالُ ما نعوجُ بهِ ... كم يضحكُ اليمُّ إن أرْغي به الزَّبَدُ
دَعِ المُفَنِّدَ يمِعنْ في غَوَايتِهِ ... فليس يَرْفعُ إلا الواحِدُ الصَّمَدُ
إنْ يَكتبِ اللهُ للإنسانِ مَكْرُمَةً ... لا يمحُها الخلقُ بل لا يَطْوِها الأَمَدُ
خُذِ الخلودِ نِقِّياً ما به دَخَلُ ... وَخَلِّ هذا الورى يذهب به الحسَدُ
يا بانِيَ المجدِ لم تَضْعُفْ دعائِمُهُ ... كلٌّ عَلَى ما بنيتَ اليومَ مُعتمِدُ
سرْ في لِواءِ الهدى جَذْلانَ مُغتبطاً ... فالقومُ قومُكَ ما حادوا ولا رَقَدوا
قد صَفَّفَتْ لَبُوَاتُ العُرْبِ شِكتَهَا ... وحدَّدَ النَّابَ في عِرنينِهِ الأَسَدُ
(الموصل)
أنور العطار
صلاة شاعر!
وقال: أُصلِّي، قلتُ: صلِّ جماعةً ... لنعرض قبل الحشر بين يدَيْ ربّي
ورتلْ من القرآن سورة يوسف!! ... أُرتِّلْ - كما شاء الهوى - آية الحبّ
وحي صورة
بقيةٌ من صِبا (حمدي) أشاهدها ... فأسألُ الدهر عنها كيف أبقاها
كأنّها نفحة للحسن خالدة ... عزَّت على الدهر أن يمحو محيَّاها
(المطرية)
عبد الله حبيب
أقوام بادوا
للأستاذ عبد الرحمن شكري
مفتاح القصيدة
جعلوا لطبع اللؤم كل قداسة ... وتحرزوا من سنة المختار
المختار هو النبي صلى الله عليه وسلم، وكل من نبذ سنة الله ورسوله لابد أن يصير إلى ما هو موصوف في هذه القصيدة من الصفات؛ ونعني بالنبذ نبذ القلب وإن لم ينبذ اللسان، ولا نعني أحداً بالذات وإنما هي صفات يعرف كل منصف منها أنها شائعة حيث
الاضمحلال والبوار
القصيدة
تركوا اللباب وشاقهم ما شانهم ... من بهرج في مطلب غرار
عاشوا عبيد كلامهم لم يدلفوا ... من خلفه لحقائق الأفكار
جعلوا حطام اللؤم أعلى مكسباً ... وأعز محمدة ليوم فخار
يخفون أوزار النفوس بمنطق ... فينم فاضح خافيَ الأوزار
حسبوا اغتياب الغائبين مطهِّرا ... لنفوسهم من خزية أو عار
كل يغار من الإجادة جهده ... مثل النساء تغار كل مغار
يحكي عظيمهم الحقير سفالة ... متكثراً بدناءة الأنصار
يخشى البريء قضاءهم من خطة ... لم تُعْفِ ناساً من هوى الأصهار
العدل فيهم أجر كل مملَّق ... جعل النفاق عصابة الأبصار
كل يعاقب من يريد أليفه ... ضراً له لا الكره للأشرار
الكِذْب عجز فيهمُ وخساسة ... والصدق عبد مزدرًى متوارى
ندم المجيد على إجادةِ قوله ... أو فعله من ضيعة وضرار
الضيم ما يجري اللئامُ مُجَوِّداً ... فيصون كلٌّ عجزه لفخار
سبقٌ بمضمار الحياة يحوزه ... مُتَخَلِّفٌ بالغش في المضمار
وتفرقوا إلاَّ لدى التهويش والت ... ضليل فهو مؤلف الدُّعَّار
وتخالهم حشرات روث مالهم ... إلا به حظ من الإكثار
وكأن كل إجادة قد دهورت ... من عقلهم في بؤرة الأوضار
فكأنما أذهانهم بالوعة ... أخفت نفيس الدر في الأغوار
كل يلوذ بإثْرَةٍ ويخالها ال ... إيثار بئس مزيف الإيثار
ففعاله ومقاله وسكوته ... للؤم لا فضلاً وحسن جوار

دأبوا على إخفاء حق مالهم ... في حجبه من مكسب ونضار
لؤم لعمرك لا مدى لصياله ... وضؤولة تحدو لسفل قرار
الطيش أغلب للتأمل فيهم ... حتى لدى العظماء والأخيار
سبق اللسان حصاتهم فكأنما ... سكر العقار لهم بغير عقار
رانت على مهجاتهم وقلوبهم ... وعلى الحجا والسمع والأبصار
شيم تُوَرَّثُ حقبة عن حقبة ... كتخلف الأرجاس في الأنهار
أو ما دهى أوصال جسم من ضنى ... يمضي ويترك باقي الآثار
جعلوا لطبع اللؤم كل قداسة ... وتحرزوا من سنة المختار
هات المُرَبِّي للكبار ولا تقل ... يا أين مُعْوِزَ رشده لصغار
هيهات يصلح نشء قوم لم يجد ... خُلق الكِبَار يضيء مثل منار
عدوى الضؤولة والخساسة فيهمُ ... عدوى الوباء تسير كل مسار
قوم إذا ابتدروا السباب رأيتهم ... يطلون موضع عُرِّهم بالقار
متعاظمين على نجاسة أنفس ... نتجت نتاج الدود في الأقذار
ستر الخسيس خساسة بخساسة ... في أنفس الأعوان والأنصار
متعظماً يبدو كريماً سامياً ... متحلياً بفضائل الأطهار
وترى الوقار ولا وقار وإنما ... اخفوا دعارة أنفس بوقار
ودعوا إلى الإصلاح دعوة مائق ... يسعى إلى الأرباح سعي تجار
هم يبتغون الجاه إنْ لم يبتغوا ... مالا بدعوة مصلح ثرثار
لم تَدْر وَحْيَ المصلحين حصاتهم ... فتشبثوا بزوائف الأفكار
صارت وسائل عيشهم ما غاله ... من طبع لؤم سائق لبوار
فقد الحياء صغارُهم من ضيعة ... فغدوا كبار الفخر غير كبار
صنعوا الأذى من غير ما سبب ولا ... يؤذي لغير القوت وحش ضاري
ضلت غرائز شرهم عن أصلها ... في صون عيش أو لدفع ضرار
فغدت دناءة أنفس وخساسة ... كيداً بلا كسب ولا أوطار
وحديثهم كالحك يهتك عزهم ... فأخو السفاهة منهم كأس عاري
العدل ما وهب السمير سميره ... والرأي للأوشاب والأغمار
جرأت صعاليك على ما لم يكن ... في فهمهم فقضوا بغير تماري
فوضى لعمرك لا صلاح لشأنها ... كيف الصلاح لأمر هاوٍ هاري
عادوا الذكاء خساسة فكأنما ... نبذ الذبالة في الظلام الساري
إلا الدعاوي الباطلات فأنها ... عادت كعود مزيف الدينار
سل صفحة التاريخ كم قوم به ... أجراه مجرى الدهر في مضمار
أقوام أدهار مضت بعض لها ... ذكرى وبعض ما لها من داري
قد أبدلوا طبع السفال بأنفس ... من طبعها المتصاعد السوَّار
صاروا إذا غضبوا وإنْ سُرُّوا وإن ... درجوا لأمر ثالث بمدار
يتمرغون مجانة فنفوسهم ... وجسومهم كمزابل الأوزار
كتمرغ المفلوك دغدغ جلده ... عضة من البرغوث في الأقدار
وصموا الشباب ولم يكن من طبعه ... خلق اللئيم العاجز الغدار
إن الشباب مروءة وسذاجة ... وترفع ينبو عن الأوضار
تخذوا السفال مِجَنَّهُم ليصونهم ... من صولة الغلاَّب والمغوار
فغدا السفال سعادة ومسرّة ... عبث الخنى ومجانة الفجار
نبذوا الحياء وكيف ترجو أمة ... للنائبات مجانة العهار
قد قيل في فقد الحياء رجولة ... فقد الحياء أنوثة الدعار
طبع المجانة عم حتى خلته ... كيداً يحاك عليهم بسرار
أم وُرِّثُوهُ عن الجدود غنيمة ... يطفو الذليل بها على الأقدار
ويُذِلُّ من عنت وضيمها ... بسعادة المجان والفجار
وتكايدوا كيد العبيد ولم يكن ... كتنابذ بطبائع الأحرار
واستمرءوا مرعى الغباوة والخنا ... إلْفَ السجون لطول عهد إسار
هزموا الدهور الغازيات بهزلهم ... فمضت وضلوا رهن عقر الدار
فإذا الدهور جديدة غلاَّبة ... وإذا اللئام فريس الأدهار

درجوا على درج الحياة إلى الردى ... من بعد جهل راقهم وصغار
عبد الرحمن شكري
رسالة العلم
ما بعد الطبيعة
, الروح
للسيد محمد حسن البقاعى
- 3 -
لقد بحثنا في الفصلين السابقين عن المادة والحياة، وأتينا على ذكر النظريات والنتائج التي وصل إليها الفلاسفة على اختلاف آرائهم، وتعدد مذاهبهم. ولا يسعنا الآن إلا أن نقول: إن نتائج تلك الأبحاث والبراهين والاعتراضات التي أثارها الفلاسفة للوصول إلى كنه المادة وحقيقة الحياة، لم توصل العقل البشري إلى نتيجة حاسمة، بل لا تزال الصعوبات قائمة. ولكننا نظن، أن الله سبحانه وتعالى سوف لا يعدم البشرية من نور مفاجئ يرسله إلى عقل بعض الفلاسفة الجادِّين في الوصول إلى الحقيقة النيرة في هذه الأبحاث؛ فيكشف اللثام عن تلك المسائل التي لم تتعدَّ حيز الفرض والاعتراض، ويأخذ بيد العقل البشري إلى شاطئ السلامة، فيخرجه من الظلمات إلى النور.
وهانحن مقدمون على البحث في الروح فنقول:
إن البحث في الروح لم يكن نصيبه أكثر من نصيب البحث في الحياة؛ فخلاصته ما شغل عقول الفلاسفة من معرفة حقيقة الروح وماهيتها هو إقرارهم - إقراراً ضمنياً - يعجز العقل البشري عن سبر غورها، وقرع باب حقيقتها. فإن الروح هي من أمر الله، فكيف يتأتى لعقل قاصر إدراك ماهية أمر الله تعالى - وهو لم يستطع إدراك الأشياء البسيطة بالنسبة إلى الروح مثل المادة والحياة
وسنأتي الآن على ذكر النظريات التي وضعها العلماء والفلاسفة الذين عالجوا البحث في الروح وطمحوا في الوصول إلى حل نهائي معقول؛ ولكنهم - ويا للأسف - لم يصيبوا غرضهم المقصود. فالبحث في الروح إما أن يكون عن طريق الرأي العام والحس السليم الذي يقرر أن الروح والجسد مختلفان في طبيعتهما: ويضع الروح فوق الجسد أي إنه
يقرر: أن الحياة النفسية فوق الحياة الجسدية، ويعتبر الروح مبدءاً معنوياً يدير الجسد.
وإما عن طريق آراء الفلاسفة والبحاثين التي يمكن تقسيمها مبدئياً إلى قسمين
1 - نظرية الماديين
2 - نظرية الروحيين
أما الماديون فيقولون: (لا يجوز أن نقبل أن الروح والجسد مختلفان بطبيعتهما، أي لا يمكننا القول بأنهما عنصران بل عنصر واحد) فهي إذن نظرية توحيد لا نظرية تثنية وهي تجعل النفس خاضعة للعناصر المادية التي في الجسد. وهم يستندون على طائفة من الأدلة التي يمكن أن تعتبر فيزيولوجية وهي:
1 - إن ما توصل إليه الفلاسفة من تعيين مناطق الكلمات والرؤية والنطق في الدماغ يثبت لنا أن كثيراً من الأمراض العصبية تولد بذاتها اختلافات نفسية واختلافات فكرية.
2 - إن الدورة الدموية في الدماغ تزداد أثناء التفكير. وقد ذكر الدكتور جميل صليبا أن العالم الإيطالي (موسو) شاهد أدمغة أشخاص أصيبوا بمرض في الجمجمة فرأى من وراء القحف أن العمل الذهني والاضطراب النفسي والأحلام كل ذلك يبعث على ازدياد ضغط الدم في الدماغ؛ حتى لقد فكر في إثبات ذلك بتجربة محسوسة فصنع ميزاناً كبيراً على صورة منضدة يمكن أن ينام عليها الشخص؛ فكلما أجهد الشخص النائم فكره رجحت جهة الرأس من الميزان لانصباب الدم عليها. فيستنتج من ذلك أن الحياة الجسدية هي المؤثر الأول على الحياة النفسية
3 - نرى في علم التشريح أن ارتقاء الجملة العصبية متناسب مع ارتقاء الحوادث النفسية. فكلما تكاملت الجملة العصبية تكاملت الحوادث النفسية؛ فالأفاعيل الفيزيولوجية إذن ترافق الأفاعيل النفسية
4 - إن التأثير الحاصل من الجسد في النفس كتأثير الصحة والمرض والكبر في النفس نبرهن على اتحاد الجسد والنفس في الماهية
5 - لقد بَيَّنتْ مباحث علماء (البسيكوفيزيولوجيا) - بالرغم من كونها ابتدائية أولية - أن

هناك قوانين تربط الحوادث النفسية بالحوادث المادية، فيقول (فيخنر): إن النفس من محصول الجسد، ولكن الشعور في هذه النظرية ليس إلا عرضاً زائلاً كالنور وتأثيره في حركة القطار. . . فلو عرفنا أحوال (لوتر الفيزيولوجية فهل نستطيع أن نكتشف الأسباب التي دفعته للقيام على البابا؟ الجواب على هذا السؤال بحسب هذه النظرية التي ليست إلا نظرية الشعور الملحق هو بلا شك (كلمة نعم!). أما القول في مناقشة هذه النظرية فيتلخص في أربع فقرات:

1 - نستطيع أن نقول عن هذه النظرية إنها لا تزال في عالم الخيال؛ فقد أخطأت باعتبارها أن الشروط الضرورية في الفكر هي المادة.

2 - إذا أنعمنا النظر في هذه النظرية وجدناها لا توضح الشعور بل تعتبره حادثة زائدة لا أثر لها في الحوادث النفسية؛ على أننا لا ننكر اتصال الجسد بالروح؛ ولكن هؤلاء الماديين تجاوزوا هذه الحدود، فهم يعتبرون الأمور النفسية ناشئة عن الجسد بينما نجد بينهما موازاة فقط؛ ويقررون أن الشعور ناشئ عن الحركة، مع أن بينهما فرجة في الحقيقة. ولو سَلَّمنا أن الشعور حادثة عرضية فكيف يمكن إيضاح ارتقائه على مَرِّ العصور وتكامله تكاملاً تدريجياً؟ ألم يقرر الفيزيولوجيون أن العضو الذي لا فائدة منه يزول في التطور؟ فكيف بنا ونحن نراه يرتقي ويتكامل عوضاً عن أن يضمحل ويتلاشى! إذن لابد أن يكون حادثة من حوادث النفس لا. . . بل هو ذلك الحَدْسُ النفسي الذي نطلع به على حوادثنا النفسية

3 - إنهم ينكرون تأثير الحوادث الروحية (النفسية) ولا ينكرون العكس مع أننا نعلم أن للفكر والعاطفة وغيرهما من الحياة الانفعالية تأثيراً بيناً في الجسد. وقد وضع الفيلسوف (ويليام جمس نظرية يدعم بها رأي القائلين بتأثير النفس في الجسد فقال: (لا يمكن أن نقبل أن الجسد يؤثر في النفس ونترك تأثير النفس في الأخير) لأننا نرى أن الشخص عندما يبكي لا يكون بكاؤه فجأة بل لابد من أن يحزن أولاً ثم يبكي؛ إذن لا يمكن للمرء إهمال الفكرة. وكثيراً ما استغرق الإنسان في فكر من الأفكار، فأنساه استغراقه هذا ألماً من آلامه المادية. فالرغائب والأهواء تلعب دوراً هاماً في الجسد وتسبب حركته، وهذا كله كاف لدحض حجة الماديين التي يمكن أن تعتبر حجة بتراء

4 - إننا نرى أن الحاضر مثقل بالماضي، وهو يهيأ للمستقبل فتتجمع آثار الماضي في الحاضر. إذن فالحاضر والماضي متصلان؛ واتصالهما هذا يؤول إلى القول بأن كل حالة من أحوال النفس تحوي كل حالات النفس؛ فالكل موجود في الجزء والجزء موجود في الكل؛ ولكن الحقيقة أن الكل موجود في الكل. وكل هذا مخالف لاعتقاد الماديين بل يستحيل عليهم قبوله؛ فلا يستطيع الماديون إذن أن يوضحوا أمراً هاماً جداً وهو الحكم والمحاكمة؛ ولا اتفاق الناس وتبادلهم بالأفكار؛ بل يقولون إن تبادلهم في الأفكار إنما يكون باتفاقهم في الحوادث الفيزيولوجية؛ فليست هذه النظرية إلا ضرباً من الخيال فهي نظرية ميتافيزيكية أكثر مما هي عقلية

أما اللاماديون أي الروحيون الذي عارضوا نظريات الماديين فقد قالوا: يجب أن نقبل وجود شيئين مستقلَّيْن عن بعضهما بطبيعتهما، أي هما مختلفان بمادتهما. وأول مدافع بل أول واضع لهذه النظرية هو أفلاطون الذي يقول: (إن النفس هي أخت المثل العليا الخالدة، وهي خالدة مثلها؛ فالنفس إذن محبوسة في الجسد كأنها في حجرة من حجرات هذا الجسد؛ أي إن النفس كالرُّبان في السفينة يُسِّيرها ولا يتأثر بما تتأثر به هذه السفينة. وعلى ذلك فالموت هو رجوع النفس إلى إخوانها حيث تسترجع علمها الأبدي الذي نسيته في الجسد). أما (ديكارت) فهو يعتبر أيضاً أن النفس والجسد من طبيعتين مختلفتين؛ فماهية النفس هي الفكر، وماهية الجسد هي الامتداد؛ فهما إذن غير متجانسين ولا متشاكلين، بل لكل منهما طبيعة خاصة به. إلا أنه ينكر على أفلاطون قوله بعدم اتصالهما ببعضهما وتشبيه النفس بربان السفينة الذي لا يتأثر بما تتأثر به السفينة فيقول: (إنني لا أنكر أن لي جسداً يتألم عندما أشعر بألم؛ وأحس بالجوع والعطش عندما يكون بحاجة إلى الأكل والشرب؛ وإنني لست ساكناً بجسدي كما يسكن الرُّبان في السفينة بل أنا أكثر من ذلك؛ أنا متصل بجسدي أكثر من اتحاد الربان في السفينة، ولو كنتُ مثله لكنت إذا جُرحت لم أتألم، بل على الأقل كنت أرى جرحاً فقط دون أن أشعر بألم، فأنا إذن عبارة عن شخص مفكر)

فديكارت إذن يقول بتأثير الجسد في النفس ويقول: (إن الحركة لا تتغير) أي لا تزيد كمية الحركة في العالم. وهو يصرح بقبوله لفكرة العلاقة بين الجسد والنفس، ولكنه يوضح هذه العلاقة بقوله: (إن كلاً من - الروح والجسد يؤثر في الآخر بمعونة الإله). ولقد اعتبر بعض الفلاسفة أن هذا الإيضاح مبهم وقالوا: إن إيضاح تلاميذ (ديكارت) أتم وأوسع من إيضاح (ديكارت) نفسه. فتلميذه (ماليبرانش) الذي وضع نظرية الأسباب المصادفة - أي العلل الاتفاقية - يقبل كل أقوال أستاذه ويشعر بالصعوبة في اتحاد الجسد في النفس
وكيفيته وأسبابه؛ ولكنه يحل ذلك بشرح مبتكر، فيقول: (إنني أرى أن الروح لا تؤثر في الجسد والجسد لا يؤثر فيها، فمن الذي يؤثر إذن. . .؟ لا شك أن الإله وحده هو الذي يؤثر. مثال ذلك: عندما تحترق يدي فلا تستطيع نفسي أن تحدث في الألم بل الإله هو وحده الذي يحدث فيَّ الألم). فمن ذلك ترى أن (ديكارت) و (ماليبرانش) قد فتحا في حل مسألة الروح فتحاً جديداً؛ فهما بتعليلهما هذا يقرَّان بالعجز عن إدراك حقيقة اتحاد الروح بالجسد. وليس هذا إلا رضوخاً للحق واعترافاً بالواقع؛ فيجب عدم الاكتراث باعتراضات بعض الفلاسفة المتعنتين أو الملحدين عن الأصح، فهم يقولون: (يؤخذ على ديكارت إسناده كل فعل إلى الإله، وتوقفه على إرادته ومعونته؛ فبذلك يحذف كل فاعلية للجوهر اللامتناهي، ويجعل الإله كعامل من العمال غير كامل لأنه صنع آله لا تمشي إلا إذا كان هو موجوداً فيها)
فمناقشة هذا الاعتراض تتلخص بقولنا: ليس هذا الاعتراض إلا كلمة حق أريد بها باطل. ولنفرض أن للجوهر فاعلية، فمن أوجد هذه الفاعلية؟ ومن أوجد الجوهر؟ ومن هو مرتِّب ومنسق هذا النظام في عالم الكون والفساد. . .؟ هل يستطيع هؤلاء المعارضون المنكرون للقوة الإلهية أن يجيبوا على هذه الأسئلة بأن المؤثر والفاعل الأول لذلك هو غير الله عز وجل؟ هبهم أجابوا بذلك وقالوا: إن الطبيعة هي الفاعلة، فما هي هذه الطبيعة ومِمَّ تتركب؟ وما هو مبلغ قوتها واقتدارها؟. لاشك أنهم يقفون حيارى تجاه هذا الأمر ولا يسعهم إلا الرجوع إلى القدرة الإلهية. .
ولقد وضع (سبينوزا نظرية جعل فيها الامتداد والفكر جوهراً واحداً وقال إنه جوهر الإله؛ بل قال إن كل الجواهر كالروح والجسد هي أعراضٌ لجوهر الإله. فهذه النظرية تسمى بالنظرية الحلولية فهو ينتقل من مذهب التثنية إلى مذهب حلولي واحدٍ مُوحَدٍ لجميع الجواهر. وخلاصة هذا المذهب هي: لا يوجد غير الإله؛ وكل ما نراه هو أعراضٌ وصفاتٌ له؛ فالجواهر إذن هي لا نهاية في لا نهاية؛ ولكننا لا نعرف منها إلا صفتين فقط وهما: الامتداد والفكر لننظر إلى العالم المحسوس فنرى لوناً وصوتاً وحركة، وكل هذه هي عبارة عن أحوالٍ وهي متناهية، إلا أن عددها غير متناهٍ، فالفكر صفة الإله وأحواله غير المتناهية كالرغائب والذكريات. . . فأحوال الامتداد الإلهي هي الأجسام؛ وأحوال الفكر
الإلهي هي النفوس وعلى ذلك فالعالم والإله شيء واحد. ويقسم هذا المذهب الطبيعة إلى قسمين:
1 - الطبيعة الطابعة
2 - الطبيعة المطبوعة
فالطبيعة الطابعة هي مجموع العلل الثابتة الدائمة الموجودة في جوهر الإله؛ والمطبوعة هي مجموع الأعراض المتغيرة المتبدلة التي لا تستقر على حال. فبحسب هذه النظرية يكون الإنسان مركباً من مجموع نوعين من الأحوال الإلهية؛ وهما الفكر والجسد ولا يمكن أن يعتبر جوهراً؛ وعلى ذلك فلا يوجد عقل ولا إرادة بل إرادات، فجموع الأحوال النفسية يوازيها مجموع الأحوال الجسدية، فهي تشبه نظرية الموازاة فهذه النظرية لا تقبل تأثير النفس في الجسد ولا العكس بل تقول إن بينهما موازاة فقط؛ وهي تنكر الحرية؛ واعتراضنا عليها هو نفس الاعتراض على النظرية المادية السابق
أما (ليبنيز فيقول إن مذهب الحلول هو مذهب فاسد لا يستند إلى مبدأ ديكارت. ويجب أن تكون هذه المبادئ نفسها فاسدة لأنه لا يمكن أن ينتج الفاسد من الصحيح. فهو إذن ينتقد مبدأ ديكارت. وقد وضع نظريةً تدعى (نظرية الموناد التي لا تقبل أن الجوهر هو امتدادٌ بل هو في القوة. فالروح والجسد من طبيعة واحدة؛ وبما أن النفس مركبة من

موناد واحد فالانعكاسات التي تنعكس فيها تظهر جلية، بعكس الجسد المركب من مجموع الموناد. فالانعكاسات فيه مختلطة وكل موناد ينعكس على الآخر، فموناد النفس ينعكس على الجسد؛ وموناد الجسد ينعكس في موناد النفس؛ على أن ليبنيز لا يستطيع أن يقبل كيف يؤثر جسم في جسم فيقول: (أخذت أتأمل في مسألة اتحاد الروح بالجسد، فلم أجد واسطة تدخل بعض أشياء في النفس، وبالعكس لم أدرك أن جوهراً يؤثر في جوهر؛ فلا أستطيع قبول تأثير الجواهر بل أقول: لا يؤثر إلا الإله) ومن هنا نشأت نظريته المسماة (نظرية التناسق التي يقول فيها: إن كل موناد هو عبارة عن عالم صغير يعكس كل العوالم الأخرى ولكن بإرادة الإله وحده. ويقول أيضاً: إن الإله خلق النفس أو أي وحدة أخرى حقيقية؛ بصورة أن كل شكل يتولد داخلها بعضويته بالنسبة إليها: وبصورة متوافقة تماماً مع الأشياء الخارجية؛ وهذا التوافق مراد منه - أي من قبل الإله - ولعمري إن نظريات ليبنيز لهي خلاصة ما توصل إليه جمهور الفلاسفة في أمر الروح؛ ولقد انكشفت له الحجب عن الحقيقة، وهو الفيلسوف الأوحد الذي يكاد يقترب من الحقيقة الناصعة

محمد حسن البقاعي

القصص

الوحدة والجريمة

للكاتب الإنكليزي القدير لورد لبتون

للأستاذ أبو جاويد أكمل

ولدت إنجليزياً ولكني قضيت الأيام الأولى من عمري في بلدة نائية أجنبية، وليس لي اخوة ولا أخوات، وقد توفيت والدتي وأنا في المهد فوجدت في والدي الرفيق والمعلم والصديق، وقد كان هذا الوالد الأخ الأصغر لأسرة شريفة وبيت عريق. أما ما حدا به إلى ترك بلدته وأصدقائه وتجنب المجتمعات والإقامة ببلدة كالصخرة فقصة قائمة بذاتها لا دخل لها بقصتي هذه

قلت أن والدي أقام ببلدة كالصخرة لأن بلدتنا لم تكن في الواقع إلا كذلك: قفار حالكة عرضة للسافيات، وأشجار عجزت عن النمو، وعشب جاف، وتجاويف لم تهتد إليها النجوم ولم يعرف ضوء الشمس مكانها إلا من بعض فجوات بالصخور التي تعلوها، تجتازها مياه قاتمة مغبرة ترغى وتزبد أثناء سيرها في طريقها الصخري. هضاب غطتها الثلوج المتراكمة تأوي إليها الطيور الجارحة وينبعث منها صوتها المرعب المخيف إلى عنان السماء التي أبت أن تتدثر بالسحب على ما بها من شحوب وخوف وهرم. كل هذا ينم على حال تلك البلدة التي سلخت بها الأيام الأولى من حياتي. أما مناخها فلم يغير من المناظر التي تحيط بمنزلي إلا قليلاً وإن كان في بعض الأحياء الأخرى يحل صيفها المفاجئ الذي لا يعقبه خريف بشهوره الثلاثة لطول شتائها؛ وربما في فترات قصيرة الأمد يذوب الثلج في الأودية وتفيض المياه ويظهر نبات أصفر غريب يفتر ثغره عن بسمات خبيثة موجهة لبعض أجزاء من هذه الصخرة العالية لأمثال هذه المناظر التافهة من تقلبات الفصول. قضيت أيام حياتي عاماً فعاماً. وكان والدي مغرماً بالعلوم الطبيعية ومشاركاً في باقي العلوم فدرس لي كل ما عنده. وكان للطبيعة الفضل في سد النقص بما أوحت إلى قلبي من دروس عميقة صامتة وهي تكشر عن نابها وتعبس. علمت قدمي الركل وذراعي اللكم ونفثت في رغباتي روح الحياة وألهمت طباعي الجد لا الهزل. علمتني كيف أعانقها وإن كان قوامها معوجاً وشكلها غير مغر. أفر من سواها وأهرب من مصادقة رجل وأنثى من ابتسامة أنثى. أهرب من بكاء الطفولة وأخشى من التقيد والآمال وملذات الوجود كما أخشى من اللعنة والعذاب؛ ومع ذلك كانت لي في هذه الصخرة العابسة وتحت هذه السماء الشاحبة متعات لا يهتدي إلى كنهها أهل الحضر الذين يجدون لذتهم في أريج العطر وعبيق الورد، فما هذه المتعات؟ إن لها من المتنوعات والأشكال المختلفة عشرات الألوف كما لها من أفياء السرور، ولكن ليس لها من الأسماء المتداولة إلا أسم واحد، فما هي هذه المتعات؟ هي (الوحدة)

مات والدي وأنا في الثامنة عشرة فانتقلت إلى كنف عمي وأزمعت الرحيل إلى لندن فوصلتها نحيفاً عبوساً مفتول الساعد قوي البنية؛ بيد أني في نظر من حولي كنت وحشاً في هيئتي وطباعي. كان لهم أن يضحكوا مني، ولكني أرهبتهم بصورتي؛ وكان

لهم أن يغيروا من طبعي، ولكني أثرت فيهم وألقيت على بهجتهم رهبة فكانوا وجلين مني وإن لم أتكلم إلا نادراً ولم أجالسهم إلا مجلس الغريب الصامت المنقاد. ما من أحد منهم يستطيع معاشرتي ويكون مسروراً أو مرتاحاً. هذا ما شعرت به وقد أبغضهم إذ لم يمنحوني حبهم

مضت ثلاث سنين بلغت فيها سن الرشد، فطالبت بثروتي واحتقرت الحياة الاجتماعية، وذبت شوقاً مرة أخرى إلى الوحدة، فصممت على الرحيل إلى الأراضي النائية الخالية من السكان، تلك الأراضي التي لم يرجع منها زائر يتحدث عنها ممن طوحت بهم الأقدار في أحضانها التي لم يرجع منها زائر يتحدث عنها ممن طوحت بهم الأقدار في أحضانها

استأذنت عمي وزوجه وأولاده وبدأت الحج فاجتزت الرمال المحرقة، وقطعت الفيافي الشاسعة، حتى وصلت إلى غابات أفريقيا الكثيفة التي لم تطأها قدم، ولم يشوش صوت إنسان هذا الجلال المهيب الذي يخيم على وحدتها كما كان يخيم قبل الوجود على العوالم المضطربة. هناك حيث تنمو الفطرة الأزلية وتذبل بغير إزعاج أو تغيير يطرأ عليها من اضطراب ما يحيط بها من العوالم. هناك حيث تنبت البذور أشجاراً تعيش أعماراً لا تحصى ولا تعد، ثم تتساقط أوراقها ويسطو عليها البلى ويعتريها الفساد ويدركها الفناء. هناك حيث يخطو الزمن المتثاقل لم يشهد تقلباته الهائلة الصامتة إلا أسد شارد، أو أفعوان جسيم، يكبر مائة مرة تلك البوا التي يباهي السائحون برؤيتها. هناك تحت الظلال الوارفة

التي آوى إليها وقت القيلولة كنت أسمع وقع أقدام كالجند وأصغي إلى وسوسة الأشجار الباسقة وهي تدك وتنهدم، وأرى من خلال فروع الأشجار الملتفة البهموث عابراً سبيله الوعر وعيناه تتقدان كالجمر وأنيابه البيضاء في فكه الشرس جاثمة براقة كأعمدة من الصوام تشع في غار. ذلك هوا الوحش الذي جعلت له دون غيره هذه الفدافد موطناً؛ ذلك هو الوحش الذي لم يتبدل من يوم أن عرفت المياه سبيلها في الكون؛ ذلك هو الوحش الذي لم تبصره عين آدمي غيري

تسللت فصول الأعوام لم أحصها عداً، إذ لا أنيس يخببها إليَّ، ولا أثر يترسم من أعمال أبن آدم القذرة يبغضني فيها. أقول كرت الفصول ونضج شبابي حتى بلغت الرجولة وجلل الشيب مفرقي بالثغام، ولم ألبث أن استولى عليَّ ميل دفين لا يقر على حال وناجيت قلبي المذنب أن لابد من نظرة أو عودة إلى عشيرتي

قفلت أطوي الفدافد إلى أن بلغت المدائن فتدثرت بلباس أهلها إذا لم أكن في البيداء إلا عاري الجسد، ولما بلغت الثغر أقلتني سفينة إلى إنجلترا كان فيها رجل هو وحده الذي لم يتجنب صداقتي ولم يخش غضبي، يستولي عليه النزق، ويملأه الغرور، ويتيه عجباً كما يختال عادة هؤلاء الذين استوطنوا المدائن، واتخذوا الكلام غذاء عقولهم. وكان طفيليًّا سخيفاً ونسيجاً قذراً من آراء سافلة، وكان الرعب الشائن هو الخصلة الفريدة التي لم تفارقها نفسه، فمحال أن ترهبه أو تسكته أو تهزمه؛ يتعقبني دائماً ويلازمني كظلي ليس لقوة أن تنزعه مني، وكلما بصرت به شعرت بدوار، وكان هؤلاء الطغام المحتقرين الذين ترتعد الفرائض لرؤيتهم

كنت أقاطعه مراراً كلما خاطبني. ولكم هممت أن أقبض عليه وأقذف به إلى البحر للحيتان التي كانت تسبح ليل نهار حول السفينة بعيون براقة وأنياب تواقة، إلا أن نظرات الجميع كانت متجهة إلينا فكبحت جماح نفسي وعدلت عن ذلك مغمضاً عيني على مضض؛ وكلما فتحتهما ثانية وجدته بجانبي وصوته الأجش يرن في أذني الكارهة سماعه

في ذات ليلة تنبهت من نومي على صياح الرجال وهم يقسمون فأسرعت إلى سطح السفين وكنا قد ارتطمنا بصخرة فما أروعه منظراً! إنه كان هائلاً. فضوء القمر هادئ والبحر على فيروزته نائم. في وسط هذا السكون الصامت الناعم الذي شمل كل شيء انمحى أثر

ثلاثمائة وخمسين نسمة من الوجود. لزمت عزلتي لم أساعد أحداً من المغرقين بل ظللت أنظر، وإذا بصوت كصوت أفعى ينساب إلى أذني فالتفت ورأيت مزعجي وقد انعكس ضوء القمر على وجهه وهو يتمتم كالسكارى وعينه الذابلة الزرقاء تحملق وهو يقول: لا نفترق حتى في هذا المكان

جرى الدم حاراً في عروقي وعزمت على أن أرميه في البحر الذي كان يغمرنا سريعاً، ولكن خيل إليّ أن القمر يرمقني كما ترمقني عين السماء ولم أتجاسر على أن أقتله.
ولما كنت لا أستطيع البقاء كي أموت مع المغرقين قذفت بنفسي نحو صخرة وقد طاردني حوت فأرهبته، وبعد برهة وجيزة كان لديه القدر الكافي لإشباع نهمه سمعت دوياً فصيحات يأس ممتزجة مزعجة، بأس ثلاثمائة وخمسين قلباً سكنت في لحظة. قلت في نفسي وقد داخلني سرور عميق إن صوته لا محالة بين أصواتهم وقد افترقنا. وما وصلت الشاطئ حتى اضطجعت للنوم
وفي صباح اليوم الثاني انفتحت عيناي على أرض أجمل من أحلام الشباب وقد ابتسمت الشمس وأشرقت على أنهار فضية، ومالت الأشجار بثمار أرجوانية عسجدية، وتلألأ كالماس الندي في أرض تحلت بأزهار ذات أريج عبق ممتع، وقد حلقت عشرات الألوف من الطير بأجنحة براقة امتزجت ألوان قزح بها وطارت من على النبات والأشجار وملأت الجو تغريداً من سرورها. البحر يزأر تحت قدمي لا أثر في جبينه اللامع لتأكل سالف؛ أما السماء فكانت تدفئ عروقي بأشعتها الذهبية التي لم تعترضها سحب. استيقظت نشيطاً مرحاً وجست خلال هذا المكان الجديد الذي اهتديت إليه فتسلقت تلاً ووجدت أنني في جزيرة صغيرة لا أثر لرجل فيها، فارتاح قلبي وصحت طرباً لما رأيت أني سأكون وحيداً مرة أخرى، ولكني لم أكد أنحدر من التل وأصل إلى نهايته حتى لمحت رجلاً يقترب مني. نظرت إليه فارتاب، قلبي ثم دنا مني فإذا بالغيض المضطهد يقف أمامي بعد أن نجا من الغرق! لقد عاد بتمتمته وعينه البراقة، وما لبث أن طوقني بذراعيه فشعرت بأن أفعى تحتضنني وقال بصوت أجس خشن: مرحى مرحى! سنبقى معاً أيها الصديق
فنظرت إليه وأنا مقطب الجبين لم أتلفظ بكلمة، وكان بجانب الشاطئ غار كبير فقصيدته ودخلت فيه وهو يتبعني قائلاً: سنعيش في هناء هنا لا نفترق إلى الأبد. فارتعشت شفتي
وانقبضت يدي.
قد انتصف اليوم وغلبني الجوع فخرجت واصطدت غزالاً وشويت جزءاً منه على نار من أخشاب عطرية فأخذ الرجل يأكل ويزدرد ويقهقه، وتمنيت لو غص بالعظام. ولما انتهى قال ليس لدينا هنا إلا النذر اليسير من الأنشراح، بيد أني لم أزل محافظاً على صمتي، وأخيراً تمدد في ركن من الغار ونام، فنظرت إليه ورأيت نومه عميقاً ثم خرجت ودحرجت حجراً كبيراً عند باب الغار واتخذت سبيلي إلى الجزء المقابل من الجزيرة. وجاء دوري في الضحك ووجدت غازاً آخر وهيأت فراشاً من العشب والأوراق، ومن الأخشاب صنعت منضدة، وتطلعت من فوهة الغار فرأيت البحار العريضة أمامي وقلت الآن سأكون منفرداً. ولما أقبل اليوم الثاني خرجت مرة أخرى واصطدت جدياً وعدت به وجهزته كما سبق. ولما كنت غير جائع لم أستطع تناول الطعام وهمت على وجهي في أنحاء الجزيرة، وعند عودتي كانت الشمس قد غربت فدخلت الغار، فجلست على فراشي؛ ولكن بجوار منضدتي كان الرجل الذي ظننت أني دفنته حياً بالغار الأول. وما إن وقع نظره عليّ حتى ضحك وألقى بالعظمة التي كان ينهشها وقال: آه لقد عولت على أن تعلمني خدعة نادرة، ولكن بالغار نفقاً لم تفطن إليه وقد خرجت منه للبحث عنك، وهذه مسألة هينة، لأن الجزيرة صغيرة، أما وقد تقابلنا فلا فراق بعد
فقلت: قم واتبعني. ففعل، وما ترك من الطعام كان قذى في عيني لأنه مد إليه يده، وأخيراً فكرت أأزرع ليحصد هذا المخلوق؛ وشعرت بقلبي وقد تحجر
صعدت إلى صخرة عالية وقلت: أنظر حولك وتطلع إلى هذا الجدول الذي يشطر الجزيرة فستقيم في شطر وأقيم في الآخر. ومن المحال أن تجمعنا بقعة واحدة أو يضمنا خوان، فقال: لا يتأتى ذلك إذ ليس في مقدوري أن أصطاد الغزلان أو أقتنص الجديان. وإذا لم تتعهدني بالغذاء فسأموت جوعاً. قلت: ألا توجد فاكهة وطيور تستطيع اقتناصها، وسمك يقذف به البحر؟ فقهقه وقال: لا أهواها كما أحب لحم الجديان والغزلان. فقلت: أفهم الآن وأنظر إلى هذا الحجر الداكن من الشاطئ الثاني لهذا الجدول. سأترك لك كل يوم عنده جدياً أو غزالاً حتى تنال من الطعام ما تشتهي، ولكن

إذا اجتزت هذا الجدول ودخلت في ملكي فمن المؤكد أني سأذبحك. نزلت من الصخرة وأرشدت الرجل إلى شاطئ الجدول،
فقال: لا أعرف السباحة، فحملته على كتفي واجتزت الجدول ووجدت له غاراً وهيأت له فراشاً ومنضدة كما صنعت لنفسي، ثم تركته، ولما حاذيت شاطئ الجدول ثانية كدت أطير من الفرح ورفعت صوتي قائلاً: سأكون الآن وحيداً
مر يومان وأنا منفرد، وفي الثالث خرجت للقنص وكان وقت القيلولة وأعياني التعب حينما عدت؛ وإذ دخلت مغارتي وجدت الرجل منطرحاً على فراشي وقال: ها، ها. أنا هنا لقد سئمت الوحدة في منزلي وجئت لأعيش معك ثانية. فعبست وقطبت ما بين حاجبي وقلت: من المؤكد أني ذابحك. وجذبته من فراشي بذراعي وأخذته في الهواء الطلق ووقفنا سوياً على الرمال قريباً من البحر العظيم. استولى عليّ الخوف وداخلني ذعر من السكون الشامل الذي يخيم على الوحدة مع أني لا أبالي بالناس لو أحاطوا بنا آلافاً لذبحته أمام أعينهم. وما راعني إلا أننا وحيدان في الصحراء لا ثالث معنا إلا الله. أرخيت عنان قبضتي، وقلت له: أقسم لي بأنك لا تضايقني بعد، وأنك تحافظ على حدود منازلنا ولا تجتازها وأنا أعفو عنك. فقال: لا أستطيع القسم، وخير لي أن أموت في الحال من أن أفارق وجه آدمي صبوح ولو كان عدواً لي. ولهذه الكلمات عاودني حنقي فطرحته أرضاً ووضعت قدمي على صدره ويدي في عنقه، فحاول الخلاص برهة، ثم كان جثة هامدة. تولاني الخوف على أثر ذلك؛ ولما نظرت إلى وجهه ظننت أنه عاد إلى الحياة وخيل إليَّ أن عينه الذابلة الزرقاء ترنوا إليّ، وأن ابتسامته الخبيثة لم تفارق شفتيه، كما أن يديه اللتين كانتا قابضتين على الرمال في حشرجة الموت امتدتا نحوي فضغطت على صدره مرة أخرى وحفرت حفيراً بجانب الشاطئ وواريته التراب وقلت: صرت الآن وحيداً
هنا تجلت لي المعاني الحقيقية للوحدة والكآبة ولعدم الاستقرار والعزلة، فارتعشت وترنح كل عضو من هيكلي الجبار كأني طفل ترتعد من الظلام فرائصه. وقف شعر رأسي وتقلصت عضلاتي، ولم أستطع البقاء في هذه البقعة دقيقة واحدة، ولو عاد إلي شبابي. غادرتها هرباً وجبت هذه الجزيرة، وكلما يممت شطر البحر واصطكت أسناني واشتقت إلى صحراء شاسعة لا نهاية لها أتوارى فيها إلى الأبد
عند الغروب عدت إلى مغارتي وجلست في زاوية من الفراش وأخفيت وجهي بكلتا الراحتين. وتوهمت أني أسمع ضوضاء فرفعت بصري. ولعمري لقد رأيت الرجل الذي أجهزت عليه ودفنته مقيماً بالطرف الثاني من الفراش
هناك على بعد ست أقدام مني كان جالساً يشير إليّ برأسه وينظر بعين شاحبة ويقهقه. وليت الأدبار من الغار ودخلت في غابة واستلقيت، ولكن هناك على بعد ست أقدام مني كان وجه ذلك الرجل أيضاً
أيقظت شجاعتي وخاطبته ولكن لم يبد جواباً. حاولت القبض عليه فأفلت وكان على بعد ست أقدام، وجهه دائماً أمامي
خررت على الأرض ساجداً وغطيت وجهي بأديمها وآليت لا أرفع رأسي حتى يحين الليل وينسدل الظلام
وقتئذ قمت وعدت إلى الغار واضطجعت في فراشي، فنام بجانبي الرجل، فغضبت وحاولت أن آخذ بتلابيبه فلم أتمكن
أخيراً أغمضت جفني ورقد بجانبي. مرت الأيام والحال لا تتغير في الداخل ولا في الخارج، في المنزل وفي الفراش، في القيام وفي الرقاد، بالليل أو أثناء النهار. هناك في طرف فراشي وعلى بعد ست أقدام لا أكثر ولا أقل كان الميت الشاحب
وما كدت أنظر إلى الأرض الجميلة والسماء الصافية وإلى هذا الصاحب المخيف حتى قلت: لا أعيش وحيداً بعد ذلك، فضحك الرجل بملء شدقيه. رست في النهاية سفين فحييتها وأقلتني وما وطئت قدمي سطحها حتى ظننت أني بمنجى من مزعجي، ولكن سرعان ما رأيته يعتلي سطحها، واجتهدت عبثاً أن ألقيه في اليم، ولكنه كان بجانبي دائماً يأكل معي وينام كسابق عهده
وصلت إلى مسقط رأسي واندمجت في الزحام. شهدت الولائم وسمعت الألحان، جعلت ثلاثين رجلاً يجلسون معي وظللت أراقبه ليلاً ونهاراً، ولكن رفاقي كانوا واحداً وثلاثين وأخيرهم كان أكثرهم ألفة وعشرة

فخاطبت نفسي: أهذا وهم أم هو خِداع الحواس؟ ولابد أن أستشير الأخصائيين في هذا الاضطراب لكي أعود إلى الوحدة؛ دعوت عرافاً ذائع الصيت في طرد ما علق برأسي من الأوهام واستحلفته أن يكتم السر ورويت له قصتي، وكان رجلاً جريئاً عالماً فوعدني الخلاص والنجاة، ثم سألني مبتسماً: أين هذا الشخص الآن فإني لا أراه، وإن كان حقاً ما
تقول فإن حواسي لا تقل اداركاً عن حواسك؟ وكان في خطابه كما يكون الأستاذ مع تلميذه وأنا لا أعارضه ولا أساجله، وأمرت الخدم أن يهيئوا غرفة ويكسوا أرضها بالرمل. ولما صدعوا بالأمر التمست من طبيبي أن يتبعني إليها وأحكمت رتاجها، فسألني: أين الشخص الآن؟ فقلت: إنه على بعد ست أقدام منا. فأبتسم الطبيب فأهبت به أن ينظر إلى الأرض وأشرت إلى بقعة منها قائلاً له: مادا ترى؟ فأرتجف وتعلق بي حتى لا يهوى ثم قال حينما دخلنا: كان الرمل ناعماً ولكني أرى في هذه البقعة أثراً لأقدام آدمي، فضحكت ومشيت مع رفيقي الحي إلى الأمام وقلت له: أنظر ماذا يتبعنا كلما تحركنا، فحاول الطبيب أن يتنفس الصعداء ثم قال: صاحب هذه الأقدام، فصحت به فجأة صيحة اليأس الغضوب: ألا تستطيع أن تدبرني وهل قضى على ألا أعيش بعد منفرداً؟ غير أني رأيت آثار هذا الهالك تخط على الرمل هذه الكلمات:
لم تخلق الوحدة للمجرمين. الأفكار السيئة رفيقات الساعة، ولكن الأعمال السيئة) (صديقات إلى قيام الساعة
أبو جاويد أكمل
البريد الأدبي
تنظيم أوراق البردي المصرية
كانت الحكومة المصرية قد استدعت في العام الماضي العلامة الأثري الألماني الدكتور هوجو إبشر أمين المحفوظات البردية في متحف برلين ليقوم بإصلاح مجموعة البردي المصرية وتنظيمها.
وفي المتحف المصري مجموعة كبيرة من هذه الوثائق القديمة التي لم تنظم ولم تعرف جميع محتوياتها بعد؛ وقد قدم الدكتور إبشر إلى مصر في شهر مايو الماضي وقضى ثلاثة أشهر في تنظيم المجموعة البردية بالمتحف المصري، ولكنه لم يستطع يومئذ أن يتم كل مهمته، وما زال كثير من الوثائق البردية في حاجة إلى عنايته ومن ثم فقد استدعى الدكتور إبشر لاستئناف عمله في القاهرة مرة أخرى؛ وفد قدم العلامة إلينا منذ أيام قلائل ليتم تنظيم مجموعة البردي؛ وسوف ينتهز هذه الفرصة ليزور البقاع الأثرية التي وجدت فيها من البردي، ولاسيما منطقة بحيرة قارون التي وجدت فيها منذ أعوام أوراق بردية ثمينة تحتوي على شروح كاملة لبعض كتب الفيلسوف ماني؛ وشروح أخرى لمذهب زرادشت؛ وقد نقلت هذه المجموعات من مصر سراً إلى برلين، وتولى الدكتور إبشر تنظيمها وقراءتها، كان لظهورها ضجة كبيرة في جميع الأوساط الأثرية
وقد روت الصحف الألمانية بهذه المناسبة أن الدكتور إبشر سيقوم لجلالة ملك مصر بمهمة خاصة، وهي إصلاح خريطة قديمة ثمينة لإفريقية كانت ملكاً لمحمد علي باشا رأس الأسرة المالكة، وقد بليت وتآكلت بعض أجزائها، وكان المغفور له الملك فؤاد يتوق إلى إصلاحها وردها إلى أصلها؛ وسيقوم الدكتور إبشر بهذه المهمة، وهو اليوم أشهر علماء الصيانة الأثرية
معرضان للفن الأجنبي في مصر
نظم في هذا الأسبوع معرضان للفن الأجنبي بدار الجمعية الزراعية الملكية بالقاهرة، أحدهما معرض هولندي للتجارة والصناعة، وقد افتتح في الخامس من فبراير الجاري؛ والثاني معرض فرنسي للفنون الجميلة والزخارف الفنية، وقد أفتتح في الثامن من فبراير، وتفضل صاحب الجلالة الملك فاروق الأول بافتتاحه بحضور مسيو جان زاي وزير
المعارف الفرنسية الذي قدم إلى مصر خصيصاً لذلك، وعدة من الشخصيات الكبيرة مصرية وأجنبية. وقد بذلت الحكومة الفرنسية في تنسيق هذا المعرض جهوداً عظيمة، وعرضت فيه مجموعات فنية نادرة من الصور والتحف الفنية الدقيقة استحضرت من

فرنسا؛ وهذا دليل جديد على ما تبديه فرنسا في العهد الأخير من الاهتمام بتوطيد نفوذها الثقافي بمصر بعد أن تطورت الأحوال السياسية والاجتماعية عقب المعاهدة المصرية وإلغاء الامتيازات الأجنبية

ذكرى الفيلسوف شوبنهارور

تحتفل ألمانيا في العشرين من الشهر الجاري بذكرى فيلسوفها العظيم شوبنهاور لمناسبة انقضاء مائة وخمسين عاماً على مولده. وتقام لهذه الذكرى بالأخص حفلات عظيمة في مدينة دانتزيج مسقط رأس الفيلسوف ومدينة فرانكفورت حيث قضى شطراً عظيماً من حياته. وستذاع في كل منهما محاضرات وخطب بالراديو عن الفيلسوف الراحل وآثاره وآرائه، ويقام في كل منهما حفل تذكاري رسمي، وتوضع أكاليل الزهر التي ترسلها مختلف الهيئات العلمية على قبره في فرانكفورت

وكان مولد الفيلسوف في دانتزيج سنة 1788، ولكنه لم يلبث بها طويلاً فغادرها مع أسرته سنة 1793. وبعد أن قضى حداثة مضطربة، درس في برلين وجتنجن، ثم قدم إلى فرانكفورت في سنة 1831 فاستقر بها حتى وفاته في سنة 1860. وفي سنة 1911 ألفت في ألمانيا جمعية شوبنهاور، وفي سنة 1929 نظمت هذه الجمعية جميع الوثائق والمراجع المتعلقة بحياته وفلسفته، وأنشأت مكتبة عظيمة نادرة تضم جميع الكتب والشروح المتعلقة بفلسفته

وقد كان شوبنهاور من أعظم فلاسفة العصر الحديث، وفلسفته تمتاز بطابع واضح من التشاؤم، وأعظم كتبه هو كتاب (العالم كإرادة وفكر)، وفيه يبسط أعظم وأقوى آرائه، ونظرياته الفلسفية، وقد ترجم إلى معظم اللغات الحية. وله عدة كتب ورسائل فلسفية أخرى، مثل كتاب (الإرادة في الطبيعة) وكتاب (الأساس الرباعي لمبدأ العقل الكافي) ورسالة في (الرؤيا واللون) وغيرها، بيد أنها دون كتابه الجامع قوة وطرافة. وقد تأثر شوبنهاور في فلسفته بأفلاطون وكان تأثيراً كبيراً؛ بيد أنه يعتبر مؤسس مذهب فلسفي جديد

في التشاؤم.

وقد كان لتفكيره ونظرياته أثر كبير في تطور الفلسفة الألمانية في أواخر القرن التاسع عشر

من مكتشف أستراليا

ثار في الأسابيع الأخيرة جدل علمي تاريخي بين الصحافتين الإنكليزية والهولندية حول المكتشف الحقيقي للقارة الأسترالية وذلك بمناسبة الاحتفالات التي أقيمت أخيراً في أستراليا بمناسبة مرور مائة وخمسين عاماً على تأسيس أول مستعمرة أوربية في خليج (بوتاني)، والمعروف أن هنالك رأيين في هذا الموضوع: الأول النظرية الهولندية، وهي ترجع الفضل في اكتشاف أستراليا إلى البحارة الهولنديين في أواخر القرن السابع عشر، والثاني نظرية بعض المؤرخين الإنكليز وهي ترجع الفضل في هذا الاكتشاف إلى الرحالة الإنكليزي الكبتين كوك بين سنتي 1776 و 1779. والواقع أن الرأي الأول أقوى وأرجح، والبحارة الهولنديون هم أول من أطلق أسم أستراليا على هذه القارة، وظهر هذا الاسم لأول مرة في كتاب ظهر في أمستردام سنة 1597 وسميت فيه هذه الأرض وقد كان البحارة الهولنديون يبحثون قبل ذلك عن قارة مجهولة في الجنوب، وهم الذين وضعوا أول تحديد علمي لموقعها

وقد بسط هذه النظرية العلامة المؤرخ الهولندي هيريس في كتابه، فذكر أن الرحالة الهولندي دوفكن اكتشف جزاءً من خليج كربنتاريا في سنة 1605؛ وفي سنة 1616 سار الرحالة ديرك هارتوجس إلى المياه الجنوبية في السفينة الهولندية اندراخت ووصل حتى خليج شارك. وتدل وثائق العصر على أن هذا الرحالة هو أول أوربي وضع قدمه في أستراليا

وعلى ذلك فإنه من الخطأ أن ينسب فضل اكتشاف القارة الجنوبية إلى الكبتين كوك الذي لم يزر هذه المياه إلا بعد ذلك بنحو مائة وخمسين عاماً. على أن كثيراً من المؤرخين الإنجليز يفض هذه النظرية التي يستند إليها استعمار إنكلترا للقارة الأوسترالية، وما زال هذا الرأي يلقى على طلبة المدارس؛ وقد كررته بعض الصحف الإنكليزية في المناسبة الأخيرة، أما الكبتين كوك فإن فضله لا ينكر في اكتشاف الجزائر الأقيانوسية في هذه المياه

مخطوط جديد للشاعر ببرون

بمناسبة الاحتفالات التي أُقيمت أخيراً في أثينا تخليداً لذكر المائة والخمسين لمولد الشاعر الإنكليزي الأشهر (لورد بيرون)، والتي أشارت إليها الرسالة في عددها الماضي، أعلن الأستاذ سقراط كوجياس الأكاديمية الأثينية غداة الاحتفال بأنه عثر في مخطوطات المكتبة الوطنية اليونانية على مخطوط جديد للشاعر الكبير هو عبارة عن القسم الأول لقصيدة (تشايلد هارولد)؛ وفي ظهر المخطوط مذكرة بخط الشاعر عن إحدى قرى جزيرة دلفي. ومسودة القصيدة ملأى بالتصحيحات والتعديلات التي لم تظهر فيما ظهر من طبعات هذه القصيدة الشهيرة. ولم يعرف بعد كيف وجد هذا المخطوط في المكتبة الوطنية، ولكن وجد في ذيله بالإنكليزية ما ترجمته: (مهدي إلى فرند كلادان المعجب باللورد بيرون، من أخته أوجاستالاي) اعني أخت الشاعر؛ ووجد هامش آخر فيه: إن المخطوط كتب بيد الشاعر، وأهدى منه إلى كلادان هذا، وهو أحد إشراف أثينا في هذا العصر ومن هواة الخطوط الأثرية

موسم فاجنر في لايبزج

في أنباء ألمانيا الأخيرة أنه تبدأ منذ 13 فبراير الجاري في مدينة لايبزج حفلات الموسيقي الشهير فاجنر، وتمثل فيها أوبراته الخالدة كلها، ومنها تأليف حداثته، وسيراعى في تنظيم أدوارها، ما وضعه فاجنر نفسه فيما بعد. وقد استدعى بهذه المناسبة عدة من أكابر الفنانين الأجانب اللذين اشتهروا لتمثيل أوبرات فاجنر إلى لايبزج للاشتراك في هذا الموسم، وسيعاد تمثيل هذه القطع الشهيرة وعددها ثلاث عشر من عشرين أبريل إلى 19 يوليه القادم، وقد اتخذت استعدادات فنية وموسيقية عظيمة بجعل موسم فاجنر من أعظم المواسم الفنية العالمية، واختيرت مدينة لايبزج لأنها مسقط رأس الموسيقي العظيم، وفيها بزغ مجده الأول

مصير اللغة الإنجليزية

أذاع ولز محاضرة من لندن عن اللغة الإنجليزية في ديسمبر الماضي تناول فيها جملة تنبؤات طريفة عن مستقبل هذه اللغة، وقد وازن ولز بين الإنجليزية واللاتينية، وبينها وبين اللغات السامية فطمأن سامعيه إلى استحالة أن يكون مصير الإنجليزية كمصير هذه اللغات، فالظروف التي ساعدت على تمزيق اللاتينية مثلاً إلى فرنسية وإيطالية وقشتالية وقطلومية. . . الخ قد زالت في العصر الحديث، أو أن الاختراعات، وأهمها البخار والكهرباء والطباعة والراديو، قد جنبت اللغات عامة والإنجليزية خاصة شر المنقلب الذي أنتها إليه حال اللغة اللاتينية

الإنجليزية لغة عالمية

وقد تنبأ ولز أن الإنجليزية ستكون لغة عالمية في العاجل القريب، لأن الثلاثمائة مليون الذي يتكلمونها في مختلف أنحاء العالم قد اختاروها أداة للتعبير عن خلجاتهم مختارين غير مجبورين، وذلك لما آنسوا فيها من السهولة واليسر والطواعية. . . ولكن ولز يبدي تألمه من بطأ انتشار الإنجليزية في غير الإمبراطورية البريطانية من سائر الدول، حتى في الولايات المتحدة الأمريكية التي تنازع الإنجليزية فيها منازعة قوية للغات شتى، أهمها الفرنسية والأسبانية والألمانية

العدد 242 - بتاريخ: 21 - 02 - 1938

صاحب المعالي هيكل باشا

أنت يا أخي أول أديب في مصر العظيمة رفعه الأدب المحض إلى منصب الوزير ورتبة الباشا. وأقول (الأدب المحض) وإن كنت لا أنكر أن لثقافتك وكياستك وسياستك أثراً ظاهراً في هذا الحادث الأدبي الخطير؛ لأن الأدب بمعناه الأصح لا يكمل إلا بهذه الصفات، ولأن أدبك على الأخص مثال الأدب الكامل الذي يقوم على ألزم الخصائص للإنسان وهي سراوة الخلق وذكاء القريحة وسداد الذهن وسعة الثقافة. وإذن لا نستطيع أن نحلل تركيبك الأدبي إلى فقيه وأديب وصحفي وسياسي، مادام أسلوبك الفكري مزيجا من أولئك جميعاً. فإذا كان غيرك قد وصل بالأدب من غير خلق، أو بالصحافة من غير أدب، أو بالسياسة من غير صحافة، فإنك لم تصل إلا بهذا الأدب الشامل الذي يشرق فيه وميض الروح ويسيطر عليه نبل النفس. لذلك نعد بلوغك هذه الغاية من المجد انتصاراً للأدب المجاهد، وترضية للقلم المجهود، وتمكيناً للفكر الجميل أن يؤدي رسالته في عالم أوسع وعلى طريق أسد؛ ولذلك نجعلك من بين الوزراء

الصلة الطبيعية بيننا وبين أولي الأمر؛ فقد قطعوا أسبانيا الواصلة، وسفهوا حقوقنا المعلومة، واعتقدوا أننا حليٌ تزين ولا تنفع، ودميٌ توجد ولا تعيش
فمن غيرك اليوم يا باشا يستطيع أن يسمعهم أن الأدباء بعد انقطاع الوحي هم رسل الله وكتبه: في أقلامهم أقباس الهداية، وفي أفواههم أبواق اليقظة، وفي أيمانهم مفاتح الخلود؟
من غيرك اليوم يا باشا يستطيع أن يقنعهم أن الشعب بغير صوتهم لا ينهض، والجيش بغير روحهم لا ينتصر، والرأي بغير منطقهم لا يجتمع، والحكومة بغير سلطانهم لا تحكم؟
من غيرك يا باشا يستطيع اليوم أن يقول لولاة الأمر، لعيشه فيهم وقربه منهم، إن الأدباء هم الذين ينشئون الصحف للجمهور، ويؤلفون الكتب للقراء، ويدبجون الخطب للزعماء، ويصوغون الشعر للوزراء، ويكتبون التاريخ للملوك؟
الأدب يا باشا كما تعلم هو شعاع الحس اللطيف، وعطر النفس الزكية، وزاد الإنسانية الدائبة من أفكار السلف وتجارب الماضي
والأدباء يا باشا كما تعلم هم أوصياء الخليقة على تراثها العقلي، يحفظونه ويزيدونه، ويتصرفون فيه، ويجعلون منه مرشداً للحائر وقصداً للجائز وسنداً للضعيف
وقد عرفت الأمم الرشيدة فضل الأدب والأدباء فأطاعوهم كالقادة، واتبعوهم كالرسل، ورفعوهم كالمصابيح. ولكن الأدب في مصر كما تعلم يا باشا لا يزال فريسة الإهمال والفوضى: يكابد طغيان السياسة في استسلام، ويجاهد سلطان الجهالة في يأس، ويقاسي مضض الحرمان في ضراعة؛ وأولوا الأمر يقابلون جهده بالاستهانة، ويكافئون بره بالعقوق، ويستغلون سلطانه في الصحف وعلى المنابر، ثم لا يدخلونه في الحساب يوم الغنيمة. والأدباء في مصر كما تعلم يا باشا لا ينفكون يؤدون رسالة الروح المضنية في بسالة وصبر، وقرائحهم المجهودة تنضح بالمداد كما تنضح الجباه الناصبة بالعرق والصدور المحاربة بالدم؛ ثم لا يلقون ممن يحملون لهم الشعلة إلا ما لقي أصحاب الرسالات من الكفران الغادر والخذلان المهين. وما حال الأدب في الأمة الأمية إلا كحال النبوة في الأمة المشركة، إذا لم يكن له سند من الله وعون من الحكومة ذهب ذهاب المصباح في عواصف البيد المظلمة
فالأديب المضطر إنما يشقى للقوت لا للفن، ويسعى للحياة لا للمجد، وينتج للحاضر لا للمستقبل؛ وإذن لا يكون الأدب إلا كما ترى: بخس في الكيف، ونقص في الكم، وشعوذة في الوسيلة، وإسفاف في الغاية
كل ذلك علمته وكابدته وشكوته أيام كنت معنا في الطريق المزدحم الصاخب، تعرض على فقراء المعرفة غذاء العقل والروح من عصارة مخك وقلبك، فيعرضون عنك ويأبون إلا خَنْزَرةً تسوف التراب وتلغ في القذر.
فماذا أعددت يا باشا لهذه الأعصاب المحترقة التي لا تبغي من الناس إلا أن يستفيدوا من احتراقها النور والحرارة؟
لا نريد أن نصف لك العقدة ولا أن نقترح عليك الحل، فإن ذلك بجانب علمك وخبرتك وتجاربك أنفال وفضول. وقصارى ما نرتجيه أن تبسط الحكومة على الأدب ظل الحماية، فما يستطيع لضعف دولته وجهل رعيته أن يستقل. نريد ألا تدعوه لأهواء الجمهور ودوافع الحاجة، فإن في إخضاع الأدب لشهوات الناس وضرورات العيش إفساداً لملكة الذوق وتكديراً لنقاء الضمير وتشويهاً لجمال الوحي.
ليس الأدب من المهانة بحيث تتخطاه رغبة الأمة. وليس الأدباء من الكثرة بحيث تضيق بهم معونة الحكومة؛ ولكن السياسة الحزبية في البلد الجاهل تقلب الأوضاع، وتغير المقاييس، وتعامل كل فرد بحسب ما له من الدالة، وتقدر كل شيء بمقدار ما فيه من السياسة. فالكتابة في غير السياسة لغو، والسياسة على غير مذهبهم هذر!
فهل آن للأدب أن تنهض به عواثر الجدود، وللأدباء أن تَرِفَ عليهم ذوابل المنى؟ إن الأدب الذي رفعك هذه المكانة وبوأك هذا المجلس ينتظر منك البر، وإن الأدباء الذين صافيتهم على الشدة وعاهدتهم على التأييد يرجون منك الوفاء. فأخرج من عهدة ما وعدت يا صديقي واليد طائلة والرأي نافذ، قبل أن تعود بعد عهد طويل زاهر إلى المكتب الذي ليس فوقه محفظة، ولا أمام بابه حاجب، فلا تملك إلا ما نملك من

الشكاة والألم
أحمد حسن الزيات
تحية شوبنهور
للأستاذ عباس محمود العقاد
صديقنا القديم من جديد!
يوم قرأت أنهم سيحتفلون في معاهد الغرب الفلسفية بانقضاء مائة وخمسين سنة على مولد (شوبنهور) كان شعوري بهذا النبأ كشعور السالك في الطريق يلقاه على حين غرة صديق قديم مستحب اللقاء مذكور البدوات، على شوف إلى مراجعة عهده السابق واستئناف عشرته القديمة
هذا أنت يا صاح؟
وأين كل هذا الزمن الطويل؟
فقد مضت فترة ليست بالقصيرة لم أصاحب فيها هذا (المعري) من بني الجرمان ولم أراجع كتبه ولم أساجل آراءه وخواطره وأفانين تفكيره، فلما سمعت أنه سينبعث من جديد في ذكرى ميلاده، وأن ميلاد إمام المتشائمين القائلين بأن الولادة أدعى (الذكريات) إلى الحزن والندم - سيصبح في الملأ كله موعداً للغبطة والتبجيل، وأن الدنيا ستشهد هذا الحادث المتناقض كما شهدت نقائض شوبنهور في إبان حياته - عادت إلى الذهن تلك النقائض كلها وتلك الطوائف المقرونة بها، ولاح لي شوبنهور الظريف وهو أول ما يلوح للذهن منه قبل الفيلسوف وقبل الشيخ الوقور وتلك أولى النقائض والبدوات من صاحبنا القديم: فيلسوف متشائم ولا يذكره الذاكر إلا ابتسم لفكاهاته ونكاته وغرائب عاداته، وولع الدنيا بمناوأته واستخراج شكاياته فإذا ذكرت (شوبنهور) فأنت تذكر الرجل الذي يبشر بالفناء ويستنكر الحياة، ثم يسمع بظهور الهواء الأصفر في برلين فلا يقف في طريقه هرباً حتى يبلغ فرنكفورت، ولا يعود منها حتى بعد جلاء الوباء بسنين
وتذكر الحكيم الزاهد في عرض الحياة وهو لا يترك دانقاً من حسابه في المصرف، ولا يضع النقد إلا في صندوق مكتوب عليه (مادة طبية). . . كما فعل العطار الذي يكتب عنوان الفلفل على صندوق الحلوى!
وتذكر الراهب الذي يعربد حتى يلحق به تلاميذه في بيوت بنات الهوى، وينفي لذاذات الدنيا وقد أخذ من جميع لذاذاتها بما استطاع من نصيب
وتذكر المبشر بالبرهمية في بلاد الغرب وقد سمي كلبه (أتما) أي روح الوجود!! وأبى الصبية من جيرانه إلا أن يسموه شوبنهور الصغير، إذ لم يكن في البيت صغير غير ذلك الكلب المسكين. . . الذي قال بعض المعجبين بالفيلسوف إنه هو أيضاً لابد أن يكون من المتشائمين، ولابد أن يبدو على وجهه ما يبدو على وجه أستاذه من عبوس ظريف
وتذكر الفيلسوف وقد جلس إلى مائدته في المطعم وأخرج من جيبه كعادته كل يوم جنيهاً إنجليزياً فوضعه على المائدة بحيث يراه الحاضرون، ثم يفرغ من طعامه فيرده إلى جيبه ويقول: (قد كسبت الرهان). . . أي رهان؟؟ رهانه مع نفسه أن زوار المطعم من الضباط لن يتكلموا ذلك اليوم في شيء غير النساء والكلاب وخيل السباق!
وتذكر طالب الجائزة من جامعة كوبنهاجن برسالة لا نظير لها في كتابات عصره، فلما ضنت عليه الجامعة بالجائزة - غفلة منها عن قيمة الرسالة - طبعها وكتب عليها بالخط العريض: (لم تظفر بالجائزة من جامعة كوبنهاجن). . . كأن هذا تزكية لها وضرب من الإعلان!
وتذكر المتهكم الحانق الذي نقم على بعض الممثلين ارتجاله العبارات من غير كلام المؤلف حتى شكاه الكتاب إلى مدير المسرح فنهاه وأنذره بالفصل إن عاد إلى مجونه. . . قال شوبنهور: فلما ظهر بعدها في المسرح على ظهر جواده نسي الجواد موقفه وأتى بصوت لا يسمح به في مسارح التمثيل، فارتبك الممثل وصاح بالجواد: ألم تعلم أنهم يحرمون علينا الارتجال بغير تلقين؟!
تذكر هذا وأشباهه قبل أن يطرأ على بالك شأن الفيلسوف العظيم وتفصيل ذلك المذهب المستفيض الزاخر المجتمع من بديهة الحكمة وسليقة الفن وشعور الرجل المتصل بالحياة على غير انقطاع ولا مجافاة، كمجافاة النساك في صوامع الدين، أو النساك في صوامع العلم والدراسة

فإذا ذكرت ذلك المذهب فلعلك واجد فيه من وشائج القربى مثل ما وجدت من طرائف صاحبه ونقائضه وأفانينه. لأنه مذهب شعر بفحواه كل شاب عالج الفلسفة واشتغل بالتفكير في أوائل هذا القرن العشرين

لقد كان التشاؤم طبيعياً معقولاً في زمان شوبنهور فأصبح طبيعياً معقولاً أن يتصل الرأي والشعور بينه وبين الشبان في مثل عهده وفي مثل حاله وإن لم يكونوا على مثاله في مزاجه وأطواره

وخير ما قرأناه في تعليل التشاؤم عند ذلك الفيلسوف الكبير كلمة (دورانت) مقدم طبعته وملخص فلسفته حيث يقول عنه وعن بعض معاصريه:

(لماذا كان النصف الأول من القرن التاسع عشر مبعثاً لتلك الأصوات من أصداء العصر ينطق بها الشعراء المتشائمون على غرار بيرون في إنجلترا ودي موسيه في فرنسا وهيني في ألمانيا وليوباردي في إيطاليا وبوشكين ولرمنتوف في روسيا، عدا الموسيقيين من أضراب شوبير وشومان وشوبان بل بيتهوفن المتشائم الذي حاول أن يقنع نفسه أنه من المتفائلين؟ بل فوق ذلك جميعه فلسفة الحكيم العميق في تشاؤمه ارثر شوبنهور؟

لقد ظهرت مجموعة الويل والهول المسماة بـ (الدنيا إرادة وفكرة) سنة 1818) وكانت سنة الحلف المقدس بعد أن قضى الأمر في معركة واترلو وخمدت الثورة وقذفت الحوادث بابن الثورة إلى صخرة في البحر السحيق يبلى عليها ويذوي. وإن قبساً من تقديس شوبنهور للإرادة مأخوذ ولاشك من ذلك الأفنوم الفخم المخضب بالدماء المجسد في شخص ذلك الكورسيكي الصغير، وإن قبساً من قنوطه وإحجامه عن الحياة مأخوذ ولاشك من جوانب جزيرة القديسة هيلانة حيث صارت الإرادة إلى الهزيمة والفشل في النهاية، وأصبح الموت وهو الظافر الوحيد المحوم على ميادين تلك الحروب، وقد عاد البوربون إلى عرشهم، ورجع الأمراء والنبلاء يطالبون بأرضهم، وراح خيال الاسكندر الطامح إلى السلام يحتضن في غفلة منه عصابة تقضي على التقدم من كل صوب وفي كل مكان. فقد ولى العصر العظيم وقعد جيتي يحمد الله على أنه ليس بالشاب الفتيِّ في عصر مفروغ منه مقضي عليه بالختام

خشعت أوربا، وانقرض ألوف الألوف من أشد الرجال، وخربت بطاح واسعات، وكتب) على الحياة في كل موضع على القارة الأوربية أن تبدأ من جديد وأن تبدأ من أعمق الأعماق كي تستعيد في ألم وبطء شديد ذلك الفيض الذي التهمته الفتن والحروب.

وكان شوبنهور يسيح خلال فرنسا والنمسا في سنة 1804 فيروعه ما يشهد من الفوضى والقذارة

في القرى، ومن الفقر والبؤس بين الفلاحين، ومن القلق والشقاء بين المدائن والحواضر. ذهبت حروب نابليون وأعداء نابليون وخلفت وراءها ندوب الويل والهلاك على وجه كل بقعة من هاتيك البقاع: فموسكو في الرماد، والبلاد الإنجليزية على ما أصابها من فخر الانتصار قد مُني فيها الفلاحون بكساد القمح وغلات الزراعة، ومُني فيها صناع المعامل بكل ما يبتلى به الصناع في معمل لا رقيب عليه ولا حسيب، وزاد تسريح الجنود في نكبات البطالة. وروي كارليل عن أبيه في تلك الآونة أن العمال كانوا يذهبون يومئذ فرادا إلى البرك والجداول يملأون بطونهم بالماء بدل الطعام ولا يعنيهم إلا أن يستروا ما بهم من الضنك عن الآخرين. ما كانت الحياة قط أفرغ من معنى ولا أخس مما كانت يومذاك)

هذا منشأ الفلسفة الشوبنهورية من أحوال السياسة وأطوار الدول والمجتمعات. ولهذه الفلسفة منشأ آخر من أطوار الفكر والعقيدة لا يقل في أثره عن حروب نابليون وهزائم الجيوش، وذاك هو شيوع الشك في العقائد والأديان والأمثلة العليا بين الأوربيين بعد عصر النهضة العلمية وعصر الثورة الفرنسية، فلا أمل في الدنيا ولا في الآخرة، ولا معنى للسعي ولا للقعود، ولا خير في التفكير ولا في التسليم، ولا مناص بعد ذلك من ترجمة هذه الحالة في فلسفة منظمة منسوقة مقنعة كتلك التي بشر بها صاحبنا رسول التشاؤم ونذير الفناء

أي حالة هي أشبه بحالة الشاب القارئ في أوائل القرن العشرين من حالة ذلك العصر أو حالة ذلك الانتقال؟

كل شاب يخرج من حظيرة البيت إلى معترك العالم فإنما يخرج من دنيا أحلام وظنون

إلى دنيا صراع لا هوادة فيه، ولاسيما في أوائل القرن العشرين حيث كان للعقائد سلطان، وكان للأمثلة العليا بين الشرقيين خاصة مجال لم تضيقه الحقائق والتجاريب لهذا كان بين شوبنهور وكثير من الشبان القارئين عندنا نسب قريب في أوائل هذا القرن العشرين. ثم تقلبوا مع الحياة فنسوه بعض النسيان من أثر الواقع تارة ومن أثر التشاغل تارات، أو من أثر التصحيح والتهذيب الذي لا محيص عنه مع تعاقب الأيام وتعدد القراءات

فلما قيل إن العالم سيحتفل بميلاد إمام المتشائمين كان في القول ما يشبه الفكاهة والدعابة؛ ولو قيل إن العالم سيحتفل بيوم وفاته لكان في القول بعض المجاراة لموضوع الاحتفال

وصاحب المذهب. ولكن الرجل ظريف على الرغم منه ومن فلسفته، فلتكن هذه من دعابات الزمن معه، ومن وفاء الزمن له في قرن واحد

أما فلسفة الرجل بتفاصيلها فيطول شرحها ولا يتسع لها مقال ولا سلسلة مقالات، وهي مستمدة من حياته ومن سيرته ومن عصره. فمن عرف تاريخه عرف الكثير من بواعث آرائه وعلل أحكامه، وعرف مكان الصدق في المطابقة بين الوحي ومصدره وبين البيئة والتعبير عنها. ومجمل تلك الفلسفة في سطرين: أن الإرادة هي صاحبة السلطان في أعمال الأحياء وحركات الحياة؛ وأن الإنسان يلتمس الأسباب والبراهين لأنه يريد، ولا يريد لأنه يلتمس الأسباب والبراهين؛ وأن الفكرة تلغي الإرادة وتشل الحركة وتنتهي بالحياة إلى سكون كسكون (النرفانا) عند الهنود؛ وأن الإرادة تتعلق بالفردية، أما الفكرة فتتعلق بالعمومية الشائعة في الكون كله. ومن ثم يجيء الفن والدين والعبقرية على رأس الفكرة ومن وراء الإرادة أو من وراء عالم الأعمال والحركات، فالمصير الذي يطوينا جميعاً ويطوي أعمالنا وآمالنا إنما هو الفناء أو ما يشبه الفناء

وفي مقال آخر سنطابق بين سيرة الرجل وفلسفته، وبين العرض والجوهر في هذه المطابقة. وحسبنا الآن وهم يحتفلون بميلاده في الثاني والعشرين من شهر فبراير أن نزجي إلى ذكراه تحية المودة والإكبار، وأن نهتف به: مرحى! ومرحباً صديقنا القديم من جديد!

عباس محمود العقاد

غريب الهوى

في عيد القمر

للدكتور زكي مبارك

أتذكرُ يا قلبي؟

أتذكر أن من الناس من يقول: (عيد الأضحى)، وأن منهم من يقول: (العيد الكبير)، وأن أهل سنتريس يقولون: (عيد القمر) كأنما عزّ عليهم أن يبقى القمر بلا عيد؟

ليت شعري أظلّ أهلي وأهلك يسمونه عيد القمر، أم تغيرت من بعدنا الأسماء؟

كان لي أهل، وكان لك أهل، يا قلبي

أما أهلي فبخير، وإن كانت أتوجع كلما ذكرت أن أولئك الأهل خلا ناديهم من وجه أبي؛ وكان لك أهل يا قلبي، ولكن أخبارهم غابت عني منذ أزمان. فإن كانت عندك أخبار فحدثني عنهم، فما أحب لك أن تعيش في دنياك عيش الغريب!

لا تكتم عني شيئاً يا قلبي، فم لك في الدنيا آس سواي. أما رأيت كيف كانت أحاديث الناس في هذا المساء؟ فما لقيني أحد من أعضاء المؤتمر الطبي إلا سألني عن صحة ليلى. وما أذكر أبداً أن أحداً سألني عنك! وكذلك جاز أن يسأل الناس عن صحة القاتل ويسكتوا عن فجيعة المقتول! والويل كل الويل للمغلوب

إن ليالي الأعياد ترجعني إليك يا قلبي

فهل تذكر يوم كنا طفلين، حين كان من المألوف أن يزور الناس المقابر وفي أيديهم المصابيح؟ وهل تذكر أننا سألنا مرة عن الحكمة في حمل المصابيح في الليلة المقمرة، ليلة عيد القمر، فكان الجواب أن الأموات يأنسون بالأضواء؟

فهل تسمح بأن أحمل مصباحاً في هذه الليلة، وأخرج معك لزيارة المدفون من أوطارك وأحلامك؟ ولكن أين المقابر التي دفنت أوطارك وأحلامك حتى أونسها بضوء المصباح؟ أين؟ لا أين، فإني أخشى أن تكون المقادير صنعت بأحلامك ما يصنع البحر

بما يُدفن فيه من سرائر القلوب!
حدثني أين دفنت أحلامك، فإني أعرف أنك قليل البخت في دنياك. ولو كان لك بخت لما جاز أن تبيت مشرد الأماني في ليلة عيد
قلبي، قلبي!
يرحم الله غربتك بين القلوب!
قلبي!
أتذكر ما صنعت في سبيلك؟
لقد فررت بك من سعير الحب في القاهرة، ونقلتك إلى بغداد: دار السلام، فهل كانت بغداد يا قلبي دار سلام؟ أم كان أسمها من أسماء الأضداد؟
لقد تجهمت أبشع التجهم حين وقع البصر عليها أول مرة، واستقبلتني بوجه يتطاير منه شرر القسوة والوعورة، فقلت: لا بأس، فهي هدنة يستجم فيها قلبي، ليقوى على مناضلة العيون حين يرجع إلى القاهرة. ولكنك استوحشت وأخذت تفتش عن (عيون المها بين الرصافة والجسر) وقد انخدعت لك فتركتك ترود مراتع الغزلان وأنا آمن، فقد كنت سمعت أن بغداد لم يبق فيها للحب سامر ولا أنيس، ثم وقعت الواقعة وأسرتك عيون المها بعد أسبوعين أثنين من قدومنا بغداد
قلبي!
لقد كان يعز علي أن تخرج من بغداد بلا هوى، فمن الفضيحة لبغداد أن لا تكون فيها عيون ترمي فتصيب، ولكني ما كنت أحب أن أحملك جريحاً محطماً إلى الأنامل الرقاق التي تعبت في تضميد جروحك بين مصر الجديدة والزمالك. وما كان يخطر بالبال أن تكون دار السلام دار حرب، وأن تتألب ظباؤها على قلب أعزل كان يرجو أن لا يعرف البلاء وهو ضيف العراق
من كان يظن أن هذه المدينة الجافية التي لا تعرف غير وصل النهار بالليل في سبيل الرزق أو المجد، من كان يظن أن مثل هذه المدينة تعيش فيها مباسم وعيون لا تتقي الله في الناس؟ من كان يظن أن ينعدم كرم الضيافة في بغداد حتى يستبيح ظباؤها انتياش قلبٍ غريبٍ لا يملك من وسائل الدفاع غير الأنين؟
أهذا جزاء الصنع الجميل في بغداد؟
أهذا جزاء من يملأ الصحف العربية بالثناء على العراق؟
سيعود ناس إلى أوطانهم صحاح القلوب، وأعود إلى وطني بقلب ممزق لم تبق منه غير
أطياف من الأشلاء
بغداد!
لقد كاد يسفر الصبح ولم تغف عيناي. أكذلك تكون ليالي الأعياد، يا بغداد؟ ليتني أعرف أين يقيم اللصوص الذين سرقوا النوم من جفوني! ليتني أعرف أين يقيم أولئك اللصوص فأنتقم منهم أشنع انتقام بتقبيل جفونهم في غفوات الليل!
بغداد!
خذي من نومي ما تشائين، بل خذي من دمي ما تشائين، فلن أنسى ما حييت تلك المؤامرة الوجدانية: مؤامرة العيون: عيون المها، على قتلي؛ فإن من الشرف أن يكون المرء قتيل المها في بغداد
إي والله! هذا الصبح يتنفس وما غفت عيناي. فهل تعرف الظباء التي كانت تعترض طريقي لتصرعني أنني لا أزال بين الأحياء؟
أنا أدعوها إلى مناضلتي مرة ثانية، وموعدنا بهو أمانة العاصمة يوم الأربعاء
أحبابي في مصر الجديدة والزمالك!
ناموا هانئين وادعين، وانهبوا ما شئتم من أحلام الأماني، فسأغفر لكم جريمة النسيان والعقوق
أحبابي في بغداد!
تذكروا أن الشاعر لم يعن أحداً غيري حين قال:
وكل محبٍّ قد سلا، غير أنني ... غريبُ الهوى، يا ويح كل غريب!
زكي مبارك

حدود الحق والواجب

للأستاذ عبد الرحمن شكري
مفتش التعليم الثانوي

إني أرى أن رقي كل أمة لا يقاس بما فيها من مسببات الرفاهية والثروة أو معدات القتال إذا كان احترام حدود الحق والواجب غير شائع بين أبنائها. فإنها إذا فقدت هذا الاحترام فقدت العروة الوثقى التي تعتصم بها للمحافظة على مسببات الثروة والرفاهية وللانتفاع بمعدات القتال والدفاع. وإذا عرضنا حياة الأمم وتاريخها الاجتماعي وجدنا أن مسببات الثروة لا تلبث أن تزول إذا كان نظامها الاقتصادي غير مؤسس على احترام حدود الحق والواجب. إنها قد تزدهر فيها الثروة حيناً، وقد يؤجل لها الخراب المحتوم زمناً ربما طال، وربما يغرها طول هذا الزمن الذي تستمر فيه رفاهيتها وثروتها بالرغم من ضياع احترام أبنائها لحدود الحق والواجب؛ وما طول تأجيل خرابها إلا لما يزال فيها من العناصر الصالحة والقوة المدخرة من عهد الماضي الصالح، كالقوة التي تدفع المرء إذا نزل من سيارة سائرة فيسير هو أيضاً بعد نزوله منها؛ وقد تكون خطوات سيره قليلة أو كثيرة، ولكنه إنما يسير إلى الأمام مدفوعاً لا مختاراً. وكذلك الأمة التي تنزل عن احترام حدود الحق والواجب إذا تقدمت فإنما يكون سيرها سيراً آلياً لا فضل لها فيه، ولا يلبث أن ينتهي، إلا إذا أدركتها أسباب جديدة تدعوا إلى استمرار سيرها. وينبغي ألا نستبطئ أو نستعجل انتهاء تقدم مثل تلك الأمة التي فقد أبناؤها احترام حدود الحق والواجب، فإن خطوات الأمم أطول مدى من خطوات المرء الذي ينزل من سيارة سائرة؛ وقد تستجد أمور تزيد خطوات سيرها إلى حين، وكلما كانت السيارة التي ينزل المرء منها أسرع في سيرها كانت خطوات المرء الذي ينزل منها أكثر.

وهذه الظاهرة تشاهد في أمور مختلفة من أمور الأمم، فهي إذا فقدت احترام حدود الحق والواجب لم يكن الخراب مقصوراً على حالتها الاقتصادية، بل هو يشمل أيضاً خراب الأسرة وخراب التعليم وخراب كل شيء. وكثيراً ما نرى في التاريخ جيوشاً أقل عدداً وعدة تهزم جيوشاً أكثر عدداً وعدة من جيوش أمة فقد أبناؤها احترام حدود الحق والواجب. وهذا لا ينفي انتصار الفريق الأكثر عدداً وعدة إذا ظفر الفريقان المتحاربان بقدر متكافئ من احترام حدود الحق والواجب

ولكن القارئ غير الملم بحقيقة الأمر ربما يظن أن انتصار جيوش الدول الأوربية على جيوش الدول الشرقية كان دائماً بسبب كثرة حظ الجيوش الأوربية من عدد القتال وآلاته الحديثة. نعم إن الأمر كان كذلك في معارك كثيرة، ولكنه لم يكن دائماً على هذه الحال. ففي واقعة بلاسي في الهند كان جيش سراج الدولة أكثر عدداً وعدة، وكان قد اشترى من الفرنسيين مدافع وأسلحة كثيرة، ولكنه - بالرغم من ذلك كله - دارت عليه الدائرة

وفقدان احترام حدود الحق والواجب يفسد أيضاً أداة الحكومة وأداة التعليم، ويفسد صلات أعضاء الأسرة الواحدة كما يوقع بين الأسرة والأسرة؛ وهذا الفساد وهذا الخراب لاشك من مظاهر التدهور مهما كان في الأمة من مسببات الثروة أو مظاهر الحضارة والتفكير والأدب. فمن المعروف في التاريخ أن مظاهر الحضارة والتفكير والأدب والفنون قد تزدهر حتى والأمة على حافة التدهور؛ وقد تستمر وهي آخذة في التدهور فنحسب هذه المظاهر نضوجاً، وإن كانت نضوجاً فهي نضوج العطن العفن كالفاكهة التي تعطن من كثرة النضج

ولقد كانت في أواخر مراحل الدول الإغريقية والرومانية والفارسية والعربية مظاهر كثيرة من مظاهر الحضارة والأدب والفنون حتى بعد أن أخذت في التدهور

ولاشك أن فقدان احترام أبناء الأمة لحدود الحق والواجب يفسد عليهم مظاهر الحضارة والتفكير والأدب، ولكن هذا الفساد قد يعمل في السر عمل السوس ولا يظهر في أعظم أشكاله خطراً إلا في النهاية. وفي بعض الأحايين لا يحترس أبناء الأمة ولا يأخذون الحيطة والحذر لمنع أسباب التدهور اغتراراً منهم بكثرة المدارس، وأنواع التعليم، وكثرة الصناعات، ورواج التجارة وانتشار التفكير، وكثرة المؤلفات والمؤلفين، وازدياد الأرض المزروعة، وغير ذلك من مظاهر الحضارة ككثرة المباني الشاهقة الحديثة، والشوارع المنتظمة، والميادين الفسيحة، والسيارات الفخمة، ومهيئات الراحة

. . .والرفاهية، ودواعي الاطمئنان وما يجلب اللذة والسرور
فإذا تنبه أحدهم إلى أمر ضروري وهو احترام حدود الحق والواجب وافتقده ولم يجده في النفوس بالرغم من كثرة المدارس والسيارات والعمارات والمنشآت وغيرها من وسائل
الحضارة، وإذا حذرهم وقال لهم إن افتقاده لابد أن يؤدي حتماً إما آجلاً وإما عاجلاً إلى التدهور والخراب - عدوه متشائماً وخدروا عقولهم تخديراً بأن يحسبوا أن يحسبوا أن وسائل الحضارة هذه من مدارس وعمارات وميادين وسيارات وغيرها لابد أن تجلب لنفوسهم هذه الصفة الضرورية وهي احترام حدود الحق والواجب، إذا كانت حقيقة ضرورية لا غنى عنها إذا أريد تجنب التدهور لأنهم لا يستطيعون أن يتصوروا كيف أن كل مظاهر الحضارة هذه لا تحميهم من التدهور والخراب إذا افتقد شيء غير مرئي ولا منظور وهو احترام حدود الحق والواجب
وهؤلاء الذين يأملون أن تعصمهم المنشآت والعمارات والسيارات والمدارس والميادين وغيرها من التدهور، لأنها في ظنهم لابد جالبة هذا الشيء المطلوب، وهو احترام حدود الحق والواجب، ربما كانوا أقل ضرراً من الفريق الذي يتبجح ويقول إن الحضارة الحديثة مؤسسة على عدم احترام حدود الحق والواجب، وإن كان هذا الفريق يصوغ قوله في قالب آخر فيقول مثلاً: ينبغي ألا نيأس، فإن التفكير الحديث قد قلب الأخلاق رأساً على عقب، وألغى الأخلاق القديمة وجاء بأخلاق تناسب رجل المستقبل. أو يقولون: إن الإنسان الذي يريد أن يكون رجلاً ينبغي أن يحرر نفسه من قيود الأخلاق القديمة. كأن الفلسفة الحديثة يمكنها أن تعطل سُنة من سنن الحياة، وهي سنة تدهور الأمم إذا فقدت احترام حدود الحق والواجب
ومما يدعوا إلى الأسف انتشار هذه النغمة بين بعض المثقفين المفكرين الذين كان ينبغي أن يكونوا أكثر فهماً لحقائق الحياة الثابتة والذين يستطيعون أن يروا كيف سرت هذه الحقائق في الماضي في حياة الأمم، والذين ينبغي أن يفهموا أن ما يدعون إليه من الأخلاق الجديدة ما هو إلا عدم احترام حدود الحق والواجب ذلك الاحترام الذي إذا فقد تدهورت الأمة التي تفقده كما يشهد التاريخ
وهناك فريق آخر أكثر صراحة وأكثر أثرة وهم يفهمون حقيقة الأمر، ولكنهم يقولون: الطوفان بعدنا. ويريدون أن يستفيدوا من فقد احترام حدود الحق والواجب، وأن يعيشوا بهذه الفائدة قبل الطوفان
وهناك فريق آخر يدرك حقيقة الأمر، ويحاول أن يزيل الخطر وأن يصلح الأمر، ولكن بقوة مشلولة، لأن الله إذا أراد بأمة سوءاً شل إرادتها وقوتها، وهذه الطوائف الأربع هي الطوائف التي تكون في الأمة التي فقدت احترام حدود الحق والواجب.
وإذا نظرنا إلى بلادنا وجدنا مظاهر الحضارة من مدارس ومنشآت وعمارات وصناعات وميادين فسيحة وسيارات، ووجدنا من يظن أن هذه الأمور تعصم من التدهور الذي ينشأ من افتقاد احترام حدود الحق والواجب، ووجدنا أيضاً طائفة من هذه الطوائف الأربع، ووجدنا أيضاً. . . فقدان احترام حدود الحق والواجب، والشواهد على فقدانه لا يمكن أن تحصى فهي كعدد الرمال على شاطئ البحر
ولكني سأقص على القارئ حوادث تدل على أن فقدان احترام حدود الحق والواجب أمر قد تفشى حتى في نفوس أرقى الطبقات.
والحادثة الأولى حدثت عندما كنت ناظراً لمدرسة ثانوية في الأقاليم، ورسب ابن أحد كبار رجال الإدارة وابن أحد كبار رجال البوليس في امتحان النقل. ويكفي أن نقول (أحد كبار الرجل) وكان رسوبهما في اللغة الإنجليزية، ورفض الأستاذ الإنجليزي مراقب تصحيح المادة أن يزيد درجتي الطالبين في الامتحان، والقانون يقضي أنه لا يمكن أن تزاد درجة إلا بواسطة مراقب التصحيح، والنظم الحديثة التي كانت سائدة وقت الحادثة تحرم على ناظر المدرسة أن يزيد هو الدرجة، فحاولت أن أطلع أحد الكبيرين على حقيقة الأمر، وعلى حدود حقوقي وواجباتي كناظر مدرسة، وعلى أن القانون يحرم عليّ زيادة الدرجة وإنجاح الطالبين، فقال أحدهم: أنا لا أفهم كيف أننا نتصرف في تطبيق قانون يتوقف عليه حياة الناس، ويتوقف عليه امتلاكهم لما يملكون، وأنت لا يمكنك أن تتصرف في تطبيق قانون (مدرسي) لا أقل ولا أكثر! ثم ذهب ولم يصدق قولي. والحادثة الثانية تشبه هذه الحادثة تمام الشبه، ولكنها حدثت في مدرسة قريبة

من القاهرة، فقد رسب أيضاً طالب في اللغة الإنجليزية، ورفض المراقب زيادة الدرجة وإنجاح الطالب، وأبى أبو الطالب، وكان من الوجهاء العظام، إلا أن يحمل لي ضغينة شديدة وأن يثير ضدي غيره من الناس وإن كنت لا أملك وسيلة قانونية لزيادة الدرجة إذا رفض مراقب اللغة الإنجليزية أو غيرها من المواد إنجاح الطالب. كما أني ما كنت أملك وسيلة لمنع مراقب التصحيح من إنجاح الطالب لو أراد إنجاحه، ورأى أنه يستحق النجاح، وفي هذا العجز عن منعه من إنجاح
الطالب ما يدل على العجز عن منعه من إسقاطه مادام يستعمل حقه القانوني ومادام الطالب يستحق التقدير الذي قدره له مراقب التصحيح
وقد اتضح لي أن أولياء أمور الطلبة في مثل هذه الأحوال يريدون أن يوسطوا بعض المشتغلين بالتعليم فيزيد هؤلاء النار أجيجا. وقد ذكرت الآن حادثة ثالثة حدثت في المدرسة الأخيرة وهي أن طالباً أهان أستاذاً فرفت الطالب بضعة أيام، فجاء إليّ والده وقريبه وهما من الأعيان ومعهما ثالث من المشتغلين بالعلم والتعليم، وحاولوا من غير تلطف بل بوجاهتهم ونفوذهم، وقبل أن يعرفوني بأنفسهم أن يحملوني على نقض ما أبرمت، ورأيت أني لا أملك حق السامح للطالب أن يهين أستاذه، فرضت، فحملوا لي الضغينة وكان أشدهم ضغينة ذلك المشتغل بأمر التعليم. وذكرت حادثة أخرى مثلها حدثت في مدرسة من مدارس الوجه البحري، وتدخل أيضاً أحد المشتغلين بالتعليم بخطاب شفاعة من القاهرة فتلطفت في رد طلبه، فحمل لي ضغينة العمر. والذي أعرفه أن الطلبة كانوا قديماً لا ينقمون العقاب المدرسي إذا عرفوا حسن نية موقعه، ولكن الحال قد تبدلت الآن لسوء قدوة الكبار. فإذا كان بين الطلبة من لا يحترم حدود الحق والواجب فقد لقنوا ألا يحترموه، بل لقنوا أن احترامه ضعة ومهانة. وكثيراً ما كنت أشاهد أن الطالب قد يتذمر من العقاب ولكنه يعود إلى الصفاء والولاء. أما الشفيع المخذول فإنه لا ينسى أبداً أنه قد رفضت شفاعته، وهذا كان قبل أن تسري طباع الكبار إلى الطلبة. ومن عجائب الدهر أن أشد الناس لوماً للطلبة وتعنيفاً لهم وذماً لسلوكهم في كثير من الأحايين أسوأ قدوة للطلبة، وهم على نفس الطباع والخصال التي يذمونها في الطلبة والتي سرت منهم إليهم، وهؤلاء هم الكبار على اختلاف طبقاتهم وأعمالهم.

عبد الرحمن شكري

من برجنا العاجي

يدهشني في حياة الملكة فكتوريا تلك الإرادة التي استطاعت بها أن تفصل بين (واجبها) كملك تحكم، وبين (قلبها) كامرأة تحب. إنها كانت مشغوفة بزوجها الأمير (ألبرت)، ومع ذلك أقصته أول الأمر في قسوة عن دفة الملك وشئون الحكم، وهو الرجل الذكي الواسع الاطلاع، فكانت تدرس هي معضلات الدولة وتتركه هو يقتل الوقت بالقراءة وعزف الموسيقى. آه! ما أحوجني أنا إلى مثل هذه المرأة التي تتركني أقرأ وأكتب وأسمع الموسيقى، وتنصرف هي إلى حمل المسؤوليات وحل مشاكل العيش. . . شيء آخر يعجبني في تلك الملكة العظيمة: إنها كانت تقرأ. إني أحب الملوك والقادة الذين يقرأون. تلك هي الوسيلة التي بها يعرفون حاجات شعبهم.

لقد قرأت فكتوريا بعض قصص (ديكنز) التي يصف فيها شقاء الطبقات الفقيرة، وأحست وهي في أبراج قصرها ما يعانيه ألوف من البشر يطؤهم ظلم أرستقراطية جامحة بعرباتها الفخمة وخيولها المطهمة، فأدركت من خلال سطور ذلك الأديب كيف أن في بلادها عالماً آخر مهملاً يئن من الجوع والبؤس ولا يلتفت إليه أحد. فتركت الملكة الكتاب وقامت صائحة مرتاعة لم يهدأ لها قرار حتى مدت يدها إلى أولئك المناكيد، فرفعت عن أعناقهم نعال الفئة الباغية، وأطلقتهم يعيشون في هواء الحرية والرخاء كما يعيش الآدميون. في مصر والشرق أيضاً بغي وبغاة، وظلم وظالمون من جميع الأنواع؛ وفيهما كذلك فقر وشقاء وجهل وظلام في كل ركن من الأركان. ولقد يسألني سائل: أين هو الأديب الذي يصف كل هذا البلاء، ويصور هذه الدنيا التعسة المهملة التي لم تمتد إليها يد إصلاح منذ أجيال؟ جوابي على هذا السؤال بسيط: هات لي من يقرأ، أحضر لك من يكتب. إن الطاهي لا يوجد إلا إذا وجد الآكلون. إن الشرق لن يتغير حتى يعلم قادته كيف يملئون أدمغتهم بكل ما يمكنهم من فهم حال شعوبهم. إن ربان السفينة لا يركب البحر قبل أن يعرف بعض أسرار الريح والماء ونجوم

السماء. فلنرج دائماً ممن يمسك بالزمام أن يمسك أيضاً بالكتاب

توفيق الحكيم

بين الوطنية والأممية

للأستاذ ساطع بك الحصري

مدير الآثار بالعراق

الوطنية من أهم وأقوى النزعات الاجتماعية المتأصلة في النفوس البشرية، ومع هذا فهي لا تسلم من أعداء وخصوم، يسعون إلى كسر قوتها وإزالة تأثيرها. . . إنني سأتحدث إليكم عن أهم أعداء الوطنية وأخطر خصومها. . .

عندما أقول (أعداء وخصوم) لا أقصد بقولي هذا (الأشخاص والأفراد) بل أقصد (الميول والنزعات). . لا أقصد الأشخاص والأفراد الذين يعادون وطنهم، ويخونون أمتهم. . بل أقصد الميول النفسية والنزعات الفكرية التي تعاكس الدواعي الوطنية، وتوجه العواطف والأعمال إلى اتجاه يخالف اتجاهها. . .

إن أهم وأعم الميول النفسية التي تعارض الوطنية وتعاديها بهذه الصورة هي (الأنانية). . لأنها توجه النفوس نحو المصالح والملذات الذاتية، وتحملها على تقديم هذه المصالح والملذات على كل شيء. . في حين أن (الوطنية) - بعكس ذلك - تدعو إلى (الإيثار) و (التضحية)، في سبيل الوطن والقومية. . إنها تطلب من كل شخص أن يحب وطنه ويخدم أمته بكل ما أوتي من قوة، وأن يضحي بشيء كثير من راحته وهنائه في هذا السبيل، حتى أنها تطلب منه أن يوصل هذه التضحية إلى درجة (بذل النفس والحياة) عند اللزوم. .

ولذلك نستطيع أن نقول: إن الأنانية تعمل على الدوام عملاً معاكساً لدواعي الوطنية. . فالوطنية لا تستطيع أن تنمو وتقوى دون أن تتغلب على الأنانية المعادية لها. . غير أن الأنانية لا تعادي النزعة الوطنية وحدها، بل تعادي جميع الفضائل والنزعات الأخلاقية، على اختلاف أنواعها. . فكسر قوة الأنانية ليس من الأمور التي تتطلبها النزعة الوطنية وحدها، بل هو من الأمور التي تتطلبها سائر النزعات الأخلاقية بأجمعها فنستطيع أن نقول لذلك: إن خلال النضال العنيف الذي يحدث بين الوطنية والأنانية لا تبقى الوطنية بدون أنصار. . . بل إنها تجد لنفسها عدة أنصار من سائر النزعات الأخلاقية التي تشترك معها في هذا النضال. . .

غير أن هناك بعض النزعات التي تعادي الوطنية دون أن تعاكس سائر الفضائل الأخلاقية؛ فالوطنية لا تجد لنفسها أنصاراً من تلك الفضائل خلال مناضلة مثل هذه النزعات، فتتحمل أعباء هذا النضال بمفردها بطبيعة الحال

أما منشأ هذه النزعات المعادية للوطنية فهو الآراء والمذاهب الفلسفية والاجتماعية التي تعتبر الوطنية من (النزعات البالية المضرة) فتدعو الناس إلى نبذها والتخلص منها

لعل أقدم هذه الآراء والمذاهب هي الفكرة التي تعرف في بلاد الغرب باسم الـ (كوزموبوليتيه) بمعنى (مواطنية العالم) - أو بتعبير أقصر (العالمية) - هذه الفكرة تدعو الناس إلى الترفع عن (النزعات الوطنية الخاصة) وتطلب إليهم أن ينزعوا إلى (حب العالم) دون أن يفرقوا بين مختلف الأوطان

أما الملاحظات التي تستند إليها (فكرة العالمية) فيمكن أن تلخص بهذه الكلمات:

ما لفرق بين الأوطان المختلفة؟ ألم تكن كلها من أجزاء الأرض التي نعيش عليها؟ وما قيمة الحدود التي تفصل الأوطان بعضها عن بعض؟ أفلم تكن كلها من الأمور الاعتبارية التي أوجدتها الوقائع الحربية أو المناورات السياسية؟ وما الفرق بين الأمم المختلفة؟ ألم تنحدر كلها من أصل واحد؟ أفلا يجدر بالإنسان - وهذه هي الحال - أن يسمو بأفكاره وعواطفه فوق الأوطان وفوق الأمم، فيعتبر الأرض بأجمعها (وطناً) كما يعتبر أبناء البشر بأجمعهم (مواطنين)؟

لقد مر - في الحقيقة - في تاريخ حياة البشرية عهوداً طويلة، كانت فيها (الرابطة الوطنية) ضيقة محدودة لا يتعدى نطاقها أسوار بعض المدن. كما كانت فيها الرابطة القومية محدودة المدى، لا يتجاوز تأثيرها حلقات بعض القبائل. فقد شهد التاريخ (الدور) الذي ارتفعت فيه الحدود من بين المدن التي كانت متحالفة، وانتفت فيه الضغائن من بين القبائل التي كانت متعادية. . . فتوسعت فيه فكرة الوطنية والقومية

إلى ما وراء حدود المدن ونطاق القبائل، فوصلت إلى الحدود التي نشاهدها في الحالة الحاضرة. إن سلسلة التطورات التي حدثت بهذه الصورة إلى الآن، تدل على أن هذا التوسع سيستمر على الدوام، فسيأتي يوم تندمج فيه الأوطان المختلفة بعضها في بعض، إلى أن يصبح (العالم) (الوطن المشترك) لكل الناس، كما تمتزج فيه الأمم المختلفة بعضها ببعض إلى أن تصبح (الإنسانية) بمثابة (القومية المشتركة) بين جميع أبناء البشر. وأما (النزعة الوطنية) التي نعرفها الآن فستزول حتماً بتقدم البشر وتسامي العواطف، وستترك محلها لعاطفة إنسانية، وأخوة شاملة. . . فيجدر بالمفكرين أن يسبقوا سائر الناس في استقبال هذا التطور الجديد، فيسموا بأنفسهم - من الآن - فوق الوطنيات الخاصة ويعملوا بهذه الصورة على تعجيل حلول عهد الإنسانية الحق. . .

هذه هي سلسلة الآراء والملاحظات التي تستند إليها فكرة (الكوزموبوليتية)، (فكرة العالمية). . .

لاشك في أن هذه الآراء لا تخلو من قوة جذب وإغراء: لأنها تفسح أمام الأذهان مجالاً واسعاً لأحلام الأخوة البشرية وأماني السلم الدائم، وتصور أما الخيال عالماً جديداً أرقى وأسمى من العالم الذي نعيش فيه الآن. . . فمن الطبيعي أن تستولي هذه الآراء - من الوهلة الأولى - على بعض النفوس التواقة إلى الكمال، ولو كان في الخيال. . .

فقد انتشرت الفكرة - فعلاً - انتشاراً كبيراً بين المفكرين في النصف الخير من القرن الثامن عشر. . . ولا سيما في ألمانيا، وحيث أصبحت النزعة السائدة في عالم الفكر والفلسفة. . فكان معظم الفلاسفة والأدباء - من كوته إلى لسينغ، ومن هردر إلى شللينغ - يقولون بها ويدعون إليها؛ فكان (كوته) - مثلاً - يترفع عن النزعة الوطنية، ويقول (وقانا الله إياها)، وكان (هردر) يعتبر الوطنية (من النزعات التي لا تليق بالمستنيرين والمفكرين). . .

ومما يجدر بالانتباه والملاحظة أن هذه النزعة الفكرية - مع انحدارها في الأصل من روح التشوق إلى الكمال - تتفق - في النتيجة - مع روح الاستكانة السلبية، وتكتسب لذلك قوة من ميول الأنانية الخفية. . .

لأن (فكرة الإنسانية والعالمية) نزعة أفلاطونية، لا تتطلب من الفرد عملاً فورياً وتضحية فعلية، في حين أن الوطنية نزعة واقعية تتصل بالحياة الحالية، وتتطلب من المرء أن يقوم ببعض الأعمال والتضحيات بصورة فورية؛ فالانصراف عن النزعة الوطنية، استناداً إلى (الفكرة الإنسانية) يكون بمثابة الانصراف عن الأعمال الإيجابية استكانة إلى الأوضاع السلبية. . ولهذا السبب يتفق هذا الانصراف اتفاقاً كبيراً مع روح الأنانية، التي كثيراً ما تتقنع بأقنعة خداعة تستر وراءها كثيراً من الميول النفعية. . .

لقد انتبه (جان جاك روسو) إلى هذه الحقيقة، فانتقد (الفكرة العالمية) بأسلوب لاذع، فقال:

إن بعض الناس يحبون أبناء الصين، لكي يخلصوا من الواجبات الفعلية التي تترتب (عليهم من جراء حب أبناء وطنهم الأقربين)

وعلى كل حال يمكننا أن نقول: إن فكرة (العالمية) انتشرت في القرن التاسع عشر انتشاراً كبيراً بسبب تشوق المفكرين إلى الكمال الخيالي من جهة. . . وبدافع ميل الناس إلى التخلص من ثقل الواجبات الفعلية من جهة أخرى

وهذا الانتشار صار عظيماً في البلاد الألمانية بوجه خاص؛ أولاً: لموافقة الفكرة لروح الفلسفة السائدة بين مفكري الألمان عندئذ، وثانياً: لعدم اصطدامها هناك بنزعة وطنية قوية بسبب انقسام الأمان إلى دويلات كثيرة، واشتباك منافع هذه الدويلات وأمرائها اشتباكاً يحول دون نمو النزعات الوطنية والقومية نمواً سريعاً. . . إننا نجد في إحدى الكلمات التي كان قالها المفكر الألماني (شله يجل) دليلاً قاطعاً على ما أسلفناه؛ فقد قال: من العبث أن نحاول تكوين أمة ألمانية، فالأجدر بنا أن نأخذ بالفكرة العالمية، ونخدم الإنسانية. . .)

واستمر الحال في البلاد الألمانية على هذا المنوال حتى غزوة نابليون وهزيمة (يه نا). . .

ولاشك في أن الانهزام الهائل الذي مني به الجيش البروسي في واقعة (يه نا) كان من أبرز نتائج ضعف النزعة الوطنية وانتشار الفكرة العالمية. . . فإن الجنود كانوا ينهزمون

من ساحة القتال تاركين أسلحتهم فيها دون أن يحاولوا استعمالها لصد غارة العدو الزاحف إلى بلادهم

غير أن كل ما حدث بعد ذلك بدد الأحلام العالمية والأماني الإنسانية التي كانت مستولية على النفوس. . . وأظهر لكل ذي عين بصيرة الفروق الهائلة بين (الوطن) الذي ينتسب إليه وبين غيره من الأوطان. . . وبين (الأمة) التي ينحدر منها وبين غيرها من الأمم. . .

فإن الذين كانوا انهزموا من ميدان القتال دون أن يستعملوا أسلحتهم لصد غارة الجيوش الأجنبية اضطروا - بعد بضع سنوات من تاريخ الواقعة - إلى الانخراط في سلك الجيوش المذكورة ليخدموا مآرب قائدها الخاصة. . . إنهم أرغموا على التجنيد وعلى العمل تحت إمرة قواد فرنسيين ليحاربوا - رغم أنوفهم - الدول والأمم التي أراد زعيم الفرنسيين الاستيلاء عليها دون أن يكون في كل ذلك أدنى مصلحة لهم ولوطنهم الخاص ولأمتهم الحقيقية. . .

وهكذا قد شاهد مفكرو الألمان بأعينهم أنه بينما كانوا يغطون في أحلام الإنسانية والعالمية استولت على بلادهم جيوش أمة بعيدة عن تلك الأحلام، ومتشبعة بروح الوطنية بأشد وأحد أشكالها، فأخذت تلك الأمة تسيطر عليهم وتستعبدهم، وتذيقهم أنواع الذل وتسوقهم إلى حيث تريد. . .

فكان من الطبيعي أن تنقلب الآراء والنزعات في ألمانيا انقلاباً هائلاً تحت تأثير الدروس القاسية التي ألقتها هذه الوقائع والنكبات. . وفي الواقع لم يمض على واقعة (يه نا) مدة طويلة، حتى تركت الفكرة العالمية محلها لحماسة وطنية شديدة ويقظة قومية جبارة. . . وهذه الحماسة الوطنية واليقظة القومية هي التي أدت إلى نهضة بروسيا المعلومة، وخلصتها من نير الفرنسيين ثم قادت الأمة الألمانية بأجمعها نحو الاستقلال والوحدة والقوة والعظمة. . .

ومن المفيد لنا أن نتتبع هذا التطور العميق فيما قاله وكتبه البعض من مفكري الألمان أنفسهم في ذلك العهد. . أود أن أذكر لكم مثالين بارزين: أحدهما من الحكماء وهو (فيخته) والثاني من الشعراء وهو (آرنت)

عندما يذكر اسم - فيخته - في ألمانيا، يتبادر إلى الأذهان الخطب الحماسية التي وجهها (إلى الأمة الألمانية) خلال أيام النكبات التي بحثنا عنها، تعتبر هذه الخطب من أهم عوامل النهضة في ألمانيا، ومن أقوى موجهات القومية فيها. . .

ألقى فيخته خطبه الأربع عشرة في مدرج جامعة برلين، عندما كانت الجيوش المحتلة تقوم باستعراضات متوالية في شوارع العاصمة البروسية وميادينها. . . تحتوي هذه الخطب على نظرات فلسفية في تاريخ حياة الأمة الألمانية، وأبحاث شيقة عن الحيوية الكامنة فيها وعن وسائل التربية التي تكفل تجديد حياتها. . . وكل هذه النظرات والأبحاث ترمي إلى غاية واحدة، هي استنهاض الهمم في سبيل بعث الأمة الألمانية، وإعادة بناء مجدها. .

إن خطب فيخته تنم عن روح وطنية متأججة، وتدعو إلى نزعة قومية متعصبة، ولاسيما الخطبة الختامية، فإنها تعتبر آية من آيات التحميس والاستنهاض. يوجه (فيخته) في خطبته هذه بعض الكلمات إلى الشباب، ثم إلى الكهول، ثم إلى رجال الدولة والمفكرين والأدباء، وأخيراً الأمراء، مصدراً كل واحدة من هذه الكلمات بقوله: (إن خطبي تستحلفكم وتبتهل إليكم. . .)

بعد ذلك يضطرم حماسة، فيقول لجميعهم: (إن أجدادنا أيضاً يستحلفونكم معي، ويضمون صوتهم إلى صوتي (ويأخذ في تصوير صوت الأجداد) بأسلوب حماسي جذاب. ثم يعقب ذلك بقوله: (إن أخلافكم أيضاً يتضرعون إليكم). ويشرح صوت الأخلاف بأسلوب مؤثر خلاب

وأخيراً ينهي الخطبة بكلمات تدل على شعوره بغرور قومي عميق: (. . . ولو تجاسرت لأضفت إلى كل ما تقدم قائلاً: إن القدرة الفاطرة أيضاً تستحلفكم وتستنهضكم. . . لأنه لم يبق على وجه الأرض أمة حافظت على بذور قابلية التكمل البشري بقدر ما حافظت عليه أمتكم المجيدة. . . فإذا سقطت الأمة الألمانية سقط معه الجنس البشري بأجمعه، ولا يبقى له أدنى أمل في السلامة. . .)

(يتبع)
ساطع الحصري
التاريخ في سير أبطاله
ابراهام لنكولن
هدية الاحراج إلى عالم المدنية
للأستاذ محمود الخفيف
- 2 -
يا شباب الوادي! خذوا معاني العظمة في نسقها الأعلى من
سيرة هذا العصامي العظيم
ما لبثت الأسرة أن رأت في عميدها (توماس لنكولن) ميلاً شديداً إلى الرحيل من (كنتوكي) إلى حيث يسهل عليه كسب قوته وقوتها مع اليسير من الجهد، وكان توماس من النفر الذين يضيقون بالجهد والذين يطلبون أكلاف العيش من أيسر سبلها فهو لذلك لا يكدح إلا مضطراً؛ وما فتئ يذكر اسم (انديانا) مقروناً بالخير والبركة وهو يزين لزوجه الرحيل إلى تلك الجهة، ثم ذهب فخبرها بنفسه وعاد بعد قليل يحمل إليها متاعه وأسرته. وما كان أسرعه بعد عودته في توطيد ما اعتزم! حزم متاع بيته وحمله على جوادين أعدهما لذلك، وكان ابنه (أيب) يركب معه على ظهر أحد الحملين، وتركب زوجه وابنته (سارا) على الآخر وقضوا في الطريق زهاء أسبوع يشقون في سيرهم الأحراج ويجتازون بعض مجاري المياه، فإذا جنهم الليل قام عميد الأسرة على حراستهم حتى ألقوا رحالهم آخر الأمر في (انديانا)
وشمر توماس لنكولن عن ساعديه وشمر معه أيب وأهوى بفأسه على الأشجار يقطعها ويشقها ويسوي فروعها وابنه يعاونه ما وسعه العون وهو لا يني يشق هاتيك الخشبة، ويقطع تلك ويشذب هذه، حتى تم له إعداد ما يلزم لإقامة كوخ تأوي إليه الأسرة، ثم دعا إليه بعض جيرانه ليساعدوه في رفع تلك الأخشاب بعضها فوق بعض. وكان رفع الأخشاب عملية يدعى إليها الجيران فيلبون في سرور وإخلاص، وكان يجري فيها من فنون اللهو والمزاح ومن ضروب التندر واللعب بقدر ما يكون فيها من مشقة ونصب
أقامت الأسرة في انديانا، وتركت موطنها في كنتوكي، وإنك لترى هذا الارتحال من مكان إلى آخر ومن مقاطعة إلى مقاطعة أشبه بتنقل البدو في الصحراء. ليس بين الحياتين من فرق إلا بمقدار ما يكون بين الغابة والبيداء، وبين البيت يتخذ من الشعر أو يقام من كتل الخشب؛ ومن ثم فليس بين المعيشتين من فرق من حيث أثرهما في الخلق والخيال إلا بقدر ما يقوم بين الطبيعتين من اختلاف
وكان لهذا الترحال أثره في نفس الغلام، إذ أخذ الوطن منذ ذلك الحين يتسع في نظره ويمتد حتى أصبح وطنه هو أمريكا كلها؛ فهو مرتحل أبداً مادام العيش يتطلب الارتحال، وهو متخذ من كل مكان وطناً يتصل بنفسه ويعلق بخياله، وظل ذلك شأنه حتى انتهت إليه زعامة الولايات جميعاً وحتى أخذ بيده مقاليد الحكم فيها
وكانت الحياة في انديانا سهلة لا تكلف الناس عناء ولا ترهقهم عسراً، إذ كانت تقوم على الصيد، وكانت الحيوانات موفورة في الغابات لمن يطلب الصيد، ولكن تلك المعيشة كانت إذا قيست إلى معيشة المدن بعيدة كل البعد عن أسباب الرفاهة، بل عن أبسط وسائل الراحة، وحسبك دليلاً على ذلك أن الملابس كانت ما تزال تتخذ من جلود الحيوانات، إلا في بعض الأحيان حين كان يغزل الصوف وينسج بالأيدي وفي الأكواخ، وأن البيوت كانت كما رأيت، وما كانت تفتقر إليه تلك الأصقاع من المتاجر أو سبل الاتصال أو دور الاستشفاء أو دور التعليم إلا ما كان منها في أبسط حالاته، أو غير هذه من مظاهر العمران المعروفة في غير تلك البيئة من البيئات
على أن الصبي كان مغتبطاً ببيته الجديد في أنديانا، يأنس بكثرة الجيران هنا، ويرى الحياة أكثر نشاطاً وأوسع مجالاً، ولقد جاء ذوو قرباه فأقاموا معهم حيث كانوا يقيمون. ومرت الأيام في هدوء وسلام وصفو، وكان كل يقوم بنصيبه من العمل لم يتخلف عن ذلك حتى الصغار؛ فهذا (أيب) وكان غلاماً قوي الساعدين - على نحافته - يبذر الحب في الربيع، ويشترك في الحصاد وقت الصيف، ويطعم الخنازير، ويحلب الأبقار، ويساعد أباه في أعمال النجارة؛ وهذه سارا تساعد أمها فيما لا يحسنه أيب من أعمال

البيت. وظل هذا حال تلك العشيرة مدة عامين
ولكن الزمن القاسي يأبى عليهم أن يظلوا في أمنهم وسكنهم فتنتابهم حمى مروعة ينوء بها
الناس والدواب، ويحار الكبار والصغار في أمرها وهم لا يجدون طبيباً. وهيهات أن يظفروا بطبيب إلا أن يقطعوا نيفاً وثلاثين ميلاً على الأقل. وهل كانوا يستطيعون أن ينتقلوا بضع خطوات؟. . . لقد هدهم المرض فرقدت الأم ورقد الجيران من ذوي القربى. ثم جاء دور أيب وأخته. . . وأخيراً حم القضاء ووقعت الكارثة فماتت الأم وقد أضنتها الحمى وفتكت بجسدها النحيل! ماتت الأم ورزئ أيب بأول صدمة من صدمات الأيام. وأي صدمة! لقد ضاقت في وجهه الدنيا، وأحس معنى اليتم إحساساً قويّاً زاد من وقعه ما فطر عليه الصبي من عمق الخيال واشتداد العاطفة. ولقد ظل واقفاً أمام تلك البقعة من الأرض التي دفنت تحتها أمه حتى تناوحت من حوله رياح المساء، ومشت في الأفق ظلال الطفل، فذرف الدمع سخيناً وعاد إلى الكوخ كسير القلب موجع النفس يحس كأنه غريب في هذا الوجود الواسع!
وكان قد سبق أمه إلى الموت أبوها وأمها، ذهبا كما ذهبت ضحية تلك الحمى القاسية، وعلى ذلك صارت ربة الأسرة سارا الصغيرة التي لا تزيد سنها على الثانية عشرة! وكانت سارا تخدم أباها وأخاها فيما يلزمهما من شؤون البيت؛ ولكن الرجل لم يطق صبراً على تلك العيشة، فترك - بعد سنة من وفاة زوجته - ابنه وابنته وصحبتهما طفلة دونهما في العمر هي بقية العشيرة؛ ثم عاد إليهم في عربة يجرها أربعة من الجياد! ونزلت من العربة سيدة يذكر أنه رآها قبل ذلك في كنتوكي، ونزل منها غلام وأختان له، وكانت تلك السيدة - كما عرف - زوج أبيه!
ودهش أيب لما رأى من متاع جديد! فقد رأى سرراً حقيقة وكراسي وخواناً ومائدة ومُدىً وسواها مما لم تقع عليه عينه من قبل بين جدران الكوخ. وسرعان ما توثقت عرى المودة بين الجميع، فكوَّن الصغار رفقة تربطها المودة والمحبة، لا يحسون جوراً في المعاملة من جانب ربة البيت الجديدة؛ فلقد كانت امرأة صالحة طيبة القلب، رقيقة العاطفة حلوة الشمائل، ذكية الفؤاد، ازدادت محبة في نفس أيب إذ رأى منها - فوق ما أولته من عطف - ميلاً إلى تعليم الصغار، وسمعها تجادل زوجها في ذلك وتصر على أن يذهبوا عصبة إلى المدرسة؛ وكان الزوج في بداوته يقدم الفأس على القلم ويضن بابنه وقد أنس من قوة ساعديه ومهارة يده أن يرسله إلى المدرسة وهو أحوج ما يكون إلى مساعدته، ولكن رأيها
تغلب في النهاية وسار الأولاد إلى المدرسة وكانت على مسافة ميل ونصف ميل من كوخهم
وفي المدرسة أقبل أيب على تعلم القراءة والكتابة إقبالاً لم يعرف له مثيل في قرنائه. أليس ذلك غاية مبتغاه ومنتهى هواه؟. لقد كان يعمد إلى قطع الفحم إذا عاد إلى الكوخ فيكتب بها على غطاء صندوق من الخشب تارة، أو على ظهر لوح الخشب الذي كانوا يحركون به النار تارة أخرى! يكرر ذلك في غير ملل مع صعوبة الكتابة بالفحم على مثل تلك الأشياء. وأنى له الحبر والورق إلا ما ندر من قصاصات رديئة كان يضن بها على التمرن فلا يخط عليها إلا ما يحسنه فيزهي به ويباهي. . . هكذا تعلم إبراهم لنكولن القراءة والكتابة!
لكن أباه لا يهتز لذلك ولا يهش له، بل إنه ليقطع عليه أكثر الأحيان هوايته فيستصحبه إلى الغابة ليعاونه فيما كان يراه أجدى على الأسرة من الأعمال. وهو يرى فيه الآن وقد ناهز الرابعة عشرة خير عون له إذ كان الفتى حاذقاً قوياً حتى لتبدو قوته مدهشة تحمل على العجب ما رأى الجيران مثلها قط فيمن كان في مثل عمره. ورأى فيه أبوه فوق ذلك قدرة على الرماية تجلت له في حادثة واحدة ولكنها كانت مقنعة: تناول البندقية ذات يوم وصوبها نحو فرخ بري فأصابه في مهارة وخفة. . . على أنه قد جزع وأخذه الرعب وندم على ما فعل، وعافت نفسه هذا الفعل وما فيه من قسوة، وما رآه أحد بعدها يصوب سلاحاً نحو مخلوق. . .
وما كان إذعان إبراهام لأبيه إذا دعاه ليصرفه عما مالت إليه نفسه، فكان يختلس الساعات فيكتب ويقرأ ويكتب ويقرأ والشوق يحدوه واللذة تدفعه حتى صار قادراً على تناول الكتب! وأول ما تناوله من الكتب الإنجيل وخرافات إيزوب وروبنسن كروزو

ورحلة الحاج. وكم كان لهذه الكتب من أثر في خياله ووجدانه، ذلك أن نفسه أخذت تتفتح للحياة كما تتفتح الزهرة أحست دفء الربيع ونوره وصفاءه! وتاقت تلك النفس الذكية إلى تاريخ العظماء، فقرأ حياة هنري كليي وحياة فرانكلن ثم حياة وشنجطون بطل الاستقلال وزعيم الحرية. ولقد كان جد معجب بهذا الزعيم العظيم مأخوذاً بما يطالع من مواقفه في حرب الاستقلال، مسحوراً بما تجلى في تلك الحرب منن أعمال البطولة. ولا يخفى ما تركته مثل هاتيك المطالعة من عميق الأثر في تلك النفس الوثابة الجياشة بأنبل المعاني

وعرف عنه وهو في السادسة عشرة من الشمائل ما لا يتحقق إلا للمصطفين الأخيار. كان

على قوة جسمه مضرب المثل في دماثة الخلق وعفة اللسان واليد، وكان حديث القوم في أمانته ونزاهته وسمو أدبه. تحدثت عنه زوج أبيه مرة فقالت: (لم يوجه إلى مرة كلمة نابية أو نظرة جافة، ولم يعص لي أمراً قط سواء أكان ذلك في مظهره أم في حقيقة أمره) ويروي عنه أنه استعار من أحد الجيران كتاباً عن وشنجطون لمؤلف آخر فأقبل عليه يطالعه حتى جن عليه الليل فوضعه في شق بين الكتل الخشبية في أحد جدر الكوخ فبلله المطر، فلما رآه في الصباح اشتد أسفه وحمله إلى صاحبه، وهو لا يقوى على الوقوف أمامه من شدة الخجل، ولا يدري كيف يعتذر! ثم بدا له فعرض على صاحب الكتاب أن يدفع ثمنه، وكان ذلك الثمن أن يأجره الرجل عنده ثلاثة أيام في عمل من أعمال الزراعة! وقد تم له ذلك فطابت به نفسه وصار الكتاب ملكا له، وذلك ما اغتبط له أشد الاغتباط

وراح يقرأ وهو يقتبل شبابه كل ما تصل إليه يده. يقرأ في ضوء النهار حتى ينقضي فيقبع في الليل إلى جانب الموقد يقرأ على ضوء اللهب! لا يكل له طرف ولا تأخذه سنة حتى لينسى طعامه وشرابه إذا كان حيال فقرة قوية أو حديث ساحر

ومالت نفسه إلى تفهم أسرار الحياة وهو بعد في تلك السن، فأخذ يتأمل ويتأمل، يلتقط جريدة قديمة فيقرأ فيها ما يعجب له ولا يفهمه، يقرأ عن الانتخابات وعن مسألة العبيد، ويسمع أشباه ذلك في الكنيسة وفي أحاديث الجيران فيعجب بينه وبين نفسه، وهو لا يدري كنه هذه الأشياء على وجه اليقين

وأخذ يدرس من كثب طباع الناس، وكانت له نظرة نافذة إلى أعماق الأشياء، وكانت نفسه بطبيعة تكوينها تنفعل للجمال والحق وتنفر من الشر وتنأى عنه. ولو رآه خبير بطباع البشر يومئذ لظن أنه حيال شاعر تنبسط جوانب نفسه، وتتهيأ لرسالة من الرسالات روحه. ولقد كان إبراهام يكتب الشعر يومئذ ويقرأه على خلانه؛ وصارت للشاعر بيرنز عنده مكانة سامية حتى لقد حفظ ديوانه عن ظهر قلب، وصار لا يقدم عليه شاعراً سوى شكسبير

عجيب حقاً أمر هذا الفتى الذي تنقسم حياته بين المدرسة وبين أعمال النجارة في الغابة، والذي يقرا مثل هذا النوع من الكتب قراءة تمعن وتمحيص! ولكنها العبقرية تفتح وتعلن عن وجودها بشتى الصور والأساليب، وهي هي الجوهر الثابت لا تدركه الأبصار وإن أحسته القلوب والعقول.

هو الآن يتخطى السادسة عشرة، طويل الجسم مديد القامة عريض الصدر، ولكنه نحيف تستوقف الأبصار نحافته كما يستوقفها طوله، وهو على نحافته قوي الجسم قوة ما توافت لمثله في هذه السن؛ وكأنما تجمعت تلك القوة في ساعده، فليست هناك دوحة تقوى عليه إذا هو أهوى بفأسه عليها. بذ أباه في قطع الأشجار وتسوية الأخشاب، وغالب أقرانه في الغابة حتى سلموا له بالتفوق مكرهين

وكانت هيئته وحشية بسبب شعره الأشعث المغبر وهندامه الساذج المتهدل، وتقاطيع وجهه المسنون الذي يبرز فيه الأنف بروزاً شديداً فيبدو كأنه أضخم من حقيقته، ولذلك ما كان يطمع ابراهام وهو في سن الأحلام والتظرف أن تنظر إليه فتاة نظرة ذي علق. . . وهل كان يتجه خياله إلى شيء من هذا؟ حسبه ما هو فيه مما هو أسمى من ذلك وأجدى

ولاحظ عليه أقرانه شيئاً من الشذوذ يومئذ، فهو يلقي بفأسه أثناء العمل في الغابة ويخرج من جيبه كتاباً فيقرأ ويقرأ في صوت جهوري كأنه خطيب. . . وهو يضحك أحياناً بلا سبب ظاهر وقد يعلو في ضحكه مبتدئاً من ابتسامة حتى يصل إلى قهقهة، وهو

على رقة عاطفته ورفق قلبه يقوم للجيران إذا دعوه بأعمال الجزارة فيقتل لهم الخنازير بوقذها في جباهها في جرأة وسرعة. . وبينا يرى الناس منه ذلك يعجبون العجب كله إذ يرونه يمد يد المساعدة إلى الضعفاء والبؤساء. لقي وهو في طريقه مع رفيق له رجلاً قد ألقاه جواده في الطريق وقد ذهبت الخمر بلبه، فمازال به يوقظه وهو لا يستيقظ ولا يفيق، فتبرم صديقه، فرد عليه أنه لا يستطيع أن يترك هذا الرجل على الرغم من سكره فريسة للبرد وحمله على ظهره إلى كنه؛ وأقام إلى جانبه ردحاً من الليل. وسمعه الناس يعلن عطفه على الهنود الحمر قائلاً إنهم أصحاب تلك الأرض وإنهم أخرجوا من ديارهم وأنهم لذلك جديرون بالرحمة والعطف!. ولم يقف به عطفه عند الإنسان، بل لقد أظهر غير مرة الرأفة بالحيوان، فوقف ذات يوم ينقذ كلباً وقع في الثلج وقد ناله في ذلك من التعب ما ناله. ورأى بعض خلانه يلعبون بسلحفاة أوقدوا على ظهرها ناراً فعنفهم وذهب من فوره فكتب موضوعاً في الرفق بالحيوان وقرأه على من صادفهم من جيرانه!

ومما يعرف من ميوله يومئذ ميله إلى المحاماة، ولعل مرد ذلك إلى حدبه على المستضعفين. عرف هذه المهنة حين قصد ذات يوم إلى جلسة قضائية في بلد قريب ليتفرج، وقد أعجب بدفاع أحد المحامين ودفعه إعجابه إلى أن يتقدم إلى ذلك المحامي مهنئاً، فاقتحمته عين المحامي المدل بنفسه وازدراه وهو يرى من هيئته ورث ثيابه ما يرى، ولم يدر أنه كان يزدري من سيكون يوماً رئيس الولايات المتحدة! ومنذ ذلك اليوم تاقت نفسه إلى معرفة القانون عله يستطيع أن يخطب ويدافع فينصر المظلومين، فلقد صار ذلك العمل محبباً إلى نفسه.

ولكن أنى له المال الذي يهيئ له سبل الدراسة والظهور في المجتمعات؟ أنى له المال وهو لا يكاد يراه. هاهو ذا يصنع قارباً بيديه ويحمل فيه بعض حاصلات إقليمه ليبيعها في سوق قريبة ولكنه يبيعها بثمن زهيد؛ بيد أنه حدث أن حمل في تلك الرحلة بعض الناس في قاربه من شاطئ النهر إلى حيث أدركوا قارباً بخارياً في عرض النهر، وما كان أعظم دهشته حين مد إليه أحدهم يده بقطعتين من الفضة كانتا تساويان ريالاً، وما كان أعظم فرحه بذلك. أشار إلى ذلك الحادث يوماً وهو في منصب الرياسة يخاطب صديقه ستيوارت فقال: (إني لم أكد أصدق عيني. ربما رأيت ذلك يا صديقي أمراً تافهاً، أما أنا فإني أعتبره أهم حادث في حياتي. لقد كان من العسير عليّ أن أصدق أني - وأنا ذلك الفتى الفقير - قد كسبت ريالاً في أقل من يوم؟ لقد اتسعت الدنيا في ناظريّ وبدت لي أكثر جمالاً؛ وازداد أملي وثقتي بنفسي منذ تلك اللحظة).

(يتبع)

الخفيف

المثل الأعلى للشاب المسلم

للأستاذ علي الطنطاوي

تتمة

هذه هي الصفة الأولى للشباب، وهذا هو المثل الأعلى فيها. تزوج ثم أحب زوجتك، وأوْلها قلبك، وامنحها عاطفتك. أما الصفة الثانية فهي البطولة، وحظ الشباب المسلمين فيها أوفى من حظوظ شباب الأمم. وعلى الشباب المسلمين واجب أضخم، ذلك أن المصلحين كانوا يتلفتون قبل عشرين عاماً فلا يرون حولهم إلا ظلاماً لا تسطع في ثناياه بارقة أمل، ونوماً (أو قل موتاً) لا ترى في خلاله أمارة حياة، وخيبة مستمرة في السياسة والعلم والعمل؛ ثم انجلت الحرب العامة عن جسم واحد، حاول الأقوياء الغالبون أن يخالفوا فيه سنة الله ونواميسه في كونه، فيجعلوا الرأس يحيا وحده، واليدين تعيشان وتفكران على استقلال، والقلب يصبح إنساناً برجلين؛ فقرروا أن تكون هذه الحكومات الكثيرات المضحكات في بلد مجموع سكانه أقل من نصف سكان لندن، فكأنهم جرَّبوا ألا يكون الواحد ربع الأربعة، بل يكون كل واحد أربعة كاملة!

كان المصلح يرى ذلك كله ولا يرى إلى جانبه ما يبعث في النفس أملاً أو يحيي فيها رجاء، فكان يتشاءم ويقنط؛ ولكن الزمان يا سادتي قد تحوَّل، وختمت يد القدرة المجلد الثاني من تاريخ الأمة الإسلامية، ذاك الذي سجلت فيه عصر الانحطاط والتأخر، وافتتحت اليوم المجلد الثالث من هذا التاريخ لتسجل فيه عهد البعث والتقدم. إن المصائب التي اشتدّت وآلمت، وتتالت وتعاقبت، قد نبَّهت وأيقظت، وحذرت وأنذرت،

فأفاقت شعوب هذا الشعب الإسلامي مذعورة تفتش عن طريق الحياة، وتبحث عن سبيل العمل؛ وظهرت بوادر يقظة قوية، ونهضة شاملة، ولكن (يا سادتي) ينقصنا الإيمان بهذه الحقيقة الواقعة فليكن اجتماعنا هذا تبشيراً بها ودعوة إليها. يجب أن نؤمن بهذه النهضة إيماننا بوجود أنفسنا، ويجب ألا يبقى فينا متشائم

لقد نهضنا، ولكن القافلة تجتاز اليوم أشدّ مرحلة من الطريق، وأخطر مغارة في هذه البادية. كانت القافلة تسير نائمة يقودها أدلاء جهلوا الطريق، وحادوا بها عن المحجة، وتنكبوا بها الصراط المستقيم، فلما سمعت صوت القدر على لسان أولئك الأعلام: الأفغاني، ومحمد

عبده، والقاسمي، والشيخ طاهر، والألوسي، وسعد، ورشيد رضا، وشكيب أرسلان، والرافعي وأمثالهم - أفاق منها من أفاق، فنهض وفتح عينيه من لم ينهض، وقال كلٌّ كلمته، فوقعت المعركة بين الداعين المصلحين والأدلاء الجاهلين، وانقسم الناس بينهم انقساماً؛ فكانت بلبلة، وكانت جلبة، وكان اضطراب، ولكن القافلة تمشي. . . تمشي على الطريق لأنها أفاقت، ومن أفاق وانتبه لا يتبع دليلاً جاهلاً

إن هذه النَّبتة على قوتها مختفية بين مئات من الأعشاب الجافة التي بقيت من الموسم الماضي، إنها ستشق طريقها من بينها وتحيا من دونها، لأن النبتة الجديدة أمُّ المستقبل: نصيبها الغد، وتلك الأعشاب بنت الماضي فستذهب مع الأمس إلى غير ما رجعة. إن صوت النهضة الجديدة، صوت الحق، ضائع الآن في الصيحات التي تُدوّي اليوم في الأسماع صدى للأصوات الماضية لا يلبث أن يخفت، لأن الصدى ينتهي، أما الصوت فإنه يبدأ

هذه النهضة واضحة، فآمنوا بها يا شباب، وانظروا إلى الحياة من ناحية الأمل المشرق الواسع لا من جهة اليأس الضيق القاتم

إن شبابنا متشائمون: اقرؤوا قصائد الشعراء من الشباب، إنها مليئة بالآلام، مغمورة بالكآبة، غارقة في الدموع. اسمعوا موسيقى الشباب كلها بكاء، كلها نحيب: يا لوعتي يا شقايا، ضاع الأمل من هوايا. . . فما لشعرائنا وموسيقينا الشباب لا يرون في الدنيا لذة ولا سروراً؟ لم يبصرون ظلام الليل ولا يرون بهاء الشمس؟ لم يفكرون في وحشة الخريف ولا يفكرون في روعته؟ لم ينتبهون إلى عُري الشتاء ولا ينتبهون إلى خشوعه؟ إن كلّ ما في الدنيا جميلٌ بهيٌ ولكن في عين الشاب الصحيح القوي. أما المريض، أما المسلول المحطوم، فلا يرى إلا الظلام. فيا شبابنا داووا نفوسكم من سُلِّ اليأس

لقد استدار الزمان كيوم ظهر الإسلام، واحتضرت الحضارة وكادت تأتي عليها مادية الغرب، فتذهب بها كما كاد يذهب بالحضارة الأولى تَفَسخ الحكومتين الكبيرتين فارس والروم. إن العالم اليوم بين حجري الرحا التي تطحن المدنية، وتتركها هباء منثوراً كما تكهن ولِزْ. العالم بين مادية الغرب وحياته الحديد الآلية وروحية الشرق الأقصى وفناء الهنود في ما وراء المادة، ولا سبيل إلى النجاة إلا بالنهج السوي نهج الإسلام

فيا شباب المسلمين تجردوا لأداء الواجب، وإسماع العالم صوت الإسلام

إن هذه الدور الذي تجتازه اليوم أمم الشرق الإسلامي، يشبه دور البعث (الرونِسانس) في أوروبا، وعلى الشباب أكبر الوجائب في هذا الدور

على الشباب واجب علمي هو أن يبعثوا المكتبة العربية القديمة بحلل جديدة، وأساليب مستحدثة. إن في هذه الكتب الصفراء علماً جماً ولكنه مطمورٌ تحت أنقاض الأسلوب الماضي. في كتب الفقه مثلاً ما يستنبط من القانون الأساسي، والقانون الجزائي، والقانون المدني، والقانون الإدراي، وقانون أصول المحاكمات، ولكن هذه الكتب موضوعة على طريقة لا نسيغها اليوم، ولا نألفها ولا تصلح لنا ولا نصلح لها، وإن كانت تصلح كل الصلاح في عهد من ألّفوها، فيجب على الشباب أن ينقطع منهم فئة إلى دراسة هذه الكتب وتفهمها، ومعرفة ما فيها، واستخلاص موادِّها العلمية، وعرضها بشكل جديد

إن الأساليب (يا سادتي) أزياء، وقد تبدل الزي اليوم، فليأخذ الخياط الماهر هذا الثوب القديم، وليصنع من قماشه ثوباً جديداً، على ألاَّ يضيع منه خيطاً واحداً. إن من العار أيها السادة أن تترقى أساليب التأليف في كل العلوم ونبقى نحن، في علومنا، على ما كنا عليه. إن الذين كتبوا هذه الشروح وهذه الحواشي وهذه التقارير عظماء أجلاء، لأنهم أنتجوا شيئاً، وعرضوه على أحسن شكل يألفه عصرهم، وليس عليهم من ذنب، ولكن

الذنب علينا، نحن الذين لا يؤلفون، ولا يشتغلون، ولا ينتجون، وإنما يعيشون عالة على أجدادهم كهذا النبات الطفيلي الضعيف الذي يتمسك بأقدام النخلة الباسقة

وإن على الشباب واجباً اجتماعياً هو أن يدرسوا الإسلام، ويكشفوا عن رأيه في هذه المعضلة الاجتماعية: إن العالم سيضيع بين الاشتراكيين والماليين الفرديين، ولا طريق إلى النجاة إلا الطريق الأوسط الذي يهبط عن خيالات الشيوعيين وأحلامهم التي لا تتحقق أبداً، ويترفع عن أفق الماليين الذين يستعبدون الناس بأموالهم، ويسخرون المجموع لمصلحة الفرد

وإني على يقين أن للإسلام القول الفصل في هذا الباب، ولكن أحداً من العلماء لم يكلف نفسه عناء البحث عن رأي الإسلام الاجتماعي

وإن على الشباب المسلمين واجباً أخلاقياً، هو إنقاذ العالم المتردّي في مهاوي الرذيلة التائه

في مهامه الظلام. ارفعوا منار الإسلام، وانشروا مكارم الأخلاق التي بعث نبيكم صلى الله عليه وسلم لإتمامها

أليس من العجيب يا سادتي أن يُسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن المؤمن: هل يسرق؟ هل يزني؟ فيجيب باحتمال ذلك، وإن كان نادراً، فإذا سئل: هل يكذب المؤمن؟ قال: لا. أليس من العجيب أن يجعل النبي صلى الله عليه وسلم الكذب ثلث النفاق، وإخلاف الوعد الثالث الثاني؛ ثم يكون في المسلمين اليوم أكذب الناس، وأخلفهم للمواعيد؟

أليس عجيباً أن يأخذ الإفرنج غير المسلمين أخلاقنا، فتكون لهم عادة وطبعاً، ويضيع المسلمون أخلاقهم؟

أليس عجيباً أن يقول الله في كتابه: (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين)، ثم يكون المؤمن أذل الناس في نفسه وأضيع الناس لكرامته، ويكون المسلمون أمة ذليلة بين الأمم، لا عزة لها ولا كرامة؟

فيا شباب المسلمين تخلقوا بأخلاق الإسلام وانشروها بين الناس وأنقذوا بها العلم

أتحبون بعد هذا أن ألخص لكم المثل الأعلى للشاب المسلم؟

بسم الله الرحمن الرحيم:

والعصر، (إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا) بالله وعلموا أنه الأول والآخر، وأنه المريد القادر، وأيقنوا أن كل شيء بإرادته، لا شريك له في ملكه، ولا شفيع عنده إلا بإذنه ولا يعلم الغيب إلا هو، فلم يغفلوا عنه، ولم يعبدوا غيره، ولم يقدسوا سواه، ولم ينتظروا النفع والضر إلا منه، وعلموا أن له جنداً لا نراهم وملائكة وجناً، وعوالم لا نبصرها، وآخرة وجنة وناراً، وسموات وعرشاً. . . وأنه بعث أنبياء وأنزل كتباً (وعملوا الصالحات) فأدوا حق الله عليهم من صلاة وزكاة وصيام وحج، وتقربوا إليه بالنوافل والأعمال الحسنة، وأدوا حق الناس فلم يتعدوا على أحد في ماله ولا عرضه ولا جسمه، وأدوا حق أهليهم ووالديهم ومن له فضل عليهم، وأدوا حق الأمة بالسعي في نجاحها وتقوية روابطها العامة، وضمان مصالحها المرسلة، والعمل على كل ما يرفع شأنها، ويعلي مقامها بين الأمم من علم أو فن أو صناعة أو زراعة، أو وعظ وإرشاد، أو تعليم وتهذيب، (وتواصوا بالحق)، أوصوا به نفوسهم، ووصوا به غيرهم، وتحروه في أمورهم، فكان

الحق إمامهم ودليلهم ورفيقهم وقائدهم ولم يكونوا من أنصار الباطل أبداً، فلا يقبلون من المبادئ والعلوم والفنون إلا ما هو حق لا باطل فيه (وتواصوا بالصبر) على أداء الواجب وعلى التواصي بالحق، واجتناب الباطل والابتعاد عن الرذائل مع منازعة النفس إليها، وإقبالها عليها. هذا هو المثل الأعلى للشاب المسلم: إيمان كامل لا شرك فيه، وتصديق بكل ما جاء من عند الله على مقدار ما جاء عند الله، وعبادات منزهة عن البدعة، وعمل صالح ينفع الفرد والمجموع، ودعوة إلى الحق وتمسك به، وصبر على تحقيق هذا المنهج، وأداء هذه الواجبات

علي الطنطاوي
المدرس في كلية بيروت الشرعية

مهداة إلى جماعة دار العلوم العليا بمصر

حلم!

في ملتقى العواصم
للأستاذ عبد المنعم خلاف

من مبلغ عني تلاميذ علم الإسكندري ومحبي شعر الجارم بمصر أني ظفرت بما لم يظفروا به وشهدت ما لم يشهدوا. . .؟ شهدت شيخ الأدب العباسي أستاذنا الجليل ومؤدب الجيل الشيخ أحمد الإسكندري الممتلئ بدنيا بغداد - يدب على أديم بغداد (ملتقى العواصم) ويناقل الخطو على مواقع أقدام الجاحظ. . . وعلى فمه ابتسامة عريضة شفافة أعرف معناها معرفة التلميذ معاني أستاذه. هي ابتسامة للأرواح والأطياف التي تطفر من رأسه الكبير لتعيش في جوها وملاعب وجودها الأول. . . أو هي ابتسامة الحاج إلى كعبة فكره ومعالم أنسه الروحي

ويشهد الأدب أني حين أدرس (العصر العباسي) في كلية دار العلوم بالأعظمية أو المدرسة المتوسطة الغربية، أستحضر صورة مجلسه في دار العلوم بمصر وإيمانه بهذا العصر وامتلاءه من علومه وآدابه وأخباره؛ ويشاء الله أن أراه في بغداد لأحظى بالصورة الكاملة للعالم والمعلوم

ومن مبلغهم أخرى أني رأيت للمرة الثانية قلب شاعرنا الموسيقي الممثل علي بك الجارم يرقص على الأجواء التي رقص عليها قلب النواسي والبحتري وابن الرومي وأبي تمام. . . في الضوء الذي بنوا منه أبياتهم الخالدة. . . ويسكب في أسماع أحفاد بابل سحر بابل. . . من الخمر التي عتقت ألفاً في دنانٍ من الأذهان. حادرة من إبريق إلى إبريق حتى رأيناها شيقةً ريقةً مترقرقة في فيه. . . ويهمس في أذن دجلة الراقدة، بصدى الأصوات البعيدة التي رفت عليها أيام أن كانت حدائق وبلابل وظلال وبنود، ومعسكر جنود، وسوامر إنشاد، وملتقى كل واد. . . وفي عينيه بريق وتحديق إلى السماء التي أوحت بكواكب الأشعار إلى مفرغي قلوبهم في قلبه، وباسطي اجتحتهم على خياله. . .؟!

إني رأيت ذلك كله. . . وكان لابد لي منه. . . كان لابد من الإسكندري في دار العلوم العليا بمصر حتى أعرف العراق في عالم الفكر ذي الوقود الأبيض. . .

وكان لابد من الجارم حتى أعرفها في عالم القالب ذي الوقود الأحمر. . . وكان لابد أن أراهما معاً في بغداد حتى تتم الصورة ويشبع الخيال الجائع فيمزج الثلج بالنار!

ولقد سمعت الجارم العام الماضي في رثاء الزهاوي ولكن جو الرثاء لم يكن طليقاً أمام هذا الطائر الصداح

ثم كان صباح المؤتمر الطبي العربي في (بهو أمانة العاصمة) ببغداد، وجلس شاعرنا قلقاً في مجلسه من فيض شعوره (بجو الساعة) الذي قذف في قلوب الجميع، حتى أبناء العلم والمخابير والمباضع، شعلة الشعر والإحساس بالتاريخ الذي يسير في الدم. . والحاضر الذي يخلق الثقة، والمستقبل الذي ينادي إلى العمل. وجلس الإسكندري يتفرس ويقلب الصور ويستحضر البعيد. . . من ابن سينا والرازي والزهاوي، وجلست أرقبهما وأرصد طرفي عليهما وأتسلل بقلبي إلى قلبيهما فيرجع بالذكرى بعيدة وقريبة.

ثم ابتدأ الجو الروحي بكلمة فخامة رئيس الوزراء جميل بك المدفعي التي يسجل بها ويقول - وهو رجل مسئول - (ولاشك أن وحدة النزعة العلمية والأدبية هي في الوقت ذاته تمثل وحدة الفكر والرأي بينكم وتؤلف منكم أخوة من أمة واحدة عبثا حاولت الحدود والحواجز أن تفرق بين قلوبكم وأهدافكم. . .)

ثم يقف بعد فخامته الدكتور شوكة الزهاوي رئيس الجمعية الطبية العراقية فيقول: (إن من جملة ما يقوم به هذا المؤتمر من الأعمال الصالحة هو توحيد صفوف أطباء العرب وجمع آرائهم حول مكافحة الأمراض ومعالجتها بالطرق الفنية فضلا عن أنه يقرب الأقطار العربية من بعضها ويبعث على تكاتفها وتعاضدها في مختلف النواحي الحيوية، وأعد هذا المؤتمر خطوة مباركة منبعثة من الشعور المتقابل ونتيجة من نتائج الثقافة العامة التي أخذت تتغلغل في بلادنا العزيزة وفاتحة عهد حافل بالأماني السامية. . .)

ثم يعقبه سعادة علي باشا إبراهيم بخطابه الجميل الذي يقول فيه: (ولعمري إنه لأسبوع مبارك ميمون الطلعة بوقوف الأطباء في بغداد إبان وقفة الحج في عرفات نضم إلى دعواتهم المتصاعدة إلى السماء في رحاب رسول الله (صلى الله عليه

وسلم) دعاءنا أن يبسط على بلاد الناطقين بالضاد ظل رضاه ونعمته وأن يوطد بالاتحاد سؤددها وبالعلم
(عروشها ويغمر بالسلام والصحة ربوعها
ثم يقف الدكتور كمال رحيمة فيرفع صوت سورية العربية المجاهدة العاملة بقصيدة عصماء برهنت على أن حرفة الأدب تتسلل دائماً إلى كل مهنة في سورية
ثم وقف الجارم يرسل قلبه في صوته المعهود الذي يخيل إلي أنه كله هاء عميقة. . . من فرط الشجو وإثارة النفس واستحضار المعاني الكامنة التي لا تظهر وتستعلن إلا إذا تلا لها ساحر رقية. . . أو عزف لها عازف برَنَّة. . . أو شدا لها شاد بحنة. . . أو خيل لها مخيل بريشة. . .
وقف يقلب وجهه في السماء والأرض والجهات الأربع في قلق وغيبوبة شاعر. . . ويمسح على أبصار الجمع بحركاته ويرسل نشيده، فيخيل إلينا من سحره أن كلماته أجسام تسعى. . . أو أمواج تطغى على قلوبنا فتملؤها بالذكرى الحادة، ثم بالفخر النافخ، ثم بالضحك المرسل؛ ثم بالعزم الممرِّس الدافع، ثم بالأمل القريب، فيخرج الدكتور زكي مبارك - طبيب ليلى المريضة بالعراق - عن طوره وعن حدود وقار الحفل فيستعيد ويطلب المزيد وبخاصة إذا جاء بيت فيه ذكر (الحسان) ووعود الحسان
ثم ينتهي الحلم السعيد بجوه الروحي وقلوبنا راقصة وأكفنا دامية؛ ويقبل الأدباء والأطباء على الجارم يطلبون منه ثمن دواء للأكف المتسلخة والقلوب الجريحة. . . ويقبل (طبيب ليلى) فيطبع على خدي الجارم بك قبلتين ذواتي رنين أدار الأبصار إلى مصدر ضجتهما. . . ثم ينقلب يفخر عليّ بأنه نال بهما ما لم أنل. . . ثم يرتد إلى الجارم بك يبشره بأنه من أول الداخلين إلى الجنة جزاء خدماته بشعره للغة القرآن. . . ولله في الدكتور زكي شؤون!
وكنت أرقب خلسة وجهي طبيبين أوربيين أخذا مجلسهما بجانبي، يستمعان في غير فهم إلى ما يقال، ويريان صداه صفق كف بكف وتلاقي هتاف بهتاف فاعرف ما يقول قلباهما الفقيران جداً إلى الشعور بمثل هذه الأخوة الملموسة المعلنة بين أبناء الشرق الإسلامي. . .
هنا الأخوة من غير دم. . . والواشجة من غير نسب. . . والحب من غير غرض. . . والتفدية من غير ثمن. . . والتلاقي من غير رياء. . . والكلام من غير خبئ يا أوربا!
هنا التاريخ لا يزال واحداً في العقول والقلوب واللسنة والأهداف حتى في وحدة الأمراض! كما يقول الدكتور شوكة الزهاوي
خذاها مني يا أستاذي تحية في نشوة الذكرى وسكرة الآمال أنا اليقظان أبداً. . . الساهد القلب أبداً. . . العائش في التاريخ أبداً. . . تاريخ المجد والحياة! ومعكما السلامة
(بغداد)
عبد المنعم خلاف
فلسفة التربية
كما يراها فلاسفة الغرب
الناحيتان الاجتماعية والنفسية
للأستاذ محمد حسن ظاظا
- 10 -
(لا يعيش المرء بالخبز وحده)
(الإنجيل)
(إن عقل الرجل ليضيق، وإن مشاعره إزاء غايات الإنسانية لتتحجر إذا ما قصر فكره على الحشرات، أو المعادلات الجبرية، أو تدبيب أسنان الدبابيس!)
(جون ستيوارت مل)
(لا كمال إلا باتحاد الجهد والشوق، وهنا يكون المرء سابحا (مع) التيار؛ أما الشوق دون ما جهد فطفو فوق التيار، كما أن الجهد دون ما شوق سباحة ضد التيار)
(هورن)
رأيت في المقال الآنف ما تستطيع أن تستفيده التربية من علمي الحياة ووظائف الأعضاء. وسترى اليوم فائدتها بالمثل من علمي النفس والاجتماع

الناحية الاجتماعية

وتتلو هذه الناحية ناحية الفسيولوجيا. والتربية هنا هي الأسلوب الذي يجعل الفرد مشاركا في حياة الجنس، ويعنى بعلاقته مع غيره من أعضاء الجماعة ومثلهم العليا. وعناصر هذه الناحية ثلاثة: الإدراك والوجدان والنزوع، أي الحق والجمال والخير.

1 - أما (الحق) فسبيله (العقل) الذي يبدأ بالمحسوس وينتهي بالمعقول، والذي تشمل علومه (الموضوعيات) و (الذاتيات) على السواء. وتعرفنا هذه (العلوم) بالعالم وتشجعنا على البحث وتحررنا من الأوهام. فدراسة الطبيعة مثلا تقوي فينا (الملاحظة) و (الاستقراء) وبعد (النظر) و (التجويد)، وتمكننا من السيطرة على القوى الطبيعية، وتنتهي بنا إلى فكرة (الوحدة) التي يندمج فيها الكون كله. ودراسة الرياضة تعطينا كما يقول المسيو فكرة واضحة عن (القياس)، وتنتهي بتفكيرنا إلى نتائج مؤكدة، وتبث فينا احترام الحق، وتقدم لنا أكبر أداة للبحث الدقيق في علوم الطبيعة. أما الفلسفة والأخلاق واللغة والفن والدين فقيمتها جميعاً عظيمة إلى أبعد حد وإن خلت من النفع المحسوس كما يتهكم دعاة (الخبز)!؛ ألم يقل الإنجيل (لا يعيش المرء بالخبز وحده)؟ أو لا ترتفع هذه العلوم بالمرء إلى عليين وتجعله فوق البشر؟

2 - وأما (الجمال) فسبيله العاطفة ويشمل الفن والدين. والجمال المحسوس وحدة تسيطر على كثرة، وتبدو في مادة تجسم معنى. وأرقى الفنون هو (الأدب)، وأرقى ما في الأدب (الشعر)، والعلاقة بين الفلسفة والأدب هي أن هذا يعبر عن الحياة بالإلهام، وتلك تعبر عنه بالمنطق؛ كما أن العلاقة بين الفن والدين هي أن هذا تعبير عن الشعور إزاء الشيء الإلهي، وذلك تعبير عنه إزاء الشيء الجميل. هذا وقيمة الفنون في التربية عظيمة بحيث لا سبيل إلى إغفالها. أليس الإحساس بالجمال أمتع شعور يستطيع أن ينعم به العقل؟ أو لا يمدنا ذلك الإحساس بقوة سامية تعيننا على الرفعة في الحياة؟ أو لم يعترف (دارون) بطل التاريخ الطبيعي المشهور في مذكراته الخاصة: أن انكبابه على (العلم البحت) قد افقده لذة ذلك الشعور العظيم بالجمال؟ أو لم يصرح بأنه لو ارتد صغيراً لأخذ نفسه كل يوم بترتيل قصيدة من الشعر، وسماع لحن من الموسيقى، ورؤية آية من آيات الفن لئلا يفقد على مر الزمن أسمى شعور بالسعادة يتاح للإنسان؟ وكذلك قيمة الدين في التربية عظيمة ولاسيما في هذا العهد المادي الجشع الذي يملأ الإنسان عتواً وغروراً. ذلك أن الشعور الأساسي في الدين هو الضعف والاعتماد، ويؤدي ذلك بنا إلى الإحساس (بالجوهر الخال) في أمثل صوره وأعظمها، وإلى الفناء فيه والرضا بقضائه وقدره فيسهل علينا احتمال الحياة، ونقدم على الكفاح فيها بقوة وبأس وإقدام. ولكن لما كانت دراسة الدين في المدارس تؤدي أحياناً إلى نزعات وعصبيات طائفية، فإن الأمل في (المعلم) وفي لباقته وحسن منزعه لم يزل كبيراً. ذلك أنه يستطيع أن يكون أمام التلاميذ (نبياً) لا شيخاً ولا حاخاماً ولا مطراناً!

3 - وأما (الخير) فسبيله (الإرادة) ويشمل الأخلاق والقانون والنظم والدساتير والتاريخ. ويرى (هيجل) أن هذا الأخير (التاريخ) (هو النحو الذي يكافح به الحق على مسرح الحياة، والذي تحقق به إرادة الإنسان إرادة الله)؛ أما الدساتير فهي إرادة الأمة ممثلة في وثيقة، وأما القوانين فهي إرادة الجماعة فيما يخص خيرها العام، وأما الأخلاق فهي كلمة الضمير فيما يخص قدر الإنسان وأعماله مع الناس، ومجال الحرية فيها أفسح وأسمى من مجال القانون. . . وقيمة هذه العلوم في التربية عظيمة أيضاً، إذ بها يعلم الناشئ مركزه في الجماعة ويدرك أنه غاية ووسيلة معاً، كما أنه يستمد من التاريخ ملكة الحكم الصحيح ويملأ ذاكرته وخياله بحوادث فريدة ومثل عليا وبطولات فذة؛ وهذا وغيره يجعله عضواً اجتماعياً يفهم ما له وما عليه، ويصدر أحكامه الخلقية والدستورية على المواقف المعقدة التي تعرض له فلا يكون مجرد (إمعة) يصفق لكل متكلم، ويتشيع لكل كاتب، ويعبد ما لا يستحق أن يعبد، ويتغير ويتحول بهبوب العواصف الطبيعية أو المصطنعة. . .! كما أنه يجعله طامحاً أبداً إلى أن يكون بطلاً هو أيضاً، فيقف موقف الجهاد الذي وقفه (وشنطن)، أو يصرخ صرخة الحق التي صرخها (سعد زغلول)!

وأما فائدة الجماعة ذاتها من التربية فلا تكاد تقدر - إذ هي تحفظ لها (الماضي) وتصونه كالحارس الأمين كيما تستطيع الأجيال أن تبني عليه لتعليه، وهي تصون الحاضر وتسعد

أهله وتقوي الرأي العام كما قال الزعيم وشنطن، وتحرر الناس وتضمن لهم حكومة صالحة. ثم هي تمحو الإجرام أو تقلله بفضل تنميتها للشعور والإرادة والمسئولية، وبفضل تحويلها النزعات الشاذة إلى نواح أخرى صالحة، وتقويتها الشعور ضد الإجرام. يقول الأستاذ (فالكنر) إن الإجرام يقل في الأمم المتمدنة من حيث معناه الأدبي، فإن وجد بعد ذلك إجرام بالمعنى القانوني فإنما مرجعه ظروف أخرى تقتضي الإصلاح والتعديل؛ وأخيراً تضمن التربية مستقبل الجماعة إلى حد كبير. أليس الإبقاء على الماضي الجدير بالإبقاء تحسيناً للمستقبل؟ أو لا يزيد امتلاكنا للطبيعة كل يوم بفضل ما ندخله على الماضي من تحسين؟ أو لا توجد علوم الطبيعة عملاً لملايين العمال؟ أو لا تخرج لنا أولئك العلماء الأفذاذ يخضعون البحر والجبل والهواء لإرادتنا؟ ثم إذا كانت التربية لا تخلق عبقرية الفنان أو العالم أو الفيلسوف أفليست تصيدها بشبكتها المحكمة؟ أو ليست تمدها بمادة الأزهار والإيناع؟

وإذاً فالتربية في هذه الناحية الاجتماعية، كما يقول الأستاذ هورن: (هي أحسن وسيلة للملاءمة بين الفرد وبين البيئة العقلية والعاطفية والإرادية)

الناحية النفسية

وأما هذه الناحية فتبحث في طبيعة النشاط العقلي، وفي نوع النمو العقلي، وفي صفات العقل النامي:

1 - فمن حيث طبيعة النشاط العقلي: يرى الجميع أن العقل أساس الإدراك والوجدان والنزوع، وأنه لا ينمو بغير عمل كما هو الشأن في كل شيء، وأنه مرتبط في نموه بنمو الجهاز العصبي وبدرجة احتكاكه بالوسط حوله، وأنه يحتاج فيما يتعرض له من تقليد وشوق وجهد إلى رعاية حتى يكون نموه كاملاً. فمثلاً يجب أن يرى الطفل مثلاً حسنة يقلدها، ويجب أن تكون المدرسة آية في النظافة والنظام والجاذبية والجمال حتى يرتاح إليها ويعمل بتعاليمها، ويجب أن تكون شخصية المدرس قوية تحمل النشء على احترامها وحبها والأخذ منها، هذا من حيث التقليد الذي هو إعلان للنفس يؤدي إلى الاستقلال

أما من حيث الشوق فيجب أن يكون موضوع الدراسة مثيراً لرغبة الطفل وحافزاً لاهتمامه، لأن ذلك كما يرى الأستاذ (شيرمان) أهم كلمة في التعليم. وأضمن سبيل لإثارة الشوق هو المدرس نفسه إذا كان محباً لمهنته ومتحمساً لمادته. وأما من حيث الجهد - وهو ما يبذله المرء في عمل لا يساير شعوره - فيجب - لتقويته - غرس الآمال العذبة البعيدة في نفوس الناشئين، ويجب تعويدهم مخالفة أهوائهم في أمور طفيفة كل يوم حتى تكون لديهم المناعة الكافية ضد كل إغراء دنيء. ويجب التوفيق بين الشوق نفسه والجهد بحيث يصبح الأول كالنسيم الذي يهب على سفينة حياتنا أحيانا، ثم ينحرف عنها أحياناً أخرى، فيقوم لنا الجهد حينئذ مقام المجاديف التي توصلنا إلى البر سالمين، ولنعتقد أبداً أن الكمال كائن في اتحاد الشوق والمجهود حتى يكون المرء سابحاً (مع) التيار لا فوقه ولا ضده. . .

2 - وأما من حيث نوع النمو العقلي فقد أثبت علم النفس أن هناك مراحل تجب رعايتها في حلقات التربية والتعليم حتى يكون النمو سليما. فالطفولة مثلاً تمتاز باللذة والألم وتزعزع الإرادة. وإذاً فلتكن التربية هنا حسية بحتة كثيرة التسامح واللعب. وفي الشباب الباكر تنمو الصداقة والحب، والطموح وروح الاجتماع، وإحساس الخير والجمال، كما تتذبذب الأخلاق وتسود العاطفة. وإذاً فلتكن الدراسة هنا مليئة بالتاريخ الطبيعي، والسياسي، وبالقصص السامي، وبكل ما يؤدي إلى سرعة الحكم ودقته، وإلى كل ما يتسامى بالعواطف والغرائز ويغرس روح المحبة والتعاون، ويرشد الناشئ إلى كيفية حماية نفسه مما يتعرض له من عادات سرية وسقوط خلقي وانهيار جنسي. . . (وإن كان لا يزال هناك من يعتقد أن التحدث في مثل ذلك للشبان وقاحة وفسق. .!!)؛ وفي الشباب المتأخر تتمركز الشخصية ويستقر العقل وتسود الوحدة. وإذاً فلتكن الدراسة هنا مرتقية إلى نظرات كلية جامعة لقوانين الوجود العامة. . . ويتلخص هذا كله في أن الطفل (يرى)، والشاب الباكر (يفهم)، والشاب المتأخر (يتأمل ويحكم)

3 - بقيت صفات العقل النامي، ويمكن إيجازها في أن التعليم نشاط وخلق لا تسلم وقبول، وتأمل وتفكير لا وعي وحفظ، وقوة معرفة أكثر منه معرفة فحسب: حواس

مرهفة، وعقل واسع المدى راغب في المعرفة بريء الاتجاه؛ وحب للحق المجرد عن التدجيل والتهويش؛ ومعرفة بالعالم لا تترك شيئاً فيه خرافياً، وإحاطة بالنفس بعد الإحاطة بالعالم؛ وخيال يقدم الفروض للعلم والإبداع للفن، والإحياء للتاريخ؛ وحكم مدرب حصيف عام النظرة منطقي الخطوات؛ وذوق جميل مهذب يدمج الإنسان في الكون ويجعله جميلا في كل شيء؛ وشعور أخلاقي راق يدرك الخير والشر، ويحكم على الخير والشر، ويلوح بساعد الإدارة القوية أمام كل إغراء حقير؛ وحب للعمل وتلذذ به؛ وإحساس بالسعادة يمتلك قوى الشخص جميعاً ويجعله يعيش هانئاً مطمئناً حي الضمير حر الإرادة جريء الجنان؛ واتفاق مع السماء واطمئنان للنهاية المحتومة التي تنقلنا من عالم ناقص إلى عالم كامل. هذا إلى تواضع نزيه، وعشق لأحسن ما في الحياة كله حماس؛ ووفاق تام مع النفس لا يترك في الشخص أدنى نزاع؛ وتعليم للغير هو رسالة النور تبدد ظلام الحياة؛ وحياة تفني النفس في الكون لا الكون في النفس، ولا تشغل المهندس أو الطبيب عن نواحي العيش الأخرى بما فيها من خير وجمال. . .

يقول (هكسلي): (للرجل المثقف جسم خاضع لإرادته، وعقل صاف متئد القوى سهل العمل مليء بما في الطبيعة من حق عظيم وقوانين كلية. هذا إلى امتلاء بالحياة المنسجمة الخادمة لضميره الحي، وإلى حب للجمال وكره للقبح، وإلى احترام للنفس وللناس، وإلى وفاق تام

مع الطبيعة يفيدها فيه ويستفيد منها، ويسير معها كوزيرها أو ترجمانها وهي كأمه الحنون)

وتكون التربية هنا هي (الملاءمة بين الرجل التام النمو الجسمي والعقلي، وبين بيئته العقلية والعاطفية والإرادية)

إمكان التربية

بقيت كلمة صغيرة نختم بها هذا البحث الذي مهدنا به لنقد التربية في مصر، وهي كيف تفسر الفلسفة إمكان التربية من الناحية الميتافيزيكية؟ يقول (كانت) في كتابه عن التربية: (إذا تدخل مخلوق أرقى منا في تربيتنا فلسوف نرى إلى أي مستوى يبلغ الإنسان، وإن الإنسان لا يصير إلى ما يستطيع أن يكونه إلا بالتربية. كما تسأل: أين هي النفوس التي فطرها الطبع على الشر حتى تبقى مستعصية على حزم أم رحيمة وسلطة أب محب؟). فترى هل يقوى المدرس حقّاً على التأثير في الناشئ، أو بالأحرى هل الإنسان (حر) حتى تصلحه التربية؟ أما العلم فيقول (بجبرية) المادة وباعتماد العقل - وهو أساس التربية - على (مادة المخ). . . فكيف إذاً نستطيع تغييره؟ ينقدنا الأستاذ (هيزنبرج) فيقول: (إن (جبرية) المادة نفسها موضع شك لأنا لا نستطيع التنبؤ بحالة (الأتوم) المستقبلة إلا بمعرفة مركزه وسرعته في لحظة واحدة. وذلك محال. . . ومع كل فهاهو الإنسان قد خلق لنفسه دنيا واسعة عريضة من التأمل، وسما بخلقه وتطور وتغير، وخرج على ما قد خالوه (قانوناً)، مما يثبت أنه (حر) بالفعل. وإذا قال قائل: إن العالم يسير وراء (غاية) خفية، وإن الإنسان كجزء منه مضطر أن يحقق (مجبوراً) هذه الغاية؟ سألنا: وهل تمنع (حريته) من تحقيق الغاية الكبرى إذا كانت هذه الحرية محدودة بحدودها الخاصة؟ إن القول بالغائية والجبرية الضيقتين يجعل الإنسان مجرد ألعوبة، ومسئوليته الخلقية مجرد تناقض محزن. يقول برجسن في كتابه: (الحرية تجربة راسخة وإن كان الفكر ينكرها)

(يتبع)

محمد حسن ظاظا
مدرسة الفلسفة بالمدارس الثانوية الأميرية

يسرني أن أسجل هنا شكري (للرسالة) الغراء على تكرمها بإفساح صدرها لهذا البحث المتواضع، وأعدها وأعد القراء الكرام بتطبيق الحقائق الآنفة على التربية في مصر ابتداء من العدد القادم إن شاء الله، وأرجو كل من يريد أن يتكرم عليّ بملاحظة ما أن يكتب إليّ على مدرسة شبرا الثانوية الأميرية للبنين

موت سقراط
للشاعر الفرنسي الكبير لامارتين
ترجمة السيد أحمد عيتاني

تذكر لنا الرواية اليونانية أن سقراط حينما حكم عليه بالموت أشار عليه أصدقاؤه بمغادرة أتينا والنجاة بنفسه، فأبى عليهم ذلك، وآثر الموت على الفرار. ولما قدمت إليه كأس السم تجرعها بجرأة ورباطة جأش، ولم يكد يفرغ من تناول ما فيها حتى أجال نظره بين أصحابه، فلمح عبراتهم تتساقط على وجناتهم حزناً عليه، وألماً لما حل به؛ فآلمه هذا المشهد، ووقف في أصدقائه خطيباً وهو في نزاعه الأخير، يشرح لهم الموت ونظرته إليه، ويطلب إليهم أن يكفوا عن البكاء. وقد نظر الشاعر الفرنسي الكبير لامارتين إلى هذه الرواية، فنظم حوادثها في شعر يفيض رقة وعذوبة وجمالا وسلاسة، وجعل عنوانها (موت سقراط). وفيما يلي خطبة سقراط بعد تجرعه السم، وهي من أروع ما جاء في هذه القصيدة الفذة

(أحمد عيتاني)

ماذا؟! أتبكون أيها الأصدقاء؟!
أتبكون وقد تحررت روحي من أثقالها الجسدية الدنيئة
فهي كالبخور تحرقه الكاهنة
على وشك الطيران نحو الآلهة؟!
أتبكون أيها الأصدقاء
حينما ترحب روحي بهذا اليوم الطاهر
الذي كانت تطمح إليه؟!
حينما توشك على السفر في رحله مقدسة
تبحث فيها عن الحقيقة
فتعثر عليها، وتتعرف إليها؟!
إذاً علام الحياة إذا لم يكن مصيرنا للموت؟!
علام أحببت الألم في سبيل العدالة؟!
علام كانت نفسي الحبيسة
تقاوم حواسها وميولها الدنيئة العنيفة
أثناء تلك الميتة التي تسمونها الحياة؟!
ماذا عسى تكون الفضيلة بغير الموت أيها الأصدقاء؟!
ذاك ثمن المعركة، ذاك تاج سماوي
يمنحنا إياه حكم زكي في نهاية المرحلة
إن صوت جوبيتر يدعوني إليه
ألا فلنقدسه أيها الأصدقاء
فإني أستمع إليه الآن!
لقد كان بوسعي، لو رغبت في بقية من الأجل
أن أحمل السماء على ترديد ندائها إليّ.
ولكن، لِتحفظني الآلهة من هذا!
فأنا حين تدعوني إليها ألبيها عبداً مطيعاً!
وأنتم أيها الأصدقاء: إذا كنتم تحبونني
فأريقوا على رؤوسكم العطور،
شأنكم في أبهج أعيادكم،
وعلقوا على حائط سجني قرباناً،
ثم خذوا بيدي نحو ذراعي الموت،
وقد توجتم جباهكم بأطواق الرياحين
كما يؤخذ بيد العريس الشاب إلى سرير زفافه،
وقد أخذت الجموع المتدافعة
تنثر أمامه الأزهار، أمام عتبة عروسه!
وبعد، فما الموت؟ إن هو إلا تحطيم هذه العقدة الدنسة؛

إن هو إلا فسخ هذه الاقتران الشائن بين الروح والأرض؛
إن هو إلا إزاحة عبءٍ ثقيل نرمي به في القبر!
إن الموت انتقال أيها الأصدقاء، وليس فناء!
والإنسان مادام رازحاً تحت هذا الجسد المقيد به
يزحف بعناء عظيم نحو الخير الحق.
ومادامت رغباته السافلة تقطع عليه هذا المسير
فسيسير وراء الحقيقة بخطوات راجفة، وربما أضاعها أيضاً!
ألا إن من يصل إلى آخر حياته التي يرجوها
ويبدو له شعاع فجر يومه الأبدي
ليعودُ ثانية نحو السماء، وكأنه شعاع من أشعة المساء!
ويرتدُّ ثانية إلى جوار الآلهة، بعدما أقصى عنها
حيث يحتسي بشَرهٍ ذلك الرحيق المسكر
ويبدأ حياته من ذلك اليوم الذي يقضي فيه!
ألا إن الموت ألم، والألم شر أيها الأصدقاء!
ولكن ما يدرينا ذلك؟!
ولو كانت ساعة الموت الرهيبة
ساعةً يتألم فيها جسمنا الفاني
كما تتألم الضحية الذبيحة
أو ليس عن الشر يصدر كل الخير؟!
إن الشتاء ليتمخض عن الصيف، وإن الليل لينكشف عن النهار!
لقد وضع الله تعالى بنفسه هذه السلسلة،
ونحن، وقد جئنا إلى هذه الحياة على الرغم منا؛
فليست هذه الميتة الهانئة التي يرهبها ضعاف النفوس
إلا ابتداء حياتنا في العالم الخالد!
ولكن، أيكفي أن نموت لنبعث ثانية؟!
لا! بل يجب أن نحرر أنفسنا من نير حواسنا
ونعملَ لنصرتها على ميولنا الفانية!
يجب أن تكون حياتنا هذه موتاً طويلاً!
إن حياتنا معركة، والموت انتصار لنا فيها!
إن الأرض لدار يطهر فيها الإنسان نفسه؛
فعليه، وهو فيها على عتبة الموت قد تجرد عن حواسه،
أن يقذف إلى النار بثوبه المدنس
قبل أن يتقدم بروحه، ضحيةً طاهرةً
إلى الآلهة الزكية في الدار الصالحة!
إنهم (الأشخاص الصالحين) يلحقون بالأبطال والآلهة لدى الإشارة الأولى!
يلحقون بهم في السماء حيث لا يوجد موت!
إنهم يلحقون بهؤلاء الذين دمروا شهواتهم إبان حياتهم القصيرة
فأخضعوا المادة للعقل وأذلوها له.
هؤلاء الذين خضعوا للشرائع والقانون،
وأصغوا إلى صوت ضميرهم الداخلي،
واتبعوا طريقاً سوياً بعيداً عن الناس،
وخدموا الآلهة وعبدوها، وفي ذلك أصل الفضيلة،
وأحبوا الحقيقة، وتألموا للفضيلة،
فاستعادوا حريتهم من الآلهة ابنة السماء
أحمد محمد عيتاني
عضو بعثة جمعية المقاصد في معهد التربية
الترجمة
خطرها وأثرها في الأمم المختلفة
للدكتور عبد العزيز عزت

عند الرومان - 2

ونجد أثر الرواقيين والأكاديمية الجديدة في كل كتبه الأخرى وعلى الخصوص في (غايات الخير والشر) وهو أهم كتاب لشيشرون بإجماع مؤرخي الفلسفة، ويشرح فيه الأخلاق النظرية، وهي ترتكز على حرية الإرادة التي تتضمن سياسة النفس الفردية وانسجامها مع منطق المجتمع البشري، وتفهم إرادة الوجود العالمي الذي فيه الإنسان جزء بسيط في مرتبة الكائنات المختلفة التي تتسلسل في درجات متصاعدة حتى تبلغ القداسة السماوية. كذلك في كتابه الواجبات ويشرح فيه الأخلاق العملية معلناً أن مغريات الحياة الخارجية أعراض زائلة يجب الزهد فيها، ويجب التماس النافع منها لتقوية روح الإنسان لفعل الخير ومقاومة الشهوات الجامحة والانفعالات الثائرة، كي يصل الإنسان إلى تلك الجنة النفسية الداخلية التي يصورها الرواقيون في تفكر الفلاسفة والحكماء، وكذلك في (طبيعة الآلهة) حيث يعرض للإلهيات والطبيعة. وبينما يتأثر في الجزء الأول منها بأبيقور ومذهبه في اللذة في مجال الأخلاق وفلسفة الطبيعة عامة، يتأثر في الجزء الثاني بفلسفة الرواقيين من حيث خلق العالم وترتيب نظامه وعناصره ومخلوقاته، ثم هرمه وتناقصه حتى المبدأ الفطري الأول حيث تحصل الطهارة ويخلق العالم من جديد وتتم دورة نظامه. وهو أهم هذه الأجزاء لأنه يبسط آراء كريزيب وكلبانت، وفي الجزء الثالث يحدثنا كوتا عن آراء أرسطو

وبجوار ذلك ترجم شيشرون الكتب الآتية من أولها لآخرها وهي كتاب لزينوفون، (ولقد ضاعت هذه الترجمة) وكتاب البروثا جوراس لأفلاطون وهي من كتب عهد الصبا حيث يتأثر أفلاطون بتعاليم سقراط الأخلاقية إذ يتساءل فيها عن صفات الفضيلة: أهي طبيعية فينا أم هي مكتسبة بالتعلم والتمرين والعادة؟ (ولقد ضاعت هذه الترجمة)، وترجم لأفلاطون كذلك كتابه العظيم الخالد، الذي يلخص كل فلسفته وكل العلم اليوناني حتى زمان أفلاطون

وهو كتاب (طيماؤوس) وفيه يتكلم أفلاطون عن رحلاته وعن روح العالم، وكيف تتوسط بين الخالق الفنان وبين سائر المخلوقات التي تنتظم في ترتيب يحقق جمال عالم المثل. وبعد أن يعرض لطباع المخلوقات بالتفصيل مبتدئاً من الله ومعقباً بالعالم السماوي ثم بالإنسان والحيوانات والنباتات والجمادات، يمهد لرأيه في السياسة الذي يبسطه بعد ذلك في (جمهوريته) وفي نواميسه. (فطيماؤس) هذا هو أهم كتاب في نظري تركه العالم اليوناني وسار سواء في العالم الروماني عن طريق شيشرون أم في العالم العربي بعد ذلك حيث ترجمه حنين بن إسحاق وأصلحه يحيي بن عدي كما يؤكد ذلك العلامة لكليرك في كتابه (تاريخ الطب عند العرب) الجزء الأول، وكما يؤكد القفطي في مقالته عن أفلاطون في أخبار الحكماء. ولقد شرحه أخيراً بالفرنسية أستاذنا العلامة ألبير ريفو في مجموعة بيدي

فمؤلفات شيشرون بنوعيها سواء المترجم منها أم التي يسودها الترجمة في أغلب أجزائها تدل دلالة واضحة على أنه لا أهمية لشيشرون كمؤلف، لأنه لم يضف شيئاً جديداً إلى ما قاله اليونان القدماء. وهذا راجع إلى أن عقلية الرومان عقلية عملية تهتم بالحياة الجارية أكثر من الحياة الفكرية، وبحياة الفتح والغزو أكثر من حياة الاستقرار والإنتاج، وبحياة القهر والاستعباد والقانون والعقاب أكثر من حياة الحقيقة المجردة والخطأ الفكري وإصلاحه وواجب الفضيلة وتأنيب الضمير. عقلية تمتزج بعوارض الدنيا، وإذا أرادت أن تتحرر من قيود المادة هامت على وجهها في ميدان العقل. فنجد مثلا شيشرون يخطئ في التعليق على آراء الفلاسفة كما يفعل عندما يتكلم عن عناصر المادة في الكاديميك. مما دعا العلامة تيوكور في رسالته لدكتوراه الدولة أن يصفه بأنه فيلسوف بالواسطة لا بالذات. وأهمية شيشرون في نظر هذا العلامة تنحصر في أن مؤلفات شيشرون تكوّن موسوعة لا يسبر غورها لفلسفة اليونان وخصوصاً للفلاسفة الذين جاءوا بعد أفلاطون وأرسطو مباشرة وضاعت كتبهم أي الفلاسفة الرواقيون، لأن العلامة لوسيان ليفي في شرحه (لنواميس) شيشرون يذكر أن لكريزيب نحو ستمائة كتاب أغلبها إن لم يكن كلها قد فقد. ولخلق مثل هذه الشخصية العظيمة يرجع أستاذنا إميل برهييه , في كتابه عنه إلى شيشرون في كل صفحة من صفحاته. ولزيادة الدقة في البحث نذكر أن الكتب الرواقية المفقودة والتي نستعيض عنها بمؤلفات شيشرون هي كتب الرواقيين القدماء أي زينون وكلبانت

وكريزيب، وليست كتب الحديثين منهم أي بنيتيوس وبسدونيس الذين كادوا يعاصرون شيشرون في زمانه، ونحن في هذا نعتمد على رأي العلامة جورنز
ويجب ألا يتطرق إلى ذهن القارئ أن ضعف شيشرون في هضم الفلسفة يرجع إلى عيب في مداركه، فللحكم عليه يجب ألا نتأثر بحالتنا الراهنة للفلسفة في أوروبا، وإنما يجب أن نرجع إلى حالة الفلسفة في عهده. فسنجد أن ما نسميه الآن ضعفاً كان قوة، وكان هو سيد العبقريين في زمانه بين أهله وعشيرته، بل إن ما نسميه الآن ضعفاً كان فضيلة لها ميزتان: الأولى أنه أخلص لعبقرية جنسه فأثبت أنه عريق في الرومانية يمت إلى أهله بأصل ثابت، فلم ينفرد عنهم بقوة التجريد. الثانية أنه لم يتصرف فيما نقله عن فلاسفة اليونان فكانت مؤلفاته أو بالأحرى (ترجماته) خير معبر صادق عما ضاع من نصوص، وخير معين على تتبع حركة الفكر عند اليونان دون ضياع حركة ما
ويجب أن يعلم القارئ مع ذلك أن شيشرون لم يكن فيلسوفاً (محترفاً) وإنما كان على وجه الخصوص سياسياً ماهراً وخطيباً مصقعاً لم يعرف التاريخ له مثيلا، وأنه اتخذ من الفلسفة وسيلة لتدعيم مركزه في الأوساط الرومانية وبين أعضاء مجلس الشيوخ برومة، فكلما حيل بينه وبين منبر الخطابة ذهب إلى الفلسفة ليشرح إلى بني وطنه أصول المعرفة فيتصل بهم عن طريق العقل والآراء فلا ينسونه وهو بعيد عن حظيرة السياسة، كذلك وجد في الفلسفة وسيلة لتربية ابنه، وسائر أبناء وطنه فهو يقول: (إذا كان الخطيب المصقع له الحق أن يعلم ذلك الفن الذي أثبت قدرته فيه، مرات، فللسياسي الحق أن يلقن شباب المستقبل بعضاً من المبادئ والدروس البالغة) (إقراء لكليرك (مؤلفات شيشرون الجزء الثاني عشر صفحة 3)). ويذكر العلامة بيشون في كتابه (تاريخ الأدب اللاتيني) أن شيشرون اتخذ من الفلسفة وسيلة لتفهم القانون الروماني الذي ساد في زمانه واستيحاء هذا القانون خلال تلك المبادئ العقلية في خلق فلسفة سياسية نجدها في جمهوريته ونواميسه. والفلسفة بعد ذلك كانت وسيلة للعزاء في آخر حياة شيشرون لأنه فقد زوجته بعد حياة ثلاث وثلاثين سنة واضطر إلى الزواج من أخرى صغيرة السن لم تستقم سيرتها مع ابنته التي ماتت بعد ذلك في شبابها المبكر؛ فلزم الحزن وسطر كتابه (التأسي) (اقرأ القسيس العلامة برتران في كتابه (منتخبات من مؤلفات شيشيرون في الفلسفة)) وعليه فالفلسفة عند شيشرون لاحقة
بالسياسة وتابعة لها وهي وسيلة عنده لا غاية، وإن كان هذا يقلل من قيمته كمؤلف إلا أن مؤلفاته لنفس هذا السبب ذات قيمة تاريخية عظيمة جداً.
ومهما يكن من شيء فشيشرون في جملة القول يتأثر فيما يبسطه في كتبه بمذهب الرواقيين ومذهب الأكاديمية الجديدة؛ وإن مؤلفاته تحل محل المؤلفات اليونانية الضائعة فلا تضيع حركة تاريخ الآراء والمذاهب عندهم. ثم إن لمؤلفاته قيمة أخلاقية إذ شرحت للناس طوال القرون الوسطى في أوروبا أصول الفضائل العملية والنظرية لأن أفلاطون وأرسطو لم يعرفا على حقيقة أمرهما إلا عن ترجمة آباء الكنيسة للتراث الإسلامي، وبمساعدة علماء اليهود في إسبانيا إبان القرن الثالث عشر الميلادي. ولها في النهاية قيمة أدبية لأن أسلوب شيشرون له مميزاته، فهو يبسط الآراء لا في شكل متتابع بل في شكل حوار؛ فهو يقلد أفلاطون في ذلك، ولم يخرج عن هذه القاعدة من مؤلفاته إلا الـ أي الواجبات؛ والـ أي المحيرات

عبد العزيز عزت
عضو بعثة الجامعة المصرية لدكتوراه الدولة
في المؤتمر الطبي ببغداد
بغداد

للأستاذ علي الجارم بك

بغداد! يا بلد الرشيدِ ... ومنارة المجد التليدِ
يا بسمة لما تزل ... زهراء في ثغر الخلود
يا موطن الحب المق ... يم ومضرب المثل الشرود
يا سطر مجد للعرو ... بة خُط في لوح الوجود
يا راية الإسلام والإ ... سلام خفاق البنود
يا مغرب الأمل القد ... يم ومشرق الأمل الجديد

يا بنت دجلة قد ظمئ ... ت لرشف مبسمك البرود
يا زهرة الصحراء رد ... ي بهجة الدنيا وزيدي
يا جنة الأحلام طا ... ل بقومنا عهد الرقود
يا بهرة الملك الفسي ... ح وصخرة الملك الوطيد
يا زورة تحيي المنى ... إن كنت صادقة فعودي
بغداد يا دار النهى ... والفن، يا بيت القصيد
نبت القريض على ضفا ... فك بين أفنان الورود
سرق التدلل من (عنا ... ن) والتفنن من (وحيد)
يشدو كأن لهاته ... شُدَّت على أوتار عود
بغداد أين البحتري وأي ... ن أين ابن الوليد؟
ومجالس الشعراء في ... بيت ابن يحيي والرشيد
أين القيان الضحكا ... ت يَمسِن في وشي البرود
الساحرات الفاتنا ... ت الحسن من هِيف وغيد
الساهرات مع النجو ... م الآنفات من الهجود
من كل بيضاء الطلى ... مهضومة الكشحين رُود
يخطرن حتى تعجب الأغ ... صان من لين القدود
وإذا سفرن فأين ضو ... ء الشمس من شفق الخدود
يعبثن بالأيام وال ... أيام أعبث من وليد!
خبأ الجمال لهن ... كنزاً بين سالفة وجيد
كم جاش جيشك بالفوا ... رس من أساورة وصيد
للنصر في أعلامهم ... صلة بأبناء الغمود
مجد إذا صورته ... عجز الخيال عن الصعود
وجهود جبارين تص ... غر دونها شم الجمود
الرسل تتلو الرسل م ... ن بيض صقالبة وسود
ساروا (لقصر الخلد) يع ... شي طرفهم وهج الحديد
يتعثرون كأنهم ... يمشون في حلق القيود
الجو يسطع بالظُّبا ... والأرض تزخر بالجنود
حتى إذا رجعوا بدا ... بجباههم أثر السجود
الفلسفات عرفتها ... والعلم طفل في المهود
والغرب ينظر في خمو ... د نحو قاتلة الخمود
كم موئل للمستج ... ير ومنهل للمستفيد
المرح اللعو ... ب يغوص للدر الفريد (والجاحظ)
بغداد يا وطن الأدي ... ب وأيكة الشعر الغريد
جددت أحلامي وكن ... ت صحوت من عهد عهيد
جمع الخيال فما اطم ... أن ولا استقر إلى خلود
جاز القرون النائيا ... ت وفك أسرار العقود
ذكر العهود فأنَّ للذ ... كرى وحن إلى العهود
واهتاجه الطيف البعيد ... فجن للطيف البعيد
وصبا إلى ظل العرو ... بة في حمى الملك العتيد
يا أمة العرب اركضي ... ملء العنان ولا تهيدي
سودي. فآمال المنى ... والعبقرية أن تسودي
هذا أوان العدو لا الإ ... بطاء والمشي الوئيد
المجد أن تتوثبي ... وإذا وثبت فلا تحيدي
وتحلقي فوق النجو ... م بلا شبيه أو نديد
وإذا شدا الكون المفا ... خر كنت عنوان النشيد
لا تخطئي حد العلا ... ما للمعالي من حدود
من يصطد النمر الوثو ... ب يعف عن صيد الفهود
هذي طلائع نهضة ... ذهبت بآثار الركود
بغداد أشرق نجمها ... وبدا بها سعد السعود

سلكت إلى المجد القديم ... محجة النهج السديد
وزهت بأقصار الهدى ... وسطت بأظفار الأسود
بغداد إنا - وفد مصر ... نفيض بالشوق الأكيد
جئنا نحيي العلم والْ ... آداب في العدد العديد
لقياك عيد للمنى ... فزنا بها في يوم عيد
أهلوك أهلونا وأب ... ناء العشيرة والجدود
بين القلوب تشوف ... كتشوف الصب العميد
حتى يكاد يحب نَخْ ... لك نخل أهلي في (رشيد)
شطت منازلنا وما احت ... اج الفؤاد إلى بريد!
الرافدان تمازجا ... في الحب بالنيل السعيد
وتعانق الظلان: ظ ... لا (الطاق) والهرم المشيد
جئناك نستبق الخطى ... أنضاء أودية وبيد
طالت بنا الصحراء حتى ... خلتها أبد الأبيد
يتلخص المرمى المديد ... بها إلى مرمى مديد
كتخلص الحسناء من ... وعد طوته إلى وعود
بحر بلا شُطآن يز ... خر بالتنائف والنجود
وسفينتي (نون) بها ... ما في فؤادي من وقود
جئنا إلى الغازي سليل ... العُرب والحسب المجيد
نختال بين هباته ... في ظل إحسان وجود
أحيا المنى بالعزم والتد ... بير والسعي الحميد
وغدت به سوح العر ... وبة منهلا عذب الورود
في نهضة الفاروق والغ ... ازي غنى للمستزيد
فاروق منبثق الرجا ... ء وملتقى الركن الشديد
ما عاش عاش الشرق في ... عز وفي عيش رغيد

علي الجارم

وحي الشاعرية

عصريات

للأستاذ حسن القاياتي

الكيدُ ما تُعْلِن السَّجَاياَ ... والحقدُ ما تضمرُ الطوايا!!
يا عصرُ ما فيك من عَوَادٍ ... يا عهدُ ما فيك من خفايا؟؟
ما للثنايا تَرِفُّ بِشْراً ... على الجوى يصدَعُ الحنايا؟
لا قُدس العصرُ من أَوَانٍ ... تُذَمُّ في حمده التحايا!!
عَلاَمَ نُزْهىَ بفجر عِلم ... كأنه للدجى بقايا؟؟
لدى البغاياَ لنا خلالٌ ... وما لنا فتنةُ البغايا!!
نُطالعُ الحفْلَ بالمخازي ... يا قُبحُ لا تنظرِ المَرَاياَ
لو شِمْتَ - نُزِّهتَ - ما نُواري ... أقمتَ في مرقص العرايا!!
إنَّا لَفي الخُلْد من زمانٍ ... تُنِيل فِرْدَوْسَهُ الخطايا
جِيلٌ تبَاَهى بلُبِّ حُرٍّ ... وظلَّ عبداً لدى العطايا!!
رَغِّبْ وأَوْعِدْ فسوى تحوى ... ضمائر الصيد في الهدايا!!
مَن أَدَّعى أنهُ طليقٌ ... إلام يختال في السبايا؟؟
يا عصرُ ما فيك من فُنُونٍ ... لا رشُد فيه سوى المنايا؟؟
سَلِ الأضاليل كيف لاقَتْ ... حُنوَّ موسى على الوصايا؟؟
شَقِتَ بالحق فلتَرُمْهُ ... بحيث تشقى به القضايا
صباحةُ الحق حجَّتْهُ ... فقَرَّ والحسنَ في الخبايا!!
لا يحسنُ العدلَ من تولَّى ... فَغَادَرَ العدلَ في الشكايا
جَزَالةُ الرأي من فؤادي ... يطير من فتنةٍ شظاياَ
جاذَبتُ عصري مُنَى سَرِيٍّ ... فَعَرْبدَ العصرُ في مُناَياَ
شدا فأشجى بكل وَاهٍ ... لبُلبُل العصر مشتكايا

قيل: انتخابٌ. فقلت: سَبْقٌ ... إلى الكرامات بالدنايا
وَقيعةٌ والخنا قِسيٌّ ... وهدنة والنُّهى رمايا
هَوَى الكراسيِّ والغواني ... أسىً تَغَنَّتْ به الضحايا
حديث نذْبٍ لناخبيه ... شكاة آسٍ إلى البلايا
سُرىً تُباعُ القلوبُ فيه ... سوافر الهون أو نقايا
من شام فالنقد والتَّهادِي ... أو شَمَّ فاللحم والقلايا
صِلْنِي بدينارك المرجَّى ... أَهَبْكَ خيرَ الورى مَزَاياَ
لعيني النبل حين أغزو ... قُوَى مباريَّ في سرايا
مشوا إلى الكيد في الغواني ... فلا سراةٌ ولا سَرَايا
شكا من الجوع فاشتكاني ... مُرَفَّهُ العيش في حمايا
للخبز دون الجلال تُسْبَى ... فَوَاتِرُ المال والصفايا
بكى عدوي إلى صَفيِّي ... فردَّه الدمعُ من عِدَايا
ضَعْفٌ ترامى عليه ضعفٌ ... كالغيد مالت على الحشايا
لَدَى العشايا حمدت رأياً ... فسَلْهُ ما أنتَ في الغدايا؟؟
سَماَ بِطِفل الجلال شعبٌ ... ثَوَى بمْعِله في الزَّوايا
سمَاَ وما لَقَّنوهُ حرْفاً ... كوثبة الميْت إن تحايا!!
من سوّد النذل في الأعالي ... فَهَدَّ للحفرة الثنايا؟؟
هي السجايا فحيثُ جارت ... تَرَقَّبْ الجور في القضايا
هَوَى بيانٌ كما تَلاشَى ... تبسُّمُ الدّلِّ في الثنايا!!
بيان هادٍ غذته آيٌ ... من المثاني فرق آيا
يراعةٌ صُرِّفَتْ جماَلاً ... كما يشق اليراع نايا
يا سقطة والفنون ليلٌ ... كسقطة الشمس في العشايا
إن عزَّني بالنجاح نذْلٌ ... فرُبّ لكعاء في الحظايا
أدَلَّ شعْبٌ على فتَاهُ ... ليضحك المجد من فتايا!!
على قطيعٍ سَرَى غبيٌّ ... بلغتَ يا راكب المطايا
بالعلم فليصحبِ الليالي ... من صَاحَبَ القَفْرَ بالرّوايا
تَبّاً لعصر الجلال يمشي ... لسُدّة الجهل في الرعايا
يا مُنصف اللُّبِّ كم أجاري ... بصبيةٍ ألَّبت صبَايا؟؟
أنصف بوزني ومن يُباري ... فلا هواهُ ولا هَوَايا
باعد سجاياه من خلالي ... وقس حجاه على حجايا
من اعتلى والهدي حُلاه ... شأَوْتُهُ والهدي حُلايا
العزُّ في النفس، رُبَّ وَغْدٍ ... بجده تشرف البرايا
وَيْحَ الأمانيّ كم تُعادِي ... حلو الأمانيِّ والسجايا؟؟
إني وللحمد ما أعانيّ ... كالبدر في ظلمة سُرَاياَ
بَرٌّ إذا حَفَّتِ العوادي ... تَنَهَّدَ الناسُ من حشايا
أصُدُّ والحظ يبتغيني ... أقول باسمي دعا سوايا
الحُرُّ يمشي إلى المساعي ... كمشية النحل في الخلايا
(السكرية - دار القاياتي)
حسن القاياتي
القصص
من الأدب الإيطالي
حياة جديدة
من دومنيكو ماريا ماني
للأستاذ دريني خشبة
رآها أنطونيو فشغف بها حباً، وكانت نظرته الأولى إلى وجهها المشرق الجميل الرائع فاصلاً عظيما في حياته التي جد بها الظمأ، ففجأها وابل من كوثر الحب، فرويت، ولكنه وا أسفاه كان روى أحر من قاتل الظمأ، وآلم لنفسه من شديد الجواد وأحبته جينفرا، وكانت تقضي لياليها مثله مؤرقة مسهدة، تفكر في روحه الشاعرة الحلوة التي تطل عليها من عينيه الحبيبتين وقلبه الذي يرسل إليها نبضاته الموسيقية

. . .على أجنحة الأثير
ولبث أنطونيو يجد في ميادين الحياة ليبني دعامة مستقبله على لبنات من مادتها، حتى إذا تقدم إلى والد جينفرا تقدم وفي يديه حفنة من ذهب قارون لا تطمئن ألباب الآباء إلا إليه، ولا تطب إلا به، ولا تقيس العيش إلا بمعياره. . . وكان يعمل دائباً وفي عينيه صورة جينفرا ما تفارقهما، وفي قلبه المعمود تمثالها المعبود ما يبارحه، حتى إذا تصرمت سنون أربع طوال كالدهر وتقدم إلى والدها دلجي اميبرا يخطب إليه ابنته، رده الأب الجبار رداً لا رحيماً ولا كريماً، لأن فتى من أسرة أجولانتي يقال له فرانسيسكو كان قد تقدم إلى الرجل يخطبها على نفسه، فقبل الرجل يده، من غير أن يستشير ابنته، ومن غير أن يقيم للحب الذي صهر فؤادها وزناً، مع علمه به، ورثائه لها من أجله. . .
وكانت المادة التي عمل أنطونيو على اكتسابها جهده سبب رد الوالد التاجر إياه، لأن أسرة الفتى فرانسيسكو كانت أسرة جاه ويسار ومجد، وإن يكن الفتى نفسه من هذا الشباب القُنَّع الذي لا خير فيه، وإن يكن قلب جينفرا لم يجزه إلا صدوداً، ولم يشعره إلا جفاء وسلواناً
ولكن ما قيمة أن تأبى الفتاة في هذا العصر العنيف الظالم ما لا يأباه أبواها من أمر لا يعنيهما بقدر ما يعنيها، لأنه أمر حياتها ولأنه أمر سعادتها أو شقوتها؟ لا! لا قيمة لاعتراض الفتاة. . . وهي مرغمة على أن تقر صاغرة ما اختار لها أبواها. . . وإن كرهت. . . فلابد إذن من أن ترضى جنيفرا بهذه الزيجة لأنها صفقة من صفقات قارون، وصفقات قارون رابحة مطلقاً، لأنها تمشي بالفتاة على أرض من ذهب، وإن تك في قلبها جحيما من لظى ولهب، وهكذا زفت جينفرا المسكينة إلى زوجها المفروض عليها. . . وهكذا انتصر العالم الفاني على العالم الباقي، وصرع شيطان الأرض ملاك السماء، وتسلط التراب على الروح فعفر وجهها الحر الكريم
وذهبت الفتاة إلى زوجها جسما بلا روح، ودمية من اللحم والدم والعظم ليس لها قلب، لأن روحها وقلبها مع رجل آخر غير هذا الرجل. . . مع أنطونيو لا مع فرنسيسكو. . . مع الحبيب الذي منحها وجوده، وجعلها علة بقائه، مع الشاب الذي ثوى ملء جوانحها يضرمها بإخلاصه، ويؤججها بآماله التي انهارت في الأرض، وثبتت في السماء. . .
وذهب أنطونيو يبكي من أعماقه، وينشد النظرة الخاطفة من حبيبته في الكنائس والمسارح والمجتمعات، ويقسم جهد أيمانه أن يعيش على ذكراها، وألا يتصل بأنثى من بنات حواء مادامت جنيفرا قد أفلتت من يديه. ولم لا؟ أليس بحسبه أن يعرف أن قلبها له، وأن جسمها لزوجها الذي لم يكن لها يد في اختياره، ولابد من الرضاء به؟ ثم أليس بحسبه أن يكون وفياً لها مادامت قد أرغمت على شيء لا يستطيع أحد أن يرغمه هو على مثله؟!، وما الفرق بين أن ترغم جينفرا فتتزوج، ولا يرغمه أحد فيتزوج؟ إنه إن فعل فإنها تفضله؛ وإن لم يفعل عاش كما عاش المحبون المخلصون من قبل، وعاش خالداً في القديسين الخالدين
في سنة 1400 نكبت أكثر المن الإيطالية بطاعون عظيم ذهب ضحيته أكثر سكانها، وكانت قرى بأكملها تصبح خلاء من أناسيها وحيوانها، وكانت فلورنسا الجميلة، عروس المدائن الإيطالية في ذلك العصر من أكثر البلدان ضحايا وشهداء
ولم تسلم جينفرا من هذا الوباء، بل تعذبت به طويلا، وكلت حيل الأطباء في سبيل إنقاذها، فأسلموها للمقادير، وانصرفوا عنها يائسين. . ولم تمض أيام حتى وقعت فريسة لنوبات جنونية كانت تعصف بها عصفاً شديداً، وتعذبها عذاباً مبرحاً، وتذيب من حولها قلوب ذويها أسفاً عليها. . . وأغمي عليها مرة إغماءة قاسية فحسب أهلها أنها أسلمت الروح. . .
وسواء أحسبوا ذاك أم لم يحسبوه فإنهم كانوا قد ضاقوا بمريضتهم ذرعا، وملئت قلوبهم منها ذعرا، لأن أنفاسها وباء، وبزاقها داء، وأنينها لهم أنين، وحملها عبء إن كانوا قد استطاعوا حمله أياماً فأنهم عليه مع هذا الجنون غير صبُر
وكان الناس لا يتورعون أن يدفنوا مرضاهم أنصاف أحياء خشية استفحال الوباء، فلما أغمي على جينفرا، وطال عليهم إغماؤها، وقر في قلوبهم أنه الموت، فجهزوها مسرعين، وحمل تابوتها طائفة من القسيسين فهرولوا به إلى مدفن العائلة، وكان قبواً عظيما تحت الأرض بعيداً من المدينة، فدفنوها فيه في احتفال بسيط؛ ووقف

زوجها وأهلها وعارفو فضلها يذرفون عبراتهم على ثراها. . . ثم انصرفوا. . . وأقبل أنطونيو المحزون يبكيها بدوره، ويسكب عليها شئونه لا كما يسكبها غيره من الناس، بل كما ينبغي أن يفعل العاشق الصب وسد الناس قلبه تحت الثرى والصفاح كذا فليجل الخطب، وليفدح الأمر، وليبك أنطونيو روندينللي!

لقد وقف المسكين على ثرى معبودته، وعند قبوها الهائل، وراح ينثر بقايا روحه على جدثها الطاهر العزيز. . . ثم جلس في ذهول وفي شبه إغماء، وانطلق يحلم بماضيه الجميل، ويرسل عينيه وراء سجفه الشفشافة ليراه جالساً إلى جينفرا يناجيها، ويتحدث إليها حديثاً كقطع الروض، ومنضور الورد، ويقبلها تلك القبل الحالمة الناعمة فوق ثغرها وفوق نحرها وفوق ذراعيها. . ثم يفيق المسكين. . . فيراه جالساً يبكي. . . فوق قبرها. . . وهي تحت هذا الجندل المركوم والتراب المهيل جثة هامدة ساكتة صامتة، لا يتحرك لسانها، ولا تنفرج شفتاها، ولا يتفتح الورد في خديها، ولا ينبعث النور واللألاء من جبينها ووجنتيها فيحس كأنما روحه تساقط مع أنفاسه الباردة لتثوي مع جينفرا تحت التراب.

ويقف أنطونيو فجأة ويحدج القبر بعينيه الباكيتين، ويقسم أنها ليست فيه!. . . ليكن! قد يكون ما يعني روحها. . أو. . ذكرياتها.

ثم يمضي إلى المدينة، ويذهب إلى منزله مصدوع القلب، ذائب النفس، خفق الأحشاء، ليس أسمج في عينيه من هذه الدنيا الكريهة الغادرة!

لم تكن جينفرا قد ماتت كما وهم القوم، بل كانت مغمى عليها إغماء شديداً. . . وليت أنطونيو ما فارق ثراها، حتى يسمع صوتها الضعيف داخل القبو بعد إذ انصرف بلحظات.

لقد هبت المسكينة من غفوتها في العالم الآخر، فجاهدت كثيراً حتى نهضت من تابوتها، وسرعان ما عرفت مصيرها فلم تذعر ولم تنزعج مع ما كانت تضيق به من برد المقبرة وهوائها المرطوب، وريح أكتوبر القارسة

ثم أنشأت تعالج التخلص من تلك الأكفان التي لم تخلق للبوس هذه الحياة الدنيا، وكانت تسبح بأسماء الآلهة والقديسين وتتوكل عليهم فيما هي فيه من الضيق، وكانت شعاعة ضئيلة من أشعة القمر تنسرق إلى القبو من شق صغير فيه، فكانت لها في شدتها وحرجها كبسمة الأمل الحلو الذي ضاعف جهادها في سبيل الحياة. . . واستطاعت بعد لأي أن تخلص من بعض أكفانها، وأن تخطو في ضعف وإعياء نحو باب القبو. . . وتهالكت على نفسها حتى صعدت فوق الدرج. . وهناك جلست لتستريح لحظة، وتستجم لما أمامها من العمل. . . حتى إذا أحست في ذراعيها قوة أعملتها في الحجارة التي كانت تسد باب القبو، والتي كانت تتماسك بطبقة رقيقة من الملاط، كانت ما تزال لينة رطبة، فسهل على جينفرا إزالة بضعة منها، بحيث أحدثت ثغرة تكفي لخروجها في شيء من الصعوبة، وقليل من العناء

وشجعها ما كانت فيه من هلع على نفسها داخل القبو، وما نالته من الظفر فاحتملت قر الليل وصرير الريح ووحشة الوادي، وجعلت تخطو بقدمين متخاذلتين في الطريق المقفر إلا من أشعة القمر، المنجرد إلا من عشب هنا وعشب هناك، حتى وصلت إلى المدينة. . .

لله ما أروع هذا الشبح الساري في ضوء القمر يدب على التراب المندى بقدمين عاريتين، وفي أكفان حريرية كأنفاس البخار تصاعد من النبع!

ولله هذا الوجه الشاحب الذي برز الساعة من ظلال الموت وحدود الفناء، وجعل يتدَهْدَى في طرقات المدينة حتى بلغ دَايْ كالْزَاجُولي!

لقد كان فرنسيسكو جالساً يستدفئ بالقرب من النار المتأججة في المدفأ، ووجه عابس وجبينه مقطب، وعليه من بداوات الأسى وعلائم الحزن ما كان ينبئ عما في قلبه من ثورة الوجد على عروسه التي لم يعش في كنفها الوارف أكثر من أشهر ثلاثة ثم قضت. . . وفاز بها الطاعون دونه!

وكان يهم أن يخلع ثيابه، ثم يمضي لينام، لولا أن سمع صوتاً خافتاً وراء الباب، ونقراً خفيفاً ضعيفاً على الباب، فذهب ليرى من الطارق بليل؟

لله ما كان أروع القمر الساري في ملكوت الله وهو يلقي أشعته على الشبح الواقف لدى الباب!

. . .لشد ما ذعر فرنسيسكو
لكنه ركع أمام الشبح، وأخذ يرسم علامة الصليب بسبابة مرتعشة، ونظرات مغضية، ثم نهض فتوسل إلى الروح الكريم أن يذهب. . . فلما لم تتحرك جينفرا مما دهاها من الدهش. . . أغلق فرنسيسكو الباب، وأحكم رتاجه. . . ومضى إلى فراشه وبه رجفة تزلزله زلزالاً عظيماً. . . ثم نذر أن يتصدق على روح زوجته ما وسعه ذلك، وأن يقيم على جدثها الطاهر ما لم يؤد لها من قُدَّاسات
وبكت جينفرا ما شاء لها أن تبكي، ثم جعلت تجَمْجم وتقول: (وَيْ! أذاك هو مدى ما أحببتني يا فرنسيسكو؟! وي! لابد أنني كنت عبئاً عليك، ووزراً تنوء به، وتود لو تخلصت منه! وا أسفاه! أين أذهب يا ربي؟ أأفلت من ظلام القبر لأموت من البرد والضنى والجوع في أشعة القمر؟). وذكرت أن بيت أبيها قريب فانقلبت. . . وشرعت تخطو. . .
. . .ولم يكن أبوها هناك
وكانت أمها في الطابق العلوي، توشك أن تمضي إلى سريرها فتنام. . . فلما سمعت همس جينفرا وصوتها الخافت المستنجد أطلت من النافذة لترى من الطارق. . .
وكان الشبح المريض المهزول يتكئ على مصراع الباب مما به من ونى وإعياء؛ ولم تَسْتَرب به الأم المحزونة، فقالت له وهي تتوسل إليه: (انصرفي في سلام أيتها الروح. . . .!) ثم أغلقت النافذة، وانكفأت إلى فراشها لتصل أحزانها على جينفرا!
وعرت الفتاة رعشة من الحسرة لا من البرد، فشدت ذراعيها، وذهبت على وجهها لا تعرف أيان تمضي. . . ثم خطر لها أن تلجأ إلى بيت من بيوت أعمامها، فلم تصل إليه إلا بعد أن جلست مرات ومرات تستريح وتستجم، وتمزج دموعها وأحزانها بضياء القمر الذي كان يبدو كأنه يبكي لها ويرثى لحالها، ويحوطها بغلالة دافئة من قمرائه
وا أسفاه عليك يا جينفرا!
لقد وقفت بباب عمها فلم تلق أطيب مما لقيت في المرات السابقة، ثم وقفت بباب عمها الثاني، فعمها الثالث، ثم بباب خالها، فخالها الآخر، فأبواب جميع أقاربها، فكانوا يردونها على أنها روح سارية، ويغلقون أبوابهم جميعاً دونها
واعتزمت آخر الأمر أن تلجأ إلى مستراح سان بَرْتولوميو لتنام فيه أو لتموت فيه، ولتستريح من هذه الدنيا التي تجهمت لها، وعبست بألف وجه من وجوه أقربائها. . .
وما كادت عيناها الحزينتان تغمضان كما تغمض النرجسة الذابلة، حتى خطر لها أن تنهض من فورها، وتمضي إلى بيت حبيبها الوفي، أنطونيو روندينللي، وإن تكن بينها وبينه مسافة طويلة، ضاعفها ضربها في المدينة أضعافاً مضاعفة. . .
ثم هجست في ضميرها بكليمات باكيات فكأنما كانت تقول: (ولكن!. . . ماذا انتظر من رجل لقي الويلات مني ومن ذوي؟ وماذا عساه يصنع لي وقد ذادني كل أهلي عن منازلهم؟ يا رب! وحق أسمائك ما خنته! وحق ربوبيتك ما ضيعت موثقه!)
وذهبت تدلف إلى بيت أنطونيو وتهدج، حتى كانت لدى الباب، فوقفت تسمع إلى دقات قلبها، قبل أن تصغي إلى نقرها فوقه
وفتح أنطونيو الباب. . . ولم يكد يقع بصره عليها حتى تقدم نحوها بدافع غريب قوي من الحب، أو من الشجاعة، ولم يتقاعس كما تقاعس ذووها، ثم طفق يحملق فيها ويقلب فيها عينيه من إخمصيها إلى زؤابة رأسها، فلما أيقن أنها هي، تنفس صعداءه، وقال: (أأنت حقاً جينفرا؟ أم أنت روحها القديسة المطهرة؟) ولم ترد عليه، بل أرسل الحب ذراعيه القويتين إليها، فاحتملها كالطفلة، ثم أخذ يصيح من الجذل، داعياً أمه وخدمه ليزف إليهم البشرى، ولكن سرعان ما ارتد هؤلاء من الفزع حين أقبلوا ليروا فيما دعاء أنطونيو لهم، لما رأوه يحمل فتاة كالشبح في أكفان!!
وهرول به أنطونيو إلى مخدعه فسجاها في سريره، وهتف بخادم فأحضرت الموقد ليدفئها بما بقي فيه من قبس، ثم دعا أمه فطمأنها، وجلست مع الفتاة في السرير تضمها وتجعلها في حضنها لتدفئها كذلك
وكان الهلع يغشى أنطونيو خشية ألا يشيع الدفء في كيان حبيبته البارد المرتجف، فتذهب ضحية القر؛ بيد أنه اطمأن حينما رآها تثوب، وكان فرحه بها أشد من حزنه عليها، عندما

فوجئ بنبأ وفاتها، وجلس عند قدميها فوق أرض الغرفة يرعاها ويتولاها بعنايته، غير مطمئن إلى ما كانت تبذل أمه من التلطف بها، والحدب عليها
وانتعشت جينفرا، فهبت من السرير فجأة، ونزلت إلى الأرض، ثم أهوت على قدمي أنطونيو تقبلهما، وتريق عليهما دموع محبتها وشكرانها، وترجوه أن ينشر عليها جناح الطهر من وده وصداقته، وأن ينسى إلى حين ما أنها حبيبته، وإن تكن تعد نفسها خادمة له، وترتضي العبودية في كنفه. . . ثم ذكرت والدموع تحجب عينيها، ما كان من شجاعته عندما رآها أمام بابه، فلم يفر ولم ينزعج كما فر أهلوها وانزعجوا. . . وارتبك أنطونيو، وهم من مجلسه فركع أمامها، وراح يطلب صفحها عما عسى أن يكون قد بدر منه، مما أثر ظنونها. . .
ولم تستطع جينفرا أن ترد عليه بلسانها، فأخذت كفيه، وضغطت عليهما بكفيها الواهيتين، ثم انطلقت تغمرهما بالقبل، وتنضحها بالدموع. . . وكان التأثر قد بلغ من أنطونيو مبلغاً عظيماً، فراح يبادلها دموعاً بدموع، وينكر على نفسه أنه أدى لها يداً غير ما يقتضيه الواجب والمروءة والإنسانية، وأنه لم يكن ينتظر جزاءً على ما صنع إلا أن تتدفق الحياة في جينفرا العزيزة. . . المعبودة!
ثم سألها إن كانت تحب أن ينهض معها من فوره فيردها إلى ذراعي زوجها. قال:
(لا ترتبكي يا جينفرا. . . إن هذا واجب. . . إني أحضك عليه وإن يكن في قضائه قضاء علي. . .)
وامتزج بكاء جينفرا بجوابها فقالت: (كلا. . . كلا. . . كلا. . . لن أعود إليه. . . لا أود أن أراه. . . إني أوثر أن ألقى في دير فأعيش فيه ميتة، على أن أعود إلى فرنسيسكو. . . وفضلاً عن هذا. . فلقد فرق بيني وبينه الموت. . لقد مت في اعتباره. . ومشى في جنازتي. . . ووسدني التراب بيديه. . . وقبل ساعة كنت أطرق بابه، فلما رآني فزع وطردني. . . وأغلق الباب دوني. . . أرجوك يا أنطونيو. . . أرجوك ألا تردد اسمه أمامي. . . وإن أرغمني أحد على العودة إليه فسأشكو أمري إلى القضاء العادل ليفصل بيننا من جديد. . . سأقصد إلى كل محكمة. . . إلى كل سلطة دينية. . . لقد شهدوا جميعاً أنني مت، وصرحوا بدفني فدفنت حية، ولمه؟ لا لشيء إلا ليستريحوا مني؛ أفإن شاء القضاء السماوي أن أنهض في رمسي بمعجزة، وعدت إلى الدنيا ولم أمت في القبر أشنع موتة، جاءوا من كل فج ليناوئوني، ويحجروا علي من جديد؟)!
وصمتت جينفرا، وأكب أنطونيو يسكب عبراته تحت قدميها الجميلتين المرتعدتين، وما كانت دموعه تلك إلا دموع الفرح بما سمع من حسن توكيداتها
ولبثت جينفرا لدى حبيبها الأول الوفي
ثم حدث أن رأى فرنسيسكو أجولانتي غادةً هيفاء من ذوات اليسار فغزل بها وغزلت به، وأغرم كل بصاحبه، فعقدا النية على الزواج. . . وما أن علم أنطونيو بذاك حتى انتهز هو أيضاً فرصته، وجعل يسعى لدى فرنسيسكو حتى اشترى منه كل جواهر جينفرا، وهو لا يدري أنها حية ترزق، وأنها قد نجت من براثن الطاعون والفناء بإرادة السماء. . . وعادت من عالم القبور لتخلق خلقاً آخر
في صبيحة يوم من أيام الآحاد ذهب أنطونيو روندينللي من أعيان فلورنسة، ومعه السيدة جينفراد دِجلي أمييرا، وأمه العجوز الوقور المتضعضعة، وخادم من خدم قصره، إلى كنيسة المدينة الخالدة ليعقد على حبيبته جينفرا
وهناك في بهو الكنيسة الكبير، التقى هذا الجمع اليسير بجمع آخر حاشد غاية الحشد، فيه الفتى فرنسيسكو أجولانتي وأمه وملأ عظيم من ذويه وأصدقائه. . . ذاهبين للعقد على غادة فرنسيسكو الهيفاء الغنية المثرية، ولما يمض على دفن جينفرا ثلاثة أشهر أو نحوها. . . والمؤلم المبكي أن أمها الساذجة كانت من ضمن المحتفلات بزوج ابنتها السابق. . . فما كادت العيون والأرواح تتعارف حتى ساد بهو الكنيسة صمت كصمت القبور، ووقف الجمعان خاشعين خابتين، ينظر بعضهم إلى بعض ولا يصدقون ما يرون!
ترى! من يتقدم ومن يتأخر؟
ولم تنتظر جينفرا طويلا. . . بل تقدمت مسرعة نحو أمها التي أخذت تحدق فيها بصرها، وترنو إليها مسبوهة مشدوهة
أحقاً هذه جينفرا ابنتي؟ لم يكن شبحاً ما رأيت إذن. . . ويلاه!. . . ولكن. . . كيف)

عادت إلى هذه الدنيا ياترى؟ وأنى لها هذا الشباب وتلك النضارة؟ إنها تميس في (شفوف وأفواف
ولم تتركها جينفرا لتصل هذه السلسلة من أحلام اليقضة، بل قطعتها عليها قائلة:
أما وقد ذهبتم بي إلى القبر فوسدتموني التراب بعد إذ شهد أطباؤكم بموتي، وبعد أن) نثر القس زيته المقدس على جثماني معلنا بذلك أنني انتهيت من هذه الدنيا، فإني أعلن بدوري أنني لم أعد أمت إليكم بوشيجة، لاسيما بعد أن رفضتم جميعاً إيوائي حين عدت إلى دنياكم بمعجزة من معجزات القدر في حين قد آواني ملاكي أنطونيو رونديللي فأعادني إلى الحياة والحب، ولولا ذلك لقتلني البرد والمرض أمام باب من أبوابكم، ولعدت إلى القبر عودة لا رجعة لي بعدها إلى دنياكم. . . من أجل هذا كله أقرر أمامكم وأمام الحبر الجليل سيد هذه الكنيسة، وفي هذا المكان المقدس أنني أصبحت ملكا لحبيبي. . . وأنني إنما جئت اليوم ليشهد الله لنا .)
ثم ودعت أمها، وبعض الأعزاء من ذويها، وانفلتت إلى أنطونيو فضمته على مشهد من الجميع. . . وهنا. . . تأخرت جماعة فرنسيسكو حتى يروا بماذا يحكم الحبر الجليل. . . فوقف هذا. . . وهتف بأنطونيو ثم بجينفرا فباركهما، وكتب لهما، ودفع الصحيفة إلى أحد الرهبان فتلا ما فيها بما لا يزيد عما ذكرت جينفرا من الحجج. . . ثم دعا للكنيسة. . . وتم القداس البسيط فكان أروع قداس أبرم في كنيسة فلورنسا منذ أنشئت. . .

دريني خشبة

البريد الأدبي

تكريم شاعر الهند محمد إقبال

من أنباء الهند الأخيرة أنه أقيمت في جميع المدن حفلات لتكريم الشاعر الفيلسوف الهندي الكبير السير محمد إقبال بمناسبة عيد ميلاده (9 يناير) وألقيت في هذه الحفلات الخطب والقصائد في نواحي شعره واستعراض مناقبه وخلاله. واشترك فيها كبار الكتاب والشعراء الهنود من كل الطوائف

وكانت أهم تلك الحفلات في بلدة حيدر آباد، حيث رأس الحفلة حضرة صاحب السمو أعظم جاه ولي عهد مملكة حيدر آباد وفي بلدة لاهور حاضرة إقليم بنجاب حيث يقطن الشاعر، فرأس فيها الحفلة الأولى السر كوكل شند نارنج (وهو عالم هندوكي كبير)؛ وألقى فيها عقب تلاوة القرآن الأستاذ يوسف سليم شستي، والعلامة الفاضل عبد الله يوسف علي، والدكتور شكرورتي (وهو عالم هندوكي كبير وأستاذ بكلية بلاهور) والأستاذ كورشرن سنج (وهو عالم كبير من اتباع ديانة سيخ وأستاذ في كليتهم المسماة (خالصة كالج) بلاهور) والسيد بشير أحمد، والأستاذ السيد نذير نيازي محاضراتهم القيمة. ثم تلاهم حضرات الشعراء نور محمد، وجلال الدين، وحامد علي خان، فألقوا قصائدهم. ورأس الحفلة الثانية والثالثة حضرة صاحب العزة السير عبد القادر، وألقى فيها حضرات الشعراء أسلم جيراجيوري (وهو أستاذ بالجامعة الملية الإسلامية بدهلي)، والأستاذ سراج الحق، والأستاذ خوشي محمد قصائدهم الرائعة. وألقى كذلك الأستاذ خواجه غلام السيديْن عميد الجامعة الإسلامية بعليكره محاضرة قيمة، كما ألقى الدكتور محمد دين تأثير محاضراته العلمية في شعره وألقى الشاعر حفيظ هوشيار يوري قصيدته الرائعة فنالت استحسان الجميع

وخلاصة ما قال الخطباء، هو أن السير إقبال يعتبر اليوم بتمكنه من الشعر والفلسفة في الشرق والغرب ذهناً عالمياً، وداعية وطنياً عظيما يعمل على إزالة الفوارق الجنسية والطائفية؛ وهو اليوم في طليعة زعماء الشعر الأوردي والفارسي معاً؛ وقد ذاعت شهرته منذ سنة 1908 كشاعر عميق الفكرة وترجم ديوانه الفارسي (أسراري خودي) (أسرار النفس) إلى الإنكليزية بعناية المستشرق المعروف الأستاذ نيكلسون؛ والسير إقبال سليل

أصل كريم من علماء كشمير، وقد تلقى تربية متينة في معاهد لاهور وعليكره، وفي كليات أوربا، وكان تلميذاً للسير توماس أرنولد والسير عبد القادر الهندي الذي كتب ترجمته؛ وهو ينظم شعره بإفاضة مدهشة، ويستطيع أن ينشده غيباً بسهولة، وفي كتابه (تنظيم التفكير الديني في الإسلام) (بالإنكليزية) نراه داعية إلى إحياء الدين على ضوء التطورات الحديثة؛ ومن رأيه أن الحياة التي تستحق الحب هي حياة النشاط

والدأب، والتي تتخللها الصعاب والمتاعب، وشعره في الأوردية يعتبر من اثمن وأجل تراث ظفرت به إلى يومنا
ومع أن السير إقبال مسلم صادق العقيدة والنزعة، فهو لا يكتب أو ينظم بروح طائفية. وهو يحاول أن يصور الإسلام في أصدق وابسط مبادئه الديموقراطية؛ وهو وطني كبير يدعو إلى مبادئ الوحدة والإخاء

ذكرى السيد جمال الدين الأفغاني

السيد جمال الدين الأفغاني ضحى حياته في خدمة الشرق الإسلامي وغذى النهضات المصرية والعربية والإيرانية والهندية في العصر الحاضر بأعماله المجيدة وآرائه السديدة، ومع ذلك لم تقم بما وجب عليها من تكريمه وتبجيله لا في حياته ولا بعد وفاته. حتى ضريحه لم يبن إلا أخيراً وعلى نفقة المستشرق الأمريكي مستر كرائن. وقد فكر أخيراً المسلمون في الهند فقرروا إحياء ذكراه في 9 مارس القادم في طول الهند وعرضها وهو اليوم الذي انتقل فيه المرحوم إلى الرفيق الأعلى. وحبذا لو نهجت الأمم الإسلامية الأخرى منهج المسلمين في الهند فيكون الاحتفال بذكراه عاماً في يوم واحد

كتاب عن الشئون المالية للأمم الإسلامية

صدر في مدينة فينا منذ أيام قلائل كتاب بالألمانية من نوع جديد يعالج ناحية هامة من نواحي الحياة العامة في الأمم الإسلامية عنوانه: (من عالم المالية في الأمم الإسلامية بقلم الكاتب الاقتصادي الدكتور يوسف هانس وقد زار المؤلف مصر منذ أشهر قلائل واستقى كثيراً من المعلومات والمواد المتعلقة ببحثه. وهو يعالج الشئون المالية لمصر وباقي الأمم الإسلامية بوضوح وإيجاز، ويستهل بحثه بفصل تمهيدي عن التطورات السياسية التي جازتها الأمم الإسلامية منذ نهاية الحرب الكبرى، ثم يتناول أحكام الشريعة
الإسلامية في الربا، وما تعلق بتنظيمه في القوانين المدنية بمصر وتركيا، ويتحدث بعد ذلك عن النقد والسياسة النقدية في الأمم الإسلامية، ويخص كلا منها بفصل يتحدث فيه عن أهم العوامل والظروف الاقتصادية المتعلقة بها؛ ويتناول بحثه الأمم الآتية: تركيا، والعراق، وإيران، وأفغانستان، ومصر، وسوريا، وفلسطين، وشرق الأردن، والمملكة العربية السعودية واليمن، وحضرموت، ويقدم عن كل منها خلاصة حسنة عن أحوالها المالية والنقدية؛ ويقدم إلينا في هذه البحوث الدقيقة معلومات طريفة عن طرق النقد والتعامل والموارد المالية لكل منه
ويخص المؤلف مصر بفصل يتناول فيه أحوال الورق النقدي (البنكنوت) وإنشاء بنك مصر والدور الذي لعبه في الحياة الاقتصادية المصرية منذ سنة 1920 إلى يومنا. ويقدم إلينا إحصاءات مقارنة عن أعماله وميزانيته. كذلك يقدم إلينا خلاصة حسنة عن الميزانية المصرية، ومركز مصر المالي
ولا ريب أن هذه ناحية هامة من نواحي الحياة العامة للأمم الإسلامية لم يتناولها الكثيرون من قبل، ولم تظهر فيها بالعربية كتب أو بحوث ذات شأن
وقد تخصص المؤلف من أعوام طويلة في هذه المباحث النقدية والمالية، وقصر جهوده على دراستها في الأمم الشرقية والإسلامية وأخرج من قبل كتابين في هذا الباب هما (النقد والذهب في آسيا) و (التطورات النقدية في الشرق) وكلاهما بالألمانية

ذكرى الفيلسوف سويد بنورج

احتفلت السويد بذكرى فيلسوفها ومفكرها الأكبر أمانويل سويد بنورج لمناسبة انقضاء مائتين وخمسين عاماً على مولده. وتلقت لجنة الذكرى رسائل تقدير للفيلسوف الراحل من ملك السويد وملك إنكلترا والرئيس روزفلت. ويعتبر سويد بنورج من أعظم أساتذة التفكير الحديث. وكان مولده في سنة 1688، ووفاته سنة 1772؛ ودرس دراسة مستفيضة ونبغ في الرياضيات والفلسفة الطبيعية وترك تراثاً فكرياً عظيماً، واشتهر بالأخص بكتبه ورسائله الفلسفية، وفي مقدمتها كتابه عن (فلسفة اللانهاية وأسباب الوجود) و (عبادة الله وحبه) و (الجنة والنار) و (الحب الإلهي والحكمة الإلهية) وله عدة كتب ورسائل أخرى في الرياضيات والفسيولوجيا والعلوم الطبيعية وغيرها. وقد وضع معظم مؤلفاته باللاتينية،

وترجم الكثير منها إلى معظم اللغات. وقضى سويد بنورج حياة طويلة حافلة، وملأ العالم بكتبه وأفكاره، وقضى أعوام حياته الأخيرة في إنكلترا وهولنده. ولقي كثيراً من عنت خصومه ولاسيما رجال الدين؛ وحاول بعضهم أن يرميه بتهمة الكفر والمروق، ورفعت عليه القضية الجنائية بالفعل ولكنه برئ، وفشلت مساعي خصومه من الأحبار الناقمين

كتاب جديد للرئيس هريو

ظهر أخيراً كتاب جديد للكاتب والسياسي الفرنسي الكبير إدوار هريو رئيس مجلس النواب الفرنسي عنوانه: ' وليس الرئيس هريو زعيما سياسياً فقط، ولكنه أيضاً كاتب عبقري ومن أعضاء الأكاديمية الفرنسية. وكتبه الأدبية والسياسية تفيض طرافة وقوة، وكتابه الجديد عن تاريخ الثورة الفرنسية في ليون. وليون هي بلده ومسقط رأسه، وهو إلى اليوم عمدتها ونائبها وقد لعبت هذه المدينة دوراً كبيراً في الثورة، وكانت بعد باريس قلبها النابض. ويقص الرئيس هريو حوادث الثورة في ليون بأسلوبه القوي الساحر، ويعرضها بروح المؤرخ المنصف المنزه عن الأهواء والنزعات. وسيكون كتاب الثورة في ليون أول قسم من سلسلة كتب عن الثورة ينوي أن يخرجها الرئيس هريو

التمثيل في المدارس

أصدر معالي بهي الدين بركات باشا وزير المعارف قراراً بتأليف لجنة من الأساتذة محمد قاسم بك ناظر مدرسة دار العلوم ومحمد رفعت مراقب تعليم البنات المساعد، وتوفيق الحكيم مدير إدارة التحقيقات عهد إليها دراسة موضوع التمثيل في المدارس المصرية دراسة مستوفاة على أساس أنه أداة صالحة تستعين بها الوزارة في تثقيف طلاب المدارس وتهذيبهم، وتصفية ذوقهم وتنقيته، ومساعدتهم على حسن الأداء وإجادة النطق والتعبير. وستجتمع اللجنة للمرة الأولى في غضون هذا الأسبوع وتتجه اللجنة في دراستها إلى استيفاء هذا الموضوع من أصوله، والخروج عن القاعدة العتيقة السابقة، والتقدم إلى الوزارة بمشروع جديد كبير يرقي من شأن المسرح، ويحقق الأغراض التي تنشدها الوزارة في هذا الشأن

وسيكون لعلاج رواية المسرح المدرسي أوفى نصيب من تلك الدراسة، فسيقضي على الفكرة القديمة الغالبة، وهي اختيار روايات مثلت من قبل في بعض دور المسرح المصري، وبذلك تصبح للمسرح المدرسي روايات تتفق والقاعدة السليمة التي ينشأ من أجلها هذا المسرح

وستقوم اللجنة إلى جانب هذه الدراسة التمثيلية بدراسة أخرى تتفرع عن الحاجة إلى فن الإلقاء، وتدريسه في مدارس المعلمين كما ستعنى بتهيئة الأساتذة الذين سيشرفون على التمثيل في مدارس الحكومة وغيرها من المدارس الخاضعة للتفتيش

جمعيات تحفيظ القرآن في المدن والقرى

يشتد الضغط هذه الأيام على الأزهر الشريف وعلى المعاهد الدينية اشتداداً عجيباً بعدما كان من انصراف الناس عنها قبل خمس سنين أو سبع؛ والضغط ملحوظ، بل هو على أشده في المعاهد الابتدائية، وهذه حالة تبعث على الإعجاب والرضى لتنبه الشعور الديني في قلوب المسلمين، وتفضيلهم التربية الدينية التي تناولها الإصلاح الكثير على التربية في المدارس التي تقذف كل عام بمئات المتبطلين للشوارع والمقاهي. . . ونحن لا نغض بهذا من قيمة التعليم المدني، ولكننا نقرر أن التعليم الديني الذي أدخلت عليه إصلاحات كثيرة مدنية قد أوشك أن يبذ التعليم المدني الصرف من كل الوجوه. ولو عني الأزهر بتقرير دراسة لغة أو لغتين أجنبيتين في معهد أو معهدين من معاهده لسبق المدارس المدنية بألف شوط في مضمار الحياة. . .

على أننا نتساءل: لمن كان الفضل في هذه النهضة التي تشبه البعث؟! ليس شك في أن كثيراً من الفضل راجع إلى الرجل المصلح الذي وجه الأزهر هذا التوجيه، ولكنا لا نخفي أن أكبر الفضل في تزويد الأزهر بالأبناء النابغين هو هؤلاء الرجال الذين فكروا في إنشاء مدارس تحفيظ القرآن، فهذه المدارس لم تخدم القرآن فقط، بل خدمت الأزهر خدمة عظيمة خالدة. . . ولكن مالية هذه المدارس ضعيفة لاعتمادها على موارد غير ثابتة، فهل كثير على الأزهر وأوقافه العظيمة وعلى وزارة المعارف أن تمد إليها يد المساعدة؟!

سارة للأستاذ عباس محمود العقاد

نشر الأستاذ الجليل عباس محمود العقاد قصة وجدانية تحليلية بعنوان (سارة) وهي فيما
نظن أول ما عالج أو نشر من هذا النوع. لذلك سنفرد لها فصلاً خاصاً في عدد آت من الرسالة. وهي ذات حجم لطيف وطبع أنيق؛ وتقع في قرابة مائتي صفحة، وتباع بعشرة قروش في أغلب المكاتب

غرفة قراءة للمتحف المصري

في الأخبار الإنجليزية أن غرفة القراءة بالمتحف البريطاني ستظل مفتوحة للزوار ساعة بأكملها فوق الوقت المعتاد. ولا ندري ماذا يمنع مصلحة الآثار عندنا من إنشاء قاعة للقراءة بالمتحف المصري على نمط قاعة المتحف البريطاني؟ هل المتحف المصري (للفرجة) فقط؟ وهل يصح أن يكون كذلك وعلى مقربة منه جامعة مصرية باذخة بها كلية للآداب، وفي مصر نهضة، وفي مصر قراء. . ؟

وعلى ذكر هذه القاعة التي نأمل أن يفكر المتحف سريعاً في إنشائها نتساءل أيضاً: ماذا يمنع علماء الآثار المصريين وعلى رأسهم الأستاذ سليم حسن بك من التأليف في تاريخ مصر القديم بالعربية؟ أو على الأقل لماذا لا يترجمون كتبهم إلى لغتنا؟

متحف لمكسيم جوركي

افتتح أخيراً في موسكو متحف ضخم لآثار الكاتب الروسي الأشهر مكسيم جوركي؛ وقد توفي هذا الكاتب الكبير منذ نحو عامين، وترجمته الرسالة في حينه. ويضم المتحف الجديد أحد عشر بهواً عرض فيها كل ما يتعلق بحياة جوركي وكتبه ومخطوطاته وآثاره المختلفة، وخصص فيها بهو لقطعه المسرحية، عرضت فيه نماذج من أشخاص مسرحياته. وقد خصت حكومة موسكو جوركي بهذا التكريم باعتباره (عميد الأدب السوفيتي الاشتراكي الجديد وزعيمه). والواقع أن جوركي هو أعظم كتاب الثورة الاشتراكية بلا نزاع، كما كان تولستوي في أواخر القرن الماضي أعظم كتاب الثورة الاجتماعية الروسية. وقد عرض قضية العمال وبؤس الطبقات العاملة في قصصه أقوى عرض. ومما تجدر ملاحظته أن الحركة الأدبية في روسيا الاشتراكية تبوأت مكانتها من القوة والازدهار، ولم تتعرض لها الحكومة بأكثر من التوجيه نحو الغايات الثورية التي تطبع سياستها الاقتصادية والاجتماعية، ولم تلق شيئاً من ذلك الاضطهاد الشامل الذي قضى على الأدب الألماني في

ظل النظام الهتلري

المسرح والسينما

هنري إيرفنج

1838 - 1938

بقلم محمد علي ناصف

منذ مائة علم في مثل هذا الشهر من اليوم السادس على الترجيح كان مولد الطفل جون هنري بردريب، ولم يكن بعد (هنري إيرفنج)

ولد في سومرست، وقضى سنيه الأولى الباكرة في كورنوول. وفي الحادية عشرة انتظم بإحدى مدارس التجارة بلندن وتركها بعد سنتين ليلتحق بأحد مكاتب المحاماة حيث كان من المأمول أن يكون كاتباً نابهاً. وبعد عامين آخرين (1853) حدث له وهو في الخامسة عشرة مثل ما حدث للممثلين العظيمين تالما وكين فظهرت دلالات ميوله إلى المسرح

وقد أشبع هوايته بعض الشيع بتعرفه بعد عام إلى وليام هوسيكنز الممثل الذي تلقى عليه هنري أول دروسه في التمثيل فيما بين الثامنة والتاسعة من صباح كل يوم قبل ذهابه إلى العمل.

ظل هنري طوال مدة عمله بمكتب المحاماة نهبا موزعا بين وساوس أحلامه وزخارفها، بين جحيم المكتب ونعيم المسرح، فكان يجلس إلى مائدة الكتابة ينسخ الصحائف ويدون الأرقام. . ولكنه كثيراً ما كان يحس فجاءة بجمهور كبير من حوله، من الحسان، ومن الكبار، يتطلع إليه، ويصفق له، فيهيم في أودية الخيال ويقفز من لباس إلى لباس، ومن مكان إلى مكان، ومن شخص إلى شخص، ومن عصر إلى عصر. . . ذلك نعيم المسرح (فترة راحة صغيرة)

(أكتب هذا ثانية يا سيد برودريب لو تفضلت)
(شخص أقبل ثم ذهب. سكون مخيم قابض)
وسرعان ما يهبط السيد برودريب من حالق. سرعان ما تتبخر الأحلام وتتجسم الحقائق،
وتتكدس الأوراق أمامه، وتتراجع الكلمات الحلوة من فوق شفتيه لينطق بجملة واحدة مريرة. . . (هذا جحيم المكتب)
ولم يطل تردده بين نعيمه وجحيمه. فذات مساء في أواخر يولية سنة 1856 كان وليام هوسكينز جالساً أمام نار المدفأة مستغرقاً في بعض شئونه، وإذا بطرق متواصل على بابه لم يدعه طويلاً رب الدار الذي أسرع نحو الباب، فإذا به يجد الطارق تلميذه هنري، وقد بدا مشرق الوجوه بنور باهت هادئ أوضح ما يرى على وجه تخلص صاحبه من عذاب طويل.
علم الأستاذ أن تلميذه قد انتهى من الاختيار، وأنه اختار النعيم الذي ارتآه
وقد ودعه هوسكينز في ذات الليلة بعد أن سلمه خطاباً فضه هنري في الطريق
فطرب من كلمات الثناء التي قدمه بها معلمه إلى ا. د. دافيز بمسرح الليسام بسندرلاند. ولم يكن في تقدير هوسيكنز أو هنري أو دافيز أو أي أحد أن هذا الزائر الجديد سيصبح مدير الليسام وأحد قادة المسرح في جميع العصور
وفي 18 من سبتمبر عام 1854 رفع الستار لأول مرة على هنري كممثل محترف. وكانت كلمات المسرحية الأولى (إنا نبدأ المسعى). . . ولم تكن بداءة مشجعة لهنري،
فقد نصحه بعض الناقدين وقتئذ بمغادرة المدينة على أول باخرة فاستجاب إليهم،
ولكن ليواصل جهاده في أدنبره حيث قوبل في أول الأمر بالصفير والهزء كممثل طريد، ولكنه سرعان ما نقض هذا الحكم، وسرعان ما أصبح نجم الليسام وأحب ممثل إلى الجماهير
ولقد مثل في هذه الفترة 429 دوراً مختلفاً في 782 يوماً، وهذا رقم قياسي في تاريخ كبار الممثلين. مثل في جميع أنواع المأساة والملهاة: مثل الذئب في وأوجور في - وكاسيو في وسيلفيو وأورلاندو في وسبعة أدوار مختلفة في
وفي عام 1871 ظهر لأول مرة على الليسام بلندن وصار من ذلك الحين (هنري إيرفنج)
وقد عزى إلى إيرفنج أنه لم يكن يحفل باختيار ممثلين تتكافأ صفاتهم مع صفته ومكانته، حتى قال برنارد شو في إحدى مقالاته في النقد سنة 1897: (إن المرء في الليسام معرض للجنون في الفترات التي يخلو المسرح فيها من هنري إيرفنج وأليس بتري) غير أن هناك من ينتحل الأعذار لإيرفنج في هذا الصدد لاشتغاله ممثلاً ومديراً ومخرجاً في آن واحد؛ فلم
يكن يستطيع فوق ذلك أن يتفرغ لشئون تلاميذه وممثليه. ومن هؤلاء المدافعين عن هذه النظرية التي سافرت إلى هوليوود قريباً، وكانت في صباها من ممثلي الليسام. . .
وعلى ذكر شو نقول إنه من الكتاب القليلين الذين اجترءوا على نقد إيرفنج؛ وكان أكثر ما يأخذه عليه مسخه لشكسبير وإهماله لإبسن. ففي شكسبير كان شو يعتقد أن الجماهير تذهب لمشاهدة إيرفنج لا من أجل الكاتب الإنجليزي الكبير. وأما مسرحيات إبسن فقد كان إيرفنج يتخلى عنها لألين بتري وجنفياف وارد في الأدوار الرئيسية
ومهما قيل في إيرفنج فليس هناك من ينكر فضله بين زعماء المسرح الخالدين
ولقد قدر أخيراً لجون هنري برودريب ابن أحد فلاحي سومرست أن يلقى مضجعه الأخير في وستمنستر آبي مقر عظماء الإنجليز باسم (سير هنري إيرفنج) وأن يكون الممثل الوحيد الذي يقام له تمثال في لندن يحج إليه في السادس من هذا الشهر كبار ممثلي إنجلترا يحيون أعظم رجل عرفه المسرح الإنجليزي
محمد علي ناصف
العدد 243 - بتاريخ: 28 - 02 - 1938
محنة الآنسة مي
أمسكنا عن الحديث في محنة الكاتبة النابغة مي ضناً على فضول الناس أن يتخذ أرجح العقول وأبرع الأذهان مجلاً للظنون الكاذبة وموضعاً للفروض الجريئة. وكنا منذ سفرها

إلى الجبل منذ عامين نتنسم أخبارها من كل مصري يصيف في لبنان، وسوري يشتي بالقاهرة، فلم يقع لنا من ذلك ما ينقع الشوق أو يطمئن الخاطر، حتى أخذت صحف بيروت في الأسابيع الأخيرة تذكر من حال الكاتبة الجليلة ما يثير الهم في الصدور ويضرم الحزن في الأفئدة، وحتى أهاب رئيس المجلس النيابي السوري بأعضاء المجلس النيابي اللبناني وهو يزور ندوتهم في منتصف هذا الشهر قال:

كيف لا تهتمون بهذه النابغة اللبنانية؟ وكيف تسجن (مي) بين جدران أربعة في) مستشفى المجانين ولا يثور الرأي العام اللبناني ويظل هذا الخبر سراً مكتوماً؟ لقد كان حديثها لي حلواً لا إبهام فيه ولا تعقيد. لقد وجدت فيها (مي) الكاتبة الشاعرة التي عرفناها في الماضي، فكيف دبرت هذه المؤامرة الدنيئة على نابغة النابغات؟ أنقذوا مي وابذلوا جهدكم في الترفيه عليها. وحرام أن تعامل الأنوثة التامة والنبوغ والعبقرية (هذه المعاملة التي عوملت بها مي

وجرائد بيروت آذانها أقرب إلى استقطار الخبر على صحته، والأستاذ فارس الخوري بك ممن يعتقد قوله ويعتمد خبره، والقنصل المصري سمعنا أنه تدخل في الأمر؛ وتدخله دليل على أن هناك مجانفة للحق ومخالفة للعدالة؛ فلم يبق إذن شك في أن صديقتنا (مي) تكابد من ظلم القدر ولؤم الناس ما لا يجوز الصبر عليه ولا ينبغي السكوت عنه

كانت مي في النصف الأول من سنة 1935 مرهفة الطبع جمة النشاط دائبة الإنتاج لا تبخل بظرفها وأدبها على سامر ولا صحيفة؛ وكان أكثر نشاطها حينئذ مصروفاً إلى مجلة الرسالة ومحطة الإذاعة. ومن أثر ذلك تلك المسابقة الأدبية التي اقترحتها على الشعراء، وذلك (المجلس النادر) الذي أقامته للصلح بين بعض الأدباء. وكانت في مجالسها الخاصة تصرف الكلام وتساجل أعيان الأدب ببديهة حاضرة ولقانة عجيبة، تمثل لك صورة من صور أولئك الأديبات اللآتي أنشأن باستعدادهن للأدب مجالس في عهوده الزاهرة، كسكينة ابنة الحسين، والولادة ابنة المستكفي، ومدام دي رمبوييه، ومدام جوفرين، والأميرة نازلي فاضل، وأضرابهن ممن وفَّقن بين اللغة والبلاغة، وبين الأدب والذوق، وبين الفن والسمو؛

ثم وشين ثقافة عصورهن بألوان شتى من أناقة المعرض وجمال الأداء وحسن المبادهة. وكان من حسن حظ الرسالة أن وقعت بقلب الكاتبة العظيمة، فكانت كلما صدرت في يومها تحييني مي بالتليفون تحية الروح الملهم من عالم الغيب، والأمل المشجع من وراء الغد، فكان ذلك يبسط من انقباضي عن الناس، ويجرئني على اغباب الزيارة للأديبة الكريمة. وكان يصحبني إليها صديقها الأستاذ عنان فنجدها وحدها أو معها الأستاذ خليل ثابت، فنسمر عندها هزيعاً من الليل تناقلنا شجون الحديث بصوت جميل النغم، ومنطق رخيم الحواشي، وعقل سريع الإدراك، وظرف بارع المفاكهة، حتى أقبل الصيف وعقدت غمائمه على وجهي (الوادي) غشاء من الزفير والدخن، فلحظنا ذات مساء على الآنسة المتهللة بطبعها انقباضاً في المزاج واضطراباً في النفس، سببه على ما قالت خلاف طرأ بينها وبين محطة الإذاعة، فقد أرادت أن تذيع خطابها من غير أن تطلع عليه الإدارة؛ وأبت عليها عزتها أن تقبل تنبيه المذيع اللين إلى أن قانونها يحتم الاطلاع على ما يلقى قبل إذاعته. فانصرفت غاضبة على الرغم من اعتذار الإدارة على هذا التنبيه وقبولها أن تذيع مي من غير قيد ولا شرط. فهونا عليها الحادث وجلونا عن صدرها همه. ولكن الأمر بعد ذلك عظم في نفسها وأصبحت تظن أن الحكومة تضطهدها وتراقبها فقررت ألا تخرج من البيت، وشعرت أنها غير مقدورة ولا مشكورة فصدفت عن الكتابة، واقتصرت من الغذاء على شراب الليمون، ومنعت إذنها عن الناس فلم يدخل عليها إلا أربعة أو خمسة من أصدقائها الأدنين. ودخلنا عليها ذات ليلة فوجدناها كئيبة النفس كأنما انصرفت من جنازة حبيب. فسألناها ما بها، فقالت إنها الساعة مزقت وأحرقت ستة وثلاثين مخطوطاً من رواياتها ومقالاتها آخرها رواية (المصري الجديد) لأنها لم تجد رداً على ظلم الحكومة وعقوق الناس أبلغ من هذا الصنيع. فبدا على وجوهنا سهوم الأسى والجزع على هذه الثروة الأدبية تخسرها العربية من بلاغة مي. كل ذلك ومي محافظة على هدوء الطبع ورصانة العقل وألمعية الذهن وسلامة الحديث، فعزونا هذه الحال النفسية إلى حزنها على أمها، ووجدتها في بيتها، وعزلتها عن أهلها، فأشرنا عليها مع الطبيب أن تسافر إلى لبنان انتجاعاً للراحة

وطلباً للنسيان وابتغاء للأنس، فكانت ترفض، حتى حملها بعض قرابتها على أن تسافر فسافرت، وفي مرجونا أن تعود مي إلى مصر رخية البال سعيدة النفس رافهة البدن، وما كان في حسبان أحد ممن ساعد على هذا السفر أن مي معبودة القلوب وريحانة المجالس وفخر النهضة تقع في حبالة الطمع الدنيء والهوى المريض والذمة الغادرة، فيعتقلونها في مستشفى الجنون اعتقال الشريدة، ثم يغشونها بالحجب، ويحيطونها بالأسرار، ويئدونها بالترك، حتى تجهلها الحياة وينساها الناس وتخلص لهم الغنيمة

إن الآنسة مي التي غذت نهضة الفكر العربي مدى ربع قرن، فكان لها في كل موضوع رأي، وفي كل قلب ذكرى، وفي كل مكتبة أثر، لا يمكن أن تضيع هذه الضيعة الذليلة بين مصر ولبنان. وسينظر الناس ماذا يصنع جمهور الأدبين وحكومة البلدين بعدما برح الخفاء وانكشفت النية وانهتك ستار المأساة

أحمد حسن الزيات

اللورد كتشنر

كما يصوره صاحب (المشرقيات)

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

راقتني من كتاب (المشرقيات) للسير رونالد ستورس، على الخصوص، طائفة من الصور الوصفية لجماعة من مواطنيه الإنجليز الذين كان يعمل تحت رياستهم. وكان السير رونالد هو السكرتير الشرقي لدار المعتمد البريطاني في مصر، أو قصر الدوبارة كما كانت تسمى قبل الحرب، وقد ظل يعمل تسع عشرة سنة في مصر وفلسطين بعد فتحها وجلاء الترك عنها، ويقوم بأثقل الأعباء وأخطر المهمات، وهو يعد - في اصطلاح الوظائف - (ظهورات) والمراد بذلك أنه غير (مُثبت) ولا يحسب له معاش، ولا يمنح شيئاً سوى الشكر والثناء إذا ترك الوظيفة أو استغنت عنه حكومته. ولم ينتظم في سلك الموظفين الدائمين إلا بعد أن تخلى الجيش البريطاني عن إدارة فلسطين وأسلم الأزمة إلى حكومة مدنية برياسة مندوب سام فهذه واحدة قد تكون فيها عبرة للمصريين

ومن أشهر المعتمدين البريطانيين الذين تعاقبوا على مصر قبل الحرب وبعدها اللورد كتشنر، وقد قص عنه السير رونالد بضع نوادر تصوره أبرع تصوير. منها أنه على أثر مقدمه، سبقه السير رونالد - وكان لا يزال المستر ستورس - إلى قصر الدوبارة، وجلس إلى مكتبه ينتظر أن يقرع له الجرس. وكانت حكومته قد أنبأته أنه سيكون مع اللورد كتشنر (تحت الاختبار) فإذا رضي عنه فبها، وإلا فهو مفصول لا محالة. ولم يكن المستر ستورس يرجو خيراً، أو يطمع في رضى رئيسه، فراح يحسب ما ادخره ليرى هل يكفي لنفقات السفر على الدرجة الأولى وهو عائد إلى بلاده. وإذا بالجرس يدق، فنهض ودخل على كتشنر يحمل إليه آلافاً من برقيات التهنئة التي تلقتها الدار قال ستورس: (وكان الفيلد مارشال يحدق في مكتبه وهو يسأل عن هذه الأوراق ما هي. فأخبرته، فسألني ماذا أنوي أن أصنع بها؟ فقلت: إن رأيي هو أن التهنئات الواردة من أعضاء الأسرة المالكة ومن الوزراء الحاليين والسابقين يكون الرد عليها بضمير المتكلم إذا كانت هناك معرفة شخصية، أو بضمير الغائب إذا لم تكن ثم معرفة كهذه بينه وبين مهنئه،

وأن غير هؤلاء من الأفراد المعروفين أو الجديرين بالاحترام يتولى السكرتير الشرقي شكرهم، وأن الباقين يكون جوابهم - الصمت

فأدهشني وأفزعني أن أتلقى منه أمراً بالمساواة بينهم جميعاً. وقد تعود الفيلد) مارشالات الطاعة السريعة التي لا تعرف التردد أو المناقشة؛ ولعل اللورد كتشنر أصرمهم في هذا. وقد بدا لي وأنا واقف أمامه أن المجادلة لا محل لها، وخاصة ممن كان مثلي مدنياً لا عسكرياً؛ ولكنه لم يسعني مادمت في وظيفتي، إلا أن أكون مستحقاً للأجر الذي أتقاضاه عليها، ولذلك تشددت وأنا على مقربة من الباب، وأجريت لساني بما يفيد الطاعة، وزدت على ذلك أن في وسعنا على كال حال أن نهمل النتائج. وكنت كأني في حلم، وكأني أحس - لا أسمع - سؤاله (أي نتائج؟)

فقلت بلهجة اليائس: إن أهل الطبقة الأولى سيرون أنهم أهينوا لأنهم عوملوا كأهل الطبقة الثانية، وإن أهل الطبقة الثانية سيعدون هذه سابقة، وينتظرون في كل حال أن

يُسووا بمن فوقهم، وإن أهل الطبقة الثالثة سيستخدمون اسم سعادته (يعني كتشنر) في ابتزاز المال من الجهلاء والأميين من أبناء الريف.

وساد سكون مزعج سألت نفسي فيه - بسرعة البرق - إذا طردت هل يسعني أن) أسافر على الدرجة الأولى، ولو بطريق البحر الطويل؟ وسمعت كما يسمع الحالم صوتاً يقول: (أصغ ما بدا لك) واستيقظت في غرفتي حيث عجلت بإرسال ردود الشكر قبل أن يغير رئيسي رأيه

وفي الأسبوع الأول من عهد كتشنر، سمع المستر ستورس أن طائفة من الموظفين الإنجليز ينوون أن يستقيلوا، بعضهم لكراهتهم له، والبعض الآخر لأنهم يتوقعون منه أن يقيلهم. فرأى المستر ستورس من واجبه أن يبلغه ذلك من غير أن يذكر له أسماء.

فقال له كتشنر: (اذهب إلى النادي (تيرف كلوب) وأعلن هناك أن عندي هنا في هذا الدرج استئمارات مطبوعة بقبول الاستقالات). فأذاع المستر ستورس هذا الخبر، فلم ترد استقالة واحدة!

ويقول المستر ستورس إنه اشتاق إلى الاطلاع على هذه الاستئمارات العجيبة، ففتح المدرج فألفى فيه صندوقاً فيه سجاير!

وتغدى سلاتين باشا مرة مع كتشنر، فقال على الطعام، تمهيداً للكلام في أمر (معاشه):

(إن من دواعي أسفي أني لم أوفق في حسن تدبير الجانب المالي من حياتي)

فقال كتشنر: (إن من يعرفك يا عزيزي سلاتين لا يخطر له غير ذلك)

ولم يكن هذا بالرد المشجع على الاسترسال ولكن سلاتين باشا لم ينهزم فقال:

هأنذا ظللت في أسر المهدي اثنتي عشرة سنة، عارياً مكبلاً أكثر الوقت، وقد وقعت) (في هذا الأسر وأنا في الخدمة، ومع ذلك لم آخذ قرشاً واحداً طول هذه المدة

فكان رد كتشنر: (صحيح يا سلاتين، ولكنك لا تستطيع أن تزعم أنك أنفقت شيئاً في هذه المدة!)

وبعد هذا الجواب انتقل الحديث فجأة إلى الطيران ومحصول القطن!

ولما جاء إلى مصر كامل باشا الذي تولى الصدارة العظمى في تركيا أربع مرات، زاره اللورد كتشنر في فندق سمير أميس، فتذكر كامل باشا أنه لما كان والياً في الأناضول كان كتشنر قنصلاً لدولته هناك، فقال كتشنر:

نعم، ولكنك توقلت في معارج الرقي بسرعة، أما أنا فكنت يومئذ قنصلاً، وقد احتجت) (إلى ثلاثين سنة لأصبح قنصلاً عاماً!

وكان إذا جاءه البريد من لندن، يفتح منه أول ما يفتح، كتاب وكيله الذي يصف له فيه مبلغ التقدم في إعداد بيته هناك وإصلاحه. ويقول ستورس: إن العمل في بيت كتشنر استغرق سنوات وسنوات، لأنه كان ينفق عليه مما يستطيع أن يدخره من مرتبه. وكان هذا البيت هو كل ما يعنيه من أموره الخاصة؛ وشاء القدر ألا يسكنه قط، لأنه غرق قبل أن ينتقل إليه

ولم يكن يحسن الكتابة أو يقبل على القراءة ويعنى بالاطلاع مثل كرومر. وكان قلما يلعب غير الشطرنج في القطار أو على الباخرة. ولم يكن له ذوق غورست وفهمه للموسيقى والعلوم الطبيعية، أو ولع اللنبي بالألعاب الرياضية والشعر، ولكنه كان مشغوفاً بالعاديات وفنون الزينة

وقد قامت الحرب، وهو في إجازته في إنجلترا، فأراد أن يعجل بالعودة إلى مصر لأنه كان يخشى أن تكل إليه حكومته وظيفة استشارية. فلما صار على ظهر الباخرة تلقى برقية من رئيس الوزارة يطلب بقاءه، فعاد إلى لندن ومعه السير رونالد ستورس وفي نيته ألا يقبل

شيئاً دون وزارة الحربية مع إطلاق يده فيها. فأعطوه ما طلب. فأراد أن يتخذ السير رونالد سكرتيراً خاصاً له وأمره أن يستأجر له بيتاً، ويجيئه بسيارة من طراز (رولز دويس) وأن يذهب إلى الخارجية للاتفاق معها على الانتقال مع كتشنر إلى الحربية.

وكان السير رونالد لا يريد هذا الانتقال لأنه ليس من رجال الحرب ولا دراية له بشئونها، ولكن كتشنر كان رئيسه - لأنه لم يستقل من وظيفته في مصر - فأطاع.

فأبى رجال الحربية أن يسمحوا بهذا النقل، ولكنهم كرهوا أن يعارضوا كتشنر، فكلفوا ستورس نفسه أن يتولى هو عنهم إقناعه وإبلاغه أنهم محتاجون إليه في مصر

فلما عاد إلى وزارة الحربية ألفى كتشنر يغسل وجهه، وهو نصف عار، ووراءه عدد من القواد الفرنسيين، فانتظر حتى فرغ مما هو فيه، ثم أخبره الخبر، فاقتنع كتشنر، وقال: إن رجال الخارجية على حق. وكان من مزاياه - على ما يروي السير رونالد ستورس - أنه لا يتردد في الرجوع إلى الحق، ولا يخجل أو يستنكف من ذلك

إبراهيم عبد القادر المازني

اختلاف

حدود الحق والواجب

للأستاذ عبد الرحمن شكري

مفتش التعليم الثانوي

إن حدود الحق والواجب تختلف في الأماكن المختلفة بعض الاختلاف كما أنها قد تختلف في الأزمنة المختلفة أو في المكان والزمان لاختلاف الطبائع والصفات النفسية وما يتبعها من الآراء. وهذا الاختلاف في تعريف حدود الحق والواجب وتعيينها قد يغر الناس في عصور الانقلاب الاجتماعي فينبذونها كلها ويحاولون أن لا يتقيدوا بها وأن لا يجعلوا لها شأناً، ويحسبون أن الحياة تستطيع أن تقوم وأن تحسن وتصلح من غيرها، ويغالطون أنفسهم كي يستثمروا نبذها لجلب مطالب وقضاء لبانات

والحقيقة أن للحق والواجب حدوداً لا يختلف فيها أحد وإن اختلف الناس في حدود حقوق وواجبات أخرى، وأن كثيراً من الناس ينبذون حتى الحدود التي يعترفون بها عجزاً عن كبح أثرتهم وأن الحياة لا تصلح إلا بنصيب كبير من احترام حدود الحق والواجب التي تحددها القوانين الإنسانية والضمير والشرائع الدينية حتى في عصور التغير الاجتماعي التي يكثر فيها العبث بتلك الحدود، بل ربما كانت تلك العصور أحوج إلى طوائف من الناس يزداد تشبثها بتلك الحدود حفظاً للتوازن الحيوي لأن الحياة قائمة على التوازن وسنته هي سنتها. ومن درس كتب التاريخ وجد في الأمم المختلفة حتى في إبان الثورات والحروب والكوارث الطبيعية وفي وسط ما تبتعثه بالاضطراب الخلقي والإجرام - أناساً يعملون أعمالهم اليومية في حدود الحق والواجب، وأناساً يزداد تشبثهم بتلك الحدود حسب سنة التوازن الحيوي التي أشرنا إليها

ومن الناس من يقول إن حدود الحق والواجب إذا استعبدت الناس استعباداً مطلقاً وتقيدوا بحروفها دون معانيها وظروفها منعت من تحوير الحقوق والواجبات لإنمائها وتحسينها كما يتطلبه رقي الإنسانية. ولعل الصواب الذي في هذا القول أقل من المغالطة المقصودة أو غير المقصودة، وأقل من سوء التطبيق الذي تدفع إليه الرغبة في التخلص من بعض تلك

الحدود، وأقل من الغفلة التي تمنع من يقول هذا القول من أن يعرف أن أكثر الحقوق والواجبات اللازمة لرقي الإنسانية معروف، وإنما هو القصور عن عليائها الذي يمنع من الرقي في أكثر الأحوال

ولا ننكر أن بعض عصور الانقلاب الاجتماعي التي جرت في أذيالها شيئاً مما دعا إلى طمس بعض حدود الحق والواجب القديمة قد أدى إلى تعديل وتحوير وتحسين في حالة الإنسانية، ولكن المصلحين المثقفين كانوا يختلفون عن الدهماء وأمثال الدهماء، فإن المثقفين كانوا يعتبرون هذا الطمس ضرراً عارضاً مؤقتاً لابد من منع شره من أن يستطير، وأنه ليس سبب الرقي ولا أساسه، وأنه ينبغي قصره على الحد الذي يمكن الدهماء إذا كانوا لا يمكنون إلا معه من الرغبة في الحقوق والواجبات الجديدة. أما أمثال هؤلاء الدهماء وأنصاف المثقفين وذوو الأثرة والجشع والمكر والخبث ممن ينعق في أثر كل مصلح فيحاولون طمس جميع حدود الحق والواجب كي ينتفعوا ولا يبالون ما يكون بعد انتفاعهم

وبالرغم من سنة التوازن التي تؤدي إلى زيادة تشبث بعض الطوائف الإنسانية إذا نقص تشبث غيرها بحدود الحق والواجب قد يتدهور المجتمع الإنساني بسبب قوة عوامل الخراب التي تطغى وتشل أثر هذه السنة حتى ولو كان التغير المطلوب مما يرجى فيه خير الإنسانية، وبعض التغير لا رجاء فيه فتكون المصيبة أكبر والخسارة مضاعفة

ومن المستطاع التمييز بين وهْيِ حدود الحق والواجب الناشئ من التغير المؤدي إلى رقيّ، وبين وهيها الناشئ من تغير لا يؤدي إلى رقي - وإن اختلطا في أذهان الناس

ونفوسهم - فالوهي الأول لا يكون شاملاً لجميع الطوائف والطبقات والأفراد، بل نرى من الطوائف من لا يتأثر به ولاسيما طائفة المحافظين على القديم. أما الوهي الثاني الذي يؤدي إلى تدهور فيكون شاملاً، ومن دلالاته أن الطائفة المحافظة على القديم قد تكون من أكثر الطوائف تأثراً به بالرغم مما يتفاخر أفرادها من المحافظة على حدود الحق والواجب. والنوع الأول مقصور على بعض حدود الحق والواجب غير شامل لها، وإنما يقصر على ما يراد تعديله وإنماؤه من الحق والواجب. أما النوع الثاني فإنه يظهر بمظهر شامل لجميع حدود الحق والواجب أو أكثرها؛ والنوع الأول نرى من خلفه حقوقاً وواجبات أخرى يتقيد
بها الإنسان. أما النوع الثاني فلا يليح بشيء من ذلك
وبهذا القياس نستطيع أن نقيس حالة الأمم. فإذا كان احتقار حدود الحق والواجب شاملاً لطوائفها وطبقاتها حتى وإن أنكر بعضهم شموله، وإذا كان غير مقصور على بعض الحدود، وإذا كان لا يبشر بحدود أعلى وأتم وأحسن، وإذا لم كان غير مصحوب بالغيرة على المثل العليا، ولم تكن تلك المثل الداعية إليه، فهو نذير شؤم وتدهور واضمحلال
ولكن مما يؤسف له أن بعض المثقفين لا يميزون هذا التمييز ولا يعيرون هذا القياس اهتماماً بل يكتفون برؤية مظاهر تغير اجتماعي مصحوبة بوهي حدود الحق والواجب فيحسبون أن ذلك إنما كان لتسهيل قبول حدود حقوق وواجبات جديدة أكثر قداسة، ويفترضون أن مظاهر التغير هذه لابد أن تؤدي إلى الرقي المؤجل الدائم. وما يسهل انخداعهم أن تكون تلك المظاهر مصحوبة برقي في الماديات، ويحسبون أن ذلك الرقي في الماديات سيكون خالداً ومؤدياً حتما إلى زيادة حدود الحق والواجب متانة وظهوراً في النهاية وإن أضعفها وطمسها في البداية، ولا يميزون أنواع ذلك الضعف والطمس ولا يقيسونها بما ذكرنا من الشرائط. وربما يسهل انخداعهم أيضاً أن بعض المصلحين يعمدون إلى إضعاف تلك الحدود أو بعضها تقريباً لمبادئ جديدة كما يُعمل الهادم معوله في البناء القديم كي يهدمه وكي يؤسس مكانه بناء جديداً. وأكثر هؤلاء يحسبون أنه مهما بلغ من الفساد بسبب طمسهم حدود الحق والواجب فإنهم قادرون على علاج الفساد الذي سببوه. وهذا نوع من الغرور يختص به بعض دعاة الإصلاح ويسلكهم في زمرة المفسدين الذين لا يبالون أصلحت الدنيا أم خربت، حتى أن المفكر لا يستطيع أن يميز بين الطائفتين وأن يحكم على رجل من أي نوع هو وينبغي للمفكر أن يميز بين المجتمع الإنساني والبنيان، فالبناء حجر أصم يمكن هدمه وإقامة بناء آخر مكانه ولا خطر في ذلك إذا تهيأت الأسباب والوسائل، أما المجتمع الإنساني فهو حي نام شبيه بجسم الإنسان الحي النامي لا بالبناء الأصم، والذين حاولوا إدخال إصلاحاتهم على اعتبار أن المجتمع كبناء من حجر أصم ما لبثوا أن عرفوا خطأهم، وزادتهم خبرتهم وزادتهم أخطاؤهم يقيناً أن المجتمع الإنساني ليس كالبناء المصنوع من حجر أصم بل كجسم الإنسان النامي الحي، ولكن بعض هؤلاء أخطأ في حسابه وبالغ
فأفلتت منه الأمور واضمحلت. وينبغي لكل من يعالج أمراً من أمور المجتمع الإنساني أن يقدر أنه قد يكون مخطئاً أو مغالياً حتى على شدة الثقة برأيه فيتخذ الحيطة. واجتماع هذه الأمور لا يكون إلا في مراتب الثقافة الإنسانية العالية. وينبغي لهذا المعالج لأمور الناس أن يحذر من أن يؤدي عمله إلى احتقار حدود الحق والواجب احتقاراً يصبح ناراً تلتهم كل الحقوق والواجبات أو تحاول التهامها ويصير مرضاً مزمناً في المجتمع الإنساني، وهو إذا حاول استخدام احتقار حدود الحق والواجب الناشئ من المكر والخبث والجشع، واستثمارها بتقديم أصحاب هذه الصفات كان عمله آفة لا إصلاحاً، وصارت أمور الناس ضيعة يستغلها من لا يبالي أصلحت الدنيا أم خربت. وقد يستغلها ويخربها باسم الإصلاح بقدوته ونفوذه العلني والسري، والثاني شر من الأول لأنه مختف فيندفع صاحبه غير هياب ولا وجل في إفساد الأخلاق والذمم والضمائر والنفوس. ويكون معالج أمور الناس الذي قدمه كالمرأة التي تغزل بيد وتنقض غزلها باليد الأخرى، وربما سطت بتلك اليد الأخرى على غزل غيرها ونسجه فتتلفه أيضاً.
عبد الرحمن شكري

بين تيمورلنك وبايزيد
قصة الملك الأسير في قفص من حديد
للأستاذ محمد عبد الله عنان
لما زرت أنقرة عاصمة تركيا الجديدة منذ أعوام، وتأملت المدينة الناشئة التي اختارها القدر لتكون مبعث حياة جديدة للأمة التركية، تذكرت أن هذه الهضاب القفرة التي تحيط بالعاصمة التركية الجديدة كانت مسرحاً لحدث عظيم في تاريخ الدولة العثمانية، وأنها إذا كانت اليوم مركزة القوة والحياة في تركيا الجديدة، فقد كانت ذات يوم مبعث الدمار والويل لدولة بني عثمان وكادت أن تكون قبراً لسلطانهم الناهض ومجدهم الفتي
كان ذلك في سنة 1402م، حينما انقض تيمورلنك الفاتح التتري بجيوشه الجرارة على هضاب الأناضول كالسيل، وحينما نشبت في هاتيك الهضاب الوعرة بينه وبين السلطان بايزيد الأول موقعة أنقرة الشهيرة التي سحقت فيها قوى آل عثمان وأسر ملكهم وأمراؤهم، وكادت تمحى دولتهم من الوجود لولا أن تطورت الحوادث بعد ذلك بسرعة، وتوفي الفاتح التتري بعد ذلك بقليل، وانهارت دعائم ذلك الصرح العسكري الهائل الذي شاده تيمور بغزواته وفتوحاته وانتصاراته العظيمة
وكان تيمور قد بدأ حياة الفتح بعد ذلك بنحو ثلاثين عاماً، وخرج من سمرقند عاصمة ملكه الناشئ يثخن في الأمم والممالك المجاورة شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، ويفتتح قطراً بعد قطر، ويسحق مملكة بعد أخرى؛ فلم يمض على هذا البدء ثلاثون عاماً حتى استطاع أن يجتاح جميع الممالك الواقعة بين سمرقند والشام، وبين قزوين والخليج الفارسي، وأن يفتتح الهند وخوارزم وفارس والجزيرة والقوقاز وأرمينية، وأن يبسط حكمه الشامل على تلك الممالك والأنحاء الشاسعة، وأن يبلغ ذروة الظفر والسلطان الباذخ
وفي سنة 1399م خرج تيمور من سمرقند بجيشه الظافر لآخر مرة؛ وكان قد نفذ إلى الهند قبل ذلك العام وأثخن في بسائطها وقواعدها؛ واستولى على دهلي حاضرتها، وتم بذلك افتتاحه لممالك آسيا الوسطى؛ واخترق تيمور بجيشه الزاخر فارس واتجه نحو بلاد الكرج وأرمينية؛ وكانت هذه المنطقة مثار خلاف دائم بينه وبين بني عثمان، إذ كانوا يغيرون عليها من وقت إلى آخر؛ وكانت أملاك تيمور وبني عثمان تلتقي هنالك عند أرضروم
والفرات؛ وزحف تيمور على سيواس، وكان الترك العثمانيون قد احتلوها قبل ذلك بقليل، واستولى عليها؛ وبلغت هذه الأنباء سلطان الترك بايزيد الأول، وهو معسكر بجيشه تحت أسوار قسطنطينية يحاصرها، فلم يستطع شيئاً؛ واخترق تيمور بلاد الأناضول، وزحف نحو الشام وهي يومئذ ولاية مصرية، يقصد افتتاحها؛ ثم يفتتح مصر؛ وبذلك يبسط سلطانه على الشرق الإسلامي بأسره. واستولى تيمور على مدينة حلب في مناظر هائلة من السفك والعيث والنهب، وانقض سيل التتار المخرب على ربوع الشام يثخن فيها ويحمل أمامه كل شيء. وزحف الغزاة على دمشق في أوائل سنة 803هـ (1400م)؛ فروعت مصر لهذه الأنباء، وهرع ملك مصر الناصر فرج بجيوشه لملاقاة الفاتح التتري ونزل بدمشق في جمادى الأولى، واشتبك جند مصر مع جند الفاتح في معارك محلية كانت سجالاً؛ ولكن السلطان اضطر أن يعود فجأة إلى القاهرة لأنباء مزعجة نميت إليه فترك دمشق لمصيرها؛ واستولى تيمور على دمشق صلحاً، ولكنها لم تنج من سفكه وعيثه؛ على أنه لم يمكث طويلاً بالشام إذ وصلته الأنباء عن أهبة بايزيد وحركاته؛ فغادر الشام شرقاً إلى الفرات، ثم سار شمالاً إلى بلاد الكرج، وأشرف مرة أخرى على حدود مملكة (الروم)
وهنا تبدأ بين هذين العاهلين العظيمين وقائع تلك المعركة الشائقة التي تسبغ عليها تفاصيلها لوناً من الخيال الساحر، فقد استقبل تيمور سفراء بايزيد وأنبهم على مسلك مليكهم، وكتب إلى بايزيد رسالة يلومه فيها على حمايته لبعض الأمراء الذين خرجوا عليه، ويفاخره بفتوحاته الباهرة وسلطانه الباذخ ويحذره من سطوته وبطشه ويتحداه في عبارات جافية مثيرة؛ فرد عليه بايزيد برسالته الشهيرة التي تذكرنا عباراتها وأسلوبها برسائل الملوك الأقدمين وعهد الأساطير، وفيها يسخر منه وينتقص من قدره وقدر فتوحاته وغزواته، وينسب توفيقه فيها إلى غفلة الزمن وإلى ضآلة شأن خصومه،

ويحمل على وسائله في الحرب والسياسة، ويرميه بالعدوان والغدر، ويرمي جنده ومواطنيه التتار بالعجز والخور؛ وينوه بقوته ومقدرة جنده، وعظيم استعداده للحرب والطعان. على أن ذلك لم يكن شيئاً بالقياس إلى ذلك التحدي الغريب الذي اختتم به بايزيد رسالته إلى تيمور، إذ يقول له: (فإن لم تأت تكن زوجاتك طوالق ثلاثا؛ وإن قصدت بلادي وفررت عنك ولم أقاتلك فزوجاتي إذ ذاك طوالق ثلاثا). ويعني ابن عربشاه مؤرخ تيمور عناية خاصة بذكر

محتويات الرسائل التي تبادلها الملكان، ويقول لنا إن تيموراً حينما وقف على هذا القسم الغريب الذي يلقيه بايزيد في وجهه ثارت نفسه غضباً، (لأن ذكر النساء عندهم من العيوب، وأكبر الذنوب)، فكيف بهذه الإشارة المثيرة إلى نساء الفاتح وحليلاته وهكذا اعتزم العاهلان أن يخوض كلاهما ذلك النضال الذي يشهره كلاهما في وجه الآخر؛ فبادر تيمور إلى الزحف في جيشه الزاخر شرقاً نحو هضاب الأناضول، ونفذ إلى مملكة الروم، واستولى في طريقه على مدينة قيصرية، ثم اخترق نهر هاليس، وطوق مدينة أنقرة؛ وكان بايزيد قد استطاع في الفترة التي قضاها تيمور في الشام أن يجمع قواته وأن يستكمل أهبته. وتقول لنا الروايات المعاصرة إن جيش التتار بلغ يومئذ زهاء ثمانمائة ألف مقاتل، وأن جيش الترك بلغ زهاء أربعمائة ألف، وهي أرقام هائلة في تلك العصور وخصوصاً إذا ذكرنا ما كانت عليه وسائل النقل والتموين يومئذ من نقص وصعوبة. وكان الجيش العثماني يتفوق على جيش التتار بنظامه، ويمتاز بالأخص بفرق الانكشارية الجريئة؛ ولكن جيش التتار فضلا عن تفوقه العددي، كان متفوقاً في روحه المعنوي. وكانت هذه الانتصارات المتوالية التي أحرزها التتار ما بين السند والأناضول قد بثت في نفوس الغزاة روحاً من الثقة الوطيدة. ولما وقف بايزيد على مقدم تيمور هرع إلى لقائه في ظاهر أنقرة، وكان هذا اللقاء الشهير بين الجيشين العظيمين في يوم الأربعاء 27 ذي الحجة سنة 804 (أواخر يولية سنة 1402) وأبدى بايزيد وجيشه شجاعة فائقة؛ ولكن سرعان ما دب الوهن إلى قواته، وانسحب بعضها من الميدان بإغراء تيمور ووعوده. وسرعان ما حلت النكبة بالترك فمزقت قواتهم وسحقت، وأسر بايزيد وعدة من ولده وآله؛ وفر ولده سليمان في بقية من الجيش صوب العاصمة؛ وطارد الغزاة العدو المنهزم، واستولوا على كوتاهية؛ ثم زحف محمد سلطان حفيد تيمور إلى بروصه عاصمة مملكة الروم فاستولى عليها، وعاث فيها ونهب القصور الملكية وسبى حريم السلطان، وفر سليمان إلى الشاطئ الأوربي حاملاً ما استطاع إنقاذه من خزائن أبيه. وسحق ملك بني عثمان تحت سنابك الغزاة مدى حين

وهنا تعرض للحرب صفحة في تلك المأساة الشهيرة، فإن ابن عربشاه مؤرخ تيمور يقول لنا إن الفاتح التتري سجن بايزيد في قفص من الحديد كما فعل قيصر مع سابور ملك

فارس؛ وهي رواية عربية تؤيدها الروايات اليونانية واللاتينية المعاصرة؛ بيد أن رواية ابن عربشاه ليست في حاجة إلى التأييد، فهو مؤرخ معاصر كتب روايته بعد وفاة تيمور بنحو ثلاثين عاماً فقط، واستقى مادته في سمرقند ذاتها حيث عاش مع أسرته ردحاً من الزمن وسمع أقوال رواتها وشيوخها المعاصرين لتيمور، واستقاها كذلك من بلاط السلطان محمد الأول بن السلطان بايزيد، حيث قضى في خدمته حيناً وتقلد لديه ديوان الإنشاء، واطلع على جميع المصادر والوثائق التركية والفارسية التي تتعلق بسيرة تيمور وغزواته؛ وإذن فليس في روايته عن القفص الحديدي الذي سجن فيه بايزيد ما يدعو إلى الريب

وهنالك رواية أخرى يقدمها إلينا مؤرخ فارسي معاصر، هو شرف الدين علي الذي كتب سيرة تيمور بعد وفاته بعشرين عاماً، تحقيقاً لرغبة حفيده السلطان إبراهيم. وخلاصة هذه الرواية هو أن تيمور حينما علم بأن السلطان الأسير (بايزيد) قد اقتيد إلى خيمته، نهض للقائه، وأكرم وفادته، وأجلسه إلى جانبه، وعتب عليه في لفظ رقيق، وحمله تبعة ما وقع، ووعده بصون حياته وشرفه؛ فتأثر بايزيد لكرم خصمه، وأعرب عن ندمه وقبل منه خلعته، وعانق ولده موسى الذي أسر معه والدمع ينهمر من عينيه؛ وأنزل السلطان وباقي الأمراء الأسرى منزلا حسناً. ولما وصلت زوج السلطان وهي الملكة رسبنا اليونانية وابنتها وباقي حريم السلطان، حملن إليه مكرمات معززات. ولما دعي السلطان إلى الحفلة التي أقامها تيمور ابتهاجاً بالظفر؛ وضع تيمور التاج على رأسه،

ووعده برد عرشه وملكه، ولكن السلطان الأسير ما لبث أن توفي، فحزن تيمور عليه وأمر بدفنه بين مظاهر التكريم في المدفن الذي أقامه لنفسه في بروصة، واختار ولده موسى ملكاً على الأناضول

على أن هذه الرواية لا يمكن أن تنال من الثقة ما تناله منا رواية ابن عربشاه، فهي على ما يلوح رواية قصر أريد بها تمجيد ذكرى الفاتح وعرض مناقبه. ويحاول المؤرخ الفيلسوف جيبون أن يوفق بين الروايتين، فيقول لنا إن رواية شرف الدين في شقها الأول صحيحة لا ريب فيها، فقد استقبل تيمور أسيره برقة وأكرم وفادته، ولكن بايزيد قابل كرمه بكبرياء وغطرسة، فاستاء تيمور واعتزم أن يقود أسيره في ركبه الظافر إلى سمرقند؛ ولكن محاولة بذلت لإنقاذ الملك الأسير حملت تيمور على التشدد في معاملته، فزج به إلى قفص من الحديد، اقتداء بما قرأه في بعض السير القديمة من أن سابور أحد ملوك الفرس وقع في

قبضة قيصر فسجنه في قفص من الحديد. ويضيف ابن عربشاه إلى ذلك أن تيموراً أراد أن يذهب في التنكيل بأسيره إلى ذروة القسوة والمهانة، فدعاه ذات يوم إلى حفل أنس عقده؛ ولما جاء دور الشراب، التفت بايزيد فإذا بنسائه وجواريه يتولين سقاية الفاتح وصحبه أمام عيني مليكهن؛ وقد كان ذلك من تيمور مبلغة في الانتقام من خصمه والتشفي منه لما اجترأ عليه من ذكر النساء في مكاتبته. وقد كان لهذه الآلام المادية والمعنوية أثرها في الملك الأسير، فلم يمض على محنته بضعة أشهر حتى توفي في غمر الحسرات والأسى، وكانت وفاته في مارس سنة 1403م وكانت هذه أيضاً آخر غزوات تيمور وانتصاراته؛ فلم يمض قليل على عوده إلى مملكته حتى لحقه المرض وتوفي في شهر فبراير 1405؛ وكانت وفاته نذير انحلال ذلك الصرح الشامخ الذي شاده بعبقريته وظفره وسعد طالعه

محمد عبد الله عنان

عبرة السيرة

بين يدي (العدد الممتاز) من الرسالة

للأستاذ علي الطنطاوي

إن مائة ألف قارئ في مشارق الأرض ومغاربها، سيأخذون (غداً) العدد الممتاز من (الرسالة) وسيقرؤونه وسيحيي في نفوسهم هذه الذكرى العظيمة المحبوبة التي نقف عندها في كل رأس عام هجري، كما يقف المُصْحِر في واحة مخضرة ظليلة. . . ننشق منها عبير المجد، ونتسمع أغاريد النصر، ونتجلى في طلعتها طيف الأيام الباسمة التي كان من قطوفها ألف معركة ظافرة حملت غارها الراية الإسلامية، وألف مدرسة وألف مكتبة نالت فخارها وجنت ثمارها البلاد الإسلامية، وكان من حصادها هذه الحضارة التي نعمت في أفيائها الإنسانية، وكانت إحدى الحضارات العالمية الثلاث بل كانت أسماها (من غير شك) وأحفلها بالعظمة والفضيلة والحق!

نقف كل عام لنحيي ذكرى الهجرة ونحييها، فنكتب فيها ونقرأ ونذكر ونتأمل، ونرتفع على جناح هذه الذكرى إلى جوّ عال من العظمة والفضيلة والشرف، نبقى فيه ما بقي المحرَّم، فإذا مر مر معه كل شيء: صوّخت الآمال، وهجعت الذكريات، وعدنا نتخبط في سوداء اللجة. . . لا نربح من هذه الذكرى إلا ما يسيل على أقلام أولئك الأعلام البلغاء من طرائف البيان يحويها عدد الرسالة الممتاز، ولا نفيد من المحرم إلا ما (قد) نقرؤه في الصحف والمجلات من القصص والقصائد والمقالات. وكثير مما يكتب في العدد الممتاز، وبعض مما ينشر في الصحف والمجلات، قيم ثمين، نعتده ثروة جديدة تضم إلى آدابنا الغنية الحافلة بثمرات القرائح الخصبة الممرعة في الأعصار الطويلة، ولكن ذلك لا يكاد يجدي علينا في نهضتنا إذا نحن لم نحيي هذه الذكرى إحياءً، ونكتبها مرة ثانية على صفحات الوجود، ونأخذ منها عبرة تنفعنا في نهضتنا، وهذا ما أنشئ له العدد الممتاز، وهذا ما يراد من إصداره.

وفي هذه السيرة من القوة والسمو والحياة، ما يغذي عشرين نهضة ويمدها بالقوة، لا تدانيها في هذا سيرة في التاريخ ولا تشبهها، بل إن هذه السيرة أعجوبة التاريخ ومعجزته، وهي خيال بالغت الدنيا في تزيينه وتزويقه، وأودعته مثلها العليا كلها. فجعله الله حقيقة واقعة. .

ولقد قرأت هذه السيرة مرات الله أعلم بعددها، في كتب لا أكاد أحصيها، ثم عدت اليوم أقرؤها لأجد في ثنى من ثناياها قصة مطوية أو حادثة مختبئة، أبني عليها فصلاً أكتبه للعدد الممتاز، وفي ظني أني لن أسير في قراءتها إلا قليلا حتى أملها وأعزف عنها لأني لا أجد فيها - وقد قرأتها حتى حفظتها - خبراً جديداً. . . وأقسم أني لم أسر فيها غير بعيد حتى أحسست بلذة فنية تمتلك عليّ أمري، وتستأثر بنفسي، كاللذة التي أمسها عندما أقرأ الأثر الأدبي البارع لأول مرة، وتغلبني حتى تضطرني أحياناً إلى قطع القراءة لأمسك بقلبي الواجب، أو أمسح عيني المستعبرة، أو أصغي إلى صوت الحق في ضميري، ومنادي الفضيلة في قلبي؛ ثم أسير فيها، فأنتقل من اللذة الفنية، والشعور بالجمال، إلى شيء أعلى من الفن وأسمى من الجمال: أحس بحلاوة الإيمان؛ وإن للإيمان لحلاوة عرفها من عرفها، وجهلها من جهلها، فمن عرف درى ما أقول، ومن جهل لم ير إلا حروفاً فارغة من المعنى. . . وإذا جاء الإيمان جاءت معه البطولة بأروع أشكالها، والتضحية بأعجب أنواعها، وجاء معه الصبر والإيثار والقوة والشعور، وكل فضيلة من فضائل البشر. . . وكذلك كانت حياة أصحاب هذه السيرة! كانت حياةً أسمى وأجمل من كل حياة عرفتها أو قرأت عنها أو تخيلتها: معرفة للغاية التي خلق الله الناس من أجلها، وجهاد في سبيل هذه الغاية، وجرى على هذا الجهاد، وترفع عن خدع الحياة وألاعيبها، واتصال بالله يكاد والله يرفعهم من رتبة الإنسانية إلى رتبة الملائكة ويخرج بهم من ثوب الجسم الماديّ، حتى يكونوا روحاً خالصاً. . .

عرفوا ما هي الغاية من الحياة وفهموها، على حين جهل الناس هذه الغاية فهم يسألون أبداً: لماذا نعيش؟ أو خدعوا عنها بغايات دنيئة قريبة. . . أما هؤلاء الغربيون فحسبوا الغاية من الحياة هي الحياة. جعلوا السبب هو المسبّب، والوسيلة هي الغاية، فعمدوا إلى تَرْفيهِ الحياة، واستخدموا لأجل ذلك ما قدروا عليه، فصارت حضارتهم آلية جامدة، وصاروا لطول ما اشتغلوا بالحديد والنحاس يفكرون بعقول من حديد ونحاس، وانقطعت صلتهم بالروح وانبتّوا مما وراء المادة. . . وأما هؤلاء المشرقيون، من الهنود وأمثالهم، فساروا على الضد، وأهملوا الجسم وعاشوا للروح، فظنوا بأن غاية الحياة الفناء في المطمح الروحي،

فقتلوا أجسامهم، وأعرضوا عن دنياهم، وأغرقوا أعمارهم في تأمل لا أول له ولا آخر، ولا جدا منه ولا منفعة. . أما الفلاسفة فكان منهم الماديون الذين بلغ من رقاعتهم أن أنكروا الروح إنكاراً وجحدوا الله، وقال متكلمهم: (إن الدماغ يفرز الفكر كما تفرز الكبد الصفراء. . .) فجعل الفكر مادة سائلة. . . ومنهم الروحيون الذين كانوا أصحّ نظراً، وأدنى إلى الحق، ولكنهم لم يصلوا إليه. . . تساءلوا منذ بدؤوا يفكرون: لماذا نعيش؟ ولا يزالون مختلفين يتساءلون هذا السؤال الذي عرف المسلمون وحدهم جوابه، حين قرءوا قول الله الذي أنزله على عبده ورسوله: (وما خَلقتُ الجنَّ والإنسَ إلاّ ليعبدون)

استدلّ المسلمون بالمخلوق على الخالق، وأرشدهم الله إلى عظمة هذا الكون (المكوَّن) فعرفوا منها ما لم يعرفه أصحاب الفلك من العلماء الماديين، غاية ما يعرف هؤلاء أن بيننا وبين الشمس كذا، وأنها أكبر من أرضنا هذه بكذا، ثم إن من هذه الكواكب كواكب لو ألقيت الشمس فيها لكانت رملة في صحرائها، أو نقطة من مائها، وما بين مشرق كوكب منها ومغربه أضعاف أضعاف ما بين الشمس والأرض، وغاب عنهم ما بعدُ من الكواكب، ووقفت دون رؤيته نظاراتهم ومكبراتهم، وعجزت عن الإحاطة به عقولهم وتصوراتهم، فسموه (فضاء غير متناهٍ)، كما يظنّ الطفل أن البحر لا ينتهي وليس له آخر. . . وهل شيء ليس له آخر، إلا مَنْ هو الأول والآخر؟ أما المسلمون فعرفوا أن وراء هذا الفضاء مخلوقاً عظيماً، يحيط به (كالسقف المرفوع) لا تقاس به هذه الكواكب إلا قياس (المصابيح) إلى السقف، تهون عنده هذه الكواكب العظيمة وتضؤل، لأن له من الكبر والجلال ما لا نجد في لغتنا هذه التي وضعت لهذه الأرض الحقيرة كلمة تدل عليه؛ هذا المخلوق هو السماء الدنيا، ومن فوقها ست سموات أخرى طباقٌ بعضها فوق بعض، ومن فوقها أشياء أجل وأكبر، لا تكاد هذه السموات تعدّ إذا قيست بها شيئاً، هي العرش والكرسي، وهناك الجنة، عرضها السموات كلها والأرض. . . هذه هي المخلوقات، التي كانت بكافٍ ونون، فما ظنك بالمكوِّن الباقي؟ ومن عرف هذا الجلال للمخلوق، كيف يكون إجلاله للخالق؟ وهل يجد

لحياته غاية إلا الاتصال به وعبادته؟ وهل يقف به عقله وهمته في هذه الأرض؟. . . أي شيء هي الأرض في هذا الكون؟ ما هي في جنب الله؟
فهموا عقيدة القضاء والقدر أصحّ فهم وأجوده - وعقيدة القدر محنة العقل البشري، تزل
فيها العقول الكبيرة وتضل المدارك العالية - فكان فهمهم إياها أعونَ شيء لهم على ما وفقوا إليه من عمل، وأمضى سلاح بلغوا به ما بلغوا من ظفر. عملوا أن كل شيء بخلق الله وبعلمه، ولكن الله لم يضطر أحداً إلى الخير اضطراراً، ولم يجبره على الشر إجباراً، وإنما أعطاه العقل المميز، ودله على الطريقين المختلفين، وقال له: هذا إلى الجنة والسعادة، وهذا إلى النار والعذاب، وتركه وعقله. . . وأنه قدّر الأرزاق فلا زيادة ولا نقصان، وحدّد الآجال فلا تقديم ولا تأخير، فما كان لك سوف يأتيك على ضعفك، وما كان لغيرك لن تناله بقوتك؛ وإذا جاء أجلك فلا تستأخر لحظة ولا تستقدم. رفعت الأقلام وجَفَّت الصحف. . . فمضوا لا يهابون الموت في سبيل الله ولا يخافونه، لأنهم آمنوا إيماناً بأن المرء ليس أدنى إلى الموت، وهو في غمار المعركة الحمراء منه وهو في كسر بيته بين أهله وولده. . .
ولكن المسلمين الأولين لم يلقوا بأيديهم إلى التهلكة اعتماداً على أن الأجل محدود، ولم يُعرضوا عن سنن الحياة التي لا تجد لها تبديلا، بل اتبعوا قوانين الوجود، وساروا على نهج الحق، وحرصوا على الحياة حين يكون الواجب داعياً إلى الحياة، ورضوا بالموت حين يدعوهم الواجب إلى الموت. . . ولم يعرفوا هذا التوكل السخيف، فيناموا ويتقاعسوا عن العمل، لأنهم علموا أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، ولكن الله يرزق الناس بعضهم من بعض. وقرؤوا في القرآن قول الله الذي أنزله على عبده ورسوله: (فإذا عزْمتَ فتوكل على الله) فعزموا على العمل، وتوكلوا فلم يتكاسلوا عنه، ولم يتكالبوا على الدنيا؛ وجدوا كل الجد، ولكنهم لم يطلبوا شيئاً إلا من طريقه المشروع، وعملوا لدنياهم كأنهم يحيون أبداً، ولكنهم عملوا لآخرتهم كأنهم يموتون غدا
عرفوا هذه العقيدة على وجهها، فكانوا أعز الناس على الناس، ولكنهم كانوا أذلهم لله وللمؤمنين؛ وكان منهم أزهد الناس وهو أغناهم، لأن المال كان في يده لا في قلبه؛ وكان منهم الملك الزاهد، والعالم الغني، والفقير العزيز. . . وما شئت من خصلة من خصال الخير إلا وجدتها فيهم
كانوا إذا قرأوا في الصلاة قوله تعالى: (إيّاكَ نَعْبدُ وإيّاكَ نَسْتَعِين) كانوا صادقين، لا يعبدون إلا الله، ولا يستعينون إلا به؛ لا يسألون غير الله ما لا يقدر عليه إلا الله، ولا يستعينون
بالأموات الذين عجزوا عن معونة أنفسهم. ولقد قرأت السيرة وتلوت القرآن، فلم أجد في القرآن إلا أن محمداً صلى الله عليه وسلم بشر كسائر البشر، في تركيب جسمه، وصحته ومرضه وطبيعة فكره، وخطئه وصوابه، ولكن الله اختاره للرسالة الكبرى، فعصمه من كل ما يدخل الخطأ على الرسالة، أو يؤدي إليه، أو يشين الرسول، فكان صادقاً مصدقاً، لا ينطق عن الهوى، ولا يقول (إذا بلغ عن ربه) إلا الحق، ولا يشرع من الدين إلا ما أذن به الله. وكان منزهاً عن الذنوب والمعايب التي لا يليق بصاحب الرسالة أن يتصف بها، فإذا جاوز الأمر تبليغ الرسالة وما يتصل بالدين إلى أمور الدنيا فهو بشر يخطئ ويصيب، وإن كان من أكثر الناس صواباً، وأقلهم غلطاً لأنه كان أكمل الناس عقلاً وأثقبهم بصيراً؛ ومادام بشراً فإنه يموت إذا جاء أجله. وإنه الآن ميت ليس حياً في قبره كما يظن الجهلة من العوام وأشباه العوام، ويمنعون الناس أن يقولوا إنه ميت، وقد قال الله ذلك في كتابه، وقاله أبو بكر صاحب الرسول وصديقه على منبر الرسول في مسجده، بحضرة أصحابه وعترته. أما الذي قاله عمر ساعة من نهار فإنما كان مصدره الألم المفاجئ، والحب الطاغي على الفكر، فلما سمع من أبي بكر ما سمع، لم تحمله رجلاه فسقط. . . . قرأت السيرة من ألفها إلى يائها، فلم أجد أحداً من المسلمين دعا الرسول أو لجأ إليه إذا حاق به الخطب الذي لا يقدر البشر على دفعه، وإنما كانوا يلجئون إلى الله ويدعونه، لا يقولون مقالة البوصيري:
يا أكرم الرسْل، ما لي من ألوذ به ... سواك. . . عند حلول الحادث العمم!
ولا قول الآخر يخاطب عبد الله ورسوله بهذا الخطاب الذي لا يخاطب به مؤمن إلا الله وحده:

. . . . .يا أكرم الرسل على ربه
عجل بإذهاب الذي أشتكي ... فإن تأخرت فمن أسأل؟
لا يدري من يسأل إذا تأخر رسول الله بإذهاب الذي يشتكي؟ وهو يقرأ كل يوم سبعة عشرة مرة (على أقل تقدير): (إيّاكَ نعبدُ وإيّاكَ نستعين)؟! ولم أجد صحابياً لجأ إلى الرسول بعد موته يستشيره في أمر، أو يراه في منام فيبني على رؤياه حكما ويأخذ منها علماً. ولقد اختلفوا على الخلافة والنبي صلى الله عليه مسجّىً في بيته لم يدفن، فما فكروا أن يلجئوا إليه وأن يستشيروه، وهل يستشار الميت؟
صدقوا بإمكان المعجزات والكرامات (وهي ممكنة والإيمان بإمكانها من أصول الدين) ولكنهم لم يكونوا يفهمونها على نحو ما نفهمها اليوم، ولم أجد للصحابة - وهم أفضل المسلمين - مثل هذه الكرامات التي نقرأ حديثها ونسمعه كل يوم. . . ووجدت كتب السيرة كلما تأخر بها الزمن، زادت فيها أحاديث المعجزات حتى بلغت هذه الموالد العامية (مولد البرزنجي وشبهه) التي جاء فيها ما نصه: (ونطقت بحمله صلى الله عليه وسلم كل دابة لقريش بفصيح الألسن القرشية!). . . (وتباشرت به وحوش المشارق والمغارب). . . (وحضرت أمه ليلة مولده آسية ومريم في نسوة من الحظيرة القدسية. . .!)
وقرأت السيرة كلها، ودققت في كل سطر منها فما شممت رائحة اختلاف بين المسلمين، لا في العقيدة ولا في المذهب ولا في الطريقة، وإنما المسلمون كلهم اخوة في أسرة واحدة، عقيدتهم واحدة، عقيدة بلغت من الوضوح واليسر و (البساطة) إلى حيث لا تدع مجالاً لاختلاف. وهل يختلف في أن الواحد يساوي الواحد؟ هذه هي عقيدتنا. . . ولكن المتكلمين أدخلوا فيها مسائل ليست من العقيدة في شيء، وملئوا بها كتبهم التي عقدوا فيها هذه العقيدة حين حشوها بحكاية كل مذهب مخالف والرد عليه. وجئنا نحن نزيد البلاء بلاء حين نحفظ الطلاب هذه المذاهب والرد عليها وقد انقرض أصحابها منذ دهور. . .
أما هذه (الطرق) فليست في أصل ولا فرع، ولا تكاد تمشي مع المأثور من الذكر، وإن أكثرها مسخرة ولهو ولعب: رقص سموه ذكراً، وغناء دعوه عبادة؛ فما أدري أهم أنبياء بعد محمد؟ (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله)؟ وإلا فما بال هذه الحمحمات وهذه الدمدمات، وهذه الطامات المخزية التي نشهدها في تكية الدراويش المولوية وأشباهها من دور أصحاب الطرق أو. . . قطاعها!
ولقد قرأت السيرة كلها وأجهدت نفسي لأجد شيئاً من الأشياء، أو مكاناً من الأمكنة قدسه المسلمون وتبركوا به، فلم أجد إلا ما كان من تقبيل الحجر الأسود أو استلامه. وقول عمر: (إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله قبلك ما قبلتك). . . وتمنيت أن أرى في السيرة ذكر المحمل الذي صار في مصر من شعائر الحج، يتبرك عظماء مصر بلمس عنان جمله، ويعرض ذلك في (أفلام السينما) على أنه من أركان الحج. وأجد في السيرة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان - وهو يعاني آلام مرض الموت
- ينهى عن اتخاذ القبور مساجد، فأعجب من حال المسلمين اليوم إذ لا أرى مسجداً كبيراً إلا بني على قبر أو كان فيه قبر. . .
هذا قليل من كثير عرضته مثالاً لما في السيرة من عبرة تنفعنا في نهضتنا، ودرس يفيدنا في حاضرنا. فكرت قبل عرضه وترددت، ثم آثرت إرضاء الحق ومصلحة الأمة، ففتحت هذا الباب لندخل إلى هذه السيرة العظيمة فلا نخرج منها إلا بالحياة والعز والمجد، والمزايا التي تعيد للأمة الإسلامية مكانتها في الدنيا!
(بيروت)
علي الطنطاوي
بين الوطنية والأممية
للأستاذ ساطع بك الحصري
مدير الآثار بالعراق
- 2 -
تصوروا أيها السادة أن هذا المفكر الذي استرسل في التحمس إلى القومية الألمانية بهذه الصورة العجيبة، كان قد ظل بعيداً عن التفكير في الوطن والوطنية حتى نكبة (يه

نا) الأليمة. . . إنه تجاوز العقد الرابع من عمره، ولم يكتب كلمة واحدة عن الوطن والوطنية، مع أن أبحاثه الفلسفية كثيراً ما كانت تتناول مسائل الحياة الأخلاقية والاجتماعية. . . بل بعكس ذلك، أظهر ميلاً واضحاً نحو النزعة العالمية حتى أنه في أحد الدروس التي ألقاها في الثانية والأربعين من عمره - احتقر (الذين يرون وطنهم في الأرض والأنهر والجبال)، فقال: (إنني أسأل: - ما هو وطن الأوربي المسيحي المتمدن حقيقة؟ - هو أوربا بوجه عام، والدولة الأوربية التي تشغل الصف الأعلى في سلم الحضارة على وجه أخص. . .) وكان يشير فيخته في قوله هذا إلى الدولة الفرنسية نفسها!

إن المدة التي مرت بين نشر هذه الكلمة وبين حدوث واقعة (يه نا) كانت عبارة عن تسعة أشهر فقط! وأما المدة التي مرت بين نشر هذه الكلمة وبين إلقاء الخطب الوطنية التي بحثت عنها، فلم تتجاوز ثلاث السنوات!. . . فإن الوقائع التي حدثت خلال هذه المدة القصيرة اضطرت فيخته إلى الانتقال من الفكرة العالمية المتساهلة إلى النزعة الوطنية المتشددة، وجعلته من أشد المتعصبين للقومية الألمانية، ومن أقوى وأنشط الداعين إليها

وأما (آرنت) فقد اشتهر بأشعاره الوطنية التي أيقظت في نفوس الألمان روح الحماسة والتضحية، وأوقدت في قلوبهم ضرام النخوة والحمية في تلك الأيام المملوءة بأنواع المصائب والنكبات

فاسمحوا لي أن أسوق إليكم نموذجاً من أشعاره الحماسية قال:

(أعطوني وطناً حراً، وأنا أرضى أن أفقد كل شهرتي، فيصبح اسمي منسياً، لا يذكر في غير داري ودار جاري. . .

(أعطوني بقعة أرض في جرمانيا، يستطيع فيها العندليب أن يغرد دون أن يرمى بسهم فرنسي. . .

(أعطوني كوخاً حقيراً يستطيع أن يصيح ديكي فوق حاجزه، دون أن يقع فريسة في يد فرنسي. . . وأنا أصيح عندئذ مثل الديك وأغرد مثل العندليب بكل فرح وسرور،. . . ولو أفقد كل ما ملكته يداي، فلم يبق لي شيء يستر جسمي غير قميص بال. . .)

تصوروا أيها السادة أن هذا الشاعر الذي أظهر مثل هذا الشعور الوطني الرقيق بهذا الشكل الطريف، في هذا الشعر الحماسي، وفي مئات من أمثاله. . . هذا الشاعر أيضاً - كان بعيداً عن فكرة الوطن والوطنية - بتأثير النزعة العالمية السائدة حوله إذ ذاك حتى حروب نابليون. . . إنه اعترف بذلك هو نفسه، فقال: (إنني عرفت وطني في ثورة الغضب، وأحببته في ساعة النكبة، وآمنت بأنه لا بشرية بلا أمم، ولا أمة بلا وطن حر. . .)

أعتقد أن هذين المثالين يكفيان لإظهار التطور العميق الذي حدث في الآراء والنزعات في البلاد الألمانية عقب استيلاء الفرنسيين عليها، في العقد الأول من القرن التاسع عشر. .

نستطيع أن نقول إن الفكرة العالمية فقدت قوتها ونفوذها في ألمانيا تماماً، وتركت محلها لروح وطنية متأججة، استمر اضطرامها طول القرن التاسع عشر. .

مع هذا لم تندثر تماماً في سائر البلاد، بل بعكس ذلك - وجدت في بعضها تربة صالحة لنموها - تحت شكل جديد، هي فكرة (السلم الدائم العام. . .)

فقد تألفت عدة جمعيات تدعو إلى السلم والتآخي، منذ سنة 1814، وأخذت تسعى لنشر مبادئها بين المفكرين والناس بصور ووسائل شتى: إنها أخذت تدعو إلى توحيد الأوطان؛ حتى أنها لم تتردد في بعض الأحيان في توجيه حملات عنيفة على الوطنية في سبيل هذه الدعوة. . إن فكرة السلم والتآخي وجدت بهذه الصورة عدداً غير قليل من الأنصار والمريدين، بين الأدباء والمفكرين ورجال الدين. . وصار هؤلاء يعقدون سلسلة مؤتمرات أممية. . بقصد نشر فكرة السلم والتآخي بين الأمم. .

غير أننا إذا تتبعنا سير انتشار هذه الفكرة، نجد أن هذا الانتشار لم يجر باطراد، على وتيرة واحدة - فإن الفكرة كانت تنتشر انتشاراً لا بأس به مدة من الزمن ثم تتقلص وهلة،

عندما تصطدم بالوقائع، وتشهد حدوث حروب جديدة، فتبدد الأحلام المستولية على الأذهان، وتثير ضغائن جديدة بين الأمم. . .

نستطيع أن نجد خير مثال لذلك فيما كتبه وقاله الشاعر الفرنسي العظيم (فيكتور هوجو). انجذب هذا الشاعر إلى فكرة توحيد الأوطان، ونشر ألوية السلم على العالم. فاشترك في مؤتمرات السلم، وألقى في بعضها بعض الخطب، وأرسل إلى بعضها بعض الرسائل؛ وفي كل ذلك أظهر نزوعاً شديداً نحو السلم العام، وإيماناً عميقاً في أمر توحيد الأوطان. . وتخيل في إحدى خطبه العهد الذي ستتحد فيه الدول الأوربية بأجمعها، والعهد الذي ستتصافح فيه الولايات المتحدة الأوربية (مع الولايات المتحدة الأمريكية) من وراء البحار، وتوحد أعمالها لخير البشر العام. . . كما حلم في العهد الذي ستنتقل فيه المدافع إلى المتاحف، وستترك القذائف محلها إلى أوراق التصويت في ندوة عالمية، تكون السيادة فيها للمناقشة العلمية والرأي الحر. . . وتحت تأثير هذه الأحلام وجه الشاعر دعوة حارة لإزالة الحدود والفوارق من بين الأمم، قائلاً: إن رأس البلاء هو الحدود؛ لأن مفهوم الحدود يتضمن المخفر، والمخفر يتطلب الخفير، والخفير يستوجب الجيش، والجيش يدعو إلى الحرب. . . فلنحذف الحدود. . لكي نرى ألوية السلم سائدة على العالم، وروح الأخوة منتشرة بين البشر. . .

ومن غريب الصدف أن هوجو كان قد أرسل هذا البيان إلى مؤتمر السلم الذي انعقد في لندن سنة 1869، أي قبل نشوب حرب السبعين بسنة واحدة فقط! وما كادت الحرب تنشب بين فرنسا وألمانيا، حتى ترك الشاعر هذه الأحلام جانباً وأخذ يبدع سلسلة أشعار حماسية، تتأجج فيها روح وطنية ثائرة. . .

إن هذا الشاعر لم يكن من الشواذ في هذا الباب. بل ظهر له أمثال كثيرون في كثير من البلاد. . . فعدد غير قليل من المفكرين انجذبوا مدة من الزمن إلى فكرة توحيد الأوطان، ثم عادوا إلى النزعة الوطنية والقومية تحت تأثير الوقائع والحادثات. .

لا ننكر أن بعضهم ظل متمسكاً بهذه الفكرة طول حياته، كما فعل (تولستوي) الشهير. . . فإنه ظل يدعي أن الوطنية من بقايا العهود الهمجية وأن من يعيش عيشة فكرية حقيقية لا يمكن أن يعترف بالوطن والوطنية. . . وظل يدعو الناس إلى نبذ النزعات الوطنية مهما كانت أشكالها، والى الامتناع عن الحروب مهما كانت الأسباب الداعية إليها. . . غير أن (روزفلت) الكبير أجاب على آراء (تولستوي) في إحدى خطبه بكلمة طريفة جداً قال: (نعم، قد يأتي عهد - في أغوار عصور المستقبل البعيد - تفقد فيه الوطنية قيمتها وفائدتها. . . كما أنه قد يأتي عهد يندثر فيه نظام الأسرة فالزواج. . . غير أنه يجب أن نعرف جيداً أن الرجل الذي لا يفرق بين وطنه وسائر الأوطان - في المجتمع الذي نعيش فيه الآن - يكون عنصراً مضراً، كالرجل الذي لا يفرق بين زوجته وسائر النساء. . .)

إن دعاة السلم العام والأخوة البشرية الشاملة الذين ظهروا طول القرن التاسع عشر، وفي أوائل القرن العشرين، حتى الحرب العالمية - كانوا يتكهنون بقرب تحقق أحلامهم وأمانيهم. . . غير أن الوقائع والحادثات كانت تأتي على الدوام معاكسة لتلك الأماني والأحلام. . . كانوا يتكهنون بأن ساحات الحرب ستتحول إلى أسواق تجارية. غير أن الوقائع أتت بنتائج معكوسة لذلك تماماً، لأن الأسواق التجارية أصبحت مثاراً للحروب. . .

كانوا يقولون بأن المدافع ستنتقل إلى المتاحف. . . ولا ننكر أنه قد حدث شيء من ذلك، فإن المدافع التي كان يعرفها هؤلاء الدعاة انتقلت فعلاً إلى المتاحف؛ غير أن ذلك لم يحدث من جراء انتصار فكرة السلم العام، كما أنه لم يؤد إلى تقوية الفكرة المذكورة. . . بل إنه حدث من جراء اختراع أنواع جديدة من المدافع تفوق قوتها الحربية قوة تأثير المدافع القديمة مئات من الدرجات. . .

كانوا يوجهون أنواع السهام إلى (الحدود) التي تفصل الدول بعضها عن بعض؛ وكانوا يتمنون زوالها خدمة للسلم العام فقد حدث فعلا في الحدود التي كانوا يعرفونها، انقلابات عظيمة أدت إلى تبدل عشرات منها وزوال مئات. . . غير أن كل ذلك لم يحدث على أساس توحيد الأمم بأجمعها، ولا على أساس توحيد الأمم المتمدنة وحدها. . . بل حدث من جراء تحقيق النزعات القومية، وإعادة بناء الدول حسب مقتضيات تلك النزعات. . . فقد اتحدت الدويلات الكثيرة التي كانت تنقسم إليها بعض الأمم؛ فكونت دولة كبيرة أشد وطنية وأصلب قومية من جميع الدويلات التي اندمجت

فيها. . . هذا ومن وجهة أخرى قد تجزأت بعض الدول الكبيرة التي كانت تتألف من أمم مختلفة النزعات، وانقسمت إلى عدة دول مستقلة؛ غير أن ذلك أيضاً حدث بتأثير النزعات القومية، وأدى إلى تقوية تلك
النزعات. . .

تجاه هذه النتائج الفعلية فقدت الفكرة العالمية كل ما كان لديها من قوة؛ فأخذت فكرة السلم العالم ونزعة الأخوة البشرية اتجاهاً جديداً يختلف عما كان يقصده دعاة العالمية كل الاختلاف.

هذا الاتجاه الجديد، هو الدعوة إلى التعاون والتضامن بين الأمم داخل نطاق الوطنية والقومية تماماً. فلتبق كل أمة متمسكة بوطنيتها على أن تحترم وطنية الأمم الأخرى أيضاً. فلتبق كل أمة مستقلة في شؤونها على أن تتعاون مع سائر الأمم في مختلف ساحات النشاط البشري من العلم والثقافة إلى الاقتصاد والمواصلات. . .

إن هذه النزعة الجديدة لم تكن من نوع التمنيات الخالية، بل هي من النزعات العملية التي أنتجت نتائج باهرة، وساعدت على تكوين (مؤسسات أممية) كثيرة. . . من (اتحاد البرق والبريد الأممي) إلى (مؤسسة التعاون الفكري الأممي). . . ولاسيما بعد الحرب العالمية. . .

فنستطيع أن نقول لذلك: (إن نزعة الوطنية خرجت سالمة ظافرة من الكفاح العنيف الذي حدث بينها وبين فكرة العالمية بأشكالها المختلفة. . .)

غير أن الوطنية - بالرغم من تغلبها على النزعات المعادية التي ذكرناها آنفاً - وجدت نفسها منذ مدة، أمام نزعة معادية أخرى، أشد خطراً من جميعها. هذه النزعة هي (الماركسية) - نسبة إلى مؤسسها (كارل ماركس) - وبتعبير آخر هي: (الأممية الشيوعية)

إن دعاة هذه (النزعة الأممية) لم يحملوا بآمال السلم العام، ولم يعللوا أنفسهم بأماني الأخوة البشرية الشاملة. . . بل على العكس من ذلك آمنوا بضرورة الحرب، واستعدوا لها؛ غير أنهم قالوا إن هذه الحرب يجب أن تكون من نوع جديد. يجب أن تنشب بين الطبقات المختلفة لا بين الأمم المختلفة. يجب على عمال العالم أن يتحدوا على اختلاف أوطانهم ليحاربوا الرأسماليين مهما كانت قومياتهم. . .

إن دعاة الأممية الشيوعية يريدون تغيير نظام المجتمع الحالي من أساسه، ويعتقدون أن ذلك لا يمكن أن يتم دون ثورة وحرب، ويقولون بأن هذه الثروة يجب ألا تتقيد بقيود الوطنية بل يجب أن تعمل ضدها. . .

يقول الماركسيون إن الوطنية من وسائط حكم الرأسمالية، هي من الأسلحة التي تستعملها الرأسمالية لخداع الصعاليك، واستخدامهم لأغراضها الخاصة فلا يمكن أن يتأسس النظام الشيوعي ما لم تهدم فكرة الوطنية الخداعة وتمحى الحدود التي تولدت منها. . . فالأممية الماركسية تدعو إلى نبذ الفكرة الوطنية، ومحاربة الرأسمالية، أينما كانت، وبأية واسطة كانت. . . لذلك تطلب إلى العمال أن يتحدوا دون أن يلتفتوا إلى الحدود التي أقامتها النزعات القومية الوطنية، ودون أن يتقيدوا بالروابط التي أوجدتها هذه النزعات، ولهذا السبب تبدأ دعوة الماركسيين كل يوم بهذه الصيحات:

(يا عمال العالم اتحدوا. . .)

تدعو الماركسية جميع عمال العالم إلى الاتحاد، لأنها تقول بأن وطن العامل هو المعمل وحده. . . وأما مواطنه الحقيقي فهو العامل الذي يكد مثله مهما كانت قوميته؛ كما أن عدوه الأصلي هو الرأسمالي الذي يستغله مهما كان الوطن الذي ينتسب إليه. . . فعدو العامل الفرنسي مثلا - ليس الجندي الألماني أو الإنكليزي أو الروسي - بل هو الرأسمالي، سواء كان من الفرنسيين أو الألمان أو الإنكليز أو الروس. . . فيجب على جميع عمال العالم أن يتحدوا لمحاربة الرأسماليين على اختلاف أوطانهم وقومياتهم. . .

(البقية في العدد القادم)

ساطع الحصري

ليلى المريضة في العراق

للدكتور زكي مبارك

وصلت طلائع من كتائب المؤتمر الطبي في صباح اليوم. فليكن من هواي أن أتسمع أحاديث الأندية في المساء
لم يصل إلى فندق تايجرس غير طبيب واحد. وقد قضيت معه لحظة ففهمت أنه خالي الذهن من الغرض الصحيح لعقد المؤتمر الطبي في بغداد. وليس هذا بمستغرب من مثله، لأنه بولوني لا يعرف ما يساور شعراء العرب من المعضلات الوجدانية. وقد حاولت أن أفهمه أن المؤتمر إنما يعقد في بغداد لمعاونتي على مداواة ليلى فلم يفهم إلا أن اسم ليلى قد يكون اسماً لمرض من الأمراض. وما علينا إذ لم يفهم البولونيون!
لم يعرفني أحد من أطباء فلسطين وسورية ولبنان، فالذين قرءوا (مدامع العشاق) يحسبونني فتى لا يجاوز الثلاثين، والذين قرءوا (الأخلاق عند الغزالي) يحسبونني شيخاً يصافح الثمانين؛ وهم جميعاً يعتقدون أني مطربش لا مُسَدَّر، فدخولي بينهم بالسدارة يوهمهم حتما أني من فتيان العراق
وكذلك استطعت أن أسرق أحاديثهم في فندق استوريا من حيث لا يشعرون
تحدث طبيب منهم قال: ما كنت أحسب الزمن يسمح بمثل هذا الجنون؛ وما كنت أظن أن الجمعية الطبية المصرية تدعو أطباء العرب لعقد مؤتمر طبي يختبر حال ليلى المريضة في العراق. ولولا لجاجة زوجتي ما حضرت، فهي ترى التخلف عن هذا المؤتمر تحدياً للجنس اللطيف
واعترضه آخر فقال: هي فرصة طيبة لمشاهدة ليلى. وهي أيضاً مواساة للطبيب المصري الشهير زكي مبارك الذي هجر وطنه وأهله في سبيل الوجدان، ومن الواجب أن يكون بين أبناء العرب أطباء يتخصصون في طب القلوب
وقال ثالث: الذي يهمني هو مشاهدة ليلى ثم دعوتها لشرب كأس أو كأسين في فندق الفرات
وقد ضج الحاضرون بالضحك والقهقهة وكادوا يجمعون على طرافة هذا الإسفاف
كنت خليقاً بالحزن على ما صار إليه أدب الناس، ولكني حزنت على نفسي. حزنت حتى
غلبني الدمع
فهؤلاء الذين يتصورون أن العافية لا تطلب لليلى إلا لتصلح لمعاقرة الكأس، هؤلاء تقدموا وتأخرت؛ هؤلاء تفردوا بالفوز وتفردت بالخيبة. وهل كنت أقل سفها منهم حتى يفوزوا وأخيب؟
إن خراب عيادتي في شارع المدابغ، وتدهور عيادتي في شارع فؤاد، وحياتي المشردة بين القاهرة وباريس وبغداد، كل أولئك النكبات ستهد من عزيمتي، أنا الطبيب المسكين الذي أضاعه الأدب فلم يعد يصلح لغير طب القلوب، في زمن خلا من القلوب
لن أسمح بخروج ليلى، ولن يراها أحد من أعضاء المؤتمر الطبي بعد الذي سمعت
ولكن هل كان ما سمعت هو كل السبب في حماية ليلى من أهل الفضول؟
الحق أني مريض بالغيرة. مريض، مريض لا يرجى له شفاء.
وكان مرض الغيرة خف بعض الخفة في سنة 1927 ثم عاد فأضرعني
وتفصيل ذلك أني جلست أصطبح في قهوة الروم في باريس، فرأيت فتاة فصيحة العينين تجالس رجلاً فانياً، فأخذت أداعبها بنظراتي؛ وكنت فتى فصيح العيون يرسل بعينيه إشارات وخطابات وبرقيات إلى من يشاء؛ وكانت الفتاة تفهم عني فتعبس تارة وتبسم تارة وفقاً لسياق الحديث. ورآها ذلك الشيخ موزعة بين الابتسام والعبوس، فسألها فلم تنكر، فأشار إلي أن أقترب فاقتربت، فقال بلهجة صارمة: ماذا تريد؟
وقد أزعجني السؤال، وتخوفت العواقب، فقد كنت في كل أدوار شبابي أبغض الذهاب إلى إدارة الشرطة، ولو لتأدية شهادة؛ وتلطف الله عزت قدرته فستر عيوبي، وأعفاني من ذل الاستجواب في مراكز البوليس. تباركت يا إلهي وتعاليت! فلولا لطفك لأذلتني شماتة الأعداء
وكنت في تلك الساعة أتصور بشاعة الذهاب إلى إدارة التحقيق فاضطربت وتلعثمت
وأعاد الشيخ سؤاله: ماذا تريد؟ خبرني ماذا تريد؟
فجمعت قواي وقلت: سيدي، أنا شاب من الشعراء، أنا من سلالة العباس بن الأحنف؟

فهدأ الشيخ قليلاً وقال: ومن العباس بن الأحنف؟ فأجبت: هو الذي يقول:
أتأذنون لصبٍّ في زيارتكم ... فعندكم شهوات السمع والبصر
لا يضمر السوء إن طال الجلوس به ... عف الضمير ولكن فاسق النظر
وترجمت له البيتين ترجمة مقبولة فابتسم وقال: ومعنى ذلك أنك تحب أن ترى وجه هذه الفتاة وتسمع صوتها؟ فقلت: إن سمح سيدي! فقال:
ففهمت إشارته ودنوت فزاحمت بركبتي ركبة الفتاة
رباه! متى تعود أيامي!
وأفهمني الشيخ أنه شاعر سويسري، وأنه لا يرجو من هذه الفتاة إلا أن تكون مصدر الوحي. وتلطف فقال إنه يسمح لي بمصاحبتها حين أشاء
فقلت: عفواً، يا سيدي، فجيبي يعجز عن تكاليف الحب
فقال: لك الحب، وعلي التكاليف
فأهويت على يده فقبلتها قبلة ما سمحت بمثلها لشيوخي في الأزهر الشريف
وكانت فرصة عرفت فيها أن الغيرة لها حدود
ولن أنسى ما حييت عبارات ذلك الشيخ الجليل فقد كان يسألنا بعد كل نزهة: ماذا صنعتم يا أطفالي؟ فكنت أقول مثلا: رأينا بارك سان كلو، وطربنا لجمال الطبيعة هناك
فيقول: ثم ماذا؟
فأجيب: ثم رجعنا
فيقول في ألم وسخرية: وهذا كل ما صنعتم؟!
وتفهم الفتاة ما يريد الشيخ فتقول: أؤكد لك يا مولاي أن المسيو مبارك ليس من العقلاء. وكان يدهشني أن يستريح الشيخ لهذا التصريح فأمضي وأقص ما افترعنا من المغامرات
رباه! متى تعود أيامي!
ولم يدم هذا النعيم غير أربعة أشهر، ثم سافر الشيخ والفتاة إلى جنيف، وعاد مرض الغيرة يساورني من جديد. وسأكون بالتأكيد من أشرف صرعاه
ولكن هل تكون هذه الغيرة ضرباً من الغباوة والحمق؟
لا، لا، وإنما هي فيض من المروءة والشرف، فقد قضيت دهري وأنا أحقد على من يهينون الجمال. ولهذا سبب معقول؛ فالمرأة التي تجود عليك بابتسامة يكون من حقها عليك أن تحفظ معها الأدب في السر والعلانية. والمرأة تعطي كثيراً جداً حين تجود بابتسامة.
والعاشق في جميع أحواله أقل تضحية من المعشوق، لأن العاشق يأخذ والمعشوق يمنح، والفرق بين الحالين بعيد. ولكن أين من يفهم المعاني؟
وقد أهلكني مرض الغيرة وأفسد جميع شؤوني وكاد يرزأني بالخراب. ولولا عناية الله لكنت اليوم ممن ينبذهم المجتمع ويتحاماهم الأهل والأقربون
فقد كان لي صديق من كبار الموظفين؛ صديق فيه شيء من الظرف وأشياء من السخف. وكان هذا الصديق يحب أن يطوف بي على رفيقاته من حين إلى حين؛ وكنت أعرف ماذا يريد؟ كان يريد أن أتعلم التسامح لأطوف به على رفيقاتي حين يشاء. وكنت أعرف ما يضمر وأسكت، لأني كنت أحب أن أقف على أمراض المجتمع لأحاربها عن علم لا عن جهل
وفي ذات يوم ابتدرني بهذه العبارة في لهجة جدّية:
- يا دكتور زكي، يا حضرة الفيلسوف، أما تحب أن تعرف رأي إخوانك فيك؟
- رأي إخواني؟ وماذا يرى إخواني؟ فما كنت إلا خير صاحب وأكرم رفيق
- أنا؟ أنا بخيل؟ وكيف وكان إخواني يغامرون ما طاب لهم الهوى، اعتماداً على الجيب الملآن، جيب الرجل الذي يجوع ليشبع الرفاق؟
- هم لا يتهمونك بالبخل من الناحية المادية، وإنما يتهمونك بالبخل من الناحية الغرامية
وعندئذ شعرت بأني مقبل على خطر فقلت:
- وماذا يريد إخواني؟
- يريدون أن تطوف بهم على رفيقاتك
فقلت: ليس لي رفيقات
فقال: يا سيدي، يا سيدي، على منطق الدكاترة!

فقلت: أؤكد لك ولسائر الإخوان أني لا أعرف غير الكتاب والقلم والدواة والقرطاس
فقال: تعجبني حين تتخذ من حياتك العلمية ستاراً لحياتك الغرامية!
فقلت: أتحداك أن تذكر اسم امرأة واحدة يتصل بها غرامي
فقال: هل تنكر أن لك علاقات مع السيدة (. . .)
ونطق السفيه المجرم باسم امرأة مصونة أفديها بروحي. فلطمته لطمة أطارت ما كان وقع
على صدره من أغربة الأحلام والأماني
فنظر إليّ في تخاذل وقال: وَحْش!
فقلت: ولا يؤدب الأوباش غير الوحوش
وأراد أن يجمع ما تناثر من أشلاء شجاعته ليقابل العدوان بالعدوان، فنظرتُ إليه نظرة ساخت بها روحه، فانصرف وهو يقول: طوِّل بالك!
وقد طوّلت بالي، وكنت أتوقع أن يعود بعد ساعة أو ساعتين وفي يده مسدّس، ولكنه لم يعد أبداً
ثم عرفت بعد حين أنه انتقم مني على طريقة أمثاله من الأنذال، فكان يرسل خطابات مجهولة إلى الدوائر التي تؤذيني أن أذكر عندها بالقبيح، فتلطخت سمعتي بالمنكرات في أقل من أسبوعين
رابه! ماذا نعاني في سبيل المروءة والشرف؟
ومشيت يوماً في شارع فؤاد أروِّح عن نفسي قليلاً برؤية اللؤلؤ المنثور، اللؤلؤ الذي يتوهج بذلك الشارع في الأصائل والعشيات، فلقيني صاحب قديم فقلت: من أين قدمت؟
فقال: كنت في منزل (. . . باشا)
فقلت: وكيف حاله؟ فقد طال شوقي إليه
فقال: لم أجده في المنزل، وإنما جلست مع زوجته لحظة، جلسة بريئة بالطبع
فنظرت إليه نظرة ساخرة وقلت: أتريد أن توهمني أنك كنت تملك الفجور وعففت مع أنك أضعف من الخصيان؟
وخلاصة القول أني أتهم المجتمع، وأرى من النذالة أن نعرض بناتنا وأخواتنا وزوجاتنا للناس. ولا يضايقني أن يغضب صديقي الدكتور إبراهيم ناجي وهو يكرر كلمة المرحوم زكي باشا إذ قال: إن زكي مبارك عاش في باريس ما عاش وظل مع ذلك فلاحاً من سنتريس
نعم، فلاّح، ثم فلاح، فإن شاء أبنائي أن يثوروا على أبيهم الفلاح فليحملوا إن استطاعوا رذائل المجتمع. أما أنا فقد نجوت ولله الحمد، فكانت زوجتي ترفض أن تستقبل أخاها الشقيق وأنا غائب. ويسرني أن أسجل اعترافي بالجميل لزوجتي الفلاحة التي سارت سيرة
أمها وجداتها فحفظت قلبي سليما من الهموم التي تزلزل عزائم الرجال
وإذاً فلن تخرج ليلى ولن يراها أعضاء المؤتمر الطبي
كذلك صممت ولن أرجع عما صممت
ومضيت إلى دار المعلمين العالية فإذا خطاب بالبريد الجوي وعلى غلافه:
(وزارة المعارف العمومية)
(مكتب الوكيل)
وزارة المعارف ومكتب الوكيل؟ وبالبريد الجوي؟
يا فتاح يا عليم!
أتكون وزارة المعارف أرادت أن ترجعني إلى مصر للتفتيش بالسنة التوجيهية والعياذ بالله؟
أتكون وزارة المعارف فكرت في إلغاء انتدابي لمداواة ليلى المريضة في العراق؟
ومرّت بالبال خواطر كثيرة، إلا خاطراً واحداً، هو أن تكون وزارة المعارف فكرت في تسديد ما عليها من الديون. وهل في الدنيا إنسان يبادر بتسديد ما عليه من ديون بلا طلب وبلا إلحاح؟ إن ديوني على وزارة المعارف ديون ثقيلة؛ ولن تدفعها إلا يوم يشهد معالي الوزير أو سعادة الوكيل بأنني رجل مظلوم لن يصل إلى مناصب تلاميذه إلا بعد أعوام طوال

ثم تشجعت وفضضت الخطاب فإذا سعادة العشماوي بك يخبرني بأنه قادم مع أعضاء المؤتمر الطبي، وأنه يسره أن يراني وأن يرى المصريين المقيمين بالعراق
ولكن لماذا اختصني سعادة العشماوي بك بهذا الخطاب؟
أغلب الظن أن يكون بعض الدساسين كتب إليه أني لا أؤدي الواجب في خدمة ليلى، فهو يريد أن يرى بعينيه ما صنعت في خدمة ليلاي
وإذاً فسيكون من الحتم أن تخرج ليلى لحضور حفلة الافتتاح
فما هذه المشكلات التي تثور في وجهي من حين إلى حين؟
من حق العشماوي بك أن يرى ليلى، ومن حقي أن أحجب عنه ليلاي
وأشهد أني قضيت يومين في درس هذا الموضوع الخطير. وكنت لا أعرف بالضبط: هل أغار على ليلى؟ أم أخاف على العشماوي بك؟ والحق أني أغار على ليلى وأخاف عليه،
أما غيرتي على ليلى فهي مفهومة لا تحتاج إلى شرح؛ وأما خوفي عليه فيرجع إلى اعتقادي أنه من أرباب القلوب. وربما جاز لي أن أصرح بأنه كان من عبيد الجمال في صباه؛ وإلا فكيف أتفق أن يكون دائماً من أنصار الآداب والفنون؟ وهل يعطف على الأدب والفن غير أرباب القلوب؟
ثم مرّ بالبال خاطر سخيف؛ ولكن لابدّ من تدوينه في هذه المذكرات. ألم أقل أني أدوّن عيوبي قبل أن يدوّنها الكرام الكاتبون؟
أنا مفتش بوزارة المعارف المصرية؛ ومن واجبي نحو نفسي أن أحّسن علاقاتي بوكيل الوزارة. أستغفر الله! فما أردت إلا أن أقول سعادة الوكيل. ولا تؤاخذني يا عشماوي بك فما أقصدك بالذات. وسعادة الوكيل يستطيع أن يكتب مذكرة يقول فيها إنه ثبت أن مواهب الدكتور زكي مبارك أعلى من مستوى التفتيش، وإنه لابدّ من تحويله إلى منصب مناسب بالجامعة المصرية
وهنا وجه الخطر، فمناصب الجامعة لا تنفعني، لأني لا أستطيع أن أشفي بها ما في نفسي من مرض السيطرة، لأن السيطرة في الجامعة مقصورة على العمداء، والظروف الحاضرة لا تمنحني العمادة ولو في كلية الآداب، لأن العمادة تتوقف على شرطين: أصوات الأساتذة، وموافقة الوزير. والأساتذة لن يعطوني أصواتهم أبداً، لأني جرحتهم جميعاً في جريدة البلاغ؛ والوزير الحاضر وهو معالي بهي الدين بركات باشا لن ينسى أني هجمت عليه في مقال نشرته بجريدة المصري. ومن المحقق أنه لن ينتقم مني، ولكن من المحقق أيضاً أنه لن يتحمس لإنصافي فيراني أصلح الناس لمنصب العميد
لابدّ لي على أي حال من أن أبقى مفتشاً بوزارة المعارف. وهل في الوزارة منصب أعظم من منصب المفتش؟ إن لي في هذا المنصب ذكريات تقضي بأن أخاطر في سبيله بكل شيء إلا ليلى، إلا ليلى، إلا ليلى
منصب المفتش منصب عظيم جداً، فمن كان في ريب من ذلك فليسمع:
دخلت المدرسة التوفيقية صباح يوم، فهالني أن أرى مظاهر القلق في جميع الصفوف، فقلت للناظر: ما هذه الجلبة؟ فقال: إن التلاميذ يتطلعون من النوافذ ليمتعوا أنظارهم بطلعة سعادة المفتش. فقلت في تعجرف: هذا أدب ما بعد الحرب، وكان الواجب أن يقهرهم
الخشوع. فقال الناظر: الرأي لك يا سعادة المفتش!
وقد عزّ عليّ أن يجاملني الناظر إلى هذا الحد، مع أنه أكبر مني سناً وعلماً، ولكن ماذا أصنع وأنا لا أخلو من لؤم، ومن حقي أن أستفيد من فساد المجتمع؟
ودخلت يوماً المدرسة الإبراهيمية فوجدت مدرساً كان من زملائي. وكان فيما أذكر أبصر مني بالدقائق النحوية والصرفية واللغوية، فأبيت إلا أن تعجرف عليه وأستطيل. وجدته يطلب من التلاميذ أن يتكلموا عن فوائد السينما، فقلت: لماذا لا تقول الخيالة؟ ورأيته يمرّ على كلمة (تطورّ) في دفاتر التلاميذ فلا يصححها، فحاسبته أشد الحساب فقال: إن الله يقول في كتابه العزيز (وخلقنا كم أطواراً) فقلت: نعم إن الله خلقنا (أطواراً) ومن أجل ذلك لا يصح أن (نتطور) يا أستاذ!
وقد هداني اللؤم إلى أن أقترح على وزارة المعارف أن تعهد إليّ التفتيش في المدارس الأهلية والأجنبية، لأن التفتيش في مدارس الحكومة يضايقني قليلا، إذ كان

المدرسون في المدارس الثانوية قد ثبتت صلاحيتهم للتدريس منذ سنين؛ وأمثال هؤلاء لا يمكن قطع أرزاقهم بسهولة. أما المدارس الأجنبية والأهلية فيمكن فيها زعزعة مركز المدرس بإشارة أو إشارتين؛ وكذلك أستطيع السيطرة بلا عناء

ومن مزايا التفتيش أن يحفظ التلاميذ أشعاري بفضل (لباقة) المدرسين. وأذكر أني دخلت يوماً إحدى المدارس فأردت أن أختبر الطلبة في المحفوظات، فرأيت تلميذاً قيل إنه ابن وزير سابق. فقلت: أسمعني يا شاطر بعض ما تحفظ، فابتدأ يصيح:

قال سعادة الدكتور زكي بك مبارك:

يا جيرة السين يحيا في مرابعكم ... فتى إلى النيل يشكو غربة الدار

جَنَتْ عليه لياليه وأسلمه ... إلى الحوادث صحبٌ غير أبرار

فخشيت التورط في سماع شعري فأشرت على الطالب بأن ينشد شعراً غير هذا، فصاح:

وقال سعادته أيضاً:

نسيتم العهد واسترحتم ... من لوعة الحافظ الأمين

فأسكتّ الطالب وقلت للأستاذ: أليس لدى الطلبة محفوظات غير أشعار زكي مبارك؟ فقال: لقد أعطيتهم خمس قطع من أشعار زكي مبارك وثلاث قطع من أشعار علي الجارم،

فحفظوا شعرك وصعُب عليهم حفظ شعر الجارم

فقلت: هذا عجيب، مع أن شعر الجارم لا بأس به!

وأنا موقن بأن الطلبة والأساتذة يسخرون منا، ولكن ما الذي يمنع من أن نستفيد من فساد المجتمع؟

والتفتيش سيكون قنطرة لعضوية المجمع اللغوي. ولكنه لن يكون كذلك إلا إذا عرفت كيف أستفيد. وأنا قد عرفت، ولله الحمد. وهل من الصعب أن أجلس في مكتب تفتيش اللغة العربية ثم انقد تقارير المدرسين؟ جاءني يوماً تقرير من الأستاذ الأول في مدرسة أسيوط الثانوية، فأخذت التقرير إلى البيت، وكتبت تقريراً بما في التقرير من أغلاط لغوية، ورجعت في اليوم التالي فحدثت جميع الموظفين بهذه الفضيحة، فلم ينقض اليوم إلا وأنا عمدة المحققين، وجهبذ المدققين

وكنت نسيت الموضوع الأصيل الذي كُتب من أجله ذلك التقرير ولكن لم يسألني أحد ماذا فيه

وربما كانت مدرسة أسيوط الثانوية لا تزال تنتظر رأي الوزارة في موضوع ذلك التقرير إلى اليوم، والصبر طيِّب!

وكان لي أسلوب في مضايقة المدرسين، أسلوب بديع؛ ولكني لم أبتكره مع الأسف، وإنما ابتكره شيوخٌ لنا من قبل. كنت آخذ كراريس التلاميذ إلى البيت، وأدرس موضوعاً واحداً من كل كراس. أدرسه بدقة وأمامي المعاجم والمراجع لأبين ما فات المدرسين من أغلاط، وأنسى أن المدرس لا يستطيع أن يستثير المعاجم في كل كراس. ولكن ماذا يهمني؟ المهم أن يشيع في بقاع الأرض أني محقق مدقق لأكون خليفة العوامري بك على الأقل، وذلك مغنم ليس بالقليل، وهو بفضل هذه الحذلقة مضمون

ومن عادتي أن أدعو المدرسين الذين أفتش عليهم (للتفضل) بانتظاري في المدرسة بعد خروج التلاميذ، وأكون تغديت وأخذت نصيبي من القيلولة، ويكون هم قد اكتفوا بما تيسر من الشطائر الجافة، وقضوا الوقت في التحضير والتصحيح، وتكون النتيجة أن أقدم عليهم بعافية، وأن يتلقوني وقد نال منهم الإعياء، فأرغي وأزبد ما شاء التعسف، ويصدهم التعب عن درء الشر بالشر فيسكتون

قلت إني أفضل المدارس الأهلية والأجنبية على المدارس الأميرية لأستطيع قطع الأرزاق حين أشاء. ثم تبينت وأنا راغم أن الأرزاق بيد الله، وأني لا أملك إيذاء مخلوق، وأن اللؤم الذي تنطوي عليه نفسي لن يضر أحداً غيري، فقد ذهبت للتفتيش على المدرسة المرقسية بالإسكندرية. ذهبت إليها في يوم مطير يحبس موظفي البنوك في البيوت. وكان أهم ما صنعته في ذلك اليوم أن أعدّ الغائبين، ثم كتبت إلى الوزارة تقريراً مزعجاً أقول فيه إن المواظبة منعدمة في المدرسة المرقسية، وإن ستة أسباع التلاميذ كانوا غائبين يوم حضرت للتفتيش

وما كان الغائبون (ستة أسباع) ولكني رأيتها كلمة لم يكتبها أحد من قبل. وما فضل

التجديد إن لم أبتكر بعض التعابير؟
وقد أرسلت الوزارة تستجوب المدرسة، فكتبت إدارة المدرسة إلى الوزارة أن اليوم الذي غاب فيه التلاميذ كان يوماً مطيراً عاصفاً، وأن الزوابع هدمت بعض مباني الشاطئ وأغرقت ثلاث سفائن، وأن حضرة المفتش يعرف ذلك ويذكر أنه تزحلق ثلاث مرات في الطريق، وأن منظره في ذلك اليوم كان يخلق الإشفاق في أقسى القلوب ودعاني وزير المعارف يسألني، فقلت يا معالي الوزير: أنت تعلمت في فرنسا وزرت جميع الممالك الأوربية. فهل رأيتهم يرون المطر من الأعذار؟ والإسكندرية كلها مرصوفة الشوارع، ومن الواجب أن نشدد في المواظبة لنخلق في الجو المدرسي طوائف جديدة من التقاليد
ويظهر أن الوزير استراح إلى تذكيره بأيام الشباب في فرنسا واستظرف كلمة التقاليد فقال: أحسنت أحسنت! ويشهد الله أني لم أكن يومئذ من المحسنين
أما التفتيش في المدارس الأجنبية فلي فيه نوادر تضحك الثواكل، وربما جاءت مناسبة لسردها في هذه المذكرات
والحاصل - كما يقول أهل بغداد وكما كان يقول الأزهريون - الحاصل أنني أريد التلطف مع سعادة العشماوي بك لأبقى مفتشاً وأنتقم من المدرسين الذين يهمّون بنقد مؤلفاتي وأشعاري في الجرائد والمجلات
وهو سيسأل عن ليلى، فلا بأس من أن يرى ليلى. وما أظنه سيخطفها من يدي، ولكن مرض الغيرة تعاودني أعراضه من حين إلى حين
وشاع في أروقة وزارة المعارف أن العشماوي بك حضر قبل الموعد، فمضيت للبحث عنه فنادق بغداد فعرفت أنه لم يحضر. فتمنيت لو أسمع أنه عدل نهائياً عن الحضور مع شدة الشوق إليه
وفي مساء اليوم التالي سألت فعرفت أنه في المفوضية المصرية، فذهبت للسلام عليه فاستقبلني بالعناق، فعرفت أن الشر الذي ساورني كان من أوهام الظنون
وبعد لحظة دعاني إلى حديث خاص فقلت: لعله خير. فقال: كيف حال ليلى؟ لا تكتم عني شيئاً، فليس لك في وزارة المعارف صديق أخلص مني. إنهم يشيعون في مصر وفي العراق أنك لا تخدم ليلى بإخلاص، فهل هذا صحيح؟
فقلت: إنك تعلم يا سعادة الأستاذ أني لا أملك غير ذخيرة الإخلاص. وقد بذلت في سبيل ليلى ما بذلت، وعند الله جزائي
فقال: هذه مسألة هينة، وسيحكم فيها المؤتمر الطبي
فقلت: أي مؤتمر يا مولاي؟
فقال: المؤتمر الذي نظمته الجمعية الطبية المصرية لمعاونتك على مداواة ليلى المريضة في العراق
فقلت: وإذا كانت ليلى لا تريد أن ترى أحداً غيري من الأطباء؟
فقال: ليس الأمر إلى ليلى ولا إليك، فقد تكونان عاشقين يطيب لكما الاستشهاد في الحب. ويجب أن تفهم أن الحكومة لا تقبل أن يتحول الجد إلى مزاح
وارتفع صوت العشماوي بك، فأقبل عزام بك يسأل عما بيننا من خلاف. فلخصت القضية فقال: وما الذي يخفيك من أعضاء المؤتمر الطبي؟
فقصصت عليهما ما سمعت في فندق استوريا. فتأثر العشماوي بك وقال: الحق معك يا دكتور زكي. ولكن ماذا أقول حين أرجع إلى مصر وليس معي وثيقة رسمية عن صحة ليلى؟
وهنا ظهرت البراعة السياسية لوزير مصر المفوض في العراق فقال: تحضر ليلى حفلة الافتتاح وهي متنكرة في زي امرأة حضرية عرفت أزياء باريس، ويسلم عليها سعادة
العشماوي بك نائباً عن وزارة المعارف، وفضيلة الشيخ السكندري نائباً عن المجمع اللغوي، وسعادة الدكتور علي باشا إبراهيم نائباً عن الجامعة المصرية، وبذلك ينفضّ الإشكال
ومررت على فندق مود فرأيت جماعة من الأطباء يتحدثون عن آمالهم في مشاهدة ليلى فقلت: موتوا بغيظكم إن كنتم صادقين
وتلفتّ فرأيت بهو الفندق يموج بكرام العراقيين الذين جاءوا للتسليم على العشماوي

بك ومن بينهم أصحاب السعادة طه الراوي وساطع الحصري وتحسين إبراهيم وإبراهيم حلمي العمر فحدثتهم بما وقع بيني وبين سعادة العشماوي بك فقالوا: الرأي رأيك في هذه القضية، فأنت وحدك طبيب ليلى المريضة في العراق، ونحن لا نشير أبداً بتعريض ليلى لأعين الناس، ولو كانوا أطباء

إلى هنا سارت الخطوات بسلام

فما الذي سيجدّ في أيام المؤتمر؟ ما الذي سيجدّ؟

لُطفك اللهم ورحمتك، فإن قلبي يحدثني بأنْ ستقع غرائب يشيب لها مَفْرَق الوليد. قلبي يحدثني بأني مقبل على أيام تموج فيها الفتن والمعاطب، وما كان قلبي من الكاذبين

بغداد، بغداد!

خذي بزمامي، فأنا في يمناك طَيِّعٌ ذلول. وليكم ما يكون. فإني واثق بأن الله لن يفضح الشاعر المخلص الأمين

(للحديث شجون)

زكي مبارك

في معرض الآراء

للأستاذ أديب عباسي

أعتقد أنني أنصف الأستاذ العقاد وأختار اختياراً عادلاً إذ أقتبس الفقرات التالية من مناقشته لردى السابق، فأحاول مناقشتها فيما يأتي من هذه الكلمة. قال الأستاذ:

(ومن طرائف المناقشات أن تأتي هذه المناقشة من الأستاذ أديب عباسي تعقيباً لما أسلفنا في مقال الحدود الحاسمة الذي قلنا فيه إننا قد نستغني في الحدود والتعريفات عن الإحصاء والاستقصاء لما هو معلوم غني عن البيان من ضرورة الاستثناء في كل قاعدة. فإذا قال الإنسان إن النهار مضيء وإن الليل مظلم فليس من الواجب بعد ذلك أن يحصي أيام الغيم ولا الأغوار المحجوبة التي تظلم بالليل والنهار)

(فقد حدثت كشوف جغرافية في القرن التاسع عشر والقرن العشرين، ولكنها كلها لا تخرج عن المتممات التي تأتي بعد الفراغ من الأسس والأركان واستقرار البناء على نظامه الأخير)

(فلما انتهت كشوف القرن السابع عشر انتهى الخلاف في الأشكال والظواهر وانفتح المجال للبحث في الحقائق والبواطن أو لمعرفة الإنسان نفساً بعد أن عرفناه تركيباً ووضعناه في موضعه من عالم الأحياء الظاهرين)

(ولقد ذكر الأستاذ (أديب) كشوف الكواكب وكشوف الذرة وأمواج الأثير. . . التي حدثت بعد القرن السابع عشر ولا تزال تحدث في هذه الأيام)

(ولكن ما شأن هذه الكشوف وما نحن فيه؟ وأين هي من الحاسة الاجتماعية التي تعلق بها القصص وأبطال الرواية وأبطال السياحات. . .؟)

قلت أخشى أن يجرنا الخوف من (الحدود الحاسمة) إلى الترخص في الدقة العلمية والضبط الفكري وهما السمتان اللتان تتسم بهما اليوم جميع مباحث العلم وكثير من مباحث الأدب والفلسفة أيضاً. نحن لا ننكر أنه يجب أن يُستغنى في الحدود والتعريفات عن الإحصاء والاستقصاء - كما يرغب الأستاذ العقاد - فلا نعير الاستثناء بالاً كبيراً، ولكن على شرط ألا يبلغ هذا الاستثناء الحد الذي ينقلب التعريف عنده أو الحد من الضد إلى الضد

فما قول الأستاذ إذا صارحناه أن هذه الاكتشافات الجغرافية التي جاءت (بعد الفراغ من الأسس والأركان واستقرار البناء على نظامه الأخير تكاد - في رأينا - تفوق في إثارة الحس الاجتماعي الذي ينوه به الأستاذ تنويهاً قوياً اكتشافات القرن السابع في الأمريكتين وأفريقيا وآسيا جميعاً؟

ماذا كانت حوافز الارتياد والاكتشاف الصحيحة في القرن السابع عشر، ثم كانت النتائج القريبة والبعيدة لذلك؟ قبل أن نحاول الإجابة عن هذا السؤال نقرر أن الكشوف الجغرافية يجب ألا تقدر تقديراً هندسياً ولا تحسب بكذا ألوف وملايين الأكيال والأميال إذا أردنا تقدير الأثر النفسي أو الحس الاجتماعي لها في نفوس الرواد والقاعدين وراءهم من شعوبهم أو غير شعوبهم

هذا كولمب أعظم المكتشفين، أي إحساس اجتماعي وأية معانٍ إنسانية كانت تحفزه إلى الكشف والارتياد؟ أنقول: لقد جهز كولمب مراكبه وأعدّ عدته وغامر مغامرته استجابة لما كان يجيش في نفسه ونفوس قومه من حب الاطلاع على الشعوب المجهولة والأقطار المأهولة الضائعة وراء الاطلانطيك، فيستطيع أن يصحح للناس آراءهم الخاطئة في هاته الشعوب والأقطار؟ أم الأصح أن نقول: إن كولمب غامر مغامرته ليصل إلى الهند التي لم تكن مجهولة إذ ذاك، ويفتح طريقاً للاتجار وتبادل السلع معها، غير الطريق القديم، فقاده وهمه إلى أرض جديدة وشعوب جديدة غير أرض الهند وغير شعوبها؟ فأية حاسة اجتماعية في هذا، وأي معنى من معاني التواصل الإنساني الصحيح؟

ثم هذه الشعوب التي كانت وراء كولمب؟! ألم يحف كولمب ويوشك أن يدب اليأس المرير إلى صدره في الانتقال من عاصمة إلى عاصمة من عواصم أوربا يستجدي مناصرة الأمراء والملوك قبل أن تمن عليه إيزابيلا بما منَّتْ ومكنته من المضي في مغامرته؟ قابل هذا بما يلاقيه الرائد اليوم من العطف والتشجيع المادي والأدبي من جميع طبقات الشعب، فتدرك أي فرق ثمة بين العصرين!

هذا ولينظر الأستاذ العقاد ما أصاب كولمب بعدها من حمق الغفلة، ولؤم المنافسة، ليدرك أي المعاني الإنسانية وأي الحواس الاجتماعية، وأي الشكر لهذا الفتح العظيم قد أثار كولمب في صدور قومه!!

قد يقول الأستاذ العقاد: ليس من الضروري أن تكون الغاية ما ذكرنا من حب التواصل الإنساني والاستجابة لدواعي الغريزة الاجتماعية، ويكفي أن تجيء النتيجة كذلك في هذه المغامرات والكشوف. أحسب أن الأستاذ يعفيني هنا من الإجابة الطويلة. فهو لا ريب يعلم علم اليقين النتائج المحزنة التي أفضى إليها اكتشاف كولمب ودي جاما ومجلان لأمريكا وغيرها من الأقطار المجهولة، ويعلم أن الذهب والفضة والقتل والتحريق والتدمير والاسترقاق والاستعمار كانت النتائج الأولى لذلك الاكتشاف؛ فأية حاسة اجتماعية هنا وأي تواصل صحيح بين الناس؟!

قابل بين أغراض الاكتشاف وحوافزه ونتائجه هذه في القرن السابع عشر، وبينها في القرن التاسع عشر والقرن العشرين، فترى كيف يجب ألا نقدر الاكتشافات الجغرافية، من حيث الحس الاجتماعي، تقديراً هندسياً.

فأنا أرى أن ارتياد القطبين والمعيشة بين الإسكيمو ودراستهم درس العطف والفهم الصحيح لقيمة الحياة البشرية، وأرى أن اختراق رمال الربع الخالي والاطلاع على نماذج الحياة الأولى في البادية العربية أجل وأسمى في الأغراض والنتائج الإنسانية من كشف الأمريكتين وأفريقيا والهند جميعاً. وأرى أن الفتاة التي تقضي السنين في إحدى جزر الباسفيك تدرس الحياة الجنسية لأهل تلك الجزيرة وتكتب كتاباً رائعاً تقول فيه: إن هذا الشعب الذي لا يزال على الفطرة أكثر إنسانية وأعظم مدنية في ممارسة الغريزة الجنسية من أرقى الشعوب الأوربية. هذه الفتاة في رأيي أعظم في مجال إثارة الإحساس الاجتماعي والتقدير الصحيح لمركز الرجل المتمدن من جميع الرواد القدماء

هذا ويجب ألا يفوتنا أن عصرنا وحده هو عصر الارتياد الجغرافي الزماني؛ فالباحث الأثري اليوم بمعوله ومجرفته في رمال مصر وربى فلسطين وصحراء العراق يفعل ما لا يفعله ملاح أو رائد من الرواد القدماء

نضيف إلى هذا أن دارون عاد من طوافه بقارات العالم بأعظم أداة من أدوات إزالة الجهل والغرور والاعتقاد بالكيان الأوحد المنعزل، حينما سوى بين الإنسان والإنسان، ووصل بين الإنسان والحيوان، ولم يكن هذا طبعاً في القرن السابع عشر

وأخيراً كشوف الكواكب وكشوف الذرة والأثير وسؤال الأستاذ: (ولكن ما شأن هذه الكواكب وما نحن فيه؟ وأين هي من الحاسة الاجتماعية التي تعلق بها القصص وأبطال الرواية

(وأبطال السياحات؟

وهل قلت قط إن الكواكب أو الذرة أو الأثير تثير حساً اجتماعياً في النفوس؟ هل قلتها صراحة أو ضمناً؟ إنني أتهم نفسي وأعود إلى مقالي أقرأه حرفاً حرفاً فلا أجد شيئاً من ذلك وإنما أجد هناك أنني قلت: (ليست الكشوف الظاهرة قاصرة على الضرب في

مجاهل الأرض واكتشاف أرجائها المجهولة، وإنها هنا لأنواع وضروب أخرى من الكشف الظاهري لا تقل روعة وشدهاً للخيال وصرفاً للإنسان من داخله إلى خارجه عن أعظم المغامرات الجغرافية)ـ وقد سقت ذلك في معرض التدليل على أن بواعث الانصراف من الدخل إلى الخارج لا تكفي لتعليل ظاهرة الاختصاص وبروز الفروق في الأدب.
فهذا عصرنا مليء ببواعث الانصراف من الداخل إلى الخارج كما كان العصر السابع عشر، ولكن علم النفس مع ذلك يتقدم باطراد، ولكن الرواية النفيسة التحليلية تحتل المكانة الأولى في مكتبة الأدب الحديث
وأحسب أن من الخير أن أعيد هنا ما كنت ذكرته في مقالي السابق تعليلا لظهور الدراسات الباطنة وما تلاها من تأسيس علم النفس التحليلي الذي تهداه أدباء الأجيال الحديثة في كتابة القصة النفيسة أو التحليلية فقد قلت هناك:
إن هذه الدراسات الباطنة للنفس كانت مظهراً عادياً يتساوق مع المظهر العام) لنشاط الفكر البشري في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، فلما كشفت الكشوف الفلكية والطبيعية والكيميائية والفيزيولوجية، كشفت كذلك الكشوف في مجاهل النفس وخوافي الحس. فمذ اصطنعت الطريقة العلمية في البحث واخذ العلماء يجرون على أسلوب المشاهدة والفحص والاختبار اتخذت دراسة النفس خطة منظمة مجدية، فظهر أولا علم النفس العام وتلاه علم النفس التحليلي؛ ولكنا نعود ونقول إن هذه الدراسة لم يكن الحافز فيها والباعث عليها انتهاء الكشوف الظاهرة، وإنما كان الحافز عليها اتساع هذه الكشوف وسيرها على خطة علمية منظمة مجدية شملت الجماد والحيوان والإنسان جميعاً. . . الخ)
وأخيراً نحن نسلم للأستاذ العقاد بنظريته جملة إذ فسر لنا نشأة علم النفس العام والتحليلي بعده معزولين عن فروع المعرفة الأخرى في القرن السابع عشر وبعده، أما إذا اضطر أن يعيد علم النفس في نشأته وتقدمه إلى حظيرة العلوم الأخرى من حيث الصلة والزمن،
فأحسب أن نظريته لا تسلم له مهما حاول أن يستفيد من (الحس الاجتماعي) و (الدراسة الباطنية) و (الدراسة الظاهرية)
وفي الختام آمل ألا أكون أثرت في صدر الأستاذ الكبير بهذا الكلام غير الشعور الذي يثيره طلب الحق ونشدان الصدق
أديب عباسي
من برجنا العاجي
مضت أعوام عديدة على ذلك اليوم الذي شعرت فيه بغتة بدوار الصعود الفكري، على أثر مطالعات كثيرة وتأملات عميقة في عزلة طويلة. وبدا ذلك على وجهي فسمعت طبيباً يسدي إلي النصيحة أن أترك كل شيء وأذهب من فوري إلى البحر، أستنشق الهواء وأغمض عيني بغير تفكير. لقد كنت أحسب التأمل كل شيء في حياة الأديب؛ وكنت اعتقد أن حياتي ستمضي قراءة كلها وتفكيراً على ذلك النحو وبذلك المقدار، فكنت استهول العاقبة وأتساءل عن النتيجة
ومرت الأيام فإذا بي أنصرف بعض الشيء عن المطالعة والتأمل. وإذا الأعوام تنفق في شيء آخر لم يكن في الحساب: هو البحث عن الجسم الذي تحل فيه تلك الأفكار الهائمة كالأرواح. هنا وضحت لعيني المعضلة. وفهمت أن التفكير في ذاته يسير، ولكن العسير هو أن أقيم (الفكرة) على قدميها كائناً نابضاً يتحرك ويسير. إن القليل من عمر الفنان هو الذي يبذل في التفكير الصرف، والكثير منه هو الذي يذهب في سبيل صنع ذلك اللحم والدم الذي ينبغي أن تسكنه الأفكار
إن (الطبيعة) أستاذنا الأعظم نحن الأدباء والفنانين، تفكر هي أيضاً، غير أنها لا تفكر (كلاماً) فهي تجهل (اللغات الحية)، ولكنها تفكر (مخلوقات حية)
الطبيعة (أسلوب). وإن طريقتها الواحدة في تركيب الكائنات جميعها: من (تفكير) عالم الجراثيم إلى عالم الأجرام لهي وحدها التي نقرأ منها تفكيرها. (الخلاق) في الفن أيضاً لن يستحق هذا الاسم حتى يصبح التفكير عنده مماثلاً لتفكير الطبيعة، فيملك تلك القدرة السحرية أو الهبة السماوية التي بها يخرج أفكاره من رأسه تجري لابسة أثواب الحياة
كذلك خالقو الشعوب وبناة الحضارات، كل عبقريتهم أنهم لا يفكرون (كلاماً)، وأن

الأفكار والتأملات عندهم هم أيضاً لا تكتب كما هي ولا تقال، إنما ترى قائمة متحركة في صورة أمة ناهضة أو على شكل ثورة متفجرة
ذلك معنى (الخلق). وتلك هي (الأفكار) في لغة كل خلاق
توفيق الحكيم
التاريخ في سير أبطاله
ابراهام لنكولن
هدية الأحراج إلى عالم المدنية
للأستاذ محمود الخفيف
- 3 -
يا شباب الوادي! خذوا معاني العظمة في نسقها الأعلى من سيرة هذا العصامي العظيم
ما كانت الفاقة لتعوق ابن الأحراج عما كانت تتوق نفسه إليه. وهيهات أن تركن النفس الكبيرة إلى دعة أو ترضى بمسكنة. هاهو ذا فتى الغابة يهدف للثامنة عشرة، لا يذكر أنه منذ قوى على حمل الفأس كان كلا على أحد. بنى نفسه كأحسن ما تبنى النفوس، غذاء جسده من قوة ساعده، وغذاء روحه من توقد ذهنه ودأبه وجلده وبعد همته كان ابراهام عصامياً في أوسع وأدق معنى لتلك الكلمة؛ عال نفسه وربى نفسه وعلم نفسه. وكان على استغنائه عن الناس يخفض جناحه للبعداء والأقربين. ولله ما أجمل تلك النفس في تواضعها ودماثتها، وما أجمل ذلك التواضع من فتى لا يرى لامرئ عليه يدا؛ وهو لولا كرم عنصره ونقاء جوهره جدير أن يدل بذلك وأن يزهى؛ وما الإنسان؟ أو ليس هو يطغى أن رآه استغنى؟
استغنى ابراهام بجده وقناعته في مطالب معيشته عن الناس، ولكنه أحسن معاشرة الناس وأنسوا منه لين الجانب وعذوبة الروح وهدوء الطبع وشدة الحياء. على أن ما زادهم محبة له وإقبالاً عليه حلاوة حديثه وحصافة رأيه وأصالته، وكان قد أحب منذ أن أعجب بذلك المحامي المدل أن يتحدث إلى الناس ما واتته فرصة إلى ذلك، وهو بطبعه بارع السياق قوي الحجة تمتاز كلماته - وإن لم يقصد - بقرب المأخذ وبعد المرمى، وهي صفة سيدرك فائدتها في مستقبل أيامه
ساقت إليه الأقدار وهو في التاسعة عشرة عملاً خرج به من الغابة أياماً إلى دنيا الحضارة!
فقد استأجره أحد ذوي الثراء في تلك الجهة ليذهب ببضاعة في قارب إلى مدينة نيوأورليانز؛ وقبل الفتى وإن قلبه ليخفق، وإن نفسه لتتنازعها عوامل الخوف والأمل والرضاء وحب الاستطلاع. وما له لا يخاف وهو لم يقم بمثل تلك الرحلة الطويلة من قبل، ولا عهد له بالمدن وعيشتها وأهلها؟ ولكنه قبل وتأهب. وما كان حب المال هو الذي حفزه إلى القبول ولكنها كانت رغبته الشديدة في رؤية الدنيا! وهو يومئذ تواق إلى المعرفة، لهج برؤية الحياة في بيئة غير الغابة
وخرج معه فتى من أهل الجهة ليعاونه، واتخذا سبيلهما في نهر الأهايو ومنه إلى ذلك النهر العظيم: نهر المسيسبي، حتى إذا أتيا مدينة نيوأورليانز بعد أن قطعا ألفاً وثمانمائة ميل، رأيا خلاله على الضفاف حيوانات وأشجاراً وأناساً غير ما ألفا في إقليمهما. وكم كانا معجبين بما رأيا وما سمعا ممن أويا إليهم من سكان البلدان التي نزلا عندها ليالي رحلتهم. ولن ينسى الفتى ما رأى من بطولة أيب حين هاجمهما ذات ليلة وهما في نومهما سبعة من الزنوج، فقد رآه يعمد - وقد أفاق على همسهم - إلى مجراف فيحاربهم في بسالة حتى يضطرهم إلى الفرار وهم منه خائفون
دخل إبراهام وصاحبه مدينة نيوأورليانز، ولك أن تتصور مبلغ ما بعثته تلك الزيارة من أثر في نفسه، وقد جاء وهو يافع من الغابة فرأى مدينة كبيرة لأول مرة! وأية مدينة هي؟ لقد رآها تموج بأنماط من الناس وأخلاط من العبيد. ما هؤلاء السادة الذين تغدو وتروح بهم المركبات الفخمة؟ وما هؤلاء النسوة اللائي يخطرن في دلال ويبرزن في عطاف الثراء والنعمة؟ ما هؤلاء وما هؤلاء ممن يرى أمام ناظريه. . .؟ وما هذه الدنيا التي يضطربون فيها وما حياتهم وما مبلغ بعدها من حياة الغابة. . .؟ ثم ما هؤلاء العبيد. . .؟ أجل ما هؤلاء العبيد وما حظهم من تلك الحياة الفوارق بالقوة والجاه؟ أهؤلاء هم الذين قرأ عنهم وسمع من أخبارهم ما لم يفهم على وجه اليقين؟ نعم هؤلاء هم العبيد.

!. . وهو محررهم ومحطم أغلالهم في غد
عاد إبراهام بعد أن أدى مهمته على خير وجه، وقد قضى في رحلته هذه ثلاثة أشهر بعيداً عن أنديانا، ولكن ما تركته تلك الأشهر الثلاثة في نفسه من الأثر تجعلها كما لو كانت ثلاث سنين، فقد أحست نفسه الفرق بين المدنية والهمجية إحساساً قوياً. إنه يتساءل بينه وبين
نفسه: أي الحياتين أقرب إلى المدنية حقاً! عاد إلى موطنه، ولكن أي موطن وهو ابن الأحراج ربيب الترحال والأسفار؟ لقد شد أبوه الرحال من جديد على رأس الأسرة إلى مقاطعة جديدة هي الينويس، تحفزه نفس الدوافع التي حركته من كنتوكي إلى أنديانا؛
وكان إبراهام هذه المرة عضد أبيه، فهو يومئذ في الحادية والعشرين. ولما حطوا رحالهم بعد أسبوعين قام كوخهم الجديد على ما شقت يده الفتية من أشجار. لقد صغرت أما قوته ومهارته قوة أبيه ومهارته، وسرعان ما أصبح أيب حديث الجيران في البقعة الجديدة
عمد إلى الزراعة فحرث قطعة من الأرض وبذر فيها القمح وسورها بسور من قطع الخشب سوتها فأسه، وكان يعاونه في ذلك فتى من ذوي قرباه؛ وترك أيب القمح ينمو وتناول فأسه وراح يعمل في الغابة أجيراً وقد ذاع صيته وتقدمه أينما سار، وهو يحس اليوم أن دخله من فأسه يزيد هنا عما كان يحصل عليه في أنديانا. ولكن أي دخل هذا
إذا هو قيس إلى ما عسى أن يكسبه رجل غيره في بيئة أخرى؟. لقد أستأجره أحد الأثرياء ليقطع له خشباً يسور به مزرعته، فرضي أيب أن يقدم لذلك الرجل أربعمائة قطعة من الخشب نظير كل (ياردة) من القماش الساذج الذي طلبه أيب ليتخذ منه سروالاً!
وتجلت للناس فتوته وشهامته في عدة مواقف، فهو لا يفتأ يمد يده إلى البائس والملهوف في كرم وإخلاص، وهو لا يني يضرب بفأسه في نشاط وإقبال، ولقد تحداه ذات يوم رجل ذو قوة وبأس أن يصارعه، فنازله على كره منه، إذ كان ينفر من القسوة والعنف، وما لبث أن غلبه على أعين الناس فازدادوا له إكباراً
وما انصرف ابراهام يوماً عن المطالعة على الرغم من شواغله، فأوقات فراغه للقراءة لا لغيرها مما يقضي فيه الفراغ من ملاذ الحياة ومباهجها. وأي شيء هو أحب إليه من القراءة والدراسة؟ يا عجباً! هل كان يدري أن القدر يعده لأمر خطير سوف ينقل به تاريخ بلاده من صفحة إلى صفحة؟! كانت قراءته يومئذ في القانون، فقد ألقت المصادفات في يده كتاباً يدور البحث فيه على قوانين المقاطعة الجديدة. على أنه قد قرأ قبل ذلك كتاباً غير هذا في القانون، فهو جد مشغوف بالمحاماة والخطابة، وكأنه كان يهيئ نفسه لهذه المهنة التي هام بها وجدانه، وهو بفطرته ميال إلى محادثة الناس كما سلف أن ذكرت، وإنه اليوم ليخطبهم كلما دعا إلى ذلك داع
وشاءت الأقدار أن يذهب في رحلة أخرى مع رفيقين إلى نيوأورليانز؛ فقد اختاره أحد التجار ليقوم على تصريف بضاعته وجعل له ولزميليه أجراً في نظير ذلك. ولقد صادف في تلك الرحلة حادثاً آخر: ذلك أن القارب اصطدم بحاجز صخري عند بلدة نيوسالم فتعلق وانحدر وأوشكت حمولته أن تهوي إلى الماء لولا ما كان من مهارة أيب وقوة ساعديه، تلك المهارة التي أعجب بها نفر من أهل تلك البلدة وقد تجمعوا يشهدون الحادث
ولما فرغ ابراهام من أمر تلك البضاعة ولى وجهه تجاه أسواق الرقيق يدرس حالها من كثب وهو لم ينس يوماً ما تركه حال العبيد من أثر في نفسه منذ زيارته الأولى. ألا إنه ليهتم لهذا الأمر أكبر اهتمام ويقلبه في خاطره على كافة وجوهه، كل ذلك في عمق وتمحيص فتلك خلة من أبرز خلاله؛ فهل كان يعلم ابن الغابة أنه سيؤدي للعالم من عنده رسالة جديدة ويخطو بالإنسانية خطوات واسعة نحو النور بتحريره هؤلاء العبيد وفك أصفادهم؟ كلا! ما كان يدور بخلده يومئذ شيء من هذا
رأى ويا لهول ما رأى! رأى في تلك الأسواق جماعات من السود ذكوراً وإناثاً جيء بهم قسراً من مواطنهم مقرنين في الأصفاد يباعون كما تباع الماشية، يلهب التجار جلودهم بالسياط ويسوقونهم كما تساق الأنعام كأنهم لا يمتون إلى البشرية بصلة. وما كانت نفسه الكبيرة، وما كان قلبه الرحيم ليمر بتلك المناظر كما يمر غيره من الناس، كلا بل ستبقى مسألة العبيد في أعماق نفسه حتى تحين الفرصة

أخذت عيناه فيما رأى فتاة جميلة المحيا مرهفة القوام يعرضها الباعة على الأنظار وهي نصف عارية كما يعرضون فرساً كريمة، وقد افتتن بقسماتها وقوامها الشاهدون؛ وابراهام تتحرك نفسه من أعماقها ويتألم ما وسعه الألم. وصفه أحد زميليه فقال: (رأى لنكولن ذلك وإن قلبه ليدمي. لم تتحرك شفتاه وظل صامتاً، ومشت في وجهه كدرة الهم؛ وأستطيع أن أقول وأنا به عليم، أنه في تلك الرحلة قد كون لنفسه رأيه في مسألة العبيد)

ومما يروى عنه في تلك الرحلة أن عرافة لقيته فقالت وهو يمازحها: (يا فتى سوف تكون رئيساً للولايات ويومئذ سيتحرر جميع العبيد) وما كانت كلمات العرافة إلا كلمات القدر تجري على لسانها في نبوءة عجيبة!

وقفل إبراهام راجعاً إلى الغابة وقد ازدادت تجاربه ومعرفته بالحياة والناس وهو في سن الدراسة والتطلع إلى معرفة النفس البشرية وما تنطوي عليه من معاني الخير والشر.

ولقد سلمت نفسه من شرور المدنية، فلم تعلق بها أو شاب! وهل كان لنفس مثل نفسه محصتها الشدة وعصمتها الحياة المحصورة في الغابة، أن تزل أو ترقى إليها غواية؟

لم يقم إبراهام طويلا في كوخ أبيه؛ فما لبث أن خرج في طلب العيش. وقد أدرك أنه بعد أن تجاوز الحادية والعشرين يستطيع أن يغادر أباه ليقوم على شؤونه بنفسه. خرج من الكوخ إلى غير عودة إليه! فترمي به النوى مطارحها كلما تصرمت الأيام، وكان أول عمل قام به أن فتح له ذلك الرجل الذي استأجره في رحلته الثانية إلى أورليانز - حانوتاً في نيوسالم وأقامه فيه ليبيع نائباً عنه وذلك لما خبر من مهارته وأمانته. ولقد قطع أيب المسافة إلى نيوسالم على قدميه؛ وأخذ يبيع في الحانوت في خفة ولباقة كأنه مارس التجارة من قبل. وأتاح له ذلك العمل فرصة لقاء الناس، ولقد رأوا من خلاله ما امتلك به قلوبهم؛ رأوا منه لين الجانب وسعة الصدر وحلاوة اللسان وسرعة اليد وحسن الملاطفة والممازحة، ورأوا منه فضلا عن ذلك جميع الأمانة كأعظم ما تكون الأمانة. وأتاح له ذلك العمل أيضاً أوقاتاً يقضيها في المطالعة فكان يتمدد على ظهر صندوق ويقرأ حتى يقصده مشتر فيبيعه ما يطلب ثم يعود إلى كتابه

ولشد ما أعجب الناس بإبراهام وخلاله وصار يعرف بينهم باسم أيب الأمين، وصارت تلك الصفة منذ ذلك اليوم أشهر صفاته وأحبها إليه وإلى الناس. حدث أنه أعطى لامرأة ذات مرة على جهل منه مقداراً من الشاي أقل من حقها، فلما أدرك ذلك سار إليها آخر النهار مسافة طويلة يحمل إليها باقي الشاي؛ وحدث أنه أخذ خطأ بعض دريهمات من رجل فلما عد ماله آخر النهار سأل عنه اهتدى إليه ودفع له دريهماته.

وكان الناس يعلمون هذا وغيره فيقبلون عليه معجبين. ولم ينس في تلك البلدة ما جبلت عليه نفسه من النجدة والمروءة والحدب على الضعفاء. ونمى أمره في ذلك إلى جماعة من الفتيان في البلدة كانوا يجعلون العربدة هويتهم والشغب مسلاتهم؛ وكان على رأسهم فتى مفتول الساعدين شديد المراس يقال له أرمسترنج. فجاءوا عصبة إلى ابراهام يسخرون منه ويتحدونه أن ينازل زعيمهم، وهو يعرض عنهم وتأبى عليه نفسه أن يحفل بهم؛ ولكنهم يسرفون في التحدي والقحة، حتى يخرج إليهم ويسير إلى قائدهم ويشتد الصراع بين الفتيين ويستجمع ابن الغابة قوته ويدفع خصمه فإذا هو ملقى على وجهه متدحرج كأنه كتلة من الخشب! والفتية لا يصدقون أعينهم من الدهش. ولقد نهض صاحبهم فصافحه وسلم له بالغلبة. وشاعت في الناس بطولة فتى الحانوت وشدة بأسه. وما كان ابراهام غليظاً أو رجل شر، بل لقد كان يسعى أبداً في القضاء على الإحن والمنازعات، وكم له من يد في هذا المضمار

عرف الناس ابراهام فوق ذلك باستقامته فما عهد عليه من سوء قط؛ كان لا يقرب الخمر ولا الميسر ولا يعرف الفواحش ما ظهر منها وما بطن. وأين ذلك الرجس من تلك النفس العصامية الطامحة؟ إن له من نفسه خير عاصم، وله من الكتب ما يملأ به فؤاده؛ وكانت كتبه إلا قليلاً مستعارة؛ يسمع عن كتاب يطلبه فيجده عند أحد الناس فيسعى إليه ويرجوه أن يعيره إياه حتى يقرأه فيعيده إليه؛ ومن ذلك أنه سمع وهو في الحانوت عن كتاب في قواعد اللغة الإنجليزية، وكان قوي الرغبة في تعرف قواعد

اللغة ليستعين بها على ضبط عبارته، فمشى نحو ستة أميال حتى جاء صاحب الكتاب فأعاره إياه، فأكب عليه حتى أتقن فهمه. ومما قرأه أيب في تلك الآونة صحيفة كانت تكتب في السياسة، اشترك فيها وهو مملق، وكان يقبل على قراءتها في لذة واستمتاع قراءة تعمق ودراسة

ساقه إلى السياسة رجل رأى من فطنته وطلاقة لسانه وصدق إخلاصه وتطلعه إلى المعرفة ما أيقن معه أن سوف يكون له شأن غير شأنه إذ ذاك. وكان إبراهام يحادث الناس كما ذكرنا كلما سمحت بذلك فرصة، وقد ألفوه جذاب الحديث بارع السياق يضرب الأمثال في غير توقف ويسوق الأدلة في غير عوج! وإنك لترى من ذلك أنه يستطيع أن يخوض السياسة، فماذا اعتزم؟ عقد النية على أن يتقدم للناس ليختاروه نائباً عنهم في مجلس المقاطعة النيويس! وكان في تواضعه يرى الخطوة جريئة. على أنه كان يدرك أن اليد قصيرة والجيب خال والجاه منعدم. فعلام يعول ابن الغابة والى من يستند؟ ليس أمامه غير نفسه؛ ولكنه حسبه تلك النفس

وكان أيب في الثالثة والعشرين من عمره وإنه ليحق لنا أن نتساءل كيف خلت حياته إلى ذلك اليوم من الحب على قوة روحه ونبل عواطفه وشدة بنيته؟ الحق أنه كان ينفر من النساء ومخالطتهن، وكان شديد الخجل خافض الطرف متلجلج اللسان متبلبل الخاطر كلما وجد نفسه على رغمه في مجلس يضم فتاة أو فتيات. وكان هذا الحياء الشديد مما عرف

من صفاته؛ بيد أنه يحس اليوم كأن شيئاً يختلج بين جنبيه، فلقد زار ذات ليلة ذلك الرجل الذي وجهه إلى السياسة في خانه، وكان صاحب ذلك الخان؛ ورأى هناك ابنته، وكانت حسناء في الثامنة عشرة، فمال إليها قلبه ولكنه ما لبث أن علم أنها خطيبة فتى غيره؟ وهل كان لمثله أن يطمع في تلك الفتاة على ما هو فيه من خصاصة وعلى ما كان ينعم به أبوها من ثراء؟

وهو في شغل اليوم بالسياسة؛ ذهب إلى الخان حيث يجتمع فتية الحي ورجاله، وبعد أن استمع إلى حديثهم برهة وثب إلى مرتقى وقام فيهم خطيباً! ولعلها كانت أولى خطبه إذا أردنا معنى الكلمة. راح يحدثهم عن رغبته في الإصلاح وعن أفكاره في السياسة؛ ولما كان يجهل السياسة العليا فقد قصر حديثه على إصلاح الطرق والأنهار وهو جد خبير بها. ومما قاله (إن سياستي قصيرة حلوة كرقصة العجوز، إني أحبذ مشروع المصرف الأهلي وأحبذ الإصلاح الداخلي والحماية الجمركية. هذه هي ميولي ومبادئي السياسية، فإن اخترتموني فأنا شاكر وإلا فلن يغير ذلك شيئاً من نفسي) وقال في نداء مطبوع أذاعه في الناس (ولدت ونشأت في مدارج متواضعة، وليس لدي ثراء أو أهل ذوو جاه، أو أصدقاء يقدمونني إليكم؛ وقضيتي مبسوطة بين أيدي الناخبين الأحرار، فإن اخترت فقد أولوني جميلاً لن أوفيه مهما بذلت في خدمتهم، وإن أملت عليهم حكمتهم أن يتركوني حيث أنا فإني قد ألفت من مواقف الانخذال ما لا أحس معه لذلك غماً)

تلك هي صراحة لنكولن، وتلك هي بسالته تتجلى في كلماته كما تجلت فيها بساطته وإخلاصه وسمو تواضعه وعزة نفسه

وكان صاحب الحانوت قد أدى بمسلكه المعوج إلى بيع حانوته إلى تاجر آخر، وترك إبراهام أول الأمر بلا عمل، ولم يكن لديه مال يستعين به حتى على القوت، اللهم إلا ما تسوقه الأقدار إليه من وجوه الرزق. ومنها أنه قاد زورقاً بخارياً ليخرجه من منطقة عسيرة في مجرى الماء، وكان أجره على ذلك أربعين دولاراً

وساقت إليه الأقدار بعد ذلك عملاً غريباً بالنسبة إليه! ذلك هو التطوع مع فرقة من شبان الجهة لمحاربة الهنود الحمر! وكان كبيرهم - ويعرف باسم الصقر الأسود - قد هاجم البيض يريد أن يسترد أرضاً كان باعها للحكومة؛ وما كان أيب يميل إلى الحرب ولكنه

تطوع إذ لم يجد لديه عملاً، ولعل تطوعه هذا وما عساه أن يبديه في الحرب يشفع له في الانتخاب ويزيد صيته رفعة. . . وعلى ذلك خرج مع المتطوعين على رأس فرقة ولكن الحرب لم تدم طويلا، ولا هي استدعت مقاومة عنيفة. وما عرف عنه أنه مس إنساناً بأذى وهو في الميدان، بل لقد تجلت مروءته في حادث نرويه لدلالته على نفس أيب وخلقه: آوى إلى معسكر المتطوعين أحد رجال الصقر الأسود وفي يده بطاقة

أمان من أحد القواد؛ ولكن بعض المتطوعين وكانوا محنقين هموا به ليقتلوه فوقف بينهم وبينه ابراهام، وبنادقهم مصوبة إلى صدره وهو يصرخ فيهم (إنكم لن تقتلوا هذا الرجل) ولم يكن بعيداً أن تنطلق إليه الرصاصات في ثورة غضب كتلك الثورة ولكن الله وسلم ونجا الرجل ونجا مخلصه!

وبعد أن رجع أيب إلى نيوسالم جرت الانتخابات ولكنه خذل فيها، إذ لم يكن الحزب السياسي الذي يدين بمبادئه محبوباً يومئذ للناس! خذل ابراهام ولكن طابت نفسه الأمر وارتاحت، ذلك أنه وجد أن أكثر أصوات بلدة نيوسالم كانت له

(يتبع)

الخفيف

تحية العام الهجري الجديد

للأستاذ محمد عبد الغني حسن

يوم تبسَّم في الأيام وازدهرا ... وسيرةُ عطَّرَت من لطفها السيرا
يا يومُ حدِّث شباب النيل وارو لهمْ ... وقصَّ من ذكرك العالي لهم خبرا
واجمع على الدين والأخلاق عقدهمُ ... فقد تفرق هذا العقد وانتثرا
وأضيعُ الناس من يقضي الحياة ولا ... يقضي من الدين والدنيا بها وطرا
يا رب أدرك من الإِسلام أمتَه ... واجمع على نهجك الأفراد والأسرا
يا حارس الروض إن الروض إن عصفت ... به الأعاصيرُ جف الروض وانتثرا
والدوحُ إن لعبت ريح السموم به ... لا يُنبتُ الغصنَ أو لا يُطلع الثمرا . .
هلاَّ تعيدون للإِسلام صولتَه ... وللعروبة ما ولَّى وما غبرا؟
دار (بن لقمان) لازالت معالمها ... فاسأل بها البهو أو فاسأل بها الحجرا
دار أفاء على الإِسلام صِيِّبها ... وطوَّحت بالصليبين والأمرا . .
سلوا الفرنجة لما ألَّفوا فرقا ... وطيَّروا في نواحي الملة الشررا
استأصلتهم سيوف المسلمين كما ... تستأصل الريح في هبَّاتها الشجرا
هيَّا انصروا والمبدأ الدينيَّ مبدأكم ... فالله ينصر من للملة انتصرا
الدين قد كان يمشي لا عثار به ... ما باله اليوم في آماله عثرا
قد كان إخوانكم لا يقدمون على ... مخاطر المجد إلا ذللوا الخطرا
ولا يبالون إن ساروا لمحمدة ... طال الطريق بهم لله أم قصرا . .
الدين والخلق العالي يؤيده ... سيرفعان لكم بين الأنام ذُرا
لا خير في الدين إن لم يحمه خلق ... ولا صلاح له إن ضل أو فجرا
سافرتُ للغرب والآمال تدفعني ... أكرِمْ به للأماني والعلا سفرا
رأيتُ فيه الليالي وهي عاصفة ... والبحرَ مضطربا والجو معتكرا . .
شَطَّ المزار فما شطَّت فضائلنا ... ولا تغيَّر منا القلب أو نفرا
إن الغريب وإن طابت مناظره ... رنا إلى الوطن المحبوب أو نظرا . .
لا للهو في الغرب أنسانا مبادئنا ... ولا أضاع لنا من ديننا الذكَرا
رأيت في الغرب أخلاقاً مطهرة ... كما رأيت به الأرجاس والقذرا
إنا أخذنا محاراً لا غناء به ... وغيرُنا أخذ الأصداف والدررا
بالأَمس قامت لنا في الدين قائمة ... ما بالنا اليوم عفَّينا به الاثرا
إنا فتحنا به الدنيا مطأطئةً ... وباسمه قد غزونا البدو والحضرا
سلوا القياصر تلقوا عندها نبأً ... وسائلوا الفرس تلقوا عندها خبرا
هنا رأينا بساط الفرس مندثراً ... مخرقاً. . ولواء الروم منكسرا . .
يا مرسل الدين قد أرسلته حكما ... وصُغْتَه رحمةً بالناس أو عبرا
ألَّفتَ منه سبيل العدل فأتلفَتْ ... وجئتَه داعياً للحق فانتصرا
بعثتَ بالسيد الهادي رسالته ... نوراً على الأرض يمحو الشك والحظرا
ويملأ الأرض من صافي رسالته ... صفواً كما امتلأت من قبله كَدَرا
وا رحمتا لنبي في قبيلته ... كم ثبطوه وودُّوا أنه عثرا
يظل يسقيهمو ودّاً ومرحمةً ... وهم يساقونه من لؤمهم كَدِرَا
عجيبة أنه يسعى لينفعهم ... ويشتهون له المكروه والضررا
يا أحمد الخير قد آذوك وانصرفوا ... يؤلبون عليك الجمع والزمرا
حاشى لربك لم تحذر بوائقهم ... (ولا ينال العلا من قدم الحذرا)

لما استمرتْ قريشُ في غوايتها ... صبرتَ لله. والعقبى لمن صبرا
هاجرت لله من قدس إلى قدُس ... وسرتِ تطوي إلى غاياتك المدرا
فيالها هجرةً لله خالصةً ... تدفَّق الدينُ منها بَعْدُ وانهمرا
(المنصورة)
محمد عبد الغني حسن
مدرس بالمدرسة الثانوية
القصص
أقصوصة من جبرييل دانونزيو
سنسناتوس
مأساة عاشق مخبول
للأستاذ دريني خشبة
كان يتثنى كأنه غصن بان؛ وكان نحيلاً معروقاً في غير طول، وله لبدة تتهدل كغابة من أشجار الكستناء فوق كاهله وكتفيه، ثم تتحوى ذوائبها وتغدودن حين يعبث بها الهواء، فتكون كعرف الفرس. أما لحيته. . . فيهودية كثة مغبرة، غير محلقة، تعلق بها دائماً نثائر من القش. . . أما عيناه فسادرتان ترنوان أبداً إلى قدميه الحافيتين! فإذا حدث أن رفعهما إلى أحد فإنهما تقذفان في قلبه الذعر، بما ركب فيهما من ألغاز وأسرار. . . فهما تارة تشفان عن بله، وتنمان عن عته؛ وتارة أخرى تتأججان بنيران حامية كنيران الحمى. . . ثم تنطفئان بغتة، فتراهما حائلتين آسنتين كمياه المستنقع. . . فإذا لمح بهما خطفتا كسيوف طليطلة!
وكانت له (جاكتة) حمراء يلقيها على كتف واحد كما يلتفع الأسبان عباءاتهم في كبرياء وزهو، فكان إذا مشى بَدَح في عظمة وجلال
ويدعوه الناس سِنْسناتوس، ويقولون إن به لوثة أصابته إثر حب خانه فيه محبوبه، فلم يملك إلا أن يطعنه، ويمضي على وجهه في الأرض حيران
وكانت سنه عندما عرفته ستا وسبعين، بينما كنت أنا في الثالثة عشرة. . . وقد رأيته فخلبني. . . وكان اليوم قائظاً، والماء يغمر الميدان، والأرصفة تتقد بحر الشمس، ولم يكن ثمة مخلوق غير كلاب قليلة سائبة. . . ولا صوت إلا جعجعة الطاحونة القريبة
وكنت لا أمل أن أقف نصف ساعة ألاحظ سنسناتوس من وراء ستار النافذة، وهو يمشي متثاقلاً مختالاً، وقد اشتد قيظ الظهيرة؛ وكان يدلف أحياناً نحو الكلاب في هدوء ومهل حتى إذا ظن أنها أمنته، التقط حجراً وحذفها به ثم اعتدل وولاها دبره، كأنما يوهمها أنه لم يمسها بأذى. . . وقد تجتمع الكلاب حوله فلا تنفك تبصبص بأذنابها. . . ويفتر هو باسماً.
ثم يضحك ضحكات بائسة. . . فلا أملك إلا أن أضحك أنا أيضاً!
وتشجعت يوماً فأطللت برأسي من النافذة، ثم هتفت به: (سنسناتوس!) فاستدار حوله، حتى إذا بصر بي تبسم ضاحكاً، فقطفت قرنفلة جميلة من طاس أزهاري وأرسلتها إليه. . . ومنذ ذلك اليوم، ونحن صديقان. . . وأي صديقين؟!
وقد سماني (كيرلي لوكس!). ففي أمسية يوم سبت من شهر يوليو بينما كنت واقفاً على الجسر الجميل أرقب سفائن الصيد عائدة أدراجها، ومن خلفها الشمس الرائعة تصبغ السحاب بالذهاب، وتوشي حواشيه بالقرمز، وتنصب بالنهر في لجة البحر ذوباً من اللألاء واللُّجين. . . في حين تنعكس العدوتان، وما نما فوقهما من قصب وغاب، وما بسق عليهما من حور وشاهبلوط، في مائه العذب، فتكسوانه حلةً من سندس وإستبرق!
وكانت الزوارق تلقي مراسيها في بطء وتتضامُّ على رويد، وشرعها البرتقالية تصطفق وتتكسر، فترتسم عليها النقوش العربية، فتبدو غرابيبَ سودا. . . وقد بدأ الصيادون ينزلون أسماكهم من زورقين كبيرين، فرحين جذلين بما رزقهم الله، منشدين متغنين وتلفت حولي فجأة فرأيت سنسناتوس واقفاً حِيالي والعرق يتفصد من وجهه، وقد خبأ شيئاً في يده وراء ظهره، فمددت إليه يدي المذعورة المرتجفة، وناديته: (أوه! سنسناتوس!) ورفت على شفتيه ابتسامة ساذجة كابتسامة الطفل، ثم مد إلي يده وفيها باقة رائعة من أزهار الخشخاش، وسنابل القمح، فاختلطت حمرة (أبي النوم) بذهب البر، حتى ما تمالكت أن صحت: (شكراً لك وألف شكر! ألا ما أجمل وما

أبهى!!) وبدلاً من أن يرد علي، فقد أرسل أصابعه فوق جبينه ووجنتيه لينزح العرق، ثم حملق في يده وحملق في، ثم ضحك من أعماقه ضحكاً رقيقاً باكياً. . . وقال: (لقد وجدت تلك الأزهار الأرجوانية نامية وسط حقل من القمح، فأحببت أن أقطفهن لك. . . ألا ما أجمل وما أبهى!! لقد قطفتهن لك، ولم أبال الشمس التي كانت تصب نيرانها فوق رأسي!)

وكان يتكلم في هدوء واستسلام؛ وكان يرسل الكلمة ويستأني، ثم يرسل الأخرى ويستجم؛ وكان يبدو عليه التعب، لكنه كان يحاول وصل كلماته حتى لا يفلت منه زمامها. . . وكان يبدو كأن ألف فكرة تزدحم في رأسه، وألف صورة من صور ماضيه المؤلم تربك تفكيره. . . فكان يستذكر منها الصورة والصورتين والثلاث، ويترك الباقيات تتفرق كسرب من اليعاسيب. . . وكنت ألمح ذلك في عينيه. . . فيزداد تفرسي في وجهه الذي كان يبدو لي جميلاً رائعاً. . . وكأنما لحظ ذلك مني، فالتفت إلى الزوارق فجأة وقال: (أنظر. . . الشرع! ما أجمل الشرع! شراعان رائعان! أحدهما في الماء والآخر في الهواء!) أي أنه لم يكن يعرف أن الشراع الذي في الماء ما كان إلا صورة منعكسة؛ ولقد حاولت أن أفهمه ذلك. . . وقد أطلت في الشرح إلا أنه كان يبدو كالذاهل عما أقول. . . وكانت كلمة (شفشاف) تصدمه، وتقر في أذنه

وتمتم بهذا النداء: (ديافانوس!!). . . ثم تبسم، وعاد يحملق في الشراع العجيب! وانتثرت بَتلة من أزهار الخشخاش فسقطت في الماء، فجعل يتبعها بنظره حتى غابت، ثم أنشأ يقول: (إنها ذاهبة. . . ذاهبة بعيداً!) وكانت نبرات الأسى تتكسر في أطراف صوته، كأنما فقد شيئاً عزيزاً عليه!

وصمتنا لحظة، ثم سألته: (ألا تخبرني ما بلدك يا سنسناتوس؟) لكنه التفت عني وأشاح، ثم مد بصره في السماء الزبرجدية الصافية، حيث ذهبت الجبال في السماء كالجبابرة التي تغط وتتثاءب؛ وكان الجسر البعيد الممتد فوق النهر يقطع السماء إلى صور جميلة بارعة، وقد أخذت ظلال الشاطئ الأخضر المنعكسة في مائه تتحول إلى لون داكن قاتم، يختلط بأهازيج الصيادين ونكاتهم المرحة الساذجة

وأشرقت أسارير صاحبي قليلاً، ثم أسرع يقول:

- أجل. . . لقد كان لي بيت أبيض، وكانت له حديقة صغيرة تنمو فيها أشجار الخوخ. . . وفي المساء. . . كانت تريزا تأتي إلي. . . جميلة حسان. . . مفتان!. . . عيناها. . . ولكن. . . هو! هو!

ثم صمت فجأة. . . لأن الهواجس السوداء كالخفافيش طافت برأسه فجأة. . . وانطفأ البريق الذي كان يشع من عينيه فصارتا غائمتين قاتمتين!

بيد أنه لم يلبث أن انفرجت أساريره، وأشرق وجهه. . . ثم لوى عنانه، وذهب عني، وهو ينشد ويغني:

, ,

وهو غناء لا أدري ماذا كان يقصد به!

ولقيته بعد ذلك مرات، وكنت كلما رأيته مارا بمنزلنا دعوته لأعطيه شيئاً يأكله، أو يتبلغ به، وأعطيته مرة دريهمات كنت قد أختها من أمي، فما كدت أضعها في يده، حتى نظر إليها هازئاً، وردها إلي في امتعاض، وولى مدبراً. . . وفي المساء لقيته عند آل بورتانوفا، فتقدمت إليه قائلاً: (سنسناتوس! اغفر لي. . . و. . . اعف عني!) ولكنه هام على وجهه، واختفى في الغابة

وفي صباح اليوم التالي، وجدته ينتظرني قريباً من منزلي، فلما رآني تبسم ابتسامة محزونة، ومد إلي يده الواهية بباقة يانعة من أزهار المرغريت. . . وكانت عيناه دامعتين، وشفتاه مرتعشتين. . . مسكين! لك الله يا سنسناتوس!

ومرة أخرى، بينما كنا جالسين في طرف الطريق المعروش بالشجر، في أواخر شهر أغسطس، والشمس الغربة تختفي رويداً وراء الجبال، والأصداء المختلفة تتجاوب في جنبات السهل القار الهادئ بين لحظة وأخرى. . . وحواشي الأدغال الصنوبرية تبتعد وتبتعد حتى تتناهى في ظلام البحر، وقد أخذ القمر النحاسي يبزغ في هوادة وبطء خلال السحب العجيبة الرائعة. . . حينئذ. . . نظر سنسناتوس إلى القمر، وحدق فيه بصره. . . ثم أخذ يتمتم ويجمجم. . . ويقول: (أنظر. . . إنك تستطيع الآن أن تراه. .

وليس في وسعك الآن أن تراه! أجل. . . قد يمكنك أن تراه الآن. . . وقد لا يمكنك قط أن تراه!

وظل برهةً يتأمله ثم عاد يقول:

(. . . القمر!! إن له لعينين وأنفاً وفماً مثلنا نحن البشر!! ومن يدري فيم عساه يفكر. . . من يدري؟!)

ثم شرع يغني أغنية سَجْواء من كاستللامير. . . أغنية طويلة كثيرة الرفع والخفض، مما يتغنى به أهل تلك الهضاب في ليالي الخريف، في عقابيل الحصاد. . وبعد لحظات لمحنا في ظلام البعد مصباحي قاطرة مقبلة، كانا يتأججان في فحمة الغسق كما تتأجج عينا هَوْلة. . . وقد مر القطار وهو يهزم كالرعد فوق الجسر، ويرسل صفارته الهائلة، وينفث دخانه القاتم. . . وبعد لحظة غاب في الأفق، وساد الصمت، وعاد الهدوء إلى الكون

وهب سنسناتوس واقفاً فقال:

- اذهب. . . اذهب. . . انطلق بعيداً، أيها التين، بما أجج الشيطان في صدرك من نار ومن حمم!!)

ولن أنسى ما حييت فزعة سنسناتوس حين مر بنا القطار. . فلقد رعد فجأة، وجرجر في هدوء الطبيعة، فأيقظ صاحبي المجنون من تأملاته وروعه. . . فلما عدنا أدراجنا إلى القرية. . . لم يصح من أحلامه قط!!

وذهبنا مرة معاً في أصيل يوم جميل من أيام سبتمبر إلى سيف البحر. . . وكانت لا نهائية الماء الأزرق العميق تضطرب تحت بيضة الأفق التي كانت تلتمع بأمواه السماء. . . وكانت قوارب الصيادين تتهادى فوق العباب الزاخر، مَثْنى مَثْنى، كأزواج من طير عظيم مختلف أنواعه، وقد نَشّرت أجنحتها الصفراء والقرمزية. . . ومن ورائنا نهضت كثبان الرمال الشاحبة، الممتدة فوق الشاطئ القاتم، حتى تتصل بسندس النّبْت من وراء

وانطلق سنسناتوس يحدّث نفسه في صوت حنون أخاذ، كالذي تولاه طائف من الذعر والدهش: (البحر. . . الخضم. . . الأزرق. . . خِضمْ. . . خضم. . . وفيه سمك كِبار تأكل الناس! وفي أعماقه أوركوس المحبوس في قفصه الحديدي!! إنه هناك يستغيث ويستنجد، ولا من مغيث ولا منجد. . . إنه سيظل هناك إلى الأبد. . . وفي المساء تمر به السفينة. . . التي يرى الموت من يراها!!)

وسكت سنسناتوس. . . ثم هب من مقامه، فتهادى نحو الماء، حيث وقف عند هامش الموج الذي أخذ ينضح قدميه

وبعد فهل نستطيع أن نستشف تلك الأفكار التي كانت تحوم كالسمادير في رأسه الفقير المريض المعتل؟ أجل. . . لقد كان يتخيل دُنى من ورائها دنى. . . بعيدة. . . نائية. . . متألقة. . . وكان يرى أطيافاً من الألوان المضطربة، بعضها عريض طويل، وبعضها لا نهائي، وبعضها عجيب غريب. . . ولشد ما كان يضل إدراكه في تيه هذه الظلال التي لم يكن يدري كُنهها

وكنت أدرك هذا من عباراته التي يربطها رابط برغم ما كانت تصور به المناظر الرائعة في سذاجة. . . و. . . عمق في آن واحد!

ولم ينبس ببنت شفة حينما كنا نطوي الطريق عائدين إلى القرية. . . وكنت أنظر إليه لحظة بعد أخرى، فتتردد في فؤادي هواجس شتى. . . ولما اقتربنا من الطريق، نظر إليّ

فجأة وراح يقول في صوت هادئ متهدج، بعد أن قبض على يدي: (إن لك أمّاً تنتظرك لتقبلك عندما تعود إلى البيت. . .!)

وكانت الشمس تهبط إلى خدرها خلف الجبال في سماء صافية وكان النهر يضطرب بأشعتها الذهبية الرائعة. . . فلما قال ما قال سألته بدوري، والدموع تترقرق في مقلتيّ: (وأنت أين أمك الآن يا ترى؟!) بيد أنه اشتغل عني بعصفورَيْ جنة، فانحنى إلى الأرض حين رآهما، وتناول حجراً ثم سدده إليهما في انتباه عظيم، كأنما حسب أنه يصمم بندقية وأرسله في عنف. . . وطار العصفوران كسهمين مُرَاشَيْن من غير أن يصيبهما أذى. . .

وقال سنسناتوس، وهو ينظر إليهما يزفان إلى السماء اللؤلؤية مفترّاً عن فمه:

(طيرَا. . . طيرا. . . طيرا. . . طيرا) يرددها في نغمة متسقة أربع مرات
ولقد لاحظت تبدّلاً في سلوكه منذ بضعة أيام. . . وكان يبدو كأنما تشتعل الحمى بين جنبيه. . . مسكين!. . . لقد كان ينطلق وسط الحقول يعدو ويجري، فلا يقف حتى يهده التعب، فيسقط ويتحوى كالثعبان، ويبرق بعينيه المفزوعتين في شمس الظهيرة الساطعة! فإذا كان الأصيل ألقى جاكتته فوق كتفه وراح يتخلج كالأشراف الأسبان، في خطى واسعة بطيئة مهطعاً مرة، مستأنياً متمهلاً مرة أخرى
وقد أهملني. . . ولم يعد يحضر لي باقات الخشخاش ولا أزاهير المرغريت. . . ولشد ما أحزنني ذلك منه برغم إشاعات الهجر، وألسن السوء التي كانت تقدح فيما بيني وبينه. . .
ففي صبيحة جميلة مشرقة ذهبت لألقاه حيث تعودنا أن نتقابل، لكنه لم يعن بي، ولم يتوجه بعينيه نحوي. . . فقلت له وقال لي:
- ماذا يا سنسناتوس؟!
- لا شيء!!
- هذا كذب. . .
- لا شيء!!
- هذا كذب. . . هذا كذب!!
وكنت ألمح في عينيه لهباً يتأجج فيهما، فالتفت حيث كان يرسل بصره، فرأيت فتاةً جميلةً فلاحةً، واقفة فوق وصيد دكان قريب
وسمعته يتمتم في تحرق وشوق وشغف، وقد اصطبغ جبينه بورس الحب: (تريزا!! تريزا!!. . .) ثم تحدرت عبراته فجأة. . . لقد رأى المسكين في الفتاة الفلاحة طيف تريزا. . . تريزا الجميلة. . . حبيبته التي خلبت لبه، وخبلت عقله، وسحرت فؤاده!
ولقيها بعد ذلك بيومين، فهرول نحوها وهو يبكي ويقول: (أنت أجمل من شمس الضحى!). . . ولكن الفتاة القاسية مدت يدها البضة ولطمته في حر وجهه!
ولمحه غلمان فأحدقوا به. . . ثم طفقوا يلمزونه ويستهزئون به وأخذوا يحذفونه بأعواد الكرنب الملقاة في الشارع، فأصابه أحدهم بعود منها في وجهه. . .
وثار سنسناتوس! وانطلق في إثر الغلمان كالثور المجروح، وأمسك بأحدهم فرفعه في الهواء، ثم ألقى به على الأرض. . . كحزمة من الخرق!!
ورأيت رجلين من الشرطة بعد ذلك يقتادانه تحت شباكي، والدم يتحدر من وجهه فيضرّج لحيته الكثة، وقد حنا رأسه توقياً لسخريات الناس به. . . . . فبكيت!! بل استخرطت في البكاء!!
ولحسن الحظ لم يكن الفتى قد أصيب إلا بسحجات بسيطة فأطلق سراح سنسناتوس بعد يوم أو يومين. . .
مسكين سنسناتوس! لقد غدا مسبوهاً شارد اللب أكثر مما كان، وأظلت وجهه سحابة من الحزن لم تنجل. . . وشهدته ذات مساء يعدو كالكلب في أزقة القرية المظلمة
وفي صبيحة جميلة من أيام أكتوبر، مموهة السماء بلون البنفسج وأضواء الشمس، وجدت جثة سنسناتوس ممزقة مهشمة فوق شريط السكة الحديدية مما يلي الجسر. . . فهنا إحدى ساقيه. . . وهناك. . . على مسافة خطوات. . . ساق أخرى جرها القطار وراءه. . . وظل الدم يتدفق من الرأس الذي نزعت عنه لحيته. . . وقد جحظت عيناه لتثيرا الرعب في قلوب أبناء آدم!
مسكين سنسناتوس!! إنه لابد قد ذهب هناك ليرى إلى الهولة التي تنطلق في جوف الوادي، فتذهب بعيداً. . . بعيداً. . . كما تعود أن يقول. . . التنين الهائل الذي أجج الشيطان النار في صدره. . .
- (تريزا. . . . . .)
دريني خشبة
البريد الأدبي
كتاب مصري جديد لإميل لودفيج
لم تمض أشهر قلائل على ظهور كتاب (النيل) الذي وضعه المؤرخ الألماني الكبير إميل لودفيج حتى ظهر له كتاب جديد يتناول أيضاً موضوعاً مصرياً شائقاً هو (كليوباترة)؛ وكما أثار كتاب (النيل)

إعجاب القراء والنقدة، فقد أثار الكتاب الجديد أيضاً إعجاب الدوائر الأدبية. وكتاب كيلوباترة دراسة تاريخية بديعة لحياة هذه الملكة المصرية الخالدة، وشخصيتها الساحرة، وموتها المؤسي؛ وقد ظهرت عن كيلوباترة كتب كثيرة من أقلام كتاب أعلام؛ ولكن كتاب لودفيج يمتاز بأسلوبه الساحر الذي تخال عند قراءته أنك تقرأ قصة شائقة لا دراسة تاريخية معقدة؛ وهذه أعظم مزايا إميل لودفيج كمؤرخ، فهو يكتب التاريخ الحق، ولكن بأسلوب خاص، فيتخذ من حوادث الحياة اليومية، والصفات والعواطف الشخصية مادة لا يفطن إليها الكثيرون من كتاب التاريخ؛ ويرى في هذه الأعمال والحوادث البسيطة ما لا يراه في الحوادث العامة التي ترتبط بحياة مترجمه؛ والترجمة التاريخية تعتمد في الغالب على هذه الحوادث العامة، ولكن إميل لودفيج يعتقد أن الدراسة الشخصية للعواطف والميول والشهوات الخاصة تفصح عن شخصية المترجم أكثر من أي شيء آخر؛ وهو مع ذلك يكتب التاريخ ولا يحيد عنه

وهذا المزيج القوي من نظرة لودفيج إلى التاريخ يتخذ صورة ساحرة في كتاب كيلوباترة؛ فهذه الملكة الحسناء التي كانت أول ملكة جلست على عرش الفراعنة، والتي انتهت بحياتها

دولة البطالسة، يرسمها لنا لودفيج بكل جمالها كامرأة، وجلالها كملكة، ويصور لنا دقائق حياتها الشخصية والعامة تصوير المؤرخ الدقيق والقصصي البارع؛ وهو يصل في كتابه الجديد إلى ذروة فنه كمترجم لا يجارى لشخصيات التاريخ البارزة؛ وقد وضع الكتاب بالألمانية، وترجم في الوقت نفسه إلى الإنكليزية، كمعظم كتب لودفيج

وفاة شاعر روسي مسلم

توفي في روسيا أخيراً الشاعر سليمان ستالسكي وهو مسلم من أهالي داغستان، ولد منذ نحو سبعين عاماً، ونشأ في أسرة فقيرة من الفلاحين والرعاة، ولم يتلق تربية مدرسية ما، بل نشأ أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ومع ذلك فقد نظم الشعر منذ حداثته، وطارت شهرته منذ نحو أربعين عاماً في القوقاز وفي روسيا كلها، وكان يميل بالأخص إلى نظم القصائد الريفية والشعبية. ولما قامت الثورة البلشفية كان سليمان ستالسكي من أقوى دعاتها في بلاد داغستان والكرج التي ينتمي إليها ستالين زعيم روسيا الحالي، وقد لفتت قصائده الوطنية التي ترجم الكثير منها إلى الروسية أنظار الزعماء والمفكرين، ولفتت إليه بالأخصَ أنظار مكسيم جوركي عميد الأدب الروسي الثوري فنعته بأنه (هوميروس القرن العشرين)؛ وكان في أعوامه الأخيرة موضع عطف ستالين، وعطف زعماء الأدب الروسي كله لما تحتويه قصائده من قوة الفطرة وحرارة الإخلاص؛ وكان لوفاته وقع عميق في موسكو وفي روسيا كلها

كتاب عن طاغور

يصدر في أوائل الصيف القادم كتاب بالإنكليزية عن شاعر الهند وفيلسوفها رابندارانات طاغور عنوانه (طاغور، شخصيته وعمله) بقلم الأستاذ لسني وهو عبارة عن دراسة تحليلية دقيقة لشخصية الشاعر الكبير، وتراثه الشعري والفلسفي، ومدى تأثيره في الأدب الهندي والأدب العالمي. والكاتب من أصدق أصدقاء الشاعر وأعظم المتخصصين في دراسة الأدب الهندي؛ وقد وجه إليه طاغور كتاباً أثبت في صدر الكتاب وجاء فيه: (إنها لمعجزة أن تنفذ في مثل هذا الوقت القصير إلى روح اللغة البنغالية وإلى آثاري؛ ولم أر من قبل قط مثل هذه المقدرة النقدية في كاتب أجنبي آخر)

علماء فوق الجليد

كانت الحكومة الروسية قد أوفدت منذ بضعة أشهر بعثة من العلماء الروس إلى القطب الشمالي لتقوم ببعض الأبحاث الجوية والمائية في هذه المناطق الثلجية؛ فطار أعضاء البعثة إلى القطب في طيارات صنعت خصيصاً للطيران في هذه الأنحاء، واستطاعت البعثة أن تنزل فوق منبسط من الجليد على مقربة من القطب، وأن تهيئ مكاناً لسكناها، ومطاراً لنزول الطيارات، ومرصداً للقيام بأبحاثها؛ واستمرت تجري أعمالها بضعة أسابيع والطيارات تختلف إلى مقامها لتموينها بالطعام والوقود والشحم؛

ولكن حدث في ديسمبر الماضي أن ذابت الثلوج حول مقام البعثة، وانفصلت الكتلة الثلجية التي تحتوي على مساكنها وآلاتها، ثم ترك هؤلاء العلماء البواسل دون مأوى ودون طعام فوق كتلة متحركة من الجليد أخذت تسير بهم ببطء إلى مصاير مجهولة. وكان من حسن الطالع أنهم احتفظوا بآلة اللاسلكي، فبعثوا إشارات الاستغاثة إلى روسيا، واهتمت حكومة موسكو واتخذت كل أهبة لإنقاذ العلماء البواسل ومنذ أسابيع تحلق الطيارات وتسير نسافات الجليد إلى حيث مقر البعثة؛ وفي الأنباء الأخيرة أن النسافتين تيمر ومورمان استطاعتا تحطيم الجليد، واللحاق بالعلماء المنكوبين بعد أن سارت بهم قطعة الجليد التي بقوا عليها نحو ألفي كيلو متر من القطب حتى شواطئ الأرض الخضراء، واستطاعتا إنقاذهم وإنقاذ آلاتهم وموادهم العلمية

وتقول الأنباء أيضاً إن رئيس البعثة العلامة الشاب بابانين استطاع أن يقوم في الحوض القطبي ببحوث هامة، ودلت التجاريب المختلفة لسبر أغوار الجليد أن هنالك تياراً حاراً يأتي من الأطلانطيق؛ واكتشف العلماء أيضاً وجود بعض الطيور على مقربة من القطب وهو ما كان يظن استحالته؛ ووضع العلامة الفلكي فيدروف خريطة فلكية للمنطقة القطبية؛ وجمعت البعثة كثيراً من المواد والحقائق العلمية عن خواص المناطق القطبية المختلفة.

قاموس سياسي

أصدرت الأكاديمية السياسية الدولية بباريس قاموساً من طراز جديد، هو القاموس السياسي (الدبلوماسي) وقد وضع بأشراف الكاتب المعروف مسيو فرانجليس، سكرتير الأكاديمية،

وأحد مندوبي فرنسا لدى عصبة الأمم، واشترك في وضعه سبعة وعشرون رئيس حكومة، وأكثر من خمسمائة وزير وسفير منهم أقطاب السياسية العالمية مثل الرئيس روزفلت وإيدن وموسوليني وشاخت وبنيس وهيروتا وغيرهم، وعولجت فيه أهم المسائل الدولية المعاصرة بأقلام هؤلاء الأقطاب. غير أن أهم مزايا القاموس السياسي، هو أنه مرجع شامل لجميع الأنظمة والمعاهدات السياسية والدولية الجديدة التي عقدت بين مختلف الدول في الأعوام الأخيرة، مثل الأنظمة والمعاهدات الجديدة الخاصة بمصر والهند وسوريا، ومسائل البحر الأبيض، ونزع السلاح البحري، وتجارة السلاح، ونظام اللاجئين، ومسائل الصين واليابان والحبشة وغيرها مما يشغل الدول والسياسة الدولية الحاضرة؛ وقد رتبت هذه المجموعة على مثل القاموس ليسهل استعراضها؛ وهي تقع في ثلاثة مجلدات كبيرة، ولا ريب أنها مرجع نفيس للباحثين في التاريخ السياسي المعاصر

مؤتمر عام للأدب العربي

تلك فكرة جميلة يسعى لتحقيقها السيد محمد فاضل بن عاشور بتونس، ومهمة هذا المؤتمر على ما جاء في برنامجه، السعي لتوحيد طرق الثقافة ودراسة الآداب العربية في جميع أقطار العروبة، وإنشاء مدون عن أطوار الأدب العربي في كل قطر من تلك الأقطار، وتوكيد الصلات بين رجال القلم من أبناء العربية، وإنشاء لجان فرعية للمؤتمر في كل قطر تتلقى بحوث ونظريات الأدباء لإحالة المفيد منها إلى المؤتمر بعد دراستها، وتقوم برحلات القصد منها استطلاع مدى الحركة الأدبية، والسعي في إنشاء كليات أدبية في الجهات التي لم تؤسس فيها كليات لذلك. والشرط في ذلك كله أن تكون العربية الفصحى لسان أعضاء المؤتمر ولغة لجانه وقراراته ونشراته، وستصدر نشرة دورية تكون سجلاً للمؤتمر في جميع خطواته التي يخطوها في سبيل غايته هذا وقد تألفت لجنة تحضيرية في تونس تضم جملة من الأساتذة الأفاضل برياسة السيد محمد بن عاشور، وهي توالي اجتماعاتها بمعهد ابن خلدون للعمل على تحقيق الفكرة وإخراجها إلى الوجود؛ والرسالة وهي سجل الأدب العربي ترجو للسادة الأفاضل التوفيق في غايتهم الشريفة ومهمتهم النبيلة

قاعة القراءة بالمتحف البريطاني

جاء في عدد الرسالة رقم (242) بين نبذ البريد الأوربي خبر بأن غرفة القراءة بالمتحف البريطاني ستظل مفتوحة للزوار ساعة كاملة فوق المعتاد. ثم علقتم على هذا النبأ بأن تمنيتم لو عنيت مصلحة الآثار فأنشأت قاعة القراءة بالمتحف المصري

على نمط قاعة المتحف البريطاني، وهي تمنيات طيبة صادرة من قلب محب للعلم حريص على نشره. بيد أني أخشى أن إيراد الخبر على هذا الوجه يجعل القارئ العام الذي لا يعرف شيئاً عن قاعة المطالعة بالمتحف البريطاني يحسب أنها لا تحوي سوى الكتب الخاصة بالآثار ووصفها - في حين أن المتحف المذكور ينقسم إلى قسمين رئيسيين: المكتبة وقسم الآثار، وتعد المكتبة أكبر مكتبات العالم كله، وقاعة مطالعاتها التي ورد ذكرها في هذا النبأ قاصرة على طائفة معينة من المتعلمين، فلا يسمح بالدخول فيها للاطلاع إلا لمن يقوم بأبحاث عميقة في مختلف العلوم والفنون وعليه أن يعين في طلبه نوع هذا البحث والمدة التي يريد أن يتردد فيها على القاعة من أجله، وهي تفتح أبوابها لهذه الطائفة فقط من الساعة التاسعة صباحاً إلى الساعة السادسة مساء (قبل التغيير الأخير) وهي لا تعير كتباً في الخارج، ثم إن القانون الإنجليزي يفرض على كل ناشر أن يبعث إلى المكتبة المذكورة بنسخة من كل مطبوع يطبع في الجزر البريطانية

أما قسم الآثار فزيارته مباحة لكل من يريد وبلا مقابل، على هذا نرى أنه ليست هناك علاقة بين المتحف البريطاني وبين قاعة المطالعة فيه سوى أنهما في بناء واحد - ونلاحظ أن وظيفة هذه القاعة تشبه إلى حد ما وظيفة دار الكتب الملكية عندنا. وقصارى ما نرتجيه أن تنشئ الحكومة في بعض أحياء القاهرة مكتبات عامة للجمهور تخفف الضغط على المكتبة الملكية بحيث تصبح هذه الأخيرة قاصرة على طائفة معينة من القراء وأهل العلم والبحث

نجيب أحمد هاشم

الإسلام في العالم

ظهر في لاهور (الهند) كتاب (الإسلام في العالم) لمؤلفه الدكتور زكي علي؛ وعلى رغم أن المؤلف الفاضل مصري النشأة والمربى فقد كتب كتابه هذا باللغة الإنجليزية. لأننا أحوج ما

. . .نكون اليوم إلى أن ننشر تاريخنا ومبادئ ديننا على أعين الأجانب ليروا والكتاب قسمان: الأول يتحدث عن النشأة الأولى للإسلام منذ ظهور أول قبس من نوره حتى استيلاء العرب على الأندلس؛ والثاني يعرض النهضة الإسلامية الحديثة في لمحات خاطفة تشمل الأقطار الإسلامية جميعاً: تركيا الكمالية ومصر المستقلة

. . .وفلسطين وشمال أفريقية والصين والهند وأفغانستان والعراق وإيران و وفي الكتاب أبحاث قيمة لمسائل ذات شأن منها: ما عساه أن يكون وراء النهضة الإسلامية الحديثة؟ أفتحمل في أضعافها ثورة جامحة تعصف بسلام أوروبا؟ أفتتكون من القوى الإسلامية المختلفة جبهة شديدة تتدافع سيلاً جارفاً من الجيوش الثائرة فتلتهم ما عداها من الدول والممالك شأن المسلمين في عصرهم الأول؟ ماذا عسى أن تكون سياسة الدول الإسلامية الكبرى في الحرب العالمية القادمة؟ أفنستطيع أن نجد الوفاق بين العالم الإسلامي والغرب المسيحي؟ و. . . و. . . مما يضطرب في خواطر القادة والزعماء. . . وفي الكتاب ولا ريب أبحاث طريفة ممتعة يجدر بالمشتغلين بأمور الإسلام والعرب والشرق أن يطلعوا عليها

الفتاة الصينية والتعليم

تبدأ نهضة الفتاة الصينية منذ سنة 1907 فقط، أي أنه قد مضى على نهضتها ثلاثون عاماً هي مع قصرها في حياة أمة عظيمة قديمة كالصين حقبة مليئة بجلائل الأعمال التي تمت للفتاة الأوربية في قرن بأكمله، وبعد مصادمات عنيفة بين الجنس اللطيف الناعم والجنس القوي الخشن. والفضل في نهضة الفتاة الصينية ترجع إلى سيدة عظيمة تدعى شيوشان ' لا كما هو الحال عندنا إذ ترجع هذه النهضة إلى الجهود الجبارة التي قام بها المرحوم قاسم بك أمين. وقد دعت شيوشان إلى وجوب إنشاء المدارس للفتاة الصينية، ووجوب الإقلاع عن التقاليد التربوية الكونفوشية التي تحرم على البنت نور العلم الحديث، فلم تزل تكتب وتخطب وتشن الحرب على القابضين على زمام الأمر من أتباع مانشو حتى فازت في سنة 1907 بإنشاء المدارس الأولية للفتيات ومدارس التربية للمعلمات. ولم يمض ربع قرن حتى كان في الصين مليونان من تلميذات المدارس، وحتى أصبحت نسبة الفتيات من طالبات الجامعات 14. 5 % من عدد الذكور. . . والأعجب من كل ذلك أن الفتاة الصينية

نالت المساواة بالرجال في جميع الحقوق المدنية والسياسية قبل أن تفوز بها أختها في كثير من الممالك الأوربية.

وفاة الشاعر أحمد نسيم

في غضون الأسبوع المنصرم طوى الموت صحيفة الأستاذ أحمد نسيم الشاعر المعروف، وكان رحمه الله شاعراً في شعره معنى اسمه كما يقول مطران، فله عرف أبي الطيب، ونفحات النسيم. ولقد قضى الشطر الأول من حياته ينافح عن الوطن بشعره إلى جانب حافظ، وله في ذلك (وطنيات نسيم) جزآن كلهما صيحات في جانب الوطن، وجدال في السياسة. ثم عين مصححاً في دار الكتب، واستطاع أن يخدم الأدب في حدود تلك الوظيفة، فأشرف على جملة نافعة من مطبوعات الدار كديوان مهيار والنابغة الشيباني وصرور وجران العود وغيرهم، ولقد ظل عاملاً إلى آخر حياته، على الرغم من تمكن الداء وإلحاح العلة

ونود أن نعود بالحديث الشامل إلى ذلك الشاعر في فرصة أوسع

جمعية بناء جامع فارسوفيا

جاءنا من الأستاذ الفاضل صاحب الإمضاء ما يأتي:

أرجو نشر نداء جمعية بناء جامع فارسوفيا في مجلتكم الغراء وإني أتقدم إليكم بجزيل الشكر

لا تخفى عليكم المساعدة التي تقدم بها إخواننا المسلمون بالهند لصاحب الفضيلة مفتي إسلام الجمهورية البولونية الدكتور يعقوب سينكيفش الذي يتبعه 15000 من مسلمي التتار في تأسيس جامع يؤمه المسلمون في فارسوفيا. ولما كانت المادة تعوزه لإتمام تشييده رأى صاحب الفضيلة عمل رحلة إلى البلاد المصرية والجهات العربية يستحث فيها أهل المروءة على مد يد المساعدة حتى يتم تشييد هذا الجامع.

هذا وإني أضع تحت تصرفكم البيانات الكافية عن انتشار الإسلام في بولنده إذا ما رغبتم في ذلك لتنوير الرأي العام لديكم. وبنشركم هذا النداء في مجلتكم تقومون نحو إخوانكم المسلمين في بولنده بأجل الخدمات التي نشكركم لأجلها. وإنا نرجوكم إرسال بعض النسخ إلى مجلتكم التي تنشر فيها

كلمتنا والسلام عليكم ورحمة الله

برلين 30 يناير سنة 1938

مصطفى كوينجني

أصول الفواكه والبقول

قدم العلامة الفرنسي الأستاذ بيفو إلى أكاديمية بوردو بحثاً علمياً مستفيضاً عن أصول معظم الفواكه والبقول التي تنمو الآن في أوربا؛ وخلاصة بحثه أن معظمها قد نقل إلى أوربا من آسيا ومصر، فشجرة الخوخ مثلا قد نقلت من الصين، ونقلت شجرة المشمش من التركستان، ونقلت شجرة اللوز من أفغانستان، كما نقلت شجرة الزيتون من مصر، وعرفت أشجار الكروم في أوربا لأول مرة في غاليس (جنوب فرنسا)، والمفهوم أنها نقلت من آسيا، ونقلت بذور الذرة من المشرق أيضاً، وكان أول من زرعها القوط في أسبانيا، أما البطاطس التي تعتبر اليوم أهم الخضر الأوربية فهي أمريكية الأصل، وقد نقلت بذورها لأول مرة من شيلي في أمريكا الجنوبية على يد المستعمرين الأسبان

رسالة النقد

نظر ونقد

شعراؤنا في موكب الزفاف - 2

الجارم بك

ولنقف أول ما نقف مع أستاذنا الجارم بك، فقد كان في شعراء الزفاف أبعدهم صوتاً، وأطولهم نفساً، وأشدهم عارضة، وأسمحهم قريحة، وأطوعهم بياناً. لم يرض لنفسه أن يكون (مفرد) القصيد، فأرسل (الجارمية) في أثر (الجارمية)، وكل جارمية تهدف إلى المائة أو تزيد، ولقد أدى ذلك كله بأدائه الجارمي الرائع، ولحنه القوي الحنون، فبلغ من رضا الجمهور والصحافة غاية لا تتجاوز، حتى كان من هذا الرضا أن اتفق الناس على أنه طليعة الشعراء، وأنه جاء كالبعث لما بعد شوقي وحافظ

على أن الجارم لم ينتظر تقريظ الجمهور، وتقدير الصحافة، وحكم النقد، فسبق

الجميع بالشهادة لنفسه، وقدر مرتبته فكانت إلى جانب لبيد. . . وازدرى بشاراً حتى أثار الغبار في وجهه. . . وادعى أن (الوحي) قد بادهته آياته ورسائله! واسمع له جانباً من تلك الشهادة إذ يقول مخاطباً الفاروق:

دعوت إليك الشعر فانقاد صعبه ... وقد كان قبل اليوم شُمساً جوافله
وما كدت أدعو الوحي حتى سمعته ... تبادهني آياته ورسائله!
خيال إذا أرسلته إثر (نافر) ... أتت بأعز الآبدات حبائله
ولفظ كوجه الروض في ميعة الضحى ... وقد صدحت فوق الغصون عنادله
إذا قلته ألقى عطارد سمعه ... وساءل شمس الأفق من هو قائله
وإن سارت الريح (الهبوب) بجرسه ... فآخر أكناف الوجود مراحله!

ومهما يكن في هذه الأبيات من الذهاب بالنفس إلى حد الإغراق، فأنا لا أنكر على الجارم بك أن يذهب بنفسه في تقريظ شعره، فقديماً قال شيخنا أبو الطيب: (وما الدهر إلا من رواة قصائدي)

على أني مع الأستاذ الجارم في أنه صاحب خيال يقتنص كل (نافر)، وأن لفظه كوجه الروض في ميعة الضحى، وأن أسلوبه حلو الجرس والتقاسيم، ولكنا كنا نود أن نرى مع هذا كله الإحساس الذي هو الشعر. . . ودقة التصوير التي هي حقيقة الفن. . . وصلة التعبير بالعصر التي هي دليل الطبع. . . ولقد بادهت الجارم بك آيات الوحي ورسائله حقاً كما يقول، ولكنه ليس الوحي الذي يهبط من سماء الشعر على الشاعر الصافي القريحة، القوي الطبع، الذي يرى ويلمس من بدائع الوجود ما يحلم به الغير، والذي تنكشف له بواطن الأمور فتنطبع في ذهنه وتظهر في بيانه صوراً فنية رائعة؛ تبرزها الشاعرية فإذا هي أبرع وأملح من الأصل. . . وإذا هي جمال في جمال وحسن فوق حسن؛ وإنما هو الوحي الذي يهبط من العلم بالعربية والإحاطة بدواوين السابقين، فإذا ما قرأت شعر الجارم في الزفاف، أحسست كأنك تقرأ تشبيهات كانت صوراً لحياة بدوية خالية، وقد مضى بها الزمن وطواها التقدم الحديث؛ ولقد تحاول أن تلمح عنده شيئاً من روح العصر فيعيبك ذلك

ودونك الجارمية التي ادخرها الجارم ليوم وزارة المعارف في الاحتفاء بالزفاف، فصال بها وجال بين جدران (الأوبرا) الملكية، ونقلها المذياع إلى الناس ونقل معها إعجاب السامعين في تصفيقهم وهتافهم فاسمع له إذ يقول في مطلعها، والمطلع هو موطن البراعة كما يقول علماء البديع:

صفا ورده عذباً وطابت مناهله ... وجلت يد الدهر الذي عز نائله
وأقبل منقاد العنان مذللاً ... تطامن متناه ودانت صوائله
يطاطئ للفاروق رأساً وتنحني ... أمام سنا الملك المهيب كواهله

فهذا شعر - كما ترى - يملأ سمعك بقوة لفظه، ويخلب لبك برقة جرسه، ولكن انظر وتدبر. ألست معي على أن هذا المطلع إنما كان موضعه اللائق أن يكون في التهنئة بفتح أو أي أمر عظيم يعز إدراكه، وتبعد غايته، ويطلب بالمجاهدة والمغالبة حتى يصح لشاعرنا أن يقول (وجلت يد الدهر الذي عز نائله) وأن يكون على حق إذ يصفه بأنه أقبل منقاد العنان يطأطأ الرأس للفاروق؟ ثم ألست معي في استنكار هذه الصورة الغريبة (النافرة) التي اقتنصها خيال الجارم بك، وتحملها ذوقه وارتضاها تقديره، فقدم الدهر لسنا الملك المهيب يمشي على أربع، قد تطامن متناه، ودانت صوائله؟! لقد أنكر القدماء على الطائي قوله:

سأشكر فرجة اللب الرخي ... ولين أخادع الدهر الأبي

فاستقبحوا استعارة الأخادع للدهر، وعدوها خارجة عن حد الاستعمال والعادة، فكيف لو أدركوا الجارم يصور الدهر وله عنان ومتنان وصوائل ورأس وكواهل؟ على أني أعرف أن علماء اللغة وإن اختلفوا في تحديد الكاهل، إلا أنهم اتفقوا على أن للشيء كاهلاً واحداً، ولكن الجارم يصور الدهر وله كواهل كثيرة وهذا لا يصح إلا على تخريج بعيد إن جاز في كتب الأزهر فلن يجوز في الشعر

وبعد هذا المطلع (الذي رأيته) يتدفع الجارم في تعداد سجايا الملك وإكبار فضائله، ولاشك أن فضائل الفاروق - كما يقول الجارم - إنما يزدهي بها الشعراء، ويحيا بوصفها القريض، وقد ذكر الجارم من فضائل الملك أول ما ذكر قوة العزم فقال:

يذوب مضاء السيف عند مضائه ... فما هو إلا غمده وحمائله

وهذا بيت قوي رائع يذكرنا لفظه ومعناه بقول المعري:
يذيب الرغبُ منه كل عضب ... فلولا الغمد يمسكه لسالا
وبقوله:
فإن كان في لبس الفتى شرف له ... فما السيف إلا غمده والحمائل
وأصل ذلك كله قول أبي تمام صاحب الجارم ودليله في مدح المعتصم:
وجرد سيف الحق حتى كأنه ... من السّلّ مودٍ جفْنُه وحمائله
ثم يمضي الأستاذ الجارم في الإشادة بالملك إلى أن يقول:
هو الأمل البسام رف جناحه ... فطارت به من كل قلب بلابله
وأحب لك أن تتأمل هذا البيت، ففيه شعر، وفيه روعة، وفيه الحقيقة الصادقة، ولكن الجارم أبى إلا أن يعيد معناه ضئيلاً فيقول:
ترى بسمة الآمال في بسماته ... وتلمح سر النبل (حين تقابله)
ونعوذ بالله من (حين تقابله) فإنها أضعف من الضعف، وكأن الجارم لم يكتف بهذا فانحدر بالمعنى إلى وضع أضأل وأضأل إذ يقول:
رأى فيك (هذا) الشعب آماله التي ... تمنى على الأيام وهي تماطله
وينتقل بالجارم بعد ذلك فيصف الملك باعتدال القوام فيقول:
يفديه غصن الدوح ريان ناضراً ... إذا اهتز في كف النسائم مائله
وجمع نسمة أو نسيم على نسائم خطأ من الأخطاء الشائعة التي يعنى بالتنبيه عليها أستاذنا الكبير، وقد سبقنا أحد الأفاضل فأشار إلى هذا الخطأ في عدد سابق من الرسالة
ثم يعود الجارم بعد ذلك كله فيكرر الإشادة بعزيمة الملك وطوله فيقول:
علاء تحدى الدهر في بعد شأوه ... فمن ذا يدانيه ومن ذا يفاضله
ورأى كأنفاس الصباح وقد بدا ... تشف مجاليه وتهفو غلائله
وأنا أبقاك الله لا أفهم وجه الشبه في قوله (كأنفاس الصباح)
وقد كان الأنسب أن يقول: كأنوار الصباح حتى يلائم وجه الشبه ما جاء في بقية البيت
ثم يقول الجارم بك:
رأى ملكاً يحيا القريض بوصفه ... فضائله جلت وعمت فواضله
رأى ملكاً يزهى به الدين والتقى ... شمائل أملاك السماء شمائله
رأى ملكاً كالنيل أما عطاؤه ... فغَمر وأما المكرمات فساحله
وهذا شعر حسن، غير أن الجارم لم يترك شيئاً من اللفظ والمعنى للطائي إذ يقول:
إلى قطب الدنيا الذي لو بفضله ... مدحت بني الدنيا كفتهم فضائله
من البأس والمعروف والدين والتقى ... عيال عليه رزقهن شمائله
إلى أن يقول:
هو البحر من أي النواحي أتيته ... فلجته المعروف والجود ساحله
وتأمل يا صاح قول الطائي (كفتهم فضائله) وقول الجارم (وعمت فواضله)، ثم قابل بين قول الطائي (هو البحر) وقول الجارم (ملكاً كالنيل) لتعرف الفرق بين المحكي والصدى
ثم يقول الجارم:
حملت له الريحان أرفع (معصمي) ... إلى الملك الفرد الذي فاز آمله
وقد ملأ الأنس الوجوه فأشرقت ... من البشر حتى كاد يقطر سائله
وكلمة (المعصم) كلمة ضعيفة لا تليق بالجارم الفحل، ثم ما سائل البشر الذي يقطر؟ لعله كماء الملام في شعر أبي تمام
وبعد أن فرغ الجارم من مديح الملك أخذ في مديح الملكة، فذكر أن الفاروق قد تخيرها
فريدة المجد والنبل والجاه، ونسي الشاعر العظيم حقيقة السر في هذا الاختيار، ذلك الاختيار (الشعبي) النبيل الذي استنه الملك فؤاد وتبعه فيه الفاروق. وإذا غفل الشاعر عن هذه الحقائق الجميلة التي حياة الشعر وروحه وعصبه، خصوصاً في مثل هذا الموقف التاريخي الحافل، فما يكون شعره بعد ذلك؟!
وعلى هذا انتهى الجارم من قصيدته: مدح الملك والملكة وزكى نفسه وشعره، وكان كل ما عنه من حديث الزفاف تزاحم المواكب واحتشاد الناس. . . فلننتظر فلعل

الرجل يكون قد أبر وأوفى في جارميته الأخرى ولعله يكون قد أدى بها حق الزفاف
(م. ف. ع)
العدد 244 - بتاريخ: 07 - 03 - 1938
في حفلة أدبية!
أدبت السيدة إيمي خير مأدبة لرجال الأدب ونسائه، كانت على رأى من شهدوها مظهراً لذلك الأدب النَّغْل الذي يعييك أن تعزوه إلى وطن وتنسبه إلى أمة تفرنس فيها المدعوون حتى حماة اللغة والأدب! بعضهم ملكته الحذلقة فاستكثر ظرفه وعلمه على اللغة العربية، وبعضهم غلبته المجاملة فخاطب الأديبات بلغتهن ولغتهن الفضلى هي الفرنسية. وكان الذين يتعصبون للعربية أو يتأدبون بالإنجليزية قلالاً قد انتثروا في غمار الحفل أول ما دخلوا؛ فلما أنكروا اللسان المتحدث بين القوم تراجعوا متزايلين مستوحشين إلى هامشه ثم طفقوا ينظرون بعين المتفرج المتعجب إلى جمعي المذكر والمؤنث وهما يضطربان في الأبهاء والحجر على غير قياس:
هذا يمثل الباريسي اللبق فيسلك طريقته في السلام، ويتخذ لهجته في الكلام، ويسمُت سمْتَه في التظرف؛ وهذه تمثل إحدى (عالمات) موليير فتتصنع المعرفة، وتتكلف الذكاء، وتقدِّر نفسها بالقياس الطويل والوزن الثقيل فيمالق الذكي ويصدق الأبله؛ وهذان يتضاحكان لحركة لاحظاها أو نكتة قالاها، ثم يكتكتان في الضحك ليلفتا إليهما السمع المشغول والنظر الغافل؛ وهاتان تتحدثان ووجهاهما متقابلان، ونظراهما متدابران، وكل منهما تبحث ذات اليمين وذات الشمال عن محدث أو معجَب؛ وهؤلاء يتناقشون في موضوع غريب بلسان غريب لم يوحه الوطن الذي نحيا به، ولا المجتمع الذي نضطرب فيه، ولا الأدب الذي نعيش له، وإنما أوحاه رأي في كتاب أو مقال في صحيفة جاء به البريد الأخير من البلد الذي استوطنوه بالفكر واستقبلوه بالعبادة!
حدثني أحد الذين دُعوا إلى هذه المأدبة وهو أديب ظريف لا يعرف لغة هذا الصالون قال: كنت جالساً وراء القوم كأنني أحد (أولاد البلد) في دار من دور السينما يشاهد فلماً فرنسياً، فهو يرى ولا يعلم، ويسمع ولا يفهم، ولكنه مأخوذ بالمناظر التمثيلية التي تتقلّب على عينيه فيغيب وهو حاضر، ويحلم وهو يقظ. فإذا خشيت أن يلحظ الناس انقباضي عنهم بطول القعود قمت أتنقل بين المثنيات والجموع، فأجدني أشبه بالأطرش في الزفة، يرى الوجوه تنبلج، والشفاه تنفرج، والأيدي تتحرك، وهو شاخص البصر، مغفور الفم، لا يدري ما الذي يشيع السرور ويبعث الضحك. ثم جلست على مقربة من الأستاذ المازني فرأيت ربة الدار تقبل عليه وتقدمت إليه سيدة يقولون إنها من الأديبات النوابه. عرَّفت إليها الأستاذ ونوهت بأثره في الأدب ومكانه من النهضة، ثم تركتهما معاً وذهبت إلى غيرهما. وانتظر الأستاذ أن تتحدث إليه السيدة الأديبة في قصة من قصصه أو في رأى من آرائه، فيكون في ذلك بعض الترضية للأدب العربي المهان في بلده وبين قومه؛ ولكن السيدة الأديبة بدأت الحديث بهذا السؤال:
حضرتك من مصر ولاَّ من الشام؟
ولا أدري أألقت على المازني كلاماً فيه معنى أم ذَنوباً فيه ماء؟! فقد تخلص منها بلباقة وأقبل علينا يقول:
وا ضيعتاه! أبعد ثلاثين عاماً قضيتها في الأدب أكتب في كل يوم مقالاً، وألقي في كل أسبوع محاضرة، وأخرج في كل سنة كتاباً، أجد في المتعلمات بالقاهرة من تسأل: أمن الشام أنا أم من مصر؟!
هذه حفلة أقامتها صاحبتها الأديبة لصاحبتها الأدباء، وقد رأيت وسمعت كيف كان حرص أدبائنا على اللغة، وإلى أين بلغ عالم أديبتنا بالأدب. فهل تصدق أن يكون لهؤلاء أدب مستقل وهم ينكرون أن لهم لغة مستقلة؟ لا جرم أن هذا النوع من الأدب الحرام يزيف الأديب على أمته كما يزيفه على الأمم الأخرى. وإذا جاز لأولئك السيدات الأديبات أن يلغَين بغير لغتهن، بحكم نشأتهن وطبيعة ثقافتهن، فكيف يجوز لأساتذة اللغة وزعماء الأدب أن يديروا في أفواههم ذلك اللسان الأجنبي وما كانت قيمتهم في الناس ودعوتهم إلى هذا الحفل إلا لأنهم يحذقون اللغة العربية، ويتزعمون الثقافة العربية؟!
إن من هوان نفسك عليك وإهانة جنسك في الناس أن تتكلم غير لغتك في بلدك وبين

قومك من غير ضرورة ولا مناسبة؛ فإن ذلك إن دل على شيء فإنما يدل على عدم استقلالك في خليقتك وعقيدتك ونمط تفكيرك وأسلوب عملك
هل تستطيع أن تدلني على بقعة من بقاع الأرض غير مصر ولبنان يجتمع في دور من دورها مجلس من مجالس الأدب يحضره لفيف من أساتذة الجامعة وجهابذة الأدب وأقطاب الصحافة، ثم لا يكون حديثهم إلا بالفرنسية، ولا يدور نقاشهم إلا على موضوعات أجنبية؟؟
يا قومنا إن لغة المرء تاريخه وذاته، فالغض منها غض منه، والتفضيل عليها تفضيل عليه، ولا يرضى لنفسه الضعة والصَّغار إلا مهين أو عاجز!
أحمد حسن الزيات
تحية شوبنهور
للأستاذ عباس محمود العقاد
- 2 -
ختمنا مقالنا السابق واعدين أن (نطابق في مقال آخر بين سيرة الرجل وفلسفته، وبين العرض والجوهر في هذه المطابقة)
وإنما رأينا ضرورة هذه المطابقة لأننا اعتقدنا أن كثيراً من القراء سيلمحون جانباً من التناقض الكبير بين دعوة الرجل وسيرته في حياته: بين رجل يزدري الحياة ويستمتع بلذاتها، ورجل يقتضي مذهبه الزهد وهو يحرص على المال، ورجل يهرب من الوباء وهو يبشر (بالنرفانا) والفناء، ورجل عبوس الرأي مشرق الفكاهة
فمن المفيد ولا ريب أن نبين وجهة النظر التي تتجه إليها في تعليل ذلك التناقض، وأن نشرح التوافق الباطن في هذا التناقض الظاهر، وأن نقول إن مذهب الحرص ومذهب التشاؤم كلاما يصدر عن منبع واحد، فلا اختلاف هناك ولا غرابة من وراء الحجاب، وإن بدا لنا الأمر على ظاهره مختلفاً جد الاختلاف مستغرباً جد الغرابة
كان شوبنهور إمام المتشائمين الساخطين على الحياة المستريبين بالناس، المتوجسين من ضمائر الغيب
كان لا يسلم وجهه قط إلى حلاق مخافة أن يذبحه أو يجرحه، وكان يغلق الأقفال على أدوات تدخينه مخافة أن تمزج بالسموم، وكان ينام والى جانبه مسدساته محشوة مهيأة للإطلاق، وكان لا يطيق معاشرة الناس ولا سماع الأصوات، وكان يقول إن الحياة نقمة لا تحمد ومحنة لا تطاق
كان كذلك وكان يخاف الموت ويهرب من الطاعون، فكيف يكون التوفيق بين هذا الفزع من الموت وذلك التشاؤم بالحياة؟
هما في الحقيقة شيء واحد!
فالمتشائم لا يتشاءم إلا لأنه شديد الإحساس بالخطر، شديد الغلو والإغراق في هذا الإحساس؛ وليس مقتضى ذلك أن يطمئن إلى الأوبئة والأمراض ويركن إلى السرائر والنيات كما يلوح في بادئ الرأي، بل مقتضاه أن يفزع من النذير إذا كان غيره لا يفزع من الحقيقة الواقعة، وأن يكتفي بالإيماء إذا كان غيره لا يكتفي إلا بالصيحة العالية، وأن يهرب من الطاعون قبل أن يهرب منه المستريحون المطمئنون إلى العيش الواثقون بالمصير
وكان شوبنهور يبغض الحياة ويستمتع بلذاتها، فكيف يكون التوفيق بين البغضاء والاستمتاع؟
هما كذلك شيء واحد في الحقيقة. فلولا أنه يحب الاستمتاع بها لما أبغضها، ولولا أن الرجل يعرف لذة المعشوقة لما استعرت في نفسه بغضاؤها حين يحال بينه وبين متعتها كما يشتهيها، ولولا الإحساس المرهف لما كان الألم ولا كانت الحاجة إلى الترفيه عن النفس المتألمة بالإقبال على اللذات والتشاغل بالسرور، فإنما اللذات هنا ترياق لا يحتاج إليه إلا من هو مريض في المستشفى، بل هو مرقد لا يحتاج إليه إلا من فارقه الرقاد ولازمه السهاد
وكان شوبنهور ينفر الناس من الدنيا ويحرص على ماله ولا يفرط فيه، فكيف يكون التوفيق بين مذهب التنفير ودافع الحرص الشديد؟
هما أيضاً شيء واحد في بواطن الأمور
فالحرص على المال علامة بعض حالاته على الحذر الشديد من الناس، وقلة الركون

إلى الوفاء والإخلاص والمعونة من الأصدقاء والأقرباء، فإذا افتقر إليهم فهو على يقين أنهم لا يسعفونه ولا يحفلون بما يصيبه، وإذا نظر إلى المستقبل فهو على يقين أنه سيفتقر أو يستهدف للنكبات والمتاعب، لعظيم خوفه من العواقب وإشفاقه من غدرات الحوادث، وعلى قدر هذا الخوف وهذا الإشفاق يكون الحرص على المال الذي ينفعه حين لا ينفعه صاحب ولا قريب

وكان شوبنهور عبوس الرأي مشرق الفكاهة كثير التنكيت والتبكيت، فكيف التوفيق بين الخصلتين؟

لا ضرورة إلى الإطالة في التماس التوفيق بينهما، فهما متفقتان لا تتعارضان فالمرهف الإحساس يتألم، والمرهف الإحساس يفطن للفارق الدقيق بين طوايا الناس ودعاواهم، وهذا - أي الفارق الدقيق بين الطوايا والدعاوي - هو ينبوع التهكم الذي لا ينضب ومبعث الفكاهة ومادة (القفش) كما نقول في لغتنا نحن المصريين

والمرهف الإحساس من جهة أخرى يشعر بالألم فيحتاج إلى الضحك والسخرية وعنده المادة موفورة كما أسلفنا، فيتزود منها حيناً بعد حين بما يريحه إذا التمس الراحة، وما يصول به على خصومه إذا تعاوروه بالإساءة والإيذاء، وهو يتهمهم أبداً بأنهم يفعلون ذلك وإن لم يفعلوه

ومن راقب إخوانه وعشراءه عرف بالتجربة والمشاهدة أن النكتة المريرة أنفذ وأمضى وأدعى إلى المفاجأة من نكات المرح والخفة والمجانة، ولا سيما إذا اقترنت بالذكاء الثاقب والخبرة الواسعة والاطلاع الموفور، وكل أولئك كان من خصال شوبنهور ولوازم طبعه، ولو ضعفت مرارته لضعفت فكاهته على خلاف المنظور في ظواهر الصفات

وهكذا يؤدي بنا تطبيق المنطق على الخلائق الإنسانية إلى نقيض المتبادر من قريب، فنستغرب الأمر لأول وهلة ثم نمضي قليلاً إلى ما وراء ذلك فإذا المستغرب هو المألوف، وإذا المألوف فيما زعمنا أولاً هو الغريب البعيد

وخطأ أن يقال إن منطق العواطف غير منطق العقول. . . كلا! بل هما منطق واحد في جميع الحالات، وكل ما هنالك أننا لا نستحضر وجوه المقارنة جميعاً إذا بحثنا في ظواهر العواطف والأخلاق، فإذا استحضرناها وجمعنا أسبابها فالحكم على كل حال لا بد أن يطرد ويستقيم

وهكذا نصنع إذا حكمنا في قضية لها عشرون شاهداً من الجانبين ولم نسمع إلا خمسة شهود من جانب واحد. فهل يجوز لنا إذا اختل حكمنا أن نقول إن منطق القضايا المدنية أو الجنائية غير منطق العقول؟ كلا. بل نقول إن منطق واحد لا تناقض فيه، ولكننا نحن نسينا أسبابه وأغفلنا جوانب الحكم والمقابلة

من هنا يتبين لنا أن (شوبنهور) يعرض لنا صورة منسوقة من سيرته وفلسفته، وأن شذوذه هو اللون الصادق في جلاء تلك الصورة والموافقة بين أنوارها وظلالها، وأنه ابن مزجه وتكوينه في كتبه وفي حياته، كما كان ابن زمانه وأسرته وبلاده وما اختبره واطلع عليه

وما من رأى في كتب الفيلسوف إلا وله مرجعه إلى حالة من حالات زمانه أو دخيلة من دخائل بيته، فقد رأينا كيف علمه سقوط نابليون أن العمل للإرادة وأن الإرادة إلى فشل وحبوط. فهل من علة لتقسيم الإرادة والذكاء بين الرجل والمرأة أو بين الآباء والأمهات؟ أو هل من علة لحقده على جنس النساء وكراهيته للنسل والزواج؟

نعم. علة ذلك أن أباه كان من رجال الأعمال وقد مات مجنوناً وقيل إنه بخع نفسه بيديه، وإن أمه كانت ذكية حصيفة تكتب الروايات وتنافس ابنها في عالم التأليف، وكانت تعيش بعد أبيه عيشة مريبة فاعتزلها ولم يرجع إليها بقية عمرها. فمن ثم كان اعتقاده أن الولد يرث الإرادة من الأب والفكرة من الأم، وأن تمام الفكرة والإرادة في الإنسان إنما يكون على هذا المنوال، فيصبح وهو مثال الدنيا التي تنتهي من الإرادة إلى الفكرة إلى (النرفانا) وما يشبه الفناء

شوبنهور عجيب، وأعجب ما فيه أن شذوذه كله يستقيم مع التعليل وتتفق فيه الظواهر والأسباب، ويعرض لنا نموذجاً صادقاً لنقائض الأخلاق، وهي في باطن الأمر أقرب ما تكون إلى المألوف المطرد المنظور

عباس محمود العقاد

مظاهر داء الشعور بالحقارة

للأستاذ عبد الرحمن شكري

من الأمراض الاجتماعية التي حققها المفكرون حديثاً، مرضان نفسيان: الأول داء الشعور بالعظمة، وقد يظهر بمظاهر العظمة أو بمظاهر التواضع المكذوب الذي ينم عن الكبر؛ وداء الشعور بالحقارة، وهذا أيضاً يظهر بمظهرين مختلفين: مظهر التواضع المتناهي وتحقير النفس، ومظهر التعاظم الذي يراد به ستر ما يشعر به المرء من احتقاره لنفسه. وهذا الشعور قد يكون مؤسساً على أمور في العقل الباطن فلا يتنبه صاحبه إلى حقيقة أمره ولا يعرف أنه مريض بداء الشعور بالحقارة

وقد يختلط المرضان لأن كلا منهما يظهر إما بالتعاظم وإما بالتواضع، ويغالي في التعاظم أو التواضع، ولكن تعاظم المصاب بداء الشعور بالعظمة يكون مقروناً بشيء من الاطمئنان والثقة. وقد يبلغ الاطمئنان مبلغاً يجعل صاحبه لا يدرك سخر الناس؛ أما تعاظم المصاب بداء الشعور بالحقارة فهو تعاظم يساوره القلق وغطرسة تنتابها حُمَّى الحقد والحسد، فالخلط بين الداءين من هذه الناحية يدل على خطأ في الاستقراء ونقص في الخبرة وخطل في التفكير. وكذلك الخلط بين تواضع المصاب بداء الشعور بالعظمة وتواضع المصاب بداء الشعور بالحقارة؛ فالتواضع الأول مقرون بالثقة أيضاً، ويظهر من ورائه اطمئنان صاحبه إلى عظم نفسه. أما تواضع المصاب بداء الشعور بالحقارة، فهو تواضع يظهر من ورائه الحقد والحسد؛ وليس من لوازم داء الشعور بالحقارة أن يجعل مظهريه مظهر التعاظم ومظهر التواضع في رجل واحد في أوقات مختلفة. إنه قد يفعل ذلك ولكن كثيراً ما نرى أنه يختص رجلاً بالتعاظم وآخر بالتواضع؛

وأكثر شيوع داء الشعور بالحقارة يكون في الأمم التي لبثت عصوراً طويلة مغلوبة على أمرها، ولا يهم التمييز بين أصحاب الغلبة في تفسير نشأة هذا المرض الاجتماعي وأكثر ضرر داء الشعور بالحقارة يكون إذا صال به وجال أناس قد بلغوا شيئاً من الجاه والمنزلة والثروة أو كانت لهم سلطة، فان اقتران القدرة به والنفوذ والسلطة مفسدة وأي مفسدة. وكذلك إذا كان صاحبه قدوة لغيرة، فإنه يفسد النفوس بما ينشره هذا الداء الوبيل داء الشعور بالحقارة من الأحقاد والضغائن والأكاذيب والشرور والحقارة والفساد، ولا تستطيع

أمة أن ترقى إلا إذا تمكنت من اقتلاع جرثومة داء الشعور بالحقارة من نفوس أفرادها، وإلا إذا عالجته في مدارسها علاجاً

نفسياً صحيحاً بإطلاع الطلبة والتلاميذ على حقيقة نتائجه، فإن نتائجه قد تظن محمدة واعتزازاً بالنفس، أو قد تظن غير ذلك على حسب ما يظهر به داء الشعور بالحقارة من المظاهر سواء مظاهر العظمة التي يساورها القلق والحقد والحسد أو مظاهر التواضع التي تساورها هذه الأمور أيضاً. ومن الحكمة جمع الشواهد والأدلة وتفسيرها، فالغيبة والنميمة مظهران من مظاهره ولا شك، لأن منشأهما الرغبة في الاستعلاء بوسائل غير مشروعة يتخذها من يشعر في نفسه بالعجز عن أسباب الاستعلاء الفاضلة لتمكن داء الشعور بالحقارة من نفسه، وكذلك حب الظهور من شواهد هذا الداء وأدلته ولو كان ظهوراً يؤدي إلى ضياع الثروة والعقارات والفدادين. ومن شواهده الولوع بالفكاهة اللاذعة للسخر حتى بالغرباء، كل هذه محاولات من المرء أن يقهر شعوره بحقارة نفسه وأن يقنعها بأنه أفضل من غيره. ومن شواهد داء الشعور بالحقارة أيضاً عدم احترام حدود الحق والواجب، لأن العظيم حقاً يجد من عظم نفسه الحقيقي ما يسليه عن الفشل في نيل أمر تمنع من نيله حدود الحق والواجب، أما الذي يشعر في نفسه بداء الحقارة، فإنه يرى في طمس حدود الحق والواجب زيادة في قدرته وعظمته وشفاء لما يشعر به من ألم الحقارة أو لما يتحسسه في أعماق العقل الباطن من هواجس هذا الداء إذا كان صاحبه لا يدرك حقارة نفسه أو لألم الحقارة وهواجس العقل الباطن معاً. ومن شواهد هذا المرض وأدلته أيضاً الامتعاض من لباب الأمور، فإن صاحبه يكره اللباب المحض الصريح لأنه يشعر أنه يبرز عجزه ويهتم للبهرج المزيف لأنه براق خادع ولا يكلف ما يكلفه اللباب. وليس من الضروري أن يكون المريض بداء الشعور بالحقارة غبياً أو بليداً. وهذا الشعور بالحقارة قد يعظم في نفس صاحبه حتى انه قد يدفعه إلى الإثم والجرم الشنيع. وقد يصير جنوناً أو شبه جنون وحتى تصبح نفس صاحبه كالمفرزات القذرة التي يتصاعد منها الذباب الكثير

الألوان، فمن ذباب أزرق وذباب أصفر وآخر أسود وغيره أحمر إلى آخر أنواع هذا الذباب الذي ينبعث من الأقذار. وقد يعظم داء الشعور بالحقارة في نفس صاحبه حتى كأنما يخيل له أن الأرض لا تستطيع أن تحمل ثقل شعوره بحقارة نفسه وهي هي الأرض التي حملت الجبال وحملت
الناس والحيوانات حتى الحيوانات الهائلة التي اندثرت قديماً؛ وهي الأرض التي حملت طوفان نوح وفلكه المشحون وحملت حماقة الناس وآثامهم وغباوتهم وجهلهم من عهد سيدنا آدم، وحملت الأرض كل هذه الأشياء ولكن كأن المسكين يخشى أن تلك الأرض نفسها ربما لا تستطيع أن تحمله وأن تحمل ثقل شعوره بحقارة نفسه. وهذا الشعور بالحقارة مما يزيد الحياة مرارة وألما. وله عدوى في بعض البيئات مثل عدوى الأمراض الجثمانية المعدية. ومن درس التاريخ عرف أن الأمراض النفسية تكون لها في بعض الأحايين عدوى مثل عدوى الأمراض الجثمانية المعدية. أو لعل تلك الأمراض النفسية تكون مصحوبة بأمراض عصبية كمرض (الهستريا). وقد شوهدت عدوى تلك الأمراض النفسية وشوهد وباؤها بصفة خاصة في عصور الانقلاب الفكري والاجتماعي والاقتصادي وفي عصور الكوارث الطبيعية الكبيرة والثورات والحروب، ولكنها تظهر في شكل أقل شدة وحدة في حياة الناس اليومية
وداء الشعور بالحقارة قد يصيب الغبي كما يصيب الذكي، وقد يصيب الوضيع المنزلة كما قد يصيب الرفيع المنزلة الذي ارتفع بعد ضعة أو ارتفع أبوه أو جده بعد ضعة أجداده. وهو في أشد حالاته يكون مصحوباً بجنون خلقي لا يميز صاحبه الخير من الشر، ولكن ليس كل جنون خلقي يكون مصحوباً بداء الشعور بالحقارة
والشواهد على وجوده كثيرة؛ فالوضيع الذي يتعالى ويتعاظم مصاب به، والرفيع المنزلة الذي تصيبه حمى إذا رأى ميزة في إنسان أو استضعفه وحاول القضاء عليه بوسائل تنجيه من العقاب والمؤاخذة. ومثله مثل الفلاح الذي يسلط الأشقياء على الناس لسبب تافه أو لغير ما سبب إلا حب الأذى وحب الظهور. وقد عرفنا أناساً من هذا القبيل يصابون (بالسادزم) نسبة إلى الكونت دي ساد الفرنسي الذي كان مصاباً بداء التلذذ بالتوحش والقسوة. فترى أن داء الشعور بالحقارة في أشد حالاته يكون مصحوباً بالجنون الخلقي وبجنون التلذذ بالتوحش والقسوة. وسنحصي بعض شواهد هذا المرض في مقال آخر

عبد الرحمن شكري

المفتش بوزارة المعارف

من برجنا العاجي

طالما جلست في صباي ساعات طويلة أتأمل قوافل النمل تسير على الحيطان. وكنت أحياناً أدنو منها وأصيح بأصوات مدوية، فما يبدو عليها أنها سمعت شيئا؛ فالنظام هو النظام، والخطى هي الخطى، والتجارة الضخمة المحمولة على الأعناق: وهي جناح (صرصار) كبير، ما زالت تتهادى مطمئنة في طريقها إلى عاصمة المملكة العتيدة داخل ذلك الثقب البارز في أسفل الجدار. وكانت الجيوش قد قاربت المدينة؛ وخرجت جيوش أخرى تستقبل القادمين وتحمل عنهم بعض العبء. وكأن الجميع في فرح وحركة ولغط لا يصل صداه إلى مسامعي الغليظة؛ كما أن أصواتي الراعدة لا تبلغ آذان تلك المخلوقات الدقيقة. فحدثتني النفس أن أحدث حدثاً في تاريخ هذه (البشرية) الصغرى، فأتيت بكوب من ماء وصببت مما فيه على القوافل الظافرة. ولبثت أنظر إلى الكارثة في ابتسام، فإذا شمل الجيوش قد تمزق، وإذا الذعر قد دب في الجموع. ولكن الفلول سرعان ما عادت تحمل (التجارة) من جديد في حرص المستميت. عند ذلك أقصيت الكوب وقد تحرك قلبي وقلت في نفسي: إن هذه المملكة ولا ريب تأخذ الآن عبثي على سبيل الجد، وأنها ولا شك تحسب ما حدث الساعة ظاهرة من ظواهر الطبيعة القاسية. فما هذا عندها إلا سيل العرم، أو طوفان هائل، أو قضاء هبط من السماء. وتأملت لحظة شأننا نحن (البشرية) الكبرى، وقلت: من أدرانا أنا لسنا أحسن حالاً من هذا النمل؟ ومن أدرانا أن ما نسميه ظواهر جوية وطبيعية من زوابع وأمطار وزلازل وبراكين ليس إلا عبث مخلوقات أخرى ذات أحجام وصفات لا نستطيع لها تصوراً؟ ومن أدرانا أن ليست في هذا الكون أصوات هيهات لآذاننا الصغيرة أن تدرك وجودها؟ لم لا نكون نحن أيضاً نملاً أرقى من هذا النمل وأحط من نمل آخر من جوهر

آخر لا نعرف ما هو؟ إن الله لأعظم مما نظن؛ وإن حواسنا لأقل إدراكا لما في الكون مما نتخيل!

توفيق الحكيم

ليلى المريضة في العراق

للدكتور زكي مبارك

- 12 -

وبكّرت إلى منزل ليلى بكور الندى لأدعوها إلى شهود حفلة الافتتاح. فوجدت . . . الشقية في الفستان المصري الفضّاح الذي زارت به معرض القاهرة في ربيع سنة 1926، وكان يجب على ذلك الفستان أن (يذوب) بعد أن (ذابت) به أكباد وقلوب، ولكنها حفظته تذكِرةً لحبها الأول، الحب المشئوم الذي أورثها الضنى والذبول، الحب الذي عجز عنه الأطباء والذي أجاهد في خلاصها منه بحب أقوى وأعنف، إن كانت الصبابات القديمة أبقت في عزيمتي ذخيرة للجهاد. . وقد اهتاجت الغيرة في صدري حين رأيت ذلك الفستان فكدت ألطم ليلى على خدها الأسيل. ثم تراجعتُ حين تذكرت أن بلواها من بلواي. وهل كان حبي في بغداد أول حب حتى أنتظر أن تحبني ليلى أول حب؟ إن المسكينة تعرف أن طبيبها من قدماء المحاربين، وتعرف أنه لم يحمل النظارة إلا بعد أن تعبت عيناه من نضال العيون. فليكن أنسها بحبي أنس الجريح بالجريح، ولتفهم أني أشفيها من جواها لتشفيني من جواي

وقديماً قال الشاعر:

يا خليليّ والرفيق مُعينٌ ... أسعفاني ببعض ما تملكانِ

أبتغي آسياً فقد عِيل صبري ... من توالي الوجيب والخفقانِ

أبتغي صاحباً تولّه قبلي ... وشجاه من الجوى ما شجاني

فلقد يُسعف الجريح أخاه ... ويواسي الضريب في الأحزانِ

وبعد تناول ما تيسر من الصَّبوح خرجنا في السيارة إلى بهو أمانة العاصمة، فترجلت عند باب المعظَّم لتدخل وحدها، ومضيت أحمل آمالي وآلامي، فلما وصلت إلى مدخل البهو اعترضني أحد الضباط قائلاً: سيدي، هذه الحفلة خاصة بالأطباء. فقلت: وأنا طبيب ليلى. فابتسم وقال: تفضل، تفضل

وسألت بعد ذلك عن الرجل الشهم الذي أفسح الطريق لطبيب ليلى فعرفت أنه السيد سليم محمود معاون مدير شرطة السير والمرور، وسيحدثنا الضابط عبد الحسيب فيما بعد أن الغرام بالأدب من أظهر صفات الضباط بالعراق

وكانت ليلى تعرف أن طبيبها يكره أن تأخذها العيون، فنظرت في أماكن السيدات فلم تجد أصلح من جيرة السيدة التي تنطق أسارير وجهها بأصدق معاني الكرم والنُّبل، عقيلة الرجل الشهم الذي يمثل المروءة المصرية في العراق

أما أنا فأخذت مكاني بين الدكتور عُسَيران والدكتور عَلاَّوي.

وكنت - مع الأسف - ذهبت إلى الحفلة وأنا أضمر الشر للأستاذ علي الجارم، فقد كِتب في منهاج الاحتفال أنه (شاعر مصر) وأنا أبغض الألقاب الأدبية. فلما وقف ليلقي قصيدته لم أصفق، وأعديت مَن حولي بروح السخرية فلم يصفقوا، ولكن الجارم قهرني وقهر الحاضرين جميعاً على أن يدموا أكفهم بالتصفيق.

وغاظني أن تصفق ليلى لشاعر يرى بحكم منصبه أنه رئيسي، لأنه كبير المفتشين بوزارة المعارف المصرية. ولولا حكم الأقدمية لكنت الرئيس وكان المرءوس، ولكن ماذا أصنع وقد سبقني إلى الأستاذية بأعوام طوال؟

وأنا والله أظلم نفسي بهذا الكلام، فما أذكر أبداً أني حقدت على إنسان. وما أذكر أبداً أني عرفت معاني الحسد والضغن إلا على الدهر المخبول الذي يتسفل فيرفع الأدعياء.

وقد هجمت على شاعرنا الجارم عدة مرات، وحاربته في وزارة المعارف يوم رأى زميلي الأستاذ أبو بكر أن يكتب في نشرة رسمية أنه أمير الشعراء. وقد عرف الجارم خطر ما أصنع، فكان هو أيضاً يحاربني في مكتب تفتيش اللغة العربية؛ ولولا سماحة الأستاذ جاد المولى بك لكانت النتيجة أن أعيش بين المفتشين بلا صديق

فيا أيها العدوّ المحبوب الذي اسمه علي الجارم، تذكر أنك كنت حقاً وصدقاً شاعر مصر في المؤتمر الطبي العربي، وستمر أجيال وأجيال ولا ينساك أهل العراق

وهل تعرف مصر أنك رفعت رأسها في العراق وأنك كنت خليفة شوقي في المعاني

وخليفة حافظ في الإلقاء؟
إنني أطلب المستحيل حين أطلب من مصر إنصافك. وهل أنصفتني مصر حتى أنصفك؟ هل أنصفتني مصر وكنت مجنونها وكانت ليلايّ؟
يرحمني الله ويرحمك، فعنده وحده جزاء المجاهدين
وعند نهاية الاحتفال دعوت ليلى للتسليم على سعادة العشماوي بك، وسعادة علي باشا
إبراهيم، وفضيلة الشيخ السكندري
أما العشماوي بك فسلّم تسليماً خفيفاً، سلم تسليم (المتبالهين) ليظهر أنه أكبر من أن يفتنه الجمال، والعشماوي بك (يتباله) في جميع الأحوال، وقد درسته حق الدرس، فعرفت أنه يحمل كبداً أرق من أكباد المحبين، ولكن له قدرة عظيمة على (التبالُه) فمن الذي علّمه هذا الأسلوب؟
وقد حقدت عليه ليلى، فليعرف سعادته أن غضب ليلى سيحل عليه، وسيرى عواقب ذلك في الأيام المقبلات!
أمَا يَخِفَّ وُقارك مرة يا عشماوي بك؟ اتق الذوق إن لم تتَّق الجمال!
وقد قهقه الشيخ السكندري حين رأى ليلى وقال: كنت والله أحسبك تمزح يا دكتور زكي، وما كنت أظن أنك جئت حقيقة لمداواة ليلى المريضة في العراق
والشيخ السكندري معذور، فهو يظن أن العشق انتهى من الدنيا بعد قيس وليلاه، وأن الناس لم يعودوا يحبون غير الملوخية الخضراء!
أما الدكتور علي باشا إبراهيم فنظر إلى ليلى نظرة الأرقم وقال: ما أستطيع الحكم بشفاء ليلى إلا بعد أن أفحصها بنفسي
ورأت ليلى أني غضبت فقالت: إني أحترم رأى سعادة رئيس المؤتمر الطبي، ولكني أفضل الموت على الحياة في سبيل الأدب مع طبيبي الخاص
ولم أرد أن تطول اللجاجة بيني وبين رجل كان رئيس اللجنة التي أديت أمامها الامتحان النهائي في كلية الطب، فأخذت بذراع ليلى وانصرفت
وأراد سعادة العشماوي بك أن يترضاني فرفضت، لأني كنت أعرف ما يريد، وهل كان يريد غير إيناس عينيه بوجه ليلى؟ اطْلَع من (دُولْ) يا سعادة الوكيل!
وفي الطريق سألتني ليلى عن العشماوي بك، وقد ساءها أن يتلقاها بوجه صامت التقاسيم، فشهدت عند ليلى بأنه رجل فاضل، وان جموده في حضرتها لم يكن جمود استهانة، وإنما كان جمود تعقُّل، والرجال الرسميون يغلب عليهم التعقل في أكثر الأحيان!
فهل يعرف سعادة العشماوي بك أنني ذكرته بالخير في حضرة ليلى؟
لا أمُنُ عليه، فهو يستحق ذلك، وأكثر من ذلك
وفي مساء ذلك اليوم أرادت ليلى أن تحضر معي في الحفلة التي أقامها فخامة رئيس الوزراء، فقاومتها مقاومة شديدة، وكانت حجتي أنها ستكون من الحفلات التي يختلط فيها الحابل بالنابل، وأنه ليس من العقل أن تتعرض ليلى لأنظار المئات من الناس وفيهم الفاضل والمفضول
وكنت على حق في منع ليلى من حضور حفلة المساء، فهي امرأة محجوبة عن المجتمع منذ سنين؛ وسيكون مَثلها حين ترى اختلاط الرجال بالنساء مَثل العين الرمداء التي تواجه الشمس بعد أن حجبها الطبيب عدة أسابيع في الظلام، ولكنها ألحت، ثم انتقلت من الإلحاح إلى التوسل، ومن التوسل إلى البكاء، والمرأة أقوى ما تكون حين تنتحب، فتخاذلت وقلت في نفسي: لعل هذه اللجاجة تعود عليها بالنفع، ولعلها حين ترى تسامح المجتمع الحديث لا ترى غضاضة في أن أغازلها حين أشاء
ولكن هذا الخاطر تبدّد في مثل لمحة الطرف، فأنا أعرف أن وزير المعارف من علماء النجف، وهو بالتأكيد يكره سفور المرأة، وإن ساير العصر فأباح اختلاط الجنسين في المعاهد العالية. ومن المحتمل أن يكره ظهور ليلى في المجتمع بلباس السهرة. ومالي لا أقول الحق كله فأقرر أن أهل العراق في النجف وغير النجف ينظرون إلى سفور المرأة بعين الارتياب؟ مالي لا أذكر بصراحة أن أكثر وزراء العراق يكرهون حضور زوجاتهم في الحفلات الساهرات؟ مالي لا أنص - للحقيقة والتاريخ - على أن وزراء العراق أكثرهم من رجال الجيش، والجيش يطبع أبناءه على الخشونة والصرامة

والعنف، وأنهم لأجل ذلك من أغير الناس على كرامة ربات الحجال؟
وأخيراً أعلنتُ ليلى بالرفض المطلق، فأغربت في البكاء والشهيق
غضبة الله عليك يا ليلى وعلى جميع بنات حواء!
ورأيتُني مع الأسف طفلاً في حضرة هذه المرأة، فقد استبكتني فبكيت
ومع ذلك جمعت أشلاء عزيمتي وأصررت على الرفض
وعندئذ تدخلت ظمياء وهي تقول: هل لك أن تسمح بأن تخرج ليلى معك في ثياب فتىً من الأعراب؟
فكدت أطير من الفرح لهذا الاقتراح الطريف، ومضت ظمياء فأحضرت ملابس ابن عمها
عبد المجيد، فلبست ليلى بسرعة البرق، وخرجت معي
ولكنا ما كدنا نخطو بضع خطوات حتى تنبهت إلى الخطر المخوف، فقد تذكرت أن
ليلى وهي في ثياب الفتى البدوي لن تقضي السهرة كلها في صمت، وهل يمكن
لامرأة أن تسكت؟ وليلى تملك صوتاً هو في ذاته من كبريات الفضائح، وقد نصصت
فيما سلف على أن لصوتها رنيناً مبحوحاً لم تسمع مثله أذناي على كثرة ما تذوقت من بُغام الملاح
فالتفت إليها وقلت: ليلى، ليلاي، اسمعي واعقلي، فإن صوتك سيفضحنا في الحفلة
فقالت: أتعهد بالصمت المطلق
فقلت: وكيف؟ وهل أضمن السلامة من واغل سخيف يسلم عليّ عمداً ليظفر منك
بتحية، فتكون نبرة واحدة من صوتك المقتول نذيراً. بعواصف الفضائح؟
ولنفرض انك تلزمين الصمت ويلزم الناس الأدب فكيف تخفين هذه المشية؟
إن مشيتك يا ليلى فضيحة ولو لبست ثياب الجاحظ، والسامرون ينظر بعضهم إلى
بعض، وأنت ستخطرين حتماً بين السامرين، وما أضمن أن يتأدب الجميع فلا تطرق
سمعك كلمة نابية أقع بسببها في معركة تطنطن بها الجرائد في مصر والشام والعراق
اعقلي يا ليلى، اعقلي. . .
ولكن اللئيمة لم تسمع، ومضت تخطر في الطريق، فلطمتها لطمتين ورجعتها صاغرة
إلى البيت، فودّعتني وهي تقول: سلمت يداك، فإني أحب الرجل البطاش
دخلت الاحتفال فوجدته يموج بالطرابيش فتهيبت وتخوفت وانتظرت حتى يأخذ
المدعوون أمكنتهم من السماطين، لأتخيّر مكاناً ليس فيه طرابيش. ولا أدري ولا
المنجم يدري كيف أخاف الطرابيش! وربما كان السبب في ذلك أني أريد أن أحيا في
الحفلة حياة سعيدة، وهي لا تكون كذلك إلا إن خلت من التوقر، وما يمكنني أن أخرج
على التوقر في حضور المطربشين. وهل لبست السدارة إلا لأنجو من عنجهية المطربشين؟
عفا الله عن مصر! فقد قتلت ما في صدري من شاعرية بفضل ما درجت عليه من التزمت والجمود
ولكن أين أجلس على المائدة؟ أين؟ أين؟
الحمد لله! هذا مكان يزدان بعمامتين من وطن سيدنا عمر ابن أبي ربيعة رضي الله عنه،
وكان عمر بن أبي ربيعة من المجاهدين الذين قال فيهم جميل:
يقولون جاهد يا جميل بغزوة ... وأي جهاد غيرهن أريد
لكل حديث عندهن بشاشة ... وكل قتيل بينهن شهيد
ومن مزايا سيدنا عمر بن أبي ربيعة أنه وُلدَ في الليلة التي مات فيها سيدنا عمر بن
الخطاب. وقد اشترك هذان القرشيان في الجهاد، فكان ابن الخطاب يغزو الممالك
والشعوب، وكان ابن أبي ربيعة يغزو الأفئدة والقلوب
وأريد أن أقول إن عمر بن أبي ربيعة لا بد أن يكون ترك في الحجاز بعض التقاليد
الصالحات، وقد أجاز له القرشيون أن يقول:
نظرت إليها بالمحصَّب من مِنًى ... ولي نظر لولا التحرج عارمُ
ولا يمكن أن يكون النظر إلى امرأة في المؤتمر أخطر من النظر إلى امرأة في
المحصَّب، وما جاز في مكة وهي بلد حرام لا يمنع في بغداد وهي بلد حلال
وكلك اطمأننت على المائدة كل الاطمئنان

ولكن ما هذه المفاجآت؟ أراني لا أخرج من مأزق إلا وقعت في مأزق
. . .هذه عمامة ثالثة، وهي من نوع خطر، لأنها عمامة وزير المعارف
ونظرت فرأيتني فرغت من التهام الحساء، وتغيير المكان بعد ذلك باب من السخف
وما الذي يخيفني من وزير المعارف وهو من كبار الشعراء ولا يخلو شاعر من صبوات؟
ما الذي يخيفني من جيرة شاعر سليم الذوق مثل معالي الأستاذ محمد رضا الشبيبي؟
يخيفني أنه أديب صار وزيراً، وحياتي امتلأت بالأكدار والأوحال بفضل صحبتي لرجل
أديب صار من الوزراء. وأنا في هذه المذكرات لا أتجنى على أحد، وإنما أسجل صور
المجتمع وكان في مصر أديب يعطف على أدبي أشد العطف، فلما صار وزيراً فسد
حالي عنده أشد الفساد. كان في حاله الأول يقول: زكي مبارك شاب يجيء منه؛ وكان
في حاله الثاني يقول: مذهب زكي مبارك في الأدب سيفسد عشرة أجيال
وقد تعبت في تعليل هذه الظاهرة النفسية، ثم اهتديت إلى أن الأدباء الوزراء يهمهم
أن يصححوا مراكزهم في المجتمع، ذلك بأن المجتمع يتوهم وهو خاطئ أن الأدباء
يستبيحون من ألوان الحياة ما لا نستبيح، فالأديب حين يصير وزيراً يضيع وقته في
تصحيح مركزه
الذي جرّحته أوهام المجتمع، فينقلب إلى رجل متحرج متكلف لا يعوزه غير عمامة
عجراء ليصبح شيخ الأزهر أو نقيب الأشراف
وكنت خليقاً بأن أعلل النفس بأن ما أخافه في مصر قد لا أخافه في العراق
ولكني تذكرت حكاية الثعلب الذي همّ بالرحيل عن مصر في سنة 1916 فقد سألوه:
لماذا تهاجر يا أبا الحصين؟ فقال: (ألم تعلموا أن السلطة العسكرية قررت جمع ما في
مصر من جمال؟ فاعترض عمدة الباجور وقال: وهل أنت جَمَل؟ إنما أنت ثعلب. فقال
الثعلب وهو يحاور حضرة العمدة: إلى أن يثبت أني ثعلب لا جَمَل أكون ضِعت
وكذلك أخشى أن أضيع قبل أن يثبت أن العقلية العراقية تباين العقلية المصرية. وعلى
أساس هذا المنطق جلست على المائدة في غاية من الأدب والاحتشام. وأنا رجل
يزدان بالأدب في قليل من الأحيان
!!ولكن معالي وزير المعارف ستشغله ألوان الطعام عن مراقبة ما يصنع زكي مبارك
وهل كنت مغفَّلاً حتى تفوتني هذه الحقيقة الأولية؟
وانتظرتُ حتى عَلَتْ قعقعةُ الشوكات والملاعق والسكاكين وأرسلت بصري فرأيت
امرأة تحادثني عن بُعد بعينين ترسلان أشعة العذوبة والحلاوة والرفق
ورأيت الفرصة سانحة لدراسة هاتين العينين لأضع عنهما فصلاً في كتاب (سحر
العيون) الذي شرعت في تأليفه منذ أعوام. وحضور هاتين العينين زاد اقتناعي بفوائد
المؤتمرات، ولاسيما المؤتمرات الطبية، وسأكون بإذن الله عضواً في جميع المؤتمرات
لأجد الموادّ الشائقة لكتاب (سحر العيون)
ورأت المرأة أني أسأت الأدب فصوبتْ سهام عينيها لتقتلني، ولكنها لم تفلح، فقد
حاربتني قبل ذلك عيون وعيون ثم نجوت. ولو كانت العيون تقتل حقيقة لكان لي
ضريح يزوره العشاق في باريس
فإن سأل قارئ هذه المذكرات عن جوهر هاتين العينين فأني أجيب بأنهما توحيان
الحب، ولا توحيان الإثم. وسأعيش ما أعيش وأنا أتشوق إلى تقبيل قدمي هذه المرأة
التي سحرت المؤتمر وهي في سذاجة الأطفال. وربما كنت أول من نظر إليها بعين
الطُّهر والعفاف. ولو كنت مثَّالاً لاشتريت الساعة بألف دينار لأصنع منها تمثالاً يفضح
تمثال أفروديت.
وليتها تعرف ذلك فيستهويها حب المال، لأني لن أفرغ من صب تمثالها في أقل من
عامين. وعليّ عهد الله أن أقنع منها بما يقنع الساري من بدر السماء
قلت فيما سلف إني رجل مفضوح النظرات. وكذلك وقعتُ، فلم تمض لحظات حتى
تنبه زوجها إليّ، فما كان يسير بها إلا وحوله جيش من المعارف والأصدقاء ليصد غارة
الإثم والفتون
وماذا يهمني؟ إنه يتوهم أني سأحاول مع زوجته ما حاوله عمر بن أبي ربيعة مع زوجة
أبي الأسود الدؤلي في الطواف،
ولكنه مخطئ، فأنا بالتأكيد أحسن أخلاقاً من أستاذي عمر بن أبي ربيعة، وأنا قد
تفوقت على أساتذتي في أشياء كثيرة، منها هذا الشيء. أنا أَجِدُّ وعمر كان يمزح، وهل

ترك ابن أبي ربيعة غير أشعار ملوثة بالمجون؟ أما أنا فسأترك بعون الله ورعاية الهوى ثروة فلسفية تشرح ما استبهم من أسرار الجمال
سيعاديني هذا الزوج وسأعاديه، ولكني سأعرف كيف أتقي شره فأدرس عَينيْ زوجته من بعيد بحيث لا يجرؤ على اتهامي بالفضول
وأسارع فأقرر أني اشتركت في جميع الحفلات والرحلات لأستطيع التمكن من دراسة هاتين العينين؛ واستعنت بالدكتور محمد صبحي بك في تحديد ما خفي عليّ من الدقائق البصرية، ولم يبق إلا شئ ولحد هو الوطن الذي تسرح فيه هذه العيون وكيف أصل إلى ذلك وزوجها بالمرصاد؟
انتظرت وانتظرت، ثم انتظرت، إلى أن جمع بيننا زحام المرقص بعد ثلاث ليال، فدنوت منها في خفية وقلت:
'
فقالت في عبارة تجمع بين العتْب والرفق: (دخيلك، دخيل اللهْ، اتركني لحالي!)
فعرفت أنها من بنات عمنا القديم دماشق بن قاني بن مالك ابن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام
رباه! أنت تعلم ما نعاني في سبيل الحقائق الأدبية والذوقية والفلسفية، وتعلم أن الناس لا يجزوننا بغير العقوق، فاغمرني بلطفك واكتبني عندك من الصادقين
وأعود إلى حفلة رئيس الوزراء فأقول إنها كانت في غاية من الجفاف، فلم يشرب فيها المدعوون غير أقداح الماء القراح. وقد تشاكى السامرون بعضهم إلى بعض، وعرف أحد الأطباء ما في نفسي فقال: هل سمعت تصريح معال أمين العاصمة؟ فقلت: لا.
فقال: إنه يقول إن هذه الليلة من ليالي مكة، وأنه سيرينا في مساء الغد ليلة من ليالي بغداد
وطاش صوابي فمضيت أبحث عن أمين العاصمة لأسجل عليه الوعد! فرأيته يحادث رجلاً عرفت فيما بعد أنه وزير المالية، فما كاد يراني حتى قال: أنا أفتش عليك يا دكتور مبارك
فقلت: وأنا أفتش عليك يا معالي الأمين. ولكن قبل أن أخبرك لماذا أبحث عنك، أسألك لماذا تبحث عني؟
فقال: كنت أحب أن أوجه نظرك إلى وجوب خلع السدارة في السهرة
فقلت: وأنا لا أخلع السدارة لأني أكره أن أعطيها أدب القُبَّعَةِ
فقال: ولكن نحن اصطلحنا على خلع السدارة في المجتمعات
فقلت: هذا غير صحيح، فقد رأيت عشرات من النواب يحملون السدائر في حضرة جلالة الملك وهو يلقى بنفسه خطاب العرش. ورأيت ثلاثة من النواب يخطبون وهم مسدَّرون. وزرت معالي رئيس مجلس النواب في بيته فكان يحمل السدارة وهو في غرفة الاستقبال. والصحف تنشر صورة جلالة الملك مسدراً وهو يقرأ الفاتحة على قبر أبيه
فقال: قلت لك إننا اصطلحنا على خلع السدارة في المجتمعات
فقلت: وأنا أرى الشواهد التي قدمتها كافية لإقناعك بوجوب التسامح في هذا الاصطلاح
فقال: أنت أستاذ وأعمالك قدوة، وأخشى أن أقول إنك تعطل ما نسعى إليه من جر الشعب إلى المدنية
فقلت: وأنا أخشى أن تجروه إلى الحيوانية
فظهر الغضب على وجهه وقال: ماذا تقول؟ ماذا تقول؟
وعرفت أن الموقف سيسوء فأسرعت إلى تحديد ما أريد وقلت: أقول يا معالي الأمين إن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يغطي رأسه، وما عداه من الحيوان لا يعرف تغطية الرأس. وكذلك أحكم بأن كشف الرأس يقرب الإنسان من الحيوانية
فأخذني من يدي وانتحى ناحية وقال: كيف تقول أمام معالي وزير المالية إننا حيوانات؟
فقلت: معاذ الأدب أن أقول ذلك، وإنما شرحت المسألة من وجهة علمية، فقررت أن الإنسان هو الذي يغطي رأسه من بين سائر الحيوان
فقال: ولكنك على كل حال جرحتني، فان كنت جاداً فلتعلم أنه لا يستطيع أحد في

العراق ولا في مصر أن يخاطبني بمثل هذا الكلام. وإن كنت مازحاً فاسمح لي أن أصارحك بأن للرجل أن يمزح، ولكن ليس له أن يخرج على الذوق
فقلت: ما كنت جادّاً ولا كنت مازحاً، وإنما كنت أقرر حقيقة علمية
فقال: يظهر أن ما سمعت عنك صحيح
فقلت: وماذا سمعت؟
فقال: سمعت وقرأت أنك رجل مشاغب، ومن واجبي أن أنبهك إلى أني سحبت منك الدعوة لحضور السهرة المقبلة
فقلت: ذلك ما لا تملك
فقال: ستعرف أن ذلك مما أملك
وانصرف وانصرفت
ورجعت إلى منزلي مُبَلْبل الخواطر وأنا أقول: هذا ذنب ليلى، هذا جزاء من يخالف ليلى، فلو كانت ليلى معي في السهرة لغُفِرت جميع ذنوبي، فقد علمتني التجارب أن الرجال الذين لهم زوجات سوافر تُقضى لهم مصالح لا تُقضى لأمثالنا أبداً، نحن المحافظين المغفلين الذين يجهلون خُلق الزمان
أيستطيع أمين العاصمة أن يحجبني عن ليلة بغداد بعد أن أضعت من العمر ما أضعت في التغني بتاريخ بغداد؟ أفي الحق أنه أعرق مني لأني من مواليد مصر وهو من مواليد العراق؟
سترى يا أمين العاصمة أينا أقرب إلى قلب بغداد، وسترى في الليلة القادمة كيف تلقاني وألقاك
(للحديث شجون)
زكي مبارك
بين الوطنية والأممية
للأستاذ ساطع بك الحصري
مدير الآثار بالعراق
تتمة
يجب أن تتفك أوصال الأوطان الموجودة وتنحل الروابط الوطنية الحالية. . يجب أن تزول كل هذه الروابط التي تجمع (العمال وأصحاب رؤوس الأموال) في كل وطن تحت لواء واحد، وتفرق بين العمال الذين ينتسبون إلى دول وأوطان عديدة. . . يجب أن تترك هذه الروابط الوطنية محلها إلى رابطة جديدة مؤسسة على أساس الطبقات. . . بهذه الصورة وحدها يتم النصر للنظام الشيوعي في كل العالم، وبهذه الصورة وحدها تتم سيادة العمال ورفاهتهم. . .
هذه هي - على وجه الإجمال - أهم الآراء التي تدلي بها (الشيوعية الأممية) في أمر النزعات الوطنية. . .
إن هذه الدعاية الشيوعية كانت تقوم على عواتق بعض الأفراد والجمعيات، حتى زمن الحرب العالمية. . . غير أن الشيوعيين تمكنوا - في أواخر الحرب العالمية - من الاستيلاء على مقاليد الحكمَ في دولة من أعظم دول العالم، وأسسوا فيها نظاماً شيوعياً. . . وهذه الدولة الشيوعية - أي روسيا السوفيتية - أخذت على عاتقها مهمة الدعوة إلى الشيوعية في كل أنحاء العالم، وصارت تقوم بهذه المهمة بكل ما لديها من وسائط مادية ومعنوية، من أموال وافرة إلى تشكيلات منتظمة. . .
إن آلام الفقر وآمال الرفاهة التي تستولي على نفوس العمال من جهة، والدعاية الخلابة التي تقوم بها روسيا السوفيتية - مستندة إلى تشكيلات واسعة النطاق ومحكمة الترتيب - من جهة أخرى. . . قوّت النزعة الأممية الشيوعية في بعض البلاد، وأقامت بهذه الصورة أمام النزعة الوطنية عدواً جديداً خطراً جداً. . .
والنزعة الوطنية لم تتقاعس عن العمل تجاه هذا العدوّ بطبيعة الحال. إنها أخذت تناضل الشيوعية بحزم شديد وقوة كبيرة، فانتصرت عليها في بعض البلاد، كما فعلت النازية في
ألمانيا والفاشية في إيطاليا. . . غير أن النضال لا يزال سجالاً بين النزعتين، مادة وجهاراً، كما في أسبانيا، أو معنى وخفية - كما في عدد غير قليل من سائر البلدان فيجدر بنا أن نتعرف إلى أوجه هذا النضال من قرب، وبشيء من التفصيل:

إن الانقلاب الصناعي الذي بدأ في أوائل القرن الأخير - والذي لا يزال يستمر إلى الآن - زاد في فروق الثروة بين الناس زيادة هائلة، وأوصل مشاكل المعيشة إلى درجة لم يسبق لها مثيل. . . لا شك في أن هذا التطور العظيم الذي حدث في الحياة الاجتماعية كان يتطلب نظرات وأنظمة حقوقية جديدة تضمن للكل حق الحياة والعمل بالعدل الذي يقتضيه هذا التطور العميق.

غير أن الحكومات لم تقدر خطورة هذه الأوضاع حق قدرها، فلم تقدم على سن القوانين الضرورية لمعالجتها. . . وذلك أفسح مجالاً أمام أصحاب رؤوس الأموال للاستبداد بحياة العمال بدون تأمل، وللاسترسال في استغلال أتعابهم بدون إنصاف. . . وهذه الحالة ولدت الاشتراكية التي أخذت تطالب الحكومات بوضع حد لهذا الاستبداد، وسن قوانين جديدة تثبت حقوق العمل وتضمن إنصاف العمال، وتمنع تضخم رؤوس الأموال على شقاء الآلاف بل الملايين من العمال. . . غير أن الحكومات قاومت في بادئ الأمر الحركة الاشتراكية ومطالبها مقاومة شديدة، وهذه المقاومة أدت إلى حدوث سلسلة ثورات واعتصابات عنيفة كما أدت إلى تفرع الاشتراكية إلى فروع ومذاهب متنوعة. فاختلف لذلك المذاهب الاشتراكية اختلافاً كبيراً من المعتدلة إلى المتطرفة، ومن الوطنية إلى الأممية

إن الشيوعية هي (الطريقة المتطرفة) التي قامت لمعالجة قضية العمل على أساس هدم كل شيء يقف حجر عثرة في سبيلها، ولم تتردد في إدخال (الوطنية) أيضاً في عداد الأمور التي لا لزوم للتمسك بها. . . حتى أنها أوصلت المغالاة إلى درجة القول بأن الوطنية أيضاً من المؤسسات التي يجب هدمها. . .

وأما المذاهب الاشتراكية الأخرى، فإنها تسعى إلى معالجة المشكلة دون أن تسترسل في تضحية المؤسسات الاجتماعية وهدمها، ودون أن تتهاون في (الوطنية) فتقدم على مخالفتها. . .

فإن (الاشتراكية الوطنية) - مثلاً - تقول بأن الحياة الصناعية تحتاج إلى معالجة جدية، غير أن هذه المعالجة يجب أن تبقى دائماً داخل نطاق الوطنية. . . إن للعمال حقوقاً طبيعة يجب أن ينالوها، غير أنه يجب أن يعرفوا - في الوقت نفسه - أن هناك أمة يجب أن يخدموها، ووطن يجب أن يعتزوا به، ودولة يجب أن يعتمدوا عليها. . . ولأصحاب رؤوس الأموال أيضاً حقوق يجب ألا يفقدوها، غير أنه يجب أن يعرفوا هم أيضاً أن هناك أمة ووطناً ودولة، وأن الأموال التي تحت حيازتهم لم تتكون وتتجمع إلا بفضل مساعي العمال وبفضل أعمال الدولة التي تضمن الأمن العام، وتنشئ المرافق العامة. فللدولة والأمة والعمال أيضاً حق في هذه الأموال. فعلى الحكومة أن تتولى بنفسها تنظيم العلائق بين العمال وأصحاب رؤوس الأموال على ضوء هذه الأسس؛ عليها ألا تترك هاتين القوتين وشأنهما تتنازعان، وعليها أن تعمل كل ما يمكن عمله لجعل هاتين القوتين متآزرتين كما تقتضيه مصالح الأمة والوطن. . .

فنستطيع أن نقول بهذا الاعتبار إن الاشتراكية الوطنية السائدة في ألمانيا تكون قطباً معاكساً للشيوعية الحاكمة في روسيا. . . وأما النظم النقابية المؤسسة في إيطاليا فهي أيضاً تقف في هذه القضية بجانب الاشتراكية الوطنية موقفاً معاكساً لوقف الشيوعية. . .

فإن الشيوعية لا تبالي بالوطنية، وتدعو إلى الأممية؛ في حين أن النازية - مثل الفاشية - تتمسك بالوطنية وتعارض الأممية. . .

إن عنصر الأممية الذي يدخل في تكوين الشيوعية هو الذي يجعلها خطراً على كيان سائر الدول، ويضطر الأحزاب الوطنية فيها إلى مقاومتها بشدة، ومناضلتها بعنف. . . لأن البلشفية لا تهدد كيان الدول والأمم من جراء احتمال إقدامها على شن الغارة عليها بواسطة حملات عسكرية ترسلها من وراء حدودها فقط. . . بل تهدد كيان الدول والأمم في داخلها من جراء الدعايات التي تقوم بها بين أهليها، وبواسطة التشكيلات التي توجدها بين أبنائها. . .

وهذا الذي يجعل النضال بينها وبين معارضيها عنيفاً جداً. . .

ماذا يجب أن يكون موقفنا نحن - أبناء العرب - من هذا النضال العنيف؟ بين هذه المذاهب الاجتماعية المتضاربة؟

أولاً - يجب أن نلاحظ قبل كل شئ أن المشاكل التي نعانيها نحن أبناء العرب تختلف

اختلافاً كبيراً عن المشاكل التي تعانيها تلك البلاد؛ فمن الخطأ أن نفكر في اقتباس نظام من تلك النظم على علاته. . . غير أن موقف هذه النظم المختلفة من النزعة الوطنية والقومية يجب أن يدلنا على النظام الذي يجب أن نتباعد عنه كل التباعد، ونحذر منه كل الحذر. . .

ويجب علينا أن نلاحظ في الوقت نفسه، أن الأضرار التي تنجم من الإصغاء إلى الدعاية الأممية لا تكون متساوية في كل البلاد، بل إنها تزداد وتنقص، نظراً إلى ضعف النزعة الوطنية والقومية السائدة في البلاد أو قوتها

تصوروا الأمة ناهضة متحدة متصفة بشعور قومي عميق، ونزعة وطنية شديدة، قد تأصلت الوطنية والقومية في نفوس أبنائها حتى أنها دخلت في طور الإفراط والتعدي، فصارت تحمل القوم على التوسع على حساب غيرها عن الأمم. لا شك في أن رياح النزعة الأممية إذا هبت على النفوس في مثل هذه الأمة لا تستطيع أن تجتث شجرة الوطنية من جذورها، فلا يتعدى تأثيرها حدود بعض الأضرار الطفيفة من نوع إسقاط الأوراق أو كسر الأغصان. . . إن انتشار فكرة الأممية بعض الانتشار بين أبناء تلك الأمة لا يزعزع بناء الوطنية زعزعة خطرة، وكل ما يعمله ينحصر في كسر ثورة الإفراط، وتخفيف أطماع التوسع والاستعمار. . .

ثم تصوروا أمة - بعكس تلك - متأخرة في حضارتها، متفرقة في سياستها، مترددة في وطنيتها، استيقظت من سبات عميق في عهد قريب؛ فلم يمض على يقظتها الوقت الكافي لاختمار الفكرة القومية في نفوس أبنائها، فلم يتم بعد (تكوّن الشعور القومي) و (تأصل النزعة الوطنية) في تلك النفوس. لا شك في أن تأثير الرياح (الأممية) على أمة كهذه الأمة يكون خطراً جداً، لأنه يوقف اختمار الفكرة القومية في بدء عملها، ويحول دون تكوّن الشعور القومي العام في بدء عهده؛ ويميت تباشر النزعة الوطنية الحق قبل أن تتأصل في النفوس. .

إنني أعتقد بأن نظرة واحدة إلى حالة البلاد العربية والأمة العربية - على ضوء هذه الإيضاحات - تكفي دلالة قطعية على أن انتشار النزعة الأممية - ولو قليلاً - يكون مضراً جداً، بل مهلكاً وقتالاً بالنسبة إلى أبناء الضاد. . .

فينبغي علينا أن نبذل أقصى الجهود لمنع تسرب النزعة الأممية إلى النفوس في جميع الأقطار العربية

هذا، وقد لاحظت أن بعض الشبان، في مختلف البلاد العربية، يخلطون بين قضية السياسة الخارجية وأمر النظم الداخلية خلطاً غريباً. فكثيراً ما يتساءلون خلال مناقشة مثل هذه المسائل: أية دولة أكثر مطامح في البلاد العربية؟ هل لروسيا مطامح استعمارية في البلاد العربية؟ ألم يكن خطر الاستعمار الإيطالي أكبر من سائر الأخطار؟

إنني أعتقد أن وقوف هذا الموقف تجاه المسائل الداخلية والاجتماعية لا يتفق مع منطق السياسة والاجتماع، لأن علائق الدول الخارجية لا تتأسس على أشكال نظمها الداخلية. فالدول تتفق أو تتخاصم حسب منافعها، دون أن تنظر إلى مشابهة أشكال إدارتها أو مخالفتها. فقد رأينا - مثلاً - خلال الحرب العالمية أن فرنسا اتفقت مع إنكلترا وروسيا، مع أنها كانت جمهورية، في حين أن إنكلترا كانت ملكية دستورية وروسيا القيصرية كانت من الحكومات الاستبدادية. وقد انضم إلى هذه الدول الثلاث، خلال الحرب العالمية، عشرات من الدول الأخرى على اختلاف نزعاتها في السياسة الداخلية

فيجب علينا أن نعتقد كل الاعتقاد بأن اعتناق أي مذهب اجتماعي لا يخلصنا من الأخطار المحدقة بنا، كما أن عدم اعتناق أي مذهب من المذاهب الاجتماعية لا يعرضنا إلى أخطار خارجية غير الأخطار التي تحيط بنا. . .

فعندما ننعم النظر في أمر صلاح أو عدم صلاح النظام الشيوعي لبلادنا لا يجوز لنا أن نبني أحكامنا على سياسة إيطاليا أو روسيا في الأمور الدولية بوجه عام، أو في أمور البلاد العربية بوجه خاص. . . بل يجب أن نفكر في صلاح أو عدم صلاح هذا النظام بالنظر إلى أحوالنا الداخلية فقط. . .

وربما كان وضع الدولة التركية تجاه هذه المسألة من أحسن الأمثلة وأقطع الأدلة في هذا الباب

تعلمون أن تركية مدينة بشيء كثير من حياتها الآن إلى أوضاع روسيا السوفيتية. . .
لأن الدولة الروسية كانت عدوة تركيا التاريخية حتى نهاية الحرب العالمية. . . غير أنها
بعد أن تبلشفت تركت عداءها القديم، بل بعكس ذلك أخذت تسند الدولة التركية ضد
الدول الأوربية، وصارت تساعدها بكل الوسائط الممكنة، وفعلاً أمدتها بالأموال
والأسلحة والعتاد
خلال مناضلاتها الاستقلالية، وحافظت على هذه السياسة نحوها منذ ذلك الحين. فتركية
كانت أول دولة تصادقت مع روسيا السوفيتية، وهي لا تزال من أخلص أصدقائها. . .
وهي مع كل هذا من أشد أعداء البلشفية، وهي تطارد وتعاقب بشدة كل من ينتسب
إلى الشيوعية أو يقوم بدعاية للشيوعية. . . وروسيا البلشفية لا تزال صديقة تركية،
بالرغم من مخالفة الأخيرة للنظم البلشفية في أمورها الداخلية. . .
هذه حقيقة واقعية. . . وكثيراً ما يصادف المرء في الصحف التركية عدة فصول في
صحف حفلات التكريم التي تقام للوفود الروسية. . . وبجانب هذه الفصول عدة
فقرات تذكر أخباراً متنوعة عن محاكمة الأشخاص الذين سجنوا لانتسابهم إلى
الشيوعية، وعن الأحكام العقابية التي صدرت عليهم من المحاكم المختصة
فلا بد لي أن أذكر في هذا الصدد كلمة مشهورة قالها أحد عظماء فرنسا خلال مناقشة
برلمانية، قبل مدة تزيد على نصف قرن: كان (جول فرى) من أبطال الفكرة العلمانية
في فرنسا. حارب الكهنوتية أشد المحاربة، ووضع القوانين التي تحدد ساحة عمل رجل
الدين تحديداً كبيراً، وسعى طول حياته إلى حرمانهم حق فتح المدارس والاشتغال
بالتربية والتعليم. . . ومع كل ذلك لم يتوان عن مساعدة رجال الدين في الأعمال التي
يقومون بها خارج فرنسا. . . حتى أنه لم يتردد أحياناً في مساعدة أعمال الإرساليات
التبشيرية بالوسائط الدبلوماسية أو بالقوة العسكرية. . . فقد اعترض البعض على هذه
السياسة المتناقضة، واستنكروا حماية أعمال رجال الدين في خارج فرنسا في نفس
الوقت الذي كانت تمنع فيه هذه الأعمال داخل فرنسا. . . فصعد (جول فري) على
المنبر وقال كلمته المشهورة: إن عداوة الكهنوت ليست من الأمتعة التي يجوز
تصديرها إلى الخارج. . .
وأراد أن يقول بذلك: إن عداوتنا للكهنوت يجب أن تبقى من خصائص سياستنا الداخلية
وحدها. . . وهذه العداوة يجب ألا تمنعنا عن الاستفادة من رجال الدين في سياستنا
الخارجية في أمر توسيع نفوذنا خارج فرنسا. . .
إنني أعتقد بأن الوقائع والحقائق التي سردتها لكم لا تترك مجالاً للشك في أن كل من
يقول بوجوب اعتناق المذهب الشيوعي لدفع أخطار دولة أو لاسترضاء أخرى يكون قد
سلك مسلكا لا يقره (منطق الحقائق) بوجه من الوجوه. . .
فعلينا أن ننظر إلى القضية في ذاتها كمسألة داخلية صرفة مجردة عن كل الاعتبارات
الخارجية فنسأل أنفسنا: هل يجوز لنا أن نصغي إلى نداء الأممية الشيوعية أم لا؟. . .
إنني أعتقد أن وضع المسألة على هذا الشكل الواضح لا يترك مجالاً للتردد في الجواب
اللازم لها. . .
فقد قال أجدادنا:
بلادي وإن جارت علي عزيزة ... وأهلي وإن ضنوا عليّ كرام!
أعتقد أن هذا القول يتضمن أحسن وأبلغ الأجوبة على نظرية الأممية الماركسية. . .
لا أود أن أقول - بذلك - إنه يجب علينا أن نترك الأمور على حالها، فلا نفكر في إزالة
الجور عن أفراد الأمة. . . بل أقول - بعكس ذلك - يجب علينا أن نبذل كل الجهود
لإصلاح الأحوال وإزالة الجور بأعظم ما يمكن من السرعة. . . على ألا نخرج في
أعمالنا وتدابيرنا عن مقتضيات الوطنية، وأن نعتقد في كل حين: أن الوطن قبل كل
شيء وفوق كل شيء. . .

(هربارت)
(من يدر المدرسة يوجه مستقبل الأمة)
(بسمارك)
أم المسائل في مصر مسألة التربية والتعليم، فلو أن كل مصري وضع في تشييدهما)
(لبنة لأقمنا للوطن صرحاً يبقى ما بقى الزمن
(الملك فؤاد)
1 - اليوم والغد
رأيت فيما سلف ضرورة الفلسفة للتربية، وتبينت الكثير من تلك (الأصول العامة) التي تقيم عليها الأمم الديمقراطية الحديثة تربيتها الصالحة وتعليمها السليم. والحق أن ذلك كله لم يكن غير مقدمة عامة أحببت أن أمهد بها لنقد التربية والتعليم في مصر وطننا المحبوب. فلعلك قد وعيت ما قدمت وتود صادقاً أن ترى إلى أي طريق نحن مسوقون، وأين نحن من تلك الأصول وهاتيك الفروع. ولعلك تشعر معي أن مثل ذلك الموضوع خطير كل الخطورة، ودقيق كل الدقة، لأنه وحده بيت الداء ومناط الرجاء، وأننا محتاجون فيه إلى كثير من الصراحة وسعة الصدر حتى نستطيع أن نشخص الداء على حقيقته، ونقرر الدواء الناجع والعلاج الصحيح! ثم لعلك ترى أننا اليوم في عصر جديد يتطلب منا تربية خاصة تحقق الأمل في توطيد الديمقراطية وصون الاستقلال، وبعث المجد القديم، وتزعم الشرق الحديث، وإعلاء القومية إزاء مطامع الطامعين، ومسايرة الحضارة جرياً وراء قفز المتقدمين. . .! أجل، ولعلك قد استطعت أن تتبين أن نهضتنا الحديثة ما تزال مشوبة بضعف في الخلق والتواء في الشخصية، وضيق في العقل وانحلال في الشعور، وأننا قد أصبحنا مهددين بثورتين جارفتين وقانا الله شرهما: إحداهما ثورة المتعلمين العاطلين، والأخرى ثورة الجاهلين القانعين. . .! أجل؛ ولعلك قد استطعت أن تدرك أنه لا سبيل إلى تحقيق شيء من هذه المشروعات الاجتماعية الإصلاحية الكثيرة التي يقترحها المقترحون، إلا إذا كوّنا أولئك (الرجال البواسل) الذين نستطيع أن نعهد إليهم حقاً بمباشرة تنفيذها، لأن نفوسهم قد تهيأت بالفعل لها وآمنت بها. . . وأن الدولة التي تنفق على التربية والتعليم كثيراً وتخصها بأعظم عنايتها تحيط نهضتها بكل أسباب القوة والنجاح، وتوفر على نفسها من الجهود والمشقات، والأموال والاضطرابات، ما لا أول له ولا آخر. . .

لعلك إذن تعرف ذلك كله، وتود حقاً أن تعلم أين نحن وإلى أين نسير؛ وتعجب كل التعجب من إغفال الأحزاب السياسية في هذا البلد لقضية التربية والتعليم كجزء من برامجها لا يتجزأ، وكخطة في الإصلاح جوهرية لها فسلفتها المعقولة وحدودها المرسومة، وكوسيلة لتحقيق الأماني القومية تغني عن التشريع المزعزع، وتمهد لنتائج وأحوال مضمونة كل الضمان ومؤكدة كل التأكيد. . .!

أجل! ولعلك تعجب كذلك من ندرة البحوث التي يقدمها الكتاب والمحاضرون للرأي العام فيما بين الآن والآخر متعلقة بذلك الشأن، ودائرة على الخصوص حول التجريح وإظهار العيوب!! كأنما الموضوع مقدس لا يجوز الاقتراب منه! أو كأنما هو ضئيل الشأن في حياتنا المادية والمعنوية فلا ضرورة للاهتمام به!! أو كأنما هو سر من أسرار الدولة لا داعي لإشراك الرأي العام فيه!!

أجل، ولعلك تقول معي الآن إن النهضات الكبرى التي ازدانت بها صفحات التاريخ لم تقم إلا على أساس من النقد الذي هدم البالي وأقام الجديد، وأننا في نهضتنا وظروفنا الحاضرة محتاجون كل الاحتياج إلى هذا النقد الحر النزيه، وإلى سعة في الصدر تسمح به وتشجعه وتقابله بالكثير من الهوادة والرفق، وتصفح عما قد يتعرض ل من خطأ وشطط. . .!

قالوا وما زالوا يقولون: لنستر العيوب لنستر العيوب! وأقول وما زلت أقول: وماذا بعد ستر العيوب؟ وما جدوى السير في طريق شائك نهايته تعسة إذا كانت القافلة التي تسير فيه هي قافلة الأمة؟؟ على أني لست أذهب في التشاؤم إلى هذا الحد فأدعي أن تعليمنا شائك كله ونهايته تعسة كلها؟! بل إنه لمن الخير أن أسجل بمداد الفخر أننا قد بدأنا نلمس

الضعف منذ أعوام ونعمل على إصلاحه، فراحت وزارتنا تطلب رأي الخبيرين، وراح أحد وزرائنا يكتب بنفسه في التعليم لثانوي، وأقيمت بالفعل مدارس جديدة، وأدخلت إصلاحات مهمة وخطيرة. هذا إلى ما يدرس الآن تمهيداً لاعتماده وتنفيذه. . . وتلك ولا ريب باكورة طيبة تذكر بالشكر لرجال المعارف ويرجى منها خير جزيل. وما دام الأمر كذلك فلا مندوحة لنا كرجال تربية من معاونة الوزارة في مهمتها بتقديم آرائنا وتجاربنا وكل ما نملك من قول أو فعل يحقق للوطن أمانيه وينجيه من عيوبه وأمراضه. . .

فترى ما هي هذه العيوب وتلك الأمراض؟ كل منا يستطيع أن يذكر الكثير من ذكرياته كطالب ومن تجاربه كمعلم، وكل منا يستطيع أن يقرر أن ماضينا كطلبة مليء بألوان من التربية لا نتفق وتلك الأصول التي قدمنها في كثير ولا قليل، ولا تصلح إلا لأن تكون ذكريات مرة فيها ما يضحك ويبكي ويؤلم ويؤسف، وكل منا يستطيع أن يقرر أن حاضره كمعلم مشوب بأساليب من النقص بعضها هين يسير وبعضها ثقيل عسير. ومن اشتغل منا (بالتعليم الحر) أو درسه عن كثب يستطيع أن يقدم للقراء قصة فيها من المآسي والفواجع ما يثير التقزز والاشمئزاز ويبعث على الأسف والرثاء؛ ولقد كنت أعد نفسي وأنا - أكتب مقدمتي للقراء - لمثل هذا النقد البريء، فوقعت في يدي رسالة حديثة صغيرة بالإنجليزية لأحد أساتذة المعهد وهو الدكتور (جاكسون)، تناول فيها بعض نواحي التربية في مصر بالنقد الحصيف والاقتراح الصائب، فأعجب بها كل الإعجاب، وشعرت أنها قد ذكرت الكثير مما كنت أريد وزادت عليه، ولذلك لم أر بداً من تلخيصها والتعليق عليها وتقديمها لقراء العربية كنظرة عامة جادت بها قريحة إنجليزي خيِّر خدم التربية في مصر ودرسها عن كثب، وأبى إلا أن يرد لهذه البلاد العزيزة فضلها عليه بشيء من النقد والإرشاد

فإلى اللقاء إذاً حيث نستعرض هذه النظرة ونتبعها بأخرى. وإلى اللقاء حيث أسمعك ما قد يصلني من إجابات حضرات رجال التعليم من مفتشين ونظار ومعلمين على الأسئلة الآتية:

1 - ما هي أهم عيوب التربية المصرية في العصر الحاضر؟

2 - وما هي الأغراض التي يجب أن تتوخاها التربية المصرية حتى تحقق للوطن أمانيه الجديدة؟

3 - وماذا يروقك في ماضي التربية وحاضرها؟

(يتبع)

محمد حسن ظاظا

مدرس الفلسفة بشبرا الثانوية الأميرية

محنة الآنسة (مي)

للأستاذ عبد الله مخلص

عضو المجمع العلمي العربي بدمشق

عزيزي صاحب الرسالة

سلام الله عليك ورحمته. وبعد فقد ذكرتم في العدد 238 من (الرسالة) الغراء تماثل الآنسة (مي) زيادة من مرضها الذي لازمها نحو عامين، وبشرتم أهل العلم والفضل بهذه البشرى التي أثلجت الصدور وأقرت الأعين، فقمتم بعملكم هذا بحق الأدب عن كل أديب جزاكم الله خير الجزاء

ولكن قارئ هذا الخبر يظن أن الآنسة (مي) كانت حقيقة مريضة في لبنان وأنها الآن في دور النقاهة، مما يخالف الواقع ويسدل ستاراً كثيفاً على المأساة التي أراد بعض من لا أخلاق لهم أن يمثلوها ويحولوا بين هذه العبقرية وبين ما كانت تنثره من الدرر الغوالي وتبديه من الأفكار النيرة وتخدم به المجتمع العربي

وأظنكم لا تضنون على قادري قدر (مي) وعارفي فضلها بإزاحة ذلك الستار الأسود عن تلك النفوس المريضة والوجوه السود التي قذفت بأرقى شخصية أدبية في المارستان ثم بالمستشفى تحت جنح الظلام ومنعتها من الاختلاط بالناس فجعلوا منها ميت الأحياء

وعلى هذه العقيدة أكتب للرسالة الغراء - لا لك ولا لي، ولكن للحقيقة والتاريخ - عما أصاب (مي) من المصائب، وانتابها من النوائب، وفي خلال السنتين المنصرمتين حتى عادت شبحاً من الأشباح تنقم على البشرية الظالمة وتعبث على جيرانها الأقربين،

وخصوصاً سيدات العرب اللائي انتصرت لهن في كل مواقفها. وإلى القارئ العزيز فصول هذه المأساة وله أن يحكم بنفسه في أي عصر من العصور المدنية نحن؟ وما هذا الذي يجري في معاهد العلم والفن من المآسي والمخازي التي تشيب لهولها الولدان وتضطرب الأفئدة؟

لا شك في أن كل أديب وأديبة في لبنان ومصر وفلسطين وسورية والعراق وجميع بلدان العرب يعرفون فضل (مي) على النهضة العلمية عامة والنهضة النسائية خاصة، ولكنهم ربما لا يعرفون أين تنبت هذه الزنبقة العطرة، فرأينا أن نقتضب من سيرتها ما تجب معرفته

الآنسة مي هي ماري ابنة المرحوم الأستاذ إلياس زيادة من عرمون غزير في لبنان الذي كان مسقط رأسها ومنبت غرسها كما كانت مصر التي انتقلت إليها مهبط أنسها ومهوى نفسها

وهناك في بلد العلم في العالم العربي بدأت حياتها المجدية المفيدة فنشرت كتاب باحثة البادية وهو بحث انتقادي طبع سنة 1920 ثم عززته بثان وثالث هما ابتسامة ودموع أو الحب الألماني طبع سنة 1921، وكلمات وإشارات وهو يحتوي على خمس عشرة خطبة ألقتها في مناسبات مختلفة وهو أول كتاب جمعت فيه خطب سيدة شرقية عربية وقد طبع سنة 1922

ثم كتاب بين الجزر والمد، ودمعة وابتسامة، وظلمات وأشعة، وقد طبعت جميع هذه الكتب في سنة 1923

ثم كتاب الصحائف الذي طبع سنة 1924 وكتاب سوانح فتاة والمساواة، غير الأبحاث الناضجة والآراء الاجتماعية الصائبة التي كانت تنشرها في المجلات والصحف حتى وصلت إلى درجة كانت جريدة الأهرام الكثيرة الأنصار الواسعة الانتشار تفتح لرسائلها صدرها وتجعلها أولى مقالاتها

ومما يدل على علو منزلة الآنسة (مي) أن بين الذين قرظوا كتابها (المساواة) الأمير شكيب أرسلان فكتب له المرحوم الدكتور يعقوب صروف أحد صاحبي المقتطف رسالة جاء فيها ما يلي:

(والمساواة مقالات نشرت أولاً تباعاً في المقتطف ثم جمعت وطبعت كتاباً على حدة فراقني جداً وصفكم له، وأرجح أنه لم تترجم شيئاً ترجمة لأنها تتكلم معي في كل الموضوعات الأدبية والفلسفية كما تكتب، فإنها قوية الذاكرة إلى حد يفوق التصور، وقد قرأت كثيراً من الكتب في اللغات التي تحسنها: الفرنساوية والإنكليزية والإيطالية حتى لقد تستشهد في كلامها معي بأبيات من شكسبير أو بيرون كما تستشهد بالمتنبي والمعري

وحفظت أيضاً كثيراً من قصائد شوقي والمطران وحافظ وأظنها تصوغ معانيها في ذهنها بالفرنساوية والإنكليزية قبلما تعبر عنها بألفاظها العربية)

وشاء القدر أن تفقد مي والديها واحداً إثر واحد كما يفقد كل إنسان أبويه في هذه الحياة، ولكن مي الشاعرة العطوف الرقيقة الحواس تزلزل منها هاتان الصدمتان قوتها واحتمالها، وتساورها الهموم والأحزان فتقبع في عقر دارها تناجي نفسها وتندب حظها بفقد أعز الناس عليها، فيأتي إليها بعض ذوي قرباها في ثياب الحمل وهم ذئاب خاطفة ويحملونها على السفر إلى لبنان وطنها الساحر على أمل أن تجد في جوه الجميل ومائه النمير ومناظره الخلابة وجباله الشم ما يرفه عن نفسها المشوبة بالأكدار

وتحقن مي بمصل مخدر سواد ليلة من الليالي فتصبح بياض نهارها بين المجانين في مستشفى الأمراض العقلية المسمى بالعصفورية في ضاحية بيروت فتثور ولكن على من؟ وتستنجد ولكن بمن؟ إنها أصبحت في عداد الذين أفقدتهم صدمات الحياة الرشد وأقعدتهم المصائب هذا المقعد الأليم. وتنقطع مي عن الطعام والشراب إلا ما تسد به الرمق وتستبقي بواسطته الحياة

وبعد أن تقضي السنة في ذلك المارستان ينقلها أولئك الذئاب إلى مستشفى ربيز في بيروت ولكن يحوطونها برقابة شديدة ويمنعونها من الاختلاط بأحد لئلا يطلع على ما بيتوا لها من شر مستطير وأعدوا لها من ظلم صارخ فتتم سنة أخرى بين العقلاء الذين

لا تستطيع الدنو منهم والتحدث إليهم
ويسعف الحظ فيؤتي بسيدة من آل الجزائري في دمشق إلى المستشفى وتوضع في غرفة مجاورة لغرفة مي السجينة فتسمع (مي) صوت السيدة وهي تتململ في فراشها من شدة الألم الذي أعقب عملية جراحية فتفتح الباب الموصل بين الغرفتين بجهد وتدخل إلى غرفة السيدة الجريح لمواساتها على تخفيف آلامها وتكرر مي هذه الزيارات ليلاً في خلسة من الرقباء
وتستأنس السيدة الجزائرية بجارتها الحنون لا سيما بعد أن اندمل جرحها فتسألها عن حالها وسبب مقامها في المستشفى فتنفجر (مي) بكل ما في نفسها من آلام وتشكو أمرها وما تقاسيه من عنت الظالمين إلى السيدة التي تألم كثيراً لها وتستعين بأوليائها من الرجال على كشف مظلمتها ويقوم هؤلاء السراة الأمجاد أحفاد الأمير عبد القادر الجزائري ويعملون على إطلاق سراحها
وينتهي الأمر بتدخل إدارة الأمن العام وإخراج (مي) النابغة من سجنها فتعود الذئاب الخاطفة التي تخشى أن ترد إلى (مي) حقوقها الشرعية بالتصرف في أموالها وحليها ومكتبتها الغنية التي وضعوا أيديهم عليها ظلماً وعدواناً، وتصرفوا بها تصرف المالك فمي ملكه اعتسافا وطغياناً - يعودون إلى مزاعمهم الأولى من اختلاط عقلها وضعف مداركها ويلحون باستشارة أهل الاختصاص من الأطباء، وتكون النتيجة دعوة طبيبي مستشفى العصفورية وربيز لمعرفتها السابقة بحالتها وطبيبين آخرين، فتقرر هذه الهيئة الطبية المستشارة أن حالتها الحاضرة تبعث على الرضى، ولكن بالنظر لضعف جسمها يخشى أن تتأثر أعصابها مرة أخرى، ولذلك يشيرون عليها بقضاء دور النقاهة في منزل مناسب ببيروت
وتنقل بالفعل إلى ذلك المنزل هي وممرضتها الموكول إليها أمر العناية بها والقيام على حاجاتها ولوازمها
وعقيدة الطبيب في مريض من مرضى العقول لها تأثيرها في نفسه، فهو يظن به الظنون ولا يريد أن يقتنع بصحة مداركه مهما كانت ظواهره حسنة ولعل هذا هو الذي حدا بالطبيبين المداويين لها قبلا على الإصرار على رأييهما فيها إن لم يكن هناك دافع آخر يدفعهما إلى ذلك التعنت
ويستمع الناس ولا سيما الطبقة المستنيرة إلى ما آل إليه أمر (مي) فيأتون زرافات ووحداناً إلى كعبة الفضل يحجون إليها ويكون في طليعة هؤلاء الحجاج الكرام صديقنا فارس بك الخوري رئيس المجلس النيابي السوري وقرينته الفضلى. واستمع إلى ما يقوله هذا الرئيس الجليل لمندوب أكبر صحيفة يومية لبنانية عن الآنسة (مي):
(يمكنني أن أقول بكل صراحة إنني تحدثت إلى أناس كثيرين في بيروت فلم أر فيهم من هو أعقل من الآنسة (مي). وأزيد على ذلك أنني سمعت من بعضهم أخطاء لم تفه (مي) بواحد منها فهي بحالة عقلية تامة، ولكن صحتها الجسدية ضعيفة جداً
ومما قالته لي والألم ينبعث من عينيها: (تصور مي زيادة على بعد عشرين دقيقة من بيروت قلب الشرق العربي وعاصمة لبنان الجميل الخالد ومهد الحضارة والنور وأم الجامعات والمؤسسات العلمية ودار الجمعيات الأدبية والخيرية ومركز جمعية النهضة النسائية. أجل تصور (مي) سجينة على بعد عشرين دقيقة من البلد الذي ذكرت (ثم تلفتت مي إلى السيدة قرينته فتقول لها:
(أهذا ما كنت أنتظره يا سيدتي؟ أهذه هي المكافأة التي أعدتها لي المرأة الشرقية بعد جهاد طويل؟ أهذا ما تلقاه الأديبة في الشرق؟)
ولم يقتصر عمل فارس بك على الإدلاء بآرائه إلى الصحف، بل إنه ذهب وبرفقته الأمير عادل أرسلان إلى ندوة المجلس النيابي اللبناني وتحدث عن زيارته لمي وعن الأثر المؤلم الذي تركته هذه الزيارة في نفسه
وشاع ما عوملت به مي من العمل السيئ وذاع في لبنان فراع الناس ما سمعوا وأذهلهم ما قرءوا، فاندفع أنصار الفضيلة إلى الأخذ بضبعها وشد أزرها ورد عاديات العادين عنها، وتقدم الجميع المحامي المشهور معالي الأستاذ حبيب أبي شهلا وزير الداخلية السابق في الحكومات اللبنانية المختلفة، وتطوع للدفاع عن حقها الهضيم وحريتها السليبة أمام القضاء الذي أقيم لإنصاف المظلوم من الظالم، والأخذ للضعيف من القوي، فسر الناس لهذه الغضبة المضرية والنعرة الإنسانية، وبدءوا يذكرونها بكل

شفة ولسان، ويكبرون هذا العمل من شخصية كبيرة مشهورة في الأوساط القضائية والإدارية، وهم على مثل اليقين من حصول القصد ونجاح المسعى لما عرف عن معالي الأستاذ أبي شهلا من قوة الحجة ووفور العلم وصحة المنطق مما يضمن الفوز له في هذا المعترك

وبلغ أمر مي إلى أسماع الفلسطينيين الذين يجلون هذه النابغة ويبجلونها ككل عربي فقامت أقرب مدينة من فلسطين إلى لبنان وهي عكا تثأر للفضيلة وتنتصر للعلم والأدب وتقدمت بواسطة الهاتف برسالة إلى المحامي الأستاذ حبيب أبي شهلا على يدي كاتب هذه السطور هذا نصها: -

إن محدثكم الآن وحوله جماعة من أدباء وعلماء هذه المدينة التاريخية عكا يتوجهون بخالص الأماني وكبير الرجاء إلى الوزير الذي لم تبطره النعمة ولم تمنعه من الدفع عن المظلومين لتتولوا بما عرفتم به من الهمة المشكورة والغيرة المحمودة الدفاع عن مفخرة أدبيات العرب في القرن العشرين ونابغة النساء في الأقطار العربية الآنسة مي زيادة

إن إنقاذها من هذه الكارثة يسجل لكم يداً كبيرة مشكورة بيضاء في خدمة الأدب العربي

واللغة العربية فنرجو أن يحقق الله على يديكم هذه المبرة العظيمة لنهضة النساء في هذا الشرق العربي المتطلع إلى المستقبل الباسم بهمة أمثالكم وتقبلوا تحياتنا في هذه المدينة. . .

ومما أذكره عن (مي) أني كنت في بيت المقدس في أوائل سنة 1923 فجاءته الآنسة (مي) زائرة دارسة وراح الأدباء والفضلاء للترحيب بها والتعرف إليها، وقصدت أنا ورفيق لي إلى زيارتها في المنزل الذي نزلت فيه فلم نجدها إذ ذاك، وفيما نحن عائدون قال لي صاحبي وهو يحاورني: أتدري أن علم (مي) جنى عليها؟ فقلت له: أفصح عما في ضميرك فيظهر أن للكلام بقية. فقال: أنا أحد الذين كانوا يرون السعادة كل السعادة في الاقتران (بمي) لما وهبها الله من الخلق الجميل والصفات الطبية ولكني كنت أرى أن مستواها العلمي فوق مستواي فلم أجرأ على طلب يدها. قال: وكان لي أمثال كثيرون ولكنهم كانوا يرون رأيي فيها وكنا حين نلتقي بمي النابغة نشعر بعاطفة الإكبار والإجلال لآدابها الرفيعة

والذي قال لي هذا القول لم يكن من عامة الناس بل هو من خريجي الجامعة الأمريكية ومن أصحاب الثروات الطائلة والذين أثروا في الحياة الاجتماعية والمدنية، ولكنه كان يرى نفسه دونها في العلم والفضل ويعترف بذلك، فانظر ماذا كان مصير هذه العلوم والفضائل بين أعدائها الألداء، عاملهم الله بما يستحقون وأذاقهم عذاب الهون

عبد الله مخلص

التاريخ في سير أبطاله

ابراهام لنكولن

هدية الأحراج إلى عالم المدنية

للأستاذ محمود الخفيف

يا شباب الوادي! خذوا معاني العظمة في نسقها الأعلى من سيرة هذا العصامي العظيم

وماذا يصنع وقد خذل في الانتخاب وآل الحانوت إلى ما آل إليه جزاءً بما فعل صاحبه؟ الحق أنه ألقى نفسه في مأزق ولعله كان يندم بينه وبين نفسه أن ترك حياة الغابة. . .

ماذا يصنع ابراهام ليكسب قوت يومه؟ ليس أمامه الآن غير التجارة، لذلك اتخذ له شريكاً واشترى ما بقى من الحانوت من ذلك الرجل الذي اشتراه من قبل وعاد يبيع الناس من بضاعته، وقد حمل العبء كله إذ كان صاحبه لا يكاد يفيق من سكره. على أنه كان عبئاً هيناً إذا كان البيع قليلا لقلة البضاعة ولقلة المشترين. وكان في البلد حانوت آخر سطا عليه أولئك الفتية المعتدون لما شجر من خلاف بين صاحبه وبين زعيمهم آرمسترنج، وعرض صاحب ذلك الحانوت بضاعته للبيع فاشتراها ابراهام، ولكن بطريق الدين؛ كتب على نفسه مائتين وخمسين دولاراً وعد بدفعها حين يتيسر له ذلك. . . ولكن صاحبه لا يكاد يفيق من سكره فهو كلٌّ عليه أينما يوجهه لا يأت بخير؛ وليس

لدى أيب مال ليدفع إليه نصيبه ويخلص منه.

وأراد الله أن ييسر له أمره بعض اليسر، فاختير حاملا للبريد في تلك الجهة؛ اختاره القائمون بالأمر لما علموا من أمانته ونشاطه؛ وفرح إبراهام بما ساقه الله إليه، فقد حاقت الخسارة بالتجارة وخرج منها بدين اثقل كاهله كان يسميه لفداحته بالنسبة إليه الدين الأهلي!. . . فرح إبراهام بعمله الجديد وأقبل عليه في همة إذ أتاح له ذلك العمل أن يتصل بالناس وأن يتعرف أحوالهم ويدرس طبائعهم من قرب، وهو كلف بذلك حريص عليه يريد به أن ينفذ إلى أعماق النفس كما هو شأنه في كل ما يعرض له. وحبب إليه ذلك العمل، فوق ما كان من اتصاله بالناس، ما مهده له من سبل القراءة، فهو يقرأ الصحف قبل أن يعطيها أصحابها، وهو يلتهم الكتب في ساعات فراغه التهاماً. وكان أكثر ما يقرأ يومئذ كتب القانون، ولعله كان ينوي أن يتخذ المحاماة عملاً له، فلقد كان الناس يأتونه ليحكموه فيما يشجر بينهم من خلاف، وهو عندهم القوى الأمين؛ لا يتحيز إلى شخص أو فئة، ولا يتعثر في أمر، ولا يسمح لأحد أن يلبس أمامه الحق بالباطل، كل ذلك في رفق ودراية ولباقة. . . وكان إذا عرض له أمر رده إلى ما عرف من القانون ليتبين وجهه، أو أفاد من دراسته وبحثه علماً جديداً. وقد ألقت الأقدار إليه ذات يوم كتاباً في القانون يقع في أربعة أسفار عثر عليه كما يعثر على كنز. وبيان ذلك أنه اشترى بثمن بخس من رجل انتوى الرحيل بعض متاعه، وكان صندوقاً به أوراق، قلبه فعثر في قاعه على كنزه وهو كتاب (نظرات في تاريخ إنجلترا) لمؤلفه بلاكستون، وكان من أشهر ما كتب في القانون في تلك الأيام!

وهو يعيش اليوم على راتبه الضئيل من عمله في البريد ومما كان يرسله الناس من قوت إلى الأسرة التي كان يقيم بينها نظير ما كان يقدمه إليهم من نصح أو يسوى بينهم من خلاف. وإنك لتلمح شخص المحامي الناشئ في شخص عامل البريد هذا. . . على أنه تقدم فعلاً ليدافع عن بعض الناس أمام المحلفين في بعض الجلسات القضائية في تلك الجهة. وعرف بسداد الرأي وقوة العارضة ومتانة الحجة، وما وقف يدافع يوماً إلا عما يعتقد أنه الحق

ومست قلبه في تلك الأيام لذعة من الألم، فقد ألم به ما يلم بالشباب من علل الشباب، وانعقدت أمام بصره سحب قاتمة من الهم كان مبعثها ما دب في قلبه من أمل جديد نحو آن ابنة صاحب الخان، فلقد علم، وهو صاحب البريد، أن فتاها انصرف عنها ونسي ما كان بينها لما نزل بأبيها من فاقة، وخيل إلى أيب أنه اليوم يستطيع أن يصل إلى قلبها، لولا مزاحم جديد يُدِلُّ عليه بماله وهو لا يدانيه في كفاية ولا خلق. . . على أنه في خجله من النساء لا يعرف ما يأخذ مما يدع، فهو في حيرة من أمره، وهو كما علمت متقد العاطفة موفور القوة مشبوب الخيال، وذلك ما صور له طيوفاً من الشجن أخذت تتزايد حتى ليضيق بها قلبه ويكاد الأمر أن يصل به القنوط. روى عنه أنه قال لأحد خلانه: (ربما ظهر مني حينما أكون في رفقة أنني أستمتع بالحياة في نشوة، ولكني إذا أويت إلى عزلتي

(أخذتني غالباً حال من الهم حتى لا أجرؤ أن أحمل معي مبراة

وللشباب هواجس وأحلام يحار المرء في تفسيرها وتعرف مصدرها، فهي من خفايا النفس الإنسانية، وكثيراً ما ينقبض المرء وهو في حال من الرضا أو هو في مثل حال الرضا. . . هل كان مرد همه إلى طموح نفسه وتوثب همته؟ أم كان ذلك إلى نوازع قلبه وهواجس خاطره؟ هل كان أيب يجب آن حقاً كما يكون الحب، أم أن إحساسه بما ينقص قدره في أعين الفتيات كان هو مبعث هواجسه ومدعاة زلفاه؟

إن في انصرافه إلى عمله وهو يحمل الخطابات في قبعته من دسكرة إلى دسكرة ما يلهيه بعض الوقت، وإن له في الكتب لعزاء وسلوة: له في شكسبير وبرنز ما تأنس به روحه ويثلج خاطره، وله في تراجم العظماء - وقد كان مقبلاً عليها - من معاني السمو ومواقف البطولة ما يبهج نفسه ويثبت قلبه

وأضيف إلى عمله في البريد عمل آخر دله عليه أحد خلصائه وهو تخطيط الأرض ورسم المصورات للطرق الجديدة التي كانت الحكومة تنشئها وتوضح معالمها للناس ليهتدوا بها في مسيرهم في تلك الأصقاع. ولقد حذق إبراهام هذا العمل الجديد وصار بعد توزيع البريد - وهو قليل - يحمل منظاره ولوحته وقلمه ويتنقل بين الأحراج يرسم

الطرق، وكان يأتي ذلك بما عرف عنه من الدقة في كل ما يعهد به إليه. . . ولكن الدائنين لم يدعوه فيما هو فيه، فأقبل أحدهم وباع جواد إبراهام وسرجه ولجامه في مزاد نظير ماله؛ وقد عزّ على إبراهام أن يشهد هذا البيع فابتعد حتى يتم؛ ولكن صاحباً له يدعى جرين تقدم فدفع المال المطلوب وخلص له الجواد ولقيه فقال له: (رد لي هذا المال حينما تصبح قادراً على ذلك، فإن لم تقدر فلا عليك منه يا صديقي) وأراد بعض الدائنين أن يبيعوا تلك الأدوات التي يقتات من العمل بها فجمع لهم بعض ذوي المروءة من أهل الجهة ما كانوا يطلبون من المال وأعفوا أدوات صاحبهم من ذلك البيع. ولقد مات جرين بعد حين وقام إبراهام يرثيه فاستعصت عليه الكلمات ولم يجد لديه غير الدموع

وجاء موعد الانتخابات وتقدم إبراهام من جديد يقدم نفسه للناس، وكتب له النجاح هذه المرة؛ وذهب ليتخذ مقعده في مجلس الينويس نائباً عن جهة سنجمون وكان المبدأ الذي نجح عليه هو مبدأ الهوجز إذا أردنا السياسة، وهو مبدأ الفضيلة والنبل والسمو إذا أردنا

. . .الخلق

ذهب عامل البريد ومخطط الأرض إلى حيث يجلس مع المنتخبين، وإن له في السياسة لشأناً بعد حين. هو الآن في الخامسة والعشرين وقد اختاره الناس لما خبروا من خلاله وما رأوا من سعة اطلاعه ورجاحة عقله؛ ولكنه فقير فكيف يذهب في ملابسه البالية إلى المجلس؟. . . اقترض ذلك الشاب المدخر لرياسة أمريكا في غد - بعض النقود فاشترى حلة جديدة وذهب إلى فانداليا عاصمة الينويس فاتخذ مكانه بين ممثلي الولاية. . . جلس يدرس ويفكر، لا تفوته عبارة ولا تفلت منه قضية، وكانت مشكلة العبيد تشغل بال الناس يومئذ في وضع من أوضاعها، كما كانت تشغل بالهم أمور أخرى تنحصر فيما كانوا يتوخون من وجوه الإصلاح في التجارة والصناعة وسبل الاتصال. اتضح من خلال إبراهام في المجلس ما عطف عليه القلوب، فقد رأى منه زملاؤه الإخلاص والحماس في غير تعصب، فهو يدافع عما يعتقد أنه الصواب أو الحق في قوة وفي إصرار يشبه العناد، حتى إذا تبين له أن الحق في جانب مجادله سلم له في سرعة تسليم الرضاء والغبطة. ورأى منه زملاؤه فوق ذلك قوة في التعبير عما يريد كان مبعثها حسن اختيار اللفظ أو كان مبعثها لقانة تواتيه بالكلمة المطلوبة لا تزيد ولا تنقص. ولقد أعجبوا منه بتلك الخلة التي ستكون في غد جانباً من أهم جوانب زعامته. . . وأنسوا منه خارج المجلس إلى خلة أخرى من خلاله اشتهر بها منذ كان في الغابة، تلك هي تلاوة الحكايات، فهو ما يفتأ يقص عليهم من قصصه ما يطربهم ويعجبهم

وكان إبراهام يزور نيوسالم كلما سمح له وقته بزيارة. وهو اليوم يحب آن كما يكون الحب. أكبرت صفاته وأعجبت برجولته وصارت لا تعدل به غيره؛ ثم أحبته وليس بعد الحب رابطة، وألفى إبراهام نفسه - وهو من عرفت قوة عاطفة وصحة وجدان - في ربيع العمر حقاً، لا يرى حوله إلا جمال الربيع ونشوة الربيع، ولا يحس إلا سر الربيع ووحي الربيع، يروح ويغدو مع صاحبته وكأنهما من فرط مرحهما طائران من طيور الخمائل. . . ولكن وا أسفاه! لن يطول هذا الربيع، بل إنه لينقلب إلى جحيم في سرعة خاطفة!. . . نزلت الحمى كما نزلت من قبل في كنتوكي فكان من ضحاياها طائره الجميل! وغدا إبراهام يرمض الحزن قلبه ويأكل الجوى أحشاءه. . . وتلك هي الصدمة الثانية بعد

فجيعته في أمه تحل به، فكأنها الضربة تأتيه في مقتل! لقد وهنت عزيمته وخارت قوته وذوى عوده، وصار الناس يرونه أحياناً هائماً على وجهه وهو يهذي كأن به جنة، حتى نصح له طبيب أن يرحل، فنزل ضيفاً عند أسرة صديقة كانت تقيم في مكان بعيد عن نيوسالم، ولكن همه ذهب معه إلى هناك حتى لقد شاطره الحزن ذات ليلة نفر من جلسائه حين سمعوه يصرخ من أعماق قلبه: (لا أطيق أن أذكر أنها ترقد هناك وحدها حيث ينزل المطر وتصخب العاصفة فوق قبرها) ولكم قطع من الأميال مرات بعد ذلك على قدميه فحج إلى ذلك القبر وبلله بدمعه!

ولكن اليأس يسلمه ثانية إلى الحياة حيث لا حيلة في البلوى ولا معدى عن الحياة. . . ويحين موعد الانتخابات مرة ثالثة فيتقدم فيفوز وقد ازداد الناس محبة له كما ازدادوا

له إكباراً بقدر ما اكتسب من خبرة فوق ما سلف من خبرته، وأظهرته الانتخابات هذه المرة للعامة خطيباً كأحسن ما يكون الخطيب، قام يحمل عليه أحد خصومه من الحزب الديمقراطي، وكان قد حصل بتغييره مبدأه على مرتب سنوي غير قليل؛ وقد علم الناس أنه كان يقيم في منزل أنيق في سبرنجفيلد في قمته تلك الحديدة التي يضعونها هناك لتمنع الصواعق. ولقد أسرف ذلك الخصم في الطعن على إبراهام وأعلن أنه يريد أن يحط من قدره في نفوس الناس. فوقف ابن الإحراج ورد عليه بقوله: (رأى هذا السيد أن يشير إلى حداثة سني، ولقد نسى أني أكبر في العمر مني في ألاعيب الساسة وتجارتهم. إني أود أن أعيش كما أود أن أرقي وأن تلحظ مكانتي، ولكني أفضل الموت على أن أحيا فأرى اليوم الذي أفعل فيه ما فعل ذلكم السيد، فأغير مبدئي من أجل ثلاثة آلاف دولار في العام، وأراني بعد ذلك مضطراً أن أقيم على رأس بيتي مانعة للصواعق لأحمي ضميراً آثماً من غضب رب أسأت إليه)

وإنك لتتبين مهارته السياسية فوق ما تلمح من صفاته في هذا الخطاب الذي أرسله إلى أحد رجال الحزب الديمقراطي.

كتب لنكولن (أنبئت أنك أذعت في الناس أثناء غيابي في الأسبوع الماضي أن لديك حقيقة أو حقائق لو اطلع عليها الناس لقضت نهائياً على أملي وأمل ن. ادوارد في حركة الانتخاب القائمة، ولكنك تأبى عليك مجاملتك إيانا أن تعلنها. وأنا أقول لك إنه ما من شخص يطلب الجميل أكثر مما أطلب؛ كذلك قلَّ في الناس من يقبل الجميل كما أقبل؛ ولكن الجميل إلي في هذه الحال معناه الجور في حق الناس؛ ولذلك فإني أستميحك أن تنصرف عنه. إن حيازتي ثقة أهل سنجمون ذات مرة أمر واضح؛ فإذا كنت قد أتيت أمراً من شأنه إذا عرف أن يحرمني تلك الثقة، سواء كان إتيان ذلك الأمر عن إصرار أو عن خطأ فإن الذي يعرف هذا الأمر ثم يخفيه إنما يخون صالح بلاده. وأنا لا يقوم في ذهني شيء عما عساه أن تكون الحقيقة أو الحقائق التي تتحدث عنها واقعية كانت أو مزعومة؛ بيد أن ما أعهده فيك من الصدق لا يسمح لي برهة أن أشك في أنك على الأقل تعتقد ما تقول. إني أراني مديناً لك بهذا الاعتبار الشخصي الذي أظهرته نحوي، ولكني آمل أن ترى إذا تأملت من جديد أن صالح الناس أهم من ذلك. وعلى هذا فلا نتحرج أن تعلن الحق. وأؤكد لك أن ذكرك ما لديك من الحقائق في صدق وأمانة لن يفصم ما بيني وبينك من عرى الصداقة. هذا وإني أرجو أن يأتيني رد منك على هذا ولك الحرية أن تنتشر الكتابين إذا أردت).

اقرأ هذا الخطاب تر كيف ملك إبراهام قلوب الناس بأمانته وإخلاصه ودماثته. ثم انظر إلى قوة حجته وروعة منطقه ودهائه؛ وتأمل في أدبه وتحشمه وهو يرد الإهانة عن نفسه. تلك لعمري خلال أحرار الشمائل وعظماء الرجال. . .

فاز لنكولن في الانتخاب وحق له أن يفوز. ولقد خطب الناس مرة فكان مما قاله: (سأسعى أن يفوز جميع البيض من يدفع منهم ضرائب ومن يحمل السلاح بحق الانتخاب (لا أستثني من ذلك النساء بأي حال) فإذا انتخبت فسأعتبر أهل سنجمون جميعاً. هم مرسلّي سواء من اختارني منهم ومن لم يفعل، وحينما أعمل في المجلس كنائب عنهم سوف أصدر في عملي عن إرادتهم في كافة الأمور التي أستطيع أن أعرف إرادتهم فيها؛ وفي غير ذلك سأسير وفق ما يمليه علي تقديري مراعياً مصالحهم أبداً)

ذلك هو دستور لنكولن وتلك هي أخلاقه في مجال السياسة ذلك المجال الذي سينضج فيه شخصه وتكتمل رجولته وتبرز مواهبه وتسفر مظاهر عبقريته. كان له في المجلس أصدقاء منهم ثمانية كانوا مثله في طول القامة، ولقد كانوا يجلسون رفقة يتحدثون، فعرفوا باسم التسعة الطوال، ولكن إبراهام كان أطولهم باعاً في المعرفة وأعلاهم مقاما في الخلق، فلقد ظهرت صفات ابن الغابة لهم في وضوح، فهم معجبون بدماثته وأمانته وبعد نظره،

وهم مفتونون ببلاغته وأسلوبه في الحوار والمجادلة، وهم يغبطونه على سعة صدره وشجاعته وصراحته، يحمدون له رقة عاطفته وشفقته وسلامة طويته، وهم فوق ذلك يلذهم حديثه وتطربهم أقاصيصه ويأسر قلوبهم تواضعه وأدبه وسذاجته

وإنه اليوم ليقرأ منظمة فقد مر العهد الذي كان يتناول فيه أي كتاب يصادفه. هو اليوم

يقلب صفحات التاريخ فليس ألزم منها لرجل السياسة؛ وهو يستزيد من القانون نصوصه وفقهه؛ وهو يدرس أحوال أمريكا من شتى نواحيها؛ يطيل النظر في تاريخ ساستها ويتأمل في مناهجهم في الإصلاح وأساليبهم في توطيد سياستهم؛ يستوعب ذلك كله ليسير على ضوئه فيما هو مقبل عليه. ومما استرعى اهتمامه يومئذ مسألة العبيد وتاريخها وتطورها ومكانها من السياسة العامة

يتخذ اليوم إبراهام لنكولن مكانه للمرة الثانية في مجلس مقاطعة النيوس وهو في السابعة والعشرين، ولا يدري هو ولا من يحيطون به من ممثلي الجهات في ذلك المجلس ماذا يخبئه الغد لذلك الرجل الطويل القامة، عامل البريد، مخطط الأرض، ابن الأحراج، ربيب العسر والفاقة ومحن الأيام!

(يتبع)

الخفيف

من والد إلى ولده

للأستاذ محمود خيرت بك

المهندس الشاب أبو بكر خيرت، ولد صديقنا الشاعر محمود بك خيرت، هدية من هدايا النبوغ لمصر. تخرج في هندسة العمارة من مدرسة الفنون الجميلة العليا بباريس بدرجة التفوق والامتياز، ثم بهر بأعماله الفنية رابطة المهندسين في فرنسا وإنجلترا فمنحوه الجوائز والأنواط تقديراً لنبوغه؛ وتقدم إلى المسابقة التي اقترحها بنك مصر لفندقه وعمارته في ميدان إبراهيم بالقاهرة فأحرز قصب السبق على ثلاثة وعشرين مهندساً عالميين من أجانب ومصريين وفاز بالجائزة الأولى الممتازة، وكرمه المهندسون المصريون وعلى رأسهم معالي حسين سري باشا، فهز كل أولئك من شعور أبيه فعبر عن سروره بولده، واعترافه للبنك، وشكره لله، بهذه القصيدة:

أين حُسن الربيع في إقبالِهْ ... نتَنشَّى مِن الصَّفا في ظلالِهْ
وابتهاجُ السماء والبدر سارٍ ... يتهادى في هالةٍ من جلاله
واهتزازُ الغصون تشدو القماري ... فوقها شَدْو زاخِرِ الشوق وَالِه
وابتسامُ العروس في ثوبها الشّ ... فِّ تبدَّت أعطافُها من خلاله
أين هذا من مُنتدًى غمَرته ... نشوة البشر يوم عيد احتفالِه
كرّموا فيه صفوةً من شبابٍ ... هام بالفن وارتوى من زلاله
وفتىً منهمُ عرفناه لمّا ... أحرز السبق رابضاً في مجاله
والدّجى مظلم الجوانبِ إلاّ ... إن بدا في السماء وجهُ هلاله
كان للفن من حضارة ميناً ... والأُلى قد سروْا على مِنواله
روعةٌ تسحر النفوس ومعنىً ... يفتن المعجَبين سِحرُ جماله
إنما كرّت الليالي عليَهْ ... فطوتْه موسّداً في رمالِه
لا نرى حسنه البديعُ ولا نَلْ ... مَس من مجده سوى أطْلاله
كالأسير الهزيل تنكره العَيْ ... ن وتبكي عليه في أغلاله
آن أن يرسل الزمان إليه ... مِن بَنيه من حَلَّه مِن عقاله
بَعثَ الفنُّ من ثراهُ أبو بك ... ر وأوفى على نواحِي كمالِه
كان بَراً ومن أحن على الف ... نِّ طواه الزمان من أشباله
أين شوقي وأين حافظُ كانا ... ينظمان الجُمان في رئباله
يا فتى مصرَ مَن بِمدِحك أولى ... مِن أبٍ أنت ذخره في اكتهاله
كم جَرى دمعهُ على عارضَيه ... هاطلاً كالسحاب في تَهطاله
يوم آثرتَ الاغتراب لكيما ... تأخذ العلم ناضجا عَن رجاله
كان من نفسك الشّجّية أشهى ... من حبيب شجاك يومُ وصالِه
تتقرّاهُ عند كل صبَاحٍ ... وترى إن غفوْت طيف خياله
شارداً لا يقرّ جنبك إلاّ ... إن رشفت العتيق من جِرْياله
فتنقَّلت كالهلال وهل يص ... بح بدراً إلا بفضل انتقاله
لم يكن مسرفا أبوك لدى الظّ ... نّ ولا كان سابحاً في ضلالِه
يوم ألْفاك وحدةً لجلال الف ... ن تُحي الرُثيث من آماله
فلقد شاءت المقادير أن عُد ... تَ إليه وأنت مِن أبطاله
والذي يعشق العلى يسهر اللّيْ ... ل طويلا وجدّه رأس ماله

ذاك فضل أفاضه بنك مصر ... هو بعض الطَّريف من افضاله
كل يوم نرى له حَسَناتٍ ... فخرهُ أنّها صَدى أعماله
وينمّ العبيرُ عَن عاطرِ المسْ ... كِ وكسْبُ السّباق عَن خياله
أنت يا بنكُ للكنانة عصر ... ذهبيٌ يجرّ ذيل اختياله
كنتَ للنّيل مطلع اسْتهلاله ... ورأيناك غاية استقلالِه
قُمت بالعبء أنت وحدكِ لا يل ... ويك عنه الثقيلِ من أحماله
ومهَرت البلاد صرحاً سيبقى ... للمدى شامخاً على أمثاله
شاهداً أن مصر فيها شبابٌ ... لا يُدانيه غيره في نضاله
قد كسبتَ الرضى من الله والنا ... س وكنتَ المشكورَ في أفعاله
محمود خيرت
وحي الشاعرية
للأستاذ حسن القاياتي
1 - الدينار في الطبق
هي فتنةً بنضارة الأُفُقِ ... فتألّقي يا أنجم الغَسَق
تهدي إليَّ البدرَ هَالتُهُ ... كتحية الدينار في الطبق
2 - اليوسفي
ويوسفّيٍ أصفر أنيقِ ... تحية الصديق للصديق
وتحفة العشيق للعشيق ... جرّدته من قشره الرقيق
فجاء مثل الرَّكَبِ الحليق
3 - الورد يعصر
تَنَظَّرَ صُبح النجم والصبح يسفر=لدى كبرياء الخطب والعزم أكبرُ
فتى النُّبْل يزكو بين لينٍ وشدَّةٍ ... فكالورد يُستهدى وكالورد يعصرُ
القَصَصُ
أقصوصة من بول هيس
جنون. . .
للأستاذ دريني خشبة
كان الصبح يتنفس عليلاً في الأفق الشرقي، وكان الفيزوف ينفث دخانه سحاباً طويلاً داكناً فوق نابولي والقرى المجاورة، وكان البحر النائم ملقياً رأسه الجبار على أَوَاذيّ سورّنتو، حيث انتشر الصيادون فوق الشاطئ وفي الماء وفوق الزوارق يعملون ويدأبون، لا فرق بين شيبهم وشبابهم، وكانت النساء يرفرفن فوق الأسطح القريبة كالأعلام المُنَشرة يؤدين أعمال الصباح. . . وكان الكل مبتهجاً سعيداً ولا سيما الفتى البحار أنطونيو الذي وقف في زورقه يملأ ناظريه من جمال الطبيعة المتبرجة فوق الشاطئ الإيطالي الفتان
لقد كان أنطونيو سعيداً هذا الصباح، لأن كثيرين من أهل سورّنتو يذهبون في مثل ذلك اليوم من كل أسبوع إلى قرية كابري ليبيعوا في سوقها ويشتروا. . . ولم يكن سعيداً لكثرة زبائنه فقط، بل كان سعيداً لشيء آخر. . . شيء عزيز. . . شيء هو حلم القلوب، وغذاء النفوس، ومسبح الخيال، ومستراد الحلم. .
وأقبل قسٌّ من سورّنتو، فجعل يدلف حتى وقف على السّيف أمام أنطونيو. . . ثم قفز فكان في الزورق، والفتى مع ذاك في شغل عنه. . . وعن الدنيا جميعاً
- أنطونيو يا بني!! ماذا يمنعك أن تبحر قبل أن تشتد الشمس؟
- لا شيء أيها الأب. . . سنبحر حالاً!
ولكن أنطونيو كان لا يني يبحث في الشاطئ بعينيه، يرسلهما وراء أيكة. . . وكان القس القلق يرى في نظراته الحائرة طيف حبيب تائه. . . في عالم مجهول. . .!! فيعذره!!
ثم بدت فتاة جعلت تخطر بين دَوْح السنديان وتُلوح بمنديلها فوق الشاطئ، فهفا قلب أنطونيو، وطفح وجهه بالبشر المفاجئ وارتجفت يده، وشاع فيه مرح عجيب، فسأله القس!
- وبعد يا أنطونيو؟! ألا تبحر بنا يا بني؟
- سنبحر أيها الأب. . . سنبحر. . .

وكانت الفتاة تتواثب فوق النؤى خفيفة رشيقة، فلما اقتربت هبّ الملاحون الخبثاء يغمزون ويلمزون، وإن فرض عليهم وجود القس احتشاماً كان يغيظهم ويحنقهم. . . ثم ركبت في فلك أنطونيو، ووقفت قريباً من القس الذي حياها قائلاً:

- لوريّللا!! عِمي صباحاً يا صغيرتي! أتصحبيننا إلى كابري؟

- أجل يا أبانا

- أحسب أن ليس معك نقود من أنطونيو؟! أَوْه! إن أنطونيو شاب طيب. . . وهو بلا ريب لا ينظر من أمثالك أجراً. . . بل بالعكس، لقد فرش لك قميصه، ولم يفعل ذلك من أجلي. . . ولكن أين عشرة قسيسين مثلي، في فتاة ريانة مثلك، في نظر هؤلاء الشباب!! وماذا تحملين إلى كابري يا لوريللا؟) وقبل أن تجيبه الفتاة مدت يدها إلى قميص أنطونيو فنحّته، ثم جلست وقالت تجيب الأب:

- ثوب، وحرير، ورغيف أيها الأب. . . الثوب لامرأة تصنع الأشرطة في أنا كابري! والحرير لامرأة أخرى. . . والرغيف لي. . . أتبلغ به. . .

- والحرير من غزلك أنت؟

- أجل أيها السيد

- أذكر أنك كنت تصنعين الأشرطة بيديك؟ أليس كذلك؟

- بلى أيها الأب، ولكن أمي قد تقدمت بها السن، ثم هي مريضة، بل شبه مقعدة، ونحن فقراء. . . فمن لنا بنول نشتريه وليس معنا من ثمنه شيء؟

- أمك؟! وا أسفاه! لقد أذكر أنني رأيتها في عيد الفصح الماضي!

- أجل. . . ولكنها مريضة اليوم. . . وهي تقاسي من زوابع الربيع ما لا تقاسيه في فصل غيره. . . أضف إلى ذلك زلازل الفيزوف ورجفاته. . .

- صلي من أجلها يا فتاتي، واضرعي إلى العذراء أن تكلأها. . . ولكن. . . خبريني يا لوريللا. . . لقد سمعت الملاحين الخبثاء يلمزونك وأنت مقبلة، فيقولون لك (هلمي أيتها العربية. . .) وهو نداء لا يليق بمسيحيه تقية مثلك، فما سبب هذا؟

- إنهم طالما يدعونني كذلك، مستهزئين بي، لأنني لا أشركهم في رقصهم وغنائهم وسائر عربداتهم. . . وهذا بالرغم من مسالمتي لهم دائماً. . .

وأغضت الفتاة، وجعلت تبحث في خضرة المياه بعينيها المحزونتين، كأنما راعها ما عرف القس من أمرها وأمر هؤلاء الملاحين. . .

وساد الصمت، وكان أنطونيو قد دفع الفلك في البحر فاحتواها الماء، وصارت سورّنتو تبتعد وتبتعد، وتسطع منازلها البيضاء في خضرة حدائق البرتقال، وفوهة الفيزوف تقذف بمثل ما في صدور لوريللا من حميم. . . ثم سألها القس:

- ألم تعودي تعلمين من أمر المصور شيئاً يا لوريللا؟ لقد سمعت أنه ذهب إليك مرة ليعمل لك صورة، وأنك رفضت فِلمَه؟

- ولم يريد أن يصورني أنا من دون بنات سورنتو؟ إن منهن من هي أروع مني جمالاً وأكثر فتنة! فلم يصورني أنا؟ لقد ذكرت أمي أنه ربما تصباني بها، أو أتلف بها روحي، ومن يدري فربما أضمر بها قتلي؟ من يدري؟!

- يا صغيرتي لا تصدقي هذه الخزعبلات! ألا تؤمنين بالله؟ ألا تثقين أنك دائماً في حفظه؟ وأن شعرة واحدة منك لن يصيبها أذى إلا بإذنه؟ فماذا يصنع واحد من بني الموتى بصورة في يده إن أراد بك سوءاً؟. . . على أنني أعرف أنه كان مغرماً بك، مشغوفاً بجمالك. . . وأنه لذلك أراد الزواج منك، لكنك أبيت! ولست أدري لماذا. . . إن الناس كلهم يمدحونه ويطرون أخلاقه. . . ولقد كان في وسعه أن ينتشلكم مما تقاسون من ضيق وشظف، ويريحكم من عناء ما تنسجون من أجل الحياة. . .

- تاالله يا أبانا لقد كان فقرنا سبب إحجامنا. . . إذ كيف يطيق ما نحن فيه من عوز، وما تقاسي أمي من مرض؟ لقد كنا نصبر كلاًّ عليه. . . هذا. . . وأنا؟! كيف أعيش في كنفه ذليلة بفقري وبيئتي؟ هل أنا سينوره؟! ماذا يقول لرفاقه حين يغشون داره؟ إنه يهرب مني حينذاك. . . أو. . . يذوب حياء

- كيف تقولين هذا يا لوريللا؟! إن الرجل الذي يحب لا يبالي ما تقولين. . . على أنه كان يستطيع أن يهاجر إلى بلد بعيد فيعيش في جنة بفنه، ويسعد بك إلى الأبد. . . أوه!. . . لقد كان رسولا من السماء بعثته لإنقاذكم فطردتموه!

- . . .لا علينا من ذلك أيها الأب! إنني من جهتي. . . لا أرغب في الزواج مطلقاً
- تعنين أنك نذرت أن تكوني راهبة؟
-. . .؟. . .
- عنيدة ما أحسبك تزيدين أمك إلا مرضاً يا لوريللا؟ بأي حق ترفضين هذه اليد الكريمة التي بسطتها لك السماء لتخلصك ولتنقذ حياة والدتك؟
- آه! إن لدي سبباً. . . بيد أنني لا أبتغي أن أبوح به لأحد!
- حتى ولا لي؟! ولا لي أنا. . . موضع اعتراف العذارى جميعاً؟! أنا يا لوريللا الذي طالما كنت صديقك ومفرّع الأحزان عن فؤادك؟
-. . .؟. . .
- لا، لا يا صغيرتي! إنك لا تعرفين من هذه الحياة إلا قليلاً، فأزيحي عن فؤادك ما ينوء به. . . ثم إني أعدك أن أكون أول مؤيد لك إن كنت على حق. . .

وقبل أن تجيبه لوريللا، أرسلت عينيها ناحية الملاح الشاب الذي كان موزع الفكر بين الحبيبة وبين الشراع وبين البحر. . . والذي كان يحجب عينيه بطرف من وفاء رأسه وهو مع ذاك مصغ لحديث القس

ثم تكلمت لوريللا فذكرت للحبر الجليل ما يفزعها من الزواج، لأنها تحتفظ بذكريات مشجية مما كان يحدث بين أبويها من نضال وشقاق. . . (حتى لقد كان لا يتورع أبي من مد يده إلى أمي بالضرب المبرح الذي كان سبب ما تقاسيه اليوم من الأمراض. . . أبداً لا أنسى هذه الوحشية أيها الأب، تلك الوحشية التي أسميها وحشية الزواج، والتي من أجلها أوثر أن أظل عانساً إلى الأبد. . . ثم أنا لا أعرف قيمة هذه العلاقة التي تنشئونها بين رجل وامرأة، فيظل الرجل قويًّا وتظل المرأة ضعيفة، يقبلها إذا أراد، ويتجهم لها إن شاء، ويلعب بها كما تلعب الرياح بالريشة التي لا حول لها. . . أوه! أقسم لك أيها الأب، لو أنني كنت في مقام والدتي لعرفت كيف أذود وحشية زوجي وأدفع أذاه!! تالله لأسقينه ضعف ما كان يحاول أن يسقيني! مسكينة يا أمي! لقد كنت ضعيفة فلم تحاولي أن تدافعي عن نفسك، وسميت ضرب أبي إياك محبة، والسكوت عن هذا الضرب طاعة. . .)

ويحاول القس أن يخفف من نقمتها على حياة الزوجية، ولكن محاولاته تذهب مع الريح؛ ويذكر لها أن الأزواج ليسوا سواسية، وأنهم ليسوا جميعاً قساة القلوب غلاظ الأكباد كما تظن، وأن الشاب المصور الذي أحبها كان له قلب رءوف رحيم بحكم فنه وميوله الروحية

العالية. . . ولكن لوريللا تدفع عظاته في ثورة جامحة ونقمة على الرجال لا تعرف التسليم

ويسمع أنطونيو هذا كله. . . فيقف من الفتاة على مثل فوهة فيزوف!

ومتع النهار، وألقت الفلك مراسيها عند كابري، ونزل أنطونيو في الماء ليحمل القس إلى الشاطئ، ثم عاد ليحمل لوريللا. . .

- لا. . . لن يحملني رجل ما حييت!

ثم حسرت عن ساقيها. . . الساقين الجميلتين المرمريتين. . . ونزلت إلى الماء السعيد! حاملة حزمتها. . . وتبعها أنطونيو. . . وفوق كتفه سلة من البرتقال سيبيعها في سوق كابري

ورجاها القس أن تذكره عند أمها، وأن تذكر لها أنه ربما زارها غداة غد. . . ثم أخذ طريقه إلى كابري. . . وأخذت طريقها إلى أنا كابري. . .

وكانت في نفسها أشياء. . . وكانت في نفس أنطونيو أشياء. . . فلما بعد القس التفتت فجأة لترى إلى أنطونيو في الفلك. . فما كان أشد حياءها حين رأته خلفها، وعيناه مسمرتان في عينيها!

وباع أنطونيو برتقاله. . . وعاد في ساعة إلى الفلك. . . وجلس فيه على أحر من الجمر ينتظر عودة لوريللا!

وما هي إلا ساعة أو نحوها حتى أقبلت الفتاة تتهادى كالقطاة وقد نهد ثدياها واهتزا، ولعبت فوقهما شياطين البحر الأبيض. . فلما رآها أنطونيو وثب في الفلك، ونشر الشراع، ورفع المرساة واستعد للإقلاع بصاحبته من فوره

وجلست لوريللا في طرف المركب، وولت ظهرها للملاح الشاب، بحيث لم يكن

يستطيع أن يرى إلا صورة جانبية (بروفيل) من وجهها الجميل، مطبوعة في السماء الصافية مرة، وفي الماء الساكن مرة أخرى
لقد كان نصف فمها الجميل الخمري الأحمر، وخدها الأسيل الوردي، ووجنتها الناصعة ذات الزغب، وعنقها الطويل الشفشاف، لقد كان ذلك يثير في قلب أنطونيو صنوفاً من العذاب الخائف، والألم المذعور. . . لا عهد له بمثلها أبداً. . .
ولم يقلع أنطونيو. . . وأخرجت الفتاة رغيفها وأخذت تتغدى. . .
وأخرج الملاح برتقالات فقدمها لها وقال: (لا تحسبي أنني ادخرتها لك. . . بل. . . لقد سقطت من غير قصد من السلة قبل أن ننزل إلى البر، فان شئت فكليها. . .
- بل كلها أنت. . . فالخبز القفار يكفيني!
- إنهن خير ما يؤكل في هذا الحر القائظ، لا سيما وقد مشيت كثيراً!
- لقد شربت في الطريق، وهذا حسبي!
- إذن. . . خذيها لوالدتك!
- عندنا برتقال كثير، وسنشتري غيره إن نفد!
- وماذا لو أخذت هذه البرتقالات، وقدمتها إليها مع تسليماتي؟!
- وكيف، وهي لا تعرفك؟
- خبريها عني!
- أخبرها عنك وأنا لا أعرفك؟
لقد كذبت لوريللا في هذه الدعوى. . . فلقد كانت تعرف أنطونيو، وكان أول هذه المعرفة في يوم كان يبثها حبيبها المصور هواه عند شاطئ البحر
ياله من يوم هائل ذلك اليوم! لقد لمح نفر من الملاحين الحبيبين الصغيرين يتناجيان فتغامزوا بهما، ثم أنشئوا يحذفونهما بحصوات. . . لكن أنطونيو الشجاع، لم يرضه ذلك المسلك المعيب الشائن من رفاقه، فانبرى لهم، ودفع عن الحبيبين أذاهم. . . فكيف مع ذاك لا تعرفه لوريللا!؟
ثم جلسا صامتين. . .
وبدا للملاح العاشق أن يبحر من فوره قبل أن يصل أحد فيتلف عليه تدبيره الذي خطر له في مثل البرق
وتعمد أنطونيو أن يدخل بالفلك في صميم البحر. . . ليكون بعيداً من الشاطئ ما استطاع. . . فلما حصل ثمة. . . أنزل الشراع فجأة، وترك الفلك تتقاذفها الأمواج. . .
ثم توجه نحوها وهتف بها يقول:
- أنت لا تعرفيني؟ إذن يجب أن أضع حدًّا لعبثك بي! وينبغي أن أطلقك على ما أترع به قلبي بسببك. . . إنني لا أطيق أن أصبر على طول صدك يا لوريللا. . .!
- ماذا تعني؟ أي صد وأي عبث؟ أتعني أنك تحبني؟ إذن فاعلم أنني لن أحبك، ولن اقبل أن أتخذك بعلاً؛ لا أنت ولا أحد غيرك، أسمعت؟
- كلام ترسلينه في الهواء! غرور وخيلاء! أليس لك قلب؟ لم جئت إلى هذه الدنيا إذن؟ إنك أنثى، أليس كذلك؟ فلم خلقت أنثى؟ إنك لا بد متزوجة يوماً ما. . . ولو برغمك!
- من يدري؟ هل اطلعت الغيب؟ ثم ما أنت وهذا؟
- ما أنا وهذا؟ ألم تدركي بعد؟ إني أخشى أن تكوني من نصيب غيري! إن هذا يخرج بي عن صوابي! إنه يصيبني بالجنون
- وإذا أصبت بالجنون، فما أنا وذاك؟ هل وعدتك بشيء فأنت تجن إذا أخلفتك موعدي؟ أي حق لك عليّ؟!
- أي حق؟ حق عظيم يا لوريللا. . . حق ليس صكا على ورق، بل هو هنا. . . في صفحة قلبي. . . حق يجعلك لي من دون العالمين. . . لن أطيق أن أراك ذاهبة إلى قداس مع سواي؟! الموت دون ذاك. . .!
- أنت حر تقول ما تريد. . . ولن تخيفني تهديداتك. . . ثم أنا حرة كذلك. . .
- وينبغي ألا تتمادى في هذا الغي. . . إني لن أسمح لفتاة شموس عنيدة مثلك أن تعذبني هذا العذاب الطويل. . . هذا غير محتمل. . . أنت هنا في قبضتي. . . ويجب أن تنفذي مشيئتي!!
- إذا استطعت أن تفعل شيئاً فدونك!. . . أتريد أن تقتلني. . . إن. . . خالفتك؟
- أنا لا أحب أن أصنع شيئاً فآتي على نصفه، واترك النصف الآخر. . . إن هذا البحر

الزاخر اللجي يسعنا جميعاً، ولن يضيق بي وبك. . . يجب أن نقر في أعماقه معاً. . . أنا. . . وأنت
ثم انقبض عليها وأمسك بذراعها، وحاول أن يحملها ليهبط معها إلى البحر. . . بيد أنه صرخ فجأة. . . لأن لوريللا كانت في هذه اللحظة كاللبؤة المغضبة. . . فقد فتحت فمها الجميل الفاتن ثم أهوت على يمين أنطونيو، فقضمت أنامله، وانبجس الدم الحار الثائر متفجراً كأنه يتدفق من ينبوع. . .
- ها. . . أرأيت؟ ها قد امتثلت لأوامرك كما ادعيت. . . والآن. . . ربما ما تزال تحسب أنني في قبضتك. . . أنظر!!
ثم قفزت في البحر الهائج الجياش. . . وغاصت في الماء. . .
وصرخ أنطونيو. . . وأرسل عينيه المفزوعتين تبحثان في اللج، وتضربان في ثنايا الموج. . . لكنه لم ير شيئاً. . . ولما التفت إلى الخلف، وجد الفتاة تسبح نحو الشاطئ، وهي تكافح العباب المتلاطم، وتركب بجسمها الأهيف الجميل فوق أعراف الموج المضطرب
- لوريللا. . . لوريللا. . . قفي. . . عودي إلى الفلك. . . إن المسافة طويلة. . . نحن من الشاطئ على ثلاثة فراسخ يا أختاه. . .
لكن الفتاة أصمت أذنيها. . . وانطلقت تسبح. . .
وفي سرعة البرق، نشر أنطونيو شراعه، ولوى عنان الزورق الكبير، وذهب في إثرها. . . وجعل يرجوها ويتوسل إليها. . . لكنها مضت في سبيلها في البحر سَرَبا. . .
- لوريللا. . . وماذا تصنعين إذا بلغت الشاطئ؟ إننا على مسيرة ساعات من سرونتو. . . عشرون ميلا يا أختاه!!
ولم تعره لوريللا التفاتاً. . . بل ذهبت تذرع البحر في غير مبالاة. . . فلما كانت على سَبحة أو سبحتين من الشاطئ، لوت رأسها نحو الفلك، وقالت لأنطونيو مستهزئة: (أما وقد وصلت فسأركب. . . وحسبي أن أريتك أنني لست في قبضتك!!) وتعلقت في حبال السفينة، ووثبت كالغزالة، وراحت تعصر الماء من ملابسها، فانهمر من تضاعيفها غزيراً ثجاجاً
ونظرت إلى يديه، فوجدت الدم ما يزال يتدفق من يده، فنزعت منديل رأسها، وألقته إليه قائلة: (خذ. . . أربط بهذا جرحك) لكن أنطونيو لم يفعل، بل ظل يرنو إليها بعينين جائعتين ظامئتين معجبتين. . . فتقدمت هي، وربطت يده، ثم جلست بجانبه، وتناولت أحد المجذافين، وراحت تعمل به في الماء، لأن الريح كان قد تغير هبوباً. . . وحدجته لوريللا وقالت له: (وسترى أيضاً أنني أعرف منك بصناعتك. . . هلم فاعمل كما أعمل إن استطعت. . .
وكانت أم الملاح الشاب تنتظره عند المرفأ، فلما رأت ما به سألته ماذا أصابه. . لكنه تضاحك، وقال إن مسماراً خدشه. . .
ونزلت لوريللا. . . وهتفت بالملاح أنها ستعوده، وستأتيه بحشائش وأعشاب لها نفع عظيم في مثل جرحه
ولم ينم أنطونيو برغم ضعفه الشديد وإعيائه المضني، ولم يخف ألمه برغم الماء الساخن الذي أعدته له أمه، والذي نضحه على الجرح مراراً. . بل ظل الدم يتدفق. . وظل الفتى يتقلب. . وظل مع ذاك يفكر في لوريللا
وكان ينظر إلى منديلها كأنه قُنية غالية، أو نفحة من السماء أو تذكار عزيز لهذه المعركة التي انهزم فيها في عرض البحر. . . وفي. . . معمعان الحب!
وفي الوقت الذي قطع أنطونيو فيه كل أمل من لقاء لوريللا. . . وفي هدأة الغسق الساكن. . . دخلت لوريللا الجميلة الهيفاء. . . لوريللا. . . الحلم الجميل الساحر. . . تحمل الأعشاب التي وعدت أن تأتي بها لمعالجة الجرح، فقال لها أنطونيو:
- آه. . . منديلك، لقد أتيت تفتقدين منديلك
لكنها لم تجب. . . بل بحثت عن وعاء، وتناولت يد أنطونيو ففكت الرباط عن الجرح، وكان قد تورم قليلا، فغسلته بماء عصرت فيه من أعشابها، ثم وضعت من الأعشاب عليه ما لا يؤذيه، وربطت اليد المحمومة الساخنة برباط نظيف تبلى أحضرته معها. . . فما هي إلا لحظة حتى زال ألم أنطونيو. . . فافتر باسماً وهو يقول:
- أشكرك يا لوريللا. . . وإذا كان لي أن أطلب شيئاً، فهو أن تغفري لي!

- بل أنا الذي أطلب الصفح يا أنطونيو. . ففي الحق. . . لقد غاليت معك في هذه الوسائل العنيفة. . . والآن. . . ما بال هذه العصّة؟!
- لقد صنعت ما صنعت دفاعاً عن نفسك. . . وأنا ما أزال أشكرك!
- وشيء آخر يا أنطونيو! ألا تدري أنك قد فقدت (جاكتتك) في البحر وفيها نقودك. . . أجور المسافرين. . . وثمن. . . البرتقال!
- هذا لا يهم يا لوريللا!
- بل. . . لقد كنت أوثر أن أعوضك عنها لو استطعت. . . على أنني لا أملك إلا هذا الصليب الفضي. . . خذه. . . لقد تركه لي المصور يوم أن جاء يخطبني
- وما أنا وهدية من خطيبك؟ إنني لن أمسه أبداً
- لا تحسب أنني أقدمه هدية بدوري. . . لا. . . بل خذه فإنه ينفعك!
- بل خذيه وانصرفي مشكورة

وأخذت المنديل والصليب، ثم وضعتهما في السلة الصغيرة التي حملت فيها الأعشاب. . . وحينما أن تنهض من جانب أنطونيو. . . نظرت إليه. . . وإذا عبرات حرار تتحدر فوق خديها فجأة. . . وينظر إليها الملاح النائم. . . فينهض كالظليم. . . ويأخذها في ذراعيه. . . ويطبع على فمها الصغير المرتجف قبلة. . . ليس مثلها قط قبلة. . . ثم ينحط في فراشه فيبكي. . . ويستخرط في البكاء. . .

- لوريللا. . . أليس الأفضل أن نتزوج؟!
- وهل في الدنيا أفضل من ذلك يا أنطونيو. . .؟

دريني خشبة

البريد الأدبي

وفاة دانونزيو شاعر إيطاليا العظيم

نعى البرق في 2 مارس الجاري شاعر إيطاليا العظيم جبرييل ' 75 سنة مليئة حافلة، وبعد حياة مشكورة موفورة. . . وقد ولد الشاعر سنة 1863، وظهر أول دواوينه سنة 1880، أي في سنة السابعة عشرة، ثم والي نشر أشعاره بعد ذلك فدل على حيوية دائبة ونبوغ عظيم. وقد كان دانونزيو مولعاً بمواطنه الكبير كاردوتشي الذي يطلق عليه الإيطاليون (أبا الشعر) وأبا الأدب الإيطالي الحديث، ولذا فقارئ دانونزيو يحس تأثره في كثير من الأحيان بكاردوتشي ولا سيما في قصيدته الطويلة (أنشودة للشيطان) التي ثار فيها على المسيحية وعزا إليها انحطاط إيطاليا وتأخرها بعد أن كانت سيدة العالم في ومن الرومان. . . على أن دانونزيو مزيج عجيب من الإغريق واللاتين والفرنسيين والإنجليز، وقد ترك فيه كل من هؤلاء أثراً كبيراً كان يطفو بأدبه على عباب آدابهم الزاخرة، ومع ذاك فقد كانت له شخصيته القوية المستقلة. . . وكثير من نقاد الآداب يخالفون الإيطاليين في نسبة نهضة الدب والشعر في إيطاليا إلى كاردوتشي، فينسبونها إلى دانونزيو. . . وهذا حق. . . فقد أدخل دانونزيو على الشعر الإيطالي كثيراً من صنوف التجديد استعارها له من الشعرين الإنجليزي والفرنسي، واستطاع أن يلفت إليها مواطنيه، بل أن يفتنهم بها. . . وكان يتوسل إلى ذلك بالأغاني، حتى إذا استساغوها أنشأ ينظم لهم الأقاصيص الغنائية فاقبلوا عليها إقبالاً شديداً والميزة التي يتفرد بها دانونزيو على جميع شعراء العصر الحاضر هي قدرته القوية على الوصف. وفي قصة (الرسالة) التي نشرت في الأسبوع الماضي دليل على ذلك وإن تكن أقصوصة صغيرة. ودانونزيو يصف الوصف البارع ثم يضفي على وصفه أزهى ألوان الطبيعة، وهو هنا مصور دقيق يربط اللون بالضوء ربطاً عجيباً. . . وقد يشغله ذلك عن القصة نفسها، ولذلك يضيق به بعض قرائه في حين يفتتن به بعضهم افتتاناً يخرج بهم إلى حد الغرام. . . وأستاذ دانونزيو في تلوين أشعاره على هذا النحو هو الشاعر الإنجليزي كيتس

وقد كان دانونزيو مولعاً بالأسلوب الجزل والعبارة الفخمة، وكانت له قدرة مدهشة على

استعمال الغريب استعمالاً يجعله أرقّ في فؤاد القارئ من الموسيقى. . . وذلك ملحوظ في شعره ونثره على السواء

وكما كان دانونزيو إمام شعراء إيطاليا فكذلك كان إمام كتابها. . . وستعيش قصصه، وتخلد، لأنها قصص من النمط العالي الرفيع. . . وإذا كان هناك ما يؤسف له في هذه

القصص، فذاك. . . هو هذا الإفحاش البالغ، والأدب المكشوف الذي كان دانونزيو مولعاً بهما في شبابه، مما جعله زعيم المنحطين في الأدب الإيطالي الحديث. . . ولعله قد تأثر بالمنحطين في الأدب الإنجليزي وعلى رأسهم أوسكارويلد وجويس ولورنس وأحسن قصصه هي على التوالي (طفل السرور والفريسة - وانتصار الموت - وعذارى الصخور - ولهب الحياة

ومن أروع دراماته فرنشسكا درايميني وجيوكندا. هذا وسنعرض لبعض آثاره في أعداد تالية

وقبل أن نختم هذه النبذة يجب أن نشير إلى سخط الأدباء في العالم أجمع أثناء الحرب الحبشية حين أرسل الشاعر تحيته إلى الجنود الإيطاليين الذين ذهبوا إلى الحبشة لتقتيل أبنائها. . . والشاعر معذور بطبعه في موقفه إزاء هذه الحرب، فلقد كان جندياً وكان طياراً وقد اشترك في حرب فيومي المعروفة

المجمع اللغوي في دورته الأخيرة

اختتم المجمع الملكي للغة العربية دورة اجتماعه الخامسة في الشهر الماضي بعد أن عقد خمساً وثلاثين جلسة نظر في أثنائها في كثير من المصطلحات في علوم الأحياء والرياضة والطبيعة، فأقر منها قرابة خمسمائة مصطلح، ثم نظر فيما قدم إليه من قوائم الأعلام الجغرافية التي أخرجها حضرات الأعضاء على القواعد التي وضعها المجمع في كتابة الأعلام الأجنبية بحروف غربية فأعاد النظر فيما سبق أن أقره واستأنف البحث في قواعد جديدة وقرر إعادة القوائم إلى الأعضاء لمراجعتها وإصلاحها بحسب القواعد التي استحدثت

ثم نظر في قائمة وضعها الأستاذ الدكتور نلينو عضو المجمع وأحصى فيها ما عثر عليه من الأغلاط الشائعة في المصورات الجغرافية المستعملة في المدارس المصرية والشرقية

فيما يتعلق بالبلاد الآسيوية الإسلامية والسودان وصحراء لوبيا. فناقش المجمع في هذه القائمة وراجعها على المصادر المعتمدة ثم قرر إرسالها إلى وزارة المعارف لكي تتلافى هذه الأغلاط

وكذلك بحث المجمع في موضوع إصلاح الكتابة العربية وابتكار طريقة للكتابة تغني عن الشكل وتضمن النطق الصحيح فتألفت لذلك لجنة طلب إليها أن تواصل البحث والمراجعة وتعد نتائجها للدورة المقبلة

ومن قرارات المجمع في هذه الدورة الاتصال بأصحاب الآلات الكاتبة المشهورة والتفاهم معهم على وضع الرموز التي أقرها المجمع للأعلام الجغرافية بين حروفها، وطبع المصطلحات التي أقرها في العلوم والفنون والآداب في قوائم مستقلة على ترتيب معجمي تيسيراً لإذاعتها، والاتصال بالجهات الرسمية في الدول للحصول على القوائم الشاملة لأعلام البلاد كالجامعة العثمانية للحصول على أسماء بقاع الهند ومصلحة الصحراء للحصول على أسماء الأمكنة بين النيل والبحر الأحمر واتحاد البريد الدولي للحصول على دليل البريد الذي يصدره.

معاهد الأزهر واللغة الأجنبية

جاء في بريد الرسالة (242) وهي تتحدث عن اشتداد الرغبة في الأزهر ومعاهده والإقبال عليه - أنه (لوعني الزهر بتقرير دراسة لغة أو لغتين أجنبيتين في معهد أو معهدين من معاهده لسبق المدارس المدنية بألف شوط في مضمار الحياة)

وهذه مسألة ظاهرة الفائدة، وقضية واضحة اللزوم، وليس من حاجة إلى تجربتها في معهد أو معهدين من معاهد الأزهر، بل الواجب تعميمها في كافة المعاهد على أنها قد جربت في (كلية بيروت الشرعية) التي أقدم على إنشائها برغم الصعوبات والمعارضات وقلة الواردات سماحة مفتي لبنان الأستاذ الشيخ توفيق خالد، فكانت فائدتها جليلة جداً، إذ أصبح طلابها يستطيعون إذا شاءوا دخول فحوص البكالوريا العامة، كما أنهم يستطيعون أن يدخلوا في إحدى كليات الأزهر العالية، ثم إن كليتنا تدرس مقرر الأزهر الثانوي كاملا وتزيد عليه اللغة والآداب الفرنسية، وهي كما قال سعادة العشماوي بك وكيل وزارة المعارف المصرية في زيارته الأخيرة إياها في هذا الأسبوع: (ليست إلا معهداً من معاهد

الأزهر) ويرى المدرسون في الأزهر الشريف خريجي هذه الكلية في العام المقبل إذا شاء الله
هذا هو الطريق الوسط الذي لا طريق غيره. فيا ليت هذا الطريق يكثر سالكوه، فينشأ أمثال هذه الكلية في الشام والعراق. ويا ليت المدارس المدنية تفي (أيضاً) بتدريس القرآن والعلوم الإسلامية. إن لم يكن ذاك لأنها دين لا بد منه فليكن تدريسها لأنها مواد علمية قيمة، وثقافة لا بد منها لكل رجل مهذب، وعالم متخصص
علي الطنطاوي
بين سابور وفالريان
جاء في مقال الأستاذ محمد عبد الله عنان (بين تيمورلنك وبايزيد) المنشور في العدد الأخير من الرسالة أن تيمورلنك وضع بايزيد بعد أسره في قفص من حديد كما فعل قيصر الروم مع سابور ملك الفرس
وهذا على النقيض مما وقع تماماً، غذ أن سابور الأول هو الذي أسر قيصر الروم الذي ظل في أسره إلى أن مات وذلك أن سابور بعد فترة هدوء بينه وبين الروم مدة أربعة عشر عاماً تقريباً - كان في خلالها منهمكاً في حروب مع أعدائه الطورانيين المتاخمين لحدوده الشرقية - رأى أن الفرصة مناسبة، بسبب اضطراب الحالة الداخلية في الإمبراطورية الرومانية، لاقتطاع بعض أجزائها المتاخمة لحدوده الغربية وضمها إلى رقعة ملكه الواسعة. فسار على رأس جيش كبير يرفرف عليه علم فارس المرصع وبدأ بمهاجمة المدينتين الحصينتين إدسا ونصيبين اللتين لم تلبثا أن وقعتا في قبضة يده وكان قيصر الروم إذ ذاك هو الإمبراطور فالريان فهرع لملاقاة عدوه ومحاولة صد تياره الجارف ولكن بمناورة حربية بارعة تمكن سابور من وضع الإمبراطور في موضع لم يجد معه بداً من الاستسلام بجيشه بأسره لسابور الظافر
وبعد الانتهاء من فتوحاته التي اقترنت بالنار والدم عاد سابور إلى عاصمة ملكه حاملا معه أسيره الإمبراطوري الذي ظل في أسره إلى أن مات
ولا يعلم بالضبط مدى صحة الإشاعة التي تقول إن سابور كان يضع أسيره في قفص من
حديد ولا يبعد أن يكون قد فعل ذلك زيادة في النكاية بالروم وإمعاناً في إهانتهم وإذلالهم، غير أن بعض المؤرخين يستبعد ذلك ويرجح أن سابور كان يعامل فالريان معاملة حسنة بل وكان يوليه شيئاً من الإكرام
أما بعد وفاة فالريان فالمحقق أن سابور أمر بنزع جلده وحفظه تخليداً لنصره الباهر على الروم ولإضافته إلى مفاخر فارس الحربية
وقد سجل سابور أيضاً هذا الحادث الفريد بنحته نحتاً بارزاً ضخماً على الصخر بالقرب من السابورية وهي المدينة التي أنشأها سابور وسماها باسمه، ففي هذا النحت نرى سابور ممتطياً صهوة جواده وقد ركع فالريان على الأرض أمامه ووقف خلف سابور عشرة فرسان يمثلون الجيش الفارسي الظافر، بينما اصطف خلف فالريان عدد من الجنود الرومانية يمثلون الجيش الروماني المأسور
هذه ملاحظة عنت لي لدى قراءة مقال الأستاذ عنان الشائق رأيت أن أسجلها خدمة - كالمعتاد - للحق والتاريخ
قارئ
النشاط المدرسي في المدارس المصرية
اقترح علماء التربية عطلة بعد الظهر في منتصف الأسبوع لإراحة المدرس والتلميذ على السواء ولتكون فترة استجمام وتجديد قوى الذهن لبقية أيام الأسبوع. . . وكان جميلاً جداً أن يطبق هذا النظام في مصر، فعطلت الدراسة بعد ظهر يوم الاثنين من كل أسبوع، وقد تحقق أثر هذه العطلة القصيرة، وبدا النشاط الذهني في المدارس عامة نتيجة له. . . ولكن سرعان ما انعكست الآية وضاعت الفائدة من هذه العطلة بتكليف الجماعات المدرسية بالحضور بعد ظهر يوم الاثنين إلى مدارسهم لتسخيرهم في ألوان من الأذى والإرهاق، يسمونها ألوان النشاط المدرسي. . . وهو نشاط أشبه بالركود، بل الموت! فهذه جماعة تعمل أشغالا من الأركت بعد الغداء بساعة أو ساعتين، وتلك أخرى تنشد أناشيد ميتة لا روح فيها، وثالثة اجتمعت للتفرج بكتب لا

غناء فيها، ورابعة، وخامسة، والكل يشكو في سره إلى الله من هذا التكليف السخيف الذي أطار من خيرة التلاميذ عطلة بعد ظهر الاثنين
التي أصبح التلميذ الغبي وحده هو الذي ينتفع بها. ولا ندري لم لا يخصص وقت للنشاط المدرسي في صلب جدول توزيع الحصص ليشترك فيه جميع التلاميذ، وليكون أجدى مما هو في شكله المرهق وأسلوبه السقيم؟
(معلم)

أول نشرة جوية في التاريخ

منذ مائة سنة (19 يناير سنة 1837) أصدر شاب إيرلندي يدعى بَتْرِك مارفي أول نشرة جوية عرفها التاريخ لسنة كاملة تنبأ فيها عن الحالة الجوية لأيام السنة يوماً فيوماً من حيث الحرارة والبرودة والمطر والزوابع. والعجيب في أمر هذا الشاب أنه لم يكن من علماء هذه الأبحاث المناخية، لكنه مع ذاك تنبأ في نشرته أن الحرارة ستنخفض إلى أدناها في يناير من ذاك العام، وحذر الناس بالفعل من العواقب الوخيمة التي ستنجم عن هذا الانقلاب المناخي المفاجئ. . . لكن الناس وفي مقدمتهم العلماء سخروا منه واستهزءوا به، فلما كان الأجل المضروب صدقت نبوءة مارفي إلى حد بعيد، فاشتد البرد وانخفضت درجة الحرارة في جهات شتى إلى 14 تحت الصفر (46 درجة تجميدية!) وبدأ الناس يموتون بالمئات في الشوارع والحقول، وأخذت القطط والكلاب تفنى بالآلاف كل يوم، وانفجرت مواسير المياه وأنابيب الغاز في أكثر المدن وتلفت المحصولات، ونفقت البهائم وعمت المصائب والويلات، وعجزت الحكومة عن مقاومة الكارثة وتخفيف آثارها. . . ولما خفت وطأة البرد اهرع الناس إلى (دكان) بترك مارفي ليشتروا نشرته، وأقبلوا من كل صوب يتلقفونها بثمنها (شلن ونصف) واشتد زحامهم حتى استدعى ذلك تدخل البوليس. . . وقد يعجب القارئ إذا عرف أن كل مطابع المدينة كانت تعمل ليل نهار في طبع الأعداد المطلوبة والتي انتشرت في أنحاء بريطانيا خاصة وأوربا عامة. . . ولم تمض سنوات حتى اصبح مارفي من أغنياء العالم وعلمائه على السواء

استراليا بعد 150 سنة من الاستعمار البريطاني

في 26 يناير الماضي أتم الاستعمار البريطاني لقارة استراليا سنته الخمسين بعد المائة، إذ يرجع تاريخ هذا الاستعمار العتيد إلى 26 يناير سنة 1788، حينما اقلع الفيس أميرال
آرثر فيليب بجانب عظيم من الأسطول البريطاني لإنشاء ويلز الجديدة الجنوبية أولى المستعمرات الإنجليزية في هذه القارة الغنية الواسعة. هذا ويرجع الفضل في استكشافات استراليا إلى الكابتن كوك قبل هذا الاستعمار بسبعة عشر عاماً (1770). والشعب الأسترالي الذي هب هذا العام يحتفل بتلك الذكرى العظيمة هو شعب راق متمدين، لا يقل حضارة عن إنجلترا نفسها، وقد أنشأ مدناً جميلة آهلة بالسكان على الشاطئ الشرقي والجنوبي الشرقي من القارة لا تقل بهاءً عن أجمل المدن الأوربية. وهذا الشعب مولع (باليُوجَنّية) أي علم استحداث الأحياء الراقية من الأحياء الوضيعة. وقد أفلح في إيجاد الخيول الأسترالية القوية والخنازير السمينة والأغنام التي تمد العالم بنصف محصوله من الصوف النظيف الناصع، والأرانب التي تغمر فراؤها أسواق لندن وباريس. وقد نجحوا نجاحاً عجيباً في الانتخاب النباتي، فهذا قمحهم الجيد يغمر الأسواق وهذه فاكهتهم تباع في مصر بأرخص مما تباع فاكهة ممالك البحر الأبيض والأستراليون أذكياء جداً، ولعل السبب في ذلك هو أن 90 % منهم أحفاد المجرمين وذوي السوابق من البريطانيين الذين نفوا من إنجلترا لاستعمار استراليا

الجريدة أم المجلة

مما تشكر عليه الجرائد المصرية إفرادها إحدى صحائفها للفنون والعلوم والآداب، وهذا خير ولا تثريب على جرائدنا فيه بيد أننا نلاحظ أن كثيرين من أدبائنا الجهابذة وعلمائنا الأجلاء يؤثرون الجرائد ببحوث جليلة الفائدة في التاريخ والآداب والعلوم والفنون، قد لا ينتفع بها عامة القراء، وقد لا يلتفت إليها خاصتهم، وإذا راقت أحدهم وقراها فقد لا يستطيع الاحتفاظ بالصحيفة أكثر من يوم أو يومين، بله عاما أو عامين، ومن هنا تضيع قيمة البحث وتندثر فائدته، ولو قد نشر في مجلة من مجلات مصر المحترمة لوجد طائفة كبيرة من خاصة القراء تعرف له قيمته وتحتفظ به إلى ما شاء الله. وأمثال هذه

البحوث كثيرة، وقد قرأنا منذ حين بحثاً جليلاً في تحقيق أسماء المدن الأسبانية وآخر في أصول الأدب المصري القديم، وثالثاً في تاريخ الكتابة الهيروغليفية. . الخ. . . فأين هي هذه البحوث اليوم؟!

(د. خ)

الكُتُب

النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة

تأليف الأستاذ محمد عرفة

بقلم الأديب محمد فهمي عبد اللطيف

منذ أعوام نشبت معركة أدبية بين الجامعة والأزهر حول نسبة الشعر الجاهلي، وكانت شعواء صاخبة جرفت إلى ميدانها كثيراً من رجال الفكر وأعلام الأدب، واتخذت من صفحات الصحف وردهات الأندية ميداناً واسعاً شاملاً، وعج عجيجها فاتصلت بالسياسة وكان لها حديث تحت قبة البرلمان كاد أن يطيح بوزارة، واتصلت بالدين فكان اتهام أمام النيابة واحتكام إلى القضاء؛ ومع هذا كله فقد انتهت تلك المعركة وما تركت إلا النقع يخنق النفوس، والغبار يقذى العيون، وبقيت نسبة الشعر الجاهلي كما هي خاوية لا تقوم على تحقيق ثابت، واهية لا ترتكز على بحث علمي صحيح، معقدة لا يجليها رأي مبتدع، مظلمة لا ينيرها فكر ثاقب

واليوم تنشب المعركة ثانية بين الأزهر والجامعة حول النحو وقواعده والنحاة وجهودهم. فالأستاذ إبراهيم مصطفى الأستاذ بكلية الآداب في كتابه (إحياء النحو) ينتقد النحويين في قصرهم مباحث النحو على الإعراب والبناء، دون أن يبحثوا خصائص الكلام من التقديم والتأخير، والنفي والاستفهام، والإثبات والتأكيد، ثم يرد على النحاة في زعمهم إن الإعراب أثر لفظي لا يؤدي معنى، ولا صلة له بتصوير المفهوم، وإثبات أن حركات الإعراب دوال على معان قصدت من الكلام، فالضمة علم الإسناد، والكسرة علم الإضافة، والفتحة علم الخفة، ثم هو ينتقد النحاة في زعمهم أن هذه الحركات اجتلبها العامل، وراح يثبت أن المتكلم هو الذي أحدثها، وخالفهم فذهب إلى أن التنوين علم التنكير، فلك في كل علم ألا تنونه

والأستاذ محمد عرفة الأستاذ بكلية اللغة العربية يرى في ذلك منكباً للقصد، وحيفاً على الحق، فوضع للرد عليه كتابه النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة) وهو يعتقد أن الأستاذ مصطفى قد نحل النحاة مذاهب لم يقولوها ونقدها وأبان خطلها، كما أنه قعَّد القواعد في

العربية لو أخذ الناس بها لغيرت من روح العربية ولأفضى ذلك إلى فهم كتاب الله وسنة رسوله على غير وجههما، حتى لقد عمم في الطعن ولم يخصص، فأدخل سيبويه وكتابه! يقول الأستاذ عرفة: (ولقد تمثلت هؤلاء النحاة وهم في أجداثهم يهضمون هذا الهضم بعد أن ملئوا الدنيا علما، ويحاف عليهم هذا الحيف وقد خرست ألسنتهم الناطقة، وإذ قد آلو إلى ما آلو إليه، فقد صار حتما على أبنائهم أن يردوا عنهم هذه التهم كما هو الواجب الإنساني، وواجب الأساتذة على أبنائهم الذين هذبوا عقولهم، ثم واجب اللغة العربية وواجب العلم في نفسه، وأخيراً واجب التلاميذ على أساتذتهم)

و (الفكرة) في كتاب الأستاذ عرفة هي مجاوبة للفكرة في كتاب (إحياء النحو)، فهو يرى أن النحو العربي في حاجة إلى تبسيط قواعده وعرضه بطريقة تقربه من طبيعة المتكلمين وتكشف عن سر العربية، ولكن على نمط قويم لا على ذلك النمط الذي انتهجه صاحب (إحياء النحو) فحاد به عن السداد، ولو ثبت لكان خطراً على اللغة العربية، وعلى فهم كتاب الله وسنة رسوله

ولقد أعجبني الأستاذ عرفة في ثبات جنانه فما اشتط في الخصومة، ولا جمح به القلم، فإذا هو مع خصمه من أول الكتاب إلى آخره على ما تقضى به كرامة العلم والخلق الحميد، عف الأسلوب، مهذب العبارة، نزيه الغرض، صريح في الحق، لا يختال صاحبه ولا يموه على قارئه؛ إن قسا فبالحجة، وإن احتكم فإلى النصوص المدونة والنقول الثابتة، وإلى العلم والمنطق

تلك هي معركة اليوم بين الجامعتين، وذلك هو مداها: أستاذ يهاجم وأستاذ يدافع الرأي، والحجة بالحجة، و (الكتاب) (بالكتاب)، وما نريد أن يزيد مدى المعركة على هذا الحد، ولا أن يخرج عن هذا الاعتبار، ولا نحب أن تتجاوز الأستاذين إلى غيرهما حتى ينتهيا إلى

آخر الشوط، ويصلا إلى نتيجة ترضى الحق والعلم
أما الآن فالكلمة نحب أن نسمعها من صاحب (إحياء النحو) فهو أولى الناس بالذود عن حوضه، وخير من ينافح عن فكرته، خصوصاً وأنه يريد أن يعمم هذه الفكرة في وزارة المعارف وأن يقحمها في مناهج التعليم؛ وقيل إنه قابل الوزير لذلك الغرض فشجعه الوزير ووعده الخير. فليتقدم الأستاذ مدافعاً عن نفسه أو مسلماً لخصمه؛ وعلى أي حال سواء
أمكنه أن ينهض بفكرته وأن يرفع لواءها سليماً من الطعن، أو نكص بها مردوداً من قريعه ومنازله، فإنه مشكور له أجر المجتهد أخطأ أم أصاب، وحبذا الناضل والمنضول في سبيل الحقيقة العلمية خالصة لله منزهة عن الأغراض
محمد فهمي عبد اللطيف
رئيس التحرير وقصص أخرى
(مجموعة أقاصيص أصدرها الأديب صلاح الدين ذهني)
للأستاذ زكي طليمات
القصة المصرية تسير بل تركض. . .
فمذ أطلت برأسها علينا في (حديث عيسى بن هشام) للمويلحي تخفي وجهها بخمار عربي من وشى أنامل تذكرنا بنسيجها الأول في (مقامات الحريري) و (بديع الزمان)، إلى أن أسفرت عن وجهها مصرية من غير نقاب في (زينب) لهيكل، إلى أن صلب عودها واستفاضت بشرتها بحمرة مياه النيل في قصص محمود تيمور، وقبل ذلك في أقاصيص شقيقه محمد، إلى ما لم تدخره حافظتي من أسماء قصاصين من أدباء مصر والشرق العربي أبوا إلا أن يغامروا بأقلامهم في معالجة هذا اللون الجديد من الأدب العربي. منذ ذلك الحين والقصة المصرية توالينا بنتاج لا ينقطع، وكأنها تأبى إلا أن تكون شغل الأدب والنقد في هذه الأيام
القصة المصرية صبية جامحة تياهة مزهوة فهي لا تعرف فضيلة التواضع، تتحدث بصوت جهير كلما ملكتها شهوة الكلام، ولا ندري فعل التفكير والمراجعة وأثر التحري والاستجمام في إتيان الوثبة الواسعة؛ وما هذا بالأمر المستغرب لأنه يرجع إلى طبيعة الشيء. وكأني بالأديب المصري اليوم، وقد استشعر ماهية شخصيته بتأثير النضال الاستقلالي وبعوامل النزاع القومي وبما يعمر رأسه من أصداء الأدب الغربي وفي مقدمتها القصة. كأني به أصبح لا يرتاح إلىالإفصاح عن خلجات نفسه والشكاية من هصره إلا عن طريق التدخل في أديم شخصيات يبتدعها خياله بعد أن ينتزع معينها من البيئة التي يعيش فيها، فيسجل ببراعة دقائق هذه الشخصيات في سرد قصصي يطريه الحوار وتغلفه
أجواء تفيض بالصبغة المصرية المحلية، وتتمشى فيها أعراق من الإنسانية العامة.
وأغلب الظن أن القصة المصرية أصبحت المجال الذي يعمل فيه الأديب المصري اليوم لاستخلاص (المصرية) ولاستكمال مقومات أدب حديث؛ وهي مظهر من مظاهر تحررنا من أساليب الأدب العربي القديم بعد أن غمرتنا أمواج ثقافة غربية جديدة، وطالعتنا أحداث الزمن بما جعلنا ننفر إلى الجهاد في سبيل حياة مستقلة
ومهما حاول النقد مخلصاً أن ينال من القصة المصرية بإخراج أكثر نتاجها من دائرة الفن الرفيع فلن يستلبها بهاء الشباب وروعة الفتوة. وإذا لم نجد فيها - وأعني أكثريتها - عمق التفكير وجزالة الطبع القوي وصدق التحليل النفسي الذي يحس به ولا يلمس، وطرافة المعالجة، فحسبنا أنفاس عطرة دافئة تهب علينا من بين سطورها، هي أنفاس مؤلفيها، وهو أدباء يحاولون أن يدخلوا لوناً جديداً على الأدب العربي وأن ينشئوا أدباً قوياً
أكتب هذا وأمامي مجموعة أصدرها الأديب الشاب (صلاح الدين ذهني) باسم (رئيس التحرير وقصص أخرى)، وهي مجموعة تقف بجدارة إلى جانب أحسن ما أخرجته أقلام القصاصين الحديثين من المصريين. ولعل أبين ما تمتاز به أنها جاءت في أسلوب يتسامى بجزالته عن مثيله فيما قرأت من قصص الناشئين من القصاصين
إلا أن الجزالة في اللفظ والفصاحة ليست كل شيء في الأسلوب، وهو من معاني القصة قوالبها وأداة معالجتها. والحكم على طرافة القصة ومنزلتها من الأدب الرفيع لا يكون العمدة فيه موضوعها، بل أسلوب معالجة هذا الموضوع. وما ترك الأول للآخر

فكرة أو موضوعاً لم يعالجه أو يشر إليه؛ فقد يحدث أن يعالج الموضوع الواحد عدد كبير من الكتاب، ولكن التفوق والخلود لا يكتبان إلا لواحد منهم، وهو من يكون قد حذق معالجة هذا الموضوع وبرع فيه

والمعالجة الطريفة لموضوع القصة تكون في حبكتها الشيقة وإنزالها في القالب الذي تخرج منه منسقة الحوادث من غير عنت، متينة البناء في غير افتعال، متزنة محكمة الأسلوب، تومئ وتفصح، وتقطر وتفيض. وحظ القصص التي بين يدي مما ذكرت غير متجانس، فبعضها يأخذ سمت المعالجة الطريفة في خطو وئيد، والبعض الآخر يتعثر في نواحي من نواحيه، إلا أنها عثرات سرعان ما تقال. ويبدو هذا في القصة الأولى من المجموعة

وعنوانها (حسنة)، في حين أن قصة (رئيس التحرير) تعد أنموذجاً لحذق كاتبها من حيث معالجة الموضوع وخصب البيان. وحسبنا من المؤلف أن يصيب مرة ويخطئ مرات، وهو في الحالتين لا يألو جهداً في أن ينزع نحو الكمال الفني المنشود

و (رئيس التحرير) قصة فكهة (كاريكاتورية) الأشخاص والأسلوب. وأبين ما تبين عنه هذه القصة نزعة ساخرة يفيض بها قلم كاتبها، وهي نزعة يخالطها الأسى وتمازجها الشكاية في قصة (مذكرات فنان) حيث نرى المؤلف متبرماً بمجتمعه متململاً بما شاع فيه من التطاول والإدعاء؛ ينقد عن ملاحظة دقيقة أوضاعه المقلوبة، مما يدل على أن (صلاح الدين) على حس مرهف وعين بصيرة بحقائق الأشياء وتفاريق الألوان في مجتمعه، فهو يرى ويشعر ويحيا ويتألم ويسخر ويصخب، وشأنه في هذا شأن صفوة الشباب المعذب في هذا الجيل، ولعل هذه القصة أحسن ما تكشف عن نفسية المؤلف

وللريف في هذه المجموعة من القصص شأن يذكر، وأحسن ما جاء في قصصه تلك الصبغة الريفية التي تطالع القارئ فيحس بريح القرية ملء أنفه وبهدوئها يشمل أعصابه

وللمؤلف جولات أخرى في موضوعات الحياة التي تتصل ببيئته، فهو تارة تراه متدخلاً في زوايا البيوت، وأخرى متغلغلاً في طوايا السرائر؛ وهو في معالجة هذه الموضوعات يركض ويتباطأ، ويهبط ويصعد، ويستقيم ويلتوي؛ ولكنه يريد دائماً أن يذهب بعيداً ليستقر في آفاق طريفة من التأمل والتفكير، وهو فيما يريد أن يذهب إليه يصيب مرة ويخيب أخرى، وهو في خيبته غير مهزوم

زكي طليمات

المسرح والسينما

ساعة التنفيذ

إنتاج أستوديو وهبي

على ستار (كوزمو)

ممثلو وممثلات الفلم

أمينة رزق - لطيفة نظمي - زوزو نبيل - زينات صدقي - ليلى سلطان - لطفية أمين - يوسف وهبي - عبد القادر المسيري - عبد العزيز أحمد - حسين صدقي - عبد المجيد شكري - أبو العلا علي - لطفي الحكيم - توفيق صادق - محمد إبراهيم - محمود المليجي

ملخص الرواية

عاد رؤوف سامي (يوسف وهبي) من أوربا بعد أن أصبح طبيباً فوجد خطيبته سامية (أمينة رزق) زوجة لفؤاد بك راجي التاجر الثري مع أنه لا تزال تكن له الحب فتتوثق العلاقة من جديد بين رؤوف وسامية. . .

وقد نتج من هذه العلاقة طفل لرؤوف من سامية ولكنه شرعاً يعتبر ابناً لفؤاد بك. . . تعرف الدكتور رؤوف بفؤاد بك فأكرمه وأحله محل الأخ، فأخذ ضمير رؤوف يؤنبه، وأراد أن يقطع علاقته بسامية؛ غير أن الظروف جعلت فؤاد بك يعرف تلك العلاقة الأثيمة. وفاجأ ذات مرة زوجته بين يدي صديقه، فلم تتحمل الزوجة الصدمة وألقت بنفسها من النافذة تاركة الزوج والخليل والابن (إحسان)، وحين كانت تلفظ النفس الأخير باحت لزوجها بسر مولد إحسان، وطلبت إليه أن يحتفظ بالطفل الذي كان محبوباً من الجميع

توارى رؤوف غير أن توبيخ ضميره طارده وأفقده مركزه الأدبي والمادي، وقد أراد أن يكفر عن ذنوبه فاصطدم بحوادث عديدة صيرته بين كبار المجرمين، وقد جعل رؤوف حياته وقفاً على خدمة ولده الذي لا يعرفه، فكان يحميه عن بعد دون أن يعرف سر أبيه. . .

وحدث أن أراد أحد الخدم أن يفشي سر مولد إحسان وقد تقدم للانتخابات لمجلس النواب خدمة لخصمه، فقتله رؤوف وقبض عليه وسيق إلى المحاكمة وإذا بالمحقق هو ولده إحسان وكيل النيابة. . . قدم رؤوف للمحاكمة وكان إحسان في ذلك الوقت قد اعتزل الوظيفة، وأصبح محامياً وعضواً بمجلس النواب. . . وفي جلسة محكمة الجنايات فوجئ رؤوف بابنه إحسان وقد دفعه دافع خفي للدفاع عن أبيه دون أن يعرف الحقيقة. . . وطلب منه أمام القضاة أن يعترف بأسباب الجريمة فهو يشعر أن المجرم قد اقترف القتل لسبب نبيل. . فما كان من الوالد إلا أن سخر بدفاعه ووقف يؤكد للمحكمة أنه مجرم وقاتل وعريق في الإجرام. . . وبينما كان حكم الإعدام ينفذ في الوالد. . كان الولد يهنأ بعروسه في شهر العسل

يوسف وهبي

ويقوم الأستاذ يوسف وهبي في هذا الفلم بأدوار ثلاثة، فهو المؤلف والمخرج وممثل البطل. . . وهو في ذلك يشبه الممثل الكبير شارلي شابلن الذي يؤلف ويخرج ويمثل أفلامه القوية الناجحة، ونحن نهنئ الأستاذ يوسف وهبي على هذا المجهود الكبير ونؤجل نشر نقدنا الفني لهذا الفلم إلى الأسبوع المقبل

السيدة منيرة المهدية تعود إلى المسرح

وأخيراً عادت السيدة منيرة المهدية إلى الظهور بعد احتجابها الطويل في المسرحية الجديدة (الأوبريت) (الأميرة روشنارا الهندية) وهي من تأليف الكاتب المعروف الأستاذ بديع خيري وتلحين الأستاذ زكريا أحمد. وسنتناول في الأسبوع المقبل نقد هذا الفلم من جهاته الفنية

الأميرة كوكا

بطلة فلم (تاجر الملح)

ابتداء من اليوم تقدم سينما رويال بالقاهرة فلم (جريكو) أو (تاجر الملح) الذي أخذت أكثر مناظره في مصر وبين ظهرانينا

وبطل الفلم رجل أسود له شهرة في عالمي التمثيل والغناء تضارع شهرة أقوى ممثل أو مغن من الجنس الأبيض، إن لم تفقه. وقد سبق أن رآه جمهورنا ناجحاً قوياً في عدة أفلام على ستار أكثر دور السينما في مصر. . . وأسم هذا الزنجي الشهير بول روبسون

أما بطلة (تاجر الملح) فهي فتاة مصرية اسمها الحقيقي ناجية إبراهيم، ولقبها الإنكليزي في جرائدهم بالأميرة (كوكا) فأصبحت تعرف بهذا اللقب. وهي فتاة برنزية اللون ذات عينين خلابتين وجسم معتدل مما ساعدها على ارتقاء سلم النجاح في عالم السينما بسهولة وسرعة

وقد اضطرت ناجية إبراهيم إلى السفر مرتين إلى بلاد الإنكليز لإتمام إخراج هذا الفلم العظيم. . . وهناك في إنجلترا تعلمت كوكا رقصة الكلاكيت التي أصبحت تتقنها. . غير أن هذه الرقصة قد كلفتها كثيراً، فإنها ما زالت حتى الآن تعاني الأمرين من آلام ظهرها وسنرى أي نجاح تصيب هذه النجمة المصرية الجديدة .!

بدرية رأفت

بطلة الفلم المصري الجديد: نفوس حائرة

تعرض سينما الكوزمو في هذه الأيام إشارة إلى فلم مصري جديد سيظهر على ستارها عما قريب

ذلك هذا الفلم هو (نفوس حائرة) وأما أبطاله فهم بدر لاما، وبدرية رأفت، وعبد السلام النابلسي، وسميحة فهمي، وفؤاد المصري الخ. . .

والمخرج هو الأستاذ إبراهيم لاما المخرج المعروف، وقد أخرج لنا بضعة أفلام مصرية ناجحة

فؤاد زمكحل

العدد 245 - بتاريخ: 14 - 03 - 1938

(سارة)

للأستاذ عباس محمود العقاد

كنت أقول للذين يحلو لهم أن يصنفوا الكتاب إلى كاتب مقالة وكاتب قصة وكاتب نقد وكاتب سياسة وكاتب تمثيل: إن الكاتب الخليق بهذا الاسم يجب أن يكون أولئك جميعاً. فإذا قصر جهده على بعضها فليس معنى ذلك قصوره عن بعضها الآخر، بل معناه أن عمل الكاتب في التعليم أو في الصحافة، أو حظ الأمة من الحضارة والثقافة، أو حال المجتمع من الرخاء والاستقرار، يساعد اتجاهاً على اتجاه، ويغلب نوعاً على نوع. وما الكاتب إلا فنان موهوب ميزته تأليف الكلام الجميل تعبيراً عما يقع في حسه وعلمه، وتصويراً لما يجري في خياله وذهنه؛ فإذا استمد الإلهام والمعرفة أحاط إحاطة (الجاحظ) و (جيته)، وإذا استملى الشعور والعاطفة ألم إلمام (البديع) و (موسيه). وانفساح ذرعه أو انحصار طبعه لا يدخل في حسابه بالزيادة ولا بالنقص، لأن الأصل في فنه أن يجيد الكشف عما يحس به والإبانة عما يعلم

قالوا إن العقاد باحث جريء الرأي، وناقد نافذ البصيرة، وجدلي دامغ الحجة، ولكنه لا يملك أن يكون قصصياً يكشف بالوحي حجب الغيب، وينمق بالخيال صور الحقيقة، ويحي بالعاطفة خمود الفكرة، وتلمسوا لذلك الأدلة والعلل من طبيعة مزاجه واتجاه تفكيره وروح أسلوبه، حتى رووا عنه أنه عاب القصة ونفى أن تكون نوعاً جدياً من أنواع الأدب. وكان الذين يسمعون هذا الكلام يقابلونه بالتصديق ويؤيدونه بالواقع، فكنا نقول لهؤلاء إن الذي يعرض هذا العرض، ويصف هذا الوصف، ويحلل هذا التحليل، لا يعضل عليه - إن أراد - أن ينقل المشهد الذي رآه، ويقص الخبر الذي علمه. وليس القصص كله خيالاً حتى يسوغ في العقل أن الكاتب الذي يضيق خياله ويضعف وهمه باتساع عقله وقوة فكره يقصر باعه عن القصة

وجاءت (سارة) والرأي على ما خيل الراءون فأقرت الأمر في موضعه من صميم الحق؛ وقدمت الدليل القاطع على أن هذه الشخصية الأدبية قد بلغت الغاية في كل ناحية من نواحي الأدب، حتى الناحية التي لم تتجه إليها إلا منذ أمس.

وهل صحيح أن أمس كان أول عهد العقاد بالقصة، وأن سارة كانت أول ما كتب العقاد من

القصص؟ الحق أن الكاتب المطبوع يولد وفي قريحته أصول الأنواع الأدبية؛ تنمو بنموه، وتطور بتطوره، وترقى برقيه؛ ولكن ذلك يحصل لبعضها بالفعل، ويحصل لبعضها الآخر بالقوة. فلو أن العقاد كتب (سارة) أيام كتب (مجمع الأحياء) لكان من الراجح أن يكتبها من نوع غير هذا النوع، وبأسلوب غير هذا الأسلوب؛ ولكنه كتبها حين كتب (سعد زغلول) فجاءت من النوع التحليلي البارع، وبالأسلوب المنطقي المشرق. والقصة التحليلية هي آخر أطوار القصة، كما أن الشعر الفلسفي هو آخر مراحل الشعر. ونتاج الذهن يتطور بين الطفولة والكهولة في الفرد والأمة والخليقة؛ فالأسطورة تنتهي إلى القصة، والملحمة تصير إلى الرواية، وشعر الغناء يؤول إلى شعر الفلسفة

(سارة) قصة فتاة مثقفة لعوب أرملة، وصفها العقاد في فصلين لا نجد كثيراً من أمثالهما في أدب العالم، وهما (من هي) و (وجوه). عرفها همام المهذب العقل الطيب القلب وهو في وسط عقده الرابع أعزب وحيد، فشغفته حباً للأسباب التي حللها الكاتب في فصل من هذه الفصول؛ ثم وصلت بينهما الطبيعية بالصلة التي لا حيلة فيها لانتظار ولا اختيار ولا خبرة؛ وظلت هي على نحيزتها الأنثوية تعابث وتخابث وتلبس تارة لباس (مانون)، وتارة أخرى لباس (مادلين)؛ وظل هو على شكيكته العلمية يؤول، ويعلل، ويفرض الفروض، ويثير الشكوك، ويقوى حيناً فيكون (دون جوان)، ويضعف حيناً فيكون (دي جْريو) حتى ذوى الحب بين الشك منه والسأم منها فتفرق العاشقان ليس في القصة إذن حادثة تروعك، ولا مفاجأة تدهشك، ولا عقدة تشوقك؛ ولكن هذا الحادث العادي المطروق أصاب ذهناً شديد النفاذ، وفكراً دقيق الملاحظة، وشعوراً صادق الحس، فتجلى في (سارة) صوراً واضحة الخطوط، ناطقة الملامح، عبقرية الألوان، تمثل هذه المرأة في جميع حالاتها وعلى كل وجوهها تمثيلاً عارياً لا ينفع فيه ثوب رياء ولا ورق تين. ولعل الطريف في (سارة) أنها تحلل تركيب العشق في قلبي

عاشقين من ذوي الثقافة والفكر، فتنتهي إلى أن الفلسفة لا تجعل من العاشقة إلا امرأة ككل امرأة، ولا من العاشق إلا رجلا كأي رجل
أما أسلوب (سارة) فهو أسلوب العقاد: صريح لا رغوة فيه، جلي لا غبار عليه، مستقيم لا التواء به؛ يتصل فيه اللسان بالعقل فلا يلغو، ويعتمد فيه القلم على القريحة فلا يهين على
أن العقاد في سارة قد احتفل لأسلوبه واحتشد لفنه فجاء من النمط العالي، لا تجد خللاً في سبكه، ولا قلقاً في اطراده، ولا وهناً في منطقه، ولا سقطاً في ألفاظه، ولا شططاً في معانيه. وفي رأيي أنك لا تعرف العقاد على حقيقته إنساناً وفناناً إلا في (سارة)
إن سارة تقدم مثلاً جديداً في بلاغة الأسلوب، وتفتح فصلاً جديداً في أدب القصة، وتسجل اتجاهاً جديداً في أدب العقاد
أحمد حسن الزيات
عود إلى داء الشعور بالحقارة
للأستاذ عبد الرحمن شكري
والمصاب بداء الشعور بالحقارة إذا أفدته علماً أو مالاً تباهى به عليك وتلمس الوسائل كي يظهر بمظهر المانح كأنما يمنحك فضلاً أو عوناً، إما بأخذه ما أخذ منك، وإما بدلا منه. وهو لا ينسى لك فضلاً ويحسدك على نعمتك حتى تزول ولو كان في زوال نعمتك زوال نعمته، ويحاول أن يخفي فضلك عليه حتى على أكثر الناس علماً بما أفدته، ويحاول أن يجند منهم أعواناً له ضدك بأن يظهرك بمظهر العداوة لهم وقلة الخير والزهد فيهم، فإذا عاتبته واضطررت أن تذكره بمعونتك كي تبتعث الحنان في قلبه عد إشارتك التي استثارها بعمله أو حديثه امتناناً منك عليه، فيزداد لك عداوة. وهو بالرغم من مقابلته المعروف بالإساءة يطمع في المزيد مما عندك وإن ظهر بمظهر العائف له. وهو سلاح في يد أعدائك حتى وإن لم يدر ذلك، لأنه قد يغالط نفسه أو يغالطونه ويخادعونه
ومن المصابين بداء الشعور بالحقارة من ينغص عيشة من يعاشره بإظهار حدة الطبع ورفع الصوت والعراك، لأنه يرى في كثرة العراك تعاظماً وتعالياً يخفي ما يشعر به في سريرة نفسه من الوجل والخوف من أن يحقر. ومن المصابين بهذا الداء من يعد سفاهة لسانه سياجاً يحوط به عظمته الموهومة التي يخفي بها ما هو كامن في سريرة نفسه من الشعور بالحقارة التي قد يظنها عظمة
ومنهم من يتلمس الفرص كي يسمع الناس صوته كأنما صوته جرس يدق إيذاناً بالعظمة التي يخفي بها خوفه من التحقير
وترى الواحد من هؤلاء لا يتعفف عن مدح نفسه والإشادة بآرائه وأفكاره وإعجاب الناس بها واحترامهم إياه بسببها، وهذه الخطة قد تكون مكراً ووسيلة كوسيلة التاجر في الإعلان عن بضاعته وإن عرف أن بضاعته غير مزجاة؛ وصاحبها مع ذلك مطمئن النفس لا يبالي إذا لم يصدقه السامع، ولكنها قد تكون خطة مسعور متكالب على الناس يرجو احترامهم ولا يستطيع أن يعيش من غيره ولا يهنأ حتى ولو فقد مثقال ذرة منه، وهو يتفرس في وجوه الناس كي يرى هل صدق السامع حديث إعجاب الناس به. وكلما كان الرجل من هؤلاء المصابين بداء الشعور بالحقارة مفلساً من المال أو الجاه أو العلم كان حقده أشد، ونكايته
أنكى، وصوته أكثر إيذاناً بالعظمة التي يحاول أن يخفي بها المرض. وقد تزول أسباب المرض من إفلاس في مال أو علم أو جاه، ولكنه يبقى طبعاً في النفس لا تستطيع مداواته. ومن العجيب في أمر المصابين بداء الشعور بالحقارة أنهم قد يخلصون أو يتظاهرون بالإخلاص - وهو الصواب - لمن لا يرجون منه خيراً ولا نفعاً، ويختصون بالإعنات من يرجى منه الخير أو من أصابهم منه خير، لأن الدَّينَ ربما عدوه نقصا. وهؤلاء المصابون بداء الشعور بالحقارة يود بعضهم بعضا بالغريزة، ويساعد بعضهم بعضا مادام ليست بينهم خصومة على خير مرجو، ومادام لا يحجب أحدهم الآخر عن الظهور؛ وهم عندما يساعد بعضهم بعضا يكونون كأنما هم حِلف على الباطل قد عمل بحرف الحديث: (أنصر أخاك ظلماً أو مظلوما) وأغفل معناه الحقيقي؛ وهم إذا تعاونوا على الباطل يعرفون أنهم لا يشبعون نهمتهم من العظمة الباطلة التي يخفون بها ما

كمن من الشعور بالحقارة إلا بالتساند؛ أما إذا تخاصموا على مظهر من مظاهر التعاظم فلا يتعففون من التحارب بأقذر سلاح كما كانوا يتعاونون به وهم يضحون بالسعادة والصحة والمال وبأحب عزيز وبسعادة كل من يعقوهم كي يبلغوا مظاهر التعاظم التي يخفون بها ما كمن في العقل الباطن وفي السريرة من الشعور بالحقارة. وإذا بلغ هذا المرض أشده لم يحجم صاحبه عن الجرائم؛ وقد يؤدي إلى الجنون وهو مرض شائع، وبعض مظاهره ليست حادة ولا مسببة للحزن والتعاسة كما تسبب حالاته الشديدة. فمن حالاته البسيطة التي ربما كانت تدعوا إلى الفكاهة أن يقابلك إنسان مصاب بهذا المرض وهو يعرف اسمك تمام العرفان فيناديك باسم آخر، فإذا كان اسمك محمداً قال: كيف حالك يا مصطفى بك؟ وهو يفعل ذلك كي يشعرك أنه أعظم شأناً من أن يتذكر اسمك؛ فإذا صححت له اسمك اعتذر ثم يعود بعد قليل فيناديك بالاسم الخطأ: قائلاً أليس الأمر كذلك يا مصطفى بك؟ ولا يناديك باسمك مهما صححت خطأه. ومنهم الصغير المنزلة الذي يقابلك فيتلطف في الحديث فإذا لمح إنساناً يعرفه رفع صوته بلهجة الآمر كي يشعر السامع أنك تقبل منه هذه اللهجة لعظم أمره. ومنهم صاحب الأباريق في قصة الموظف المشهورة الذي أحيل على المعاش فاشترى أباريق وملأها ماء وجلس عند المسجد الجامع يقول لكل طالب ماء بلهجة الآمر: خذ هذا. . . لا تأخذ ذاك. وهذا المثل الأخير قد يكون من أمثلة داء الشعور بالعظمة، والحقيقة أن مظاهر داء الشعور بالعظمة، ومظاهر داء الشعور بالحقارة قد تختلط، ولكن المحك الذي تعرف به وتميز هو إما ثقة صاحب الداء بنفسه وعظمتها ثقة لا تدعو إلى القلق، وإما أن مظاهر تعاظمه يخالطها القلق والحقد والحسد والدناءة والسفالة، فالأول أكثر اطمئناناً حتى أنه قد لا يشعر بمخر الساخر به، وقد يكون في تكبره كريماً أو رحيم النفس، وهو إذا ارتكب إثماً فإنما يرتكبه باسم العظمة والإصلاح، ويرتكبه وهو مطمئن وادع لا حقد يشوب إثمه ولا قلق ولا دناءة كما تشوب هذه الصفات إثم المصاب بداء الشعور بالحقارة، والأول إذا تواضع تواضع في كبر المبالغ الواثق بنفسه، وإذا تكبر تكبر بكبر الواثق بنفسه الذي لا يشعر بسخر الناس به، وهذا المصاب بداء العظمة لا يتلصص في تحايله ووسائله كما يفعل صاحب الشعور بالحقارة الذي هو أميل إلى الكيد والدس والموظف الصغير المنزلة في المصرف أو في الدواوين الذي يتعالى ويتعاظم ويتصام ويتفخم ويحملق في وجوه أصحاب الحاجات ويتباطأ في إجابتهم من غير سبب أو معذرة إنما هو مصاب بداء الشعور بالحقارة. ولعله يتشفى بهذه الأحوال مما أصاب نفسه من تعاظم من هو أعلى منه منزلة تعاظماً شعرت به الذلة والمسكنة. وفي بعض حالات هذا المرض لا ترى سبباً ظاهراً له، فقد يصاب به الرجل من بيت عز وعلم فتتلمس العلل الخفية فتقول هل طغى عليه أبوه في تربيته في الصغر طغياناً يشعره الذلة والمسكنة، فإذا ورث أباه غطى ما ورثه على ذلك الداء من غير أن يعصمه من الأقوال والأعمال الناشئة منه، أم هل ورث هذا الشعور عن أجداده، أم أنه داء يعدي كما تعدي بعض الأمراض النفسية بالمحاكاة ولطول العشرة وحكم البيئة ومما يلاحظ أن المحاكاة والعشرة والبيئة قد تنقل مظاهر هذا الداء في المدارس من تلاميذ مصابين به إلى تلاميذ على الفطرة والسذاجة. ولعل المدارس المصرية أكثر مدارس العالم ديمقراطية لكثرة مجانية الفقر للتفوق ولانخفاض المصروفات فهي تساعد انتقال الصفات من طبقة إلى طبقة، فالفقراء يحاكون الأغنياء فيخسرون، وأبناء الأسر الطيبة تحاكي أبناء أسر أقل طيبة فيخسرون أيضاً وإن كان لهذه الديمقراطية مزايا

عبد الرحمن شكري

من برجنا العاجي

من أحب المطالعات إلى نفسي كتب العالم الرياضي (هنري بوانكاريه). عندي من مؤلفاته ثلاثة كتب: (العلم والطريقة) و (العلم والفرض) و (قيمة العلم). قرأتها لأول مرة منذ عشر سنوات. وأعود إليها من حين إلى حين. إنها لتسحرني كما تسحر الأطفال قصص ألف ليلة وليلة. فأنا الآن لا أقرأ كثيراً كتب الأدب. لأني أنا نفسي أصنع كتباً في الأدب. ولكني أحب أن أصغي إلى أولئك الذين يبحثون في صمت عن الحقيقة. هؤلاء الذين عندهم ما يقولون ولكنهم يترفعون عن الكلام. فإن الحقيقة التي يحاولون

أن يتصيدوا شبح خطاها خلف (المكرسكوبات) و (التلسكوبات) لأروع من أن توضع في ألفاظ وعبارات. على أن ما يعنيني من كلام هؤلاء العلماء ليس الأرقام والمعادلات أي (الوسائل)، ولا يعنيني كذلك ما وصلوا إليه من (نتائج)، ولكن الذي أقرأ من أجله كتبهم هو تلك الإشراقات الذهنية التي تلمع من خلال بحوثهم فتضيء جانباً من جوانب الفكر المهجورة. ليس العلم في ذاته هو الذي يهمني، ولكن هي (العقلية العلمية) في مصادمتها ومواجهتها للأشياء. لا شيء يلذ لي مثل مجالسة (عالم) متسع الأفق. وهذا النعت لا ألقيه جزافاً، فإن من كبار رجال العلم من هم ضيقو الأفق، أي سجناء معادلاتهم وأرقامهم، يصلون بها مع ذلك إلى نتائج باهرة في صميم العلم، ولكنهم قلما ينظرون إلى العالم الخارجي. إنما الطراز الذي أقصد، هو طراز رجل العلم المطبوع الذي يخرج بعد ذلك لينظر بعين العلم وعقلية العلم إلى الكون بمعناه الواسع. هي (فلسفة العلم). ما أريد هنا بعد هذه القراءات أن يتضح لي أنا (رجل الأدب) كيف أن مخلوقاً آخر يسمى (رجل العلم) ينظر إلى ذات الأشياء التي أنظر إليها ويفكر في هذا الكون الذي أفكر فيه ولكن بعين أخرى وعقل آخر. ومن يدري؟ لعل أكثر هؤلاء العلماء هم أيضاً لا يلذ لهم شيء مثل قراءة ومجالسة (رجال الأدب) فما الأمر في باطنه إلا شوق وحب استطلاع بين نوعين مختلفين من هذا الحيوان المفكر

توفيق الحكيم

ليلى المريضة في العراق

للدكتور زكي مبارك

- 13 -

لقد آذاني معالي السيد أرشد العمري، وكظمت غيظي فلم أسمعه ما يكره، وقلت في نفسي: إن الرجل تصور أنني أهنته فسحب مني الدعوة، والجروح قصاص

وقلت: هم سيقضون السهرة في الرقص وسأقضيها في التأليف وأنا أجد لذة ممتعة حين أراني أجد في وقت يلعب فيه الناس

وتذكرت أني أشغل مطبعتين في بغداد، وأن من الخير أن اعتكف في المنزل فأحضر بعض الوقود لجحيم المطابع

وكذلك اطمأننت إلى الزهد في ليلة بغداد التي وُعِدَ بها المؤتمرون!

ولكن ما هذه الدعوة الجديدة؟ هي دعوى لسياحة طريفة في ضواحي الكرخ وبغداد، نتفرج بها على إسالة الماء. وأنا قد أمضيت نحو خمسة أشهر محبوساً بين المكاتب والأوراق، ولم أر في بغداد غير الجادة والدربونة ودار المعلمين العالية وكلية الحقوق وما تيسر من سواد العيون

وسرت مع السائرين للتفرج على إسالة الماء وأنا أرمي إلى غرضين: الأول الترويح عن النفس، والثاني كتابة بحث لمجلة المقتطف عن تكوين الصهاريج

فهل روحت عن نفسي وأعددت مواد البحث المنشود؟

ما صنعت شيئاً من ذلك، وإنما دارت الأرض تحت قدمي حين رأيت صاحبة العينين، فكان المهندسون يشرحون الدقائق العلمية في تقطير المياه لتزويد الكرخ وبغداد بالماء النمير، وكنت أنظم الخطط لأكون دائماً بالقرب من صاحبة العينين. ومن العجيب أن أمري لم ينكشف؛ ومضى المهندسون وهم يعتقدون أنني كنت المستمع الواعي، وأن سائر المستمعين لم يفهموا إلا أن الكرخ وبغداد تسقيان من دجلة لا من الفرات

ولمثل هذه المواقف منحنا الله نعمة العقل!

ومضينا فتناولنا الشاي والفاكهة فوق العشب الأخضر وبين الأشجار التي أذوتها أرواح الشتاء، وأدير على الحاضرين صوت أم كلثوم:

على بلد المحبوب وديني ... زاد وجدي والبعد كاويني

فكانت بلد المحبوب عندي هي المائدة التي تجلس عليها صاحبة العينين، ولكن أين من (يوديني) هناك؟ إن أسوان أقرب من هذه المائدة وليس بيني وبينها غير ثلاث خطوات

يا مسافر على بحر النيل ... أنا ليَّ في مصر خليل

فرمقتني صاحبة العينين بنظرة حنان. فمن الذي أعلمها أني نشأت في ديار النيل؟ من أعلمها ذلك وعلى رأسي سدارة، والمصريون كلهم مطربشون!

وهممت بالتسليم عليها، ولكن صدتني العصابة التي كانت تحرسها مني، وصدني أن

مكاني كان قريباً من مكان رئيس الوزراء
ثم تقوض المجلس وانفض الناس، والدنيا اجتماع وافتراق
كيف السبيل إلى رؤية هذه الظبية في المساء؟
إنها ستكون بالسهرة البغدادية التي وُعد بها المؤتمرون
وأنا ممنوع من سهرة بغداد
ولكن من الذي يمنعني؟
هو أمين العاصمة حضرة صاحب المعالي أرشد العمري.
أهلاً وسهلاً بمعالي الأمين!
أأنت الذي يمنع الدكتور مبارك من ليلة بغداد بعد أن كتب عن مجد بغداد ما لم يكتب مثله كاتب في قديم ولا حديث؟
أنت مهندس بغداد، وأنا أديب بغداد، وسترى لمن يكون الخلود. . .
وأخذت أفكر فيما سأصنع، فهذه الظبية ستكون في المرقص وسأجد الفرصة لمخاصرتها مرة أو مرتين بعد أن يتلطف الشراب في رياضة العصابة التي تحرسها مني!
وأنا قد تعلمت الرقص في باريس وأخشى أن أنساه، وحياة العلم مذاكرته كما قال القدماء
وهل من الإثم أن أهتم بمذاكرة ما تعلمت؟ وهل أنفقت من الوقت والمال في سبيل الرقص ما أنفقت لتضيع مني فرصة من فرص بغداد؟
لابُدّ من حضور هذه السهرة.
لابُدّ مما ليس منه بُدُّ
ولكن كيف ألقى معالي أرشد العمري وهو غضبان؟
أنقف فنتناوش ونتضارب؟ وهل أرسلتني مصر إلى العراق لأصنع ما يصنع الأطفال؟ لو كانت المسألة بيني وبين هذا الرجل مسألة شخصية لضاربته وقاتلته بلا تهيب. وما أحسبه يزعم أنه أقوى مني، ولكن المسألة أني مصري وهو عراقي، وأنا أنفق دمي في خلق الصلات بين مصر والعراق، وإقامتي في بغداد أقنعتني بأن مصر لابد لها من مودة العراق، فالعراق يكاد يكون هو الشعب الوحيد الذي يسلم فيه المصريون من أذى الناس. وهذه العواطف ليست جديدة عندي، وإنما تلقيتها منذ سنة 1917 عن الأستاذ أحمد صالح حين كان يدرس التاريخ القديم بالجامعة المصرية، فقد حدثنا عن مودات صوادق أقامها لحلف الشريف بين المصريين والبابليين، وما جاز في عهد الجاهلية لا يستحيل في عهد الإسلام إلا أن نكون من الأغبياء
وتذكرت أن بغداد تحوطني بأشرف معاني العطف، وأنه ليس من الذوق أن أحرج رجلاً هو أمين بغداد، وهو أكبر مني سناً ولعله أكثر تجربة، والتحامل عليه ضرب من العقوق
وتذكرت شعار مصر وشعار العراق
أما شعار مصر فهو: (أحرار في بلادنا، كرماء لضيوفنا)
وأما شعار العراق فهو:
سيوفنا قاطعة لِلِّي يقابحنا ... ورقابنا قنطرة لِلِّي يسامحنا
وتذكرت أصل الخلاف فوجدته يرجع إلى كشف الرأس في السهرة، وأنا أكره كشف الرأس لأنه قد يجرّ إلى الزكام، وأنا مدرس، والمدرس المزكوم منظره سخيف، فما الذي يمنع من الذهاب إلى السهرة بالطربوش وهو لا يجب خلعه في السهرات
هذا حلٌّ موفَّق، ولكن لابدّ من الاحتياط، والاحتياط هو أن أذهب قبل الموعد بساعة إلى مكان الاحتفال عملاً بمذهب حلفائنا الفضلاء أبناء العم جون بول، ومذهبهم هو أن تحتلّ أولاً، ثم تفاوض بعد ذلك!
كان طريقي من باب المعظَّم إلى بهو أمانة العاصمة يوحي الشعر والخيال، فقد كانت ليلة عيد، وكان القمر ينظر إليّ في ترفق كأننا في سنتريس، ولكن صدري كان مكروباً بعض الكرب. فقد كانت ليلة العيد لا تقع إلا وهي موعد غرام، وهي في هذه المرة قد تكون حومة قتال
مشيت مشية المتمهل لأجتلي طلعة القمر، أو لأؤخر الشر لحظات.
فلما دخلت البهو وجدته خالياً، وكيف لا يكون كذلك وقد سبقتُ الموعد المحدد للسهرة بأكثر من ثلاثة آلاف ثانية؟ لقد وجدت البهو كالقلب الخليّ الذي تفكر المقادير في

شغله بالحب، وجدته كالغادة التي تنتظر العاشق الصوال
دخلت وحدي وتلفتّ فلم أجد أحداً؛ وبعد لحظة لمحت شبح معالي الأمين وهو يتمرن على الطواف قبل قدوم الحجيج
وبعد دقائق نظرت فرأيت رجلاً يعدو إليّ عَدْواً فقلت: هذه طليعة الشر، وتأهبت للصِّيال
ولكن الرجل أخلف ظني كل الإخلاف، فقد حياني أجمل تحية، وأخذ يدي برفق فدلني على المقصف فحسبته صديقاً قديماً أنستنيه الأيام، فقلت:
سيدي، هل لك أن تُذكرني متى تلاقينا أول مرة؟ أتراني عرفتك في القاهرة أو في باريس، ذكرني فقد نسيت!
فأجاب في لطف:
ما أذكر يا مولاي أننا تلاقينا قبل اليوم، وإنما رأيت الطربوش فوق رأسك فعرفت أنك من مصر العزيزة، وللمصري على العراقي حقوق الأخ الشقيق
فرفعت الكأس وقلت: تعيش بغداد، ويحيا العراق!.
وسألت بعد ذلك عن اسم هذا الرجل الشهم فعرفت أنه المهندس نجيب نورس الياور، وكذلك استحال على معالي أمين العاصمة أن يلقاني بغير الابتسام
نحن الآن في بغداد، في ليلة ما رأى مثلها الرشيد، وإن تَعبَ الواصفون في التذكير بليالي الرشيد. هي ليلة بغدادية لا قاهرية، لأن القاهرة حين تعرف أمثال هذه الليلة تنقلها نقلاً عن الغرب، ويختلف حولها الفقهاء؛ أما بغداد فتعرف الليالي الساهرة عن الآباء والجدود. هي ليلة سيذكرها من رآها وستحتل أقطار ذهنه إلى اللحظة التي يعاني فيها سكرات الموت؛ هي ليلة تمثل الفتوة العراقية وتذكر الجاهلين بأن الشعب الطروب لن يموت
كان الناس كلهم في سماحة الملوك، وكنت وحدي أبخل الحاضرين، فقد سألني رجل عظيم متى أرقص، فكذبت عليه وقلت لن أرقص، مع أني ذهبت إلى ناحية قَصيّة وراقصت ثلاث فتيات، وعاقرت الثغور سبعين مرة أو تزيد، وعند الكرام الكاتبين جريدة الحساب
لا أدري والله ماذا صنعت في تلك الليلة، إلا حادثتين اثنتين: الأولى حين دخلت المقصف بعد الدورة الرابعة من دورات الرقص فقد ارتفعت الأصوات: يحيا الدكتور زكي مبارك! وكان الأستاذ علي الجارم بك بين الحاضرين فانتظرت أن يهتف باسمي فلم يتردد كما كنت أتوقع، وإنما هتف هتاف الصديق؛ ثم شق الصفوف إليّ فعانقني وهو يقول: أنا فرحان لك يا دكتور زكي! فرحان لك يا أخوي، فرحان لك يا حبيبي، فرحان لك يا نور العيون يا زهرة مصر في العراق
وإنما عددت هذه الحادثة لأن المواطنين لا يفرح بعضهم لبعض إلا في قليل من الأحيان ولا مؤاخذة يا جارم بك، يا حبيبي يا نور عيوني، يا أحلى من ملح رشيد!
أما الحادثة الثانية فهي طرفة لا تقع من رجل سواي
فقد عثرت في الطواف على فتاة خشنة جافية تصلح لأن تكون مديرة لإحدى المدارس الثانوية، ولكنها لا تصلح لأن تكون غادة في مرقص، فقلت في نفسي: ما الذي يمنع من التصدق على هذه الفتاة بقبلة أو قبلتين؟
وأنا في الحقيقة (رجل إنسان) كما يعبر أهل القاهرة، أو (رجل آدميّ) كما يعبر أهل دمشق. وما أذكر أبداً أن سائلا سألني وخيبته، وأنا لا أستحي من الجود بالقليل لأنه على كل حال أفضل من المنع؛ وقد أكرمنا الله بالغنى، فمن اللؤم أن نكون بخلاء
طافت هذه الخواطر بنفسي وأنا ألمح تلك الفتاة الجافية فقلت إن ليلتي هذه لن تخلو من سيئات، ولابد من حسنة تمحو ما سأقترف من سيئات، فتوكلت على الله وأقدمت سلمت على الفتاة فاستراحت للسلام، وإن كنت لا أعرفها ولا تعرفني
وقبلت يدها فابتسمت
فقبلت جبينها وخديها، ثم قبلت جبينها وخديها، وانصرفت
ولكني لم أكد أخطو بضع خطوات حتى سمعت رجلاً يصيح: يا دكتور مبارك! يا دكتور مبارك!
فالتفتّ مذعوراً فإذا سكرتير مجلس الوزراء. فقلت: وقعت الواقعة وحقّت الفضيحة،

وجمعتُ أشتات قواي وقلت: نعم، يا سيد!
فقال: لن نحاكمك إلا إلى قول شاعركم شوقي
فقلت: وماذا قال شوقي؟
فأجاب إنه قال:
نظرة فابتسامة فسلام ... فكلام فموعد فلقاء
فهو قد فرض أن تسبق القُبلة بستة أشياء، وأنت قبّلت بدون مقدمات
فقلت: يا سعادة الأستاذ، لقد عرفت شيئاً وغابت عنك أشياء. إن شوقي قال هذا البيت منذ خمسين سنة يوم كان القطار أسرع ما عرف الناس، ونحن اليوم في عصر اللاسلكي والطيران فلا تلمني إن قبلت بدون مقدمات، فمن العقل أن نتخلق بأخلاق الزمان
طابت السهرة وطابت ثم طابت، وعرفت فيها طبيباً نبيلاً كان يصادقني عن طريق مؤلفاتي، وسيكون من الذين أقبل من أجلهم ثرى بغداد يوم أفارق بغداد، وصداقة الأرواح شيء نفيس، ومودة العقول من ذخائر الرجال
وكانت ليلتنا كما قال ابن المعتز:
ثم انقضت والقلب يتبعها ... في حيثما وقعت من الدهر
فأين ليلتنا من الدهر؟ أين؟ أين؟ إنك يا دهر لظلوم!
كنت أول من دخل البهو في تلك الليلة، وكنت آخر من خرج، ولولا الحياء لطلبت المبيت هناك لأستنشق ما بقي من أنفاس الظباء
رجعت إلى المنزل، ولا أذكر كيف رجعت، فقد استيقظت قُبيل الشروق، فرأيت مصابيح البيت كلها مضاءة، ورأيتني في ثياب السهرة كما كنت، فعرفت أنني دخلت البيت بلا وعي ولا إحساس
ولكن لا بأس فقد عشت ليلة من ليالي بغداد
وإلى معالي أرشد العمري تحيتي وثنائي!
هذا صباح العيد، وهذا طوافي برياسة مجلس الوزراء، أصافح الرجال الذين عناهم الشريف الرضي حين قال:
نحاسن أقمار الدجى بوجوههم ... فنبهرها نوراً ونغلبها سعداً
تخالهمُ غِيداً إذا بذلوا الندى ... وتحسبهم جناً إذا ركبوا الجردا
هذا هو الرجل العذب الروح النبيل الشمائل جميل المدفعي رئيس الوزراء الذي لا يصدق
من يرى صباحة وجهه أنه من صناديد القتال، والليث لا يكون شتيماً في كل حين
وهذا وزير المواصلات، الصديق الذي أحببته منذ رأيته في سهرات رمضان
وهذا وزير الداخلية يلوم ويعتب لأنه يراني أستبيح من أساليب التعبير ما لا يستبيح أدباء باريس
ويتفضل صديق عزيز فينقلني بسيارته إلى منزل صاحب الفخامة نوري باشا السعيد، وكنت أتمثل نوري باشا رجلاً كهلاً أضوته السنون، فأراه فتىً خفيف الروح كأنما قدم بالأمس من ملاعب مونبارناس؛ ويقبل عليّ فخامته فيقول: أنا تلميذك بالفكر، يا دكتور مبارك، لأني قرأت جميع مؤلفاتك
ويروعني هذا اللطف فأقول: (لقد علم الله كرم نفسك فحفظ عليك شبابك يا فخامة الرئيس)
ويقبل عليّ الحاضرون فيسألون عن صحة ليلى، فيبتسم نوري باشا ويقول:
(إن ليلى المريضة في العراق هي شبكة ينصبها الدكتور زكي مبارك لتقع فيها إحدى الليليات)
وأتألم من ذلك فأقول: (إن مولاي نسي أنه تلطف فأعان الضابط عبد الحسيب على الانخراط في سلك الجيش العراقي سنة 1926)
ويمسح نوري باشا جبينه ويقول: (تذكرت، تذكرت، شفى الله ليلى على يديك)
ثم نمضي فنزور معالي مولود مخلص رئيس مجلس النواب فنرى الرجل الذي أفهم العالم أن من واجب الجيش الإنجليزي أن يحسب ألف حساب للجيش العراقي، ونسمع الفصاحة العربية التي كانت تعذُب وتطيب على ألسنة الغزاة الفاتحين
وفي مساء يوم العيد نحتفل بعيد صاحب الجلالة فاروق الأول احتفالاً فخماً يشاركنا فيه

أقطاب العراق
وفي اليوم التالي أمضي لإلقاء محاضرتي في المؤتمر الطبي فيقبل علي عشرون طفلاً وهم يصيحون: (الدكتور زكي مبارك، الدكتور زكي مبارك)
ويجيء صديق من الأطباء السوريين فيقول: (لقد صارت طلعتك بهجة لأطفال بغداد يا دكتور مبارك! (فينهمل دمعي وأقول: (نعم، فهذه الطفلة تشبه كريمة، وهذا الطفل يشبه عبد السلام، وهذا يشبه عبد المجيد، وتلك الفتاة تشبه زينب، وهذا الفتى يشبه سليمان)
أبنائي الأعزاء، لقد نهبتني منكم بغداد، فاغفروا لي ذنبي فما ذقت حلاوة العيش إلا في بغداد
تحدثت عن الليلة السعيدة التي أقامها معالي أمين العاصمة، وكنت أحسبها خاتمة الليالي الملاح، ثم ظهر أن هناك ليلة أروع وأظرف، وهي ليلة الجمعية الطبية العراقية.
فلنذكر بالتفصيل ما وقع في تلك الليلة من ضروب الفُتون، فقد تمر أعوام قبل أن تشهد مثلها بغداد، وقد تسكت عنها الأقلام فتذهب ذكراها من القلوب
ومن الواجب عليّ وقد أجاب الأطباء دعوتي فعقدوا المؤتمر العاشر في بغداد ليعاونوني على مداواة ليلى، من الواجب أن أسجل بقلمي ما صنعوا من الطيبات حين عطروا بغداد بليال أروع وأنضر من ليالي الرشيد، ولن يكون هذا آخر العهد بالأنس يا بغداد.
(للحديث شجون)
زكي مبارك
إلى سر السيد جمال الدين
بمناسبة ذكرى وفاته
للأستاذ عبد المنعم خلاف
على القبر الذي في ضفاف البوسفور سلام دائم كِفَاء الحرب الدائمة التي شنها مدى عمره على الطواغيت الثلاثة: الجهل والاستبداد والتفرق. . . عناصر الشر العريق الخالد، وثالوث الشقاء الأسود الذي تبتلى به الإنسانية حين يراد ضياعها وإهدارها وتبديد معناها
وسلام على القصر الذي سلسله فيه عبد الحميد بسلاسل الذهب وأضواه فيه بالموفور الميسور من الغذاء والديباج والخز. . . وخنقه فيه بشذا الورود والريحان. . . ثم أعجل أجله بالطب. . . حتى اطمأن إلى أن درع روحه قد ووري التراب. . .
وقبلات طاهرة مقدسة على اليد البالية التي أشارت لمحمد عبده وسعد زغلول وشكيب أرسلان وغيرهم إلى الطريق فسلكوا بالقطيع فيه ليخرجوه من المهالك والمضايق والجدب والعقم. . .
يا أيتها النفس المطلقة الحرة التي ضرب الله بها مثلاً لسطوة العلم والروح وبطشهما بقوة الملك والسياسة. . . تُرَى ما الذي تَيَّمك حتى يَتَّمك من الأرض والوطن وفطمك من حياة الزوجية والاستقرار والهدوء والعيش السالم الناعم؟!
ترى ما الذي شرد النوم من جفونك ورمى بجسمك المرامي القاضية، وجعلك (طيراً على كل غصن) يضرب بجناحه في أجواء الشرق الإسلامي ويصرخ في الأرض النائمة ليوقظ صرعى الطواغيت الثلاثة في الهند والأفغان وإيران والعراق والشام والحجاز ومصر وتركيا والمغرب. . .؟
ثم ما الذي شرد النوم من جفون (جونبول) وعبد الحميد وناصر شاه وتوفيق، حتى طاردوك وتآمروا ودبروا وكادوا واحتالوا باليد الباطشة الحمراء. . . و (العين) الرنانة الصفراء؟. أهو روح النار التي كانوا يخافونها على ما جمعوه من هشيم. . .؟
أهو روح القوة التي خافوها من مثل صيحتك في ميدان باب الخلق بالقاهرة بكلمتك المشهورة: (أيها الفلاح المصري الذي يشق الأرض بالمحراث، لم لا تشق به قلوب مستعبديك؟!) فخشوا أن تحيل النفوس الخزفية إلى حديد ذي بأس شديد. . . وأن تركّب
براثن ومخالب وأنياباً لذوات الحوافر والأظلاف، والقواضم والأضراس من القطعان السائمة التي ترعى لتذبح أو تحلب أو تجرجر الأثقال الدائمة أو تدور على نفسها في الحظائر تمضغ الجفاف وتجترُّه في غيبوبة عن الدنيا ذات الجنات والأنهار والعيون. . .؟

أم هو روح الحق الذي تقمصك فجعل مرآك ومنطقك ومجلسك ثلاثة مفاتيح تفك الأغلاق والأقفال والقيود عن العاتين المأسورين للأصنام الإنسانية والطواغيت الثلاثة؟ أم هو روح النور الذي مددْت خيوطَه إلى كل عين رأتك فرأت به الظلام الممدود على الشرق والواقعَ الأليم على الإسلام؟

أم هو روح الثورة التي تضرمها عيناك في كل قلب يراك حتى ولو من وراء عدسة المصور. . . وأنت في بطن الأرض؟!

. .بل كل هؤلاء جميعاً هو سرك الذي أعيا أعداءَك جهادهُ

رَأى الدنيا ذات الصبح العريض المالئ للآفاق، المشرق على الناس من الغرب. وهو في أعماق الشرق بين جبال الأفغان أو إيران فقبس لمصباحه منه وأخذ عصاه رحالةً يقرع أبواب المسلمين النائمين الحالمين من الحاكمين والمحكومين، وينفخ في بوقه هاتفاً بالصوت الموقظ المنذر في الأرض النائمة، مشيراً بعصاه إلى الضوء الجديد في الأفق البعيد. . .

ثم سار في خرائب الممالك الإسلامية وأطلال المجد القديم يلتقط النفوس الدُّرِّية والحديدية من الخزف والحطام والتراب. ويقبض عليها بيديه القويتين فما يتركها حتى يصقلها وتمسها كهرباؤه وتتصل بمرجل الثورة في قلبه ثم ينثرها على الآفاق الإسلامية تكهرب الجو وتضيء وتزين وتحطّم. . .

سَلِم من خديعة الشيطان ومكره بالعلماء رجال الدين الذين يكتفون في جهاد الإثم والجهل بأن يعكفوا على الدفاتر والمحابر فيسْكروا بما فيها كما يسكر العاكفون على الخمر فيغيبون عما حولهم من أحداث الدنيا وسياسة الحياة، ويتركون القلوب فارغة ويملئون الرءوس بالبلبلة والأحافير وألاعيب الألفاظ. يبتغون الخلود بزعمهم في التاريخ والصحف. . . وهم يفقدون نفوسهم في الحياة

فبَرئَ جمال الدين من العلم الصامت البارد وأدخل تعاليمه إلى نفوس تلاميذه ومريديه في حرارة بعد أن هزهم هزاً عنيفاً، وكتب رسالته على أرواحهم ومات فقيراً من ميراث

الورق المسطور. . . الذي يتباهى به أكثر العلماء الحفاظ، بعد أن عاش في ألفاظه وتعاليمه وعلم تلاميذه أن يعيشوا كذلك. . . ولذلك أحدث كل منهم ثورة وسار على قدم أستاذه فسجن وعذب ونفي وشرد

هذه مقاطع آلامه كما رواها تلميذه الأمير شكيب أرسلان

لا أريد أن أسر المسلمين بكلمة، هؤلاء قوم كلما قال لهم الإنسان: كونوا بني آدم. . .) أجابوه: إن آباءنا قد كانوا كذا وكذا. . . وعاشوا في خيال ما فعل آباؤهم غير مفكرين (بأن ما كان عليه آباؤهم من الرفعة لا ينفي ما هم عليه اليوم من الخمول والضعة

قد فسدت أخلاق المسلمين إلى حد أن لا أمل بأن يصلحوا إلا بأن ينشئوا خلقاً جديداً) وجيلا مستأنفاً. فحبذا لو لم يبق منهم إلا كل من هو دون الثانية عشرة من العمر، فعند (ذلك يتلقون تربية جديدة تسير بهم في طريق السلامة

إن المسلمين قد سقطت هممهم ونامت عزائمهم وماتت خواطرهم وقام شيء واحد (منهم وهو شهواتهم

وهذه مطالع آماله كما ترجمها تلميذه الأكبر الإمام محمد عبده:

صفاء العقول من كدر الخرافات وصدأ الأوهام، والإسلام يقتضي ذلك، لأن أول ركن) بني عليه صقل العقول بصقال التوحيد وتطهيرها من لوث الأوهام. . . وأن تكون نفوس الأمم مستقبلة وجهة الشرف طامحة إلى بلوغ الغاية منه ماعدا رتبة النبوة فإنها بمعزل عن المطمع. . .

وإن دين الإسلام فتح أبواب الشرف في وجوه الأنفس وكشف لها عن غايته وأثبت) لكل نفس صريح الحق في أي فضيلة

وليس الإسلام كدين (برهما) الذي قسم الناس إلى أربعة أقسام وقرر لكل منزلةً لا) يتجاوزها. . . ولا هو كاليهودية التي تخص شعب إسرائيل بالكرامة والإجلال وتذكر غيرهم بالتحقير، ولا هو كالمسيحية التي تذهب إلى أن رؤساء الدين أقرب إلى الله من جميع البشر وأنهم وساطة رضاء الله. . .

وأن تكون عقائد الأمة مبنية على البراهين القويمة مجانِبةً مُطالَعَة الظنون وتقليد) الآباء كما يحتم القرآن

وأن يكون في كل أمة طائفة تختص بتعليم سائر الأمة، وطائفة أخرى تقوم على)
النفوس بالتهذيب والتعديل. . .)
وهذه عزائم جهاده في السياسة كما لخصها الأستاذ الجليل مصطفى عبد الرزاق بك:
1 - تخليص بلاد الإسلام من نفوذ أوروبا وخصوصاً إنجلترا.
2 - تخليصها من الاستبداد وإنشاء النظم الحرة الدستورية فيها
3 - جمع كلمتها بجميع فرقها تحت زعامة واحدة
وهذه وسائله السريعة التي تخيرها لتحقيق غاياته كما رآها (تشارلن آدمز): (الثورة
السياسية التي عرف أنها أسرع الطرق وأكدها لتحرير الشعوب الإسلامية وتغذيتها
بالحرية الضرورية لتنظيم شئونها. أما وسائل الإصلاح التدريجي والتعليم فكان يرى أنها
بطيئة جداً غير محققة العاقبة)
فهو الذي أوحى بالثورة الفارسية التي بدأت بالهياج ضد احتكار التنباك في سنة 1891
وانتهت بوضع دستوره في أغسطس سنة 1906، ووالاها بالتشجيع والتأييد
وهو الذي مهد بتهييجه المتواصل للحركة التركية الموفقة التي قامت سنة 1908
وهو الذي دفع الحركة الوطنية المصرية التي ساء ختامها بفشل الفتنة العرابية
وهكذا كان أيان يذهب يترك وراءه ثورة تغلي مراجلها
وصفوه لنا. . .
فقالت أقلام الشرق: (حنيفي حنفي مع ميل إلى مشرب السادة الصوفية رضي الله
عنهم) (هو حليم يسع حلمه ما شاء الله أن يسع إلى أن يدنو أحد ليمس دينه أو شرفه
فينقلب إلى غضب تنقض منه الشهب، فبينما هو حليم أواب إذا هو أسد وثاب. . .)
وبالجملة فلو قلنا إن ما أوتيه من الذكاء هو أقصى ما قدر لغير الأنبياء لكنا غير)
مبالغين)
هذا بعض قول محمد عبده فيه. وهاك بعض ما قاله الأمير شكيب:
كان في أطوار حياته فيلسوفاً كاملاً عالماً عاملاً. . . فكان يفطم نفسه عن الشهوات،)
ولا يرى من اللذات إلا اللذة العقلية. وقد حاول السلطان عبد الحميد أن يعلق قلبه
بالمال والبنين ويشغله بزينة الدنيا وراوده على الزواج فأبى وأعرض وقال له: (قضيت
حياتي مثل الطير على الغصن، فلا أريد في آخر أيامي أن أتعلق بعائلة) وقال في مثل
هذا المقام: (لم تدخل
روح الفلسفة في هذه الأمة)
وقالت أقلام (رينان) و (روشفور) و (بروان) من الغرب:
كنت أتمثل أمامي عندما كنت أخاطبه ابن سينا أو ابن رشد أو واحداً من أساطين)
الحكمة الشرقيين)
السيد جمال الدين الأفغاني من سلالة النبي، والمعدود هو أيضاً أنه أشبه بنبي. . .)
كان رجلاً ذا خلق قوي، غزير العلم موفور النشاط، لا يجد الوهن إليه سبيلاً، جريئاً)
مقداماً؛ وكانت فصاحته لا تجارى خطيباً كان أم كاتباً؛ وكان لطلعته هيبة في النفس
وعظمة وجلال؛ وكان فيلسوفاً وكاتباً وخطيباً وصحافيّاً، ولكنه كان فوق ذلك
سياسيّاً. . .)
سياسي يغربل الحوادث ويعلق عليها ويرسم حدود الدولة والحكم الصالح للأجسام. . .
وحبر ديني يصقل جوهر الإنسان ويرسم حدود الحكم الصالح للأرواح. . . وفيلسوف
يخشى على حكمته التي رأى أمته في حاجة ماسة إليها، أن يجلب لها ضرائر تكيدها
وتصرفه عنها، فلم يبتغ صاحبة يبني لها عشاً أو يقيم لها سقفاً يحن إليهما ويجبن بهما
ويبخل. . .
وصوفيٌّ لا يُخدع بالتراب المزَوَّق، وينفق من الكنوز الخفية في ملكوت السموات
والأرض. ولذلك أبى قبول الرتب والأوسمة التي عرضها عليه السلطان، فلما سئل في
ذلك قال: (أكون كالبغل يحمل على صدره الجلاجل؟!)
وكذلك لما أصدر الخديو توفيق أمره بنفيه وعرض عليه قبيل السفر أحد أصدقائه
الأثرياء من المصريين بعض النقود ليستعين بها في السفر قال له: (أبقها لك فإن
الأسد لا يعدم فريسة أينما حل)
رجل رمزي فنان! رأيت له صورتين ما يفطن إلى شرح وضعه فيهما أحد فيما أعلم:
إحداهما صورته وهو واقف قابض بيده على نموذج الكرة الأرضية. وهو رمز عظيم

ومعنى جليل يدل على اتساع روحه ورحابة نفسه
وثانيتهما صورته وهو على سرير المرض في أواخر أيامه، وقد أمسك بيده المصحف الكريم ومسبحة، وبسط أمامه صحيفة إفرنجية، وذلك رمز واضح للدلالة على المعاني التي كانت تملك نفسه من الدين والتصوف والسياسة، وخلاصة مفيدة عن ذلك الرجل الذي التقى
فيه الشرق والغرب لقاء عجيباً!
يلتفت إليك الشرق الإسلامي كله في هذه الأيام يا أيها القبر الذي ضم جثمان نذيره في القرن التاسع عشر بعد أن ختله مرض الجبابرة والعباقرة: السرطان. . أو غول السياسة. . كما يتحدثون والديان أعلم!
عبد المنعم خلاف
فلسفة التربية
تطبيقات على التربية في مصر
للأستاذ محمد حسن ظاظا
- 12 -
(لا معرقل لنهضة الأمة أشد وأفدح من تباعد ثقافتها وانقسام عقليتها)
(* * *)
لقد قررنا أن نجعل كل مواطن موضع عناية الدولة وحمايتها، فعشرات الملايين (محرومة الآن مما نسميه بمقاييسنا الدنيا (ضرورات الحياة)! ولذلك سيكون مقياس نجاحنا هو: لا هل أضفنا زيادة لأغلب أولئك الذين عندهم الكثير! بل هل قدمنا الكفاية لأولئك الذين ليس عندهم إلا أقل القليل(؟!
(الرئيس وشنطن)
2 - الأمية وانقسام الثقافة
تبينت في المقال السابق أهمية الموضوع وخطورته بالنسبة لمصر ولاسيما في عصرها الراهن، وعلمت بأمر هذه الرسالة النقدية الحصيفة التي قد أخرجها (الدكتور جاكسن) أخيراً متناولاً فيها بعض نواحي النقص بالتجريح والعلاج، وستقرأ منذ اليوم تلخيصاً وتعليقاً على هذه الرسالة الفريدة، كما ستقرأ فيما بعد ما أستطيع أن أقدمه من ملاحظات واقتراحات. . .
1 - فرصة ملائمة للإصلاح
والحق أن الفرصة الحاضرة ملائمة من جميع نواحيها لإصلاح التربية في مصر. ذلك أن تيار الوطنية الجارف قد أوجد شعوراً عاماً بوجوب النهضة، وبعث المجد القديم، والاحتفاظ بما كسبنا من حقوق، فالتنبيه إلى أن التربية الصالحة خير أداة لتحقيق هذه النهضة المنشودة يجد صداه بسهولة في الرأي العام، ويجد مكانه اللائق به في برامج الأحزاب ونفوس الزعماء؛ وإذاً فلا مندوحة لنا من انتهاز هذه الفرصة المواتية والعمل على الاستفادة منها، ولنحذر تماماً مغبة الاندفاع الكلي إلى شئون الدفاع الوطني وحده لأن السيف كما
يقولون لا يعمل إلا في يد بطل! ولنكتف بما كان فنصرف الطلبة إلى شئون الدراسة وحدها لأن السياسة قد جنت على ثقافة البلد وأخلاقه بتخفيضها نسبة النجاح نزولا على صيحات الكسالى الراسبين!!
2 - الحاجة إلى الزعماء الكثيرين
فترى إذاً ما هي حاجة النهضة المرموقة؟ أحسب أن هذه النهضة تتطلب أولاً وقبل كل شيء زعماء كثيرين جديرين، يستطيعون أن يحملوا الشعلة وينطلقوا إلى تبديد الظلام في شتى نواحي الضعف والنقص بقلوب فتية، ونفوس حازمة، وضمائر نقية تقدر المسئولية وتتفانى في التضحية وضرب المثل الأعلى؛ زعماء لا سياسيين فحسب، ولكن أخلاقيين واقتصاديين ورياضيين واجتماعيين وغير ذلك مما تتطلبه نواحينا الكثيرة المتباينة. . ويقع عبء تخريج هؤلاء الزعماء على المدرسة والبيت بما فيهما من معلمين وآباء!! أو قل إنه يقع على المعلمين بوجه خاص، فإذا نجحنا في إخراج هؤلاء فقد وضعنا الأساس القوي المكين. ولا سبيل إلى هذا النجاح إلا بتعليم إنساني يحفز ويثير ويقوي الشخصية ويخلق رجل المشروعات. . .! وهنالك تنحط الزعامة على كثير من الخريجين وتسعى إليهم. . .! أما تعليم الحفظ والاستيعاب والجمود والانكماش فلا

يخرج إلا فراداً مصبوبين في قالب واحد، لا خلق فيهم ولا تكوين، ولا إزهار ولا إبداع!

3 - محور الأمية وتوحيد الثقافة

ثم ماذا؟؟ يتبقى بعد تكوين هؤلاء الزعماء أن نجد (الشعب) الذي يتبعهم عن فهم وتقدير وبحماس واتحاد؟! فهل لدينا ذلك الشعب؟ ثمانون في المائة يا عزيزي أميون! وأغلب الأقلية المتعلمة لا يدري من شئون العلم غير مجرد القراءة والكتابة!! وأغلب ما يتبقى بعد ذلك سطحي الثقافة فج العلم ملتوي الشخصية خامد الشعور!! ثم ليت هؤلاء - مع الأقلية الراقية الثقافة - متحدين في العقل والقلب والعقائد والأماني!! أليس فيهم المصري الشرقي والمصري الغربي؟! أليس فيهم المعمم بكل ما له من منطق يخالف المطربش ولا يكاد يتفق معه في فهم الحياة ولا سيما ناحيتها الحديثة؟؟ كيف إذاً نستطيع أن نرجو لهذه الأمة نهضة وهي جاهلة ومنقسمة؟؟ كيف نستطيع أن نسوقها إلى الحرية والاستقلال والمجد وسوادها الأعظم يعيش كما تعرف في كفاف العيش، وظلام العقل، ومستوى الحيوان؟! وكيف نستطيع أن نطمع في اتحادها وزهرة رجالها متباعدون لا يجمعهم عقل واحد، ومتنازعون يحاول كل منهم أن يفرض تقاليده على الآخر؟؟

4 - روح التعليم الراهن

ومع كل فهل روح التعليم في الثقافة الشرقية (وتتمثل في الأزهر الشريف وكلياته وما يقترب منه) والثقافة الغربية (وتتمثل على الخصوص في المدارس الابتدائية والثانوية والمخصوصة والجامعة) صالح كل الصلاح؟ يرى (الدكتور جاكسون) أن ذلك الروح ما يزال مشوباً في كلتا الثقافتين بألوان من النقص كثيرة. فالتعليم الشرقي بالرغم من سموه على التعليم الغربي بروحانيته العالية، وأخلاقه الدينية، وعقائده السليمة، يعنى كثيراً بالتكرير والتقليد لا بالكشف والخلق والإبداع. ولذلك كانت نتائجه سالبة أكثر منها موجبة، وكان أثر خريجيه في إصلاح الشعب أقل مما يجب وإن كان في مجموعه عظيماً. ولئن قيل إن العلوم الحديثة قد أدخلت أخيراً في هذه الثقافة فالراجح أن إدخالها لم يزل شكلياً في طريقته ونتائجه، ولذلك لم تزل هناك حاجة قصوى للتعديل فيه والإصلاح؛ أما التعليم الغربي فنواحي نقصه كذلك كثيرة. ومن هذه النواحي إخراج الطالب مخالفاً لتقاليد عائلته وأمته ومنقسماً عليها، وراغباً في التجديد الأعمى الذي لا يحفظ له شخصيته كمصري وشرقي، ولئن كانت به عناية أكثر بالكشف والخلق والإبداع فإن تكوين الروح الاجتماعية ما يزال ضعيفاً فيه، وعنايته بالحفظ والحشو تكاد تطغى به على غيرها

هذا من ناحية. ومن ناحية إعداد (المعلمين) في كلتا الثقافتين نرى كذلك من التباعد وعدم توحيد المجهود واختلاف النزعة الشيء الكثير. . وقد نجم عن ذلك تباعد طوائف المعلمين في المشرب وعدم تعاونهم واتحادهم في دراسة قضية التربية مع أنهم جميعاً تلك الطائفة المختارة التي قد ألقت إليها الأمة بفلذات أكبادها لإعدادها خير إعداد! أفي المحامين أو الأطباء انقسام وتباعد كما في المعلمين؟

5 - ضرورة التقارب والتوحيد

هناك نزاع إذاً بين الثقافتين عنيف، والواجب هو التقريب والتوحيد بقدر المستطاع! مهما حاولنا أن نبقي الشرق شرقاً والغرب غرباً، لأن الاتصال بينهما يزداد كل يوم ويتضاعف، ولأن في الغرب من القوة والحياة كل ما هو جدير بالاتساق والانسجام مع عظمة الشرق ومجده! لسنا ندعو إذاً إلى طغيان أحدهما على الآخر، لكنا نريد تناسقاً يخلق لنا حياة أغنى وأعمق وأكثر بعثاً للرضى والتآلف والارتياح. يقول فرويد (إن عدم التغيير موت)! فلنأخذ من الغرب مثلاً رياضته وهندسته وتربيته وفنه، ولنبق للشرق خلقه وكرمه وروحانيته، وليكن رائدنا في جميع ما نأخذ وما ندع هو الرغبة في التقدم الذي يحفظ لنا شخصيتنا ولا يتركنا متخلفين وراء الغرب، ولتكن خطتنا هي التقريب بين المعاهد المختلفة لتحسين خططها وتوحيد غرضها وتقليل نفقاتها، بحيث ينجم عن ذلك التقارب تعاون متناسق يعمل من أجل غرض واضح مرسوم. ذلك أن العقل الناجح هو ذلك الذي تعمل خلاياه باختلاف ولكنها ترجع جميعاً إليه كعقل واحد منتظم. وإذا بحثنا عن ذلك العقل الموحد في هيئاتنا التعليمية لم نجد بين خلاياه اتصالاً معقولاً، ولم نجد له غرضاً واحداً موضوعاً تعمل الجهود المختلفة على تحقيقه

اقتراحات للإصلاح - 6
ولئن كانت مصر قد أخذت بكثير من نواحي العلاج، وستستفيد بلا ريب من احتكاكها بعصبة الأمم في نواحي الصحة والطفولة والعمال والتعاون الفكري فلاشك أنها محتاجة لبحث الشئون الآتية كوسائل ضرورية للعلاج:
(1) النظر في أية ثقافة جديرة بالتشجيع؟ وأية حياة مثلى يجب أن تسيطر على نظام التربية؟
(2) نشر التعليم ومحو الأمية والارتقاء بمستوى السواد الأعظم إلى حيث تتحقق الحياة الديمقراطية الصحيحة
(3) تعديل التعليم الثانوي على نحو أكثر تحقيقاً للحياة العملية والاجتماعية درءا لأزمة البطالة الراهنة
(4) تقريب معاهد الثقافة بعضها من بعض على النحو الآنف. ويشمل هذا التقريب الطلبة والمدرسين على السواء
(5) حسن اختيار المعلمين والارتفاع بمستواهم حتى تصبح مهنتهم جديرة بالاحترام اللائق
مغرية للنبهاء والنابغين بالعمل فيها
(6) تكوين مجلس أعلى للتعليم يضم كبار رجال التربية إلى جانب رجال الاقتصاد والدين والفكر والإجتماع
ولما كانت ناحية محو الأمية وتثبيت قدم الديمقراطية أهم هذه النواحي جميعاً، فإنا سنعرض لها بإسهاب في العدد القادم إن شاء الله
(يتبع)
محمد حسن ظاظا
مدرس الفلسفة بشبرا الثانوية الأميرية

حلبي يزور باريس
في سنة 1867
للدكتور حسين فوزي

هذا الحلبي هو الخواجة فرنسيس، شخص إلى باريس لدراسة الطب سنة 1866 وترك لنا عن رحلته أثراً فذاً: كتاباً طبع في بيروت سنة 1867، عثرت عليه أخيراً في مكتبة المرحوم والدي. والغالب أن الخواجا فرنسيس كان رجلاً رقيق الحال، لا لأن كتابه الذي يقع في سبعين صفحة قد طبع على نفقة غيره فحسب، بل لأن (غيره) هذا نعت نفسه بالعبد الفقير حنا النجار. تصور إذاً ماذا كان المؤلف وهذا ناشره عبد فقير! ومع ذلك عني هذا العبد الفقير بكتاب الخواجا عناية فائقة، فوشى أركان غلافه بنقوش ملتوية ورسوم ورود وأوراق أشجار، وطبع فوق عنوان الكتاب طغراء فرنسية يظهر للمدقق فيها شكل نسر نابليوني واقف على حسام يتطاير منه الشرر (أو هي صواعق جوبيتر؟) وتحيط به قلادة (اللجيون دونير) يتدلى منها الصليب الذي خصصه نابليون لرجاله الشجعان. والعبد الفقير حنا النجار كان رجلا عصرياً محباً للتقدم إذ طبع على ظهر الغلاف قاطرة بخارية ذات مدخنة عالية ترسل عموداً كثيفاً من الدخان، وباخرة ذات مدخنة أعلى تطلق سحباً من الدخان وهي تمخر العباب برفاصات جانبية كالتي لا نزال نراها في بواخر النيل
ورحالتنا يمكن أن يلقب بذي الصناعتين، فهو مالك أعنة النظم والنثر، شاعر حتى في نثره، وناثر حتى في شعره. وسنرى كيف استطاع أن يعهد إلى النظم بوصف نثري لباريس، وكيف عهد إلى النثر بوصف شعري لمدينة النور
أسلوبه صور تتوالى. فهو يرى (الحسد والطمع لابسين أجساماً نارية ذريعة المنظر، وجالسين في ذلك السحاب على مائدة السكر) والسحاب هو الذي رآه الخواجا فرنسيس (على الأفق نارياً كثيفاً ذا لون كأنه من مصبغة الموت، تقشعر منه الأبدان وتزهق الأرواح، ومصنوع من زفرات البشر، وكان الخمر دماء، والأقداح جماجم، وهما يصرخان الخ) ويرى أقواماً (يرضعون الذل من أثداء أمهاتهم وعلى ظهورهم أحمال ثقيلة تحنيهم إلى الأرض، وفي أيديهم حقاق فولاذية مطبوقة على أفكارهم وحريتهم) كما يرى (راية المصائب والأوصاب تخفق على كل هامة، ورياح الآلام والأوجاع تعصف بكل روح. . .)

وهو إذا ركب السفن (امتطى ظعن البخار، وأخذ يطوي بيد البحار)
والخواجا فرنسيس كما ترى فيلسوف متشائم، فهو يبدأ كتابه بالقول إنه لما (أدرك رشده، وبلغ أشده، دخل العالم ليتجسسه ويرى كيف يجب اعتباره منه. فعندما تبصره كافياً، وجده سوقاً عظيماً لا حد له، وجميع الخلائق أقامت فيه حوانيتها وكلها تنادي على بضائعها، وكأنما لا يسوغ لأحد مشتري شيء من هذا السوق ما لم يضع على عينيه نظارة تختلف لوناً وقوة. . . فكل يرى هذا السوق على كيفية نظارته وماهية نظره. فالبعض لا يشاهدون فيه معتبراً سوى معدني الذهب والفضة، فيندفعون جماحاً إلى نوالهما على أي أسلوب كان)
ولعلك حذرت أن رحالتنا الخواجا فرنسيس ليس من هؤلاء وليس من البعض الذين (لا يفهمون العالم سوى مقر اللذات والطرب، لأنهم لا يدركون بنظاراتهم سواها، فلا يعتبرون إلاّ ها. فيعيشون ناشرين شراع الليل، وطاوين بساط النهار في الولوع والكر والرقص والخلاعة. هذا إذا لم ينهرهم حارس هذا السوق، أعني به ذلك العفريت الجهنمي المدعو الزمان)
أما هو (المسكين، فقد كانت نظارته لسوء حظه مصنوعة من أشنع الألوان، وأبشع الأشكال) لأنه حين وضعها على عينيه (وجد عالماً ذريعاً ترتعد منه الفرائص، وتميد عمد القلوب وينفي عنه كل ذوق سليم). ولا داعي إلى الاسترسال في نقل الصورة المدلهمة التي يرسمها لنا الخواجا فرنسيس، فهو متشائم فحسب، وقد رأى هذه السوق (المدعو عالماً، فخلا في نفسه ليرى أي بضاعة يبتاعها) فلم يجد (أشرف من انتقاد هذه الحوادث، والبحث عن حركات هذا العالم) فهو يريد أن يكون كاتباً أخلاقياً وكتابه سوف يظهرنا على مبلغ نجاحه في هذا السبيل
إلا أنه، وقد بلغ العشرين، شرع (يمتحن نفسه ليرى ماذا جنى من الثمرات. ولكنه لم يجد في مخيلته سوى كمية وافرة من ألوف مسائل العلم العربي - نحن في سنة 1856 - ولم يعثر في خزانته على غير كتب مطولات ومختصرات في النحو والصرف وما يلحقها). وهو إذ تأمل (الفائدة لم يجدها سوى نظم الشعر) فهو يقول في تواضع مؤثر (فها أنا شاعر إذا أراد شعراء العصر) ولكني لا أحسب شعراء عصره - وأقل منهم شعراء عصرنا - يريدون تضخم الصناعة إلى هذا الحد! ثم هو على كل حال لم يهمل أن يلاحظ (جملة أضرار تقابل هذه الفائدة. وهي أولاً كساد سوق الشعر، ومقت العامة له) - أما نحن الخاصة فسوف نذوب صبابة في شعره بعد لحظة - لذلك أوحيت إليه (كراهته تلك الفائدة المفتداة بأفخر سني حيوته أن يتعكف إلى طلب العلوم العالية واللغات). ثم اتفق له أحد مهرة أطباء الإنكليز (فألقى ثقله على مسايرته، وبدأ يدرس عليه العلوم الطبية وهو في سن الخمسة والعشرين، حتى هضم أربع سنسن كوامل على هذه الدراسة، وصار طبيباً) وعلى رأي المعلم وحده مع الأسف، أما في رأي ما (نقول المدارس فقد كان جهولا)
وشرع (يباشر الأمراض متلاعباً بصناعة إيبوقراط). ثم أوعز إليه ضميره أن يرحل إلى (باريس محط عرش الافرنسيس). وكان لهذا الحادث الهام الفضل في الكتاب الفذ الذي نلخصه لقراء (الرسالة) بعد سبعين سنة من نشره
ففي اليوم (الواقع في 7 أيلول 1866، وهو داخل في دايرة الثلثين) خرج من (أبواب الشهباء صحبة الكروان، ممتطياً ظهر كديش أخي قزل) (ألم أقل إن الخواجا فرنسيس شاعر في نثره؟) فبلغ (الاسكندرونة مينا حلب). وترك لنا وصفاً للطريق يوقف الشعر هلعا. فمن (أوعار ملقاة في الطريق كأنها أمواج البحر الجامد) إلى (جبال صلعاء القمم) إلى (هضاب ممحلة منفردة كاللصوص في درب أبناء السبيل) ومن (عواصف وقواصف تهب من مرابضها الجهنمية على السرى) إلى (أنهار راكدة على فراش الأوصال تعارض سير القوافل). وفي إحدى مراحل هذا الطريق (ينجلي) الخواجا فرنسيس فتتعرف إليه لأول مرة ناظماً، ولا أقول شاعراً فإن شاعريته قد بزغت في نثره كما رأيناه. وقد أسالت (جمرة الفراق جمودة قريحته فهرع إلى القلم ونقش أبياتاً كأنها منشودة من أحد أعراب البادية. . . إلا قليلا). وقد حكم إذ ذاك أن للشعر (علاقة ثابتة مع الموضوعات التي يراها الشاعر). وسأوفر عليك عناء قراءة هذا الشعر البدوي الذي كتب في بادية الشام ما بين حلب والاسكندرونة. ويكفي أن تعلم

بما فيه من حداء السرى والخيام والحمى والعيس. وقد لا تمانع في أن تسمع بيتين من جزل شعر الخواجا فرنسيس:

فهل ذكرت تلك المنيعة في الخبا ... شريداً طحاه البين وهو غلامها
وهل علمت أسماء - وهي عليمة - ... صبابة نفس قد تسامى مرامها
نسيم الصبا هل. . . إلى آخر البيت

وهو رجل غدا الآن واسع الخبرة بالدنيا إلى حد أن يختتم قصيده قائلاً:

ومن خبر الدنيا وأدرك شرها ... تساوى لديه حربها وسلامها

وقد تأثر عند مشاهدته مدينة الاسكندرونة (حينما أذكر المشكل الدولي حول هذا المرفأ ولوائه!) وكان تأثره (صاعقة لأنه رآها هاوية في أعمق هاوية من القهقرة) أهذا (مينا حلب مدخل تجارة الزوراء وتركستان، ومخرج أنسجة ومحصولات عربستان، صايرة مرسحاً لملاعب الخراب. . حتى تكاد أن لا تعتبر سوى كمبصقة للبحر، أو مداس للدهر؟)

وامتطى (ظعن البخار، وأخذ يطوي بيد البحار، حتى عانق باع اللاذقية) ولكنه لم ينزل إليها (وخفقت به أجنحة البخار إلى مدينة طرابلس، فوجدها ظريفة وعليها أبهة العمار، وكأنها تهم إلى التقدم فتدفعها نحوس الأقدار)

ثم زار بيروت ورأى أن لا بدع في أن (جلست هذه المدينة على المرتبة الأولى ما بين مدن سوريا. وأصبحت مبزغاً لكل نور) وبعد نهاية (أجل المرسى عاود إلى المركب وطار به إلى يافا، فنزل إليها بعد تردد وخوف من مطاردة الأمواج، الدايمة الهياج) ولكنه ما عتم أن عاد آسفاً على الشجاعة التي بذلها في منازلة أحط صعاليك المدن كما يقول

بعد ذلك أخذت (تخفق له أجنحة نسر البحر إلى جانب الإسكندرية) فبلغها بعد ثمانية أيام من مغادرته حلب ورأى فيها مدينة (قايمة على ساق التجدد)، ودعاها تاج المشرق وعنوان المغرب. ووجد فيها وقود (النور الايدروجيني خاصة في الساحة المدعوة عندهم بالمنشية)

ثم (أوحت له شياطين الملل أن يرحل إلى القاهرة. فركب أجنحة عفريت البر، فطار به كالباشق - يقيناً إن الرجل شاعر غير نادم! - حتى أوقعه هذا العفريت بعد خمس ساعات على مدينة الأهرام، أعني الأثر الوحيد الذي أبقته القدمية تميمة على رأس هذه المدينة. وجعل يتفرج على مشتهرات القاهرة مدة ستة أيام، فلم يعثر على ما يستحق الذكر أو يروق الخاطر - حتى ولا النور الايدروجيني؟ - سوى خزانة التحف المصرية وجامع القلعة الذي بناه محمد علي باشا من الحجر الكهربائي - لم أعرف قبلا أن هذه ترجمة - مع السرايا المحاذية له. كما بنى سرايا شبرى ذات الحوض المرمري العظيم الذي أنشأه لكي يتنزه فيه على قارب تجدفه جوار حسان (كذا!) أما الأزبكية الشهيرة فلا عادت تنطوي سوى على بعض أشجار بلح مغروسة بين أمواج الرمال) أما أسواق القاهرة (فلا يوجد أقبح منها لشدة ضيقها وأوخامها، حتى أن البعض لشدة ضناكته يكاد أن يرفض مسير اثنين معاً، ولا يقبل الضوء، ولا يوجد شارع يعتبر بالنسبة إلى البقية سوى الشارع الملقب بالموزكي أو طريق الإفرنج حيثما اختار التجار الحلبيون إقامة حوانيتهم)

ووجد مع ذلك في هذا البلد (كثيراً من الأثارات والبقايا القديمة. . . وعدداً جزيلاً من الجوامع وأخصها جامع الأزهر الذي كان زاهراً بعلوم العرب وفنونهم، وقد تقوض حسب اقتضاء روح العصر بالمدرسة العالية التي جددها حضرة إسماعيل باشا قيل مصر) - لو رأى الخواجا فرنسيس هذا الجامع في أيامنا!

وعاد رحالتنا إلى الإسكندرية (يستنظر المركب الذي سيصحبه إلى أوروبا. وورد الصاحب المستنظر فقلع معه الخواجا فرنسيس في 14 تشرين الأول. وفي صباح العشرين منه انقض به باشق البحار على مدينة مرسيليا، ووجد ذاته حينئذ مرتاحاً في حضن الغرب، متخطراً تحت سماء أوروبا)؛ وبعد إقامته ثمانية أيام في هذه المدينة (المصاغة من عسجد الظرافة، والمطرزة بلؤلؤ الجمال، ركب بخار البر في طريق الحديد وأخذ جهة ليون)

وهنا يصف الرحالة الفذ شعوره في بخار البر وطريق الحديد، وحيال المناظر التي مرّ بها معترفاً (بعجزه عن الشرح، وموجز القول بأن تلك المساحات التي مرّ عليها،

فلوات وجبالاً وهضاباً، كانت بستاناً واحداً ومدينة واحدة؛ وما كان يشاهد لون التراب الطبيعي سوى بين اسطوانات طريق الحديد، حيثما تكر العجلات)

ولم يزل الخواجا فرنسيس (مضطجعاً في المركبة الطايرة على أجنحة البخار، مطلاً من كواتها البلورية على نفايس هذه الطبيعة إلى أن حط به طاير النار على مدينة ليون نحو نصف الليل، حينما كانت سابحة في أنوارها العرمرمية)

وهنا تعاود رحالتنا جنة الشعر، فيهرع إلى القلم ليحبس هذه الخيالات المنثورة في بيوت منظومة، ولكنه يبدو في هذه المرة شاعراً حضرياً عصرياً، ألم يحكم بأن للشعر علاقة ثابتة مع الموضوعات التي يراها الشاعر؟)

إلى جنة الفردوس هل أنا ساير ... ترى أم إلى دنياء أخرى مسافر
وهل أنا مع نسر السما طاير إلى ... سما أم بخار الماء بي هو طاير
وعهدي أن الماء يضعف إن غدا ... بخاراً فكيف الآن ذا الضد صاير

ويواصل نظمه ثلاثين بيتاً يتغزل في (عفريت البر وباشق البخار) ويقارن بين راحة السفر على أجنحته وتعب الأسفار على ظهور الإبل:

ولم يبق من ظعن سوى العجلات في ... حديد تكر الدهر وهي صوابر
أبت غير نيران اللظى علفاً لها ... وهن على خير الهشيم دواير

ولما لمع وجه الصباح، نهض من فراش النعام وطفق يطوف ليون ليتفرج على ما تشتمل عليه من المحاسن واللطايف؛ وهو يذكرنا إذ يتغنى بجمالها وكمالها وما (اجتمع لها من المقومات المدنية والأدوات التمدنية بأن أول من شرع في رفع شأنها أحد أولاد قلويس ملك الغوليين ذي الشهرة العظيمة في غاليا بإدخاله إلى هذه المملكة جملة نظامات وتجديدات لمع بها زمانه، وأهمها إدخاله الديانة المسيحية في الغوليين بعد أن أدخلته فيها امرأته بقصها عليه أخبار قسطنطين الكبير، وبإقناعها له أنه إذا سلك مسلك ذاك الملك المنتصر بالتنصر، إنما يقهر نظيره كل أعدائه)

وركب الخواجا فرنسيس نسر البحار بعد تمضية ثلاثة أيام في ليون، فطار به إلى باريس حيث وصل قرب انفلاق الصباح

ولنا أن نتوقع انفجار - أو ربما قال انفطار؟ - نفس رحالتنا في قلب باريس، وأن نترقب هبوط وحي الشعر عليه. ويظهر أن خواجتنا رجل يحسن (الإخراج) فهو تاركنا نشتاق إلى شعره بعد أن حببنا إليه ببعض الخطرات، ليمضي في وصف نثري لباريس حتى قبيل آخر الكتاب، ثم هو مطبق علينا بقصيدة مخمسة عددت شطراتها فكانت خمسمائة شطرة والعياذ بالله. وبذلك يكون الخواجا فرنسيس قد أفرغ فينا شعره مرة واحدة

وكان المتوقع أن يترك رحالتنا للشعر مهمة التعبير عن احساساته في باريس، وأن يودعه تفكيره العالي، تاركاً للنثر وصف المتاحف والميادين. ولكن رجلنا شعره منثور ونثره منظوم كما سبق لنا القول، فبينا هو يتغنى نثراً بباريس (مركز مجد العالم، ومصب أنهار العجايب، وموقع أنوار التمدن. . . وها قد أخذت عيناه ترى ما كان يراه ذاك الذي خطفته أرواح الآلهة إلى السماء الثالثة) إذا به يصطحبنا بشعره كأنه (بيديكر) فينصح بأن نترك الدرس لنتمشى في شوارع باريس:

يا صاحبي حتى م ترعى الوسوسة ... ها كافة الدراس عافوا المدرسة
وكل نفس قد غدت مستأنسة ... بهدنة في الدرس تطفي قبسه
وتضرم الأشواق ضمن الصدر
هيا بنا نسع إلى البولفار ... إلى مكان الشهب والأقمار
حيث نرى بدايع المعمار ... مقرونة ببدع الأفكار
حيث الغنى حيث افتقار الفقر
كفى فسر بنا إلى فندوم ... حتى نرى تمثال ذي الهجوم
يجلي على عموده المنظوم ... من سلب الحرب مع الخصوم
بطرس نابليون عالي الذكر
ها قد نظرنا أثر الشقاق ... فلننطلق لساحة الوفاق
ذات رنين الصيت في الآفاق ... ذي ساحة تسطو على الأحداق
وتسكر العقل بغير خمر
ولننعطف نحو مقام التوللري ... أعني بلاط العاهل المظفر

هناك بستان عجيب المنظر ... فكله شوارع من شجر
وفسحات زخرفت بالزهر
كلا! لست أنوي أن أسرد عليك كل هذه الخريدة العظيمة، والدرة اليتيمة. إنما أنا أقتطف من شطراتها الخمسمائة هنا وهناك لأجمع لك باقة عاطرة من شعر الخواجا فرنسيس. ثم أي بأس في هذه النزهة الباريسية الفريدة؟ الناس يرتادون باريس في (الأتوكار)، والمعلم فرنسيس يصطحبك بقصيدته الحماسية إلى كثير من أماكنها الهامة. هاهو ذا يناديك من بوقه الشعري:
فلنطلق المسعى لدار اللوفر
ها قد بلغنا الآن دار التحف ... حتى نرى عالم دنيا السلف
نرى حيوة الناس في العهد الخفي ... وهتك ستر الزمن المنصرف
كل له داب بهتك السر
جماعة الأشور والعمالق ... يبدون من ذاك الظلام الغاسق
يجلون في الثياب والقراطق ... طبق لباس الناس في المشارق
فذاك زي الشرق منذ الفطر
كذا نرى جميع أعمال اليد ... منهم وكل الأدوات الشرد
وكل معبود لهم ومعبد ... لكنما المضحك في ذا الصدد
إلههم ثور برأس حبر
وهكذا سكان مصر السالفة ... مع آل أشور لهم محالفة
كانوا على الأرض أجل طايفة ... أجسادهم محنطات واقفة
ولا يرى هذا سوى في مصر
(له بقية)
حسين فوزي
جمال الدين الأفغاني
للأديب محمد سلام مدكور
بمناسبة مرور إحدى وأربعين سنة على وفاته إذ توفي في يوم
مارس سنة 1897 ودفن بالأستانة في مقبرة (نشان طاش) 9
حتى شيد له مقبرة خاصة المستر (كراين) سنة 1927م
بهذا الاسم تنطق ملايين الشفاه عند ذكر نهضات الشرق وعند أي مناسبة سياسية أو ظاهرة وطنية، يذكرونه بالثناء والإعجاب، ويتناولونه بالمدح والفخار؛ يتعجبون لصبره وأناته وعمله وجهاده، وكلما تذكروه أو تكلموا في تاريخه فكأن وحياً من الشجاعة هبط عليهم، وروحاً من العزة سرت فيهم، ودبيباً من اليقظة نبههم؛ فقد كان جريئاً في الحق، قوياً في وجه العدو، رابط الجأش ثابت الجنان، في نفسه ثورة مشتعلة ولهب يتطاير، وآمال وثابة إلى المجد والرفعة
نكتب عن السيد جمال الدين، ومن الفخر أن يتحدث المرء عنه ما وسعه الحديث، وأن يطنب في سيرة شخصيته الفذة ما شاء؛ فالتحدث عن تاريخ هذا الفيلسوف الحكيم يشرح الصدر ويغمر النفس بالفرح والإعجاب؛ والإطناب في الكلام عن هذا الزعيم الكبير لا يمله إنسان
فلجمال الدين أثره البين في نهوض الشرق وتطلعه إلى الحرية. فقد ظل الشرق زمناً طويلاً خاملاً يرزح تحت نير العبودية، ويرسف في أغلال الاستعمار؛ فلما جاء السيد جمال الدين نفخ فيه روح اليقظة، وأهاب بالأمم الإسلامية أن تطرح ذلك الجمود الفكري وتلك الأوهام التي ليست من الإسلام في شيء، والتي كانت سبباً في تأخر المسلمين
فكان شأن السيد جمال الدين في الناحية الدينية مثل شأن (مارتن لوثر) في الديانات المسيحية. وكان شأنه في الناحية الفكرية مثل (جان جاك روسو) وغيره من فلاسفة الفكر؛ وكان شأنه في السياسة وتحرير البلاد من يد الغاصب مثل شأن (واشنطن) محرر (أمريكا) و (مازيني) محرر إيطاليا وغيرهما من رجال السياسة
وبالجملة كان لجمال في كل ناحية من نواحي الإصلاح والتجديد أثر ظاهر وفضل لا ينكر

ولقد كان من مبادئ السيد جمال الدين: (أن الإسلام والذل لا يجتمعان في قلب واحد)
ولعمري إنه لمبدأ خالد يكتب بماء الذهب في تاريخ أعظم عظماء الإسلام ويضمن له
البقاء والخلود ويسمو به إلى مراتب أقرب إلى مراتب الملائكة والأنبياء
نعم إنه لآية من آيات الحق، ووحي هبط من السماء، وتأييد من الله يؤيد به عباده
المصلحين، وهداية من الرحمن ونعمة يسبغها الله على من يشاء إنه عليم قدير
أي مسلم يقرأ هذا المبدأ القويم دون أن يسكب الدمع مدراراً، ودون أن تذهب نفسه
حسرات على ما كان للمسلمين في غابر الأزمان من عز وسؤدد، وما هو عليه أكثرهم
اليوم من الذلة والانحطاط
نعم فهو يلفظ القول ليصيب به موقع الماء من ذي الغلة، وينزل فيه بالحكمة التي هي
أبعد من العنقاء وأعلى منالاً من الجوزاء إلى مستوى تستطيع أن تحله الدهماء، إن في
ذلك لعبرة
تلك هي روح السيد جمال الدين، وهذا هو مبلغه من التأثير في نفوس الطالبين،
وكذلك الزعامة الصادقة، والهداية الموفقة، وذلك صنع الله لعباده من المصلحين
وهذا لعمري هو الذي جمع الناس عليه وجعلهم من جميع الطبقات يهرعون إليه ومكن
له في نفوس الملوك والعظماء والعامة والدهماء، فاستطاع أن يظفر بالجو الصالح
لبث هدايته حيثما حل وأينما ارتحل
وأرى أن السيد جمال الدين في آرائه وحكمته، وعلو نفسه، وكرم أخلاقه ونبله زعيم
إسلامي بعثه الله ليجدد للإسلام حياته التي كانت زاهرة زاخرة في عهوده الأولى،
ويكون هذا أصدق شاهد على قول النبي صلى الله عليه وسلم (إن الله تعالى يبعث
لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها)
فقد كان أول المجددين في القرن التاسع عشر الحكيم القدير والمصلح العظيم،
والمجاهد الكبير، والثائر الخطير السيد جمال الدين سيد النابغين، وأمير الخطابة
والبيان، فيلسوف الإسلام وآية الحق القاهرة، وحجة الشرق الناهضة، وكوكب الإصلاح
الذي ظهر ساطعاً في آفاق الشرق بعد أن كان في ظلام حالك
كانت حياة هذا الفيلسوف سلسلة جهاد موفق، وحلقة كفاح مثمر، حياة خصيبة ممرعة
ثرية
ممتعة لها من الآثار الحميدة والأيادي البيضاء والأعمال المجدية ما لا سبيل إلى
تقديره؛ فلقد كان يجول بفكره في ميدان مترامي الأطراف من متنوع الفنون، ويتناول
في مباحثه أجل الشئون مما يهم البشر، يهتك غشاء الباطل عن الحق بنظرات نافذة
وتفكير صحيح
والحقيقة التي لاشك فيها أن المرء لا يكاد يقف على عمل من أعماله أو رأي من
آرائه، أو يقلب صفحة من حياته حتى يشعر أنه بين يدي ذهن مستقل جبار لا يرتضي
دون الحرية مطلباً، ولا يبتغي غير محاربة الاستبداد شيئاً
بقي السيد جمال مناراً وهاجاً في الحرية يهتدى به، ومرجعاً صادقاً يفزع إليه في شتى
نواحي الأمور. ولا بدع فإنه يعمل لمبدأ خالد لن يغير تيار الحوادث منه مادام الإنسان
إنساناً
ولست مغالياً في مدح السيد جمال، ولا أكيل له تلك العبارات جزافاً مندفعاً وراء
العاطفة، إذ هناك الكثير من الكتاب الغربيين الذين لا تربطهم أية صلة بجمال الدين إلا
الاعتراف بالفضل، والتقدير للنبغاء والمصلحين، فهذا (هنري روشفور) الكاتب
الفرنسي الشهير يقول في كتابه (ماجريات حياتي):
السيد جمال الدين من سلالة النبي، والمعدود هو أيضاً أنه أشبه بنبي. ثم قال: إنني)
شعرت نحو هذا الرجل بعاطفة الحب التي أجدها تربطني بكل داع إلى ثورة أو مقاوم
(لسلطة
وهاك (رينان) الفيلسوف الكبير يقول عنه: (يخيل إلي من حرية فكره، ونبالة شيمه
وصراحته، وأنا أتحدث إليه، أنني أرى وجهاً لوجه أحد من عرفتهم من القدماء
الفلاسفة، وأني أشهد ابن سينا، أو ابن رشد، أو واحداً من أساطين الحكمة الشرقيين
اللذين ظلوا خمسة قرون يعملون على تحرير الإنسانية من الإسار)
جميل جداً أن نسمع تلك الحقيقة من فلاسفة الغرب، وأن يشهدوا بفضله وعلمه،
وقوته وحكمته، وهم الذين لم يستفيدوا منه شيئاً طائلاً، وليس بجميل منا نحن

الشعوب التي رضعت من ثدي علمه، واستفادت من إرشاده، وتمتعت بالحرية التي كان ينشدها أن نجهله أو نتجاهله، وألا نحتفل بذكراه ونضع الأسفار الضخمة في تاريخ حياته وتحليل نفسيته

اذكروا الرجل، واحتفلوا بيوم ذكراه فإن في ذكراه عظة وعبرة. . . اكتبوا المقالات الطوال، واقرضوا الشعر الرصين، فليس هو بالذي ينقضي عمله بموته، وإنما هو صاحب

العمل الخالد والمجد الدائم، إنما هو رجل الأمم والجماعات

فيا أيها الشعب الإسلامي، ويا أبناء الشرق، هذا هو السيد جمال الذي ما اتخذ له وطناً ولا ولداً، فليس هو بالذي تتناساه الشعوب أو تهمل ذكراه الأمم

أما أنت أيها الشعب المصري فهذا الذي أنقذك من براثن الظلم والجبروت، وعادى من أجلك دول الاستعمار، وقضى شطراً كبيراً من حياته في المدافعة عنك ومناصرتك، ولاقى الصعاب والأهوال

أما أنتم يا رجال النهضة، ويا زعماء البلاد، ويا نواب الأمة فهذا السيد جمال الذي بعث في نفوسكم تلك الروح وعمل جهده على إيجاد الحياة النيابية في مصر

أما أنتم يا رجال الدين، ويا علماء الأزهر، لكم وحدكم يوجه العتاب. ألم يكن جمال هذا هو المحرر للأزهر من ذلك الجمود الفكري الذي كان راسخاً فيه؟ ألم يكن جمال هذا هو الذي خرج لكم في مدرسته الإمام الخالد الذكر الشيخ (محمد عبده) وكان يقول عنه عند نفيه (خرجت من الدنيا ولم أترك مؤلفاً ولا ولداً ولكن تركت لكم محمد عبده وكفى به لمصر عالماً)

أما أنت أيتها الصحافة، أما أنت يا لسان الأمة الناطق، وآيتها البينة وحجتها القوية، وميدانها الفسيح؛ أما أنت يا مشعل الوادي، ويا منار الأفكار، فهذا السيد جمال الذي أنبتك في مصر وجعل منك ذلك المصباح الوهاج، فهذا أستاذك صاحب العروة الوثقى

أما أنت أيتها الروح المقدسة الطاهرة الزكية البريئة العالية السابحة في ملكوت الله. أما أنت يا روح جمال فإليك أتقدم بالاحترام الفائق والإجلال التام، والمعذرة الصادقة عن تقصيرنا السابق، وغفلتنا الطويلة

وإني أخيراً لأفتخر بالسيد جمال الدين الأفغاني في الإسلام وأقول (حسبه من عظمة ومجد أنه في تاريخ الشرق الحديث أول داع إلى الحرية، وأول شهيد في سبيل الحرية)

محمد سلام مدكور

مؤلف كتاب جمال الدين الأفغاني

الكميت بن زيد

شاعر العصر المرواني

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

وقد كان هناك من لا يعذر الكميت في مدحه بني مروان بعد بني هاشم، ويصفه في ذلك بالتردد والرياء والنفاق، وكأنه لا يرى في هذه التقية التي يأخذ بها جمهور الشيعة ما يبرر العذر، ويمنع من توجيه اللوم

وإني لا أنكر أن التقية تدل على شيء من ضعف النفس، وأن التاريخ يذكر بالإعجاب والتقدير تلك المواقف الباهرة التي لم يأخذ أصحابها بالتقية، وآثروا تضحية النفس على الإذعان للخصم، ولكني أرى من الضعف ما قد يكون أجدى من القوة، ولهذا مدحت الحيلة كما مدحت الشجاعة، ومدحت المداراة كما مدحت الصراحة، وقد يكون في المداراة رجولة حرة كريمة جديرة بالعطف والرحمة، بعيدة من اللوم والمؤاخذة، وقد رثى المتنبي لمثل هذه المداراة في قوله:

ومن نكدِ الدنيا على الحرِّ أن يرى ... عدوّاً له ما من صداقته بُدُّ

فيا نكد الدنيا متى أنتِ مُقصرٌ ... عن الحر حتى لا يكون له ضدُّ

يروحُ ويغدو كارهاً لوصاله ... وتضطرُّهُ الأيام والزمن النكدُ

وكان أبو مسلم الخراساني ممن يأخذ الكميت بهذا الإذعان لبني مروان، وقد دخل عليه المستهل بن الكميت يوماً فقال له: أبوك الذي كفر بعد إسلامه! فقال: كيف وهو الذي يقول:

بِخاتَمِكم كرهاً تجوزُ أمورهمْ ... فلم أَرَ غَصباً مثله حين يُغصبُ

فأطرق أبو مسلم مستحيياً منه
وذكر أبو الفرج الأصبهاني أن المستهل بن الكميت دخل على عبد الصمد بن علي
فقال له: من أنت؟ فأخبره، فقال له: لا حياك الله ولا حيا أباك، هو الذي يقول:
فالآن صِرْتُ إلى أُميّ ... ة والأمور إلى المصاير
قال: فأطرقت استحياء مما قال، وعرفت البيت، قال ثم قال لي: ارفع رأسك يا بني، فلئن
كان قال هذا فلقد قال:
بِخاتَمِكم كرهاً تجوز أمورهُم ... فلم أر غضباً مثله حينُ يغضبُ
قال: فسلى عني بعض ما كان بي، وحادثني ساعة ثم قال: ما يعجبك من النساء يا مستهل؟ قلت
غَرَّاء تسحب من قيامٍ فَرْعَها ... جَثْلاً يزيِّنه سوادٌ أفحمُ
فكأنها فيه نهارٌ مشرق ... وكأنه ليلٌ عليها مظلم
قال: يا بني هذه لا تصاب إلا في الفردوس، وأمر له بجائزة
والظاهر أن هذه الحادثة كانت قبل حادثة المستهل مع أبي مسلم الخرساني، وأن المستهل عرف من هذه الحادثة كيف يتخلص من أبي مسلم بهذا البيت الذي ذكره له عبد الصمد بن علي
وقد عرف المستهل بعد هذا كيف يؤول هذا البيت:
اليوم صرت إلى أمي ... ة والأمور إلى المصاير
حين عيره به أبو العباس فقال: أبي إنما أراد - اليوم صرت إلى أمية والأمور إلى مصايرها أي بني هاشم
ولا يبعد أن يكون الكميت قد أراد هذا المعنى الذي ذكره ابنه المستهل، فقد كان شاعراً عالماً يعرف مرامي الكلام، ولا يقول الشعر إلا بعد التأني والتدبر، وكان يصير في ذلك إلى الغرض البعيد، ويرمي إلى الغاية الخفية، ومن هذا ما ذكره محمد ابن أنس، قال: حدثني المستهل بن الكميت قال قلت لأبي يا أبت إنك هجوت الكلبي فقلت:
ألا يا سَلْم من تِرْبِ ... أفي أسمآء من ترب
وغمزت عليه فيها، ففخرت ببني أمية وأنت تشهد عليها بالكفر، فألا فخرت بعلي وبني هاشم الذين تتولاهم؟ فقال: يا بني أنت تعلم انقطاع الكلبي إلى بني أمية وهم أعداء علي عليه السلام، فلو ذكرت علياً لترك ذكري وأقبل على هجائه، فأكون قد عرضت علياً له ولا أجد له ناصراً من بني أمية، ففخرت عليه ببني أمية وقلت إن نقضها عليّ قتلوه، وإن أمسك قتلته غماً وغلبته، فكان كما قال، أمسك الكلبي عن جوابه، فغلب عليه وأفحم الكلبي
نعم إنه يمكن أن يؤخذ على الكميت أنه لم يكن يتعصب في شعره لأهل البيت إلا لقرابتهم
من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا نوع من العصبية التي ينكرها الإسلام، وهو لا يهتم في حكم المسلمين إلا بمحاربة الظلم وإقامة دعائم العدل، ولا يهمه بعد هذا نظام الحكم الذي يحقق هذه الغاية، ولا أشخاص القائمين بهذا الحكم، فالناس سواء فيه، وكلهم صالحون له، ولا فرق فيه بين هاشمي وغير هاشمي، ولا بين عربي وعجمي
ولكن هذا لا يصح أن يؤخذ على الكميت أيضاً، لأنه لم يكن يدعو في شعره إلى أهل البيت من أجل تلك العصبية المنكورة في الإسلام، وإنما كان يدعو إليهم لأنهم كانوا أمثل الناس لحكم المسلمين في عصره، وإصلاح الفساد الذي ظهر في المسلمين بسبب حكم بني مروان الذي كان يقوم على تلك العصبية
فكان المسلمون في حاجة إلى حكم إسلامي ينظر إلى كل شعوبهم على السواء، ولا يقوم على أساس العصبية التي كان يقوم الحكم عليها عند الفرس والروم وغيرهم، وكان بنو هاشم أجدر الناس بالقيام بهذا الحكم الصالح، لأنهم كانوا ألين طباعاً من بني مروان، وأقرب منهم إلى فهم الغاية التي قام الإسلام من أجلها، والى السير بالحكم بين الناس على أنه وسيلة لا غاية
وقد حكم بنو العباس من بني هاشم بعد بني مروان فكان حكمهم أشبه بحكم الخلفاء

الراشدين من حكمهم، ولم يفرقوا فيه بين عربي وعجمي، بل رفع الأعاجم فيه رؤوسهم حتى ساووا العرب وأخلصوا للإسلام إخلاصهم، وقد بذلوا في خدمة العلوم على اختلاف أنواعها ما يفتخر به المسلمون في عصرنا على غيرهم، وإذا كان لهم في حكمهم أيضا سيئات فإنها كانت قليلة بجانب حسناتهم.

ونعود بعد هذا كله إلى أمر الكميت بعد عفو هشام عنه، ورجوعه فائزاً بذلك على خالد بن عبد الله القسري، فقد فسد بعد هذا ما بينهما، وكان للكميت معه أخبار بعد قدومه إلى الكوفة بالعهد الذي كتبه هشام له، ولم يجعل فيه لخالد إمارة عليه، فكان خالد يلاينه حيناً ويقسو عليه حيناً، وكل منهما يخادع صاحبه، وينتظر السوء به. فلما أدبر أمر خالد وتحدث الناس بعزله عن العراق أظهر الكميت شماتته به، وقد مر عليه خالد يوماً فلما جاز به تمثل بهذا البيت:

أراها وإن كانت تحَبُّ كأنها ... سحابةُ صيفٍ عن قليل تَقشَّعُ

فسمعه خالد فرجع وقال: أم والله لا تنقشع حتى يغشاك منها شؤبوب برد، ثم أمر به فجرد فضربه مائة سوط، ثم خلى عنه ومضى

وقد كان للكميت مدائح في خالد لعلها كانت قبل أن يفسد بذلك ما بينهما، أو لعلها كانت في بعض ما يزول فيه شيء من تلك الجفوة، وقد يكون هذا من تلك التقية التي أخذ بها نفسه بعد أن عفا هشام عنه، على أن خالداً كان للشيعة خيراً ممن ولي العراق بعده، وقد روى محمد بن كناسة أن الكميت دخل على خالد القسري فأنشده قوله فيه:

لو قيل للجود من حليفُكَ ما ... إنْ إلاَّ إليك يَنتسِبُ
أنت أخوه وأنت صورتهُ ... والرأسُ منه وغيرُك الذَّنب
أحرزتَ فضل النضالِ في مَهلٍ ... فكلُّ يوم بكفِّك القصب
لو أن كعباً وحاتماً نُشرا ... كانا جميعاً من بعض ما تَهَب
لا تُخلفُ الوعد إن وعدت ولا ... أنت عن المعتفين تحتجب
ما دونك اليوم من نوالٍ ولا ... خلفك للراغبين منقلبُ

فأمر له بمائة ألف درهم

وكان خالد قد ولي العراق سنة خمس ومائة، وقد طالت ولايته على العراق وتمتع الناس ببعض من الأمن في ولايته، ولم يكن شديداً على الشيعة كغيره، وكان إلى هذا جواداً كثيراً العطاء، خطيباً مقدوراً من خطباء العرب المشهورين بالفصاحة والبلاغة، ولكنه كان يتهم في دينه، وكانت أمه نصرانية فبنى لها كنيسة تتعبد فيها، وقد عزل عن العراق سنة عشرين ومائة. ويقال إن سبب عزله أن امرأة أتته فقالت: أصلح الله الأمير، إني امرأة مسلمة؛ وإن عاملك فلانا المجوسي وثب علي فأكرهني على الفجور وغصبني نفسي، فقال لها: كيف وجدت قلفته؟ فكتب بذلك حسان النبطي إلى هشام فعزله وولى مكانه يوسف بن عمر الثقفي، وهو ابن عم الحجاج بن يوسف، وأمره بمحاسبته ومحاسبة عماله، فأخذ يوسف خالداً وعماله وحاسبه وعذبه، ثم قتله في أيام الوليد بن يزيد سنة ست وعشرين ومائة

وقد تكون هذه التهم من اختلاق أعداء خالد عليه، وقد يكون السبب الحقيقي أن هشاما أراد أن يأخذ العراق بالشدة بعد أن فشا فيه التشيع على عهد خالد بن عبد الله، وجاهر به

الكميت وغيره من شيعة أهل البيت، فاختار لهم ذلك الثقفي ليأخذهم بما أخذهم به قبله الحجاج ابن عمه، فسار فيهم سيرته. وكان من ضحاياه زيد بن علي بن الحسين رضي الله عنه

فاضطرب الكميت بعد هذا في أمره، وقد سبق أن زيداً دعاه إلى الخروج معه فلم يجب دعوته، ولكنه ندم على هذا بعد قتله، وقال يلوم نفسه:

دعاني ابنُ الرسول فلم أُجبْه ... أَلهْفي لَهْف للقلب الفَرُوق
حِذَارَ مَنِيَّةٍ لابُدَّ منها ... وهل دُون المنية من طريق

وقال يهجو يوسف بن عمر:

يعِزُّ على احمدٍ بالذِي ... أصاب ابنه أمس من يسُوف
خبيث من العصبة الأخبثين ... وإن قلتُ رَانِينَ لم أقْذف

وقد كان مع هذا يظهر التقرب إلى يوسف بن عمر، ولا يبخل عليه بشيء من المدح.

روي أنه دخل عليه بعد قتله زيداً فأنشده قوله فيه:
خرجتَ لهم تمشي البراحَ ولم تكن ... كمنِ حِصْنُهُ فيه الرِّتاجُ المضبَّبُ
وما خالدٌ يستطعم الماء فاغراً ... بعدلِكَ والداعي إلى الموت يَنعب
يعرض بخالد وقد خرج عليه الجعفرية وهو يخطب على المنبر ينادون: لبيك جعفر، لبيك جعفر، وهو لا يعلم بهم، فدهش فلم يعلم ما يقول فزعاً، فقال: أطعموني ماء، ثم خرج الناس إليهم فأخذوهم
وكان الجند القائمون على رأس يوسف يمانية فتعصبوا لخالد، ووضعوا ذباب سيوفهم في بطن الكميت فوجئوه بها وقالوا: أتنشد الأمير ولم تستأمره! فلم يزل ينزفه الدم حتى مات، ولا يبعد عندي أن يكون هذا بتدبير يوسف ليتخلص منه، فليس من المعقول أن يجرؤ هؤلاء القوم على هذا مع ما سبق من عداوة يوسف لخالد
وقد مات الكميت سنة ست وعشرين ومائة، وكان وهو يجود بنفسه يقول: اللهم آل محمد، اللهم آل محمد. وقد أوصى ابنه المستهل أن يدفنه بموضع يقال له (مكران) غير ما يدفن الناس فيه بظهر الكوفة، فكان أول من دفن فيه من بني أسد
عبد المتعال الصعيدي
حاشية: ذكرنا أن الأعور الكلبي رمى امرأة الكميت بقصيدة يقول فيها (أسودينا وأحمرينا) وهذه رواية الأغاني، وقد وجدنا هذا البيت في شرح الأشموني على ألفية ابن مالك:
فما وجدت نساء بني تميم ... حلائل أسودين وأحمرينا
وسنعود إلى ذكره في مناقضات الكميت مع الأعور الكلبي
التاريخ في سير أبطاله
ابراهام لنكولن
هدية الأحراج إلى عالم المدنية
للأستاذ محمود الخفيف
- 5 -
يا شباب الوادي! خذوا معاني العظمة في نسقها الأعلى من سيرة هذا العصامي العظيم
أبرزت السياسة مواهب ابن الأحراج وأثارت ما استكن في نفسه من معاني الإنسانية الصادقة؛ وأخذت الأيام تعده ليؤدي للبشرية رسالة. . . والعبقري مهما تناول من عمل فهو إنما يفرغ عليه من نفسه فيلبسه من المعاني مالا يستطيعه أو يحلم به الرجل العادي؛ ولقد يكون العمل في ذاته متواضعاً فما هو إلا أن يمر به قبس من روحه حتى يصبح وقد استعظم واستعلى وخرج بذلك عن ذاتيته
أخذ الطوال التسعة يعملون عملهم مع أقرانهم في المجلس، وكانت تشغلهم يومئذ مسائل كثير، فالبلاد تواقة إلى الإصلاح المحلي في شتى ضروبه، ومسألة العبيد يتزايد خطرها يوماً بعد يوم. . ولكن ابراهام حيال مسألة عارضة، تلك هي الدعوة إلى نقل مقر المجلس إلى مدينة أخرى يراها أحسن موقعاً وأوسع مجالا من فنداليا؛ وهو في ذلك يعبر عن رأي الكثيرين من ناخبيه، ومازال بالمجلس حتى ظفر بعد جهد - هو . . .ومظاهروه - بإقناعه، ومن ثم أصبح مقر مجلس المقاطعة في سبرنجفيلد
دخل إبراهام سبرنجفيلد على جواد هزيل استأجره، يحمل كل ما يملك من متاع الدنيا في عدل صغير، وفي جيبه مبلغ لا يقل عن سبعة دولارات! وكاهله مازال مثقلا بما سماه الدين الأهلي. . دخل المدينة الجديدة لا يدري أين يتخذ مأواه، أو على الأقل أين يلقي رحاله لساعته. وسيظل في هذه المدينة حتى يخرج منها إلى واشنجطون العظيمة ليأخذ مقعده في البيت الأبيض!
وكانت المدينة يومئذ آخذة في الاتساع والنمو يسكنها ألف وثمانمائة نسمة، بيد أنها كانت لا تزال تعلق بها مسحة من الغابة إذ كان منبتها كغيرها أول الأمر وسط الأحراج؛ فهي كصاحبنا أيب تخلع عنها ما تخلف فيها من حياة الغابة شيئاً فشيئا
قصد إبراهام إلى حانوت يملكه رجل من كنتوكي كانت له به من قبل معرفة طفيفة، وأقبل على ذلك الرجل ومتاعه على ذراعه يسأله عما يلزم من المال لشراء سرير وفرش، فلما أخبره الرجل بما يلزم أخذته الحيرة وقال له: (إني سأحترف المحاماة ولي في الربح أمل، فهل لك أن تعطيني طلبتي على أن تمهلني إلى عيد الميلاد

القادم؟) ثم أردف قائلاً: (وإذا أنا عجزت يومئذ عن أن أدفع لك حقك فلست أعلم هل أستطيع أن أؤدي لك ذلك أبدا؟) وكان الرجل طيب القلب فما لبث أن ملكته الشفقة على ذلك الغريب الذي يبدو له من أمانته بقدر ما يبدو من فقره؛ لذلك آواه عنده وعرض عليه أن يقتسم وإياه سريره القائم في حجرة صغيرة هناك فوق الحانوت؛ وصعد إبراهام إلى الحجرة فألقى عدله. ونزل وعلى وجهه أمارات الرضا . . .

كان إبراهام مزمعاً أن يتخذ من المحاماة مرتزقاً، وهو قد ترك العمل في البريد وفي تخطيط الأرض منذ أن هم بالرحيل إلى سبرنجفيلد، فأقبل على كتب القانون يستزيد منها علما؛ وكان يعيره بعض الكتب محام في المدينة يدعى ستيوارت. ورأى ستيوارت من ذكاء صاحبه وطيب سريرته وحسن طويته ما دعاه إلى أن يشركه في العمل معه؛ وقبل إبراهام ذلك مغتبطاً مسروراً يحس كأن الأيام توشك أن تبتسم له بعد تجهم وعبوس، فله اليوم في السياسة مجال وله في المحاماة مجال

بيد أن هناك من الأمور ما لا يزال يكدر خاطره ويكرب نفسه. . . ذلك ما كان من غرامه الثاني إن جاز لنا أن نسمي علاقته الجديدة بعد موت آن غراما

الحق أن هذا الجانب من حياة لنكولن، جانب علاقته بالفتيات، أمر يدعو إلى العجب حتى ليحمله المرء على ما كابد من شذوذه أكثر مما يحمله على ما كان من حصافته ولقانته. عرف لنكولن فيمن عرف من أهل نيوسالم امرأة كانت تضيفه أحياناً فتحسن ضيافته، وظل يغشى منزلها زمناً حتى أصبح كأنه من أهلها. وحدثته تلك المرأة فيما حدثته عن أخت لها غائبة ألقت عليها من الصفات ما تبتكره أخت لأختها حين تبحث لها من الشباب عمن يطلب يدها. ورد إبراهام مرة فقال وهو لا يدري أمازح هو فيما يقول أم جاد: إنه يرحب بالزواج من تلك الأخت، وكان قد رآها قبل ذلك بثلاثة أعوام، فلما عادت كانت تجلس إليه ويجلس إليها. . .

وصور له خياله الخصب أن كلمة ميثاق لن يسمح له ضميره أن يتحلل منها. بيد أنه في حيرة دونها كل ما سبق من حيرة! لا يحس في قلبه ما يحسه المرء حين يمر به طائف من الحب؛ وهو مع ذلك لا يستطيع أن يقطع أنه لا يحبها!

لعل ما هو فيه اليوم من أمور السياسة ومن شؤون المحاماة يصرفه حيناً عن وساوسه وهواجسه؛ لقد أخذ ستيوارت القضايا الكبيرة وترك لإبراهام ما خف من القضايا؛ ولكن الحوادث ساقت إليه قضية معقدة اكتسبها ونمى إلى الناس خبرها فما لبث أن أصبح في مهنته الجديدة ملحوظ المكانة

وكان دستوره في المحاماة منبعثاً من أعماق نفسه، لذلك كان قائما على توخي الحق والدفاع عنه ونصرة المظلومين والضعفاء؛ كان لا يقبل قضية لا يقتنع بصدقها، ولا يقرب قضية يعلم أن الدفاع فيها يمس الخلق من قريب أو بعيد، وكان أسلوبه في المحاماة كذلك صورة لنفسه، لا يعرف اللجاج ولا المطاولة ولا يلتوي في أمر أو يخفي في نفسه شيئاً لغاية في نفسه إلا إذا كان ذلك لستر عرض أو لحفظ كرامة، على ألا يكون للمجاملة حساب في نفسه إذا انبنى عليها إساءة إلى الفضيلة أو انتقاص للعدالة

وخفت وطأة الأيام عليه حيناً، فمكانه في المحاماة - وهو يومئذ لم يعد الثامنة والعشرين - كما علمت؛ ومكانه في السياسة قد جعله رأس حزبه في المجلس، وهو كما مر بك حزب الهوجز؛ وهو إلى ذلك حبيب إلى أهل سبرنجفيلد لما كان له من يد في نقل المجلس إليها، ولما آنسوا من طلاوة حديثه وروعة قصصه وعذوبة نفسه. ولقد توثقت المودة بينه وبين الكثيرين وعلى الأخص بينه وبين سبيد صاحب الحانوت . . .

وكان من أحب الساعات إليه تلك التي يجتمع فيها وجماعة من حزبه في حانوت سبيد فيتحدثون ويقلبون الآراء في السياسة وقضاياها. ومن تلك الجماعة من سيكون لهم في الغد شأن في سياسة بلادهم، على أنه مهما يبلغ من شأنهم فسيظل دون ما سيكون لابراهام من شأن. وممن كانوا يختلفون إلى ذلك المنتدى رجل من الحزب الديمقراطي صغير الجرم

يدعى دوجلاس، عرف لنكولن أيام كان المجلس في فنداليا، وقد اشتهر بلباقته وحدة ذكائه وعرف إلى جانب ذلك بالأثرة والغيرة والطمع في عليا المراتب. وكأنه كان يغار من لنكولن؛ أو لعله كان يدرك منذ ذلك التاريخ أنه إن بذ الرجال جميعاً فإنه لن يلحق

بهذا الرجل. وسيكون بينهما من التنافس ما يفتح صفحات ممتعة في حياة لنكولن ولم يكن نشاط لنكولن قاصراً على المجلس والمحكمة وحدهما بل لقد كان نشاطه خارجهما باعثاً على الإعجاب جديراً بالثناء، فهو داعية إلى الثقافة، حاث على الإصلاح بما ينشر ويذيع؛ وذلك لعمري جد عجيب من رجل كان قبل ذلك ببضع سنين يقطع الأخشاب في الغابة يشتري بالمئات منها سروالا!

وحسبك منه ما ترى في تلك الخطبة التي ألقاها في ناد من أندية المدينة، وإليك بعض ما قاله: (إذا كان ثمة خطر يتهدد الولايات فمصدر ذلك الخطر من داخلها. يجب أن نعيش أبداً أمة حرة أو نقتل أنفسنا؛ إنما أشير إلى ما يتزايد من عدم مراعاة القانون في البلاد) ثم يذكر حادثاً خطيراً من حوادث الاغتيال ويعلق عيه بقوله: (تلك هي المناظر التي تتزايد يوماً بعد يوم في هذه الأرض التي اشتهرت أخيراً بحب القانون والنظام. . . وماذا عسى أن نصنع لنقف في وجه هذا؟. الجواب يسير: ليقسم كل أمريكي، كل عاشق للحرية، كل ذي نية طيبة نحو الفَلاح، ليقسم كل بما جرى من دماء في الثورة ألا يتعدى قوانين البلاد في أي جزئية منها، وألا يسمح للغير بتعديها، وكما فعل رجال عام 1776 في تعضيدهم حركة إعلان الاستقلال، كذلك ليفعل اليوم كل أمريكي في حرصه على الدستور والقانون؛ وليقدم كل في سبيل ذلك حياته وشرفه المقدس وما ملكت يداه. إن في النابهين الطيبين من الناس ممن تتوفر فيهم الكفاية لأن يحسنوا أي عمل يوكل إليهم - كثيرين لا تمتد أطماعهم إلى ما هو أبعد من مقعد في المؤتمر أو من مركز في الحكومة أو من وصول إلى كرسي الرياسة؛ ولكن هؤلاء لا ينتمون إلى أسرة الضراغم ولا إلى جماعة النسور. واهاً! أتظنون أن مثل هذا يملأ عين اسكندر آخر أو قيصر ثان أو نابليون جديد! كلا. إن العبقرية الشامخة لتحتقر الطريق التي وطئتها الأقدام من قبل. . . لقد كانت العواطف قبل عوناً لنا ولكنا لن نركن إليه اليوم ولسوف تكون في المستقبل عدواً لنا، ألا لتكن الحكمة الباردة الحاسبة التي لا تعرف العواطف هي التي تمدنا بما يلزمنا في مستقبلنا من أسباب القوة والدفاع)

يا ابن الغابة يا ربيب الفقر والبأساء! أنى لك هذا كله! ألا إنها العبقرية تستعلن في الخطابة وتحمي على الحماسة وإن خفيت في الحديث الهادئ أو في القصة الوادعة!

وماذا يريد لنكولن بإشارته إلى العبقرية الشامخة وما تتطلع إليه؟ هل كان يرسم لنفسه ما يجب أن يفعله في غد؟ كلا. ما كان يدرك يومئذ أو يحس أن له في غد من عمله ما هو حري أن يملأ عين اسكندر آخر أو قيصر ثان أو نابليون جديد

ومما عرف عنه في السياسة موقفه فيما كان في تلك الأيام من أمر العبيد. فلقد انبعثت صيحات قوية من أولئك المتطرفين من أهل الشمال الذين أهابوا بالمؤتمر أن يعلن تحرير السود في جميع الولايات؛ وهو يومئذ مطلب جريء بل لقد كان يعد في تلك الأيام حلماً من الأحلام. وقف ابراهام من تلك الدعوة موقفاً ينطوي على الكياسة وبعد النظر، ويكشف عن ناحية أخرى من نفس هذا السياسي الناهض، تلك هي ناحية التعقل والنظر إلى حقائق الأمور دون مغالطة فيها أو تغاب عنها

كان إبراهام يمقت نظام العبيد من أعماق نفسه وهاهو ذا يجد نفسه اليوم بين أمرين: تطرف الداعين إلى القضاء على هذا النظام طفرة، وما اتخذه مجلس مقاطعته من قرارات رجعية لم يستطع هو وأنصاره تلافيها. أما عن قرارات المجلس فإنها كانت على الأرجح تعبر عن ميل أعضائه وخاصة الديمقراطيين إلى محاربة الدعوة القائمة لتحرير العبيد؛ وكان أن أعلن إبراهام هو وزميل له احتجاجاً على قرار المجلس يتضمن أنهما وإن كانا يريان مسألة العبيد قائمة على الجور وخطل السياسة إلا أنهما يعتقدان أن ما يدعو إليه المتطرفون إنما يساعد على ازدياد الخلاف بين الولايات؛ كذلك هما يعتقدان أن موقف المجلس في قراراته لا يطابق الدستور. ولقد ذاع في الناس هذا الاحتجاج فأضافوه إلى ما عرفوه عن لنكولن من حميد الخلال؛ وهاهو ذا ينتخب للمرة الثالثة وهو في التاسعة والعشرين؛ يطول باعه في المحاماة كلما تصرمت الأيام، وترسخ قدمه في السياسة، ويعلو كعبه في الخطابة. وكان أكبر معارضيه ومناوئيه إذ ذاك دوجلاس وكانت له مواقف يظهر فيها على إبراهام في المجلس بلفتات ذهنه ولباقته، وسرعة انتقاله من فكرة إلى فكرة ومن قضية إلى قضية؛ ولكن إبراهام كان

المتفوق الظافر إذا كان الأمر أمر إخلاص أو أمانة أو بعد نظر أو دقة تحليل. وأحب الناس في المجلس وخارجه مما أحبوا من صفات لنكولن

الخطيب تساوق عباراته ودقة ألفاظه في التعبير عما يريد؛ وأحبوا منه فوق ذلك براعته في التهكم، تلك الخلة التي كان لا يطيقها معارضوه، كما أنسوا إلى تلك الأمثال البارعة التي لم يك يفتأ يضربها للناس في جلاء وبصيرة يستعين بها على بيان ما يريد لم تلهه السياسة وشواغلها ولا المحاماة وقضاياها، ولا الجلسات في حانوت سبيد وما كانت تثير في نفسه من لذة. . . لم يلهه ذلك كله عن نوازع قلبه وخلجات نفسه؛ وأنى له ذلك وقد كانت ماري أوين، تلك الفتاة التي ارتبط بها، تلقاه بعد أن تزور أحياناً بعض ذوي قرباها في سبرنجفيلد فتراه ويراها، كما كان هو يذهب إلى نيوسالم فيغشى بيت أختها. إن أمره عجب في ذلك! لا يستطيع أن ينصرف عنها ولا يستطيع أن يؤمن أنه يحبها! تلك حال من حالات الشباب؛ أو هي حال من حالات لنكولن العجيب

كانت علاقتهما علاقة فتور يتجلى لهما في عدة مواقف، ولكنهما كانا في موقف تحسب الفتاة أنه لم يبق إلا أن يتقدم صاحبها بالاقتراح، ويحسب الفتى أنه لم يبق إلا أن تنأى بجانبها عنه فتريحه. لقد كان منقبض النفس لهذه الحيرة يجعل للمسألة من الأهمية أكثر مما لها. نلمس ذلك في مثل قوله: (لم أجدني مرة مدة حياتي في قيد حقيقياً كان أو خيالياً أرغب في التحرر منه مثلما أرغب في التحرر من هذا القيد) وجمع أمره فكتب إليها خطاباً رقيقاً محكماً يشير فيه إلى دخيلة نفسه ويتلمس معرفة طويتها دون أن ينالها بكلمة قاسية. تكلم عن فقره وما عسى أن تجد عنده من تكون زوجة له، ثم قال (ربما كان ما قلته لي من قبيل المزاح وإلا فأظنني لم أفطن إلى مرماه. إن كان كذلك فدعيه إلى النسيان، وإن لم يكن كذلك فإني أحب أن تفكيري تفكيراً جدياً قبل أن تقطعي في الأمر؛ وسأكون عند ما قلت إذا كان ذلك ما تشائين. وإني أرى ألا تشائي ذلك فإنك لم تتعودي البأساء وربما كان الأمر أقسى مما تخالين)

وكتب لها بعد ذلك خطاباً أكثر صراحة جاء فيه: (إذا كنت تشعرين أنك مقيدة نحوي بأي رباط فإني أميل الآن إلى أن أطلقك منه إذا كانت هذه بغيتك؛ بينما أراني من جهة أخرى أميل إلى أن أمسكك عليّ إذا اقتنعت أن ذلك يزيد من سعادتك بقدر خليق بالاعتبار. تلك في الحقيقة هي المشكلة بالنسبة إلي)

تلك هي تعللات المتردد الحائر تصور لنا حالا من الحالات المستعصية على الفهم، بيد أن

المسألة قد آلت آخر الأمر إلى الرفض وانصرفت عنه ماري أوين. وظل بعد انصرافه عنها حائراً لا يدري أيحمل ذلك على الفوز أم يحمله على الخيبة؛ على أنه يعلن في عزم مصمم أنه لن يفكر بعد في الزواج

ومن العظماء من تنطوي نفوسهم على نواحي ضعف تكافئ نواحي القوة فيها؛ ومن هؤلاء لنكولن، من نواحي ضعفه هذه الحيرة الخوارة إذا كان الأمر أمر نساء؛ فهل كان يرى في سكنه إلى زوجة قيداً يحرمه من حريته، أم هل كانت تعوزه الكفاية لهذا الغرض؟ من العسير أن نرد هذا إلى سبب واضح محدود. . .

وما باله يتورط بعد ذلك في صلة جديدة؟! ينصرف عن ماري أوين ليتصل بماري تود؟

كانت هذه الفتاة تنتمي إلى درجة دونها درجته، وكانت مهذبة مثقفة، شديدة الذكاء، تدير الحديث إذا جمعها بالنابهين من أهل المدينة مجلس، فتسخرهم بتوقد الذهن وقوة المبادهة ولطف الإشارة وأناقة العبارة. وكانت ماري إلى ذلك ذات طمع وطموح، فكانت نظرتها إلى الشباب من طبيعة نظرتها إلى الحياة؛ المقدم فيهم عندها من تعرف أنه إذا نالت يده يخطو بها إلى ما تمد عينيها وخيالها من جاه ونفوذ. وكانت فتاة قلقة كأنها من فرط توثبها الطائر المدل لا يحط على غصن إلا ليثب منه إلى غصن. . .

وكان لنكولن ممن يختلفون إلى دارها الجميلة التي تدور بها حديقة صغيرة فينانة، كما كان دوجلاس ممن يختلفون إلى تلك الدار؛ كأنما صحت عزيمة هذا الرجل أن يأخذ على منافسه كل طريق! وأخذت الرجلين عينا ماري السريعتان النافذتان ولكنهما استقرتا على إبراهام. وكان دوجلاس خليقاً أن ينال عندها الحظوة بما كان يبدو من ذكائه ودهائه ولباقته وكياسته، وبما كان يشع من ظرفه وحسن سمعته وأناقة هندامه، ولقد كان يبتغي إليها الوسيلة، لا تفلت منه في ذلك فرصة ولا تفوته حيلة. ولكنها اتجهت إلى ابن الغابة في هندامه المتهدل القصير على جسمه المرهف الطويل ولم

ينب في عينيها وجهه المسنون الذي يحمل من البلاهة بين يديها قدر ما يحمل من هموم الأيام، ولم ينب عن ذوقها شعره الأشعث الذي يصور للعين ألفاف الغابة!
ومضت الأيام وابراهام يتزيد من حبها بقدر ما يفقد دوجلاس؛ ولكنه يسر إلى صديقه سبيد أنه لا يشعر نحوها من الحب بما عساه أن يفضي إلى الزواج، ويهم أن يكتب إليها ذلك،
فيشير عليه صاحبه أن يشافهها بالأمر، فيفعل، ولكنه يعود إلى صاحبه ليخبره أن لا مناص ولا حيلة، فهو اليوم رهين أسير، ذلك أنه ما كاد ينبئ ماري بما يعتقد حتى هبت من مقعدها صارخة تقول: أصبح المخادع هو المخدوع! قال لنكولن: (ووجدت الدموع تنحدر على خدي أنا فأخذتها بين ذراعي وقبلتها)
وظلت ماري بعد ذلك مدة عامين تحرص على ابراهام وتتحايل على كسب قلبه؛ فلقد كانت ترى منه ما يبشر بأملها المرجو، قالت عنه بعد ذلك بسنين: (لم يكن مستر لنكولن من الوجاهة كما كان مستر دوجلاس، ولكن الناس لم يكونوا يلحظون أن قلبه كان من الكبر بقدر ما كان ذراعه من الطول). ولكن ابراهام كانت تأخذه من الهم غاشية كلما مال الحديث إلى الزواج، وعاد إليه تردده وتلدده، وعاودته الرغبة في التخلص من ماري تود كما تخلص قبل من ماري أوين. وكان يومئذ في حال إن لم نحملها على الخبل نحار على أي شيء غيره نحملها. وحسبك أنه ابتعد عنها بغتة في اليوم السابق ليوم الزفاف، وهو يأمل أن يسترد احترامه لنفسه ومقدرته على الحكم، ولكنه أحس أن فعلته هذه ضد الشرف فحاق به اليأس. كتب إلى صديقه سبيد: (إما أن أموت وإما أن تتحسن حالي، ولكن بقائي فيما أنا فيه من المستحيل) وبعد ذلك

بأيام كان عند الطبيب
الخفيف

أناشيد غزلية
البستاني

للشاعر الفيلسوف طاغور
بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

تشكي إلى كثير من صحابتي ومن قراء (الرسالة) الغراء بعض ما وجدوا في أناشيد جيتانجالي من شدة وصعوبة وصلابة؛ وفي الحق لقد وجدت فيها قوة السبك ومتانة الأسلوب وعمق الفكرة الفلسفية، فما استطعت أن أنحرف عما أراده المؤلف لأناشيده. وأنا أريد أن أنقل إلى العربية ترجمة صحيحة فيها الأمانة والدقة والإتقان، فجاءت كما قرأها القارئ وكما تحدث إلي عنها المتحدث. . .)
ولقد وعدت رفاقي أن أرفه عنهم بعض ما نالهم من أناشيد جيتانجالي بأناشيد أخرى فيها رقة النسيم العليل وابتسامة الفجر الضاحك، وحلاوة الأمل الباسم. . . تلك هي أناشيد (البستاني) التي أقدمها للقراء اليوم وما بعده، وهي أناشيد غزلية كتبها طاغور بالهندية وترجمها هو إلى الإنجليزية وهي 85 نبضة من نبضات قلب شاعر سما بقلبه وعقله معاً فوق الإنسانية ليهبط عليها بوحي من نفسه الشاعرة الرقيقة
وهي كلها نوع من الغزل الرقيق الرفاف لم نر مثله في اللغة العربية. فها هي ذي أترجمها كلها - إن شاء الله - والله أسأل أن يوفقني. . .)
كامل

- 1 -

الخادم - أسبغي على خادمك بعض فضلك يا مليكتي!
الملكة - لقد انفض السامر وتفرق الخدم، فلماذا جئت وقد انفرط عقد الليل؟
الخادم - حين تخلو مليكتي إلى نفسها أبتغي أنا إليها الوسيلة.
لقد جئت لأسألك ما ادخرت لخادمك من عمل
الملكة - وماذا تبتغي في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟
الخادم - مري فأكون بستانيّ حديقة أزهارك
الملكة - يا للحمق!
الخادم - سأنفض عن نفسي كل عمل سوى هذا
سألقي بسيفي ورمحي معاً جانباً. لا تقذفي بي إلى غيابة قصورك النائية، ولا تدفعي بي

إلى ميدان القتال؛ ولكن مري فأكون بستاني حديقة أزهارك
الملكة - وماذا تريد أن تعمل هناك؟
الخادم - سأقوم على خدمتك في ساعات الفراغ
وأتعهد حشائش الطريق لتظل خضراء ناضرة. . . الطريق الذي تجتازين كل صباح
حيث تتناثر على قدميك أوراق الزهور التي تسير الهوينى في طريق الفناء، كأنها تحييهما في ولاء
وأرجّح بك الأرجوحة بين أغصان الدوح، حيث تجهد أشعة القمر نفسها أن تندفع خلال أوراق الشجر لتقبل ذيل مرطك
ثم أترع مصابيحك بالزيت العطر حين توشك أن تنضب، وأنثر على موطئ قدميك الصندل والزعفران في دقة وإتقان
الملكة - وماذا تنتظر من أجر؟
الخادم - أجري أن تأذني فأمسك بيدك البضة الناعمة التي كأنها زهرة اللوتس الناضرة،
فأزين معصمها بسوار من زهر؛ وأصبغ أخمص قدميك بعصير الزهر الأحمر، ثم أنفض عنها ما عساه أن يعلق بها من ذرات التراب
الملكة - لقد أجبت سؤالك يا خادمي، فاذهب أنت منذ الآن بستاني حديقة أزهاري
- 2 -
(آه، أيها الشاعر! إن المساء يقبل في أناة، فيدب الشيب في شعراتك)
(أفتسمع من خلال تأملاتك وأنت في خلوتك رسالة الغيب؟)
- قال الشاعر: (حقاً، إنه الليل، وأنا جالس أتسمع لأن صوتاً سيرتفع - في جوف الليل من جانب القرية)
وأنا أرقب القلوب الشابة وهي تتلاقى بعد تيه، فتنطلق نظرات الهوى تطلب الموسيقى
(لتصدح من حواليها السكون وتتحدث حديثها)
(من ذا يستطيع أن ينسج أغانيها على منواله إن أنا انزويت على شاطئ الحياة لا أستشعر في نفسي سوى الموت والحياة الأخرى؟)
(لقد توارى أول نجم بزغ عند بزوغ الغروب)
(ووميض نار الموتى إلى جانب النهر الهادئ يخمد رويداً رويداً)
(وعواء أبناء آوى يرتفع من جنبات المنزل الموحش في ضوء القمر الشاحب)
(وإذا تلبث مسافر هنا قليلاً ليرقب الليل، وأطرق حيناً ليسمع همهمة الظلماء؛ فمن ذا الذي يسكب في مسمعيه أسرار الحياة إن أنا أوصدت دونه بابي لأتحلل من قيود الإنسانية؟)
(إنها خرافة: أن يدب الشيب في شعراتي)
(إنني دائماً شاب كأصغر شباب القرية، وشيخ كأكبر كهولها)
(بعض الناس ترتسم على شفاههم ابتسامة عذبة رقيقة، والبعض يشع من نظراتهم الخبث)
(بعض تنهمر عبراتهم في وضح النهار، والبعض يكفكفون دموعهم في هدأة الليل)
(كل أولئك في حاجة شديدة إليّ، فأنا لا أجد في عمري مُنفسحاً لأفكر في الحياة الآخرة)
(إنني أعيش مع كل أولئك، فماذا يضيرني إن دب الشيب في شعراتي)
- 3 -
عند الصباح طرحت شبكتي في البحر
ثم جذبتها من الهوة السحيقة فألفيت فيها أشياء ذات بهجة وجمال: بعض يشع كالابتسامة،
وبعض يلمع كالعبرة، وبعض يتألق كأنه خد عروس
وعند الأصيل عُدتُ إلى داري أحمل ثقل يومي؛ وعلى جانب الطريق رأيت التي أحب جالسة في الحديقة لا تجد عملاً فهي تعبث بأوراق زهرة
فاندفعت إليها وألقيت ثقلي عند قدميها ثم وقفت بازائها صامتاً
ونظرت هي إلى أشيائي ثم قالت: (ما أعجب ما أرى! ماذا يفيد كل هذا؟)

فأطرقت ملياً والخجل يعركني عركا، ثم طاف بخاطري (أني لم أجهد نفسي في سبيل هذا، ولم أدفع له ثمناً؛ إن كل ذلك لا يستأهل أن يكون هديتي إليها)
فقذفت بها جميعاً - واحدة فواحدة - إلى الطريق
وحين أسفر الصبح جاء السائحون أرسالا، فالتقطوا كل ما قذفت به وحملوه إلى بلاد نائية
كامل محمود حبيب
نقل الأديب
للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي
353 - على هذا بنيت الدنيا
أُنشِد عمر (رضي الله عنه) قول عبدة بن الطيب
والمرء ساع لأمر ليس يدركه ... والعيش: شح وإشفاق، وتأميل
فقال: ما أحسن ما قسم! على هذا بنيت الدنيا
354 - بلى، إن للعينين في الصبح راحة
في (الموشح) للمرزباني: الشعراء على أن الهموم متزايدة بالليل - متفقون، ولم يشذ عن هذا المعنى ويخالفه منهم إلا أحذقهم بالشعر. والمبتدئ بالإحسان فيه امرؤ القيس فإنه بحذقه وحسن طبعه وجودة قريحته كره أن يقول: إن الهم في حبه يخف عنه في نهاره ويزيد في ليله، فجعل الليل والنهار سواء عليه في قلقه وهمه وجزعه وغمه فقال:
ألا أيها الليل الطويل، ألا انجلي ... بصبح وما الإصباح منك بأمثل
فأحسن في هذا المعنى الذي ذهب إليه وإن كانت العادة غيره، والصورة لا توجبه. ثم صب الله على امرئ القيس بعده شاعراً أراه استحالة معناه في المعقول، وأن القياس لا يوجبه، والعادة غير جارية به، حتى لو كان الراد عليه من حذاق المتكلمين ما بلغ في كثير نثره ما أتى به في قليل نظمه، وهو الطرماح بن حكيم فإنه ابتدأ قصيدة فقال:
ألا أيها الليل الطويل ألا اصبح ... بِبَمّ وما الإصباح فيك باروح
فأتى بلفظ امرئ القيس ومعناه ثم عطف محتجاً مستدركا فقال:
بلى، إن للعينين في الصبح راحة ... لطرحهما طَرْفيهما كلَّ مطرح
فأحسن في قوله وأجمل، وأتى بحق لا يدفع، وبين عن الفرق بين ليله ونهاره
355 - أحسن منها على حيطان جيرانها
في (كتاب الصناعتين): قيل لبعضهم ما بلغ من حبك لفلانة؟
فقال: إني أرى الشمس على حيطانها أحسن منها على حيطان جيرانها
356 - أبو رياح
في (ثمار القلوب في المضاف والمنسوب) للثعالبي: أبو رياح تمثال فارس من نحاس بمدينة حمص على عمود حديد فوق قبة كبيرة بباب الجامع - يدور مع الريح حيث هبت، ويمينه ممدودة، وأصابعها مضمومة إلا السبابة، فإذا أشكل على أهل حمص مهب الريح عرفوا ذلك به، فإنه يدور بأضعف نسيم يصيبه ولذلك كني بأبي رياح. وقد يقال للرجل الطائش الذي لا ثبات له: (أبو رياح) تشبيهاً به، وقيل:
أفّ لقاض لنا وقاح ... أمسى بريئاً من الصلاح
كأن دنيته عليه ... غراب نوح بلا جناح
. . .وليس في الرأس منه شيء ... يدور إلا أبو رياح
357 - فليس لخوفه يبدين حرفا
قال جحظة: كنت مع ابن الرومي فرأينا (أبا رياح) على دار ابن طاهر. فقلت له: صف هذه الشرفات وأبا رياح، فقال:
ترى شرفاتها مثل العذارى ... خرجن لنزهة فقعدن صفا
عليهن الرقيب أبو الرياح ... فليس لخوفه يبدين حرفا
358 - حرمته ماءه ومرعاه
في (السلوك) للمقريزي: في سنة (664) اشتد إنكار السلطان للمنكر، وأراق الخمور، وعفّى آثار المنكرات، ومنع الخانات والخواطئ بجميع أقطار مملكته بمصر والشام. قال ابن المنير قاضي الإسكندرية لما وردت إليه المراسيم بالإسكندرية وعفي متوليها

أثر المحرمات:
ليس لإبليس عندنا أربٌ ... غيرُ بلاد الأمير مأواه
حرمتَه الخمر والحشيش معاً ... حرمتَه مأواه ومرعاه
وقال أبو الحسن الجزار:
قد عُطل الكوب من حبابه ... وأخلي الثغر من رضابه
وأصبح الشيخ وهو يبكي ... على الذي فات من شبابه
359 - دعني أمش في ضوء رضاك
في (أمالي) القالي: قال جحظة: دخل رجل على عمر بن فرج فتنصل إليه من ذنب له فرضي عنه، فلما خرج قال: يا غلام، خذ الشمعة بين يديه فقال: دعني أمشِ في ضوء رضاك. فاستحسن ذلك وأمر له بصلة حسنة
360 - فيأخذها غيرهم فيزن فيها
في (إرشاد الأريب): جرى مع أسعد بن المهذب حديث النحويين وأن أحدهم ينفد عمره فيه ولا يتجاوزه إلى شيء من الأدب الذي يراد النحو لأجله من البلاغة وقول الشعر ومعرفة الأخبار والآثار وتصحيح اللغة وضبط الأحاديث. فقال الأسعد هؤلاء مثلهم مثل الذي يعمل الموازين وليس عنده ما يزن فيه، فيأخذها غيرهم فيزن فيها الدر النفيس والجوهر الفاخر والدنانير الحمر
قال ياقوت: وهذا عندي من حسن التمثيل
مرأى الجمال وذكرى الجلال
للأستاذ عبد الرحمن شكري
مقدمة:
لمناظر الطبيعة الرائعة الجلية لذة في النفوس مثل مناظر الجبال الشاهقة والهاويات العميقة والأعاصير وأثرها والبحار وأمواجها، وهي تبعث اللذة في النفس حتى في مخاوفها إذا لم تتملك مخاوف مناظرها النفس بالذعر والرعب، وقد ينقلب الحنين المقهور في النفس إلى الجمال فيصير ولوعاً بمناظر الجلال والروعة، كما أن مناظر الجلال والروعة قد تشحذ الحنين إلى الجمال وتذكر المرء به، وقد تطغى كل من العاطفتين على الأخرى ولهما أيضاً صلات أخرى غير ما ذكرنا. ومن مسرات التفكير والفنون أن يتتبع الإنسان صلات العاطفتين في نفسه وهذه القصيدة من قبيل هذا التتبع
(الناظم)
ذكرتك في البحار الزاخرات ... وفي مجرى السفين الجاريات
كأن البحر حي ذو جنان ... وموج اليم نبض النابضات
وفي ذاك الجلال بلاغ راءٍ ... وروع للنفوس الواعيات
ولكني ذكرتك يا حبيبي ... كما حن المريض إلى الحياة
كما حن الهزار إلى ربيع ... وأفنان الرياض على الأضاة
وكم غلب الجمال على جلال ... كما غلب الرقاد على التفات
ذكرتك والقبور ترد طرفي ... وتسخر من هيام بالشيات
وتخبرني بأن الحب فانٍ ... وأن العيش صنو للممات
ولكني ذكرتك يا حبيبي ... وذاك الذكر خير الذكريات
ذكرتك والسقام يبيد لبي ... ويسْلي النفس ماضٍ وآت
ويلهي النفس عن حب وشعر ... وعن سحر العيون الساحرات
ولكني ذكرتك يا حبيبي ... كذكري للسنين المقبلات
ذكرتك في الطلول الدارسات ... وآثار العصور الغابرات
أرى الأهرام كالأعلام تزهو ... على عبث الصروف المهلكات
فأبصر من مضوا وأرى اعتزازاً ... لهم بالمصيبات الفانيات
فيضؤل عيش هذا الناس حتى ... لينسى المرء ذكر المصيبات
ولكني ذكرتك يا حبيبي ... كذكري للأمور الخالدات
عبد الرحمن شكري
معاودة الذكرى
للشاعر الرواية الأستاذ أحمد الزين

سبق أن نشرنا أبياتاً غير مرتبة بعث بها إلينا الأستاذ من هذه القصيدة الرائعة، وقد أرسل إلينا حضرته بنصها كاملاً، وهاهي:

عاَوَدَ القَلْبَ حنِينُهْ ... مَنْ عَلَى الشَّوْقِ يُعينُهْ
وَيْحَ قلْبي مِنْ غرامٍ ... هَاجَ بالذِّكْرى كمينُهْ
يا لخفّاقٍ إذاً ما ... قَرَّ هَزَّتْه شُجُونُهْ
واصِلٌ مَن صَدَّ عنه ... صائنٍ من لا يَصُونُهْ
خانَهُ الصَّبْرُ ولولا الصَّ ... دُّ ما كان يخونُهْ
يا زَماناً لم تكُنْ إلاّ ... هُنَيْهاتٍ سنينُه
كنتَ رَوْضاً حالياً بالوَ ... صْلِ قد رَفَّتْ غُصونُهْ
حُلُمٌ إنْ يَمْحُهُ الدَّهْ ... رُ فَفِي الذِكرَى مَصُونُهْ
كلَّما مرَّ بقلبي ... ذِكْرُهُ جُنَّ جُنُونُهْ
لَوْ شَهِدْتِ النَّجْمَ أَرْعَا ... هُ وَتَرْعَاني عُيُونُهْ
أو رأيتِ الليل أشكو ... هُ وتَشْكُونِي دُجُونُهْ
ومِهادَ النوم كم يق ... سُو على جَنْبَيَّ لِينُهْ
آه لَوْ تَدْرِينَ مَا بِي ... ضَاقَ بِالْقَيْدِ سَجِينُهْ
أنتِ تدرين ولكن ... لِصِبَا الغِيدِ فُتُونُهْ
أنتِ لي كلُّ شُئُوني ... وَيْلَ مَنْ أَنْتِ شُئُونُهْ
كان لي دَمْعٌ فماَ لِي ... جَفَّ مِنْ دَمْعِي مَعِينُهْ
مَن لِصَبٍّ غَدَرَ الوَا ... فِي به حَتَّى جُفُونُهْ
كُلَّمَا مَنَّاهُ ظَنٌّ ... عادَ باليأسِ يقينُهْ
سَكَنَ اللَّيْلُ فماَ لِلْ ... قلْبِ يَجْفُوهُ سُكُونُهْ
كم وَكم أَقْسَمَ أَنْ يَسْ ... لُو فما بَرَّتْ يمينُهْ
كلَّما ظَنَّ سُلُوّاً ... كذَبَتْ فيه ظُنُونُهْ
كم فُنُونٍ في الح ... بِّ وللحُبِّ فُنُونُه
فَلْيَذُقْ ماَ شاَء مِنْهُ ... ماَ رَعَى العَهْدَ أَمِينُهْ
أيّها اللائمُ دَعْهُ ... فَلَهُ في الحبِّ دِينُهْ

أحمد الزين

القصص

أقصوصة من تشيكوف

في القرافة - 1

للأستاذ دريني خشبة

(الريح موشكة أن تهب فتكون عاصفة، والليل موشك أن يضرب فوقنا بِجِرانه، أفلا يخلق بنا أن نعود أدراجنا إلى المدينة؟!)

هذا حق فلقد كانت الرياح تزمزم في أشجار البتولا فتملأ مخارف الوادي بأوراقها اليوابس، وكانت شآبيب البرد قد أخذت تنهل فوق رؤوسنا فتنضح ثيابنا وتلفحنا ببرد شديد؛ وانزلجت رجل أحدنا فتعلق بصليب شاحب شاخص ليتفادى السقوط في الوحل، فلما اعتدل وقف مسبوهاً أمام اللوحة الرخامية وراح يقرأ اسم صاحب المقبرة:

(ييجور جريازنوروكوف. . . مستشار ملكي وفارس)

أوه! لقد كنت أعرف هذا السيد، المغفور له، لقد كان مشغوفاً بامرأته حباً، وكان يمتثل أوامر ستانسلاف. . . ولم يقرأ في حياته شيئاً. . . وكانت معدته تهضم الحديد. . . فيا للحياة التي كانت حرية أن تمتد وأن تستطيل! لماذا مات يا ترى هذا الـ (ييجور)؟! إنه لم تكن به حاجة إلى الموت، فلماذا قضى؟! وا أسفاه عليه! إنما هي عين المنية التي لا تنفع فيها التمائم قد أرصدت له؛ فراح المسكين ضحية التجسس والفضول!!

ذاك أنه كان يسترق السمع يوماً خلال ثقب المفتاح في منزل بعض أهله، وكان من دأبه أن يتلصص عليهم دائماً، فانفتح الباب فجأة، وانفدغ الرأس الكريم، وسقط ييجور يتشحط في دمه، ثم مات على الأثر!

وصاحب هذه المقبرة!

مسكين جداً. . . لم يكن يعاف شيئاً في حياته، كما كان يعاف الشعر. . . والشعراء!

فانظروا كيف سخر به الشعر الذي كان يعافه، ويشمئز منه، ويضيق به صدره! لقد جصّصوا مقبرته كلها بأبيات من الشعر هي السخف بعينه. . . مسكين يا هذا، ذق وتقزز ما شئت. . . إنك لأنت العزيز الكريم إذن. . .!

من القادم يا ترى؟

إنه فقير آفاقي يلبس معطفاً كله مزق وأسمال! ويْ! إن له لوجهاً ناصعاً! بخ بخ أيها البائس! إنه يتأبط زجاجة من البودكا! ترى منذا الذي يشرب نخبه هنا هذا الفقير؟ ها ها!! إن الفتى يحمل نقله (مَزَّته) في جيبه حَوَايا، فهي تظل معه لتودع العالم هي الأخرى!

وترنح الرجل قليلاً، ثم سأل في صوت مبحوح محشرج:

- أين قبر موسخين الممثل يا هذا؟

وقدناه إلى قبر موسخين الذي مات منذ حولين

وسألته أنا وفي نفسي منه أشياء:

- أكاتب حكومي أنت يا صاح؟!

فقال:

- كلا! بل أنا ممثل! ماذا أصاب الناس في هذا العصر؟ ما لهم لا يفرقون بين الموظفين والممثلين؟ ولكن. . . حسن؟ لا ضير!

لقد اندثر قبر موسخين أو كاد، ولقد سطع منه ريح كريه منتن، ونمت فوقه أعشاب الفناء الشاحبة الشوكية حتى أوشكت تخفيه عن الأبصار! إنه لا يشبه القبور الجاثمة هنا. . . يا للصليب المعوج الرخيص المائل المكسو بالطحلب السادر المكتئب، الذي يبدو كأنه سيموت هو أيضاً!

لقد نقشت على اللوحة المتآكلة هذه العبارة التي ذهبت يد العفاء ببعض حروفها:

(الصديق المنسي، موسخين . . .!)

فيا للزمان!

لقد أودى بالحروف الأولى التي كانت تجعل هذه العبارة أكذوبة الأكاذيب!

قال الممثل:

(ويحك يا موسخين، وسحائب رضوان الله عليك!! ما أشقاك بهؤلاء الممثلين ورجال الصحافة، الذين اكتتبوا بنقود ليشيدوا ضريحك ونُصْبَك ثم أكلوها فيما بينهم. . .! أسحتهم الله بأكلهم هذا المال!)

ثم سجد في خشوع وعفر وجنتيه وجبينه بالثرى المندّى وقلت أسأله:

- ماذا تعني يا صاح؟ كيف أكلوها فيما بينهم؟

فقال:

- ما أيسر هذا أيها الأخ! لقد فتحوا الاكتتاب، وأعلنوا أسماء المتبرعين في الصحف. . . ثم. . . لا ضريح ولا نصب، لأنهم أكلوا النقود فيما بينهم. . . وكان الله حسبهم. . .! وأنا بالطبع لا أقول هذا استنكاراً لصنيعهم، ولكن لتعلم ما صنعوا. . . نُخبكم أيها السادة، (ونُخب الراقد هنا - موسخين - المسكين! في سبيل ذكراه الخالدة هذه الكأس!)

واحتسى كأس البودكا، والتهم حوية من حواياه، ثم قال:

- يقول الغربيون (في صحتكم) حين نقول نحن (نخبكم). . فيا لله! أي صحة في ابنة الكرم، وأي عافية في أن يصبح الفتى مجنوناً بها، عاكفاً عليها، مخبولاً مدمناً؟. . . هذا. . . وأي ذكرى خالدة نرجوها لهذا الفتى؟! إن الذكرى الخالدة معناها الألم الخالد. . . وخير من ذاك أن نبتهل إلى الله ليجعلها ذكرى. . . مؤقتة، وهما في مذهبي سيان!

- إن هذا حق لا ريب فيه! فقد عاش موسخين رجلاً ذائع الصيت طائر الذكر، ولما مات حملوا عشرين إكليلاً من أنضر الأزهار حول نعشه. . . وما كاد يوسَّد في الثرى حتى نسيه الجميع!

- ومن نسيه؟! لقد كان محبوه، والمعجبون به، في المقدمة!! ومن ظل إلى اليوم يردد ذكراه؟! أعداؤه يا سادة! أعداؤه الذين عاش طوال عمره يشنّ عليهم حربه الضروس الشعواء!!

- فأنا مثلاً. . . لن أنساه ما حييت! أبدا، أبداً. . . فأنا لم ينلني منه غير الأذى، لقد كان مولعاً بإلحاق الأضرار بي! فأنا لا أحبه، بل، أمقته!

فقلت له: وكيف كان إيذاؤه لك يا صاح؟
فتأوه من أعماقه، وانتشرت سحابة من الهم فوق وجهه الكاسف، ثم قال: (أبلغ الإيذاء أيها الصديق! لقد كان لصاً خبيثاً محتالاً، فلا عفا الله عنه!! أتصدق أنني لم أصبح ممثلاً إلا بفضل إصغائي إليه وشغفي به، وإنعام النظر إليه؟ لقد خلبني بفنه، وسحرني بلفتاته، ونفث في صدري روح الكبر والغرور والخيلاء، فنزحت عن الديار بسببه، واحتملت بلاء الغربة في سبيل ما وعدني من الغنى الضخم، والثراء الواسع. . . ولكن. . . وا حسرتاه عليّ!!
إني لم أجن من كل مواعيده إلا الدموع والأشجان!! وإلا الجد العاثر الذي هو نصيب الممثل من الحياة!!
لقد فقدت كل شيء!! فقدت شبابي، فقدت عِفتي، فقدت أخلاقي، فقدت استقامتي، ثم. . . فقدت الله!!)
هاأنذا يا صاح لا أملك الدانق الذي أمتع به نفسي، وأرفه به عن قلبي. . . وهاك حذائي!! يا ربي لقد خَصَفته حتى استحييت من كثرة الخصف، فهاهو عقبي نَعْل له وهاك (بنطلوني)!! لقد رفوته ورقعته، حتى لقد ذهب الأصل وبقي الرقع!!)
وهاك وجهي القبيح الشائه. . . أليس يبدو كأنما هبره كلب!!)
ثم إيماني؟! لقد انتزع اللئيم إيماني بالله، وأغراني بحرية الفكر!؟ ها. . . حرية الفكر؟! هذا الدماغ الفارغ العاجز يجب أن يكون حر التفكير؟! أسمعت؟! أليست هذه خرافة؟ اللص! لقد سلبني لبي وسرق مني عقيدتي وإسلامي لله! ثم أي جدوى عادت علي؟ ماذا كان الثمن الذي اقتضيته حينما خسرت حسن اعتقادي؟! لا شيء!
لقد اشتد البرد أيها السادة، والريح يا رفاق ريح صر، أفلا تشربون كأساً؟! إن بالقارورة الصفراء ذات الأعنة، ما يكفينا جميعاً. . . ألا تشربون؟!
هلم نشرب نخب هذا الجبار الثاوي هنا)
إني لا أحبه. . . بل. . . إني أمقته)
إنه ميت. . . لقد انتهى فيما كان يزعم. . . لن تقوم له قيامة بعد اليوم الملحد الكافر.)
. . أوه! ما لي أسبه وقد كنت أحبه؟! إنه كل شيء لي في هذه الحياة! إنه كأي جزء من جسماني عزيز عليّ! آه! لن أراه بعد اليوم!
لقد قال الأطباء إني سأموت قريباً بسبب إدماني، ولذا أتيت إلى قبره أودعه، إذ ينبغي أن نصفح عن أعدائنا وأن نغفر لهم خطاياهم! ألسنا سائرين في دربهم الأبدي؟
وهنا بدا لنا الممثل في مسوح ملك الموت ففزعنا، وتركناه يناجي موسخين، وسرنا في طريقنا السادر الموحش مدبرين!
وطَلّنا رذاذ خفيف حلو فأنعش نفوسنا التي وجمت منذ حين
وعند المنعطف الذي يؤدي إلى المدينة حيث تنتثر الحصباء الناصعة كالدر فوق الأرض المرصعة بالبَرَد، لقينا جنازة مقبلة. . جنازة صغيرة متواضعة. . . أربعة أشخاص لا غير يحملون نعشاً حزيناً. . . عاطلا!
وكان الظلام قد نشر فوق الكون طيلسانه، فأخذ حاملو النعش يهرولون بحملهم وهم يتزلجون ويتخلجون، والآلة الحدباء تتأرجح فوق أكتافهم ذات اليمين وذات الشمال
يا رفاق! ما هذه الدنيا؟ إننا لم نمكث هنا غير ساعة أو ساعتين، وهذا هو الميت الرابع!. . . هلموا بنا. . .)

دريني خشبة

البريد الأدبي

الذكرى المئوية لمستشرق كبير

أقام مجمع العلوم والآداب في باريس احتفالاً مهيباً في يوم 26 فبراير المنصرم لمناسبة الذكرى المئوية لوفاة العلامة سيلفستر دي ساسي المستشرق المشهور بين أهل الفكر في الشرق والغرب، والذي كان سكرتيراً دائماً لهذا المجمع، وقد افتتح الاحتفال رئيس المجمع بخطاب شامل عن المستشرق العظيم قال فيه: إن سيلفستر ولد في 21 سبتمبر من سنة 1758 في أسرة فقيرة لا طائل لها من نشب أو نسب، إذ كان أبوه جان سيلفستر مسجل عقود، أما صاحب الترجمة واسمه الأصلي أنطون إيزاك فإنه لم يسافر في حياته إلا مرة واحدة، إذ ذهب إلى جنوى للبحث عن مخطوطات شرقية، وكان يقضي وقته في العاصمة متنقلاً من معهد إلى معهد، ومن

مكتبة إلى مكتبة، فهذا الرجل الذي أطلع الغرب على أسرار الشرق لم يذهب قط إلى الشرق، وإنما تلقى معلوماته من المخطوطات النادرة، وتلقف الأخبار التي كان ينقلها إليه تلاميذه وأصدقاؤه

ولقد حذق سيلفستر العربية كما عالج العبرية والسريانية، ولقد انتهج في دراسة العربية نهجاً سهلاً يتفق من الوجهة المنطقية مع الأساليب الفرنسية ووضع كتاباً على هذا النهج لتدريس العربية في مدرسة اللغات الشرقية فوفق كل التوفيق. وقد كان ينشر في جريدة العلماء، والمجلة الأسيوية، وجريدة دائرة المعارف، كل مجهود في دراسة الأدب العربي وحضارة الشعوب الإسلامية، وإخراج المخطوطات النادرة، وكان في جملة ما عني به من كتب الأدب العربي (مقامات الحريري) فنشرها كلها شرحاً ومتناً، وهو أول من نشر كتاب (كليلة ودمنة) لابن المقفع، وصدره بدراسة وافية في أصل الكتاب وتاريخه وترجمته.

ثم قال رئيس المجمع: (لقد كان سيلفستر ممثلاً لضمير الشرق الحي المنبعث بين الغربيين، وقد كانوا يعدونه بعد وفاة العلامة كونياي أكبر عالم في فرنسا ولم يأت بعده من يماثله في التفوق بالعلم إلا العلامة باستور الكبير)

دار الكتب في عهد جديد

دار الكتب المصرية في حاجة إلى إصلاح شامل ونهضة قويمة طالما نادى بها الأدباء والمفكرون في مصر، وقد لمس هذه الحاجة الماسة معالي وزير المعارف فاجتمع بمجلس الدار الأعلى الذي يتولى رياسته، وقد بحث في طرق الإصلاح اللازمة، فوافق المجلس على تأليف لجان كل لجنة تتولى ناحية من نواحي الإصلاح والنهوض، فلجنة لدراسة الميزانية واقترح سياسة إنشائية عامة لرفع مستوى الدار حتى تتمشى والتقدم الحديث الذي يشمل كل مرافق البلاد، ولجنة مهمتها دراسة موضوع إحياء الأدب العربي وبعث المخطوطات المطمورة النافعة الجديرة بالبعث والإحياء، ولجنة تقوم بوضع تشريع لحماية المخطوطات النادرة على نمط التشريع الخاص المعمول به في حماية الآثار المصرية، على أن تقدم هذه اللجان تقاريرها في أجل لا تتجاوز غايته ستة أسابيع

ونحن نرجو نهضة موفقة لدار الكتب على يدي معالي الوزير المصلح بهي الدين بركات باشا فتتسع خطواتها في خدمة الأدب والثقافة في مصر والشرق

محاضرة عن الدستور الإنجليزي

قام الاتحاد الإنجليزي المصري بتنظيم سلسلة من المحاضرات الدستورية، وقد ألقى المحاضرة الأولى من هذه السلسلة حضرة الأستاذ ا. الكسندر المحامي بالقاهرة في قاعة جمعية علم الحشرات الملكية، وقد كان موضوع هذه المحاضرة الدستور الإنجليزي وقد ابتدأ المحاضر القول بكلمة عن الدساتير عامة، فقال: إن الدستور أداة صالحة في أيدي الرجال المصلحين كما أنه أداة فاسدة في أيدي المفسدين، وإن الحكومات الدستورية في مصر ستمر حتماً بهذه التجارب، وستجتاز كل هذه الأطوار، كما وقع لكل حكومات الأمم الدستورية العريقة؛ ثم استطرد في الحديث عن الدستور المصري وتكلم عن العلاقة بينه وبين الدستور الإنجليزي ثم قال: إن هذا الدستور المصري الشاب قد أصبح موضع إعجاب المفكرين والمشرّعين في العصر الحديث وقد توسع الأستاذ في الحديث عن الدستور الإنجليزي، فأبان كيف بلغ قوته العظيمة دون أن يكون دستوراً مكتوباً، ثم قال: إن موضع الإعجاب الحقيقي بالدستور الإنجليزي هو مبادئ الحكم الوطيدة التي يدعمها ذلك الدستور، ويرعاها في نزاهة وحكمة وتقدير صحيح

جوائز أدبية بمناسبة الزفاف الملكي

أقامت اللجنة الأهلية الأدبية في الأسبوع الماضي حفلاً بدار الاتحاد النسائي لتوزيع الجوائز على الفائزين في المباراة الأدبية التي أقامت مهرجانها بدار الأوبرا الملكية أيام الزفاف، وقد حضر الحفل كثير من وجوه الفضل والأدب، وقد وزعت الجوائز على اعتبار أن قصائد الأساتذة فوق المباراة، وقد نال الأنواط الذهبية من الطلبة الأديب عبد العظيم بدوي بدار العلوم والأديب حسن جاد بكلية اللغة العربية، والأديب محمد علي الشلق من أدباء لبنان، كما نال كثير من الطلبة أنواطاً أخرى فضية وبرنزية

حول قصة سابور وقيصر
نشرت الرسالة في عددها الماضي (رقم 244) كلمة بتوقيع قارئ ذكر فيها أنه جاء في مقالي (بين تيمور لنك وبايزيد) (المنشور في عدد 242) أن تيمورلنك وضع بايزيد بعد أسره في قفص من حديد كما فعل قيصر مع سابور ملك الفرس، وافترض (قارئ) أن في ذلك خطأ تاريخياً شاء أن يحمل نفسه مؤونة الرد عليه
وعرض الأمر على هذه الصورة بعيدة عن الحقيقة أيما بعد، فلم أقل في مقالي ما زعم (قارئ) أنني قلت به وكل ما هنالك أنني ذكرت في معرض النقل عن ابن عربشاه مؤرخ تيمور ما نصه: (وهنا تعرض أغرب صفحة في تلك المأساة الشهيرة فإن ابن عربشاه مؤرخ تيمور يقول لنا إن الفاتح التتري سجن بايزيد في قفص من الحديد كما فعل قيصر مع سابور ملك فارس) (عجائب المقدور ص139)؛ فهذه كلمات ابن عربشاه بنصها لم أشأ أن أعرض لها بإثبات أو نفي لأنها لم تكن مقصودة لذاتها؛ وهذا ما كان حرياً بكتاب الكلمة أن يذكره، ولكنه أغفل ذكره، وشاء أن ينسب القول إلي لحكمة لم أفهمها
على أني أزيد أيضاً أن ابن عربشاه لم يكن مخطئاً في إشارته، وأن (قارئاً) خلط بين واقعة تاريخية وبين أسطورة، فقصة سابور ملك الفرس مع الإمبراطور فاليريان قيصر الرومان لا الروم (وهذا تفريق تاريخي لابد منه) وانتصار سابور عليه مقربة من حصن (الرها) القديم (سنة 260م) وأسره حتى وفاته، أشهر من أن يخطئ في نقلها أو ذكرها أحد؛ وهذا ما لم يقصد ابن عربشاه أن يشير إليه، وإنما قصد الإشارة إلى أسطورة تاريخية مشهورة أخرى ينسب وقوعها إلى ما بعد ذلك بنحو أربعين عاماً، وخلاصتها أن الإمبراطور جاليريوس فاليريوس (وليس فاليريان) حينما انتصر على الفرس في جبال أرمينية (سنة 297م) أسر ملكاً أو أميراً من أمراء الفرس يدعى سابور ووضعه في جلد بقرة؛ أو على
قول بعضهم في قفص من الحديد؛ وتنسب بعض الروايات هذه الواقعة إلى الإمبراطور مكسميان؛ بيد أنها تعتبر كلها في عرف التاريخ أسطورة لا سند لها (راجع أدوار جيون - الفصل الخامس والستين والهوامش)
وإذا كان (قارئ) ينشد الحقيقة فإنا ننشدها جميعاً بيد أنه يحسن دائماً أن توضع الحقائق موضعها وفي مناسباتها الصحيحة
محمد عبد الله عنان
تبسيط النحو والصرف
أصدر معالي وزير المعارف قراراً وزارياً بإنشاء لجنة لتبسيط النحو والصرف والبلاغة ومهد القرار لتأليفها بما يلي:
بما أن الوزارة سبق لها أن عملت على تبسيط قواعد النحو والصرف والبلاغة فيما أخرجت من الكتب، وكان لهذا العمل نتيجة مرضية
وبما أن هذه الخطوة التي خطتها الوزارة في الماضي لم تكن كافية، إذ لوحظ أن صعوبة قواعد النحو والصرف والبلاغة لا تزال قائمة، وأن المعلمين والمتعلمين يبذلون جهداً كبيراً ووقتاً طويلاً في تعليمها وتعلمها، ولا يصلون بعد هذا كله إلى نتائج تتفق مع ما يصرف من زمن وجهد
وبما أننا نرى تشكيل لجنة مهمتها البحث في تيسير قواعد النحو والصرف والبلاغة، وتتقدم باقتراحاتها في هذا الشأن مبينة مشروع التبسيط الجديد، والأسس التي تشير بوضع قواعد النحو والصرف عليها، على ألا يمس أصول اللغة العربية، ولا شكلاً من أشكال الإعراب والتصريف، وكذلك تبين اللجنة ما تراه من التغيير في طرق تدريس علوم البلاغة وتبويبها
أما اللجنة فتؤلف من الأساتذة: عميد كلية الآداب، والأستاذ أحمد أمين الأستاذ بها، والأستاذ علي الجارم بك مفتش أول اللغة العربية، والأستاذ محمد أبو بكر إبراهيم المفتش بالوزارة، والأستاذ إبراهيم مصطفى الأستاذ المساعد بكلية الآداب، والأستاذ عبد المجيد الشافعي الأستاذ بدار العلوم
وقد حدد القرار مدة لا تتجاوز الشهرين تعرض اللجنة بعدهما نتيجة عملها على الجمهور لتتبين الوزارة الآراء التي يبديها فيها المثقفون في مصر وغيرها من البلاد العربية

مجلة رسمية للتربية والتعليم
أصدر معالي وزير المعارف قراراً بإنشاء لجنة تضع نظاماً لإصدار مجلة في التربية والتعليم، وفيما يلي نصه بعد الديباجة:
نظراً لأن المصلحة تقتضي التعجيل في العمل على تحقيق التعاون الفكري المنظم بين المشتغلين بأمور التربية والتعليم من طريق البحث في كل ما يتصل بهما من الموضوعات وتهيئة الفرص والوسائل لكل قادر على البحث في هذه المسائل أن يظهر ما يستطيعه من جهد في هذا السبيل
وبما أننا نرى - تحقيقاً لهذا الغرض - أن تصدر وزارة المعارف مجلة تبحث في شئون التربية والتعليم وتنشر فيها آراء الخبراء والفنيين في هذه الشؤون وتمد رجال التعليم بنتائج الأبحاث الجديدة فيها، وتذاع بواسطتها مشروعات الوزارة الفنية مما يساعد على إنهاض التعليم ونشر وسائل الإصلاح في معاهده المختلفة. لذلك قرر:
المادة الأولى - تصدر وزارة المعارف العمومية مجلة للتربية والتعليم لتحقيق الأغراض المشار إليها في ديباجة القرار
المادة الثانية - تؤلف لجنة من وكيل الوزارة رئيساً، ووكيل الوزارة المساعد والسكرتير العام للوزارة والأستاذ أحمد أمين الأستاذ بكلية الآداب، والأستاذ إسماعيل القباني ناظر مدرسة فاروق الأول والأستاذ عبد العزيز القوصي المدرس بمعهد التربية أعضاء
وتقوم هذه اللجنة باقتراح نظام لهذه المجلة من ناحية تحريرها وماليتها وإدارتها على أن تقدم اقتراحاتها في مدة لا تتجاوز شهراً
اضطراب في نسبة بيت شعري
جاء في شواهد تلخيص المفتاح للخطيب القزويني عند الكلام على تنكير المسند إليه هذا البيت:
له حاجبٌ عن كل أمر يشينه ... وليس له عن طالب العرفِ حاجب
وقد نسب هذا البيت في مفتاح العلوم للسكاكي إلى ابن أبي السمط، وتبعه في هذا الخطيب القزويني في الإيضاح، وكذا تقي الدين السبكي في عروس الأفراح فقال: ومثل في الإيضاح للتعظيم والتحقير بقول ابن أبي السمط وهو مروان بن أبي حفصة، وذكر البيت، وكذلك صاحب معاهد التنصيص في شرح شواهد التلخيص، ولكنه حينما أراد أن يذكر ترجمته على عادته في شرح هذه الشواهد قال: وابن أبي السمط اسمه. . . وقطع الكلام فلم يتمه، والظاهر أنه توقف فيه ومات قبل أن يصل إلى معرفة اسمه. وقد تبعهم العلامة الدسوقي في حاشيته على شرح السعد، ثم قال: وهو من قصيدة من الطويل، وقبل هذا البيت:
فتىً لا يبالي المدلجون بناره=إلى بابه ألاَّ تضيءَ الكواكبُ
يصمُّ عن الفحشاء حتى كأنه ... إذا ذكرت في مجلس القوم غائب
وقد ذكر الأستاذ الجليل الشيخ أحمد المراغي في كتابه (علوم البلاغة) أن هذا البيت لمروان بن أبي حفصة، ولم يقل إنه لابن أبي السمط
فإذا صح أن هذا البيت لمروان ابن أبي حفصة فإنه كان يكنى أبا السمط لا ابن أبي السمط، وكذلك كان يكنى حفيده مروان الأصغر، وهو مروان بن أبي الجنوب بن مروان بن أبي حفصة فكانت كنيته أبا السمط أيضاً، وعلى هذا يكون في نسبه ذلك البيت لابن أبي السمط تحريف بزيادة لفظ ابن، وقد أردت قبل القطع بهذا الحكم أن أرجع إلى قراء مجلة الرسالة الغراء، فلعل عندهم في هذا علم ما لم أعلم
عبد المتعال الصعيدي
الآداب أم العلوم؟ أيهما سبق؟
أذاع في هذا الموضوع من محطة لندن الدكتور ل. ب. جاكس في فبراير الماضي. وهو موضوع حبذا لو ساجل فيه أدباؤنا، لأنه يستوعب مدنيتنا الحاضرة، ويعرض لدقائقها بالتفصيل. وقد قسم الدكتور جاكس العلوم فجعلها شعبتين، شعبة تتعلق بالإنسان فتتناول علم الأجناس وعلم النفس وعلم وظائف الأعضاء والاجتماع والدين وعلم الدول والأخلاق. . . الخ. وشعبة تتعلق بالمادة فتتناول البخار والكهرباء واللاسلكي والديناميت والريون

والأصباغ والغازات والفلك وعلم طبقات الأرض. . . الخ (الحرير الصناعي)
ثم عرض الدكتور للعلاقة بين كل من العلوم والآداب وكيف يخلط الناس بين فروعهما فيجعلون الفلسفة والأخلاق وعلوم النفس والدين فروعاً من الآداب، وينكر ذلك العلماء فيجعلونها علماً خالصاً
ويحل الإشكال فيرمز للعلوم بفرنسيس بيكون وللآداب بمعاصره العظيم وليم شاكسبير، فأيهما سبق؟ لاشك أن شكسبير أعظم من معاصره بيكون. . . ولكن الدنيا سارت في طريق بيكون ولم تسر في طريق شكسبير. . . وهذا حق، ولكنت ماذا أصابت الدنيا من اتجاهها ذاك؟ هل أصابت الخير حين اتبعت وصية بيكون في وجوب اتخاذ التجربة في العلوم وإهمال المنطق، أم أصابت الشر المستطير بما أثمرته التجربة من هذا التقدم العلمي الباهر؟!
ومسألة أخرى، ماذا لو أن الدنيا سارت في طريق شكسبير وأهملت طريق بيكون؟ أليس طريق شاكسبير هو طريق الفضيلة؟ ألم يكن شكسبير ينشد الطوبى وأن يكون في الأرض ملائكة؟ أفليس إلا العلوم تصل بالناس إلى هذا الأفق الأعلى؟
هذا موضوع طريف حبذا لو ساجل أدباؤنا (وعلماؤنا طبعاً!) فيه
الشرقيون وتعلقهم بالدين
طاف المستر روم لاندو في ممالك الشرق الأدنى فزار مصر وفلسطين وسوريا واليونان وبلغاريا والعراق والحجاز واليمن ثم عاد إلى إنجلترا حيث أصدر كتابه الطريف (البحث عن الغد) تناول فيه الأحوال الدينية في الشرق. وقد قابل في مصر أحمد حسنين باشا حينما كان رائداً لحضرة صاحب الجلالة الملك، والأستاذ الأكبر الشيخ المراغي، وقد أثنى عليهما ثناء مستطاباً هما له أهل، فقد استطاعا أن يعطياه فكرة طيبة عن الإسلام والمسلمين، وعن الروحية القوية بيننا وبين الله سبحانه، وأكدا له أنه لولا الإسلام لغزت الشيوعية مصر. وقد اقتنع المستر لاندو بهذه الحقيقة، ولمس بيديه هذا السور المنيع بيننا وبين الفوضى. ومما زاده تحقيقاً أنه لمس تلك الحقيقة أيضاً في سائر الممالك الإسلامية التي زارها، حتى تركيا التي فصلت الدين عن الدولة. وقد أعجب المستر لاندو بمسلمي فلسطين وقرر أن نضالهم ضد اليهود نضال من النوع الصليبي، أي أنه للدين وللوطن
على السواء. وقد نعى على اليهود ماديتهم المسترذلة واحتقارهم للروحيات، وانصرافهم عن معابدهم الجميلة التي أقاموها (للزينة!) في تل أبيب، وقد عاب صلفهم كذلك
وقد مدح المؤلف الرئيس أميل إده، كما أعجب بجلالة الملك ابن السعود، الذي كان يكلمه بقلبه قبل أن يكلمه بلسانه. . . وكذلك أثنى على فضيلة المفتي وعلى بطريق دمشق
وما عابه على الناس في اليونان تفشي المعتقدات الوثنية بينهم على رغم تمسكهم بالمسيحية السمحاء وإخلاصهم لها
ترجمة إنجليزية علمية للإلياذة
عني الأستاذ العلامة الجليل روبنسون سمث بترجمة الإلياذة لهوميروس ترجمة علمية دقيقة بحيث قد ذلل المصطلحات اليونانية القديمة الواردة في الأصل الإغريقي للملحمة وهي المصطلحات التي يضطر المترجمون الآخرون في كل لغة أن يغفلوها لعدم فهمهم إياها ولأنها أصبحت من العبارات البائدة التي يعجز الفيلولوجيون (علماء اللغات) عن فك رموزها. وقد وفق الأستاذ روبنسون إلى ذلك توفيقاً عجيباً، وأفرد لهذه العبارات مجلداً كبيراً ألحقه بالترجمة التي حرص على أن تشمل الأصل والترجمة الإنجليزية معاً. وهو عمل شاق يستحق من أجله أكبر الثناء وسينتفع به جميع طلاب الأدب الكلاسيكي في كل زمان ومكان، بل سيصبح جل اعتماد المشتغلين بالأدب الإغريقي على هذه الترجمة الفذة في كل ما يتعلق بهوميروس
الكتب
الفصول والغايات
تأليف أبي العلاء المعري
ضبطه وصححه وشرحه وعلق عليه: الأستاذ محمود حسن
زناتي

للأديب محمد فهمي عبد اللطيف
هذا كتاب أنشأه المعري، وقد وصفه ياقوت في معجم الأدباء فقال: (ومن كتبه الكتاب المعروف بالفصول والغايات، والمراد بالغايات القوافي، لأن القافية غاية البيت أي منتهاه، وهو كتاب موضوع على حروف المعجم ما خلا الألف، لأن فواصله مبنية على أن يكون ما قبل الحرف المعتمد فيها ألفاً، ومن المحال أن يجمع بين ألفين، ولكن تجيء الهمزة وقبلها ألف مثل العطاء والكساء، وكذلك الشراب والسراب في الباء، ثم على هذا الترتيب، ولم يعتمد فيه أن تكون الحروف التي يبني عليها مستوية الإعراب بل تجيء مختلفة
وفي الكتاب قواف تجيء على نسق واحد، وليست المطلقة بالغايات، ومجيئها على حرف واحد مثل أن يقال: عمامها وغلامها وغمامها، وأمرا وتمرا وما أشبه، وفيه فنون كثيرة من هذا النوع، وقيل إنه بدأ بهذا الكتاب قبل رحلته إلى بغداد، وأتمه بعد عوده إلى معرة النعمان، وهو سبعة أجزاء)
ولكن هذه الأجزاء السبعة التي ذكرها ياقوت قد استبدت بها عوادي الزمن، ومحن الأيام، فضاعت في أجواء العصور الخالية فيما ضاع من تراث المعري الحافل، بل تراث العرب أيام حملة الصليبين الأولى على الشام وسقوط المعرة في أيديهم سنة 492 هجرية، وبقي الناس لا يعرفون من الفصول والغايات إلا اسمه، وإلا هذه الكلمة التي أوردها ياقوت في وصفه، وإلا فرية افتراها كاشح، إذ زعموا أن المعري قد عارض به القرآن، وأنه سئل فيه فقال: حتى تصقله الألسنة أربعمائة سنة في المحاريب.
ولقد بقيت التهمة كما هي غير لازبة وغير مردودة، وكان عذر الأدباء في ذلك أنهم لم يتيسر لهم الاطلاع على هذا الكتاب
وكأن الله قد أراد أن يبرئ ساحة الرجل من هذه التهمة الشنعاء، وأن يكشف حقيقته وموقفه من جهة الدين بعد أن ظل ذلك غامضاً في القرون الغابرة، إذ عثر أحد الأدباء على الجزء الأول من هذا الكتاب في دشت اشتراه من وراق بمكة، وإذا بالكتاب عظة دينية، قد أنشأه المعري في (تمجيد الله والمواعظ)، وإذا به وعاء قد أترعه المعري بشتى العلوم من اللغة والأدب والعروض والنحو والصرف والأمثال والتاريخ والحديث والفقه والفلك وعلم النجوم، وغير ذلك مما لم يثبت جمعه ولا إيراده بالطريقة التي سلكها شيخ المعرة. ذلك أنه يملي الفقرة على تلاميذه ثم يختمها بالغاية، وهي عنده بمنزلة القافية من بيت الشعر. وقد تطول الفقرة وقد تقصر، ثم يملي التفسير في أعقاب كل فقرة، وأحسب أن إملاء التفسير كان رغبة من طلابه لتوضيح ما يخفى عليهم فهمه وإدراكه، لأنه أملى أشياء في الكتاب ولم يفسرها، وربما كان ذلك لوضوحها لدى طلابه، فإذا انتهى من التفسير وأراد العودة إلى الإملاء قال (رجع) كأنه يريد نفسه أو يريد رجع إلى الإملاء.
والكتاب كله على هذا النسق، والجزء الذي بين أيدينا منه يبتدئ من أثناء حرف الهمزة وينتهي بحرف الخاء، يقول ناشره الفاضل: (لقد بحثت عن باقي الكتاب في كل المظان فلم أجد له من أثر)
أما الذي نهض إلى إخراج هذا الأثر النافع فهو أستاذنا الفاضل الشيخ محمود حسن زناتي أمين الخزانة الزكية سابقاً، فتولى تحقيقه وضبطه وتفسير غريبه وأنفق عليه من جهده وماله وراحته مدى عام كامل حتى جلاه للناس في حوالي خمسمائة صفحة من القطع الكبير في طبع أنيق ومظهر لائق. ولاشك أن الأستاذ الفاضل قد لاقى كثيراً من العناء في عمله، وأدى في ذلك جهداً ما كان يستطيع أن يؤديه إلا تلميذ الشنقيطي اللغوي والمرصفي الأديب؛ ذلك لأن لغة المعري الأدبية لغة غامضة قد تقف المعاجم التي بين أيدينا دون إجلاء غامضها وكشف المعنى المقصود من اللفظ، وإنما يستطيع كشف ذلك من ارتاض على أساليب المعري ولغته. ولاشك أيضاً أن الأستاذ الفاضل بهذا العمل الجليل قد خدم الأدب والعربية، والحقيقة والتاريخ، إذ كشف للأدباء ناحية من نواحي المعري ظلت مطموسة في القديم والحديث، وإذ يسر لأهل الضاد الانتفاع بهذا الأثر النافع. وقد كانوا في لهفة شديدة إليه
وحسبنا هذا القدر اليوم إشارة إلى قدر الفصول والغايات، وإشارة إلى الجهد الذي بذله مصححه الفاضل، وحسب القارئ أن يطلع على الكتاب حتى يقدر هذا الجهد

بنفسه، أما الكتاب من حيث قيمته الفنية، ووضعه الأدبي، ومن حيث هو صورة لنفسية المعري ورأيه وفكره وفلسفته فسيكون ذلك موضوع مقالات نرجو أن تتسع لها صفحات الرسالة في القريب

محمد فهمي عبد اللطيف

مكتبة خاصة بجورج برنردشو

ارتفع الأديب الأيرلندي العظيم برنردشو إلى مرتبة الخالدين وبلغ إعجاب الكثيرين به إلى حد الهوَس. ومن الأنباء الأخيرة أن الدكتور أرشيبولد هندرسون، الأديب الكبير الذي كتب أول ترجمة لشو، قد أنشأ مكتبة حافلة كل ما فيها يتعلق بشو. فمن ذلك جميع كتبه ورسائله وإذاعاته، ودراماته وقصصه، في اللغة الإنجليزية وفي جميع اللغات التي ترجمت إليها، ومنها العربية طبعاً، وكل ما كتب عن شو في جميع لغات العالم، وفي الكتب وفي الصحف، وفي المجلات، بل وفي المحاضرات. . . وكان جل حرص الدكتور هندرسون أن يجمع الطبعات الأولى لكتب شو، وإن إحداها اليوم، ولاسيما القديمة، لتساوي آلاف الجنيهات. . . وبعد أن اجتمع للدكتور من ذلك جميعاً ما يعد تحفة بحق، أهداه كله حلالاً خالصاً إلى جامعة ييل في شيكاجو. وقد تصفحنا مجلة ييل (المجلد 12 - الجزء2) فهالنا هذا الثبت الجليل عن شو الذي جمعه كله الدكتور هندرسون

هدية أخرى لجامعة ييل

وقد أهدى المستر جورج. ت. كيتنج إلى جامعة ييل هدية أخرى هي عبارة عن مكتبة حافلة تحوي كل ما كتب الأديب الخالد جوزيف كونراد من قصص ومقالات وحكايات قصيرة، سواء ما كتب منها بقلم الأديب نفسه وما ترجم من آثاره إلى اللغات الأخرى، وقد اشترى من أرمل الأديب مخلفات أدبية جليلة القيمة كبيرة يذكرون أنه دفع ثمناً لها آلافاً عديدة من الجنيهات

فهل يفكر أدباؤنا وذوو اليسار فينا في إهداء آثار أدبائنا إلى الجامعة المصرية؟ وهل فكرت الجامعة المصرية في إنشاء متحف لما يصل إليها من هذا السبيل؟

المسرح والسينما

مراقبة الأفلام

عرض فلم (حوادث 1938) وقد لاحظت من تفكك هذا الفلم في بعض أجزائه أن يد الرقيب قد أعملت مقصها في أكثر من موضع فاستبعدت بعض المشاهد غير اللائقة بالفلم، ونحن نحمد (مراقبة الأشرطة السينمائية) على أن يكون عملها هذا من محققات المراقبة الحاسمة، وإن كنا لا ننسى أن عين الرقيب تغفل - أو كانت تغفل - أحياناً. ونكتفي بأن نذكر دليلنا من فلمين حديثي العرض , فقد كان فيهما من المشاهد النابية ما لا نود أن يسمح بمثلها في المستقبل

وقد أصبحت مراقبة الأفلام من الأمور التي تنال من اهتمام الحكومات نصيباً يزداد يوماً بعد يوم تمشيا مع تطور السينما وخطورتها؛ فلو أن المطبعة والأستديو اشتركا في موضوع واحد لكان في مقابل كل فرد يقرأ الكتاب عدة مئات يشهدون الفلم. فإذا كانت هناك مراقبة أدبية حازمة على المؤلفات فمن الواجب أن تكون المراقبة أشد حزماً على الأفلام، وبخاصة أن الفلم صور وحديث فأثره أبقى وأوضح من الكتاب المقروء. ويقيني أنه لو كانت لدينا مثل هذه المراقبة لما انحط مستوى أكثر أفلامنا تبعاً لأسلوبها المبتذل وموضوعاتها الجوفاء

ولقد قيل إن الحكومة كانت تنتوي سن قانون لهذا الغرض، وإنها قد ألفت لجنة في أواخر العام الماضي ظلت تنعقد وتنفض وتفكر وتقترح ثم تنعقد وتنفض، والأمر الذي لم تقترب منه خطوة واحدة هو (التنفيذ)

فإذا تحققت ظنونا يوماً وقيل إنا بدأنا نعمل، فإني آمل أن تهتدي حكومتنا في تشريعها لمراقبة الأفلام على ضوء القوانين التي تسنها البلاد الراقية، وفي مقدمتها القانون الإنجليزي، لأنه قانون معتدل لا يذهب إلى الجمود ولا ينزلق إلى حد التطرف

فالرقيب الإنجليزي يجعل همه أولاً منع الأفلام التي تخدم أهواء السياسة أو الأفكار الخاصة أو المذاهب الخطرة أو التي تتعرض للأديان، وفيما عدا ذلك فإنه يعطي الأفلام إحدى صفات ثلاث:

1 - عام
2 - للراشدين
3 - مرعب

فأفلام الصفة الأولى هي التي يجوز للأسرة جميعاً مشاهدتا. وأفلام الصفة الثانية المحظورة على الغلمان هي الأفلام الغرامية المبتذلة وأفلام العرايا والأفلام التي تنصر الجريمة والمجرمين

أما الصفة الثالثة الخاصة بالأفلام المرعبة فهي حديثة الإضافة في المراقبة الإنجليزية، وقد عني بها الرقيب حظر هذا النوع من الأفلام على الأطفال بعد أن تعدد وتنوع ووضح خطره

كما أن هناك أنواعاً أخرى من الأفلام لم يعن بها المشرع الإنجليزي أو الفرنسي أو الأمريكي؛ تلك الأفلام التي تسيء إلى الشرق عامة وإلى مصر خاصة. هذه الأفلام جديرة بأن تكون في المحل الأول من عناية الرقيب. ولقد عرضت علينا - وا أسفاه - طائفة كبيرة من هذه الأفلام نحسب أن منعها كان أفضل وأبقى على الكرامة وعلى الفائدة المرجوة من السينما

وثمة نوع آخر من الأفلام التي تظهر فيها ضروب من القسوة على الحيوانات تحت ستار الصيد أو القتال أو غير ذلك.

وفي 9 أبريل الماضي أثار سير روبرت جوير في مجلس العموم البريطاني مناقشة حادة حول فلم (فرقة الإنقاذ) الذي عرض ولا يزال يعرض بمصر لإظهاره نوعاً من القسوة على الجياد في مشهد هجوم لجأ المخرج فيه إلى حيلة تكسب الفلم صفة الجد فمد أسلاكاً دقيقة تعلو قليلاً عن سطح الأرض تعثرت بها الجياد عند الهجوم فسقط بعضها جريحاً.

محمد علي ناصف

العدد 246 - بتاريخ: 21 - 03 - 1938

العام الهجري

1357

أهل هلال المحرم والعالم المسكين يكاد يفلت من قيوده ويتحلل من نظمه؛ فكأنما ارتد إلى عهوده الأولى يترصد الفرائس في ألفاف الشجر وأجواف الحفر، ويتعقب الطرائد في بطون الأودية ومخارم الجبال، ثم يشتد عليه سلطان الغرائز المهلكة فيستنشي رَوْح الحياة فلا يجده، ويلتمس ظل الأمان فلا يدركه، ويبتغي عزاء النفس فلا يناله

هذه أوربا العالمة العاملة القوية، قد استحال بنو آدم فيها إلى هياكل صناعية، تتحرك بالبنزين، وتسير بالقيادة، وتعمل بالحيلة، وتهتلك في السبق، حتى أوشكت أن تصطدم فتتحطم

أين الروح الذي كان يحييها؟ وأين النور الذي كان يهديها؟ رجعا إلى مصدرهما الإلهي في الشرق يوم تجهمت لحواريي المسيح، وتنكرت لخلائف محمد، وبنت الأخلاق على قواعد الاقتصاد، والديمقراطية على استبداد الأحزاب، والسلام على طغيان القادة.

فكان من ذلك فجيعتها الأليمة في سلامها ونظامها وخلقها، لأن مطامع الاقتصاد لا يقوم عليها خلق، ونوازع الأفراد لا يثبت بها نظام، ونوازي القواد لا يدوم عليها عهد؛ حتى عصبة الأمم التي جمعت فيها أوربا ما بقي لديها من هدى الأنبياء وحكمة الفلاسفة، دفن أشلاءها هتلر في النمسا، بعدما قطع أوصالها الدتشي في الحبشة!!

فحال أوربا اليوم كحال الضواري الأوابد، تتباعد بالأثرة، وتتدانى بالخديعة، وتتدافع بالقوة؛ ثم أعوزتها الأنياب والأظفار فجعلت مصانع التجار مسالح، وصهرت أجور العمال أسلحة. وأخذ الساسة والطغاة يتجاوبون بالزئير فوق المنابر، فملئوا الصدور بالرعب، وزعزعوا البيوت بالقلق، وسمموا الحياة بالهم، ونزعوا من قلوب الناس طمأنينة العيش وحرية التصرف ولذة التملك، فانقلبوا عبيداً مسخرين لهذه النظم الطاغية، لا يجدون سلاماً في الأرض، ولا يعتقدون نعيما في السماء!

أخطر ببالك أمم التمدن الحديث، فهل تجد غير صولة تناهض صولة، ودولة تبلع دولة، وأنظمة عراها تغير الإنسان فهي تحتظر، وأخرى هدي إليها الضلال فهي تنتظر؛ والشعوب بين أنصار هذه وأنصار تلك مواد تهلك في التجارب، وأموال تنفق في الأهبة،

وأرواح تزهق في الصراع، وآمال تذهب مع الريح؟
دع هذا العالم المجهود البائس وجل جولة بالفكر في بلاد العالم الإسلامي، فهل تجد إلا السلام في المجتمع، والوئام في الأسرة، والسكينة في النفس، والرضا في العيش، والثقة في الحاكم، والأمل في الله؟ ذلك هو الفرق بين نظام يضعه الخالق ونظام يضعه المخلوق. وذلك هو الفرق بين مجتمع يعيش بالروح، ومجتمع يعيش بالآلة. وذلك هو المفهوم من دين سماه الله الإسلام، وجعل تحية أهله (السلام)، وقرن فيه الصلاة دائما بالسلام، وعرف أهله بأنهم (الذين يمشون على الأرض هوناً، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً)
ذلك هو معنى الإسلام وذلك هو مبدأه. وتستطيع أنت بأيسر الفهم أن ترجع الإسلام وفروعه إلى تحقيق هذا المعنى وتطبيق ذلك المبدأ؛ فالصوم والصلاة سلام الفرد. والحج والزكاة سلام المجتمع؛ والسنن والأنظمة والآداب التي انشعبت من هذه الأصول دستور ثابت خالد يحقق لهذا الإنسان، طريد العدوان وعبد الطغيان، أحاديث أحلامه، وهواجس أمانيه، من الأخوة التي يعم بها النعيم، والمساواة التي يقوم عليها العدل، والحرية التي تخصب فيها المدارك؛ لأنه دستور لم يوحه الجوع ولا الطمع، وإنما أوحاه الذي خلق الموت والحياة، وجعل الظلام والنور، وأوجد الفساد والصلاح، ليدرأ قوة بقوة، ويصلح نظاماً بنظام، وينقذ إنساناً بإنسان
إن الإسلام بشريعته السمحة، وسياسته الحكيمة، قد أزال الفروق، وعدل المقاييس، وألف القلوب بالبر، وشفى الصدور بالتعاون، فلا يمكن أن يعيش في ظله نظام هادم ولا نحلة مفرقة. افتحوا ثغوره للنظم الحمراء التي تشيع الفزع هنا، وتثير الحرب هناك، فسترونها تفد جارفة وفود النسور الخاطفة، ثم لا تلبث أن تقع من دون ذراه المنيعة، مهيضة الجناح، ناسلة الريش، لا تقوى على زفيف ولا حفيف! وفي تركية الدليل الحاسم، فإن بينها وبين الشيوعية جواراً وصداقة وعلاقة؛ ومع ذلك لم تستطع الشيوعية - على فجورها وجرأتها - أن تقتحم على الإسلام غِيله.
إن في الإسلام من ديمقراطيته واشتراكيته وأخوته مناعة على كل شر، ومثابة لك جنس، ومودة لكل دين. فانتصاره انتصار للعقل، وانتشاره انتشار للعدل، وسيادته سيادة للسلام!
أحمد حسن الزيات
عبرة الهجرة
للإمام المسلمين الأستاذ الأكبر
الشيخ محمد مصطفى المراغي
شيخ الجامع الأزهر
يذكرنا كر الغداة ومر العشيّ وما فيهما من نُعمى وبؤسى، وشدة ورخاء، وإقبال وإدبار - تقلب الأحوال وتبدلها في هذه الحياة. ويذكر كل أحد من الخلق بطي صحيفة من صحف الأجل، وبالخاتمة التي لا معدى عنها، وفي ذلك عبرة. (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب)
ويذكرنا العام الهجري خاصة بأكبر حادث في تاريخ الإسلام له أجمل الأثر في انتصاره، وفيه أكمل عبرة:
شريف من أشراف قومه، وقومه من أشرف الأقوام؛ ورجل قوي الخلق، حلو الشمائل، فصيح اللسان، قوي البنيان، كامل الإنسانية، مهذب الطبع، رضي النفس، شجاع مؤيد بالوحي الإلهي وبقوة الحق - ينبو به وطنه ومكان مولده، فيهجر أرضاً حلت فيها تمائمه، ويفارق ديارا عرفها وعرفته، ومشاهد حلت لنفسه واتصلت بها، وأهلا وإخواناً أعزاء
رجل هذه صفاته، وتلك مكانته، يضيق لها صدر القوم، ويتنكر له الناس، ويكيدون له حتى يخرجوه! رجل هذه صفاته، يفارق دياره وأهله؛ ولو لم يكن صاحب دعوة إلى الحق والى غير ما ألفه الناس وأخذوه عن الآباء والأجداد، لكن المحبب إلى النفوس، والمرموق بالأبصار، والمفدى بالأهل والولد. لكن الحق أزعج الباطل فلم يطق صبراً، ودفع أهله إلى قتله أو إخراجه؛ (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك، ويمكرون ويمكر الله، والله خير الماكرين)؛ وغطى على القلوب فأفسد على العقل ملكة التقدير (وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا، ولو نشاء لقلنا مثل هذا، إن

هذا إلا أساطير الأولين)
هذا موضع العبرة
وليس من غرضنا أن نلم بتاريخ الهجرة وما لابسها، فذلك معروف في السير، كذلك ما لاقاه النبي صلى الله عليه وسلم، وما أصاب صحبه المتقين من جهد البلاء، وجهل الجهلاء،
وكيد الكائدين، لا يغيب أكثره عن أكثر المسلمين
الأجسام الإنسانية معرضة للأمراض كسائر الكائنات الحية؛ وقد تعطل الأمراض وظائف الأعضاء أو تضعضعها. ومن الأمراض ما هو خاص ببعض البلاد أو بعض البيئات.
وحال النفوس الإنسانية لا يختلف عن الجسوم: تصاب بالجهل، وبالعناد، وبالغرور، وبالحرص على لذات الدنيا من مال وثراء وجاه وعزة، وبالحقد على أصحاب النعم موروثة ومكتسبة، وبحب الانتقام والإسراف فيه، وبحب ما هو موروث عن الآباء والأجداد من مال وعقار وصفات وخلال وعقائد وتقاليد
مثل هذه النفوس المريضة لا يسهل تحولها من الشر إلى الخير، ولا يسهل قبولها الحق وهي بحاجة إلى داع قوي بصبره، قوي بحجته، فيه من المناعة الخلقية ما يقوى به على احتمال الأذى والمكروه في نفسه وذويه، وعلى احتمال ما يرمي به مما يستفز الحليم، ويستنفد صبر الكريم، ويعجب له الرجل العادي، وبعده ضعيف الطبع شذوذاً وخروجاً عن المألوف. تجمعت هذه الأمراض في قريش فاستعصى العلاج وتحير الحق، ولم يكن أمامه إلا أن يخلد إلى الذلة والاستكانة، أو يفر بنفسه من عنت الباطل إلى أن يجد السبيل ويعد العدة لمنازلته؛ فليست هذه البيئة مما ينفذ إليها ضياء الحق بالدليل والحجة، بل هي في حاجة إلى السيف يضرب الرقاب ويفلق الهام، والى أسنة الرماح تصل إلى القلوب فتشعرها بوجوب التنبه والإصغاء إلى صوت الحق. تلك أسباب الهجرة. وقد ترك النبي صلى الله عليه وسلم هذه البيئة الموبوءة خوف أن يختنق الحق في مهده، ورجاء أن يجد له متنفساً في أرض حرة تحضنه، وأن يجد له قوة تعينه، حتى يحين الأجل المضروب، ولكل أجل كتاب
هاجر وتم له ما أراد، إذ فتح الله له فتحاً مبينا وأعز دينه وأعلى كلمته ونصر جنده، ودانت له تلك القبائل التي ناصبته العداء، ولم يرض إلا بعد أن رضي الحق وانتصر، وبعد أن انتصر غفر. فهو خادم الحق وأمينه، وناصره ومعينه، لا يرى أن نفسه له، ولا أن أهله له، ولا أن شيئاً في الحياة له، بل كل شيء عنده وفي مقدوره للحق وفي سبيل الحق. ولم يكن السيف في يده إلا مشرط الجراح يبتر به ما فسد من الأعضاء، ولم تكن الأسنة إلا الإبر التي يبزل بها الطبيب مكان الداء ليخرج أذاه. وليس بدعاً من الحوادث حادث الهجرة
وما لابسه إذا عرض على مقاييس العقول واعتبر الناس بسنن الاجتماع وهديه. ولا تزال هذه السنن مستمرة في هذه الحياة؛ ولا زالت تعمل عملها وتحدث أثرها. والعاقل من يعتبر. (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين)
وقد سار النبي صلى الله عليه وسلم على هذه السنن، وامتاز بأكمل ما امتاز به الأنبياء وكبار الدعاة إلى الحق من اليقظة والحكمة، وتخير الأوقات والأمكنة، واختيار الأصحاب والأنصار. ولم ير الاكتفاء بالحجة والبرهان في مواضع لا تنفع فيها الحجة ولا يقنع البرهان، بل أعمل الحيلة وأدار الرأي وطلب القوة في مظانها. لذلك كانت الهجرة، وبذلك أدرك ما أراد. فظهر الإسلام وبسط ظله على أمم قوية كثيرة العدد والعُدد، وحول أولئك الأميين إلى أئمة هدى وولاة عدل وفقهاء نفس وساسة يفخر التاريخ بهم، وعلماء تروى آثارهم ويتحدث الناس بطيب أخبارهم، وأساة للإنسانية وجروحها تتفجر منهم ينابيع الرحمة ويضعون نظم الإصلاح وقواعد الاجتماع. رفعوا قدر العلم بعد أن أنكروه، وجعلوا العقل هادياً ومرشداً، والقرآن إماماً. لم يخونوا أمانات الله ورسوله فأحياهم الله حياة طيبة، وأعد لهم مكان صدق عند مليك مقتدر
يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم، وأعلموا أن الله) يحول بين المرء وقلبه، وأنه إليه تحشرون. يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أمانتكم وأنتم تعلمون)
محمد مصطفى المراغي

البحث عن غدٍ
للأستاذ عباس محمود العقاد
الغربيون اليوم معنيون بالبحث في مسائل الشرق من جوانبه كافة. . من جانب السياسة، لأن نهضة شعوبه تضطرهم إلى حسبان حسابه والعدول عن خطة استغلاله والسيطرة عليه؛ ومن جانب الدين، لأنهم حائرون في شئونهم الروحية يلتمسون الهداية من مهبط الأديان، أو يقابلون بين سلطان الدين عليه وسلطان الآراء الحديثة عليهم؛ ومن جانب التجارة، لأن العلاقات التجارية بين الدول الكبرى لا تستغني عن أسواق الشرق ومنابع الثروة فيه؛ ومن جانب السياحة والرحلة واستكشاف مواقع التاريخ القديم، وكل جانب تتحول إليه عناية الباحثين في مسألة عامة
ومن الباحثين الصحفيين المشغوفين بالمسائل الروحية (روم لاندو) صاحب كتاب (الله محجة مغامراتي)، وصاحب هذا الكتاب الذي عنوانه (البحث عن غد)، وموضوعه استطلاع أحوال الشرق القريب من جانب الدين والنهضة النفسية إن صح أن نطلق عليها هذا الاسم تمييزاً لها من النهضة العلمية البحت والنهضة الصناعية الاجتماعية التي تقابل نظيرتها في الأقطار الغربية
حضر إلى مصر وتحدث فيها إلى رجالات الفكر والسياسة ولخص هذه الأحاديث في كتابه، وسنعرض لها جميعاً، ونبدأ بنقل حديثه مع رئيسي الجامعتين الأزهرية والمصرية، حيث قال بعد تمهيد طويل للحديث مع صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى المراغي وقد زاره في بيته بحلوان:
سألني: هل تبحث عن المسائل الدينية أو مسائل ما وراء الطبيعة؟ ولما كان الفارق) بين هذه وتلك ليس بالفارق العظيم في نظري أجبته بشيء من الروغان: كلاهما؛ إلا أنني أشد عناية بما وراء الطبيعة
فقال الشيخ العلامة: قليلة المحصول، قليلة المحصول جداً
وكانت لهذه الكلمة دلالتها، لأنها تشير إلى طبيعة الإسلام العملية كما تمثلت في أكبر رعاته بين المصريين
ومع علمي بعض العلم بأساليب المناقشة الشرقية لاحظت على الأستاذ المراغي أنه يتنحى
عن الجواب في كثير من الأحيان، وأن أسلوبه أسلوب رجال السياسة؛ وناهيك بهم إذ يكونون شرقيين مع ذلك، وعلى خبرة بالمواقف المعضلة، وحرص من التورط في التصريح، فهو في البيئة الغالبة على فقهاء الإسلام لا مراء
وعدت أقول: لقد سمعت أن الشبان عندكم يجنحون إلى نزعات (التفكير الحر) ويحاولون أن يزيدوا القرابة بين الدين والعلم. فهل صحيح ما سمعت؟
فقال الشيخ: (لا أظن الشبان المصريين أقل تديناً اليوم من أمس؛ إذ ليس في القرآن ما يعارض الحقائق العلمية، ولا تناقض بينهما في شيء
وأردت أن أخوض فيما أصرح وأجرأ مما تقدم فسألت: ألا ترى أن العنصر الروحي - أو الغيبي المتصل بما وراء الطبيعة - هو أهم العناصر في الديانات؟
قال الشيخ في سكينة ولطف: من ذا الذي يعلم كنه الله وكنه الروح؟ إن بعض أساتذتنا يتحدثون عن المادة كأنها حقيقة، وبعضهم يتحدثون عنها كأنها وهم أو فرض مفروض؛ وليس من يعلم الصواب علم اليقين، فإن القرآن لا يفصل بين القولين، ولكنه يحكم حكمه في أمور شتى كأمور الزواج والمواريث والمعاملات
فسألته: وماذا تقولون في قبول العلماء لنظرية قدم المادة؟
ولا ريب أن الأستاذ المراغي لم يكن يتوقع قط أنني علمت شيئاً عن هذه القضية، إلا أنه لم يظهر الدهشة، ولم يبد عليه إلا قليل من مفارقة السكينة التي لزمته حتى الساعة كأنها قناع لإخفاء ما وراءها من قلة الاكتراث. فقد انبعثت الحياة من خلالها وقال:
(إنك لم تقع على الخبر الصحيح في هذه القضية، فليس هناك إلا أن عالماً كتب رسالته في علم الأصول ليعبر فيها عن رأيه وما انتهى إليه اجتهاده)
فبادرت قائلاً: ألم يكن صاحب الفضيلة وأعوانه من العلماء مرجع الامتحان في هذه القضية؟
فابتسم الشيخ المراغي وهو يقول: (إن رأياً كهذا قد كان يحسب من الزندقة قبل

خمسين سنة، وما كان أحد ليجسر على تقديمه في جامعة إسلامية. فما أعظم التغير في أطوار الزمان! نحن اليوم أدنى إلى الحرية والسماحة)

واستطرد الكاتب إلى أسئلة وأجوبة من هذا القبيل، انتهى منها إلى المذاهب الاجتماعية

والشطط في الدعوات الفكرية، وسجل رأي الشيخ الأكبر أن الوقاية من جميع ذلك إنما هي الدين وتعليم الإسلام على أصوله

أما حديثه مع صاحب المعالي أحمد لطفي السيد باشا فقد مهد له بوصف الأستاذ وملابسه الإفرنجية الأنيقة ومعيشته العصرية، ثم استهله بهذا السؤال:

ما هي أكبر رسالة ثقافية قامت مصر بأدائها في رأيكم خلال القرون الأربعة التي) خضعت فيها للحكومة التركية؟)

فأجاب وأصابعه النحيلة تعبث بحبات المسبحة العاجية: (إنما هي عمل الجامع الأزهر في جميع الكتب الفقهية)

فقلت: ألا ترون أن حصر رسالة ثقافية تؤديها الأمة في عمل واحد لا يتجاوز جمع الموضوعات الفقهية خليق أن يشير إلى شيء من ضيق النطاق؟

فرفع لطفي باشا حاجبيه هنيهة واضطرني بذلك أن أعقب على ما أسلفت مستدركا:

إن كثيراً من الغربيين يزعمون أن تفكير العرب (تجريدي). . . فإذا كانت العبقرية) القومية لا تخرج في مدى القرون الأربعة ثمرات ثقافية غير الفقه والشريعة فهذا الزعم ليس بالمخالف كل المخالفة للإنصاف فيما يلوح لأول نظرة)

فسألني: ماذا تعني بالتفكير التجريدي؟

قلت: إن التفكير الإنجليزي مثلاً واقعي مجار للحوادث، لأنه يتناول كل حادثة كما تعرض في حينها، وهو من ثم نقيض الفروض النظرية والمباحث الجدلية. أما تفكير العرب فهو رهن بالقواعد المرسومة والنظريات المعلومة؛ ويلوح عليه أنه شبيه بهندسة البناء العربية، لا يحتوي صورة من صور الحياة الماثلة في بنية الإنسان وملامح وجهه، وكل ما فيه هندسة وتناسق خطوط. . .)

قال لطفي باشا وهو يشفع كلامه بابتسامة معتذرة:

آسف لأنني لا أستطيع مجاراتك في حكمك. فالذي يبدو لي أن الفكر العربي أشد) إيغالاً في الواقعيات من الفكر الأوربي. وهذه شريعتنا الدينية التي استشهدت بها على نزعته التجريدية تتناول شؤون الحياة اليومية ولا تقتصر على مسائل اللاهوت والأخلاق كما هو الحال في الشريعة المسيحية؛ وهي تفيض بالوصايا في أمور المعيشة والزواج والميراث

وما شاكل ذلك. وأحسب أننا أقرب إلى معرفة الحقيقة حين ندرس (مخيلة) الأمة كما تتمثل في ديانتها. فكيف ترى (المخيلة المسيحية) تتصور السماء والفردوس؟ إن سماء المسيحيين هي نعيم غير ذي أشكال، أو هي شيء لا يسعك أن تراه ولا تقع عليه العيون، بل شيء لا يسعك أن تحيط به في الخيال. أما المسلمون فكيف تراهم يتخيلون السماء؟ إنها دار حقيقة فيها اللبن والعسل والعسجد، وفيها الأزهار والأشجار والحور العين، وهي كلها حقائق ومشاهدات. . . أفليس هناك معنى ملحوظ لاتفاق المخيلة الدينية بين المسيحيين والمسلمين في (ميدان سلبي) حين يتكلمون عن الجحيم؟ ففي هذا الميدان ترسم المسيحية نفسها صورة مشهودة هي صورة النيران والنفط الغالي وعذاب الأجساد

قال الكاتب: فأحجمت عن الجهر بملاحظة سنحت لي تلك اللحظة، وفحواها أن المبالغة في تمثيل الخيال تقترن عادة بالقصور في ملكة البناء والإنشاء الواقعية، وآثرت أن أسأل:

ألا تزال الديانة قوة فعالة في الحياة المصرية؟

فأجابني الباشا: (فعالة على الأرجح في عالم الإسلام أعظم من فعلها في عالم المسيحية، لأن شرائعنا كلها قائمة على القرآن؛ ومن العسير في البلاد الإسلامية أن تفصل بين الدين والحياة اليومية)

قلت: على أنني قد أخبرت أن الشبان المصريين يهجرون عقائد آبائهم جنوحاً منهم إلى البدع الغربية

قال: أعجب لو صح ذلك. . . فلعلهم لا يغشون المساجد ولا يشهدون صلوات الجمع،

ولكنهم على الجملة متدينون، وربما كان منهم أناس من الدارسين للفلاسفة الغربيين قد ألحدوا في الدين إلا أنهم شذوذ قليل

فسألته: أيعنى المصريون عناية ما بما وراء الطبيعة أو بالأسرار الخفية والسبحات الصوفية؟

قال: (ذلك نادر في (فلسفتنا الحاضرة). غير أن فلسفتنا وأدبنا لا يزالان في مفتتح الحياة؛ وينبغي ألا تنسى أن أربعة قرون من الحكم التركي قد عطلت ثقافتنا وتركتنا نحاول من جديد

فانتقلت إلى حديث الجامعة العربية وسألته: (وهل بعد انقضاء السيادة التركية أو السيادة الإنجليزية يهتم المصريون بالجامعة العربية؟

فرد الباشا جازماً: أما سياسياً فلا، لأن الفوارق بين الشعوب العربية المختلفة جد كبيرة؛ أما من الوجهة الثقافية فهي ممكنة، وهي على ازدياد في جوانب الشرق الأدنى؛ ولكنها ليست بالسياسة، لأن الجامعة العربية من حيث هي نزعة سياسية اختراع نَجَم في الصحافة الإنجليزية على ما أذكر، ولا يحصرني اسم صاحبه وإن كنت أرجح أنه مراسل للتيمس كان يراسلها من النمسا قبل أربعين سنة

وتنقل الحديث في بعض الموضوعات الشرقية ثم سأل الكاتب: ما ظنك في حقيقة ما يقال من أن الوطنية المصرية توصد ما بين المصريين وسائر العالم، وتجتهد في إبدال كل مصري بكل أجنبي؟ أتؤمن بإمكان هذه العزلة؟

قال الباشا: الحق أنني لا أومن بذلك؛ ولعل محدثيك قد أخطئوا التقدير، فإن الوطنية عندنا لا تجور على الثقافة. ونحن إذا اكتفينا بمن هم عندنا من الأساتذة الأجانب فسبب ذلك قلة المال. إن الأستاذ الإنجليزي يكلفنا من ثمانمائة إلى تسعمائة جنيه في العام، وليس ذلك بالميسور لنا إلا فيما ندر

وانتهى الحديث بعد تعقيب موجز في هذا الموضوع، وسنعود إلى سائر الأحاديث وإلى التعقيب عليها في مقال تال

عباس محمود العقاد

من ذكريات الماضي

خطرات الشك في صدور الشباب

للأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق بك

أستاذ الفلسفة بكلية الآداب

قضيت صدر النهار في خمول من أثر البرد الذي نالني وكدت آوي إلى مضجعي مريضاً، ولكنني طاردت الضعف وتكلفت القوة واشتغلت ساعة مع زميل لي فرنسي، ثم اشتغلت من بعده وحدي.

وزارني بعد الظهر ثلاثة من أصدقائي المصريين فقطعنا زمناً في الحديث والسمر، وذهب عني شيء من الفتور فنهضت للخروج معهم. على أن الطقس كان ذا رطوبة وإن لم يكن كثير البرودة. وانصرف اثنان منهم وبقي ثالثهم معي فقال: إني سأحدثك بأمر عقيدتي لتعلم موطن القوة والضعف منها. أما الإيمان بالله فقد وصل عندي إلى حد الإذعان الذي لا تزلزله ريبة؛ وأما الرسل فما أراهم إلا رجالاً من صفوة أممهم وُهبوا أنفساً كبيرة، وعقولاً راجحة، فعملوا على إسعاد الناس وتقريبهم من الخير، ووضعوا لذلك قوانين هُدوا إليها كما يهتدي الحكماء إلى وضع قواعد لإصلاح المجتمع الإنساني أو إلى كشف ما خفي عن غيرهم من أسرار الكون

ولما رسخ في يقينهم أن ما وصلت عقولهم الصافية إليه هو الحق، قالوا إنه من الله وسموه وحياً؛ وكأنما قولهم هذا من باب ثقة العالم بعلمه، ولكنه لا يجعل آراءهم وما جاءوا به بنجوة من تمحيص العقول، ولا يمنحهم من الثقة فوق ما يكون لإخوانهم الحكماء المصلحين في كل زمان

سمعت قوله كله بإصغاء تام ولم أقطع عليه الطريق في حديثه ولا أظهرت له إنكارا، ولم ييئسني عدوله عما أعتقده الحق من عدوله إليه، ذلك بأنه يتكلم بروية، ويعبر عما في نفسه، ويدلي بالحجة القائمة عنده؛ ومن كان هكذا عظم الرجاء في عرفانه للحق إذا سطع له برهانه

أخذت أولاً في اختبار إيمانه بالله لأذهب به من طريق الترتيب الطبيعي فوجدته لا يخالف
في شيء مما أثبتته الأديان لله وجعل أساساً للإيمان، ثم انتقلت به إلى أمر الآخرة فقال إنه في شك منها ولم يعطها حظها من النظر. فقلت له إن الإيمان بالحياة الثانية ينبغي أن يكون موضع بحثك قبل أن تصل إلى الرسالة؛ وبسطت له ما تهدي إليه الفطرة ويدركه بادئ النظر من وجود دار جزاء ينال فيها المحسن ثواب إحسانه، ويُسأل فيها المسيء عن إساءته. ومن أيقن بأن الله حكيم لزمه بالبداهة أن يقر بأن الناس لم يخلقوا سدى - أفحسبتم إنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون - عند ذلك قال إنه لابد لي من فضل تفكير في هذا. وهبني أذعنت له فماذا تقول في المرسلين؟ فقلت له ما عندي من أدلة الحاجة إلى الرسالة التي ينبغي أن تكون من عند الله، لأن كثيراً من تعاليم الرسل لا يستقل العقل البشري بها. وقد جاء كل رسول ببينة تؤيد دعواه أنه مرسل من عند الله. وإليك معجزة محمد عليه الصلاة والسلام وهي القرآن الكريم، فهل ترى أن بشراً يقدر على مثله؟ ونازعني في ما سقته إليه من الأدلة ونازعته، حتى سكت فسكت عنه، وتركته إلى نفسه يعرض عليها أدلة المخالف ويراجع أدلتها هي. وأرجو أن أعود إليه مرة أخرى فيكون الحق قد مهد لنفسه سبيلاً إلى قلبه. وإني وإياه لطلاب هدى.

ولوددت أن يبادر شبابنا بطلب اليقين إذا تلجلج الشك في صدورهم، فإن ذلك أحرى بأن يقتلع الشبه قبل رسوخها. وفلان. . . أمثلهم في هذا وإن كان يغلبه الشباب حيناً (على الغضب لرأيه إذا شاء مجادله أن يظهر بالغلبة عليه

هذه صورة من صور الحوار الذي كان يجري أحياناً بين شبابنا طلاب العلم في أوربا في صدر هذا القرن عندما كانت تتسرب إلى نفوسهم الغضة نزعات الشك في العقائد، وكانت نزعات الشك في العقائد يومئذ تشتعل في أوربا اشتعالا

وقد يكون في نشر هذه الصورة عبرة لشباب اليوم

ولسنا ندري كيف يفعل شباب اليوم حين تتسرب نزعات الشك إلى عقائدهم

مصطفى عبد الرازق

سِرُ العَظَمة

للأستاذ توفيق الحكيم

ينبغي لمن أراد أن يدرك سر عظمة النبي أن يتخيل رجلاً وحيداً فقيراً تمكنت من قلبه عقيدة فنظر حوله فإذا الناس كلهم في جانب، وإذا هو بمفرده في جانب. هو وحده الذي يدين بدين جديد، بينما الدنيا كلها: أهله وعشيرته، وبلده وأمته، والفرس والروم والهند والصين وكل شعوب الأرض لا يرون ما يرى، ولا يشعرون له بوجود. هذا موقف النبي، وهذا موقف العالم: رجل عاطل من كل قوة وسلاح، إلا مضاء العزيمة وصلابة الإيمان، أمام عالم تدعمه قوة العدد والعدة، وتؤازره حرارة عقيدة قديمة شب عليها وورثها عن أسلافه، واتخذت لها في قرارة نفسه وأعماق تاريخه جذوراً ليس من السهل اقتلاعها على أول قادم. فالنبي هو ذلك القادم الذي يريد أن يقتلع تلك الجذور ويضع مكانها غرساً جديداً. والعالم القديم هو ذلك السادن القوي لتلك الشجرة العتيدة، يذود عنها وتأبى كرامته أن يفرط في ورقة منها. إنها إذن (مبارزة) بين فرد أعزل، وبين عصر بأسره يزمجر غضباً: عصر زاخر بأسلحته ورجاله، وعقائده وفقهائه، وعلمائه ومشاهيره، وتقاليده وماضيه، ومجده وتاريخه. . . هذه المبارزة الهائلة العجيبة من يستطيع أن يقدم عليها غير النبي. . . على أن المعجزة بعد ذلك ليست في مجرد التحدي ورمي (القفاز) وارتفاع ذلك الصوت الضعيف على شاطئ ذلك البحر الطامي العجاج: (أن اترك أيها العالم دينك القديم واتبعني). ذلك الصوت الذي لا جواب عليه إلا سخرية طويلة وقهقهة عريضة. . . وليست المعجزة كذلك في مجرد شفاء الأصم وإبراء الأعمى، إنما المعجزة حقيقة هي أن يخرج مثل هذا الرجل الوحيد الأعزل من هذه المعركة المخيفة ظافراً منتصراً؛ فإذا هذا العالم العتيد كله يجثو عند قدميه منكس الأسلحة، وقد انقلبت سخريته خشوعاً طويلاً، وقهقهته صلاة عميقة كيف ربح هذا الرجل الموقعة؟ ما وسائله؟ هل كانت له خطط وأساليب وقوة من شخصه مكنته من النصر؟ أو أن الله هو الذي نصره دون أن يكون لشخصية النبي دخل في الانتصار؟ عقيدتي دائماً أن شخصية النبي لها أثر كبير

وهنا معنى الاصطفاء، فالله يختار من بين البشر عظيماً له كاهل يحتمل عبء الرسالة، ويوحي إليه بالعقيدة ثم يتركه يجاهد في سبيلها. فالنبي ليس آلة تحركها يد الله في كل
خطوة؛ إنما هو رسول عهد إليه تبليغ دين والعمل على إذاعته بين الناس بالوسائل التي يراها الرسول كفيلة ببلوغ الغاية. فالله لا يريد نشر الأديان بين البشر إلا بالوسائل البشرية. فهو لا يتدخل بقدرته العلوية فيفرض الدين فرضاً على الناس كما تفرض عليهم الزوابع والأمطار؛ ولكنه يحب دائماً أن يخلي بين (الدين) وبين (الناس) حتى يتغلغل الدين من تلقاء نفسه في نفوسهم بجمال نوره وحده؛ ولكن أعين الناس لا ترى في كل الأحيان؛ فهم يعيشون في أعماق ماضيهم كالأسماك العمياء في أغوار المحيطات. هنا تبدأ متاعب النبي؛ وهنا تبدو عظمته؛ وهنا تظهر المعجزة الحقيقية وهي إبراء الأعمى، لا أعمى واحد ولكن ملايين العميان. فهو الذي يفتح أبصارهم على نور طالما جحدوا وجوده: نور الدين الجديد الذي أتى به. وهنا ينبغي التساؤل: كيف استطاع النبي أن يُري الناس ما يَرى، وأن يقنعهم بما جاء به؟. الجواب بسيط: حياة النبي وخلقه. إن الناس لا تقتنع بالكلام وحده. إنما يؤثر فيها الفعل والمثل. إن الناس يوم أيقنوا أن محمداً لا يسعى إلى غنى ولا إلى مُلك؛ وأنه يريد أن يبقى فقيراً يشبع يوماً ويجوع أياماً، وأن كل تلك المخاطر التي يتعرض لها في كل خطوة، وأن كل ذلك الهوان الذي يناله من سفهاء القوم وأكابرهم. . . وأن كل ذلك الجهاد الذي ملأ به حياته بأكملها إنما هو في سبيل (العقيدة) التي يقول لهم عنها؛ منذ ذلك اليوم الذي اجتمع فيه كبراء أمته وعرضوا عليه ثروتهم ووعدوه أن ينصبوه عليهم ملكاً على شرط أن يتركهم على دين آبائهم، فرفض المال والمجد والسلطان، وأبى إلا شيئاً واحداً صغيراً: (أن يؤمنوا معه بفكرته)؛ عند ذاك أدرك أولئك القوم جميعاً أن الأمر جد لا هزل؛ وأنهم أمام رجل لا ككل الرجال؛ وأن الآدمي الذي لا يغريه في الحياة شيء، ولا يعيش إلا من أجل فكرة، لابد أن يكون قد أبصر في هذه الفكرة جمالاً لم يبصروه هم. (فكرة) لا تقوَّم بمتاع من أمتعة هذه الدنيا الرخيصة، و (جمال) يضحي في سبيله خير ما في الحياة. أمام هذا الرجل أخذ الناس يفكرون ملياً. وثبت لمن كان قد ارتاب في أمره أن مثله لا يمكن على الأقل أن يكون أفاقاً يعمل لمغنم. إنما هو رجل صادق مخلص، لا مطمع له من تلك المطامع التي يسعى إليها الناس في هذه الدار. عند ذاك بدأ كثير من الناس يجلسون إليه ويصغون إلى كلامه. . . فوسيلة النبي الأولى وخطوته التي نزل بها الميدان هي إقناع هذا الخضم الصاخب من الخلق أنه مجرد عن الغايات الدنيوية. وهنا كانت قوته؛
فإن أمضى سلاح في يد رجل يريد أن يقارع البشر، هو أن يواجه البشر بيد خالية من أغراض البشر
ولكن هذا لا يكفي. فالناس قد تقتنع بأمانة النبي، وقد تستمع إلى ما يقول، ولكنها لا تستطيع أن تنبذ في يوم وليلة كل ماضيها لتؤمن بهذا الكلام الجديد. إن صدر الجماهير كصدر المحيط العميق ذي الماء الكثيف، يدفع إلى سطحه كل جسم غريب، ولا ينفذ إلى أعماقه إلا شيء ذو وزن، بعد زمن وجهد. وإن الناس لشديدة الحرص على ما تسميه كنوز تراثها وتقاليدها. فما أدراهم أن هذا الكلام الجميل الذي جاء به هذا النبي ذو الحديث الطلي ليس إلا بضاعة زائفة ووهماً خلاباً لعب بلب هذا الرجل؟ ولم لا يكون هذا الرجل الأمين المسكين فريسة مرض ومس؟ ما هو الأجدر بهم عندئذ؟ يطلبون له الطب حتى يبرأ، أو يلقون بكنوزهم ويتبعون حلمه ومسه. لقد وضعت المسألة إذن وضعاً آخر، واتخذت الحرب ميداناً جديداً. ماذا يصنع النبي؟ لابد له من أن يبدد ضباب الشك المخيم على الأذهان حتى يصل إليها نور الدين. هنا صفتان لازمتان: الصبر والمثابرة، فإن العاقبة في الحرب لمن صبر وثابر. وإن أمامه لخصماً جديداً، هو الشك الذي يقوم الآن في رؤوس الناس. فإن كان حقيقة رجلاً عظيماً فليقتل هذا الشك بمفرده. وما هو بشك رجل واحد، إنما هو شك أمة طامية. ولقد جاهد الرسول فعلاً في كل لحظة من لحظات حياته، إلى أن استطاع ذات يوم أن ينقل العقيدة التي في قلبه حارة قوية إلى قلوب الناس جميعاً. وهنا كان النصر الأخير، وتمت المعجزة. وتمكن هذا الرجل الواحد من أن يضع العالم في قبضته، ويخضعه لفكرته، ويطبعه إلى

أبد الآبدين بخاتمه، ويدخل إلى صدره أشعة نور جديد.

توفيق الحكيم

رعاية الطفولة في الإسلام

للمربية الفاضلة الأستاذة

أسماء فهمي

درج أكثر الناس في قياس مجد الأمم وحضارتها بمقاييس شتى أهمها النبوغ في الفنون والعلوم، أو ارتقاء النظم والقوانين، أو التفوق الحربي ووفرة الغنى واتساع الملك

وقلما جعلوا رقي الأمة الوجداني وتغلغل مبادئ الرحمة والإحسان فيها من أول مقاييس الرقي الهامة. ومادامت هذه الناحية لا تلقى من الدراسة والعناية ما يرجح كفتها، ويرفع قيمتها، لتكون الحجر الأساسي في بناء الحضارة، فسيظل العالم ولاشك بعيداً عن روح السلام والوئام

ولقد كان للحضارة الإسلامية أوفر الحظ من مبادئ العطف والإنسانية التي تجلت في نواح عدة من الحياة، فظهرت مثلاً في معاملة المسلمين لسكان البلاد التي خضعت لسلطانهم مما أنساهم عدة أجيال مذلة الفتح، كما ظهرت في معاملة الرقيق والمرأة، وتجلت في الرعاية العظيمة التي كان يعامل بها الأطفال. على أن تلك الناحية الخطيرة التي يجب أن تعتبر بحق المقياس الأول للرقي، لم تنل كل ما تستحقه من الاهتمام، فلم تأخذ مكانة المقاييس الأخرى بعد. وعلى ذلك فليس أنسب من أن ننتهز فرصة حلول العام الهجري الجديد لندرس ناحية من نواحي الرقي الوجداني عند المسلمين في العصور الماضية، فنتعرف اهتمامهم بشئون الأطفال، وتربيتهم للنشء، لنسبر غور مبادئ الرحمة فيهم

لم يكن الاهتمام بشئون الأطفال مقصوراً على الدين الذي حرم قتل الأبناء خشية الإملاق، وصان حقوق اليتامى وأموالهم، ووضع القوانين للحصانة، وقيد سلطة الأب على أبنائه، ورفع مكانة الأمة إذا أنجبت ولداً لسيدها فأصبحت بسبب وليدها في مأمن من البيع والشراء؛ بل أن موضوع تربية الطفل ووجوب تعهده بالرفق والعناية لاقى أكبر الاهتمام من كتاب المسلمين ومفكريهم. وإن روح الرفق لتبدو واضحة قوية في كل ما كتبوا. والواقع أن الشاعر العربي الرقيق العاطفة لم يكن هو وحده الذي عبر بوضوح عن هذه النزعة الإنسانية إذ قال:

وإنما أولادنا بيننا ... أكبادنا تمشي على الأرض

بل إن الفيلسوف والمربي عالجا الموضوع بنفس الروح. فلقد اهتم بهذه الناحية نفر من أشهر مفكري الإسلام مثل ابن سينا والغزالي والعبدري وابن خلدون. وسنشير إلى بعض آرائهم تسجيلاً لناحية من نواحي الرقي والوجداني الذي تمتاز به الحضارة الإسلامية عما سبقها من الحضارات كالحضارتين الإغريقية والرومانية

فابن سينا يجعل أساس التربية مراعاة ميول الأطفال واستعدادهم، حتى لا يرهق الأطفال بأعمال يصعب عليهم أداؤها لأنها لا تجري مع رغباتهم. وعلى ذلك فابن سينا يحترم الميول مهما كانت متواضعة. كذلك عالج هذا الفيلسوف مشاكل التأديب بطريقة يتجلى فيها الحزم الممزوج بالرفق، فرأى أن يجنب الصبي معايب الأخلاق بالترهيب والترغيب، والإيناس والإيحاش، الإعراض والإقبال، وبالحمد مرة وبالتوبيخ مرة أخرى، ما كان كافياً؛ فإن احتاج للاستعانة باليد لم يحجم عنها. وليكن أول الضرب قليلاً موجعاً كما أشار به الحكماء من قبل، بعد الإرهاب وبعد إعداد الشفعاء. وهكذا لا يجعل ابن سينا القسوة والضرب أول وسيلة للتأديب، بل هو لا يلجأ إلى الضرب إلا إذا فشلت الوسائل الأخرى ولقد حدد علماء المسلمين عدد الضربات التي توقع على الطفل بثلاث، كما عينوا المواضع التي يحدث فيها الضرب حتى لا يتعرض الطفل للأذى

والغزالي الذي يعتبر حجة الإسلام، والذي كان لآرائه أكبر الأثر في تفكير المسلمين في العصور التالية، يتكلم عن الطفولة بعطف ورقة لا حد لهما. فهو يصف الطفل بأنه (أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة. . .) ومن ثم يجب على ولي أمر الطفل أن يقوم بإرشاده بأمانة وإخلاص. وهو يوجب مراعاة شعور الطفل فيقول: (إن الطفل المستحي لا ينبغي أن يهمل، بل يستعان على تأديبه بحيائه وتمييزه)، كما يرى: (ألا يؤخذ الطفل بأول هفوة، بل يتغافل عنه ولا يهتك سره، ولاسيما إذا ستره

الصبي واجتهد في إخفائه)؛ كما ينصح للمربي: (أن ينظر في مرض المريض وفي حال سنه ومزاجه وما تحتمله نفسه من الرياضة ويبني على ذلك رياضته)

والعبدري الذي عاش بمصر في القرن الثامن للهجرة يحمل حملة شعواء في كتابه (مدخل الشرع الشريف) على مؤدبي عصره، وينعى على أولياء أمور الأطفال أنهم يقسون على الصبيان فيضربونهم بعصا اللوز اليابس وبالجريد. ويصر على أن يأخذ المعلم الأطفال

بالرفق ما أمكن. ولكن إذا اضطر المربي إلى أن يضرب الصبي على تركه الصلاة متى ما بلغ السن التي تجيز ذلك، فلا بأس أن يضربه ضرباً غير مبرح، ولا يزيد على ثلاثة أصوات شيئاً إلا في حالات نادرة جداً. وهنا يحدد عدد الأصوات بعشرة، وهو الحد الأقصى. ولا ينسى العبدري أن يذكر المربي بتفاصيل عدة لا يخرج مرماها عن مراعاة المسلمين لشعور الأطفال. فهو ينصح المؤدب مثلاً ألا يسمح للتلاميذ أن يحضروا غداءهم إلى المكتب، أو يحملوا نقوداً لشراء ما يرغبون من الطعام، حتى لا يتألم الطفل الفقير الذي لا يمكنه مجاراة الموسرين في مظاهر يسرهم. وعلى ذلك فهو يفضل أن يرجع الأطفال أجمعون إلى منازلهم للغداء

ويرى العبدري أيضاً أن يلعب الأطفال لعباً جميلاً بعد انصرافهم من المكتب حتى تذهب عنهم آثار التعب والملل، وحتى يستأنفوا دروسهم بشوق واهتمام

ولقد عقد ابن خلدون في مقدمته الشهيرة فصلاً في أن الشدة على المتعلمين مضرة بهم، ولاسيما في أصاغر الولد. وذكر أن كل من كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو الخدم سطا به القهر، وضيق على النفس في انبساطها، وذهب بنشاطها، ودعاه إلى الكسل، وحمل على الخبث والكذب، وفسدت معاني الإنسانية فيه. . .

وهكذا وقع لكل أمة حصلت في قبضة القهر ونال منها العسف

كذلك لم تكن رعاية الأطفال مقصورة على المفكرين والمشتغلين بالتربية، بل قام المحسنون بإنشاء المعاهد الخيرية لتعليمهم وحمايتهم. وكثير من الكتب الإسلامية تفيض بذكر الكتاتيب التي بنيت لتعليم اليتامى والمساكين وإطعامهم وكسوتهم. ولقد ساهمت المرأة المسلمة بقسط وافر في هذا الميدان، إذ يذكر المقريزي في كتابه الخطط أسماء كثير من النساء اللاتي قمن ببناء الكتاتيب وحبسن عليها الأموال والأملاك لتعليم أبناء الفقراء كتاب الله. وكثيراً ما كان يبنى الكتاب بجانب المدرسة والبيمارستان مما سهل بطبيعة الحال حصول الأطفال على العلم والعلاج

وبلغ من عناية المسلمين بأمر الأطفال أن كلف رئيس الشرطة بتفقد أحوال الكتاتيب لمنع تعليم البنات الصغار أشعار الغرام والمجون مما قد يكون له أثر السيئ في أخلاقهن، ولحماية الأطفال مما قد يصيبهم من قسوة المعلمين. وهكذا لم تقف الدولة موقفاً سلبياً في

أمر تربية الأطفال

من كل ما تقدم يتبين لنا مقدار تغلغل مبادئ العطف والإنسانية في ناحية من أهم نواحي الحياة الإسلامية. على أن تقديرنا لمبادئ هذه الرحمة المتجلية في الاهتمام بالأطفال لا يجعلنا نغض الطرف عن أن المسلمين لم يتخذوا الوسائل الكافية لحماية الطفولة ولسد حاجاتها في النواحي المختلفة، فلم يكن لديهم مثلاً قوانين تحمي الأطفال من مزاولة بعض الأعمال التي قد تعوق نموهم، وتحدد السن التي لا ينبغي تشغيل الأطفال قبل بلوغهم إياها؛ كما لم يحددوا سناً لبدء الزواج، فكانت الفتاة تتزوج في سن مبكرة، وترهق بواجبات الأمومة والزوجية وهي لم تزل بعد طفلة. كذلك لم تتوفر المنشآت الخيرية التي تكفي لسد حاجات الفقراء وذوي العاهات. على أن ذلك النقص في وسائل العلاج لا يقلل من قيمة مبادئ العطف والإنسانية التي بني عليها الإسلام، ولا تخفي روح الإحسان التي تفيض بها الحضارة الإسلامية، والتي ظهرت في ميدان الرفق بالأطفال

وإذا كان الغرض الأول من دراسة نواحي الحضارات الغابرة هو تفهم نواحي حياتنا الراهنة والوقوف على مقدار تقدمنا أو قصورنا، فأنا لا نتمالك أن نشعر بالخزي من أنفسنا عندما نستعرض أعمال السلف ونقارنها بمجهودنا الضئيل على رغم ما لدينا من وسائل وتجارب ومعرفة. وعلى الرغم من مرور كل هاتيك السنين لم نتقدم غير خطوات قليلة في ميدان الرفق بالأطفال. فثلاثة أرباع أطفالنا إما مصابون بداء الجهل

والأمية وهو أصل كل شقاء، وإما جياع حفاة عراة تموج بهم الطرقات، وإما مرضى بأدواء شتى بسبب إهمالهم وحرمانهم حتى من ماء الشرب النقي. وأخشى كثيراً أن نظهر في مؤخرة الأمم في الحضارة والرقي إذا اعتبرنا مقياس التقدم الحقيقي هو مبلغ تغلغل مبادئ العطف والإنسانية التي تقل مظاهرها لدينا لسوء الحظ وفي ضوء هذه المآسي، ولشعورنا بما قدمنا وما أخرنا، يبدو لنا الماضي عظيماً حقاً، فنتجه إليه بإعجاب وخشوع، ونتحدث عن آثاره حيناً من الدهر نشعر بعده بشيء من راحة المعترف بالفضل المقر بالذنب

أسماء فهمي
الأستاذة بمعهد التربية- درجة شرف في التاريخ
ودرجة الأستاذية في التربية من إنجلترا

الهجرة

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

يبدو لي من مراجعة السيرة النبوية الشريفة أن الهجرة إلى المدينة لم تجيء عفواً ولا كانت من وحي الساعة، وإنما كانت خطة محكمة التدبير طال فيها التفكير بعد أن اتجه إليها الذهن اتجاهاً طبيعياً أعانت عليه الحوادث

وكان النبي عليه الصلاة والسلام في أول الأمر يشير على المسلمين الذين ضاقوا ذرعاً بما كانت قريش تنزله بهم من الأذى أن يتفرقوا في الأرض، وينصح لهم أن يذهبوا إلى الحبشة ليأمنوا الفتنة عن دينهم ويرتاحوا من العذاب الغليظ الذي كانت قريش تصبه عليهم حتى يأذن الله بالفرج. وأكبر الظن أنه كان يريد أن يؤمن هؤلاء المسلمين على دينهم من ناحية، وأن يحمل قريشاً على التوجس من عاقبة هذه الهجرة الأولى إلى الحبشة عسى أن تفيء إلى الاعتدال والهوادة. ومن الثابت على كل حال أن قريشاً أزعجتها هجرة بعض المسلمين إلى الحبشة فبعثت إلى النجاشي برسولين منها ومعهما الهدايا ليقنعاه برد هؤلاء المهاجرين إلى مكة، ولكني لا أظن أنه كانت لهذه الهجرة إلى الحبشة غاية أبعد من ذلك، فما كانت أكثر من معاذ إلى حين، وتدبير ألجأت إليه الحاجة لما اشتدت المحنة بالمسلمين، وتلويح لقريش بإمكان العون والمدد من هذه الناحية. على أن بعد الحبشة واختلاف أهلها ولغتها ودينها ثم الثورة التي ما لبثت أن شبت على النجاشي وكان من أسبابها إيواؤه المسلمين والعطف عليهم - كل هذا كان من شأنه أن يصرف عن الحبشة ويدعو إلى التفكير فيما هو أصلح منها

واختلف الحال في مكة أيضاً إلى حد ما بعد أن أسلم عمر ورفض الاستتار والاستخفاء، وشرع يناضل قريشاً ويدفع المسلمين إلى الصلاة في الكعبة نفسها، وأسلم رجال غير قليلين من قريش، فصارت لجاجة قريش في تعذيب المسلمين وتقتيلهم كما كانت تفعل غير مأمونة العاقبة. نعم ظلت قريش تؤذي المسلمين وتسيء إليهم، ولكن المسلمين كثروا وصار محمد يعرض نفسه على القبائل وإن كان لم يفز بطائل كبير ولا كفت قريش عن مساءاتها إليه

وقد كبر الشأن واتسعت رقعة الأمل، ولكن التفكير في أمر قريش وفي الراحة من عنتهم وفي الوسائل المؤدية إلى نشر الدين بأسرع مما ينتشر بقي واجباً ملحاً، ولاسيما بعد أن

حوصر المسلمون في الشعب، ونقضت الصحيفة، ومات أبو طالب وخديجة، وازداد أذى قريش، وردته القبائل عما كان يدعوها إليه من الدخول في الإسلام؛ وتوالت السنون على هذا الحال، فكان من الطبيعي أن يفكر النبي عليه الصلاة والسلام في مخرج حاسم يفرج الكرب ويزيل المحنة ويفسح مجال الأمل ويوطد الأمر. وأحسب أن من الطبيعي والمعقول أن يفكر في يثرب أول ما يفكر، وأن تكون هذه أبرز ما يبرز وأول ما يخطر على البال وأسبق ما يرد على الخاطر، فقد كانت يثرب طريقه في الزمن السالف أيام كان يعمل في التجارة، ولم تكن طريقه فقط بل كانت له بها علاقة تجارة أيضاً؛ وله فيها عدا ذلك بعض ذوي القربى ونعني بهم أخوال جده من بني النجار؛ ثم أن أباه عبد الله بن عبد المطلب مدفون فيها، وقد كانت أمه في حداثته تزور هذا القبر في كل عام، وكانت تستصحب ابنها معها. وقد شاء القدر أن تمرض أمه وهي عائدة من إحدى هذه الزيارات وأن تموت وتدفن في الطريق بين مكة

ويثرب. فما من شك في أن يثرب كان لها نوطة بقلبه وعلوق بنفسه فما يسعه أن ينسى طفولته ويتمه وأباه الدفين هناك وأمه الراقدة في الفلاة على طريقها وقد كان النبي صلوات الله عليه يعرض نفسه على القادمين من يثرب كما كان يعرض نفسه على رجال القبائل الأخرى، فأسلم أولا من الأوس واحد، ثم أسلم من الخزرج نفر استجابوا لدعوته وحدثوه بما بين الأوس والخزرج من العداوة التي بثها اليهود فيهم ليظفروا بهم ويتحكموا فيهم. وكان اليهود قد نجحوا في إيقاد نار الفتنة بين هاتين القبيلتين، ولكنهم نجحوا في أمر آخر لم يكونوا يقصدون إليه، فقد كان اليهود وهم أهل كتاب يذمون إلى الأوس والخزرج ما هم فيه من الوثنية والشرك ويحدثونهم دينهم عن وكتابهم، فتركوا في نفوسهم أثراً روحياً لم يكن لمثله وجود في أهل مكة. وقد عرف النبي عليه الصلاة والسلام هذا كله وعرف أيضاً أن الفريقين المتعادبين - الأوس والخزرج - قد فطنوا إلى ما هم فيه من الشر، وانتهوا إلى أن يجمعهم الله بعد طول العداوة، وأدرك أن دعوته خليقة أن تلقى هناك من حسن الإصغاء وطيب القبول ما لا تظفر بمثله في مكان آخر وبلد غير يثرب. وقد صدق ظنه وتفتحت القلوب في يثرب لدعوته؛ ولم يمض إلا عام واحد حتى جاءه رجال من يثرب يبايعونه البيعة التي تعرف ببيعة العقبة الأولى على ألا يشركوا ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يكذبوا ولا يعصوا الله.

ومما يدل على قيمة هذه البيعة أن النبي احتاج أن ينفذ إلى يثرب من يقرئ المسلمين بها القرآن ويعلمهم ويثقفهم في الدين. وكانت هذه فاتحة ميمونة لانتشار الإسلام في يثرب على صورة جدية وفي نطاق واسع وكان مقام المسلمين في يثرب طيباً محموداً لا أذى فيه ولا مشقة، فغير معقول ألا يفكر النبي في اتخاذ يثرب مهجراً للمسلمين الذين يعانون الأمرين في مكة، ولنفسه أيضاً إذا كان لابد من ذلك ولا معدى عن ذلك. . إن التفكير في ذلك هو تفكير يبعث عليه ويوحي به واجب الدفاع عن النفس. يدل على ذلك أن النبي في العام التالي - لما قدم مكة عشرات من مسلمي يثرب - لقيهم واقترح أو طلب أن يعقد مع مسلمي يثرب حلفاً دفاعياً لرد عدوان المشركين. وقد تم له ما أراد وعقدت بيعة العقبة الثانية وهي أول تدبير عملي في سبيل الدفاع عن النفس. وقد أزعج خبرها قريشاً جداً فاضطربت وأشفقت وذهبت تسعى لتستوثق من الخبر، فإن صحة الخبر معناها ذهاب كل أمل في التغلب على النبي. . . وقد بلغ من جزعهم من هذا الحلف وصحة تقديرهم لعواقبه المحققة أن قريشاً ائتمرت بالنبي تريد قتله ودبرت ذلك فعلا وأحكمت التدبير كما هو معروف مشهور، فأدى ذلك إلى التعجيل بهجرة النبي نفسه

وقد كانت الهجرة في سبيل الله وللدفاع عن النفس ولكنها أدت إلى أمور شتى. فقد كان النبي في مكة حسبه أن يتقي أذى قريش ويتجلد ويصبر على عنتهم واضطهادهم، فلما هاجر لم يبق لمثل هذا الصبر مسوغ، ولا بالمسلمين إليه حاجة، وقد كثروا وصارت لهم قوة من جموع الأنصار والمهاجرين معاً. ففي وسعهم أن يردوا الأذى بالأذى ويقابلوا العدوان بالعدوان. ثم إن كثرة المسلمين في يثرب جعلتهم جماعة يجب فضلا عن تثقيفهم في الدين تنظيم أمورهم والنظر في مصالحهم وإقامة علاقاتهم بغيرهم على قواعد مرضية. وقد بدأ التشريع الإسلامي بعد الهجرة، وبدأت كذلك الحروب باللسان ثم بالسلاح، وبدأ التعرض لتجارة قريش. ولا حاجة بنا إلى التفصيل فإنه تاريخ معروف؛ ويكفي أن نقول إن الهجرة أتاحت للمسلمين أن يكونوا أمة، وأن ينتظموا كما تنتظم الأمم، وأكسبتهم مركزاً تسنى لهم بفضله أن يتحكموا في مكة اقتصادياً وحربياً أيضاً؛ وقد انتهى الأمر بالفعل بفتح مكة وإعلاء كلمة الله

ويكفي للدلالة على ما كان للهجرة إلى يثرب من قيمة في التاريخ الإسلامي أنه لما أريد بعد ذلك تأريخ الحوادث أشار عمر ابن الخطاب رضي الله عنه باتخاذ عام الهجرة مبدأ لهذا التاريخ. والواقع أن هذه الهجرة كانت هي الباب الذي فتحه الله لنشر الدين وإعلاء شأنه والقضاء على الشرك والكفر، وجعل من العرب أمة لها في العالم مقام وفي حياته أثر. ولو أن الهجرة كانت إلى الحبشة لم أثمرت شيئاً من هذا، ولخرج الأمر على كل حال من جزيرة العرب، ولكان الأرجح ألا ينتقل العرب إلى حال أخرى. ولو أنها كانت إلى اليمن مثلاً لكان الأغلب أن تبقى مكة بمعزل عن الإسلام، ولكن المدينة كانت على طريق التجارة إلى الشام، فالذي يستولي على الأمر فيها يتسلط على مكة

ويتحكم في حياتها كما حدث بالفعل
ولاشك أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يفكر في المدينة من زمان طويل قبل أن يقصد إليها، فقد كان كل شيء يدعو إلى ذلك: حنين قلبه ومصلحة المسلمين في الدفاع عن أنفسهم أولا ثم في التغلب على مكة والقضاء على شرك قريش. ولعل من الدلائل على طول التفكير واتجاه النفس وعلى الإيحاء أيضاً أن النبي كان أول الأمر يتجه في الصلاة إلى المدينة جاعلاً قبلته المسجد الأقصى، فلما انتهى هذا الدور جعل الكعبة قبلته في الصلاة فوجه المسلمين صوب مكة حتى استولى عليها
إبراهيم عبد القادر المازني
حاشية: لا أحب أن يفهم أحد أن اتخاذ الكعبة قبلة كان القصد منه الإيحاء إلى المسلمين بالاتجاه إليها والرغبة في الاستيلاء عليها، فما أريد أكثر من أن تحويل القبلة إلى الكعبة كان هذا بعض نتائجه
(المازني)
مجد العرب والإسلام
للأستاذ عبد الرحمن شكري
في سنة 1909 كنت في جامعة من جامعات انجلترة، وكان أحد أساتذتنا في الجامعة قد دعاني إلى وليمة أعدها إلى كما دعوته إلى مثلها؛ وكانت هذه الدعوات عادة الأساتذة والطلبة، فجلسنا إلى مائدة الطعام ولم يمنعنا من الحديث فيما هو عملنا وبحثنا وهو التاريخ كما تفعل كل طائفة، فإن الناس لا يمتنعون حتى في مباذلهم وأوقات راحتهم عن الحديث في أعمالهم اليومية. ولما كان الإنجليز أمة تجار وتكثر في إنجلترة الدكاكين فقد اشتقوا في لغتهم عبارة يعبرون بها عن هذه الظاهرة. فكلما تكلمت طائفة في أمر من أمور أعمالها اليومية قالوا إن حديثهم كان دكاناً أو عن الدكان حتى ولو كانت الطائفة من المشتغلين بالعلم وليس لهم دكان
فأخذنا في الحديث عن التاريخ والحضارات، وكان أستاذنا صاحب الدعوة قد عودنا الصراحة في القول والتفكير والبحث، فكان لا يخفي رأيه في أمور حضارتنا كما كنا لا نخفي رأينا عنه في أمور قومه وتاريخهم وحضارتهم. وكانت المناقشة لا تتعدى الوقار والأدب. فقال الأستاذ إن التاريخ يدل على أن مظاهر الرحمة في الحضارات والدول الأوربية قديماً وحديثاً كانت أعظم من مظاهر الرحمة في الحضارات والدول الشرقية، وقال إن هذا يدل على أن الحضارات الأوربية قديماً وحديثاً أرقى من الحضارات الشرقية، وكان الأستاذ يعرف حوادث تاريخ الشرق والغرب في القرون الوسطى لأنه كان أستاذ تاريخ تلك العصور فذكر لنا قصة رجل خرج على الرشيد فظفر به الرشيد ومثل به تمثيلاً شنيعاً، ثم ذكر قصصاً عن سلخ بعض الفاطميين أسرى من أسراهم وهم على قيد الحياة. فقلت يا أستاذ: هذا تعميم كبير، ولا يتفق مثل هذا التعميم مع العلم الذي يتقضى فروق الزمان والمكان واختلاف طبائع الناس وحكامهم وتباين آرائهم وميولهم النفسية؛ وذكرت له كيف أن سيدنا علي بن أبي طالب (رضه) عندما أصابه عبد الرحمن بن ملجم أوصى قبل موته ألا يمثلوا بقاتله. وذكرته بالتمثيل الشنيع الذي كان حظ من يحاول قتل أمير أو ملك من ملوك أوربا في تلك العصور؛ وذكرت له قصصاً من قصص عدل الخلفاء الراشدين وأخرى من قصص حلم معاوية للدلالة على اختلاف الطبائع وسموها، فذكرت فيما ذكرت
قصة المرأة التي لم تجد قوت عيالها وكيف بكى عمر بن الخطاب (رضه) من خشية الله عندما سمع صياحها واستغاثتها، ووصفت اهتمامه وخدمته لها وهو خليفة وحاكم من كبار حكام الدنيا؛ وذكرته بتقرب الإغريق وهم منبع النور والرحمة والعلم والحضارة في أوربا إلى آلهتهم بالضحايا البشرية في عصر من أزهى عصورهم وهو عصر حربهم مع الفرس، فقد أسروا أولاداً صغاراً من بيت الأمارة في فارس فقدموهم ضحايا لآلهتهم كي تمنحهم النصر. وذكرته بالرومان وما جره ازدراؤهم للحياة البشرية من الفضائع، وقلت إن القسوة ليست مقصورة على الشرق، وليست الرحمة مقصورة على الغرب؛ وذكرته بفضائع الأشراف والأمراء في قلاعهم في العصور الوسطى وما نال اليهود وغير اليهود من أهوال؛ وذكرته بجرائم عصر إحياء العلوم وهو من العصور الأوربية الزاهرة وأساس حضاراتها الحديثة؛ وأشرت إلى محاكم التفتيش وتمثيلها

بضحاياها؛ وذكرته بالفظائع الدينية والسياسية في عهد أسرتي تيودور وستوارت، وقبلها في عهد أسر بلانتاجنت ويورك ولانكستر؛ وذكرته بقسوة القانون الذي كان يشنق الطفل الصغير الجائع من أجل لقمة، وبمغالاة رجال القانون في أوربا في العصور الوسطى مغالاة أدت بهم إلى محاكمة الحيوانات العجم وشنقها أو إعدامها أو التمثيل بها بعد محاكمة طويلة تذكرنا بقول الشاعر العربي وهو يسخر من حاكم أحمق:

أقاد لنا كلباً بكلب ولم يدع ... دماء كلاب المسلمين تضيع

وذكرته بالويل والهلاك وكانا نصيب كثير من النساء اللواتي كن يتهمن بالسحر في أوربا حتى في العصور القريبة المتحضرة. ثم ذكرته بما كانت عليه أوربا من القسوة والهمجية بينما كانت مظاهر الرحمة والنور تنبعث من أسبانيا العربية. وذكرته بما كان يرتكب في الحروب الدينية في أوربا من قسوة لا حد لها وتمثيل شنيع؛ وذكرته باستعباد الأطفال والنساء في المصانع قبل التشريع الحديث؛ وذكرته بأسبانيا وما صنعته مع العرب واليهود، وما ارتكبته في ممتلكاتها الأمريكية مع الهنود الحمر من فظائع تقشعر منها الأبدان، وما فعله المخاطرون الأوربيون في جزر المحيط الهادي من قسوة، وما فعله رجال بعض الدول الأوربية - حتى في عصرنا هذا - مع السكان الآمنين في أوقات الحروب من قسوة وتعذيب وتقتيل وتمثيل. قال الأستاذ: كل هذا لاشك فيه، ولكن كان الحكام في أوربا إذا فعلوا شيئاً مما ذكرت يجدون في شعوبهم من يجرؤ على نقدهم؛ أما في الشرق فلا. فذكرت له كيف كان الواعظ يدخل على الخليفة فيقرعه حتى يبكي كما فعل أحدهم مع هرون الرشيد، وذكرت كيف أن من القضاة من كان يزهد في منصب القضاء وإن أوذي من أجل رفضه. قال الأستاذ: يخيل إلي أن الحكم على حياة أمة من الأمم حكما عاماً من حيث مظاهر الرحمة أو القسوة فيها من الصعوبة بمكان، أو لعله ليس من المستطاع، لأن المؤرخين لم يكن ميزانهم للحضارات وقياسهم لها بميزان الرحمة ومظاهرها فلم يحصوها كلها، ولو فعلوا لاستطعنا أن نحكم بإحصائهم. قلت: إذاً. لا نستطيع أن نقول على التعميم إن مظاهر الرحمة في الحضارات الأوربية كانت دائما أكثر من مظاهرها في الحضارات الشرقية أو العربية الإسلامية. قال الأستاذ: ربما كان الأمر كما تقول، ولكن العرب أصلهم قوم بدو، والرحمة في كثير من الأحايين لا تصل إلى قلوب البدو، لطبيعة أرضهم الجرداء القاسية وصعوبة نيل الرزق، فأعدتهم أرضهم القاسية بقسوتها. ولعلك تذكر غارات القبائل بعضها على بعض حتى بعد الإسلام، وما كان يحدث في تلك الغارات في بعض الأحايين من قتل النساء والأطفال. ولعلك تذكر أيضاً كيف كانوا يعاملون الحجاج الذين يقصدون مكة. ومن أجل هذه الطباع فيهم دخلت الحدود في الإسلام لتكبح جماح البدو، وأريد تطبيقها في بلاد طبيعة أهلها وطبيعة أرضها غير هذه الطبيعة. ومن أجل شدة الحر في بلاد العرب وإطلاق البدو أنفسهم على سجيتها دخل في الإسلام رجم الزاني ثم نقل إلى بلاد أخرى. قلت: يا أستاذ فرض على الحاكم أن يدرأ الحدود بالشبهات، وذكرت له قصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع أبي بكرة، وكيف أنه جعل يلتمس الشبهات في شهادة الشهود حتى نجي الرجل من حد الزنى، وذكرته أن التعزيز من عقوبات الإسلام، وذكرته بما يفعله الناس في أمم أوربا وأمريكا إذا قصر القانون أو استبطئوه، فإنهم يختطفون المتهم ويعاقبونه أقسى عقاب، وقد يمثلون به أشنع تمثيل؛ وقد يكون الرجل بريئاً مما نسب إليه. وذكرته بما تفعله أحدث الدول الأوربية إذا اضطرب حبل الأمن في بقعة شرقية. وقلت له إن الحدود لم تمنع انبعاث مظاهر الرحمة والنور في أسبانيا العربية بينما كانت أوربا غارقة في بحر من ظلمات الجهل والقسوة، ويشهد بذلك كثير من المؤرخين الأوربيين والى هنا انتهى حديثي مع ذلك الأستاذ الجامعي بعد أن ذكرته بأن سوء ظن الأمة بالأمة،

وأهل القارة بأهل قارة أخرى، هو من قبيل سوء ظن الإنسان بإنسان آخر لا يعرفه أو لا يعرف عنه إلا القليل، وهي ظاهرة في النفس الإنسانية عامة يستوي فيها العالم والجاهل والفطن والغبي والمنصف والظالم

أقول إن هذه الظاهرة هي سبب ما نراه من نكران بعض المؤرخين الأوربيين لفضل العرب على الحضارة الأوربية أو تهوينهم أمر أثر العرب في تلك الحضارة، فبعضهم لا يقرون للعرب إلا بأنهم كانوا قنطرة عبرت عليها علوم الحضارة الإغريقية الرومانية

إلى الحضارة الأوربية الحديثة، وبعضهم يقول إن الحضارة الأوربية كانت نامية لا محالة حتى لو أن أوربا لم تتأثر بالحضارة العربية. ويقول إن العرب لم يكونوا كل مصادر الحضارة الأغريقية، وإن المصادر الأخرى الأوربية كانت أجدى وأنفع وألصق. ومما يؤسف له أن بعض الشرقيين قد جاروا هؤلاء في دعواهم من غير تقص ولا بحث عميق

إن الحضارة الأوربية كانت حقيقة نامية لا محالة لأسباب داخلة في تاريخها؛ ولولا استعداد الأوربيين للتأثر بالحضارة العربية ما أمكنهم قبولها؛ واستعدادهم هذا يدل على بدء نحو الحضارة فيهم؛ ولكن هذا لا ينفي أنهم تأثروا بالحضارة العربية تأثراً كبيراً. ولا تزال المعركة الكلامية قائمة بين من يمجد أثر العرب في الحضارة الأوربية ومن يقلل من أثرهم من المؤرخين. والفريق الثاني ينظر إلى العيوب ويغفل عن الحسنات، فينظر مثلا إلى إضاعة بعض علماء العرب وقتهم وجهدهم في محاولة كشف إكسير الحياة أو حجر الفلاسفة، ويغفل كشوفهم العديدة وفضلهم على العلوم الحديثة على اختلاف أنواعها، فيغفل فضلهم في نقل الورق إلى أوربا، ولولاه ما أجدى اختراع المطابع وتحسينها، ولا كانت للحضارة الحديثة مظاهرها الشاملة؛ ويغفل ما نقلوه إلى أوربا من المصنوعات والمنسوجات والمزروعات المختلفة، وما أعطوهم من مخترعات مثل الإسطرلاب وبيت الإبرة والعدسة؛ ويغفلون فضلهم على الطب والتشريح والفلك والعلوم الرياضية وأنواع الهندسة والكيمياء، كما يغفل أثرهم وقدوتهم في وسائل الري وإعداد المدن بوسائل الراحة والرفاهية والنظافة كما فعلوا في إسبانيا وغيرها. ويغفل أثرهم في العلم والتعليم وكيف انتشر التعليم والاشتغال بالعلم انتشاراً لم يكن له مثيل. وقد أقر المؤرخ دريبر في كتاب (نحو الفكر الأوربي) بهذا التعصب ضد الحضارة الإسلامية كما أقر به ماكاب في كتاب (مجد إسبانيا العربية).

وقد ظهر أثر العرب في التحاق أبناء الأغنياء الأوربيين بمدارسهم، وكانوا يتجشمون الأسفار من أجل ذلك. وقد تعلم في مدارس العرب بعض رجال الدين المسيحي ومنهم البابا سلفستر؛ ونشر العرب مبادئ الفروسية وأخلاقها وسجاياها من شهامة ونجدة ظهرت في بدء عصر الفروسية، وكان لهم أثر في تكوين آداب اللغات الأوربية الحديثة، فظهر أثرهم في شعراء الرومانس والتروفر والتروبادور كما ظهر في آراء المصلحين الدينين وفي رحلات الكشوف

وللمؤرخ (ماكاب) رأي يتفق ورأيه الديني وهو أن الحضارة العربية في الأندلس لم يقض عليها الترف والتنعيم والضعف، وإنما قضى عليها التعصب الديني من جانب الأسبان المسيحيين بعد أن أضعفها التعصب من جانب المرابطين والموحدين وإن صدوا الأسبان عنها زمناً. ولا يقصر هذا المؤلف وصفه على الحضارة العربية في الأندلس، بل يصف الحضارات العربية في بقاع أخرى

ولم يكن العرب وحدهم بناة هذا المجد وهذه الحضارة، بل اشترك في بنائهما الأمم التي اعتنقت الإسلام وتعلمت اللغة العربية حتى صارت لغة لها

عبد الرحمن شكري

إلى حجاج الجامعة المصرية

محمد يرجع!

للأستاذ عبد المنعم خلاف

محمد يرجع ويعمل عمله من جديد في نفوس الشباب ويناديهم إليه ليربيهم في المهد الذي أنشأ فيه نفوس أبوتهم الأولى

وهم يلبون نداءه سراعاً، خفافاً وثقالا، وفي طليعتهم ملك. . . لأنهم أدركوا ببداهة الشباب وإحساسه بحاجات زمانه أنه نداء لا يمكن أن يعلو عليه لغو أو يحجبه ضجيج وقد سارت إليه جماعات منذ سنوات تسمعه ينطق في القرن العشرين جديداً عجيباً غريباً كما كان جديداً عجيباً غريباً منذ ألف وثلثمائة

بيد أن أَدعى جماعة إلى الالتفات إليها هي هذه الجماعة الجامعية التي يحدو لها عقل (أمين) وروح (عزام) وخلق (العبادي)

لقد افتتحت الجامعة حياتها بروح تمرد وثورة على محمد. . ولكن مَن هذا الذي يغالب محمداً ولا يُغلب، ويحتك بروحه ولا يمفطس ويجذب؟! لقد استطاع روح الحق الذي تمثل فيه أن يكب كل عنيد على ذقنه ساجداً، ويأخذه إليه طائعاً أو كارهاً. وقد عودنا

تاريخ دعوته أنها تنمو حين تقاوَم، وتبدو حين تحجب
ألم يغزُ التتار دياره، ويخربوا آثاره، فغزا قلوبهم ودوخ رءوسهم؟
ألم يرد الصليبيون محوه فمحا خرافاتهم وضلالاتهم وفتح أعينهم على مبادئ الحياة الجديدة؟
ألم يعزم المستعمرون على تكبيل أهله بالقيود الأبدية فأضرم من ناره على الحديد فأساله، وأذاب أغلاله؟
ألم يحاول المخدوعون الحالمون أن يهدموه في نفوسهم ونفوس أمتهم فإذا به يعلو ويعلو فيخنق أصواتهم ويحطم معاولهم ثم يضطرهم أخيراً إلى البناء فيه؟
من معجزات الإسلام أنه عزته اليوم تبنى على أيدي أحرار الفكر الذين أعلنوا في كل مناسبة أنهم يؤمنون بحرية البحث. وكأن القدر يقول للناس: هؤلاء الذين تظنونهم سبب شكوكم قد آمَنوا فآمنوا
ومن العجيب أيضاً أن الحج الذي هو منطقة كثير من التعبديات والرموز يكون أول مظاهرة روحية عملية تقوم بها الجامعة العقلية!
والأعجب أن تنبت الفكرة في الجامعة لا في الأزهر!
حادث عظيم في طريقنا إلى الحياة القويمة لا ريب!
حج مبرور من بُناة العقل إلى أرض الروح. الروح الذي لم يجدوه في الدفاتر والمخابر فراحوا يبحثون عنه في الصحراء. . . الكتاب الكبير المسطور بالرمال الخالدة والكلمات الصامتة التي قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو شاب مثلهم ففهم بها خبر السماء وطلاسم الوحي
لا أستاذية ولا (دكترة) ولا مخابر ومنابر، وإنما هناك هياكل خالدة عامرة أبداً بالنجوم، ومحاريب يسجد فيها الصباحَ والمساء، ومنصات تقف عليها الطبيعة صامتة متجردة لا تتشح (بالروب) ولا تهز ذقنها كما يهز العلماء لحاهم حين يلقون الدروس!
عشتم أياماً في التاريخ، على هامش الحياة، في مركز الأرض، في مهد الإنسان، في حضن الأم الوالدة، في مكان الخمائر، في البدائيات
التفتت إليكم الجبال والرمال والآثار التي تعرف محمداً وأصحاب محمد من الشباب، إذ كنتم أول فوج عجيب زارها في القرن العشرين، فعرفت أن الزمان يتمخض عن شيء ناقلتم الخطا على مواقع أقدام رسولكم الأعظم وتلاميذه الأبطال. . . فأحاطت بكم الأرواح والأطياف لتنظر براعم الربيع الجديد وتربيها، وتعمل سحرها فيها
سيكون لكم في التاريخ الجديد ما كان لنقباء (بيعة العقبة) في التاريخ القديم، يا نقباء الجامعة. فافهموا ما يشير إليه الزمان
وقفتم في مركز الدائرة التي يقف المسلمون على محيطها بالاعتقاد في الله الواحد، وبالمساواة في الشرع الواحد، وبالأخوة في الدين الواحد، وجباه المسلمين في المشرقين والمغربين تحيط بكم من جميع الآفاق ساجدة يصعد إلى الله الأعلى كلمها الطيب وعفرها الطاهر. . . وتسافر إليكم نظراتها مخترقة الحجب والسدود حتى ترى في الغيب ما ترون في الشهادة. . .
تجردتم عن المخيط من الثياب وعن الزينة والنعومة والتطرية وخرجتم نساكا شُعثاً غبراً طالت لأظفاركم وتهدلت شعوركم، وكل منكم ناحل ضامر في استغراق روحي عميق،
نظيف المادة طاهر الخلق. . . إنه مشهد (سينمائي) جميل تمثلون به حياة الأنبياء. . . فصلوات الله عليكم!
نقل الله لكم ناس الدنيا جميعها لتسمعوا النشيد الخالد يرتلونه مجتمعين بلغة (الكتاب) لغة الأمة الأمية الخالدة. . . ولتعرفوا معنى التوحيد الذي أراد الإسلام أن يطبع الإنسانية عليه. . . ولتروا الأحلام الكبيرة التي طافت بعقول الفلاسفة، حقائق وأجساد تمشي على الأرض في (المدينة الفاضلة) الآمنة. . . أم القرى
هل يمكن أن يخرج مثل هذا أكبر فنان؟ لا فالواقع هنا أكثر من الخيال، فلا حاجة إلى الكلام أو الأصباغ. . .
رأيتم بدء النور في (غار حراء. . .)، وبدء المحنة في شعاب مكة. . . وبدء الفرج في (غار ثور)، وبدء الأمل في (بدر) وبدء البَذْل في (أُحُد). . . وبدء النصر في (الحديبية)، وبدء الوحدة في مكة

ورأيتم نهاية النبوات وخاتمة الرسالات تسكن أشباراً من الأرض القاحلة بعد أن صاحت في آفاق المشرق والمغرب والشمال والجنوب (بالكلمة العليا) التي قام عليها صلاح العالم، وبأن (الزمن قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض) فيجب أن تبدأ الإنسانية عهداً جديداً
وحقيق على من رأى معالم البدء والنهاية من جهاد الرسول الأعظم أن ينقل صورها إلى كل نفس، وأن يحافظ على حياتها دائماً في قلوب الناس وأفكارهم حتى لا يطمسها جهل أو عقوق
ومسألة المسائل أمامنا وأمامكم أن نؤمن وأن نعلم وأن نعمل.
فاعملوا لذلك عمل المنقذين الذين يدركون شقاء الناس والعلاج الذي في مواريث الرسول الأعظم
ليس يغنينا علم ولا فلاسفة إذا لم يكن لنا إيمان. . . لأن العلم والفلسفة من مخلوقات الإنسان. . ولن يعبد الإنسان ما قد خلق ويسعد به. . . أما الإيمان فهو الكنز الخفي الذي ننفق منه سراً وجهراً ولا ينفَد، فنحن به في غنى دائم لأننا منه في فيض دائم. وقد تتحطم الإنسانية بالعلم، وقد تهذي بالفلسفة وتتفرق بها شيعاً وقبائل، ولكنها تُبنى دائماً بالإيمان
وتلتقي في قدسه ورحابه
فزاوجوا بين ثلاثة الأقانيم هذه وأخرجوا منها معنى الحياة الخالدة للإنسانية الفانية التي تأتي إلى الدنيا ولا تعرف لماذا أتت. . وتمضي إلى الأخرى وهي تحسب أن كل تاريخها في الأرض قبر من القبور. . .
أشبعوا الكفايات الإنسانية الثلاث التي أشار إليها (برتداندرسل). . أشبعوا (كفاية الاعتقاد) بالدين، (وكفاية الإثبات) بالعلم، (وكفاية التأمل) بالفلسفة حتى توجدوا النفس الكاملة
وتلك رسالة الجامعة وهي تدركها لا ريب.
(بغداد)
عبد المنعم خلاف
ذكرى الهجرة
طريق الجهاد
للأستاذ محمد عبد الغني حسن
قم باسم ربك للجهاد وناضلِ ... واصدع بصوت الحقِّ صوتَ الباطلِ
لا ترهبنك من قريشٍ عصبةٌ ... ما بين لاهٍ في الضلال وغافلِ
أترك منازلهم وخلِّ ديارهم ... حُشدْاً تعجُّ بجمعها المتطاول. .
دعهم يثيرون القلوبَ سخائما ... ويؤلبون عليك كلَّ مُصاول
ويجرِّئون عليك كلَّ مُسَفَّهٍ ... دانٍ إلى الإسفاف أرعنَ جاهلِ
هيهات ما لحقوا مَداك بطالع ... منهم ولا خَبَأوا سناك بآفلِ
لم تفلح لديك شراكهُ ... يوماً ولم تظفر لديك بطائل (الشِّرك). .
يا أيها الواعي رسالةَ ربه ... اللهُ سيفك في القتال فقاتل
قَوِّم بهذا السيف ركن المنحني ... وأقم بهذا الرمح عودَ المائل
واهجم على الباغي بغير تهجم ... واحمل على العادي بغير تحامل
وأضئ سبيل المشركين ولقِّهم ... وَحيَ النبيِّ وملهمات الكامل
واطلع كما طلع الربيع مبشراً ... بالخير في البلد الجديب الماحل
وانشر على الدنيا السلام وقل لها ... طيبي بأمن في رباعك شامل
واجمع من الشمل المفرَّق أمةً ... قد أحكمت بوشائج ووصائل
قامت إلى (كسرى) تدك بناءه ... وتهدُّ من (إيوانه) بمعاول
ومشت (لقيصر) في علاه كأنها ... قَدَرٌ يصول بعزة وتطاول
البَرُّ سيَّال الأباطح حافلٌ ... والبحر عالي المتن حشدُ الساحل
آذاك قومك فاحتملت لأجلهم ... عَنَتَ اللجوج وسَوْءةَ المتحامل
وصبرت والدنيا تهونُ لصابرٍ ... وحملت والبلوى تخف لحامل
يا أوسع الدنيا العريضة فكرةً ... أيضيق صدرك بالخيال الزائل؟

من كان في الله الكريم جهادُه ... لم يَعْيَ من عبء الحياة بكاهل
عاداك أهلك في الديار وأسرفوا ... واستنجد المخذول بالمتخاذل!
نَفَسوا عليك بأنفس مشبوبة ... تغلي بنار الحقد غليَ مراجل
عادَوْك لما كنت أكمل عقدهم ... والناس أعداء المثال الكامل
اضرب بسيف الله كل منافق ... واغلب بمكر الله كل مخاتل
واصدع بأمر الله إن سبيله ... وضح المعالم مستقيم الداخل
واظهر فإن الله جارك في الوغى ... وسهامُ قوسك في الزحام النابل
. .لا تخش من تلك الجموع فإنها ... عند اشتباك الأمرِ جد قلائل
يا أيها الهادي بذلت على رضىً ... والنصر عاقبة الكريم الباذل
وضحتْ دلائلُ من هداك وضوَّأتْ ... (وقريشُ) سائرٌ بغير دلائل
يمشون في الجهل القديم وقيده ... وظلامه كالعاثر المتثاقل
ما ضر لو تبعوا خطاك وأخلدوا ... للسلم في الريع الأمين الآهل؟
. .لكنهم رجعوا إلى أجدادهمـ . ... واستعصموا منهم بركن مائل
يا أيها المعصوم حسبك قَوْمةً ... لله ما لقي الهدى من جاهل
مالت (قريشُ) إلى الهوى وتآمرت ... وأساء جاهلها الكبير لعاقل
كان (الإله) بها صناعة ناحت ... ووليد أنملة وطُعمة آكل!
. . .عميتْ محجاتُ البيان وأشكلت ... وتشابه الصوَّال بالمتصاول
وطغى على أرض الجزيرة جارف ... كالسيل في إثر الغمام الهاطل
غطّى على (قيس) فأغطش ليلها ... واجتاح ما أبقى الزمان (بوائل)
فوضى. . فما سعدوا برأي صالح ... فيهم ولا ظفروا بحكم عادل
جاهدت لله الكريم فلم تمل ... لهوىً ولم تنجح لرأي باطل
حتى إذا آذاك قومك لم تجد ... غير الرحيل فكنتَ أشرف راحل
. . .يومُ بدأتَ به الحياة جديدةً ... لله واستأنفتها منْ قابل
. .جاءك فيه بين أسنَّةٍ ... (والنصر) جاءك فيه تحت عوامل (الفتح)
ذكرى سنحييها لعل طريقها ... يَهدي الشبابَ إلى الطريق الحافل!

مدرسة بالمنصورة الثانوية
محمد عبد الغني حسن
الحكومة الإسلامية الأولى
للأستاذ الشيخ علي الخفيف
مدير المساجد

دعا النبي صلى الله عليه وسلم إلى ربه. فبدأ دعوته في مكة حيث نشأ، ومكث بها داعياً ثلاث عشرة سنة تبعه فيها السابقون الأولون من المؤمنين وهم قليل. فأوذوا في أنفسهم وأموالهم وفتنوا في دينهم. وحيل بين الدعوة وبين ظهورها ونشرها، كما منع الناس من أن يطرق الحق آذانهم أو تصل الذكرى إلى قلوبهم. وكان ذلك بأيدي أولي القوة والحماية، وبأعين أهل الحكم والولايةـ وكان المؤمنون يومئذ فئة قليلة لا يملكون قوة ولا يستطيعون دفاعاً ولا يجدون أمناً ولا عدلاً. فلم يجدوا سبيلاً لحياتهم إلى الهجرة من ديارهم

هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وهاجر إليها المؤمنون من قبله ومن بعده يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله، فحلوا على الرحب والسعة بين إخوانهم وحلفائهم من الأوس والخزرج الذين آزروهم ونصروهم وأشركوهم في ديارهم وأموالهم، وعقدوا معهم أخوة كونت منهم جميعاً جماعة لها من الأسرة توادها وتراحمها وتعاطفها واجتماعها على زعيم رءوف بها حريص عليها، وفيها كل خصائص الدولة من التماسك والمنعة والخضوع لنظام واحد، والسعي إلى غاية مشتركة، والاختصاص بوطن معلوم

لقد كانت الهجرة النبوية بداية لعهد جديد افتتح به العالم طريق كماله الإنساني، وحياته المفكرة، ونظره المستقل؛ فتغيرت لذلك وجهة الأمن، وتبدل مجرى الحوادث، وبدأ التاريخ فصلاً جديداً لتطور فكري منشؤه البحث والنظر، وانقلاب اجتماعي أساسه المساواة والتعاون، وانكشاف ديني غايته تزكية النفس وتكميل الخلق. ولم يكن للهجرة ذلك الأثر إلا لأنها هيأت للمسلمين قيام دولة إسلامية قامت بنشر الدعوة

وحمايتها وإيصالها إلى من كان محجوباً عنها. ثم دافعت عن كل من دان بها، فإذا الناس بهديها مهتدون، وبنورها مستضيئون، وبتهذيبها مفلحون، وبآثارها متمتعون بدأت هذه الدولة يوم أن دخل النبي (ص) المدينة المنورة، واستقر بها زعيما الأوس والخزرج ومن هاجر إليهم من قريش ومن لازمهم من مسلمي العرب، فتألفت منهم جماعة
متحدة جعلت المدينة مقراً لها ووطناً، واتخذت أوامر النبي (ص) ونواهيه نظاماً وحكما، فكانت منهم دولة يحكمها الرسول له فيها سلطان الحكومة كاملاً؛ فهو صاحب الولاية العامة، وهو مصدر التشريع، وله القضاء وإليه التنفيذ، يدير الشؤون ويقود الجيوش، ويجبي الأموال وينفقها في وجوهها ويوزعها على مستحقيها، ويعقد العهود ويقوم على الوفاء بها وينبذ إلى من نقضها، ويحمل الناس على الخطة المثلى ويهديهم صراطاً مستقيماً
وكانت هذه الشؤون على عهد الرسول قريبة الغور بسيطة التركيب رقيقة الحاشية قليلة العدد محدودة المكان ترجع في بساطتها ورقتها إلى ما ألفوه يومئذ من معيشة بدوية، واعتادوه من عادات فطرية، وتوارثوه من تقاليد طبيعية، إذ كان نظام الحكم مستمداً من نظمهم المألوفة عندهم المعروفة لديهم، ولن استمداده لم يتجاوز الصور والأوضاع إلى ما كانت تحويه تلك النظم الجاهلية من هضم لحقوق الضعفاء، وظلم للأبرياء، وأخذ بالشبهات، وتصديق بالخرافات، واعتماد على الترهات، بل كان خالصاً من الظلم، نقياً من الدنس، بريئاً من العيب، صالحاً لزمانه، ملائماً لأهله، كفيلاً بتحقيق مصالحهم وتوفير طمأنينتهم وسد حاجاتهم. ذلك بأن أمره كان إلى الرسول يتلقى فيه وحي ربه، ويهتدي في ترتيبه وتدبيره بهديه، ويجتهد في تكميله بحكمته ونظره، حسبما تقتضيه المصلحة والحاجة، وعلى ضوء ما يدعو إليه التطور الجديد وتهدي إليه الحوادث
من ذلك يتبين أن نظام الحكومة الإسلامية الأولى لم يكن نتيجة خالصة لتطورات حكمية سالفة، ولا أثراً لثورات ماضية، كما لم يكن فكرة أفضت إليها أزمات استعصى حلها، أو حاجات تعذر قضاؤها، أو اختلاف في طرق الحكم لم ينته إلا بانكشافها، وإنما كان هدياً نبوياً وتوفيقاً إلهياً أخذ من النظم المألوفة والتقاليد الموروثة ما لاءم الفطر وصلح على الزمن وأوصل إلى الغاية، ثم نفى منها الفاسد الخبيث مما ساير الأهواء وأورثته المطامع والشهوات، ولم يعلُ فيما ابتدعه من ترتيب ووضعه من أسس ومبادئ عن مستوى الزمن ومدارك العامة من أهله واستعدادهم الاجتماعي وبيئاتهم الحاضرة، بل راعى في تشريعه جميع ما يلابسهم ويتصل بهم من ثقافة وتربية وعادات ووطن ودين اختير لإعلاء كلمته ونشر دعوته، وكذلك راعى الزمن وسيرة الحوادث وتقلباتها، والجماعات وتطوراتها، والحاجات وتغيراتها
لهذا جاءت أسس الحكومة الإسلامية قواعد كلية ومبادئ عامة جديدة لا يبليها الزمن، ومستقيمة لا يقومها التطور، ومثبتة لا تنال منها الحوادث، صارمة صريحة صالحة لكل أمة، ملائمة لكل زمن، قائمة في كل مكان. وهذه بعض تلك القواعد نكتفي بذكر أهمها لأن استيعابها لا يتسع له المقام ولا يناسب الحال:
1 - العدل: أمر الإسلام بإقامته وكرر الأمر به في صور شتى تارة بذكره كقوله تعالى: (اعدلوا هو أقرب للتقوى)، وقوله: (وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل)، وتارة بالنهي عن الظلم وكراهة أهله كقوله: (إن الله لا يظلم مثقال ذرة، إن الله لا يحب الظالمين)، وقوله عليه السلام: (إن الناس إذا رأوا الظلم فلم يأخذوا على يديه أوشك الله أن يعمهم بعقاب من عنده)
2 - المساواة: قرر الإسلام مبدأ المساواة في قوله تعالى: (إنما المؤمنون اخوة) وقوله: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا. إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وقوله عليه السلام: (المسلمون كأسنان المشط) وقوله: (المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم)
3 - التآلف والوحدة: دعا الإسلام في أكثر من موضع إلى الوحدة وعدم الفرقة، فقال تعالى: (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) وقال: (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً) وامتن بها فقال لرسوله: (لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم) وقال عليه السلام: (المسلمون يد على من سواهم)

4 - الشورى: حض الإسلام عليها فأمر بها نبيه بقوله: (وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله)، ومدح بها المؤمنين إذ وصفهم بها فقال: (وأمرهم شورى بينهم)

5 - النصيحة: ويدخل فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد عني بأمرها الإسلام فجعلها من الدين، قال عليه الصلاة والسلام: الدين النصيحة، قالوا لمن يا رسول الله؟ قال لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم. ولعن الله بني إسرائيل لأنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، وقال لبئس ما كانوا يفعلون. وقال عليه السلام: إن الله يرضى لكم ثلاثاً ثم ذكر منها: أن تناصحوا من ولاه الله أمركم

6 - التعاون: فقد أمر به الكتاب فقال: (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان)

على هذه القواعد التي تقيم الحكم على أساس متين وتكفل له تحقيق أكمل غاياته قامت حكومة الرسول (ص) في المدينة المنورة وفيما جاورها من الأماكن القريبة. ولبساطتها وقلة التفرع في شؤونها وبعدها عن التشعب وعدم سعة أرضها كان أمر تدبيرها في جميع نواحيها إليه صلى الله عليه وسلم مباشرة. وساعد في ذلك أن أصحابه كانوا لأوامره مطيعين، ولأقواله حافظين، وبأفعاله مقتدين، ينشدون العدل ويطلبون الحق، يرون سعادتهم في طاعته وترسم آثاره، وشقاءهم في مخالفته وتنكب طريقه

وكانت الولايات على عهد الرسول تكاد تنحصر في قيادة الجند وولاية الصلاة والتعليم، وولاية الصدقات والأموال، وولاية القضاء والمظالم، وولاية التشريع

فأما قيادة الجند فكانت إليه. يدعو إلى الجهاد ويعبئ الجيش ثم يقوده بنفسه، ويشرف على ترتيبه وخططه، فإذا لم يخرج معه عهد إلى بعض أصحابه في ذلك ممن عرف بالكفاية في الحروب والحذق بفنونها والبصر بمكايدها. ولم يكن له عليه السلام جيش خاص يقوم بذلك دون بقية المسلمين، بل كان جميع المسلمين جنداً محاربين لا يعفى من الخروج إلا من أقعده المرض أو الضعف أو العجز، أو لم يجد نفقة، وكان في ذلك حزنهم وعظيم كربهم، حتى أنزل الله تعالى قوله: (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا الله ورسوله، ما على المحسنين من سبيل، والله غفور رحيم. ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه، تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون). كذلك كان يعفى من الخروج من عهد إليه بعمل عام في المدينة أو لحقته ضرورة لا فكاك منها، على أن يكون له سهمه في الغنائم. وكانت نفقاتهم في أموالهم وأرزاقهم من مال الله الذي آتاهم أو في أموال المحسنين منهم ممن كانوا يخرجون عن بعض أموالهم لهذه الأغراض. ولم يكونوا محصورين في ديوان لعدم الحاجة إلى هذا الإحصاء لأنهم كانوا جميعاً محاربين، ولم تتخذ سجلات الجيوش إلا في عهد عمر رضي الله عنه

وأما ولاية الصلاة والتعليم فكان عليه السلام يؤمهم في المدينة ويعنى بتعليمهم دينهم وإرشادهم أشد عناية، لأن ذلك كان من أهم أغراض الرسالة. كان يعلمهم بنفسه، يقوم بذلك في المسجد، وفي كل مجلس يجلسه، وفي كل مقام يقومه، في الحضر والسفر، والسلم والحرب؛ وكان يحض المتعلم من أصحابه على أن يعلم الناس، ويشجع من قام بذلك بقيامه على حلقته في المسجد. وكان يستعين في ذلك بأمثل أصحابه يرسلهم إلى الجهات النائية أو القبائل التي دانت بالإسلام ليؤموهم ويرشدوهم ويعلموهم القرآن وأحكام دينهم. ومن عنايته صلى الله عليه وسلم بالتعليم أن جعل فداء المعسر من أسرى بدر إذا كان قارئاً كاتباً تعليم عشرة من غلمان المدينة

وأما ولاية الصدقات والأموال فكانت جبايتها إلى من يختارهم من أصحابه العالمين بأحكامها، يجمعونها من أهلها في بلادهم المختلفة ويحضرون بها إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيوزعها لوقتها دون أن يدخر منها شيئاً. ولذا لم تكن لهذه الأموال على عهده خزائن لحفظها ولا سجلات لقيدها، وإنما وجد ذلك بعد وفاته صلى الله عليه وسلم. وذلك يرجع إلى قلة ما كان يجمع منها على عهده وحاجة المسلمين إليه وقيامهم جميعاً بالدفاع والغزو. ولم تكن موارد هذه الأموال يومئذ تتعدى الصدقات والغنائم والجزية؛ وكانت مصارفها ما بينه الكتاب الحكيم في قوله تعالى: (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل) وفي قوله تعالى: (واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن

(لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل).
وأما ولاية القضاء والمظالم فكانت إليه في المدينة المنورة وما جاورها من الأماكن، إذ لم تكن الخصومات كثيرة إلى الدرجة التي تدعو إلى الاستعانة بغيره. ولم تكن مع ذلك خصومات حقيقية، بل كان أكثرها لا يعدو أن يكون اشتباهاً في وجه الحق، فإذا بينه عليه السلام بعد الترافع إليه فما أسرعهم إلى الرضا والتنفيذ دون حاجة إلى دافع أو ملجئ. على أنه عليه الصلاة والسلام لم يستغن عن معاونة غيره في الحوادث التي تتطلب الانتقال، وفي البلاد النائية التي فتحها الله عليه كاليمن والبحرين ومكة وغيرها، فولى فيها ولاة جمع لهم بين ولاية القضاء والصلاة والصدقات والحرب، وربما فرق بينها حسبما تدعو إليه الظروف والمصالح

وأما ولاية التشريع فكانت له وحده لأنه إنما أرسل ليشرع للناس دينهم ويهديهم إلى ربهم، ويسلك بهم طريق سعادتهم وفلاحهم، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم، لا ينطق فيه عن هوى، وإنما يصدر فيه عن الوحي ينزل به الروح الأمين على قلبه فيقرؤه على الناس قرآناً مبيناً، أو يحدثهم به حديثاً نبوياً، أو يعلمهم إياه بفعل يأتيه أمامهم فيقتدون به؛ فإن لم يكن وحي صدر عن البحث والنظر ينتهيان إلى استنباطه الحكم المطلوب معتمداً في ذلك على ما استقر في نفسه من روح الوحي وما يراعيه من مصالح الناس. وليس لغير الرسول أن يتولاه، وليس له إلا الاجتهاد في تفهم النصوص وتطبيقها على الحوادث، وإذا صدر منه ما أقره النبي كان شرعاً بإقراره عليه السلام لا بصدوره من صاحبه؛ غير أن ما كان يليه الرسول أو يأتيه لم يكن كله دينا بل كان للدنيا منه كثير؛ وما شرعه في النوع الأول يجب اتباعه ولا يجوز فيه تغيير، وما اتبعه في النوع الثاني يصح أن يناله التغيير والتبديل تبعاً لتطور الزمن وتغير الناس واختلاف العادات، لأن الشأن فيه أن يسير مع المصلحة ويتقيد بالمنفعة، فجاز أن يتسع للبحث وأن يتقبل الخلاف. وكثيراً ما عدل الرسول عن رأيه إلى رأي أصحابه، وغير من رأيه حين اقتضت المصلحة التغيير. وقد ولى عليه السلام كثيراً من أمور الدنيا بحكم ولايته العامة فسلك فيها سياسة دعت إليها حاجات حاضرة وعادات قائمة ومصالح يومئذ مطلوبة، فإذا ما انتهت تلك الحاجات وتغيرت تلك المصالح وتطورت تلك العادات كان على المسلمين من بعده أن يغيروا فيها تبعاً لذلك؛ وقد حصل منهم ذلك فعلا بعد وفاته صلى الله عليه وسلم في كثير من النظم

هذه هي أهم الولايات على عهد الرسول ولم تقتصر أعمال الحكومة في عهده عليها بل تجاوزتها إلى كثير من الأعمال التي دعت إليها الحاجة واقتضاها ضبط الأمور وتنظيم العمل مثل الكتابة، والمحاسبة، والترجمة، وحفظ الختم، وحفظ السر، والعسس بالليل والحراسة فيه، فكان لكل هذه الأعمال عمال من أصحابه يقومون بها تحت رقابته وإرشاده

كان عليه الصلاة والسلام المرجع في كل هذه الأعمال يقوم على تدبيرها وتصريف شؤونها بما يوحى إليه في ذلك من ربه أو بما يهديه إليه رأيه بعد بحث ونظر ومشورة يختص بها أولي الرأي والبصيرة من صحابته كحمزة بن عبد المطلب وأبي بكر وعمر وعلي وغيرهم؛ فكان عليه السلام يستشيرهم في كثير مما يعن من الأمور التي لم ينزل

عليه فيها كتاب، وبخاصة ما كان منها متصلاً أو متعلقاً بالغزو والدفاع، فاستشار الأنصار يوم بدر في قتال المشركين، فقال له سيد الأوس سعد بن معاذ: (والله لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لنخوضنه معك). وأخذ برأي الحباب ابن المنذر الأنصاري حين رآه ينزل عند أدنى ماء من بدر فقال له: (أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم عنه أو نتأخر أم هو الرأي والحرب والمكيدة) فقال له عليه السلام: (بل هو الرأي والحرب والمكيدة) فقال: (يا رسول الله ليس لك هذا بمنزل، فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فننزله) فقال عليه السلام: (قد أشرت بالرأي) ثم استشار أصحابه في أسرى بدر وأخذ برأي من أشار عليه بقبول الفداء فعاتبه الله في ذلك وأقره.

واستشارهم في إطلاق زوج ابنته زينب ورد قلادتها التي أرسلت بها فداء إليها.

واستشارهم في غزوة أحد أيقيم بالمدينة حتى يلقى العدو على أبوابها أم يخرج إليه، وكان يرى المقام، ولكنه أخذ برأي الجمهرة منهم. واستشارهم في طريقة الدفاع عن المدينة يوم الخندق. ولو أردنا أن نعدد ما استشار فيه عليه السلام أصحابه لطال بنا

القول وما أحصينا أكثره؛ وإن ذلك ليكفي في أنه عليه السلام وهو الموحي إليه المعصوم كان يعتمد في حكومته على مشورة أصحابه يبحث معهم الأمر، يحزبهم ويناقشهم فيه حتى ينتهوا فيه إلى الحق، فلا يكون لأحد بعد ذلك خلاف. وذلك ما أدبه ربه عز وجل بقوله: وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله). وكان عليه السلام إلى هذا عادلا لا يميز بين أصحابه ولا يكرم عليه من بينهم قريب لقرابة أو ذو جاه لجاهه، بل أنه ليسوي بينهم وبينه فيرضى أن يقاد من نفسه. لقد تقدم إليه بعض صحابته يوماً ما بشفاعة في قطع يد امرأة مخزومية فقال عليه الصلاة والسلام: أشفاعة في حد من حدود الله؟ والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها. ولقد أتاه يوماً رجل يتقاضاه ديناً فأغلظ له، فهم به بعض أصحابه، فقال عليه السلام: دعوه فإن لصاحب الحق مقالا. وقال له أحد الأعراب وقد رآه يقسم بعض الغنائم: اعدل. فأجابه بقوله: فمن يعدل إن لم أعدل؟ خبت وخسرت إن لم أعدل. ومر عليه السلام بسواد بن غزية في غزوة بدر وهو خارج عن الصف فضربه بالقضيب في بطنه وقال له استقم يا سواد. فقال سواد أوجعتني يا رسول الله وقد بعثت بالحق والعدل فأقدني من نفسك. فكشف له الرسول عن بطنه وقال: استقد يا سواد. فاعتنقه سواد وقبل بطنه وقال إنما أردت أن يكون آخر العهد أن يمس جلدي جلدك؛ فدعا له بخير

يرى مما ذكرنا أن حكومته صلى الله عليه وسلم كانت شورية ما أمكن أن يكون للمشورة محل، لأنها كانت في كثير من الأمور تستند إلى الوحي، ولم تكن عصمة الرسول وما أعطيه من الدرجة الرفيعة ليمنعه من أن يستشير أصحابه، وذلك ليعلمهم البحث ويهديهم إلى النظر الصحيح، والى وسائل الحكم الصالح المنتج، ويشعرهم بوجودهم ويعودهم تحمل نتائج بحثهم وتفكيرهم وفي ذلك تطبيب لنفوسهم وتوفير لمرضاتهم. وقد كانت رياستها إليه وحده بحكم رسالته واختياره من ربه لإظهار دينه ونشر تعاليمه. فلما توفى كان لابد للمسلمين من أن ينظروا فيمن يخلفه في تلك الرياسة العامة، فكان أول من بادر إلى التفكير في ذلك جماعة الأنصار من الأوس والخزرج، فاجتمعوا في سقيفة بني ساعدة، ولم يكد يلتئم اجتماعهم حتى وصل نبؤه إلى أبي بكر وعمر فأسرعا إليهم، وكان بينهم نقاش وجدل فيمن هو أولى بالخلافة. أيليها أحد الأنصار أم أحد المهاجرين الأولين من قريش، أم تكون شركة بينهم من الأنصار أمير، ومن المهاجرين أمير؟

لم يكن القوم يومئذ داعين إلى عصبية ولا طامعين في تغلب وجاه، ولا نافسين بعضهم على بعض مراكزهم، ولكنهم فوجئوا بوفاة الرسول دون أن يستخلف أو يسن لهم فيه سنناً أو يشرع لهم فيه شرعاً، يستبين به وجه الحق ويتعين به الخليفة؛ فأسرعوا إلى بحث ذلك خشية الفرقة، يبتغون الحق، ويتبينون الصواب، ويستجلون المصلحة، فما إن خطبهم أبو بكر حتى ظهر لهم جميعاً الحق واندفعوا وراء عمر رضي الله عنه مبايعين أبا بكر، حتى لقد سبقه بعضهم إلى يده وإن كان أسبقهم إلى طلب بيعته. لقد اتفقوا في ذلك الاجتماع على أن يكون خليفة يخلف الرسول إمامته، وعلى أن يكون الخليفة واحداً لا متعدداً، وعلى أن يكون أبا بكر رضي الله عنه. وما ذاع ذلك حتى كان فيه رضا أولي الرأي من بقية المهاجرين والأنصار، فأقبلوا على أبي بكر بالمسجد مغتبطين مبايعين، ولم يتريث إلا بعض بني هاشم، تباطئوا ثم بعد ذلك بايعوا، ولم يكن تباطؤهم مانعاً دون تمام خلافته وأخذه في مباشرة أسبابها في سيره في حكومته على نهج الرسول

ولقد انتهى المسلمون في أمر إقامة الخليفة إلى نتائج قيمة وثمرات صالحة طيبة، أضاعها الخلف فحرموا طيباتها، ومنوا بشرور تجنبها وويلات مجافاتها، فأصابهم ما أصابهم مما هم

فيه من الضعف والمهانة حتى أصبحوا أمماً مستعبدين أو جماعات متخاذلين

أولها - أن الخليفة نائب عن الأمة وولايته مستمدة من ولايتها، وسلطانه فرع من سلطانها، فقد اختار المسلمون أبا بكر بعد وفاة الرسول من بينهم وأقاموه خليفة عليهم ليسوموهم ويدبر أمورهم وفق كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومهتدياً في ذلك بهدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعتضداً بمشورة أولي الرأي منهم، فهو وكيلهم في ذلك ومعقد نظامهم ورأس وحدتهم؛ وهو في هذا

الأمر كما كان الرسول، غير أنه لا يأتيه الوحي ولا يزيد في الدين ولا ينقص منه، ولا يمتاز فيه عن سائر أمته إلا بما قد يمتاز به أي فرد من أفرادها من سعة في العلم وزيادة في الفقه وتعمق في النظر وإجادة في الاستنباط

ثانيها - أن الخليفة لا يكون إلا واحداً حتى لا يكون تعدده مثار خلاف أو فرقة بسبب ما قد يحدث لكل من شيعة تتشيع له أو حزب ينتصر لرأيه، وحتى لا يكون في تصريف الأمور اختلاف يعوق دون الإسراع في تدبيرها وتلافي الأخطار التي قد تتعرض لها الدولة

ثالثها - أن اختيار الخليفة وانتخابه ليس إلا لمن يقدر خطر الخلافة ويزن نتائجها ويعرف ما يجب أن يتوفر في الخليفة من جدارة وأهلية وقدرة وكفاية. وهؤلاء هم أولي الرأي في الأمة المعروفون في الصدر الأول بأهل الحل والعقد؛ أما غيرهم فالشر كل الشر في إيكال ذلك إليهم، لأنهم يستمعون لكل صيحة، ويهبون مع كل ناعق، يخدعهم الرياء والسمعة، ويغريهم الطلاء والبهرج، وتطمعهم الأكاذيب ويعميهم الجاه والثراء. وأهم ما يلاحظ اليوم على المجالس النيابية من عيوب عدم كفاية أعضائها، ووجودهم إنما يرجع إلى سوء اختيارهم، وذلك بإيكاله إلى من لا يحسنه

رابعها - خضوع الأقلية في ذلك لرأي الأكثرية حتى لا يتفرق الأمر وينقطع الحبل

وهناك نتائج أخرى لا يتسع المقام لتفصيلها، ولذا نكتفي بهذا البيان عسى أن يكون فاتحة بحث جديد في تفصيل أسس الحكم الإسلامي، ومبدأ اتجاه في إقامة الحكومات الإسلامية اليوم على سنن الحكومة الإسلامية الأولى حتى يعود للمسلمين على أيدي حكوماتهم ما كان لهم أيام حكومتهم الأولى من عزة ومجد وسؤدد.

علي الخفيف

محمد الزوج

مؤامرة في بيت الرسول

للأستاذ محمود غنيم

- 1 -

دنت الرءوس من الرءوس، وهمست الأفواه في الآذان أن رسول الله غاضب. ورسول الله غاضب حقاً، غاضب على نسائه جميعهن حتى عائشة - كم لعائشة من دالة عليه! - لقد كان يطوف بأبوابهن أصيل كل يوم، فما باله الآن في عزلة تامة لا يطرق لإحداهن باباً، ولا يكشف لها حجاباً؟

طال غضب الرسول، وطال احتجابه، فلم يعد الأمر سراً يحبس في الصدور، أو يتناجى به اثنان في همس، ولكنه تجاوز الصدور إلى الشفاه، والإسرار إلى الإعلان، والاثنين إلى الجماعة، حتى أصبح حديث الأندية في يثرب، وموضع التكهنات والتخرصات؛ والغمرة لا تنجلي، والغمام يتراكم في الأفق، واللازبة تشتد، حتى ترددت على الألسن كلمة (الطلاق) بما تحمل في طياتها من بشاعة وهول، وحتى أشيع أنه على وشك الوقوع، أو أنه وقع فعلا وقضي الأمر

ولكن أين أبو بكر وعمر؟ أين كبار المهاجرين والأنصار؟ ألا يقابلوا الرسول فيضعوا حداً لهذه التخرصات؟ كلهم تحدثه نفسه بذلك، ولكنه لا يقدم عليه. إن رسول الله ملء العيون، ملء القلوب، فلا يكلم إلا حين يبتسم؛ ولكنه عابس الوجه متغضن الأسارير، فمن هو الشجاع الذي يغامر بنفسه في هذا الميدان؟ لهم أن يخوضوا المعامع، ويقتحموا على اليهود حصونهم، ويرووا ذباب سيوفهم من دماء المشركين في بدر؛ أما أمام الرسول فهم عيون خاسئة، ورءوس منكسة، وأفئدة هواء

إيه يا نساء النبي، ويا أمهات المؤمنين، ما فعلتن برسول الله؟

- 2 -

عجباً لرسول الله! تجبى إليه الأموال من كل فج في جزيرة العرب، ويضع يده على كنوز خيبر وقريظة والنضير، وتنصهر خزائن اليهود في لظى الحروب التي شنها عليهم، ثم

يعود إلينا صفر اليدين، طاوي البطن، ونحن نشاركه الطوى، ونقاسمه ألم الحرمان، أيرضيك هذا يا عائشة؟ وأنت يا حفصة؟ أجيبي يا سودة. وأنت يا أم سلمة مالك لا تتكلمين؟

على هذا النحو من الحديث جرت الألسنة في بيت عائشة، وقد انعقد المؤتمر من

أمهات المؤمنين، وكلهن تائق إلى شيء من الترف يرجو أن يساهم فيما أفاء الله على رسوله، بعد أن حملت إليه الجزي، ووصلت إليه هدايا أرباب التيجان؛ فإذا هو يبعثر النضار ذات اليمين وذات اليسار، ثم يقنع بالعيش الظليف، والمأكل الطفيف، وينام بجانب زوجاته على بساط من أدم حشوه ليف

أوَ ليس من حق نساء النبي أن يطمحن إلى ما هو فوق هذا المستوى من المعيشة، ويتطلعن إلى لون آخر من ألوان الحياة؟ ولم لا يفعلن وفيهن بنت أبي سفيان، وأبو سفيان زعيم قريش، وفيهن بنت حي بن أخطب، وحي كبير بني النضير، وفيهن غير هاتين ممن كن يرفلن في مطارف النعيم، ويجررن أذيال الرفه في بيوت آبائهن؟

فكيف لا يتبرمن بهذا اللون من الحياة الذي يعالجنه في بيت رسول الله؟

ولقد كن يلتمسن له شيئاً من العذر لو لم يكن هذا الشظف من صنع يده، ووليد زهده، وعزوفه عن الدنيا؛ أما والأمر ليس كذلك، فما هن والصبر عليه؟

لقد اتسعت آفاق معلوماتهن عن الدنيا، وعرفن كثيراً عن قيصر في الروم، وكسرى في الفرس، والنجاشي في الحبشة، والمقوقس في مصر؛ وهن يرين أنفسهن تحت أمير تدين له جزيرة العرب بالطاعة لا يقل خطراً عن هؤلاء الأمراء

وهل المرأة إلا المرأة منذ تحدرت من أعماق التاريخ إلى أحدث عصور المدنية والنور؛ امرأة البدو، هي هي امرأة الحاضرة؛ همها الأول زينتها. هي من ناحيتها تريد أن تساعد الطبيعة التي سلحتها بالنعومة والجمال أداتي جاذبية وإغراء لحفظ النسل، كما سلحت الزهرة بطيب العرف وألوان الطيف، حتى تجتذب الطيور فتكون رسلاً تحمل حبوب التلقيح

لم يكن بدعاً إذن من نساء الرسول أن يأتمرن به على هذا النحو، حتى إذا دخل عليهن أحطن به إحاطة السوار بالمعصم، وانطلقت ألسنتهن في حماس

ولكن سيد الرسل يعتصم بسيد الأخلاق، ويقابل الأمر بابتسامة هادئة، ثم، ثم لا يفعل شيئاً

- 3 -

ما بال رسول الله يبطئ في بيت زينب؟ ألم يأته نبأ عائشة وسائر زوجاته وهن ينتظرنه على أحر من الجمر، ويعددن له الثواني والدقائق؟

اعتاد الرسول أن يطوف ببيوت نسائه غب صلاة العصر، ولكنه اليوم يحتبس في بيت زينب زمناً طويلا، وعقارب الغيرة تنفث لعابها في نفوس عائشة وصواحبها. وهل تسلم المرأة من الغيرة وإن كانت زوجة رسول؟

انعقد المؤتمر في بيت عائشة، وطرح المسألة على بساط البحث، ثم قرر قراراً طابت به نفوس الجميع

لقد تعودت زينب أن تسقي الرسول عسلا ذات رائحة حادة، فما ضر المؤتمرات أن يتخذن من حلاوة هذا العسل أداة انتقام مرة، وسلاحاً يشهرنه في وجه الرسول؟ إيه يا حفصة! إيه يا سودة! إذا انصرف الرسول عن زينب إلى أيتنا فلتبد شيئاً من الاشمئزاز، ولتقل إني أشم ريح مغافير. ونساء الرسول يعلمن مبلغ حرصه على النظافة، وعلى طيب نكهة فيه، ويعلمن أن الطيب إحدى ثلاث حببن إليه، وأن النظافة وتطهير الجسد حجران يقوم عليها دينه الجديد، فما ضرهن أن يستغللن هذه الناحية في هذا الظرف؟

ثم يتم الرسول طوافه فإذا برائحة المغافير تدخل كل أنف، وتخرج من كل فم، فيحرمه على نفسه، ثم ينكشف له السر

ولكن سيد الرسل يعتصم بسيد الأخلاق، ويقابل الأمر بابتسامة هادئة

- 4 -

زادت العَلاَّت واحدة بميلاد الطفل إبراهيم، وارتفعت مارية الجارية المصرية إلى مصاف زوجات الرسول من الحرائر العربيات. هاهو ذا يأمر أن يقام لها بيت يتاخم بيوت نسائه، بعد أن كانت تقيم بمكان ناء، وينظر إليها نظرة القرين إلى القرين، لا نظرة السيد إلى ملك اليمين. وهاهو ذا يغدو ويروح وطفله على ذراعه يدلله ويناغيه، ويمطر جبينه بوابل من قبلات لا تستشعر لذتها إلا شفاه الآباء، ولم لا يفعل؟ أليس محمد بشراً قبل أن يكون

رسولا؟ لقد هدف محمد للستين أو نيف عليها وليس له ابن من صلبه، ولقد تزوج بعد خديجة غير واحدة فلم تبشر إحداهن بخصب. وهاهو ذا يرى حياته تبدأ من جديد،

وصفحة طفولته تنشر من جديد في شخص الطفل إبراهيم. فلم لا تقر عينه بطفل، ويرفع أمه إلى مقام الحرية من أجله، ودين محمد يمقت الرق الذي ورثه جيله عن القرون البائدة، ويتشوف إلى الحرية ويتمحل لها الأسباب؟

ولكن عقارب الغيرة تعاود دبيبها من جديد. لقد كانت كل واحدة من أمهات المؤمنين تشتهي أن تكون أم الغلام، فأبت المقادير عليهن ذلك، ومنحته جارية لا تمت إلى العرب بنسب

لا غرو أن يحدث ذلك في نفوسهن غيرة، وإن شئت فقل حفيظة على أم ذلك الغلام. ولعل تلك الحفيظة تجاوزت أم الغلام إلى الغلام نفسه. ولعلهن أسرفن في ذلك حتى هممن بأمر جلل، هممن أن يشككن الرسول في صحة نسبة الغلام إليه حتى أنه ليدخل به يوماً على عائشة، فيوجه نظرها إلى ما بينهما من شبه، فتهز كتفيها هزة النفي والإنكار، بل تصرح بذلك في مواجهة الرسول، فلا يسعه إلا أن يرميها بالغيرة، ثم ينصرف

بيد أن الأمر لم يقف عند هذا الحد

هذه حفصة تغادر بيت بعلها إلى بيت أهلها لبعض الشؤون. وهذا رسول الله في بيت حفصة. وهذه مارية أم الغلام تدخل عليه، ثم يكون بينهما ما يكون بين المرء وزوجه، ولكن حفصة تعود في وقت كان من الخير ألا تعود فيه، فترى مشهداً مريباً، أو تعده هي مريباً، فتعاتب الرسول قائلة: (لولا هواني عليك ما فعلتها) ولكن الرسول يهدئ من روعها، ثم يعتذر، ثم يستكتمها الأمر، فتعد، ولكن متى كان للمرأة - وإن كانت زوجة رسول الله - أن تمسك لسانها عن سر إلا كما يمسك الماء الغرابيل؟

أصبح الرسول فإذا سره أذيع من يوم حليمة، وإذا سائر نسائه يتحدثن به، ويعلقن عليه بما يحلو لهن

وهنا لا يعتصم سيد الرسل بسيد الأخلاق، ولا يبتسم ابتسامته الهادئة، ولكن يغضب الرجل الحليم، وتكون القطرة التي فاضت بها الكأس، والقشة التي قصمت ظهر البعير

لابد من درس قاس يقف هذا التيار، ويعيد إلى منزل الرسول صرح السعادة المنهار، ثم، ثم تكون العزلة

ولكن، ليت شعري إلى أي حد كان تأثير هذا الدرس في نفوس أمهات المؤمنين؟

- 5 -

أرأيت ندامة الكسعى على قوسه؟ أرأيت رسول الله وقد فتر عنه الوحي ثلاث سنوات، ذهبت فيها نفسه حسرات، حتى ليكاد يردي نفسه من شاهق؟

تلك هي حال نساء الرسول مدة عزلته - شهر أو قرابته - يقرعن السن، ويعضضن البنان، وتتنصل كل منهن، وتلقي إحداهن التبعة على غيرها، وينحين باللائمة على أنفسهن. ما بالنا نحرج رسول الله؟ أيكون هذا جزاء نصير المرأة من المرأة؟

أي والله ما برزت شخصية المرأة، ولا أخلى لها مكانها في المجتمع إلا محمد؛ محمد الذي انتشل المرأة من الهوان الذي تحدر إليها من أعماق التاريخ. لقد حرم وأدها صغيرة، وجعل لها حق اختيار الزوج كبيرة، وجعل لها نصيباً من الميراث بعد أن كانت العرب لا تورث من يحمل السلاح، ويقدر على الكفاح من الرجال دون النساء، بله الأطفال

أما كانت المرأة عند الأثينيين معدودة من سقط المتاع، حتى أنها لتباع وتشترى في الأسواق؟ أما كان الإسبرطيون يبيحون لأي عدد من الرجال الاشتراك في زوجة واحدة؟ أما كانت بعض طوائف اليهود يعتدون البنت في مرتبة الخادم، ويجيزون لأبيها بيعها، ويحرمونها الميراث إلا عند فقد الذكور؟ أما كانت المرأة تعتبر عند بعض الجاهلية ميراثاً يورث، حتى أن المرأة لتؤول ملكيتها إلى ابنها بعد وفاة زوجها؟

كان طبيعياً أن يذكرن نساء النبي ذلك كله، وأن يتحدثن مدة عزلة الرسول التي كان وقعها شديداً على أنفسهن. وكيف لا تكون كذلك وقد كان الرسول في بيته نمطاً وحده، يعامل نساءه على أسلوب لم تألفه العرب؟ هو في بيته مثال الدعة والأريحية كثير التدليل والمداعبة لنسائه، حتى ليجترئن عليه بما لا يجترئن به على آبائهن واخوتهن. قال عمر: (راجعتني امرأتي في شأن من الشؤون، فانتهرتها فقالت: عجباً لك يا ابن الخطاب! ما تريد أن أراجعك في أمر وإن ابنتك لتراجع رسول الله حتى

يظل يومه غضبان)
كان النبي صاحب الغزوات والملاحم ينقلب في بيته ملاكاً وديعاً، حتى أنه ليصلي فيتسلق ظهره الحسن بن علي، فيطيل سجوده، حتى يترجل الغلام من تلقاء نفسه.
وكان رحيماً بنسائه، حتى أنه لفي بعض رحلاته، ببعض زوجاته، فيغذ قائد راحلتهن السير، فيقول له:
(رفقاً أنجشة بالقوارير)
هكذا كانت معاملة النبي لنسائه، فمن لهن بالجلد على جفائه؟ ومن الذي يخرجه من عزلته، ويعيد إليهن سيرته الأولى؟ إنه عمر

- 6 -

ما كان عمر ليسعده التجلد على عزلة النبي أكثر من شهر؛ عمر الرجل الصريح، الشجاع في الحق، الذي ليس أقرب إليه من حسامه ينتضيه في كل موقف، والذي تسلل المسلمون إلى المدينة لواذاً فخرج هو جهاراً نهاراً يقول: من أراد أن تثكله أمه، أو ييتم ولده فليتبعني)
أخذ عمر سمته إلى معتزل الرسول لا يلوي على شيء؛ حتى إذا كان منه عن كثب نادى رَباحا غلام الرسول: يا رباح استأذن لي مولاك في الدخول؛ بيد أن الغلام يدخل ثم يعود بلا إذن. فيعاود عمر الكرة، فيعود الغلام بلا إذن، فيهتاج عمر، فيقتحم المكان داخلا قائلا: يا رسول الله، إن كنت ظننت أنني جئت من أجل حفصة ابنتي، فوالذي بعثك بالحق، لولا رهبتي إياك لوجأت عنقها، ولكني أريد أن تضع حداً لتخرصات المتخرصين
ثم يلتفت عمر، فلا يرى غير قبضة من شعير، وجسد طاهر أثر فيه الحصير، فيبكي حتى تخضل لحيته، ولكن رسول الله يهش لعمر، ويهدئ من روعه، ثم يغادر المكان إلى حجرات أمهات المؤمنين، ثم يأمر بهن، فيدخلن واحدة واحدة، ويبدأ بعائشة:
إيه يا عائشة! إنه قد ألقي قول كريم (يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا. وإن كنتن تردن الله ورسول والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيما. . . الآيات) فأيهما تختارين؟ أيهما تختار! وهل يحتاج الأمر إلى الروية وكد الذهن؟ ما كان لعائشة أن تختار غير الله ورسوله، وما لغيرها من أمهات المؤمنين أن يخالف عائشة في الاختيار
وبذلك عاود بيت النبي صفاؤه وسكونه، وانقشعت عن أفقه تلك السحابة التي أظلته ردحاً من الزمن، وكان الدرس ناجحاً

- 7 -

وبعد، فإنما أردت بهذا الفصل أن أعرض لحياة النبي المنزلية ولبعض المشاكل الزوجية التي كانت تعترضه، ولأسلوبه في معالجة تلك المشاكل، حتى نعرف محمداً الزوج، كما عرفناه محمداً القائد ومحمداً المشرع، وما أكثر عظمة النبي التي تحتاج إلى الدرس والتمحيص. على أن الناحية الزوجية ليست أقل خطراً إذا لاحظنا أن حياة الرسول في بيته كانت بمثابة الحجر الأساسي لكل بيت مسلم، وأن الأمة تتكون من مجموع بيوتها
ولعل القارئ لا يرتاع لتلك المؤامرات التي كانت تدير في بيت الرسول، فقد تكون هينة لينة إذا قيست بما اعتيد تدبيره في بيوت الأمراء من المؤامرات التي تنضح بالدماء
ولقد كانت حياة النبي فترة انتقال في كل ظاهرة من ظواهر الحياة العربية، وكانت المرأة حديثة العهد بالحرية. وقلما يحسن استعمال الحرية من هو حديث العهد بها، كما يحسنه الناشئ عليها الدارج في بحبوحتها
على أن توفيق النبي في إدارة شؤون بيته لم يكن دون توفيقه في حروبه؛ ولعل مما يسترعي النظر أن كثيراً من القواد البارزين الذين عرفوا كيف يديرون دفة السياسة في أممهم، قد عجزوا عن إدارة بيوتهم. ولست أحدثك عن امرأة نوح أو امرأة لوط اللتين ورد ذكرهما في التوراة والقرآن، ولكني أستطيع أن أذكر لك طائفة من أبطال التاريخ الحديث. ولعل من هؤلاء (نابليون) عاهل فرنسا و (مصطفى كمال) عاهل تركيا
ولعل حكمة الرسول في إدارة شؤون بيته تتجلى بشكل أوضح، إذا لاحظت أن سقفه كان يظل أمشاجا من الزوجات، تفصلهن عنه فوارق بعيدة المدى، كما تفصل بعضهن

عن بعض أمثال تلك الفوارق، فلقد كان فيهن من تصغره بنيف وأربعين عاما، ومنهن ثيبات كن تحت أزواج قبله، وكان بينهن من اعتنقت الإسلام بعد اليهودية، ومن اعتنقته بعد المسيحية، ومن اعتنقته بعد الوثنية، وكان منهن ابنتا أصفى أصفيائه أبي بكر وعمر، وابنة أعدى أعدائه أبي سفيان، إلى غير ذلك من الفوارق التي تجعل إدارة دفة البيت أمراً عسيراً

وإني لأرجو بعد هذا ألا أكون قد تدخلت بين الرسول وزوجاته إلا بمقدار ما صورت العبرة. والحق أني أشعر في قرارة نفسي أن الموضوع وعر شائك، ولعل وعورته هي التي حببت إلي اقتحامه، وإن كنت أخشى أن يقال لي ما قالت (أم سلمة) أم المؤمنين لعمر بن الخطاب، حينما ذهب إلى بيتها ينحى عليها باللائمة في هذا الشأن فأجابته: (عجباً لك يا ابن الخطاب تدس أنفك في كل شيء، حتى فيما بين الرسول وزوجاته!) فكأنما صبت عليه ذَنوبا من ماء بارد، فغادر بيتها، وانصرف، يقتلع رجليه من الأرض اقتلاعاً (كوم حمادة)

محمود غنيم

يسر الإسلام

للأستاذ الشيخ عبد العزيز البشري

لقد كان يملك كثرة الناس العجب من تمام عظمة الإسلام في هذا الصدر اليسير من الزمن وبلوغه ما بلغ في غير عنف ولا مطاولة يكافئان هذا المجد كله ولا معظمه

ولست الآن بصدد ترديد ما أثر التاريخ ولا ما دون المؤرخون في فتوح الإسلام وانتشاره السريع العجيب في قواصي الأقطار وأدانيها، وما كان لأهله في كل مكان من منعة وعزة وسلطان، فذلك شيء قد فاضت به الكتب، واحتفلت بتفصيله الأسفار الضخام؛ وبحسبي - فيما جردت له هذا الكلام القصير - أن ألفت القارئ إلى أن أمة بادية جاهلة صائلة يكون منها في هذا الزمن ما كان من العرب بفضل الإسلام. هذا فتح، وهذه سيادة، وهذا تعمير وتثمير، وهذي علوم وفنون وصناعات، وهذي حضارة لا تتعلق بأذيالها أعلى حضارات التاريخ!

لعمري ما هذا كله؟ وكيف كان؟ وكيف تأتى بهذه السرعة لدولة الإسلام؟

اللهم إن أوثق يقيني أن مرجع هذا أجمعه إلى ما في هذا الدين من يسر عظيم الدين يسر، وبفضل هذا اليسر كان من دولة الإسلام ما كان!

ستقول: إن الإسلام ما ساد إلا لأنه حق، وأقول لك: وهل ثمة أيسر من الحق أو أعسر من الباطل؟ ومتى احتاج الحق في تجليته إلى عنف أو إلى جهد؟ إن الباطل هو الذي يحتاج إلى هذا وهذا، وقل أن يثبت له معهما قرار!

وإذا قيل إن الإسلام دين الفطرة، فمعنى هذا أنه دين اليسر، لأن ما جاء على حكم الفطرة لا عسر فيه ولا مشقة. أما ما جاء على جهة التكلف والتصنع فذلك الذي يقتضي كثيراً أو قليلاً من الجهد والعناء

الدين يسر، وإن هذا اليسر ليغمره من جميع أقطاره. أرأيت أيسر من دعوته: (لا إله إلا الله، محمد رسول الله). وأي شيء لعمري في هذه الجملة ينشز على الفهم؛ بل أي شيء فيها يتعثر فيه الذهن وتضيق عنه مساحة أدنى التفكير؟

هذا اليسر في هذا الحق الذي ليس وراءه حق، هو الذي سلك أقطار الأرض بدعوة الإسلام، واستفتح لها قلوب الأمم والجماعات في غير علاج ولا استكراه!

هذه الدعوة اليسيرة الواضحة لقد تغنت بنفسها عن العنف والاضطرار: (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي). بل لقد استغنت عن استدراج الناس بفنون الإغراء والاستهواء

وهذه تكاليف الإسلام، ما قامت فيها مشقة إلا قامت بازائها رخصة؛ ولا كان في أحدها على أحد عسر إلا ذلل بين يديه طريق العذر. وهل بعد ذلك اليسر كله يسر؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه). وقال تعالى في كتابه الكريم: (وما جعل عليكم في الدين من حرج) صدق الله العظيم

لم يقتض الإسلام أحداً احتمال ما لا طاقة له باحتماله، فهذه تكاليفه، من استطاع القيام بها، وإلا تخفف منها في حدود أحكام الشرع الكريم، حتى تكافئ طاقاته ويتسع

لها ذرعه، ولا يتحرج بها وسعه، مقبولاً عذره، مكفولاً عند الله أجره
ولعل من الخير أن أنبه في هذا المقام إلى شيء حقيق بالانتباه: ذلك بأن من القواعد المسلمة أن الضرورات تبيح المحظورات، (فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا أثم عليه) فالتفريط في غير ضرورة، والتخفف من أحكام الشرع من غير داع جدي إثم من الآثام. ومن القواعد الأصولية المقررة أن الضرورة تقدر بقدرها. ولاشك بعد هذا في أن تتبع الرخص وتلمس المعاذير إنما هو ضرب من الاحتيال للتهرب من تكاليف الدين، وهيهات لا ينطلي على الله محال!
ومن يسر هذا الدين أنه لم يقم بينك وبين ربك أية واسطة. وليس من شك في أن ما تستطيع أن تتناوله بنفسك أيسر عليك وأدنى إليك مما لا تستطيع تناوله إلا بواسطة غيرك. فإذا زلت بك القدم، وقلبك الشيطان في المنكر، أقبلت على ربك، وسألته قبول توبك، والعفو عما أسلفت من ذنبك، مطمئناً إلى (أن الله يغفر الذنوب جميعاً). ليس بك حاجة إلى من يمهد بين يديك سبيل المعذرة، ولا من يعاني لك استخراج العفو والمغفرة
وبعد، فإن من يسر هذا الدين شدة تسامحه؛ ولا يذهب عنك أن هذا التسامح إنما كان من أبلغ الأسباب في عظمته
لا يدعوك الإسلام إلى كراهة ما يصدر عن مخالفك في الدين لأنه يخالفك في الدين، بل يدعوك إلى أن تكره منه ما يُكره، وتقر منه ما يُحب ويُؤثر، فهو وأخوك المسلم في هذا بمنزلة سواء
ولقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبس جبة رومية، وقال تعالى في كتابه الكريم: (وطعام الذين أوتوا الكتاب حلٌّ لكم وطعامكم حلٌّ لهم)، ولا ريب في أن لهذا ولهذا دلالة كان لها أعظم الآثار في نهضة الإسلام!
لم ينفر المسلمون من مخالفيهم في الدين ولا في الجنس، ولم يحتجز بهم تعصب عن مخالطتهم والاتصال الوثيق بهم، والانتفاع بكفاياتهم والأخذ عنهم. ولم يكد يستقيم أمر الملك لهم حتى أقبلوا على علوم من سبقوهم فترجموها إلى لغتهم، وجعلوا يتروونها ويشيعون الأذهان فيها، ويطبعونها على غرار عقولهم، ويزيدون فيها ما فتق الرأي والذكاء لهم. كذلك كان شأنهم في الفنون، فقد حذقوها أتم الحذق، وبرعوا فيها أعظم البراعة، وأداروها على أذواقهم، حتى اتسق لهم منها فن خاص؛ وناهيك بالفن العربي الذي ما برحت آياته مسطورة على جبين الزمان
أرجو أن تكون قد اطمأننت بعد هذا، إلى أن اليسر في الإسلام، كان من أبلغ الأسباب في عظمة الإسلام

عبد العزيز البشري

بين الشك واليقين

للأستاذ أحمد خاكي

تطغى على العالم اليوم موجة من الشك تكاد تخترم بقية اليقين التي يحرص عليه الفلاسفة. وقد أسرفت الجماهير في الشك حتى لقد أصبح هو القاعدة لكل تفكير، وأصبح اليقين شذوذاً لهذه القاعدة؛ وحتى ليكاد الإنسان يجزم بأننا نجتاز عصراً من عصور السفسطة التي فقدت عندها المعاني والأمثلة العليا أكثر قيمتها. وقد عانت تلك المعاني وهذه المثل العليا ما عانت لاختلاف وجهات النظر بين فريق وفريق؛ وكل فريق يذهب إلى ما يذهب إليه لأنه يرضي حاجة ملحة في نفسه، فهو يتعلق به لأنه يرى فيه إرضاء لنزعاته الجامحة سواء أكانت نبيلة أم وضيعة. وقد أدى ذلك إلى أن تضعضعت قواعد الإيمان وحل الشك في كل بيئة سياسية أو اجتماعية يتذرع به كل مفكر حتى تستوي له الغاية التي يريد. ولعلنا لن ندرك حاجة العالم اليوم إلى اليقين حتى نبحث أصول الشك، ولأننا نريد أن نقيم مثلاً أعلى يتألف قلوبنا، فينبغي أن نتعمق البحث في أصل ذلك الاضطراب الذي يصطخب به العالم
والحق أن الشك في العصر الحاضر قد أدرك ما أدرك من القوة لأنه لبس لبوساً علمية خالصة. فقد ذهب كل فريق إلى الرأي الذي يرضيه، لكنه جاهد في إرضاء تفكيره بأن اتخذ من العلم مسوغاً يضعف ويقوى. وأصبح الشك لذلك علمياً يقوم على دراسات شتى. ووجد المفكرون والسياسيون في تلك الدراسات معيناً لا ينضب من القضايا يستدلون بها على ما يعملون مهما نبا عن جادة الخلق القويم. وسنحاول في هذه

العجالة أن نفصل تلك الدراسات المتشككة حتى نرى سبيلا واضحة إلى دراسة المثل الأعلى الذي نحاول أن نقيمه في مصر

والشك قد ضرب في أطواء الفكر الحديث حينما حل علم النفس محل فلسفة الأخلاق. فقد اصبح هذا العلم بعد ذلك مورداً يستمد منه كل مفكر قواعد يفسر بها الظواهر العقلية والنفسية. ولقد أقامت الفلسفة قبل ذلك ما أقامت، يؤمن الناس والعلماء بأصولها، لكنهم لم يقفوا إلا قليلا يحاجون طبيعة الإيمان. ولم يكن هؤلاء ولا أولئك يفرقون بين مراتب العقيدة ولا ألوان التفكير، ولكن حينما أبديت للعالم أصول علم النفس بما تحملته من مباحث

التحليل النفسي، وبما تضمنته من وصف نفسية الجماعة، وبما فرقت بين العقل الواعي وبين العقل الباطن - حينما أبدى كل ذلك تطرق الشك في قيمة الفكرة، وأصبح الناس لا يرون للعقيدة نفس السلطان الذي كان لها فيما مضى، بل لقد ذهبت الكثرة من علماء النفس ووراءهم الجمهرة من سائر العلماء إلى أن الفكرة شيء والعمل شيء آخر

ويرجع الشك في قيمة الفكرة إلى أن علم النفس الحديث يرى أن الإنسان مسير أمام جملة من العوامل التي لا يحكمها العقل بل هي في الواقع مؤثرات ودوافع تدفع بالإنسان إلى أعمال أكثرها قد تحرر من سلطان التفكير القويم. وإنما يسير الإنسان عند هؤلاء الرغبة والعاطفة والمزاج قبل الفكرة والعقل والفلسفة. وقد كانت فلسفة الأخلاق تؤمن بأن لكل فكرة مسيراً تنتهجه، فهي لا تنتهي عند مجرد التفكير وإنما تمتد إلى العمل والتنفيذ. فالفكرة لها شطران من تعقل وسلوك، ولا يكون لها أثر خلقي حتى تنقلب إلى هذا السلوك. لكن علم النفس حل في تاريخ الفكر الحديث محل علم الخلاق، فباعد ما بين شطري الفكرة، وعالج الإحساس الضئيل مجرداً عن العمل، وباين ما بين العقيدة والسلوك. وقد أدى ذلك إلى ذلك التناكر الذي نشهده اليوم بين ظهرانينا.

وعلم النفس لا يستطيع أن يخلق لنا مثلا أعلى لأنه غير قادر على تثبيت قيم الأشياء. ذلك لأنه علم وصفي يسير في نطاق ضيق من التجارب التي تختلف على عقل الإنسان وحِسّه. ولأنه علم تجريبي، فقد عالج حالات شاذة أو غير شاذة من غير أن يقيم معايير يستطيع المرء أن يتخذها لنفسه غاية أو سبيلا. فحينما طغى علم النفس على فلسفة الأخلاق فَقَدَ العالم كثيراً من الغايات الفلسفية التي كان قد استقر على الإيمان بها. واستشرف قادة الفكر لحالة من الشك طافت بنفوسهم حتى أصبحوا يشكّون في مبلغ عقائدهم هم أنفسهم.

وقد كان الفرد ضحية من ضحايا الدراسات النفسية، لأنه تضاءل ثم تضاءل أمام دراسة الجماعة حتى لم يعد له إلا المكان الأدنى. ومن العجز أن نطالب الديمقراطية بما نطالبها به من تقدير المسئولية إذا كانت قد أنكرت المدرسة الحديثة حدود الفرد هذا الإنكار. وإذن فالعبث بعينه هو أن نتهدّي بعلم النفس في سيرنا إلى المثل الأعلى؛ والعبث بعينه هو أن نحاول تأليف غاية نبيلة تتألف أصوله. فعلماء النفس يصفون حالات الجماعة ونفسية الجماهير بما يحكمها من عقلية الرعاع، وبما يشينها من العقل الباطن غير المفكر. وكان

حقيقاً بكل ذلك أن يدفع بالعالم إلى الشك، وأن يزعزع إيمان الناس في سمو المثل الأعلى. فقد أصبح الفرد يرى نفسه غير الملوم، لأنه يتخذ من وجوده في الجماعة ذريعة للتزكية والتبرؤ.

ولم ينفرد علم النفس بين العلوم في إنتاج ذلك الجو المتشكك الذي يكاد يعصف بالفكر الحديث؛ فالتاريخ وعلم الاجتماع كلاهما يعاونه في ذلك. أما التاريخ فقد حاول المؤرخون أن يطبقوا على حوادثه مقاييسهم العلمية. ومازالوا يفصلون فصوله ويؤصلون أصوله حتى خيل إليهم أنهم قد استخلصوا من صحائفه طرقاً علمية محددة. وفي كل ذلك غبن للفرد وتحيف من مكانه، لأن التاريخ العلمي تنكرَ لفلسفة الخلق، وجافى فكرة السلوك، وازورَّ عن تقدير الفرد، وحاول أن يقيم قواعد تستمد سلطانها من الجماعة. وقل مثل ذلك عن علم الاجتماع الذي ينكر مسئولية الفرد ويلاشيها في الإرادة العامة، والذي يخلو من أصول خلقية تنشئ الفكرة وتخرج منها عملاً نافعاً طيباً ينتجه الفرد

والحق أن علم النفس والتاريخ وعلم الاجتماع كل أولئك علوم تجريبية لا خير فيها إذا حاولنا أن نقيم منها مثلاً أعلى، فهي لن تزيد إيماننا في سمو الفكرة، ولا عقيدتنا في سيطرة العقل على العمل. وكلما أمعنا في دراستها زادتنا شكاً في أصول الخلق وفي فلسفة الحياة. فهي تعالج ظواهر نفسية أو اجتماعية أو اقتصادية، لكنها لا تأتي بجديد في قيم الأشياء، ولا تخلق ميزاناً عادلاً لحقائق الخلق؛ وإنما نفيد من هذه العلوم إفادة سلبية لأنها جميعاً تبسط لنا حالات النفس والاجتماع التي ينبغي أن نتجنبها؛ وهي لا تمحضنا الإيمان في فكرة من الأفكار، لأنها تبسط الشروح التي تؤيد كل فكرة. فعندنا أن الإغراق في دراسة مثل تلك العلوم هو السبب في حالة الشك العلمي التي ملكت مذاهب التفكير على كل مفكر، وهي التي وجهت كل فرد وجهة من لا يؤمن بشيء هو في نفسه حسن أو جميل نافع، حتى أصبحت الفكرة الحديثة ضرباً من ضروب السفسطة الخادعة. وذلك عندنا هو السبب في التناقض الذريع الذي خلق ذلك النضال الكاذب حول ألفاظ تكاد تخلو من المعاني، وحول معان لا يدين لها الناس بالولاء

وكما أن فلسفة الخلق قد تلاشت في علم النفس، فكذلك قد تلاشت الفلسفة السياسية في علم الاقتصاد. ذلك بأن العالم قد أعمته اقتصادياته عن المثل العليا التي أقامها الفلاسفة

والحكماء، وأسرف في اتخاذ مبادئ الاقتصاد إنجيلاً لا يكاد يؤمن إلا به. فكما أن الفرد يرى في أصول علم النفس أن إرضاء النزعات والرغبات فيه شفاء لما يحز في النفس من ألم ممض، كذلك ترى الجماعات أن في إرضاء رغباتها ونزعاتها الاقتصادية شفاء لما تعانيه من جفوة وشقاء. والاقتصاد كما هو الآن علم المنافسة الحادة على احتكار المادة والتطاحن على الكماليات؛ وليس يخفف من حدته أي فكرة واضحة عن المعاني الأولى؛ وليس ينهنه من شدته أي قوة دافعة إلى المثل الأعلى. وقد كان الاقتصاد نفسه معيناً يستمد منه المؤرخون وعلماء النفس ما يرونه من القضايا ليتشككوا في قيم الخلق العام

تلك إذن هي الدراسات التي نفخت روح الشك في العالم الحديث، وزلزلت اليقين الذي استهدى به الفلاسفة الخلقيون والسياسيون عندما كان العالم أشد من ذلك إيماناً. وقد اضطربت قوائم السياسة والاجتماع والاقتصاد لهذه الحالة المتشككة، لأن العلماء أنكروا قوة الخلق في الفرد، وأنكروا كذلك قوة الخلق في الجماعة، فأدى ذلك إلى حالة من الاستهتار بالمثل العليا يعاني منها الغرب ما يعاني اليوم. وحينما ينادي الفلاسفة في أوربا بفكرة السلام، وحينما يعلنون للملأ سخطهم على الحرب، فليس لنا إلا أن نسخر من كل ذلك، لأننا نعلم في نفس الوقت أن قادة الفكر عندهم قد سوّغوا الحرب بآلاف من الأدلة التي استخرجوها من علم النفس والاقتصاد والتاريخ والاجتماع. وإذا سمعنا بعد ذلك عن العدل والإخاء والمساواة والمحبة فينبغي علينا ألا نؤمن بأن أوربا شديدة الإيمان بكل ذلك، لأن مذاهب عملية تناقض كل هؤلاء قد شاركت حياة نظمهم الاجتماعية والاقتصادية. وشبت معها وهي مازالت تدرج في عنفوانها مع المدنية الحديثة

والسياسة التي يؤمن بها الجمهرة من الناس قد تأثرت تلك الفلسفة العلمية التي أنتجتها دراسة تلك العلوم. وقد مشت الحضارة الغربية بيننا بما تحملته من كل ذلك، فاشتعب الناس في مصر فئات متنافر يلاحون عن مذاهب لا أصل لها في صميم الفكرة. وكانت نتيجة كل ذلك فوضى اجتماعية ضربت بجرانها في كل وجه من وجوه الحياة عندنا. ولن نستطيع أن ندرس المثل الأعلى حتى نقرر المبادئ التي ينبغي أن نلتزمها في حياتنا العقلية والسياسية والاجتماعية، وحتى نقدر الحقائق التي نعنو لها ونستهدي بها. ينبغي علينا أن نقدر قبل كل شيء أصالة الرأي والشرف والصدق في حياة الفرد. وينبغي علينا أن نقدر مبادئ الحرية

والنظام والديمقراطية والقومية والعالمية في حياة الجماعة. يجب أن يكون ذلك الخطوة الأولى التي نخطوها لتنشئة المثل الأعلى - هل نؤمن بكل هؤلاء؟ أنؤمن ببعضها ولا نؤمن بالبعض الآخر؟ هل ينبغي أن يكون إيماننا من النوع الفلسفي الفعال أم من النوع النفسي الكاذب؟ كل ذلك يجب أن نقرره قبل أن نقيم بناءنا، فإذا استوت نفوسنا على الإيمان خلقنا فكرة لها أثر في العمل، وكونا عقيدة لها سلطان على السلوك

ولعل أول ما ينبغي أن نعني به في مثل هذا السبيل هو تنشئة الفرد. وقد أسلفنا أن تلك الدراسات المتشككة قد أنكرت ما للفرد من وزن في حياة الجماعة حتى لقد أصبح الفرد يحتمي في نتائج تلك الدراسات، فيرى نفسه غير مسئول عن الحالة السيئة التي وجد نفسه فيها. وإذا كان مثل هذا الاتجاه قد أساء إلى الحياة السياسية والاجتماعية في الغرب، فإنه يفسد حياتنا العامة نحن أيضاً. وهو عندنا أفدح أثراً، لأن الفرد من نفسه مضعضع مستضعف. فنحن إذن نبدأ بتنشئة الفرد، لأن التنظيم العقلي عند الفرد أساس للنظام الاجتماعي العام. فبين عقلية الفرد وبين نظام الجماعة صلات تتوثق وتتوافق كلما أحسنت تنشئة الفرد. ولذلك فلابد لنا من أن نلقنه فلسفة يقيم بها قيماً ثابتة في حياته. فلابد لنا من أن نكمل الدراسات التجريبية التي ذكرنا بدراسة الفلسفة الخلقية. ولابد لنا من أن نقيم أسساً لخلق الفرد من تربيتنا العامة ومن معايير خلقية خاصة نكمل بها دراساتنا في التاريخ والاقتصاد والاجتماع وعلم النفس

ثم علينا بعد ذلك أن نخفف كثيراً من غلوائنا في تقدير الجماعة ما لها وما عليها، لأن هذا في نظرنا قد بعث سورة الشك التي أخذت بأكظام السياسيين والمفكرين في العصر الحاضر. وإذا نحن حاولنا أن نتخذ طريقاً وسطاً بين الفرد والجماعة استطعنا أن نجد خطة مثلى تداول بين الطرفين. ولا مناص هنا أيضاً من أن نضم أصول الفلسفة السياسية إلى أصول الاقتصاد، وأن نتخذ من ذلك الائتلاف معايير نطبقها على مبادئ السياسة والخلق العام. فإذا نحن خلقنا من كل ذلك فلسفة خلقية أو سياسية عامة كان ذلك كسباً في سبيل المثل الأعلى

وبعد، فإننا إذا تصفحنا تاريخ العقائد، وإذا حاولنا أن نستخرج منها فلسفة خلقية أو سياسية، فلن نجد خيراً من المثل العليا التي تنزل بها الإسلام. وقد بدأ الإسلام والعالم في مثل ما

عليه الآن من التبهّم والتشكيك؛ لكنه ما لبث أن فاض نوره على العالم من أقصى الأرض إلى أقصى الأرض، وتجسمت الفكرة الأولى في نظام خلقي للفرد ونظام خلقي للجماعة على أكمل ما يكون. فإذا نحن حاولنا دراسة المثل الأعلى فعلينا بتلك الرجعة إلى المعايير الخلقية التي قامت عليها سيادة المسلمين

وإذا قام قادة الفكر منا يوجهون حياتنا نحو قيم خاصة لحقائق الحياة، فإن الجمهرة وراء هؤلاء القادة سوف يهفون إلى القيم الصحيحة التي تنزل بها الدين. ذلك عندنا نهاية السفسطة الخبيثة التي نعانيها اليوم، وذلك تنظيم لحياتنا الاجتماعية التي زلزلتها الفوضى. والفرد عندنا في كل ذلك أساس ينبغي أن نبدأ به؛ وتربيته غاية في نفسها؛ والدين يعترف أول ما يعترف بسمو الفرد وخطره، ويجب أن نعترف نحن أيضاً بهذا السمو

ولعل الإسلام أكثر الأديان تحديداً لواجبات الفرد وحدوده؛ ولعله أشد الأديان احتفاء بخلق مثلٍ أعلى يحدو الجماعة. وفي الإسلام فلسفة خلقية واضحة ليس علينا إلا أن نجلوها، وفيه أيضاً فلسفة سياسة تعتمد على طائفة من المعاني. وإنما مال بنا عن كل تلك الأصول إيماننا بما حاول الغرب أن يقيمه من مثل عليا. ومثل الدراسات التي عالجنا تسيطر على حياة الغربيين. وإذا نحن حاولنا أن نقيم مثلا أعلى فعلينا أن نتخذ منها مُعيناً، ولكن علينا ألا نسمح لها بأن تكون أخاذة مسيطرة

والفلسفتان الخلقية والسياسية أفضل ما ندعو لهما، لكن دراستهما سوف تقتصر على القادة دون العامة، وعلى المتعلمين دون الجهلاء. ولكن الدين عندنا هو الذي يجمع بين الفلسفتين، ويوازن بين الفريقين، ويؤلف بين القلوب، ويبث في النفوس روحاً فعالة لا تستأني ولا تستريب. وهو بعد ذلك أشد ما نحتاج إليه ليقيم لنا قيماً أخرى غير التي أقامها الغرب، ومعايير أخرى غير التي فرضها علينا الغرب

أحمد خاكي

ابن دقيق العيد

للدكتور محمد مصطفى زيادة

الأستاذ المساعد بكلية الآداب

يظفر القارئ في تاريخ المماليك بمصر بشخصية رجل لا تربطه بغالبية أهل ذلك العصر العنيف صلة دنيوية، لتنزهه عن المادة، وعزوفه عن شهوة المناصب وزخرفها، ذلك هو

قاضي القضاة ابن دقيق العيد (625 - 702هـ) وهو الشيخ تقي الدين أبو الفتح محمد بن علي بن وهب بن مطيع بن أبي الطاعة القشيري المنفلوطي الشافعي المالكي المصري

وكان أصل لقب (ابن دقيق العيد) الذي عُرف به في كتب التاريخ حسبما ورد في النويري أن جده وهْب بن مطيع لبس في يوم عيد ثياباً بيضاء، فرآه جماعة من أهل الريف فقال قائل منهم كأن ثيابه دقيق العيد لبياضها، فلزمه هذا اللقب، واشتهر به بيته وسلالته

تولى ابن دقيق العيد منصب قاضي القضاة بالديار المصرية سنة خمس وتسعين وستمائة هجرية، والسلطان يومئذ الملك العادل زين الدين كتبغا المنصوري؛ وكان قبل توليته تلك الوظيفة الكبرى قد درّس بالمدرسة الناصرية بالشافعي وبدار الحديث الكاملية وغيرهما، وصنّف التصانيف في فقه المذهبين المالكي والشافعي، وفي الحديث، وأفتى الفتاوي الكثيرة التي برهنت على أنه ثبت وحجة في علم الشريعة؛ وعُرف في جميع أدوار حياته بالشدة في الحق، والسير على مقتضى أصول الدين لا يحيد عنها قيد أنملة، مهما كلفه ذلك من غضب سلطان أو أمير. وقد نقل عنه حسبما ذكر ابن العماد أنه قال: (ما تكلمتُ بكلمة ولا فعلتُ فعلاً إلا أعددت له جواباً بين يدي الله تعالى)

ظل ابن دقيق العيد متولياً لمنصب قاضي القضاة بالديار المصرية حتى وفاته سنة 702هـ وكان كثير التطلع إلى أخبار نوابه بالأعمال المصرية، يبعث إليهم بكتبه المشتملة على المواعظ والتحذيرات من عواقب الغفلة والإهمال في الأحكام. وقد نقل النويري أحد هذه الكتب التي أنفذها ابن دقيق العيد سنة 697هـ ونصه: (بسم الله الرحمن الرحيم: الفقير إلى الله محمد بن علي (يا أيها الذين آمنوا قُوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة، عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) هذه المكاتبة إلى فلان وفقه الله لقبول النصيحة، وآتاه لما يقربه قصداً صالحاً ودنيا صحيحة.

أصدرناها إليه بعد حمد الله الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ويمهل حتى يلتبس الإمهال بالإهمال على المغرور، تذكرة بأمر ربك، فإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون؛ ويحذره صفقة من باع الآخرة بالدنيا فما أحد سواه مغبون، عسى الله أن يرشده بهذا التذكار وينفعه، وتأخذه هذه النصائح بحجزته عن النار، فإني أخاف أن يتردّى فيجر من ولاّه - والعياذ بالله - معه. والمقتضى لإصدارها ما لمحناه من الغفلة المستحكمة على القلوب، ومن تقاعد الهمم على ما يجب للرب على المربوب، ولاسيما القضاة الذين يحملون عبء الأمانة على كواهل ضعيفة، وظهروا بصور كبار وهي نحيفة. والله إن الأمر لعظيم، وإن الخطب لجسيم، ولا أرى مع ذلك أمناً ولا قراراً ولا راحة، وإلا رجلاً نبذ الآخرة وراءه، واتخذ إلهه هواه، وقصر همّه وهمته على حظ نفسه من دنياه، فَغَايُهُ مطلب الحياة والمنزلةُ في قلوب الناس وتحسين الزِّئى والملبس، والركبة والمجلس، غير مستشعر حاله ولا ركاكة مقصده، فهذا كلام معه، فإنك لا تُسمع الموتى وما أنت بمسمع من في القبور. فاتق الله الذي يراك حين تقوم، واقصِرْ أملك عليه فالمحروم من أمله غير مرحوم. وما أنا وأنتم أيها النفر إلا كما قال حبيب العجمي، وقد قال له قائل: (ليتنا لم نخلق) فقال: (قد وقعتم فاحتالوا). وإن خفي عليك بعض هذا الخطر وشغلتك الدنيا أن تقضي من معرفته الوطر، فتأمل كتاب النبوّة: إن القضاة ثلاثة، وقوله صلى الله عليه وسلم لمن خاطبه مشفقاً عليه: (لا تأمرنّ على اثنين، ولا تَلِيَنَّ مال يتيم) ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم اهـ

وقد حدث في سنة 697هـ، والسلطانُ يومئذ الملك المنصور حسام الدين لاجين، أن نائب السلطنة منكوتمر أراد أن يستخلص من ابن دقيق العيد حكماً في قضية ميراث لأحد أصحابه بغير بيّنة شرعية، فامتنع قاضي القضاة من ذلك وهو عالم بأن منكوتمر أقوى شخصية في الدولة قاطبة، وتردّدت الرسل بينهما وابن دقيق العيد لا يتحرك عن موقفه؛ فأغاظ ذلك منكوتمر وأرسل أحد الأمراء الكبار إلى قاضي القضاة لعله يفوز منه بطائل. وقد أورد المقريزي قصة هذا الحادث في تفصيل، فذكر أن منكوتمر بعث إلى ابن دقيق العيد يعلمه أن تاجراً قد مات وترك أخاً ولم يخلف غيره ممن يرثه، وأراد

أن يثبت استحقاقه الإرث بمجرد هذا الإخبار عنه، فلم يوافق قاضي القضاة على ذلك. وتردّدت
الرسل فخرج منكوتمر من ذلك وبعث إليه الأمير كُرْت الحاجب؛ فلما دخل كرت وقف بعدما سلم، فقام له القاضي نصف قومة، ورد عليه السلام وأجلسه. , اخذ كُرْت يتلطف به في إثبات أخُوَّ التاجر بشهادة منكوتمر؛ فقال له ابن دقيق العيد: (وماذا ينبني على شهادة منكوتمر؟) فقال له: (يا سيدي! ما هو عندكم عدل؟) فقال: (سبحان الله!) ثم أنشد:

يقولون هذا عندنا غير جائزٍ ... ومنْ أنتمُ حتى يكونَ لكم عِنْدُ؟

وكرر ذلك ثلاث مرات ثم قال: (والله متى لم تقم عندي بيّنة شرعية ثبتت عندي وإلاّ فلا حكمت له بشيء باسم الله) فقام كرت وهو يقول: (والله هذا هو الإسلام). وعاد إلى منكوتمر واعتذر إليه بأن: (هذا الأمر لابد فيه من اجتماعك بالقاضي إذا جاء دار العدل)

فلما كان يوم الخدمة ومر القاضي على دار النيابة بالقلعة، ومنكوتمر جالس في الشباك، تسارعت الحجاب واحداً بعد آخر إلى القاضي وهم يقولون: (يا سيدي! الأمير ولدك يختار الاجتماع بك لخدمتك) فلم يلتفت إلى أحد منهم. فلما ألحوا عليه قال لهم: (قولوا له: ما وجبت طاعتك عليّ) والتفت إلى من معه من القضاة وقال: (أشهدكم أني عزلت نفسي باسم الله. قولوا له يولّ غيري) وعاد إلى داره وأغلق بابه، وبعث نقباءه إلى النواب في الحكم وعقاد الأنكحة بمعنهم من الحكم وعقد الأنكحة

فلما بلغ السلطان ذلك أنكر على منكوتمر وبعث إلى القاضي يعتذر إليه ويستدعيه، فأبى واعتذر عن طلوعه. فبعث إليه الشيخ نجم الدين حسين بن محمد بن عبود والطواشي مرشداً، فمازالا به حتى صعدا به القلعة. فقام إليه السلطان وتلقاه، وعزم عليه أن يجلس في مرتبته، فبسط منديله - وكان خرقة كتان خَلِقة - فوق الحرير قبل أن يجلس كراهة أن ينظر إليه، ولم يجلس عليه. وما برح السلطان يتلطف به حتى قبل الولاية، ثم قال له: (يا سيدي، هذا ولدك منكوتمر خاطرك معه، أدعُ له) وكان منكوتمر ممن حضر، فنظر إليه قاضي القضاة ساعة وصار يفتح يده ويقبضها وهو يقول: (منكوتمر لا يجيء منه شيء) وكرّرها ثلاث مرات وقام. فأخذ السلطان الخرقة التي وضعها على المرتبة تبرّكا بها، وتفرقها الأمراء قطعة ليدّخروها عندهم رجاء بركتها

هذا هو ابن دقيق العيد وتلك شدة مراسه في الحق

محمد مصطفى زيادة

من صميم السيرة

الإسراء

للأستاذ أمجد الطرابلسي

رقدتْ ملَء عينها البيداءُ ... واحتوتها في سرِّها الظلماءُ
وأوى موكبُ الطيورِ إلى النَّخ ... لِ وحَنَّتْ لرُغْبِها الورقاءُ
والمها أَطبقتْ على الصَّفوِ عيني ... ها، ومالَت إلى الكناسِ الظِّباءُ
سكنَ اللّيلُ، لا هتافٌ ولا عَز ... فٌ ولا آهةٌ ولا ضوضاء
ليس إلاّ النجومُ تهمسُ فرحى ... في الرَّحابِ العُلى فَتُصغي الجِواء
وسَجَتْ مكّةٌ، فلا اللَّهوُ لهوٌ ... في حِماها، ولا الغِناءُ غناء
أَطفأت في الخيام كلَّ سراج ... رَقصتْ فوقَ ثغرهِ الأضواء
وانقضى كلُّ سامرٍ أثملته ... بالفنونِ الرُّواةُ والشُّعراء
وتهادى النسيمُ بين الرّوابي ... كلما هبّ هدّه الإعياء
ملءُ أعطافه أريج الخزامى ... وبقايا الكؤوس، والأنداء
نامت البيد! هل رأيت سريراً ... رقدتْ فوقَ صدرهِ عَذراء؟
الطُّيوفُ الفرحى تطوف حَوالي ... هِ كما طافَ بالقلوبِ الهناء
والمنى الضاحكاتُ تلثمُ خّدَّي ... ها فيفتُّر ثغرُها الوَضَّاءُ
يا جمالَ البيداء! ماذا ينالُ ال ... وصفُ منهُ، وما يُصيبُ الثناء؟
كلُّها السِّحْرُ والرِّحيقُ المُصَفى ... كلُّها الشّعرُ والهوى والبَهاءُ
كلُّها المجدُ والبُطولَةُ والسُّؤْ ... دُدُ والعزُّ والنَّدى والإباء
إيهِ يا منبعَ الصَّناديدِ يا بي ... دُ إذا رَجَّ جانبيكِ نداءُ!

يا مهبَّ الفرسانِ إن صرَّخ المج ... دُ يناديهمُ وهُزَّ اللّواء!
نامَ يا بيدُ في سكونِكِ ندبٌ ... حَفِظتهُ وهَدْهَدَتْهُ السماء
سَهِرتْ حولَه العِنايةُ ترعا ... هُو وحامَتْ من فوقِهِ الآلاءُ
من ذُؤاباتِ هاشم كلهُ طُه ... رٌ ونبلٌ ورحمةٌ ووفاءُ
أَروعٌ أينَ من عزيمتهِ السَّي ... فُ ومن وجودِ كفّه الأنواء!
عَرَبيٌّ تهلَّلَ الكونُ لمّا ... كرَّمتهُ النبوَّةُ الغرَّاء
شَعَّ منهُ الهدى فهاجتْ وماجتْ ... حَنَقاً - جاهليَّةٌ رَعْناء
دينُها البغيُ والتناحُرُ والثا ... راتُ والبطشُ والأذى والدّماء
فاحفظيه يا بيدُ فهو رَجاءُ ال ... كونِ وسْطَ الظلام وهو الضّياء
ما يدومُ العمى إذا أَسْفَرَ الحَقّ ... ولا النور والظلام سواء!!
إيهِ يا نائماً تداعبُ جَفْني ... هِ الخيالاتُ والرُّؤى الشمّاء!
يا نَبيّاً في صدرِهِ خفقَ الكو ... نُ جميعاً، جراحُهُ والدَّواء!!
يا رسولاً ترنو لَطلعته الامْ ... لاءُ حَيْرى قد عَمَّها الإِدْجاءُ!
أَيُّها النائمُ انتبهْ! قد أتاكَ ال ... رُّوحُ يَحدوهُ من عُلاهُ القَضاءُ
والبُراقُ السَّعيدُ حَمْحَمَ في البا ... بِ اشتياقاً فاهتزّتِ الصّحراءُ
طِرْ عليهِ تَمْضَ القفارُ سِراعاً ... تَحتَ وَثباتِهِ ويُطْوَ الفَضاءُ
طِرْ عليهِ إنّ العَوالم نَشوى ... مُذْ أَتتْها عن سعيكَ الأَنباءُ
والسمواتُ تستعدُّ لمسرا ... كَ وقد زغردتْ بها البُشَراء
تتغنَّى فيها الملائكُ فرحى ... وتهادى البشائِرَ الأَنبياءُ
رفرفا في سماءِ مكةَ فالري ... حُ ذَلولٌ تحتَ البراقِ رُخاءُ
وامضِيا تَمَّحِ الفَلا والمسافا ... تُ كأنَّ ابتداءَهنّ انتهاءُ
فإذا شَمِتُما على البُعدِ سَينا ... ءَ ولاحت كثُبانُها السَّمراءُ
فاهبطا، طَرْفَةَ العُيونِ، إليها ... يا لَربّي لِما رأَتْ سيناء!!
يومَ ناجي الكليمُ في جانبيها ... ربَّهُ، ملءُ أَصغريه الرّجاءُ
فهوى مُرْعشاً وقد هاله النّو ... رُ وأعشى عيونه الأَلاءُ
ثمّ سيرا حتّى إذا (بَيْتُ لَحْمٍ) ... دَوَّمَتْ منْ بُروجِها الأَصْداءُ
فاهبطا تُرْبَها الذَّكيَّ فمنه ... (أسفرَ الرِّفقُ والهدى والحياء)
وأتيا المسجد الذي بارك الل ... هُ حَواليهِ منذ كان البناء
فاسجدا فيه للّذي غمَرَ الكو ... نَ نَدَاهُ وعطفُهُ والرضاء
صلِّيا يَبْسمِ المُصَلّى ابتهاجاً ... لكما في الدُّجى ويَشْدُ الفِناء
واعرجا صاعدَيْن سبعاً طباقاً ... لا حِجابٌ، لا دُجْيَة، لا عماء
أَلَقٌ باهرٌ، وبحرٌ من النّو ... رِ خِضَمٌّ، وَرَوْعَةٌ، وصَفاء
ليس إلا ملائِكُ تحمل الب ... شرى ورسْلٌ أَحِبَّةٌ أصفياء
اصعدا في الجمال حتَّى تجلّى ... لكما سِدْرةُ العُلى العَصماءُ
وانظرا من عَلٍ إلى هذه الأَجْ ... رامِ طُرّاً، يَجلُّ عنها الهباءُ
نظرةً تُنْظَمُ العوالمُ والآ ... بادُ فيها وتَلتقي الأَملاء
اسموا، اسموا فما أعظم الأن ... فُسَ تفَنْى من دونِها العليا!
ما أجلَّ الأرواحَ تَعلو وتَعلو ... ثم تعلو، وإن تناهى العَلاء!
ما أحبَّ الفنَاءَ في النُّور إمّا ... كُرِهَ اللّبثُ في الثرى والفَناء!
إيه مسرى النبيِّ! قد تُنكر الأنْ ... وارَ والفجرَ مقلةٌ عمياءُ
ما على جاحديك لومٌ إذا ضَلَّ ... وا، هلِ الناسُ كلُّهم أنبياء؟!
معرجَ المصطفى! إليكَ النَّحَايا ... شَعشَتها دموعُنا والدّماء
بوركتْ أرضُكِ النَّدِيَّةُ يا قد ... سُ ووشَّتْ رياضَكَ النَّعماء!
أنتِ أمُّ الدُّنى، ومهدُ النُّبُوَّا ... تِ ومنكِ استفاءتِ الآناء
فيكِ موسى ألقى عصاهُ ارتياحاً ... بعد أن طوّحتْ بهِ الأَرزاء
والمسيحُ العظيمُ فيكِ تجلى ... يملأُ الأرضَ من هُداه السَّناء
علّمَ الكونَ رحمةَ العبدِ للعب ... دِ، فلا قسوةٌ ولا إيذاءُ
وغذاه الحبَّ الطَّهورَ فلا بغ ... ضٌ، ولا نَفْرَةٌ، ولا أَعداء
يا حماةَ المسيحِ في القدسِ! ما في ... دينهِ أن يعذَّبَ الضُّعفاء!

ليس فيه طردُ الهزارِ من الأي ... كِ لتَحْتَلَّ وَكْرَهُ رقطاء!
يا جيوش الصليب في القدس! ما في ... شرعِهِ أن تُقَتَّلُ الأبرياء!
ليس في شرعِهِ هوانُ المواثي ... قِ، إذا ما تواثَقَ الشُّرَفاء!
ليس فيه أن يبذلَ العَرَبُ الأنْ ... فُسَ كي تسترِقَّها (الحلَفاء)!
يا لدمعِ المسيحِ ما كان أصفا ... هـ! ولكنَّ روحَكم كدراء!
سائلوا مهدَهُ المُطَهَّرَ هل صا ... نته إلا العُروبةُ العَرْباء؟!
سائلوه يا ناسُ عن عُمَرَ الفا ... روقِ: (ما كانَ عدله والوفاء؟)
سائلوه عن ابنِ أَيُّوبَ لما ... عصفتْ جُنَّةٌ بكم هَوجاء
يومَ جاءتْ جُيوشُكم مثلَما انحطَّ ... تْ على المنهَلِ النُّسُور الظِّماء
تُغرِقُ المهدَ مثلَما تُغرقُ الم ... جدَ منها الدِّماء والأشْلاء
يوم ضاقَت عنها الأباطح في الب ... رِّ وناءتْ بحمِلها الدَّأْماء
يُلهِبُ الحِقدُ والعِداء مآقي ... ها، وتَنْزو في صَدْرِها الأَدْواء
وابنُ أَيُّوبَ يُطفِئ النَّارَ بالحِلْ ... مِ وتجري بنصرِهِ الأنباء
ويفكُّ الملُوكَ صَفْحاً وَمَنّاً ... بعدَ أَسْرٍ يعزُّ فيهِ الفِداء
أنتمُ تَعرفونَ عدلَ صلاحِ ال ... دّينِ وسْطَ العَجاجِ يا طُلَقاء؟
لم يهجكم للنّارِ دينٌ، ولكنْ ... جَشَعُ الذّئبِ أَثملَتْهُ الدّماء
أي دينٍ يُحلُّ ذبحَ اليتامى ... أيُّ شرعٍ تُبادُ فيه النساء
الأحابيشُ دينُهم مثلكم سَمْ ... حٌ كريمٌ، لكنَّهمْ ضُعفاء
وجلودُ الغُزاةِ بيضٌ لطافٌ ... أين منهنَّ جِلْدَةٌ سَوداء؟!
إنما العُرْبُ نعمةُ اللهِ في الأرْ ... ضِ وهْم في ظَلَامِها الأضْواء
لَهُمُ العزَّ والنُّبُوَّةُ فيها ... ولَهُمْ دونَ أهلِها الكبرياء
حملوا مشعلَ الحضارةِ والكو ... نُ ظلامٌ وحيرة وعَماء
هم شموسُ وصَفْوَة خلقِ اللّ ... هـ والمُخلَصونَ والحُنَفاء
كلُّ مجدٍ لمجدِهم يخفضُ الرَّأ ... سَ خشوعاً ولو نَمته السَّماء!!
دمتِ قُدْسَ العُلى ودام لكِ العِزُّ ... وذلَّتْ في غابكَ الدُّخَلاء
دمتِ فوقَ السُّها ودامَ لكِ العُرْ ... بُ فداءً، وطابَ هذا الفِداء!
(دمشق)
أمجد الطرابلسي
قالت هلم إلى الحديث فقلتُ لا. . .
للأستاذ أحمد الشايب
المدرس بكلية الآداب
- 1 -
قال الراوي: كانت السنة الثامنة منذ هاجر الرسول عليه السلام من مكة إلى المدينة، وكان صُلح الحُدَيبية الذي يقف الحرب بين المسلمين والمشركين سنوات عشرا يقطع عامه الثاني، ويتيح لقريش في مكة فرصة التروِّي لعلهم ينجون بكرامتهم وحياتهم من هذه الدعوة المحمدية، والنصرة الإلهية. وكان المسلمون في المدينة، مهاجرين وأنصار، يستبعدون مدى هذه الهدنة، ويعدونها نيلاً من عزتهم الدينية، وقد علموا (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخُلُن المسجد إن شاء الله آمنين) وما كان لهم أن ينقضوا عهداً في أعناقهم أو يفكوا عقداً للرسول بإذن الله تعالى. ولكن الله قدر وقضى - لتصدق الرؤيا توّاً ويكون الفتح المبين - أن تغدر قريش؛ فقد ثار بنو بكر ابن كنانة على خُزاعة، وهم على ماء لهم بأسفل مكة يقال له الوتير يطلبونهم بدماء قديمة، وكانت قريش ترفد بني بكر بالسلاح، وتقاتل معهم خزاعة مستخفين بالليل حتى جاوزوا خزاعة إلى الحرم. فلما انتهوا إليه قال بنو بكر لزعيمهم: يا نوفل، إنا قد دخلنا الحرم، إلهكَ! إلهكَ! فقال: كلمة عظيمة: لا إلهَ لَه اليومَ! يا بني بكر أصيبوا ثأركم، فلعمري إنكم لتسرفون في الحرم، أفلا تُصيبون ثأركم فيه؟!
قال الراوي: فلما تظاهرت بنو بكر وقريش على خزاعة وأصابوا منهم ما أصابوا ونقضوا ما كان بينهم وبين الرسول من العهد والميثاق بما استحلوا من خزاعة، وكانوا في عقده وعده، خرج عَمرو بن سالم الخزاعي، ثم أحدُ بني كعب، حتى قدم على الرسول المدينة، فوقف عليه وهو جالس في المسجد بين ظَهراني الناس فقال:

إن قريشاً أخلفوك الموعِدَا ... ونقضوا ميثاقك المؤكَّدا
فانصر هداك الله نصراً أَعْتدا ... وادْعُ عبادَ الله يأتوا مَدَدا
فقال رسول الله: نُصرتَ يا عَمرو بن سالم. ثم عرض لرسول الله عَنان من السماء، فقال: إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب. ثم خرج بُدَيل بن وَرْقاء في نفر من خزاعة حتى
قدموا على الرسول المدينة فأخبره بما أصيب منهم وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم، ثم انصرفوا راجعين إلى مكة. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس: كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم ليشد العقد ويزيد في المدة! ومضى بُدَيل بن ورقاء وأصحابه حتى لقوا أبا سفيان بن حرب بعسفان قد بعثته قريش إلى الرسول ليشد العقد ويزيد في المدة، وقد رهبوا الذي صنعوا. فلما لقي أبو سفيان بُديل بن ورقاء قال: مِن أين أقبلت يا بديل؟ وظن أنه قد أتى الرسول. قال سيّرت في خزاعة في هذا الساحل وفي بطن هذا الوادي. قال: أو ما جئت محمداً؟ قال: لا. فلما راح بُديل إلى مكة قال أبو سفيان: لئن كان جاء بُديل المدينة لقد علف بها النوى، فأتى مبرك راحلته فأخذ من بعرها فَفتَّهُ فرأى فيه النوى، فقال: أحلف بالله لقد جاء بُديل محمداً
ثم خرج أبو سفيان حتى قدم على رسول الله المدينة، فدخل على ابنته أم حبيبة بنت أبي سفيان، فلما ذهب ليجلس على فراش الرسول طوته عنه. فقال: يا بُنية، ما أدري أرغِبتِ بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله وأنت رجل مشرك نجس، ولم أحب أن تجلس على فراش الرسول. قال: والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر. ثم خرج حتى أتى الرسول فكلمه فلم يرد عليه شيئاً. ثم ذهب إلى أبي بكر فكلمه أن يكلم له رسول الله، فقال: ما أنا بفاعل. ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه فقال: أأنا أشفع لكم إلى الرسول؟! فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهتدكم به. ثم دخل على عليّ بن أبي طالب وعنده فاطمة بنت رسول الله وعندها الحسنُ بن علي يدب بين يديها، فقال: يا علي إنك أمسُّ القوم بي رَحِماً وإني قد جئت في حاجة فاشفع لي إلى رسول الله، فقال: ويحك يا أبا سفيان! والله لقد عزم الرسول على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه. فالتفت إلى فاطمة فقال: يا ابنة محمد، هل لك أن تأمري بُنيّك هذا فيُجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟ قالت: والله ما بلغ بنيّ ذاك أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: يا أبا الحسن إني أرى الأمور قد اشتدت عليّ فانصحني. قال: والله ما أعرف لك شيئاً يغني عنك شيئاً، ولكنك سيدُ بني كنانة، فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك. قال: أو ترى ذلك مغنياً عني شيئا؟ قال: لا والله ما أظنه، ولكني لا أجد لك غير ذلك. فقام أبو سفيان في المسجد فقال: أيها الناس إني قد أجرت بين الناس، وركب بعيره وانطلق. فلما قدم على قريش، قالوا: ما وراءك؟ فقص عليهم ما جرى، فقالوا: ذلك لا يغني شيئاً، قال: ما وجدت غير ذلك

قال الراوي: وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بالجهاز وأمر أهله أن يجهزوه. فدخل أبو بكر على ابنته عائشة زوجة الرسول، وهي تحرك بعض جهازه عليه السلام، فقال: أي بنية، أأمركم رسول الله أن تجهزوه؟ قالت: نعم فتجهز. قال: فأين ترينه يريد؟ قالت: والله ما أدري. ثم إن الرسول أعلم الناس أنه سائر إلى مكة وأمرهم بالجد والتهيؤ وقال: اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها. فلما أجمع السير إلى مكة كتب حاطب بن أبي بَلْتَعةَ اللخمي كتاباً إلى قريش يخبرهم أن الرسول إليهم سائر؛ ثم أعطاه امرأة وجعل لها جعلاً على أن تبلغه قريشاً فجعلته في رأسها ثم فتلت عليه قرونها وخرجت به. ولكن الخبر قد أتى الرسول من السماء بما صنع حاطب، فبعث علي بن أبي طالب والزبير بن العوّام فأدركا المرأة فالتمسا الكتاب في رحلها فلم يجدا شيئاً. فقال لها علي: إني أحلف بالله ما كذب رسول الله، ولتخرجن لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك. فلما رأت الجد منه قالت: أعرض، فأعرض فحلت قرون رأسها فاستخرجت الكتاب منه فدفعته إليه، فلما أتى به الرسول دعا حاطبا، فقال: يا حاطب: ما حملك على هذا؟ فقال: يا رسول الله أما والله إني لمؤمن بالله ورسوله ما غيرت ولا بدلت، ولكني صانعت القوم لأهل وولد لي بين أظهرهم. فقال عمر ابن الخطاب: دعني فلأضرب عنقه فإن الرجل قد نافق. فقال

الرسول: وما يدريك يا عمر، لعل الله قد أطلع على أصحاب بدر يوم بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لسفره واستخلف على المدينة كلثوم بن حصين الغفاري. وخرج لعشر مضين من رمضان، فصام وصام الناس معه، حتى إذا كان بالكديد بين عسفان وأمج أفطر؛ ثم مضى حتى نزل مر الظهران - في عشرة آلاف من المسلمين - وهو واد قرب مكة، وقد عميت الأخبار عن قريش، فلا يأتيهم خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يدرون ما هو فاعل

وخرج في تلك الليالي أبو سفيان بن حرب، وحكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء، يتحسسون الأخبار، وينظرون هل يجدون خبراً أو يسمعون به! وكان العباس بن عبد المطلب قد لقي الرسول ببعض الطريق مهاجراً بعياله، وكان قبل ذلك مقيماً بمكة على سقايته والرسول عنه راض. قال العباس فقلت: وا صباح قريش! والله لئن دخل رسول الله مكة عنوة دون أن يأتوه فيستأمنوه، فهو هلاك قريش إلى آخر الدهر. قال: فجلست على بغلة رسول الله البيضاء فخرجت عليها حتى جئت الأراك لعلي أجد من يأتي مكة فيخبرهم بمكان الرسول ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة. قال: فوالله إني لأسير عليها وألتمس ما خرجت له إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء وهما يتراجعان، وأبو سفيان يقول له: ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً، فيقول بديل: هذه والله خزاعة حمشتها الحرب، فيقول أبو سفيان: خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها. قال العباس: فعرفت صوته، فقلت: يا أبا حنظلة، فعرف صوتي فقال: أبا الفضل؟ قلت: نعم. قال: ما لك فداك أبي وأمي؟! قال، قلت: ويحك يا أبا سفيان! هذا رسول الله في الناس، وا صباح قريش والله! قال: فما الحيلة؟ قلت: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله فأستأمنه لك. قال: فركب خلفي ورجع صاحباه، فجئت به كلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة الرسول وأنا عليها، قالوا: عم رسول الله على بغلته؛ حتى مررت بنار عمر بن الخطاب فقال: من هذا؟ وقام إلي، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال: أبو سفيان عدو الله! الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد. ثم خرج يشتد نحو الرسول فلاحقته إليه، فقال: يا رسول الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد فدعني فلأضرب عنقه. فقال العباس: إني قد أجرته يا رسول الله. فقال الرسول: يا عباس اذهب به إلى رحلك فإذا أصبحت فائتني به. قال: فلما أصبحت عدوت به إلى رسول الله فلما رآه قال: ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟ قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد. قال: ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟ قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً. فقال له العباس: ويحك أسلم وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك. قال: فشهد شهادة الحق فأسلم. قال العباس:

قلت يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر فاجعل له شيئاً. قال: نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن. فلما ذهب لينصرف قال الرسول: يا عباس احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها. قال: فخرجت حتى حبسته بمضيق الوادي حيث أمرني رسول الله أن أحبسه، ومرت القبائل على راياتها كلما مرت قبيلة قال: يا عباس من هذه؟ فأقول سليم، فيقول ما لي ولسليم؟ ثم تمر القبيلة فيقول يا عباس من هؤلاء؟ فأقول مزينة، فيقول: ما لي ولمزينة. حتى مر الرسول في كتيبته الخضراء فيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد. فقال سبحان الله يا عباس من هؤلاء؟ قلت: هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار. قال: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما. قال العباس: قلت يا أبا سفيان إنها النبوة. قال: فنعم إذن. قلت: النجاء إلى قومك. فلما جاءهم صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به. وأذاع فيهم ما جعل له الرسول فخراً، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد آمنين

قال الراوي: إن أسماء ابنة أبي بكر قالت: لما وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بذي طوى عند مكة قال أبو قحافة - والد أبي بكر وكان كفيف البصر - لابنة له من أصغر ولده: أي بُنيَّة اظهري بي على أبي قُبيس. قالت: فأشرفت به عليه فقال: ماذا ترين يا بنية؟ قالت: أرى سواداً مجتمعاً. قال: تلك الخيل. قالت: وأرى رجلاً يسعى بين يديه ذلك السواد مقبلاً ومدبراً. قال: ذلك الوازع الذي يأمر الخيل ويتقدم إليها ثم قالت: قد والله انتشر السواد. فقال: قد، والله دفعت الخيل فأسرعي بي إلى بيتي. فانحطت به الفتاة وتلقاه الخيل قبل أن يصل إلى بيته. قالت: وفي عنق الجارية طوق من ورق فيلقاها رجل فيقتطعه من عنقها، فلما دخل الرسول مكة ودخل المسجد أتى أبو بكر بأبيه يقوده. فلما رآه الرسول قال: هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه! قال أبو بكر: يا رسول الله هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت. قال: فأجلسه بين يديه ثم مسح صدره، وقال له: أسلِم فأسلَم. ثم قام أبو بكر فأخذ بيد أخته وقال: أنشد الله والإسلام طوق أختي! فلم يجيبه أحد فقال: أي أُخَيّة احتسبي طوقك. ثم فرق الرسول جيشه من ذي طوى، فدخلت فِرقُة مكة من نواحيها ونزل الرسول بأعلى مكة وضربت له هناك قبة وكان صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمر، قد جمعوا أناساً بالخَنْدَمة - جبل بمكة - ليقاتلوا المسلمين. وكان حِماس بن قيس من بني بكر يُعِدُّ سلاحا قبل دخول الرسول. فقالت له امرأته: لماذا تعد ما أرى؟ قال: لمحمد وأصحابه. قالت: والله ما أرى أنه يقوم لمحمد وأصحابه شيء. قال: والله إني لأرجو أن أخدمَكِ بعضهم. ثم شهد الخندمَة مع صفوان وسهيل وعكرمة وأناس من المشركين فهزمتهم رجال خالد بن الوليد، فخرج حماس منهزماً حتى دخل بيته، ثم قال لامرأته: أغلقي عليّ بابي. قالت: فأين ما كنت تقول؟ فقال:

إنكِ لو شهدتِ يوم الخندمهْ ... إذْ فر صَفوانُ وفر عكِرمهْ
وأبو يزيد قائمٌ كالمؤتَمَه ... واستقبلتهم بالسيوفِ المسلمهْ
يَقطعن كلَّ ساعدٍ وجُمجمهْ ... ضرباً فلا يسمعُ إلا غمغمهْ
لهمْ نهيتٌ خلفنا وهَمهمهْ ... لم تنطِقي في اللوْمِ أدنى كلمهْ

لما نزل الرسول مكة واطمأن الناس خرج حتى جاء البيت فطاف به سبعاً على راحلته يستلم الركن بِمحجَن في يده. فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له، فدخلها فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها. ثم وقف على باب الكعبة فقال: (لا إله إلا الله، وحدَه لا شريك له، صَدقَ وعدَه، ونصرَ عبدَه، وهزم الأحزابَ وحده. ألا كلُّ مأثرة أو دم أو مال يُدعى فهو تحت قدَميَّ هاتين إلا سدنة البيت وسقاية الحاج إلا وقتيلَ الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا ففيه الدية مُغلَّظةً، مائة من الإبل. أربعون منها في بطونها أولادها. يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتَعظُّمَها بالآباء. الناس من آدم، وآدم من تراب. (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا. إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير) ثم قال: يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل فيكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم. قال: اذهبوا فأنتم الطُّلقاء. ثم جلس رسول الله في المسجد فقام إليه علي بن أبي طالب، ومفتاح الكعبة في يده فقال: يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك. فقال الرسول: أين عثمان ابن طلحة؟ فدُعِيَ له، فقال: هاتِ مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء

قالوا: لما دخل عليه السلام البيت يوم الفتح رأى فيه صور الملائكة وغيرهم، فرأى إبراهيم عليه السلام مصوّراً في يده الأزلام يستقسم بها، فقال: قاتلهم الله! جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام! ما شأن إبراهيم والأزلام؟! (ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين). ثم أمر بتلك الصور كلها فطمست.

وكان يقول وهو يشير إليها: (جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً)

قال الراوي: أراد فضالة بن عمير بن الملوّح الليثي ليقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يطوف بالبيت عام الفتح، فلما دنا منه قال الرسول: أفضالة؟ قال: نعم فضالة. يا رسول الله قال: ماذا كنت تحدث به نفسك؟ قال: لا شيء. كنت أذكر الله عز وجل. فضحك النبي، ثم قال: أستغفر الله! ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه.

فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده من صدري حتى ما من خلق الله شيء أحب إليّ منه. قال فضالة: فرجعت إلى أهلي فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها، فقالت: هلمّ إلى الحديث، فقلت: لا، وانبعث فضالة يقول:

قالت: هلم إلى الحديث فقلت: لا ... يأبى عليك الله والإسلام
لو ما رأيتِ محمداً وقبيلهُ ... بالفتح يوم تُكسر الأصنام
لرأيت دين الله أضحى بيِّناً ... والشرك يغشى وجهه الإظلام

قلت: هذه صفحة من أمجد صحف الإسلام ديناً، وخلقاً، وسياسة، وأدباً، وحماسة، ليس لي فيها إلا تخليصها من أطواء السيرة، وعرضها بأسلوبها، لعل في الذكرى نفعاً:

وإذا فاتك التفاتٌ إلى الما ... ضي فقد غاب عنك وجهُ التأسِّي

أحمد الشايب

عقبة بن نافع

فاتح أفريقية وقاهر الروم والبربر

للأستاذ محمود الخفيف

فتى مات بين الضرب والطعن ميتة ... تقوم مقام النصر إن فاته النصر
وما مات حتى مات مضرب سيفه ... من الضرب واعتلت عليه القنا السمر
وقد كان فوت الموت سهلا فرده ... إليه الحفاظ المر والخلق الوعر

لئن كان ابن الوليد بجهاده في الله قد سمي قاهر القياصرة، ولئن كان سعد بما رابط وصابر في أرض الفرس يوم التقى الجمعان قد استحق لقب مذل الأكاسرة، فإن البطل المجاهد عقبة ابن نافع الفهري قد كسب لنفسه تحت راية الإسلام مرتبة لن تنزل به فيما أرى عن مرتبة ذينك البطلين. فهو فاتح أفريقية، أمير المغرب، قاهر البيزنطيين والبربر

حارب خالد قوماً هدهم الغرور والترف، كانوا قبل لقاء المسلمين بأسهم بينهم شديد؛ فلم يكونوا حين ساقوا جموعهم يدافعون عن عقيدة أو يذودون عن مبدأ، بل لقد كانوا يقفون في وجه عقيدة منبعثة من الصحراء، الموت في سبيلها أحب إلى أصحابها من الحياة. وكان المسلمون تحت راية خالد وأبي عبيدة يقتلون ويُقتلون وقد باعوا أنفسهم وأموالهم من الله بأن لهم الجنة؛ كلمتهم كلمة أميرهم، ووجهتهم وجهة خليفة رسول الله فيهم، فلا تنازع بينهم ولا تنابذ ولا إحن ولا انقسام. . .

وكذلك كان المسلمون في القادسية كالبنيان المرصوص، لم يعرف الخلف سبيلاً إلى صفوفهم، ولا وجد الوهن طريقاً إلى قلوبهم، يسقطون عشرات ومئين ولا تسقط الراية؛ ويشترون الآخرة بالأولى في إيمان ويقين، وغاية المجاهد منهم أن يغلب أو يدفع عن نفسه الهزيمة بالموت!

أما عقبة فقد جاء دوره بعد أحقاد وأحداث فرّقت كلمة المسلمين وجعلتهم شيعاً وكادت تأتي على بنيانهم من القواعد. جاء دور عقبة في الجهاد بعدما كان في الإسلام من قتل عثمان، وبعدما كان من أمر الجمل والصفين. جاء دوره بعد أن عرف الإسلام الخوارج وغيرهم من الأحزاب، وبعد أن عرف المسلمون طريقة أخرى في الغنائم والأسلاب. . .

وكان عقبة يحارب الروم والبربر؛ وكان البربر أولي بأس وعناد. جبلوا الحرية فلا يكادون يعرفون ما الخضوع، طبيعة نفوسهم كطبيعة بلادهم، فيها مناعة الجبال ووعورة الجبال، وفيها صرامة البيد وبساطة البيد؛ فهم لذلك في القوة كالعرب المهاجمين يطرحون نفوسهم تحت المنايا ولا يطرحونها تحت أقدام الفاتحين

وكانت البلاد التي اثخن فيها بخيله ورجله مترامية الأطراف مجدبة المطارح إلا واحة هنا أو غيضة هناك، وبقاعاً خضراء قليلة على شواطئ البحر حول مجاري السيول والأنهار. وكانت تلك البلاد لامتداد رقعتها وبعد ما بين أولها وآخرها أقساماً لكل منها اسم يميزه! فهذا هو أفريقية، ثم هذا هو المغرب الأدنى، ثم هناك من ورائه المغرب الأقصى. . . لذلك كان عقبة وجيشه يحاربون في هذه الفيافي المترامية عدوين: البربر الغلاظ، والطبيعة القاسية!

ولد عقبة بن نافع الفهري في عهد الرسول ولم تعرف له على الأرجح صحبة، فكان لذلك من التابعين. وكان عقبة - كما سيتجلى لنا من أعماله - يمثل الخلق العربي

أحسن تمثيل. كان شجاعاً مقداماً بعيد الهمة، صليب العزيمة، صريم الخلق، شديد الإيمان لا يهاب قلبه الكبير الموت في أبشع صوره. وكان في إقدامه سريعاً ولكنه كان وثيق الخطو تذكرنا وثباته وثبات خالد حين كان يقطع البيد والمفاوز، وحين ذهب فحج ثم كان بعد قليل في ساقة الجيش

بعد أن تم للعرب إعلان كلمة الله في مصر واتجهوا نحو الغرب جاءوا برقة فأذعنت لهم بعد جهاد؛ وصالحهم أهل تلك البلاد على الجزية ودانوا لهم بالطاعة، ولكن الروم حين انحسر العرب عن برقة عادوا يبنون سلطانهم هناك من جديد، وقد أذاقوا البربر صنوفاً من العذاب فلم يستمعوا لهم إلى مظلمة أو يبالوا بما عسى أن تكون عاقبة أمرهم

وكان العرب فيما هم فيه يومئذ، بعد مقتل عثمان من بغضاء وتنازع؛ ومازالوا في شقاقهم حتى تم الأمر لمعاوية فوجههم من جديد وجهتهم الأولى ضد أعدائهم

ولقد كان لعقبة في فتح البلاد أول الأمر من مصر إلى برقة جهاد، وكانت له خطوات بارعة، ولكن أفعاله كانت لحقاً في ذلك الفتح إذ لم تكن له القيادة يومئذ. ولقد بقي عقبة فيمن بقي من العرب في حامية زويلا حتى كانت سنة خمسين للهجرة فأمده معاوية بعشرة آلاف ليغزو بهم أفريقيا!

أصبحت القيادة لعقبة، وذلك ما طال انتظاره إياه، وأحس هؤلاء الآلاف العشرة روحاً قوية

تغمرهم وتشحذ عزائمهم تحت لوائه، حتى كأن الواحد منهم بألف، فما منهم إلا محب للجهاد، مستهين بالأهوال، مرحب بالموت كقائده. وزحف بهم عقبة فما شهد الروم ولا البربر زحفاً أشد هولاً من هذا الزحف. لم تغن عنهم كثرتهم، ولم تغن عنهم عدتهم، وكانت أقواتهم في بلادهم موفورة لهم؛ ولا أقوات لهؤلاء العرب المستبسلين إلا ما يستلبون منهم من غنائم

وكانت الحرب طاحنة، وكان الجهاد مريراً، فالبربر أهل جلاد ومصابرة، وهم خبيرون ببلادهم عليمون بمسالكها؛ فكانوا إذا اشتدت عليهم وطأة محاربيهم اعتصموا بالبيد فضربوا في أرجائها، وبالكثبان فكمنوا من ورائها، حتى إذا زحف العرب وقد أخذ منهم الجهد بعد أن لم ينل منهم الخوف، وقد انطوت على السغب أحشاؤهم الضاوية، وتقرحت من الحر أكبادهم الصادية، برزوا لهم كأنما يخرجون من الأرض، ولكن ليتركوا من سلاحهم وزادهم بعد القتال شيئاً غير قليل في أيدي أعدائهم

وكان عقبة يقسو في قتال هؤلاء القوم لما خبر من طباعهم، ولما عرف من غدرهم ومكرهم، فهم إذا غلبوا على أمرهم يضعون السلاح ولكنهم لا يضعون الانتقام، فإذا واتتهم الفرصة نسوا كل عهد واستخفوا بكل ميثاق. وكانت سيوف العرب ونبالهم تفعل فعلها القوي في هؤلاء القوم كما كانت تفعل فيهم عزيمة العرب ومضاء العرب.

وظل الحال كذلك وعقبة يرسل عليهم من جنده ذات اليمين وذات الشمال حتى تم له الأمر، على بعد الشقة وترامي البيد وصرامة القتال؛ فلما أشرف على موضع كان غير بعيد من موضع قرطاجنة القديمة ابتنى للعرب قاعدة جديدة

ابتنى عقبة القيروان ليقيم فيها المسلمون إذ لم يحب لهم أن يقيموا بين هؤلاء البربر. وكان موضعها بعيداً عن البحر حتى لا تطرقها مراكب الروم، وهي في البر بحيث تتوسط البلاد وتكون معقلا لصد البربر. وكان الموضع الذي اختاره أجمة عظيمة تسكنها السباع والحيات والأراقم؛ ولعل هذه الخلائق روعت، وقد أحاط جيش عقبة بالمكان، فنفرت أسراباً تحمل صغارها هاربة إلى الصحراء، وكان عقبة قد دعا الله أن ترحل؛ وأسلم من البربر كثير ممن شاهدوا هذا الرحيل؛ وهل يكونون من الوحوش والأفاعي أشد قسوة؟ واختطت المدينة وشيد بها عقبة داراً للأمارة، وبنى مسجداً، وبنى الناس بيوتاً لهم؛ واستقامت المدينة سنة

خمس وخمسين وصارت تجاوب مآذنها مآذن الكوفة ودمشق والفسطاط، كلما أذن المؤذنون ورفعوا أصواتهم يذكرون اسم الله. . .

وهل كان لعقبة أن يقنع بما وصل إليه من فتوح وقد ضاقت البيد عن همته؟ لقد عول على مواصلة الزحف ليحمل كلمة الله، ويعلن اسم الله في مواطن جديدة؛ ولكن معاوية يجعل أمر مصر وأفريقية لمسلمة بن مخلد؛ ويستعمل مسلمة على أفريقية مولى له أبو المهاجر؛ ويقبل أبو المهاجر فلا يرعى لعقبة مقاماً فيوثقه ويسيء إليه

كأن بينهما ترات! ولكن الليث في الحديد لن تنخلع عنه طبيعته، فما يزال عقبة صبوراً لا يعرف استخذاء ولا مسكنة. ويطلقه أبو المهاجر ليرحل عن تلك البلاد، فيرحل عقبة وفي نفسه حنق أي حنق، وقد تعاظمه الأمر وهو الفاتح القاهر؛ ولكن الأرض لله يورثها من يشاء، والأيام دول بين الناس. رحل عقبة برغمه وقطع بلاداً دانت من قبل لسيفه حتى جاء دمشق فعاتب معاوية عتاباً شديداً على ما كان من أمره بعد ما أبلى في الله من بلاء؛ وأراد معاوية أن يخفف عنه بعض ما به فوعده أن يرسله بعد حين إلى القيروان من جديد

وإنا لنحار فيما صنع معاوية! هل كان يخشى قوة عقبة ويشفق أن يعظم ويعظم حتى يخرج عن سلطانه؟ أم كانت تلك هي فعلة مسلمة جازت على معاوية دون أن يتدبر لها؟ الحق أنا لفي حيرة مما صنع. . .

وكانت لأبي المهاجر سياسة في أفريقية غير سياسة عقبة؛ جعل السياسة والملاينة في موضع السيف، واتصل بكبراء البربر وخفض لهم جناحه وصانعهم في أكثر الأمور. وكان يسفه آراء عقبة عندهم كما كان يسفهها عند المسلمين، وكان لا يقر له بفضل أو يترك أحداً من شيعته دون أن يلحق به أذى حتى عظم ذلك على الناس. ولكن البربر أحبوا سياسته وصانعوه مثلما صانعهم. وكان كبيرهم في ذلك رجل اعتنق الإسلام من قبل يقال له كسيلة؛ وكان كسيلة هذا به كبرة مبعثها الفظاظة والغلطة، وكان بطبعه أنوفا عيوفا لا يطيق أن يغلب على أمره.

وراح أبو المهاجر يمد الفتوح إلى المغرب وقد انحاز إليه البربر، فحارب الروم في قرطاجة ولكنه لم يقو عليهم؛ على أنه مد سلطان المسلمين قليلا إلى الغرب، ولبث في تلك البلاد بضع سنين أقرب إلى الدعة منها إلى الجهاد، وقد فترت في المسلمين حميتهم إلا قليلا؛ وكانوا يذكرون أيام عقبة وإقدام عقبة فتنطوي على الهم قلوبهم. وهم لا يعلمون ما تأتي به الأيام. . .

ولكن الدهر صروفه وتقلباته، فقد مات معاوية وصارت الخلافة لابنه يزيد. وفي سنة ثنتين وستين للهجرة أعيد عقبة إلى أفريقية. وجاء يسعى إليها يطوي البلاد طيا، وفي قلبه من الحماسة للجهاد مثل ما فيه من الكيد لأبي المهاجر. وهل كان يستطيع عقبة أن ينسى ما كان من أبي المهاجر، وقد كان يحز في نفسه ما صنعه به منذ أخرج من أفريقية؟ أوثقه اليوم عقبة كما أوثقه هو من قبل، وشد عقبة وثاقه، وبالغ في الكيد له فكان يحمله في غزواته مقرناً في الأصفاد!

وفرح المسلمون للقاء قائدهم، وانبعثت في قلوبهم الحمية، واجتمعوا تحت لوائه يبدءون الزحف من جديد؛ وعاد للقيروان عزها ومنعتها؛ وألقى الرعب في قلوب البربر والروم وهم كما علموا لا قبل لهم بعقبة؛ وكان عقبة يضمر الحقد لكل من كانت له صلة بأبي المهاجر، وفي طليعة هؤلاء كسيلة رأس البربر

رفع اللواء واستؤنف الزحف، وحلا الجهاد للصابرين. أنظر إلى عقبة يستخلف بالقيروان زهير بن قيس البلوي ويحضر أولاده فيقول: (إني قد بعت نفسي من الله عز وجل فلا أزال أجاهد من كفر بالله) ثم يوصي بما يفعل بعده ويتقدم على رأس جيشه يخوضها حروباً مستعرة متوالية. . .

الشقة بعيدة، والعدد متكاثر له في الشعاب والقلل مخابئ. رفقاً يا عقبة بالبواسل القليلين! ولكنهم على قلتهم كالسيل على قلتهم كالسيل الأتي لا يصرفهم عن وجهتهم شيء، ولا تقف من دونهم عقبة. هاهم أولاء يقربون من مدينة باغاية وفيها من الروم حشد عظيم، والبربر من ورائهم يعركونهم ويتربصون بهم الدوائر؛ ولكن العزم المصمم لا يعرف الحوائل. لقد التقى الجمعان واشتد القتال وزلزل الروم زلزالاً شديداً؛ وكثرت مغانم المسلمين وكثر عدد صرعاهم، واعتصم الروم بالمدينة فحاصرها عقبة ثم كره المقام عليها فاستأنف الزحف

رفقاً بالبواسل القليلين! بعدت الشقة وقلت القلة! ولكن عقبة لا يعرف النكوص ولا يخاف الموت وقد باع نفسه من الله؛ ميدانه بعد باغاية بلاد الزاب، وهي بلاد واسعة بها مدن وقرى. سار عقبة وجيشه حتى جاءوا مدينة أربة قصبة تلك الديار، فوقف له الروم

وظاهرهم عليه البربر واعتصموا بالجبال، ثم التحموا بالعرب في عدة معارك آثروا بعدها الفرار من الموت، تاركين الكثير من أسلحتهم وخيلهم. . .
إلى أين يا عقبة بعدها بالكرام الصابرين؟ إلى تاهوت، ويا للهول ما كان في تاهوت! تكاثر العدد واستقتل البربر، ولكن العرب صابرون؛ أحدق الخطر بالبواسل الأنجاد، ولكن لهم في عقبة وبلاء عقبة الحصن القوي والمعتصم الأمين. وما هي إلا غمرة ما لبثت أن انجلت على وميض السيوف والتماع الأسنة، وعاد النصر إلى صفوف المجاهدين المستبسلين
والقائد الظافر بعد هذا النصر يطفر من الحماسة والجيش من ورائه يهبط الوهاد ويركب النجاد، وقد عظم بعد ما بينه وبين القيروان؛ ولكن ماله وللقيروان الآن وقد أصبحت البلاد كلها له، وعرف الإسلام سبيله إلى قلوب المهتدين من أهلها؟ سار الجيش حتى نزل على طنجة، فأحسن يوليان بطريق الروم لقاء عقبة وقدم له الهدايا واستفهمه عقبة عن الأندلس، ولكن أين السفين ليحمل الفاتحين. . .؟
وماذا بعد طنجة للغرباء الظافرين؟ نزل بهم عقبة - أو نزل اسكندر العرب كما يسميه جيبون - على بلاد السوس الأدنى ومعظم أهلها من البربر ولهم بأس شديد، إذ لم يكن لهم كغيرهم في البلاد الأخرى كبير صلة بالروم؛ وكانوا كفاراً لم يعتنقوا النصرانية؛ فما زال بهم المسلمون حتى دانوا لهم، وآمن منهم من آمن بالكتاب وهرب من نجا من السيف إلى الجبال والمهامه، ثم إلى بلاد السوس الأقصى، وهي بلاد ذات خصب يكثر عدد ساكنيها من البربر. وأين المفر من عقبة وجيش عقبة، وهل ثمة ما يمنعه أن يغزو السوس الأقصى؟
احتشدت له البربر هناك في أقصى الأرض جموعاً هائلة، وقاتلوه قتالاً شديداً تجلى فيه بأسهم وشجاعتهم، ولكن عقبة لم يزل بهم حتى فرق جموعهم وأذهب ريحهم، وأرسل الخيل من ورائهم تطاردهم في الجبال والصحراوات وقد كثر ما غنمه منهم، وأخذ يعلن فيهم دين الله. وتقدم بعد ذلك فإذا الخضم الفسيح يمتد أمام بصره! أنظر إليه وقد وقف على شاطئ المحيط برهة ثم غمز جواده فنزل به في الماء حتى جاوز الماء صدره، وشهر سيفه ورفع إلى السماء بصره، ثم استمع إليه يقول: (يا رب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك)
لولا البحر لمضى عقبة الفاتح مجاهداً في سبيل الله، وهل كانت به حاجة إلى هذا القول وله من غزواته ما هو أبلغ من كل كلام؟ إنها لعمري قصيدة رائعة لا يزال الدهر يرويها ولا تزال في سجل البطولة رائعة المقاطع رنانة القافية! وماذا أبلغ من تلك القلة تصل ما بين المشرق والمغرب، وتقاتل البربر والروم في بلاد مجهولة المسالك بعد ما بين قاصيها ودانيها؟ وأي بلاد هي بل وأي قوم! لم يلق المسلمون في أي موطن في مشرق الأرض مثل ما لاقوا هنا من عرك وبلاء؛ بل لم يلق غير المسلمين من الغزاة قبل بلاء هو أشد مما لقي العرب في بلاد المغرب من بلاء. كانت القبائل الموتورة تنزل من الجبال كما تنزل الكواسر فتنقض على جناحي الجيش الغازي مرة، أو تأتيه من خلفه مرة، بينما يتعرض القلب لقتال شديد من المتصدين له. ولو كان على رأسهم غير عقبة لما جاوزوا برقة إلا قليلاً
وقف البحر في وجه عقبة وما استعصى عليه غير البحر، فكان لابد من الرجوع. فأدار البواسل المجاهدون وجوههم يريدون القيروان ولم يلاقوا في أوبتهم عنتاً أول الأمر؛ حتى أمن عقبة واستخف بالأمر فأرسلهم إلى القيروان قبيلاً يتلوه قبيل
ولكن البربر قلوبهم مطوية على الحقد، كما كانت نفوسهم مفطورة على الغدر، وكان كبيرهم كسيلة يتحين الفرصة ويتهيأ للانتقام. كانت بينه وبين عقبة أشياء فهو من شيعة أبي المهاجر، أسلم في عهده وحسن إسلامه، فلما عاد عقبة استخف به وبالغ في إذائه؛ حتى لقد أمره مرة أن يسلخ الشياه مع السالخين وهو يقول هؤلاء غلماني يقومون بما تريد، ولكن عقبة يأبى إلا أن يذله. ولقد نصح له أبو المهاجر أن يحسن معاملة عقبة وقبح فعله على ما بينهما من خصومة، ولكنه أبى واستكبر استكباراً. وعاد أبو المهاجر فأشار عليه أن يوثقه ولكنه أعرض حتى عن هذا
ليت عقبة سمع ما أبدى له من نصح فرعاه واتبعه، أجل ليته تدبر ما أشار به أبو المهاجر، إذاً لنجا مما كان يدبر له.
قصد عقبة في أوبته تهوذا وفيها للروم جيش وحصن؛ لم يكن معه إلا بقية جيشه

الفاتح، فاستهان الروم بالغازي وأغلظوا له القول، بل لقد وصل بهم الأمر إلى السباب وهو يدعوهم إلى الإسلام؛ فوقف ليذيقهم بأس سيفه، ولكنهم كانوا قد أخذوا للأمر عدته من قبل،

فبينهم وبين كسيلة مؤامرة محكمة. وأقبل كسيلة في هذا الموقف الذي يطيش فيه الكمى، فأصبح عقبة بين نارين: الروم من ورائه والبربر الأشداء من أمامه؛ ولكن قلبه لم يخلق له الفزع؛ تقدم ليلقى كسيلة ففر ريثما يتكاثر حوله البربر؛ وبلغه حينئذ من أبي المهاجر أنه ينشد في وثاقه:

كفى حزَناً أن ترتدي الخيل بالقنا ... وأترك مشدوداً علي وثاقيا

إذا قمت عناني الحديد وأغلقت ... مصارع من دوني تصم المناديا

سمع عقبة ذلك فغلبت عليه شيمته العربية وأطلق خصمه من وثاقه وقال له: (الحق بالمسلمين وقم على أمرهم وأنا أغتنم الشهادة)! ولكن أبا المهاجر يطمع في الشهادة كما يطمع عقبة فوقف يقاتل تحت لوائه، وكسر البطل المجاهد عقبة غمد سيفه على ركبتيه وحمل على الأعداء، واحتذى العرب حذوه وتكاثرت جموع الروم والبربر، ودارت رحى الحرب والتمعت البيض، وبرقت الأسنة، وتطاير العثير، وعلا الضجيج، وطاب الموت في سبيل الله، وانجلت الغمرة فإذا العرب جثث طريحة لم يفلت منهم إلا من أسر؛ واغتنم عقبة الشهادة، واغتنمها معه أبو المهاجر. وعرف ذلك البطل كيف يموت ميتة لا يدرك معناها إلا البسلاء

الخفيف

قبل انبثاق الفجر

للأستاذ محمد سعيد العريان

- (أبي!)

- (سلمان!)

- (ما أريد يا أبي أن أكون بعد اليوم قطين النار!)

- (وَيْ! ما تقول يا بني؟ لقد نذرتك للنار قبل أن تخرج إلى الحياة فأنت هبة الرب إلى أبيك، وأنت وفائي للرب بما نذرت. أضلالاً بعد هدى، وكفراً بعد إيمان. . .؟)

- (إن روحي لتتمرد على هذه العبودية؛ فما أرى هذه النار المعبودة تملك لي نفعاً أو تمنعه؛ إنني أنا أوقدها وأذكيها، ولو شئت لصببت عليها ذنوباً من ماء يردها رماداً رطبا!)

- (أي بني، إنه دينك ودين آبائك. أي نازية نزت بك فتمردت على ربك؟)

- (هيهات مني ما تريد يا أبي، وبرغمي هذا العصيان! إن في السماء إلهاً يقتضيني حقه من العبادة والتقديس، وإن صوته ليهتف بي في سدفة الليل، وفي وحدة القلق، وفي ظلمة اليأس؛ فما أجد لي طاقة على الإفلات من صوت الله. . .!)

جثا الشيخ الأصبهاني بين يدي ربه مطأطئاً رأسه في ذلة وانكسار، وبسط ذراعيه إلى النار في ضراعة واسترحام يسأل الهدى لولده الذي يؤثره بالحب من دون ما يتمتع به من زينة الحياة. وراح اللهب المتراقص يعكس على وجهه المتغضن أضواء تكشف عما يعتلج في نفس الشيخ من حسرة وأسى

وعلى مقربة من مجلس الشيخ جلس فتاه الأمرد (سلمان) معتمداً رأسه بين راحتيه وسبح في أحلامه. كان ما يزال يرن في أذنيه صدى تلك الأنغام الندية التي سمعها منذ قريب في معبد المسيحية على أطراف المدينة، فشغل بها عما أرسله أبوه لقضائه من حاجته. . . وهفت نفس الفتى إلى زورة ثانية لرهبان المعبد، يستمتع فيها بما استمتع منذ ليال من عذب الأناشيد وحلو النغم، وبما يسمع من أحاديث الرهبان عن الرب الموجود في كل مكان ولا تراه العين. . .

وغدا الفتى مع الصبح على الكنيسة، يشهد مع الرهبان صلاتهم ويستمع إلى أناشيدهم. لقد عاش قطين النار في المجوسية بضع عشرة سنة لم يحس فيها بمثل هذا الجلال الروحاني

الذي يغمره وهو يستمع إلى أناشيد النصرانية بين جدران هذا المعبد القائم على حدود الصحراء. فما فرغ الرهبان من صلاتهم حتى دلف الفتى إلى كبيرهم يسأله أن يعقد بينه وبين هذا الدين آصرة. . . وربت الراهب على كتف الفتى وهو يقول: (لله هذا الإيمان في فتى مثلك ريان لم تفتنه مباهج الحياة عن معرفة الرب الأعظم. . ما

اسمك يا فتى؟)
- (سلمان الفارسي!)
- (ليباركك الله يا سلمان وليمنحك التوفيق والهدى!)
واعتنق سلمان النصرانية عن إيمان وتقى؛ ولكن الفتى لم يقنع بما أفاء الله عليه حتى يعرف أين أصل هذا الدين فيسعى إليه
وفارق الفتى أصبهان وخلف وراءه مولده ومرباه وأباً له جاه وسلطان ومال، لم يكن أحد أحب إليه من ولده. وتلفت الفتى إلى وراء، فتحدرت على خديه دمعتان وهو يقول: (وداعاً يا بلادي الحبيبة، وداعاً لا أدري متى ألقاك منه إلا أن يأذن الله. . .!) وتلاشت آخر كلماته في زفرة حزينة، ثم طأطأ رأسه ومسح دمعته وأستأنف سيره إلى دمشق، إلى حيث يعرف أصل هذا الدين. . .
والتقى سلمان وأسقف الكنيسة في دمشق، فلزمه يستمع إليه ويأخذ عنه ويصلي معه؛ ولكن سلمان لم يجد في الأسقف ما كان ينتظر أن يجد في رجل نذر نفسه لله؛ لقد كان رجل سوء يأمر بالصدقة ويرغب فيها، فإذا اجتمع إليه شيء منها اكتنزه لنفسه فلا يتصدق به، فإن المال عنده لأكداس، وإن المساكين لعلى الأبواب يستندون الأكف ويبيتون على الطوى؟
وضاقت نفس الفتى بما وجدت فلم يجد حيلة لنفسه مما يرهق نفسه؛ لقد فر من المجوسية إلى دين البر والرحمة والسلام، فما وجد عند أهله شيئاً من البر والرحمة والسلام؛ وعاد التمرد إلى الفتى وشغلته أشجانه فما يستبين طريق الرشاد. . .
- (أي ربي، إنك لتسمع دعائي، وإني لأراك في قلبي، ولكني لا أجد سبيلاً إليك. في بيت النار سلخت بضعة عشر عاماً من الشباب ألتمس الزلفى إليك بين البخور واللهب فما بلغت إليك؛ وفي معبد المسيحية بين الهيكل والصليب وتماثيل القديسين ركعت ألتمس الزلفى إليك فما بلغت إليك. . . تنزهت يا رب أن تأمر بعبادة النار وإنها لجمر ودخان، وتقدست يا إلهي أن تكون عبادتي لك سجوداً للتصاوير وركوعاً للصليب، وخشوعاً لتمثال العذراء،
وحرصاً على جمع المال في القلال ليحرم منه الفقير والمسكين. . .!)
(ربي، سألتك الهدى فأنر سبيلي!)
وكانت الفتنة تعصف عصفها في كل مكان، والشهوات يتسلط سلطانها على كل نفس؛ والناس في الشرق والغرب، في فارس وقسطنطينية، وفي بغداد ودمشق، وفي الحبشة وبلاد العرب، تعيش عيش البهم: لا وازع من دين، ولا حرج من ظلم؛ فلم ينج من فتنة الشهوات إلا من عصم الله. . . والفتى (سلمان) من أشجانه في همّ ناصب، يتوزعه الشك واليقين، ويتعاوره الإيمان والكفر، ويراوح القلق بين نفسيه في وحدته واجتماعه؛ فما يجد له منجاة من أشجانه إلا الصبر والاستسلام حتى يجد لنفسه فرجاً من ضيق. . .
وكان ثمة أربعة من الرهبان جمعتهم على دين الرب عقيدة راسخة، وقلوب عامرة، وإيمان بالله وطيد؛ وكان لهم في كل عام مزار يجتمعون إليه أياماً ثم يذهب كل إلى واديه. كانوا من الصلاح والخير وصفاء النفس بقية من الحواريين المخلصين، عرفوا دين السلام عرفان الحق، فأقاموا على هدى المسيح خالصاً يعبدون الله لا شريك له؛ فاطمأنت نفوسهم على قلق الحياة، واستراحت قلوبهم على شغب الفتنة، فأصموا آذانهم عما ابتدع الرهبان في الدين وما زادوا ونقصوا، فبقوا على المسيحية الأولى حنفاء لله، يدعون إلى الله ما قدروا على الدعوة، أو يلزمون صوامعهم لتسبيح الديان واستجاب الله دعاء (سلمان) فوصل بهم حبْله ليهدوه سبيل الرشاد
كانوا أربعة تفرقت بهم البلاد: فراهب في دمشق، وراهب في الموصل، وثالث في نصيبين، ورابع في عمُّورية من أرض الروم. قد تقدمت بهم السن حتى أشرفوا على الآخرة، ولكنهم جِدُّ حِراصٍ على الحياة، لأن لهم في الحياة أمنية موروثة يستشرفون إليها من بعيد
ولقي (سلمان الأصبهاني) أولهم في دمشق فلزمه، فلما صفا بينهما المورد جلس الراهب يتحدث إلى فتاه:
- (أيْ بنيّ، إنها فتنة الحياة للأحياء، ولكن صبراً صبراً يا بني؛ إن شعاعة من النور تلوح من بعيد، وإنه ليوشك أن يشرق بعدها صبح أزهر. هنا من هذه الصحراء سينبثق النور

الأعظم الذي يغمر الدنيا ويشرق بالخير والسلام على البشرية كلها، إنه نبي قد أظل زمانه.
(!. . .يا ليتني فيها جذع
وانتفض الفتى وقد غمرته موجة من السرور فهزت أعطافه فمال على الراهب وقد أمسك بكلتا يديه يهزهما في فرح ونشوة وهو يقول:
(نبيّ قد أظلّ زمانه؟ من هذه البادية؟ حدثني يا أبي إن حديثك لينفذ إلى قلبي . . .
(:بكل مسرات الحياة
وابتسم الراهب وربت على ظهر الفتى وهو يقول: (صبراً، صبراً يا بنيَّ. . . إن حديث هذا النبي لمسطور في فؤادي، وإني به لمؤمن قبل مبعثه، إنها لأمنية الحياة يا بني أن أعيش حتى أراه. . .!)
!ولكن الراهب الشيخ لم تمهله المنية حتى يحقق أمله، فلم يلبث أن ذهب إلى ربه
عاد السلام والأمن إلى قلب الفتى الفارسي، وتقشعت ظلمات الشك والحيرة في نفسه، ولكن الأمل الجديد الذي بعثته في نفسه كلمات الشيخ لم تدعه له أن يستقر، فقرر رحلة ثانية من دمشق لعله يعرف جديداً من راهب الموصل عن النبي الذي أتى وقته ليرسم للإنسانية الضالة حدود سعادتها في معاني البر والرحمة والمساواة!
فتىً لدْن العود غض الإهاب، يهاجر هجرتين في سبيل الله، من أصبهان إلى دمشق، ومن دمشق إلى الموصل، وليس معه مال ولا زاد، إلا الإيمان والتقى وقلب عامر بمحبة الله؛ وقد خلف وراءه المال والأهل والسيادة، وأباً لم يكن أحد أحب إليه من ولده!
- (سيدي!)
- (ممن أنت يا فتى؟ إن في وجهك لَنَضْرةَ أبناء الدهاقين والسادة؛ ولكن عليك من وعثاء السفر مثل أبناء السبيل!)
- (سيدي!. . .)
- (سمعاً يا بني!)
- (أنا رسول (فلان) إليك - يرحمه الله - أفتأذن لي أن أقيم عندك لآخذ عنك من أمور ديني. . .؟)
- (سهلاً وكرامة يا ولدي، بارك الله عليك!)
- (أبي، إن الفتنة لتعصف عصفها، وإن شهوات الناس لتبلغ بهم مبلغ الحيوان، أفترى للإنسانية منقذاً من ضلالتها يهديها سواء السبيل؟)
- (أراك تعرف بعض ما أعرف يا بني؛ وإنك لتستشرف إلى أمل قريب. إن نبيًّا قد أظلّ أوانه، إن لم يكن فكأن قد. . . يا ليت لي فسحة في العمر حتى أراه فأومن به! إن موجة الإصلاح ستمد مدها عما قريب من هذه الجزيرة العربية حتى تفيض على البشرية جميعها من برها خيراً ورحمة، وستغسل هذه الموجة أدران البشرية وتمسح على قلبها بالطهر القدسي حتى يمتلئ العالم سلاماً ومحبة. . .
(سيمتد بك العمر يا بني - إن شاء الله - حتى ترى هذا النبي، فلا تتلبثْ في اتباع دعوته، إنه يدعو إلى خير الدنيا وخير الآخرة. . . أتراك ستعرفه يا بني حين تلقاه إن وصفتُ لك من خبره. . .؟)
وآثر راهب الموصل جوارَ الله، وخلف الفتى الفارسيَّ وليس معه إلا ربه؛ فأزمع الرحلة ثالثة إلى نصيبين
وأقام (سلمان) عند راهب نصيبين ما شاء الله أن يقيم، لا يشغله من دنياه إلا ذكر الله، وأمل جياش يخفق به قلبه الكبير، أن يرى ذلك النبي الكريم الذي تُنميه الصحراء لينشر الخصب والرخاء في ربوع البشرية ويغسل نفوس الإنسانية من أدران الشهوات. . .ثم هاجر هجرته الرابعة إلى عَمُّورية بعدما فارق صاحب نصيبين إلى جوار ربه
(أي بنيّ، والله ما أعلم اليوم أحداً على مثل ما كنا عليه من الناس آمرك أن تأتيه . . . بعدي، ولكنه قد أظل زمان نبي، وهو مبعوث بدين إبراهيم - عليه السلام - يخرج بأرض العرب، مهاجَرُه إلى أرض بين حَرَّتين، بينهما نخل به علامات لا تخفى، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، وبين كتفيه خاتم النبوة. فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل. . .)
وأقام سلمانُ بأرض عمورية ما شاء الله وهو يعمل لمعاشه، وإن الأمل العذب في لقاء النبي العربي ليداعبه في يقظته وفي أحلامه؛ واجتمع له مما يعمل بقرات وغنيمة،

فظل يترّبص حتى مر به نفر من تجار العرب، فساومهم أن يعطيهم بقراته وغنيمته ويحملوه إلى بلاد العرب. . . وسار الركب منطلقاً إلى الصحراء يحمل سلمان إلى أرض الميعاد. . .!

يا للفتى مما احتمل في سبيل الله!

خمس رحلات بلا زاد ولا مال، وليس له من أمل في دنياه إلا ربه، وكل شأن من شئون الحياة يتصاغر في عينيه حتى أهله ووطنه وجاه أبيه. . .!

العثير تثيره الرياح إلى الحلقوم والخياشيم، وذرات الرمل الساخنة تلطم الوجوه بمثل أطراف الإبر، والشمس الحارة ترسل من أشعتها سهاماً من نار تشوي الوجوه والأقفاء، والماء في القرب يوشك أن يجف من حر الصحراء، والحادي يحدو البُعْران في طريق لم يذلّل بعد للأسفار، والفتى على بعيره شارد الفكر مذهوب اللب. . .

هذه رحلته الخامسة في سبيل الله، وقد خلف الدنيا كلها وراءه لا يقيم لها وزناً ولا تخطر له على بال، لأنه مقبل على مهبط الوحي وأرض النبّوة. . . والحادي يحدو وفي نبراته حنين، وفي نغماته حزن وأسى؛ فهتف الفتى وقد هاج الحداءُ ذكرياته:

(يا لأبي الشيخ المسكين! يا لوطني الذي فارقته منذ سنوات ولا أدري متى أعود إليه. . ربّ، في سبيلك هجرتي وإليك وجهت وجهي، فاكتب لي الكرامة والظفر بلقاء نبيك المختار، وأسبغ رحمتك يا رب على أصبهان. إن في أصبهان أبي. . . وإن لي بأصبهان هوى الحبيب إلى الحبيب. . .!)

ومضى الركب إلى غايته، فلما بلغ وادي القرى، همس الركب بعضهم إلى بعض يتآمرون على الفتى الفارسيّ؛ فباعوه من رجل يهودي عبداً. . .!

لقد بلغوا بالفتى حيث أراد ولكنهم جعلوا غُلاًّ في رقبته، والفتى راضٍ صابر، لأنه مؤمن بقضاء الله، لأن له أملاً يريد أن يبلغ إليه فلا عليه مما يناله في سبيله. . . رحمة الله له!

وأرسل الفتى أذنه وراء كل أثنين يتهامسان، لعله يسمع نبأً عن النبي العربي. . . وبلغ في النهاية ما أراد: هذه هي الأرض الموعودة، أرض بين حَرَّتين، بينهما نخل به علامات لا تخفى. إنها هي، فأين هو؟ فإنه لفي رأس عزق يعمل فيه ذات يوم لسيده بعض العمل، وسيده جالس تحته، إذ جاءه النبأ:

هذا رجل قادم يتحدث إلى سيده حديثاً ذا بال: (إن بني فلانة مجتمعون اليوم بقباء على رجل قدم عليهم من مكة يزعم أنه نبي. . .!)

يا للبشرى! أيكون هو النبي الموعود؟

وسمعها الفتى فانتفض انتفاضة أوشك منها أن يسقط على سيده، فما هو إلا أن تمالك حتى نزل عن النخلة يستمع النبأ

- (ماذا تقول يا رجل؟)

هكذا أقبل سلمان على القادم يستنبئه وإن سيده ليشهد. فما إن سمعه يسأل حتى غضب فلكمه لكمة شديدة وهو يقول:

(ما لك ولهذا؟ أقبل على عملك!)

قال سلمان: (لا شيء، إنما أردت أن أستثبته عما قال!)

ثم دار على عقبه ليخفي عبرة تنحدر على خده، وإن صدره ليجيش بعواطف شتى.

فلما كان المساء جمع شيئاً من طعام كان له ثم ذهب إلى محمد بقباء:

(سيدي، إنه قد بلغني أنك رجل صالح، ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة، وهذا شيء كان عندي للصدقة فرأيتكم أحق به من غيركم. . .!)

وتناول النبي الكريم من يد الفتى الفارسي ما قدّم إليه، فدفعه لأصحابه لم يأخذ شيئاً منه. وتحققت للفتى أمارة. . .

ثم انصرف الفتى فجمع شيئاً وعاد إلى رسول الله يقول:

(سيدي، إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة، فهذه هدية أكرمتك بها. . .!)

فمد النبي إليها يده فأكل وأكل أصحابه معه. وتحققت أمارة. . .

وطغى شعور الفرح على سلمان حتى أنساه قيد الرق وذل الإسار، فسار خلف النبي يتبعه لينظر منه شيئاً قد بقي من إمارات النبوة. فإن النبي ليمشي إذ انحسر رداؤه عن ظهره فرأى. . .

وتحقق الوعد المأمول فما تلبّث الفتى حتى أكب على النبي الكريم يقبله ويبكي. . .

وآمن سلمان الفارسي بأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم. وانبثق الفجر الذي كان يرقب شروقه منذ سنوات وسنوات، وأضاء في قلبه النور الذي غمر البشرية كلها فحدَّد لها حدود سعادتها ورسم لها غايتها. ولم يمت سلمان حتى انتشر الصبح وأشرق على ربوع فارس وأصبهان، وانتظمتها الدولة الإسلامية فصارت جزءاً من الوطن الإسلامي الذي يعيش فيه سلمان الفارسي

ومازال النور ينتشر وينشر حتى عم أقطار الأرض. ومات محمد بن عبد الله ولكن شريعته ظلت باقية تمدُّ مدَّها ذات اليمين وذات الشمال، حتى عبرت المحيط، وجازت الجبال،

وحطَّمت الحدود، وأزالت السدود، ورسمت حدود (الدولة الإنسانية) التي مازال المصلحون يعملون جاهدين ليبلغوا إلى تحقيقها كي يعم السلامُ الأرض وينتشر الأمن والرخاء؛ ولن يبلغوا إلى تحقيق هذه (الوحدة الإنسانية) إلا أن يعملوا على شريعة محمد. حينئذ تمَّحى الجنسيات، وتزول العصبيات، ويذهب الطغيان، ويعيش الناس إخواناً متحابين كما ينبغي أن يعيش أبناء الإنسانية

(شبرا)

محمد سعيد العريان

البيئة الإسلامية

للأستاذ محمد أحمد الغمراوي

يعجبني من عادة (الرسالة) في إخراج عددها الهجري الممتاز أنها توجه قراءها في أنحاء العالم الإسلامي العربي مرة في العام على الأقل إلى موضوع هو أجل ما ينبغي أن يشغل بال المسلم: موضوع الإسلام والحياة به وله والجهاد في سبيله

والمسلمون اليوم ينقصهم مذكر مؤثر يذكرهم بدين الله وبحقه عليهم: حق العمل وحق الجهاد. والعمل هو من الجهاد أو هو أكبره كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رجع من إحدى غزواته: (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر) والمسلمون اليوم قد أضاعوا الجهادين، فلا هم يجاهدون العدو فيؤدوا الجهاد الأصغر، ولا هم يجاهدون النفس ويقومون بحق الله في أنفسهم وفي الناس فيؤدوا الجهاد الأكبر. وليس ينقص المسلمين العلم بما عليهم لله في أنفسهم وفي إخوانهم، فإنهم يعلمون من ذلك ما إن عملوا به لكفاهم، ولكن ينقصهم العمل بما عندهم من العلم المستفيض فيهم

والعجيب من أمرهم اليوم أنه لا يحول بينهم وبين العمل المنجي إلا صغائر الشهوة يعجزون عن مخالفتها، وحقائر المغريات يضعفون عن مقاومتها. وأعجب من هذا أن كثيرين منهم حين يطيعون المغريات يظنون بأنفسهم الحكمة ويحسبون أنهم يتابعون الصواب. وهذا شر ما في الأمر كله وأفظعه وأهوله، فإنه يدل على مبلغ بعدهم عن الدين الذي ينتسبون إليه وقربهم من الشرك الذي يبرأون منه؛ وظنهم هذا بأنفسهم يزيد في يأس اليائس منهم ويجعل عبء المتصدي لهدايتهم ثقيلاً لا يقوم به من ولي العزم إلا من يلحظه الله بتوفيق وتأييد

وعبء رد العاصي إلى الطاعة والضال إلى الهدى والمخطئ إلى الصواب عبء ثقيل على أي حال، لكن شتان بين من يقر بخطئه أو بمعصيته يود لو خرج من كل ذلك، وبين من يجادل فيما هو عليه لا يرى به بأساً إن لم يره عين الخير. فالأول ليس بينه وبين الطاعة أو الهدى أو الصواب إلا العادة، وليس أمام الداعي إلا أن يحرك فيه دواعي التغلب على العادة ويدله على الطريق حتى يتغلب بالفعل، فتنقلب العادة عوناً له بعد أن كانت عوناً عليه. أما الآخر فأصعب الصعب في أمره إقناعه بخطئه أو ضلاله، وتحريك عوامل

الأسف والندم فيه حتى يصبح كأخيه ليس بينه وبين الاستقامة إلا أن يجاهد العادة حتى يصبح سلطانها معه بعد أن كان عليه

والصنف الأخير من المسلمين قد أخذ يكثر كثرة تضيق منها الصدور وترتاع لها القلوب، ولم يكن الحال كذلك منذ ثلاثين عاماً أو أقل. كان هذا الصنف موجوداً لكنه كان قليل العدد قليل الجرأة خافت الصوت؛ وكان ما يسمى بالرأي العام ضدهم إذ ذاك في الجملة؛ كان يدعهم وشأنهم ماداموا منزوين، لكنهم كانوا إذا حاولوا الظهور ولو باسم الإصلاح والتجديد لقوا منه عنتاً غير قليل

والرأي العام ليس وليد نفسه، ولكنه وليد بيئته. ولقد كانت البيئة في ذلك الحين لا تزال دينية الروح إسلامية النزعة إلى حد كبير؛ لكنها الآن قد تغير روحها وانعكست الآية فيها في المدن، ويوشك هذا التغير أن يتخطى المدن إلى القرى على أمواج الراديو وأفلام السينما وصفحات الصحف ولو بالتدريج. فهذه الثلاثة هي أهم مكونات البيئة اليوم، وقليل منها الآن ما لا يمكن أن يوصف بأن فيه من الإسلامية كثيراً أو قليلا فالسينما أكثر أفلامها مصنوع في الغرب وأقلها مصنوع في الشرق. ومع أن هذا الأقل مصنوع في مصر التي تطمع أن تتزعم الأقطار الإسلامية إلى الخير والعزة والمجد، فإنه وذلك الأكثر المصنوع في الغرب سواء في مجافاته للدين ومنافاته لما يليق، بل قد يبذ الشرقي الغربي في ذلك كعادته في الإفراط والتفريط. لا يكاد الوالد الحريص يجد بين جميع ما يعرض في مصر من الأفلام ما يمكن أن يروح عن أولاده بأخذهم إليه من غير أن يعرضهم بذلك إلى تلويث الذهن وتدنيس الخاطر. بل لقد أصبحت السينما وخصوصاً ما تخرجه مصر من أفلامها خطراً حقيقياً على الأخلاق في هذا القطر وما يتأسى به من الأقطار. فلقد كانت هناك مسارح للتهتك والخلاعة منزوية في أماكنها التي كنا نحذرها ونحن صغار، فأصبحنا وليس يغني التحذير من مفاسدها شيئاً بعد أن أعطتها صناعة السينما قوة التكاثر كما تتكاثر الجراثيم فصارت تنتشر بأفلامها في المدن والقرى، تنشر عدوى الفساد الخلقي كما تنتقل الجراثيم فتنشر عدوى الأمراض وما يقال في تأثير السينما يمكن أن يقال في مثله تأثير الراديو مع اختلاف في المقدار. فهو كالسينما من العوامل الفعالة الطارئة على البيئة الإسلامية، وهو جدير أن يغير منها إما إلى

الخير وإما إلى الشر، ولكنه الآن إلى الشر أقرب. فإنك إذا استثنيت ما يذاع من القرآن الكريم والقليل من محاضرات الإرشاد، تجد الغالب على إذاعاته المجون والخنوثة والاستهتار. خذ بيدك أي برنامج عادي للإذاعة في أي يوم واحسب ما للهزل فيه وما للجد، تجد ما للهزل أضعاف ما للجد، وتجد أكثر هزله هزلاً غير بريء، بل بعض جده جداً غير بريء كذلك

على أن المصيبة بالراديو أعظم من المصيبة بالسينما من بعض الوجوه، فإنك تستطيع أن تتقي شر السينما خاصة نفسك بالقعود عن الذهاب بأولادك إليها، وإن كان في ذلك شيء من العنت. لكن ماذا تصنع وهذا الذي تتهرب منه بحرمان نفسك من تسلية السينما يدخل عليك وسط دارك من الراديو وأنت بين أهلك وذويك؟ إن مجون الريحاني وأضرابه وخلاعة مصابني وأضرابها تلاحق المسلم بالراديو في عقر داره. وإذا أمكن التحرز من ذلك إلى حين بإغلاق الراديو فلابد أن يأتي يوم يمل الإنسان فيه الرقابة، ويترك الراديو كالورد الخبيث مل الراعي ذود القطيع عنه. على أن المسألة ليست مسألة فرد أو أفراد يعرفون الخطر ويستطيعون توقيه بشيء من كبت الرغبة وضبط النفس، ولكن المسألة مسألة الجماهير التي لا تستطيع تمييزاً ولا امتناعا. فإذا لم يكن ما يذيع الراديو سليماً طيباً كان الراديو شراً ووبالاً على الناس ينقلهم خلسة عما ألفوا من الخير إلى ما لا يريدون أن يألفوا من الشر ومذاهبه، وينبه فيهم من نزعات السوء ما لم يكن لولا الراديو ليتنبه فيهم. والراديو الآن يخلط الصالح بالسيئ إلا أن سيئه أكثر من صالحه، وهو على أي حال كان إلى الآن عاملاً على تغيير البيئة في الأقطار الإسلامية تغييراً يبعد بها عن الإسلام

وغير الراديو والسينما من مكونات البيئة الحديثة ينحو منحاهما وإن لم يبلغ مبلغهما من القوة والذيوع. ولعل أهم هذه هي الصحف وهي مثلهما قوة هائلة تعمل في كيان البيئة، إما بتعمير وإما بتدمير. ولقد كان عهد ليس للصحف في البيئة الإسلامية من أثر، ثم جاءت الصحف وعرفها الناس لكنها في أول عهدها لم تكن تجرؤ على الخروج عن مألوف الناس من فضيلة ودين. بل لقد كانت الكلمة العليا بين الصحف إذ ذاك للإسلامية منها أيام كان المؤيد واللواء ليس لهما في ميدان الصحافة قريع. وكانا رحم الله أيامها وعوض المسلمين خيراً منهما مهما اختلف بهما يبل السياسة لا تختلف بهما سبيل الدين. فكانا لا يكادان

يشيمان الخطر على الدين من ناحية ولو من بعيد حتى يهبا لاتقائه وتنبيه الناس إلى الاستعداد له قبل وقوعه. ثم ذهبت بهما الأيام فكأنما ذهبت بذهابهما ريح الدعوة لله والمنافحة عن الإسلام. وكثرت الصحف حتى صارت عشرات بعد آحاد، لكنها كانت

حرباً على الإسلام في غالبها. كانت بين مهاجم له ومعين عليه بالسكوت أو بنشر الرد الضعيف بعد الهجوم العنيف؛ وقل بينها ما كان يهب للدفاع حيناً بعد حين. أما الثبات في الدفاع والصمود للخصم صمود المؤيد مثلا لرينان وهانوتو فلم يكن في القائمين على الصحف الإسلامية من يجشم نفسه ذلك. وكان من أثر توالي الهجوم وتلكؤ الدفاع أن دخل الخصم من حصون البيئة الإسلامية حصناً بعد حصن. فذهب الحجاب وكأنما ذهب بذهابه الحياء؛ وجاء السفور وكأنما جاء بمجيئه الفجور. وكان الفجور يكاد يكون وقفاً على الرجال فأصبحوا بعد أن فشا الرقص والاختلاط يغلبهم عليه النساء إنا لله. لشد ما غفل عن دينهم المسلمون حتى أتوا من حيث يحتسبون ومن حيث لا يحتسبون! ماذا كان عليهم لو أنهم عملوا بدينهم وأطاعوه فكفوا أنفسهم كل هذه المصايب والويلات؟ إن الرجل اليوم ليأمر ابنه فلا يسمع له، ولا يجرؤ على أن يأمر ابنته خوفاً من أن تجترئ وتجاهر بالعصيان، كأنما إقراره إياها على خطأ لا يجعلها ترتكب غيره من الأخطاء، أو كأنما مجاراته إياها فيما لا يرضي الدين سيجنبها الهوة التي لابد أن يتردى فيها كل من يعصي الدين

لقد كانت البيئة الاجتماعية يغلب عليها الشر قبل الإسلام، فلما جاء الإسلام طفق يجتث منها أصول الفساد، وطفق يصلح ويهذب ويطهر حتى ذهب عنها الرجس، وشاع فيها الطهر، وعم فيها النور؛ وأصبحت من ينشأ فيها ينشأ سليماً صحيحاً قويماً كالزرع في التربة الطيبة يأتيه النور من كل مكان. ثم أراد الله الذي يعلم أن الإنسان ابن بيئته أن يديم للإنسان نعمة إصلاحها فأقام حولها وفيها الحدود حداً بعد حد كحصن اجتماعي بعد حصن يقيها تطرق الفساد. فجلد على الخمر، وجلد ورجم على الزنا، وحرم الخلوة ومنع الاختلاط إلا للضرورة، واحتاط في المنع فضرب الحجاب. وقطع يد السارق بعد أن منع الربا، وأوجب الزكاة. فكانت بيئة طاهرة زكية يزكو فيها النشء كما يزكو النبات في البلد الطيب. فلما أصلحها للناس أمرهم أن يحافظوا على صلاحها بالأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر وإقامة الحدود، وأنزل عليهم (ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً إن رحمة الله قريب من المحسنين) فأحسنوا وأطاعوا ما أقام بينهم الرسول.

فلما علم صلى الله عليه وسلم أنه مفارقهم عن قريب حج بهم حجة الوداع وخطبهم خطبة الوداع التي لا يكاد يحفظها الآن مسلم:

أيها الناس اسمعوا مني أبين لكم فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في) موقفي هذا

أيها الناس! إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا. ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد. . .

أيها الناس! إنما المؤمنون اخوة فلا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفسه. ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد. فلا ترجعن بعدي كفارا، يضرب بعضكم رقاب بعض، فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعده: كتاب الله وسنة نبيه. ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد. . .)

هذا بعض ما عهد الرسول به إلى المسلمين في ذلك الموقف العظيم. فلما قبض صلى الله عليه وسلم أحسن المسلمون خلافته وأحسنوا السمع والطاعة لله ولرسوله وللخليفة الأول ومن بعده؛ وسار فيهم رضي الله عنه متأس بالرسول، حاملا أيهم على الحق ضارب لهم المثل بنفسه، جاعلاً طاعة الله أول الأمر وأخره (أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم. ألا إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له، وأضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه)

فلما قبض رضي الله عنه خلفه في المسلمين من كان يرعاهم رعي الأم ولدها، ويذودهم عن المهالك ذود الراعي غنمه (اقدعوا هذه النفوس عن شهواتها فإنها طلعة، فإنكم إلا تقدعوها تنزع بكم إلى شر غاية. إن هذا الحق ثقيل مرئ، وإن الباطل خفيف وبيء؛ وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة، ورب نظرة زرعت شهوة، وشهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً). وكان أكبر ما يحرص عليه رضي الله عنه ألا يتطرق إلى البيئة الإسلامية خلل أو فساد وأن بقي ضعيف النفس من المسلمين شر المغريات، حتى أنه لما سمع المتمنية تتمنى نصر بن حجاج دعا به، فلما رآه نفاه من الأرض، وأمر ألا يغيب رجل في الغزو عن بيته فوق أربعة أشهر كما أمر ألا ينزل المسلمون منازل

المترفين في البلاد التي يفتحونها مخافة أن يخرجوا من أخلاقهم شيئاً فشيئاً إذا اختلفت بهم البيئات
ثم كان أن جاءت الفتن وتغير الحال ووجد الشيطان سبيلاً إلى تلك البيئة الإسلامية المصونة عن طريق الهوى. وترخص الخلفاء بعد عهد الراشدين واحتالوا على الجمع بين هواهم وبين الدين، وهيهات؛ فكان منهم من امتُدح وتمنى المادح عليه ألا يُحد في الخمر فقال ذلك حد من حدود الله لا سبيل إلى إبطاله، ولكن سأحتال لك فكتب إلى عامله على بلد الشاعر المتهتك: من أتاك بابن هرمة سكران فاجلده مائة واجلد ابن هرمة ثمانين! وظن ذلك الأحمق أنه لم يبطل حد الله حين أفتاه شيطانه بهذا وقد أبطله بالفعل أيما إبطال إذ كان الناس يمرون على ابن هرمة مطروحاً فلا يمسونه ويقولون: من يشتري ثمانين بمائة؟ ومع ذلك فقد كان ذلك الخليفة العباسي يوصف بفقه ويلحق بالعلماء
مثل هذا النوع من الحكام وهذا الضرب من الاحتيال على إبطال أحكام الله حين تخالف منهم هوى أو شهوة هو الذي أفسد البيئة الإسلامية بعد إصلاحها، ففسد بفسادها الناس، فذهبت عنهم العزة وذهب ملكهم عن أقطار استعمرها آباؤهم بالدين والحسن الطاعة لله والنزول على أمره. ولن يستقيم للناس حال حتى ترد البيئة إسلامية خالصة كما كانت (يومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله)
محمد أحمد الغمراوي
التصوير التوضيحي في المخطوطات الإسلامية
للدكتور أحمد موسى
أتى على الباحثين في تاريخ الآثار والفنون الإسلامية حين من الدهر قصروا فيه جهودهم على درس ما كان بارزاً من تلك الفنون للعيان في المباني والآثار الظاهرة ذات الوجود المادي الضخم، مما شاهدوه من المساجد والمنائر والعمائر وكل ما بناه رجال التاريخ الإسلامي ليتخذ مكاناً بيناً في نظر الحاكمين والمحكومين؛ لأن الفنون الجميلة كانت ذات صفة يأبه لها الملوك والأمراء ويجيزون عليها أربابها؛ فلم يكن للفنان المسلم مجال يظهر به الفن لعامة الشعب، بل كان كل همه أن يتقدم إلى ملك عظيم بثمرة نبوغه الفني ليكافئه عليها. كما أن الملوك اتخذوا عادة تشييد البناء وما يتبعها من التزيين والتزويق والتأثيث تخليداً لأسمائهم وذكر عهودهم وما اشتهروا به من الغنى والقدرة على تسخير المواهب في تمجيد الدين تارة والمجد الدنيوي تارة أخرى
وعندما انبرى مؤرخو الفنون الإسلامية إلى تقسيمها وتبويبها وتحديدها بعد انتشار الاستشراق في أنحاء أوربا المتحضرة، وبعد أن طاف فريق كبير من علماء المشرقيات بلاد الإسلام وعادوا بدراسات متوافرة ومثل للآثار التي وقعت أبصارهم عليها ودروسها في حواضر الشرق القريبة والبعيدة - طبق فريق منهم على تلك الفنون القواعد التي اتبعها علماء الفن الأوربي في ترتيب الآثار، فجعلوا أقساماً خاصة للعمارة، وأخرى للنحت والرسم البارز والحفر، وثالثة للتصوير وغيرها لأنواع التحلية والنقش والزخرفة
وكان هؤلاء العلماء يزعمون أن الدين الإسلامي يحرم التصوير مع أنهم رأوا آثاره، ومع أن الدين لم يكن ليمنع هذا الفن إلا من ناحية واحدة خشية أن يتجه التأويل إلى عبادة الأصنام. هذا وفي الوقت الذي لا يوجد فيه نص يتنافى مع تقدير الجمال الخالص الذي كانت نفس النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة رضي الله عنهم مشبعة به، بدليل ما ورد من الآيات والأحاديث والتفاسير في تمجيده
وجعل المؤرخون همهم مقصوراً على تلك الآثار؛ ثم فحصوا كثيراً من المباني الإسلامية بزخارفها وما فيها من نجارة وقيشاني وأشغال المعادن؛ كذلك ما كان على الحلي والحلل وفي الأقمشة من الخز والديباج والإستبرق من تطريز وكتابة وصور. هذا إلى جانب
دواوين الشعر التي لم يجد المسلمون مانعاً من تحليتها بتصاوير عجيبة للنبات الذي اتخذوا منه وحدات زخرفية كالأزهار والسنابل والأشجار، والحيوان كالسباع والغزلان والظباء وطيور البر والبحر والأسماك. ولكنه لوحظ أن الفنان أمسك يده حينما وصل إلى تصوير الإنسان، لا خشية الكفر ولكن خشية الملام والفتنة. واستمر الإمساك عن

تصوير الإنسان حيناً حتى ازدهر الإسلام في بغداد، فترى أحد المصورين من الفرس يزين قصر أحد الملوك المسلمين في بغداد بفصول من قصة يوسف وزليخا توضيحاً وشرحاً لديوان الشيرازي الذي جعل من تلك السورة القرآنية ملحمة شعرية أتى فيها على وصف الغرام الذي كان مستولياً على فؤاد تلك الأميرة المصرية نحو ذلك النبي العبري

إلا أن هناك جانباً من الفن الإسلامي لم يلتفت إليه كثيراً قد اهتدينا إليه، وهو ما زينت به كتب العلماء والمؤرخين والأدباء من الصور التوضيحية في الكتب. وكان أولها القرآن الكريم الذي بذلت الجهود في تزويقه وتزيينه وتحليته، وإن لم يكن بنصوصه في حاجة إلى التجميل والتزويق. ولا تزال نسخ عدة منه الزينة الكبرى والحلية المثلى لكثير من المتاحف ودور الكتب في الشرق والغرب، التي اتخذت وجوده فيها مفخرة وبهجة ودليلا على الغنى الفني والثروة الأدبية.

ولم يكن في استطاعة بعض المتزمتين من رجال التفسير أن يمنع فريقاً من الفنانين من إدخال التصوير في الكتب، بدليل ما جاء في مقامات بديع الزمان المتوفى سنة 1007م ومقامات الحريري (1054 - 1121م) التي تجلى فيها التصوير بالألوان لتمثيل مغامرات البطل المشهور أبي زيد السروجي وغيره

وشمل غيرهما من الكتب ككليلة ودمنة، وبعض أجزاء الأغاني للأصفهاني (897 - 967م) وألف ليلة وليلة، كثيراً من الصور الرائعة التي دلت إلى حد بعيد على الدقة والتذوق.

ولا يمكننا أن ننكر أن فناني الفرس كانوا أسبق إلى التصوير من سواهم؛ فقد أعطاهم الشعراء الفحول كالفردوسي المولود سنة 939م، وعمر الخيام المولود في القرن الحادي عشر، والسعدي (1184 - 1291م) وحافظ المتوفى سنة 1389م وغيرهم، موضوعات منوعة توحي إلى المصور فكرة الرسم لتوضيح النصوص. فالشاهنامة وحدها وهي تنطوي

على جزء عظيم من تاريخ إيران، أشبه شيء بإلياذة هوميروس، وفيها من أخبار الملوك والأمراء وخدع الحروب وحيل السياسة ووصف الأقطار ومواقع البلدان وجمال التصور وفتنة الجبال والوديان ما جعل التصوير فيها أمراً محتما. وكذلك ما ورد في شعر السعدي من النوادر والقصص في بستان الورد. دع عنك رباعيات الخيام وما اقتضته من تصاوير تمثل الشاعر الفنان المحب للخمر المفتون بالجمال المسحور برشاقة التكوين الجسماني، وهو يطرق باب الحان ليوقظ رفاقه لمعاقرة أقداح الشراب قبل بزوغ ألوان الفجر، فلم يكن للمصور بد من الخضوع لذلك الإلهام الشعري الموسيقي القوي في سبيل الحب واندفاع النفس. وهذا هو الذي حدا بالمصورين إلى تصوير الإنسان في أوضاع مختلفة أهمها أوضاع الحرب والحب، ولا أجمل من تلك الصورة التي رسمت توضيحاً لقول الشاعر:

لم يخلق الرحمن أجمل منظرا ... من عاشقين على فراش واحد

لأن المصور قد أوتي من نقاوة الإلهام وطهارة الروح وسمو الخيال وتمجيد الجمال ما جعل صورته آية في العفة وجميل الظن مع اجتماع الحسن والشغف الظاهر في أعين العاشقين.

من أجل هذا كله وجب على القارئ كلما قلب بين يديه كتاباً إفرنجياً مصوراً أو مزيناً بالرسوم؛ أن يتذكر أن هذا الفن وهو توضيح النصوص بالتصاوير، إنما هو اقتباس من فن شرقي قبل كل شيء، وأن الذي فكر في تزيين دواوين الشعراء وكتب القصص والتاريخ بالصور كانوا من أهل الشرق كالهنود والفرس وبعض السوريين، في الوقت الذي لا ننكر فيه على بعض علماء اليونان أنهم وضحوا كتباً من تأليفهم برسوم تعين على فهم النصوص دون أن يكون لهذا أثر كبير في ابتكار المشارقة لفنون تحلية الكتب وإننا لا نذكر أن هذا البحث لا يزال بكراً، لم تتجه إليه الأنظار ولم يطرقه باحث، كما أننا لا نذكر أنه كتلك الموضوعات التي سبق البحث فيها فلا تكلف كاتبها مجهوداً كبيراً، إنما نذكر أنه قد آن لنا أن نختط خطة أخرى في دراسة الآثار الإسلامية؛ فندرس الطريف الجديد

ولما كانت العلوم التطبيقية أول ما اتجه إليه نظرنا في هذا البحث، وكان أقدم الكتب المخطوطة في هذا الموضوع حسب ما عثرنا عليه، كتاب أبي زيد البلخي (نسبة إلى

بلخ في جنوب أفغانستان) رأينا أن نبدأ بتعريف إحدى صوره وهي صورة العراق في زمانه،

والتي قصد بها أن تكون خريطة لتلك البلاد، وهي الخريطة التي اصطحبها ياقوت الحموي الإغريقي الأصل (1179 - 1299م) أثناء رحلته في سوريا وفلسطين كما ذكر ذلك في كتابه إرشاد الأريب، عندما نوء بذكر كتاب البلخي، مما يدل على قيمته في عهده

وقد جعل البلخي للأنهار صورة تشبه الخطوط الغليظة المهشرة رمزاً للماء، وأحاط المدن والمعالم بدائرة تحدد القطر المقصود بالوصف، ورسم نهر دجلة وسطه فقسم البلاد إلى قسمين، وأظهر مصبه في الخليج الفارسي عند شط العرب، ورمز للمدائن بمربعات ومتوازيات أضلاع ودوائر ذات مساحات مختلفة تناسبت على ما يظهر مع قيمتها المدنية، ولا يضيره أنه جعل الخريطة بأكملها منحرفة نحو خمس وأربعين درجة عن الأفق. ومن المدن الواضحة على الخريطة بغداد والبصرة كما يتضح من النظر إليها

والخريطة الثانية مختارة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للشريف الإدريسي المولود حوالي عام 1100، وهو من أمهات الكتب في علم وصف الأرض ومن أبرزها تأليفاً وأعرقها أثراً منذ القرون الوسطى. وقد نقل إلى كثير من اللغات الأوربية لاسيما اللاتينية والإيطالية والفرنسية، وضعه الإدريسي تلبية لرغبة الملك رودريجو (روجر الثاني 1097 - 1154م) ملك صقلية ونابولي، الذي كلفه بعد دعوته إلى بلاطه وضع هذا الكتاب، وفرغ من تأليفه في منتصف القرن الثاني عشر المسيحي. والمؤلف عالم مغربي من مواليد ثغر سويتا، ذو ثقافة عربية أندلسية وذهن أوربي، وكان في مقدمة الرحالة الجغرافيين الذين جابوا الأقطار، وهو سابق على الرحالة ليفنجستون (1813 - 1873) والرحالة ستانلي (1841 - 1904) وغيرهما من الذين قرروا أنهم كانوا أول من اكتشف منابع النيل، ووضعوا هم ومن سبقهم أسماء ملوكهم وأمرائهم على البحيرات التي رسمها الإدريسي في إحدى خرائطه الفذة (ش 2) لسبعة قرون قبل مولد هؤلاء المستكشفين. فبينما ترى بحيرتي فيكتوريا نيانزا (أصلها أوكاريو نيانزا) وألبرت نيانزا (أصلها موتان نزيجا) اللتين تتكونان من المياه المنحدرة من جبال القمر قد تغير اسمها في الجغرافية الحديثة، لا ترى الإدريسي يفكر في إطلاق أسماء بعض خلفاء المسلمين أو أمرائهم على تلك البحيرات التي لا يبعد أن يكون قد رآهما بعينه كما رسمها بيده، وترى نهر النيل بعد تدفقه من تلك البحيرات والتفافه في وادي السودان وعبوره القطر المصري ينصب في البحر الأبيض المتوسط الذي هو جزء من بحر هائل أحاط بالخريطة الشاملة لبقع بيضاء تمثل الجزائر وأشباهها.

وإذا انتقلنا إلى فنون المقاتلة التي كانت ولا تزال شاغلة لأذهان الملوك، نجد سفراً شاملا لطرقها وقواعدها، اسمه كتاب السؤال والأمنية في أعمال الفروسية لمحمد بن زين الدين العثماني، يرجع تاريخ تأليفه إلى القرن الخامس عشر الميلادي، وهو مزين بتصاوير توضح فصوله. والصورة (ش3) تبين فارسين وقد امتطى كل منهما ظهر جواده وربط ذيل كل منهما بالآخر حتى لا يفترا ولا يبتعدا، فيتمكن كل فارس من مبارزة خصمه، ووقف الجوادان على أرض مزروعة ذات زهر، وكان المصور حريصاً على تجميل الخيل وسروجها كما تلاحظ على اللوحة

ومما يثبت نجاح المسلمين في العلوم الفلكية والميكانيكية التي بنى عليها فن التوقيت بالساعات بعد المزاول، ما نراه في الصورة الرابعة المنقولة من كتاب علم الساعات والعمل بها تأليف رضوان ابن محمد الخرساني، والتي تمثل دائرة عليها ساعات النهار الإثنتا عشرة، وساعات الليل نظيرتها في النصف الأعلى من الدائرة حيث ترى قنديلاً معلقاً بسلك رفيع. والى اليسار ثقلان معلقان بسلك آخر، أحدهما توسط ارتفاع الصورة، والآخر قريب من أسفلها، وهما متصلان بالسلك المرتكز على بكرة في الركن الأعلى الأيسر. وعند الثقل الأسفل طيراً كان المقصود منه أن ينقر بمنقاره لتحديد الوقت. أما المجاري الرفيعة التي توسطت الصورة حيث النقط البيضاء المستديرة، فهذه كانت طريقا لأثقال تمر منها في أوقات معينة، مارة بفتحة في رأس الطائر الذي ترى عند قدميه وعاء نصف مستدير لجمع هذه الأثقال

والصورة الخامسة مأخوذة من فصل من كتاب السر الروحاني في علم الكيمياء القديمة الذي يرجع تاريخ تأليفه إلى القرن السابع عشر الميلادي، وكتب فيها السويد في الطبايع في العمل الأول، وبالنظر إليها ترى رأس الغول في الركن الأعلى الأيسر، وهو عبارة عن وجه مستدير لآدمي له عينان واسعتان مستديرتان وأنف أفطس وأسنان فظيعة، والى جانبه عقاب واقف على قوس وآخر على شجرة مثمرة وهو أسود اللون، قال المؤلف: (وقد طار الناس من هذا السواد الأول، وأما الغراب الثاني فمنقاره أحمر)، وفي وسط الصورة على اليسار ترى رجلا قد وقف إلى فرن، ووضع على غطاء أشبه بالقاووق وأمسك بيسراه شيئاً يخيل إلينا أنه بوتقة ليصهر فيها المعادن الخسيسة بقصد تحويلها إلى ذهب، وفي الوسط غراب أسود حالك السواد، وطير مقفص على اليسار. وعند ذيله وعلى يمين الصورة تشاهد حوضاً رقد فيه إنسان بعينين مفتوحتين ورسمت أعضاؤه بكيفية لا تخرج عن طريقة رسم التوصيلات الكهربائية اليوم، وكتب إلى جانب الحوض حمام مارية حيث تسلب روح الإنسان بطريقة السالب والموجب، أما الركن الأيسر فهو مليء بصور الآلات والأدوات إلى جانب الرموز الكيميائية القديمة

ينتج مما تقدم أننا قد اهتدينا بالبحث إلى باب جديد من الفنون الإسلامية تناولناه بشيء مبسط من التسجيل العلمي، لم تشرئب أعناقنا إلى قباب المساجد، ولا إلى رؤوس المآذن، ولا إلى سقف العمائر لنجده، ولكننا وجدناه في الكتب المهملة والكنوز المتروكة، حيث نجد في البحث والتنقيب عن معالم جديدة للحضارة الإسلامية المسجلة عن طريق الفن في مؤلفات المسلمين، الشاملة لعلوم الطب والجراحة والنبات والحيوان مما لا يتسع المجال هنا لذكره وإيضاحه. فإن كتبنا اليوم لنفتتح هذا البحث فإننا نكتب ليكون استهلالاً لسلسلة بحوث تدل على عظمة الحضارة الإسلامية عن طريق التسجيل الفني، مؤملين أن يتناول المسلمون في نهضتهم مؤلفات أجدادهم بتلك الروح التي تناول بها أهل أوربا؛ فيكون لنا بعث وإحياء لا يقلان عن بعث وإحياء أوربا في عصر الرفعة أو ما يمهد السبيل إلى نظيره

أحمد موسى
الحائز على دبلوم الدراسات العليا لتاريخ الفن العام
وإجازة الدراسة الأركيولوجية الإغريقية
ودكتوراه الفلسفة من جامعة برلين

قتيبة الباهلي
البطل الفاتح

للمستشرق الإنجليزي هـ. أ. ر. جب
الأستاذ بجامعة إكسفورد

إن انتصار الجيوش الإسلامية في آسيا الوسطى أيام عهد الوليد الأول إنما يرجع قبل كل شيء إلى التعاون التام بين عبقرية الحجاج الحكيمة ومهارة قتيبة الحربية. ولقد بولغ - من بعض النواحي - في كفاية قتيبة بن مسلم الباهلي في قيادته الجحافل، وإن كانت المصادر العربية لا تنكر الحقيقة الواضحة في أن مقدرته لا ترتكز كل الارتكاز على العبقرية. ويتجلى لنا مراراً كثيرة إلى أي مدى كان دؤوب الوالي على الاهتمام بتقدم جيوشه، وما كان يأخذ به نفسه من وضع خطة القتال، ولو أن فضل إظهارها وانتهائها بالنصر المؤزر يرجع في الحقيقة إلى قتيبة. ويظهر أن الحجاج كان كبير الثقة في قائده إلى غير حد، وكما أنه لم يكن ليتوانى عن تعنيفه ولومه وتحذيره إذا حد ما استدعى ذلك، كذلك كان لا يحجم عن إظهار تقديره لنجاح قتيبة. وسرعان ما أدرك العرب في جميع البقاع أن مقدرة الحجاج تشد من أزر قائدهم وإن استترت، فكان ذلك الإدراك مبعث كثير من هذه الهيبة التي حالت دون حدوث أي خلف في حياته أما العامل الثاني الذي ساعد في الواقع على تلك الروح فقد كان ما قام به قتيبة خلال متابعته الفتح من توحيد جهات خراسان، وتأليفه الفرس والعرب، وقيس واليمن. ولم يكن من الهين عليه أن يستبقي حماسة جنده - التي لا يعرف التخاذل إليها سبيلاً - إزاء معارك طويلة الأجل حامية الوطيس، وهيهات أن يقصر تفسير هذا الحماس على أنه الرغبة في الغنيمة الوفيرة فحسب. وليس من البعيد أن يكون مرجع نجاح قتيبة في الغالب إلى مقدرته الإدارية أكثر من رجوعه إلى حكمة قيادته. ويظهر أنه أدرك أن

استتباب سلامة ودعائم الحكومة العربية في ولاية كخراسان ينبغي أن يقوم - طوال حكمها - على تعاون الشعب الفارسي الذي يؤلف الغالبية العظمى في الإقليم: الأمر الذي لم يقم به حتى الآن أمير عربي في الشرق

ولقد أظهرت حدة النضال الحزبي عظيم الخطورة في الاعتماد على عون العرب فحسب، وعلى الأخص في وجه حركة كتلك التي أضرم لهيبها يزيد. ومن ثم فقد اكتسب قتيبة - بعمله الإيجابي هذا - ثقة الفرس وكافأها من جانبه بالثقة أيضاً. حتى ليكاد يخيل إلينا أنه باستعماله - طول حكمه - لموظفين من الفرس وتقديمه الولاة الإيرانيين إنما كان يعدهم (العشيرة) التي كان يحتاج إليها بين العرب. وعلى الرغم من أن ذلك قد جلب عليه سخط العرب وكان عاملا قوياً في إسقاطه، إلا أنه في ذلك كان أول دافع لإثارة الشعور باسترجاع العاطفة القومية في نفوس خراسان.

كذلك كان مركز آسيا الوسطى مشجعاً للعودة إلى محاولة ضم بلاد ما وراء النهر الغنية إلى المستعمرات العربية، وإن كنا في شك غير قليل إزاء الأخبار المتعلقة بمدى اهتمام العرب بهذه الناحية. ففي سنة 682م، بينما دب الضعف الداخلي في الصين من جراء مكائد الإمبراطورة وبينما كانت يداها مصفدتين بحروبها مع التبت قام الأتراك الشماليون أو الشرقيون باستردادهم استقلالهم، ولم تفلح الإمبراطورة الجديدة مطلقاً في بسط نفوذها ثانية على الأقاليم الغربية في الخانات السابقين، غير أنها مدت حكمها - بواسطة الحملات المتواصلة - على القبائل العشر التي تنزل إيلي وتشو التي يقال إنها (قد تلاشت في أغلبها) وفي سنة 701م غزا الأتراك الشرقيون بيد أنه ليس ثمة داع للاهتمام جدياً بالقول بأن قوات الملهب قد تأثرت بهذه الغزوة، ولو أنه كثيراً ما ردد هذا القول، ولابد أن التدمير والخسارة اللذين كانت تتسم بهما هذه الغزوات بلا استثناء قد ساعدا على إضعاف موارد أمراء الرعية الذين كان لهم نصيب واهٍ في اختيار ابن الخان ليقود القبائل العشر. وعلى أية حال فإن الحرب الدائمة التي كان يثير ضرامها الأتراك الشرقيون ضد التركش من 699 إلى 711م قد حالت في الواقع بينهم وبين إرسال نجدات إجابة لاستغاثات كانت تصلهم من سجديانا بطلب العون منهم. كذلك لم يكن من المستحيل على التركش التدخل في سجديانا خلال هذا العهد نفسه

ويقصد مؤرخو العرب - بلا استثناء - بكلمة (الترك) جميع السكان المحليين الذين لا يستعبد أنه كانت فيهم إبان ذلك الوقت عناصر تركية. والواضح أن الإشارات العرضية إلى الخاقان إنما هي نعوت فخر (اللهم إلا إذا أمكن إرجاعها إلى الرؤساء المحليين وذلك

أمر بعيد الاحتمال)؛ وإن قصة 98هـ التي اتخذتها فكرة التدخل دعامة لها إنما هي من نسج خيال باهلي بحت، وخلاصة القول أن تجربة العرب في السنوات الأخيرة ترينا أنه كان من المحال على قتيبة أن ينعم بهذا المجد الباذخ من النصر لو أن كتائب كبيرة من الترك وقفت وراء سجديانا تشد من أزرها في مقاومتها. وتقع فتوح قتيبة بطبيعة الحال في أربعة أوقات هي:

1 - سنة 86 هـ (705م) حيث استرد إقليم طخارستان الأدنى

2 - فتح بخارى من 87 - 90هـ (706 - 709م)

3 - تركيز نفوذ العرب في وادي جيمون وامتداده إلى صغد بين سنتي 91 و 93هـ (710 - 712م)

4 - الحملات على ولايات تركستان، من 94 - 96هـ (713 - 715م)

أما عن إقليم طخارستان الأدنى فقد كان الجهد قبل قتيبة منصباً على كبت كل ثورة تنشب في هذا الإقليم. وفي ربيع السنة السابعة والثمانين للهجرة (705م) التأم الجيش وسار من (مرورود) وطالقان إلى بلخ، ولقد خضعت المدينة - كما ورد في إحدى روايات الطبري - دون نضال ما. وتشير رواية أخرى إلى شبوب ثورة بين بعض السكان، وقد يمكن عد هذه الرواية وإن لم تكن في وضوح الباهلية - كسابقتها لورودها على لسان أخي قتيبة ولأنه يرمي من ورائها لإقامة دعوى باهلية على البرامكة. ولقد يكون هذا الرأي هو الأدنى إلى الصحة ما دمنا نسمع من أن بلخ قد أضحت خربة بعد أربع سنوات من ذلك

وتلا إخضاع بلخ إخضاع تيش ملك شغانيان الذي يحتمل أنه تعاون مع المفضل في

الهجوم على ترمذ قبل ذلك بعام واحد. ويظهر أن الدافع له على عمله هذا إنما هو الصراع مع ملك شوهان في الأودية العليا لنهري سرخان وألينجاليا، وكان يأمل أن يستخدم ضده الجيوش العربية جزاء مساعدته إياها. وحقيقة الواقع أن المفضل قد دبر حملة ضد شومان قبل استغاثته، وكانت قد خرجت تحت إمرة قتيبة الذي كان أكثر الجميع استعداداً للنهوض بها مادامت تؤكد سلامة الوصول إلى الطريق الجنوبي للبوابة الذهبية. وبعد أن فرغ قتيبة من إخضاع ملك غِسلَشْتان الذي كان من نبعة تركية كما يذكر يوان شوانج وآب قتيبة بمفرده إلى مرو تاركا جيشه يسير تحت إمرة أخيه صالح الذي قام بعدة غزوات صغيرة
أثناء الطريق.

وإنه لمن الواضح الجلي - على الرغم من زعم البلاذري - أن هذه الغزوات لابد أنها قد وقعت في الأقاليم المجاورة لنهر جيحون، ومع ذلك فإن في رواية الطبري نقصاً وهكذا فإن قتيبة لما عزل (رينزك) في بادغيس قلب الثورة أمضى شهور الشتاء في مفاوضته عن طريق (سليم المشير) وهو فارسي نافذ الكلمة قد برهنت حنكته - أكثر من مرة - في تصريف أصعب المفاوضات على حاجة قتيبة القصوى إليه. وقد أغرى (نيزك) على التسليم، وسيق إلى مرو وقرت الأغماد على ألا يدخل قتيبة بادغيس بشخصه. ومع ذلك فإن الحاكم - من باب الاحتياط - قد أمر أن يصحبه (نيزك) في جميع حملاته، ومن ثم فإنه - على الأقل في هذه اللحظة - كان قد أمن من خطر اندلاع ثورة في خراسان بطريقة شريفة لكلا الجانبين؛ وقام ابن بيروز قافلاً إلى الصين ينتظر سنوح فرصة تكون أكثر مواتاة له.

أ. هـ. جب

مظاهر الحكم في مصر الأموية

للدكتور حسن إبراهيم حسن

أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية الآداب

كانت لمصر في العصر الأموي بعض مظاهر عامة لا يستطاع إغفالها كظهور الروح القومية بين المصريين، وعلى الأخص بعد كتابة الدواوين بالعربية في عهد الوليد بن عبد الملك ابن مروان سنة 87هـ بعد أن كانت تكتب بالقبطية، وما انطوى عليه هذا العمل من إقصاء القبط عن كثير من مناصب الدولة، وكانوا يقومون بجباية الخراج، وإليهم تسند الوظائف الكتابية؛ مما أدى إلى إحياء روح القومية عند القبط، ودفع بهم إلى الصياح والقيام في وجه الولاة، وما كان أيضاً من اشتداد العمال في جمع الخراج وظهور روح العصبية بين القبائل العربية، وكان لهذا العصر مزاياه ومظاهر حضارته، فقد امتاز بعض ولاته بعطفهم على القبط، فسمح مسلمة بن مخلد (47 - 62هـ) لهم بأن يبنوا كنيسة في الفسطاط

ولقد ولى مصر في هذا العصر رجال عرفوا بالكفاية والدراية وحسن السياسة فنشروا العدل بين الناس، وأتوا بضروب من الإصلاح تشهد بمبلغ اهتمامهم بترقية الزراعة والصناعة وفن العمارة وغيرها

ومن بين هؤلاء مسلمة بن مخلد فقد بنى بالروضة مقياساً للنيل وداراً للصناعة، ورد الروم على أعقابهم حينما نالوا البرلس، واهتم ببناء المساجد وإصلاحها، فأمر في سنة 53هـ بجامع عمرو ابن العاص فهدم وبني من جديد، وأمر في السنة نفسها بابتناء منارات المساجد كلها

ولقد وفى شروط النيابة عن الإمام فكان يقيم الصلاة بنفسه طول مدة ولايته. ونظم الآذان فكان مؤذنو الجامع العتيق يؤذنون الفجر إذا مضى نصف الليل، فإذا فرغوا من آذانهم أذن كل مؤذن في الفسطاط في وقت واحد، وأمر ألا يضرب بناقوس عند آذان الفجر.

وكان عبد العزيز بن مروان من أحسن الولاة الذين حكموا مصر في هذا العصر. جاء في صحبة أبيه مروان حين جاء لاسترداد هذه البلاد من عامل عبد الله بن الزبير، وبقي فيها شهرين. ولما عزم مروان على العودة إلى الشام جعل صلاة مصر وخراجها إلى ابنه عبد

العزيز، وكان بعض المصريين في ذلك الوقت على الشنآن لمروان ولبني أمية، فخاف عبد العزيز عاقبة مقامه في هذا البلد وأفضى بذلك إلى أبيه، فرسم له هذه الخطة

المثلى التي ينبغي أن يسير عليها، فيتألف قلوب المصريين على اختلافهم. وتبين له أن هذا الأمر لا يمكن تحقيقه، إلا إذا أسرهم عبد العزيز بجوده وإحسانه، وجذبهم إليه بالمودة ولين الجانب والبشاشة، وبين لكل زعيم أنه من خاصته، وبهذا وحده يتفانى الجميع في خدمته، ويجمع الكل على طاعته. يقول الكندي قال عبد العزيز: (يا أمير المؤمنين، كيف المقام ببلد ليس به أحد من بني أمية؟) فقال له مروان: (يا بني عمهم بإحسانك يكونوا كلهم بني أبيك، واجعل وجهك طلقاً تصف لك مودتهم، وأوقع إلى كل رئيس منهم أنه خاصتك دون غيره يكن عيناً لك على غيره وينقاد قومه إليك. وقد جعلت معك أخاك بشراً مؤنساً، وجعلت لك موسى ابن نصير وزيراً ومشيراً وما عليك يا بني أن تكون أميراً بأقصى الأرض. أليس ذلك أحسن من إغلاقك بابك وخمولك في منزلك؟)

هذه هي النصيحة الذهبية التي زود بها مروان ابنه عبد العزيز عند توليته أمر مصر. ولم يفت مروان أن يزيد ابنه من النصائح في وصية أخرى ما يكفل له الراحة والطمأنينة في هذا البلد عند رحيله إلى الشام، فلقد أوصاه بتقوى الله في السر والعلانية وبالبر بالفقراء، وبتنفيذ وعده إذا ما وعد ولو حال دون ذلك شوك القتاد، وأن تكون المشورة رائده قبل الفصل في أمور الدولة، وبذلك تلهج الألسنة بالدعاء له ويأمن الفتن والقلاقل

ولقد عمل عبد العزيز بنصائح أبيه فنجحت سياسته في مصر النجاح كله، وأتى في عهده بكثير من ضروب الإصلاح فبنى مقياساً للنيل، وزاد في الجامع العتيق من ناحية الغرب، وأدخل في شماله رحبة فسيحة وأقام على خليج أمير المؤمنين قنطرة عند الحمراء القصوى بطرف الفسطاط وكتب عليها اسمه وذلك سنة 69 هـ، واتخذ حلوان داراً لإقامته بعد أن أصيب بداء الجزام على ما يخالف قول المؤرخين من أنه انتقل إليها لتفشي الوباء في الفسطاط، وأنشأ بها بركة كبيرة ساق إليها الماء من العيون القريبة من المقطم على قناطر تصل عيون الماء بالبركة. وفي حلوان غرس عبد العزيز النخيل والأشجار وبنى المساجد والعمارات الفخمة. حتى قيل إنه بذل في سبيل ذلك مليون دينار ولقد بلغ من عنايته بفن العمارة والتماثيل أن ابتنى في الفسطاط حماما لابنه ذَبّان، وأقام على باب هذا الحمام تمثالاً عجيباً من زجاج على شكل امرأة وأطلق عليه أبو مرة، وباسمه تسمت القيسارية التي كانت ملكا لعبد العزيز باسم قيسارية أبي مرة، وكانت تعرف في زمن ابن دقماق (المتوفى سنة 711هـ) بحمام بثينة

نعم! لقد طالت ولاية عبد العزيز على مصر فأتيح له أن يأتي بكثير من الإصلاح، واستطاعت البلاد في أيامه أن تظهر بمظهر النشاط الأدبي والمادي. ولقد بالغ الشعراء فيما أتاه هذا الوالي من أعمال البر والإحسان والكرم، فقال بعض المؤرخين إنه (كان له ألف جفنة تنصب حول داره، ومائة جفنة تحمل على العجلات ويطاف بها على قبائل مصر. وفي ذلك يقول الشاعر:

كلُّ يومٍ كأنه يومُ أضحى ... عند عبد العزيز أو يومُ فِطر
وله ألف جفنة مترعاتٍ ... كلَّ يوم تمدّها ألف قِدْرِ

هذا وبالرغم من أن خراج مصر كان إلى عبد العزيز بن مروان، فقد قيل إنه لم يترك عند وفاته من المال غير سبعة آلاف دينار عدا أملاكه في حلوان، وقيسارية أبي مرة وما خلفه من الثياب والخيل والرقيق. فلا غرو إذا أجمع الناس على محبته ورضوا عنه وعن ولايته. ورثاه الشعراء أحسن رثاء فقال سليمان ابن أبان الأنصاري:

فمن ذا الذي يبني المكارم والعُلا ... ومن ذا الذي يُهْدَى له بعدَك السِّفر
فكنتَ حليف العرف والخير والندى ... فمثْن جميعاً حين غَيَّبكَ القَبْرُ
فبعدك لا يُرْجى وليدٌ لنفعةٍ ... وبعدك لا ترجى عوان ولا بكر

تلك هي مصر في فترة من حياتها الإسلامية الزاهرة في عهد عبد العزيز بن مروان من بني أمية.

حسن إبراهيم حسن
التصوف الإسلامي
نشأته وأصوله
للمستشرق الإنجليزي الدكتور ريولد نيكلسون

الأستاذ بجامعة كمبردج
يعد الصوفيون الحسن البصري واحداً من جماعتهم. والواقع أنه كان إلى حد بعيد يعلق أهمية عظمى على الاستقامة النفسية، ولم يكن قانعاً بالعبادات الظاهرية فحسب. ولقد قال: (مثقال ذرة من الورع السالم خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة) بيد أنه على الرغم من أن بعض أقواله الواردة في التراجم المتأخرة تؤيد الزعم القائل بأنه كان صوفياً عميقاً، إلا أنه ليس ثمة شك في أن تصوفه - إذا جاز أن ينعت بهذا الاسم - كان من النوع الشديد الاعتدال؛ وأنه كان في حاجة قصوى إلى الحمية والهيام الذي نجدهما عند الصديقة الورعة رابعة العدوية التي تربطها به الأقاصيص
ولقد اختلف الصوفية أنفسهم في تفسير أصل اسم (الصوفي) وذهبوا في ذلك مذاهب شتى متباينة، ومن بين الاشتقاقات التي ذكرت ثلاثة تستحق عناية الباحث وهي التي تربطها بكلمة (سوفوس) اليونانية (المقابلة لـ في الإنجليزية) أو صفا أو (صوف) أما الاشتقاقان الأولان فلا يدعمهما أي أساس لغوي ولسنا بحاجة لنقاشهما. ولو أن الاشتقاق من (صفا) مقدم لدى من يعتد به من شيوخ الصوفية، ومقبول على العموم في الشرق. والسبب في هذا الترجيح يتضح لنا من مثل هذه التعاريف كقولهم: (الصوفي من يحفظ قلبه صافياً لله) و (الصوفية الاصطفاء) وإذا فهمناها على هذا الاعتبار فقد صارت للكلمة دلالة سامية هيأتها للاختيار دون سواها
ومهما يكن الأمر فإنه يمكن إرجاعها إلى أصل ضئيل، ذلك أنه كان من مألوف عادات المتقشفين والزهاد عادة في العصور الأولى من الإسلام وهي لبس الصوف لما كانوا عليه - كما يقول ابن خلدون - من مخالفة الناس الذين يرفلون في الثياب الغالية، ولهذا فإن اسم (صوفي) الذي يدل لأول وهلة على المتقشف المرتدي الصوف صار كمدلول القاووق على الرهبان الكابوشيين؛ وطبقاً لما يذكره القشيري أصبح هذا اللفظ شائع التداول قبل نهاية
القرن الثاني للهجرة أعني منذ عام 815م؛ مع أنه في خلال هذا الوقت أخذت حركة الزهد في الإسلام تصطبغ إلى حدٍ ما بصبغة جديدة. ولابد أن معنى صوفي - بفرض وجود الكلمة إذ ذاك - قد أصابه بعض التغيير. ويخيل إلي أن هذا اللقب الذي نحن بصدده الآن يعين نقطة انتقال من الزهد السني، وأنه - كما يقرر الجامي - قد أطلق أولاً على أبي هاشم الكوفي المتوفى قبل سنة 800م الذي أسس (خانقاه) للصوفية في الرملة بفلسطين. ومهما يكن الأمر، فإن الفارق بين الزهد والتصوف (ذلك الفارق الذي هو على وجه العموم كالتفرقة بين الحياة الطهرية وبين طريق الكشف في التصوف الغربي في القرون الوسطى) أقول إن هذا الفارق قد أخذ في الظهور قبل انصرام العهد الأموي، وسرعان ما تقدم في صدر العصر العباسي تحت تأثير الأفكار الأجنبية وعلى الأخص الفلسفة اليونانية. ولندع الكلام عن مدى تطور هذه الحركة الأخيرة للكلام عنها في فرصة أخرى وسنتناول الآن في إيجاز أصل الصوفية كما تسمى عادة، والظاهرة الأولى للدوافع الخاصة التي قامت عليها
أما فيما يتعلق بأصلها فلسنا نستطيع أكثر من نقل الملاحظات التي قدم بها ابن خلدون لفصله عن الصوفية في مقدمة كتابه التاريخي الجليل حيث يقول: (إن هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة، وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف، فلما نشأ الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوّفة)
من هذا يتضح لنا أن التصوف - إذا لم يكن في أصله تطوراً لحركة الزهد التي كان الحسن البصري ممثلها البارز كما رأينا - قد نشأ على كل حال من هذه الحركة وتفرع عنها. ولم يكن التصوف نظاماً تأملياً كهرطقة المعتزلة، ولكنه إيمان عملي وقاعدة للحياة، فيقول الجنيد: (ما أخذنا التصوف من القيل والقال ولكن من الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات)

وكان الصوفيون القدامى زهاداً نسّاكا، كما كانوا أيضاً أكثر من ذلك، ذلك أنهم إما طلعوا على الناس بالجوهر الروحي والرمزي الموجود في الإسلام، أو أنهم أدخلوه فيه إذا لم يكونوا قد وجدوا حينذاك. ويقول السهروردي: (التصوف غير الفقر، والتصوّف غير الزهد، والتصوف اسم جامع لمعاني الفقر ومعاني الزهد مع مزيد وإضافات لا يكون بدونها الرجل صوفيا وإن كان زاهداً فقيرا) ثم يمضي بعد قليل في شرح الخلاف في قوله: (الفقير في فقره متمسك به متحقق بفضله، يؤثره على الغنى متطلعاً إلى ما تحقق من العوض عند الله لحديث نبوي)، فكلما لاحظ العوض الباقي أمسك عن الحاصل الفاني، وعانق الفقر والقلة، وخشي زوال الفقر لفوات الفضيلة والعوض، وهذا عين الاعتدال في طريق الصوفية، لأنه تطلع إلى الأعواض وترك لأجلها، والصوفي يترك الأشياء لا للأعواض الموعودة، بل للأحوال الموجودة، فإنه ابن وقته، وأيضاً ترك الفقير الحظ العاجل، واغتنام الفقر اختيار منه وإرادة، والاختيار والإرادة علة في حال الصوفي، لأن الصوفي صار قائماً في الأشياء بإرادة الله لا بإرادة نفسه، فلا يرى فضيلة في صورة فقر ولا في صورة غنى، إنما يرى الفضيلة فيما يوفقه الحق فيه ويدخله عليه)

ومفتاح التصوف نكران الذات وعدم الأثرة أو بمعنى آخر (الحب) ومع أن هذه الفكرة ليست غريبة بأكملها، إلا أنها كانت بعيدة جداً عن أن تكون معروفة للمسلمين الأتقياء الذين كانوا متأثرين تماماً بقوة الله وبطشه أكثر من رحمته وغفرانه. وإن جل تاريخ التصوف لهو مناهضة التفرقة غير الطبيعية بين الله والإنسان، وتبعاً لذلك لا أرى ثمة ضرورة تدعونا للبحث عن أصل المذاهب الصوفية في غير الإسلام، على الرغم من أنه من الخطل ألا نذكر الأثر المسيحي الذي أثر ولابد في الحركة في طورها الأول.

أما الطابع التفكيري الذي أشربوه شيئاً فشيئاً، والذي بد لهم على مر الزمن فقد كان بين مد وجزر وارتفاع وانخفاض طوال العصر الأموي وطيلة قرن تقريباً بعد تقلد بني العباس مقاليد الخلافة والحكم. ولا يزال الصوفيون الأوائل ينهجون منهج السنة، فَصِلَتهم بالإسلام نسبياً كصلة متصوفي الأسبان في القرون الوسطى في الكنيسة الكاثوليكية. ذلك بأنهم كانوا يعلقون كبير أهمية على بعض النواحي الخاصة في التعاليم الإسلامية ويولونها جل اهتمامهم بدرجة تجعل النواحي الأخرى تكاد تكون في حيز العدم. وهم لا ينهمكون في علم الكلام ولكنهم يكرسون أنفسهم لمسائل تتعلق باللاهوت العملي، وإن نكرانهم للذات وتقشفهم البالغ أقصى نهايته وتقواهم الحادة واعتزالهم. . . كل هذه الأمور جعلت خواص رسالتهم الأولية توصف بالذهول

ترجمة: ح. ح

من شهداء الإسلام

عمار بن ياسر

للأستاذ كامل محمود حبيب

(ابشروا آل عمار فإن موعدكم الجنة)

(حديث شريف)

وقف بباب دار الأرقم رجل آدم طوال أصلع أشهل العينين بعيد ما بين المنكبين. . . وقف يردد بصره فيما حوله وإن الشيطان ليوسوس له يريد أن يثنيه عن عزمه، وإن قلبه لينتفض مما استولى عليه من الرعب. وكيف لا يستلبه الفزع من بعض عقله وهو في هذا البلد وحيد؛ فما من عشيرة تحميه، وما من أهل يدفعون عنه الأذى؛ وقريش من ورائه في الصولة والسلطان أشداء على صحابة محمد ورفاقه، يصبون عليهم فنوناً من القسوة والعذاب في غير رحمة ولا شفقة؟ واصطرع في رأس الرجل عاملان: هنا النبي الكريم يشرق النور الإلهي من جبينه فيسطع متألقاً يجذب إليه جماعة ممن رضي الله عنهم، وهناك قريش لا تستطيع أن تنزل عن كبريائها في هوان وذلة وهم سادة القوم وأمراؤهم فكيف يلقون السلم في ضعة؟ كلا، بل أرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون

أفينكص الرجل على عقبيه ليتردى في الغواية مرة أخرى ويعكف على أصنام من حجارة لا حول لها ولا طول، أم يندفع فيلج باب دار الأرقم ليلقى محمداً. . . ثم يتلظى - بعد حين - بنار يؤج سعيرها وتنبعث من قلوب عليها أقفالها. . . قلوب قريش

. . .المغيظة المحنقة؟ وأطرق يفكر ما يطمئن إلى أمر
وجذبه من أخيلته صوت أقدام تسير إليه في وناء وثبات. . . فإذا صهيب بن سنان أمامه، فاندفع يحدثه: (ما تريد يا صهيب؟) قال صهيب (بل ماذا تريد أنت يا عمار) قال: (أريد أن أدخل على محمد فأسمع كلامه) قال صهيب: (وأنا أيضاً، فوربي لقد دفعني قلبي إليه وإن خواطري لتضطرب في خيالي خشية مما ألاقي بعد) ثم انطلقا جنباً إلى جنب إلى حيث النبي فأسلما معاً، وما استطاعا أن يبرحا الدار حتى خيم الظلام على الأرض، فخرجا
. . .يتسللان
وأشرق نور الإيمان في قلب عمار بن ياسر فما استطاع أن يكتم نزوات الفرح والغبطة في قلبه، فراح إلى أبيه (ياسر) وأمه (سمية) يحبب إليهما الإسلام فأسلما. وانطلق هو يعلن عن إسلامه في جرأة لا يرهب القوة والثائرة، ولا يخاف العذاب الأليم وأفتتن آل حذيفة في تعذيب آل ياسر - وما آل ياسر سوى عمار وأمه وأبيه - لا يتورعون من شر. . . لقد مات ياسر في العذاب، وماتت سمية إثر طعنة من يد أبي جهل؛ وعمار يشهد فما وهن وما استكان، فأغلظوا عليه وفي قلوبهم مراجل من الغيظ يحمى عليها بنار من الصلف كلما خبت زادها الشيطان سعيراً.
وفي ذات مرة أخذوا يغطونه في الماء المرة بعد المرة فما تركوه حتى نزل عند رأيهم وقد بلغ به الجهد مبلغه، وهم يقولون له: (اللاّت والعزى إلهك من دون الله) فيقول هو: (نعم) ويقولون له: (هذا الجعل إلهك) فيقول: (نعم). وحين انفلت من بين أيديهم استشعر وبال أمره فراح يكفر عن خطيئته بعبرات الأسى والندم، ويستغفر الله أن زل لسانه، وفي قلبه حسرات وحسرات. ولقيه رسول الله (ص) وهو في أحزانه ما يستطيع أن يكفكف بعض عبراته يمسح عن عينيه وهو يقول: (ما ورائك؟) قال عمار: (شر يا رسول الله، والله ما تركت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير) فقال: (وكيف تجد قلبك؟) قال: (مطمئن بالإيمان) قال (فإن عادوا فعد) فانطلق عمار وقد مسحت كلمات النبي (ص) على أحزانه
وانطلق الفوج الأول من المسلمين إلى الحبشة فراراً من أذى قريش وخوفاً من الهوان والفتنة، وعلى أثره الفوج الثاني وفي أكبادهم حرق أن نأوا عن وطنهم وأولادهم وعشيرتهم، وعمار صابر على أذى الكفار يتحمله في جلد وصمت على حين لا يستطيع أن يصبر عن مشرق النور والرحمة من وجه النبي (ص)، وما يزيده العذاب إلا إيماناً بمحمد (ص) ودين محمد
وهاجر عمار - فيمن هاجر - مع النبي (ص) إلى المدينة فهبطها ضحى، فما تلبث حتى أخذ يشيد للرسول مسجداً يقيم فيه الصلاة في غير حذر ولا رقبة، وفي نفسه اللذة والطرب وهو ينشد: (نحن المسلمون نبتني المساجدا) ورسول الله يردد: (المساجدا) واندفع القوم يشد بعضهم أزر بعض يحمل كل واحد منهم لبنة لبنة غير عمار فهو يحمل لبنتين لبنتين،
وراع القوم أن يجهد عمار نفسه فتنقل الحديث في همس: (إن عماراً يريد أن يقتل نفسه فهو يحملها فوق طاقتها!) وسمع النبي (ص) الحديث فراح ينفض التراب عن رأس عمار وهو يقول: (ويحك ابن سمية! تقتلك الفئة الباغية!)
ولصق هو بالنبي ما ينأى عنه في سلم ولا حرب لأن قلبه وإيمانه لا يطاوعانه على أن يفعل. . .
ولحق النبي الكريم بالرفيق الأعلى فبكاه عمار - فيمن بكى - سحاً وتسكاباً، وفي قلبه - من أثر الفراق - جرح ما يندمل إلا أن يلحق بسيده، ثم هو لم يستشعر الوهن ولا الضعف في دينه
وارتد مسيلمة وقومه حين انفرجت الثغرة بموت الرسول فاندفع إليهم عمار - فيمن اندفع - ثائراً هائجاً يهدر يريد أن يؤدب قوماً على عصيانهم، وحين وجد في المسلمين هوادة وفتوراً ارتقى هو شرفاً عالياً ثم أخذ ينادي وقد قطعت أذنه: (إلي، إلي يا معشر المسلمين، أنا عمار بن ياسر، أمن الجنة تفرون؟ هلموا إلي!) ثم اندفع إلى الصفوف يفرق ما اجتمع منها كأنه فتى في الثلاثين، وهو قد شارف السبعين من سني حياته رحم الله عمر بن الخطاب فلقد كان بصيراً بأقدار الرجال حين أمر عمار بن ياسر على الكوفة وكتب إلى أهلها: (. . . أما بعد، فإني بعثت إليكم عمار بن ياسر أميراً وعبد الله

بن مسعود وزيراً ومعلماً، وإنهما لمن النجباء من أصحاب محمد من أهل بدر فاسمعوا لهما وأطيعوا واقتدوا بهما. . .)

لقد تأمر عمار على الكوفة فما أخذته كبرياء المنصب، ولا روعة الإمارة؛ ثم عزله عمر فما استولى عليه اليأس، وما حمل لأمير المؤمنين في قلبه حفيظة ولا حقداً، بل قال: (والله لقد ساءتني الولاية بقدر ما ساءني العزل) واندفع على سننه لا يجد الخور ولا الفتور إلى نفسه سبيلاً

يا عجباً! يا عجباً! يتغلغل الإيمان في القلب فيحجب الإنسان عن لذاذات الحياة ومباهجها لينقله إلى لذاذات ومباهج أخر هي لذاذات قلبه ومباهج دينه؛ ثم ينزع عنه أطماع الدنيا وشهواتها فإذا سواء لديه أن يكون له ملك لا ينبغي لأحد من بعده، أو يكون فقيراً لا يستطيع السبيل إلى اللقمة يقيم بها صلبه إلا بشق الأنفس

ووقعت الفتنة الكبرى بين المسلمين، فانشقت العصا، وغدا كل حزب يزعمون أن الحق إلى جانبهم، فانضم عمار إلى عليّ وأصحابه وهو يقول: (تالله لو ضربنا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لعلمتُ أنَّا على حق وأنهم على باطل) وراح يدفع عن الحق فما يهن ولا يستكين. وإنه في يوم صفين لعلى رأس رجال من أصحاب النبي كأنهم علم، إن تيامن تبعوه وإن تياسر تبعوه، وهو يحرضهم بقوله: (أتفرون من الجنة والجنة تحت البارقة. اليوم ألقى الأحبة: محمد وحزبه) وفي يده حربة ترعد وهو ينادي: (ألا مَنْ يبارز؟ ألا مَنْ يبارز؟)

(!ويحك ابن سمية! تقتلك الفئة الباغية)

وشهد هذا اليوم مشهداً مروعاً من مشاهد الحرب تنفطر له الأكباد، هو قتل عمار بن ياسر! لقد رماه أبو العادية المزني بالرمح على حين غفلة منه فهو إلى الأرض. . . ثم أكب عليه آخر فاحتز رأسه في غلظة وجفاء. . . وانطلقا يختصمان لدى معاوية في رأس عمار وكل واحد منهم يقول: (أنا قتلته) علهما يصيبان أجراً. وعند معاوية عمرو بن العاص وابنه عبد الله ورجال من خاصته والمقربين إليه، فقال عبد الله: (ليطب به أحدكما نفساً لصاحبه، فإني سمعت رسول الله (ص) يقول: تقتله الفئة الباغية) وقال عمرو بن العاص: (والله إنهما ما يختصمان إلا في النار، ووالله لوددت أني مت قبل هذا بعشرين سنة) فأربد وجه معاوية وهو ما يستطيع أن يدفع عن نفسه بعض ما أصابها، وفي قرارة نفسه أن جيشاً من أقوياء المسلمين وأشدائهم ما يقدر على أن ينال منه بعض ما يناله حديث عمرو بن العاص وابنه إن هو شاع بين جنوده

وهناك في العراء وقف علي بن أبي طالب عليه السلام بازاء جثمان عمار بن ياسر يقول وفي قلبه الأسى والحزن على أن فقد صاحب الرسول الله وحبيبه: (إن امرءاً من المسلمين لم يعظم عليه قتل ابن ياسر، وتدخل به عليه المصيبة الموجعة لغير رشيد. رحم الله عماراً يوم أسلم، ورحم الله عماراً يوم قتل، ورحم الله عماراً يوم يبعث؛ لقد رأيت عماراً وما يذكر من أصحاب رسول الله (ص) أربعة إلا كان رابعاً ولا خمسة إلا كان خامساً، وما كان أحد من قدماء أصحاب رسول الله يشك أن عماراً قد وجبت له الجنة في غير موطن ولا اثنين، فهنيئاً لعمار بالجنة. . .)

وانطوت صفحة بيضاء ناصعة من صفحات الإسلام وانقض ركن من أركان الإيمان الثابت. . . فرحم الله عماراً

كامل محمود حبيب

ابن البناء المراكشي

للأستاذ قدري حافظ طوقان

كان ابن البناء من علماء القرن الرابع عشر للميلاد، نبغ في الرياضيات والفلك وله فيهما مؤلفات قيمة ورسائل نفيسة تجعله في عداد الخالدين المقدمين في تاريخ تقدم العلم

ومن المؤسف ألا يُعطى نتاجه حقه من البحث والتنقيب، ولولا بعض كتبه التي أظهرها المستشرقون الذين يعنون بالتراث العربي لما استطعنا أن نعرف شيئاً عن مآثره في العلوم. وعلى الرغم من قلة المصادر فقد استطعنا أن نجمع بعض المعلومات عن حياته وآثاره، ورأينا أن الإخلاص للحقيقة يدعونا إلى إنصافه وعرض سيرته على الباحثين فقد يكون في هذا العرض ما يحفز البعض إلى الاهتمام بتراث ابن البناء وإزالة ما أحاط هذا التراث من غيوم الغموض والإهمال

وُلد ابن البناء في غرناطة في النصف الأخير من القرن الثالث عشر للميلاد؛ واسمه أبو العباس أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي وكني بابن البناء لأن أباه كان (بناء) كما اشتهر بلقب المراكشي لأنه أقام مدة في مراكش ودرّس فيها العلوم الرياضية. وقد نبغ على يديه كثيرون لمعوا في ميادين العلوم وكان أحدهم أستاذاً للمؤرخ الشهير ابن خلدون

كان ابن البناء منتجاً وكان عالماً مثمراً، فقد أخرج أكثر من سبعين كتاباً ورسالة في العدد والحساب والهندسة والجبر والفلك والتنجيم ضاع معظمها ولم يعثر العلماء الإفرنج والعرب إلا على عدد قليل منها، نقلوا بعضه إلى لغاتهم. وقد تجلى لهم منها فضل ابن البناء على بعض البحوث والنظريات في الحساب والجبر والفلك

لقد قامت شهرة ابن البناء على كتابه المعروف بـ (كتاب تلخيص أعمال الحساب) الذي يعد من أشهر مؤلفاته وأنفسها؛ وبقي هذا الكتاب معمولا به في المغرب حتى نهاية القرن السادس عشر للميلاد كما حاز على اهتمام علماء القرن التاسع عشر والقرن العشرين. ويعترف سمث وسارطون بأنه من أحسن الكتب التي ظهرت في الحساب، وهو يحتوي على بحوث مختلفة تمكن ابن البناء من جعلها (على الرغم من صعوبة بعضها) قريبة التناول والمأخذ. أوضح النظريات العويصة والقواعد المستعصية إيضاحاً لم يسبق إليه فلا تجد فيها التواء ولا تعقيداً

في هذا الكتاب بحوث مستفيضة عن الكسور وقواعد لجمع مربعات الأعداد ومكعباتها، وقاعدة الخطأ لحل المعادلات ذات الدرجة الأولى والأعمال الحسابية. ولولا أن الإتيان على هذه القاعدة يستدعي استعمال خطوات قد لا يجد فيها الكثيرون طرافة أو متاعاً لأتينا عليها تفصيلا. وفي هذا الكتاب أيضاً طرق لإيجاد القيم التقريبية للجذور الصماء، فلقد أعطى قيماً تقريبية للجذور التربيعية لبعض المقادير. وكانت هذه القيم موضع دهشة العلماء الرياضيين وإعجابهم

وهناك قيم أخرى تقريبية للجذور التكعيبية لمقادير جبرية أخرى، وهذه العمليات بالإضافة إلى عمليات القلصادي أبانت طرقاً لبيان الجذور الصماء بكسور متسلسلة وكتاب التلخيص هذا كان موضع عناية علماء العرب واهتمامهم يدلنا على ذلك كثرة الشروح التي وضعوها له، فلقد وضع عبد العزيز علي بن داود الهوازي أحد تلاميذ ابن البناء شرحاً. وكذلك لأحمد بن المجدي شرح ظهر في النصف الثاني من القرن الرابع عشر للميلاد. ولابن زكريا محمد الأشبيلي شرح موجود في مكتبة أكسفورد.

وللقلصادي شرحان أحدهما كبير والآخر صغير؛ وقد زاد على شرحه الكبير خاتمة تبحث في الأعداد التامة والزائدة والناقصة. وظهر لنا في أثناء مطالعاتنا في مقدمة ابن خلدون أن هناك شرحا لكتاب التلخيص وضعه ابن البناء اسمه كتاب رفع الحجاب، (وهو مستغلق على المبتدئ بما فيه من البراهين الوثيقة المباني. وهو كتاب جليل القدر أدركنا المشيخة تعظمه، وهو كتاب جدير بذلك، وإنما جاءه الاستغلاق من طريق البرهان ببيان علوم التعاليم لأن مسائلها وأعمالها واضحة كلها وإذا قصد شرحها فإنما هو إعطاء العلل في تلك الأعمال وفي ذلك من العسر على الفهم ما لا يوجد في أعمال المسائل. . .)

وقد رغب العالم (وويكه) أن ينقل محتويات كتاب التلخيص إلى الفرنسية فحال موته دون ذلك. وأخيراً نقله (أريستيد مار) إلى الفرنسية في النصف الأخير من القرن التاسع عشر للميلاد. ويقضي علينا الواجب العلمي أن نشير إلى أن بعض علماء الغرب أغاروا على الكتاب المذكور وادعوا لأنفسهم دون أن يذكروا المصدر الذي اعتمدوا عليه ونقلوا عنه. وكان الرياضي الفرنسي الشهير (شال) أول من أشار إلى هذا في رسالة قدمها إلى المجمع العلمي في أوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر للميلاد

ولابن البناء كتب ورسائل في الحساب كرسائل (مقالات في الحساب) التي تبحث في الأعداد الصحيحة الكسور والجذور والتناسب، وكتاب تنبيه الألباب، ورسالة في الجذور الصماء وجمعها وطرحها، وكذلك له رسائل خاصة بالتناسب ومسائل الإرث

ولم يقف نتاج ابن البناء عند هذا الحد، بل وضع كتابين في الجبر أحدهما يسمى كتاب الأصول والمقدمات في الجبر والمقابلة، والثاني كتاب الجبر والمقابلة

وفي الهندسة له رسالة في المساحات، أما في الفلك فله مؤلفات وأزياج عديدة، منها

كتاب اليسارة في تقويم الكواكب السيارة، وكتاب تحديد القبلة، وكتاب القانون لترحيل الشمس والقمر في المنازل ومعرفة أوقات الليل والنهار، وكتاب الإسطرلاب واستعماله، وكتاب منهاج الطالب لتعديل الكواكب. ويقول ابن خلدون إن ابن البناء اعتمد في هذا الكتاب على ازياج ابن اسحق وأرصاد أخرى لفلكي كان يسكن صقلية. وقد توفق ابن البناء في هذا الكتاب إذا استطاع وضع بحوثه في قالب حبب إليه الناس في المغرب ورغبهم فيه وجعلهم يتهافتون عليه ويسيرون بموجبه في بحوثهم الفلكية وعمل الأزياج

أما في التنجيم فله مؤلفات كثيرة عُرف منها مدخل النجوم وطبائع الحروف وكتاب أحكام النجوم وكتاب في التنجيم القضائي وله كتاب اسمه (كتاب المناخ) ويقول الدكتور سارطون إن كلمة مأخوذة عن هذه الكلمة (المناخ) والله أعلم

(نابلس)

قدري حافظ طوقان

من التاريخ الإسلامي

هجرة معلم

للأستاذ علي الطنطاوي

يرى كلّ من يعبر البادية من شرقها إلى غربها (إذا هو قارب الساحل) سلسلة طويلة من الجبال تلوح له، من مسيرة أيام، زرقاء كأنها معلقة فوق الأفق، أو غارقة في السماء. ولكن هذه الجبال تضِح كلما دنا منها وتستبين، حتى إذا بلغها ألفاها بناءاً عظيماً من الصخر الأصم، إذا حاول أن يتقصى بنظره أعاليه سقط عقاله عن رأسه ولم ير شيئاً، لأن أعاليه غائب وسط السحاب المتراكم، فيقر في وهمه إنما هو جدار قائم يمسك السماء أن تقع على الأرض، ويقف حياله خاشعاً خاضعاً شاعراً بالمذلة والهوان

هذه هي السلسلة الهائلة التي تخرج من الجنوب (من البحر) ثم تضطجع على الرمال بصخورها وجلاميدها، وأوديتها التي لا قرار لها، وذراها التي ليس لها عدد، وسفوحها التي يضل فيها الهدى، وثناياها التي تموت فيها الحياة، وصمتها المهول، وجلالها الخالد. . . تضطجع متمددة بهذا الجسم الأزلي الجبار، حتى تصاقب الشام وتبلغ مشارفه، . . .فتهبط سفوحها مترفقة سهلة متتالية حتى تفنى في تلك السهول الخضراء

إذا قدر لك أن تتوغل في هذه الأودية العميقة الموحشة، ثم تتسلق هذه الجبال ترتقي من ذروة إلى ذروة حتى تبلغ تلك القُنن الشامخة التي لا يعلوها شيء، رأيت فيها طوردا باذخاً قد شهق واستطال في السماء واستعرض حتى ضاعت جوانبه في هذه الجبال التي تتشعب من حوله صاعدة منحدرة في تسلسل واتساق كأنها الأمواج العظيمة في البحر الهائج الغضوب لولا أن ماءها الرمل والحصى وجلمد الصخر، وأن عمر الموج ساعة وأنها من لدات الدهر. . . كما ضاعت أعاليه في الغمام المسخر بين السماء والأرض. . .

على ظهر هذا الطود فوق قلعة من تلك القلعات الراسيات كانت ترقد القرية ببيوتها ودروبها وبساتينها متوازية مختبئة ضالة في فلوات السماء، تشرف على الأرض من فوق السحاب فلا ترى منها إلا خيال هذه الصحارى الواسعة، يبدو من بعيد موشى بالرمال الخالدة المتسعرة الملتهبة، والسراب الذي يظل أبداً لامعاً خادعاً كأنه الحياة الدنيا. . .

!هذه الصخور وهذه الأودية وهذه الصحراء. . . هي عند أهل هذه القرية الوجود كله في طرف من أطراف هذه القرية كان يجثم بيت صغير منفرد قائم على شفير الوادي. . . إذا أنت دخلته لم تجد فيه إلا طائفة من الأولاد يجلسون على حصير قد مات وفني وتقطعت أوصاله من قبل أن يولدوا. . . وشابا على حشية قد طعنها الزمان فنثر أحشائها. والشاب غض الاهاب، لدن العود، حديث السن، ولكن نظرة واحدة إلى عينيه تريك أنه قوي الإرادة، ماضي العزيمة، وأن له وقار شيخ في السبعين من عمره. . . وبيد الشاب عصا طويلة يشير بها ويهزها فوق رءوس الصبية، وينال بها من أبشارهم، على حين يجيل فيهم نظرات مشتعلة يتطاير منها الشرر الأحمر، تلذع أفئدتهم كلذع العصا أجسامهم. . .

تلك هي مدرسة القرية، وهؤلاء هم تلاميذها؛ أما الأساتيذ فعقيل صاحب المدرسة،

وزميله الشاب: كليب!
وكانت أمسية طلقة أراق عليها الربيع بهاءه ورواءه، فصرف كليب التلاميذ، ووقف على باب المدرسة - على عادته في كل مساء - ينظر إليهم وهم يقفزون من عتبتها، مفاريح بالنجاة من المعلم وعصاه الطويلة، وسحنته المنكفئة المقلوبة أبداً، مماريح يضحكون للحرية والجمال والانطلاق، يعدون إلى القرية عدواً. . . حتى إذا غيبتهم هذه الجدران في أطوائها، ولم يبق منهم في الرحبة أحد، وسكنت الحركة فيها وسكتت الضوضاء التي انبعثت من أفواههم الصغيرة، وحناجرهم الدقيقة الرنانة. . . زفر كليب (المعلم الشاب) زفرة أليمة اقتلعها من أعماق صدره، وألقى عصاه وولى وجهه شطر الصحارى البعيدة، يفتش فيها عن الطريق إلى أمنيته التي طالما جاشت في نفسه، وعاودته وكرت عليه، حتى أمست له فكرة لازمة وبات لا يعرف غيرها، ولا يفكر إلى فيها، ولا يعيش إلا لتحقيقها، وطالما حلم في نومه وفي يقظته أنه قد بلغ أمنيته، فتنعم بها ومرح في جناتها، ولكن الحلم يتصرم وتعود الحقيقة الواقعة بوجهها الكالح القبيح، فيرى أنه لم يصل إلى شيء
ولى وجهه شطر الصحارى، ولكنه لم ينظر إليها، وإنما جاز به خياله فيافيها المهلكة، وقفارها الواسعة، إلى تلك البلاد التي يسمع عنها ويتسقط أحاديثها، ويحمل لها في نفسه أجمل صورة تنفرج عنها مخيلة شاعر ملهم، أو مصور فنان، إلى البلاد التي يعرش فيها الياسمين، وينمو الآس، ويزهر التفاح والسفرجل، وتسيل الينابيع متحدرة من أعالي الجبال
الشجراء. . . فوقف يحلم بالوصول إليها، ويتأمل صورتها التي صنعها خياله، وأقامها أمام عينيه، خاشعاً خشوع العابد في محرابه، مشوقاً شوق المحب المتيم إلى صاحبته، مستغرقاً استغراق الصوفي في مراقبته، والحالم في أحلامه، لا يحس مما حوله شيئا!
وظل واقفاً شاخصاً إلى الأفق، غارقاً في تأملاته، حتى لاح على الأفق من ناحية المشرق سواد خفيف، لم يلبث أن اشتد حتى شمل الصحارى النائية، ثم امتد حتى عم القفر كله، ثم تسلق السفوح حتى غمر القمم الواطية، ثم وصل إلى الذرى العالية فلفها هي والقرية في ثوبه القاتم، وأحال الكون كله كتلة من الظلام. . . عند ذلك انتبه كليب، وأفاق من ذهلته، فذهب إلى منزله خائبا يجرّ رجله جرّاً وبات أرقا مسهداً ينتظر انبلاج الفجر، ليحمل عصاه ويعود إلى صبيانه. . .
لم يكن كليب جاهلا ولا محمقا، وإنما كان أديباً أريباً فطناً ذكياً من أبلغ الناس لسانا، وأجرئهم جناناً، وكان من أحفظهم لكتاب الله، وأبصرهم بالشعر، وكان فتى بادي الفتوة، قوياً ظاهراً القوة، لا يعرف اللهو، ولا يميل إلى اللعب، ولكنه يعرف الجد في أموره كلها ويحب النظام، ويميل إلى الصدق، ويأخذ تلاميذه وأصحابه بشيء من القسوة أحياناً، واللين حيناً، وكان يجنح إلى الحزم ولو اضطره الحزم إلى كثير من الشدة والصرامة، ولم يكن يؤخذ عليه إلا هذه الأمنية التي كانت تخرج به في كثير من أيامه عن الوقار والحزم، وتدنو به أحياناً من اليأس والضعف وتعرضه على عيون الناس خفيفاً طياشاً، وهو الرزين الوقور، وتلقى الخلاف بينه وبين شريكه وزميله عقيل الذي كان أعرق منه في الصناعة، وأعلى في السن وأكثر اختباراً للحياة، وإن كان دونه في مضاء عزيمته، وقوة شخصيته، حتى لقد اضطر عقيل إلى لومه مراراً. وحاول مرة أن يسخر من هذه الحماقة التي ملأت رأسه، وأن يصرفه عنها، وأن ينتزع من نفسه الرغبة الأمارة والسلطان. . . فكان يستمع إليه ساكتاً جامداً كالصحراء. . . فتجف الكلمات على شفتي عقيل، ولا يجد ما يقوله فيصمت هو أيضاً ويعاودان العمل وكثيراً ما كانت تطغى على كليب أحلامه فتغلب عليه وتستأثر به فينسى حاضره الواقع، ويعيش في مستقبله المأمول، فيحس كأنه في دست الملك لا على حشية المعلم، وأن أمامه الحاشية والأعوان، لا الأولاد والصبيان. فيرفع صوته آمراً ناهياً، ويستغرق في أمره
ونهيه، ويعجب التلاميذ وتتحرك في نفوسهم طبائعهم العابثة فتستبق القهقهات إلى شفاههم ثم تجمد عليها يردها خوفهم من هذا المعلم العابس وخشيتهم إياه؛ ثم تغلبهم طبائعهم فينفجرون ضاحكين صائحين. . . فينتبه المعلم الشاب، ويزعق فيهم فيبكون ويسكتون، ويتكرر ذلك ويقصه الأولاد على آبائهم وأهليهم فيكذبونه بادي الرأي، ثم يصدقونه ثم يشيعونه في البلد، فيصبح ملء الأفواه والأسماع أن كليباً المعلم الشاب

قد أصابه طائف من الجن، فيأسفون ويحزنون لما عرفوا فيه من البلاغة وما آنسوا فيه من الرجولة والحزم، ولكنهم لا يعجبون وهل يعجب الناس من معلم يجن؟ إنما يعجب الناس من المعلم إذا بقي عاقلا وهو يعاشر أبداً هؤلاء التلاميذ. . .

وفي ذات صباح غدا التلاميذ على مدرستهم فلم يجدوا معلمهم الشاب، وكان من دأبه أن يسبقهم. فانتظروه فلم يحضر، فذهبوا يطلبونه في بيته. فعلموا أنه باع بيته ليلاً وقبض ثمنه، ففتشوا عنه في كل مكان يظنون أنه يأوي إليه. فتشوا في كل زقاق من أزقة القرية، وفي كل ذروة من هذه الذرى القريبة منها، وكل صخرة من هذه الصخور القائمة من حولها. فلم يجدوا له أثراً!

ولما راح الرعاة في المساء سألوهم عنه، فقالوا: لقد رأيناه منذ الصباح ينحدر وحده، يقفز من حجر إلى حجر، فحييناه فلم يرد علينا تحيتنا لأنه كان ذاهلاً، قد تعلق بصره بالأفق النائي. . . ونظن أنه سار يومه كله، ولن تدركوه أبداً لأنكم لا تدرون أي سبيل سلك!

فاسترجع أهل القرية واستعبروا أسفاً على أن جُن هذا المعلم الشاب، وأيقنوا أنه سيموت في هذه البادية وحيداً فريداً شريداً. . .

سار كليب يومين كاملين على غير ما طريق مسلوك أو جادة واضحة، يبتغي المنازل والمنحدرات، تسلمه كل ذروة إلى التي تحتها، وكل سفح إلى الذي يليه، لا يحس تعباً ولا يخشى أذى لأن آماله قد ملأته شجاعة وصبراً؛ ثم إنه كان في أول الطريق فهو لا يزال نشيطاً قوياً، ولا يزال زاده كاملاً؛ ثم إن الحر لم يكن قد غمر هذه الجبال وهي بعد في أواسط الربيع. فلما بلغ الصحراء - والصحراء لا تعرف، إذا تسعرت شمسها وحميت رمالها، ربيعاً ولا خريفاً - ولما أوغل فيها واحتواه جوفها، ونفد ما حمل من الزاد، والتهبت شمس الضحا التهاباً، وغلى الهواء غلياناً. . . جففت هذه الشمس أحلامه الندية،

وأحالتها بخاراً، وطيرت أمانيه من رأسه ووضعت عقله في جلده ومعدته، فواجه الحقيقة الواقعة؛ فإذا الصحراء الرحيبة الرهيبة تضيق به، وإذا هو يرى حيثما تلفت شبح الموت المروع بعظامه البادية وفكيه المرعبين وجمجمته الفارغة، يتراءى له على الأفق البعيد، يرقب أن يعانقه قبل أن يصل إليه، ويتمثل ذلك في خاطره فيشعر ببرودة هذه العظام البادية تسري في جسمه، ويتصورها ملتفة حول عنقه فيحس بالقشعريرة تمشي في أعضائه، فيغض بصره عن الأفق فيتراءى له الشبح في هذه الرمال، ويخيل لنفسه أنها ليست إلا قبراً مفتوحاً، فيكاد الخوف من الموت يهوي به ويقصف ركبتيه، فيرفع نظره عن الأرض فيتراءى له الشبح في هذه الشمس التي تسكب عليه وعلى البادية وهج جهنم، فيغمض عينيه فيتراءى له الشبح في الجوع الذي يلهب أمعاءه والعطش الذي يحرق جوفه والضلال يملأ يومه وغده. . . ثم يزول النهار ويشتد أوار الشمس، ويبلغ لسان لهيبها قرارة دماغه، فينسى الجوع والعطش ولا يبغي إلا شبراً من ظل. . . فيعدو كالمجنون هاهنا وهاهناك؛ والصحراء مبسوطة كالكف ليس فيها غار يأوي إليه، ولا صخرة يستظل بها، ولا بشر يلجأ إليهم، ولا شجرة يستذري بها؛ فينبش في الرمل بيديه وأظافره ليجد في بطن الأرض رطوبة يدس فيها أنفه ليربح رائحة الحياة، ويوالي النبش بجنون ثم يطمر رأسه في الرمل فلا يزيد على أن يدفن نفسه حيّاً في رماد حار. . . فيجفو الرمل وينطلق يعدو حتى ينقطع ويعلوه البهر ويحس بأنه سيختنق، فيقبل من ضيقه يلطم وجهه بكفيه، وينتف شعره بيديه. . . ويلعن المجد والسلطان ويلعن هذه الصحراء ويلعن نفسه حين استجاب لهذه الحماقة فخاض الصحراء وألقى بنفسه في جوفه الملتهب. . . يندم أشد الندامة، ويتمنى لو وجد إلى العودة سبيلاً، وهيهات أن يجد إلى العودة من سبيل، لأن بينه وبين القرية هذه السفوح التي لا آخر لها، وهذه الصحراء وهذه الأودية، فإذا قطعها واستطاع أن يعرف طريقه بين آلاف التلال المتشابهة وآلاف الصخور المتشاكلة لم يعرف طريق النجاة من سخرية قومه وهزء صبيانه، وهو ما لا يطيقه أبداً ولا يصبر عليه، ويرى الموت أخف منه حملاً وأحلى مذاقاً. . . وراح يذكر تلاميذه الصغار وطاعتهم إياه وحبهم له، ويذكر بغضاءهم وعصيانهم، ويذكر براءتهم وسذاجتهم، ويذكر خبثهم وشيطنتهم، ويذكر لينهم ويذكر قسوتهم؛ فإذا هو يشعر بالحب لهم، ويغمره هذا الحب

ويكون لقلبه برداً وسلاماً، ولمعدته ريّاً وشبعاً، ولروحه حياة، وينظر بعين الحب إلى قريته، ويعرضها كلها بطرقها وبيوتها وبساتينها، وهذه المعابر التي سلكها مرات لا يحصيها عد، ويرى داره ويبصر كل حجر فيها وكل زاوية منها. . . ثم ينظر إلى هذه الصحراء المترامية من حوله فإذا بها قد ابتلعت هذا الحب وجففته، وحياة الحب حياة قصيرة المدى. . . وإذا به يحس بالألم ويشم من حوله رائحة الموت ويرى نفسه نبتة اجتثت من الأرض وقطعت جذورها، ثم ألقيت على هذه الرمال التي يشوي عليها اللحم لتجف وتعود حطبة يابسة، بعد إذ هي غصن مورق فينان، ويخيل إليه أنه فقد حياته كلها حين فقد بلده وأهله وسعادته، فيلقي نظره على هذه الجبال التي خلفها بعد يومين فإذا هي بعيدة، بعيدة جداً تبدو له من خلال السراب اللامع كأنها صورة الأمل المنير لا تكاد تظهر. . . فيسترجع نظرته اليائسة مغسولة بدموع الندم، ويوغل في جحيم الصحراء تائهاً يائساً يمشي إلى. . . الموت!

حتى إذا أطفلت الشمس، ثم ضعفت وشحب لونها، ثم أسلمت الروح، فلبس الكون كله ثوب الحداد، ثم برد الرمل واستحال إلى فراش لين جميل، ولاحت في السماء النجوم واضحة قوية. . . شعر المعلم الشاب بالراحة، فاستلقى على قفاه يتنفس الصعداء من هول هذا اليوم. . . ويتأمل النجوم. . . ويبصر امتداد الأرض والسماء من حوله، فيعجب من جمال الصحراء وبهائها، وينتشي بنسيمها الرخي الناعش، وسكونها الشامل، وجلالها المهيب، ولا يستطيع أن يتصور كيف كان هذا العالم الجميل الفتان، يموج قبل ساعات بأشباح الموت، وتهاويل العذاب!

ورجع الليل إلى الفتى المعلم حماسته ونشاطه، وأترع نفسه قوة وحياة، فرأى أمله الذي بخرته شمس الضحا قد عاد رطباً ندياً، فجلس وحيداً بين هذه المخلوقات العظيمة: النجوم والسماء، والليل والصحراء، يناجي أمانيه، ويرسم طريقه إليها. . . وكان الليل ساكناً هذا السكون العميق، الذي لا تعرفه المدن، ولا تدريه القرى، ولا يقدر عليه البحر، وإنما تعرفه الصحراء العظيمة بصمتها وضجيجها، وقسوتها ولينها، فراقه هذا السكون، وملك عليه لبه، فأصغى إليه إصغاءً شديداً، فكان يسمع فيه نشيداً سرمدياً متصلاً، له من الروعة في القلب، والأثر في النفس، ما لا يكون لهذه الموسيقى المتكلمة الهزيلة، الصاخبة الضاوية، التي تخرج من أفواه ضيقة، أو آلات حقيرة جامدة، وإن هي عظمت فإنما مخرجها أغصان الدوح الذي يرتل ترتيلة العاصفة، أو السحاب الذي يغني أغنية الرعد، أو البركان الذي يزأر زئير الموت. . . أما الصمت فهو نشيد الصحراء الخالد، وأغنية الوجود كله!

غير أن هذا الصمت ينقطع فجُاءَةً، ويحمل نسيم الليل الهادئ إلى أذن المعلم الشاب صدى أصوات بعيدة وعميقة، كأنها خارجة من أجواف الغيران، أو من بطون القبور. . . فلم يدر أهي من صنع الواقع، أم هي من تزوير الخيال. . . ولم يحفلها، لولا أن النسيم حملها إليه كرة أخرى، وهي أقوى وأشد وضوحاً، ثم تبين فيها حداء حلواً، فتخيل القافلة، وهي تضرب في الرمل الناعم البارد، والإبل قد راقها هذا الحداء، فمدت أعناقها وأوسعت خطوها، وهي طربة سكرى بخمرة الألحان، ولمس الفرج يأتيه من حيث تأتي القافلة، وأرهف أذنيه يتسمع هذا الصوت الذي يدنو أبداً يحمل إليه الأمل والسعادة، فإذا بالصوت يتخافت ثم يضمحل، وهو أشد ما يكون طرباً به وسروراً، ويسيطر على البادية هذا الصمت العميق، فيألم المعلم الشاب ويحس بالخيبة تحز في قلبه، ويضيق بهذا الصمت الذي كان ينعم به منذ لحظات. تنعقد السحب فتحجب عن عينيه هذه النجوم المتلألئة، أو يخيل إليه أنها حجبت عنه، فيدور ببصره فلا يرى إلا مخلوقاً واحداً هائلاً يحف به من كل مكان، فيحس بالرعب، وتثقل عليه هذه الوحدة الموحشة تحت ظلمات ثلاث: ظلمة الليل، وظلمة الصمت وظلمة الخيبة. . . ويهم بالتصريخ، ولكنه يقر ويسكن حين يرى هذه النجوم قد ظهرت دانية قريبة، كأنما هي قد استقرت على الأرض، على قيد ذراعين منه، تتراقص على ظهر اللجة السوداء، تحاول أن تخترق حجب الظلام بأشعتها الكابية الكليلة، ولا ينفك يحدق فيها، حتى تختلط أفكاره في رأسه، ويحس بأنه قد هوى في واد مظلم سحيق. . . ثم لا يحس بعد ذلك شيئاً، لأن النوم قد غلب عليه وهو في مكانه!

ويشعر المعلم الشاب بيد قوية تهزه هزاً فتقف كل شعرة في جسمه، ويفيق مذعوراً يظن أن الجن تداعبه وتوقظه، فيضغط جفنيه ضغطاً شديداً، ويستر وجهه بكفيه، ولكن

هذه اليد تقبض على كفيه فتنترهما نترا، وتخالط أذنه أصوات عجيبة ولغط وضوضاء، فلا يشك في أنها أصوات الجن، ويفتح عينيه مضطراً فإذا هو مسحور، قد بلغ منه السحر أن حجب عن عينيه هذه الظلمة الثقيلة التي كان يغيب في أثنائها، وطمس أضواء القافلة الكليلة التي
كانت تتراقص أما عينيه، وبدل كل شيء في لحظة واحدة. . . فإذا الدنيا ممتلئة إشراقاً وضياء، وإذا هو قد انتقل من الصحراء القاحلة الجرداء، إلى دنيا تمور بالأحياء، وتموج بالناس، فيبالغ في فتح عينيه، وقد كاد يجن لفرط الدهشة. . . ولا يشك أن هؤلاء الذي يرى طائفة من الجن. . . ثم يعود إليه وعيه، ويصحو من نومه، فيتلو قول الله تعالى (يراكم هو قبيله من حيث لا ترونهم)، فيعلم أن ليس هؤلاء جناً، لأن الجن لا يمكن أن يراهم بشر، ولكنه لا يزال على شكه؛ أين هو؟ وما هذا الذي يرى؟ فيقول لمن كان يوقظه:
- أسألك بالذي تحلف به، إلا ما أخبرتني أين أنا؟
- أين أنت؟ أنت في هذه البادية!
- في هذه البادية؟! وما هذا الـ. . .
- ويحك يا رجل لقد حبست القافلة
- اسقوني شربة ماء
فيمضي الرجل ليأتيه بالماء، ويحدث كليب نفسه:
- إذن، فأنا قد نمت إلى الصباح
- خذ اشرب. . .
- الحمد لله! أشكركم
- لقد حبست القافلة
- وماذا تريدون مني؟
- نريد أن نعرف من أنت. . . إنا لنظنك عيناً للعدو، فمن أين أتيت؟
- أتيت من أعالي هذه الجبال أريد الشام فضللت ونفد زادي، وصهرت دماغي شمس الأمس، فعدت أركض على غير هدى حتى انتهيت إلى هذا المكان. . . ولست عدوّاً لأحد
- وما اسمك؟
- اسمي كليب، من آل أبي عقيل. . . وأريد الشام، فهل تمنون علي فتحملوني معكم؟
- هذه هي دراهمي!
ويفرغ كيسه على الرمل، فتتكوم الدراهم والدنانير، تنعكس عليها أشعة الشمس فيخطف بريقها البصر!
- وفر عليك دراهمك، إنا لا نرزؤك شيئاً، أنت في حمى هذا السيد، فاركب جملك راشداً
ويطغى الفرح على نفس المعلم الشاب، حين يقدمون إليه هذا الجمل القوي البازل، وينسيه أن يسأل عن هذا السيد الذي أصبح في حماه، وأن يشكره. ويعلو متن الجمل ببراعة الأعرابي وخفة الشاب. . . ويسير به الجمل، وهو يقلب بصره في هذه القافلة العظيمة، فلا يستطيع أن يدرك به آخرها، أو يحيط بها، ويأخذه العجب حين يرى من حوله مدينة كاملة برجالها ونسائها وبيوتها وحاجاتها وجندها وحماتها، تنتقل تحت عين الشمس. . . ثم يشرع الحادي بأغنيته فيصغي إليها كليب حالماً مأخوذاً. . .
طوت القافلة الفلوات، تتجنب الطرق المسلوكة، وتنأى عن القرى القليلة، القائمة في الصحراء بين دمشق ويثرب، لئلا تجد فيها ما تخشاه في هذه الأيام المضطربة الحافلة بالثورات والحروب. . . وكان أصحابها دائبين ينزلون النهار إلا أقله، ويمشون أكثر الليل وجانباً من النهار، يتجنبون حر البادية، ووهج الشمس، حتى رأوا (بصرى) تلوح لهم في اليوم السادس عشر، يبسم طيفها خلال أشعة الطفل، فوثبت إليها قلوبهم، وطارت أمانيهم، وجدت القافلة المسير، دأب المسافر إذا دنا من بلد، أو شارف غاية. وكان المعلم الشاب أشدهم طرباً وفرحاً، فطفق يحدق في هذا الطيف، ويتأمل هذه الرمال، يستمتع بأحلامه البهيجة الحبيبة، فيرى الرمال إذ تمتد في اتزان عجيب، من قلب الجزيرة إلى أسوار (بصرى) يحملها هذا التيار المنبثق من قلب بلاد العرب، فيصبها في أرض الشام فتغمرها بروح الجزيرة، وتعلمها معاني الرمل، ومن معاني الرمل أن

. . .تكون الأمة مجتمعة كالرمل، كثيرة كالرمل، خالدة كالرمل، صابرة كالرمل ويغيم طيف المدينة ويظلم ثم يختفي في ثنايا الليل، ولكن المعلم الشاب لا يزال ممعناً في التحديق، قد نسي القافلة، وغفل عن الزمان، فلم يبصر اختفاء المدينة، وإنما كان يبصر أحلام الجزيرة، التي استهوته حتى استسلم إليها. ووضع في يدها قياده فساقته إلى عالم ناء لا يدرك العقل قراراته، ولا يبلغ غوره، عالم يفيض بالفتون والجمال والسحر، فظل يستمتع بفتونه وجماله أمداً طويلاً. . . ثم قادته الذكرى إلى ماضي الجزيرة، فإذا هو يراها ممحلة جدبة، قد تعرت من الخضرة، كما تعرت من الحضارة، وغاضت فيها ينابيع الماء، كما غاضت ينابيع العلم. . . ثم يرى رجلين يسيران من (أم القرى) إلى تلك (المدينة)

النائمة بين الحرتين فينبت الزهر تحت أقدامهما، وتخضر الرمال التي يطؤونها، وتكتسي البادية من حولهما أثواب الحياة، ويرى هذا الرجل يستقر في تلك (المدينة) فيبعث من بين حريتها صيحته القوية، فيوقظ النيام، ويحيي الجماد، ويبعث في النفوس الفضائل والأمجاد، فإذا الجزيرة برملها وصخرها، وشمسها المحرقة، وجبالها الصلداء، تسير وراء محمد (أعظم إنسان، وأفضل نبي) لتحمل الحياة إلى سهول الشام والعراق. . . يا عجباً! يا عجبا. . . الصحراء القاحلة، تمنح الحياة والبساتين؟!

رأى الجزيرة تمشي وراء محمد (صلى الله عليه وسلم) لتكون موقدة المعركة الحمراء التي أكلت الظلم والرذيلة والطغيان. . . ثم تمشي مرة ثانية لتكون رمالها بذور الأزاهير والأشجار في السهول الخضراء. . . ثم تمشي مرة ثالثة لتكون قرائحها وأدمغتها مادة هذه الصحف المجيدة البيضاء، ثم. . . ثم. . . ثم بالغ رفيقه في هزه، فانتبه كليب

- أفي كل يوم إغفاءة، أو إغماءة؟ ما لك أيها الرجل؟

-. . .

- انزل، هذه أسوار بصرى!

نزلت القافلة تحت أسوار (بصرى) في موهن من الليل، فلم تبصر في بصرى إلا قطعة من الظلام الراكد، ولم تجد أثراً لذلك الطيف البرّاق الزاهي، الذي كان يتراءى لها راقصاً على أشعة الطفل. . . فهجعت مكانها تنظر الصباح

نامت القافلة يحرسها الحراس، ونام كليب نوماً عميقاً لا يطفو على وجهه حُلم، حتى أحس بأنفاس الفجر الباردة على خديه ففتح عينيه، فرأى طلائع الفجر تضطرب تلقاء المشرق في خطوط ضعيفة، كأنها أضواء المصابيح الكليلة، فراقته وتعلق بها بصره وما شيء يمتلك لب الرائي، ويأخذ عليه مشاعره مثل انبلاج الفجر في الصحراء، حين يكون سفير النور، ومهبط الآمال على هذه النفوس التي ملّت ظلام الليل، وما يعيش في الظلام من مصائب وأوهام. . . ولم يستطيع كليب أن يحمل وحده كل هذا الجمال، وأحب أن يجد صديقاً يشاركه حمل الشعور، فكان يلقي على رفيقه النائم، من غير أن يحوّل وجهه عن المشرق:

- ما أجمل هذا!

وكان صوته هامساً خافتاً، كأنه كان يناجي نفسه، فإذا لم يجبه أحد، وطغى عليه شعوره، عاد يقول:

- ما أجمل هذا! ألا ترى؟

وكان الفجر قد انبلج، واستوى عموده، وامتدت خيوطه فإذا هي تملأ الفلاة كلها، وتحسر عن هذه المشاهد التي كانت مخبوءة وراء حجاب الليل، فإذا هي بارعة فتانة، ولم يكن صاحبنا المعلم قد رآها من قبل، فشده حين ظهرت له بغتة، كأنها لوحة فنية أزيح عنها غطاؤها، أو كنز فتح له بابه، أو متحف فيه كل جميل أخاذ أضيئت له جوانبه، فلم يدر أين كان هذا كله مخبوءاً، وحارت نفسه بين خضرة البساتين التي تحف بالبلد، أينعم النظر إليها ويذوق حلاوتها بعد هذه الأيام الطويلة التي ذاق فيها مرارة البادية، ويصغي إلى تهامس أوراقها المتلاصقة، ونجوى أفنانها المتعانقة، أم يتأمل هذه البنى العظيمة التي أودعها الفنانون من البيزنطيين أبدع ثمرة من جني قرائحهم الخصبة، ونزلوا لها عن أجمل نتاج لعبقريتهم ونبوغهم، لتكون عروس البادية، تخطر بعظمتها وجمالها، وتتهادى بزخرفها وزينتها على الرمال الخالدة. . .

وكان الفجر قد امتد إلى نفس المعلم الشاب، فأضاء له عوالمها كما أضاء هذا العالم،

وحسر له عن آماله التي كانت مختفية في ظلام الأسفار، كما كانت هذه المشاهد غائبة في سواد الليل، فعاد إليها، وتمثلها قوية ظاهرة، وأحس كأن فجر حياته الماجدة قد انبثق، فختم صفحة هذا الليل الأسود الذي قضاه معلماً في أعالي الجبال، ليفتح صفحة النهار الوضاء الذي يقضيه في المدن الكبيرة أميراً عظيما، وتلهى بأحلامه عن هاتين اللوحتين اللتين حار بينهما أولاً: اللوحة التي وشاها الربيع، واللوحة التي زينها الفن، وانطلق يفكر في دمشق، ماذا تكون إذا كان هذا كله لقرية من قراها؟

بقيت القافلة في (بصرى) ريثما باعت واشترت، وقضى تجارها وطراً من الربح والكسب، ثم توجهت تلقاء دمشق، وكان المعلم الشاب يكلف ذهنه ضروباً من الكد ليمثل له صورة لدمشق تشبه ما كان يسمع عنها من الأخبار التي كانت تشيع في الأرض حتى تبلغ تلك الذرى العالية التي لا تهجع عليها قريته فتنشر فيها مكبرة منفوخة مكسوة بأنواع المبالغات، تصور له دمشق جنة كالتي وعد المتقون، لها من العظمة والجلال ما تتضاءل أمامه عظمة

التي كان يتحدث بها العجائز من قومه عن العجائز، وتخيل له من جلال (المدائن) الخليفة وضخامة سلطانه ما يصغر معه ملك كسرى ويهون. . . ولم لا؟ وملك كسرى كله عمالة من عمالات الخليفة، وولاية من ولاياته!

كان المعلم الشاب يكد ذهنه ليتصور دمشق، ويتبين طريقه إلى النجاح فيها، وكان يحسب لطول ما عزم على السفر وتردد فيه، ولعظم ما لاقى من الأهوال والمشاق، أنه ليس بينه وبين المجد والولاية إلا أن يهبط دمشق، فإذا هو والٍ أو أمير. . .

وكانت القافلة قد علت نشزاً من الأرض فانكشفت أمامها دمشق العظيمة أقدم بلدان الأرض وأجملها، وهي في مثل حلة العروس يضحك في أعطافها الجمال تميس بثوب العرس الأبيض الشفاف الذي نسجته أكف الربيع من زهر المشمش الهفهاف تموج في خديها دماء الشباب ظاهرة في زهر الدرّاق الأحمر الفاتن، وعبق أزهارها يعطر الجو كله، الأرض والسماء والجبال والصحارى المجاورة. . . فأخذ كليب بها أخذاً ورقص لها قلبه، وفتن بها فتوناً. ومنذ الذي يرى غوطة دمشق - وهي في ثوب الربيع - ثم لا يرقص لها قلبه ولا يفتن بها فتوناً؟ ومنذا الذي يقطع عرض الفلاة حيث يعتد ظل الصخرة القائمة جنة حادرة، ويرى الحشيشة الخضراء روضة ناضرة، ويرى البئر الآسنة مورداً صافياً. . . ثم يطل على الغوطة جنة الأرض حقاً وروضة الدنيا بأشجارها المزهرة، وطيبها وعطرها، وفتونها وسحرها، ثم لا يجن بها جنوناً؟ وهل عد العرب الغوطة إحدى الروائع الأربع ' في متحف الطبيعة إلا بعد نظر وفكر؟ كان كليب سابحاً في أحلامه، وهو أشد ما يكون بها استمتاعاً حينما ارتفع هذا الغبار من ناحية الشرق عالياً عريضاً. راع القافلة فوقفت تنظر إليه مذعورة، فجفا أحلامه ووقف مع القافلة ينظر، فإذا الغبار يعلو ثم تضربه الرياح فيتفرق، ثم يعود فيجتمع. . . ويفزع رجال القافلة الكبيرة، ويظنون الظنون، ويصغي كليب إلى حديثهم فيفهم منه أنهم لا يدرون ماذا يراد بهم. ولا يعلمون ما هذا الغبار، ويوغلون في الحديث ويتشقق بينهم، فيكشف لكليب عن أشياء كثيرة لم يكن يعرفها وهو في قريته العالية. . . يعلم كليب أن الدولة في أزمة من هذه الأزمات الخطرة التي تعرفها الدول حين تعصف بها عواصف الانقسام والحرب الداخلية، وأن عبد الملك قلق مسهد لا ينام الليل إلا لماماً، فإذا هجع رأى شبح ابن الزبير ينقض عليه فقام مرتاعاً يخشى أن ينتزع منه الشام ومصر كما انتزع الجزيرة كلها والعراق وخراسان، وصار الحاكم المطاع في شرق البلاد وجنوبها وطالت مدته وامتد كلمته. . .

ثم تنقطع أحاديث القوم، وينظرون إلى الغبار الداني وسيوفهم في أيديهم، ومقاتلتهم أمامهم مستعدون للقتال، فينشق الغبار عن الراية الأموية التي يبعث مشهدها الطمأنينة في نفوسهم، ويخرج من تحته بضع مئات من جند الشام يخلطون القافلة الكبيرة ويكشفون أمرهم على عجل، فيعلم رجال القافلة أنهم حيال فرقة من حرس الصحراء، خرجت من دمشق منذ أسبوع لتجول في هذه الفلوات القريبة، تقيم العواصم والمخافر ثم تعود لتفسح المجال لفرقة أخرى، فتجاوزت حدها، وأمعنت في الضرب إلى الجنوب حتى دخلت في أرض ابن الزبير والتقت بهذه الفرقة الحجازية التي كسرتها وردتها على أعقابها، ولحقتها لتقضي عليها

وهز هذا الحديث القصير رجال القافلة، فاصطفوا للقاء الفرقة الحجازية التي دنا

غبارها، وتلفتوا يفتشون عن الرجل الذي يقودهم إلى المعركة ويشق لهم طريق الظفر، ويلزمهم طاعته إلزاماً، ولن يكون هذا الإلزام إلا بقوة الشخصية، وبلاغة اللسان، وكبر النفس. وكانت ساعة انتظار وتردد توجهت فيها الأنظار إلى كثير من السادة، فخيبوا رجاء الناس فيهم، وأوشكت الفرقة الحجازية أن تصل. وهم على جمودهم وانتظارهم، عند ذلك تقدم كليب الذي كان يغالب نفسه ويقسرها على السكون ويمسك بركان حماسته أن ينفجر، تقدم حين عجز عن ضبط نفسه، ففتح له طريقاً وسط الفرسان، وقد رأى أمانيه أدنى إليه من أنفه، ومضى فيه مضي السهم حتى صار في رأس القوم، وهم يعجبون منه، وينتظرون أن يقودهم كل رجل في القافلة إلا هذا الشاب الذي أمضى طريقه كله صامتاً حالماً لم يتحدث بحديث، ولم ينطق بكلمة، والذي يظنونه عيياً لا يبين ولا يعرب عن نفسه. ولكن عجبهم لم يطل، فإن الفتى انطلق يخطب فيهم خطبة صارخة مجلجلة تلتهب كلماتها التهاباً، وتحرك جملها الجلاميد الصم، وتدع الجبان المخلوع القلب وهو البطل الحلاحل. وكان صوته القوي يدخل إلى حبات القلوب فتصيبها منه رجفة كما يرتجف الرجل يمسك بسلكة الكهرباء؛ وكانت إشارات يده وسمات وجهه تنطق بمعانيه قبل أن ينطق بها لسانه، فتحرك الناس وتقودهم حتى كأنهم معلقون بإصبعه. ولم ينته المعلم الشاب من خطابه حتى كان

القوم قد خلعوا نفوسهم التي أضناها طول السفر، وأرمضها حر الصحراء، وأضعفها التردد والإحجام، ولبسوا نفوساً جديدة ماضية لا تعرف التردد، قوية لا تعرف التعب، مؤمنة بالظفر لاشك عندها فيه. ولم ينته من خطابه حتى كان الجند الحجازيون قد وصلوا. فأطلق من فيه صرخة الحرب، وأغار كالقضاء النازل ينشد أنشودة الموت والجند ومسلحة القافلة من ورائه تردد النشيد فتميد له البيد. فلم تكن إلا جولة واحدة حتى آثر الحجازيون السلامة، ففروا لا يلوون على شيء. واستراحت القافلة حيناً. ثم أخذت طريقها إلى دمشق يقدمها كليب (المعلم البطل)

كانت دمشق في زلزال شديد، وكان أهلها في هيجان واضطراب، ينتظرون المعركة الفاصلة بينهم وبين ابن الزبير، لينجوا العالم الإسلامي من هذا الانقسام الذي ينكره الإسلام ويأباه أشد الإباء؛ وليعود إلى الوحدة التي جعلها أساس الحياة الدنيوية للمسلمين، كما جعل التوحيد أساس الدين. . . ولكن أهل دمشق فزعون مشفقون على الخلافة الأموية أن تنهار وتتحطم وهم بُناتها وحُماتها، يرقبون الأحداث، ويتسقطون الأخبار، ويُعدون نفوسهم للتضحية الكبرى في سبيل المبدأ القويم، والغاية الساذجة كدأب المسلمين في كل عصر وآن.

وكان (قصر الخضراء) مثوى الخلافة، وسرة الأرض، في حركة دائمة؛ فمن مجلس يجمع للشورى، إلى ألوية تعقد للدفاع. وكذلك كان قصر (مستشار الدولة روح بن زنباع) الذي أمّه كليب المعلم الشاب صبيحة وصوله إلى دمشق، يقوده إليه زعيم الجند الذين أنقذهم كليب، وأعانهم على عدوهم، ليلقى عنده روح جزاءه.

وكان قصر روح قائماً في ظل المسجد، دانياً من باب الفراديس يجري من تحته بردى متوارياً في حمى القصر، ثم يظهر كرة أخرى، يتحدر ويهدر هديراً سائغاً عذبا، وسط جنة دانية القطوف متشابكة الأفنان، قد اتخذ فيها مجلس يقوم على سيقان من خشب الجوز المنقوش، منغمسة في بردى تغسلها أمواهه دائماً وتداعبها أمواجه الصغيرة، فتقرصها ثم ترتد عنها ضاحكة مقهقهة، وسماء هذا المجلس أغصان الأشجار قد تعاطفت وتعانقت، يزينها الياسمين بزهره الناعم العطر، وحول هذا المجلس إطار من الورد والنسرين والسَّيْسنبر والنرجس والبنفسج، فهو جنة تنعم فيها العين بهذه الأزاهير المؤتلفة الألوان،

المختلفة الأشكال، تتمايل وتتهادى حين يمسها هذا النسيم الرخيّ، فيفوح من أعطافها هذا الشذا الطيب، الذي ينعم الأنف بريّاه، كنعيم الأذن بهذه (الاوركستر) الإلهية، التي تعزف ألحان الفطرة الجميلة الساحرة على حناجر البلابل والشحارير؛ وبردى فوق هذا كله يعزف لحنه السرمدي، وتنعكس على صفحته المتموجة ألوان الزهر، فيكون منها لوحة فنية تزري بألوان الغروب في لجةّ البحر.

والقصر طبقتان من الرخام الأبيض والأسود والمجزّع، له رواق على بابه، قائم على أساطين من المرمر قد استفرغ صنعها وتزينها عبقرية البنائين والمهندسين فبدت آية

معجزة في لغة البناء تحس لدقتها وأحكامها كأنها هي حية ناطقة تَشوى بخمرة هذا الأريج العطر الذي يفوح من أشجار البرتقال والليمون المطلة بالزهر التي تنافس بعطرها الورد والياسمين، وأشجار المشمش التي تظهر بزهرها الأبيض الشفاف كأنما هي في حلّة في الثلج الحيّ المعطر، وأشجار الدرّاق التي تبدو بزهرها الأحمر كأنما هي محبّ ورّد وجنتيه الخجل، وأشجار الحور سكرى تميس بثوبها الجديد الذي خلعته عليها أيدي الربيع. . . يتوّج هذا كله منارة المسجد الشاهقة في السماء، تنشر في الدنيا كلها العطر السماوي الخالد، وتريق عليها السمو والجلال، فتتطهر الأرض من الشرك والرذائل، وتتطهر النفوس من المطامع والشهوات، وتهبُّ على الوجود نسمة من نسمات الجنة حين يخرج منها النداء: (الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله!)

كانت دمشق (وما تزال، وستبقى دمشق) جنة الأرض، ودرّة تاجها، وواسطة عقدها، ليس في الأرض أجمل منها ولا أحفل بكل محبوب ساحر أخاذ، مما يشمّ أو يرى أو يسمع. . . وكان قصر روح من أجمل ما في دمشق، وكان فوق الجمال جليلاً فخوراً بساكنيه، يملؤه الحجاب والجند وذوو الحاجات، فلا ينصرفون إلا وافرين غانمين شاكرين. كان محط الجمال والجلال، ولكن كليباً (المعلم البطل) لم يحفل شيئاً من هذا، ولم ينظر إليه، لأن من عادته ألا ينظر إلا أمامه، لا يلتفت يمنة ولا يسرة لئلا يشغله عن غايته شاغل، أو يعوقه معوق. وكانت آماله هي غايته، فمضى إليها قُدُماً، لا يبصر إلا ظهر الجندي الذي سبقه ليدّله على الطريق في هذا العالم الصغير، حتى دخل على المستشار. .

ندع كليباً في حضرة روح بن زنباع مستشار الدولة، ونقفز قفزة واحدة إلى واسط مدينة الحجاج، نقطع في هذه القفزة سنوات طويلة مليئة بالأحداث الجسام، من قتل مصعب وعبد الله ابني الزبير، إلى عودة الوحدة الإسلامية على يد البطلين عبد الملك والحجاج. . . فنرى في شوارع واسط الفسيحة شيخاً أعرابياً جافياً يتلفت تلفت المشدوه الذي لم يبصر في عمره مدينة كبيرة، يتوسم في وجوه الناس بفضول ظاهر، فيفرون منه حتى زال النهار، وكلّت رجلاه من المسير فجلس في ظل دار من هذه الدور الجديدة، كئيباً حزيناً

- ما لك يا عمّ؟

-. . . . . .

- ما لك؟ أخبرني ما شأنك؟

فيرفع الأعرابي رأسه ويحدّق في وجه الرجل، حتى يطمئن إليه، ولا يرى فيه ما يريبه، فيقول له:

- أريد أن تدلني على رجل يدعى كليب بن يوسف الثقفي، من الطائف

فيضطرب الرجل، ويسأله:

- أتدري ويحك ما تقول؟ ابن يوسف الثقفي؟ أخو الحجاج؟ فلا يسمع الأعرابي هذه الكلمة حتى يسري عنه، وينطلق ضاحكاً بملء فيه، ويقول:

- بل هو والله الحجاج، كنا نسميه كليباً، قاتله الله ما أشد عقوقه. . . ألا تخبرني أين هو هذا الخبيث؟

- قبحك الله من أعرابي جاهل، أبهذا تصف الأمير؟

ويتلفت إلى كل جهة، وقلبه يكاد ينخلع من الرعب يخشى أن يسمع حديثهما أحد، ثم يقول للأعرابي هامساً:

- اخفض من صوتك. . . سألتك بالله!

- ولم ويحك؟

- ألا تعرف من هو الحجاج. . .؟ ألست من سكان هذه الأرض؟

فيعود الأعرابي إلى الضحك وقد راقه ما يسمع ويقول له: - بل أنا من سكان السماء؛ هبطت الساعة من أعالي جبال الطائف؛ أما الحجاج فأنا أعرف الناس به: معلم صبيان أحمق!

- ويلك يا أعرابي، هو والله أمير العراقيين، وقاتل ابن الزبير، وسيف الخلافة الأموية وثبت أركانه

- إنك تهزل!

- وهل في هذا هزل؟ سل ويلك من شئت!
- كليب أمير العراقيين؟ يا ضيعة شيبتك يا عقيل!. . . ويلك يا هذا، دلني عليه. . . دلني عليه. . .
-. . . . . .
-. . . . . .
- أدن يا عقيل!
- أو قد عرفتني؟
- وهل ينكر الحجاج أصدقاء كليب؟ كيف تركت صبياننا؟
- ما أنت والصبيان؟ أنت أمير العراقيين. . . ولكن خبرني ويحك يا كليب، كيف بلغت هذا كله؟
- بلغته لأني (أردت) أن أبلغه
ولم يدرك عقيل ما شأن الإرادة هنا؛ فانطلق يضحك يحسبها نكتة، ثم سكت فجأة وقال:
- ولكنه شيء عظيم والله يا كليب! أين هذا من ذاك في الطائف؟
- وا شوقاه إلى داري في الطائف، والى أيامي مع الصبيان! لقد خلفت فيها ربيع حياتي. . . . . يا عقيل، لقد خلفت فيها ربيع حياتي. . . والآن يا مرحباً، يا مرحباً برفيق الشباب.

(بيروت)

علي الطنطاوي

خالد بن الوليد وأمير حمص

رواية شعرية في فصل واحد

بقلم السيد محيي الدين الدرويش

(قواد العرب المسلمون مجتمعون للمداولة في حرب الرومان)

أبو عبيدة:

أرى الرومان قد حشدوا جنوداً ... يضيق السهل عنها والفضاء
كأن الليل يزحف وهو داجٍ ... ونحن على جوانبه ضياء
ولولا الصبرُ والإقدام فازت ... جيوش الشرك وانكشف الغطاء

عمرو:

صدقت (أبا عبيدة) ما ونينا ... ولم يُفْلَلْ لضرمتنا مضاء
وكنا كالصواعق غاضبات ... تميد الأرضُ منها والسماء
ولكن كان جمعهم عديدا ... فلم يوهنْ صفوفهم اللقاء
ولو أوتوا قلوباً لا تبالي ... لحاق بقومنا منهم بلاء
رأيت الجند بالعزمات يسمو ... وحقَّ له مع اليأس الشقاء
و (خالد) لِمْ تأخر؟

أبو عبيدة:

لست أدري ... سأصبر علَّ يحمله المساء
أتاني من (أبي بكر) كتابٍ ... فزال الكرب عني والعناء
يبشرني بمقدمه نصيراً ... بروحي منه ذّياك السناء
هو البطل الذي قهر الأعادي ... وليس له سوى التقوى وقاء
تعالى الله حين مضى سريعاً ... ووجه الأرض تخفيه الدماء
رأينا كيف تُنْزَعُ المعالي ... ويرفع في السماء لنا لواء

(تسمع ضجة)

ماذا؟ هتاف؟ ما لخبر؟

عمرو:

لعل (خالداً) حضر

أبو عبيدة:

تبينوا ماذا جرى ... لم يبق لي من مصطبر

(تهليل من الدخل ونشيد من قبل القادمين)

الجنود:

جردوا البيض وسيروا للكفاح ... فمنادي الحرب بالأعراب صاح
إن نيل المجد في الدنيا متاح ... لشعوب زانها العزم الخطير
سوف يلقى (الروم) أنواع البلاء ... من كماة نافسوا الشهب علاء
نحن سر المجد بل رمز الإباء ... لا نبالي ما حيينا بعسير
أنتم الأبطال آساد العرين ... من رأى الآساد يوماً تستكين
فاشحذوا العزم ولبوا مسرعين ... لبناء المجد والعز الأثير
قائدنا يوم اللقاء ... ولنا من سيفه أقوى مضاء (خالدٌ)
زلزل الفرس فمغناهم خلاء ... ومضى في نهجه غير حسير
خالد:
سلام عليكم ليوث العرين ... ونسل الكرام من الفاتحين
أبو عبيدة:
عليك السلام زعيم النضال ... وسيف الإله على الكافرين
أطلت علينا الغياب فأمست ... تسافر نحو (العراق) العيون
علام التأخر؟
خالد:
شأنٌ عجيبٌ ... وشكٌ تغلغل فيه اليقين
أبو عبيدة:
فديتك هات الحديث العجيب ... وأدل برأيك للمسلمين
خالد:
الله أكبر تم الفتح وارتفعت ... على (العراق) بنود النصر والظفر
خضعنا معارك يرتاع الحديد لها ... حيث المنية لا تبقي على بشر
فاهتزت الأرض لما ثار ثائرنا ... وأصبحت دولة الأوثان في سقر
رام الأعادي بنا كيداً وما علموا ... أن العروبة لا تخشى من الخطر
وعدت نحوكم بالجيش مرتقياً ... صحراء تزخر بالويلات والغير
لا ماء فيها ولا رغد يلوح بها
أبو عبيدة:
ماذا شربتم إذن؟
خالد:
كنا على حذر
أعطشت أنيقنا ثم ارتوت عَلَلاً ... وكنت أنحرها في وقدةِ السُّعُر
سريت خمس ليال ما شكا تعباً ... منا امرؤٌ
أبو عبيدة:
يا لكم من فتية صُبُر
خالد:
أصليت (بهراء) حرباً فاستكان لنا ... قوم سما مجدهم في سالف العُصُر
و (مرج راهط) قد ربعت فوارسه ... من بأسنا وكذا (بصرى) على الأثر
أبو عبيدة:
يحيا البطل سيف الله
الجميع:
يحيا يحيا يحيا يحيا
خالد:
نبئوني عن حالكم إن قلبي ... يتنزى شوقاً إلى الهيجاء
أبو عبيدة
قد قهرنا الرومان في (أجنادين) ... وأضحى (اليرموك) مثوى العناء
داهمونا بجيشهم فغدونا ... نتراءى كالشامة البيضاء
قد قسمنا جنودنا وصمدنا ... فملأنا الوهاد بالأشلاء
خالد:
ما أراكم قد أصبتم بانقسام ... إنما الانقسام رأس البلاء
أجمعوا أمركم وكونوا بناء ... هازئاً بالعواصف الهوجاء

إنما الفوز للقوي فسيروا ... نبتن العز في ذرا الحوزاء
وامهروا المجد بالدماء تفوزا ... في جنان الخلود بالآلاء
السلاح السلاح يا قوم إني ... سوف أغدو أمير هذا اللواء
أبو عبيدة:
يحيا القائد يحيا خالد ... الجميع: يحيا يحيا يحيا يحيا
(يذهبون إلى الحرب وتنشب المعركة ثم يعود خالد بعد جلاء العدو)
خالد:
لك الحمد رب الكون تم لنا النصر ... وقام عمود الحق وانقمع الكفر
ورف على الأكوان نور (محمد) ... فأشرقت الدنيا ولاح بها الفجر
فعاد لنفسي زهوها ورجاؤها ... وقرت بي العينان وابتسم الثغر
تمنيت أن ألقى الشهادة راضياً ... ولله أمر لا يغالبه أمر
وأوردت نفسي مورداً دونه الردى ... فأخطأني وا لهفتا ذلك الأجر
عجبت من (الرومان) هانت نفوسهم ... فلم يثبتوا عند اللقاء وهم كثر
لئن هيمن الضعف المهين على امرئ ... فأجدى لهذا المرء من عيشه القبر
عروس الشام دانت لحكمنا ... وأرجو (بحمص) أن يطالعنا النصر (دمشق)
جندي:
سيدي قد أتى من الرومان ... فارس لا تملُّه العينان
يرتجي أن يراك
خالد:
أدخله حالاً ... لنرى ما يرومه من شان
(يدخل أمير حمص)
الأمير:
أيها القائد رفقاً بِشَحٍ ... فلقد كنت نصير البائسين
إنني سيد (حمص)
خالد:
مرحباً ... بفتى (غسان) وضاح الجبين
أوضح الأمر وقل لي ما الذي ... تشتكيه كي أبيد الغاشمين
صلة تجمعنا من (يعرب) ... لم يبدد عقدها مر السنين
الأمير:
قد أتيت اليوم أشكو ملكا ... آثر البغي وراع الآمنين
قيصر الروم (هرقل)
خالد:
ويله ... سيرى في الغد عقبى الظالمين
الأمير:
قد بنى في (حمص) قصراً شامخاً ... يتعايا عن ذراه الناظرون
دوحة (الميماس) تهفو حوله ... ومياه النهر تروي الظامئين
ومضى يمعن في آثامه ... لا يبالي بانتقاد اللائمين
فاستثارت (حمص) من أعماله ... كيف ترضى (حمص) فعل الجاهلين؟
إنما (حمص) منارٌ للألى ... عزمهم في الرَّوع يأبى أن يلين
لم يكن يدري (هرقل) أننا ... لا نبالي ما حيينا بالمنون
عرب من آل (غسان) لنا ... طأطأ الناس جميعاً خاشعين
أنتم إخواننا أهلاً بكم ... وليمت في كيده ذاك اللعين
إن يُفرق بيننا الدين فقد ... وحَّد الجنس قلوب المخلصين
قد أتينا اليوم نرجو عطفكم ... وغدونا في ذَراكم لاجئين
أنتم السادة
خالد:
لا تخشى الأذى ... قد وجدت الأهل
الأمير:
دمتم فائزين

خالد:
قد نهى الإسلام عن إيذائكم=وقضى ذلك خير المرسلين
الأمير:
سوف نُمضي معكم عهداً على ... أن تصونوا دمنا
خالد:
لنا نَمين
شيعة العرب وفاء بالذي ... وعدوا لا درَّ درُّ الناكَثين
أيُّ شأن لعهود قُطعت ... ثم أضحت تُرَّهات بعد حين!
لا تغُرَّنك قصاصات غدت ... شَركاً تنصبُ للمستضعفين!
ارجع الآن (لحمص) إنني ... قد تصبَّاني لمرآها الحنين
بشر الأقوام أنا في غد ... سوف نبدو في رباكم فاتحين
(يذهب الأمير ويدخل القواد)
أبو عبيدة:
سلام يا أمير المسلمينا ... له أرَجٌ يفوق الياسمينا
عمرو:
لقد خضعت لعزتك البرايا ... ودان لك الأعادي صاغرينا
فكنت القائد النَّدْب المرجَّى ... وكنت أمامَنا حصناَ حصينا
قائد:
وكيف نخاف للأعداء بأساً ... وسيف الله والإِسلام فينا؟
خالد:
أراكم قد بلغتم فيَّ حدّاً ... تسامى فوق وصف الواصفينا
ألستم عدتي عند الرزايا ... ألستم في الحوادث لي يمينا
حمدت جهادكم والهول باد ... وقد جنت بوادره جنونا
وزلزلتم صروح الكفر لما ... أتيتم كالصواعق راعدينا
تفرَّدت العروبة بالمعالِي ... سلوا الأحقاب عنها والسنينا
ألم تملأ زمازمها البرايا ... وتتركْ في الزمان لها رنينا
فويلُ للألى غمزوا قناها ... لقد سلكوا سبيل الجاهلينا
إليك (أبا عبيدة) خذ كتابا ... أتاني من أمير المؤمنينا
أتانِي ناعياً
أبو عبيدة:
من ذا توارى؟
خالد:
إمام المصلحينا (أبو بكر)
هوى طودٌ من الإسلام فابكوا ... معي الأخلاق والحلم الرزينا
أبو عبيدة:
سنذكره على مَرِّ الليالي ... ونذرف بعده الدمع السخينا
وأيُّ خليفة أضحى بديلاً ... لخير الناس أخلاقاً وديناً؟
خالد:
هو الفاروق منضور السجايا ... إمام لا يرى في الحق لينا
أناط بك القيادة فاستلمها ... فإنك كنت في الدنيا أمينا
وأعلمه بأمر الفتح حالاً
أبو عبيدة:
معاذ الله أن أنسى الجهودا
أأغدو قائد الأبطال حقًّا ... و (خالد) يملأ الدنيا رعودا
وكيف أرى البنود عليَّ تهفو ... وسيف الله قد هزَّ البنودا؟
تقدم أيها البطل المفدَّى ... فقد ذللت بالعزم الحديدا
أشر للدهر يخضع للمعالي ... وأومئ للأنام تكن عبيدا
وسر بالمسلمين إلى الثريا ... فقد كنا ولم نبرح جنودا
خالد:

ما حاربت مرتقباً ... طيب الثناء ولم أطمح إلى الرتب (أبا عبيدة)
ولا صبوت إلى الدنيا وزخرفها ... ولا سموت إلى مال ولا نشب
في ذمة الله ما قدمت من عمل ... تبقى مآثره دوماً على الحقب
عساه ينفعني إما قدمت إلى ... ربي ويعصمني من سورة الكرب
بذلت نفسي قرير العين مغتبطاً ... حتى تعالى لواء العرب في السحب
ولم أكن غير جندي أهاب به ... إلى الجهاد يقينٌ غير مضطرب
والآن سيروا إلى (حمص) فإن بها ... هان العسير وتم النصر للعرب
(حمص)
محي الدين الدرويش
العدد 247 - بتاريخ: 28 - 03 - 1938
حول الكعبة
للدكتور الحاج عبد الوهاب عزام
الليل مهودٌ وسنْان، ترى العين سكونه، ويُحس القلب سكينته؛ ونسيم السَّحر يسري رفيقاً ينفح الخليقة لا أدري أيبغي إيقاظها أم إنامتها؛ والقمر ينضح الكون بأشعته يخفق مع النسيم نوره؛ وقد أصحت السماء إلا قَزعاً في الأرجاء؛ وتبدو في سكون الليل ونور القمر قمم الجبال: غندمة وأبي قبيس وأجياد.
استغرقت الخليقة في أحلامها الجميلة، وشُغل الليل بشعره البليغ، ففيه إصاخة الشاعر للمعنى الجميل المخترع.
ولكن طرق مكة لا تنام، ولا تفتر عنها الأقدام، فأنظر في ضوء القمر، وفي ظلال الدور، زرافات متمهلة أو مسرعة، ذاكرة أو صامتة، تؤم البيت الحرام.
الليل هاجع، والخليقة نائمة، ولكن هذه القلوب الوالهة لا تهجع؛ ولكن هذه العيون الباكية لا تغمض، ولكن هذه الزفرات المردّدة لا تسكن، ولكن هذه الألسنة الذاكرة لاتفتر. قد استوى ليلها ونهارها، وعشيها وإبكارها.
هذا هو المسجد الحرام! فهل تقع العين إلا على مُصَلٍ خاشع، وطائف بالكعبة واله، وقارئ تنطق بضراعته الآيات، وداع يرسل قلبه في كلمات؟
كم قلب محزون حمل إلى هذا الجناب شكواه، وفؤاد معذب يبث في هذه الساحة نجواه! وكم آثم حط في هذا الفناء الأوزار، ليمحقها بالتوبة والاستغفار! وكم دَنِس جاء ليتطهر من هذا النهر، وكم يائس ورد يستقي الرجاء، ومحروم أقبل يستدر العطاء!
وكم نفس مظلومة ترفع ظلاماتها، وأخرى ظالمة تعترف بجناياتها! وكم مكلوم جاء بجراحاته، وأرسل آهاته وأناته! وكم ثاكل يحمل قلبه كسيراً، ويسيل دمعه غزيراً. كل ضارع على هذا الباب، ضائع عند هذه السدّة، يهاب هذا العِظَم، ويرجو هذا الكرم. أكداس من الآلام والآمال، وأشتات من الهموم والأمانيّ، والشكران والشكوى، والدعاء والنجوى، والتضرع والحمد!
ووراء هؤلاء في المشرق والغرب قلوب توجهت شطر هذا البيت كما تتوجه الإبر إلى القطب، وتنزع إليه نزوع الغريب إلى ولده وداره. فكم مصلٍّ في أرجاء الأرض ولّي هذا الجناب وجهه وقلبه! وكم داع قصد هذا القصد على بعد المزار ونأى الديار! أترى الدعوات تهفو على الكعبة مع هذا النسيم، والصلوات تتنزل عليها في هذا الضوء، وأسراب الآمال طارت من المغرب والصين لتطوف مع الطائفين؟ أترى سوداوات القلوب اجتمعت فكانت هذا البناء، أم أناسيّ العيون تراكمت فكانت هذه البنيَّة السوداء؟
انظرْ فلا أجد في هذا البناء تمثالاً ولا صنماً ولا وثناً ولا صورة ولا نقشاً. إنما هو التوحيد في خلوصه، والعقيدة في يسرها، والإسلام في فطرته. بيت لعبادة الله يؤمه عباد الله، تجتمع حوله القلوب، وتلتقي في الدعوات! بيت من التوحيد يحسّ، وبناء من الأخوة يُلمس.
ما أروع هذا مشهداً! صلاة ودعاء، وطواف وبكاء، يسيل بها الإصباح والإمساء. من لي بالخلوة في هذا الزحام، والوحدة في هذه الكثرة، والسكون في هذا العباب، والقرار في هذا المحشر! بل من لي بأن أقف على الساحل من هذا البحر لأرى واسمع!!
صعدت إلى مصلى الشافعي فوق زمزم فإذا هو خلاء، فأشرفت على هذا الجمع أرى جموعاً متوحدة، ودعوات متجسدة، وألفاظاً تنطق بمعنى واحد، وظلالاً يمدها نور واحد.

وكان للقلب مجال بين الكثرة والوحدة، والظهور والخفاء، والوجود والفناء. وليت اللحظات امتدت فاتصلت بالأزل والأبد!

وينبعث في هذا الدويّ، بل يشع بين هذه الأصوات صوت الأذان: (الله اكبر. الله أكبر)، وينتظم شعار التوحيد هذه الأصوات؛ فإذا الدعاء صمت، والحركة سكون، وإذا هذا الجمع نفس واحدة تصيخ إلى صوت واحد.

ما أجمل هذا الصوت وما أروعه! عظمة الله تغشى هذا المشهد، وكلمة التوحيد تملأ هذا المسجد. قلت لنفسي: (ليت الإنسان يستمع أبدا إلى آذان الفجر في جوار الكعبة!) قالت: (أما الأذان فهو دائم موصول لا تخلو منه ساعة من ليل أو نهار. فالأوقات في أقطار الإسلام مختلفة، فما يسكن أذان في بلد إلا ارتفع أذان في آخر ابد الدهر. تكبير دائم لمن كان له سمع، وذكر مستمر لمن كان له قلب. وأما الكعبة فأنت في جوارها كل حين إن لم تكن أسير البقاع ورهن الحجب).

هلم إلى الرحيل! طفت طواف الوداع، وأديت مع الجماعة صلاة الصبح، وقد أُعدت السيارات والرفاق ينتظرون؛ ولكن النهار لم يسفر فما يعجلني عن هذا المكان؟ هلم قد حان الرحيل وليس من الذهاب بد. ولكن الرحيل يمكن إرجاؤه لأتزود للبين نظرات، واجمع

للفراق ذكريات. . . قد حان الرحيل ولا مناص:

خرجت امشي يقول قلبي ... للرِّجل: بالله أنظِريني

رحم الله حافظاً الشيرازي الذي يقول:

وكيف يطيب العيش في منزل المنى ... وأجراس هذا السَّفْر للبين تقرع

عبد الوهاب عزام

مجد العرب والإسلام

للأستاذ إسماعيل مظهر

كانت رومية قد لفظت آخر أنفاسها عندما اقتلع زعيم حربي من الهمج المتبربرة تاج الإمبراطورية الرومانية من رأس إمبراطور صبيْ ابيض الوجه، وضَّاح الجبين، ليضعه فوق رأسه الكث الشعر، الملبَّد الفودين.

أما الزمان فسنة 476 بعد الميلاد. وأما المسرح فدرجات قصر رافِنَّا الرخامية.

كان الانحلال قد امتد إلى عظام رومية ينخرها منذ سنين، فأخذت مِرَّتها تضعف وقواها تتبدد شيئاً بعد شيء. أما آخر مشهد من مشاهد هذه المأساة التي مثلتها رومية على المسرح هذه الدنيا، فقد مرَّ مرور الحلم ولم يأبه له إنسان. وهنالك انسدل الستار على تلك المدينة القديمة وانطوت صفحاتها الخالدة. أما المستقبل فكان طوع يمين تلك الشعوب الفتية القوية التي انحدرت من الشمال.

خرجت تلك الشعوب من خلال المفاوز الجبلية المثلوجة، وانحدرت من هضاب الشمال الهاوية، وشقت طريقها إلى الجنوب حيث الأراضي الشامسة والحقول الخصبة. ولقد ركب بعضهم متن العباب على سفائن أشبه بالحيتان الضخام، وامتطى آخرون عجلات من ذلك الصنف الذي يستخدمه البدو إذ يرعون إنعامهم. ولقد اتخذوا في جوانب الطرق المرمرية التي أنشأها القياصرة العظام محاطَّ يضربون فيها مخايمهم، وكان البحر المتوسط مرمى أنظارهم؛ ذلك بأن رومية لم تجمع ثروتها الضخمة إلا من شطآنه

مضوا يهيمون في كل واد غاصبين مقاتلين، فنشروا الرعب والفوضى في ربوع المدائن القيصرية؛ وكانوا في جهالة؛ فساء تصرفهم، وفسدت أعمالهم؛ وقد تمضي عليهم فترة يتفرقون فيها أشتاتاً، ثم تنجدهم موجات جديدة من الهمج أمثالهم هابطة من الشمال أو من الشرق. ونُسِيَ القانون الروماني فأصبح الحق للأقوى، واحتكمت تقاليد العشيرة البدائية في الجماهير، تقاليد أولئك الذين نشَّأتهم صحراء غوبي المجدبة في جوف الصين.

وظل العالم الحاف بالبحر المتوسط خمسة قرون ميدانياً لتنقل تلك القبائل الهمجية ووحداتها الحربية. على إنهم إن ظلوا أمناء لتقاليد حياتهم البدائية، واحتفظوا بروح العشيرة، فإنهم في خلال لك الخمسمائة من السنين كانوا قد تقبلوا أثارة مما خلف العالم الروماني الإغريقي

من صور الثقافة.
طوى رومية ظلام القرون؛ فلما طواها خيم على أوربا ظلام الجهل والهمجية. ذلك الجهل وتلك الهمجية كان طابع الشمال، فعملت رومية جاهدة في أن تصد طغيانهما عن الجنوب قروناً عديدة؛ فلما لفظت آخر أنفاسها، استباحت فوضى الشمال حضارة الجنوب.
وكانت الغابات المرطوبة على عهدها لم تتغير، والخرائب المغبرة الحزينة على سابق حالها مذ سكنها البوم وأخذت تسبح في أفنيتها وتنتقل في كرومها القديمة. ولقد ألفتها الذئاب الجارحة تعيش جماعات متعاونة على الصيد والافتراس. أما المزارع فكانت رقعاً تتخلل الأرض الحجرية، حيث القرى بأكواخها المشيدة في لبنات ملاطها الطين وسقوفها من البوص والهشيم، تقوم هنالك في سفح قصر منيف ذي أبراج ضخام لسيد من أسياد القطائع.
أما الرعاة فكانوا ينامون في العراء، وفي الوديان المخيفة الموحشة؛ ما يؤنسهم من شيء إلا المفترس من الحيوان والجارح من الطير. ذلك لأن مفاوز الغابات كانت مآهلهم الأمينة ومرابيهم الأصيلة
وهنا وهنالك كنت تقع على ذلك التراب الأبيض السافي تتخلله قطع من الأحجار، إن نمت عن شيء فعن أن التراب والأحجار إنما هي بقايا طريق روماني براه الزمان بين الفينة والفينة كان يمر بذلك الطريق يهودي من بني إسرائيل ومن ورائه شرذمة من الخيل؛ أو تاجر تحيط به كتيبة من حملة الحراب، وأقل ما يكون حدوثاً أن يثير غبار ذلك الطريق كتيبة لسيد من أسياد القطائع، فإذا مرت اجتمع من حولها أهل الحقول ينظرون مأخوذين من رجال تلك الكتيبة الأشداء، يؤخذون بمرأى الدروع السود المصفحة بالحديد، والملافع الكبيرة التي يغشى أطرافها الفراء.
قلّ من أهل الريف من رأى اكثر من ذلك؛ اللهم إلا أن يكونوا قد رأوا علامة الصليب الكبيرة التي تشير إلى التقاء الطرق وتفرعها في نهاية الوادي. أما ما وراء التلال فكان مجهولاً بل كان عدواً مخيفاً. ولم يكن لهم اتصال بالعالم الخارجي عن عالمهم هذا، اللهم إلا عن طريق الرهبان لابسي المسوح، أولئك الذين كانوا يجوبون الأنحاء حُفاة من دير إلى دير، أو عن طريق شاعر من مؤلفي الأغنيات، يمر عجلان إلى البهو ليتناول وجبة فاته
أوانها.
ذلك بأن أهل أوربا في عصور الظلام عاشوا مدفونين في وديانهم التي نشأتهم ولم يروا مما ورائها شيئاً. قال حراث من أهل ذلك العصر انحدرت إلينا كلماته: (إذا تنفس الصبح خرجت تواً أقود الثيران إلى الحقل، ثم أضعها في المحراث، لأن واجبي أن أحرث كل يوم حقلاً، وإلى جانبي ولد لي أبحَّ صوته البرد والصياح. فإذا فرغت من عملي ذاك ملأت المذاود بالدريس وسقيت النَّعَم ثم أخرجت الرَّوث. يا الله! إن هذا العمل المرهق شاق، ولكني لست حراً).
وكثيراً ما كان القحط يحط عليهم. فأيام ممطرة حين البذار، أو فساد في المحصول، أو سوس ينخر القمح، أو جفاف أو حرب، كل سبب من أولئك كان كافياً وحده أن ينشر الجوع والبلاء
قيل: (كان الطباشير يطلب من الأرض ويمزج بالدقيق ليصنع خبزا. لقد اصفرت وجوههم وانحطت قواهم، حتى لقد عجزوا عن أن يجروا أنفسهم من فوق الأرض جراً. وهيئت حفر ليسحب إليها المحتفرون ويلقون في جوفها. وكانت هذه المصائب تلابسها مصائب أكبر وكوارث أعظم. فإن الذئاب وقد أنسوا على جوانب الطريق كثيراً من الجثث، ملكتهم الشجاعة وأغواهم ضعف الناس، فراحوا يهاجمون الأحياء. أما مواد الطعام فقد خص بها الأقوياء ليظلوا قادرين على العمل، لعل الحقول تزرع ولا تبور)
وقيل: (رئى رجل في سوق (تونير) حاملاً لحماً مطبوخاً ليبيعه في سوق المدينة. فلما سئل فيه ادعى أنه لحم حيوان. ولكن ذلك لم ينجه فسيق إلى السؤال، وهنالك لم ينكر جريمته فأحرق حياً. أما اللحم البشري الذي أتى به الرجل فقد دفن باسم العدل والقانون. غير أن رجلاً غيره نبش ذلك اللحم وأكل منه، فكان جزاؤه الموت إحراقاً)
وفي مثل تلك الفترات كان الطاعون من بلايا الأحياء. فإنهم كانوا يزحمون الأكواخ والدساكر، حتى إن أسراً برمتها كثيراً ما كانت تذهب فريسة ذلك المرض، فيتركها

الباقون ويهجرون المنازل والربوع فزعاً من الموت وفراراً من البلاء. وكان المرضى يحملون إلى الكنائس ابتغاء الشفاء، فتنتشر العدوى في أولئك الذين أتوا ليؤدوا فريضة الصلاة عبادة خالصة لوجه الله.

قال أردريكوس فيتالس أحد مؤرخي القساوسة: (عمَّ بلاء المرض فمضى بأهل بيوت كثيرة، كما إن الجوع قد أفنى المرض؛ فلما أن خربت النيران الأرض، خرج الأكثرون هائمين على وجوههم. فلما رأوا أن الأبْرَشيات قد طمست معالمها ودرست آثارها، فروا من الكنائس الخاوية هرباً إلى حيث لا يعلمون)

هذه صورة مما كان في أوربا الغربية، لما انفلق صبح الزمان عن غلام يتيم من أبناء قريش؛ فلما شب وترعرع، ثم تفتى وكاد يكتهل نزل عليه الوحي ليبشر بدين جديد، وليؤدي الرسالة الربانية للناس أجمعين، وكانوا من الهمجية على مثل ما رأيت في أوربا، يقتلون أولادهم خشية الإملاق ويئدون البنات ويعبدون أصناماً كثيرة تبول الثعالب برؤوسها، ويدينون بقوى سحرية، ويؤمنون بظواهر الطبيعة كآلهة. غير إنهم بالرغم من هذا صدقوا وآمنوا بما أنزل إليهم. فإن صلابة محمد في نصرة الحق شدخت يافوخ الشرك والوثنية.

أدى محمد رسالته على خير ما تؤدى رسائل الوحي، فلما قبض كان نور الإسلام قد أنبلج فأعتنق أكثر العرب ذلك الدين القيم وآمنوا بالقرآن وآيتهما: (أن لا إله إلا الله، وأن محمد رسول الله)

وما لم يتح لنبي قريش أن يتم في حياته، أتمه من بعده خلفاؤه العظام. فإن رجال تلك الصحراء، وعلى رؤوسهم خوذات الحرب، قد امتطوا صهوات جياد قضيفة صغيرة الحجوم، أو ظهور إبل عجاف، وخرجوا من فضائهم الأرحب ليغزوا ويمعنوا في الغزو، تعزيزاً للإسلام ونشراً لكلمة الله. ولقد اتقدت في جوانحهم نار الحمية فانتشروا في الأرض ومشوا في مناكبها، وتنقلوا فيها من مكان إلى مكان، بسرعة أقلقت أهل العالم القديم.

بدأت الغزوات في حكم الخلفاء الراشدين، أصحاب محمد المقربين. وفي أقل من قرن من الزمان رفعت راية الإسلام على الدنيا جميعاً من السند إلى جوف الصين، ولمعت سيوفه في مفاوز القوقاز وأغوارها، وسقطت مصر في يد العرب، وتبعها شمال أفريقيا، ثم الأندلس.

ومنذ فاتحة تلك الغزوات طغى مدها العظيم على وديان أورشليم الصخرية فاكتسحها، وأحاط الإسلام بهيكل المسيح أما طغيان الإسلام على أوربا جميعاً فلم يصده في الظاهر

غير عقبتين: شارل مارتل في الغرب، وحصون بوزنطية في الشرق. أما السبب الحقيقي في وقوف ذلك المدَّ الإسلامي العظيم عند ذلك الحد، وهبوطه بعد أنه كاد يبلغ الذروة العليا، فيرجع إلى أن أصحاب محمد قد انقسموا أحزاباً وتفرقوا شيعاً، وأختص كل حزب منهم بجزء من الأرض المغزوة. ولو إنهم ظلوا مجمعين على كلمة الإسلام إذن لأندحر شارل مارتل، وإذن لاندكت حصون بوزنطية، وتحقق بذلك وعيد معاوية للإمبراطور الروماني إذ قال له في كتاب أرسل به إليه لما علم بعزمه على غزو الشام إبان خلافه مع علي بن أبي طالب: (لئن تمْمت على ما بلغني لأصالحنَّ صاحبي، ولأكونَّ على رأس طلائعه إليك، ولأجعلن القسطنطينية الحمراءُ حمامة سوداء، ولأخلعنك عن عرشك خلع الإسطفليتة، ولأرسلنك في الجبال ترعى الإبل)

لو لم ينشق المسلمون لتحقق هذا: (ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم)

ولقد كانت تلك الغزوات سبباً في أن يقف العرب، وهم يحملون أرقى الأديان وأمجد المدنيات، وجهاً لوجه أمام أولئك الهمج الذين ثبتوا أقدامهم في خرائب الإمبراطورية الرومانية، واعتنقوا دين عيسى فأصبحوا نصارى. وتجاورت قوات أوربا وقوات آسيا. فإن طلائع قوى النصارى كانت تلحظ عن كثب مقدمة معاقل الإسلام.

أما في الغرب، حيث شهدت الأندلس معارك أوربا والإسلام، فإن نصارى الفرنجة، وقد انتهزوا فرصة اضطرام نار الخلاف والموروث بين القبائل منذ الجاهلية، كانوا قد استردوا مفاوز (البرنيز)، ومضوا يتقدمون بتؤدة، مثبتين أقدامهم في شبه الجزيرة خطوة بعد أخرى. ذلك على الضد مما كان في الشرق. فإن المسلمين كانوا قد تقدموا نحو أوربا مخترقين آسيا الصغرى.

فيما بين هذين الطرفين: الأندلس غرباً، وآسيا الصغرى شرقاً؛ وفي وسط تلك الشقة، كان للإسلام اليد العليا: في الأرض كما في البحر. ذلك بأن العرب قد ألفوا البحر بسهولة، وشقوا عبابه مرحين. وابتنوا البوارج الفخام، فتحولوا شيئاً بعد شيء من غزاة فاتحين بحد السيف، إلى غزاة فاتحين بسلاح التجارة. ومن ثم ثبتوا أقدامهم في جزر البحر المتوسط، وبخاصة صقلية، وركبوا متن نهر (التيبر) حتى بلغوا جدران رومية.

ولم يمض غير قليل حتى أخذ العرب عن الشعوب التي غزوها مبادئ الثقافة القديمة، واخترقت قوافلهم تلك الصحارى الشاسعات من بلاد الهند إلى أسواق حلب والإسكندرية؛ وإزدانت قرطبة والقاهرة بالقصور الشامخة ودور العلم الفخمة، وحكم هارون الرشيد في بغداد.

وهدأت الحالة واستقرت الأمور على امتداد التخوم. ذلك بان المسلمين كانوا أحد ذكاء وأكثر معرفة وأعرق مدنية واعظم قوة من جيرانهم همج النصارى.

حوالي ذلك الزمن بدت في أوربا بوادر جديدة، فان شارلمان ملك الفرنجة وحفيد شارل مارتل قد بدأ في تنفيذ خطته. فإن متابعة الحرب والمغازي المتتالية، واستئثار رجل واحد بالحكم كان سبباً في أن تكون إمبراطورية لم يدم بقاؤها أكثر من جيل واحد، وفي أثناء ذلك اتجه شارلمان ونبلاء جيشه نحو الشرق، ونصب أعينهم مدينة بوزنطية.

أما الذين اتزنت عقولهم فقد اعتقدوا أن عمل شارلمان إنما هو بداءة النظام وفاتحة حكم القانون، ذلك بأن آخر حكومة منظمة كانوا يذكرون قيامها، إنما هي حكومة الإمبراطورية الرومانية. ولذا اعتقدوا أنه ما من حاكم يصلح للحكم إلا عاهل قيصري، يملك زمام الأمر ويجمعه في يده. ولقد صحت نظرتهم فإن موت شارلمان كان سبباً في أن تتمزق تلك الإمبراطورية وتذهب بدداً.

بذهاب الإمبراطورية التي شيدها شارلمان عادت لأوربا عصور الظلام. فتفرقت الأمم وتنازعت الشعوب، من غير أن تعرف أمة أو يفقه شعب للخلاص طريقاً. لقد اقتتلوا كما اقتتل آباؤهم، بشراهة الذئاب. وفيما هم على حالهم تلك، ممزقة وحدتهم متفرقة كلمتهم، هبطت عليهم من الشمال عشائر من الهمج هم الدانيون والنورمان ممتطين عباب الماء.

برزوا إلى مسرح الحوادث العالمية، وكأنهم برزوا من أغوار البحار المجللة بالظلام والضباب، متلهفين إلى أرض مشمسة خصبة، هي أرض الجنوب، وكانوا غر مدجنين، يلبسون جلود الثعالب وإهاب الحيتان، ومن فوقها الذهب اللامع، وفي أيديهم سيوفهم الطويلة وحرابهم المسنونة وفؤوسهم الغليظة، فخربوا ودمروا وأحرقوا. واستقروا في النهاية حذاء الشواطئ.

ظلام من فوقه ظلام، ومن فوقه ظلام. وفي ذلك الوقت تخيل إنسان من طيبي النصارى خيالاً، واعتقد بأن نهاية العالم أي القيامة ستكون سنة ألف، أي في اليوم الأخير من القرن

العاشر الميلادي، وارتقب الناس ذلك اليوم، وأمضوا الليلة الأخيرة ساهرين، يتوقعون النفخة في الصور، ليهرعوا جميعاً إلى موقف الحساب، ولكن ذُكاء بزغت في نهاية الأفق صامتة كعادتها، منعشة كعهدها، وظهرت الأرض لابسة حليتها المعروفة، فلم يتغير بها من شيء.

ظلام في العقيدة وظلام في الفكر وظلام في الحضارة. تلك كانت حال تلك البقعة التي نعرفها باسم أوربا في أواخر القرن الحادي عشر المسيحي. فكيف كان العرب والإسلام؟

في أواسط القرن التاسع الميلادي أي في عهد الخليفة المأمون العبَّاسي، عاش محمد بن موسى الذي ألَّف في علم الجبر وعنه أخذت أوربا في أواسط القرن الرابع عشر، فإن مقالته في ذلك العلم قد ترجمت إلى اللاتينية واتخذت أساساً لتدريس الجبر في عصر النهضة العلمية في أوربا. وعقب عليه محمد بن جابر البتَّاني المتوفى سنة 929 ميلادية وهو صاحب الزيج المشهور المعروف باسم الزيج الصابي، وله عدا الزيج شروح على المجسطي وشرح مقالات بطليموس ومقالة في الفلك والجغرافية؛ ويقول فيه المؤرخ أوليري: (كان زيجه أضبط ما وجد من نوعه عند العرب، وله عدة مستكشفات رياضية وفلكية ظلت العمدة في علم الفلك عهداً طويلاً في القرون

الوسطى وفي مدارس أوربا على الأخص؛ وكان يلقب بطليموس العرب لثبات قدمه في علم الفلك وتضلعه فيه)
وفي حدود سنة 828 للميلاد أمر الخليفة المأمون بقياس درجة من الهاجرة لاستقراء جرم الكرة الأرضية، وقام بهذا العمل أربعة من علماء الهيئة مدونة أسمائهم في صفحات التاريخ.
قال أبو الفدا:
قام بتحقيق حصة الدرجة طائفة من القدماء لبطليموس صاحب المجسطي وغيره،) فوجدوا حصة الدرجة الواحدة من العظيمة المتوَّهمة على الأرض ستة وثلاثين ميلاً وثلثي ميل. ثم قام بتحقيقه طائفة من الحكماء المحدثين في عهد المأمون وحضروا بأمره في برية سنجار وافترقوا فرقتين بعد أن أخذوا ارتفاع القطب محرَّراً في المكان الذي افترقوا منه. وأخذت إحدى الفرقتين تسير نحو القطب الشمالي والأخرى نحو القطب الجنوبي، وساروا على أشد ما أمكنهم من الاستقامة حتى أرتفع القطب للسائرين في الشمال وانحط للسائرين في
الجنوب درجة واحدة. ثم اجتمعوا عند المفترق وقابلوا على ما وجدوه فكان مع إحداهما ستة وخمسون ميلاً وثلث ميل، ومع الأخرى ستة وخمسون ميلاً بلا كسر، فأخذ (بالأقل)
قيل: (واشتغل الرازي بالكيمياء وأستكشف ما أسماه (زيت الزاج) وهو الحامض الكبريتيك والكحول. أستحضر الأول بإستقطار كبريتات الحديد واسمه في العربية الزاج الأخضر فلما استقطره خرج منه سائل سماه زيت الزاج. ولا تزال الطريقة التي اتبعها الرازي في استخراج ذلك الحامض متبعة في استخراجه إلى اليوم. أما الكحول فقد استحضره بإستقطار المواد نشوية وسكرية مختمرة.
وقيل: (أسس المأمون الخليفة العباسي مدرسة بغداد سنة 217هـ (832م) وسماها بيت الحكمة وعهد بها إلى عناية يحيى بن ماسويه الذي توفي سنة 857م. وكان من المؤلفين في السريانية والعربية. أما مقالته في الحميات فقد كانت العمدة في دراسة تلك الأمراض زمناً طويلاً. وقد نقلت من بعد إلى اللاتينية والعبرية.
ويعتقد المؤرخون إن أكبر الأعمال التي قام بها بيت الحكمة شأناً ترجع إلى الجهود التي بذلها تلاميذ يحيى بن ماسويه ومنهم الرجل الفذ أبو زيد حنين بن إسحاق العبادي المتوفى سنة 876م فقد نقل فضلاً عما نقل من المؤلفات الطبية، جزءاً من منطق أرسطو (الأورغانون) وبعد أن درس أبو زيد في بغداد رحل إلى الإسكندرية، وعاد منها مزوداً بكل ثمار الدرس التي كانت شائعة في عهده متقناً للغة اليونانية التي استخدمها في النقل إلى السريانية والعربية.
ثم قيل: واجتمع معه في بيت الحكمة ابنه إسحاق وابن أخته حبيش الأعسم الدمشقي. وترجم حنين إلى العربية مقالات إقليدس وبضعة مؤلفات عن جالينوس وأبقراط وأرخميدس وايولونيوس الفرغايوسى، وهو أكبر من اشتغل بالهندسة في العالم اليوناني بعد اقليدس. ولقد ترجم أبو زيد عن غير هؤلاء كما ترجم الجمهورية، وكتاب طيماوس لأفلاطون وقاطيغورياس والموسيقا والماغتاموراليا أي الأخلاق الكبير عن أرسطوطاليس وتعليقات طيموستيوس على المقال الثلاثين من الفيزيقا. كذلك ترجم كتاب أرسطوطاليس في المعادن، وهو كتاب ظلَّ زماناً طويلاً مرجعاً من أهم المراجع في درس الكيمياء، وعن اصله اليوناني أخذ بولس الأجانيطي.
ومما انحدر إلينا؟ أن إسحاق بن حنين قد ترجم إلى العربية - فضلاً عن الطب - كتباً من أشهر ما حوت حكمة الأقدمين؛ منها السوفسطائي لأفلاطون، والميتافيزيقا والروح (ده أينما) والكون والفساد، وإرمانوطيقا، أو باري أرمانياس أي العبارة لأرسطوطاليس؛ كما نقل تعليقات عن فرفوريوس الصوري والاسكندر الأفروديسي وأمونيوس.
وقيل: كان من عظماء المشارقة في عهد نهضتهم قسطا بن لوقا وأبو بشر متي بن يونس ويحيى ابن عدي وابن ناعمة وثابت بن قرة وجابر بن حيان والفارابي وابن سينا والغزالي وغيرهم.
هذه إثارة مما كان في الشرق، بل إشارة إلى بعض ما وصل إلينا من أخبارهم وما انحدر إلينا من أحوالهم بعد أن اتخذ هولاكو من كتبهم قنطرة عبر عليها أحد الرافدين.

ولك أن تقيس ما انبعث على يد العرب والإسلام من أنوار العلم والمدنية، على ما بعث أهل أوربا في ذلك العهد من ظلام على أهل الشمال.

أما في الغرب - أي في بلاد الأندلس - فقد أرسل العرب على ذلك العالم الميت المظلم الذي نعرفه الآن باسم أوربا أول شعاع من أشعة النور. وليس لنا أن نأتي من عندنا بكلام نبين به عن أثرهم في تحضير العالم الحديث بل نترك الكلام للأستاذ (درابر) في كتابه (نماء أوربا العقلي ص30 ج2) قال:

لما ثبت قدم العرب في بلاد الأندلس، بادروا إلى العمل على نشر العلم والحضارة، وقد نقلوا معهم إلى الغرب جميع المبادئ التي قامت عليها حضارتهم في أسيا. وكان أول ما التفتوا إليه نشر المعرفة وتظليلها بحمايتهم. وقد ازدهرت في عهدهم المدن وأقرب مثال لها قرطبة، فقد كانت تتألف من مائتي ألف بيت ويسكنها مليون من النسمات. ويكفي أن تعرف أن شارعها الأكبر كان يطول عشرة أميال ويضاء ليلاً للمارة بمصابيح كبيرة، وذلك مشهد من مشاهد الحضارة لم تعرفه مدينة لندن إلا بعد ذلك العهد بسبعمائة عام. وكانت طرقاتها مرصوفة بالأحجار في حين أن باريس ظلت قروناً بعد حضارة العرب في الأندلس مبركاً للمياه والأوحال التي تغوص فيها الأرجل إلى الركب في فصل الشتاء. ولم يقتصر الأمر على قرطبة، بل إن غرناطة وأشبيلية وطليطلة كانت مدناً تعد أشباهاً لقرطبة ونظائر. وكانت قصور الأمراء مثلاً من الفخامة الشرقية، بل كانت متاحف للفنون الرفيعة وعنواناً على حضارة عريقة، في حين أن المنازل التي سكنها أمراء ألمانيا وفرنسا وإنجلترا لم تكن تفضل حظائر الماشية في شيء، فهي بلا مداخن أو نوافذ، وكان المخرج الوحيد الذي يسلم إلى فضاء الجو كوة في أعلى السقف يتصرف منها الدخان)

ولقد وصف المؤرخون قصور أمراء الأندلس وصفاً يقصر عن إدراك حقيقته الخيال؛ فهل علمت أن قصورهم كانت مجهزة بأنابيب معدنية لتوزيع الماء على الأجنحة المختلفة، وأن الماء كان يجري دافئاً في أثناء الشتاء وبارداً مثلوجاً في أثناء الصيف، وأن جهازات التهوية الصناعية كانت في الأشياء التي اخترعها العرب في فن البناء واستخدمت لأول مرة في قصور الأندلس؟ قيل إن من المفاخر التي كان يزهى بها أصحاب القصور ما تحوي من المكتبات النادرة. ويكفي أن نعرف أن مكتبة الخليفة الحاكم رصدت كتبها في فهرس بلغت مجلداته أربعين مجلدا

كان قصر الحمراء مقر عبد الرحمن الثالث وما تزال آثاره حتى اليوم تحفة نادرة من تحف الفن العالي. كانت واجهته مقامه على 1200 عمود من الرخام جلبت من مختلف بقاع العالم المتمدين: من اليونان وإيطاليا وأفريقية؛ وكان البهو الأكبر مغشى بالذهب الخالص؛ وكان بالقصر 6300 من الحاشية والخدم، ومن حوله ثكنات بها 12.000 من الحرَّاس لباسهم من الحرير ومعاطفهم مطرزة بالذهب.

كل هذا المجد يصغر ويتضاءل إلى جانب ما خلف ابن باجة، وابن الطفيل، وابن رشد وغيرهم من صور الفكر التي أصبحت بعد زمان النور الذي استهدى به العقل الأوربي وعنه أخذ ليؤسس نهضة أوربا الحديثة.

ثم نمنا واستيقظ الزمان، ورحنا في سبات وعجلة الدهر من حولنا تدور، حتى أصبحنا ولسان حالنا يقول مع شاعرنا حافظ:

لم يبق شيء من الدنيا بأيدينا ... إلاَّ بقية دمع في مآقينا
كنا قلادةَ هذا الدهر فانفرطت ... وفي يمن العلا كنَّا رياحينا
كانت منازلنا بالعز شامخة ... لا تطلع الشمس إلا في مغانينا
والشهب لو أنها كانت مسخرة ... لرجم من كان يبدو من أعادينا
فلم نزل وصروف الدهر ترمقنا ... شَزْراً وتخدعنا الدنيا وتلهينا
حتى غدونا ولا مال ولا نشب ... ولا صديق ولا خل يواسينا

هذا طرف من مجد العرب والإسلام وصورة تذكرنا أننا كنا منائر الأرض وحماة الحضارة والعلم والثقافة والمعرفة. فلنذكر هذا ولنذكره دائماً عسى أن تنفعنا الذكريات.

إسماعيل مظهر

من برجنا العاجي

تمر بي في الحياة لحظات أود فيها لو أسأل الله أن يفك أجزائي ويعيد بنائي، (طبقاً

لشروط أخرى ومواصفات جديدة) كما يقال في لغة أهل العمارة والهندسة؛ ولكن. . . سرعان ما اذكر كلمة (باسكال): (لو أن أنف كليوباترا كان أكبر قليلاً مما كان لتغير وجه التاريخ). هذا صحيح. ومن يدريني. لعل قائلاً يقول في أمري غداً: (لو أن أنفه كان أصغر قليلاً مما كان لتغير وجه الأدب العربي الحديث). ولكن الواقع الذي أوقن به أن تركيب الإنسان كتركيب العقاقير. فقليل من (السلامكي) على قليل من الشمر والينسون ينتج (ملیناً) للأمعاء. كذلك حياة كحياتي مع قليل من ميولي وقليل من مطالعاتي. . . ينتج أدباً كأدبي. . . فكيف إذاً يغير الله بعض عناصر تركيبي دون أن تتغير النتيجة كل التغيير. وما الذي يحمله على ذلك، إلا رغبتي؟ ومتى كنا نخلق طبقاً لرغباتنا؟ لقد قرأت يوماً كلمة عني في إحدى الصحف قيل فيها: (إني أريد أن أعيش لفني، ولفني فقط). فابتسمت وقلت: (أنا أريد؟) كلمة أريد (تبدو ساذجة مضحكة من أفواه البشر وهم في حضرة (القدر)! ما أنا إلا تركيب كيميائي مثل ذلك الملين (لابد له) بهذه العناصر مجتمعة) أن ينتج هذا (المفعول) الذي يسمونه (الفن) أو (الأدب). لا فرق في نظر (الطبيعة) بين (النحلة) و (الأديب). كلاهما مخلوق يتنقل بين أزهار، لينتج عسلاً آخر النهار. ومن هذه (المادة) الحلوة يصنع أحدهما بناء فصيلته، ويقيم الآخر بناء أمته. ولو سألت (نحلة) عن رأيها فيما تفعل لما وجدت عندها رأياً ولا إرادة. إنما هي تفعل ما تفعل بدافع من تركيبها (البيولوجي). كذلك (الأديب) مدفوع إلى التفكير والإنتاج بحكم هذا التركيب. ولطالما تفجرت ثائراً: (لماذا ولمن أقتل نفسي بهذا العمل المضني؟). فأسمع الجواب من أعماقي: (إنك لا تنتج لشيء ولا لأحد، ولكن لأنك لا تستطيع أن تفعل غير ذلك. ما أنت إلا نحلة تفرز الأدب شاءت أو كرهت).

توفيق الحكيم

الهجرة المحمدية أساس الحضارة الإسلامية

للأستاذ محمد لطفي جمعة

- 1 -

دعا نبينا محمد عليه الصلاة والسلام العرب فلبى دعوته الكثير، وتلكأ القليل ممن أعمتهم الأغراض والمنافع وأضلهم تنازع السلطان والسيادة. وقد أتى محمد بكتاب وآيات بينات ومبادئ كانت عقول العرب وطبائعهم مستعدة لقبولها وفهمها قبل نقدها نقداً ينتهي بالقبول والانضمام إليها. وكان نبأ ظهوره (عم يتسائلون؟ عن النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون!) النبأ الأعجب، مما سجل في تاريخ الإنسانية. ولم ينقض عليه جيل من الزمان حتى ثلَّ عروشاً كانت ثابتة الأركان، وحطم دولاً عالية البنيان، واكتسح ممالك وإمبراطوريات رفيعة الذرى مترامية الأطراف، ومحا معتقدات عريقة في القدم، وهدم ديانات مرت عليها الأجيال والحقب ولم تنل منها ما ناله الإسلام في عشرين سنة. ويدهش المؤرخ العصري أن يعلم أن سائر الأديان نمت وترعرت في ظل حاكم ناصر أو ملك قاهر، اعتز به الدين وتأيد حتى رسخت قوائمه وثبت سلطانه، ما عدا الإسلام. فكان الملوك والأمراء والأقوياء يقاومونه فيتغلب عليهم، ثم يحمي المنسوبين إليه فيعتزون به ويستظلون بظله ويعظمون في أكنافه، وكان أول من علا شأنه بذلك الدين العرب أنفسهم، فلم يكونوا قبله في المكان الأرفع ولا المنزلة السامية من الوجود التاريخي، فنصرهم نصراً خارقاً، حتى أصبح علمهم عالياً خافقاً، في آسيا وأفريقية وأوربا. وإن سر هذا النجاح وسببه وأساسه هو الهجرة المحمدية التي انتقل بها محمد من مكة الجامدة الآسنة الراكدة العاصية المستغرقة في الماديات المتشبثة بالسلطة الدنيوية الآخذة من الملذات والأسمار بأوفر نصيب، إلى المدينة الهادئة الهينة اللينة التقية النقية العفيفة المتعلقة بالمعاني والأرواح والمثل العليا الطاهرة.

- 2 -

يفني البرايا ويأتي الوقت مختلفاً ... ليخرج الدهر تاريخاً من الأمم

يدل استقراء التاريخ الخاص والعام على صدق القانون السبعي، ومقتضاه أن تكون الفترة الفاصلة بين جسام الحوادث سبعمائة عام تقريباً. وقد حددت أعمار تلك الفترات تحديداً دقيقاً في كثير من كتب التاريخ كتجارب الأمم لابن مسكويه، ومروج

الذهب للمسعودي، ومقدمة ابن خلدون، وابن الأثير؛ ومن كتب الإفرنج حوليات تاسيت الروماني وتاريخ انحلال رومة لجيبون. ومن قبل هذه التواريخ العالمية أشارت التوراة والتلمود والمشناة وتفاسير الأحبار إلى هذا القانون. يقول بلاكنهيم: (إن تاريخ العالم مقسم إلى فترات قد تدوم الواحدة منها حوالي سبعة قرون، وقد تنقص أو تزيد قليلاً. فقد أسست روما قبل المسيح بسبعة قرون ودام سلطانها ونفوذها سبعمائة عام، وفي نهايتها ظهر المسيح بدين جديد ينطوي على حياة جديدة، وكان ظهوره مؤذناً بزوال تلك الدولة الرومانية العظمى التي حكمت العالم بالحديد والنار بعد أن فتحته بالقوة والحيلة. وظهر الإسلام في نهاية القرن السابع المسيحي ودامت عظمة الدول الإسلامية سبعة قرون. وفي سنة 750م نقلت الخلافة إلى بغداد بقيام دولة بني العباس، ثم هاجمها المغول وقضوا عليها وعلى حضارتها) اهـ

ولم يظهر المغول وحدهم لمناوأة الإسلام، فقد ظهر الصليبيون ونهضت أوروبا الحديثة تلك النهضة التي دامت سبعة قرون كانت نهايتها الحرب العظمى في أوائل هذا القرن. وقد بدأت نهضة الإسلام الحديثة في أوائل القرن الرابع عشر للهجرة. ومن العجيب أن تطبيق هذه النظرية السبعية أو القانون السبعي صحيح في حياة الأمم إذا أخذت كل منها على حِدَة، فقد استمرت عظمة الإغريق الحربية والبحرية وعهد الفلاسفة سبعمائة عام، ودولة الفرس عمرت سبعة قرون من أول تأسيسها لعهد كسرى، ومضى على حكم الملوك في إنجلترا سبعة قرون، وبقيت ايرلندا تحت الإنجليز مثلها. ونحن نذكر هذا القانون السبعي لا لأهمية خاصة به، وإن كان في ذاته ظاهرة تاريخية عجيبة تدل على دقة نظام الكون والعالم وخضوع حياة الأمم لمقاييس من الزمان وموازين في الأعمال، ولكن نذكره لعلاقته بظهور الإسلام ونهضته وهبوطه، ثم بداية عهد الأحياء الذي ينبئ بالتجدد والبعث في المائة الرابعة عشرة. وقد أوضح صحة هذا القانون أوزقالد شبنجلر في كتابه (انحلال الغرب) وهستن شمبرلين في (أسسالقرن التاسع عشر) وولز في كتابه (صورة العالم في المستقبل) فليرجع إليها من يشاء من القراء

- 3 -

إذن كانت بعثة الرسول وهجرته حادثين محتمين، فكتب لهما التوفيق والنجاح على الرغم مما اكتنفهما من مظاهر الضعف. وقد أخطأ من ظن عداوة قريش للنبي وصحابته هزيلة أو وهمية، أو أن زعماء الوثنية كانوا ضعفاء النكاية، فقد كان المجتمع القرشي تام التكوين الاقتصادي والسياسي بالنسبة لحالة الحضارة المعاصرة، وذا نظم حكومية وإدارية بارعة. من ذلك أنهم جعلوا جائزة مالية لمن يطارد المهاجرين ويظفر بهما وهو ما تلجأ إليه شرطة الحكومات الغربية الحديثة. ومن الثابت أن محمداً وأبا بكر كانا منفردين لا ثالث لهما بعد أن تركا بطل الإسلام وسيفه ولسانه علي ابن أبي طالب في فراش النبي ليخدع المتآمرين بأن النبي مازال في داره ولم يغادر فراشه. وإن شجاعة علي في إيثاره وإقدامه على التضحية بنفسه لا تقل عن شجاعة أبي بكر في مصاحبته. وكان من المستطاع أن يُغتال عليّ في فراش محمد ظناً من أهل الوثنية أنه المقصود بأسيافهم وخناجرهم. ولكن حياة عليّ كانت ضرورية للإسلام فأنقذه الله وهو الفرد الراقد المستسلم لقضائه وقدره. أما محمد وأبو بكر فلم يكونا هاربين ولا مدبرين لينجوا بحياتهما من أخطار محققة محدقة، ولكنهما كانا قاصدين إلى طيبة ليفتتحا عهداً جديداً ويستهلا عصر كفاح وجهاد وجلاد وسلسلة انتصارات لم يسبق لها مثيل في تاريخ المعتقدات الدينية.

- 4 -

فطن القرشيون بما ركب في غريزتهم من الذكاء وبعد النظر وسعة الحيلة إلى أن ظهور هذا النبي قرين زوال دولتهم المدنية التي نظموها على نسق يشبه نسق المدن الإغريقية. وكان اليونان زعماء النقل البحري كما كان العرب زعماء النقل البري وحلقة الاتصال بين الشرقين الأقصى والأدنى، وإبلهم سفائن الصحراء حقيقة لا مجازاً، كما كانوا مخالطين لكل شعوب البحر الأبيض وشواطئ المحيط الهندي والخليج الفارسي والبحر الأحمر، ومطلعين على شؤون الأمم. فلما أدرك سادتهم وحكامهم أن دولتهم قد آذنت بزوال حصروا همهم في ملاينة النبي وإغرائه؛ فلما لم ينفع الإغراء

والاستدراج لجأوا إلى التهديد والوعيد، ثم إلى المقاطعة والتضييق في شعاب مكة وغيرها، ثم التآمر والانتقام، فهاجر النبي من مكة، لأن الله هداه إلى أن ما بقي من عمره المبارك كاف لتعميم الدعوة ومقاومة ذلك البلد القوي الشكيمة الذي تألب نساؤه ورجاله على النكاية به، ليحتفظوا بكيانهم القومي. كان المكيون محافظين ورجعيين فلم يرقهم أن يسلموا قيادهم للأحرار والمتطرفين من حزب محمد وأبي بكر وعلي وعمر وعثمان. وقد تعجب الأجيال التالية وأنسال المستقبل وأخلافهم كيف لم يقبل عرب قريش وخصوصاً أهل مكة على العقيدة الجديدة. والسر في ذلك أن أرستقراطية مكة حرصت على مالها وسلطتها ونفوذها وقوتها، ورأت في القرآن والدعوة المحمدية ما يزعزع أركان كيانهم الاقتصادي ويهدمه وهم أصحاب رؤوس أموال وعباد للمادة، حتى إن معبودهم هُبل لم يكن يتكهن إلا بعد أن يدفع السائل لسادته سلفاً دراهم معدودة. وكان للمال وأرباح التجارة وفوائد الربا واكتناز الذهب والفضة أكبر الشأن، ولكن محمداً وأصحاب محمد جعلوا المال في الدرجة الأخيرة من الاكتراث، واتخذوه وسيلة لا غاية (وقد روى عن حاتم الأصم تلميذ شقيق البلخي أنه سار إلى المدينة فاستقبله أهلها، فقال أين قصر رسول الله حتى أصلي فيه؟ قالوا ما كان له قصر، إنما كان له بيت لاطيء بالأرض. قال فأين قصور أصحابه رضى الله عنهم؟ قالوا ما كان لهم قصور، إنما كان لهم بيوت لاطئة بالأرض) وكثير من المؤرخين يغفلون العامل الاقتصادي في حياة العرب قبل الإسلام وبعده، مع أنه بجانب الثورة الاجتماعية التي أحدثها الإسلام قلب نظام المال رأساً على عقب، وحارب الرأسمالية، وحرم الربا، وقدح في البخل، وشرع الصدقة والزكاة، وحض على صلة ذوي القربى، ونظم المواريث ورتب حقوق المرأة، وألف القلوب بالبذل وبسط اليد للبعيد والقريب. وبالجملة أوجد طبقة جديدة من أوساط الناس لمقاومة عبادة المال، وحطم المثل العليا التي كان المكيون يمجدونها. ولم يكن هذا الانقلاب بالشيء القليل. والذي أغاظ أهل مكة وأحنقهم وأحرق أكبادهم أن محمداً بلغهم أن هذا التبديل ليس من عنده، ولكنه من عند الله، فهو أمر محتوم واجب التنفيذ، لأن إرادته أقوى من إرادة كل هذه الأوثان المعسكرة في الكعبة والمنتشرة في الحواضر والبوادي العربية.

يدهش المؤرخ من قدرة محمد على مواجهة الشدائد والاضطلاع بأعقد المشاكل، فهذه المدينة التي هاجر إليها ولم يكن يعرفها من قبل إلا بالوصف والتصور بعد زيارته الأولى وهو طفل في حضانة أمه، كانت تضم إلى جانب الأنصار عناصر قوية وعنيدة من اليهود والمنافقين والمعادين من المترددين وغيرهم، وهي طبقات ثلاث يستطيعون أن يتغلبوا على المهاجرين والأنصار. وكان المنافقون واليهود والمعادون من حلفاء قريش أقوياء وأغنياء، والمهاجرون والأنصار ضعفاء وفقراء، حتى اضطر محمد لوضع نظام المؤاخاة. وقد اضطر بعض المهاجرين للعمل البدني لقاء أجور من الثمر، ولكن محمداً رأى أشد الخطر في اليهود الذين جمعوا بين المال والذكاء والجمال ودين منزل سابق لدين محمد ودين سلفه الناصري، إلى حيلة واسعة، ثم خيبة أمل يعقبها حقد دفين ورغبة شديدة في الانتقام. فقد عرف اليهود في محمد النبي المنتظر، ولكن كبرياءهم أبت أن يطأطئوا رؤوسهم أمامه، لان القرآن أذاع حقيقتهم فامتدح أنبيائهم وانتقد أطماعهم وعرض بأخلاقهم. وقد أعماهم مالهم، وأضلتهم شهواتهم، وأصبحوا لا يقدرون الرجال إلا تبعاً (للرصيد) الذي يملكه أحدهم. ولم يكن محمداً عميلاً لهم إلا في الاقتراض منهم ولو برهن بعض دروعه. ولم تكن له في صناديقهم وخزائنهم ودائع ضخمة ولا هزيلة، لأن كل ما كان يصل إلى يده ينفقه في سبيل الله وفي حشد الجيوش وإعداد الحملات الموفقة؛ فما زال يمالئهم حسب أمر ربه وطاعة لوحيه، حتى حاربوه في السر والعلن، فدسوا له السم، وأعانوا عليه أعداءه، وحرضوا جيشه على الفتنة، وألفوا حزباً من (دعاة التردد والهزيمة) وهم المنافقون ومن لف لهم وتواطئوا على خذلانه؛ فلم ير بداً من ضرورة طردهم من الجزيرة وإقصائهم وقطع دابرهم، فسبق حكام ألمانيا الحديثة بألف وأربعمائة عام في الوصول إلى الحقيقة المطلقة، وهي أن العنصر المعادي في الوطن يعمل على تدميره وتخريبه ويعطل حياته بعرقلة التعاون. فكانت موقعة خيبر موقعة حاسمة في تاريخ الإسلام بل في تاريخ العالم. أما النصارى فقد أوصى بهم خيراً. وكان بيت المقدس في أيدي المسلمين منذ الفتح

العربي؛ وكان الخليفة عمر يرعى حرمة الأماكن المقدسة النصرانية أيما رعاية وقد سار خلفاؤه م بعده على آثاره وسننه.
قد ندهش لتسامح الإسلام مع المعتقدات الأخرى في حين أنهم لم يألوا جهداً في النيل منه. وفي الحق أن محمداً جاء بالقرآن مصدقاً للتوراة والإنجيل وقال الله عنه أنه خاتم الأنبياء والمرسلين؛ وقد أمر باحترام النصارى واليهود وسماهم أهل الكتاب تمييزاً لهم عن عبدة
الأوثان؛ وقد اتبع المسلمون ما أمرهم به نبيهم حتى هذا العهد الأخير. وكان ضلع المسلمين في صدر الإسلام مع النصارى بالتخصيص بدليل آية (غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين) وقد نال اليهود ما استحقوا بعد أن خانوا أمانة الله ونكثوا بالعهود وحاربوا نبيه.
حرمت الشريعة الإسلامية الربا كما أن الشريعة المسيحية حرمته تحريماً لا يوصف، وكانت متشددة في ذلك ما استطاعت، فكانت النتيجة أن اليهود انبروا في الميدان وظلوا قروناً عديدة محتازين التجارة يجنون ثمارها، لا يشاركهم في ذلك مشارك ولا يزاحمهم مزاحم. وكانت الشريعة الإسلامية قائمة على تكريم العلم والقرآن حافل بالآيات التي تحث عليه، وكذلك الحديث، فقد جاء فيه: (اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد. واطلبوا العلم ولو في الصين. والحكمة ضالة المؤمن. ويوزن مداد الحكماء بدم الشهداء يوم القيامة. والعلماء ورثة الأنبياء. وما خلق الله شيئاً أفضل من العقل).
- 6 -
من أعمال نبينا عليه الصلاة والسلام تأسيس الرابطة الإسلامية التي جمعت بين قلوب المسلمين في أنحاء العالم جمعاً إنسانياً، فجعل العقيدة الروحية فوق الرابطة الجنسية، وجعل للإنسانية مثلاً أعلى بجانب حب الوطن فقال إنه من الإيمان، وحض على الإخاء وحب البشرية. وما كانت تلك الجامعة الإسلامية سوى الشعور بالوحدة العامة المثقفة مع فكرة التوحيد ووحدة الوجود. نعم كانت الجامعة الإسلامية العروة الوثقى لا انفصام لها، وقد أنشأها النبي منذ شرع يجاهد بالمدينة فالتف حوله المهاجرون والأنصار والمؤمنونمن كل طبقات المجتمع، ففيهم الرقيق أمثال بلال، والسادة الأعيان كعثمان بن عفان، والأبطال كخالد بن الوليد. وقد ولدت تلك الجامعة التي ربطت بين قلوب المسلمين في المدينة المنورة وهي التي أعانت على هزيمة المشركين بعد قتالهم وتأسيس الحضارة الإسلامية التي يفخر بها العالم.
وفي أثناء الهجرة المحمدية اعد محمد وسائل الاستيلاء على مكة، فقبل صلح الحديبية ونفذ بنوده بالدقة، ونغص حياة القرشيين بالحرب والحيلة، وقلب هزيمة أحد انتصاراً سياسياً باهراً، واستعمل سلاح الدعاية فغزا عقولهم وقلوبهم وأخلاقهم قبل أن يغزو بلدهم، وهزم
جنودهم، وهدم حصون نفوسهم، وحطم مثلهم العليا البالية قبل أن يهدم قلاعهم أو يحطم أصنامهم وأوثانهم طائعاً للوحي الإلهي، وتابعاً للمشورة الحسنة من صحابته حتى الأجانب منهم كسلمان الفارسي الذي وهب لقب الإمارة، كما فعل بعده ملوك أوربا إذ جعلوا بيسمارك (برنساً) أو أميراً، فقال محمد: (سلمان منا آل البيت). وكان في كل هذا إنساناً سامي الأخلاق كيَساً، مهذباً ناضج الرأي، لين العريكة سمحاً، لم يجد فيه خصومه عيباً. وهكذا اشهد له الأغيار بعد انقضاء الأجيال فقال ويلز في تاريخه العام: (كان محمداً أكثر الأنبياء نجاحاً) ولا عجب ولا غرابة فمحمد هو الإنسان الكامل.
- 7 -
كان محمد عليه الصلاة والسلام نبياً مرسلاً ومصلحاً ومشترعاً، وجاء دينه وهو الأوحد الذي انطوى على شرائع وقوانين سياسية واجتماعية اقتصادية تقوم اعوجاج الفطرية البشرية، وتؤهل الفرد للعيشة في المجتمع الإنساني عيشة راضية راقية، ومكنت لتابعيه تأسيس أعظم دولة عرفها الشرق والغرب. وقد طبقت قواه وظهرت مزاياه الصالحة في الحروب والمعاهدات والمعاملات الدولية أثناء السلم؛ ولو نفذ بنصوصه لأغنى العالم عن نزاع الرأسمالية والعمال، ولانمحت المشاكل من الوجود، لأن أحزاب الشمال في أوربا ولاسيما روسيا لا يعلقون إلا ببعض قواعده التي تقر العدل والرحمة والمساواة وضمان حرية الفرد وسعادته.
وما كان يبغض شيئاً بغضه الشرائع والقوانين الجامدة التي تقيد العقل فتقوده صاغراً

أعمى. وليس القرآن إلا كتاب هدى للمؤمنين ورحمة وليس عثرة في سبيل ترقي المجتمع والآداب والشرائع والقوانين والمدارك العقلية. ونحن الآن في القرن الرابع عشر الهجري وقد بدأت فيه نهضة الإسلام حقاً كما بدأت نهضة أوروبا في القرن الرابع عشر المسيحي. ومتى وضع الإسلام في البوتقة وأخرج منه ما علق من الأباطيل الخداعة، عاد إلى أصله وهو توحيد الله تعالى والإيمان بأن محمداً هو رسول الله عليه الصلاة والسلام.

محمد لطفي جمعة.

إلى الأمة الإسلامية في عامها الجديد

للأستاذ محمد عرفة

أستاذ بكلية اللغة العربية

للشعوب أخطاء كما للأفراد أخطاء، وشر هذه الأخطاء ما يقع في القواعد الاجتماعية، إذ الخطأ تكون له نتائج سيئة الأثر تتجرع الأمم غصصها ما دامت فيها هذه الأخطاء وخير ما يسديه إلى أممهم رجال الاجتماع والعلماء بروح الجماعات وطبائع الشعوب أن يصلحوا لهم هذه الأخطاء ليجنبوهم شرورها، ويصلحوهم بإصلاحها. إن لكل خطأ مهما كان أضراره، فالرجل إذا أخطأت الجادة تردى صاحبها في الحفرة أو تعثر بحجر، والمرء إذا أخطأ في تجارته منيت بالبوار، وصاحبها بالخسارة؛ وإذا أخطأ في طعامه وشرابه ولباسه فقد الصحة وعاودته الأوجاع والأسقام.

هذه أضرار تنشأ عن الأخطاء، وهي وإن كانت شديدة ولكنها لا تبلغ ضرر خطأ الجماعة في قاعدة اجتماعية، لأن الضرر يكون عاماً بقدر ما في هذه الجماعة من عموم دائم بقدر ما في الخطأ من مكث، بالغ في الشدة بقدر ما في الخطأ من انحراف عن الصواب. وإن الأمة الإسلامية لها أخطاء في القواعد الاجتماعية تجني منها الألم والحسرة. وقد رأيت أن أصلح لها خطأ من هذه الأخطاء وأجعل ذلك هدية مني إليها في مستهل هذا العام الجديد. وسأذكر هذا الأخطاء وإصلاحه بعد أن اذكر بين يديه مقدمة.

إن كل شيء في الكون يتنازع الوجود، والبقاء في هذا التنازع للأقوى، وقد كان الفرد قبل تكون الجماعات ينازع الفرد، ثم التمس أسباب القوة بالاجتماع، وقد أخذ الاجتماع أشكالاً عدة من الأسرة والعشيرة والبطن والقبيلة، وقد كان النزاع بين الأسرة والأسرة القبيلة والقبيلة نتيجة غلبة الأقوى تبعاً لقانون إنما العزة للكاثر؛ ثم أخذ الاجتماع شكلاً أوسع بالمدينة والمملكة فكان أهل كل مملكة يكونون وحدة مستقلة تجلب لنفسها الخير وتدفع عنها الضير، ثم جاء الدين الإسلامي فكون وحدة إسلامية لم تبلغ وحدة من العظم والتجانس ما بلغته هذه الوحدة.

عمل الإسلام على غرس المحبة والتضامن بين أجزاء هذه الوحدة فقال: لن يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

وقال: المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً.

وقال: ترى المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

أحب المسلم أخاه المسلم وساد على المملكة الإسلامية المحبة والسلام فتعاونوا على جلب المنافع ودفع المضار.

لقد آتت هذه الوحدة بالمعجزة الاجتماعية العظمى فقد كان العرب قبل الإسلام ينتقصون من أطرافهم، وكان من بجوار الشام عمالاً للروم، ومن بجوار الفرس عمالاً للفرس. فلما جاء الإسلام أعز الله به العرب والمسلمين، فلم تمض عشرون سنة من عمره حتى هدد هؤلاء الأقلون المملكتين المتاخمتين الفرس والروم وانتقصوهما من أطرافهما، ثم عقب ذلك أن ورث ملك الأكاسرة ومعظم ملك القياصرة.

هذه المعجزة الاجتماعية إذا بحث المرء عن سببها وجدها الوحدة الإسلامية، فقد يدل الإسلام تفرقهم اجتماعاً، وبغضهم حباً، وحربهم سلماً، وبعد أن كان بأسهم بينهم شديداً حول هذا البأس إلى الآخرين، لذلك منَّ الله على المسلمين بهذه الألفة (واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها، كذلك يبَينَّ الله لكم آياته لعلكم تهتدون).

لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز)

(حكيم
للغرب طمع في الشرق من قديم، وقد غالبه مرات وهو يخفق. قامت الحروب الصليبية، ونزح الغرب على الشرق وهاجمه في عدة من ثغوره وبلدانه ولكنه لم تجده هذه المحاولة وهذه المهاجمة، فعاد إلى الحيلة ورأى أنه يستطيع أن يدرك بالحيلة ما عجزت عنه القوة.
الغرب عالم واسع العلم لا يسير إلا ومصباح العلم أمامه يهديه السبيل، ويبصره مواقع أقدامه، نظر إلى الجسم الإسلامي فرأى أنه ليس يضيره أن يبتر منه عضو من أعضائه. إنما الذي يضير ويقدره عليه هو إضعاف روحه؛ وقد رأى روحه الوحدة الإسلامية فعمد إليها وسماها تعصباً دينياً ممقوتاً، وسمى التعاون الديني تعصباً إسلامياً همجياً، وأسبغ عليه ما شاء من نعوت الذم والوحشية، فدخل ذلك على الشرق - وهنا وصلنا إلى ما نريده من الخطأ الذي وقعت فيه الأمة الإسلامية - فآمنت بنظرية الغرب، وسمتها تعصباً دينياً،
وخجلت من أن توصم بالتعصب الديني، فتركت هذه الوحدة المقدسة، ونفرت من هذا التعاون الإسلامي، فلما ضعفت الروح سهل التغلب على الجسم.
كان على المسلمين أن يعلموا أنه لا مقاومة في الوجود إلا بوحدة. وقد ظهرت هذه الوحدة بمظاهر مختلفة منها الوحدة الجنسية ومنها الوحدة الوطنية، ومنها الوحدة الدينية، وإذا استمسك الغرب بالوحدة الجنسية أو الوطنية لما فيها من الإقدار على الكفاح في هذه الحياة، فعلى المسلمين أن يستمسكوا بما صبوا فيه من وحدة إسلامية ليقدروا أيضاً على الكفاح في هذه الحياة.
كان على المسلمين أن يعلموا أن التعصب الديني موجود في أمم الغرب التي تعيب المسلمين بالتعصب الديني، يظهر ذلك في أعمالهم وكثير من نواحي حياتهم، وأقرب ذلك تطوع بعض الأوربيين والأمريكيين في جيوش الأسبانيين، والفرنسيين ضد الريفيين المسلمين الذين كانوا يدافعون عن وجودهم، فلو أن التعاون الديني كان نقيصة كما يزعمون لما نهوا عنه غيرهم وأتوه هم.
كان على المسلمين أن يعلموا أن الوحدة الجنسية والوطنية في أوربا قد أتت من الفظائع ما لم تأت بمثله ولا بأقل منه الوحدة الإسلامية في الإسلام، وآية ذلك معاملة الألمان لليهود، وتلك الحروب الطاحنة تؤجج نارها العصبيات القومية أو الجنسية. ليس في الوحدة الدينية ما يمكن أن تؤخذ به إلا أنه قد يكون في الوطن الواحد أديان مختلفة؛ والوحدة الدينية ربما عادت بين هذه الوحدات، ولكن الإسلام قد احتاط لذلك، وأوصى المسلمين بهم وأوجب أن يكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم.
حافظ الإسلام على أهل الذمة وذوي العهود والمواثيق من ذوي الأديان المخالفة (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون).
على الأمم الإسلامية أن تقلع بعد اليوم عن هذا الخطأ وأن تعلم أنها وقعت فيه بعض تلك الموجات التي تغمر الأمم فتلهيها عن مصالحها، ولا يخافن أهل الذمة في بلاد المسلمين وذوو العهود مع المسلمين من إحياء الوحدة الإسلامية فأنها تقوي جيرانهم وأهل عهدهم ولا
تصيبهم بأذى لأن الإسلام كما قدمت يوصي بأهل الذمة وبالوفاء بالعهود.
محمد عرفة
من ثمرات الهجرة
جهاد شهيد
للأستاذ سعيد الأفغاني
كلما أظل الكون عام جديد التفت المسلمون إلى الماضي البعيد يستوحونه العبرة ويتلقون منه الدرس. وكم في صدر الإسلام من عظات، وكم فيه من دروس ينقضي الزمان وهي لا تنفد وإنها لتجود على كل ناظر فيها بما يحفز الهمة ويوقظ الوجدان ويملأ النفس حمية والقلب خشوعاً. وما أحرى الأقطار العربية عامة أن تتأمل في تاريخها المجيد وخاصة ما حف بحادث الهجرة الكبرى من أذى واضطهاد، ظفر من

بعدهما المؤمنون الصابرون، لتستشعر القوة والإقدام وهي تكافح من طغيان المحتلين وكيدهم ما ينفذ معه الصبر وتعيا الحيلة وتكل القوى. ومتى رأوا ما فعلت العقيدة والإخلاص في نفوس أسلافهم، الذين كانوا أضعف منهم اليوم وأفقر وأقل عدداً، مضوا في جهادهم مستعينين بالله، وليس بينهم وبين النصر إلا أن يفعلوا ما فعل الأولون.

سمع دعوة الإسلام فأنشرح لها صدره، وطرب قلبه، ودخل في الدين الحق فأشرب حبه والإخلاص له والاستماتة من أجله، وشمل أهل بيته ما شمله من رحمة الله فاغتبطوا ذكوراً وإناثاً بما ساق إليهم ربهم من خير.

وكان نعيمه من الدنيا أن يرى الرسول أو يجلس معه أو يستمع إليه، وهو يجد في ذلك لذة تغمر وجوده كله فيذهل عن الدنيا وما فيها من متاع ولهو ليغرق في غيبوبة روحية سامية، بحماسة جامحة تثير عاطفة الخير في كل قلب. وكان في سيرته مثلاً كاملاً للمسلم الحق الذي آمن بالله فعبده مجتهداً حق العبادة، وأحب الخلق جميعاً فمنحهم من نفسه الرحمة والخير والحب والإحسان.

ولقد رقق من نفسه ما كان بلغه من سيرة الرسول في مكة، وما تحمل هو وأصحابه من أذى المشركين واضطهادهم في سبيل الله، حين دعاهم إلى الخير فصدوا عنه مستكبرين، وعرض عليهم الإسلام فأسمعوه في دينه وإله ما يكره، ثم زادت وقاحتهم فرجموه وشتموه وأخرجوه وأجاعوه؛ وهو مع أصحابه الأخيار صابر ساكت يدعو لهم وينتظر فرج ربه

وكان أنس بن النضر على عقيدة في الله راسخة وإيمان صليب، ملك عليه الإسلام لبه وتمكن حب الله وحب رسوله من قلبه، وهو مع كونه من خيار الأنصار قولاً وعملاً ومع فرط محبة النبي له، شديد الحسرة على أنه لم يكن ممن أوذي في الله بمكة، وأنه فاته بذلك شرف عظيم استأثر به المهاجرون الأولون؛ ولم يكن يعزيه إلا أنه يتلبث حتى تكون فرصة سعيدة يخرج فيها عن حق الله في ماله وأهله ودمه

وكانت النفرة الأولى إلى بدر، حيث تصاول الخير والشر كفاحاً، وحيث وقف المؤمنون صفاً واحداً سلاحهم التقوى وإيمان بالله لا يتزعزع، واثقين بأنه لا بد ناصرهم مع قلتهم وضعفهم على الشرك وأهله الذين خرجوا بطرين مستطيلين، عادين على الله وعلى رسوله والمسلمين. ولقد صدق المسلمون يومئذ الحملة وأخلصوا النية، وأرخصوا في سبيل الله دماءهم وأموالهم فنصرهم الله النصر المؤزر، ورجعوا إلى المدينة مغتبطين بما أذل الله من الباطل ورفع من الحق، وما مكّن لهم من صناديد قريش حتى أوسعوهم قتلاً وأسراً.

وكان صاحبنا أنس قد عاقته العوائق عن شهود بدر، فلما بلغه ما كان ثمة من جهاد واستماتة، وما حل بالقوم من رحمة الله ورضوانه، حزن حزناً ما حزنه أحد قط، وكلما سمع من النبي صلى الله عليه وسلم ما خص الله به أهل بدر من الفضل والخير، تقطع قلبه حسرات على ما أخطئه من فرصة كان يترقبها بفارغ الصبر منذ عرف الإسلام، لذلك أراد أن يأخذ على نفسه عهداً يشهد عليه الله والنبي والمسلمين، حتى لا يصيبه في المستقبل ما أصابه في الماضي؛ فهرع إلى رسول الله مُنصرفَه من بدر وإن سيماءه لتفصح عن ندم شديد وعزيمة صادقة وحماسة متأججة، عرف ذلك في وجهه كل من رآه، فلما وقف على النبي في أصحابه قال له:

(يا رسول الله! غبت عن أول قتال قاتلت به المشركين، لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرينّ ما أصنع).

لبث أنس ينتظر الفرص حتى بلغ أهل المدينة ما جمع لهم أبو سفيان من الخيل والرجلْ، وما طابت به نفوس المشركين من ربحهم في العير لينفق على حرب النبي وأصحابه، وكان ذلك خمسين ألف دينار. وما كانت قريش ولا حلفاؤها لتسمح بهذا وهم التجار الحراص على المال، لولا ما ملأ صدورهم من الغيظ والحنق والكره للمسلمين على ما فعلوا بهم يوم بدر.

شاور الرسول أصحابه فيما يصنع فكان الرأي أن يتحصنوا بالمدينة، حتى إذا أتوهم قاتلوهم عنها. وكان من قول عبد الله بن أبي: (يا رسول الله أقم بالمدينة لا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منهم. فدعهم يا رسول الله فإن أقاموا أقاموا بشر مجلس وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما

(جاءوا.
وأنى لهم أن يجمعوا على هذا الرأي وفيهم من يتلهف شوقاً إلى حرب المشركين (فقد كان رجال من المسلمين أسفوا على ما فاتهم من مشهد بدر لما سمعوا النبي يخبر بفضل من شهدها وعظيم ثوابه، فودوا غزوة ينالون بها مثل ما ناله البدريون وإن استشهدوا)؛ فلم يعجبهم ما قال المجربون من الرأي الهادئ الخمير، وتغلبت عواطفهم الجياشة، واشتد بهم الظمأ إلى الشهادة حتى قالت طائفة منهم:
إنا نخشى أن يظن عدونا أنا كرهنا الخروج جبناً عن لقائهم فيكون هذا جراءة منهم) علينا).
وقال حمزة: (والذي أنزل عليك الكتاب لا أطعم اليوم طعاماً حتى أجالدهم بسيفي خارج المدينة).
وقال النعمان بن مالك: (يا رسول الله لا تحرمنا الجنة، فوالذي نفسي بيده لأدخلنها) الخ.
ووافق هؤلاء مشيخة من المهاجرين والأنصار فكانت غزوة أحد، وكان أول الناس إسراعاً إليها وأشدهم فرحاً بها أنس وأخته، وخرج إليها الكثير من الأحداث والنساء، فأبلوا فيها البلاء المحمود، دفاعاً عن دينهم وذياداً عن نبيهم وشوقاً إلى ما عند الله.
شب القتال؛ وكان المشركون ثلاثة أمثال المسلمين أو يزيدون، ونصر الله المسلمين أول الأمر، حتى إذا ترك الرماة مواقفهم التي أمرهم الرسول بلزومها كان ما هو معلوم للجميع، وزلزل المسلمون زلزالاً شديداً وكثر فيهم القتل وانهزم فريق وثبت فريق وأشيع أن رسول الله قد قتل وأسقط في أيديهم. هنالك كان الامتحان الأعظم للبطولة والإخلاص فمحص الله للشهادة الأخيار، وذاد القرومُ البواسل عن الرسول ذياد المستميت، وعمد النساء إلى السلاح يأخذنه من المنهزمين فقاتلن به حتى كانت ضروب الشجاعة والبسالة التي أتاها النساء فقط، صفحة مجيدة تتقطع دون الظفر بها رقاب الفحول المذاويد الأبطال. وكان من ثبت
من الصحابة نفراً ضئيلاً وقع عليهم نعي الرسول وقوع الصاعقة فحاروا في أمرهم بعد أن ترك أكثرهم القتال ووهنت نفوسهم وألقوا بأيديهم؛ إذ ذاك، يدركهم الله بهذا البطل المجاهد المغوار، أنس ابن النضر يسألهم فيم جلوسهم والحرب قائمة؟ فيقولون: قتل رسول الله! فيزداد حمية واستبسالاً ويهتز من فرعه إلى قدمه وتتجسد فيه معاني الجهاد السامية فتتألق عيناه ويلتمع وجهه ويكاد دمه ينفر من عروقه وترتسم عليه سمات الصلابة والعزيمة والاندفاع ويفتر ثغره عن هذه الكلمات الملهمات تذكرهم بالواجب الذي ذهلوا عنه، وتحفزهم إلى الشهادة، وتدفع أجبن الناس إلى اقتحام الغمرات.
فما تصنعون بالحياة بعده؟! قوموا فموتوا على ما مات عليه، أفلا تقاتلون على دينكم) ثم قال: (اللهم إني أعتذر (وعلى ما كان عليه نبيكم حتى تلقوا الله عز وجل شهداء إليك مما صنع هؤلاء (يعني أصحابه) وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء (يعني المشركين) انقضت على سامعيه لحظة كانوا منها في مثل لجج النور من كلماته، فألهبهم ودفعهم إلى الموت دفعاً؛ ثم انطلق نحو جموع المشركين فلقي في طريقه سعد بن معاذ فقال له: (يا سعد؛ الجنة! ورب النضر إني لأجد ريحها من دون أحد) ورمى بنفسه وسط الجموع الحانقة الظافرة، ضارباً وطاعناً، فأشرعت إليه الرماح وأصلتت عليه السيوف وسالت منه الدماء على جوانبه، وهو لا يحس لتلك وخزاً ولا يشعر لهذه بألم، ولا ينفك منقضاً على الأعداء مقتحماً صفوفهم، يوسعهم تقتيلاً وإثخاناً، غير آبه للرماح تتناوشه، ولا للسهام تنفذ فيه، ولا للسيوف تقطّع منه، وإنه مع هذا كله لا يرى انه بذل في الله طائلاً، وكلما ازداد الدم منه انصباباً زاد على أعدائه كراً وإقداماً حتى أكرم الله هذه الروح الزكية فسالت على قِصَد القنا وظُبي السيوف فأستأثر سبحانه بها، وأنالها ما تمنت من الشهادة لتنعم بلقائه وجواره في عليين.
ولقد أحمى بكلماته تلك أنوف المهاجرين والأنصار، فمشوا على أثره وكروا ثانية على العدو، واجتهدوا في القتال؛ إلا أن أحداً ما بلغ مبلغ أنس رحمه الله ورضي عنه، حتى إن سعد ابن معاذ - على ما أبلى في العدو يومئذ - ليحدث عنه بعد الحرب فيقول: (ما استطعت يا رسول الله ما صنع).
انقضت المعركة حافلة بضروب البطولة، وطفق المسلمون يتحرون قتلاهم لمواراتهم

التراب؛ وإنهم لفي شأنهم إذ وقفوا على جثة لم يعرفوا صاحبها لأن السيوف والرماح لم
تبقعلى شيء من ملامحه قط. يا للهول ويا للبسالة! بضع وثمانون بين طعنة برمح أو ضربة بسيف أو رمية بسهم، يتلقاها رجل واحد فقط، ثم هو بعد ذلك لم يشف صدور أعدائه الحنقين عليه لما ملاء قلوبهم حرداً وغيظا من كثرة ما فعلّ فيهم، لم يُبرد أكبادهم كلُّ ما نالوا منه ولم يُذهب غيظ قلوبهم قتله، بل شوهوا الجثة ومثلوا بها، لقد بلغ من المسلمين هذا المنظر أمداً بعيداً ونفضهم نفضاً من شدة التأثر، وعظمت رغبتهم في معرفة صاحب الجثة، ولبثوا مدة لا يهتدون إليه، حتى تقدمت امرأة جاهدة تحدَّرت منها العبرات الحرار، وهي تحدق في أنامل الشهيد ثم قالت: (هو أخي أنس بن النضر، عرفته ببنانه!).

رجع المجاهدون الأبرار، الذين اصطفاهم الله رسلاً إلى الإنسانية المعذبة يفيضون فيها الرحمة، ويشيعون العدل والإحسان، رجعوا إلى المدينة يحفهم رضوان الله وتتنزل عليهم رحمته؛ وقد خلفوا في أحد سبعين بطلاً استماتوا بإخلاص ليجعلوا كلمة الله هي العليا، فنعمت أرواحهم بالشهادة. ولئن كان من بقى منهم على قيد الحياة قد أبلى البلاء الحسن وبذل طاقته ومجهوده. فإن الحسرة لتذيب كبده على أنه لم يحظ بما حظي به إخوانه من شرف الشهادة، ولم يخفف من حسرتهم إلا أملهم في أن يكرمهم الله بها فيما ينتظرهم من معارك.

لكن الله سبحانه رضي عن هؤلاء وأولئك، وأنزل فيهم قرآناً ما يزال الناس يتلونه والعبرات تجري غزاراً من مآقيهم، وما زال هذا الصوت الإلهي المقدس يهيب بالمسلمين والمستضعفين مدوياً في الآفاق:

(إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يُقاتلون في سبيل الله فيقتُلوَن ويُقْتَلونْ، وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن، ومن أوفى بعهده من الله، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم).

ونحمد الله على أن هذا الفيض المقدس من شرف الدفاع، ما زالت إمداده متصلة باستمرار، وما زال الشهداء يتوافدون على ميادين الجهاد؛ وما برحت هذه الطائفة المختارة من المسلمين تتكالب عليه الأعداء من كل جانب، وما انفكت عرضة لتألبهم وهمجيتهم وضراوتهم والله يمتحن الخلف بما امتحن به السلف، ويخص من شاء منهم بكرامته. ففي كل بلد إسلامي ميدان جهاد وشهداء دفاع، وفي كل بقعة عربية عدد مستبيح وقافلة تستشهد

ولن نزال إلى قيام الساعة نستشهد، ولن نزال إلى قيام الساعة نتأسى بتلك العصبة الطاهرة من شهداء أحد ومجاهديها، ولا تفتأ منا طوائف تتري على آثار من سلف من أولينا كلما خلت مواضع في الصف احتلها فوج؛ ولم ينس الناس بعد تلك الأرواح البريئة التي صعدت إلى بارئها في العراق وسوريا وفلسطين ومصر وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش، وهي تكافح أحفاد الصليبيين من بريطان وفرنسيس وطليان وإن هذه القوافل لتستمر في تلبية نداء ربها بتهافتها على الشهادة، كلما ردَّدَت المحاريب ما أنزل الله في أبطال أحد:

(من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا).

فيا أيها الشهداء المخلصون الأبرار من لدن أُحد وبدر إلى معارك فلسطين وساحات المغرب الأقصى اليوم!

ويا أيتها الحلقة النورانية التي انتظم فيها أنس بن النضر وعبد الرحمن الغافقي. . . حتى عمر المختار وعز الدين القسام وفرحان السعدي ومن يخلف هؤلاء وأولئك في مشارق الأرض ومغاربها!

هنيئاً لكم الكرامة في دار الخلد، فقد غضبتم للحق وحميتم الحرمة وحفظتم البيضة، وجردتم سيوفكم تذودون لصوص الأعراض والأموال والأديان من ذئاب البشر الجائعة الضارية، وتدافعون عن الشرف والنبل والخير والمثل السامية، حتى أسلمتم أرواحكم وقدمتم على ربكم بدمائكم تشكون وحشية الطامعين وفظائع المحتلين.

يا أيها الشهداءُ المجاهدون: لا حرم الله دنيانا من أمثالكم فأنتم منار الهدى ومصابيح الظلام. وعليكم رحمة الله ورضوانه.

دمشق.
سعيد الأفغاني
محمد في أطوار حياته
دراسة تحليلية
للأستاذ عَبد المَتعال الصعيدي
(قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم
عمراً من قبله أفلا تعقلون)
(سورة يونس - 16)
بعث الله محمد صلى الله عليه وسلم فكانت معجزته الكبرى هذا القرآن الكريم بفصاحته الباهرة وما جاء به من تشريع قويم في أصول الدين وفروعه، على أنه كان مع هذا يلجأ إلى العقل فيستعين به في تأييد رسالته، وإلى العلم فيستخدمه في إثبات نبوته، وإلى هذا تشير تلك الآية الكريمة من سورة يونس (قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون).
فهو يقيم في هذه الآية دليلاً على صحة نبوته يستند إلى دراسة تاريخه قبل النبوة وبعدها، وإلى دراسة نفسه في هذين الحالين، والدراسة الأولى فرع من علم التاريخ، والدراسة الثانية فرع من علم النفس، وسنقوم الآن بهاتين الدراستين، ونتتبع فيهما أطوار حياته صلى الله عليه وسلم.
الطور الأول: ولد صلى الله عليه وسلم يتيماً عائلاً، لم يرث من والده شيئاً، لأن أباه مات قبل جده عبد المطلب وهو شاب لا يكاد يجاوز حد العشرين، فلم يرث شيئاً من مال أبيه، ولم يتمكن من أن يجمع شيئاً لأبنه. بل مات بعد شهرين من حمله، ثم لم تلبث أمه أن ماتت بعد موت أبيه، فكفله جده عبد المطلب، ثم كفله بعد وفاة جده عمه أبو طالب.
وكانت قريش تعيش في مكة عيشة متحضرة تعتمد على العمل والكسب، ولا تعرف ما تستنه البادية العربية في معيشتها من الغزو والنهب، فنشأ محمد صلى الله عليه وسلم على غريزة قومه، محباً للعمل، راغباً في الكسب الحلال، وهو الذي قال بعد هذا في رسالته: أطيب الحلال أن يأكل الرجل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده
فلما بلغ مبلغاً يمكنه معه أن يعمل عملاً أخذ يرعى الغنم مع أخوته من الرضاع في البادية،
ثم مضى في هذا العمل بعد أن رجع إلى مكة، فكان يرعى الغنم لأهلها على قراريط يأخذها منهم، كما روى هذا الإمام البخاري في صحيحه.
وكان في هذا الطور يميل إلى شيء من اللهو البريء، وتدركه عناية الله فيه كما تدرك كل شاب موفق، وقد حكى عن نفسه في ذلك بعد رسالته فقال: لما نشأت بُغَضت إليَّ الأوثان وبُغِضَ إليَّ الشعر، ولم أهمُّ بشيء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين، كلُ ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك، ثم ما هممت بسوء بعدهما حتى أكرمني الله برسالته، قلتُ ليلة لغلام كان يرعى معي: لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمرَ كما يَسمر الشباب، فخرجت لذلك حتى جئت أول دار من مكة أسمع عزفاً بالدُفوف والمزامير لعُرْس بعضهم، فجلست لذلك فضرب الله على أذني فنمت، فما أيقظني إلا مسُّ الشمس، ولم أقض شيئاً، ثم عراني مرّة أخرى مثلً ذلك.
الطور الثاني: فلما بلغ صلى الله عليه وسلم اثنتي عشر سنة أخذ يعمل في التجارة مع عمه أبي طالب، فسافر معه إلى الشام للتجارة وهو في هذه السن، ولما حذق التجارة انفرد بنفسه عنه. وكان في مكة سيدة تاجرة ذات شرف ومال تدعى خديجة بنت خويلد من بني أسد بن عبد العزي بن قصي، وكانت تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه، فسمعت عنه من الأمانة والصدق ما رغبها في أن تستأجره للتجارة في مالها، وكانت سنه في ذلك الوقت خمساً وعشرين سنة، فاستأجرته ليخرج في مالها إلى الشام للتجارة، على أن تعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره، فسافر إلى الشام مع غلامها ميسرة، فباعا وابتاعا وربحا ربحاً عظيماً، فسرت به تلك السيدة الكريمة، وكان زوجها قد توفي ولم تتزوج بعده فأرسلت إليه تخطبه لنفسها وكانت سنها نحو الأربعين. فقام مع أعمامه حتى دخل على عمها عمر بن أسد فخطبها له منه عمه أبو

طالب، فزوجها عمها له، وصارت بهذا زوجه خمساً وعشرين سنة، وكان يعمل في مالها ويأكل من نتيجة عمله، على إنها ما كانت تضن عليه بشيء منه.

الطور الثالث: وكان في نفسه صلى الله عليه وسلم ميل إلى عبادة ربه، وإلى العزلة عن ذلك المجتمع الموبوء برذائل الجاهلية، فلما رزقه الله بتلك الزوجة الكريمة، وصار له مال يساعده على قضاء حاجة نفسه من عبادة ربه، كان يقصد كل سنة في شهر رمضان إلى

غار حِرَاءَ، فينقطع فيه للعبادة، وكانت قريش تفعل ذلك في جاهليتها، ولم يبتدع منه صلى الله عليه وسلم شيئاً جديداً لم يكن يفعله أحد من قومه.

وكان يخلو بهذا الغار فيتعبد فه الليالي ذوات العدد، فتارة عشراً، وتارة أكثر إلى شهر، ويأخذ لذلك زاده، فإذا فرغ رجع إلى زوجه فيتزود لمثلها.

وهذا الطور آخر أطواره قبل النبوة، فإذا أردنا أن نستخلص منها شيئاً من خصائصه صلى الله عليه وسلم فيها وجدناه رجل عمل يعتمد على نفسه، ويأخذ في ذلك بما اشتهر به قومه من الحذق في التجارة، والرحلة فيها إلى الأقطار القريبة والنائية، لا يشغلهم عنها شاغل، ولا يهتمون بغيرها مما كان يهتم به غيرهم من العرب، حتى عيرهم بهذا بعض شعرائهم فقال:

ألهي قُصيًّا عن المجد الأساطيرُ ... ورشوةٌ مثل ما ترشى السفاسيرُ

وأكلها اللحم بحتاً لا خليط له ... وقولها رحلت عيرٌ أتتْ عيرُ

وكان في هذه الحياة العملية من أحسن قومه خلقاً، واصدقهم حديثاً، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم عن الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال، حتى كان من أفضلهم مروءة، وأكرمهم مخالطة، وخيرهم جواراً، وأعظمهم حلماً، فأحبوه وركنوا إليه ولقبوه الأمين حتى غلب على اسمه هذا اللقب.

وكان على علمه بفساد ما عليه قومه من عبادة الأصنام وما إليها يكتفي من هذا بالعزلة التي أخذ نفسه بها، ويأخذ بما يأخذ به بعض الناس من الاهتمام بإصلاح نفسه وعدم الاهتمام بإصلاح غيره، وكأنه كان يضن بذلك الحب الذي يحبوه قومه به أن يفسده بتخطئتهم، وتسفيه ما ألفوه من عبادة أصنامهم، فمضى لا يهمه إلا أمر نفسه، ولا يعني بشيء من أمر غيره، اللهم إلا بعض الأعمال الصالحة التي كان يقوم قومه بها، فكان يشاركهم فيها ويقوم بنصيبه منها، كما حصل منه في حلف الفضول بدار عبد الله بن جُدْعان التَّيمي، وكان المتحالفون فيه بني هاشم وبني المطلب ابني عبد مناف، وبني أسد بن عبد العزّى، وبني زهرة ابن كلاب، وبني تيم بن مرَّة؛ تحالفوا وتعاقدوا ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو غيرهم من سائر الناس ألا قاموا معه حتى ترد إليه مظلمته، فحضر محمد صلى الله عليه وسلم هذا الحلف مع أعمامه وقال فيه بعد رسالته: (لقد شهدت مع عمومتي حلفاً في دار

(عبد الله بن جدعان ما أحب أن لي به حُمُرَ النَّعَم، ولو دعيت به في الإسلام لأجبت

ولم يعن صلى الله عليه وسلم في هذه الأطوار بشيء من الفصاحة والبلاغة، ولم يحاول أن يكون بين قومه خطيباً أو شاعراً، بل يكره الشعر كرهه لعبادة الأصنام، مع أن الجزيرة العربية كانت تعج في ذلك الوقت بالشعراء والخطباء، ولكن قريشاً كانت لا تعني بشيء من ذلك، وإنما كانت تعني بالمال والتجارة عناية أبناء عمومتهم من اليهود، حتى كان حظها من الشعر دون حظ غيرها من القبائل، وإن كانت لغتها أفصح اللغات العربية، وإن كانت مواسم الأدب وأسواقها لا تقوم إلا في بلادها.

وقد قضى محمد صلى الله عليه وسلم في هذه الأطوار أربعين سنة من عمره، قضاها على ما وصفناه في حياة هادئة، وعيشة مطمئنة، لا تحدثه نفسه فيها بشيء مما حصل منه بعدها، ولا تطمح في أميتها وقناعتها إلى أكثر مما وصلت إليه فيها.

الطور الرابع: وقد بلغ صلى الله عليه وسلم أربعين سنة فإذا به ينتقل فجأة من تلك الحياة الهادئة إلى حياة عنيفة يشتد فيها الخصام بينه وبين قومه، وينقلب ما كان فيه من عدم المبالاة بأمرهم حرصاً على مودتهم إلى اندفاع شديد نحو الاهتمام بأمرهم، وإن أدى هذا إلى انقطاع تلك المودة التي كان يحرص عليها، وكان في أهنأ ما يكون من العيشة بها بينهم؛ وإذا به وهو ذلك الأمي الذي لم يجلس إلى معلم، ولم يشتغل في تلك الأربعين سنة إلا بما ذكرناه من التجارة ورعي الغنم، ينقلب إلى خطيب لا يدانيه خطيب في فصاحته، وعالم لا يدانيه عالم في علمه، وبيده كتاب لا يأتيه الباطل

من بين يديه ولا من خلفه، يدعو به الناس أجمعين، ويهديهم إلى دين الله الصحيح، وترك ما دخله من التغيير والتبديل والتحريف، ويجلب على نفسه بهذا عداء الوثنية وزعمائها من قومه، وعداء المجوسية وزعمائها من الفرس وأكاسرتها، وعداء النصرانية وزعمائها من الروم وقياصرتها، وعداء اليهودية وزعمائها من اليهود وأحبارها.

فما هذا كله؟ وما هذا الذي جعل من محمد الأمين بين قومه عدوهم اللدود وخصمهم العنيد؟ لقد اختلفوا عند بناء الكعبة وهو ابن خمس وثلاثين سنة في الحجر الأسود أيهم يرجعه إلى موضعه من الكعبة، ثم اتفقوا على أن يحكموا بينهم أول داخل إليهم، فلما دخل إليهم قالوا: هذا الأمين رضيناه، هذا محمد، فبسط رداءه ووضع الحجر عليه، وقال: لتأخذ كل قبيلة

بناحية من الثوب، وأمرهم برفعه حتى انتهوا إلى موضعه، فأخذه ووضعه فيه.

فما هذا الذي جعله بعد هذا يعرض نفسه لأن يتهموه بكل شنيعة من القول؟ فيقولوا عنه مرة إنه ساح، ومرة إنه شاعر، ومرة إنه كاهن، ومرة إنه مجنون.

إنه لم يفعل هذا من نفسه، ولو أنه خلى ونفسه لمضى في تلك الحياة الهادئة إلى نهاية أمره، وإنما كان يعمل في هذه الحياة الجديدة بأمر طرأ عليه، وغير من نفسه ما شبت عليه في تلك الأربعين السنة.

فبينما هو في غار حراء قائم في بعض الأيام على الجبل إذ ظهر له شخص وقال: أبشر يا محمد أنا جبريل وأنت رسول الله إلى هذه الأمة، ثم قال له أقرأ، قال: ما أنا بقارئ، لأنه كان أمياً كما سبق، فأخذه فغَطّهُ بالنمَطِ الذي كان ينام عليه حتى بلغ منه الجَهْد، ثم أرسله، فقال: أقرأ، فقال: ما أنا بقارئ، فأخذه فغطه ثانية ثم أرسله فقال: أقرأ، فقال: ما أنا بقارئ، فأخذه فغطه الثالثة ثم أرسله فقال: (أقرأ باسم ربكَ الذي خلقَ، خلقَ الإنسان من علق، أقرأ وربكَ الأكرمُ، الذي علمَ بالقلَم، علمَ الإنسانَ ما لمْ يعلمْ).

فرجع بها صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده مما ألم به من الروع، فدخل على خديجة زوجه فقال: زمّلوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه روعه، فأخبرها الخبر، وقال لها: لقد خشيت على نفسي، فقالت له: كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصِل الرَّحِم، وتحمل الكلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فلا يسلط الله عليك الشياطين أو الأوهام، ولا مراء أن الله اختارك لهداية قومك.

ثم ذهبت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، وكان امرءاً قد تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فكان يكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك، فقال: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره خبر ما رأى، فقال له: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، ثم قال: يا ليتني فيها جذعاً إذ يخرجك قومك، فقال: أو مخرجي هم؟ قال: لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي.

وقد حقق الله نبوءة ورقة بهذه الهجرة التي نحيي ذكراها كل سنة.

وهذا هو حكم التاريخ وعلم النفس في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا يا إلهي بعض جهادي في نصر دينك أشكو إليك ما ألقاه بسببه من أذى، وهو لذتي في هذه الدنيا إذا

التذ قوم بمتاعها، وأنت حسبي ونعم الوكيل.

عبد المتعال الصعيدي

دراسات أدبية

مقتل الحسين وأثره في الأدب العربي

للأستاذ ضياء الدين الدخيلي

هذا المحرم قد وافتك صارخة ... مما استحلوا به أيامُه الحرم

يملأن سمعك من أصوات ناعية ... في مسمع الدهر من إعوالها صمم

تنعى إليك دماءً غاب ناصرها ... حتى أريقت ولم يرفع لكم علم

جاء المحرم فالمساجد العراقية مجللة بالسواد، والوجوه تعلوها الكآبة، هنا وهناك عويل ونواح يكربان القلب. الصدور موجعة بضرب الأيدي، والمتون مكلومة باللدم بالسلاسل النحاسية، والنفوس فزعة جزعة قد تملكها الهلع إذ خلبتها الألسن الذلقة التي لم تدع أسلوباً لتهويل فاجعة كربلاء إلا ركبت سبيله الأوعر والأشد إيلاماً والأنكى لذعة ولوعة. مواكب تجلببت السرابيل المضاعفة من الحزن خنقها الأسى فلا تأسى،

ورؤوس تشج بحد السيوف، ودماء تراق على مذبح فاجعة كربلاء، فما قيمة العبرات والزفرات والدموع المنصبة على أقدام هذه المأساة المؤلمة التي لم يع التاريخ أفجع منها ولا أكثر جلبة من تبعاتها. ففي إيران والعراق والهند وسورية والحجاز وهنا وهناك مآتم ومناحات تعقد لتكسب العبرات وتنفث الزفرات، فكأن نفس الشرقي الحالمة بالأشباح والرؤى، المفعمة بالطموح وأحلام الغيب، المتبرمة بالحياة وأحكامها التي ترزح بأعبائها - وجدت في هذه المأساة مجالاً واسعاً لإعلان عويلها والتنفيس عن كربها.

وإن شيعة العلويين التي لم تهيمن على مقدرات البلاد ولم تسيطر على أزمة الحكم وتقبض على السلطة الزمنية إلا قليلاً، بقيت طوال الدهر ناقمة ساخطة على الدهر الهازل، ساخرة من أقداره المملوءة بالمهازل، فشاعرها (السيد جعفر الحلي صاحب ديوان سحر بابل وسجع البلابل) يقول:

وجه الصباح عليّ ليل مظلم ... وربيع أيامي علي محرم
بي قرحة لو أنها بيلملم ... نسفت جوانبه وساخ يلملم
ما خلت أن الدهر من عاداته ... تروي الكلاب به ويظما الضيغم
ويقدم الأموي وهو مؤخر ... ويؤخر العلوي وهو مقدم
مثل ابن فاطمة يبيت مشرداً ... ويزيد في لذاته متنعم
ويضيق الدنيا على ابن محمد ... حتى تقاذفه الفضاء الأعظم
خرج الحسين من المدينة خائفاً ... كخروج موسى خائفاً يتكتم

وقد صبغ المحرم أدب الشيعة بصبغة سوداء قاتمة بالكآبة، حمراء ملطخة بدم الشهداء، كالحة تعلوها شارات التكدر والانزعاج من الوضع الراهن الواقعي، وهذا الأدب الباكي تسوده الأحلام بفردوس مفقود أسسه العدالة، يرجع فيه حق الحكم إلى أهله وذويه الشرعيين، لذلك فهو أبداً يندب (صاحب الزمان) الذي غاب عن الأنظار ليعود فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملأت جوراً وعسفاً. وسوف يعم في عهده الأمان ويسود السلام المجتمع حتى ترعى الشاة مع الذئب، فاسمع السيد حيدر الحلي يندب الإمام الغائب:

مات التصبر في انتظا ... رك أيها المحيي الشريعة
بك تستغيث وقلبها ... لك عن جوى يشكو صدوعه
ماذا يهيجك إن صبر ... ت لوقعة الطعن الفجيعه
حيث الحسين بكربلا ... خيل العدى طحنت ضلوعه

والشيعة تعتقد أن حكم اليوم مضرج بدماء الأبرياء، ملطخ ببقع سوداء من قضاء الجور والشبهات. وفي الحق أن الأدب الشيعي خير مثال لأدب التشاؤم الساخط على الحياة الحالم بالمثل الأعلى. ولا أريد أن أصدر حكماً عاماً شاملاً على أدباء الشيعة وأكسوهم بهذه الصبغة الحالكة، فمن قرأ غزليات السيد محمد السعيد الحبوبي الشاعر النجفي (طبع ديوانه في بيروت) وأسام سرح الطرف بين موشحاته الرقيقة وروضياته وخمرياته وجدها ضاحكة متهللة طروباً، ومن خير ما يمثل الحياة المرحة البهيجة (وعسانا أن نتحدث إلى قراء الرسالة الكرام عن أدب هذا الشاعر العبقري). إنما أعني هذا القبيل الذي أترع أدبه بالعويل والنياحة. وعلى رأس هذا الرعيل السيد حيدر الحلي، وهاشم الكعبي، وصالح الكواز، وصالح القزويني العلوي، وإبراهيم الطباطبائي، وجعفر الحلي، ورضا الهندي، وكاظم الأزري، وعبد المطلب الحلي، وعبد الحسين الأعسم، وهؤلاء شعراء مطبوعون لهم دواوين مفعمة بالأدب المشبع قوة وحيوية؛ وقد أقاموا على شواطئ الفرات في غضون عصر النهضة دولة للشعر يدعمها خصب القرائح ورصانة الأساليب ومتانة السبك ودقة المعنى وسمو الخيال. وإنه لمن العقوق أن تتغافل عن دراسة أدبهم الأقلام العربية النزيهة بمصر، وإنك إذا تصفحت ما خلفوه من شعر محكم الأثر، قوي البيان، فخم التعابير، جزل الألفاظ، وجدته طافحاً بالتهريج والتنديد بالأمويين وما استباحوه من الدماء المحرمة في كربلاء، وما انتهكوه من حرمة ذرية الرسول، فترى المحرم قد صبغ أدبهم بصبغة خاصة لا تجد نظيرها في كثير من الآداب العالمية، وقد مزجوا بشعرهم الوجداني قصصاً ووقائع تاريخية فاستحدثوا لوناً يختلف عما ألفناه في أقسام الأدب العربي من قبل. وقد قرأت للأستاذ الزيات في كتابه (في أصول الأدب) كلمته

الآتية، قال عند استعراضه العوامل المؤثرة في الأدب: (وتأثير الأديان في الأدب أمر ثابت بأدلة الطبع والسمع فإنها تخلق موضوعات جديدة لمصنفات جديدة، وتؤثر في الأخلاق والعواطف تأثيراً يتردد صداه في مناحي الأدب. . . فأن في كل دين من الأديان السماوية قسماً وجدانياً اجتهادياً يختلف أبناؤه في فهمه اختلافهم في الطبائع والمنازع والغاية، فأشعار الخوارج مثلاً تنضح بالدماء وتطفح بالحماسة لتعصبهم وتصلبهم وجعلهم غاية الإسلام جهاد مخالفيهم في الرأي، وأشعار الشيعة تفيض بإجلال زوج البتول وصهر الرسول وتمجيد ذكرى بنيه وتمثيل آلامهم ورثاء من قتل من أعلامهم).

وما لوَّح إليه الأستاذ الزيات حقيقة راهنة تعضدها قواعد علم النفس وأصول التربية الحديثة وقواميس الاجتماع ويدعمها الوجدان بأنصع برهان؛ فهاهي ذي المجاميع المشحونة بالقصائد العصماء التي تتفجر حزناً لمقتل سيدنا الحسين عليه السلام، ومن أحدثها (لواعج الأشجان) تأليف العلامة السيد محسن العاملي، و (مثير الأحزان) وحسبك بأسمائها معرفاً بما انطوت عليه صدورها من مآسٍ.

هذا عدا الدواوين المسودة بنعي شهداء هذه الواقعة، وقد كان حامل لواء هذه السراياً هو الشريف الرضي (موضوع دراسة الدكتور زكي المبارك ضيف العراق الكريم فقد أخذ اليوم في تحليل أدبه الخالد فكانت أبحاثاً ممتعة أصبحت محور الحديث والمناقشة في الأوساط الأدبية هنا)، وقد كان الشريف الرضي مفجوعاً كليم الفؤاد فتجد شعره في رثاء الحسين طافحاً بالأنين والحنين، قال في قصيدة مقصورة:

وضيوف لفلاةٍ قفرة ... نزلوا فيها على غير قرى
لم يذوقوا الماء حتى اجتمعوا ... بحِدا السيف على ورد الردى
ووجوه كالمصابيح فمن ... قمر غاب ونجم قد هوى
غيرتهن الليالي وغدا ... جائرَ الحكم عليهن البِلى
يا رسول الله لو عاينتهم ... وهم ما بين قتالٍ وسِبا
من رميض يمنع الظل ومن ... عاطش يُسقي أنابيب القنا
ومَسوقٍ عاثر يسعى به ... خلف محمول على غيروطا
جزَرُوا جزَر الأضاحي نسله ... ثم ساقوا أهله سوق الإما
وا قتيلاً قوّض الدهر به ... عُمُد الدين وأعلام الهدى
غسلوه بدم الطعن وما ... كفّنوه غير بوغاء الثرى

وشاعر علوي آخر لا يقل في جودة شعره وروعة شوارده عن أبي الطيب المتنبي، ولربما يجوزه في حماسة الملتهب وطموحه المتوثب المتحفز للانتقام في المستقبل الغامض، ذلك هو السيد حيدر الحلي ولد عام 1246 وتوفي سنة 1304، وبلده الحلة مدينة كبيرة تقع على أحدد فروع نهر الفرات قرب موقع بابل التاريخية، وقد نبغ فيها عدد غفير من الشعراء النابغين. وإن شاعرْنا هذا يمتاز بفخامة التعابير وروعة الأحلام ودقة الوصف والتصوير والمقدرة على التهويل وإلباس الحوادث جلباب الضخامة والجسامة ونحت هياكل الأشباح والأخيلة من مادة الواقع ولكن بتكبير وتعظيم، وله براعة ممتازة في استنهاض الراقد وتحذير الغافل عن الخطر الداهم ولو كان موهوماً، وقد عاش مفجوعاً بواقعة كربلاء التي تركت في نفسه أثراً عميقاً فظهر هذا الانفعال النفساني جلياً في مراثيه. فأسمعه ينوح على شهيد الإباء، وديوانه كما سلف نواح وتهديد وزمجرة ووعيد:

وادعت حولي الشجا ذات طوق ... مات منها على النياح الهجوع
شاطرتني بزعمها الداء حزناً ... حين أنّت وقلبي المفجوع
يا طروب العشيّ خلفك عني ... لم يهجني صبابة وولوع
لم يرعني نوى الخليط ولكن ... من جوف الطف راعني ما يروع
أي يوم بشفرة البغي فيه ... عاد أنف الإسلام وهو جديع
أينما طارت النفوس شعاعاً ... فلطير الردى عليه وقوع
قد تواصت بالصبر فيه رجال ... في حشا الموت من لقاها صدوع
سكنت منهم النفوس جسوماً ... هي بأساً حفائظ ودروع

وقوله يعرض بالهاشميين وتثاقلهم عن نصرته:

لتل لوي الجيد ناكسة الطرف ... فهاشمها في الطرف مهشومة الأنف
ويا مضر الحمراء لا تنشري اللوا ... فإن لواكِ اليوم أجدر باللف

ألستم إذا عن ساقها الحرب شمَّرت ... وعن نابها قد قلصت شفة الحتف
سحبتم إليها ذيل كل مفاضة ... ترد الظبا باللثم والسمر بالقصف
فكيف رضيتم من حرارة وترها ... بماء الطلى منكم ظبا القوم تستشفي
ثم يتجه إلى الإمام علي بن أبي طالب ويخاطبه مخاطبة الأحياء على الأساليب الشعرية المتبعة
أبا حسن أبناؤك اليوم حلّقت ... بقادمة الأسياف عن خطة الخسف
لقد حشدت حشد العطاش على الردى ... عطاش وما بلّت حشاً بسوي اللهف
فتلك على الرمضاء صرعى جسومهم ... ونسوتهم هاتيك أسرى على العجف
وهل زحف هذا اليوم أبقى لحيهم ... عميد وغى يستنهض الحي للزحف
وله من أخرى:
عثر الدهر ويرجو أن يقالا ... تربت كفك من راج محالا
لا أقالتني المقادير إذا ... كنت ممن لك يا دهر أقالا
وتسمع هنا لكبرياء نفس الشاعر قعقعة وجلجلة، وأي تعاظم يطاول بالمرء الدهر ويجعله عرضة لسخط الشاعر وغضبه بحيث يوقف موقف الذل والاستكانة حتى يطلب إقالته من عثرته
أزلال العفو تبغي وعلى ... أهل حوض الله حرمت الزلالا
المطاعين إذا شبت وغى ... والمطاعيم إذا هبت شمالا
إن دعوا خفوا إلى داعي الوغى ... وإذا النادي احتبى كانوا ثقالا
وقفوا والموت في قارعة ... لو بها أرسى ثهلان لزالا
وقوله حرمت الزلال يلوح إلى قتل الحسين وأصحابه عطاشاً وذلك من مآسي الواقعة التي أخذت مجالا لمناحة الشعراء.
وقوله من أخرى:
وخائضين غمار الموت طافحة ... أمواجها البيض بالهامات تلتطم
مشوا إلى الحرب مشي الضاريات لها ... فصارعوا الموت فيها والقنا أجم
ولا غضاضة يوم الطف إن قتلوا ... صبراً بهيجاء لم تثبت لها قدم
فالحرب تعلم إن ماتوا بها فلقد ... ماتت بها منهم الأسياف لا الهمم
أبكيهم لعوادي الخيل إن ركبت ... رؤوسها لم يكفكف عزمها اللجم
وللسيوف إذا الموت الزؤام غدا ... في حدها هو والأرواح يختصم
تنعى إليك دماء غاب ناصرها ... حتى أريقت ولم يرفع لكم علم
مسفوحة لم تجب عند استغاثتها ... إلا بأدمع ثكلى شفها الألم
حنت وبين يديها فتية شربت ... من نحرها نصب عينيها الظبا الخذم
موسدين على الرمضاء تنظرهم ... حرى القلوب على ورد الردى ازدحموا
سقياً لثاوين لن تبلل مضاجعهم ... إلا الدماء وإلا الأدمع السجم
أفناهم صبرهم تحت الظبا كرماً ... حتى مضوا ورداهم ملؤه كرم
وقد افتتح هذه القصيدة بحماسة تذكر بفخر المتنبي وتهديده ووعده ووعيده قال:
إن لم أقف حيث جيش الموت يزدحم ... فلا سعت بي في طرق العلى قدم
لا بد أن أتداوى بالقنا فلقد ... صبرت حتى فؤادي كله ألم
عندي من العزم سر لا أبوح به ... حتى تبوح به الهندية الخذم
لا أرضعت لي العلا ابنا صفو درتها ... إن هكذا ظل رمحي وهو منفطم
ولربما أكثرنا من الاستشهاد بالمقطوعات الرثائية التي هي من هذا الفرع الغض النضير بشعريته وإهابه الجهم الكالح بمؤداه الباكي بمغزاه ومعناه، ونظن أن في هذا النوع طرافة وجدّة عند قراء (الرسالة) الكرام.
وبعد فإنك واجد هذه الوقعة قد أثرت أثرها في الأدب وأنشأت جانباً خاصاً له مميزاته ومزاياه تربطه صلة قوية العرى محكمة الحلقات، وليس هذا القسم من الشعر ثمرة الأيام الأخيرة، كلا فإنه يمتد إلى عهد دعبل الخزاعي وتائيته التي مطلعها:
مدارس آيات خلت من تلاوة ... ومنزل وحي مقفر العرصات
والحسن بن الضحاك الذي يقول:
ومما شجا قلبي وكفكف عبرتي ... محارم من آل النبيَّ استحلتِ

وجعفر بن عفان الشاعر العباسي الذي يقول من قصيدة:
لبيك على الإسلام من كان باكياً ... فقد ضيعت أحكامه واستحلت
غداة حسين للرماح دريةٍ ... وقد نهلت منه السيوف وعلت
وغودر في الصحراء لحماً مبدداً ... عليه عتاق الطير باتت وظلت
وسليمان بن قتة العدوى مولى بن تميم وذلك حين مرَّ بكربلا بعد قتل الحسين بثلاث، فنظر إلى مصارعهم واتكأ على فرس له عربية وأنشأ يقول، وقيل إنها لأبي الرجح الخزاعي، وقال ابن الأثير إنها للتميمي تيم مرة قال وكان منقطعاً لبني هاشم:
مررت على أبيات آل محمد ... فلم أرها أمثالها يوم حلتِ
ألم تر أن الشمس أضحت مريضة ... لفقد حسين والبلاد اقشعرت
وكانوا غياثا ثم أضحوا رزية ... لقد عظمت تلك الرزايا وجلت
وإن قتيل الطف من آل هاشم ... أذل رقاب المسلمين فذلت
وقد أعولت تبكي السماء لفقده ... وأنجمنا ناحت عليه وصلت
وعقبة بن عمرو العبسي وهو أول من رثى الحسين فيما حكاه سبط ابن الجوزي عن السدي:
مررت على قبر الحسين بكربلا ... فغاض عليه من دموعي غزيرها
وما زلت أبكيه وارثيه لشجوه ... ويسعد عيني دمعها وزفيرها
وآخر من عبد القيس قتل أخوه مع الحسين:
يا فرو قومي فاندبي ... خير البرية في القبور
ذاك الحسين مع التأوه ... والتفجع والزفير
والفضل بن عباس:
أعيني إن لا تبكيا لمصيبتي ... فكل عيون الناس عني أصبر
وبديع الزمان الهمذاني:
يا لمة ضرب الزما - ن على معرسها خيامه
لله درك من خُزا - مي رمضة عادت ثغامه
لرزية قامت بها ... للدين أشراط القيامه
لمضرج بدم النبوة ... ضارب بيد الأمامه
متقسم بظبا السيوف ... مجرع فيها حمامه
والسيد الحميري:
أمرر على جدث الحس ... ين وقل لأعظمه الزكية
يا أعظما لا زلت من ... وطفاء ساكبة روية
وبعد فهذه الصفحات من أدبنا القومي طوى معارك المفرقة بين أمة الضاد التي أثارت دخان هذا الشعر - ما دهمنا من خطر الغرب، فنحن ندرسها للتاريخ لا أكثر، فقد دثر الهاشميون والأمويون وقبرت معهم منازعاتهم حول الملك.

العراق - النجف الأشرف

ضياء الدين الدخيلي

مقالة تذكارية

ابن سينا

بمناسبة انقضاء تسعمائة سنة على وفاته

للدكتور زكي علي

في سنة 1932 خطر لكاتب هذه السطور بينما كان يقوم ببعض الأبحاث في معهد تاريخ الطب بفينا أن يُحيي ذكرى طبيب الإسلام الأشهر (ابن سينا) في الوقت المناسب بنشر بعض الرسائل العلمية عن حياته في المجلات الطبية وغيرها.

وجرى وقتئذ بيني وبين الأستاذ ماكس نويبرجر - وهو من أشهر علماء تاريخ الطب اليوم - حديث في هذا الشأن لفت نظري في سياقه إلى رسالة لأحد الأطباء من الأتراك الكماليين حاول فيها أن ينسب ابن سينا إلى العنصر التركي تمشياً مع نعرة الجنس التي تغلغلت في تركيا الكمالية وشوّهت في كثير من الأحيان وجه الحقائق التاريخية تبريراً لغاية قومية.

وقد نشرت (الرسالة) في أحد أعدادها في الصيف الماضي نبأ مؤداه أن جامعة استنبول احتفلت بإحياء ذكرى (ابن سينا) أنبغ طبيب في الإسلام. ولما كان ابن سينا

فارسي الأصل فقد أراد الكماليون بعملهم هذا تجريده من فارسيته وإقامة الدعوى الباطلة على انه ينتمي إلى الجنس التركي، وبذلك تكون عبقريته النادرة من مفاخر القومية التركية؛ وفي هذا افتيات على التاريخ والعلم لا تبرره العصبية الجنسية.

يلقب ابن سينا في الشرق (بالشيخ الرئيس) وفي الغرب (بأمير الأطباء) حيث عرفته أوروبا باسم واسمه الكامل أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا، وقد اجمع المؤرخون على اعتبار شخصيته إحدى الظواهر الفكرية العجيبة التي سجلها تاريخ الطب والفلسفة كما أنه من اعظم العلماء الذين أنجبهم الشرق إذ جمع في نفسه شخصية الطبيب والفيلسوف والشاعر والفلكي والسياسي والعالم بطبقات الأرض، وبلغ بذلك ذروة النبوغ وقمة الشهرة بين علماء الإسلام شرقاً وغرباً؛ وحسبك ما ذكره عنه الطبيب المؤرخ الأمريكي كامستون إذ قال: (يعتبر ابن سينا معجزة من معجزات العقل الراجح ويجوز أنه لم يسبقه ولم يظهر بعده من العلماء من يدانيه في حدة الذكاء وسرعة نبوغ العقل بالنسبة للعمر مع عزم ونشاط لا يعرف الملل وهمة شاسعة الحدود).

ولد ابن سينا بقرية تسمى (أفشنة) بالقرب من (حرميثن) من أعمال بخارى وذلك سنة 980م (370هـ) وكان أبوه من بلخ ثم انتقل إلى مملكة بخارى في زمن نوح بن منصور من الدولة السامانية وكانت يومئذ غاصة بالعلماء فوجهه أبوه إلى من حفّظه القرآن وعلوم الأدب.

وظهرت بوادر نبوغ ابن سينا وعبقريته منذ الطفولة فما بلغ العاشرة من عمره حتى حفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب ودرس النحو والأدب والفقه، ثم تعمق الفتى في دراسة شتى العلوم بحماسة وجد بالغين، فأتى على منطق أرسطو وفلسفته وأكب على تحصيل الهندسة والطبيعة والفلك فأتقن ذلك كله ولم يتجاوز السادسة عشرة.

وكان من نعومة أظافره يحس من نفسه ميلاً خاصاً إلى دراسة الطب فأقبل على تعلمه بسرعة غريبة إذ أكمل معارفه فيه واشتهر أمره كطبيب بارع ونطاسي ماهر بعد أن جاوز عمره الثامنة عشرة بقليل. وصادف إذ ذاك أن مرض السلطان نوح بن منصور حاكم بخارى لذلك العهد ورأى أطباؤه أن يستشيروا ابن سينا في أمر معالجته، فأستدعى صاحب الترجمة فأشار بعلاج حاسم كان فيه شفاء السلطان فأحسن مكافأته وسمح له بالإطلاع على نفائس مكتبته الخاصة التي حوت كثيراً من الكتب العلمية النادرة فوعى ابن سينا زبدة ما فيها وعكف على الدرس والبحث سنوات ما كان يذوق فيها طعم النوم إلا غراراً، ومما قاله عن نفسه: (لازمت العلم وكنت كلما أحار في مسألة ترددت إلى الجامع وصليت وابتهلت إلى مبدع الكل حتى يفتح لي المنغلق منه ويتيسر المتعسر. وكنت أشتغل ليلاً في داري بالكتابة والقراءة فإن غلبني النوم أو شعرت بضعف عدلت إلى شرب قدح من الشراب ريثما تعود إليّ قوتي ثم أرجع إلى القراءة، فإن غلبني النوم حلمت بالمسائل التي كنت أعالج حلها حتى إن كثيراً منها اتضح لي بالمنام).

وأخذ ابن سينا في التأليف وهو في الحادية والعشرين من عمره فصنف موسوعة علمية ضمنها كثيراً من العلوم الطبيعية وكتب في الفلسفة وما وراء الطبيعة (الميتافيزيقيا) عدة رسائل.

وفي غضون تلك المدة صار ابن سينا مضرب الأمثال في البراعة الطبية وذاع صيته لما أوتيه من النجاح في علاج المرضى الذين كانوا يفدون إليه من فجاج الأرض، وله في ذلك كثير من النوادر العجيبة التي تناقلها الرواة والمؤلفون.

ثم لما بلغ صاحب الترجمة الثانية والعشرين من عمره نكب بوفاة والده فانتابته بعد ذلك الشدائد، وزاد في محنته وأهواله أن اضمحلت الدولة السامانية وكانوا حماته الذين تعهدوه بالرعاية والتشجيع، فخرج من مملكة بخارى قاصداً (كركانج) عاصمة (خوارزم) التي كان يحكمها الأمير علي بن مأمون، غير أن الضيق لازمه فتنقل في البلاد شريداً ثم ألقى عصا الترحال في (جرجان) حيث كان يقصد أميرها (قابوس) الذي اشتهر بتأييده للعلماء فصادف وصوله سقوط قابوس عن عرشه وحبسه في بعض القلاع وما لبث أن مات، فتألم ابن سينا لذلك ألماً شديداً وأنشأ قصيدة قال فيها:

لما عظمت فليس مصرٌ واسعي ... لما غلا ثمني عدمتُ المشترى

ثم هام على وجهه في الآفاق إلى أن وصل أخيراً إلى (حمدان) ودخل في خدمة أميرها

شمس الدولة وعالجه علاجاً ناجحاً إذ كان يشكو من مرضاً شديداً بالمعدة، فأحسن الأمير صلته وقلده الوزارة ولم تمنعه أعمال الدولة ومهام المنصب عن مواصلة نشاطه الطبي وأبحاثه العلمية، فألف في ذلك الوقت الجزء الأول من كتابه الأشهر (القانون في الطب)، وكان يقضي النهار في مباشرة شئون الدولة ويحي الليل بالمحاضرة والتدريس وإملاء المذكرات على تلاميذه، فإذا انتهى من محاضرته استبقى مستمعيه وهيئ مجلس الغناء والأنس والموسيقى ترويحاً للنفوس من عناء الدرس.

على أن هذه الحياة الحافلة بالعلم والعمل والنشاط ما لبثت أن عصفت بها رياح الفتن السياسية ودَّس أعداء صاحب الترجمة له واتهم بأن له صلة سياسية وثيقة بأمير أصفهان وسجن في أحد القلاع وهناك لازم التأليف. ثم إنه أفلح أخيراً في الفرار من سجنه بعد أن تنكر في زي الصوفية وقصد أصفهان حيث استقبله أميرها بكل أنواع الحفاوة والإكرام وصار موضع إكبار الجميع وصحب السلطان في كثير من غزواته إذ كان طبيبه الخاص ووزيراً للدولة وعكف على إنجاز مؤلفاته العديدة في مختلف العلوم وفي مقدمتها كتابه (القانون في الطب) الذي أذاع اسمه وخلّد شهرته في الشرق والغرب مدى ستة قرون، ودوّن كتبه في الفلسفة والفلك وعلم النفس وفقه اللغة والعلوم الطبيعية والكيماوية وغيرها،

ولم ينقطع برغم هذا كله عن ممارسة مهنة الطب التي فاق فيها كل معاصريه وأوصله نبوغه فيها إلى مكانة ليس وراءها غاية.

وقد أنهكت الجهود الجبارة والعمل الشديد المتواصل قواه فمات ولم يتجاوز عمره السابعة والخمسين سنة 1037م.

ويمتاز ابن سينا بغزارة مادته الأصلية في التأليف، وتنوع العلوم والفنون التي ترك فيها آثاراً قيمة، وضخامة كثيرة من كتبه النفيسة التي كانت بمثابة دوائر معارف شاملة.

ولا جدال في أن كتابه (القانون في الطب) - وهو أهم مؤلفاته، وأضخمها إذ يحتوي على نحو مليون كلمة - الفضل الأكبر في ذيوع تعاليم ابن سينا وآرائه الطبية في كل الأقطار، ثم في بقاء تأثيره نافذاً متسلطاً على مصير الطب في الشرق والغرب مدى عدة قرون. وقد نوه الطبيب المؤرخ الإيطالي كاستليوني في كتابه (تاريخ الطب) المطبوع سنة 1931 بأن تميز (قانون ابن سينا) على كل ما سواه من كتب الطب في العصور الوسطى راجع إلى دقة ابن سينا في الشرح والتحليل بطريقة تهذيبية تعليمية بارعة، وإلى إتقان تبويبه وتقسيمه وترتيب المواضيع الطبية التي عالجها بحيث كفى الأطباء في ذلك العصر مؤونة البحث فيما عداه).

وقد دون ابن سينا في (قانونه) كل علوم الطب إلى زمنه، ونقحها وزاد عليها آراءه وملاحظاته ومشاهداته الإكلينيكية، ويقع في خمسة كتب أساسية. وبقي هذا الكتاب يدرس في جامعات أوربا زهاء ستة قرون، واستمر المرجع الأساسي في تدريس الطب بجامعتي مونبلييه ولوفان حتى ختام القرن السابع عشر.

وترجم (القانون) إلى اللاتينية في طليطلة في القرن الثاني عشر نقله جيراردي كريمونا ثم ظهرت له بعد ذلك طبعات لاتينية أخرى تعد بالعشرات. ونشرت منه طبعة عربية في روما سنة 1593، وفي بولاق بمصر سنة 1877، وظهرت له في أوربا عدة شروح، كما ترجمت أجزاء منه إلى الفرنسية والألمانية والإنجليزية وغيرها من لغات أوربا، وترجم أيضاً إلى التركية والفارسية.

وقد أحصى العلامة الألماني وستنفلد من مؤلفات ابن سينا مائة وخمسة في علوم الطب والفلسفة والدين والفلك واللغة والأدب والموسيقى والهندسة والمنطق والعلوم الطبيعية

وغيرها، ونكتفي هنا بذكر أسماء بعضها: فمن كتبه التي نقلت إلى اللاتينية وغيرها من لغات أوربا، بعد (القانون) كتاب (قلب الإنسان) و (الأرجوزة في الطب) و (الشراب) و (مختصر الحيوان) و (الحجر الفلسفي) و (السماء والعالم) و (النفس) و (ما بعد الطبيعة) و (الطبيعيات) و (الكيمياء) و (المنطق) و (الحدود) و (التعريفات) و (الفلسفة الأولى).

ثم كتاب (الشفاء) في الفلسفة وترجم إلى اللاتينية بعنوان ولا يزال الأصل العربي موجوداً. وله في الفلسفة أيضاً كتاب (النجاة) و (الإشارات) ورسائل في الإنصاف والمسائل العشرين، والمباحثات، والجوهر الذي لا يتحرك، وتقسيم العلوم الفلسفية،

وحد الجسم، وشرح كتاب النفس لأرسطو وما بعد الطبيعة، وكل هذه لا تزال باقية.
ومن كتبه في الفقه والتوحيد الإلهيات والجمانة الإلهية ثم له القصيدة العينية الشهيرة في النفس التي مطلعها:

هبطت إليك من المحل الأرفع ... ورقاء ذات تعزز وتمنع

وفيها يقول:

إن كان أرسلها الإله لحكمة ... طويت عن الفطن اللبيب الأروع
فهبوطها إن كان ضرة لازب ... لتكون سامعة بما لم تسمع
وتعود عالمة بكل خفية ... في العالمين فخرقها لم يرقع
وهي التي قطع الزمان طريقها ... حتى لقد غربت بغير المطلع
فكأنها برق تألق للحمى ... ثم انطوى فكأنه لم يلمع

وفي المنطق كتاب الإشارة وكتاب المشرقيين ورسالة العروس؛ وله في العلوم الطبيعية والرياضية والآداب والسياسة والفقه والموسيقى واللغة العربية وعلومها مؤلفات كثيرة بعضها موجود في مكاتب أوروبا وبعضها مفقود.

وقد ترك ابن سينا وصفاً علمياً صحيحاً لتكوين الجبال، ذكره درابر ووثنجتون، واعتبره جاريسون الأمريكي مبرراً لتسمية ابن سينا (أبا علم طبقات الأرض) (الجيولوجي).

ويضيق بنا المقام هنا عن ذكر آراء ابن سينا الفلسفية ولهذا نقتصر على إيراد المهم من مشاهداته واكتشافاته الطبية.

امتاز ابن سينا على أبقراط وأرسطو وجالينوس بدقته في مناقشة الحالات المرضية ومهارته في فن تشخيص الأمراض ومبحث أسباب المرض وهو أول من وصف مرض الالتهاب السحائي (السرسام الحار) وصفاً صحيحاً وميزه عن الأمراض الحادة المصحوبة بالهذيان، وكان ذلك يلتبس على أطباء اليونان؛ كما أنه أتقن وصف سير هذا المرض والإنذار فيه. ومما يدل على دقة ملاحظاته الإكلينيكية ذكره أن التهاب البلورا (ذات الجنب) والتهاب الرئة (ذات الرئة) قد تنتج عنهما أعراض سرسامية بهيئة مضاعفات، وأن التهاب السحايا في تلك الحالات يعتبر نذيراً سيئاً إذ تعقبه الوفاة عادة.

وأجاد ابن سينا أيضاً في شرح أمراض الجهاز التنفسي، وقال بضرورة التمييز عن تشخيص ذات الجنب بين التهاب البلورا الحقيقي، وبين الالتهاب البسيط للعضلات بين الضلوع وبين التهاب المنصف الصدري (الحَيْزوم) وخراج السطح الأعلى للكبد.

وأتقن ابن سينا وصف الأمراض العصبية، وبوجه خاص الأشكال المختلفة للشلل وللفالج النصفي ولشلل الوجه (اللقْوة) واهتدى إلى التمييز بين نوعي اللقْوة: المركزي والموضعي وشرح بإسهاب التشخيص التمييزي بينهما.

ومما أشار إليه ابن سينا أن المخ والعظام خلافاً لرأي القدماء قد تكون مقراً للأورام.

وكان يعالج تشوهات السلسلة الفقرية بالرد العنيف وهي طريقة أعاد إدخالها في العلاج الجراح الفرنسي كالو سنة 1896. ولابن سينا طريقة شائقة طريفة في وصف الأمراض العقلية، وله الفضل في ابتكار كثير من طرق العلاج النفساني.

وكان جالينوس يقول بأن السكتة (ضربة الدم أو النقطة) يندر أن تكون مسببة عن البليثورا وهذا خطأ، فخالفه ابن سينا وقال بالعكس، مستنداً إلى مشاهدته الإكلينيكية، بأن البليثورا من أكثر الأسباب المهيئة لحدوث السكتة.

ومما ذكره ابن سينا ولم يسبقه إليه أحد أن الحصبة أكثر ما تكون عدواها في الربيع والخريف وأنها أكثر وقوعاً في هذين الفصلين، كما ذكر أن الأطفال يصابون بها أكثر من البالغين.

ودرس ابن سينا بدقة أمراض الكبد وطريقة فحصه ووصف بمهارة أعراض اليرقان بأنواعه بما يتفق والأوصاف الحديثة؛ وشرح عند الكلام على أمراض المعدة، أعراض ضيق البّواب والقرحة المعدية وأفاض في شرح أضرار إدمان الكحول على الكبد، وعلّل السبب الفيزيولوجي لتلافيف الأمعاء. وتكلم ابن سينا طويلاً عن استطالة عنق الرحم وعن أورام الرحم وسقوطه وصلابته وعن خطر سرطان عنق الرحم.

ووصف طريقة لعلاج البواسير بالشق، وأشار عند الكلام على الذُبَيلة (تجمع الصديد في جوف البلورا أو الإمبييما) بعلاجها بالشق عليها لتفريغ الصديد، وذكر طريقة رد خلع الكتف بالضغط المباشر. وأما في علم الديدان فهو أول من وصف الدودة المعروفة

باسم الفرْتيت أو العِرقْ المديني
ثم إن أوصاف ابن سينا في التشريح أكمل في بعض الأحيان من أوصاف جالينوس. وذكر بُورْتال أن ابن سينا كان ذا معرفة تامة بتشريح القزحية وإنسان العين والقناة الدمعية وأنه أول من اكتشف إندغام عضلات العين.
وقد أدخل ابن سينا في مادة الأدوية عدداً كبيراً من العقاقير الطبية التي لم تكن مستعملة من قبل.
(جنيف)
زكي علي
العداء والفناء
للأستاذ عبد الحمن شكري
عفا الجاني وقد بلغ التشفي ... وبعض العفو من فرح الشَّمات
(للناظم)
قد يُعَزِّيك شامت يتشفى ... باجتلاء الآلام لا بالعزاء
(للناظم)
مقدمة القصيدة:
إن العفو لا يكون من المظلوم المجني عليه وحده بل قد يكون أيضاً من الجاني الظالم إذا أقنع نفسه أنه المظلوم، أو إذا أقنع الناس كي ينال عطفهم ومساعدتهم له في ظلمه وشره. وكثيراً ما يساعد الناس الشرير في شره اعتقاداً منهم أنه هو المظلوم أو. لأن مساعدته في الشر ضد المظلوم فرصة لإراحة ميل الكثير من الناس لالتذاذ القسوة كما هو الحال في مرض السادزم عند إطلاق هذا المصطلح عليه في المعنى الأعم؛ وهذا النوع من العفو الذي يجود الظالم إنما هو من فرحة الشماتة، وهذا الشعور يشبه شعور الشامت الذي يعزي المصاب ويخفي فرح الشامت ويظهر الأسف، وهو إنما يعزي كي يرى آلام المصاب أثناء التعزية. وهذه القصيدة تصف النفس الإنسانية بين عواطف الخير والشر، وقد تجتمع الأضداد منها في نفس واحدة من غفران وشمات، ومن حقد الحياة وصفح الممات، كما تصف عبث شقاء الحروب بين الأمم التي يتحالف بعدها الخصوم ويتعادى الأصدقاء
القصيدة:
إذا ما دنا الموت من هالك ... وأيقن أَلا يطول البقاءْ
وقد زال ما كان مِنْ نشوة ... ومن شِرَّةٍ نال عنها العَزاء
ولاح له عيشه ماثلا ... وقد بُرَّ عما جناه الرياء
وأُفْهِمَ ما كان من حرصه ... وأبصر ما قد طواه الخفاء
يُرَى آسفاً أَنْ عدا أو جنى ... وأنْ كان منه الأذى والعداء
وليس يُرَى آسفاً لاغتفار ... دعاه قديماً فَلَبَّى الدعاء
فليس على صفحه آسفاً ... ولكنْ على النَّيْلِ ممن أساء
أيأسف أَنْ ضاع ثأر سُدًى ... ومُتِّعَ خصم له بالبقاء
عدوان عاشا على إحنة ... وباعا السماحة بيع الإماء
أباحا النِّفاقَ وكيد اللئام ... لنيل الحطام وكسب الهباء
إذا ما دنا الموت من واحد ... أيشمت خصم له بالفناء
أيفرح مثل الجبان استراح ... وبُشِّرَ بالأمن بعد العداء
أيطعنه طعن نذل خصيما ... صريع التراب مُراق الدماء
ومرأى الحِمام كمرأى السَّقَام ... يُذِلُّ العُتُلَّ ويُخْزِي الجفاء
هو الموت يَشْفِي قلوب العدى ... ويختم بالصلح حرب البقاء
وقد يُطْلَبُ الصلح من فرحة ... تعير الشماتة ثوب السخاء
وكم من عداء غدا أُلْفَةً ... فيا عبثا إذ تراق الدماء
كم احتربت أمم ثم عادت ... كأَنْ لم تذق في الحروب الشقاء
ألم تسمع الأرض نوح الجريح ... يُوَدِّع حتى جنون الرجاء
أما اختلطت بالصديد الدماء ... أما أفعم الموت تَنْنَ الهواء
وكم عُنُقٍ لقتيل، به ... عضاضُ عدو صريع العداء
عضاضٌ يحاول خلد الضغائ ... ن في جسد خَلْقُهُ للفناء

فيا عبثاً لجهود الأنام ... سيمضي الرخاء ويمضي العناء
ويُصْبِحُ من كان خصماً لدودا ... عزيزاً ويُبْغَضُ إِلْفُ المساء
عبد الرحمن شكري

القصص

مقهى صورات

للفيلسوف الروسي تولستوي

كان في بلدة صورات من أعمال الهند مقهى يجتمع فيه المسافرون من جميع أطراف العالم فيتحاورون ويتسامرون.

وفي يوم من الأيام هبط إلى هذا المقهى عالم روحاني فارسي أفنى حياته في درس اللاهوت وفي التأليف فيه. ومن كثرة ما فكر وقرأ وكتب وناقش اختلط عليه الأمر وأصبح لا يعتقد حتى بوجود إله. فلما سمع الشاه بذلك نفاه عن بلاد فارس.

وكان لهذا الرجل عبد أفريقي لا يفارقه لحظة، فلما دخل سيده المقهى جلس هو على صخرة بجانب الباب تحت أشعة الشمس يطرد عنه الذباب. فلما استوى الفارسي على أحد المقاعد طلب من النادل كوباً من الأفيون. ولم يكد يفرغ من شربه حتى أخذ الأفيون يعمل عمله في رأسه، فقال يخاطب عبده من الباب وقد كان مفتوحاً:

(قل لي أيها العبد البائس هل تعتقد بوجود إله؟)

فأجاب العبد: (طبعاً). وفي لمح البصر أخرج من منطقته تمثالاً صغيراً من الخشب وقال: هاهو ذا. ذلك الإله الذي حماني وحرسني من يوم ولدت. وكل واحد من بلدنا يعبد الشجرة التي منها صنع هذا الإله.

دهش كل من كان في المقهى لهذه المحاورة الشاذة بين الفارسي وعبده. وما أتم العبد كلامه حتى انبرى له واحد وكان من أتباع برهمة إله الهنود وقال: (أيها الغبي الحقير! أتعتقد أن في الإمكان أن يحمل الله في منطقة رجل؟ لا يوجد غير إله واحد هو برهمة، إنه أعظم من جميع العالم، لأنه خلقه. برهمة هو وحده الإله العظيم، ولأجله شيدت المعابد على ضفاف الكانج وفيها يعبد البراهمة كهنته الحقيقيون الذين هم وحدهم يعرفون الإله الحقيقي دون سواهم. لقد مضي عشرون ألف سنة على ظهوره، وبالرغم من الفتن والثورات المتوالية ظل هؤلاء الكهنة قابضين على ناصية الأمور، وما ذلك إلا لأن برهمة قد حرسهم وحماهم طول هذه السنين).

قال ذلك البرهمي وهو يعتقد إنه أقنعهم جميعاً، إلا أن صيرفياً يهودياً كان حاضراً فأجابه قائلاً: (كلا، ثم كلا. إن معبد الإله الحقيقي ليس في الهند، والإله الحقيقي ليس إله البراهمة، وإنما هو إله إبراهيم واسحق ويعقوب، ولا يحمي أحداً غير شعبه المختار. . . بني إسرائيل. إن شعبنا هو شعبه الذي يحبه، وما تشردنا في أنحاء العالم إلا لأنه يريد تجربتنا. ولقد وعد بجمع شتات شعبه في أورشليم، وعندئذ - في معبد أورشليم، أعجوبة العالم القديم بعد رده إلى سالف عزه ورونقه - سوف يحكم الإسرائيليون جميع الأمم).

وهنا أجهش اليهودي بالبكاء، وأراد أن يستمر في الكلام إلا أن مبشراً إيطالياً قاطعه قائلاً: (إن هذا الذي تقوله ليس حقاً، لأنك تنسب الظلم إلى الله جل جلاله. وإنه لمن المستحيل أن يحب الله شعبك أكثر من بقية الشعوب. إن كان حقّاً ما يقال من أن الله في القديم قد فضل الإسرائيليين واصطفاهم على باقي العالمين، فإنه قد مضى ألف وتسعمائة سنة على خروجهم عليه وإغضابهم إياه، مما أدى إلى هلاكهم وتشريدهم في بقاع الأرض حتى لا ينتشر مذهبهم. ولقد اضمحل إلا من بعض أنفاس تصعد هنا وهناك. إن الله سبحانه وتعالى لا يفضل أحداً على أحد، ولكنه يدعو هؤلاء الذين يبغون الخلاص إلى أحضان كنيسة روما الكاثوليكية، ولا خلاص لمن كان خارج حدودها).

فألتفت قسيس بروتستانتي - اتفق إن كان حاضراً - إلى المبشر الإيطالي بوجه ممتقع وأخذ يقول له:

(كيف جاز لك أن تقول أن لا خلاص إلا لمن كان تابعاً لمذهبكم؟ لا يخلص إلا هؤلاء الذين يخدمون الله من صميم قلوبهم كما جاء في الإنجيل وكما أشار به المسيح).

عندئذ التفت إلى هذين المسيحيين، تركي من موظفي الكمارك في صورات، وقد كان جالساً في المقهى يدخن في (غليون)، وقال لهما بلهجة المسيطر:

اعتقادكم في الديانة المسيحية باطل. لقد حل محلها قبل ألف ومائتي سنة دين) صحيح هو دين محمد (ص). ليس لك إلا أن تجيل بصرك في أرجاء العالم لترى انتشار هذا الدين الصحيح في أوربا وآسيا، حتى في بلاد الصين المستنيرة. لقد قلتما أنتما إن الله غضب على اليهود وازدراهم. وذكرتما على سبيل المثال حالة اليهود الآن وما يقاسونه من ذلة ومسكنة، فما أحرى بكما أن تعترفا بصحة دين محمد لأنه هو الوحيد (الظافر المنتشر طولاً وعرضاً. لا ينجو سوى تابعي محمد (ص) خاتم أنبياء الله.

وهنا أراد الفارسي، وهو من أتباع الرسول العربي (ص) أن يتكلم؛ إلا أن جدالاً عنيفاً شجر بين جميع الأجانب الموجودين المنتمين إلى مذاهب شتى، فقد كان بينهم مسيحيون من الحبشة، ولاميون من تيبت، واسماعيليون ومجوس؛ وكان جدالهم في الله وكيف يجب أن يعبد؛ وكل يؤكد أن الله الحقيقي لم يعرف ولم يعبد إلا في بلده.

لم يبق واحد في المقهى لم يشترك في هذا الجدال والصياح إلا صينياً من أتباع كونفوشيوس. كان جالساً يرشف الشاي ويستمع إلى المتكلمين دون أن ينبس ببنت شفة. فلما رآه التركي جالساً على هذه الحالة تقدم إليه محاولاً اجتذابه إلى رأيه بهذه الكلمات: (أنت لم تنطق أيها الصيني العزيز حتى الآن بكلمة، ولم يكدر صفوك كل هذا الصخب، ولكنك إن تكلمت ففي وسعك أن تؤيد ما أقول. لقد حكى لي بعض التجار الصينيين الذين يطلبون مني المعونة، أنكم معشر الصينيين تعتقدون على كثرة ما عندكم من الأديان والمذاهب أن الديانة الإسلامية هي أفضل الديانات وأنكم تعتنقونها عن طيبة خاطر. أيّد إذن كلماتي وأبن لنا رأيك في الله الحقيقي ونبيه).

فهتف القوم صائحين: (حسن، حسن) ثم التفتوا إلى الصيني وقالوا (أسمعنا رأيك في هذا الموضوع).

فاغمض الصيني عينيه وأخذ يفكر ثم فتحهما ثانية وأخرج يديه من كمي ردائه العريضين وطواهما على صدره وأخذ يتكلم بصوت هادئ رزين:

سادتي: يظهر لي أن الذي يحول دون اتفاق الناس في قضايا الدين يرجع خاصة إلى الزهو الفارغ. فإن تفضلتم فأصغيتم إلي فسأقص عليكم قصة توضح لكم ما غمض من هذه المشكلة:

تركت الصين قاصداً هذه البلاد على ظهر باخرة إنكليزية طافت حول العالم. وقد رست هذه بنا الباخرة على الساحل الشرقي من جزيرة صومترا لنفاد الماء. وكنا جماعة من مختلف الأجناس، وكان الوقت ظهراً، فنزلنا إلى البر وجلسنا تحت شجرة من شجر جوز الهند على شاطئ قريب من القرية. ولما جلسنا تقدم نحونا رجل أعمى علمنا بعدئذٍ انه فقد بصره من كثرة ما حدق في الشمس محاولاً سبر أسرارها ومعرفة كنهها. سعى كثيراً للوصول إلى مبتغاه وأطال التحديق في الشمس دون أن يدركه إعياء حتى احرق وهج

الشمس عينيه فاصبح أعمى. وبعدما فقد بصره صار يكلم نفسه: (نور الشمس ليس سائلا، إذ لو كان كذلك لكان في الإمكان صبه من آنية في أخرى وتحريكه كما يحرك الهواء الماء؛ ولا هو نار، إذ لو كان ناراً لأطفئه الماء، ثم هو ليس روحاً لأنه منظور، ولا هو مادة لان المادة تنقل، وبما أن نور الشمس ليس سائلا ولا نارا ولا روحاً ولا مادة فهو إذن لا شيء).

على هذه الطريقة كان يحاور. وبنتيجة تحديقه المستمر في الشمس وكثرة التفكير فيها كما أسلفنا فقد بصره وعقله وأصبح لا يعتقد بوجود الشمس.

وكان لهذا الأعمى عبد يقوده، فلما اقتربا منا أجلس العبد صاحبه تحت شجرة وارفة، ثم التقط جوزة من الأرض وأخذ يصنع منها سراجاً: أبتدأ أولا بتقشير الجوزة، ثم أخذ ليفة فبرمها ثم عصر دهناً من الجوزة في القشرة، ثم نقع الفتيلة فيها فاصبح له من ذلك سراج يضيء له الظلام.

وهنا تنهد الأعمى وقال لعبده: (ألم أكن على حق حين قلت لك يا عبد أن لا وجود للشمس؟ ألا ترى هذا الظلام الدامس؟ ومع ذلك يقول الناس بوجود الشمس! إذا كان صحيحاً ما يقولون، فما هي؟)

قال العبد: (لا أعرف ما هي الشمس. تلك ليست مصلحتي، ولكني أعرف ما هو النور ها قد صنعت نوراً أستطيع به أن أخدمك وأن أجد كل ما أطلبه في الكوخ).

وهنا التقط العبد قشرة الجوز قائلاً: (هذه شمسي) وكان رجلاً اعرج جالساً وإلى جانبه

عكازه ينصت إلى هذا الحوار الشائق، وما كاد يلفظ العبد كلمته الأخيرة حتى أغرق في الضحك وقال يخاطب الأعمى:

يظهر انك ولدت أعمى! ولما كنت لا تعرف ما هي الشمس فسأقول لك ما هي. الشمس كتلة من نار تخرج من البحر كل صباح، وترتفع ثم تهبط كل مساء، وتتوارى بين جبال جزيرتنا. لقد رأى الناس جميعاً هذا، ولو كنت بصيراً لرأيتها أنت أيضاً.

ثم أعقبه سماك كان يستمع إلى الحديث موجهاً الكلام إلى الأعرج:

يظهر لي أنك لم تر ما وراء جزيرتك. ولو طفت كما طفت أنا في زوق الصيد لعلمت) أن الشمس لا تغيب في جبال جزيرتنا، ولكنها كما تشرق من البحر كل صباح، تغيب في البحر كل مساء. إن هذا الذي أقوله لك صحيح لا شك فيه لأني أشاهده بعيني كل يوم).

وهنا قاطعه هندي كان من جماعتنا قائلاً: لشدَّ ما يدهشني أن أسمع هذا الهراء من رجل عاقل مثلك! كيف يجوز لكتلة نار أن تهبط في الماء ولا تنطفئ؟ الشمس ليست كتلة نار أبداً بل هي إله يدعى (ديفا) وهو ما ينفك يركب عجلة يدور بها حول جبل فيدو الذهبي فتهجم عليه في بعض الأحيان الحيتان المشئومتان (راكو وكيتو) وتبتلعانه؛ وعند ذلك تصبح الأرض في ظلام. إلا أن كهنتنا لا ينفكون يصلون ويضرعون لذلك الإله حتى يطلق سراحه. لا يظن أن الشمس تضيء بلدته وحدها إلا من كان غبياً مثلك لم يبرح جزيرته قط).

فقاطعه ربان سفينة مصرية وقال له: (أنت أيضاً مخطئ، ليست الشمس إلهاً ولا هي تدور حول الهند ولا حول جبلها الذهبي فحسب) لقد طوفت كثيراً في البحر الأسود وعلى طول سواحل جزيرة العرب، ورأيت أيضاً مدغشقر وجزائر الفلبين، وفي كل هذه الأماكن تبزغ فيها الشمس، مما يدل على أن الشمس لا تضيء الهند وحدها ولكن تضيء الأرض كلها؛ ولا هي تدور حول جبل واحد وإنما تشرق في الشرق الأقصى وراء جزر اليابان، ثم تغرب بعيداً. . . بعيداً في الغرب وراء الجزيرة البريطانية. ولهذا السبب يسمي اليابانيون بلدتهم (نيبون) ومعناه (مولد الشمس). أعرف هذا جيداً لأني رأيت كثيراً، وسمعت اكثر من جدي الذي ركب البحار كلها).

وكان يريد المصري أن يستمر في حديثه لو لم يقاطعه بحار إنكليزي كان في سفينتنا قائلاً:

لا يعرف أحد عن حركات الشمس قدر ما يعرفه الناس في إنكلترا. ليس للشمس) مشرق ولا مغرب، وإنما هي تدور دائماً حول الأرض. إن هذا الذي أقوله لا شك فيه. ألم ننته الآن من طوافنا حول العالم ومع ذلك لم نصطدم بالشمس؟ أينما حللنا وجدنا الشمس تطلع صباحاً وتغيب مساء كشأنها هنا!.

وأخذ الإنكليزي عصاً وراح يرسم دوائر على الرمل ليرينا حركات الشمس وكيف تدور حول الأرض، إلا أنه لم يستطع شرحها بوضوح فقال مشيراً إلى ربان السفينة: اترك شرحها إلى هذا الرجل فهو أعلم بذلك مني)

وكان ربان الفينة رجلا ذكياً يصغي إلى الحديث بسكون دون أن ينبس بكلمة، فلما طلب منه الكلام اتجهت الأنظار إليه وبدأ يقول:

أنتم تحاولون التضليل وما تضلون سوى أنفسكم. إن الشمس لا تدور حول الأرض، بل) الأرض هي التي تدور حول الشمس مرة في كل سنة، وتدور حول نفسها مرة في كل أربع وعشرين ساعة. فيتضح من هذا أن لا فرق بين اليابان وجزر الفلبين وسومطرا وأفريقيا وأمريكا وأوربا وغيرها، فإن نصيب الجميع من أشعة الشمس واحد. فالشمس إذاً لا ترسل نورها على جبل واحد ولا جزيرة واحدة ولا بحر واحد حتى ولا على أرض واحدة، وإنما تستضيء بنورها جميع الكواكب أيضاً. فلو نظرتم في السموات عوضاً عن نظركم إلى الأرض لأدركتم كل هذا ولما زعمتم بعد ذلك بأن الشمس تضيء لكم أو لمدينتكم فقط).

هكذا تكلم الربّان الحكيم، وإذا تكلم فإنما يتكلم عن خبرة واسعة من كثرة ما ساح في البحار ومن طول ما حدّق في السموات.

هذا الذي قيل في الشمس يقال أيضاً في الدين. إن السبب الذي يحول دون اتفاق الناس في مسألة الدين إنما هو التفاخر وما يسببه من شحناء. كل رجل يريد إلهاً له، أو على الأقل إلهاً خاصاً لأمته، وكل أمة تريد أن تحصر في معبدها الله الذي لا يسعه

العالم.
وما هذه المعابد بالنسبة إلى العالم الذي خلقه الله ليجعل فيه الناس أمة واحدة وديانة واحدة ألا وهي الإنسانية؟
لقد شيدت المعابد الإنسانية على غرار هذا المعبد الذي شيده الله للناس، كل معبد له أحواضه وأقبيته وصوره ونحوته ونقوشه وكتبه ومذابحه ومحاريبه وكهنته. ولكن أيوجد معبد له حوض كحوض الأقيانوس أو قبو كقبو السموات؟ وأين تلك المصابيح الباهتة التي تضيء المعابد الإنسانية من الشمس والقمر والنجوم؟ أو تلك الصور الجامدة من رجال أحياء تغمر قلوبهم بالحب؟
وهل يوجد وصف في أي سفر من الأسفار عن كمال الله وحسنه أروع وأبسط من هذه النعم التي أسبغها الله على عباده لخيرهم وسعادتهم؟ وهل من تضحيات أسمى وأرفع من هذه التي يقدمها الرجال والنساء على مذبح الحب؟ ثم ما هذه المذابح المنصوبة في الكنائس إذ قيست بقلب رجل كريم يطفح حباً وحناناً وقد رضى الله به مذبحاً لتقديم القرابين له.
كلما سما الإنسان في فهم الله ازداد به علماً، وكلما ازداد به علماً اقترب منه، وذلك باحتذائه إياه في إحسانه وعطفه وحبه.
ليكف إذن ذلك الذي يرى نور الشمس يغمر العالم عن احتقار ذلك الرجل الخرافي الذي يرى في معبوده قبساً من هذا النور. ليكف حتى عن ازدراء الكافر، لأنه أعمى ولا يرى الشمس البتة).
هكذا تكلم الصيني تابع كونفوشيوس، فصمت كل من كان في المقهى ولم يعد أحد يدعي أن ديانته هي الفضلى.
يوسف روشا
البريد الأدبي
توحيد برامج التعليم في الشرق
علمنا أن الأستاذ الجليل محمد العشماوي بك وكيل وزارة المعارف يفكر في عقد مؤتمر عربي شرقي في القاهرة لدراسة الحالة العلمية والثقافية في البلاد الشرقية لمعالجة مشاكل التعليم معالجة تقوم على أساس صالح، وتستند إلى هدى القواعد التي تقررت في التربية الحديثة بما يلائم روح الشرق ويتمشى مع شخصيته. ولعل الباعث لهذه الفكرة ما لقيه المؤتمر الطبي العربي الذي عقد أخيراً في بغداد من النجاح وما ترتب عليه من النتائج الطيبة التي قوّت الروابط وأحكمت الأواصر.
وتتجه الفكرة لعقد هذا المؤتمر على أن تقوم هيئات المعلمين في مصر بتوجيه الدعوة إلى مثيلاتها في أنحاء الأقطار الشرقية، على أن تقوم الحكومة المصرية برعاية المؤتمر من الناحية المادية، وبكل ما يتصل بتكاليف المؤتمر. وقد علمنا كذلك أن بعض الهيئات المشتغلة بشؤون التعليم مهتمة جد الاهتمام بإخراج هذه الفكرة إلى حيز الوجود في وقت قريب، ولا شك أن انعقاد هذا المؤتمر سيكون له شأن كبير في التقريب بين الأمم الشرقية، وأن اتحاد برامج التعليم فيها سيكون أكبر عامل في إيجاد الوحدة العربية التي تتلهف عليها النفوس منذ أزمان.
المؤتمر الدولي للجذام
انعقد في يوم 21 مارس في مدينة القاهرة المؤتمر الدولي للجذام، وهو المؤتمر الذي نظمته الحكومة المصرية بالاشتراك مع الجمعية الدولية للجذام، فكان أول مؤتمر من نوعه وفي أهميته وخصوصاً أن مرض الجذام مرض خبيث لم يكتشف للآن المصل الواقي من شره، وكل وسائل العلاج المعمول بها الآن إنما هي عزل المرض وهي في الواقع طريقة للوقاية لا للعلاج، فمن صالح الإنسانية ومن البر بها أن يجتمع أعلام الطب من كل دولة للبحث في شأن هذا المرض العضال.
ولقد تفضل جلالة الملك فافتتح الجلسة الأولى للمؤتمر، وقد رفعت بهذه المناسبة أعلام الدول التي اشتركت فيه على دار الأوبرا الملكية، ويبلغ عدد تلك الدول 55 دولة ويبلغ عدد الأعضاء الذين اشتركوا فيه حوالي ثلاثمائة. وقد أقام معالي وزير المعارف حفلة
تعارف بين الأعضاء بفندق الكونتننتال، ثم أقام الوفد الفرنسي حفلة أخرى ألقى فيها (عمدة باريس) خطبة نوه فيها بأهمية عقد الاجتماعات العلمية الدولية لخير الإنسانية

عامة وخصوصاً لبحث الأمراض المستعصية مثل الجذام، وأشاد بفضل مصر في كرمها ودعوتها، ثم وجه الدعوة للمؤتمرين بالنيابة عن الحكومة الفرنسية وعن بلدية باريس أن يكون الاجتماع الثاني للمؤتمر في مدينة باريس أملا أن تجاب الدعوة.
وقد شكر له الدكتور محمد خليل عبد الخالق بك سكرتير عام المؤتمر تلك الدعوة ووعد بعرضها على لجنة تنظيم المؤتمر المصرية

القرآن في نظر الغربيين

ألقى الدكتور خالد شلدريك محاضرته الثالثة بقاعة المحاضرات بدار المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين بالقاهرة في موضوع (القرآن الكريم في نظر الغربيين)، وقد بدأ محاضرته بالكلام عن الأناجيل والكتب السماوية المنزلة، ثم تكلم عن الحروب الصليبية وتأثيرها في نهضة الغرب وإيقاظ الشعوب الأوربية، فإن الصليبيين نقلوا من فلسطين المدنية والثقافة وكثيراً من المعارف والمظاهر التي لم تكن تعرفها أوربا في ذلك العهد، حتى لقد كانت تغط في نوم عميق من الجهل، وترسف في قيود التعصب الممقوت والتدهور الأخلاقي. ثم أنتقل الأستاذ المحاضر إلى الكلام عن ضعف الدعاية الإسلامية في أوربا، وعدم وجود تراجم صحيحة للقرآن غير ترجمة (بكتول) الذي اعتنق الديانة الإسلامية عام 1909، وقد أطلق على كتابه أسم (ترجمة معاني القرآن)، ولكن من المتعذر على كل أوربي اقتناء نسخة من هذه الترجمة لفداحة قيمتها، ثم ألمع إلى استعداد الأوربيين والأمريكيين لدرس تعاليم الدين الحنيف إذا ما وجدوا إلى ذلك سبيل.

ثم ختم محاضرته بالإشارة إلى إيجاد جبهة دينية منيعة لصد التيارات الشيوعية والاشتراكية وغيرها من المذاهب الاجتماعية الجديدة التي تخالف الأديان السماوية، وتهدد المبادئ الصالحة، والأخلاق والعقائد. وبهذه المناسبة نقول: إن القائمين بالأمر في مصر قد عادوا يهتمون بمسألة ترجمة معاني القرآن، وهم يرون إدخال عناصر جديدة مهمة في اللجنة التي كانت قد تألفت لذلك من قبل.

اللغة الإيرانية والحروف اللاتينية

تريد الدولة الإيرانية أن تصنع بلغتها صنيع تركيا الجديدة، فهي تعمل على أن تخلص معجمها من الألفاظ المستعارة والدخيلة وأن تكتبها بحروف لاتينية كما فعلت الحكومة التركية منذ سنوات. وقد عقد في 18 الجاري مؤتمر لغوي برياسة جلالة الشاه، وجرى البحث حول تنقية اللغة الإيرانية من الألفاظ الأجنبية، وقد استعان المؤتمر ببعض المعمرين على انتقاء ألفاظ إيرانية قديمة لتستعمل مكان الكلمات الأجنبية؛ ولكن لما طرحت على بساط البحث قضية استبدال الحروف اللاتينية بالحروف الإيرانية الفارسية، لاقت معارضة قوية بحجة أن هذا التغيير يفقد اللغة الإيرانية قيمة مؤلفات أثرية واجتماعية لا يمكن نقلها إلى الإيرانية بحروف لاتينية؛ ولذلك تأجل البحث في هذه المسألة إلى وقت آخر حتى يتم النظر في هذا الاعتراض القائم

ترجمة القرآن في ألبانيا

اتجهت الأفكار في بولونيا إلى تعريب القرآن ونقله إلى لغة البلاد وهي اللغة الأرناؤوطية، وقد جاء في البريد الأخير أن الحكومة هناك دعت رؤساء الدين إلى اجتماع عام في دار الحكومة حضره جلالة الملك أحمد زوغو، وقد تناول البحث ترجمة القرآن، ولعل من المعلوم أن اللغة الأرناؤوطية تكتب بحروف لاتينية من قبل الحرب العالمية، وليست مسألة ترجمة القرآن إلا مظهراً من مظاهر نهضة شاملة في النواحي الإسلامية تقوم بها الحكومة في تلك البلاد.

الكشف عن مسجد الحجاج

كانت دار الآثار في بغداد قد قررت في السنة الماضية أن تأخذ على عاتقها القيام بأعمال التنقيب في أطلال (واسط)

وقد جاء في البريد الأخير من بغداد أن التنقيبات التي أجريت كشفت عن مسجد صغير ومسجد كبير ومقبرة وضريح وحصن وسوق، وقد عرضت الآثار التي استخرجت من الآثار المذكورة في غرفتين من غرف دار الآثار العربية

ولم تترك هذه التنقيبات مجالاً للشك في أن المسجد الذي كان قد اكتشف في السنة الماضية هو المسجد الذي شيده الحجاج بن يوسف الثقفي عند تأسيس المدينة، وقد أسفرت أعمال

الحفر عن وجود ثمانية صفوف من الأعمدة الحجرية الضخمة، ويبلغ قطر كل منها تسعين سنتيمتراً، والقسم الأعظم منها منحوت ومزخرف بأشكال بديعة. وقد أدى اكتشاف مسجد الحجاج بهذه الصورة إلى تعيين موقع قصر الإمارة، وتتوقع دار الآثار أن التنقيبات التي ستجري خلال هذا الموسم وفي المواسم القادمة ستسفر عن نتائج علمية مهمة تتصل بتاريخ القرن الأول للهجرة.

تذكارات مدام كوري

أذاعت الآنسة إيف كوري من لندن عن والدتها مدام كوري مكتشفة الراديوم، فذكرت كيف كان والداها يدينان بالعلم ويخلصان له، ويعرضان حياتهما للخطر الشديد في سبيل استكناه أسراره؛ فلما اكتشف اثنان من العلماء الألمان عنصر الراديوم سنة 1900 ظل اكتشافهما بدون قيمة حتى أجرى آل كوري تجاربهما في جسميهما فوجداه يحرق ويحترق. ولم يقف فقر آل كوري في سبيل النجاح المنشود، بل كانا يجريان تجاربهما في بيت خرب (غير مبلط) ذي شبابيك مهشمة (بدون زجاج) وكانت لهما طفلة غير إيف، كانت صرخاتها تشحذ فيهما همة العلماء الراسخين في العلم، وقد حدث أن منحت إحدى الجمعيات آل كوري ميدالية علمية ذهبية، فسخر بها الوالد العالم، ودفع بها إلى الطفلة تلعب بها، وهو ينظرإلى جدران غرفته وشبابيكها ويتنهد من أعماقه، ولولا أن أسعفه الحظ فنال جائزة نوبل للعلوم مرة ونالتها زوجته مرة أخرى، لما عرف العالم قيمة الراديوم إلى اليوم.

الإذاعة المصرية

أخذت محطة الإذاعة المصرية تنشط من سباتها قليلاً، وأخذت تعني بنواحي الجد من الحياة، لكنها لم تنتبه بعد إلى أنها أداة هامة من أدوات تربية الذوق المصري من جهة وأداة هامة من أدوات الإعلان عن مصر من جهة أخرى - فهي ما تزال تذيع الاسطوانات الرقيعة وما تزال تحجم عن معاملة المغنين الذين هم من الطبقة الأولى كما يقولون.

والمزعج أنه قد تقرر أن يكون لمصر موجة خاصة قوية (100 كيلو) يمكن بها أن تسمع مصر في اليابان وأمريكا، فماذا تذيع مصر على هذه الموجة وزعماء الأدب والفكر لا يزالون بعيدين عن هذه المحطة؟ ويجمل أن ننبه محطتنا إلى إذاعاتها من قاعة يورت، وما

تجره هذه الإذاعات من أوخم العواقب على سمعة الأخلاق في مصر، فإنه يقصد إلى هذه القاعة أناس من المهرجين الصاخبين، وهم يذهبون إليها ثملين عادةً، فإذا أخذتهم النشوة خرجت من أفواههم عبارات وأصوات نحسبها لا تشرف مصر في آفاق العالم. . . فلتفهم محطة الإذاعة هذا.

ولقد نشرت الإذاعة البريطانية تقريرها عن سنة 1937، فإذا دخلها 3. 356. 074 جنيهاً، أفيدري القارئ كم من هذه الملايين خصص (للبروجرام فقط) إنه 51 ? من مجموع الدخل أي 1. 729. 615 جنيهاً، والجمهور مع ذاك يطلب المزيد!

هل قتل جوركي؟

حوكم في روسيا في الأيام الأخيرة طائفة من كبار الأطباء الذين كانت تستعملهم الحكومة في طبها القضائي. وقد صدر الحكم بإعدامهم رمياً بالرصاص. والتهمة التي وجهت إليهم هي أنهم قتلوا أو تسببوا في قتل جوركي العظيم (أديب الصعاليك) الذي توفى منذ عامين والذي كان أعظم رجل يعيش في روسيا إن لم يكن في العالم أجمع، كما تسببوا في قتل ولده وقتل كثيرين من عظماء روسيا. وقد ذكرنا في هذا الباب كيف استعبدت الحكومة المخرج الكبير ماير هولد حين أحست أن هواه ليس في صفها فيما ينتجه للمسرح السوفيتي - وهذا دليل على أنه المتهم الأصلي في هذه المحاكمات الأخيرة لم يؤخذ بجرمه، لأنه الحكومة نفسها. وفي الحق لقد كنا دائماً ندهش لموقف جوركي من الطاغية ستالين ومن الثورة البلشفية نفسها، وكنا نجزم أنه موقف منافق لا ينطوي إلا على التسليم الذي يشبه تسليم العجائز، ولا يبعد أن يكون ستالين قد عرف ذلك من سيد أدباء الروس فدبر له هذه القتلة الشنيعة بأيدي أولئك الأطباء المساكين.

مصر والثقافة العربية في اليمن

أوفدت الجامعة المصرية منذ عامين بعثة من أعضاء هيئة التدريس بكليتي العلوم

والآداب إلى اليمن، وقد انتهت من دراسة طائفة كبيرة من المسائل التي وقفت عليها في بلاد اليمن دراسة علمية بحتة، ولا تزال بعض تلك المسائل قيد البحث والدراسة وقد أعدت البعثة تقريراً أولياً عن الأعمال التي قامت بها في بلاد اليمن، والأبحاث التي وفقت إليها وقامت بها على الهضاب المرتفعة وداخل وديان حضرموت.

أما فيما يتصل بالثقافة العربية في تلك البلاد، فإن عضو كلية الآداب يضع تقريراً في هذا الشأن، ومما قال فيه: أن العراق اكثر عناية بإذاعة الثقافة العربية في تلك البلاد، وإن المستقبل لها في اليمن، على أن في إمكان مصر أن تنشئ العلاقات بينهما وبين اليمن بتقوية المحطة الإذاعة اللاسلكية المصرية، ووضع برنامج تعني فيه الحكومة بأمر الثقافة التي تلائم اليمنيين؛ وفي إمكان مصر كذلك أن توفد البعثات العلمية إلى تلك البلاد، وأن تعد برنامجاً لمحاضرات تلقى في مصر عن اليمن يتناول فيها المحاضرون حال تلك البلاد من مختلف الوجوه.

ومما يجمل ذكره أن بعثة من مختلف المعاهد الإنجليزية قد زارت اليمن، وقامت بعدة أبحاث ودراسات وأن النتائج التي انتهت إليها هذه البعثة تتفق تماماً والنتائج التي انتهت إليها بعثة الجامعة المصرية التي أذيعت منذ حين في الأوساط العالمية العلمية والأدبية

محاضرات في النبات المصري القديم

تقيم في مصر الآن السيدة فيفي لورنت تكهولم، إحدى الأجنبيات المشتغلات بالنباتات المصرية القديمة والحديثة. وهي زوج المرحوم العلامة جنار تكهولم أستاذ علم النبات بكلية العلوم الأسبق بالجامعة المصرية، ومؤسس هذا العلم فيها سنة 1925.

وقد دعت الجامعة هذه السيدة لإلقاء محاضرات في هذا العلم على طلاب السنتين الثالثة والرابعة بكلية العلوم

وكان زوجها قد حضر إلى مصر بعد أن رشحته جامعة سويدية لكرسي النبات في الجامعة المصرية، وبعد وفاته ظلت زوجه تقوم بأبحاثها في هذا الموضوع، وقد زارت مختلف الممالك الأوربية استزادة في هذا الباب، ووفقت لطائفة من المجموعات النباتية النادرة التي تعد ذات قيمة فنية كبيرة في الأوساط العلمية

وقد أعدت طائفة من البحوث في هذا الموضوع واعتزمت تضمينها عدة مؤلفات، فرأت الجامعة إزاء القيمة العلمية التي تعود على مصر سواء في الدراسات الجامعية أم في الدعاية في الخارج، أن تطبع هذه الكتب على نفقتها.

وقد هيأت المؤلفة، مجلدها الأول، ويقع في حوالي 600 صفحة، على أن توالي هذا العمل
العظيم.

موسوعة ثقافية عند الهند

صدرت بالإنجليزية موسوعة ثقافية عن الهند اشترك في تأليفها كبار الأدباء الهنود وفلاسفتهم وعلماؤهم وكهنتهم وموسيقيوهم، وساعدهم على ذلك أدباء وعلماء عالميون. فمن الهنود الشاعر الكبير رابندرانات طاغور، والفيلسوف راضا كرشنان، والموسيقي ديليب روي. ومن الأجانب رومان رولان، والسيرجون مارشال. . . الخ.

وقد تناولت الموسوعة ديانات الهند وكتبها المقدسة وتاريخها القديم والحديث وعلومها وآدابها وفنونها، وقد خصت كاهنها الأكبر (راما كرشنا) بجزء عظيم من مجلداتها الثلاثة، وقد أثار صدور هذه الموسوعة الحافلة البحث القديم المتعلق بمنشأ الحضارة على وجه الأرض، أهو العراق كما برهن على ذلك الأستاذ الأثري ليوناردولي الذي اكتشف آثار أور، والذي أيده في هذا الرأي الدكتور محمد عوض محمد، أم كان منشأ هذه الحضارة في مصر كما برهن على ذلك أكثر علماء الآثار وفي مقدمتهم المرحوم الدكتور أليوت سميث الأستاذ بمدرسة الطب المصرية (قبل ثلاثين سنة)، أم أن تلك الحضارة قد نشأت في الهند في مقاطعة البنجاب وحوض نهر السند كما يقول بذلك أحد محرري الموسوعة الهندية وهو السيرجون مارشال؟

والعجيب في ذلك الحوار أن كلا من محبذي إحدى هذه النظريات يستند في صحة ما ذهب إليه إلى تقدير السنين العددي لعمر الحضارة التي نشأت في إحدى هذه الجهات، والجميع لا يرجعون بها إلى أكثر من ستة آلاف سنة. فهل فاتهم أنه قد اكتشف في البداري (المدينة المصرية ذات التاريخ المعروف) مجموعة أثرية من أدوات الإنسان الأول يرجع تاريخها إلى ما قبل 12. 000 سنة؟

نسبة بيت شعري
فضيلة الأستاذ الشيخ عبد المتعال الصعيدي:
اطلعت على كلمتك في بريد الرسالة الغراء عدد (245) تسائل فيها قراء الرسالة عن نسبة البيت:
له حاجب عن كل أمر يشينه ... وليس له عن طالب العرف حاجب
فأعجبني منك تلك الدقة الأدبية. والبيت كما يقول أبو هلال العسكري في كتابه ديوان المعاني (ج 1 ص 23) لأبي الطمحان مولى ابن أبي السمط. قال أبو هلال: وقول أبي الطمحان مولى ابن أبي السمط:
فتى لا يبالي المدلجون بنوره ... إلى ما به ألاَّ تضيء الكواكب
له حاجب عن كل أمر يشينه ... وليس له عن طالب العرف حاجب
والحق ما يقوله أبو هلال فقد عرف مروان بن أبي حفصة وروى له في ديوانه ولقبه بأبي السمط (ج 1 ص 65) فلو كانت الأبيات له لما خفي عليه، وقد اتفق مع الرواة في رواية البيتين معاً، وأبو هلال أحق بالقبول من كتاب البلاغة في هذا المقام. أما أبو الطمحان فهو حنظلة بن الشرقي القيني أدرك الإسلام ومات قبل الهجرة: ذكره أبو تمام في حماسته وابن حجر في الإصابة وضبطه القاموس.
عبد الحسيب طه
تطور يتطور تطوراً
الألفاظ العربي قسمان: قسم نبت في (الجزيرة) في الجاهلية وقسم نشأ فيها وفي غيرها من البلاد الإسلامية في وقت (الحضارة العربية). وكتب اللغة المعروفة بالمعجمات حرصت على تقييد القسم الأول. والقسم الثاني (أي جلّ الكلمات العربية) إنما هو في مؤلفات العلم والأدب والمصنفات الخاصة، وهو ينتظر معجماً عاماً شاملاً ينتظمه - وهمة العرب تلك الهمة - يوم القيامة إن شاء الله تعالى. . .
ومن هذا القسم لفظة (التطور) وقد حسب الأستاذ أسعد خليل داغر صاحب (تذكرة الكاتب) وفاضل معروف من مراسلي (الرسالة) في (دار السلام) في هذه الأيام - أنها عصرية جردَيّة، فغلّطاها.
قال الأول: (ويبنون فعلاً من الطور بمعنى الحال على تفعّل فيقولون تطورت الأمور وهم في غنى عن مخالفة المنقول والمسموع بما في اللغة من الأفعال التي تفيد هذا المعنى).
وقال الثاني: (ورأيته يمر على كلمة تطور في دفاتر التلاميذ فلا يصححها، فحاسبته أشد الحساب، فقال: إن الله يقول في كتابه العزيز: (وخلقناكم أطواراً) فقلت: نعم إن الله خلقنا
أطواراً ومن أجل ذلك لا يصح أن نتطور يا أستاذ).
وهذه اللفظة - التي غلط هذان الفاضلان في تغليطها - عربية كيِّسة حضرية من (بنات الحضارة) وشيخة مسنة عمرها ألف سنة
قال السبكي في (طبقاته الكبرى): (من كرامات هذه الأمة التطور بأطوار مختلفة وهذا الذي تسميه الصوفية بعالم المثال)
وقال ابن خلدون في كتاب (العبر وديوان المبتدأ والخبر): وتطوروا - يعني العرب - بطور الحضارة والترف في الأحوال)
وقال أبو البقاء في (كلياته): (وإيجاد شيء لا عن شيء محال بل لا بد من سنخ للمعلول قابل لأن يتطور بأطوار مختلفة)
وقال الشوكاني في (البدر الطالع) في سيرة أبي الفضل المجدالي: (ثم رحل نحو المملكة المصرية وتطور على أنحاء مختلفة)
فوجب - وهذه أقوال القوم - أن يقبل الأديب العربي (التطور) غير متوقف ولا متلوّم (* * *)
الوصل والفصل
قال أحد الفضلاء في الجزء (245) من (الرسالة الغراء): (طابت السهرة وطابت ثم طابت) والقائل من الأساتذة الأدباء فكيف عطف (طابت) الثانية على (طابت) الأولى وبين الجملتين كمال الاتصال وهو ظاهر مثل الشمس في اليوم غير المغيم فكيف هذا العطف والاتصال الكامل؟!

ومن أمثلة الفصل عند كمال الاتصال في كلام الله: (أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون) (فمهّل الكافرين أمهلهم رويدا)
وقد قالوا فيما نحن في لخطر شأنه، وعظم قدره: (قيل لبعضهم: ما البلاغة؟ قال: (معرفة الوصل من الفصل) وهذا القول في (العقد). وفي (دلائل الإعجاز): (العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض أو ترك العطف فيها قد بلغ من قوة الأمر أن جعلوه حداً للبلاغة؛ ذلك لغموضه ودقة مسلكه، وإنه لا يكمل للإحراز الفضيلة فيه أحد
إلا كمل لسائر معاني البلاغة. وأعلم أنه إنما يعرض الإشكال في (الواو) دون غيرها من حروف العطف).
وعبد القاهر في طبّ الكلام حذام
. . .فالأديب الأريب لا يصل ما يجب فصله، ولا يقطع (من) يجب وصلها أو وصله (الإسكندرية)
(* * *)
تصحيح
في النقلة (356): (كأن دنيته عليه) وهي: كأن دنية عليه. وفي النقلة (358): (حرمته مأواة ومرعاه) وهي: حرمته ماءه ومرعاه.
الكتب
نوابغ الشباب
للأستاذ قاسم جودة
يشتمل هذا الكتاب على عشرة تراجم من سير الأبطال والعباقرة (الذين كان الشباب صفة بارزة تقترن بما قدموا من خير أو بذلوا من جهد، أو بلغوا من نجاح، أو أبدوا من وطنية وشجاعة، أو كسبوا لأنفسهم من فخر التضحية، وشرف الجهاد) وقد أحسن المؤلف الفاضل إذ حرص على أن يكون هؤلاء النوابغ (من آفاق متباعدة، وأجناس مختلفة، وأزمان متباينة، ففيهم رجل السياسة، ورجل الحرب، ورجل الموسيقى ورجل الشعر، وفيهم العربي والمصري والإنجليزي والفرنسي واليوناني، وقد تفاوت بينهم الزمن من عهد الحضارة الإغريقية القديمة، إلى عهد الحضارة الآلية في القرن العشرين)
فأنت في استجلاء هذا الكتاب تستجلي ألواناً من الرغبات والأهواء في نفس الشباب العبقري، وتتبين وجوهاً واتجاهات تتباعد في أشكالها بعوامل الزمان والمكان، وتقف على عبقريات فنية تتوزع في نواح مختلفة من نواحي الحياة، ثم أنت بعد هذا كله إزاء صورة دقيقة رائعة كلها الفن والإتقان. وناهيك بصور تتجلى فيها شخصيات الإسكندر المقدوني الفاتح العظيم، وطرفة بن العبد الشاعر القتيل، وموتسارت طفل المعجزات، وتوماس تشانرتون شهيد الأنفة وصريع الفاقة، ووليم بت السياسي العنيف، ومصطفى كامل فخر الشباب المصري في الوطنية وكيتس شاعر الحق والجمال، وجان دارك رمز الإيمان والتضحية وأندريه شنييه نصير الحرية والدستور، وجينمر فارس الهواء الأعظم.
ولقد نهض المؤلف بموضوع كتابه خير نهوض وأكمله، فإنه شاب يتوثب للمستقبل، ويتحفز للغد، ولا شك أن الشباب خير من يفهم الشباب ويقدره حق قدره، ثم هو أديب واسع الثقافة، شامل المعرفة، تتصل دراسته واطلاعه بكثير من الثقافات الأوربية الحية، ومن ثم أمكنه أن يوفي القول عن شخصيات كتابه وهم - كما قال - من آفاق متباعدة، وأجناس مختلفة، وأزمان متباينة؛ وإذا كانت التراجم بطبيعتها - كما قال كارليل - أكمل الموضوعات نفعاً، وأعمها لذة ومتعة للنفوس، فإن لهذا الكتاب ميزة ظاهرة يتميز بها في نهجه وأسلوبه وتراجمه، إذ جمع مؤلفه الفاضل (بين البحث التحليلي العميق، وبين الجانب
القصصي الطريف، فليست فصول الكتاب بالتحليل العلمي الجاف، ولا بالقصص التاريخي البحت، ولكنها تجمع بين الفضيلتين، ففيها نصيب للباحث المدقق الذي يطلب الحقيقة التاريخية في مصادرها الثابتة، وفيها حظ آخر للقارئ السطحي الذي ينشد المتعة الخفيفة وتزجية الفراغ) ومن هذه الناحية كان الكتاب رغبة كل قارئ، وقد أحسنت دار الهلال في اختياره هدية لقرائها الكرام.

السير
للأستاذ محمد سعيد لطفي
نقرأ في هذا الكتاب نخبة طيبة من المحاضرات التي أذاعها الأستاذ الفاضل محمد سعيد لطفي من دار الإذاعة المصرية على جمهور المستمعين، وهي محاضرات تدور على سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وسير بعض أصحابه وقرابته، ومن جاء بعده من الخلفاء الراشدين ورجال بني أمية وبني العباس حتى نهاية الخليفة الأمين، وما كان بينه وبين أخيه المأمون من حروب على الملك، وتطاحن على السلطان.
ولقد عنى الأستاذ الفاضل وهو يتحدث عن سير هؤلاء الأشخاص بالكشف عن مواهبهم الشخصية، ونزعاتهم الذاتية، وخصائصهم التي تميزوا بها في حكمهم وسياستهم، وما قاموا به من الأعمال الجليلة، والأحداث الحافلة، فجاء كتابه من وراء هذا صفحة مشرقة رائعة من التاريخ العربي، تكشف عن كثير من النواحي القوية فيه، وتعطي القارئ فكرة شاملة عن هذا التاريخ الحافل بالجلائل والأحداث
أما أسلوب الكتاب فأسلوب عربي سليم، جزل متدفق، تطل من شخصية الأستاذ سعيد لطفي، وتظهر فيه روحه ومشربه، وهي روح تفيض بالدين واليقين، وتمجد القومية العربية. ولقد أعجبني الأستاذ إذ راعى في مسلكه أقدار المخاطبين؛ فتنكب التعسف والأثقال، وابتعد عن الحشو في الرواية التاريخية على نحو ما هو شائع في المصادر القديمة، بل نهج نهجاً قصصياً سائغاً يصفه هو لك إذ يقول: (رويت التاريخ كما نتحدث ساعات التسلية، فلم أرهق المستمعين، ولم أذكر اسماً إلا لضرورة، ولا بلداً إلا لحادث جلل، ونزهت من تناولت سيرهم جميعاً عما لهج به الحاسدون، وأدخله عليهم الأعداء والموتورون).
وقد أحسن المؤلف الفاضل إذ عنى بإيراد كثير من الخطب والأشعار والرسائل والوصايا التي تعتبر من وثائق التاريخ العربي، ثم في الوقت نفسه تعتبر من النصوص الأدبية الرائعة، ومن ثم لم يكن الكتاب كتاب تاريخ وسير فحسب! بل كتاب أدب وتاريخ، ينفع الأديب كما يفيد المؤرخ، ولا شك أن في الكتاب هفوات ولكنها طفيفة، ولعل الوقت ينفسح لنا فيما بعد فنتناول الكتاب بفصل شامل على صفحات الرسالة.
محمد فهمي عبد اللطيف
العدد 248 - بتاريخ: 04 - 04 - 1938
محنة شهر!!
ذلك الشهر كان مارس! ومارس في أساطير الأولين أله الحرب! ابتليت فيه مصر الوديعة بسطوة الهوى على الرأي، وعدوان الشهوة على الخلق، فجاءها بالخلاف وذهب بالأمن، وابتدأ بالصراع وانتهى إلى الفجيعة. فليت شعري ماذا جنى الزاعمون على الناس من بلايا الناس؟
كانت مصر طوال هذا الشهر كالبركان الجهنمي الثائر، يغلي بالحميم ويرمي بالحمم ويطغى بصهيره الخانق على المغاني والربوع فيهلك الأموال ويزهق الأنفس، ثم يكون ظلاماً في الأرض، وقتاماً في الجو، ونتناً في الهواء، ومواتاً في الطبيعة
وكانت الأمة المسكينة تنفق على معارك الانتخاب الدائرة بين الأحزاب اكرم ما تملك من المال والدم والخلق، وهي لا تدري لهذه الضحايا الغالية التي لا ثواب عليها ولا عوض منها، حكمة ظاهرة ولا ضرورة ملجئة
وكان المرشحون المتنافسون يتعاقبون على الدوائر الانتخابية تعاقب السنين المواحق، فلايتركون وراءهم إلا أَسَراً تتفرق، ووشائج تتمزق، وضمائر تشترى، وذمما تسرق، وعصبية تثور، وأحقاداً تبعث، وأموالا تهلك، ودماء تسفك، وأعمالاً تبور.
فتعالوا نناشدكم الله يا نوابنا وأحزابنا وزعماء الرأي فينا. هل تشعرون بثقل هذه الأوزار التي حملتموها في سبيل التكالب على النيابة والتسابق إلى الحكم؟
ألا تريدون أن تنسوا أن العضوية في مجلس النواب أو في أندية الأحزاب ليست إلا وصفاً يتمم العنوان، ومنصباً يلازم الغنى، ووسيلة تعين على العيش، وطريقة تؤدي إلى الجاه؟
ألا تحبون أن تذكروا أن النيابة عن الأمة معناها حلول أمة في فرد، واستيعاب فرد لامة؛ فهواها غالب على هواه، ورضاها مقدم على رضاه، ورأيها مستبد برأيه، وصوتها مجلجل في صوته، وهمها شاغل لفراغ باله؛ فإذا مثل النائب في المجلس دور

الكمبرس، أو وقف في المناقشة موقف الإمِّعة، كانت نيابته بعد انتخابه مصاباً بعد مصاب، وويلاً بعد عذاب وكفراً بعد خطيئة؟

ألا تودون أن تفهموا أن البرلمان بالأمس كان حسبه أن يكون مظهراً من مظاهر الاستقلال، وعنواناً من عناوين الدولة، وأن العضو فيه كان حسبه أن يشارك في أبهته، ويشرب أكواب الليمون في ردهته، ويفتح مغاليق الأمور بقوته؛ أما اليوم فهو تعبئة لكفايات

الشعب، وتجميع لرغبات الأمة، وتهيئة لقواها العاطلة وأسلحتها الكليلة أن تضمن لنا حق الحياة والكرامة، وللوطن حق العزة والسلامة؟

الأسود الروابض على الوادي تتحلب أفواهها شرهاً إلى افتراسه، والنسور الحوائم على حواشي الوطن تترقب الفرصلانتهاسه، وطاغية روما الطموح ينذر الناس أنه يرصد الاهوب في البر والبحر والسماء لحرب جديدة. فهل يشق عليكم أن تدركوا أن للنائب في هذا الوقت العصيب عملاً غير الحفلات والوساطات والغنيمة، وأنه إذا دخل المجلس من غير مبدأ، وجرى فيه إلى غير غاية واستغل حقوقه من غير عمل، كان داخلاً في غير أهله، ونازلاً في غير ملجئه؟

أحزابنا متعددة كتعدد الأحزاب الأوربية في البرلمانات الديمقراطية العظيمة، ولها بمقتضى هذا التعدد أندية وصحف واتباع؛ ولكنها تختلف عن أحزاب الأمم بأن ليس لها خطة في الإصلاح مرسومة، ولا غاية في السياسة معلومة؛ فهي إلى اليوم تتميز بالأسماء لا بالبرامج، وتتقارع بالمقالات لا بالخطط، وتتنافس في بلوغ الحكومة لا في خدمة الأمة

من اجل ذلك كان مرشحوا الأحزاب لا يجدون ما يقولون في خطبهم الانتخابية غير الجمل الجوف، والوعود المبهمة، والتهم الجريئة والدعاوى العريضة والعيوب الخاصة، حتى تركوا البلاد من صعيدها إلى ريفها ضجة من البذاء، وغمة من البلاء، ومزقاً من الأعراض والخلق

على أننا نرجو أن تكون هذه المحنة آخر المحن، وان تموت في سبيل الوطن الحزازات والإحن، وأن تنكشف حماية الحيرة من عيون الأمة فتبصر وجه الرأي الذي تستقيم به الحال، ويستقر عليه الأمر؛ فقد عودنا شهر مارس أن يكون حميد الأثر في الحياة المصرية. ففي مارس من عام 1919 استيقظ أبو الهول، وشبت ثورة النهضة، وتنافس في الجهاد النساء والرجال، وتعانق على الوداد الصليب والهلال، وتسابق إلى الاستشهاد الشيوخ والأطفال، وسالت انفس الشباب ضحايا على مذبح الحرية!

وفي شهر مارس من عام 1922 ألغيت الحماية، وأعلن الاستقلال، وصدر الدستور!

وفي شهر مارس من كل عام تتجدد الحياة، وتهتز الأرض، ويورق الشجر السليب، ويمرع الوادي الجديب، وينشد الربيع الباكر أناشيد الجمال والحب والأمل!

احمد حسن الزيات

داء الشعور بالحقارة أيضاً

للأستاذ عبد الرحمن شكري

قرأ أديب مقالة داء الشعور بالحقارة فقال إن الصفات التي ذكرتها صفات شائعة في النفس الإنسانية. وكأنه بهذا القول يريد أن ينكر أن في النفس ما يصح أن يسمي داء الشعور بالحقارة فذكرت الأديب بأن صفات الخير والشر كلها موجودة في كل نفس، فلكل نفس منها نصيب قل أو كثر، ولكن هذه الحقيقة لا تمنع من تفاوت النفس تفاوتاً عظيماً حسب نصيبها من صفات الخير أو الشر. ولا نريد أن ننكر أن جرثومة الحقارة تلفي حتى في النفوس العظيمة؛ هذا أمر نريد أن نثبته وإلا ما استطاع القارئ أن يعترف بما ذكرناه في مقالتا من أن داء الشعور بالحقارة قد يصير وباء في بعض البيئات، وأن له عدوى كعدوى الأمراض الجثمانية؛ فلولا هذه الجرثومة التي تشترك فيها النفوس قاطبة ما استطاعت نفس أن تؤثر في نفس أخرى وأن تحملها على محاكاتها في الأفعال أو الأقوال الناشئة من شعورها بالحقارة

إن صفات الخير أو الشر شائعة في النفوس الإنسانية؛ وهذا سبب العدوى وسبب المحاكاة. ولكن شيوع صفة من الصفات في النفوس لا يجعلها مرضاً مزمناً، وإنما تصير تلك الصفة مرضاً إذا غلبت على النفس وصارت محور أعمالها وأقوالها وطغت على كل صفة أخرى أو حاولت هذا الطغيان وتملكت المشاعر. وفي هذه الحالة يكون

الداء النفسي في اشد حالاته، ولكن له حالات أخف وأهون
وقد ذكرنا أن ذيوع داء الشعور بالحقارة يكون أعظم في الأمم التي ظلت مغلوبة على أمرها عصوراً طويلة، غلبة تشعرها الذلة والمسكنة سواء أكان الغالب قاهراً أتاها من الخارج أو حاكماً من أبنائها. وتظهر أعراض هذا الداء إذا قَلت تلك الغلبة أو زالت أسبابها وزادت الحرية، فتبرز وتعظم صفات القلق والألم والحقد والحسد خشية أن يفطن أحد إلى ما يشعر به صاحب داء الشعور بالحقارة في سريرة نفسه. وقد يكون شعوراً غامضاً لا يتبينه تماماً فيتعاظم تعاظماً لا اطمئنان فيه، لأنه تساوره الأحقاد والحسد فيتم تعاظمه عما يبطنه من الشعور وما يعالجه من داء الحقارة. وفي بعض النفوس يظهر الداء بمظهر التواضع وتحقير النفس تحقيراً يخالطه الحقد والحسد والقلق، فتنم هذه الصفات أيضاً عما
يعالجه المرء في سريرة نفسه من الشعور بالحقارة. وقد يعالج هذا الشعور وهو لا يدركه ولا يفطن له تماماً، وقد يدعي المتواضع المصاب بداء الحقارة أنه أكرم خلقاً من المتعاظم بهذا الداء. ولم نقل أن داء الشعور بالحقارة لا يظهر إلا في تلك الأمم التي ظلت مغلوبة على أمرها عصوراً طويلة، وإنما قلنا إن ذيوعه فيها أكثر، وصفاته ومظاهره أكثر تنوعاً وتعدداً، وأعراضه أشد: من حب للظهور ومن دس وكيد وحقد وحسد. ولم نقل إن الكيد والحقد والحسد والتنافر ليس لها إلا هذا السبب وإلا هذا المصدر، فلها أيضاً أسباب اخرى، ولكن إذا ظهرت الصلة بينها وبين داء الشعور بالحقارة في مثل تلك الأمة أو البيئة الموصوفة كان هذا الداء هو سببها، وحتى في حالات الأفراد المصابين بهذا الداء في بيئة سليمة منه قد تظهر صلات هذه الصفات بداء الشعور بالحقارة ظهوراً ليس مثله ظهور. أما في البيئات الموبوءة فليست الصعوبة في معرفة صلات هذه الصفات والمظاهر بالداء، وإنما الصعوبة في حصرها وعدها ولم شعثها وتشعبها تشعباً عظيماً؛ وهذا التشعب والتفرع قد يبعدها عن اصلها لكثرة الفروع وفروع الفروع حتى يخيل للرائي أن لها أسباباً أخرى غير داء الشعور بالحقارة الذي هو منبتها وجذرها وجزعها في تلك البيئة، فتتكاثر صفاتها أمام الباحث تكاثر الظباء على خراش. على أن العقل لا يجد صعوبة في أن يفهم منشأ هذا الداء التي ظلت مغلوبة على أمرها عصوراً طويلة تشعرها الذلة والمسكنة، ثم جاءت الحرية. ومن لوازمها أن يخفى الحر ما يشعر به من صفات متوارثة أو غير متوارثة، وهذه الرغبة في إخفاء ما في نفسه من داء الشعور بالحقارة قد تصير داء يتلمس كل وسيلة شريفة أو دنيئة. وقد يشرف بصاحبه على الجنون أو يبلغه، وقد يدفع إلى الجرم. وفي اعتقادي أن مباهاة التعس للتعس من فقراء الفلاحين مباهاة ربما دعت إلى الجرم الإثم من اجل سبب تافه إنما تنشأ من هذا الداء ومن هذه المؤثرات الاجتماعية القديمة الحديثة. وكذلك حب الظهور الذي قد يؤدي بالأملاك ويؤدي إلى خراب الأسر إنما هو داء الشعور بالحقارة الخفي يبرز في شكل تعاظم مصحوب بالقلق والحقد والحسد. وهذه المظاهر تشاهد أيضاً في نفوس بعض الموظفين والطلبة وسكان المدن الكبيرة. ولابد أن نقول مرة ثانية إن صلات هذه الصفات بداء الشعور بالحقارة في بيئة اعتورها ذل ثم حرية بعد ذل طويل، صلات ظاهرة لا تنكر، وإن تلك الصفات ليست في شكلها الذي تشترك فيه النفوس
البشرية عامة بل زادت واشتدت حتى صارت داء، وإنه لا يرجى رقي ولا تصلح تربية ولا يصلح تعليم ولا ترجى ثمراته كلها إلا إذا عولج داء الشعور بالحقارة وأعراضه وكانت الحرية الكاشفة عن هذه الصفات الكامنة أشبه الأشياء في فعلها بالخمر التي تظهر الصفات الكامنة؛ فإذا كانت في طبع المرء شراسة أظهرتها الخمر إذا سكر، وإذا كان في طبعه إسراف زادته الخمر إسرافاً حتى يكاد السكران يخلع كل ثيابه ويتصدق بها على الناس؛ وإذا كان في طبعه ميل إلى الإجرام دفعته الخمر إلى ارتكاب الكبائر وليس بين القراء من لم يشاهد مريضاً بداء الشعور بالحقارة، ولكن ذيوع هذا الداء في بيئة يجعله مألوفاً ألفة تفقده الغرابة، فلا يشعر به الإنسان في تلك البيئة إلا إذا بحث عنه وتعمد الفطنة له
وكلما كان المصاب بداء الشعور بالحقارة مفلساً من العلم أو الذكاء كانت لجاجته في جداله وحديثه اعظم، وكان غضبه إذا خولف أشد، وكان ادعاؤه العلم بكل شيء أوفى وأتم ادعاء، وكان حقده على من يخالف رأيه ابعد أثراً وأطول عمرا واعمق مقرا من

نفسه، حتى ليكاد يأتي ربه يوم القيامة وأوضح أثر في نفسه حقده على من خالفه في رأيه في الحياة الدنيا. والويل لك إذا عاشرت من اشتد به داء الشعور بالحقارة، فإنك إذا عاونته حقد عليك من اجل فضلك عليه الذي يهيج شعوره بدائه، وإذا لم تعاونه حقد عليك أيضاً من اجل حاجته إليك التي تهيج شعوره بدائه. وكلما كان المصاب بداء الشعور بالحقارة مفلساً من المال ادعى الثروة، وقد يبلغ به داء الشعور بالحقارة منزلة يضن فيها بما معه من المال على عياله كي يظهر في المجالس والنوادي وبين الغرباء، بمظاهر الأريحية والسخاء والثروة. وهو يتلطف، وقد يتذلل لمن يريد أن يقنعه أن صفات الأريحية والسخاء من صفاته وإن لم يكن من طبعه إلا الشراسة والحقد. وهو يحقد على كل من لا يمكنه من الظهور بمظهر التعاظم والأريحية ومن لا يهيئ له السبيل إلى ذلك، وعلى من لا يضحي بكل شيء في سبيل تهيئة وسائل الظهور له، وعبثاً تحاول أن تظفر لدى من اشتد به هذا الداء بوفاء أو ود، وعبثاً تحاول أن تفهمه حقيقة الأمر، فإنه يخادع نفسه حتى يعتقد أنك تحسده على ماله من مظاهر العظمة أو الأريحية أو الذكاء النادر أو على منزلته في قلوب الناس. وفي البيئة التي يذيع فيها داء الشعور بالحقارة يعتقد كل إنسان أنه عظيم الشأن، أو يحاول أن يعتقد هذا المعتقد وأن يحمل الناس على اعتقاده، ويرى أن اكبر جريمة في العالم هي أن يجيد إنسان أو أن يظن أن إنساناً أجاد (وان لم يكن قد أجاد) في عمل أو قول أو جهد أو رأي أو صنع، سواء أكانت الأعمال والأقوال مما يرجى فيه الخير للجميع أو مما فيه خير خاص، وسواء أكان فيها نفع للمريض بداء الشعور بالحقارة أو لم يكن فيها نفع، وهذا الحقد الذي يشعر به هؤلاء قد يخفى نفسه ويظهر بمظهر العبث؛ وقد لا يخفى نفسه. وقد يدعي الغيرة على الخير والفضل، وقد لا يدعي، وهو دائماً كالحيوان في الغابة متحفز للوثوب والظهور إذا أتيحت الفرص، فإذا لم تتح الفرص لم يثب. وكثيراً ما تراه في اوجه أصحابه عبوساً خاصاً ينم عن جنون الحقد، وفي مثل هذه البيئة لا يعد المريض بداء الشعور بالحقارة المشقة مشقة إذا كانت من أجل إحباط عمل زميل أو غير زميل، كأنما تلك البيئة رقعة الشطرنج بين يدي لاعبين ماهرين لا يبقى كل منهما ولا يذر.

ولعل السبب في أن الإنسان في تلك البيئة التي اعتورها ذل طويل ثم حرية لا هم له إلا منع غيره من الظهور (وكلما كان الظهور بالإجادة في صنع أو قول كان الخوف منه أعظم) أقول لعل السبب هو الرجوع بالسريرة وبالنفس إلى عهود ذلك الذل الطويل وطغيان الذين ظهروا في تلك العهود طغياناً سبب ذلك الذل الطويل وسبب داء الشعور بالحقارة؛ وربما ظهر الظاهرون في تلك العهود بقدرة أو إجادة فأصبح المرضى بداء الشعور بالحقارة، حتى بعد تلك العهود القديمة البائدة، يكرهون كل ظهور بقدرة أو إجادة لأن فيه مذلة لأنفسهم

وهؤلاء الناس قد يتعاونون في إظهار من برز بقدرة أو إجادة ولكنهم قلما يفعلون ذلك ألا إذا كانوا يرجون في إظهاره إظهاراً لأنفسهم وإبرازاً لها واكتساباً لأنفسهم شيئاً من الشهرة بالإجادة التي لصاحبهم، أو إذا كانوا يرجون منه أن يعاونهم بقدرته على الظهور وإشباع نهمتهم منه

ويبدو داء الشعور بالحقارة أيضاً بين طائفة الخدم والحشم والرعاع فيحسبون انهم يخفون ما يشعرون به من ضعة منزلتهم الاجتماعية بمحاكاة من هم ارفع منهم منزلة في اللباس أو في فتل الشارب أو في التنحنح أو في الفكاهة أو في التعالي والتعاظم على أصحاب الحاجات وكل من يريد مقابلة مخدوميهم. وإذا كان المخدوم أيضاً مصاباً بداء الشعور

بالحقارة ويخفيه بالسفاهة حرت وصرت لا تدري أياخذ الخادم من أخلاق مخدومه أم يأخذ المخدوم من أخلاق خادمه. وكثيراً ما يتخذ كل منهما الآخر نصيراً في خصوماته التي يخلقها من اجل شعوره بالحقارة. والفلاح الذي يغري المجرمين والأشرار بمن لا يحييه وهو جالس على المصطبة ولا يتزلف إليه مثل الموظف الصغير المنزلة أو كبيرها الذي يغري الأشرار ممن لا يتزلف إليه

وهذه الطوائف كلها تجني على الصغار بتأثير قدوتها فيهم. وكثيراً ما يكون سبب إساءة التلميذ أدبه رغبته في حب الظهور الناشئة من هذا الداء. وحب الظهور صفة عامة في النفوس كما قلنا، ولكنها في البيئات المريضة بداء الشعور بالحقارة تتخذ شكلاً وضيعاً

خاصاً وهي تكون مصحوبة بالصفات النفسية الوضيعة التي ذكرناها. ومما يدل على أن داء الشعور بالحقارة ينشأ بسبب عصور الغلبة التي تشعر بالذلة والمسكنة أن صفاته تكثر وتشيع بين العبيد وأبناء الأرقاء، أو من كان أجدادهم أرقاء في العصور الغابرة وبين أبناء الشعوب التي ظلت مغلوبة على أمرها عصوراً طويلة خلقت التواء في الخلق ولؤماً. ولعل هذا الأمر يفسر ما نقرأ في محاكمات قضايا الروسيا من أعمال أبالسة أدنياء كانوا أرقاء أو مغلوبين على أمرهم عصوراً طويلة، فلما نالوا الحرية أظهرت ما كمن في نفوسهم، وهذا سواء أكانت هذه الأعمال قد فعلها من نسبت إليهم أم انهم حملوا على الاعتراف بها كذباً بوسائل جهنمية. ولا ينفي هذا الاستنتاج أن السياسة الدولية وعمالها السريين قد يستبيحون كل جريمة ضرورية وغير ضرورية في تنفيذ أغراض السياسة السرية وملحقات تلك الأغراض.

ومن التلاميذ الصغار من يصاحب أهل الفساد أو المصابين بداء الشعور بالحقارة، فيريد أن يخفي التلميذ شعوره بالنقص أو الفساد الذي لحقه بإساءة أدبه. وكثيراً ما يحاكي الصغار هذه الطوائف حتى من كان منها من الرعاع فيحاكونهم في مشيتهم وإشاراتهم وأقوالهم، ويحسبون أن تلك المحاكاة تكسبهم رجولة وبطولة من غير أن يشعروا أن الرعاع أو منهم اكبر منهم منزلة واعظم علماً من المصابين بداء الشعور بالحقارة يصدرون ويردون في أقوالهم وأعمالهم إشاراتهم وحركاتهم وهم مسيرون لا مخيرون، وانهم في كل هذه الأحوال طوع شعورهم بالحقارة وطوع الرغبة في ستر ذلك الشعور فكأنهم لعب خيال الظل يحركها

المحرك من وراء ستار

عبد الرحمن شكري

صفات النساء النفسية

بين سذاجة الطفولة وعبقرية الفكر

للدكتور جميل صليبا

كثيراً ما بحث الأدباء في النساء وصفاتهن وما يحمد ويذم من أخلاقهن، فوصفوا المرأة الصالحة والزوجة الموافقة، كما أفاضوا في ذكر صفة المرأة السوء وشرها. فاحسن النساء عندهم من كانت شريفة في قومها، كاملة في عقلها، فصيحة اللسان صادقة محبة لزوجها، حافظة لسرها؛ وشرهن من كان كلامها وعيداً وصوتها شديداً، تدفن الحسنات وتفشي السيئات، صخوب غضوب ضيقة الباء. إلا أن هذه الصفات التي ذكروها لم تبن على استقراء علمي ولا تحليل نفسي. فما هي صفات النساء وما هي أنواعهن عند العلماء؟

بينما كنت ذات مرة القي درساً في علم النفس على تلاميذ لم يتجاوزوا الثامنة عشر من سنهم قال لي أحدهم بعد أن ذكرت صفات الحوادث النفسية: هل تنطبق هذه الصفات على المرأة، أم في الأرواح تذكير وتأنيث؟ إن هذا السؤال - بالرغم من سذاجته - يتضمن شبه فلسفية عميقة. فهل تشعر المرأة كما يشعر الرجل؟ وهل تفكر كما يفكر أو تريد كما يريد؟ وهل تختلف مشاعرها عن مشاعر الرجل كما يختلف جسمها عن جسمه؟

قال بعضهم: إن الفرق بين المرأة والرجل في الحس والفكر والإرادة عظيم جداً، وإن المرأة كانت في الجماعات الابتدائية للرجل لا فرق بينهما وبين العبد، حتى لقد ذكر أن أحد المجامع المقدسة في القرون الوسطى تناقش في هذا السؤال: هل للمرأة نفس أم ينفرد الرجل وحده بهذه الصفة الإلهية؟ وقد ساقهم إلى هذه المناقشة ما جاء في التوراة عن خلق المرأة من ضلع من أضلاع الرجل، وقول آدم: هذه عظم من عظامي ولحم من لحمي، وعدم قوله إنها ذات نفس شبيه بنفسه.

وزعم آخرون أنه لا فرق بين الرجل والمرأة في الحس والعقل والإرادة، وأن الفرق بين الرجال أنفسهم اكثر من الفرق بينهم وبين النساء. فمما قاله أفلاطون: لا فرق بين الرجال والنساء. يجب أن يكون عدد النساء في جيش الجمهورية مساوياً لعدد الرجال. ويجب عليهن أن يتعلمن استعمال السلاح وركوب الخيل. وينبغي لهن أن ينزعن ثيابهن لممارسة الرياضة البدنية وألا يخجلن من ذلك كله لأن احسن ثوب يصون المرأة هو ثوب الفضيلة.

ومما قاله كوندورسه: يجب أن يكون التعليم واحداً بالنسبة إلى الجنسين لأن المرأة مساوية للرجل. ومما قالته مدام (نكردوسوسور): إن البنات لا يختلفن عن الصبيان أبداً قبل العاشرة من السن

فالباحث عن حقيقة المرأة أما أن يكون مثل بوسوية الهازئ بزينة النساء وزهوهن فيقول لهن: لا تنسين يا سيداتي إنكن خلقتن من ضلع زائد من أضلاع أدم؛ وأما أن يكوم مثل أفلاطون الخيالي فيتصور مدينة فاضلة قائمة على سواعد الرجال والنساء معاً. وهذه المباحث الأولية لا تكشف الغطاء عن حقيقة المرأة، بل هي على مثال ما ذكره سائر الأدباء أقوال خطابية لا توضح الأمر بل تزيده ظلاماً، حتى لقد قال (ريدرو) في ذلك: (إذا كتبت عن المرأة فاغمس ريشتك في قوس قزح ثم رش على أوراقك غبار أجنحة الفراشة، لان المرأة هو موجود الهي)

فلنرجع إلى علم النفس ولنسأل ما هي حقيقة المرأة ولندرس أحوالها النفسية على ضوء العلم الحديث.

إن تحليل صفات النساء يكشف لنا عن أنواع مختلفة، ويمكننا إرجاع هذه الأنواع إلى أربعة:

1 - المرأة الطفل

2 - المرأة الحساسة

3 - المرأة الحساسة الذكية

4 - المرأة المفكرة

ولنبحث في كل من هذه الأنواع على حدة:

1 - المرأة الطفل: إن هذا النوع من النساء مشتت الفكر والقلب معاً؛ فلا هو منظم الحكم، ولا هو ثابت الحس، بل يتبدل من صورة إلى أخرى بحسب الأهواء والعواطف. وقد وصفه (ديكنس) في روايته دوريت الصغيرة وبين العلماء أن له نوعين: المرضي والطبيعي. فالمرضي يعرف بشدة قبوله للتلقين، والطبيعي يشتمل على النساء الخفيفات العقل الكثيرات الزهو اللواتي يتنقلن كالطير من فنن إلى آخر؛ أو يشتمل على النساء الواسعات الخيال الكثيرات القلق والعظيمات الأمل؛ فإذا تكلمن مزجن الحقيقة بالخيال

أسرعن في التعبير عن أفكارهن أو تقدمت الألفاظ عندهن على الفكر. وقد يملن إلى الاطلاع ويرغبن في الكشف عن خوافي الأمور، إلا أن ميلهن هذا بعيد جداً عن محبةالعلم، فهن يرغبن في المعرفة لا للمعرفة نفسها بل لحاجة في نفوسهن تدفعهن إلى الحديث. وإذا رغبن في شيء مجرداً عن المنفعة المباشرة رضين بالقليل منه واكتفين باليسير. قلت لطفل مرة: إذا أعطيتك ثلاث برتقالات وأخذت منها واحدة فكم يبقى معك منها؟ فقال على الفور: كيف تقول لي انك أعطيتني ثلاث برتقالات وأنت حتى الآن لم تعطني شيئاً؟ فالمرأة الطفل لا تختلف عن هذا الطفل في طلب العلم. إنها تفضل المحسوس على المجرد، والقريب النفع على البعيد القصد. فهي إذا مثل هذا الطفل الذي لا يعرف الحساب إلا إذا تذوق حلاوة البرتقالة

2 - المرأة الحساسة: يختلف هذا النوع عن الأول بشدة العاطفة وعمق الشعور وتغلب القلب على العقل. إن المرأة الحساسة لا تقيس الأشياء إلا بمقياس العاطفة ولا تزنها إلا بميزان الهوى. فكل ما وافق هوى من نفسها صحيح، وكل ما أعرضت عنه فاسد. لقد جاء في بعض روايات (جورج ساند) شيء من صفات هذه المرأة. إنها تنسى هواها القديم عند وقوعها في الهوى الجديد، ولا تهتم بوقوعها في التناقض وانتقالها من ضد إلى آخر. نعم إن الرجل نفسه خاضع لمنطق العواطف ولكنه يحاول في كل حال من أحواله أن يبرر عواطفه ويجعل هواه معقولاً. مثال ذلك: أن (ألسست) يقول عن نفسه انه لا يحب سيليمين إلا ليرجع إليها الفضيلة المفقودة، فهو إذا يجد لهواه سبباً معقولا. أما المرأة فلا تهتم بهذه الوسواس ولا تميل إلى سفسطة التشكك، بل تعلن الأمر كما هو؛ فإذا كرهت رجلاً كان قلبها وحده مبرراً لها في كرهها، وإذا أحبت شخصاً لن تبحث عن الأسباب الباعثة على تعلقها به، بل تصغي إلى نداء قلبها من غير أن تجد حاجة لتحكيم العقل. إن هذا النوع من النساء شبيه بالنوع الأول في خوفه من التجريد، وعدم ميله إلى الحق. إن فكرة العدالة مفقودة عند هذين النوعين، والنساء على الأغلب لا يملن إلى العدالة المجردة، بل يفضلن عليها عدالة القلب. من ذا الذي يستطيع أن يقنع

الوالدة أن ابنها لا يستحق النجاح في الفحص؟ العدالة ضيقة النطاق، وقلب المرأة أوسع من أن يتقيد بهذه الحدود الضيقة. قد تكون العواطف للعقل نوراً وللإرادة قوة، وقد يبعث الهوى على التضحية
الخالصة فيذهب إلى ما وراء العدالة ويكشف الحجاب عن ذخائر القلب فينشرها ويذيعها ولكنه كثيراً ما يشوش أحكام العقل فيملأها ظلاماً.
3 - المرأة الحساسة الذكية: وقد تكون العاطفة مصحوبة بقوة من الذكاء خفية لا تخلو من الدقة وحدس الحياة، فتربط المرأة عواطفها بأفكارها وتريد أن تتغلب بها على مشاكل الحياة. إن هذا النوع من النساء قوي الملاحظة والانتباه والذاكرة، واسع الخيال شديد الحس، إلا أن قوة الحكم عنده مشوبة بدخان العاطفة وسائق الغريزة. لذلك تجده قوي الشعور بالمنفعة كثير الميل إلى العمل. كالزوجة التي تشعر بالرابط الاجتماعي وتقدره حق قدره وتبدل بعواطفها العفوية بالفكرة الاجتماعية أو الخلقية أو الدينية؛ وكالوالدة التي تدرك نظام الحياة فتتصور مثلا أعلى له ثم تهيئ أولادها للفوز في هذا النظام الجديد؛ فهي تشعر بمشاكل الحياة وتريد أن تتغلب عليها بقوة الذكاء والإرادة. فكم شاب لم يتطلع إلى المعالي إلا بتأثير والدته! وكم رجل لم يقدم على المغامرات السياسية أو المالية إلا بدافع من زوجته! وكثيراً ما تكون المرأة هي القوة المحركة والدماغ المفكر والعقل المدبر، ويكون الرجل هو الإله المتحركة والواسطة المبلغة.
4 - المرأة المفكرة: إن هذا النوع الأخير اقرب إلى الاهتمام بالمباحث العلمية من الأنواع السابقة فهو محب للاطلاع ميال إلى المعرفة؛ إلا أنه كثيراً ما يضطرب أمام إشراق الفكر ويعجز جسمه اللطيف عن تحمل أعباء البحث. والسبب في ذلك أن النساء عشن حقباً طويلة تحت وصاية الرجال بعيدات عن الحرية والحياة، فلا غرو إذا ترددن في البحث وشعرن بالقلق في فضاء الفكر. وبالرغم من ذلك فان البنات اكثر اتباعاً للنظام من الصبيان. وقلما تجد فتاة تفضل الكسل عن الاجتهاد، بل إن اكثر البنات يصغين إلى أساتذتهن ويكتبن الامالي، ويحفظن دروسهن؛ إلا أنهن لا يزلن حتى الآن اقل جرأة فكرية من الصبيان، لأنهن يعتمدن على الذاكرة اكثر مما يعتمدن على قوة الحكم. وقد تبين لعلماء العصر أن استعداد المرأة للرياضيات قوي جداً وأن في وسعها أن تتعود التفكير المجرد، إلا أنها لا تزال قليلة الثقة بنفسها فلا تبحث إلا في الأشياء العملية النافعة أو في الأمور المحددة. ومع أن مدام بير كوري قد توصلت في العلوم التجريبية إلى درجة عالية فأن تلميذات فرع العلوم في الجامعات اقل ثقة بنفوسهن من التلاميذ، لان التجريب العلمي
يحتاج إلى جرأة وتنظيم، وهذان الأمران لا يزالان حتى الآن بعيدين المرأة.
ومما يؤيد هذا أيضاً أن النساء اللواتي اشتهرن بالفلسفة (كهيباتيا) وغيرها لم يبدعن مذاهب جديدة بل اتبعن المذاهب القديمة وحللنها وهذبنها. فالمرأة اقرب إلى الاتباع منها إلى الإبداع. وهي لا تقبل الحقائق المؤقتة، بل تريد أن يكون كل شيء نهائيا فتسبغ على الحقائق العلمية حلة دينية وتقلب النسبي إلى مطلق. إن تلاميذ الفلسفة يفضلون الكليات الفلسفية على الجزئيات، فيضخمون الفكر البسيطة ويعممونها حتى تشمل الكون كله. أما تلميذات الفلسفة فيملن إلى الجزئيات ويرغبن في التحليل دون التركيب: فعقل المرأة عقل تحليلي، أما عقل الرجل فعقل تركيبي. نعم إن المرأة واسعة الخيال ومن صفات الخيال الواسع أن ينشئ ويبدع، إلا أن خيال المرأة يصلح لتبديل صور الأشياء وتغيير حقائقها لا لإنتاج الفرضيات المنظمة وإصلاح الواقع بها.
تلك هي أنواع النساء من الوجهة النفسية. فالمرأة الحساسة تصلح للشعر والموسيقى والتصوير والتمثيل، والمرأة الحساسة الذكية تصلح للحياة العملية من تجارة وإدارة، والمرأة المفكرة تصلح للعلم والفلسفة. وقد تمتزج هذه الصفات فتجتمع في امرأة واحدة فيكون منها نوع معتدل صالح للقيام بجميع الأعمال.
وقد أخذت صفات المرأة تتبدل في الهيئة الاجتماعية الحديثة لأنها قد شاركت الرجل في جميع الأعمال من تجارة وصناعة وإدارة واقتصاد وسياسة، فساقها التطور إلى استبدال كثير من صفاتها القديمة بصفات جديدة، فاستبدلت بالحياء الجرأة وبالخشية الاقدام، وبالسكون الحركة، وبالسذاجة الحيلة، وبالعبودية الحرية، وبالعاطفة العقل. واعتقد أن هذه الصفات الجديدة لا تفسد جمال المرأة بل تزيد سحرها قوة، لان العلم

لا يجفف القلب بل يبدد ظلمات الغريزة، وينير طرائق العقل، ويكشف عن جمال الأشياء ويولد في المرأة صفات نفسية مشابهة لصفات الرجل في تفكيره وانفعاله وفعله؛ ويقلب حياة المرأة الاتباعية إلى حياة مفعمة بالحرية والإبداع. وما ادري لعل التطور يكشف لنا في المستقبل عن نوع جديد اكمل من هذه الأنواع الأربعة تتحد فيه العاطفة بالفكر والإرادة بالعقل. إن الأحلام ليست اقل تأثيراً في التطور من اشتباك الأسباب الحقيقية واختلافها.

جميل صليبا

رئيس التعليم الثانوي بدمشق

من برجنا العاجي

رأيت في نومي البارحة رؤيا أفزعتني: رأيت أني تزوجت. ولم تبين الرؤيا كيف تم ذلك، ولكن وجدت نفسي على فرش وثيرة من الدمقس الأزرق في حجرة جميلة ذات سجف من حرير متألق متماوج الألوان كرقبة اليمامة. وسمعت حولي من يقول:

- هذا جهازها

- جهاز من؟

- عروسك

- ومن الذي زوجني؟ وممن العروس؟

- من بيت حسب ونسب. ذات جمال ومال وحلاوة لسان. وهي فرصة كان لا بد من انتهازها. وقد علت بك السن وكاد يفوت أوان الزواج

- ومن انتهز لي هذه الفرصة؟

- أولاد الحلال، من قرائك المعجبين الذين يهتمون لأمرك

- شيء لطيف. وهؤلاء القراء المعجبون الذين زوجوني، كيف فعلوا ذلك؟ وأين وجدوا لي هذه العروس. .؟

- لا شأن لك بكل هذه التفاصيل. ولا تشغل بالك إلا بما أنت فيه من نعيم مقيم

- والعروس؟ أسبق لي رؤيتها؟

- لا. ستراها الليلة

- عجباً! وكيف يزوجوني ممن لم أرها ونحن في القرن العشرين؟ آه أيها الناس! إن هذا جاوز الحدود. . .

- هي أيضاً لم ترك

- أقرأت كتبي؟

- لو كانت قرأت كتبك لما تزوجتك

- وكيف إذن أقنعوها؟

- قالوا لها عنك كل شيء إلا الأدب والتأليف. فقد وجدوا من الحكمة وأصالة الرأي كتمان ذلك عنها إلى أن يتم العقد ويتعذر النقص

وفتحت عيني في الصباح وأنا أقول: (اللهم أحمدك على استيقاظي قبل تمام العقد، وقبل مواجهة الفتاة بذلك العيب الذي لا يغتفر! نعم إن المرأة لن تتغير. إن شئون الفكر عندها شيء مخيف، وكم من شعراء وأدباء أخفوا على نسائهم كنوز عقولهم ولم يظهروا لهن إلا كما يردنهم: رجالاً مبتذلين كبقية الرجال!)

توفيق الحكيم

ليلى المريضة في العراق

للدكتور زكي مبارك

- 14 -

نحن في اليوم الرابع من أيام المؤتمر الطبي العربي الذي بث الابتهاج والانشراح في أرجاء بغداد، وأنا امضي إلى مدرج كلية الطب لألقي محاضرتي عن المصطلحات الطبية فأجد اسمي فوق اللوحة آخر الأسماء؛ وأتلفت فأرى فتاة من قريبات ليلى جاءت لتسمع محاضرتي فأحقد على منظم المنهج، لأن هذه الفتاة قد تضجر فتنصرف قبل أن تسمع صوتي، فأنتهز أقرب فرصة وأدخل في مناقشة حامية مع الدكتور فؤاد غصن؛ وينهزم الدكتور فؤاد غصن، فتصفق تلك الفتاة. وما اسعد الخطيب الذي تصفق له فتاة بغدادية ساجية الطرف مصقولة الجبين!

رباه! متى يعقد المؤتمر الطبي مرة ثانية ولو في الصين؟!
ويقوم سعادة الأستاذ علي الجارم بك فيلقي محاضرته في صوت مطلول كأنداء الصباح
ثم يقوم فضيلة الشيخ السكندري فيلقي محاضرة نفيسة جدا تضج لها الأرض وتطرب السماء، ويصيح الدكتور القيسي: تحيا مصر! تحيا مصر!
واقبل عليه اشكره على التحية التي وجهها إلى مصر فيقول: كنت اضن الذكاء المصري خرافة أذاعها المصريون. واليوم رأيت وتحققت أن المصريين أذكياء وعلماء، وقد تبددت الصورة المشوهة التي ارتسمت في ذهني بسبب الجموح الذي شهدته فيمن عرفت من الطلبة المصريين في باريس
وأعتذر عن جموح شبابنا فأقول: لا تلم شبابنا على المرح والطرب، فنحن شعب طال عهده بالهموم والأرزاء فهو يروح عن نفسه بتكلف السرور والارتياح. أما سمعت قول شاعركم الزهاوي في مخاطبة أم كلثوم:
يا أم كلثوم إنّا أمةٌ رزحتْ ... تحت المصائب أحقاباً فسلّينا
ويجئ دوري في الخطابة فأعتلي المنبر في زهو وخيلاء. ثم يروعني أن أرى الناس ينصرفون، فأذكر أن الموعد حان للغداء في مضارب بني تميم، وأن المستمعين الكرام يفهمون جيداً أن الغرق في المرق أشهى وأطيب من بلاغة سحبان!
ويرى سعادة الدكتور عبد الواحد الوكيل بك أني متألم متوجع فيهمس في أذني أن المدرج لم تبق فيه فتاة واحدة. فأسأل: وكيف؟ فيجيب بأن وعورة البحث الذي ألقاه الشيخ السكندري أملتْ جميع الفتيات فانصرفن عابسات. ويسرني ألا تشهد فتاه هزيمتي فأقول: إلى الغد، إلى الغد، يا حضرات الزملاء!
وقبل أن أدخل في تفاصيل ما سأراه، أذكر أني زرت ليلى شفاها الله في مساء ذلك اليوم فحدثتني أن خطبة الشيخ السكندري ملأت مسامع أهل بغداد، ولكنها أنكرت أن يتحذلق الشيخ السكندري فيقول:
إن الأوكسجين مثنى أوكسيج، وإنه يرفع بالألف وينصب ويجر بالياء
فأصرخ في وجه ليلى: هذا كذب، هذا افتراء!
ثم أعرف بعد ذلك أن هذه دعابة ثقيلة أذاعها مصري خبيث يقيم في بغداد
ولم انجح في إقناع ليلى بأن هذا افتراء على الشيخ السكندري إلا بعد أن هددتها بالغرق في دجلة، وليلى تحبني يا بني أدم، فلا تستغربوا أن يهولها هذا التهديد.
ثم أخرج للبحث عن سيارة تنقلني إلى مضارب بني تميم، فلا أجد غير سيارة بالأجرة، فأتردد، لأني لم أدخر درهماً واحداً في بغداد، فقد أنفقت مالي على المطابع، وعند الله جزائي
واهم بالزهد في الوليمية التميمية فأسمع صوتاً يقول: سيارتي في خدمتك يا دكتور زكي. فأنظر فإذا طبيب لا اعرف اسمه، ولو عرفته لشرفت به هذه المذكرات، فأقول: ولكن معي صديقان فضيلة الشيخ السكندري والأستاذ عبد المنعم خلاف. فيقول: سيارتي في خدمتكم جميعاً يا مولاي
وقبل أن أدخل في التفاصيل أذكر أني أعطف على عبد المنعم خلاف لسببين: أما السبب الأول فلا اذكره، وهو يعرف ما اعني. وأما السبب الثاني فهو أن الشقي يشغل نفسه منذ أشهر طوال بالبحث عن مصدر الوحي: الوحي الهائل الخطير الذي جعل الدكتور زكي مبارك يكتب ثلاث مقالات في كل يوم بالرغم من اشتغاله بالتدريس والتأليف. وسيموت الشقي قبل أن يعرف مصدر الوحي. وسيموت قبله مصريون آخرون يهمهم أن يعرفوا كيف استطاع الدكتور زكي مبارك أن يكون أصدق من استرقتْ بغداد.
ونمضي في السيارة على غير هدى في صحبة الطبيب النبيل الذي ينقلنا إلى مضارب بني تميم؛ ثم نتلفت فجأة فنرى نحو عشرين سيارة تتعقبنا فنعرف أننا ضللنا مع أننا في رحاب عقرقوف الذي خلد اسمه أبو نؤاس في رحلته إلى مصر، مصر التي فيها الزمالك ومصر الجديدة وحلوان، والتي تسدل ستائرها على الجدائل المعطرة التي تشعثت بعد رحيلي إلى العراق
رباه! إنك تعلم أن الظلام في مصر الجديدة أندى وأطيب من النور الوهاج، فمتى ترجعني إليه!

ونصل إلى مضارب بني تميم فنرى أفواجاً من الفرسان ينتظروننا على طول الطريق وهم يحيوننا بأناشيد كلها رفق وحنان. وفي زحمة الاحتفال يجئ طبيب نبيل فيدعوني للتسليم على سيدتين كريمتين، لا اذكر اسمهما تأدباً، ولو شئت لقلت انهما من النفحات الربانية، وقد رحلت الأولى إلى القاهرة وبقيت الثانية في بغداد. فإليهما أقدم تحيتي وثنائي، والأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف. ويمد السماط، أو السماطان، أو الأسمطة، كما يشاء كرم الشيخ حسن سهيل ثم يشيع بين الجمهور أن رجلاً غرق في المرق، فيصيح الطفل الجميل الذي اسمه عمر: بابا، بابا، أحب أن اطمئن على الدكتور زكي مبارك. فيقول سعادة وزير مصر المفوض في العراق: اطمئن يا بني، فان الدكتور مبارك من كبار السابحين!

ويقف عميد بني تميم ليخطب فيشتد التصفيق؛ ويقف الشيخ السكندري ليخطب فيشتد الهتاف؛ ثم يقول صديق كريم بصوت جهوري: الدكتور زكي مبارك يلقي كلمة العراق، فيتلفت وزير المعارف قائلا: ماذا؟ ماذا؟ فيجيب الصديق الكريم: الدكتور زكي مبارك يخطب باسم العراق: فيقول معالي الوزير: نعم، نعم، من حق الدكتور زكي مبارك أن يخطب باسم العراق وألقى خطبة رنانة أشكر فيها إخواني المصريين وأقول إن حياتي طابت في العراق وإنني لا أحب الرجوع إلى مصر، فأرى دموع الشيخ السكندري تنحدر واسمعه يقول: وهل نسيت سنتريس؟!

فأقول بصوت صاخب: ونسيت سنتريس! ومن واجبي أن أسجل في هذه المذكرات أني لم أر في حياتي أياماً أطيب من أيام العراق. وسأظل من أنصار العراق فيما بقي من حياتي.

حيا الله العراق، ونصر الله العراق!

أما بعد فنحن في منتصف الساعة التاسعة من مساء 12 فبراير سنة 1938 وهو مساء لم تشهد مثله بغداد منذ أجيال. وهذه سهرة في بهو أمانة العاصمة أقامها الطبيب الشاب الدكتور شوكت الزهاوي. وهذا الدكتور زكي مبارك الملحد الفاجر فيما يزعمون، يتلفت عن صاحبة العينين فلا يرى صاحبة العينين. ولكنه يرى الطبيب النبيل الذي سيقبل من اجله ثرى بغداد يوم يفارق بغداد، فيستشير صديقه فيما يأتي وما يدع، فيعرف أن السهرة تنقسم إلى قسمين: قسم عربي وقسم إفرنجي، فأقول: النبي عربي، ولسان أهل الجنة في الجنة عربي.

وأمضي إلى القسم العربي فأجد الوزراء جميعاً وعلى رأسهم فخامة الرئيس. واخرج عن وقاري فأمضى إلى رئيس الوزراء وأقول: سيدي، أتسمح بان أسجل في مذكراتي أن إيثارك الجلوس في المرقص العربي وفي ذاته تزكية نبيلة للثقافة الذوقية في حياه العروبة؟ فيبتسم ابتسامة القبول

وأعود إلى مكاني واجعل مكاني كله المرقص، وما هو في الحقيقة بمرقص، ولكنه مغنى كما يعبر المصريون. وانظر فإذا فتاة مليحة جداً تجلس بين القيان وعليها سيما الذل، فيزعجني أن تعجز عيونها الساحرة عن الاستبداد بألباب الناس، فأنظر إليها بترفق وارفع الكأس، فتنظر بحنان وترفع الكأس، ولا يكفيني ذلك، بل اصنع الصنيع نفسه مع سائر الفتيان؛ ويتقدم رجل لم تذهب الكأس بوقاره فيقول: يا دكتور مبارك، إن مكانك قريب جداً من فخامة رئيس الوزراء ولعله يتأذى مع مداعبة الفتيان، وأنا أرى أن ما تصنع لا يليق بمقامك

فقلت في عبارة صريحة: إنما اصنع هو الذي يليق بمقامي فتلعثم الرجل وقال: لطفاً ياسيدي، لطفاً! ولكن هل أتستطيع أن اعرف جوهر رأيك في هذه القضية؟

فقلت وأنا أجد كل الجد: لست يا سيدي بفاجر ولا أثيم وإنما أنا رجل مؤمن، ومن واجب المؤمن أن يتوجع لألام المنكوبين، وهؤلاء المغنيات والراقصات يعانين ابشع نكبة قاستها الإنسانية، فهن مسؤولات عن الوصول إلى قلوب الناس. يا ويل من يحكم عليه الزمن بأن يكون من صنعته أن يرضي الناس؛ والناس يا سيدي يغلب عليهم اللوم فلا يقابلون من

يخطب رضاهم بغير الجحود، فهل يسوؤك وأنت عراقي كريم أن أكون من الكرماء؟ هل يسؤوك أن أدخل السرور على قلب فتاة بائسة قضى عليها الزمن الجائر بأن تطلب رضاي ورضاك؟

فهدأ الرجل قليلا ثم قال: وما رأيك في هذا؟

فقلت: وما هذا؟
فقال: أما رأيت الراقصة ترفع الثوب عن فخذيها في وقاحة وسفاهة؟
فقلت: نعم رأيت، ثم رأيت؛ ولكن من الملوم؟ أن الراقصات يعرفن أن فينا الغوي والسفيه والمحرم، فهن يتقربن إلينا بتزين الرجس والدعارة والفحش. ولو كنّ يعرفن أننا جميعاً نغار على الكرامة لما جاز لإحداهن أن تكشف عن قدم أو ساق ويقوم المغني المطرب محمد القبانجي فينشد:
أأحبابنا قد فرق الدهر بيننا
فأصيح: قد جمع الدهر بيننا
فيعرف أنه لم يراع المقام ثم تكون أغانيه بعد ذلك ضرباً من الارتجال
وانتقل من مكاني لأرى كيف تموج الدنيا في المرقص الإفرنجي، فأعثر على الراقصة التي كنت أداعبها بالكأس منذ لحظات، واحييها فلا ترد التحية، كأنها ظنت أنني كنت في مداعبتها من الماجنين
أنني أفهم حالك أيتها الصبية المسكينة، ويسرني أن أراك تتمنعين فالناس كلهم وحوش. ولا استثني نفسي فلتحذري وليحذر أمثالك من حسن الظن بالناس
طوفت بالمرقص الإفرنجي لحظات لأرى صاحبة العينين، ولم أجدها فأين ذهبت؟ أين ذهبت؟ دلوني فقد عيل صبري. وفوق أي مخدة نام ذلك الخد الأسيل؟ يرحمك الحب يا قلبي!
تحيا إنجلترا!!
كذلك قلتُ، فدهش السامرون
تحيا بريطانيا!!
كذلك قلتُ، فتعجب السامرون
تحيا بريطانيا العظمى!!
كذلك قلتُ، فضج السامرون
ومالِيَ من ذنبٍ إليهم علمته ... سوى أنني قد قلت يا سرحة اسلمي
نعم فاسلمي ثم اسلمي ثمة اسلمي ... ثلاث تحيات وإن لم تَكلمي
لقد كنت من أعضاء الحزب الوطني، وكنت من أوفى الناس لمبادئ مصطفى كامل ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش. وكنت أذيع مبادئ الحزب الوطني بلباقة في الجرائد الوفدية، وكان الوفديون يعرفون صدقي وإخلاصي ونزاهتي فيتسامحون ويدعونني أذيع في جرائدهم ما أشاء. ولما أمضيت معاهدة التحالف بين إنجلترا وبين مصر قررت أن أولف كتاباً أدعو فيه المصريين إلى أن يتذكروا دائما أن إنجلترا كانت غزت مصر ورزأتها بالاحتلال.
فما الذي جد في أفق السياسة حتى أهتف بحياة إنجلترا في بغداد؟
ما الذي جد حتى يتغير زكي مبارك الذي أضاع نفسه في مصر بفضل حرصه على مبادئه الوطنية وانعزاله عن الأحزاب التي تملك مصاير الأمور في أكثر الشؤون؟
فقد كنت ألمح من بعد فتاة تسارقني النظر بعينين زرقاوين، وكنت لا املك الانتقال إليها ولا تملك الانتقال إلي؛ وكان جاري رجلاً ظريفاً كسائر البغدادين، فترك مقعده عمداً لأستطيع دعوة الفتاة إلى جواري. ولم تنتظر الفتاة الدعوة، فما هي إلا لمحة طرف حتى كان وجهها إلى وجهي، وكلمتني بالإنجليزية فلم أفهم، فاستوضحتها بالفرنسية فلم تفهم، فقالت بلسان عربي ملحون ما معناه: أرجوك أن تطلب من سليمة باشا أن تغني:
على بلد المحبوب وديني
ودار الصوت على الحاضرين ويدها في يدي، وعينها في عيني؛ وتلطف الكرام الكاتبون فلم يسجلوا غير الجميل
وبعد لحظات همت الفتاة بالانصراف، فجذبتُ يدها أقبلها فسمحت بعد تمنع واستحياء
ولم يكُ غير موقفنا فطارتْ ... بكلِ قبيلةٍ منا نَواها
فواهاً كيف تجمعنا الليالي ... وآهاً من تفرقنا وآها
ثم يجئ اليوم الخامس فألقي محاضرتي في كلية الطب، وأعربد على الدكتور عبد الواحد

الوكيل وعلى الأطباء المصريين، وأزعم أن أساتذة الطب في مصر من أكسل الناس، ولولا ذلك لنقلوا علوم الطب إلى اللغة العربية. ويصفق الحاضرون، ويقبل الجارم لتهنئتي فأقول: أنا تلميذك. فيقول: لقد بذذت أساتذتك.

ويجئ المساء فأذهب إلى الحفلة التي تقيمها الجمعية الطبية المصرية فأراها وا أسفاه حفلة مصرية حقاً وصدقاً، فلا شراب ولا رقص ولا غناء، فأقول في نفسي فضحتمونا يا ناس!

ولكن الدكتور عبد الواحد الوكيل ينقذ الموقف فيلقي خطبة يقول فيها إن الجمعية الطبية المصرية عرفت أنها تعجز عن إقامة حفلة كالتي أقامها معالي أمين العاصمة، أو حفلة كالتي أقامها سعادة رئيس الجمعية الطبية العراقية، فقررت أن تقيم حفلة ترقص فيها الخطب ويغني فيها البيان

الله أكبر! الله أكبر!

وكذلك قضينا ثلاث ساعات في سماع الخطب والقصائد، ثلاث ساعات قضيتها في كرب، لولا الخطبة الظريفة التي ألقاها سعادة العشماوي بك، ولولا الوجه الأصبح الذي كنت أتعزى بالنظر إليه

ويجئ اليوم السادس وهو رحلة إلى السدة الهندية وأطلال بابل وأصل إلى القطار في آخر ثانية، فقد كنت في شواغل غرامية عاقتني عن مراعاة الموعد؛ ولكن حظي كان سعيداً، ولا أذكر كيف، فقد تتأذى بذلك بعض الوجوه الصباح. ويمر القطار على قرية اسمها الإسكندرية فأقول: لعل هذه هي البلدة التي ينسب إليها أبو الفتح الإسكندري الذي يروي عنه عيسى ابن هشام في مقامات بديع الزمان؛ وأملأ عيني من نخيلها وأكواخها لأكتب عنها كلمة في الطبعة الثانية من كتاب (النثر الفني)

ثم يقذفنا القطار إلى السدة الهندية، وليتنا غرقنا هناك! والسدة الهندية قنطرة ظريفة على الفرات؛ وللفرات فيها هدير جذاب يذكر بهدير النيل على الرياح المنوفي بالقناطر الخيرية. وقد وقفت على السدة الهندية لحظات ظفرت فيها بموعد سأنعم به يوم أعود إلى وطني، إن كان لي إلى ارض الوطن معاد

لا تحزن يا قلبي، فليست هذه أول غربة، فقد كنت غريباً في كل أرض حتى في سنتريس!

لا تحزن يا قلبي، فأقرب الناس إلى الله هم الغرباء، لأن الغريب يؤدي امتحاناً في كل لحظة، وتدرسه العيون في كل مكان، ويؤدي حساباً إلى كل مخلوق، ويعجز عن إصلاح ما يفسد المفترون

لا تحزن يا قلبي، فكل غيم يتلوه صحو، وكل ليل يعقبه صباح.

لا تحزن يا قلبي، فأنا بجانبك أرعاك وأواسيك، وسأكفنك بدموعي إن قضى الله أن تموت غريباً بين القلوب

لا تحزن يا قلبي، لا تحزن يا قلبي!

ما هذا؟ ما هذا؟

أتريد أن تفر من قفص الضلوع؟

والى أين؟ حدثني إلى أين؟ إلى أين يا جاهل؟ فأنت تجمح إلى قلوب عرفت من بعدك كيف يحلو اللهو، وكيف تقرع الكأس بالكأس، وكيف تطيب الأسمار والأحاديث. إلى أين؟ حدثني إلى أين؟ وهل لك وطن أيها القلب؟

حدثني أين وطنك فقد نسيت! أيكون وطنك بين تلك القلوب الغوادر التي تضن عليك بخطاب تكاليفه عشرة فلوس؟ أيكون وطنك عند تلك الإنسانة الغادرة التي قطعت حبل الود لأني دعوتها لزيارتك متنكرة في بغداد؟

أين وطنك يا قلبي؟ أحب أن أعرف أين وطنك لأمضي معك إليه. أهو مصر؟ كذبت، ثم كذبت، فلو عرفتك مصر حق معرفتك لكان لك اليوم مكان مرموق، ولكنك في مصر منبوذ مجهول

قلبي! قلبي! رحمه الله عليك، فقد سعد ناس بالرفق المزيف، وشقيت أنت بالرفق الصحيح

وقد وصل ناس لأنهم كذبوا، وتخلفت أنت لأنك صدقت.

ونَعمَ ناسٌ لأنهم خانوا، وشقيت أنت لأنك وفيت

وتقدم ناس لأنهم هزلوا، وتأخرت أنت لأنك جَدَدْت. وانتفع ناس لأنهم غدروا، وخسرت

أنت لأنك وفيت
!قلبي! قلبي! أحسن الله إليك
أنظر يا جاحد! فها نحن أولاء في رحاب أسد بابل؛ وهذه صاحبة العينين. نعم هذه صاحبة العينين أما ترى يا قلبي؟ أما ترى يا جاهل أن صاحبة العينين تُنحّي زوجها بعنف لتظهر
في الصورة بجانبك؟ اعترف يا جاهل بأن الله رعاك حين كتب أن تظهر في صورة عالمية في رحاب أسد بابل وفي جوار صاحبة العينين. اعترف يا جاهل بأنك كنت في إحدى لحظاتك أسعد القلوب
:مولاتي صاحبة العينين
أعترف بأني آذيتك بعض الإيذاء، أو كل الإيذاء؛ ولكن الشاعر مغفور الذنوب، لو تعلمين؛ وقد قرأ الناس مذكراتي في مجلة الرسالة فعرفوا من أنت. فهل أطمع يوماً في أن تعرفي من أنا؟ وهل يعرف زوجك المفاضل أنني شاعر لا يهمه غير أنس الروح بالروح؟
المهم عندي يا مولاتي أن يعرف أبناء العروبة أن الجمال غير مقصور على من أنجبت لندن وباريس وبرلين، وأن في بغداد ودمشق وبيروت ومكة والمدينة وصنعاء والقاهرة والإسكندرية والمنصورة ودمياط وتونس ومراكش والمقدس وما شاء الهوى من الحواضر العربية أروحاً فيها جمال وصفاء
:مولاتي صاحبة العينين
لست بالرجل الفاجر، كما يزعم المرجفون، وإنما أنا رجل شاعر يؤمن بأن من الوطنية أن يحبب العرب في بلادهم بالإشادة بما فيها من صباحة وملاحة وأخلاق
فهل أستطيع أن أمر على بلدكم الجميل في طريقي إلى مصر، مصر التي فيها الزمالك وحلوان؟ مصر التي فيها شارع فؤاد، والتي فيها الزيات ومحمد الهراوي ومحمد عبد الوهاب ومدحت عاصم والمخلوق السخيف الذي اسمه عبد الله حبيب؟ مصر التي فيها أحمد فريد رفاعي وطه حسين وإبراهيم مصطفى وأمين الخولي وعبد الحميد العبادي واحمد أمين؟ مصر التي فيها المكتبة التجارية والجامعة المصرية؟ مصر التي فيها هوى القلب وشفاء الفؤاد؟
:مولاتي صاحبة العينين
أنا أشرف من العصابة التي حرستك مني، فاسمحي لي بتقبيل قدميك قبل أن أموت، . . . .ولكن. . . ولكن
ولكن أينسيني حديث العينين وصاحبة العينين ما شهدت يوم زيارة القوة الجوية العراقية؟
إن تلك الزيارة تمثل روح العصر أصدق تمثيل، فقد كان المفروض أن يحلق في الجو بعض أعضاء المؤتمر الطبي، وكان المظنون ألا تظهر هذه الرغبة إلا عند عدد قليل من الأعضاء
ثم ظهر أن الناس كلهم يريدون امتطاء الطيارات حتى خشينا ألا يمر ذلك اليوم بسلام
وما كان يهمني أن أشترك في هذه النزهة فقد عرفت أمثالها من قبل وسجلتها في كتاب ذكريات باريس، ولكني رجوت أن يكون هذا الزحام فرصة أداعب فيها فتاة أو فتاتين أو ثلاث فتيات، ثم هالني ألا أرى غير جماعات من (الخناشير) كلهم شعثٌ غبرٌ كأنهم قدموا من البيداء، ومزاحمة هؤلاء ضرب من الضياع
ومع ذلك صممت على الاشتراك في هذه النزهة، ولكني لم افلح، فما كانت طيارة تنزل حتى يهجم عليها الناس كالوحوش ورجعت أتعثر في أذيال الخيبة فما كدت اصل إلى باب المطار حتى سمعت رجلاً يقول:
- أتريد أن تطير يا دكتور؟
- نعم، يا سيدي احب أن أطير!
فدعاني إلى سيارته فركبت ومضينا إلى ناحية قصية فطلب طيارة وقال: (هذه في خدمتك فأدع إلى مصاحبتك من تشاء) فنظرت فإذا سيدة (تائهة) فأخذتها معي وطرت وعند النزول رأيت السيارة وصاحبها في انتظاري فركبت معه إلى المقصف وأجلسني مع جماعة من الضباط، ثم قال بعد تناول الشاي والحلوى والفاكهة: (خذ حريتك يا دكتور وطوِّف حيث شئت)

فلما تركته كان أكبر همي أن أعرف من هو، فسألت فعرفت أنه سعادة أمير اللواء حسين فوزي باشا رئيس أركان الجيش ومع هذا يعجب ناس حين يرونني أطيل القول في الثناء على العراق وأهل العراق

انتهت أيام المؤتمر، سقاها الغيث، ولكن جد ما لم يكن في الحسبان، فقد أذاع رئيس الجمعية الطبية العراقية أن البصرة هي المدينة التي ولدت فيها ليلى المريضة في العراق. وكنت خليقاً بأن أعرف ذلك من قبل، ولكن ليلى لم تحدثني عن وطنها الأول، ولم أسال عنه ظمياء، فرأيت الفرصة سانحة لأن أمضى مع أعضاء المؤتمر لرؤية الثرى المندى بالعطر والريحان، الثرى الطاهر الذي عرف النعيم يوم كان يتخطر فوقه ذلك القد الرشيق

إلى وطنك يا ليلاي، إلى البصرة، إلى النخيل، إلى شط العرب الذي تحترب في سبيله أمم وشعوب، إلى وطن الجاحظ، إلى وطن المبرد، إلى وطن مولاي الحسن البصري امتطي القطار في ظلام الليل

(للحديث شجون)

زكي مبارك

قضية اللغة العربية

للأستاذ احمد خاكي

1 - التقدم واللغة:

يذهب الجمهرة من المربين في العصر الحديث إلى أن الغاية من التربية ينبغي أن ترمي إلى تدريب الطفل على أكثر أنواع المهارة التي تتطلبها حياته الحاضرة والمستقبلة، والتي تقتضيها الحضارة وطلب الرزق. بل لقد آمن الكثير منهم بأن الحضارة في نفسها تقوم على المهارة فحسب، وأن العصر الحالي يمتاز فيما يمتاز به بتلك الوجهة الآلية التي تلزمنا بها حاجات الحياة، وأن التقدم رهين بما تحسنه الجماعة من أنواع المهارة، وأننا لن نبلغ المثل الأعلى الذي يحدونا إلى التقدم حتى نتقن أكبر عدد منها

ويذهب أصحاب اللغات إلى هذا الرأي فيما يتصل بتعليمها. فقد أمن هؤلاء على كل ذلك وزادوا عليه أن تعليم اللغات هو في نفسه ضرب من ضروب المهارة التي يجب أن يكسبها المتعلم حتى يوفق بين نفسه وبين البيئة التي يعيش فيها. بل هو لا بد مرغم على كسبها إذا هو تطلع إلى لون من ألوان الحياة أزهى من ذلك الذي اعتاده آباؤه وأجداده. فاللغة عند هؤلاء شبيهة بالمشي أو الجري أو تناول الطعام أو إحسان الرماية أو الطيران. فهي لا محيص للناشئ من أن يتلقنها في بيئته، بل هو مجبول على تلقنها ما دام يرى أن حياته تقوم على الاجتماع بسائر الأفراد، وان اتصاله الفكري مع من حوله لا يستقيم إلا إذا تلقن لغتهم كتابة وقراءة وحديثاً. واللغة فوق ذلك مهارة سامية جديرة بالإحسان ولأنها تتحمل في اطوائها تراث المدنيات التي تحدرت إلينا، ولأنها - إذا كانت أجنبية - مفتاح لمدنيات أخرى تغلغلت في تاريخ البشرية نفسه واللغة بعد ذلك دليل على التقدم الفكري لأنها الوسيط الذي تتجسد فيه الأفكار والآراء.

وليست اللغة من ذلك الوجه إلا رموزاً أطلقت على المعاني التي تتدفع في نفس الإنسان. وهي التي تسيطر على موارد تلك المعاني ومصادرها. فكل كسب لتلك المهارة التي نسميها (اللغة) إنما هو تحديد لغذائنا الفكري. وكل تحديد لتفكيرنا إنما هو فتح جديد للمنطق والفلسفة بل فتح لسائر العلوم

فإذا كانت اللغة تفيض بالمفردات التي تصف كل فكرة دقيقة من تلك الأفكار، وإذا كانت ألفاظها قد تطورت مع الحضارة حتى كان كفيلة بأن تصف المعاني التي تنثال في خواطر

المتحضرين، كان ذلك دليلاً على كفايتها في مسايرة التقدم العقلي. وليست قضية اللغة عندنا قضية ألفاظ فحسب، ولا هي قضية تراكيب، إنما القضية عندنا في كفاية تلك الألفاظ وهذه التراكيب. فهل استطاعت هذه أن تساير الحضارة الحديثة؟ وهل استطاعت أن تنقل معانيها إلينا؟ ذلك ما نشك فيه ونحن نشك في شيء آخر غير ذلك.

انه لا يمكن لغة أن تساير الحضارة أو الثقافة إلا إذا كانت مرنة تتسع لكل معنى حديث. وتلك المرونة التي تظهر بجلاء في لغة كالإنجليزية قد فقدت مكانها في لغة كالعربية. وهي قد فقدت مكانها في لغات أخرى قبل لغتنا ألانها قعدت عن أن تماشي

الحضارة في تقدمها. وأخص ما تمتاز به الإنجليزية هو ذلك الاستيعاب الذي يظهر في كل وجه من وجوهها؛ فهي قد استوعبت ألفاظاً من كل قطر حلت فيه فئة من الإنجليز. وألفاظها تواتي المتحدث بها في كل موضوع يطرق، لكننا نتشكك كثيراً فيما إذا كانت العربية والإنجليزية سواء. فالعربية غير مرنة؛ وهي لغة تقليدية تتولى عن الألفاظ الدخيلة؛ وقد بدأت تساير الحضارة الحديثة منذ وقت قليل لما يكف لتغذيتها بألفاظ تطلق على المعاني التي تجدد في كل ساعة من ساعات الحضارة

لم يكن لنا أن نذكر كل ذلك لولا أننا نؤمن بأن في اللغة استعدادًا لقبول كثير من الإصلاح. ولعل افعل إصلاح اللغة أن نبدأ بتفهم طرق التدريس التي من شأنها أن تجعل اللغة لغة أفكار ومعان قبل أن تكون لغة ألفاظ ومفردات، وتفهم طرق التربية التي تكسبها مرونة اللغات الأخرى. ويستطيع المعلمون أن يتغلبوا على تلك العقبات التي يلقونها إذا هم وجدوا أمة من أهل الرأي تجاهد معهم في هذا السبيل. على أننا سوف نكتفي في مقالنا هذا بذكر وجه آخر من علاقة اللغات، ثم بتحديد أغراضنا من دراستها. وسوف نعالج في مقال آخر الوسائل التي نراها

2 - وحدة اللغة:

وفي كل الذي أسلفنا اكثر من دليل على أن عنايتنا بالغة ينبغي أن تحل عندنا المكانة الأولى بين مختلف المواد التي نعلمها. فهي حقيقة بالتقدير إذا تحدثنا عن أي مثل أعلى عالمي؛ وفي دراستها توحيد للمعنى السامي الذي ما زال يلعب بخيال الإنسانية، والتقدم الفكري رهين بالتقدم اللغوي، ولان اللغة أساس صالح لتلك المواد، ولأنها تتحكم في تلقينها

وفي تلقنها، فإنا نرى أن إصلاح التعليم في مصر رهين بإصلاح أساليبنا في تعليم اللغة العربية وفي تغير وجهتنا فيما يختص بالأغراض التي نرمي إليها بل اللغة العربية متصلة وثيق الاتصال باللغات الأجنبية التي نعلمها اتصالها بتعليم المواد الأخرى. وإذا نحن نظرنا إلى تلك المواد نظرتنا إلى مجموعات متوافقة من الأفكار والمعاني استطعنا أن نرى كيف تحدد اللغة تفكيرنا، وكيف تواتينا المقدرة على تفهم تلك المواد إذا كانت اللغة مهارة مكسوبة أحسناها. فاللغة في مفرداتها وصيغها تكون وحدة عامة متصلة الحلقات مشتبكة الاطراف، وهي في نفسها نتيجة لنماء العقل ونشاط التفكير.

وليست مفردات اللغة كما قدمنا إلا رموزاً للأفكار التي يلتف بعضها حول بعض في حياة الإنسان العقلية، والتي تتألف حولها كثير من شعاب الدواعي. وحين يدرج الناشئ في السنين الأولى من طفولته يكسب كثيراً من تلك الأفكار التي يحاول أن يعبر عنها، فما تزال حائرة تتردد في نفسه حتى تستقر في تلك الرموز التي تواضع عليها الناس، وتصبح بعد ذلك مادة للحديث والتفكير والكتابة، وتصبح سبيلا إلى تفهم التاريخ والجغرافية والطبيعة وغير ذلك

ولعل الطفل في حياته اللغوية يمثل الإنسان الأول في كسب اللغة واصطناع ألفاظها، فهو يتدرج في تعلمها من المحسوسات إلى المعقولات، وهو يحسن كل الإحسان أسماء المرئيات، لكنه يعاني غير قليل من الجهد في تفهم المعاني. وقد مر الإنسان الأول في مثل عصر الطفولة حينما كان العالم نفسه طفلاً، وحين دفعته الحاجة إلى أن يتعلم الأسماء كلها. وتعقدت اللغة في أطوار الإنسانية حتى انحدرت إلينا وهي على ما هي عليه من التعمق والإغراق؛ وحتى أصبحت دراستها تقتضي نصيباً كبيراً من الحس المرهف والتفطن الدقيق

فلغة الإنسان إذن وحدة في ذاتها تتألف من شتات من الجزيئات، ولغته الأصلية هي التي صاحبت تكوينه العقلي. منها يستمد أفكاره ومنها يكون صوره العقلية، بل هي التي توحي إليه ما توحيه الكلمات من حب وبغض وسرور وحزن. ففي ألفاظها كل المعاني التي تجيش بصدره، وفي أعطافها ما يحرك قلبه ويهز فؤاده

ولان اللغة وحدة في ذاتها تجد بين لغة الإنسان الأصيلة وبين لغته الدخيلة أو الأجنبية كثيراً من الوشائج والأسباب، فلا يستطيع متحدث أن يعالج الكلام عن الثانية إلا إذا بدأ بالأولى، ولا يستطيع متعلم أن يقرب لغة أجنبية حتى يتخذ الأصيلة عوناً على تفهمها. فاللغة الأصيلة هي سجل الذي تتنظر فيه مراحل تفكيره، وهي المرآة التي تنعكس عليها حياته العقلية والحسية في وقت معاً

من اجل ذلك كانت اللغة الدخيلة عالة في أفكارها ومعانيها على اللغة الأصيلة، وكان

حرياً بها أن تكون كذلك عند الناشئين؛ فالحق أن الأفكار والمعاني لا تعرف ألفاظاً تحدها في موضع ضيق تتقيد به؛ ولأن اللغة الأصيلة نتيجة لتفكير الإنسان، ولأنها ثمرة لتقدمه العقلي كانت خليقة أن تكون أساساً لتعليم اللغة الأجنبية كما كانت الأساس في الدراسات الأخرى، وخليقة أن تمتاز بالجلاء والوضوح، وان يعني بها المربون أول شيء لأنها تتدخل في تعلم اللغات الأخرى وفي إحسان العلوم، بل في نمو الإنسان وتفكيره

ولقد ذهب إلى هذا الرأي كثير من الذين بحثوا دراسة اللغة وأخرجوه للناس كما لو كان كشفاً من كشوف العلم الحديث، وكانت الجمهرة من علماء التربية يرون منذ بضع سنين أن اللغات منفصلة، وان الإنجليزية مثلا لا تستقيم إلا إذا حسبنا تفكير الناشئ عن العربية في دروس الإنجليزية. وقد كان يشوب ذلك كثير من الخطأ، فلم يكن يعترف عقل المتعلم بتلك الحدود المفروضة التي ضربت عليه، وقد كان يخترق تلك الحدود، وكانت اللغة العربية تلتقي بالإنجليزية في تفكير الطفل مهما حاولنا المباعدة بينهما.

وقام في السنين الأخيرة علماء مثل الدكتور (وست) صاحب الطريقة المشهورة يعترفون بتلك الصلة ويستعينون بها في تعليم الإنجليزية. وحدث على اثر ذلك انقلاب سريع في أساليب التعليم عندنا، وغدا للعربية وزن في تعليم الإنجليزية في الست السنوات الدراسية الأولى

وعندنا أن موطن الإصلاح الأول هو اللغة العربية. وإصلاح مثل ذلك لن يتناول طرائق التعليم، ولا أساليب الدراسة فحسب بل لا بد له أن يتأصل في مادة التفكير التي يتغذى بها التلاميذ. إصلاح مثل هذا سوف تتأثر به الجغرافية والتاريخ والكيمياء والفلسفة والمنطق، وكذلك سوف تستقيم به طرق التدريس التي نجاهد في إدخالها على اللغة الإنجليزية. ولعلنا لا نغلو كثيراً إذا قلنا انه أساس كل إصلاح آخر

3 - الأغراض من تعليم اللغات:

ولأن يكون كلامنا محدداً، ولئلا نخلط بين اللغة الأصيلة واللغة الدخيلة، نرى أن نعالج الغرض الذي ينبغي أن نلتزمه في تعلم اللغة العربية والغرض الذي ينبغي أن نلتزمه في تعلم اللغة الإنجليزية فإذا كان بين اللغة الأصيلة واللغة الدخيلة مثل تلك الصلات الفكرية، فإن بين الاثنتين فروقاً تحدد السبل التي نتخذها في تعليم كل منهما. فللغة كما قدمنا آثار تختلف على حياة الإنسان لها أثر عقلي عميق يكاد يحكم نمو إدراكه وتطور تفكيره. ولها بعد ذلك أثر حسي يتصل اتصالاً وثيقاً بفكرة الجمال التي يكسبها من الشعر والأدب. ثم إن لها أثراً عملياً أو نفعياً يغير منه في حياته كأي مهارة أخرى.

وهذه الأنواع الثلاثة من الآثار هي التي تختلف على متعلم اللغة إذا أحسنت تنشئته على الأصول النفسية التي جهد في استنتاجها الذين أوتوا العلم من المعلمين والمربين.

ونحن في حديثنا عن اللغات يجب أن نفرق بين هذه الآثار وارتباطها باللغة العربية أو باللغة الأجنبية. أما اللغة العربية فإنه يتمثل فيها كل الآثار التي ذكرنا. لها أثر عقلي يصاحب الإنسان عند النشأة الأولى ويلازمه في كل طور من أطوار حياته، ولها كذلك اثر حسي يمحضه الشعور بالجمال ويفيض عليه كثيراً من ألوان السرور، ولها اثر ثالث عملي لأنهما وسيلة الكتابة والحديث بين الأفراد والجماعات. أما أثر اللغة الأجنبية عندنا فهو نفعي أو قل عملي. حقاً قد يكون لها أثر عقلي إذ تتدخل في تربية الإنسان ونمائه، وقد يكون لها أثر حسي إذا أحسن تعلمها. ولكن وجهها النفعي أوضح وجوهها، وإنما يتعلم المرء اللغة الأجنبية لتكون صلة بينه وبين فروع المعرفة التي اتسعت لها، وحسبه أن يحسن قراءتها. ولعلها تصبح مادة زاخرة توحي إليه العواطف، وربما أصبح بينها وبين تفكيره صلات ولكنها على الحالين لن تدرك ما تبلغه لغته الأولى التي درج عليها والتي كانت أقرب إلى عقله وقلبه ووجدانه.

فاللغة الأصيلة واللغة الدخيلة تختلفان في تقديرنا اختلافاً شاسعاً. الأولى صاحبة الأثر العقلي الذي يدفع بتفكير المتعلم إلى نواحي التقدم، والثانية تستمد وجودها كأداة للتفكير من اللغة الأولى. واللغة الأصيلة ذخيرة تتجلى فيها آيات الجمال بما في تراثها من أدب وحكمة، وتنبلج فيها بدائع الشعر بما تتحمله من وحي والهام. أما الثانية فلن تبلغ هذا الأثر إلا إذا أحسنها المتعلم كل الإحسان؛ وليس يبلغ ذلك إلا الخاصة الذين لا

يقعون للمعلم في حسبان. وهي عند كافة المتعلمين بعيدة عن نطاق الجمال والإلهام غير قريبة من مواطن
التفكير الدقيق أو جادة التفطن والتفصيل. واللغة الأصيلة واللغة الدخيلة بعد كل ذلك
جديرتان أن نحسنهما قراءة ومطالعة، لأن إحسان قراءة الأولى واجب حتم، ولأن
قراءة الثانية هو سبيل الاتصال بحضارة أصحابها.
وفيما أسلفنا من حديث عن آثار اللغات مواضع نتعرف منها الغاية من تعلم اللغات كل منها على حدة، فالمطالعة أو قل القراءة المستوعبة هي الغاية من تعلم اللغة الأجنبية، لأن إتقانها هو السبيل إلى فهم ما يكتب فيها، ولأننا في تعليمنا اللغة الأجنبية نرمي إلى أن نفتح للمتعلم أبواب تلك اللغة حتى يتصل بثقافتها. نحن نتعلم اللغة الإنجليزية لنقرأ
مؤلفاتها، ونحن نحسن الفرنسية لكي نلم بحضارة الفرنسيين؛ وليست الفرنسية ولا
الإنجليزية إحداهما ولا كلتاهما بضرورة لازمة لحياتنا العقلية أو لتربيتنا النفسية؛ وإذن فيجب أن تدور جهودنا في تعليم إحدى هاتين اللغتين حول تلك الغاية المثلى: يجب أن
تدور حول المطالعة لأنها الغاية النفعية التي تحدثنا عنها. وليست الكتابة ولا الخطابة ولا تذوق الأدب بما فيه من قصص وتمثيل من شأننا في تعليم الإنجليزية. فإذا جاء كل هؤلاء فإنما يأتي بعد المطالعة لا قبلها
أما اللغة الأصيلة - وهي العربية عندنا - فينبغي أن تكون الغاية من تعليمها فوق ما
ذكرت. إن القراءة جزء من الغاية التي ننشدها إذ نعلمها. نحن نعلم العربية لنخرج
مفكرين يحسنون تصور الكلام ويجيدون التعبير عما في نفوسهم. بل يجب أن نعلمها حتى يتذوقوا التراث الأدبي الذي تزخر به اللغة نفسها. وأذن فدراسة العربية ينبغي أن
تكون تدريباً فكرياً وتدريباً نفسياً وتدريباً عملياً أيضاً، وتتشعب هذه الأغراض وتتعقد ويكون من مظاهرها الكتابة والقراءة والخطابة. ولكل من هذه الغايات أصول تمتد إلى أعماق الفكر وتتصل بأطوار النفس
أما الأغراض التي نرمي إليها اليوم فهي قاصرة لأنها تقف عن أن تدرك كل تلك الغايات.
إن تعليم العربية عندنا يقتصر على تلقين ألفاظ غير محددة وهو يخلو من الرياضة
الجمالية التي ينبغي أن نرمي إليها. أما وجهتها النفعية فهي لا تعلو إلى أن تكافئ حاجات كل يوم فضلاً عن حاجات النفس العميقة. ولا يستطيع معلم أن يقول أنه يتجه
اتجاهاً فكرياً في تعليم الألفاظ ولا إنه يصطنع الدقة في تلقينها إلا قليلاً
أغراضنا إذن من تعليم العربية كما نعلمها الآن غير واضحة. وهي في الحق شعبة من اتجاه الكتاب والمفكرين عندنا عامة. ولكننا نلخص الأغراض التي يجب أن تحل عندنا في التدريب العقلي أولاً وفي الرياضة الجمالية الحسية ثانياً وفي الانتفاع بها ثالثاً
احمد خاكي
فلسفة التربية
تطبيقات على التربية في مصر
للأستاذ محمد حسن ظاظا
- 13 -
(إن مصر لتدين لعظمائها الفلاحين بأكثر مما تدين لغيرهم!)
(جاكسون)
(ولابد من أن يطلب غداً أولئك الذين يخلقون ثروة الأمة شيئاً أكثر من الكلمات!)
(جاكسون)
(قد تستطيع أن تسوق الجواد إلى النهر؛ ولكنك لا تستطيع أن تجعله يشرب منه)
(مثل سائر)
التعليم الإلزامي والديمقراطية - 3
رأيت في المقال الماضي انقسام عقلية المثقفين القلائل في الأمة إلى معسكرين متباعدين، وتبينت ما في ذلك الانقسام من ضعف يؤثر في وحدة الأمة ويعرقل نهضتها، وسترى اليوم ناحية أخرى هامة وخطيرة هي ناحية التعليم الإلزامي. . .
كلمة الديمقراطية - 1
وأحسب أنك تدري تماماً كلمة الديمقراطية في ذلك المجال بعد كل ما قدمنا من قول! بل وأحسب أنك تذكر يقيناً عبارة الرئيس (وشنطن) في المقال الماضي، وما

فيها من مبدأ عظيم يجعل مقياس نجاح الحكومة منحصراً في دائرة زيادة خير أولئك الذين لا تكاد توجد عندهم ضرورات الحياة الأولية فحسب، لا أولئك الذين عندهم الكثير وأكثر من الكثير!! وإذا فلن تعجب إذا عرفت أن الديمقراطية تطالب هنا بمساواة (الجميع) في فرصة إظهار الكفايات، وتنظر للتربية كوسيلة جوهرية تقوم للشعب مقام الصلاحية للبقاء عند الحيوان، وترتقي به من مستوى العجماوات إلى مستوى الإنسان، وتسد ما بينه وبين الطبقات الراقية من هوة سحيقة مليئة بالبؤس والشقاء، والفوضى والاضطراب؛ وتؤهله أخيراً لأن يحقق معنى الديمقراطية بمطالبها الاجتماعية والسياسية على أصح وجه تنشده هذه الحياة!

2 - التعليم الحاضر

فترى هل حقق التعليم الإلزامي المصري الحاضر مطالب الديمقراطية الصحيحة أو نهج على الأقل نهجاً قويماً نحو تحقيقها؟ ذلك هو السؤال الذي يجب أن نسأله، والذي ينبغي أن نستمع فيه لإجابة النظار والمدرسين والفلاحين قبل أن نستمع لإجابة النواحي الأخرى، والذي يجب أن نستوحي في فحصه مبادئ الديمقراطية أكثر مما نستوحيها في غيره، فترى ماذا عسى أن يكون الجواب؟

أحسب الأمر واضحاً لا يحتاج إلى جلاء، فأكثر من خمسة وثمانين في المائة من سكان هذا البلد أميون بكل ما في الأمية من معنى الفقر الأدبي المروع، وميزانية التعليم الإلزامي ضئيلة إذا قيست بميزانية بعض النواحي الأخرى التي تقل عنها في الضرورة والخطورة؛ هذا إلى أننا كثيراً ما نبعثر ألوف الجنيهات في الكماليات التافهة غير ناظرين إلى حاجة مثل هذا التعليم إليها، ومع ذلك فتعلمنا الإلزامي الحاضر ما يزال مشوباً بألوان من النقص يسيرة وعسيرة، وحسبك أن تعلم أولا أن (مبدأ المساواة في فرصة إظهار الكفايات) مهدوم حياله من أساسه لأن المتخرج منه لا يستطيع قط أن يطرق باب التعليم الابتدائي وما بعده من فني أو ثانوي أو جامعي إلا فيما شذ وندر، وبذلك أصبح الذكاء الشعبي محروماً من الدخول في حومة الثقافة الراقية الواسعة والتلذذ بما فيها من نعيم، وخدمة الوطن عن طريقها خدمة نافعة! ثم حسبك أن تعلم أن أحد نظار مدارس هذا التعليم قد كتب إلي مقرراً أشياء كثيرة خطيرة، أهمها قلة مرتبات المدرسين بالقياس إلى عملهم المرهق الذي كثيراً ما يقفز إلى 48 حصة في الأسبوع!! وكثرة أعمال الناظر (أو رئيس المكتب) الإدارية إلى جانب أعماله كمدرس مما يحول بينه وبين القيام بواجبه على النحو المنشود، وسوء أماكن الدراسة وقذارتها وعدم وجود الأفنية والمظلات، وتعسف حضرات المفتشين أحياناً وأخذهم المدرس باللوم أمام التلاميذ!! وجمع الكتب من الأولاد في آخر الدرس، وعدم اتفاق بعض هذه الكتب ومادة المنهج المرسوم!! ثم خروج المتخرج منها أخيراً دون أن يحذق ابسط تعاليمها وهي القراءة والكتابة، نظراً لحشو المنهج بالمعلومات غير اللازمة من ناحية، ولعدم استطاعة المدرسين البؤساء التعساء القيام بمهنتهم كما ينبغي من ناحية أخرى.!!. .

هذا وقد بحث الأستاذ (جاكسون) تلك الناحية في رسالته الآنفة فراح يقول: كيف يكون التعليم مجدياً وهو إلزامي بكل ما في الإلزام من معنى؟ إن التعليم الحق هو ما أتى من (الداخل) فحسب، وكل تعليم لم يأت من هذه الناحية لا يكون أكثر من طلاء خارجي كله تشدق بالألفاظ وغرور وكبرياء لا يجديان فتيلا. ولذلك ما يلبث أن يسقط غير تارك وراءه إلا المكر والإجرام إذا لم يحل محله غرس خلقي متين، وإذاً فكان الأفضل أن يترك القروي في مثل هذه الحال ليتعلم من الرياح والنجوم والذوق العام، وأن يبقى أمياً بريئاً ساذجاً لا يعرف كيف يعلو على أهله ويحتقر الفأس والأرض، ولا كيف ينزح إلى المدينة ليعيش عيشة أرقى وأنظف!!

لذلك كله لم يستسغ الآباء بعد هذا التعليم ولم يشعروا شعوراً كافياً بالحاجة القصوى إليه، ويساعدهم على ذلك ضعف الدعاية اللازمة، وعدم جاذبية المدرسة، واشتراك الناظر والمدرسين في صب هذا (الإلزام) على رؤوسهم ورؤوس أولادهم

3 - العلاج

وينحصر العلاج الناجع الذي يراه الدكتور (جاكسون) لتدارك هذا الموقف في ناحيتين.

الأولى تغيير المنهج بحيث يلائم حاجات البيئة ولا يبدو كأنه مفروض من سلطة متعسفة؛ ويتأتى ذلك باشتماله على دراسة عملية للتربة أو الدورة الزراعية، وأنواع

الأسمدة، وحياة الحشرات والنباتات والزهور، والقيم الغذائية للمواد المختلفة، وأصول صحة المنزل في الدائرة القروية الممكنة؛ كل ذلك إلى جانب القراءة والكتابة والمعلومات الأخرى التي تقرب بينه وبين الطبقات الأرقى وتحببه في العمل والعاملين، وتسد الهوة بينه وبين أبناء الأثرياء المنعمين!

أما الناحية الثانية: فتتلخص في دعاية واسعة النطاق غايتها تحبيب الشعب في ذلك التعليم بكل الوسائل حتى لا يكون هناك إلزام بالمعنى المكروه. ويحسن أن تكون هذه الدعاية عن طريق زعماء الشعب أنفسهم ونوابه وكل من يجلهم ويقدر كلمتهم، آناً بالحضور الشخصي وآناً بالإذاعة، كما يحسن أن يشترك في هذه الدعاية أغنياء القرى وذوو النفوذ بها، وأن تصطحب الدعوة فكرة دينية أو وطنية، وأن يقضي فيها نهائياً على القول القائل بأن معنى التعليم هو إلقاء الفأس وإمساك القلم؛ وبهذا وبغيره يصبح التعليم ضرورة لدى الفلاح، فيسعى إليه بنفسه، ويعتبره فريضة دينية أو وطنية!

4 - الحاجة إلى مدارس جديدة

على أن الإصلاح لا ينبغي أن يقف عند هذا الحد. إذ يجب أن يختلف تعليم القرية تماماً تبعاً لاختلاف بيئتها، ويجب أن يكون المحور الأساسي فيه هو ربط عمل المدرسة بعمل الحقل، ويجب أن تتجدد المدرسة ذاتها في نظامها العام والخاص تجدداً يزيل طابعها القديم في نفوس الفلاحين. يجب أن يكون البناء جذاباً ويجب أن تزداد الثقافة الفنية للمدرسين على نحو خاص يمكنهم من النجاح التام في أداء مهمتهم العظيمة الخطيرة ويجب أن يكون بالمدرسة استعداد تام للخدمة الطبية، وأن يكون التعليم الديني بها على وجه منتج ومفيد لا مجرد آيات تقرأ وتحفظ فحسب؛ هذا إلى وجوب نزول المدرسين بها إلى العمل مع التلاميذ حتى يضربوا لهم المثل الصالح في حب العمل وتقديره، والى وجوب تزويد كل ولد أو بنت بكتب الحفظ كالدين والأدب والعلم، على أن يكون بالمدرسة ذاتها مكتبة عامة للتلاميذ والأهالي والخريجين جميعاً. . .

ذلك من ناحية، ومن ناحية أخرى ماذا يمنع أن تكون المدرسة مركزاً لتعليم الآباء والأمهات تعليماً خاصاً، ولإدخال السرور والابتهاج على أهالي القرية بما تقيمه في الآن بعد الآخر من مباريات طريفة؟ وماذا يحول بين رجالها وبين جمع الحكم والأغاني والذكريات والأشغال المحلية بين جدرانها حتى يخرج التلميذ عارفاً بحياة بيئته وبتاريخها وبشتى نواحي النشاط فيها؟ إننا بهذه الطريقة نجعل المدرسة خير صديق للقرية، ونجعل الحياة في القرية ذاتها محبوبة لا تدعو إلى تفضيل حياة المدينة عليها

قد يقول قائل إن هذا مشروع ضخم وفي القطر حوالي ثلاثة آلاف وأربعمائة قرية! وهو بالفعل كذلك ولكنه بعد ضرورة ملحة في القرن العشرين! قرن المدينة والنور! وإذا فلتضغط الحكومة مصروفاتها الكمالية ضغطاً، فإنها إن فعلت استطاعت - مع الخطة الحكيمة - أن تنفذ هذا المشروع في بضع سنين!

5 - تعليم البالغين في السويد وإنجلترا

أما تعليم البالغين فيتطلب مجهوداً آخر. وهاهي السويد قد أسست حوالي 54 مدرسة لإشغال فراغهم بدراسة اللغة والاقتصاد المنزلي والرياضة والموسيقى وأشغال الإبرة والخشب والمعادن. وهاهي إنجلترا تبعث بمحاضر كفؤ ليحاضر طلبة أمثال هذه المدارس بها في شئون عامة كالطفولة والتمريض، وآداب اللياقة ونحوها، وكثيراً ما يستعان هناك بالراديو في نشر الثقافة القروية الملائمة

فنرى ماذا يمنع مصر من الأخذ بمثل هذا النظام؟ وكيف السبيل إلى الاستفادة من مشروع (المجموعات القروية) مثلا إذا لم توجد أولا العقول المتهيئة للاستفادة والفهم؟

خاتمة

يجب إذاً أن نتيح للفلاح حياة أرقى، وألا نتخذ من عدم شكواه وسيلة إلى إهماله. أن النور سيطرق بابه عاجلا أو آجلا، وسوف لا يرضى حينئذ بحظه الراهن قط. بل هو على النقيض سيطالب بحياة اكثر تنوعاً، وبعمل اقل ارهاقاً، وبفرصة لكفاح أبنائه اكثر اتساعاً. نعم لا بد من يطلب غداً أولئك الذين يخلقون ثروة الأمة شيئاً اكثر من الكلمات!.

(يتبع)

محمد حسن ظاظا
مدرس الفلسفة بالمدارس الثانوية الأميرية
رسالة الأديب إلى الحياة العربية
للكاتبة النابغة الآنسة (مي)
نبشر أصدقاء (مي) وعشاق أدبها بانكشاف الغمة عن صحتها وحريتها؛ فقد استطاعت)
أن تلقي هذه المحاضرة القيمة في 22 من شهر مارس في العروة الوثقى بالجامعة
الأمريكية على حفل حاشد من أعيان الفضل والأدب فكانت أقطع الحجج على ما
أرجف به المرجفون من أصحاب الهوى والطمع. وإنا ليسرنا أن ننقل إلى قراء الرسالة
هذه المحاضرة عن جريدة المكشوف اللبنانية ليروا أن (مي) لا تزال على عهدهم بها
(تشع بالنور، وتنفح بالعطر، وتنبض بالحياة
سلاماً يا وست هول، يا موطن الفكر والرأي والحياة المنظمة في كرامة وحرية! كم
من مرة جلست بالخيال بين جدرانك أتبادل والجمع الحاشد قوة الحيوية، وآخذ قسطي
مما يعج في فضائك من فائدة علمية واجتماعية! كم من مرة عدت بالذكرى إليك
وأصغي بخشوع إلى رسالات الفضل والعلم والتهذيب يتلوها هنا العلماء والمفكرون
!والمصلحون
سلاماً أيتها (العروة الوثقى)، الساهرة على وظيفتك في تنوير الأفهام، الحريصة على
غايتك في أحكام الرابطة العلمية والأدبية بين أقطار الشرق العربي! كم من صيحة
أرسلها أقطابك وأتباعك وأنصارك من على هذا المنبر المضياف، فمضت كالطير تسبح
في القريب والبعيد من الأجواء حاملة رسالة العلم الصادق والبحث الرصين والخير
العميم، فكونت في أوساط قضية مواطن للفكر والرأي والحياة المنظمة في كرامة
!وحرية
ولئن أنا شكرت لك تشريفي بدعوتك واقتراح الموضوع، فإني كذلك شاكرة لأنك
أفسحت لي مكاناً كريماً بين كرام ضيوفك، عاملة بيدك القوية الوفية على أحكام
.الرابطة بيني وبين قومي؛ وأشكر لكم أيها السادة والسيدات تفضلكم بالحضور
إن اسم (العروة الوثقى) يلهم الفرد أنه ينقلب أمة عندما يخاطب الأمة
وما أجمله موعداً موعدنا الليلة! فنحن في مطلع الربيع، إذ باشرت الأرض إخراج زينتها
وعرض مباهجها، ونشرت السماء كواكبها وشموسها وأقمارها وضاءة في رحيب
الأفلاك، وسرت الحياة نامية في فتى الغصون، واهتزت الأرواح مترنحة لاستيعاب جديد
النفحات. كذلك الشعوب العربية استيقضت من شتاء حالك الظلام طويل الأمد،
وانبرت تستقبل
الفصل الجديد من حياتها، متعهدة براعم الأمل والمجد في نهضتها، ساعية إلى ازدهار
ثقافتها ازدهاراً عامراً بهيجاً
الربيع يزف إلى الأرض رسالته، ووست هول اليوم كما في الأمس وفي الغد، يؤدي
إلى المجتمع رسالته، و (العروة الوثقى) تواصل العالم العربي برسالتها، فماذا ترى
تكون رسالة الأديب إلى الحياة العربية؟
:أيها السادة والسيدات
إذا نحن تنحينا في بحثنا عن الرسالة المثلى، رسالة الأنبياء، وجدنا أن الرسالة في
معناها الضيق هي الصفحة التي يكتب فيها الكلام المرسل؛ بيد أن معنى الرسالة
أرحب من ذلك وأشمل، إذ لكل فرد، وكل كائن، وكل شئ، رسالته في معرض الوجود:
فالشمس تؤدي رسالتها نوراً وحياة والزهرة تؤدي رسالتها عطراً ووسامة، والجبال
والوهاد تؤدي رسالتها تبياناً لطبقات الأرض وتنوع الخليقة، والمروج والسهول تؤدي
رسالتها خصباً وغذاء، والسبل تؤدي رسالة الحركة والانتقال، والانتقال يؤدي رسالة
الأخذ والعطاء والتعاون المتبادل بين الأحياء
ولكل جمهرة من الناس في كل بقعة من بقاع الأرض شؤون عدة، إذا ما عولجت
واستثمرت ونظمت وحسن التصرف فيها، أصبحت تلك الجمهرة شعباً فأمة، وصارت
تلك البقعة بلداً فدولة، وفي كل بلد صناعة، وتجارة، وعمارة، وميكانيكا، وإدارة،
وقوانين
ولكل أمة عادات وتقاليد وتاريخ وتربية وحكمة وثقافة وآداب وفنون. الشؤون
المحسوسة، على تعددها وعلى ما بينها من فروق، متشابهة واحدة في كل قطر؛

وأخص خصائص الوحدة والتشابه نجده في التقدم العلمي والميكانيكي، وفي الحضارة الآلية السائدة في كل مكان

ترى ما هو الفرق بين مخاطب بالتلفون، ومخاطب بالتلفون؟ بين مستمع إلى إذاعة راديو، ومستمع إلى إذاعة راديو؟ وبين راكب دراجة أو سيارة أو طيارة، وراكب دراجة أو سيارة أو طيارة؟ ليس من فرق بينهما من حيث الخدمة التي تؤديها الآلة. أجل، ثمة فرق في الغرض الذي نستخدم له الآلة؛ وهذا ليس موضوع البحث؛ إنما الفرق كل الفرق في الشخصية التي تستعمل الآلة؛ والشخصية لا تتكون إلا من العوامل الأدبية: التاريخ،

الاختبار، الذكرى، اللغة، الفن، الأدب.

الأدب إذن من أهم المقومات للشخصية؛ وربما كان الأصح أن أقول انه حجر الزاوية في تكوين الذاتية الفردية والذاتية القومية بالتبع. والفرق بين الشخصية والذاتية فيما أظن هو أن الشخصية تتكون مما يحيط بنا ويتقلب علينا من شؤون وأحوال، في حين أن الذاتية هي ما نظل عليه دائماً في صميمنا في جميع الشؤون وفي جميع الأحوال.

فما أبعدنا بهذا التعريف عن التعريف الشائع أن الأدب هو المستظرف من الشعر والنثر، وأنه صناعة لفظية حذقت حيلة النكتة والتورية، واستسيغت منها البلاغة والحلاوة في وصف مجالس الانس، وتصوير جمال النساء، وشرح لواعج الحب والغرام. كل هذا من الأدب بلا ريب، وله أهميته، وهو ذو إغراء؛ ولكنه وجه فقط من الوجوه العديدة في الأدب. ولئن اقتصر كل من العلوم والمعارف على نفسه دون غيره تقريبا، فميزة الأدب في أنه يحتضن الكثير من المعارف والعلوم، وله أن يتغذى بها جميعاً ليعالجها على طريقته الخاصة، فلا يكون بعد إلا أدباً.

ولكم كانت المنتجات الأدبية والصور الخيالية سابقة للبحث العلمي ومعينته على الخروج من حيز القياس والافتراض إلى حيز التطبيق العملي والاختراع! أليس أن شاعرية الشعراء طارت إلى أجواز الفضاء قروناً طوالاً قبل اختراع الطيارات؟ وفيالق العشاق (والعشاق شعراء وأدباء دواماً)، ألم تناج أرواح الأحباب برغم شاسع الأبعاد قبل أن يصبح الراديو أداة من أدوات المنزل؟ ومن ذا الذي يقرأ ولو كتاباً واحداً من كتب الأديب الفرنسي جول فرن الذي وصف الانطلاق من الأرض إلى القمر وصفاً علمياً قبل أن يقوم علماء الستراتوسفير برحلاتهم الجوية، وحدث عن سلك أعماق البحار في سفن ذات أجهزة ميكانيكية دقيقة قبل أن تحتوي أساطيل الدول على غواصات ترقب ما يجري في قلب اليم وعلى صفحة الماء؟ من ذا الذي لا يذكر الكاتب الإنكليزي المعاصر ولز، ومؤلفاته ذات الصبغة العلمية المتنبئة بمستقبل حياة ميكانيكية صرفة تترتب عليها حياة اجتماعية متوافقة؟ لست من أشياع ولز، ولكني أشير إلى نظرياته شاهداً على رحاب الميدان للأدب

وإذا نحن عدنا إلى الكتب الدينية الثلاثة: التوراة، والإنجيل، والقرآن، وجدناها متفقة على جعل الفردوس الأرضي في شرقنا الأدنى. فكان لنا أن نقول إن مجد الآداب كمجد النبوات

وكمجد الحضارات اشرق من بلادنا، وكانت اللغات السامية أول أداة للإفصاح عنه.

التوراة مليئة باللهجة الأدبية. والتوراة كتبت أولا باللغة العبرية. والإنجيل ملئ باللهجة الأدبية؛ والسيد المسيح تكلم بالآرامية والسريانية والعبرية، قبل أن يكتب الإنجيل باليونانية واللاتينية لينقل بعدئذ إلى مختلف اللغات. والقرآن ملئ باللهجة الأدبية؛ والقرآن هو الكتاب العربي المبين والمستودع الخالد لهذه اللغة التي لا تموت مهما توالت عليها القرون وتناهبتها تصاريف الحدثان

ترون من كل هذا معشر الشرقيين عريقون في الأدب، وإن أدياننا عمدت إلى اللهجة الأدبية لتكون أسرع اتصالاً بالنفوس وأبرع استيلاء على المشاعر. ولئن أجمع نفر من علماء اللغات في الغرب على أن اللغات السامية حماسية، غنائية، بيانية، خطابية، أكثر منها اختصاصية علمية ميكانيكية، فنحن نعتز بذلك. لأن اللغة الأدبية هي لغة النفس، لغة الجوهر، لغة البقاء. واللغة المحتوية على الجوهر لا تضيق دون العرض والطارئ والإضافي. وليس لنا إلا أن نتابع الجهود التي باشرناها أفراداً وجماعات علمية - ناهجين نهج أسلافنا الذين نسخوا وترجموا ونحتوا واشتقوا وعربوا - لنجعل أداة اللغة كافية وافية في تأدية كل مستحدث من المعاني والمسميات والاختراعات العصرية. ولنا من

اتساع اللغة ومرونتها ما يمكننا من صوغ المفردات وسبك القوالب على طريقة ترضي من الناحية الواحدة مولانا سيبويه، وترضي الواقع والذوق من الناحية الأخرى، فلا يكون اسم الراديو مثلاً: الطمطمان، ولا يكون التلفون: أرريزاً

ومعلوم أن الأدب كاللغة، حليف التقهقر والتطور في الشعوب التي تعالجه. وآدابنا في تاريخها الطويل أصدق شاهد على صحة هذه النظرية لأنها ازدهرت ثم لازمها الجمود وفقاً لارتفاع الدول العربية وهبوطها. وصدق تلك النظرية أظهر ما يكون في عصرنا الحاضر.

نظرة إلى البلدان العربية، فماذا نرى؟ بعد هجعة ثلاثة قرون أو تزيد استيقضت الشعوب العربية، وحركات اليقظة لا تكون منتظمة في بادئ الأمر، وإرادة المستيقظ لا تكون مستقرة ثابته، وبصيرته تظل وقتاً ما غائمة غير صافية ولا نافذة. المستيقظ يلبث حيناً حائراً بين خيالات الليل وحقائق النهار، ولكن كم في خيالات الليل من حقيقة، وكم في حقائق النهار من خيال شعوبنا على همتها وتحفزها ما زالت قلقة مضطربة، وأدبنا على

وفرة جهوده وغزارة مادته ما فتئ مضعضعاً، غير واثق من نفسه، غير مستقر. فما هي حاجتنا اليوم من الناحية الأدبية؟

إذا كان الأدب صورة للشخصية العامة من خلال الشخصية الفردية الخاصة بحسناتها وسيئاتها، بحوافزها ومعلوماتها، بنورها وظلامها، بتقاليدها وأوهامها، بخوالجها وممكناتها، بيأسها ورجائها - إذا صح ذلك، وهو صحيح - فنحن نحتاج اليوم إلى صوت الأديب والى رسالة الأديب.

المعترضون يقولون: ولكن الأقطار العربية متعددة ولكل قطر حياته الخاصة ولهجته الخاصة. أفيكون إذن لكل قطر أدبه الخاص؟

كيف لا؟ وهل غير ذلك في الامكان؟ أو ليس هذا هو شأن سائر الآداب؟ أو تتكون الثروة الأدبية واسعة في اللغة الواحدة إلا بتعداد الآداب المحلية وتنوعها؟ أو ليس لكل من أمريكا، مثلا، وإنكلترا واسكوتلاندا وإيرلندا، أدب خاص مجموعها يكون آداب اللغة الإنكليزية عموماً؟ وفي كل هاتيك الأقطار الغربية لهجة محلية هي اللغة الإنكليزية، والشعب يتخاطب بلهجته وباللغة الإنكليزية، ويكتب بهذه اللغة وبتلك اللهجة على السواء. فعلام نحن نشكو مما يراه الآخرون شيئاً جد عادي؟ ومن المشاكل والمصالح والآلام والآمال ما هو مشترك بين جميع البلاد العربية. فرب زفرة حزن أو صيحة استبسال وجدت صداها متردداً في ملايين القلوب العربية ورب رسالة أدبية انطلقت من قطر واحد، فاجتاحت عديد الأقطار العربية المتناثرة من شواطئ الاطلانطيقي إلى خليج العجم أجل، نحن في حاجة إلى أقلام تخاطبنا باللغة العربية ببيان جميل يصور شخصية الأديب، ويشرح حالة الأمم، وينشر أمامنا صحيفة الأزمنة الثلاثة: الماضي والحاضر والمستقبل. فالماضي ينبثق انبثاق الينبوع فيخصب النفوس. وكما يكتنه الأديب ذخائر الماضي فكذلك هو يطلع على شؤون الحاضر، متصلا بكبار الحوادث التي تهز قومه في النقمة وفي النعمة، في السخط وفي الرضى، وإذ يرى الحوادث داخلة في دور الغليان، والشعوب فوارة صاخبة كالحمم في فوهة البركان، وإذ يشهد الظلم والعذاب والمرض والنفاق فيبحث عن الإنصاف والصحة والصدق والانشراح - عندئذ تتم في داخله عملية عجيبة، ولا العمليات الكيميائية. يخيل إليه أن موسيقى شائعة رائعة تنطلق من الأزمنة والحوادث والشعوب موحية إليه سر الفن الجميل فينقل إلينا منها ماينقل، جاعلا لكل شئ أهمية خاصة تهز منا المشاعر، وتستثير الحماسة، وتكيف الآراء. ومن معالجة الأديب للأزمنة والحوادث والشعوب ينبعث لنا الهزيج الفتان فيلفتنا إلى أن طبيعتنا رحاباً لم نكتشفها وإن في أرواحنا ممكنات توسع أمامنا أفق الحياة.

وإذ يحدثنا الأديب عن النظريات والمذاهب والشخصيات نتحزب مختارين لها أو عليها، فننكر نظرية ونؤيد نظرية، نمقت شخصية ونحب أخرى محاولين الاندماج فيها، ندحر مذهباً وننتصر لغيره تائقين إلى نشره في الملأ مع رفاق نوليهم الثقة. كذلك الأديب يجوز بنا بحر الحياة المكفهر كسفينة استغنت عن الشراع والقلوع وعن الرياح المؤاتية. لأن له من نفسه القوة التي تسوقه إلى الأمام. وليس من اختبار يمر به إلا تأثرت به كتاباته، فلا نفتأ نتطلع إلى كل ما يحدث له متسائلين عن سر قوته في

المناعة، وعن سر قدرته في الإبداع، ذلك السر الدفين، ذلك الجوهر المكنون المعرض عن كل تأويل وتفسير، السباق إلى أجواء من التفكير والإحساس والتكوين، لا نأبه لوجودها إلا بعد أن يجول جولته فيها

وسرعان ما يتصل الحاضر بالمستقبل في فن الأديب: جيل جديد يتخرج على أثاره وعلى مؤثراته، فيشب حاملاً معه الفكرة التي تنيل الحياة قيمة في تذوق الجمال الحسي والأدبي، وفي ممارسة الجمال تأملاً وسعياً وجهاداً، رافعاً بيده مشعل الحب العتيد للوطن، وللرجاء وللتقدم، وللشهامة وللبطولة، ولإرضاء غريزة الحرية!

رسالة الأديب تعلمنا أن لكل قطر من الأقطار العربية حضارة غابرة حلت محلها الحضارة العربية ناسخة عنها وعن غيرها لتسبكها في قالبها وتدمغها بطابعها الخاص.

رسالة الأديب تعلمنا أن الغرب الحاذق عرف كيف يقتبس عن حضارتنا يوم كانت حضارته وثقافته وشيكة. ولكن ما أغزر ما استفاد وما أخصب ما انتج، وما أبدع ما ابتكر! وأن الحضارة العربية كانت الصلة المتينة بين الغرب الجديد وحضارة اللاتين والأغارقة. وهاهو ذا الغرب يرد إلينا الآن دينه كشعاع من الشكر بما ينشره بيننا من ثقافة، فعلينا أن نأخذ عنه بمثل المهارة التي أخذ بها عنا!

رسالة الأديب تعلمنا أن الحضارة الميكانيكية أدوات نستعبدها ونستخدمها، لا أدوات تستخدمنا وتستعبدنا. وأنه لا يكفي أن يضغط أمرؤ على الزر الكهربائي فينال سحري النتائج، وأن يمتطي سيارة أو طيارة فيطوى شاسع الابعاد، وأن يرقص رقصة ويصغي إلى إذاعة ويتعمل التأنق والحذلقة متكلما بخليط من لغتين أو ثلاث - لا يكفي كل ذلك ليكون شخصية ممتازة ترهب هيبتها الأكوان

رسالة الأديب تعلمنا أن الحضارة الآلية التي ألفناها ولم يكن يحلم بها أجدادنا تجعلنا اليوم أشد احتياجاً منا في الماضي إلى ثقافة أدبية تدعم الحضارة الآلية وتكون لها ركناً ركيناً. وإن هذه الحضارة الآلية المنتقلة بسرعة من بلد إلى بلد ومن جيل إلى جيل، ننعم بها - ونشقى! - دون أن يكون لنا يد فيها. أما الثقافة الأدبية فيجب أن يحصلها كل فرد يوماً فيوماً، وساعة فساعة، مدى الحياة

رسالة الأديب تعلمنا أن للعالم العربي على تعدد أقطاره وحدة واحدة تشغل مكانا فسيحاً في القارتين الآسيوية والأفريقية. ويستطيع أن يقول هذا القول علماء الجغرافيا وعلماء التاريخ وغيرهم. ولكن للأديب فناً مغرياً ينيلنا الثقافة والفائدة، بينا نحن نرتع في بحبوحة من اللذة والمتعة في جو ممغنط أخاذ هو في الواقع جو الحياة

رسالة الأديب تعلمنا أن نفاخر بلغتنا العربية الممتازة على سائر اللغات بأنها ولدت قبل لغات قديمة اندثرت منذ قرون، وما زالت العربية تفيض حياة، مجارية حتى أحدث اللغات بالقوة والمرونة والجزالة والرشاقة. كل أمة تسعى الآن إلى نشر لغتها بين الأمم الأخرى، باذلة في سبيل ذلك المال والإغراء والدعاية والجهود. أما نحن فانتشار لغتنا شئ واقع، وميزتها هذه تربط بين الأقوام العربية برباط قوي جاعلة الفرد الواحد منا ملايين

رسالة الأديب تعلمنا كيف نخلق حضارة أدبية، إذ بها لا بغيرها تقاس مواهبنا، ويسبر غور طبيعتها، وهي التي تثبت وجودنا، وتنطلق بلساننا مترجمة عن مبلغ الإنسانية فينا

رسالة الأديب تعلمنا حب العزلة والسكون، وترجعنا عن الفخفخة وهوس الظهور، فنعتكف على أنفسنا نعالج ممكناتها للظفر بمحمود النتائج. فالسنبلة المتمايلة على صفحة المروج، حاملة بشائر الحياة، لا تولد حبتها ولا تنضج إلا في أحشاء الأرض، في جو الوحدة والهدوء والكتمان

رسالة الأديب تعلمنا ألا نخشى كارثة، ولا نتهيب مغامرة. كل زمن خطير في التاريخ كان زمن اضطراب وكوارث، وأعظم فوائد الإنسانية نجمت عن عصور العذاب والخطر. الخطر مرهف، ولا يعرف شأن ذي الشأن إلا يوم الكريهة. والعاصفة لا تقتلع إلا ضعيف

الأغراس؛ أما الأشجار ذات الحيوية العصية فالأعاصير تلح عليها وتهزها هزاً عنيفاً فلا تزيدها إلا قوة ومناعة

رسالة الأديب تردنا عن عديد الشخصيات القومية التي تجذبنا من كل صوب لتركزنا في شخصياتنا القومية الأبية

رسالة الأديب تعلمنا كيف نفهم كل شئ ونستفيد من كل شئ، باحثين عن الصواب

والكمال خلال كل نقص وكل زلل، نازعين إلى الجمال الحسي والأدبي حيال كل دمامة خَلقية وخُلقية مساجلين النفوس والعناصر، مناجين المنظور وغير المنظور، لنجعل من حياة متناثرة متداعية، حياةً متناسقة متماسكة
أي شئ لا تعلمنا رسالة الأديب؟
أنها قوة تستفز قوتنا، وموهبة تحفز مواهبنا، وصرامة تردنا عن الحقارة، وبسالة تدفعنا إلى البسالة، وعذوبة تؤاسي أحزاننا، وأغرودة تطرب أشجاننا؛ وهي عالم مستقل متماسك يسوقنا إلى تكوين عالمنا المتآلف المستقل!
نحتاج إلى الأديب يأخذ منا ويعطينا، فيرسل صوته أريباً رصيناً مسيطراً أخاذاً حضاناً! ونحتاج إلى رسالة الأديب قويمة غنية عنيدة ملهمة لتوقف قوميتنا في مكانها المشروع في معرض القوميات بميدان العمران العظيم!
(مي)
التاريخ في سير أبطاله
إبراهام لنكولن
هدية الاحراج إلى عالم المدنية
للأستاذ محمود الخفيف
- 6 -
يا شباب الوادي! خذوا معاني العظمة في نسقها الأعلى من سيرة هذا العصامي العظيم
وما حيلة الطب في تواز توبق الروح، وهواجس تعمي القلب؛ وإن بدت آثار هذه وتلك في نواحي البدن عجز الطبيب، ولا عجب أن يعجز، وجاء الصديق ليفعل ما لم يستطيع الطبيب أن يفعل، وهو خبير بالعلة عليم بموضعها من نفس صاحبه
باع سبيد حانوته وعول على الرحيل إلى كنتوكي فعرض على صاحبه لنكولن أن يذهب معه إلى هناك عله يشفى مما به في تلك الاحراج التي درج منها أول ما درج. دعاه سبيد ان ينزع نفسه وجسمه من ذلك البلد الذي يكربه العيش فيه بعد أن كان منتجع آماله ومهوى خواطره، ورحل ابراهام مع صديقه وقد اخترم الهم جسده فزاده نحولاً على نحول، وزين له الشيطان أن يطلب النجاة من الحياة. . .!
ولبث في كنتوكي أياماً، لقي فيها من كرم صاحبه وكرم أمه وأخته ما هون عليه أمره شيئاً قليلاً، وصاحبه لا يفتأ يسري عنه وينصح له، وهو يشكو إليه اضطراب أعصابه ويظهره على هواجس نفسه، ويذكر له والألم يبرح به فعلته التي فعل وكان فيها غير كريم، بل وكان من الضالين. . . بيد أنه لم يلبث وقد كان يلتمس العون من صديقه أن رأى ذلك الصديق في حاجة إلى من يعينه، فقد طاف به على حين غفلة طائف من الحب ملك عليه قلبه وعقله!
وأنقلب الأمر فغدا لنكولن هو الناصح، فراح يجهد أن يهدي صاحبه حينما وسوست إليه نفسه معاني كتلك التي كانت تجول في خاطره هو: معاني الحيرة والتردد والشك. فلقد اصبح سبيد يحار في أمر حبه كما اصبح ينتابه الخور كلما اتجه فكره إلى الزواج شأنه في ذلك شأن ناصحه. وكان فيما يسديه ابراهام من نصح لصاحبه مسلاة له أو شاغل يشغله
عن وجده؛ على انه وهو في كنتوكي كتب رسالة في الانتحار ترينا أن الغمة أو اليأس كان قد أوشك أن يذهب عنه. خذ لذلك مثلا قوله: (إني لم اصنع في الحياة شيئاً يذكر أي إنسان أني عشت. ومع هذا فأن ما أعيش من اجله هو أن اربط اسمي بحوادث يومي وجيلي، وأن أقرن ذلك الاسم بصنيع فيه لمن حولي من الناس جدوى)
ولما عاد إلى سبرنجفيلد ظلت كتبه مدة اكثر من عام تترى على صاحبه، وفيها من حسن النصيحة وقوة الإقناع ورقة العاطفة ما يكشف لنا عن حقيقة نفسه ويصور نزعات وجدانه. كان يعزو ما بات صاحبه يشكو منه إلى اعتلال أعصابه والى ما تحدثه الوحشة والبعد عن الخلان وأحاديثهم في مجالس لهوهم من انقباض وضيق، والى ما تركته الوراثة في طبعه من شدة التأثر وقوة الانفعال؛ وكان يكتب ذلك في جلاء وقوة حجة هما من أبرز صفاته. وكان عجباً أن نرى مثل ذلك من لنكولن، فترى فيه العالم النفساني، والشاعر الرقيق العاطفة، وهو الذي علم نفسه بنفسه. . .!
وتزوج سبيد بعد ذلك وبقى لنكولن حيث هو، موقفه من ماري عين موقفه عقب ذلك

الفرار الشائن؛ فعاد إليه بذلك ما شغلته قصة صاحبه زمناً من هموم نفسه! واصبح فإذا ضائق بوساوسه. وزاده تبرما بحاله وإنكاراً لشأنه ما كان يسمعه من صاحبه عن سعادته الجديدة بين يدي زوجه. . . لذلك لم يكن عجيباً أن يلتمس السكينة من جديد عند فتاه ناهد كان قد عرفها قبل أن يعرف ماري. بيد أنه كان يتجه بينه وبين نفسه إلى ماري، فهو لا يستطيع أن يبتعد بخياله عنها. قال في كتاب من كتبه: (يخيل إلي أنه ينبغي أن أكون جد سعيد لولا تلك الفكرة الملازمة لي، ألا وهي أن هناك شخصاً غير سعيد عملت أنا على أن يكون كذلك. أن تلك الفكرة ما تزال تريق روحي؛ ولا معدي لي عن أن ألوم نفسي حتى على مجرد الأمل في السعادة في حين أنها على ما هي عليه)

وكان لنكولن يحدث نفسه أنها لا تزال على الرغم مما حدث بحيث يتأنى لهما أن يتصلا أنهما أرادا ذلك. وكانت هي من جانبها تحس أن ما كان منه من هجران وقطيعة قبيل ما استعدا له من زفاف قبل ذلك بعام ونصف عام لم يصل على شناعته إلى مثل الصدمة القاضية. . .

ودبر رجل من صحابتهما وزوجه أن يدعواهما إلى مأدبة على جهل كل منهما بدعوة الآخر. وتم ذلك فالتقيا وتضاحكوا جميعاً بعد أن ذهبت عن ابراهام وصاحبته ربكة المفاجأة. وكان ذلك اللقاء والخطوة الأولى نحو التئام الصدع واجتماع الشمل؛ إذ اصبح لنكولن يرى حقاً عليه أن يصلح ما افسد وأن يضع حداً لما هو فيه من ضيق وشقاء وحدث بعد ذلك أمر غريب في ذاته، على قدر غير قليل من الأهمية من حيث نتيجته: ذلك أن إبراهام، وهو الرجل الذي ملك القلوب بدماثته ورقة حاشيته، قد دخل غير متردد ولا هياب في مبارزة تدور على السيف! وكان لتلك المبارزة سبب يدهش له الإنسان أن كان مبعثه شخص مثل لنكولن! فلقد نشر ابراهام في إحدى الصحف كتاباً على لسان أرملة وجهته إلى أحد رجال السياسة تسفه فيه آراءه التي أذاعها، وكان التهكم لاذعاً والنقد قاطعاً، فأثار الكتاب فضول الناس كما أثار ضحكهم وإعجابهم؛ ووردت على الصحيفة ردود قوامها المجانة والمعابثة وكلها غفلاء من أسماء أصحابها. . . وكان لماري في هذه الردود نصيب. وثارت ثائرة ذلك السياسي وراح في المدينة يتهدد ويتوعد! وجاء صاحب الصحيفة فعنفه وتهدده بالانتقام إلا أن يعرف صاحب هذه المجانة. وعرض صاحب الصحيفة الأمر على لنكولن فقال له في غير وناء ولا استخذاء: إنه يأخذ الأمر على عاتقه، وإنه لذلك في حل من أن يذيع أسمه. وتم ذلك فكانت المبارزة. . . فلقد تحداه ذلك الساسي أن ينازله، وشاع أمر ذلك في الناس فاحتشدوا ليشهدوا ما يكون بينهما. . .

وكان لإبراهام من طوله وفتوته وقوة ساعديه ما يضمن له الفوز على منازله القصير؛ فتناول سيفاً طويلاً ولم يزد - والناس يتطلعون - على أن ضرب به غصناً فوق رأسه فألقى به بعيداً. ثم جلس وفي عينيه أنه يريد أن يلقي إليهم حديثاً وراح يحكي ويستجمع الأمثال. . .! وتداخل الناس وسووا ما كان بين المتخاصمين، وأنقلب الجد الصارم إلى فكاهة عابثة

بيد أن للحادث نصيبه من الأهمية؛ فلقد ترك في حياة لنكولن صفحة ظل يندى لها جبينه أبداً، كما حق لماري أن تتحدث إلى الناس أن إبراهام ما فعل هذا إلا دفعاً عنها وحفاظاً أن ينالها شيء من غضب ذلك السياسي. وطاب إبراهام بذلك نفساً. وقربت الأيام بينهما حتى باتا من جديد يأخذان الأهبة للزواج. وما هي إلا أيام حتى ربطهما ذلك الرباط المقدس وهو يومئذ في الثالثة والثلاثين

واستنشى ابراهام نسيم الراحة أن أخذت تتزايل هواجسه ويتضاءل هوانه على نفسه، وأخذت تعود إليه ثقته بتلك النفس سيرتها الأولى، وأن كان الذين شهدوا العروسين حين عُقدَ قرانهما رأوا لنكولن وعلى وجه سحابة من الكآبة والوجوم كانت تتقشع حيناً على ما يتكلف من بشاشة ثم تعود فتنعقد!

وأقام لنكولن أول الأمر وعروسه الطموح المستعظمة في حجرتين صغيرتين في نزل كانا يدفعان أجراً لهما أربع دولارات كل أسبوع. وعظم ذلك على ماري فشكت إلى زوجها ولم يمض على زواجهما غير قليل، وهو يلقي إليها المعاذير مشيراً إلى ضيق رزقه والى ما لا يزال يقتضيه الوفاء من ديونه. . . وبسط الله له رزقه بعض البسط،

فأنتقل الزوجان إلى بيت صغير استطاعا أن يدفعا في غير عسر أجر إقامتهما فيه وأخذت ماري في بيتها الجديد تدبر شؤونه وترعى امره، وقد اتخذت لنفسها سلطة ربة البيت لا تتنازل عنها فيما عظم أو هان من الأمور، حتى لقد كانت تأخذ زوجها بألوان من الشدة والعنف حينما كانت تدعوه إلى كيت وتصرفه عن كيت، ورائدها في ذلك النظام كأدق ما يكون النظام. وكان يصل بها الغضب أحياناً إلى هياج شديد، وذلك حين كانت ترى من بعلها أن يأبى إلا أن يرسل نفسه عن سجيتها، فكثيراً ما لا يعبأ بما صالح الناس عليه أذواقهم من أوضاع وتقاليد يلزمونها وهم جلوس إلى مائدة الطعام، أو وهم سامرون في الثوى. وهل كان يستطيع ابن الاحراج أن يتكلف ما لم يجر في طبعه؟ ولكن امرأته لا تفتأ توجهه إلى العناية بهندامه وتحثه على النظام وانه ذلك خليق به وله في الناس مكانته؛ وهي تريده على أن يحمل الأمر على الجد وهو يجاريها ليخفف من حدتها ثم لا يستطيع بعد ذلك أن يغير من طبعه. وكان إذا اشتد بها الغضب يلاطفها ويضاحكها ليصرف عنها غيظها، فإن عجز عن ذلك خرج من المنزل فمشى ساعة أو بعض ساعة. . . وحق لزوجه أحياناً أن تغضب منه؛ فهو سخي اليد وأن كانت به خصاصة، وهي لا تريد أن تبسط يدها إلا بقدر ما تستطيع. وهو يلقي الناس في البيت في هيئة تنم على عدم المبالاة، فثيابه متهدلة وشعره أشعث، وعباراته ساذجة، وهو يستلقي على ظهره أحياناً ويتمدد على الأرض وفي يده كتاب لا يصرف وجه عنه؛ ويتدخل أحياناً فيما ليس من أمره فيحلب البقر في الحديقة، ويحمل اللبن في وعائه بين يديه ويهرول به إلى الدار على أعين السابلة والجيران!

ولكن زوجه على الرغم من ذلك تحبه وتكبره، وتنتظر ما يخبئه له الغد من جاه وسلطان كأنها تعلم الغيب أو كأنها ترى ما لا يراه الناس. وكتب لنكولن إلى صديقه سبيد ينبئه أنه رضي النفس قرير العين، ويعتذر له من عدم زيارته إياه بفقره وشواغله، ثم يبشره أن قد صار لهما غلام. . .

ذلك ما كان من أمر لنكولن فيما هو متصل بحياته الشخصية؛ بيد أن زواجه من تلك المرأة كان حادثاً عظيم الأهمية في حياته؛ فلقد مر بك من صفاتها أنها امرأة ذات طمع وطموح. وأنها كانت ترى بما يشبه اللقانة الطريق المؤدية إلى عليا المراتب، وما كانت تقنع بما هو دون مرتبة الرياسة! لذلك كانت خير معين حين تقدمت خطواته في ميدان السياسة. وكثيراً ما كانت ترده إلى الطريق السوي إن هو أوشك أن يتنكبها. ويتجلى ذلك في عدة مواقف سيأتي حديثها بعد حين. . . نرجع بالحديث بعد ذلك إلى حياته العامة في السياسة والمحاماة. أما في السياسة فقد ظل ينتخب نائباً عن سنجمون، كلما تجدد الانتخاب، حتى لقد ظفر بثقة الناس أربع مرات متوالية. وأما في المحاماة فقد تركه شريكه ستيوارت إلى وشنطن حيث اتخذ مقعده في المجلس العام للولايات؛ فعمل مع شريك آخر قبل زواجه من ماري بثلاث سنوات؛ وكان هذا الشريك يدعى لوجان، وكان لوجان من أكبر المحامين شهرة في المدينة، وكان له من صفات النظام والدقة والإلمام بأوضاع المهنة ومطالبها ما كان يعوز صاحبه لنكولن. وكانت له في العمل الرياسة. ورضى لنكولن بمكانه منه ولم يجد في ذلك غضاضة إذ لم يكن منه بد؛ وأخذ يتعلم عنه ويكتسب بمصاحبته المرانة والخبرة؛ وهو قانع بنصيبه من الأجر، وأن كان يرى من زميله أنه لا يعدل في ذلك وأن كان لا يميل كل الميل. ولم يكن ثمة ما يحول دون استمرارهما معاً لولا أن فرقت بينهما ريح السياسة إذ كان كل منهما ينتمي إلى حزب يخالف الحزب الآخر. . .

ولما قضي الأمر بينه وبين لوجان، دخل له زميلاً آخر. وكان هذا الزميل شاباً دونه في العمر بعشرة أعوام اسمه هرندن. وكان هرندن هذا من أشد الناس إعجاباً بأبراهام ومن أعظمهم محبة له وإكباراً، فتوثقت عرى الصداقة. وكانت لإبراهام الرياسة هذه المرة، وعظمت ثقة كل من الرجلين بصاحبه. وكان أصغرهما موفور الحظ من النشاط والذكاء، كما كان كزميله في مذهبه السياسي ومن الداعين إلى القضاء على العبيد. . .

وعرف ابراهام في المحاماة بما لم يعرف به أحد قبله في المدينة؛ فهو بسيط في كل شئ، يجعل الأمر أمر ذمة وإخلاص قبل أن يكون أمر قانون ومغالبة؛ وينظر في تنازع الناس نظرات يوحي بها قلبه قبل أن يرسمها عقله. يرد كل شئ إلى طبيعته إذ كان

يقيس الأمور بما كان يدور في نفسه، ولا يتردد أن يفصل بين المتنازعين بما لو فكر فيه غيره لعده من ضروب الخيال والوهن. . . ولكن لنكولن كان له من إنسانيته خير سند، ومن حسن طويته خيرها

جاءه ذات مرة رجل يطلب إليه أن يدافع عنه ليرد له مبلغاً من المال عند خصم له؛ فلما سمع لنكولن قضيته قال: (أني أستطيع أن اربح قضيتك وأعيد إليك تلك الدولارات الستمائة، ولكني أن فعلت ذلك جلبت الشقاء إلى أسرة أمينة، ولن أستطيع أن أتبين سبيلي إلى ذلك. لذلك أحس فيّ الميل إلى أن أنصرف عن قضيتك وأجرك. على أني أبثك نصيحة لا أسألك عليها أجراً: اذهب إلى بيتك ففكر في طريقة نزيهة تكسب بها ستمائة دولار). . . بذلك وبأمثاله اتخذ ايب الأمين سبيله إلى قلوب الناس، فما منهم إلا مكبره ومحبه. وكان الناس يجيئونه ليحكموه فيما شجر بينهم، وكلا الخصمين يعلن أنه راض بما يقول سلفاً؛ وسرعان ما كان يحسم النزاع بينهم كأنهم منه حيال قاض لا محام! وهو لا يسألهم أجراً على ذلك، وحسبه من الأجر منزلته في قلوبهم. . .

وكان يرفع الكلفة بينه وبين الناس كأنه أحدهم مهما كانت درجتهم؛ وكذلك كان يفعل مع صاحبه هريدن، فهو لا يستحي أن يسأله ويستفهمه أن أشكل عليه أمر أو التوت عليه فكرة كأنه تابعه! فإذا ساق إليه الله رزقاً عده وقسمه نصفين ونادى صاحبه: (هذا نصفك)؛ كل ذلك دون أن يكتب شيئاً أو يطلب من صاحبه كتابة، فما كانت بهما حاجة إلى ذلك وكلاهما يبذل من الإخلاص والود بقدر ما يبذل صديقه

وكان صديقه يراه الناس في المحكمة يدس أوراقه في جيبه حتى لينبعج وينتفخ، ويرونه يدسها في قبعته كأنه يجعل منها قبعة وحقيبة. كان لا يعني في شيء بمظهر وإن حرص كل الحرص في كل شيء على الجوهر. . . وكان في عمله كما كان في منزله، يأبى إلا أن يرسل النفس على سجيتها؛ وسيظل كذلك حتى تتحقق له كبرى الرياسات. . ولله ما كان

اعظم تلك البساطة منه في كل شيء! وهل ثمة بين المتكلف المتصنع وبين الصعلوك من كبير فرق؟ إن أمرهما واحد فيما أرى وإن بلغ من تمويه أولهما ما يكفي لأن يحجب عن الأعين حقيقته. . .

(يتبع)

الخفيف

حلبي يزور باريس

في سنة 1867

للدكتور حسين فوزي

تتمة ما نشر في العدد 245

وينتقل بنا الخواجا فرنسيس من أشور لمصر ليونان لروما، فيقول في فلاسفة الإغريق:

فذاك أرسطو وذا إقليدس ... ذو منطق هذا وذا مهندس

وهو ذا سقراط ذاك الأنفس ... من كان للآداب دوماً يغرس

ثم يكون من سوء حظ ديوجنيس أن يجئ في الشطرة الخامسة، فتسلبه القافية الرائية مصباحه، ولا يبقى له من فلسفته الكاتبة إلا أن يكون:

وذا ديوجنيس ذو التعرّي!

ورحالتنا رجل حساس بجمال فن التصوير، فهو يأمرنا:

أن نعرج نحو مكان الصور ... حتى نرى أجمل صنع البشر

حيث عينه الفنانة لا تخفي عليها خافية:

فهاك كل بطل مبارز ... يلوح في أعضائه البوارز

وكل خود ذات طرف غامز ... وأجفن عن الهوى روامز

وطلعة تخسف وجه البدر

لا شك أنك تعبت من التجوال - أو من الشعر! - والخواجا فرنسيس يشعر بذلك تواً، فهو يلاحقك بشعره الفلسفي إذ يقول:

تبا لنفس حظها يصرعها ... وكل ما يلزها (كذا!) يلذعها

آفتها تضجر يتبعها ... فأينما سارت أتى يصفعها

وربما يلحقها للقبر

أظن أننا لن ننتهي بسلام من خمسمائية المعلم فرنسيس، وقد تكفي الإشارة إلى أنه ينتقل بك فيها من حديقة (اللوكسمبور) إلى متحف (كلسوني) ومن دار البلدية إلى (بولفار ميخائيل إلى لقا ينبوعه الجميل). ولا ينسى أن يعرج بك على حديقة النبات ومتحف
التاريخ الطبيعي حيث يدور شعراً في أقسامه من الجيولوجيا، إلى المعادن، إلى النبات، إلى الحيوان. ثم هو يأخذ بيدك إلى متحف (الفنون والصناعات)، وينتهي بك إلى باريس في الليل حيث يرى (الكل يمشون بها أزواجاً - ويدخلون في الصفا أزواجاً) والآن وقد اجتزنا محنة شعر الخواجا فرنسيس، يمكننا أن نتمتع دون وجل ببقية نثره. فنعود إليه في أول وصوله إلى باريس عند (انفلاق الصباح) تلك المدينة ذات الشوارع (رحبة العرض، مستقيمة الطول، حسنة التمهيد والتخطيط. . . جامعة لكل شروط النظافة والإتقان. فلا يقوم هناك للجيف الطاعونية انبعاث، ولا للأقزاز (كذا) الوبائية حشر) - لا شك أن صورة عمران العثمانيون لسوريا ماثلة لعين الحلبي المسكين وهو يكتب هذه الفقرة!
ودخل رحالتنا إلى مسارح باريس التمثيلية منها والغنائية، فوجد الفرنسيين فيها (جامعين إلى دست واحد ما تفرقت قطعه في رقاع السنين. وهكذا يحلون هذه الاستحضارات (ليفكرن صاحبنا بالمندل) والاستظهارات بقلايد الآداب، وفصاحة اللغة ويرخمونها بآلات الطرب وحسن الصوت، بحيث أن المشاهد لا يعود يدري بأي حاسة يستقبل وقوع الطرب (بحاسة الشم غالباً!) أبعينه أم بأذنه. فيرحل حاملا في دماغه نهاراً من الأدوار الأدبية، وفي أعينه انبهاراً من الأضواء الطبيعية، وفي قلبه أنهاراً من ينابيع الطرب والحبور)
ولا شك أن ضوضاء باريس في 1867 كانت شديدة على آذان هذا الحلبي - ليت شعري ماذا يقول لو عاد إلى باريس سنة 1938! - (حينما تكون الأعين راتعة في تلك الآفاق الزاهرة، تكون الآذان عرضة لالتطام تموجات الضوضاء الباريسية، واصطدام تلك الرجات التي تبتلع لعلعات الرعود، وتهتضم طلقات الصواعق. فهناك ألوف المركبات مندفعة على الدوام اندفاع الأمواج إزاء مهب العواصف، وألوف صنوف العربات منسحبة وراء خيولها الجامحة (تصور ألوف الخيول الجامحة وسط المدينة العامرة!) انسحاب السحاب بأزمة الرياح)
وعن العمل والعمال والنشاط البادي في كل مظاهر الحياة: (وهناك لا يفتر صياح ربوات أعمال الأيدي مطلوقاً من أفواه الآلات والأجهزة، ولا تكف ألوف المعامل البخارية صافرة بأبواقها النارية لتدعو فرسان العقول - لاحظ اللغة التصويرية! - إلى مواصلة النزال في
حومة الإبداع والاختراع، تسديداً لواجبات القرايح، وتشييداً لنظام الجماعة. وهناك الجميع يجرون إلى الامام، الجميع يحركون، الجميع يتسارعون، الجميع يشتغلون، الجميع متعاضدون سوية، منضمون إلى قوة واحدة، للركض إلى اقتحام كل المصاعب، والوصول إلى قمة الكمال والجمال. . . فكم سرور واندهاش للأعين إذا، عندما ترى هذه الأمة الفرنساوية تتموج على بعضها كقصعة واحدة، بدون نزاع في جزئياتها، ولا انقسام في كلياتها، سابحة في بحور الأمن والسلام، بدون خوف من واثب أجنبي أو حسود غادر) ونسى الخواجا فرنسيس سياسياً في برلين اسمه بسمارك يتربص بفرنسا؛ ويرسل (أولان) بروسيا يقتحمون باريس بعد أربع سنوات من كلاعه عن (الواثب الأجنبي، والحسود الغادر)، ويعقدون تاج الإمبراطورية الألمانية على رأس غليوم الأول في قصر فرساي. لذا واصل رحالتنا كلامه عن (عدم خوف الأمة الفرنساوية من وحش مفترس، أو جبار مختلس - بالذات! - رافلة بأذيال الحرية الكاملة) - في عهد الإمبراطور نابليون الثالث تلك الحرية الكاملة!
أما عن أنوار باريس - ويقينا باريس كانت جديرة باسم (مدينة النور) حتى في ذلك الوقت - فالخواجا يحدثنا عن (الأنوار الغازية المندفعة من أفواه ربوات أنابيبها تحت أشكال ألسن نارية تدعو باردي الروح إلى الدخول في كرة التمدن المتوقدة بلهيب الحكمة والآداب)
ورحالتنا الحلبي مدرك تمام الإدراك أن (كل هذا العجيب والكمال الغريب الذي رقت إليه هذه المدينة المعظمة) إنما هو نتيجة ارتقاء (العقل عندهم في طريق التقدم

والنجاح، ولم يصعد العقل إلى القمة العالية إلا بدرج المدارس التي لا يفتر تشييدها، ولا يكف نظامها. فيوجد عندهم لكل قسم من العلوم مدرسة تحيط به وتجمع شمله جمعاً لا يقبل التفريق)

ثم هم (أقاموا في كل جانب من المدينة مكتبة عظيمة، معدة لقبول الجمهور مطلقاً. فيدخلون الناس إليها أفواجاً، ويقرءون ما يريدون، وينسخون ما يشتهون بكل راحة وهدوء بال. . .

ولما كان يوجد جانب كبير من العلوم يستلزم كونه عملياً وعيانياً بعد كونه نظرياً، فقد شادوا لذلك محلات مخصوصة يسمونها بالموزيوم، وأشحنوها من كل المواد الضرورية لدراسة موضوعها) وقد وجدها الخواجا فرنسيس مقسمة إلى ما يشتمل على (الاستحضارات التاريخية جيلاً فجيلاً، وأمة فأمة، إن يكن بالنظر إلى أعمال الأيدي، أو إلى الأديان والعقايد، أو إلى العادات. . وما يشتمل على المواد التي يتألف منها جسم الأرض وما يشتمل منها على الأجسام المشرحة مع كل أعضائها وأجهزتها حيث يتأمل الإنسان كل نواميس نموه منذ كونه دودة وليس بإنسان، إلى كونه إنسانا عظيما. . . وما يشتمل على العالم النباتي بكل طوايفه. . . أو العالم الحيواني بكل أجناسه وأنواعه. . . حتى يدرك نظام حيوة كل نوع وفرد، فيعلم أخيراً أن الحيوان كلما انتصب هيكله ارتفع نوعه. حتى إذا ما وقع رأسه عموداً على محور سلسلته كان إنساناً)

وقد رأى أن (هجوم الناس على العلوم والمعارف يشبه انحدار الغدران من أعالي الجبال. فترى الأباء يسرعون إلى وضع أولادهم في المكاتب حالا بعد فطامهم (أي والله!).)

ومن أدق ما لاحظه المعلم فرنسيس اهتمام الفرنسيين بدراسة لغتهم، إذ يجب (أن يعلم كل منهم قواعد لغته وفهم أصولها. والذي يجهل ذلك يعتبر عندهم كالحيوان العديم النطق، لعدم معرفته صحة النطق. . . وكلما ازداد الشخص معرفة وتعميقاً بلغته، ازداد اعتباراً وكرامة وارتقاء، إلى أن يجعلوه قاضياً في محكمة اللغة أقرأ: '

وكيف يرى الخواجا فرنسيس الحلبي كل ذلك ولا يفكر في ضعة الشرق وانحطاطه، أو لا يقارن بين ما ينال العالم في فرنسا وبينما يصيب من له في الشرق (هوس في العلم، فيعيش مقطوع الخرج، وربما يحتقر ويهان. ولا يحصل على شيء من الجوايز سوى قول الناس عنه: هذا نحوي بارد، أو شاعر مشعر، أو بعرفينو، أو فلفوس. وإذا كان يروي شيئاً من التاريخ يقول عنه: هذا حكاكاتي). وخواجتنا العلامة لا يدعك تتساءل عن أصل هذه الكلمات، فهو يفتح قوساً ليقول لك بأنه (يوجد كثيرون يقبلون شاعر إلى مشعر، وعارف إلى بعرفينو، وفيلسوف إلى فلفوس، وحكاياتي (كذا!) إلى حكاكاتي!)

ولقد لاحظ رحالتنا والألم يحز في فؤاده أن مركز الطلبة غير محترم في باريس. وتفسير ذلك عنده (أنه ما لم يحصل الدارس أولا على شهادة مدرسية، فأنه لا يمكنه الحصول على ثمرة دراسته وجايزة أتعابه. كما أنه بدون رنين هذه الشهادة لا يسمع أحد به، فلا يوجد له اعتبار، وربما كان ساقطاً من أعين الناس لكونه دارساً. سيما إذا كان يدرس الطب أو الشريعة). وسترى أن طلبة الطب والحقوق في عصرنا إنما يحتفظون بسمعة قدمائهم السيئة. واليك تفسير الخواجا فرنسيس، وهو ينطبق في بعضه على العصر الحاضر:

وما ذاك إلا لأن صيت درسة (طلبة) هاتين الصنعتين لا يوجد عندهم اقبح منه. ولا جرم) في شيوع هذا الصيت الردى لأنه يوجد حقيقة قسم كبير من هؤلاء الدارسين مطلوق العنان إلى ارتكاب الكباير والجرايم، عوض الانكباب على الدراسة والمطالعة. فترى جماعة هذا القسم تايهين في عالم الشهوات، وضاربين في أودية المعاصي. فهم يطوون النهار ويحيون الليل ما بين الدساكر والخمارات ومحلات الانهماك على الفساد. . . فتراهم هناك مفصومي العرى، محلولي الثياب، مشوشي الشعر. وبرانيطهم مقلوبة (إلى الوراء كأنها مجفلة من إماراتهم

وكان من سوء حظ المعلم فرنسيس أن يشهد جامعياً في داخل قاعة المحاضرات:

(وقد شهدت شيئاً من ذلك ضد أعظم معلمي النباتات عندهم. وهو أنني دخلت إلى القاعة المعدة للخطابات، حينما كان المعلم مزمعاً أن يفتح كلامه على النباتات. فرأيت المحفل مضاعف الاحتفال. أي أنني وجدت عدداً وافراً من الدارسين الذين لم

أصادفهم قط في محلات الدراسة. فحالما دخل المعلم لابساً ثيابه الرسمية، وصعد على منبر الخطابة، أخذ هؤلاء الدارسون يصيحون ضده، ويصفرون ويزمرون ويدبديون بأرجلهم حتى لم يتركوا له سبيلا للفظ كلمة. وكلما رأوا شفتيه تتحرك أو تهم على الحركة أزادوا الضوضاء والصراخات. وفي أثناء ذلك دخل رئيس المدرسة نفسه ليرجوهم أن يستمعوا لهذا المعلم. فما نجم عن دخوله سوى تضاعف مربع الحركة، ولم يلبثوا أن هبط الخطيب من منبره فانفض المجلس).

لا حاجة إلى وصف الخواجا فرنسيس بأنه رجل ساذج فقد (عرته حينئذ جمودة البهتة وصار مهوى لتيار الاقشعرار، وكان قلبه يقابل ارتجاف المحل بارتجاف الرعدة). ولدى خروجه سأل البعض عن (سبب اندفاع هذا البركان البليغ، فقيل له إن هؤلاء الدرسة يمقتون كل معلم يدقق مسايل الامتحان لكونهم لا يدرسون إلا نادراً وقليلاً. ولذلك يريدون عزل هذا المعلم أو تنكيس أعلامه لشدة تدقيقه عليهم في الامتحان النباتي بحيث لا يمكنهم احتمال ذلك لضعف دراستهم). ويغلب على ظني أن السبب في هذا الـ كان سياسياً. وأقرب الحوادث من نوعه إلى أذهاننا مظاهرة طلبة الحقوق ضد البرفسور جيز أيام كان يدافع عن قضية النجاشى في عصبة الأمم. نعم إن قسوة الأستاذ في الامتحان ربما ساعدت

على تظاهر الطلبة، ولكنها لا يمكن أن تكون سبباً بعينها. وما رآه الخواجا فرنسيس يرجع في ظني إلى الشعور الجمهوري الذي كان ينفجر من آن لآخر بعد قلب الجمهورية الثانية وتنصيب البرنس نابليون إمبراطوراً باسم نابليون الثالث

وواضح أن الخواجا فرنسيس رجل قليل التسامح. فهو الدارس - برغم الثلاثين وبلغها - يجاري الرأي العام في الزاوية بالدرسة حتى لينتقد لباسهم. ولا شك أن هذا الحلبي لابس القنباز كان آخر الناس أهلية للحكم على لباس الطلبة في باريس؛ وهذا الشرقي كان آخر من يحق له أن يحجر على حرية الطالب الباريسي؛ ومع ذلك يقول: (والنظر الساذج إلى أولئك الدارسين يوشي بقبح سلوكهم، لأن ملابسهم تعبر عن منافسهم، فهم يلبسون بنطلونات هكذا ضيقة حتى يكاد تتمزق بين أفخاذهم، وسترات هكذا قصيرة حتى لا تخفي شيئاً من الإليتين إلا قليلاً، وشعورهم طويلة منفوشة، وبرانيطهم عريضة كثيرة الانفراج هضيمة الكشح. وكلما كانت البرنيطة تامة في هذا الشكل كان صاحبها أكثر تقدما في ذلك الضرب، حتى تخال البعض من هذه البرانيط نظير غمامة سوداء على رأس حاملها، فمتى لاح هكذا شخص قال الناس: هو ذا الدارس!) فالمعلم فرنسيس يأسف على وجود (هكذا سرب بين دُرس الطب والشريعة أوجب سقوط الجميع من أعين العامة مدة الدراسة مع أن جماعة القسم الأكبر - والذي عليه المعول - لا يسلكون تلك الطريق، بل يسيرون في سبيل مضاد على الخط المستقيم، وعوض أن يطفئوا بمياه الشباب لهبات الشهوات إنما يستقطرونها بأنابيق أدمغتهم المضطرمة بنار الاجتهاد والحمية)

ويستطرق رحالتنا من كلام عن الدرسة المجتهدين إلى ختام وصفه النثري لباريس حيث له حديث طويل عن (بحار التمدن المتدفقة من محابر رجالها، وانهار الأدب جارية من ينابيع أفكارهم) وعن (ممالك الأباطيل والأضاليل، وعروش الحقائق والهدى). ثم يتحدث في لغة سامية عن الفكر (وقوته التي تغلب جميع القوات، ولا تعرف راداً إذا جمحت، ولا صادماً إذا اندفعت). ويضرب لهذه القوة أمثلة أجاد اختيارها حقاً، فهو يقول: (أي قوة أوقفت حركة الأرض بعد ما أدارها غاليلي (جاليلو) على محورها، ودفعها تكر على محيط دايرة البروج. وأي قوة هدمت بناية الإصلاح بعد ما أشادها فكرهوس , وأي قوة أوقعت دوران الدم في أوعيته بعد ما أجراه فكر هارفي مع أن ذلك حبس وذاك حرق (جان هوس

(احرق على ما أذكر) وذا اضطهد

ولما عرف بنو المغرب كونهم محملين بقوة الفكر، أخذوا يهذبونها ويثقفونها،) ويستظهرون نتائجها بدون التفات إلى تهديدات المغرضين، أو معارضات المبغضين). وبذلك (بلغوا هذا المبلغ العظيم من الفلاح والنجاح، وتركوا بقية العالم يتقهقر وراءهم، ويتساقط تحت أحمال كبرائه، وأثقال ثقلائه، فاقد التفكير وعديم النطق)

وهذه الإشارة المستترة إلى (تساقط الشرق تحت أحمال كبرائه وأثقال ثقلائه، فاقد الفكر وعديم النطق) تشترى كل كبوات الأسلوب عند الخواجا فرنسيس، فهو رجل

سليم التفكير جدير بالتهنئة على كتابه الساذج، ولو أن هذه التهنئة (تشيح بوجهها) أمام شعره، وإذا كان نثره (يصدمنا) بصوره العنيفة المزدحمة، فإن خلوه من التسجيع الذي كان ضرورة من ضرورات الكتابة في عصره، يشهد للخواجا فرنسيس بروح استقلالية مشكورة، كنا نود أن نراها تعمل على إقصائه نهائياً عن الشعر بعد أن عصمته من السجع

ويختتم الرحالة كتابه بفصل إضافي عن معرض باريس العام في سنة 1867. ولكن هذا الفصل لا يمكن أن يزيد معرفتنا بالخواجا فرنسيس. . . حتى ولا بذلك المعرض

حسين فوزي

ربيع!

للأديب صلاح الأسير

حَلِمَ الوردُ بالصباحِ، وجُنَّ ال ... غصنُ شوقاً لزقزقاتِ الطيورِ
وارتمى العصفُ حائراً يتلوّى ... في دروبٍ محفوفةٍ بالعطورِ
يرقبُ القاصِفَ السخيَّ من الرعدِ ... ترامى على يدِ الزمهريرِ
ورُؤى النورِ هوَّمتْ في الروابي ... تحملُ الفجرَ في الفم المقرور
أتعبتها الرياحُ، أتعبها البر ... دُ فلاحتْ مزرورقاتِ الثغور
فإذا الغابُ قطعةٌ من سوادٍ ... وإذا الأفقُ مكفهرُّ الستورِ
وإذا الناسُ تائهون حيارى ... رهبوا غمرة الظلام الضرير
وإذا النهرُ صاخبٌ يدفعُ الصخ ... رَ، ويرمي بنفسه في الصخور
وتراءى الربيعُ، في الرونقِ الضا ... حي سخيَّ الأجواءِ رحبَ المرادِ
يزرعُ الدفء في الفضاء ويهفو ... خاضباً بالطيوبِ وجهَ الوهادِ
ويريقُ الهناَء ملَء مرادِ ال ... أرضِ خصباً وملء ظنَّ العبادِ
فترى الدوحَ واثباً في الأعالي ... أخضرَ الزهو ضاحكَ الميلادِ
يحضنُ الطائرَ الذي ضاق ذرعاً ... ببروقِ الشتاءِ والأرعادِ
ويطيبُ الهواء في موكبِ الصحو ... ويسري العبيرُ في كلِّ وادِ
فترى الغابَ نضرةً والورودَ ال ... حمرَ عرساً يغصُّ بالأورادِ
وإذا الكونُ حالم النعم الخض ... ر تعالت صلاته في النجادِ
يا بنات الربيع غنينَ أحلا ... مي وغنينَ بالهوى والهناءِ
واستبقنَ الشعاعَ في الروضِ والثم ... نَ خفافاً بواكرَ الأنداءِ
ما تريْنَ الفراشَ يرقصُ في الز ... هرِ خفوق الجناح غضَّ الرواءِ
واثباً يلتقي المنى تتهادى ... دون أجوائه الرحابِ النوائي
والنسيمُ الندىُّ ينفحُ بالطي ... ب وجوه العرائس الزهراءِ
يا بنات الربيع رفرفن في الجوِّ ... وداعبنَ رفرفاتِ الهواءِ
والتقين الربى تضيعُ بها الع ... بنُ نداءً لغفوةٍ خضراءِ
فكرةٌ أنتِ حارَ في فهمها الكو ... نُ وأعيا بها رحيبُ الفضاءِ
ياربيعي تنامُ أنتَ وفي الكو ... ن ربيع يموج حلوَ البرودِ
وعذارى الربيع في القرية الول ... هى يغنين خافقاتِ النهودِ
يا ربيعي أفقْ ودعْ لي صباحي ... تائهاً في رحابه والنجودِ
حالم ألتقيكَ في وله الحي ... رةِ رؤيا على الربيع الجديدِ
أنتَ منى هوايَ أنت أغانيَّ ... حلمٌ رأيتُ قبلَ وجودي
أنتَ طيفُ الإله في عالمي البك ... ر وأسطورة الزمان البعيدِ
قمْ بنا نحضنُ الربيع وأغدو ... في ربيعين، يافعٍ ووليدِ
وأنا أبنُ الربيع إلفُ الضياءِ الس ... مح وابنُ الجمالِ، تربُ الخلودِ

(بيروت)

صلاح الأسير

إلى. . .

للأستاذ إبراهيم العريض

تعالَيْ فأن الليلَ يبسطُ ظله ... لكي يتمّلى ناشئُ الزهرِ حِلَّه
وإن فؤادي برعُم في يدِ الصِبا ... سأعدمُ نشراً منه إن لم أطله
وثَمّة سرٌّ كامنٌ فيه كالشذا ... ولم أتنشَّقْ منه إلا أقله

طوى باكياً كالزهرِ أوّلَ صفحةٍ ... من العمرِ حتّى يضحكَ العمرَ كله
ولحنٍ كترجيع الرباب إذا انثنى ... عليه بخمس مُطربٌ فاستهله
يوقِّعه قلبي على وترِ الهوى ... تباعاً. . . فأقضي ليلتي أتوله
ولا من نجيٍّ إذ أحاولَ بثَّه ... كأحسنِ ما بثَّ المحبُّ هوىً له
سوى شبَحٍ أن يطرفِ العين لمحه ... أيُنكِرُ دمعي في الضلوعِ محله
إبراهيم العريض
القصص
شارلس لام يروي عن شاكسبير
قصة الشتاء
للأستاذ دريني خشبة
أحب ليونْتس ملك صقلية زوجه الحسناء الفاضلة هرميون حباً يقرب من العبادة وكان صديقه بوليكسينز ملك بوهيميا أحب الناس إليه بعد هرميون، لأنه رفيق الصبا وخِدن الشباب وزميل المدرسة. . . فلما فصلت الأيام بينهما لارتقائهما أريكة الملك، ظلا يسقيان فروض الصداقة، ويرعيان عهود المودة، ويتبادلان الهدايا والتذكارات والّهي
ثم دعا ليونتس صديقه لزيارته، وألح في دعوته، فأقبل بوليكسينز ليحل ضيفاً على البلاط الصقلي، ولقيه الملك لقاء المشوق المستهام، وقدمه إلى زوجه هرميون أعز صديق بل أعز شقيق
وأخذا يتنادران في النهار ويسمران في الليل، ويقص أحدهما على الآخر ذكرياته، ويستعيدان ملح الطفولة ورقائقها، ويستعرضان صور الشباب الوارف الفينان، وهرميون أثناء ذلك تصغي إليهما وتقبل على حديثهما وتسرّ به، وكان زوجها يوصيها خيراً بضيفه فكانت تحتفي به، وتبتكر الأساليب لإدخال السرور على نفسه
وأستأذن ملك بوهيميا صديقه في الأوبة، فأبى ملك صقلية إلا أن يتلبث. . . فألح ملك بوهيميا وأبى إلا أن يعود. . . وهنا سأل ليونتس زوجه هرميون أن تطلب إلى بوليكسينز أن يبقى. . . فلما فعلت لبى ملك بوهيميا، ونزل عند رجائها، وأجل سفره إلى موعد آخر
!!وا أسفاه
لقد نفثت ثعابين الغيرة سمومها في قلب الملك، واحتلكت الحياة في عينيه، ولم يفتأ يسائل نفسه لِمَ قَبِل ملك بوهيميا رجاء هرميون بمجرد أن كلمته، مع أنه لم يقبل رجاءه هو؟!
إن في الأمر شيئاً، وان وراء الأكمة ما وراءها. . هذا لا ريب فيه! لقد زاد عطف) هرميون على هذا الضيف الثقيل، حتى شككت في أن يكون العطف حباً. . . وهذه النظرات التي كانا يتخالسانها في حضرتي. . . وهذه الضحكات الفضية التي كانت هرميون تسقسق بها في هواء المكان الذي كان يجمعنا وبوليكسينز .(!. . .
وعلى هذا النحو راح الملك يجتر شكوكه ويوسع آفاقها ويلقي في نارها وقود الظن حتى أنضجت فؤاده، وحتى غدا بسببها وحشاً مغيظاً محنقاً، ينظر إلى هرميون الجميلة المفتان الحصان الطهور، نظرته إلى المرأة الفاسقة المسافحة الهلوك وينظر إلى صديقه العف الحبيب، كما ينظر إلى عدوه الفاجر اللدود
وأرسل الملك إلى أحد رجالات بلاطه - السيد كاميللو - فبث إليه خبيئة صدره، وأمره أن يدس السم لملك بوهيميا في طعامه
وشاءت العناية ألا يمتثل كاميللو أمر مولاه، وشاءت كذلك أن يلقي كاميللو بالسر كله إلى ملك بوهيميا، وأن يحذره مغبة البقاء في ضيافة ليونتس؛ فيدبران الأمر معاً، ويفران في جنح الظلام إلى بوهيميا
ويثور ثائر الملك لهذا الفرار، ويكبر في روعه فيكون برهاناً جديداً لما دار في خلده من شكوك وريب، فيذهب من فوره إلى مخدع الملكة، حيث جلست تصغي إلى قصة ظريفة يلقيها عليها ابنها مارميللوس. . . الطفل اليافع الجميل. . .
وكان الملك مقطب الجبين عابس الوجه، يضطرب في قلبه بركان من الغضب، وتتدفق في أعصابه سيول من الحمم، فتقدم كالوحش المجروح فأنتزع مارميللوس، وأسلمه لمن يُعنى به. . . ثم أمر فسيقت الملكة إلى غيابة السجن

وأرسل الملك سيدين من رجاله - كليومين وديون - إلى دلفوس ليستوحيا له كهنة أبوللو في أمر زوجته، وفي حقيقة ما اتهمها به. . . هل صحيح أنها خانته مع صديقه، أم هي براء من هذه الجريمة الشنعاء؟

في تلك اللجة من الدموع، وفي هذا الليل الزاخر من الأحزان، وضعت هرميون في سجنها السحيق أنثى. . . كانت سلوى باكية لأمها المشجونة؟

وهكذا ضم السجن ضحية أخرى. . . مولودة شقية لا ذنب لها ولا جريرة ولا إثم. . . أرسلتها المقادير إلى هذه الدنيا المعوجة القاسية لتكون حياتها مأساة!

وكان للملكة صديقة من نساء سادة البلاط تحبها وتخلص لها الود، تدعى ليدي بولينا، زوجة انتيجونوس الصقلي

فلما علمت بما أجاء الملكة في سجنها من المخاض، وما تلا المخاض من وضع، ترقرقت دموع الألم في أغوار قلبها من اجل مولاتها، وانطلقت إلى السجن خفية، فقالت لليدي اميليا؛ السيدة الطيبة القلب المنوط بها السهر على الملكة: (أحسبك ياعزيزتي الليدي تشركينني في الألم لما أصاب الملكة!) فلم يكن إلا أن تفجرت الدموع من عيني اميليا جواباً على ما قالت بولينا. . فقالت لها وقد سرها ما رأت من بكائها: (إذن تذكرين لها أنني هنا. . . وأنني مستعدة لان اذهب بالطفلة إلى الملك فأدافع عن هرميون، والقي إليه بابنته عسى إن هو رآها أن ترقق ما قسى من قلبه، وتنير ما تدجى من نفسه، وتظهر له ما خفي عليه من برهان ربه) فأجهشت أميليا، ودعت للسيدة، وشكرت لها مجازفتها، ثم ذكرت أن الملكة كانت تفكر في مثل هذا ودفعت الملكة بطفلتها إلى بولينا فذهبت بها إلى الملك رغم ما حذرها به زوجها من مغبة الإقدام على هذا الجنون، خشية أن يبطش بها؛ فلما مثلت بين يديه كشفت عن المولودة البائسة فصاحت وأعولت، ثم وضعتها عند قدميه، وانطلقت تدفع عن صديقتها الملكة ما رماها به من الفحش، وطلبت إليه أن يرحم الطفلة بالعطف على أمها. . . وكانت تتدفق في دفاعها كالسيل، وترق في استعطافها كالنسيم، ساكبة أثناء هذا وذاك دموعها تنثرها على كلماتها، وتنضح بها عباراتها، عسى أن يلين فؤاد الملك ولكن الملك وا سفاه لم يزدد إلا عتوا ولم يزده ما صنعت بولينا إلا استكبارا، فأمر زوجها أن يذهب بها من بلاطه وان يتركاه إلى شيطانه.

ثم دعا الملك إليه انتيجونوس - وهو زوج بولينا - فأمر أن يحمل الطفلة إلى البحر وان يقلع بها ليتركها عند أول شاطئ وديعة مظلومة بين أيدي القضاء والقدر

وأتمر الرجل الغبي بأمر الملك، فحمل المولودة في يديه الجبارتين وألقاها على صدره الصخري، ومضى بها إلى. . . البحر!

وهكذا فصل الملك بينه وبين قطعة فؤاده في ثورة الغضب الجامح، غير منتظر عودة رسوليه بنبوءة أبوللو من دلفوس

ولم يكن بحسبه هذا، بل أمر بقضاة المملكة وذوي الرأي فيها فاجتمعوا في حشد عظيم لمحاكمة الملكة. . لمحاكمة هرميون. . بأعين الرعية، وعلى ملأ من الجمهور ولغطت ألسن السوء بما اتهم به الملك زوجته، وراجت، شائعات الضلالة، واهرع الناس من كل فج ليشهدوا مليكتهم التقية النقية تقف موقف الاتهام الوضيع، والشك المزري، ثم لتسمع بعد هذا الحكم الذي لا تدري هل يكون عليها أم لها

وصمت الناس حتى لكأن على رؤوسهم الطير

وجلس القضاة فوق المنصة الكبرى وليس في خد أحدهم قطرة من دم

وصدئ البريق في عيونهم فانبعث منها ظلمات من ورائها ظلمات!

وفغر الناس أفواههم حين شاهدوا الملكة المظلومة تبكي، وهي برغم بكائها جميلة فينانة ريانه رائعة. . . لأنها بريئة

وحضر الملك فلم يتحرك أحد للقائه. . . وجلس فوق عرشه الصلف، وأخذت نظراته تزيغ هنا ثم تشرد هناك. . . كنظرات الذئب قد فجأه ضبع!!

وحينما دق كبير القضاة بيده على المنضدة مؤذناً ببدء المحاكمة، شهد الناس سيدين من خيرة ساداتهم يشقان الجموع المحتشدة، ويذهبان إلى هيئة المحاكمة صعدا، ثم يتجهان ناحية الملك

أوه!! إنهما كليومين وديون قد عادا من دلفى!

ترى ماذا في هذا الظرف الكبير المختوم بخاتم كاهن أبوللو الأكبر؟!

قال الملك: (افتح يا كليومين بإذني، واتل على الناس نبوءة دلفى!!
وفض كليومين الظرف الكبير، ونشر الصحيفة البردية، وراح يتلو:
(بريئة هرميون)
(لا وزر على بوليكسينز)
(كاميللو من الرعايا المخلصين)
(ليونتس ظالم غيران)
(سيعيش الملك بلا وارث إن لم تعد طفلته المفقودة!!)
وتبسم الملك مستهزئاً، وظن ظان النبوءة رجس من عمل هرميون وتلفيق أصدقائها، ثم أمر القاضي الأكبر أن يأخذ في المحاكمة ليتبين الرشد من الغي
وحينما دق القاضي بيده مؤذنا بدء المحاكمة، إذا رجل طويل يقدم حتى يقف تلقاء الملك
وهو يلهث، فيقول
- مولاي! الأمير يا مولاي! ماميللوس!
- ما له يا رجل؟
- ما. . . ما. . . ت!!
- مات؟ ولمه؟
- حزناً على أمه الملكة يا مولاي! لقد هاله أن تقف هذا الموقف لتفضح ظلماً في شرفها وعرضها. . . آه يا حبيبي الأمير. . . آه يا اعز الناس علي!!)
وزاغت الأبصار كلها. . . واستخرط الناس في البكاء. . . ووجم القضاة فلم ينبسوا بكلمة
أما الملكة، أما هرميون المسكينة، فقد ذاب قلبها، ووهى جلدها، ولم تطق أن تسمع أن ولدها الوحيد الحبيب قد لفظ نفسه الأخير وجداً عليها، ورثاء لها، فنظرت إلى الدنيا كأنها تسوخ تحت قدميها، والى السماء كأنها تطوى من فوقها، والى الناس كأنهم عيون ودموع وقلوب كسيرة مفجعة. . . فخرت مغشياً عليها
وانتفض قلب الملك!
وتفجرت في أغواره شآبيب الرحمة، وانسرقت عبرة من عينه تغلي كالمهل لتكفر عن خطيئته. . . فأشار إلى بولينا ومن معها من وصيفات الملكة، فحملنها، وأوصاهن بها خيراً
واخذ الجمع الحاشد يتمزق أباديد
ولم يمض غير قليل حتى عادت بولينا وفي وجهها سحابة حزينة باكية، وفي جسمها رجفة عظيمة، وفي عينيها دموع سخينة حرار. . . وفي فمها نعي هرميون!!
ماتت هرميون إذن، وخلفت هذه الدنيا السمجة المملوءة بالرذيلة وراءها. . . خلفتها للملك المغيار المسكين الذي لم تنفعه أن تتحرك الشفقة في فؤاده حينما سمع بموت وليه ما ميللوس، ولم ينتفع كذلك أن يؤمن ببراءة هرميون بعد إذ رماها بأم الموبقات وذكر ليونتس طفلته التي نفاها وراء البحر مما جلبت عليه مظنة السوء في أمها من خبال، فصار شجوه شجوين، واعتلج فؤاده بهمين، وود لو يعطي عرشه وملكه لمن يرد إليه المولودة التي لا يعرف لها اسماً ولا يكاد يذكر لها رسماً
ولكن هيهات! فهاهي ذي السنين تمر، والأيام تكر والملك المسكين يتلظى بنار الشجو والشجن، ويغص بآلام الأسى والحزن فهو من عيشه في سجن، ومن قصره في قبر، ومن ضميره في عناء، ومن ذكرياته في بلاء، ومن رعيته في شهود عليه بما قدمت يداه!!
أما انتيجونوس الذي ذهب بالطفلة وراء البحر، فقد اقلع في سفينة دفعتها الرياح، وما زالت تدفعها، حتى أرست على شاطئ بوهيميا! حيث يحكم الملك بوليكسينز بأمره. . . وهنا. . . نزل الرسول الشقي بالأميرة الصغيرة إلى البر وما كاد يصعد في حدوره حتى لمح غابة قريبة فجعل يدلف نحوها، وفي ذراعيه الوديعة المسكينة تبكي وتصيح من الجوع. . . أو. . . من هذا الصدر البارد الذي لم يعرف حنان الام، ولم يجش فيه لبنها ومحبتها!
وتحت دوحة باسقة وارفة الظلال وضع انتيجونوس الأميرة الصقلية، وعاد أدراجه إلى البحر. . . لكنه لم يبلغه. . . وكيف يبلغه وهذا الدب المنتقم قد ترصده، حتى إذا بعد

عن الطفلة انقض عليه، واعمل فيه أنيابه ومخالبه، وطهر ظهر الأرض من روحه المظلمة الظالمة التي لا تعرف الحنان!

وذهب الدب بعد إذ اغتذى وشبع

وبرز من الغابة رجل راع مجدود طيب القلب كان مختبئاً ثمة من الدب؛ وكان بكاء الطفلة يحز في صدره ويذيبه وجداً عليها. . .

وأحتملها في يديه الرحيمتين، وراح ينظر في وجهها الصغير ويتعجب، وينظر إلى لفائف الحرير الجميل والدمقس المفتل ويطرب. . . ثم جلس ليصلح من شأنها ما علمته الأبوة الساذجة فاكتشف كنزا من در وياقوت وجوهر، وورقة كانت هرميون قد شبكتها في صدر ثوبها بدبوس وكتبت عليها. . . برديتا. . . وكليمات أخريات عرف منهن الراعي أن اسم لقيته برديتا وأنها من نسل الملوك الصيد

وخفق قلب الرجل واشتد وجيبه وابتسم للدنيا وابتسمت الدنيا له، وطبع قبلة على جبين الطفلة فسكنت. . . وهرول بها إلى كوخه. . . وهناك. . .

(لها بقية)

دريني خشبة

البريد الأدبي

محاضر ألماني في القاهرة

دعت كلية الآداب بالجامعة الأستاذ الدكتور أدولف جروهمان لإلقاء بعض محاضرات عن (الإدارة العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة) والمحاضر من أعلام الاستشراق في ألمانيا، وأستاذ الثقافة الإسلامية واللغات السامية بجامعة براغ بتشكوسلوفاكيا، وهو يعنى بناحية دقيقة في التاريخ الإسلامي وهي دراسة أوراق البردي العربية، وعلى الرغم مما يكتنف هذه الناحية من البحث من الصعوبات الجمة فقد ذلها ببحوثه التي نشرها في مؤلفاته وفي المجلات الكبرى التي تعنى بالدراسات الشرقية. ومن ثم عهدت إليه الحكومة المصرية بدراسة أوراق البردي العربية المحفوظة في دار الكتب في القاهرة وهو ينوي إصدارها في سبعة مجلدات مع التعليق عليها، نشر منها حتى الآن ثلاثة باللغة الإنجليزية مع مقارنتها بأوراق البردي اليونانية المتعلقة بهذه الناحية الجديرة بالبحث في تاريخ مصر الإسلامية وقد ترجم الجزءين الأولين منها الدكتور حسن إبراهيم أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية الآداب.

وقد تناول الدكتور جروهمان في محاضرته الأولى كُوَرَ مصر كما كانت إبان مجيء العرب معتمداً في ذلك على ما جاء في المصادر اليونانية والسريانية وما عثر عليه في أوراق البردي العربية الموجودة في مصر وفي دور الكتب الأوربية ومكاتبها الكبرى كالمتحف البريطاني ومكتبة بودليان وأكسفورد وسُنْ وليبزج وغيرها

ومصر كما صورها الدكتور جروهمان في هذه المحاضرة تختلف عن مصر الحالية تمام الاختلاف في كورها وبلدانها، وتختلف عن مصر القديمة التي وصفها ستانلي ليبدبول في كتابه (سيرة القاهرة)

وألم الدكتور أدولف في المحاضرة الثانية بالجزية عند العرب وهو يسوق رأياً ظريفاً في الصلة بين كلمة (جزية) و (كسية) ويتناول فيها نظام الضرائب والحركة المالية في مصر في عهد عمرو ابن العاص ومن خلفه وفي العصر الأموي

والمحاضر الدكتور جروهمان واسع الاطلاع في الثقافات العربية والأوروبية الحديثة منها والقديمة، وقد ذلل له بحثه الشائك نظرُه في كثير من المصادر الجمة في مختلف اللغات

الخاصة بهذه الناحية

ميزانية التعليم في إنجلترا لسنة 38 - 39

قدرت ميزانية التعليم في إنجلترا للعام الدراسي 38 - 39 بهذا الرقم العجيب: (51. 002. 330) أي بما يزيد على مجموع ميزانية الحكومة المصرية كلها بأحد عشر مليوناً من الجنيهات. وبما يزيد على ميزانية التعليم في إنجلترا للعام المنصرم (37 - 38) بمبلغ 2. 161. 413 من الجنيهات؛ وهاك بعض الأرقام العجيبة في توزيع هذه الملايين الضخمة من الجنيهات

35. 513. 000 للتعليم الأولي

11. 680. 000 للتعليم العالي

لمعاشات المدرسين 000 .887 .7
للرياضة البدنية والرحلات650 .514
ولم يسبق أن أرصدت إنجلترا مبلغاً كهذا للتعليم إلا في سنة 1921 - 22 وبزيادة 12.
335 جنيهاً على المبلغ الحالي
مجلة لكلية الآداب
لا تكاد توجد جامعة في أوروبا أو أمريكا إلا ولجميع كلياتها مجلات راقية تمثل الحياة الجامعية وتحدد مدى النشاط الجامعي وتسجله؛ والجامعة الأمريكية المصرية تصدر مجلة التربية الحديثة مقتدية في ذلك بجامعات أوروبا، ولسنا ندري ماذا يمنع كلية الآداب المصرية من إصدار صحيفة دورية وهي بهذا العمل أولى دور العلم في مصر؛ وهذه صحيفة دار العلوم تصدر حافلةً بالبحوث القيمة وتتبارى فيها أقلام المجدين أما كلية اللغة العربية فقد علمنا إنها جادة في إصدار صحيفة باسمها. . . ولا غرو، ففيها وفي دار العلوم تحيا العربية وتتجدد
ضرائب الأطيان في مصر الرومانية
لعل كثيرين من القراء يحسبون أن بدعة تعداد الأمم هي سنة مستحدثة لم تعرفها إلا الشعوب الحديثة. لا. ليس الأمر كذلك. فقد ثبت أن قدماء المصريين كانوا أول من وضع نظام التعداد، وكانوا يجرونه كل أربع عشرة سنة. ولم يكونوا يقتصرون على تعداد الأنفس فقط، بل كانوا يحصون كل شئ في الوطن المصري: الناس والحيوان والمنازل والحدائق ودور الصناعة والمدارس والعاهات. . . الخ، وكانوا يتخذون من هذا التعداد ميزاناً لفرض الضرائب التي كانت في الغالب قاصرة على الأرض وتجارة الوارد. وكانت ضرائب الأطيان في مصر القديمة مضبوطة عادلة، لكنها لم تبلغ الدقة المتناهية إلا في زمن البطالسة - فلما غزا الرومان مصر اعتمدوا في ربط الأموال على الأرض على النظام البطليموسي، وبهرهم هذا النظام فاستعملوه في إيطاليا وطبقوه في كل مستعمراتهم، مستعينين في ذلك بموظفين من المصريين. وقد تنبه العلماء العصريون إلى هذا الموضوع فألفوا فيه كتباً جيدة وأول هذه الكتب ألفه الأستاذ ولكن سنه 1899، وفي سنة 1936 خصص له الأستاذ جونس هوبكنز مجلداً من كتابه (التخطيط الاقتصادي في رومة القديمة). وقد صدر هذا الشهر كتاب (الضرائب في مصر - من عهد أغسطس إلى عهد ديوقليانوس) لمؤلفه العلامة شرمان لي روي ولاس. والكتاب يتناول غير هذا عصراً من أسود العصور التي رزحت تحتها مصر والتي تعتبر فيها بقرة حلوباً للدولة المستعمرة أو كما كان يتبجح الرومان فيقولون (القمح في مصر!)
فتاة إنكليزية تكتب عن مصر
تناولنا في عدد مضى كتاب المستر روم لاندو (البحث عن الغد) الذي تناول فيه مؤلفه أثر التدين في الشرق الأدنى، وبخاصة في مصر والأقطار العربية، والذي نقل منه الأستاذ العقاد صوراً سريعة لقراء الرسالة في عددها الهجري. . . وقد كنا نقرأ عنه فصلاً في إحدى المجلات الإنجليزية فراقنا من المحرر أن يستدرك على المؤلف أنه لم يندمج في الشعوب التي زارها، بل قصر مقابلاته على الفئة الراقية، أو أعلام المثقفين، الذين يهمهم بالطبع أن يعطوا لمحدثهم صورة جميلة عن بلادهم قد لا تكون صادقة. وأشارت المجلة بهذه المناسبة إلى كتاب طريف عن الفتاة المصرية يسد النقص الكبير الذي أخذته على كتاب المستر روم لاندو. والكتاب للمؤلفة الاجتماعية النابغة باربارا أتت إلى مصر لتشهد حفلات زفاف حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول، والتي لم تنزل في فنادق القاهرة الفخمة كما يفعل سائر السياح، بل نزلت ضيفة على عائلة من الفلاحين في بيت ريفي مطل على النيل فكانت تتغلغل منه في صميم الحياة المصرية التي تمثلها غالبية من المصريين الفلاحين. ثم ذهبت المؤلفة من ذلك البيت في رحلة طويلة إلى. . . الخرطوم! فاختلطت ببنات جنسها في جميع المدن والقرى المصرية، ووصفت طبائعهن وأفراحهن وأحزانهن، وتكلمت طويلا عن الفوكلور المصري وترجمت منه كثيراً من النكات والأغاني والمواويل وأغاني الزار وأناشيد الذكر وأغاني الكنائس البروتستنتية. . .

ولم تهمل المؤلفة نهضة الفتاة المصرية المتعلمة، بل تناولتها في إسهاب وإطناب وإعجاب

تيسير قواعد النحو وإشراك البلاد العربية فيه

اقترحت إحدى الدوائر المختصة بدراسات اللغة العربية في وزارة المعارف على الوزارة أن تعنى منذ الان، وقبل أن تمضي اللجنة التي تألفت لتيسير قواعد النحو والصرف وغيرها من علوم اللغة في عملها، بإشراك الأقطار العربية في أعمال تلك اللجنة منذ بدايتها

وبررت هذا المقترح بأن مسألة القواعد مسألة لا تتعلق بالمصريين وحدهم، وإنما هي مسالة جميع الأقطار العربية والمشتغلين بلغة العرب في متباين أنحاء العالم؛ وإذا أقدمت الوزارة على استدعاء أئمة اللغة، وذلك بتوجيه الدعوة الرسمية إلى وزارات المعارف في الأقطار التي يعنيها الاقتراح، فان الوزارة تكون قد وفرت على نفسها عناء عرض المقترحات التي تقرها لجنة التيسير على الناطقين بالضاد في المستقبل، وحتى إذا ما تم عرض القرارات يكون المشتغلون بمثل تلك الشؤون على بينة من الأبحاث والدراسات، وبهذا يتم تنفيذ ما يقترح في اقرب فرصة

وينتظر أن يكون هذا الاقتراح موضع النظر والدراسة حتى إذا وافقت الوزارة عليه وجهت الدعوة إلى الحكومات العربية بندب الذين يقع عليهم الاختيار لتمثيلها في اللجنة المشار إليها

حصة مصر!

من أمتع الكتب التي أخرجتها المطابع الإنجليزية في الأسبوع الفارط كتابان، أحدهما عن اليابان وعنوانه: (إلى أين أنت ذاهب: إلى اليابان؟) للكاتب اللبق وللاردبرس والآخر عن الولايات المتحدة واسمه (نهضة أمريكا نحو القوة) أو تاريخ حديث لأمريكا: للكاتب

المحقق و. ا. وودوارد. والكتابان متشابهان من حيث الموضوع، وكل منهما يبشر بالوطنية الإنجليزية بين الإنجليز مع ضرب المثل من الخارج كما يعبرون. ومن أروع ما قرأناه في الكتاب الأول ما ذكره المؤلف عن طرائق وزارة المعارف اليابانية في بث روح الوطنية في نفوس النشء. واحسن ما ذكره في هذا الباب هو أن هذه الوزارة حتمت أن يكون في صلب جداول توزيع الحصص في المدارس اليابانية حصتان يطلق على كل منهما (حصة اليابان!) كما نقول حصة الحساب وحصة اللغة وحصة التاريخ. . . الخ. وفي هذه الحصة يتناول المدرس أحاديث حرة عن الوطن الياباني وعن روح التضحية وعن الإمبراطور وعن أعداء اليابان وعن الجيش وعن الأسطول والطيران. وقد لوحظ أن هاتين الحصتين صارتا احب الحصص إلى نفوس الطلاب لما يتناوله المعلمون من هذه الأحاديث الحرة، ولأن امتحاناً لا يعقد فيما يلقنه التلاميذ فيهما فما قول رجال التربية عندنا في إدخال هذا النظام في المدارس المصرية فتكون في جداول توزيع الحصص (حصة لمصر؟)

الوعظ السلبي في المساجد المصرية

ما تزال طائفة كبيرة من خطباء المنابر في المساجد المصرية تخطب المصلين خطباً سلبية عقيمة تضيق بها نفوس المصلين، واقبح شيء في هؤلاء الخطباء انهم لا ينون يسبون المصلين الذين يخطبونهم سباً قد يصرف المتمردين منهم عن غشيان المساجد بسبب هؤلاء الخطباء الذين يتهمون المصلين بالزنا ومعاقرة الخمر وسوء الفهم وقلة الصلاة. . . الخ، ويبدو أن شيئاً من التبعة في هذا، إن لم يكن أكثرها، واقع على عواتق هذه الفئة المستنيرة المثقفة من وعاظ الأزهر العلماء. . . ذلك انهم لا يعنون بالاتصال بهؤلاء الخطباء أو جمعهم في صعيد واحد وتلقينهم مبادئ الوعظ الحديث وأساليب الخطابة وطرق الإلقاء، ثم معاونتهم في تحضير خطبهم ليلحظوا أن يتفوق الجانب الإيجابي فيها على الجانب السلبي. وحبذا لو تعاون الأزهر ووزارة الأوقاف فيعملا على تجديد عقلية هؤلاء الخطباء

الحسين بن علي

مقالة الأديب الشيخ ضياء الدين الدخيلي: (مقتل الحسين وأثره في الأدب العربي) في ذكرتني ببيتين من قصيدة لزيد الموصلي النحوي المعروف بـ (مَرْزَ - (الرسالة الغراء) كَّه) في أبي الضيم (الحسين بن علي) - رضى الله عنهما - فرأيت روايتهما في

(الرسالة):
فلولا بكاء المزن حزناً لفقده ... لما جاءنا بعد (الحسين) غمامُ
ولو لم يشق الليل جلبابه أسىً ... لما إنجاب من بعد (الحسين) ظلام
(الإسكندرية)
مستشرق فرنسي كبير يحاضر بالجامعة المصرية
يلقي العلامة المستشرق الأستاذ ليفي بروفنسال أستاذ (تاريخ الغرب الإسلامي) بجامعة الجزائر والسوربون ونزيل مصر الآن محاضراته عن (الحضارة الإسلامية في أسبانيا) تحت رعاية كلية الآداب
والأستاذ بروفنسال متخصص في تاريخ المغرب والأندلس وله في ذلك عدة مؤلفات وبحوث قيمة نذكر منها (تاريخ أسبانيا في القرن العاشر) و (النقوش العربية في إسبانيا) وهما بالفرنسية و (فهرس المجموعة العربية بمكتبة الاسكوريال) كذلك وفق الأستاذ بروفنسال إلى إصدار طبعة جديدة لتاريخ دوزي الشهير عن الأندلس وإصدار الجزء الثالث من تاريخ البيان المغرب لابن عذارى، وهو الآن يعنى بنشر مؤلف أندلسي نفيس برعاية الجامعة المصرية هو (كتاب الذخيرة) لابن بسام عن نسخة كاملة وفق إلى اكتشافها
وسيبقى الأستاذ بمصر بضعة أسابيع أخرى إجابة لدعوة الجامعة المصرية
المجلس الدولي للاتحادات العلمية
طلب المجلس الدولي للاتحادات العلمية في لاهاي إلى الحكومة المصرية أن تتخذ التدابير لكي تكون الهيئات العلمية في مصر على اتصال به، تأييداً للروابط العلمية والثقافية، ورغبة في تبادل الآراء والنظريات
وقد أحيل هذا الطلب إلى وزارة المالية، فوقع اختيارها على الدكتور حسن صادق بك المدير العام لمصلحة المناجم والمساحة ليكون رابطة الاتصال العلمية بين مصر وهيئة هذا المجلس الدولي
ومما يذكر أن هذه الهيئة تبحث في العلوم المختلفة كالفلك وطبقات الأرض والجغرافيا وغيرها
خطأ في نسبة شاهد نثري
ذكروا من شواهد الأسلوب الحكيم قول القبعثري للحجاج (مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب) وقد قال له الحجاج متوعداً (لأحملنك على الأدهم) يريد به القيد لا الفرس الأدهم، وأول من نسب هذا إلى القبعثري الخطيب القزويني في كتابيه (تلخيص المفتاح، والإيضاح) وتبعه في ذلك أصحاب الشروح والحواشي، وذكروا أن القبعثري كان من رؤساء العرب وفصحائهم، ومن جملة الخوارج الذين خرجوا على الإمام علي رضي الله عنه
والحقيقة أن هذه النسبة خطأ، وان هذه المحاورة كانت بين الحجاج والغضبان بن القبعثري الشيباني، لا القبعثري نفسه، وقد ذكر هذا أبو العباس احمد بن عبد المؤمن الشريشي في شرح مقامات الحريري (127 ج2) وذكره الجاحظ في البيان والتبيين (200 ج1)
والحقيقة أيضاً أن الغضبان بن القبعثري لم يكن من الخوارج المعروفين، وإنما كانت تهمته عند الحجاج انه أرسله إلى عبد الرحمن ابن محمد بن الأشعث ليأتيه بخبره حينما بلغه خروجه عليه، وقد كان مع عبد الرحمن سعيد بن جبير والشعبي وغيرهما ممن لم يكن من أولئك الخوارج الذين خرجوا على الإمام علي وغيره، فلما وصل عبد الرحمن قال له: ما وراءك يا غضبان؟ قال: شر طويل، تغد الحجاج قبل أن يتعشاك، ثم انصرف إلى الحجاج وكانت مقالته قد وصلته من جواسيسه قبل أن يصل إليه، فأمر به فوضع القيد في رجليه ثم سجنه
عبد المتعال الصعيدي
تصويب
وقع في قصة (هجرة معلم) للأستاذ علي الطنطاوي في العدد الممتاز أخطاء مطبعية غيرت المعنى هذا صوابها:
الصفحة العمود السطر

فيكون (صوابها) فيبلسون510229
الصلداء (صوابها) الصلدة 7 5141
بأشجارها المزهرة، وطيبها وعطرها (سقطت منها جملة515123
هذا صوابها): بأشجارها المزهرة المتعانقة، وأدواحها
الباسقة، وعيونها الدافقة، وأنهارها الرائقة، وورودها
وزهرها، وعنبها وخمرها، وطيبها وعطرها، وفتونها
وسحرها
الغاية الساذجة (صوابها) الغاية السامية516125
أين هذا من ذاك (صوابها) أين هذا من دارك517226
المسرح والسينما
الفرقة القومية
برنامجها ورواية طيف الشباب
عادت الفرقة القومية إلى إتمام موسمها الثالث وقد افتتحته بتمثيل رواية (طيف الشباب) لمؤلفها الأديب الذائع الصيت مارسيل بانيول ترجمة الأستاذ احمد بدر خان أرجئ الكلام عن موضوع هذه الرواية، لان ظاهرة غريبة ظهرت في الفرقة حملتني على الوقوف حيالها موقف الواجم المبهوت. وبيان الاستغراب في هذه الظاهرة أن الفرقة بشرتنا بأنها ستتحفنا بتمثيل اثنتي عشرة رواية في الفترة الباقية من الموسم وهي لا تزيد على الشهر الواحد إلا بضعة أيام فقط، وان أربعا من هذه الروايات وضعت وترجمت حديثاً، والثماني الروايات الباقية مثلت من قبل للإدارة الفنية في الفرقة القومية الحرية في استعادة تمثيل الروايات الناجحة، ولكن ما بالك بالروايات الموضوعة التي سيعاد تمثيلها وهي التي بلغت من تفاهة المعنى وسخف المبنى، وهزال الفن مبلغاً حفز جميع النقاد المسرحيين بدون استثناء إلى إبداء استهجانهم لها وعدوا قبول الفرقة إياها لا يتفق وتقدير فن التمثيل، ولا يحقق الغرض الثقافي الذي رمت إليه وزارة المعارف من إنشاء الفرقة؟
ما هو السر يا ترى في عودة الفرقة إلى احتضان هذه الروايات وإحيائها من جديد؟ بل هو الباعث على جمع رمم روايتي (اليتيمة، وبناتنا سنة 1937) وكان الواجب أن تبقى مدفونة في الرماد؟ أهو تحدي للنقاد وإهمال آرائهم ودراساتهم أم الاستهتار بالغاية الثقافية التي أسست الفرقة من اجلها؟
نحاول أن نجل الفرقة عن هذا التدهور، ونؤثر لها السلامة على التورط في الغمرات، ولكن الواقع صارخ لا سبيل إلى السكوت عنه
ليس الطريق إلى معرفة نجاح الرواية أو فشلها هي القروش التي يجمعها بائع التذاكر، أو حشر ردهة الأوبرا ومقاصيرها بمعارف هذا الممثل أو أصدقاء ذاك الموظف، ولا بالمقالات المأجورة التي تنشر كالإعلانات
لا، ليس السبيل إلى ذلك إلا بالاستماع إلى أقوال الناقدين والأخذ بالرأي الناضج
كنت أوثر الكلام عن رواية (طيف الشباب) لسببين: الأول أن المترجم متشبع بروح المؤلف، لم يجنح عن البساطة في الكلام الذي يعرب به عن الغاية من الفكرة الاساسية، ولم يطمس معالمها بالألفاظ المتقعرة النابية التي يتوسل بها فقراء الذهن عشاق التزمت
والسبب الثاني أن المترجم فنان سينمائي، يحسن الاختيار ويقدر ما هو صالح ونافع تقدير فنان خبير، يصطفى بعقل وتدبر الرواية التي تجمع بين المعنى والمبنى، والفكر والصيغة
كان يطيب لي أن أهيب بالفرقة أن توكل اختيار الروايات الغربية إلى أمثال الأستاذ احمد بدر خان وتترجم بسلاسة وبساطة كما ترجمها هو، وان أقول لها أشياء أخرى عن الروايات الموضوعة التي تتخبط فيها تخبط الضال في غابة كثيفة بليل مدلهم الظلام
ولكن مالي انصح الفرقة واهديها، ما فائدة الكلام في إدارتها ورجال لجانها، في ممثليها وممثلاتها؟ لم العناء في ذلك؟ بل ما الفائدة منه ما دامت تعمل وفق البداوات والنزوات؟ ولم لا أقول لها أنت خير الفرق التي ماتت وافضل الفرق السائرة في طريق الموت؟
حبيب الزحلاوي

كيف تكتب قصة الفلم؟

بقلم محمد علي ناصف

قصة الفلم: تعتبر قصة الفلم أهم النواحي الفنية فيه؛ فان من الميسور الآن أن تجد لأي فلم المخرج الذي يموله، والمدير الذي يتفهم ادارته، والممثل الذي يحسن تمثيله، ولكن ليس من السهل أن توفق إلى السيناريو الجيد الذي يبنى عليه عمل كل هؤلاء؛ ويقولون إن القصة الضعيفة تقتل النجم الكبير ومثل هذا القول لم يكن على هذه الدرجة في بدء صناعة السينما حيث كان الممثل هو أول وآخر من يحفل به؛ ولكن أهمية الكاتب أصبحت ملموسة بعد أن صار الفلم ناطقاً؛ وبعد أن ارتقت السينما وأخذت اتجاها أدبياً رفيعاً يظهر أثره يوماً بعد يوم

فمن نتائج الفلم الناطق انه أشرك الأذن مع العين في تذوق فائدة السينما؛ والإذن - علمياً - اشد انتقاداً من العين، لأنه من الجائز ألا تلمح عينك قبح وجه يخفيه طلاء متقن جميل، ولكنك لن تستطيع أن تحمل أذنك على الإعجاب بقول قبيح تستمعه في مناسبة جميلة

وقد اصبح الحوار في الأفلام بعد تثقيفها من الخطورة بمكان لأنه يساعد الصورة على التعبير، وقد يكون في كثير من الأحيان أهم من نقس الصورة؛ ولقد شاهدنا فلم (روميو وجوليت) فكان إخراجه قوياً وتمثيله رائعاً وتصويره جميلاً، ولكن كان أهم ما بالفلم حكم شكسبير التي انطق بها أشخاص روايته الخالدة

كاتب الفلم: يخطئ من يحسب أن كل من له دراية بكتابة الرواية أو المسرحية أو كل من له اسم كبير في عالم الأدب يمكن الاستفادة منه في كتابة قصة الفلم؛ وقد وقع في هذا الخطأ كثير من المشتغلين بالأفلام في بدء عهودها فتعاقد هؤلاء مع موريس مترلنك، ارنولد بنيت، سير جلبرت باركر، سومرست موغام، البنور جلين، كدنان دويل وغيرهم؛ ولكن واحداً من هذه العقود لم يجدد مرة أخرى؛ وقد أصبحت حقيقة ملموسة أن اشهر كتاب القصة السينمائية ليسوا من الأسماء المعروفة في عالم الأدب إلا أن تكون الشهرة الأدبية قد جاءت ملحقة بالشهرة السينمائية

ولقد اقتنع جميع الكتاب المعاصرين الذين تخرج مؤلفاتهم في السينما بان كتابة الأفلام شئ يختلف عن كتابة الكتب فسلم أكثرهم مؤلفاتهم إلى أيدي كتاب الاستديو من غير قيد ولا شرط

محمد علي ناصف

العدد 249 - بتاريخ: 11 - 04 - 1938

كلمة في أوانها

ليس من دأبنا أن نعرض للسياسة إلا من حيث اتصالها بالخلق أو الأدب. والخلق والأدب موضوع السياسة العليا التي لا تتحزب ولا تتعصب ولا تعرف تخوم المكان ولا حدود الزمن! ولكن بينهما وبين السياسة الدنيا تفاعلاً وتبادلاً لا يفتران! فهي تؤثر فيهما وهما يؤثران فيها؛ وهي تغير منهما وهما يغيران منها. والخلق بخاصة مساك الأمة وملاك الأمر. ولم تؤت النهضات القومية في الشرق إلا من جهة فساده. ذلك لأن الحال في الأمة العائدة أو الناشئة التي يخرج أهلها وحداناً من ظلام الجهل والغفلة، أن يسعى المرء فيها ليغنى، ويغنى ليتزعم، ويتزعم ليحكم، ويحكم ليستبد، ليطغى، ويطغى ليتأله، سلسلة من الغرائز الجافية الرذيلة حلقاتها الشهوة والطمع والغلبة والأثرة والجموح والبغي، يصل بينها جميعاً أنانية غالبة وفردية أصيلة. فالأهل والأصحاب والأحزاب إنما يتعاملون بغير الحق ويتجادلون بغير المنطق، ابتغاء الفوز من وراء الباطل، والغلبة من طريق القوة؛ لأن لا يعرف (الغير)، والذات لا تدرك المعنى، إلا إذا أضاء العلم (الأنا) ،ما حولهما فظهرت الأشخاص، وبانت الفروق، ووضحت الحقوق وتميزت المعالم. وحينئذ يقول كل امرئ لنفسه أول مرة: إن في العالم ناساً غيري، وإن لهم حقاً كحقي. ومتى شعر المرء بالناس، وفطن إلى ،وجود الحق، تولدت فيه معاني الإنسانية والديمقراطية والحرية والعدل .فيصبح خالصاً للجماعة إذا سعى، وللوطن إذا تزعم، وللدولة إذا حكم

نحن إلى اليوم لم نخرج عن ذواتنا في العمل والسياسة والحكومة. نقيس كل شيء بمقياس
الفائدة الخاصة، ونحمل كل أمر على محمل الهوى الفرد، ونغلب إرادتنا على إرادة الأمة في الحق المشاع، حتى أقتنع المستريب بأننا تعلمنا الكلام ولم نتعلم العمل، وحذقنا فنون الدعاية ولم نحذق أصول الحكم، وحفظنا مصطلحات الدستور ونسينا مبادئ الشورى.

كان ذلك محمولاً والجهل غاش على العيون رائن على الأفئدة؛ أما الآن فقد تنبه الغفلان وتذكر الناسي. تنبه الغفلان إلى أن من استطاع أن يرفع المظلوم يسهل عليه أن يخفض الظالم؛ وتذكر الناسي أن له دستوراً يجعل مصدر السلطات في فم المحكوم لا في يد الحاكم. فمن ذا الذي يوسوس إليه شيطانه أن يرفع في وجه الأسود وأشبال الأسود عصا القطيع؟ ومن ذا الذي يسول له طغيانه أن يرتفع على كواهل الشعب ليقول: أنا سيد الجميع!

لقد كان لبعضكم يا زعماء الساعة أخطاء على الأمة في بعض الأمور ملكت عليها الصبر ولم تملك لها المغفرة. وقد أتاح لكم القدر العجيب هذه الفرصة لتصححوا بصواب اليوم خطأ الأمس، وتبددوا بيقين الحاضر ظنون المستقبل. فهل تدعونها تمر كما يمر أريج الطيب بالرجل الأخشم؟ إن بعضكم بلغ ساحل الحياة، وبعضكم جاوز حد الثروة، وكلكم تفرع ذروة الجاه، فماذا يخزلكم عن ابتناء المجد المؤثل وابتغاء الذكر الخالد؟

نريد أن يكون الزعيم لجنسه لا لنفسه، ولشعبه دون حزبه، ولغده قبل يومه، حتى يتذوق هذا الشعب المجهود لذة الأخوة في ظل الوطن، وعزة الحرية في كنف الدستور، وجمال المساواة في حمى الحكم الصالح.

نريد أن تلغوا سياسة الخطب، وتقصروا ألسنة الوعود، وتخفتوا ضجيج المظاهر، وتكفوا عن كرامة الناس صلف المنصب وزهو السلطان وبطر الجاه؛ فإن المصري أكره الناس للزعيم المغرور والوزير المتغطرس والنائب الأثر.

نريد أن تفتحوا لمصر عهداً جديداً من الهدوء والاستقرار، تدخلونه في ثياب الإحرام صدوركم نقية من أحقاد الحزبية، ونفوسكم بريئة من شهوات العصبية، وميولكم نزيهة عن خسيس المطامع، فتصرفون القوى إلى الإنتاج، وتوجهون الجهود إلى الهدف، وترصدون ملكات الأمة وكفاياتها لطرد الجهل منها، ودفع الفقر عنها، ومعالجة المرض فيها، لتعيش كما تعيش الأمم الحية صحيحة الجسم سليمة الروح متماسكة الوحدة.

إن الوزارة متسقة الأعضاء متحدة الهوى، وإن المعارضة نزيهة الأغراض مريرة القوى، وإن الأحزاب متقاربة الميول مستقلة الرأي، وإن الأمة يقظة الفؤاد كلوءة العين، وإن العرش من وراء كل أولئك محيط، يقوم الصعر، ويسدد الخطى، ويرقب الأمور، ويجمع الهوى الشتيت. فهل آن لنا أن نحيا حياة العاملين الأعزة في وطن صريح الاستقلال قوى الشوكة، لا سلطان لقوة خارجية عليه، ولا سيادة للغة أجنبية فيه، ولا استبداد لشركة أوربية به. وهل آن لنا أن نتمتع بحرية مهذبة الأطراف مأمونة السفه، ينعم الفرد فيها بنفسه، ويأمن بها على رأيه، في مجتمع راقي الطبقات مثقف النواحي، يؤلف نافره الخلق، ويرفه حياته الحب، ويؤويه إلى كنفه إله وعلم وملك؟

أحمد حسن الزيات

مع فتاة

حديث غير مفيد

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

دق التليفون قبيل الظهر، ودعيت إليه، فسمعت صوتاً كدت أنساه من طول العهد به يسألني: (هل تستطيع أن تهبني من وقتك الثمين دقائق؟ إن بي حاجة إليك فلا تخيب أملي فيك).

فشوقني ذلك إلى لقائها، وإن كانت قد جفتني ونبت بي بلا موجب أعرفه، فذهبت إليها، وقلت وأنا أحدق في وجهها متفرساً:

(والآن ما الذي زوى بين هاتين العينين الجميلتين مذ كنت هنا آخر مرة؟)

قالت وهي تبشم وتمد إلى يديها بصندوق السجاير:

(خمن وأراهن لن تقع على الصواب!)

قلت وأنا أشعل السيجارة على مهل:
(أهو شيء عجيب جداً إلى هذا الحد؟)
قالت: (نعم وجديد أيضاً)
وكانت مقطبة على الرغم من ابتسامها، ولكن وجهها كان كأنه في هالة. فقلت: (إن هذا الذي أطالعه في محياك الوضيء لا يكون إلا من شيء واحد. فمن هو؟ لا تطيلي عذابي)
قالت وهي تتنهد: (إنك لا تعرفه. . شاب أصغر مني. . . قد يكون هذا جنوناً مني. . ولكنه هو أيضاً مجنون. . بالآثار. .)
قلت: (إن في الدنيا ضروباً شتى من الجنون، فلا تخشى أن أنكر عليك أو عليه شيئاً، ولكن الذي لا أستطيع أن أفهمه هو أن تضيعي وقتك معي وحقك أن تكوني معه)
قالت: (هذا ما أردت أن أتحدث معك فيه. . إن له صديقاً حميماً من علماء الآثار. . لا يفترقان. . . ولا كلام لهما إلا في هذه الآثار. . . وأنا أزعم أني لا أبالي. . . ولكنه يبدو لي أن هذا الحال غير طبيعي)
قلت: (غيري؟؟)
قالت: (نعم، إلى حد ما، وإنها لسخافة، ولكن هذا هو الواقع، ولا حيلة لي أراها)
قلت: (الحكمة القديمة تقول إن الإنسان لا يحيا بالخبز وحده؛ أما الحكمة الجديدة فتقول إنه لا يحيا بالحب وحده)
قالت: (اعرف هذا ولكن. . .)
فقاطعتها وقلت: (ولكن يا فتاتي الغيرى يجب أن تعلمي أن للصداقة - كما للحب - مطالبها ومقتضياتها؛ ومن الجلي أن هذه الصداقة تنيله ما لا يسعك أنت أن تنيليه. وإذا كان لي رجاء، فهو ألا تحاولي أن تستحوذي على هذا الشاب، فإن من الخطأ الذي تقع فيه المرأة كثيراً أن تحاول أن تبلع الرجل. . ومن يدري. . لعل المرأة كانت أسبق من الرجل إلي أكل اللحم البشري، وعسى أن تكون هي التي علمته ذلك. . ولكنا ارتقينا يا فتاتي الجميلة. . خرجنا من عصور الاستيحاش. . . ثم أسمعي. . . لا تصدقي أن من الممكن إدماج حياة في حياة، وأن اثنين يمكن أن يكونا واحداً. . . تذكري ما تعلمت من علم الحساب. . . وخير من هذا، وأجلب للراحة أن توطن المرأة نفسها على أن للرجل حياته المستقلة. . . فان محاولتها الاستحواذ على الرجل تؤدي إلى جعل الحب آفة، والعكس أولى بأن يكون)
فقالت بلهجة مبطنة بالمرارة: (إن من الطبيعي ولا شك أن يكره الإنسان المشاركة)
قلت: (الرغبة في الاستحواذ مرة أخرى. . . ولكن هل أنت مشاركة فيه؟ هل في وسعك أن تغنيه عن صديقه وأن تحلي محله، وتشبعي الجوع الذي يحسه من هذه الناحية؟ لا أظن فاقنعي بنصيبك منه، ودعي له البقية التي لا يكون في مقدورك أن تسدى الفراغ فيها. . . إن من العسير أن تصبيه في القالب الذي يروقك. . . صعب جداً أن تغيري الناس. . . كل ما يمكن أن تنجحي فيه هو أن تسيئي إليه وتنفريه. . . فما دام يشعر بالحاجة إلى صديقه هذا فدعيه له، ولا تطمعي أن تسلبيه منه الآن. . . إنك جديدة عليه فاتركي الوقت الكافي للتكيف. . ومن يدري. . إنه لا يجد فيك الآن كل ما تصبو إليه نفسه. . . قد يستغني بك عن الدنيا قاطبة فيما بعد. . . بعد أن تتكشف له نواحي نفسك شيئاً فشيئاً. . . ولكن من يدري أيضاً. . . قد يتبين انك أنت أيضاً لا تجدين عنده كل ما تطلبين من الحياة. . . قد تجدين مثلاً مجرد مثل. . . أنك لا تستغنين عني، وأن بك حاجة ولو قليلة إلى صداقتي الفارغة. على كل حال، لقد احتجت اليوم إلي، ولو أنه كان حسبك من كل ناحية لما دعوتني إليك)
وتناولت فنجان القهوة، ورشفت منه رشفة ثم أعدته وقلت: (ويا سميحة، كلمة أخرى. . . إن من الخطر أن تتزوج المرأة رجلاً اصغر منها. . . واسمحي لي بأن أكون فظاً فان صداقتنا تعطيني هذا الحق، وأنت أعز علي من أن أهمل فتح عينيك على الحقائق. نعم، خطر كبير هذا، فان المرأة تفقد جمالها بأسرع مما تفتر عواطف الرجل وتضعف قواه)
قالت: (يكفي، فإني لا أجهل هذا)
قلت: (حسن. . . . إذن تعالي نتمشى)
ولكنها في الطريق لم تكن خيراً منها في البيت، كانت قلقة مضطربة على الرغم من

تكلفها الابتسام، وحرصها على التظاهر بأن لا شيء يثقل عليها أو يكربها، فاضطررت أن أقول لها: (إن من واجب المرأة حين تحب رجلاً أن تحرص على إسعاده، كما تطلب أن يحرص هو على إسعادها، والرجل على كل حال لا يستطيع أن يفهم لماذا يكون هو المعطي والواهب والمضحي دائماً؟)

قالت: (إن كثيرين من الرجال يفعلون ذلك ولا يتململون)

قلت: (ندع انهم ليسوا رجالاً بخير معاني اللفظ، وندع أن فتاة مثلك لا يرضيها واحد من هؤلاء الرجال المهازيل، ويكفي أن أنبهك إلى أن هؤلاء الذين تذكرينني بأمرهم ساخطون ناقمون في قلوبهم، وانهم يحسون بأن عيشتهم سوداء، ولا يشعرون برضى حقيقي، وإن كانوا لضعفهم لا يجرءون أن يظهروا لنسائهم ما خفي من أمرهم عليهن، ولو أتيحت لواحد منهم فرصة التمرد لتمرد وجازف. . . وهذا يحدث كثيراً. . . ومجازفة الضعيف الخائف أفظع من مجازفة القوي المطمئن الواثق بنفسه. . . فلا تنسي هذا. . .)

قالت: (لماذا تتكلم هكذا. . . إني لا أحاول أن أتحكم فيه أو أسيطر عليه)

قلت: (قد يكون هذا صحيحاً، ولكنك تحاولين أن تمنعيه أن يرضى نفسه من ناحية لا تستطيعين أنت أن ترضيه منها. . . تحاولين أن تخطفيه من أصدقائه الذين يحس ويعرف أن به حاجة إليهم. . . إن الرجل ليس كالمرأة، وهو لا يفهم الحب كفهمها له، والحب ليس كل شيء في حياة الرجل، وإن كان كل شيء في حياة المرأة؛ ثم إنه شيء لا دوام له في الأغلب والفتور يعروه على الأيام؛ وهذا الاستحواذ الذي تغري به طبيعة المرأة ليست له ثمرة إلا إعلال من الجانبين. . . أظن أن كلامي ثقيل عليك جداً، ولكن ماذا أصنع وأنا مدعو لأكون ثقيلاً؟ كالطبيب. . جعلت مني طبيباً لك لا صديقاً، وما حيلة الطبيب إلا أن يثقل على الناس بما يمليه عليه علمه وفنه؟)

ولكنها لم تسمع ولم تقتنع، وأبت إلا أن تطيع طبيعتها ولها العذر، وتزوجت الرجل، وفرقت ما بينه وبين صديقه العالم بالآثار.

وبعد سنتين اثنتين لا أكثر دقت لي التليفون مرة أخرى فأحسست بأن الصوت معروف، ولكني لم أذكره حتى قالت أسمها، ودعتني إليها، ولكن هذا حديث آخر يطوى، فلنرجئه إلى وقت غير هذا. . .

إبراهيم عبد القادر المازني

شق وسطيح

وابن خلدون والقرآن والعربانيون

لأستاذ جليل

طالعت في شبابي الجزء الأول من (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر) وهو المعروف عند الناس بمقدمة ابن خلدون. وقد وعيت يومئذ مباحثه، وقيدت الذاكرة ما استطاعت من فوائده - وإنها وأبيك لكثيرة - ثم فر جلها، وقر بعضها و (اختلاف النهار والليل ينسى) كما يقول شاعرنا (أحمد الثالث). فلما قرأت في مقالة (التنويم المغناطيسي وقراءة الأفكار في القديم) في (الرسالة) الهادية الموقظة هذه الجملة: (ولأبن خلدون بحث عن الكهانة خذله فيه التحقيق) تذكرت كتاب عبد الرحمن، ورجعت إليه أنشد حديثه عن الكهانة والكهان. وذهبت أتلوه تلاوة المتبصر، فلما تممته لم أتمالك أن كررت عبارة تلك المقالة: (. . . خذله فيه التحقيق) فقد ألفيت العبقري الألمعي إمام الباحثين الناقدين، ومعلن مغالط المؤرخين قد جره الضلال بجرير طويل، وقاده الوهم والخيال قود الذلول، فتقبل - مطمئن النفس - شعبذات الكهانة ومخارق العرافة وخزعبيلات العائفين، وآمن بشق وسطيح. وهذه طائفة مما قال:

(إنّا نجد في النوع الإنساني أشخاصاً يخبرون بالكائنات قبل وقوعها مثل العرافين والناظرين في الأجسام الشفافة كالمرايا وطساس الماء، والناظرين في قلوب الحيوانات وأكبادها وعظامها، وأهل الزجل في الطير والسباع، وأهل الطرق بالحصى والحبوب من الحنطة والنوى. وهذه كلها موجودة في عالم الإنسان لا يسع أحداً جحدها. . .)

(إن للنفس الإنسانية استعداداً للانسلاخ من البشرية إلى الروحانية التي فوقها، وإنه يحصل من ذلك لمحة للبشر في صنف الأنبياء)

وإن هنا صنفاً آخر من البشر - يعني الكهان - ناقصاً عن رتبة الصنف الأول - يعني) الأنبياء -)
(وهذه القوة التي فيهم مبدأ لذلك الإدراك هي الكهانة)
(ونفوس الكهنة لها خاصية الاطلاع على المغيبات)
ثم إن هؤلاء الكهان إذا عاصروا زمن النبوة فإنهم عارفون بصدق النبي لأن لهم بعض) الوجدان من أمر النبوة)
قد كان العرب يفزعون إلى الكهان في تعرف الحوادث، ويتنافرون إليهم في) الخصومات ليعرفوهم بالحق فيها من إدراك غيبهم، وفي كتب الأدب كثير من ذلك.
وأشتهر منهم في الجاهلية شق بن أتمار وسطيح بن مازن، وكان يدرج كما يدرج الثوب، ولا عظم فيه إلا الجمجمة. . . ومن مشهور الحكايات عنهما تأويل رؤيا ربيعة بن نصر وما أخبره به من ملك الحبشة لليمن وملك مضر من بعدهم وظهور النبوة المحمدية في قريش. ورؤيا الموبذان التي أولها سطيح لما بعث إليه بها كسرى عبد المسيح فأخبره بشأن النبوة وخراب ملك فارس. وهذه كلها مشهورة، وكذلك العرافون كان في العرب منهم كثير وذكروهم في أشعارهم)
فهناك عند أبن خلدون الكهانة تعلم الغيب، وهي نبوة ناقصة، وهناك الكاهن كأنه مرشح نبي. . . وقد قال في تضاعيف كلامه متبجحاً على المسعودي بعلمه وتحقيقه: (وقد تكلم عليها المسعودي في (مروج الذهب) فما صادف تحقيقاً ولا إصابة، ويظهر من كلام الرجل أنه كان بعيداً عن الرسوخ في المعارف فينقل ما سمع من أهله ومن غير أهله)
(ومن قول المسعودي في الكهانة في (المروج):
ذهب كثير أن علة ذلك علل نفسانية، وأن النفس إذا قويت وزادت قهرت الطبيعة،) وأبانت للإنسان كل سر لطيف، وخبرته بكل معنى شريف، وغاصت بلطافتها في انتخاب المعاني اللطيفة البديعة فاقتنصتها، وأبرزتها عن الكمال)
فإذا قال المسعودي مثل هذا فزل وضل فان أبن خلدون لم يهتد. وما حديث أحدهما بأصدق من حديث صاحبه. إنهما في باب الكهانة والكهان سيان.
وشق وسطيح اللذان آمن بهما ابن خلدون، وصدق كونهما وأسطورتيهما هذا بعض ما قيل فيهما:
(قال الدميري في (حياة الحيوان الكبرى):
كان شق شق إنسان، له يد واحدة، ورجل واحدة، وعين واحدة. وكان سطيح ليس له) عظم ولا بنان، إنما كان يطوى مثل الحصير، وكان وجهه في صدره، ولم يكن له رأس ولا عنق)
(وقال أبن منظور في (لسان العرب):
سطيح هذا الكاهن الذئبي من بني ذئب كان يتكهن في الجاهلية، سمي بذلك لأنه لم) يكن بين مفاصله قصب تعمده، فكان أبداً منبسطاً منسطحاً على الأرض لا يقدر على قيام ولا قعود، ويقال: كان لا عظم فيه سوى رأسه)
(وقال الثعالبي في (ثمار القلوب في المضاف والمنسوب):
سطيح الكاهن كان يطوى كما تطوى الحصير، ويتكلم بكل أعجوبة في الكهانة؛ وكذلك شق الكاهن، وكان نصف إنسان)
وقال الزبيدي في (تاج العروس): (شق كاهن قديم معروف قاله أبن دريد، وحديثه مستوفي في الروض للسهيلي، وإنما سمى لأنه شقاً واحداً، وكان في زمن كسرى أنوشروان)
وقال الشريشي في (شرح المقامات الحريرية)
سطيح الغساني أكهن الناس، كان يدرج جسده كما يدرج الثوب خلا جمجمة رأسه،) وإذا مست باليد أثرت فيه للين عظمها)
وقد زلق قلم أبن خلدون فقال: (كان سطيح يدرج كما يدرج الثوب، ولا عظم فيه إلا الجمجمة) وكأنه أستحي أن يذكر أن شقا كان شقا: ذا يد واحدة وعين واحدة ورجل واحدة. . . فلم يعرفه بلحيته.
وأسطورتا هذين الكائنين العجيبين اللتان أشار إليهما ابن خلدون - ذكرهما مؤرخون ضالون كثيرون، وأدباء ناقلون غير محققين، ومفسرون ومحدثون، منهم ابن اسحق

صاحب السيرة، وابن عبد ربه في العقد، والماوردي في أعلام النبوة، والرازي في مفاتيح الغيب، وابن منظور في اللسان، وأبن عربي في محاضرة الأبرار، والألوسي في بلوغ الأرب وغيرهم. ومما قيل في الأسطورة الأولى، وهو من (سيرة) ابن هشام:
إن ربيعة بن نصر ملك اليمن رأى رؤيا هالته، فقال سطيح في تأويلها: أحلف بما بين) الحرتين من حنش، لتهبطن أرضكم الحبش، فليملكن ما بين أبين إلى جرش. فقال له الملك: فمتى هو كائن؟ أو في زماني هذا أم بعده؟ قال: لا، بل بعده بحين، أكثر من ستين أو سبعين، يمضين من السنين. قال: أفيدوم ذلك من ملكهم أم ينقطع؟ قال: لا، ينقطع لبضع وسبعين من السنين، ثم يقتلون ويخرجون منها هاربين. قال: ومن يلي ذلك من قتلهم وإخراجهم قال: يليه أرم بن ذي يزن، يخرج عليهم من عدن، فلا يترك أحداً منهم باليمن.
قال: أفيدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع؟ قال: بل ينقطع. قال: ومن يقطعه؟ قال: نبي زكي، يأتيه الوحي من قبل العلي. قال وممن هذا النبي؟ قال: رجل من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر يكون الملك في قومه إلى آخر الدهر. قال: وهل للدهر من أخر؟ قال: نعم يوم يجمع فيه الأولون والآخرون، يسعد فيه المحسنون ويشقى فيه المسيئون. قال: أحق ما تخبرني؟ قال: نعم، والشفق والغسق، والفلق إذا أتسق، إن (ما أنبأتك به لحق
وقال شق للملك مثل قول سطيح
ومما جاء في الأسطورة الثانية: (أن الموبذان رأى رؤيا أفزعت كسرى فسئل عنها عبد المسيح بن عمرو بن نفيلة الغساني فقال: علم هذا عند خالي سطيح. قيل: فأنه وسله وأت بجوابه. فقدم على سطيح، وقد أشفى على الموت فقال (أرجوزة) مطلعها: أصم أم يسمع غطريف اليمن؟ ... يا فاصل الخطة أعيت من ومن.
فلما سمع سطيح شعره رفع رأسه فقال: عبد المسيح، على جمل مشيح، إلى سطيح، وقد أوفى على الضريح. بعثك ملك بني ساسان، لارتجاس الإيوان، وخمود النيران، ورؤيا الموبذان. رأى إبلا صعاباً، تقود خيلاً عراباً، قد أقحمت في الواد، وانتشرت في البلاد. يا عبد المسيح، إذا كثرت التلاوة، وبعث صاحب الهراوة، وفاض وادي السماوة، وغاضت بحيرة ساوة، وخمدت نار فارس فليست بابل للفرس مقاماً، ولا الشام (لسطيح شاما. يملك منهم ملوك وملكات، على عدد الشرفات، وكل ما هو آت آت ذانك شق وسطيح، وتانك أسطورتاهما. والإسلامية غير مفتقرة إلى إعلام كاهن، وخبر عراف. إن ضياء الشمس مستغن عن شهادة (الدساسة) وهذا قول الإسلامية في الكهانة والغيب:
في الحديث: (من أتى كاهناً أو عرافاً فقد كفر بما أنزل على محمد، أي من صدقهم. (من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم يقبل منه صلاة أربعين ليلة)
أي أجرته. وفي (النهج) (نهى عن حلوان الكاهن):
أيها الناس! إياكم وتعلم النجوم إلا ما يهتدي به في برٍ أو بحر فإنها تدعو إلى الكهانة،) (والمنجم كالكاهن
قال الشيخ محمد عبده في شرح هذا الكلام: (الكاهن من يدعي كشف الغيب، وكلام أمير المؤمنين حجة حاسمة لخيالات المعتقدين بالرمل والجفر والتنجيم وما شاكلهما، ودليل واضح على عدم صحتها ومنافاتها للأصول الشرعية والعقلية)
وقال الشيخ محمد عبده في (شرح مقامات الهمذاني):
ويروي لنا من شعره ما يمتزج بأجزاء النفس رقة، ويغمض عن أوهام الكهنة دقة -) أراد بالكهنة أصحاب دعوى علم النجوم وأسرارها. واستطلاع المغيبات مما تفيضه أرواحها. وقد جاء الدين الإسلامي بتكذيبهم والنهي عن الاشتغال بمذاهبهم في أوهامهم (غير أنه بقى ذكرهم في الكلام من قبيل ضروب الأمثال
وقال أبن أبي الحديد في الشرح الكبير للنهج: (إن المعلوم ضرورة من دين رسول الله إبطال حكم النجوم وتحريم الاعتقاد بها، والزجر عن تصديق المنجمين)
وابن خلدون الذي آمن بالكهانة قد كفر بالنجامة وفند مقالة النجامين أو المنجمين في فصل طويل في كتابه - تفنيداً:
متكهّن ومنجم ومعزِّ ... وجميعُ ذاك تحيُّل لمعاش

نجئ إلى الغيب
في (مسند الربيع بن حبيب):
عن عائشة: من زعم أن محمداً يعلم ما في غد فقد أعظم على الله الفرية، لأن الله) تعالى يقول: (قُلْ لا يعلم من في السموات والأرض الغيبَ إلا الله وما يشعرون أيّانُ يبعثون)
وفي (كتاب الله):
قُلْ لا أقولُ لكم عندي خزائنُ الله، ولا أعلم الغيب، ولا أقول إني ملك، إنْ أتبعُ إلا ما) يوحي إليّ)
(ولا أقول لكم عندي خزائن الله، ولا اعلم الغيب، ولا أقول إني ملك)
قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله، ولو كنت أعلم الغيبَ لاستكثرتُ من) الخير وما مسني السوء، إنْ أنا إلا نذيرٌ وبشيرٌ لقوم يؤمنون)
عالم الغيب فلا يُظهر على غيبه أحداً، إلا من أرتضى من رسول فانه يسُلك من بين) يديه ومن خلفه رَصَداً ليعلمَ أن قد أبلغوا رسالات ربهم، وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيءٍ عدداً)
قال الكشاف: (أي هو (عالم الغيب) فلا (يظهر) فلا يطلع و (من رسول) تبيين لمن أرتضى، يعني أنه لا يطلع على الغيب إلا المرتضي الذي هو مصطفى للنبوة خاصة لا كل مرتضى، وفي هذا إبطال للكرامات لأن الذين تضاف إليهم - وإن كانوا أولياء مرتضين فليسوا برسل، وقد خص الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب. وإبطال الكهانة والتنجيم لأن أصحابها أبعد شيء من الارتضاء وأدخله في السخط (فانه يسلك من بين يديه) يدي من أرتضى للرسالة (ومن خلفه رصداً) حفظة يحفظونه من الشياطين يطردونهم عنه، ويعصمونه من وساوسهم وتخاليطهم حتى يبلغ ما أوحي به إليه (ليعلم) الله (أن قد أبلغوا رسالات ربهم) يعني الأنبياء ليبلغوا رسالات ربهم كما هي محروسة من الزيادة والنقصان)
والغيب في كلام الله هو الوحي، وحي النبوة كما قال الزمخشري: (حتى يبلغ ما أوحي به إليه) لا كل غيب كما يظهر من كلام (الكشاف) في أول تفسيره. وقد جاء في (فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير): (وهو ما يتعلق برسالته كالمعجزة وأحكام التكاليف وجزاء الأعمال وما بينه من أحوال الآخرة لا ما يتعلق برسالته من الغيوب كوقت قيام الساعة ونحوه) وجاء في (جامع البيان) - وهو تفسير أبن جرير الطبري: (فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من أرتضى من رسول فأعلم الله (سبحانه) الرسل من الغيب الوحي؛ أظهرهم عليه بما أوحي إليهم من غيبه، وما يحكم الله فانه لا يعلم ذلك غيره. قال أبن زيد: (ينزل من غيبه ما شاء على الأنبياء، أنزل على رسول الله الغيب القرآن، وحدثنا فيه بالغيب، بما يكون يوم القيامة)
وفي (موضوعات على القارئ):
قد جاهر بالكذب بعض من يدعي العلم في زماننا وهو متشبع بما لم يعط أن رسول) الله كان يعلم متى تقوم الساعة. وهؤلاء الغلاة عندهم أن رسول الله منطبق على علم الله سواء بسواء، فكل ما يعلمه الله يعلمه رسوله، والله تعالى يقول: (وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مَرَدوا على النفاق لا تعلمهم، نحن نعلمهم؛ سنعذبهم مرتين ثم يُردُّون إلى عذاب عظيم) وهذا في (براءة) وهي من أواخر ما نزل (من القرآن. هذا والمنافقون جيرانه في المدينة
فإذا كان صفوة النوع الإنساني، وسيد المرسلين والنبيين والعظيمين هو كما قال الله، فهل يعلم الغيب رسول أو نبي أو صحابي أو (ولي) أو (غوث) من الأغواث أو (قطب) من الأقطاب أو (بدل) من الإبدال أو كاهن أو منجم أو دجال أو شق أو سطيح أو سقط أو مليص؟
أين عقول الناس؟ أين عقول الباحثين؟
وحديث الكاهنين (شق وسطيح) يبعثنا على أن نختم القول فيه بهذه السطور:
أسلوب القرآن هو أسلوب المبتدع، لا أسلوب المتبع، والدليل الديني انه وحي الله، والبرهان العقلي أنه الكتاب العبقري، والعبقري في الدنيا مقلد لا مقلد، ومتبوع لا تابع.
قال أبو العلاء احمد بن سليمان في (رسالة الغفران):
أجمع ملحد ومهتد، وناكب عن المحجة ومقتد، أن هذا الكتاب الذي جاء به محمد بهر)

بالإعجاز، ما حذي على مثال، ولا أشبه غريب الأمثال. ما هو من القصيد الموزون ولا الرجز، ولا شاكل خطابة العرب ولا سجع الكهنة، وجاء كالشمس اللائحة (وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) وإن الآية منه أو بعض الآية لتعترض في أفصح كلام (يقدر عليه المخلوقون فيكون فيه كالشهاب المتلألئ في جنح غسق
وقال أبو بكر محمد بن الطيب البلاقلاني في كتابه (إعجاز القرآن):
إن نظم القرآن على تصرف وجوهه واختلاف مذاهبه، خارج عن المعهود من نظام) جميع كلامهم - يعني العرب - ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص (به، ويتميز في تصرفه
ذلك هو (الكتاب) وذلك - كما قال هذان الإمامان - أسلوبه، وقد أقبلت (أو أدبرت) طائفة من العربانيين - أعني المعروفين بالمستشرقين - تقول: (ليس أسلوب القرآن مبتدعاً وإنما قلد فيه سجع الكهان) وتلقف قولهم أو تخليطهم - جاهلين عمهين - متلقفون.
وقد قالت تلك الطائفة الغربية مقولتها وأئمتها من العربانيين المحققين يقولون كما قلت قدما وأقول اليوم: إنه لم يثبت من منثور الجاهلية شيء، فكيف اهتدت الفئة الضالة إلى أصل الأسلوب القرآني؟ وإلام استندت؟ وعلام بنت مزعمها؟؟
إن كان هادي القوم شق وسطيح وخنافر الحميري وسواد ابن قارب وطريفة وعفيراء وأمثالهم من الكاهنين والكواهن وكانت الحجة تلكم الأساجيع - فقد ضل هاديهم، وأودى الدليل.
إن سجع الكهان إنما قلد مفتعلوه في الإسلام نهج القرآن كما كان يقلده الممخرق (المختار بن عبيد الثقفي) الكيساني. والقرآن - كما قال أبن خلدون - لا يقلد، فكان سجع الجماعة ذاك الكلام البهرج.
وإن القوة التي أبدعت في العربية ذلك (الكتاب) وأخرجت من العرب تلك الأمة فإن القوة التي فطرت من العدم وجوداً ومن العربية (قرآناً) ومن العرب أولئك (الأصحاب) صفوة الناس وجوهر البشرية - هي ربة ذلك الأسلوب.
إن نهج القرآن هو نهج المبدئ المبتدع، لا طريق المقلد المتبع، وإنه لوحي الله، وإنه لكتاب الدهر
القارئ
ليلى المريضة في العراق
للدكتور زكي مبارك
- 15 -
إلى البصرة، إلى البصرة! إلى المدينة التي تجري من تحتها الأنهار. إلى مهد ليلى يطيب الإسراء
ولكن لا بد من السلام على ليلى قبل الرحيل، فقد صبرت النفس عن لقائها ثلاثة أيام، بسبب حادثة وجدانية لا أجرؤ على تدوينها في هذه المذكرات، وهي حادثة ضجت لها أرجاء العراق؛ ولكن لا موجب لتدوينها، لأني أحب أن تموت وهي في المهد، فقد تطويني طياً فأخرج من خدمة الحكومة المصرية وأفتح مكتب تصوير في بغداد؛ وفي مصر رجل عظيم يعرف ما أعني، ويفهم كيف تستطيع هذه الحادثة أن تهدم ما بنيت من آمال.
وأشهد أني كنت املك نسيان ليلى أسبوعاً أو أسبوعين، ولكن وقع ما لم يكن في الحسبان
وتفصيل ذلك أني رجل محزون، محزون، محزون، ولو شئت لكررتها ألف مرة، ولكني من أقدر الناس على الفرار من أحزاني. ولعلي أشبه الرجال بالشاعر الذي يقول:
جنَت عليَّ الليالي غير ظالمةٍ ... إني لأهلٌ لما ألقاه من زمني
فما رأيتُ من الأخطار عاديةً ... إلا بنيت على أجوازها سكنى
ولا لمحتُ من الآمال بارقةً ... إلا تقحّمتُ ما تجتاز من قُنن
أَحلْتُ دنياي معنًى لا قرار له ... في ذمة المجد ما شرَّدت من وسن
ولكن أحزاني تحقد على تجلدي أبشع الحقد فتجمع جيوشها وتهجم علي من حين إلى حين، وقد انتصرت في هذا اليوم مع الأسف الموجع، فلم أجد مفراً من السلام على ليلى، علها تجفف دموعي وتبرد أحزاني

إليك يا ليلى المرجع، وإليك يا ليلى المآب
دخلت على ليلى في العصرية لأقضي في رعايتها أربع ساعات إلى أن يحين الموعد لقطار البصرة فماذا رأيت؟ ماذا رأيت من ليلى ربة العطف والحنان؟
تلقتني عاضبةً بعينين تقذفان بالجمر المتوقد، وتحت قدميها ظمياء.
- من أتى بك إلى هذه الدار؟
- من أتى بي إلى هذه الدار؟ هذه دار ليلاي!
- ليلاك؟ وهل يمكن لرجل مثلك أن يطمع في أن أكون ليلاه؟
- سيدتي، ماذا حدث؟ خبريني فقد طار صوابي
- وهل تجهل ما حدث؟ اسأل قلبك إن كان لمثلك قلب!
- إن قلبي يشهد بأنني وفي أمين
- وفي مثل ما صنعت تكون الأمانة، ويكون الوفاء!!
- سيدتي، ماذا حدث؟ خبريني فقد طار صوابي
- هل تنكر ما شاع عنك؟
- وما الذي شاع عني؟
- يقول أهل بغداد إنك كنت مثال السخف في سهرات المؤتمر الطبي. ويقولون إنك لم تترك سيدة إلا قبلت يديها، وربما أوغلت في السخف فقبلت جبينها وخديها كذبوا، فأنا لم أغازل أكثر من عشرين سيدة
- ما هذا التظرف السخيف؟
- ليلى، أسمعي، أنت حمقاء
- أنت وحدك الأحمق
أنا وحدي الأحمق؟ صدقت يا ليلى، فلو كنت أعقل لرأيت لنفسي ألف مذهب في الحياة غير مداواة الملاح!
- قلت لك إني أبغض هذا التظرف السخيف
- وهو كذلك، تركت التظرف السخيف، تركت التظرف السخيف، ولكن اسمعي يا ليلى، سأرحل عن بلادكم بعد شهرين أو ثلاثة، وستبكين أيامي
- أبكي أيامك؟ وهل كانت لك معي أيام يطول عليها البكاء؟
- ليلى، اسمعي واعلقي، أنا لا أنكر ما وقع مني في سهرات المؤتمر الطبي، ولكني رجل حزين يداوي جراح قلبه بالعبث والمجون
- أعرف أنك حزين، لأني أعرف المرأة التي كوت قلبك
- ما كوى قلبي أحد، وإنما همومي هموم رجال لا تعرفينها يا حمقاء
- أنت وحدك الأحمق
- شيء غريب! أهذا أدب النساء في بغداد؟
- هذا هو أدب النساء في بغداد، وستعرف عواقبه بعد حين
- ليلى، يظهر انك امرأة كسائر النساء
- النساء أشرف من الرجال
- المرأة أجمل من الرجل، ولكن الرجل أشرف من المرأة، لأنه يحتمل مصاعب وأرزاء لا تحتملها المرأة، ولو كنت في مكاني يا لئيمة. . .
- أنت وحدك اللئيم
- من أين تعلمت هذه الألفاظ الغلاظ؟
- تعلمتها منك!
- هل يسرك أن نفترق؟
- في أمان الله!
وخرجت من غرفة ليلى والدمع في عيني، فهذه آخر مرة أرى فيها المرأة التي آنست وحشتي في بغداد. نعم هذه آخر مرة أرى فيها المرأة الجميلة التي عرفت بها كيف استطاع العراق أن يسيطر على الآداب العربية مئات من السنين. هذه آخر مرة أرى فيها المرأة الحلوة العذبة التي جعلت قلمي أطوع قلم، وجعلت بياني أعظم بيان. هذه آخر مرة أشرب فيها صبابة الكأس، وألقي سيفي وأطوي لوائي، إلى آخر الحياة، إن كان لمثلي بعد ليلى حياة!!
وفي تلك اللحظة بكت السماء على غير موعد فظننتها تبكي لبكائي، أنا العاشق

المسكين الذي لم يحفظ له جميل
وقد سقطت على السلم مرتين، فرأيت من الحزم أن أجلس لحظة في الحجرة التي تقارب الباب إلى أن تجف دموعي وترجع قواي
وما كدت اجلس حتى أدركتني ظمياء وهي تقول في تلهف: عيوني! دكتور زكي! عيوني، تعال، تعال
ومدت يدها لترجعني إلى ليلى، فدفعتها بعنف، وخرجت
وفي أثناء الطريق عاد صوابي، وقد عجبت من أن يعود بهذه السرعة، ولكن قلب المحب له أحوال. . . وتذكرت أن ما وقع من ليلى غير مستغرب من النساء، فإن من هوى المرأة أن تجحد الجميل. تذكرت أن للمرأة يؤنسها ويعجبها ويرضيها أن تنكر على الرجل كل شيء، وهي تجد لذة في الجحود وتستروح به كما تستروح بعض الأفاعي بسواد الليل
وتذكرت أخطائي في معاملة النساء، فقد كنت دائماً أعامل النساء معاملة وحشية، لأنني عشت دهري مدللاً بين الملاح، ولكن هذا الدلال كانت له عواقب سود، فقد أضاع علي فرصة سأندبها ما حييت: أضاع على المرأة الجميلة التي اتصلت بها منذ سنين بشارع الباطنية، المرأة التي قسم الله جسمها أجمل تقسيم، وصاغها على افضل نظام؛ المرأة التي كانت تقول في كل لحظة: إيش سويت لي؟ إيش صنعت لي؟ وكنت يومئذ جاهلاً. وأي جهل أقبح من دعوة المرأة إلى حفظ الجميل؟ وقد حملني هذا الجهل على هجر تلك المرأة بقسوة وعنف. . . ثم تطلع إليها القلب بعد ذلك، ولكني وأحر قلباه عرفت أن رجلاً تزوجها ونقلها إلى دمياط
وكانت تلك المرأة على جانب عظيم من العفاف؛ ولكني لا أزال أسأل: كيف كان يجوز في شريعتها أن تتمدد أمامي على السرير في غير ريبة؟ وكيف كان يطيب لها أن تعرض علي محاسن جسمها في غير سوء؟
أحب أن أعرف ما اختلف وما ائتلف من سرائر النساء، فمتى أعرف؟
أخشى أن يكون مصيري مصير الفراء الذي مات وفي نفسه شيء من حتى! والعشاق كالنحويين يموتون وفي أنفسهم أشياء
وحالي أغرب الأحوال، لأني نحوي وعاشق.
وتذكرت أن ليلى كانت قد رقت ولطفت في الأيام الأخيرة، فكنت أنعم منها بفنون من الأنس لا تحيط بها أوهام ولا ظنون. وتذكرت أني سأكون ألأم الناس إذا نسيت تلك المعاني الوجدانية التي كنت أتلقاها من عيني ليلى في كل لقاء، وتذكرت أنها عراقية، وأهل العراق كأهل بدر تغفر لهم جميع الذنوب
أرجع إلى ليلى؟ أرجع؟
لا. لن أرجع
ولكن ليلى مريضة، وهجر المريض لا يستبيحه طبيب أمين
أعود إلى ليلى أعود
أعود إلى ليلى، أعود
أعود إلى المرأة التي قالت أنها تشتهي أن تموت ورأسها إلى صدري. أعود إلى المرأة التي ملأت رأسي بالنور، وغمرت قلبي بالحنان. أعود إلى المرأة التي أعزتني أكرم إعزاز، ورعتني أشرف رعاية. أعود إلى ليلى، أعود إلى ليلاى
وفي أي قلب غير قلبي تحيا معاني الوفاء؟
سيموت الرفق يوم تموت ليلى، وسيموت الشعر يوم أموت أعود إلى ليلى، أعود
ولكن ليلى، أهانتني وجرحتني
لا بأس، فليس يعيب الرجل أن تهينه الملاح. وأي هوان أقبح مما استبحت لنفسي في حي الحلمية يوم رجوت إحدى معشوقاتي أن تسمح لي بتقبيل نعليها
وكانت قبلة شهية جداً
أعود إلى ليلى، أعود
أعود إلى الغرفة التي تزدان بمؤلفاتي وهي في صوان خاص، وقد وشيت بالذهب وأسدلت عليها ستائر الحرير الشفاف، ثم أرى ما تصنع ليلى، فعهدي بها تنظر إلى الصوان الذي يضم مؤلفاتي وتقول: هذا زكي مبارك العالم وهو رجل محترم، ثم تشير إلي وتقول: وهذا زكي مبارك العاشق وهو رجل سخيف:

عفا الله عن ليلى الغداة فإنها ... إذا وُلِّيَتْ حُكما عليَّ تجورُ
وما هي إلا لمحة طرف حتى كنت عند ليلى فرأيت المسكينة في حالة تثير الدمع من أقسى الجفون
ونظرت إلي ظمياء في حنان وهي تقول: لقد صح أملي فيك فقد أكدت لليلى أنك سترجع وما كانت تصدق أنك سترجع وتسكت ليلى فلا تتكلم، كأنها تقاسي نوبة إغماء، ثم تفتح عينيها بتكلف وتقول:
- أنتم يا رجال ليس لكم أمان!
وأكاد أصعق، لأني سمعت هذه العبارة مليون مرة، ولعلها أول جملة سمعها آدم من حواء
- ليلى!
- مولاي!
- مولاك؟ وكنت من لحظات ترفضين أن تكوني ليلاي؟
- إن رجوعك بهذه السرعة يشهد بأنك عليل، وقد صدق خصومك في لبنان حين سموك (قيس المريض في العراق)
- سنفترق في حزيران
- ومن يضمن أن تحفظ العهد إلى حزيران؟
- تأدبي يا ليلى، فستبكين أيامي بالدمع
- تأدب أنت، فستبكي أيامي بالدم
- الرجل أوفى من المرأة
- لم يخلق الله أغدر من الرجال
- المرأة سخيفة
- الرجل أسخف
وعند هذا الحد تدخلت ظمياء وهي تقول: أتريدون أن تمثلوا الرواية من جديد؟ أنا لا أسمح لكم بهذا العبث، اسكتي يا ليلى اسكت يا زكي
وقد عجبت من أن تكون لظمياء هذه السيطرة، وأن ترفع الكلفة في مخاطبتي مع أني أستاذ عظيم. فقلت: وما شأنك أنت يا بنت؟
فأجابت: أحفظ أدبك، فأنا حارسة هذا البيت، وأنا ست الكل.
- ست الكل؟
- نعم ست الكل ألا تفهم؟
ثم رفعت يدها ولطمتني لطمة غارت منها ليلى، فنظرت إليها بغضب وقالت: الغزل ممنوع في هذا البيت!
وكانت ظمياء كالعصفورة التي يفزعها المطر فتفزع إلى نوافذ البيوت وتزقزق لترحمها القلوب، فتدخلت لإنصافها وقلت: ما هذا غزلاً، إن هذا إلا تأديب
- ولن أسمح ليد أن تؤدبك غير يدي
- شرع الله ولا شرعك يا ليلى
فلطمتني الشقية أحر وأعنف
ولم أفكر في الدفاع عن نفسي، وإنما أخذ قلبي يسأل: أي الكفين أندى وأرق؟ كف ليلى أم كف ظمياء؟
إن عيني تعودت كحل هند ... جمعت كفها مع الرفق لينا
ومن الواضح أن هذا الاعتداء كان إيذاناً بانتهاء الخصام
وفي لحظة واحدة تحولت الدار إلى بحر يموج بالبهجة والانشراح
- ليلاي!
- مولاي!
- أنا أحبك!
- وأنا أبغضك!
- سمعت انك بصرية
- أبي بصري أما أمي فموصلية
- وأنا أستأذنك في زيارة البصرة
- لا تفعل

- ولماذا؟
- البصرة لا تزار في هذه الأيام، وإنما تزار في الموسم
أي موسم؟
- موسم التمر، حين تذهب الصبايا إلى النخيل مع تباشير الصباح، موسم العيون والقلوب، موسم الصيد يا جهول
- جهول؟ وأنا أستاذ عظيم؟
- الأساتذة أجهل الناس، لأنهم يكتفون بما في الكتب من وصف الأشياء، ويجهلون حقائق الأشياء
ولكن أنا أحاول الوصول إلى حقائق الأشياء
وإذاً فلن تصلح للأستاذية
- وكيف؟
- ألم تفهم يا غافل أن الرجل لا يصلح للأستاذية إلا إذا كان قطعة من الثلج؟ الأستاذ الحق في بلاد الشرق هو الرجل الذي يحفظ
- ولا يعقل؟
- ليس من الضروري أن يعقل، لأنه لا يشترط في الأساتذة عندنا أن يكونوا يعقلون. الأستاذ الحق يا غافل هو الرجل الذي يضيع نصف الوقت أو كل الوقت في التبرم بالمجتمع، ويقول في كل حين:
هذا الزمان الذي كنا نحاذره ... في قول كعب وفي قول ابن مسعود
إن دام هذا ولم يحدث له عِوض ... لم يُبك مَيت ولم يُفرح مولود
أو كما قال: يهمني أن أعرف شيئاً في هذا الموضوع يا ليلى، فانا طبيب أضاعه الأدب ولم يبق أمامه غير احتراف التدريس
- زين، زين! وأنا أعلمك، ولكن أدفع الثمن
وما هو الثمن؟
- قبل يدي
- أقبل يديك ورجليك يا ليلى
- أسمع يا زكي
- أنا الدكتور زكي
- لن تكوني دكتوراً إلا يوم تصبح مثال الغباوة والجهل
- وهو كذلك. هاتي ما عندك يا داهية!
- أسمع أيها الطفل الكبير! إن الأمم المتأخرة تعيش بعقل القرن التاسع قبل الميلاد، يوم كانت الأستاذية وقفاً على الكهان، والكهان كانوا قوماً منافقين، وإليهم كان الأمر في التعلم والتثقيف؛ وهم اللذين سيطروا على المصريين والآشوريين والكلدانيين. ومن واجبي أن أحذرك عواقب الثقة بأهل عصرك من أهل الشرق، فهم يتظرفون ليقال إنهم متمدنون. والبرهان على ذلك انهم لا يشهدون لمحة من ضوء الفكر إلا أطفئوها بالبصق لا بالماء. فاحترس يا غافل من الثقة بأهل زمانك فإني أخشى أن أسمع من أخبارك ما يسوء بعد حين
- سيدتي! إن مصر تحضرت وهي تقود الشرق
- لن أصدق أن مصر تحضرت إلا يوم يقام المرقص في ميدان الأزهر كما يقام المرقص في ميدان السوربون
- أنت سخيفة يا ليلى!
- وأنت اسخف!
- أنت لئيمة
- أنا اعرف ما تريد، اعرف أنك تريد أن أعرك أذنك، ولكني لن افعل
- ولماذا يا شقية
- لأنك جهول
- أنا عالم علامة
- لو كنت عالماً لما فضحت نفسك بنشر أحاديث الحب في الجرائد والمجلات
- إذاً ماذا اصنع؟
- اكتم غرامك ونافق، كما يصنع فلان الذي يلقى الله بالفجور ويلقي الناس بالعفاف

- ولكن أنا أحب أن ألقي الناس بالفجور والقي الله بالعفاف
- غلبتني أيها المؤمن، فإن الذي يصلح ما بينه وبين الله لا يضره أن يفسد ما بينه وبين الناس
- وآية ذلك يا مولاتي أن تلاميذي لم يفسد رأيهم في أبداً، فما اشتغلت بالتدريس في معهد إلا شهدت أحجاره بأني أصدق من عرف من المدرسين
- أنت إذاً موفق
- تحبينني يا ليلى؟
- أنا أبغضك!
- ولكن أنا أحبك!
- أمامك دجلة، فاكرع منها كيف شئت!
- أستأذنك في السفر إلى البصرة
- في رعاية الله وأمان الهوى
- ألا تغارين من سفري إلى البصرة؟
- أنا لا أغار عليك!
- أنت إذاً لا تحبينني!
- ما أنكر أني أحبك بعض الحب، ولكن لا موجب للغيرة، فقد ضمنت أن تكون لي طول عمرك. ولقد قيدت قلبك بقيود من حديد. أما سمعت ما قال أحد فضلاء المحاضرين بمحطة الإذاعة الفلسطينية؟
- وماذا قال؟
- قال إنك تحبني، وأنني وهبتك الخلود، وما يقال في فلسطين تسجله السماء
- وأقول في البصرة إني أحب ليلى؟
- قل في البصرة إنك تعبد ليلى ليكرموك
- وأنت تحبينني؟
- أنا أبغضك

إلى البصرة، إلى البصرة! إلى وطن ليلى التي تبغضني أمتطي قطار المساء، وأنا على موعد مع صاحبة العينين، فما الذي سيحدث في القطار وفي البصرة؟ أمري إلى الله وإلى الحب!

(للحديث شجون)

زكي مبارك

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

1880 - 1937

للأستاذ محمد سعيد العريان

- 25 -

(معذرة إلى القراء من هذه الفترة التي انقطعت فيها عن الكتابة، وأشكر لهم. على العهد أن أوالي الكتابة حتى أفرغ من هذا التاريخ. ومعذرة ثانية إلى صديقي الأستاذ محمود أبو رية مما كان مني إليه، وسيأتيه ردي بعد قليل)

العريان

الرافعي والعقاد

لما مات المرحوم شوقي في خريف سنة 1932، اهتزت لموته المجامع الأدبية في مصر والشرق؛ فما تجد من كاتب أو أديب من أبناء العروبة إلا أهتم لهذا النبأ واحتفل به. وتهيأت (المقتطف) لكتابة فصل أدبي عن أمير الشعراء، فأفرغت بضع عشرة صفحة من العدد الذي كان موشكاً أن يصدر، وأبرقت إلى المرحوم الرافعي في طنطا أن يكتب هذا الفصل ويرسله إليها في أيام قبل أن يتم طبع العدد

ولم يكن بين الرافعي وشوقي من صلات الود ما يتيح له أن يعرف شيئاً من حياته يعينه على دراسة أدبه؛ ولا كان الرافعي مستعداً لهذه الدراسة ولا تهيأت له من قبل أسبابها ودواعيها لينشئ موضوعه على الوجه الذي يرضاه في ذلك الوقت العاجل. وإن الرافعي لكثير الأناة والتأنق فيما يكتب، فلا يبدأ في إنشاء موضوعه حتى يخلى له فكرة أياماً وليالي، يبحث ويوازن، ويزاوج ويستنبط؛ ثم يتهيأ للكتابة وقد استوى

الموضوع في فكره كأنما قرأه لساعته في كتاب. ولكن كل أولئك لم يمنع الرافعي أن يجيب محرر المقتطف إلى ما طلب، وأرسل مقاله في الموعد المضروب. وكانت دراسةً أعتقد أن أحداً من كتاب العربية لم يكتب مثلها عن شوقي أو يبلغ ما بلغ الرافعي بمقاله، فأنصف شوقي، وجلى عبقريته، وكشف عن أدبه وفنه ومذهبه. دع عنك بعض هنوات قليلة لا تغض من قيمة هذا البحث الفريد

وكان مما أخذ الرافعي على شوقي وسماه غلطات في النحو أو اللغة، أن شوقي أبتدأ بالنكرة في قوله:

ليلى! منادٍ دعا ليلى فخفّ له ... نشوانُ في جنبات الصدر عربيد

وهي هناة صغيرة قد يجد لها بعض العلماء بقواعد العربية وجهاً من التعليل وباباً من العذر

والعقاد أديب له شهرته العريقة في عداوة شوقي والزراية بأدبه وفنه؛ فما يعرف أدباء العربية أحداً كان أبلغ عداوة لشوقي أو أحد لساناً في نقده من العقاد!

ولكن العقاد لم يكد يفرغ من قراءة مقالة الرافعي في المقتطف، حتى تناول قلمه ليكتب كلمة يرد بها رأي الرافعي في نقد هذا البيت ويعتذر عن شوقي. . . وكان للعقاد نصيب من التوفيق فيما كتب!

ليت شعري، أفعلها العقاد دفاعاً عن شوقي وهو من هو في عداوته، أم تحدياً للرافعي؟

أفلم يجد العقاد في بضع عشرة صفحة يكتبها الرافعي مباهياً بشوقي، مفاخراً بأدبه وفنه وعبقريته شيئاً يستحق الرد والتعليق غير هذه الكلمة؟ هذا سؤال سألته نفسي يومئذ، وأحسب أن كثيراً من القراء سألوه أنفسهم؛ ولكن جواب هذا السؤال معروف لكل من يعرف ما كان بين الرافعي والعقاد، ثم ما كان بين العقاد وشوقي منذ قريب!

وقال لي الرافعي: (ماذا ترى فيما كتب العقاد؟)

قلت: (أنا وهو على رأي واحد فيما يرد به!)

فمط شفتيه ساخراً وهو يقول: (أخطأت، وأخطأ العقاد، وأخطأ المتأخرون من علماء النحو في العربية. . . ليس الرأي ما يقول العقاد وتوافقه عليه. . .)

وتملكه عناده وكبرياؤه؛ فأنشأ مقالة طويلة مسهبة يرد بها رأي العقاد، ويصر على تخطئة شوقي في الابتداء بالنكرة، ويتهم المتأخرين من علماء النحو بالغفلة وقلة البصر بأساليب العربية؛ ثم يفيض ويسترسل في بيان أوجه الابتداء بالنكرة وما يصيب منها وما يخطئ.

وإذا لم يكن لي في هذا المجال أن أصرح بالرأي فيما كتب الرافعي في هذا الموضوع؛ فإن لي أرد كل شيء إلى أسبابه، فأزعم أن الرافعي لم يكتب ما كتب خالصاً لوجه العربية، ولكنها الكبرياء والاعتداد بالنفس وخوف الهزيمة أمام العقاد في معركة أدبية!. . .

ولست أكتم هنا أن الرافعي كان يسيء الظن بفهم العقاد لقواعد اللغة؛ فما يرى له شيئاً من مثل ما كتب في ذلك الموضوع مما يشير إلى بصره بقواعد العربية إلا اتهمه بأنه يستعين فيه بأصدقائه من أهل العلم بهذه اللغة. وأحسبه قال لي مرة: إن الذي يعين العقاد في ذلك هو صديقه الأستاذ عباس الجمل!

وانتهت هذه المعركة الصغيرة ولم تسفر عن أشلاء، ولكني أحسب أن الرافعي نفسه لم يكن مقتنعاً بما كتب في الرد على العقاد فبقي في نفسه شيء يحمسه إلى معركة جديدة، فلم يلبث إلا قليلاً ثم كانت المعركة الفاصلة. . .

وحي الأربعين

وكانت هدنة استمرت بضعة أشهر، ثم أصدر العقاد ديوانه (وحي الأربعين).

ومضى أسبوع أو أسابيع بعد صدور الديوان؛ ثم كان عيد من الأعياد، فغدوت على بيت الرافعي لأهنئه، ثم خرجنا نطوف ببيوت بعض الأصدقاء؛ حتى انتهى بنا الطواف إلى دار صديقنا الأديب الأستاذ حسنين مخلوف. والأستاذ مخلوف أديب مطلع، لا يفوته كتاب مما تخرج المطبعة العربية. فلم يكن ثمة بد من الحديث في الأدب، وفي الشعر، وفي المطبوعات الجديدة، وهو حديث يحلو للرافعي، ويحلو لمخلوف، ولو أستغرق هذا الحديث سحابة يوم العيد من الضحا إلى العصر، والبطن خاو يطلب الطعام، ورائحة

الشواء تفوح في بيت المضيف وفي بيوت الجيران!
وسأل الرافعي مضيفه: (ماذا عندك من الجديد في الكتب؟)
وضحك مخلوف وهو يغمز بعينه ويقول: (وحي الأربعين!)
ووجد الرافعي طلبته، فدعا بالديوان الذي يود أن يقرأه منذ أيام ويمنعه من شرائه أنه كتاب العقاد. . .!
وجاء الديوان فوضعه الرافعي بين يديه وقال: (لست أريد أن أتجنى على العقاد الشاعر أو أحكم في ديوانه برأي قبل أن تتهيأ لي أسبابه؛ وإني لأخشى أن أفتح الكتاب فتقع عيني أول ما تقع على أردأ ما فيه فأحكم على الديوان ببعضه، وقد يكون فيه الجيد، وما هو أجود، وما تتقاصر أعناق شعراء العربية دون الوصول إليه. وإن بيني وبيني العقاد لسابق عداوة، وأنتما بريئان من التهمة وسوء الظن؛ فدونكما الديوان فقلبا فيه النظر، وتداولا فيه الرأي، ثم دلاني على أجود ما فيه لنقرأه معاً فنحكم له أو عليه مجتمعين؛ ثم يكون ما اتفقنا عليه من الرأي في هذا الجيد المختار هو الرأي في الديوان كله، من غير أن يتغلب الهوى أو تتحكم الشهوة. . .!)
ورضينا رأي الرافعي، فأخذنا الديوان نقلبه صفحة صفحة، ونقرأه بيتاً بيتاً؛ والرافعي، منصرف عنا إلى كتاب بين يديه. . . ومضت فترة، واستبطأنا الرافعي فيما دعانا إليه فقال: (أحسبكما لم تجدا ما تطلبان! ولن تجدا. . . . . إذن فلنقرأ الديوان معاً من فاتحته؛ فما أحسب الشاعر يختار فاتحة الديوان إلا من أجود شعره. . .!)
وتناول الديوان يقرأ منه ونستمع إليه. ووقفنا عند أشياء، وتداولنا الرأي في أشياء. وكان أكثرنا حماسة في النقد هو الأستاذ مخلوف. ومضت ساعات ونحن نقرأ، ولكل رأي بيديه. ثم طوينا الديوان وأخذ الأستاذ مخلوف يتحدث في موضعه. . .
وقال الرافعي يخاطبه: (. . . وما دمت على هذا الرأي في الديوان فلماذا لا تنشره؟ إن لك لساناً وبياناً، وإنه لنقد (يستحق أن يقرأه أدباء العربية. . .!)
وتردد مخلوف قليلاً ثم سمع مشورة الرافعي. . . وتهيأ لكتابة نقده. . .
ومضى أسبوع، ثم نشر (المقطم) في صدره مقالاً مجوداً للأستاذ مخلوف في نقد ديوان وحي الأربعين، تناوله بأدب وهدوء في بضعة عشر موضعاً، وأرجأ بقية النقد إلى عدد تال. . ومضى يومان وكتب العقاد في صحيفة الثلاثاء من جريدة الجهاد رده على مخلوف. . .
لم يكن مخلوف حين كتب مقاله الأول للمقطم مقدراً أن الأستاذ العقاد سيتناوله بهذه القسوة، ولكنه فوجئ مفاجأة شديدة بما كتب العقاد. . .
لم يرد العقاد على مخلوف رد الأديب على ناقده، ولكنه راح يتهكم عليه ويسخر منه ويستهزئ بعلمه وأدبه ومقدرته على فهم الشعر. وإذ كان مخلوف من مدرسي اللغة العربية في مدارس الحكومة، فإن العقاد قد أنتهزها سانحة لي ليطعن على مدرسي اللغة العربية في مدارس الحكومة، ويلحد في كفايتهم وعلمهم، ويعود بالسبب في ضعف اللغة العربية في المدارس على مخلوف وزملاء مخلوف. ولم تسلم مدرسة دار العلوم، ولا واحد من مدرسي اللغة العربية، من تهكم العقاد وسخريته في هذا المقال، لأن واحداً منهم كتب ينقده ويحاول رده إلى الصواب فيما رآه أخطأ فيه. . .!
وكتب مخلوف مقاله الثاني يرد مطاعن العقاد، ويتمم ما بدأ في نقد وحي الأربعين؛ ولكن المقطم أغلقت دونه الباب ولم تنشره، كرامة للعقاد وحرصاً على مودته. . .
وغضب مخلوف وتألم، ولكنه طوى صدره على ما فيه. . . وكنا جماعة من مدرسي اللغة العربية نصلي الجمعة كل أسبوع في مسجد المنشاوي بطنطا، فلقينا هناك مخلوف؛ فما رآه المدرسون حتى انهالوا عليه وركبوه بالعتب القاسي، وكلهم قرأ مقال العقاد في الطعن على مدرسي اللغة العربية بسبب مخلوف، وما منهم من قرأ مقال مخلوف إلا قليل. وحاول مخلوف أن يعتذر، ولكن اعتذاره ضاع بين ضجيج إخوانه وحملتهم عليه فلم يستمع له أحد!
وقلت للرافعي مازحاً ولقد لقيته بعد ذلك: (لقد كنت أنت السبب فيما نال مخلوفاً من إخوانه، وفيما نال مدرسي اللغة العربية من لسان العقاد؛ فأنت الذي هجت مخلوفاً إلى هذه المعركة، فانتهت إلى ما انتهت إليه بينه وبين إخوانه؛ وكانت سبباً فيما كتب

العقاد عن دار العلوم ومدرسي اللغة العربية. . .)
وكان لمخلوف عند الرافعي منزلة، ولدار العلوم في نفسه مكان. ولكنه أجابني: (وماذا علي أنا فيما كتب مخلوف، وفيما رد العقاد؟)
قلت: (لولاك لم يكتب مخلوف فيتعرض لما تعرض له من لسان العقاد ومن عتب إخوانه. ولولا ما كتب مخلوف لبقيت دار العلوم بريئة من العيب لم يطعن فيها العقاد ولا غير العقاد!)
وقصدت فيما قلت - ومعذرة إلى الأستاذ العقاد - أن أهيج الرافعي للكتابة عن العقاد، فيشهد أدباء العربية معركة جديدة بين الأديبين الكبيرين يكون لهم من ورائها نفع ومتاع ولذة. . . وبلغت ما قصدت إليه، ووعد الرافعي بأن يكتب ما في نفسه من ديوان وحي الأربعين، ولكن على شرط: أن أشتري له نسخة على حسابي من الديوان، لأن عليه قسماً من قبل ألا يدفع قرشاً من جيبه في كتاب من كتب العقاد. . .!
ونفذت الشرط، وتهيأ الرافعي للكتابة عن وحي الأربعين؛ ومضت أيام، ثم دعاني ليملي علي مقالة الأول في نقد وحي الأربعين.
(شبرا)
محمد سعيد العريان
من برجنا العاجي
كنت أشكو ذات يوم عسراً في الهضم وقلة في النوم، وأضيق ذرعاً بالأدب والأدباء، وإذا بزائر أديب يلح في طلب رؤيتي ولا يريد أن ينصرف حتى يجاب إلى ما طلب. وعلمت أنه ممن لم يسبق لهم أن رأوني؛ فخطر لي خاطر سريع: ناديت تابعاً لي وأجلسته إلى مكتبي وطلبت إليه أن يقابل الزائر باسمي، وانتحيت أنا جانباً أقرأ إحدى الصحف. ولم يلبث الزائر أن دخل وسلم على تابعي في احترام قائلاً:
- يا أستاذ! إني سعيد جداً إذ استطعت أن أراك. فأنا من قرائك المدمنين، اقتنيت كل كتبك، وطالما رسمت لك في مخيلتي صورة أراها الآن طبق الأصل. . . فالحمد لله لم يخب ضني في شيء. إني أراك الآن كما تخيلتك بين سطورك
فطرحت من يدي الصحيفة ونظرت إلى الرجل محملقاً. أهذا الرجل صادق؟ لا شك عندي في ذلك، فكلامه مفعم بالحرارة والإخلاص، ولكن كيف انطبقت تلك الصورة (طبق الأصل) على غير (الأصل) بهذه السهولة؟! وجعل هذا الزائر يكثر من ترديد اسمي ويسبغه في اقتناع على سكرتيري الجالس إلى مكتبي، فشعرت بخلجة من شك هزت نفسي. ماذا بقى مني إذاً؟ هذا هو (توفيق الحكيم) إلى مكتبه كما يعتقد الآن هذا الزائر، وتلك صورته كما ظهرت له من بين السطور. أما أنا فشيء لا علاقة له بهذا الرجل ولا بما قرأ. اسمي قد انفصل عني وانتزع مني في تلك اللحظة كما تنتزع الإمضاء عن (الكمبيالة). وما أنا في تلك الساعة إلا كتلة من لحم ودم ملقاة على مقعد! وقد خيل إلي أن لفظ (توفيق الحكيم) ليس أكثر من (ماركة) توضع فوق كتب، مثل ماركة (الفابريكة) فوق علب (الساردين). إن بعض (الأسماء) لتتخذ لها أحياناً حياة مستقلة عن أصحابها. وهذا (الاسم) هو وحده الذي يباع ويشرى في سوق المكاتب والوراقين، ولدى الصحف والمجلات؛ أما الشخص فقد لا يعني أمره كثيراً من الناس. ولأول مرة أدركت إني غير موجود في نظر الجمهور باعتباري (شخصية آدمية)؛ إنما الذي يعاملونه هو (الشخصية المعنوية)، فمثلي في ذلك إذن مثل شركة (النور) و (الغاز) و (المياه)
توفيق الحكيم
إبراهيم بك المويلحي
1844 - 1906
بقلم حفيدة إبراهيم المويلحي
السيد إبراهيم المويلحي بن السيد عبد الخالق بن السيد إبراهيم بن السيد أحمد بن السيد الشريف مصطفى وكيل المويلح. ينتهي نسبه إلى الحسين من جهة أبيه، والى الحسن من جهة أمه فأسره المويلحي يمتد نسبها إذن إلى الصادق (محمد صلى الله عليه وسلم) وإلى الصديق (أبي بكر). وهذا النسب ثابت ثبوتاً قضائياً يرجع إلى أحكام شرعية مصرية، لا إلى مجرد (الثبوت الإداري) المعروف في مصر
والمويلحي نسبة إلى المويلح (بلدة في جزيرة العرب على شاطئ البحر الأحمر كانت

تابعة لمصر في عهد (علي بك الكبير) حتى سنة 1892 ميلادية، ثم ضمت إلى ولاية الحجاز
وقد انقسمت هذه الأسرة قسمين أحدهما في مصر والآخر في المويلح
وأول من وفد إلى مصر من المويلحيين السيد أحمد المويلحي بعد خدمة أداها لمحمد علي باشا الكبير في تسكين فتنة الوهابيين ثم أقام بها، وأسس بيتاً تجارياً بجهة التربيعة بالقاهرة
ورزق السيد أحمد المويلحي بالسيد إبراهيم المويلحي جد صاحب هذه الترجمة، فشب على حب الأدب وأولع به. وكان لا يخلو مجلسه من الأدباء والشعراء يطارحهم ويذاكرهم، فكانت ألسنة الوجهاء تلهج بذكر أدبه وشعره، حتى بلغ أمره (حبيب أفندي) كخيا المغفور له (محمد علي باشا) فجعله كاتبه
ولقد أدى إبراهيم خدمة جليلة لوالي مصر (محمد علي) فحفظها له البيت الخديوي، فانتفع بها المترجم له حالة عسره كما سيتبين لك فيما بعد
ورزق السيد إبراهيم بالسيد عبد الخالق الذي انتحى ناحية الاشتغال بالتجارة فشب على حبها وأفرغ همه فيها، فذاعت شهرته بصناعة نسج الحرير التي كانت رائجة بمصر في ذاك الوقت فجمع ثروة طائلة
ثم انجب ولدين هما (إبراهيم) صاحب هذه الترجمة، و (عبد السلام) وأستقر رأيه على أن يجعل من إبراهيم رجلاً تجارياً. فبعد تعليمه العلوم الابتدائية في البيت، أخذ يوجه نحو الاشتغال بالتجارة، وأبقاه في محله التجاري وأرسل أخاه (عبد السلام) إلى الأزهر ليكون
عالماً. ولكن شاءت إرادة الله أن يكون إبراهيم هو العالم والأديب، وأن يتفرغ عبد السلام فيما بعد للتجارة ومزاولتها، فنهض فيها نهضة إبراهيم في العلم والأدب
فكان إبراهيم مولعاً بالأدب والشعر منذ حداثة سنه، وقد ورث ذلك عن جده إبراهيم، ومن حسن حظه أن كان بجوار محله التجاري عطار لم يحضرني أسمه كان من العلماء الأعلام الذين لم تتغلب عليهم التجارة فتنسيهم العلم، فتتلمذ عليه إبراهيم بغير علم من والده، فدرس عليه علوم الأدب والبلاغة والنحو والعروض حتى نبغ فيها
ومن نوادر ما يروي عن رغبته في العلم والتحايل على الحصول، عليه أنه كان معه بواب للمحل يدعى (علي الأشموني) فكان يتفق معه على أن يقف على ناصية الطريق حتى إذا ما رأى والده السيد عبد الخالق مقبلا نحو متجره راكباً مطيته يهرع إلى السيد إبراهيم المنشغل بدرسه ليقطع عليه لذة الدرس وينبهه إلى حضور والده السيد عبد الخالق، فيذهب إلى المتجر متظاهراً بمداومة العمل
وما كان يخطر له ولا والده أنه سيجعل الأدب مهنته، وهي يومئذ مهنة الفقراء، ولكن الأقدار ساقته إلى الاشتغال بها. فكان من اعظم نوابغها
وظل إبراهيم في حجره والده آمناً سعيداً حتى توفي الوالد سنة 1282 هجرية (1865 ميلادية) فتولى هو تجارة أبيه وقبض على ثروته التي تبلغ ثمانين ألفاً من الجنيهات، وجرى على خطته في العمل حيناً فازداد تقدماً وصار عضواً في مجلس التجار وعضواً في مجلس مصر الابتدائي
ولا يفوتن القارئ أن كل هذه المشاغل لم تحل دون ميله للأدب والشعر إذ كانت هذه الملكة تنمو فيه شيئاً فشيئاً بين مشاغل السياسة والإدارة والتجارة، فاتفق مع المرحوم (عارف باشا) أحد أعضاء مجلس الأحكام وصاحب المآثر الكبرى في نشر الكتب على تأسيس (جمعية المعارف) وكانت جل همها نشر الكتب النافعة وتسهيل إقتنائها، ثم أنشأ (إبراهيم بك) مطبعة باسمه سنة 1285 هجرية (1868 ميلادية) لتطبع تلك الكتب، وتعد من أقدم المطابع المصرية، وكانت كثرة العمل فيها تدفع الجمعية إلى طبع جزء من كتبها في بعض الأحيان بمطابع أخرى ولا سيما (المطبعة الوهبية)
ولا شك في أن هذه الجمعية كانت صاحبت اليد الطولى في نشر كثير من الكتب القيمة
ككتاب (تاج العروس) و (أسد الغابة) و (رسائل بديع الزمان) و (سلوك المماليك) و (ألف با) و (محاورات الأدباء والشعراء والبلغاء) وغيرهما مما جعل لهذه الجمعية شأناً في تاريخ النهضة الدبية الحديثة
أما صاحب الترجمة ففي السنة الثانية من إنشاء مطبعته اتحد مع (محمد عثمان جلال

بك) لإصدار جريدة عربية سماها (نزهة الأفكار) ولم يكن من الصحف العربية يومئذ بمصر إلا (جريدة وادي النيل) و (الجريدة الرسمية)
ولسوء الحظ لم يصدر منها إلا عددان، ثم اظهر المرحوم (شاهين باشا) للخديو إسماعيل تخوفه مما سوف تثيره مقالاتها من الأفكار وتولده من الفتن، فأصدر الخديو أمراً بإلغائها. وظلت المطبعة على ما هي عليه من طبع الكتب الأدبية والتاريخية والفقهية لجمعية المعارف، كما كان يطبع المترجم كتباً على نفقته الخاصة
وكانت مضاربات البورصة حديثة العهد بمصر، وقد تشدق الناس بمعجزاتها في سرعة الإثراء. ولما كان إبراهيم طلاباً للعلا لم يكتف بما عنده من الرزق الواسع وحدثته نفسه بطلب المزيد، فاندمج في صف المضاربين، يربح تارة فيطمع في المزيد، ويخسر أخرى فيطلب التعويض. وما هلت سنة 1289 هجرية (1872 ميلادية) حتى أستنزف ثروته، وأثقل بالديون وكاد البيت يتزعزع، فرأى الخديو إسماعيل من اللازم أن يقيم أود ذلك البيت المشهور بعزة وجاهه فقال لشريف باشا وثابت باشا: (إن ما سأصنعه لهذا البيت واجب على ذمتنا، فإن جدهم خدم جدي خدمات جليلة)
ثم طلب استدعاء إبراهيم وعبد السلام، فلما مثلاً بين يديه قال: من منكما الأكبر؟ فقال إبراهيم: عبدكم يا مولاي. فسأله: كيف تسير أعمالكما التجارية بعد موت أبيكما؟ فقال إبراهيم: إن علمها عند عبد السلام (وقد ذكرنا من قبل أنه هو الذي مارس التجارة وأدارها) لأني انقطعت للعلم والأدب. فالتفت الخديو إلى عبد السلام، فتقدم وبسط الحالة التجارية والمالية. وهنا تناول الخديو ورقة وخط فيها بيده الكريمة سطرين وناولها إبراهيم ليسلمها لرئيس الديوان
وبعد أن قام الأخوان بواجب الشكر ذهبا تواً إلى حيث أمرا وهما لا يعلمان ما خبأته لهما الأقدار!
وكم كانت دهشتهما عند ما علما أن بالورقة أمراً كريماً بتعيين إبراهيم عضواً في مجلس الاستئناف براتب شهري قدره أربعون جنيهاً، وبصرف أربعة آلاف جنيه لعبد السلام ليسدد ما عليهما من ديون، وليتمكن من إقامة ما أعوج من شئون التجارة، وبالإنعام على كل منهما برتبة بك من الدرجة الثانية
ولم يكتف إسماعيل باشا بكل هذا، بل أبى عليه كرمه إلا أن يصدر أوامره إلى جميع من في قصوره من النساء بأن يعدلن عن لبس الأنسجة الأوربية إلى الأنسجة المصرية من صنع المويلحي، وألا يدخل تشريفات السيدات سيدة مرتدية غير هذه المنسوجات، كما أمر بصنع كمية كبيرة منها لإرسالها إلى معرض فينا في تلك الأيام
وما زال المترجم له في وظيفته بمجلس الاستئناف حتى آلت رياسته إلى المرحوم (حيدر باشا يكن) فوقع بينهما شقاق انتهى باستقالة (إبراهيم بك)
ولكن عناية الخديو إسماعيل ما زالت ترعاه؛ فأمر بإعطائه مصلحة تمغة (المشغولات والمنسوجات) على سبيل الالتزام (الاحتكار) على أن يؤدي للحكومة جعلا
ولما سقطت وزارة (نوبار باشا) سنة 1296هـ سنة 1879م التي كان فيها عضوان أجنبيان، وخلفتها وزارة (شريف باشا) المعروفة باسم الوزارة الوطنية، وهمت بإنشاء اللائحة الوطنية لتأسيس مبادئ الحكومة الدستورية - وقع الاختيار على المترجم له لوضع هذه اللائحة
ولما أن استقرت الوزارة الجديدة طلب المرحوم (راغب باشا) ناظر المالية وقتئذ من الخديو إسماعيل أن يكون إبراهيم بك معه في المالية لما يتوسمه فيه من النجابة والنباهة وعلو الهمة وسداد الرأي، فلم يمانع الخديو وسر بهذا الاختيار، وأصدر الأمر بتعيينه ناظراً للقلم العربي بها. وهنا تجلى نبوغه وظهرت جدارته فأحيلت إليه نظارة قلم (العرضحالات) مع ملاحظة (قلم تركي المالية) وعين عضواً في مجلس تسديد الديون السائرة
ولما تنازل الخديو عن العرش سنة 1879 م كما هو معروف، وصدرت أوامر السلطان بنفيه، طلب الإذن من السلطان بالإقامة في استانبول أو أزمير، فلم يصادف هذا الطلب قبولاً. فلما علم الملك (أومبرتو ملك إيطاليا بهذا الرفض، طيب خاطر صديق والده، ووضع تحت تصرفه سراي (الفافوريتا بضواحي نابولي
على أن هذا النفي لم ينسه ذكر إبراهيم فبعث يستقدمه إليه. فلبى إبراهيم الأمر، واستعفى من مناصبه وظل في معية إسماعيل بضع سنوات كان يقوم في أثنائها

بوظيفة كاتب يده (سكرتيره العربي) يكتب عنه الرسائل إلى الملوك والأمراء، كما كان يقوم بالتدريس لنجله سمو البرنس احمد فؤاد (المغفور له صاحب الجلالة فؤاد الأول) وقد أرسل إبراهيم بك كتاباً إلى أبنه المرحوم السيد محمد بك المويلحي بتاريخ 15 مارس سنة 1880 يطلب منه الإسراع بإرسال بعض كتب النحو الصغيرة لهذا الغرض

وفي نفس هذه السنة أي سنة 1880م أنشأ جريدة (الاتحاد) بإيطاليا، واصدر منها ثلاثة أعداد كانت مقالاتها شديدة اللهجة على سياسة الدولة العلية مما جعل السلطان عبد الحميد يطلب من سفارته بإيطاليا إيفاد مندوب من قبلها لدى الخديو إسماعيل ليرجوه أن يأمر (سكرتيره) بالكف عن نشر تلك الجريدة.

وفي أثناء إقامة الأسرة الخديوية بإيطاليا مرضت إحدى الأميرات من زوجات سمو الخديو إسماعيل (بالروماتزم)، ووصف لها الأطباء بلدة (بورسة) خشية عليها من المكث في الجو الذي هي فيه. فأشكل الأمر على الخديو، وبث همه إلى (سكرتيره) وطلب منه أن يكتب لجلاله السلطان عبد الحميد رسالة يشرح له فيها حالة المريضة بذلك الأسلوب المتين الساحر

فكتب إبراهيم بك رسالته المشهورة عن لسان الخديو إسماعيل التماساً لدخول حرمه الآستانة وأفرغ فيها كل أوتي من بيان

ولما ترجمت وعرضت على السلطان عبد الحميد تأثر بها وأرسل برقية إلى سفيره في إيطاليا بدعوة حرم الخديو إسماعيل إلى الآستانة للاستشفاء بمياه (بورسة) المعدنية

وقد يلذ القارئ أن يطلع على هذه الرسالة وهي رسالة طويلة نقتطف منها ما يأتي:

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى أمير المؤمنين، وإمام المسلمين، وخليفة رسول رب العالمين، أطال الله بقاءه، وجعلني من كل مكروه فداءه. من عبد أكتنفه حرمان الرضا من ولي نعمته، ومالك ناصيته، فساعته شهر، وليلته دهر، وعبرته نهر، وكذلك جواب دعائه جازعاً مما يقاسي من غضب أمير المؤمنين وقد قال الله تعالى حاثاً على العفو (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس. .)

وأمير المؤمنين أولى العالمين في الاقتداء بآي الكتاب العزيز. وإني أتضرع إلى مقام خلافتكم العظمى، وسلطتكم الكبرى متوسلا بجانب صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم أن يلحظ ما اعرضه لدى سدتكم الملوكية بعين الرضا، ولو أن العذر إقرار بالذنب لملأت الصحائف اعذاراً، ولعرضت التوبة ليلا ونهاراً

وهبني يا أمير المؤمنين جئت بكل ذنب. أليس في سعة عفوكم وساحة إحسانكم ما تغفر به الذنوب! وأمير المؤمنين أعلى نظراً أن يؤخذا بقول وهو إفك الوشاة، أو يعاقب بكلام وهو بهتان السعادة، من الذين اتخذوا حرفتهم انهم يحرفون الكلم عن مواضعه، بعد أن أفنيت حياتي لهذا البيت المعمور في خدم قدمتها، وأوامر أطعتها، ونواهي امتثلتها، موالاة جعلتها شرطاً سادساً لديني ومعتقدي، وإتباعاً لقوله تعالى: (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم). . . إلى أن قال في آخرها

وإني أذكر أمير المؤمنين - فان الذكرى تنفع المؤمنين بقوله تعالى: (واتقوا الله . . . الذي تساءلون به والأرحام) وإن بين جلالتكم وبين رعيتكم، وهذه المريضة فرد من إفرادهم - الرحم الديني - الذي هو أولى بوجوب الصلة من رحم النسب، قال تعالى: (إنما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون) أي واتقوا في اخوتكم في الدين برعاية عهودكم وحفظ حقوقكم، فعلمنا أن الأخوة الدينية تقتضي مزيد الشفقة والرحمة، ولا معنى للرحمة والشفقة إلا أن تنقذ المؤمن من المهالك، وتؤمنه من المخاوف، وتخلصه من الآفات، وأن توصل إليه المبرات ما استطعت؛ ولا يكمل عبد من الإيمان حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه. وإني أتوسل إلى الله أن يلحق أمير المؤمنين بنزاهته وشفقته ورحمته وعدله وإيمانه ورعايته، ما في يديه من ودائع الله التي هي أرواح المسلمين وأعراضهم. وصمته: الاستمرار على حرمان هذه المريضة من علاجها الممكن؛ فإنها إنما تدخل تحت سطوة السلطنة العظمى وقوة الخلافة الكبرى، في بلدة صغيرة من مماليك الدولة العثمانية

ولو شاهد أمير المؤمنين هذه المريضة المسكينة وهي سائلتي: بماذا أجاب الخليفة؟)

أيرضى أمير المؤمنين أن أقول لها: قد أغضى عن الإجابة!؟ وهو تصريح بهتك الحجاب أو الموت - كبرت كلمة تخرج من الأفواه! - فإذا قالت: فأين الدين والإيمان والحديث والقرآن والعدل والإحسان؟ فلا مساغ يا أمير المؤمنين للجواب!

يا خليفة رسول الله: هذه فرد من أفراد رعيتكم، وقال صلى الله عليه وسلم: (وكل راع مسؤول عن رعيته) فألتمس من أعتاب مولانا المعظم أن يصدر أمره العالي بما يوافق شفقته وإرادته وأن يصفح عن عبده. وإني لممتثل لجميع أوامر مولانا أمير المؤمنين، أعدها فرضاً واجباً، فإن الحياة والله لا تصفو لعبد سدتكم وفي التصور أن ولي نعمته مغض عنه

وأنا واقف على العبد أتلقى أوامركم بفريضة الامتثال، وإن لم يصادف تضرعي ودعائي قبولاً فإني أخشى أن هذه المريضة وهي في الاحتضار، تمد يدها بكتاب الله قائلة: بيني وبين أمير المؤمنين هذا الكتاب العزيز في الدنيا والآخرة. والأمر لله من قبل ومن بعد. . .!)

(البقية في العدد القادم)

إبراهيم المويلحي

جولات في الأدب الفرنسي الحديث

تطور الحركة الأدبية في فرنسا الحديثة

عبادة الذات

موريس

1862 - 1923

للأستاذ خليل هنداوي

يقول (بورجيه) في مقدمته لرواية (التلميذ) إن الإنسان أصبح اليوم (عدمياً لطيفاً) وقد استحال آلة فساد ناعمة الملمس، ويوشك أن يكون كل منا هذا الإنسان. وهذه الآلة قد خلقها شك (رينان)، ولكن شك (رينان) لم يكن شكاً لئيماً ولا متشائماً. وإنما كان شك (ستندال) و (نيتشه) هو الشك الأكثر طغياناً. على أن تأثير (ستندال) لم يبلغ أشده إلا في مطلع عام 1880، وتين وبورجيه ومن يتبعهما من الأنصار يمجدون فيه قدرته على التحليل النفسي، وينذهلون بهذه العاطفة الذاتية التي تهيمن على تفكيره. (فالعاقل عنده ليس إلا من يعمل كمثل عمله، يفتش في هذه الحياة عن لذة عقلية صافية) ولم يعط ستندال مذهبه تحليلاً فلسفياً ولذلك لبث تأثيره ضيقاً، بعكس نيتشه الذي أعطى مذهبه قوة وتأثيراً. فنيتشة يتسامى بقوة ويهاجم شريعة العبيد التي أخذت بعد انتشار المسيحية تستعبد الناس. فالمحبة والمساواة والأخوة كلمات جبن وأوهام باطلة تجرب باطلاً أن تحتال على أنظمة الحياة وتتلاعب بها. ونظام مذهبه المقاتلة وسحق الضعيف وظفر القوي الذي يستحيل بعد خروجه من المعركة إنساناً كاملاً وسيداً. يقول زرادشت: (لقد مات الإله - الإله المسيحي. إنني أعلمكم الإنسان الكامل، الإنسان هو شيء يجب أن يفوق نفسه) وقد ذاع هذا الإنسان الكامل في الطبقات المثقفة خلال سنة 1900 وفي هذا التاريخ نقلت آثاره وترجمت. وموريس باريس - في رواياته الأولى - حاول أن يكسو هذه الذاتية الخارقة رداء فنياً، فكتب عدة روايات وأعطاها عنوان (مقالات في عبادة الذات) يتخللها تحليل بعيد يقذف بالنفس إلى عالم العزلة (وإنما يجب أن تحس أكثر ما يمكن عندما تحلل أكثر ما يمكن) قد يكون هذا، ولكن ينبغي عبادته، لأنه هو الذي يمنحنا معرفة أنفسنا معرفة صحيحة، ويجعلنا نعرف (ذاتاً) أفتى معنى واكثر تنوعاً وأكثر تأثيراً من ذات منظمة مأمورة. ألا فلنقدس اختلاط قوى النفس، فهذه هي اللعبة، أو معرفة هذه اللعبة التي هي ملح الحياة، أو على الأقل التمرين البسيط للعقل الذي ليس بخداع.

وفي هذه كله شك؛ وإن ذات (باريس) كما يقول أناطول فرانس مزيج من اضطراب وحيرة واختلاط. وإن من العمل الظافر العمل على احتوائها. إن تهكماً دائماً يحيط بها ويلتهمها، على أن في عبادة الذات شيئاً آخر. . .

وقد يخاطب (باريس) فئة مثقفة تائهة في الثقافة الإنسانية، ويجد أن تعليل (الذات) المصنوعة في العزلة البعيدة عن الكتب إنما هو راحته في هذا التيه: (إن قوة العقل والإحساس تمت وحدها بهؤلاء الذين يعيشون باتصال صادق مع أنفسهم، وهذا هو مذهب الشعراء والمتصوفين. وهذا وحده يستطيع أن يلقينا خارج دائرة الشك، ويقودنا

إلى مثل أعلى. إننا بالانطلاق من هذه الذات الحالية نصبح رجالاً سائمين هذا المجتمع. . . رجالاً لما يتكونوا!) وقد تكون هذه الذات شديدة الاختلاف عن الإنسان الكامل (لنيتشه) الذي لا نظام له إلا الكمال المتكبر الأناني! على أن امتحان الذات ينبغي أن يرافقه شيء من الامتحان والبلاء. وذواتنا محدودة بأشياء وراثية. ومعرفة الذات تنتهي دائماً بأن تخلق لنفسها فضيلة ومراجعات جديدة. . . وقد جهد (باريس) عندما تطور أن تكون هذه الفضيلة خلل آثاره الشكوكية، وفي هذه الآثار ما يرفع من الشك إلى الإيمان ومن التعليل إلى التأليف؛ والتعليل ليس في كل صورة مبعثاً للكسل؛ هو ينقصه جهد يقاد إما بمنطق مدرسي جاف، أو بمنطق أسمى لشجرة تتحرى النور وتذهب إلى غايتها الباطنية (إنني لن أذهب باستقامة إلى الحقيقة كالسهم يريد هدفه. ففي أكثر الأحيان يخطئ السهم المرمي. ولكن تعليل الذات بأناة ويقين يقود إلى هذه النتيجة حيث - الذات - مهما كانت مختلفة ودقيقة فهي ليست بمختلفة ولا بدقيقة إلا لأنها ليست إلا مظهراً. (الذات - خاضعة للتعليل - بقليل من الجد تفنى ولا يتبقى إلا المجتمع الذي هي منه نتيجة فانية. وبرغم الهوان والتصاغر، فإن فكرتي التي تعاظمت من قبل لكونها حرة تصل إلى أن تعلن وتثبت اتصالها بهذه الأرض وبهؤلاء الموتى الذين - قبيل ولادتي - قد سيطروا عليها في أشكالها وألوانها

المجتمع خصم للفرد

الفلاسفة والمؤرخون والنقاد

إن خير المؤلفين - في الفئة الواقعية - الناشدة للحقيقة لم يكونوا ذوي نزعة فردية. ولم تقدهم دراساتهم إلى نتائج كنتائج نيتشه، فالمجتمعات عندهم لا يقودها إلى الأمام رؤساء ولا رجال عبقرية؛ ولكن المجتمعات تصنع نفسها بنفسها وتذود عن نفسها بنفسها، لا بالعقل وحده لأنه قد يكون خاطئاً، ولا بالإرادة وقد تكون عمياء، ولكن بغريزة حية توفق الحياة الاجتماعية بوسائل الحياة وهي تنشأ من التقاليد، وهذه تستطيع بل ينبغي أن تتطور وأن تتحور! ولكن لا يمكن حذفها ولا قلبها دفعة واحدة كما أنه لا يمكن تبديل مناخ ولا صفة أرض ولا أخلاق ذرية ما. وإنما يجب أن نفهم هذه التقاليد عندما نرغب أن نفهم حياة شعب ما.

وهذه خلاصة آراء المؤرخين في ذلك العصر، ولا سيما (تين) الذي حاول أن يطبق هذه الآراء في كتابه (أصل فرنسا الحديثة) ففرنسا الحديثة ينبغي أن تكون وليدة فرنسا الغابرة، وهذه كانت بائسة ذليلة، ولكن يجب إيجاد علاج لها، وهذا العلاج إنما يستمد من تقاليدها وعاداتها لا من أفكار مجردة. إن فلاسفة القرن الثامن عشر قد أوجدوا (الخير لذاته) لكل الناس في أي قطر من الأقطار فلم يفض قولهم هذا إلا إلى نظم خيالية، فالذاهب المجردة لم تكن إلا كلمات عاجزة، إنها لم تولد الثورة ولكنها ولدت مملكة الذعر والرعب الأعمى، وفلاسفة القرن الثامن عشر وزملاؤهم الثائرون لم يحسنوا معرفة نظام الحياة الاجتماعية وهو المثابرة من أجل البقاء!

هنالك فلاسفة قد أخطئوا في تفكيرهم في المجتمعات على نسق تفكيرهم في العلوم المنطقية، إذ في الحقيقة ليس هنالك أفراد للعالم النفساني والروائي، ولا يغني فيهم أن نتكلم عن أثر البيئة فيهم، لأنهم ليسوا إلا جزءاً من البيئة، أو نقطة من مذهب هو جزء من القوات المؤثرة لا يمكن حله إلا بحل المذهب كله

يعلن (جابريال تاور) في كتابه (شرائع التقليد) و (الرأي والجماعات) بأن منط ق الجماعات لا يلتقي مع منطق الفلاسفة. فالناس لا يفكرون ولكنهم يقلدون؛ وهم لا يتحققون ولكن يتبع بعضهم بعضاً؛ وهم يتشابهون

فالعالم (البيولوجي) لا يدرس حركة القلب كما يدرس الرياضي حركة كتلة ثابتة على حالة واحدة. كذلك الحوادث الاجتماعية لها خصائص خاصة، وطبيعتها تختلف بالعمق عن حوادث الحياة الفردية المدروسة عند علماء النفس إذ ليست كلها مجموعة وحدات، فالمجتمع باستطاعته أن يحلل الفرد، ولكن الفرد لا يحلل المجتمع

(يتبع)

خليل هنداوي

-

يا شباب الوادي! خذوا معاني العظمة في نسقها الأعلى من
سيرة هذا العصامي العظيم
وعادت السياسة تتطلب منه جهداً غير يسير؛ فهو اليوم يتحفز لأن يخطو خطوة جديدة
وله من امرأته حافز ومن طموحه حافز. . . تطلع لنكولن إلى مقعد في ذلك المؤتمر
الذي كانت تمثل فيه الولايات الأمريكية جميعاً والذي كان يعقد لينظر في الشؤون
العامة لتلك الولايات ومقره وشنجطون. وما كان ابراهام ليستبعد الشقة أو ليستعظم
الفكرة، وقد قضى ثمانية أعوام في مجلس المقاطعة ولكن رجال حزبه وجهوا
أنظارهم إلى رجل غيره من أفراد ذلك الحزب؛ وتقدم ذلك الرجل ليأخذ الطريق على
ابراهام ولكنه لم يظفر بالترشيح، ورشح رجل غيره وانتخب؛ واضطر هو أن ينتظر
عامين حتى جاء دوره فانتخب؛ وظل بذلك لنكولن أربعة أعوام يتطلع إلى مقعد في
المؤتمر؛ ولقد آلمه وكدره أن يأخذ الطريق عليه رجلان من حزبه يراهما دونه؛ ولكن
روحه الوثابة ما كانت لتعرف الملل فيما تتجه إليه من الأمور
سنحت الفرصة بعد تلك الأعوام الأربعة ولكنها أوشكت أن تفلت منه هذه المرة أيضاً
لولا ما كان من مهارة زوجه ولباقتها في التأثير على رجال الحزب حتى ظفر آخر الأمر
بالترشيح. ولما تم له ذلك راح يخوض المعركة وأمله في الفوز عظيم. . .
وعجب الناس أن رأوا لنكولن يومئذ يعمل على كسب التأييد بوسائل منظمة وهو الذي
اعتاد من قبل أن يصدر في أعماله عما تمليه عليه المواقف في غير تدبير أو
ترتيب. . . عجب الناس أن رأوه يرسم الخطط ويسدد السهام فلا تخطئ مرماها،
وكأنه في هذه
المعركة الانتخابية قائد في معركة حربية يدبر الهجوم ويعد الدفاع وهو بصير بالموقف
خبير بما يدور حوله، يميز باللمحة الخاطفة ما يأخذ مما يدع، ويتبين - مهما اشتد من
حوله ضجيج الموقف - الطريق المؤدية إلى النصر.
كتب إلى جميع أصدقائه في نواحي الدائرة يطلب إليهم العون ويسألهم أن يدلوه على
مؤيديه ليكتب إليهم، وعلى مخالفيه ليبتغي إلى إقناعهم الوسيلة؛ وراح يتحدث في
الأندية، ويخطب في الجماعات، لا يدع فرصة ولا يتخلف عن موعد، وله من نباهة
الذكر وطيب السمعة ومن محبة الناس لشخصه ما ينزله على الرحب أينما حل. . .
وهل كان الناس يعرفون في خلقه غميزة؟ هل كان الناس يعرفون عن (أيب) الأمين
إلا ما يحببه إلى قلوبهم؟ هل كان يجهل خاصة الناس وعامتهم المحامي الصادق السر؟
وهل كان ينسى العامة ذلك الرجل الطيب القلب الذي يجلس بينهم كأنه أحدهم،
فيشاركهم أفراحهم وأتراحهم ويبادلهم ودا بود وحبًا بحب، ويبثهم من نصائحه ما ينير
لهم سبيلهم، ويسمعهم من طريف أحاديثه وروائع أقاصيصه ما يبهجهم ويسري عن
نفوسهم. . .؟
لم ينسه الناس ولم يجهلوه، ولكن للسياسة أحاكمها ولها غرائبها، وكم تأتي رياحها
الهوج على ما بين الناس من مودة، وكم تترك ألاعيبها وأضاليلها الناس في عماية
وغواية! وكم تصدهم الشهوات في معركتها عن الحق وهم يعلمون! أجل كم يظهر في
السياسة الباطل على الحق، وكم يدلس الرأي بالهوى، وكم يضيع ما تواضع عليه
الناس من أصول الفضائل فيما تزين لهم من أوهام وأحلام، وما توحي إليهم من غرور
العيش ومطامع الحياة؛ وكم يذهب ما درج عليه العرف وما نشأ عليه الذوق وما نمت
عليه المشاعر هباءً فيما تأنى به السياسة من بهتان!
هذا لنكولن راح يطعنه منافسه في عقيدته ويلجأ إلى الدين فيتخذ منه سلاحاً فيكيد له
به كيداً أليماً؛ وهو لا يرعوى عن غيه بوازع من خلق أو بدافع من حياء! أجل إن من
كان له من حسن سيرته ونقاء طويته وصدق إخلاصه درع يرد عنه السهام مهما كانت
صنوفها، خليق ألا يأبه لما يتقول عليه المبطلون؛ بل إني لأعتقد أنهم يحسنون إليه من
حيث انهم يريدون إساءته؛ إذ هم يشعرون الناس أنهم يتصيدون له العيوب حيث يرونه

خلواً من العيوب؛ ويلفقون له النقائص إذ يغيظهم بكماله ويسمو عليهم بفضائله، ويباعد بينه وبينهم
بأن يعرض عما يأفكون. . . بيد أن للإشاعة دويها، ولها مهما بطلت مجراها وإن تاهت
آخر الأمر عن مرساها؛ وذلك هو ما غاظ ابراهام وآلمه وتركه في ضيق مما يفعل منافسه
وكان ذلك المنافس من الحزب الديموقراطي وهو رجل من رجال الوعظ الديني يدعى كارتريت كان مما عرف عنه تدفق نشاطه وتوثب حيويته وذلاقة لسانه فيما ينافح عنه مما يزجيه من الآراء؛ وهو اليوم يستعدي على إبراهام مواهبه ويسلط عليه لسانه في غير إعياء أو سأم؛ يتهمه بالزيغ والإلحاد مشيراً إلى بعض ما كتبه لنكولن من قبل من رسائل نقدية حمل بها على بعض رجال الدين أن رآهم ينقمون على الناس فجورهم وينكرون عليهم فواحشهم دون أن يقوموا بنصحهم أو يعملوا على خلاصهم مما هم فيه ذهب لنكولن مرة إلى حيث أنضم إلى جماعة يستمعون إلى منافسه في حديث ديني!
وبعد هنيهة قال منافسه: (ليقف كل من يريد أن يحيا حياة جديدة وأن يسلم إلى الله قلبه وأن يذهب إلى الجنة). . . ثم أردف قائلاً: (ليقف كل من لا يريدون أن يذهبوا إلى الجحيم). . . ووقف الناس جميعاً ما عدا لنكولن فاتجه الرجل إليه وقال: (هل لي أن أسألك يا مستر لنكولن إلى أين أنت ذاهب؟) ونهض لنكولن فقال: (أتيت هنا لكي أستمع في احترام، ولم أكن اعلم أن الأخ كارترايت سيعمل على إفرادي هكذا؛ إني أومن أنه يجب أن تطرق المسائل الدينية بما هي جديرة به من التوقير. يسألني الأخ كارترايت في غير التواء إلى أين أنا ذاهب، وإني أجيبه في غير التواء أيضاً أنى ذاهب إلى المؤتمر)
وجلس لنكولن بين ضحكات الإعجاب تنبعث من جوانب المكان، وقد كسب عدداً جديداً من المؤيدين
وعلم لنكولن أن خصومه يرمونه فيما يرمونه به من الأباطيل بأنه أرستقراطي لا يحفل رجاء العامة ولا يستجيب لهم دعاء؛ وأن هؤلاء الخصوم يتلمسون البرهان على دعواهم في زواجه من ماري، فدفع تلك التهم عن نفسه بإشارته إلى حياته الأولى حيث كان (غريباً لم يلق حظاً من التعليم، معدماً يعمل في قارب نظير أجر لا يتجاوز عشرة دولارات كل شهر)
وتم لابراهام النصر وكان يومئذ في السابعة والثلاثين؛ ورأى الناس وهم يعجبون أنه حصل على عدد من الأصوات لم يتسن لرجل قبله من رجال حزبه أن يظفر بمثله؛ وكان
الحزب قد أعطاه مائتي دولار لينفق منها فيما يتطلب الانتخاب من أوجه الإنفاق ولكنه يرد إليهم المبلغ بعد الانتخاب ولم ينقص سوى ثلاثة أرباع الدولار، قائلاً إنه لم تكن به حاجة إلى النقود حيث أنه كان يتجول على جواده وأنه كان ينزل ضيفاً على أصدقائه . .
.
وفرحت ماري بالنصر وحق لها أن تفرح ولها في الجهاد نصيب، ولها في المستقبل آمال. أجل أحست ماري أنها تخطو خطوة واسعة نحو هدفها، وهل كان ذلك الهدف إلا كرسي الرياسة يتربع عليه زوجها؟ إنها ما تفتأ تستحثه وتشده أزره وتحذر أن ينصرف عن وجهته؛ عرض عليه قبل الانتخاب أن يشغل وظيفة حاكم مقاطعة النيوس، ولكنها صرفته عنها ليستقيم على الطريق ويدلف إلى الغاية
صار لأبراهام اليوم بين رجال حزبه شأن غير شأنه بالأمس وأصبح له في السياسة مكانته وخطره. على أن مهنته لا زالت هي المحاماة وسيظل محامياً حتى تنتهي إليه الزعامة، وتلقي إليه قضية البلاد الكبرى وتتوافى له أسباب تلك الرسالة التي مؤديها في غد إلى أبناء وطنه جميعاً
وكانت مسألة العبيد قبيل انتخابه قد عادت تظهر في وضع جديد؛ ذلك إحدى الولايات وهي تكساس كانت قد انسلخت عن المكسيك أو كادت، فلما أرادت أن تنضم إلى الولايات المتحدة أعلنت المكسيك حقها عليها، ولكنها لم تعبأ بذلك الحق وجعلت الأمر للسيف؛ وخاضت بذلك المكسيك غمار حرب ضد تكساس وضد الولايات المتحدة التي كانت تعاونها من قبل على الاستقلال لتضمها إليها. وكان أهل الولايات الجنوبية يحبذون ضم تكساس إلى الاتحاد لكي يطبعوها بطابعهم ويضيفوها إلى الولايات التي يسمح

فيها بمبدأ اقتناء العبيد؛ ولكن أهل الولايات الشمالية كانوا يتنكرون لذلك ويرغبون عن الحرب؛ وكان لنكولن ورجال حزبه ضد هذه الحرب وهم في ذلك يشايعون كلي زعيم الهوجز والمرشح يومئذ لرياسة الولايات؛ ولقد تغلب الحزب الديموقراطي، ففشل كلي في الانتخابات بسبب آرائه عن تلك الحرب

ولقد كان لنكولن قبيل انتخابه للمؤتمر ينقم على تلك الحرب ويدعو إلى انتخاب كلي للرياسة؛ لا يفتأ يلقي الخطب وينشر الدعوة بكل ما يملك من الوسائل. ولم تكن نقمته على الحرب تشيعاً منه لزعيم الهوجز فحسب، بل لقد كان يكرهها لأنها تمكن لأهل الولايات

الجنوبية في مسألة العبيد وهو يمقت تلك المسألة من أعماق قلبه؛ وإن نفسه لتنفر منها منذ ذهب إلى أورليانز ورأى مالا ينساه من منظر هؤلاء البشر يساقون في الأغلال إلى حيث يباعون في الأسواق كما تباع الدواب

وما أصل تلك المشكلة التي تظهر في ميدان السياسة حيناً بعد حين؟

بدأت مشكلة العبيد من عهد بعيد ولقد كانت تلك المشكلة بعد استقلال الولايات الأمريكية عن إنجلترا من أشد المشاكل خطراً حتى لقد كان الناس يرونها عقبة تحول دون بقاء الاتحاد. جلب التجار منذ بضعة قرون من أفريقيا طوائف من الزنوج باعوها في أمريكا، ورأى سكان الولايات - وجلهم من الأوربيين المهاجرين إليها من أوطانهم - في اقتناء هؤلاء العبيد ما يهون عليهم الكدح في طلب العيش ونظروا إليهم نظرتهم إلى الدواب، فأخذوا يشترونهم ويسوقونهم إلى الأدغال والإحراج يشقونها تحت إمرتهم. ولما كان أهل الولايات الجنوبية أهل زراعة فقد كان اقتناء العبيد عندهم أمراً أساسياً يقوم على الضرورة إذ لا تستقيم حياتهم إلا به؛ ومن ثم لم يكونوا ينظرون إلى مسألة العبيد تلك النظرة الإنسانية التي أخذ ينظرها بعض الناس بعد الاستقلال، فمنطقهم يقوم على المادة ويستند إلى الوقائع، ولا عبرة بعد ذلك بآراء المشفقين العاطفين. . .

ولما أعلنت حقوق الإنسان في مستهل الثورة، كان في مقدمتها أن الناس جميعاً أحرار ومتساوون في الحقوق وليس لأحد أن يسلبهم حقوقهم. وقد أخذ أهل الولايات الشمالية بهذه المبادئ فيما يتعلق بالعبيد فأعتقوهم، ولم يكن السود عند أهل الشمال في الجملة سوى خدم في المنازل، وذلك لأن أهل الشمال كانوا أهل صناعة أكثر منهم أهل زراعة، فلم يكونوا كأهل الجنوب يرون اقتناء العبيد أمراً جوهرياً بالنسبة إلى حياتهم، لا تتطلب زراعة القمح عندهم جهداً عسيراً ومن ثم فلا يتطلب استخدام العبيد؛ ولكن القطن في الجنوب يستلزم اقتناء هؤلاء السود الأقوياء الذين يتحملون الجهد ويقوون على الحر ويرضون بالقليل

وفي غداة الاستقلال هدد أهل الجنوب أهل الشمال أنهم ينسحبون من الاتحاد إلا أن يترك لهم حق اقتناء العبيد قائلين إن السود عندهم ليسوا مجرد رجال بل هم بعض أدواتهم، وخيل للناس أن الاتحاد منفصمة عراه لا محالة؛ وأشفق الزعماء أن يضيع الاستقلال الذي اشتروه بدمائهم وأموالهم؛ لذلك لم يروا بدًا أن يتهاونوا بعض الشيء وأن ينصوا في

القانون أنه لا يسمح بعد عشرين عاماً باستجلاب طوائف من السود من أفريقيا؛ ومعنى ذلك أنهم يسلمون ولو إلى حين لأهل الجنوب بامتلاك العبيد، ويسلمون بذلك في صورة شرعية!

وتزايد إقبال الولايات الجنوبية على اقتناء العبيد حينما ازدادت أوروبا إقبالاً على طلب القطن، وقد أخذت الآلات تعمل عمل الأيدي وعلى الأخص في حلج القطن؛ وكان كلما ازداد طلب القطن ازداد حشد السود لزراعته وجمعه فكانوا يساقون إلى الحقول جماعات تحت إمرة رئيس من البيض، وإنهم لينظرون في فزع إلى ما في يده من سوط طالما ألهب جلودهم فمزقها وأدماها؛ فإذا غابت الشمس جيء بهم كالقطيع فأدخلوا في حظيرة تأويهم جميعاً حتى الصباح. . .

ولم يكن أحد من السادة أهل الجنوب ليسأل عما يفعل بعبيده؛ ولو أنه ساقهم إلى الموت كما يسوق كلابه لما أحس بينه وبين نفسه أنه يأتي أمراً منكراً؛ وكان يمن عليهم هؤلاء السادة أنهم يطعمونهم ويسقونهم كأنما هم يريدونهم أن يعيشوا بلا طعام ولا شراب! ولا تسل عما كانوا يلاقونه من صنوف العذاب إذا بدا لهم أن يظهروا ما ينم

على استيائهم أو حتى على مجرد تألمهم لما يصب عليهم من وصب؛ بل ما كانوا يعانونه من بلاء إذا انتشرت الحمى وفشت فيهم وهم جموع متقاربون. . .
وكانوا في الأسواق يحشرون كما تحشر الخيل عارية أجسادهم فيباعون، وكثيراً ما كان ينتزع المرء من أخيه وأمه وأبيه، وكثيراً ما كانت ترسل الفتاة إلى مزرعة وأختها إلى مزرعة وأهلوها إلى حيث لا تعلم لهم مستقراً ولا مستودعاً. ولقد تسنى لابراهام أن يرى هاتيك الأسواق في رحلته إلى نيو أورليانز فاستقر في نفسه الألم؛ وكأنه رأى لساعته أن رسالته في غد تحرير هؤلاء المساكين. وكثير من عظماء النفوس تقع في نفوسهم الفكرة في سرعة كلمحة البرق، وتظل تلك الفكرة وإن لم يشعروا بها في أعماق وجدانهم كالبذرة في أعماق التربة، وما تزال تنمو تلك الفكرة وتنمو حتى تملك عليهم آخر الأمر مشاعرهم فتحركهم وتوجههم حتى لا يكون لهم لغد من أمل في الحياة سوى إبرازها ثم الدفاع عنها، ثم التضحية من أجلها ثم الموت في سبيلها إن لزم الأمر. . .
ذلك ما كان من أمر لنكولن فيما أعتقد، وإن لم يشعر هو في صدر شبابه أنه عامل في غده
للقضاء على العبودية؛ ذلك ما كان من أمره وإن لم يلق باله إلى ذلك الأمر. إن نفسه لتجيش بكراهة هذا النظام، وإن إنسانيته لتنفر بطبيعتها من تلك الوحشية، ثم إن قلبه الكبير ليتمنى أن يخلص هؤلاء التعساء مما هم فيه من عذاب ومذلة، وما ذلك لعمرك إن لم يكن هو الإرهاص؟
ولم يكن للعبيد حق حتى في الهجرة، وكان إذا أبعد أحدهم إلى إحدى الولايات الشمالية التي أطلقت العبيد أعيد إذا عرف إلى سيده ومالكه بأمر القانون فلا ينفعه الفرار إلا أن يفر إلى الموت. . .
ولقد أدى ما كان عليه العبيد إلى ظهور دعوة في الشمال إلى تحريرهم ولكن أصوات الداعين كانت خافتة، كما كان عددهم ضئيلا، إذ كانوا يحسون ما تنطوي عليه دعوتهم من جرأة، وكانوا لا يأمنون أن يأتيهم الموت من كل مكان، فأهل الشمال مع أنهم لم يتمسكوا بالعبيد يخشون أن تؤدي الدعوة إلى تحريرهم إلى القضاء على الاتحاد، وأهل الجنوب كانوا كما علمنا يرون حياتهم في بقاء العبيد. لذلك كان الداعون إلى التحرير عرضة لسخط الجانبين. ولقد حدث أن أصدر أحد الرجال من ذوي النفوس الكبيرة صحيفة تدعى (المحرر) كان يندد فيها بما يلاقي العبيد ويدعو إلى تحريرهم، أيام كان لنكولن في الحادية والعشرين من عمره، فلما اشتدت حملاته هاجمه الناس وحطموا دار الصحيفة وألقوا بأدوات الطباعة في مجرى مائي، ولفوا حبلا حول وسطه وسحبوه في الطرق تنكيلا به وزجراً لغيره
لذلك لم يكن عجباً أن تقدم الشكاوى إلى مجالس المقاطعات الشمالية يومئذ ضد حركة التحرير والداعين إليها خوفاً على الوحدة أن تتصدع. ولقد رأينا لنكولن يقدم احتجاجاً إلى مجلس مقاطعة الينوس هو وصديق له يدعى ستون وفيه يخطو خطوة جريئة فيعلن رأيه في صراحة قائلا إن مسألة العبيد لا تقوم على شيء من العدالة، ولكنه يشير إلى مراعاة القانون في النظر إلى تلك المسألة خوفاً على كيان الاتحاد وهاهو ذا اليوم يختار عضواً للمؤتمر وهو في السابعة والثلاثين وقد عادت المعضلة تظهر بسبب ما حدث في تكساس ومحاولة ضمها إلى الولايات
(يتبع)
الخفيف
الفصول
للأستاذ عبد الرحمن شكري
طيري أَمَانِيَّ النفوس وغَرِّدي ... فلقد دعاك الروض خير دعائهِ
هذى عيون للطبيعة قد رنت ... في الزهر من أكمامه وخِبَائهِ
بَسَطَ الربيعُ على الحياة رِدَاءه ... يا ليتها أبداً تُرَى بردائه
بل ليته بُرْدٌ نَخيطَ على هوى ... هذى النفوس لكي تُرى بروائه
والشي لولا أن يَرُوَع بفقده ... ما شاق عند قدومه بلقائه
لا كالشتاء تزايلت أوراقه ... كتزايل المهجور عن قرنائه
تتناثر الأزهار عن أفنانه ... كتناثر اللذات من أهوائه

وتخال إذ دَلَفَ الشتاء كأنما ... ساق السنا بِدَبُورِه ورُخائه
هَرَبُ الضياء من السحاب وريحه ... هَرَب الكَعاب من الهوى وقضائه
فر الخريف من الشتاء وخلفه ... عادٍ يريد لحاقه بجرائه
مثل المريض يفر من عادى الردى ... هيهات ذا والدهر من أعدائه
راع الشتاءُ بقُرِّه فكأنما ... أنفاس ثغر الموت قُرّ هوائه
والريح مثل فم الشتاء وصوتها ... شكوى العجوز يخاف من أبنائه
نَقِمَ العُقُوقَ فقام يشكو أمره ... للناس ينشد آسياً لبكائه
والأرض تنظر في فروج أديمها ... نظر الفقير إلى ثقوب ردائه
من بعد ما نفدت نفائس كنزه ... سَرَفاً وشح العيش بعد سخائه
وكأنما دجن الشتاء مُقَطِّباً ... ذكرى العجوز لزهوه وفَتاَئِهِ
وكأنما دوح الخمائل في الدجا ... نشوى شياطين انتشت بسقائه
شربت من الإظلام حتى أكثبت ... تبغي النهوض كَمُكْثِبٍ من دائه
في كل غصن في الظلام نواظر ... كنواظر للغيب خَلف كِفاَئه
وكأنما دوح الظلام ثواكل ... لبست حداد الثُكلِ فعل نسائه
تحنو عليك غصونها فكأنما ... تبغي سرار السمع من إصغائه
والدوح يهفو كالمؤَرَّق في الكرى ... يلوي على الأفنان فضل كسائه
تتردد الأرواح في أفنانه ... كتنفس الرعديد في لأوائه
وكأن في إطراقها وسكونها ... فِكَرُ المصيخ لروحه وندائه
يا ليت بعض العمر تُقْطَعُ بيْدُهُ ... وَثْباً ويُمْهِلُ في سنِّى رخائه
كالسِّفْرِ تقرأ بَعْضَهُ مُتَرَيِّثاً ... جذلاً وتطوي بعضه لهرائه
أوليت حادي الأرض يعكس سيرها ... عن بعض دورتها بوقع حدائه
أوليت هذا الدهر عقرب ساعة ... يَلْوِي به عن نحسه وشقائه
آمال أمس كزهرة قد صَوَّحَتْ ... عود الربيع مُجَدِّدٌ لرجائه
يا نفس لا تأسَيْ لعمر قد مضى ... بربيعه زمن أتى بشتائه
تَتَشَوَّفين إلى قديم عهوده ... نَظَرَ الغريق إلى السُّهَى وسمائه
بُشْرَاكِ خلف الموت لو تردينه ... نبت الربيع يروق في غلوائه
كالطير بعد الصيف تترك عشها ... نحو الجنوب ترود أرض ثوائه
عطف النسيم على الأزهر هامساً ... أنَّ الربيع سعى إلى ندمائه
أنَّ الربيع أخا الصبيحة مُقْبِلٌ ... إقبال وجه الحِبِّ في لألائه
كالظئر بَشَّرَت النَّؤُومَ بأنْ بدا ... فجرٌ لِعِبدٍ كان قيد رجائه
والقلب مثل الطير في وَضَح الضُّحَى ... يتلو على الإصباح آي غنائه
وكأنما أُمُّ الخلائق دوحة ... من قبل آدم فهي من قربائه
تشدو كشدو الأم ناح وليدها ... تنحو عليه لصونه ووقائه
والريح طير شاد في أفنانها ... وكرا كأن الزهر من أبنائه
وكأنها أجنحة الملائك نسمها ... نسم يطب برفقه وصفائه
وكأن ينبوع الحياة غديرها ... خُلْدُ الصِّبا في جرعة من مائه
والقلب مثل النهر باشَرَ ماءَهُ ... جسم الحبيب تراه في سودائه
أَهْوَاك يا روح الربيع فَهَيِّئي ... جسماً كجسم الغيد في لألائه
ثم اخطري بين الخمائل في الضحى ... رقص المدِلِّ بحسنه وبهائه
فلعل في قبلات ثغرك برء ما ... أعْيا الأنام بحُكْمِهِ وقضائه
أرد الخلود بقبلة وبضمة ... تروى ظماء الخلد من لمائه
والزهر يبعث بالطيور إلى الضحى ... تُفْضي إلى الآفاق من أنبائه
الأرض أم للخلائق كلهم ... والشمس بَعلٌ شاقها بفَتاَئه
فالناس والأَطيار في وَضَح الضحى ... والزهر في الأكمام من أبنائه
النار والأمواه من آبائنا ... والنار والأمواه من آبائه
يهنيك يا دوح الخميلة بعده ... نسيان نيسان وطيب هوائه
تنسى الربيع كأنه ما زفه ... نغم البلابل في مثير حِدَائه
لا تمنع المشتاةُ عَوْدَ زهوره ... وأريج نسمته وحَلْيِ كسائه
يا ليت طيب العمر يُنْسى وِرْدُهُ ... فأبيتُ مثلك لا أحن لمائه

لكنَّ طيب العمر ليس بعائد ... لأخي صَدًى يُظْميه صَوْبُ بكائه
وترى كحالات النفوس تغيرا ... في روضه وسمائه ونِهائه
فكأنما للكون روح خُلْقُه ... يبدو لنا في غيمه وضيائه
تتغير الأشياء فوق وجوهه ... لتغير الأشجان في حَوْبائه
من لي بأجنحة الزمان أهيضها ... كي لا يطير بصفوه ورخائه
أَوْليته الغَرِدُ الحبيسُ أُقيمُهُ ... كيما أُرَاح لشدوه وغنائه
كي يذكر العهد الأنيق وأوجهاً ... كانت تُطِلُّ على وذيلة مائه
خلع الجمال قناعة وسعى إلى ... عُشَّاقِهِ وعُفاَتِهِ وظِماَئِهِ
والمرء لولاً صيفه وربيعه ... ما ذاق حُلْمَ السعد في لأوائه
والروض باب للجِناَنِ وثغرة ... منها ترى الفردوس خلف فنائه
وكأنما صبغ الأزاهرَ صابغٌ ... فتكاد تأخذ منه إثر طلائه
والضوءُ غُدْرَانٌ ترقرق تْبرُهاَ ... وأراق منها الأُفْقُ فَضْلَ إنائه
واللونُ شِعرٌ للطبيعة وقعه ... في العين وقع اللحن في سودائه
شهد الشتاء بأن أُفْقَ سمائه ... أدنى إلينا من قَصيِّ فضائه
والنفس تعظم في الربيع كأنها ... في زهره ونَسِيمه وصفائه
والضوء خمر للنفوس ونشوة ... ودم الحياة يشام في أثنائه
والأرض كالحسناء قُدَّ قميصُها ... فبدت محاسن جسمها وَوَضَائِه
فكأنما رفع الربيع حجابها ... فانجاب ستر الحسن عن حسنائه
والضوء كالحسناء بُزَّ رداؤها ... فأماط عنها العُرْيُ ستر غطائه
والقلب مثل الطير هِيضَ جناحه ... في نَزْوِهِ وحنينه وغنائه
والطير أفواه الرياض فشدوها ... أبداً يزجِّي الدَّهْرَ وَقْعُ حدائه
وكأنما نغم الحفيف هواتف ... في القلب تدوي منه في أنحائه
والضوء من خَلَلِ كأنه ... طير الفَرَاشِ نراه من شَجْرَائِه
وكأنه والقلب يذكو شجوه ... شرر الغرام يطير من حوْبائه
نَثَرَتْ ذُكاءُ على البسيطة عسجدا ... فاذخر ليوم الدجن كنز ثرائه
ولكل شيء منطق يشدو به ... والنفس تعرف كنه سحر غنائه
تتلو عليك الطير طِيْبَ ثماره ... وَأَرِيجَ روضته ورقة مائة
والحسن ظل السعادة في الورى ... إن السعادة لا تُرَى بِفِناَئِهِ
ظل الجِناَنِ على البسيطة واقع ... فاستقبل اللذاتِ من آلائه
فكأنها كون حلمت بحسنه ... حتى نُقِلْتَ إلى ذرى خضرائه
وكأنما زهر الخميلة إن بدا ... حُلُمُ الهوى في طيبه ووضائه
والطير أرواح الزهور وصيفها ... عهد الشاب يروق في لألائه
ضحك الزمان فذاع من ضحكاته ... صيف يعيد الحب في غلوائه
والقيظ يزفر بالهجير كأنما ... يتنفس الولهان من بُرَحائه
فكأنما مرح الحياة وحسنها ... لهب ترقرق في خَفيِّ دمائه
وكأنما نغم الطيور أريجها ... يُسْقاَهُ زهر الروض في أندائه
فَيُحِيلُهُ نشرا يَضُوعُ ورونقا ... يشتار منه النحل أَرْيَ عطائه
ودت ذواتُ الحسنِ أن حُلِيَّهاَ ... كحُلِيِّهِ ورداءها كردائه
مَرَحُ الكعاب الرُّودِ في خطراتها ... كالنهر يرقص في ترقرقِ مائه
والريح تعبث بالغصون كأنها ... طفل يعيث على رءوس إمائه
وترى جذور الدوح مثل أصابع ... بسط الشحيح يصون كنز ثرائه
وكأنما نغم البلابل مَطْرَةٌ ... فوق اللجين شجا مُرِنٌّ إنائه
تَنْدَى على القلب الجديبِ فينثني ... روضاً يرفُّ بزهره وأضائِهِ
والزهر في وَضَح الصبيحة قد صحا ... صحو المفيق من الكرى وقضائه
وجلت ذُكاءُ ندى الزهور كأنها ... أم الوليد تزيل فضل بكائه
حتى إذا أشتد الهجير حسبته ... نشوان أثمله اللظى بسقائه
وإذا الأصيل علا السماء حسبته ... ذا لوعة حانت نوى قربائه
وحمى على قُبَلِ الظلام ثغوره ... كمعَشَّقٍ مُتَسَتِّرٍ بردائه
وتراه يرنو للنجوم كأنها ... حُلُمٌ يُطِلُّ عليه في حَوْبائِهِ

كالطفل يُبْصرُ في الوذيلة وجهه ... فيخال ذاك الوجه من قرنائه
تحكى النجومُ الزُّهْرُ في دوراتها ... رقصَ المدِلِّ بعيشه وروائه
والنجم من خَلَلِ الغصون كأنه ... ثمرٌ تَدَلَّى من علىِّ سمائه
والحي يحيا كالذي هو ناظر ... كالأُفْقِ يُرْسَمُ في متون نهائه
والزهر يحلم بالفرادس طرفه ... حلم الغريب بأهله وفنائه
حسب الطيور تحاملت عن قلبه ... وبدت تبوح بشجوه ورجائه
والقلب مرآة الزمان فصيفه ... في صيفه وشتاؤه كشتائه
والكون مرآة الفؤاد فقبحه ... وجماله في نحسه ورخائه
والضوء خمر للربيع فلا تَعَفْ ... جُرَعاً تُنيلُ الخلد من صهبائه
هذى الطيور لسانه وغناؤها ... مستأنف من شدوه وغنائه
والزهر في حر الهواجر نائم ... سحرته باللحظات عين ذُكائِه
والأرض تحلم بالجِنانِ فصيفها ... حُلُمٌ يزيح القلب عن ضَرَّائِه
بَسَطَ الجمالُ على الفضاء جناحه ... فالصيف من لألائه وروائه
فكأنه مَلَكٌ يُحَلِّقُ فوقها ... فتصيب من آلائه وعطائه
يا ليت أن المرء في أرجائها ... مُتَفَرِّقٌ في أرضه وسمائه
حتى يصير من الجمال بمنزل ... في مائه ونسيمه وهوائه
وتظل تسمو النفس في آفاقه ... كالطير حَلَّقَ في أديم قضائه
عبد الرحمن شكري

القصص

شارلس لام يروي عن شاكسبير

قصة الشتاء - 2

بقلم الأستاذ دريني خشبة

وهرول بها إلى كوخه ولقي زوجته هاشاً، ثم دفع بالطفلة الميمونة إلى صدرها اللطيف قائلاً: (أرضعيها يا موبسا. . . أرضعي ابنة الملوك الصيد) ونظرت الراعية إلى بارديتا تارة، وإلى طفلها أخرى، وكأنما جزعت أن تشركه هذه الغريبة النازحة في لبنه، فقال الراعي وهو يوشك أن يجن: (أرضعيها يا موبسا فقد حملت إلينا كنزاً وجعلتنا سادة الرعاة!). فانبلجت إشراقة سعيدة في أسارير المرأة، وأبرزت ثديها الكبير الممتلئ باللبن فدست حلمته في فم الطفلة. . .

وخشي الراعي أن يبدو عليه الثراء المفاجئ إذا هو تصرف في شيء من جواهر الطفلة بالبيع أو بغيره، فرحل عن الإقليم كله، ونزح إلى طرف سحيق ناء في أقصى حدود بوهيميا. وهناك تلبث غير قليل ثم باع جزءاً من الكنز الملكي الكريم، وابتاع بما حصل في يديه من ألوف قطعاناً كثيرة. وما هي إلا سنون حتى درت له إخلاف الثروة، ونضر الله الأرض تحت رجليه بالرزق، فعاش عيشه راضية مخفرجة، وعلم بارديتا ونشأها بين الضأن البهم، فشبت في هواء الطبيعة الحر الطليق وفي ميدانها السندسي الواسع، لا صديق لها إلا كلبها الأمين الوفي، ولا حديث إلا الأحلام الخافتة تتردد في فم القمر الصامت، ولا أطماع إلا أن تكبر البهم وتدر ألبانها

وشبت جميلة ناصعة كتمثال المرمر قد صقلته يد فنانة صناع. . . رزينة كأنما أوحي إلى قلبها الصغير الخلي أنه مسرح لمأساة صامتة ومعبد لآلهة وسنانة تجثم فيه لحينها!

وكان لملك بوهيميا أبن مولع بالصيد، يرتاد من أجله المسايل والوديان ومشارف الجبال. فبينا هو يصيد يوماً في ذلك الصقع إذا عيناه تقعان فجأة على بارديتا، وإذا هو يقف مسبوهاً زائغ البصر يعبد الفتاة البارعة الفينانة، ويردد عينيه في عالم جسمها الزاخر بأمواه الجمال. . .

لله لحمها الوردي. وجبينها السني، وفمها الخمري القرمزي وشعرها المغدودن الذهبي، وطرفها الساجي! ولله هذا الخمل الناعم القطيفي الذي سلبته لها الطبيعة من خوخ بوهيميا! لقد ملأت بارديتا قلب فلوريزيل وعينيه، وسرت كالحميا في دمه، فنقلته من دنيا إلى دنيا، ومن ملك إلى ملك، وركبت له قلباً غير قلبه، وإحساساً مرهفاً غير إحساسه؛ وسرت في خياله طيفاً معبوداً جعل الحياة جميلة مثلها، حبيبة لأنها فيها. . .

وهكذا عمر قلب الفتى بحب الفتاة، فبات لا يفكر إلا فيها، ولا يتوجه بأحلامه إلا إليها. . . وأخذ يكثر الصيد في هذه الجهة ويتردد على هيكل غرامه المقدس لينشق

عبيره، وينعم بأرج الحب في أكنافه. . . ثم لم يطق أن يظل هذا حاله، فتنكر في ثياب شعبية، وصار يتردد على كوخ الراعي فيحدثه ويسمر إليه، وآنس فيه لطفاً وظرفاً وتأدباً، فمال إليه، واطمأن فؤاده لصحبته. . . وكان فلوريزيل فتى مشرق الشباب حلو الفم، يتحدث فتنجذب إليه الأسماع، ويصمت فتسرح في وجهه العيون

ولقي الفتاة فنمت عيناه المدنفتان بكل ما في قلبه، وجميع ما يتأجج بين أضلاعه ففتحت له قلبها الخلي. . . وهرول هو من عينيها الصافيتين الساحرتين، ومن فمها القرمزي المتمتم، إلى أبعد أغواره. . .

وذكر لها أن أسمه دوريكليز. . .!

وطال غيابه من حضرة أبيه الملك، وتعدد، وأصبح لا يهمه أن يغشى المجالس الملكية، فجمجمت نفس أبيه بأشياء فراح يدبر أن يعرف منها ما حرص أبنه أن يخفيه عليه وأرسل عيونه في عقبيه، فعرفوا ما بينه وبين برديتا

ودعا الملك إليه صديقه كاميللو، كاميللو المخلص الذي أنقذه من السم في بيت ليونتس ملك صقلية، فكشف له عما في نفسه وذهبا متنكرين في إثر فلوريزيل إلى كوخ الراعي. . . والد برديتا فيما زعم له الزاعمون

وكان عيد الصوف الذي يجزون فيه الأغنام، وكان الكوخ وما حوله في حركة صاخبة ومرح، وكان المدعوون جالسين إلى الموائد الحافلة بالأكال والأشربات والأشواب المعممة بالحبب، وكان الولدان والعذارى والغانيات يرقصون على نغم الناي فوق العشب الأخضر؛ وكان بائع متجول يجلس في ناحية وقد التف حوله فتيان وفتيات يشترون ويشترين، هذا رباطاً وهذه قفازاً. . . وكان فلوريزيل قد انتحى وبرديتا ناحية، وراحا يتناجيان ويتباثان، غير معنيين بهذا الحفل الراقص، المائد بالأذرع والسيقان، المائس بالقدود والنهود

ودلف الملك نحو الجهة التي أعتزل ابنه الناس فيها، ودلف وراءه كاميللو، ثم جلسا عن كثب، بحيث يسمعان نجواهما

- عجباً يا كاميللو! إن هذا الجمال وهذا السمت كثيران على ابنة راعٍ نشأت بين البهم، وشبت في جنبات المروج!

- ولم يا مولاي؟ أليس الرجل أغنى رعاة بوهيميا؟ إنه ملك القطعان، وأبنته من أجل لك ملكة اللبن والقشدة!

- إن فلوريزبل يجلس بين يديها كالحمل!

- وليس هذا عجيباً أيضاً، لأنها خبيرة بتأديب الذئاب! وتبسم الملك ثم ترك صاحبه وقصد إلى الراعي فسلم عليه ثم قال:

- عمرك الله أيها الأخ! من هذا المدنف المتبول الذي يناجي فتاتك الهيفاء؟

فقال الراعي: (ذاك الفتى! إنهم يدعونه دوريكليز، وكل منهما يهيم بصاحبه كما ترى. . . ولست أدري أيهما اسعد بإلفه من الآخر؛ بيد أنني لا أشك في أنه إذا اختارها لتشركه في حياته فإنه يفوز بشيء عظيم جداً، لأن وراءها كنزاً لا يحلم مثله بمثله!!)

ويمم الملك شطر الحبيبين فقال يخاطب ابنه وهو يمضغ كلماته ويمطها، حتى لا ينكشف أمره: (أنت أيها العاشق الصغير، فيم اعتزالك هذا العيد بما فيه من لهو ومرح وقصف وعزف! ويحك! لقد جاء علي حين من الدهر أحببت فيه كما تحب أنت اليوم. . . وكنت أسجل حبي بالهدايا والتذكارات، فما لك لا تشتري لحبيبتك من البائع المتجول كما يشتري الولدان لعذاراهم؟)

وقال فلوريزيل، وهو لا يدري أنه يخاطب أباه ومولاه:

(تالله يا أبتاه الشيخ لو أطلعت على ما في جوانحنا لا ستقللت الدينا بأسرها هدية لحبيبتي برديتا. وإن هديتي لها هي هنا. . . في هذا المكان الأمين. . . في قلبي)

ثم التفت إلى الفتاة وقال: (أوه يا برديتا! أصغي إلي يا حبيبتي! لقد سأل هذا الرجل الشيخ أن أقدم لك هدية كما كان يفعل إذ هو فتى ذو صبابة وذو هوى! فهأنذا أقدم لك فؤادي بين يديه وأجعله شاهدي؛ وهأنذا أعلن أمام الملأ أنني أكون أسعد الناس لو رضيني أبوك زوجاً لك، ويسعدني أن يبارك هذا الشيخ عقد حبنا وصحيفة ارتباطنا!. . .).

ولم يطق الملك على تصرف أبنه صبراً، فانتزع دمامه، وكشف عن حقيقته، ثم صرخ بابنه قائلاً: (بل أشهد على صحيفة طلاقكما أيها الشقي! ما شاء الله يا ولي العهد! لم

يبق إلا أن تنسى دمك الملكي فتلطخه بدم هذه الراعية! تلك الغجرية التي استهوت فؤادك وسبت لبك! الويل لك يا فلوريزيل! أني أنذركما معاً! حذار أن يرى أحدكما الآخر، وإلا كان الموت جزاءكما تجرعانه يا شقيين! أتسمع أيها الراعي! ذُد أبنتك عن سيدك أو أدفع رقبتك ثمناً لعصيانك.

ثم أمر كاميللو أن يتبعه مصطحباً فلوريزيل، وامتطى هو جواده، وذهب يعدو به، وكأنه شيطان على فوهة بركان!!

وغلى دم الملكي في عروق برديتا، فوقفت تردد عينيها في أثر الملك وتقول: (ويحك! أيهذا الملك! على هينتك، فوالله ما أزعجتني غضبتك، ووالله لقد هممت أن أقول لك كما قلت لي، وإن الشمس التي تشع بأضوائها على قصرك هي هي التي تشع بلألائها على كوخنا هذا الهادئ الصغير! ولكن! وا أسفاه! لقد أيقظتني لهجتك الجافة ذات الصرير من أحلامي السعيدة التي رفعتني حيناً إلى مصاف الملوك! فيا أحلامي. . . وداعاً. . . . ووداعاً أيها الأمير! وداعاً يا مولاي.! اتركني أرجوك!

اتركني لخرافي ونعاجي الحبيبة أرعاها وأحتلبها. .! وأبكي معها فوق المروج الخضر والعشب الحلو!

وانهمرت عبراتها فجأة، فوجم ولي العهد المعذب، ووقف كاميللو ساهماً متأثراً. . . ثم خطر له أن ينقذ الحبيبين، وأن يصل حبلهما المقدس، لأن قضيتهما من قضايا القلوب التي لا سلطان لأحد عليها، والتي لا تقوى على فصمها حتى يد الموت التي هدد بها الملك المغيظ المغضب

وكان كاميللو قد علم بما كان من حزن ملك صقلية وتوبته وحسن أعذاره وجميل إنابته، بعد موت هرميون، وكان الشوق إلى الوطن والحنين إلى الأهل قد برحا به، ففكر لتوه أن يفر بالحبيبين من وجه ملك بوهيميا، إلى رحاب ملك صقلية، حيث تقي شفاعة ليونتس، من

غضب بوليكسينز، وحيث تتيح الفرصة للود القديم فيحيا ويتجدد، وتتهيأ القلوب للمصافاة فتنسى

وعرض عليهما ما بدا له من الفرار فانشرحا له ووافقا عليه؛ ثم كلم الراعي في شأنه ونعمه وقطعانه فتركها في عهدة صديق له وجمع ما خف حمله من مال وما أحتفظ به من جواهر برديتا وثيابها التي وجدها فيها والورقة التي كتب عليها أسمها وشيء من نسبها وحديث مأساتها. . . ثم لاذ الجميع بالفرار

وكانت مجازفة مليئة بالشجن، في طريق محفوفة بالمخاطر

وأستأذن كاميللو على صديقه ملك صقلية، فتلقاه بعينين باكيتين محزونتين، وضمه إلى صدره كأنما كان يعانق أشباح الذكريات الحبيبة، ويضم طيف الماضي العزيز. . .

- مرحباً كاميللو. . . مرحباً بحبيبي المخلص، ومشيري الأمين.

- مولاي. . . !

ثم انحبس منطق الرجل فلم يزد على هذا، وترك لدموعه أن تتكلم!!

ولما هدآ، وسكنت نفسهما، قدم إليه كاميللو ولي العهد بوهيميا، ابن صديقه الأعز، وحبيبه الأوفى، بوليكسينز! فتبسم له الملك، وتلقاه بالأهل وبالسهل، ثم طبع على جبينه قبلة التكفير عما ظن بأبيه من سوء. وقدم فلوريزيل فتاته برديتا قائلاً: (خطيبتي الأميرة برديتا يا مولاي!) وهش لها الملك وبش، ولكن سرعان ما تبددت ابتساماته في جو من الذكرى دهم فؤاده فجأة!

لقد نظر الملك إلى الفتاة الجميلة الرائعة فكأنما وقف في ظهيرة غائمة قاتمة فوق قلة جبل، ينظر إلى أشعة الشمس تغمر سهلاً نائياً كله ورود ورياحين وأزهار!

لقد ذكر ماضياً سعيداً حافلاً بالهناء عند ما رأى برديتا!

لقد رأى في عينيها أحلامه المواضي الرائعات!

لقد أحس بقلبه يثب من صدره إلى حدقته ليرى إلى الأميرة القادمة؟!

وي! ترى! هل من الجنة آبت هرميون!

أليس هذا هو طيفها الحبيب يتمثل له في هذه العذراء المفتان؟

ولحظ الراعي ما بده الملك من برديتا فوجب قلبه، وطفت ذكرياته القديمة فوق بحر لجي

من عباب نفسه، لكنه صمت مع ذلك ولم ينبس
(يتبع)
دريني خشبة
البريد الأدبي
الحركة الفكرية والجامعية في مصر
أصدرت الحكومة المصرية في هذا الشهر كتاباً للدعاية عن مصر باللغة الإنجليزية هو وقد شمل كثيراً من نواحي النشاط الاقتصادي والعلمي والاجتماعي في القطر، وكان مما اشتمله هذا السفر مقالة للدكتور محمد مصطفى زيادة الأستاذ المساعد بكلية الآداب عن النهضة الفكرية في مصر جاء فيه: (كان تأسيس الجامعة المصرية عام 1908 أحد العوامل الفعالة الحيوية في قيام النهضة الذهنية في أرض الفراعنة، أما قبل هذا التاريخ فكانت مدرسة الشيخ محمد عبده الأزهرية (المتوفى سنة 1905) والمدارس العليا التابعة لوزارة المعارف المصرية هما القوى الوحيدة التي شنت حرباً عواناً صالحة على الجمود المردي الذي كان ضارباً بجرانه على البلد؛ بيد أن كلتا القوتين قد عاق تقدمهما طبيعة مجالهما ووجودهما، مثال ذلك أن مدرسة الشيخ عبده كانت تتألف من شرذمة ضئيلة من المصلحين الغيورين الذين حاولوا - متفرقين - القيام بتغييرات شاملة في نواح عدة رغم ما كانت تهددهم به الرجعية والجمود، ومن ثم فانه على الرغم من أن مشكلة التقدم الفكري كانت أقرب الأمور إلى نفوسهم إلا أن اتساع مدى مثلهم العليا لم يسمح لهذه الناحية إلا بالقدر الضئيل من اهتمامهم. أما المدارس العليا التي كانت تابعة لوزارة المعارف فإنها لم تستطيع أن تتزعم الحركة الفكرية، ولا تؤوي إليها النهضة الذهنية في البلد، ومرجع ذلك وجودها بالكيفية التي كانت عليها؛ إذ أن مهمتها كانت تخريج موظفين مدنيين وحكوميين لمصالح الحكومة المختلفة.
ومن الحق أن تضخم عدد طلاب هذه المدارس الذين كانت توفدهم الجامعة إلى أوربا عاماً بعد عام للحصول على درجات وإجازات جامعية قد عاد على مصر بالفائدة المرجوة التي تكافئ المهمة التي أدوها للدولة، إلا أن عدد هؤلاء الجامعيين كان محدوداً على العموم، كما أن التعليم الجامعي في مصر كان (واردات غير منظورة) فكان داعياً لضرورة إيجاد جامعة واحدة على الأقل في مصر. وكان إنشاء الجامعة القديمة بدء ظهور معهد علمي فريد ولم تعقه صعاب المصلحين والمدارس العليا، بل كان له أثره الصالح وفائدته المرجوة في مصر؛ بيد أن الجامعة وجدت عقبة مالية كأداء في سبيلها إذ كانت تقوم على هبات شرعية
سرعان ما اتضح أنها غير كافية؛ ولكن لحسن الحظ أمكن التغلب على هذه الصعوبة عام 1926م حينما أشرفت عليها الحكومة - بإيحاء المرحوم الملك (فؤاد) الذي كان أول راع للجامعة وأول حادب على التعليم - وجعلتها في سلك المنشآت الحكومية ومنذ ذلك الوقت والجامعة تخطو نحو الكمال. كما أن مبانيها الفخمة في الجيزة دليل ملموس على النهوض بالحركة الفكرية
وبفضل رعاية الحكومة لها زادت ماليتها من 10. 000 جنيه في سنة 1925 إلى 278. 786 جنيه مصري عام 1932 كما أن عدد طلابها النظاميين يشير إلى روح التقدم السريع، فلقد كانوا 107 طالب قبل سنة 1925 ثم ما لبث أن بلغوا 2381 في 1932، وكان هذا العدد موزعاً بين كلياتها الأربع إذ ذاك وهي: الآداب، والعلوم، والحقوق، والطب، وإن كليتي الآداب والحقوق لهما من الجامعة القديمة، أما الطب والعلوم فمن آثار الجامعية الجديدة وإن كانتا في أصلهما مدرستين عاليتين في سنة 1935 ضمت المدارس العليا الأخرى للجامعة، فأصبحت الآن تضم بين جوانبها سبع كليات هي: الآداب، والعلوم، والحقوق، والطب (بما فيها الصيدلة وطب الأسنان وطب البيطري ومدرسة الممرضات)، والهندسة، والزراعة، والتجارة. وبلغت ماليتها 850. 000 جنيه في 1936. وعدد طلابها النظاميين في العام الدراسي الحالي 6781 طالباً.
نظم الامتحانات ورابطة التربية الحديثة
تعقد رابطة التربية الحديثة، برياسة الدكتور أحمد عبد السلام الكرداني بك مدير معهد التربية للبنين، اجتماعاً في الساعة الخامسة من يوم الأربعاء المقبل بمدرسة فاروق

الثانوية بالعباسية
ويثير الأعضاء في هذا الاجتماع موضوع الامتحانات في مصر، وقبل المناقشة يتكلم الأستاذ الدمرداش محمد مراقب الامتحانات المساعد في نظم الامتحانات المتبعة في مصر ورأيه الشخصي فيها. ويتكلم كذلك الدكتور عبد العزيز القوصي في موضوع أثر الامتحانات في التربية
وبعد هذا يطرح الموضوع للمناقشة. وهو من الموضوعات القوية الحساسة التي ترتبط بها
النهضة التعليمية في البلاد ارتباطاً وثيقاً.
فان الاعتراضات المختلفة ترد على نظم الامتحان. وكثيراً ما أخفق فيه النوابغ، وجازه المتأخرون الضعاف.
وعند علماء النفس أن نظام الامتحان في بعض صوره جدير أن يربي عند التلاميذ الخوف والجبن والتملق. وهو عند آخرين لا يمكن أن يعتبر مقياساً صحيحاً للتفوق بين الأقران.
ويراه فريق من علماء التربية شراً لا بد منه، بينما يراه آخرون نظاماً تلعب فيه الصدفة دوراً عظيم الأهمية.
محطة إذاعة مصرية بوليسية
تعني محافظة العاصمة باستخدام الوسائل والاختراعات الحديثة التي تعين رجال البوليس على أداء أعمالهم بالقدر الذي تسمح به ميزانيتها
وقد ارتأت الحكمدارية أخيراً أن تستعين بالإذاعة اللاسلكية للبحث عن المجرمين الفارين، وإذاعة التعليمات على رجال البوليس في مختلف المناسبات، فأنشأت محطة خاصة بها في إحدى غرف الدور الأول بالحكمدارية لإذاعة أوامرها على موجة خاصة بجهازات رجال البوليس، وستذاع هذه التعليمات بواسطة (شفرة) خاصة لا يعرفها إلا البوليس.
وأعدت الحكمدارية جهازات التقاط في جميع سيارات البوليس، وفي أقسامه المختلفة، لالتقاط ما تذيعه المحطة
وقد جهزت الحكمدارية غرفة الإذاعة بثلاث آلات للتليفون، لتلقي الأخبار المراد إذاعتها من أقسام البوليس. في أنحاء القاهرة كما جهزتها بآلة للتلغراف لتلقي الأخبار من الأقاليم
وقد أقتبس هذا النظام من بعض دوائر البوليس في أوربا، والمنتظر تعميمه في إدارات البوليس في بعض المدن الأخرى.
مؤتمر المستشرقين في دورته العشرين
تلقت الحكومة المصرية دعوة للاشتراك في الدورة القادمة لمؤتمر العلماء المستشرقين الدولي وهي الدورة العشرون المزمع عقدها في مدينة بروكسل في الفترة القائمة بين 5و 10 من سبتمبر القادم
كتاب عن قناة السويس
قالت جريدة (الديلي ميل) في عددها الصادر في 4 أبريل إن وزارة الخارجية منعت نشر بعض فقرات جوهرية من كتاب: (رواية قناة السويس) الذي يتضمن تاريخ الدسيسة السياسية الدولية التي أدت إلى حفر القناة والإشراف عليها، ثم قالت إن هذا المنع قد يؤدي إلى عدم طبع الكتاب
وقد توفي السر جون دافيز أحد مؤلفي هذا الكتاب، وعلى ذلك سيكون رفيقه المستر جرينول والناشرون أصحاب الحق في تقرير نشر الكتاب، ولما كان السر جون دافيز سكرتيراً خاصاً للمستر لويد جورج في أثناء توليه رياسة الوزراء فقد رأى قبيل وفاته أن يعرض الكتاب على وزارة الخارجية لتوافق عليه
وقد قال أحد موظفي الوزارة: (لقد درسنا الكتاب بعناية وهو يتعلق بمسألة معقدة جداً لها تأثير كبير في السياسة الدولية فرؤى أن هناك بعض فقرات في الكتاب غير مرغوب فيها لأنها من قلم رجل كان يشغل فيما مضى منصباً رفيعاً في الحكومة بحيث يحتمل أن يعتقد العالم أن هذه الآراء تعبر عن آراء الحكومة، ونحن نعرف أن السر جون دافيز كان قبل وفاته لا يعرف هل يسحب كتابه جملة أو يعدل الفقرات التي يعترض عليها).

وقد علمت جريدة (الديلي ميل) أن جزءاً من الكتاب يتعلق بمستقبل القنال عندما ينتهي أجل الامتياز بعد ثلاثين سنة.

رسالة مصري في باريس

سيدي صاحب (الرسالة):

بعث إليّ شيخي وصديقي الأستاذ (لويس ماسينيون) بالجزء الأخير من المجلة النفيسة 1937 (مجلة الدراسات الإسلامية) التي يخرجها في باريس. -

وموضوع هذا الجزء رسالة مسهبة في العشائر الخاصة بالجنازات في مصر لهذا العهد.

وأما صاحب الرسالة فشاب مصري يدعى م. (؟) جلال، وهو ممن يأخذ العلم في باريس عن الأستاذ لويس ماسينيون ثم الأستاذ موس (مدرس علم الاجتماع في الكوليج دي فرانس)

والرسالة تعرض (الطقوس) الخاصة بأحوال المرض والاحتضار فضلاً عن أحوال الموت والجنازة. ثم تبين الإضافات التي بين تلك (الطقوس) والشؤون الاجتماعية والدينية والأخلاقية

ثم تبسط ألوان الشعور وضروب العقائد التي ترجع إليها تلك الشؤون. وللرسالة ذيلان: مضمون الأول طائفة من المراثي القومية التي تغنيها النائحات (العدادات)، ومضمون الثاني مجموعة من الصور الشمسية تبرز للعين مثل مائدة الغسل، والصلاة في المسجد، وموكب المشيعين (والعدادة) والدفن وإطعام الفقراء، إلى غير ذلك مما له علاقة بشؤون الموتى

وقد فرحت بقراءة هذه الرسالة فرحاً شديداً، ذلك بأنها مؤلفة على طريقة استقام عمودها، وهي طريقة البحث عن أحوال الشعب وتصوراته؛ وهذا النوع من التأليف العلمي له مكانة رفيعة في جامعات الفرنجة على حين ليس له في جامعتنا قليل من الحظ، حتى أن ما يتصل بشؤون الشعب المصري من أعمال ووجدانيات ومعتقدات إنما ينتهي إلينا على أقلام نفر من الباحثين الغربيين

فلا يحسن بنا اليوم أن نغفل رسالة الأستاذ م. جلال، إذا انصرف إلى إثبات ناحية من خصائص الشعب المصري ربما لا يتاح لها أن تبقى على حالها. ثم إنه يحق لنا أن نذكر للأستاذ ماسينيون عنايته بنشر الرسالة ورعايته لهمة المؤلف. . . وأسلم سيدي الأستاذ لمن يخلص لك الود

بشر فارس

حول المؤتمر العام للأدب العربي في تونس

في العدد 234 من الرسالة نشرنا خبراً تلقيناه من تونس بأن السيد محمد الفاضل بن عاشور يسعى لعقد مؤتمر عام للأدب العربي لتوحيد طرق الثقافة ودراسة الآداب العربية في جميع أقطار العروبة الخ. وقد كتب إلينا الشيخ محمد الشاذلي السنوسي يقول إنه هو صاحب الفكرة ومقترحها ويؤيد قوله بنشرات المؤتمر وأقوال الجرائد. وسواء أكان المقترح هذا أم ذاك فإن موضوع الفخر هو في تنفيذ الاقتراح وإنجاح الفكرة. إن الآراء

كثيرة والأحلام أكثر، والعبرة بالعمل لا بالقول، وبخاتمة السعي لا بالشروع فيه. ونحن نتمنى لهذا المشروع الخطير النجاح على أي يد وبأي صورة

الاحتفال بتوزيع جوائز مختار

كانت جمعية أصدقاء مختار نظمت مسابقة لهذا العام موضعها (جحا وحماره) فتبارى فيها كثير من الفنانين المصريين وفاز بعضهم بالجوائز المرتبة والتي تبرع بها هذا العام حضرة النائب المحترم محمد شعراوي

وقد دعت الجمعية نخبة من رجال الأدب والفن مصريين وأجانب لحضور الحفلة التي أقيمت لتوزيع الجوائز على الفائزين وبعد أن ألقيت الكلمات المناسبة في موضوع المسابقة بدئ في تقديم الجوائز للفنانين وتولت ذلك حضرة صاحبة العصمة السيدة الجليلة هدى هانم شعراوي وألقت كلمة طيبة

ثم ألقى الأستاذ علي الديب كلمة الفن في موضوع (جحا وحمارة) ومما قاله:

موضوع جائزة مختارة هذه السنة (جحا وحماره) موضوع وفقت في اختياره جماعة) أصدقاء مختار كل التوفيق. إن شخصية جحا إثبات لناحية الخيال الفذ، وإظهار لما فيها من سعة في التصوير وقوة في التخيل ومبالغة في التعبير وظرف في الأداء، ولا أشك

في أن الاتصال على تنفيذ هذه الفكرة وتبادلها - بالبحث والتصوير والتخيل بين شبابنا الفني في هذه السنة، والذي كان مرجعه إلى ما فيها من طرافة ومجون - هما أقرب ما يكون إلى طبيعة المزاج المصري - سوف يحدو جماعة أصدقاء مختار إلى التوفيق دائماً في اختيار موضوعات تعبر عن صور من الحياة والتفكير المحلي. وشخصية جحا شخصية محبوبة في مصر معروفة عن طريق كتاب يسمى (نوادر جحا) ويقال إن أسم جحا الحقيقي هو نصر الدين خوجه أحد شيوخ الترك الذين عاشوا في أوائل القرن الثامن الهجري. وكان مشهوراً بالدعابة والتظرف

ويغلبون رواية أخرى، وهو ما أعتقده شخصياً. . . إن جحا شخصيته خيالية من اختراع الشيخ نصر الدين خوجه. وكان نصر الدين هذا شيخاً عالماً وكان يشتغل بالتدريس - وكانت النكتة ألزم له من طعامه وشرابه. وفي يوم من الأيام استقر رأيه على أن يقوم برحلة تعليمية بين أهل القرى والأرياف يلقنهم فيها دروساً في التهذيب، وقد وجد أن أحسن

الطرق التي يصل بها إلى نفوس العامة بالمعاني والحكم هي أن يضمنها قصصاً ونوادر فكاهية تحمل المغزى أو المعنى الذي يريد الوصول به إلى أذهانهم فاخترع الشخصية الخيالية (جحا) وجعله بطل قصصه

السير جرافتون اليوت سمث

لأول مرة يؤلف كتاب بالإنجليزية عن العلامة صديق المصريين أليوت سمث الذي قضى أحسن شطر من حياته الطويلة العامرة يؤكد لعلماء الانترويولوجيه (تاريخ الإنسان الطبيعي) أن الحضارة الإنسانية نشأت أول ما نشأت على ضفاف النيل وبأيدي المصريين، معارضاً في ذلك الأستاذ ليوناردولي مكتشف آثار أور الذي يقول بأن العراق هو منشأ هذه الحضارة. والأستاذ السير جون مارشال الذي يقول إنها إنما نشأت في السند وفي مقاطعة بنجاب. وقد أشترك في ترجمة حياة الأستاذ إليوت سمث طائفة كبيرة من زملائه العملاء الذين ما يزالون يتمتعون بحياة مليئة حافلة. وذكروا أنه ولد سنة 1871 بمدينة جرافتون باستراليا، ومنها كان أسمه. وكان أبوه من المهاجرين الذين ضاق بهم سبيل العيش في إنجلترا فرحلوا إلى استراليا. وما زال دائباً حتى صار ناظر مدرسة جرافتون، ثم ناظر مدرسة سدني. وقد التحق إليوت سميث بمدرسة سدني الطبية فأبدى ميلا خاصاً إلى التشريح واتصلت أسبابه بأسباب أستاذ هذا الفن في المدرسة البروفيسيرج. ت. ولسن الذي أتخذه مساعداً له حتى نال الدكتوراه في التشريح. وفي الخامسة والعشرين وضع الأستاذ إليوت رسالة صغيرة عن (المخ) فأحدثت ثورة في عالم الطب، وكانت نواة لمعلوماتنا عن التلافيف والمادة السنجابية. ثم رحل إلى إنجلترا في سنة 1896 وقد سبقه إليها أسمه فصار يتردد بين جامعتي أكسفورد وكمبردج لمجرد البحث العلمي. وظل دائباً على بحوثه ثلاثة أعوام حظي بعدها بشرف الزمالة في جامعة سنت جونس وذلك لما حاز من إعجاب الأستاذ ماكالستر رئيس مصلحة التشريح الإنجليزية الذي أختاره لتدريس علم التشريح بمدرسة الطب المصرية سنة 1900. وقد ابتدأت شهرته كعالم عالمي مصرولوجي منذ ذلك التاريخ فقد أكب على الموميات وجماجم المتحف المصري يشرحها ويستنتج من تراكيبها عجائب الحضارة المصرية، وكان البرق يطير بحوثه إلى جميع أنحاء العالم فينتفع بها العلماء ويجري وراءها صيت مصر وينتشر أسمها في الآفاق - ثم هال الإنجليز ألا

ينتفعوا بعالمهم العبقري فاستدعوه لكرسي الأستاذية في جامعة منشستر ثم لرياسة فرع التشريح بجامعة لندن حتى وافاه أجله سنة 1937

الشريعة الإسلامية في كلية الحقوق بباريس

أخذ يلقي دروسه في مدرسة الحقوق بباريس الأستاذ لطفي الدكتور في الحقوق وفي الطب، والعضو المراسل للجنة الاشتراع الأجنبي والحق الدولي في وزارة الحقانية الفرنسية، وقد كان الدكتور لطفي قنصلاً عاماً لتركيا في باريس قبلا

وسيبحث في هذه الدروس أهمية الفقه الإسلامي وتأثيره في حضارة شعوب الشرق والبلدان الممتدة على شواطئ البحر الأبيض المتوسط، واشتراع تلك الشعوب. وسيبحث أيضاً التحول الحالي في الإسلام والبلدان المنفصلة عن السلطنة العثمانية ويقسم الدكتور لطفي بلدان الشرق إلى ثلاثة أقسام، من الوجهة القانونية، وفقاً

لمزاولتها العمل بالتدقيق بمقتضى الشرع الإسلامي، كالحجاز وشرق الأردن واليمن الخ، أو بمزاولتها الشرع المختلط على ما هو جار في مصر وسورية وفلسطين، أو بمزاولة الشرع الغربي كتركيا وألبانيا

ومما لا شك فيه أن هذه الدروس ستلقى إقبالاً عظيماً وستمكن الطلبة الفرنسيين من التعمق في معرفة البلدان الشرقية

وفاة الأستاذ محمد لبيب البتانوني

فقدت مصر في الأسبوع المنصرم عالماً من خيرة علمائها ومؤلفاً بحاثة من كبار المؤلفين فيها وهو المغفور له الأستاذ محمد لبيب البتانوني بك

ولقد عرف عن الفقيد خلال حياته الحافلة بجلائل الأعمال شغفه بالعلم والأدب وتوفره على البحوث التاريخية التي كانت تزدان بها صور الصحف والمجلات لأكثر من ثلاثين سنة خلت. ذلك إلى ما ألفه من كتب الرحلات التي دل فيها على طول باعه في الأدب وسعة علمه بالتاريخ وقدرته على وصف عادات الأمم وطبائعها

كتاب للتلاميذ الإنجليز عن نهر النيل

الإنجليز هم أبرع الأمم في ابتكار الأساليب الفعالة في تربية أبنائهم. والتلميذ الإنجليزي لا

يعيش في إنجلترا فقط، بل هو يعيش بخياله في العالم أجمع، وهذا الخيال المغناطيسي هو من صنع الأساتذة البارعين الذين يتخذون من خيال الصغير طريقاً إلى عقله. والكتاب الذي يصدر للصغار في إنجلترا عن النيل ليس كهذه الكتب الجافة المتحجرة التي تصرف للتلاميذ المصريين بل هو أشبه شيء بمجلة راقية تفنن في تنسيقها المصور والرسام والجغرافي والمؤرخ ورجل التربية ورجل المطبعة فجاء آية في الابتكار وسلامة الذوق. . . فهذا هو النيل في عهده الفراعنة، وهذى هي الأهرام والبرابي والمعابد والمسلات والعواصم المصرية القديمة. . ثم هذا هو النيل في عصر البطالسة وفي العصر الروماني وفي العصر العربي. . . ثم ذاك هو النيل في عصر محمد علي وإسماعيل وفي العصر الحديث، وهذه هي خزاناته وسدوده والمدن القارة على حفافيه. . . الخ وذلك كله على لوحات تبلغ إحداها ستة أقدام طولاً مزدانة بالألوان الطبيعية الجميلة الزاهية التي تنطبع بمجرد النظرة في خيال الصغير فلا يحتاج إلى قراءات طويلة مملة

وتصدر في مصر مجلة للتلاميذ لا بأس بها إذا عنيت قليلا بما هو مصري وقللت من هذا السخف الذي تدأب في ترجمته عن الكتب الأوربية المقررة وغير المقررة. فهل فكر القائمون عليها - وهم من خيرة رجال التربية المصريين - في إصدار أعداد ممتازة بالألوان على نسق كتاب النيل الذي سيصدر في إنجلترا للأطفال الإنجليز؟ عندنا الزراعة المصرية والصناعة المصرية وطرق المواصلات والموانئ والحدائق المصرية الناشئة ودور الكتب ومصر القديمة. . . الخ. فماذا يمنع رجال المجلة من تخصيص أعداد ممتازة تتناول هذه الموضوعات!!

لقب شيانج كاي شك وأعماله

أشتهر هذا العصر بطائفة من الزعماء كان لهم أثر بعيد المدى في توجيه شعوبهم توجيهاً سيذكره التاريخ بما يستحقه من فخر ومجد. . . والذي يلفت النظر أن كلا من أولئك الزعماء أشتهر بلقب عرفه به العالم أجمع. فهتلر هو الفوهرر، وموسوليني هو الدوتشي، ومصطفى كمال هو الأتاتورك، وغاندي هو المهاتما، وكان يطلق لقب النمر على كليمنصو. . . أما القائد الصيني شيانج كاي شك فلقبه جنرالسيمو أو القائد العام. وتاريخ حياة شيانج هو قصة البطولة التي يفخر بها كل شرقي والتي ينبغي أن تكون مثالاً لكل من

ينشد المجد لبلاده. وقد طلب إليه مرة أن يلخص هذا التاريخ فذكر أنه ولد في شيكيانج وأنه تربى تربيته العسكرية في اليابان وأنه تتلمذ للدكتور صن - يات - سن - ثم سكت!! وقد أشترك في الثورة على الإمبراطورية وبناء الجمهورية، فلما مات بعد الدكتور صن يات سن أصبح هو زعيم الصين وجامع كلمتها بعد انتصاره حربياً على خصومه. ويعرف جيشه باسم (هوامبو) وهو أقوى فرق الصين وأكثرها نظاماً. ولو كانت الجيوش الصينية على نظام الهوامبو لما استطاعت اليابان اجتياح منشوريا ولا إذلال الصين. وقد تعلق الصينيون بشيانج تعلقاً عجيباً أظهره في أعين العالم بمظهر

الدكتاتور مع أنه أشد الناس مقتاً للاستبداد، ومقته للاستبداد هو الذي أخجل القائد سيولينغ فأطلق سراحه بعد أن أعتقله ومضى هو فسلم نفسه له بعد ذلك
ولا تنقص الهزائم المتوالية في ميدان الصين من قدر شيانج، لأن الجيش الصيني كما وصفه أحد قواده لحم ودم أمام قوى ميكانيكية فتاكة
هذا وقد صدر بالإنجليزية كتاب قيم عن تاريخ حياة هذا البطل لمؤلفه العلامة الأستاذ هولنجتن ـ ك. تونج
الشنتو
ما كادت صيحة النوردبين تهدأ في ألمانيا بعد طرد اليهود منها حتى ارتفعت في اليابان صيحة تشبهها في النعرة والتغني بالمحتد وتأليه الأرومة والتبرؤ من الانتساب إلى الصينيين في العنصر، والادعاء بأنهم (أي اليابانيين) سلالة مستقلة لا عن الصين فقط بل عن جميع البشر، لأنها منحدرة مباشرة من الآلهة. . .! وهذه دعوى عريضة جديدة، كان الناس يضحكون من قدماء المصريين واليونانيين حين ادعوها. . وقد اتسعت آفاق الشنتويزم فشملت ديانة اليابانيين ووطنيتهم وفدائيتهم ومذاهبهم السياسية والاجتماعية، وتغلغلت في جميع مرافقهم الحيوية. . من عنابر المصانع. . . إلى رمال الصحراء التي يقرءون في صفحتها الغيب. . . ومهما حاول اليابانيون التبرؤ من منشئهم فالثابت هو أنهم مزيج من المغول والآينو وأقوام البحار الجنوبية. كما أن الألمان ليسوا من سلالة نوردية خالصة، وكما أن اليهود ليسوا شعب الله المختار
الكتب
مفرق الطريق
مسرحية في فصل واحد للدكتور بشر فارس
نقد بقلم الأستاذ زكي طليمات
مفتش شئون التمثيل بوزارة المعارف
أصدر الشاعر الأديب الدكتور بشر فارس كتابه (مفرق الطريق) وهي مسرحية طريفة قدم لها بتوطئة بليغة في المذهب الرمزي
ويقيني أن المؤلف، وقد أحس غموض المنهج الذي انتهجه في كتابة مسرحيته، كما عرف جدته على الناطقين بالضاد، لم يأل جهداً في الشرح والتبيين مفصحاً عن ماهية (الرمزية) في عالم الأدب وفي عالم الفن، كاشفاً عنها سجف الغموض والإبهام، وغايته من ذلك تيسير الفهم على القارئ إذا ما طالعه الإبهام وحيرة انقلاب المعاني، وقد طاح به الشغف بين سطور الرواية، فجاءت التوطئة بحثاً شائقاً فريداً في بابه باللسان العربي، خصباً في معارفه، محكماً في تعابيره، بليغاً في الدعاية لهذا المذهب الأدبي الطريف
ونبادر بتسجيل ما وضعه المؤلف في توطئة كتابه وصفاً للرمزية بأنها (استنباط ما وراء الحس من المحسوس، وإبراز المضمر وتدوين اللوامع والبواده بإهمال العالم الحقيقي الذي نضطرب فيه، تدهشنا ظواهره وتردعنا بواطنه وتعجزنا مبادئه). إذ أن في هذا الوصف ما يكشف للقارئ عن الكثير مما يتضمنه هذا المقال. وبالقياس إلى هذا الوصف أو التعريف نصدر رأياً في المسرحية ومكانها من الرمزية في هذا المقال، على أن نعالج مذهب الرمزية في بحث آخر موعدنا به العدد القادم:
الحادثة في هذه الرواية ضئيلة ليس فيها شيء من المشوقات أو المفاجآت، ولو وجدت لما أعرناها كبير انتباه، ولما جعلنا منها قياساً للحكم على طرافة الرواية، إذ الحادثة في هذا النوع من الروايات وسيلة لا غاية نأتي بملخصها في سطور عابرة:
تتحدث مع (الأبله) الذي يومئ ولا يجيب، ثم يأتي (هو) شاب ظريف فيتبادل (سميرة) مع (سميرة) الحديث، حديث الماضي والحاضر، وترتفع أصوات ناي من مكان لا يرى، فهي
تارة نائحة وأخرى شجية ليسدل الستار بعد ذلك وقد غابت سميرة في طريق، وأنحدر (الأبله) و (هو) في طريق آخر!
أما إطار الرواية، فقد أتى المؤلف على وصفه في البيتين إذ قال:
في مفرق الطريق أي حيث ينفرج يميناً مناراً وصاعداً، ويساراً مظلماً ومنحدراً، يلتقي) العقل والشعور فيتجاذبان المرء، ولكل منهما خطة من القوة والغلبة، وأما الجانب المظلم فحيث يقهر الشعور العقل فينحدر المرء وقد عمى رشده إلى غاية تحترق

عندها النفس، أما الجانب المنار فحيث يصرع العقل الشعور فيسلك المرء في صعود (مثلوجة يحيا عندها بنجوة من الاحتراق
وهو وصف معبر للمعالم المعنوية التي تجري فيها حادثة الرواية وهي معالم أقامها الرمز عن طريق الإضاءة في صعود الحظ أو هبوطه؛ وبهذا برز للرمزية في الرواية طابع مرئي من حيث المبنى، وهو سبيل التعبير في الرواية عن المعنى
وما كان للمؤلف، لولا حرصه على تيسير الفهم على القارئ للرواية، أن يورد بعد ذلك في تبيينه أوصاف شخصيات الرواية، إذ أن في حوارها المقتضب والمضطرب، والذي يشير ولا يبين، ما يكفي للإبانة عن أنها شخصيات تتحرك وتتكلم في إشراق روحاني وبإيماء من العقل الباطن، وتبدر منها اللوامع النفسية متجردة من السجف والأقنعة المحور الأساسي في الرواية، هي الرمز الحي للإنسان الذي ينتهبه الماضي (سميرة) بحلاوته والماضي بمرارته، وفيها يتجلى الصراع الذي لا ينقطع عن القيام بين العقل والعاطفة، وهو صراع لم يكتب لأحدنا أن يكون في منجاة منه، وإنما تختلف مواقفنا منه باختلاف انفعالات وملابسات الأحوال.
أما باعث الخامد ومثير الماضي فهو الشخصية التي أطلق عليها المؤلف أسم (هو)، فمنه ينطلق التيار فتختلج (سميرة) مترنحة بين العقل والعاطفة، وبقطب (الأبله) وجهه وقد ساورته المخاوف
وما (الأبله)، وهو الشخصية الثالثة في الرواية إلا رمز لمسكة العقل التي نجدها بعد أن يعيينا الضرب في مفاوز العاطفة الضالة فنتعلق بها لنستريح ونريح
وتهب أنفاس المؤلف على هذه الشخصيات نافحة فيها حياة غزيرة متدفقة فإذا بها تتحرك
في رمز وتتكلم في رمز وسط الإطار الذي ابتدعه المؤلف في حذق، فجاء الإطار والعقل رمزاً للنور والطريق الصاعدة، والعاطفة رمزاً للظلمة والطريق المنحدرة. وهكذا يبدو الرمز كاملاً من حيث المبنى والمعنى. وتستقر الرواية بذلك في صميم الرمزية، وقد تسامت على الرمزية السطحية المقصورة على الرمز بشيء إلى شيء آخر دون إظهار المبهم والمغلق من خلجات النفس ولوامعها
وأسلوب (مفرق الطريق) فصيح وبليغ، بل إنه لمتطلع إلى الشأو البعيد، الذي قد يراه بعض القراء تفاصحاً. وربما يؤاخذ هذا الأسلوب من جانبهم بأنه أسلوب مكبوت النغم مقبوض الإيقاع إذا قورن بالأسلوب الذي كتب به شعراء الرمزية، إلا أن واجب الإنصاف يقضي بأن نشير إلى أن الشعر شيء والنثر في مسرحية كهذه شيء آخر. هذا مع العلم بأن الشاعرية كامنة في تضاعيف حوار هذه المسرحية
وبشر فارس كتب مسرحيته هذه متثبتاً من صيغ الرمزية وفقيها في ضروبها. . . ولا أدري، لو طالت مشاهد هذه الرواية أكان النفس يواتيه بمثل ما واتاه الآن. فلا تلمح العين طغيان الصناعة الحاذقة على الإلهام المحض الذي يورد الشيء وهو لا يدري أسبابه وبواعثه!!
وجملة القول أن (مفرق الطريق) حدث جديد في تأليف المسرحية المصرية، جدير بالعناية من الكتاب ومن رجال المسرح، وحري بالثناء وكل ما أرجوه أن تطالع هذه المسرحية النور يوماً على المسرح، وأن تجد المخرج المسرحي الذي يحسن فهمها ليحسن تفهيمها للجمهور.
زكي طليمات
المسرح والسينما
حظ العلماء والأدباء في السينما
اشتهرت السينما في بادئ الأمر بوصف أنها وسيلة للتسلية حظ الجماهير منها أكبر من حظ الخاصة والمثقفين. فكانت أكثر الأفلام رواجاً وازدياداً تلك التي تدور حول حياة رعاة الأبقار والأفلام البهلوانية والأفلام المسلسلة ذوات الموضوعات الغثة التافهة. فلما ارتقت الصناعة ارتقت معها الأفكار ولكن هذا التطور كان يسير تدرجاً وغايته الأولى وهي توفير (المتعة) مع الارتقاء إلى أفق أوسع.
وقد بدأ أولاً حظ الملوك ذوي العروش والتيجان والقصور، ففي هذا الوسط متعة وبهرج وجاه يلذ الأعين ويخطف الأبصار. ومن الملوك الذين أخرجت حياتهم وأعمالهم على الشاشة قيصر روسيا، وهنري الثامن، وكاترين الروسية، وكليوباترا، وفكتوريا

رجينا، وماري الاسكتلندية، وكرستينا السويدية. ومن هؤلاء من أخرج عدة مرات في أفلام مختلفة في عهدي السينما الصامتة والناطقة
وبجانب أفلام أصحاب التيجان تلتقي أفلام الساسة والقادة فهؤلاء يثيرون الحروب ويتحكمون في مصائر الشعوب ويغيرون معالم الأمم، ولكل واحد منهم ناحية خاصة تثير في المرء الشعور وتدفعه إلى الاستطلاع، ومن القادة الذين أخرجت حياتهم على الشاشة نابليون، ونلسن، وغاريبالدي، ولافابيت، وبانشوفيلا المكسيكي. ومن الساسة دزرائيلي، وريشيليو، وبارنل الايرلندي ومترنيخ النمسوي، وبسمارك، وأندرو جاكسون الأمريكي، ولنكولن
وقطعت السينما خطوة أخرى فشملت حياة الفنانين وسيرهم وهذه لا تخلو كذلك من المآسي والغراميات والمؤثرات التي يطرب لها الجمهور. ومن هؤلاء الفنانين الذين شاهدنا عنهم أفلاماً: موزار، وشوبيرت، ورجراند المصور، وفاجنر، وستراوس، ودافيد جارك الممثل. وهناك مشروعات أخرى لا خراج حياة بتهوفن، وليزت، ونيجفسكي، وساره برنار
وكان العلماء والأدباء حتى هذه المرحلة أقل هؤلاء الناس حظاً من حيث الاهتمام بأشخاصهم في عالم السينما وإن كانت أعمالهم هي المادة التي تفخر وتحيا بها السينما؛ ويرجع عزوف رجال السينما عن إخراج سير العلماء والأدباء إلى أن حياتهم في الغالب
حياة جافة تخلو من النعومة ومن النساء ومن الحوادث التي تثير في الناس غرائز الاستمتاع والبهجة؛ ولكن السينما كما قلنا في تدرج وفي اطراد، فلا بد لها أن تبلغ هذا الأمر فتظهره في الثوب الحقيقي به وتبرز النواحي الإنسانية فيه فتعوض بها النواحي السفلى التي تثيرها حادثة غرام أو معركة أو حريق
وقد نجحت المحاولة ووفق أصحابها فرأينا على الشاشة أول ما رأينا فولتير ثم باستير وزولا يلهبون الأكف تصفيقاً ويملئون السمع والقلب والبصر حكمة وموعظة وفخراً
ومن المشروعات التي تشغل الأذهان الآن في عالم السينما إخراج فلمين عن تولستوي وألفريد نوبل العالم الكيميائي مخترع الديناميت وصاحب الجوائز التي باسمه لخدمة العلم والأدب والسلم
ولكن الخطوة الأكثر تقدماً نحو الرقي هي الاشتغال بإعداد فلم عن مذهب العلامة سيجموند فرويد في التحليل النفسي؛ وصاحب الفكرة هو الممثل الألماني كونراد فاليت الذي يعتمد في إخراج هذا الفلم على المخرج الكبير الكسندر كوردا صاحب شركة أفلام لندن
وهكذا تتطور السينما من حسن إلى أحسن فتتوطد مكانتها كوسيلة ثقافية فضلاً عن وظيفتها كوسيلة استمتاع
محمد علي ناصف

جماعة أنصار التمثيل والسينما

في السابع عشر من هذا الشهر تحتفل جماعة أنصار التمثيل والسينما بيوبيلها الفضي في حفلة تقام بدار الأوبرا الملكية تفضل برعايتها حضرة صاحب الجلالة الملك ووعد بتشريفها وقيام جماعة أنصار السينما من الأسباب الحقيقية التي تحمل الإنسان على الاعتقاد بوجود مسرح مصري، لجدها المتواصل وعملها المنتج؛ وقد أخرجت عدة روايات ناجحة ما تزال تمثل للآن على مختلف المسارح. وعلى الرغم من كونها جماعة هواة فقد أفاد المسرح على يديها ما لم يفده من أكثر المحترفين جماعات وأفراداً.
وكثير من الفنانين الذين تعتمد عليهم مسارحنا قد بدءوا طريقهم بين هذه الجماعة ونصيب السينما من عملها لا يقل عن نصيب المسرح فقد أخرج على أيدي أعضائها عدة
أفلام من أنجح أفلامنا المصرية وقد بدأ حماسها يشتد ونشاطها يزداد أخيرا لما تشرفت به من الرعاية الملكية السامية في أكثر من مناسبة، تلك الرعاية التي تشمل الآن العلوم والفنون وتبشر لها بعهد زاهر سعيد في العصر الفاروقي المجيد
والرسالة تتقدم بهذه المناسبة بالتهنئة إلى جماعة أنصار التمثيل والسينما راجية لها اطراد التقدم والنجاح

العدد 250 - بتاريخ: 18 - 04 - 1938

شركة تنشيف الريق!.
للأستاذ عبد العزيز البشري
أكثرت الصحف في هذه الأيام من مقابلات لحضرة صاحب المعالي وزير الأشغال، خاصة بتخفيض ثمن المياه في القاهرة، كما تردد خبر اجتماعات اللجنة المؤلفة لهذا الغرض من قديم الزمان، وسالف العصر والأوان!. ولقد زعم لي زاعم من المؤرخين أصحاب الإحصاء أن اجتماعها الأخير كان الاجتماع الـ 411، 032، 624، 853، 471!.
فترى هل آن أن ينجح المسعى، وتحط الشركة من أثمان الماء، فقد مضى على سكان القاهرة ستون عاماً، وستون عاماً غير قليل، وهم يغصون بماء النيل. وكأن الشاعر كان ينظر بلحظ الغيب إلى القاهريّين وما يعانون من شركة المياه حين قال:
نفرّ إلى الشراب إذا غصصنا ... فيكف إذا غصصنا بالشراب؟
ترى هل ينجح السعي هذه المرة ويحق لساكن القاهرة أن يتمثل بقول الشاعر:
فساغ لي الشراب وكنت قبلاً ... أكاد أغص بالماء الفرات؟
يا قومنا: أقسم لكم بالله تعالى، غير حانث ولا آثم، أن الشركة ليست تأتينا بالماء من افيان، ولا من إكس ليبان، ولا من فيشي ولا من بلاد اليابان حتى يُلتمس لها العذر، بنفقات النقل في البر والبحر، وأجور الحزم واللف والتعبئة والصف، والتأمين خوف الغرق والحريق، وما عسى أن يدركه من العطب في أثناء الطريق. وناهيكم بحساب ما قد يكسد في الأسواق منه، وما قد يبور في المتاجر بانصراف (الهواة) عنه. ومن يدري فلربما ظهرت (ماركة) ماء جديدة. (موديل سنة 1938 أو 1939)، فيها من المزايا ما ليس في هذا الماء، في ريّ العطاش وبلّ صدى الظّماء!
ليست تجيء بشيء من هذا حتى تغلو هذا الغلوّ في الأسعار، توقّياً للنفقات وتوقياً للخسار. إنما تدفع إلينا من نيلنا الذي يشق مدينتنا، والذي يجرى بين أيدينا، والذي طالما طغى وزاد، حتى اغرق البلاد، واهلك العباد، واتى على اليابسة والخضراء، وألقى بربان الحذور إلى متن العراء. بل أن من يرى متدفقه في دمياط أو في رشيد، ليحسب انه ماض لري العالم القديم والعالم الجديد. وتراه يغذوا في شمالنا وجنوبنا ألف ترعة، فإذا جاز بنا ضيقت الشركة ذرعه، وباعتنا ماءه (بالشربة) والجرعة! حتى أصبحنا، ونحن نغدو على حافتيه
ونروح، نتناشد قول الشاعر:
يا صرحة الماء قد سُدَّت موارده ... أما إليك طريق غير مسدود؟
حقاً يا سيدتي الشركة، لقد سامتنا (عداواتك) رهقاً وعذابا، جرّعتنا من نيلنا علقماً وصابا، وكان من قبل سكراً مذابا، وكان شهداً وجُلاَّبا، لقد ساغ ورداً وحلا شرابا!.
حقا، يا سيدتي الشركة، إنك لتروّقين الماء ولكنك تعكرين النفوس، وتملئين الآنية ولكنك تخلين الجيوب حتى من الفلوس!
يا سبحان الله، يا شركة! تعطيننا الماء وتقتضين الذهب، ولو كان مالنا نيلا لجف يا شركةُ من كثرة النزع ونضب!
ارحمينا، يا شركة، وأعملي معنا بالمثل الذي قالته العامة من قديم الزمان: (المية ما تفوتشي على عطشان)!!!
وبعد، فعندي، يا سيدتي الشركة، أكثر من هذا، ولكن:
في فمي ماء وهل ينطق من في فيه ماء
ونرجع إلى سياقة الحديث فنقول: أفآن لوزارة الأشغال أن تنجز الوعود، ولشركة المياه أن تعدل عن دلّها المعهود، فتترفق في ثمن الماء، وتخفف عن كواهلنا ما يهددّها من الأعباء، فقد اعترانا الداء من ناحية الدواء. ولله در شاعر الغبراء:
من غصّ داوى بشرب الماء غصته ... فكيف حال الذي قد غصّ بالماء؟
فإن فعلت وإلا فقد طابت الهجرة إلى البراري والقفار، لنتعوض عن ماء النيل ماء الآبار والأمطار. وإني لأخشى أن تلاحقنا الشركة هناك، وتبسط علينا سوط (الاشتراك)، بعد أن تحوز ماء الغمام في مواسير، وتختم بالعداد على كل بير. فالشركة وراءنا ولو تعلقنا بالسحاب، أو تدسَّسنا في التراب، وأمرنا إلى من له المرجع والمآب!
أرجو أن تنصفينا، يا شركة المياه، وتفرّجي عنا من هذا الضيق، وإلا اضطررنا إلى أن

ندعوك (شركة تنشيف الريق). . . والسلام
عبد العزيز البشرى
قضية اللغة العربية
للأستاذ أحمد خاكي
يرى الكاتب أن اللغة ينبغي أن تكون لغة معان قبل أن تكون لغة ألفاظ. وأن تعليمها ينبغي أن يرمي إلى ثلاثة أغراض: أولها التدريب العقلي، وثانيها الخبرة الحسية أو الجمالية، وثالثها الوجهة النفعية. وهو يبحث في بعض وسائل تعليم اللغة العربية وينقدها في هذا المقال
أصول نفسية لتعليم اللغات - 1
إذا نحن عالجنا الوسائل التي تكفل إدراك الغايات من تعلم اللغة العربية، وجدنا أنها شعبة من الخطط العامة التي ترسمها المربون وعلماء النفس في العصر الحديث. ويسيطر على التربية في هذا العصر مدرستان متكافئتان من مدارس الفكر: أولاهما يتزعمها فرويد، وثانيتهما كان زعيمها بافلوف
ويذهب الأولون إلى أن النفس جماع الغرائز والميول الفطرية، وهذه تأتلف في أحيان وتختلف في أحيان أخرى. ولقد اتجهت التربية في هذا العصر وجهة من يحاول أن ينشئ تلك الميول سواء أكان ذلك بالاستعلاء بها أم بالتهدي إليها. وقامت فلسفة التربية على أساس من تلك الغرائز المتوافقة المتناكرة، بل لقد كان فتحاً جديداً في التربية أن اصبح الطفل موضع العناية عند المربين. ولعل روسو واضرابه من فلاسفة القرن الثامن عشر كانوا أول من نادى بتربية الطفل كطفل، وأول من هيأ السبيل للعلماء المحدثين. على أن تلك المسألة قد اختلجت بين الفلسفة والأدب خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، حتى قام فرويد يؤصل أصولها النفسية في السنوات القليلة الماضية. وهنا ظهرت في التربية مبادئ الحرية التي تحاول أن تساير ميول الطفل وغرائزه، وذهب المربون يصطنعون وسائل التعليم على هدى تلك المبادئ الحديثة، فأفلحوا في اصطناع الكثير منها فيما يتصل بكل فروع المعرفة ومنها اللغات. والطفل عند هؤلاء عامل كبير في تربية نفسه، فليس هو جهازاً مستقبلا، وليس موقفه سلبياً محضاً، وليس ينعم بتلك القابلية التي تستوعب أي شئ وكل شئ من غير أن يكون له من نفسه سلطان على ما يعلم وما يعمل، وإنما نفسية الطفل عندهم فعالة مؤثرة، فهو
تتنازعه الهواجس والعواطف والميول. وعلينا نحن أن نبسط له من العلوم ما يتروّاه وينعم به. أما وسائلنا فخيرها ما ساير ميول الطفل حتى يدفعه الشوق إلى الاستزادة من ألوان المعرفة، وحتى يصبح تعليمه داخلياً فعالاً لا خارجياً لا يكاد يتدسى إلى الصميم
وإلى جانب تلك المدرسة النفسية الغامرة ظهرت مدرسة أخرى تؤمن بالغرائز والميول أيضاً، لكنها تؤمن فوق كل ذلك بما يسمونه الأفعال المنعكسة وتلك مدرسة العالم النفسي بافلوف؛ فلا يذهب هؤلاء في تقدير الغرائز مثل ما يذهب أصحاب فرويد ولا يمعنون في تقديرها مثلما يمعن الأولون، وإنما يضعونها جنباً إلى جنب مع الأفعال المنعكسة التي يستطيع أن يكسبها الطفل، ويؤمن هؤلاء بأن الغرائز والميول قابلة للتعديل عند الإنسان وأنه قد يكسب نوعاً خاصاً من المهارة إذا هو وضع تحت مؤثر دائم متكرر. فالتقليد والتكرار والمراجعة كل أولئك جديرة بأن ترشد المتعلم إلى إحسان المهارات وهي جديرة بأن تكون أساساً ثابتاً لعلوم كسب المهارة
ومدرسة بافلوف ومدرسة فرويد كلتاهما على حق. وهما في ذاتهما تمثلان وجهتي نظر مختلفتين لكنهما متكاملتان. أما الأولى فهي تمثل الحرية في التربية، وأما الثانية فهي تمثل النظام. الأولى تعترف بملكات الطفل وقواته، والثانية تحاول أن تشيع نظاماً خاصاً يأتلف تلك الملكات، والأولى تسمح للطفل بأن ينمي كل ما وهب من مدارك، والثانية تربط تلك المدارك بعضها ببعض حتى تصبح موثوقة الأجزاء مرتبطة الأطراف والآراء النفسية التي يذهب إليها الفريقان تخلق دستوراً بأكمله نجتلي فيه أحسن الوسائل لتعليم اللغات، فاللغة من ناحية ينبغي لها أن ترتبط بالميول والغرائز التي تجتمع لدى الطفل. وينبغي أن تكون مادتها بحيث تهز مشاعره وتحرك أعطاف قلبه، وهي من ناحية أخرى إحدى المهارات التي يكسبها الأطفال كأي فعل منعكس آخر،

ولن يتأتى ذلك حتى يكون إحسانها نتيجة لمؤثر أو باعث شديد دائم متكرر. من هذين الوجهين ينبغي لنا أن نثبت الوسائل التي تكفل إدراك الغايات من تعلم العربية. وسنرى في نقد وسائل التعليم الحاضرة أنها بعيدة كل البعد عن ميول التلاميذ من جهة، وإنها لا تقوم على بواعث شديدة متكررة من جهة أخرى، وأن تعليمها عندنا لن يستقيم حتى نداول بين هذين الوجهين من وجوه التربية الحديثة

طرق التعليم - 2

تتصل طرق تعليم اللغات إذن بميول الإنسان وغرائزه. وقد بحث المربون اقرب تلك الميول وأكثرها مواتاة فوجدوا أن اللعب يجلوها، واتخذه كثير من المربين وسيلة من وسائل التعليم، واللعب بمعناه النفسي فيض من النشاط الذي يغمر نفس الطفل، وهو اشد أثراً فيها من العمل. فالعمل يفرض فرضاً لكن اللعب بادرة من وحي النفس، وللعمل غرض قد يكون نفعياً يفسد النشاط ويخبث النفس، ولكن اللعب لا يعرف لنفسه حدوداً، ولا ينقلب شراً إلا إذا اصبح عبثاً غير محمود. وفي اللعب تتنظر قوى الأطفال بأكملها وتتوافى مداركهم، واللعب في المدرسة الحديثة وسيلة للعمل فإذا أفلح معلمو اللغات في اتجاه وسيلة لتعليمها حققوا ما ذهب إليه علماء النفس وربطوا اللغة بالميول الفطرية ربطاً محكما لا انفصام له

ولعل القصة أول أنواع اللعب التي نستعين بها في تعليم اللغة. وعند الطفل ميل طبيعي للتمثيل. ولسنا نقصد بالتمثيل ذلك النوع المسرحي الذي يحسنه الممثلون، وإنما نقصد ما يميل إليه الأطفال من إحلال أنفسهم محل بطل القصة أو بطلتها. وأنت إذا بحثت عقيدة الطفل - بل إذا تعمقت عقائدنا الأدبية - وجدت أنها خليط من الحقيقة والخيال. ففي القصة يتمثل القارئ أو السامع نفسه في الشخصية الروائية التي يميل إليها. فالبطل ينقذ فتاة، والبطل يقود أمة نحو المجد، والبطل كثير الحيطة أيد شجاع، وخلال القصة تعلو عقيدة الطفل حتى ليحسب الخيال واقعاً، وحتى ليتداخله الزهو فيخال نفسه بطلا. ذلك عندنا نوع اللعب الذي يدفع بالناشئين إلى القراءة، فهو يستغرق تفكيرهم، وهو يستهلك جهدهم. وهو بعد ذلك دعامة لا تتزايل من دعامات اللغة

ولسنا ندري من الملوم على حالة الكساد التي قضت على أدب الطفولة عندنا، لكنا نرى عند الطفل الإنجليزي آلافاً من الكتب الجميلة التي تزخر بالصور والرسوم. والطفل الإنجليزي يمتع في صباه بما يرى وبما يقرأ، وهو يندفع وراء القراءة بوحي نفسه، لأن كل هذه الكتب تصادف هواه، لكن الطفل المصري محدود الاختيار. فالمدرسة لا تعترف بما يقرأه في الخارج مهما بلغت عنايته بالقراءة، وهو لا يجد إلا قليلاً من القصص المترجم إذا شاء أن يقرأ، وإنه ليصرفه عن القراءة تبرم بعض المدرسين بالقصة ووصفها بأنها

نوع من أنواع العبث. هذا على أنه لا يجد (مكتبة) من القصص، لأن وزارة المعارف هي التي تحكم مصائر الأمور في التعليم، ولأن وزارة المعارف لم تتضمن مركزيتها الاعتراف بالقصة أداة للتعليم في العربية، ولو أنها اعترفت بها أداة للتعليم في الإنجليزية منذ زمن بعيد

عالج المستر مان خبير التربية هذه المشكلة في تقريره عندما تحدث عن الفرق بين لغة الحديث ولغة الكتابة في مصر. وعنده أنه لن ترقي لغة الكتابة في مصر ولن ينقص الفرق بينها وبين لغة الحديث حتى نخلق أدباً قائماً للأطفال يتضمن مادة جذابة توافق عقل الطفل. وينبغي لكتب الطفولة في رأيه (أن تحتوي تلك القصص ذات اللون الخاص التي تتمثل في أدب كل شعب من الشعوب). والحق أن العربية ذات أدب شعبي تمثله كتب كألف ليلة وليلة. لكن ألف ليلة وليلة طبع بالإنجليزية مئات المرات في أشكال وأحجام جميلة مختلفة. وقد بلغ من عنايتنا الضئيلة بمثل هذا الكتاب أننا بدأنا الآن فقط بترجمة ترجماته الإنجليزية إلى العربية. ومثل هذا يقال في القصص الأخرى التي انتقلت في عصر النهضة من الشرق إلى الغرب

ولقد يطول الحديث بنا إذا نحن استرسلنا في الكتابة عن تقصيرنا في خلق أدب الطفولة. وحسبنا أن نقول أن وزارة المعارف هي الهيئة الوحيدة التي تستطيع أن تخلق مثل هذا الأدب. وما دامت المركزية أصلاً من أصول إدارة التعليم عندنا فوزارة المعارف هي التي تستطيع أن تنتخب مدرسين وكاتبين تحبسهم على عمل مثل هذا.

ولا غناء عندنا في جهود فردية محمودة يقوم بها الفينة بعد الفينة أفراد متحمسون والتمثيل المسرحي نفسه وسيلة تكفل حرص الأطفال على تعلم اللغة. ولسنا نقصد بذلك أن يكون له - كما له اليوم - إدارة خاصة مركزية. ولا أن يكون قاصراً على بضعة أفراد من التلاميذ يمثلون فصلاً أو فصلين في العام لأن ذلك قد ساير المدارس الثانوية عندنا منذ نشأتها إلا أنه لم يفد اللغة إلا قليلاً. وإنما نقصد بالتمثيل المسرحي أن يكون لكل مدرس اتجاه خاص يحبب إلى تلاميذه ممارسة التمثيل. فإذا هو أمدهم بالقصص المسرحية العربية وعاونهم على تمثيلها من غير مسرح ولا ستائر كان في ذلك إدراك للغرض من تعلم اللغة، وكان فيه رياضة جمالية سامية. وخيال الطفولة ضمين بأن ينشئ مسرحاً خيالياً، وكفيل بأن يسير بالقصة إلى حد كبير من الإتقان

والتمثيل راسخ كوسيلة من وسائل تعليم اللغة لأنه يقوم على التقليد؛ والتقليد ميل غريزي هو الأساس الأول لدروس كسب المهارة. فإذا اتخذنا التمثيل ذريعة لتعليم اللغة أوفينا على الغاية مما نرمي إليه من تعليم العربية؛ وأدركنا في نفس الوقت غرضنا الحسي أو الجمالي الذي أسلفنا الحديث عنه

ومثل ذلك فكرة الموسيقى والأناشيد وإلقاء الشعر والخطب عند الأطفال. والذي قلناه عن التمثيل ينطبق جميعه على كل هؤلاء؛ وليس يكفينا في هذه المرة أيضاً أن تكون هناك إدارة مركزية للموسيقى تلقن عدداً من الأطفال بضعة أناشيد كل عام، بل الذي يعنينا أن تكون الأناشيد والموسيقى من بين الكفايات التي يحسنها المدرسون حتى يوفقوا بينها وبين دروس العربية، وحتى يتخذوها مُعيناً على إحسان التوقيع وإتقان الخطابة، والسيطرة على مخارج الحروف والكلام. دع عنك ما تراه الطفولة في كل ذلك من الترفيه، وما تجده من الدواعي إلى الاستزادة من معين اللغة

فإذا درج الطفل إلى الصبا بعد ذلك كان في الأدب مجال واسع لتحبيب اللغة إليه. والأدب الذي ندعو إلى دراسته هو الأدب الذي لا يقف جامداً عند سير الشعراء والادباء، ولا يتغير بعصور السياسة، ولا تتقطع بصاحبه الأسباب دون تذوق الجمال. والناشئ الذي قضى أيام الطفولة في جو خيالي من القصص والغناء والتمثيل خليق به أن يصل ذلك بالأدب الموروث، وأن يتأتى لأدب الرجال بما يزخر من شعر سام وبما يحتوي من نثر علمي منتظم

ينبغي أن يكون من أغراض الأدب أن نحيط المتعلم علماً بما ازّينت به اللغة من جمال، وأن نروض الفتيان على أسرار القول المتسق. والعبث بعينه أن نحاول تحفيظهم أين ومتى مات الأدباء والمتفننون. والعبث بعينه أن نفرض عليهم استذكار سير الأدباء وما اتصف به شعر كل منهم من جزالة اللفظ، وما يترقرق في كلامهم من رقة المعنى ولطف الروح، وألا يكون ذلك إلا كلاماً يرددونه كالببغاوات ابتغاء النجاح في الامتحان. بل الخير كل الخير أن ندفع بهم في غمار المأثور من الأدب نعلمهم الأصول ونزكيهم في نفس الشعر ونفس القصص ونفس المقامات حتى يخلق كل واحد منهم لنفسه مزاجاً أدبياً أو فنياً خاصاً فيما يتصل بشؤون اللغة والأدب

ولعلنا نستطيع بعد الذي أسلفنا من وصف الاتجاه الحديث في تعليم اللغات أن نلمس موطن العلة في أساليبنا الحاضرة. وبين الذي فصلناه وبين الذي يقع الآن اختلاف عريض ليس من سبيل إلى تلافيه حتى تتكثر الجهود بعد الجهود، وحتى تقوم مدرسة من مدارس الفكر لتخلق جواً آخر غير الذي تعيش فيه اللغة. وقد تحدرت في أصول التعليم عندنا تقاليد ما زالت تنكر على الطفل حياته الوجدانية الخاصة، فلم يقم إلا القليل يبعثون القصص التي توائم الطفولة. ولم يدرك أحد بعدُ العلاقة بين اللعب الحر وبين اللغة، ولا نحسب أننا في حالة نتوقع فيها أن نقيم العلاقة بين اللغة وبين الموسيقى والغناء، فإن هذا أمل غير قريب التحقيق

على أن الذي نراه قريب التحقيق هو شئ واحد ينتظم كل ما ذكرنا. فإن المعلمين يخلطون دائماً بين الوسيلة وبين الغاية. ويؤمنون بأن الذي اتخذوه وسيلة إنما هو غاية في نفسه. فقد اتخذ المعلمون الأقدمون النحو وعلوم البلاغة وسائل لتقويم اللسان وسلامة المعنى، ويتخذها المعلمون المحدثون غايات في نفسها يعقدون فيها أعسر الامتحانات. ولو أنهم علموا أن إحسان القول وإتقان القراءة والكتابة هي نفسها

الغايات لتغيرات نظم التعليم عندنا ولنهيأ جو صالح يتحول فيه تعليم اللغات إلى المرتبة التي نبغي
ولشد ما يعجب المرء حينما يمر بنظرة عجلى على الكتب التي يدرسها تلاميذ المدارس الثانوية في مختلف الفرق. وأشهد أنى لأتردد كثيراً أن أعقد موازنة بين الكتب العربية التي يدرسونها والكتب الإنجليزية. ولعلك تدرك قليلا من مثل هذا التردد إذا علمت أن التلميذ في السنة الأولى يقرأ حوالي أربعمائة صفحة من الإنجليزية وهو يقرأ مثل هذا القدر في السنة الثانية، ويزيد على الخمسمائة في الثالثة ثم يربى على الستمائة في الرابعة. أما إذا سألتني ماذا يقرأ هؤلاء في العربية أجبتك بأن التلميذ لا يقرأ نصف هذا القدر في فرقته. وبالضياع مجهود البلاغة والنحو لو لم يستعن بعض هؤلاء التلاميذ بالمجلات وبروايات الجيب ثم بعد ذلك بالأدب الرخيص
ولنا حديث آخر عن تعليم النحو والقواعد، واتصال ذلك بفكرة الأفعال المنعكسة نرجو أن نزجيه إليك في الأسبوع القادم أن شاء الله
أحمد خاكي
الحبشة تهدد مصر بمنع زيادة النيل سنة 847
لأستاذ جليل
المفاوضات والمخاوضات بين (الحليفة) بريطانيا! و (الجارة) إيطاليا! (يا جارتا ما أنت جارة!) - بعثتني على أن انشر في (الرسالة) الغراء هذه الكلمة ذات العنوان تبصرة وذكرى
قال شاعرنا شوقي:
فمصر الرياض، وسودانها ... عيون الرياض وخلجانها
وما هو ماء ولكنه ... وريد الحياة وشريانها
تتمم مصر ينابيعه ... كما تمم العين إنسانها
وأهلوه منذ جرى عذبه ... عشيرة مصر وجيرانها
إذا لم يعتقد المصري أن السودان مصر وأن مصر السودان، وإذا لم يؤمن بوحدة وجودهما
أنا من أهوى ومن أهوى أنا ... نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرته أبصرتني ... وإذا أبصرتني أبصرتنا
إذا تّبدي حبيبي ... بأي عين أراه؟
بعينه لا بعيني ... فما يراه سواه
فإن المصري إذا لم يعتقد ذلك الاعتقاد، ويؤمن بتلك (الوحدة) إيمانه بالله ورسوله وقرآنه فهو كافر حقٌّ كافرٍ بالمصرية. وما أريد في هذه الكلمة أن أثبت أن الكون حقيقة وليس بوهم، وأنّ شمساً في السماء تطلع علينا كل يوم، فإن البديهيات اليقينيات هن بديهيات يقينيات
وليس يصح في الأفهام شئ ... إذا احتاج النهار إلى دليل
وبعد فهذا خبر في كتاب (التبر المسبوك) للعلامة (السخاوي) في الصفحة (70) في رسالة من (النجاشي) ملك الحبشة إلى الملك الظاهر (جقمق) ملك مصر المعظم في سنة (847) أرويه ليتلوه المصري متبصراً فيه، مفكراً في بعد مراميه.
قال النجاشي متهدداً متوعداً:
(وليس يخفى عليكم ولا على سلطانكم أن بحر النيل ينجرُّ إليكم من بلادنا، ولنا الاستطاعة
على أن على نمنع الزيادة التي تروي بها بلاكم عن المشي إليكم، لأن لنا بلاداً نفتح لها أماكن فوقانية يتصرف فيها إلى أماكن أُخر قبل أن يجئ إليكم، ولا يمنعنا عن ذلك إلا تقوى الله تعالى. وقد عرضنا على مسامعكم ما ينبغي إعلامه، فاعملوا أنتم بما يلزمكم)
هذا كتاب النجاشي، وهو لا يحتاج إلى تفسير ولا هامش ولا تعليق. وإنه ليدمغ باطل ألف مقالة ومقالة - مثل ألف ليلة وليلة - ينمقها ويلفقيها سوفسطائي منحط في هوى العدو (أكل من حلوائهم، فانحط في أهوائهم) ليبرهن أن الإنسان مالكَ الماء، متمدناً (أوربياً) لن يقتل أخاء الإنسان - وإن ناكره وخاصمه - بالعطش

في المذهب الرمزي

للأستاذ زكي طليمات
مفتش التمثيل بوزارة المعارف

كتبنا في العدد الماضي نقداً (لمفرق الطريق) وهي مسرحية تنزع نزعة رمزية في) مبناها ومعناها كتبها الأستاذ بشر فارس فجاءت تحفه فنية رفيعة، ومقال اليوم بحث (في الرمزية على القدر الذي لا تضيق به صفحات الرسالة

زكي

الرمزية إحدى الاتجاهات النفسية في الإفصاح والتبيين، فهي وسيلة من وسائل التعبير عن خلجات النفس تتجاوز الرمز بشيء إلى شئ آخر، إلى إظهار الغامض والمبهم والتائه في مغلفات الروح، وتسجيل أصداء العقل الباطن

الرمزية عريقة في الإنسان

ليس الرمز في بالشيء الجديد في نتاج الشعر الإنساني. ولو رجعنا إلى الوراء نتأثر مصدر الرمز لوجدناه بعيداً في أغوار الشعور الإنساني منذُ القدم؛ فقد سجل الإنسان الغائر في أجواف الماضي بالنقش على الحجر والحفر على جدران المغاور، خلجات نفسي ونجى التائه فيها، بعد أن أعياه الفكر في الكشف عنها ومعرفة بواعثها، فجاءت رموزاً تومئ ولا تفصح الإفصاح كله عن أصداء النفس ولوامعها. بل من الرمز انبثقت العقائد لدى الزنوج. وما سائر طرائق الوثنية إلا رموز متتابعة لحيرة النفس أمام عجزها عن تفهم المظاهر الطبيعية الغامضة وقصورها عن أدراك أسرار القوى الخفية كالقدر والحياة والموت والبعث

فلما كد الذهن مستنبطاً أوضاعاً للحياة مصطنعاً دعائم المدنية، وتقدم شأن العلم فحسر اللثام عن حقائق لم تتح معرفتها للأولين ضعفت النزعة إلى الرمز بعض الشيء، ولازمها الضعف منزلاً بها الشحوب والهزال كلما دق الفكر في وضع الصيغ واستنباط القيم، وكلما كشف العلم عن حقول جديدة خفية من مظاهر الكون. وسرعان ما شغل الإنسان بالملموس من الأشياء عن التفكير وراء اللمس والحس، وصارت خلجات النفس تصدر مصنوعة في

قوالب، فكانت (كلاسيكية) التفكير والأدب والفن

وقويت دعوة العلم بعد أن هيمن الإنسان على القوى الطبيعية فنظم عملها، وسخرها لمنفعته ورفاهيته هازئاً بما راعه من جبروتها الاول؛ ولكن ليتلقى سخريتها أحياناً وهو كظيم حينما يعاودها هذا الجبروت، وهو طبيعة فيها، فينفلت قيادها من يده وتطغى على قدرته. وبلغت هذه الدعوة أوجها في أوائل النصف الأخير من القرن الماضي بعد أن سخر البخار في وسائل النقل وإدارة الآلة، وجاء العلم (بالمعمل) يفسر الغوامض ويحلل المركبات فقويت نزعة الإنسان إلى الأخذ بما ينتجه التحليل، وصار العقل الصرف هو الميزان لديه في الحكم على كل ما يقع عليه الحس وما لا يقع، فاستنبط الفكر متأثراً (بالمعمل)، واقعية الأدب والفن، وهي النقل المجرد عن الطبيعة في المحسوس والمرئي الظاهر من الأشياء، وبذلك كمل طغيان المحسوس على ما وراء الحس

بيد أنه على الرغم من طغيان المحسوس على ما وراء الحس فإن النزعة الرمزية لم تمت في النفس، بل كانت لها يقظات خلال هذه المراحل المتوالية من التقدم الذهني، ترفع صوتها كلما راعها القصور عن إدراك كنه الحالات التي تعترضها

وما (رومانسية) الأدب والفن إلا مظهر شاحب من هذه الحالة، وهى نزعة حطمت في وقت ما القوالب والصيغ الكلاسيكية التي هي من فعل الفكر الخالص، وأرسلت من القلب خلجة إحساسية مترعة، وكان ذلك في أواخر القرن السادس عشر في إنجلترا، ثم في أوائل القرن التاسع عشر في فرنسا

وليس هذا بالأمر العجيب المستغرب، فالإنسان يحيا بغرائزه أحياناً أكثر مما يعيش بعقله الخالص. وآية ذلك أن الإنسان ما برح يخاف الموت وهو موقن بعقله أنه نهاية محتمة على كل حي

وكان بعد ذلك أن أفلس العلم في كثير من المسائل الحيوية على الرغم من اختراع الكهرباء وتنظيم شؤون الحياة، فقلل العلم من غلوائه في تفسير كل شئ، وأخفت من صوته في دعواه الكشف عن كل غامض، وسرعان ما استيقظت نزعة الرمز من

جديد، وبرز لها طابع في أدب أهل الشمال من أوربا، وهم قوم يسكنون بلاداً يخفى الضباب معالمها في وضح النهار، وتطغي قتمة السحب على زرقة السماء طوال العام إلا أشهراً معدودة

هنريك ابسن وشعراء الرمزية

فطلع (أبسن) - وذلك في أقصى الشمال ببلاد النرويج - بروايات رمزية أهمها (براند) و (بيرجينت)، وانحدرت الرمزية إلى البلجيك وهولندا، فلاقت مستقراً خصباً إذ الطبيعة في تلك البلاد تبدو كأنها غارقة في التفكير والتروي والمراجعة، وسرت عدوى الرمزية إلى فرنسا فطبعت أدبها وفنها ردحاً من الزمن تحتفظ منه واعية الأدب بأسماء (فيرهارين) و (رودنباخ) و (فان لربرج) و (رامبو) و (فيرلين) و (مالارميه) في الشعر، ثم (ماترلنخ) في الروايات التمثيلية. وكانت الحقبة الأخيرة من القرن الماضي عصر ازدهار للأدب الرمزي في فرنسا، وكانت الحركة في صميمها نزعة إلى التحرر من أدب الواقع والملموس إلى ارتياد أفاق جديدة طلباً للبحث عن الغامض من العواطف والتائه من الخلجات في منعطفات الروح ومثاني المادة؛ وهاديهم في البحث والتنقيب الإحساس المرهف والإدراك المحض (والتخيل المنسرح)، وصاغوا ما انتهوا إليه في أسلوب طريف مترع بالأخيلة مشرق بالروحانية. إلا أنه كان للبعض منهم شطحات في الخيال، وجولات بعيدة فيما وراء المادة، وغوص عميق في متاهات القلب لم يخرجوا منه بكثير يؤبه له

ولا يتسع هذا المقام للإحاطة بالرمزية في آداب الأمم الأخرى

الرمزية في الأدب الإسلامي

أما في العربية الاسلامية، فالصوفية أبين مظاهر الرمزية. إلا أن الرمزية كانت لدى العرب علماً وليست فناً؛ وبين العلم والفن فارق معروف، ولذلك لم تفرض طابعها على كثير من الأدب الإسلامي، وإن استقامت لها طريقة في شعر (الخيام) وأمثاله، ومن أخذ عنهم، أو نحوا نحوه

والرمزية عند (الخيام) ضرب من الفورة الحسية حلت فيها عبقة روحانية

ولعل السبب في أن الأدب العربي لم ينحرف إلى الرمزية الغامضة في كثير من نتاجه، ويخرج عن الواقعية و (الكلاسيكية) يرجع إلى الطبع البدوي الذي يميل إلى الوضوح والبساطة، وإلى طبيعة البلاد التي نشأ ودرج وشب فيها، حيث الشمس تسطع من أول النهار إلى آخره في سماء صافية متدخلة في الثنايا والشقوق، كاشفة عن ظواهر الأشياء في

جلاء ساطع، كما أن الأدب الإسلامي لم يخرج عن الأوضاع الذي أورثه إياها الأدب الجاهلى، واقتصر أمر التوليد فيه على التنميق في الصيغ الشكلية

ويقيني أننا نتحرج إذا قضينا بأن الأدب العربي أو الإسلامي لم يعرفا الرمزية في تراثهما الكبير، إذ أن معين هذين الأدبين هو نفس المعين الذي أخذ منه الأدب الأوربي، ألا وهو النفس البشرية. وما برح البحث والاستقراء يتعقبان مخلفات الأدب العربي والإسلامي، وهى مخلفات، وياللأسف، ما برحت مشتتة في دور الكتب ما بين أوربا وأمريكا ليلقيا كل حين ضوءاً جديداً عليها

هذا والرمزية كما أسلفنا شئ كامن في النفس، تبدو صريحة كلما استشفها الرغبة الذهنية إلى التطلع إلى ما وراء المحسوس، وهو الباطن الغائر في أعماق النفس، أو كلما أحست النفس بهزيمة العقل أمام الغامض من الأمور. وها نحن أولاء في القرن العشرين، وهو قرن اصبحت للعلم فيه دولة، ومع ذلك فقد قامت نظريات جديدة تدحض نظريات علمية وفلكية اتفقت عليها الآراء وقطعت بصحتها منذ مئات السنين. وهناك بديهيات عديدة ما برح للعقل فيها حيرة. ولم يبالغ (بوانكاريه) حينما قرر أن تقدم العلم تقدم آلي عجيب، إلا أنه عجز عن أن يكشف الكشف الكامل عن كثير من الحقائق

الرمزية في الأدب العربي المستحدث

أما ما يحضر أذهاننا من آثار الرمزية في الأدب العربي المستحدث فينحصر في كتابات (جبران خليل جبران) وهو لبناني المولد عاش دهراً طويلاً من حياته في المهجر الأمريكي فتأثر بكثير من كتاب الغرب، واستقامت في كتاباته طريقة رمزية تخالطها نزعة رومانسية. وقرأنا بعد ذلك شعراً رمزياً في الأداء للدكتور بشر فارس وذلك منذ

عشر سنوات في مجلة المقتطف
وفى مؤلفات (توفيق الحكيم) نلمح الرمزية لامعة في بعض ما أخرجه للمسرح، ولا سيما في روايته (شهرزاد). وليس في هذا ما يبعث على العجب، فلتوفيق الحكيم نزعة صوفية أصيلة، كما أنه احسن استيعاب مسرحيات الإيطالي (بيراندللو)، وهو ابرز مؤلفي المسرحية الرمزية في هذا العصر؛ وتفهم مسرحيات الفرنسي (لونورمان)؛ وليس مؤلفات (فرويد) و (بيرجسون) مما لم يحسن مطالعتها
فبشر فارس وتوفيق الحكيم يغترفان من مصدر واحد، الأول يكتب متثبتاً بما تلقنه، والثاني يؤلف بطبعه وخياله، إلا أن لكل منهما طرائقه في التعبير عن رمزيته، وكلاهما يعيش بذهنه في أوربا ويحيا بجسمه في القاهرة.
زكى طليحات
للأدب والتاريخ
مصطفى صادق الرافعي
1880 - 1937
للأستاذ محمد سعيد العريان
- 26 -
وحي الأربعين
أصدر العقاد ديوانه (وحي الأربعين) في سنة 1933؛ والسياسة المصرية يومئذ تسير في طريق معوج، وحكومة صدقي باشا تمكن لنفسها بالحديد والنار، و (الوند) ومن ورائه الأمة كلها يجاهد حكم الفرد ويكافح للخلاص، والعقاد يومئذ هو كاتب الوفد الأول، يكتب المقالة السياسية فترن رنيناً ويلقفها آلاف القراء بلهفة وشوق في كل مدينة وكل قرية؛ فلا عجب أن يكون العقاد بذلك عند عامة القراء هو أبلغ من كتب وأشعر من نظم، حتى ليؤول أمره من بعد إلى أن ينحله الدكتور طه حسين بك الوفديُّ المتحمس، لقب أمير الشعراء، تملقاً للشعب ونزولاً على هواه. . .!
ولقد يكون العقاد يومئذ على حقيقته هو سيدَ الكتاب وأمير الشعراء أو لا يكون؛ ولكن هذه هي كانت منزلة عند الشعب يومئذ؛ فلا يعاديه أحد إلا كان عدو الأمة، ولا يعرض له أحد بالنقد في أي منشأته الأدبية أو السياسية إلا كان في رأى الشعب (دسيسة) وطنية أو صنيعة رجعية. . .
هذه هي كانت الحقيقة في تلك الحقبة من التاريخ التي امتزج فيها الأدب بالسياسة امتزاجاً جعل طائفة كريمة من الأدباء يؤثرون الصمت واعتزال الأدب على أن ينزلوا بأنفسهم إلى معترك لا يعرفون أين تبلغ بهم عواقبه. ولكن الرافعي رجل - كان - لا يعرف السياسة ولا يخضع لمؤثراتها؛ فهو لا يعتبر إلا مذهبه في الأدب وطريقته؛ وسواء عنده أكان رأيه هو رأى الجماعة أم لا يكون، ما دام ماضياً على طريقته ونهجه. ولقد قدمت القول بأن الرافعي كان يتربص بالعقاد منذ قريب لينزل إليه في معركة حاسمة تنقع غلته وتبرئ ذات صدره، فما أن تهيأت له الأسباب بصدور (وحي الأربعين) حتى تحفز للعراك. وكان ما
بين العقاد ومخلوف هو السبب المباشر الذي ألهب حمية الرافعي فنزل إلى الميدان مستكملاً أهبته مزوداً بسلاحه، غير مكترث بما قد يناله من غضب الآلاف من القراء الذين يقدسون العقاد الكاتب تقديساً اعمي فلا يفرقون بين العقاد السياسي والعقاد الأديب. . .!
وأرسل الرافعي يستدعيني إليه ذات مساء، فرحت إليه بعد العشاء بقليل؛ فإذا هو جالس إلى مكتبه، وعلى مقربة منه (وحي الأربعين)، وإن عليه لثوباً أحمر في لون عرف الديك، وفى عينيه فتور وضعف ينبئ عن السهر والجهد العميق؛ فإنه ليبدو في مجلسه ذلك كأنه عائد لساعته من معركة حمراء. . .!
قال: (لقد فرغت من قراءة الديوان منذ قليل، وإن لي فيه لرأياً. فهل تساهرني في الليلة حتى أملي عليك ما أعددت في نقده؟)
كانت هذه أول مرة يملى الرافعي على فيها من مقالاته؛ فكانت فرصةً سعيدة لي، اشهد فيها الرافعي حين يلقِّي الوحي، وأصحبه في سبحاته الفكرية يقتنص شوارد الفكر وأوابد المعاني. وكانت فرصة سعيدة له: أن وجد يداً غير يده تحمل له القلم حين يكتب ليفرغ لنفسه، ويخلو بفكره؛ وما تعوَّد قبلها أن يكتب وفى مجلسه إنسان.

وإن أثقل شيء عليه أن يكتب بيده، ولكن اقل من ذلك عليه أن يعرف أن عيناً تلاحظه وهو يكتب، فما زال يكتب لنفسه منذ بدأ متبرماً بهذه المهمة، ضيق الصدر بما يبذل في الكتابة من جهد. وإن خطه لأردأ خط قرأت في العربية. . . حتى اصطفاني لهذا الواجب، فلزمته ثلاث سنين لا يهم بكتابة مقال إلا دعاني ليمليه عليّ، حتى انتقلت من طنطا فعاد إلى ما كان من عاداته: يملي على نفسه ويكتب لنفسه، ولم يسترح إلى كاتب بعدي يشركه في جلوة الوحي وخلوة الكتابة!

وجلس فأملى عليّ مقاله في نقد (وحي الأربعين)، من قصاصات في يده لا تزيد إحداها على قدر الكف، فما فرغ من الإملاء حتى أذن الفجر، وحتى كانت هذه القصاصات بضعاً وعشرين صفحة كبيرة، تشغل بضعة عشر نهراً من جريدة البلاغ. وكانت ليلة تحملت فيها من الجهد والمشقة ما لم أتحمل في ليلة غيرها فقمت منهوك القوة عيّان، وقام الرافعي في مثل نشاط الشاب في عنفوانه، كأنما كان عليه عبء فرماه عن كتفيه. . .!

وكان بين البلاغ والعقاد خصام، وكان بينه وبين الرافعي مودة، فما كادت تصل إليه مقالة الرافعي في البريد المستعجل ظهر ذلك اليوم، حتى أعلن عنها وبشر القراء أن ينشرها في غد. . . وشغلت من البلاغ ثلاث صفحات في يومين. . . وكان نقداً مُراً حامياً اجتمع فيه فن الرافعي، وثورة نفسه، وحدة طبعه، وحرارة بغضائه، ولكنه كان نقداً منزهاً عن العيب

أستطيع أن أقول ويقول معي كثير من أدباء العربية: أن هذه المقالة هي خير ما كتب الرافعي في نقد الشعر، وأقربها إلى المثال الصحيح، لولا هفوات قليلة يعفيه من تبعتها أنه إنسان!

من قرأ (على السَّفُّود) فعابه على الرافعي وأنزله غير ما كان ينزله من نفسه، فليقرأ مقال الرافعي في نقد (وحي الأربعين) ليرى الرأي المجرَّد في شعر الأستاذ العقاد عند الرافعي. . .

ومضى يوم واحد، وظهرت صحيفة الثلاثاء من جريدة الجهاد وفيها رد العقاد على الرافعي، وقد نفذ إليه من باب لم يحسب الرافعي حسابه، فتغير وجه الحق، ودارت المعركة حول محور جديد. . .

كان عنوان مقالة العقاد (أصنام الأدب) فيما أذكر، وكان مدار القول فيها هو الطعن على رجلين: هما إسماعيل مظهر، والمهزار الأصم مصطفى صادق الرافعي. وكان أكثرُها سباباً وشتيمة واقلها في الرد والدفاع. على أن العقاد لم يرد رأي الرافعي فيما أخذ عليه من مآخذ إلا في مواضع قليلة، وترك الرد في أكثر ما عاب عليه الرافعي، مستعيضاً على الرد بالشتم والسباب. . .!

وإذا كان السبب مفهوماً في طعن العقاد على الرافعي وشتيمته إياه، فأي سبب حمل العقاد على أن يشرك الأستاذ إسماعيل مظهر مع الرافعي فيما وجه إليه من الشتم والتهمة؟

جواب ذلك يفهمه من يعرف أن الأستاذ إسماعيل مظهر صاحب العصور، هو طابع كتاب (على السفود) وناشره ومروِّجه. أفنستطيع أن نحكم من هذا بأن العقاد لم يكن يعني الرد على مقال الرافعي الأخير وحده؛ ولكنه وجدها فرصة لتصفية الحساب القديم كله بينه وبين الرافعي وصاحبه الذي أغراه على كتابة (على السفود)

وكان الباب الذي نفذ منه العقاد في الطعن على الرافعي، هو اتهامه في وطنيته، وإيهام قرائه بأن الرافعي لم يكن لينقذه إلا لأنه هو العقاد السياسي الوفدي عدو الحكومة المتسلطة

على الناس بالحديد والنار! وحسبك بها من تهمه حين يقولها العقاد!

أن للعقاد مفاجآت عجيبة النقد، تمثل العقاد الكاتب المرن المحتال في أساليب السياسة، اكثر مما تمثله ناقداً محيطا يدفع الرأي بالرأي والبرهان بالبرهان!

وقرأت مقالة العقاد في الرد على الرافعي، فوجدت أسلوباً في الرد لم اكن انتظره، يؤلم ولا يفحم، ويقابل الجرح بالجرح لا بالعلاج. فما فرغت من قراءة المقال حتى تمثل لي الرافعي مرّبد الوجه من غيض وغضب، مزبد الشتقين من حنق وانفعال؛ فسرني أن أسعى إليه قبل ميعادي لأراه في غيظه وحنقه وانفعاله، فانتهزت ساعة

فراغ في الظهر، فمضيت إليه في (المحكمة)؛ فما كاد يراني مقبلاً عليه حتى هتف بي وهو يبتسم ابتسامة المسرور ثم قال: (أقرأت مقالة العقاد؟) قلت: (نعم) قال: (فماذا رأيت فيها؟) قلت: (لقد كان شديداً مؤلماً!) فضحك وقال: (والله ما رأيت كاليوم! لقد ضحكت حتى وجعني قلبي من شدة الضحك. . . إنه لم يكتب شيئاً، ولم يرد علي شيء؛ أن سبابه وشتمه لن يجعله عند القراء شاعراً كما يشتهى أن يكون، وأن حسب أنه به يكسب المعركة. لقد حق عليه ما قلت فيه، وأنه ليعترف. أن فراره من الرد إلى السباب والشتيمة ليس إلا اعترافاً بالعجز. . .)

قلت: (إذن فأنت لا تنوي الرد؟)

قال: (وأي شيء تراه يستحق الرد فيما كتب؟)

قلت: (ولكن القراء لن يفهموا سكوتك على وجهه، ولن يسموه إلا انسحاباً من المعركة. . .! أفترضى أن يقال عنك. . .؟)

وبدا على الرافعي كأنه اقتنع، وهاجته كلماتي مرة أخرى إلى النضال. ومعذرة ثانيه إلى الأستاذ العقاد!

إن معركة تدور رحاها بين العقاد والرافعي جديرة بأن يحتفل لها الأدباء وان تنال من اهتمامهم أوفى نصيب، وإن لهم فيها لمتاعاً ولذة وفائدة. وما كان لي أن أقنع وقد هجت هذه المعركة بما فيها من متاع ولذة وفائدة بأن تنتهي من أول شوط!

وقال لي الرافعي: (فهل توافيني الليلة لأملي عليك؟)

فواعدته وذهبت إليه في المساء، فأملى عليّ فصلا من نسخته الخاصة لكليلة ودمنة، بعنوان (الثور والجزار والسكين!) ثم أتمه مقالا في الرد على العقاد. وكان فصلا قاسياً عنيفاً، ليس من مذهب المقال الأول ولا نهجه، إذ لم يكن المقصود به النقد وحسب، بل الرد والسخرية والإيلام، ثم قطع السبيل وتدعيم الدليل وتقرير المعنى فيما قدم من مواضع النقد

ثم رد العقاد ليعلن انسحابه من المعركة، شاكراً للذين أيدوه، متعذراً عن عدم الاستمرار في مناقشة دعوى الرافعي! واستمر الرافعي يكتب حتى فرغ. . .

وكان النصر للرافعي عند طائفة، ولكنه خسر عطف الآلاف من أصدقاء العقاد الكاتب الوطني الكبير، إذ لم يروا عداوة الرافعي له في الأدب إلا دسيسة سياسية من خصوم العقاد!

وانتهت المعركة الأخير بين الرافعي والعقاد، ولكن الرافعي لم يقتنع بما نال من النصر عند الصفوة من القراء الذين يفرقون بين الأدب والسياسة، إذ كان على يقين أنه وأن كانت له الغلبة، قد خسر اكثر الطائفتين من قراءه لأنهم على مذهب العقاد السياسي، فضل مغيظاً محنقاً إلى حين. . .

ومضت سنتان، وتقلبت السياسة المصرية من تقلباتها، فإذا العقاد الذي كان كاتب الوفد الأول، خارج على الوفد، يطعن عليه وعلى رئيسه؛ وأنصار الوفد ما يزالون إلى يومئذ اكثر الأمة. . . ووجد الرافعي فرصة سانحة لينتقم، وليستخدم السياسة في النيل من خصمه في الأدب، فيكيل له صاعاً بصاع، ويحاربه بمثل سلاحه؛ فكتب مقالاً بغير توقيع في كوكب الشرق، جريدة الوفد، بعنوان: (أحمق الدولة!) وكان مقالا له رنين وصدى. . .

ونشر في (الرسالة) يومئذ كلمات تحت عنوان (كلمة وكليمة) عرض فيها بالعقاد الخارج على الوفد تعريضاً أليماً يؤذيه، لم ينتبه له إلا القليل

وكان مقاله عن العقاد في كوكب الشرق، وكلماته في الرسالة سبباً في أن يدعوه الأستاذ توفيق ذياب ليحرر في الجهاد بأجر كبير؛ ولكن لم يتم بينهم اتفاق

ولم تكن تسنح للرافعي سانحة لغيظ العقاد إلا انتهزها، فما كتب الرافعي عن شاعر من الشعراء بعد ذلك إلا جعل نصف كلامه تعريضاً لشعر العقاد. وبذلك ما كتب عن الشاعر المهندس علي محمود طه في المقطم، وما نشره عن الشاعر محمود أبو الوفا في الرسالة، ومقالته (بعد شوقي) معروفه لقراء الرسالة عامه؛ وكلها تعريض بشعر العقاد الذي نحله الدكتور طه حسين إمارة الشعر في يوم من الأيام بعد شوقي!

والعداوة بين الرافعي والعقاد من العداوات المشهورة بين أدباء الجيل، ولها أثر أي أثر فيما انتج كل من الأديبين الكبيرين في أدب الوصف؛ ولا تدانى هذه العداوة في

الشهرة إلا العداوة بين الرافعي وطه حسين
واحسب أنه كان بالإمكان أن يجتمع العقاد والرافعي في تحرير الرسالة لولا ما كان بينهما من خلاف وعداوة. قال لي الأستاذ الزيات مرة منذ عامين: (وددت لو يكتب العقاد في الرسالة! ولكنما يمنعني من دعوته إلى ذلك أنني لا أستطيع أن انشر له وللرافعي في عدد واحد!)
قلت: (فما يمنع؟)
قال: (أنت تعرف أخلاق الرافعي، وأنا اعرف أخلاق العقاد، وإن لكل منهما اعتداداً بنفسه بازاء صاحبه، فأي المقالين اقدم وأيهما أؤخر في ترتيب النشر؟ أن تقديم مقال على مقال ليس شيئاً ذا بال، ولكنه بين الرافعي والعقاد له شأن أي شأن!)
وظل الأستاذ الزيات معنيا بهذا الأمر، حريصا على أن يجمع بين الأديبين الكبيرين في مجلته، وهو يلتمس السبيل إلى ذلك فلا يوفق، حتى مات الرافعي فانحلت المشكلة؛ ودخل العقاد، ولكن بعدما خرج الرافعي!
رحم الله الراحل، ونفع بالباقي!
محمد سعيد العريان
عبقرية الشريف الرضي
للدكتور زكي مبارك
قبل نهاية هذا الشهر يصدر في بغداد كتاب في جزأين للدكتور زكي مبارك. وهذه) فاتحة ذلك الكتاب، وهي تشرح مذهب المؤلف في دراسة الأدب العربي وطريقته في التأليف(
أما بعد فهذا كتاب (عبقرية الشريف الرضي) وما أقول أني شغلت به نفسي سنة كما قلت يوم أخرجت شرح (الرسالة العذراء)، ولا سبعة سنين كما قلت يوم أخرجت كتاب (النثر الفني)، ولا تسع سنين كما سأقول بأذن الله يوم اخرج كتاب (التصوف الإسلامي)
فما شغلت نفسي بكتابي هذا غير خمسة أشهر. ولكنها من أشهر بغداد لا أشهر القاهرة ولا باريس. وما كان في بغداد لهو ولا فتون، فكانت الليلة في بغداد كليلة القدر، خير من ألف شهر، والتوفيق من أشرف الأرزاق
وكتابي هذا هو مجموعة المحاضرات التي ألقيتها في قاعة كلية الحقوق، وكانت تلك المحاضرات من أشهر المواسم في حياتي، فقد كان أصدقائي يخشون أن يمل الجمهور بعد أسبوع أو أسبوعين، ولكن الجمهور كان يزداد إقباله من أسبوع إلى أسبوع، ولم ينقذني منه غير التصريح بأني أنفقت كل ما كنت أملك، ولم يبق إلا أن استريح!
ومحاضراتي بكلية الحقوق في بغداد هي الموسم الثاني بعد محاضراتي عن (المدائح النبوية) وهي المحاضرات التي ألقيتها باسم الجامعة المصرية في قاعة الجمعية الجغرافية بالقاهرة، فهل يتسع العمر لموسم ثالث في القاهرة أو في بغداد؟
لا تسألوني كيف ظلمت نفسي فأعددت هذه المحاضرات وأنشأت معها مقالات كثيرة جداً نشرتها صحف مصر ولبنان والعراق ورججت الحياة الأدبية في بغداد رجاً عنيفاً، فذلك كان أقل ما يجب أن اصنع في مقابل الثقة التي شرفتني بها حكومة العراق؛ وذلك كان اقل ما يجب أن اصنع لأحفظ لنفسي مكاناً بين الأساتذة المصريين الذين تشرفوا بخدمة العراق من أمثال محمد عبد العزيز واحمد حسن الزيات والسنهوري وعبد الوهاب عزام ومحمود عزمي؛ وذلك كان اقل ما يجب أن اصنع في خدمة تلاميذي وتلميذاتي في بغداد، وقد رأيت في وجوههم وجوه أبنائي وبناتي فكلفت نفسي في خدمتهم فوق ما أطيق
لا تسألوني كيف ظلمت نفسي فأنفقت من العافية ما أنفقت؟ فقد ساءني أن اعرف أن (دار
المعلمين العالية) لها في بغداد تاريخ، فكانت تفتح ثم تغلق، وتفتح ثم تغلق، فاستعنت الله وانتفعت بعطف معالي وزير المعارف الأستاذ محمد رضا الشبيبي وأريحية الأستاذ طه الراوي ومودة الدكتور فاضل جمالي، وعولت على همة زميلي وصديقي الدكتور متي عقراوي، وأقمنا لدار المعلمين العالية أساساً من متين التقاليد الجامعية، فأغنينا مكتبتها بالمؤلفات القديمة والحديثة وعلمنا طلابها كيف يبحثون ويراجعون، وغرسنا

فيهم الشوق إلى التحقيق والاستقصاء
ورأيت أن يكون من تقاليد هذا المعهد العالي أن يخرج في كل سنة كتاباً عن شاعر أو أديب أو مفكر لم يدرسه أحد من قبل، فألفت كتابي هذا عن الشريف الرضي. فأن ترفقت شواغلي بمصر وأذنت لي بالرجوع إلى بغداد فسأخرج في كل سنة كتاباً جديداً. وإن أبت تلك الشواغل أن أتمتع مرة ثانية بالاستصباح بظلام الليل في بغداد فسيذكر من يخلفني أني طوقت عنقه بطوق من حديد، وأن لا مفر له من أن يشقى في سبيل (دار المعلمين العالية) كما شقيت
وإنما نصصت على هذه المعاني في مقدمة هذا الكتاب لأجتدي العطف على (دار المعلمين العالية). وممن أجتديه؟ من حكومة العراق، فما يجوز أن يغلق هذا المعهد، وإنما يجب أن تبذل الجهود ليصبح منافساً قوياً لكلية الآداب بالجامعة المصرية
قد يقول قوم من خلق الله: ولماذا ابتدأت بالشريف الرضي! أن قالوا ذلك فالجواب عند الأستاذ عباس محمود العقاد، فهو يذكر جيداً أنني قلت له يوم اخرج كتابه عن ابن الرومي: كان الأفضل يا أستاذ أن تنفق هذا الجهد في دراسة أشعار شريف الرضي
إن قالوا ذلك فالجواب عند الأستاذ الدكتور طه حسين، فهو يذكر جيداً أني نبهته إلى أن الاهتمام بدراسة شعر الشريف الرضي كان أولى من الاهتمام بدراسة شعراء القرن الثالث
إن قالوا ذلك فالجواب عند نادي الموظفين بالقاهرة فقد طلب في سنة 1932 أن القي محاضرة عن أعظم شاعر في اللغة العربية فكانت محاضرتي عن الشريف الرضي
ابتدأت بالشريف الرضي على غير موعد، فقد رأيتني فجأة بين دجلة والفرات، فتذكرت أن قد جاء الأوان لدراسة هذا الشاعر الذي تعصبت له منذ أعوام طوال ويشهد الله وهو خير الحاكمين أني لم أفكر في إنصاف الشريف الرضي إلا يوم قدم لي
الدكتور شريف عسيران نسخة من كتاب الأستاذ المقدسي عن أمراء الشعر في العصر العباسي، فأزعجني أن يهتم بابن المعتز وينسى الشريف الرضي، مع أن ديوان ابن المعتز لا يساوي قصيدة واحدة من قصائد الشريف
فمن شاء له هواه أن يزعم أن لي غاية في التعصب للشريف الرضي فليتق الله في نفسه، وليذكر أن الدكتور زكي مبارك لو كان انفق نشاطه في الاتجار بالتراب لأصبح من كبار الأغنياء، ولكنه بلا أسف سيموت فقيراً لأنه أنفق نشاطه في خدمة الأدب العربي
والأدب العربي خليق بأن يكون له شهداء، وأنا في طليعة أولئك الشهداء
سيرى قراء هذا الكتاب أنني جعلت الشريف أفحل شاعر عرفته اللغة العربية، وقد سمع بذلك ناس فذهبوا يقولون في جرائد بغداد: أيكون الشريف أشعر من المتنبي؟ وأستطيع أن أجيب بأن الشريف في كتابي أشعر من المتنبي في أي كتاب. لن يكون المتنبي أشعر من الشريف إلا يوم أؤلف عنه كتاباً مثل هذا الكتاب. والقول الفصل في هذه القضية أن المتنبي في بابه أشعر من الشريف، والشريف في بابه أشعر من المتنبي، وكل عبقري هو في ذاته أعظم الناس لأن ميدانه لا يجاريه فيه أحد سواه، والشريف بهذا المعنى أفحل الشعراء لأنه جرى في ميادين سيظل فارسها السباق على مدى الأجيال
وما الذي يضر أنصار المتنبي حين أُقدِّم عليه الشريف؟ هل فيهم من يحفظ ديوان المتنبي كما أحفظ ديوان المتنبي؟
إن سجلات كلية الآداب بالجامعة المصرية تشهد بأنني كنت أول من دعا إلى الاحتفال بمرور ألف سنة على وفات المتنبي، ولي على ذلك شهود منهم الشيخ السكندري والأستاذ عباس محمود والدكتور منصور فهمي
وما الذي يضر أهل العراق من أن اهتم بشاعر لا يعرف العراقيون موضع قبره على التحقيق؟ أليس من العجائب أن يعرف العراقيون قبر معروف الكرخي ويجهلوا قبر الشريف الرضى؟ أن هذا هو الشاهد على أن العوام أحفظ للجميل من الخواص!
إن كان خصومي في بغداد دهشوا من أن أتعصب لشاعر رضى عنه ناس وغضب عليه

ناس فليذكروا أنني كنت كذلك طول حياتي فوضعت بالنقد قوماً ورفعت آخرين، وفقاً للحق لا طوعاً للأهواء
وأنا والله راض بأن يغضب عليّ أهل بغداد، فقد غضبوا على أبي طالب المكي فمنحوه الخلود
أنا أحب الخصومات لأنها تذكي عزيمتي، ومن أجل هذا أنظر نظر الجزع إلى مصير خصوماتي في بغداد، فلن يكون لي في بغداد خصوم بعد ظهور هذا الكتاب؛ وأنه لقادر على أن يفجر العطف في القلوب المنحوتة من الجلاميد. سيذكر أدباء بغداد أنني أحببت شاعراً هو من ثروة العروبة وثروة العراق. سيذكر أدباء بغداد أنني وفيت لمدينتهم السحرية حين اهتممت بشاعر كان اصدق من عرف النعيم والبؤس فوق ثرى بغداد
وكتابي هذا تطبيق لما شرعت من قواعد النقد الأدبي، تلك القواعد التي أذعتها في كتاب (الموازنة بين الشعراء)، وهو من اجل هذا لون جديد في اللغة العربية. وسيكون له تأثير شديد في توجيه الدراسات الأدبية، وقد يصلح ما أفسد الزمان من عقول الباحثين
وبيان ذلك أني لم أقف من الشاعر الذي أدرسه موقف الأستاذ من التلميذ كما يفعل المتحذلقون، وإنما وقفت منه موقف الصديق من الصديق. والتشابه بيني وبين الشريف الرضي عظيم جداً؛ ولو خرج من قبره لعانقني معانقة الشقيق للشقيق، فقد عانى في حياته ما عانيت في حياتي: كافح في سبيل المجد ما كافح وجهله قومه وزمانه، وكافحت في سبيل المجد ما كافحت وجهلني قومي وزماني
وهذا الترفق في معاملة الشريف ليس نزوة شخصية، وإنما هو وثبة علمية، فما كان يمكن أن أكون وفياً للبحث إلا أن سايرت الشاعر الذي أعرض عقله وروحه على تلاميذي. وهذه هي المزية التي أنفرد بها بين أساتذة الأدب العربي
سايرت الشريف مسايرة الصديق للصديق: فإن آمن آمنت، وإن كفر كفرت. أن جدّ الشريف جددت، وإن لعب لعبت. أن عقل الشريف عقلت، وإن جن جننت. أن قال الشريف أن غاية الرجل العظيم هي الحرب، قلت: صدقت. وإن قال: أن الحياة هي الحب، قلت: والحب الحياة!
ولكني مع هذا عاملته معاملة الصديق الأمين فنبهته إلى عيوبه بتلطف وترفق؛ نبهته تنبيهاً دقيقاً جداً لا يفطن إليه إلا الأذكياء. وفي بني آدم أذكياء. نبهته إلى عيوبه أكثر من ستين مرة؛ وما أظنه يحقد عليّ، لأن الصديق الذي في مثل حالي تغفر له جميع الذنوب
والشواهد في هذا الكتاب كثيرة جداً؛ وذلك هو أسلوبي في البحث، فأنا أشغل القارئ بالشاعر الذي أدرسه أكثر مما أشغله بنفسي، وهذه إشارة أرجو أن ينتفع بها المتحذلقون
اعتمدت على طبعة بيروت وصححت ما صادفني فيها من أغلاط، وشرحت ما يجب شرحه من الأشعار خدمة للقارئ الجاحد الذي لا يفهم قيمة الوقت الذي ينفقه الشارح في تحديد المعاني؛ وصححت الكتاب كله بنفسي تصحيحاً دقيقاً. فإن رأى فيه القارئ أغلاطاً فذلك ذنب العجلة لا ذنبي. وأدخلت فنوناً من الذوق على الطباعة في بغداد سيذكرها أصحاب المطابع بغداد!
هذا كتابي، أقدمه بيميني في تهيب واستحياء؛ فإن رضيت عنه فذلك لطف ورفق، وإن غضبت عليه فلست أول حسناء تجحد الجميل
اصنعي في ودادي من التنكر والتقلب ما شاء لك الدلال. أما أنا فأشهد أنك صنعت بقلبي وعقلي ما عجزت عنه القاهرة وباريس!
أنت مظلومة يا بغداد، وأنا مظلوم يا بغداد؛ والظلم يجمع بين القلوب، نصرك الله ونصرني، ورعاك ورعاني، إنه سميع مجيب.
وعليك مني السلام.
زكي مبارك
من برجنا العاجي
سألني الأستاذ أحمد أمين من أيام عن فكرة غريبة قال إنها جالت بخاطره؛ وخاطره هذا كنز لا يفنى من الأفكار الغريبة. قال:

فقلت له: الجواب يتوقف على (ترى ماذا يفعل الإنسان إذا علم أنه سيموت بعد عام؟)
معرفة نوع هذا الإنسان وطبيعته وعلمه
فقال: (أنا وأنت مثلاً. ماذا كنا نصنع؟)
فأجبته على الفور:
أنا وأنت؟ كنا ننكب في الحال على التأليف والكتابة ليل نهار. فقال في دهشة:
- كنت أحسبك تقول العكس، وترى أن قرب الموت قد يجعلنا نطلّق العمل ونفزع إلى حياة اللهو والمتعة، أو على الأقل حياة الهدوء والراحة
- نحن يا صديقي نفعل ما يفعله كل أب بار. فما الذي يصنعه الأب البار بأبنائه حينما يدنو منه الموت؟ ألا يتمنى أن يتركهم وقد اكتمل نضجهم؟ ألا يفكر ليل نهار في إتمام تربية هذه الأكباد حتى تقوى على المشي فوق الأرض؟ وأنا وأنت لسنا أكثر من آباء، لنا أكباد تمشي لا على الأرض. . . لكن على الورق. . . فكيف نموت وفي خزائن أحدنا صفحات من كتاب لم يكتمل في (ضحى الإسلام) أو في (النقد الأدبي)، وعلى مكتب الآخر قصص تعج بأشخاص نصف أحياء يطالبون بحقهم في الحياة، ويمسكون بتلابيب (مؤلفهم) لا يدعونه يموت قبل أن ينفخ فيهم بعض الروح؟ إنه ليخيل إليّ أحياناً أن حياتنا متصلة بحياة إنتاجنا، وأن في أعماق كل (خلاّق) شبه غريزة داخلية تدفعه إلى الإنتاج البطيء أو السريع طبقاً لطول حياته أو قصرها. إنا قد بعنا أنفسنا لشيطان (التأليف)، ولن يتركنا هذا (الشيطان) في راحة إلا عندما نلفظ النفس الأخير.

توفيق الحكيم

المخترعات

وكتاب الفصول والغايات

لباحث كبير

هي عبقرية المعري في النظم، و (الفصول والغايات) هي عبقريته في (اللزوميات) النثر. والعبقريتان في أكثر المقاصد والمرامي تلتقيان. وفي هذه العبقرية (المعجزة الأحمدية) يقول أبو العلاء:

(إن شاء الملك قرب النازح وطواه، حتى يطوف الرجل في الليلة الدانية بياض الشفق من حمرة الفجر، طوفه بالكعبة حول قاف، ثم يؤوب إلى فراشه والليلة ما هّمت بالأسحار، ويسلم بمكة فيسمعه أخوه بالشام، ويأخذ الجمرة من تهامة فيوقد بها ناره في يبرين وقاصية الرمال)

وقد شاء الله أن يكون في هذا الزمان كل ذلك، فإن المرء ليسري من (الإسكندرية) طائراً إلى (قاف) سلع، الجبل في المدينة (يثرب)؛ ثم يؤوب ويأوي في فراشه والليلة ما همت بالأسحار، وطوفه حول (قاف) القصاصين و (قاف) بعض المفسرين - حول الكرة الأرضية - في يوم أو ليلة هو في الغد، و (مهما تعش تره)

وإن المصلي (أو غير المصلي) ليسلم في مكة فيسمعه أخوه في (سان فرنسيسكو) وأخوه الذي هو في (طوكيو)، ويسمعه كل صاحب (مِصْوان) في الأرض

وإن مركونى - وهو في سفينته في ميناء في إيطالية - قد أضاء بشرارة - لا بجمرة - مدينة (سدني) في أسترالية

هي العبقرية وهم العبقريون يقذفون بالقول فيفسره الدهر بعد أحقاب أو يحققه

وقد شاء الله (جلت قدرته) أن يجئ في هذا الزمان ما تخيله أبو العلاء في وقته

وقد شاء الله (عظمت منته) أن يظهر اليوم هذا الكنز العظيم: كتاب (الفصول والغايات) المكتنز بالفوائد، محققاً مضبوطاً مشكولاً مشروحاً يشرح الصدر، ويسر العين، ويبهج القلب، وينور العقل

وهذا القول في هذا الكتاب حق كله، ولم يهده مهد إلى فيقول الإهداء: هات الثناء. بل افتلذت، اقتطعت ثمنه (والله) من عيشي، ومن قوتي، وكنت لعقلي وروحي من المحسنين.

وفي سبيل أبي العلاء والعلم الصوم ووهن الجسم

(الإسكندرية)

(* * *)

فلسفة التربية

تطبيقات على التربية في مصر

(إذا لم تكن البطالة ناشئة عن نقص في الشخص نفسه، فهي ناجمة من غير شك عن خطأ في روح تعليمه!!)
(إن من يأنف اليوم من حمل الفأس ومن تلويث يديه بالطين لن يصلح غداً لإصلاح أمره إذا ما ضاقت به الحياة وقسا عليه القدر!)
(لقد أفقدناهم الحماس وا أسفاه، وجعلناهم يقبلون على العلم بخمود دائب، وتحجر متواصل، وبطأ شديد!)
(من رسالة الدكتور جاكسن)
4 - المتعلمون العاطلون
تبينت في المقال السابق بعض نواحي الضعف في التعليم الإلزامي وبعض وجوه الإصلاح، وسترى اليوم ناحية أخرى جديرة بالدرس والعلاج نظراً لما فيها من خطر شديد على كيان المجتمع القائم حاضره ومستقبله:
1 - العاطلون
أترى أولئك المتعلمين العاطلين؟ أتسمع عن جيوشهم في كل مدينة من مدن القطر؟ أتلحظ حقدهم على كل حكومة لم تسلكهم في سلوك الموظفين المجدودين؟ أتتبين تقاعدهم وتسكعهم وعجزهم عن المجاهدة في الحياة إزاء الأجنبي الدخيل؟ ثم نفورهم كبراً وتيهاً من أعمال البيع والشراء وغير البيع والشراء، مما يظنون أنهم لم يخلقوا له في كثير ولا قليل؟
ذلك هو المشكل الذي نبسطه اليوم ونعالجه على ضوء التربية والتعليم! والذي ينبغي على الدولة أن توليه من عنايتها نصيباً موفوراً نظراً لأن أولئك المتعلمين العاطلين خير تربة صالحة لإنماء المبادئ والأفكار التي فيها كما قلت الخطر كل الخطر على كيان المجتمع
نفسه حكومة وشعباً!
تُرى مِمّ نجمت هذه البطالة؟ ومن هو المسئول عنها؟ أفي البلد أزمة اقتصادية عنيفة فهم لا يجدون فيها عيشا؟ وما بال أولئك (الأجانب) يملئون المتاجر والمصارف ويقومون بمختلف المشروعات وينجحون فيها كل النجاح؟ ألست ترى إلى الرومي أو غيره يدخل البلد فقيراً معدماً ثم يغدو بعد سنين صاحب متجر عظيم وملك أعظم؟ أن الخير في هذا البلد كثير، والعيش يسير، ولكن العيب وا أسفاه في المتعلم نفسه وما قد طُبع عليه من كره للعمل والعاملين، وعشق (للديوان) الثابت والراتب المضمون!!
ولذلك يقول الدكتور (جاكسون): أن الخطأ إنما يقوم في روح التربية المعطاة وما يوحيه من أن المدرسة تأخذ بالأيدي من (الطين) حيث الجهد والنصب، إلى (المكتب) حيث الراحة والكلام!! ألست تسمع أنشودة (الوظيفة) من أمك وأبيك وأقاربك وذويك؟ ألست ترى (للموظف) قدراً في المجتمع دونه قدر التاجر أو الصانع أو الفلاح؟ ألست ترى طابع (الحكومة) يميز حامليه ويملأهم عجباً وتيهاً وزهواً وفخراً؟ ألست ترى حولك كثير من ممن يرون في (العمل) حطة لهم ولعائلاتهم مع أنه قد يكون السبيل الوحيد لمعاشهم؟ وأخيراً ألست تشاهد المئات من خريجي المدارس الزراعية والتجارية والصناعية يتكالبون على الوظائف الفنية وغير الفنية، مع أن الدولة قد أنفقت عليهم الألوف لتجعل منهم طبقة فنية راقية تأخذ بيد مرافق البلد الاقتصادية وترقيها، وتحررها من قيود الجهل والتقاليد، وتطبعها بالطابع القومي المنشود؟
2 - العلاج
تلك إذاً هي (الفكرة الخاطئة) التي يجب أن نمحوها محواً بمختلف أساليب التربية والاقتصاد، لأن التربية لا تستطيع وحدها أن تصلح كل شيء. يجب أن نحسن الأسواق القائمة، وأن نفتح أسواقاً جديدة، وأن نعمل كما يقول الأستاذ جاكسون على زيادة (الطلب) ليرتفع أجر العامل ويغريه بالعمل وترك الحكومة، كما يجب كذلك أن نجعل مدارسنا الفنية مسلحة بكل تجديد كهربائي أو ميكانيكي لتستطيع أن تواجه حاجات العصر، وأن تصمد لمنافسة المحصولات الرخيصة التي تمطرنا بها أوربا وأمريكا واليابان، وأن نحول مدارسنا الإلزامية والابتدائية والثانوية إلى نظام آخر يسمح بكثير من (العمل) اليدوي ما

دام العاطلون من خريجي هذه المدارس اكثر عدداً وافدح خطراً من خريجي المدارس الفنية. أفي المدارس الإلزامية (عمل) بالمعنى الساذج البسيط؟ وهل في المدارس الابتدائية غير ساعتين للعمل في الأسبوع منفصلتين تماماً في (عملهما) عن المواد الأخرى؟ وهل يعدو (العمل) في التعليم الثانوي (اللهو والفراغ) عند أغلبية الطلبة الساحقة؟؟

3 - الصعوبة القائمة

وهناك فضلاً عن ذلك صعوبة كبرى هي قبول المدارس الثانوية لعدد عظيم من الطلبة لا تستطيع أن تقبله فيما بعد الجامعة والمدارس العالية لأنها لا تتسع له. ويقول بعض حضرات النظار أن حوالي 30 % من طلبة البكالوريا يقعون في هذا المشكل، ويمضون حياتهم في يأس وقنوط وألم وشقاء. وإذاً فإما أن ينقص عدد الملتحقين بالمدارس الثانوية حتى يستطيعوا أن يجدوا لهم منفذاً في التعليم العالي، وإما أن يصبح التعليم الثانوي نفسه غاية ووسيلة معاً لا وسيلة تعد الناشئ للجامعة فحسب. والحل الثاني أليق بمصر، لأن خمسا وعشرين مدرسة ثانوية للبنين، وسبعا أخرى للبنات، ليس بالعدد الكثير على بلد سكانه خمسة عشر مليوناً!! وإذا فلننظر فيما ينبغي أن يكون عليه هذا التعليم:

4 - الإصلاح المنشود

ينبغي أولاً أن يسود فيه الشعور بأنه إعداد للحياة لا للدراسة العليا فحسب. ويتأتي ذلك فيما يرى الدكتور جاكسن بوضع أساس عملي لا يجني على (كيف) التعليم فيه، وذلك بأن ندخل فيه الزراعة والطباعة وأشغال الخشب والحديد على نحو (جدي) مع تعديل المقرر أو بالأحرى تخفيفه تخفيفاً مناسباً. فمثلاً في السنتين الأولى والثانية: عشرون درساً للغات من أربعة وثلاثين، ودرس رسم واحد، ودرس أشغال لا يقوم به إلا قلائل لا يفيدون. فماذا يمنع من استعمال اللغة في تجارة عملية بدلا من قصرها على هذه الحصص الكثيرة التي لا تؤدي بالطالب بعد تسع سنوات إلى القدرة على الكتابة خطاب تجاري صحيح النحو مستقيم المعنى؟ وماذا يحول بين الطلبة وبين جمعهم لحروف مجلتهم وطبعهم لها بأنفسهم؟؟ ولم لا يزرع الطلبة حديقة المدرسة ويسهرون على تهذيب أغصانها وأروائها بدلا من رجل واحد تعينه المدرسة لهذا الشأن؟ وكيف يتكلم المدرس عن الذباب وخطره والمدرسة ذاتها لا تعمل على منعه من دخول الفصل؟؟

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يجب أن يعنى التعليم بغرس الروح الاجتماعية عن طريق (دراسة المشروعات) والجمعيات العلمية والرياضية والفنية التي تسودها روح التعاون والمحبة والتضحية واحترام القانون، ويجب أن يتاح للمدرس من الوقت ما يساعده على الإشراف التام على أعمال هذه الجمعيات و (العيش) فيها كمرشد حكيم؛ هذا مع غرس السرعة والابتكار والذوق في نفوس الطلبة تلبية لحاجات (رجال الأعمال) الذين يريدون كل حاضر البديهة، حكيم التصرف، جميل الذوق وديع المحضر، مطيعاً للقانون:

5 - التوجيه المهني

ثم لا ينبغي أن يقف الأمر عند ذلك. أن مصر لفي حاجة كبرى إلى توجيه أبنائها توجيهاً سليماً يتفق وميولهم النفسية، ويضمن على الأقل نجاحهم في عملهم وثقافتهم أن لم نقل نبوغهم فيها. والشبان عندنا لا يطرقون أبواب المدارس المختلفة جرياً وراء إشباع ميولهم الشخصية بقدر ما يطرقونها تحقيقاً لمطامعهم القاصرة في مهن محترمة كالقضاء أو الطب أو المحاماة! أليس عندنا من يدخل الحقوق ليكون نائباً أو وزيراً، ثم يفشل أخيراً في موقفه أمام القاضي ويخاطبه كما يخاطب التلميذ الأستاذ؟ أليس عندنا من يدرس الفلسفة ليدعى فيلسوفاً، ثم لا يكون بينه وبين الفلسفة الصحيحة إلا هوة سحيقة من الجهل والاعوجاج؟ كم من مئات الحقوقيين قد أثبت له قدراً في عالم القانون؟ وكم من خريجي التجارة أو الهندسة قد سجل لبلاده فخراً في مجال دراسته الخاصة؟ إنها إذاً لآفة كبرى يجب علاجها علاجاً علمياً صحيحاً ينحصر فيما يسمى الآن (بالتوجيه المهني!) ويستطيع الأستاذ في ذلك التوجيه أن يدرس ميول الطالب الحقيقية لا الوهمية أو المصطنعة، وأن يقدم له النصح والإرشاد على أساس هذه الدراسة يستطيع أن يختبر ذكاءه وميله الأدبي أو الفني أو العلمي باختبارات خاصة

يجرونها الآن في أوربا وأمريكا؛ ويستطيع أن يلاحظه ويدرسه عن كثب طيلة أعوام الدراسة ليضم إلى نتائج هذه الاختبارات درايته الشخصية؛ ويستطيع أن يقول له أخيراً عليك بالآداب أو الحقوق أو الطب أو الصناعة أو التجارة، لأنك لا تليق ولا تنبغ، ولا توفق ولا تسعد، إلا في ذلك الذي دلتني عليه دراستي العلمية وخبرتي الشخصية؛ ثم يستطيع باتصاله بذويه أن يسدي لهم النصح في مستقبل ولدهم حتى لا يقفوا عثرة في
السبيل كما أراد لي والدي يوماً أن أدرس (التجارة) وأنا لا اهضم (الحساب) على الإطلاق!، وأخيراً يستطيع الناظر عملا برأي الأساتذة أن يزود تلميذه بخطاب خاص يحمله كشهادة محترمة لرؤساء المعاهد أو الأعمال التي يريد أن يطرقها كيما يكون (واسطته) فيها. . .
وبذلك وبغيره نوجد أعمالا للعاطلين، وتوفيقاً ونبوغاً للمتعلمين!. . .
(يتبع)
محمد حسن ظاظا
مدرس الفلسفة بشبرا الثانوية الأميرية
إبراهيم بك المويلحي
1844 - 1906
بقلم حفيده إبراهيم المويلحي
تتمة ما نشر في العدد الماضي
ثم سافر إبراهيم بك إلى باريس سنة 1884م وحرر العدد الرابع من جريدته (الاتحاد) بعد صمت أربع سنوات وطبع منها أعداداً كثيرة، وكانت أشد لهجة من أخواتها فاستشاط السلطان غيظاً وحنق على إبراهيم حتى أنه أرسل إلى (أسعد باشا) سفير الدولة العلية في باريس بمذكرة مستعجلة يريد بها إبلاغ رغبته إلى الخديو إسماعيل بأن يأمر سكرتيره (إبراهيم بك) بالكف نهائياً عن إصدار جريدة (الاتحاد) المحررة تحت رعاية سموه
فلما تفاوض (أسعد باشا) مع الخديو اعلمه بأن لا بد له فيها مطلقاً وأنه برئ من تلك الظنون. فما كان من السفير العثماني إلا أن طلب من الحكومة الفرنسية، بناء على رغبة السلطان، نفي المترجم له من فرنسا
ولما كان هذا النفي غير مسبوق بأي محاكمة فقد انبرى المسيو بوددي مورسلي يدافع عن إبراهيم ويستنكر وقوع مثل هذا الإجراء ويأخذ على وزير الداخلية الفرنسية تسليم إبراهيم لأسعد باشا بهذه السهولة، في مقال نشر في حينه في جريدة (الفيجارو) عدد 331 سنة 1884م اختتمه بقوله: (إني أسأل بصراحة المسيو ولدك روسو عن الضرر الذي يسببه وجود إبراهيم بك في باريس. أم هل فقد بلدنا الجمهوري (حق الإقامة) فيه وأضحى غير قادر على منح الضمان الكافي للمحكوم عليهم سياسياً! وإلا فما هو الأمان الذي يمكن أن يجده عندنا كل غريب فقد حق التمتع بمصالح بلده؟ ألا يظن حضرة وزير الداخلية أنه من السذاجة أن ننال بسهولة وبدون محاكمة إبعاد صحفي فرنسي غير راض عن سياستنا الحالية من استنبول أو لندرة مثلاً، لأنه يصدر جريدة عدائية هناك؟!)
إن القبض على إبراهيم بك ونفيه بدون محاكمة لا يعد فقط عملاً استبدادياً، بل أمراً منكراً ربما استحق الاستجواب عنه في البرلمان)
فلما رأى إبراهيم بك نفسه مرغماً على ترك فرنسا بأمر السلطان، سافر تواً إلى بروكسيل) فكتب إليه السيد جمال الدين الأفغاني لما كان بينهما من روابط الصداقة أيام كانا في مصر، يشير عليه بالتوجه إلى لندرة ليتحدا في الدفاع عن حقوق الأمة ونصرة الدين. فاستصوب إبراهيم هذه الفكرة ولاسيما أنه كان غيوراً على دينه، شديد الحب لوطنه. فأبحر إلى (لندرة) وتسنى له التعرف هناك باللورد تشرشيل واللورد سالسبوري وأخذ يعاون السيد جمال الدين في تحرير (العروة الوثقى) وأنشأ لنفسه جريدة (الأنباء) ثم (عين زبيدة) وأفاض فيهما ولاء خالصاً للسلطان، وأظهر حرصاً على صيانة الدولة بانتقاده الشديد لسياسة غلادستون نحو الدولة العلية في ذاك الوقت وبلغ مسامع السلطان عبد الحميد أمر هاتين الجريدتين فسر من خطة إبراهيم هذه وأرسل إليه يستقدمه بواسطة سفيره في لندرة

ولما كان إبراهيم بك لا يتوقع هذا العفو السريع سنة 1303هـ - 1885م ظن أنها مكيدة من السلطان ليتمكن بها من الانتقام منه، فامتنع من الذهاب إليه، وكلف ابنه السيد محمد بك المويلحي - الذي كان بصحبته في إنجلترا - السفر إلى استنبول ليستطلع جلية الأمر

فتوجه محمد بك إلى الآستانة عن رغبة والده، وأرسل إليه خطاباً يطمئنه فيه من جهة السلطان

فدخل إبراهيم بك الآستانة وكتب إلى جلالة السلطان الخطاب الآتي يشكره فيه على عفوه عنه ويعتذر عن تأخره في المثول بين يدي جلالته: (المعروض على سدة أمير المؤمنين، وخليفة رسول رب العالمين، أن العبد لا يصف عفو أمير المؤمنين إلا كما قيل لأخ جلالتكم في الخلافة المعتصم العباسي: (لو علم الناس ما تجدون من اللذة في العفو لتقربوا إليكم بالذنوب). والحمد لله على تلك النعمة التي أسداها أمير المؤمنين لعبده الصادق. وإنما كان تأخيري عن التشرف بسدة الخلافة لأمور هامة في فائدة الدولة والملة قد تم بعضها. وإني ألتمس أن أعرضها على ذات مولانا المقدسة حفظها الله للإسلام)

وبعد أيام طلب السلطان مثوله بين يديه، فأكرم مقابلته وعينه عضواً في مجلس (انجمن المعارف) سنة 1303هـ - 1885م. وكان ناظرها وقتئذ العالم الجليل المغفور له صاحب الدولة منيف باشا، فقدر إبراهيم حق قدره، وقربه إليه وعرفه بالشيخ الشنقيطي اللغوي الشهير

وتصادق المترجم له مع إبراهيم بك ادهم صاحب جريدة (الحقائق) التي كانت تصدر في استانبول، فكان ينشر فيها وصف جلال الموكب السلطاني في كل مرة يذهب فيها لتأدية فريضة الجمعة

ومكث إبراهيم بك في وظيفته هذه عشر سنوات تقريباً من سنة 1885هـ - 1895م. حدث في أثنائها أن كتب بعض الجواسيس إلى السلطان عبد الحميد تقريراً جاء فيه أن إبراهيم بك لا يزال يراسل الجرائد في مصر خفية بما لا يتفق وسياسة السلطان! فما كان من جلالته إلا أن أرسل إلى صاحب العطوفة (كامل بك) ناظر الضبطية لاستجواب صاحب الترجمة والتحقيق معه فيما وصل إلى السلطان

ولقد كان هذا الجاسوس صادقاً في تقريره. وهكذا كانت خطة إبراهيم بك في جميع مراحل حياته السياسية لا يعرف التملق ولا التزلف، ولم تُجِده تلك الرتب والإنعامات الشاهانية عن طريقته المثلى في حبه لمصلحة البلاد والدفاع عنها وانتصاره لها

وقد رأى شطط السياسة من جراء ما يزينه الملتفون حول عرش جلالته، فأخذ ينشر مقالاته الانتقادية في المقطم، وكان يذيلها بإمضائه المستعار: (أحد العثمانيين الأفاضل)

وكان إبراهيم بك في اليوم الذي قبض عليه فيه يحمل مسودة مقالة كان يريد نشرها، فأسقط في يده واخذ يجهد فكره في التخلص منها بأية وسيلة! واتفق أن كان الناظر في هذه الساعة مشغولا بتحقيقات أخرى - وما اكثر التحقيقات في الآستانة - فأمر بإبقائه في غرفة تجاور غرفة التحقيق ريثما ينتهي من استجواب الذين بين يديه

ففكر إبراهيم بك، وهو المنعزل في الغرفة، أن يتخلص من المقالة التي في جيبه خشية تفتيشه، فهم بحرقها، فحدثته نفسه أن رائحة الدخان قد تبعث الشك في إدانته، كما خشي تمزيقها خوف وصول بعض وريقاتها إلى بعض الجواسيس المنتشرين بدار الضبطية. وبينا هو في شغل شاغل إذ سمع صياح ديك فنظر حوله فرأى نافذة صغيرة بحواجز حديدية، ففتح زجاجها وأطل من بين قضبان النافذة فرأى ذلك الديك وحوله أفراخ كثيرة ينقرن في الأرض بحثاً عن القوت؛ فما كان منه إلا أن أخذ يقطع الورقة قطعاً صغيرة ويضعها في فمه حتى تمتزج بلعابه فيمضغها حتى تصير على شكل الحب ثم يرمي بها إلى الأفراخ فتتسابق إلى ابتلاعها حتى أتت على آخرها، واغلق النافذة وحمد الله

وبعد ساعة تقريباً اقتيد إبراهيم بك إلى غرفة التحقيقات وابتدئ بتفتيشه فلم يعثروا على شئ، وبعد مناقشات طويلة أسفر التحقيق عن براءته مما جاء في تقرير الجاسوس، وطير الخبر إلى جلالة السلطان فأمر باستدعائه إلى (المابين)، وأنعم عليه بالرتبة الأولى من الصنف الثاني سنة 1311هـ - 1893م. وصاحبها يلقب (بسعادتلو

أفندم) وهي توازي رتبة الميرميران الملكية التي يلقب صاحبها بلقب (باشا)
وفي نفس هذه السنة قدم الخديو (عباس الثاني) ومعه بعض الوجهاء من المصريين لزيارة الآستانة والتشرف بمقابلة جلالة السلطان (لعرض الشكر والعبودية على أعتاب الخلافة السنية) فرأى إبراهيم بك من واجبه كمصري مقيم في استنبول أن يتشرف بمقابلة سمو الخديو عباس، فذهب إلى القصر الكائن (بدفتر دار بروني) الذي يقيم فيه سموه، ولكن (محمود باشا شكري) أشار على سمو الخديو عباس باشا الثاني لشيء في نفسه من جهة إبراهيم أن يمتنع عن مقابلته تجنباً لخطره وسطوة قلمه. فسوف الخديو تحت هذا التأثير مقابلة إبراهيم الذي خرج حامقاً والشرر يتطاير من عينيه!
ولما كان يعلم أن جلالة السلطان سيدعو سمو الخديو والوفد الذي جاء معه إلى سراي (بلدز) مرت بخاطره فكرة جهنمية يستطيع بها تحريك غضب عبد الحميد عليهم أجمعين! فحرر عريضة من تلقاء نفسه اختلقها اختلاقاً، كأن هؤلاء الوجهاء يرومون رفعها إلى الأعتاب الشاهانية وبعث بها إلى المقطم فنشرها، والتقطتها التلغرافات الأجنبية وترجمتها الصحف الإنجليزية وعلقت عليها ما شاءت أن تعلق، وذهب سفير إنجلترا في تركيا بأمر من رئيس الوزارة الإنجليزية إلى الصدر الأعظم ليستفسر عما أجاب به السلطان على هذه العريضة التي قد تسبب توتر العلاقات بين بريطانيا العظمى والدولة العلية
فحدث من جراء هذه العريضة أن امتنع السلطان عن الإنعامات التي كان يرغب في الإنعام بها على من كان بمعية سمو الخديو كما هي العادة في مثل هذه الظروف، إرضاء لخاطر إنجلترا حتى لا تعتقد أن لهذه العريضة أثراً في نفسه
وإليك صورة هذه العريضة بعد ديباجة الحمد والثناء:
(إن الله عز وجل نظر إلى العالم نظرة رحمة فاختارك يا أمير المؤمنين من بين البرية خليفة على عباده، وجمع فيك شرائط الخلافة وبسط لك من القوة والسطوة، وآتاك من
الحزم والعزم وأصالة الرأي ما يفتخر به هذا العصر على سائر الأعصار، وقرن طاعتك بطاعته وطاعة نبيه في كتابه العزيز، وجعل حبك إيماناً والخروج عن أمرك مروقاً من الدين، وحبب إليك الإقدام لمصلحة الإسلام. دأب الخلفاء السابقين، وأودع في يديك أرواح المسلمين وأموالهم تحكم فيها عن رضى وتسليم منهم. وقد عاهدوك على بذل دمائهم في طاعتك بأيمان البيعة التي ربط الله بها لك القلوب على المحبة في خلواتها ونجواها
فالمسلمون كلهم قاصيهم ودانيهم مجمعون على الانقياد لك في السر والعلانية لا يميل بهم عن هذه السنن قول ولا فعل لتوقف سعادتهم على طاعتك في الدنيا والآخرة
هذا ما جعل الله لك يا أمير المؤمنين، وقد جعل لهم بهذا من جانب جلالتك أن تكلأ بيقظاتك بلاد الإسلام بعيدها وقريبها من طوارئ السوء وغوائل الشر على نسق واحد لا فرق بين مطلقها وممتازها، وأن تدفع عنها كل سائل ومحتال، وأن تذود عنها بالحجة والسيف والقلم وما يمكن أن يدافع به مادياً ومعنوياً
هذه مصر - أيد الله بك مقام الخلافة، وثبت بك أركان السلطنة، ونصرك النصر الوشيك - فريدة التاج العثماني، والقسم الأكبر من السلطنة السنية والطريق الأعظم إلى الحرمين الشريفين. قد أصبحت تمديد الفزع الصارخ إلى عظمتك، وتنظر كالمغشي عليه من الموت إلى حياتها في يدك الكريمة؛ فامنن عليها بالحياة يا أمير المؤمنين، وخلصها ممن تجاسر على حوزة الإسلام بلا حجة ولا قوة، وفي يد جلالتك الحجة والقوة، وهذه أرواحنا رهينة ثلاثة أحرف من عظمتك، فأمرنا بما تريد لنخلص الإسلام المتخبط في تلك الإشراك. وقد بقينا يا أمير المؤمنين سنين عدة معلقين لا ندري أنحن تحت حكم الخلافة والسلطنة السنية فتطمئن قلوبنا، أم تحت حكم هذا الذي دخل في يوم على وعد أن يخرج في غده فبقي إلى الآن تخفق راياته على مساجد المسلمين في بلد هي عش الأولياء ومرقد آل البيت النبوي ومجد جدك السلطان سليم خان؛ فطفق هذا الداخل يستهوينا باسم الحرية التي لا توافق قيودنا الدينية ولا عاداتنا الأدبية فمال إليه جماعة منا، ويوشك أن استمر في سيرة أن يفسد الحاسيات والأخلاق بهذا التساوي المخالف للتفضيل الإلهي

فالآن قد وفدنا على دار الخلافة مع سمو وكيلك المطبوع على محبة جلالتك، المفتخر بنظرات الرضى عليه من ألطاف عظمتك، الواقف موقف السمع والطاعة لأوامرك، راجين
من السدة السنية إجراء الوسائط الفعالة لإخراج هذا الداخل على وطننا وإبعاده عن الأراضي المقدسة التي يدأبون على التدخل فيها، فأنهم إذا استمرا - لا قدر الله - في البقاء بمصر سهل عليهم الدخول فيها وفي غيرها لطبيعة الموقع
(ونسأل الله أن يؤيد جلالة مولانا الخليفة الأعظم وينصره على الباغين
وفي أوائل سنة 1895م سئم العيشة في جو استنبول المكتظ بالجواسيس المختنق بالفتن والوشايات وشعر بالحنين إلى وطنه بعد طول الغربة. فعزم على الرحيل إلى مصر ودبر طريقة سفره في الخفاء على باخرة بخارية قادته إلى الإسكندرية
ولما علم جلالة السلطان عبد الحميد بخبر اختفائه وسفره إلى مصر بدون أن يقدم استقالته، بعث يستعلم بواسطة (مختار باشا) المندوب فوق العادة للباب العالي عن السبب الذي جعل إبراهيم بك يترك وظيفته في (أنجمن المعارف)
فأبدى إبراهيم أسفه لمختار باشا وافهمه أن قدومه إلى مصر إنما هو من باب الحنين إلى الوطن والشوق إلى رؤية ابنيه (محمد) و (خليل)، وأنه لا يدري كيف يشكر السلطان على نعمه
ولما كان إبراهيم بك مشغوفا بالتحرير أخذ ينشر في المقطم من وقت إلى آخر مقالته الانتقادية فيما رآه في الآستانة العلية مدة إقامته فيه تحت عنوان (ما هنالك) ثم جمعها وطبعها كتابا سنة 1896 ميلادية. فبعث السلطان عبد الحميد بأمره بإرسال جميع النسخ التي في حيازته إلى (المابين)! فخضع إبراهيم لأمر جلالته وأرسلها جميعاً إليه ما عدا بضع نسخ كان قد وزعها على عائلته وأصدقائه. لذلك يندر وجوده
وفي سنة 1898م أنشأ جريدة أسبوعية سماها (مصباح الشرق) وقفها على خدمة الأدب ونصرة الدين والدفاع عن حقوق الدولة العلية. وكان يعاونه في تحريرها أبنه السيد محمد بك المويلحي. وكان طلاب الأزهر يقفون على باب المطبعة الساعات الطويلة ينتظرون صدور أعدادها بفارغ الصبر، وكانت تباع بقرش صاغ واحد، وكان يعز مطلبها في اليوم الثاني من صدورها حتى كانت تشترى بخمسة قروش
وكان إبراهيم بك يسافر من وقت إلى آخر للآستانة لمرض ولائه على الأعتاب الشاهانية، وليتسنى له الإطلاع بنفسه على ما في الجو السياسي من أخبار، فكان في كل مرة يعود
مثقلا بالإنعامات والعطايا حتى نال (الرتبة الأولى من الصنف الأول) وصاحبها يلقب (بسعادتلو أفندم حضر تلري) وهي توازي رتبة (روم ايللي بكاربكي) الملكية. لكنها تتقدم عليها في التشريفات
وقد نال حظوة عليا لدى حضرة صاحب السمو الخديو عباس الثاني حتى إنه كثيراً ما كان يكلفه بأعمال سياسية هامة، فكان يقوم بها خير قيام فنال بذلك ثقته. ولم يقف دون رغبة سموه إلا مرة واحدة غضب عليه فيها بضعة أشهر ثم رضى عنه فكتب إليه الخطاب الآتي:
قد وضعني ولي النعمة في بودقة الامتحان وأوقد عليّ بنار غضبه زماناً طويلا كما) اقتضته حكمته، حتى إذا صفاني وخاف على أن احترق نقلني كما اقتضته رحمته وسعته. فأشكر ولي النعم شكرين: شكراً على تصفيتي وتهذيبي، وشكراً على رضاه عني
وقد بعث الله لنبيه الملكين جبريل وميكائيل فشقا صدره صلى الله عليه وسلم، وأخرجا ما يكون بناموس الطبيعة في قلوب البشر، ثم ختماه على الحكمة. وكذلك فعل ولي النعم: بعث إلى عبده فأصبح قلبي مختوماً عليه بطابع الإخلاص والقيام بفروض الخدمة لدرجة التفاني فيها. فلو ذوبوني لم يجدوا في تركيب صدري إلا ثلاثة أشياء: الوفاء والدعاء والولاء، لولي النعماء
كل هذا انتهى وتم على موجب الحكمة العالية حكمة ولي النعم الذي اعتنى بتربية عبيده على هذا الأسلوب الحكيم.
فخدمة الأعتاب السنية هي قبلتي التي اوجه وجهي إليها، وأصرف عزمي إليها. وهذا اعتقادي وهذا قولي وهذا خطي على ذلك والله شاهد ووكيل

وفي سنة 1903 كف عن إصدار الجريدة فجأة! وهكذا كان إبراهيم بك يعطل كل جريدة ينشئها إذا نال منها غرضه
وكان يرسل في بعض الأحيان بمقالاته السياسية إلى بعض الجرائد كالمؤيد والمقطم عندما كان يرى أن حقاً للأمة هضم
ثم أنشأ جريدة (المشكاة) باسم ابنة (السيد خليل بك المويلحي) و (حمدي بك يكن) ولم يصدر منها إلا أربعة أعداد فقط سنة 1905. وفي أواخر سنة 1905 اعتلت صحته فاعتزل السياسة ليعالج مرضه حتى وافته المنية في 29 يناير سنة 1906
ولقد كان المرحوم سريع الخاطر، طيب اللسان، شديد الميل إلى النقد والمداعبة لا يفرق في ذلك بين قريب أو صديق حتى قيل فيه: (لم ينج من قوارص قلمه إلا الذي لم يعرفه)
وكان سريع الفهم، قوى الإحاطة بخفايا الأمور، وغوامض السياسة، ولقد تقلب في أعمال كثيرة بين تجارية وحكومية وصحافية وسياسية، لكنه لم يبلغ الهدف الذي كان يرمي إليه في كل واحد منها مع شدة ذكائه وحدة ذهنه. ولعل السبب في عدم ثباته هذا يرجع إلى طموحه إلى النجاح السريع ورغبته في بلوغ الدرجات العلى طفرة واحدة، فأنه لو ثبت في عمل واحد لبلغ أوجه
ويجمل بنا أن نقول قبل أن نختم ترجمته إنه كان مشغوفاً بتعلم اللغات الأجنبية حتى حذق التركية ومهر في الفرنسية وتعلم الإنجليزية في آخر سني حياته عليه رحمة الله
إبراهيم المويلحي
أبي!!
للأديبة بهية فرج الله زكي
أبي! سلاماً من وراء دجلة! سلاماً عليك من قلب وحيدتك! سلاماً من قلب جريح! سلاماً على الروح السابح في لجة الأبد، سلاماً على الجسد الهامد في التراب!
أبي! لقد مات أبي، وطار البرق الحزين ينعى بقية الأمل إلى القلب الحزين. . مات أبي، وفي مصر خمدت جذوة حياته الذاكية، فانطفأ في العراق مصباح رجائي المشتعل. . مات، وقد كان وهو حي رسول البسمات إلى الثغور، فأصبح وقد مات رسول الدموع إلى العيون
أبي! حتى في ساعة الموت لا أراك! وفي ساعة الوداع لا اطبع على جبينك القبلات، وفي ساعة الرحيل إلى المثوى البعيد، يحول دوني ودونك البحر المائج والبلد السحيق!
أبي! يا منى النفس، ويا روحا ضاقت بها حدود الأرض فطلبت فسحة الحياة في السماء. لماذا استسلمت للكرى فنمت نوم الأبد؟ لماذا تركتني وحيدة وكنت بك جمعاً لا يخذل. . صوتي يملأ الفضاء، وتجاوب أصداءه الأرض والسماء. ولكنى لا اسمع جواباً، فأين أبي؟
أبي! كنت تستلهم السماء خبر الغيب، فهل قرأت في لوح الأجل موعد هجرتك من دنياك الفانية إلى عقباك الباقية، فبكيت حين تحرك بي القطار، وأنت الرجل الجلد الذي يسخر بالعواطف، وجريت مع القطار وأنت الرجل الرزين الذي تخضع جوارحك أبداً لعقلك الكبير، واتبعتني النظر الحائر وما حيرك الدهر المضطرب بالحادثات. . . بلى لقد أحسست بالموت فكتمت سر الموت عن الأحياء
أبي! لأنك تحب العراق آثرت الرحيل إلى العراق؛ البلد الذي لم تبخل عليه بفلذة كبدك، البلد الذي خلت فيه حياة خصيبة لأملك الروحي. . . فلماذا تركتني في وطن قلبك ونزحت أنت إلى وطن الخلود
أبي! لن أنسى ما حييت رسالتك، رسالة المحبة والسلام، وسأظل ذاكرة إلى الأبد ما سطرته إلى يدك وأنت تعالج الموت: (عاشري الناس بروح المحبة. كوني قدوة حسنة، ارفعي الفوارق الموجودة بين الناس. . . إننا كلنا أوراق أغصان شجرة واحدة. . .)
أبي! سأعيش كما عشت بهذه المبادئ، وسأموت لها. وإذا كان الوفاء هو دين الميت على الحي، فان ديني الذي لا أمطله جهاد كجهادك، ودعوة إلى الحب كدعوتك، وذكرى طيبة
ترضيك، وعمل في سبيل الإنسانية يرضى الله
أبي! سلام عليك في الذاهبين، سلام على قبرك بين قبور المخلصين، سلام على وحيدتك الجريحة، سلام على بغداد التي أحببتها وسأحبها من أجلك!

يا شباب الوادي! خذوا معاني لعظمة في نسقها الأعلى من سيرة هذا العصامي العظيم

نجح لنكولن في الانتخاب، فظفر بمقعد في المؤتمر ظل ينزع إليه سنوات أربعا طويلة؛ وكان هذا النجاح كفيلاً أن يبث في قلبه من الغبطة والبهجة بقدر ما بثه فيه الانتظار الممل من السأم والضجر، ولكنه كتب إلى صديقه سبيد ينبئه أنه لم يهتز كثيراً للنجاح كما خيل إليه قبل أنه فاعل إذا ظفر. وتلك حالة من حالاته العجيبة، بل هي حال من حالات النفس البشرية تدعو إلى العجب والاعتبار! فكثيراً ما يتمنى المرء ما ليس في يده حتى لتكون سعادته كلها مجتمعه في أن ينال ذلك الذي يتمناه، فإذا اقترب من بغيته أو شه له أنه مقترب راح يطفر من الفرح، ورأى في كل شئ حوله معاني الحبور والغبطة، وإذا بعد عن ضالته أو خيل إليه أنه مبتعد، ضاقت في وجهه الدنيا وبات من همه كأنه في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج؛ حتى إذا قدر له آخر الأمر أن يرسو على الشاطئ وأن يلمس بيده مبتغاه وقف حياله وقفة من لم يجد شيئاً، وفتحة عينيه على الحقيقة كمن يفيق من حلم ذابت ألوانه وتلاشت أطيافه وتبددت رؤاء. . . ذلك هو غرور الحياة، ولكن ما ألذه من غرور! وما الحياة في جملتها أن هي خلت من هاتيك الأحلام؟

وانقضى عام بين نجاحه وذهابه إلى المؤتمر. ولقد صحبته زوجه إلى وشنجطون العظيمة، وزارت البيت الأبيض، ولعلها كانت تحدث نفسها في زهو أنه في غد مقر بعلها. ومشى ابن الأحراج في المدينة تستوقف الأبصار هيئته إذ كانت لا تزال روح الغابة تصحبه كأنما هو نوع من الشجر جئ به إلى غير منبته. . . وسرعان ما أنس الناس به، فهم إذا جلسوا إليه يشعرون أن روحاً قوياً يسرى إليهم منه وإن لم يتبينوا ما هو؛ وكذلك أخذت تطل عليهم نفسه في فيض من قصصه. . .

أما في المجلس فقد كان أول الأمر بحيث لا يحسب أحد أنه سيكون يوماً من النابهين، ولكنه ما لبث أن بدد هذا الزعم بخطاب احتفل له وجعل له كثيراً من الأهمية، يتبين لنا ذلك فيما كتبه في هذا الشأن إلى صديقه هرندن؛ وكان الخطاب يدور حول الحرب القائمة في تكساس، وجه فيه لوماً عنيفاً إلى رئيس الاتحاد أن خرج بهذه الحرب عن الدستور كما فرط بها في جانب العدالة والخلق

قال لنكولن: (ليذكر الرئيس أنه يجلس حيث كان يجلس وشنجطون، وليجب إذا ذكر كما كان يجيب وشنجطون، وكما أنه لا يليق بأمة أن تهرب من الحق، والله لا يسمح أن يهرب منه. كذلك ليتجنب الرئيس الهرب والمراغة؛ فإذا استطاع بعد ذلك أن يقيم الدليل على أن الأرض التي سالت عليها الدماء أول ما سالت هي أرضنا فإني موافقه فيما يسوق من مبررات. ولكنه إن عجز عن ذلك أو أحجم عنه فإني حينئذ خليق أن آخذ على اليقين ما يقوم في نفسي فعلاً مما هو أكثر من الظن، فأرى أنه يشعر بخطئه، وأنه يشعر أن الدم الذي سال في تلك الحرب هو كدم قابيل يستصرخ السماء ضده)

ولكن تلك الحرب كانت في نظر الناس أمراً مستساغاً لأنها ستضم إلى الولايات أرضاً جديدة، كما أن جيوش الولايات كانت ظافرة فيها. من أجل ذلك لم ينل ابراهام بخطابه من الرئيس، كما أنه لم يظفر بتأييد أو قبول من جانب زملائه. ولقد أحس هو بضعف موقفه ولهذا جعل الأمر في المهاجمة أمر خلق لا أمر سياسة؛ وأخذ يندد بضم تكساس على رغمها ويستنكر ذلك الفعل على الأخص أن كان صدوره من دولة تدعو إلى الحرية وتباهى العالم بأنها أرض الحرية

وكان مما جاء في ذلك الخطاب قوله: (إن من حق أية أمة في أية جهة إذا أحست في

نفسها الميل واستثمرت القوة أن تثور في وجه الحكومة القائمة وتعصف بها، ثم تقيم بعد ذلك من الحكومات ما يكون أكثر ملاءمة لها). وإنا لنراه بذلك يجعل للثورات صفة شرعية، كما إننا نفهم من هذا المبدأ مبدأ آخر جاء ضمنه ألا وهو مبدأ سلطة الأمة ووجودها في أساس كل سلطة!

تلك هي خطبة لنكولن التي احتفل لها وافتتح بها عمله في المؤتمر؛ تراها وإن لم تصب بموضوعها موضع العطف من نفوس أعضاء المؤتمر، قد رفعت ذلك المحامي في أعين رجال السياسة، وعلم من لم يكن يعلم منهم مقدار ما أوتيه ابن الأحراج من قوة المبادهة ومتانة الحجة وفصاحة اللسان، ومقدار ما رزق من قوة الجنان ويقظة الوجدان، ورأوا فيه إلى جانب القصاص الذي لا يبارى، الخطيب الذي يعرف كيف يسحر السامعين وإن كانوا عن آرائه معرضين!.

وكم للتاريخ من مواقف تدعو إلى العجب! فهذا لنكولن اليوم في المؤتمر يندد بالحرب، وقد تعاظمه سفك الدماء وإزهاق الأنفس؛ وهذا لنكولن يقرر حق الشعوب في اختيار ما ترضى من الحكومات. . . ولسوف يتخذ أهل الجنوب في غد من أقواله حجة عليه؛ يوم يهمون بالانسلاخ من الاتحاد وهو يأبى عليهم ما يبتغون، ويعمد إلى الحرب فيصليهم ناراً حامية ويسفك الدماء ويزهق الأرواح حتى يكرههم على الاتحاد وهم صاغرون!

وتهيأت له الأسباب ليسير في البلاد فيزداد بالناس اتصاله ويستزيد منهم أعواناً له ومحبين. فلقد انتهت وهو في المؤتمر مدة الرئيس القائم أخذت البلاد تنتخب رئيساً جديداً؛ وكان حزب الهوجز الذي كان ابراهام من أفراده قد رشح للرياسة أحد زعمائه ويدعى تيلور. وهل نسى إبراهام تيلور وقد كان رئيسه في الحرب ضد الصقر الأسود؟ على أنه على الرغم من محبته لتيلور يأسف أن يراه ممن يتملكون العبيد على نمط أهل الجنوب. . . ولكن لا ضير الآن فهو ممن لا يريدون أن تزداد ولايات العبيد، كما أنه اقل من منافسة من الحزب الديمقراطي تشيعاً لمبدأ اعتناقه العبيد واضعف منه استمساكا به. . .

اخذ لنكولن يجوب البلاد شرقاً وغرباً ويخطب في الناس مؤيداً رجل حزبه؛ فكان إذا قام في جماعة لم يروه من قبل جذب إليه الأنظار بطول قامته وغرابة ملامحه، فإذا أطلق العنان لكلامه سرت في الجموع منه روح عجيبة لا يدرون كنهها وإن أدركوا فعلها. . . ورأوا عينيه تلتمعان حتى ما يعرف الناس أنهم رأوا مثلهما قبل، وأبصروا في ملامحه معاني ابلغ من كل كلام، واعمق أثراً من كل حجة. . . والخطيب ينتقل بهم من مثل إلى مثل ومن حكاية إلى حكاية؛ ثم يرسل الجملة بين حين وحين، فإذا هم يضحكون ملء نفوسهم؛ وهو في حماسته يشمر ردني حلته ويفعل مثل ذلك بقميصه. ولقد يحل رباط عنقه

أو ينتزعه من موضعه كأنه مقبل على مبارزة! ولا يكاد يفرغ من خطابه حتى يهرع الناس إليه متدافعين بالمناكب لكي يزدادوا نظرا إليه من كثب. . . وظفر تيلور بالرياسة، وعرف لإبراهام يده وحسن صنيعه. . .

وكان مما صادفه في تجواله هذا أن استمع في بوستن إلى خطبة من أقوى الخطب التي وجهت ضد امتلاك العبيد، وقد ألقاها رجل من كبار الداعين إلى التحرير، هو سيوارد ذلك الذي سيكون له في غد شأن في هذا الأمر مع لنكولن حين يهم بتأدية رسالته. استمع لنكولن إلى الخطبة في بوستن واستشعرتها نفسه، وكان مما عقب به عليها قوله: (أعلن أنك محق. لقد آن أن نطرق معضلة العبيد وان نلقي إليها من اهتمامنا بأكثر مما كنا نفعل من قبل)

وفي عودته إلى وشنجطون أخذ يعضد حركة أخرى كانت موجهة ضد العبيد على يد داعية آخر من دعاة التحرير، هو ولت الذي كان يدعو بكل قواه إلى منع انتشار العبيد في الأراضي التي تستخلص من المكسيك؛ وفي المؤتمر تقدم لنكولن يطلب القضاء على العبودية في ولاية كولومبيا وفي عاصمة البلاد، وكان في مقترحه عادلا يجمع إلى العدالة الكياسة وبعد النظر، ولكن ذلك المقترح وا أسفاه قد حيل بينه وبين أن يكتسب الصفة الشرعية إذ عمل رجال المؤتمر على تأجيله مخافة أن يثير من الجدل ما لا يحبون، حتى أوفى دور الانعقاد على الانتهاء فاعتذروا من عدم النظر فيه على الرغم مما بذله لنكولن من جهود وما أنفقه من حيلة. . .

وانقضت أيام ذلك المؤتمر، وهو المؤتمر الثلاثون في تاريخ الولايات وعاد لنكولن وهو يخطو إلى الأربعين ليعيش من جديد في سبرنجفيلد. . .

عاد ابراهام إلى سبرنجفيلد وهو يحس بينه وبين نفسه مرارة الهزيمة في السياسة، فلقد خذله رجال المؤتمر في مقترحه كما رأينا وأعرضوا عن خطبته التي وجهها ضد الحرب في تكساس، تلك الخطبة التي لامه عليها الكثيرون من رجال حزبه حتى هرندن نفسه احب أصحابه إليه

لذلك انصرف عن السياسة وعاد من جديد إلى المحاماة؛ بيد أن رجال حزبه يزينون له أن يطلب منصباً رسمياً ويشيرون إلى حقه في ذلك وهو من جانبه لا يحجم فيطلب إلى الرئيس أن يهيئ له منصباً ثم يزيد فيطلب منصباً معينا لا يلبث أن ينافسه في السعي إليه آخرون حتى يفلت من يده، ويريد الرئيس أن يجامله فيعرض عليه منصباً غيره؛ ولكن زوجه تقف بينه وبين هذا المنصب، وتصر على موقفها معلنة أنها لن تقبل لزوجها عملا يعود بهما إلى الأدغال حيث كان مقر ذلك العمل واحدا من تلك الأصقاع الداخلية؛ ويرفض ابراهام المنصب آخر الأمر، وهكذا نرى زوجه للمرة الثانية حريصة على أن توليه القبلة التي لا ترضى له غيرها قبلة. . .

وكانت المحاماة وظيفته الطبيعية إذا فرغ من السياسة إلى حين؛ فما باله يريد أن يتنكب طريقه ويستبدل بعمله عملا آخر لا يتصل بطبعه ولا يستقم مع خلفه؟ ما باله يريد أن يحيد عن الغاية وقد قطع في سيره إليها شوطاً ليس باليسير؟ ترى ماذا كان يحدث لو أنه كان غير وجهته واخذ له غاية غير غايته؟ ولكن الدهر يضمن به ويدخره لغد ويأبى أن يغير تاريخ قومه بطمس رسالته. . .

عاد من السياسة إلى المحاماة عودة ظن الناس معها أنه يقرب السياسة بعد ذلك؛ وكان قد ترك العمل كله لصديقه هرندن؛ وهو اليوم في المحاماة أعظم خبرة من ذي قبل وأكثر معرفة بأحوال الناس وشئون حياتهم

وكان من أبرز صفاته سرعة أُلفته للمواقف الجديدة في حياته، وترك مواضيها حتى تبعثها الأسباب. لذلك أقبل على المحاماة إقبالا لا يظن امرؤ معه أن قد كانت له صلة بمهنة سواها، وكأن العمل في السياسة لم يكن إلا عارضاً مر وانقضى فليس إليه رجعة. . . هذا والسياسة مستكنة في نفسه ومعضلة العبيد في أعماق وجدانه تنتظر أول صيحة لتبرز من جديد وهي أعظم قوة واشد وضوحا واكثر اقتراباً من الغاية. . .

وضاق ابراهام ذرعا بما تثيره زوجه من عوامل الشقاق فهي ما تفتأ تريه التبرم والسخط وتأخذ بألوان من العنف يوشك أن ينفذ لها صبره ويطيش حلمه، لولا أنه يعود بالسبب على مزاجها الحاد؛ وإن كان ليسأل نفسه بين حين وحين أهي مغضبة عليه حانقة لما أصاب من فشل في السياسة، فما تزال تتعلق بأوهى الأسباب لمجادلته ومغاضبته وقد صغر في عينها وهان لديها شأنه؟. . . ولكنه يحس من زوجه أنها على شغفها بتعنيفه تضمر له المحبة والإعجاب كعهده بها فيطمئن قلبه ويرد الأمر في هذا الشقاق إلى ما يعرف من طباعها

ولكن الشقاق متصلة حلقاته وإن وهت دواعيه؛ والمدينة أضيق في عينه اليوم منها قبل، وهو ابن الإحراج والغابات والبقاع المترامية؛ وهو الذي لم يألف الاستقرار في موطن. لذلك عود على أن يعمل في المحاكم المتجولة فيقضى اشهراً بعيدا عن المدينة وعن بيته، يتبع المحكمة أينما سارت، إذ كانت المحاكم يومئذ في تلك الأصقاع هي التي تذهب إلى الناس!

وبرزت في المحاماة مواهبه من جديد وظهرت خلاله، وأخذ ينشر مبادئه بالعمل لا بالقول. جعل الحق رائده والصدق شعاره كما جعل مرد كل شئ عنده إلى معاني الإنسانية والفضيلة لا إلى أصول القانون وملابساته. وليس معنى ذلك أنه أهمل جانب القانون كلا إنما كان يهمل جانب القانون إذا أدت ملابساته إلى التعمية وإظهار الباطل في زائف من ثياب الحق؛ ولذلك جعل الفضيلة فوق القانون، والصدق فوق المهارة في الحوار واللباقة في المجادلة. وكان يحث أصدقاءه من المحامين ومحبيه من الناشئين على ألا يفرطوا في جنب الفضيلة قائلا في صراحة وفى بساطة: أن هناك رأيا شائعاً في الناس مؤداه أن المحامي رجل يتهاون عادة في حق الأمانة؛ ولذلك فلا بد من أن يتمسك المحامي بالأمانة فيما صغر أو كبر من الأمور لكي يدرأ تلك التهمة

الشنعاء عنه وعن طائفته. ومن عباراته الشهيرة في ذلك قوله: (يجب أن تثبت في المهنة روح الفضيلة لكي تطرد تلك الروح الأدنين) وقوله ينصح أحد الناشئين: (أعمل على أن تكون محامياً أميناً. فإذا لم تستطيع أن تكون أميناً وأنت محام فخير لك أن تكون أميناً وألا تكون محامياً)

أما عن مسلكه في معاملة الناس فظل هو هو الرجل المتواضع القنوع. كان يرضى بالقليل من الأجر إذ كان يعتبر طلب الأجر الباهظ من اكبر آثام المهنة. ويذكر أنه دافع مرة عن حق رجل في مبلغ ستمائة دولار ولم يتقاضه أجراً على ذلك سوى ثلاثة ونصف! ويذكر أيضا أنه لم يتفق على الأجر مرة. فلما ربح القضية أرسل إليه موكلوه خمسة وعشرين دولاراً، فرد إليهم عشرة منها قائلاً: أن ما بقى هو ما يستحقه!

وكان أينما حل يأمر القلوب بسجاياه، فهو لا يتكلف ما ليس له. ولذلك كان يخالط الناس كأنه أحدهم، يضاحكهم ويلاطفهم ويسرى عنهم بأقاصيصه، والناس يفطنون إلى عذوبة روحه وطيب قلبه ويقظة وجداته، فيفرحون أن عرفوه ويحرصون اشد الحرص على مودته. ولا فرق عنده بين غنيهم وفقيرهم أو بين كبيرهم وصغيرهم، حتى الصبية كان يغمرهم بعطفه فيذهب أحيانا إلى جماعاتهم يتفرج على ألعابهم لحظة، ثم إذا هو بينهم طفل كبير. ولا عجب فقد كان قلبه الكبير مليئاً بمعاني الإنسانية في نسقها الأعلى. وتلك لعمري هي العظمة الحق التي تعمر قلوب بعض البشر فتسمو بهم عن بشريهم وهم بين الناس يعيشون كما يعيشون

وكان في لمحكمة كما كان في خارجها الرجل المتواضع العف يدخل وجيوبه منتفخة بأوراقه، وقبعته ثقيلة بما حوت، لا يعرف أبهة المظهر وقد سلم له الجوهر، ولا يدرى ما التطاول والتعاظم وقد عظم حتى صارت العظمة هي كما يفعل!

كان الصدق في الدفاع أول وسائله في الإقناع. وقد يتبين له أثناء دفاعه أن الحق قد ألبس عليه بالباطل فيترك القضية لأنه لا يستطيع أن يلائم بينها وبين طبعه، أو أن يرفعها إلى مستوى حماسته وصدق شعوره. على أنه ما كان ليفعل ذلك لو أنه استطاع. وكان المنطق السليم والإنصاف بعد ذلك أدواته ووسائله؛ يضاف إليهما الدراسة الدقيقة لما ينهض له، والإحاطة بجميع تفاصيله. هذا إلى ما امتاز به من صفاء الذهن صفاء يساعده على تبين الطريق إلى غايته في يسر ووضوح، حتى ما يلتوي عليه امرأ ويغرب عن ذهنه حادث

وعرف عنه فيما عرف الأناة حتى لقد كانت تغضب منه زوجه وترميه بالبلادة. وكثيراً ما تبرم صديقه هرندن وتململ لأناته. فانظر إلى إبراهام يسأله أن يأتيه بمبراة وسكين فإذا أحضرهما قال له: أن سلاح تلك المبراة أقصر وأحد ولعلك تظنها بذلك انفع من السكين إذ هي اسرع، ولكن أيتهما أبعد من الأخرى غوراً إذا نفذتا في جسم؟ ويقتنع صاحبه بعدها أن التأني في الأمور أبعد في سير الأمور غوراً، ولا يشتكي بعد من أنانه ويطيق معه صبراً!

وكان مما يهابه منه المحامون تهكمه، فهو يعمد في دفاعه أحياناً إلى التهكم اللاذع فيزلزل به قدمي خصمه حتى ليذهل عن رشده بين ما ينبعث من جوانب القاعة من الضحكات. . .

وكان إذا جاءه أحد الناس يطلب إليه المدافعة عنه استفهمه حتى يستقصي خبره، وهو على طيبة قلبه يقرأ في وجه محدثه إمارات الكذب إذا هم أن يكذب، فما يزال به حتى يرده إلى الصدق في مهارة دون أن يسيئه في شعوره! فهو وإن لم يك من الماكرين لا يقدر أحد أن يمكر به. فإذا جاء دور الأجر طلب إلى موكله أن يدفع ما يستطيع. فإن كان موكله مملقاً

فكثيراً ما كان يكتفي من الأجر بالثواب وبالجميل يغرسه في قلبه. ذلك ما حدث حين قام يدافع عن ابن متحديه القديم ارمسترنج وقد اتهم في جناية فانه لم يتقاضه على تبرئته أجراً إلا المودة

(يتبع)

الخفيف

تطور الحركة الأدبية في فرنسا الحديثة

فرديناند برونتيير

1894 - 1906
للأستاذ خليل هنداوي
- 2 -
نقده التطوري
كان (برونتيير) في نقده معارضاً اشد المعارضة للنقد المنفعل وزعيمه (جول لميتر). والنقد الشكي وصاحبه (أناطول فرانس)، كان يؤمن بأن في خارج عوالمنا حقيقة معهودة وأن ليس حقاً أن تكون الآراء مختلفة وأنواع المذاهب عميقة التباين إلى غير حد. إذ في الإمكان أن تعرف - وبمقياس خاص - أن نحلل فنحد تاريخ أثر ما، وأن نفسر أخلاق كاتبه، وندرس تاريخ بيئته كما صنع سانت بوف وأن نعمل خيراً مما عملوا. يمكننا هذا ويجب أن نناقشه. أما النقاد المنفعلون فيعملون على ألا يبدوا إلا انفعالاتهم دون أن يجزموا بها. على أن هنالك قواعد كثيرة مرهقة دقيقة تخص الأدب والفن، تجبرنا على أن نناقش الآثار الأدبية ونعمل على تصنيفها وبحسب هذه القواعد شن (برونتيير) الغارة على الواقعية والرمزية، وهنالك شئ غير هذا يتعلق بالقواعد الفنية فنظرية الفن من اجل الفن نظرية خطرة يجب ألا تقفنا مجردين إزاء الخير والشر في الأخلاق، إن أرادوا أو لم يريدوا، فإن أثراً ما قد يثير تأثيراً حسناً أو سيئاً. ومن واجبهم أن يقضوا عليه مهما كانت بواعث المؤلف إذا كان تأثيره تأثيراً خطراً. والناقد في نظريته هذه يوافق تلميذ بول بورجيه.
وقد أراد - برونتيير - أن يعطي نقده صفه علمية، وقد زعم أنه اكتشف قانوناً يحيط بالأنواع الأدبية ويصنفها، يقول: إن الأنواع الأدبية مهما كانت البواعث عليها من ضرورة أو حاجة أو بيئة، فهي مثل الأنواع الحية للأحياء التي درسها (داروين). (كل شئ يتطور. لا شيء يبقى ساكناً. كذلك الأنواع الأدبية تتطور، تمشي حيناً إلى صلاح وحيناً إلى فساد، وقد درس الشعر العاطفي والقصصي وبنى نقده على مذهبه التطوري. وإذا لم يبقى
لبرونتيير شيء من هذا المنطق العلمي فإن تطوراته جاءت تحتوى تنظيما للتغيرات الأدبية، تصنف الآثار الأدبية كما يصنف علم الطبيعة أنواع الأحياء. وكان لنقده تأثير كبير في الأندية الأدبية. ولم يكن هذا النقد يعتمد على الأحوال العلمية فحسب، بل كان يرجع إلى التاريخ وإلى معرفة واسعة للآثار والنصوص. وذلك ما كان مجهولاً قبله، ولقد كان قبل كونه نقاداً محارباً نقاداً قاسياً ذكياً. فهو وحده أعلى شأن الكتاب المهملين وشأن كل الحركات الفكرية المهجورة لأنها لم تأت في أثر مذكور، أو قول مأثور. وكان ذا موهبة خطابية يعلمها من كان يشهد محاضراته، وتشهد عليها تلك الأفواج الكثيرة التي كانت تسحرها لهجته ويفتنها بيانه
أدب الحياة
إن المدرسة الرمزية كالمدرسة البرناسية تعمل على الانطلاق من حياة الجماعات، لا يؤلف أصحابها إلا لأنفسهم خاصة. فهم ينظمون شعراً لفئة خاصة، وإذا هم ترنموا بالحياة لم يترنموا بالحياة العامة التي يظهر فيها القطيع الإنساني قطيعاً بائساً يمشى على إيقاع القوات الحاكمة. والعودة إلى الأدب الاجتماعي ومحو التشاؤم (البرناسي) قد ولدا مدارس وآثار تريد أن تترنم بالحياة وتملأها شدواً وحناناً وجمالاً. وقد أسس (بوهيلي ومونتفورو موريس) مذهباً بعيد للإنسانية جمالها البطولي، وينظم الروابط التي تصلها بالوجود، وينير شعاعها القوي في الطبيعة. وهذا الشاعر (فرناند جميك) يذود عن الإنسانية التي تحتل مكانها في الوجود بواسطة الإنسان. وبعد هذا فإن الوحدة التي أعلنها (جول رومان) والتي تسعى إلى التعبير بصورة رمزية لا عن نفس ولا عن أنفس، ولكن عن النفس الإنسانية عامة التي تبدو حيناً متحدة وحيناً منقسمة. هي النفس الحقيقية العميقة من النفوس البشرية، ومن أظهر آثاره في هذا المعنى (الجيش في المدينة)
ومثال ذلك من الشعراء مقاطيع (أميل فارهارم) الشاعر البلجيكي. ولد في (سانت راماند) بالقرب من (أنفرس) سنة 1855. وقد درس الحقوق في أول عهده ثم وقف حياته كلها على الشعر، ودرس خلال ذلك أسرار النفوس الخفية. ومات سنة 1916 عاش (فارهارم) وتثقف في بلد هادئ، وفي قلب أسرة متدينة غنية بالعافية مطمئنة

القلب. ونشأ هو درّيساً مرحاً وإنساناً يجنح إلى الطرب. وبعد أن قل ميله إلى المدرسة الكلاسيكية
ونزوعه إلى لامرتين وهو جو أخذ ينظم شعراً واقعياً حساساً. ولكنه استنفذ قواه، أو أن
قواه كانت اضعف مما كان يظن، فأصابه بلاء في صحته، حتى أصبحت أعصابه
المتوترة لا تستطيع أن تحتمل أية ضجة، لا وقع لحن ولا وطء قدم. وهذا بلاء تولد عن
بلاء نفسي. فلقد كانت طفولته مشحونة بالأساطير، طافحة بالتقوى والاعترافات
والصلوات! ولكنه شك فجأة وجرب باطلاً بأن يستعيد إيمانه، فكان أن فرّ الإيمان وأقبل الألم
فأخذ يجد في السياحة في أطراف البلاد طالباً التعزية لنفسه فكتب ونظم. . . وفى
هذه الفترة أصاب وطنه أزمات اجتماعية عنيفة حتى أقوت القرى من سكانها، وعفت
المدن بمن استهوتهم بألوانها. ولكن (فارهارم) عاوده الشفاء رويداً رويداً، فعاد يجد
الحب والإيمان. أما الحب فلم يتكلم عنه إلا بمقاطيع محجبة ولكنه يبدي إيمانه به.
فالمدن قد فتحت اذرعها إلى القرى لتخليها من أهلها ولكنها - برغم عيوبها وشرورها -
قد أوجدت العزم والقوة. وإنها لقوة مشوشة، ولكنها جميلة مخصبة لأن البرية
المنجذبة أخذت تموت. فلتترنم الآن بالقوة التي تحيي الموات. هذه هي ألحان الحياة الحاضرة. . .
ولكن شفاءه لم يجعل منه إنساناً صافى الشعور. فقد ظل على ارتعاشه وهيامه
الباطل. وقد علمنا أن له - منذ طفولته - إحساساً عصبياً عنيفاً، وبعض الذكريات من
هذه الطفولة قد ولدت فيه أنواعاً من حب الأسرار ناهيك بطغيان المخيلة عليه. وقد
جرى خلف مدارس أدبية حديثة، فاستمد من شوبنهاور ومن بودلير ومن فرلين ومن
مالارمي. فكان هو ومعه فئة من بني قومه أسسوا الفن الحديث في بلجيكا الحديثة،
وكانوا ينشرونه في المجلات الرمزية. وهذه الرمزية كان مزاج شاعرنا يميل إليها
هنالك صور مفاجئة تتولد من نفسه في ظلمة نفسه بصيحة من نفسه، أو حلم أو حالة
مجهولة، ومنها تتولد صور أخرى تحف بها فتكون قصيدة رمزية، لأنها ليست مظهراً
عددياً للتأمل. ولكنها نوع من هذا الهيام الباطني حيث كل خيال يعكس حالة من حالات النفس، وكل نغمة تمثل فكرة موزونة
وهكذا قدر لشاعرنا أن يعبر في ديوانه (القرى الباطلة) و (البراري الهائمة) عما لا
يقدر عليه شاعر آخر من معاني تفر من الوضوح ومن التعبير الواضح. فكان بهذا
شاعر المطر والريح والسكون وكآبة الهجر والعزلة. وكان بهذا شاعر الكآبة المنجذبة الشاردة للأشياء.
ولكن سرعان ما شفي من هذه الحالة النفسية فلم يعد يميل إلا إلى الطرب والنور.
وبدلاً من تلك المطاحن السوداء والمآسي وحفاري القبور وكل ما يبعث على الأسى
اخذ ينظر إلى السنابل المتحركة والمطاحن الفرحة ويسمع الصراصير ويفهم كل
أشكال النور والخصب وفرح الحياة. ألم يكن يجد في كل حالة شقاء له وكمداً دون أن
يقدر على الفرار من هذا الكمد! كان يحيى في عالم صاخب، ومذ عاد إليه إيمانه
الاجتماعي وتفاؤله نشأ عنده ميل إلى كل ما يرن ويدوي، وإلى كل ما لا يسقط
كالسهم في النور. وإنما ينساح كالجدول المناسب في الغابة. فتش فوجد الشعر
العاطفي هو الذي يقدر أن يعبر عن هذا الشعر للحياة الهامسة المضطربة، هذا الشعر
الخطابي حيث تدور الفصاحة فيه وتسيطر عليه. وأطياف من الصور القاسية التي
تنتهي بالذوبان في شبه وحدة متحركة في الإيقاع الناعم القاسي لحياة لا تجري على نظاماً متبوع!

خليل هنداوى

رسالة الشعر

الباحث

للأستاذ عبد الرحمن شكري

المقدمة

قد صور كثير من المفكرين والشعراء حياة الإنسان عصراً بعد عصر كأنها حياة إنسان
واحد أو كأنها بحث متصل دهراً بعد دهر، وهذا البحث هو ما يزكون به حياة الإنسان وما
يعذرون به شقاءها وآلامها ويأملون آمالاً كباراً من وراء تقلب الإنسانية في بحث

الحياة. ومن هذه الآمال رجاؤهم أن يعم الشعور بوحدة الإنسانية على اختلاف الأجناس والشعوب والمطامع والضرورات والمطالب والنزعات النفسية، ويأملون إذا عم هذا الشعور بوحدة الإنسانية أن يقلل الإحساس العام بوحدتها من البغضاء والشرور والحروب والآلام والجشع، وأن يؤدي إلى التعاون على الحياة بدل التقاتل عليها. وهذا البحث الإنساني المستفيض دهراً بعد دهر للحياة وما يدعوا إليه من الإحساس بكل شعور وكل حالة من الحالات كي يعم مبدأ وحدة الإنسانية هو الذي دعا إلى تخيل إنسان يعيش دهراً بعد دهر في كل حال وفي كل مكان حتى يملأ العطف قلبه ويرى أن نشدان الحق غاية الحياة، وعلى فرض أن هذا الأمل الكبير في أن يعم الإحساس بوحدة الإنسانية حتى تنمحي شرور الجشع في التقاتل عليها لن يتحقق فأن بقاءه كمثل أعلى مما يخالط مرارة الحياة بحلاوة منه

وعلى فرض أن المثل الأعلى لا يكون في تحقيق وحدة الإنسانية؛ ففي القصيدة مثل آخر وهو أن نشدان الحق هو الشعلة المقدسة التي ينبغي أن يرعاها الفرد، وأن ترعاها الإنسانية عامة

القصيدة

بينما كنتُ سائراً لاح شيخ ... ذو سكون ونظرة هوجاء
ويكاد الضياء ينفذ منه ... فهو بين الأنام صنْوُ الهواء
باحث في السماء يطلب شيئاً ... غاب عن عين غيره في السماء
وهو فينا جزء من الزمن الأ ... ول ذكرى لسالف الآباء
وجهه رائع كوجه أبي الهو ... ل رأى ما مضى على الغبراء
قلت يا شيخ ما دهاك وما شأ ... نك بين الأموات والأحياء
قال من يدرس الحياة طويلاً ... لَخَلِيقٌ بِضَحْكةِ الجهلاء
كنت والكون في الطفولة أغدو ... وشباب الأيام في الغُلواء
وصرعت المنون حتى لأنسا ... نِيَ طولُ الحياةِ حُكْمَ الفناء
دُوَلٌ قد أتت وأخرى تَقَضَّتْ ... وبقائي بين الأنام بقائي
وشهدتُ الصروف من قبل عادٍ ... والمنايا تَجُرُّ ذيل العَفَاء
أنْشُدُ الحقَّ لست ألْوِى إلى البا ... طل فالحق يُطَّبى بالرجاء
عشت دهري بالبحث والأمل الحل ... وولولاه لم أَفُزْ بالنجاء
من سهام المنون إنَّ سهام ال ... موت فينا كثيرة الإصماء
هِمْتُ يوماً من قريتي أنشد الح ... ق لعلي أراه في الدهماء
عِفْتُ بيتي وبلدتي وهجرت ال ... أهل أبغي ريَّ النفوس الظِماء
ظمأ النفس مثله ظمأ الجس ... م وداء النفوس كالأدواء
زعم الناس بي الجنونَ وخالوا ... طالب الحق أخرق الأحياء
كلما لاح شامخ قلت إن ال ... حق يغدو مِنْ خَلْفِهِ بإزائي
ورَعَيْتُ الظلماء عَلِّى أراه ... خارجاً من سرائر الظلماء
وجزعت الصحراء أرجو لقاء ... منه يُرجَى في وحدة الصحراء
ولكم غُصْتُ في العُّبَابِ عليه ... إنما الدر منه في الأحشاء
وأثَرْتُ الأصداء أبغي جوابا ... لسؤالي في منطق الأصداء
وسألت الرياح عنه فَصُمَّتْ ... عن دعائي فلا تُجِيبُ دعائي
وسألت السماء تبرز وجها ... منه يَبْهَى في الأفق جَمَّ الضياء
وأعارَتْنِيَ الطيورُ جناحا ... أرتجي منه لقية في الفضاء
طالما خاب ناشد الحق لك ... ن رجائي كما عهدتُ رجائي
قد يجيء الصباح منه بوجه ... طالما كان مُصْمَراً في الخفاء
أو تُبِينُ الأحلام منه ضِياءً ... في سماء الأحلام مثل ذُكاء
قد صحبت الأنام طُرًّا كأني ... بينهم في تَنَوُّنِ الحِرباء
كان لي نوح في السفينة خِدْناً ... فنجونَا من مُهْلِكِ الأنْوَاءِ
وحباني أشور في نَيْنَوَى العُظْمَ ... ي بِسَيْبٍ من جوده وثناء
ورآني فرعون أُقْدِمُ في الجي ... ش مُشِيحاً ورافعاً للواء
وتَجَلَّى آمون في معبد الأق ... صر يقضي في شعبه بالقضاء
ولكم جُلْتُ في أثينا وأفلا ... طون يتلو فصاحة الحكماء

ورأيت الرومان في رومة العُظْ ... مَى عظام الأعمال والأهواء
وصحبت المسيح في القُدْسِ دهراً ... وحباني من روحه بالصفاء
وعبدت النيران قِدْماً ولكن ... قد سما بي الإيمان للسمحاء
وحمدت النعيم والترفَ الوا ... فر قِدْماً في صحبة الخلفاء
وحَسَوْتُ النعيم والبؤس حتى ... لم أَدَعْ كأس لذة أو شقاء
وصحبت العبيد في ظُلُمَاتِ الع ... يش حتى جُنِنْتُ بالضَّرَّاء
وأَلِمْتُ الآلام طُرًّا وَلُقِّي ... تُ عذاباً أُتيح للتعساء
وصحبت الوحوش في البيد حتى ... أَنِسَتْ بي الوحوش في البيداء
وأرقت الدماء في الحرب حتى ... جُنَّ قلبي من نشوة الهيجاء
لم أدع خَطْرَةً أُتيحَتْ ولا مع ... نى ولا فكرة من الآراء
أو شعورا أو هاجسا أو طموحا ... لا ولا مَشْهِداً تركتُ لرائي
أنشد الحق بالتقلب في العي ... ش وأبغي سريرة الأشياء
أنت أيضاً شهدت هذا جميعا ... غير أن لا تُعَدَّ في الفطناء
قال ما قال ثم غاب عن العين ... كما يخفت الصَّدَى في الهواء
عبد الرحمن شكري
في سكون الليل
للأستاذ إبراهيم العريض
غفا الكَونُ. . إلا ما يكونُ من الصبا ... إذا حرّكت مهدَ الزهورِ النواعس
تخالينَها - يا ميُّ - طُهراً مجسَّما ... على كل غصنٍ في الخميلة مائس
ويحبسُ من أنفاسِها الليلُ ريثما ... يخالطُها بَردُ الندى المتقارس
فُترسِل طيباً حولها في دوائرٍ ... تدورُ إلى أن يغمرَ الطيبُ هاجسي
وقد سكنت حتى المياهُ كأنَّها ... هنالكِ تُصغي في الظلام لهامس
يصقَلها مرُّ النسيم فتنجلي ... بها صورُ الأشياء شبهّ رواكس
وينظرُ في مرآتها النجمُ حائراً ... فليس يرى إلا شرارةَ قابس
أنزعمُ أن اللهَ أبدعَ هذِه ... لنقضِيَ ريحانَ الصِبا في المجالس
ولا طيرَ إلا وهوَ طاوٍ جناحَه ... على الرأسِ حتى المنكبين كبائس
تخالينَه من هَيئة الشكل ناعساً ... ولكنهُ - يا ميُّ - ليسَ بناعس
فإن لذكرى كل لحنٍ شدا به ... سحابةَ يومٍ هزَّةً في المغالس
تؤرّقُه تلك الهواجسُ موهِناً ... فيشفِق من جَرّاء تلك الهواجس
وكم دوحة في الروض حالَ سوادُها ... بأنوارِ بدرٍ شعَّ بين المغارس
فألبسَها من نسجِه بعد عُريها ... وشاحاً لجينيَّ السنا كالعرائس
وتحتَ شُعاع البدرِ أسفرتِ المنى ... وعانيتُها تحنو حنوَّ الأوانس
تعالى هُنا نخلُدْ من العُمرِ ساعةً ... يداً بيدٍ في نجوةٍ وتهامس
إبراهيم العريض
القصص
شارلس لام يروي عن شاكسبير
قصة الشتاء - 3
بقلم الأستاذ دريني خشبة
تتمة
والتفت الملك إلى فلوريزبل يقول: (مرحباً بك يا ابن اعز الأحباب وأوفى الأصدقاء! لقد فقدت محبة أبيك الذي أهفو إليه وأحن له، وبنفسي ما ألقى من الشوق للقائه! ولكن. . . بحسبي أن أنظر إليك فكأنما أنظر إليه. . . وبحسبي أن انظر إلى الأميرة الجميلة، فكأنما أنظر إلى هرميون!
- ومن هرميون يا مولاي؟
- هرميون! ويلاه عليّ! إنها زوجتي المغفور لها يا بني! لقد ماتت منذ ست عشرة سنة. . . وفقدت كل شئ بموتها! حتى ابنتي الوحيدة التي لا أعلم أين تعيش اليوم إن كانت ما تزال حية! آه يا هرميون! لشد ما تشبهك هذه الأميرة الصغيرة! ولشد ما تنطبق صورتها على صورتك في ذهني المعذب بذكراك! آه يا بُنيتي! أين أنت اليوم لأفتديك بملكي ونفسي!)

ثم انحدرت عبرات من عينِي الملك، فازدحمت الآلام في قلب الراعي، وتأكد أن ابنة الملك هي برديتا الحبيبة التي وجدها في الغابة؛ ثم جعل يستعرض براهينه، فذكر الجواهر التي كانت الواحدة منها تشري له قطيعاً بأكمله، وأيقن أنها لا تكون إلا مما يقتني الملوك. . . ثم ذكر ما هو مكتوب في الورقة فلم يزده إلا ثقة في حقيقة ما حدس. . .

وتقدم الراعي إلى الملك واستأذنه في الحديث فأذن له، فأخذ يسرد قصة برديتا كيف تركها رجل في ظل دوحة على الشاطئ البويهيمي، وكيف قتل الدب هذا الرجل واغتذى به، ثم كيف سمع الطفلة تبكي وتئن من البرد والجوع، وما كان من ذهابه بها إلى زوجته، وما وجده في ثيابها من الجواهر واللآلئ وغالي الحلي، وما وجده مكتوباً في ورقة مثبتة في صدرها بدبوس

ولم يكد الشاعر يبرز الورقة وما تبقى معه من الجواهر، ولم يكد الملك ينظر إلى الجواهر في يديه، حتى اهرع إلى برديتا وهو يصيح: (ابنتي! ابنتي! تعالي يا برديتا! تعالي إلى صدر أبيك الشقي!) ثم ضمها إلى صدره، وراح ينشج نشيجاً مؤلماً ويذري عبراته الحرار على صدر الفتاة المشدوهة، التي تركت نفسها حائرة مستريبة في حضن الملك، وهي لا تفهم من هذا المشهد المؤثر شيئاً مطلقاً. . .

إذن قد عرف الملك جواهره التي أهداها بيده إلى هرميون ليلة زفافها! فهذه آية لا يسمو إليها الشك. . .

وكانت بولينا - زوجة أنتيجونوس حاضرة - وهي التي حملت برديتا من السجن لتلقي بها بين يدي الملك - فلما أخذت الورقة من يد الراعي لم تشك في أنها هي نفس الورقة التي كتبها زوجها وثبتها بيده في ثوب الطفلة. . . فكانت هذه آية أخرى.

وبالرغم مما علمت بولينا من أمر زوجها، وما صنع به الدب، فإنها فرحت بعودة برديتا فرحاً أنساها أشجانها

وآية ثالثة. . . فقد ذكر الملك الشطر الأخير من نبوءة دلفي (سيعيش الملك بلا وارث إن لم تعد إليه طفلته المفقودة!) فأيقن أنها هي، وأن أبوللو لم يكذب!

وفي هذه الثورة الهائلة من الوجد الجارف، والذكريات المؤلمة، تقدمت بولينا إلى الملك ببشرى رائعة!

ذلك أنها كانت قد حرست على تخليد ذكرى هرميون، فكلفت المثال الصناع الشهير جوليو رومانو بنحت تمثال للملكة المغفور لها، فجاء التمثال طبقاً لهرميون الخالدة، ثم توسلت إلى الملك أن يتفضل فيذهب إلى منزلها، ليرى أن تمثال هرميون هو صورة حقيقية لبرديتا!

وذهب الجميع إلى بيت بولينا. . . وأزاحت بولينا الستار فبدا التمثال الرائع. . . ووقف الملك مسبوهاً أمامه يتأمله. . .

وذكر الملك أن هرميون تبدو في التمثال اكبر من سنها الحقيقية، فلفتته بولينا إلى أن المثال قد أضاف إلى عمر هرميون هذه الست عشرة سنة!

ولاحظت بولينا ما انتاب الملك من الحزن، فاستأذنته في إسدال الستار على التمثال. . وهنا - يدور هذا الحديث الباكي:.

- لا. . . لا تستدلي الستار يا بولينا! ليتني مت قبل هذا!! أنظر يا كاميللو؟! ألا ترى إليه كأنه يتنفس يا صديقي؟! ألا ترى إلى عينيها كأنما تتحركان وترنوان؟!. . . لا تسدلي الستار يا بولينا! إني أحس كأن عشرين سنة تتكلم من فم هذا التمثال! أوه - ها هي ذي الحياة تدب فيه! فيا للناحت الذي يضع الأنفاس في الصخر؟! ليهزأ بي من يهزأ، فلا بد أن أقبل الشفتين الحمراوين!

- مولاي. . . حاشاك يا مولاي. . . إن الزيت ما يزال غضّاً وقد تعلق الحمرة بفمك! فلأسدل الستار، فهذا خير!

- (لا. . . ليست هذه السنون العشرون!)

وبينما كان الملك يتكلم، كانت برديتا الحزينة ساجدة أمام التمثال تبكي وتصلي، وتتمتم باسم أمها الميتة

وتوسلت بولينا إلى الملك مرة ثالثة في أن تنزل الستار على التمثال رحمة به. . . (وإلا، فأذن لي يا مولاي أن آمر التمثال فيتحرك ويتكلم، فإني قد عُلمتُ من السحر ما أصنع به هذا!)

وعجب الملك، ثم أذن لها. . . (لأني مستعد أن أرى بعيني وأن اسمع بأذني!)
وهتفت بولينا بأسماء كثيرة، فسمع الواقفون موسيقى عذبة تنسكب في آذانهم وتدب منها في أرواحهم، ثم أشارت إلى التمثال فنزل من فوق قاعدته المرمرية، وخطر نحو الملك، ثم ألقى ذراعيه على عنقه وقبله. . . وضمه في حنان وعطف، وتركه وتوجه نحو برديتا فاحتضنها كذلك، وطبع ألف قبلة على خديها وفمها وجبينها، ثم جعل يتكلم (. . .!فيقول: آه يا ابنتي! الحمد للآلهة فقد عدت أخيراً إليّ
!!!مرحى بولينا مرحى
لم يكن هذا تمثالا كما زعمت بولينا، بل كانت هرميون نفسها! إي والله! كانت هرميون لأنها لم تمت، كما زعمت بولينا للملك، لكي تنقذ الملكة من سجنها السحيق، ومن مأساتها الدامية
وعاشت هرميون مع بولينا طوال هذه السنين مفضلةً ألا تعود إلى الملك الذي تأكد من براءتها، لأنها لم تشأ أن تغفر له ما صنع بابنتها. . . فلما أعلن عن عودة برديتا، دبرت بولينا هذا اللقاء العجيب!
وفزع بوليكسينز لما علم من هرب ولي عهده. وتأكد أن كاميللو أبق به إلى صقلية، فاقتص آثارهما - فيا لمحاسن الصدف؟!
لقد وصل بوليكسينز في هذه اللحظة السعيدة التي التقى فيها الأحباب، واطمأنت عندها القلوب!
وعرف أن برديتا لم تكن راعية شاءٍ ولا رفيقةٌ بهم. . . وأنها ابنة صديقه الأعز ملك صقلية، فلم يكن أحب إلى نفسه من أن تكون زوجة ولى عهده.
دريني خشبه
البريد الأدبي
معرض الفن بكلية الحقوق
أقامت لجنة الفنون بكلية الحقوق معرضها الأول السنوي الشامل لمجهودات طلابها وأستاذين من وأساتذتها في التصوير والرسم؛ وقد وقفت هذه اللجنة الفتية المباركة التي يرأسها الدكتور علي أبو هيف أجمل توفيق في بلوغ الغاية التي تنشدها، واستطاعت أن تقدم من الفن الجمل آيات إذا كان هذا يومها فأكرم بغدها
وإن المجموعة الأولى التي قدمها الدكتور أبو هيف ليتجي فيها روح الفنان الموهوب فلقد وفق في إبراز المعاني الخفية في جلاء ووضوح، ولعل الناحية التي يبدو فيها فنه هي الناحية الغريزية في النفس، فإن الناظر ليرى في عيني صاحبه (نشوة الألم) كل المعاني التي تجول في خاطرها فهي تكاد تثب وثوباً من مقلتيها، أما صورة (الندم) فقد كان أولى بها أن تسمى (بالذكرى) أو (الحنين) إذ يتبين الناظر في ضم ذراعي صاحبتها معاني اللهفة الحائرة، أو كأنها تخشى أن تنسرب من نفسها نشوة لحظة فهي تضم ذراعيها في قوة وتشبكهما على صدرها. وتتجلى مقدرة الأستاذ الفنان في تصوير الناحية الجنسية في صورته الفحمية الرائعة (نداء الذكريات) ففيها استلهام لماض معسول، وانتشاء بذكرى عابرة عاطرة، كما استطاع في هذه الصورة نفسها أن يبرز بدائع التكوين الجسدي وروائع الفتنة. وهناك ناحية أخرى لازم التوفيق فيها الدكتور أبا هيف، تلك هي نقوشه الرائعة لصور الطبيعة، فلقد جلى خبايا الحسن والروعة فيها في دقة بالغة في (فجر الربيع) وفي (سكون الصباح وسحر الغروب) وكلها تنطق بأنه فنان ملهم عرف في هذه الصور وغيرها كيف يوفق بين الألوان واعتناق الظلال والأضواء كما يبدو ذلك في (هيكل الحب) وهي صورة غلب فيها خيال الشاعر على إدراك الفنان فجاءت مزيجاً من الاثنين معاً
ويطول بنا الكلام لو وقفنا عند مجموعة كل طالب فنان، وحسبنا أن نشير هنا إلى أن هذه الصور تدل على نبوغ كامن في نفوس لا ينقصها غير التشجيع والأخذ بيدها في هذا الطريق فإنها ولا شك ستبدع وستكون للفن الجميل خير معوان
ويغلب على الطلبة في هذه النواحي الميل لصور الطبيعة، وعلى الأخص مناظر النيل الساحر في مختلف الأحوال، ففيها بذلك روح مصرية جميلة نرجو أن تجد من الحدب ما
يأخذ بها في سبيل التقدم ومعارج الكال. ومن هؤلاء كمال نجيب وزكي واعيش وإحسان والدالي والسمنودي ودسوقي وحتاتة ويحيى سامي وحنفي وحمزة ومدكور

والشموتي. وإن ما أبدعته ريشة الفنان الشاب إحسان احمد إبراهيم لما يدا على روح فنية أصيلة يرجى بها منها الخير، والحق أن ما عرضه آية في بابه يستحق عليه التهنئة ويستأهل عليه الثناء، وصوره هذه تشير إلى نبوغ فطري فيه سيؤتي أكله في القريب إذا والى العناية بهذه الناحية. ولقد أجاد وأوفى في الإبداع في (الغروب بالأقصر) فإن تعانق الشمس بالمياه في هذه اللوحة لما يلهم الخاطر شتى المعاني وتتدفق خيالها الأخيلة الرفافة، فهذه الشمس معبودة المصريين القدماء تحنو على المياه التي مدت متنها مركباً ذلولا لفراعنة مصر وكأنها تهمس في أذنها بمعاني الخلود، وتنغم أغنية العصور في مسامع الدهر

كذلك استطاع الأستاذ لوسيان شيرون الأستاذ بكلية الحقوق أن يقدم باقة عطرة من صوره للآثار المصرية والإسلامية وهي على قلتها تنبئ عن مقدرته التامة التصويرية، كما تشير لميله للآثار.

ح. حبشي

ألدوس هوكسلي

إذا عد الثلاثة الأوائل من زعماء الفكر في إنجلترا في العصر الحديث فلا شك أن ألدوس هوكسلي يكون ثالثهم؛ وأولهم - فيما نرى - هو برنردشو وثانيهم هو هـ. ج ولز - وقد نظم برتراند رسل بهذا الترتيب، وهو على كل حال رابعهم، وله مزاياه التي يتفرد بها بينهم. . . وألدوس هوكسلي هو ابن العلامة الأشهر توماس هوكسلي الذي اهتدى إلى نظرية النشوء قبل أن ينشر داروين كتابه (أصل الأنواع) بثمانية أعوام، والذي لولاه ولولا كتاباته الخالدة لم يكن لداروين هذا الذكر وذاك الخلود. . . وهوكسلي الصغير هو أحد الكتاب الشباب، وإن يكن قد جاوز الأربعين، الذين برزوا إلى الوجود بعد الحرب الكبرى، والذين ثاروا على القديم تلك الثورة الهدامة التي كادت تأتي على أسس الأدب الإنجليزي المحافظ. وقد اشترك مع هوكسلي في هذه الثورة لورنس وجويس وفَلسفَها شو، لكن لورنس وجويس كانا يتخذان في ثورتهما سلاحاً من العاطفة مسنوناً، ومادة من الجنس يتغلغلان بها إلى أعماق القلوب، وكذلك كان يفعل هافلوك أليس، وما يزال؛ إلا أن أليس عالم يحلل النفس وكأنه في معمل من هذه الحياة، وقصته (أوليز) آية علمه، وقصته الجديدة (رقصة الحياة) آية أخرى. . . وألدوس هوكسلي ثائر من صنف أليس، وعالم مثله، وبينه وبين ولز صداقة حميمة، ويحسبه القارئ من تلاميذ شو، لكنه في الحقيقة تلميذ السويدي العظيم هنريك إبسن، وقد ظل طوال حياته الأدبية متأثراً بطريقته فهو يهدم ولا يبني، ويشخص ولا يصف العلاج. . . ولكن انقلاباً عظيماً حدث فجأة في حياة هذا الأديب الكبير، فقد اصدراً كتاباً جديداً له أسماه الغايات والوسائل & تناول فيه علل الحياة الحاضرة من سياسة وتعليم واقتصاد وأطماع فجعل يبدئ ويعيد في أسبابها، ثم يشرع بعد ذلك في وصف الدواء لكل حالة. وقد فزع هوكسلي في مقدمة كتابه من الحالة المخيفة التي انتهى إليها العالم جملة والأفراد متأثرين بما يرون من أعراض العلل التي تنتاب الأمم في موكبها المضطرب الذي تسير فيه إلى نكبة محققة. . . وقد اعتدل هوكسلي في مؤلفه الجديد فيما يخص الأديان، بل هو يعترف أن التدين سيلعب دوره الخطير في رد العالم إلى التعقل، ويبدو هنا أنه تأثر بالأديب الفيلسوف الفرنسي الكبير برغسون الذي وقف لوالد المؤلف ولداروين بالمرصاد، يرد نظرياتهم المادية، ويقفها صامته جامدة أمام حججه الروحية التي لم يستطيعا نقضها، والتي جاء مؤلف هوكسلي يؤيدها ويبشر بها. . . وينعى هوكسلي على طريق التعليم والتربية المنتشرة في العالم اليوم أنها رثة بالية، وأن مكروب الفساد الذي ينخر في كيان البشرية في هذا العصر ينتشر من رممها ويتكاثر فيها، ودليله أن أرق الأمم وأقواها، وأكثرها مدنية ومدارس وجامعات هي التي تهدد سلام العالم وتتربص بغيرها الدوائر، وتعد أدوات الدمار لساعة الجد؛ ولو كانت وسائل التربية والتثقيف ناجعة لما نامت الملائكة واستيقظت الشياطين وتأججت الحفائظ بالعداوات بين الدول. . . وهوكسلي هنا يبدو من أنصار فكرة السلام العالمي، بل هو من دعاة البشرية التي بحّ صوت ولز بتحبيذها. . . وقد وجم الرأسماليون الإنجليز من صيحة هوكسلي، وبدءوا يسفهون فلسفته الاجتماعية الجديدة، وهذا لأنه عاب توزيع الثروة

العالمية بين الأمم، وصرح بأن استئثار بعض الدول دون البعض بخيرات الأرض هو شل لنشاط أمم ناهضة عاملة، كما أنه تخمة تشل نشاط الأمم المالكة
وسنعود إلى هذا الكتاب القيم حين نفرغ من قراءته
الحبشة بعد الفتح الإيطالي
قام الميجر ا. وبولسون نيومان الإنجليزي برحلة طويلة في بلاد الحبشة بعد استقرار الفتح الإيطالي فيها استغرقت ثلاثة أشهر (من مارس إلى يونيه سنة 1937) متبعاً طريق الغزو التي سار فيها الجنرال بادوليو مبتدئاً من مصوع وماراً بعدوه وأكسوم وماكالي وكوارم. . . إلى ديسي. ثم إلى أديس أبابا ثم إلى لهمتي (!) فسابو فجمبيلا فحدود السودان، ثم انثنى بطريق الجنرال جرازياني إلى مقدشو على المحيط الهندي. ثم ركب الطائرة من قسمايو في (الصومال) فطاف بمقاطعة أوجادن إلى ديردوا وإلى هرر ومن ديردوا بالسكة الحديدية إلى جيبوتي وبالباخرة إلى الميناء الإيطالي الجديد عند عصب. وقد كان أهم ما لفت نظر الميجر بولسون هو زوال روح الجفاء بين الأحباش المقهورين والإيطاليين الغزاة، وهذا النشاط العجيب الذي يبديه الإيطاليون في تحضير الحبشة وترقية مرافقها الحيوية وانتشار المدارس الإيطالية في أرجاء إمبراطورية أسد يهوذا. وقد ألف الميجر في رحلته هذه كتاباً هو أحسن ما وصفت به الحبشة إلى اليوم. وبالرغم من أن المؤلف إنجليزي فالكتاب موضوع في أسلوب حبي وروح غير عدائي.
كتاب جديد للمستر ولتر
من أنشط المؤلفين في العصر الحديث وأكثرهم إنتاجاً هو الكاتب الأشهر هـ. ج ولز الذي لا يكاد يمضي عام إلا ويتحف قراءه - وهم عشرات الملايين - بكتاب جديد تحتاج قراءته إلى عام أو أكثر من عام؛ وأحسن ما ألف ولزهي طوبوياته التي يدفع بها الإنسانية إلى السبرمان. وقد دعا في السنوات الأخيرة إلى وجوب عالمية التعليم وهي عالمية لا تفهمها القومية ولا تريد أن تستسيغها، لأنها نقيض لها، فالعالمية هي الديمقراطية بين الأمم، أما القومية فهي الاستبداد بين الأمم، وسلاح الأولى السلم والصالح العام، أما سلاح الثانية فالحرب والتغلب والتبرير. وولز من اجل ذلك يدعو إلى وجوب جعل التعليم عالميا، وانتزاع أخبار الحروب والصدام بين الأمم وتراجم الطغاة والمستبدين من صلب منهاج التاريخ الذي يدرس للتلاميذ في مدارس العالم قاطبة حتى لا تخدعهم الكبرياء الوطني عن
صالح البشرية العام. وهو يدعو أيضاً إلى تأليف موسوعة عالمية تبشر بالأخاء الإنساني وتكون إنجيلاً حديثاً يوجه البشرية ويمهد لحكومة عالمية تحل محل عصبة الأمم التي ماتت ورنقت الغربان الجائعة فوق جيفتها تنوشها وتمزقها. وقد طاف ولز أنحاء العالم وراح يدعو إلى مذهبه في جامعاته، وقد حاضر في أمريكا وفي إنجلترا وفي فرنسا فنور الأذهان لما دعا إليه، ثم جمع محاضراته وأحاديثه ومقالاته وأصدرها في كتاب واحد سماه وهو اسم غريب تشوهه الترجمة
رابطة التربية الحديثة
زار مصر الأستاذ برفيه مدير معهد جان جاك روسو وكان من أثر زيارته أن اقترح إنشاء فرع في مصر لرابطة التربية الحديثة يكون من أغراضه مناقشة شئون التربية والتعليم والوقوف على التيارات المتصلة بها في العالم الحديث وإحداث تجارب في هذا الصدد محليا، وعقد الاجتماعات الدورية الخاصة، وإلقاء محاضرات عامة، وعقد المؤتمرات، ونشر البحوث الفنية، وإنشاء مكتبة لهذا الغرض، والاتصال بالهيئات التربوية في الخارج
وقد أنشأت فعلا هذه الرابطة من كبار رجال التعليم وألف مجلس إدارتها من صاحب العزة الدكتور أحمد عبد السلام الكرداني بك ناظر معهد التربية. والأستاذ إسماعيل القباني ناظر مدرسة فاروق الأول الثانوية، والدكتور عبد العزيز القوصي الأستاذ بمعهد التربية، والأستاذ محمد فريد أبو حديد الموظف بالمعارف، والدكتور سيد أبو باشا ناظر مدارس النيل، والدكتور أمير بقطر الأستاذ بالجامعة الأمريكية، والآنسة أسماء فهمي، والآنسة سمية فهمي، والأستاذ محمد عبد الواحد خلاف مدير التعليم بالجمعية الخيرية الإسلامية، والأستاذ احمد خلف الله المدرس بالجامعة، والأستاذ علي النحاس بمعهد التربية للبنات، والأستاذ رياض عسكر وكان أول ما فكرت فيه موضوع الامتحانات في

مصر على نحو ما ذكرناه في العدد الماضي

ذكرى الرافعي

اعتزمت مصلحة الإذاعة الفلسطينية بالقدس الاحتفال بذكرى المرحوم الرافعي لمناسبة مرور عام على وفاته في 9 مايو سنة 1938 ودعت بعض أدباء المصريين للمساهمة في

هذا الاحتفال. وإنه لوفاء يستحق الإشادة والذكر كنا نرجو أن تكون محطة الإذاعة المصرية اسبق إليه أحياء لذكرى فقيد العروبة الكبير الذي نشأ في مصر وكانت لها حياته وفيها مثواه. على أن الوقت ما زال متسعاً لتفكر محطة الإذاعة المصرية في القيام بهذا الواجب؛ جرياً على سنتها في الاحتفال بذكرى الخالدين من أدباء العربية، ومنها الأسوة في الاحتفال بذكرى الشاعرين الكبيرين شوقي وحافظ إبراهيم

مدرسة الخدمة الاجتماعية في خدمة الفلاح

أنشئت مدرسة الخدمة الاجتماعية في القاهرة لإعداد الشباب لخدمة المجتمع، واستغلال جهودهم للصالح العام. وكان طبيعياً أن تتجه الفكرة في المدرسة إلى تنظيم دراسة الخدمة الاجتماعية في القرية فوضعت لذلك برنامجاً منظماً وافياً يشمل كل نواحي القرية ويدرس أكثر المشاكل الريفية دراسة عملية قائمة على الخبرة والتجارب ونظرة إلى هذا البرنامج تبعث في نفوسنا الاطمئنان على ما تقدمه الخدمة الاجتماعية في القرية:

تقدمة عن تاريخ الفلاح. اقتصاد زراعي وتعاون ومسائل صحية. التعليم. تجميل القرية والمسكن. ترغيد الحياة الريفية الأمن العام. الفلاح والدولة. مسائل اجتماعية.

الخدمات الاجتماعية في الريف

وقد بدأت هذه الدراسة الريفية يوم 13 أبريل وتستغرق نحو شهرين وتلقى المحاضرات في أحد مدرجات كلية الطب ويقوم بإلقائها نخبة ممتازة من المتصلين بشؤون القرية والمتهمين بإنهاض الفلاح، نذكر منهم الآنسة ابنة الشاطئ وإبراهيم رشاد بك والدكتور محمد خليل عبد الخالق بك والدكتور علي بك حسن والدكتور حلمي السعيد والدكتور القللي بك والدكتور عبد الله العربي بك والدكتور مأمون عبد السلام والدكتور احمد حسين

وإلى جانب هذه الدراسات العلمية المنظمة تقوم المدرسة بزيارات عملية للريف

كتاب شواهد القبور

نشر الأستاذ جاستون فييت مدير الآثار العربية (كتاب شواهد القبور) وهو السفر التاريخي الذي يسجل فيه هذا العالم ما يعثر عليه من شواهد القبور في العهود الإسلامية المختلفة في مصر، ونورد فيما يلي نموذجاً من هذه الشواهد، وما كتب عليها:

(بسم الله الرحمن الرحيم، إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون، هذا قبر محمودة بنت عبد الله بن موسى بن خالد توفيق يوم الجمعة لأربعة عشر ليلة خلت من ذي الحجة سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة)

وكتاب الشواهد موضوع باللغتين العربية والفرنسية ويقع الجزء الخامس منه - وهو الذي صدر أخيراً - في نحو مائتي صفحة بما وجد على القبور من مثل هذه النقوش، كما الحق بها رسوم واجهات هذه القبور في نحو خمسين صفحة من الورق الفاخر المصقول

اشتراك مصر في معرض البندقية الفني الدولي

يقام معرض الفنون الجميلة الدولي المعروف باسم (البينالي) في مدينة فنيسيا في الصيف القادم ويعد هذا المعرض من اكبر معارض الفنون الجميلة وتشترك فيه الدول كلها فيمثلها كبار الفنيين من مصورين ومثالين

وقد قررت وزارة المعارف المصرية الاشتراك لأول مرة في هذا المعرض، فخصص للفنانين لمصريين جناح كبير تعرض فيه مبتكراتهم التي عنى بانتقائها الأستاذ ريمون مراقب الفنون الجميلة في الوزارة

وألفت لجنة من حضرات الأساتذة محمود سعيد ومحمد ناجي ومحمد حسن وراغب عياد ويوسف كامل وأحمد صبري ولبيب تادرس وسعيد الصدر وعلي الديب ونحميا

سعد من رجال الفنون المصورين والمثالين لترتيب المعروضات وتنسيقها في المعرض
جائزة للتعاون الدولي
نظم (مركز نشر الفكر الفرنسي) مباراة لنيل جائزة (رحلة إلى فرنسا) مقدارها عشرة آلاف فرنك
وهذه الجائزة تمنح لشاب مصري يضع احسن بحث في الموضوع الآتي:
الإبانة على نور الحوادث والتجارب بعد الحرب، عن مدى التضامن الاقتصادي وقوته، (الذي يربط الأمم بعضها ببعض حتى ولو تغاضت عنه)
ويجب أن يكون المتبارون مصريين، دون الخامسة والثلاثين من العمر، وأن يكونوا من تلاميذ مدرسة عالية أو من خريجيها، وان يقدم كل منهم (بحثه) في هذا الموضوع قبل 10 مايو القادم، إلى عميد مدرسة الحقوق في الجيزة، على ألا يزيد هذا البحث على خمس وعشرين صفحة، مكتوبة بالآلة الكاتبة، وأن يقدم منه ثماني نسخ، ولا ينبغي أن تذيل هذه النسخ بتوقيع صاحبها، بل يجب أن ترفق برسالة فيها اسم صاحبها، وتكتب (البحوث) باللغة الفرنسية أو باللغة العربية مع ترجمتها بالفرنسية
لعبة الشطرنج عند قدماء العراقيين
أثبتت الآثار القديمة المكتشفة أخيراً في العراق أن سكان العراق القدماء كانوا يلعبون الشطرنج، وأن هذه اللعبة كانت إحدى وسائل اللهو عندهم. وقد أثبت هذا معهد الأبحاث التاريخية وبعثة بنسلفانيا الأمريكية التي تباشر أعمال التنقيب في العراق. وقد وجدت بعض القطع في شمال العراق. ويرجع عهدها إلى أربعة آلاف سنة ق. م. ويدل وضع هذه القطع على أنها استعملت كثيراً في اللعب
تعداد سكان العراق
ظهر من السجلات الرسمية أن النفوس المسجلة في العراق في الوقت الحاضر بلغت 1. 846. 915 نسمة من أهالي المدن و 1. 523. 196 نسمة من العشائر فالمجموع 3. 370. 111 نسمة. وتقدر النفوس غير المسجلة من سكان المدن بعشرة في المائة أي 185. 000 نسمة، ومن العشائر بستين في المائة أي 914. 000 نسمة، فيكون مجموع النفوس غير المسجلة 1. 098. 000 نسمة ومجموع نفوس العراق 4. 468. 000 نسمة
وفاة المغني الشهير شاليابين
توفي المسيو فيدور شاليابين المغني الروسي الذائع الصيت. وقد ولد في بلدة كازان بروسيا أول فبراير سنة 1873 واشتغل عدة أشهر (صبياً) لصانع أحذية ثم موظفاً صغيراً في السكك الحديدية وتلقى مبادئ الموسيقى الأولى عند انضمامه إلى فرقة المرتلين بكنيسة بلدته كازان ولما بلغ السابعة عشرة من عمره انضم إلى فرقة تمثيلية متنقلة، وكان يقوم فيها بالغناء والرقص. وتلقى الدروس الموسيقية الأولى على الأستاذ اوستانوف في مدينة تفليس سنة 1892 وظهر لأول مرة في دار الأوبرا في رواية (حياة القيصر) بمدينة
بتروجراد 1894 ثم اخذ يتنقل في جميع دور الأوبرا في روسيا، وكان ظهوره لأول مرة خارج روسيا في لاسكالا دي ميلانو وتنقل بعد ذلك في عواصم أوربا وأميركا وكانت أولى رواياته السينمائية رواية (دون كيشوت) وله عدة مؤلفات منها (صفحات من حياتي) و (الرجل والقناع) وكان يميل إلى الرسم والتصوير وصيد السمك
المطابع السارقة
إلى مجلة الرسالة الغراء
يرى الأستاذ المازني أن (تنظيم النشر) في مصر يكفي لإزالة أسباب الشكوى التي يشكوها الكتاب والمؤلفون، وأن هذا التنظيم وحده هو أعود عليهم بالربح والجدوى. وللأستاذ الحق في هذا الرأي، غير أن علة أخرى لم ينتبه إليها مع أنها من أكبر أسباب
الغبن الذي أدرك الأدباء العرب في هذا العصر
حدثني أحد باعة الكتب في الجزائر بأنه كان سافر إلى مصر ليقف بنفسه على طبع ثلاثة مخطوطات، وتعاقد مع مطبعة كبيرة في القاهرة. وشرعت هذه في العمل، وكان هو يتردد عليها صباح مساء. فلاحظ أنها تطبع ضعفي الكمية المطلوبة من النسخ، فذكر لصاحب المطبعة ما رأى فاعتذر هذا بأن العامل هو الذي أخطأ، وتعهد بإعدام النسخ الزائدة، إلا أن كان حضرة العميل في حاجة إليها. فأكد له هذا أنه لا يريدها. ثم

حدث للعميل ما حمله على زيارة مطبعة أخرى. ولم يكد يدخلها حتى استولت عليه الدهشة، فقد رأى أكواماً من الملازم المطبوعة من نفس الكتاب الذي يقوم هو على طبعه، وذلك لأن المطبعة الأولى بعدما افتضح أمرها صارت كلما طبعت ملزمة نقلت الحروف مصفوفة مربوطة إلى هذه المطبعة الأخرى فتطبع فيها العدد المسروق. قال الراوي: وقامت بيني وبين صاحب المطبعة الأولى خصومة حادة عنيفة كادت تنتهي إلى المحاكم. ولكنها سويت على صورة غريبة صرت بموجبها شريكا له في السرقة، فقد ناولني كمية مهمة من الكتب القيمة التي طبعها أخيراً على نفقة أصحابها المؤلفين المشهورين. قال: (ومنذ ذلك اليوم أصبحت من عملائه الكثيرين المنتشرين في كثير من البلدان العربية والإسلامية. . .) قلت: (وهل كل هذا صحيح. . .) قال: (نعم. وهنالك أصحاب مطابع أخرى، وهنالك ناس ينسجون على هذا المنوال. وفي القاهرة رهط من الناس (ومنهم أصحاب مكتبات يحترفون ترويج الكتب المسروقة ووسقها إلى خارج القطر المصري. . .)

لقد ارتبت لأول مرة في صحة هذا الكلام وما لبث أن استيقنت عندما اطلعت على حوادث أخرى من هذا القبيل؛ فقد عرض علينا ذات يوم أحد باعة الكتب في فاس قائمة بأسماء كتب قيمة طبعت ولا يزال بعضها يطبع في القاهرة (وهي بأقلام أئمة الأدب في العصر الحديث) بأسعار مخفضة إلى حد غير معقول. فقلت لا يخلو الأمر من إحدى اثنتين: إما أن تكون هذه الكتب في منتهى الرداءة طبعاً، وورقاً أو أن عارضها قد ارتبكت أحواله المالية وأشرف على الإفلاس فهو يبيعها بأي ثمن ثم عرفت أنه لا هذه ولا تلك وإنما هذا الرجل هو أحد عملاء المطابع السارقة. . . وكان أحد المتعهدين في الجزائر قد عرض مجلة الرسالة (التي يصدرها في القاهرة الأستاذ الزيات) على صغار الباعة والمتعهدين بثمن بخس جداً. . . وتبين أنه كان يستوردها من مكتبة بالقاهرة لها صلة وثيقة بمطبعة سارقة كانت (الرسالة) تطبع فيها قبل أن تتخذ لنفسها مطبعة خاصة. وأكثر هؤلاء (العملاء) ينشرون الدعوة ضد مطبوعات (لجنة التأليف والترجمة والنشر) في القاهرة. وسبب ذلك (فيما يظهر) هو أنهم لم يستطيعوا أن يسرقوها. . . وهذه الأشياء فضلا عن كونها تؤذي سمعة مصر أذى شديدا، فهي ضربة قاضية على الحركة الأدبية في مصر والعالم العربي. ونعتقد أنه لا بد للحكومة المصرية أن تعالج هذه الحالة بما تراه ناجحاً. لكي تسير حركة النشر في طريقها المشروع

(وهران)

الوفاق

محمد السعيد الزاهدي

المسرح والسينما

السينما فن وذوق وليست أكاذيب وجهالة

أجازت الحكومة المصرية في الشهر الماضي لشركة (راديو) الأمريكية أخذ فلم عن الحياة المصرية وتطوراتها من نوع الأفلام التي تخرجها هذه الشركة بعنوان (دورة الزمن) ولقد شهدنا عدة أفلام من هذا النوع نذكر منها فلماً جميلاً عن تركيا؛ والرأي الذي استخلصناه بعد رؤية عدة حلقات من (دورة الزمن) أن هذه الأفلام تقوم على أساس تاريخي صحيح وأنها ليست من نوع أفلام الدعاية الهزيلة أو من نوع الأشرطة الأخبارية العادية. على أننا نشفق مع ذلك أن تخطئ الشركة المصادر التي تستقي منها مادة الفلم أو أن تعتمد على ما تلفقه عادة الأفلام الأجنبية عن مصر وشعبها؛ وكثيراً ما رأينا القوم يصورونا قبائل رحلا في بلد صحراوي تناثرت فيه بعض المدن المليئة بالمآذن والقباب، وفيما عدا ذلك فرمال وجمال وخيام. فلعل أولي الأمر لا تفوتهم مباشرة هذه الحقائق ومعالجتها بما يكفل لنا كرامتنا ولتاريخنا وقائعه الصحيحة

ولهذه المناسبة أذكر كثيراً من الأفلام التي مسخت الحوادث وشوهت من حقائق التاريخ فأساءت إلى بعض الشعوب. وأول ما يعنينا من هذه الأفلام فلم مصري حديث الإنتاج كان من شخصياته الرئيسية شخصية كسرى وقد أخرجت بشكل مزر غضب له إخواننا الإيرانيون. وقد كتبت رأيي في هذا الفلم في العام الماضي من تقرير قدمته إلى لجنة تشجيع السينما بوزارة الداخلية طلبت فيه منع مثل هذه الأفلام وهذا الفلم على الخصوص الذي حاول أصحابه أن يعرضوه على رغم حقارته بمعرض البندقية

الدولي. وقد صادرت الحكومة هذا الفلم ولكنها مصادرة جاءت متأخرة
نقدم مثل هذه الإساءة إلى قطر صديق في غير ضرورة يبيحها الفن أو الذوق أو حتى
التقدير التجاري. وقبل عرض هذا الفلم بزمن قصير يحمل لنا البرق خبر شجار كبير
حدث في إحدى دور العرض بأمريكا الجنوبية بين جماعة من الأهالي وفريق من إخواننا
السوريين المستوطنين هناك عند عرض شريط عن مصر قابله الأمريكيون بسخرية
استفزت إخواننا السوريين فثاروا لكرامتنا وقابلوا المعتدين بالضرب
نسمع هذا في الوقت الذي نقدم فيه هذا المثل غير اللائق لإيران
وطالما تولدت الأزمات المشابهة في كثير من الأفلام، ومن ذلك أن شركة برامونت قد
أخرجت فلماً عرض باسم (مات الجنرال في الفجر) وفيه تحقير للشعب الصيني. فما
أن علمت الحكومة الصينية بأمر هذا الفلم حتى بعثت للشركة إنذاراً بسحب هذا الفلم
من جميع أسواق العالم وإلا تحرم الحكومة الصينية عرض أي فلم في المستقبل من
إنتاج شركة برامونت. وقد انصاعت الشركة للأمر لأنها لا تستطيع أن تضحي بسوق
كبيرة مثل الصين. وقد أخرجت نفس الشركة قبل ذلك فلماً آخر يسئ إلى أسبانيا
بعنوان (الشيطان امرأة) مثلته مارلين ديتريش وشهده الجمهور المصري فمنع عرض
هذا الفلم بأسبانيا وأرسلت حكومتها احتجاجاً قابلته الشركة بالاعتذار والأسف
وهناك حكومات يقظة تتنبه إلى الأمور قبل وقوعها، ومثل ذلك ما فعلته الحكومة
التركية مع شركة مترو إذ أعلنت هذه أن من مشروعاتها الكبيرة إخراج فلم بعنوان
(أيام موسى داغ الأربعون) وفي تصوير هذا التاريخ ما يجرح الشعور التركي، فلما
علمت الحكومة التركية بنية الشركة نصحتها بالعدول عن المشروع واستجابت الشركة
فعلا للنصيحة ودفن المشروع
وقد كانت شركة (فوكس - القرن العشرون) قد انتوت إخراج سلسلة من الأفلام
الشرطية على غرار أفلام (شارلي شان) الشرطي الصيني لبطل ياباني للأفلام
الجديدة اسمه (موتو) وقد أخرجت الشركة بالفعل أول هذه الأفلام ولم يعرض في
بلادنا بعد، ومثل الشرطي الياباني الممثل المعروف بيترلور. وقد طلبت الحكومة
اليابانية بعد إخراج هذا الفلم من الشركة المذكورة أن تطلعها على موضوع كل فلم
من هذا النوع للموافقة عليه قبل البدء في إخراجه. وقد أدى هذا التدخل إلى وقف
سلسلة مستر موتو
الرأي الذي نخرج به أخيراً أن السينما كأي فن يجب أن يقوم على الحقائق. فإذا
أهملت الحقيقة عن غير عمد فيجب على الأقل ألا يهمل الذوق. فإذا لم يراع هذا أو
ذلك فقد فقدت السينما وظيفتها وفائدتها وأصبحت شيئاً يستحق المصادرة والمحاربة
محمد علي ناصف
في السينما
أخطار السينما
تثبت إحصاءات شركات التأمين بالولايات المتحدة أن مبالغ التعويض التي دفعت في
العام الماضي ضد أخطار السينما تقل 45. 000 جنيه عنها في عام 1929. ففي هذا
العام بلغ عدد الإصابات 7700 إصابة وقف في العام الماضي عند 450 فقط.
ومع ازدياد الإنتاج السينمائي وقطعه مراحل كبيرة كانت تعتبر من المعجزات وخاصة
في إخراج حوادث الحرب وتصوير نكبات الطبيعة من زلازل وعواصف وسيول فان هذا
الإحصاء يدل دلالة قاطعة على تقدم الصناعة وأمنها
ومن أشأم الحوادث في تاريخ السينما موت المخرج كينث هوكس من تصادم طائرتين
أثناء إخراجه فلم (رجال مجازفون) وكذلك الحوادث التي اقترنت ببعض الأفلام مثل:
(ملائكة الجحيم) و (ثورة على السفينة بونتي) و (الطريق الخلفي) و (الوريثة
المتشردة) والفلم الأخير يعرض الآن بالقاهرة
وتعتبر الإحصاءات أن استوديوهات شركة وارنر أكثر الاستوديوهات أخطاراً وتتبعها
شركة مترو جولدوين. وقد اعتبر إخراج فلم (في شيكاغو القديمة) لشركة (فوكس -
القرن العشرون) شيئاً يشبه المصادفة لعدم حدوث أي إصابة رغم تعدد حوادث الفلم
من حريق وفيضان وثورة قطعان الماشية واجتياحها آلاف الخلائق، أما أكثر الأفلام
أخطاراً فهي أفلام رعاة الأبقار
في المسرح

ايفور نوفيلو من أبرز شخصيات المسرح الإنجليزي
انتقل ايفور نوفيلو بموسيقيته من مسرح دروري لين إلى تريتهام هيل لإجراء بعض الإصلاحات بالدروري قبل أن يفتتح فيه مسرحيته الجديدة
ويعتبر نوفيلو من أسعد رجال المسرح في جميع العصور فهو في الخامسة والأربعين من عمره يؤلف مسرحياته ويلحنها ويخرجها ثم يمثلها. ولا تزال فرقته منذ سنة 1935 دائمة العمل في موسيقياته الثلاث الأخيرة لا يقف عملها إلا في الفترات التي بين مسرحية واخرى؛ ويقدر له العارفون أن رواد مسرحه في هذه المدة بلغوا 1. 750. 000 وأنه أحيا
حفلة متوسط دخل الحفلة الواحدة 600 جنيه 750
وبعملية بسيطة يكون دخله في هذه المدة 450. 000 جنيها دفع منها ضرائب فقط 67. 500 جنيه
تمثل الآن على مسارح برودواي مسرحية (النساء) وجميع شخصياتها نساء وقد رفض الرقيب الإنجليزي تمثيلها على مسارح إنجلترا إلا بعد تعديل منظر لفتيات مجتمعات في قاعة نوم ولكن المؤلف رفض إجراء هذا التعديل.
يعتبر هذا الموسم من أكسد مواسم التمثيل في أمريكا، ولذلك فأن قيام مسرحية ناجحة وسط عدة مسرحيات فاشلة شيء يقابل بالضجة والتهليل، وهذا ما لقيته مسرحية التي اقتبسها للمسرح بول اوسبورن من رواية لورنس ادوارد انكنس ومثل الدور الأول فيها بنجاح كبير دادلي دبجز الممثل المعروف في السينما والمسرح
العدد 251 - بتاريخ: 25 - 04 - 1938
. . .شم النسيم
اليوم يا صديقي يوم شم النسيم! وشم النسيم في مصر هو عيد الطبيعة والناس؛ والناس الذين يعيدون هذا العيد هم سكان هذا البلد الأمين من كل جنس ونحلة؛ وهو بهذه الخصيصة يكاد لا يشبهه عيد من أعياد الأمم. فإن أعياد الأمم إما أن تقوم لذكرى دينية فتكون لأهل هذا الدين، وإما أن تقوم لذكرى وطنية فتكون لأهل هذا الوطن. أما عيد شم النسيم فهو عيد إنساني اشتراكي سمح، يفتح قلبه لكل دولة، ويخلص حبه لكل ملة، ويبذل أنسه لكل جنس. فالمصريون على اختلاف الأديان، والأجانب على تباين الأوطان، يتلاقون فيه على بساط الربيع إخواناً في المودة، أخداناً في السرور، يتساقون راح الأنفس، ويتطارحون حديث القلوب، ويتجردون من فوارق الدنيا ليقفوا أمام الطبيعة الصريحة أطهاراً من رجس الحياة، أحراراً من إسار المادة، يرتعون في الجنة التي خلق فيها أبوهم الأول، وينعمون بالصفاء الذي نشأت فبه أسرتهم الأولى هذه الخصيصة التي تفرد بها هذا العيد إنما اكتسبها من طبيعة هذا الوطن الأريحي الذي طبع بنيه وساكنيه على فيض نيله وخصب واديه ورحب صحرائه وصفو سمائه واعتدال جوه ووداعة طبيعته، فجعل المصري والرومي يعيشان في قرية، والمسلم والمسيحي يصليان في كنيسة، واليهودي والألماني يعملان في متجر، والتركي والأرمني يسكنان في دار؛ ثم يلح على هؤلاء جميعاً بالخلط والمزج والتوحيد حتى تتشابه الألوان، وتتعرب الألسنة، وتتقارب الطباع، وتتحد العناصر، فيدخلوا صرحاء خلصاء في هيكله النقي القوي المقدس
في هذا اليوم وحده من دون أيام السنة تغلق القاهرة دواوينها ومدارسها ومتاحفها ومصارفها ومتاجرها ومصانعها وحوانيتها؛ ثم تخرج إلى الرياض والخلوات، خروج الحجيج إلى عرفات؛ ولكنه حجيج وثني لا يؤمن في ذلك اليوم إلا بأفروديت وباخوس، فيتفيأون ظلال الروض، ويتشربون أشعة الربيع، ويستروحون أرج النسيم، ويجتلون جمال الطبيعة المتبرجة في الزهر والنهر، ويستوعبون أسرار الحياة المبثوثة في السماء والأرض، ويتطلقون من عقال الهم والوقار والكلفة، فيطيشون كالفراش، ويهتفون كالطير، ويطفرون كالأطفال، ثم تدركهم ضرورة الحياة فيجلسون للموائد حِلَقاً وسلاسل يتهناون بضروب الآكال وصنوف الأشربة، حتى إذا تضلعوا شِبعاً وتحببوا ريا قرت فيهم فورة المرح فأووا
إلى أحضان الطبيعة الخادرة منحر الظهيرة. وحينئذ ترى أشتاتاً من خلق الله قد ضرب على آذانهم الكرى أو الكِظّة أو السكر أو الفتور، فأصبح الناس والطير والشجر قطعاً من مادة الأرض لا يميز بعضها من بعض رقي النوع ولا سمو الفكر ولا غرور الفلسفة

لا أزال أشعر بحلاوة هذا الموسم في القرية. فقد كان الشباب والأيفاع يعتقدون أن في العشرة الأخيرة من شهر رمضان تُفتح في السماء (طاقة القدر) لمن كتب الله لهم السعادة، وأن في العشر الأولى من المحرم تطوف (بغلة العشر) في أعقاب الليل وهي موقرة بالذهب على من كتب الله لهم الغنى، وأن في يوم شم النسيم تهب نفحة من الفردوس لا يتنسمها إلا من كتب الله له القوة؛ فكانوا إذا تنفس صبح ذلك اليوم أفعموا خياشيمهم بريح البصل ليدرءوا عن أعصابهم خمود العام كله، ثم يخرجون إلى القنوات والنهيرات يستحمون في مائها الجاري، ويمشون هوناً على حفافي الحقول وضفاف الترع وحواشي البساتين يجمعون الفلية والحَبق والورد وزهر النارنج وورق الليمون، ثم ينسقون منها باقات يشدونها بأعواد السعد وسعف النخل، ويدسون فيها أنوفهم من لحظة إلى لحظة؛ ثم يقفون في مهب النسيم الفواح يعبُّونه عباً بالخياشيم والحلوق لعلهم يجدون فيه تلك النسمة الهاربة من ريح الجنة فيمسهم منها (عِرق الصبا)، ثم يسيرون صامتين مستغرقين نشاوي يتشممون ذلك السر الإلهي المكنون في أنفاس النهر، وفي عبير الزروع، وفي فوحة الرياحين، كما يتلمس الكيميائي الخبير إكسير الحياة في عصير العقاقير وحَلَب الأنابيق ومزيج الأشربة فإذا أحسوا نشوة في الروح وفتوة في الجسم وقوة في الأعصاب لطول ما استنشقوا الهواء الخالص، واستيقنوا الأمل الخادع، تسلقوا أشجار التوت فجنوا منه أطيبه، وخضبوا أناملهم بجناه، ونقشوا طواقيهم بصبغة؛ ثم رجعوا إلى القرية يخطرون في مطارف الصبا الغريض، وكأن في نفوسهم بالياً قد تجدد، وفي نفوسهم ذاوياً قد انتعش. فيأكلون البيض الملون والخس الطري والسمك المملح، ثم ينامون وهم معتقدون أنهم ادخروا لبقية العام من القوة والصحة والفراهة ما لا يهن على طول العناء وسوء الغذاء ومس المرض

ذلك شم النسيم بخصيصته ودلالته، تراه في المدينة والقرية يوم الصفاء المشترك والأنس المشاع. ولقد كانت لي فيه ذكرى أو ذكريات لا تزال مشرق النور والسرور في نفسي. وما

كان أحب إليّ أن أقصها عليك؛ ولكن الصفحة قد نَفِدت، وساعة الطبع قد أفدَت، ورئيس المطبعة يقول: هات!

احمد حسن الزيات

البحث عن غد

- 2 -

للأستاذ عباس محمود العقاد

أجملنا في المقال السابق حديث مؤلف الكتاب مع الأستاذين الكبيرين شيخ الجامع الأزهر ومدير الجامعة المصرية

وقد تحدث المؤلف إلى فئة من المصريين النابهين غير الأستاذ المراغي والأستاذ احمد لطفي السيد فقال عن الدكتور حافظ عفيفي باشا إنه أول سفير مصري في بلاط (سان جيمس) وإنه طبيب أطفال مشهور، وكان وزيراً للخارجية في سنه 1928 وله مكانة عالية لبعده عن التحيز ووقوفه موقف الحيدة، واطلاعه الواسع في شؤون الثقافة المصرية

قال المؤلف: (ولما أخبرته بزيارتي للشيخ المراغي قال: إنني عظيم الإعجاب بالشيخ المراغي، وهو عندي اصلح الرجال في وقتنا هذا لقيادة حركة الإصلاح في التعليم الديني. وقد ترك الطلبة هناك عادة الجلوس على الحصير واصبحوا يجلسون على الكراسي، وتعودا أن يضموا الكتب على المناضد بدلاً من وضعها على الركب! وهذا كل ما هنالك من الصبغة العصرية الحديثة. فهي لم تتجاوز ذلك إلى أساليبهم وأنظمتهم ولا إلى روح تعليمهم ودراستهم، ولا يزال الأزهر حتى اليوم معنياً بالمراسم الدينية والآراء الجدلية. والشبان يضيعون هناك سنوات غالية من أعمارهم كانوا خلقاء أن يتعلموا فيها أموراً انفع لهم ولبلادهم على التعميم. أما مدارسنا العصرية فهي على نقصها لا تني تتقدم تقدماً مطرداً في سبيل التفكير العلمي الملائم لزماننا، وهذا في حين أن الأزهر لا يزال على سنة القرون الوسطى علماً وعملاً. ومن تقاليده أن يقع الاختيار على معلميه من بين تلاميذه وطلابه المتخرجين فيه، وسيظل متخلفاً ما داموا مصرين على هذه التقاليد. ولا رجاء لنا في نهضة روحية صحيحة من جانب الدين ما دام المعلمون

الدينيون بيننا ينشئون على غير النشأة المستنيرة التي ينشأ عليها الأساتذة الآخرون)
قال المؤلف: فسألته: ولماذا تحسب أن هذه النهضة الروحية ضرورية؟
فقال: لأن الفلسفة المستقرة وراء الحياة المصرية لا بد لها من آساس روحيه، ولا تقوم هذه الآساس إلا على الإسلام؛ وينبغي أن تقوم على إسلام صريح لا خرافة فيه. وإنما أعنى بما
أقول أن تربيتنا الدينية يجب أن تكون على طبقة من الاستنارة تضارع تربيتنا في الثقافة العامة. وقد جاءت قوة الإسلام الدافعة في عصره الذهبي من حقيقة واحدة: وهي أنه كان ديناً جد بسيط وجد واضح، خلوا من التعقيد والإبهام، فأخرج للدنيا ثقافة رفيعة، وحول القبائل المتبدية في فترة وجيزة إلى أمم متحضرة تعيش عيشة المدينة. ولا بد للإسلام في نهضته المقبلة من قيادة اتباعه مرة أخرى إلى الحضارة الصحيحة؛ ولن يتسنى له ذلك إلا إذا اطرح الآراء الجامدة العتيقة والتجريدات المتخلفة من عقائد القرون الوسطى وليست هي من جوهر الدين في شيء. عندئذ - وليس قبل هذا - يعود الإسلام وهو تلك القوة الروحية التي تفتقر إليها البلاد أشد افتقار
فعاد المؤلف يسأل الباشا: وما هي إذن مسألة الغد في مصر المقبلة؟
فأجابه الباشا: مسألة الغد هي التعليم ثم التعليم كرة أخرى. وعلى أساتذتنا الدينيين والعصريين معاً ألا يقصروا تربيتهم على اقتباس العلم وحده، بل يضيفوا إليه اقتباس الخلق والتهذيب. وعليهم أن يردوا الشعب إلى فضائل الشجاعة والصدق وحب الخير وحب الفن والمعرفة، ونظافة العقل والبدن، وهي الفضائل التي كانت مبعث القوة في الإسلام. وعلى شبابنا المتعلمين وهم أشباه متعلمين أن يذكروا أبداً أن الأمة من الأمم لا يجوز لها أن تنعت نفسها بالتحضر والمدنية ما عاش أبناؤها على تلك الحالة المحزنة (التي يعيش فيها الفلاحون، ولا تغيير لها قبل انقضاء زمن مديد في التثقيف والتهذيب
وسأله المؤلف: أيوجد في مصر أناس عندهم من البصيرة والشجاعة الأدبية ما يتطلبه التصدي لإصلاح البلاد والجهر بحاجاتها؟
قال الباشا: نعم. هناك أناس من هؤلاء، واذكر لك على سبيل المثال أسماء أصدقائي لطفي السيد وحسين الهيكل ومصطفى وعلي عبد الرازق وطه حسين
وهنا أنتقل المؤلف إلى رواية الحديث الذي جرى بينه وبين الدكتور طه حسين، وقد بدأه الدكتور بكلام يدل على تغير الشبان من الوجهة الدينية
فسأله المؤلف: أترى أن الدين لا يدخل عندكم في حياة الشباب؟
قال الدكتور: على النقيض. إن له لدخلا في حياتهم، لأن للشباب تناقضاً معروفاً، ومن تناقضه عندنا مسلكه في أمر الدين، فالشبان المصريون في مقاومتهم للنفوذ الأجنبي، وفي
شعورهم الوطني يصدرون عن عقائد آبائهم وتقاليد أسلافهم. ولم هذا؟ لأن القرآن في الشرق الأدنى هو الأساس الوحيد الذي يقاوم عليه بناء أمة؛ وقد اصبح شبابنا العصريون في حياتهم الدارجة شعبة صغيرة منقطعة عن سائر الأمة. إلا أنهم يجدون أنفسهم في القرآن على ملتقى واحد مع كل فلاح وكل بدوي في الصحراء؛ وهم - باعتمادهم على القرآن - يهيئون لسواد الجماهير أن يحالفوهم في المعركة السياسية، (وإنما يأخذون من القرآن أسلحتهم السياسية ولا يستمدون منه عتاد الروح
فقاطعه المؤلف سائلاً:
وما هو موقفهم إذن من الناحية الروحية؟
فأجاب الدكتور: (أما من الناحية الروحية فهم واقفون في العراء. لم يهضموا فلسفتهم العقلية الحديثة لأنهم تلقوها في الغرب بعقولهم ولم يشركوا فيها قلوبهم وضمائرهم، ولكنهم قد انحرفوا عن جادة آبائهم فهم بمعزل عن كل مَعْلم من المعالم الروحية، وإن كان هذا لا يعني أنهم بمعزل عن الدين في آمالهم ومخاوفهم)
فسأل مؤلف الكتاب: أتحسب إذن أنهم يثوبون إلى الدين في أزماتهم الحاسمة؟
قال: فضحك الدكتور طه حسين وقال: هذا ما أعنيه تماماً، فقبل الدخول إلى مشرحة الجراح، وقبل الدخول إلى حجرة الامتحان، يثوب المتطرف منهم في الإيمان بالعقل إلى الإيمان بقوة فوق متناول التفكير، أو بقوة تعين الجراح وتلهم الأستاذ الممتحن (. . .وتوحي إلى المسئول كيف يجيب، ويعود فجأة إلى اسم الله
وبعد مناقشة في رأي الشيخ المراغي وفيما يحسن بالرجل العصري أن يتخذه من

موقف في أمور الدين ختم الدكتور حديثه قائلاً ما معناه: إن المصريين فرديون متفرقين، ولكنهم في المجتمع منساقون مسلسون
وبين الكبراء الذين حادثهم (روم لاندو) علي ماهر باشا واحمد حسنين باشا قبل أن يندب الأول لرآسة الديوان الملكي
فكانت خلاصة الحديث الذي أفضى به علي ماهر باشا أن الشعور الوطني قد طغى بعد الحرب على كل شعور آخر، وأن الجيل الحديث سيعود كرة أخرى أدراجه إلى حظيرة الدين، وأن أناساً من أبنائه يتعطشون - حتى في هذه الآونة - إلى مورد للدين يكشفونه
بأنفسهم لأنفسهم وإن كانوا لا يزالون قلة بين المجموع
قال علي باشا: (نحن عرضة لكثير من الأفكار، وفي الحياة المصرية حركات كثيرة النقائض والأضداد، والعلم بالنتائج مستحيل. إلا أنني أحسب أننا على حق حين نرى أن النزعة الدينية أقوى في طائفة من الجيل الحديث مما كانت قبل بضع سنوات)
وسأل الأستاذ لاندو: (ماذا يصنع الآن لتحويل الوجهة التي كانت منصرفة كلها إلى الناحية السياسية؟)
فأشار علي باشا إلى الخطة التي أعدها حين كان على رأس الحكومة لإنشاء معسكرات في أرجاء البلاد يتعلم فيها الشباب الرياضة والأخلاق الرياضية ويأوون إليها في كل شهر أربعة ايام، ويتلقون فيها دروساً ومحاضرات عامة في علم الاجتماع وشؤون الثقافة ومعارض التاريخ
ولما سأله المؤلف عن مصير هذا الاقتراح، قال: إن الوفد أبطله حين تولى الحكومة.
وعقب المؤلف قائلاً: (إن من تقاليد السياسة المصرية - أو السياسة في معظم الأقطار الشرقية - أن الحكومة الجديدة تبطل ما استطاعت من أعمال الحكومة السابقة
ثم سأل: (ولكن الوفد له هو أيضاً مقترحاته للسمو بالجيل الحديث وتحويل جهوده. أليس كذلك؟ فقد سمعت بالعناية المبذولة في الألعاب وضروب الرياضة!)
قال الباشا: نعم. إلا أن النظام الحاضر يجعل باله قبل كل شئ إلى إنجاب (الأبطال) الذين يحرزون الجوائز في المباريات الدولية ولا يعطى الجمهور نصيبه من الرعاية، ولا يلتفت إلى الأخلاق كما يلتفت إلى الأبدان. وما كان التعليم المتجه إلى إحياء الحاسة المدنية الاجتماعية يوماً من الأيام شاغلاً ينفع الأحزاب السياسية في غايتها من الدعاية، (فلا سبيل إلى هذا التعليم إلا على أيدي حكومة غير حزبية أو حكومة قومية
أما احمد حسنين باشا فقد بدأ الكلام معه على تعليم صاحب الجلالة الملك فاروق. ثم استطرد إلى السماحة الدينية ومذهب الباشا فيها؛ وهو مذهب يشبه مذهب محي الدين بن العربي. وقد كانت لرحلاته في الصحراء يد قوية في هدايته إلى تلك الطريق الروحية
سأله الأستاذ لاندو: لقد أخبرت أن الملك يؤدي جميع فروض الصلاة بانتظام، فهل تعتقد أن صاحب الجلالة ذو سليقة دينية؟
فقال الباشا: (أعتقد ذلك. وقد قال لي منذ أيام فجأة خلال الحديث: إنه يشعر براحة حقيقية في الصلاة. وهذا شئ جدير بالتنويه والملاحظة من شاب يقوم بأعباء الملك في سن الفتوة، ولا سيما وصاحب الجلالة غير مطبوع على الانزواء أو الخيالات العاطفية، ولكنه نشيط إلى الرياضة لا يميل إلى النزعات الخفية الغامضة، وهو يحمل مصحفاً صغيراً لا يفارقه؛ وأعلم أنه شديد الحب له والإيمان به)
وسنعود في المقال التالي إلى التعقيب على أمثال هذه المباحث التي يتصدى لها بعض السائحين، والى بيان الحقيقة فيما يلمحونه أو يخيل إليهم أنهم يلمحونه من دلائل الحياة الروحية وبواعث التغير والتجديد فيها.
عباس محمود العقاد
من برجنا العاجي
لبعض القراء ملاحظات تدل أحياناً على جهل مروع بطبيعة الأدب.
من ذلك أنهم يعيبون على الأديب تحدثهم عن نفسه. أمثال هؤلاء القراء لابد أن يكونوا من تلاميذ المدارس أو المتخرجين فيها حديثاً. فهم يخلطون بين (معلم المدرسة) وبين (الأديب الفنان). فمهمة (العلم)

الأولية أن يلقن أصول المعارف وأن يفرغ في أذهان النشء مادة بعينها بغير أن يكون لشخصه دخل في الأمر. أما (الأديب أو الفنان) فلا يلقن شيئاً ولا ينبغي له. لأنه يخاطب قوماً مفروضاً فيهم أنهم قد جاوزوا مراحل الدرس؛ فهو يخرج لهم عصارة العلوم والمعارف والتجارب مقطرة من خلال (نفسه). إن كل ما نطلبه ونرجوه من رجال الأدب والفن أن يحدثونا عن كل خلجة من خلجات نفوسهم، وكل دقيقة من دقائق حياتهم، وكل لمحة من لمحات أبصارهم، وكل ناحية من نواحي أحاسيسهم. إن (نفس) الأديب العارية هي كل ما ينبغي له أن يضعه تحت أنظارنا. ومن لم يفعل ذلك فليس مطلقاً بأديب. فالأديب هو الآدمي الوحيد الذي خلق لكي يفتح لنا نفسه لنرى من خلالها النفس البشرية قاطبة. ويتحدث لنا عن نفسه فنرى من خلال حديثه كل تجاريب الإنسانية الشاعرة. وإن كل رجال الأدب العظام ليسوا إلا آدميين حدثونا طول حياتهم عن أنفسهم، بوسائل شتى. وأنا كقارئ لا يروقني شيء مثل قراءة المذكرات التي يكتبها الأدباء العظماء عن حياتهم الخاصة. والاعترافات والرسائل التي تتناول مسائل تمس أشخاصهم. فنحن في تلك الكتابات المجردة عن أثواب التكلف والصناعة نستطيع أن نهبط إلى أغوار تلك النفوس الرحبة الغنية، كما يهبط الغواص فجأة إلى أعماق البحار، فيفاجئ اللآلي في أصدافها لم تمسها بعد يد غريبة، تنتزعها لتدخل عليها بهرج الصاغة. إن الفنان إذ يحدثنا عن نفسه وفنه وحياته الخاصة إنما يقدم لنا مادة فنية غير مصنوعة. إنه يترك رداءه الرسمي ليخرج إلينا بثياب البيت في غير كلفة كأنه صديق، وهذا منتهى الإخلاص منه ومنتهى التكريم لنا.

توفيق الحكيم

مظاهر القسوة والرحمة في الحضارات

للأستاذ عبد الرحمن شكري

أشرت في مقالة (مجد العرب والإسلام) إلى محاولة بعض المؤرخين الأوروبيين أصفار مظاهر القسوة في الحضارات الأوربية وإعظامها في الحضارات الشرقية. ولسنا نريد أن ننكر مظاهر القسوة في الحضارات الشرقية، وإنما نريد ألا يكون هناك لبس، وألا تختفي الحقيقة التاريخية، وهي أن الحضارات الأوربية لم تكن مظاهر القسوة فيها أقل من مظاهرها في الحضارات الشرقية. فكل تمثيل قرأنا عنه في حضارة شرقية قرأنا مثله في الكلام عن الحضارات الأوربية. ولا يمكن تقصي كل مظاهر القسوة في الحضارات؛ ولا يفيد الإنسانية إخفاء الحقيقة، والمؤرخون الذين يخفونها قد يفعلون ذلك بحسن نية لأنهم يغالطون أنفسهم فيكونون كمن يجهل الحقائق وإن كانت ماثلة أمامه. وهذه ظاهرة كثيراً ما تشاهد في الحياة فيحسبها الناظر سوء نية وكذباً متعمداً وما هي كذلك، وإنما هي المغالطة للنفس التي تجعل المؤرخ يفرق بين النفوس البشرية ونزعاتها في الشرق، وبين النفوس البشرية ونزعاتها في الغرب. كما يفرق المؤرخون في بعض الأحايين بين العقول البشرية وملكاتها وطرق تفكيرها في الشرق وبينها في الغرب، ويبالغون في اختلاف طرقها بحسن نية، وإن كانت المبالغة خطأ في البحث والاستقراء

كنا نقرأ عن الحضارة الإغريقية أنها منبع الرحمة والنور في العالم القديم والحديث؛ وكان بعض المؤرخين لا يسهبون في وصف مظاهر القسوة فيها، وإن كانت موصوفة في مراجع التاريخ، وإنما هم يهملون وصفها عند إثبات أن الحضارة الإغريقية منبع الرحمة والنور في العالم، فلا يذكرون أن تلك الحضارة كانت مؤسسة على عرق جبين الأرقاء ودمائهم، ويهملون ذكر ما كان يحدث في المحاكم الإغريقية إذا ادعى أحدهم دعوى على رجل وأنكر هذا الرجل الدعوى وجئ بالأرقاء الذين يملكهم هذا الرجل المنكر وعذبوا بأصناف من العذاب القاسي الشنيع كي تؤخذ اعترافاتهم وهم يعذبون حجة على سيدهم. وكان السيد إذا اعترض على تعذيب أرقائه عُدَّ معترفاً أو شبه معترف بخوفه من أن يبوح أرقاؤه وهم يعذبون بما يؤدي إلى إدانته. ومن أمثال تلك القسوة في الحضارة الإغريقية ما كان يلاقيه الأرقاء في المحاجر والمناجم، ومثلهم

مثل الأرقاء في مناجم الرومان. ويكفي وصف ما لاقاه جنود أثينا الأسرى عندما حاولوا غزو سراقوسة في صقلية وفشلوا واستخدموا في المحاجر والمناجم أرقاء. ومن مظاهر القسوة أيضاً معاملة المدينة الظافرة للمدينة المغلوبة على أمرها إذا ثارت على سيدتها، فقد كانت المدينة الظافرة تقتضي في بعض الأحايين بقتل جميع الرجال وبيع الأطفال والنساء في سوق الرقيق. وهذه المعاملة تذكرنا بما كان الإغريق في العصور الحديثة يشنعون به على الأتراك ومعاملتهم لرعاياهم من الإغريق؛ إلا أن تلك المعاملة القاسية القديمة كان يعامل بها الإغريق الإغريق. وحتى في المدينة الواحدة كان الحزب السياسي إذا ظفر عامل الحزب المخاصم له أشنع معاملة. وهذا كان حال الحضارة الإغريقية التي كانت بالرغم من ذلك المنبع الرحمة والنور في تاريخ الحضارة الأوربية. فإذا انتقلنا إلى حضارة الرومان وجدنا أن مظاهر القسوة لم تكن اقل منها في الحضارة الإغريقية، فكان الأرقاء يعاملون معاملة قاسية بالرغم من القوانين التي أصدرت لحمايتهم. وكانت الأحزاب السياسية يقسو بعضها في معاملة بعض قسوة شنيعة. وكان الظفر الحربي الروماني نذير القسوة الشنيعة حتى بعد ذلك الظفر عند الاحتفال به وبعد الاحتفال به. وكانت الخوازيق التي يُعيرُ بها الأتراك والشرقيون من العقوبات الرومانية؛ وكذلك الصلب والتمثيل بالمصلوبين وهم مصلوبون. وكانت ميادين الكوليسيوم معرضاً لجنون قسوة النفس الإنسانية حتى صارت من ملذات الجمهور الروماني رؤية

الوحوش وهي تفترس أجسام الأحياء وتمزقها تمزيقاً، ورؤية حرق الأحياء كما كان المسيحيون يُحرَقون. ولم تكن مظاهر القسوة في الحضارة مقصورة على حضارة أوربا الوثنية، بل كانت على أفظع شكل حتى عند المتدينين من القائمين بأمور محاكم التفتيش الذين كان بعضهم يبكي رحمة بمن يعذبونهم فلا يزيدهم بكاء الرحمة إلا رغبة في تعذيب ضحايا تلك المحاكم اعتقاداً أن ذلك التعذيب وأن تلك القسوة رحمة بالضحايا. ويقولون إن تعذيبهم في الحياة الدنيا يقلل من عذابهم في الآخرة، فيكون تعذيبهم في الحياة الدنيا رحمة بهم. ولم تكن مظاهر القسوة مقصورة على طائفة دينية دون الطوائف الأخرى بل اشتركوا فيها جميعاً. كما أن القوانين التي كانت تطبق في الأمور غير الدينية كانت مثقلة بروح القسوة والتعذيب. ومن العجيب أن المؤرخين الذين ينعون على الدولة الإسلامية تنفيذ الحدود ينسون أن القوانين الأوربية والمحاكم الأوربية كانت إلى قبيل الثورة الفرنسية توقع عقوبات هي نفس الحدود التي ينتقدونها في الدولة الإسلامية. فإننا نقرأ في مؤلفات ماكولي وغير ماكولي من المؤرخين عن قطع الأيدي وجدع الأنوف وصلم الآذان وغير ذلك من أجزاء الجسم، وقراءة وصف العقوبات التي وقعت بعد فشل ثورة دوق مونموث تكفي للدلالة على أن المؤرخين ينسون ما كان فيا لحضارات الأوربية من مظاهر القسوة عند ذكرها في الحضارات الشرقية. فإننا نقرأ كيف كانت أجسام الأحياء تقطع وتنصب أجزاؤها على النصب والمباني والأعمدة وعند ملتقى الطرق، فمن رءوس وأحشاء وأرجل وأيد منصوبة نتنة كانت تفسد الهواء في إنجلترا بعد ثورة دوق مونموث وغيرها من الثورات الفاشلة. والمستعمرون الأوربيون في أمريكا حتى المتطهرون منهم لم يقصروا في مظاهر القسوة. وقد استعرض فان لون المؤرخ الأمريكي مظاهر القسوة في الحضارة الأوربية والأمريكية في كتابه المسمى (تحرير الإنسانية) ولا تزال آلات التعذيب في المتاحف الأوربية الخاصة بها تدل على أن النفوس في أوربا لم تكن أقل قسوة من النفوس في الشرق؛ ولا نريد ذكر هذه الحقائق للغض من فضل الحضارة الأوربية. وإنما نريد تصحيح ما يشيعه بعض المؤرخين بحسن نية أو بسوء نية فيظل ما يقولون ويؤدي إلى تخليد النفس الإنسانية، وربما كانوا أبعد الناس عن الرغبة في تخليدها والحقيقة أن النفس الإنسانية إذا غضبت قست وأجرمت حتى ولو كان غضبها للحق أو الحرية أو الوطنية أو كرهاً للظلم. ولعل أكبر انتصار للنفس الإنسانية في المستقبل يكون انتصارها على نفسها بمنعها من الإجرام والقسوة الهمجية الوحشية عندما تغضب للحق أو الحرية أو الوطنية اكرهاً للظلم. أنظر مثلا ما ارتكبه ثوار الثورة الفرنسية من شرب للدماء، وتمزيق أجسام الأحياء، وأكل للحوم البشرية وسلخ لجلودها والتذاذ بإراقة الدماء والفخر بما كانوا يسمونه الغنائم والأسلاب من أحشاء نتنة ورءوس كانوا يضعونها على الرماح. ولم يفعل كل هذا أناس شرقيون ولا أناس

من قبائل نيام نيام في أواسط أفريقيا بل أناس غضبوا للحرية وكرهوا الظلم وكانوا يدعون إلى الحرية والإخاء والمساواة والى محو الشر. وهذه الثورة الفرنسية كانت مقدمة للديمقراطية الحديثة، ولكن بعد أن كره العالم اسم الحرية زمناً وارتضي الحكومات المطلقة زمناً بسبب هذه الفظائع وهذه النذالة في الأجرام والقسوة ثم انظر إلى فظائع الحروب الاستعمارية وفظائع الحرب الكبرى فقد قاسى من اجلها من المحاربين ومن الأطفال والنساء آلاماً كثيرة عدد لم يقاس مثله في الحضارات الشرقية بشهادة بعض المؤرخين الموثوق بقولهم وبشهادة المفكرين مثل هالدين وليوناردوولف

ثم أنظر إلى مستقبل الإنسانية وما هو منظور أن تقاسيه من الويلات بسبب الحضارة الأوربية وجشعها ومخترعاتها مما ينسي المفكر كل مظاهر القسوة في الحضارات الشرقية التي ينتقدها بعض المؤرخين الأوربيين. والحقيقة أن النفس الإنسانية في السلم والحرب وفي أعمالها وأقواله اليومية لا تزال اكثر ولوعاً بالقسوة مما يظن المستعرض لها بنظرية سطحية عجلي، كما هي اكثر لوعاً بالمجون وقصصه وأعماله مما يظن المستعرض للأكاذيب المقررة التي هي طلاء الحضارة والتي تخفي مظاهر القسوة والمجنون في أعمال النفوس البشرية

وإني ما ذكرت تنور المتوكل الذي عذب فيه وزيره محمد ابن عبد الملك الزيات إلا ذكرت الغلاف الحديدي ذا المسامير الذي كان يوضع فيه الأحياء في أوربا. وما ذكرت الرقيق في الدول الشرقية إلا ذكرت أن الرقيق كان شائعاً في أوربا وأمريكا إلى عصور قريبة، وإلا ذكرت أنه عندما بدأ الرحماء يدعون إلى تحرير الرقيق ووجدوا نصراً من رجال الدين في أوربا أَلْفَوْا أعداء من رجال آخرين من رجال الدين كانوا يتذرعون بآيات من الكتاب

المقدس من العهد القديم كي يزكوا بها الاستعباد، وذكرت ما كان يقاسيه الرقيق في الحضارات الأوربية مما يطول شرحه ووصفه، وذكرت أن الكنيسة نفسها كانت تشتري الرقيق من الغلمان الصغار الملاح وتخصيهم، وكانوا يسمون خصيان الكنيسة؛ وكانت تفعل ذلك كي يرق صوتهم فيرتلون الآيات في الصلوات بصوت عذب شبيه بأصوات النساء. وكان بعضهم يهلك من عذاب الخصي

وبعد فإن مثل المؤرخين الأوربيين الذين ينكرون أو يصغرون من أمر مظاهر القسوة في الحضارات الأوربية ويكبرون أمرها في الحضارات الشرقية مثل كل إنسان في هذه الحياة الدنيا، فإن كل إنسان في هذه الحياة الدنيا يصغر ويهوّن من أمر مظاهر القسوة التي ترتكبها نفسه ويكبر من أمر مظاهرها الصادرة عن نفوس غيره من الناس. وهو يفعل ذلك أما غفلة وعن حسن نية، وإما يفعل ذلك وهو يدري ما يفعل. ولن تنصلح الإنسانية إلا إذا امتنع تظليل النفس هذا

عبد الرحمن شكري

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

1880 - 1937

للأستاذ محمد سعيد العريان

- 27 -

فترة جمام

نفض الرافعي يديه من المعركة بينه وبين العقاد، ثم فاء إلى نفسه، وعاد إلى دار كتبه يطالع ويقرأ ويتزود. . . واختفى اسمه من الصحف والمجلات أشهراً، كان في أثنائها يتهيأ لإتمام كتابه (أسرار الإعجاز)، ويعمل في الوقت نفسه على جمع ما نشر من المقالات في الفترة السابقة وترتيبها، ليخرجها كتابا يسميه (قول معروف. . .) على أن عنايته بشأن هذين الكتابين: أسرار الأعجاز، وقول معروف - لم يمنعه أن يكون له في كل يوم ساعات محدودة للقراءة والاطلاع. وكانت هذه الساعات المحدودة في اكثر لياليه تمتد من المغرب إلى منتصف الليل. وأستطيع أن أقول: إن هذه الفترة على ما كان يبذل فيها من جهد، كانت فترة جمام وراحة، لم ينعم بمثلها فيما بقي من حياته. وكنت بسميته يومئذٍ قريب العهد، ولكني كنت الصق أصحابه به؛ فكان لي به كل يوم ساعات: يقرأ لي واستمع إليه في داره، أو أماشيه في الخيال أو

أُجالسه في القهوة أو اصحبه إلى السينما. وكان علي في هذه الفترة وفيما بعدها من الزمن، أن اقرأ ما يهدى إليه من الكتب، لأشير له إلى المواضع التي يجدي عليه أن يقرأها، ضنّاً بوقته على قراءة ما لا يفيد. وكان لي وله في ذلك فائدة أيُّ فائدة؛ وكثيراً ما كان يدفع إلي بعض ما يرد إليه من الرسائل، لأرى رأي فيه وأشير عليه بالجواب أو أتولى ذلك بنفسي. وكانت هذه الفترة ذات اثر كبير في تكويني وتوجيهي في الأدب توجيهاً لم اكن اقصد إليه؛ كما تأثر هو بصحبتي في هذه الفترة تأثُراً وجهه في أدب الإنشاء توجيهاً لم يكن يعرف به منذُ نشأ في الأدب قبل ذلك بثلاثين سنة؛ فبدأ أسلوبه اكثر استواءعند عامة القراء، وكان قبلها يُتَّهَم بالغموض والتعقيد؛ كما عالج القصة فنجح فيها إلى حداً بعيد، إذ كانت القصة - وما تزال - أحبَّ ألوان الأدب اليّ، على حين كان الرافعي لا يؤمن بفائدة القصة ولا يعترف بخطرها بين أبواب الأدب الحديث. فما هو إلا أن حملته على محاولتها فأنشأ قصته الأولى؛ ثم كأنما اكتشف نفسه من بعدُ فصار ما ينشئ من القصص هو احب منشأته إليه، وخطا بها إلى نفوس القراء خطوات. . .

ومن طريف ما يذكر في هذا الباب أنني كنت أنشئ القصص لمجلة الرسالة، لا أكاد أعنى بشيء غيرها من موضوعات الأدب، وكان حُسن وقْعها عند القراء يدفعني إلى الإجادة والاستمرار؛ ولكن قارئ واحداً كان يعيب علي ما اكتب، ولا يرضى مني أن تكون القصة هي كل ما أعالج من فنون الأدب، وكثيراً ما كان يقول لي: (يا بني، أن لك بياناً وفكراً ومعرفة، فلماذا لا تحاول أن تكون أديباً؟ أنه لا يليق بك أن تكون القصص هي كل ما تحاوله من ضروب الإنشاء. وإن فيك استعداداً لأكثر من ذلك. . .!) وما زال يلح علي ويكرر هذه الملامة حتى وقع في نفسي أنني أسئ إلى نفسي بمحاولاتي أن أكون قصصياً؛ فانصرفت عن القصة، وكانت أحبَّ إليّ، إلى فنون أخرى من الأدب، إلا ما أنشئ من (القصص المدرسية) التي أؤلفها لتلاميذي على أنها وسيلة من وسائل التربية لا باب من الأدب. ثم لم يمض بعد ذلك إلا قليل، حتى كانت القصة هي اكثر ما يعالج الرافعي من أدب الإنشاء، وكان له فيها فَوَاقٌ منسق. وحلّت القصة محلها من تقديره بين أبواب الأدب. .!

وإذا كان في أذني الرافعي ذلك الوقر الذي يقطعه عن دنيا الناس، فان أسلوبه في الكتابة كان بعيداً عن فهم الكثير من ناشئة القراء. فلما اصطفاني بالودّ، أخذت على نفسي أن أكون أذنه التي يسمع بها ما يقال عنه، وما يرى القراء في أسلوبه، فكنت إذا جلست إليه ليملي عليّ أحاوره فيما يدق على الإفهام من أسلوبه، وما تنبو عنه أسماع القراء. ثم لا أزال به حتى يغير العبارة فيجعلها أدنى إلى الفهم وأخف على السمع. وكان ينكر ذلك عليّ أول أمره، بما فيه من اعتداد بنفسه وكبرياء، وكان أحياناً يوشك أن يغضب، وأنا أتلطف له وأحتال عليه؛ ثم لم يلبث أن رضي ذلك مني، فكان يملي علي العبارة من المقال، ثم يسألني: (ماذا فهمت مما كتبت؟) فإذا كان يطابق ما في نفسه مضى في إملائه، وإلا عاد إلي ما أملاه بالتغيير والتبديل حتى يتضح المعنى ويبين المراد. وبدا في النهاية أن يسميني

- العقل المتوسط من القراء -: على المزاج. . .!

لم يُنشر للرافعي في هذه الفترة شيء ذو بال، إلا أحاديث كان يمليها على بعض المرتزقة من كتاب الصحف الأسبوعية. وكان له طائفة من هؤلاء الكتاب يعطف عليهم ويعينهم على العيش، فكانوا يفدون إليه في المحكمة ليسألوه حديثاً فيملي عليهم جوابه ثم يذهبون لينشروه حيث يشاءون ويقبضوا أجره

في هذه الفترة، وكَلَ إليه الأديب حسام الدين القدسي الورّاق تصحيح كتاب (ديوان المعاني) لأبي هلال العسكري، وكان قد وقع منه على نسخة خطية فطبعها بأغلاطها وتصحيفها، ثم بدا له قبل أن يتم طبع الديوان أن يلجأ إلى الرافعي ليصحح أغلاطه ويتم نقصه على أن ينشره في الجزء الأخير من الكتاب

وقبِل الرافعي هذا التكليف على قلة أجره، ليقرأ الكتاب قبل أن يقرأه الناس، وليستمتع بلذة المعاناة في تصحيحه وتصويب خطئه؛ وإنها لرياضة عقلية ممتعة، لا يستشعرها ولا يقوي عليها إلا القليل من الأدباء. ومضى في هذا العمل شهراً أو يزيد، وكنت معه فيه، ثم انتكثت المعاهدة التي كانت بينه وبين القدسي فترك له كتابه بعد أن أصلح منه جزءاً غير قليل. وقد استطعت في تلك الفترة التي صحبت فيها الرافعي

وهو يحاول تصحيح الكتاب أن أعرف مقدار اطلاعه وسعة علمه وقوة بصره بأساليب العربية؛ وقد رأيت منه في هذا الباب أشياء عجيبة من قوة الحافظة، وسرعة الاهتداء إلى مراجع البحث، ومهارة الاستدلال على مواضع النقص، حتى لكأنني بازاء مكتبة دقيقة الترتيب منتظمة التبويب ما شئت من بحث هَدَتْك إليه قبل أن تبحث عنه. على أنه كان أحياناً يعرف موضع النقص من الكتاب ثم لا يهديه البحث إلى تتمته، فيضع فكره موضع فكر المؤلف ليستقيم المعنى ويتساوق الكلام وأكثر ما كان يقع ذلك في الشعر المشطور. وقد حدث مرة أن ظلّ الرافعي يبحث يوماً كاملاً عن تمام بيت من الشعر في مظانه من كتب العربية؛ فلما أعياه البحث جعل تمامه من نظمه ثم مضى إلى تصحيح ما بعده من الكتاب. وفجأة ترك ما هو فيه وقال: (اسمع! ناولني الكتاب الفلاني) فمددت يدي إلى موضعه من المكتبة فناولته إياه، فأخذ بتصفحه قليلا ثم قال: (لقد وجدته. . . هذا هو البيت الذي كنت ابحث عنه وتمامه. عد إلى ما كتبت من قبل لتصححه!) وعدت إلى ما كتبت، ورجعت النظر في الكتاب الذي بين يديّ، فإذا تمام البيت فيما كتبت وفي الكتاب سواء، لا يختلفان إلا في حرف الجر. . . أكان فضل هذا إلى ذاكرة الرافعي، أم إلى قوة بصره بالشعر وبأساليب البيان؟

ولم يكتب الرافعي في هذه الفترة التي سبقت اشتغاله بالرسالة، إلا بضع مقالات في البلاغ؛ وكان لكل مقال حافزه وداعيه:

كان السيد حسن القاياتي يكتب في جريدة (كوكب الشرق) كليمات في موضوعات شتى من وحي الساعة وخواطر الحياة. فبدا له يوماً أن يكتب في الموازنة بين قول الله تعالى: (ولكم في القصاص حياة. . .) وقول العرب: (القتل أنفى للقتل!) فانزلق إلى رأي. . . وكان محرر الكوكب في ذلك الوقت هو الدكتور طه حسين، وهو من هو عند الرفعي في دينه وفي أدبه وفي إيمانه يقدس القرآن. . . ولم يكن الرافعي يواظب يومئذ على قراءة كوكب الشرق

وجاء البريد ذات صباح إلى الرافعي برسالة من صديقه الأستاذ محمود محمد شاكر، يلفت نظره إلى ما كتب الأستاذ القاياتي وإلى ضلاله في تفضيل الكلمة الجاهلية على آية القرآن. . . ودفع إليّ الرافعي برسالة الأستاذ شاكر وهو يقول: (أتصدّق هذا؟ أيجرؤ أحد أن يقولها، أم هي مبالغة وتهويل من محمود؟ أم هو لم يفهم ما كتب الكاتب المسلم وحمل كلامه على غير ما يريد؟)

ثم بعث في طلب الجريدة التي نشرت هذه الضلالة فجيء بها. فما كاد يقرؤها حتى اربدّ وجهه وبدا عليه الغيظ والانفعال، ودار لسانه بين شدقيه بكلام، ثم لم يلبث أن نهض مغضباً إلى الدار قبل موعده، فانقطع عني يومين ثم أرسل يستدعيني إليه، فأملى عليّ مقالة طويلة بعنوان: (كلمة مؤمنة في رد كلمة كافرة!)

وكانت مقالة من عيون مقالات الرافعي، نشرتها البلاغ في صفحتها الأدبية. وقد أورد فيها بضعة عشر رأياً في بيان إعجاز الآية ومبلغها من البلاغة بازاء الكلمة الجاهلية، وقد جعلها من بعدُ فصلاً من شواهد كتابه (أسرار الإعجاز) الذي لم يطبع بعد. . .

وقرأ الأستاذ القاياتي مقال الرافعي في الرد عليه، فاقتنع بها فيما بينه وبين نفسه، واعترف على نفسه في خلوته، ولكنه لاذ بالصمت، وكانت كرامته الأدبية أعز عليه من كرامة القرآن، فلم يردّ عليه ولم يعترف علانيةً بما كان من خطئه فيما انزلق إليه!. .

وفتح مقال الرافعي أبواباً من القول لطائفة من الأدباء؛ إذ كان فيما ردّ به الرافعي أن كلمة (القتل أنفى للقتل) ليست جاهلية كما يعرف قراء العربية عامة، ولكنها نشأت في العصر العباسي لمثل ما استعملها له الأستاذ القاياتي في معارضة القرآن، واسندها مخترعها إلى حكيم الجاهلية اكثم بن صيفي ليتم له قصده؛ وجاز دعواه على قراء العربية حتى كشف الرافعي عن زيفها بعد ألف سنة!

كان تاريخ هذه الكلمة ميداناً للقول والمعارضة أياماً بين الرافعي وبعض الأدباء، ثم لم ينتهي إلى خاتمة؛ إذ كان الذي يعارض الرافعي في موضوعها ليس أهلاً لمناظرته، فلم يلبث أن شعر بالإعياء من أول شوط، فكتب إلى الرافعي رسالة خاصة في البريد يستعفيه ويعتذر إليه أنه مشغول البال بالاستعداد للزواج. . .

وفي هذه الفترة تم إنشاء (المجمع اللغوي) وكان الرافعي يمني نفسه بأن يكون من أعضاءه، فحال بينه وبين ما يتمنى أنه لا يسمع؛ وإن لم يمنعه أن يكون عضواً في

المجمع العلمي العربي بدمشق، وقد اختير له هو والمرحوم حافظ بك إبراهيم قبل ذلك بسنوات، فلم يشهد جلسة من جلساته، ولم يشترك في قرار قرره، ولم يبعث إليه برسالة واحدة في موضوع من موضوعات العلم العربي. . .

وساء رأي الرافعي في المجمع اللغوي من يوم إنشائه، ولم يمنعه من الحملة عليه أنه كان موعوداً بأن يختار فيه عضواً مراسلاً كما أنبأه صديقه فارس نمر باشا عضو المجمع

وافتتح المجمع، وكان أول محرراته الأدبية برقية بالشكر إلى المرحوم الملك فؤاد ولقيت الرافعي ذات مساء؛ فإذا هو يرفع إليّ جريدة البلاغ قائلاً: (أقرأ؛ هذا أديب صغير يهاجم المجمع اللغوي في يوم أنشائه، ويزعم أنه لم يستطع أن يكتب برقيه بريئة من الخطأ ليشكر بها منشئه. . .!)

وقرأت، فإذا نقد عنيف، وتهكم مر، وسخريه لاذعة. . . كانت كلمة صغيرة ولكنها ذات شأن، وقد اختار كاتبها أن يكون توقيعه (أديب صغير) مبالغه في السخرية والتهكم. . . وأخذ الكاتب على المجمع بضع غلطات لا ينتبه لمثلها إلا أديب دارس، له في العربية مكان. . .

وقال الرافعي: (ماذا رأيت؟) قلت: (نقداً مر لا يبلغ به هذا المبلغ على إيجازه إلا أديب كبير!) قال: (فمن تضنه؟) وكان سؤاله مشعراً بجوابه، ولكنني كذبت نفسي. . . أيكون هو؟ وما يحمله على أن يخفي عني؟ لقد كان معي أمس، وأمس الأول؛ فلماذا لم يحدثني بشيء من ذلك!

وقلت للرافعي: (أو تعرف كاتبه؟) قال: (حاول أن تفكر. . . لقد حاولت فلم أوفق!) وكان حسبي هذه الكلمة ليزول كل شك في نفسي، فما كذب عليّ الرافعي قبلها قط. . . .. .! ولم اعرف إلا بعد أيام أنه هو

ورد المرحوم الأستاذ حسين والي، وعاد الرافعي يرد ويتهكم ويسخر، ويتحدى المجمع اللغوي كله أن يرشده إلى الأطوار الاجتماعية التي مرت بها كلمة (حظِيَ) حتى ساغ للمجمع من بعد أن يستعملها بمعنى (ظفر) في برقية الشكر إلى جلالة الملك. . .

وسكت المجمع، وسكت الأستاذ حسين والي، وظل الرافعي (الأديب الصغير) يكتب حتى جاءه الرجاء أن يسكت فسكت!

مقالات (الأديب الصغير) في نقد المجمع اللغوي هي أخر ما كتب الرافعي في النقد على أسلوبه وطريقته

ومما كتبه في تلك الفترة بحث طويل في البلاغة النبوية أنشأه إجابة لدعوت الهداية الإسلامية بالعراق، لتنشره في ذكرى المولد النبوي. وقد لقي الرافعي من العناء في إنشاء هذا الفصل ما لا احسب غيره يقوى عليه. وحسبك أن تعلم أن الرافعي لم يتهيأ لكتابة هذا الفصل حتى قرأ صحيح البخاري كله قراءة دارس، وانفق في ذلك بعضة عشر يوماً، وهو وقت قليل لا يتسع للقارئ العجل أن يقرأ في صحيح البخاري قراءة تلاوه؛ فكيف به دارساً متمهلاً يقرأ ليتذوق بلاغة الأسلوب ودقة المعنى؟ ولكن ليس عجيباً من الرافعي الذي كان يقرأ كل يوم ثماني ساعات متوالية لا يمل، فلا ينهض عن كرسيه حتى يوجعه قلبه!

وكتب الفصل بعد ذلك في ثلاثة أيام، ثم دفعه إليّ لأكتبه بخطي ولم يمله عليّ، فأنفقت في كتابته ثلاثة أيام أخرى

هذا الفصل يملأ نحو عشرين صفحة من صفحات الرسالة، ويصلح أن يكون خاتمه لكتاب إعجاز القرآن - لو قدر لإعجاز القرآن أن يطبع طبعة جديدة - فأنه أشبه لموضوعه وفيه تمامه

وما فرغ الرافعي من كتابة هذا الفصل، حتى أحس بحاجته إلى الراحة بعد ما بذل من جهد، فاغلق دار كتبه وخرج إلى الشارع يشم الهواء، ثم لم يكد يأتي المساء حتى جاءه البريد برسالة من جمعية الكشاف المسلم بالشام، تطلب إليه أن يعد لها موضوعاً تنشره في صحيفتها لمناسبة المولد النبوي كذلك. . .!

وضاقت أخلاق الرافعي، فهم أن يلقي الرسالة ليفرغ لنفسه بضعة أيام للاستجمام، ثم تحرج، فعادت إليه ابتسامته وهو يقول: (سأفعلها قُرْبَى إلى محمد صلى الله عليه وسلم، ولو رمى بي هذا الجهد المتواصل إلى تهلكه!) وعاد إلى مكتبه وهو متعب مكدود. . . ثم أملى عليّ مقالة (حقيقة المسلم) الذي أعاد نشره في الرسالة بعد ذلك

وجمعه إلى وحي القلم
وكتب بضع مقالات أدبية في مجلة المقتطف
ثم دعته (الرسالة) ليكتب فصلاً عن الهجرة في العدد الممتاز الأول لسنة 1353هـ، فكان ذلك أول عهده بالكتابة فيها، ثم اتصل بها حبله، فظل يكتب لها كل أسبوع مقالاً أو قصة من قصصه الممتعه، لا يفتر عن هذا الواجب إلا أن يمنعه المرض أو تشغله شاغله من شواغل الحياة. ومات وهو يتهيأ لكتابة مقاله الأسبوعي لها، ولكن القضاء عاجله فخلفه على مكتبه ورقة بيضاء .!.
(لها بقية)
محمد سعيد العريان
أراء حرة، لعلها طلائع معركة!
بين العقاد والرافعي
للأستاذ سيد قطب
- 1 -
قرأت ما كتبه الأستاذ سعيد العريان تحت هذا العنوان في الرسالة، كما قرأت كل ما كتبه عن (مصطفى صادق الرافعي)
قرأته تحت تأثير عامل نفسي خاص، ذلك أنه كان لي رأي في المرحوم صادق الرافعي، لعل فيه شيئاً من القسوة. ولما كنت على ثقة أن هذا الرأي لم يتدخل في تكوينه عندي أي عامل خارجي، وإنما كانت نتيجة لعدم التجاوب بين آثاره الأدبية وبيني، فقد كنت في حاجة لأن أسمع من أصدقاء الرافعي ما عساه يخفف شدة هذا الحكم، ويكشف لي عن بعض حياة الرجل التي اشتركت في تكوين أدبه، فلعل فيها تفسيراً وتبريراً لما كنت أراه فيه، مما يستدعي قسوة الحكم، وشدة النفور
وكنت أخذت ألمح من كتابات الأستاذ سعيد أنه صديق له، مطلع على الكثير من أسرار حياته، وعوامل إنتاجه، فقلت: اتبعه فلعلك منقلب صديقاً للرافعي أو محايداً بالنسبة له!
والقصة بين الرافعي وبيني أنني قرأت له أول ما قرأت كتابه: (حديث القمر) فأحسست بالبغضاء له. أجل بالبغضاء، فهي اصدق كلمة تعبر عن ذلك الإحساس بين العقاد الذي خالجني إذ ذاك. ولم تكن ثارت بين العقاد وبينه إذ ذاك خصومة، ولم أكن سمعت شيئاً عنه من العقاد أو سواه، مما قد يكون سبباً في هذه البغضاء. ولو خالجني هذا الشعور بعد خصومته للعقاد لوجدت بعض التفسير، فأنا لا أنكر أنني شديد الغيرة على هذا الرجل، شديد التعصب له، وذلك نتيجة فهم صحيح لأدبه واقتناع عميق بفطرته، لا يؤثر فيه أن تجف العلاقات الشخصية بيني وبينه في بعض الأحيان
ولقد كنت أكره نفسي بعد ذلك على مطالعة الرافعي، فتزداد كراهية لهذا اللون من الأدب، دون أن أجد التعليل. ذاك أنني كنت إلى هذا الوقت أديباً يتذوق فحسب، لا ناقداً يستطيع التعليل، ويصبر على التحليل
والرجل قد مات فما تحسن القسوة عليه، ولكن لا يصح أن يكون الموت معطلاً للنقد، ولهذا سأتحدث عنه كما لو كان حياً، لأن الذي يعنيني منه هو إنتاجه الأدبي، وما يبدو من نفسه خلال هذا الإنتاج
كنت أشك في (إنسانية) هذا الرجل، قبل أن أشك في قيمة أدبه؛ وكنت أزعم لبعض إخواني في معرض المناقشة، أنه خواء من (النفس). وأن ذلك سبب كراهيتي له، ولو أنني لم أره مرة واحدة، ولم أجلس إليه
ولذلك كان همي أن أبحث فيما كتبه الأستاذ العريان عن حياته، لا عن أدبه؛ وكان يهمني أن أعثر في ثنايا هذه الحياة على (نفس) وعلى (إنسانية)
ولهذا اغتبطت، إن لم أقل دهشت، حينما رأيت الأستاذ سعيدا يذكر للرافعي (حباً) ويحدثنا عن مظاهر هذا الحب وخطواته. ذلك أن خيالي المنبعث من قراءتي للرافعي لم يكن يطوع لي أن ألمح إمكان وجود هذه العاطفة في حياته؛ فالحب يتطلب قلباً، وكنت أزعم أن ليس للرجل قلب؛ والحب يقتضي (إنسانية) وكنت افتقدها فيه إلى هذا الحد كان الحكم قاسياً على الرجل، وإلى هذا الحد كان تشاؤمي في تقديره
ولقد ظللت هكذا حتى استطعت أن أكون ناقداً، لا يكتفي بالتذوق والاستحسان أو الاستهجان، ولكن يعلل ما يحس ويحلله فماذا كانت النتيجة؟

لقد عدلت حكمي قليلاً، وخفت حدته، ولم أعد أستشعر البغض والكراهية للرجل وأدبه، ولكن بقي الأساس سليما
كنت أنكر عليه (الإنسانية) فأصبحت أنكر عليه (الطبع)، وكنت لا أجد عنده (الأدب الفني)، فأصبحت لا أجد عنده (الأدب النفسي)
الرافعي أديب معجب، في أدبه طلاوة وقوة، ولكنه يعدُ أدب الذهن لا أدب الطبع؛ فيه اللمحات الذهنية الخاطفة، واللفتات العقلية القوية، التي تلوح للكثيرين أدباً مغرباً عميقاً لذيذاً، ولكن الذي ينقصها أنه ليس وراءها ذخيرة نفسية، ولا طبيعة حية
لم يكن يعني الرجل في أدبه الحقيقة الأزلية البسيطة، بقدر ما يعنيه أن يصور الحقيقة الوقتية محكمة النسج، رائعة المظهر، تشبع الذهن ويستطيبها، ولكنها لا تلمس القلب أو يسيغها
وكثيراً ما يختلط أدب الذهن وأدب الطبع، إذا كان مع ذكاء وقوة. وما من شك أن الرافعي كان ذكياً قوي الذهن، ولكنه كان مغلقاً من ناحية الطبع والأريحية
أترى كبير فرق بين حكم الأديب وحكم الناقد؟
قد يكون، ولكنهما قريبا المأخذ، متحدا الإحساس.
وبعد فما كان أن يتفق العقاد والرافعي في شيء! فلكل منهما نهج لا يلتقي مع الآخر في شيء
العقاد أديب الطبع القوي والفطرة السليمة، والرافعي أديب الذهن الوضاء والذكاء اللماع
والعقاد متفتح النفس ريان القلب، والرافعي مغلق من هذه الناحية متفتح العقل وحده للفتات والومضات
والطاقة العامة لكل منهما في ناحيته متفاوتة بعد ذلك، فطاقة العقاد النفسية أقوى من طاقة الرافعي الذهنية، وعالم العقاد والحياة في نظره أشمل وأرحب بكثير من العالم الذي يعيش فيه الرافعي ويبصر الدنيا على ضوئه
وإذا لم تكن كلمة اليوم تتسع لضرب الأمثال، فستتسع الكلمات المقبلة للمثال بعد المثال
إنما يعنيني اليوم ما كتبه الأستاذ سعيد العريان!
ففيما كتبه وهو أخص أصدقاء الرافعي مصداق لكثير مما تخيلته فيه؛ وفيما كتبه عن العقاد أشياء كثيرة تستحق المراجعة؛ وسأبين هذا وذلك
في إباء الرافعي أن يشتري كتاب (وحي الأربعين) مع حاجته لنقده ما يشير إلى ضيق الأفق النفسي الذي كان يعيش فيه، وتصوير للون من الحقد الصغير قلما يعيش في (نفس) رحبة الجوانب متفتحة للحياة مستعدة لقبول صورها المختلفة المتعاقبة؛ وهذا ما كنت أتصوره من أدبه
وفي البواعث التي تدعوه لنقد وحي الأربعين كما صورها صديقه ما يصور نظرة الرجل إلى النقد والأدب والغاية منهما، ومدى نظرته العامة للحياة، واتساع مداها في نفسه، وهو لا يبعد كثيراً عن المدى الذي تصورته له
وفي اختيار الظروف السياسية للنكاية، دون أن يكون وراءها عقيدة ما، إلا شفاء الحزازات، كالمقال الذي كتبه في الكوكب، وكلمة وكليمة بالرسالة ما يؤيد خلو الرجل من
وهي الملازمة (للطبع) المفقود في الرافعي، فدوافعه في الأدب لم تكن (العقيدة) دوافع العقيدة والانطباع، بمقدار ما هي وليدة الفكر والتوليد والمماحكات
ويخطئ من يعتقد أن ما أقوله هنا مقصود به شخص الفقيد ولكنه شيء لا بد منه لتقدير أدبه على حقيقته
وفيما كتبه الأستاذ سعيد عن العقاد كثير من الجهل بطبيعة العقاد ودوافعه في الحياة، وعوامل الكتابة في نفسه
والأستاذ معذور في هذا لأنه لم يختلط بالعقاد أولاً، ولأن نفسه لم تتفتح لأدب العقاد فيفهمه ثانياً
ولقد كان يعيش في بيئة الرافعي وجوه، ويلوح لي من كتابته أن ذلك يلائم جوه الخاص، ويناسب بيئته الروحية
وأول ما يخطئ فيه اعتقاده أن طعن العقاد على الرافعي من ناحيته الوطنية، في رده

على نقد وحي الأربعين، كان حيلة أملتها البراعة السياسية
ووجه الخطأ هو تصوير العقاد كالرافعي في هذه الخلة النفسية وفي وسائل الصراع،
واستعمال الحيل الذهنية، والمناسبات العارضة لكسب القضية!
والذين يفهمون العقاد لا يعرفون فيه هذه الصفة. ولكنهم يعرفون طبيعة قوية مخلصة،
لا تتذرع بالحيل الذهنية، والبراعة السياسية العارضة، ولكنها تتذرع بنفوذ الإدراك،
وعمق الإحساس، وشمول الشعور. فإذا اتهم العقاد الرافعي بأن نقده لوحي الأربعين
منشؤه ضغينة شخصية، وإيحاء سياسي كما فعل، فإنما هو معتقد هذا في صميم
نفسه، وما يعنيه ما ينال الرافعي من الناحية السياسية، قدر ما يعنيه (كشفه) من
الناحية النفسية، وتصوير البواعث التي تهيجه لهذا النقد اللاذع
وما عن مبدأ خلقي يصدر العقاد في هذا، ولكن عن طبع قوي يخلق المبادئ الخلقية،
ويختار منها ما يناسبه، ويرفض مالا يرتاح إليه، ولو تواضع الناس عليه!
ويخطئ الأستاذ سعيد كذلك في تسمية ما كتبه العقاد في رده شتماً وسباً للرافعي،
كما أخطأ في تسمية ما كتبه من مخلوف سباباً وشتائم
ويبدو أننا في حاجة لتحديد معنى السب والشتم في لغة الأدب، بعيداً عن لغة القانون
في حاجة إلى بحث هذا الموضوع على ضوء من علم النفس وعلم الأخلاق وتطبيقهما
على العالم الأدبي، فطالما سمعت وصف الكلام بهذين الوصفين، مستمداً هذا الوصف
من ألفاظ الكلام دون بحث أسبابه، والحالة التي يعالجها
وطبيعي أن الحكم على الكلام وحده، مجرداً عن بواعثه وملابساته حكم شكلي، إن
أرضي ذوي المواهب الذهنية، فلن يرضى ذوي المواهب النفسية؛ وإن أرضي العقل
فلن يرضى القلب
وفي هذا عودة إلى الفوارق الأساسية بين مدرسة العقاد ومدرسة الرافعي!
كتب الرافعي عن وحي الأربعين كلاماً يعترف الأستاذ ببواعثه الأصلية، والعقاد يعرف
هذا، ويعتقد في صفات الرجل النفسية، وفي نصيبه من الطبع السليم والفهم المتفتح
أشد مما أعتقد أنا. ودواعيه لذلك الاعتقاد كثيرة ومفهومة، فإذا كتب يصور الرافعي
كما هو في خيال العقاد، وكما هو في الحقيقة، فليس الذنب ذنب العقاد في قسوته،
فإنما هو يصور حقيقة، أو على الأقل ما يعتقد هو أنه حقيقة
وإذا كتب عن (مخلوف) يتهكم به، ويشنع بسوء فهمه للأدب، فمبعث ذلك عظم الفرق
بين طاقة العقاد وطاقة مخلوف، والحنق على أن يكون مثل هذا ناقداً لمثل ذاك
والحق أن هذا مما تضيق به الصدور. وقد كنت أنا لا العقاد مستعداً للثورة والحنق، لو
تناول هؤلاء أدب بمثل هذا الضيق في الفهم، والاستغلاق في الشعور، أو بمثل
التلاعبات الذهنية، واللفات البهلوانية، التي تناولا بها أدب العقاد
ثم لا بد من عتب على الأستاذ سعيد في أن يسمح لصداقته للرافعي أن تعدو على
التقدير الصحيح للعقاد، فيعرض بلقب (أمير الشعراء) الذي (ينحله) الدكتور طه حسين
بك للعقاد (تملقاً) للشعب ونزولا على هواه
وما أريد أن أبحث عن بواعث الدكتور طه لإطلاق هذا اللقب، فصلتي بالدكتور لا تزال
حتى اليوم لا تسمح لي بتفسير حقيقة بواعثه. والحكم على النيات عمل عسير لا يصح
الاستخفاف به، ولكنني أتحدث عن مظهر هذا التصرف لا عن باعثه. ورأيي أن هذا
اللقب غير لائق بالعقاد، لأن المسافة بينه وبين شعراء العربية في هذا العصر أوسع
من المسافة بين السوقة والأمراء
وإنني لأكررها مرة أخرى، وأعينها في معرض الحقائق الواقعة لا معرض الجدل
والمناقشة
قد يكون هناك كتاب يتقاربون مع العقاد، ولكن ليس هناك شعراء في لغة العرب
يتقاربون مع العقاد
ولقد كنت هممت بإصدار بحث عن الشعراء المعاصرين، ونظرت في أدب جميع
الشعراء الأحياء - وأنا من بينهم - ولكن عاقني عن إصداره أن لم أجد نقط اتصال بين
العقاد الذي سأكتب عنه أولاً، وبين جميع الآخرين من الشعراء
الفرق هائل جداً، وأكبر مما يتصوره الأكثرون، بين طاقة هذا الشاعر والطاقات الأخرى
وسيغضب لقولتي هذه كثير من أصدقائي الشعراء المعاصرين، ولكنهم ليسوا أكرم
علي من نفسي، وأنا حسن الظن بشعري، - وليعذرني أنصار مبدأ التواضع - ولكنني

حين أضعه أمام شعر العقاد يتلاشى، وتحتبس نفسي عن التعبير حتى يسكن صدى شعر العقاد في نفسي!

هذه كلمة حق وعقيدة. وسأتولى شرح الأمثلة التي تثبت كل ما أسلفته من آراء (حلوان)

سيد قطب

الرئيس الوزير إدوار هريو

رجل الأدب

بمناسبة زيارته لمصر

للأستاذ عبد العزيز عزت

هناك ثالوث من المعارف لا تنفصم أجزاؤه، إذا تحقق في رجل كانت له صفة الإنسانية الخالدة! هذا الثالوث هو الفلسفة والسياسة والأدب؛ ذلك لأن الفلسفة تصقل الفكر إلى درجة يرتفع بها عن اضطراب مفردات الوجود الجزئية، إلى نوع من التجريد العقلي تنفذ به القريحة إلى صميم الأصول التي تحدد الأشياء في جوهرها الدائم، واقعية كانت أم فرضية. والسياسة ضرب من المعرفة أخطأ مكيافللي في تعريفها حين قال: (إنها وسيلة للكذب والخداع)؛ لأنها عند المفكر الأول للبشرية أفلاطون الإلهي - إذ استعرنا لغة الفارابي -: هي وسيلة لتحقيق منطق العالم في مجال عالم الاجتماع الإنساني، فيسوده نوع من الانسجام يوجب استقرار النظام فيه؛ وتتحقق فيه (ذروة) الكمال فتستقيم حياة الإنسان. لهذا كانت السياسة هي بيت القصيد في فلسفة أفلاطون، وكانت (المدينة) كنظام اجتماعي - إذا استعرنا لغة فستيل دي كولانج - هي المحور الأساسي الذي تدور حوله فلسفات الإغريق في العهد القديم. والأدب، يكفي لتعريفه أن يلقي القارئ نظرة إلى جدول موضوعاته في مؤخر كتاب العلامة الكبير لانسون عن (الأدب الفرنسي) ليرى انفهاق نواحيه والتي في صلبها الفلسفة والسياسة؛ وذلك لأن الأديب يجب أن يعيش لتحقيق فكرة معينة في مجتمع معين، وتأكيد مذهب ونزعة واضحة في الفكر لا يحيد عن دعمها مرة واحدة في بلد من البلاد، وإلا كان قلمه رخيصاً لا قيمة لما يسطره في أسواق الأدب الرفيع؛ لأن الأدب إذا قام على العجز في الإبصار والإدراك بمعنى أن يذهب الأديب إلى ترديد (الماضي) دون أن تدفع به عين التفكير في حركتها إلى الأمام، كان أدبه مستذلاً تسوده النزعة التاريخية، لا يبصر قارئوه أبعد من أنوفهم؛ وإذا نظروا خلال ذلك الأدب لن يروا أمامهم إلا سراباً. وثانياً ينتاب هذا الأدب العجز في الإدراك بمعنى انعدام الخلق الوطني فيه، بأن يعمد واضعوه إلى تقليد الأجانب في أدبهم معتمدين في ذلك على الترجمة والاقتباس، فيكون بذلك

أدبا (فردياً) كله المحاكاة والتنافر مع أول احساسات أهل الوطن، لأن الأدب كأساس نتاج فكري يتعلق بالمشاعر والعواطف، فهو خاص له لون معين يشتق من طبائع الأمم وميزاتها. (اقرأ كتاب فكتور هوجو وعنوانه (الأدب والفلسفة) وأيضاً ما كتبته مدام دي ستايل عن الأدب والسياسة)

فالفلسفة، والسياسية، والأدب، تتميز بعضها عن بعض ولكنها لا تنفصل، (كالمثلث) إذا ضاع أحد أضلاعه، انعدمت وحدة الوجود الهندسي فيه. كذلك (الرجل) بالمعنى الأدبي هو ذلك الهيكل الفكري الذي تحقق فيه المعارف الثلاث. وليس في عصرنا هذا رجل يتمثل في شخصه ثالوث هذه المعارف الثلاث وانسجامها كالرئيس هريو، فهو بحق رجل الفلسفة والسياسة والأدب

أما عن فلسفته: فذهب يسعى إليها عند مفكر مصري هو فيلون الإسكندري الذي جعل منه موضوعاً لكتاب طريف يمثله في حياته الأولى. وفي دراسته هذا الفيلسوف أكبر دليل على تحقق صفة الرجولة والإنسانية فيه، لأن فيلون يوحد في شخصه وفي انسجام تام عناصر فكرية مختلفة النزعات، فهو يهودي النشأة، مصري المشاعر، يوناني الثقافة. هو عالم مستقل بذاته يتوسط بين العالم اليوناني القديم، وبين عالم التفكير في القرون الوسطى. ففي دراسته إلمام بما تقدم وما تأخر من المعارف في تطور التفكير عند بني الإنسان حتى ظهور العهد الحديث. وفي دراسته أيضاً توفيق بين الإلهام والعقل وبين عالم الشهادة وعالم القداسة، وبين الفلسفة والدين، وبين العقلية اليونانية والعقلية الشرقية. وبفضله أصبحت الإسكندرية العامرة، منارة العلم ومنبع

النور في الإيمان والتجريد الفكري. فاهتمام الرئيس هريو بفيلسوف كهذا يدل على مبلغ ما هو عليه من العلم الغزير وسعة الاطلاع، وحاسة (توحيد ما اختلف) مما ساعده أهله ليكون رئيساً لمجلس النواب الفرنسي يقيم الانسجام بين ما تباين من نزعات الأحزاب، وأهواء السياسة، وجموح مناقشاتها العسيرة، لتسير في هدوء إلى سبيل الحق الذي يعلو على شهوات التخصيص الضيق في أصول الحكم

وهو في كتابه هذا يعرض أولاً لمقارنة يهودية التوراة في عهد فلسطين بالمعتقدات اليونانية، ثم مقارنة يهودية الإسكندرية - وكفرع - بنفس تلك المعتقدات الإغريقية؛ وفي موضع ثالث يتطرق إلى تحليل منهج فيلون وآرائه الثابتة في مجال الإلهيات، فيعرض

لنظرية التأليه عنده، وتحديد فهمه لطبيعة الأفكار والأعداد، ويثبت تأثره بفلسفة الفيثاغوريين؛ ثم ينتقل بالكلام أو شرح جوهر النفس وتشعب نشاطها، وعلى الخصوص وصف حياتها (القابلة) التي تتمثل في انفعالاتها وشهواتها الثائرة المريضة، ثم يعرض إلى مذهبه في الأخلاق وطبائع الفضائل وأصول التخلق في الحياة وما بعد الحياة، ثم يشرح أخيراً آراءه في السياسة، فينقد مبادئ الاستبداد والتزعم الجامح

وأما عن أدبه: فهو أدب بني على النبل والورع؛ لم يقصد به فرض وهم في الزعامة على الأدب في فرنسا، لأنه يعرف أن الزعامة تاج يكلل به الناس رؤوس من يتوسمون فيهم أهلية هذه الزعامة، فهي (تسعى) إليهم، دون أن تفرض على الناس فرضاً. وهذه الزعامة لم تقم يوماً ما على الغرور الفكري، ولا على مهاجمة الناس في معتقداتهم وأديانهم؛ ولم يكن التجديد في الأدب يوماً هو الانسلاخ عن تراث الآباء والأجداد والذهاب لما يمجه ذوق البلاد من التواء وغموض في التصور عند الفرنجة، وإنما هو الإقرار بفضل من تقدم من السلف الصالح، وفهم الحاضر الفكري فهما يكفل الإنتاج العقلي في المستقبل القريب. فبهذا تحفظ روح الأمة ومشاعرها، صافية من غير امتزاج، وتسير إلى الأمام في غير ما ترقيع ولا ابتذال

لهذا ذهب الرئيس هريو إلى أدب قومه، واختار من بين فتراته حقبة من الزمان هي الحد الفاصل بين نوعين في الأدب الفرنسي: نزعة المحافظة على القديم التي تتمثل في أدب القرن السابع عشر الميلادي عند راسين وملييير وبوالو، ونزعة (الإصلاح) فيه عند كتاب القرن الثامن عشر مثل روسو وفلتير ومنسكيو. هذه النزعة الثانية نزعة (حربية) لم تنسجم وطبيعة التفكير الأدبي، فقضت على الأدب (الرفيع) بثورتها؛ لأن مجاله أصبح مهزلة لتراشق خطباء الثورة بما يمجه كل ذوق أدبي سليم، ويأباه كل عُرف في التصور والتأدب. وفضت عاصفة السياسة على الاستقرار الأدبي، وحرمته الخضوع لمذهب واحد معين يمثل مشاعر أمة واحدة معينة، له لونه وصبغته الخاصة، وأصبحت أقلام الأدباء كسهم الريح في أعلى المنازل تعصف به الزوابع في كل اتجاه، فهي تباع وتشترى بيع الأنقاض في أسواق السلع البائسة، تدور وتتذبذب في سائر الأحزاب، دون استقرار محدود على مبدأ واحد ثابت لا يتغير

هذه الفترة التي ذهب إليها الرئيس هريو هي مبدأ القرن التاسع عشر، إذ هدأت عاصفة الثورة الفرنسية بأدبها (الوهمي) وإذ ابتدأ ظهور المذهب الرومانتيكي أي (التخصيص في الأدب) (بمعني أن يكون للأديب مسحته الخاصة الغالبة وحريته الكاملة في تصوير وتسطير ما يشاء ويهوى، دون أن يخضع مثلاً لقانون الوحدات الثلاث الذي نجده مثلاً عند راسين، والذي يتأثر هو فيه بتعاليم اليونان، وخاصة أصول (التراجيدي) عند أرسطو وسوفكليس وأربيدس في العهد اليوناني القديم)، بفضل ما كتبه شاتوبريان، وعلى الخصوص الشاعر الخالد فكتور هوجو في (مقدمته) لرواية كرمويل.

واختار الرئيس هريو من أدباء هذه الفترة مدام دي روكامييه، كموضوع لرسالته الكبيرة لدكتوراه الدولة، ومدام دي ستايل، كموضوع لرسالته الصغيرة

كانت الرسالة الأولى من الضخامة بحيث طبعت في جزأين، واضطر الرئيس (هريو) أن يعيد طبعها (مخفضة) عند (بايو) لتكون في متناول كل قارئ مثقف، بعد أن حذف كثيراً من (الهوامش) التي ما كانت في واقع الأمر إلا (زينة) في رسائل مدرسة السربون، وغرضه الأول فيها لم يقتصر على دراسة هذه الأديبة وتحليل شخصيتها في ذاتها، بل كان مع ذلك دراسة الروح العامة للأدب في ذلك الزمان، وحل المناسبات الاجتماعية التي ساهمت في نضوجها الفكري. وليس أدل على صحة كلامنا من عنوان

الرسالة نفسها وهو: (السيدة ركاميه وأصدقاؤها). والغرض الثاني إثبات أثر مدينة ليون التي ولدت فيها هذه السيدة في تكوينها الأدبي، والحياة الأدبية لهذه المدينة خلال ما كتبته هي عنها في زياراتها المتعددة لها في ذلك العهد. والغرض الثالث هو شرح أهمية اتصالها بمؤسس مذهب الرومانتيزم شاتوبريان وما كان له من الأثر في توجيه تفكيرها الأدبي والسياسي

والرسالة الثانية، تعرض للصداقة المتينة التي كانت بين السيدتين ركاميه، ودي ستايل، واتحادهما في نزعة العداء ضد مبادئنابليون بونابارت. فهي رسالة تبحث أيضاً في أدب نفس ذلك المعهد وفي نفس الجو الأدبي؛ غير أنها تمتاز بكونها شرحا لبعض مخطوط لم يطبع حتى ذلك التاريخ، يوجد في المكتبة الأهلية بباريس في نحو 297 صفحة بعنوان (منتخبات لآراء سياسية) فيها تعرض مدام دي ستايل عن (حلمها) السياسي وهو إمكان تحوير مبادئ الدستور القائم إبان ذلك، وإحلال جمهورية تثبت على أصول العقل. ففي

القسم الأول من هذه (المنتخبات) تشرح مبادئ الثورة والشروط اللازمة لتحقيق مبادئها. وفي الجزء الثاني تعرض للأصول العامة العقلية لإمكان تحقيق الجمهورية. وفي القسم الأخير تبسط أهمية أصول العقل في تغيير الحالة العامة في فرنسا في ذلك الحين. فهي بهذا المخطوط تكتب على طريقة أفلاطون في (جمهوريته) فترسم فرضاً سياسياً وإن كان يسوده الخيال، إلا أنه مع ذلك يحدد لنا نزعاتها الخاصة في الحكم، وكيف أنها تميل في نزعاتها إلى نوع معين من الديمقراطية لا تبني مباشرة على مبادئ الثورة الفرنسية بل على أصول التفكير والعقل الخالص

أما عن سياسته: فنقول إن السياسيين في أغلب أمم الأرض في زماننا هذا هم أكثر الناس جهلا بالسياسة وأصولها، وهذا الجهل راجع في نظري إلى أن السياسة أصبحت مجالاً للدجل والتهريج لا يطرق بابها إلا أصحاب الفراغ والجدة في كل شئ. ومن ادعى من رجالها العلم والفهم في مجالها، رجع في علمه وفهمه هذا إلى مفكري العصر الحديث، أولئك الذين يشرعون باسم المادة والاقتصاد، مع أن السياسة عند أهلها من آباء التفكير وخاصة أفلاطون الإلهي، تقوم على فهم طبيعة الإنسان الخاصة وتخلقه. لهذا كانت السياسة هي بيت القصيد في الفلسفات القديمة وكانت تتضمن دراسة هذا العلم، ودراسة الآداب، وعلى الخصوص دراسة الأخلاق؛ وكان لا يمكن أن يسمى الرجل (سياسياً) إلا إذا بلغ الخمسين من عمره، بعد أن عرك الحياة ووقف نظرياً وعملياً على طبائع الناس وتضارب ميولهم، وتباين تخلقاتهم، وأضاف إلى علمه بجوار منطق العقل، منطق الحياة. أما اليوم فهي لا تلم إلا (القش) (والرماد) في كل هيئة اجتماعية من الذين يؤمنون بما يوحي إليهم رجل كمكيافل أن السياسة هي (مكر ولؤم وخداع)، عوضاً من أن تكون (فلسفة، وأدبا، وأخلاقا)

لهذا كان الرئيس هريو ليس من المحدثين في السياسة، لأنه يسير وتعاليم اليونان القدماء، فهو لم يتعجل أن يطرق بابها، فيصيبه ما يصيب أهلها الآن من ابتسامات تقديرية لو فهمها الرجال منهم لأحمرت لها وجوههم. فبعد أن مهد لنفسه النضوج الفكري بثقافة جامعة وافية في الفلسفة والأدب، طرق مجال الخدمة الاجتماعية عملياً في عمادة مدينة ليون، فأثبت ما هو أهل له من العلم، وإحكام الادارة، وتصريف أمور الحياة بين الناس، حتى إذا كان في

نحو الأربعين من عمره انتخب مباشرة عضواً في مجلس الشيوخ الفرنسي عن منطقة الرون، متخطياً مجلس النواب، فكان أصغر عضو في ذلك المجلس عام 1912؛ ثم تطرق بعد ذلك إلى منصب الوزارة، ثم إلى رياسة الوزراء، ثم إلى رياسة النواب، فكان في كل مرة مرحلة منها (الفيلسوف العادل)، (الموحد لما اختلف). ولعب بجوار ذلك دوراً لا يستهان به في تنظيم الحياة الداخلية لأمته إبان الحرب العظمى عندما ولاه الرئيس الوزير بريان وزارة الأشغال والمواصلات والمؤونة؛ ويمكن أن يتصور خطر هذا المنصب، والقتال قائم على قد وساق

وباعتباره (عمدة) لمدينة ليون، يكفي هذا أن يرفع نظر المصريين إليه، لأن لهم فيها ذكريات تتعلق بتاريخهم في العهد الحديث. فالرجل الذي قاد الجنود المصرية في ساحة الوغى، وأثبت للعالم سمو الروح الحربية عند المصريين، ووضع أسس الإمبراطورية المصرية، هو القائد سيف أو سليمان باشا الفرنساوي الذي ترك وطنه

في مدينة (ليون)، بعد انهزام نابليون، ليعمل لحساب مؤسس الأسرة العلوية الكريمة، فكان عند حسن ظن محمد علي باشا فيه؛ فحقق ما رسم له خالق مصر الحديثة ومشيد عظمتها. كذلك ساهمت ليون بعلمائها الأعلام وعلى الخصوص الأستاذ لامبير في خلق مدرسة للفكر في مصر تتمثل في ذلك الشباب النابه الذي ورد شرعة العلم من سنين في هذه المدينة، والذين أصبحوا الآن من قادة الفكر في مصر، في الفلسفة الإسلامية، وفي عمادة الحقوق، وفي بطولة المحاكم المختلطة، وفي زعامة المحاماة والثقافة. والجميل في أمر هذه المدرسة، أن أهلها يعملون على إعلاء كلمة الوطن في نبل وهدوء وورع، دون أن يتخذوا من العلم سبيلا وضيعاً لمهاجمة معتقدات أهل البلاد ودينها، وتصويرها في حفلات عامة كقبائل المتوحشين لا هم لساكنيها إلا التفكير في المأكل والمشرب كما يفعل هذا الكثير من متخرجي السربون وجامعة باريس، وهو ما لا يليق بشباب يدعي الثقافة والفهم، ومكتوب على جوازه سفره أنه (مصري)!؟

عبد العزيز عزت

عضو بعثة الجامعة المصرية لدكتوراه الدولة

ليلى المريضة في العراق

للدكتور زكي مبارك

- 16 -

خرجت من منزل ليلى نشوان، نشوان إلى حد الجنون. والمرء في العراق لا يكون إلا في حالين اثنين: حال تحدثه فيه النفس بالغرق في دجلة من الفرح، وحال تحدثه فيه النفس بالغرق في دجلة من الغيظ. فالمرء في العراق إما أن يكون سعيداً كل السعادة، وإما أن يكون شقياً كل الشقاء

وكذلك حال ليلاي، فهي قد ترق وتلطُف فأدخل دارها بُعَيْد الغروب ولا أخرج إلا قُبَيْل الشروق؛ وقد تقسو وتعنف فتطردني من دارها بلا ترفق ولا إشفاق

خرجت من منزل ليلى نشوان، فقد رضيتُ عنها ورضيت عني، ولكن الحادث الأخير ترك في القلب عقابيل، فأخذت احترس، وهل يتفق الحب والاحتراس؟

نعم يتفق الحب والاحتراس، ولكن يضيع النعيم فالمحب المحترس يثق بنفسه، ولكنه لا يثق بمن يحب. . . وليلى بدأت تعد ذنوبي ولكن من أي تاريخ؟ منذ اليوم الذي اطمأنت فيه إلى عودة العافية!

فمن أنا في دنياي؟ من أنا في دنياي؟

لقد كنت أرجو أن تعمى ليلى عن عيوبي، ولكن هكذا كنت في حياتي، فما أذكر أبداً أني عانيت الظلم إلا على أيدي ناس أحببتهم واستقتلت في الدفاع عنهم. كنت كالسيف يلقيه صاحبه بعد أن يفله القتال. كنت كالغصن المثمر يؤخذ للوقود بعد إنتهاب ما يحمل من ثمرات. كنت وكنت، فما أشقاني وما أعظم بلائي!

كذلك دار رأسي وأنا ماض إلى قطار البصرة. وما أدري كيف صاغ الله عقلي على هذه الصورة، فعقلي لا يغفو أبداً؛ وهو دائب على الدرس والتحليل، وليس من الزهو أن أذكر أن أعلم ما يساورني من المعضلات الفلسفية أهتدي إلى حله في أحلامي، والمسيو ماسينيون يذكر ذلك، فقد كانت لي معه مواقف يوم كنت تلميذه في باريس أمسيت أحقد على ليلى، ولكن لا بأس، فقد وثقت بي، واطمأنت إلي، فأخذت تصادق من أصادق، وتعادي من أعادي؛ وليس ذلك بالقليل، فما الذي يمنع من أن أحتمل ما يثور في

صدرها أحياناً من براكين؟

أليست عراقية؟

بلى، هي عراقية

وأنا رأيت الأعاجيب في العراق

فمنذ ليال أويت إلى فراشي في منتصف الليل والسماء صاحية، ثم انتبهت على الروع والفزع، فقد كان المنزل ترج سقوفه وحيطانه بعنف، فأوقدت المصباح وأنا خائف أترقب، ثم عرفت بعد التأمل أن الصحو أعقبه غيم ومطر وصواعق

ولما خرجت في الصباح رأيت الشمس آست ما جرح الليل، وكأن لم يكن شيء!

ذلك هو العراق

وكذلك تكون ليلاي في العراق

فما الذي يمنع من الصبر على دلالها أو أذاها شهراً أو شهرين حتى تمل هي من النضال؟
إن بعض المرضى يريحهم أن يثوروا على الأطباء. ومن واجب الطبيب أن يرحب بمثل هذه الثورة، لأنها بشير العافية. وستذكر ليلى أني كنت من الصابرين، وأني منحتها عطف المحب ورفقة الطبيب! ولن أفارق بغداد قبل أن تبذل في سبيلي غاليات المدامع، أن كتب الله أن تأخذ عن طبيبها أدب الصدق والوفاء
لن أنساك يا ليلى فقد عاديتُ فيك وعُوديت
واحمل في ليلى لقوم ضغينةً ... وتُحمل في ليلى عليَّ الضغائنُ
ولكن هل تفهمين أو تعقلين؟
أما والله لو تجدين وجدي ... جمحتِ إليَّ خالعة العذار
كانت هذه الخواطر السود تنتاش قلبي وأنا في طريقي إلى المحطة، ثم تفجر الحنان في قلبي على غير انتظار، فقد سمعت المذياع يرسل هذه التغريدة رحمة للقلوب (ليه تلاوعيني، وأنت نور عيني)
وهي من تغاريد أم كلثوم، وكأني اسمعها أول مرة، فرجعت على نفسي باللوم وقلت: كذلك يكون العقاب! وهممت بالرجوع إلى ليلى لأقول:
(ليه تلاوعيني، وأنت نور عيني)
ولكن تذكرت أن الوقت لا يتسع للقيام بواجبين في وقت واحد: عتاب ليلى وملاقاة صاحبة العينين التي أرجو أن ادفع بوجهها المشرق وحشة الطريق وظلام الليل ودار ذهني يحاور ويجادل:
- كيف تشرك بليلى هذا الإشراك؟
- أنا أشرك بليلى؟ معاذ الحب!
والحق أني أشرك بهوى ليلى، ولكن هذا الشرك هو طريقي إلى التوحيد. أنا احب جميع الملاح لأهيئ قلبي لحب ليلى. أحب من أجلها كل ما في الوجود، وأصبح من أجلها عن جميع الذنوب
وصاحبة العينين ستسألني عن ليلى؛ والسؤال عن ليلى، من ذلك اللسان الألثغ الملجلج هو في ذاته زُلَفى إلى ليلى. وأنا أيضاً رجل مكروب تضيق به دنياه، والظلال في هوى العيون قد ينسيني كروبي؛ وليلى يسرها أن أعيش أيطيب العيش، وهي تعرف أني لا أحيا بغير الحب والنسيم، شفاها الله وشفاني
طوّفت بجميع إرجاء المحطة لأرى صاحبة العينين، وما رأيت صاحبة العينين
فتشت جميع دواوين القطار لأرى صاحبة العينين، وما رأيت صاحبة العينين
ورأى حيرتي ناظر المحطة فقال في تلطف: ضاع منك شيء؟ فقلت: لا، ما ضاع مني شيء، وإنما أخاف وحشت الطريق وظلام الليل
فتعجب الرجل من هذا الجواب المضحك وانصرف
فهل رأى الناس حالاً مثل حالي؟ هل رأوا من قبلي رجلا يرحّب بالشّرك فيعز عليه الشرك؟
أن الحب يريد أن اذهب إلى البصرة وليس في قلبي غير ليلاي وكان لي في القطار رفيقان: أولهما الدكتور عبد المجيد القصاب، وهو طبيب يمثل عذوبة الروح، وصفاء القلب، وهو من خيرة الذين عرفتهم في العراق، وثانيهما السيد ظالم وهو صحفي آيب لا تعرف بصحبته ضجر السفر ولا طول الطريق وليس فيه غير عيب واحد هو التجني على الموسيقار محمد عبد الوهاب والغناء المطلق في الغاني أم كلثوم
جلس حضرته يدندن، ولكن كيف؟ بعد أن لبس عباءة فضفاضة جعلته نسخه من سلطان
زنجبار
وأمسى ديواننا في القطار قريب الشبه بالغرفة التي يجلس فيها احمد رامي بدار الكتب المصرية، الغرفة التي ترق فيها الدندنة وتشتبك حتى لتحسبها خيوط العنكبوت، الغرفة الجذابة التي يحرم دخولها على احمد الزين ثم يحل ويباح لمن يسألون عن رباعيات الخيام أو تأملات لامرتين
وظالم ورامي يشتركان في صفات كثيرة أهمها تشويه الوجه ورخامة الصوت
- يا سيد ظالم!

- نعم، يا سيدنا ألبيه!
- هلم بنا إلى العشاء
- عشاء إيه، أنت عاوز تخرب جيبك؟
- أخرب جيبي؟ وكيف؟
- العشاء في القطار غال جداً
واعترض الدكتور القصاب فقال: أما يسرك أن تصنع مثل الذي كنت تصنع في قطار ليون!
- لا بأس إذن تنتظر إلى أن يقف القطار في المحطة المقبلة
وفي المحطة تقدمت فلاحة في خمار اسود ومعها ماعون هائل من اللبن الرائب، فاشتريناه بعشرة فلوس، وتقدم طفل، وفي يده رغيفان؛ فساومناه، فاشتط في الثمن، فقاومناه، فقبض على الرغيفين بأسنانه والقطار يمشي، فرميناه بعشرة فلوس ونزعنا من أسنانه الرغيفين!!
ما اظرف العبث في قطار البصرة وما أحلاه؟
وفهم الرفيقان أني ميت من الجوع فلم يأخذا من الطعام غير لقمتين
وما كاد الطعام يستقر في جوفي حتى هجم النوم هجوما لم أشهد مثله منذُ أعوام طوال، فعرفت أن ذلك اللبن الرائب أراح أعصابي، وهي أعصاب أرهقها النضال وسهر الليالي
اتكأت على المرفقة ونمت وأنا جالس، نوماً شهياً جداً، ولم يعكر نومي غير الجدل السياسي الذي أثاره الدكتور القصاب مع رفيق غاب عني اسمه، وكانا يتحدثان عن المعارك الحزبية في دمشق
وفي تلك الغفوة الشهية صاح صديق:
دكتور، دكتور، أنظر، أنظر، أنظر
فنظرت من نافذة القطار فإذا صاحبة العينين في سيارة مغروزة في الوحل
وهممت في النزول من القطار لأرى هذه المرأة كيف أنفع في لشدائد!
ثم تذكرت أنني أيضاً في سيارة مغروزة في الشوك، هي سيارة الحب
ونظرت إليّ المرأة نظرات الملهوف
ونظرت إليها نظرة الغريق
نظرتْ ونظرتُ، ثم نظرتْ ونظرتُ
وأنقذ القطار الموقف فسار لا يلوي على شيء
- دكتور، دكتور
- نعم، نعم
- أنظر، أنظر
ففتحت عينيّ فإذا الشمس أشرقت وإذا سرب من الظباء الوحشية يجول في البيداء، وهي أول مرة أرى فيها الظباء الوحشية ذات الأجياد والعيون
أتكون هذه الظباء الوحشية هي البشير بالاقتراب من الظباء الإنسية؟
هو ذلك، فلم يبقى بيننا وبين الأنس بوجوه أهل البصرة غير ساعتين
الله وأكبر ولله الحمد!
هذه هي البصرة، هذه هي البصرة، وما تخونني عيناي
هذا هو البلد الطيب، بلد المبرد، المبرد صاحب الكامل في اللغة والأدب والنحو والتصريف
وبفضل الكامل للمبرد وصلت إلى منصب الأستاذية في الأدب العربي؛ وبفضل الكامل للمبرد صحبت الشيخ سيد المرصفي سبع سنين؛ وبفضل الكامل للمبرد استطاعت القاهرة أن تزاحم البصرة، فسيذكر التاريخ أن الأزهر جلس على حصيره الممزق رجل أعلم من المبرد، هو الشيخ سيد المرصفي أستاذي وأستاذ الأساتذة طه حسين وعلي عبد الرزاق واحمد حسن الزيات، وأول أستاذ تصدر لتدريس الأدب بالأزهر في العصر الحديث
الله أكبر ولله الحمد!
هذه هي البصرة ذات النخيل
هذه هي المدينة التي تجري من تحتها الأنهار

هذه شقيقة الفيوم، على أزهاره وأشواكه أذكى التحيات
هذه هي البصرة، وما تخونني عيناي
فإذا قيل إن منظر القناطر الخيرية على النيل منظر لا ثاني له في الوجود؛
وإذا قيل إن شواطئ الإسكندرية في الصيف لا ثاني لها في الوجود؛
وإذا قيل إن حي الشانزليزيه في باريس لا ثاني له في الوجود؛
وإذا قيل إن السهل الذي تصادفه بعد الانحدار من جبل لبنان منظر لا ثاني له في الوجود؛
وإذا قيل إن مفترق الطرق بين شارع عماد الدين وبين شارع فؤاد شيء يفوق الظنون؛
وإذا قيل إن الغبوق بمصر الجديدة والصبوح بالزمالك نعيم يذكّر بنعيم الفراديس؛
وإذا قيل إن صبايا المنصورة لها مذاق لا ثاني له في عالم الجمال؛
وإذا قيل إن مناظر الكروم في بوردو لا شبيه لها ولا مثيل؛
وإذا قيل إن بغي المصريين بعضهم على بعض معنى فريد في الوجود؛
وإذا قيل إن قبة الجامعة المصرية اعظم قباب الشرق؛
وإذا قيل إن زكي مبارك اسعد من استصبح بظلام الليل في بغداد؛
إذا قيل ذلك أو بعض ذلك فأعرف أن مدينة البصرة هي شيء فريد في دنيا الشرق، ودنيا الغرب. هي غريبة الغرائب، وأعجوبة الأعاجيب. هي فوق الأوهام والظنون، وإن جهلها فريق من أهل العراق
ما هذه المدينة؟ ما هيه؟
لقد استأنست كل الاستئناس حين عرفت أن اللغة العربية لا تزال تسيطر على مثل هذا الثغر الجميل
لقد كبرت وهللت حين رأيت وطن المبرد والجاحظ والحسن البصري وإخوان الصفاء
لقد كبرت وهللت حين عرفت أن للعروبة مواطن لا تقل روعة عن القناطر الخيرية
ثم غلبني الحزن حين تذكرت أن مناظر شط العرب تشبه مناظر القناطر الخيرية في الحظ. فعن شط العرب تغافل الشعراء، وعن القناطر الخيرية تغافل الشعراء
ليس على شط العرب قصور، وليس على القناطر الخيرية قصور.
الله أكبر ولله الحمد!
هذا طريق النخيل، وهو صورة أروع من غابة بولونيا، ولكن أين الظباء؟
وهؤلاء البصريون وفي عيونهم السحر الحرام أو الحلال، ولكن أين الشعراء؟
عرفت في البصرة رجلين:
الأول هو السيد تحسين علي، حاكم البصرة، أو متصرف البصرة
والسيد تحسين علي هو ملك في صورة إنسان
هو تحفه من الأريحية العربية التي جاد بها الله على الوجود السيد تحسين علي هو الشاهد على أن شعراء العرب لم يكونوا في مدائحهم من الكاذبين
السيد تحسين علي هو الخليق بأن يقال فيه اطهر من الماء، وارق من الهواء
السيد تحسين علي هو مجموعة من الخلائق والطباع: فيه أدب مصطفى عبد الرزاق، وتباله محمد العشماوي، وتغافل منصور فهمي، وطيبة محمد جاد المولى، وسماحة علي الزنكلوني، وذكاء لطفي السيد، وسذاجة زكي مبارك، وعقل زكي مبارك، إن كان له عقل!
وبفضل السيد تحسين علي عرفت من البصرة في يومين ما لا يعرفه غيري في سنين
أكتب هذا والدمع في عيني، فالدنيا ألأم وأغدر من أن تسمح لي بملاقاة هذا الرجل مرة ثانية. فإن كان هذا آخر العهد فحسبي من الوفاء أن أسجل ثنائي عليه في هذه المذكرات، ولها قراء يعدون بالألوف
يا سيد تحسين
سلام عليك، سلام رجل مصري يحفظ عهد العراق
أما الصديق الثاني فهو الدكتور عبد الحميد الطوخي، وما ادري إلى أي بلد أضيف هذا الطبيب، فقد عرف المنصورة وشبين الكوم والقاهرة وبغداد والبصرة والموصل، فهو بالاختصار رجل مخضرم: فيه رقة المنصورة وأدب شبين الكوم وعقل القاهرة وذكاء بغداد وظرف الموصل وكرم البصرة، هو شخصية دولية يحسب لها المنصف ألف

حساب
،وبفضل هذا الطبيب قضيت يومين في ابتسام، فقد ترك سيارته تحت تصرفي يومين
وكانت فرصة تذكرت فيها الزميل الغالي علي جارم بك، فعهدي به يهرب مني، لأني
كنت أرجو أن ينقلني بسيارته من وزارة المعارف إلى محطة المترو، وكان ذكاءه
يسعفه بالهرب مني، فكان يقول: يا دكتور زكي، أنا رائح عند العشماوي بك، ثم يروح
!ولا يعود
ولما قدم الجارم بك بغداد كنت انتظر أن ينتفع بخبرتي فيسألني عن الحياة العلمية
والأدبية والفلسفية، ولكنه لم يسألني إلا عن شيء واحد؛ لم يسألني والله العظيم إلا
!!عن أسعار البنزين في بغداد
نحن في البصرة
إي والله، نحن في البصرة
وفي تلك المدينة تسأل سيدة نبيلة عن طبيب ليلى المريضة في العراق
وتطلب أن تراني وحدي، فاذهب إليها وحدي ولا يكون معنا ثالث غير زوجها الشهم
النبيل
ويدوم المجلس ساعات وساعات في جدل هو أنظر واشرف ما عرفت العقول
وتجري على لسان تلك السيدة ألفاظ يوحيها روحها الشفاف فيبتسم زوجها وهو جذلان
وفي غمرت تلك النشوة انظر ساعتي فأرى الموعد أقترب للمحاضرة التي دعاني إليها
سعادة الأستاذ عبد الرزاق إبراهيم مدير المعارف بالبصرة. وتمد تلك السيدة يدها
لتوديعي فأبكي لأني لا أضمن الرجوع إلى البصرة، أنا الطائر الغريب الذي لم ينعم في
البصرة بغير سواد العيون في غفوة الزمان، وهو لا يغفو في العمر كله غير دقائق
وبعد لحظات أكون في نادي البصرة فأرى الناس في انتظاري بالمئات، إن لم أقل
بالألوف. وهناك أرى فتاة جميلة هي بنت عمة ليلى، فتسرع إلى لقائي بعد انتهاء
المحاضرة وهي تقول: حافظ على شبابك يا دكتور، فإني أخشى أن يؤدي التأليف
بشبابك
فأتلطف وأقول: لا تخافي على شبابي يا بنيتي، فهو باق ما بقيت عيون الظباء
!وتشجع الفتاة فتقول: أخشى أن يقتلك التأليف
فأتشجع وأقول: لا تخافي عليّ يا بنيتي فأنا لا أخاف الموت، وإنما يخافني الموت
ويروعها ذلك فتقول: وكيف؟
!فأجيب: لأن الموت جبان وهو يخشى أن أكتب ضده في الجرائد والمجلات
،أفي الحق أنني زرت البصرة ورأيت شط العرب، ونعمت بكرم السيد تحسين علي
ومروءة الدكتور عبد الحميد الطوخي، وأدب السيد عبد الرزاق إبراهيم، ورأيت بنت
عمة ليلى، وشربت الشاي في منزل السيدة التي تغار من ليلى؟
لا تصدق ذلك يا قارئ هذه المذكرات، فتلك أحلام رأيتها في نومي ولن تعود
أن سمعت أيها القارئ أن جرائد البصرة اعتركت في سبيلي أسابيع وأسابيع فلا تصدق
أن سمعت أيها القارئ أنني كحلت عينيّ بتراب البصرة فلا تصدق
أن سمعت أيها القارئ أنني عرفت السيد تحسين فلا تصدق
أن سمعت أنني زرت قريبات ليلى في البصرة فلا تصدق
أن سمعت أنني ألقيت في البصرة محاضرة سمعها مئات أو ألوف فلا تصدق
أن سمعت أن حاكم البصرة ودعني على المحطة فلا تصدق
أن سمعت أنني عانقت عشرين نخلة في البصرة فلا تصدق
أن سمعت أن انهار البصرة داعبتني بالمد والجزر فلا تصدق
أن سمعت بأن اسماك شط العرب قبلت يدي وخدي فلا تصدق
أن سمعت بأني لم انفق درهما واحد في البصرة فلا تصدق
أن سمعت أن البصرة هدتني بعد ضلال فلا تصدق
أن سمعت أنني ودعت البصرة بالدمع السخين فلا تصدق
!أيها القارئ
أنا ما رأيت البصرة، ولا رآني أهل البصرة؛
وشاهد ذلك أنني لا أزال في عقلي؛ ولو أنني رأيت البصرة لخبلني حسنها فأصبحت
من المجانين

أيها القارئ!
أما سمعت أنني اخترع الأقاصيص؟ فلتعرف أن زيارة البصرة من تلك الأقاصيص
متى أعود إليك أيتها البصرة مرة ثانية؟ متى اعود؟ متى أعود؟
(للحديث شجون)
زكي مبارك
التاريخ في سير أبطاله
ابراهام لنكولن
هدية الأحراج إلى عالم المدنية
للأستاذ محمود الخفيف

يا شباب الوادي! خذوا معاني العظمة في نسقها الأعلى من
سيرة هذا العصامي العظيم
وكان لنكولن يرى في هذا الطواف مدرسته التي يتلمس فيها المعرفة وأي معرفة هو أحق بها من دراسة طباع الناس والوقوف من كثب على أحوالهم بل والنفاذ إلى سرائرهم وخلجات نفوسهم؟ أي معرفة هو أحق بها من هذه وهو في غد رئيس الولايات ومحطم الأصفاد؟
لذلك كان في طوافه إذا فرغ من عمله يغشى المجالس وينطلق إلى البلاد القريبة فيسمع ويرى، ويأخذ بقسط من الأحاديث، ويدلي بآرائه إذا عن له أن يبدي آراءه في أمر ويستفهم الناس ويسألهم عن أمانيهم؛ وله مما يلقى إليه من القضايا هاد يرشده في تطلعه وتقصيه
ويظل هذا شأنه حتى ينتهي دور المحكمة فيعود إلى سير نجفيلد وتنظر زوجه فإذا هو يدخل الباب وفي عينيه الحنين إلى زوجه وأولاده، وفي أساريره من البشر بقدر ما في جيبه من المال؛ ثم يدفع إليها بمظلة قديمة مهلهلة حائلة الصبغة يمسكها بعضها إلى بعض بخيوط ورقع، ويلقي إليها حقيبة اتخذها من رقعة بساط قديم بها من الأوراق ما ضاقت عنها جيوبه وما صغرت دونها قبعته، ويقبل على بنيه فيرفعهم على كتفيه وذراعه كالعملاق وهم فرحون يتسابقون إلى محادثته حتى لتضيع كلماتهم فيما يثيرون من زياط، وأمهم تكظم الغيظ لهذا الخروج على النظام
وكانت مدرسته في المدينة إذا فرغ من قضاياه الكتب يستوحيها، وإن له فيها لغنية ومتعة. وما تلك الكتب التي يقرأ اليوم؟ إنه شكسبير العظيم الذي رفع المرآة فانعكست فيها الطبيعة
واضحة سافرة كأتم ما يكون الوضوح والذي مست ومضة من عبقريته القلب البشري فأنارت أكثر نواحيه، وهو مولع منذ حداثته بدراسة النفس البشرية والغور إلى أعماقها، ومن غير شكسبير يهديه السبيل؟ لذلك كان إذا تناول كتاباً من كتب القانون ساعة أو بعض ساعة ثم ألقاه عمد إلى مأساة أو ملهاة من آثار شكسبير فأكب عليها ونسي كل شيء سواها؛ فإذا أتى عليها فكر وفكر وظل شاخصاً ببصره في ثرى الأرض أو في لازورد السماء كأنما أخذته عن نفسه حال. . .
وكانت له في بعض آثار بيرون متعة، ومن بينها قصته العظيمة (دوجوان) وهو بين هذا وذاك يقلب صفحات التاريخ العام وصفحات تاريخ بلاده يستزيدها معرفة بأحوال الأمم ويرى فيها خطى البشرية في شتى مراحلها. أو ليس الزمان يسير به ليضعه بعد سنوات على رأس أمته؟
ومن عجيب أمر هذا العصامي أنه تناول فيما تناول من الكتب كتب العلوم وأخذ يدرسها وقد جعل لها ساعات من فراغه، فهذا علم النبات له نصيب من جهده، وذاك علم الحيوان له نصيب، ثم هذه الكهربة تصيب من عنايته حظاً ليس باليسير!
ولكن فيم العجب؟ وهل تضيق العبقرية عن شيء؟ أني وإن كنت أسلم بما للبيئة من خطر وبما للميل النفسي من اثر في توجيه المرء، أعتقد أن العبقرية إنما هي فوق ذلك، وأن العبقري مهما تناول من الأعمال فإنما ينفذ إلى لبابها بقوة نفسه. وهذا لنكولن لو لم يكن محامي أو رجل السياسة ما قعد به شيء عن أن يكون الشاعر الفحل! أو لو أنه أفرغ إلى العلم جهده وجعل للدراسة والتحصيل وقته لكان لنا منه العالم الفذ أو الفيلسوف المبتدع. ولقد تأتى له أن يقول الشعر في بعض المناسبات

فجاء شعره صورة من نفسه تشعرك بساطة العظمة والسمو
وإنك لتحس الشعر في نفسه وتراه ينظر إلى الحياة والناس نظرة الشاعر؛ ولكن
خياله لا يطغى على عقله كما أن عقله لا يأتي على نوازع قلبه. وإني أراه في ذلك
أكثر الناس شبهاً بجوت شاعر ألمانيا الأكبر، ذلك الذي كان يجمع بين اللمعة الخيالية
والنظرة العلمية والحكمة العملية. . .
وكان ابراهام قد بلغ أشده واستوى، وأخذت نظرته إلى الحياة والناس تزداد عمقاً وهو في
أول العقد الخامس؛ وصار يحس كأن شيئاً يقلقه، شيئاً خفيّاً لا يدرك كنهه يقلقه
ويحرك نفسه وينقبض له صدره أحياناً؛ فهل أخذت السياسة تدب في نفسه من جديد فهو يتأهب ويتحفز؟
ولاحظ أصحابه أن إمارات الحزن التي ارتسمت على وجهه منذ حداثته أخذت تزداد
وضوحاً، فهو على الرغم من عذوبة روحه في أحاديثه وطلاقة بشره في قصصه،
تنطوي نفسه على كثير من الهم لا يعرف مبعثه؛ وهو إذا خلا إلى نفسه فكر وأمعن في
التفكير، وقد تربّد وجهه وانعقدت عليه كآبه مخيفة ينزعج لها خاطر من يراه؛ وكثيراً ما
وافاه صديقه هرندن وهو على هذه الحال؛ وكثيراً ما سمعه يغمغم بمثل أنين المحزون. . .
وهو يدعي منذ زمن (أيب العجوز) أطلقها عليه الناس وهو في ريعان فتوته وربيع
حياته، وذلك لما كان يظهر على وجهه من تجاعيد هي من أثر الهم لا من أثر السنين؛
وكان يسره أن يستمع هذا الاسم الجديد كما كان يسره أن يسمعهم يدعونه باسمه الآخر (أيب الأمين)
ما باله اليوم مهموماً وقد بسط الله له رزقه كثيراً حتى لقد باتت تجدي عليه المحاماة
- على قناعة في الأجر - ما يزيد على خمسمائة من الجنيهات كل عام؟ أجل ما باله
مهموماً وقد استطاع أن يلقي عن كاهله ذلك العبء الذي آده حمله زماناً، فلقد خرج
من الدين الأهلي؟ يا ويح نفسه من هذا الهم الدفين الذي يتزيد منه على الأيام. . .
ليس غير السياسة يلقي بنفسه في غمرتها لتقوم أحداثها بين نفسه وبين همومها.
ليس غير السياسة تشغله عن وساوسه وتباعد بينه وبين امرأته التي ما برحت تنغصه وتضايقه في غير موجب
إن زوجه تعيش اليوم من وراء كده في رغد؛ فهو يلقي إليها كل ما تصل إليه يده لا
يسألها إلا أن تدفع له ثمن ما يطلب من الأشياء وهي قليلة؛ وما كانت له بالمال حاجة
وهو الذي لا يعرف أبهة المظهر ولا تغتره شهوات الحياة. حسبه من المال ما يسد به
رمقه ويستر به جسده، وأمر ذلك موكول إلى امرأته؛ ثم ما يفرج به الكرب عن بعض
المساكين وهو يفعل ذلك في كثير من الأحيان على كره منها. أما هي فلا ترضى بغير
فراهة المظهر وأناقة المنظر؛ تروح وتغدو في مركبة هي اليوم بعض ما تملك، وما
رأى الناس زوجها في تلك المركبة قط؛ وتلبس من الثياب ما تحكي به أهل باريس،
وتقتني من الأثاث ما تدل به على
كثير من الزوجات. . . تفعل ذلك وإن كان زوجها ليطلع على الناس في حلل تطاول
عليها العهد وقبعة متضعضعة متغضنة؛ على أنها تراه في ذلك هو الملوم، فهي ما زالت
تهيب به أن يغير من عاداته وأن يعنى بهندامه، وهو لا يحفل إلا النظافة، حتى أنها لم
تجد بدًّا آخر الأمر من أن تسكت وهي كارهة. . .
ولقد كان يهرب من المنزل أكثر الوقت، فيقضي النهار كله في محل عمله أو يقضي
طرفاً من في أنحاء المدينة في بعض المنتديات أو في بعض الحوانيت، يتحدث إلى هذا
ويسأل ذاك عن حاله، ويستشيره هؤلاء في أمر قضائي، ويعقد غيرهم حوله حلقة
يتساقطون فيها الحديث، ثم يعود إلى منزله فيمضي الوقت في القراءة أو في ملاعبة
أولاده؛ وإنه ليحذر في هذه الملاعبة أن تدخل زوجه الحجرة فجأة فتراهم يركبون
ظهره وهو يزحف بهم على البساط، فتصرخ وتعكر عليهم صفوهم!
عجيب أمر تلك المرأة التي تحب بعلها وتعلي قدره ثم هي لا تفتأ تمد له من أسباب
الشحناء والشقاق ما يخيل إليه أنها تبغضه، لولا أنه يعتقد أنها ما اختارته زوجاً - على
الرغم مما وقع يومئذ منه في حقها - إلا لما تضمر من محبته والإعجاب به. . .
دخلت عليه مرة ومعه رجل من أصحابه، فسألته عن أمر كانت طلبت إليه قضاءه،

فلما علمت أنه لم يقضه عنفته وولت محنقة فجذبت الباب وراءها فأحدث ضجة مزعجة؛ ونظر لنكولن إلى صاحبه وقد قرأ في وجهه الدهش، فقال وهو يبتسم ليخفي بابتسامته ما به: إن الأمر هين، وإن هذه عادة امرأته مردها إلى حدة مزاجها ولن يكربه ما فعلت بالباب فلعله يكفكف من حدتها

هذا طرف من حياة لنكولن في سبرنجفيلد بعد أن عاد من وشنجطون، وبعد أن انتهت الدورة الثامنة لطواف الهيئة القضائية في تلك الأصقاع؛ وإنه ليتطلب مخرجاً من هذه المدينة وما كان له من مخرج إلا أن تستثيره السياسة من جديد. . .

وآن للسياسة أن تدعوه إليها، وقدر لتلك الدعوة أن تجئ عن معضلة العبيد، فلقد باتت تلك المعضلة وهي كبرى المسائل القومية لا مناص من مواجهتها إذ صارت تحمل في تضاعيفها كل ما عداها من المسائل

ازداد ثراء أهل الشمال بسبب الصناعة، واتسع نطاق التعليم عندهم، وقوي نفوذهم وتسامت إلى الحياة نظرتهم، لذلك شاعت في الشمال حركة الدعوة إلى تحرير العبيد وتعالت أصوات الداعين واشتدت على الأخص حركة المنادين بالا يسمح بعد بانتشار العبيد في ولايات جديدة

وبقى أهل الجنوب أهل كسل وخمول، لا تزال حياتهم تقوم على الزراعة، والزراعة عندهم تقوم على أيدي العبيد، وازداد طلب القطن فاشتدت الحاجة إلى العبيد؛ لذلك ازدادت في الجنوب حركة التمسك بالعبيد، واشتدت على الأخص حركة المنادين بوجوب السماح للعبيد بالانتشار فيما عساه أن يضم إلى الاتحاد من ولايات

وماذا يخيف أهل الشمال من انتشار العبيد؟ إن للمسألة وجهاً آخر إلى جانب الوجوه الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية، وجهاً لا يقل خطره إن لم يزد عن هاتيك الوجوه؛ وذلك أن التمثيل النيابي في أحد مجلسي الاتحاد، وهو المجلس الأدنى، كان قائماً كما رسم الدستور على قاعدة لمسألة العبيد فيها دخل كبير؛ وذلك أن كل ولاية كانت ترسل إلى ذلك المجلس من الممثلين عدداً يصغر أو يكبر حسب عدد سكانها. ومن عجب الأمور أن العبيد، ولم يكن لهم حق في شئ حتى في أنفسهم، قد أقيم لهم وزن في هذا الباب فقيس عدد السكان في الولايات بما يقطنها من بيض وعبيد على أن يعد كل خمس من العبيد بثلاثة من البيض؛ ومعنى هذا أن انتشار العبيد يزيد عدد ممثلي الولايات الجنوبية في المجلس الأدنى للاتحاد؛ أما في المجلس الأعلى (مجلس الشيوخ) فكان يمثل كل ولاية عضوان صغرت تلك الولاية أو كبرت. . .

ولقد كان أهل الشمال في الأصل أكثر عدداً من أهل الجنوب فكانت لهم بذلك أغلبية في المجلس ولكنها كانت أغلبية صغيرة؛ ولقد أخذ عددهم يزداد كما ذكرنا فظلت لهم الغلبة؛ ولكن أهل الجنوب يريدونها أن تكون لهم ولن يتسنى لهم ذلك إلا بانتشار العبيد لذلك نرى أن معضلة العبيد كبرى المعضلات وأنها ناجمة من عوامل أساسية ترجع إلى كيان الاتحاد نفسه ولمن تكون السيطرة فيه: لأهل الشمال أم لأهل الجنوب؟ وهما قسمان متباينان مزقت بينهما عوامل البيئة، هذا إلى ما في المعضلة من عناصر خلقية إنسانية لها نصيبها من الخطر والاعتبار

ولما تقدمت بالاتحاد السنون أصبحت مسألة العبيد بحيث أن أدنى اضطراب فيها يؤدي إلى زلزلة في هيكل الاتحاد كله! ولقد فطن قادة الرأي إلى ذلك من أمر بعيد، وذلك حينما انضمت ولاية جديدة هي ولاية مسُّوري إلى الاتحاد عام 1820 ولنكولن يومئذ في الثانية عشرة، فلقد أصدر المجلس قراراً خطير الشأن عرف باسم (اتفاق مِسُّوري)، ومؤداه أنه لا يسمح بانتشار العبيد شمال خط عرض 36 اعني أن هذا الخط يفصل بين الولايات التي يسمح فيها بنظام العبيد والولايات التي يحظر فيها ذلك النظام

منذ ذلك اليوم يعمل الساسة على توطيد هذا الاتفاق وكان من أكبر الداعين إلى مراعاته دوجلاس ذلك الذي رأيناه منذ أعواميجلس إلى جانب لنكولن نائباً في مجلس مقاطعة ألينوس. ومما يذكر له في هذا الصدد قوله: (إن هذا الاتفاق أبدي وجوهري)

ولقد رأينا فيما سلف كيف كان دوجلاس ينافس ابراهام وهو يمد عينيه إلى الهدف، ورأينا كيف كان يأخذ الطريق على منافسه في كل شئ. وهاهو ذا اليوم وله في الحزب الديمقراطي مركز الصدارة، يرج البلاد رجة عنيفة بخطوة جريئة من خطواته طلبت ولاية واسعة في الشمال الغربي هي ولاية نبراسكا كنسيكا إلى الاتحاد أن يضمها

إليه، فسرعان ما عادت مسألة العبيد إلى الظهور كما عادت من قبل في عدة حوادث وآخرها أخذ تكساس من المكسيك
عادت المشكلة وتفاقمت، فهذه الولاية تقع شمال خط عرض 36 ومع ذلك قام رجال الحزب الديمقراطي يدعون إلى جعلها ولاية من ولايات العبيد! ولا تسل عما قام في الشمال إزاء ذلك من هياج وغضب ونفور، وهنا يخطو دوجلاس خطوته فيعلن أن قيام العبيد في ولاية أو عدم قيامهم أمر يجب أن يترك الخيار فيه إلى الولاية نفسها ولا عبرة بعد ذلك برأي مجلس الاتحاد. بذل دوجلاس كل ما في وسعه وهو يومئذ عضو في مجلس الشيوخ حتى اصدر المجلس قراراً بذلك، على الرغم من اتفاق مسُّوري وعلى الرغم من تصايح أهل الشمال وانزعاجهم
وسرت في الشمال موجة من الهياج والسخط لن يصفها كلام؛ ورأى كل من له حظ من الفكر أن هذا القرار الذي بذل دوجلاس ما في وسعه لاستصداره هو الجمرة التي سوف تتوهج بعد حين فتندلع منها نيران الحرب الأهلية. ولقد كانت هذه الخطوة من جانب دوجلاس، وما أعقبها من حوادث، سبباً في عودت لنكولن كره أخرى إلى ميدان السياسة
وقام بين الرجلين من جديد جلاد وصراع
(يتبع)
الخفيف
تطور الحركة الأدبية في فرنسا الحديثة
فرديناند برونتيير
1894 - 1906
للأستاذ خليل هنداوي
- 3 -
خلال العوالم النفسية
إن علم النفس - في كلا العصرين المدرسي والإبداعي - لم يصل إلى القول بأن كل شئ في النفس الإنسانية واضح جلي. وكورنيي وديكارت يؤمنان بهذا الوضوح. أما راسين ومدام فايت وروسو فلا يؤمنون إيمانهما
يقول هرميون لأوريست؛
من قال لك. . . إنني قلت لك إنني قتلت (باروس) ولكن هذا ليس إلا جزءاً من - نفسي الذي أبغضه وأريد نسيانه وأريد جزءاً آخر يقول عكس هذا
والأميرة (كلاف) لا تعرف ولا تريد أن تعرف لماذا لم تحب (كلاف) ولماذا أحبت (آخر) بدلا منه. إنها تناضل ولكنها لا تستطيع أن تفسر أسباب هذا النضال
أصحاب المدرسة الإبداعية قد أحبوا الأهواء المضطربة. وملئوا رواياتهم بالمشاعر المظلمة، والنفوس التي يناقض بعضها بعضاً، ولم يجهلوا أن كل شخص إنما هو عالم بذاته بل جملة عوالم مختلفة. ولكن هؤلاء كأولئك قد جربوا أن يعملوا من هذه العوالم عوالم عقلية حيث يمكن النفاذ بوضوح من الأعمال إلى الأسباب. وقد أعطوا أمثلة على ذلك أسلوبهم الذي يعبر - بنظام عن الفوضى - وبوضوح عن التشويش
وهكذا كان علم النفس في المدرسة الاتباعية واضحاً لأنه يرى أن كل شئ يمر بالنفس، وكل شئ في النفس بالشعور. وبين المادتين - سواء تعاكسا أو اتحدا - يمكن دائماً أن نجد مذهباً واضحاً قابلا للتحليل. ولكن هذه النظرية (الديكارتيه) قد تحورت في القرن الثامن عشر (إذ ليس الإنسان ما يريد أن يكونه، أو ما تسمح له نفسه بأن يكون. فالمادة تعمل فيه وتؤثر فيه وهو يحتمل تأثير المناخ والبيئة، وهو يخضع لجسده ولكل ما يؤثر في جسده.
وإن للمناخ والوسط تأثيراً كلياً وباستطاعتهما أن يغالبا الطبع الذاتي، ناهيك بأن التأثيرات التي تأتي من الجسد هي حالات وصدف تفر من كل منطق، ولقد تكون حياتنا الباطنة - في كثير من مواطنها - خالية من العقل
فالوراثة التي جعل منها - زولا - قاعدة علم النفس تستطيع أن ترتب الحوادث النفسية على حوادث سابقة. وأصحاب هذا المذهب يخضعون التحليل العلمي للمنطق العقلي، ويرجعون الحوادث النفسية لحالات عضوية خاضعة لنظم المادة. ولكن هذه المادية قد حطمت والتحليل العلمي قد نوقش فكان صبيانياً!

وهاهنا تظهر مبادئ علم النفس المدرسي التي ظن أنها تهدمت. فان بعض علماء ما وراء الطبيعة من الألمان - كشوبنهاور وهارتمان - جربوا بأن يقولوا: إن العالم لا يُقاد بالعقل، وإنما يقاد بالإرادة دون أن تحسب حساب نفسها، ودن أن تقلق لكونها حقه منطقية. ولقد كان لفلسفة (شوبنهاور) تأثير ذائع في فرنسا حول سنة 1880 وهي ولا ريب تمت بصلة إلى علم ما وراء الطبيعة. ولكنها تعتمد في كثير من أصولها على نظريات نفسية طبية.

فإن آثار العالم - شاركوا - 1870 - 1890 تعمل على إثبات النظرية القائلة بأنه يمكن أن ينشأ في العقل من موضوع واحد أفكار وإيرادات مجهولة لا يعيها العقل الواعي؛ ولكنها تؤثر في الجسم تأثيراً أشد وأوسع مدى من تأثيره

والعالم - ريبو - بدرسه لأمراض الذاكرة والإرادة يثبت أن فينا - ذاكرات - لا نعيها ولكنها تحيا في أنفسنا منتحيه بعيدة، وباستطاعة داء ما أن يوقظها ويحيها. (وبطرس جابي) أقر بأنه يمكن في الكائن الواحد أن تقيم نفوس متعددة، كل نفس لها عالمها، وكل نفس تظهر بدورها. والفلاسفة أنفسهم يغادرون العالم الواعي ويفتشون عن المسائل الكبرى في عالم غير واعي حيث لا سلطه للعقل ولا للمنطق. والطبيب الكبير (فرويد) انطلق إلى دراسة الغريزة الجنسية وقال: إن فينا كائنين، كائناً طبيعياً يلائم طبيعتنا، وكائناً سطحياً يأتي بتأثير التربية والمجتمع. وشعورنا لا يريد أن يعرف إلا الثاني، ولكن الأول هو الذي يبقى قادراً قاهراً. وهو الذي يطلب ألينا في أعماق أنفسنا حركة أو حلماً أو جنوناً أو جريمة. وهذا التحليل النفسي - في عدم الوعي - لا يبقى مغلولاً في درس الحالات الشاذة. والفيلسوف - برغسون - يجد أن الشعور أو الوعي إن هو إلا جزء من كوننا

العقلي وليس له دور لتحليل شئ أو عمله أو تفهمه. دوره دور عملي. . . وهو يوضح في بعض الأحيان نقطة الأشياء التي يجب أن نعمل عليها، والناحية من الفكر الذي يستطيع أن يعمل. ولكن عقلنا وشخصيتنا قد يفوقان هذا القسم غير الواعي. وعند برغسون وغيره من الفلاسفة يصبح غير الواعي شكلاً من الحياة الروحية، والينبوع الخفي العريض العميق حيث تجري يرقة حياتنا الواعية المنطقية. . . ونحو هذا الينبوع اتجه الرمزيون - منذ أعوام - والروائيون

المؤثرات الأجنبية في الأدب الفرنسي

لم تكن رواية تولستوى ودوستوفسكي رواية رمزية ولا مبهمة ولا رواية لا شعورية. على أنها في بعض نواحيها تحمل طابع الثقافة الفرنسية المدرسية على أنها أثرت في الطريقة التي جاءت بها الرمزية. فأشخاصها - ولا سيما أشخاص تولستوي - هم أقل اعتناء بالأفكار من المثل الأعلى، وأقل ضجراً في تحليل أنفسهم من أن يجدوا في أنفسهم بساطة عميقة. ويظهر أنهم يجهدون النفوس ليتفوقوا على ذواتهم المفكرة المعقدة ليبلغوا ذاتاً بسيطة غريزية حيث يجدون سبب حياتهم. فعقلهم وإرادتهم المفكرة تعترضهما اندفاعات لذة عابرة يحتملانها بتوبيخ ولذة. هذه رواية نفوس ابتدائية أو وحي نفوس قد تكون كثيرة الدعوة إلى المثل الأعلى، ولكنها عاجزة عن إيجاد مثلها الأعلى في الثقافة العقلية

وهنالك تأثير (إبسن) ورواياته المسرحية! ففي مسرحياته موضوعات شديدة عنيفة لأنه كتب في بلد ذي تقاليد راسخة، وأخلاق مفرطة. عمل (ابسن) على تحرير الفرد من حالة خانقة ومن أنانية متسيطرة. أراد أن يحيا الإنسان حياته فلا تكون المرأة عبدة للرجل ولا الأبناء عبيداً للآباء والأجداد. وهذه الموضوعات كانت سبب نجاح (ابسن) وقد لا يكون فيها ما يغري كثيراً ولكن في (ابسن) شيئاً وعبقرية. فان أشخاصه في الوقت الذي يعرفون فيه بوضوح ماذا يريدون، وعندما يفهمون أنفسهم، ويتفاهمون ما بينهم تراهم لا يحللون أنفسهم، ولا يتناجون ما بينهم محللين أنفسهم كالأشخاص في المسرح المدرسي والحساب الذي يجعلونه منهم يبدأ ثم ينتهي قصيراً. ولقد يخونون أنفسهم وقد تكون هذه الخيانة اندفاعية. وعملهم لا يظهر إلا لكي يعبر عن ضجرهم، وكثيراً ما لا يفهمون أنفسهم، ولا يفهمهم غيرهم. يشعرون بأنهم وحدهم ويحسون أنهم منقادون بما لا يُعرف نحو ما لا

يُعرف في خباية من الأسرار والحرقة مما لا يندى منه الرواية إلا قليلاً. ثم يأتي زمان يحسون فيه رموزاً - رموزاً لا أفكارا صافية، ولكنها هادئة لا مضطربة. الحياة ليست

خلاله منتظمة ولكنها معكوسة فيه كثيراً، والفن أو عدم الفن يشدد تأثير العمق والأسرار
(يتلى)
خليل هنداوي
في عيد الربيع
البعث
للأستاذ محمود الخفيف
خَالِسِ الزَّهرَ في مُتوع نَهارِهْ ... واستشفَّ الخفِيَّ من أَسْرَارِهْ
مُدَّ عينيكَ في مطارفه الخْض ... رِ مَليَّا واسْتَشْعِرِ الحسْنَ وانْشُقْ
نَفحَةَ الخْلدِ من شَذَي نُوَّارِهْ
!هُوَ ذا البَعْثُ هَزَّ كلَّ مكان ... ومَشى في الرِّياض جَمَّ المعاني
أطْلِقِ النَّفْس في مواكب آذا ... رَ وغَيبْ وِساوسَ القلب واطرحْ
خَلَجَاتِ الهمُوم في تَيَّارِهْ
سَرِّح العَينَ هل ترى غير بشْرِ ... ونماد في كلِّ وادٍ وسِحْرِ؟
والْتِماع وطْيلسانٍ وَوَشْيٍ ... وتَهَاوِيلَ تلْمَحُ النَّفْسُ فيها
من معاني الربيع رُوحَ ابتكاره
الضُّحَى زَاخِرٌ بِفَيْضِ الحياةِ ... والرَّوابي مِسْكِيَّةُ النَّسماتِ
تنْهَملُ النَّفْسُ من جَمَالٍ وعِطْرٍ ... وسناً ساحِرٍ تُطيفُ برُوحي
!لُمَعُ الوَحْيِ من وَراء ستارِه
يقْظَةٌ في الرِّياض توقِظُ حِسِّي ... وطُيوفٌ بهَا تَملَّكُ نَفْسي
يَخْفِقُ القَلْبُ للجمال ويَهفُو ... للضُّحَى مثْلَ زهْرَةٍ نبَّهتْهَا
نَفَحَاتٌ من دِفْئِهِ وازْدِهارِه
نْثرَةُ هاهنا ونَفْشٌ بديع ... واتساقٌ هُنَا وحَشْد جميعٌ
زِينةٌ صاغَهَا الرَّبيعُ فُنُوناً ... هِيَ في العَيْنِ بَهْجَةٌ وهْيَ لَحْن
مَلَكَ القَلْبَ واستوى في قرَارِه
زَهَرَاتٌ فيهِنَّ يغْرِقُ طَرْفي ... تتَحَدَّى ألوانُها كلَّ وَصْفِ
طاف بالنَّفْسِ عندهُنَّ شُعور ... أين منه البيانُ؟ أين القوافي؟
!أيْن نُورُ الصبَّاح من أنوارِه؟
!خطَرَاتٌ تميلُ بي للسُجُود ... وَرُؤَى مِن وَراء هذا الوجود
شاع في نَفْسيَ الجلالُ ومَسَّتْ ... من هدى البارِئ المصوِّر قلبي
لمَحاتٌ تُشْتَامُ في آثارِه
!يا رُبوعاً أفْوَافُهَا سَحَرتْني ... زَحْمَةُ الحُسْنِ حَوْلَها شغلتني
تتبارى جُمُوعها باسِمَاتٍ ... وادعَاتٍ في زَهْوِهَا خَفِرَاتٍ
شَاقَهَا للرَّبيع طولُ انتظارِه
امْلأِي القَلْبَ من حدِيثِ الشبابِ ... وأَفَانينِ لَهْوِهِ المُسْتَطَاب
إيه يا زهْرَةَ البَنَفْسِج هاتي ... ما تحفظينه وأفيضي
من حديث الهوى ومن أَخْبَارِه
وصِفي يا وُرُود وَرْدَ الخُدُودِ ... ورُوَاء الصِّبا وطُهْرَ الوُعودِ
هِيهِ! هذا الرَّفيفُ هَاجَ فؤادي ... هات! هَاتِ الحَدِيث حُلوَ اتَديَّا
كنسيم الرَّبيع في أسْحَارِه
صَوِّري لي من الجمالِ الشِّفَاهاَ ... حالماتٍ رَفَّتْ عليها مُناَهاَ
هَذْهِدِي القَلْبَ يا ثُغُورَ الأقَاحي ... رَوِّحِيهِ بهَمْسَةٍ من عِتابٍ
كم عَصَرْتُ السُّلاَفَ من قيثارِة
العَصَافيرُ في العِشاَشِ تُغَني ... ما أرى مِثْلَ لَحْنِهاَ أيَّ لَحْنِ
فَرَحٌ صادِقٌ ولَهْوٌ غريرٌ ... وهناءٌ ونشوةٌ وزِياَطٌ
!يَرْغَبُ القَلْبُ بينها عن وَقَارِه
واليمَامَاتُ قَدْ ذَكَرْنَ الهديلاَ ... فَنَظمْنَ الغِناَء لحناً جميلاً
ناعماتٍ في أيكها خافضاتٍ ... يملأ السمعَ من غِناَها حنين
لو حكى العُودُ شَجْوَهُ لم يُجَارِه

والفَراشُ الطَّرُوبُ حُلوُ الطَّواف ... في الرُّبا، في البطاح، حولَ الصِّفَافِ
حائمٌ خافقٌ بعيدٌ قريبٌ ... جَدَّ في الرَّوْضِ سابحاً وتهاوَى
حائراً بين زَهْرِهِ وثمارِه
فَرْحَةٌ هَزَّ سِحْرُهاَ كلَّ حَيٍّ ... صُغْتُ لحني من لحنِهَاَ العبقريِّ
تتوالى الأيامُ كرًّا ويبقى ... سِحْرُ هذا الجمالِ يُبهجُ نَفسي
كلما طاف طائِفٌ من نهارِه
!هاَلِ. ها يا بواسم الزَّهَرَاتِ! ... هالِ ها. يا سواجعَ الأيك هاتي
ما غَدٌ؟ هذه الهُنَيْهَةُ حَسْبِي ... واعظاً، بتّ بَعْدَهُ لا أبالي
بصروف الزَّمان أو أكداره
الخفيف
شوقي والرافعي
في النحو
لأستاذ جليل
قال الأستاذ محمد سعيد العريان في مقالاته الأنيقة (الرافعية) في (الرسالة) الجامعة الغراء: (وكانت - يعني مقالة الرافعي في شوقي في المقتطف - دراسة أعتقد أن أحداً من كتاب العربية لم يكتب مثلها عن شوقي أو يبلغ ما بلغ الرافعي بمقاله. وكان مما أخذ الرافعي على شوقي وسماء غلطات في النحو أو اللغة أن شوقي ابتدأ بالنكرة في قوله:
ليلى، مناد دعا ليلى فخف له ... نشوان في جنبات الصدر عربيد
أقول: الحقّ أنّ مقالة الأديب الكبير الأستاذ الرافعي في (أمير الشعراء) - رحمة الله عليهما - هي من أبلغ ما قال القائلون في شوقي، وأما قول الأستاذ محمد سعيد: إن شوقياً ابتدأ بالنكرة في قوله: ليلى، البيت، فهناك اشتباه والأشياء تشتبه. وهذا البيت لم يره الأستاذ الرافعي، والذي أورده في مقالته في المقتطف الغراء في أبيات وخطّأ (نحويته) وصوّبها الكاتب المشهور الأستاذ (العقاد) هو هذا:
إن رأتني تميل عني كأن لم ... تك بيني وبينها أشياء
وابن مالك يقول: (وبعد ماض رفعُك الجزا حسن) ويقول ابن عقيل: (إذا كان الشرط ماضياً والجزاء مضارعاً جاز جزم الجزاء ورفعه، وكلاهما حسن) وأدق من قولي ابن مالك وابن عقيل قول تلميذ (الخليل) في (الكتاب) (وقد تقول: (إن أتيتني آتيك أي آتيك إن أتيتني)، قال زهير:
(وإن أتاه خليل يوم مسألة ... يقول: لا غائب مالي ولا حرِمُ
وفي (كتاب الله): (من كان يريد حَرْث الآخرة نزِدْ له في حرثه، ومن كان يُريد حرث الدنيا نؤتِهِ منها، وما له في الآخرة من نصيب)
فالرفع حسن والجزم أحسن، وللنحاة في الترجيح أقوال
وأما قول شوقي: (ليلى مناد دعا ليلى فخف له الخ) وابتداؤه بالنكرة فنذر الكلام في ذلك لابن الدهان وقد استجاده الرضى فنقله في (شرح الكافية): (قال ابن الدهان - وما احسن ما قال: إذا حصلت الفائدة فأخبر عن أي نكرة شئت، وذلك لأن الغرض من الكلام إفادة
المخاطب، فإذا حصلت جاز الحكم سواء تخصص المحكوم عليه بشيء أو لا. فضابط تجويز الإخبار عن المبتدأ وعن الفاعل سواء كانا معرفتين أو نكرتين مختصتين بوجه أو نكرتين غير مختصتين بشيء - واحد: وهو عدم علم المخاطب بحصول ذلك الحكم للمحكوم عليه. فلو علم في المعرفة ذلك كما لو علم قيام زيد مثلا فقلت: زيد قائم عُدَّ لغواً، ولو لم يعلم كون رجلٍ ما من الرجال قائماً في الدار جاز لك أن تقول: رجل قائم في الدار، وإن لم تتخصص النكرة بوجه، وكذا تقول: كوكب انقض الساعة، قال الله تعالى: (وجوهٌ يومئذٍ ناضرة)
الحديث عن (شوقي) ذكّرني عبارات من مرثية قيلت فيه:
بُلبُلُ (الكرْمة) وّلى! أين غاب البُلبُلُ؟
!أين غاب البُلبُلُ؟
!زَهَرُ (الكرمةِ) يبكي بدموعٍ ظاهراتٍ في الصباح
!فَنَنُ (الكرمة) آسٍ: لا اهتزازٌ، لا ارتياحٌ، لا طرَب

بَهْجةٌ زالت، وجاءتْ وَحشةٌ، وعَرا (الكرمةَ) حُزْنٌ لا يَريمُ!
أبا علي، الشعرُ بعدكَ ما نطق!
الإسكندرية
(* * *)
في المذهب الرمزي
تعليق
للدكتور بشر فارس
قبل أن يندفع قلمي في التعليق أحب أن أشكر لصاحب (الرسالة) انبساطه إلى مسرحيتي (مفرق الطريق) إذ سمح بنشر نقد مسهب لها لأسبوعين مضيا، ثم بحث مستفيض في المذهب الرمزي لأسبوع مضى، وكلاهما من قلم الأستاذ زكي طليمات مفتش التمثيل بوزارة المعارف. وكأن صاحب (الرسالة) يُصر أن تُنقل الأساليب المستحدثة على يده إلى قراء العربية. أليست (الرسالة) رسالة؟
والحق أني ما كنت لأتوقع أن يهتز القراء حتى النقاد لمسرحيتي ذهاباً مني أنها تنحرف عن ألوان الأدب المعروف عندنا انحرافاً شديداً فلن يكون مصيرها سوى الضياع، حتى فوجئت بطائفة من الرسائل والمقالات جعلتني أرى الشرق العربي غير نفور مما يهجم عليه من باب كان مغلقاً، بل غير جزوع مما يحمل الفهم بعض المشقة. وإليك دليلا على هذا ما بعث به الأستاذ أمين الريحاني: (تصحفت الرواية أولا بشيء من الاستغراب والدهش. ثم قرأتها لأفهما ففهمتها - أظن - واستكبرتها على صغرها. ثم أعدت قراءتها للمرة الثالثة متلذذاً بمحاسنها الفريدة الجمة، برقائقها الصوفية، وحقائقها المادية، ونظرتها الفلسفية، وروائعها الفنية. . .). فإني لفرح بهذا الأمر لأني حققت ما قلت في توطئة المسرحية: (وعندي أنه قد حان الزمن الذي فيه أصبح الإيجاز والإيماء في الإنشاء الرفيع أحب إلى القارئ العربي المهذب من التطويل والتذييل. . .)
هذا وقد خطر لي أن أصنع للمسرحية توطئة جامعة أبسط فيها طريقة المسرحية لأهيئ الأذهان إلى الوقوف عليها، لا تطاولاً مني، معاذ الله! ولكن تلطفاً في استدراج القارئ إلى القراءة وكشفاً عن نزعة قلمي. وإذ لم أجد بداً من إطلاق عنوان على تلك الطريقة دونت هذه الجملة: (هذه قصة تمثيلية على الطريقة الرمزية - إذا شئت.) أتدري لم قلت (إذا شئت)؟
إن لفظة الرمزية في الأدب الحديث تصرف ذهنك على الفور إلى الطريقة التي ابتكرها نفر من شعراء الفرنسيين خاصة حول سنة 1886، تمرداً على الأسلوب الوضعي الجامد
الذي كان له الأمر في ذلك العهد، وانقلاباً إلى وحي الوجدان: إلى تغليب الإحساس على العقل. وروّاد الرمزية (ألويزوس برتران) و (جيرار دي نرفال) ولا سيما (بودلير) الفحل. وأما أبطالها فـ (أرتر رامبو) و (بول فرلين) و (مالارميه) ثم (لافورج) و (كاهن) و (رودنباخ) و (فرهايرن) و (مورياس) و (ستوارت مِرِل) و (هنري دي رينييه) و (ديجاردان) و (سامان) وغيرهم. وسرعان ما انتحى المذهب نواحي مختلفة بالإضافة إلى الأداء وإن استقامت جميعها على عمود واحد من الاستلهام. وإذا نحن وقفنا عند أبطال المذهب أصبنا (رامبو) يعول على السحر اللفظي، و (فرلين) على الترنم، و (مالارميه) على الإيهام. وقد دوُنت هذه النواحي إلى جانب ما وقع بين أصحابها من المناظرات في مجلات صغيرة أنشئت للدفاع عن الرمزية وبثها فضلاً عن هدم الشعر الاتباعي القائم، اذكر منها: , , وكان لأجل (الرمزية) - فوق هذا - قهوات يجتمعون فيها، قد أدركت واحدة منها في باريس قبل أن تنقلب قهوة حديثة، وكان اسمها، وهي اليوم وقد راسلت (الرمزية) في الشعر (رمزية) في الموسيقى والفن تأخذ مأخذها. وأمهر الموسيقيين الرمزيين (كلود ديبوسي)، وأبرع المصورين (بوفيه دي شافان)، والنحاتين (رودان) معلم جبران خليل جبران
ثم إن (الرمزية) الشعرية امتدت إلى ما يلي فرنسا شمالاً وجنوباً. فظهر في ألمانيا (رِلكه) و (ديمل)، وفي إنجلترا (بيتس)، وفي البرتغال (أوجينيو دي كاسترو) وأما مصادر هذه (الرمزية) فيتنازعها الأدب والفلسفة والفن والموسيقى. وإذا نحن قررنا أن الرمزية إنما هي - آخر الأمر - التعبير عن الحياة الباطنة رجعنا خاصة إلى

تأويل (بودلير): (الفن الخالص أن تخلق سحراً يوهم ويوحي فيضم في آن الذات والموضوع)، والى قولة (شوبنهور): (العالم هو ما يتمثل لي)، والى منهج نفر من المصورين الإنجليز الموسومين بهذا اللقب - وهو منهج يصعد إلى سنة 1848 وقوامه أن المصور ينبغي له أن ينبذ القواعد المضبوطة ليترك عينه تقرأ على هواها في صحيفة الطبيعة. ثم إلى ثورة (فجنر) على الأوبرا التقليدية وإدارجه (العنصر الإنساني الخالص) أو في المأساة الموسيقية

تلك هي الرمزية الأولى في الأدب الإفرنجي الحديث ولا سيما في الشعر. وقد انحلت إلا

قليلاً عند مختتم القرن التاسع عشر. إلا أنها شقت طريق أدب العصر، وخلفت مذهباً آخر هو مذهب الـ (ما وراء الواقع). بل إنك ترى الأدب والفلسفة وعلم النفس والموسيقى والفن حتى الرقص تجري اليوم إلى غاية واحدة، وكل واحد منها يؤثر في الآخر. وكان بودي أن أشير إلى كل هذا حتى يأتي اليوم الذي فيه يتاح لي أن أكتب رسالة ضافية فأشرح هذا الجانب من الثقافة الحديثة. ولكني أخشى الإطالة وأكره أن يتطرق الملل إلى قراء (الرسالة) وجل ما أثبته اليوم أن الظاهرة الغالبة على آداب هذا العهد وفنونه في بلاد الفرنجة إنما هي الرغبة في الفرار، لا الفرار من الدنيا أنفةً ومرضاً نفسانياً عل النحو الابتداعي (الرومنتيكي)، ولكن الفرار من المنقول والمصطلح عليه، ومن القواعد القائمة والصناعة الموقوفة، ومن العالم المتناسق المختلق اختلاقاً بكد أذهاننا، ومن الطبيعة البشرية الموثوقة، ومن العقل المتصلب والمنطق المتجمد واليقين الملفق

أتدري لمَ قلت: (. . . إذا شئت)؟

إني أردت أن أستدرك، محاذرة أن ينصرف ذهن القارئ إلى الطريقة الرمزية الأولى خاصة. وقد أضأت هذا الاستدراك بخمس صفحات بسطت فيها وجهة الأسلوب الذي أجريت عليه المسرحية. فجاء حديثي عن الفلسفة والأدب كالتأسيس، وكلامي على التصوير والموسيقى والرقص كالتمثيل. ثم إني لم أعرض لتاريخ الرمزية لأن التوطئة رسالة فنية لا شأن للنقد فيها. على أن ذلك الأسلوب إنما هو أسلوب (انساق له قلمي ورفت إليه نفسي بعد التحصيل والروية والاجتهاد) وإن كان متأثراً بالرمزية الأولى ولا سيما بالمذهب الذي خلفته. وهذا الذي حملني على أن أختار لفظة (الرمزية) دون غيرها فضلاً عن أن المسرح الحديث لا يزال يحمل هذه اللفظة عنواناً له

حقاً إن الرمزية الأولى كانت قد أوحت مسرحيات مثل (لبول فور) و (لميترلنك) (لجاري) مثلت كلها في ' ' غير أن المسرح الحديث وإن سماه أهل الفن (المسرح الرمزي) من باب الاصطلاح لينهض على عناصر تزيد على التي عرفتها الرمزية الأولى: ينهض على نتائج علم النفس الحديثة (تجارب (شاركو) في التنويم والإيهام، و (ريبو) في أمراض الذاكرة والإرادة الشخصية، و (فرويد) في أحوال العقل الباطن، و (برجسون) في تغلب المضمر الذي في النفس على البارز) ونظريات الفلسفة (الإدراك بالبصيرة لا بالعقل

على نحو ما يرى (برجسون) ثم الشك في العلم المطلق والمرفع عن المواضعة حسب مذهب علماء الطبيعة لهذا العصر) وقصص جماعة من الروس مثل (دوستيوفسكي وتولستوي وجوركي) ففيها يبرز الخلق كأنهم على فطرتهم، ولكنها فطرة من صفت نفسه حتى أنها تأبى القناعة بثقافة الذهن وحده)، ومسرحيات أدباء الشمال مثل (بيورنسن) ولا سيما (إبسن) حيث المغالبات النفسانية تصرع قوى الحياة الاجتماعية، ثم قصص فئة من الإنجليزيات مثل (كاترين منسفلد) و (فرجينيا وولف) لما يطرد فيها من التأثرية المحضة. ثم أضف إلى هذه العناصر ما انبثق من جانب الفنون الأخرى كالتصوير التعبيري والموسيقى التأثرية والرقص الإبهامي

والمسرح الرمزي الحديث على ألوان. ولا أحب أن أفيض في هذا الموضوع الجديد. وحسبي أن أذكر أسماء بعض رجاله النابهين، وهم: (إبسن) و (هوبتمن) و (ميترلنك) وإن رجعت طريقته إلى الرمزية الأولى، و (هنري باتاي) احياناً، و (لينورمان) وإن كانت طريقته قريبة المأخذ، و (كلوديل) وإن نزع إنشاؤه إلى ما وراء الطبيعة على مثال إنشاء صاحبه فاليري الشاعر، و (جانتيون) مؤلف قصة (مايا) التي شهدتها ثلاث مرات في مسرح (مومبارناس) في باريس سنة 1931، و (جان كوكتو) و (حيرودو) و

(بريستلي) أخيراً و (أليس جرنستبرج) و (بيرندللو) العظيم ثم (روبندرونات توجور) إذا شئت، وإن كانت مسرحياته تشف عن وثبات الصوفية الهندية
كتبت (هذه قصة تمثيلية على الطريقة الرمزية - إذا شئت. غير أن النقاد وقفوا عند مفاد الرمزية الأولى أو كادوا سواء أهملوا الخوض في مفادها أم خاضوا. وممن خاض الأستاذ صديق شيبوب في صحيفة (البصير) (8 أبريل 1938) والأستاذ زكي طليمات في مجلة (الرسالة). ثم إن الأستاذ ميخائيل نعيمة كتب ألي يقول: (. . . ومسرحيتك هذه تدرج على الطريقة الرمزية، طريقة فاليري (الشاعر المذكور فوق هذا الكلام) وهي كزيّ جديد في الأدب العربي حقيقة بأن نؤهل بها. . . ووقعت في مقدمتها (يعني توطئها) على أدق وأجمل بيان قرأته في العربية عن الطريقة الرمزية وغاياتها. . .)
إلا أنه لا يفوتني أن أذكر أن ناقداً واحداً تنبه لما أردت. فقد نشرت صحيفة (الجورنال ديجبت) ' البارزة في القاهرة، يوم (19 أبريل 1938)، مقالا غزيراً باللغة الفرنسية للأستاذ إدجار جلاد، جاء فيه أن الرمزية في (مفرق الطريق) بين التأثيرية والتعبيرية وأنها تتميز بالبصيرة الشرقية فهي لا تماثل الرمزية الأولى
أن أدفع وهماً ذلك الذي بعثني على كتابة هذا التعليق. وقبل الخروج منه أحب أن أشكر للأساتذة ميخائيل نعيمة وزكي طليمات وصديق شيبوب فضلهم. وهل للأستاذ زكي طليمات أن يأذن لي في أن أكاشفه بأني فرحت فرحاً شديداً لما اصبته يستعمل في مقاليه بعض تراكيب جرت على قلمي في توطئة المسرحية، منها: (المحسوس وما وراء الحس)، (لوامع النفس)، (منعطفات الروح ومثاني المادة)، (التخيل المنسرح)، وما فرحي إلا لأني أرى تراكيب اجتهدت في سياقها تنطلق على قلم كاتب مفنّ، وكنت أخشى أن تموت يوم ولدت. ثم هل للأستاذ زكي طليمات أن يفسر لي قوله في بحثه في المذهب الرمزي (إن ب. ف. يكتب متثبتاً بما تلقنه؟) وفي (لسان العرب) (وقد لقنني فلان كلاماً تلقيناً أي فهمني منه ما لم أفهم)
بشر فارس
البريد الأدبي
وفاة الأستاذ السكندري
نعى يوم الثلاثاء الماضي الأستاذ الشيخ احمد الإسكندري بك، وكان وقع نعيه أليماً، فالفقيد أستاذ جليل من المثقفين والمتعلمين، وكان لا يزال كثير النشاط، متوفراً على البحث والدرس، وآخر مواقفه المشهودة تمثيله لمجمع اللغة العربية الملكي في المؤتمر الطبي العربي في بغداد حيث أعلى صوت مصر ورفع كلمتها
تخرج الفقيد في دار العلوم سنة 1898، واشتغل بالتدريس في المدارس الأميرية حتى عين أستاذاً للأدب العربي في دار العلوم سنة 1907، وفي سنة 1911 انتدبته وزارة المعارف للسفر إلى مؤتمر المستشرقين
وفي سنة 1934 استدعته الجامعة المصرية لتدريس الأدب العربي بكلية الآداب. ثم اختير عضواً في المكتب الفني بوزارة المعارف. وكان عضواً في مجمع اللغة العربية الملكي منذ نشأته. وفي فبراير الماضي اختير عضواً في المجلس الأعلى لدار الكتب
ولم يكن الفقيد إبان اشتغاله بالتدريس بالمدرس الذي يحصر جهده في دائرة المدرسة، وإنما دأب - حياته - على دراسة اللغة العربية وآدابها، وكان أثره بارزاً في توجيه الدراسات العربية توجيهاً حديثاً، فهو مؤلف كتاب (الأدب العربي في العصر العباسي، وكتاب (الوسيط) الذي اتخذه كثير من المؤلفين في تاريخ أدب اللغة العربية مرجعاً ومنهجاً، فكان بمثابة الأصل الذي قام عليه كثير من الكتابات في الآداب العربية. وهو أول المؤلفين الحديثين في فقه اللغة ودراسة اللهجات، وأول من قام بتدريس فقه اللغة في دار العلوم
ولجهود الفقيد في الدراسات الأدبية واللغوية أخذ مكانة ممتازة بين العلماء وأفسحت له الأوساط العلمية صدرها فكان فيها السبّاق. وهو آخر طبقة جليلة من الأعلام الذين أنجبتهم دار العلوم مثل المهدي والخضري وحنفي ناصف، فكان لهم في الدراسات العربية أثر خالد
ومما يذكر أن كثيراً من جهود الأستاذ السكندري في دراسة اللغة العربية قام عليها نتاج مجمع اللغة العربية، فمحاضر الجلسات وصحيفة المجمع زاخرة بآثاره ودالة على

وفرة علمه
جزى الله الفقيد خيراً عن خدمته للغة كتابه الكريم
أسبانية في نظر الرحالين المسلمين
سيدي صاحب الرسالة
بعث إلى صديقي (هنري بيريس) بكتاب غزير المادة يقع في مائتي صفحة من القطع الكبير، ظهر في باريس في مختتم سنة على يد الناشر وعنوان الكتاب ' 1610 1930 (أسبانية في أعين الرحّالين المسلمين من سنة 1610 إلى سنة 1930)
والأستاذ (هنري بيريس) مستشرق فرنسي معروف وهو من أساتذة كلية الآداب في الجزائر، وله طائفة من المباحث تعرض خاصة للأدب العربي ولا سيما الحديث منه.
وأما الكتاب الذي بين يدي فيسرد تأثرات من رحل من المسلمين إلى أسبانية ونظراتهم. وإليك أسماءهم: الوزير الغساني (القرن السابع عشر) الزيّاني والغزّال (القرن الثامن عشر)، الكردودي وابن التلاميذ التركزي الشنقيطي والورداني واحمد زكي باشا (القرن التاسع عشر) محمد فريد وأحمد شوقي ومحمد كرد علي ومحمد لبيب البتنوني وسعيد أبو بكر ومصطفى فروخ (القرن العشرون)
وقد جاء السرد على الطريقة العلمية بما قام عليه من المراجع وما غلب عليه من التحليل البعيد الغور. وكثيراً ما نقل المؤلف إلى اللغة الفرنسية بعض النصوص العربية من شعر ونثر تتناول وصف الطبيعة أو النظر في الأخلاق والتاريخ والفن على وجه عام
وفي رأي المؤلف أن المسلمين الذين دونوا رحلاتهم الأسبانية ينقسمون قسمين: أما الأول، وامتداده من سنة 1610 إلى سنة 1885، فأصحابه عدوا أسبانية وطناً مغتصباً وأهله إخواناً أفسدت النصرانية نزعاتهم وبدلت من عاداتهم، ثم كتبوا ما كتبوا وهمُّهم تقرير الملموس دون تدوين المحسوس. وأما القسم الثاني فأصحابه - وفي مقدمتهم أحمد زكي باشا في كتابيه (السفر إلى المؤتمر) ثم (الرحلة الكبرى) والبتنوني (رحلة الأندلس)، ومصطفى فرّوخ - (رحلة إلى بلاد المجد المفقود) بيروت - فقد عدوا أسبانية (الفردوس المفقود) فأطلقوا ألوان شعورهم تحسراً على ما ضاع وفخراً بما كان وغضباً مما حدث وفيهم المؤرخ والشاعر والسياسي والاجتماعي والفنان. ثم رأوا أهل أسبانيا قوماً لهم معايب ومحاسن. أما هذه فترجع في الغالب إلى أرومتهم العربية، وأما تلك فتصدر في الغالب عن الحضارة الأوربية وعن العنصر الأسباني الأول. فجاءت كتابتهم أقرب إلى التأثر منها إلى
التفكر، وطريقتهم ألصق بالذاتية منها بالموضوعية على ما يطرد في رحلاتهم من ألوان الوصف الدقيق للأخلاق والعادات والعمران واللغة والفنون
واسلم سيدي الأستاذ، لمن يخلص لك الود
بشر فارس
بعثة السرجون مري ونتائج رحلتها العلمية
تلقت إدارة الأحياء المائية منذ أسبوع ثلاث رسائل جديدة من بعثة السرجون مري العلمية البحرية عن نتائج رحلتها الأوقيانوسية
وإحدى هذه الرسائل وضعها المستر (ما كان) من أعضاء البعثة عن (نجوم البحر)، وهي من الأحياء المائية التي تعيش في المحيط الهندي، وقد ذكر فيها أن البعثة أحصت من هذه الأحياء 1160 نوعاً تنقسم إلى 53 قسما منها 18 نوعاً جديداً كشفتها البعثة في رحلتها الأخيرة إلى الأوقيانوس الهندي، وأطلق على أحد هذه الأنواع اسم الكولونل سيول رئيسها، وسمي نوع آخر باسم الدكتور حسين فوزي مدير إدارة الأحياء المائية وكان من أعضاء البعثة المصريين، وسمي نوع آخر باسم الدكتور عبد الفتاح محمد (من الأعضاء المصريين أيضاً) ونوع باسم السفينة (مباحث)
والرسالة الثانية وضعها الدكتور محمود رمضان عن الأحياء المائية ذوات القشور كالجمبري ونحوه
والثالثة وضعها الدكتور ستوبج الأستاذ في متحف التاريخ الطبيعي في لندن عن نوع من الأحياء المائية يدعى (البترويودا)
مؤتمر مشاكل الشباب - دعوة مصر للاشتراك فيه
تلقت وزارة الخارجية دعوة موجهة إلى الحكومة المصرية للاشتراك في مؤتمر دولي (لدراسة مشاكل الشباب) يعقد في غضون الصيف القادم بنيويورك

وقد أحالت الخارجية تلك الدعوة إلى وزارة المعارف، قرأت إخطار الجامعة المصرية بنبأها حتى إذا رغبت في الاشتراك فيه اتخذت التدابير لإيفاد من ترى إيفادهم لتمثيلها في المؤتمر المشار إليه

وقد درجت أمريكا على عقد دورات هذا المؤتمر فيها وأخذت في بث الدعاية له في الممالك والحكومات المتباينة. ولم تغفل أوساط الشباب وبيئاته بل تمنحهم امتيازات تحببهم في السفر إليها للاستفادة منه

ويتناول المؤتمر بالبحث والدراسة كل ما يتصل بحياة الشباب ومشاكله، وتوجيه الرغبات للحكومة بحلها على ضوء النظريات العلمية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية الجديدة

مصر والآداب الفرنسية

نشرت جريدة (الجورنال) مقالة مسهبة للمسيو فرنسوا بياتري بعنوان (مصر والآداب الفرنسية) امتدح فيها سير الحياة العلمية والأدبية في مصر وأظهر ما للمدارس الفرنسية من الشأن العظيم، وقال إن عدد الأساتذة والمدرسين فيها يبلغ 2485 منهم 782 من الفرنسيين و 1703 من المصريين والسوريين وأما مجموع عدد الطلبة فيها فيبلغ 41 , 524 منهم 1965 من الفرنسيين

ثم نوه بمزايا التفاهم والاتفاق بين البعثات الفرنسية الدينية والعلمية ووصف ما انطبع في نفسه من زيارته الأخيرة لمصر حيث كان من أعظم بواعث سروره أن يرى أن أثبت وأرسخ تحالف هو التحالف العسكري الأدبي

أبو تمام أيضاً

سيدي الأستاذ

في الرسالة (250) كتب المخرج المسرحي الكبير الأستاذ زكي طليمات كلمة بديعة عن المذهب الرمزي في الأدب. ولقد تناولت كلمته الأدب الإسلامي فذكر الخيام وشعر الخيام

فليسمح لي إذن أذكره بشاعر آخر هو - في نظرنا - خير من يمثل الرمزية في الأدب العربي كله. وهذا الشاعر هو حبيب بن أوس الطائي المعروف بأبي تمام. فرمزية أبي تمام هذا تستحق منا - في الحقيقة - جزءاً غير صغير من عنايتنا إذا نحن نظرنا في الرمز بصفة خاصة، وفي الشعر العربي بصفة عامة

فإذا اتسع لهذا القلم العاجز صدر الرسالة الفاضلة، استطعنا أن نهدي إلى الأستاذ طليمات باقة صغيرة من رمزية أبي تمام، كرمز تقدير له. . . والسلام عليكم ورحمة الله

م. وهبه

نزيل بالقاهرة

حول الدوس هكسلي

اطلعت في عدد الرسالة الأخير في باب (البريد الأدبي) عن (الدوس هكسلي) على بعض أخطاء أحب أن أصححها لكاتبها فقد ذكر أن (أوليسيس) من تأليف (إليس) والواقع أن أوليسيس كتاب شهير من تأليف جريس وهو أهم مؤلفاته وترجم إلى لغات كثيرة. والخطأ الثاني أنه ذكر أن أليس ألف كذلك (قصة) رقصة (الحياة) ورقصة الحياة ليست قصة وإنما هي كتاب فلسفي لها فيلك أليس. أرجو يا سيدي الأستاذ أن تنبه صديقنا لما ذكرت ولأخطاء مماثلة عن الدوس هكسلي نفسه منها أنه حفيد هكسلي الكبير لا ابنه كما ذكر الكاتب الفاضل. . . ودمت للمخلص الشاكر

ناجي

معهد الشواذ - تأليف لجنة لدراسة المشروع

عهدت وزارة المعارف إلى لجنة من موظفيها، دراسة مشروع إنشاء معهد للشواذ، مؤلفة من حضرات الأساتذة ناظر معهد التربية ومراقب التعليم الابتدائي وأحد أساتذة معهد التربية، وناظر فاروق الأول الثانوية، ومدير متحف التعليم الذي يتولى أعمال السكرتيرية

وستكون مهمة تلك اللجنة دراسة المشروع من حيث حاجة البلاد إليه، ووضع البرامج والخطط الدراسية اللازمة له، والنظام الذي يتبع فيه وإعداد المدرسين الذين تتألف منهم هيئة التدريس

ويظهر أن الرأي متجه إلى أيفاد بعثات للتخصص في شئون الشواذ، وقد طلب إلى اللجنة المشار إليها إنجاز مهمتها على وجه الاستعجال، حتى تتمكن الوزارة من تنفيذ المشروع في السنة الدراسية القادمة

كتاب هندي عن مدينة الغرب

زار الدكتور ف. كاراكا - وهو من خيرة المثقفين الهنود - طائفة من ممالك الغرب ليخبر

مدى ما بلغته من المدينة ومقدار ما أدركته من الحضارة، ثم عاد ليكتب مؤلفه أو رحلته إلى الغرب. وقد صدر هذا الكتاب منذ أسبوعين فأثار ضجة كبيرة وكان لصدوره صدى عظيم خصوصاً في إنجلترا. فقد أرسل المؤلف لسانه في الحضارة الإنجليزية، ونال منها بقلمه ما لم ينال منها قلم آخر من قبل. وقد تصفحنا الكتاب فرأينا المؤلف يكتب كوطني هندي ينقم على الإنجليز كل ما تلقى الهند من مصائب ويعزو إليهم تأخرها وانحطاطها بما سلطوا عليها من رجال (الطبقة الثانية) كما يسمى القائمين بالأمر منهم في بلاده، ويقصد بهم هذه الفئة العسكرية التي تتكلم بالسيف وبالمدفع، وتحكم الملايين من بني جلدته بالحديد والنار، وتضحك على عقول أغنياء الهنود باللآلئ والأحجار الثمينة، في حين تنكر الخبز على الفقراء والملح على المعوزين

وليس على المؤلف في هذا ملامة، ولا عليه من تثريب لكن الملامة والتثريب في هذه النظرة السوداء القائمة التي ينظر بها المؤلف إلى أرقى حضارات التاريخ، ثم هذا التقرير الوجداني المتفزز لثمرات تلك الحضارة. . . وما دام يفكر الهنود بمثل تلك العقلية فلن يخلصوا من ربقة الاستعباد. . . وقد شهدنا كيف انهزم مغزل غاندي أمام أنوال لانكشير، وكيف انكمش غاندي وتقاعس، لأنه لم يتخذ الوسائل الحديثة لتدعيم الحركة الهندية، بل آثر عليها المغزل والعصيان المدني والصوم. . . وهي وسائل ضعيفة واهية هي إلى الشعر الصوفي أدنى من البخار والكهرباء والغازات.

وفاة الشاعر محمد إقبال

يعز على الرسالة أن تنعى لقرائها وللعالم الإسلامي خاصة والعالم الإنساني عامة وفاة الشاعر الفيلسوف محمد إقبال الهندي الذي وقف ذكاءه المتوقد وعلمه الواسع وشاعريته السماوية على الإشادة بفلسفة الإسلام ومقاصده العالية، ودعوة المسلمين إلى أن يعتصموا بها فلا يتهافتوا في مهالك العصر الحاضر. ولم يقصر في دعوة البشر كافة إلى الوئام والسلام والسمو فوق السفاسف التي يعتركون عليها والمذاهب المعوجة التي يوغلون فيها. وقد خلف إقبال للأدب والفلسفة كتباً كثيرة في الأوردية والفارسية والإنجليزية هي تراث عظيم من شاعر فيلسوف كبير. وستقضي الرسالة في أعدادها التالية حق الرجل النابغة الذي عرفه قراؤها فيما تُرجم من شعره ورُوى من أخباره

الكتب

1 - حياتي

بقلم موسوليني وترجمة الأديب محمد عبد الحميد

2 - جمال الدين الأفغاني

بقلم الأديب محمد سلام مدكدر

كتابان يعرضان لك سيرة رجلين أولهما خالق أمة وثانيهما باعث نهضة. وما أحوجنا أن نلم بسير الرجال في نهضتنا الحالية

نقرأ في الكتاب الأول حياة موسوليني كما كتبها بنفسه أو كما أملاها؛ وشخصية موسوليني لا شك من الشخصيات الجديرة بالدراسة من حيث كونه أحد عظماء هذا الجيل من ناحية، ومن ناحية أخرى من حيث كونه من الرجال الذين تمس أعمالهم في بعض وجهاتها مصر من بعيد أو من قريب

أجل يعتبر موسوليني مهما تكن نظرتنا معشر المصريين إلى سياسته من كبار عظماء هذا الجيل إن لم يكن في طليعتهم. فهو رجل درج في عش الفاقة، ثم كان في مستهل حياته من الأوزاع والهمج؛ ولكن كانت تتأجج في صدره شعلة الحماسة، تلك الشعلة التي لا تقوم عظمة بدونها؛ وتجهمت له الأيام وتحدته الصعاب فمضى لا يعرف سهلا ولا صعباً حتى خلق من حالة أشبه بالعدم أمة قوية تتشكل سياسة العالم الآن حسب ما تأتيه من حركات، وتضطر أعرق الأمم جاهاً وأعظمها سلطاناً أن تخفف

أمامها من غلوائها، وأن تخفي سيفها وراءها وتتقدم إليها بغصن الزيتون؛ والرجل دائب العمل يأتي من ضروب النشاط والمغامرات ما يحمل حتى أكبر أعدائه على الإعجاب بمقدرته وبيقينه وبتفانيه في خدمة بلاده. . .

والفاشية نظام تردد اسمه في الشرق وأقبل على دراسته أهل السياسة وأهل الثقافة؛ وأكبر ظني أن دراسة نظام كهذا النظام لا بد أن تستند قبل كل شئ إلى دراسة حياة صاحبه، بل إن دراسة هذه الحياة أمر جوهري لمن يريد أن يعرف حقيقة هذا النظام وينفذ إلى لبه. ولئن سلمنا صاحب الدعوة قد يتعامى عامداً أو غير عامد عن بعض سوآتها، فأننا من

ناحية أخرى نسلم أن صاحب الدعوة أدرى بحقيقتها وأعرف بخفاياها من سواه لذلك أرى أن القارئ يصيب من مطالعة هذا الكتاب غرضين: معرفة موسوليني وتفهم الفاشية. وكلاهما ليس بالهين. وهو أثناء ذلك يستمتع ساعات من الزمن بتلك الروح القوية تطالعه من بين سطور الكتب، روح موسوليني، ثم بتلك الحوادث العظيمة كالزحف على روما ومغالبة الصعاب حين القيام بأعباء الحكومة؛ ثم الكفاح والجلاد للمحافظة على البنيان بعد إقامته وتدعيمه والعمل على إعلائه

من أجل ذلك أتقدم بالثناء والشكر للأديب المعرب لاختياره هذا الكتاب. أما من حيث الترجمة فليس لدي الأصل حتى أراجع عليه التعريب، ولكني أميل إلى الاعتقاد أن من يضطلع بنقل مثل هذا الكتاب الفذ، وله من شرف غرضه حافز، جدير أن يتوخى الأمانة وأن يتحرى الدقة. وأما من حيث الأسلوب فإني أجدني مضطراً أن أصارح المعرب الفاضل أني كنت أحياناً يعسر على فهم بعض الفقرات، كما كان يلتوي على بعضها كما أني كنت أقف عند بعض الكلمات التي وضعها في العربي كما هي في الأصل إذ لم يجد لها مرادفاً عربياً، ولكنه كان حرياً أن يشرح المراد منها، على أن هذا على أي حال يسير إذا قيس إلى ما بذل من جهد محمود

أتحدث بعد عن الكتاب الثاني (جمال الدين الأفغاني) وقد حببه إلي عدة أشياء: أولها أن مؤلفه الشاب الأديب محمد سلام مدكور أحد تلاميذي، حضر علي دروساً في التاريخ أيام كنت أقوم بالتدريس في الأزهر، وأشهد لقد توسمت فيه النجابة يومئذ ورجوت فيه وفي بعض زملائه الخير. واليوم أقرأ له مؤلفاً فأغتبط وأفخر. وأي شئ هو أحب إلى المدرس من أن يرى ثمرة من ثمار غرسه؟

وحبب إلى الكتاب بعد ذلك أن يضعه أحد أبناء الأزهر عن جمال الدين، فيكون الكتاب بذلك. فضلاً عن أنه علامة اجتهاد، دليل عرفان للجميل نجحوا أحد بناة هذا الجيل. ومن كجمال الدين أحق بعرفان الجميل وتخليد الذكر على يد الأزهر بين خاصة وبني مصر والعالم الشرقي عامة؟ ثم عطفي على الكتاب فوق ذلك أنه يدور حول تلك الشخصية الفذة المحبوبة، فلقد كان جمال الدين رحمة الله ورضوانه عليه قبساً من روح الشرق انبعث في ظلمة الأيام والتمع كما يلتمع الشهاب في دجنة الليل، وراح يعمل وحده ويبذر بذوره أينما

حل! أجل كان جمال الرجل الذي يظهر حين تتهيأ الظروف وتصبح بحيث لا بد لها من رجل؛ واحسبني لا أغالي إن قلت إن نهضة الشرق الحديث إنما هي من صنع يده؛ ولذلك فأنا أعده من رجال العالم المعدودين إن كانت له في تاريخ العالم حركة تركت أثرها في دورانه. . .

ولقد قدم هذا الكتاب بكلمة طيبة أحد رجال الأزهر الأماثل هو: الأستاذ الجليل مصطفى عبد الرازق بك، وإني أشاركه رجاءه وعطفه على المؤلف الشاب. . .

وبعد، فقد عودت طلابي ومنهم المؤلف الذكي أن يسمعوا من كلمة الحق في جلاء، وأنا موقن أنهم اعتادوا ذلك وراضوا أنفسهم الفتية المتوثبة عليه. لذلك أصارح سلاماً في جلاء أنه كان يستطيع أن يظهر الكتاب في ثوب أجمل من هذا الثوب فالكتاب بذلك جدير. كذلك كان يستطيع أن يتدارك كثيراً من الأخطاء المطبعية لو أنه ألقى إلى عمله من الاهتمام أكثر مما فعل. فليسمع لومي على تقصيره، وليأخذ نفسه بعد اليوم بتحري الدقة والإتقان، هذا إلى أن أسلوبه وإن كان راقني في كثير من مواضعه، يتطلب التهذيب في بعض النواحي

أما عن البحث في ذاته فحسبه في هذا المجال وفي هذه العجالة أن أعلن إليه أنه جاء على خير ما يرجى ممن كان في سنة وفي مثل درجة ثقافته. وهو يبشر بالتفوق في

المستقبل إن شاء الله. ولقد أعجبني أنه لا يقتصر على مجرد سرد الحوادث فانه يقف ليرينا أثر تلك الحوادث في مجرى التاريخ
أثني على مدكور وأرجو الخير منه ومن زملائه من ناشئة الأزهر الحديثين. ولعل الله يجعل منهم في غد رجالاً أفذاذاً يعود بهم الأزهر المعمور سيرته الأولى من الزعامة في حياتنا الفكرية فذلك لعمري خير ما نرجو وما نرضى.
الخفيف
المسرح والسينما
جولات ومطالعات في المسرح والسينما
الرواية المصرية
أقامت جماعة أنصار التمثيل والسينما في السابع عشر من هذا الشهر حفلة تمثيلية كبرى بدار الأوبرا بمناسبة انقضاء ربع قرن على تأسيسها، وقد مثلت خمسة فصول من مسرحيات مختلفة سبق للجماعة إخراجها. ولسست أدري إذا كانت الجماعة قد قصدت بهذا الاختيار أن تعرض جميع أنواع الرواية المسرحية أم أن المصادفة هي التي جعلت هذا البرنامج شاملا للرواية الغربية المترجمة والرواية المصرية المؤلفة والرواية الممّصرة أو المقتبسة عن فكرة أجنبية
وسواء كان ذلك عن قصد أو مجرد مصادفة فان هذا العرض الموجز قد جعلنا نتدبر على ضوئه مسرحنا وما يعانيه من فقر إلى الرواية المصرية الصميمة
اختص بالنجاح الأكبر في الحفلة فصلان من روايتي (حادث الطربوش)، (إلى الأبد) الممصرتين، ولقي نجاحاً وسطاً فصل من رواية (دافيد جارك) الإنجليزية. وكان أقل الفصول نجاحاً فصلان من الروايتين المصريتين (عبد الستار أفندي)، (الواجب)
وقد اتفق أن تكون درجات النجاح في هذه الفصول خاضعة لسلطان الرواية وقوتها فحسب، لأن الممثلين هم أنفسهم في معظم الفصول، وقد سبق لهم القيام بهذه الأدوار فتفهموها وأجادوا تمثيلها، وهي كذلك روايات مثلت مراراً واختيرت من بين روايات الجماعة الناجحة، واختير منها بعد ذلك احسن فصولها
فهذا التفاوت في النجاح يجعلنا نوقن بحاجتنا إلى الرواية المصرية الصحيحة كما يجعلنا نوقن بأن في حياة كل شعب ذخيرة للرواية، فإذا أعوزتنا حقاً البيئة الخاصة فأمامنا البيئة العالمية التي نقلنا ولا نزال ننقل عنها روايات بأسماء مصرية نجحت بطابعها المصري نفس نجاحها بطابعها الأجنبي الأصلي
إن أكثر الكتاب اليوم لا يكتبون لجمهور خاص ولكنهم يعالجون المجتمع العالمي ويحلقون في آفاق واسعة ليشمل نجاحهم هذه الآفاق؛ فالكاتب الأمريكي مثلا لا يقصر كتابته على المجتمع الأمريكي لأنه يفهم غيره من المجتمعات الأخرى، ولأن هذه المجتمعات كلها تلتقي
وتتشابه في نواح كثيرة، وقد أصبحت بعض النزعات تؤثر في العالم جميعه وتقرب من أبعاده. فالذي يحدث هنا جائز حدوثه هناك، والرجل الذي تلقاه في هذا البلد يذكرك بمن لقيته في بلد آخر
فلم نقف إذن عند عبد الستار أفندي الكاتب بوزارة الأوقاف وعم سيد البواب، وست أمينة الخاطبة، والحاج حسن العمدة الخ
لم نذهب في كتابتنا إلى حيث لا نستطيع الحراك؟ لم نعالج شخصيات لا لبس فيها ولا غريب من ورائها ولا تنطوي على شئ يجهد الفكر أو يكسبه جديداً؟!
أنا لا أستطيع أن أنكر حاجتنا إلى الرواية المصرية القحة، ولكن لتحقيق ذلك علينا أن نسلك الطريق الصحيح إليها. فنحن شعب قليل الحركة، كثير الآمال والأحلام، فيجب أن تكون هذه الآمال والأحلام الميدان الأول للرواية ذات البيئة المصرية الخاصة. يجب أن نعالج النفسية المصرية بالكشف والتحليل فهذه خطوة يتبعها التوجيه العملي الذي يخلق الحياة والحركة قوام الرواية ومساكها، أما أن نبعث الرواية في حياة فقير تافهة ونقيم الشخصيات على حركة راكدة خاملة فان ذلك هو العبث والجهد المضيع في المسرح
شهدت في الأسبوع الماضي حفلة غنائية أحيتها الآنسة أم كلثوم بمسرح الحديقة. وقد أحسنت وأطربت فنانتنا الكبيرة ودلت على أنها تتعهد فنها الجميل بالمران والرعاية بخلاف معظم المطربين الذين يسمجون يوماً بعد يوم. فصوت الآنسة أم كلثوم اليوم

أعذب منه منذ عامين وأكمل منه منذ أعوام
وقد نجحت الحفلة ولكن لم يكن من دلائل نجاحها هذا الصياح والأصوات المنكرة التي كانت تصدر من بعض الحاضرين عقب وقبل نهاية كل مقطع غنائي على اعتبارها علامات الإعجاب والاستحسان
وقد اعتاد جمهورنا هذه العادة القبيحة التي لا تمت إلى الفن ولا إلى الذوق بأوهى سبب، بل إن مقاطعة المطرب في غنائه يمثل هذا الصراخ إنما هو بالنسبة إلى الغناء (نشاز) يثقل على السمع ويزعج المنتشي ويقضي على انسجام المغني
ولقد لاحظت على بعض هؤلاء الناس كأنما هم مكلفون بمثل هذه العادة حتى لقد تساءلت
هل هذا جمهور طرب أو جمهور مظاهرات؟!
وأحسب أن هذه عادة تقليدية صرفة لا علاقة لها بالحس، لأن الجمهور المجتمع حول آلة الراديو هو من نفس الجمهور الذي يستمع إلى المغني مباشرة ولكنه لا يجاريه في تهليله وصراخه، وقد يستنكر منه هذا العمل
فالفارق بينهما أن هذا قد ألف هذه العادة عندما يحتويه مع المغني مكان أو مسرح، في حين أن الآخر لم يألف ذلك حين يستمع إلى الميكروفون
وأنا لا أنكر أن العامل في ذلك عامل فسيولوجي له أثره، ولكن هذا الصراخ والأنين والتهريج ليس لها من مصدر غير اعتلال الذوق وعدم القدرة على ضبط النفس والأنانية. ويكفي مصداقاً لذلك أن نفكر في أن أمثال هؤلاء يسيئون إلى كل من معهم وقد يسيئون إلى آلاف أو ملايين المستمعين إلى الراديو، كما أنهم يسيئون إلى المغني نفسه فوق إساءتهم إلى أنفسهم بتعريضهم لمثل هذا اللوم
فلم عن قناة السويس
أشرنا في العدد الماضي إلى ما تفعله بعض الحكومات إزاء الأشرطة السينمائية التي تخرج عن بلادها، وقد ضربنا مثلاً بتركيا واليابان حين علمتا باعتزام بعض الشركات إخراج أفلام تسئ إليهما فتدخلتا لدى الشركات تدخلا أدى إلى احترام هذا الحق
وقد حمل إلينا البريد منذ أيام نبأ اعتزام المخرج المعروف داربل زانواك إخراج فلم باسم (السويس) يدور حول شق قناتها وحوادثها التاريخية. ولقد قيل إن مشروع الفلم على وشك البدء في التنفيذ فقد رصد له ميزانية قدرها مليونان من الدولارات وفوتح الممثل المعروف جورج أرليس للقيام بشخصية دزرائيلي والممثلة الفرنسية سيمون للقيام بشخصية الإمبراطورة أوجيني
فلعل حكومتنا تفعل مثل الحكومات الأخرى فتطلب ضماناً لرعاية كرامتنا في هذا الموضوع الذي يخصنا. ومثل هذا التدخل يفيد ولا يأتي بضرر وخاصة أن الفلم ضخم وتأثيره تابع لهذه الضخامة
العدد 252 - بتاريخ: 02 - 05 - 1938
هل تقوم للأدب دولة؟
معالي مصطفى عبد الرازق بك
صديقنا صاحب المعالي الشيخ مصطفى عبد الرازق بك وزير الأوقاف إمام من أئمة الدين، وعلم من أعلام الأدب، وسري من سراة الأمة، نشأ بحكم ولادته على النبل كما ينشأ ابن الملك على الملك، فهو في خلقه وسمته يجري على سراح الطبع الجميل، لا يتكلف ولا يتطبع، ولا يتصنع، ولا يقلد. وقلما تجد فقي مصر من ظفر بما ظفر به هو من إطباق الناس على اعتقاد سماحته وسراوته وفضله. ولعلك تدرك السر فيما تعرف من خلاله إذا علمت أن بيت عبد الرازق نمط لا واحد له في تقاليده وتربيته وبيئته. فهو وحده لا يزال يمثل نوعاً من الفتوة الإسلامية له خصائصه وله سننه: يرى العزة في سمو الإنسانية فيه، لا في إفراط العصبية عليه؛ ويجد المزية في سؤدد الفكر المهذب والخلق السجيح، لا في سطوة المال المكنوز والجاه المتسلط؛ ويمثل المدنية الحديثة تمثيل المعدة الصحيحة للطعام الهنيء فلا تكون إلا مدنيته الخاصة فيها سره وعليها طابعه؛ ثم يسير في سبيل الحياة على سنن واضح من شهامة القلب ونزاهة النفس وشرف اللسان وثبات العقيدة وكرم التضحية، كأنما يستجيب إلى صوت في دمه، ويمشي على دليل من طبعه
ساهم في جهاد الدستور والحرية بالنفس والمال ثم عف عن الغنيمة، وشارك في

ثقافة العقل والروح بالتشجيع والإنتاج ثم عزف عن الشهرة، وتهافتت من حوله بيوت المجد على الأضواء الغربية الخادعة فأضل بعضها العشا، وأحرق بعضها اللهب، وبقي هو على شرقيته ومصريته قوي الدعائم رفيع الذرى تضوع في أبهائه نفحة الإسلام، وتهش على موائده أريحية العروبة، وتخفق في جوانبه روح مصر

والشيخ مصطفى يلخص في شمائله أمجاد هذا البيت، فهو سر وراثته وعطر أرومته وجملة ماضيه. فإذا جلست إليه في ألفة أو كلفة غمرك منه شعاع لطيف يملك نفسك من غير سطوة، ويبسط شعورك من غير خفة؛ ثم تحس في تواضعه سمو الكبرياء، وفي وداعته أنفة العزة، وفي بساطته جلالة النبل؛ فلا تستطيع أن ترد هذه الخلال فيه إلى الحد الذي تواضع عليه الناس في تعريف الخلق؛ إنما تنتهي إلى أن شخصيته الجذابة واحدة الطراز لما تهيأ لها من أثالة المنبت وزكاوة العرق وسعة الثقافة وسلامة الفطرة وجمال

القدوة

رأيت الشيخ مصطفى طالباً في الأزهر، وعرفته أستاذاً في الجامعة، وزرته عضواً في الوزارة، فلم أجده في كل حالة من هذه الحالات إلا على الوجه الذي لقي به الدنيا، لم يتغير فيه لسان ولا عين ولا مخيلة؛ ومزية المعدن الكريم ثبات وجهه على لونه، وبقاء جوهره على نقائه. ولو أن وجوه الناس تثبت على تقلب الحظوظ لما تنكر صديق لصديق ولا تجهم وطني لوطن

لله ما كان أنبل وأجمل حين دخلت على الشيخ الوزير مكتبه في الوزارة من غير وقفة على حاجب الباب أو جلسة لدى مدير المكتب! لقد كان في زيه الوطني الجميل ملء العين والنفس والشعور، يوزع التحيات على عادته ببسماته الرقيقة ونظراته الوديعة وكلماته الحلوة، فيجعلك تشعر أن الوزير منك، وأن الوزارة لك، وأن الأمر بينك وبين أولياء الحكم كما يكون بين الأب وأعضاء الأسرة.

كان سروري وأنا أهنئ صاحب المعالي وزير الأوقاف أقرب إلى أن يكون سروراً بنفسي؛ فقد وقع في وهمي أنني أساهم في هذه الوزارة بنصيب مبهم شائع لا أجهله ولا أدريه. ولعل مبعث هذا الوهم أن الوزير أزهري وصديق وأديب، وصلته بالناس من جهة الثقافة أو الصداقة أو الأدب يجعلها وفاؤه الطبيعي أدنى إلى النسب الشابك والقرابة الواشجة

أما بعد فإن استيزار أميرين من أمراء الأدب لهو فتح مبين لدولة القلم. فإن النهضات العلمية والأدبية في تاريخ الفكر لم تزدهر إلا في حمى ملك أو كنف وزير. والوزراء الأدباء أمثال ابن العميد والصاحب ابن عباد والمهلبي وابن زيدون وابن الخطيب لا يزالون عناوين فاصلة في تاريخ الأدب. فإذا ناط رجال الثقافة والصحافة آمالهم بوزير الخير مصطفى، وبوزير الجمال هيكل، فإن دلالة الحال تعلن أن مواتاة هذه الفرصة في صباح عهد الفاروق حين صدقت النيات على الاستقرار، وتهيأت النفوس للعمل، إيذان من الله بتيسير السبل لأمة العلم أن تنهض ولدولة الأدب أن تقوم.

أحمد حسن الزيات

في خيف منى

للدكتور الحاج عبد الوهاب عزام

هذا ثاني أيام التشريق؛ ومنى غاصة بمضاربها؛ قد اجتمع إليها الحجيج من أرجاء الأرض، واختلط فيها وفود المسلمين من كل الأقطار. تجاورت القباب واشتجرت الأطناب، وتمعجت السبل بينها تجور بالسائر، وتعدل بالسالك، إن لم يكن خبرها وعرف بالعلامات مسالكها، إلا مهيعاً يتوسط البقعة تفضي إليه المسالك فيقصد فيه السابل على بينة

زخرت منى بالحجيج، وازدحم الموسم بأهله. وقد أدينا بحمد الله المناسك ولم يبق إلا رمي الجمار، وهي أمر أمم لا يشغل نزال منى إلا قليلاً. فهناك سعة للتزاور والتعارف، وهناك فسحة لتبادل الآراء والتشاور في خطوب المسلمين

خرجت في رفاقة بعض الإخوان العراقيين أبتغي زيارة بعض الأجلاء من علماء الفرس، فلما لقيت الشيخ وبلغ الحديث منتهاه رغبت أن أرى من وجوه المسلمين وجهاً معروفاً في مجامع الحج منذ سنين لا يخلو منه موسم، ولا يجهله محفل. وقد رأيته في عرفات ضارباً مخيمه على الجادة فنزلت إليه في نفر من رفقائي حجاج الجامعة وأنسنا به

حيناً. وبينا أنا بالمشعر الحرام من مزدلفة رأيت خطيباً واعظاً يتكلم على جماعة باللغة الأردية، فدلفت إليه فإذا هو ذلك الوجه المعروف غير المنكر، وأنا أرجو ألا يفوتني في منى لقاؤه؛ ومضربه في منى أرفع المضارب، يلوح للسائر عالياً متميزاً تخفق عليه رايته. فليس على من يبغي المسير إليه إلا أن يذهب إلى مسجد الخيف ثم ينظر إلى سفح الجبل ليرى فسطاطاً كبيراً قد احتل من السفح مستوى لا يتسع لغيره، فليس هناك فسطاط سواه. فإذا تأمله أبصر الراية الأفغانية فعرف أنه منزل السيد محمد الصادق المجددي

أخذت سمت المكان حتى قاربت المسجد فلقيني جماعة من حجاج الجامعة والأزهر فصعدنا إلى الفسطاط في شرف يطل على الموسم كله وينظر إلى مسجد الخيف من كثب. لبثنا قليلاً ثم هبطنا إلى فجوة بين الصخور تسمى غار المرسلات؛ يقال إن السورة الكريمة (والمرسلات عرفاً) أوحيت إلى صاحب الرسالة صلوات الله عليه هناك. وقد اجتمع الناس يمنعهم الشرطة من الدخول إليه والتمسح به كما كانوا يفعلون. فوقفنا وقفة قضينا بها حق الذكرى العظيمة، ثم سرنا مصعدين في الجبل وهو جبل شاهق أدكن عظيم الصخور كثير

القلع. فما زلنا نصعد حتى لاح لنا الموسم جميعه، وزويت لنا أطرافه؛ فيالك مشهداً جميلاً رائعاً! فهذا مسجد الخيف وهو مسجد بري معطل من الزينة وفراشه الحصباء: بناء كبير تحيطه جدران مديدة بيضاء، يتوسط صحنه الفسيح مصلى عليه قبة ومنارة، وفي جانبه القبلي سقيفة على ثلاثة عقود. وقد راقني منظره من سفح الجبل تتجلى فيه فطرة الإسلام وطبيعة البداوة

وهذا المحصب عن شمالنا حيث العقبات الثلاث التي ترمى فيها الجمرات. والى اليمين يمتد وادي منى بين سطرين من الجبال الشاهقة يساير فيه الطرف أسراب الخيام إلى أن يكل. وهناك تبدو دار الملك عبد العزيز التي ينزلها أيام الموسم. وهنالك بناء أبيض يلوح بين الأشجار هو (السبيل) المصري: مورد عذب يستقي منه الحجاج، يزدحمون عليه النهار كله وطرفاً من الليل. وإنها لمبرة عظيمة

وأما الجبل الشامخ الذي يمتد على جانب الوادي الأيسر فهو ثبير. وكم ردد التاريخ والشعر ذكر ثبير!

ترادفت الذكر وتوالت العبر في هذه البقعة المقفرة التي تخصب بالجماعات كل عام منذ عهد الجاهلية، فكأني بالقبائل تلتقي تتناشد الأشعار، وتتفاخر بالاحساب، ويضعون عنهم العداوة والحرب إلى حين، وقد تغلبهم الضغائن فيفجأ بعضهم بعضاً غير مراعين حرمة الشهر والمكان كما أغارت هوازن على خزاعة بالمحصب من منى فقال أحد بني عدوان:

غداة التقينا بالمحصَّب من منى ... فلاقى بنو العنقاء إحدى العظائم

وكأني بهم ينحرون ويذبحون ويضيفون ويطعمون، ويشرقون بقايا اللحم على سفح الجبل.

وكأني بفتيان قريش وشعراء مكة في الجاهلية والإسلام يقضون حق المكارم والفتوة؛ يضيفون ويطعمون ويشيدون بالمفاخر ويتناشدون الشعر ويتناقلون الأخبار، وينزع بهم الشباب فيتغزلون ويرون في الموسم على جلاله وحرمته شملاً من الأحباء يجتمع، وشملاً يفترق، فيشيد الشعر بفرحة اللقاء ولوعة الفراق، فهذا عمر بن أبي ربيعة يقول:

نظرت إليها بالمحصَّب من منى ... ولي نظر لولا التحرج عارم

فقلت: أشمس أم مصابيح بيعة ... بدت لك خلف الستر أم أنت حالم

بعيدة مهوى القُرط إما لنوفل ... أبوها وإما عبد شمس وهاشم

ومن قبل تذكر المجنون في هذا المكان ليلاه:

وداع دعا إذ نحن بالخيْف من منى ... فهيج أطراب الفؤاد ومن يدري

دعا باسم ليلى غيرها فكأنما ... أطار بليلى طائراً كان في صدري

وهذا العرجي - وغفران له - يقول:

في الحج إن حجت وماذا منى ... وأهله إن هي لم تحجج؟

وأنا أقول ما قال عطاء حين استوقفه ابن سريج فغناه أبياتاً منها بيت العرجي قال: (الخير كله والله بمنى، لا سيما وقد غيبها الله عن مشاعره)

والعرجي هو القائل:
عوجى عليّ فسلمى جبرُ! ... فيم الوقوف وأنتم سَفر؟
لا نلتقي إلا ثلاث منى ... حتى يفرّق بيننا النفر
ورحم الله جريراً! كان أرشد من هؤلاء: لقيه الفرزدق بمنى فأنشده:
فإنك لاقٍ بالمنازل من منى ... فخاراً؛ فخبرني بمن أنت فاخر؟
فقال جرير: (لبيك اللهم لبيك)
نبهتني تلبية جرير فقلت: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك الخ كم في هذه الخيام من قلوب وردت هذه المشاهد ورود القطا الظماء! وكم من نفوس هجرت خفض العيش إلى مشقة الأسفار، وغربة الديار لتنعم بالذكر والتوبة في هذه البقاع المقدسة. لو نفض كل قلب هنا آماله وآلامه لسامت هذه الحبال جبال من أحزان البشر وأمانيهم حملها أصحابها إلى سدة الخالق العظيم يستغفرون ويتضرعون، ويسترحمون ويتذللون. سرائر لو اجتمعت في هذه الساعة لتمثل فيها تاريخ البشر. لو اجتمعت! لو تشاكى أصحابها وتناجى أربابها! لو تشاكى المسلمون في هذه البقعة وبث بعضهم لبعض خبايا قلبه، وتشاوروا فيما يحز بهم! أجل، هذه خيام مجتمعة، وجماعات مختلطة، وبينها تعارف وتزاور، ولكن أين هذا مما يريد الإسلام ونريد؟ لابد أن ييسر لكل حاج السير والزيارة، ويمكن من أن يلقى من يشاء حين يشاء. إن مئات الآلاف من الحجاج لا تتيسر لهم مقاصدهم ولا تكفل راحتهم إلا في نظام دقيق وترتيب حسن. وذلك لمن شاءه جد يسير. وعلى المسلمين جميعاً أن يعملوا له. لماذا لا يكون في منى مجمع مسقوف يسع الحجاج جميعاً يقفون أو يجلسون في راحة ونظام، فيسمعون جميعاً إلى الخطباء من زعماء المسلمين يرفعون أصواتهم بالمجاهر! لماذا لا يكون هناك مدرج ينحت في الجبال ليسع الألوف المؤلفة؟ هذا أمر حتم لابد أن تتخذ له الأهبة.
طالت بي الوقفة وأصحابي على مقربة مني! فقلت: هذا أمر له غير هذه الوقفة. ثم التفت فإذا أعرابي بجانبي تفتر شفتاه عن أسنان ناصعة وفي فمه عود قلت: ما هذا؟ قال: بشام. قلت، الذي يقول فيه جرير:
أتذكر إذ تودعنا سليمى ... بفرع بشامة؟ سُقى البشام
قلت: وما هذا؟ مشيراً إلى شجرة صغيرة من الشجر الذي يسمى السنط في مصر. فقال: سلم. فتذكرت قول القائل:
ويوماً توافينا بوجه مقسم ... كأنْ ظبية تعطو إلى وارق السلم
وقول الحجاج: والله لأعصبنكم عصب السلمة الخ
قلت: أتستطيع أن تأتينا بأعواد من البشام؟ قال: إنه على الربع الآخر، وأشار إلى الجبل يعنى سفحه الآخر. فتذكرت الآية الكريمة: (أتبنون بكل ريع آية تعبثون) والريع المكان المرتفع قلت لأصحابي: لو اتسع الوقت لأخذنا كثيراً من اللغة عن هذا الأعرابي. فمن كان يظن أن هذه ألفاظ ميتة في المعاجم فليعلم أنها لا تزال حية في أفواه كثير من العرب. وحان الرجوع فرجعنا إلى الخيام

عبد الوهاب عزام

أبو العلاء حرب الظالمين

لأستاذ جليل

من (عبقرية) نابغة العرب أبو العلاء حرب الظالمين وعدو المستبدين، ونصير البائسات والبائسين، وخصيم المترفين والباخلين، ومقرع المستكبرين والمدعين، ومجل التواضع والمتواضعين، ومهجن الشراب الحرام والشاربين. وأقواله في (اللزوميات) في هؤلاء المذكورين مشهورة؛ ولم يغفل (نابغة العرب) في (الفصول والغايات) - عبقرية في النثر - عنهم. وفي الآيات البينات بعض ما قال فيهم:

- 1 -

(يا بغاة الآثام، وولاة أمور الأنام، مرتع الجور وخيم، وغبه ليس بحميد، والتواضع أحسن رداء، والكبر ذريعة المقت، والمفاخرة شر كلام. كلنا عبيد لله)

- 2 -

(ما بيت يأتلق فيه الياقوت، وللزرياب حواليه شعاع، يسكنه ظالم جبار يسفك الدم، ويسفح دموع الباكيات، ويشرب كاسات الرحيق - بأعز عند الله من ناسجة الغبار فيا

(!ويح جائر - إذا حكم - عات
- 3 -
إذا أصبح النصح ثقيلاً، والمساجد قالاً وقيلاً، وصارت الإمارة غلاباً، والتجارة خلاباً -)
(فالبيت المحفور، خير لك من مشيدات القصور، والفقير أربح صفقة من ذي التاج
- 4 -
إني لوغد وقد عرفت نفسي بعض العرفان، وحقرتها وهي جديرة بالاحتقار. خلقتني)
كما شئت، وأعطيتني ما لا أستحقه منك. ولعل في عبيدك من هو مثلي أو شر. في
(خزائنه بدر اللجين والعقيان لا يطعم منها المسكين، ولا يغاث الملهوف
- 5 -
إن من يفتقر إلي لفقير، فأغن (اللهم) كل مسكين. وبئس البيت المسكون، بيت تحت)
الغبراء يكون، لا أس له ولا عمود، إنما هو من هباء، ليس بالطراف ولا الخباء ولأعمال
الصالحات خير ما راح إليه من السوام. فكن أيها الرجل من الصالحين، وإذا رأيت الملأ
(يبرمون أمراً فقل: لعب الولدان خراج
- 6 -
أطعم سائلك أطيب طعاميك، واكس العاري أجد ثوبيك، وامسح دمع الباكية بأرفق)
(كفيك
- 7 -
ما ريا قطر، ورائحة حبيب عطر، بأطيب من ثناء مستطر، يثني به بر على مبر! وذكر)
الله مراتع القلوب يستعذبه الأواب، ويسكن إليه الصالحون. فاغسل الحوب بأن تتوب،
ولا تعرك ذنبك بجنبك، فتصر على سخط ربك، والى السوق تحمل الوسوق، فما كان
(جيداً نفق، وما كان ردياً زهد فيه. وإنما أنت درهم إن اتقى وضح، وإن فسق زاف
- 8 -
خافوا الله وتجنبوا المسكرات: حمراء مثل النار، وصفراء كالدينار، وبيضاء تشبه الآل،)
وكميتاً وصهباء، وكل ما أدرك من الألوان. لو كانت أقسام اللب كرهاق الحصى،
والسكرة من الجرع بمثل ذاك لقلت: إن النغبة الواحدة حرام. ولو هجر أب لجناية ولد
لحرم العنب لجريرة المدام. وهل لها من ذنب؟ إنما الذنب لعاصر الجون، ومستخرجها
وردية اللون، وحابسها في الدن، ومنتظرها برهة من الدهر، وشاربها ورد العطشان.
(فاجتنبوا ما يذهب العقول، فبها عرف الصواب
- 9 -
أحسن الفضل ما شهد به الملأ لغير شاهد؛ إذ كان الغائب كثير العائب، والحاضر يلقي)
بالوجه الناظر؛ والدعوى رأس مال قلما ربح تاجره وإن صدق. وأحب لابن آدم أن
(تكون مناقبه كمناقب الطرف الرائع والسيف الحسام تذكر، وهما صامتان
- 10 -
(قد يكون الخمول داعياً للنباهة كالنار ستر ضوءها بالبيبس فأظهر ذلك لهباً)
أبو العلاء حسنة من حسنات سيدي وسيده (محمد) - صلى الإله على محمد - هداه
(كتاب الله) فكان من المهديين ومن الأئمة الهادين، وكان (والله) رهين المحبسين
أزهد الزاهدين. واستضاء بالقرآن وبلاغة القرآن فأضاءت أقواله وأشعت وبهرت
الناظرين والسامعين
نور القرآن قولاً فعلاً، وسما صاحبه في القائلين
إنما القرآن هدى الناطقين. إنما القرآن نور العالمين
غث قول لم يهذبه (الكتاب)
القارئ
فلسفة التربية
تطبيقات على التربية في مصر
للأستاذ محمد حسن ظاظا
ترجع بعض أسباب (الإضراب) إلى أن الطلبة يتصورون نظام المدرسة مفروضاً)
(!.عليهم، ويتصورون أنفسهم جزءاً منفصلاً عن ذلك النظام
(!.لا يستطيع ذو الساعد القوي إلا أن يوجد في المدرسة نظاماً آلياً لا روح فيه)
(!.يجب أن يعرف الطلبة أنهم عندما يثورون ويضربون إنما يفعلون ذلك ضد أنفسهم)

لسنا نريد أولئك الأساتذة الذين يلقنون الطلبة العلم فحسب، ولكن أولئك الذين) يحدثونهم أيضاً في أشياء كثيرة ويوحون إليهم أمثل أساليب الحياة.!)
(من رسالة الدكتور جاكس)
النظام - 5
تناولت في المقال السابق أزمة المتعلمين العاطلين ببعض الشرح والتعليل، وقدمت بعض ما ينبغي أن يؤخذ به درءاً للخطر وتلافياً لنتائجه القريبة والبعيدة، وسأتناول اليوم ناحية أخرى هامة هي ناحية النظام المدرسي وأثره في نفوس النشء:
النظام الحاضر - 1
ولعلك تدري ما هو النظام الحاضر وما هي نتائجه! لعلك تعرف أن (الآلية) تغلب على ذلك النظام إلى حد خطير يجعل المدرسة غير محبوبة، ويجعل (الإضراب) محتملاً لأهون الأسباب! ولعلك تعلم فداحة نسبة الغياب والتأخر في معاهدنا وكثرة ما نحتاج إليه من عقاب وخصم وتنبيه وتحذير في كل صباح! أجل، ولعلك تعرف بعد هذا ما قد يحدث من هروب بالليل أو بالنهار، ومن (تزويغ) من بعض الدروس إذا اقتضى الحال! ومن حلول الفوضى والاضطراب إذا غفلت عين الناظر أو الأستاذ، واختفت العصا وزال الوعيد والتهديد والرفض والإنذار!! أجل! ولعلك تعلم أيضاً أن المدرس قد يلقى من العناء في حفظ نظام الفصل بعض ما يلقى من العناء في التدريس! وأنه يحتاج أحياناً لأن يكون شرطياً أكثر مما يحتاج لأن يكون أستاذاً!! لعلك تعرف ذلك كله، ولعلك تدرك منه أن (النظام) قائم
عندنا على القوة والإرهاب أكثر مما هو قائم على الرغبة والشعور، وأن ما يشوب حياتنا خارج المدارس من فشل أو فوضى بسبب انعدام المنطق فيها إنما يرجع إلى أن المدرسة لم تفلح بعد في غرس النظام فينا وجعله دماً يجري في العروق قبل أن يكون مظاهر وقشوراً!! وإلى أنها لا تزال تبدو كريهة غير محببة ولا مغرية، يبهظنا نظامها، ويرهقنا عملها، وتثقلنا واجباتها، ولا نرى فيها بعد هذا من المتعة والنعيم ما قد يخفف من هذا الإرهاق وذلك الإبهاظ!!
أترى لو كان الأمر على غير ما أقول: أكان الطلبة يضربون ويتركون فصولهم لمجرد استقبال زيد أو عمرو مهما قيل في ضعف الإدارة المدرسية أو الإشراف الوزاري؟؟ أترى لو كان حب النظام متغلغلاً في نفوس الطلبة: أكانوا يهددون بالإضراب كلما عنت لهم حاجة، فإذا ما أضربوا انقلبوا إلى جماعات ثائرة متمردة، وأعلنوا على المدرسة معاملها وأثاثها - وأحياناً ناظرها ومدرسيها - حرباً عواناً لا تبقى ولا تذر؟ ذلك إذاً نظام آلي تعسفي مبغوض!، وتلك إذاً نتائج خطيرة تسود حياتنا الخاصة والعامة وتجعل الفشل والاضطراب نصيبنا المحتوم؛ وإذا كان (النظام الحق) سر عظيم من أسرار النجاح تتحلى به الشعوب العظيمة كالإنجليز والألمان، فما أحوجنا في نهضتنا الحاضرة ومركزنا الحربي الدقيق إلى التحلي به والأخذ بروحه وتفاصيله. . .!؟
سبيل الإصلاح
ويرى الدكتور جاكسون أن الإصلاح إنما يتأتى عن طريق تعليم الطلبة كيف يحترمون (السلطة المشروعة) إذ ما معنى أن يتملك زمامهم نفر من خطبائهم ومهيجيهم، ويقف ناظرهم وأساتذتهم عاجزين حتى عن توجيه الكلام إليهم؟؟ كذلك يجب ألا نقبل أبداً التهديد بالإضراب كوسيلة منتجة تحقق لهم طلباتهم؛ وإنما يجب أن نعاقب الداعين إلى الخروج على سلطة الناظر عقاباً صارماً رادعاً، وألا نستجيب إلى طلباتهم إلا إذا اتخذوا في رفعها ومناقشتها الطريق المشروع والأسلوب اللائق بطلبة يتثقفون ويتهذبون!، أما نظام المدرسة الذي له ضلع كبير في تلك الحالة الشاذة فيجب أن يتبدل بحيث يصبح أكثر مرونة، وبحيث يشعر الطلبة أنفسهم أنهم جزء فيه لا يتجزأ!، وبذلك يصبح إضرابهم موجهاً ضد أنفسهم، ويصبح إخلاصهم للمدرسة خير ضامن لانتظامهم في عملهم واحترامهم لقانونهم.
ويتطلب ذلك النظام الجديد منا أن نفهم الطفل خطأه قبل أن نثور عليه ونصخب في وجهه؛ وأن ننشد منه الطاعة المصحوبة بالرضا والاحترام قبل أن ننشد منه الخضوع الممزوج بالرهبة والخوف؛ وأن نعامله معاملة ديمقراطية ونعرف له حقه كعضو في جسم حي متعدد الأعضاء؛ وأن نقنعه بأن خطأه إنما يعود على المجتمع الذي هو عضو فيه مما قد يثير غضب هذا المجتمع عليه؛ وأن نجعل لجسم المدرسة غاية سامية في

رأسه ونطالبه بالمساهمة في تحقيقها كعضو فعال في ذلك الجسم؛ وأن ندخل في المدرسة ذاتها من أساليب المتعة والإغراء والجمال والفن، ما يزيد في تحمسه لها وشغفه بها حتى يعز عليه أن يتركها أو أن يعبث بجلالها ووقارها؛ وأن نقدم له مدرسين من طراز خاص يستطيعون أن يمتزجوا بنفسه، وأن يحدثوه في أشياء كثيرة، وأن يلقنونه أمثل أساليب الحياة؛ وأن نربط ما بين بيته وبين المدرسة برباط متين، فيلتقي الناظر والمدرسون في الآن بعد الآخر بأهله مجتمعين مع أهل زملائه في ساحة المدرسة حيث يدور النصح والإرشاد، ويتحقق تعاون المدرسة مع البيت على نحو مأمون

وأن ندفع به إلى مختلف الجمعيات المدرسية حيث توفر له مجتمعاً صغيراً له غاية ولإفراده من الحقوق والواجبات والقانون والنظام ما يؤهله لأن يكون عضواً حياً في جسم حي

وأن نتيح له من ألوان الرياضة البدنية ما ينمي جسمه ويقوي عضله ويروح عن نفسه ويعلمه أن الخسارة بحق خير من الفوز بباطل، وأن المرمى واحد والجميع يعملون متعاونين من أجله

وأن نقدم له من الجوائز الأدبية والمادية ما يثير فيه روح المنافسة الشريفة، ويحببه في العمل الذي قد جوزي عليه خيراً، ويجعل مجده الشخصي عائداً على مجد المدرسة كلها بالعظمة والخير. .!!

بذلك وبغيره نوجد في المدرسة نظاماً حياً يمتد من الملعب إلى حجرة الدرس، ويتحقق في حضور الرقيب كما يتحقق عند غيبته، وبذلك وبغيره نستطيع أن نخرج الرجل الاجتماعي المنشود الذي يرعى قوانين أمته، ويطيع عرفها، ويندمج في وحدتها الكبرى غير ناظر إلى رياسة تذيع اسمه، أو منصب يدر عليه الخير، أو شخص يحسده ويسعى إلى تحطيمه

بالمنافسة الشريفة وغير الشريفة.!!

ولعلك تعرف بعد هذا أن قوام ذلك النظام المنشود إنما هو الناظر والمدرسون، فترى ماذا يمنع نظارنا ومدرسينا من أن يوجدوا هذا النظام في معاهدهم؟ ذلك ما أدعوك اليوم إلى التفكير فيه، وما سأحاول أن أعرض لبعض نواحيه في العدد القادم. .

(يتبع)

محمد حسن ظاظا

مدرس الفلسفة بشبرا الثانوية الأميرية

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

1880 - 1937

للأستاذ محمد سعيد العريان

- 28 -

قرأت كلمة الأستاذ سيد قطب (بين العقاد والرافعي) في العدد السالف من الرسالة؛ وأنا أعمل الآن عمل المؤرخ لحياة قد استأثر بها التاريخ، والأستاذ قطب يريد أن يكون ناقداً، وفي مذهبه أنه (لا يصح أن يكون الموت معطلاً للنقد). . . وفي مذهبنا أنه لا ينبغي أن يكون بيني وبينه جدال يعطل التاريخ؛ ومع ذلك فإن ما أتى به من النقد ليس بشيء عندنا. ولقد مات الرافعي ولكنه خلف طائفة كريمة من الأدباء، كلهم أمين على أدبه حريص على تراثه؛ فلا جرم أن يتولى تزييف هذا النقد أو تعديله رجل غيري ممن خلف الرافعي لهم أدبه أمناء عليه، لأفرغ لما أنا فيه؛ فلينتدب له صديقنا (الأستاذ محمود محمد شاكر)، فتلك من أمانات الرافعي في عنقه (العريان

الملاح التائه

بعد ما أنشأ الرافعي مقالة (وحي الهجرة في نفسي) للعدد الممتاز من الرسالة في سنة 1353هـ، أهدى إليه الشاعر المهندس علي محمود طه ديوانه (الملاح التائه)، وأحسبه طلب إليه أن يكتب عنه. وكان بين الرافعي والشاعر المهندس صلة قديمة من الود، أظنها نشأت في حجرة الأستاذ فؤاد صروف محرر المقتطف، حيث كان الرافعي يقضي أكثر أوقات فراغه كلما هبط إلى القاهرة لعمل من أعماله. وهناك كان

يلتقي الرافعي، وصروف وإسماعيل مظهر، ومحمود شاكر، والمعلوف، وغيرهم من أدباء العربية، فيحتدم الجدل ساعات في موضوعات شتى من الأدب. ولم يكن للرافعي ندوة أدبية يقصد إليها كلما جاء القاهرة منذ هجر فلانة - أحب إليه من دار المقتطف، ثم صار له ندوة ثانية من بعد حين
اتصل سببه بالرسالة؛ فكان يقضي وقته بين عيادة الدكتور شخاشيري في فم الخليج، وعبد القادر حمزة والمازني في البلاغ، وإخوان صروف في المقتطف، والزيات في دار الرسالة. ولم يلتق إلا مرة أو مرتين بالأستاذ أحمد أمين والدكتور عزام في لجنة التأليف والترجمة والنشر، عندما كانت اللجنة قائمة على طبع كتابه وحي القلم
قلت: إنه كانت بين الرافعي والشاعر علي محمود طه صلة من الود، ومنها أن الشاعر المهندس وضع له رسماً (تصميماً) للبيت الذي كان في نيته أن يبنيه لينتقل إليه وينقل دار كتبه قبل أن يموت. ولهذا البيت قصة لم تتم، لأن هذا البيت لم يتم. .، فقد كان كل ما ادخره الرافعي من جهاده بضعاً وثلاثين سنة بضع مئات من الجنيهات، اشترى بنصفها قراريط لينشئ فيها حديقة وبيتاً يسكنه - إذ كان ومازال إلى أن مات يسكن بيت أبيه - وبقي معه بعد ذلك قدر من المال لا يكفي نفقات البناء والإنشاء، فآثر أن ينتظر حتى يجتمع إليه شيء، وأسلف صهره ما بقي عنده من المال إلى أجل، وفي النفس أمل. . . ثم. . . ثم جاءت الأزمة فأكلت ثروة صهره جميعها لم تبق منها على شيء، وضاعت ذخيرة الرافعي فيما ضاع ولم يستطع المدين وفاء الدين، فلم يبق للرافعي من جهاده وما ادخر إلا الأرض الخربة، والأمل في عطف الله، وخطوط تبين حدود البيت وحجراته وأبهاءه وحديقته، مرسومة على ورقة زرقاء .. . !
وجاءه ديوان الشاعر علي محمود طه، وديوان الماحي؛ فدفعهما إلي لأختار له ما يقرأ من كليهما. ولم أكن عرف يومئذ ما بينه وبين الشاعر المهندس، ولكن رأيي في ديوانه وافق هواه؛ فما فرغت من قراءته حتى دفعته إليه وعلى هامشه إشارات بالقلم، وما دفعته إليه حتى تهيأ للكتابة عنه. . .
وأنشأ مقالة مسهبة نشرها في المقطم، تحدث فيها عن الشعر حديثاً يبين مذهبه وطريقته في فهم الشعر وفي إنشائه؛ ثم انثنى إلى الشاعر المهندس يمدح ويثني، وينتقد وينصح. . . وكان مؤمناً بما كتب، ولكن إيحاءات من الواعية الباطنة كانت تملي عليه بعض الحديث في التعريض ببعض الشعراء المعاصرين. . .
وتناول الأستاذ المازني ديوان (الملاح التائه) في البلاغ بعدما تناوله الرافعي، فعاب عليه أشياء كان يمتدحها الرافعي، وأخذ على الشاعر أنه كثير العناية باللفظ والعبارة وجزالة
الأسلوب؛ فكانت مقالة الأستاذ المازني حافزة للرافعي على أن ينشئ مقالة للرسالة في الرد عليه، جعل عنوانها (الصحافة لا تجني على الأدب ولكن على فنيته)؛ فبهذه المقالة كان الرافعي يقصد الأستاذ المازني، دفاعاً عن صديقه الشاعر، أو دفاعاً عن مذهبه في الشعر. وكانت هذه أولى مقالات الرافعي في الرسالة بعد فترة من مقالة (وحي الهجرة) وقد أنشأها على نهجه القديم، وحاول فيها فناً من التهكم في قصة اخترعها عن الأصمعي الراوية في عهد الرشيد
في الرسالة
كان الرافعي مفتوناً بمقالاته الثلاث التي أنشأها في هذه الفترة: البلاغة النبوية، وحقيقة المسلم، ووحي الهجرة. وكان حسن وقعها عند كثير من القراء حافزاً له على الاستمرار في هذا الباب من الأدب الديني، فعقد النية على أن يكتب السيرة النبوية كلها على هذا النسق الفلسفي، ليجعلها كتاباً بعنوانه، يتناول سيرة النبي المعظم - صلى الله عليه وسلم - على طريقة من التحليل والفلسفة، لا على نسق من الرواية. فأنشأ بعد ذلك مقالاته: (سمو الفقر)، و (الإنسانية العليا)، ثم بان له من بعد أن هذا الفن من الإنشاء عسر الهضم عند كثير من قراء الرسالة، فتركه إلى موضوعات أخرى يعالج بها بعض مشاكل الاجتماع في الحياة المصرية، على أن يكتب ما يتيسر له من المقالات النبوية نجوماً في فترات متباعدة حتى لا يمل قراءه أو يثقل عليهم.
وسأتحدث من بعد عن كل مقال من المقالات التي أنشأها للرسالة في الفترة التي صحبته فيها، لعل ذلك يعين على فهم أدب الرجل ودوافعه ومعانيه؛ ولعله يبلغ بي الوسيلة إلى الذين لا يفهمون أدب الرافعي ثم يحاولون أن يتحدثوا عن أدب الطبع

. . .وأدب الذهن، أو الأدب الفني والأدب النفسي
ولكن علي قبل أن أبدأ هذا الحديث، أن أصف الرافعي حين يهم بموضوعه، ثم حين يفكر فيه، ثم حين يتهيأ لكتابته، ثم حين يمليه علي من القصاصات المبعثرة على مكتبه، فإن ذلك من الموضوع فاتحته وأوله:
اختيار الموضوع كان أول عمل يحتفل له الرافعي؛ وإذ كان لم يعمل في الصحافة قبل اشتغاله بالرسالة، فإنه لم يتعود من قبل أن يفتش عن الموضوع؛ ولم يكن يحاول الكتابة إلا أن يدفعه إلى الكتابة دافع يجده في نفسه قبل أن يطلبه؛ فلما دعاه الزيات ليكتب للرسالة
موضوعاً كل أسبوع، راح يلتمس الموضوعات التي تصلح أن يكتب فيها للرسالة. وكان يضيق بذلك ويتحير، ثم لم يلبث أن تعودها، فكان يرسل عينة وراء كل منظر، ويمد أذنه وراء كل حديث، ويرسل فكره وراء كل حادثة، ويلقي باله إلى كل محاورة، ثم يختار موضوعه مما يرى ويسمع ويشاهد ويحس، ثم لا يبدأ أن يجمع له فكره ويهيئ عناصره إلا أن يجد له صدى في نفسه، وحديثاً في فكره، وانفعالاً في باطنه. وكثيراً ما كان يعرض له أكثر من موضوع؛ وكثيراً ما كان يرتج عليه فلا يجد موضوعه إلا في اللحظة الأخيرة، واللحظة الأخيرة عنده قبل موعد إرسال المقال بثلاثة أيام!
فمن ذلك، ومن خشية الارتاج والحرج، كان دائماً في جيبه ورقات، يكتب في إحداها عنوان كل ما يخطر له من موضوعات الأدب، ليعود إليها عند الحاجة؛ ويتخذ الورقات الباقية مذكرة يقيد فيها الخواطر التي تتفق له في أي من هذه الموضوعات أين يكون. وبلغ بذلك أن يجتمع عنده في النهاية ثبت حافل بعناوين مقالات لم يكتبها ولم يفرغ لها باله، وورقات أخرى حاشدة بخواطر ومعان شتى في أكثر من موضوع واحد، لا تربط بينها رابطة في المعنى ولا في الموضوع. ومن هذه الورقات، ومن فضلات المعاني في المقالات التي كتبها وفرغ منها - كان يختار (كلمة وكليمة) التي كان ينشرها في فترات متباعدة من الرسالة كلما وجد حاجة إلى الراحة من عناء الكتابة. فهذه الكلمات هي إحدى ثلاث: خواطر مبعثرة كان يلقاها في غير وقتها، أو عناوين موضوعات لم تتهيأ له الفرصة لكتابتها، أو فتات من مقالات كتبها وفرغ منها وبقيت عنده هذه المعاني بعد تمام الكتابة إذ لم يجد لها موضعاً مما كتب
وبسبب أنه كان يقيد عناوين الموضوعات التي كان يختارها ليكتبها في وقتها، كان يعد قراءه أحياناً بموضوعات ثم لا يكتبها ولا يفي بما وعد، لأنه لا يملك منها إلا عنواناً في ورقة بيضاء؛ ومن ذلك مقالة (الزبال الفيلسوف) التي وعد أن يكتبها حين أنشأ للرسالة قصة (بنت الباشا) ثم مضت ثلاثة أعوام ووافاه الأجل وما تزال مقالة الزبال عنواناً في رأس ورقة تحته نثار من الخواطر والمعاني التي كان يدخرها إلى يومها المؤمل!
ولقد وجدت على مكتبه في طنطا غداة نعيه كثيراً من هذه الورقات، تشير إلى كثير من أمل الأحياء والى كثير من خداع الحياة. . .!
فإذا تم له اختيار الموضوع الذي يتهيأ لكتابته، تركه للفكر يعمل فيه عمله، وللواعية الباطنة أن تهيئ له مادته؛ ويدعه كذلك وقتاً ما، يطول أو يقصر، يقيد في أثنائه خواطره لا تكاد تفلت منه خاطرة؛ وهو في ذلك يستمد من كل شيء مادة وحي، فكأن في كل موجود يراه صوتاً يسمعه، وكأن في كل ما يسمعه لوناً يراه، وكأن في كل شيء شيئاً زائداً على حقيقته يملي عليه معنى أو رأياً أو فكرة. . .
فإذا اجتمع له من هذه الخواطر قدر كاف - والقدر الكافي لتجتمع له هذه الخواطر هو يومان أو ثلاثة - يأخذ في ترتيبها معنى إلى معنى، وجملة الجملة، ورأياً إلى رأي. فهذه هي الخطوط الأولى من هيكل المقالة
ثم هو يعود بعد ذلك إلى هذه الخواطر المرتبة - بعد أن ينفي عنها من الفضول ما يدخره لـ (كلمة وكليمة) أو لموضوع آخر - فينظر فيها، ويزاوج بينها، ويكشف عما وراءها من معان جديدة وفكر جديد؛ ولا يزال هكذا: يزاوج ويستولد، ويستنتج من كل معنى معنى، ويتفطر له عن كل رأي رأي، حتى تستوي له المقالة فكرة تامة بعضها من بعض، فيكتبها
إلى هنا يكون قد انتهى عمل الذهن، وعمل النفس، ويبقى عمل الفن والصناعة لتخرج مقالة الرافعي إلى القراء في قالبها الأخير الذي يطالع به الأدباء. . . وبيني وبين القراء

. . .ميعاد
(شبرا)
محمد سعيد العريان
من برجنا العاجي
أذكر أني ما قرأت بعض فقرات من (يوليوس قيصر) لشكسبير، إلا غمرني حزن حقيقي. قصة أخرى أذكر أيضاً أنها كانت تترك في نفسي عين الأثر: هي رواية فرنسية تسمى (نابليون المسكين) لكاتب فرنسي يسمى (برنارزبمر) يصور فيها الإمبراطور سجيناً في جزيرة سانت هيلانة، وقد قصت أجنحة هذا النسر الهائل، وقلمت مخالبه، وأمسى مخلوقاً بائساً يهزأ به خادمه ويخفي عنه غليونه الذي يدخن فيه، ويهمله سجانه الإنجليزي ويدعه يتقلب طول الليل على مضجع الألم من مرض أضراسه، فلا يرحمه ولا يحضر له طبيباً ولا دواء، ويلقبه (بالدب) الذي وضع في أنفه حلقة من حديد ويسمح لبعض الزائرين من السائحين أن ينظروا إليه خلسة من ثقب باب حجرته، كأنه أسد هرم رابض في قفصه بحديقة الحيوان، هذا الذي كان وحده يقيم العروش ويثل العروش، ويدب بحذائه العسكري على أديم أوروبا فتهتز لمشيته التيجان على رؤوس الملوك. وكان يقول في صوته الحديدي: أنا وحدي (أوربا)، فتقول له أوروبا كلها: بل أنت (العالم). نعم لا شيء يؤلم نفسي مثل رؤية (العظيم) يرى سقوطه بعينيه، ومع ذلك لقد احتفظ هذا العظيم بكبريائه حتى النفس الأخير. فلقد كان يصر على أن يلقب بالامبراطور، ولقد خاطبه في ذلك مرة حارسه الإنجليزي قائلاً له: إمبراطور على من؟ وإمبراطور على ماذا؟ فلم يجد منه إلا تشبثاً. فأذعن رفقاً به أو سخرية منه، وترك له هذا اللقب الذي لا يغني ولا يفيد. ولبث هذا البطل المهجور يعيش في هذه الجزيرة المهجورة إلى أن مات، لا بين قصف المدافع ودوي الأبواق ودق الطبول وهتاف العالم من جميع الأركان، ولكن بين سكون النسيان، لا يشيع جثمانه العظيم غير خادم وسجان. يا لقسوة القدر! إن السماء لتنتقم أحياناً من العظيم الذي يتوهم أنه غير وجه العالم بأعماله، فتؤخر موته بضعة أيام عن الوقت الذي كان ينبغي فيه أن يموت، حتى يرى بعينيه قبل أن تغلقا أن العالم بخير لم يتغير فيه شيء بذهابه، ولم تخفت ضحكاته ولم تقف عجلاته برحيله.
توفيق الحكيم
آراء حرة
بين العقاد والرافعي
للأستاذ سيد قطب
- 2 -
في كلمة الأستاذ سعيد العريان الأخيرة، وردت الجمل الآتية يصف نقد الرافعي لوحي الأربعين
(وكان نقداً مراً حامياً اجتمع فيه فن الرافعي، وثورة نفسه، وحدة طبعه، وحرارة بغضائه، ولكنه كان نقداً منزهاً عن العيب)
(أستطيع أن أقول ويقول معي كثير من أدباء العربية، إن هذه المقالة هي خير ما كتب الرافعي في نقد الشعر، وأقربها إلى المثال الصحيح)
(من قرأ (على السفود) فعابه على الرافعي وأنزله ما كان ينزله من نفسه، فليقرأ مقال الرافعي في نقد (وحي الأربعين) ليرى الرأي المجرد في شعر الأستاذ العقاد عن الرافعي)
وفي هذه الكلمة نفسها يقول عند رد العقاد:
(قرأت مقالة العقاد في الرد على الرافعي، فوجدت أسلوباً في الرد لم أكن أنتظره، يؤلم ولا يفحم، ويقابل الجرح بالجرح لا بالعلاج)
ويسمى الرد كله: (طعن العقاد على الرافعي وشتيمته إياه)
ويقول عن المقالة كلها: (وكان أكثرها سباباً وشتيمة، وأقلها في الرد والدفاع). . . الخ. . . الخ
هذا ما يراه الأستاذ سعيد في نقد الرافعي ورد العقاد. فمن شاء أن يعرف ما هو نقد الرافعي، فليسمع نماذج منه تعطي صورة كاملة عنه، لأنها منتقاة من نواح مختلفة فيه، لتمثل (فنونه) كلها. وإني لأستميح قراء الرسالة العذر، حين أستبيح أسماعهم

وأذواقهم في سماعها، وقد اختصرت على أقلها إفحاشاً وهاهي ذي:
1 - وما يخيل إلي في شعر العقاد إلا أنه مستنقع اخضرت ضفتاه، فهذا الجمال القليل) فيه لا يكشف عن سر ورونق وإمتاع، وإنما يزيد في القبح والشنعة. وما هو المستنقع إلا البعوض الملاريا والطحلب والوخم والعفن. ولو أنك كنت شاعراً دقيق الحس، مصفى الذوق، عالي البيان، ثم قرأت شعر العقاد لرأيت من ألفاظه ألفاظاً تلسع الذوق لسع
البعوض، ومن شعره أبياتاً تنهق نهيق الضفادع التي هي حمير الماء
2 - يقول العقاد عن حبيبته:
فيك مني ومن الناس ومن ... كل موجود وموعود تؤام
فلا يرى الرافعي في هذا البيت الفريد إلا أن يقول:
قلنا فإن (من كل موجود) البق والقمل والنمل والخنفساء والوباء والطاعون والهيضة) وزيت الخروع والملح الإنجليزي إلى واوات من مثلها لا تعد، أفيكون من هذا كله في (حبيب إلا على مذهب العقاد في ذوقه ولغته وفلسفته؟
3 - يقول العقاد في طرافة ودعابة عن حسان شاطئ استانلي
ألقى لهن بقوسه ... قزح وأدبر وانصرف
فلبسن من أسلابه ... شتى المطارف والطرف
فلا يجد الرافعي في هذه الطرافة إلا أن يتلاعب بالألفاظ فيقول:
فقزح لا يلقي قوسه أبداً، إذ لا يفصل منه. قال في اللسان (لا يفصل قزح من قوس)) فإذا امتنع فكيف يقال: (أدبر وانصرف)
أما قزح العقاد، فلعله الخواجة قزح المالطي، مراقب المجلس البلدي على شاطئ استانلي الذي قيلت فيه القصيدة
4 - ويسمع العقاد، صيحات الاستنكار للهو الشواطئ وما تعرض من جمال، فيصيح صيحة الفنان الحي المعجب بالحيوية والجمال:
عيد الشباب ولا كلا ... م ولا ملام ولا خرف
فإذا الرافعي يقول:
إن غاية الغايات في إحسان الظن بأدب العقاد أن تقول إن في هذا البيت غلطة) مطبعية، وأن صوابه
عيد الشباب فلا كلا ... م ولا ملام (بلا قرف)!
هذه نماذج منوعة من ذلك النقد الذي ينال الرضاء والاستحسان من أصدقاء الرافعي، ومن
أبناء مدرسته، ويعتبر (نقداً منزهاً عن العيب)!
وهذا هو الكلام الذي يعتبر رد العقاد عليه (سباباً وشتيمة)!
ومثل هذه الآراء الغريبة تثير الحنق وتستفز النفوس، ومع هذا فسأحاول أن أناقشها بهدوء، وأن أخلص منها إلى البرهنة على ما سبق أن أسلفته من رأي في الرافعي
فأما المثال الأول فما أدري ماذا أسميه إن لم أقل عنه: (إنه إفحاش) أو إنه (سباب وشتائم) بتعبير أصدقاء الرافعي وهو وأمثاله يؤلف نصف النقد في أوائله وأوسطه وأواخره، فلنمر عليه مر الكرام
وأما المثال الثاني فهو مصداق رأيي في أن الرافعي أديب الذهن لا أديب الطبع، وأنه تنقصه (العقيدة) التي هي وليدة الطبع.
أو. لا. فأي (طبع) سليم يتجه إلى تفسير بيت عزلي في معرض إعجاب شاعر بحبيبته، واستغراق في شمول شخصيتها بأن (كل موجود) هو البق والقمل والنمل. . . الخ)؟ غافلاً عما في هذا الإحساس من (حياة) و (استكناه) لجوهر الشخصية، و (خيال بارع) تثيره طبيعة فنية، فيرى في هذه المرأة من متنوع الصفات ومختلف النزعات وشتى المزايا، عالماً كاملاً من كل موجود وموعود؟
أحد أمرين:
إما أن الرافعي ضيق الإحساس مغلق الطبع بحيث لا يلتفت إلى مثل هذه اللفتات الغنية بالشعور
وإما أنه يدرك هذا الجمال، ولكنه يتلاعب بالصور الذهنية وحدها، غافلاً عما أحسه

وأدركه
وهو في الحالة الأولى مسلوب (الطبع)، وفي الثانية مسلوب (العقيدة). فأيهما يختار له جماعة الأصدقاء؟
والمثال الثالث فيه تلاعب وروغان، وهو في هذه المرة (التلاعب) أخس من السابقة. ففي الأولى كان تلاعباً بصور ذهنية، وهو هنا تلاعب ألفاظ لغوية!
أولاً فمن ذا الذي يغفل عن طرافة هذا (الخيال) الذي يتصور (قزحاً) ملقياً بقوسه لهؤلاء الحسان، وهن يتناهبن هذه الأسلاب، بينما هو مدبر منصرف، مغلوب على أمره، لا يستطيع النصفة ممن غلب جمالهن جماله!
ألا تستحق مثل هذه الطرافة، ومثل تلك الحيوية من الناقد إلا أن يذهب إلى القاموس أو اللسان، ينظر هنالك هل يفصل قوس عن قزح أولا يفصل؟ ثم يكمل الكلام بتهكم بارد لا يرد على الفطرة المستقيمة في معرض هذا الجمال!
أهذا هو النقد الذي هو (أقرب إلى المثال الصحيح)؟
وما قلته في المثال الثاني يقال بنصه هنا، فلترجع إليه جماعة الأصدقاء!
والمثال الرابع يغنينا الرافعي عن الحديث فيه، فهو لم يزد على أن أورد البيت، ثم استغلق دون استيعاب ما يعبر عنه من روح الفنان الحي، الموكل بالجمال حيثما وجد وكيفما كان، الهازئ بخرف التقاليد، وقيود العرف، ولم يجد ما يقوله إلا (بلا قرف) وهو قول لا تعليق لنا عليه
هذه نماذج يبين أولها شتائم الرافعي وسبابه؛ ويمثل الثاني تلاعبه بالصور الذهنية، واستغلاق طبعه دون تملي الإحساس الفني؛ ويمثل الثالث تلاعبه بالألفاظ اللغوية، والوقوف بها دون ما تشعه في الخيال من صور طريفة؛ ويمثل الرابع هروبه من مواجهة النقد الصحيح إلى المراوغة وكسب الموقف - في رأيه - بنكتة أو تهكم أو شتيمة.
وليس في نقده كله إلا أمثلة لتلك النماذج، وهي كلها لا تستدعي رداً من المنقود. وإني لأعجب كيف رد العقاد على مثل هذا، وكيف عني أن يناقش ما لا يناقش من الآراء والتحايلات
لقد قلت في كلمة سابقة: إني أنا - لا العقاد - كنت مستعداً أن أثور وأن أستهزئ، لو تناول متناول أدبي بمثل هذا الضيق في الفهم والاستغلاق في الشعور، أو بمثل تلك التلاعبات الذهنية واللغوية، واللفات البهلوانية
وإنني لأكرر ما قلته، وأعجب من بعض أصدقاء الرافعي: كيف كانوا يريدون من العقاد أن يقابل مثل هذا بالنقاش الهادئ (ويرد الجرح بالعلاج لا بالجرح). ولماذا أيها المنصفون يطلب من العقاد وحده أن يلزم جانب النقد الأدبي مع من لا يلتزمه
وبعد فقد اخترت أن أثبت رأيي في الرافعي من نقده الذي استحق إعجاب أصدقائه، وفي مرة أخرى سأفصل هذا الرأي معززاً بإنتاجه الطبيعي الخالص من فورة الخصومة وحدة النزال
(حلوان)
سيد قطب
رسالة الأديب إلى الحياة العربية
للدكتور بشر فارس
الأديبة تريحنا من الأدباء:
القصر تدخله فيروعك الرواق الممدود والجدار المنطلق والسقف المقبب، ثم الطنافس كأنها من بطون النوق، والمصابيح كأنها انسلت من أعطاف القمر، والأسرة كأنها من عضل الزنج منحوتة. فإذا طرفك تنهكه الغلبة؛ حتى إذا انثنى إلى الخدر وارتفع له ستاره كان كالسنبلة تلطمها السموم فيغيثها البلل. الخدر: زهر مطروح، وإبريق مترع نصفه، وكأس تنظر أين شاربها، ومقعد مقتضب ولكنه وثير، ووساد كأنه خدود جمعت، وباب هنالك تدفعه بنفثة
فبورك اليوم الذي فيه حنت أنامل مي إلى قلمها!
وبعد، فقد ألقت الآنسة مي في قاعة الجامعة الأمريكية لبيروت محاضرة موضوعها رسالة الأديب إلى الحياة العربية)، وقد نشرتها (الرسالة) (رقم 248) وإذا هي محاضرة تسيل رقة وتثب خفة، فيها من الحقائق النواهض ما يكشف للذهن عن أفق

منبسط وهاج.
وثمة ثلاث حقائق لم ينصرف قلم الآنسة مي إليها؛ فهل لي أن أبينها هنا؟
الأدب صناعة!
كذلك كان عند الأمم الراقية وفيها العرب أصحاب لغتنا. وكذلك هو اليوم في بلدان الفرنجة. و (الصناعة) لفظ له مدلول معين. إنما مداره هذه المجموعة من القواعد والشرائط. ومن الشرائط أن تكون منجذباً إلى الأدب سليقة، وأن تنصبه فوق كل شيء، وأن تبذل في سبيله ما عز عليك من متاع أو مطلب، وأن تنصرف إليه لوجهه. ومن القواعد ن تملك اللغة التي تكتب بها، وأن تكون مطلعاً على آدابها واقفاً على فنونها، وأن تكون - فوق هذا - طلاباً للعلم، مأخوذاً بحمى الاستطلاع المتصل، مستقيماً في الاداء، رغاباً في التطلع إلى التمام.
قواعد وشرائط هيهات أن تكون من مستحضرات الذهن النظري، بل هي من مستخلصات تاريخ الآداب عامة.
هل الأدب صناعة في الشرق العربي؟ إنه لصناعة عند فئة ممن يقبلون عليه وقلوبهم تحدثهم بقدره. غير أن العدد الأوفر من كتابنا وشعرائنا إنما يهجمون على الأدب من غير
بابه.
أليس الأدب أن تقبض على قلم وتفرش ورقة وأنت عارف كيف ترفع الخبر وتخفض المضاف، وإن حيرتك حروف الجر أو أدار عقلك وصل الجمل وفصلها؟ أما الذي يغشى الورقة فمما لا شأن للقارئ فيه. أنا أكتب، وأما أن فالقراءة القراءة، بل عليك أن تكبرني. لمه؟ لأني أكتب؛ لأني أديب. أين الشهادة بأني أديب؟ إن صحيفة كيت وكيت تنشر لي. إن لي كتاب كذا وكذا. . . ما شاء الله! ماذا تقول؟ (الأدب صناعة)؟ ها ها! الأدب وحي! الأدب زير يرشح وأنا الطست من تحته! أجل أنا أقرض الشعر وإن لم أقوم أوزانه! الشعر موسيقى وأذني دف تنقره وثبات روحي اللطيفة. أجل أنا أحلل فلسفة برجسون وإن لم أقرأ أفلاطون ولا بلوطينس ولا سبينوزا ولا دركايم. إني أتسلق الدار وأعف عن إتيانها من مولجها. أجل أنا أؤلف مسرحيات وإن لم أقرأ مسرحية إفرنجية واحدة. لا حاجة بي إلى من يدلني على الطريق. أنا (موهوب). أجل أنا أصف الصور والتماثيل التي في معارض الفن وإن لم ألمح من متحف (اللوفر) سوى طرفاً من سلمه. الأدب تهويل على الناس، يا صديقي. أجل أنا أنزلق إلى الغمز بمجمع اللغة العربية وإن لم أقرأ (القرآن) ولا (المخصص) ولا (مغني اللبيب) وإن جهلت كيف أطلب مادة أدب في القاموس المحيط. أنا أنشئ افتتاحيات سياسية، والسياسة مدرجة إلى كل شيء
الأدب غذاء!
أن تشرح روحي وتزيد في علمي وترهف إحساسي وتصقل إدراكي ثم تدفعني إلى حيث أفلت من قيود المادة، ذلك الذي أرقبه منك خاصة أيها الأديب. أما أن تقصر أدبك على الترويح عن نفسي كأنك ببغاء يسلي عجوزاً عن شمطها فلي عنك في ذلك غنى. أليس بين يدي (روايات الجيب) ومجلة (اللطائف) والصور المتحركة الأميركية و (الكسار) والمزمار البلدي ورقص البطن فضلاً عن القهوات وما يقع عليها من غرائب المخلوقات؟
كأني بك تكتب وتلقي في اعتقادي أنك ممن يقود فكري فتغويني وتفسد علي معنى الأدب. وإن قلت: إني لم أهيأ بعد لتلقي أسرار فنك لقعود فهمي عن النفوذ إلى مخبآت الضمير، فما رسالتك إذن؟ أترفعني إليك أم تنخفض إلي؟
خبرني، هل رأيت - حياتك - الزهرة تميل إلينا لنستروح شذاها أم هل رأيت البحر يأتينا في بيوتنا لنركبه إلى الشطء المحنون إليه؟ روضني على التفكير. خذ بيدي. خذ بما تيسر لك مني نحو ذلك الضوء الذي تراه (من باب الفرض على الأقل) ثم تأت لعيني وتلطف في فتحها. إن الغشاوة التي تركبها إنما أمرها موكول إليك. وما هي بالمستعصية والله! ولكن إياك والسطو على تآليف غيرك ولا سيما الفرنجة، فإنما روحك التي أتلمسها فيما تكتب، ومن روحي إلى روحك رسول، ألسنا من جبلة واحدة؟
المرأة قوام الأدب!
المرأة عندنا لم تعرف بعد ما المرأة. فإن كانت مثقفة فإنما يشغلها التحرر والنسج

على منوال الإفرنجية في مظاهرها. وإن كانت أمية فإن هي إلا عرض في عينيها. آه لو عرفت المرأة أن الأدب منها واليها! لأن بين يديها مفتاح الغبطة والألم. ومن ذا الذي يلقنها هذا غير الاديب، بل من ذا الذي يقفها على وليجة نفسها غيره؟

الجانب الأعظم من أدبنا أشبه شيء بصحراء رباها متناسقة ورمالها متناسبة وليس فيها بئر ولا نخل، حتى إذا جزتها وفوزت أصبت عند مخرجها آباراً مهجورة ونخلاً تكاد الوحدة تصرعه. إن البيئة الشرقية مقسمة قسمين: هنا الرجال وهنالك النساء. وما أدري - حتى اليوم كيف يستمرئ الرجال العيش على هذا النحو الشاذ. ولذلك ترى أدبنا المحدث غير طبيعي في جملته؛ أما الشعر فمصنوع، وأما القصص فملفق، وأما الرسائل فجافة

وإذا فوض إلى الأديب أن يرشد المرأة إلى سريرة نفسها، فمما وكل إلى المرأة بعد هذا أن تلهم الأديب من طريق مباشر أو غير مباشر، وأن تهذب القارئ بلطف حسها فتقوم مقام الهمزة الدقيقة تصل بين الأدب الحق والمتطلع إليه

بشر فارس

رَجْع: في مقالي المنشور في العدد الماضي من الرسالة (250) وعنوانه (في المذهب الرمزي) (تعليق)، بعض هفوات، منها: وكان لأجل، والصواب: لأهل - والصواب: - والصواب: - أو والصواب: الـ - الطبيعة البشرية الموثوقة، والصواب: الموثقة - ' والصواب: ' بين التأثيرية، والصواب: التأثرية - أن أدفع وهماً، والصواب: وهماً ممكناً

ب. ف

ليلى المريضة في العراق

للدكتور زكي مبارك

- 17 -

أمري إلى الحب!

أمري إلى الهوى!

بل أمري إلى الله الذي يقلب القلوب

كانت ليلتي في قطار البصرة ليلة شاتية وما كنت أخذت أهبتي لمكافحة البرد في قطار البصرة، وهل كنت أعلم أن البرد في قطار البصرة له تواريخ؟

لقد عشت دهري مفتوناً بشبابي، لأني نشأت في أسرة كان أكثر رجالها من العماليق وكذلك يزين لي الفتون أن أمتطي قطار البصرة في ليلة شاتية بلا غطاء

دخلت البصرة محموماً، دخلتها أهذي هذيان المحمومين

ولكني تذكرت فجأة أن سعادة السيد عبد الجبار الراوي حاكم الحلة كان كلفني تبليغ التحية إلى سعادة الدكتور عبد الحميد الطوخي مدير الصحة بالبصرة، وتذكرت أن هذا الطبيب مصري صقله العراق، وأنا على كل حال أحب المصريين، فقد شاع في بقاع الأرض أني مصري، ومن واجبي أن أحب مصر وفاءً أو رياءً.

ذهبت محموماً للتسليم على هذا الطبيب فكاد يطير من الفرح بلقائي. فقلت له: هون عليك، فما جئت إلا لأبلغك تحية حاكم الحلة، الحلة الجميلة التي تشبه شبين الكوم حاضرة المنوفية

وما هي إلا لحظة حتى نقلني هذا الطبيب إلى حاكم البصرة، والى مدير المعارف بالبصرة، وكان اليوم كله طوافاً بما في البصرة من غرائب وأعاجيب

وعند الغروب لقيني الدكتور عبد المجيد القصاب فقال: ارجع بنا إلى بغداد. فقلت: لا أستطيع. فقال: إنك ستلقي كلمة مصر في تأبين المغفور له ياسين باشا الهاشمي، واسمك في منهج الاحتفال

فقلت: أعرف ذلك، وأفهم قيمة الشرف الذي أظفر به في حفلة يخطب فيها فخامة رئيس الوزراء، وفخامة نوري باشا السعيد ولكني محموم، وما أستطيع أن أعاقر البرد في قطار البصرة ليلتين متواليتين

وأرسلت برقية اعتذار، وأويت إلى فراشي بالفندق أعاني الغربة والمرض والحب.

وشاع في البصرة أني مريض، فتفضل حاكم البصرة ومر بالفندق فترك لي كلمة عطف، وتفضل مدير الصحة بعيادتي فأزعجه حالي

وفي الصباح أفقت، فكان أكبر همي أن أزور قبر أستاذي في التصوف، مولاي الحسن البصري، ولكن كيف؟ لقد قضيت ليلتي محموماً وقضت السماء ليلها في بكاء

وأويت مرة ثانية إلى الفراش لأن المطر جعل ذهابي لزيارة قبر الحسن البصري غرضاً عزيز المنال
وطلبت الجرائد لأتلهى بها فرأيت في جريدة (الناس) وجريدة (الثغر) أنى سألقي محاضرة بنادي البصرة، فذهبت في الموعد وتكلمت نحو خمسين دقيقة عن ماضي البصرة، ثم مضيت إلى الفندق فأخذت أمتعتي لأعاقر البرد من جديد في طريقي إلى بغداد
هل يعرف قارئ هذه المذكرات كيف يشقى من يقضي ثلاث عشرة ساعة في القطار وهو محموم؟
علم ذلك عند الأستاذ النبيل الذي يدير إحدى المدارس في بغداد فقد أخرج ما في حقائبه من أغطية وملابس وألقاها فوق جسمي لأنجو من البرد الذي قتل أخانا أبا الدرداء
صرعني البرد في الذهاب والإياب، وأضرعتني الحمى فلم أدخل بغداد إلا وشفتي يزينها عقبول، والعقبول هو التشقق الذي يصيب الشفاه من وهج الحمى، ومنه جاءت عقابيل الحب، وكذلك اجتمعت العقابيل في قلبي وشفتي، وهو أول حادث يقع في التاريخ
كان هذا العقبول مزعجاً، فقد كان كل من يراني يحسب أني أصبت بأخت بغداد؛ ولو صح ما حسبوا لكانت نكبة، فأخت بغداد إذا أصابت الشفة كانت نذيراً بالحرمان من جميع أخوات بغداد
ومن أجل هذا العقبول حبست نفسي في المنزل أسبوعين قضيتهما في إنجاز كتاب (عبقرية الشريف الرضي)
ولكن هذا الحبس كانت له أيضاً عقابيل، فقد اشتغلت بالسياسة العراقية مع أني طلقت السياسة المصرية منذ أعوام طوال
وتفصيل ذلك أن مجلس النواب كان يستعد لدرس معاهدة الحدود بين العراق وإيران، وكان
شط العرب محور النزاع، شط العرب الذي تغنيت به في البصرة ونشرت ثنائي عليه جريدة البلاد
كان العراق في فورة، وكنت في فورة، وما أشقى من يضطرم صدره تحت سماء العراق!
ومضيت إلى رئيس الكتاب بالمجلس النيابي، وهو صديق عزيز، فطلبت تذكرة لحضور تلك الجلسة التاريخية. وكنت أول من دخل شرفة المجلس في ذلك اليوم، فهالني أن أرى خريطة شط العرب مرقومة بالطباشير على لوحة سوداء
كان الجو كله دخاناً في دخان، وكنت أكاد أختنق
ثم وقف وزير الخارجية يخطب، وما كان أروعه في ذلك اليوم، فقد بدد ما ران على صدري من ظلمات
وتدفق الخطباء بين معارض وموافق، وكانت جلسة برلمانية حقاً وصدقاً. كانت جلسة صريحة أبدى فيها النواب آراءهم بألفاظ لا مداورة فيها ولا التواء
خطب وزير الخارجية خطبتين في ذلك اليوم وكان بالتأكيد أشجع الخطباء، ولن أنسى أنه قال: كان في يقيني أن أقترح جعل هذه الجلسة سرية، ثم رأيت أن تكون علنية ليرى الجمهور بعينه أن الحكومة حريصة على أرض الوطن كل الحرص
وسألت أحد الصحفيين عن هذا الرجل فقال: أما تعرفه؟ هذا زميلك
فقلت: وكيف كان زميلي؟
فقال: هو سوربوني مثلك، هذا توفيق باشا السويدي خريج السوربون!
السوربون! السوربون!
رعى الله عهدي يوم كنت أجول فيها وأصول!
خرجت من مجلس النواب منشرح الصدر. ولقيني أحد النواب فقال: كيف رأيت؟
فأجبت: رأيت وجه الحق. ولكن آذاني أن تكون حجة الموافقين على معاهدة الحدود مقصورة على أن إيران جارة عزيزة. فما الذي كان يضيركم لو قلتم إن إيران أمة إسلامية، وإن المسلمين يجب أن يتسامح بعضهم مع بعض، نحن مسئولون عن الأخوة الإسلامية أما الله وأما التاريخ. مسئولون أمام الله الذي يكره أن يبغي المسلمون

بعضهم على بعض، ومسئولون أمام الماضي الجميل الذي تعاونت فيه الأمة العربية والأمة الفارسية فأنجبتا أشرف ذخيرة
من ذخائر الأدب والتشريع. إن العداوة بين العرب والفرس أجج جذوتها ناس من الأدباء، فما الذي يمنع من أن يقوم فريق من الأدباء المصلحين فيخلقوا الحب بين ايران والعراق؟
إن فرنسا لها مدرسة لنشر اللغة الفرنسية في إيران
فما الذي يمنع أن تقوم الحكومة المصرية أو الحكومة العراقية بإنشاء مدرسة لنشر اللغة العربية في إيران؟
. . .حدق النائب في وجهي طويلاً وقال: هذا رأي وجيه، ولكن الظروف
فقلت: أي ظروف؟ إن أوربا يسرها أن نتمزق، وهي قد استطاعت بالفعل أن تؤلب المسلمين بعضهم على بعض وأن تضرب العرب بعضهم ببعض. وإذا استمر الحال كذلك ربع قرن فلن تجد من يرد عليك السلام في مصر، ولن أجد من يرد علي السلام في العراق
الحمد لله. تم الصفاء بين إيران والعراق، ومرت معاهدة الحدود بسلام، والله المسئول عن هداية العرب والمسلمين
ولكن شط العرب الذي عجز عن تكدير السلام بين العراق وإيران استطاع أن يكدر السلام بيني وبين ليلاي
كنت انقطعت عن زيارة ليلى إلى أن يذهب العقبول الذي شوه شفتي، فاستوحشت ليلى لغيابي، وأرسلت ظمياء للسؤال عني، فطار بي إليها الشوق، فلما وقع بصرها على شفتي قالت:
ما هذا الذي بشفتك؟
فأجبت: هذا عقبول
فقالت: أما آن لك أن تتوب؟
فقلت: ماذا تعنين؟
فأجابت: ما هذا عقبولاً يا حضرة الدكتور
فقلت: وما هو؟
فأجابت في سخرية: هذه عضة سمكة من أسماك شط العرب!
فأقسمت بالله والحب أنني ما حاولت الصيد في شط العرب حتى تعضني السمكات وطالت اللجاجة بيني وبين ليلى، وحملني الغضب على أن أقول: اسمعي، أنا مستعد لما هو
أخطر من ذلك
فقالت: إيش لون؟
فقلت: أنا مستعد لتقبيل ثغر الحية
فقالت وعيناها تقذفان بالشرر المتوقد: لن تقبل ثغر الحية.
فانزعجت وعرفت أنه وعيد
وانقضت السهرة في كلام تافه، وعند الانصراف لم تسألني ليلى متى أرجع؟
آه، ثم آه!
كانت ظمياء خدعتني حين قالت إنها وصلت مع ليلى إلى القاهرة في آذار شهر الأزهار والرياحين، فقد عرفت أن آذار القاهرة غير آذار بغداد. عرفت بالتجربة أن العراقيين على حق حين يحكمون بأن (آذار، شهر الزوابع والأمطار) فقد قضيت هذا الشهر في كروب وأحزان
ولكن أي كروب وأي أحزان؟
كنت أذهب لتأدية الدروس في الصباح، وكنت أذهب بعد العصر إلى المطابع لأصحح تجارب كتابي، ثم ارجع قبيل المغرب إلى البيت لأعاني وحشة الليل، الليل الهائل، ليل بغداد
وزاد الكرب أني انقطعت انقطاعاً تاماً عن المصريين والعراقيين
انقطعت عن المصريين للسبب الذي شرحته في كتاب (ذكريات باريس) وهو سبب يؤذيني أن أسجله مرة ثانية في هذه المذكرات، وأنا في الواقع أنسى مصر حين أفارق مصر، لأني أفهم أن مصر حين ترسلني إلى باريس أو بغداد لا تريد إلا أن أفهم باريس

أو بغداد. ومصر لا تلعب، فهي تحب لأبنائها أن يفهموا روح الغرب وروح الشرق، وأنا فيما أزعم مصري تحبه مصر، وإن كانت لا تلقاني بغير العبوس
وانقطعت عن العراقيين لأن حسابي عندهم أثقل من الجبال. ولن أنسى السهرة التي قضيتها في منزل السيد محمد حسين الشبيبي فقد قضيت ثلاث ساعات وأنا أتدفق كالسيل دفاعاً عن الآراء التي أذعتها في مؤلفاتي، وآذاني ذلك الجهد فمرضت يومين أين أذهب؟ لا أدري أين أذهب
كنت أدخر ليلى لأيام الشقاء، وهي الآن في تغضب وتعتب.
كانت ليلى تقول حين أهم بالخروج: فراقك صعب سيدي،
وهي اليوم لا تقول شيئاً من ذلك ولا تسأل متى أرجع
كانت ليلى تقول: (ليش ما جيت عندنا من زمان يا دكتور؟)
وهي اليوم تسأل فيما أظن - وبعض الظن إثم - متى أرحل عن بغداد
عافاك الله يا ليلى وأسبغ عليك نعمة العافية!
تباركت يا ربي وتعاليت
فما عانيت في حياتي بلاء إلا رأيت ما يصحبه من محمود العواقب.
فبفضل تغضب ليلى وتعتبها عرفت سراً من اغرب الأسرار، عرفت كيف ظل العراقيون أكثر من ثلاثمائة سنة يغنون هذين البيتين:
ولي كبد مقروحة من يبيعني ... بها كبداً ليست بذات قروح
أباها عليّ الناس لا يشترونها ... ومن يشتري ذا علة بصحيح
لقد هدني غضب ليلى فلم أعد أعرف للحياة أي مذاق، وجزعت على ما صرت إليه أشد الجزع، فهذا الربيع يفيض على أرجاء العراق أرواح الابتهاج والانشراح، وقلبي وحده يعيش بلا ربيع
وجاء (نيسان، شهر الزيادة والنقصان) فلم يهش له قلبي، وبقيت أعاني ألم الوحشة والانفراد
كنت أستطيع غشيان بعض الملاهي لأنسى همومي وما في ذلك ما يضيرني، فقد كان السيد جمال الدين الأفغاني يجلس في قهوة متاتيا بالقاهرة يوم كان الجلوس في مثل تلك القهوة شيئاً غير لائق، وكان يقول: من حق الفيلسوف أن يجلس في قهوة متاتيا، وأنا دكتور في الفلسفة ومن حقي أن أجلس في قهوة متاتيون!
ولكن ملاهي بغداد فيها أغانٍ وألحان، وقد صرت بعد غضب ليلى مرهف الحس إلى حد مفزع، وأخشى أن أسمع الغناء مع الناس فتفضحني عندهم دموعي
وكان يتفق أن أسمع المذياع من حين إلى حين فأتوهمه يدمدم:
ولي كبد مقروحة من يبيعني ... بها كبداً ليست بذات قروح
ومن غريب ما وقع أن غضب ليلى قوبل بعوض مزعج هو كرم أهل العراق
كنت أدخل المطاعم للغداء أو للعشاء فأجد من يدفع عني من حيث لا أعرف. وكثر ذلك حتى أضجرني، وما كنت بخيلاً حتى أنكر الكرم، ولكن قلبي كان يهتف بقول الزميل القديم:
آل ليلى إن ضيفكُم ... واجد بالحي مذ نزلا
أمكِنوه من ثَنِيَّها ... لم يرد خمراً ولا عسلا
وفي حومة من هذه الحرب الوجدانية سمعت أن جماعة من الأطباء كتبوا يشكونني إلى الجمعية الطبية المصرية، وهم يزعمون أنني حنثت في اليمين، فقد أقسمت كما أقسموا ألا أفشي سراً لمريض، ولو كانوا يعقلون لعرفوا أن مرض ليلى أصبح معضلة دولية، ولكن هل يعقل من في قلوبهم مرض؟
آه ثم آه من حقد الزملاء
لم تسألني ليلى متى أرجع، ولكن لابد أن أرجع
وهل هنت على نفسي إلى هذا الحد؟
ما هنت على نفسي. فقد رعاني الله فعشت طول حياتي عزيزاً، ولكن هذه فرصة أختبر فيها أخلاقي. هذه فرصة ثمينة قد لا تعود. إن ليلى تحقد علي، وتتهمني بخيانة الحب، ومن واجبي نحو الأخلاق أن أرحم من يرتاب في أخلاقي، فما ارتاب في أخلاقي غير الضعفاء والمساكين
ولكن ليلى لها تاريخ، وأشقى الناس من يعشق امرأة لها تاريخ

وتاريخ ليلى ابتدأ في القاهرة واستفحل في بغداد، ومن الواجب أن أكون على بينة من تفاصيل ذلك التاريخ، وعلم ذلك عند ظمياء
- إيش لونك يا دكتور!
- أعاني ظلام الحب وظلام الليل، وإيش لون ليلى؟
- استراحت لمكايدتك فدبت في روحها العافية
- وكذلك أبني الأصدقاء ليهدموني يا ظمياء
- لا تندم على ما صنعت من جميل
- سمعت وأطعت يا بنيتي الغالية، ولكن أحب أن نرجع إلى حديث ليلى مع الضابط عبد الحسيب
فانشرح صدر ظمياء وأخذت تقول. . .
(للحديث شجون)
زكي مبارك
أهمية الترجمة وحركاتها في التاريخ
الترجمة في الإسلام
صفاتها وفهمها في أوربا
للأستاذ عبد العزيز عزت
كذلك كلما فتح العرب الممالك الواسعة في مشارق الأرض ومغاربها واختلطوا بأهل تلك البلاد، وكان بينهم من يسمو عليهم في الحضارة والفهم، أحس العرب بجهلهم وما يخضعون له منذ زمان بعيد من عرف الحكم المتقطعة والأوامر والنواهي التي لا تؤدي إلى خلق دورة كاملة للتفكير في موضوعات معينة، لأنهم قوم رحل يعشقون الحرية التي جعلتهم شعباً ملهماً تتقد فيه المشاعر وتسمو فيه البلاغة، وينضج فيه الشعر، ويسبح فيه الفكر بين الذاكرة والخيال دون أن يهبط إلى ظاهرات الوجود الدنيوي ليحلل عناصرها ويعسعس عن منطق الترابط العقلي بينها. عقلية يسودها الماضي بعرفه وذكريات أبطال القبائل، والمستقبل تحت عبء القضاء والقدر؛ رحبوا لهذا بخلق هجرة العقل، بعد أن مهدت لذلك من قبل هجرة الإيمان لسيد الخلق عليه السلام
فابتدأ تأريخ العقل عندهم حينما أسس المأمون (ديوان الترجمة) ببغداد عام 832 ميلادية، وكان أغلب هذا الديوان من النصارى كحنين بن اسحاق، وابنه إسحاق، وكحبيش، وقسطا بن لوقا وغيرهم فذهب هؤلاء المترجمون إلى فلاسفة اليونان يتوسلون ويستجدون فطربوا على وجه الخصوص لأفلاطون وأرسطو، فترجموا للأول خاصة ما يتعلق بعهد الشيخوخة، لأن علماء تاريخ الفلسفة كأستاذنا روبان يقسم أفلاطون إلى ثلاثة أقسام: عهد الشباب ويتأثر فيه بسقراط في جمال الأخلاق وطبيعة الفضيلة، وعهد الرجولة وفيه يبسط آراءه في نظرية المعرفة وما وراء الطبيعة وطبيعة النفس
وملكاتها، وعهد الشيخوخة وهو أهم عهوده لأنه يلخص العهدين السابقين بل كل الفلسفة اليونانية إلى عهد افلاطون، كما نجد ذلك في (طيماؤس)، وكذلك فيه يضع كتبه في السياسة كالجمهورية والسياسة والقواميس، فترجمة العرب لافلاطون وأن قلت في الكم فإنها عظمت في الكيف، هذا من الوجهة المباشرة، أما من الوجهة غير المباشرة فلقد ترجم كذلك العرب
كتباً وإن لم تكن لأفلاطون إلا أنها تمت إلى فلسفته بصلة وصلات (ككتاب (الأثولوجيا) الذي نسب خطأ لأرسطو وهو لفلوطين، وهو (الشيخ اليوناني) على حد تعبير الشهرستاني الذي ينتمي لمدرسة الإسكندرية، وكذلك (كتاب العلل) لبرفلس، وفلسفة كل منهما تنتمي إلى فلسفة أفلاطون، وبجوار هذا كان للمسيحية أثر لا يستهان به عن طريق المترجمين لأن أغلبهم كان من المسيحيين والكل يعرف الاتصال الوثيق بين التثليث في المسيحية وخصوصاً تثليث القديس اوغسطين، والتثليث الأفلاطوني وترجموا كذلك لأرسطو، وهنا نجد الكم يسبق الكيف لأن كل مؤلفاته قد ترجمت إلا ما كتبه في السياسة وهذا الاستثناء راجع في نظري إلى أن سياسة أرسطو سياسة (مغلقة) تختص بما للمجتمع اليوناني القديم من نظم مدنية خاصة، وإنها كذلك تقر الرق والاستعباد، وهذا يناقض مبادئ الإسلام التي تصرح أن لا فرق لعربي على

أعجمي إلا بالتقوى. وإنها أيضاً تعطي الوجه الاقتصادي في المدينة أهمية كبرى بينما نجد عند فلاسفة الإسلام الأثر ظاهراً في تغليب الوجه السياسي لأنهم يرددون كثيراً: (الناس على دين ملوكهم) وهذا راجع بطبيعة الحال إلى أهميته من أن الخلافة في الإسلام الذي يشتق من أهمية رئيس القبيلة في النظام الاجتماعي لمعيشة العرب في البيداء

وسبب سيادة أرسطو عند العرب ترجع في نظري إلى أنهم وجدوا في منطقه أداة للجدل ونشر تعاليم الإسلام عن طريق الإقناع لا عن طريق السيف كما يفهم بعض المغرضين، لأن عبقرية هذا الشعب هي: البلاغة والبيان وقوة الحجة. وصحة نظري هي أن القرآن الكريم هو إعجازهم؛ ثم إن القران نفسه يصرح قائلاً في سورة (البقرة) بند 189، 192 (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) ويقول: (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين). ويقول: (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم)؛ وكذلك فلسفة أرسطو في مجموعها أقرب إلى عقولهم البدوية من فلسفة أفلاطون لأنها نسبياً أقل تجريداً، ويذكر أيضاً أن عقلية العرب عقلية (جامعة) وفلسفة أرسطو تنسجم وهذه الصفة لأنها موسوعة عامة للمعارف، ولكن بالرغم من هذه المرغبات في فلسفته ضاع أرسطو على حقيقة أمره فيما بينهم، لأنهم ألبسوه زياً مخالفاً لزيه اليوناني الأصيل، فأرسطو العرب شخصية جديدة أقرب إلى أفلاطون منها إلى أرسطو نفسه، وهذا راجع في نظري إلى أن علم الإلهيات عن أفلاطون وعند فلوطين (على وجه الخصوص) أقرب إلى تعاليم الإسلام منه عند أرسطو، وهذا العالم كان طوال العهد اليوناني، والقرون الوسطى، بل حتى عند ديكارت في العهد الحديث عندما يتكلم عن تقسيم العلوم أساساً لسائر العلوم والفلسفات، وبجوار ذلك هناك سبب آخر هو انتشار مذهب أفلاطون وفلوطين في بلاد الشام والعراق إبان الترجمة اليونانية في القرن السابع والثامن كما يؤكد هذا فرنسوا نو، وتأثر المترجمين المسيحيين بهذا التراث، بعهد ذلك إبان ترجمة القرن التاسع الميلادي في عهد المأمون

ونشعر أنه من العبث بعقول القراء أن نسرد حوادث تاريخ هذه الترجمة فنذكر مثلاً: حياة كل مترجم وما ترجمه ومحتويات كل كتاب، فهذا ممل، ولأن الحوادث لا قيمة لها مطلقاً في ذاتها فهم يجدون هذا مثلاً في القسم الأول لكتاب كارادي فو عن ابن سينا، وفي كتاب (الطب عند العرب) بجزئيه للكلرك وعند بريبه، وعند منك. . . وهلم جرا ونكتفي بما قدمنا من الصفات الأساسية من ناحية اختصاصنا - الفلسفة - والمهم من ذلك في نظري أن يقف القراء على الفهم الأوربي الحديث للتراث الإسلامي الذي بني على هذه الترجمة، وهذا الفهم يتشعب خلال ثلاث مدارس نكتفي اليوم ببسط فهم المدرسة الأولى:

مدرسة الفيلسوف رينان

ولد رينان (أرنست) في بلدة ترجييه من مقاطعة بريتانيا في غرب فرنسا عام 1823، وتربى في هذه البلدة تربية (دينية) سواء في عائلته أم في مدرسة هذه البلدة أم في جو هذه المقاطعة التي يتغلغل فيها المذهب الكاثوليكي إلى أبعد مداه كما شاهدته بنفسي منذ عامين. ثم ذهب إلى باريس ليتعلم في مدرسة القساوسة، وما كاد ينتهي بنجاح في دراسته ويرسم قسيساً حتى غلبت على أفكاره تلك النزعة (الغبية) نزعة الكفر والإلحاد، فترك حياة الدين والإيمان، ودخل الحياة الدنيا غير آسف على ما فرط فيه من قبل، وحاز درجات علمية ممتازة من الجامعة والتحق بعد ذلك بالصحافة؛ ثم ساح ورحل في بلاد الشرق فكان في سوريا عام 1860، وفي فلسطين عام 1863 حيث كتب (حياة المسيح) ثم عين أستاذاً في (مدرسة الكليج دي فرانس). ويبن عام 1863، 1883 ألف (تاريخ أصول المسيحية) وبين

عام 1887، 1893 ألف كتابه العظيم (تاريخ بني إسرائيل) وبعد سنة ظهر له (محاورات ومنتخبات في الفلسفة) وفي سنة 1883 (ذكريات الطفولة والشباب) وفي عام 1890 (مستقبل العلم. . .) وغير ذلك. ومات في عام 1892، والذي يهمنا بالنسبة للتراث الإسلامي أنه عرض فيما تقدم من المؤلفات وفيما سنذكره بعد ذلك لحياة

محمد عليه الصلاة والسلام، ولأصول الإسلام، وللعقلية السامية، وللإسلام والعلم، ولفلسفة ابن رشد، وناقش الشيخ الأفغاني في جريدة (الديبا)، ولكن كل دراساته ومناقشاته هي طعن في الإسلام ونبيه وأهله ومبادئه. فمثلاً يقول في كتابه دراسات في تاريخ الأديان (صفحة 200) (لم يعرف الشرق مطلقاً في تاريخه تلك العظمة العقلية الخالصة التي لا تحتاج إلى الرجوع إلى المعجزات، ويصعب عليه تصوير فيلسوف لا يعمد إلى التهريج، ولم يصل الشرق مطلقاً إلى درجة التجريد العقلي لأنه نظر إلى الطبيعة والتاريخ بعيون صبيانية. . .) (وفي صفحة 210) يصور النبي عليه السلام كرجل مخادع دجال يخترع الكذب باسم الملاك جبريل. (وفي صفحة 245) يروي أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يربي ديكاً عجوزاً احتفظ به ليدفع عنه سوء العين، ويصد عنه خطر النظرات الحاسدة. ثم بعد أن يتحدث في هذا الكتاب عن رفق النبي صلوات الله عليه، بالحيوانات والأطفال والنساء يتخذ من هذا الرفق آية لإثبات ضعفه، وينتهي (في صفحة 250) بأن يقرر أن الذي أسس الإسلام وشيد صرحه هو سيدنا عمر رضوان الله عليه لأنه يماثل كما يذكر القديس بولس في المسيحية ويجمل هذا الرجل عقله ونزعته هذه في فهم ما ترجم من الفلسفة في الإسلام فيسطر في نفس الكتاب (صفحة 200 الملاحظة الأولى في الهامش) ما ترجمته: (عندما اتخذ العرب من أرسطو معلماً لهم في المعارف، اخترعوا له خرافة تجعل منه نبياً، وتصوروا أنه قد انتزع من السماء حيث كان يلتصق بعمود من نار) ويذكر كذلك رينان في كتابه (مقالات ومحاضرات) أن الفلسفة الإسلامية ما هي إلا الفلسفة اليونانية (مخطوطة) بحروف عربية، لم يهضمها العرب لأن الإسلام دين لا يسمح بحرية التفكير وروح النقد، وعندما يدرس هذه الفلسفة يدرسها بحركة (عكسية) لا تتفق وأولى مبادئ تاريخ الفلسفة كعلم محترم له أصوله في البحث لأنه يبتدئ بدراسة ابن رشد مع أن فلسفته لا تنفصل مطلقاً عما تقدمها من فلسفات، وكل الناس يعرف معركة (التهافت) و (تهافت التهافت) ويصوره رينان في كتابه

صفحة 52 أنه لا يعرف كيف يكتب ولا كيف يفكر، وأن لغته لغة (ابن رشد ومذهبه) همجية، ومؤلفاته لا قيمة لها. نقل عن مؤلفات نقلت هي بدورها عن مؤلفات أخرى نقلت عن الأصل اليوناني. وفي كتابه (تاريخ اللغات السامية) صفحة 291 يشك بوجه عام في علم فلاسفة الإسلام لأن عملهم كان بالواسطة، علم منقول بني على جهلهم باللغة اليونانية

آراء هذا الرجل بهذا الأسلوب أفسدت الاستشراق الفرنسي (عدة من الزمن) من بعد، حيث سار على نهجه ومبدئه (منك) في (الفلسفة العربية واليهودية)، وكليمان هوار في كتابه (تاريخ العرب) وخصوصاً الجزء الثاني، وكازانوفا في (محمد ونهاية العالم)، وجوتييه تلميذه الأصيل في رسالة عن (ابن رشد). وسبب الضلال في هذا الاستشراق يرجع أولاً إلى ذلك المذهب الذي انتشر في زمان هؤلاء الناس، وهو المذهب الوضعي الذي ينكر أهمية الادباء، ويهاجم أصول العقل التجريدي ويقر بعكس ذلك دراسات المظاهر الخارجية في الطبيعة والإنسان بمنهج التجربة، وأمله أن يجعل من علوم الإنسان الأدبية علوماً لا تقل في دقة أبحاثها عن علوم المادة. لهذا شجع هذا المذهب النزعة الإلحادية في فرنسا إبان ذلك العهد ويقول رينان بهذا الصدد في كتابه (مقالات ومحاضرات) صفحة 406 ما ترجمته: (أقول دائماً ولست بحاجة أن أكرر إن العقل البشري يجب أن يتنزه عن كل المعتقدات الدينية، وأن يحصر مجهوداته في مجاله الخاص وهو إقامة العلم الوضعي). وسبب آخر أن في زمان رينان ضاعت هيبة الإسلام والمسلمين في فرنسا لفتحها بلاد الجزائر بحد السيف وظهور كتب عن تلك البلاد تمثلها في حالة وحشية وتأخر وانحطاط، ككتب القائد دوما؛ وهذا ما قوى النزعة العدائية للإسلام، فرينان يقول عن غايات العلم في الكتاب المتقدم ذكره صفحة 400، 401: (العلم هو روح المجتمع لأن العلم هو العقل وهو يخلق التقدم الحربي والرقي الصناعي. . . ولو أن عمر وجنكيزخان وجدا أمامهما المدافع مصوبة لما تقدموا خطوة واحدة عن حدود الصحراء)

وسبب ثالث أن دراسات الاستشراق في عهد رينان لم تكن متقدمة بشكل يوجب احترامها العلمي، بل كانت في الغالب تراجم وتعليقات لبعض مفكري العرب قام بها أعضاء (الجمعية الأسيوية). ورينان نفسه يكتب تارة في الأدب، وتارة في الفلسفة،

وتارة في الدين، وتارة في اللغة، مما دعا بيكافيه أن يحكم في أحد كتبه القيمة أنه رجل (يقلب
أوضاع الأشياء والمسائل) وزد على ذلك اختمار النزعة الصليبية في عقله الباطن وتملكها على أفكاره في الحكم على من يخالف تعاليم دينه الأول قبل إلحاده وكفره وزندقته فهو مثلاً (كما يذكر هو في كتابه (مقالات ومحاضرات) صفحة 306، 307) لا يتصور أن مسلماً مثل الشيخ رفاعة الطهطاوي يؤلف كتاباً عند عودته إلى مصر من باريس (على ضفاف السين) يشرح لبني وطنه حياته كطالب في فرنسا وفهمه لحالة العلم فيها وسبل الحياة في مرافقها. وسبب أخير أن (أشباه المستشرقين) هؤلاء آمنوا إيماناً مطلقاً بما يروى لهم في كتب تاريخ الفكر الإسلامي معتقدين (أن صاحب الدار أدرى بما فيها) مع أن هؤلاء المؤرخين أبلغ منهم في التسكع في هذا الباب. فرجل كالشهرستاني يكتب في الفلسفة عن طريق السماع والرواية وعدم الرجوع إلى ما ترجم من النصوص الفلسفية. وعند ما يكتب عن أفلاطون يخطئ حتى في كتابة اسمه مما دعا أحد هؤلاء المستشرقين - كما يؤكد مهرن - في مجلة جامعة لوفان أن يعتقد أنه يبسط آراء الشيخ اليوناني (صاحب التاسوعات) وعندما يعرض للكلام عن أرسطو يصوره كإله الفلاسفة؛ ويذهب لابن سينا للتحدث عنه، رجل كالقفطي إذا تحدث عن الفلسفة تركها وترك أصولها وتكلم عن الفلاسفة في حياتهم الخاصة وأنسابهم وأمهاتهم وأولادهم وغير ذلك من تافه الأمور؛ ورجل كالفارابي تختلط في ذهنه فلسفة أفلاطون وأرسطو فيعمد إلى التوفيق السقيم بينهما مع أن الأصول الأولى للعقلية الفلسفية هي الدقة في الإدراك والتصور، والتمييز بين تنوع الآراء المتقاربة ووضع حد فاصل بين المعتقدات والمذاهب (اقرأ نظرية أرسطو في التعريف). فانعدام الفهم الفلسفي في عقلية بعض من اهتم بالفلسفة من المسلمين ضلل المستشرقين الأولين. واستمر هذا الضلال في الفهم إلى أوائل القرن العشرين حيث ظهرت مدرسة جديدة في فرنسا نحترم تعاليمها في الاستشراق لأن أفرادها بغوا العلم وحده دون أغراض تخرج عنه في نزعاتهم الفكرية. وهذه المدرسة مهدت بدورها لمدرسة ظهرت في أوائل هذا العام فقط هي أبلغ من الأولى، سنعرض لهما في وقت آخر إن شاء الله.

(يتبع)

عبد العزيز عزت
عضو بعثة الجامعة المصرية لدكتوراه الدولة

التاريخ في سير أبطاله
إبراهام لنكولن
هدية الاحراج إلى عالم المدنية
للأستاذ محمود الخفيف

- 10 -

يا شباب الوادي! خذوا معاني العظمة في نسقها الأعلى من سيرة هذا العصامي العظيم

وما كان دوجلاس ليعجز عن أن يبرر عمله أو أن يتلمس له الأوجه القانونية؛ وإذا عجز دوجلاس عن هذا فمن يقدر عليه؟ وإنه لأعلم الناس يومئذ بألاعيب السياسة وأضاليلها، يصدر في ذلك عن طبع وعن خبرة ويسدد الرمية في لباقة وخفة . .

ولم يكن اهتمام دوجلاس بتلك المسألة إلا جزءاً من خطته التي رسمها وأراد أن يدلف بها إلى الغاية التي لا يرى دونها غاية؛ وهو يتحرق شوقاً إليها ويتقطع تلهفاً عليها؛ ولا يفتأ يتبين السبيل المؤدية مهما كانت وعورة مسالكها. والآن تسنح الفرصة فيقتنصها وهو باقتناص الفرص جد خبير. موه على الناس أنه يمكن لسلطان الأمة إذ يرد مسألة العبيد إلى رأي الأمة، وأنه بذلك يجعل كلمة الشعب هي العليا لا كلمة مجلس الاتحاد. وهو إنما يرمي إلى كسب قلوب أهل الجنوب الذين كانوا من أول الأمر ترون أن يكون لكل ولاية من الحرية ما لا تتلاشى معه شخصيتها في الاتحاد، والذين يريدون أن يتخلصوا اليوم من قيود اتفاق ميسوري . . .

وإننا لنلمح فيما فعل دوجلاس مهارة الرمية، كما نلمح فيما يقول حذق السياسي وفكره وسعة حيلته. وكم في الحياة له من نظراء ممن يأخذون في سياستهم بآراء

أستاذهم الأكبر مكيافلي لا يحيدون عنها ولا يفوتهم شيء من تفاصيلها ودقائقها كأنما عاد أستاذهم نفسه يصرفهم ويوجههم؛ ولقد برع دوجلاس في هذا المضمار فإنه ليجعل الغاية هي عنده كل شيء ولا عبرة بعد ذلك بالوسيلة. وهل كان مثله من السذاجة والبساطة بحيث يتمسك
بشرف الوسيلة ويرعى جانب الفضيلة فيؤدي بذلك إلى فوات الفرص وضياع الغاية؟ كلا إنما كان هو أقوى من أن يتطرق إليه مثل هذا الضعف وأذكى من أن تنطلي عليه مثل هذه البلاهة
ولكن لنكولن لا يعرف المراوغة؛ ولا يدري ما الالتواء. فهل له طاقة بمناضلة ذلك القزم الماكر المخاتل؟ وماذا يجدي على ابراهام طوله والمسألة اليوم مسألة مدافعة ومقارعة، وليست هي مسألة مكافحة ومصارعة، كما كان الحال يوم لف ذراعه الطويلة حول أرمسترنج وألقي به على الأرض؟. . . إن الفرق بين الرجلين هو الفرق بي الطبيعتين، فهذا ماكر محتال غامض كالبحر، وذلك بسيط ساذج صريح كوجه السهل. . .
خطا دوجلاس خطوته وحمل المجلس على الأخذ برأيه فترك لهل كنساس أن يختاروا ما تكون عليه ولا يتهم إذا ضمت إلى الاتحاد؛ وجرى الانتخاب التمثيلي فيها على أساس التسليم بمبدأ العبيد أو رفضه؛ ولو أنه تركت الولاية وشأنها حقاً لهان خطب ذلك الانتخاب ولمر دون أن يعقب ضرراً، ولكن كثيرين من أنصار التحرير ومن المنادين بمقاومة انتشار العبيد من أهل الشمال هاجروا إلى تلك الولاية ليشتركوا في الانتخاب، كما هاجر إليها كذلك عدد عظيم من أهل الجنوب وفي أيديهم أسلحتهم. والتقى الفريقان هناك وبينهما من البغضاء والشحناء ما أوقد نار الحرب وذلك أن أهل الجنوب قد حالوا بقوة السلاح بين خصومهم وبين ما يخوله لهم القانون من التصويت ففاز بالغلبة رجل من أنصار اعتناق العبيد؛ ولكن أهل الولاية ومناصريهم من أهل الشمال احتشدوا في مكان آخر واختاروا رجلاً من دعاة التحرير، فقامت لذلك الحرب بين الحزبين ولبثت نارها مشبوبة بينهما زهاء عامين. وفطن الناس إلى أن هذه الحرب إنما هي مقدمة الحرب الأهلية الكبرى
انتهت في تلك الأثناء مدة مجلس الشيوخ، وانصرف الأعضاء إلى البلاد يدعون لأنفسهم من جديد؛ وكان دوجلاس نائباً عن شيكاغو في شمال الينوس، فذهب إلى هناك يدعو لنفسه، ولكن هاله ما رآه من انصراف الناس عنه، فهو أينما تولى يجد من الناس نفوراً وإعراضاً بل إنهم كانوا يجبهونه بالسوء من القول ويظهرون له ما باتوا يضمرونه من حقد ومقت.
وإنه ليجزع ويستولي عليه الحنق إذ يرى الرايات في شيكاغو منكسة في هامات السفن،
ويرى الجدران وعليها عبارات صارخة تلذع قلبه، ويسمع النواقيس تجلجل في الجو في نغمة حزينة كأنما أصبحت المدينة في مأتم شعبي وهو يحاول أن يخطب الناس وهم يرعدون في وجهه ويسلقونه بألسنة حداد، حتى يرغموه على الرحيل وقد امتلأ قلبه عليهم غيظاً كما امتلأ منهم كمداً.
وينتهي به المسير إلى سبرنجفيلد ولو كان يعلم الغيب لتحول عنها، ففي تلك المدينة سيأفل نجمه وسيبعد ما بينه وبين غايته. وكانت المدينة يوم وصوله إليها تموج بالناس إذ كانت في موسم سوق من أكبر أسواق الزراعة. ولقد خيل إليه أن له في وجود هذا الجمع الحاشد فرصة. . .
وكان حزب الهوجز يومئذ في الشمال في أخريات خطواته إلى الفناء؛ بينما كان يولد حزب آخر سيأخذ عما قريب مكانه هو الحزب الجمهوري؛ وكان لنكولن هو الرجل الذي اتجهت إليه أنظار أهل المدينة ليكون لسانهم في الحزب الجديد. لهذا ولما اشتهر به بينهم من خلال أكبروها، ولم يجدوا من هو أقدر منه على مدافعة دوجلاس؛ وهكذا التقى الرجلان من جديد في عراك عنيف ولم يلتقيا منذ كانا نائبين في مجلس المقاطعة
وقف دوجلاس يخطب، وكان وهو في صغر جرمه قزم أو كالقزم، مارداً جباراً برأسه الضخم ولسانه الذي لا يقف، ونشاطه الذي لا يفتر، ودهاؤه الذي لن ينخلع عنه، ومهارته التي لا تغيب ولا تتخلف مهما تعقد الموقف، والتوت مذاهب الكلام

ولقد كان دوجلارس في الحق من أقوى الرجال في عصره إن لم يكن أشد منهم جميعاً قوة، وكان الحزب الديموقراطي يباهي به ويفخر وهو يعتقد أن لم يبق بينه وبين كرسي الرياسة إلا خطوات مع أنه لم يكن قد خطا الأربعين بعد. . .

أخذ يخطب ويدافع عن رأيه في حماسة وكياسة وإنه ليشعر أنه يطلق آخر سهم في كنانته! وكان محور دفاعه أنه يعمل على توطيد سلطة الشعب: وكانت العبارات معسولة والحجج تلقى في روع السامعين أن لا سبيل إلى رفضها إذ لم يكن ثمة من سبيل إلى نقضها

وجاء دور لنكولن في اليوم التالي، واحتشد الناس ليروا ما عساه أن يقول في الرد على هذا الداهية، ووقف إن الإحراج يقابل الدهاء بالصراحة، والمكر بالصدق، والغرض بالإخلاص، والمراوغة باليقين، والباطل بالحق، والدليل الأعرج بالمنطق الأبلج، ومن وراء هذا كله عبقرية دونها كل تأهب بل وكل كفاية، واستمع الناس إليه ثلاث ساعات وبعض الساعة ومنافسه يعض على نواجذه وينقم على تلك الأقدار التي ألقت به بين براثن ابن الغاية. . .

بدأ خطابه بقوله أنه لا يتوخى إلا الحق ولا رائد له إلا الصدق، فإذا أحس مستر دوجلاس خطأ فإنه ليسره أن يرده لساعته إلى الصواب. ولقد استغل دوجلاس هذا الحق وجعل يقاطعه بين حين وحين ليلويه عن قصده وليلبس عليه الأمر حتى ضاق لنكولن بتلك المقاطعة فصاح قائلاً: أيها السادة! إني لا أستطيع أن أنفق وقتي في مساجلات، وعلى ذلك فإني آخذ على نفسي المسئولية أن أحق الحق وحدي فأعفي بذلك القاضي دوجلارس ضرورة تلك التصحيحات العنيفة). . . وأخذ بعدها يتكلم والأبصار شاخصة إليه والسكون شامل مع شدة ازدحام المكان، والخطيب المرتجل لا يعرف اضطراباً ولا اعوجاجاً، يهدر كالسيل لا يصرفه عائق عن وجهه، وكأنما كان ينطق عن وحي، فما سمعه الناس من قبل يقول مثل هذا الكلام ولا رأوه يبين مثل هذه الابانة؛ وهو في حركاته وإشاراته ونبرات صوته موفق توفيقاً ما شهد الناس مثله من قبل

وفرغ من خطابه وهو في قلوب قومه أرفع قدراً وأكثر محبة عما كان ومنافسه مبتئس زائغ البصر، موزع الفؤاد بين كلمات الاستحسان تنثر على صاحبه كما ينثر الزهر وكلمات الاستهجان تصوب إليه كما تصوب السهام. . ونظر فإذا هو بما أدلى من حجج كالعنكبوت اتخذت بيتاً، ولم يبق في قلوب الناس من أثر لما ردده من عبارات معسولة تدور حول سلطة الأمة، إذ لم يترك له ابراهام دليلاً إلا سفهه وأظهر للناس ما يقوم عليه من بهرج وما يستتر وراءه من طلاء. وبهذه الخطبة فتح لنكولن فصلاً جديداً في تاريخ حياته وقطع شوطاً كبيراً عوض عليه ما فات من ركود. . .

ومهما يكن من تفوقه ونباهة شأنه في هذه الخطبة، فإننا نستطيع أن نعود بالسبب إلى حد كبير - على صفاته الأساسية التي فطر عليها، وفي مقدمتها تبين ما يعرض له والنفاذ إلى جوهره ثم الاستعانة بذلك على توضيح ما يريد أن يقول في يسر وبساطة ومع توخي الصدق والأمانة كما يفعل حين ينهض في المحكمة للدفاع، هذا إلى لقانه عجيبة يميز بها في سرعة الصواب من الخطأ والحق من الباطل، وذهن منطقي كأنه الميزان الدقيق يحس

قبل أن يدرك أن هذا عليه مسحة الشك وذلك عليه نور اليقين

قال يرد على دوجلاس قوله أن من الامتهان لأهل كنسسكا أن نعتبرهم غير جديرين بأن يحكموا أنفسهم بأنفسهم، (إني أسلم أن المهاجر إلى لنساس وبزاسكا جدير أن يحكم نفسه ولكني أنكر عليه الحق في أن يحكم شخصا آخر بغير رضاء ذلك الشخص) ولقد كانت عبارته هذه كالرمية القاتلة فهي تهدم ما بنى دوجلاس من أساسه ولا تدع لمبدأ سلطة الأمة الذي نادى به أي قيمة. وقال في رده على دوجلاس إذ يدعي أن الحكومة إنما أقيمت لصالح البيض لا لصالح الزنوج (إني أوافق على ذلك من حيث الواقع في ذاته، ولكني أرى في هذه الملاحظة التي ساقها القاضي دوجلاس معنى هو عندي مفتاح تلك الغلطة الكبرى (إن كان ثمة من غلطة كهذه) التي فعلها في قرار نبراسكا؛ إنها تدل على أن القاضي لا يقوم في ذهنه مؤثر حي يريه أن الزنجي إنما هو إنسان وعلى ذلك فليست تقوم في رأسه فكرة عن ضرورة وجود العنصر الخلقي عند التشريع له). . .

وبعد الخطبة وقف دوجلاس ليرد ولكن مذاهب القول التوت عليه وخانته بديهته فجعل بينه وبين الناس موعداً في المساء لا يخلفه، وحل المساء وارتقب الناس ولكنهم لم يجدوا الخطيب. . .

وبعد ذلك باثني عشر يوماً ذهب لنكولن ليخطب في بلدة أخرى هي بيوريا؛ ولقد تبعه دوجلاس إلى هناك لعله أن يظفر هذه المرة. ولم يرتجل لنكولن كما ارتجل في سير نجفيلد بل قرأ من أوراق؛ ويشهد الذين سمعوه في المرتين أنه كان يوم ارتجل أعظم شأناً وأبعد أثراً؛ أجل كانت خطبته الثانية أحسن بناء وأحكم نسجاً وأقوى منطقاً ولكنها لم تكن أكثر سحراً. . .

ولقد بدأ دوجلاس في بيوريا كما بدأ في سير نجفيلد واستمر يخطب ساعات ثلاثاً، ورد لنكولن في المساء فاستغرق خطابه مثل هذا الزمن. ومما جاء فيه قوله عن قرار بنراسكا (إن هذا القرار يعلن الحياد ولكنه يضمر حماسة حقيقية لانتشار العبيد لا يسعني إلا أن أمقتها، لما تنطوي عليه العبودية في ذاتها من جور قبيح، وأمقتها لأنها تسلب نظامنا الجمهوري الذي نسوقه للعالم مثالاً من أثره الحق في الدنيا، وأمقتها على الأخص لأنها تدفع كثيراً من رجالنا الأخيار إلى حرب صريحة ضد المبادئ الأساسية للحرية المدنية،

وهم يوجهون انتقادهم إلى إعلان الاستقلال ويصرون على اعتقادهم أنه ليس ثمت من مبدأ حق تقوم عليه أعمالنا وأنه ليس إلا المصلحة الشخصية) وقال في معرض آخر: (إن مبدأ حكم الشعب نفسه مبدأ صحيح؛ هو مبدأ صحيح دون أدنى شك وهو إلى الأبد صحيح. . ولكن إذا كان الزنجي رجلاً، ألسنا - بقدر ما في المبدأ من صحة - نرى أننا إذا حرمناه من أن يحكم نفسه إنما نحطم بذلك مبدأ سيادة الشعب؟ حينما يحكم الرجل الأبيض نفسه يكون ذلك مبدأ سيادة الشعب، ولكنه حينما يحكم نفسه ويحكم في الوقت ذاته رجلاً آخر فإن ذلك يكون أكثر من سيادة الشعب فهو الاستبداد. . . ليس في الناس من يتوفر لديه الخير ليحكم غيره دون رضاء ذلك الغير، هذا هو المبدأ الأول والمرفأ الأمين للنظام الجمهوري الأميركي).

ذلك منطق ابن الغابة وتلك آياته وهو الذي نشأ كما رأينا عصامياً في أوسع معنى لتلك الكلمة! إنما يصد الرجل عن طبع ويترجم عن فطرة مثله في ذلك مثل غيره من أعلام البشر وقادة القافلة في طريق الإنسانية. . .

يتبع

الخفيف

هل ينبغي أن تزاحم المرأة الرجل؟

للآنسة زينب الرافعي

قامت في كلية الآداب بالجامعة المصرية مناظرة بين طائفتين من طلبة الكلية وطالباتها حول الغاية التي تتعلم من أجلها الفتاة: أهي تتعلم لتزاحم الرجل في ميدانه، أم لتشق طريقها لنفسها في الحياة؟ والمقالة التالية هي كلمة الآنسة الأديبة زينب الرافعي في هذه المناظرة، ولها كانت الغلبة. والآنسة زينب هي كريمة الفقيد المرحوم مصطفى صادق الرافعي

رجل وامرأة: هذه قسمة الطبيعة، فهل كانت عبثاً؟

رجل وامرأة: هما العنصران اللذان تتكون منهما الإنسانية، فهل أخطأت الطبيعة حين جعلت معنى الإنسانية يتكون من عنصرين لا عنصر واحد؟

عجباً! إن الإنسان لا يمكن أن يقهر الطبيعة وهو جزء منها، لأنه خاضع لسلطانها، لأنها بقوانينها الصارمة تسيطر عليه وتوجهه وجهته من غير أن يكون له اختيار

إن القوانين لا توضع لمصلحة فرد واحد، ولكنها تشرع لمصلحة الجماعة عامة، والقانون الذي فرضته الطبيعة على البشرية أن الإنسانية اثنان: رجل وامرأة، فكيف تريدونه على ذلك التفسير الخاطئ حين تقولون إن الإنسانية رجل ورجل: رجل له شارب ولحية، ورجل ناعم أمرد. . .

اذكروا لي إنساناً واحداً يستطيع أن يقول بعقل: لماذا يمشي الناس على أرجلهم ولا يمشون على أيديهم؟ قد تكون الأرجل أقوى وأشد صلابة من اليدين، وهي بذلك أقدر على عمل الأيدي، ولكن الطبيعة خلقت الرجلين ليمشي بهما من يريد أن يمشي، وخلقت اليدين لتعمل؛ فما أحمق من يتخيل إنساناً يستطيع أن يجعل رجليه لغير

المشي ويديه لغير ما تعمل اليدان! هكذا خلقت الطبيعة الإنسان، والطبيعة قانون عام مطاع لا يجدي أن يتمرد عليه متمرد. . .
ولكن تعالوا حدثوني حديثكم عن المعنى الذي تريدون حين تزعمون أن من حق المرأة أن تنافس الرجل في ميدانه، وأن تضطلع بما يضطلع به من العمل؟
أتريدونها أن تحمل الفأس، وتجري خلف المحراث، وتحرس قنطرة الترعة، وتمهد السكك
الزراعية. . .؟
أم تريدونها على أن تعمل بالمنشار، وتدق بالقدوم، وتصعد على الخشب الممدود فوق العمائر لتبني، وتحفر حيطان البيوت لتضع أسلاك النور وأنابيب الماء. . .؟
أم تريدونها على أن تقف في خطوط النار وفي جرابها سيف يلمع، وعلى كتفها بندقية تقذف بالشرر، أو تجري على الصخر وراء المدفع وفي يدها زناده، أو تحفر الخندق بيديها الناعمتين لتصد عدوان المغير، أو تبني الثكنات لتقيم فيها أخواتها العسكريات الرشيقات الخفيفات الأجسام. . .؟
حدثوني أيها المؤيدون، أتريدونها لهذا لتهون عليكم وتبتذل وتذل، أم تريدون لها النعمة والصون والعزة؟
ما أهون شأنك عند نفسك أيتها الفتاة لو لبيت هذا النداء!
أسمع همساً تختلج به الشفاه: إنهم يقولون: لسنا نريد لها هذا. فحدثوني ماذا تريدون؟
أتريدونها للقضاء والنيابة، ولإدارة الأعمال في المتاجر، وللكتابة والحسابة، وللقيام على شئون الطلاب في المدارس والكليات، وللدفاع عن المظلومين في المحاكم، ولتخطيط المصورات الهندسية للبناء؟
حسن! قد يكون هذا خيالاً لذيذاً يداعب كل فتاة في أحلامها، ولكن. . . ولكن ليس الرجال جميعاً نواباً، وقضاة، وتجاراً، وكتبة وحسبة، ومعلمين ومحامين ومهندسين إن هذه الوظائف على كثرتها لا يقوم بها إلا ربع الرجال، وثلاثة أرباعهم لغير ذلك من المهام الشاقة والأعمال المضنية، فخبريني يا فتاة: أتريدين أن تكوني رجلاً كاملاً يقوم بواجباته كلها ويحتمل ما عليه من تكاليف الرجولة بشقائها وآلامها؟ أم تريدين أن تكوني ربع رجل؟ يا لها من صفقة خاسرة! إن أعدى أعداء المرأة لا ينتقص من مكانتها الاجتماعية بأكثر من دعواه بأنها نصف الرجل، فما لك ترضين بالأقل لتعودي ربع رجل. . .؟
لا يا أختي، إن لك وظيفة أخرى غير مزاحمة الرجل في ميدانه، وإنها لأجل شاناً وأعظم خطراً من كل ما يقوم به الرجال من أعمال. إن لك وظيفة الأم التي تلد الرجل، ووظيفة المربية في البيت التي تربي الطفل لتخلق منه الرجل، ووظيفة الزوج التي تملأ قلب
زوجها بأفراح الحياة لتشد فيه عزيمة الرجل
إنك سيدة الرجل فلا تبتذلي نفسك دون ذلك لتوهمي الرجل أنه خير منك
ثم ماذا؟ سأحاول أن أمزق النقاب قليلاً لأتحدث إليكم في جرأة الفتاة التي تعتز بأنها فتاة، لأقول لكم إن المرأة لم تخلق لتقوم في الحياة بوظيفة الرجال: المرأة التي يستهويها الثوب الأنيق فتقف أمام المرآة طويلاً تنظر إليه، وتنظر إلى نفسها فيه - هذه المرأة لا تعرف قيمة الزمن، والزمن هو الميزان في كل الأعمال
ستحاول فتيات من زميلاتي أن يعترضن، ولكن هذه هي الحقيقة. لقد خلقت المرأة وليس أحب إليها من زينتها شيء. الزينة لنفسها لا لشيء آخر، وكأن كل أنثى تشعر في أعماق نفسها أنها ليست شيئاً بغير الزينة. أجمل الجميلات وأدم الدميمات في ذلك سواء، فأين هذا من خشونة الرجل؟ أترونها بذلك تصلح لأن تزاحمه وتعمل في ميدانه؟ هيهات يا أختاه! وحذار أيتها الفتاة أن يخدعك معسول المنى. . . إن مكانك هناك. . .
هناك على العرش في مملكة البيت أيتها الملكة
إلى هنا أقف قليلاً لأنظر في وجوهكم ووجوهكن أثر الاقتناع ومظهر الطمأنينة إلى عدل الطبيعة
هل بلغت موضع الإحساس من نفوسكم؟
إن شفاهاً تبتسم، وإن همساً يتطاير من هنا ومن هناك.

اسمعوا:
هذه فلانة ناظرة مدرسة ثانوية من مدارس الحكومة، في الدرجة الرابعة أو الثالثة لا أدري، تقبض كل شهر خمسين جنيهاً، وتحكم على عشرين أو ثلاثين من خيار المعلمين والمعلمات، وتسيطر بإرادتها على بضع مئات من بنات الطبقة العالية في مصر، تلميذاتها، ولها في البيت ولد، ولها زوج!
أتحسبون أن هذه السيدة سعيدة بما بلغت من جاه وما أدركت من نجاح في مزاحمة الرجل؟
وا رحمتاه لها مما تعاني، وألف رحمة للأمة منها، وألف ألف لزوجها المسكين، وما شئتم من الرحمات فاستمطروها على ولدها المحروم، اليتيم في حياة أبويه
أتعرفون من يقوم لها بشئون البيت! لو كان هو زوجها لقلنا: شيء مكان شيء! ولو كان له
امرأة أخرى لقلنا: قد انتصف لنفسه! ولو كان في البيت مديرة مصرية لقلنا: ذهبت واحدة لعمل وحلت أختها في عمل غيره. ولكن. . . وا أسفاه! إن في البيت مديرة حقاً، ولكنها مديرة أجنبية، مديرة لا تعرف من لغتنا، ولا من تقاليدنا. ولا من ديانتنا؛ مديرة ليس لها عواطف الأم، ولا حنان الزوجة، ولا غيرة الأخت، حتى ولا شعور التراحم بالرابطة الوطنية. . .
لقد ذهبت السيدة الجليلة لتزاحم الرجل، ولكنها أخلت مكانها لأجنبية، لقد باعت أمومتها واشترت الوظيفة، لقد جحدت وطنيتها حين جحدت أنها امرأة. . . ليت شعري أليست تغار هذه المراة، أليست تغار على زوجها حين استهانت بالرابطة التي بينهما فاستأجرت له زوجة؟ أليست تغار على ولدها الذي تجاهلت حقه في حنانها فاستأجرت له أماً؟ أليست تغار على بيتها الذي لا تحل فيه إلا كما يحل المسافر في فندق؟ أليست تغار على وطنها حين أفسحت لامرأة أجنبية أن تكون مكانها سيدة بيت؟
ليست هذه وحدها التي خرجت لتزاحم الرجل في ميدانه فما زحمت إلا نفسها. إنهن كثيرات أيها السادة، وإن أسفي لشديد؛ نعم نجحت بضع نساء في مزاحمة الرجل ولكن بعد ما أسلمن بيوتهن إلى الأجنبيات. لكأني بكل امرأة من هذا النوع تهتف في أعماق نفسها قائلة: (لقد احتل الرجال مراكز الأعمال جميعاً فليجلوا عنها بقوة المرأة. ولا علينا بعد ذلك أن تحتل الأجنبيات كل بيوت مصر!)
علموا لنا أولاً مديرات البيوت وربات المنازل وأمهات الرجال وزوجات الأبطال، ثم ادعوا بعد ذلك واستطيلوا وقولوا يجب أن تنزل المرأة إلى ميدان الرجل لتزاحمه حتى تجليه. ربوها أولاً على أن تؤدي وظيفتها الأساسية، وظيفة الأم الصالحة التي تنشئ للأمة الرجال. ووظيفة الزوجة المسعدة التي تملأ بيتها أفراحاً ومسرة، ووظيفة سيدة البيت التي تديره وتدبره لتجعله جنة الأسرة؛ ووظيفة المرأة الكاملة التي هي الحنان والعطف والرحمة والمحبة، بازاء الرجل الذي هو العقل والحزم والقوة واليد العاملة؛ فإذا بلغتم الغاية من كل ذلك فافتحوا لها الباب وقولوا: اذهبي إلى الطريق راشدة فاصنعي ما تريدين، وزاحمي الرجل إن وجدت السعادة في زحامه
(يتبع)
زينب الرافعي
ذكرى قاسم أمين
للأستاذ علي الجارم بك
ملَّ من وجدِه ومن فرطِ ما به ... وأراق الشرابَ من أكوابهْ
وإذا القلب أظمأته الأما ... نيَّ، فماذا يريده من شرابه؟
وإذا النفس لم تكن منبِتَ الأن ... سِ تناءى القريبُ من أسبابه
وأشدُّ الآلام أن تُلزمَ الثغ ... رَ ابتساماً والقلبُ رُهنُ اكتئابه
كلما اختال في الزمان شبابٌ ... عصفت ريحُه بَلدْن شبابه!
والنبوغ النبوغُ يمضي وتمضي ... كلُّ آمال قومِه في ركابه
غَرِدٌ، ما يكاد يصدح حتى ... يُسكتَ الدهرُ صوته بنُعابه
وحَبابٌ، إذا علا الماء ولى ... فاسأل الماَء: هل درى بحبابه؟
وسفين، ما شارف الشطّ حتى ... مزَّق اليمُّ دُسرَه بعبابه
بخل الدهرُ أن يطوِّل للعق ... ل فيجري إلى مدى آرابه

كلما سار خطوةً وقف المو ... ت فسدَّ الطريقَ عن طلابه
وابتداءُ الكمال في عمل العا ... مل بَدْءُ الشَكاة من أوصابه
ضلةً نكتم المَشيب فيبدو ... ضاحكاً ساخراً خلالَ خضابه
أين من يستطيع أن يرشد الدني ... ا، وسوطُ المنون في أعقابه؟
أيها الموت أمهل الكاتبَ المس ... كين يُرسلْ أنفاسه في كتابه
آه لو يشتري الزمان قريضي ... بسنين تمدُّ لي في حسابه!
ما حياتي، والكونُ بعدَ جهاد ... لم أزل واقفاً على أبوابه؟
تظمأ النفسُ في حياة هي الفق ... ر فترضى بنهلة من سرابه
أنا قلبي من الشباب، وجسمي ... أثخن الشيب رأسه بحرابه
أملٌ هذه الحياة! فهل يع ... ثر بي الموت دون وشك طلابه؟
كلما رمتُ لمحة من سناء ... هالني بعدُه وطول شِعابه
ما الذي تبتغي يدُ الدهر مّني ... ودمي لا يزال مِلْءَ لعابه؟
دع يراعي يا دهر يملأ سمع الن ... يل من شدوه وعزفِ رَبابه
كلُّ شيء له نصاب سوى الفن ... فلا حدّ ينتهي لنصابه
عصفت صيحة الردى بخطيب ... وهو لم يَعدُ صفحة من خطابه
سكتةٌ أسكتت نئيج خضم ... عقد النوء لجّه بسحابه
سكتة أطفأت منار طريق ... كم مشت مصر في ضياء شهابه
ومضى (قاسم) وخلف مجداً ... تفرع النجم راسيات قبابه
قد نكرناه حين قام ينادي ... وفهمنا معناه يوم احتسابه
ربَّ مَن كنتَ في الحياة له حر ... باً شققت الجيوب عند غيابه
وتحّديتَ شمسه، فإذا ولّى ... تمنيت لمحة من ضبابه
لم يفز منك مرة بثناء ... فنثرت الأزهار فوق ترابه
يُعرف الوردُ حينما ينقضي الصي ... فُ ويُبكى النبوغ بعد ذهابه
كم ندبنا الشباب حين تولى ... وشغفنا بالبدر بعد احتجابه
كتب الله أن يعيش غريباً ... كل ذي دعوة إلى الحق نابه
لا ترى فوق قمة الطود إلا ... بطلاً لا يهاب هولَ صعابه
كلُّ ذات الجناح طير، ولكن ... عرف الجو نسره من غرابه
كم رأينا في الناس من يبهر الع ... ين وما فيه غير حسن ثيابه
يملأ الأرض والسماء رياءً ... وعيوبُ الزمان ملءُ عيابه
نقد الناس (قاسماً) فرأوه ... أصبر الناس في تجرع صابه
حجة الجاهل المراء، فإن شا ... ء سموا أمدها بسبابه
قد يغشى الوجدان باصرة العق ... ل فيعميه عن طريق صوابه
صال بالرأي (قاسم) لا يبالي ... ومضى في طريقه غيرَ آبه
كم جريءٍ لا يرهب السيف إن سل ... ونِكس يخاف مسَّ قرابه
والشجاع الذي يجاهر بالحق ... ولو كان فيه مرُّ عذابه
كيف يهدي النصيح إن رِيع يوماً ... من قِلَى من يحب أو إغضابه
وطريق الإصلاح في كل شعب ... عسِر المرتقى على مجتابه
يعشق الشعب من يدلله زو ... را بِمَذْقٍ من سخفه وكذابه
قمتَ للجهل تقلمُ الظفر منه ... وتفضُّ الحِداد من أنيابه
في زمان كان القديم به قد ... ساً يذاد الجديد عن محرابه
يا نصير النساء والدين سمح ... لو وعينا السريَّ من آدابه
قد خشينا على الحمائم في الدو ... ح أظافيرَ بازه أو عقابه
إن أردت الظباء تمرح في السهل ... فطهِّر أكنافه من ذئابه
كم ضراء وسط المدائن أذكي ... من ضراء الضرغام في وسط غابه
وشباك من الجرائم والخت ... ل حواها شيطانهم في جرابه
وإذا ما الحياءُ لم يستر الحس ... ن فماذا يفيده من نقابه؟
قمت تدعو البنات للعلم فانظ ... ر كيف حلقن فوق شمِّ هضابه
وزها النيل بابنة النيل فاختا ... ل يجرُّ الذيولَ من إعجابه
وغدا البيت جنةٌ بالتي في ... هـ خصيباً بالأنس بعد يبابه

يا فتى الكرد، كم بززت رجالاً ... من صميم الحمى ومن أعرابه
نسب المرء ما يعد من الأع ... مال لا ما يعدّ من أنسابه
كم سؤال بعثت إثر سؤال ... أيقظ النائمين رجع جوابه
كنت في الحق للإمام نصيراً ... والوفيّ الصفيّ من أصحابه
نم هنيئاً فمصر نالت ذرا المج ... د وفازت بمحضه ولبابه
منك عزم الداعي وفضل المجليِّ ... ومن الله ما ترى من ثوابه
علي الجارم

إلى المجهول

للأستاذ عبد الرحمن شكري

المقدمة

الولوع بالمجهول من أمور الحياة والطبيعة والنفس والكون والشغف باستطلاعه وكشفه هو الذي أخرج الإنسان من المعيشة في الكهوف ومن حضارة العصر الحجري من عصور الحضارة وأزال عنه خوفه من مظاهر الطبيعة ببحث تلك المظاهر، وهو الذي أدى به إلى كشف القارات والبحار وزاد علمه بالسماء، وعلمه ركوب الهواء في الطائرات حتى طمع في الوصول إلى الأفلاك، وذلك الولوع بالمجهول هو الذي جعله يخترع مخترعات الحضارة التي زادت حياته بهاء ومتعة وراحة ولذة، وجعله يجد لذة حتى في ركوب الأخطار من أجل كشف مغاليق الكون والحياة والطبيعة ويستشعر اللذة حتى فيما قد يصيبه من الألم أو الهلاك في أثناء بحثه المجهول من أمور الحياة والكون، والولوع بالمجهول هو الذي أدى إلى سيطرة الأمم القوية التي تمكنت من كشف المخترعات التي زادتها قوة واستعلاء، وإذا بحثت عما يميز أبناء الدول القوية التي تمتعت بالثروة والسطوة والعلم والحضارة عن أبناء الأمم المتأخرة التي لا تزال تعيش في الكهوف أو الغابات أو في المدن أو الأحياء المتهدمة القديمة الفقيرة الموبوءة بالأسقام والأقذار المغلوبة على أمرها لرأيت أن صفة النفس التي ميزت أبناء الشعوب القوية السعيدة المسيطرة على الحياة والناس هي الصفة التي تجعلهم يجدون لذتهم في كشف مغاليق المجهول من أمور الحياة، والأمة التي تريد أن تعلو وأن تأخذ مكانتها تحت الشمس ينبغي أن تهيئ لأبنائها نوعاً من التربية والتعليم يبث في نفوسهم حب استطلاع المجهول وكشف مغاليقه. أما التعليم الذي لا يبث هذه الصفة في النفوس فهو تعليم لا يليق إلا بالذين يجدون لذتهم في حياة الخمول من المألوف الذي أصبح كالمخدرات، وكلما كان فقدان صفة حب استطلاع المجهول من النفوس أوضح وأظهر من أجل المؤثرات التاريخية المذلة المؤخرة كان ذلك أدعى إلى إصلاح نظم التعليم، وإلى اتخاذ التربية التي تزيل هذه المؤثرات. والمراد بهذه القصيدة الدعوة إلى بث صفة حب استطلاع المجهول في نفوس النشء لأن نفوس النشء تحب استطلاع الغريب والمجهول بطبيعتها وترى لذتها في ذلك قبل أن تعلمها التقاليد والأوضاع

الخمول والقنوع بالمألوف، ومن الخطأ أن يظن أحد أن عاطفة الشغف بالمجهول لا تنمي بالتربية وأنها قوة طبيعية في الأمم القوية فحسب. . . لا. . . بل إن أسلوب التربية والتعليم قد يقوي هذه العاطفة التي هي أساس الرقي العلمي والاجتماعي الصحيح، وهذا الأسلوب من التربية ألزم في الأمم الضعيفة لشدة احتياجها إليه

القصيدة

(الخطاب موجه إلى المجهول)

يحوطني منك بحر لست أعرفه ... ومَهْمَهٌ لست أدري ما أقاصيه
أقضي حياتي بنفس لست أعرفها ... وحَوْليَ الكونُ لم تُدْرَكْ مجاليه
يا ليت لي نظرة في الغيب تسعدني ... لعل فيه ضياء الحق يبديه
أخال أني غريب وهو لي وطن ... خاب الغريب الذي يرجو مُقاصِيه
أو ليت لي خطوة تدحو مجاهله ... وتكشف الستر عن خافي مساعيه
كأن روحيَ عُوْدٌ أنت تُحْكِمُهُ ... فابسط يديك وأطلق من أغانيه
والروح كالكون لا تبدو أسافله ... عند اللبيب وَلا تبدو أعاليه
وأكبر الظن أني هالك أبدا ... شوقاً إليك وقلبي فيه ما فيه
من حسرة وإباء لست أملكه ... يأبى لِيَ العيش لم تُدْرَكْ معانيه

وأنت في الكون من قاص ومقترب ... قد استوى فيك قاصيه ودانيه
كأنني منك في ناب لمُفْتَرس ... المرء يسعى ولغز العيش يُدْمِيه
كم تجعل العقل طفلاً حار حائرهُ ... ورب مُطَّلبٍ قد خاب باغيه
لو النبال نبال القوس مُصْمِيَةٌ ... كنت ادَّريتَ بسهم القوس أرميه
أو كان للسحر سهم نافذ أبدا ... لكان لي منه سهم صال راميه
يا مُصْلِتَ السيف قد فُلَّت مضاربه ... ورامِيَ السهم قد خابت مراميه
قلبي يحدثني أن لا يليق به ... رضا بجهل ذليل اللب يرضيه
قد ثار ثائر نفس عزّ مَطلَبُها ... وطار طائر لب في مراقيه
كالنسر لا حاجب للشمس يحرقه ... ولا الصواعق والأرواح تَنْنِيه
وأنت كالليل والأفهام حائرة ... مثل العيون علاها منك داجيه
ليل مهيب كليل البحر حندسه ... تكاد تسمع منه صوت طاميه
فليت لي فكرة كالكون واسعة ... أدحو بها الكون تبدو لي خوافيه
ليس الطموح إلى المجهول من سفهٍ ... ولا السمو إلى حق بمكروه
إن لم أنل منه ما أروي الغليل به ... قد يحمد المرء ماءً ليس يرويه
والقانعون بما قد دان عَيْشُهُمُ ... مَوْتٌ فان خضوع اللب يُرْدِيه
يا قلب يهنيك نبض كله حُرَقٌ ... إلى الغرائب مما عز ساميه
فالعيش حب لما استعصت مسالكه ... تجارب المرء تُدْميهِ وتُعْليه
كم ليلة بتها ولهان ذا أملٍ ... لم يُسْلِ قَلْبِيَ أَنْ غابت أمانيه
لعل خاطر فكر طارقي عرضاً ... يدنو بما أنا طول العمر أبغيه
يُوَضَّحُ الغامض المستور عن فِطَنٍ ... وأفهم العيش تستهوي بواديه
عبد الرحمن شكري
شعر ابن تسعين!
كتاب الفصول والغايات
يا صاحب الرسالة الغراء:
إليك من شيخ قعيدة داره، رهين كتبه وأسفاره، تحية الأديب للأديب، ومناجاة القريب للقريب. وبعد فإني لما قرأت في رسالتكم الإعلان عن كتاب (الفصول والغايات) لشيخ المعرة حكيم الشرق اقتنيت منه نسخة وقرأتها فرأيت الشيخ الحكيم قد أتى فيه بالعجب العجاب، ورأيت الشيخ الفاضل الزناتي قد أحكم فيه الصنيع، وفاق كل أديب ضليع، كيف لا وهو تلميذ شيخي اللغة المرصفي والشنقيطي لذلك فقد جئت بأبيات مدحاً في الكتاب وناشره. وإني مرسلها إليك لنشرها، ولا أظنك إلا فاعلاً إن شاء الله، وإني وقد جاوزت التسعين من عمري لم أنشر شيئاً من شعري قبل اليوم، وها هي ذي الكلمة
أين مني أبو العلاء أحيي ... هـ وأهديه أصدق التهنئآت
أنا في مصر وهو في الشام رهن ال ... قبر أعظم بفرقة وشتات
نال منه يراع كل غبي ... ورموه بأشنع السيئات
فتصدى لنصره المعيّ ... هو (محمود) عصره ابن (زناتي)
وانتضى ماضي اليراع فأبدى ... عن (كتاب الفصول والغايات)
كان هذا الكتاب رجم ظنون ... وشكوك تحتاج للإثبات
فجلاه للناس صفحة حق ... نُضِّرَتْ بالعظات تِلوَ العظات
وأفانين تبهر العقل لم تخ ... طر لندب سواه منتظمات
وتولى تفسيره ببيان ... واضح اللفظ ناضر الكلمات
فغدا في صنيعه عبقرياً ... جل قدراً عن ناشري الهفوات
ناشري الكتب للتجارة لا لل ... علم مملوءة من الغلطات
جاعلي النظم في الطباعة نثراً ... ونثير الكلام مثل الرفات
ونظمت القريض طوعاً لوجه ال ... علم ما قلت فيه (خذ وهات)
محمد بن علي الدرعي
البريد الأدبي
وزارة المعارف وجائزة نوبل
رأت وزارة المعارف أن تعمل على حث المؤلفين المصريين على الاشتراك في جوائز

نوبل جهد الطاقة، ومهدت لذلك بأن فكرت في أن تكل إلى الشعبة المحلية للمعهد الدولي للتعاون الفكري في مصر مراقبة ما ينشر كل عام من المؤلفات والبحوث العلمية والأدبية التي تمتاز بالدعوة إلى تحقيق المثل الأعلى في الحياة الإنسانية وتخصيص جائزة محلية كل عام لصاحب احسن كتاب يمتاز بالطابع المشار إليه توطئة للاشتراك في مسابقة نوبل العالمية

وترى وزارة المعارف أنه يجب على أغنياء المصريين أن يساهموا بنصيبهم في هذا الباب، فليست التبرعات وقفاً على إنشاء المساجد والمستشفيات وتقديم الكؤوس للألعاب الرياضية، وإنما يجب أن توجه أيضاً إلى تشجيع الإنتاج الأدبي والفني بأن يقوم الأغنياء بوقف جوائز شعبية باسمهم إلى جانب الجوائز الحكومية

ويمكننا تلخيص الشروط لجائزة نوبل فيما يلي:

1 - ليس من حق الأكاديمية السويدية أن تتخذ الخطوة الأولى في الترشيح للجائزة مهما تمتع الشخص بالمؤهلات اللازمة وإنما يجب أن تنتظر حتى يقدم إليها الاسم طبقاً لأحكام مؤسسة نوبل

2 - لا يشترط من جهة المبدأ أن تترجم مؤلفات الترشيح للجائزة، لأن بالأكاديمية السويدية خبراء في اللغات المختلفة. كذلك لا يشترط أن يكون لهذه المؤلفات جمهور كبير من القراء فقد حدث أن منح الشاعر الفرنسي (مسترال) جائزة نوبل سنة 1904 مع أنه كتب مؤلفه بلغة مقاطعة البروفنس وهي لغة يتكلمها عدد محدود جداً من الفرنسيين

3 - تمنح جائزة نوبل الخاصة بالآداب لمن يصنف مؤلفاً في السنة السابقة للطلب مباشرة يعود بالنفع على الإنسانية ويقودها إلى المثل الأعلى؛ غير أن اختيار هذا المؤلف قد يكون فوق الطاقة لكثرة ما ينشر من المؤلفات الأدبية في كل عام ولذلك يمكن القول بأن هذه الجائزة أصبحت تعطي مكافأة على إنتاج نوابغ الأدباء في كل حياتهم إذا امتازت بقربها من المثل الأعلى

ميزانية التعليم

خصص لميزانية وزارة المعارف في السنة المالية الجديدة أربعة ملايين و356 ألف جنيه بزيادة قدرها 336 ألفاً و500 جنيه تقريباً على ما كان مخصصاً لها في الميزانية السابقة

وفيما يأتي توزيع هذا المبلغ على أنواع التعليم المختلفة

شؤون التعليم - للإدارة العامة والبعثات العلمية 320 ألف جنيه وللمدارس العالية 376 ألفاً، وللتعليم الثانوي 74 ألفاً وللتعليم الابتدائي للبنين 688 ألف جنيه، وللتعليم الفني 514 ألفاً ولمدارس البنات 384 ألفاً وللتعليم الأولي مليون و442 ألف جنيه وللفنون الجميلة 47 ألف جنيه

الإعانات - وبلغت قيمة الإعانات المقرر منحها في العام الجديد مليون و194 ألف جنيه وهي:

269 ألف جنيه للجامعة المصرية و826 ألفاً لنفقات التعليم لمجالس المديريات و65 ألفاً للتعليم الثانوي الحر للبنين ومثلها للتعليم الابتدائي الحر وكانت في العام الحالي 32500 لكل منهما و54 ألفاً لمدارس البنات الحرة وكانت 27 ألفاً في العام الماضي و10 آلاف جنيه للمدارس الأولية الحرة و8500 جنيه للمدارس الصناعية والملاجئ و 250 جنيهاً لمدارس الصناعات الحرة النسائية و15 ألف جنيه للجنة الأهلية الرياضية البدنية ومثلها للفرقة القومية للتمثيل و4800 جنيه للمدرسين الصناعيين بالإسكندرية و3500 جنيه لدار الكتب الملكية و6500 جنيه لدار التمثيل الملكية و2000 جنيه لجمعية محبي الفنون الجميلة و2330 جنيهاً للمدرسة الفاروقية البحرية و1500 جنيه لكل من الجمعية الملكية الجغرافية والمجمع العلمي المصري و1200 جنيه لكل من الجمعية الطبية ومرتبات الطلبة في المدارس الصناعية و2300 لمعهد الطلبة المصريين بلندن و500 جنيه لكل من الجمعية الرمدية ومعهد التعاون الفكري وجمعية علم أوراق البردي و450 جنيهاً للجمعية الجغرافية الملكية و700 جنيه إعانة فرقة الكشافة والمرشدات و400 جنيه لكل من معهد التربية الدولي بسويسرا والأندية الفنية و300 جنيه لنادي الألعاب الرياضية و200 جنيه لكل من المجمع المصري

للثقافة العلمية وجمعيتي المعلمين الملكية والموسيقى المصرية ومدرسة جبل سينا والنادي الرياضي المصري ببرلين وجمعية الفنانين المصريين
ومرتبات لطلبة دار العلوم و25 ألفاً مصاريف المدارس التابعة للسكك الحديدية وخصص لجوائز الطلبة 950 جنيهاً علاوة على 300 جنيه لجوائز التفوق
ومما يلفت النظر هنا أن الإعانات - على ضخامة المبلغ المرصود لها والذي يزيد على ربع ميزانية المعارف كلها - لم ينظر فيه إلى ما ينبغي لتشجيع الأدب والتأليف، فليس فيها شيء مقرر لتشجيع ذوي المواهب من المؤلفين ورجال الآداب، على حين تكثر الآلاف لتشجيع الرياضة البدنية والنوادي والجمعيات؛ وتلك ملاحظة نسوقها إلى وزير الأدباء معالي الدكتور هيكل باشا
الثقافة الموسيقية في مصر
تشتغل وزارة المعارف، بإعداد مشروع واسع النطاق، يتجه إلى رفع مستوى الثقافة الموسيقية بصفة عامة، وذلك بإقامة دراسات تثقيفية للموسيقيين المحترفين الذين يزاولون تلك المهنة، ينتظم فيها الراغبون في زيادة ثقافتهم الموسيقية بالمجان. وستكون تلك الدراسات في إحدى مدارس الوزارة بالعاصمة.
وتلقى تلك الدروس في مساء يومين من كل أسبوع. وهي دراسات لجميع المواد الموسيقية التي يحتاج إليها رجل الموسيقى في مزاولة مهنته، والى جانب هذا تدرس اللغة العربية والخط
وتقرر أن توزع برامج الدراسة على عامين تعقد الوزارة في نهايتهما امتحاناً يمنح الفائزون فيه درجة في الموسيقى
وستشرع الوزارة في تنفيذ هذه الخطة ابتداء من أول أكتوبر القادم على أن يشرف حضرة مدير إدارة التفتيش الموسيقي بالوزارة على هذا المشروع
الموسيقى العربية للبارون رودولف ديرلانجيه
لا يتلفت أحد منا إلى التراث العلمي الذي خلفته الثقافة العربية إلا تحسر على نصيبه من الإهمال. والحق أن نواحي جمة من ذلك التراث أصبحت موضع بحث وتنقيب، إلا أنها لا تظفر بما يليق بها من العناية. وفي مقدمة تلك النواحي الموسيقى. على أني لا أجهل أن نفراً من المشتغلين بالموسيقى عندنا مثل الأستاذ كامل الخلعي والأستاذ منصور عوض
راحوا ينظرون في بعض أوضاع الموسيقى العربية بدراية، كما أني لا أجهل أن فئة من المستشرقين كتبوا رسائل عالجوا فيها تاريخ الموسيقى العربية وخصائصها، أذكر منهم: ولاسيما
ولكن النظر في أوضاع الموسيقى العربية والإلمام بتاريخها وخصائصها لا يزالان على شيء من الاضطراب. ذلك بأن المصادر العربية الخاصة بالموسيقى تكاد تكون كلها مطوية. وأعني بالمصادر هنا تلك التي أجراها أصحابها على الطريقة العلمية. وأما المصادر الأخرى وعلى رأسها كتاب الأغاني لأبي الفرج فإنما تسوق الأخبار المتصلة بالموسيقى وإن اندست في تلك الأخبار مصطلحات وفوائد علمية
والحاصل أن في نشر أمات تلك المصادر خيراً وأن في بحثها بحثاً مطرداً فائدة جليلة. كل هذا لم يفطن له معهد الموسيقى العربية القائم في مصر لأنه بينه وبين العلم الخالص أشياء، ولكن الذي فطن له رجل أجنبي عنا هو: البارون رودولف ديرلانجيه رحمه الله
وضع البارون خطة سديدة إذ رأى أن ينقل المؤلفات الجليلة إلى اللغة الفرنسية ثم يلحقها بمجمل شامل يعرض نواحي الموسيقى العربية علماً وعملاً.
وقد ظهر المجلد الأول من هذه المجموعة سنة 1930 مطوياً على الجزء الأول والثاني من (كتاب الموسيقى الكبير) للفارابي وهذا المجلد الثاني فيه الجزء الثالث من كتاب الفارابي ثم رسالة في الموسيقى من كتاب (الشفاء) لابن سينا. ويتناول الجزء الثالث من كتاب الفارابي التأليف الموسيقي من لحن وإيقاع وقرع ومن الجموع الكاملة والناقصة والمتلائمة والمتنافرة. وأما رسالة ابن سينا ففيها مباحث في الصوت وسببه وثقله وحدثه، وفي الأبعاد وتقسيمها وتجزئتها وتضعيفها، وفي الإيقاع وفي الشعر وأوزانه
ثم إن في مختتم هذا المجلد حواشي يشرح فيها بعض الملتويات ويلوح فيها إلى

الأصول اليونانية
وعسى أن يواصل أصحاب البارون ديرلانجيه وأعوانه نشر المجموعة، فالعالم العربي المهذب يرقب رسائل الكندي صفي الدين وعبد الحميد اللاذقي وغيرهم. ولا يفوتني أن ارغب إلى من سيتم نشر المجموعة أن يعمل كتاباً قائماً برأسه يثبت فيه المصطلحات الموسيقية الواردة في التآليف العربية مع ما يراد منها في اللغة الفرنسية حسبما نقل. وفي
ظني أنه يبذل بهذا ما لا ينهض به شكر؛ ذلك بأن اللغة العربية لهذا العهد مفتقرة إلى التعابير الفنية والاصطلاحات العلمية
بشر فارس
الفلم المدرسي ونصيب مدارسنا منه
يرجع الفضل في استخدام السينما في المدارس إلى المستر بروس وولف بعد الحرب الكبرى مباشرة (1919) حين وضع - بمساعدة زوجته - أفلامه المدرسية الناجحة: معركة جنلند بين الأسطولين الإنجليزي والألماني، وغزو اللنبي لفلسطين، والحرب بين آلهة الخير وآلهة الشر. . الخ وقد لقي المستر وولف من إقبال المدارس وتعضيد الحكومة ما جعله يبتكر من الأفلام ما هو الآن ضرورة من ضرورات الحياة المدرسية في إنجلترا. بل لقد عظم أثر هذه الأفلام لدرجة أنها توجه التعليم وجهات خاصة في بعض الأحيان. وقد كان أول أفلام مستر وولف فلماً مساحياً على السطوح والدوائر والمثلثات. . . الخ. وبالطبع لم ينجح هذا الفلم ولذا آثر الأفلام الأفلام الجغرافية والتاريخية بعد ذلك. وقد أشرنا في هذا الباب إلى الفلم التربوي الذي قامت به شركة الفحم الإنجليزية والذي كان له أكبر الأثر في تحسين أسلوب المعيشة والتربية في البيئة الإنجليزية
هذا في إنجلترا. . . فماذا عندنا في مصر؟ لقد كانت وزارة المعارف تحض على استعمال السينما في المدارس، فأين هي الأفلام المدرسية التي عرضت؟ لقد قامت وزارة الصحة بعرض بعض الأفلام السقيمة للتنوير العام، فلم يكن لها أي أثر، وهكذا صنعت وزارة الزراعة. . . ولسنا ندري ماذا يمنع وزارة المعارف من إلقاء مهمة إخراج أفلام مدرسية على عاتق ستوديو مصر على أن يعاونه معهد التربية في ذلك. . . إنها بهذا تفتح حقلاً جديداً لأستوديو مصر وتضمن الأفلام التربوية الناجحة للمدارس المصرية
شذوذ العبقرية في الهند
في الأنباء البرقية أن السيدة سوبارويان قد انتخبت نائبة في البرلمان الهندي عن مدينة مدراس. . . ومنذ شهرين كانت تزور مصر إحدى الزعيمات الهنديات فلم يمنعها زهوها الوطني أن تعير نساءنا المصريات بتخلفهن عن أخواتهن الهنديات في مضمار الحياة، لأن
المرأة الهندية قد نالت من الحقوق المدنية ما لا تزال المصرية تحلم به وتعتبره طوبى! وقد منع كرم الضيافة السيدة المصرية من الرد على الزعيمة الهندية. . . ونحن من جانبنا لا نجعل لنهضة المرأة الهندية تلك الأهمية التي تصورتها لها زعيمة الهند، ولا يمنعنا من التمسك بهذا الحكم انتخاب السيدة سوبارويان للبرلمان الهندي. ونحن إنما نستند في رأينا إلى التقاليد والعادات والمعتقدات الهندية نفسها. فالمرأة الهندية تشارك الرجل في التطهر ببول البقر وتقديس البقرة كما تشاركه في إذلال الأنجاس وتفضيل الفئران عليهم. وقد كان خيراً للهند ألف مرة لو عملت نائبة مدارس في محاربة الآفات الهندية ولم تقحم نفسها في الميدان السياسي. . . وتعليل هذا بسيط. . . فالبيئة الهندية مشهورة بالشذوذ ولاسيما في خلق العبقرية. . . فالهند الفقيرة المجدبة من الثقافة قد أعطت العالم رجالاً أفذاذاً عبقريين في ثقافتهم وفي عملهم كالشاعر المسلم المرحوم إقبال والشاعر الهندوكي طاغور والمرحوم أدجاديز بور العالم النباتي. . . ثم السياسية سوبارويان، ومن أجل ذلك فنحن متفائلون جداً بنهضة المرأة المصرية ولو لمت تدخل البرلمان
تركيا والإسلام
أدلى السيد إسماعيل ولي الله الصحفي الهندي والمحرر بجريدة (انديان نيوز) التي تصدر في دربان بجنوب إفريقية إلى جريدة (جمهوريت) لدى عوده إلى بلاده بما يأتي:

(قبل أن أحضر إلى بلادكم طفت ببلاد العرب ومصر وسورية. وقصدي أن أعرف بتركيا العالم الإسلامي في الشرق بحيث أقوم الرأي الخاطئ الذي كونه عنها. لقد اقتنعت كل الاقتناع منذ اليوم الأول لوصولي إلى مدينتكم بأن الأتراك - على نقيض الدعايات السلبية التي راجت عنهم في العالم الإسلامي - لا يزالون مسلمين كما كانوا في الماضي، وإنكم مع محافظتكم على إسلامكم قد كيفتم أنفسكم وفق مقتضيات الحضارة الأوربية. وإنا لنرجو أن يجرب جميع مسلمي الشرق هذه التجربة التي نجحت فيها تركيا. إن عدد مسلمي جنوب إفريقية يبلغ 12 مليون نسمة منهم 8 ملايين من أهل البلاد الأصليين ومليونان من الأوربيين و150 , 000 من المسلمين. أما الباقون فصينيون ويابانيون وأفراد من أجناس مختلفة. وينقسم المسلمون إلى فريقين أحدهما فريق المسلمين الهنود أمثالنا الذين يقطنون البلاد منذ ستين عاماً. والآخر هو فريق المسلمين المولودين في جاوا - وهذه المناطق سريعة التقدم وأهم إنتاجها الذهب. ويعنى المسلمون الهنود بالتجارة ويمارسون المهن الحرة

ونحن مسلمي جنوب إفريقية الهنود نشعر نحو تركيا بحب عظيم، ومرشدكم العظيم أتاتورك شخصية عظيمة يعجب بها العالم أجمع. ولقد ظهرت في جريدتنا عدة مقالات عن زعيمكم العظيم. وإنا لعظيمو الارتياح نحن المسلمين إلى ما أحرزته تركيا من أسباب التقدم. وآمل أن يحقق وطنكم لنفسه حياة رغيدة. إن هذه أول مرة وطئت فيها أرض تركيا والأثر الذي خلفته في نفسي هذه الزيارة هو إن الجميع هنا يعملون بنشاط ولا يتمرغون في حمأة الخمول كما كانت الحال في عهد السلطنة

كتابان فرنسيان عن مصر

نال المسيو جان مازويل الأستاذ بالجامعة المصرية الميدالية الفضية من الجمعية الجغرافية بباريس وجائزة ألكسندر اكمان للكتابين الذين تقدم بهما إلى (السوربون) ونال بهما لقب الدكتوراه. وهذان الكتابان يدوران حول بعض المسائل الجغرافية الطبيعية والاقتصادية المتعلقة بمصر إبان حكم والي مصر الكبير محمد علي باشا، وقد بحث المسيو مازويل في أول هذين المؤلفين عن الاكتشافات العظيمة في صحراء العرب وبلاد النوبة، وتكوين برزخ السويس وأعمال الري والصرف وقناطر الدلتا ودرس في مؤلفه الثاني زراعة قصب السكر وأنواع السماد، كما تحدث عن السكر في مصر من الناحية الاقتصادية وأظهر الدور المهم الذي يؤديه محصوله

تصويب

كتب (أستاذ جليل) في العدد السالف من الرسالة، ينبهني إلى خطأ وقعت فيه عند الحديث عما كان بين الرافعي والعقاد حول مقالة الرافعي عن شوقي في المقتطف سنة 1932؛ والصواب ما قال الأستاذ الجليل؛ فإن مدار الحوار بين الأديبين كان حول تخطئة الرافعي لشوقي في رفع جواب الشرط من قوله:

إن رأتني تميل عني كأن لم ... يك بيني وبينها أشياء

وكان رد الرافعي على العقاد - لتقرير هذه المسألة من مسائل النحو عندما يكون فعل الشرط ماضياً، وفي هذا الرد كان ما كان من رأيه في المتأخرين من علماء النحو.

ولقد نبهتني كلمة الأستاذ الجليل إلى شيء كنت أنسيته؛ ذلك أن تخطئة الرافعي لشوقي في الابتداء بالنكرة من قوله:

ليلى! منادٍ دعا ليلى فخفّ له ... نشوانُ في جنبات الصدر عربيد

لم تكن مما كتبه للمقتطف، ولكنه نشرها في عدد يناير سنة 1933 من مجلة (ابولو) في الرد على الأستاذ علي محمد البحراوي في مقال تناول به مقاله للمقتطف عن شوقي؛ ثم كان جدال بين الرافعي وأديب من أدباء العراق حول تخطئة شوقي في هذا التعبير، وتنقل هذا الجدل حيناً بين أبولو والمقطم. . .

هذا صواب ما اشتبه علي عند رواية هذا الخبر، أشكر للأستاذ الجليل أن نبهني إلى إثباته؛ وعذري في هذا الاشتباه أن الجدال في هاتين المسألتين كان يدور حول محور واحد، هو مقالة الرافعي في المقتطف، فاختلط في ذاكرتي شيء بشيء

محمد سعيد العريان

شكر واعتذار

استدرك الصديق الدكتور ناجي على كلمتنا عن هوكسلي بعض مآخذ سماها أخطاء،

وكان قليل جداً من حسن التفات الصديق يكفي لإدراك أن ما ند قلمنا فيه جاء عن طريق السهو، فقد وضعنا أليس مكان جويس في الإشارة إلى قصة أوليسيز، وقد كتبنا عن هافلوك أليس وجيمس جويس أكثر من عشرين نبذة في بابي (من هنا ومن هناك) و (البريد الأدبي) وكتبنا عن أوليسيز لجويس أكثر من مرة، ومن الأعداد التي نذكرها في ذلك (150 - 153 - 154) وذلك عقب نشر القصة. أما أن هوكسلي هو حفيد هوكسلي الكبير أو ابنه فما ذكرت هو الذي أعرفه، وقد ثار جدل في ذلك بيني وبين الصديق الكبير الأستاذ سلامة موسى فأقنعني أنه ابن هوكسلي الكبير وليس حفيده، وتشبث بذلك فأثبته في كتابه القيم (في الأدب الإنجليزي الحديث ص 93) فقد ولد هوكسلي الكبير سنة 1825 وتوفي سنة 1895، وقد نيف هوكسلي الصغير على الخامسة والأربعين ومن هنا كان اقتناعي بما ذكر الأستاذ سلامة. . . على أن ملاحظة الدكتور قد أثارت في فضولاً غريباً جعلني أكتب إلى ألدوس هوكسلي أسأله في ذلك (!!)

أما كتاب رقصة الحياة فأكبر ظني أنها غلطة الصفاف (المحترم) الذي جعلني مرة أقتل ولز لأن حضرته أغفل سطراً بأكمله فأوقعني بغفلته في (شر أعمالي!)

ولكن يا دكتور ناجي! لي رجاء بعد ذلك. . . هل تتفضل بتسجيل ملاحظاتك الأدبية القيمة على صفحات الرسالة بالنيابة عني حتى يأذن الله بشفائي مما أصبت به وسأستشيرك فيه!

الشاكر لك

صديقك المجهول

حول كلمة (هال. ها)

سيدي الأستاذ الفاضل محرر الرسالة

قرأت في عدد الرسالة الماضي قصيدة (البعث) وقد أعجبني استيعاب الشاعر محاسن الربيع ومناحي المجال فيه كما طربت لقوة مبناها وغناها باللفظ الجميل كما يغنى الربيع بالورد الناضر والزهر الباسم. إلا أنه لفتتني فيها كلمة (هال. ها) وتعليق الشاعر الفاضل عليها أنها كلمة نداء مرحة ابتدعها الأستاذ أبو حديد وتقوم مقام كلمة - الإنجليزية، وأخشى أن هذا التعليق بعيد عن الصواب. فالكلمة الإنجليزية ليست نداء مرحاً وإنما هي تعبير يقال عند خيبة الأمل أو انكسار النفس من الحزن أو الأسف أو ما إليها

على أن ابتداع الأستاذ الفاضل أبي حديد لكلمة (هال. ها) لتقال في معرض المرح لم يبلغ من التوفيق ما يجيز استعمالها في هذا المعنى. فكلمة (هال) تقال لزجر الابل، وذلك بعيد عن المعنى الذي يقصده الشاعر

والله يحفظ السيد الجليل

محمد عبد الغني حسن

تاريخ الأمة المصرية

أثنى المسيو جابرييل هانوتو في الأكاديمية الفرنسية على الجزء الرابع من كتاب (تاريخ الأمة المصرية) وهو الذي ينشره برعاية جلالة ملك مصر

وقد خصص هذا الجزء للفتح العربي من سنة 642 ميلادية إلى الفتح العثماني في سنة 1517 وهو من تأليف المسيو جاستون فييت مدير الآثار العربية في القاهرة

الكتب

الإسلام في العالم

تأليف الدكتور زكي علي

مؤلف هذا الكتاب من الشبان القلائل الذين عرفوا بالانكباب على معالجة الشؤون والمشاكل الإسلامية، يعالجها طوراً بالكتابة في صحف الشرق والغرب، وآونة بالخطابة على المنابر في المجامع. ولطالما قرأ له المصريون كثيراً من المقالات القوية في الصحف العامة تنبئ عن اهتمامه القوي بهذه الناحية. والمؤلف إلى جانب اهتمامه بالناحية الإسلامية (طبيب) دقيق النظرة. ولقد ظهر أثر تفكيره العلمي الصائب في كتابه الذي أخرجه هذا الشهر وهو: والذي يعد محاولة طيبة من الدكتور زكي علي، له الجزاء الأوفى عليها

ولقد أوضح المؤلف في مقدمته الدافع على ذلك فقال: (في سنة 1931 غادرت مصر

إلى أوربة لأول مرة في بعثة طبية وقد كنت موظفاً كطبيب امتياز وطبيب تخدير في مستشفى قصر العيني بالقاهرة. . . ولم أكن أتوقع أن ستلح علي رغبة عنيفة لمسائل أخرى غير الطب. . . غير أني اكتشفت أن في أوربا جهلاً مطبقاً وعدم إدراك للإسلام. ذلك الدين الذي أومن به، وألفيت أن العلاقات بين الغرب والعالم الإسلامي في حال من المرض الشديد تستأهل بحث أسبابها ومعالجتها) ولم يحاول المؤلف أن يأتي بآراء جديدة في سفره هذا، ولم يعمد إلى محاولة ذلك عمداً، بل لقد ذهب يعرض آراء الغربيين عرضاً دقيقاً ويستخلص من ثنايا كتاباتهم عن الإسلام ما يدحض به كل شبهة تحك في نفس أحدهم، فهو يرى أن النظام الديني والاجتماعي في الإسلام ليس بالضيق أو ما يشتم منه ريح التزمت والجمود، بل إنه في جوهره مرن، كما أنه يعمل على النهوض بالحياة الإنسانية

ويستعرض المؤلف في كتابه هذا حياة الرسول لأنه يرى أن لا بد لدراسة هذا الدين وتفهم مراميه من تفهم حياة صاحبه , وتلك هي الطريقة التي سار عليها سير أرنولد في كتابه فلقد مهد لانتشار الإسلام بفصل عن (محمد كداعية) وفائدة هذا أن يربط القارئ بين المظاهر العامة والذاتية في حياة الرجل الذي حمل عبء الرسالة وأداها صادقاً أميناً، وكان في حياته الخاصة والعامة المثال الكامل للإنسان الفاضل، والصورة الواضحة الحق للرسول والنبي المبعوث، وما كان ينطق عن الهوى (إن هو إلا وحي يوحى، علمه شديد القوى)

ثم يعرض المؤلف للإسلام من حيث هو دين ونظام اجتماعي يربط بين الطبقات ويوحد بينهما ويتجه بمراميها إلى الغاية المنشودة من الرسالة، ولقد كتب أحد المستشرقين مرة يقول (إن حياة الشرق تتمثل في كتابين لا ثالث لهما، أما أولهما فالقرآن، وأما ثانيهما فكتاب ألف ليلة وليلة). . . كذلك يتجلى طابع الإسلام الحق وجوهره الخالص من كل زيف أو شائبة في القران وهو (كتاب اضطم على مبادئ القانون الإسلامي العام: فهو قانون لدين إجتماعي مدني تجاري حربي فقهي خلقي تشريعي سياسي؛ وهو بعد ذلك كتاب له تأثيره الدائم على أذهان المؤمنين الذي هيهات أن يتنكب بهم الطريق لو أنهم ثابروا على اقتفاء خطاه وأوامره، وليس في هذا الكتاب ما يناقض العقل) بل إنه ليشجع الاجتهاد والتخريج. ثم يعرض المؤلف للجهاد (ص 33) فيرى أنه حرب دينية دفاعية، والجهاد شرعا الحرب في سبيل الدين والذب عن حياضه، وإدخال القوم الجاحدين به في شريعته.

ويتناول الدكتور زكي نظام الحكومة والدولة في الإسلام وهو من النواحي الهامة في تاريخ هذا الدين كان له أثره البعيد في آسيا وأفريقية، فيتعرض للجزية والزكاة والخراج، وهي الأسس الاقتصادية التي تقوم عليها الحكومة في الدول الإسلامية، ويرى المؤلف أن الجزية ليست ضريبة تستؤدى من أهل الذمة كعقاب لهم بل إنها كانت نظير القيام على حفظ حقوقهم وبدلاً من قيامهم بالخدمة الحربية المفروضة على كل مسلم (ص 55)، وإن مرمى النظام الإسلامي وغايته ومجهوده أن يمد العون للنوع البشري ليوفر به أسباب الراحة الروحية، ويرقى به في سبيل الكمال والسعادة.

ومن الفصول القوية التي دبجها الدكتور زكي علي فصله عن تطور الإسلام وهو يلم فيه بما انتاب الإسلام والمسلمين من أهوال جسام في عصور التاريخ المختلفة، فلقد اشتدت عداوة المغول له فقاموا بتدمير مراكزه الكبرى في قسوة لم يعرف التاريخ لها مثيلاً حتى ليكاد ينكرها من يقرأها بعد حدوثها كما يقول ابن الأثير، وإن الدارس لتاريخ المغول في الشرق والمماليك في مصر ليرى هذه الضراوة الشديدة من ضراوة التتر ومحالفتهم لدول الغرب المسيحية للقضاء على الإسلام ممثلاً في دولة المماليك، ولم يخفف من حدتهم هذه إسلامهم.

وكذلك انتابت الإسلام أخطار جمة تعرض لها فكان ذلك الصراع العنيف بين الشرق والغرب، يدفع كلا الجانبين حماسة دينية وتعصب ملح، وهذا هو المعروف بالحروب الصليبية، فلقد امتشق فيها الغرب الحسام ضد الشرق والإسلام واتحدت شعوبه المتنافرة تحت الصليب تدفعها من الخلف حيناً روح دينية، وأحياناً كثيرة تحثها المطامع السياسية، ولكنها في كل ذلك تلبس مسوح الدين. ويرى بعض الكتاب أن هجوم التتر وتدميرهم الخلافة العباسية في بغداد إنما هو ضرورة اقتضتها حياة القوم فلقد انغمروا

في بلهنية من العيش واغرقوا في اللذات ورفاهية المادة، فكان تجديد الإسلام بتدمير هذه الحضارة وإقامة أخرى مكانها وزعيم هذا الرأي الكاتب الفرنسي ومهما يكن من صواب رأيه أو خطله فإن الحقيقة الواضحة هي أن الإسلام لم يفن بعد هذا الهجوم بل تجدد وعاد قوياً

أما دراسته عن (الإسلام في الغرب) فيعرض فيها لآراء الكتاب الأوربيين أمثال رينان وولسون كاش وأرنولد وكريمر ويظهر في تضاعيف هذا الفصل ما انطوت عليه نفس الكاتب من حماسة بالغة للإسلام خرجت به أحياناً من موقف العرض إلى الدفاع، فأكرم بهذه الروح التي أملت عليه ما أملت من نقاش ودفاع كريمين، وبهذا الفصل يختم المؤلف الفاضل القسم الأول من كتابه وقد خصصه للتعريف بالإسلام ثم، يليه القسم الثاني والأخير منه وهو دراسة تحليلية للنواحي الفكرية في الإسلام ومستقبله في العالم كدين وكنظام اجتماعي وسياسي، وهو ينظر بعين الرضا والاطمئنان للحركة التجديدية في الأدبين الفارسي والتركي وما يترتب عليهما من إحياء للماضي الحافل بصور المجد والعظمة

ويختم المؤلف كتابه بدراسة قيمة عن (الإسلام في العالم) فيرى أنه لا يستطاع الفصل بين السياسة والدين فيه بل إنهما ليتعاونان معاً في ميادين الاستقلال الاقتصادي والسياسي والاجتماعي (ص397) ويضرب المثل على صحة هذا بالملك العظيم ابن سعود فلقد نجح في إقامة دعائم مملكته على أسس مستمدة من القران والسنة، حتى لقد أصبحت الحجاز اليوم حكومة رشيدة قوية محترمة، وفي ذلك أبلغ دليل على تعاون السياسة والدين وعدم تضاربهما، على عكس الواقع في الغرب حيث لا يستطاع - بحال من الأحوال - التوفيق بين الدولة والكنيسة.

ويتساءل المؤلف في ختام بحثه هذا: هل يمكن إيجاد التعاون والتوفيق بين الإسلام والغرب؟. . . ونظرته لهذه الناحية نظرة المتفائل؛ ويذهب مدللاً على رأيه هذا بحجج بعضها في حاجة إلى نقاش وإن كانت تنتهي أخيراً إلى الموافقة على رأيه.

وبعد فهذا عرض موجز لكتاب ألفه شاب مصري أوقف جهده وقلمه وتفكيره على ناحية يستأهل من أجلها شكر الشرقيين والناطقين بالضاد في كل صقع وناد بلا تفرقة بين الملل والأديان، ذلك لأن الشرق اليوم هو العالم الإسلامي

حسن حبشي

المسرح والسينما

عصر السرعة والأعصاب المكدودة

وأثره في الإنتاج المسرحي والسينمائي

اشتهر هذا العصر بأنه (عصر السرعة) ومن علاماته المميزة - وقد تكون إحدى النتائج القريبة لهذا الوصف - توتر الأعصاب

فالبنية الإنسانية طاقة إذا أجهدت تنبهت أعصابها وأرهفت واشتدت قابليتها لكل مؤثر، ومن مجهدات الأعصاب في هذه الأيام تعدد المطالب التي لم تجعل حداً لحاجات الناس بل أطماعهم، وكثرة الأزمات في شتى نواحي الحياة، وترقب الحروب والانقلابات يوماً بعد يوم، وضعف الوازع الأدبي بفضل أخلاق الساسة ومعاملات الدول بعضها لبعض وعدم احترام التعهدات والوعود، وتهديد البطالة لك آمن أو شبه آمن، وتفشي المخدرات والأمراض، وكثرة الضوضاء، وعدم الاستقرار، وتسلط المادية. . . الخ

كل هذه الأمور أفقدت النفس مساكها والأعصاب احتمالها وظهر اثر ذلك في جميع مرافق الحياة

ففي الشارع - كثيراً ما يقابل المرء أناساً وجهاء وغير وجهاء يتحدثون إلى أنفسهم بصوت مسموع، ويضحكون من غير دافع إلى الضحك، ويشيرون بأيديهم إشارات لا تصدر إلا عن مخبول أو مذهول

وفي المرقص صدف الناس عن الرقص التصويري الشعري وافتنوا في الرقصات التوقيعية العنيفة

وفي الملعب ازدادت أحابيل المشعوذين، ومارسوا كل عمل شاذ لا يكاد يخطر على عقل سليم

وفي المعرض - تقدمت الرسوم (الكاريكاتيرية) لأنها الوسيلة الوحيدة لرسم الأفكار

الخاصة التي لا تظهر في الطبيعة
وفي الموسيقى لم تفلح الآلات الوترية الهادئة في هذا الجو الصاخب المخمور حيث أفلحت آلات (الجاز) العنيفة المدوية
وفي المكتبة اختفى الكتاب الجيد بين آلاف من الكتب الفارغة التي استعصى على أصحابها
عمق الفكرة فسبحوا على قشورها
والمسرح والسينما قد ظلا صورة حسنة لهذا العالم ينقلان أحسن ما فيه، ويقدما له المثل الصالح الممتاز
ولكن هذه النزعة المجنونة قد بدأت تؤثر فيهما وتفسد عليهما رسالتهما السامية
ازدادت في الأيام الأخيرة الأفلام من نزع:
,
, -
,
وكل هذه أفلام تدور إما حول عائلة كل أفرادها مجانين أو رجل غير مكلف أو امرأة مطلقة البدوات، أو فكرة لا يمكن أن يبتكرها غير امرئ مخدر الأعصاب مخمور
وموضع الخطر في هذا الأمر أن هذا النوع من الأفلام هو أكثرها نجاحاً اليوم
ونحن لم نشهد آخر المسرحيات في أمريكا وأوربا، ولكن المتتبع للحركة المسرحية في هذه البلاد يعرف أن هذا الخطر بدأ يدب في المسرح كذلك، وأن البيئة الأدبية بدأت تتحول نحو بعض المؤلفين الذي يستطيعون هذا النوع من الكتابة، ولم يبق هناك أي حرج في استعمال بعض الاصطلاحات التي اقتضاها هذا التجديد؛ فكلا المؤلف والناقد يقول:
أي ملهاة جنونية، ملهاة هستيرية ,
وإذا تعذر علينا أن نشهد هذه المسرحيات فإننا نعرف شيئاً عنها مما يحمله البريد. وقد يسهل أحياناً تكوين الفكرة من معرفة العنوان. فمن أسماء بعض هذه المسرحيات , ' التي لقيت نجاحاً عاصفاً في كلا أمريكا وإنجلترا في السنوات الأخيرة , وأخيراً وتقدم القوم خطوة أخرى فافتتح بعض الأمريكيين أخيراً مسرحاً لتمثيل الروايات المسرحية التاريخية القديمة كروايات شكسبير بالملابس العصرية
أما في السينما فلا يحوجنا الدليل على صدق ما نقول. فإننا نشهد معظم الإنتاج العالمي في السينما. ويمكننا أن نعمل إحصاء طريفاً في هذا الموضوع. فشركة كولومبيا تعتبر أولى الشركات تقدماً في ابتكار أنواع الخيل، وجريجوري لاكافا، ليوماك كاري ويسلي رجلز،
ميتشل ليش. . . أبرع المخرجين في إدارته. أما ممثلوه فكثيرون، أشهرهم كارول لومبار، أيرين دن، جين آرثر ميريام هوبكنز، بت دافيز، ثم جون باريمور، شارلز لاوتون، فردريك مارش، وليام باول، روبرت مونجمري (ويلاحظ أن النساء في المرتبة الأولى). وهناك (فرق) من المخبولين أشهرهم الاخوة ماركس والاخوة ريتز والثلاثة المشعوذون مو، لاري، جيري.
هذا غير عشرات من الممثلين الكوميديين الذي لا يكاد يخلو فلم واحد من وجود بعضهم.
وأخيراً لا يسعنا بعد هذا الكلام الطويل إلا أن نرجو ونأمل أن ينتج المسرح والسينما أحسن ما في هذا العالم ويدعا أسوأ ما فيه
محمد علي ناصف
العدد 253 - بتاريخ: 09 - 05 - 1938
مصطفى صادق الرافعي
بمناسبة ذكراه الأولى
في مثل هذا اليوم من العام المنصرم سكن لسان وجف قلم وانقطع وحي. وفقد البيان الملهم والفكر المنير خسارة إنسانية لا يسهل العوض منها ولا العزاء عنها.
والرافعي وأمثاله من عباقرة العلم والأدب والفن والمال، ثروة من ثروات الأمم لا تكتسب بالحيلة ولا بالإرث، وإنما هي نفثات من روح الله تنسم على الأنفس المختارة فتجعل طبيعتها بين النور والطين، ومنزلتها بين السماء والأرض، ورسالتها رفع الناس

إلى الملائكة بالمجد، وتنزيل الملائكة على الناس بالخير. إذا جاء أجلهم عاد ذلك النور الإلهي إلى مصدره، وهو أشد ما يكون نزوعاً إليه وعلوقاً به؛ ثم لا ينبثق مرة أخرى إلا حين يأذن الله لخليقته أن تهتدي ولأرضه أن تصبح

لذلك كان أسى الأمم الداكرة الشاعرة على نوابغها أسى خالداً يستمر في ذاكراتها، ويتجدد في ذكرياتها، ثم يتردد على عواطفها كلما صبت إلى أمام فلم تجد الهداة، وهفت إلى فوق فلم تجد الأجنحة

على أن النابغ في أمم الشرق يعيش وكأنه لم يولد، ثم يموت وكأنه لم يعش. ذلك لأن الحياة فيها لا تزال نوعهاً من السكر الغليظ يذهل الناس عن الوجود أكثر العمر، فإذا أفاقوا - وقليلاً ما يفيقون - عربد بعضهم على بعض!

كذلك عاش الرافعي ومات! وكذلك يعيش أشباهه ويموتون! وما حيلة الزهرة الفواحة إذا أنبتها القدر القاهر في فقار الأرض بين سفي الرمال ولفح السمائم؟

رحم الله الرافعي لقد كان في الكتابة طريقة وحده! وحسب الكاتب مزية ألا يكون لأسلوبه ضريع في الأدب كله. فإذا قيل لك إن الرافعي قديم الأسلوب في التفكير والتعبير فاحمل ذلك على الحسد الذي لا حيلة فيه، أو على الجهل الذي لا حكم معه. وتستطيع أن تتحدى من تشاء أن يدلك على كاتب يترسم الرافعي مواقع قلمه أو قدمه. إنما هي شنشنة من ضعاف الملكة وقاصري الأداة، يرمون من يجيد لغته بالتخلف، ومن يتعهد كلامه بالتكلف، ومن يؤثر أدبه بالمحافظة

أسلوب الرافعي يمتاز بالسلامة والسلاسة والإيجاز والعمق. وهذه المزايا نتائج حتمية لاكتمال عدته وغزارة مادته وصفاء ذوقه وذكاء فهمه. وأشد ما يروعك منه قوة الفن وحركة الذهن. فأما قوة الفن فهي الأستاذية التي تخلق المادة، وتصنع القالب، وتضع اللفظ، وتحدد الرسوم، وتوضح الفروق، وتتصرف بمفردات اللغة تصرف المصور البارع بألوان الطيف، وتخيل إليك أن الصناعة طبع والمعانة سليقة. وأما حركة الذهن فهي حركة الغواص الدائب لا يقف عند السطح، ولا يستقر على القاع، وإنما يضرب بيديه القويتين في أغوار البحر، وقد انقطع عن شواغل الناس بالعين والأذن. على أنها حركة الروية لا حركة العبقرية؛ فمعانيه تقطر ولا تفيض، ولكنها على طول الرشح واعتصار القريحة تصبح منهلاً طامي الجوانب صافي المورد

كان يحمل الفكرة في ذهنه أياماً يعاودها في خلالها الساعة بعد الساعة بالتقليب والتنقيب والملاحظة والتأمل، حتى تتشعب في خياله وتتكاثر في خاطره؛ ويكون هو لكثرة النظر والإجالة قد سما في فهمها على الذكاء المألوف. فإذا أراد أن يعطيها الصورة ويكسوها اللفظ، جلاها على الوضع الماثل في ذهنه، وأداها بالإيجاز الغالب على فنه، فتأتي في بعض المواضع غامضة ملتوية وهو يحسبها واضحة في نفسك وضوحها في نفسه. وذلك عيب المروين من صاغة الكلام وراضة الحكمة، كابن المقفع والمتنبي، وبسكال وبول فاليري. ومنشأ ذلك العيب فيهم أنهم يطيلون النظر ويديمون الفكر ويعمقون البحث حتى تنقطع الصلة بين عقولهم وعقل القارئ، وتتسع المسافة بين معانيهم وألفاظ اللغة، فيكتبون وأفهامهم سابقة سبوق الروح، وأقلامهم متخلفة تخلف الجسم. ويزيد في هذا الغموض أن سعة العقل في النوابغ تستلزم ضيق اللسان. فلا ترى الفضول والثرثرة والرغوة والثغاء إلا حيث يضحل الذهن ويقصر النظر وتنزر المادة. والرافعي كان يقتصد في أسلوبه، لأنه ينفق عليه من جهده ومن ذوقه ومن فنه ما يجعله أشبه بومضات الروح ونبضات القلب ونفحات العافية. فهو يفصل اللفظ على قدر المعنى تفصيل (المودة) الفاشية اليوم؛ يقصر ولا يطول، ويضيق ولا يتسع، ولكنه على ضيقه وقصره يظهر الجسم الجميل على أتم ما يكون حسناً وأناقة وهو بعد ذلك أسلوب جيد التقسيم سليم المنطق، إلا أنه بعيد الإشارة يستسر جماله على

القارئ العجلان والفهم البطيء. فإذا روي فيه الناقد المتذوق انكشف له في كل كلمة سر، وطالعته في كل فقرة آية. ولعل النفس الشاعرة لا تجد فيه من أنوثة العاطفة ما تجده النفس المنطقية من فحولة الفكرة. ومرجع ذلك في الرافعي غلبة الفكر على الشعور، وسطوة الفن على الطبيعة. . .

(للكلام بقية)

أحمد حسن الزيات

البحث عن غد
للأستاذ عباس محمود العقاد
- 3 -
كان مستر (روم لاندو) على صواب في اهتمامه بالناحية الروحية من حياة الشرق الأدنى في العصر الحاضر؛ وقد أحسن تعليل هذا الاهتمام حين قال في مقدمة كتابه: إن الشرق الأدنى هو الذي رسم للعالم الإنساني مجراه في طريق الحضارة والتهذيب. فلو خلت الدنيا من ثلاث (قارات) كاملة لما تغيرت ثقافتها الروحية إلا قليلاً، ولكنها لو خلت من أمم البقاع المحصورة بين البحر الأبيض والبحر الأحمر والخليج الفارسي، لكانت أديانها غير هذه الأديان، وآدابها غير هذه الآداب، وثقافتها غير هذه الثقافة، ومعاني الحياة والمثل العليا فيها غير ما نعلمه من معانيها ومثلها العليا في عصرنا الحديث
قال: (نعم حدث في القرن الخامس عشر بعد كشف أمريكا وإخراج العرب من الأندلس أن المحور قد تحول نحو الأقطار الغربية، ولكن الأمر لم يحتج إلى أكثر من ثلاثمائة سنة لاتجاه (الرقاص) إلى الشرق من جديد. وجاءت حملة نابليون المصرية وما وراءها من آماله في الهند وما نجم عنها من كشف الحضارة المصرية التي طال العهد بنسيانها فأنشأت عهداً جديداً له شأنه وخطره في بلاد الشرق الأدنى)
ونحن الشرقيين يحق لنا أن نغتبط بما لبلادنا من الشأن الحاضر أو المنظور في حياة العالم الروحية، ولكننا خلقاء ألا ننظر إلى الأمور بالعين التي ينظر بها الغربيون، فإنهم يبالغون ولا ريب في استضعاف شأن الحياة الروحية كما يرونها في أنحاء أوربا وأمريكا، لأنهم سئموها وعالجوا أكاذيبها ومواطن القصور منها، فكان استضعافهم إياها داعياً إلى التحول بالرجاء إلى غيرها، وكان من جراء ذلك هذا الإقبال على مسائل الشرق الأدنى ولاسيما المسائل الروحية. وقد وجد بينهم أناس تحولوا إلى الشرق الأقصى والهند خاصة لتعليل أنفسهم بشيء من الرجاء وشيء من الثقة واليقين فهي حيرة تهديهم تارة إلى هنا وتارة إلى هناك. ولا ينبغي لنا أن نجعل هذه الحيرة مقياسنا ومعيارنا في تقويم ما لنا من قيمة، وعرفان ما لنا من وزن وأمد. ونعتقد نحن خلافاً لما يعتقده بعض الأدباء الأوربيين أن البلاد الغربية ليست من النضوب الروحي بالحال التي يتخيلونها، وليست من الركون إلى
المادة والضرورات العملية بالموضع الذي يضعونها فيه. وينفعنا نحن الشرقيين أن نذكر ذلك لأننا محتاجون إلى بقية باقية في الغرب من زاد الروح والذهن والخيال، فإذا اعتقدنا في الغرب النضوب والإقفار فلا ربح في ذلك لنا بل فيه الخسارة والفوات لا جدال
لنا أن نعرف قيمتنا، ولكن ليس لنا أن نجهل قيمة غيرنا. ومن الحسن أن نحيط بما يكتبه الأجانب عنا لأنهم يرون ما يخفى علينا أحياناً من أحوالنا وخطواتنا لفرط الألفة وتكرار النظر بغير انقطاع، كما يعرف المسافر العائد إلى أبنائه كم طالوا وكم كبروا وهو لا يلتفتون إلى ذلك. ولكن المرجع إلينا آخر الأمر في الشعور بحقيقتنا، والنفاذ إلى سريرتنا، والمقابلة بين أمسنا وغدنا. ولا ضير في قليل من الثقة - بل قليل من الغرور - يزيد على المقدار، فإن المبالغة في الثقة خير من المبالغة في فقدها على كل حال
وصاحب كتاب (البحث عن غد) رجل يشعر بالإسلام والشرق الأدنى شعور المودة والترفق، ولا يتعصب عليهما أو يتعصب لأعدائهما. فهو من ثم غير متهم في مقاصده ونياته، وغير بعيد عن أسباب الفهم الصحيح والحكم العادل، ولكنه ينشد الحقيقة على طريقته العاجلة التي يتسع لها وقته في رحلاته الكثيرة، فهو أقرب إلى الأنباء الصحفية منه إلى المباحث العقلية والدروس العلمية أو الفلسفية. وهكذا ينبغي أن نتلقى آراءه وأحكامه، وننظر إلى أغراضه ومناحيه
قصد البحث عن حياتنا الروحية فماذا صنع؟ ذهب إلى السفارة المصرية في العاصمة الإنجليزية وتسلم منها كتب التوصية المعهودة وأسماء الأفراد المعهودين!! ولو قيل للمستر (روم لاندو) إن مصرياً أراد البحث في حياة إنجلترا الروحية فذهب إلى السفارة البريطانية ليسألها عن وجهات الفكر والروح في بلادها لابتسم وأدرك نتيجة البحث لأول وهلة، ولكنه رجل صحفي أو شبيه بالصحفيين، فهذه أقرب الوسائل إلى إنجاز عمله وجمع المادة اللازمة لتأليفه. وكذلك كان في كتبه السابقة حيثما تناول

الأقطاب الروحيين المقيمين في باريس أو لندن أو نيويورك: سبيله إليهم كسبيل الصحفيين إلى المحادثات وجمع المعلومات
لو ذهب مصري إلى السفارة البريطانية يسألها عن رجال الفكر والروح والخيال من الإنجليز لما ذكرت له اسم لورنس أو اسم موجهام، ولعلها لا تذكر له حتى اسم برناردشو ومن إليه من الأدباء الذين لا يلتزمون التقاليد ولا يدخلون في السجلات الرسمية. وهي لا
تهمل ذكرهم لأنها تجهلهم أو تستخف بأثرهم بين قرائهم، ولكنها تهملهم لأن وظيفتها توجب عليها أن تلتزم التقاليد ولا تعترف بما وراءها من وجهات الأفكار ومذاهب الضمائر
ومن المعقول أن تسأل السفارة أو وزارة الخارجية في إنجاز عمل أو الإرشاد إلى من ينجزه ويتولى تسهيله. أما الإرشاد إلى نزعات الفكر والروح، فالسفارات والوزارات لا تتولاه وإن عرفت طريقه، لأنها لا تدل على شيء إلا كان داخلاً في حدود المرسومات المحدودة، حتى لو ظهر عليه لون من الشذوذ
ولهذا لا عجب أن يتحدث الكاتب عن (قدم المادة) وما قيل عنها في الجامع الأزهر كأنه فتح جديد في تفكير المسلمين، مع أن المسلمين يعرفون مذاهب القائلين بالقدم والحدوث منذ مئات السنين. ومع أن المفكرين المعاصرين لا يحفلون بقدم المادة وحدوثها ولا يشغلهم من صفاتها شيء أهم من هذه الصفة التي تجلى عنها البحث في الإشعاع والتقريب بين المادة والقوة بهذه المثابة حتى أصبحت وكأنها معنى من المعاني وعدد من أعداد الرياضة والحساب
فلو أن (الباحث عن غد) وصل إلى الجامع الأزهر ووجد فيه البحث قائماً على اختلاف هذه الفروض في كنه المادة لجاز له هذا الدهش الذي أفرط فيه حين علم بما قيل عن قدم المادة من قول صحيح أو غير صحيح. أما الدهش لأمر تكلم فيه المسلمون قبل ألف سنة فماذا فيه من البحث عن غد؟ وماذا فيه من النزوع إلى الجديد؟
كذلك يغلو الكتاب الأوربيون على هذه الشاكلة في قياس الحركات الذهنية بما تثيره من الضجيج بين رجال الدين أو بين طلاب المعاهد الدينية. ومن ذلك مثلاً اعتقادهم أن الأستاذ علي عبد الرازق قد غير في قواعد الدين يوم قال إن الخلافة ليست من مراسم الإسلام. وما اعتقدوا هذا الاعتقاد إلا لأنهم حسبوا أن الضجة التي أثيرت حول كتابه كان مبعثها التعصب والغيرة على الدين. ولم يعرفوا الحقيقة التي يعرفها معظم المصريين، وهي أن السياسة لعبت لعبتها في هذه المعمعة من مبدئها إلى منتهاها. فلو أن الأستاذ علي عبد الرازق أعلن رأيه قبل بضع مئات من السنين يوم كان الأمراء المصريون يسعون في إضعاف الخلافة لقوبل كتابه بالترحيب والمكافأة الجزيلة. ولو أن المسألة مسألة قديم وجديد وتغيير في الأصول الدينية لكان الأولى أن يثير من الغضب يوم ذاك أضعاف ما أثاره في
عصرنا هذا، ولكنها مسألة لها موقعها من السياسة ومن مآرب العيش عند بعض الناس فكان من جرائها ما كان
لهذا نقول إن حكم الأوربيين ولاسيما المستشرقين على شؤون مصر وشؤون الشرق العربي كافة أضعف الأحكام وأبعدها عن حساب العوامل الصحيحة والبواعث الخفية، بل ربما كانت أبعدها عن البواعث الظاهرة في كثير من الأحيان. وما كتبهم في هذه الأغراض إلا طائفة من (الكتالوجات) على طراز آخر غير الطراز التجاري أو الطراز السياسي، ولكنه مثله في الجوهر وطريقة التحضير
ونخص المستشرقين بالخطأ مع أنهم أحرى أن يقتربوا من الصواب ويرجحوا إخوانهم الأوربيين الآخرين بمعرفة اللغة والاطلاع على التاريخ، إذ الواقع أن (الاستشراق) قد نشأ قديماً في بيئة التبشير ولا تزال فيه جذوره ومراميه؛ وكل ما يعني المبشرين هو مراسم الدين وتقاليد المساجد والكنائس والعبادات. فإذا نشبت مشاجرة في مسجد أو كنيسة فذلك أدنى إلى ملاحظتهم من اختلاف مقاييس الفكر ودعائم الضمير، لأنهم هم أنفسهم يعيشون في هذه البيئة وما يحاذيها من طبقات الأدب وطبقات التفكير، فهم معرضون لأخطاء أعظم من التي يتعرض لها الأوربيون الجاهلون بلغات الشرق وتواريخه الأدبية، لأنهم ينظرون مغرضين وفي أعينهم قصر وعلى أعينهم غشاوة لا تميز الحقائق ولا تنفذ إلى ما وراء القشور

وعلى هذا يصح أن نحيط بما يكتبه الأوربيون عنا لنعرف منهم ملاحظاتهم التي تخفيها الألفة والنظر المتكرر إلى المتواتر من أحوالنا، ولا يصح أن نقوم آراءهم وأحكامهم بأكبر من هذه القيمة أو نسومها بغير هذا السوام

عباس محمود العقاد

تأملات في الأدب والحياة

للأستاذ إسماعيل مظهر

المدنيات وبيئاتها

لكل مدنية من المدنيات بيئات عديدة، ومن هذه البيئات ما هو طبيعي فطري، ومنها ما هو اكتسابي

أما الطبيعي فكالموقع الجغرافي، وطبيعة الأرض وما يحيط بها من البحار، وما يتخللها من الأنهار، وما يبرز فوقها من الجبال، وما ينبسط فيها من السهول، وما ينزل بها من المطر، وما يهب عليها من الرياح، وما ينبث في الأرض من الأشجار، وما يتخلل جوها من الرطوبة، وما يذيع فيه من حرارة أو برودة. وأما الاكتسابي فكالمعتقدات العامة والشرائع الموروثة والأديان والعادات وطبيعة الحكم وصفة الحكومة وأخلاق الطبقة الحاكمة إلى غير ذلك

أما البيئة الطبيعية فقلما تتغير؛ وإن تغيرت فإن تغيرها لا يتناول الجوهر الثابت، وإنما يتناول العرض، فازدياد هبوب الرياح أو قلة الأمطار أو تغير الطقس من جفاف إلى رطوبة؛ أو من حرارة إلى اعتدال، قد يؤثر في الأمزجة بعض الشيء؛ ولكن الأثر لا يتناول الطبع الثابت في الأنفس بما يغير من طابع مدنية أصيل في الجبلة. ذلك على العكس من البيئة المكتسبة، فإن زوال معتقد من المعتقدات، أو انهيار دين من الأديان، أو شريعة من الشرائع، أو عادة من العادات، وحلول غيرها محلها، قد يلبس مدنية من المدنيات ثوباً جديداً ويدمغها بميسم له سمات خاصة. على أن هذه السمات قد تتكيف بما يلائم وحي البيئة الطبيعية، غير أنه يكون مختلفاً عن السمات التي تتسم بها المدنية في ظل معتقدات أو أديان أو شرائع انهارت وقامت أخرى على آثارها

على هذا نستطيع أن نقضي بأن انحلال المدنيات إنما يتناول بيئاتها المكتسبة، لأن انحلال بيئاتها الطبيعية مستحيل تقريباً. أما السبب في أن تظل شعوب أزماناً طويلة في ركود بعد انحلال طور من أطوارها المدنية، فيرجع في الغالب إلى انعدام المنبهات التي تبعث في الأنفس حب المجد والعظمة وعلو الذكر والسيادة العالمية. وهذه صفات إن انحلت بانحلال وجه من وجوه المدنية فإن بعثها يكون رهن ظروف لا يمكن التكهن بها

التفكير المستقل

فيلسوف ألماني ولد بمدينة دنتزج سنة 1788، وتوفي سنة 1860. (أرثر شوبنهور) ولقد كتب مؤلفات أشهرها وأعمقها كتابه (العالم إرادة وفكر) ولقد نال هذا الفيلسوف شهرته في مصر خاصة والشرق عامة بنظريته في القوة ونظريته في المرأة، إذ نزع إلى أفكار وتأملات ألبسته في الأذهان ثوباً من التطرف كانت له جدته وطرافته في عصر كنا فيه مقيدين بقيود تخلصنا من أكثرها في عصرنا هذا. غير أن لهذا الفيلسوف الفذ تأملات في الحياة والفكر قلما عرفنا منها شيئاً. ومن أطرف ما خص بتأملات هذا الفيلسوف من نواحي الحياة ناحية الفكر المستقل، أو التفكير المستقل الذي يكون خالصاً لك من التأثر بأفكار الغير ونظرياتهم. ونقتطف هنا لقراء الرسالة فقرات من مقاله في هذا الموضوع وهو من أمتع ما كتب شوبنهور قال:

(كما أن أغنى خزائن الكتب وأحفلها بالمؤلفات لا تكون مفيدة - إذا لم ترتب - فائدة أخرى قليلة العدد حسنة الترتيب. كذلك الحال في ما تحصل بالدرس من المعلومات، فإنها مهما غزرت وكثرت لا تفيدك إن أنت لم تصقلها بفكرك الخاص فائدة معلومات قليلة تعهدتها بالصقل والتأمل الطويل فيها. لأنك بالتأليف بين معلوماتك، ومقارنة كل الحقائق التي تقع لك مقارنة تفكير وعمق، إنما تستطيع أن تهضم المعارف التي تحصل عليها فتصبح ملكاً لك وطوع قوتك. فإن الإنسان ينبغي له أن يدرس. ولكن ما يدرسه لا يصبح ملكاً خالصاً له إلا إذا فكر فيه وأطال التأمل له)

(إن الفرق بين الأثر الذي يحدثه التفكير الذاتي، والأثر الذي تحدثه القراءة في الفكر، كبير جهد الكبر. ذلك بأن التفكير الذاتي وحده هو الذي له القدرة على أن يمد آفاق

الفكر في نواح مختلفة تزيد في قوة الابتكار في الذهن حتى يتسنى له أن يختار حراً
(طليقاً أي طريق يسلك، وينظر في أي جهة يختار
إن القراءة تفرض على الذهن أفكاراً، هي بذاتها غريبة متنافرة بعيدة عن المتجه)
والمنحى الأصيل لفكر القارئ؛ فيكون مثلها كمثل الخاتم أن يطبع الشمع بنقوشه
الخاصة. وإن لذلك على العقل من الأثر ما يعادل أثر الأشياء الخارجية على الأجسام،
فيظل العقل مضطراً إلى التفكير في هذا ساعة وفي ذاك أخرى، من غير أن يكون له
رغبة في الإكباب على
التفكير في كليهما أو القدرة على استيعابهما. أما إذا مضى العقل يفكر لذاته فإنه إنما
ينساق إلى التفكير في أشياء تفرضها عليه السليقة وتدعوه إليها الفطرة. وإن لي أن
أقول إن كثرة القراءة تجرد العقل من مرونته. ومثلها في ذلك كمثل الثقل التارز
الشديد إذا وضع على فوهة نبع فائض، فإنه يثقله ويعيق جريانه. وعندي أن أقوى
الوسائل التي تصد الفكر عن الوصول إلى الأفكار المبتكرة هي أن تلجأ إلى كتاب تقرأ
فيه كلما أردت أن تنفق وقتاً أو تقطع مرحلة من فراغك. وهذا هو السبب في أن كثيراً
من حملة الشهادات العليا يكون عادة أقل ذكاء وأكثر بلادة مما هم إذا تركوا على
الفطرة)
وكتاب فوست (كرستوفر مارلو)
هو من كبار كتاب الدرامة من الإنجليز، وهو من المتقدمين على شكسبير. ولد في
سنة 1563، أو سنة 1564، ودرس في كمبردج ثم هبط لندن واستقر بها. وله كثير
من المؤلفات أهمها كتاب (فوست) الذي نسج على منواله جوته الألماني. ولعل كثيراً
من القراء لا يعرفون أن لهذا المؤلف الإنجليزي خطر السبق في صياغة تلك الدرامة
العظمى التي خلدت اسم جوته في التاريخ، وغشت على اسم مارلو بسحابة من
النسيان. وننقل هنا قطعاً مما كتب (مارلو) عسى أن ينتبه بعض الأدباء إلى دراسة ذلك
الرأي الأدبي الجليل:
فوست في حجرة درسه:
فوست - والآن، أمن المحتوم أن تحل على فوست اللعنة، وألا يكون من الناحين؟ ما
الذي يحملني إذن على أن أفكر في الله والسماء؟ ألا بعداً لمثل هذه التخيلات الدنية،
ومرحباً باليأس، باليأس من الله، والثقة في بعل لا تتقهقر، بل تشدد يا فوست وكن
قوي الإرادة. لماذا تضطرب؟ هاهو ذا شيء يرن في أذني صداه. (أقلع عن هذا السحر
وارجع إلى الله ثانية)، أيرجع فوست إلى الله مرة أخرى؟ إلى الله! إنه لا يحبك. إن
الله الذي ينبغي أن تخدم وتعبد، إنما هو شهوتك الذاتية، إذ فيها قد انغرس حب بعل
وتأصل. وله سوف أشيد مذبحاً وكنيسة، وأقرب له دم الأطفال فائراً حاراً
يدخل ملكان: ملك الخير، وملك الشر
ملك الخير - فوست! أقلع عن هذه المهنة الساقطة.
فوست - الندم. الصلاة. التوبة. ما عندك منها؟
ملك الخير - نعم: إنها الأسباب التي تأخذ بيدك إلى السماء.
ملك الشر - إنما الأوهام، وثمرات الجنة والمس، هي التي تخلط العقل، وتجعله أجنح
إلى التصديق بها، والاعتقاد فيها
ملك الخير - فوست! فكر في السماء، وفي أشياء السماء.
ملك الشر - كلا يا فوست! بل فكر في العزة والمال.
يخرج الملكان
فوست - في المال! لم ذا؟ إن ضيعة إميدن ستصبح ملكاً لي. مال الذي سيكون في
مستطاع الله أن يفعل بي إذا ما أيدني مفستوفيليس وأخذ بيدي؟ إنك ناج يا فوست. لا
تكثر من شكوكك. تعال. تعال يا مفستوفيليس، وقص عليّ أخبارك السارة عن إبليس
العظيم. إن الليل لم ينتصف بعد. تعال. تعال يا مفستوفيليس!
يدخل مفستوفيليس
والآن خبرني، ما الذي يقوله سيدك إبليس؟
مفستوفيليس - قال إني سأكون في خدمة يا فوست طوال حياته، على أن يشتري
خدمتي له بثمن هو روحه.
فوست - إن فوست قد جازف فعلاً بهذا وبذلك

مفستوفيليس - ولكن تذكر يا فوست أنك لابد من أن تهب روحك مخلصاً، وأن تكتب بالهبة صكاً يكون مداده من دمك، فإن هذا الضمان يطلبه إبليس العظيم. أما إذا رفضت فسوف أعود إلى جهنم.

فوست - تأن يا مفستوفيليس وخبرني: أي خير يستمد سيدك من روحي؟

مفستوفيليس - يزيد بها ملكوته.

فوست - أهذا هو السبب في أن يبلونا ويمتحننا كما يفعل؟

مفستوفيليس - دعك من هذا وخبرني هل أنال روحك لأكون لك عبداً وأقف على خدمتك وأضفي عليك من العطايا أكثر مما يصل إليه خيالك؟

فوست - نعم. سأهبك إياها.

مفستوفيليس - إذن اطعن ذراعك بشجاعة، وقيد روحك واعترف بأن من حق إبليس العظيم أن يستحوذ عليها يوماً ما لتكون له. وهنالك ستكون عظيماً كإبليس نفسه.

فوست - (يطعن ذراعه) مفستوفيليس! حباً لك أقطع ذراعي، وبدمي الصميم أسجل أن روحي أصبح ملكاً لإبليس العظيم، للملك الأكبر المهيمن على دار الظلام المستديم. أنظر! هاهو ذا الدم الذي يقطر من ذراعي، لعل فيه كفاء لغرضي

مفستوفيليس - إنما هو لزام عليك أن تكتب به صك هبة

فوست - نعم. سأفعل. (ويكتب) غير أن دمي يتخثر سريعاً، ولا أقدر أن أكتب به أزيد مما كتبت

مفستوفيليس - سأحضر لك قبساً من نار يحلله ويجعله صالحاً (ويخرج)

فوست - أي شيء ينذر به تخثر دمي ووقوفه عن الاندفاق؟ أينذر بأنه لا يريد أن يكون مداداً لكتابة هذا الصك؟ لم لا يعود إلى الجريان والتدفق حتى أقدر على تحرير الصك به؟ (إن فوست يهبك روحه): آه. عند هذا وقف دمي. ولكن لماذا لا تعقل يا فوست؟ أليس روحك ملكاً لك؟ إذن فاكتب ثانية - (إن فوست يهبك روحه)

(يدخل مفستوفيليس حاملاً جمرات ملتهبة)

مفستوفيليس - فوست! هذه نار. تقدم وضعها على الدم

فوست - لقد أخذ الدم يصفو مرة أخرى. وإذن ينبغي لي أن أتم الأمر سريعاً (ويمضي في الكتابة)

مفستوفيليس - (مبتعداً) لم أثق من حيلة إلا أخذت بها لأنال روحه

فوست - لقد انتهى الصك، ووهب فوست روحه لإبليس العظيم. ولكن أي أثر ذاك الذي انطبع على ذراعي؟ أين أطير؟ أين أذهب؟ أإلى الله! إنه سوف يلقي بي في جهنم؟ لقد غشتني حواسي. ليس من شيء على ذراعي. ذلك ظاهر. لقد كان هنالك شيء مكتوب على ذراعي. أين أطير؟ أين أذهب؟

مفستوفيليس - سأبحث عن شيء يهدئ روحه ويرضي عقله. (يبتعد ثم يخرج)

هذه قطعة مما كتب (مارلو) الأديب الإنجليزي. ولا شك عندي أن في خياله وسياقه لشبهاً بما كتب (جوته). وأن مقابلة أدبية بين ما كتب الأديب الإنجليزي والخالد الألماني، لموضعاً للدرس ومجالاً لخلق صورة من الأدب حديثة

إسماعيل مظهر

باقة من الفلسفة الإسلامية

الفيلسوف ابن مسكويه وكتابه تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق

للأستاذ محمد حسن ظاظا

(ولا ينبغي على أية حال أن نشكر له فقط محاولته إقامة نظام خلقي بعيد عن نزعات الدينيين وزهد المتصوفة، بل ينبغي كذلك أن نسجل له، في الرسم الذي وضعه، الذوق السليم والثقافة الواسعة)

(دي بوير)

نعرض اليوم بإيجاز لفيلسوف إسلامي أخرج للناس دستوراً إيجابياً أخلاقياً طريفاً قوامه المنطق الصحيح والذوق السليم، بحيث لو تبعوه في حياتهم لنالوا به السعادة الحق دنيا وأخرى. ونعني به الفيلسوف (أبو علي احمد بن محمد بن يعقوب مسكويه) صاحب (كتاب تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق)، وهو الكتاب المعروف الذي نصح الإمام (محمد عبده) بتدريسه في الأزهر إلى جانب الإحياء للغزالي، والذي قام المرحوم

(علي باشا رفاعة) بنشره وتبويبه، والذي شرع الزعيم الخالد (سعد زغلول) في اختصاره والتعليق عليه دون أن يتمه

1 - عصره

عاش ابن مسكويه في العصر العباسي الثالث أي في العصر الذي يمتاز بشدة ضعف الخلافة العباسية وبقيام دويلات لا يعترف أكثرها للخليفة بغير السلطة الاسمية. ويهمنا من هذه الدويلات الدولة البويهية (320 - 447هـ) لأن ابن مسكويه عاش ومات في كنفها. وكانت هذه الدولة مظهراً قوياً للنشاط الفارسي الذي كان يرمي إلى الانفصال عن حكم العباسيين واستعادة مجد الفرس القديم. وكان ملوكها يحبون العلم والأدب ولا يستوزرون أو يستكتبون إلا عظماء الأدباء كالمهلبي وابن العميد وابن عباد وغيرهم. وكانت مجالسهم أبداً حافلة بكبار الشعراء والعلماء والفلاسفة ومن على شاكلتهم. لذلك لا عجب أن يمتاز هذا العصر بنضج العلم، وتكوين المعاجم اللغوية، واستقرار الإنشاء على أسلوب مثالي. ولا

عجب أن تنمو الفلسفة وتزهر، وتستقر قواعد الطبيعيات والطب، ويتسع خيال الشعراء، ويظهر الشعر الفلسفي، وينمو فن التاريخ والجغرافيا، ويظهر النقد الأدبي، وتؤلف القصص المجازية، وتنتشر المكاتب حاوية لألوف المخطوطات) أجل ولا عجب أن يظهر أمثال ابن سينا وابن مسكويه والهمذاني والخوارزمي، والمتنبي وأبي فراس والأصفهاني والقالي والثعالبي والتوحيدي والصابي والشريف الرضي والتنوخي والطبري

على أن الحالة الخلقية لذلك العصر لم تك لتساير الحالة العلمية رقياً ونجاحاً. ويلوح ذلك في ميكيافيلية السياسة وعبث الكبراء والعظماء على السواء. وما بالك بحكم قاس عنيف يصلب ويثمل ويبتر ويستمع للوشايات والدناءات، وتمتد يد بطشه وغدره إلى الوزراء والأمراء والسلاطين القريب منهم والبعيد؟ وما بالك بعظماء وكبراء يقول (الثعالبي) في أحد مجالس لهوهم: (أنهم أخذوا بفن من الانخلاع عجيب، وبطريق من الاسترسال رحيب!؟) ويقول في مجلس آخر:

فكان الذي لولا الحياء أذعته ... ولا خير في عيش الفتى إن تسترا!

وفي مجلس ثالث:

(ولم نزل نشرب الراح إلى أن باح الصبح بسره، وقام كل منا يتعثر في سكره!؟)

2 - حياته

وعسير جداً أن نتلمس حياة ابن مسكويه فيما ترك من كتب أو فيما ذكر عنه الكتاب والمؤرخون. وكل ما قد استطعنا كشفه من المؤلفات والتراجم العديدة التي اطلعنا عليها هو أنه ولد حوالي عام 330هـ ومات في 9 صفر سنة 421هـ (16 فبراير سنة 1030م)، وكان مولده (بالري) في أسرة فارسية شريفة. وسرعان ما يترك والده أمه فيبقى هو راعياً لها حتى تتزوج بغير أبيه فيتركها وينزح إلى بغداد شاباً. وهناك يتصل بالوزير (المهلبي) حوالي سنة 348هـ ويدخل في خدمته ككاتم لسره، ويبقى إلى جانبه ينادمه ويسامره حتى عام 352هـ وهو عام وفاة الوزير؛ ومن ثم يعود إلى الري حيث يلتحق بخزانة الوزير العظيم (ابن العميد) وينال ثقته ومحبته وصداقته، ويبقى معه حتى عام سنة 360هـ لينتقل بعد وفاته إلى خدمة ولده الوزير (أبي الفتح). وقد بقي في خدمة هذا الشاب حتى تنكر له الدهر ودخل الوزير السجن سنة 366هـ. ثم التحق بعدئذ بخدمة الملك الظافر (عضد

الدولة) الذي استولى على بغداد وغدر بسلطانها عز الدولة أشنع غدر، كما التحق بعده بخدمة صمصام الدولة وشرفها حتى عام 379هـ، وهو العام الذي دخل فيه في خدمة (بهاء الدولة) واختص به وعظم قدره عنده. وهكذا انتقل ابن مسكويه من خدمة وزير إلى سلطان حتى هرم وشعر بدنو الموت، فانتقل كما يقول صاحب (روضات الجنان) إلى (أصبهان) حيث مات عام 421هـ، وحيث دفن في (محلة حاضو) بقبر مشهور معروف. . .

3 - ثقافته وأخلاقياته

وقد تثقف ثقافة أدبية واسعة، ونهل من مجالس العلم ومكتباته، وعني عناية خاصة بالأخلاق فدرس حكمها عند الفرس والعرب والهنود والروم، وجمع ما راقه من هذه الحكم وأخرجه في كتاب لا يزال مخطوطاً. هذا إلى أنه قرأ ما قد خلفه أرسطو

وأفلاطون وجالينوس في هذه الناحية ومحصه تمحيصاً. وكأنما دفعته تربيته العائلية السليمة، وقلبه الكبير الحي، وتجربته الأليمة في مجالس السلاطين والوزراء، إلى إنقاذ عصره والعصور التي تليه من السياسة الخرقاء والأخلاق المعتلة، فراح يقرأ في الأخلاق ويؤلف، ويخرج للناس كتباً فيها من المنطق الصحيح ما يهديهم إلى (كمالهم الإنساني)، ويأخذ بيدهم إلى طريق الفضائل والعلوم لتتم لهم السعادة التي ينشدونها عبثاً في تلك الخيرات الوهمية الخارجية، خيرات (الكون والفساد). وقد تجلت هذه النزعة فيما ترك من عهد عاهد فيه نفسه (أن يجاهدها ويتفقد أمرها ما استطاع، فيعف وتشجع ويحكم، ويقتصد في مآرب بدنه حتى لا يحمله السرف على ما يضر جسمه أو يهتك مروءته، ويحارب دواعي نفسه الذميمة حتى لا تقهره شهوة قبيحة ولا غضب في غير موضعه، ويستبصر في اعتقاداته حتى لا يفوته بقدر طاقته شيء من العلوم والمعارف الصالحة، ليصلح أولاً نفسه ويهذبها ويحصل له من هذه المجاهدة ثمرتها التي هي العدالة. . . الخ). أقول تجلت هذه النزعة في ذلك العهد الطريف، وتجلت كذلك في كتابه التاريخي المعروف (تجارب الأمم وعواقب الهمم) وهو الكتاب الذي فضح فيه بجرأة وصراحة الكثير من رذائل السلاطين الذين خدم أولادهم وأحفادهم كما تجلت على الخصوص في كتابه العظيم الذي نحدثك عنه الآن:

4 - كتاب تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق

ويعتبر هذا الكتاب أهم كتبه الأخلاقية وأطرفها وأكملها ونظراً لأن ابن مسكويه كان أديباً شاعراً يحذق العربية والفارسية على السواء، فإن أسلوبه فيه يمتاز بالسلاسة والرقة والعذوبة على غير عادة الفلاسفة الإسلاميين , وقد أعجب (الطوسي) به كل الإعجاب فترجمه إلى الفارسية وقال عنه:

بنفسي كتاب حاز كل فضيلة ... وصار لتكميل البرية ضامنا
مؤلفه قد أبرز الحق خالصاً ... بتأليفه من بعد ما كان كامنا
ووسمه باسم الطهارة قاضياً ... به حق معناه ولم يك مائنا
لقد بذل المجهود لله دره ... فما كان في نصح الخلائق خائنا

والكتاب بعد هذا ست مقالات تدور كما قلنا حول الأخلاق الإيجابية للإنسان، أي الأخلاق التي تليق به من حيث هو حيوان ناطق. ولذلك نراه يفرق في المقالة الأولى بين النفس والجسد تفريقاً يثبت به روحانية الأولى وخلودها واحتياج قواها المختلفة إلى كمال خاص يتفق وما فيها من عقل مسيطر وفكر مقدس. ونراه يتناول في الثانية خلق الإنسان وقابليته للتغير والتهذيب ومدى أثر المعرفة في العمل الخلقي، ويتأدى من ذلك إلى (المنزلة الرفيعة) الجديرة بالإنسان وماذا عسى أن يعوقنا عنها. أما المقالة الثالثة فلا تتناول غير موضوع السعادة بالبسط والمناقشة والعرض. وأما المقالة الرابعة فتحدد الأعمال الخلقية وتميزها عن غيرها وتنتهي بنا إلى المقالة الخامسة التي يبسط فيها أنواع المحبة بوجه عام ومحبة الصديق على الخصوص. وأخيراً تأتي المقالة السادسة لتبين لنا طريق حفظ الصحة على النفس ومعالجتها إذا مرضت

ويطول بنا المقام إذا أردنا أن نبين وجه الطرافة والجمال والأنساق في هذه المقالات البعيدة في منهجها عن منهج الدينيين - (كالبصري في كتاب أدب الدنيا والدين) -، والمعتمدة في طريقتها على الاستقراء العلمي الدقيق الذي (يكاد) ينطق بالتطور، والذي يرسل البصر في الكون كله ويحدد للإنسان ماهيته وعمله فيه!

أما مصادره في ذلك الكتاب فهي تلك الثقافة الخلقية الواسعة التي استمدها من الأمم الأربع، والتي يلوح فيها القرآن متفقاً مع أرسطو وأفلاطون وجالينوس وغيرهم من حكماء اليونان على الخصوص.

وإذا حاولنا أن نعقد مقارنة بين هذا الكتاب وبين كتاب أرسطو (إلى نيكوماخوس): وجدنا ابن مسكويه يبز المعلم الأول أحياناً في الوضوح والانسجام، ويتفوق عليه في فصول خاصة كفصل الصداقة والصديق، ويزيد على فصوله فصولاً أخرى جوهرية كفصلي (دفع الأحزان) و (حفظ الصحة على النفس السليمة)!!

لذلك ننصح القارئ العزيز بقراءة هذا الكتاب مرة ومرة ومرة، ويجعله دستوراً له في حياته كإنسان يرنو إلى السعادة الحق دنيا وأخرى) ونختتم هذا التعريف الموجز بقول ابن مسكويه لابن العميد:

لا يعجبنك حسن القصر تنزله ... فضيلة الشمس ليست في منازلها
لو زيدت الشمس في أبراجها مائة ... ما زاد ذلك شيئاً في فضائلها
أو بقوله لعميد الملك:
فانظر إلى سير القوم الذين مضوا ... والحظ كتابتهم من باطن الكتب
تجد تفاوتهم في الفضل مختلفاً ... وإن تقاربت الأحوال في النسب
هذا كتاج على رأس يعظمه ... وذاك كالشَعر الجافي على الذنب!!

محمد حسن ظاظا
مدرس الفلسفة بشبرا الثانوية الأميرية

التصاوير والتماثيل في الحضارة الإسلامية
التصوير في الكتب
لأستاذ جليل

التصوير في (الحضارة الإسلامية) في الحجر والكتاب - كثير. وإذا جد واستمر بحث النابشين وتنقيب المفتشين ظهرت نفائس مضمرات، وبدت بدائع مكنونات، وعرف الناس من آثار تلك المدنية المحمدية ما لم يكونوا قد عرفوه

وإن (كتاب الله) لم يذمم في آية من آياته تحسيناً ولا تجميلاً، ولم يحرم تصويراً ولا تشكيلاً. وهل الخط أو التسطير إلا تدبيج وتصوير؟ وهل الكتابة أصلها إلا صور؟ وهذه قصور المروانية والعباسية - والقوم حماة الدين وخلفاء المسلمين - فيها الأشكال والتهاويل
(من كل شيء يرى فيها تماثيل)

وقد زار مسلم عربي منذ أشهر قصر هشام بن عبد الملك الذي كشفه المنقبون في ناحية أريحاء من أعمال فلسطين في السنة الماضية فشاهد صوراً ناتئة لوجوه أناس عرب في بقايا الغرف والجدران

قلتُ يوماً لدار قوم تفانوا ... أين سكانك العزاز علينا
فأجابت: هنا أقاموا قليلاً ... ثم ساروا، ولست أعلم أينا

وكان في رفاقته أحد معارفه فقال مستعجباً: ما هذا؟ خليفة مسلمين، وأمام دين، وصور وتماثيل!!

فقال المسلم العربي مفاكهاً مازحاً: لم يكن (المحرم) قد نجم ودونت كتبه في أيام هشام. . .

وجاء في تاريخ بغداد لابن الخطيب في وصف دار الخلافة: (وفيها - أي دار الشجرة في دار الخلافة - شجرة في وسط بركة كبيرة مدورة، فيها ماء صاف، وللشجرة ثمانية عشر غصناً، لكل غصن منها شاخات كثيرة، عليها الطيور والعصافير من كل نوع مذهبة ومفضضة، وأكثر قضبان الشجرة فضة، وبعضها ذهب، وهي تتمايل في أوقات، ولها ورق مختلف الألوان يتحرك كما تحرك الريح ورق الشجر، ولك من هذه الطيور يصفر ويهدر. وفي جانب الدار يمنة البركة تماثيل خمسة عشر فارساً على خمسة عشر فرساً قد ألبسوا الديباج وغيره، وفي أيديهم مطارد على رماح يدورون على خط واحد في (الناورد) خبباً
(وتقريباً فيظن أن كل واحد إلى صاحبه قاصد، وفي الجانب الأيسر مثل ذلك

وذكر ابن أبي الحديد في (شرح النهج) الكبير: (إنه كان على سيف عضد الدولة بن بويه وأبيه ركن الدولة صورة علي (رضي الله عنه)، وكان على سيف ألب أرسلان وابنه ملكشاه صورته)

وروى صاحب (النفح) عن بدر الدين بن الحسن الأربلي المتطبب وصف تصاوير في حمام رآه في بغداد في (دار الملك شرف الدين هرون بن أمازير الصاحب شمس الدين محمد الجويني) تدهش مبصريها، وتعجز واصفيها، وقد يجد الفتيان الشطار والمتفننون من رجال الليل ما يشبهها اليوم في بيوت في (باريس). . وربما لا يجدون.

وهي الحضارة، وهو التفنن فيها. . . وهذا ما تسهل روايته من وصف الأربلي:

وأبصرت مياهه وشبابيكه وأنابيبه المتخذ بعضها من فضة مطلية بالذهب وغير مطلية،) وبعضها على هيئة طائر إذا خرج مها الماء صوت بأصوات طيبة. ثم أراني - يعني سائس الحمام - نحو عشر خلوات، كل خلوة أحسن من صنعة أختها. ثم انتهى بي إلى خلوة عليها باب مقفل بقفل حديد ففتحه، ودخل بي إلى دهليز طويل، كله مرخم

بالرخام الأبيض الساذج، وفي صدر الدهليز خلوة مربعة، ورأيت من العجائب في هذه الخلوة أن حيطانها الأربعة مصقولة صقالاً لا فرق بينه وبين صقال المرآة، يرى الإنسان سائر بشرته في أي حائط شاء منها. ورأيت أرضها مصورة بفصوص حمر وصفر وخضر، ومذهبة؛ وكلها متخذة من بلور مصبوغ، بعضه أصفر، وبعضه أحمر؛ فأما الأخضر فيقال: إنه حجارة تأتي من الروم، وأما المذهب فزجاج ملبس بالذهب؛ وتلك الصور في غاية الحسن والجمال على هيئات مختلفة في اللون وغيره. وكل محاسن الصور الجميلة مصورة في الحائط)

وهذا خبر عن مصنف مصور في العلم قد أرصن تأليفه وتصويره أيما إرصان، وكأنه آخر ما قيل في أمريكة وأوربة في توضيح الكتب بالصور. وإني لأرويه مؤيداً ومسانداً المقالة الجديدة المفيدة: (التصوير التوضيحي في المخطوطات الإسلامية) التي أطرفها الناس في (الرسالة) الغراء الأديب المتفنن الدكتور أحمد موسى، والتي زينت لي تصوير هذه السطور:

قال ابن أبي أصيبعة في كتابه (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) في سيرة رشيد الدين بن الصوري: (ولرشيد الدين ابن الصوري من الكتب كتاب الأدوية المفردة. وهذا الكتاب بدأ بعمله في أيام الملك المعظم، وجعله باسمه واستقصى فيه ذكر الأدوية المفردة، وذكر أيضاً أدوية اطلع على معرفتها ومنافعها، لم يذكرها المتقدمون. وكان يستصحب مصوراً، ومعه الأصباغ والليق على اختلافها وتنوعها، فكان يتوجه رشيد الدين ابن الصوري إلى المواضع التي بها النبات مثل جبل لبنان وغيره من المواضع التي اختص كل مها بشيء من النبات، فيشاهد النبات ويحققه، ويريه للمصور فيعتبر لونه ومقدار ورقه وأغصانه وأصوله، ويصور بحسبها ويجتهد في محاكاتها. ثم إنه سلك أيضاً في تصوير النبات مسلكاً مفيداً، وذلك أنه كان يرى النبات للمصور في إبان نباته وطراوته فيصوره، ثم يريه إياه وقت كماله وظهور بزره فيصوره تلو ذلك، ثم يريه إياه وقت ذويه ويبسه فيصوره، فيكون الدواء الواحد يشاهده الناظر إليه في الكتاب وهو على أنحاء ما يمكن أن يراه به في الأرض، فيكون تحقيقه له أتم ومعرفته له أبين)

إن التصوير غير الشركي وغير العهري لمباح. وإن التصاوير والتماثيل إنما هي تحاسين وتزايين (قل من حرم زينة الله)، وإذا كان ذلك للهدى والتذكير والتعليم والتثقيف فقل بالوجوب

القارئ

الرافعي بعد عام

للأستاذ محمد سعيد العريان

في صباح الاثنين 10 مايو سنة 1937 نعي المرحوم مصطفى صادق الرافعي إلى أدباء العربية، فجأة وبغير إنذار؛ فسكت القارئ وتلفت السامع، وتغشى السامرين من أهل الأدب سكون ووحشة وانقباض

وطالت فترة الصمت، والسامرون في غشيتهم لا ينطقون، إلا نظرات شاردة، وخواطر تصطرع وتموج، وذكريات تنبعث محرقة لاذعة، تذكر بما كان وتنبه إلى ما ينبغي أن يكون. . .

وهمس هامس: (يرحمه الله! لقد كان رجلاً للدين وللعربية هيهات أن تجد بديلاً منه أو ينقضي زمان من عمر التاريخ!)

ثم عاد الصمت، وعاد السكون، إلا النظرات الشاردة، والخواطر المائجة، والذكريات والأماني. . .

وهتف هاتف في جلال الصمت وفي وحشة السكون: (أن للفقيد لحقاً على اللغة، وحقاً على المسلمين، لا يجزئ فيهما أن نقول: يرحمه الله!)

وتدانت الرءوس، وتجاوبت النظرات، وانثالت الأفكار، وتزاحمت الأماني؛ ثم لم يلبث أن عاد الصمت، وعم السكون!

ثم عاد القارئ يقرأ، وأنصت السامع يسمع، وانتحى اثنان يداولان الرأي في شأن من شئون الأدب، وتماسك اثنان يفاضلان بين الجديد والقديم؛ وغامت في سماء الندى غائمة، وانعقدت على رءوس السامرين عجاجة، وضج المكان كسالف عهده، واختلطت الأصوات فما يبين صوت من صوت، واشتغل كل بما هو فيه. . .

وصاح صائح في نبرة اليائس المحزون: (ويحكم يا بني عدنان! لقد شغلتكم دنياكم عن

الوفاء، وفتنتكم الحياة عن ذكر الموت! لقد كان هنا إنسان منكم، وإنه لأرفعكم صوتاً، وأبلغكم بياناً، وأبعدكم غاية ومدى؛ فهلا ذكره منك إنسان. . .)

وبرقت العيون، واختلجت الشفاه، واهتزت الرءوس، وانبعث صوت السامرين يحوقل ويسترجع في همس خافت، وقال قائلهم: (يرحمه الله! لقد كان. . .!)

يرحمه الله! يرحمه الله!

هذا كل وفاء العربية للراحلين من أدبائها: يتهاوون من الذروة إلى بطن الوادي فرداً فرداً، وإخوانهم على الطريق ينظرون إليهم في بلادة وصمت؛ لا تشيعهم منهم قدم، ولا تتبعهم عين باكية، ولا يذكرهم منهم إنسان!

يرحمه الله! يرحمه الله!

هذا كل تراث الأديب في العربية لبنيه وأهله، هو حسبهم من الطعام والشراب والثياب وتكاليف الحياة، وفيه العوض كل العوض من عائلهم الذي طواه الموت بين الصفائح والتراب

يرحمه الله! يرحمه الله!

هذا هو الخلود الذي ضمنته العربية لمن يموت من أدبائها وهو في ميدان الجهاد يكافح الفقر والمرض وشئون العيال، ويبذل نفسه لينشئ أدباً يسمو بضمير الأمة، ويشرع لها طريقاً تسير فيه إلى عظمة الخلد وسعادة الأبدية ومجد التاريخ!

يرحمه الله! يرحمه الله!

هذا كل ما تستطيع العربية من كلمات العزاء، وكل ما يملكه أدباء العربية من أساليب المواساة، وكل ما يقدر عليه ناطق يبين، وصديق يتحبب، وحبيب يشعر أن عليه حقاً لمن يموت من أهل البيان!

يرحمه الله! يرحمه الله!

صوت ما له صدى! وتراث ليس فيه غناء، وطعام لا يهنأ ولا يمرأ، وخلود لا يدوم إلى غد، وعزاء لا يجفف دمعة ولا يخفف لوعة ولا ينفذ إلى قلب طفل سلبه الموت أباه وسعادة دنياه!

يرحمه الله! يرحمه الله!

خلوا عنكم أيها الأدباء الكبار، وأيها الشعراء العظام، وأيها الخطباء المصاقع؛ خلوا . . . عنكم عناءها، سيرحمه الله وإن لم تقولوها؛ سيرحمه بما جاهد، وبما بذل، وبما عانى، وبما تحمل من جهد التضحية ومشقة الحرمان؛ وسيرحمه ثانية بما لقي من العقوق وكان براً، وبما لقي من الغدر وكان وفياً، وبما قوبل من إنكار الجميل وكان من أهل الجميل؛

وسيرحمه بدموع هؤلاء اليتامى، وبأنات هؤلاء الأيامى، وبدعوات كثير من أهل الإيمان وفوا له ما وسعهم الوفاء!

مضى عام منذ مات الرافعي، فهل سأل أحد: كم خلف وكم ترك؟

. . . . . سأحدثكم وإن لم تطلبوها إلي

أما المال فلا سبد ولا لبد، وأما الأدب فثروة للرواة ومحزنة للولد، وأما العيال. . . وا حزناً لو كان يجدي الحزن!

هذا (سامي) كبيرهم في بعثة الجامعة بأمريكا ما يزال بينه وبين الغاية خطوة؛ وهذه (سعدية) الصغيرة تلثغ في الراء وتضم شفتيها على الباء؛ وبينهما ثمانية يقوم على شئونهم (محمد) الله لهذا الشاب العائل؛ لم يكد ينعم بقرب الأهل بعد فراق سبع سنين في فرنسا لدراسة الطب، حتى كان عليه عبء الأسرة كله، فكأنما كان هو في تلك الغربة وديعة إلى أجل، وذخيرة إلى ميعاد؛ وعاجلته تبعات الحياة وما يزال في باكر الشباب!

والحكومة. .؟ خلي عنك يا وزارة الحقانية، خلي عنك يا وزارة المعارف، خلِّ عنك يا وزير المالية. . . الله أكرم!

لقد تصرم من عمر الرافعي في خدمة الحكومة ثمان وثلاثون سنة، ومات ولم يجاوز السابعة والخمسين؛ فأي مكافأة وأي جزاء؟ بضعة عشر جنيهاً في كل شهر، تأبى الحكومة إلا أن يكون لها فيها ميراث. . .

إنه الرافعي، إنه الرجل الذي كان اسمه في مقدمة الأسماء المصرية التي تؤكد زعامة مصر للأمم العربية، وترفع اسمها وتبني مجدها الممتاز، وتسن طرائقها التي يحتذيها

!. . .الأدباء في العالم العربي. إنه هو. . . ولكنها هي مصر
وكتب رئيس الرافعي في وزارة الحقانية كتاباً غداة منعاه إلى وزارة المالية، يصف لها
من حال الرافعي ومن خبره، ويقترح. . . يقترح أن تنزل الحكومة عن نصيبها من
.الميراث في (معاش) الرافعي لأولاده. . . ولكن وزير المالية يأبى. . . ولكن الله أكرم
. .!
(!يرحمه الله! يرحمه الله)
!. . .ذلك كان جواب الحكومة المصرية
لقد مضى عام، فهل تذاكر أدباء العربية فيما عليهم للرافعي؟ وهل ذكرت الأمة
والحكومة
ما عليهما من واجب الوفاء للرافعي؟
لقد تداعى الأدباء إلى ميعاد يحتفلون فيه بتأبين الرافعي، وجاء الميعاد وتخلف المدعو
والداعي؛ وترادف ميعاد وميعاد وميعاد، ومضى عام، وعلى مكتب كل أديب دعوة
لتأبين الرافعي، وفي ذيل كل دعوة جواب المدعو وبخطه أو بلسانه: (يرحمه الله!
يرحمه الله!)
وعند دكاكين الوراقين أسئلة عن كتب الرافعي، ولكن السوق ليس فيه كتاب من كتب
الرافعي؛ وقال قائل: (أعيدوا طبع الديوان، أعيدوا طبع إعجاز القرآن، أعيدوا. . أعيدوا.
.)
وقال الطابع والناشر والوراق: (يرحمه الله! يرحمه الله!)
وعلى مكتب الرافعي كتب لم تطبع، وقصاصات لم ترتب، وثمرة عقل خلاق كان يجهد
جهده ليضيف كل يوم إلى العربية ثروة جديدة وفكراً جديداً. وقلنا: (يا وزارة المعراف،
هذه كتب إن لم تخرج للناس سبق إليها العث والفئران فيضيع على العربية كنز ما لها
منه عوض!) ولكن وزارة المعارف في أحلامها الهنيئة لا تسمع ولا تجيب، إلا همساً في
أمثال أنفاس النائم تردد قول الناس: (يرحمه الله! يرحمه الله!)
وفي الأمة مع ذلك أدباء، وفي الأمة كتاب وشعراء، وفي الأمة ناشئة غافلة ما تزال
. . .ترجو الخلود في الأدب
وفي الأمة عقول ناضجة في أجسام مهزولة من الفقر والجوع؛ وفي الأمة رءوس
ممتلئة على أناسي تضطرب كل مضطرب للبحث عن القوت
وفي الأمة. . . وفي الأمة رءوس فارغة على أجسام تكاد تتمزق شبعاً ورياً؛ وفي الأمة.
. . .. . وفي الأمة قلوب خاوية في أناسي تتمرغ بين وسائد الدمقس وحشايا الحرير
وفي الأمة. . . وفي الأمة مع ذلك من يتساءل مدهوشاً: (لماذا. . . لماذا لا نجد في
الأمة العربية شعراء وكتاباً ومنشئين كبعض من نقرأ لهم من أدباء الغربيين. . .)
!يرحمك الله يا مصطفى. . .! بل يرحمك الله أيتها الأمة
(شبرا)
محمد سعيد العريان
مصطفى صادق الرافعي
بمناسبة مرور سنة على وفاته
للأستاذ فليكس فارس
سئل الرافعي ماذا يريد أن يقال عنه بعد الموت، فكتب جوابه قبل وفاته بشهرين
:صفحة بارزة بين خالدات آثاره: ومما جاء فيها
وبعد الموت يقول الناس أقوال ضمائرهم لا أقوال ألسنتهم إذ تنقطع مادة العداوة)
بذهاب من كان عدواً وتخلص معاني الصداقة بفقد الصديق ويرتفع الحسد بموت
.(المحسود وتبطل المجاملة باختفاء من يجاملونه
ثم أورد بعض الكلمات التي اعتقد أنها ستقال عنه: كمعجزة الأدب وحجة العرب ومؤيد
:الدين الخ. . ليستطرد قائلاً
أما أنا، فماذا ترى روحي وهي في الغمام وقد أصبح الشيء عندها لا يسمى شيئاً إنها)
سترى هذه الأقوال كلها فارغة من المعنى اللغوي الذي تدل عليه لا تفهم منها شيئاً إلا
معنى واحداً هو حركة نفس القائل وخفة ضميره، فشعور القلب الثائر هو وحده اللغة
. . .(المفهومة بين الحي والميت
أي أخي مصطفى، إذا كنت أصبت باستجلاء نفسك وهي لم تزل أسيرة جوارحك، فإنك

خدعت بإطلاقك حسن ظنك على الناس أجمعين، لأنك اتخذت تجردك مقياساً فحسبت أن خصومك سينصفونك بعد موتك كما أنصفت أنت من جادلتهم وجادلوك وأردت أن تفهمهم وما أرادوا أن يفهموك.

لقد كانت تنقطع فيك مادة العداوة بذهاب من كان عدواً، لأن عداءك كان ناشئاً عن اعتقادك بتفوق أسلوبك وروعة مذهبك، فما ناضلت حين ناضلت إلا عن سلسلة ثقافة تواصلت حلقاتها منذ نشأ الأدب العربي الصميم حتى انتهى إلى قلمك. أما هم فقد كان عداؤهم ضغينة لأنهم احبوا أنفسهم واستغرقوا في أنانيتهم، لذلك قضت عليهم طبيعة نفورهم منك بأن يغتابوك وأنت مغيب في التراب.

إن الحسد لا يرتفع بموت المحسود كما كنت ترى، لأن مادة الحسد مستمدة من صغار الحاسد فلا تزول إلا بزواله.

إنني لأرى روحك الآن تستشف هذه الحقيقة وهي من عيوب التراب لا يتملص منها في الحياة إلا الأرواح التي لم تطمع من الدنيا إلا بما تتزوده منها للآخرة.

وإنني لأراك لا تأبه لما يقال عن بيانك وأسلوبك ولهجتك فإنها أدوار بلاغ لإلهامك، وإلهامك وحده هو ما يقوم في نفسك الآن، فأنا أشعر بأن الكلمة التي أكتبها لذكراك لن تجتاز الحد القائم بين الظاهر والخفي، إنها لكلمة تزحف زحفاً في عالم التلمس والاستقراء موجة ذاهبة في ضم الآراء المتضاربة تقذف بالأحياء إلى طلب الرقي وهم متجهون إلى القبور.

أما الكلمة المجنحة التي تبلغ روحك أيها الأخ الحبيب، الكلمة المأخوذة (من اللغة التي يتفاهم بها الحياء والأموات) فإن روحي قد هتفت بها بالصرخة الصماء وبالدمعة العمياء منذ بلغها رجوعك إلى مصدرك، ولما نزل نهتف بها كلما ارتادت أجواء الشعور والتفكير أفما قلت إن روحك ستبحث من وراء الحجاب عن الثمرة المساوية المسماة القلب في الناس وعن كل كلمة دعاء وكلمة ترحم وكلمة خير. وإن ذلك ما تذوقه الروح من حلاوة هذه الثمرة

لقد عرفت يا مصطفى، وما اقل من يعرفون هذا في الحياة، قيمة عطف الروح على الروح في هذه الدنيا وبخاصة قيمة هذا العطف يترامى على ضفاف نهر الموت مناجياً الأحباب الراحلين

إذا كان في كل عطف من حي إلى حي نشوة وقوة وأمل، فلا ريب في أن كل خفقة شوق من محب إلى ميت عزيز تحمل إليه الدعاء والترحم والخير

هنالك لا تغني نفس عن نفس شيئاً، ولكن عطف الأرواح الأسيرات على الروح المنطلقة في العالم الخفي ليس إلا مما كسبت هذه الروح من إخلاصها فحق لها أن تجزى بما سعت وبما اكتسبت

كنت أعتقد أن الرافعي كاتب له شأنه في محيطه الخاص، وأنه رجل بيان فخم، ولكنه يدور ضمن حلقة ضيقة من العلم، فكنت مسيئاً إلى نفسي بهذه الفكرة لأنني ما بنيتها إلا على مقال أو بعض مقال وقع نظري عليه منذ سنوات عديدة في لبنان

ومنذ سنتين أو أكثر شغفت بمطالعة رسالة الأستاذ الكبير أحمد حسن الزيات لعبقرية هذا

المفكر المجدد وحسن اختياره. وفي أحد أعداد الرسالة قرأت (رؤيا في السماء) للرافعي فكنت كلما قرأت سطراً بعد سطر احسبني اشهد أحلاماً غائرة في سريرتي تنقل أشباحها حقائق ماثلة لعياني، وما أتيت على آخر المقال حتى هتفت قائلاً: هذا هو مثال الأدب العربي الذي يمكننا أن نواحه به الآداب العالمية في نهضتنا. واندفعت أترجم (رؤيا في السماء) إلى اللغة الفرنسية ثم نشرتها مقدماً بها إلى أدباء الغرب حجة على من يدعي منهم أن الأدب العربي ليس إلا عالة على آدابهم

ومضى شهر على ظهور الترجمة في المجلة الأسبوعية الفرنسية في القاهرة، فإذا برجل مهيب الطلعة يدخل علي ويتقدم مصافحاً مقدماً نفسه (مصطفى صادق الرافعي) فبادرت إلى معانقته وبدأت أتكلم مرحباً، فإذا به يتفرس فيّ ويبدي إشارات من لم يفهم ما أقول، وكان يرافق الرافعي الأستاذ كامل محمود حبيب فأشار إلي بأن نابغتنا أصم وعلي أن أخاطبه بالقلم

ومنذ ذلك اليوم لم يحضر الرافعي مرة إلى الإسكندرية دون أن يشرفني بزيارته، وقد كان هو الساعي إلى تعريف الأستاذ الزيات والأستاذ حافظ عامر بك بي فتسنى لي أن

أجتمع مراراً بثلاثة أفذاذ لكل منهم لمعان في آفاق النهضة الأخلاقية الأدبية وقد كلفوني بإجماع الرأي ترجمة كتاب زرادشت للفيلسوف الألماني نيتشه
وفي أواخر أبريل سنة 1937 جاءني مصطفى في الإسكندرية وهو يتأبط وحي القلم هدية إلي تحمل كلمة من خطه أحتفظ بها بين ذخائر من فقدت من أهلي
وأمررنا اليوم معاً نتحدث كعادتنا، أكتب فيتكلم، ومما قاله لي أن إحدى الصحف كلفته كتابة مقال عنوانه المرحوم (مصطفى الرافعي بقلم مصطفى الرافعي) على نحو ما كتب (ويلز) وأن الفكرة راقت له ولكنه يريد أن أتولى أنا كتابة هذا المقال فقبلت مشترطاً أن أكون وضميره الملكين المستنطقين إذا هو أصر على إقامتي حكماً بينه وبين الحياة، فضحك وقال: ما اخترتك لهذه المهمة إلا لعملي بأن المحبة اشد صرامة في حكمها من العداء وما كان الرافعي مخدوعاً بما أضمره نحوه من إخلاص مجرد وقد تحقق أنني قدرت روحه قبل أن أتعرف إلى شخصه
ولما حان ميعاد انصرافه شيعته وأنا أحس بغصة شعرت بمثلها في كلمة الوداع التي ألقاها
إلي وهو يزودني بآخر نظرة لم أزل أراها أمامي كآخر شرارة من أصفى الأنوار التي شاهدتها في حياتي
وفي أول مايو سنة 1937 أخبرني صديق أن أحد أصحابه استعاد السمع وهو مصاب بالصمم بوضع صفحة من الجلاتين (وهو الجلاتين المستعمل لمردات السيارات) بين أسنانه وطيها قليلاً حتى تنحدب بين الفم والصدر فيؤثر عليها اهتزاز الصوت تأثيره على ساعة الحاكي فيصل إلى طبلة الأذن الداخلية بواسطة أعصاب الفكين
بادرت بالكتابة إلى مصطفى وبت أنتظر الجواب بذاهب الصبر فوردني منه بعد يومين الكتاب الآتي، وهو مؤرخ في 2 مايو أي قبل وفاته بأيام قليلة:
عزيزي الأستاذ فليكس فارس
سرني كتابك لأنه كتابك، وقد جربت الفائدة فإذا هي قريب مما وصفتم، غير أن الصوت يبلغ إلى الدماغ مصمتاً غير مبين كأنه لا حروف فيه، وتلك هي العلة من أولها. وسأزاول المران على هذه الطريقة، فلعل لها عاقبة إن شاء الله، ولعل فائدتها تأتي بالتدريج!
. . .لماذا تفتر في ترجمة نيتشه فأصبحت تظهر وتختفي
أما اعترافات فتى العصر فهي جيدة جداً، ولو كان مؤلفها هو المترجم لما استطاع أكثر مما استطاع المترجم الشيخ فليكس فارس
رسالتك وترجمة رؤيا في السماء قرأهما الأستاذ الفرنسي فأعجب بهما، وقد سلمت الأصول للدكتور محمد ليرسلها إلى أستاذ الآداب في جامعة ليون
وحفظك الله للمخلص
مصطفى صادق الرافعي
طنطا في 2 مايو سنة 1937
مرت السنة على وفاة الرافعي وهو - بعد أن وفى قسط جهاده وانسحب من معاكس الإظلال في هذه الحياة - لم يعد إلا صورة حفرها الحب في قلوب أهله وأصحابه، وإلا كتباً ورسائل وقصائد تتداولها الأفكار في العلام العربي، فإن أنا أتناول الكلام عنه الآن فلا أواجه الصورة المحفورة منه في أعماق القلب لأن النظر إليها يخرس بياني ولا يستنطق سريرتي إلا الكلمة المجنحة الصامتة التي أناجيه بها، بل أواجه منه التراث الأدبي الفخم
الذي أقام به لنفسه خلوداً آخر قد لا يهتم له الآن بقدر ما نهتم له نحن لأنه يشق لنا أفقاً واسعاً من آفاق الضحى في النهضة العربية الحديثة
لقد كان الرافعي في الطليعة من قادة الرأي والبيان، اختطت له فطرته العربية وثقافته العربية منهجاً لم يقتحم صعابه إلا النزر اليسير من حملة الأقلام في بلاد العرب
وقد ظهر هذا العبقري بشخصيته الفذة في حقبة من الزمن كان الأديب فيها متتلمذاً لمدرستين: إحداهما مدرسة الأدب العربي تحاول إنهاض اللغة من كبوتها وقد طالت قروناً فتحصر كل همها في تنميق العبارات وتصحيح المفردات والتملص من الأسلوب السقيم الذي طغت فيه على البيان أسجاع المتحزلقين واجتاحته الألفاظ العامية.

والأخرى مدرسة الأدب الدخيل تغترف من معين الغرب أوشالاً تريقها بياناً مقلقلاً لا يمت إلى العربية الفصحى بسبب، وليس فيه من الألفاظ الصحيحة ومتانة الأسلوب ما يقوى على اقتناص روائع التفكير من بيان الأجانب

كان الرافعي في تلك الفترة يخطو خطواته الأولى بعيداً عن المدرسة الثانية متصلاً بالمدرسة الأولى بجامع اختيار الألفاظ وتنميق الأسلوب غير أنه ند عن هذه المدرسة بإرسال نظراته إلى أغوار الأدب العربي القديم غير واقف عند لامعات الأصداف الطافية على سطوحه

إن للآداب أنواعاً من الجمال لا يمكن للنفوس على اختلاف أذواقها أن تتفق على ترجيح إحداها، وليس للمتأدب المنصف، إذا هو أدرك هذه الحقيقة، أن يتعصب لذوقه فيضع في ميزانه عبقريات الأدباء بالمقابلة والترجيح

لئن سر العبقري الحقيقي أن تتناول الأقلام تحليل تفكيره وخياله وديباجته بعرضها على الفن، (بالرغم من أن الفن نفسه ليس ناموساً ولا قاعدة ولا مقياساً)، فإن هذا العبقري ليأنف أن يحشره كاتب في كفة ميزان ليضع في الكفة الأخرى عبقرياً آخر يطمح إلى الحط من قيمته وقدره

ما ضر الكاتب المتحزب لو قال إن مثله الأعلى من العبقريين يتدفق إنسانية وشعوراً دون أن ينكر هذه الصفات على أنداده بل على كل ذي قلب شاعر ورأس مفكر في هذه البلاد. . .

والله، إنني لا أدري أية نسمة مشئومة تهب على هذا الشرق العربي مقحمة الحزبية ميدان الأدب نفسه، وما الأدب الرفيع إلا النسب الشريف والرابطة المكينة بين النفوس الحساسة الحائرة في هذه الحياة تتلمس حقيقة القلب وتتطلع إلى أنوار الفكر

أفلا يكفي الأدباء ما يعانونه من مجتمع لما يزل في بدء تكوينه وتكاد كتلته الكبرى تتبرأ من بيانهم، حتى ليقوم التحاسد بينهم فيتناكرون، وعهدنا بالأدب دولة يتساند جنودها على المرتقى ولا يستغني حامل أكبر مشعل بينهم عن أنوار اصغر المشاعل المتألقة حوله في اعتكار الظلمات

إن دولة الأدب ديمقراطية في روحها، بل اشتراكية، بل إباحية بأعمق معاني الكلمة، لأن لا حطام فيها لمالك ولا تخوم لحد شخصية تجاه شخصية أخرى، وما الفكر إلا نسمة لا نعرف لها مهباً ولا ندرك لها مستقراً

وعندي أن كل أديب ينشئ لنفسه بلاطاً لينظر إلى من حوله نظرة الأمير إلى أتباع يسيرون في ركابه، إنما هو مدع دخيل يسد على نفسه كوى الإلهام ويقيم بغروره عقبة في سبيل اعتلائه

الأدب رسالة لخير الأمة وخير المجتمع الإنساني، والأدباء متضامنون في تأدية هذه الرسالة وإن اختلفت مراتبهم، وأرقى الأدباء مرتبة من يرسل نظراته مفتشاً عن أديب يحاول الصعود ليمد إليه يده ويسدد خطاه ويصحح أخطاءه، لا من يزدري أترابه المساوين له ويحتقر المتحفزين للحاق به

إن أقطاب الأدب قادة فيالق في عالم التفكير، وشر القواد من احتقر الجنود لأن عظمته تقوم على شجاعتهم، وخلوده يبنى على كواهلهم

فإذا كان الرافعي لم يسلم في حياته الأدبية من ثورات غضب حولت عبقريته إلى النضال العنيف؛ فما كان ذلك إلا لأنه وهو يتسلق المرتقيات ويمد بساعديه إلى ما فوق لم تعثر يداه إلا على أرجل ترفس استكباراً وحسداً، فاضطر إلى تصفيح قبضتيه فولاذاً

البقية في العدد القادم

فليكس فارس

هل ينبغي أن تزاحم المرأة الرجل؟

للآنسة زينب الرافعي

(بقية ما نشر في العدد القادم)

وأنا موقنة أيها المؤيدون أنكم يومئذ لن تسمعوا من المرأة إلا رأياً واحداً عن وظيفتها في الحياة؛ ستقول لكم كلمتها الحاسمة في هذا الموضوع حين تقول: (إنني ملكة في مملكتي الصغيرة فهيهات أن أخضع للإغراء فأنزل إلى مرتبة السوقة في الأعمال!!)

أرأيتم تلك المديرة الأجنبية التي استخدمتها تلك السيدة الرجلة لتدير بيتها، أرأيتموها

هناك إلا لتطلع على عوراتنا وتكشف عن عيوبنا حتى إذا عادت إلى قومها قالت ما لا يسركم أن يقال!

لقد ذهب فلان إلى أوربا فعاد بزوجته أجنبية، ومثل فلان هذا كثير من شباب مصر، وتسأله: لماذا آثرتها على بنات العم وبنات الخال؟ فيجيب: لقد تزوجت أجنبية لأني لم أجد مصرية واحدة أهلاً لأن تكون لي زوجة!

لماذا؟ لجمالها؟ لا، إن في مصر لجميلات يزهين على جميلات العالم. لأدبها؟ لا، إن المصرية لأكثر أدباً من صاحبته، إن مقاييس الآداب تختلف باختلاف البلاد، فما رآه منها لا يمكن أن يعد أدباً عند المصري. لثقافتها؟ لا، إن الرجل المصري لا ينظر إلى ثقافة المرأة حين يهم أن يختار الزوجة. لحسبها وأهلها؟ ولا هذه أيضاً أيها السادة، فليس يبحث عن الحسب والأهل من لا يعرف خالاً لأولاده. إذن فلماذا لماذا؟

لشيء واحد أيها السادة، قد يكون له شبهة من الحق في الاحتجاج به، هو أنها سيدة بيت، وسيدات البيوت بين بنات مصر قليل.

ويلي عليكن أيتها المصريات! أين حيلتكن في مزاحمة المرأة الأجنبية التي غلبتكن على قلب أبناء العمومة وأبناء الخئولة من المصريين فاستأثرت باحترامهم من دونكن؟ أرينا أيتها الفتاة كيف تنجحين في هذه المزاحمة بادئ بدء. فإذا بلغت الغاية فانظري إلى الناحية الأخرى وطالبي بما شئت من الحقوق في مزاحمة الرجل. . .

أراني أنظر إلى موضوعي نظرة محلية، وأحصر فكري منه في محيط ضيق؛ وظني أن منافسي في الرأي لا يعنون إلا الكلام العام في المحيط الكوني العام إذ يتحدثون عن مزاحمة المرأة الرجل في ميدانه

معذرة: إن بيتي يحترق، أفيكون من حقي حينئذ أن أتحدث في شئون جاري وأنا أولى بنفسي وأحق بالنظر إلى شأني الخاص؟

كم يغيظني ويحرج صدري أن يسألني سائل: لماذا تؤهلين نفسك من وظائف الحياة بعد التعليم؟

ليس عندي إلا جواب واحد أيها السائلون الملحفون، هو جواب كل مصرية تعتز بجنسها وتباهي بكرامتها: (إنني أؤهل نفسي لأكون امرأة، امرأة كاملة تعلم أن الطبيعة زودتها بأسلحتها لتكون امرأة وحسب، فإذا انحرفت بي ظروف الحياة فكنت غير ذلك فلا علي، ولكنكم تسألونني عنا أريد، فهذا ما أريده وما علي أن أعمل له، وعلى الله ما سيكون!)

حدثوني عن المتعلمات اللاتي يعملن عمل الرجال: كم واحدة منهن نجحت في إنشاء بيت وتكوين أسرة؟ لديكم الإحصائيات العامة فارجعوا إليها ثم حدثوني حديثكم.

ستحاول واحدة أن تفلسف وتعلل وتزعم وتدعي، ثم تقول في النهاية: إن هؤلاء لم يخفقن في حياتهن حين أخفقن في إنشاء بيت، إنهن لم يظفرن بالأزواج ولكنهن ظفرن بما هو أغلى عند المرأة من الأزواج!.

أحقاً تقلن يا زميلاتي؟ فليكن! ولأزعم معكن أنهن حين أخفقن في إنشاء البيت ظفرن بما هو أغلى، وأغلو في الزعم فأقول إنهن ظفرن بما هو أغلى وما هو أغلى، وإن خيراً للمرأة أن تكون رجلة من أن تكون زوجة. ولكن. . ماذا يكون إذا صارت هذه هي القاعدة؟ أيتها الطبيعة، لدي للأمة أطفالاً من غير أمهات، لأن النساء يتأبين على وظيفة الأمومة، أو فاعدلي أيتها الطبيعة وقولي للرجال:

لماذا لا يلدون للأمة مادام للنساء عمل غير الأمومة. . .؟

!إنني أستحي لكم أيها المؤيدون! إنني لأشفق عليكم أن تكون هذه وظيفتكم في غد وإني لأخاف يا زميلاتي العزيزات لو صحت هذه الدعوة أن أراكن وحدكن في الميدان وقد هرب الرجال إلى البيوت ليقوموا بعمل آخر. . .! أرأيتن لو أن الرجل آمن وأطاع وأعطاكن الحق في أن تعملن عمله في السوق، وفي الديوان، وفي الحقل، خلا لكن الميدان فليس فيه إلى جانبكن رجل واحد، أكنتن حينئذ تصررن على هذه الدعوى فتزعمن أنكن

أقدر على عمل الرجل؟ أم تعدن معولات باكيات تشكون عسف الرجل وقسوته وجبروته؟

وهل تطيب لكن الحياة يومئذ بناحيتيها: ناحية العمل وناحية العاطفة؟

الآن لا أسمع إلا جواباً واحداً: لقد انتصرت، لا، بل قد انتصرت الطبيعة، لا، بل قد

انتصرت المرأة وعزت مكاناً عند نفسها وعند الرجال.
ولكن صوتاً واحداً فرداً مازال يهمس هناك، إنني أسمع من يقول: وحين يذهب الرجال إلى الحرب فلا يبقى في المدينة إلى جانب النساء أحد إلا. . .؟ وحين تأكل الحرب الشباب فيربى النساء عدداً على الرجال؟ هذا سؤال. . .
إن في الإسلام العلاج لكل مشكلات البشرية، وهذه مشكلة أعد لها علاجها منذ ألف وثلاثمائة وخمسين سنة، يوم أعطى المرأة التي لا تجد لها زوجاً، الحق في أن تطالب أختها المتزوجة - أعني أختها في الإنسانية. . . أن تطالب أختها هذه بنصف رجلها أو ثلثه، أو ربعه، ولا تبذل نفسها في علم ما لا ينبغي أن تعمل، أعني عندما أباح تعدد الزوجات للرجل الواحد
إن تعدد الزوجات ضرورة لتعالج ضرورة، وهو نعمة على المرأة وإن عدتها أكثر النساء نقمة، وما يجعلنها نقمة إلا لأن أكثر الرجال مع الأسف لم يفهم حكمة الله فيما أباح وشرع. اسألوا المرأة التي تكسد سوقها في مثل هذه الضرورات الحربية ولا تجد من يعولها: أخير لها أن تكون بلا زوج، أو أن يكون لها نصف زوج؟ إنكم تعرفون الجواب.
ولكن مالنا نتحدث عن الضرورات، ومالنا نستشهد بفلانة وفلانة ممن زاحمن الرجال فزحمنهم، وطاولنهم فطلن عليهم. إنني لا أريد أن أعرض لذلك.
هبوا أن المرأة تقوى على عمل الرجل كالرجل، بل هبوها أقوى منه، وهبوا نساءً كثيراتٍ نجحن فيما أخفق فيه الرجال وبرزن فيما قصروا فيه، فهل هؤلاء كل النساء وكل الرجال؟ وهل هذا يعطينا الحق في أن نقول لكل امرأة: إنك تستطيعين أن تكوني رجلاً إذا أردت؟ هيهات إلا أن يستطيع كل رجل أن يكون امرأة وأماً ومديرة بيت.
هيهات! هيهات! إن المرأة هي المرأة ما في ذلك شك، وإن كل امرأة لتشعر في نفسها بأنها امرأة، حتى لو استطاعت أن تصطنع لوجهها شارباً ولحية، ولكنها مع ذلك تحاول أن تكون رجلاً، وفي هذه المحاولة نفسها البرهان كل البرهان على أنها لا تستطيع، ولقد يدفعها الغلو
في هذه المحاولة إلى أن تبالغ في كل ما يخيل إليها أنها تقترب به من صفات الرجولة، حتى لتوشك أن تكون رجلاً أكثر من الرجل. . .!
هذه الأذرع العارية، وهذا الصدر المكشوف، وهذا الصوت الذي يجلجل في الترام وفي السيارات العامة بالأحاديث الخاصة، إن هو إلا مظهر من مظاهر المرأة التي تزعم لنفسها أنه لن تبلغ منزلة الرجل إلا أن تخلع الحياء الذي هو أخص صفات المرأة وأجمل زينتها.
ماذا أقول ولماذا أتحدث؟ أراني قد وصلت إلى موضع الإقناع في نفوسكم ولما أنته إلى ما أريد، فحسبي هذا الآن وحسبكم، وحسب كل فتاة أن تعلم أن الله خلقها أنثى وركب فيها غرائز الحب والرحمة والحنان والعطف والمواساة والترفق، هذه الصفات التي اجتمعت للفتاة، وإنها لفي كل فتاة، هذه الصفات ليست من صفات القاضي، ولا النائب، ولا الحاكم، ولا المدير، قد تكون الرحمة شيئاً جميلاً ولكن الحاكم الصارم أقرب إلى عدل السماء
كلية الآداب
زينب الرافعي
عدو المرأة
للسيدة وداد سكاكيني
ما لأيدينا حيلة بابي العلاء، فلقد أتى على وفاته ألف سنة أو ما يزيد. لقد كانت المرأة بغيضة إلى نفسه، كريهة على سمعه، ولو استطاع أن يبيد من الدنيا كل أنثى لفعل. فوا حرباً مما في لزومياته عن بنات حواء! ما لنا حيلة به فلقد مات وخلد علينا مقابح الوصف ومطاعن الهجاء. ولعل له عذراً في امرأة أساءت إليه فعد كل النساء مسيئات، وغضب عليهن، وقد عرفه القوم فيلسوفاً متشائماً ناقماً على الحياة والناس أجمعين. ثم أتى على أدب العرب حين من الدهر استراحت فيه المرأة من أعدائها والساخرين منها حتى كان زمننا وجاء توفيق الحكيم
يقول الناس عن توفيق الحكيم إنه عدو المرأة، ويقول هو ذلك عن نفسه تياهاً مباهياً، ثم جد في قوله حتى كتب قصته (عدو المرأة) فعجبت له وقد ألقى سلاحه أمام ناتالي

الراقصة البولونية، وعجبت من مذهبه في البغضاء فسألته هل أبغض أمه وأخواته وخالاته وعماته؟ وهل كان رجلاً من حمل به ثم ولده فملأ الدنيا بتوفيق الحكيم وشغل الناس بأدبه الرفيع؟

إذا أقام توفيق الحكيم على رأيه واستبد به فليعش في عالم غير عالمنا، فإن من جنسنا الشمس والأرض، ومن أنوثتنا الحياة. وليحص الأسماء في المعاجم فيجد فيها الكثير مؤنثاً كالمرأة، وليترك الزهرة لا يشمها والتفاحة لا يأكلها، وليعش وحده في كون من الرجال ممن طالت لحاهم وعرضت مناكبهم وخشنت أصواتهم وقست قلوبهم، وليترك النساء الرعابيب، والغيد الأماليد لغيره من الرجال

ولكن على رسله! ألم تلهمه المرأة رواياته الرائعة، ومقالاته البارعة؟ ألم تكن شهرزاد من النساء؟

إن من عرف باريس وفيها الغواني الحسان لا يكون عدو المرأة إلا إذا نهل منها حتى ارتوى وقاء كالمثخن الجريح يخرج من القتال وهو عدو له، ولكنه لا يظل محارباً عظيماً، فأهل الفروسية أبداً يدفعهم الشوق إلى استعادة الحرب

المرأة ريحانة من السماء عطر الله به جنات هذه الأرض وجعلها فيض الحنان وفتنة الوجود. أتماري - وأنت تنشد الحق - في سلطانها المطلق ومعانيها التي لا تحد؟ انظر إلى المتنبي فإن خلود شعره من وحي خولة. وتطلع نحو بيرون فقد مات في سبيل امرأة من اليونان. وتذكر وريث التاج بالأمس أدوار كيف انطلق من قيود العرش ليخضع للمرأة. وإذا كنت مسلماً فإن رسولك أحب كثيراً من النساء

لم تصيخ بسمعك إلى أعداء المرأة وغلاظ القلوب؟ ألا سامح الله المعري وشوبنهور، فلقد أورثاك الشنآن، وطبعاك على التشاؤم. إنهما يسولان لك هذه البغضاء ليعطلا قصصك من مباهج الأرواح، ومتع الحياة. إنهما يريدانك على الخمول والفتور، ولئن كنت في ريب مما أقول، فاجمع كتبك واحرقها ثم أعد صفها وطبعها، وهي خلو من ذكر المرأة، كل من فيها من الأبطال، رجال في رجال، ثم انظر ماذا يكون، إنها ستبلى ويعلوها الشحوب، وهي معلقة بأبواب الوراقين، حتى إذا يئس الباعة من عرضها على المعرضين عنها نبذوها وراءهم، وطرحوها جنبات الدروب حتى يمر بها الكانس فيلمها ويرميها في مطارح الإهمال والبلى. وستمر بك أيام أشد سواداً من الليل تهدهد كبرياءك وتخمد صيتك، فينساك بعدها الناس، وتنطفئ من الأدب العربي الحديث شعلة ساطعة، فإذا صرت إلى هذا الدمار جن جنونك، وضربت بيدك منضدة الكتب، فمادت بما عليها واندلع الحبر من دواتك على القراطيس البيض، فيثور ثائرك وتحطم قلمك وتقذف به إلى حيث لا تمسك به ما حييت

أنت يا عدو المرأة فيك طبع المرأة. يقول الفلاسفة الذين أفسدوا قلبك عليه: إذا أجابت المرأة بلا فإنما هي قائلة في سرها نعم. وإذا أبغضت فقد أحبت، وإن كثيراً من النساء كن يكرهن الرجال فهوين على أقدامهم مقبلات، وما أنت يا توفيق الحكيم إلا أشد محب للمرأة وأصدق نصير لها، تملأ أحلامك بالرواء والبهاء، وتطوف بروحك كما يطوف الجمال بفنك، ونراها تسكب في فكرك سراجاً وهاجاً يضيء عبقريتك، ويلهمك البراعة والإبداع. ومن يدري فلعل وراء آثارك العظيمة امرأة تهزك وأنت تحلم، وتوحي إليك وأنت تكتب، من عندها تفجر نبوغك، ومن أنوثتها لمع نجمك حتى شهدناه مشرقاً في آداب العرب، متألقاً في سماء هذا العصر. ومن غيرك أجدر بأن يحب المرأة ويحن إليها ويحنوا عليها؟ بل ما يليق بالكاتب المبدع أن يعيش في الأرض التي لا تعطرها المرأة وتزهو على حواشيها النضرة

ليس كل النساء كجوديت؛ ولكم بين الرجال من هو (لاندرو)؛ ولن تكون الحرب إلا ليكون

السلم؛ فإذا شئتها عواناً مأيمة كحرب البسوس فستجدن من بيننا الكثيرات تقول كل واحدة لك: أنا عدوة الرجل

(دمشق)

وداد سكاكيني

بين الرافعي والعقاد

للأستاذ محمود محمد شاكر

قرأت ما كتب الأستاذ سيد قطب في العددين السالفين من الرسالة، وكنت حرياً ألا

أعبأ بما يكتب عن الرافعي في أوان حول وفاته، وقد تهيأ أهله وأحباؤه وأصحابه تتلفت قلوبهم لذكراه الأولى بعد أن سله الموت من بينهم اغتراراً
والأستاذ سيد قطب قد أبى له حسن أدبه، وجميل رأيه، ومروءة نفسه، ونبل قلبه، وشرف مقصده، وإشراق نقده، إلا أن ينبش ماضي الرافعي وما سلف من أمره، ليستخرج حلية يتحلى بها إذ يكتب عن خصومة بين رجلين: أما أحدهما - أنسأ الله في أجله وأمتع به - فما برح يتلطف للناس بما يستجيد من عمل يجدد به مطارف آخرته؛ وأما الآخر - رحمة الله عليه - فبين يدي ربه يتقرب إليه بعمل قد أبلى به أثواب دنياه. فلولا أن الميت لا يدفع عن نفسه في ساعة موته مثل الذي كان يدفع في أيام حياته، وأن ذكر الحي أقرب إلى الناس من ذكر الميت - لكان جديراً بنا أن ندع الأستاذ المهذب الفاضل يتكلم بالذي يهوى على ما خيلت له. فليس للأدب اليوم من الحرمة، ولا فيه من النبل، ولا عليه من الحياطة والحرص، ما يحفز أحداً للمراصدة دونه أن يمتهن أو يسترذل
هذا. . .، وقد جعل الأستاذ الفاضل يستثير دفائن الإحن والأحقاد كانت بين الرافعي والعقاد، ليتخذ منها دليله الذي يفزع إليه في أحكامه!! على الرافعي. لا بل على قلب الرافعي ونفسه وإيمانه بعمله وعقيدته فيه!! ثم لم يرض بذلك حتى نفخ فيها من روح الحياة، ما جعلها مما يكتب الأحياء عن الأحياء للإيلام والإثارة، لا للجرح والتعديل والنقد؛ وكأن الفتنة عادت جذعة بين الرافعي نفسه وبين العقاد. ولقد بدا لبعض الناس رأي فيما كتب الأستاذ المهذب، ولكنا نفيناه إذ سئلنا عنه، فنحن نعلم أن العقاد لا يرضى اليوم أن يكتب مثل هذا الذي كتب عن الرافعي. ولقد ساء ظن امرئ بالعقاد ألا تكون للموت في نفسه حرمة، حتى يكون هو يعين عليه أو يرتضيه أو يسكت عنه إلا سكوت الغضب والاستهانة
فنحن إذ نكتب في رد كلام هذا الأستاذ الفاضل سيد قطب لا نبغي أن نسدد له الرأي فيما يحب أن يرى، فما علينا ضل أو اهتدى، ولا أن نقيم مذهب الرافعي على أصله وقد ذهب
سببه وبقي أدبه؛ ولا أن نسوء العقاد حفيظة نتوارثها له عن الرافعي أو من ذات أنفسنا، فما من شيمتنا مثل ذلك؛ كلا، بل نكتب لنميط الأذى عن حرم الموت، وكفى بالموت حقاً وجلالاً
ورحم الله الشعبي فقد كان يقول: (تعايش الناش زماناً بالدين والتقوى، ثم رفع ذلك فتعايشوا بالحياء والتذمم، ثم رفع ذلك فما يتعايش الناس اليوم إلا بالرغبة والرهبة. وأظنه سيجيء ما هو أشد من هذا) ولقد جاء وفات ما نحن فيه ظنون الشعبي. فما يتعايش الناس اليوم إلا بثلب الموتى!
وإلا فما الذي رمى في صدر الأستاذ سيد قطب بهذه الغضبة الجائحة من أجل العقاد؟ ألم يكتب الرافعي للعقاد يوم كان يملك يكتب ويقول؟ أولم يكتب العقاد للرافعي ما كتب؟ ثم نامت الثائرة ما بينهما زمناً كان حده الموت. يقول الأستاذ: إنه - هو لا العقاد - (كان مستعداً للثورة والحنق، لو تناول بعض هؤلاء - يعني الرافعي ثم مخلوفاً - أدبه! بمثل هذا الضيق في الفهم، والاستغلاق في الشعور. . .) أفكان كلام سعيد العريان - وهو يؤرخ أحقاداً قد سلها الموت إذ سل أسبابها - هو الذي أثار هذا الحي المستعد للثورة على ذلك الميت العاجز عن دفع الثورة؟ ثم ما الذي يحمله على أن يلبس هذه الثورة جلد النقد؟ والعجب أن يثير ما كتب (سعيد) حياً ليس شيئاً في الخصومة بين الرافعي والعقاد، وهو ليس يثير العقاد أحد طرفي الخصومة، وهو الذي يملك أن يقول لسعيد أخطأ أو صاب. . .! أشهد أن ما بالأستاذ قطب النقد، ولا به الأدب، ولا به تقدير أدب العقاد أو شعره. فما هو إلا الإنسان وجه يكشفه النور ويشف عما به، وباطن قد انطوى على ظلمائه فما ينفذ إلى غيبه إلا علم الله
وأنا أقدم بين يدي كلامي حقيقة لابد من تقريرها عن الرافعي والعقاد، وذلك أن الرافعي - رحمه الله - لو كان يرى العقاد ليس بشيء البتة، وأن أدبه كله ساقط ذاهب في السقوط، وأن وأن. . . مما كان يكتب ليغيظ به العقاد من جراء العداوة التي ضربت بينهما - لما حمل الرافعي عناء الكتابة في نقد العقاد وتزييف أدبه وإبطال أصل الشعر في شعره. ولو كان العقاد يرى الرافعي بعض رأيه الذي كتب لما تكلف الرد

على الرافعي ولا التعرض له. وكم من رجل كتب عن الرافعي وعن العقاد ونال منهما وأوجع! ولأنه ليس يدخل في
حسابهما، ولا يقيمان لأمثاله وزناً، ولا يعبآن بقوله ونقده وثورته - فقد تركاه يقول فيكثر فيمل فيسكت. ولم يكن بين أحد منهما وبين مثله كالذي كان بين الرافعي والعقاد
فالرافعي والعقاد أديبان قد أحكما أصول صناعتيهما، كل في ناحيته وغرضه، وأفنيا الليالي والأيام والسنين في ممارسة ما هو في وإليه، وكلاهما يعلم عن عمل صاحبه مثل ما يعلم عنه، ولا يظن بأحدهما أنه يجهل قيمة الآخر. فلما كانت العداوة بأسبابها بينهما بدأت قوة تعارض قوة، ورأي يصارع رأياً، وكان في كليهما طبيعة من العنف والعرام والحدة، وولع العقاد بإرسال العبارة حين يغضب على هينتها صريحة لا صنعة فيها، وأغري الرافعي بالسخرية والمبالغة في تصوير ما نصبه لسخره وتهكمه على طريقة من الفن؛ فمن ثم ظهرت العداوة بينهما في النقد وفي أذيالها أذى كثير وغبار ملؤه القوارع والقوارص من اللفظ، وعلى جنباته صور ينشئها أحدهما لصاحبه للكيد والغيظ والحفيظة، لا يراد بها إلا ذلك. ولقد شهدت أن الذي كان يكتبه الرافعي عن العقاد لم يكن عندي مما يحملني على الحط من منزلة العقاد التي كان ينزلها في نفسي، بل أستيقن أن الذي يكتبه إنما يراد به النيل من غيظ العقاد لا من العقاد نفسه. وعلى مثل ذلك كنت أجد ما يكتبه العقاد عن الرافعي، فلم يكن نيل العقاد من الرافعي - وأنا أحبه - مما يحملني العداوة له أو يدفع بي إلى الغيظ والحنق والثورة وخليق بنا وبآدابنا أن نطوي الآن سيئة رجلين قد تفارط أحدهما في غيب الله، وبقي الآخر تحوطه الدعوة الصالحة بطول البقاء وامتداد الأجل وسداد العمل
والكلمة الأولى من كلمتي الأستاذ سيد قطب، إنما تدور رحاها ورحى (بغضائه) للرافعي - أو كما قال - عن نفي الإنسانية عن ذلك الإنسان رحمة الله عليه، وخلوه من النفس، وفقدانه الطبع، وفقره إلى الأدب النفسي - وما إلى ذلك من لفظ قد ضل عنه معناه، وتهافت عليه حده - وأنه كان (رحمة الله عليه) ذكياً قوي الذهن، ولكنه كان مغلقاً من ناحية الطبع والأريحية، وأن أدبه كان أدب الذهن لا أدب الطبع، فيه اللمحات الذهنية الخاطفة، واللفتات العقلية القوية، ولكن الذي ينقصها أنه ليس وراءها ذخيرة نفسية، ولا طبيعة حية، إلى غير ذلك مما حفظه الأستاذ من شوارد اللفظ، وأوابد المعاني. . . وأسمع جعجعة ولا أرى طحناً
وأنا كنت أتنظر بالأستاذ أن يأتي في كلمته الثانية بشيء من النقد ينسي إليه ما قدم في الأولى من سوء العبارة وشنعة اللفظ في ذكر الرافعي الميت؛ ولكن خاب الفأل، وجاءت الثانية تدل من يغفل عن الدلالة البينة، على أن هذا الأستاذ الجليل لا يزال يستملي ما يكتب من بغضائه. وهان شيئاً أن يكره الأستاذ الجليل رجلاً كالرافعي حتى يأكله السل من بغضه؛ ولكن الأمر كل الأمر حيث ذهب يزعم فيما يكتب أن هذه البغضاء التي يستملي منها هي النقد، وأن أحكامه على الرافعي إنما هي أحكام قاض قد لزم المتهم حتى أنطقه واشهد عليه لسانه، فاستوعب كلامه، واستنبط الحجة عليه من ألفاظه، واستوثق للتهمة من قوله، ثم بنى (الحيثيات) من فحوى عباراته، ثم حكم وما حكم على المتهم إلا كلامه، ولا شهد عليه إلا لسانه
فلهذا كان علينا لزاماً أن ننظر في الذي أتى من كلام الرافعي، ثم قوله في فيه، واستنباطه الدلائل منه، وتحليله نفس الرافعي من لفظه حتى جعله مستغلق الطبع مسلوب العقيدة. ثم هو فوق ذلك لا يزال يبدئ ويعيد في كلامه ذكر أصدقاء الرافعي وأصحابه ويسخر منهم ويتحداهم، ويحملهم على مركب وعر، ويضطرهم بين خطتي خسف في أحكامه على الرافعي، ويخيرهم أن يختاروا للرافعي طرفاً من طرفين يحسب أنه يلزمهم شناعة من شناعاته التي سماها أحكاماً على الرافعي. وسنتولج فيما لا نحب، لا كرامة للأستاذ الجليل أو استجابة لدعائه، بل لميط الأذى عن نفس مطمئنة لحقت بالرفيق الأعلى راضية مرضية
ولولا أن يقال هَجَا نميراً ... ولم نسمع لشاعرهم جوابا
رغبنا عن هجاء بني كليب ... .
محمود محمد شاكر

أهمية الترجمة وحركاتها في التاريخ
الترجمة في الإسلام - 2
صفاتها وفهمها في أوربا
للأستاذ عبد العزيز عزت
نظرية رينان
وتتلخص آراء رينان ومدرسته في فهم التراث الإسلامي الذي بني على الترجمة في القرن التاسع الميلادي في ثلاثة أفكار يجدها القارئ في المحاضرة التي ألقاها رينان بباريس عام 1883 (29 مارس)، وعنوانها (الإسلام والعلم)، والذي أوحى إليه هذه المحاضرة هو مرور الشيخ الأفغاني بباريس في ذلك الحين. فرينان نفسه يقول في كتابه (مقالات ومحاضرات) صفحة 403 (منذ شهرين عرفت الشيخ جمال الدين بفضل مساعدنا الفاضل المسيو غانم، وقليل من الناس تركوا في نفسي أثراً كأثره. إن مناقشاتي المتعددة معه هي التي دعتني أن أحول موضوع محاضرتي عن العلم والإسلام) هذه المحاضرة رد عليها الشيخ الأفغاني بتاريخ 18 مايو سنة 1883 في جريدة الديبا وعقب على هذا الرد في اليوم التالي رينان في نفس الجريدة:
أولاً - يقول رينان ما ترجمته: (يمكن أن يقرر الإنسان بسهولة تامة التأخر الواقعي لبلاد الإسلام، وتدهور الحكومات القائمة على هذه البلاد، و (انعدام الفكر) في تلك الشعوب التي تخضع لهذا الدين فقط في ثقافتها وفي تعليمها، لأن الطفل المسلم حتى العاشرة أو الثانية عشرة من عمره يلحظ فيه نوع من الذكاء؟ وفجأة عندما ينتبه إلى تعاليم دينه، تأخذه نزعة صوفية تنتقل به إلى نوع من الإغماء العقلي كنتيجة لتلك النعرة الجنونية: إن الإسلام هو الحق والحق وحده. لهذا يشعر المسلم في أعماق نفسه بنوع من الاشمئزاز للتعلم والعلم، وكذلك لفكرة الجنس والقومية لأن الإسلام يرفع الفوارق بين الأمم)
ثانياً - يقول رينان ما ترجمته (إذا كان في الحضارة الإسلامية علماء وفلاسفة، وكانت هي أثناء عدة قرون سيدة الغرب المسيحي، وإذا وجد حتى عهد ابن رشد تراث فلسفي يسمى تراثاً عربياً (لأنه كتب بالعربية)، فكل هذا في واقع الأمر كان تراثاً يونانياً فارسياً أو
بالأصح يونانياً، لأن العنصر الأساسي فيه أقبل من بلاد اليونان. إن الفلسفة وجدت دائماً في بلاد الإسلام ولكنها بعد عام 1200 طغت عليها الموجة الدينية وقضت عليها، وساد بعد ذلك علم (النجوم) لأنه وسيلة لتحديد أوقات العبادات)
ثالثاً: يقول رينان ما ترجمته (حركة الترجمة العجيبة التي وجدت إبان ذلك كانت كلها من وضع الفرس والنصارى، واليهود والحرانيين، والاسماعيليين، والمسلمين الذين ثاروا على دينهم، وهذه الحركة لم تلق من علماء الإسلام إلا كل اضطهاد، لأن الإسلام في واقع الأمر يعادي دائماً العلم والفلسفة، وانتهى بالقضاء عليهما. الإسلام صارم يتحكم في العبد وفي دنياه وفي أخرته، هو ذلك القيد الثقيل الذي لم تصب بمثله الإنسانية في تاريخها. . . لا يمكن أن نطلب من العلم ولا من الفلسفة احترام الإسلام، كما لا يمكن أن نطلب من المكتشفات الحديثة والعلم الحديث احترام رجال الدين عامة)
الرد على نظرية رينان
أولاً - إن ما يأخذه رينان على بلاد الإسلام من تأخر لا يمكن أن يرجع إلى الإسلام ومبادئه، لأن هذا الدين وهذه المبادئ كانت في يوم ما من أيام التاريخ وسيلة للانتشار والحضارة والتقدم أثناء ازدهار الإسلام خاصة في عهد الرشيد والمأمون وهو ما يشابه عهد شرلمان في أوروبا، وأن هذا الانتشار وهذا التقدم كان له الأثر الطيب الذي لم ينكره الأوربيون أنفسهم خصوصاً في حركة الترجمة التي قام بها علماء اليهود الأعلام في أسبانيا وآباء الكنيسة إبان القرن الثالث عشر الميلادي، وأن مرجع هذا التأخر يعزى في واقع الأمر إلى أسباب تاريخية محضة لا مذهبية هي: أن إغارة الترك والتتار والمغول، وهي أمم من (غجر) الشعوب بائسة في الفهم والحضارة، قد عاقت تقدم الإسلام ومنعت ازدهاره (اقرأ فاجيري عن الإسلام)، وبجانب هذا فإن الإسلام دين كسائر الأديان الأخرى كاليهودية والنصرانية، فما يؤخذ عليه يمكن أن يؤخذ على هذه الأديان؛ ومع ذلك فهو يمتاز عنها بأنه لا يمكن للباحث أن يعثر فيه على نص يحرم به

العلم والتعلم كالذي نجده مثلاً في (الإنجيل) باب القديس بولس، البند الخامس. ثم لا تجد في الإسلام قوة تتوسط بين الله والعبد تسيطر عليه باسمه تعالى كسيطرة الكنيسة إبان القرون الوسطى. وكذلك في العهد الحديث تجد فرقاً بين أن يطلع القارئ على ما كتبه شيخ الإسلام فضيلة الأستاذ الأكبر محمد مصطفى المراغي عن (الإخاء في الإسلام) - وقانون الكنيسة الصادر في 5 سبتمبر سنة 1908 الذي به يحرم بيوس العاشر على أتباعه المساهمة في الحركة العلمية الحديثة، واضطهاد روح التجديد في كل شيء.

ثانياً - أما أن تكون الثقافة الإسلامية في أساسها ثقافة يونانية، فهذا ليس بعيب على الإسلام، لأن المطلع على نهضات الأمم في التاريخ يقرر أن هذه النهضات بنيت دائماً على عنصرين أولاً: عنصر الإيمان الذي هو السبيل الوحيد للتسيطر على النزعات الجامحة (لقطيع) البشر والوصول بهذا الجمع الحاشد من عباد الله إلى أنبل الغايات الدنيوية والأخروية. وهذا لا يمكن أن يتحقق إلا عن طريق الدين والثاني: هو عنصر العقل الذي هو السبيل لتهذيب ملكات السادة من الناس ومن يتصدى للرياسة وهذا عن طريق العلم، والعرب في هذا الباب آصل من الرومان والأمم الأوربية الحديثة أولاً: لأنهم خلقوا هجرة الإيمان بخلق دين (جديد) يمثل (عبقريتهم الخاصة) وطابعهم الخاص وفرضوه على الناس بالخيار، وهذا ما لم يصل إليه من تقدم ذكرهم من الشعوب.

ثانياً: أنهم مهدوا لخلق هجرة العقل وهم في ذلك مثل سائر الأمم وإنما فاقوهم فقط في أن ترجماتهم كانت أكمل وكانت آصح، وعن هذه الترجمة نقلت الترجمات اليهودية والنصرانية، وعن هذه الترجمات الأخيرة خلق أرسطو من جديد في أوروبا إبان القرن الثالث عشر فكان (بدعة) وثنية في وسط سادت فيه المسيحية بنزعتها الصليبية، وهذا مهد حرب العقل الحديثة بين باكون وديكارت من ناحية، وأرسطو العربي المغترب من ناحية أخرى

ثالثاً - أما أن يأخذ رينان على حضارة الإسلام أنها حضارة بنيت على عناصر خارجية كالفرس والنصارى واليهود. . . وهلم جرا، فالتاريخ يحدثنا أن الحضارة المسيحية في القرون الوسطى بنيت أيضا على مثل ذلك، فالمذهب الرسمي للتفكير في المسيحية هو مذهب للقديس توماس (اطلع على مكتوب الكنيسة الصادر في 14 يناير سنة 1904) وهذا المذهب يتأثر بمذهب أرسطو وبني في أصله على حركة الترجمة في القرن الثالث عشر في باريس، وزعيم هذه الحركة وأستاذ القديس توماس نفسه: هو القديس ألبير الكبير وهو ألماني الأصل وساعده في أبحاثه علماء اليهود في إسبانيا لأن علم العرب انتقل إليهم في ذلك الحين، (اقرأ منك في كتابه (الفلسفة العربية واليهودية)) ولهذا عندما يهتم الكردينال مرسييه بإصلاح التعليم الكاثوليكي ضد حركة التجديد في القرن العشرين يقول حسب تعاليم الكنيسة بتعلم اللغة العربية حتى يقف المسيحيون في أوروبا على وصول مذهب القديس توماس (اقرأ مكتوب الكنيسة الصادر في 27 مارس سنة 1906)، ثم إن العناصر الخارجية في أي زمان وفي أي مكان هي قانون عام بين الأمم لتبادل الثقافة. فالآن الخبراء العالميون ينتقلون من وطن إلى وطن في أرقى الأمم المتحضرة، والجنود المأجورة أو المساعدة في الحروب تفعل مثل ذلك، وفي فرنسا مثلاً الآن كثير من زعماء الفكر من أصل أجنبي كالفيلسوف الخالد برغسون وكذلك مدام كربيه، العلامة المشهور ميرسن، بل إن أستاذ اللغة الفرنسية نفسها في السربون (سيبويه الفرنسي) من أصل خارجي وهو العلامة فرتينا ستروفسكي، ومع ذلك فإن أحداً من الناس لا يمكن أن يشك في أن هناك حضارة فرنسية قائمة وأن أثرها معروف في العالم

ومجمل القول أن رينان هذا رجل يؤمن قبل كل اعتبار بالمذهب الوضعي، وهو مذهب (العلم) الحديث الذي يبنى على المنهج التجريبي الرياضي في العلوم الطبيعية، ويسعى أن يجعل من علوم الإنسان الأدبية علوماً لا تقل دقة في أبحاثها عن العلوم المتقدمة. وهذا الفهم في نظر اتباع هذا المذهب يناقض في أصوله ما ساد في تاريخ البشرية من نزعات الفكر التي تتلخص في نظرهم في نزعة دينية قالت بالوثنية تارة، وبعبادة مظاهر الطبيعة تارة أخرى، وبالتأليه تارة ثالثة، ونزعة تجريدية خالصة يمثلها العهد اليوناني وهي تبنى كأساس على منطق أرسطو، والفلسفة الإسلامية تتبع هذا

العهد. لهذا خرج رينان على المسيحية، ولهذا أيضاً اعتبر الترجمة في الإسلام كنقل حرفي أي الفلسفة اليونانية (مخطوطة) بحروف عربية، وهذه الترجمة ما هي إلا ترجمة مؤلفات أرسطو (بالذات)، وتعاليم هذا الفيلسوف هي (الوحيدة) التي سادت التراث الإسلامي من أوله إلى آخره، وأن هذه الفلسفة لاقت الاضطهاد من علماء الإسلام لأن هذا الدين ضد حرية الرأي والتفكير، فعداء رينان للإسلام وترجمته وفلسفته، عداء يتعلق إذاً بمذهبه العام الذي ساد في فرنسا في أواخر القرن التاسع عشر. لهذا لزم أن يضاف إلى ردود من عقب على كتاباته من المسلمين رد جديد ملخص يشتق من طبيعة الآراء والمعارف في القرن العشرين.

عبد العزيز عزت

عضو بعثة الجامعة المصرية لدكتوراه الدولة

من برجنا العاجي

في ورقة منفصلة بين مخلفات (بتهوفن) وجدت هذه الأسطر الدامعة: (الحب، ليس غير الحب، هو وحده الذي يستطيع أن يجعل حياتك سعيدة. آه يا إلهي، دعني أجدها أخيراً، تلك التي في مقدورها أن تدعم فضائلي، تلك التي قد سمح لي أن تكون زوجتي)

ومات بتهوفن ولم يسمح له. أترى الطبيعة عدوة الفنان، تضن عليه بما تمنحه للآخرين؟ نعم. إنها لتقسو عليه، وإنها لتغار منه أحياناً وتقول له في لغتها الصامتة البليغة:

- أنت تطلب ألي أنا أن أمنحك الحب؟ لا، إني أمنحه كل الناس إلا أنت. إني أمنحه أولئك المساكين الذين لا يستطيعون أن يخلقوا شيئاً؛ أما أنت فتستطيع أنت نفسك أن تخلق (الحب). إنك مثلي عبقرية خالقة. كل عملك في هذا الوجود أن تصنع (الحب) وتمنحه الناس.

وهكذا تتخلى الطبيعة غالباً عن الفنانين العظام، وتتركهم يبحثون سدىً عن السعادة فلا يجدونها كما يجدها الآخرون ملقاة كالفاكهة الناضجة ساقطة تحت الأشجار. إنما هي شيء بعيد، كلما مدوا إليه أيديهم ابتعد عنهم وتركهم يائسين. عندئذ ينكبون طول حياتهم على كنوز نفوسهم وحدائقها اليانعة يستخرجون منها للناس فاكهة من ذهب وفضة، تقصر الطبيعة أحياناً عن تقديم مثلها. ولكن الطبيعة تنظر إلى الفنان نظرة التشفي مع بسمة السخرية

- أفهمتني الآن، وعلمت أن كلينا يعيش في الحرمان، وأن سر وجودنا أن نعطي ولا نأخذ؟

فيقول لها الفنان في نبرة ألم:

- نعم، ولكنك أنت الطبيعة. أما أنا فآدمي مسكين. إنك لا تتألمين، أما أنا فأتألم؛ إذ أرى الحياة تزول من تحت قدمي، ولم يسمح لي بحظ قليل من الهناء الذي يسخى به على الآدميين!

على الآدميين؟ ومن قال إنك منهم؟ عندما وضع على منكبيك رداء (العبقرية والخلود خلع عنك في الحال بعض خصائص الآدميين!

توفيق الحكيم

إيضاح وتعليق

بحث في الرمزية

للأستاذ زكي طليمات

مفتش التمثيل بوزارة المعارف

نشر الأستاذ الدكتور بشر فارس تعليقاً ضافياً في المذهب الرمزي نشرته الرسالة في عددها رقم 251 جاء تكملة لبحثه القيم الذي صدر به روايته (مفرق الطريق) والحديث في الرمزية شيء يطول، فلا تحلو مطالعته في مجلة تحرص على أن تقدم لقرائها نبعة من كل ينبوع

بيد أنه يعنيني من تعليق الأستاذ شيئان لهما اتصال وثيق بما سبق أن نشرته عن الرمزية في هذه المجلة منذ ثلاثة أسابيع. .

الأمر الأول هو ابتهاج الدكتور بشر بأن يراني أعمد إلى بعض تراكيب جرت في توطئة مسرحيته المذكورة في التعبير عن معان وألوان في الرمزية. وهاأنذا أبادر بتسجيل ما

يزيد في ابتهاج الأستاذ الدكتور، بل ويبعث زهوه، فأصرح بأنني حقاً عمدت إلى اقتباس تركيبين أو ثلاثة تراكيب وجدت فيها التعبير الكامل عن خلجات وآراء كانت تجول في نفسي منذ أن كنت أدرس الرمزية في الإخراج والتمثيل في معاهد أوربا. ولا يسعني إلا أن أهنئ الأستاذ الدكتور على توفيقه في إيجاد هذه التراكيب وإطلاقها حية قوية تنبض بالمعنى البكر، وتشق طريقها بين التراكيب الفنية والأدبية لتستقر في صلب اللغة العربية

أما الأمر الثاني، فالتباس عرض للأستاذ الدكتور حينما أردت أن افرق بين طبع الدكتور فارس وطبع غيره ممن عالجوا الرمزية من قريب أو من بعيد، فأجريت في مقالي الثاني ما نصه: (فبشر فارس وتوفيق الحكيم يغترفان من مصدر واحد، الأول يكتب متثبتاً بما تلقنه. . .)

ولا يسعني أن أعلق على هذا قبل أن أبدي عجبي من ذلك الالتباس الذي خالط ذهن الدكتور؛ إذ المعنى جلي واضح العبارة، يزيده إيضاحاً ما أوردته في صلب ذلك المقال، وفي نقدي السابق لمسرحيته (مفرق الطريق) الذي نشرته الرسالة قبل بحثي في الرمزية.

قلت: إن بشر فارس وغيره من الكتاب الشرقيين يغترفون من معين واحد؛ وإذا اغترف كاتب من معين، فمعناه أنه تلقن مبادئ وأساليب معينة. إلا أن هناك من يكتب وقد اخذ متثبتاً بما تلقنه، ومن يكتب وقد خالط ما تلقنه خيال طارئ

هذا وقد أعطيت الشيطان حقه حينما أنصفت بشر وتوفيق الحكيم بما نصه: (إلا أن لكل منهما طرائقه في التعبير عن رمزيته) فالأستاذان كاتبان مجيدان في الرمزية، ولكل منهما سحره فيما يكتب، ولا يضير الاثنين أنهما يصدران عن نبعة واحدة مادامت طرائق كل منهما تحمل طابع شخصية مستقلة

وزيادة في الإيضاح أقول إن منحى بشر فارس في الرمزية هو منحى يقوم على التأثر الدفين تمازجه الوجدانيات والفلسفة، في حين أن منحى الأستاذ توفيق الحكيم يأخذ سمت السخرية بالعواطف ليدلل على إفلاسها أو ليناقش عابثاً هازئاً بمدركات مجردة؛ وكلتا الرمزيتين لها طلاوتها، ولها فلسفتها، ولها أسلوبها في الكشف عن الغامض والمبهم والتائه في لفائف الروح

أما ما ذهب إليه الدكتور فارس من أن مسرحيته تستقر في الرمزية المستحدثة - فأمر لا يغير شيئاً من منحى مسرحيته مادامت تصعد إلى الرمزية الأولى التي شرحناها أنا والدكتور بشر. فروايات (إدمون روستان) مثلاً تعتبر من صميم الرومانسية، وهي مع ذلك من الرومانسية المستحدثة كما يقول النقاد

وما الرمزية إلا خلجة من خلجات النفس خرجت ولها طابع خاص لم يلبث أن خالطته ألوان نفسية جديدة قد تحور من مظاهرها وتبدل من أشكالها، ولكنها لا تطغي على صميمها؛ وشأنها في ذلك شأن أية عاطفة بشرية. ولو أردنا أن نحصي الألوان التي داخلت الرمزية منذ نشأتها لتعذر علينا البحث ولأعيانا الأمر ولوقفنا موقف من يريد أن يقسم الشعرة الواحدة من الرأس إلى أربعة أقسام كما يقول الفرنسيون!

يبقى بعد هذا أن أبدي سروري بأنني كنت في طليعة من نوه بمقام مسرحية (مفرق الطريق) وأنا الرجل الذي يشغله المسرح عن كل شيء عداه. ويسرني أيضا أن أرى هذه المسرحية تشغل تفكير نخبة من الأدباء أمثال أمين الريحاني وميخائيل نعيمة، وحافظ محمود، وكامل محمود حبيب، والأب العلامة الكرملي، وصديق شيبوب وغيرهم. وأعجب

وفي مصر نخبة من الأدباء الذي يجردون أقلامهم لكل حادث أدبي، كيف أن هذه المسرحية الطريفة لم تحرك أقلامهم بالكتابة لها أو عليها، والرواية كما قلت من قبل حدث في الأدب العربي الحديث!

زكي طليمات

جولة في معرض الفنون

بقلم نصري عطا الله سوس

يقول بول فاليري في معرض الكلام عن قصيدته (المقبرة البحرية) إنه ليس من حق الشاعر أن يفرض على قارئه معنى خاصاً لقصيدته ولا أن يفسرها له. فالشاعر قد فسر شعوره في أبياته فما معنى تفسير هذه الأبيات بعد ذلك؟ إن التفسير لا يكون إلا

في حالة العجز والقصور. فلكل قارئ أن يستخلص ما يشاء إلا إذا كان ممن عناهم المتنبي بقوله:-

ومن يكُ ذا فم مرٍ مَرِيض ... يجد مُراً به الماء الزُّلالا

فالشاعر قيثارة تستنطقها الطبيعة ألحاناً تختلف النفوس في تلقي موحياتها وتفسير معانيها؛ والنفس الإنسانية أوسع وأرحب من أن يحدها تفسير. وما يجهله الإنسان من نفسه ومما حوله أكثر مما يعرفه معرفة اليقين. والفن رسالة توحيها النفس الباطنة أكثر مما توحيها النفس الواعية. والنفس الباطنة كثيراً ما تلغز وترمز دون أن توضح وكان الموسيقي الكبير (رافيل) يقول: ليس هناك (فنون) بل هناك (فن)، فن واحد يبدو طوراً ألحاناً خالصة، وطوراً كلمات منظومة، وطوراً خطوطاً وألواناً، صور مختلفة تعبر فيها الروح القوية عن مشاعرها واحساساتها - ومن هنا ترى أن ما قاله بول فاليري عن الشاعر ينطبق تماماً على الفنان. ولما كنت أعتقد أن الفن تعبير قبل كل شيء، فقد ذهبت إلى معرض الصور وأنا أقول لنفسي: (انتبه- تبين أي الصور ستوجه نفسك إلى نواحي جديدة في الحياة لم تسعفك تجاربك بتمليها؟ وأي الصور ستجدد وتعمق إحساساتك بما عرفته وحبرته. .)

يتفاوت مستوى الإجادة الفنية بين العارضين تفاوتاً كبيراً. فإلى جانب الصور القوية الناضجة نجد صوراً تذكرنا بما كنا نلقاه في كتب المطالعة الابتدائية من صور؛ ولا ندري كيف تسربت هذه إلى المعرض. ونسبة العارضين من الطلبة كبيرة جداً. وقد راعنا فقدان الروح الفنية بينهم تماماً. والفنان كالشاعر يولد ولا يصنع. ومدارس هؤلاء تعلمهم إتقان الرسم والتعبير، ولكن التعبير عن ماذا؟؟ هذا ما نحب أن نسأل عنه فناني الجيل المقبل. . وأغلب من حادثتهم من العارضين لا يهتمون إلا بطريقتهم في رسم الصورة. وهذا قصور بارز، ولعله أكبر آفة تحل ببعض الفنانين المعروفين- فكل يريد أن يكون زعيم مدرسة

وصاحب طريقة خاصة يعرف بها وتنسب إليه. وهذا جميل ومعقول بشرط أن يكون تلقائياً ويتطلبه مثل الفنان الأعلى ومنزعه. وأما أن يركب الفنان الشطط لا لغاية أكثر من الشهرة والاختلاف عن غيره، فهذا ما لا يرضاه الفن. فلست أدري ما الذي يدعو الأستاذ راغب عياد مثلاً إلى أن يقصر فنه على دراسة الأسواق وما شاكلها من نواحي الحياة المصرية التي سيأتي عليها الزمن بعد حين. قيل لنا إن عياداً يود أن يخلق فناً محلياً. وهذه رغبة نبيلة دون شك، ولكن الفن المحلي الذي يموت لتوه إذا نقل إلى بلد آخر، غير جدير باسم الفن. ومحلية الفن لا تتنافى مع عالميته. فالفن الإغريقي القديم له مميزات خاصة (وكذا المصري القديم والإيطالي في عهد النهضة) تمليها البيئة التي نشأ فيها، ولكن هذا لم يمنعه من أن يكون فناً عالمياً يدرس ويستوحي في كل مكان ويظهر أننا نخطئ فهم كلمة (محلي) كثيراً. فالفنان عالمي الذات بطبعه وروحه؛ والفن القوي يحقق شرطين: (1) القدرة على البقاء والاستمرار (2) العالمية. ولكن عندما يعمد الفنان إلى رسم رقصات روحه وهمسات نفسه مضطر إلى أن يختار لها أشكالاً وألواناً مما حوله أي من البيئة التي يعيش فيها. وكذا (روح العصر) تدفع الفنان إلى أن يبرز ويؤكد بعض نواحي الحياة ويترك بعضها. فهو يبين لنا تفاعله مع عصره بتوجيه الأنظار إلى ما هو خافٍ، وتشنيع ما هو مستهجن، وتمجيد كل ما هو نبيل، وهكذا. ولكن عناصر الحياة هي هي في كل زمان ومكان. والبيئة والعصر عاملان لا يكتمل فن بدونهما، ولكن جوهر الفن واحد في كل زمان ومكان

وحسبنا بعد ذلك أن نذكر أهم الفنانين:

لا مراء في أن الأستاذ محمود بك سعيد أبرز العارضين وأعمقهم شاعرية وإحساساً، وفنه يفرض نفسه عليك فرضاً: فن ممتلئ قوة ودماً، ورسوم تكاد من فرط حيويتها تترك لوحاتها وتشارك الأحياء حركة وكلاماً. والفنان يشعرك أنه يحب الحياة حباً لا نهاية له، ويمجد جمالها تمجيداً تقصر عنه الكلمات وتقربه الألوان إلى النفس بعض الشيء، وألوانه القوية تقول لك إنه يعتقد أن الحياة جميلة غنية محببة عميقة لا تعرف نفسه سبيلاً إلى الارتواء والاكتفاء مهما عب من معينها. وتجتمع عند الأستاذ سعيد خواص قلما تجتمع عند غيره، أهمها التوفيق بين التعبير العاطفي القوي مع محاكاة الطبيعة. وفنه خير مثال للتعريف

القائل بأن الفن هو الطبيعة وشعور الفنان مجتمعين
ولا أعرف أقصداً أم صدفة جاءت لوحات السيدة إيمي نمر قبالة لوحات سعيد بك، وفن السيدة الفاضلة فن قوي ولكنه نقيض فن سعيد تماماً. ألوان سعيد تدل على الحيوية والفرج؛ أما فن السيدة إيمي فهو قاتم حزين، وألوانها توحي للنفس تأمل الفيلسوف الزاهد الذي يركز بصره على الناحية القاتمة من الحياة. وأي نفس لا تهش لمنظر البحر ويطربها انعكاس الألوان والأضواء على سطحه، وتسلسل أنغامه، وجيشان أمواجه وما ترسم على وجهه الريح من رموز وأسرار، ولكن الفنانة تتغاضى عن كل هذا وترسم لك (منظر تحت سطح البحر) وماذا تعرض عليك؟ عدة هياكل عظيمة (ومنظر طبيعي) يمثل الخريف بأقفاره وسهومه ووجومه، (والأمومة) يخالط الأم فيها البؤس والشقاء وعبء الأمومة مع ما فيها من حنان، (ومكتوفة اليدين) أبلغ ما يمثل لك الحيرة والبؤس والأسى وتفاهة الحياة مجتمعة - ولوحاتها تدل على أن طاقتها الفنية عميقة جداً
وفن السيدة برسيلون نوس (مصرية) فن ناضج، ويتمثل نضوجها في اختيار الألوان بحيث تعبر عن الجو العاطفي للصورة. وأحسن ما يبدو هذا في (الكهولة) حيث يغلب اللون الأصفر الممزوج بالأحمر؛ وفي (الرجل والزجاجة) - أما (رأس صعيدي) فتمثل روح الوجه القبلي تماماً، و (رأس امرأة مصرية) تكاد تنطق روعة وشباباً. وبالجملة فهي رسامة شاعرة
وقد قال لي بعض من يعرفون الأستاذ حسين محمد بدوي إنه لا يعرض (فناً) وإنما يعرض طريقته الخاصة. وعلى كل فرسومه تدل على مقدرة فائقة، ولكن هذا ليس كل شيء، فما فائدة مقدرة لا يعرف صاحبها كيف يستخدمها. وطريقة الأستاذ لا تتفق إلا وموضوعات وحالات نفسية معينة لو تعدتها إلى غيرها تضر ولا تنفع. ولو عني الأستاذ بهذه الناحية لكان فنه أوقع وأمتع وأبدع. وفن الأستاذ نجيب أسعد يغري بالمقارنة بفن الأستاذ حبيب جورجي؛ إلا أن الأخير أرحب روحاً وأعمق نفساً. فمناظر الكنائس والأديرة التي رسمها الأستاذ جورجي يبدو فيها جلال الدين وقداسته. أما تلك التي رسمها الأستاذ اسعد ففيها تبدو الوحشة والكآبة التي تخيم على مثل هذه الأماكن. وهناك رسوم تدل على تمكن أصحابها من الرسم، ولكن تنقصهم الرحابة الفنية. وأهم هؤلاء هم الأساتذة محمد محبوب، ولبيب أيوب (وحسبه (العود) فهي لا عيب فيها) ونعيم جاب الله، وإن كانت رسوم الأخير تدل على فهم تام بطبيعة الألوان وذوق دقيق في اختيارها
وهناك طبقة أخرى اكتفت بأن حاكت الطبيعة محاكاة تامة، ولوحاتهم تدل على تمكن من الصنعة ودقة ملاحظة، ولكن لا أثر للفن فيها، لأن الفن شيء والمحاكاة الفوتوغرافية شيء آخر. وأبرز هؤلاء الأساتذة إدموند صوصه، وهيدايت دانش وجورج صباغ
وعدد الصور الآدمية في المعرض كبير جداً. وهذه ناحية من نواحي الفن التي يقل فيها المجيدون، لأن الغرض منها ليس نقل الملامح فقط بل نفسية الشخص ومميزاته الخلقية. ولذا فالفنان مجبر على دراسة من يتصدى لرسم صورته دراسة نفسية عميقة قبل أن يتناول ريشته. ولهذه الكثرة تفسير نفسي مقبول، وهي أن النوازع النفسية التي تدفع الفنان إلى رسم الأشخاص تختلف، وبعض هذه الدوافع تنتج فناً أصيلاً، وبعضها ينتج فناً زائفاً - مثال هذه الأخيرة حب المدح وحب السيطرة والتملك. والفنان الأصيل يحلل مشاعره قبل أن يرسم
وهناك فنان شاب هو موريس فريد، ولفنه ميزات بارزة أهمها اندماجه النفساني في جو الموضوعات التي اختارها للوحاته، وألوانه
وخطوطه تمتازان ببساطة معبرة تلائم روح المناظر الطبيعية التي تمثل سلام الطبيعة وسكونها وصفاء شمس مصر
أما في فن النحت فمن أحسن العارضين الفنان الشاب فتحي محمود علي؛ وحسبه (الأمومة)، ففيها كل العناصر التي يتألف منها الفن الناضج؛ وأديب يس يوسف وإن كان فنه فجاً بعض الشيء إلا أنه يحتوي على العوامل التي تصلح أساساً متيناً لفن قوي ممتاز، والفنان الإيطالي فيتوريو روسين
وأرجو أن يتاح لي أن أنشر في الرسالة قريباً سلسلة من المقالات أبين فيها فلسفة

الفن الحديث وأصوله ومذاهب الفنانين المختلفة ومميزات كل مدرسة، وأعرض للنواحي البارزة لفن كل أمة. ورغبتي المتواضعة هي أن يتاح لدارس الفن ومحبيه الاطلاع على هذه النواحي ودرسها فقد لاحظت أنها مجهولة تماماً بين كل من تعرفت إليهم. كما أن صور أغلبية من لا أعرفهم لا تدل على عرفانهم إياها
نصري عطا الله سوس
بعد عام
مصطفى صادق الرافعي
للأديب أحمد فتحي
تلكَ أنغامُهُ، وهذا نشيدُهْ ... رَنَّ في مِسْمَع العُلي ترديدُهْ
أَسْعَدَ الليلَ بالأغاريد، حتى ... غمر الليلَ بالمنَى، غِرِّيدهْ!
هاكَ أعوادَهُ تمايَلُ في الرَّوْ ... ضِ، فتهفُو إلى ذَرَاها وُرودُه
كلما هَمَّ بالغِناءِ تَثنى ... مثل لَيْلاَيَ في المشارِفِ عُودُه
طائر دَفَّ في الدُّجَى بجناحَيْ ... هِ على النَّهْلِ يُسْتَسَاغ ورودهْ
كلما شارف المواردَ رَدَّتْ ... هُ شجونٌ يضجُّ منها جليدُهْ!
قَبَّلَ الطلُّ خَدَّهُ، وتَمادَى ... نحو ثغرٍ يحكي الرُّضاب بَرودُهْ
وترامى الدجى على قدميه ... والليالي كأنهن عبيدُهْ!
وهو هيمانُ ما يَرُدُّ سؤالاً ... بيض أفكارِهِ سواءٌ وسُودُهْ
إن طَوَتْ ذِكْرَهُ الليالي فمازا ... لَ عزيزاً، قديمُهُ، وجديدُهْ
إيه يا مصطفى، وقد طُوِىَ العا ... مُ، ورَفَّتْ على البرايا بُنُودُه
كيف أصبَحْت في مكانك بالخُل ... د، وَأيْنَت صلاتُهُ وسجودهْ
عيشُنَا عارياتُ ربكَ في الدُّن ... يا، وللمُتَّقينَ فيها خُلوُدُه
يعشقُ الناسُ في مباهجِهِ المجْ ... دَ ويَفْنَى طريفُهُ وتَلِيدُه
ما ترى في معاشر جحدوا الشِّع ... رَ وقد طابَ في ذَراهُهْم جُحودُهْ
إنَّ منه لحكمةً تترك القَلْ ... بَ قعيداً يملُّ منه قُعُودُه!
فيمَ سَعْيُ الأنام والعيش نَجْمٌ ... يبهرُ العين نحسه وسُعُودُه؟
زخرفٌ كُلهَا الحياةُ احتواها ... أَمَلٌ يَخْدَعُ الرجالَ شرودُه!
ما ترى العينُ غيرَ مُلكٍ من الوَهْ ... مِ تناهَتْ سهولُهُ ونجودهْ
سَرِّحِ الطرف، هل تَرَى غير خلق ... يتباكى شَقيُّهُ وسعيدُهْ؟!
كذب كلها الحياهْ، وعمرٌ ... ليس يبقَى قصيرُهُ ومديدُه!
يا فقيدَ البيان، والشعر وَحْيٌ ... مِنْ عُيونِ السماءِ تَهْمي قصيدهْ
قد حفظنا عهودَهُ، لم نُضِعْهَا ... ولقد طالما أُضيعَتْ عُهُودُهْ
ظَلَّ فينا القريضُ قُدْسَ تراثٍ ... أنا بَشَّارُه، وأنتَ لبيدُهْ!
شَدَّ مَا ضلَّ فِتْيَةٌ رغبوا للتَّحْ ... ويرَ فيه، وشَاقَهُمْ تجديدُهْ
زعموا الشعر كالثياب، بعصر ... يَتَشَهَّى استحداثَها فيه غِيدهُ
قَلدُوا الغَرْبَ في نظام القوافي ... وهي عِقْدٌ ما ينبغي تَقْلِيدُهْ!
أين تلك الحصباءُ من ذلك الدرْ ... رِ صحيحاً يَتِيمهُ وفريدُهْ!؟
يا حبيبَ القران، وهو بيانٌ ... لاَحَ إعجازُهُ وَعَيَّ حَسُودُهْ
لم تزلْ هاتفاً به تَتَغَنَّى ... يبعثُ السِّلمَ في النفوس نشيدُه
لك من طُهر آيه بركاتٌ ... تُجْزِلُ الأجر للتُّقَى وتزيدُهْ
إن شكوتَ الجحود في ظل دهرٍ ... قد تساوَتْ جَراؤُهُ وأُسُوده!
فَلَكَ الغاية التي وَعَدَ اللهُ ... ويا حُسْنَ ما أعدَّتْ وعوده
جَنَّةً عَرْضُهَا السماواتُ والأرْ ... ضُ، وظلاً ما ينطوي ممدوُه
(القاهرة)
احمد فتحي
القصص
مطالعات في (ألف ليلة وليلة)
عبد الله البري وعبد الله البحري
قصة فلسفية دينية
للدكتور حسين فوزي

إنني أراه هذا الصياد المعدم وقد عاد من صيده فارغ الجعبة ينتظره بالبيت تسعة عيال وأمهم التي وضعت في هذا اليوم بالذات مولودها العاشر. أراه في عودته واقفاً بباب الخباز وسط الزحام وكان (وقت غلاء، ولا يوجد عند الناس من المؤن إلا القليل في تلك الأيام)، يرمق الأرغفة المتراصة بنظر زائغ، ويستعبر رائحة (العيش السخن) تشتهيه نفسه. أراه ماثلاً أمامي هذا الصياد (الغلبان) خرج صباح اليوم يلقي الشبكة (على بخت المولود الجديد) فلا تصيد إلا رملاً وحصى وأعشاباً. وهو يتساءل (كيف يخلق الله هذا المولود من غير رزق) وقد حفظ من أقوال الأقدمين: (من شق الأشداق، تكفل لها بالأرزاق، فالله تعالى كريم رزاق)

وإذا بالخباز يناديه ويسأله إن كان يطلب خبزاً. ثم يلح عليه في أن يحمل منه ما يريد فهو صابر عليه حتى يأتيه الخير. ويرضى الصياد على شريطة أن يقدم شبكته رهناً، فيرفض الخباز احتجاز الشبكة التي يقوم عليها أود الصياد، ويعطيه خبزاً بعشرة أنصاف فضة، ويقدم له عشرة أنصاف فضة (ليطبخ بها طبخة). على أن يجيئه بسمكة في الغد.

وفي اليوم التالي يخفق في صيده كما أخفق في اليوم السابق، فيخجل أن يقف بباب الخباز. بل هو يعجل بخطاه أما حانوته ولكن الخباز يناديه قائلاً (يا صياد، تعال خذ عيشك ومصروفك فإنك نسيت). ودام الحال على هذا أربعين يوماً حتى سئم الصياد هذه الحياة، وود أن لم يكن المخبز في طريقه إلى البحر حتى لا يضطر إلى المرور بالخباز الكريم. ولكن زوجه تشجعه على المضي إلى البحر، وتشكر الله الذي قيض لهم هذا المحسن

ويذهب الصياد إلى البحر في اليوم الواحد والأربعين وهو يدعو الله أن يرزقه (ولو بسمكة واحدة يهديها للخباز): وإذا بالشبكة متثاقلة يسحبها في مشقة. حتى إذا هي عادت إليه ألفاها

تحمل. . . حماراً ميتاً! وهرب من الرائحة الكريهة إلى ناحية أخرى من الشاطئ. وتثاقلت عليه الشبكة أكثر من المرة السابقة، حتى إذا ما جذبها إليه خرج منها رجل حسبه الصياد (عفريتاً ممن اعتاد سليمان أن يحبسهم في القماقم يرمي بها إلى البحر). وصاح الصياد:

- الأمان، يا عفريت سليمان!

فيجيبه الرجل:

- تعال يا صياد، لا تهرب مني فأنا آدمي مثلك. خلصني لتنال أجري.

يخلصه الصياد ويعلم من أمره أنه ليس عفريتاً من الجن. فيسأله عمن رماه في البحر، ويجيبه بأن البحر مقره ومثواه. فهو من (أولاد البحر) وقع بالشبكة صدفة، وكان بوسعه أن يقطعها ليخلص نفسه، لولا أنه (راض بما قدر الله). ويسأل الصياد أن يعتقه (ابتغاء لوجه الله). ويتفق وإياه أن يجتمعا في ذلك الموضع كل يوم، فيأتيه الصياد بفواكه البر (وعندكم منها العنب والتين والبطيخ والخوخ والرمان وغير ذلك) ويأتيه هو (بمعادن البحر من مرجان ولؤلؤ وزبرجد وزمرد وياقوت وغير ذلك).

ويقرآن الفاتحة، ويخلصه الصياد من الشبكة ثم يتفقان أن ينادي الصياد عليه من البر كلما أراد، قائلاً (أين أنت يا عبد الله يا بحري!) فيلبي.

- والآن ما اسمك أيها الصياد؟

- اسمي عبد الله

- أنت إذن عبد الله البري، وأنا عبد الله البحري. انتظر حتى آتي لك بهدية

ويختفي عبد الله البحري في الماء هنيهة تبدو لعبد الله البري كأنها دهر. ويتأسف على تركه هذا المخلوق يفلت من يديه، وكان في استطاعته أن يأخذه إلى المدينة يعرضه في الأسواق، ويدخل به (بيوت الأكابر)

ويعود عبد الله البحري باللؤلؤ والمرجان والزمرد والياقوت ملء اليدين. ويعتذر لأخيه عبد الله البري عن عدم تمكنه من أن يحمل اله أكثر من ذلك. ولو أن (عنده مشنة لملأها له) ويتواعدان على اللقاء في الأيام التالية

وغدا عبد الله البري رجلاً واسع الثروة بفضل صداقته لسميه البحري. وقد أخفى سره إلا عن الخباز الذي أحسن إليه في عسره. وراح يقاسمه الجواهر البحرية

ولكن هذه الثروة المفاجئة تستثير شكوك الناس. وينتهي الأمر إلى أن يتهمه شيخ الجوهرية بسرقة حلي ابنة الملك. ويقتاده الحرس إلى القصر، فتنكر الأميرة أن هذه جواهرها. وترسل إلى والدها من يقول له بأن بعض اللآلئ أجمل من لآلئ عقدها. فيغضب الملك وينهر شيخ الجوهرية وأتباعه. فإذا اعتذر الرجل بأن (الصياد كان فقيراً فاستكثرنا عليه هذا الغنى المفاجئ) صاح الملك فيه وفيمن حوله: (أتستكثرون النعمة على مؤمن؟ اخرجوا لا بارك الله فيكم)

وسأل الصياد عن قصته فسردها عليه. وهنا يطأطأ الملك الحكيم رأسه هنيهة ثم يرفعه قائلاً:

- يا رجل هذا نصيبك. ولكن المال يحتاج إلى الجاه، وأنا أسندك بجاهي

ثم يزوجه ابنته ويقيمه وزيراً له، ويحنو على أطفاله العشرة وتكون زوجة الصياد موضع تكريم الملكة (فتنعم عليها، وتجعلها وزيرة عندها)

وغداة الزواج يطل الملك من النافذة فيرى وزيره وصهره عبد الله حاملاً على رأسه (مشنة) ملأى بالفواكه فينكر عليه ذلك، ويجيبه صهره بأن لا قبل له بإخلاف ميعاد صديقه عبد الله البحري، خصوصاً في الظرف الحاضر إذ يحق له أن يتهمه بأن (إقبال الدنيا عليه، قد ألهاه عنه)

يحافظ عبد الله البري على عهد صاحبه البحري، ويواصل قسمة الجواهر بينه وبين صاحبه الخباز. ثم ينتهي إلى التحدث بشأنه مع الملك الذي يقول له (أرسل إلى صاحبك الخباز وهاته لنجعله وزير ميسرة)

وربما حسبت القصة منتهية عند هذا الحد، والواقع أن مجرد استقرار الحال قد يؤذن بختامها. فعبد الله البري يذهب كل يوم بسلة الفواكه يستبدلها بجواهر البحر. وحين تخلو البساتين من الفواكه يحمل إلى صاحبه الزبيب واللوز والبندق والجوز والتين.

ويدوم الحال على هذا عاماً تتطور القصة في آخره تطوراً جديداً أسرده عليك

جلس عبد الله البري ذات يوم على شاطئ البحر يتحدث إلى صديقه عبد الله البحري فيبادره هذا قائلاً:

- يقولون يا أخي إن النبي صلى الله عليه وسلم مدفون عندكم في البر، فهل تعرف قبره؟

- نعم، فهو في مدينة يقال لها طيبة

- وهل يزوره أهل البر؟

- نعم.

- هنيئاً لكم يا أهل البر بزيارة النبي الكريم. فمن زاره استوجب شفاعته. هل زرته أنت يا أخي؟

- لا، فقد كنت فقيراً لا أجد ما أنفقه في الطريق. ولم أصبح غنياً إلا منذ عرفتك. والآن وجبت علي زيارته بعد أن أحج إلى بيت الله الحرام. وما منعني عن ذلك إلا محبتي لك

- وهل تفضل محبتي على زيارة قبر رسول الله الذي يشفع لكم يوم العرض على الله؟

- إن زيارته والله مقدمة عندي على كل شيء. وأطلب منك إجازة أزوره هذا العام

- أعطيك الإجازة بزيارته. وإذا وقفت على قبره فأقرئه مني السلام. وعندي أمانة فادخل معي في البحر حتى آخذك إلى مدينتي وأدخلك بيتي، وأعطيك الأمانة لتضعها على قبر الرسول

- يا أخي، أنت خلقت في الماء، ومسكنك الماء فهو لا يضرك. فهل إذا خرجت منه إلى البر يصيبك ضر؟

- نعم، يجف بدني وتهب علي نسمات البر فأموت

- كذلك أنا، خلقت في البر ومسكني البر. فإذا دخلت البحر يدخل الماء في جوفي ويخنقني فأموت

- لا تخف، فإني آتيك بدهان تدهن به جسمك فلا يضرك الماء، حتى لو قضيت فيه بقية عمرك

وعبد الله البري رجل كله إيمان واستكانة. فهو راض أن يأتيه بذلك الدهان يجربه. ويحمل عبد الله البحري (المشنة) ويغوص في البحر. ثم يعود بها ملأى (شحماً مثل شحم البقر، لونه أصفر كلون الذهب، ورائحته زكيه). ويخبر صاحبه بأنه شحم نوع من

الأسماك يقال له (الدندان، أعظم أصناف السمك خلقة)
- وهو أشد أعدائنا علينا، وأكبر من أي دابة من دوابكم في البر. ولو رأى الفيل لابتلعه
- وماذا يأكل هذا المشؤوم يا أخي؟
- يأكل من دواب البحر. أما سمعت المثل القائل: مثل سمك البحر، القوي يأكل الضعيف؟
- يا أخي، إني أخاف إذا طوفت معك في البحر أن يصادفني هذا النوع فيأكلني
- خفف عنك، فإنه متى رآك عرف أنك ابن آدم فخاف منك وهرب. فالدندان أشد ما يكون خوفاً منكم. لأن شحم ابن آدم سم قاتل له. بل ليكفي أن يسمع صياح ابن آدم فيموت هلعاً
(وتوكل عبد الله البري على الله، وخلع ملابسه ودفنها في رمال الشاطئ. ثم دهن نفسه بشحم الدندان وغاص في الماء. وفتح عينيه ومشى يميناً وشمالاً والماء لا يضايقه. وجعل ينزل إلى القرار ثم يرتفع بكل سهولة)
واندفع عبد الله البحري أمامه دليلاً له في تلك النزهة البحرية النادرة. فرأى عن يمينه وشماله جبالاً. وشاهد أصنافاً عديدة من الأسماك (البعض كبير، والبعض صغير. منها ما يشبه الجاموس، ومنها ما يشبه الكلاب، وشيء يشبه الآدميين. وكلما قرب عبد الله البري من نوع هرب هذا منه. فيسأل صاحبه:
- يا أخي، ما لي أرى كل هذه الأسماك تهرب منا؟
- مخافة منك يا أخي. فجميع ما خلقه الله يخاف ابن آدم
ووصلا إلى جبل عال، فمشى عبد الله البري بجانب الجبل. وإذا بصيحة عظيمة اتجه إلى مصدرها بنظره فرأى شيئاً أسود منحدراً نحوه من الجبل، وهو (أكبر من الفيل والجمل). وسمع صديقه عبد الله البحري ينادي عليه:
- دونك وهذا الدندان، فهو متجه إلينا في طلبي ليأكلني. صح به!
وصاح عبد الله البري فزعاً وطائعاً في آن واحد. فإذا بالدندان يقع ميتاً. يتعجب عبد الله البري ويقول: (سبحان الله! لم أضربه بسيف ولا بسكين. وهاهو ذا على ضخامة جسده لا يتحمل صيحتي!)
ويدخل الصاحبان مدينة (بنات البحر)، فيهتم عبد الله البري بأمر هذه الإناث لا ذكور لها ويتساءل كيف تستطيع أن تخلف نسلاً
- إنهن منفيات في هذه المدينة بأمر ملك البحر. ولا يمكنهن الخروج من هذا المكان، أو تلتهمهن دواب البحر
- هل في البحر غير هذه المدينة؟
- كثير
وجعل عبد الله البري (يتفرج على عجائب البحر). وقد رأى لبنات الماء (وجوهاً كالأقمار، وشعوراً كالنساء. ولهن أيد وأرجل نابتة في بطونهن، وذنب كذنب السمك امتد من مؤخرتهن). وكان هذا شأن رجال المدن البحرية
- يا أخي، إني أرى الإناث والذكور مكشوفي العورة.
- لأن أهل البحر لا قماش عندهم
- وكيف يصنعون إذا تزوجوا؟
- أهل البحر - فيما عدا المسلمين منهم - لا يتزوجون. وكل من تعجبه أنثى . . .
ومازال عبد الله البحري بصاحبه يدور به على المدائن وأهلها في أغوار البحر مدى ثمانين يوماً. فيسأله عبد الله البري
- يا أخي، هل بقيت في البحر مدائن؟
- لو كنت فرجتك ألف عام، كل يوم على ألف مدينة، وأريتك في كل مدينة ألف أعجوبة، لما أظهرتك على قيراط من مدائن البحر وعجائبه.
- يكفيني هذا، فقد سئمت أكل السمك، وأنت لا تطعمني صباحاً ومساء إلا سمكاً طرياً، لا مطبوخاً ولا مشوياً. فرجتني على مدائن كثيرة، فأين مدينتك منها؟
ويبلغان مدينة عبد الله البحري، فيقوده إلى مغارة ويقول له:
- هذا بيتي. وكل من أراد أن يكون له بيت ذهب إلى الملك وعين الموضع الذي اختاره مسكناً. فيرسل معه الملك طائفة من السمك تعرف بطائفة (النقارين)، لأن لها مناقير تفتت الجلمود

وإذ يدخلون البيت، تتقدم ابنة عبد الله البحري وتبادر أباها بالسؤال، وقد نال منها العجب أن ترى مخلوقاً لا ذنب له:
- يا أبي، ما هذا الأزعر الذي جئت به؟
- هذا صاحبي البري يا بنيتي، من كنت أجئ لك من عنده بالفاكهة البرية. تعالي سلمي عليه
وتتقدم إليه الغادة، وتسلم عليه (بلسان فصيح، وكلام بليغ) وتقدم له القرى، سمكتين كبيرتين (كل واحدة منهما مثل الخروف) فيأكل متبرماً بهذا السمك النيئ
وتحضر امرأة عبد الله البحري، وهي (جميلة الصورة. ومعها ولدان، كل ولد في يده فرخ سمك يقرش فيه كما يقرش الإنسان في الخيار). وما أن رأت عبد الله البري حتى صاحت:
- أي شيء هذا الأزعر؟
وتتقدم هي وولداها، يطيلون النظر إلى مؤخرة عبد الله البري ويقولون (أي والله إنه لأزعر) ويتضاحكون طويلاً حتى يضيق ذرع عبد الله البري بهذا الضحك فيلتفت إلى صاحبه ويقول:
- يا أخي، هل جئت بي إلى هنا سخرية أولادك وزوجك؟
ويعتذر عبد الله البحري عنهم مؤكداً له أن المخلوق الذي لا ذنب له في البحر نادر. وإنه إذا وجد واحد من غير ذنب فإنهم يأخذونه للسلطان ليضحك عليه. فلا تؤاخذ هذه المرأة وهؤلاء الصغار، فعقولهم كما تعرف ناقصة)
وبينما هم في الحديث يفد عليهم عشرة أشخاص كبار شداد، ويقولون لعبد الله البحري (لقد عرف الملك بأنك جئت بأزعر من زعر البر، وهو يريد أن يراه حالاً) ويأخذونه إلى الملك فيتلقاه ضاحكاً وهو يقول (مرحباً بالأزعر). وجعل من في حضرة الملك يتضاحكون مرددين (أي والله إنه لأزعر!)
ويقص عبد الله البحري على الملك قصة صاحبه، ثم يستأذنه في أن يعود به إلى البر (لأنه سئم أكل السمك نياً، ولا يحب أكله إلا مطبوخاً ومشوياً). ويأذن الملك له بالرحيل بعد أن يزوده بهدية عظيمة من درر البحر وجواهره
ثم يعود به عبد الله البحري إلى مغارته، ويسلمه الهدية التي يرجو أن يوصلها إلى قبر النبي، ويصطحبه عائداً إلى البر
وبينما هما في طريقهما وسط الماء، يلتفت عبد الله البري إلى جماعة من أهل البحر يغنون ويرقصون حول سماط ممدود من السمك. فيسأل عما إذا كان عرساً هذا، ويجيبه عبد الله البحري: إنما هو مأتم
- أو إذا مات عندكم ميت تفرحون له، وتغنون وتأكلون؟
- نعم. وأنتم يا أهل البر، ماذا تفعلون؟
- نحن نحزن عليه ونبكي. وتشق النسوة جيوبهن، ويلطمن ويندبن الميت
وهنا يحملق عبد الله البحري في صاحبه البري، ويستأذنه في أن يسترد الأمانة. وعند وصولهما إلى البر يقول له:
- لقد قطعت صحبتك وودك، فلن تراني بعد اليوم
- لم هذا الكلام؟
- ألستم يا أهل البر أمانة الله؟
- نعم
- كيف يحزنكم أن يأخذ الله أمانته؟ وكيف أعطيك أمانة النبي وأنتم إذا أتاكم المولود تفرحون به، وقد أودع الله الروح فيه أمانة. فإذا استردها تندبون وتولولون؟ كلا، ما بي حاجة إلى صحبتكم بعد اليوم يا أهل البر!
ويختفي عبد الله البحري وسط الأمواج
ويعود عبد الله البري إلى صهره الملك يقص عليه ما رأى من عجائب البحار
وقد لبث زمناً طويلاً يذهب إلى الشاطئ ينادي صاحبه عبد الله البحري فلا يلبي النداء
وتنتهي القصة بالصيغة التقليدية إذ تقول بأنه أقام والملك نسيبه وأهلهما في أسعد حال، حتى أتاهم هادم اللذات، ومفرق الجماعات، وماتوا جميعاً. فسبحان الحي الذي لا يموت، ذي الملك والملكوت
أما أن الموت مفرق الجماعات فليس من شك في ذلك. ولو أنه يشترك في هذا مع

الحياة ذاتها، فقد تكون الحياة مفرقة الجماعات، ويمتاز الموت عنها بأن تفرقته نهائية لا مرد لها في هذه الدنيا
وأما أن الموت هادم اللذات، فهو أيضا نهاية الآلام. وصاحب أو أصحاب قصص (ألف ليلة) هم آخر من يتكلمون عن اللذات، وعن أن الموت هادمها. فإن أبطال قصصهم يلاقون الأهوال، ويعانون آلام النوى والبعاد والفقر، وغير هذا من متاعب الحياة. نعم إن القصص تنتهي في الغالب إلى خاتمة سعيدة، يحاول المؤلف أن يلقي في روعنا دوامها حتى مجيء مفرق الجماعات وهادم اللذات، إلا أن هذا أمر نشك في صحته كثير الشك وهذه مسألة ثانوية على أية حال. والأهم لنا أن نكشف عما في قصة (عبد الله البري، وعبد
الله البحري) من نفحة دينية عميقة، تجعل لها مقاماً خاصاً بين قصص (ألف ليلة) فهذا رجل معدم كثير العيال تقول القصة بأنه لا يمتلك إلا شبكته، يروح بها كل يوم إلى البحر. فإن اصطاد قليلاً باعه وأنفق على أولاده بقدر ما رزقه الله. وإن اصطاد كثيراً (طبخ طبخة طيبة، واشترى فاكهة، ومازال يصرف حتى يأتي على آخر ما معه وهو قائل في نفسه: رزق غد يأتي غداً) ويوم تضع زوجته مولودها العاشر يخرج على بركة الله تعالى إلى البحر (على بخت هذا المولود الجديد) فتقول له امرأته (توكل على الله)
يمارس هذا الرجل الفقير وزوجه إذن فضيلة من الفضائل الدينية بإيمان كامل. ولكن التجربة في الولد العاشر كانت شديدة الوقر على الصياد. فقد مضى عليه أربعون يوماً لا يجد في شبكته رزقاً.
وهنا تنتقل بنا القصة إلى طبقة اجتماعية أرقى قليلاً من طبقة الصياد. وتقدم لنا مثلاً جديداً من أمثلة الطيبة والورع في صاحب المخبز الذي يتكفل بأود الصياد وأسرته أربعين يوماً دون تذمر وفي لباقة مؤثرة إذ يؤكد للصياد أنه لا يعطيه إحساناً. بل هو محاسبه يوماً على ما قدم خبز وعشرات فضة، ولكن عندما يأتيه الخير، لا قبل ذلك. ولندع القصة نفسها تتكلم، فتفصح لنا عما انطبعت عليه نفس هذا الخباز من الخير: ووقف الصياد ينظر ويشم رائحة العيش السخن. فصارت نفسه تشتهيه من الجوع.) فنظر إليه الخباز وصاح عليه: تعال يا صياد. أتريد عيشاً؟ فسكت. فقال له: تكلم ولا (تستح فالله كريم. إن لم يكن معك دراهم فأنا أعطيك، وأصبر عليك حتى يجيئك الخير ثم انظر إلى امرأة الصياد يشكو لها زوجها أمره مع الخباز فتقول له: الحمد لله الذي عطف قلبه عليك. هل آذاك بكلام؟ فيجيبها: كلا، وهو يقول لي دائماً، انتظر حتى يأتيك الخير. وأنا أسألك، متى يجيء الخير الذي نرتجيه؟ ويكون رد الزوجة: الله كريم. فلا يتردد الصياد في القول: صدقت. ويحمل شبكته إلى البحر في اليوم الأول بعد الأربعين.
فإذا بها تصيد حماراً ميتاً (منفوخاً ورائحته كريهة) فيقول (لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) ثم يكاد إيمانه يتزعزع وهو يخاطب نفسه (قد عجزت وأنا أقول لهذه المرأة، ما بقي لي رزق في البحر، دعيني أترك هذه الصنعة. وهي تقول: الله كريم سيأتيك بالخير. فهل هذا الحمار الميت هو الخير؟)
ويتوجه في غم شديد إلى مكان آخر مبتعداً عن رائحة الحمار ويلقي شبكته فتحمل إليه الخير كل الخير، في صورة سميه البحري يبادله فاكهة البر بجواهر البحر.
ويقيني أن صاحب القصة لم يختر اسم عبد الله اعتباطاً. وهذا الاسم يعزز ما أنا ذاهب إليه من أن القصة يحركها روح ديني، ويسري في أعطافها إيمان عميق. فلم يختص المؤلف عبد الله البري وعبد الله البحري بهذا الاسم. فهذا الملك يسأل صهره عمن يكون صديقه الخباز وما اسمه، فيجيبه الصياد (اسمه عبد الله الخباز. وأنا اسمي عبد الله البري. وصاحبي اسمه عبد الله البحري) فيقول الملك (وأنا اسمي عبد الله، وعبيد الله كلهم إخوان)
وهانحن أولاء نرى شخصاً آخر من أشخاص القصة - وليس من الطبقة الفقيرة كالصياد، ولا من الطبقة الوسطى كالخباز، بل هو ملك البلاد بالذات - مفعماً إيماناً وثقة بالله، فهو قائل لشيخ الجوهرية ومن جاءوا يتهمون الصياد بالسرقة (يا قبحاء! أتستكثرون النعمة على مؤمن؟ لماذا لم تسألوه أولاً؟ ربما رزقه الله من حيث لا يحتسب. اخرجوا، لا بارك الله فيكم)

وهو القائل بعد سماعه قصة الصياد (يا رجل، هذا نصيبك ولكن المال يحتاج إلى جاه، فأنا أسندك بجاهي) ثم يزوجه الأميرة ابنته
وماذا تتوقع أن يكون اسم الأميرة بعد هذا؟ أم السعود! لو أن كاتباً رمزياً كتب قصة الإيمان لما اختار للأميرة اسماً أفضل من هذا. (أم السعود)، السعود الذي يلمع في طالع المؤمن القانت.
وتعال معي إلى القسم الثاني من القصة، ماذا نرى؟
هذا عبد الله البحري يسأل صاحبه عن قبر النبي ويقول:
ثم يدعو عبد الله البري أن يغوص .(هنيئاً لكم يا أهل البر بزيارة هذا النبي الكريم) بصحبته في أغوار البحر ليحمله هدية إلى قبر النبي
وتتجه القصة بعد ذلك اتجاهاً فلسفياً واضحاً لمن يطالع ما وراء السطور. فهذا البحر مظهر من مظاهر الكون تتضاءل حياله الأرض التي نعرفها. وهاهو ذا (الدندان) أكبر أحيائه طرا يأكل من دواب البحر (أما سمعت المثل القائل: مثل سمك البحر القوي يأكل الضعيف؟) حكمة الخالق يصدع بها المخلوق
ويخشى عبد الله البري إذا نزل مع صاحبه إلى البحر (أن يصادفه هذا النوع فيأكله).
وهنا يكشف صاحب القصة عن مرماه الفلسفي، إذ يؤكد لنا بأن (الدندان) يموت لساعته إذا أكل ابن آدم. وليكف أن يصيح فيه الإنسان صيحة ليموت. أي تأمل ما تميز به الإنسان الضعيف بجسمه، فهو يستطيع بعقله أن يتغلب على المخلوقات الأخرى.
وهذا عبد الله البري يسبح في أمواه البحر فيرى جميع الأحياء البحرية تهرب منه.
ويسأل صاحبه عن هذا فيجيبه (مخافة منك، لأن جميع ما خلقه الله يخاف ابن آدم)
ويشهد بطل القصة عجائب البحار كما تخيلها المؤلف. وخياله في أغلبه شبيه بتخيلات الشعوب الفطرية التي ترى في آلهتها صوراً مما تشاهده حولها، إنساناً أو حيواناً أو جماداً، ففي هذا البحر الخيالي جبال ووهاد ومدائن. وفيه (شيء يشبه الجاموس وشيء يشبه البقر، وشيء يشبه الكلاب، وشيء يشبه الآدميين)
وخيال صاحب القصة قائم على الـ حسب ما اصطلح عليه الباحثون في نفسية الشعوب الفطرية. فهو يصور بعض الأحياء البحرية تصويراً آدمياً مع تغيير طفيف اقتضته حياتها في الماء: كالزعنفة الذنبية، وتلك الأطراف النابتة من بطونها. ولهذا التصوير أصل من الواقع. وربما سمع صاحب القصة أو رأى نوعاً من الفقم يعرف بالدوجونج لا تزال تعرض بعض نماذجه على شواطئ المحيط الهندي باعتبارها (أبناء البحر وبناته). وقد عرض علي بعض اليمانيين في عدن ذكراً أو أنثى من تلك الحيوانات اللبونة على هذا الاعتبار
وللقارئ أن يفاضل بين قصة (عبد الله البري وعبد الله البحري) وبين قصص (السندباد) - وربما عالجت تلخيصها على هذه الصفحات يوماً - ليرى في هذه الأخيرة خيالاً أغزر مادة وأبرع أسلوباً. وفي رأيي أن الخيال في قصص (السندباد) غاية ينتهي إليها الوصف. بينا هو في قصة (عبد الله) واسطة لغاية هي ما نحن بسبيله من المرامي الفلسفية للقصة
وأود بهذه المناسبة أن أشير إلى قصيدة (شيللر) وعنوانها (الغواص). وفيها يرسم لنا خيال الشاعر (الرومانتيكي) صورة لأعماق البحر من نوع يختلف كثيراً عما نحن بصدده في قصة (عبد الله البحري). إذ يطلق (شيللر) العنان لخياله في أسلوب جمع كافة المميزات الشعرية. بينما ينهج صاحب قصة (ألف ليلة) نهجاً واقعياً مباشراً في وصف عالم البحار.
كأن عبد الله البحري أحد الأدلاء يشرح للسائح عبد الله البري ما تقع عليه باصرته تباعاً
وبرغم هذا الأسلوب الواقعي، يلقي علينا المؤلف درسه الديني من طرف خفي. ويظهرنا على قدرة الخالق بما يسرده علينا من وصف أنواع غريبة من المخلوقات. وإذ يبدي عبد الله البري عجبه لكثرتها، يجيبه عبد الله البحري (وأي شيء رأيت من العجائب. أما سمعت المثل القائل: عجائب البحر أكثر من عجائب البر؟). وهذه حقيقة لا مغالاة فيها، يعرفها كل من درس علم الأحياء
ويدخل الصديقان مغارة عبد الله البحري. وهنا منظر عائلي كله أنس وبهجة. تأمل كيف تتندر الأسرة بالضيف (الأزعر) وانظر إلى دخول ولدي صاحب البيت (وفي يد كل

ولد فرخ سمك يقرش فيه كما يقرش الإنسان في الخيار)
فهذه القصة اشتملت على عناصر كثيرة تجعلها في رأيي من أحسن قصص (ألف ليلة وليلة) بل ومن أفضل القصص في آداب العالم. كتبت بأسلوب واقعي يتجنب فيها الكاتب الارتفاع الشعري. وصاحب القصة مع هذا يتدرج بك من عالم الواقع حيث الصياد كثير العيال يكدح لكسب قوته وقوتهم، إلى عالم بين الواقع والخيال حين يقع عبد الله البحري في شباك عبد الله البري، إلى عالم كله خيال حين ينزل الصاحبان إلى أغوار البحر يتجولان في أرجائه دون أن يغير في أسلوبه كأن الأمر عادي، وكأن الصاحبين غادرا البصرة أو مسقط إلى بلاد السند أو زنجبار
والكاتب في هذا لا يغفل عن غرضه الفلسفي الأول: قدرة مبدع الكون، وقوة الإيمان، والخضوع لأحكامه. ومع أنه لا ينسى أن يميز الإنسان على سائر المخلوقات كما رأينا، إلا أنه يلقي عليه درساً كبيراً تختتم به القصة. ذلك حين يغضب عبد الله البحري إذ يسمع بأن الإنسان يبكي موتاه، وهم في البحر يفرحون إذا ما استرد الله أمانته، أي (الروح التي أودعها الجسد).
لا مراء إذن في أن قصة (عبد الله البري وعبد الله البحري) من أولها إلى آخرها تختلج بروح ديني عميق تميزت به عقائد أهل الشرق عن عقائد أهل الغرب. هو روح استكانة المخلوق للخالق، واعتباره الخضوع لأحكامه صورة مثلى للإيمان
ولسنا في حاجة أن نعرف إذا كان صاحب القصة قصد إلى ذلك أو لم يقصد. فأمامنا القصة
بنصها في الجزء الرابع من كتاب (ألف ليلة وليلة). وقد حللنا العناصر التي تتألف منها واستخرجنا من بين سطورها ذلك الروح بلا عناء، ودون أن نجد فيها ما يناقض أو ما يضعف الاستنتاج الذي خرجنا به.
حسين فوزي
البريد الأدبي
المغرب الأقصى كما هو اليوم
في الأسبوع الفائت ألقى ضيف مصر الكريم الأستاذ محمد المكي الناصري مدير معهد الأبحاث المغربية في تطوان محاضرة عن (المغرب الأقصى كما هو اليوم) بدأها بالكلام عن المغرب قبل دخول الإسلام إليه وقال إن هذه الكلمة كانت تطلق على الجزائر وتونس ومراكش قبل أن يفصلها الاستعمار الأوربي بعضها عن بعض فأصبحت كلمة المغرب تطلق على مراكش فقط.
ثم تكلم عن حدود البلاد ومناخها وخصب تربتها وغناها بالمعادن ومما هو كفيل بإيجاد نهضة زراعية وصناعية كبيرة لو أتيح لها ما تصبو إليه وتجاهد من أجله وهو نيل الاستقلال التام وإدارة شؤونها بنفسها. ثم تكلم عن أهل البلاد وعناصرهم الأولى قبل الإسلام وقال إن الفتح الإسلامي لما دخل هذه البلاد وحد عناصرها المختلفة
ثم ألقى المحاضر نظرة على الأسر التي تعاقبت على الحكم في المغرب. ثم تكلم عن عهد الاحتلال الحالي وأفاض في وصف مطامع المستعمرين وجشعهم وقال إن فرنسا لما دخلت البلاد أدخلت نظاماً من مقتضاه إيجاد سلطتين سلطة مغربية والأخرى فرنسية وهما سلطتان متباينتان كثيراً ما تتغلب إحداهما على الأخرى ولهذا قضي على الوحدة فتجزأ المغرب وأعطيت لفرنسا المنطقة السلطانية ولأسبانيا المنطقة الخليفية واعتبرت منطقة طنجة منطقة دولية
وتوجد بجانب كل إدارة وطنية إدارة أخرى أجنبية تهيمن عليها وتكاد تجعلها صورية، فالسلطة التشريعية في يد الأجانب، أما السلطة التنفيذية فيوجد في كل مدينة إلى جانب الحاكم الوطني حاكم يطلق عليه لقب (الباشا) وحاكم القرية يلقب (بالقائد) ويلقب الحاكم في المنطقة الخليفية (بالمراقب) وفي المنطقة السلطانية (بالحاكم) وأسهب في وصف مساوئ هذه الإدارة المزدوجة وقال إنه توجد هناك محاكم للأحوال الشخصية تصدر أحكامها وفقاً لمذهب الإمام مالك وتوجد إلى جانبها (محاكم القواد) للفصل في قضايا الجنح والسرقات وغيرها. ويوجد مجلس أعلى تستأنف إليه أحكام محاكم الجنح ومجلس شرعي تستأنف إليه أحكام المحاكم الشرعية
ويوجد قسم كبير من الأراضي موقوف على التعليم الديني ولكن الاحتلال وضع يده عليها فحول كثيراً منها في غير الوجهة التي أوقفت عليها ما عدا المنطقة الخليفية فقد

سلمت الأراضي الموقوفة فيها إلى يد الخليفة. وقال إن التعليم في البلاد ينقسم إلى ثلاثة أقسام رسمي وديني ووطني؛ فالرسمي مهمته الكبرى في المنطقتين هي بث روح الاستعمار بين الأهالي، وقد استصدروا أمراً في المنطقة الخليفية بتعريب التعليم فيها ولا يزال السعي مبذولاً لتنفيذه، أما التعليم الوطني فيشمل جميع البلاد، ولكن الاستعمار أصدر أمره في أكتوبر الماضي بأن يقتصر هذا التعليم على مادة تحفيظ القرآن فقط، وأما التعليم الديني فنحن نطالب بتجديده وتنظيمه وفق النظام المتبع في الأزهر الشريف في مصر

وبعد ما تكلم المحاضر عن كثرة الأحزاب في المغرب قال إن البلاد فيها نهضة أدبية وفنية وفيها كثير من الأدباء والمثقفين الذين يعتمد عليهم في الجهاد لتخليص بلادهم من أيدي المستعمرين. وقد تألفت فيها كتلة العمل الوطني لهذا الغرض بزعامة الأمير محمد بن عبد الكريم المعتقل الآن، وهي تتأثر في عملها بمصطفى كامل وسعد زغلول وغيرهما من زعماء الشرق

وهنا قويت حماسة الخطيب البليغ فاندفع كالسيل يقول إن ما ننتظره الآن من المشارقة ومن مصر خاصة باعتبارها زعيمة الشرق أن يتجهوا بأبصارهم إلى بلاد المغاربة باعتبارها أوسع رقعة في بلاد شمال أفريقية ومن أكثرها تمدناً ورقياً وأقواها جلداً على الجهاد في سبيل رفعة شأن الإسلام

فلسطين والأستاذ الأكبر شيخ الأزهر

فلسطين (فيها بيت المقدس) وفي هذا موطن (الإسراء) ومتصل (قوة الأرض) بـ (قوة السماء) (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى)

إنما (القدس) منزل الوحي مغنى ... كل حبر من الأوائل عالمْ

كُنِفت بالغيوب فالأرض أسرار (م) ... مدى الدهر والسماء طلاسم

وتحلت من (البراق) بطغراء (م) ... ومن حافر البراق بخاتم

فإذا قرأت اليوم الكتاب المبين من الأستاذ الأكبر (الشيخ محمد مصطفى المراغي) إلى رئيس الوزراء في الدولة المصرية فقل: إنما هو شيخ الإسلام يغضب للدين، وإنما هو أمام

المسلمين يرفرف - وقلبه خافق - على اخوته المؤمنين، والله تعالى يقول: (إنما المؤمنون أخوة)، فالملة ملته، والأمة أمته، والقوم في الدين اخوته. وليست هذه المائدة بأول يد لمصر على فلسطين، فشكراً ثم شكراً، ثم شكراً.

محمد إسعاف النشاشيبي

تقريب مناهج التعليم بين مصر والشرق العربي

أشرنا من قبل إلى الاتجاه الذي بدأ أخيراً في وزارة المعارف وهو التقريب بين المناهج التعليمية في مصر والبلدان العربية الشرقية، والاقتراح القائل بوجوب عقد مؤتمرات دورية تضم المبرزين في شئون التربية والتعليم في الحكومات المختلفة، ليتذاكروا فيما يتصل بالنهضة العلمية والتعليمية

ونضيف اليوم أن صاحب المعالي محمد حسين هيكل باشا وزير المعارف، قد طلب الملف الخاص بتلك الفكرة، وباحث فيها صاحب العزة وكيل الوزارة

وقد وافق معاليه على الاقتراح من حيث المبدأ، وطلب وضع تفاصيل التنفيذ، حتى يمكن البدء به في أول فرصة مناسبة

العلاقات الثقافية بين مصر والمغرب الأقصى

قدم إلى مصر الأستاذ محمد المكي الناصري مدير المعهد الخليفي للأبحاث الإسلامية في مدينة تطوان للتفاهم على إيجاد علاقات علمية وثقافية بين مصر وبلاد المغرب الأقصى وتمكينها بين البلدين الشرقيين الإسلاميين بواسطة وزارة المعارف المصرية والأزهر

ومن المشاريع التعاونية التي قدم للتفاهم عنها الاتفاق مع مشيخة الأزهر على العمل لنشر الثقافة الإسلامية في بلاده بالطرق النظامية الحديثة التي أدخلت على الأزهر. وإرسال بعثة من بعض أصحاب الفضيلة علماء الأزهر لتدريس علوم الشريعة واللغة وفق هذه الأنظمة وبصفة رسمية، والعمل لنشر ثقافة الأزهر والإسلام بصفة عامة ومن هذه المشروعات أن يقبل الأزهر بعثة من الطلبة المغاربة الذين أتموا دراساتهم

في مدارس الحكومة هناك لدراسة علوم الشريعة والتخصص فيها. وقبولهم بكلية الشريعة الأزهرية بصفة نظامية. وستوفد هذه البعثة رسمياً حكومة المغرب
بين العقاد والرافعي
جاءتنا المقالة الثالثة من مقالات الأستاذ سيد قطب، فرأينا إرجاء نشرها إلى العدد القادم احتراماً لذكرى الرافعي. ونذكر بهذه المناسبة أننا تلقينا عشرات من المقالات في هذا الموضوع لم يراع كاتبوها الأفاضل خطة الرسالة في اجتناب فحش القول ومغسول الكلام. لذلك نستميحهم العذر إذا لم ننشر منها إلا ما نرى فيه فائدة للقراء وخدمة للأدب
حول كلمة (هال ها) أيضاً
سيدي الأستاذ الجليل صاحب الرسالة
بعد التحية: لاحظ الأستاذ محمد عبد الغني حسن في العدد الأخير من الرسالة (252) على الشاعر (الخفيف) بعد كلمة (هال) عن المعنى الذي يقصده. وقال في ختام كلمته تلك إن كلمة (هال) هذه تقال لزجر الإبل. والذي أعرفه أن الكلمة التي تقال لزجر الإبل ليست (هال) ولكنها (هلا) وقد استعملها المرحوم شوقي بك في مسرحيته الخالدة (مجنون ليلى) حيث قال:
هلا هلا هيا ... اطو الفلا طيا
وقربي الحيا ... للنازح الصب
ولقد خشيت أن يكون الأستاذ الفاضل قد اشتبه عليه الحديث ولكنني اتهمت نفسي فعدت إلى كتب اللغة استلهمها الصواب فأيد القاموس والصحاح رأيي. فهل للأستاذ الفاضل أن يدلني على المرجع الذي قرر أن كلمة (هال) تستعمل لزجر الإبل أو الخيل بدلاً من (هلا) وله مني مزيد الشكر وخالص التحية
عبد المؤمن محمد النقاس
الموسيقى العربية للبارون رودولف دير لانجيه
قد نشرنا في العدد الماضي من الرسالة (252) نقداً بقلم الأستاذ بشر فارس الدكتور في الآداب من جامعة باريس في المجلد الثاني من مجموعة التأليف الموسيقية العربية المنقولة إلى اللغة الفرنسية على يد البارون رودولف دير لانجيه. وقد سألنا بعض القراء عن ناشر هذه المجموعة وعن اسمها باللغة الفرنسية. ونحن نذكرهما هنا:
' -
,
ذكرى الرافعي في محطة الإذاعة الفلسطينية
سافر أمس إلى فلسطين الأستاذ محمد سعيد العريان، إجابة لدعوة مصلحة الإذاعة الفلسطينية بالقدس؛ ليذيع في تمام الساعة السابعة من مساء اليوم (الاثنين 9 مايو) من محطة القدس، حديثاً أدبياً عن فقيد العربية الكبير المرحوم مصطفى صادق الرافعي، لمناسبة تمام سنة على وفاته
المسرح والسينما
جولات ومطالعات في المسرح والسينما
بقلم محمد علي ناصف
اللغة العربية في السينما
اقترح بعض حضرات النواب المحترمين سن قانون يقضي بوجوب استعمال اللغة العربية في مختلف الشركات والمتاجر التي تنشأ في مصر سواء كان أصحابها أجانب أم مصريين. وهذا واجب مشكور أعتقد أن إهماله هو إهمال لكرامتنا ونسيان لقوميتنا وإلغاء لأبسط قواعد استقلالنا
وليس يخفى أن مثل هذا القانون المقترح يحتاج إلى خطوات أو مهلة محدودة يتم في نهايتها تنفيذه. ولكن هناك نواحي أخرى لا يحتاج الأمر فيها لرعاية لغة البلاد واحترامها إلى مثل هذا الإمهال، كالسينما مثلاً
فالأفلام الأجنبية التي تعرض بمصر وترد إليها من عدة أمم مختلفة، تعرض هذه الأفلام بداهة بلغتها الأصلية، ولكنها تصحب بترجمة على نفس الشريط بلغة ثانية. المفهوم بداهة وعقلاً أن هذه الترجمة تكون بلغة البلاد التي تعرض فيها الأفلام. فالفلم الإنجليزي مثلاً حين يعرض بفرنسا تصحبه ترجمة فرنسية والعكس. والفلم الألماني

يشهده الجمهور الإيطالي بترجمة إيطالية والعكس
ولكننا مع الأسف الشديد والعجب الأشد نختلف عن الأمم جمعاء؛ فالترجمة التي تصحب كل فلم أجنبي يعرض بمصر تكتب بإحدى لغتين إما الفرنسية وإما الإنكليزية كأنما هذه الأفلام لا تعرض للمصريين، وكأن المصريين الذين يدفعون - شعباً - إلى أصحاب هذه الدور ويتسامحون - حكومة - مع الشركات المنتجة فلا تقيدها بضرائب مرتفعة ولا بنسبة تحدد من إنتاجها ولو بحجة حماية الإنتاج المحلي كما تفعل دول كثيرة؛ وفي مقابل هذا الكرم لا تكون إلا الإساءة وإلا الإهمال
وما من أحد يستطيع أن يصف هذا الأمر إلا بأنه إساءة وإهمال. فأي عذر تتعلل به هذه الشركات أو أصحاب هذه الدور الذين ينتفخون على حسابنا ومن أيدينا؟
إن العذر الوحيد الذي قد يقوم نصف قومة في مثل هذه الحالة هو أن تكون لغة البلد غير معروفة إلا لدى قلة لا تستأهل جهداً خاصاً، ولكن شيوع العربية على ألسنة الملايين وبين كثير من الشعوب ينفي مثل هذا العذر. ولقد رأينا بعض الأفلام القليلة النادرة المترجمة إلى العربية على نفس الشريط فكانت مؤيدة لوجهة نظرنا في هذا الموضوع وهي الوجهة التي قدرها أصحاب هذه الأفلام من حيث ضمان مصلحتهم المادية فضلاً عن مصلحتهم الأدبية في اكتساب احترامنا وودنا
هناك حقاً لوحة صغيرة من القماش توضع بأحد جانبي الشاشة لعرض ترجمة عربية ركيكة مقتضبة نسميها ترجمة على سبيل المجاز؛ وكثير من الدور لا تكلف نفسها وضع هذه اللوحة فتكتفي بانعكاس الترجمة على الحائط.
ولكن هذه الوسيلة الحقيرة لا تجدر مطلقاً بلغة البلاد لغة الدين والعرش والحكومة. هذه الوسيلة الثانوية جديرة بأية لغة أخرى يشاؤها صاحب الفلم، أما لغة البلاد ففوق مشيئته ولها المكان الأول، وإلا فنحن في غنى عنه وهو ليس في غنى عنا. ولقد اجتمعت في هذه الوسيلة كل النقائص؛ فهي تجهد بصر المتفرج باضطراره أن يتتبع الصورة والترجمة في اتجاهين بدلاً من اتجاه واحد، كما أن الترجمة كثيراً ما تتخلف عن الصورة أو تتقدمها لأن لكل منهما جهازاً خاصاً - فيضيع بذلك كثير من الفائدة على متتبع الفلم، هذا فضلاً عن نقص الترجمة وعدم الاعتناء بها
إننا لن نسكت بعد عن هذه المهزلة ونرجو ألا يسكت عنها كذلك أولو الأمر ورجال الصحافة. وكل امرئ يهمه احترام نفسه وبلاده.
الأديب والمخرج
في حديث عن شئون المسرح والسينما للأديب الإنجليزي وليام جراردي مؤلف كتاب الشهر (إبريل)
يرى الأديب أن الوضع الصحيح لمخرج المسرحية أو الفلم أن يكون نفس المؤلف ' لأنه أقدر من أي إنسان آخر على اختيار الممثلين لشخصياته التي خلقها وعرف صفاتها وللمناظر التي رسمها وتمثل مشتملاتها ودقائقها وللجو الذي ابتدع فيه الحوادث. وهذا رأي له رونقه وبريقه ولكنه يفتقد الحقيقة في كثير من نواحيه.
فالإخراج فن آخر غير فن التأليف. وهو ليس مقصوراً على اختيار الممثلين ورسم المناظر وحبكة الجو. ولكنه يشتمل على أمور كثيرة لا يستطيع اكتناهها أي فرد بينما قد يستطيع القارئ العادي أن يفهم ما كتبه وما تمثله المؤلف من كل سطر ومن كل شخصية من شخصياته، وقد لا يعوزه تصور الجو الحقيقي للحوادث وكذا تعرف الممثلين الذين يليقون بشخصيات المؤلف. وكثير من المخرجين يخلقون من أعمال المؤلف حياة أخرى هي في الواقع أقوى من الحياة التي تدب بين سطور كتابه وإن كنت لا أنكر أن كثيرين من المخرجين يمسخون بعض المؤلفات لأسباب شتى بعضها يخرج عن طاقة الإخراج
وبعض المؤلفين يخرجون مسرحياتهم أو أفلامهم بأنفسهم ولكن أكثر هؤلاء ليسوا في المرتبة الأولى بين الأدباء أو المخرجين وندر من يوفق منهم في كلتا العمليتين
محمد علي ناصف
العدد 254 - بتاريخ: 16 - 05 - 1938
مصطفى صادق الرافعي
بمناسبة ذكراه الأولى

كان الرافعي رحمه الله حجة في علوم اللسان، ثقةً في فنون الأدب، عليماً بأسرار اللغة، بصيراً بمواقع اللفظ، خبيراً بمواضع النقد، محيطاً بمذاهب الكلام. وقلما تتهيأ هذه الصفات لغير المطبوعين من الأدباء الذين تعاطوا مهنة التعليم فاستنزفوا أيامهم في درس القواعد وحفظ الشواهد وفقه النصوص بحكم الصنعة. فكنت إذا ذاكرته في شيء من دقائق النحو وخواص التركيب وفروق اللغات وجدته على ظهر لسانه كأنما انصرف من مراجعته لوقته. ودراسة الكاتب أو الشاعر للغته وفنه هي في رأيه ورأي الحق شرط لوجوده؛ فلا يكون النبوغ والأستاذية بدونه، ولا تجزي الطبيعة ولا المحاكاة عنه. وكان - شهد الله - فيما بينه وبين أخصائه يرفع أدب العقاد لوضوح هذه المزية في كل ضرب من ضروبه.

ولقد بلغ علم الرافعي بالعربية وآدابها حد الاجتهاد والرأي، فكان يقف في التعليل والاستنباط من ثقاتها ورواتها موقف الند؛ وقد يتعظم أحياناً فيقف منهم موقف الأستاذ. فهو في أدبه مطلق الحرية مستقل الإرادة في حدود المأثور من بيان العرب؛ ولكنه في فلسفته مقيد النظر مسير الفكر لنزوله في الرأي على حكم الدين.

على انك لا تعدو الصواب إذا قلت إن حرية أدبه أشبه بعبودية فكره، لأن مصدرهما ومورده‍ما واحد هو القرآن. والقرآن من جهة الأدب غاية الجمال، ومن جهة الفضيلة غاية الخير، ومن جهة الفلسفة غاية الحق. لذلك كان قوله في القديم والجديد قول العربي الذي يؤمن أن لغته التي تكلم بها الله نامية بذاتها لأنها حية، ومتطورة بطبعها لأنها قوية؛ وكان قوله في المرأة والرجل قول المسلم الذي يعتقد أن دين الله حق لا يبطله قدم، وأن شرعه قانون لا يعطله شهوة. وما دام العرب أحياء فأدبهم متجدد، وما دام القرآن خالداً فدينهم قائم.

على هذين القطبين كانت تدور فلسفة الرافعي الأدبية والاجتماعية. ولعلي تساهلت إذ قلت فلسفة الرافعي، فليس للرافعي فلسفة؛ إنما هي فلسفة القرآن وأدبه قام منها مقام ابن رشد من أرسطو: يقرر ويحرر ويدافع من غير أن يكون لمنطقه حكم ولا لرأيه اعتراض.

كان الرافعي في بعض حالاته يفتن في الصورة التي يرسمها افتنان المصور الخيالي. يضيف إليها من المشاهد ما لا تقره الحقيقة، ويضع فيها من الألوان ما لا تعرفه الطبيعة. وقصده القاصد من ذلك أن يريك قدرة ذوقه على الملاءمة، وقوة ذهنه على التوليد، ويعطيك للشيء أو للشخص صورة إذا لم تكن كانت، فهي التي ينبغي أن تكون. فهو إذا كتب في موضوعٍ ما سمح لعاطفته أن تجر، ولهواه أن يدفع، ولفنه أن يزخرف، ثم يستخدم براعته في التدليل على صحة العاطفة ونزاهة الهوى وصدق الأداء، فيكون من امتزاج الخيال بالواقع، واشتباه الغلو بالقصد، والتباس البهرج بالصحيح صورة غامضة الدلالة، خافتة الروح، ولكنها بديعة الإطار، رائعة اللون، منمنمة الخطوط؛ وذلك أكثر ما تراه في حديث القمر والسحاب الأحمر، والمساكين، وأوراق الورد. أما إذا اتصل فنه بشعوره، وافتنانه بطبعه، ورأيه باعتقاده. فانك ترى الإشراق في اللفظ، والجلال في المعنى، والسمو في الروح، والإعجاز في الصنعة. وهنالك تجد الرافعي في جلوة الإلهام التي تشدهه هو نفسه فيقول لي ولمن يأنس إليه: إن حالا تشبه حالات الوحي تقوم به في بعض ساعات الليل حين يكتب في إعجاز القرآن أو في الدفاع عن أدبه، فلا يكون فيما ينشئ إلا وسيطاً عن قوة من وراء الغيب. وأكثر ما وقع له ذلك في كتابيه (تحت راية القرآن) و (وحي القلم). وكان من شذوذ العبقرية في الرافعي اعتداده بنفسه إلى حد الصلف، واعتقاده بالغيبيات إلى حد السذاجة. وله في ذلك حوادث وأحاديث ربما عرض لها صديقنا العريان في ترجمته له.

والرافعي بعد ذلك كله كاتب من الطراز الأول قلما يجود بمثله هذا العصر المجنون الذي يتبجح بالسرعة ويريد أن يأخذ حظه الضروري من المعرفة مختصراً في رسالة، أو معتصراً في مقالة.

هذه كلمة مجملة كتبناها عفو الخاطر وفيض الذاكرة في ناحية من نواحي أدب الرافعي، اعتمدنا فيها على خلاصه وحديثه وقراءته؛ أما دراسة الشرح والتفصيل، والنقد والتمثيل، والدعوى والدليل، فتلك لها طريقة غير هذه الطريقة، ومناسبة غير هذه المناسبة. ولعلني أرجع إلى الرافعي في عدد قريب فأعلن ما أفضى به إلي من

الرأي الحق في خصميه طه والعقاد.
احمد حسن الزيات
مات الرجل العظيم
محمد إقبال
للدكتور عبد الوهاب عزام
- 1 -
في اليوم الحادي والعشرين من أبريل الماضي والساعة خمس من الصباح، في مدينة لاهور مات رجل كان على هذه الأرض عالماً روحياً يحاول أن ينشئ الناس نشأة أخرى، ويسن لهم في الحياة سنة جديدة؛ وسكن فكر جوال جمع ما شاءت له قدرته من معارف الشرق والغرب، ثم نقدها غير مستأسر لما يؤثر من مذاهب الفلاسفة، ولا مستكين لما يروى أقوال العظماء؛ ووقف قلب كبير كان يحاول أن يصوغ الأمة الإسلامية من كل ما وعي التاريخ من مآثر الأبطالوأعمال العظماء؛ وقرَّن نفس حرة لا يحدها زمان ولا مكان، ولا يأسرها ماض ولا حاضر، فهي طليقة بين الأزل والأبد، خفاقة في ملكوت الله الذي لا يحد.
مات محمد إقبال الفيلسوف الشاعر الذي وهب عقله وقلبه للمسلمين وللبشر جميعاً. الرجل الذي كان يخيل إلي وأنا في نشوة من شعره أنه أعظم من أن يموت، وأكبر من أن يناله حتى هذا الفناء الجثماني.
فاضت روح الرجل الكبير المحبوب في داره بلاهور ورأسه في حجر خادمه القديم الوفي (الاهي بخش) وهو يقول: إني لا أرهب الموت. أنا مسلم أستقبل المنية راضياً مسروراً.
كنت أقرأ كلام إقبال في الحياة والموت، ورأى استهانته بالحمام، واستهزاءه بالذين يرهبونه. وما كان هذا خدعة الخيال، ولا زخرف الشعر فقد صدق إقبال دعوته في نفسه حين لقي الموت باسما راضياً.
جد المرض بإقبال منذ سنة، وكان يقترب إلى الموت وهو متقد الفكر، قوي القلب، يصوغ عقله كلماتٍ يوقظ بها النفوس النائمة، وينثر قلبه شراراً يشعل به القلوب الهامدة. وكان يعنى بنظم كتابه (آهنك حجاز): لحن الحجاز. وكان قلب الشاعر يهفو إلى الحجاز وقد تمنى في خاتمة كتابه (رموز بي خودى) أن يموت في الحجاز. ومما نظمه في أشهره
الأخيرة:
آية المؤمن أن يلقى الردى ... باسم الثغر سروراً ورضا
وقد أنشد هذين البيتين قبل الموت بعشر دقائق، وهما مما أنشأه أخيراً:
نغمات مضين لي، هل تعود ... ونسيم من الحجاز سعيد؟
آذنت عيشتي بوشك رحيل ... هل لعلم الأسرار قلب جديد!
وآخر ما أنشأ من الشعر بيتان أترجمهما نثراً:
قد أعدت جنة لأرباب الهمم، وجنة أخرى لعباد الحرم. فقل للمسلم الهندي لا تحزنن، (فكذلك للمجاهدين في سبيل الله جنة).
- 2 -
كان تشييع إقبال إعراباً رائعاً عما للرجل الفذ في قلوب أهل الهند عامة ومسلميه خاصة. احتشدت عشرات الألوف تودعه بالبكاء والزفرات، وشاركت النساء بالعويل والنحيب، وتنافس الحاضرون في حمل النعش فوضع على خشبيتين طويلتين ليتسنى لكثير من المشيعين أن يشرفوا بحمل الرجل العظيم إلى مثواه الأخير. وقد بلغت الجنازة شاهي مسجد وخلفها زهاء أربعين ألفاً، فوقف الناس ساعة كاملة حتى تيسر لهم أن يصطفوا للصلاة على الفقيد الجليل، ثم نقلت الجنازة إلى حديقة متصلة بالمسجد. وهنالك الساعة عشر إلا ربعاً من المساء غربت شمس إقبال في جدتها، وطوى الجهاد الذي ملأ الدنيا في لحده، وأدرجت الحكمة والشعر والحرية التي تأبى الحدود والقيود في جننها وضع محمد إقبال في قبره.
وغشى القبر الذي تضمن روضة الشعر بضروب الزهر والريحان، ثم نثرت عليه أزهار أخرى من أقوال الخطباء والشعراء الذين أطافوا بالشاعر الخالد.
وتجاوبت أرجاء الهند بأقوال الكبراء يعربون بها عما أحسوا من لوعة، وما دهى الهند

من مصيبة، بموت شاعرها الأكبر. أجتمع على هذا المسلم وغير المسلم؛ فهذا جواهر لآل نهرد يقول:
لقد دهتني وفاة إقبال بصدمة هائلة. شرفت بلقاء إقبال ومحادثته منذ قليل؛ وكان) مستلقياً على فراش المرض، ولكن كان لفكره العالي ونزعته الحرة في قلبي أثر بليغ. لقد فقدت
الهند بفقد إقبال كوكباً لآلاء مضيئاً، ولكن شعره سيخلد في قلوب الأجيال الآتية، وذكراه العظيمة لن تموت).
وهذا الدكتور محمد عالم يقول:
ويضيق المجال عن .(لا تستطيع أرض البنجاب أن تخرج إقبالاً ثانياً في عصور طويلة) الإكثار من أقوال أعلام الهند في فقيدهم.
وأرخ بعض الشعراء وفاة إقبال (سنة 1357) في قوله:
تاريخ (بور إقبال شاعر مشرق) - كان إقبال شاعر الشرق. وأرخ آخر بقوله: كنه علامة إقبال سوى بهشت برين: ذهب العلامة إقبال شطر الجنة العالية.
ترك الشاعر النابغة ابنين وبنتاً وأخاً وثلاث أخوات.
- 3 -
ولد محمد إقبال في سيال كوت سنة 1876م من عشيرة قديمة دخلت في الإسلام منذ ثلاثة قرون، وكانت تقيم في كشمير ثم اضطرتها الحوادث أن تهاجر إلى البنجاب واستقرت أسرة إقبال في سيال كوت.
وبدأ تعلمه في البلد الذي ولد به. ودرس على العالم الكبير مير حسن فأذكى في قلبه حب الآداب الشرقية. ثم انتقل إلى لاهور للدراسة العالية فكان من أساتذته السير توماس ارنولد أستاذ الفلسفة الإسلامية. وقد سمعت أرنولد يفخر بأن إقبالاً تلميذ. وفي ذلك الحين شدا إقبال الشعر، فرجا الناس فيه شاعراً خطيراً. ونال درجة أستاذ في الأدب وصار مدرس الفلسفة في إحدى الكليات.
وسنة 1905م سافر إلى أوربا فتعلم في كامبردج القانون، ثم ذهب إلى ألمانيا فدرس الفلسفة. وبعد ثلاث سنين من خروجه من وطنه رجع إليه مرجوا لأمته محبباً إليها. وعمل في المحاماة وقصده الناس لاستشارته والاستعانة به في كثير من الأمور التي كانت تهم المسلمين. وما زال نجمه يسطع، وصيته يذيع، وشعره يجوب أرجاء الهند ويستقر في كل قلب حتى اجتمعت قلوب المسلمين عليه، ورددوا أقواله في خطبهم ومقالاتهم، وتقيلوه في أعمالهم، وكأنما أذكى الشاعر العبقري في كل قلب جذوة، وملأ كل رأس فكراً، وكل نفس حرية وعظمة، حتى مات وكل يتشبه به، ويطمح إلى أن يكون من المهتدين بهديه.
وسأعود إلى الكتابة عن فلسفته وأدبه إن شاء الله.
والله يعوض الأمم الإسلامية ويعزيها عن إقبال بالاستجابة لدعوته والسير على أثره.
عبد الوهاب عزام
من برجنا العاجي
منذ عشرة أعوام عقدت معاهدة على جبل (أولمب) بين (أبولون) و (كوبيدون) تتعلق بي. ولا أعرف على وجه التفصيل نصوص تلك المعاهدة. فلقد كانت معاهدة سرية. ولكن يخيل إلى أن (آله الفن) أراد أن يعتبرني من (مناطق نفوذه)، فحرم على إله (الحب) أن يلقي سهما واحداً من قوسه الذهبي إلى هذه المنطقة. وقد تبين لي في مواقف كثيرة من حياتي أن إله (الحب) قد احترم حقاً هذه المعاهدة. وفي أحيان أُخرى رأيت كأن (كوبيدون) ينظر إلى (قلبي) نظرات ملؤها المطامع الاستعمارية، وأنه يتحين الفرص والظروف. وإله الفن، كما هو معلوم، ينادي دائماً بالحرية، إذ لا فن بغير حرية مكفولة في كل زمان. وإله الحب ينزع إلى السلطة والسيطرة والعنف التقييد بالسلاسل والأغلال. ولست أدري لماذا يذكرني هذا الصراع بينهما بالصراع القائم بين (إنجلترا) و (إيطاليا)؟ فإنجلترا بلد الديمقراطية والحرية، وإيطاليا رمز الدكتاتورية والسلطة المطلقة. ولقد وقع حديثاً نزاع بين الطرفين، فأغفلت المعاهدة وألقيت السهام، وأعلن الدكتاتور انه افتتح المنطقة (الحرام). فلم يعترف له منافسه بهذا الفتح. وسارت الأيام سيرها وأنا راض مطمئن اطمئنان (النجاشي) المسكين. إلى أن قرأت في البريد الأخير أن إنكلترا ستحمل العالم على الاعتراف بالفتح الإيطالي

(للحبشة)، فوضعت يدي على (قلبي) وأدركت أن (الحرية) الجميلة ليست إلا حملاً ضعيفاً تنتظره دائماً أنياب الذئب، وأن (المعاهدات) ليست إلا (محطات) انتظار لساعات الوثوب.

توفيق الحكيم

صفحة من تاريخ

استيطان العرب لمصر

للدكتور حسن إبراهيم حسن

أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية الآداب

كان العرب في مصر جلهم من الجند المقاتلة وقت الفتح، ولم يزد عددهم على ستة عشر ألفاً في هذا الوقت. ولم تكن سياسة الخلفاء الراشدين تسمح بنزول الجند في ريف مصر بقصد إقطاعهم الأراضي حتى لا يصرفهم ذلك عن الجهاد. وزاد عدد الجند العرب في مصر فبلغ أربعين ألفاً في عهد معاوية بن أبي سفيان.

ولا شك أن هذا العدد أخذ يزداد بازدياد العنصر العربي في مصر، وهذا نتيجة طبيعية لما كان من لحاق نساء الأجناد وأولادهم للإقامة معهم في هذا البلد، واتخاذهم إياه وطناً جديداً، وما كان أيضاً من التزاوج والاندماج في سكان البلاد الأصليين. ولعل العرب لم يفطنوا لأمر إحلال الكتائب بعضهم محل بعض في الأقاليم الإسلامية، اللهم إلا ما كان من تناوب الأجناد الإقامة في الثغور كل ستة أشهر. وليس لدينا من المعلومات التاريخية ما يثبت أن قاعدة استبدال الكتائب في الولايات كانت معروفة عند غير العرب كالرومان والفرس. بيد أن عدم احتمال هذا الأمر أقرب إلينا من جواز احتماله لما كان يتطلبه من كثرة الأسفار.

غير أن العرب في مصر - على الرغم من زيادة عددهم كما بينا - كانوا في أوائل القرن الثاني للهجرة من القلة بحيث رأى عبيد الله بن الحبحاب عامل الخراج على مصر أن يشير على الخليفة هشام بن عبد الملك أن يأذن له في إسكان العرب من قيس في أرض الحوف الشرقي، وأكد للخليفة أن نزولهم لا يضر بسكان البلاد. وكان يقيم في هذه الكورة نفر يسير من جديلة.

نزلت قيس جهة بلبيس. وسرعان ما قارب عددهم خمسة آلاف، واخذوا يستثمرون الأرض ويتجرون في الإبل والخيل، وكانوا يحملون عليها غلات أرضهم إلى القلزم حيث تشحن إلى بلاد العرب. هذا وقد كان لقيس ضلع كبير في الفتن التي أقامها المصريون في وجه الولاة حين هموا بزيادة الخراج.

ولقد وفدت القبائل العربية على مصر تدريجياً، فجاءت قبيلة الكتنز من ربيعة في النصف الأول من القرن الثالث الهجري فأقاموا في الصعيد، واندمجوا في السكان بالمصاهرة، وكانت لهم ضلع في الثورات والفتن التي قامت بمصر وعلى الأخص في أواخر عهد الفاطميين إذ ثاروا على صلاح الدين الأيوبي بعد أن تولى الوزارة بقليل.

على أن اندماج العرب بالمصريين اندماجاً فعلياً لم يتم إلا بعد أن اسقط المعتصم العرب من الديوان، وأحل مكانهم جنداً من الأتراك، فانتشر العرب في الريف واحترفوا الزراعة وغيرها طلباً للرزق؛ وازداد اندماجهم في السكان بالمصاهرة، ومن ثم أخذ التمييز العربي يتلاشى شيئاً فشيئاً، وبدأ ظل الولاة من العرب يزول بإحلال الولاة من الأتراك محلهم؛ ولم يحكم مصر بعد ذلك عربي إلا إذا استثنينا عنبسة بن اسحق (238 - 242هـ) والخلفاء الفاطميين.

تم فتح مصر على أيدي جند العرب، ولم يشأ عمر أن يقطعهم أرضها ليكونوا على أهبة الاستعداد لتلبية نداء الجهاد وفتح البلاد المجاورة لمصر لتأمن مصر نفسها وليستقر بذلك سلطان العرب فيها. وقد فتح العرب في ولاية عمرو بن العاص الأولى بلاد برقة سنة إحدى وعشرين للهجرة وطرابلس في السنة التالية وغزوا إفريقية سنة 27هـ تحت قيادة عبد الله بن سعد (25 - 35 هـ) والى مصر إذ ذاك، وهزموا الروم في هذه البلاد وقتلوا ملكهم، وخربوا قاعدة ملكه وتوغلوا في بلاد إفريقيا وصالحوا أهلها، وغزوا بلاد النوبة سنة 31هـ حتى وصلوا دنقلة، وفي هذه السنة اشتبك الأسطول المصري مع أسطول الروم فأنتصر الأول في واقعة ذات الصواري، ثم عزوا طرابلس مرة أخرى

في ولاية عمرو بن العاص الثانية.
ويظهر لنا أن هذه الغزوات لم يكن القصد منها الاستعمار لهذه البلاد وإدخالها في حوزة العرب كما كانت الحال بالنسبة إلى مصر، وإنما كان قصد الخلفاء وولاتهم على مصر القيام بها لتأمين مصر من الغرب والجنوب ولذلك كان فتح بلاد المغرب.
وكان العرب يقنعون بما يصيبونه من الأسلاب والغنائم وظلوا على ذلك حتى تحولت وجهة نظر الخلفاء، فأخذوا يهتمون بأمر بلاد المغرب بوجه خاص، فأرسلوا إليها الجند للمحافظة عليها، وقلدوا ولايتها ولاة مستقلين في الحكم عن أمراء مصر أو نائبين عنهم في حكم هذه البلاد إذا جمع بين مصر والغرب لوال واحد.
وقد قام المصريون بدور هام في الغزوات البحرية في هذا العصر، فقد بني مسلمة بن مخلد (47 - 62هـ) في جزيرة الروضة داراً لصناعة السفن وإصلاحها. وكان لبناء هذه الدار فوائدها في حروب مصر البحرية، فقد غزا رودس الأسطول المصري، جهزه عقبة بن نافع سنة 46هـ وتم له فتحها سنة 53هـ ولما جاء عهد سليمان بن عبد الملك (96 - 99هـ) أصبح لمصر أسطول قوي شارك أسطول الشام في غزو القسطنطينية وإن كانت هذه الغزوة قد عادت على الأسطولين المصري والشامي بالفشل.
ولقد خاض الجند العرب غمار الفتن السياسية التي قامت في هذا العصر بين الخلفاء الأمويين والخارجين عليهم، وكذا بين بني العباس ومناوئيهم، وكان لتدخلهم أثر ظاهر في هذا الفتن.
حسن إبراهيم حسن
فلسفة التربية
تطبيقات على التربية في مصر
للأستاذ محمد حسن ظاظا
- 16 -
(كاد العلم أن يكون رسولا .!)
شوقي
(إنما الصعوبة هي في إيجاد أولئك الأساتذة الأفاضل الذين
يستطيعون أن يحملوا الشعلة وان يناولوها غيرهم بجرأة
وحماس وإخلاص وإقدام.!)
(قد نبني المدارس وننفق في تشييدها وإعدادها ملايين
الجنيهات، ولكنا قد نعجز مع ذلك عن تكوين الرجل المنشود!)
(افضل النظم جدير بالفشل التام إذا لم يقم بتنفيذه من هو كفوء
له.!)
(من رسالة الدكتور جاكسون)
6 - المعلمون
رأيت في المقال السابق بعض أسباب فشل النظام في المعاهد الدراسية وتبينت أثراً لمسؤولية النظار والمدرسين في ذلك الشأن. وسترى اليوم ناحية أخرى لها من الخطورة والطرافة في عملية التربية ما يجعلنا نهتم بها كل الاهتمام، ونصرح فيها بأشياء ما كنا لنذكرها لولا حرصنا على المصلحة العامة، ولولا أملنا في أن يقابل الجميع الحقائق - على مرارتها - بصدر رحب وتقدير نزيه:
1 - حقائق
قال المرحوم شوقي بك:
قم للمعلم وَفِّه ألتبجيلا ... كاد المعلم أن يكون رسولا!
أعلمت أشرف أو أجلّ من الذي ... يبني وينشئ أنفساً وعقولاً!
وأحسب أن معنى ذلك الشعر العذب واضح لا يحتاج إلى بيان، وصادق لا مبالغة فيه ولا تهويل! فترى هل يشعر المعلم عندنا بكل ما فيه من معنى؟ أو هل تساعده الظروف على أن يتمثل به ويحققه في حياته الخاصة والعامة؟ ذلك هو السؤال العسير الذي فكرت فيه كثيراً وتألمت من أجله طويلاً، ولست أدري متى يقف تفكيري فيه وألمي من أجله!!
إن المعلم أيها القارئ هو الطرف الأول في عملية التربية والتعليم، فإذا لم يستطع

أداء عمله كما ينبغي فقل على الأمر السلام!

فترى هل يجوز أن يكون ذلك الطرف مجرد ناقل علم فحسب، ما أن يدخل الفصل حتى يتكلم ويتكلم، ويكتب بالحكك ويكتب، ثم يخرج ويدخل هكذا كل يوم ويخرج، دون أن تقوم بينه وبين الطلبة عاطفة من ود ولا وشيجة من إخاء؟؟

وترى هل يجوز أن يكون ذلك الطرف متبرما من عمله، ساخطاً عليه، ثائراً على القدر الذي ابتلاه به، حاسداً لنظرائه في المهن الأخرى حيث الراحة والجاه، والكسب الوافر والنعيم المرموق؟؟

وترى هل يجوز ألا يقبل ذلك الطرف على تلك المهنة الخطيرة إلا مضطراً لا ميل يدفعه، ولا غرام يحببه، بل هي الوظائف قد أقفلت بعد الجامعة أبوابها في وجهه، وهو (المعهد) قد فتحها ورحب به نائماً وآكلاً ودارساً دون ما أجر؟؟

وترى هل ينبغي أن يكون (بعض) هذا الطرف في المدرس الأهلية، وهي لا تقل عن مدارس الحكومة في عدد طلبتها، مجرد طالب عيش لا يفقه من أمور التربية شيئاً، ولا يدري عن طبيعة الطفل قليلا ولا كثيراً، ولا يستطيع إلا أن يرسل القول محفوظاً، فلا عقلا يكوّن، ولا شخصية يبني، ولا خلقاً يغرس، ولا نظاماً يصون؟؟

2 - أسباب:

تلك حقائق مرة لها خطورتها الكبرى في عملية التربية كما قلنا، وهناك من الحقائق غيرها ملا يتسع المجال لذكره أو ما لا يليق به أن يذكر!!، ولما كانت التربية الصحيحة شيئاً آخر غير حشو العقول بالكتابة والقول، وتنفير القلوب بالجمود واليأس، وتشويه الشخصية بالجهل والحمق، فمن الخير أن نتلمس بعض أسباب هذه الحقائق علنا نستطيع أن نجد لها علاجاً.

أتعرف ماذا هو عمل المعلم في المدارس الثانوية على وجه الخصوص؟ أتعرف أنه دروس تُحضّر، وحصص تُدرّس، وكراسات تصحّح، ثم أعمال إدارية أو كتابية بغيضة يملأ فيها الأستاذ الكشوف بالأرقام المجموعة وغير المجموعة، ثم ينقلها إلى كشف آخر وكشوف أخرى، ثم يبعث بها ثلاث مرات في العام إلى أولياء الأمور كما لو كان كاتباً يسجل ويجمع ويكتب كل شيء حتى العنوان؟؟

ثم أتعلم ما هو قدره في عين الدولة والمجتمع بعد كل هذا العناء الذي يبذلهُ ليل نهار، ومع خطورة وشرف المهنة التي ينسب إليها؟؟

لعلك تدري أن قدره في عين المجتمع دون رجل العدالة أو رجل الطب بكثير؟ هذا ينطق بالحق وذاك يشفي الجسم، أما هو فماذا يفعل غير إلقاء الدروس؟ وعسير عليك جداً أن تفهم الناس أن التعليم قد يغنينا عن القاضي أو الطبيب دون أن يغني كل من هذين عن الأستاذ. وعسير عليك جداً أن تدخل في الأذهان أن صاحبنا يبني وينشئ انفساً وعقولاً كما قال أمير الشعراء.

ثم لعلك تدري أن قدره في عين الدولة كان وما يزال دون قدر رجال القضاء وغير رجال القضاء؟ وأين المسكين من أولئك وهؤلاء؟ ألم يخطب يوماً أحد الزعماء ليعبر عن جماعة المعلمين بعثار الجد وسوء الفعل كما لو كانوا جماعة من العمال أو الزراع؟ أولم يرتفع صوت المعلمين مدوياً طالباً المساواة والإنصاف دون أن تستجيب له الحكومات بتلك السرعة وهذه الأريحية التي تستجيب بهما لرجال القضاء أو النيابة أو المحاماة؟ أولا ينظر المعلم اليوم إلى زميله بالأمس في الدراسة الثانوية فيجده في مجال القضاء يقفز القفزات، أو في ميدان الجيش يتناول (العلاوات)، وهو هو في فناء المدرسة تمضي عليه السنون في الدرجة الواحدة، وتتسع الهوة المالية والاجتماعية بينه وبين زميله هذين، إلى حد يخيل إليه

أن لا عدل هناك ولا مساواة، مع أنه يبذل من الجهد، ويؤدي من الواجب، ما لا يقل قيمة وضرورة وقدراً عن أعمال هذين الندين العزيزين؟

قل ما شئت وما لم تشأ في ذنب المعلم وتقصيره، ولكنك لن تستطيع أن تقول أنه فوق البشر فلا يؤذيه الظلم ولا يميته الإغفال. . .! ثم أنت تنشد بعد ذلك للتعليم إصلاحاً! أفلا يليق بك أن تتدبر هذا الأمر بنتائجه البعيدة والقريبة قبل كل شيء وبعد كل شئ؟

محمد حسن ظاظا
مدرس الفلسفة بالمدارس الأميرية

بين الرافعي والعقاد
للأستاذ محمود محمد شاكر
- 2 -
نقل الأستاذ الأدب سيد قطب في كلمته الثانية بعض ما نقده الرافعي في قصيدة للعقاد في ديوانه بعنوان (غزل فلسفي؛ فيك من كل شئ)، وذلك حين يقول في حبيبته:
فيك مني ومن الناس ومن ... كل موجود وموعودٍ تُؤام
فقال الأستاذ قطب: فلا يرى الرافعي في هذا البيت الفريد إلا أن يقول: (قلنا فإن (من كل موجود) البق والقمل والنمل والخنفساء والوباء والطاعون والهيضة وزيت الخروع والملح الإنكليزي إلى واوات من مثلها لا تعد، أفيكون هذا كله في حبيب إلا على مذهب العقاد في ذوقه ولغته وفلسفته؟)
ثم يعود فيقول: (إن هذا المثال هو (مصداق رأيي في أن الرافعي أديب الذهن لا أديب الطبع، وأنه تنقصه (العقيدة)! التي هي وليدة الطبع أولاً؛ فأي (طبع) سليم يتجه إلى تفسيره بيت غزلي في معرض إعجاب شاعر بحبيبته، واستغراق في شمول شخصيتها بأن (كل موجود) هو البق والقمل والنمل. . الخ) غافلاً عما في هذا الإحساس من (حياة)! (واستكناهٍ)! لجوهر الشخصية، و (خيال بارع) تثيره طبيعة فنية، فيرى في هذه المرأة من متنوع الصفات ومختلف النزعات وشتى المزايا عالماً كاملاً من كل موجود وموعود.
أحد أمرين:
إما أن الرافعي ضيق الإحساس مغلق الطبع بحيث لا يلتفت إلى مثل هذه اللفتات الغنية بالشعور.
وإما أنه يدرك هذا الجمال، ولكنه يتلاعب بالصور الذهنية وحدها، غافلاً عما أحسهُ وأدركه.
وهو في الحالة الأولى مسلوب (الطبع) وفي الثانية مسلوب (العقيدة!) فأيهما يختار له (جماعة الأصدقاء)
ثم أتم الأستاذ علينا نعمة نقده بأن قال (أن هذا المثال (يمثل تلاعب الرافعي بالصور الذهنية، واستغلاق طبعه دون تملي الإحساس الفني).
وقد آثرنا أن ننقل في كلامنا كل هذا لا نبذله ولا نحرفه لنقطع بذلك مادة الشك في صحة النقل من كلام الأستاذ قطب، وليجتمع للقارئ فكرهُ على رأي متصل حين ينظر في أعقاب كلامنا بالتعرف أو الإنكار.
ونحن حين قرأنا قصيدة العقاد لأول مرة في مجلة المقتطف (يناير سنة 1933) زعمنا أنها قصيد مؤلفة من مادة غير مادة الشعر، وأن الغزل الفلسفي الذي فيها حديث يتهالك، والفلسفة منطق يتماسك، فهي على ذلك ليس من شعر ولا فلسفة. وهذا هو بديهة الرأي لمن يقرأ هذه القصيدة ويتدبر معانيها، ويقيسها إلى غرض صاحبها فإنه سماها أول ما سمى (غزلاً فلسفياً) ثم أتبع هذا - وفي رأسها - مما يشبه التفسير لهذا العنوان، وما يتضمن فحوى القصيدة، ويحدد جملة معانيها، وذلك قوله: (فيك من كل شئ).
ولسنا ألان بسبيل من نقد القصيدة كلها، وبيان ما أشرنا إليه قبل في أثنائها وتضاعيفها، وإنما نجتزي بالقول في البيت الذي نقده الرافعي، ثم عقب على نقده الأستاذ سيد قطب بما شاء له (طبعه) المفتوح غير المغلق، و (عقيدته) الكاملة غير المسلوبة، و (خياله البارع) غير المتخلف.
وهذا البيت بعينه:
فيك مني ومن الناس ومن ... كل موجود وموعود تؤام
إنما هو تكرار لقوله في صدر القصيدة: (فيك من كل شيء) حين أراد الشاعر أن يزيده بياناً ووضوحاً، ويجلوه جلاء المرآة لتصف شخص صاحبته، أو كما قال الأستاذ القطب (لاستكناه جوهر شخصيتها!)
وقد ذهب الرافعي في نقد هذا البيت مذهب العربي حين يسمع الكلام العربي لا ينحرف بألفاظه إلى غير معانيها، ولا يتسع في معاني الألفاظ بغير دلالة ظاهرة أو مسوغ مضمر، ولا يقبض من معانيها إلا بمثل ذلك مما يجيز انقباض بعض معاني اللفظ

عن سائره. وقد قال العقاد لصاحبته في الغزل الفلسفي (فيك من كل شئ) و (فيك كم كل موجود). والعرب والفلاسفة جميعاً يزعمون أن لفظ (كل) إذا دخل على النكرة أوجب عموم أفرادها على سبيل الشمول دون التكرار. فكذلك أوجب الشاعر على صاحبته أن يشمل (جوهر شخصيتها) جزءاً من كل ما يمكن أن يسمى (شيئاً)، ومن كل ما يسوغ أن يسمى (موجوداً
وموعوداً). هذا الإطلاق من (فيلسوف يتغزل) يقتضي شمول الأفراد من (كل شيء)، ومن (كل موجود). وليس يشك أحد - ممن لم يسلبهم الله (الطبع) و (العقيدة) ولم يحرمهم (الخيال البارع) - في أن ما ذكره الرافعي في كلامه - من البق إلى الملح الإنكليزي - شيء من الأشياء وموجود من الموجودات. والفيلسوف حين يتغزل أن يريد هذا بغير شك، ولكن أين تذهب بمعنى اللفظ (كل) في العربية؟ وفي حدود الألفاظ التي تدور على ألسنة الفلاسفة؟ وأي دلالة توجب معنى الشمول من هذا اللفظ؟ أو أي مسوغ يجيز الحد من الإحاطة التي يقتضيها هذا الحرف في مجرى قول الشاعر (فيك من كل شيء) وفيك (من كل موجود)؟!
هذا بعض القول في فساد ألفاظ هذا البيت، وبطلان معنى الفلسفة فيه. ولا يفوتني في هذا الموضع أن أدل على موضع الضعف في فهم الأستاذ قطب لكلام الرافعي. فالرافعي يقول: (قلنا، فان من - كل موجود - البق. . . الخ)، والأستاذ الأديب البارع يقول وكأنه يشرح معنى الرافعي: (فأي طبع سليم يتجه إلى تفسير بيت غزلي. . . بأن (كل موجود) هو البق والقمل. . . الخ)؟ غافلاً عما في هذا الإحساس من (حياة) و (خيال بارع)، تثيره طبيعة فنية، فيرى في هذا المرأة من متنوع الصفات وشتى المزايا عالماً كاملاً من كل موجود وموعود). والرافعي رحمه الله لم يقل إن (كل موجود) هو البق والقمل. . . الخ، وإنما قال إن من (كل موجود)، أي من أفراد الموجودات ما يسمى بقاً. . . الخ، فالحرف (من) في كلام الرافعي ليس هو الحرف (من) الذي في شعر العقاد حتى يجوز ما ذهب إليه الأستاذ قطب بما ساء من تعليقه.
وقد أطلت القول في تقرير نقد توحي بصحته سلامة الفطرة، وحسن الذوق، وصفاء القريحة، ويوجبه اصطلاح المنطق، وحد الكلام، وإتقان الفلسفة، ويقتضيه ما ذهب الشاعر يسرده مما هو (في صاحبته) معدداً مبيناً مفصلاً حتى انتهى إلى إجمال المعاني في هذا البيت. فقد قال لها: فيك من الشمس والبدر، ومن الربيع والشتاء، ومن غناء الطير ونوح الحمام، ومن انسياب الماء، ومن طبائع الوحش، ومن حركة الأسماك، وفيك من جوارح الطير، ومن النعام، ومن نار الحياتين، ومن الموت الزؤام، ومن نقص الدنيا، وكمال الآخرة، ومن الملائكة، ومن الشياطين، ومن الخمر، ومن الجوع، القوت، ومن الماء،
ومن الأرض، ومن السماء، ومن عمل الأيام والدهور، ومن الهندسة، ومن الفن. . . ثمَّ أفلا يدل هذا على أن الشاعر !!(فيك منى ومن الناس ومن كل موجود وموعود تؤام) الفيلسوف كل التفصيل فرمى بالجملة في (كل شيء) من (موجود وموعود) بعد الذي تعب في بيانه وتفصيله وذكره وتعداده؟؟ وأي شيء بقى له لم يعدده من متنوع الصفات ومختلف النزعات وشتى المزايا والعالم الكامل)! إلا هنات هينات كذا وكذا. . . وما ذكر الرافعي
هذا. . . وقد اقتصر الأستاذ على نقل بعض كلام الرافعي في نقد هذا البيت ونحن نتمه للقراء بعد ذلك:
إن ذلك المعنى الذي بنى عليه هذا المسكين غزله الفلسفي قد مر في ذهن أعرابي) لم يتعلم ولم يدرس الفلسفة، ولا قرأ الشعر الإنجليزي والفرنسي والألماني والفارسي، وليس له إلا ذوقه وسليقته وطبيعته الشعرية، فصفى المعنى تصفية جاءت كأنما تقطر من الفجر على ورق الزهر بقوله:
فلو كنت ماء كنتِ ماء غمامة ... ولو كنت درّاً كنت من درةِ بكر
ولو كنتِ لهواً كنتِ تعليل ساعةٍ ... ولو كنت نوماً كنتِ إغفاءة الفجرِ
ولو كنت ليلاً كنت قمراءَ جُنَّبَتْ ... نحوس ليالي الشهر، أو ليلةَ القدر
هذا أبدع عنوان لأجمل قصيدة في فلسفة الغزل. وانظر كيف جعل (ولو كنت كنت) الأعرابي حبيبته أصفى شيء، وأغلى شيء، وأسعد شيء، وكيف صورها شعراً للشعر نفسه. ثم قابل هذا الذوق المصفى بذوق من يجعل حبيبته من كل شيء، ومن كل

موجود وموعود تؤاماً وزؤاماً وبلاء عاماً) انتهى كلام الرافعي
فإن شئت أن تعرف كيف يتناول الشعراء هذا المعنى المغسول من الشعر (فيك من كل شيء) فانظر حيث يقول جرير، وهو فيما نعلم أول من أفتتحه:
ما استوصف الناسُ (من شيء) يروقُهم ... إلا أرى أمَّ عمْر فوْقَ ما وَصَفوا
كأنها مُزْنةٌ غرَّاء واضحة ... أو درة لا يوارى ضوءها الصدف
وقد أحسن جرير تحديد المعنى وتجريده من اللغو (من شيء يروقهم) وجعل في صاحبته من ألوان الجمال ما تهفو إليه نفوس الناس على اختلاف أذواقهم وتباين أنظارهم. وكأن أبا نواس نظر إلى هذا المعنى حين قال:
لك وجه محاسن الخلق فيه ... ما ثلاثٌ تدعو إليه القُلوبا
على أن جريراً قد ناقض وأحال وأفسد ما استصلح من شعره حين رجع فقال في البيت الذي يليه: (كأنها مزنة. . . أو درة) فإن هذا الحرف (كأن) للتشبيه، والتشبيه يدعى قصور المشبه عن المشبه به، وهو قد ادعى أنه يرى صاحبته فوق ما يصف الناس (من شيء) يروقهم أو يروعهم أو يفتنهم.
ثم جاء مسلم بن الوليد يعقب جرير يقول:
مثالها زهرة الدنيا مصوَّرةً ... في أحسن الناس إدباراً وإقبالاً
أستودع العينَ منها كلما برزت ... وجها من الحسن لا تُلقى بالا
فالعين ليست ترى شيئاً تسرُّ به ... حتى تُريني لما استودعت تُمثالا
ففارق مسلم جريراً حيث جعل صاحبته (زهرة الدنيا مصورة) أي محاسنها وتهاويل جمالها، وأنه يجد عندها تمثالاً لكل حسن تسر به العين.
ثم جاء أبو نواس فألبس الشعر والمعنى من توليده وحسن مأخذه ولطف عبارته فقال:
لها من الظرْف والحس ... ن زائدٌ يتجدَّدْ
فكل حُسن بديع ... من حُسنها يتولَّدْ
ثم جاء أبو تمام فقَصّر، ولم يحسن اختيار اللفظ، وأضعف روح الشعر فيه فقال:
أنظر فما عاينت في غيره ... من حَسَن فهو له كله
وتناوله البحتري، فزاد فيه معنى، ولم يجود نسجه فقال:
وأهيف مأخوذ من النفس شكله ... ترى العينُ ما تحتاجُ أجمعُ فيه
فالزيادة في قوله (مأخوذ من النفس شكله) وهي جميلة لولا شناعة قوله (مأخوذٌ)، ولو عدل فيها إلى مثل نهجه في صفة الخمر
أُفرغتْ في الزجاج من كل قلب ... فهْي محبوبة إلى كلِّ نفس
لأجاد وبذَّ من سبقه. وقد فطن ابن الرومي إلى معنى البحتري فاتخذه لنفسه وسبق حين قال:
وفيك أحسن ما تسمو النفوس له ... فأين يرغب عنك السمع والبصر
وقد قصر ابن الرومي في الشطر الأول عن المعنى الذي أراده البحتري، ولكنه جاوز البحتري ورمى به خلفه في مقابلة قوله (ترى العين ما تحتاجُ أجمعُ فيه) بما قال (فأين يرغبُ عنك السمعُ والبصرُ).
ثم أدار ابن الرومي هذا المعنى ونفلّه من سواه حين قال:
لا شيَء إلا وفيه أحسنهُ ... فالعينُ منه إليهُ تنتقلُ
فوائد العين منهُ طارفهٌ ... كأنما أخرياتهُ الأوَلُ
ولقد كانت أتعجب لبيت العقاد كيف نزل مع كل هذا الشعر، وكيف خفى عنه موضع التقييد من مثل قول جرير (من شيءٍ يروقهم)، وقول مسلم (زهرة الدنيا) و (شيئاً تُسرَّ به) وما إلى ذلك، ووجهتُه مع سائر القصيدة فلم يزل مختلاً ناقصاً معوجاً لا يستوي. وزادني عجباً قوله في نهاية الشعر (تُؤام)، ولم أجد للفظ معنى لا رأيت له وجهاً يتوجهَّه مع مقاصد الغزل الفلسفي حتى وقعت لي أبيات ابن الرومي فإذا قوله (تؤام) ترجمة للفظ آخر هي لفظ (معاً) في قول ابن الرومي ينحو إلى هذه المعاني بعينها.
فالعين لا تنفكُّ من نَظَرٍ ... والقلب لا نيفكُ من وَطَرٍ
ومحاسن الأشياء فيكِ (معاً) ... فَملاَ لِتيك مَلاَلَتي بَصرِي
مُتعاتُ وجهكِ في بديهتها ... جُدُدٌ وفي أعقابِها الأخَرِ

فكأنّ وجهكِ من تجدُّدِه ... مُتنقِّلٌ للعين في صُوَرِ
وقول ابن الرومي (ومحاسن الأشياء فيك معاً) هو عمل الشعر في معنى غسيلٍ قدَّم به العقاد لقصيدة غزل فلسفي وهو قوله: (فيك من كل شيء)
ورحم الله الصولي الذي يقول:
أعرفُ مِنها شَبهاً ... في كلِّ شيء حَسِن
فقد أتى بالمعنى عامياً لطيفاً مجفوّاً غير صنيع، وهو على ذلك أرق من فيك منى ومن الناس. . .
فهذا مذهب الشعر من لدن جرير إلى يومنا هذا ولم نستقصه في غرض واحد من أغراضه، وذاك مذهب العربية في معاني ألفاظها، وسبيل الفلاسفة في تحديد معانيها، وفي ثلاثتها قصَّر بيت العقاد وفسد واستحال، معناه وتهالك منطقه. فمن أين يمكن وصف الرافعي - إذا نقد هذا البيت - بأحد أمري الأستاذ قطب: إما أن يكون ضيق الإحساس
مغلق الطبع بحيث لا يلتفت هذه اللفتات الغنية بالشعور. . . (وأين وأنى وكيف نجدها يا أستاذ الأستاذين؟) وما أنه يدرك هذا الجمال ولكنه يتلاعب بالصور الذهنية وحدها، غافلاً عما أحسه وأدركه. . . وما ندري كيف كان يحسه الرافعي رحمه الله؟
أكان يحسه ويدركه بقوة الجوع والعطش في البيت الذي يليه
كيف بي أعزلُ إن أغنيتني ... أنتِ، حتى عن شرابي والطعام!
وأخيراً، فقد خير الأستاذ أصدقاء الرافعي بين أن يحكموا عليه بإحدى كلمتيه أن يكون رحمه الله عليه مسلوب (الطبع) أو مسلوب (العقيدة) وقد تبين بعد الذي قلنا أن نقد الرافعي نقد (محكم) في سياق العربية، وفي جوهر الشعر ونزيد فنقول أن قارئ القصيدة (غزل فلسفي) حين يقرؤها إلى أن ينتهي إلى هذا البيت: (فيك منى ومن الناس. . .) لا يجد فيها من (الحياة) ولا من (الخيال) ولا من (غنى الشعور) ولا من (الإحساس الفني) - إلى آخر ما يتنبل به الأستاذ قطب - ما يجعل نقد هذا البيت بعينه دليلاً على ضيق الإحساس واستغلاق الشعور، والغفلة عن الجمال، وفساد الإنسانية في قلب ناقده.
وعلى هذا فقد سقط الدليل الأول من أدلة أحكامه على الرافعي وبان في ذلك ما امتاز به الرافعي من الدقة وصدق الإحساس في إدراك معاني الشعر وما فيه من غضارة ورُوقة وجمال.
محمود محمد شاكر
بين الأديب وبين الناس
للآنسة فلك طرزي
(مهداة إلى الأستاذ توفيق الحكيم)
سيدي الفاضل صاحب الرسالة الغراء:
القطعة الأدبية التي أبعث بها اليوم إليك لتنشر على صفحات مجلتك الراقية، استوحيتها من السلسلة الأدبية الأولى التي ينشرها تباعاً الأستاذ توفيق الحكيم في الرسالة تحت عنوان (من برجنا العاجي).
وقد كتبتها يوم كنت في حلوان أنعم بجو هذه المدينة الساحرة وأنفس عن صدري بنشق أرج النسيم المعطر بعبير الزهر المتدلية عناقيده وباقاته في روضات حدائقها النضرة، فأشعر بأثر الصحة يتغلغل بين جوانب هذا الصدر قوياً حاراً يبعث فيه السرور والبهجة والنشاط. ولا غرو فان اسعد أيام حياتي الذاتية هي تلك التي قضيتها على شاطئ وحدة هذه المدينة الفاتنة تحت بواسق نخيلها وفي ظل صمتها وسكونها.
كتبتها يومئذ ثم حالت شواغلي دون نشرها فطاويتها بين أوراقي إلى أن عثرت عليها اليوم بينما كنت اقلب في هذه الأوراق، فرأيت أن أرسلها إليك لتنشرها في (رسالة) الفن العالي والأدب الصادق الحي، ولو أن نشرها سيجيء متأخراً.
لو علم الناس كيف يعيش كل أديب أو مفكر في هذا الوجود، ولو علموا نوع الحياة التي يقضيها هذا الأديب أو ذاك المفكر مرتبكا حائراً بين متناقضات تتركب منها نفسه، لكفوا عن توجيه الملام إليه، ولا اقتصروا عن نعته بمختلف النعوت والصفات التي لا تنطبق البتة على حقيقته مكتفين بالإقرار أن نفسه غير نفوسهم، وان إحساسه لأبعد غوراً وأعمق نفاذاً من إحساسهم؛ ولكن يظهر أن الحياة التي منحهم إياها القدر حين

شيعهم إلى باب الوجود قائلاً لهم: اذهبوا فان لكم الحياة ولكن. . . قد غشت أبصارهم بغشاوة الجهل فلم يدركوا مغزى (لكن) هذه التي يخفى باطنها وينم على معان كثيرة فاتهم إدراكها، كما فاتهم أيضاً رؤية البسمة الساخرة التي ارتسمت على ثغرة الهازئ المتهكم ساعة شيعهم إلى باب الوجود! فما علموا أن القدر منحهم أشياء وسلبهم شيئاً هو أعظم أشياء الدنيا وأغلاها قيمة! وما دروا أن القدر حرمهم نعمة لا يبلغ قمتها العالية سوى من ذاق مرارة الألم التي يولدها
الفكر والإحساس، ومن شعر بقلبه يهتز بين جنبيه مختلجاً حائراً بين إحساس وإحساس وبين فكرة وفكرة.

غير أن (لكن) ثابتة كما قلت يا سيدي قد نطق بها القدر أيضاً حين دفع بالأدباء والمفكرين إلى الوجود وأرفقها بصيحة ألقاها في وجوههم قائلاً: (اذهبوا فإن لكم الفكر ولكن. . .) فبلغت (لكن) هذه من شدة دويها مبلغاً جعلهم شديدي الإنصات إليها، حريصين على ألا يفوتهم سماع الصدى الهائل الذي ينبعث من انفجاره في أنفسهم، فيتفتح فيها من جراء هذا الانفجار منافذ وأبواب على العالم الغامض، لينطبع على صفحات هذه النفوس كل صورة ومشهد من صوره ومشاهده، وكل ما يحوي من حقائق مرة لاذعة، وخيالات جميلة عذاب.

ولا أخال الجماعة الذين أدركوا معنى (لكن) هذه وسيروا غورها العميق فعرفوا أن باطنها يحوي متعاً من الحياة قد سلبهم إياها الفكر والشعور ليمنحهم نعمة الشفاء ولذة الألم - قد يحسدون يوماً من الأيام بقية الناس الذين نعموا بالحياة وبكل ما تحويه الحياة وحرموا نعمة واحدة هي أسمى النعم وأرفع اللذات وأعنى بها نعمة الشعور الذي يولد التفكير الصحيح.

وإذا حملهم أحياناً فيض شعورهم لشدة ما ينتابهم من جرائه على حسد ألئك، فان هذا الحسد لا يدون إلا لحظات، ولا يطول أكثر من فترات. ذلك لأن (النوع) الرفيع العالي الذي يطبع سعادة جماعة الفكر والأدب بطابعه السحري، لا يستطيع غيرهم من الناس إدراك كنهه العميق وليس بوسعهم بلوغ قمته العليا.

وهل بإمكان البواعث التي يسعد بها الناس أن تبعث في نفس الأديب أو المفكر أية سعادة ما؟

وهل تسر هذا الأديب أو ذاك المفكر نفس المسرات التي يغتبط بها بقية الناس؟

قد تسعد الأديب ذات البواعث التي تسعد الناس، وقد تسره الأسباب التي تسرهم، غير أن ما يميزه عنهم ويجعل فروقاً بين سعادته وسعادتهم وسروره وسرورهم هو ما يمكن أن تخلفه هذه السعادة وذاك السرور في نفسه من عميق الأثر وما قد ينتج عن هذا الأثر من معان وفكر قد تحولها - أي السعادة والسرور - إلى عكسهما بعد أن يخضعهما الأديب إلى قوانين التحليل والتدقيق.

ولكم سخر أدباء من سعادة كثير من الناس وفضوا عليها شقاوتهم وحيرتهم! ولكم لام المفكرون ونقدوا أساليب ووسائل يستعين بها أشخاص لبلوغ أمنية السعادة المنشودة دون التفريق بين أسلوب والتدقيق بين وسيلة ووسيلة!

فإذا كان الفكر الإنساني قد حكم على كل مفكر وأديب أن يحبس نفسه في مقر ذاته العميق، وان يرسل نبرات صوته بين أرجاء السكون الذي يملأ هذا المقر، ثم لا يسمع غير صدى هذه النبرات!

وإذا كان قد قضى عليه أن يعيش في تلك العزلة الموحشة عزلة نفسه التي يحرسها (تنين) الوحدة، فعزاؤه عما فاته من متع الحياة انه يصغي في كل لحظة من لحظات عمره القصير بعدد السنين المديد بمقدار الدقائق إلى كل همسة من همسات ضميره ونفسه، وينصت إلى كل نغمة من نغمات الحياة التي لا ننفك أوتار قلبه تعزفها على قيثارة الضلوع.

فلنتغنَّ إذن بين جدران أنفسنا الشاهقة، ولنرسل ألحان هذه الأغاني موسيقى تحوي أنغام الحياة على أنواعها فتتحول عند سقوطها في القاع - قاع أنفسنا - صوتاً قوياً تنبعث منه نبرات الحياة حارة بليغة.

(دمشق)

فلك طرزي

آراء حرة
بين العقاد والرافعي
للأستاذ سيد قطب
كنت قد أعددت هذه الكلمة قبل أن أقرا كلمة الأستاذ سعيد العريان الأخيرة، ومقدمته لها. قلما قرأتها لم أجد أن أغير في كلمتي شيئاً . . .
وبقى أن الأستاذ يقول عما كتبت: (ومع ذلك فأن ما أتى به من النقد ليس بشيء عندنا). فإن كان يكفي في الحكم أن يقول الإنسان هكذا فيكون ذلك قضاء، فإننا - على طريقته - لا نتكلف أكثر من حذف أداة النفي فنقول: هو (بشيء) عندنا) وبذلك تنتهي!
وبقي أنه عرض بي في ثنايا مقاله بعد ما تخلى عن الرد وقال إنه مؤرخ. . تعريضا غير لائق. فما مثلي بمن يحتاج لمن يفهمه أدب الرافعي وليس فيه شيء لمثلي غير مفهوم، وما هو بصاحب طريقة في الفكر والفن، إنما هو صاحب طريقة في التعبير، وأنا أحد الأخصائيين في اللغة التي يعبر بها.
على أن هناك ما يضع حداً للجدل. أليس الأستاذ سعيد العريان يفهمه؟. بلى. فأنا إذن من باب أولى أفهمه.
سيد قطب
- 3 -
حين قال الأستاذ سعيد العريان عن نقد الرافعي لوحي الأربعين: انه بلغ فيه ذروته، وجمع كل فنونه، كان صادقا في قوله، وكنت مخطئا في الاعتراض عليه، كما اتضح لي الرأي في هذا الأسبوع الأخير!
وحين قلت: أن الرافعي أديب (الذهن) لا أديب (الطبع) وانه ينقصه (القلب) المهيأ للحب، وانه لا يعنيه إلا أن يصور الحقائق الوقتية الصغيرة في صورة خلابة، لم يكن هذا المعنى واضحاً محدداً في ذهني كما اتضح في هذا الأسبوع الأخير!
وحين ذكرت أن الرافعي ذكي، قوي الذهن، كنت متسامحاً جد التسامح أو مبالغاً جد المبالغة، ولم أعلم ذلك كله علم الأسبوع الأخير! وإليك البيان . . .
حينما أمسكت بالقلم لأكتب الكلمة الأولى بهذا العنوان، كان في ذهني ونفسي صدى مطالعاتي القديمة للرافعي، وهو صدى غامض يدل على الجملة، ولا يمد الناقد بالتفصيل.
وحينما كتبت الكلمة الثانية، لم يكن بين يدي إلا نقده لوحي الأربعين، فأبديت رأيي فيه كما رأى قراء الرسالة.
ولكنني حين رحت أتلمس الأمثلة من بعض كتب الرافعي واخترت أن أبدأ (برسائل الأحزان)، اصطدمت بالرافعي من جديد، واختلف الصدى الغامض القديم، عن الصوت الواضح الجديد. (أحسست صدق الأستاذ سعيد في نعته لنقد وحي الأربعين، فإنه - على ما به - في الذروة من نتاج الرافعي كله كما قال!
وأحسّست أنني أخطأت في عدم تحديد (الذهن) الذي قلت أن الرافعي يصدر عنه في أدبه، فمن الذهن ما هو سليم أو مريض، وما هو مشرق أو خاب، وما هو متفتح أو مغلق. . . إلى مالا نهاية له من ألوان الأذهان:
وأحسست أنني خدعت في (قياس ذكاء) الرافعي، ومعرفة طبيعته ودرجته، حتى ردتني إلى القياس الصحيح (رسائل الأحزان)! وإنني لأحس بالغضاضة في هذا التراجع، فيعزيني عنه (الصدق) الذي أعبر عنه حين أنصت لإحساسي وأصور حقيقة رأيي.
الرافعي أديب الذهن. ولكنه الملتوي المعاظل المداخل الذي لا يستطيع أن يسلك أقرب طريق إلى ما يريد، بل يتخذ الدروب والمنحنيات، ويلتف حول نفسه، ويعصر نفسه، مرة ومرة، قبل أن يصل إلى الحقيقة الهينة الصغيرة، التي تعثر بها الأذهان المستقيمة مدى ذراع.
والرافعي يصدر في أدبه عن ذكاء، ولكنه ذكاء اللمحة والومضة، لا ذكاء الإشراق والصفاء. الذكاء الذي يخبط بجناحه هنا، ويخبط بجناحه هناك، فيهيئ للناظر انه يرفرف ويطير، والواقع انه مكب على الثرى، وما هي إلا خفقات الجناح.
والرافعي في رسائل أحزانه يتراءى كأنما يتمطى في أغلال، أو يتنزى في وثاق، يحاول أن يتلفت من هذا وتلك، وهو ينغض رأسه ويضرب بقدميه، ويضرّس أنيابه، في حركات

عصبية، ليخلق اللفظة بعد اللفظة، والجملة بعد الجملة، والخاطرة بعد الخاطرة، في جهد وعناء!
وإنك لتسأل بعد قرأتها: أهذه رسائل حب؟ أو ذكرى حب؟ وأنت خليق أن تفتقد فيها الإنسان قبل الفنان.
أسمع قصيدة صدر بها أحد كتبه ولاشك أنه معجب بها، اسمع الشعر الذي يعجب من ينقذ شعر العقاد في الحب:
من للمحب ومن يعينه؟ ... والحب أهنأه حزينهُ
أنا ما عرفت سوى قسا ... وته فقولوا كيف لينهُ
إن يقض دين ذوى الهوى ... فأنا الذي بقيت ديونه
قلبي هو الذهب الكر ... يم فلا يفارقه رنينهُ
قلبي هو الألماس يع ... رف من أشعته ثمينه
قلبي يحب وإنما ... أخلاقه فيه ودينه
فهذا الشاعر الذي ينقد شعر العقاد في الحب، هو الذي يعجبه ما يقلد من شعراء الدول المتتابعة والمماليك في مصر، وشعراء أواخر العهد العباسي فنسمع رنين شعرهم في:
(إن يقض دين ذوي الهوى ... فأنا الذي بقيت ديونه)
يعجبه هذا الذي لا يرتفع مستواه الفني على أن يذكر (قلبه) في سوق (المجوهرات) من الذهب والألماس، معتقداً أن تلك (المعادن) أثمن من (القلوب) لأنها تقوّم بالمال الكثير في السوق.
وما عن تهكم أصدر في هذا التعبير، فهي حقيقة تعززها الأمثلة الكثيرة في (الرسائل) وسيأتي هذا في موضعه.
أما القصيدة بعد هذا فخطبة منبرية، لا تعرف أن كان صاحبها محباً حياً يثير الحب في نفسه وأعصابه دفعات الحب، وينبه خوالجه وخواطره، ويعمق إحساسه بالحياة، ويضاعف شعوره، أم إنه واعظ يدعو في جفاف وجفوة إلى (عدم الاعتداء على الأعراض) بأسلوب لا يتصل بالقلوب، كمعظم خطباء المساجد في هذه الأيام:
يا من يحب حبيبه ... ويظنه أمسى يهينه
وتعف منه ظواهر ... لكنه نجس يقينه
كالقبر غطته الزهو ... ر وتحته عفِنٌ دفينه
ماذا يكون هواك لو ... كل الذي تهوى يكونه
دع في ظنونك موضعاً ... إن الحبيب له ظنونه
وخذ الجميل لكي تزي ... ن الحسن فيه بما يزينه
إن تنقلب لص العفا ... ف لمن تحب فمن أمينُه
الخ. . . الخ
ولعل أصدقاء الرافعي في نشوة حين يطالعهم بهذه الصورة الذهنية:
كالقبر غطته الزهو ... ر وتحته عفِنٌ دفينه
ولكن أين هذا أيها (الأحياء) في عالم الحب الحي، وإن هو إلا (اللعب على الحبل) في هذا الميدان؟
ثم ماذا؟ ثم اسمع الشاعر الذي لا يعجبه شعر العقاد في الحب:
حسناء خالقها أتم جمالها ... سألته معجزة الهوى فأنالها
لما حباها الله جل جلاله ... بالحسن منفرداً أجل جلالها
تضنى المحب كأنما أجفانها ... ألقت عليه فتورها وملالها
هيفاء قد شب النسيم قوامها ... غصناً فإن خطر النسيم أمالها
سيالة الأعطاف أين ترنحت ... تطلق لكهربة الهوى سيالها
هكذا نعود إلى شعراء الدول المتتابعة في التكلف والمعاني المطروقة التي يباع كل عشرة منها بقرش في هذه الأيام! ولا نرتفع عن (الأجفان التي تلقى على المحب فتورها وملالها)، ولا عن (النسيم الأعمى أو الأصم أو الثقيل الحس الذي يحسب المحبوبة غصناً، لعماه أو صممه أو ثقل حسه، فيميلها عند مروره!
وهكذا لا ندخل أبداً في زحمة الحياة وتياراتها، ولا نحس الحياة في خالجه أو خاطرة، ولا (نعيش) في هذا الحب عيشة الأحياء الذين يتأثرون بحسهم وأعصابهم وخوالجهم

بجانب أذهانهم، أو حتى الأحياء الذين تلتفت أذهانهم وحدها إلى صور الحياة وأشكالها، ودوافعها وأمواجها ولو لم يندمجوا فيها، ويتأثروا بها!

ولكن لا، فقد كسبنا التفاته ذهنية رخيصة، لا بل التفاته عرفية أو كلامية، فأن هذه الحبيبة لما (انفردت) فكانت لها صفة (الوجدانية) في الحسن (أجل جلالها) الله (جل جلاله).

فليلق بالهم إلى ذلك علماء (الكلام)، فما كتب إلا لهم وحتى لا تفهم أن الشاعر قديم، أقرأ التجديد الذي تندق دونه الأعناق!

سيالة الأعطاف أين ترنحت ... تطلق لكهربة الهوى سيالها

أفبعد (الكهرباء) وهي آخر ما كشف من قوى الطبيعة قولة لقائل من المجددين الذين ينقدهم الرافعي النقد الشديد؟

فمن يكن في شك أو ظل من شك فليقرأ، ليعرف أنها لم تكن خطرة عابرة في التجديد، وإنما هي عن تعمد وسبق إصرار.

يا نجمة أنا في أفلاكها قمر ... من جذبها لي قد أضللت أفلاكي

هناك الكهرباء، وهنا الجاذبية، أبعد هذا يكون شك أو ظل من الشك؛ لا. وألف مرة لا! ولا شيء وراء هذا العبث الذي لا نريد له نقاشاً وان كان فيه - لو شئنا سلوك طريقة الرافعي في النقد - مجال لعشرات الغمزات والتهكمات.

وقد قلت لك: أن الرافعي يغالي (بالمجوهرات) فأسمع:

يقول للصديق المفروض أن هذه الرسائل تكتب أليه. إنه سيقص له قصة حبه لا بالترتيب.

(فإن هذا مما يحسن في تاريخ صخرة تتدحرج، أما أنا فسأقدم لك تاريخ لؤلؤة فريدة). ولست ادري الفرق لدى الفنان (الحي) بين أن يقص تاريخ صخرة وتاريخ لؤلؤة إلا أن يكون (الثمن) هو الفارق بينهما.

أفهم أن يقول: (إن هذا مما يحسن في تاريخ صخرة، أما أنا فسأقدم لك قصة حياة. أو قصة بنية حية يدخل في تأليفها ودوافعها شيء غير الزمان والمكان، هو الحس والشعور. أو تاريخ نبتة تنمو من داخلها أكثر مما تنمو في خارجها) أو أي تعبير آخر يدل على أن القائل يستشعر الحياة في أعماقها، أو ظواهرها على الأقل، ويرى (القلب) شيئاً حياً، جماله في حياته، وان لم يقوّم في سوق المجوهرات بعشر ماسة أو قطعة صغيرة من الذهب! ثم اسمع: يقول في إحدى الرسائل: (أما سمعت بذلك الأعرابي الذي قيل له: ما بلغ من حبك لفلانة؟) فقال: والله إني لأرى الشمس على حائطها أحسن منها على حيطان جيرانها. . .، قد ولله صدق وبرت يمينه) فإن في كلماته الشعرية لأثراً من (عينيه)، إذ يرى الشمس على حائطها كالشمس على (البلور الصافي) لا على الحجر والمدر.

أن الأعرابي ليرتفع إلى الذروة الفنية في قولته الساذجة، ويخيِّل إليك الحياة المشرقة في (ضميره)، - لا عينيه وحدهما - وهو ينظر إلى الشمس على حائط حبيبته ويكشف عن (الخصوصية) الدقيقة التي ترى (شمس حبيبته) وكأنها خلقة خاصة بها لا يشاركها فيها سواها. . . الخ ما يتسع له التصور من ألوان الامتياز الوجداني في هذا الأعرابي.

ولكن صاحبنا لا يرى في هذا إلا أن (الشمس على حائطها كالشمس على البلور الصافي، لا على الحجر والمدر).

فمدار الجمال إذن هو نفاسة ما تطلع عليه الشمس وثمنه في السوق، ولاشك أن البلور أغلى من الحجر والمدر!

ولعله هو أو أحداً من أصدقائه لا يستطيع أن يصدق أن الشمس على (الحجر والمدر) الرخيصين أجمل؛ أو على الأقل قد تكون في وضع ما أجمل من الشمس على (البلور) الغالي الثمن، وذلك عند (الطبع) الحي، الذي يعيش في الحياة الرحبة، لا في سوق المجوهرات!

واسمع. . . في رسالة أخرى:

ثم يجري كلامه فيها شعراً خالداً مطرداً كنهر الكوثر في رياض الجنة، حافتاه من (ذهب، ومجراه على الدر والياقوت)

أرأيت؟ الذهب والدر والياقوت!

ولا يتشكك صاحبنا في أن النهر الذي حافتاه من ذهب ومجراه على الدر والياقوت

أجمل من النهر الذي حافتاه من العشب الأخضر، ومجراه على الرمل والطين.
لا يلتفت إلى أن الأول مصنوع قد يهيج العين لحظة ثم لا تحس وراءه حياة، ولا معني أعمق من ظاهره، فتمله النفس؛ أما الثاني فهو لا يأخذ (العين) بالبريق والوهج، ولكنه يملأ (النفس) بالروعة والجمال، ويتيح لها التأمل العميق في الطبيعة، والاندماج بين الحياة الجارية في النهر والحياة الجارية في النفس، لقرب النشأة والتكوين.
لا لا. فالمهم هو البريق الذي يخلب الحس، والأهم هو (السعر) المقدر للياقوت والطين. وشتان شتان!
وبعد فقد كان في هذه الأمثلة الكفاية لتوضيح نظرتي في الرافعي والبرهان عليها، كل مثال
يغني عن سواه. وقد تعمدت أن اختارها من اللفتات الصغيرة الخاطفة، وما يستجاد عند مدرسته، وهي أدل على طبيعة الفكر ومعدن الذهن.
ولكن لدي أمثلة في نهج آخر يؤدي إلى النتيجة نفسها، وموعدي مع قراء الرسالة ي ذلك كلمة أخرى بعد أن طال هذا المقال.
(حلوان)
سيد قطب
ليلى المريضة في العراق
للدكتور زكي مبارك
- 18 -
- كان فضيلة الشيخ دعاس العيسوي والد عبد الحسيب يقيم بالزمالك، أعني في بولاق.
- ما هذا الخلط يا ظمياء؟
- كنا نفهم انه يقيم بالزمالك، ثم عرفنا انه يقيم في بولاق، وقد فهمنا أن سكان بولاق يحبون أن يسموا محلتهم زمالك.
- شئ غريب!
- وما وجه الغرابة في لك؟ إن بولاق تشرف على النيل كما تشرف عليه الزمالك
- ولكن بولاق في الضفة الشرقية، والزمالك في الضفة الغربية، فبولاق شرق، والزمالك غرب، والشرق والغرب لا يلتقيان
- أيش لون؟
- هذه معان لا يفهما غير الفلاسفة يا ظمياء
- وكنت أذهب في صحبة ليلى إلى منزلي الشيخ دعاس العيسوي، وكان شيخاً يقارب الستين، ولكنه كان أعجوبة الأعاجيب في مغازلة النساء. كان يصوب بصره إلى ليلى ويقول: (يا بنت يا كهرباء) وكانت ليلى ترتاح لهذا الوصف الطريف. ولعلها كانت تود لو سمعت هذه العبارة الطريفة من عبد الحسيب، وكانت السيدة نجلاء. . .
- هل تعرفين شيئاً من تاريخ نجلاء؟
- أعرف كل شئ: كانت فتاة خفيفة الروح عرفها الشيخ دعاس وهو يصطاف في لبنان قبل الحرب بأعوام طوال، فتزوجها ونسى من أجلها زوجته وأبناءه في (شمون).
- وهي أم عبد الحسيب؟
- بالتأكيد، وعنها ورث خضرة العينين
- فهمت. هاتي بقية الحديث
- وكانت ليلى ترفض الجلوس على المائدة مع الشيخ دعاس وابنه عبد الحسيب، ثم استأنست بعد حين، فقد اطمأنت إلى شرف القلوب في ذلك البيت. وكان فضيلة الشيخ
دعاس يتناول على المائدة دواءً كميت اللون يصلح الأمعاء. وكان هذا الدواء يحفظ في صوان خاص ويُقدَّم إليه في الغداء والعشاء. وفي ظهر يوم طرق الباب وأعلن الخادم قدوم الشيخ الزنكلوني فأسرعت ربة البيت وأخفت زجاجة الدواء. ودخل الشيخ الزنكلوني فرأيناه رجلاً عليلاً وعجبنا كيف يبخل عليه الشيخ دعاس بقطرة من الدواء الذي يصلح الأمعاء.
- عمن تلقيت دروس اللؤم يا ظمياء؟
- تلقيتها عن طبيب مصري يقيم في بغداد

- وأين عيادة هذا الطبيب؟
- هو طبيب بلا عيادة، على وزن وزير بلا وزارة
- فهمت. ويسرني أن يكون تلاميذي جميعاً أذكياء. وماذا صنع الشيخ الزنكلوني حين رأى ليلى؟
- قبّل جبينها وقال: أنت درية؟ فلما عرف أنها فتاة من العراق قبّل جبينها مرة ثانية وقال: أنا احب العراق ونسائم العراق وجميع ما يرد من وطن أبي حنيفة النعمان. اسمعي يا بنيتي، أنا من الشافعية، ولكني أستظرف الحنفية.
وهنا تدخل الشيخ دعاس فقال: ولكن أبو حنيفة كان يبيح النبيذ.
فثار الشيخ الزنكلوني وقال: هذه دسيسة مذهبية، فما أباح أبو حنيفة النبيذ، وإنما أباح العرقسوس
وتشجعت ليلى فقالت: رحم الله أبا حنيفة فقد كان يعرف أن العرقسوس يصلح الأمعاء.
وكانت أول مرة فهم فيها الشيخ دعاس أن ليلى لم تكن من الغافلات
ثم دعانا الشيخ الزنكلوني لزيارة منزله في حارة أو الغلام
- وزارته ليلى هناك؟
- وعدت ثم أخلفت، فقد رابها تظرف المشايخ
- ضيعتم فرصة ثمينة يا ظمياء. فما الشيخ الزنكلوني متظرفاً وإنما هو ظريف
- سنزوره حين نرجع إلى مصر يا مولاي
- ومتى ترجعون إلى مصر، يا ظمياء؟
- حين تسمن الأسماك
- ومتى تسمن الأسماك؟
- حين ينضج التوت
- ومتى ينضج التوت؟
- حين تعقل ليلى وترجع إلى التلطف مع طبيبها النبيل
- إذاً لن ينضج التوت ولن تسمن الأسماك
- صبراً يا دكتور فإن الله مع الصابرين
- سأصبر يا طفلتي الغالية. . . ولكن كيف كانت ليلى مع عبد الحسيب؟
- كانت تتغطرس عليه كما تتغطرس عليك، فتتجاهل ما تملى عليه الصبابة من نظرات وأحاديث. المحبون يتغطرسون لأنهم أذلاء، ولو كانوا على شيء من العزة لاحتقروا الكبرياء. وهذا هو السبب في أن الأحباب يحرم بعضهم عطف بعض. فالحبيب يريد أن يذل له المحب، والمحب يريد أن يذل له الحبيب؛ وفي ظلمات هذا العتاد السخيف تنفصم الأواصر والصلات. وكان المسكين عبد الحسيب يسلك إلى قلب ليلى كل سبيل. كان يحتال ليظفر منها بابتسامة. كان يغرب في سرد أخبار الشيخ كراوية
- ومن الشيخ كراوية يا ظمياء؟
- أستاذ كان يدرس اللغة العربية بمدرسة المساعي المشكورة بالزقازيق.
- أنت جاهلة يا ظمياء، فمدرسة المساعي المشكورة في شبين الكوم لا في الزقازيق
- أؤكد لك أنها في الزقازيق. ولك أن تسأل ليلى فعندها الخبر اليقين
- إذا أخذت العلم عن ليلى فعلى العلم العفاء
- وكان عبد الحسيب يقف فيقلد صوت الشيخ كراوية وهو ينشد قول جرير:
إن العيون التي في طرفها حور ... قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به ... وهن أضعف خلق الله إنسانا
وكان يصوب بصره إلى ليلى حين يصل إلى عبارة (وهن أضعف خلف الله إنسانا)، وكان يرضيها أن ترى هيامه بها فتبالغ في التغطرس والازدهاء
وفي إحدى العصريات دخل عبد الحسيب غضبان فانزعج الشيخ دعاس وانزعجت السيدة
نجلاء، فنظرت إلى وجه ليلى فرأيته يشبه دجلة في أيام نيسان
- إيش لون؟
- وأنت يا مصري نقول (إيش لون؟)
- إيش لون؟ إيش لون؟

- دجلة في نيسان تحاول من فرط الشوق والحيوية أن تلطم وجه بغداد
- وكانت ليلى تحب أن تلطم وجه عبد الحسيب؟
- كانت تهم بافتراسه لأنها كانت تنكر أن يدرك معنى البؤس وهي في دنياه
- كانت تحبه؟
- وأي حب؟ وهل في الدنيا فتاة تحبس قلبها عن فتى وافر الرجولة متين الأخلاق؟
- وما هي أسباب ذلك الغضب الذي سيطر على عبد الحسيب؟
- قال إنه تلقى محاضرة في مدرسة البوليس ألقاها الصاغ على حلمي عن (القوة المعنوية) فثار صدره وعجب كيف يعجز عن التسلح بالقوة المعنوية، وجلس على المائدة وهو في غاية من العقل، فلا نوادر ولا فكاهات، ولا الشيخ كراوية ولا عبد الله شعيب. فعرفت ليلى أن الشاب ابتدأ يحاربها بلا رحمة ولا إشفاق. آه، ثم آه!
- لا تتأوهي يا ظمياء فقد مزقت قلبي
- تحبني يا مولاي؟
- استحي يا ظمياء فأنت في حضرة طبيب
- وبعد ليال دعتنا السيدة نجلاء لسماع المغنى عبد اللطيف البنا في ملاهي المعرض فسمعناه يقول:
(سلامة القلب من حبك يا قاسي)
فتحدرت مدامع ليلى وأصابها إغماء. وكانت ليلة قضيناها في كروب وأشجان. وفي الليلة التالية صممت ليلى على أن نذهب وحدنا إلى ملاهي المعرض، فسمعنا أم كلثوم تغني
يا للي شغلت البال ... يا ليت أكون على بالك
الوجد له أحوال ... يا ليتني أعرف حالك
فأخذت ليلى تبكي بكاء لا تجود بمثله عيون الأطفال، فخشيت أن نفتضح وأخذتها في سيارة إلى المنزل الذي كنا نقيم فيه بشارع قصر النيل، واحبسنا عن جميع الناس ثلاثة أسابيع
- ثم ماذا؟
- ثم تفضل الشيخ دعاس والسيدة نجلاء والآنسة درية بالسؤال عنا فتشجعت ليلى وسألت عن عبد الحسيب، فأبتسم الشيخ دعاس وقال: تحبينه يا ليلى؟ فقالت: ما أحبه، وإنما أشتهي أن يحدثني مرة ثانية بحكايته يوم تشيطن فأخذ زجاجة الزيت وملأ بها حابر زملائه من التلامذة الأقباط حين كان تلميذاً بمدرسة المساعي المشكورة الثانوية.
وقهقة الشيخ دعاس وهو يقول: وما رأيك يا ليلى إذا كان التلامذة الأقباط اصبحوا يرحبون بوضع الزيت في محابرهم على أيدي التلامذة المسلمين؟
ولم تفهم ليلى ما يريد، فاستطرد الشيخ دعاس قائلا: نحن ائتلفنا يا بنيتي على يد الشيخ الصالح سعد زغلول، وأنا وضعت قواعد الائتلاف قبل سعد زغلول، فزوجتي نجلاء كانت مسيحية وأسلمت لتربط بين مصر ولبنان. فما رأيك لو خطبتك لعبد الحسيب؟
فاستأنست ليلى وقالت: هل قرأت يا فضيلة الشيخ أخبار عمر بن أبي ربيعة؟
فقال: ما قرأتها، لأن أخبار عمر بن أبي ربيعة لا تدرس في الأزهر الشريف.
فقالت ليلى: كان ابن أبي ربيعة يستهوي جميع النساء اللائي يشهدن موسم الحج، إلى أن فتنته امرأة عراقية، فراودها عن نفسها فاستعصمت، فخطبها لنفسه فأبت وقال: تعال إلى العراق واخطبني من أهلي. وكان ابن أبي ربيعة ماجناً فلم يتبع معشوقته إلى العراق، وحرمه المجون من التشرف بمصاهرة أهل العراق.
فإن كان عبد الحسيب صادقا في حبي فليمض إلى العراق وليخطبني من أهلي هناك.
وعرف الشيخ دعاس أن هزل الحب جد، فانصرف وهو مكروب!
- ثم ماذا يا ظمياء؟
- ثم انتظرنا أسابيع فلم يسأل عنا الشيخ دعاس ولا ابنه عبد الحسيب، فرجعنا إلى العراق ونحن نبكي سلامة لأخلاق في بلاد الفراعين
- شئ مزعج، شيء مزعج!
- لا تحزن يا مولاي ولا تبتئس، فقد وقعت أعاجيب - أفصحي يا ظمياء

- في اليوم الثالث والعشرين من تشرين الأول سنة 1926 طرق الباب زائر غريب، فنظرنا فإذا هو الضابط عبد الحسيب بعينيه الخضراوين وقوامه الرشيق؛ وهجمت ليلى عليه فقبلت جبينه وخديه بلا تهيب ولا استحياء، ودعوناه للنزول في ضيافتنا فرفض، وقال إنه جاء لخطبة ليلى، وإنه ظفر بدبلوم مدرسة البوليس، وأنه مرشح لرياسة نقطة النعناعية، فنظرت ليلى إليه بعيني اللبؤة العادية وقالت: لن اقبل يدك أو اختبر أخلاقك!
- ثم ماذا؟
- ثم استيأس الشاب المسكين وقال: وبأي صورة أعيش في بغداد؟ فقالت ليلى: ذلك إلي
- ثم ماذا؟
- ثم تحمّلْت ليلى بأهلها ومعارفها إلى نوري باشا السعيد وكان يومئذ وكيل القائد العام، وكان برتبة زعيم فالحق الضابط عبد الحسيب بالجيش العراقي بحجة التقريب بين مصر والعراق
- شيء جميل!
- انتظر يا دكتور، فقد أفسدت ليلى كل شيء
- وماذا صنعت الحمقاء؟
- بثت من حوله العيون لترى كيف يفكر وكيف يصنع، فصح عندها انه كافر بالحب وكافر بالعروبة فأصلته نار الصدود
- ثم ماذا يا ظمياء؟
- ثم رحل المسكين إلى مصر بدون أن يستأذن رئيسه نوري باشا السعيد
- ثم ماذا يا ظمياء؟
- ثم خلت حياة ليلى من حبيبها الغالي فلم تعد تعرف طعم الحياة وحالفها الضنى والنحول
- ثم ماذا يا ظمياء؟
- ثم علم الشاب المسكين بمرض محبوبته الغالية فلاذ بأمه الرءوم فمضت إلى الأستاذ خليل مطران تستفتيه، فكان من رأيه أن ينتقم من ليلى بطريقة دولية تضج لها المشارق والمغارب، وصح عنده أن تغني السيدة نادرة هذا البيت:
يقولون ليلى في العراق مريضة ... فيا ليتني كنت الطبيب المداويا
ولم يقف عند هذا الحد، بل أشار بوضع هذا الصوت في شريط (أنشودة الفؤاد).
- ثم ماذا يا ظمياء؟
- ثم تنكر أهل العراق لذلك الشريط وقاوموه غيرة على ليلى فلم يعرض في بغداد غير مرات معدودات
- ثم ماذا يا ظمياء؟
ثم لطف الله بليلى فجاء الدكتور زكي مبارك لمداوتها منتدبا من الحكومة المصرية
- وما الرأي يا ظمياء إذا عوفيت ليلى ومرض الطبيب؟
- الأمر يومئذ لله
ليلى، ليلاي
أنت تعلمين أنني تركت في سبيلك وطني وأهلي. أنت تعلمين أن صحتي اعتلت وأنني أعيش على منقوع الفواكه منذ أسابيع وأسابيع. أنت تعلمين ما أنا صائر إليه أن دام هذا الصدود. أنت تعلمين إني ضحية الواجب والعقيدة والوجدان. فما هذا التجني يا ليلى والإحساس ما خنت العروبة ولا كفرت بالحب؟
أحبك يا ليلى، احبك، فاصنعي بقلبي ومصيري ما شئت وشاء الهوى وشاء الدلال
أحبك يا ليلى في غضبك ورضاك. احبك حباً ما سبقني إليه سابق، ولن يلحقني فيه لاحق. أحبك يا ليلى واحب من أجلك جميع ما في الوجود حتى قيظ بغداد. أحبك يا ليلى ورأي وجهك مسطور الملامح والتقاسيم في كل ما تقع عليه عيناني. أحبك واحب من أجلك نعيم الحياة وبؤس الحياة؛ وما احب الحياة لنفسي يا ليلى فقد شبعت منها ورويت، وإنما احب الحياة ليبقى لك في الدنيا محب صادق يرى الضلال في هواك أشرف من الهدى، ويرى الظلام في هواك أكثر إشراقاً من بياض الصباح.
أحبك يا ليلى وأتمنى إلا تحبيني؛ فما يرضيني أن تعاني في الهوى بعض ما أعاني

أنا اكره لك يا معبودتي أن تذوقي ملوحة الدمع، وان تهيمي بعهد نجوم الليل، وان تقفي موقف الجمود أمام الأزهار والأشجار والأنهار فلا تدركين كيف يبتسم الوجود
- ظمياء!
- عيوني!
- ظمياء!
- عيوني، دكتور زكي، عيوني!
- خذي بزمامي إلى الجحيم
- وأين الجحيم يا مولاي؟ حماك الله ونحاك!
- أين الجحيم؟ أما تعرفين؟ خذي بزمامي إلى دار ليلى علني أعرف مصيري في هوى تلك الظلوم
- في المساء؟
- في هذه اللحظة
- انتظر حتى أراها وارجع إليك، فان اصطدام العاشقين في فورة الغضب قد يحملك على أن تمن عليها أو تجرها إلى أن تمن عليك، والمن يصنع بالحب ما تصنع أنار بالحلفاء

(للحديث شجون)

زكي مبارك

مصطفى صادق الرافعي

بمناسبة مرور سنة على وفاته

للأستاذ فليكس فارس

بقية ما نشر في العدد الماضي

لكل كاتب منهجه، ولكل مفكر تقديره. وما اذهب إليه في تحديد الرافعي هو ما تيقنته فيه قبل أن تنشأ بيننا أية علاقة شخصية، إذ رأيت فيه الأديب المطبوع المتمرد على كل مشايعة وتقليد. فهو مثال جديد للأدب العربي القديم يستلهم أجواء الشرق ويلبس تفكيره حلة من لغة الجنان لا يسع كاتباً من عباقرة سائر الأمم أن ينسج على منوالها.

الرافعي هو أحد أعلام العرب المعدودين، أحد الأئمة السائرين في الطليعة من فيالق الأدباء في عصر النهضة الجديدة. ولا يجوز لأي كاتب منصف أن يصوره للتاريخ متخلفا خطوة واحدة عن رفاق جهاده. فمن الجناية على الحق أن نقيم في وهمنا حلبة نستركض عليها عباقرتنا ونتسلى بالنظر إليهم كأنهم جياد السباق يتجهون إلى أمد واحد. فليس الأدب حلبة اختط المراهنون عليها طريقاً واحداً لتغلب فريق على فريق؛ إن الأدب إلا أجواء تتطاير فيها القرائح فراشات تستهويها أنوار وأنوار. . . ولكل نور جذبته، ولكل نور جماله، إذا هو اقتاد المنجذب إليه نحو الحق والخير. وما ادري أن بين كتابنا وشعرائنا أمواتا وأحياء من يبز مصطفى في أيمانه ووطنيته وقوميته وإشراق بيانه ومتانة أسلوبه ولطافة شعوره وعمق تفكيره.

هذه قطعة (رؤيا في السماء) إن وجدت لها مثيلاً من حيث الفن بين ما كتب اشهر الرمزيين من أبناء الغرب، فإنك لم تجد ما يشبه روعة بيانها ولا إشراق إلهامها وقد تلألأت في سطورها من الأحاديث الشريفة، ومن حكم السلف الصالح ما يدفع بك وأنت تتلوها إلى السجود كأنك تصلي بأصوات القبور المتعالية من خفايا فطرتك وأعماق روحك.

اسمع صرخة الإلهام في روح الرافعي تخرج من فم ملاك يؤنب رجلاً فضل العزوبة على الزواج ووقف في البرزخ الفاصل بين العالمين متخذاً من تنسكه وتعبده زلفى إلى الحق.

قال الملاك: (جئت من الحياة بأشياء ليس فيها حياة، فما صنعت للحياة نفسها إلا أن هربت

فيها وانهزمت من ملاقاتها؛ ثم أنت تؤمل جائزة النصر على هزيمة. . عملت الفضيلة في نفسك ونشأتك، ولكنها عقمت فلم تعمل بك. لك ألف ألف ركعة ومثلها سجدات (من النوافل، ولخير منها كلها أن تكون قد خرجت من صلبك أعضاء تركع وتسجد.

أسمعت كيف يعتر الرافعي عن أيمانه فيدعوك إلى الأيمان؟ فاسمع ألان كيف يهيب بالشباب إلى إقامة الوطن المنشود!

(يا شباب العرب، لم يكن العسير يعسر على أسلافكم الأولين كأن في يدهم مفاتيح من العناصر يفتحون بها. أتريدون معرفة السر؟ السر انهم ارتفعوا فوق ضعف المخلوق فصاروا عملاً من أعمال الخالق. غلبوا على الدنيا لما غلبوا في أنفسهم معنى الفقر ومعنى الخوف والمعنى الأرضي. وعلمهم الدين كيف يعيشون باللذات السماوية التي وضعت في كل قلب عظمته وكبرياءه القوة القوة يا شباب العرب! القوة التي تقتل أول ما تقتل فكرة الترف والتخنث. اجعلوا رسالتكم أما أن يحيا الشرق عزيزاً وإما أن تموتوا).

أسمعت كيف يلهب الرافعي النفوس شوقاً إلى العظمة التي تكشف لك في آن واحد عظمة الحياة الدنيا ومجد الحياة الخالدة؟ فاسمع ألان كيف يصور لك الرافعي سعداً بأسطر وهو من يكاد ينوء التاريخ بإحصاء صفاته.

(أن سعداً العظيم كان رجلاً ما نظر إليه وطني إلا بعين فيها دلائل أحلامها، كأنما هو شخص فكرة لا شخص إنسان. فإذا أنت رايته كان في فكرك قبل أن يكون في نظرك، فأنت تشهده بنظرين أحدهما الذي تبصر به والآخر ذاك الذي تؤمن به. رجل الشعب الذي يحس كل مصري انه يملك فيه ملكا من المجد. وقد بلغ في بعض مواقفه مبلغ الشريعة فاستطاع أن يقول للناس: ضعوا هذا المعنى في الحياة وانزعوا هذا المعنى من الحياة).

أسمعت الرافعي في مجال العقيدة الروحية والوطنية؟ فاسمعه ألان كيف يسير غور معضلة الانتحار بقوله:

(وليس يخيب الإنسان إلا خيبة عقل أو إرادة؛ وألا فالفقر والحاجة والمرض والاختلال والذل والبؤس والعجز عن الشهوة وفساد التخيل، كل ذلك موجود في الناس يحمله أهله راضين به صابرين عليه، وهو الغبار النفسي لهذه الأرض على نفوس أهلها ويا عجبا. . . إن العميان هم بالطبيعة اكثر الناس ضحكاً وابتساماً وعبثاً وسخرية، أفتريدون أن تخاطبكم الحياة بأفصح من ذلك. .)

هذه عبارة من بحث طويل في الانتحار قد لا تجد ما يضاهيه من أبحاث الغرب تحليلاً وتصويراً واستنتاجاً

هذا هو الرافعي الفيلسوف، فاسمع ألان إلى قلب الرافعي يتدفق حناناً ورقة وهو يصف طفلاً ماتت أمه:

(وطغت عليه الدموع، فتناول منديله ومسحها بيده الصغيرة، ولكن روح اليتيمة تأبى إلا أن ترسم بهذه الدموع على وجهه معاني يتمها. ونهض الصغير ولم ينطق بذات شفة، نهض يحمل رجلوته التي بدأت منذ الساعة).

(انتهت، أيها الطفل المسكين، أيامك من آلام، هذه الأيام السعيدة التي كنت تعرف لغد فيها قبل أن يأتي معرفتك أمس الذي مضى إذ يأتي الغد ومعك أمك. وبدأت، أيها الطفل المسكين أيامك من الزمن وسيأتي كل غد محجباً مرهوباً إذ يأتي لك وحدك، ويأتي وأنت وحدك).

وهذه عبارة من مقال (عروس تزف إلى قبرها)

(ودخلت أعودها فرأت كأنني آت من الدنيا، وتنسمت مني هواء الحياة كأنني حديقة لا شخص. ومن غير المريض المشفى على الموت يعيش بقلوب الناس لا بقلبه).

إلى أن قال:

(وباقتراب الحبيب المحتضر من المجهول يصبح من يحبه في مجهول آخر فتختلط عليه الحياة بالموت، ويعود في مثل حيرة المجنون حين يمسك بيده الظل المتحرك ليمنعه أن يذهب، وتعروه في ساعة واحدة كآبة عمر كامل تهيئ له جلال الحس الذي يشهد به جلال الموت. . .)

وهذا أيضا مقطع من (لحوم البحر)

(الفتاة ترى في الرجال العريانيين أشباح أحلامها، وهذا معنى السقوط، والمرأة تسارقهم النظر تنويعا لرجلها الواحد، وهذا معنى المواخير. . .)

(أين تكون النية الصالحة لفتاة أو امرأة بين رجال عريانيين؟ يا لحوم البحر، سلخك من ثيابك جزار. . .)

(والبحر يعلم اللائي والذين يسبحون فيه كيف يغرقون في البر لو درى هؤلاء وهؤلاء معرة اغتسالهم معاً في البحر لاغتسلوا من البحر، فقطرة الماء التي نجستها الشهوات قد انسكبت في دمائهم وذرة الرمل النجسة في الشاطئ ستكبر حتى تصير بيتاً نجساً لأب وأم.
(. . .يا لحوم البحر سلخك من ثيابك جزار)
هذه نماذج تلمح الرافعي من خلالها لمحاً، نضمنها هذا المقال لتشهد هي له بأنه الكاتب المطبوع على سجية نفسه، والمفكر المبتكر للمعاني من حياة الشرق نفسها، لا مما صوره عباقرة الغرب من حياتهم في تأليفهم. وإذا أنت أردت أن تعرف الرافعي وتحيط بآفاق تفكيره وشعوره فانك لتجد فيما كتب ما يستطير لبك ويشغل ذهنك حولاً كاملاً. ولكن يكفيك لتخشع أمام الرافعي وتعلم في أي مقام يضعه بيانه من الأدب العالمي، أن تقلب مصنفاته ساعة فترى كان أناملك تفتح لك من كامنات نفسك ما كنت تحس به غمامًا فإذا هو الفلك الخفي يدور أمامك بكواكبه ويبهرك بأنواره. . .
إن كتابنا البارزين ممن أجادوا لغات الغرب ووعوا تواريخها لا يسعهم، إذا نحن استثنينا النذر اليسير من المجددين بينهم، أن يلبسوا تفكيرهم وشعورهم بياناً عربياً دون أن تظفر من هذا البيان صور وانطباعات تنقل إليك رواشم اصلها. فإن في أدبنا اليوم ارتشاحات فرنسية وإنكليزية وألمانية وروسية الخ. . . ولكم من قطعة أدبية لولا ثقتك بعبقرية كاتبها لحسبتها مترجمة عن اللغة الأجنبية التي يجيدها لا مستلهمة من أجواء بلاده وأدب قومه. ولكم من رواية يكفيك أن تبدل الأسماء العربية فيها بأسماء إفرنجية ليصح أن يدعى تأليفها إلى كاتب أجنبي يصوّر إخلاف الغرب ونظمه وعاداته.
إذا كان التفكير العلمي المحض مشاعاً بين الأمم ولا قبل لك بالتمييز بين اكتشاف يوفق إليه جرماني، واكتشاف آخر يظفر به لاتيني أو عربي، فليس الحال كذلك في الأدب، لأنه خطرات أفكار، وسانحات شعور، تخرج من صميم الفطرة وتتخذ حتما الصور والألوان الخاصة بلغة كل شعب وتقاليده وأخلاقه، فليس هنالك أدب عالمي كما انه ليس هنالك فن عالمي وموسيقى عالمية بما تدل عليه هذه الكلمة من الإطلاق. غير أن هنالك آدابا وفنونا وموسيقى تبلغ الذروة من الإبداع، فإذا نقلت إلى أمة غريبة عن منشئها احتفظت بالقدر الكافي من الجمال لتؤثر في نفوس الأمة الغريبة.
إن بين آثار كتابنا في هذا الزمان قطعا فنية تتدفق روعة وجمالاً، ولكنك لا تجد إلا اليسير منها ما يمكنك أن تنقله إلى لغة أجنبية دون أن يقول لك أهلها إنهم قرءوا مثلها في مؤلفات كتابهم. . .
لكأن العناية قد أرادت بعث الأدب العربي صافياً ليجمع ما انفرط من شمل هذه الأمم التي تناهبت الأذواق العربية بيانها، فأرسلت من اختارت في مطلع نهضتنا يبعثون لغة الجنان بعد طول هجوعها، يبعثونها ملهمة من الوحي ومما أبدعه استغراق المتقدمين حين كان شعورهم تسبيحا وتفكيرهم صلاة وسجوداً. يبعثونها لا يكدر نهرها المتدفق ينبوع دخيل، ولا تشوه أساليبها عجمة، ولا يحتل إعجازها بإيجازها وإحكامها، ما لا قبل لها به من الأساليب الغريبة. لكأن العناية أرادت أن تفتح آذان الجيل الناشئ إلى أصوات الأجيال المتوارية، فاختارت لها رسلها وفي طليعتهم الرافعي، انشاته في بيئة خاصة، وقضت له بألا يجول إلا في دوائر الأدب العربي، وبلته بالصمم كيلا يسمع صوتاً إلا صوت نفسه تتجاوب أصداء العروبة فيها من جميع حقبها وأطوارها، ليصرخ صرخته المدوية كأنها هتفة بوق النشور في هذه الشعوب التي أضاعت استقلال تفكيرها، فتناهب بيانها الغريب من كل بيان حتى فقدت ثقتها بنفسها فقضت على ميزاتها وعزة حياتها.

فليكس فارس
التاريخ في سير أبطاله
أبرا هام لنكولن
هدية الأحراج إلى عالم المدنية
للأستاذ محمود الخفيف

يا شباب الوادي! خذوا معاني العظمة في نسقها الأعلى من سيرة هذا العصامي العظيم

والحق أن مسالة العبيد تزداد تعقيدا كلما تقدمت الأيام؛ ولكن ابراهام لم يكن الرجل الذي يضل السبيل إذا تعقدت من حوله مسالكها. رأى بنافذ بصيرته أن السماح بانتشار العبيد وراء الحد الفاصل معناه سيادة أهل الجنوب وبقاء نظام العبيد إلى أمد بعيد؛ ورأى كذلك أن الدعوة إلى التحرير تؤدي لا محالة إذا اشتدت إلى انسحاب أهل الجنوب من الاتحاد فينهار البناء، وتعصف بالوحدة القومية الأنواء. إذا فليتنظر وليحذر وليترقب ما تأتى به الأيام. . .

انصرف دوجلاس ولكنه قبل أن ينصرف أبى إلا أن يأتي ما يدل على طبعه، فلقد نقض العهد وألقى بعد يومين خطاباً جديداً حاول فيه أن يدافع عن آرائه، ولم يستطع لنكو لن إلا أن يظل عند كلمته، فأبى أن يتكلم وقد جعل بينه وبين خصمه ميثاقاً أن يقطعا حبل الجدل.

ولقد كان لانتصار لنكو لن على دوجلاس العظيم ذلك السياسي الملحوظ المكانة اثر بعيد في حياة ابن الغابة قاطع الأخشاب بالأمس وعامل البريد، وفتى الحانوت البائس الفقير؛ ذلك انه ازداد ثقة بنفسه فاخذ يشتد طموحه ويمتد بصره؛ وازدادت كذلك ثقة الناس فيه واشتد إعجابهم به واطمئنانهم إلى مقدرته وجدارته.

ولذلك نراه يخطو خطوة جديدة في مضمار السياسة فيطمع أن ينتخب عضوا لمجلس الشيوخ ويأمل بذلك أن يعود إلى وشنجطون. وهل كان يرى نفسه دون دوجلاس مقدرة ومكانة وهو قاهره على أعين الناس في أمر له عند الناس خطره؟ ولقد انتخب أول الأمر

عضواً في مجلس المقاطعة ولكنه ما لبث أن استقال منه واخذ يدعو لنفسه ليختار عضواً في مجلس الشيوخ للولايات. . . وكان منافسه في هذا شيلدز، ذلك الرجل الذي تحداه من قبل إلى مبارزة بالسيف لما كتبه لنكولن عنه في إحدى الصحف وعده هو إهانة له.

وكان الذين ينتخبون عضو مجلس الشيوخ هم أعضاء مجلس المقاطعة، وكان المجلس يومئذ يجمع أنماطا من الرجال فرقت بينهم الأهواء وباعدت الآراء، ففيهم بقايا حزب الهوجز الذين يمقتون التطرف، وفيهم الديمقراطيون أنصار مبدأ العبيد، وفيهم المعارضون لقرار نبراسكا، وفيهم غير هؤلاء وهؤلاء ممن تتذبذب سياستهم حسب ما يقوم في رؤوسهم من الآراء في مسألة العبيد.

وكان يظفر أبراهام بما يتوق إليه وبما باتت زوجته تمنى النفس به لولا أن دعا الديمقراطيون في اللحظة الأخيرة إلى رجل غير لنكولن ومنافسته؛ وعندئذ أشار لنكولن على نصرائه أن يمنحوا هذا الرجل الجديد أصواتهم ليفوت الأمر على منافسه الأول إذ كان هذا من أصحاب دوجلاس بينما الآخر ممن يعارضون قرار نبراسكا؛ وهكذا يذوق لنكولن مرارة الفشل من جديد!

ولكن الفشل هذه المرة لم يبلغ من نفسه ما كان يبلغه في الأيام السالفة، فهو اليوم مطمئن إلى نصيبه من رضاء الناس وإلى حظه من الصيت والنفوذ. لقد قابل الأمر بدون اكتراث لولا ما أظهرته زوجته من غضب وحنق، على أنها ما لبثت أن رضيت وسكنت ثورتها، ذلك أنها كانت تكاد ترى رأى العين ما ينتظر زوجها من مستقبل عظيم. . .

ولم يصرفه الفشل عن السياسة كما كان عسَّيا أن يفعل في ظروف غير هذه؛ فلقد عرف أن فشله يومئذ إنما يرجع إلى أسباب لا يستخذي لها، ومن أهم تلك الأسباب ما فعله دعاة التحرير، فلقد حشروا اسم لنكولن على غير علم منه في معضديهم وراحوا يباهون به الأحزاب؛ ولقد أدى هذا إلى انزعاج كثير من الديمقراطيين إذ حسبوه قد مال إلى الطفرة في مشكلة العبيد، كذلك أنكر الهوجز عليه أن ينحرف عن سياسته القائمة على الحذر، ولقد كانوا يحبون منه اكتفاءه بمقاومة انتشار العبيد، أما أن يميل إلى التحرير فجأة فيعمل مع المتطرفين على القضاء على الاتحاد فذلك ما لا يقبلونه منه؛ وهكذا اخذ على الرجال ما لم يجنه فأصابه من الخذلان ما أصابه. . .

لا جرم انه اليوم رجل سياسة اكثر منه رجل محاماة، ولا جرم أن معضلة العبيد قد صار لها المكان الأول من همه فهو لن يرجع حتى ينفس عن صدره بما يفعل في هذه المعضلة التي صارت المحور الذي تدور عليه سياسة الاتحاد، والعقدة التي يتوقف على حلها مصير البلاد؛ وإنا لنرى فيه الرجل الذي يتطلبه الموقف شأنه في ذلك كغيره من

عظماء الرجال الذين يظهرون في فترات الزمن ليتم بهم للتاريخ وسيلة تحركه، إذ يصبح لديه الرجل العظيم والفكرة العظيمة، فما أن يتمثل العظيم الفكرة ويمزجها بنفسه حتى يقدم لا يلويه شيء عن الغاية فيضل أو يهلك دونها وبذر البقية لمن يليه. . .

على انه كان في سنه يومئذ قد وصل من المحاماة إلى أوج الشهرة، فكان وهو في السابعة والأربعين الرجل الذي يظفر في مهنته بأطباق الناس على توقيره وإجماعهم على التسليم له بالنبوغ وطول الباع وسعة الخبرة، هذا إلى ما انفرد به من سجايا جعلته بينهم وكأنه اكثر من أن يكون منهم!. . .

وتوافت له فيما توافى من أسباب العظمة تلك الخصلة التي لا تقوم عظمة بدونها؛ والتي تجعل العظيم يظهر بين الناس وفيه شيء يحملهم على إكباره طائعين أو كارهين؛ شيء يحسونه وإن كان أكثرهم يجهلونه، شيء مبعثه ذلك السر العجيب الذي نعبر عنه بقولنا روح الرجل العظيم والذي يسميه بعض الناس الحماسة ويسميه بعضهم الإخلاص ويسميه آخرون الأيمان والذي هو في الحق مزيج من هذا كله لا ندري كيف يتم، مزيج ينبض به قلب العظيم ويجري في نفسه جريان الدم في عروقه. . .

ومن الناس من وهبوا الذكاء الحاد والمهارة الفائقة ولكنهم حرموا تلك الخصلة فما استطاعوا في أعمالهم أن يرقوا بأنفسهم إلى مستوى أعلى من مستوى غيرهم؛ ومنهم من لم يعظم ذكائهم ولكن يمس قلوبهم قبس من ذلك السر العجيب فإذا هم غير الناس، ثم إذا هم فوق الناس. . . ومن هؤلاء النفر ذلك الرجل الذي درج في الغابة والذي بنى نفسه فسار في الحياة على نهج من قلبه وعلى دليل من طبعه، ذلك الرجل الذي لا يذكر لأحد عليه يدا والذي تنكرت له الأيام وعركته المحن فبقى كما يبقى الجوهر الحر لا تترك فيه النار من اثر إلا البرهان القاطع على انه جوهر حر لا مظهر. . .

وتشاء الأقدار أن تقوم عظمة أمريكا على كاهل رجلين من أبنائها درجاً في مدرج الشعب

وبرزا من صفوف العامة وهما جورج وشنجطون وأبراهام لنكولن؛ أما أولهما فيرفع القواعد ويقيم الصرح، وأما الثاني فيمسكه أن ينهار؛ وتكون بذلك عظمة أمريكا عظمة ذات أصالة إذ لم تنشا عن تقليد أو تستند إلى مهرج من سلطان زائف، ويكون صرحها كالجبل الذي هو من أوتاد الأرض، لا كالبناء الذي يقوم على أسس يجوز عليها أن تجتث من وفق الأرض. . .

ومضت الأيام تسير بابن الغابة سيراً معجلاً وثيقاً ليؤدي رسالته، ولعله اشرف من حاضره على ما يعده له الغد القريب. اجل لعله أخذ يدرك أن مسألة العبيد مفضية حتما إلى خطوة واسعة يخطوها غداً فيحس بعدها أنه ترك في تاريخ بلاده ما تذكره به الأجيال. أقرأ كتابه إلى صديقه سبيد تقع فيه على رأيه وتتبين كثيرا مما كان يجول في نفسه، قال: (في عام 1841 قمنا معاً برحلة مملة على صفحة ماء منخفض في قارب بخاري من لوسفيل إلى سان لويس، ولعلك تذكر كما أذكر أنه كان على ظهر القارب عشرة أو اثنا عشر عبداً مقرنين في الحديد. ولقد كان هذا المنظر مبعث عذاب مستمر لي، وإني أبصر شيئاً مثله كلما لمست نهر الأهايو أو أي جهة من جهات العبيد. وخلاف الجميل منك يا صديقي أن ترى في أني لا اهتم بالشيء الذي ينطوي على قوة تكربني والذي لا يفتأ يسبب لي الكرب. لقد كنت حرباً أن تتبين إلى أي حد يقتل سواد الناس في الشمال مشاعرهم حتى يستطيعوا أن يحتفظوا بولائهم للدستور وللوحدة)

في هذه الكلمة القصيرة، ينجلي لنا رأيه في مسالة العبيد فهي مبعث آلم في نفسه، ألم استقر فيها منذ القدم فما يبرحها، وهو على الرغم من هذا الألم يحرص على الوحدة وعلى الدستور وفي ذلك تلخيص دقيق لمنهاجه الذي سيأخذ به نفسه حين يهم أن يهوي بالضربة الحاسمة فهو ضنين بالوحدة أن تتزلزل كما هو حريص أن يمحو كل اثر للعبودية في البلاد. . .

لن يضيره اليوم ألا يصل إلى مقعد في مجلس الشيوخ بل ربما كان الشر في أن يظفر بهذا المقعد، فلقد كانت له بعد فشله جولات لها خطرها في حياته، جولات تنتهي به حتما إلى رياسة الجمهورية فلم يبق ثمة على الدرب إلا مرحلة. . .

وكثيراً ما يبتئس المرء إذا فاتته فرصة كأنما أغلقت بفواتها مسالك الفوز من دونه، وهو لا
يدري أنه ربما كان الخير في فواتها! والحياة مليئة بالأمثال حافلة بالعبر؛ والعظماء وحدهم هم الذين لا يلويهم فوات الفرص وان ابتأست لفواتها أحيانا نفوسهم، بل انهم ليحمون على الشدائد ويستعرون على الكفاح ويستشعرون اللذة في النصر، كما يستشعرونها في ركوب الصعاب إلى ذلك النصر، ولن ينقص منها ما قد يصيبهم من خذلان.

ولقد كان لنكولن من هؤلاء البواسل الأفذاذ الذين لا يحفلون الصعاب، والذين لا يحول بينهم وبين وجهتهم خذلان مهما عظم؛ بقي في سبر نجفيلد بعد فشله ليكون في المدينة زعيم الحزب الجديد الذي تستقبل البلاد مولده؛ وهل كان غيره تجتمع عليه القلوب والأهواء؟

كانت البلاد تستقبل حزباً جديداً هو الحزب الجمهوري؛ ولقد تألف هذا الحزب من عدة عناصر يجمع بينها حرصها على مقاومة انتشار العبيد حسب ما جاء في اتفاقية سوري، فكان ينتظم عدداً من الهوجز وعدداً من الديمقراطيين وجماعة من دعاة التحرير؛ وكان قيام هذا الحزب في تاريخ البلاد فاتحة فصل جديد كما كان في تاريخ لنكو لن مبدأ عهد جديد.

(يتبع)

الخفيف

الرافعي في ذكراه الأولى

للأستاذ محمد سعيد العريان

(نص الكلمة التي أذاعها الأستاذ محمد سعيد العريان من محطة الإذاعة الفلسطينية بالقدس في مساء الاثنين 9 مايو سنة 1938 لمناسبة تمام سنة على وفاة فقيد الأدب العربي المرحوم مصطفى صادق الرافعي)

سيداتي، آنساتي، سادتي

. . .سلام الله عليكم أهل هذه الأرض الطيبة. . . ومعذرة، وشكراً

لكأني بكم ترهفون السمع لتسمعوا ما يمكن أن أحدثكم به عن الرافعي في ذكراه الأولى، وما أنا بمستطيع في هذه الفترة القصيرة من الزمن أن أبلغ ما أريد وتريدون من الحديث عن الرافعي

لم يكن الرافعي أديبا كبعض من نقرأ لهم من أدباء الصحافة ولكنه كان علما من أعلام الأدب، وإماما من أئمة الدين، وبرهاناً من براهين العربية تجالد به حين يعوزها البرهان.

ولقد يكون من فضول القول أن أتحدث إليكم عن أدب الرافعي، وآثاره الأدبية بين أيديكم وتحت أعينكم؛ وأنكم لتعرفون أدبه وتعرفونه بأدبه. ولكني قد صحبت الرافعي عمراً من عمري، فعرفته أكثر مما يعرفه الناس؛ فليكن حديثي الليلة عن الرافعي الذي عرفته. . .

لقد سمعت أسم الرافعي لأول مرة منذ بضع عشرة سنة، وكنت يومئذ غلاماً حدثاً، لا أكاد افهم ما يلقى إلي، سمعت به والإحساس طالب في الصفوف الأولى، فسمعت اسما له جرس ورنين، وله نشيد تتجاوب أصداؤه في جوانب نفسي، فحبب إلى من ذلك اليوم أن ألقاه. . .

وقال لي رفيقي: (وي! أتعرف من ذلك الذي آخذت عليه الطريق عامداً؟) قلت: (صه، لا يسمعك فيسؤني جوابه!) قال: (لا عليك! أن في آذنيه وقرأ فلا يسمع!)

وتبدلت في نفسي صورة بصورة، أمحى آلم ليحل في نفسي من بعده آلم آخر. . . وعرفت وقتئذ لماذا لم يرفع عينيه إليَّ ولم يرد التحية. . .

ولقيته بعد ذلك مرات كثيرة في الطريق، وفي القهوة، وفي السيما؛ وقرأت له مرات أكثر في الكتب، وفي الصحف وفي المجلات، وعرفته ولم أزل كل يوم ازداد عرفاناً به، ولكني لم اعرفه العرفان الحق إلا بعد هده الحادثة بعشر سنين. . . حين جلست إليه لأول مرة في

دار كتبه من داره، عرفته على حقيقته وفطرة نفسه، فكأنني لم اعرفه قبل ذلك اليوم. . . وما فارقته من بعد حتى فرق بيننا الموت. يرحمه الله!

أنني لاحس حين اذكره الساعة كأنني لست وحدي، وكان روحاً حبيبة تطيف بي وترف

حولي بجناحين من نور، وكان صوتا ندياً رفيع النبرات يتحدث آلي من وراء الغيب حديثاً أعرف جرسه ونغمته؛ وكان عينين تطلان عليَّ من عالم غير منظور لتأمراني آمرا وتلهماني الفكر والبيان؛ ولكنني لا آري؛ ولكنني لا اسمع؛ ولكني هنا وحدي، تتغشاني الذكرى فتخيل آلي ما ليس في دنياي. هيهات هيهات لوهم الأماني!

لقد كان هنا صوت يتجاوب صداه بين أقطار العربية. لقد كان هنا إنسان يملأ فراغاً من الزمان. لقد كان هنا قلم يصر صريراً فيه رنات المثانى، وفيه أنات الوجه، وفيه همسات الأماني، وفيه صرخات الفزع؛ فيه نشيج البكاء، وفيه موسيقى الفرح. . . خفت الصوت، ومات الإنسان، وتحطم القلم؛ ولكن قلب الشاعر ما زال حياً ينبض، لان قلب الشاعر أقوى من الفناء.

في كل يوم يموت أديب من أدباء العربية وينشا أديب؛ فأين، أين الأديب الذي يقوم لما كان يقوم له الرافعي؟ أين. . . أين الأديب الذي ينتدب بعد الرافعي ليقف لكل من يحاول التقحم على قدس القرآن؟ أين. . . أين الأديب الذي يقف قلمه وبيانه للدفاع عن العرب والعربية والإسلام؟ أيمانه. . أين الكاتب الألمعي الذي يصور طهر الحب، وسمو الإنسانية، والأم البشرية وأفراح الحياة، فتنبثق نورا في كل قلب، وتتفجر شعورا في كل وجدان؟ أين خليفة الرافعي الذي يقوم على سداد هذا الثغر المعطل؟ أين حامل اللواء، وأين صاحب القلم؟

لقد كان الرافعي عصراً بتمامه من عصور الأدب، وجيلاً بناسه في تاريخ العرب، وفصلاً بعنوانه في مجد الإسلام.

كانت الدنيا تموج من حوله بأناسيها وحوادثها، وتضطرب حواليه في أمانيها ونوازيها، وتصطخب في محيطه بشهواتها ونوازعها؛ وهو وحده يعيش من هذا المحيط المضطرب المائج المصطخب في دنيا وحده لا يسمع إلا همسات روحه، ولا يحس إلا خلجات قلبه، ولا ينظر إلا الهدف الذي يسعى إليه. وهيأه القدر بوسائله العجيبة لهذه الوحدة العقلية منذ صباه حين سلبه السمع، فعاش حياته بعيداً عن دنيا الناس، ومضى في طريقه كما يمضي

. . .عابر السبيل: لا يلقى باله إلى شيء مما حواليه أو يبلغ إلى غايته

لم يكن الرافعي ليعرف شيئاً في سياسة الحكومات العربية المتعاقبة، ولكن له هدفاً عاش يسعى جاهداً لتحقيقه: هو أن يبعث الحمية الإسلامية في نفس كل مسلم، ويوقظ النخوة العربية في قلب كل عربي؛ فكان بذلك رسول العروبة والإسلام إلى كل مسلم وكل عربي؛ فلا جرم كان بذلك احب كتاب العربية إلى كل مسلم وكل عربي.

حياته الأدبية كلها تدور حول هذا المحور، ومنشآته الأدبية كلها يسعى بها إلى هذا الهدف، ومعاركه الطاحنة كلها تنشب في هذا المعترك؛ وما عادى عدواً قط من أدباء العربية إلا للدين أو اللغة أو القرآن؛ وما اتخذ صديقاً من رجال الأدب أو السياسة إلا للدين أو اللغة أو القرآن.

وليس من عجب أن تكون فلسطين هي اسبق بلاد العربية إلى تجديد ذكرى الرافعي؛ فقد كانت فلسطين هي حب بلاد العربية إلى الرافعي؛ وما أحسبه كتب شيئا يتصل بشأن خاص من الشؤون القائمة في بلد من بلاد العربية، وان له في فلسطين المقالات يذكرها كل عربي في فلسطين!

لقد حاول كثير من مؤرخي الأدب أن يتحدثوا عن الرافعي في حياته؛ فقالوا شاعر. وقالوا كاتب. وقالوا أديب. وقالوا عالم. وقالوا مؤرخ. ولكنهم لم يقولوا الكلمة التي كان ينبغي أن تقال: لقد كان شاعراً، وكاتباً، وأديباً، وعالماً، ومؤرخاً؛ ولكنه بكل أولئك، وبغير أولئك، كان شيئاً غير الشاعر والكاتب والأديب، وغير العالم والمؤرخ؛ كان هبة الله إلى الأمة العربية المسلمة في هذا الزمان، لينبهها إلى حقائق وجودها، وليردها إلى مقوماتها، وليشخص لها شخصيتها التي تعيش باسمها ولا تعيش فيها، والتي تعتز بها ولا تعمل لها.

وكان يشعر انه وحده في الميدان والجميع ألبٌ عليه، فعاش حياته كلها يصارع ويكافح، ويقاوم ويناضل، حتى خر صريعاً وفي يداه الراية؛ لم يتركها حتى انتزعها الموت من يده!

كثر ما قال عنه أعدائه وغير أعدائه في حياته: انه حديد اللسان. انه لدود الخصام. انه لا يرعى اعتباراً مما تقوم به الصلات بين أهل الأدب، حين ينزل إلى معترك من معارك

النقد. . . صدقوا، ولكن. . . أرأيت معرة على البدوي الثائر لعرضه أن يسفك الدم؟ انه هو هو؛ فمن ذلك كانت شدته وصرامته ولدده في الخصام: في سبيل القرآن، ومن اجل
العروبة، ولكرامة الإسلام. كان ذلك عرضه الذي يحرص عليه أن ينتهك؛ فمن ثم كانت خصوماته الأدبية كلها فيها معنى الدم!
الدين، واللغة، والقران، أو العروبة والإسلام: ذلك كان مذهبه في الأخيرة، وله كان جهاده؛ حتى في الحب - وللرافعي حب مشهور - وحتى فيما أنشأ من رسائل الحب، . . .لم يكن الرافعي يعتبر إلا مذهبه والهدف الذي يسعى إليه: للدين، وللغة، وللقران
من شاء فليقرأ كتبه الثلاثة في فلسفة الجمال والحب، ليرى فيها كيف تسمو روح العاشق على شهوات البشرية حتى تتصل بخالقها الإطلاق؛ ثم ليرى العربية أسلوباً جديداً، فيه عمق الفن، ودقة التعبير، ووضوح الأداء، حتى في الترجمة عن أعمق ما تجيش به خفايا النفس الإنسانية.
ولأدب الرافعي ميزة ليست لكثير من أدباء الجيل؛ فهو أدب عليه طابع الخلود وتلك آداب إلى زوال. هذا أدبه بين أيدينا وتحت أعيننا، ما تزال تدفعنا إليه دوافع من أنفسنا في فترات متقاربة أو متباعدة، لنعيد قراءته ونتملى ما فيه من جمال وصدق وقوة. وذلك أدب الأدباء، ما يكاد القارئ ينتهي منه إلى ما يريد حتى ينساه فلا يعود إليه ولا يذكره، على ما فيه من لذة ومتاع!
لم يكن الرافعي يكتب تلك الكتابة الصحافية السوقية التي تلتمس للهو وإزجاء الفراغ؛ ولكنه كان يكتب ليضيف ثروة جديدة إلى اللغة، وينشئ أدباً يسمو بضمير الأمة، ويشرع طريقاً تسير فيه إلى عظمة الخلد، وسعادة الأبدية، ومجد التاريخ.
الرافعي! يرحمه الله! لقد عاش في خدمة العربية سبعاً وثلاثين سنة من عمره القصير، وصل بها حاضرها الماثل بماضيها البعيد؛ فهي على حساب الزمن سبع وثلاثون، ولكنها على الحقيقة شطر من عمر الزمان، وباب من الأدب، وفصل في تاريخ الإسلام.
لقد عاش غريباً ومات غريباً؛ فكأنما كان رجلاً من التاريخ بعث في غير زمانه ليكون تاريخاً حياً ينطق بالعبرة ويجمع تجارب الأجيال، يذكّر الأمة العربية الإسلامية بماضيها المجيد؛ ثم عاد إلى التاريخ بعدما بلّغ رسالته. . . لقد خفت الصوت، ولكنه خلّف صداه في أذن كل عربي، وفي قلب كل مسلم، يدعوه إلى الجهاد لمجد العرب، ولعز الإسلام.
(القدس)
محمد سعيد العريان
إلى الشباب
بين جوته وإيكرمان
للأديب نصري عطا الله سوس
جينا - الثلاثاء 18 سبتمبر سنة 1823
في صباح الأمس وقبل أن يعود جوته إلى (فيمار) حظيت مرة أخرى بسعادة الحديث معه؛ وما قاله لي هذه المرة لا يثمن بالنسبة لي؛ ويجب على جميع شعراء الشباب الألمان أن يلموا به بداء بسؤالي عما إذا كنت قد كتبت شعراً هذا الصيف، فقلت كتبت بعض القصائد ولكن كان ينقصني على العموم المؤتاة الضرورية، فقال جوته: حذار من محاولة كتابة موضوع كبير. إن هذا هو ما يضر بأكبر العقول عندنا حتى أولئك الذين يمتازون بأذهان حادة ومجهودات جدية؛ ولقد عانيت شخصياً هذه العلة. وأني لأعرف كم من أضرار أوقعت بي. وأنوار شيء لم اتركه يسقط في البئر. ولو كتبت كل ما وددت أن اكتب ما كفاني مائة مجلد. يجب أن ينال الحاضر حقوقه. فالأفكار والاحساسات التي تجول في نفس الشاعر يوما بعد يوم يجب عليه أن يعبر عنها - ولكن إذا شغلت رأسك بموضوع كبير فلن تعيش أي فكرة أخرى بجواره. كل الأفكار ترفض وتصد، حتى لذة الحياة نفسها تفقد وقتئذ. وأي مجهود عقلي تبذل كي تنظم وتلم شعث موضوع كبير! وأي قوة وأية طمأنينة تحتاج حتى يتسنى لك التعبير عنه في سلاسة لائقة! وإذا خانك توفيق في أي جزء منه فكل مجهودك ضائع. وإذا عالجت موضوعاً كبيراً ولم تكن على معرفة تامة بكل تفاصيله فسيكون إنتاجك ضعيفاً

وتستهدف للملام. فبدلاً من المكافئة والسيادة جزاء على ما بذل من مجهود وتضحية لا يحظى الشاعر إلا بالانزعاج وشلل قواه العقلية. وهاك (آرنست هاجن) ذهن رائع. . .
هل قرأت كتابه (الفرد وليسنا) هناك نبذ بلغت الغاية من السمو، نبذ فخمة ولكن الكتاب لا يرضى أحدا. وأنوار مجهود وقوى أنفقها الكاتب؟ لقد أنهك نفسه؟ انه يكتب مأساة الآن) وهنا اتسم جوته وسكت برهة فقلت: (إذا لم تخن الذاكرة، فأنت قد نصحت هاجن بمعالجة الموضوعات القصيرة) فقال جوته: (حقا! لقد فعلت، ولكن هل يتبع الناس نصائحنا نحن الشيوخ؟ كل يظن انه أدرى بنفسه ومن الآخرين. وهكذا يفشل البعض فشلاً نهائياً بينما يشرد البعض الأحياء في مهامه الزلل لمدة طويلة - لقد كان الماضي زمن
العثار. . . ماضينا نحن الشيوخ هما فائدة أبحاثنا وأغلاطنا إذا سار الشباب في الطريق نفسه من أوله مرة ثانية؟ بهذا الطريق لا يمكن أن نتقدم أبدا. لقد كابدنا أغلاطنا لأننا لم نجد طريقاً واضح لمعالم نسير فيه؛ لكن ذلك الذي يأتي أخيرا ليس في حاجة لان يبحث ويدل. بل يجب أن يتبع تعليمات الشيوخ كي يسير في طريق السوي من المبدأ. ولا يكفي مطلقا أن تخطو خطوات قد تؤدي إلى غاية يوماً ما، بل يجب أن تجعل كل خطوة غاية في حد ذاتها).
تأمل هذه الكلمات وتبصر كيف يعمل بها. أنوار لست قلقاً عليك، ولكن نصائحي) ستساعدك على إنهاء مرحلة لا تلاءم مركزك الحالي. فإذا ما عالجت الموضوعات الصغيرة، وأدب ما كتبت ما يعرضه عليك (الحاضر) يوماً بعد يوم فستستنتج جيداً. وكل يوم سيجلب لك سعادة جديدة. ابعث بما تكتبه إلى المجلات ولكن لا ترضى أبدا بكتابة ما يفرضه عليك الآخرين اتبع وحي نفسك دائماً).
إن في الدنيا من العظمة والفن والحياة والتنوع بحيث لا يمكنك أن تفقد روائع الشعر؛) ولكن الشعر يجب أن يكون له بواعث. . . أعني أن الحقيقة يجب أن تمد الشاعر بالدوافع والمادة. أن الحادثة المعينة تصبح حادثة عالمية وشعرية. إذا ما تناولها الشاعر. كل قصائدي لها بواعث، وقد دعت أليها الحياة الحقيقية، ولها في ذلك أسس ثابتة). أنا لا أعير أي اهتمام للشعر الذي ينتزع من الهواء.
إن أحداً لم يقول إن الحقيقة تنقصها روح الشعر، وهنا يفلت الشاعر مقدرته بتمكنه) من فن تناول موضوع العادي من وجه نظر خاصة بحيث يصبح مهمّاً. الحقيقة يجب أن تمد الشاعر بالدافع إلى الموضوعات التي يود التعبير عنها. النواة ووظيفة الشاعر هي أن يخلق من هذه المواد وحدة جميلة حية. هل تعرف (فرنستيل)؟ انه يدعى شاعر الطبيعة. لقد كتب ارق ما يمكن من القصيد عن زراعة حشيشة الدينار. لقد اقترحت عليه أن يؤلف أواني على السنة أرباب المهن المختلفة، خصوصاً النساج. وإني لواثق من انه سيجيد، لأنه عاش بين هؤلاء منذ صباه. ولذا كان سيد مادته. تلك هي ميزة الموضوعات الصغيرة. كل ما عليك أن تختار ما تعرفه جيداً. ولكن هذا لا يتأتى في الموضوعات الصغيرة، في هذه الحالة لا يمكنك أن تتفادى أي جزء. وكل ما يتعلق بتوحيد مادة الموضوع وما يدخل ضمن
عناصره يجب أن يصور بدقة. . . وفي زمن الصبا ينظر الشباب إلى الأشياء من ناحية (!واحدة؛ والموضوع الكبير يتطلب إمكان النظر من نواحي عدة. . . من هنا الفشل وأخبرت جوته أني كنت أفكر في كتابة قصيدة طويلة عن الفصول اضمنها الكلام عن أعمال وملاهي الطبقات كلها فقال: (هذا في قلب الموضوع. قد توفق في بعض الأجزاء، ولكن قد تخفق في البعض الآخر عندما تكتب عما لم تبحثه أو تخبره جيداً، وقد تكتب عن (السماك) جيدا، ولكن قد يخونك الحظ في الكتابة عن (الصياد). وإذا أخفقت في أي جزء فالنتيجة هي الفشل مهما أجدت في بعض الأجزاء. وبدا تكون قد أنتجت إنتاجا مبتوراً. اكتب كل جزء على حدة واقتصر على ما تعرفه. ومن المؤكد انك ستنتج ما يرضي. وأحذرك خاصة من (الابتكارات) لأنه قد ترمي إلى التعبير عن فكرة خاصة عن العالم، والشباب قلما يكون من النضج بحيث يوفق في هذا. فضلا عن أن الشخصيات والآراء التي يضمنها ابتكاراته تنفصل عن عقل الشاعر وتحرمه من (الامتلاء) اللازم لكتاباته المستقبلة. وأخيراً، كم من الزمن يفقدني الابتكار والترتيب والتركيب. هذا ما لا يمدحنا أحد عليه، حتى ولو كتبتا بنجاح. ولكن في حالة ما يعطي الشاعر المادة تكون الأمور احسن واسهل. فإذا ما مد الشاعر بالشخصيات والحقائق

يكون عمله أن ينفخ الروح فيها فقط، فيحتفظ بامتلائه ولا يفقد كثيراً من الزمن والمجهود. إني أنصح دائما باختيار الموضوعات التي طرقت قبلاً. فكم من (أفيجينيا) كتبت ولكن كلهن مختلفات. كل شاعر يتناول القصة حسب طريقته. عليك أن تترك التفكير في الموضوعات الكبيرة الآن. لقد آن لك أن تعيش ذلك الطور البهج من الحياة، ولأجل أن تصل إلى هذا فعالج الموضوعات الصغيرة. . .)

وكنا نسير في الغرفة جيئة وذهوبا ولم يسعني إلا التسليم شاعرا بصواب كل . . . كلمة. ومع كل خطوة كنت أحس نفسي أسعد وانشط. ويجب أن اعترف أن الخطط الكبيرة واللاتي لم يمكني أن اخلص إلى فكرة واضحة بصددها لم تكن بالعبء الهين عليّ.

إني لأشعر أن كلمات جوته زادتني حكمة سنوات، وعرفت ما في مقابلة الأستاذ الحق من التوفيق والخير.

نصري عطا الله غطاس

رسالة الشعر

ذكرى سيد الوجود

محمد

للأستاذ أنور العطار

نَحْنُ فِي مَوْلِدِ الْمتَوَّجِ بالنُّو ... رِ وفي لَيْلةِ الرِّضا والمَغَانِمْ
حَفَلَتْ بالطَّيُوبِ فالعَالَمُ الوا ... سِعُ حَفْلٌ مِنَ الأزَاهِيرِ فَاغِمْ
والنجُومُ المُفضَّضاتُ عُيُونٌ ... شَاخِصَاتٌ والكائِناتُ مَبَاسِمْ
كلُّ مَنْ في الوجُودِ رانٍ أخيذٌ ... ذاهبُ اللبِّ مُستَطارٌ سَاهِمْ
طفَحَ الكَوْنُ بالأذَى والضَّلاَلا ... تُ وضَجَّتْ رِحَابُهُ بالمآثمْ
فَمَنِ الحامِلُ البَشَائِرَ لِلأرْ ... وَاحِ، مَنْ ذَلِكَ الحَبيبُ القَادِمْ
وَهَبَ البُرْءَ للقلوبِ الوَجِيعا ... تِ، ونَحَّى عَنِ الحَيَاةِ المَظَالِمْ
وأعَادَ الإنسَانَ رُوحاً نقيّاً ... خَالِصاً من حُقُودِهِ والسَخَائِمْ
صَفْوَةَ الخلْقِ أيُّ نُورٍ على الأفْ ... قِ بَهيّ جَمِّ التَّلاَمِيعِ، حَائِمْ
سَطَعَتْ مِنْ سَنَاكَ هِذِي السَّموا - تُ وَرَفتْ بكَ الدُنا والعَوَالِمْ
أنْتَ نَجْوَى الأرْواحِ في كُلِّ جيلٍ ... وَشُعَاعُ الهُدَى، وَرَوْحُ النَّوَاسِمْ
تَتَنَاجى بِكَ القلوب الحَيَارَى ... وَتَغَنّي بِكَ النفوُسُ الهَوائمْ
يا سَمَاءَ الجَلاِل يا رَفْرفَ الحُل ... دِ ويا صُورةَ النَّعِم الدَّائِمْ
لأصُوغَنَ مِنْ نَدَاكَ الأناشي ... دَ، وَأفتنُ في ضُرُوبِ الملاحمْ
كُلُ بَيْتٍ يكادُ يَقْطَرُ بالرِّف ... قِ وَيَخْضَلُ بالدُّموعِ السَّوَاجِمْ
يا نِدَاءَ المعذَّبينَ الأسرى ... وَدُعَاءَ المرَوَّعاتِ النوادمْ
كلُّهُمْ راكِضُ إليكَ يُرَجّي ... كَ، وكلُّ مُوَلَّه بِكَ هَائمْ
ظَفرُوا منكَ بالسَّماحاتِ تثْرَى ... وَغنُوا بالرِّضا الشَّهي المناعمْ
صُغتَ للنَّاسِ شِرْعةً من علاءٍ ... وحنانٍ وطيبةٍ ومراحِمْ
الهدَاياتُ حانياتٌ عليها ... والعِناياتُ طائفَاتٌ حوائمْ
لُذْتَ بالغَارِ تَتَّقي شِرَّة النَّا ... سِ وتنَسْى العُدْوانَ من كلِّ ناقمْ
وَحِرَاءٌ بكَ استَطَالَ على النَّجْ ... م وَتَاهَتْ بهِ الصُّخُورُ الجواثمْ
يَشْتَهِي الخُلدُ لو تَغَلْغَلَ فيهِ ... حُلُماً فتنَ المَسرَّاتِ ناعمْ
ضمَّ في سَاحَتيهِ نوراً من اللّ ... هِ تسَامَت بِهِ العُلى والمكارِمْ
وبِنفَسي عنَاكِبٌ ناسِجاتٌ ... لك ستراً يقيك من كلِّ آثمْ
سَعِدَتْ بالهدى رحَابُ الصَّحَارى ... وَتلاَلَتْ فيها الموَامِي الطَّوَاسمْ
أَعْشَبَ القَفْرُ وازْدَهَى الصَّخر الصَّ ... لدُ وفاضَتْ مِنْهُ العيونُ النواجمْ
وَتَنَّدتْ هَذي الرِّمالِ العَطاشَى ... كاللآلي فرائداً وَتوائمْ
تَتَغَنى والكَوْنُ يَهتفُ جَذْلا ... نَ فَتَهتز في العَلاءِ العَمَائمْ
فَهيَ حُلمٌ على الليالي جَمِيلٌ ... وَهيَ نَايٌ على مَدَى الدَّهرِ ناغمْ
اسْمَع الرَّمْل يَمَلأ الأرْضَ تَسبي ... حاً بصوتٍ مُجَلجلٍ كالزَّمازِمْ
رَعَدَتْ في مداهُ تكبيرةُ اللّ ... هِ وسَالَتْ بهِ الجيوشُ الخضارِمْ
قَهَرَتْ بالكَتائِبِ الغُلْبِ كِسْرَى ... وَهرَقلاً وَكلَّ مَلْكٍ ضُبَارَمْ

رَفْرَفتْ رَايةُ النَّبيِّ عَلَيْهَا ... فاسْتظَلَتْ بها النشُورُ القَشَاعِمْ
فإذا الكائناتُ تَسْبحُ بالّنو ... رِ وَتَفْترُّ عن ثُغُورٍ بَوَاسمْ
فَعَلى الأفْقِ منْ َسَناهَا رُسُومٌ ... وعَلى البِيدِ مِن رُؤَاها عَلائمْ
يا صِحَابي ومَعَشْري وَقبَيلي ... آن أن تَسْتفيقَ تلكَ الصَّوارِمْ
صَدَأ الدَّهر لم يَنَلْ من ظبَاها ... فهي مَسْنُونَةُ الشِّفارِ حَوَاسمْ
فامْنعُوها غُمودَهَا وَكرَاها ... واسْتشِيروا بها دَفينَ العَزَائمْ
لا تَنَامُوا على الإسَارِ وَتُغْفُوا ... فلقد مَلَّتِ القُيُود المعَاصمْ
وانفُضوا عَنْكمُ الرُّقادَ وَهُبُّوا ... لم تَلِنْ هذه الحياةُ لنائمْ
يا لُحلمٍ مُلفَّقٍ قدْ أضَعْنا ... في رُؤاهُ تيجاَنَنا والعواصمْ
فَنِيتْ في دُجاهُ قافلةُ المجْ ... دِ ومَاَتتْ فيه النفُوسُ القَوَاحمْ
يا نبيَّ الهَدى لقد ذَلَّت العُرْ ... بُ وَقيدتْ إلى الرَّدى بالشَّكائمْ
سُلبتْ حَقَّها ودِيسَ حِماَها ... واسْتكانَتْ لِكلِّ أرْعَنَ ظالمْ
يا سَمَاءُ اهِبطي وَيا أرض مِيدِي ... عَصَبَ الألأمُونَ مَجَدْ الأكارمْ
أينَ وأينَ مُلْكٌ على الدَّهْ ... ر أضَاءتْ بهِ الليالي القَواتمْ
زَيَّنوا مَفْرِقَ الزَّمَانِ وَتَاهَتْ ... بهم هَذهِ النُّجُومُ اخَوَالِمْ
يا بَقَايا السُّيوفِ، رَمْزَ الأضَاحِي ... وَشِعَارَ الفِدَا، وَسِرَّ العَظائِمْ
أوقِدوهَا حَمْرَاء تَلتهِمُ الأف ... قَ فَتشْوى بها اللَّظى والتَمائِمْ
وامْنحُوها دِماءكُمْ تَتَنزى ... وامهرُوهَا أرواحكُم والجَمَاجِمْ
وامْلكُوا الأرضَ أنتم سادةُ الأرْ ... ض، وأنتم بنو اللُّيوثِ الضَّرَاغِمْ
أنتم الأسْبَقُون في حَلْبَةِ العِزِّ ... بِكمْ تَنْجَلى العَوادِي الغَواشِمْ
كذَبَتْنَا أحلاُمَنا والأماَنيُّ ... فيا ضيعَة الذِليل الحَالِمْ . . .
وخَسِرنا أمَجادَنا وعَلانا ... وذَلَنَنا كَما تَذِلُّ البَهَائمْ
وأفْقَنا نهيئ لكلِّ أثيمٍ ... وَحِمَانا والسَّاكِنُوهُ غَنَائِمْ
يَاَ لرَبْعٍ مُهَدَمٍ مسُتبَاحٍ ... دَنَّسَتْ قُدْسَهُ نِعَالُ الأعَاجِمْ
وهو عَرْشُ الشُّموُسِ، مَهْدُا البَهالي ... لِ، وَمثَوَى المنَافِحينَ الصَّلادِمْ
قدْ ضَجَجْنا من البُكَاءِ كأنهُ ... قد سَلَبْنا الُّنوَاحَ هَذِى الَحمائِمْ
وَلَهَوْنَا عَنِ العُلى بِحَزَازَا ... تٍ شِدَادٍ لَهُنَّ فِعلُ الأرَاقِمْ
وأقَمْنا على العَوِيلِ كَأنا ... حَشرَجَاتُ تَضِيقُ عنها المآتِمْ
بغداد
أنور العطار
فراش الربيع
للأستاذ محمود الخفيف
طِرْ من الحْقلِ إلى الرَّوْض الَمريعْ ... باحثاً عن نَشْرِهِ
أفضِ للزَّهرِ بأسرارِ الرَّبيعْ ... واسْتَرِق من عِطرِهِ
وافِهِ بيْنَ شتيتٍ وجميعْ ... واقْتبِسْ وشيَ الضُّحَى من سِحْرِه
مِلْ إلى الجدْوَل وارقُصْ حَولهُ ... غازِل الشَّاطئَ واشْهَدْ صُوَرَهْ
ثِبْ إلى الدَّوْح تفَيَّأ ظِلَّه ... لاَعِبِ الغُصْنَ وداعِب ثمرَه
مَلْعَبٌ يَصبُو لهُ ... كلُّ قَلْبٍ خَبَرَه
خُذْ جَنَاهُ كلهُ ... زَهْرَهُ أو شجَره
تَتَوافَى لَكَ أسَبابُ المَنى ... أيُّها الرُّوحُ الدَّؤوبُ الحائمُ
فهنا حيناً وحيناً هاهنا ... نازِحٌ طوْراً وطوْراً قادِمُ
أمشوقٌ هائم؟ ... أم خَلِيٌّ ناعمُ؟
أمْ شَرُودُ ... أنتَ لاهٍ سائم؟
أنتَ يا رَفَّافُ مَوصُولُ الجذلْ ... أيُّ هَمّ شَغلكْ؟
ثَمِلٌ ترْقُصُ من فَرْطِ الثَّملْ ... إذ تلقى املك
يا طليقاً ما َدرَى مَعْنَى الملَل ... أيُّ حُسنٍ رائع لم يَكُ لك؟
يا طَرُوباً ليسَ يدرِي ما الشَّجَن ... وَيْكَ يا هَيَمانُ وَيْكَ!
رَفَّ في مَرْ اكَ مطِوىُّ الزَّمَنْ ... فحَنتْ روحي عليك
ما لِقَلْبي بين شَجْوٍ وسَكَنْ ... خافِقاً يَهْوِى إليك؟

ذكرَ العَيْش الذي لو يُشْتَرَي ... اشترى الأيامَ منِهُ بالسِّنين!
فيكَ مَرْآهُ وفي دُنيا الكرى ... وادِّكارِ النَّفْسِ حيناً بعد حِين
حينما كُنَّا صغيرين معاً ... لا نَمَلُّ الوثبَ في ظِلِّ الشَّجَرْ
ونرَى الرَّوضَ جميعاً مرتعاً ... كم تَمَلَّيْنا بهِ أبْهَى الصُّوَرْ
زهرَتي فيهِ تَبَدَّتْ أرْوَعَا ... من سَنَا الصُّبح ومنْ سِحْرِ الزَّهَرْ!
آه! كم توجعُ نفسي (حينما) ... يا خَلِيَّا لَيْسَ يدْرِي ما بِيَهْ
وَيْكَ يا قَلْبي! أتهفو كلَّما ... طافَتْ الذِّكرى وتصبو ثانية؟!
كُفَّ يا قلبُ عن الشكوى فما ... ينقعُ الآلُ قُلوباً صادِيهْ
كم جَهْدنا وجَرَينا في الضُّحَى ... لا نُرَى في لهونا إلا لديكْ
ومللنا الرَّوضَ إلا مسْرَحَا ... نتَهاوَى فيهِ بالأيدي عليك
أنْأ ياهيمانُ عنِّي واقتربْ ... كالرؤى طافت بحُلْم الناعِسِ
هِجْتَ يا لاعِبُ نفسي لِلَّعِبْ ... ما غَنَائي من زَمَاني الدَّارِسِ؟
ويكِ! إنا نلعب اليومَ كما ... قد لعِبْنا أمس في غَيْر مَلَلْ
نْبدَأ الشَّوْطَ ونَمْضي كلَّما ... رَفَّ يا رَفَّافُ للنَّفسِ الأملُ
لهْوُنا اليَوْمَ بِهَاتيك المنى ... تَتَراءى بينَ نَشْرٍ وَعَدمْ
نحنُ كالأطفالِ إلا أننا ... نقتلُ اللذَّةَ فيها بالألم!
نَقرعُ السِّنَّ على ما فاتنا ... ونذوقُ الصَّلب من كأسِ النَّدمْ
رِفَّ يا لاعِبُ وارتع وانعَم ... واقضِ من عيشك في الزَّهرِ الوطرْ
اجتن اللَّذَاتِ واخترْ واغنَم ... لكَ في نورِ الضُّحَى عُمرُ الزَّهرْ
وَيحَ للإنسان ما أجدَرهُ ... بِهُيام مِثل هذا ومِراحْ
عُمرُهُ المكدُودُ ما أقصَرَهُ ... خَفَقَاتٌ من مَساءٍ وصَبَاحْ
الخفيف

رسالة الفن

التصوير التوضيحي في المخطوطات الإسلامية

للدكتور أحمد موسى

- 2 -

كان من حسن الحظ أن ساهمنا في العدد الممتاز الذي أصدرته مجلة الرسالة بمناسبة العام الهجري بموضوع آتينا فيه على بعض ما للعرب في مختلف الفنون التصويرية لتوضيح النصوص وتصوير كتب العلم والأدب مما يجلو غوامضها للقراء والراغبين في العلم، فنشرنا بضع صور ضوئية منقولة عن بعض المخطوطات القيمة في علم تخطيط الأرض والفروسية والتوقيت والكيمياء. وقد وعدنا القراء في ختام المقال السابق باستيفاء هذا الموضوع الطريف حقه من البيان. وهانحن أولاء قد وفقنا بعد البحث إلى ثلاثة كتب مخطوطة زينها مؤلفوها بالتصاوير والأشكال الحقيقية تارة والرمزية طوراً؛ ففي كتاب (نهاية الإدراك في دراية الأفلاك) لمؤلفه قطب الدين محمد بن مسعود الشيرازي جملة صور فلكية أهمها صورة كسوف الشمس وقد جاء فيها:

لكون القمر هو الكاسف والتوالي من المغرب إلى المشرق وهذه صورة الكسوف،) الفصل الرابع في أزمان ما بين الخسوفين، أما الأول فمعرفته مبينة على معرفة حدود الخسوفات وهي مقدرة باثني عشر جزءاً من بعد القمر عن إحدى العقدتين في أي جهة كان، لأن عرضه إذا جاوز هذا الحد زاد على نصفي القطرين، لأن غاية عظم نصف قطر دائرة الظل وهو إذا كان في القمر في حضيض التدوير ست وأربعون دقيقة. وغاية عظم نصف قطر القمر ثماني عشر دقيقة، والعرض المساوي لمجموعهما وهو أربع وستون دقيقة إنما حصل على بعد اثني عشر جزءاً وكسر من العقدة أو على بعد إحدى عشرة درجة ونصف بالتقريب يكون العرض درجة فبعد تجاوز العرض عن الحد يزيد على نصفي القطرين ولا يمكن الخسوف حينئذ وبهذا الاعتبار ينقسم المائل إلى أربعة أقسام. . . الخ).

وقد زين هذا المتن بصورة القمر والشمس من أعلاه والأرض من أسلفه، ورسم دائرة كبرى كتب على محيطها الفلك الممثل ومر محيطها بمركز الشمس، وداخلها دائرتان

متساويتان القطرين تقابل محيطاهما في مركز القمر. وكتب على محيط اليسرى منهما منطقة ممثل القمر، وعلى اتجاه مركز القمر وفي استقامة اتجاه مركز الشمس رسم الأرض مبيناً مركزها، وعلى محيط الأرض اختار موضع الناظر، كما اظهر مخروط القمر ومخروط الظل.

ويرى الناظر المتأمل أن هذه الصورة لا تختلف شيئاً عن التصوير العلمي لمقر النيرين في وقت الكسوف، فضلا عن الدقة التي اتبعها المؤلف في رسم الدوائر الست بالرغم من أن عصر المؤلف يرجع إلى القرن الخامس عشر الميلادي.

أما الكتاب الثاني فهو في الكيمياء القديمة ويرجع تاريخ تأليفه إلى القرن الخامس عشر على الأرجح، وهو يتناول ضمناً تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب. ونص الصفحة التي ننقلها هو (صفة ما نقل من صحف ووسيموس وأوتاسيا: خذ من حجر - كا - ما شئت وهو الكبريت الأحمر الذي لا يخلو منه مكان والقي من الكبريت الأبيض مثله واسحقه فأنه يذهب بصلابته والقي مثلهم زيبقاً بحذروا عملهم في النار ساعة ثم أعيد عليهم السحق والسقي إلى أن يعجبك لونه، فألقي منه على حجر (؟) سير ذهباً ابريزاً والحمد لله تعالى. . .) وتحت هذا المتن متن آخر انفصل عنه بصورة المثل ستة رجال بوجوه كاملة الاستدارة (ش2)، والى يمين هذه الرؤوس صورة لهلال والى يسارها صورة البدر، والى يمين ويسار المتن وقف رجلان امسك كل منهما بسلسلة التفت حول عنق الستة الرجال الذين وضع كل منهم يسراه على صدره. وفي نهاية الصورة رموز شملت بعض حروف إغريقية وهيروغليفية وعربية، فكانت إلى الطلاسم اقرب منها إلى الكلام المفهوم. ويرى المتأمل فيها بعض صور أشبه شيء برسم اللقب والسيف والصليب.

والصورة (ش3) منقولة عن كتاب صور الكواكب لعبد الرحمن بن عمر الطوسي ويرجع تاريخه إلى منتصف القرن السابع عشر الميلادي. وهي تمثل النسرين الواقع والطائر. وقد جاء فوق صورة النسر الأيمن ما أوله: المجرة عند القدر الخامس بينهما مقدار شبر من راس العين. . . الخ وحلّى كل نسر منهما بعدد الكواكب المشرقة في بدنه وجناحيه وذيله ومخالبه.

ويرى القارئ مما تقدم أن التصوير كان مستعملا عند العرب لتفسير ما غمض في المؤلفات العلمية بقصد تمام التوضيح على قدر ما سمحت به وسائلهم ولا سيما في علمي الكيمياء والفلك، فإن أدوات الرصد كانت معدمة تقريباً، ولم يكن لدى الفلكي منهم سوى قواعد الحساب على الطريقة القديمة، كما كانت الأدوات الكيميائية ووسائل الصهر غير موجودة بالصفة التي نراها الآن.

وإذا كان العرب قد اجتهدوا في تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب وأخفقوا، فان نظريات الكيمياء والطبيعة الحديثة أثبتت إمكان تحويل المعادن بالصهر. ولا ننس آخر الأنباء من أن عالماً ألمانيا هو الأستاذ ميتا أمكنه تحويل الزئبق إلى ذهب بالحرارة، فكأنه بذلك سجل الأقدمية لعلماء العرب.

وفي مقالنا القادم سنتناول ناحية أخرى من نواحي التصوير الإسلامي.

أحمد موسى

القصص

كارنا وكونتي

للشاعر الفيلسوف رابندرانات طاغور الهندي

للأديب شكري محمد عياد

كان لكونتي ملكة (بنداوا) قبل زوجها ولد هو كارنا الذي اصبح في رجولته قائداً لرهط (الكيراويين، ولكي تدفع عن نفسها العار هجرته عند مولده فرباه حوذي اسمه اجيرانا

كارنا - إنني أنا كارنا، ابن الحوذي اجيراتا، أجلس هنا على ضفاف الكنج أعبد الشمس الغاربة، فمن أنت؟

كونتي - إنني أنا المرأة التي فتحت عينيك لأول مرة على هذا النور الذي تعبده

كارنا - لست افهم، ولكن عينيك تصهران قلبي، كما تقبل الشمس ثلجاً على قمة جبل، وصوتك يبعث في حنايا صدري حزناً أعمى، ثوى السر فيه بنجوة من ذكرياتي الأولى. خبريني أيتها المرأة الغريبة، أي لغز يصل مولدي بك؟

كونتي - صبراً جميلاً يا بني. سوف أجيبك حين تنسدل أجفان الظلام على عيون النهار

المستطلعة. أما الآن فاعلم إنني كونتي
كارتا - كونتي! أم اريونا؟
كونتي - نعم بلا ريب، أم غريمك اريونا. ولكن لا تبغضني لذلك يا ولدي. إنني ما برحت اذكر يوم السلاح في هاستينا، حين قفزت إلى الحلقة في جرأة وأنت غلام مغمور، فكنت كشعاع الفجر بين نجوم الليل. آه! من كانت تلك المرأة التي قبلت عيناها جسدك العاري الرشيق من خلال دموع كانت تباركك وهي جالسة بين نساء القصر الملكي وراء السجوف؟ كيف؟ لقد كانت أم اريونا! حينذاك برز البرهمي أستاذ السلاح وقال: (ليس شباب وضيع النسب أن يباري اريونا) فوقفت لا تتكلم، كسحابة برق تأتلق عند الغروب بنور مكتوم. ولكن من هي المرأة التي اشتعل قلبها لعارك وغضبك وأرسل في سكون لهيب النار؟ هي أم اريونا؟
رعى الله دريوجانا الذي عرف قدرك، وتوجك ثمة ملكا على الأنجا، فكسب للكرواسي بطلاً. لقد ملأ الفرح قلب اجيراتا، فشق الحشد نحوك، فهرعت إليه وألقيت عند قدميه تاجك، وإذا البنداويون وأصحابهم هازئون ضاحكون. ولكن امرأة واحدة من بيت البنداوييت توهج قلبها فرحا بما في تواضعك من كبرياء البطولة - لقد كانت أيضاً أم اريونا!
كارنا - ولكن ماذا جاء بك هنا وحدك يا أم الملوك؟
كونتي - لقد جئت أسألك معروفا
كارانا - مريني، وأيما سمحت رجولتي وشرفي الشاتري فسوف القيه عند قدميك.
كونتي - لقد جئت لأخذك
كارنا - إلى أين؟
كونتي - إلى صدري الظامئ لحبك يا بني
كارنا - أيتها الأم السعيدة بخمسة ملوك أشاوس؛ كيف تجدين في قلبك متسعاً لحبي وما أنا إلا قائد وضيع النسب؟
كونتي - إن مكانك فيه قبل كل أبنائي
كارنا - ولكن بأي حق احتله؟
كونتي - بحقك الموهوب من لدن الله في حب أمك
كارنا - ها هي ذي غبشة المساء تنتشر على الأرض، والسكون يرين على الماء، وصوتك يرجع بي إلى دنيا من الطفولة تتناهى في الذكريات. فليكن هذا حلماً، أو فليكن شعاعاً من حقيقة منسية، ولكن تعالي وضعي يمناك على جبيني. إن الناس يتناقلون أن أمي هجرتني. وكم من ليلة زارتني في نومي، ولكن حين كنت أصيح بها: (ارفعي عنك القناع، أريني محياك!) كان شبحها دوماً يتلاشى. فهل زارني الليلة عين ذلك الحلم وأنا يقظان؟ انظري! هاك المصابيح تلوح عن بعد وراء النهر مضاءة في خيام ابنك؛ وعلى هذه الضفة خيام أصحابي الكيرويين كأمواج عاصفة في البحر علقها ساحر. لماذا يجيئني صوت أم غريمي اريونا برسالة من الأمومة المنسية، في رهبة هذا المرج حيث يدوي طنين معركة الغد؟ ولماذا يسكب لسانها في اسمي هذه الموسيقى فيجتذبني إليه والى اخوته؟
كونتي - أذن فلا تتريث يا بني، تعال معي!
كارنا - اجل، سوف أجئ ولن أسألك سؤالا، فلا تساورك إذن ريبة. إن روحي تستجيب لندائك، والكفاح في سبيل النصر والذكر ونار الشنآن قد عادت أمام عيني أوهاماً وضلالات؛ وكما يتلاشى هُذاءَ الليل في جلال الفجر. خبريني أنىَّ تقودينني؟
كونتي - إلى الضفة الأخرى من النهر حيث تشتعل هذه المصابيح في شحوب الرمال المروع
كارنا - أوَسوف أجد هناك حتى الأبد أمي المفقودة؟
كونتي - آه يا بني!
كارنا - إذن فلماذا طردتني شريداً جث من أرض أجداده، صعلوكاً يرجحن في تيار من الخزيان؟ لماذا ضربت بيني وبين اريونا هوة لا تجتاز، ورددت أزكى ميول الدم إلى أنكى عواطف البغضاء؟ إنك تبقين صامتة. إن عارك يسري في الظلام البعيد ويبعث في أطرافي رعدة لا ترى. أبداً لا تذكري لي ما جعلك تسلبين ولدك حب أمه. ولكن خبريني لماذا جئت اليوم تسترجعينني إلى أطلال سماء ثللت عروشها بيديك؟

كونتي - إن لعنة تحل عليّ هي اشق من لومك. إني وإن تكنفني خمسة أبناء ليرفرف قلبي كقلب أم حرمت بنيها؛ ومن هذا الجرح الذي انشق على أول أبنائي، ولّت كل مسرات حياتي. في ذلك اليوم اللعين حين خنت أمومتي، لم تكن أنت تستطيع أن تفوه بكلمة. واليوم تضرع إليك أمك الغادرة أن تمنحها من لدنك ألفاظاً كريمة. دع غفرانك يحرق قلبها كالنار ويلهم خطيئته.

كارنا - أماه، تقبلي مني دموعي؟

كونتي - ما كان أملى من المجيء أن أعيدك إلى ذراعي، بل لأعيد إليك حقوقك. تعال وتقبل كابن ملك مكانك بين أخوتك

كارنا - إنه أحب إليّ أن أكون ابن حوذي. إني لا أتوق إلى مجد نسب أعظم من نسبه

كونتي - فليكن ذلك كما تريد. ولكن تعال واسترجع مملكتك فهي حقك!

كارنا - أتعزينني بمملكة وأنت التي استكثرت على حب أم؟ إن صلة الرحم التي اجتثت جذورها قد ماتت، ولن تستطيع أن تحيا مرة أخرى. لي العار إن أنا ناديت أم الملوك أماً، ونبذت أمي في بيت الحوذي!

كونتي - أنت عظيم يا بني! لكم ينمو قصاص الله من بذرة ضئيلة إلى حياة حافلة! ها هو ذا الوليد الذي نبذته أمه يعود فينبعث من ظلام الحادثات رجلاً يسحق اخوته

كارنا - أماه لا تخشي شيئاً! إني لعلى يقين من أن النصر للبنداويين، وفي هذا الليل الهادئ الساجي يمتلئ قلبي بموسيقى من المغامرة اليائسة والنهاية الغامضة. لا تسأليني أن انسل من بين أولئك الذين حقت عليهم الهزيمة؛ فليكسب البنداويون العرش إذا لم يكن من ذلك بد، ولأبعد أنا مع اليائسين والمحزونين. لقد تركتني للخزي ليلة ميلادي، عارياً غير مسمى؛ فاتركيني مرة أخرى بغير شفقة انتظر الهزيمة والموت في هدوء!

شكري محمد عياد

البريد الأدبي

في معرض الفنون

سيدي صاحب الرسالة

في (الرسالة) رقم 253 مقال عنوانه: (جولة في معرض الفنون) بقلم نصري عطا الله سوس. وقد كنت أعددت للرسالة مثل هذا المقال، فإذا المقال المنشور يوافق ما كنت أعددته، فرأيت إهماله. غير إني احب أن أزيد على ما جاء في مقال الأستاذ نصري عطا الله سوس النفيس أن ابرز ألواح المعرض إنما هي من صنع السيدة إيمي نمر وطريقتها التأثرية الرقيقة البعيدة عن تعقيدات (المدارس)، ثم الصديق محمود بك سعيد وان اصبح ينسج على منوال واحد من التعبير، ولكنه تعبير قوي اقرب إلى فن النحت التمثيلي منه إلى التصوير. ثم إني لأشارك الأستاذ سوس في ذهابه إلى أن أسلوب ادمون صوصة لا يعدو المحاكاة الضاربة إلى (الفوتوغرافية). وأما جورج صباغ فأسلوبه فوق هذا، لأن محاكاة الطبيعة عنده إنما يجري بين جوانبها ماء الفن، إلا أنه فن يرجع إلى الحذق والدراية لا إلى التأثر الدفين واستلهام ما وراء المنظور وتدوين اللوائح والهواجم. وذلك لان جورج صباغ - على نباهته - أو قل من اجل نباهته يندرج في سلك (الأكاديميين).

بقي أن الأستاذ سوس وعدنا أن ينشر في الرسالة (سلسلة من المقالات بين فيها فلسفة الفن الحديث وأصوله ومذاهب الفنانين المختلفة ومميزات كل مدرسة، إلى غير ذلك مما يتصل بالتصوير والنحت والرسم) لأنه (لاحظ أنها مجهولة تماما بين كل من تعرف إليه). وهذا قول حق، فان من المتعذر على ناقد الفن أن ينشئ المقالات وجمهور القراء عن أصول الفن وتاريخه متغافلون قليلا أو كثيراً. ولقد أفضت في هذا الموضوع لسنتين مضتا في صحيفة الأهرام (18مايو سنة 1936): (على هامش معرض الصور). فعسى الأستاذ سوس أن ينبري للكتابة فيما يشغل صدره وصدر المشتغلين بالفن أو بنقده.

بشر فارس

المصريون واللغة الحبشية

من مآثر الشباب المصري الذين يطلبون العلم الرفيع في جامعات أوربا ذلك السفر النفيس

الذي نشره لشهرين مضيا الأستاذ الدكتور مراد كامل وهو ممن بعثته الجامعة المصرية لتلقي اللغات السامية في ألمانيا.

وموضوع هذا السفر (ويقع في 381ص من القطع الكبير) (تاريخ اليهود) ليوسف بن كريون المشهور بيوسفوس، وقد طبع باللغة العبرية غير مرة وباللغة العربية مرتين. وأما باللغة الحبشية فلم يطبع منه سوى صفحات معدودة، فرأى الدكتور مراد كامل أن يطبع الترجمة الحبشية لهذا الكتاب، واعتماده في ذلك على اثنتي عشرة مخطوطة أصابها في برلين وفرانكفورت أم مين ولندن وباريس وشتراسبرج. وقد عمل للكتاب مقدمة علمية غاية في الدقة وصف فيها المخطوطات وبحث في الأصل العبري والترجمة العربية له، ثم زاد على هذا جدولاً اثبت فيه ما سقط في النص العربي وهو مدون في النص الحبشي، ثم ما سقط في هذا وهو مدون في ذاك إتماماً للفائدة.

ونشر الكتاب دليل ناهض على رسوخ الدكتور مراد كامل في معرفة الحبشية والعبرية والعربية وتمكنه من فن الاستشراق وأساليب البحث العلمي وطرق معارضة الأصول ونشر المخطوطات. ثم أن هذا السفر النفيس نال به ناشره الدكتوراه في العلوم الفلسفية من جامعة توبنجن بألمانيا على يد المستشرق الكبير الأستاذ لتمن من أعضاء مجمع اللغة العربية الملكي. وسيقفل الدكتور مراد كامل إلى مصر بعد اشهر معدودة ليقوم بتدريس اللغات السامية في الجامعة المصرية، وهو يطبع الآن في ألمانيا رسالة أخرى لنيل إجازة التدريس العالي (الأجريجاسيو)، وموضوع الرسالة (الفعل الرباعي في اللغات السامية).

مستشرق يسطو على كاتب شرقي

نشر المستشرق الفرنسي الأستاذ أميل درمنجهيم في المجلة الفرنسية (عدد مارس، أبريل 1938) بحثاً عنوانه: (الحالة الحاضرة للأدب العربي) وقد نقلته جريدة (المكشوف) البيروتية إلى اللغة العربية. والحق أن هذا البحث لا يعدل المباحث القويمة التي يكتبها كبار المستشرقين أمثال كراتشكوفسكي وجبّ وماسينيون وكامفماير؛ وإنما هو عرض جاف لا ينم على اتصال بالحياة العربية، ولا على تفهم لأسرار اللغة العربية، ولا على تذوق لتأليف كتابنا المحدثين. والسبب في ذلك أن المؤلف لم ينظر في الأصول نفسها ولم يدرس حياتنا الاجتماعية عن كثب، ولكنه اعتمد على ثلاثة مباحث، فجاءت كتابته ضرباً من الفضول. وأما المباحث الثلاثة فالكتاب الذي ألفه كامفماير وخميري باللغة الإنكليزية سنة 1930 وعنوانه (الزعماء في الأدب العربي الحديث)، ثم المقالات التي نشرها الأستاذ جب في (صحيفة مدرسة اللغات الشرقية) حول الأدب نفسه ونقلتها جريدة السياسة إلى العربية، ثم المحاضرة التي ألقاها الأستاذ الدكتور بشر فارس في معهد الدراسات الإسلامية في السوربون ثم نشرتها (مجلة الدراسات الإسلامية) لمنشئها الأستاذ ماسينيون سنة 1936 (الجزء الثالث) في باريس. ولما كانت هذه المحاضرة موقوفة على الأدب العربي الحديث جداً وتتناول موضوعات مهمة مثل الصعوبات التي يلقاها الكاتب العربي الحديث في ميادين اللغة والثقافة والاجتماع، فقد سطا عليها المؤلف بغير دراية دفينة بالموضوع، فاخذ منها كلامه على المشكلات اللغوية، ومصاعب الحياة الاجتماعية، وطرائق الكتاب في التأليف، وألوان معالجة الموضوعات وخصائص الأساليب من قديمة وحديثة، وتأثير اللغة الإفرنجية في الإنشاء العربي، وظواهر النضال القائم بين أنصار التقليد وأنصار التجديد. وكأن المؤلف شعر بأنه غلا في الأخذ فذكر صاحب المحاضرة مرة واحدة في الهامش. وذلك لأنه اقتبس عنه نصف صفحة كاملة بحروفها عند الكلام على جمود اللغويين عندنا، فلم يكن بد من الإشارة إلى الأصل. فان اتهم بعض كتابنا بالسطو على تأليف المستشرقين، فهؤلاء المستشرقون يسلطون أيديهم على تأليف بعضنا!

كتابة الهمزة

في (الهلال) الغراء - جزء مايو 38 - هذا القول لسعادة الدكتور بهي الدين بركات باشا: (أن الهمزة وطرق رسمها من المسائل المعقدة التي يبذل تلاميذ المدارس مجهوداً شاقاً في فهمها وحفظ قواعدها. ومع ذلك فكثيراً ما يقع الخطأ فيها حتى من جهات لا ينتظر أن تقع فيه. وإلا فما القول في أن وزارة المعارف تحتفل بعيد المدرسة الخديوية المئيني وتوزع على طلبتها السابقين استمارات تكتب فيها لفظ (يملؤها)

خطأ، إذ ترسمها على (ألف) بدل الواو.
أقول: كتابة (يملأها) والهمزة فوق الألف مثل كتابة (يملؤها) والهمزة) فوق الواو، كلتاهما صحيحة. ومن قول ابن قتيبة في ذلك في (أدب الكتاب): (وإنما اختار الألف لان الوقوف إذا إنفرد وأبدل من الهمزة - على الألف، وكذلك يكتب منفردا، فتركه على حاله إذا
أضيف).
وقاعدة الهمزة اسهل قاعدة في الدنيا، وتعليم معظمها الطلاب لا يقتضي اكثر من ربع ساعة. وهذه قاعدتها بالقول المسهب: دع الهمزة، وتلفظ بالكلمة تلفظا مقبولاً، ثم ضعها فوق حرف العلة إن كان.
تصويب
جاءت (من عبقرية نابغة العرب) في مقالة (أبو العلاء حرب الظالمين) في أول المقدمة لأقواله وإنما هي العنوان الثاني، وفي الشذرة (10) (ستر ضوءها)، وفي الشرح (الفداء) وهو الفراء.
بين العقاد والرافعي
قرأت ما كتبه (العضو المنتدب) الأستاذ محمود محمد شاكر فرأيت انه في الصفحتين الطويلتين اللتين كتبهما، لم يقل في الموضوع الذي اكتب فيه شيئا، إنما هو تعريض وغمز ولمز، وجمل إنشائية، وقولة مأثورة من هنا وبيت شعر من هناك على نظام موضوعات الانشاء، مما لا يتمشى وروح العصر الذي نعيش فيه. ولا أستطيع أن اخذ نفسي به.
وقد أثرت أن اذكره براس الموضوع الذي نتحدث فيه: فهو (أدب العقاد وأدب الرافعي، وما يدل عليه أدب كليهما من نفسه). ثم انتظر أن يكتب شيئاً في الموضوع، فان فعل ناقشته وإن لم يفعل فهو وشانه، وسأستمر في طريقي.
وتلك خطتي كذلك مع من كتب في العدد نفسه، يعرض بين السطور!
سيد قطب
حول كلمة (هال ها)
أشكر للأستاذ محمد عبد الغني حسن لقاءه الكريم لقصيدتي (البعث)، واعتذر من إبطائي في الرد على رأيه في كلمة (هال ها).
وبعد فأجيبه أن هذه الكلمة كما ذكرت ابتدعها الأستاذ فريد، وما دام الأمر أمر ابتداع فلا محل إذا لردها إلى اصل لغوي. وإذا صح ما ذكره الأستاذ من أن كلمة هال نداء لزجر الإبل فإنها محض مصادفة، إذ لم يدر بخلد الأستاذ فريد عند كتابة هذه الكلمة في رواية
أي أصل لغوي كما اخبرني بذلك (ميسون الغجرية).
وأما من حيث معنى كلمة الإنكليزية فهي أيضاً كلمة مبتدعة في تلك اللغة، فمدار معرفة معناها على استعمالها. وقد استعملها شكسبير وغيره في بدء أغانيهم التي يريدون بها التعبير عن المرح والانطلاق من القيود كما جاء في رواية ولقد رجعت إلى قوم من أهل تلك اللغة فاتفقوا على أنها لا تستعمل إلا في بدء الأغنيات. أما عن معناها بالضبط فلم اظفر منهم بتحديده، ومرجع ذلك إلى أنها كلمة سماعية مبتدعة جرت في الأغاني دون أي اشتقاق لغوي. . . هذا وللأستاذ الفاضل شكري على اهتمامه ودقته والسلام.
الخفيف
جوائز وزارة المعارف لوضع كتاب في تاريخ الأدب
المصري
من الفتح الإسلامي
رأى معالي وزير المعارف تمكيناً للدراسات المصرية وتشجيعاً للبحث الأدبي وضع مسابقة في تاريخ الأدب العربي في مصر من الفتح الإسلامي إلى الآن.
ويتلخص موضوع هذه المسابقة فيما يأتي:
(للأدب العربي في مصر طابع خاص اختلف في العصور الأولى للفتح الإسلامي عنه فيما تلا ذلك من العصور وهو يتناول إنتاج الكتاب والشعراء الذين وفدوا من البلاد العربية والإسلامية إلى مصر وأقاموا بها كما يتناول إنتاج الكتاب والشعراء المصريين

الصميمين.
وقد تأثرت مصر بالطابع العربي في أدبها في حقب مختلفة، وأثرت في الأدب العربي بتفكيرها وثقافتها وبحكم البيئة المصرية في حقب مختلفة أخرى.
والذي تطلبه وزارة المعارف وضع رسالة في نحو 600 صفحة من القطع المتوسط حرف مطبعة بولاق بنط 15 تتناول تاريخ الأدب العربي في مصر مقسما قسمين: أدب المصريين الصميمين، وأدب غير المصريين ممن قاموا بمصر واثروا فيها أو تأثروا بها، مع إظهار صلة الأدب من إنتاج هؤلاء وأولئك بالحياة العامة اجتماعية وسياسية واقتصادية، وإظهار الصورة التاريخية التي يرسمها هذا الأدب المصري في عصوره المختلفة.
أما الجوائز المقترحة فثلاث مجموعها 500 جنيه توزع بين الفائزين حسب رأي لجنة التحكيم على أن تقدم الرسائل إلى الوزارة في ميعاد لا يتجاوز آخر يناير سنة 1939.
عصر الفيلسوف ابن مسكويه
سيدي الأستاذ الفاضل محرر الرسالة
بعد التحية: ذكر حضرة الصديق الفاضل الأستاذ محمد حسن ظاظا في العدد الماضي من الرسالة الغراء أن ابن مسكويه عاش في العصر العباسي الثالث أي في العصر الذي يمتاز بضعف الخلافة العباسية. ولعل حضرته يقصد العصر الرابع لان ابن مسكويه عاش من سنة 330 إلى سنة 421. وهذه الحقبة من العمر تقع في العصر الرابع لا الثالث.
وقد ذكر حضرته أيضاً أن هذا العصر يمتاز بتكوين المعاجم اللغوية، وهذا الكلام القليل يحتاج إلى تفصيل؛ فان علماء اللغة في هذا العصر لم يبلغوا في الكثرة والإحاطة ما بلغه علماء العصور التالية إلى القرن التاسع الهجري.
واشهر لغويي العصر الرابع ابن دريد صاحب الجمهرة، والأزهري صاحب التهذيب، والجوهري صاحب الصحاح. أما علماء العصور التالية فأشهرهم ابن سيده صاحب المحكم وقد عاش في القرن الخامس. والصاغاني صاحب مجمع البحرين، وقد عاش في القرن السابع. وابن الأثير صاحب النهاية، وابن مكرم صاحب لسان العرب وقد عاشا في القرن السابع أيضا. والفيومي صاحب المصباح وقد عاش في القرن الثامن. والفيروزبادي صاحب القاموس وقد عاش في القرن الثامن وأدرك طرفا من التاسع.
(المنصورة)
محمد عبد الغني حسن
ما تهم معرفته كل أديب عربي
تلوت في جريدة المكشوف الأدبية كلمة تحت هذا العنوان منقولة عن حديث للأستاذ فؤاد افرام البستاني، وللأستاذ حفظه الله عندي مكانة متينة واعتقاد حسن بما يكتب ويقول، لأنه لا يقول إلا بعد تثبت، ولا يكتب إلا بعد دراسة وافرة. يعالج كل ذلك بصبر وجلد ونشاط.
وقد وقع عندي موقع الغرابة رأى له في المستشرقين لا ادري كيف كونته له نفسه. يقول: (وإن اذكر شيئاً من هذه المؤلفات المفيدة على ما فيها من خطأ وصواب فلابد من أن انوه بمعلومات الأب - لا منس - وهي في نظر كبار المشتغلين بالأدب العربي في ذروة الأبحاث العلمية. . .)
فالأب - لامنس - مستشرق كبير ولا سبيل إلى الشك فيه. ولكن هل كتب تاريخ العرب بالروح المجردة التي ينبغي أن يكتب بها؟ (ولا سيما في المسائل الإسلامية التي بالغ في التعصب عليها، مما جعل المؤرخين وعلى رأسهم المستشرقون يشكون في أمانته العلمية ويتهمونه بركوب متن الشطط). وهل يغني في الرجل سعة اطلاعه وقوة حجته عن الأمانة التي أفسدها؟ (وهو الذي كان يسلب العرب الفضائل والصفات الخلقية الجميلة التي اجمع المستشرقون على نسبتها إليهم، وكان في خصومته هذه يعمد في بعض الأحيان إلى السفسطة والمغالطة).
ومثل هذه المغالطات في تفهم التاريخ، أو قل في تأويله بحسب النزعات الشخصية لا يغني عنها ذكر كلمة - على ما فيها من خطأ وصواب - لأننا نفهم من الخطأ والصواب شيئاً غير هذه المغالطات المبينة على حاجات هي في نفس يعقوب. وإذا كانت هذه طريقة الأب - لامنس - في كتابة التاريخ الإسلامي، فهل يا ترى من المعقول أن تصبح

آثاره في ذروة الأبحاث العلمية، والأبحاث العلمية لا يجليها عادة إلا عقل متجرد عن كل هوى، وروح طهرت نفسها من كل درن موروث.

ويتم الأستاذ المحدث كلمته: (أما ما ينقل في بعض الصحف العربية من أبحاث لغوستاف لوبون وسيديو ورينان، يهول ناقلوها بنعوت المستشرقين يلصقونها بأولئك المؤلفين، فلقد كان من الخير للاستشراق والناقلين وللصحف أن تدعها في أماكنها من زوايا المكاتب). وهذه كلمة ثانية كشفت عن السر الذي أملى الكلمة الأولى لان التاريخ الذي كتبه هؤلاء المستشرقون هو تاريخ كأنما سطره الغرب للعرب. لأن هؤلاء استطاعوا أن يتجردوا من العوامل الموروثة والتقاليد المذمومة، فكتبوا كما أوحى إليهم ضميرهم، ولم تعمهم محاسن النصرانية عن محاسن الإسلام، ولم يطمس التعصب على قلوبهم شأن من طمس عليهم. ولا أدري أكان هؤلاء ممن يسرون ما لا يعلنون، أم كانوا يخادعون فيما يسطرون؟ ولا أدري أية حاجة تدفعنا إلى إيثار المصادر التي تنهج نهج الطريقة الأولى في الطعن على العرب والنيل منهم واعتبار هذه الطريقة الطريقة العلمية الصحيحة؟

أرجو من الأستاذ الكريم أن يفسر الأسباب التي دعته إلى إيثار هذا الرأي إذ ليس من الحق إعطاء نتيجة من غير أسباب. وأرجو أن يفيدنا عن قيمة النصوص التاريخية التي اعتمد عليها كل من أصحاب الطريقتين وعن العوامل التي جعلته لا يزكي أصحاب الطريقة الثانية. حتى إذا كان في رأيه ما يعتقد به العقل المجرد أودعنا ما عندنا من كتبهم في زوايا المكاتب، وإن أراد أطمعناه النار!

حقاً لقد تركنا المستشرقين في حيرة من أمرهم فهم إن كتبوا بم يلائم هوانا وعزنا قلنا عنهم: إنهم يخادعون ويكذبون؛ وإذا سطروا بما يجردنا من كل فضل وعزاً رفعنا على فضلهم ناراً وأقمنا لعلمهم علماً!

أما وقد كذبوا علينا مراراً فليخطئوا مرة واحدة.

خليل هنداوي

نباتات الزينة العشبية

ظهر حديثاً في عالم المؤلفات الزراعية كتاب (نباتات الزينة العشبية) للأستاذ محمد كامل حجاج. والمؤلف هاو كبير ومحب عظيم للنباتات. وهو يكرس لها وقته وجهده وماله. وقد سلخ الشطر الأكبر من حياته في دراسة نباتات الزينة دراسة عملي مستفيضة يحدوه شغف عظيم بها وحب طبيعي لها حتى اصبح ثقة من ثقاتها القليلين في مصر.

قدم للكتاب بمقدمة وجيزة ضمنها نبذة صغيرة عن تاريخ الحدائق بمصر، وكذلك شيئاً عن المناخ والتربة وما ينجح من النباتات بمصر وما لا ينجح بها والظروف الملائمة لها، ثم عن الإكثار والأسمدة مما لا غنى عنه لمبتدئ مسترشد.

وبعد ذلك قسم النباتات إلى صيفية وشتوية وتكلم عن كل منها في ترتيب أبجدي شامل. ولم ينس في الآخر أن يخص تزيين الشرفات والموائد ببضع صفحات شائقة قيمة.

ويمتاز الكتاب بشيئين بارزين:

أولهما الإيجاز التام في الشرح والأداء إيجازاً لا يخل بمادته.

ثانيهما: كثرة الصور الجميلة الواضحة مما يندر أن نصادف مثلها في مؤلفاتنا العربية.

فالكتاب يصح أن يكون مرجعاً سهلاً ثميناً للهاوي والمحترف. واعتقد انه سد ثغرة كبيرة كانت شاغرة في فلاحة الأزهار.

محمد بهجت

العدد 255 - بتاريخ: 23 - 05 - 1938

جوائز وزارة المعارف

تشجيع التأليف

الإنجاز منذ قيل إن الأمر قد استوثق للحكومة أو كاد. ورأى الأستاذ الوزير أن يبدأ سياسة الإنعاش الأدبي بالجوائز، لأنها لا تزال منذ كان الأدب أشد القوى المحركة له، وأقوى العوامل المؤثرة فيه؛ بله الإمكان والسرعة، لأن سنها لا يحتاج إلى تصديق وزير المال ولا استشارة وزير العدل. ولكن الجوائز المالية لا تبلغ الغاية من وجودها إلا إذا

قامت على فكرة صالحة وسارت على طريقة مؤدية. فهل الجوائز التي يقترحها وزير المعارف بنجوة عن مرامي الظنون ودواعي الفشل؟

يقترح معالي الوزير جوائز وقتية عامة على وضع كتاب في (تاريخ الأدب العربي بمصر من الفتح الإسلامي إلى الآن)، وجوائز دائمة خاصة لتشجيع الإنتاج بين المدرسين بالمدارس الرسمية والحرة؛ والفكرة التي أوحت إلى معالي الوزير هذين الاقتراحين سليمة مستقيمة لا غبار عليها ولا جدال فيها. فإن الأدب المصري لا يزال بجانب الأدب العراقي والأدب الأندلسي مطموس الأثر مجهول التأثير مشتت المادة؛ فدراسته على الطريقة العلمية تثبيت لمعنى القومية في نفوس النشئ، وكشف لناحية خصيبة من نواحي الأدب. وإن المدرسين كما قال قرار الوزير (هم في جميع البلاد المتحضرة مصدر التجنيد العلمي والفكري والعملي في توجيه الحياة الاجتماعية إلى أحدث المبادئ وأدق الآراء العلمية والأدبية والفنية) فينبغي (حفزهم إلى البحث والتأليف في موضوعات اختصاصهم وما يتصل به، بما يؤدي إلى تقوية شخصيتهم العلمية وتكوين ذخيرة من الرسائل العلمية والأدبية تدعو إلى نشاط التفكير العام).

بقي أن ننظر في الطريقة التي تريد الوزارة أن تسلكها إلى تحقيق هذه الفكرة. فهي ترى أن تصل إلى غايتها من طريق المسابقة والتحكيم، وتنقسم في ذلك الهيئات الأدبية الرسمية التي استشارها إلى فريقين: فريق الجامعة، ورأيه اختيار لجنة من الباحثين المعروفين تضع هذا الكتاب المقترح في سنة وأربعة أشهر ثم تعطي ألف جنيه مكافأة على وضعه؛ وفريق دار العلوم وتفتيش اللغة العربية في الوزارة، ورأيه أن يترك وضع الكتاب إلى المسابقة الحرّة، فإن في ذلك حفزاً لهمم الشباب، وتوخياً لمعنى العدل، ومنعا (لاحتكار علمي) دلت السوابق على وقوعه بحكم العادة أو النفوذ أو المجاملة. وكلمة (الاحتكار) التي جرت على لسان دار العلوم تنم عن شيء من الحنق الدفين على اختيار اللجان الأدبية. فقد أصبحت هذه اللجان وقفاً على نفر من الأدباء لا تنظر الوزارة إلا إليهم، ولا تعتمد في أعمالها إلا عليهم. كأنهم طائفة المستوزرين لا تحل الأزمات إلا بهم، ولا تؤلف الوزارات إلا منهم. ومرجع هذا الجمود إلى العادة الآلية التي تسير عليها السياسة والإدارة في الحكومة.

وفي رأينا أن إطلاق المشروع في مسابقة أو تقييده في لجنة لا يخلو من غميزة، فإن الموضوع المقترح لا تجدي فيه المسابقة ولا تؤدي، إذ الأدباء القادرون تعودوا ألا يدخلوا المسابقات تنزيهاً لكبريائهم الفنية عن حكم الأشباه، وضنا بجهودهم المضنية على تحكيم المصادفة، واكتفاء بما أخذوا به أنفسهم من الإنتاج الذاتي المستمر. والجائزة بعد ذلك كله ضئيلة لا تغري إرادة الكاتب وإن ضمنتها قدرته. أما غير هؤلاء فسيعالجون الموضوع معالجة الدارس الناشيء، يستزيد من دراسته ومعاناته علماً وفهماً لنفسه، ولكن ما يكتبه فيه قد يكون بعيداً عن قصد الوزير وخدمة الأدب وفائدة القاريء، لما يعوزه من اللقانة الخاصة التي يكتسبها فقيه الموضوع بالمران والزمن. تلك حال المسابقة؛ أما تأليف اللجنة فقد يكون أوجه الرأيين لو جرى الأمر فيه على مقياس الكفايات لا على تمثيل الهيئات وتمييز المناصب. ومن قبل أراد صاحب الجلالة المغفور له الملك فؤاد تأليف كتاب جامع في تاريخ إسماعيل، وكتاب ثبت في تاريخ مصر؛ فجاءه عن طريق المسابقة كتاب الأيوبي، وعن طريق الاختيار كتاب هانوتو؛ والفرق بين العملين هو الفرق بين السيرة والتاريخ، وبين الحيرة والخبرة.

ولكن أخوف الخوف - إذا غلب هذا الرأي - أن ينتهي الأمر إلى لجنة من اللجان الرسمية المحفوظة فلا نضمن التشجيع ولا الإجادة.

ولعل أجدر الوسائل بالنظر أن تنشئ الوزارة هيئة أدبية دائمة تنتج وتقترح وتراقب، ثم يوضع في يديها ست جوائز مقدارها ثلاثة آلاف جنيه، ويكون من عملها غربلة ما تخرج المطابع كل عام، ثم توزيع الجوائز على المجلين في فنون الأدب المختلفة في احتفال رسمي عام. ذلك أدنى إلى إنهاض الأدب وتجديده وتسديده. ولو أن مجمع اللغة العربية

أَلف على غير الأسلوب الذي تؤلف به اللجان الرسمية لكان خليقاً بهذا الأمر، ولكن. . . وهيهات أن تبرأ أقوالنا وأعمالنا من لكن!!

الإصلاح المنشئ والإصلاح الآلي
للأستاذ عباس محمود العقاد
الإصلاح اصلاحان: منشئ تسيطر به الإرادة على العوامل الخارجية، وآلي بعيد من هذه السيطرة لأنه يبدأ بالتسليم وينتهي بالتسليم، وينقاد للعوامل الخارجية في الأساس والجوهر، ولا يجترئ على مخالفتها وتعديلها إلا فيما هو عرض من الأعراض.
الإصلاح في الحالة الأولى مسألة حية أو مسألة نفسية والإصلاح في الحالة الثانية هو مسألة عدد أو مسألة تطبيق حسابي قلما تشترك فيها الإرادة الإنسانية إلا بالمقدار الضروري الذي لا يمكن منعه، لأن تجريد الأعمال الإنسانية من إرادة وشعور كل التجريد أمر لا يستطيعه الإنسان، إذ هو مستحيل
مثال ذلك فندق في مدينة يراد إصلاحه واستحداث نظام غير نظامه
فعلى قواعد (الإصلاح الآلي) كل ما يفكر فيه المصلحون أن يعرفوا أن أثاثه قديم فهو محتاج إلى التغيير، وتلك معرفة لا تفتقر إلى ابتكار عظيم
وأن يعرفوا أن عدد النازلين به يزداد فهو محتاج إلى بناء جديد فيه كذا من الجوانب وكذا من الحجرات، وتلك معرفة أرقام وتطبيق حساب
وأن يعرفوا أن الخدم مقصرون أو قليلون، ومن السهل أن يصل الإنسان إلى هذه المعرفة بغير قدرة على الإنشاء والاختراع
أما الإصلاح على قواعد الإنشاء والاختراع فهو يتناول فن البناء وموقع الفندق وموافقة الإضاءة والتهوية لأحدث الكشوف العلمية، ودراسة النفوس وما تهواه من منظر ورياضة وطعام وأساليب في الخدمة، وإقداما على سبق جميع الفنادق الأخرى في المرغبات والمحسنات، وتفكيراً في ترجيح المدينة كلها على المدن المرتادة للسياحة والتفرج والاستشفاء، لا يقتصر على انتظار السائحين والمتفرجين والمستشفين حتى يصلوا بحكم العادة إلى المدينة، فيجدوا الفندق الذي لا بد أن يجدوه
كل إصلاحنا نحن ينحصر في القواعد الآلية، ولا يجترئ على جانب الابتكار والاقتحام إلا من بعيد، وبعد فوات الأوان.
وقد ألقيت من يدي كتاب (على هامش السياسة) لمؤلفه صاحب السعادة حافظ عفيفي باشا
وأنا أضيف مثلاً جديداً على الأمثلة العديدة التي ترجح ما أقول
قرأت فيما قرأت من هذا الكتاب فصل التعليم الجامعي فإذا بالإصلاح المنشود ينحصر:
(أولاً) في أن يجد جميع من أتم سلسلة من حلقة هذه الدراسة المكان الذي يطلبونه في السلسلة التالية، بمعنى أنه يجب أن توجد محال كافية في المدارس الثانوية لمن ينتهي بنجاح من الدارسة الابتدائية، وأن يجد من ينتهون بنجاح من الدارسة الثانوية الأمكنة اللازمة لهم في المدارس العالية مندمجة في الجامعة أو منفصلة عنها الخ الخ.
و (ثانياً) في إيجاد التناسق المرغوب فيه بين أجزاء التعليم فلا تنشئ مدرسة ابتدائية أو ثانوية من الآن إلا بعد أن تنشئ عدداً من المدارس العالية الخ.
و (ثالثاً) يجب أن يراعى في هذا التعليم بجميع أجزائه ألا يزيد عدد الفرقة عن الحد المعقول الذي يسمح للمدارس بمراقبة سير تلاميذه، والذي يمكنه من متابعة الإشراف عليهم وتعهدهم وإدراكه مواطن الضعف والقوة في كل منهم.
و (رابعاً) ألا يزعج التلاميذ والمدرسون بنقلهم من بلاد إلى أخرى لتمضية الامتحان في حرارة الصيف المحرقة حيث يحشرون في أماكن تقام للضرورة تحت الخيام الخ.
وقس على ما تقدم سائر الإصلاحات المنشودة في نظام التعليم الجامعي وما يترقى إليه من تعليم المدارس الابتدائية والمدارس الثانوية.
أي إنه إصلاح (ضابط) أو رئيس ضباط في مدرسة واحدة أو مجموع مدارس مختلفة، وليس بإصلاح سياسي يضع البرامج وينشئ العقول والنفوس.
انتقل من مشكلة التعليم الجامعي والتعليم كافة في نظر سياسي مصري إلى هذه المشكلة بعينها في أنظار الساسة الأوربيين، واجتهد أن تقيس المسافة الشاسعة التي تفرق بين النظرتين.
مشكلة التعليم في الغرب هي: هل يتعلم الشاب على أساس الحرية الفردية، أو على أساس غلبة الدولة وانغماس الفرد في الأمة أو في الهيئة الحاكمة؟ فإذا تعلم على أساس الحرية الفردية فالنتيجة تشمل كل نظام في الأمة من حقوق دستورية، وحقوق

اجتماعية وطموح إلى النقد، وقدرة على المخالفة، وإيمان بالتقدم والفكر الإنساني والمناقشة العقلية.
وإذا تعلم على أساس غلبة الدولة، فالفضيلة الكبرى هي الطاعة والإذعان والإيمان بعصمة
القادة، وأن التقدم الإنساني وهم من الأوهام، وأن القوة هي السلطان الأعلى في الزمن القديم وفي الزمن الحديث، وأن التواريخ والآداب لا ينبغي أن تفهم ولا أن تدرس إلا على هذا الاعتبار.
مشكلة التعليم في الغرب هي: هل يتعلم الشاب على دين العصبية الوطنية والغلو في تمجيد الذات وتغليب الوطن على جميع الأوطان، أو يتعلم الشاب على دين المعاونة الإنسانية والعقائد التي تمثلها عصبة الأمم ويبشر بها دعاة الوحدة العالمية
مشكلة التعليم في الغرب هي: هل يتعلم الشاب على اعتقاد أن الآداب والفنون والأديان هي ترجمان طبقة واحدة أو سلاح طبقة واحدة في حرب الطبقات، أو يتعلم الشاب على اعتقاد أن الآداب والفنون والأديان هي ثروة بني الإنسان جميعا من قديم الزمان، وستظل ثروتهم جميعاً إلى آخر الزمان.
تلك هي مشاكل التعليم الحقيقية أو هي بعض مشاكله الكثيرة في العهد الحاضر، وليست هي عدد الفصول وعدد المدارس والمدرسين وأماكن الامتحان
ومشكلة الامتحان عندهم ليست هي الخيام التي تقام أو لا تقام، وإنما هي البحث في الوسيلة الصحيحة لاختبار الملكات الذهنية والنفسية: هل هي بالسؤال والجواب، أو هي بالملاحظة الطويلة في أثناء العمل، أو هي بالاختبارات (الإيحائية غير المباشرة) التي تكشف القوى الكامنة دون سؤال صريح في ظاهر الموضوع.
وقبل أن يصلوا إلى مشكلة الامتحان تقوم مشكلة أخرى وهي مشكلة المواد التي يجري فيها الامتحان وتقسيم الدارسين على حسب تقسيم الدروس
فهل العقول الإنسانية لا تنقسم إلا إلى عقل عالم وعقل أديب! أو هناك أقسام شتى يدخل فيها العقل الفنان، والعقل الصنع، والعقل الإداري، والعقل المشارك في المداورات الاجتماعية الذي يربح بحسن الدخول بين الناس مالاً يربحه أعلم العلماء ولا أبرع الأدباء بالنجاح في ميادين العلوم والآداب؟
وهل حتم على العقول الإنسانية جميعاً أن تتذوق الرياضة والجغرافيا والكيمياء وإلا كانت ناقصة معيبة، أو هناك عوالم للتفكير والشعور وراء الرياضا والجغرافيا والكيمياء، وهناك عقول تصلح لهذه العوالم وإن كانت لا تصلح لما عهدناه من برامج الدروس
تلك أيضاً بعض مشاكل التعليم التي تدخل في نطاق من يصلحون البرامج وينشئون الأفكار، ولكنها لا تدخل في وظيفة الضابط أو كبير الضباط.
أذكر أن إصلاح التعليم العالي عرض للبحث منذ سنتين، فكان بعض المصلحين (على الترتيب والتعقيب وخط المسطرة والبركار) يقولون إننا نبدأ بالتعليم الابتدائي حتى نعرف ما نحتاج إليه في المدارس العالية، كأنما المسألة مسألة بيت يبني الدور الأرضي منه قبل أن تبني الأدوار العليا، أو كأنما المسألة مسألة طريق لا تصل إلى الميل الثاني منه قبل أن تجتاز الميل الأول، أو كأنما هي أعمار لا تكون في الثلاثين إلا بعد أن تكون في العشرين، وهي ليست بهذه ولا هذه ولا تلك، وإنما هي مسألة غاية ترتب عليها البداية وتعرفها قبل أن تخطو خطوة واحدة في طريقك إليها؛ ومن ثم وجب أن تبدأ بالتعليم العالي ثم تعلم التلاميذ في المدارس الابتدائية وفي المدارس الثانوية ليستعدوا له وينتهوا إليه؛ ولا ضرورة على الإطلاق لانتظار السنة الأولى الابتدائية وأنت تفكر في تقرير المناهج الجامعية، وإنما هي ضرورة وهمية عند من يمشون على المسطرة ولا يخرجون على الترتيب المرسوم!
علينا أن نصلح المصلحين ونداوي أطباءنا وليس هذا بميسور أو علينا أن نكسر المسطرة القديمة ونترقب نوازع الاقتحام في الجيل الجديد وإن طاشت في بداية اقتحامها، وذلك أيسر الأمرين.
عباس محمود العقاد
المذهب الرمزي
أهو نزعة سليمة في التفكير؟
للأستاذ عبد العزيز عزت

يعزو المذهب الرمزي اسمه الفرنسي إلى مورياس في نشرة طبعها عام 1886 وفي أحد أعداد جريدة هذا المذهب عند أوائل ظهورها، وأسمها (الرامز) - بطبيعة الحال - يجد القارئ مكتوباً فيها - بحبر!! - ما ترجمته: (الشيء الموجود ما هو إلا مظهر، مظهر خداع، لأنه يكفي أن تتغير حالتي النفسية حتى يتغير وجوده) - هكذا! - ويقول العلامة مارتينو مدير جامعة بواتييه في كتابه وعنوانه (المذهب البرناسي والرمزي) ما نصه (إننا نجد عند فرلين، وعند ملارميه، وعند رامبو وكثير من الرمزيين، أن الشيء الواقع ومثوله، حاضراً كان أم ماضياً، لا قيمة له مطلقاً.

ولكن إذا كان المذهب الرمزي يبلغ من العجز أن يتعامى وينكر وجود الأشياء الواقعة، ويجعلها إضافية إلى عوارض النفس وانفعالاتها، فماذا يستعيض بها يا ترى؟؟ يجيب مدير الجامعة السابق في نفس الكتاب صفحة 140 بقوله) إن عباقرة هذا المذهب يحلون هواجس النفس وشؤم التصور وإبهام الطلامس وضعف الإقدام، في مكان الرأي الواضح).

وعليه؛ فالمذهب الرمزي في الأدب وفي غير الأدب من فن ودين، هو نوع من الغمز واللمز في التفكير، لا يستقيم له عود ولا تمتد له ظلال. ذلك لأنه مبدأ بني على الالتواء والغموض الفكري، تنعدم فيه الصراحة، ويفسد فيه الوضوح، ويختل فيه ثبات الآراء بالمعنى الأفلاطوني. ولما كانت الصراحة والوضوح هما أساسي الحقائق الفكرية الثابتة التي بدونهما لا يستقيم للعقل منطق، ولا للشعور انسجام، كما يؤيد هذا ديكارت في كتابه المعنون (مقال عن المنهج) في إحدى قواعده الأربع العقلية؛ ولما كانت الحقيقة والفضيلة متكافئتين متعادلتين في فلسفة ديكارت، فقد أضحى هذا المذهب يتناقض وأول أصول العلم الحديث، ويتعارض وبديهيات مبادئ الأخلاق، هذا من الوجهة النفسية.

والرأي صحيح إذا نظرنا إلى المسألة من وجهة تطور التفكير الإنساني، على صفحة الزمان، وتسلسل المعارف البشرية وتعاقب الملكات النفسية التي عملت على خلق التراث البشري في التاريخ. هذا التطور يؤكد لنا منطقاً لا يحيد مجراه، فلا تختل له حقبة من

الزمن ولا (ينفك له تماسك في دورته، وقد عبر عنه أبو التفكير الإنساني الحاضر القائم في العلوم والأدب (أوجزت كنت) في كتبه المتعددة، وخاصة في كتابيه (الفلسفة الوضعية) و (التفكير الوضعي) (وهو يلخص كل فلسفته)، فهو يثبت إن الإنسانية تطورت في ثلاث حالات: الحالة الأولى وتسمى حالة (التصوف) أو (الدين) والحالة الثانية (التجريد العقلي) التي تتمثل في الحضارة اليونانية القديمة وعلى الخصوص في فلسفة ارسطو العظيم، والحالة الثالثة تسمى بالحالة (الوضعية) التي تحتل حالة العالم في زماننا هذا أي عهد التجربة الذي يقوم على ملاحظة مظاهر الطبيعة ومظاهر النفس لتحديد (علاقاتها) وصوغها في قوانين خاصة، أو لا تؤدي حتما إلى قوانين عامة بها، ولكن للإنسان أن يستغلها عملياً ويتنبأ نما سيؤدي إلية نشاطها في المستقبل القريب والبعيد

والذي يهمنا من هذه الحالات الثلاث، هي الحالة الأولى لما بينها وبين المذهب الرمزي من التشابه. فأوجزت وكونت يعرفها قائلا: أنها تمثل مظاهر الوجود، كاحساسات نتخيلها. فهي بهذا الاعتبار في مقدور تصورنا، نتوقف على إدراكنا لها بالبصيرة): أي إن الأشياء على اختلافها لا قيمة لوجودها الذاتي، ولكن بالنسبة إلى حالة النفس وأهوائها في مناسباتها المختلفة. ويقول إنها حالة النفسية تسود عند الزنوج والقبائل المتوحشة لعجزهم عن فهم المظاهر الخارجية، ولقصر إفهامهم عن إدراك المعاني النفسية المجردة؛ لهذا يستعيضون عن ذلك برموز يقدسونها لمدلولاتها، وبحركات وطقوس يرددونها في مناسبات معينة، ظناً منهم أنها تفي بما يرتسم لها من عقيدة في أذهانهم، وبعناصر الطبيعة يفرضون عليها الحياة، ثم يؤلهونها باعتبارها قطب الاتصال الروحاني بنفوسهم الحائرة!

كذلك المذهب الرمزي يمثل نوعاً من الدخول إلى النفس والتغلغل فيها، ونوعاً من الحرية الجامحة في إمكان التصوير والتعبير لمظاهرها التي لا نستقر على قرار. لهذا كان (الرامز) لا يخرج إلى الناس في وضوح العقل وانسجام المنطق، فهو أضعف من أن يرتفع إلى هذا المستوى الإنساني وكان لا يتبادل الخير وفضل المعاملة الفكرية مع

بنى الإنسان في المجتمعات البشرية؛ وكان لغموض احساساته الإنسانية وتضارب نزعاته لا يقبل على تفهم أمر الوجود العالمي ماديا كان أم تاريخيا وإنما كان يمثل حالة نفسية هي أقرب إلى المريض منها من إلى شيء آخر، يسودها محض الخيال والوهم والأنانية الفردية بعينها،

لأن العالم في كل نواحيه وفي كل مدلولاته الصحيحة، وكذلك التراث الإنساني الذي اتفق على استقامته العلماء والحكماء منذ العهود الأولى يصبح باطلا؛ ويجب أن تبتدئ الخليقة دورتها من جديد، وأن تتخذ في ذلك من (هواجس) هذا الرامز أسسها الأولى.

وليس بعد ذلك من دليل على الخروج على إجماع السلف والخلف وقلب الحقائق والوجود في كل شيء؛ فالتاريخ يكذب، والمنطق يحتضر، والإجماع ينكر. . . وإنها لنزعة تذهب بالإنسانية إلى عهد تهيم فيه على وجهها في الأرض، فلا تخرج عن حد الفطرة والعراء!

وثالثاً - فان الرأي صحيح كذلك من الوجهة الاجتماعية، لأن العلم في نظر أبي الاجتماع الحديث (دركيم) هو التعاون المشترك بين العلماء. ونشوء المدارس الفكرية، التي تبغي إقامة قوانين ثابتة لمظاهر الوجود في كل شيء ترتكز على نظريات يدعمها البحث والاستقصاء. وهو أيضاً إشراك الناس في مفهوم الحقائق المكتشفة، ورفع الغموض والالتباس عن إفهامهم ليقروا في إجماع الحقائق واضحة. فالعلم إذاً مظهر من مظاهر الاجتماعي البشري مهمته خلق التماسك الفكري في عقلية الفرد عن طريق الوضوح، وخلق نفس هذا التماسك في عقلية الأفراد عن طريق ثبات الآراء والنظريات، لأنه كلما رفع الجهل والغموض والإبهام عن عقول الناس زاد (الوفاق) فيما بينهم، لاتحادهم في نفس وجهات النظر والتفكير

وأكبر دليل على صحة ما نقول هو أنه عندما ساد مذهب السوفسطائية في المجتمع اليوناني القديم الذي يرتكز على مبدأ (الشك) ومرض (الحيرة) الفكرية، لأنهم كانوا يبشرون بنظريات يصح أن يلقنوا الشبيبة نقيضها في الغد، فالعلم في نظرهم هو علم (الفرد) وعلم (المناسبات)، وعلم الفصاحة والثرثرة والرغاء، لهذا ساد الفهم (النسبي) للحقائق في ذلك الزمان، وأدى المنطق الفاسد إلى سوء الأخلاق لعجزهم عن تصور علم واحد ذي منهج واحد يوجد بين الناس ويوجه أفكارهم إلى الغايات المتحدة في الفهم، فلزم للقضاء على السوفسطائية قيام ثلاث ثورات لتنظيف المجتمع اليوناني من أدران أفكارهم: الأولى ثورة سقراط في الأخلاق، والثانية ثورة أفلاطون في الطبيعة، والثالثة ثورة أرسطو في المنطق. والمذهب الرمزي كالسفسطة ينعدم فيه الفهم الاجتماعي، لأنه يرجع الحقائق إلى محض (الفرد) أي هواجس نفس الرامز وتصوراته الملتوية وغموض احساساته التي

تخرج عن أساليب المنطق، وتتناقض وعرف المجتمعات البشرية. لهذا كان هو مذهباً أنانياً أشد خطراً من الشيوعية بل ومن الفوضوية؛ لأن هذه المذاهب على ما بها من قبح دنيء تبغي في النهاية نوعاً من الخير للمجموع في نظامها الخاص المبتور. ويؤيدنا في رأينا هذا مدير جامعة بواتيية السابق الذكر، في كتابه صفحة 142 إذ يقول (المذهب الرمزي مذهب ثوري يركن إلية الشبان باسم التجديد لهدم النظام السياسي والاجتماعي والعقلي والفني الذي قد ورثوه عن سلفهم الصالح في بلادهم. ولهذا يجب أن يتخذ القائمون بالأمر فيها الحذر من مثل هذه النزعات الطائشة والصرخات الجامحة، التي تبغي قلب نظم المجتمعات الهادئة التي تساير التطوير العام لدورة النشاط المتزن في سائر أمم العالم)

ويقول هذا العلامة كذلك في صفحات 209، 210، 211 من نفس الكتاب: إنه بالرغم) من قيام مبادئ الحرية التامة في التعبير عن الآراء في بلد كفرنسا، وبالرغم من أن هذا البلد يعيش خاضعاً لمبادئ الثورة الفرنسية التي يدين بها نظام الحكم الجمهوري فيها، فإن المذهب الرمزي عندما ابتدأ ظهوره وأخذت (أبواقه) ترتب الدعاية والنشر له، قامت قائمة الناس في فرنسا وسموه (النزعة الجنونية) لما يتضمنه من القضاء على الروح الاجتماعية والتضامن بين أهل البلد الواحد. ولهذا أجمعت الناس في فرنسا على جموحه وشره الفتاك، وقاوموه بكل ما عندهم من قوة، وأمكنهم - كما يذكر العلامة المدير - أن يقضوا علية في عشرة أو خمسة عشر عاماً من ولادته، ودفنوه (غير مأسوف عليه)

وأقول بعد ذلك: إن مذهب (الرمزية) من أصول الكثلكة. فهي تذهب إلى نوع من التصوف يغمض كثيراً على عقول تابعيها. لهذا تعمد لتقريبه إلى إفهامهم إلى رموز خارجية محسوسة، كل منها له معنى بعيد يكفل لهم نوعاً من الترجيح في التصور. وهي في هذا تسير على الخصوص مع تعاليم القديس أوغسطين الذي كان يعتقد أن ليس هناك دين صحيح أو باطل، إلا وله ولتابعيه اتفاق محدود على رموز معينة لها مدلولات خاصة تنحصر فيها إفهامهم. وهذا ما دعا بعض الناس إلى اتهام الكاثوليكية بالوثنية، وعلى الخصوص عندما صرح رؤساؤها بأن المذهب الغالب في تعاليم الكنيسة هو مذهب القديس توماس؛ لأن هذا الحبر الكبير كان يخضع في تعاليمه إلى فلسفة أرسطو. والكل يعرف أن هذه فلسفة أرسطو هي فلسفة الصنم، لأن أساسها كأساس سائر الفلسفات القديمة. وكذلك

فلسفة ديكارت في العهد الحديث هي علم الألهيات، وهذا العلم تنحصر أبحاثه في تحديد طبيعة العناصر الأولية التي بها يجب أن يتحقق الشكل الكامل في الهيولا العارية فيبدو ناصعاً كحقيقة وكغرض. وصحة قولنا هذا تؤيده نظرية تقسيم العلوم في هذه الفلسفات، وما كتبه على الخصوص العلامة المشهور رافينسون وهاملان عن أرسطو.

عبد العزيز عزت

عضو بعثة الجامعة المصرية لدكتوراه الدولة

من برجنا العاجي

ينبغي أن نحترم أولئك الذين يحترمون الفكر. رأيت هذا لأسبوع واحداً من هؤلاء: هو طبيب فاضل، طلبني في منزلي بالتلفون مرات، ثم زارني في مكتبي مرتين دون أن يظفر بلقائي. ولم ييأس، فحضر الثالثة فوجدني، وأخبرني أنه يحتفظ بكل كتبي إلا كتاباً واحداً، بحث عنه كثيراً فلم يجده. وهو يدفع فيه الآن ايهض ثمن حتى لا تنقص مجموعته المجلدة أفخر تجليد. فلم يؤثر في نفسي أيضاً هذا الكلام، وأحلته في اختصار إلى مكتبة باعته النسخة بضعف ثمنها. وإذا بخطاب شكر واعتراف بالجميل يصل إلي من هذا الرجل في اليوم التالي شكر على ماذا؟ لست أدري. ولكني تأملت قليلا فخجلت. إن هذا الرجل يحترم الفكر في ذاته وينفق في سبيله الجهد والمال. إن هذا الرجل يشكرني وقد دفع ثمن النسخة بينما أراني قد أهديت كتبي تورطا أو حمقا إلى أناس لو يعنوا حتى بإرسال بطاقة شكر. وتذكرت أولئك الذين لا يفعلون شيئاً إلا أن ينتظروا أن نهدي إليهم كتبنا ليقرءوها متفضلين، أو لا يقرءوها مهملين. مثل هؤلاء ينبغي أن نحتقرهم مهما كانت مكانتهم. إن الفكر ما أرتفع قدره يوما إلا على أيدي رجال من طراز ذلك الطبيب الفاضل. وما صغر شأنه إلا على أيدي هذه المخلوقات التي تبذل مالها في كل شيء إلا في كتاب!

ولقد سرت عدوى هذا (التسول) الأدبي إلى الهيئات العلمية والثقافية. فقد جاءني كذلك هذا الأسبوع خطاب من دار الكتب الحكومية تطلب نسخاً من كتابي الجديد هدية أو (صدقة)! وقد علمت أم الدار لها (مال) مخصص لاقتناء الكتب. ولكن ماذا نقول في زمن هانت فيه قيمة الفكر حتى بين الهيئات العلمية الرسمية؟ إلا فليعلم الناس منذ اليوم أني سأبطل عادة (الهدايا) ابتداء من كتابي القادم، وأني لن أقدم جهدي إلا لقرائي المخلصين الذين يقدمون إلي جهدهم وعنايتهم ومالهم. أما الآخرون فلن أعترف لهم بوجود. وإني منذ اليوم لن أحترم إلا من يحترم فكري ويسعى إلي ويبذل فيه ما يستطيع

توفيق الحكيم

قاسم أمين

هل كان كردياً؟

لأستاذ جليل

قرأت في (الرسالة) الغراء قصيدة (الأستاذ علي الجارم بك) في (ذكرى قاسم أمين) العالم الفقيه المشهور، فلما جئت إلى هذا البيت:

يا فتى الكرد، كم برزت رجالاً ... من صميم الحمى ومن أعرابه

استعجبت من القول والقائل. والأمر حقيق (والله) بالاستعجاب والاستغراب؛ فأني أعرف المعرفة البليغة أن (قاسماً) كان عربياً مصرياً، ولم يكن كردياً ولا أرمنياً، وقد ولد في مصر في القاهرة وتثقف فيها وعمل لسلطانها، فكان قاضياً يحكم بين الناس

بالعدل، وكان خدين إمام المسلمين كلهم أجمعين وسيد العرب المصريين في زمانه الأستاذ الأمام (الشيخ محمد عبده) وحميم تلميذه نبي الوطنية العربية المصرية (سعد) العظيم. وكتب بالعربي كتباً، ولم يكتب بالكردي سطراً؛ ولن يضيره عند الله ولن يضع منه عند العقلاء أن القوم لم يعقلوا مقاصده فضلوا ولم يهتدوا. وذهبنا نردد صباح مساء قول أستاذ الدنيا جار الله (أستعذ بالله من الشر ما أنت راء، فإن الدنيا كل يوم إلى وراء) وأبصر بحر الإسكندرية في صيفه وفي سيفه مشاهد لم يبرح من أجلها ملتجأ مصطخب الموج مزمجراً يوشك أن يعيدها نوحية. . . وها قد أقبل الصيف وبدت هناك جنادعه. . .

وربما أراد الأستاذ الجارم أن يقول: (يا فتى أصله من الكرد) فلم ينجده الوزن الموروث هو وأخته القافية المتقفاة منذ أكثر من (1400) سنة. فهو يعني - أن أراد ذاك القول - أصل الرجل لا الرجل.

وهذا القول مفند قائله مدقَّع فالمرء بفضله وفصله، لا بزخرفه وأصله. والأمة إنما هي بلغتها وأدبها وعقيدتها ومصلحتها. وقد قال أحمد بن الحسين الهمذاني صاحب الرسائل والمقامات: (المرء من حيث يوجد، لا من حيث يولد. والإنسان من حيث يثبت. لا من حيث ينبت) وقاسم قد وجد وولد في مصر، وثبت ونبت في مصر. وإنا إذا فتحنا هذا الباب وأنشأنا نقول: يا فتى الأكراد، ويا فتى الأتراك، ويا فتى الأعراب، ويا فتى الإغريق، ويا فتى الشركس، ويا فتى الألبان، ويا فتى الفرس، ويا فتى الهند، ويا فتى الصومال، ويا فتى المغرب، ويا فتى الشام، فقد تشظت الأمة (العربية المصرية) - يا أخا العرب - وهفت هفواً

وإذا احب الناس أن يفتشوا عناصرهم، ويفحصوا مستقصين عن جراثيمهم صاروا إلى المقالة العربية المشهورة التي لخصها ابن خلدون وأوضحها الأئمة دروين والأستاذ (أرنست هيكل) وهكلسي وبخنر وغيرهم وفصلوها تفصيلاً. وهذا تلخيص المقالة:

(أنظر إلى عالم التكوين كيف أبتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدريج. آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش ومالا بذر له. وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف ولم يوجد لهما إلا قوة اللمس فقط. ومعنى الاتصال في هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد الاستعداد الغريب لأن يصير أفق الذي بعده، واتسع عالم الحيوان، وتعددت أنواعه وانتهى في تدريج التكوين إلى الإنسان)

وقد سمعت العلامة الأستاذ الكبير السيد عبد العزيز الثعالبي أيده الله وقواه يقول في أحد مجالسه في الإسكندرية: (إن الناسخين حذفوا عبارة مهمة من قول ابن خلدون مستحين منها)

وهل في الدين والعلم حياء يا أبناء. . . يا عترة الفلحس (والله لا يستحي من الحق) واخوة الرباح والأمة الفرنسية - وما غيرها إلا مثلها - ملفقة مؤلفة (كما ذكر كاتب في مبحث في مجلة أسبوعية قبل الحرب المعلومة - من ثلاثة وعشرين جنساً، منها العربي. وكل واحد من القوم يقول اليوم منتفخاً: أنا فرنسي، أنا فرنسي. أنا ابن الغول وقد يكون (المقيم) في تونس ووالي الجزائر والضيزن الفرنسي في المغرب الأقصى (مراكش) المنكمشون الجادون في تثبيت دين محمد. . . وارساخ اللسان المبين. . . في الأقاليم المغربية - من قحطان. وقد يكون ظهراء (الظهير البربري) من قريش الظواهر أو من قريش البطاح فهل نقول لهم: يا سلالة عدنان، ويا فتيات قحطان. . .

وبعد فالقصيدة علوية جارمية وعربية علوية والأستاذ الجارم أديب كبير، و (عربي مصري) كريم، وما ظلم على قومه العرب المصريين؛ ولكن القافية - والقصيدة على الباء - كانت من الظالمين. . .

الإسكندرية

* * *

فلسفة التربية

تطبيقات على التربية في مصر

للأستاذ محمد حسن ظاظا

(يجب أن يكون (الربح) آخر ما يفكر فيه أصحاب المدارس الحرة!!)

أترى تلك مدارس للتربية والتعليم. أم هي مزيج من الفوضى والاضطراب، والغش) (والخداع، والحشو التافه والأعداد السقيم؟؟

7 - مثال سيئ للتعليم الحر

أشرت من قبل إلى بعض نواحي النقص في (التعليم الحر) ووعدت القراء بكشف ما أعلم من أسرار هذا التعليم فيما بعد وأنجز اليوم وعدي في حدود تجربتي الماضية القاسية التي كنت فيها ناظراً لإحدى مدارس جمعية تعمل فيما تدعي للخير وكرم الأخلاق!!

1 - وظيفة التعليم الحر

وأحسبك تدري - قبل أن أتكلم - أهمية التعليم الحر في بلد لا تستطيع معاهد حكومته أن تتسع لأكثر من نصف النشء الراغب في التربية والتعليم! بل أحسب أنك ترى معي أنه مادام الأمر كذلك فيجب ألا تقل مدارس ذلك التعليم عن مدارس الحكومة ولاسيما في الغاية النزيهة، والنظام المأمون، والكفاءة المنشودة. ولكن الأمر يا عزيزي كان ومازال على غير ما يجب أن يكون! أو قل إنه ما يزال مضطرباً في الكثير من هاتيك المدارس التي لم يؤسسها أصحابها إلا لتكون لهم تجارة رابحة قبل أن تكون للوطن حصناً وللتربية موئلا. وهاأنذا أخوض بك في مثال سيئ لهذه المدارس مؤكداً أن بعض ما به من شر موجود في غيره وغيره من مدارس العواصم والمراكز، وأنه لا يكاد يخلو من هذا الشر إلا مدارس تلك الجمعيات الخيرية المحترمة، أو مدارس أولئك الذين للعلم عندهم كرامة، وللخلق رهبة وجدارة!

2 - مثالنا السيئ

ويؤسفني كل الأسف أن أرى نفسي مضطرا - إزاء المصلحة العامة - إلى أن أصرح بهذه الحقائق القاسية التي لا تشرف هذه المدارس ولا ترضي أصحابها. وأعلم تماماً أن بعض هؤلاء الأصحاب والمديرين سيثور عليّ، وسيحاول عبثاً أن يدافع عن نفسه وعن مدرسته بمختلف الأعذار وشتى الادعاءات. ولكن ما حيلتي وهذا الحقائق الصارمة الصارخة تعلن عن وجودها على لسان المدرسين والطلبة وأوليا الأمور جميعاً؟؟

مثالنا السيئ هو جمعية تعمل للخير وكرم الأخلاق كما قلت، وتتخذ من بعض الشخصيات الكبيرة الساذجة أصناماً تتقدم بها للجمهور كما يغفل عن أسرارها ومخازيها. وقد رأت هذه الجمعية أن المدارس من أربح الوسائل وأشرفها مظهراً، فراحت تفتح منها ما تستطيع فتحة وتحشد فيها ما يزيد على الألف تلميذ وتلميذة!!

فهل تدري من يدبر أمور هؤلاء التلاميذ؟ ومن يقوم بتعليمهم؟ وأين تذهب أموالهم؟ أما المدبر أو المدير كما يدعونه فهو رجل متعلم ولكنه عجيب الأطوار، محب للسلطة والاستبداد، سماع للأكاذيب والوشايات معتوه أو كالمعتوه، لأنه سب يوماً أمامي وأمام التلاميذ جميعاً في (طابور) الصباح أستاذ الدين ورئيس (المطبخ) سباً مقذعاً بينما كان الأستاذ المسكين واقفاً وسط التلاميذ، ولأنه أخذ هراوته مرة وجرى بها خلف خادم صغير على مرأى من بنات المدرسة وكن واقفات يتأهبن لسماع نصائحه الغالية في الفناء الكبير! ثم هو فضلاً عن ذلك مادي جشع قد احتكر لنفسه إيراد المطعم والمقصف وتنظيف الأحذية لقاء ما يقول به من إدارة بريئة وإشراف نزيه!. وقد لا يكون في ذلك إثم كبير لولا ما يقدم للتلاميذ من طعام سيئ، ولولا ما يحملهم به على هذا الطعام وذلك التنظيف من ألوان العسف والامتهان والحرمان والتعنيف مما لا أول له ولا آخر

وأما المدرسون فهم مجموعة متنافرة يطغى فيهم العنصر غير الفني على الفني، لأن فيهم راسب الكفاءة والبكالوريا أو حاملها مع فريق من سيدات ورجال التعليم الإلزامي ممن لم يجدوا عملاً في الحكومة فجاءوا إلى هذه المدارس الابتدائية الأهلية يلتمسون فيها عيشاً. ويضاف إلى أولئك وهؤلاء واحد أو اثنان من الفنيين لإدارة حركة المدرسية بهذا (الطقم) العجيب الذي لا استعداد فيه للتعاون والعمل بتلك المبادئ التي اصطلح الناس على أنها أصول للتربية الصحيحة والتعليم السليم! فماذا تريد بعد هذا وقد رأيت الرأس معتلاً والأعضاء خائرة منهوكة؟ قل ما شئت من إرهاق لهؤلاء المدرسين ومن انتدابهم ليعملوا ككتبة في شئون الجمعية الخاصة والعامة. وقل ما شئت من تضافر القوى في الجمعية على

امتهان المدرس ذي الكرامة وإحراجه بتلفيق التهم ونصب الأشراك. وقل ما شئت من تدخل المدير العجيب في الشئون الفنية الخاصة وصبغة للنظام العام بهراوته المضحكة وبشخصيته المادية المتناقصة وبميوله النهمة الغادرة، حتى لتشعر أنك في عصابة أو مارستان. ثم قل أيضاً ما شئت من التظاهر أمام حضرات المفتشين بما ليس موجودا، ومن وضح خزانات بغير ماء في المراحيض كدليل على النظافة وتوفية الشروط!!. أما التلاميذ المساكين فما أقل ما يتناولون من الكتب والكراسات! وما أكثر ما يدفعون من الضرائب والإتاوات! وما أشد ما يتحملون من الكلمات والضربات! وما أخطأ ما يعاملون به من طرق لا تكون العقل ولا تبني الشخصية ولا تهذب الشعور! ستعجب مما أقول، وستتخيل أنه إنما كان بالأمس البعيد ولا وجود له اليوم. وسأقول لك إني لمسته بيدي منذ عامين اثنين ولقيت منه الأمرين وخرجت ثائراً علية عندما لم أقو على العيش فيه. وإذ كانت الوزارة قد خففت كثيراً من مثل تلك الفوضى بأعمال رقابة التعليم الحر فإن العيب لم يزل جسيماً، ومجال التلاعب والعبث واسع عريض، وممارسة التربية كفن صحيح سليم لا تكاد تتحقق في هذه المدارس ألا شذ وندر وقد تسأل بعد هذا عن تلك الأقوال الكثيرة التي تجنيها الجمعية من إعانة الوزارة ومصرفات التلاميذ؟ وسأقول لك سل العمارات الشاهقة التي يبنيها المدير أو يفاوض في شرائها وسل المدرسين المساكين الذين يتناولون الأجر الضئيل ويشاهدون التضخم الهائل الشديد. وسل تلك الأبنية الرطبة القذرة التي يحشدون فيها التلاميذ بغير حساب!!

ثم ليت الوقت يتسع لأقص عليك طريف ما يحدث في تلك الدور، أو ليته يسمح بإخبارك أن الطلبة في المدارس الثانوية الأهلية كالوحوش يرهبهم الناظر لأنه يبغي مالهم، ويخشاهم الأستاذ لأنهم لا يرهبون أحد؛ نعم ليته يتسع أو يسمع بذكر هاتيك المخازي الكثيرة التي أسمع عنها كل يوم هنا وهناك فحسبك اليوم ذلك، وإلى اللقاء حيث أحدثك عن ناحية أخرى

(يتبع)

محمد حسن ظاظا

مدرس الفلسفة بشبرا الثانوية الأميرية

بين الرافعي والعقاد

للأستاذ محمود محمد شاكر

- 3 -

ثم ماذا؟ ثم يقول الأستاذ سيد قطب في ثالث أدلته على أحكامه: (يقول العقاد في طرافة ودعابة عن حِسان شاطئ استانلي!!

ألقى لهن بقوسه ... قزح وأدبر وانصرف

فلبسْنَ من أسلابه ... شتى المطارف والطرف

فلا يجد الرافعي في هذه الطرافة إلا أن يتلاعب بالألفاظ فيقول: فقزح لا يلقي قوسه أبداً إذ لا ينفصل منه قال في اللسان: (لا يفصل قزح من قوس). فإذا أمتنع فكيف يقال: (أدبر وانصرف)ـ أما قزح العقاد، فلعل الخواجه قزح المالطي مراقب المجلس البلدي على شاطئ استانلى الذي قيلت فيه القصيدة

ثم يقول إن هذا المثال (فيه تلاعب وروغان، وهو في هذه المرة (التلاعب) أخسُ من السابقة، ففي الأولى كان تلاعباً بصورة ذهنية، وهو هنا تلاعب بألفاظ لغوية!)

أولاً، فمن ذا الذي يغفل عن طرافة هذا (الخيال) الذي يتصور (قزحاً) ملقيا بقوسه لهؤلاء الحسان، وهن يتناهبن هذه الأسلاب، بينما هو مدبر منصرف مغلوب على أمره، لا يستطيع النصفة ممن غلب جمالهن جماله!

ألا تستحق مثل هذه الطرفة، ومثل تلك الحيوية! من الناقد إلا أن يذهب إلى القاموس أو اللسان، ينظر هنالك، هل يفصل قوس عن قزح أو لا يفصل؟ ثم يكمل الكلام بتهكم بارد لا يرد على الفطرة المستقيمة في معرض هذا الجمال!!

أهذا هو النقد الذي هو (أقرب إلى المثال الصحيح)؟ وما قلته في المثال الثاني يقال بنصه هنا، فلترجع إليه جماعة الأصدقاء

ثم يعود فيقول عن هذا المثال أنه يمثل (تلاعبه بالألفاظ اللغوية، والوقوف بها دون ما تُشعه في الخيال من صور طريفة) انتهى كلام الأستاذ الجليل

ومن أعجب العجب أن يعد اعتراض الرافعي ونقده هذا البيت تلاعباً بالألفاظ اللغوية، ولا يكون هذا الشعر نفسه قد بُني على التلاعب في غير طائل، وعلى تكلف اللفظ لترميم قافية
البيت. وأول ما نقول في هذا أننا نخالف بعض رواة العربية ثم الرافعي في أن يلزم أحد هذا الحرفين صاحبة على كل حالة وفي كل ضرب من ضروب القول
وبيان ذلك أن لأصحاب العربية في هذا الحرف (قُزَح) ثلاثة اوجه من الرأي:
الأول: أن (قزح) اسم شيطان، أو أسم ملك موكل به والثاني: أن (القزح) هي الطرائق والألوان التي في القوس، والواحدة قزحة
والثالث: أن يكون من قولهم: قزح الشيء وقحز إذا ارتفع قلت: وكأنهم أرادوا أن يجعلوه معدولا به عن (قازح)، وهو المرتفع
ففي الوجه الأول لا يضير أن ينفصل الحرفان؛ إذ كان (قوس) أسم جنس، و (قزح) أسم علم بعينه، وأضيف أحدهما إلى الأخر إضافة نسبة. فهو بمنزلة قولك (كتاب محمد). ومن هنا جائز أن يبدلوا تسمية العرب الأوائل فقالوا له:) قوس الغمام) و (قوس السحاب). ويقول أبن عباس رضي الله عنه: (لا تقولوا قوس قزح، فإن قزح من أسماء الشياطين. وقولوا (قوس الله) عز وجل. وعلى هذا يجوز قول القائل: (ألقى قُزح قوسه) بإضافة القوس إلى ضميره. على أن الشيطان، أو الملك الموكل بالقوس. قد ألقى (قوسه)
وأما الوجه الثاني والثالث فلا يجوز الفصل معهما البتة على إرادة (الاسم) الذي تعرف به هذه الطرائق المتقوسة التي تبدو في السماء. فأن الحرفين في حالتهما ينزلان منزلة الكلمة الواحدة إذ ذاك. وللقول في هذا مجال ليس هنا مكانه ولا أوانه.
ونحن نرى أن العقاد قد ذهب - وإن لم يرد ذلك - إلى الوجه الأول، وأن شعره يحمل على رأي جائز في العربية
هذا، قد ذهب الرافعي في نقد بيت العقاد إلى رأي أصحاب اللغة في امتناع الفصل بينهما، وأن الحرفين كالكلمة الواحدة على تتابعهما. وعلى ذلك لا يقال (ألقى (قُزح) قوسه) وأولى إذن أن لا يقال إن (قُزح) أدبر وأنصرف، لأنه ليس بذاته يُدل على معنى، أو يقع اسماً لشيء بعينه؛ فهو إذن لا يجوز عليه الإسناد إسناد الخير أو الفعل كالإلقاء والأدبار والانصراف: فأين التلاعب في هذا الرأي باللفظ اللغوي؟ ولو قد كان وقع في بعض كلام الرافعي فصل أحدهما عن الأخر لأمكن أن يقال إنه يتلاعب باللفظ، ولكن ذلك لم يكن. . .!
وأما الأستاذ العقاد فقد نقد رواية قمبيز في سنة 1932، وجعل من ملاحظاته أن هذه الرواية (لم تخل من مخالفة للنحو والصرف في القواعد المنصوص عليها)، وأتى في هذا الموضع من نقده بما خطأ فيه شوقي وليس بخطأ.
يقول شوقي على لسان أحد المجان (ص 32)
ألقدحا ألقدحا ... الخمر تنفي الترحا
قصراً أرى أم فلكاً ... وشجراً أم قُزحاً
ثم علق (شوقي) في الوجه (32) نفسه فقال: (قالوا: إن قزح لا يفصل من قوس، ولكن الناظم لم ير بأساً في فصله لسهولته وكفاية دلالته) انتهى. ونحن نجيز هذا في العربية ولا ننكره
قال ذلك شوقي في التعليق، ثم جاء الأستاذ العقاد في كتابه (رواية قمبيز في الميزان) يقول ص15 (. . . ويقول (قُزَح) ولا تذكر قزح إلا مع قوس). وبين أن كلام الأستاذ العقاد ليس عربي العبارة، فإن أصحاب العربية منعوا (فصل) قزح من قوس، ولم يمنعوا (ذكر) قزح إلا مع قزح. والفرق بين اللفظين كبير. وبينٌ أيضاً أن هذا ليس نقداً فإن لم يأت بأكثر من تكرار ما ذكره شوقي في تعليقه، وكان الوجه أن يبين فساد رأي (الناظم) إذ لم يرى بأساً في الفصل للعلة التي ذكرها
ومع ذلك. . . فقد كان نقد العقاد في يونيه سنة 1933، ولم تمض ستة أشهر أي في يناير سنة 1933 حتى فصل العقاد نفسه بين (قزح) وقوس في شعره هذا!! فلعل هذا أن يكون بالتلاعب بالألفاظ اللغوية أشبه، بتصريف النقد على الهوى أمثل. وأما بيتا العقاد:
ألقى لهنّ بقوسه ... قزحٌ وأدبر وأنصرف

فلبسن من أسلابه ... شتى المطارف والطرف
فقد بُنيا على ألفاظ يدفع بعضها بعضاً عن معنى يولده - من لفظ (القوس) التي هي من آلات القتال. وكان سبيل التوليد هكذا: القوس من آلات القتال، واستعيرت للطرائق في السماء مضافة إلى (قُزَح)، فيكون ماذا لو أنشأ من لفظ هذا القوس صورة للقتال بين (قُزح) وبين جميلات الشاطئ أستانلي؟ ويكون ماذا لو زعم أن الجميلات انتصرن على (قزح) صاحب القوس فألقى سلاحه ثم أدبر وأنصرف؟ ويكون ماذا لو جعل ألوان (قوس قزح)
أسلاباً كأسلاب المحاربين في القتال ظفر بها الجميلات بعد انهزام (قزح)؟ ويكون ماذا لو زعم أنهن اتخذن هذه الألوان مطارف وطرفا يلبسنها ويتحلين بها؟ وهكذا وهو توليد كما ترى وتوليد من لفظ واحد. ونحن لا نرى بأساً - وإن كنا لا نرتضيه - أن يأتي الشاعر بالمعاني مولدة من ألفاظ اللغة، فإن من بعض اللفظ بالعربية لما يضرم الفكر ويؤرث المعاني ويستفز الخيال إلى أعلى مراتبه. على أن هذا لا يتحقق إلا أن تستقيم الطريقة للفكرة، وبتراحب المجال للمعاني، ويسمو المدى بالخيال، على أن تصح المقابلة بين معاني اللفظ وسائر الصور التي تتولد منه.
والمقابلة في هذا الشعر فاسدة باطلة. فهي مقابلة بين (قزح) وبين الجميلات على شاطئ أستانلي، ثم بين الطرائق المقوسة ذات الألوان في السماء (القوس) وبين ما ترتديه الجميلات من مطارفهن. وكان حق المقابلة أن يكون (قزح) هذا مشتهراً بالجمال موصوفاً به، حتى إذا ما ذكر في معرض الكلام عن الحسان الجميلات تمت المقابلة بينه وبينهن. فإن لم يكن ذلك كذاك، فلا أقل من أن يكون في الشعر ما يدل على سبب (حالة الحرب) التي أنشبها الشاعر بين حسان شاطئ ستانلي، وبين العم (قزح)، ثم ما كان من علة لإلقاء سلاحه ثم انهزامه وإدباره
فأما إذ لم يكن (قزح) جميلاً، ولم يأت الشاعر بسياق جيد لهذا التوليد، فقد بطلت الأفعال التي أسندها إلى (قزح) من إلقاء قوس وإدبار وانصراف، وما أضافه إليه من الأسلاب، وصار كله لغواً لا فن فيه. وهذا الضرب خاصة من ضروب الشعر الذي يتضمن التصوير والوصف لا يأتي جيده إلا على دقة الملاحظة، وتقدير النسب بين الألفاظ والمعاني والصور. فلو أقتصر الشاعر فجعل (قزح) يهدي إلى الحسان تحاسين قوسه، فاتخذن منها (شتى المطارف والطرف) لكان أجود وأقرب إلى الإتقان. أما إعلان الحرب بينهما فليس جيد ولا براعة فيه كما رأيت
وقد أجاد أبن الرومي - ويقال أنها لسيف الدولة - إذ يقول:
وقد نشرت أيدي الجنوب (مطارفاً) ... على الجو دُكناً، والحواشي على الأرض
يطرزها (قوس السحاب) بأصفر ... على الأحمر في أخضر وسط مبيض
كأذيال خودٍ أقبلت في غلائل ... مصبغة والبعض أقصر من بعض
وهو قريب جيد في الوصف
ونحن لا نذهب مع الأستاذ قطب فيما يتخير من اللفظ لوصف هذا الشعر وما فيه، بذكر (الطرافة) و (الدعابة) و (الخيال) و (الحيوية) و (معرض الجمال)، وما إلى ذلك من ألفاظ لو أقيم ضدها مكانها لقام، إذ كان لا يبين أسبابها ولا يوجه معانيها ولا يأتي كلامه في مثل ذلك إلا على طريق صاحب كتاب (الوشي المرقوم في حل المنظوم) إذ يقول: (أولا فمنذا الذي يغفل عن طرافة هذا (الخيال) الذي يتصور (قزحاً) ملقياً بقوسه لهؤلاء الحسان. . . الخ)
وقد وضح الآن أن ليس في كلام الرافعي تلاعب بالألفاظ اللغوية، وأنه ليس في هذه الألفاظ (ما يجعلها تشع في الخيال صوراً طريفة)، وذلك لما ذكرنا من تخالف ألفاظها وتدافعها وبعد صورها عن جودة التوليد، إذ كانت هذه الصور مولدة من اللفظ على غير نسق متصل أو طراز جميل ثم. . أتى الأستاذ قطب بالمثال الرابع فقال: (ويسمع العقاد صيحات الاستنكار للهو الشواطئ، وما تعرض من جمال، فيصيح صيحة الفنان الحي المعجب بالحيوية والجمال:
عيد الشباب، ولا كلا ... م، ولا ملام، ولا خرف
فإذا الرافعي يقول: (إن غاية الغايات في إحسان الظن بأدب العقاد أن تقول إن في هذا البيت غلطة مطبعية، وأن صوابه:
عيد الشباب، فلا كلا ... م، ولا ملام، (بلا قرف)!

ثم يقول بعد إن هذا المثال يغنيه الرافعي عن الحديث فيه (فهو لم يزد على أن أورد البيت، ثم أستغلق دون استيعاب ما يعبر عنه من روح الفنان الحي، الموكل بالجمال حيثما وجد، وكيفما كان، الهازئ بخرف التقاليد وقيود العرف، ولم يجد ما يقوله إلا (بلا قرف) وهو قول لا تعليق لنا عليه)

ثم يعود فيقول: إن هذا يمثل هروب الرافعي (من مواجهة النقد الصحيح إلى المراوغة وكسب الموقف - في رأيه - بنكتة أو تهكم أو شتيمة)

وأنا لا أعجب لكلام الأستاذ سيد قطب، لأنه على طريقته في حل المنظوم، وإن أعجب فعجبي لصاحب (وحي الأربعين) كيف أرتضى أن يثبت البيت في قصيدته، وفي عقب هذه القطعة بالذات، وينتقل من الوصف والتأمل وإمتاع النظر، وإمداد الفكر بأسباب من الجمال، أو كما يقول الأستاذ قطب من الطرافة والدعابة والخيال والحيوية! إلى صيحة الاستنكار والتفزع بقوله: (فلا ملام ولا كلام) ثم الغضب الذي لا يتورع في قوله: (ولا خرف). إن هذا الانتقال ليس من منطق الفن ولا من نهجه وسبيله

وما أظن الرافعي أراد، ينقد البيت - لأنه ليس بسبيل مما يحسن أن ينقد، وإنما وضعه هكذا للعقاد وهو يريد ما قلناه في كلمتنا الأولى مما جرته العداوة التي اضطرمت بينهما

وبعد فقد قرأت كلمة الأستاذ الجليل المهذب سيد قطب في البريد الأدبي من العدد السالف من الرسالة، وقد أعلن فيها بعض رأيه فيما نكتب، وحكم بحكمه على ما قلناه، وحاول أن يتهكم، ووعظ وذكر. ونحن ندعه لما به عسى أن يرى يوماً غير هذا الرأي وله الشكر أحسن أو أساء

محمود محمد شاكر

بين العقاد والرافعي

للأستاذ سيد قطب

- 4 -

الآن تحدث الأستاذ شاكر - حديثاً ما - في الموضوع الذي نحن بصدده، وإن كان حديثاً (رافعياً) على الطريقة التي بينت ما فيها من استغلاق وقصور، ولكنه على أية حال شئ غير اللمز والتعريض - وإن لم يخل منهما - فالآن يستطيع الإنسان أن يلقي باله إلى هذا الذي قيل

ولما كانت لي بقية من حديث عن الرافعي، فسأجعل نقاشي مع الأستاذ شاكر، بقية لهذه البقية في كلمة أخرى

وعدت أن أعرض من أساليب الرافعي نماذج غير ما عرضت تأخذ في نهج آخر، ولكنها تصل إلى الهدف الأول، من إثبات طبيعته كما عرفها، بالنماذج والأمثلة

وأنا ماض في طريق هذا، لا يحولني عنه ما يبدو من بعض أصدقاء الرافعي من تعريض أو إثارة؛ ولن يستفزني ما يكتبون فأحيد عن نهجي الهادئ

وطريقتي في هذا الموقف أن الرافعى قد مات، وله نوع من الأدب، فسأناقش أدبه هذا، وما يدل عليه من نفسه وذهنه نقاش الناقد المطمئن لما يقول

وله أصدقاء أحياء، فسأناقشهم حسبما يكونون هم: نقاداً أو متهجمين. ولن أخلط بينه وبينهم في الحساب، فلا ذنب للرجل فيهم، ولا تبعه علية بعد موته فيما يصنعون!

. . .تلك طريقتي. وهي ترضيني!

قلت: إن الرافعي أديب الذهن، ولكنه الذهن الملتوي المعاظل المداحل. واليوم أقول هذا، وأزيد عليه: أنه (الذهن الشكلي) الذي تلهيه الأشكال والسطوح عن الكنه والأعماق، والذي لا يلمح فرقاً بين صورة وصورة، مادام ظاهرهما متشابهاً. فإن أراد أن يطبق أمراً على أمر، أخذ في قياس الزوايا والخطوط ولم يلق باله لحظة إلى ما في طبيعة كلا الأمرين من خلاف أو زيادة ونقص في بواطن الأجزاء. وإليك البيان:

كوكب لا يشرق إشراقه ألا في الليل والظلام، و (الحبيبة) تعود الناس أن (القمر) يشبهوها بالقمر و (هي) لا تشرق إشراقها إلا في إبان (الحب)

فإذا شاء الأديب أن يعقد من هذه الأطراف تشبيهاً، وجد قمراً يشرق إذا جن (الظلام) ووجد حبيبة تشرق إذا (توهج الحب) فكان لا بد من التصرف في التشبيه

ولكن الرافعي لا يتصرف؛ فما دام القمر يجلوه الظلام، فالحب إذن (ظلام) لأنه يجلو حبيبته، وسينساها متى انقطع عهد الحب وتختفي من أفقه، كما أن القمر يخفى إذا

طلع الصباح. وهكذا يقول:
يا من على الحب ينسانا ونذكره ... لسوف تذكرنا يوماً وننساكا
إن (الظلام) الذي يجلوك يا (قمر) ... له (صباح) متى ندركه (أخفاكا)
فأما البيت الأول فمأخوذ عن العقاد الذي لا يعجب الرافعي شعره! وأما الثاني فهو الذي يعنينا. وفيه ترى (الذهن الشكلي) الذي يستسيغ أن يجعل فترة الحب (ظلاماً) كالليل، فترة انقطاعه (نوراً) كالصباح، لا لشيء إلا لأن القمر المشبه به يشرق في الليل ويخبو بالنهار
والحب الذي هو ظلام، لا يحتاج للتعليق، فما يوجد حب في الدنيا تظلم به الأرواح .ولكن الرافعي هكذا يقول . . !
وليست هذه خطرة عابرة تلتمس لها الأعذار فإن لها أشباهاً في هذه (الخاصية) يقول الرافعي عن (حبيبته) بعد عدة جمل مملوءة بقياس الأبعاد والجهات والزوايا:
فكأنها في كل ذلك دائرة مرسومة من الفكر لا يهديك البحث إلى موضع طرفيه هي) (محيطة بروحك من ثلاث جهات فلم يبق لك إلا الجهة التي تتصل روحك منها بيد الله
فدعك من مدلول هذا الكلام وقيمته من (إنسان يحب) أو (يصف الحب)؛ ودعك من أنه كلام ذهني لا ينبض بحياة، ولا يدل على خلجة في الشعور، أو نبضة في الضمير، ولا يتعدى أن (متكلماً) يصور في (الذهن) أشكالاً تقع أو لا تقع، ولكنها يمكن عقلاً أن توجد، كفروض المناطقة
دعك من كل هذا، وتعال وأنظر كيف يتصور الرجل العوالم الروحية، أو العوالم الذهنية. . أنه يتصور لها جهات. ولا بد أن تكون هذه الجهات الأربعة كالموسومة في علم الجغرافيا بالجهات الأصلية، وأنه متى أحيط الإنسان بثلاث منها فلم تبقى له إلا واحدة وهي الجهة الرابعة!
ولا يتأتى له أن للحياة - ولا سيما في فترة الحب - ألف جهة وألف منفذ، وأنها تؤتى من
هذه الجهات والمنافذ، ومن مسارب أخرى ومنعرجات وكُوىً ومداخل لا عداد لها. لأن الذي يتأتى له ذلك لا بد له من (نفس)، ومن (حس). أو لا بد له على الأقل من (ذهن) مشرق مرهف، لا تحده الأشكال الصماء.
على أن هناك خطأ نكشفه من باب الدعابة، (فالدائرة) ليست لها أربعة جهات كما تصور الرافعي، حتى إذا أحيط الإنسان من ثلاث لم تبقى إلا الرابعة، إنما يكون ذلك في (الأشكال) الأخرى، كالمربع والمستطيل!!
وبسبب من هذا يأخذ قوله عن الناس:
وألبسهم على تفصيلهم قصاراً أو طوالا، كما خرجوا من شقي المقص: المجتمعين من) (الليل والنهار تحت مسمار الشمس
أرأيت إلى (استيفاء (الأشكال) في التشبيهات؟ الليل والنهار كالمقص، في تفصيل الناس قصاراً وطوالا. . . لا باس! ولكنه تذكر أن للمقص المستعمل (الآن) مسماراً في وسطه فلا بد أذن من (مسمار) في المشبه؛ وهذا المسمار هو الشمس وبذلك يتم (الشكل) بالدقة بين عمل المقص، وعمل الليل والنهار، وبين تركيبه وتركيبهما مع الشمس كذلك!
ولن يخطر على بال الرافعي أن الليل والنهار وتحت الشمس من الظواهر الأزلية العميقة، وأن بناءها هكذا عمل سرمدي دائم من بدء الخليقة إلى نهايتها. أما بناء المقص فهو شكلي ووقتي؛ ليس بلازم أن يكون هكذا أبداً، كما أنه ليس بلازم أن يكون (التفصيل) بأداة واحدة هي المقص وهي على هذا الشكل؛ وما بين يوم وليلة تتغير الأدوات والآلات! فما تكون الشمس إذ ذاك؟
لا. لا شيء من ذلك يخطر على الذهن، ما دام الشكل مستوفي بكامل أجزائه وأوضاعه. وتلك هي العناية بتصوير الحقيقة الوقتية العارضة دون التفات إلى الحقيقة الأزلية الدائمة. وهذا ما أشرت إليه في أول المقال!
ويبدو لي أن الرافعي كان شديد الأثر في تلاميذه من ناحية (الأشكال)؛ فما هو ذا الأستاذ سعيد العريان يكتب عنه من كلمته الأخيرة بالرسالة فيقول:
فكان يرسل عينه وراء كل منظر، ويمد أذنه وراء كل حديث، ويرسل فكره وراء كل) (حادثة، ويلقي باله إلى كل محاورة

فهو قد أراد بهذا أن يستوفي جميع أشكال التنبه والاستيعاب دون أن يلاحظ الصدق والواقع وما يمكن تحققه من هذه الأشكال بالنسبة لمن يتحدث عنها. ذلك أن المرحوم مصطفي صادق الرافعي لم يكن (يمد أذنه وراء كل حديث) كما يعرف من يعرفه؛ ولم تكن هذه الحاسة من أدواته في التنبه والتأمل، فكان من (الصدق) ألا تذكر دون أن يضيره هذا أو يعيبه، إذ كان هذا مما لا يعاب. غير أن أحب استيفاء جميع الأشكال والفروض هو الذي يدفع الأستاذ سعيداً إلى هذا التفصيل

وليس ذلك بقليل الدلالة على هذه الظاهرة في مدرسة الرافعي؛ وما قصدت بإثباتها أن ألمز الرجل كما قد يفهم بعض ذوي الطبائع المنحرفة، فأخلاقي - على الأقل - لا تسمح لي باللمز، ولكني أردت إثبات الظاهرة في أحد تلاميذه، بفلته عارضة غير ملتفت إليها، وهي عميقة الدلالة على اتجاه المدرسة كلها

وقد أسلفت أنني تلقيت نبأ (حب الرافعي) بكثير من الدهشة لأن (الحب) يتطلب (قلباً) وهو ما كنت أفتقده فيه.

والآن أقول: إنني بعد أن فحصت عن هذا (القلب) في (رسائل الأحزان)، لم أجد له ظلاً؛ ثم وجدت هنالك رجلا لا (يفهم) عن الحب شيئاً، ولا يدرك أثره في النفس حية ولو من باب الدراسة والملاحظة

وإليك البرهان:

ليس أدل على الجهل بطبيعة الحب من تصويره ظلاماً كما مر وهو النور المشرق الذي يفتح النفس والذهن والعين على عوالم لا عداد لها ولها شطآن. فإذا جاز أن نقول من باب الدعابة: أن التشبيه هناك كان أعز من الرافعي من الحب، وإن (الصنعة حكمت) كما يقولون! فكيف نقول في تشبيه الحب بعد ذلك بالموت حين يقول:

(ولكن هناك موتاً لا ينقل من الدنيا إلى الآخرة، بل من نصف الدنيا إلى نصفها الآخر . . وهو من أسرار الإنسانية عكس ذلك (الموت) لأنه أظهر ما خفي وهو الحب) فما معنى أن الحب (موت عكس الموت؟) وأنه لا ينقل من الدنيا إلى الآخرة ولكن من نصف الدنيا إلى نصفها الآخر؟ العب بالألفاظ أم (شقلبة) في الأشكال؟ وعلى أية حال فأين الحب في كل صوره وأشكاله، من الموت في كل صوره وأشكاله، حتى يسوغ لإنسان أن يجد وجهاً للشبهة بين هذا وذاك؟

إن الحب من صميم الحياة بكل ذراته وآثاره؛ ولن يكون موتاً أبداً لا في الخارج ولا في الضمير. وألف سفسطة في التخريج لا تفسر اقتران الحب بالموت في (ذهن) من الأذهان! ويقول:

(وما من أحد في الأرض يستقيم طبعه على الجمع بين هم الحب وهم الحياة، فإن قام بواحد زاغ من الآخر لا يبالي به، إذ هما حقيقتان متدافعتان كتياري الكهرباء، لو أمكن شيء، من المستحيل، لما أمكن أن يطردا في سلك واحد، أطرادهما في السلكين)

هذه قولة الرافعي وهي دليل لا ينقض على أنه لم (يحس) الحب في حياته، ودليل كذلك على أنه لا (يفهم) إحساس الحب في سواه، ولا يحسن تعليل ظواهره وتفسير دوافعه، ككل ذي ذهن مشرق مستقيم

هو يرى أن الذي يحب يستخف بهموم الحياة، حتى يخيل إليه أنه نسيها. فيفهم من ذلك أن هم الحب قد طردهم العيش، لأنهما متناقضان متدافعان. وذلك في (الظاهر) وفي (الشكل) الصحيح ولكن الحقيقة الباطنة أن الحب يضاعف القوى الباطنة ويفسح في الحياة ويعمق جوانبها فتخف تبعا لذلك على النفس هموم الحياة، حتى يخيل لصاحبها ذاته أنه ينساها

فليس عن تضاد بين الهمين ولا تدافع ينشأ هذا الشعور، ولكن عن فسحة في النفس، وقوة في الحس لا تضير ولا تتبرم بهموم الحياة، لأن النفس أصبحت أكبر وأرحب منها فلا تحس بها وكل شيء نسبي بين القوه والمقاومة

وهذا هو التعليل (الإنساني) والتعليل (النفسي) الذي لا يدركه أدباء الذهن الكليل. ومن هذا النحو قوله:

(فأن في كل عاشق معنى مجهولا، لا يحده علم، ولا تصفه معرفة، وهو كالمصباح المنطفئ ينتظر من يضيئه ليضئ، فلا ينقصه إلا من فيه قدحة النور، أو شرارة النار. وفي كل امرأة جميلة واحدة من هذين)

فهكذا يتصور الرافعي أن المحب عند تهيئه للحب، يكون كالمصباح المنطفئ الخامد الهامد، وقدحة النور أو شرارة النار، إنما تأتي له من (الخارج) وليست كامنة في (ضميره). وهذا التصور يتمشى مع خواء الرافعي وسطحيته

أما الحقيقة الروحية التي يفهمها ذوو (النفوس) فهي أن الحب فيض في النفس، وامتلاء في الشعور، يحس معه الإنسان أنه بحاجة إلى صلة إنسان آخر، لكي يفيض على هذا الإنسان من القدر الفائض في نفسه ويعطيه مما يزخر به شعوره؛ فالمصباح حين التهيؤ للحب لا يكون منطفئا خامدا هامدا بل يكون موقدا مشرقا يبحث عمن يفيض عليه من نوره، ويبذل له من إشراقه ووميضه. وحقيقة أن (الجميلة) التي يصادفها إذ ذاك تزيد في إشراقه وتوهجه، ولكن كما يزيد الزيت في لألأة المصباح الموقد، لا كما تصنع الشعلة في المصباح المنطفئ

وهذا هو الحب في الحياة، أما الحب في (الذهن) وحده فقد يكون ذاك!

والرافعي في زحمة الحب، وفي فيضه وأنبساطه، لا ينسى عالم الحقد الضيق، ولا رقعة الغيظ المحدودة، فتلمس في كلماته ونبراته صوت تضريس الأسنان من الحنق، وتنزى الأعضاء من الضغن، وذلك شأن غريب

نعم غريب، فقد كان مفهوما أن يبلغ به الضغن والحقد على العقاد أن يحجم عن شراء (وحي الأربعين) كما حكى تلميذه العريان، ولكن الذي لا يفهم أن تلازمه طبيعة الحقد وهو في معرض الحب والحقد تيبس في الشعور

ومن أراد أن يعرف أهم أسباب الحقد في نظر الرافعي، وأظهر دوافعه، فليعلم أنه فوقان إنسان على إنسان في النتاج الأدبي! ولعل هذا سبب ما بينه وبين العقاد! فهو يقول عن (حبيبته)

(ولو أن الله مكنها من لغة كتابه الكريم، لغص منها في هذا الشرق العربي كل كاتب وكاتبة غصة لا تساغ ولا تتنفس)

أي لو أن هذه المرأة كانت متمكنة من دراسة اللغة العربية لما كان الأثر الذي تخلفه في نفس كل كاتب وكاتبة بلا استثناء إلا الغصة التي لا تساغ ولا تتنفس

هكذا لا تسمح طبيعة الحقد الأصلية أن تتصور أن إجادة الأديب تهيئ له معجبين بأدبه، أحباء إليه، كلا، بل لا بد من الغصة في صدورهم. وأية غصة؟ هي التي لا تساغ ولا تتنفس. . .

وهكذا كان الرافعي مع العقاد! إن فلتات اللسان، تظهر كوامن الإنسان؛ وهذه فلتة كشفت

عن الرافعي في أعماقه، وأرتنا أهم عناصر حقده، ولكنها ليست الوحيدة فأسمعه يقول:

(نصيحتي لكل من أبغض من حب، ألا يحتفل بأن صاحبته (غاظته) وأن يكبر نفسه عن أن يغيظ امرأة. إنه متى أرخى هذين الطرفين سقطت هي بعيداً عن قلبه، فأنها معلقة إلى قلبه في هذين الخيطين من نفسه)

أرأيت!. . . إن الحبيبة بعد انقطاع الحب، لا تتعلق بنفس من كان يحبها إلا بخيطين اثنين: غيظها له، وغيظه لها! ولا شيء وراء ذلك!

أما أن تكون معلقة بالذكريات المختلفة الألوان، وبالساعات والدقائق والثواني التي ضمتهما في عمرهما، وبالآمال المحطمة في قلوبهما، وبالفجيعة الدامية في حبهما، وبالصور المتعاقبة من إقبالهما، وإدبارهما. . . ومن. ومن. مما لا يستطاع حصره بعد أن تهدأ فورة الحب في النفس، ويأخذ المحب في الاستعادة والتذكر والإحصاء والتسجيل - أما كل ذلك فلا وجود له عند الرافعي. وإنما يوجد خيطان اثنان من نسيج واحد، هو نسيج الغيظ والغل والحقد، والتيبس في الشعور!

وبعد فقد طال الحديث، ووراء هذه الأمثلة التي ضربتها، أمثلة أخرى من نوعها، وفي كل صفحة من الكتاب أمثال غيرها فلا داعي للتكرار

على أن هناك حديثاً عن (ذوق الرافعي) في التعبير وذوقه في النقد وموعدي به كلمة أخرى

(حلوان)

سيد قطب

نزاهة النقد
للأستاذ عبد الفتاح غندور
رأينا ما كتبه الأساتذة خصوم الرافعي وأنصاره فسرنا أن نلتمس النقد وساءنا أن نجد ما لا يرضي. وما كان لمثلي أن يلج هذه المعركة ناقداً أو حكماً قبل أن تنتهي لئلا يفوتني شيء من مواقفها فأصدر عن جهل فيما أحكم وأقايس، فأقع في السنة النقاد وأقلامهم، ويالها من ورطة حامية الوطيس إذ ذاك. غير أني آثرت الإقدام إذ وجدتني مضطراً - بعد تفكير - لتقديم رأي قبل أن تنتهي هذه المعركة، ويلوح لي أنها لا تنتهي، لعلي أصل إلى بعض ما يمكن أن يصل إليه حكم عدل وناقد بريء. فأقول:
قبل كل شيء يجب أن نعرف أن كل إنسان يستطيع أن يسيء وليس كل إنسان يستطيع أن يحسن وإذن فلا يصح أن يعتبر السوء يوماً ما أداة لمفخرة أو تكأة لمكرمة، لأن الناس كلهم فيه سواء ولأنه سوء أيضاً؛ وعلينا أن نتوسع في معنى السوء - كما نتوسع في معنى الحسن - ولندرك جميع شظاياه التي تفتك وتؤذي. وإذا توسع الأديب في ذلك أدرك الخطر وتسنى له أن يطير - كما يطير في كل مجال - إلى خيالاته العذبة ليفصل على جسم هذه الحقيقة ثوباً يليق، حتى إذا ما رأى حقيقة ماثلة بثوبها الخيالي الفخم أعطي كل شيء حقه ثم أهتدي إلى أن هذا الضرب من المعاملة الخشنة لا يجدي ولا يفحم، بل يؤذي ويؤلم، ولا سيما إذا كان مصدره الأدب والأدباء والنقد والنقاد
عاش الرافعي ليكتب أدبه ثم يموت؛ وقد أراد الله للرافعي أن يكون في هذه الدنيا عجباً، وشاء أن يجعل أدبه نسخة عجيبة لم ينسج على منوالها قلم لتكون مشكلة من المشاكل التي يختلف عليها الناس فيذهبون في تأويلها مذاهب شتى وللناس مذاهب فيما يعشقون
أما الرجل فقد مات، وأما أدبه فموجود، وأما آراء الناس فيه فكثير؛ ويعجبني التقدير للجهد والاحترام للأدب والإنصاف في النقد والحسن في الخلق. وإذا تم للرأي في هذا القانون والكامل أصدر عن روية ونقد في نزاهة وسبر غور الموضوع كالطبيب الماهر الذي كيف يحتال للجراحة وتفاصيلها ليصح المريض على يديه لا ليموت. وبعد ما مات الرافعي جعلت أرقب أقوال الناس، أرهفت أذاني وأيقظت نفسي؛ وكان أن كتب الزيات وغيره مقالاتهم في هذا الشأن فجثمت لقرأتها والتأمل فيها فأجتمع لي بعض الرأي وأعقب ذلك
فترة طويلة كان العريان فيها يكتب تاريخ الرافعي، على أنني كنت أرقب حلول مفتتح هذا العام لأقرأ مقالات الأدباء بمناسبة مرور عام على وفاته، فظفرت في الرسالة بمقالة عنوانها (بين الرافعي والعقاد) للأستاذ سيد قطب فالتهمتها التهاماً؛ ثم عدت مرة أخرى أروي تأملاتي فيها فلذ لي من الأستاذ أدبه وذكاؤه وصراحة ضميره، وتمنيت أن لو ضم إلي ذلك حسن المواجهة ولين المجابهة تجاه أخيه الأديب الذي هو شريكه في الشعور والفكرة والقلم. وأخذت أفكر في حسن هذه المواجهة وكيف يجب أن تكون؛ وقلت ما كان ضره لو قال قولاً أرق وأحسن وأدعى لحرية النزاهة: يا ليته ويا ليته. . . وأستميح الأستاذ أني كنت أخذت عليه ما كتب كما أخذت على الأستاذ محمود محمد شاكر ما أملاه في الرد أيضاً، ولكنه معذور بعض العذر لأن الجروح قصاص. ولو كتب الأستاذ شاكر رداً جميلاً أرق مما كتب فهل كان الأستاذ قطب يستمر ويزداد في غلوائه يا ترى؟ ولا أدري هل يحجني الأستاذ شاكر بأن الأستاذ قطب قد شن الغارة دفعة وغلا ثم غلا وتحدى أصدقاء الرافعي فكان لزاماً أن تحفظ كرامة الرجال وكرامة الشعور فرددنا عليه بما يلائم المقام؟
وهنا يجدر بي أن أذكر ما كان وقر في نفسي اتجاه أستاذي الكبير (الزيات) حفظه الله عند ما كتب الأستاذ قطب حديثه هذا. . . ليغفر لي سوء ظني على رغم أن لي مندوحة عن هذا الغفران بالتوبة المستورة، ولكن الأديب يلذ له إظهار ما يخفيه الناس. قلت في نفسي كان يحسن بأستاذنا أن يعتذر من نشر مقال الأستاذ قطب أو يكتب له كلمة على الأقل في هذا المعنى ويبين له فيها وجه الأحجية وحسن الاختيار في العدول عن هذه الخطة لا حباً للرافعي، ولا بغضاً للأستاذ قطب، بل تحرياً للأولى واحتياطاً لما سينجم عن ذلك كله. ولما صدر العدد 253 والعدد 254 وقرأت مقالي الأستاذ الزيات عن الرافعي أخذتني - والله - هزة الطرب ونشوة الأدب لما فيهما من الصفاء النقدي

النزيه الذي لا تشوبه ثورة ولا تخالطه كدرة، حتى لكأن هذين المقالين صورة روحية للرافعي لو صبتا في قالب الحياة لكانتا هما الرافعي نفسه. ولا تؤاخذني يا صاحب الرسالة فيما رميتك من سوء الظن. وما كنت أدري أن سماءك الصافية ستغدق وابلا من الخير والجمال والحياة تعلمنا فيه - معاشر المتأدبين - كيف نرتع في رياض الأدب الجميل الذي لا تصلح له إلا ملائكة السماء أو
ملائكة الأرض ليكون مثلا أعلى للناس دائما
ماذا يضيرني إذا قلت للمخطئ إنك مخطئ بدلا من أن أقول له إنك غبي. . . بليد. . . لا، بل يجب عليّ - وأنا أديب - أن أحتال في إفهام المخطئ خطأه من غير أن أصارحه به ما دام هناك شعور رقيق وإحساس مرهف. وما دمنا نحمل بين جوانحنا الإنسانية المتأدبة التي تحتم علينا الإحسان والرفق والمودة فلن نجد إلى غيرها سبيلاً
أرأيت ما الذي أثار الرافعي والعقاد تلك الثورة المشهورة؟ أليس رضاء النفس والشهوة والكبرياء بما حصل، أليست تلك زلة الإنسانية التي أبتلى الله بها البشر؟
آه! ما أحوجنا إلى أدب صاحب الرسالة عسى أن نلتقي جميعاً ذلك اللقاء المحبب ونضم تلك الأجنحة بعضها إلى البعض لتطير في آفاق الجمال واللذة والنور وندخل في عالمنا الحافل المليء بأعاجيب السحر وأناشيد الخلود، ذلك خير مستقر وأحسن موئلا
وأخيراً أرجو الأستاذ قطب أن يحسن بي الظن ما استطاع وألا يظن أني قصدته وحده فيما كتبته. إن ذلك عام ما خصصت به أحداً، وإنما كان الأستاذ قطب السبب في ذلك ليس غير، فله شكري وأخوتي ومحبتي هو وإخوانه الأدباء
(دمشق)
عبد الفتاح غندورة
ليلى المريضة في العراق
للدكتور زكي مبارك
- 19 -
طال انتظاري ولم ترجع ظمياء
وانقضى مساء وصباح، ومساء وصباح، ولم ترجع ظمياء
ومضت ثواني ودقائق وساعات وأيام وليال ولم ترجع ظمياء
وتقلبت دجلة من حال إلى أحوال ولم ترجع ظمياء
وطافت بالأشجار والأزهار والرياحين أطياف البؤس والنعيم ولم ترجع ظمياء
وطوفت بجميع المعاني، وتذوقت صنوف اللواعج، وتشوفت إلى جميع المطالع، ولم ترجع ظمياء
وتلقيت مئات الرسائل فلم تكن من بينها رسالة عطف أو اعتذار من ليلى أو ظمياء
أيكون هذا آخر العهد بليلى وظمياء؟
إني إذاً لمن الهالكين. كتب الله لوطني وأهلي جميل العزاء!
ولكن ما السبب في هذه القطيعة الباغية، وما أذكر أني أسأت أو جنيت؟
أيكون السبب تلك الكلمة الفكاهية التي داعبت بها ليلى بعد رجوعي من البصرة؟
ربما كان ذلك، فالمزاح كان ولا يزال من أشنع البليات، وما استطاع إنسان أن يجرح قلبي إلا عن طريق المزاح. والأحباب ينسون واجب الأدب فيتطاول بعضهم على البعض باسم المزاح؛ وذنبي في هذه القضية غير مغفور، لأني انقطعت لدراسة الفلسفة عدداً من السنين، وكان الظن أن أفهم أن المزاح على لطفه لا يخلو من اشواك، وقلب ليلى رقيق تؤذيه خطرات النسيم، فكيف لا يؤذيه المزاح؟
لو رجعت إلى ليلى لأحسنت الاستغفار من ذنبي، ولكن متى أرجع؟
لقد داعبتني ليلى ألف مرة فتقبلت دعاباتها بأحسن القبول، وكنت لجهلي أحسب أن ليلى سيرحب قلبها بمثل ما رحب به قلبي
فكيف أخلفت ظنوني يا منية النفس ويا روح الفؤاد؟
ما هذا؟ أنا داعبت ليلى قبل ذلك فلم تغضب، فكيف تكون الدعابة الأخيرة بداية البؤس ونهاية النعيم؟
إن من واجبي نحو هواي أن أدرس هذه القضية حق الدرس
وقد بدأت أفهم أن كلام الجرائد والمجلات أفسد ما بيني وبين ليلى كل الإفساد فقد مضت الشهور الطوال والجرائد تهتف باسمي في الصباح والمساء وظن الأدباء

العراقيون أن الفرصة سنحت لتصفية ما بيني وبينهم من حساب، وكنت أقرأ ما أقرأ وأنا أبتسم. كنت أقول: هذه يقظة أدبية واجتماعية أردّ بها ديوني إلى العراق. كنت أقول: هذه أقلام صدئت وقد حان لها حين الصقال، فليكن أدبي هو ذلك الصقال كنت أقول وأقول، ولكن التفكير في جوهره غير سليم

ما الذي كان يمنع من دفع مفتريات بعض الجرائد والمجلات؟

ما الذي كان يمنع؟ كنت مشغولاً بواجبات ثقال تكاد تقصم ظهري. ولكن هل تفهم ليلى أني مشغول وأن لي منهجاً يفرض ألا أخرج من بغداد إلا وفي حقائبي خمسة مجلدات؟ ينبغي أن أعترف بأن مركزي بين الأطباء لم يتزعزع بسبب الأدب وحده، وإن كانت حرفة الأدب قادرة على زعزعة العروش، وإنما وقعت النكبة وتقوضت عيادتي بشارع المدابغ وعيادتي بشارع فؤاد لعدم اكتراثي بما يكتب في الجرائد، وعدم اهتمامي بما يتقول الناس

وأصل البلية أني كنت أحسن الظن بعقول بني آدم - وهذا أعظم خطأ ارتكبته في حياتي - فقد كنت أظن أن الناس يميزون بين الحق والباطل فيما يقرءون؛ وكنت أتوهم أن أكاذيب المفترين لا تضرني، فكنت أقرأ ما يكتب عني بلا اكتراث، وأقول: هذه مفتريات ليس لها أساس، وما قام على غير أساس فمصيره التهدم والزوال وظل الحال على ذلك بعض سنين وأنا أصم أذني عن الأقاويل والأراجيف إلى أن دخل عيادتي مساء يوم مريض له شأن في المجتمع، ويكفي أنه أستاذ في أحد المعاهد العالية، فلما فحصته وشخصت له المرض اطمأن واستراح، فدعوته لتناول فنجان قهوة بالمكتبة فتفضل بالقبول، وفي الناس أن يتفضلون بالقبول وأنت المتفضل عليهم بالمعروف

وفي أثناء الحديث فهمت أن زوجته عليلة وأنه كان يود أن أمضي لعيادتها لولا خوفه من كلام الناس. وبعد مراجعتها فهمت أن مركزه العلمي ولم يعصمه من تصديق كل ما يكتب

في الجرائد فعرفت بعد فوات الوقت أن الاعتماد على عقول بني آدم ضرب من الخيال

إن من الجريمة أن نسكت عما يكتب عنا في أمة لا تنقد ما تقرأ، ولا تمحص ما تسمع. ومن الجريمة أن نسعى إلى الشهرة فإن الشهرة أصل كل بلاء والرجل المشهور يصدق الناس فيه كل بهتان، ولا سيما في الأمم التي تضعف فيهات الثقة بالأخلاق، ومصر التي نحبها راضين أو كارهين مبتلاة بهذه البلية، فأهلها لا يصدقون أن العبقريين والنوابغ أصحاب أخلاق، وما أزعم أني نابغ أو عبقري حتى أصبح أهلا لتلك الظنون، ولكني بالحق أو بالباطل صرت من أشهر الرجال وللشهرة عقابيل

كنت أستطيع مع كثرة الشواغل أن أدفع مفتريات بعض الجرائد والمجلات، ولكن صرفني عن ذلك إيماني بأن ليلى صديقة غالية، وأنها خليقة بالا تفتح أذنيها لما يصوبه الحاقدين ومن دسائس وأضاليل. ثم كتب الله أن أتلقى عن ليلى درساً لم أظفر بمثله وقد قضيت عشرين عاماً في الحياة الجامعية وتلقيت عن ليلى درساً عظيما جداً، وأنا أقدمه إلى قراء هذه المذكرات بالمجان وإن كنت دفعت ثمنها من دمعي ومن دمي، أنا العاشق الذي يعاني ظلام الحب وظلام الليل

استمع هذا الدرس يا قارئ هذه المذكرات استمع فما أرجو منك جزاء ولا شكوراً وإن كنت أتشهى أن تسكب على قبري دمعة يوم أموت؛ وسأموت، فلكل أجل كتاب

تعلمت عن ليلى أن الصديق في حاجة إلى حراسة، وأستطيع أن أقول أن حراسة الغنم أسهل من حراسة الأصدقاء، ولا يغفل عن حراسة صديقه إلا غافل أو جهول، وقد خلق الله لكل صديق أذنين طويلتين، وهاتان الأذنان لهما سمع دقيق، والصديق يحسبك من بعض ما يملك، فهو يسمع فيك كل قيل، كما يسمع في داره أوهام المهندسين، وكما يجتلب لأملاكه صغار المساحين، وهو يفرح لما يساق إليك من زور وبهتان، لأنه من بني آدم، وابن آدم حيوان ضعيف لم يعش بفضل القوة كما عاشت الأسود، ولم يعش بفضل الجمال كما عاشت الغزلان، وإنما عاش هذا الحيوان الضعيف بفضل المكر والدهاء

استمع هذا الدرس يا قارئ هذه المذكرات من الفيلسوف المودع، فما في دنياكم ما

يشوقني يا بني آدم حتى أستطيب فيها العيش
استمع يا غافل يا جهول
ليس في أصدقائك ما يسره أن تكون أعظم منه علماً أو جاهاً ليس فيهم والله ما يسره أن يكون إخلاصك في هواه أعظم وأروع
فالصديق - وا أسفاه - يتشهى أن يثبت لديه أنه أعظم منك في كل شيء ليتصدق عليك بالعطف والحنان
الصديق يرضيه أن يقول (أعطيت) ويؤذيه أن يقول (أخذت)
والأصدقاء يملكون في إيذائك ما لا يملك الأعداء
العدو متهم - بفتح الهاء - وتجريحه إياك يتلقاه الناس ساخرين.
أما الصديق فمؤتمن - بفتح الميم - وتجريحه إياك يتلقاه الناس بالقبول
وللأصدقاء أساليب في تجريح من يصادقون، ويا ويل من ابتلته المقادير بلئام الأصدقاء! يترفق الصديق فيقول: أنتم تعلمون أني شديد العطف على فلان لما بيننا من متين الصلات، وهو والله رجل مفضال لولا كيت وكيت!
ويتلطف الصديق فيقول: لا تثوروا على فلان فهو عبقري وللعبقريين بدوات!
وتزداد البلية بالأصدقاء حين تصبح ولك نصيب من المجد. فالصداقة توهمهم فكرة المساواة في الحظوظ والدرجات، فإن تقدمت وتخلفوا لم يكن لهم معنى ذلك عندهم أنك أخذت ما تستحق، وإنما كان معناه أنك خدعت زمانك فانخدع، وأن لك وسائل يعفون عنها لأنهم على تخلفهم شرفاء!
والصديق لا يصدق أنك تصل إلى منازل المجد بالجهاد وسهر الليل وإقذاء العينين تحت ضوء المصباح، وإنما يتخيل أنك اغتصبت المجد بالتهويل والتضليل، ولا يرى لك رأياً طريفاً أو فكرة عبقرية إلا حدثته النفس بأن يغض منها بالتصغير والتزييف.
وأخطر أعدائنا هم الأصدقاء الأعزاء الذين جاريناهم في ميادين المجد. فهؤلاء لا يتصورون أبداً أن ميادين الجهاد فيها سابق ومتخلف. ولعلهم كانوا يظنون أن من حقهم علينا أن نتخلف ليتقدموا. ولو أننا فعلنا طائعين لما ظفرنا منهم بكلمة تفصح عن حفظ الجميل، ويكون فيها معنى العزاء، وإنما نلقى منهم الصلف والاستطالة والكبرياء والعدوان
والأصدقاء يصنعون بمصايرنا ما تصنع جراثيم المرض المدفون، فهم يقتلوننا عن طريق الاغتيال وما نجد في إدانتهم شاهداً واحداً حتى نقدمهم إلى ساحة الجزاء
وفي الدنيا السخيفة تقاليد تحمي الصديق المخادع من انتصاف الصديق الصدوق.
والتفكير في محاسبة الصديق هو في ذاته بلية، لأنه يفتح الباب لأهل اللغو والفضول، ويعرضك لمآثم الشبهات ومنكرات الأراجيف
والعدو اللئيم هو في الأصل صديق حميم. . . ولكن كيف؟ كان صديقاً يجب أن تكون في خدمته كيف شاء، وحين يشاء؛ فلما التويت عليه بفضل ما لك من وجود خاص تنكّر وتغير ومضى يضع في طريقك الأشواك بلا رحمة ولا إشفاق
الصديق الحق هو الذي يعتقد أنك أفضل منه وإن كان في الواقع أفضل منك
هذا هو الصديق. ولكن أين من يعرف هذا المعنى النبيل؟
أين الصديق الذي يعرف قيمة التضحية بأهواء النفس؟
أين الصديق الذي لا يريد أن يتخذ من شهرتك لوحة إعلانات؟
أين الصديق الذي يفهم أن من حقك أن تناضل لتسود؟
أين الصديق الذي يدرك أن المودة كالصلاة يفسدها الرياء؟
أين الصديق الذي يرى عيوبه ويعمى عن عيوبك؟
بل أين الصديق الذي لا تخاف أن يتزيد عليك؟
وا أسفاه لقد انقضت أحلامي وأوهامي. كنت أرى الجمال في وجوه الناس، فأصبحت لا أراهم إلا وأنا متفزع متخوف كالذي يمس الحية في غسق الليل. كنت كالطفل يأنس بجميع الوجوه، ويتسمع لجميع الأصوات، ويتشوف إلى كل ما في الوجود، ثم أمسيت وأشهى مناي ألا يطرق بابي طارق، وأن لا تقع عيني على مخلوق
كذلك ابتدأت وكذلك انتهيت، وعند الله والحب جزائي
آه، ثم آه!!
ما هذه الخطوط التي أسود بها وجه القرطاس؟

هذه الخطوط هي نصيبي من حب ليلى ومن عبث ظمياء
وتلك نهاية من يحسب أن نهار الحب لا يعقبه ليل
تلك نهاية العاشق الغافل الذي قضى الأعوام الطوال في عبادة الجمال
ولكن ما هذا اللؤم الذي ينحدر إليه قلمي؟
أمن أجل أيام في معاناة الصدود أكفر بالصداقة وبالحب؟
أحبك يا ليلى، احبك يا ليلاي
أحبك يا مسكينة لأني من المساكين
أحبك يا شقية لأني من الأشقياء
أحبك يا ليلى وسأنحت لك صنما من ضلوعي
أحبك يا ليلى وسأنزف دمي قطرة قطرة ثم أتخذ من حديده خاتماً أقدمه إليك يوم يحين الفراق، وما أصعب الفراق!
أحبك يا ليلى وسأرقم أسمك الجميل على خد القمر وجبين الشمس
أحبك يا ليلى وسأترحم عليك في صلواتي كما أترحم على أبي وأمي
أحبك يا ليلى وسأتعذب في سبيلك محنتي وعذابي
أحبك يا لئيمة يا غادرة يا ظلوم، وأصفح من أجلك عن أهل اللؤم والغدر والظلم والجحود
أحبك يا ليلى، أحبك، وما أتصدق عليك بالحب، فأنا أهفو إليك بلا وعي ولا إحساس.
وقد حاولت مليون مرة أن أتوب من هواك فما صحت لي توبة، ولا نفعتني عظة، ولا عصمني عقل،
ولا هداني وجدان
أحبك يا روحي ويا ضناي. أحبك أصدق الحب، وأبغضك أعنف البغض، ولو رأيتك في هذه اللحظة لرويت روحي بدمك الغالي، ولكن متى أراك؟ تلك أوهام وأضاليل!
لقد نجوت من يدي يا شقية، فعليك غضبة الله ولعنة الحب!
أتريد ليلى أن أنتحر؟
هيهات ثم هيهات! فأنا طبيب ومن الحمق أن أداوي الناس وأنسى نفسي
قرأت (شريعة الحب) فقرة فقرة، وهي مسطورة على قبر الحلاج، وقد فهمت من أسرار الحروف أن الحب له دواء. ودواء الحب أن تخلق لنفسك شواغل جديدة تصرف قلبك في إطالة
التفكير فيمن تحب
وكذلك فعلت فأقبلت على شهود موسم الحفلات في بغداد وهو موسم لا يعرف قيمته إلا من
يراه شهدت بعض الحفلات التمثيلية التي أقيمت في المدارس الثانوية، فعرفت أن التمثيل سيكون له مستقبل في بغداد. ورأيت أهل العراق يخشون ما يخشاه أهل مصر من اختلاط الجنسين، ولكن أهل مصر احترسوا بعض الاحتراس، فهم يؤلفون للمدارس روايات تمثلية تخلو من المرأة؛ وليت أهل العراق يصنعون مثل هذا الصنيع إلى أن يفصل الزمن في قضية اختلاط الجنسين، فقد رأيتهم يمثلون في المدارس روايات فيها المرأة، والمرأة في هذه الحال شاب يلبس ملابس النساء. وأنا أرجو زملائي من نظار المدارس في العراق أن يفكروا في هذه القضية، فظهور الشبان في ملابس النساء لا يقل قبحاً عن ظهور النساء في ملابس الرجال. وما أقول إن الرجل أشرف من المرأة من حيث الجنس فلكل جنس خصائص، وإنما أريد أن أقرر أن شرف الرجل في الرجولة وشرف المرأة في الأنوثة، فالمرأة تجرم حين تلبس ثوب رجل، والرجل يجرم حين يلبس ثوب المرأة. والإشارة في هذا الموضوع الدقيق تكفي للبيان
وشهدت حفلة توزيع الجوائز بكلية الحقوق. وكانت حفلة رائعة خطب فيها الدكتور محمود عزمي خطبة جيدة، ولكنه لم يراع براعة المقطع، فقد ختم الخطبة بإعلان الوفاة، وفاة أحد المتخرجين. وصح للأستاذ محمود درويش أن يقول (ما هو خوش مقطع هذا) وعند تلاوة القسم أقسم المتخرجون دفعة واحدة بلا خشوع، وكان الرأي أن يقسموا واحداً واحداً. وقد تذكرت القسم الذي أقسمته على يد الأستاذ الدكتور طه حسين يوم ظفرت بالدكتوراة الأخيرة في كلية الآداب، فقد ترددت وتهيبت، لأني كنت

أخشى أن يربطني القسم وحدي، فلتذكر ذلك أحجار كلية الآداب بالجامعة المصرية، إن كان للأحجار وجدان وألقى الطالب حازم المفتي خطبة فصيحة نوه فيها بالأواصر العلمية بين مصر والعراق. وهنا أذكر أن العراق شرف مصر حين ائتمنها على كلية الحقوق، وهو شرف عظيم جداً، ومن واجب الأساتذة المصريين أن يتذكروا في كل لحظة قيمة هذه الثقة الغالية، من واجبهم أن يفهموا أن من الشرف أن يموتوا في سبيل تلاميذهم في العراق ومن حسن الحظ أن ذلك الطالب نص على أن مصر تفقهت على يد الشافعي وقد رحل إليها بعد أن تفقه بالعراق

ولو كان لي مجال بين الخطباء في ذلك اليوم لأضفت إلى هذا أن علماء مصر ظلوا مئات السنين وهم يهتفون (قال البصريون وقال الكوفيون) وحصير الأزهر يشهد، وهو في هذا

الباب من أصدق الشاهدين

أعتقد أن العراق أدى حق الأخوة حين وثق بمصر، ولم يبق إلا أن يؤدي المصريون واجبهم في حمل الأمانة وحفظ العهد

وخطب معالي وزير المعارف خطبة وجيزة جداً أعلن فيها ارتياحه إلى تبادل العطف بين الأساتذة والطلاب، وهو معنى شريف

وبعد توزيع الجوائز وتناول الشاي غنى الأستاذ محمود توفيق مع فرقة الإذاعة أغنية طريفة. ثم غنت المطربة زكية جورج أغنية فيها أسم (ليلى) فاشرأبت أعناق الحاضرين للبحث عن مكاني، وصاح سعادة الأستاذ تحسين إبراهيم: أين الدكتور زكي مبارك؟ فتقدمت على استحياء والدمع في عيني، وشكرت المطربة، ورجوتها أن تغني: (على بلد المحبوب وديني)

فلما وصلت إلى عبارة (وعيني تبقى في عينيك) نظرت إلي وحدقت بعطف وحنان، وفهم الحاضرون الإشارة فضجت أكفهم بالتصفيق، ورأيت موقفي صار في غاية من الحرج فأنسحبت وحرمت نفسي بقية الأطايب التي وعد بها منهج الاحتفال

وبعد أسبوع حضرت حفلة توزيع الجوائز بكلية الطب فرأيت الطلاب في صف والطالبات في صف، وراعني أن يكون الطالبات جميعاً من البيض، فيا رباه كيف جعلت ليلاي بالعراق سمراء!. . . أحبك يا ليلى وأحب شعاع السمرة وهو يتموج في سرائر وجهك الجميل!

وأقسم المتخرجون اليمين واحداً واحداً. وليتهم أقسموا دفعة واحدة، كالذي وقع في كلية الحقوق، فقد قضيت نحو ألفي ثانية وأنا أسمع (وأقسم أن لا أفشي سراً لمريض) وأدرك الأستاذ مهدي كبة حيرتي وذهولي فقال: تلك عاقبة من يفشي أسرار مرضاه من الملاح

فضحتني يا ليلى، شفاك الله وعفا عني!

ولما خرجت من الحفلة مضيت إلى محطة الإذاعة، مضيت أستجدي القول المأثور: يقولون ليلى في العراق مريضة ... فيا ليتني كنت الطبيب المداويا

ولكن سكرتير الإذاعة في هذه المرة رجل له وجه الجاحظ ولو شئت لقلت إنه الصفواني. وقد اعتذر عن إذاعة ذلك الصوت لأنه لا يريد أن يحول أهل العراق كلهم إلى مجانين.

كأنه يعقل!

وخرجت مع الأستاذ إبراهيم حلمي راجياً أن يكون في سمره الطريف ما يخفف حزني، فما خف حزني ولا تزحزح، ورجعت إلى البيت وأنا مكروب

وقمت قبيل الفجر مرتاعاً لطرق الباب، فتدثرت وخرجت فإذا الجار العزيز يسأل عن حالي وفي ذراعه زوجته المصرية النبيلة التي رعت غربتي أكرم رعاية. فقلت: خيرا! ما عندك يا سيد داود؟ فأجاب: لقد استيقظت السيدة وهي مرعوبة، لأنها سمعتك تصرخ آه! آه! يا ليل! يا ليل! وقد حسبناك مريضاً فحضرنا للاطمئنان عليك

فقلت: أنا بخير كما ترون وصوبت بصري إلى الزوج وقلت: الرفق لا يستغرب من عراقي مثلك. ونظرت إلى الزوجة وقلت: الأزهار المصرية رقيقة الأوراق

أنا كنت أقول: آه آه؟ هذا صحيح، ولكني ما كنت أقول: (يا ليل يا ليل)؛ وإنما كنت أقول (يا ليلى يا ليلى)

فضحتني يا ليلى عند جيراني وقد شفاك الله فمتى يمن عليّ بالشفاء؟

وفي ظهر ذلك اليوم العنيف مضيت لشهود حفلة الطيران، وهي حفلة سنوية يستبق إليها أهل بغداد من رجال ونساء، أقيمت الحفلة في المطار المدني ودامت ثلاث ساعات شهدت فيها الأعاجيب وعرفت أن فتيان العراق يعرفون معنى السيطرة على الهواء، وكان في المنهج صورة طريفة من التقاط الرسائل فألقيت بنفسي في ساحة المطار وقدمت رسالة إلى الله عز شأنه أدعوه أن يزيح الكرب عن أهل فلسطين، فإن شكاياتهم من الظلم كدرت جميع الناس، وآذت المنصفين من أحرار اليهود. وأشهد صادقاً أني رأيت ناساً من بني إسرائيل يتوجعون لمصير العرب في فلسطين، وفلسطين الشهيدة لا تدافع اليهود من العرب، وإنما تدافع اليهود من الأجانب الذين يدخلون عليها بلا تسليم ولا استئذان فيغرسون الحقد على سائر اليهود في الأقطار العربية. وشهدت الطيران القاصف، طيران الهجوم، فتمنيت لو ساد السلام وتحول الطيران في جميع بقاع الأرض إلى وسائل اقتصادية

وشهدت تشكيلات الأسراب فرأيت كيف تقام الخطوط الهندسية في أجواز الفضاء وفي الناس من يعجز عن إقامة الحدود الهندسية فوق القرطاس!

ورأيت الطيران الأهوج فتمنيت لو سموه طيران القلوب. فليس لأحوال القلوب ميزان!

كانت حفلة الطيران ممتعة من كل جانب وقد خبلت عقلي فلم أتنبه إلى أن مكاني كان قريباً جداً من مكان جلالة الملك. ولو كنت تنبهت لتشرفت بمصافحته وهنأته بما وصلت إليه القوة الجوية في العراق

وبعد أيام شهدت حفلة الكشافة وهي تجل عن الوصف، وهي الشاهد على أن شبان العراق نقلوا إلى بلادهم أقوى مظاهر التمدن الحديث

وبفضل هذه الحفلة عرفت كيف أنشئ في دار المعلمين العالية فرعاً للألعاب الرياضية

كان في الحفلة كشافون وكشافات وكان من تقاليد الكشافين أن يحيوا المقصورة الملكية فيرد عليهم جلالة الملك بتحية أرق وألطف، أما الكشافات فكن يمررن على المقصورة الملكية بلا تسليم

آه ثم آه من دلال الملاح!

داويت قلبي بهذه الشواغل التي أتاحها موسم الحفلات في بغداد وحسبت أني نجوت من عقابيل الصبابة الباغية

ولكن هيهات

ثم لطف الله فحضرت ظمياء.

- إيش لونك يا دكتور؟

- بخير وعافية يا ظمياء، لولا الذي تعلمين، وإيش لون ليلى؟

- في عافية الفرس الجموح

- ومتى أراها يا ظمياء؟

- لن تراها إلا إذا استغفرت من ذنوبك؟

- وهل للأطفال ذنوب يا ظمياء؟

- إسمع يا دكتور، إن الدسائس حولك كثيرة جداً، وليلى توجه إليك تهمات تهد الجبال

- أنا متهم يا ظمياء؟ متهم في بغداد؟ وعند ليلاي؟ آمنت بالله، وكفرت بالحب!

- تشجع واحتمل الصدمات، فقد عشت دهرك من الشجعان ومن الصابرين.

- وكيف تتهمني ليلى يا ظمياء؟

- هي تتهمك، ولك أن تدافع عن نفسك إن استطعت!

- أفصحي يا ظمياء، فقد طار صوابي

- اسمع يا دكتور، إن ليلى توجه إليك التهم الآتية، وكلها مزعج مخيف

أما التهمة الأولى فهي:

(للحديث شجون)

زكي مبارك

التاريخ في سير أبطاله

إبراهام لنكولن

هدية الأحراج إلى عالم المدنية

للأستاذ محمود الخفيف

يا شباب الوادي! خذوا معاني العظمة في نسقها الأعلى من
سيرة هذا العصامي العظيم. . . . . .

وحدث أن كان مولد الحزب الجديد في نفس العام الذي كانت تختار البلاد فيه رئيسا جديداً للولايات، فكان النشاط السياسي بذلك مضاعفاً؛ وأحس الناس جميعاً أن مسألة العبيد قد أصبحت القطب الذي يدور عليه هذا النشاط السياسي فألقوا بالهم إليها على نحو لم تسلف بمثله فترة في تاريخ البلاد

وعرف الحزب الجديد كما أسلفنا باسم الحزب الجمهوري؛ ولقد أخذ الداعون إلى إنشائه ينشرون الدعوة له في كل ولاية؛ وكان أول اجتماع أهلي لهذا الحزب عام 1856 في مدينة فيلادليفيا؛ أما عن مذهب الحزب فقد أجتمع أيضاً مرة أول الأمر على فكرة نجملها في العمل على مقاومة انتشار العبيد كما جاء في اتفاقية مسوري؛ وكان هؤلاء الأنصار في الولايات أخلاطاً من الأحزاب الأخرى تراهم وإن اتفقوا على المذهب أو كادوا، لا يزالون مختلفين في الوسيلة.

ولم تك الينوس تلك الولاية التي ينتمي لنكولن إليها بدعاً من الولايات. ولقد دعا أنصار الحزب الجديد فيها إلى اجتماع تمهيدي يتدارسون فيه الأمر ويحددون الغاية ويسددون الوسيلة؛ وأنعقد هذا الاجتماع في مدينة ديكاتور وشهده لنكولن فيمن شهده من رجال السياسة المبرزين؛ وأدلى إليهم بما يرى، وفطن المجتمعون إلى سياسته التي لن يتحول عنها والتي تتلخص في أمرين: مقاومة انتشار العبيد والمحافظة على كيان الاتحاد. . .

ولكن لنكولن لا يزال من الوجهة الرسمية من رجال حزب الهوجز، فهو لم يعلن انفصاله

عنهم بعد؛ فلما كان يومئذ في طواف قضائي وقد دعا أنصار الحزب الجديد في الينوس إلى مؤتمر عام يعقد في مدينة بلومنجتن؛ ووضع صديقه هرندن أسمه في الداعين إلى المؤتمر دون أن يرجع إليه؛ فجاءه البرق بموافقته وبذلك أصبح إبراهام عضواً في الحزب الجديد

واحتشد رجال هذا الحزب في بلومنجتن لينظروا ماذا يرون؛ وتطلعت أنظار المؤتمرين إلى لنكولن وفي روع كل منهم أنه رجل الساعة وأنه إبن بجدتها؛ وبدأ فقال لمن حوله: (دعونا نجعل حجر الزاوية في بناء حزبنا الجديد إعلان الاستقلال) وهو يريد بإعلان الاستقلال ذلك الحادث التاريخي الذي ظهرت به الولايات المتحدة كأمة مستقلة في هذا العالم؛ وكأنه يشير إلى ما يتضمن الاستقلال من معاني الوحدة والإخاء والحرية والمساواة، تلك المبادئ التي جعلها رجال الثورة شعار ثورتهم. . . وأصدر المؤتمرون قرارهم فقالوا: (أجمعنا أمرنا على أننا نعتقد وفق آراء وتجارب جميع رجال السياسة المبرزين من كافة الأحزاب في السنوات الستين الأولى للحكومة، أن المؤتمر في ظل الدستور يملك السلطة التامة ليوقف انتشار العبيد في الولايات؛ وأنه كما سيحرص على كافة الحقوق الدستورية لأهل الجنوب، نعتقد أيضاً أن العدالة والإنسانية ومبادئ الحرية كما نص عليها في إعلان استقلالنا وفي دستورنا القومي وما نتوخاه لحكومتنا من نقاء ودوام؛ كل أولئك يستدعي أن يكون تنفيذ السلطة بحيث يمنع انتشار العبيد في الولايات التي تعد حرة لحد الآن)

وإننا لنرى سياسة لنكولن واضحة تمام الوضوح في هذا القرار الذي أعلنه المؤتمرون؛ وفي ذلك الدليل على أنه كان غداة المؤتمر الرجل الذي ينبض بمبادئه كل قلب ويتحرك باسمه كل لسان! ونحن إذا نظرنا إلى مبادئ الحزب الوليد في جميع الولايات نجدها لا تختلف كثيراً عما جاء في قرار رجال اليونس، وبعبارة أخرى نجدها لا تختلف كثيراً عما يرى لنكولن، وفي ذلك دليل آخر على عبقرية الرجل وعلى أصالته. . .

ونظر إبراهام إلى المؤتمر فإذا رجاله على اتحادهم في الغاية، يختلفون في الوسيلة التي تتحقق لهم بها تلك الغاية وأذاهم باعتبار ما سلف، فئات متباينة آراؤها؛ وإنه ليخشى الخلف في الوسلية إلى ضياع الغاية، بل إلى طمس صُوى الطريق وركوب الظلام وفي ذلك سوء المنقلب؛ وإنه ليتحرق شوقاً أن يرى هؤلاء القوم وقد اجتمعت على الوسيلة كلمتهم كما اجتمعت على الغاية؛ إنهم إذاً لفائزون، وإن لهم بذلك لبأساً يهون كل أمر عسير،

ثم إنهم لخطب فادح لا يطيقه المتمسكون بالعبيد من أهل الجنوب
وكأنما أحس المجتمعون بما أحس، وإلا فماذا دعاهم أن يهتفوا به؟ لقد تجاوبت باسمه جنبات المجتمع، فراح الرجال يتصايحون لنكولن. . . لنكولن. . . نريد أن نسمع لنكولن! وما كان له أن يتخلف وهو الخطيب الذي تهيب به مثل هاتيك المواقف وتواتيه عبقريته كلما أحست نفسه جلال الحادثات! لذلك ما لبث أن وثب من مكانه ووقف فيهم وقفة الخطيب وهو لا يدري ماذا يقول. وسكتت الأصوات بعد جلبة، وأستقر الرجال بعد أن كان بعضهم من فرط السرور والحماسة يموج في بعض. . .
وقف الخطيب أول الأمر صامتاً كأنما أغلقت من دونه مسالك القول؛ والناس ينظرون إلى قوامه السمهري وقد مال برأسه إلى الخلف وبرز بصدره إلى الأمام، والتمعت عيناه وتشكلت أساريره فبدت في مظهر يقصر عن وضعه معنى الجمال. وصفه أحد الحاضرين فقال: (كان في تلك اللحظة أوجه من رأت عيناي أبداً)
وتكلم فإذا المستمعون كأنهم رجل واحد، لا فرق بينه ولا اختلاف، وقد سرت إليهم من الخطيب موجة قوية من السحر! وسرى إليه منهم تيار شديد من الحماسة؛ وهو يرسل فيهم القول يجمع بين العاطفة تهز المشاعر، والحجة تبهر العقول، والأمثلة تبهج النفوس؛ وكانت تشتد العاطفة حيناً فتفيض عيون، ويلتمع الدليل آونة فتصفق الأكف وتنطلق بالهتاف الحناجر، ويروق المثال وتملح النكتة بين هذا وذاك فتجلجل الأفواه بالضحكات. . والخطيب يلعب بالأفئدة ويستهوي المشاعر ويستمر لا يفتر حماسه، ولا يكل منطقه، ولا يضعف صوته، والسامعون مأخوذون عن أنفسهم بما يقول حتى لقد ألقى مندوبو الصحف أقلامهم وأقبلوا بعقولهم وقلوبهم عليه يحرصون ألا تفوتهم كلمة من هذا السحر الحلال. . .
ذلك ابن الغاب قاطع الأخشاب! ذلك هدية الأحراج إلى عالم المدنية؛ كأنما قد هيأته الأقدار لرسالته فبعثته من موطنه قوياً قوة الطبيعة واضحاً كالشمس لا يحجبها غيم، ولكن أودعت في نفسه سراً عميقاً تحس لديه بما تحس به إذا وقفت في مدخل الغابة أوضح في خطابه سياسته فلم يترك مجالاً للبس أو شك؛ وكان إلى التحذير والإنذار أقرب منه إلى التفاؤل والتمني؛ حذر الناس أن يشتطوا فيؤدي شططهم إلى انسحاب أهل الجنوب من الاتحاد فإنه ليحس في الجو ما يسبق العاصفة، وأنذرهم أن يتهاونوا أو يتخاذلوا فتذهب
ريحهم وتضيع أصواتهم بدداً؛ وهو في كل ما يزجي من القول صريح كأعظم ما تكون الصراحة، واضح كأتم ما يكون الوضوح
تعرض لمسألة كنساس فقال في قوة اليقين وفي جلال الحق؛ ستكون كنساس حرة؛ وأردف فذكر السامعين أن الخروج على اتفاقية مسورى والسماح بانتشار العبيد وراء الحد الفاصل مؤد حتما إلى جعل مسألة العبيد مسألة قومية عامة، ولذلك فإنه للفوز أبداً أو الهزيمة أبداً، فإنه ليشعر بتزايد قوى المتمسكين بمبدأ انتشار العبيد بينما يتراخى الداعون إلى مقاومة تياره. وكان في خطابه يبدو منه ما يبدو من رجل مقبل على موقف حاسم في تاريخ حياته، ففي نبراته رنة الإخلاص، وفي مقاطعه وابتداءاته لهجة اليقين وبينات الحرص الشديد أن يتدبر كلامه المنصتون، وعلى وجهه علامات الاهتمام حيناً وإمارات القلق حيناً ومخايل الحذر والخوف واللهفة أحياناً، وكذلك العظيم إذا تكلم كان كلامه من وجدانه ومن لبه، وكانت حركاته حركات جوانحه وخفقات قلبه
ولقد تنبأ ذلك الرجل العظيم فذكر للناس أن مسألة العبيد سوف لا تحل حتى تنتهي إلى أزمة تجتاز بفضل إرادة الأمة، فإن تلك الإرادة متى أوقظت اجتاحت الصعاب؛ وكأنه كان يرى ما سيحدث عما قريب في صورة حرب أهلية ضروس
وانجلت المعركة الانتخابية عن فوز بيوكانون مرشح الحزب الديمقراطي، ولقد ظهر فيها على منافسيه أحدهما مرشح الحزب الجديد، والآخر مرشح حزب آخر كان يعرف بالمحايد، ويضم عدداً كبيراً من الهوجز، ولكن نجاح الحزب الديمقراطي كان ينطوي على معنى الضعف، فإن ثلث أصواته انضمت إلى الحزب الجديد كما أن هذا الحزب قد نال على حداثته عدداً من الأصوات يلي في مقداره عدد أصوات الحزب الفائز، حتى لقد أعتبر الكثيرون من المفكرين أن الفوز الحقيقي إنما هو للجمهوريين
ولقد أنضم إلى هذا الحزب الوليد كثير من أهل الثقافة وأولي الأبصار، فكان من رجاله في مجلس الشيوخ نفر من الأماثل الذين أشربت قلوبهم حب بلادهم والذين فطرت

نفوسهم على العدالة وجبلت على الرحمة والإنسانية، والذين كانوا يمقتون نظام العبيد
. . .من أعماق وجدانهم إذ يرونه نظاماً لا يوائم ما ينشدونه لوطنهم من نهوض وقوة
وبدرت يومئذ بوادر الطلعة الكبرى فلقد تلاحقت الأحداث وجرت الشائعات بالسوء
وانبعثت الأحن والحزازات وتنابذ الناس وتباغوا وأصبح بأسهم بينهم شديداً؛ فما هي إلا
. . .رجفة ثم ينفجر البركان ويزلزل البيان
وكانت أولى تلك الأحداث ما كان في مجلس الشيوخ فلقد كان في المجلس رجل
يدعى سمنر عرف بقوة الجنان وذلاقة اللسان وتوقد القريحة، وهو ممن يكرهون أشد
الكراهية نظام العبيد، حمل في جرأة وقوة على قرار نبرسكا، وأهاب بالناس أن
يتمسكوا باتفاق مسوري. ولقد كانت لهجته لاذعة وحجه قاطعة وعباراته مقذعة؛ فلما
كان ذات يوم بعدها جالساً إلى مكتبه في المجلس يكتب في سكون هجم عليه عضو
من أهل الجنوب فضربه على أم رأسه بعصا غليضة فسقط على الأرض مغشياً عليه،
فكانت الضربة في الواقع أولى ضربات الحرب الأهلية، فأهل الجنوب بدل أن يستنكروا
هذه الفعلة هللوا لها واعتبروا صاحبها بطلاً جديراً بالتوقير. وقدم له جماعة من الطلبة
عصا ذات رأس من الذهب! أما أهل الشمال فلك أن تتصور مقدار ما بلغته النعلة من
نفوسهم وما تركته من الغيض في صدورهم فذلك ما لا ينهض لتصويره كلام
وحدث بعد ذلك حادث آخر رج البلاد من أركانها، وذلك أن أحد العبيد، رحل مع سيده
إلى ولاية من الولايات الشمالية الغربية، وكانت أسرة ذلك العبد معه، وكان عبداً ذكياً
له حظ من التعليم أدرك أنه وراء الحد الفاصل بين ولايات العبيد والولايات الحرة،
فرفع أمره إلى القضاء يطلب أن يتمتع هو وأسرته بالحرية ما دامو في ولاية حرة؛
وانتقلت القضية من محكمة إلى محكمة حتى استقرت في المحكمة العليا في
وشنجطون؛ وأصدر القاضي الأعلى حكمه، فقضى بأنه ما كان لأي عبد زنجي أن يرفع
قضية أمام محكمة من محاكم البلاد كما يفعل الرجل الأبيض، وأنه ليس للمؤتمر ولا
لأي مجلس من مجالس الولايات أي سلطة تخوله ان يمنع أي شخص أن يعود بعبيده
. . .من الولايات الحرة إلى ولايات العبيد
ولقد هز هذا الحكم البلاد هزاً عنيفاً؛ وأستقبله أهل الجنوب طربين يطفرون من الفرح،
أما أهل الشمال فكان في نفوسهم غمة وفي حلوقهم شجى؛ ذلك أنهم رأوه يجعل
اتفاق مسوري اتفاقاً غير دستوري، كما رآه يقضي على قرار نبراسكا الذي يجعل
لمجلس الولاية الحق في تقرير ما يريده في مسألة العبيد؛ وبه أصبح العبد كقطعة من
الأدوات ليس له حتى في نفسه أي حق أو شبه حق وكان خطر هذا الحكم أنه صادر
في تلك المسألة التي تشغل
الأذهان من المحكمة العليا للبلاد، وأن صدوره جاء في تلك الآونة التي كان الخلاف
فيها على أشده بين الناس؛ وسرعان ما انتشر بين الطبقات صغيرها وكبيرها، وانشغل
به الساسة عن كل أمر سواه فلا حديث لهم أينما تلاقوا إلا ما يحمل من المعاني!
أدرك الجميع أن قد أزفت الآزفة وأقترب اليوم الذي يحتكم فيه الفريقان إلى السيف؛
وأيقن لنكولن أن الحوادث تؤيد ما ارتأى ولعله كان يحس ما بينه وبين نفسه أن قد
اقتربت الساعة التي يتناول فيها معولا لا ليقطع به الأخشاب كما كان يفعل من قبل بل
. . .ليهوي به على ذلك النظام البغيض فيضربه الضربة الحاسمة
(يتبع)
الخفيف
-
أسبوع في فلسطين
للأستاذ محمد سعيد العريان
لما بلغتني دعوة مصلحة الإذاعة الفلسطينية بالقدس، لأذيع حديثاً عن المرحوم
الرافعي لمناسبة تمام سنة على وفاته. . . تهللت نفسي وسُريَّ عني وقلت: هذا قطر
. . .من أقطار العربية لم يزل على وفائه لكاتب العربية والإسلام
ثم عادت إليّ الذكرى، فتغشاني خزي وألم حين ذكرت أن مصر العربية المسلمة لم
تستطع - بعد عام - أن تقوم للرافعي ببعض حقه حتى في الدعوة إلى حفلة تأبين تذيع
!فضله وتذكر به. . . إلا محاولات فاشلة لا تغني ولا تقوم ببعض الوفاء
وازدحمت في رأسي صور وخواطر، وتتابعت على عيني ذكريات وذكريات، وتدافعت

إلى صدري آلام وأشجان؛ وقالت لي نفسي: بعض هذا يا صاحبي؛ وماذا كنت تنتظر أن تصنع مصر للرافعي؛ وإن بينه وبين كل أديب في مصر ثأراً لا يخفف الموت من عنفوانه وشدته!

وكأنما كانت مقالة صديقي الأستاذ سيد قطب في ذلك الوقت لتذكرني بالحقيقة التي يعيش فيها بعض أدبائنا حين يحاولون أن يجعلوا من بعض العدوات الأدبية ثأراً يتوارثه الأبناء عن الآباء، فيجعلون من دروسهم الأدبية إلى تلاميذهم ما كان بينهم وبين الموتى من العداوة والبغضاء!

وهممت أن أعتذر إلى الداعي من حياء وكبرياء، خشية أن يسألني سائل هناك: . . . ماذا فعلت مصر للرافعي ولها كانت حياته وفيها مثواه؟ فتمنعني العزة القومية أن أتهم قومي بالعقوق ونكران الجميل

ولكني جمعت عزيمتي وأقنعت نفسي بأن العلم لا وطن له، وأن البلاد العربية كلها وطن واحد لمن يستشعر في نفسه عزة المسلم ومجد العربي. وأجبت الدعوة . . .

وكنت ثالث ثلاثة من المصريين دعتهم مصلحة الإذاعة بالقدس منذ كانت لإذاعة أحاديث أدبية؛ أما السابقان فهما الدكتور هيكل باشا والأستاذ المازني.

فلسطين هي تلك البلاد المقدسة التي تربطنا بها أواصر وثيقة منذ أقدم عصور التأريخ، من أيام الفراعين، إلى صدر الإسلام، إلى عهد صلاح الدين، إلى تاريخ المماليك، إلى زمن

محمد علي وإبراهيم الفاتح. . . إلى اليوم الذي مزقت فيه الحرب العظمى دول الإسلام، وتوزعتها أطماع السياسة الأوربية!

بيننا وبينها وحدة الدين، وآصرة اللغة، وعاطفة الجوار، وواشجة الدم والنسب من لدن عمرو بن العاص إلى عهد الفاروق. لا يفصلها عن مصر فاصل من جبل أو بحر أو حد مصنوع، إلا أن تكون القناة الملعونة في التاريخ - قناة السويس - التي كان إنشاؤها غنماً للعالم وغرماً على مصر؛ ومنها كان الرمز الأول للقطيعة بين مصر وبلاد الإسلام، حين شاعت على ألسنة المصريين تلك الخدعة المأثورة: (مصر قطعة من أوربا!) فكانت دسيسة سياسية بارعة، فرقت بين الأخوين لأب وأم حيناً من الزمان!

ركبت القطار من محطة القاهرة في منتصف الساعة السادسة من مساء السبت 7 مايو وفي وهمي أنني مسافر إلى بلد بعيد؛ فما أشرق صباح اليوم التالي حتى كنت في مدينة القدس المطهرة عاصمة فلسطين، قبل أن تبلغ الساعة التاسعة. ست عشرة ساعة بين القاهرة والقدس، في قطار يدب على رمال الصحراء دبيب السلحفاة بطيئاً وانياً ويقف في الطريق أكثر من أربع ساعات

إن المسافر من القاهرة إلى بعض الأقاليم الجنوبية من مصر نفسها لا يبلغها في ست عشرة ساعة في القطار السريع؛ وإنك مع ذلك لتسأل نفسك: كم مصريًّا رحل إلى هذه البلاد الشقيقة ليتعرف إلى أهله من أهلها؟ فلا يأتيك الجواب بما يؤكد لك معنى من معاني الإخاء والقربى بين مصر وفلسطين!

لماذا لماذا؟ لأن السياسة التي تسيطر على مصر وفلسطين لا يرضيها أن تكون بين مصر وفلسطين رابطة من الود والإخاء. وقد بلغت هذه السياسة في مصر ما لم تبلغه هناك، فنسي المصريون إخوانهم في فلسطين ولم ينسى الفلسطينيون إخوانهم على ضفاف النيل، وفي كل سنة يفد إلى مصر مئات من شباب فلسطين، وأدباء فلسطين وتجار فلسطين ليمتعوا أنفسهم برؤية إخوانهم وأهليهم في وادي النيل، ثم يعودون إلى بلادهم ينتظرون رد الجميل فلا يجدون الجميل! ست عشرة ساعة، لو أطرد الطريق وقلت محطات الانتظار ما بلغت ثماني ساعات، هي كل ما بين مصر وفلسطين.

ما أقرب وما أبعد!

وصل بي القطار المصري إلى محطة القنطرة على القناة، في منتصف التاسعة مساء؛ وركبت من ثمة قطار فلسطين، فلم يتحرك للسير قبل منتصف الثانية عشرة. ثم مضى بنا بين كثبان الرمل في صحراء سينا إلى غايته. فلم يكن لنا مع الظلام الدامس ووحدة مناظر الصحراء، إلا أن نأوي إلى مضاجعنا - غير الوثيرة - فما استيقظت إلا في الخامسة صباحاً وقد اجتزنا الحدود المصرية ووقف القطار في (غَزَّة) أولى مدائن فلسطين. ونبهتني أصوات الباعة على رصيف المحطة؛ ففتحت النافذة لأستقبل أول شعاعة من أشعة الشمس البازغة من وراء الجبال، تداعب أجفان النائمين خلف نوافذ

القطار؛ وهب النسيم ندياً معطراً بأزهار النارنج كأنه يحمل أريجاً من أنفاس أهل الجنة. وسرحت الطرف فيما أمامي؛ فإذا صفحة مشرقة تتحدث عن جمال الطبيعة وقدرة الخلاق، لم يرَ المصريون لها شبيهاً فيما رأوا من جمال الطبيعة المصرية بين الإسكندرية وأسوان.

بيوت مبعثرة على رؤوس التلال وفي سفوح الجبل، وسهول رملية فيحاء قد نبتت فيها شجيرات القمح والشعير، وحدائق خضر ناضرة قد ملأتها أشجار البرتقال والنارنج والمشمش، ونخلة قائمة هنا، وخيمة مضروبة هناك، وكروم زاحفة على الأرض، وأعشاب نامية على الصخر، وأخاديد حددتها الأمطار في خدود الجبال؛ والقطار يسير في طريق ملتوية بين منحنيات الجبال، صاعداً منحدراً، ومشرقا مغرباً؛ كأنما اتخذوا له هذا الطريق ليجلوا على المسافر كل ما يمكن أن تجتليه العين من رواء الطبيعة في فلسطين؛ فما مللت النظر إلى هذه المشاهد الفاتنة واقفا في نافذة القطار ثلاث ساعات، حتى وصلت إلى محطة اللِّدّ في الساعة الثامنة صباحاً؛ ومحطة اللِّدّ هي المحطة المركزية في فلسطين، ومنها تتفرع سكة الحديد فروعها إلى مختلف أنحاء البلاد، أو يستمر القطار سائراً في طريقه إلى دمشق. . .

وانتظرت في محطة اللد زهاء ساعة، قبل أن يتحول بي القطار في طريقه إلى القدس المطهرة؛ وفي الطريق بين اللد والقدس، صحبني شاب من أدباء فلسطين أنسيتُ اسمه؛ فأخذ معي في حديث طويل عن السياسة وآخر أنباء الثورة ومصير فلسطين؛ وكان يتحدث إلي في حماسة وقوة وانفعال كأنه خطيب على رأس كتيبة يحمسها الجهاد؛ فوالله ما أدري أكانت شدة أسره في الحديث أم روعة المناظر من حولي أحب إلي. . .

واقتربنا من بيت المقدس فسكت محدثي قليلاً ثم سأل: هل لي أن أتشرف بمعرفة سيدي؟ قلت: مصري قال: نعم لقد عرفت ذلك من حديثك، ولكن. . . يخيل إلي أني أعرف أكثر من ذلك عن سيدي. . . ولولا أن الجرائد تقول إن الأستاذ سعيد العريان لا يقدم إلى القدس إلا غداً، لقلت إنك هو. . . إنني أعرفه بصورته من مجلة الرسالة. . .!

وكانت أول تحية كريمة يلقاني بها أديب من شباب فلسطين، وكانت مفاجئة؛ فأحسست شيئاً من الخجل والارتباك، لم أجد معهما إلا أن أمد يدي إلى صحفة بيده مستأذناً، فدفعها إلي؛ وفيها قرأت أنني قادم إلى القدس في صباح الغد. . . وهو الموعد الذي كنت حددته من قبل لمحطة الإذاعة، ثم فكرت بالسفر قبل ميعادي بيوم. . .

إنني لم أكن أقدر - وأنا من أنا في نفسي - أنني سأجد من يعرفني في فلسطين أو يهتم لمقدمي؛ ولو أنني قد بلغت بنفسي من الغلو أقصى ما تبلغ إليه أمنية شاب مثلي، لكان ما رأيت من حسن استقبال المقدسيين وحفاوتهم فوق ما تبلغ منية المتمني ولا أزهو بنفسي فأزعم أنني أهل لبعض ما لقيت، ولكنه كرم الفلسطينيين العرب يأبى إلا أن يستعلن في كل مناسبة ولكل مجال

وفي دار شيخ أدباء العروبة الأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي كان مقامي طول المدة التي قضيتها في فلسطين. لقد دخلت فلسطين وأنا خفيف الظهر فما فارقتها حتى كان عليّ من الدين لهذا الرجل الكريم ما ينوء به كاهلي؛ فشكراً له ثم شكراً ثم شكراً. . . ومعذرة إليه إن عجزت عن الوفاء!

وصحبتني طائفة كريمة من الأدباء في غدوي ورواحي، لتهيئ لي أسباب التمتع في الرحلة بين المشاهد المقدسة والبيوت الأثرية، فزرت المسجد الأقصى، وقبة الصخرة ومصلى عمر، وكنيسة القيامة، ومصعد المسيح، وبيت لحم، والمتحف الإسلامي، وكلية الروضة، والنادي المصري؛ وتمتعت برحلات عدة كان رفيقي في أكثرها الأستاذ الأديب إبراهيم طوقان وكيل القسم العربي في محطة الإذاعة. ولن أنسى ما حييت فضله وفضل الأصدقاء الكرام: الدكتور إسحاق الحسيني، والشيخ يعقوب البخاري افندي، والأستاذين داود حمدان، وعبد الحميد يس، وغيرهم من أدباء فلسطين وأهل الرأي والجميل

وإذا كان لي أن اذكر شيئاً بخصوصيته في هذه الرحلة؛ فان اليوم الذي خطبت فيه في كلية

روضة المعارف الإسلامية بالقدس سيظل أبقى أثراً وأخلد ذكراً بين أيامي
وكلية روضة المعارف الإسلامية في القدس، هي مدرسة حرة يشرف على شئونها
المجلس الإسلامي الأعلى، ولها منهج خاص يعد شباب العرب ليكونوا في مستقبل
أيامهم رجال العربية والإسلام، ومدير هذه المدرسة هو الأستاذ عبد اللطيف الحسيني
ورئيسها الأستاذ الجليل الشيخ محمد الصالح افندي، وتضم بضع مئات من فتيان العرب
جمعتهم إلى منهل في الثقافة العربية الإسلامية أكثر ملائمة لحال البلاد في هذه الأيام.
وفيها طائفة من المدرسين الأكفاء عرفت منهم الأستاذ عبد الفتاح لاشين المصري،
والأستاذ عبد الرحمن الكيالي الفلسطيني، وهما من خريجي مدرسة دار العلوم في
مصر
زرت الكلية صباح الاثنين 9 مايو مع الأستاذ طوقان؛ وما بد لمن يزور فلسطين من
أهل العربية من زيارة هذه الكلية. . . وقضيت ساعة. . . ثم انصرفت على موعد
للغداء وإلقاء محاضرة في بهو المحاضرات بالكلية عن: (المثل الأعلى للشاب
المسلم) بعد ظهر الأربعاء
لا تحدثني عن شباب مصر وطلبة العلم في مصر إذا ذكر شباب فلسطين وطلبة العلم
في كلية الروض. هنا شباب يحسنون الزينة ويفتنون في وسائل الأناقة والتجمل،
وهناك رجال قبل سن الرجال يعرفون لأي غاية يتعلمون، ويفكرون لغدهم قبل أن
يفكروا في مطالب الصبى وأماني الشباب. . .
. . .وعرفت أول من عرفت في فلسطين، شبابها العربي المسلم في كلية الروضة
(لها بقية)
محمد سعيد العريان
رسالة مسلمي الصين
إلى مسلمي العالم
عن حقائق الحرب الصينية اليابانية القائمة
إخواننا الأعزاء المسلمين في العالم
أصدقائنا الأجلاء المحبين للسلام
السلام عليكم وعلينا وعلى جميع المظلومين والمنكوبين في العالم!
إن بلاد الصين الجمهورية تحب السلم كما أحبته وهي ملكية.
فهي تسير على نصيحة الحكماء الصينيين بعدم القتال وتقليل الجيش، وكانت تحسن
معاملة البلاد المجاورة لها شاعرة بالشرف المشترك حريصة على حياة الجميع، وهذه
كلها حقائق تاريخية لدى الأمم الإسلامية
إن اليابان أخت الصين الصغيرة مشتركة معها في الجنس واللغة مجاورة لها كالشفة
والسن، وهي متقدمة اليوم باستنارتها من الآداب والتعاليم الصينية
هذا وأن اليابان تذكر دائماً ولا تنسى تلك الفكرة الاستعمارية القديمة فكرة الآباء
والأسلاف، فبدأت تثير الحرب بينها وبين الصين منذ 300 سنة، ولكن لم تصل إلى
حلمها هذا لقلة قوتها في ذلك الوقت. وقد تضاعف جهدها في هذه الأيام القريبة
للسعي في إثارة الصينيين فاتكأت على قواها الحربية سائرة على طريقة غير
مشروعة أخذت أراضى صينية كثيرة منذ 60 سنة وقهرت أهاليها استبدت بسكانها.
على أن حكومة الصين الملكية في ذلك الوقت تساهلت وتجاوزت على ذلك الاعتداء،
فاضطرب الشعب كله وهاج هائجه وأتحد وثار سنة 1911 على تلك الحكومة الملكية
الاستبدادية المفرطة
ولما قامت على أنقاض الملكية حكومة صينية جمهورية سارت تلك الحكومة الجديدة
في طريق البناء والعمران. وبعد القضاء على مبدأ الملكية واندحار المحافظين عليه.
جاءت الحرب العظمى فانتهزت اليابان فرصة سوء الحال في الصين وكثرة مشاغل
الدول فعرضت على الصين معاهدة تحوي على 21 مادة كلها ترمي إلى إخضاع البلاد
اقتصادياً وأدبياً، وأجبرت الحكومة الصينية على قبولها وتوقيعها. فثار لذلك الطلبة
الصينيون ونشروا دعاية وطنية وبدءوا حركة المقاومة واجتهدوا في المخالفة والكفاح
فلم تنجح اليابان
كما كانت ترجو وتتمنى
وفي سنة 1923 حدث في اليابان زلزال شديد فعاونتها الصين والصينيون بكل قواهم

وعطفوا عليها وجمعوا الأموال لمساعدتها ولكنها جزت الحسنة بالسيئة فأرسلت سنة 1926 جيشًا كبيراً إلى الصين ليمنع تقدم الجيش الصيني الذي أرادت الحكومة الصينية أن تخمد به الملكيين

وأتفق أن كتب رئيس وزراء اليابان الأسبق عريضته السرية التي عرضها على إمبراطور اليابان في شأن استعمار الصين فآسيا كلها، وقال فيها:

(إن في خطة إمبراطوريتنا الثالثة أن نستعمر منشوريا ومنغوليا والصين كلها. ولكن قبل أن نستعمر الصين الداخلية يجب أن نستعمر منشوريا ومنغوليا كما أننا نستعمر آسيا بعد أن نملك الصين كلها ليعلم العالم بذلك أن آسيا الشرقية آسيانا فلا يعتدي عليها أحد)

وبهذا ترى اليابان تصرح بإرادتها في استعمار آسيا كلها

ولما كان الفيضان سنة 1931 عم اغلب البلاد الصينية وشمل اكثر من 100 مليون نسمة عطف عليها العالم أجمع وساعدها مادياً وأدبياً إلا اليابان التي لم تحرك ساكناً في تلك المساعدة ناسية حق الجوار متناسية الجميل، لم تفعل هذا فحسب بل قد اغتنمت تلك الفرصة وتلك الحالة المحزنة في الصين واحتلت مكدون عاصمة منشوريا ورفضت قرار عصبة الأمم بل وانسحبت منها كأنها تثور على العالم أجمع

وبعد ذلك حاصرت اليابان سواحل الصين وضربت شنغهاي واحتلت ولايات الصين الشمالية الأربع وكونت حكومة غير مشروعة. وهي مع ذلك تساعد على نشر المخدرات في المناطق التي احتلتها وتساعد المهربين بجنودها المسلحة وترسل الجيوش إلى الصين بدون استئذان وتطير في الجو الصيني بطائراتها فاحتجت حكومتنا على هذا التصرف السيئ غير المشروع وفاوضتها، ولكن الاحتجاج والمفاوضة لم يجديا نفعاً ولا فائدة

لم تزل اليابان تسير على خطتها الاستعمارية فبعثت رسلا إلى شمال الصين يحرضون حكام الولايات الشمالية على الانفصال عن الصين فلم ينجحوا. فغيرت خطتها البطيئة الخفية بالسريعة المكشوفة فأرسلت جيوشها فاحتلت مدينة وانبين بجوار بكين (7 يوليو سنة 1937) وقت استعراض الجيوش اليابانية قرب لوكاوشاو، ولم ينجح الصينيون في منعهم،

فكان ذلك بدء الحرب المدمرة الطاحنة الغاشمة المخربة الحالية

والآن لا يمكن أن يصبر أحد من الصينيين على اعتداء اليابان على بلادهم، وليس ذلك من جهة الوطنية فقط بل ومن جهة الإنسانية والحق أيضاً. فالحكومة الصينية لا يمكنها السكوت على ضياع بلادها واقتطاعها جزءاً جزءاً مع حبها للسلم، لأن الصبر على ذلك يهين الحق ويعذب الإنسانية ويسم الصينيين بسمة الجبن فلابد إذن من المقاومة، وقد قال القائد العام المارشال تشانج كاي شيك: لا نترك السلم ما كان لنا أمل فيه ولا نقوم بالتضحية ما دام وقتها لم يحن. والآن قد أنقطع أمل السلم وحان وقت التضحية فبدأت تتجمع قوات الحكومة الجرارة في الدفاع عن البلاد حتى تنال الفوز الأخير ولو غرقت البلاد الواسعة العريقة في الحضارة كلها والأهالي جميعاً في الدماء

لهذا قد اتحدت الصين حكومة وشعباً في الدفاع عن البلاد ومقاومة اليابان والمسلمون في الصين كذلك متحدون مع غيرهم في الدفاع عن الوطن لأنهم يعرفون أن حب الوطن من الإيمان وأن الجهاد في سبيل الحق والإنسانية هو الجهاد في سبيل الدين الصحيح

وقد اشترك بعضهم في الحرب تحت إمرة القواد المسلمين المشهورين، وقام غيرهم على إنقاذ المنكوبين وشؤون التمريض وغير ذلك وسعى آخرون في نشر الدعاية للصين واتحاد المسلمين في العالم ليقفوا إلى جانب المسلمين في الصين بوجه المعتدين المخالفين للإنسانية والحق والدين الصحيح

والآن لا يمكننا أن نصبر على اعتداء دولة أجنبية على وطننا ولا على إضرار المعتدي الأثيم لإخواننا المسلمين في بلادنا، فلذلك وضعنا هذا الخطاب لنبين لإخواننا المسلمين في العالم ومن احب السلام والحق ما لاقاه المسلمون وغيرهم في الصين من المحنة العظمى والحرب المشؤومة رجاء أن يحكموا بالعدل وأن يقوموا بعمل إيجابي يعاقب به المعتدي أدبياً ومادياً فيعاديه السلام العالمي ويحقق به غرض الإسلام الأسمى لأن الله يأمرنا بالتعاون على الخير والمصلحة إذ قال: (وتعاونوا على البر والتقوى ولا

تعاونوا على الإثم والعدوان) وقال سبحانه وتعالى أيضاً: (إنه لا يحب المعتدين)
نور محمد دابوسين
ناظر مدرسة المعلمين الإسلامية بشنغهاي
ورئيس الجمعية الإسلامية الصينية
محمد إبراهيم شاه كوجين
رئيس البعثات الصينية بالأزهر الشريف بمصر
هذه هي مقدمة الكتاب الذي وضعه الحاج الإمام الأستاذ نور محمد دابوسين والحاج الأستاذ محمد إبراهيم شاه كوجين والذي ترجمه الأستاذ أبو بكر الصيني من اللغة الصينية إلى اللغة العربية وهذا الكتاب مشتمل على مقالات خطيرة مفصلة متعلقة بالحرب الصينية اليابانية القائمة الآن وأسبابها ونتائجها المتوقعة من الوجهة العسكرية والاقتصادية والسياسية.
وفيه فصل يبين فظائع اليابانيين في الصين منذ بدأت الحرب إلى الآن من تدمير المدارس والجامعات والمساجد والمباني الخيرية والمصالح الأدبية وقتل الطلبة والشبان والمدنيين غير المحاربين والفجور بالنساء والفتيات ونهب الأموال والحلي واستعمال الغازات السامة في الحرب وغير ذلك
وفيه فصل عن استماتة الصينيين في دفع الأعداء عن وطنهم العزيز واستشهاد المسلمين منهم في محاربة اليابانيين وهم تحت إمرة قواد مسلمين وغير مسلمين في الجنوب والشمال وعددهم يفوق المليون. وجهاد القائد المسلم المشهور في الصين الجنرال عمر باي تسون هسى ودفاعه عن الوطن بكل قواه. فإذا انتصرت الصين انتصر المسلمون فيها
وفيه فصول أخرى
هذا وقد كتب الأستاذان في آخر الكتاب رجاء المسلمين في الصين إلى المسلمين في العالم أن لا يشتروا بضائع اليابان ولا يبيعوا إليهم المعادن ولا المواد الغذائية حتى يرجع اليابانيون عن خطتهم الاستعمارية وأن يساعدوهم أدبياً ومادياً بواسطة (جمعية الهلال الأحمر) بكل ما يستطيعون
وبما أننا مسلمون فعلينا واجباتنا الدينية ومنها المعاونة على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان - بذلك ننشر هذه الصيحة العالية بين المسلمين كي تجد صداها الحسن عندهم وردهم الجميل عليها
(* * *)
رسالة الشعر
مصطفى صادق الرافعي
للأستاذ فليكس فارس
تواريتَ في الملأ الأرفعِ ... فأنتَ هُناكَ وأنتَ معي
هتكتَ عن الروح سترَ الترا ... بِ وسترُ ترابي لم يُقشعِ
أماطَ القضا أحدَ البرقُعي ... نِ وما زلتُ أدرجُ في برقعي
ورسمُكَ قد غارَ في ناظري ... وصوتُكَ قد غارَ في مسمَعي
فأصبحتَ أقربَ مني إلى ... قَرارةِ نفسيَ في أضْلُعي
كأنكَ من قبلُ كنتَ الخيا ... لَ فصرتَ اليقينَ بما لا أعي
أراكَ، فيا ويحَ مَنْ لا يرى ... حبيباً تولّى ولم يرجعِ
يسائل عنه طِباقَ الثرى ... وليسَ سوى الوهمِ في المضجعِ
أراكَ طليقاً كما كنتَ في ... حياتكَ في عيشِكَ الموجعِ
وما يأسرُ الدهرُ غيرَ الألي ... يضلّون في العالمِ الأخدَعِ
فَمن عاش عبداً بدنيائه ... سيُبعثُ عبداً على المطلعِ
ومَنْ لم يكن ههُنا أروعاً ... فليسَ هنالك بالأروعِ
عرفتك يا مصطفى مثلما ... أراكَ وقد جُزتَ للمصرعِ
عرفتك روحاً يدور بها ... من الدهرِ جيشُ الشقا المُفزعِ
وأنتَ تحدّى صروفَ الزما ... نِ وتهزأُ في حصنكِ الأمنعِ
وكيف تصيبك في مقتلٍ ... إذا لم يَكُنْ فيكَ من مطمعِ
غنمتَ من الأرضِ أرواحها ... وعفتَ التهاويلَ للمدّعى

إذا الروحُ نالت معاني الوجو ... دِ تخلّت عن الحرفِ والمقطعِ
وعايَنَتِ الحقَ نورَ الهدى ... بكلِ مُصَلٍّ على مركعِ
فقدناك يا مصطفى جامعاً ... شتيتَ بني العُربِ في الأربُعِ
فقدناك تهدي شعوباً مضت ... إلى القفر للمنبتِ المُمرعِ
بدا الآلُ يشعلُ سعَّارها ... فقُدتَ العطاشَ إلى المنبعِ
ورحتَ ترمِّم من صرحِهمْ ... بما انهارَ من متنهِ الأنصعِ
وغيرُك قد ضلَّ عن ردمِه ... فَرقَّع بالحجرِ الأسفعِ
وطفِلُ العروبةِ في بعثهِ ... يسيرُ ضلولاً على المهَيعِ
هديت الرضيع إلى أمه ... وغيرك أهداه للمرضعِ
فقدناكَ يا مصطفى صورةً ... لجيلٍ بأصلابنا مُودَعِ
لجيلٍ سيعرفُ أنسابَهُ ... فينكرُ كلَّ دخيلٍ دَعي
إذا نازعته الدُنى روحَه ... يهبُّ بهوجائهِ الزعزعِ
يثورُ وفي قلبهِ ربُّه ... فيمشي على السيف والمدفعِ
سلامٌ على غائبٍ حاضرٍ ... تكُفكف ذكراه من أدمعي
إذا ما سلا الناسُ موتاهمُ ... بنسيانِ فقدهمِ المفُجعِ
سلوتُك بالذكرِ يا مصطفى ... وأنتَ بروحي فأنت معي
فليكس فارس
. . .لم يطب للنبوغ فيك مقام
لحن حزين هزته ذكرى الأديب العربي الخالد مصطفى صادق الرافعي
للأستاذ محمود حسن إسماعيل
لم يَطِبْ للنُّبوغ فيكِ مُقامُ ... لا عَلَيْك - الْغَدَاةَ - مِنِّي سَلامُ
المنارَاتُ تَنْطفي بَيْنَ كَفَّيْكِ! ... ويَزْهو بشاطِئَيْكِ الظلاَّمُ
والصَّدَى مِن مَناقِرِ البُوم يَحْيا ... ويَموتُ النَّشيدُ والإلهامُ
قد حَبَوْتِ النَّعيبَ ظِلَّكَ لكِنْ ... أيْنَ قَرَّتْ بِشَطِّكِ الأنْغَامُ؟
في هَجيرِ الأيَّامِ تمضي أغاني ... كِ حَيارَى، يَؤُجُّ فيها الصِّرامُ
عَبَرَتْ مَسْبَحَ الجَداوُل، والنَّهْرِ، ... وغابَتْ كأنَّها أوْهامُ
!تَسْكبُ السِّحْرَ مِن شِفاهٍ عَلَيْها ... مَصْرَعُ السِّحْر: لَهفَةً! وأوامُ
!تَسكبُ العطْر والخمائِلُ صُفْرٌ ... ماتَ في الأيْكِ نَوْرُها البَسَّامُ
!تَسُكب البُرْء مِنْ جِراحٍ عليْها ... تُرْعِشُ العُمْرَ شَكْوَةٌ وسَقامُ
. .أنتِ يا (مِصْرُ): واصفحي إنْ تعتَّبْتُ ... وأشْجاكِ مِنْ نْشيدي الملامُ
!قَدْ رَعَيْتِ الجميلَ في كُلِّ شيءٍ ... غيْرَ ما أحْسنَتْ بهِ الأقلامُ . .
مِنْ رَوابيكِ خفَّ للخُلْدِ رُوحٌ ... قَد نَعاهُ لعَصْرِكِ الإسْلامُ
لبِسَتْ بعدَهُ العُروبَةُ ثَوْباً ... صِبْغُ أسْتارِهِ أسًى وقَتامُ
لم تُفِقْ مِنْ شجُونِها فيهِ (بَغْدَا ... د) ولا صابَرتْ أُساها (الشام)
وعَلَى (بلدة المِعزِّ) دُموعٌ ... خَلَّدَتْ ذِكْرَهُ بها الأهرامُ
صاحِبُ المعْجزاتِ أعْيَتْ حِجا الدَّنْ ... يا، وعَيَّتْ عَنِ كشْفِها الأفهَامُ
يَخْبأُ الحِكمةَ الخفيَّة في الوَحْي ... كما تَخْبأُ الشذَى الأنسامُ
ويَزُفُّ البيانَ كالسَّلسلِ المسْكوب ... تَهفو في شطهِ الأحلامُ
فإذا رَقَّ خِلَتَهُ قُبَلُ الفَجْر ... على نارها يَلَّذ المنامُ
أوْ حديثَ النسيمِ للزَّهْرة السَّكرى، ... مِن الطَّلِّ كأسُها والمدامُ
أو حَفيفَ السَّنابِلِ الخُضرِ. . رَفَّت في رُباها قنابِرٌ ويمامُ
أو دُعاَء النُسَّاكِ. . أبْلَتْ صَداهْم ... في حِمَى اللّهِ سَكْرَةٌ وهِيامُ
وإذا ثارَ خِلتْهُ شُهُبَ اللّيلِ ... أطارَتْ لهيبَها الأجْرامُ
أو شُواظاً مُسَطَّراً. . قذَفَتهُ ... مِن لَظَى العَقْل هَيجْةٌ وعُرامُ
أتْعَبَ الجاهدينَ خلفَ مَراميهِ ... بقصد مَنالهُ لا يُرامُ
أصَيدُ الفكْرِ واليراعةِ والوحيِ. . ... على كِبْرهِ يُفَلُ الحُسامُ
حَيَّرَ النقدَ أن تَروغَ المعاني ... عَنْ مُريديهِ أوْ تَنِدَّ السِّهامُ
فانْزوَى الحاسدُون. . إلاَّ فُضولاً ... لا يُداريهِ عائبٌ شَتَّام
قد سقاُهُم مِن سِنِّه مَصْرَعَ الرو ... ح وإنْ لم تُلاقِه الأجْسام

فلتَقُمْ بعدَ مَوْتِهِ ثورَةُ الشَّا ... ني فقَدْ فارَقَ الوَغى الصَّمْصام
ولهُ الشَّأنُ. . عِزَّةٌ وَخُلودٌ ... ولَهم شأنُهُمْ صدىً وكَلامُ
إِيهِ يا ساقِيِ (المساكين) كأساً ... لمْ تُسَلْسِلْ رحيقَها الأيَّامُ
قَد جَعَلْتَ الآلامِ وَحْيَك حتَّى ... فجَّرتْ نَبْعَها لكَ الآلامُ
ما الذيّ كانَ في سَحابَتِكَ الحمْراءِ ... إلاَّ الشُّجُونُ والأسْقام
كُنْتَ في عُزْلةٍ مع الوَحْي تَشكو ... ولِشكواكَ كادَ يْبكي الغَمام
تمسَحْ الدمْع من عُيونِ اليتامَى ... وبِبلْواكَ ينْشِجُ الأيْتام!
صُنْتَ عهْدَ البيانِ لم تُرْخِص القَوْ ... لَ، ولا شابَ سِحْرَكَ الإعْجام
وَتفَرَّدْتَ بالصِّياغَةِ. . حتى ... قِيلَ في عالَم البيانِ: إمامُ!
ووَهَبْتَ (الفُرْقانَ) قلْبَكَ. . حتى ... فاضَ منْ فُدْسهِ لك الإلْهام
فبعَثْتَ الإعجازَ كالشَّمس منه ... ينَهدَّى عَلَى سَناَهُ الأنَامُ
فقْمِ اليوْمَ! وانْظُرْ الشَّرْقَ ضاعتْ ... مِنْ يَديْهِ مَواثِقٌ وذِمامُ
مزَّقَتْ قلْبَهُ الذِّئابُ من الفَتْكِ. . ... وَنامَ الرُّعاةُ والأغْنامُ!
في (فِلَسْطينَ) لو عَلِمْتَ جراحٌ ... ما لها في يد الطُّغاةِ التئامُ
وطنُ الوَحْي، والنُّبُوّاتِ والإلْهام. . ... أوْدَى! فعاثَ فيه الطَّغَامُ
جذْوَةُ في جَوانح الشرْق تَغْلي ... فَيروعُ السَّماء مِنْها اضْطِرامُ
يُذْبَحُ القوْمُ في المجازِرِ - فرْط الظُّ ... لم فيها - كأنَّهم أنْعامُ
ويُهانُ (المسيحُ) في مَوْطِنِ القُدْ ... سِ، وَيشْقَى بأرْضِهِ الإسْلام
وحُماة البيانِ خُرْسٌ. . كأنَّ الذَّ ... وْدَ عنْ كَعْبةِ الجدودِ حَرام!
إيه يا (مُصْطَفى) وفي القَلْبِ أشجا ... نٌ! وفي الصَّدْرِ حُرْقَةٌ وضِرام
ليْت لي سَمْعَك الذي كرَّمَ الل ... هُ صَداهُ! فماتَ فيه الكلام
كنتَ والوَحْيَ عاشِقَيْنِ فماذا ... بَعْدَ نجْوَى السماءِ يَبْغي الغرام؟
كُنْتَ والوَحْي في سُكونِ نَبِيٍ ... عادَةُ في صَلاته إلهام
تتلقّاهُ خاشعَ الهمْسَ عفَّا ... مِثلَما رَفَّ بالغَدير حَمامُ
لا ضَجِيجٌ! ولا اصْطِخَابٌ! وَلكِنْ ... هَدْأَةُ الرُّوح قدْ جَلاها المنامُ
هكذا نَعْشكَ الطُّهورُ تَهادَى ... كالأماني، لا ضَجَّةٌ! لا زِحام!
فاذْهَبْ اليوْمَ للخُلُودِ كما كُنْ ... تَ. . تُغادِيكَ هَدْأةٌ وسلام
لمْ يمت مَنْ طَواهُ في قلبِه الشِّرْ ... قُ! وَغَنَى بِذكْرِهِ الإسْلام!

محمود حسن إسماعيل

راقصة

للأستاذ محمود غنيم

هنا الغرامُ والولَهْ ... يا منظراً ما أجملَهْ
أتلك أنثى خَطَرَتْ ... أم فتنة منتقلهْ
مقبلةٌ مدبرةٌ ... مائلةٌ معتدلهْ
كأن تحتَ اخمصَي ... ها جمرةً مشتعلهْ
باسمةٌ يحسبها ... كل فتى تبسم لهْ
تدورُ حول نفسها ... كما تدورُ العجلهْ
وتنثني كأنها ... عن نفسها منذهلهْ
أبدلها خالقها ... بكلِّ عظمٍ عضلهْ
يا حسنها إذا عَرَكَتْ ... أنمُلَةً بأنملهْ
أنامل من فضةٍ ... ليِّنةٍ منفتلهْ
جميعُ ما في جسمها ... يُغريك أن تقبِّلهْ
كم مقلةٍ شاخصةٍ ... هَّمتْ به لتأكلهْ
والسحْر طلَّ السحر في الأ ... نوثة المكتملهْ
من نَرْمِهِ بلحظها ... أدنت إليه اجلَهْ
كم ارتقت مسرحها ... فصيَّرَته مفْصَلهْ
دقَّتْ على مسرحها ... بساقها منفصلهْ
كأن في المسرح حَرْ ... باً هي فيها البطلهْ
زلزلةٌ قد أحدثت ... في كل قلبٍ زلزلهْ

تستر نصف جسمها ... غلالةٌ مشكّلةْ
يَشفُّ عن أعضائها ... من تحتها مفصَّلةْ
جسم كموج عِيْلمٍ ... تسبح فيه الأخليةْ
تحسَبُ فيه كلَّ عضٍ ... ووحدةً منفصلةْ
فليس بين خَصْرِها ... وبين صدرها صِلةْ
في مرقص لا يعرف ال ... همَّ فؤادٌ نَزَلَةْ
كأنه في بقعةٍ ... عن الدنى منعزلةْ
بين الدنى وبينه ... ستائرٌ منسدلةْ
الهمّ فيه واقفٌ ... خجلانَ يُخفي خجلَةْ
دعني أضلَّ ساعةً؛ ... عبءُ التقى ما أثقلَةْ
ما كنتُ من أهل المُسُو ... حِ والدُّقون المسبَلَةْ
كم وَرَعٍ مصطَنَعٍ ... وعفةٍ مُفْتَعَلَةْ
(كوم حماده)
محمود غنيم
البريد الأدبي
في تاريخ آداب اللغة العربية
الأستاذ كارل بروكلمن حجة المستشرقين العليا في الآداب العربية، وأسمه معروف مستطير في الدوائر العلمية سواء في الغرب أو في الشرق العربي. وقد ظفر بتلك النباهة من طريق تآليف غاية في التدقيق العلمي والإطلاع الوافر. وعلى رأس هذه التآليف كتابه الفريد أيام برنا (سنة 1898) (تأريخ الآداب العربية) باللغة الألمانية وقد استفاد من هذا الكتاب الخصب عدد غير قليل ممن ألفوا في الموضوع عينه. وإذا نقضي على بروز الكتاب زمن رأى صاحبه أن ينشر له تكملة يورد فيها ما فاته ويستدرك ما فرط منه ويثبت ما جاء به العلم منذ سنة 1898. وقد ظهر من التكملة الجزء الأول وبعض الجزء الثاني. وستقع التكملة فيما يزيد على ألفي صفحة من القطع الكبير. ومما نذكره اليوم على سبيل الإشارة - مرجئين الكتابة إلى حين صدور التكملة كاملة - أن الأستاذ كارل بروكلمن أثبت فيما أثبت من المصادر والمراجع طائفة من المؤلفات أصحابها علماء وأدباء من لبنان والشام والعراق ومصر خاصة، منهم: حفني ناصف وجورجي زيدان وأحمد الإسكندري ومصطفى صادق الرافعي وأحمد زكي (باشا) وأحمد حسن الزيات وطه حسين وسلامة موسى وزكي مبارك ومحمد فريد وجدي وبشر فارس ثم شفيق جبري وفؤاد أفرام البستاني والأب الكرملي ومعروف الرصافي.
جوائز وزارة المعارف لتشجيع التأليف بين المدرسين
أصدر صاحب المعالي الدكتور حسين هيكل باشا وزير المعارف القرار التالي:
بما أننا نرى ضرورة العمل على تشجيع الإنتاج بين المدرسين بمدارس الوزارة وبالمدارس الحرة من طريق حفزهم إلى البحث والتأليف في موضوعات اختصاصهم والموضوعات المتصلة بها بما يؤدي إلى تقوية شخصيتهم العلمية وزيادة حيوية دروسهم وتكوين ذخيرة من الرسائل العلمية والأدبية، تدعو إلى نشاط التفكير العام، إذ ينتفع بها الطلاب والجمهور المثقف على السواء، وتكون بعيدة عن التقيد بالمناهج وإن اتصلت بموضوعاتها
وبما أن المدرسين والأساتذة هم في جميع البلاد المتحضرة مصدر التجنيد العلمي والفكري
والعملي في توجيه الحياة الاجتماعية إلى أحدث المبادئ وأدق الآراء العلمية والأدبية والفنية
بما أننا نرى من خيرنا ما يمهد لهذه الغاية، ويدفع إلى السير في طريقها رصد جوائز سنوية تمنح للمدرسين الذين يضعون رسائل في موضوعات علمية أو أدبية على أن يكون لنيل هذه الجوائز أثر في تقدير كفاية المدرس وما يستتبعه هذا التقدير من التشجيع قرر
المادة 1 - تعقد وزارة المعارف كل عام مباريات للتأليف بين المدرسين تخصص لها جوائز ثمان قيمة كل منها مائة جنيه، تمنح للمتبارين الذين ترى لجان التحكيم أن

رسائلهم جديرة بالمنح ويكون تخصيص هذه الجوائز على الوجه الآتي:
جائزة للموضوعات الأدبية، وجائزة للموضوعات الإجتماعية، وجائزة للموضوعات الفلسفية، وجائزة للموضوعات الجغرافية، وجائزة للموضوعات التاريخية، وجائزة للموضوعات الطبيعية، وجائزة للموضوعات الرياضية، وجائزة للموضوعات المتصلة بالتربية وعلم النفس
المادة 2 - يشترط في الرسائل التي يتقدم بها واضعوها لنيل الجائزة أن تكون باللغة العربية وأن تكون موضوعاتها بعيدة عن التقيد بالمناهج وإن اتصلت بموضوعاتها، بعيدة عن طبيعة الكتب المدرسية، وأن تبدو فيها روح الابتكار في طريقة معالجة الموضوع على الأقل، وأن يكون لها اتصال بحياة البلاد العلمية والأدبية أو تأريخها القومي، وأن تصطبغ بالصبغة القومية في الأمثلة والتطبيق، وأن يراعى في التأليف التبسط واستيفاء البحث من جميع أطرافه والأمانة العلمية في إيراد الآراء والنظريات، وأن يتبع واضع الرسالة أسلوب البحث العلمي الحديث، وطرائق النقد الحديثة في إيراد نظرياته ومناقشتها. كما يشترط أن تكون الرسائل قد وضعت خصيصاً لهذه المباريات ولم يكن قد سبق طبعها ونشرها وألا تقل عن مائتي صفحة من القطع المتوسط
المادة 3 - تحدد لهذه المباريات في كل عام مدة غايتها ستة شهور تبتدئ في أول يونيو وتنتهي في آخر نوفمبر، يتقدم فيها المتبارون برسائلهم للوزارة غير مطبوعة.
المادة 4 - تشكل في كل عام عقب انقضاء الأجل المحدد للمباراة لجان للتحكيم، تقوم ببحث الرسائل التي تقدم في المباراة ويكون أعضائها من الأخصائيين في موضوعاتها.
المادة 5 - يجوز للجان التحكيم ألا تمنح جائزة ما عن كل أو بعض الرسائل إذا لم تتوافر فيها الشروط المطلوبة، أو إذا لم تصل الرسالة المستوى الجدير بالجائزة كما يجوز لهذه اللجان أن تقسم الجائزة الواحدة على اكثر من رسالة إذا تساوت قيمتها العلمية أو تقاربت
المادة 6 - تتولى وزارة المعارف نفقة طبع الرسائل التي تنال الجوائز ونشرها وتحفظ للمؤلف قسطا من أرباحها
المادة 7 - على وكيل الوزارة تنفيذ هذا القرار.
مشروع المسابقة في تاريخ الأدب العربي المصري
نشرنا في العدد الماضي خبراً عن مشروع المسابقة الذي وضعه معالي الدكتور هيكل باشا وزير المعارف في موضوع (تاريخ الأدب العربي بمصر من الفتح الإسلامي إلى الآن) وقد رأى معالي الوزير أن يستطلع آراء المشتغلين بالدراسات الأدبية في المشروع قبل إقراره. وقد تلقى ردود الأساتذة وكلها متفقه على تشجيع الفكرة واعتبارها عاملاً قوياً من عوامل التمكين للمعاني القومية والنهضة الأدبية. ويمكن تلخيص مختلف الآراء فيما يلي:
يؤيد فكرة المسابقة تفتيش اللغة العربية، وأساتذة دار العلوم، والأستاذ أمين الخولي من كلية الآداب
ويؤيد بحث الموضوع ويخالف فكرة المسابقة ويطلب اختيار لجنة من الباحثين المعروفين الدكتور طه حسين بك والأستاذ أحمد أمين. وتخالف دار العلوم فكرتهما وترى أن فيها تثبيطاً لهمم الشباب وتحقيقاً لما يصح أن يسمى احتكاراً علمياً ويطلب تفتيش اللغة العربية مد المدة إلى سنة، ويتفق معه في ذلك الأستاذ أمين الخولي؛ ويطلب الدكتور طه حسين بك والأستاذ أحمد أمين جعل المدة سنة وأربعة أشهر. وترى كلية الآداب زيادة المبلغ المقرر للجوائز. ويرى تفتيش اللغة العربية وضع برنامج للمتسابقين، في حين يرى الأستاذ الخولي ترك الحرية المطلقة لهم وستؤلف لجنة لبحث هذه الآراء برياسة وكيل الوزارة ثم تقدم تقريرها إلى معالي الوزير ويصدر القرار على أساسه.
شاعرة مصرية تفوز بجائزة الشعر الفرنسي
وزع في الأسبوع الماضي (بيت الشعر) وهو الهيئة التي تضم شعراء فرنسا جوائزه السنوية برياسة المسيو فالمي بابيس السكرتير العام السابق للكوميدي فرانسيز وقد منح الشعراء الفرنسيين الجوائز الثلاث المخصصة لأبناء فرنسا أما الجائزة الرابعة؛ وهي جائزة أدجاربو المخصصة للشعراء الأجانب الذين ينضمون الشعر باللغة

الفرنسية وقدرها خمسة آلاف فرنك - فقد منحتها السيدة نيلي فوشيه زنانيري على كتابها الأخير (الظهر تحت السماء المحرقة)
وقد الفى المسيو فالمي بابيس كلمة قال فيها: (إن هذه الجائزة - وهي موجودة منذ عشر سنوات - تفوز بها اليوم لأول مرة شاعرة مصرية. وكان الذين نالوها قبل الآن من الشعراء البلجيكيين والسويسريين واللبنانيين والكنديين
وإننا لنغتبط اليوم بأن تنال هذه الجائزة شاعرة مصرية، هي السيدة نيلي فوشيه زنانيري، من أجل كتابها الممتع الطريف
وكانت قد تقدمت لهذه المسابقة عدة مرات وها هي الآن تجني ثمرة ثباتها ومواهبها الشعرية الصافية الفياضة بالشعور
وإننا سعداء اليوم بأن تكون جائزتنا من نصيب مصر، حيث للثقافة الفرنسية مكانة كبيرة، وحيث يقابل الكتاب والمحاضرون الفرنسيون بكثير من الحفاوة) ثم هنأ المسيو فالمي بابيس الصحافة المصرية على نموها وازدهارها في السنوات الأخيرة وأشار إلى أن المسيو روبير فوشيه صهر السيدة الفائزة ومدير مكتب (الأهرام) في باريس أنتخب من بين 250 من الصحافيين الأجانب سكرتيراً عاماً لجمعيتهم. وهكذا فإن الصحافة المصرية والشعر المصري يحتلان مكانة عالية في باريس
وأشار السكرتير العام بعد ذلك إلى أن السيدة زنانيري منحت الجائزة بإجماع الآراء، بين 46 متسابقاً أرسلوا 150 مؤلفاً
وقد أرسل (بيت الشعر) كتاباً رسمياً إلى محمود فخري باشا وزير مصر المفوض في باريس يبلغه فيه أن الجائزة منحت لشاعرة مصرية.
بين الرافعي والعقاد
قرأت ما يدور الآن من الجدل بين أنصار الرافعي وأنصار العقاد، وقد أردت أن أدلي بهذه الكلمة الصغيرة في البيت الذي يطعن فيه أنصار الرافعي من قصيدة العقاد في الغزل الفلسفي:
فِيكِ مِني ومن الناسِ ومِن ... كلَّ موجودٍ وموعودٍ توأم
فقد ذهب الرافعي رحمه الله في نقده إلى أن من كل موجود البق والقمل والنمل والخنفساء والوباء والطاعون والهيضة وزيت الخروع والملح الإنجليزي، إلى واوات من مثلها لا تعد، أفيكون هذا كله في حبيب إلا على مذهب العقاد في ذوقه ولغته وفلسفته؟
ورأيي في هذا أن العقاد يمشي في بيته مع بعض الفلاسفة الذين يرون كل شيء في الطبيعة جميلاً، ويذهبون فيها مذهب الهيام الذي يبدي كل شيء فيها حسناً، وهذا شأن كل محب مع حبيبه إذ يبلغ به الهيام فيه إلى حد لا يرى فيه نقصاً أو عيباً، بل إلى حد ان يرمي نقصه كمالاً وجمالاً:
وعَينُ الرضا عن كلِّ عيب كليلة ... ولكنَّ عين السخط تُبدي المساوِيَا
فبيت العقد من هذه الناحية منسجم مع موضوع قصيدته في الغزل الفلسفي، ولم يكن فيه محتاجاً إلى تقييد جرير في قوله:
ما استوصف الناسَ من شيءٍ يَرُوقُهمُ ... إلا أرى أُمَّ عمرو فوق ما وصفوا
لأن جريراً لم يكن يتغزل على ذلك النحو الفلسفي، وإنما كان يذهب في غزله المذهب الظاهر في الشعر العربي
ولابد أن نشير بعد هذا إلى أن كل شيء في هذا الكون لا يخلو من حسن يسوغ إجراء بيت العقاد على عمومه، وقد ذهب إلى هذا بعض العلماء في تفسير قوله تعالى: (الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين) قال العلامة الزمخشري: إنه ما من شيء خلقه إلا وهو مرتب على ما اقتضته الحكمة، وأوجبته المصلحة، فجميع المخلوقات حسنة، وإن تفاوتت إلى حسن وأحسن
عبد المتعال الصعيدي
حول الفيلسوف (مسكويه) وعصره
سيدي الأستاذ الفاضل محرر الرسالة الغراء
بعد التحية: أشكر لكم وللأخ الفاضل الكريم الأستاذ محمد عبد الغني حسن ما قدمتماه من استدراك جميل حرصتم فيه من جانبكم على أن تسموا الفيلسوف (بإبن مسكويه) بدلاً من (مسكويه)، وحرص حضرة الأخ الكريم على أن يجعل حياته في العصر (الرابع)

لا (الثالث)، وعلى أن هذا العصر لم يكن عصر تكوين للمعاجم اللغوية بالمعنى المضبوط

فأما استدراككم بشأن الاسم فما رأيكم في أن كثيراً من المؤرخين والمترجمين القدماء والمحدثين قد ذكر الرجل مجرداً عن (الابن) فدعاه آناً (مسكويه)، وآناً (أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه)؟ وما دأبكم أن من بين من دعوه كذلك القفطي وياقوت وإبن أبي أصيبعة والوزير أبو شجاع والمستشرق مرجليوت؟ وما رأيكم في أن (التوحيدي) (معاصره) كان يدعو دائماً (بمسكويه) كما جاء في كتاب المخطوط (الإمتاع والمؤانسة) وكتابه المطبوع (المقايسات)؟ وما رأيكم في أن مخطوط (جاويدان حزو) وهو أقدم مخطوط يحمل الفيلسوف ينم على أن الرجل كان يسمى بهذا الإسم؟

وأما استدراك الأستاذ الصديق بشأن العصر فلست أذكر في الواقع المؤرخ الذي أخذت هذا الأمر عنه. وأحسب أنه قد تقيد في قوله بالقوة والضعف أكثر مما تقيد بالزمن نفسه. وها هو كتاب المفصل في تاريخ الأدب العربي يعتبر أن شعر إبن سينا وهو معاصر لمسكويه يقع في العصر العباسي الثاني لا الثالث ولا الرابع

وأما استدراكه بشأن تكوين المعاجم اللغوية فالواقع أني لم أعن بدرس هذه الناحية لأنها على هامش بحثي. ولكني على أية حال اعتمدت فيما ذكرت على مؤلف ثقة هو المرحوم جورجي زيدان القائل في كتابه: آداب اللغة العربية ج2 ص 223 أن هذا العصر يمتاز بنضج العلم وتكوين المعاجم اللغوية؛ فإذا كان الأستاذ الفاضل يرى أن علماء اللغة في هذا العصر لم يبلغوا من الكثرة والإحاطة ما بلغه علماء العصور التالية فأظن أن كلام زيدان لا يبقى مع ذلك صحيحاً.

محمد حسن ظاظا

اكتشاف آثار مدينة من قبل المسيح

كتب إلى جريدة الدبلي تلغراف مراسلها من نيويورك يقول إن الأثريين الأمريكيين الباحثين قرب شاطئ البحر الأحمر اكتشفوا آثار مرفأ كان زاهراً هناك حوال ألف سنة إلى ثمانمائة سنة قبل المسيح

أما المدينة المكتشفة آثارها فهي ازيونجيير التي يدعوها العرب تل الخليفة. وهي واقعة عند الطرف الشمالي لخليج العقبة. ويرجع الفضل لاكتشافها إلى الدكتور جلوك مدير المعهد الأمريكي للأبحاث الشرقية في القدس.

-

-

الكتب

عصفور من الشرق

تأليف الأستاذ توفيق الحكيم

بقلم الأستاذ محمود الخفيف

هذه نفحة أخرى لصاحب أهل الكهف وشهرزاد، نفحة فيها روح توفيق الحكيم وفن توفيق الحكيم، حتى لو أن الكتاب الذي يزجيها إليك كان غفلاً من أسم مؤلفه ما استطعت أن ترده إلا إليه. . .

ولقد انتظرت هذا الكتاب منذ أن أعلن عنه، فلما تفضل مؤلفه الفاضل بإرساله إلي أقبلت عليه فتلوته، ولشد ما رغبت لو أنه طال عما هو عليه ليطول بذلك استمتاعي بتلك اللذة الساحرة التي لن يظفر بها المرء إلا في أمثال تلك القصة من الآثار الفنية العالية؛ وها أنا ذا أقدم الكتاب لقراء الرسالة لا أبتغي إلا أن أدلهم على متعة قوية أحب لهم - من فرط ما أعجبت بها - أن يشاركوني فيها

ولو كان المجال هنا مجال نقد يبسط موضوع الكتاب ويعرض لدقائق الفن فيه، لخشية أن يحملني إعجابي به على الغلو، ولكني الآن بنجوة من هذا، فقصاراى هنا الوصف المحدود؛ ذلك أن الكتاب كغيره من الآثار القيمة جدير أن يفرد له صفحات أوسع من هذا المجال الذي تتركه لي الرسالة اليوم. . .

قوة هذا الكتاب وخطره منحصران فيما يتضمنه من فكرة تستطيع أن تجملها في مسألة هي روحية: الشرق ومادية الغرب؛ أما القصة في ذاتها فبسيطة سهلة لا التواء فيها ولا جلبة ولا حركات مثيرة ولا مفاجآت قوية ولا غير هذه من ضروب الاستهواء

التي نصادفها في بعض القصص؛ ولقد جاءت تلك البساطة نوعاً من الجمال في الكتاب فكان كآثار راسين سحره في عمق الفكرة ودقة الفن لا في مثيرات الحكاية هذا محسن فتى شرقي يقيم في باريس ويعرفه الناس بأنه (عصفور من الشرق) تقع عيناه على حسناء من حسان باريس فتستأثر بلبه ويأخذ حسنها بمجامع قلبه؛ فإذا به يعيش بخياله الشرقي وروحانيته الشرقية عيشة أهل الجنة على هذه الأرض؛ وتتهيأ له سبل الاتصال

بالفتاة ومجالستها ومصاحبتها حتى يصطدم بالواقع ويرى أنها لا تحبه وأنها تخدعه فيكون موقفه - كما صوره المؤلف - موقف آدم عند خروجه من الجنة. . .

تلك هي الحادثة، وهي كما ترى بسيطة غاية البساطة، ولكنها على بساطتها مليئة بألوان السحر والفن فوصف شعور محسن في حبه يبهج النفس ويملأها نشوة، وبراعة الحوار والمناجاة هي السحر بعينه، بله دقة الفن وحسن سبكه

على أن خطر الكتاب وقيمته - كما قدمت - في فكرته؛ ولقد استطاع قصاصنا الكبير أن يدلي بآراءه على ألسنة أشخاص صورهم أحسن تصوير وأبرعه، فهذا هو محسن وهذا هو أندريه الغربي الذي لا يعرف خيالاً ولا شعراً؛ والذي يعتبر نقيضاً لمحسن يهزأ به وبأحلامه يسوقهما المؤلف لترى فيهما روح الشرقي وروح الغربي، ثم هذا إيفانو فيتش الروسي العامل الذي يجري المؤلف على لسانه الجزء الأكبر من فلسفته، ثم هذه هي سوزان الباريسية الحسناء التي أحبها محسن إلى غير هؤلاء من الأشخاص الذين صورهم المؤلف أصدق تصوير وأجمله؛ ولو أني أردت أن أدلك على مواضع الجمال والقوة فيما جرى على ألسنتهم من آراء لدللتك على الكتاب كله، ولست - شهد الله - أغلو في ذلك ولا أسرف؛ ولم يقتصر المؤلف الفاضل في تصوير حياة الغرب على الآراء التي أجراها على ألسنة هؤلاء الأشخاص، بل لقد صور لنا عدة مناظر من الحياة ذاتها كالأسرة التي كان يعيش فيها قبل انتقاله إلى المنزل وكالمسرح وحفلات الموسيقى وغيرها فأحاط كتابه بجو بديع؛ ولم يكن - شأنه في ذلك شأن الفنان المتمكن من فنه - يعرض من الصور والمناظر إلا ما يستلزمه إبراز الفكرة الفلسفية التي تدور عليها القصة؛ أنظر إلى الولد الصغير يوحي إليه بمحاربة البوش والشيخ المسن يبدي تذمره واستيائه إذ يعرض لحال العمال وربة الأسرة تخشى أن يرحل محسن إلى جهة أخرى ولا مرتزق لهم إلا ما يدفع من أجر تر صوراً قوية أخاذة لحياة الغرب يقدمها المؤلف بين يدي فكرته في مهارة تحملك على الإعجاب. . .

ولقد كان في التعبير عن فكرته بهذه الطريقة موفقاً جهد التوفيق، فليس أوقع من الإيحاء والإشارة في تصوير المعنى الفلسفي المراد؛ تجد ذلك في الشعر وهو الصور القائمة على اللفظ وتجده في التصوير بالألوان، وتجده في الموسيقى؛ ولعمري ما يستطيع عالم من

علماء النفس مهما اتسعت آفاق علمه أن (يصور) لك الأناني أو المخاتل أو الغيران أو الجشع أو اللئيم أو غير هؤلاء كما يستطيع أن يفعل رجل الفن، فرسم الصور الحية عمل ذلك الفنان ومنها تأخذ من المعاني ما شئت وشتان بين الصورة الحية والمعاني المجردة؛ وهل قامت عظمة شكسبير ودكنز وجوته وهوجو وراسين وأضرابهم إلا على ذلك الفن الذي يخلق من المعاني الحياة؟ وإنك لتستطيع أن ترد نجاح توفيق الحكيم ونباهة شأنه إلى هذه الموهبة الفنية أكثر مما ترده إلى أي شيء آخر

وأحب أن أشير هنا أن شخصية محسن هي كما يدرك القارئ دون عناء شخصية المؤلف نفسه تتجلى هنا كما تجلت في قصة (عودة الروح) كما أحب أن أشير على الرغم من ضيق المجال أن هذا الكتاب يقدم لنا دليلاً جديداً على أن فن توفيق الحكيم في القصة فن غير مقصور على ناحية معينة، ولقد قدم لنا في أهل الكهف وشهرزاد لونين من ألوان القصة المسرحية، ثم أرانا في عودة الروح لوناً من ألوان القصص غير المسرحية، وفي يوميات نائب في الأرياف أتى بنوع جديد يعد من القصص الإصلاحية، ثم هو في هذه القصة الأخيرة يأبى إلا أن يبتدع فهو كما ترى لا يتخصص في نوع واحد، ولكنه مع ذلك يسمو في كل نوع سمواً يشعرك في كل قصة كأنه أوقف على لونها فنه ومواهبه، ولقد يحسب بعض النقاد هذا مستحيلاً أو يعدونه نقصاً ويستشهدون على ذلك بأن كثيراً من كبار القصاصين يقتصر الواحد منهم على لون لا يحسن غيره، ولكن

توفيق الحكيم يقيم الدليل القاطع على غلوهم في هذا الزعم، وماذا عسى أن يحول بينه وبين الإجادة في كل نوع والمسألة كلها مسألة قصص وهذا فن ركب في فطرته وإن له من قوة روحه وعمق فلسفته وسعة ثقافته لمعين لا ينضب؟ إننا لا يسعنا كما أسلفت في معرض آخر إلا أن نعتز بفن توفيق الحكيم كمظهر من مظاهر نهضتنا الثقافية وما أحوجنا إلى أمثاله في جميع نواحي حياتنا الأدبية والعلمية. أجل ما أحوجنا إلى أمثاله النابغين الذين يردون بالعمل الناضج الفذ على الذين يرموننا بالقصور ويمكرون علينا استعدادنا للتفوق. فليتقبل مني الأستاذ النابه هذه العجالة تجلة معجب وتحية صديق
الخفيف

العدد 256 - بتاريخ: 30 - 05 - 1938

حول اقتراح وزارة المعارف

توحيد الثقافة العامة

ونريد بالثقافة العامة القدر المشترك من المعرفة بين النشء في طوري التعليم الابتدائي والثانوي. وهذا القدر أشبه بالغرار يطبع عليه آحاد الشعب فيتحدون بالهوى ويتفقون في الطبع ويتقاربون في الرأي ويتسايرون إلى غاية واحدة تتجه إليها القوى وتصلح عليها الجماعة. وهذا المثال أو المنوال فقدته مصر والعالم منذ اقتبسنا المناهج الحديثة في التعليم، والنظم الأوربية في الحكم فكان في كل قطر من أقطار الإسلام ثقافتان مختلفتان في الخطر والأثر، إحداهما تقوم على الدين المشروع والسنة الموروثة وما يتصل بها من خصائص الجنس وتقاليد الشرق وأساطير التاريخ، والأخرى تقوم على أساس سطحي من أدب الغرب ومدنيته وعقليته ونظمه. والثقافة الأولى غالبة لصدورها على الفطرة والعقيدة والوراثة والبيئة. أما الثانية فكانت لنبوها عن الطباع تنال العقول والقلوب في أناة ورفق، وتغزو الرسوم والأوضاع في حذر وحيطة، حتى تم للغرب فتح الشرق فنشر فيه حضارته وثقافته بالإيحاء والإغراء والقوة. وهناك أخذ التنازع بين هاتين الثقافتين يفعل في الحياة فعله، فغير الوجهة وعوق السير وشعَّب الرأي وشتت الوحدة؛ فلم يكن للقائمين على سياسة التعليم بد من الطب لهذه العلة تفادياً لما ظهر من سوء أثرها في سياسة الدولة وإنهاض الأمة وهاهي ذي وزارة المعارف تفكر أخيراً في توحيد القالب الثقافي في المدارس المدنية والمعاهد الدينية على وضع لا تزال تفاصيله مجهولة، لأن الفكرة ما برحت تتردد بين دار الوزارة وإدارة الأزهر. فإذا عرضنا لها اليوم فإنما نعرض للأساس الذي لا يتغير في التفصيل ولا في الجملة:

ليس بسبيلنا أن نبحث في أي الثقافتين أدنى إلى الإصلاح وأولى بالأخذ، فإنا نؤمن بأن لقانون التطور حكماً لا يدفع، وأن للتلاقح الاجتماعي بين الحضارات والثقافات أثراً لا ينكر في تمدن الإنسان وتقدم العالم. ولكننا نعتقد أن تغليب التعليم المدني بمنهاجه الحاضر على التعليم الديني أمر لا يغب غير الضرر؛ فإن التعليم المدني لا يزال عاجزاً يتلمس طريقه المطموس بين الاضطراب والفوضى، لا يقف عند تقليد، ولا يطمئن إلى تجربة،

ولا يستقر على نظام. وقد أسفرت أكلافه وجهوده مدى نصف قرن عن جيل مشياً الخلق مشوش العقل ناقص الكفاية مشكل الوضع، فلا هو قارئ ولا أمي، ولا هو شرقي ولا غربي، ولا هو ديِّن ولا ملحد. وقد وسمه كلُّ عمل بالعجز، ورماه كل مشروع بالفشل، فلم يستطع إلا بث الضجر في الناس، ونشر الفساد في المجتمع، وإشاعة السخط على الحياة.

وأما التعليم الديني فكان على جموده وقصوره أهدى سبيلاً إلى الإصلاح، وأرجى منفعة للأمة، فقد دأب دهره الطويل بثقف الأفئدة، ويقوّم الألسنة، ويزود أتباعه بالأسلحة المواضي لمحاربة الرذيلة والأمية، فيرجعون إلى قومهم في المدن والقرى والضياع يتغلغلون فيها تتغلغل النيل، فيرشدون الغوي، ويعلمون الجاهل، ويؤاسون المصاب، وينشرون ظلالاً من الدين والمعرفة والمدنية على حياة الفلاح فبسعد بالسلام والوئام والبركة، بينما تجد (الأفندية) يتسكعون على أفاريز الطرق، أو يتقمعون على موائد المقاهي، ينتظرون وظيفة يعيشون عليها، أو جريمة يدخلون فيها

على أن التعليم الديني ليس صالحاً كله، والتعليم المدني ليس فاسداً كله؛ وملاك الأمر

هو مزج الخير في هذا إلى بالخير في ذاك، فيكون منهما قوام صالح تتماسك عليه الأخلاق وترتقي به المدارك. وليس في التعليم الأزهري خير إلا في عناصره الأساسية الثلاثة: الدين والعربية والشرقية. فاحتفظوا بها واجعلوا ما عداها درج الرياح. اجعلوها بعد تنقيتها وتقويتها أساساً للثقافة العامة، فإن في الدين رياضة الروح، وفي العربي ثقافة الشعور، وفي الشرقية سلامة الشخصية. ولا يضيرنا إذا قام التعليم على هذه الأسس الثلاثة أن يكون ما تتعلمه أوربياً محضاً لا أثر لعلومنا فيه، ولا صلة لكتبنا به نريد أن تبسط (المعاهد) سلطانها على التعليم في هذه الأمور الثلاثة، ثم تعلن للمدارس إذعانها فيما عدا ذلك. ولا يتحقق هذا السلطان إلا إذا كان لمادتي الدين واللغة حظ موفور من منهج المدرسة وكفاية المدرس وعناية الوزارة

فإذا سار الأمر في تعليمهما على الوجه الذي يسير عليه في المدارس الابتدائية والثانوية، اضطربت القواعد في الجامعة الأزهرية وأصابها من وهن الأساس وتصدع الجوانب ما أصاب كلية الآداب في الجامعة المصرية، فتبنى على الرمل، وتعتمد على الخواء، وتكتفي بهذه العناوين الضخمة والألقاب الفخمة والمظاهر الخداعة، ثم لا نكون قد فعلنا أكثر من

أننا عمدنا إلى نظام مستقر يفيد بعض الفائدة، فحولناه إلى نظام مضطرب يضر كل الضرر

هذه كلمة عجلى في المشروع لا في الموضوع كتبناها توطئة لما ستنشره الرسالة متى وقفت على قرار الرأي فيه

الماضي والحاضر

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

لقيت مرة صديقاً أثيراً عندي فسألني: (يا أخي أين أنت) قلت: (حيث تراني) قال: (إنا لا نجدك في أي مكان) قلت: (ذاك لأنك تبحث عني في حيث يوجد الناس عادة، وأنا لا أحب أن أكون حيث يكثر الناس ويزدحمون كالمواشي في الحظائر)

بعد هذه الفاتحة ذهبنا نتمشى واستطردنا في الطريق من حديث إلى حديث فكان مما أذكر أني قلته له أني حُرٌّ كهذا الهواء لا سلطان لأحد عليَّ غير طبيعتي - أعمل ما أشاء، وأترك ما لا أرضى، ولا أكون في أي حال إلا على هواي. وأنا حريص على هذه الحرية الشخصية وضنين بها وفي سبيلها ومن أجلها أهمل ما يعنى به الناس غيري، وأصرف نفسي عما تتعلق به النفوس مخافة أن يجني ذلك على حريتي ولو استطعت أن أبت صلتي بالعالم وأحيا بمعزل عنه لفعلت

وكان صديقي يسمعني أفشر وأمعر على هذا النحو، فيقول: (صحيح صحيح) ولم أكن أعلم في تلك الساعة أني أفشر أو أمعر ولا كان قصدي إلى شيء من ذلك، وإنما كنت أتكلم بأول ما يجري في الخاطر كما هي عادة الناس حين يتحدثون، فقلما يكلف الناس أنفسهم في المجالس عناء يستحق الذكر في التفكير فيما يقولون

وعدت إلى البيت وخلوت بنفسي وشرعت أراجعها وأحاسبها قبل النوم على عادتي فأنى أعنى في آخر كل ليلة بتدبر ما كان مني في يومي، وأكره أن أنام قبل أن أفرغ من هذا الحساب، وما دامت صفحة اليوم قد انطوت فلماذا أبقيها مفتوحة. فأنا كالتاجر أو البنك الذي يحب أن يسوي حسابه يوماً فيوماً ويصفي ما له وما عليه في آخر كل نهار

وفي ساعات هذا الحساب الليلي الذي لا يحسه أو يدري به أحد، يخيل إلي أني أخرج نفسي وأجلسها وأجلها أمامي وأقدم لها سيجارة أو أناولها فنجان قهوة وأحييها وألاطفها أولا كما يقضي بذلك الذوق والأدب بين المتمدينين، ثم أفرك كفى وأقول لها بابتسامة عريضة: (والآن تعالي نتحاسب قليلاً) فتمتعض أو على الأصح لا يبدو عليها أنها ترتاح إلى هذا الحساب الذي لا أختار له إلا وقت النعاس، ولكنها لا تبدي لي هذا النفور ولكنها تبتسم متكلفة مثلي وتقول: (ألا ترى أن الوقت متأخر قليلاً) فأقول: (أشكر لك هذا الرفق ولكنا ما زلنا قبل نصف الليل فلا بأس من حديث قصير) فتقول: (ولكنك تعبت في يومك. . . اشتغلت كثيراً وكددت رأسك جداً، فخير لك أن ترتاح وفي الصباح. . . قبل طلوع الشمس تكون قد استعدت نشاطك وانتعشت فنستطيع أن نتحدث كما تشاء. . . هذا فيما أعتقد خير لك) فأقول لها: (إنك يا نفسي طول عمرك رقيقة عطوف ولولا هذا

لما رضيت أن أتخذك ولما طالت بيننا الصحبة إلى اليوم ولكن لماذا نرجئ إلى الغد كما يفعل التلميذ البليد) فتقول: (إن المدارس لا تعلم حكمة الحياة وليس صحيحاً أن على الإنسان أن يتقي إرجاء ما يمكن عمله وإنما الحكمة أن يرجئ إلى غد كل ما يمكن أن يرجئه مما يريد أو يجب أن يفعله اليوم، ولا سبيل إلى الراحة في الدنيا بغير ذلك وإلا صرنا كالآلات لا نستطيع أن ننعم بحياة أو أن نحس لها طعماً وأصبحنا كالذي زعموا أن زوجته فتحت له دكاناً وأقامته فيه وحده ولم يكفها هذا فجعلت تكلفه أن يعمل كل ما يخطر لها فأصبح الرجل لا يعرف رأسه من رجليه فهو أبداً رائح غاد يعمل في الدكان أو في البيت أو يجري في الطريق ليقضي حاجة مستعجلة فشكا إلى بعض إخوانه ما تجشمه زوجته من الجهد والكرب وما تحرمه من الراحة فسأله صديقه ولماذا لا تطلقها وتريح نفسك من هذا العناء كله؟ فكان رد المسكين: (وهل تركت لي وقتاً أن أطلقها فيه)

فضحكت فقالت نفسي: (إنك تضحك ولكن هذا حال من يقبل على العمل إقبالك ويعمل بما علموه في المدرسة من عدم إرجاء ما يمكن عمله)

وتظل نفسي تحاورني وتداورني على هذا النحو وبأمثال هذه السفسطة لتهرب من الحساب فيضيق صدري بها وأهم بزجرها بعنف لولا أن هذا لا يليق وأقول الحق إني أساعدها أحياناً على الهرب لأني في تلك الأحيان أشعر بأن الحساب سيكون عسيراً عليَّ أيضاً وإن الموازين ليست خفيفة عندي

وفي تلك الليلة قلت لها بلهجة رقيقة: (هل كان من الضروري جداً لسعادتك أن تجري لساني بهذا الكلام الفارغ)

فسألتني: (أي كلام فارغ) فقلت: (إني حر كالهواء وإنه لا سلطان لأحد عليَّ وإني وإني إلى آخر ما أطلقت به لساني من الهراء)

فقالت متهربة: (إن هذه لهجة في خطاب النفس لا أظنها لائقة)

فقلت بضجر: (لا تحاوريني كما يفعل هذا الضمير المتعب)

فغمزت بعينها إن هس لئلا ينتبه الضمير الراقد فتكون ليلتنا سوداء ثم قالت بصوت مسموع: (لكن أي كلام ليس أكثره على الأقل فارغاً)

قلت: (صحيح ولكن أني حر كالهواء؟ هذا لا يطاق ولا أدري كيف أزدرده صديقي بلا اعتراض)

قالت: إما أن الصديق لم يفهم أو لم يدرك حق الإدراك وأما إنه فهم وأثر المجاملة واتقاء المصادمة أو هو كغيره يفشر ويمعر فهو يحملك جميل الصبر على فشرك لترده إليه حين يفشر هو) فكادت تفحمني ولكني كابرت وقلت: (ولكني لا أحب أن أكون فشاراً)

قالت: (لا عليك فما أراك كنت فشاراً جداً. إن كل ما قلته هو أنه لا سلطان لأحد عليك غير طبيعتك وهذا صحيح وهو يصدق في كل حالة وعلى كل إنسان)

فسكت وماذا عسى أن أقول، وخطر لي أني قد أباهي ما شئت بحريتي المزعومة في التصرف فلن أكون إلا مخادعاً لنفسي في حقائق الحياة وما دام أني مسير بطبيعتي التي تسيطر عليَّ وتوجهني فأنا لا أستطيع أن أكون إلا ما تسمح لي به هذه الطبيعة فأنا أبدا مقيد بها وفي سجن منها لا باب له ولا أمل في فكاك أو خلاص في هذه الدنيا.

وقد تثور نفسي وتمور عواطفي وتفور خواطري ولكنها لا تستطيع أن تفعل ذلك إلا بالقدر الذي تسمح به طبيعتي الخاصة وإلا في محيط هذا السجن. ومهما تكبر البحيرة وتعظم فأن لها من شطئانها حواجز ولا بد من زلزال يغير معالم الأرض لتغيير هذه الحواجز أو توسيعها أو إبعادها وعلى أنها تبقى بعد ذلك حواجز إلا إذا غارت البحيرة كلها واختفت من الدنيا

وخيل ألي وأنا أفكر في هذا أن طبيعتنا أو فطرتنا تجعلنا في حياتنا خاضعين لسلطان يد أو أيد تمتد إلينا من وراء القبور وأن الماضي هو الذي يسيطر علينا لا الحاضر وأنه ليس لنا أن نتجه في سيرنا في هذه الدنيا إلا إلى حيث تديرنا هذه الأيدي الخفية التي تمتد من ظلام الماضي

وتذكرت وأنا أدير هذا المعنى في رأسي كيف تزوجت، وأقص الخبر لأن له دلالته وعلاقته بهذا المعنى. كنت صبياً في الرابعة أو الخامسة - لا حين تزوجت من فضلكم -

فزارنا خالي وامرأته ومعهما طفلة لهما من الله بها عليهما فتناولها أبي ووضعها على حجره
وقبلها، وأخذ يداعبها ويلمس خدها الطري الصغير بإصبعه الناشف الكبير لتبتسم ثم ردها إلى أمي ونظر إلى أمي وقال: (هذه إن شاء الله لابننا)
ولم أشهد أنا هذه الجلسة فقد كنت في الكتاب ولكنهم دعوني حين صعدت إلى رؤية (عروسي) فلم أزد على النظر إليها ثم انصرفت عنها غير عابئ بها لأنها لا تستطيع أن تلاعبني ولم أكن أعرف في ذلك الوقت أن هذه التي احتقرتها هي التي ستكون زوجتي يوماً ما. ولو أن أحداً بين لي هذا يومئذ وكشف لي عن الغيب فيه لما فهمته. وقد قصت أمي علي ما دار في هذه الجلسة فيما بعد ولم يخطر لي قط أن أشك في صدقها، فقد كانت رحمها الله لا تكذب. ولا تعرف المحاورة والمداورة أو اللف إلى أغراضها. وقد مات أبي بعد سنوات قليلة ولم يعش لينعم بهذا الزواج الذي رتبه وقرره لابنه الذاهل في طفولته. ولكن ابنه - وأعني نفسي - ظل بعد أن سمع هذا الحديث وعرف رغبة أبيه يدور في نفسه أن أباه كان يشتهي أن يزوجه هذه الصغيرة بعد أن يكبرا فاتجهت نفسي مع هذا الخاطر وصرت أنظر إلى بنت خالي نظرتي إلى زوجتي المستقبلة. وكانت امرأة خالي على عادة بعض الأمهات - تبديها لي تارة وتحجبها عني تارة فأثمرت هذه المحاورة ثمرتها وتعلقت نفسي بالفتاة وصبوت إليها فلما صرت ذا عمل أكسب منه رزقي حققت رغبة أبي وهكذا سيطرت عليَّ إرادة أب مات قبل سنوات عديدة، وقولوا ما شئتم في تأويل ذلك، فلن تخرجوا به عن كونه مظهراً لتحكم الموتى في الأحياء
ومنذ بضع سنوات قليلة دعاني صديقي الأستاذ سليم بك حسن العالم الأثري المشهور إلى زيارة ما كشف عنه من الآثار القديمة عند الهرم في المنطقة التي اتخذتها الجامعة لحفائرها، وقد طاف بنا ساعات طويلة وهو يشرح ويفسر، ولكنه لم يستوقفني من كل ما رأيت سوى أثرين أو نوعين من الآثار: فأما الأول فجدران بيوت قديمة لعلها كانت سكنى لكهنة المعابد أو خدمهم، وقد وقفت مذهولاً أمام هذه الجدران فقد سكنت بيوتاً جدرانها مدهونة على هذا النحو وبهذه الألوان عينها. والذين سكنوا البيوت القديمة قبل أن ترتفع هذه العمائر الجديدة يعرفون ولا شك كيف تدهن الجدران من الداخل باللون الأبيض أو الوردي أو الأزرق، وكيف يجري خط عريض بلون آخر كالحزام للجدار وفوقه خط آخر، وتحت هذين على مسافة عشرين سنتيا أو نحو ذلك خط عريض آخر، وكيف يملأ بين الخطين العريضين بالرسوم أو النقوش أو يترك ما بينهما بياضاً
هذا الذوق في زخرفة الجدران ليس جديداً وإنما ذوق انحدر إلينا وورثناه من آلاف السنين وعشرات القرون. وقد طغت علينا في السنوات العشر الأخيرة موجة من الغرب، فنحن نقلده في هندسة البناء وفي طراز الزخرفة، ولكنا بدأنا نستنكر أن نظل مقلدين ونستهجن أن نفقد بذلك خصائصنا القومية وذوقنا الخاص الذي نتميز به بين الأمم. وعسير أن يتنبأ المرء بما تؤدي إليه هذه النزعة الجديدة إلى التحرر من أسر الغرب والرغبة في أن نرجع إلى ما تمليه علينا طبيعتنا ومزاجنا القومي الخاص، ولكن المهم أن هذا التقليد ليس إلا نتيجة الشعور بقوة الغرب وضعفنا حياله وتوهمنا من أجل ذلك أن كل ما درجنا عليه مظاهر للتأخر، وأن بقاء ذلك معناه بقاؤنا متأخرين فيجب إذن أن نعجل بتغييره بل بمحوه. ولكنا سنستقر على الأيام فتتغلب علينا خصائصنا أو تؤثر على الأقل فيما ننقله ونقلد به الأمم الأخرى. وما الحاجة إلى الذهاب إلى الهرم للعثور على مثل لتحكم الميت في الحي وسيطرة الماضي على الحاضر؛ هذه الأديان كلها في الدنيا جميعها أهي وليدة العصر الحاضر؟ الإسلام والمسيحية واليهودية والبوذية والكونفشيوسية وغيرها، أحدثها يرجع إلى أكثر من خمسة عشر قرناً. ولست أصدق أن في الدنيا ملحداً بالمعنى الصحيح، ورافضاً لكل دين وكل عقيدة. كان لي صديق لا يزال يفاخر بأنه ملحد لا يؤمن بشيء، وكنت ألومه وأقول له ماذا يعني الناس منك إذا كنت تؤثر لنفسك أن تكون ملحداً. الحد ما شئت فأن هذه جنازتك كما يقول الإنجليز، ولكن أرح الناس من الأثقال عليهم بهذه الآراء التي لا يرتاحون إليها. فكان يضحك مني ويصر على حماقة المفاخرة بشدة إلحاده. ومضت سنوات والتقينا على ظهر باخرة ذاهبة إلى جنوة، واضطرب البحر عصر يوم ورمانا

لجه بالزبد، وأنا ممن لا تدور رؤوسهم في البحر مهما بلغ من اصطخاب أمواجه، ولكن صاحبي الملحد أصيب بدوار شديد ألزمه سريره، فقلت أزوره لأطمئن عليه ولأرى ماذا أستطيع أن أصنع له، فدخلت عليه فألفيته ممتقع اللون جداً من طول ما جشأت نفسه ونهضت بلا انقطاع تقريباً، وكان مغمض العين ولكن شفتيه كانتا تتحركان أو تختلجان بما لا أسمع من فرط الخفوت، فملت عليه لأسمع ما هو قائل حتى كادت أذني تلمس فمه، فإذا به يذكر الله ويتوسل إليه أن ينقذه ويخفف عنه. وقد ترددت بعد ذلك، أأعيره بما سمعت منه أم أدعه لنفسه؟ ثم رأيت أن أتركه وشأنه وأن أدع الأيام ترده إلى اتزان الحكم واجتناب التطاول بعقله القاصر المحدود على ما لا يدرك

ولغاتنا. . . أليست شجرة أصلها في الماضي السحيق. . . وكل لغة تتحكم في عقول أبنائها وتصوغها لهم وتصبها في قوالبها، ونحن نفكر على طريقة خاصة يضطرنا إليها احتياجنا إلى التعبير وفق أحكام خاصة للغتنا الموروثة بألفاظها ونحوها وصرفها وتراكيبها وقوالبها ومجازاتها، أي أننا نفكر على نحو ما كان يفكر الأقدمون من أبناء هذه اللغة. ولا سبيل إلى ذلك ولا مهرب منه

ونظام الوقف ماذا هو. . . إنه ليس إلا نظاماً يستطيع به رجل مات أن يحكم إرادته بعد زواله وخروجه من الدنيا في أجيال متعاقبة من الأحياء. ومن كان يشك في أن الموتى يتحكمون في الأحياء فليذكر هذا الموقف. رجل له مال سيتركه ويرحل عن الدنيا وكأنما يعز عليه أن يده سترتفع وأن ماله ستتولاه أيد غير يديه فينشئ وقفاً يقضي فيه بأن يرث الذكور ولا يرث الإناث أو يرث الإناث ولا يرث الذكور، ويخرج طبقة ويدخل طبقة ويهب من يشاء ويحرم من يشاء، ويتحكم بهذه الوسيلة في إرادات ناس لم يرهم في حياته ولم يعرفهم ولم يحببهم ولم يكرههم. . . أليست هذه يداً ممتدة من وراء القبر توجه الأحياء إلى حيث تريد، وتصرفهم عما لا تريد؟ وهنا موضع التحرز من خطأ قد يسبق إلى الأوهام، فلست أحاول أن أنتقد نظام الوقف أو غيره من النظم، وإنما أنا أسوق مثالاً لسيطرة الماضي على الحاضر وخضوع إرادات الأحياء لإرادات من أدرجوا في القبور. ولعلي لو كنت ذا مال لسرني أن أنشئ وقفاً وأن أعطي وأمنع، وأنعم على هذا وأبخل على ذاك، فأن السرور بذاك التحكم طبيعي والأمم التي لا تعرف الوقف تعرف ما يشبه مثل الوصية، وليس الوقف إلا ضرباً من الوصية أو لعل العكس هو الأصح

ولا يتسع المقام لتقصي وجوه الحياة ومبلغ السيطرة الواقعة عليها من الماضي. ثم إن هذا لا ضرورة له فإني أظن الأمر واضحاً وفي وسع من شاء أن يقيس على ما ذكرت وليس معنى هذا أن حياتنا تتغير وأن الحاضر صورة دقيقة من الماضي وأن عصراً يذهب وآخر يجيء، بلا اختلاف ولا تفاوت ولا تقدم. كلا فأن القول بهذا لا يكون إلا سخافة. ونحن نشهد التطور بأعيننا في زماننا فمن التعنت أن يحاول أحد أن ينكر أنه لا يزال

يحدث في الدنيا. وإنما معنى ما أسلفت من الأمثلة أن الكتلة البشرية لا ترمي بزمانها إلى كل من يدعوها إلى تغيير حالها وذلك بأن تقاومه وتناهضه ما وسعتها المقاومة لأنها تجري على عادة، والحرص على العادة أسهل من الأخذ بالجديد غير المألوف، ولكنها مع ذلك تتزحزح شيئاً فشيئاً عن مألوفها ولكن ببطء شديد، أو أقل ببلادة إذا شئت. فلا يستطيع من يدعوها إلى الجديد أن يحملها على الأخذ به كلا، فأنها لا تستطيع ذلك ولا تقوى عليه، ولهذا نرى الدعاة إلى الجديد يسرفون في الطلب ونرى الجماعة البشرية تسرف في الرفض أو المقاومة وبذلك ينتهي الأمر بالوصول إلى حد وسط معقول

وقد كانت الكتل البشرية فيما مضى تنتظر أن يجيء الدعاة إلى التغيير من أبنائها، ولكنا صرنا في زمن توثقت فيه الصلات بين الأمم قاطبة وصرنا لفرط السهولة في الاتصال وسرعته كأننا أمة واحدة، فإذا قام داع جديد في إنجلترا فأن صوته يسمع في الوقت نفسه في مصر والصين، وقد لا يحدث في مصر والصين مثل الأثر الذي يحدثه في بلاده؛ والأمر في هذا يرجع إلى درجة التهذيب في كل شعب ومبلغ استعداده لتقبل الدعوات الجديدة لا إلى بطء وصول الدعوة، ومن هنا قلت حاجة الأمة إلى داع خاص من أبنائها، لأن كل داع إلى جديد في أي قطر تبلغها دعوته كما تبلغ أهله، ومن هنا

أيضاً صار التطور في زماننا أسرع لأن وسائل التبليغ والإلحاح على الشعوب ضارت أسهل وأسرع وأقوى وأفعل، وحسبنا الصحف والمطابع والإذاعة اللاسلكية مما لم يكن له وجود في الماضي

رأيت منذ أيام سيدة عجوزاً من معارفنا تمشي في الطريق مع زوجها الهرم وفتاتها الناهد، وكنت أعرف هذه الأسرة شديدة الحرص على تقاليد الحجاب. ولكن الزمن جرفها بسرعة التطور الحادث فيه فخرجت الأم العجوز سافرة تنافس بنتها الحديثة في الزينة وسار معهما الأب الهرم لا ينكر شيئاً من هذا الذي كان مثله قبل عشر سنوات يدفعه إلى التفكير في القتل. فهذا مثال لسرعة التطور من جرأة السهولة التي تصل بها الموجات الجديدة من الأمم الأخرى

وأعود الآن إلى بداية الكلام فأقول إن هذه الخواطر وأمثالها أرتني أن الحرية التي أزعمني ناعماً في حياتي أكثرها وهم ومغالطة للنفس في حقائق كبيرة، والقصد على العموم أولى

وأسلم، وإن الحياة لأسر، وكثير على الأسير أن ينادي أنه حر طليق وفي يديه الحديد وله حين يتحرك صلصلة ورنين

إبراهيم عبد القادر المازني

!لو كنت الرافعي

للأستاذ محمد احمد الغمراوي

كنت أقرأ بعض كتابات الرافعي رحمه الله في بعض أعداد الرسالة حركني إلى قراءتها أني وقعت على (وحي القلم) في مجلد واحد نسيه الأستاذ عزام عند الدكتور الدرديري في جمعية الشبان المسلمين، فأخذته أجيل الطرف فيه، وكان كتابي وحي القلم قد استعاره أخ لي فلم أقراه مجموعاً وإن قرأت أكثره متفرقاً في (الرسالة)

قرأت من تلك المقالات الحسان مقالة (دعابة إبليس) وقد ضحكت لبعض تصويره للمواقف ما لم أضحكه من زمن طويل، وسرني أن إبليس شغله الأوربيون يوم الأحد فترك الرافعي يكتب هذا المقال بعد أن ظل يحاوره ويداوره ويعاجزه حتى كاد يعجزه، !لولا أن الأوربيين لم يتركوا له وقتاً يوم الأحد

ورجعت إلى المنزل أردد هذا المقال في خاطري وأجد له تطبيقات وتوجيهات عندي. ومن ذا الذي لا يشاغله إبليس ويعاجزه فيما يروم وفيما يحاول؟ ومن ذا الذي لا يسخر منه إبليس إذ يخدعه المرة بعد المرة عن الشيء بعد الشيء بنفس الطريقة وبنفس النتيجة؟ ومن ذا الذي كلما خدعه إبليس مرة لم يزل يرجو ويؤمل أن تكون تلك آخر مرة ثم يقع في نفس الشرك الذي وقع فيه من قبل - وهو يعلم أنه قد وقع من قبل فيه - يستزله الشيطان بالأمل والرجاء حتى يقع؟. . . كلنا ذلك الرجل فليس فينا مثلاً من لم يخدع مرة بعد المرة عن صلاة العشاء وهو متعب لينام، أو لكي يؤديها بعد في جوف الليل فيجتمع له بذلك مع الفريضة التهجد، فينام ولا يقوم - إن نام - إلا بعد الفجر. وليس فينا من لم يخدع عن الفجر، بل عن الصبح بتسويفه القيام خمس دقائق يتذوق فيها في يقظته بقية الراحة التي كان يجدها في نومه أو ليهدأ فيها جسمه، أو ليجف فيها عرقه، فلا يستيقظ بعدها إلا عند طلوع الشمس. كلنا ذلك الرجل على اختلاف تجاربنا مع الشيطان. وللشيطان طريقته في خدع كل إنسان، لكنني لا أشك في أنه وإن اختلفت خدعه وطرائقه التي يستزل بها الناس،، لا يزال يسوي بينهم جميعاً في شيء واحد هو كره على الواحد منهم المرة بعد المرة بنفس الأسلوب وبنفس النتيجة؛ فإذا خطر لأحدهم في موقف وقفه من قبل أن هذا من الشيطان وأن الشيطان خدعه بهذا من قبل ففوت عليه غرضه، مهد له الشيطان سبيل الانخداع عن طريق الرجاء وأوقع في نفسه أنه إن يكن ما فاته في الماضي فأن ذلك لن يفوته هذه المرة فسيستيقظ أو سيكتب أو سيعمل عمله الذي ينوي، ولكن فقط بعد أن ينام أو يهدأ أو يستريح أو يفرغ مما هو فيه من موقف في قصة أو في لعبة أو في حديث. فينام أو يهدأ أو يستريح أو يفرغ ولكن غالباً مع تفويت ما كان يمني به نفسه أن يعمله بعد النوم أو الهدوء أو الراحة أو الفراغ. وهكذا دواليك. وليس أعجب في العراك بين خصمين من هذا النوع من الخدع والانخداع بين الشيطان والإنسان، فلو وزن كيد الشيطان هذا بأي ميزان غير ميزان الإنسان لشال فيه أقبح الشيل. وما كان للشيطان أن يغلب الإنسان أبداً بهذا النوع من الكيد بادي الضعف لولا أن الإنسان

يعين الشيطان على نفسه بتصديقه إياه فيما قد ثبت له بالتجربة أنه يكذبه فيه. وما أظن الحديث الشريف:) لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين) إلا منظوراً فيه في باطن الأمر إلى سد هذا الباب من كيد الشيطان وهو أوسع أبواب كيده. ولكن ما أبعد الإنسان من الوجهة العلمية عن صفات الأيمان!

رجعت إلى المنزل ولمقال الرافعي هذا صدًى يتردد في قلبي وذهني. وكنت أجد في نفسي إعجاباً بطريقته في التصوير وحنكته في التعبير وغوصه في التفكير. وكانت طرفة الطرف عندي في ذلك المقال الطريف خاتمته حين اشتد عجب الرافعي من ترك إبليس إياه يوم الأحد، يوم عطلة الأوربيين كأنهم لم يتركوا له وقتاً! وهي مفاجأة لم يكن يتوقعها القارئ، تدل على لطف ما للرافعي من فن. وتصورته وهو يكتب جاهداً ليفرغ من مقاله قبل أن يسترد إبليس بعض وقته الذي استغرقه الأوربيون ذلك اليوم! وإذا كنا كلنا سواء في الانخداع لإبليس فلسنا كلنا سواء والرافعيُّ في عدم الإلقاء إلى إبليس باليدين وفي التيقظ له وانتهاز الفرصة منه إن لاحت كما انتهز هو انشغال إبليس بالأوربيين يوم الأحد فكتب - رحمة الله عليه - للرسالة ذلك المقال الطريف

دخلت النزل وفي النفس ميل إلى القراءة فذهبت إلى أعداد الرسالة أتلمس ما كتب الرافعي فيها. وقبضت منها قبضة فإذا بيدي الأعداد 131 إلى 140 فقرأت مقالة (اجتلاء العيد)، وكنت وأنا أقرأه أعجب لانثيال كريم المعاني على ذلك العقل، وانحياز نبيل العواطف إلى ذلك القلب، أو بالأحرى تجدد عجبي مما جمع الله الرافعي رحمه الله من حظ في عمق الفكرة ونبل العاطفة ودقة العبارة، وعجبت لبعض من لا يقدرون الرافعي كيف لم يقرءوا

له، أو كيف وقد قرءوا ولم يقدروا ما كتب عن الطفولة يوم العيد في مقالة (اجتلاء العيد)

ثم أخذت في قراءة المقال الثاني من مقالات المشكلة، انظر إلى استخراجه معنى الغيب من كلام المصلح المنتظر، ونابغة القرن العشرين، وإذا بصوت أسمعه رفع عيني وأرهف أذني، وأصغيت أتسمع لذلك الصوت ولآخر يجيبه، ولم يستغرق الصوتان إلا هنيهة أرخيت بعدها جفني أتأمل رنين الصوتين في نفسي فوجدتها مهتزة بمعان شعرت أني لا أحسن تصويرها لو حاولت. فقلت: قضية ولا أبا أحسن لها. لو كنت الرافعي!

وكان الصوت ينادي: (ما - ما) وكان الذي يجيبه صوت أمه هبت من منامها تقول: (نعم - حاضر) وقد رشح الصوتان إلى من خلال الجدار

كان الصوت صوت أبني المريض قد تماثل للشفاء بحمد الله ينادي أمه لبعض شأنه، فكان جوابها ذينك اللفظين تفصل بينها لحظة. وكان أحد اللفظين جواباً على النداء الذي سمعت، والثاني على الطلب الذي لم أسمع؛ وكان حس حركة في الغرفة يشير إلى بقية الجواب. وكان للنداء والجواب وقع في نفسي وشجن لا عهد لي به. ولست أدري أهي الرقة التي يجدها الوالد لطفله المريض، أم هي روح الرافعي في ما قرأت وفي ما كنت أقرأ هيأت نفسي فازداد تأثرها بذينك الصوتين حتى جاشت لهما؛ لكن الذي أدريه أني لو كنت الرافعي في ساعتي الحاضرة لأخرجت للناس من خير ما أخرج لهم رحمة الله عليه في (وحي القلم)

محمد احمد الغمراوي

من أسبوع العروبة والإسلام بالعراق

رسول المجد

للأستاذ عبد المنعم خلاف

يا مجد مولانا محمد! لقد فنيت في تصويرك ألفاظنا المسموعة والمقروءة، ولكن كلماتنا النفسية الهائلة بقيت كما هي مكتومة لم يقرأها الناس ولم يسموعها. . . وهأنذا أسأل قلمي الميت الجامد التافه. . . ومدادي الأسود المظلم، أن يعينا على تصويرك أيها المجد، وتصوير فتنة النفس وسحرها بك. . .

ولكن ترى هل القصب الميت يتكلم. . . والحبر الأسود ينير؟ ترى هل تسمح الأقدار أن نكشف العلاقات الخفية بين نفوسنا وبينك على ضيقنا ورحابتك؟

هيهات. هيهات. . . فإن تلك منطقة حرام على النطق والتصوير بالكلام!

يا مجد محمد! تجسم تجسم بأشكال القرن العشرين وأثوابه. . أخرج من الكتب

والتاريخ مرة أخرى. . . عُدْ عجيباً غيباً كما بدأت غريباً عجيباً. . . كن أجساداً تمشي على الأرض في أشخاص أبنائك الذين أضواهم جوعهم إليك. . . كما تمثلت في أجساد أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والحسين وخالد وسعد والمثنى وابن عبد العزيز وعلي الرضا والرشيد وصلاح الدين وغيرهم وغيرهم من الرجال المصابيح الذين لم تر لهم الدنيا شبيهاً إلا تحت جناحك. .

يا مجد محمد! إنك مجد دنيا عاجلة فاتنة يحن أبناؤها إليها ويحبون أن يتحدثوا عنها أحاديث البطولة والجيوش والقواد والعلماء وفتوح الأقلام وفتوح السيوف. . .

كما أنك مجد دين وروح وأخرى وملكوت خفي يتصل بالنبوة والرسالة وما وراء الطبيعة. . . إنك مجد الظاهر والباطن والمعلن والخفي. . .

إنك مجد اليتيم الفقير الراعي الحي الأمي الذي وقف وحده في جوف الصحراء يقول للعالم الأرضي كله: إلى أين أيها العالم؟ إلى أين؟ أنت مصروف عن وجه الله ذي الجلال، وعن الحق الذي قامت به السموات والأرض. .!

إنكم جميعاً أيها الناس تطلبون الله. . ولكنكم جميعاً أخطأتم السبيل إليه. فليس الله حجراً ينصب ويعبد، وليس إلهاً خاصاً ببني إسرائيل يحب الدم والذهب، وليس له صاحبة ولا
ولد، وليس كوكباً يشرق ويغرب وينطفئ يا عبدة الكواكب، وليس يرمز إليه بالنار التي توقد من الطين وشجر الطين أيها المجوس، وليس يطلب عذاب الجسد أيها الهنود، وليس القوة كل شيء في سياسة الحياة أيها الرومان، وخففوا من الفلسفة الشاردة وبلبلة الأفكار أيها اليونان. . .

فتقول له الوثنية العربية والجاهلية العريقة: يا ابن أبي كبشة. . أأنت تتكلم من في السماء؟! أألقي الذكر عليك من بيننا؟! إنك لمجنون. . . إن أنت إلا ساحر. . . إن أنت إلا مسحور. . .

وتقول له الأديان والمذاهب والفلسفات: من أنت أيها الصحراوي الأمي حتى تكون المهيمن على الأديان والمذاهب وصاحب البلاغ الأخير من السماء إلى الأرض؟ ما هي ثقافتك؟ أتعرف فلسفة سقراط وطب بقراط وحكمة أفلاطون وافلوطين. .؟

فيقول لهؤلاء جميعاً: (لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله)

إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ. . .) (إنما أعظكم بواحدة: أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة. . .)

وتقول له السماء: (وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن). (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الأيمان، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا) (فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين) (واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا)

فيمضي بطريقه المملوء بالأشواك والأوعار والمؤامرات والمكايدات حتى يظهر الله كتابه ويبسط سلطانه على مراكز الحضارات. وها أنتم أولاء تسمعون صدى ذكراه في جوف الليل. . بعد ألف وكذا من السنوات. وسيسمع الدنيا حديثه دائماً

سيداتي سادتي:

لماذا ندير حديث الذكرى المحمدية مثنى وثلاث ورباع وأكثر؟ لماذا نملأ الأجواء بضجة التهليل والتمجيد لروح محمد ومجد محمد؟

لماذا ترغم بغداد ودمشق والقاهرة وصنعاء وأنقرة وطهران وكابل وكل عاصمة عربية وإسلامية على السجود تحت أقدام مكة والمدينة؟

لماذا نثير من تراب مكة والمدينة قبضات في أجواء العالم الإسلامي حتى تكتحل به كل عين ويتوضأ منه كل وجه وتمتلئ به كل رئة؟

لماذا كل هذا؟

كل هذا لأننا نريد ونتوقع أن يرجع مولانا محمد إلى الأرض مرة ثانية في أشخاصكم أنتم أيها المسلمون، لأن الأرض حبلى مجنونة تلد كل يوم فرادى وتؤامى من الجرائم والنكبات والشناعات والقساوات وحرب الآراء والجماعات، ولن ينقذها إلا دكتاتورية رحيمة عادلة معقولة مثل دكتاتورية محمد كما يقول برناردشو الكاتب الأشهر. . . ولأننا نريد أن يؤمن المسلمون بأن المستقبل لهم لا محالة إذا ما بدءوا نهضة نفسية مبنية

على تعاليم رسولهم التي تميت النزعات الآثمة الدنيئة التي تدور حول حب الحياة حباً يذهب أخص مميزات طالبي المجد. . .
ولأننا نريد أن نثبت دعائم النهضة العربية والإسلامية في النفس أولاً حتى لا تعبث بها الرياح أو يتسرب إليها السوس
وقد ضربت وضرب كثيرون على أوتار جديد في أحاديث الذكرى النبوية، ذلك لأننا نريد أن يفهم المسلمون إن الإسلام لم يكن مطلوباً ضرورياً لنا كدين نحن مقتنعون بصحته، ومكلفون التعبد به حتى نصفي نفوسنا. . . فهو على أقل تقدير أولى المبادئ التي يجب أن نعتنقها حتى نزيح عن أنفسنا وديارنا كابوس الاستعمار وضغطه الذي لا يرفعه عنا إلا مبادئ الإسلام العملية الصارمة التي أولها امتلاك كل منا نفسه ووضعه قلبه على كفه، واعتبار كل منا نفسه قوة هائلة تستطيع أن تفعل الأعاجيب في الأرض ومتى امتلك المرء نفسه وملكها لمحمد، فلا والله أن تصل إليه قوة أرضية بسيف حديدي أو ذهبي. . . ومتى وضع كل امرئ قلبه على كفه، فليست هناك قاذفات قنابل أو مدمرات بارود تستطيع أن تدنو من ذلك القلب الصغير الذي صنعه الله من معدن سماوي لا يصل إليه كيد إلا من داخله. . .
وإلا فخبروني لماذا حتم القرآن في بعض آياته وظروفها على المسلم ألا يقر أمام عشرة من المشركين بل بجانبهم ويجالدهم حتى يقتلهم أو يقتل؟
وخبروني: كيف حلا لأهل بدر وهم ثلاثمائة ليس معهم إلا فرسان وسبعون بعيراً أن يقابلوا جيش المشركين، وهو ألف معهم عتادهم وخيلهم ورجلهم. . . ثم تنتصر الفئة القليلة وتأكل أرض بدر سبعين جسداً من يأفيخ الشرك؟
بل خبروني كيف حلا لسبعين عراقياً ومثلهم من الفلسطينيين ومثلهم من الأردنيين والسوريين أن يواجهوا جبابرة البر والبحر في ثورة فلسطين الماضية؟
وكيف استعصى على مالكة العباب والتراب والسحاب والكلاب البوليسية أيضاً أن تتعقب تلك الشراذم المفرقة على شعاب الجبال كالنسور والصقور، والتي تدير رحى ثورة ما عرف التاريخ لها مثيلاً في ضلاعة الرجال وصبرهم وإيمانهم بحقهم؟
وقد أخبرني هنا في العراق أحد كبار الصقور الذين كانوا يجاهدون في الثورة الماضية قبل تدخل ملوك العرب، أنهم كانوا يفعلون الأعاجيب. . . وأن الأقدار الإلهية كانت معهم بالتوفيق والإلهام، وأنهم لم يعفوا تفسير آيات الجهاد التي وردت في القرآن الكريم، والتي تجرد المسلمون من منطق الضعف ووسواس الحذر إلا في هذه الثورة. . . وأنهم اكتشفوا سرًّا خطيراً هو أن المسلمين يستطيعون أن يفعلوا أشياء عظيمة تثبت كيانهم وتعجل استقلالهم وتعيد إليهم مجدهم، ولكنهم يجهلون أنهم يستطيعون، أو لا يجهلون. . ولكن سادتهم وكبراءهم ورجال سياستهم وهم سبب الضعف والشلل وأصل الخوف والبلاء، وأنهم يفرطون ولا يستطيعون أن يلعبوا أدوارهم في الوقت المناسب، وأن سياستهم - إن كانت لهم سياسة - مكشوفة يقصد بها الشهرة وأنهم غافلون عن الأسباب السريعة التي تحيل النفوس الخزفية إلى نفوس حديدية، وانهم يجهلون بتاتاً روح (محمد)، أو يعرفونها ولا يستخدمونها خوفاً من الاتهام بالرجعية والتعصب. . . وأنهم فوق ذلك وأدهى من ذلك متفرقون مختلفون متناطحون كالثيران التي في المجزرة وهي لا تعلم لماذا هي في المجزرة!
أيها السادة:
إننا لسنا هازلين في نهضتنا. لقد طال رقودنا وركودنا وقد عزمنا أن تحيا أولاً جامعتنا العربية المكونة من ثمانين مليوناً هم في مركز الأرض كما تحيا أي جامعة. . . لنؤدي رسالتنا السامية في الحياة. ولن يعوقنا عائق مهما كان ملفقاً بالحديد والنار والذهب لأننا
القوة التي اختارها الله لحمل رسالته الأخيرة وقوة الله لا تغلب (والله أعلم حيث يجعل رسالته) وقد تكهرب الجو وتكهربت نفوس المسلمين والعرب، وامتلأت الأفواه باللعنات والسخط والحقد، ودب دبيب إحساس جديد في جميع الأقطار العربية. واقسم بالقدر وقوانينه وبسنن الله التي لا تتخلف نتيجة فيها نتيجة عن مقدماتها. . . أني أحس أن الزمن يتمخض عن شيء هائل! وأن أجواف المسلمين وقلوبهم تغلي الآن لأنهم يوقدون على قلوبهم بالحديد والنار في فلسطين!
أيها المسلمون! أيها العرب! تربصوا واستعدوا واغسلوا قلوبكم بتراب محمد الذي في

كل ذرة من ذراته قطرة دم مقدس من هريق في سبيل مجدكم وعزكم. ولا تهابوا شيئاً ولا تفرضوا الفروض الوهمية أيها السياسيون
يا أسبوع الذكرى. . . ذكرى مطهر الأرض من قذارة الروح وقذارة العقل وقذارة الجسم. . . طهر نفوس المسلمين، واغسلها من الأوهام والضعف والجهالات!
أيقظهم من تحذير البنج المعطر الذي خدرتهم به سحرة أوربا لأجراء عملية جراحية عظيمة في جسومهم إلا وهي إخراج قلوبهم العظيمة الموروثة من ميراث محمد، ووضع قلوب صغيرة حقيرة منخوبة كافرة في موضوعها!
ارفع عن عيونهم المناظير الملونة المكيرة للتوافه التي تريهم الهر أسداً والحبل جبلاً، والجزية حرية، والرصاص ذهباً!
ارفعها عن عيونهم حتى لا يخدعوا بالعناوين التي لا وراء منها وحتى لا يخدعوا بالتراب المزوق عن اللباب المحض والصفو الخالص؟
يا أيتها الأيام السبعة كوني صلوات سبعاً تعيد إلى المسلمين الإيمان بأن منقذهم في السياسة والأخلاق والاقتصاد والحرب والسلم لن يكون غير محمد صاحب الذكرى ورجل الدنيا!
اجعلي صباحاتك السبع إشراقاً وضياء بالأمل والعمل
احفظي كل كلمة من كلمات الخطباء والشعراء والمنشدين من الضياع.
سجليها في أعصاب سامعيها حتى تستحيل إلى أجراس دائمة الرنة والدعوة إلى استحضار صوت النبي في الضمائر آمراً: جاهدوا وادأبوا وكابدوا، صارخاً: طالبوا وغالبوا وصابروا ورابطوا.
كونوا نظيفي المادة قديسي الروح. كونوا علماء وجنوداً وتجاراً. كونوا تجاراً. . . كونوا تجاراً. . . ولا تعبدوا الوظائف الحكومية التي يؤكل فيها الخبز بدموع الذلة وخيانة الواجب
أيها السادة:
يجب ألا يتغير المثل الأعلى الذي وضعه مولانا محمد صلى الله عليه وآله وسلم للمسلمين لأنه المثل الأعلى للإنسانية. ويجب أن يفهم كل مسلم ذلك حتى يعرف قيمته ومركزه في البشرية، كما يجب على أرباب الأديان الأخرى أن يرحبوا بعودة المسلمين لدينهم، فمن الخير لأرباب الأديان أن يعود قلب المسلم كما كان في عهده الأول
وليعلموا يقيناً أن المسلم بغير دينه يكون وحشياً متعصباً مؤذياً أنانياً قذراً. . . أما بدينه فهو إنسان رحيم قائم على نفسه وعلى الناس بالحق والعدل كما أوصاه الله
وليعلم المسلم أن أول ما يبدأ به في الإصلاح: البيت. البيت
عبد النعم خلاف
فلسفة التربية
تطبيقات على التربية في مصر
للأستاذ محمد حسن ظاظا
- 18 -
(وثقافة الإنسان لا تقدر بمقدار ما قرأ من الكتب وما تعلم من العلوم والآداب، . . . ولكن بمقدار ما أفاده العلم، وبمقدار علو المستوى الذي يشرف منه على العالم، وبمقدار ما أوحت إليه الفنون من سمو في الشعور والتذوق للجمال!)
(احمد أمين)
(للرجل المثقف جسم خاضع لإرادته، وعقل صاف متئد القوى سهل العمل مليء بما في الطبيعة من حق عظيم وقوانين كلية، هذا إلى امتلاء بالحياة المنسجمة الخادمة لضميره الحي، وإلى حب للجمال وكره للقبح، وإلى احترام للنفس وللناس، وإلى وفاق تام مع الطبيعة يفيدها فيه ويستفيد منها، ويسير معها كوزيرها أو ترجمانها وهي كأمه الحنون!)
(هكسلي)
خريج اليوم - 8
أقرأت هذين القولين العظيمين فيما مرَّ عليك من قواعد وأصول؟ وهل أدركت ما يرميان إليه من معنى سام دقيق هو قوام الشخصية الكاملة التي تنشدها التربية

الحديثة في الجماعة الديمقراطية؟ إن يكن أفليس من الخير أن أبحث معك عن نتائج ذلك (المجهود الهائل) الذي تبذله الدولة في التربية والتعليم، كيما نستطيع أن نقدر هذه المدارس بطرائقها، وتلك المعاهد بأساليبها؟ أليس من الخير أن تنشد جماعة (الخريجين) لندرسهم ما داموا هم غرض التربية الأول والأخير؟ ألحق أن كل نظام يغفل درس نتائجه وتقويمها وتقديرها قدرها الصحيح يعرض نفسه دائماً لآفة الرجعية والجمود والفشل والاضطراب! فترى ماذا عسانا واجدين إذا شئنا أن ندرس (خرِّيج اليوم) على ضوء هذه الأصول العامة التي قدمنا بها لذلك النقد المر البريء؟ سأحاول جهد المستطاع أن أرسم لك صورة واضحة شاملة

ترى في خطوطها المتكسرة ظلا لما يمكن أن يكون عليه (السواد الأعظم) من مدارسنا. ولك بعد هذا أن تحكم على ذلك المجهود الهائل بما تريد، وأن تلتمس لعلاجه كل ما يمكن أن يفيد!

1 - الشخصية الكاملة

ولقد علمت فيما مضى أن التربية الصحيحة تنشد تكوين (الشخصية الكاملة) بكل ما في الكمال من معنى، وأن كمال الشخصية إنما ينحصر في (عقل) منطقي سليم التفكير مستقل الحكم رائده الحق وحده، وهي عاطفة مصقولة مهذبة تغذي الخلق القويم وتسكب على الحياة من أسرار الجمال ما يملؤها نعيماً ورغداً وفخاراً وشرفاً، وفي جسم قوي العضلات مفتول الساعد يقوم كهيكل مقدس للروح الخالدة وكأساس وطيد للعقل السليم والعاطفة المستقيمة، أجل! لقد علمت ذلك فيما مضى، فتعال إذاً يا صاح نبحث عنه في تلك الشخصيات القائمة في (الديوان) وغير الديوان علّنا نسمع أو نرى. . .!!

2 - العقل

وقد مر بك أيضاً أن (العقل) هو ما جعل الإنسان إنساناً، وأنه يجب أن يقوم في النفس مقام السائق في العربة، حتى لا يجمح بها جوادها! وأنه يجب أن يصيب من الغذاء الصالح كل ما يشبع نهمه المطلق حتى يستطيع صاحبه أن يدعى بحق أنه يحيا حياة إنسانية رفيعة، وأن غايته الفريدة إنما هي (الحق البريء) في شئون الكون وشئون الحياة على السواء! وأن الخطأ الذي قد يتعرض له في أحكامه الخاصة والعامة يمكن أن يُجتنب بقوانين المنطق وطرق التدريس إذا حَسُنَ استعمالها؛ وأن وأن وأن مما قد لا يتسع الوقت لذكره! فأين ذلك كله أو بعضه يا عزيزي في (خريج) ذلك التعليم؟؟ أين هو العقل المسيطر؟ وأين هو العقل العاشق للعلم؟ وأين هو العقل السليم في أحكامه؟ وما لحياتنا تعج بأنواع الفوضى؟ وما لعقولنا تمتلئ بالقشور والسطحيات؟ وما لها تخطيء كل يوم فيما تكيف به الحوادث والحقائق خطأ قوامه الجهل أو الميل أو ما شئت غيرهما؟ لست أتكلم عن سواد الشعب ولكني أتكلم عن المثقفين وحملة الشهادات المتوسطة والعالية! أين فيهم ناشد الحق للحق وحده؟ وأين فيهم محب العلم للعلم فحسب؛ وما بالهم لا يقرءون بعد تخرجهم ولا يبحثون ولا يؤلفون؟؟ وما لك لا تجد في أيديهم - إذا وجدت - غير الأوراق التافهة من كتب ومجلات؟؟ وما لك لا تجدهم إذا بحثت عنهم في غير أوقات عملهم - إلا مكدسين في القهوات يتكلمون كثيراً في غير ما شيء، ويضحكون كثيراً على لا شيء؟! ما لهم لا ينتظمون في الجمعيات الإصلاحية المختلفة؟ وما لنواديهم تبقى خاوية على عروشها بينما هم يعمرون ما تحتها مقاهٍ وحانات؟! ثم ما لآرائهم الاجتماعية والسياسية تضطرب فهي آناً مع الحق الذي لا تعرفه! وآناً مع الحق الذي لها فيه غنم أو لذويها فيه نصيب! وآناً ثالثاً مع كل قوى التعبير جعجاع القول مموه الخطابة زائف المعنى؟! الأدب الرفيع في مصر هل له حياة عند غير أهله وعارفيه وهم أقل القليل؟ والعلم الدسم في مصر هل يجد له شارباً حتى من أولئك الذين درسوا فيه شيئاً، فلما نالوا (الشهادة) وكسبوا الوظيفة ركلوه بأرجلهم ومضوا يشبعون كل شيء غير العقول؟! ذلك وكثير غيره واقع وملموس!! فالمتعلمون هنا يتعلمون للعيش فحسب؛ والعلم عند أكثرنا وسيله لا غاية قط، والطريقة التي (نتعاطاها) بها كانت وما زالت في بعض نواحيها رثة بالية لا تحببنا فيه ولا تحببنه فينا، ولذلك ما نلبث أن نهجره وما يلبث أن يهجرنا!. ومن هنا لا تعجب قط إذا أدركت في متعلمينا عقول العصافير، وسمعت منهم زقزقة الطير، وتبينت في أنوفهم هذا الكبرياء وذلك الغرور، ولاحظت في حياتهم هذا

الإقفار الأليم من (دنيا العقل) وسلطان العلم!
لست أنكر أن في الجامعة بعض ما قد ينشر بجيل جديد! ولكني ما زلت أخشى أن تطغى الحياة القاسية على الشباب المومق فتزيل من نفسه ذلك التعلق بالحياة العلمية كما قد أزالته حتى في الكثير من رجال البعثات أنفسهم!! ذلك أن هذا التعلق مصطنع ودخيل وحديث، ولذلك ما يلبث أن يخمد في الكثيرين فإذا هم يسيرون في التيار العام ناسين أو متناسين آمالاً باسمة وأطماعاً هائلة!! ولست أنكر أن فينا من يؤلف وينتج ويخرج من الآثار الأدبية والعلمية كل ثمين قيم؛ ولكن ألا ترى معي أن علمنا ما زال عالة على علم الغرب، وأن تأليفنا يقل فيه (الإبداع) أيما قلة، وأن الكثير من رجالنا إما (معربين) فحسب، وإما (ملخصين) لا غير، وإما (قارئين) مع (الهضم) أو (عدمه)؟ ثم ألا ترى معي أيضاً أن الدولة مقصرة في حق رجال الأدب والعلم أيما تقصير، وأنها إذا كانت لا تعمل على
تكوينهم تكويناً سليماً، فهي ما تزال تتركهم يكافحون الحياة القاسية بسواعدهم، وينفقون زهرة عمرهم ويوجهون نشاط عقولهم وقلوبهم إلى كسب قوتهم وقوت عيالهم فحسب، وإن هي تنبهت وقصدت إلى الأخذ بيدهم، فقلْ أن يأتي ذلك منها خالصاً سليماً، لأنها إما أن تعطيهم الأجر الضئيل، وإما أن تقذف بهم في عمل بغيض لا صلة له بعلمهم أو فنهم قط، وإما أن تسيء تقدير عملهم بالقياس إلى الأعمال الأخرى، إلى حد يزهق نفوسهم ويميت حماسهم.
وها أنت ترى أن (المعلمين) في مصر هم خير رجال العقل وأجدر الناس جميعاً بالمساعدة والتشجيع، وأن النهضة العلمية إنما قامت وتقوم على كواهلهم.
فماذا فعلت الدولة لهم وماذا قدمت غير ذلك العمل المرهق الذي يحرق أعصابهم، وغير ذلك الأجر الضئيل الذي لا يقارن بأجر غيرهم من رجال الدولة العاملين!؟ وإلى لقاء حيث أحدثك عن نواحي أخرى. . .
(يتبع)
محمد حسن ظاظا
مدرس الفلسفة بشبرا الثانوية الأميرية
من برجنا العاجي
ما أجمل (المكرسكوب) إذا وضع إلى جانب (الكمنجة)!! في مصر والشرق العربي قلما نجد هذا المنظر. فأن رجل العلم ذا النفس الحساسة بالجمال الفني قليل. أعرف مع ذلك واحداً هو الدكتور حسين فوزي مدير إدارة الأبحاث المائية في الإسكندرية، فهو عندي أثمن ما في الإسكندرية. ما أكاد أضع قدمي في هذه المدينة حتى أسرع إلى (معمله) أشاهد أسماكه الغريبة تلعب في أحواضها البلورية، وأراقب مخلوقاته العلمية تنبض تحت الميكروسكوب. إلى أن يحين وقت الغداء فيخلع رداء المعمل الأبيض ويقودني إلى مسكنه حيث يطعمني خير الطعام ويحمل (الكمنجة) ويعزف لي إحدى (سونات) بيتهوفن التي أحبها. على أن هناك متعة نفسية أخرى طالما انتظرتها منه وطالما أغريته بها: القلم. لكنه كان يماطلني ويهرب مني كالعصفور الذي يهرب من الشبكة؛ وأخيراً وقع وحمل القلم ونشر كتابه (سندباد عصري) يصف الجانب الإنساني من رحلته العلمية في بعثة السر جون مري إلى المحيط الهندي، بأسلوب كالبحر الذي أمامه زاخر بعناصر الحياة وأنواع الصور مع خفة روح ورشاقة تعبير.
وذهبت مع الدكتور فوزي منذ أيام أقدمه إلى وزير المعارف فابتدره الوزير قائلاً:
- حذار من توفيق الحكيم أن يفسد عليك العلم ويغريك بالأدب!
فابتسمت أنا ابتسامة ماكرة. وأخرج صاحبي من تحت إبطه (كتابه) وقدمه دليلاً ناطقاً على أن الإفساد قد تم وأن الأغراء قد حصل!
أما أنا فسروري كذلك قد تم. فأني سوف أرى في زيارتي القادمة للإسكندرية (المكرسكوب) و (الكمنجة) و (القلم) جنباً إلى جنب: أجمل رمز لاجتماع العلم والفن والأدب في كائن آدمي واحد. وتلك إحدى معجزات الظروف التي لم تتهيأ إلا لمثل (إينشتين) اللاعب بالفكر واللاعب بالكمنجة. أما اللعب (بالقلم) فلم يغره بعد شيطان من الشياطين! فطوبى لحسين فوزي الذي اكتملت فيه الهبات الثلاث!
توفيق الحكيم

محمد إقبال
شاعر الإسلام وفيلسوفه
للدكتور عبد الوهاب عزام
- 1 -
ينتسب إقبال إلى أسرة قديمة برهمية دخلت في الإسلام منذ ثلاثة قرون. وكانت تقيم في كشمير، ثم اضطرتها الحادثات أن تهاجر إلى البنجاب. وأستقر بيت إقبال في سياليكوت من إقليم البنجاب حيث ولد سنة 1876؛ وبدأ تعليمه في هذا البلد وظهرت فيه مخايل النبوغ، وكان يسبق أقرانه ويظفر بمكافآت الحكومة التي تمنحها للنابغين من التلاميذ. وفي سيالكوت درس الأدب الفارسي والعربي على مير حسن أحد الأدباء النابهين.
ثم أنتقل الشاب النجيب إلى لاهور فدخل كلية الحكومة ولقي بها السير توماس آرنولد فأخذ عنه الفلسفة. وقد سمعت الأستاذ آرنولد يفتخر بأن إقبالاً تلميذ له. وأتم إقبال دراسته متفوقاً ظافراً بالجوائز الكثيرة. ثم نصب مدرساً للفلسفة في الكلية الشرقية بلاهور.
وقد شدا إقبال الشعر وهو تلميذ فانتظر الأدباء منه شاعراً عظيماً. وفي سنة 1905 سافر إلى أوربا فدرس في كمبردج ثم في ميونخ حيث نال درجة دكتور في الفلسفة. وكان في أوربا مثال الجد والمثابرة وموضع ثقة أساتذته. وقد أستخلفه أستاذه آرنولد حينما غاب عن كمبردج شهوراً. ولم ينس في أوربا أن يدافع عن الإسلام ويبين مزاياه فألقى في إنكلترا محاضرات في هذا الموضوع.
ورجع الدكتور إقبال إلى الهند سنة 1908 فأحسن قومه استقباله راجين فيه خيراً لأمته ودينه. وعمل في المحاماة واستعانه المسلمون في الكثير من شؤونهم. وما زال يزداد مكانة في السياسة والأدب حتى بلغ ما بلغ من المجد وذاع صيته في الهند وغيرها.
ولا يتسع المجال لتفصيل الكلام في تاريخه وسياحته في الهند والأفغان وفي الأندلس وأوربا وذهابه إلى مصر والقدس.
بدأ إقبال نظمه في اللغة الأوربية فنشر في الصحف وأنشد في المجامع قطعاً كثيرة جمعها بعد في ديوانه الذي سماه (بانك درا) أي (صوت الجرس).
ففي هذا الديوان أول أشعاره، ولكنه لم يكن أول دواوينه انتشاراً. وهذه كتب إقبال على ترتيب نشرها:
1 - أسرار خوري
2 - رموز أبن خوري
3 - بانك درا
4 - بيام مشرق
5 - زبور عجم
6 - جاويد نامه
7 - مسافر
8 - ضرب كليم
9 - بال جبريل
وقد مات وهو ينظم: أهلك حجاز
ومن هذه المنظومات السبع ثلاث في اللغة الأوردية، هي: بانك درا، وضرب كليم، وبال جبريل، والأخريات في الفارسية.
وله غير ذلك مؤلفان باللغة الإنكليزية، الأول تطور ما وراء الطبيعة في فارس، والثاني: محاضرات حاول فيها أن يبني العقائد الإسلامية على فلسفة جديدة وجعل عنوانها: إصلاح الأفكار الدينية الإسلامية.
فأما منظوماته: بانك درا، وزبور عجم، وضرب كليم، فقد ضمنها قطعاً كثيرة تبين عن مناح كثيرة من فلسفته وعواطفه يتناول فيها العالم والإنسان والأخلاق، ويحاول جهده إيقاظ الشرقيين عامة والمسلمين خاصة، وتبصيرهم بطرائق الحياة وإشعال الحماسة والغيرة والإقدام فيهم.
وأما منظومتاه الصغيرتان: مسافر وبال جبريل فقد سجل في الأولى ما أثارته في

نفسه زيارة أفغانستان إذ دعاه ملكها المرحوم نادرشاه هو وبعض مفكري الهند ليستشيرهم في إنشاء جامعة في كابل، وفي الثانية مشاهده في بلاد الأندلس.
وأما جاويد تامه فهي رحلة في الأفلاك، دليله فيها جلال الدين الروسي لقي بها عظماء المسلمين من ملوك وأدباء وعلماء، ومنهم بعض رجال العصر. كالسيد جمال الدين الأفغاني وسعيد حليم باشا ومهدي السودان وقد سماها باسم أحد أنجاله جاويد، وأراد بها بناء جيل جديد.
وأما بيام مشرق فقد جعله جواباً للشاعر الألماني الكبير جوته عن ديوان الغرب الذي أسف فيه لما أصاب المدنية الغربية وتمنى أن يمدها المشرق بعقائده وعواطفه.
وإذا عبرنا هذين الكتابين عرفنا فلسفة إقبال وآراءه ومذاهبه في الحياة وخياله وفنه في الأدب:
نشر بيام مشرق سنة 1923 وكتب على صفحته عنوانه: (ولله المشرق والمغرب) وكتب تحت أسم الكتاب (في جواب الشاعر الألماني جوته). والديوان أقسام:
الأول: لاله طور: أي شقائق الطور، وفيه 163 رباعية.
والثاني: أفكار، وفيه عناوين مختلفة مثل الوردة الأولى، تسخير الفطرة وهي محاورة بين آدم وإبليس، فصل الربيع، الحياة الخالدة، أفكار النجوم، محاورة العلم والعقل، الحكمة والشعر، قطرة ماء، العبودية.
والثالث: من باقي - أي الخمر الباقية، وهي قطع متشابهة فيها نزعة التصوف ممزوجة بفلسفة الحياة.
والرابع: نقش فرنك، وفي هذا القسم يتكلم عن عظماء الفلاسفة والشعراء في أوربا ويبين رأيه فيهم.
وهذه أمثلة من شعر إقبال في هذا الديوان بعد أن تذهب الترجمة النثرية بكثير من جمالها وروائها.

الحياة

بكى سحاب الربيع في جنح الليل فقال: هذي الحياة بكاء مستمر فتلألأ البرق الخاطف:
قد أخطأت! إنها لمحات من الضحك
ليت شعري من روى للبستان هذا الحديث فهو حوار مستمر بين الندى والورد

اليراعة

سمعت اليراعة تقول: لست كالنملة ينال الناس شرها؛ ولست كالفراشة تصطلي بنار غيرها، أنا أشتعل بنفسي ولا أحمل لأحد مَنّا، إذا صار الليل أحلك من عين الظبي أنرت بنفسي لنفسي الطريق

الحقيقة

قالت العقاب بعيدة النظر للعنقاء: إن الذي تدركه عيني سراب. أجابت العنقاء: أنت ترين ذلك، ولكني أعلم أنه ماء. فنادت السمكة من لجة البحر: هنا وجود لا شك فيه، وهو في هياج واضطراب.

الحكمة والشعر

ضل أبو علي في غبار الناقة، وأمسكت يد الرومي ستر الهودج. هذا غاص حتى ظفر بالجوهر اللألاء، وذلك دار مع الغثاء على وجه الماء. الحق إن لم تكن فيه حرقة فهو حكمة، وهو شعر إذا قبس من القلب ناراً

الوحدة

ذهبت إلى البحر فقلت للموج المصطخب: أنت في سعي دائم فما خطبك؟ في جيبك آلاف اللآلئ فهل في صدرك جوهر من القلب كالذي في صدري. فأضطرب وجزر ولم يحر جواباً.
ذهبت إلى الجبل فسألت: ما هذا الجمود؟ ألا ينال سمعك صيحات وآهات المحزونين؟ إن يكن العقيق الذي في أحجارك قطرات من الدم فحدثني فإني محزون فأنقبض وصمت ولم يحر جواباً
قطعت طريقاً بعيدة. . . وسألت القمر: يا جَّواب الآفاق! هل قُدر لك في سفرك قرار؟ العالم حديقة ياسمين من شعاع وجهك، فهل نور وجهك من قلب يتجلى؟ فرأى رقباء بين الأنجم فلم يحر جواباً
تخطيت القمر والشمس إلى حضرة الحلاق فقلت: ليس في عالمك ذرة تعرفني.

العالم خلو من القلب وأنا قبضة من التراب، ولكنها كلها قلب
إن هذه المروج جميلة ولكنها ليست أهلاً لنغماتي. فتبسم ولم يحر جواباً
نسيم الصباح
إني آنية من صفحات البحار وقمم الجبال ولكن لست أدرى من أين أهب. إني أبلغ الطائر المحزون رسالة الربيع وأنثر في داره فضة الياسمين. وأنقلب في المرْج وألتف على أغصان الشقائق فأبعث اللون والرائحة من مسامّها، وأتعلق رفيقة رفيقة بأوراق الورد والزهر حتى لا أثقل على أغصانها، وإذا رأيت شاعراً هاجته هموم العشق خلطت بنغماته نفساً بعد نفس
العشق
عندي خبر هذه الكلمة الأخاذة للقلوب والتي هي سر وليست بسرْ. أنا أنبئك من سمعها وأين سمعها! استرقها الندى من السماء فأوحاها إلى الورد، وأخذها عن الورد البلبل، ونَثتَها عن البلبل ريح الصبا
نغمة حادي الحجاز
يا ناقتي الخطّارة ... وظبيتي المعطارة
وعدتي والشارة
والمال والتجارة ... يا دولتي السيارة!
حثي الخطى قليلاً ... منزلنا قريب
جميلة الرواء ... مطربة الرغاء
محسودة الحسناء ... وغيرة الحوراء
بنية الصحراء!
حثي الخطى قليلاً ... منزلنا قريب
كم غصت في الشراب ... في وقدة اليباب
وسرت لم تهابي ... في الليل كالشهاب
والنوم عنك نابي
حثي الخطى قليلاً ... منزلنا قريب
قطعة غيم غادي ... سفينة الرواد
كالحظر في البوادي ... تمضين في سداد
فلذة قلب الحادي!
حثي الخطى قليلاً ... منزلنا قريب
هيامك الزمام ... وسيرك الأنغام
يتعبك المقام ... لا الجوع والأوام
والسفر المدام
حثي الخطى قليلاً ... منزلنا قريب
ممسية في اليمن ... مصبحة في قرن
ترين حزن الوطن ... كالخز تحت الثفن
إبه غزال الخثن!
حثي الخطى قليلاً ... منزلنا قريب
بدر السماء نعسا ... خلف التلال خنسا
والصبح قد تنفسا ... مزق هذا الغلسا
والريح تزجي نفساً
حثي الخطى قليلاً ... منزلنا قريب
لحني دواء السقم ... والروح ملء نغمي
يحدو الركاب كلمي ... من جارح وبلسم
هلم بنتَ الحرم!
حثي الخطى قليلاً ... منزلنا قريب
(البقية في العدد القادم)
عبد الوهاب عزام
حول المذهب الرمزي
للأستاذ محمد فهمي

تناول الأستاذ عبد العزيز عزت المذهب الرمزي في مقاله الأخير بالعدد (255) من الرسالة (الغراء) فجاء بآراء تجعل القارئ يقف متسائلاً. . . ماذا يقصد الأستاذ عزت بهذا؟! هل يقصد الرمزية في الفلسفة أم يقصد الرمزية في الأدب والشعر؟ فأن كان يقصد الأولى فأنه لم يحدد غرضه، لأن ما ساقه من آراء العلامة مارتينو في كتابه (المذهب الرمزي والبرناس) (إننا نجد عند فولين وعند ملارميه وعند رامبو وكثير من الرمزيين أن الشيء الواقع وقبوله حاضراً كان أم ماضياً لا قيمة له مطلقاً) وليس في هذا إشارة إلى رمزية في الفلسفة. إذن فالأستاذ يقصد رمزية الأدب والشعر وهو ما يفهم من ثنايا مقاله ومن الأمثلة التي ساقها وأسماء زعماء الرمزية الذين ذكرهم.

ومن العجيب أن يخلط الأستاذ في الاستشهاد والرد والتجريح هذا الخلط الذي يبعده عن خاصّية تحديد الموضوع تلك الخاصّية التي يتوخاّها كل دارسٍ للفلسفة مثل الأستاذ الفاضل.

فالمعروف أن الفلسفة شيء والشعر والأدب شيءُ آخر. وأن المذاهب الفلسفية غير المذاهب الأدبية وان كان التفاعل متصلاً بين هذه وتلك، ولكن عن طريق الاحتكاك والتأثير لا عن طريق الاندماج؛ فلكلٍ ميدانه ومنطقته. فالفلسفة مظهر نشاط التفكير العقلي؛ وأما الآداب والشعر فمظاهر لانفعالات الحسّ وهواجس الروح.

فما شأن آراء أوجست كونت (في كتبه المتعددة عن الفلسفة الوضعية والتفكير الوضعي برمزية الأدب والشعر؟! وما شأن رأي أبي الاجتماع الحديث (دوركيم) في العلم برمزية الأدب والشعر؟! وما كانت الرمزية التي تناولها الأستاذ مذهباً من مذاهب العلوم! بل ما شأن مذاهب فلاسفة السوفسطائيين والثورات الثلاث التي أثارها على التعاقب سقراط وأفلاطون وأرسطو؟ ما شأن كل هذا بالمذهب الرمزي الذي يتحدث عنه الأستاذ في مقاله؟ حقاً لقد هدَّمت هذه الثورات الثلاث الكبيرة من آراء السوفسطائيين حتى صدَّعت مذهبهم، ولكن هل غيرت أو هدّمت فن سوفوكليس واريستوفان ويوريبيد؟ كلاَّ، لأنها كانت ثورات في الفلسفة ولم تكن ثورات في الفنون والآداب! وقد عاصر هؤلاء الأعلام في الأدب الإغريقي كلا المذهبين السوفسطائي والسقراطي فما تهدم فنهم بهذا ولا بذاك!

وأظننا لسنا بحاجة إلى القول أن العلم شيء والأدب شيء آخر. فالعلم لا وطن له، وإن النظرية العلمية يبتكرها عالم في أي بلد من بلاد العالم، وعندما تثبت بالتجربة والبرهان تصير ميراثاً مشتركاً لكل عالم على وجه الأرض من أي مملكة هو ولأي جنسية يتبع وبأيّ دين يدين. وما هكذا الشأن في الأدب. فلكل أمة أدبها ونوازعها ومظاهر بيئتها وتراث تاريخها وديانتها وتقاليدها. فكيف يسوق الأستاذ تلك الآراء والأدلة الطويلة العريضة لرجال الفلسفة والعلم في موضوع هو من أخص خصائص الآداب والشعر!!؟

أما استشهاد الأستاذ برأي العلامة (مارتينو) (. . . فأن المذهب الرمزي عندما أبتدأ ظهوره وأخذت أبواقه ترتب الدعاية والنشر له قامت قائمة الناس في فرنسا وسموه (النزعة الجنونية) لما يتضمنه من القضاء على الروح الاجتماعية والتضامن بين أهل البلد الواحد، ولهذا أجمعت الناس في فرنسا على جموحه وشره الفتاك وقاوموه بكل ما عندهم من قوة، وأمكنهم - كما يذكر العلامة المدير - أن يقضوا عليه في عشرة أعوام أو خمسة عشر عاماً من ولادته، ودفنوه (غير مأسوف عليه).

هكذا يقول العلامة مارتينو الذي يستشهد به الأستاذ عزت. وما أظن العلامة المدير إلا ناقداً مجرحاً قاسياً، أو مفكراً قريب الشبه بطائفة المحافظين عندنا الذين يقيمون الدنيا ويقعدونها (دنياهم وحدهم طبعاً) كلما نشأ اتجاه جديد سواء في الأدب أو الشعر أو الاجتماع. وإلا كيف ساغ للعلامة الكبير أن ينساق مع رأي الناس في تسمية الرمزية (النزعة الجنونية) إذ على هذا القياس يكون من ذكرهم في كتابه (المذهب البرناسي والرمزي) من الأعلام أمثال فرلين وملارميه ورامبو وكثير من الرمزيين إلا مجانين! ولا أظن العلامة الكبير يوافق على هذا ولا الناس في فرنسا ولا القراء ولا الأستاذ عزت!

ثم ماذا يقصد من أن المذهب الرمزي قضي عليه في عشرة أعوام أو خمسة عشر عاماً من ولادته؟ هل معنى هذا أن آثار الرمزيين قضي عليها تماماً (غير مأسوف عليها) وإنها الآن في حيز الكتابات الهيروغليفية قبل اكتشاف شمبليون لحجر رشيد؟ أم أن الرمزية قد قضي عليها كمذهب قائم بذاته له أنصاره ومدرسته! إن كان الأخير فهذا

أمر طبيعي وهو مآل كل مذهب قائم الآن. فالآداب والشعر تتغير بتغير المجتمع والبيئة في الأمة في عصورها المتعاقبة. وإنك لتشاهد الآن في إنجلترا أن مذهب الرومانتيكية وكان من أعلامه شكسبير
وملتون، وفي فرنسا هوجو ولامارتين، قد أخلى الطريق لغيره من المذاهب التي خلفته شأن مذهب الرمزية وكل مذهب أتى أو قائم أو سيأتي. . .
ولكن لا ينكر أحد فضل الرومانتيكية في الأدبين الإنجليزي والفرنسي وأنها كانت من العوامل المؤثرة في نشوء المذاهب التي أعقبتها. وهكذا فعلت الرمزية إذ أثرت فيما خلفها من المذاهب.
بل إن مذهب السوفوسطائيين في الفلسفة الذي ذكره الأستاذ في مقاله كان له أكبر الفضل في نشوء الفلسفة السقراطية وتلك الآراء والتعاليم القيمة التي أبتدعها سقراط وحمل لواءها أفلاطون من بعده؛ ثم كانت أساساً لتلميذه الفذ أرسطو. ولا يخفي أن من السوفوسطائيين من كانوا يلمسون الحقيقة في بعض المواقف حيث يخطئها سقراط نفسه. (أنظر محاورة بروتا جوارس) بين سقراط وشيخ السوفسطائيين الذي سميت المحاورة باسمه.
ولعلي في هذه الكلمة قد جلوت بعض نواحي الأشكال والغموض اللذين أثارهما مقال الأستاذ عزت الأخير؛ ولعله في مقالاته الآتية يتفضل بمراعاة التحديد وعدم الخلط بين المذاهب الفلسفية وآراء الفلاسفة وبين المذاهب في الآداب والشعر.
(القاهرة)
محمد فهمي

أسبوع في فلسطين

للأستاذ محمد سعيد العريان

تتمة ما نشر في العدد الماضي

لن أتحدث عن مشاهدات في هذه البلاد رأيتها بعينيّ، فذلك شيء يستطيعه كل ذي عينين؛ وفلسطين اليوم هي فلسطين التي رآها من قبلي عشرات من الكتاب والرحالين وتحدثوا عن مشاهدها وآثارها ومعالمها؛ فهذا المسجد الأقصى، وهذه قبة الصخرة، وذاك مهد المسيح في بيت لحم، وذلك - فيما يزعمون - مصعده ومسْراه على الطور، وهذا حائط البرق، وذاك مصلَّى عمر، وتلك كنيسة القيامة. . . مشاهد كما وصف الواصفون وتحدَّث الرحَّالون وتغَّنى الشعراء؛ فليس بيّ من حاجة إلى الإعادة والتكرار. ولكني سأتحدث عن المشاهدات الأخرى. . . مشاهدات رأيتها بفكري وسمعت صداها في نفسي، وتحدث معناها إلى قلبي. . .
لقد أحسست أول ما هبطت هذه البلاد كأنما نضوت عن جسدي ثوباً كان يحتويني فأنا فيه غير من أنا: حسَّاً ومعنىً وفكرة؛ فما ألقيتُه عن جسدي حتى تواثبت نفسي منطلقةً على سجيتها في عالم غير محدود، لا تعرفه ولا تنكره، ولكنها فيه هي شيء غير ما هي كانت في هذا الثوب الذي يضم أطرافي منذ ثلاثين سنة أو يزيد. . .
أمصري أنا؟ لا؛ إن وطني لأكبر من ذاك. إن لي أهلاً هنا وأهلاً هناك. إن تراث الأجيال ليتحرك في دمي الساعة فيذكرني ما لم أكن أعرف. ما هذا. . .؟ لكأن لي في كل مكان ذكرى قريبة وما رأته عيناي قبل أن تراه عيناي. إن قوة من وراء التاريخ تربطني إلى هذا المكان، وتستوقفني عند ذاك الأثر، وتقف بي عند ذلك المنعطف، وتذكّرني بشيء في هذا الحي. إن هنا قبساً من روح أعرفها ترفّ حولي، ونفحةً من عطر أتشمَّمها تلامس روحي، وإن لي هنا لخفقة قلب، وإن لي هناك لدمعة عين، وإنني لألقيَّى خواطر وذكريات لم تكن من خواطري وذكرياتي؛ وإنني لأحس. . . وإنني لأشعر. . . فما أشك أن لي تاريخاً قبل تاريخي في هذا المكان، وأن لي ذكريات أبعدَ من ذكرياتي في هذا الحي، وأن الماضي الذي كان قبل أن أكون، هو إرث في دمي تحدَّر إليّ في أصلاب أسلافي ذكرياتٍ غامضة لا تكاد تبين إلا خفقات في القلب وزفرات في الفؤاد. . .!
أيها البلد الطيب! أيتها الأرض المقدسة! لقد عرفت بك أهلي ووطني وتاريخ قومي. لست من فرعون ولا فرعون مني. كفرت بالوطنية إن لم أؤمن بأني منكِ في أهلي ووطني. . .!
يا بلاد العربية والإسلام، انشري لواءَكِ وابعثي ماضيك حتى تنتظم رايتُك كلَّ مسلم

وكل عربي!
يا أهل العربية والإسلام، لستم من الوطنية في شيء حتى تؤمنوا أن وطنكم هو كل البلاد العربية والإسلام!
يا أهلي وإخواني على ضفاف النيل، لقد عققتم اخوتكم عقوقاً غير جميل حين زعمتم أن أرومتكم غير الأرومة التي أنجبت عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وعبيدة بن الجراح!
يا أساتذة المدارس المصرية، لقد ظلمتم التاريخ ظلماً غير قليل حين ذهبتم تزعمون لنا منذ كنا أننا من سلالة خفرع ومينا وأمون!
ويا قومي وعشيرتي هناك، معذرة إليكم مما كان، وعهداً عليّ أن أكون، وإلى اللقاء! إلى اللقاء تحت راية الإسلام. . .!
هذا شاب من أدباء فلسطين يحدثني عن مصر، وعن أدباء مصر، وعن السياسة في مصر، وعن النشاط العلمي في مصر، حديث العارف المتتبّع، لا يفوته شيء مما يعرفه المصريون عن أنفسهم؛ بل مما لا يعرفه المصريون أنفسهم. . . فماذا يعرف المصريون عن فلسطين؟
وهذه جرائد مصر، ومجلات مصر ومطبوعات مصر، تملأ السوق في فلسطين؛ فهي في كل دار، وفي يد كل قارئ. فماذا يقرأ المصريون من جرائد فلسطين، وماذا يعرفون عن أدباء فلسطين؟
(مصر زعيمة الشرق العربي!)
هذه عبارة تسمعها بين كل أثنين يتحدثان عن مصر والأقطار العربية؛ فهل عقلها من قالها؟ وهل عَناها من تحدث بها؟. . . أما هناك فَنَعم؛ فما يقولها عربي في غير مصر إلا مؤمناً بها مستيقناً حقيقتها؛ وأما هنا فهل تسمعها إلا في معرض الزهو والعُجْب والخيلاء. . .؟
مصر زعيمة الأقطار العربية، ما في ذلك ريب ولا جدال. ولكنها زعامة الجاه والغنى والصيت البعيد. . . زعامة ليس لها تكاليف، وليس عليها واجبات، وليس من ورائها مشقة. . . زعامة الدعاوى الفارغة، والتشدّق الكاذب، ولغو الأحاديث. . . وإلا فهل ذكرت مصر ما عليها للأقطار العربية حين سرّها أن يقول القائلون إن مصر زعيمة الأقطار العربية؟
ومعذرة يا بلادي! إنك لأهلٌ للزعامة والجاه والسلطان ولكن. . . ولكنك لا تريدين أن تفرضي على نفسك ما تفرضه الزعامة على أهلها من مشقات وتكاليف، وهيهات هيهات أن تدوم الزعامة لزعيم لا يفرض على نفسه أن يبذل أكثر مما ينتفع. . . وفي الحياة عبر وأمثال. . .
وجلستُ في مجلس طائفة من الأدباء أستمع إلى أحاديثهم ومداولاتهم، فإذا شباب هناك يسبقون الكهول عندنا في البحث والمطالعة والاستقراء، وإذا علم وأدب واطلاع، وإذا طرائق في البحث لا يعرفها إلا الأفلون من أدباء المصريين. . . وسمعت أسماء كتب مصرية جديدة في السوق، لم يعرفها بعدُ في مصر إلا مؤلفها والصفوةُ من أصحابه، ودار جدال حول معارك أدبية في جرائد مصر لم يكن مبلغ علمي بها إلا عنوانها وكاتبها. . . وجرت مصاولات، وتداولت آراء، وتنوعت أساليب الحديث؛ وخرجتُ بالصمت عن لا ونعم، وطارت خواطري إلى مصر، وإلى مجالس الأدباء في مصر، وإلى حظ الأدب والأدباء في مصر؛ وأطرقتُ من حياء. . .
مصر زعيمة الأقطار العربية. نعم، إن فيها لكُتاباً وأدباء وشعراء، وإن فيها لجرائد وكتباً ومجلات، وإن فيها لتعليما ومدارس وجامعتين، وإن فيها لمطابعَ تخرج كل سنة مئات من الكتب في مختلف العلوم والفنون والآداب، ولكن. . . ولكن مصر ليس فيها قراء. . .
مصر!. . . إن لمصر فضلاً على العالم العربي لا ينكره جاحد، ولكنه فضل المطبعة والجريدة والكتاب لا فضل المصريين. . .
مصر. . .! هل يعلم كتابها وشعراؤها ومؤلفوها أن كتبهم ودواوينهم ومؤلفاتهم أشهر وأذْيع في الأقطار العربية منها في بلادهم؟
رجاء إليكم أيها الكتاب والشعراء والمؤلفون: لا تسموها زعيمة الشرق العربي، ولكن سموها (مطبعة) الشرق العربي!

ولا تجلسُ إلى عربيّ في فلسطين إلا سمعت له حديثاً في سياسة بلاده، ورأياً في سياسة
بلاده، وحماسةً في الدفاع عن حق بلاده. وفي مصر (كانت) حركة وطنية، وكان لها حدّةٌ وشدّة، فما طغت في يوم من أيامها على آراء المصريين ولا فرضت سلطانها على مجالسهم بمقدار ما شغلت الحركة الفلسطينية خواطر العرب في فلسطين.
وتسأل: لماذا؟ فيجيبك قائلهم: (لقد كانت ثورتكم الوطنية في مصر للاستقلال، والاستقلال عندكم ترف سياسي؛ ولكن ثورتنا الوطنية في فلسطين للحياة. إن السياسة العامة في فلسطين هي سياسة كل فرد في أهله، وفي دينه، وفي ولده، وفي حقله، وفيما يملك؛ إننا إن لم نكافح كفاح الموت في هذه الثورة الوطنية، فلن تجد منا غداً عربياً واحداً في فلسطين. . .!)
وصدق القائل؛ فما في فلسطين اليوم ثورة وطنية كبعض ما نعرف من الثورات السياسية في التاريخ، ولكنه جهاد الأحياء للحياة، كما يجاهدون للطعام والشراب، فأما ظفروا فعاشوا في بلادهم آمنين كما يعيش كل شعب في بلاده؛ وإما. . . وإما كانت فلسطين هي الأندلس الثانية: لا يُذكر فيها أسم الله ولا ينطق فيها بكلمة التوحيد. . .!
وحاولتُ أن أعرف في فلسطين من حال المرأة العربية المسلمة التي سمعت بجهادها وبسالتها فيما تنقل جرائدنا من أخبار الثورة العربية في فلسطين؛ فإذا بيني وبينها حجاب؛ فلا ترى في الطريق واحدة منهن في مثل حال أختها المصرية: تسير في الطريق شبه عارية في ثوب مهلهل إن لم يشفْ يصفْ، ولكن وجوهٌ إلا يكن عليها حجاب فأن فيها حياء. . . إلا وجوهَ الغواني من بنات صهيون ونساء المهاجرين.
ومحطة الإذاعة في فلسطين غيرها في مصر؛ فهي هناك مصلحة حكومية وهنا شركة يربطها بالحكومة عقد تجاري؛ على أن أول ما تلاحظه من الفرق بين المحطتين هو عناية محطة فلسطين بالأدب والأدباء وإغفال شأنهما في مصر؛ فلولا محاضرة أو محاضرات يذيعها كل سنة من محطة القاهرة الأساتذة طه حسين والمازني وهيكل والبشري - ليس غير - لما درى السامع من بعيد أن في مصر أدباً وأدباء. على أن أكثر ما تذيعه القاهرة من موضوعات الأدب بعيد عن مناسباته؛ فما هو إلا إعلان عن كتاب، أو تعريف بإنسان، أو حديث معاد، أو خطبة منبرية ذات مواعظ وأمثال. . . أو فكاهة رخيصة. . . وقلما يتنبه القائمون على تحضير برامج الإذاعة في محطة القاهرة، إلى مناسبة من المناسبات الأدبية العامة ليجعلوا لها موضعها من البرنامج في ميعاده، إلا أن يتقدم إلى ذلك من يتقدم
من الأدباء وفي يده موضوعه كأنه طالب إحسان!
وأحسب ذلك يرجع إلى سببين: أولهما أن الأدب في مصر عامة ليس له سوق نافقة بحيث يغري محطة القاهرة بالحرص على إرضاء مستمعيه. والثاني أنه ليس في القائمين على شئون محطة القاهرة أديب متخصص له في الأدب معرفة وإطلاع يحملانه على أن يعّد نفسه واحداً من الأسرة الأدبية في مصر بحيث يعرف اتجاه الجماعة في الأدب فيسير مع تطوراتها على نهج سواء.
على أن الإذاعة اليوم هي وسيلة من إحدى الوسائل في نشر الثقافة وتوجيه الرأي العام؛ فما ينبغي أن يحملها انصراف جمهور المستمعين عن الأدب على إغفاله؛ فإن لها من السلطان ما تستطيع به أن تحمل مستمعيها على العناية بالأدب والأدباء لو سارت على برنامج مرسوم إلى هدف مقصود. ثم إن مصر ليست هي وحدها التي تستمع إلى محطة القاهرة، ولكن أقطاراً أخرى من أقطار العربية لها علينا من الحقوق الأدبية ما يحملنا على إرضاء مستمعيها وكلهم يرفعون الأدب أسمى مكان.
وإذ ذكرت هذا فما ينبغي أن يفوتني ذِكر الشاعر الأديب الأستاذ إبراهيم طوقان وكيل القسم العربي في محطة القدس؛ فأنه من خيرة شباب فلسطين ثقافة وأدباً وتحصيلاً، وله في الأدب آثار باقية؛ وبمثله في محطة القاهرة يمكن أن نتلافى هذا التقصير في حق الأدب والأدباء.
والمصريون في فلسطين عدد غير قليل يعيشون في أمن وسعة ولهم في القدس نادٍ جميل في حيّ عامر يتبعه مدرسة ليلية وفرقة كشافة. دعاني إلى زيارته سكرتيره الأستاذ عبد الفتاح لاشين المصري المدرس بكلية الروضة في مساء الأربعاء 11 مايو فذهب إليه مع الأصدقاء الأساتذة عبد الرحمن الكيالي، والشيخ يعقوب البخاري، وداود

حمدان؛ فوجدت النادي مزيناً أبدع زينة احتفالا بالمولد النبوي، وثمة شيوخ يقرءون قصة المولد، والنادي مزدحم بالمصريين وضيوفهم من الفلسطينيين، يستمعون إلى ترتيل القارئ في خشوع وإيمان؛ واستقبلتنا فرقة الكشافة على الباب استقبالا مصرياً كريماً. ثم ودَّعَنا أعضاء النادي بعد مجلس قصير، بكثير من الحفاوة والإكرام وكان آخر طوافي في القدس، في القنصلية المصرية. وما أنكر أنه كان عليَّ أن أجعل أوَّل

خُطاي إليها غداة مقدمي، وقد كان ذلك في نفسي، لولا أنني كان لا بد لي من رفيق يرشدني إلى الطريق، وكان احتياجي إلى الرفيق هو الذي جعل زيارتي للقنصلية آخر طوافي؛ فمعذرة إلى الأستاذ الأديب محمد حامد بك قنصل مصر في فلسطين الذي جعل أول لقائه إيانا عتاباً كريماً كان له في نفس موقع جميل، وكانت تحية صريحة لا تكلف فيها ولا رياء

زرت القنصلية في مساء الأربعاء 11 مايو، فوافقنا الأستاذ متري بك وكيل القنصل خارجاً لبعض شأنه؛ فما رآنا حتى بدأنا بالتحية، وتقدمَنا إلى دار القنصلية، فقضينا في كرمة وقتاً ما ثم لم يلبث أن حضر القنصل، فما درى بمقدمنا حتى صعد إلى غرفته محتجاً على أن جعلتُ زيارته آخر طوافي؛ ثم عاوده كرم المصري فأرسل يدعونا إليه. . .

وكانت جلسة ممتعة، شهدتُ فيها ما لم أكن أتوقع، ولقيت ولقي أصحابي من عطف الأستاذ حامد بك وكرمه وأدبه ما أحرص على ذكرياته كأجمل ما شاهدت في فلسطين والأستاذ حامد بك أديب واسع الاطلاع على رغم منصبه السياسي؛ وإنه لتوفيق عجيب أن يكون قنصلنا في فلسطين العربية له مثل حظ الأستاذ حامد بك من الاطلاع في الأدب وفي الثقافة العربية. ولقد عجبت - شهد الله - أن يبلغ هذا المبلغ في الأدب مصري من رجال السياسة؛ وكان آخر ما يدور في خاطري حين همت بزيارة القنصلية أن يكون لي هناك حديث في الأدب وفي شئون الأدباء كالذي دار في مجلس القنصل الأديب. . .

وأكثر من يذكر الفلسطينيون من رجالات مصر الراحلين، محمد عبده، ورشيد رضا، والرافعي، ولهم في نفوس منزلة من التقديس تضعهم في صف الخالدين من أبطال العربية والإسلام

وأحب كتاب العربية إليهم أسرة الرسالة، فهم يعرفون كتابها فرداً فرداً، ويقرءون لها ما يكتبون بشوق، وقلما تجد شاباً من شباب فلسطين لا يقرأ الرسالة ويحتفظ بمجموعاتها. وهم يعجبون أشد العجب حين يسمعون أن طائفة من شباب مصر لا يقرءون الرسالة! وأحسب لو أن أملهم تحقيق وصارت نسبة قراء الرسالة من المصريين تعدل نسبتهم في فلسطين لكان على الرسالة أن تطبع من كل عدد مائة ألف في الأسبوع. . .

وأكثر من يذكرون من الكتاب المصريين هم الأساتذة أحمد أمين، وعزام، والمازني، والزيات، وهيكل؛ ولولا سابقة للدكتور هيكل في الدعوة إلى الفرعونية لكان أحب الكتاب المعاصرين إلى أهل فلسطين؛ فما يغيظهم شيء فيما تكتب الصحف المصرية ما تغيظهم هذه الدعوة، وما يرونها إلا وسيلة إلى تمزيق الوحدة العربية التي يدعونها إليها ويرشحون مصر لزعامتها، وإلا سبباً إلى تقطيع الأواصر بين مصر وبلاد الإسلام

وركبت القطار عائداً من محطة اللّد، بعد زيادة قصيرة للأخ الأديب داود حمدان، ورياضة ممتعة في سيارة الأستاذ النشاشيبي بين اللد وبيت المقدس

وتحرك بي القطار عائداً إلى مصر ظهر يوم الخميس 12 مايو، فبلغت محطة القنطرة قبيل الغروب. . . ومعي من الذكريات لهذه البلاد المقدسة أثمن ما يحرص عليه إنسان. . .

أيتها الأرض الطيبة! أيها الأخوان الكرام! يا بني قومي هناك، وداعاً وداعاً إلى لقاء قريب، والسلام عليكم ورحمة الله

شبرا

محمد سعيد العريان

بين الرافعي والعقاد

للأستاذ محمود محمد شاكر

وبعد، فقد فرغنا في الكلمات السالفة من الحديث فيما هو (بين الرافعيّ والعقاد)، ممّا جاء في كلام الأستاذ الفاضل سيد قطب. ثم رأينا الأستاذ يبدأ ضرباً من القول هو إلى رأيه في كلام الرافعي وحده، ليس يدخله ذكر العقاد إلا قليلا. وقد كان بدء حديثنا محدداً بالرافعي والعقاد معاً. فنحن نرى أن عملنا قد انتهى إلى نهايته في هذا الغرض من القول، ولذلك ليس يضيرنا الآن أن نسكت إلى حين يفرغ الأستاذ سيد قطب مِمّا يسر الله القول فيه مما يسميه نقداً

وأول ما يجب علينا أن نقوله للأستاذ الفاضل بعد الذي كتبناه أنه يسيء بنا الظنّ بلا دليل ولغير عِلّة. يتزّعم أن في حديثنا (غمزاً ولمزاً وتعريضاً به) وكذا وكذا، ونحن نكرم أنفسا وقلوبنا وضمائرنا وألسنتنا عن هذه الضرب من القول، ولو أردناه لمضينا على عادتنا من التصريح دون التلويح، ولقلنا له من القول ما هو حق لا كذب فيه. . . حق يدافع عن حقيقته بالبيان والحجة والوضوح، والأدب الذي يعفُّ عن دنيَّات المعاريض وسفاسف الأخلاق

وليعلم الأستاذ قطب أني أحببت لا أغُلو، ولا أتجاوز حد الحب الذي يصل القلب بالقلب، ويمد الروح بالروح، ويجعل النفس في فرح متصل بسببه، أو حزن آت بعلته، فهذا أخلق الحب أن يخلو من سوء العصبية، وفساد الهوى، وقبح الغرض. فلا يجدني أرفعُ الرافعي عن الخطأ، ولا أجله عن الضعف، ولا أنزهه عما هو عمل كل إنسان حيّ ناطق يأمل ويتشهى. مما يسمى بأسمائه حين يعرض ذكره. وفي كل أحد ممن خلق الله على صورة (الإنسان) ضروب من الشمائل والسجايا والأخلاق والآداب، ليس يطلع طِلعها جل جلاله، وربّ رجل صاف كنور الفجر يخبأ من ورائه مظلمة من سواد الليل ولقد عرفنا الرافعي زمناً - طال أو قصر - فأحببناه ومنحناه من أنفسنا ومنحنا من ذات نفسه، ورضيناه أباً وأخاً وصديقاً وأستاذاً ومؤدباً، فلم نجده إلا عند حسن الظن به في كل أبوّته وإخائه وصداقته وأستاذيته وتأديبه. ولقد مات الرافعي الكاتب الأديب وهو على عهدنا به إنساناً نحبه ولا ننزهه، ثم جاء الأستاذ سيد قطب بحسن أدبه يقول في الرجل غير ما عهدناه. . . يؤوّل كلامه ويأخذ منه ويدع ويتفلسف ويحلل ويزعم القدرة على التولج في طويات القلوب وغيب النفوس فيكشف أسرارها ويميط اللثام عما استودعت من خبيئاتها، ثم هو في ذلك لا يتورع ولا يحتاط، ولا يَرعى زمام الموت، ولا يوُجب حق الحيَّ

لقد كتب الأستاذ ما كتب، فقرأ كلامه من قرأ، أفيجد في هؤلاء من يقول له أصبتَ؟ ومن يقول له أحسنَتَ؟ ومن يزعم أن ليس له مندوحة عما اتخذ من اللفظ في ذكر الرافعي وصفته والحديث عنه وعن أدبه وشعره؟ أما يجدر بالأستاذ الفاضل أن يعود إلى بيته هادئ النفس مُخَلّى من حوافز الحياة الدنيا، فيقرأ ما كتب مرة أو مرتين، ثم يرى هذا الذي ترك الدنيا بالأمس وحيداً، وخلف من ورائه صغاراً وكباراً من أبنائه وحفدته وأصحابه واللائذين به، ثم يراهم يقرءون ما يكتب عن أبيهم وجدهم وصاحبهم بالأمس، ثم يراهم والدمع يأخذهم بين الذكرى المؤلمة والألم البالغ! ولو فعل، لعرف كيف أخطأ ومن أين أساء، ولوجده لزاماً عليه أن يقدُر عاطفة الحي، إن لم يعظّم حرمت الموت. وهذا أمر لا نطيل القول فيه ولا نكثر من لوم الأستاذ عليه، فإن مرجعه إلى طبيعته وما تضمره نفسه، وإلى تقديره لعواطف الناس

ومهما يكن من شيء، فسندعُ الأستاذ سيد قطب يقول ما يقول، ويذكر من رأيه في الرافعي ما يذكر، ويصف أدب الرجل وذهنه وقلبه ونفسه بما يوحي إليه، لا نعقب على شيء منها حتى يفرغ، وحتى يستوفي مادته، ويضع بين أيدينا كل حججه في فن الرافعي. فيوم ينتهي نبدأ نحن القول في الذي قال. . . لا نرد بذلك عليه قوله، أو نسدد له رأيه، فمالنا بذلك حاجة ولا لنا فيه مأرب، ولكنا نريد إذ ذاك أن نضع رأيه بمنزلة الرأي يقول به فئة من الناس، أو شبهة تحيك في صدر جماعة من الأدباء، فعلينا أن نبين مواضع الخطأ إذا أخطأ، ومكان الصواب إن أصاب، وذلك غاية ما نستطيع

أما ما يوعدنا به الأستاذ الفاضل، وما يسخر به ويتهكم، وما يضمر لنا من (بقايا) كلماته!! فليقل فيه ما شاء كما يشاء، وسنرده على قدره وفي طاقتنا وآدابنا، ولو

اجتمع للأستاذ كل سلطان يستطيع به أن يسيء، فأساء إلينا بمثل الذي أساء به إلى الرافعي رحمة الله عليه،
فنحن لا نزال - مع كل ذلك - نحترمه. . . إذ ليس في طاقتنا أن نفعل شيئاً إلا أن نحترمه كل الاحترام
محمود محمد شاكر
بين العقاد والرافعي
للأستاذ سيد قطب
- 5 -
يقول العقاد في قصيدة (خليج ستانلي):
هذى معارض صنعة ... لله تبهر من وصفه
حي الجمال كما بدا ... أولا فدونك والجيف!
يقول هذا وهو يقف أمام هذه (المعارض) وقفة الفنان الحي، المتذوق لكل صنوف الجمال فيها، المتنبه لومضاته وخفقاته، لا تكاد تغرب عن نظرة ولا عن حسه لفته من لفتات الجمال في هذا الخضم العاري. ثم يسمع من ناحية أخرى صيحات (الخرف) التي لا تقدر هذه المعارض، وتنحي باللاتمة على بروز هذا الجمال، فيصبح بهم: هذه معارض للجمال يتملاها الأحياء المعنيون بالحياة، فمن شاءها فليحيّ الجمال فيها، ومن أبي أن يعجب بالحياة الخافقة فليس له إلا أن يوكل نفسه بالجيف الهامدة!
ولكن (الرافعي) لا يلقي باله إلى شيء من هذه اللفتات، فيأخذ منخره بين أصابعه ويزم شفتيه، ويشيح برأسه، ويروح يتصنع التأفف والمبالغة فيه، لأن هناك رائحة لا يطيقها في كلمة (الجيف!)
طيب!. ولا بد أن صاحبنا بلغ من إرهاف الحس - ولا سيما حاسة الشم - إلى درجة شديدة، تقرب من الدائرة المرضية فاللذين يبالغون في التأفف كثيراً ما يكون الإرهاق بلغ بهم إلى حد مرض الأعصاب، وهو عذر على أية حال. ولا بد أنه متجنب في أعماله الخاصة كل ما تنبعث منه أية رائحة!
ولكن ماذا عساك قائل، إذا رأيت هذا الرجل الذي يمسك منخره بأصابعه، لأن فناناً تهكم بخصوم الجمال، فجعلهم ممن لا يحسنون إلا ملازمة الجيف، إذا رأيته هو نفسه يصف فم حبيبته مستجملاً - وألق بالك إلى هذا - بأنه (حانة)!
أي والله. . . (حانة) هي فم حبيبته (الرافعي)، حانة ينبعث من روائحها ما ينبعث، ويفوح منها ما يفوح، ويعج بين جدرانها ما يعج. وفيها (من كل شيء) كما يفهم الرافعي وتلميذه الأستاذ شاكر. (من كل شيء) على حقيقتها وبمدلوها كما أوّلاه في تعسف واستغلاق
وما أبعد بك فهذه قولته:
(مسكرة للعاشقين كأن نهر الخمر في الجنة جعل فمها لهذا العاشق حانة)
ولعل أحداً من المتعسفين في التأويل والتخريج، حسب الأهواء والميول، يروح يقول لك: يا لله! إن نهر الخمر الذي في الجنة هو الذي جعل فمها حانة. فهي حانة من خمر الجنة لا من خمر الدنيا!
ولكن أفما كان هناك معدي عن هذا التعبير وهذا التشبيه؟ ألا يمكن أن تكون مسكرة حتى يكون فمها حانة، لا كأساً لطيفة، ولا قارورة مختومة، ولا دناً أو (برميلاً) من الخمر؟ ولا يكون حانة كاملة بما فيها من الدنان والكؤوس والشاربين والندمان، وبما فيها من عبث الشاربين وأنفاسهم وما يلي ذلك من عواقب السكر وصرعة الخمر الذي لا يطيق أن يرمي فنان خصوم الجمال بأنهم غير أحياء وأنهم موكلون بالجيف، هو الذي يطيق أن يرمي حبيبته نفسه بأن فيها حانة بما فيها؟!
هو ذلك. لأنه لا عقيدة فيما يكتب، فهو ينقد لشفاء الحزازات ويتلمس مواضع التشنيع التي لا سقطة فيها على الحقيقة، وإن كان له هو على غرارها - مع الفارق - سقطات وسقطات!
ويقول العقاد متفكها، وفي فصل يسميه (فكاهة) ويعنون له بهذا العنوان
من رأى زُهرة الجمال فهذي ... زهرة القبح أسفرت تتحدى
طلعة الشؤم من رآها يخلها ... خلقت من وجوه سبعين قرداً!
فما يلمح الرافعي هذا القول، حتى يغرق في ضحك مصطنع طويل؛ وهو يقول وما

الفرق بين أن تكون طلعة الشؤم هذه خلقت من وجه قرد، أو من سبعين أو سبعمائة؟
والمسألة هنا ليست هكذا، فوجه القردليس كل ما فيه قبيحاً، فشدة الاحتياط في
(الفكاهة) جعل العقاد (طلعة الشؤم) مؤلفة من القبح المستخلص من وجوه سبعين
!!!قرداً، ليكون قبحاً خالصاً مركّزاً
وهي على كل حال (فكاهة) والإغراق فيها يزيد حسن وقعها، ولا يعطل من قوتها شيئاً،
.وهو كل المقصود بالفكاهات
أما الرافعي الذي يعيب ذلك فاسمه يقول جادّا لا متهكما ولا متفكها. (وأصعب ما تكون
الإنسانية على من يعظم بحيوانيته وحسب، فتراه وكأن مائة حمار ركبت منه في حمار
(. . .واحد، ولكنه حمار عظيم
أرأيت إلى حمير الرافعي المائة، وعملت ما شأنها هنا؟
إنها لمجرد المبالغة في شدة الحيوانية. والمبالغة في موضع الجد والقصد، لا في
موضع الدعابة والنادرة
فلماذا يباح للرافعي في الحمير مالا يباح للعقاد في القرود؟ وهذه سبعون وتلك مائة.
وهذه قرود تحمل الدعابة والخفة في اسمها وجسمها، وتلك - أعزك الله - حمير تحمل
الغباء والثقلة في (صورتها ونعتها)؟
إنه التعنت، وشفاء الحزازات التي عملت سببها فيما أسلفت من حديث
وبعد فما أعني بما أوردت من كلام الرافعي هذا، فمثله لا يعد نقدا، والذي يعنى بهذه
المآخذ لا يكون إلا سخيفا؛ وإنما أردت فقط أن أصور هذا العنت الذي كان الرافعي يلج
فيه وهو واقع في شر منه، وأن أبين كيف يصنع الحقد ببعض الناس، وكيف ينكشف
(الذوق) المتصنع عن ثقلة وغفلة
وأحسب أنني حتى الآن قد أوضحت رأيي في الرافعي بالأمثلة الكافية كما وعدت في
أول مقال. وبقي أن أوضح رأي في العقاد على ذلك النحو
ولكني قبل هذا سألقي نظرة على ما كتب الأستاذ محمود محمد شاكر متقيداً في هذا
بوعد أسلفته في الكلمة الفائتة، أكثر من اقتناعي بأن هناك ما يستأهل هذه النظرة
فلننظر ماذا قال؟
كنت في حاجة أن أستعير أسلوب العقاد في الرد على الرافعي وأمثاله، أواجه به
الأستاذ شاكر، إذ كان الموقف لم يتغير. ولكنى لحسن الحظ أهدأ من العقاد، وطبيعتي
!أقل حدة وضراما فلهذا كان أسلوبي هنا غير ما يحتاج إليه الموقف
والأمر بيني وبين الأستاذ شاكر يمكن تقسيمه وتبويبه للاختصار
فهو (أولا) راح يطعنني في (حسن أدبي، ومروءة نفسي، ونبل قلبي، وشرف مقصدي،
فيما كتبت. وراح يتهمني بمجانبة (الدين والتقوى، والحياة والتذمم). وبأنه ليس ما بي
(هو النقد ولا الأدب، ولا تقدير أدب العقاد وشعره، فما هو إلا الإنسان وجه يكشفه
النور ويشف عما
(به، وباطن قد انطوي على ظلمائه فما ينفذ في غيبه إلا علم الله
وكل ذلك والأستاذ شاكر لا يعرفني، ولا يعرف شيئاً عن أدبي ولا نفسي أو قلبي، ولم
تكن التهمة في فهم الأدب أو فهم الحياة، حتى يكون له مبرر في مجال النقاش
الأدبي، وإنما هي تهمة خلقية محضة؛ وأنا إنما كان حديثي عن نفس الرافعي في أدبه
فماذا كنت أصنع للأستاذ؟
!أكنت أرد عليه شتائمه وأكيل له صاعاً بصاع؟ إذن فما أنا بخير الرجلين
أكنت أنفي عن نفسي هذه التهم؟. . . لأنا إذن ظالم لنفسي فما هي مما يستحق
النفي. وأنا أعرف نفسي ودافعها في الحياة - وهذا حسبي - وهناك مئات يعرفوني
معرفة الحقيقة والتقدير، وهناك ألوف يعرفون بالقراءة ونقد الكلام ما يجب أن يعرف،
فما بي من حاجة بعد هذا كله إلى كلام
ولقد رددت على الأستاذ سعيد العريان ما عرض بي من جهل بأدب الرافعي. ولم أرد
على الأستاذ شاكر فيما عرض به من شتائم خلقية، إذ كان الأول بسبب من الموضوع
الذي أتحدث فيه، وإذ كان بيني وبينه من الصلات ما يبيح لي أن أعتب عليه بشدة.
:فأما الأستاذ شاكر، فلم يكن له عندي هذا ولا ذاك فتركته يقول
على أنه ماذا يورد من حجة على انزلاقه إلى الطعون الشخصية الوبيلة؟ إنه حديثي عن
الرافعي الميت في إبان ذكراه الأولى

ولقد لقيني أديب كبير بعد هذا، فقال يتفكه: إن هؤلاء الجماعة يجلسون في المأتم ويرجمون المار بالحجارة، فإذا رجمهم الناس، صاحوا وولوا، وملئوا الدنيا تسخطاً ونعياً على الأخلاق لأن الناس لا يقدرون حرمة المأتم، وهم الذين استهانوا بهذه الحرمة حينما رجموا المارة!

ولقد كان ذلك فكاهة وحقاً!

فالمسالة أن الأستاذ سعيد العريان كان يكتب عن الرافعي، حتى لقد بلغ رقم مقالاته السادس والعشرين، فما رأيت ما يدعو أن أكتب أو أعلق، فهو صديق وتلميذ يقوم بحق الوفاء، وهو على هذا مشكور مبرور؛ ولكنه بعد ذلك انحرف عن نهج المؤرخ إلى نهج الناقد، فقال عن نقد الرافعي لوحي الأربعين إنه منزه عن العيوب، وقال عن رد العقاد إنه سباب وشتائم، فكان ذلك حكماً لا تاريخاً؛ وقال عن دوافع العقاد للرد وطريقته كلاماً لا يصدق على العقاد،

ويخطئ تفسير دوافعه في الحياة حسبما أرى، وأنا بذلك أدري

وعندئذ فقط تدخلت، لأعيد إلى الأذهان شيئاً من النقد (المنزه عن العيوب) ولأفسر دوافع العقاد وخطته في الحياة، ولأبين الفوارق الأصيلة بين مدرسة العقاد ومدرسة الرافعي في الأدب وفي الحياة

هكذا كان تدخلي، وهو مفهوم، ولم تكن هناك حاجة للتخمين والتأويل

وهو (ثانياً) شاء أن يدافع عن الرافعي، وأن يثبت له ما نفيت عنه من الطبع والعقيدة فقال كلاماً لا احسبني قلت سواه فيما كتبت!

فهو قد قال: إنه كان للرافعي رأي في أدب العقاد غير ما أبداه وإنما الملاحاة وحب الغيظ والكيد، هي التي جعلته يقول ما قال.

وحكم على العقاد كذلك بما حكم به على الرافعي

فأما الشطر الأول فهو اعتراف يؤيد رأيي، في أن الرافعي لم يكن يصدر عن عقيدة فيما يكتب. وذلك حسبي

وأما الشطر الثاني فهو الذي أنكرته من قبل على الأستاذ سعيد، وهو الذي لا زلت أنكره؛ لأنني أعلم من حقيقة رأي العقاد في الرافعي، ما يؤكد نعته له، ورده عليه. وما كان هذا الرأي ليختلف لو لم تقع بينهما جفوة وملاحاة، إن صح أن التعبير عن الرأي كان يمكن أن يتغير، من لفظ قاس مكشوف، إلى لفظ لين ملفوف

وليس العقاد هو الذي يبدي رأياً ويبطن آخر، فهو رجل عقيدة يهمه التعبير عنها، ولولا في ذلك كل عنت وملاحاة

هذا رأيي في صاحبي، لا زلت أنافح عنه، وذلك رأيه في صاحبة وهو به اعرف!

وهو (ثالثاً) أخذ نفسه بإبطال ما أوردت من نقد لنقد الرافعي. فلننظر ماذا قال إنه راح يتقصى ما قيل فيما يقرب من قول العقاد:

فيك منى ومن الناس ومن ... كل موجود وموعود تؤام

سائراً في تقصيه على النسق الحالي من كتب النقد العربي لقدامة وأبي هلال العسكري، ومن ينقلان عنهما. . . من تتبع المعنى تتبعاً زمنياً، وحسبان كل شاعر متأخر أخذ هذا المعنى عن شاعر متقدم، وزاد فيه أو نقص، وتصرف أو ولد. . . الخ

وليس هنا مجال انتقاد هذا المذهب في النقد، ولكني أكتفي بإثبات سوء رأيي فيه، وظني به القصور والجمود

إنما يهمني ما قال الأستاذ من أن العقاد ذكر (من كل شيء) دون أن يضع للفظ المطلق شيئاً من الحواجز والحدود التي تمنع إرادة الإطلاق والتعميم، فلم يبق إذن بد من أن يفهم الرافعي، وأن يتابعه هو في الفهم، أن (من كل شيء) تشمل ما ذكر من قاذورات وأوحال

ويبدو لي أن الحواجز والحدود المقصودة لا يمكن أن تكون إلا من نوع الحواجز التي توضع للخيول والكلاب في السباق، أو الحبال والأسلاك الشائكة التي تصدم الجسم وتخز اللمس!

ويبدو لي كذلك أن (الذوق الإنساني) الذي يمنع إرادة مثل تلك المقاذر، هو الأمر الوحيد الذي لا يحسب حسابه عند الرافعي وبعض متابعيه. وإلا فقد كان حسب الأستاذ أن يحيل حديث الرافعي في هذا إلى ثورة حقده، وحبه للمكيدة والإغاظة، فيخرج من تلك الأشواك التي ألقى فيها دون حساب!

ثم ماذا؟

ثم ذكرني بشيء كنت قد نسيت الإلمام به، بعد ما التفت خاطري إلى فساده وسوء دلالته على فهم الرافعي للأدب الحي. وذلك بقية ما كان عقب به على هذا البيت من أن أعرابياً قال وقال. . . فجعل حبيبته (أصفى شيء، وأغلى شيء، واسعد شيء)

هذا في الواقع مفرق الطريق بين الرافعيين والعقاديين؛ أو بين المدرسة القديمة والمدرسة الجديدة على الإطلاق. ولا بأس من توفية الكلام فيه بعض حقه، وربما عدت إليه في كلمة منفصلة أو في ثنايا كلمات أخرى

المبالغة عند المدرسة القديمة هي مناط البلاغة، لا يستثنون من هذا إلا ما اعتبروه مغالاة، تمس العرف أو الدين، أو تناقض الحس والمشاهد. والصدق الجميل هو مناط الاستحسان عند المدرسة الحديثة

فليس يهم الشاعر المجد في هذا العصر أو في قديم الزمان، أن يجتمع في حبيبته كل ما تفرقه الأوصاف في الجميلات، ولكن يهمه أن يصور محاسنها هي، الخاصة بها، وأن يعبر عن شخصيتها ومميزاتها كما هي في نفسه

ومن هنا يختلف في وصفه حبيبه عن حبيبته، لأنه لا يتحدث عن تمثال من الرخام، ولكن عن إنسانة حية تعيش في نفسه بمميزات خاصة. هذه المميزات قد يكون بعض العيوب فيها أعز على نفسه من بعض المحاسن، وأدعى لتعلقه بها، كالوالد لا يحب أبناءه لهدوئهم وآدابهم وحدها، وقد يكون الطفل المتعب أو الشاذ أكثر استمتاعاً بعطفه، وقد يكون حبه لهم على حسب ما بذل مع كل منهم من جهد، وما أنفق من علاج، وتلك من أسرار النفس الإنسانية

الصدق الجميل، الذي يعبر عن الحقائق النفسية، ويصور الحياة المتدافعة المتماوجة هو الذي أملى على العقاد ما كتب عن حبيبته، لأنها كانت هكذا في نفسه؛ فما يهمه أن يختار لها أجود النعوت، واحسن الأوصاف، بقدر ما يهمه تصويرها على حقيقتها في نفسه

فمن شاء أن يلتمس المبالغة الصفات المستحسنة وحدها من كل ما يتخيل فيه الجمال، فسبيله إلى ذلك شاعر آخر غير العقاد، ممن لا يحبون بقلوبهم وأعصابهم، بل بأذهانهم وأسماعهم. وهذا مفرق الطرق، والرمز الذي لا يخطئ في تميز المدرستين

ثم شاء أن يتحدث عن قصة (قزح وقوسه) على مثال ما تحدث عن (من كل شيء) فلم يشأ أن يفهم ما في الدعابة من طرافة وحيوية، لأن (قزحاً) هذا ليس (مشتهراً) بالجمال حتى تصلح المقابلة بينه وبين الجميلات

فهنا رجل يتصدى للنقد، ولكنه يتوكأ على أحكام السلف، فان وجد فيها أن قزحاً مشهور بالجمال فذاك، وإن لم يجده مشهوراً فلا يمكن أن يكون جميلاً، ولا يستطيع هو أن يرى إن كان هكذا أو كان قبيحاً، لأنه لا يستمد النقد مما يحس ويرى، ولكن يستمده مما يقرأ ويحفظ

ومثل هذا لا نطمع أن يماشي العقاد في سموقه وتفرده، ولا أن يتابع كذلك شروحنا للعقاد وطريقته، ولكني سأتحدث لمن يشاء أن يستمع

إن العقاد فنان دقيق الحسَّ في تميز الألوان والأضواء والظلال، وفي نفسه غرام بالنور يجعله يلتفت أبدا لومضاته وخفقاته (وقد وفيت شرح هذا في محاضرة لي عن وحي الأربعين عام 1934 نشرت وقتها بالجهاد، فليرجع إليها من شاء)

ومن هنا كان انتباهه لقوس قزح وألوانه وأطيافه، وكان تشبيه (مطارف الحسان وطرفهن) بهذه الألوان والأطياف، التي زاحمن قزحاً عليها حتى ظفرن بها منه، فألقى لهن بها وأدبر

وانصرف! ومن هنا كانت الطرافة والحيوية التي حسبنا الإشارة إليها تكفي أول مرة للفت النظر والفهم، فأخطأنا التقدير

وقد فهم الأستاذ شاكر أننا نعني بتلاعب الرافعي بالألفاظ، أنه قال مرة إن قزحاً لا يفصل عن قوس ثم عاد ففصلها! وما إلى شيء من هذا قصدت، وما يمكن أن يفهم ما قلته على هذا الوجه. إنما عنيت بالتلاعب أن يترك الناقد هذه الطرفة في الحس والخيال، ويعني بتخريج الألفاظ اللغوية، غافلاً عن النكتة المقصودة من فصل (قزح) عن (قوس) أو متجاهلاً لها، وهو ما صنعه الرافعي

أما ما ذكره الأستاذ شاكر من قول شوقي ورأي العقاد فيه فالأمر فيه مختلف جداً،

فشوقي في بيته لا يذكر (قوس) أي ذكر، وإنما يورد (قزحا) وحدها ويقصد بها (قوس) كما يفهم من معنى البيت:
قصراً أرى أم فلكا ... وشجراً أم قزحا؟
فكان الحق مع العقاد أن يقول: (ولا تذكر قزح إلا مع قوس) ولكنه لم يوجب في قوله هذه ألا تفصل منها كما أوجبه الرافعي خطأ. وفريق بين تحتيم ذكرهما معاً وتحتيم اتصالهما كما لا بد أن يفهم الأستاذ!
على أنه يبقى بعد ذلك كله أن كلام شوقي لم يكن يتضمن (نكته) خاصة كالتي تضمنها كلام العقاد، وتوجيه الكلام يقتضي بعض التصرف في عرف الأحياء!
هذا حديث قد أطلت فيه، ولكنه ليس موجها لأن يكون رداً على الأستاذ شاكر فيما كتب، وإلا فالمسألة أهون من هذا؛ إنما أردت به تصفية الموقف في طرق النقد. وما يجب أن يتوفر لها من فهم ودقة ويقظة. . . وحياة!
(حلوان)
سيد قطب
التاريخ في سير أبطاله
ابراهام لنكولن
هدية الأحراج إلى عالم المدينة
للأستاذ محمود الخفيف
يا شباب الوادي! خذوا معاني العظمة في نسقها الأعلى من سيرة هذا العصامي العظيم. . . . . .
- 13 -
أحس لنكولن ذلك فهو وإن يكن يعرف الذهاب بنفسه يدرك اليوم قد صار له في السياسة مكانة الزعماء، فلقد انتشر اسمه خارج مقاطعة الينوس وتقبله الناس بقبول حسن، فهم يضمرون لصاحبه المودة والإجلال. رشحه رجال الحزب الجمهوري في مؤتمرهم الأهلي أثناء الانتخاب لمركز نائب رئيس الولايات على غير سعى منه إلى ذلك فنال من الأصوات عشرة ومائة وهو بعيد؛ فلما جاءه نبأ ذلك تبسم ضاحكاً وقال: (حسبت أول الأمر أن هنالك رجلا آخر عظيما في مسَّاشوست يدعى لنكولن)
ولقد تألمت نفسه وانكدرت لذلك الحكم؛ تلمح ذلك فيما عقب به عليه، إذ أخذ يقارن حال العبيد يومئذ بما يرجى لهم غداة إعلان الاستقلال قال: (في هاتيك الأيام كان إعلاننا الاستقلال أمراً يعتبره الناس جميعاً مقدساً كما اعتبره ينتظم الجميع؛ أما اليوم فقد هوجم وسخر منه وأوَّل وفق الأهواء، ومزق شر ممزق، حتى لو أنه أمكن أن يبعث صانعوه اليوم من مراقدهم لما أمكن أن يتعرفوه؛ وذلك بما فعلنا من محاولتنا جعل عبودية الزنجي أمراً عاماً أبدياً. فإن جميع قوى الأرض لتظهر كأنها تتحد سريعاً عليه؛ فإله المال (ممون) في أعقابه ومن ورائه الطمع، ثم من وراء هذا الفلسفة، تتلوها جميع نظريات العصر التي تتكاتف جميعاً في سرعة لتؤيد الصيحة ضده. لقد ألقوا به في سجنه بعد أن فتشوه ولم يدعوا في يده أي آلة ينقب بها الجدار؛ وأغلقوا عليه الواحد بعد الآخر أبواباً ثقيلة من الحديد؛ والآن يذرونه في سجنه وعلى بابه قفل من الحديد ذو مائة مفتاح، لا يمكن فتحه إلا
أن تتفق على ذلك كل هاتيك المفاتيح؛ وإنها لفي أيدي مائة من الرجال مختلفين مبعوثين في مائة مكان مختلفة سحيقة؛ وإنهم ليفكرون فوق ذلك ليتبينوا أي اختراع في كافة نواحي العقل والمادة يمكن أن يضاف إلى ذلك ليكون استحالة هربه أكثر توكيداً مما هو عليه.
وحق لأبراهام أن ينطلق لسانه بمثل هذا الغضب، وأن تجزع نفسه لهذا الحكم فإنه ليراه ينطوي على كثير من المعاني وكلها على غير ما يحب لحزبه الوليد وللقضية الكبرى التي يتوقف على مآلها مصير البلاد. أليس يقضي هذا الحكم بأن المجلس التشريعي للولايات هو الذي يحدد من غير قيد ماذا تكون عليه حال الولايات من حيث مسألة العبيد؟ وإذاً فما قيمة اتفاق سوري، ثم ما نصيب هذا الحزب الجديد من القرب أو البعد من روح القانون وهو الذي يجعل اتفاق سوري القاعدة التي يصدر عنها في أعماله؟
إنها في الحق لمعضلة؛ ولكن هل كان يضيق هذا القلب الكبير بالمعضلات؟ وهل

يتخاذل إيمانه لدى الصعاب وهو الذي يفل الصعاب وينهض لجسيمات الأمور؟ كلا، إنه ليحس قوة نفسه تعظم بقدر ما تعظم الشدائد. وهو كغيره من أولي العزم من الرجال لا يتذوق حلاوة النصر إلا في مرارة المقاساة. . .

وظلت الأحداث تأتي بعضها في أثر بعض، فهذه كنساس تتوثب فيها الفتنة ويتحفز الشر، راحت تضع لها دستوراً فأخذت تختار من رجالها من يعقدون مؤتمراً لهذا الغرض، فانظر كيف يحال بين الأحرار وبين أمانيهم بالقوة المادية فيجري الانتخاب فيها على صورة تشعر النفوس البريئة بالألم اللاذع أن ترى الأغراض الوضيعة تنزل فيها بالعقلاء من البشر إلى مرتبة البهائم، ويبيت الناس وكأنما لم يكن الوجدان يوماً ناحية من نواحي نفوسهم. فهم في ضراوتهم وبهتانهم يظهرون في مظهر تخجل منه الآدمية التي تشعر بحقيقتها

ويأبى الرئيس بيوكانون إلا أن يعتمد قرار المؤتمر فيقبل الولاية في الاتحاد على أنها إحدى الولايات التي تأخذ بنظام العبيد كما جاء في دستورها! ولشد ما تألم لنكولن لهذا، ولكنه كان عنده ذلك الأم الذي يلد العمل ويبعث الأمل ويغري المجاهدين بالجهاد؛ ولولا أن كان من المؤمنين الصادقين لتطرق إلى نفسه الوهن ومشى في عزمه اليأس. . .

ووثب لمناهضة دستور كنساس رجل آخر يعد موقفه في ذلك غريباً لأول وهلة، وذلك هو

دوجلاس عضو مجلس الشيوخ ومنافس لنكولن الشديد البأس. رأى أن قرار المحكمة العليا قد قضى على ما راح يدعو إليه من توطيد مبدأ سيادة الولايات في تقرير مصائرها. ذلك المبدأ البراق الذي ظل يخلب به الألباب ويلوح به لأهل الجنوب ليكونوا عدته في الوصول إلى الرياسة. ولقد بات من أمره في حيرة شديدة، فهو يخشى أن يفقد محبة أهل الجنوب إذا عارض دستور كنساس؛ بينما هو يخشى كذلك أن يفقد ثقة أهل الينواس إذا هو نسى مبدأ سيادة الولايات وسلطانها فيؤدي ذلك إلى خذلانه في الانتخاب لمجلس الشيوخ وقد أوشكت مدته فيه أن تنتهي. . .

ولكنه آثر الآن أن يحرص على ثقة أهل مسوري فأعلن عداءه لدستور كنساس، ووقف يحمل عليه في المجلس حملات شديدة بعثت في قلوب الديمقراطيين الغيظ وأثارت في عقولهم، فهذا الرجل الذي يعدونه من أقوى رجالهم لا يستحي أن يخرج عليهم على هذه الصورة ولا يتورع أن يعارضهم في غير هوادة كأنما انقلب بغتة فصار من رجال الحزب الجديد!

ولقد هلل بعض زعماء الحزب الجديد لموقف دوجلاس واستبشروا به، بل لقد أخذوا يمهدون السبيل لانضمام دوجلاس إلى حزبهم ليزدادوا به قوة ومنعة! وراح جريلي أحد رجال الصحافة من قادة هذا الحزب يدعو القراء إلى انتخاب دوجلاس وأخذ يثني على صفاته ويتوخى في مديحه الأطناب والمغالاة. وكان هذا الرجل من اشهر رجال الصحافة في الشمال وكانت له عند الناس مكانته؛ كما كان لصحيفته عدد كبير من المعجبين

ولكن ابراهام قد أنكر على نفسه أن يقبل ذلك من رجال حزبه. وهنا تعود للظهور خصلة من أبرز خصاله ألا وهي الاستقامة إذا صح أن تعبر هذه الكلمة عن المعنى الذي نريد، والذي نراه ينحصر في إطلاق النفس على سجيتها وسيرها على نهج من فطرتها في غير تناقض أو تذبذب أو اضطراب. وما كان ابراهام يتكلف شيئاً لا يتحرك به وجدانه أو تستشعره نفسه، ومن هنا كانت خطواته بطبيعتها مسدودة إلى الغاية مفضية إليها مهما كثر ما يعترضه من الصعاب. ثم من هنا كان خطره إذا تحرك. انظر إلى قوله حين سمع بتلك الدعوة الجديدة: (لقد أتى جريلي نحوي بما لا يعد عدلا. إني جمهوري من صميم الجمهوريين ولقد وقفت دائماً في طليعة الصفوف عند المعركة. والآن أراه يفاوض

دوجلاس خير من يمثل رجل الاتفاقات، ذلك الذي كان مرة آلة أهل الجنوب والذي هو اليوم أحد معارضيهم؛ ذلك هو الرجل الذي يحاول أن يضعه في صفنا الأمامي. . . أنه يحسب أن مكانه الرفيع وشهرته وتجاربه ومقدرته إذا أحببت، تقوم مقام حاجته إلى مركز جمهوري خالص، بل وتزيد على ذلك. . . ولذلك فأن إعادة انتخابه على أن يمثل قضية الحزب العامة أجدى علينا من انتخاب من هو خير منه من رجالنا الجمهوريين

الخلص الذي ليست لهم مثل شهرته؛ ماذا تعني (نيويورك تريبيون) بذلك الإطراء والإعجاب والتعظيم الذي تزجيه دائبة لدوجلاس؟ هل تعبر بذلك عن شعور الجمهوريين في وشنجطون؟ هل وصلوا نهائياً إلى أن قضية الحزب الجمهوري على العموم تتقدم خيراً من ذي قبل بتضحيتنا هنا في النيواس؟ إن كان ذلك كذلك فنحب أن نعلمه عاجلا؛ على أني إلى الآن لم أعلم بجمهوري هنا يرغب أن ينضم إلى دوجلاس؛ وإذا استمرت (التريبيون) ترن باسم دوجلاس في مسامع الخمسة أو العشرة الآلاف من قرائها في الينواس فأن ذلك يكون أكثر من أن نأمل معه أن يظل الشمل مجتمعاً؛ إنني لا أشكو (ولكني أرغب في أن أصل إلى بينه من الأمر

ذلك هو لنكولن اليوم؛ انظر كيف يجمع بين منطق المحامي وحصافة السياسي، وانظر كيف يدفع عن نفسه بما نشأ عليه من دماثة ما يحس فيه عدواناً على شخصه ونيلا من كرامته؛ فهو يطيق أن يكون دوجلاس خصما له ولكنه لن يطيق أن يراه مرشح حزبه في الينواس؛ نعم أنه لن يستطيع أن يحمل نفسه على الركوب معه في قارب واحد يراه يأخذ فيه مكان الربان وهو فيما يعتقد لا يرى كفايته تتقاصر عن ذلك المكان وأرسل لنكولن بعض أصدقائه إلى الأقاليم الشرقية ليروا ما حال الحزب هناك؛ وكان من هؤلاء صديقه هرندن، وقد عاد إليه ينبئه بأن اسمه يقابل بالاحترام لدى الكثيرين من قادة الحزب بيد أنه يحمل إليه مع ذلك أنباء لا تسره؛ فرجال الحزب منقسمون بعضهم على بعض، فأن لجريلي آراءه ولستيورد أطماعه ولغيرهما من أساطين الحزب من أوجه الرأي ما يخشى منه انحلاله. . .

هكذا صارت السياسة شغله الشاغل، وهو لا يستطيع اليوم إلا أن يكون كذلك؛ لا لأنه يتخذ من السياسة وسيلة إلى تحقيق أغراض شخصية كما عسى أن يفعل غيره؛ ولكن لأن عقيدة

تحرك نفسه وتستثير وجدانه، ولأن رسالة من الرسالات الإنسانية الكبيرة ينبض بها قلبه الكبير. وهل عهدنا عليه من قبل ما نحمل معه اشتغاله بالسياسة على غير محمله؟ حاشا أن يكون ذلك من صفات أمثاله وإلا فما أضيع البشرية وما أهون أمرها. على أنه لم ينفض يده من المحاماة بعد؛ فحرفته التي يكسب منها قوته لا زالت حتى اليوم هي تلك الحرفة التي مال إليها بفطرته والتي ارتفع بها إلى مستوى إنساني يحق معه لأربابها جميعاً في كل جيل أن يذكروا أسمه كعلم من أعلام المدنية، وأن يضيفوه إلى ما يعتبرونه في مهنتهم من دواعي الشرف وبواعث المفاخرة

ومن أفعاله في المحاماة يومئذ حادثة نرويها لدلالتها على ما كانت تنطوي عليه تلك النفس الكبيرة من المعاني الإنسانية، تلك النفس التي لم يتطرق إليها ما يتطرق إلى النفوس في هذا العالم الخبيث من خبائث تشوهما وأوشاب تذرى بها وهي في حال غريبة، تحار معها هل تعدها آدمية أم تعدها بهيمية؟

وقع بصره في إحدى الصحف على جريمة قتل يدعى أحد المتهمين فيها أرمسترنج، فدهش وتساءل هل يكون ذلك ابن متحديه ثم صديقه القديم عندما كان فتى يبيع في الحانوت وهو غريب في نيو سالم. ولما تبين له أنه هو كتب إلى أمه يقول: (عزيزتي مسز أرمستنج: علمت الآن بألمك العميق وبإلقاء القبض على ابنك متهماً بالقتل؛ ويصعب على أن أصدق أنه عسى أن يرتكب ما اتهم به. إن ذلك لا يبدو ممكناً. وإني لارجوا أن يجري معه تحقيق عادل على أي حال؛ وإن عرفاني بالجميل نحوك وما كان لي منك أيام شدتي من عطف طالت أيامه ليحدوني أن أتقدم في سماحة نفس بخدماتي المتواضعة لصالحه؛ فأن هذا سوف يتيح لي الفرصة أن أرد بقدر ضئيل تلك المبرات التي نلتها على يديك ويدي زوجك المأسوف عليه، حيثما لقيت تحت سقفكم مأوى كريماً بغير مال وبغير ثمن)

وتبين لابراهام براءته فعمد في دفاعه إلى طعن حجج المبطلين من الشهود. ومن ذلك أنه سأل أحدهم كيف رآه ينفذ الجريمة فأجاب إنه رأى ذلك على ضوء القمر، فطلب المحامي نتيجة، ومنها تبين للمحكمة أن ليلة القتل كانت ليلة ممتعة؛ ودار الدفاع حول تسفيه آراء الشهود حتى أصدرت المحكمة حكمها بالبراءة

(يتبع)

الخفيف

الأنباط وأطلال بترا الخالدة
للأستاذ خليل جمعه الطوال

الأنباط قوم من العرب الساميين. ويذهب المؤرخ الشهير فلافيوس يوسيفوس، إلى أن نسبهم يتصل بنبايوت بن إسماعيل، ابن هاجر، (زوج سيدنا إبراهيم)، ولكنَّ المؤرخ الكبير مومسن يخالف هذا الرأي، فقد ذكر أن الآراميين قد انشئوا قديماً من رعاياهم مستعمرة في خليج العرب لتربط طرقهم التجارية مع الجنوب. وقد نزح سكان هذه المستعمرة فيما بعد، واستوطنوا بترا الواقعة في شبه جزيرة سينا، بين خليج السويس وأيلة، وأن هؤلاء الأنباط الذين يرجح أنهم أقرب إلى الفرع الآرامي منهم إلى أبناء إسماعيل. ولكن مومسن لا يذكر إلى جانب هذا الزعم، الذي اتفق جمهور المؤرخين على تخطئته، أسباب نزوح هؤلاء القوم، وتاريخ نزوحهم، ولا أشار إلى عدد النازحين منهم، وفي ذلك كله مجالٌ للافتراض والشك. . . على أنه مهما يكن من الغموض والاختلاف في نسب الأنباط إلى نبايوت أو غيره، فان المصادر جميعها متفقة على نسبتهم إلى الفرع السَّامي، بدليل طراز معيشتهم البدوية، وعاداتهم وتقاليدهم العربية، وبدليل أنهم كانوا يتكلمون العربية، ولم يتكلموا الآرامية إلاَّ بعد احتكاكهم بالرومان. وتدل الآثار والنقوش النبطية الكثيرة التي اكتشفت في مدائن صالح على أن خط هجرتهم إلى بترا كان من الجنوب إلى الشمال، أي أنهم نزحوا من أواسط سهوب البادية واستوطنوا جنوب الأمارة الأردنية الحاضرة، وكانوا حيثما نزلوا يقيمون في مضاربهم المصنوعة من الوبر والشعر؛ دون أن يعمدوا إلى الكهوف، أو إلى إقامة الأبنية الحجرية. وإن في خروجهم من قلب البادية لأكبر دليل على ساميتهم، وعلى نسبتهم، إلى أصل عربي. أمَّا المستر هورسفيلد فيخالف هذا الزعم في مبدأ هجرتهم، ويزعم أنها كانت من الشرق لا من الجنوب

كان الأنباط في أول أمرهم يشتغلون بالقرصنة على سواحل البحار وبالسلب والنهب، ولكنهم عندما سكنوا بترا وأجلوا عنها الآدوميين، وجهوا هممهم نحو التجارة، لأنَّ بلادهم كانت معقلاً للقوافل التي كانت تسير بين أواسط آسيا ومصر، ومركزاً لتبادل المتاجر والبضائع التي كانت تمر بها من الجزيرة والهند، وأهمها التمر، والبن والأبسطة. وريش النعام، والعاج والبخور، والتوابل، والبهارات - بالمنسوجات والمصنوعات الخزفية، والحرير، والأدوات التي كانت ترد من سواحل فلسطين الفينيقية، ومن سوريا، ومصر، فاثروا من ذلك ثراء طائلا، واستولوا على جميع الطرق التجارية، واحتكروا النقل عليها بغير منافس مدة طويلة من الزمن، حتى كانت جواسقهم تفهق بالمال، وآبالهم تنوء بالخير والرزق، فتجردوا عن بداوتهم وبدءوا بالتحضر رويداً رويداً فزادت معنوياتهم وقويت شوكتهم وهيبتهم، حتى لقد خطب البابليون ودَّهم وتحالفوا معهم فتخوف منهم الآشوريون وسيروا إليهم 646ق. م قلة من جيوشهم فغلبت ملكهم ناطمو، وأخضعوه لسلطتهم حيناً من الزمن. ولما اعتلى أشور بانيبال العرش الأشوري، جرد جيشه ثانية وأعاد الكرة على البابليين، فالتقى بهم في عزاليا (640 - 628ق. م) وقد انضم إليهم الأنباط، فدارت بين الفريقين رحى الحرب، وكان النصر أخيراً للآشوريين عليهم، وذلك للمرة التاسعة فأسروا امرأة يوتحا وأخته وأمه، وحملوهن إلى الشام، وقطعوا على الأنباط موارد الماء جميعها، وذلك لانضمامهم إلى أعدائهم البابليين، ولأنهم أجاروا ملكهم (يوتحا)، ولما اشتد بهؤلاء العطش ولم تغنهم عن المال آبالهم العديد التي نحروها، قبضوا على يوتحا وسلموه إلى أعدائه الآشوريين، فأرسله إلى نينوى وشدوه من فكه إلى أحد أبوابها حيناً من الزمن

وفي عام 334 ق. م. اكتسح الاسكندر المقدوني سوريا وفلسطين، وكان الأنباط قد تحصنوا في بلدة غزة، فلما جاءها قاومه النبطيون مقاومة شديدة، ولكنه أخيراً تمكن من فتحها واكتساحها

وفي عام 312 ق. م. وجه ملك سوريا (أنتفونس) إلى الأنباط جيشاً لجباً مؤلفاً من ستمائة فارس وأربعة آلاف من المشاة وكان على رأسه القائد العظيم أثنيوس. فاخترق عمون ومؤاب بدون مقاومة ثم نزل بترا فجاءة واحتلتها بسهولة، ذلك لأن الأنباط كانوا يقاتلون في بعض الجهات الأخرى، ولما عاد جيش النبطيين من جهاده حمل على الجيش اليوناني حملة غماء الجبين، وهزمه هزيمة منكرة، واستأصل شأفته،

حتى لم ينج من ذلك الجيش الجرار سوى خمسين فارسا
ثم جهز انتفونس جيشاً آخر مؤلفاً من أربعة آلاف فارس ومثلها من المشاة بقيادة ابنه ديمتريوس، وسيره ليثأر لأبطاله من الأنباط، ولكن النبطيين هجروا المدينة (بترا) بإبلهم
وأرزاقهم ولجئوا إلى الصحراء، ولما دخلها ديمتريوس لو يجد فيها سوى العجزة، الذين افتدوا أنفسهم بالمال، ورجع عنهم إلى دمشق
وفي عام 286 ق. م. ارتقى عرش مصر بطليموس الثاني فأغار على بلاد الأنباط غير مرة ولم يتمكن من اكتساحها فعمد إلى محاربتهم اقتصادياً، إذ استولى على طريق تجارة الهند، فانحطت معنوياتهم، ونالتهم الأزمة، ثم دخل البطالسة حرباً جديدة ضد السلوقيين في سوريا، فاستغل النبطيون هذه الفرصة إذ استرجعوا مكانتهم الاقتصادية وبسطوا نفوذهم حتى بصرى شمالاً وفلسطين غرباً، وأخيراً عهد إليهم المصريون البطالسة بحراسة الحدود المصرية، فصار أمة ذات هيبة وشأن
أما أشهر ملوكهم بعد ناطمو فكان (أرطاس الثاني)، وفي عهد هذا الملك الذي امتد حكمه من (110 - 96) ق. م وفي عهد خلفائه: أوبيدس الأول؛ وروبال الأول؛ وأرطاس الثاني بلغت دولة الأنباط أوج رفعتها وعلائها، إذ كانت متمتعة بالاستقلال الناجز التام، كما كانت اقتصادياتها، في حالة ممتازة، وفي عهد اسكندر جانوس عمت الفوضى والانحلال الحكومة السورية البيزنطية، واشتدت كراهية السوريين للمستعمرين البيزنطيين، حتى إنهم كانوا عوناً لكل خارج عليهم أو طامع في مناوشتهم، ولذلك لم يلق الحارث فيلهلين (95 - 50 ق. م) مقاومة عنيفة. حين زحفه على الشام. بل سرعان ما سلم له السوريون مقادة أمرهم ومقاليد دولتهم، ليتخلصوا من ظل الإرهاق البيزنطي الممقوت. وقد تولى سوريا من بعد الحارث خمسة ملوك نبطيون، وهم: مالك (50 - 38 ق. م) وعبادة (30 - 7 ق. م) والحارث الثاني الملقب بفلوديموس (7ق. م - 40 ب. م.) ومالك (40 - 75 ب. م) ودابل (75 - 106)
وقد كانت مملكة الأنباط ممتدة من جنوبي أرنون إلى مدائن صالح، والجزء الجنوبي من شرقي الأردن الواقع شرقي الخط الحجازي حتى دمشق وبصرى، وجبل الدروز، وفي عام 67 ق. م. اتفق الحارث فيلهلين مع الفرس على أن يساعدوه في استرداد بلاده التي اغتصبها اسكندر جانوس، فجهز جيشاً مؤلفاً من الأنباط والفرس يبلغ (50 ألف محارب)، وسار على رأسه لحصار أرسبيلوس في قصره، ولكنه رجع من حصاره مغلوباً
وفي عام 64 ق. م بينما كان بومي مشغولا بتسكين ثورة اليهود في فلسطين، جهز جيشاً
بقيادة ماركوس سكوروس، وسيرة لمقاتلة الأنباط، فتصادم معهم على شواطئ الأردن، فناوشهم طويلا، ولكنه لم يستطيع قط أن يخترق بلادهم ويتوغل في جنوبي شرق الأردن. وانتهت هذه المناوشات بتدخل انتباتر الكاهن اليهودي، إذ استطاع أن يقنع الملك النبطي (الحارث) بان يدفع لسكوروس القائد الروماني مبلغاً معيناً من المال فدية لبلاده. (راجع تاريخ رما ص 138 - 139 لمومسن). وتخليداً لذكرى هذا الانتصار ضرب سكورس نقداً عليه صورة الحارث يقود جملا، ويقدم إلى الرومانيين غصناً من الزيتون
وفي عام 34 ق. م أهدى أنطوني 671 جزءاً من بلاد الأنباط إلى كيلوبطرا، وهذه بدورها أهدته إلى هيرودس؛ فكبر على الأنباط أن يروا بلادهم سلعة تتهاداها الملوك، فجيش ملكهم المعروف (بمالك) عساكره، وانقض بهم على كيلوبطرا فانتصر عليها في واقعة، قرب السويس، وأغرق أساطيلها التي كانت في البحر الأحمر. ولما بلغ أنطوني خبر اندحار معشوقته، جهز جيشاً عظيماً وسيره بقيادة هيرودس ليثأرلها من الأنباط؛ وكان ذلك عام 32 ق. م فانتصر عليهم في بادئ الأمر، ثم امتد خط القتال حتى كاناثا وهناك أديل للأنباط من الرومانيين في معركة حامية الوطيس، ثم جهز هيرودس جيوشاً جديدة والتقى بالأنباط قرب مدينة عمان (عاصمة شرق الأردن الحاضرة) وفتك بهم فتكاً ذريعاً، فانسحبوا حتى تحصنوا بأم الرصاص (قرب مدينة مأدبا) تدل على ذلك النقوش والكتابات النبطية التي اكتشفت فيها والتي يرجع عهدها إلى عام 39م

ولما اعتلى عرش الأنباط الحارث الثاني المعروف بفلوديموس أخذ يخطب ودَّ الرومان الذين كان قد امتد نفوذهم إلى المملكة النبطية، فزوج ابنته من هيرودس التتراكي، ولكنها لم تلبث أن طلقته هاربه إلى أبيها في بطرا، لأنها اكتشفت علاقاته الغرامية مع هيروداس زوج أخيه، فاستشاط الحارث غيظاً لشرف ابنته وانقض على هيرودس وهزمه

أما اليونان فقد ظلموا يهتبلون السوانح ويتحينون الفرص المناسبة ليثأروا من الأنباط لهزيمتهم عام 25 ق. م. حتى كان عهد تروجن فجهز عام 106 ب. م. جيشاً لجباً أولوس كرنيليوس، حاكم سوريا، وسيرة إليهم، فقضى هذا الجيش على تلك المملكة العظيمة التي دام عهدها التاريخي زهاء ستة قرون وأقصى آخر ملوكها وهو دابل عن العرش

(يتبع - شرق الأردن)

خليل جمعه الطوال

رسالة الفن

فرنتس شوبرت

للأستاذ محمد كامل حجاج

أتشرف بالتحدث اليوم إلى قراء الرسالة الأفاضل عن عبقرية نادرة ونابغة عالمي في الموسيقى وقد عرقه الشعب المصيري أكثر من غيره كبار الموسيقيين من كثرة عرض فلمه (السانفوني الناقصة) ولا يخفى عليكم أن السينما لا تتوخى الحقيقة دائما بل يتعمد الانحراف مبرراً موقفه ولو بأضعف الأسانيد المشكوك في صحتها إن كان في سردها ما يشوق النظارة أو يترك فيهم أثراً عنيفاً

ولد المترجم له في 31 يناير سنة 1797 على مقربة من فينا وعاجلته المنية في ربيعه الحادي والثلاثين أي سنة 1828 وقد ترك بعد هذه الحياة القصيرة كثيراً من مختلف أنواع التلحين إذ بلغت مؤلفاته في طبعه سنة 97 - 1885 أربعين مجلداً

ولع منذ نعومة أظفاره بالموسيقى فتلقى تعليمه الأول على ميشل هولزر وأخذ يدرس في الوقت نفسه البيانو وعدة آلات وتريه حتى أتقنها، وعهد إليه بدور الكمان الأولى في الأوركستر وهو في الرابعة عشرة من عمره، ثم تلقى دروس الأرموني على أورجانست البلاط الأمبراطوري وتلقى الغناء والتلحين على ساليبري مؤلف أوبيرا دانايد

ولقد أحصى ما ألفه في سنة 1815 وكان في ربيعه الثامن عشر فوجد 6 مؤلفات للمسرح وقداسان وو (وهما نوعان من الموسيقى الدينية) و 12 و 8 و 10 تنويعات للبيانو و 2 من السانفوني و 4 سوناتات وأكثر من 130 من الأغاني المعروفة بالليدر فيكون المجموع 176 قطعة. وقد عال عنه بيتهوفن وهو على فراش الموت: (إن في هذا العقل لشرارة ربانية)

كان أبوه صاحب مدرسة وتزوج مرتين رزق فيهما من الأبناء والبنات ثمانية عشر. وإنه لمن الصعب أن يميز الإنسان أدوار حياة قصيرة؛ ولكننا نستطيع أن نعتبر منها تاريخين بلغ فيهما أعلى ذرى مجد وهما سنة 1819 التي ظهرت فيها قطعته المشهورة (شكوى الراعي) وسمعها الجمهور لأول مرة وحازت قبولاً عظيماً وعام 1821 إذ مثلت فيها (ملك الأون) وهي من أوبيراته الشائقة وقد غناها المغني المشهور ميكاييل فوجل، ومن هذا العهد ذاع صيته وملأ الآفاق. ولقد كان مثل موزار في ذكائه المشتعل في صباه المبكر، ويظهر أن القواعد الابتدائية للفن قد نقشتها الطبيعة في عقله فما كان منه إلا أن يشعر بتطلبات الظروف مثل مبادئ العقل والأخلاق

ولقد قال أستاذه هولزر: (بماذا أستطيع أن أفيده؟ إذ حينما أريد أن أعلمه شيئاً وجدته عالماً به من قبل). ولرخامة صوته وذكائه الموسيقي عين منشداً في كورس كنيسة الإمبراطور وانتظم في سلك طلبه المعهد الموسيقي الملحق بها إلى أن خرج منه سنة 1813، ثم جعله والده مساعداً له في مدرسته ولبث فيها ثلاثة أعوام ولما كثر المعجبون به أرادوا أن يعرفوه للناس فأرسلوا جانباً من الليدر التي كتبها إلى جوته ولكنه لم يرد عليهم، فلم ييأسوا وأرسلوها إلى المغني الشهير ميكاييل فوجل فدهش منها وطفق يحضرها ويغنيها

وفي سنة 1818 استدعاه الكونت استر هازي ليعلم ابنتيه فذهب إلى قصر بالمجر وقضى فيه الصيف في هناءة وسرور معجباً بتلميذتيه. إن أعظم المراجع التاريخية لم تذكر شيئاً عن غرام شوبرت بكارولين ابنة الكونت استر هازي والبعض قال: إن هذه الإشاعة مشكوك في صحتها إذ لم يؤيدها أحد وغاية الأمر إنهم استنتجوا هذه الإشاعة من عناوين بعض القطع كالوداع وغيرها

وفي نوفمبر سنة 1818 رجع إلى فينا ورفض متابعة التدريس وطرده والده، فأواه أصدقاءه وتدبرا له في شراء بيانو. فكان يستيقظ مبكراً ويبتدئ التلحين في الساعة السابعة صباحاً ويستمر إلى الأولى بعد الظهر في الخلاء أو في المدينة أو في نزهة أو في المقاهي، وكان يمضي السهرة كلها مع أصدقائه الحميمين مثل: وو وو وغيرهم. وكانت هذه الفئة من الموسيقيين والشعراء يصرفون الليل في إلقاء الشعر والغناء، ويشربون ويمرحون، وكانت كؤوس الجعة تدور طول ليلهم وفي بعض الأوقات يرقصون، وكانت حفلات الشباب هذه الأدبية يعيدها شوبرت إذ كان لها بمثابة الروح للجسد، وأطلق عليها أسم: (شوبرتياد)

وقال صديقه (كنا جميعاً أخوة أصدقاء) وكان شوبرت يحب أصدقاءه حباً جماً حتى أنه كان يسكن معهم ويشاطرهم ملابسه ونقوده. وكان يحب اجتماعات الفتيات ويرتاح لسمرهن ولكنه كان يتحاشى أن يقع في حبائل الحب أو يعكر صفوه وخياله بآلامه لأنه كان يطمح

إلى الرقى لأعلى ذروة في الموسيقى

وفي أبريل سنة 1821 تعاون أصدقاؤه على طبع كراسة من الليدر في محل وكتب السانفوني التي من مقام وهي أعمق مؤلفاته. وقد حاول أن يقترب من بنبهوفن ولكن هيهات الوصول إليه

أصابه مرض شديد سنة 1823 فخاب رجاؤه وانقطعت آماله فقال في إحدى رسائله: (إني لأتعس وأشقى رجل في العالم، فتصور بائساً لا تعتدل صحته قط، وقد خابت آماله ولم تسبب له مسرات الحب والصداقة إلا المتاعب والآلام، ولا أدري إنساناً يفهم آلام أو سعادة مثيله. ويظن دائماً أن الواحد يتجه دائماً نحو الآخر وغاية الأمر أنهما يسيران جنباً إلى جنب، فيالعذاب من يشعر بهذه الحقيقة المرة المؤلمة

رفضوا له أوبيرتين وهما (المتأمرون) و (فيرابراس) ولكن الرحلة له التي قام بها مع المغني الشهير فوجل في النمسا العليا قد صادفت نجاحاً عظيماً

وبعد عودته كتب ليدر (الطحانة الجميلة) وفيها صورة حية ناطقة للآلام الإنسانية ولكن أوبيرا التي مثلت في 20 ديسمبر سنة 1823 وكان عليها إقبال عظيم لم تمثل إلا مرتين

ساورته الكآبة والحزن لتدهور صحته وفقره، ولسوء حظه ما كان يجد من يشتري تأليفه، ثم ذهب سنة 1824 إلى قصر الكونت استرهازي وقضى به فصلاً ثانياً وكان يبحث في مخيلته عن شيء يتعزى به وكان يتصنع السرور رغماً عن كآبته وآلامه، استمر في العمل ولم يهجر المسرح وقد ربطته عري الصداقة مع المغنية الشهيرة أناملدر هوبتمان وكانت تغني في مسرح (ملك بورسيا). ثم قام برحلة جديدة مع فوجل المغني ورجع ومعه عدة مخطوطات ثم أرسل إلى جوته كبير شعراء الألمان ثلاثاً من الليدر فلم يرد عليه وحاول أن ينال وظيفة الرئيس الثاني لكنيسة الملك فأخفق

(البقية في العدد القادم)

محمد كامل حجاج

عضو مؤتمر الموسيقى العربية

رسالة الشعر

خواطر

دمشق

للأستاذ محمد بهجة الأثري

إلى صديقي العلامة الأستاذ محمد كرد على ذكرى احتفائه بالإخاء وتكريمه للصداقة. . . . . .

مَنْ عَّذِيرٌ من الهوى ومُجِيرُ؟ ... فَضَحَ الشَّوْقُ ما أَجَنَّ الضميرُ

أنا في قبضة الْجمَالِ فخوَّدٌ ... تَسْتبيني وروضةٌ وغَديرُ

هذه (جِلِّقٌ)، تبارَكَ ربي! ... بَلَدٌ طيّب ورَبٌّ غَفُورٌ
الهوى والهواءُ والجدولُ الرَّقِ ... رَاقُ والروضُ والسَّنا والحورُ
حَيْثما تغتدي فروضٌ أريضٌ ... عَنْبِريُّ الشَّذا وماءٌ نَميرُ
وظِلالٌ ممدودةٌ وْهيٌ تَنْدَى ... وشعاعٌ يرِفُّ وهْوَ مُنيرُ
من سَنَا الشمسِ فوقَها ومن الزُّه ... ْر دنانيرُ عسجدٍ وعَبِيرٌ
يُقْتَلُ القَيْظُ في ذَراها ولكنْ ... في ذَراها يحيا الهوى ويَسُورُ
جئتُ آوى من الحرُور إليها ... وإذا في الحشا يشبُ الحرُور
أنا منها ومن مَهاها اللواتي ... يتكسَّرْنَ رقةً، مسحورُ
كلُّ بيضاء في لواحظَ سُودٍ ... رفَّ في خدِّها الدمُ المستحيرُ
في قَوَامٍ لَدْنِ المعاطفِ ريَّا ... نَ وخَصْرٍ من الضَّنى يستجيرُ
وصِبًا ناضر الشبابِ غذاه ... تَرَفُ العيشِ والنعيمُ الوثيرُ
وأديمٍ مُنعَّمٍ في حَبيرٍ ... يوم العينَ ماؤه والحبيرُ
لَمعَا كالسَّرابِ شفَّ فلَم تَدْ ... رِ أماءٌ لألآؤه أم نورُ
تنفُثُ السحرَ في الخَلِيِّ فيشجى ... وتثير الهوى بهِ فيثورُ
ولقد زانها النَّفُورُ، وحُسْنُ الـ ... حُسْنِ في الغادة العَرُوُب النفورُ
كرَّمَ اللهُ وجهَ كلِّ نوارٍ ... صانها الطُّهْرُ والحياءُ الوَقورُ!
ليَ من هيكلِ الجمالِ المعاني ... ولغيْري ألفاظُهُ والقشور!
وطَنُ العُرْبِ جَنَّةٌ و (دِمَشقٌ) ... رَفْرَف أقدسُ المَطَافِ طَهُورُ
شَرِقَتْ بالرُّؤى مَسارِحُها الخضْ ... رُ وَرَوَّى نعيمَهُنَّ السرور
رُبَّ نادٍ تَخِذْتُهُ في الروابي ... أقرأ الحسنَ ثم وَهْوَ سُطُورُ
فعلى (الغوطَتَيْن) والشمس تبدو ... وعلى (النَّيْرَبَيْنِ) وهْيَ تغور
فإذا (جِلِّقٌ) رياضاً ودوراً ... كالمصابيح حَفَّها الديْجُورُ
عالم من زَبَرْجَدٍ طافَ بالدُّ ... رِّ وأذْكاه بالرُّواءِ النور
ساحِرُ المجتَلى أطلَّ عليهِ ... (قاسيون) كأنه مذعورُ
يغْرَقُ الحِسُّ في سنَاهُ ويفنى ... في تهاويل سحرِهِ التفكيرُ
أنا إن أنْسَ لستُ أنسى لياليَّ (م) ... إذِ البدر ضاحكٌ والثغورُ
وكأنَّ الأكوانَ في دافقِ النُّو ... رِ بَحُورٌ قد أغرقتْها بُحورُ!
يمرَحُ القلبُ في سناها كما يَمْ ... رَحُ في الماءِ سابحاً عُصْفورُ
قد تَفَرَّدْنَ بالصَّباحَةِ لولا ... وَجَنَاتٌ نازَعْنَها ونُحُور!
حبّذا (الشامُ): ماؤها وهواها ... وَمَسارِي أنهارها والقُصورُ
وميادين حُسْنِها وهْيَ شتَّى ... وَمَغاني اللذاتِ وهْيَ كثيرُ
جادَهَا الغَيْثُ من معاهدَ لا اللُّط ... فُ عداها ولا النعيمُ الوفيرُ
محسنات الأوقات حتى ضُحاها ... وشَّحَتْهُ بلطفِهِنَّ البُكُور
وبنفسي هَدِيرُ أنهارِها السب ... عةِ دوَّامةً عليها الطيور
تتلوّى كالأيْنِ ريعَ وتَهْتَ ... زُّ ارتعاشاً وترتمي وتمُور
وَهْيَ آناً في السهل تعدو وآناً ... في الروابي المُسَلْسَلاتِ تُغيرُ
تَغْمُرُ (الغُوطَتَيْنِ) بشراً وَزهْواً ... مثلما يغمُرُ النفوسَ الحبُورُ
وغَدَتْ فوْقَهَا الطيورُ تَغَنَّي ... ربما يُطرِب الطيورَ الخرِيرُ
عِشقَتْ لَحْنَهَا، وللطيرِ لَحْنٌ ... يُسْكِرُ السمعَ جَرْسُهُ المخمورُ
حَيث تغدو يلهيك منها سَمَاعٌ ... ومن الروض مونِقٌ منْضُور
عُرُسٌ قامٍ للطبيعة فيها ... يستخِفُّ الإنسانَ وَهْوَ وَقُور
تَهْزَجُ الطَّيْرُ والأناسيُّ فيه ... ويمور السَّنَا ويذكو العَبِيرُ
قِفْ تمتَّعْ مما تراه قليلاً ... وقلقلْ مما تراه كثير:
للأَنوف الشذا أريجاً، وللسَّمْ ... عِ الأغاني، وللحاظ البُدُور!
(بغداد)

محمد بهجة الأثري

باقة غزل من شعر الصبا

للأستاذ عبد الرحمن شكري

يا أيها الخاذل النائي بجفوته ... خَلَّفْتَ في العيش سحر المنظر البَهِج

خلعت حسناً على عيش كما خلعت ... شمس الغروب على الآفاق مِن وَهَجِ
فُرَصُ الحياة قليلة ... فالى م صدرك يا حبيبي
بينا جمالك يانع ... فينان كالغصن الرطيب
إذ لا جمال ولا صبا ... يصبي القلوب إلى الوجيب
والعيش خلد في الشبا ... ب فإن دنوتَ من المشيب
أحسست إقبال الردى ... كخُشُوع قلبك في المغيب
فترى الحياة قصيرة ... كتلألؤِ البرق الخَلُوبِ
وإذا الحياة كنغبة ال ... عصفور رُوِّعَ بالرقيب
متلفتاً يحسو ويخ ... شى أن يفاجأ من قريب
بينا تراه على الغدي ... ر تراه في الأفق الرحيب
خَلَّفْتَ في القلب يا معذبه ... ما خَلَّفَتْ نَغْمَةٌ من الجرْسِ
ذكراك في نفس منصت يَقِظٍ ... ذكرى غناء في الأذنِ كالهمسِ
كأنما القلب نحوكم أبدا ... ليْنُوفَرٌ دائرٌ مع الشمس
كنت روضي والعيش صيف وَفِيَّ ... حافل بالنعيم والآلاء
فَلَئنْ عادت الحياة شتاءً ... أنت فيها كزهرة في الشتاء
فهي محبوبةٌ وأندادها كُثْ ... رٌ ومحبوبةٌ بِقَفْرٍ عَرَاءِ
وهي أشهى إلى النفوس وأحلى ... لافتقادِ الأنداد والأكفاءِ
أَعِرِ البدر طلعتكْ ... عَلِّمِ النجم نظرتكْ
وامنح الصيف من روا ... ئك والزهر نضرتك
وهب الطير شدو صو ... تك والفجر غرتك
وإذا ما هفا النسي ... م فعلمه خطرتك
امنح الكون نشوتك ... عَلِّمْ السحر قدرتك
أرى الزهر غضاً يانعاً طَلَهُ الندى ... مَلِيّاً بأن يشجو ظِلماَء النواظر
فأحسبه دمعاً لذكرى غرامنا ... وأنفاس أيام اللقاء الغوابر
أتذكر وعداً باللقاء بذلته ... بمجتمع الأطيار بين الأزاهر
وليلا طرقناه سميرين في الدجا ... كما جال سر الوحي بين السرائر
طرقتك يا ليل اللقاء فرقتني ... بلذات حب كالنجوم الزواهر
يا زائري أعقبت منك محاسناً ... كالزهر يترك نفحة المرتاد
أخصبت تربة أنفسٍ ظلمانة ... شامت سناك فكان خير عهاد
وأفضت شؤبوب المحاسن والنهي ... طيباً على المهجات والأكباد
يا زورة كالعيد إلا أنها ... جَلَّتْ عن الفرحات والأعياد
يا ليت أن النفس درة غائص ... أهديك من نفسي أعز عتاد
أنت عنوان لما أن ... شده في الخطرات
كل كون كان أو لم ... يك من ماض وآت
فيك لي منه أمان ... ي النفوس السأميات
أنت في الدهر ابتسام ... كابتسام الزهرات
ليت لي منك ائتلافاً ... كائتلاف النغمات
قد قلتُ للحب لا تعتب على سَكَنِي ... لنبوة منه في أيامك الأخَرِ
كم لي وكم لك من يوم لنا بَهِجٍ ... بطلعة منه تحكي طلعة القمر
إنْ يَجْفُ قلبك كالأثمار يانعةً ... ودون ذلك يُبْسٌ من نوى الثمر
فارجم بقلبك قلباً أنت مالكه ... فإن قلبك مثل الماس في الحجر
البدر يكسو الأشياَء حُلَّتَهُ ... وَشْىٌ من السحر حاكه القمر
فَاكْسُ بأنوارك الورى حُلَلاً ... كي لا يبين الشقاءُ والعُسُرُ
يا شمس حسن حياتنا ثمر ... ينضج في ضوء حسنك الثمر
أشعل بألحاظك الحياة فإ ... ن الصخر إمَّا رمقته دُرَرُ
عَطَّرْتَ بُرْدَ الحياة قاطبة ... فكل شيء لمسته زهر
عيناك عيناك منبت الذكَرِ ... كالزهر في قاع رائق الغُدُرِ
فنعسة الطرف أنه أبدا ... كذاهل قد أصاخ للفِكَرِ
هل نعسة في لواحظ حُلُمٌ ... بعالم الحسن طيب الخبرِ

بعالم أنت من بشائره ... بشرى طيور الربيع بالزهَرِ
عيناك من لمحة الزواهر أم ... مقبوسة الضوء من سنا القمر
أم من غدير الحياة حَفَّ به ... من هُدْبِ جفنيك باسق الشجرِ
فيا ليت لي من صخر قلبك آلة ... فاتلو عليها نَغْمَةً أي نغمة
يئن أنين العود من شجو ضارب ... فَيُسْعِدُ قلبي في حنين وأنة
يا حسن من لي بسحر أتقيك به ... فالحسن يسحرنا والسحر يرقينا
يا حسن هل أنت ناسٍ ليلة سلفت ... طاف الغرام بها يا حسن يسقينا
كأننا نَغْمَةٌ في الليل سارية ... تهفو ولليل أذْنٌ فيه تبغينا
ورق فيه أديم البدر مؤتلقاً ... حتى كأن سناه من تصافينا
وبت ألحظكم طوراً وألحظه ... وفوق وجهك ضوء البدر يشجينا
يا حسن لا تحسبن البدر يشغلنا ... يا حسن لولاك ما ابيضَّت ليالينا
يا عين من أهوى رعاك الكرى ... فليلتي منكِ ليال طوالْ
عودي بلحظ صادق ضوءه ... يجلو دجا العيش وليل الخيال
يا طاقة أبصر منها النعيم ... في جنة الخلد وريف الظلال
عودي بلحظ أحتسي خمرة ... فالكوثر العذب شهيُّ المنال
ولا يكن برقك لي خُلَّباً ... أهكذا حَظّى آلٌ فآلْ
ضم الملاحة والرشا ... قة واللذاذة والألم
ناجيت قلبك كي يرق (م) ... فما أحس ولا رحم
يقسو فؤادك يا صَنَمْ ... أوليس من حجر أصم
عبد الرحمن شكري
البريد الأدبي
توحيد التعليم في المدارس المدنية والدينية
أخذ صاحب المعالي وزير المعارف يدرس برامج التعليم في المدارس المدنية والدينية، بقسمها الابتدائي والثانوي، قاصداً بذلك إلى وضع برامج يشترك فيها التعليم المدني والتعليم الديني
وقد كتب معالي الوزير إلى صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر يستطلع رأيه في هذا الصدد، تمهيداً لانتخاب لجنة من رجال المعارف والأزهر، يعهد إليها وضع البرامج الملائمة. والغرض من تحقيق هذه الفكرة إيجاد التقارب بين عقول المتعلمين وخلق جيل جديد متفاهم، لا تشعر جماعاته بفوارق بينها، ولا تتعصب فيه كل طائفة لنفسها، وبهذا تتفادى أسباب النفرة بين الجماعات المختلفة
إلى الأستاذ فليكس فارس
جاء في العدد 166 من الرسالة الغراء في مقال الأستاذ الكبير (نهضة المرأة المصرية وكيف توجه للخير العام) ما يلي:
لا ينهض بالشرق إلا حضارة شرقية تستمد نظمها من المبادئ الأدبية العليا التي) (أنزلت وحياً على رسله وأنبيائه، وإلهاماً على فلاسفته وشعرائه
وقد قامت اليوم دعوة تدحض هذه النظرية. وقد نشر في الأهرام قريباً مقال عنوانه (هل يوجد اليوم شرق؟) للأستاذ توفيق الحكيم وقد استشهد الكاتب في هذا المقال بحديث نقله من كتابه الحديث (عصفور من الشرق) يدور بين روسي ومصري
فإلى الأستاذ فليكس فارس الذي قال بأن الشرق لا ينهض إلا بحضارة شرقية أطلب أن ينفحنا برأيه ويدلنا على جواب شاف عما إذا لم يزل الشرق شرقاً والغرب غرباً؟ وهل في الإمكان تلقيح الشرق بحضارة غربية؟ وهل في الإمكان أن يلتقي الشرق مع الغرب؟ وأي الحضارتين أفضل - إن كانت هناك حضارتان شرقية وغربية - الأولى أم الثانية؟
إن قراء الأستاذ المعجبين بصدق آرائه وصواب نظرياته وصحة حججه ليرجون أن يرويهم بحديثه العذب وأدبه الفياض
عبد العزيز عبد الكريم
عصيون جابر لا أزيونجيير
جاء في العدد الفائت من الرسالة الزاهرة في البريد الأدبي ما يأتي (إن الأثريين الأمريكيين الباحثين قرب شاطئ البحر اكتشفوا آثار مرفأ كان زاهراً هناك حوالي ألف

سنة إلى ثمانمائة سنة قبل المسيح! أما المدينة المكتشفة آثارها فهي أزيونجيبر التي يدعوها العرب تل الخليفة!)
وهذا كلام لا غبار عليه، والاستكشاف حق، والمدينة أثرية تضرب في أعماق الدهر بتاريخ مجيد، ولكن لفظها العبرانيّ الساميّ قد تناولته أقلام المترجمين بالتحريف والتغيير
فقد جاء في الإصحاح التاسع عدد 26 من سفر الملوك الأول من التوراة ما يأتي بالنص العبري: (فآنى عاشا همِّلخ شلموه بعصيون جابر إشرأتْ ألوتُ علىْ شفة تِمْ سوُف بأرص أدوم) وترجمه ذلك: (وصنع الملك سليمان سفناً في عصيون جابر التي تقع على شفة (شاطئ) بحر (سوف) بأرض أدوم فالتوراة هنا حددت موقعها، وجاء الاستكشاف مصداقاً لهذا التحديد؛ وبحر سوف الوارد ذكره في الآية هو البحر الأحمر، ومعنى هذا (الهلاك) في اللغة العبرية، ولعله يشير إلى هلاك فرعون وجنوده عندما اتبع سيدنا موسى فسمى لدى العبرانيين بهذا الحدث في التاريخ والله أعلم!
أما عصيون جابر المدينة المستكشفة، فقد ذكرت في مواضع عدة من سفر الملوك اللفظ العبراني الأصيل، وهي من أعظم الموانئ الواقعة على خليج العقبة في ذياك الزمان بأرض الآدوميين إذ كانت في أيام سليمان عليه السلام مركزاً ممتازاً لتجارة الأعواد والأطياب والذهب الوارد من أوفير في مملكة سبأ بالجنوب
(دار العلوم)
محمد عبد الله العمودي
تبسيط قواعد النحو وطريقة الكتابة العربية
تشتغل وزارة المعارف بجمع المقترحات والبيانات المختلفة التي تتلقاها الآن عن المشروعين الخاصين بتبسيط قواعد النحو وطريقة الكتابة العربية
وتنوي الوزارة قبل اتخاذ قرار نهائي في هاتين المسألتين الاستئناس بآراء مجمع اللغة والمستشرقين
وينتظر أن يطول الزمن بهذين المشروعين نظراً لخطورتهما وصعوبة الوصول إلى الغاية التي تقصد إليها الوزارة
وقد يكون المشروع الأول أسهل من الثاني. ومهما يكن من أمرهما فان الاتجاه يذهب إلى تبسيط النحو في المدارس المصرية ابتداء من العالم الدراسي القادم حتى ترتفع شكاية الأساتذة من ضعف التلاميذ
جبران والرمزية
قرأت في مجلة الرسالة الغراء 251 مقالا للأستاذ بشر فارس ألمع في هامشه إلى أن الكاتب الرسام جبران خليل جبران قد سار على نهج الشاعر الإنجليزي وليم بليك في رمزيته
وإنه لمن المعروف عن جبران أنه لم يكن رمزياً بالمعنى الدقيق الذي يفهم من هذا اللفظ، بل كان أكثر ميلاً إلى الرمانتيكية منه إلى الرمزية، وكثيراً ما كان يمزج بينهما في كتاباته وعلى الأخص في كتابيه النبي ويسوع ابن الآفاق. أما في رسومه فقد كانت الرمزية غالبة فيها
والملاحظ في الشاعر (بليك) أنه كان غامضاً مسرفاً في الغموض والإبهام لدرجة يتعذر معها الفهم والغوص على المعنى الذي يريده والفكرة التي يقصد إليها، مهما أجهد القارئ عقله. فأنت إذ تقرأ ديوانيه أغاني الطهارة يبهرك ضوء قوي من الجمال، ولكن أنى لك أن تعرف سر هذا الضياء وما الذي بهرك من حسنه؛ وقصاراك أن تستشعر كثيراً من اللذة المعنوية في هذا الغموض وجماله.
وما كان جبران على هذا النهج في الغموض والإسراف فيه. وقليلاً ما نعثر على قطعة كتابية حاكى فيها الشاعر الإنجليزي الغامض. فهل للأستاذ بشر فارس - إذا تفضل - أن يفصح عما إذا كان الغموض والإبهام من مستلزمات الرمزية؟ وهل بدونهما لا تكون؟
وله وافر الشكر على غزير علمه والسلام
السيد كامل الشرقاوي
المفتش بوزارة المالية
العيد الألفي للجامعة الأزهرية
كان مجلس الوزراء قد قرر في عهد المغفور له توفيق نسيم باشا تأليف لجنة لتنظيم

المسائل الإدارية والتاريخية الخاصة بالاحتفال بالعيد الألفي للجامعة الازهرية، وهو الاحتفال الذي سيقام في سنة 1360 هجرية. وقد باشرت هذه اللجنة مهمتها بضعة أسابيع ثم أرجأت أعمالها بعد ذلك

وقد علمنا أن إدارة المعاهد الدينية تشتغل في هذه الأيام بوضع مشروع جديد لإقامة مهرجان إسلامي كبير يليق بتاريخ أقدم جامعة إسلامية، على أن يشترك العالم الإسلامي فيه

وسيعرض هذا المشرع بعد الفراغ منه على مجلس الوزراء للموافقة عليه واعتماد المبالغ الخاصة بتنفيذه

والمفهوم أن الرأي مستقر على توجيه الدعوة إلى مختلف الجامعات العلمية الأوربية التي دعت الأزهر إلى الاشتراك في حفلاتها

بين الرافعي والعقاد

في هذه الصفحة من عدد (الرسالة) الغراء رقم 255 قرأت دفاعاً كتبه الأستاذ عبد المتعال الصعيدي عن بيت العقاد:

فيك مني ومن الناس ومن ... كل موجود وموعود تؤام

ولست أريد أن أتناول البيت من نواحي ضعفه ليرى سيدي أن البيت يتداعى من أي ناحية أقمته، ولكني أريد أن أشير إلى آخر ما جاء في كلمته حيث قال:

ولا بد أن نشير بعد هذا إلى أن كل شيء في هذا الكون لا يخلو من حسن يسوغ) إجراء بيت العقاد على عمومه، وقد ذهب إلى هذا بعض العلماء في تفسير قوله تعالى: (الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين) قال العلامة الزمخشري: إنه ما من شيء خلقة إلا وهو مرتب على ما اقتضته الحكمة، وأوجبته المصلحة، فجميع المخلوقات حسنة .. .)

وهي التفاتة جميلة حقاً لولا أن قول الزمخشري رحمه الله قد ضمَّ على تفسير لا يضل فيه رأي. ولسنا ننكر أن كل شيء مرتب على ما اقتضته الحكمة، وهذا معناه الدقة في الصنع والأحكام. وإن الإنسان يدرس علوم النبات والحيوان ليرى في بعض ما خلق الله ما يحير الألباب، وهذه هي دقة الصنعة وجمال الخلق. وهذا هو مذهب الفلاسفة الذين يرون كل شيء جميلاً ...

أما الجمال الذي يجذب القلب ويأسر الفؤاد، فأين تجده - يا سيدي - في الدودة وفي الذبابة وفي... وفي... مما تشمئز النفس ويعافه الذوق وهي في تمام التكوين وبراعة الخلقة

وإذا كان بيت العقاد هو على مذهب الفلاسفة - كما يقول الأستاذ الصعيدي - أعني على مذهب التشريح، فلعل الحبيبة كانت عالماً صغيراً فيه... وفيه... مما ذكره الأستاذ الرافعيُّ - يرحمه الله -

ولا زلت أصر على أن الشعر الفلسفي ليس شعراً إلا على مذهب ألفية ابن مالك

كامل محمود حبيب

وسام فرنسي للأستاذ توفيق الحكيم

منحت الحكومة الفرنسية الأستاذ توفيق الحكيم وسام (أوفيسيه داكاديمي). وقد أوفد المسيو دي فيتاس وزير فرنسا المفوض بمصر مسيو ليبريت لتقديم براءة هذا الوسام إلى الأستاذ الحكيم مع كتاب رقيق فيه النجاح الكبير الذي لقيته ترجمة (شهرزاذ) و (عودة الروح) لدى الجمهور الفرنسي، ونوه بتقديره الشخصي للكتاب الذي يعده من خيرة كتاب مصر البارزين، وشفع ذلك بأصدق تهنئاته

ذلك ما يلقاه أدباؤنا في غير مصر. أما في مصر فقد أرادت وزارة المعارف أن تشتري مقداراً من بعض كتب الأستاذ الحكيم جرياً على عادتها في تشجيع الأدب من هذه الطريق، فطلبت منه تسعين نسخة!! بثمن حددته لا يكاد يبلغ نفقة الطبع، فلم يسعه إلا أن يرفض شاكراً لها حسن نيتها على كل حال!

بين أبي العلاء والخيام

كتب صديقنا الدكتور عبد الوهاب عزام مقالاً تحليلياً فيما بين أبي العلاء وعمر الخيام من

النظر المشترك في بعض وجوه الفكر نشرته الهلال في عددها الخاص بالمعري الذي سيصدر في أول يونيه، ولكن وقع فيه من التقديم والتأخير والتحريف ما أخل بسياقه

وشوه من معانيه، فرأى الأستاذ أن يعيد نشره في عدد الرسالة القادم
مكافحة الأمية
قدم صاحب المعالي وزير المعارف إلى صاحب المقام الرفيع وزير المالية مذكرة عن مكافحة الأمية، عرض فيها للمشروعات المختلفة التي وضعها في هذا الشأن وزراء المعارف السابقون منذ عام 1917 إذ كان صاحب الدولة المغفور له عدلي يكن باشا وزيراً للمعارف إلى عام 1937
وقد ألمعت المذكرة إلى المشروع الذي وضع في العام الماضي يتطلب تنفيذه خمسة وعشرين عاماً، بينما كان مشروع عدلي باشا يتطلب عشر سنوات فقط
وبعد أن بسط معالي الوزير الأسباب الداعية إلى القضاء على الأمية، أخذ يشرح مشروعية الذي وضعه للقضاء عليها في مدى خمس سنوات، وقد قرر فيه أن يبدأ تعميم التعليم الإلزامي في المحافظات وعواصم المديريات والمراكز، فالقرى الكبرى والصغرى فالكفور والعزب
ثم طلب إلى وزارة المالية، فتح اعتماد قدره 150. 006 ج في الميزانية الجديدة. وهي النفقات اللازمة لإنشاء 400 مكتب.
وعلى أثر اعتماد هذا المال، تأخذ وزارة المعارف في فتح هذه المكاتب، للعمل فيها ابتداء من العام الدراسي المقبل.
العدد 257 - بتاريخ: 06 - 06 - 1938
سحر الصحراء
للأستاذ عباس محمود العقاد
السحر هو أن يختار الإنسان الشيء وهو مرغم على اختياره، فهو مزيج من حكم الإرادة ومن حكم القضاء
ليس بسحر أن نختار الشيء ونحن قادرون على تركه
وليس بسحر أن نرغم عليه ولا رغبة لنا فيه
إنما السحر أن ترغب في الشيء حتى نحاول أن نكف عن الرغبة فيه فنعلم يومئذ أننا غير أحرار، وأننا مسحورون أو مأخوذون
وإنما السحر أن نحسب أننا مكرهون على ذلك الشيء وأننا نضجر منه ونتململ ونفرح بالخلاص، حتى إذا أوشكنا أن نخلص منه علمنا أننا نكره الخلاص كما نكره البقاء
وحيثما وجد السحر وجدت الحيرة في أمره. فإذا فتن الرجل بالمرأة وحار الناس سائلين: والله ما ندري ما يفتنه منها فذلك هو السحر
وإذا أقدم الرجل على الخطأ وهو يعلم أنه خطأ ويعلم أنه مدفوع إليه غير مختار في الرجوع عنه، حائر فيما يدفعه إليه كما يحار من حوله في سر اندفاعه، فذلك هو السحر
وقوة السحر أنه هو قوة الإنسان وقوة القضاء مجتمعتين، متحدتين، سائرتين في طريق واحد. فإذا تنازعتا فذلك هو ابتداء الخلاص منه أو ابتداء بطلانه وانحساره، ولو كان لا ينحسر إلا بهلاك المسحور
كذلك سحر الصحراء
تسأل لماذا يسكنها أبناؤها؟ وتسأل لماذا يألفونها وهي جرداء خاوية تلهبهم قيظاً في الصيف وتجمدهم قرة في الشتاء، وتظمئهم وتجيعهم إذا امتنع الغيث وهو كثير الامتناع مجهول المواعيد مكذوب الوعود؟
والصحراء - بعد - ساحرة لأنك تسأل هذا السؤال، فلو أنك استغنيت عن سؤاله وعلمت سبب هيام البدوي بقفاره وجباله لما كان ثمة سحر ولا ساحر، ولا باطن للأمر غير ما فيه من ظاهر، بل هو شيء يجري في مجراه، ولا يلتبس عليك أصله ومغزاه
لماذا يشرب الماء ويأكل التمر ويستجيد الهواء حيث يجود، وينعم بالصيف والشتاء حيث
تتهيأ فيهما النعمة، ويفعل ما ينبغي أن يفعل، ويسأل وهو لا ينبغي أن يسأل لماذا؟ أتسأل لماذا؟ إن هذا لهو العجب الذي يحوجنا إلى استفسار، وليس هو هيام البدوي بالصحراء حين تكون على ما نهواه نحن ويهواه كل إنسان
عرفت الصحراء منذ الطفولة؛ واحسبني ورثت عرفانها في دماء الآباء والجدود؛ وقاربت حدودها وشارفت أعاجيبها وهي مما يظهر على حافتها في بعض الأحايين

فعند ضاحية أسوان خيام يسكنها بعض البجاة، وكان على الجانب الشرقي منها بناء مسوَّر في وسطه فضاء فسيح، وفي وسط الفضاء خيمة يأوي إليها صاحبها ولا يأوي إلى ما بني من حجارة وحجرات، ونحن نحسب أن الإنسان لا يأوي إلى الخيمة إلا لقلة البناء. فها هو ذا رجل يؤثر الخيمة والبناء في وسعه وعلى مقربة منه: هنا بدأت في العجب في أمر الصحراء ونقائض أبناء الصحراء. ثم قرأت أن للصحراء سحراً فحسبت أنني وقعت على السبب وأبطلت العجب، ولم أدر يومئذ أن كلمة (السحر) إنما هي تلخيص الأعاجيب التي لا نفقه أسبابها، وليست هي بتفسيرها ولا بالدليل على إدراكها وتعليلها، ومضيت من ثم في سؤال الصحراء عن مفتاح سرها، وفي علاج الباب الذي أنكره ابن من أبناء الصحراء حيث قال:

ما إن سمعت ولا أراني سامعاً ... أبداً بصحراء عليها باب!

وكل صحراء عليها باب، وعلى بابها مفتاح، وهذا هو المفتاح الذي بحثت عنه فاهتديت بعض الهداية، ونفذت إلى بعض الإغلاق

كل صحراء عاش فيها الرعاة فإنما كان اجدابها على التدريج بعد أزمان طوال تبدلت فيها طبيعة الأرض والجو، فندرة الأمطار بعد كثرة، ويبست المروج بعد نضرة، وقلت الأرزاق بعد وفرة، ثم أجدبت بعد ذلك إلا من قليل زرع هنا وقليل ماء هناك، وأهلها مع هذا قادرون على تعويض ما فقدوه بالإغارة على جيرانهم من سكان الحواضر وأصحاب الأنهار والمزارع، حيث تأصلت عادة المعيشة، وتمكنت طبيعة الترحل، واستقامت البنية على هذه العادات والطبائع فجاءت ضرورة الانتقال بعد استقامة الطبيعة على هذه الأحوال، وفعل سحر الوراثة فعله غير مفطون إليه ولا مقدور على منعه، فكان منه ذلك القيد الذي يربط صاحبه في مكانه برضاه وهواه، ويلوح للناظرين كأنما يربطه هنالك على

غير رضاه ولا هواه

وتنازع أبناء الصحراء حين قلت خيراتها فغلب الأقوياء منهم ضعفاءهم على جانب الخصب والري والرخاء، وتراجع الآخرون إلى جانب القفر كارهين حتى ألفوه طائعين، فذلك مع الوراثة هو السحر الذي يمتزج فيه الإكراه بالاختيار

على أن الوراثة - أو الألفة - عقدة واحدة من عقد السحر الكثيرة في كل صحراء، ولا سيما الصحراء التي هي أوفى إلى الجدب والخلاء، فمن عقدها ما يشبه التنويم المغناطيسي، ومن عقدها ما يشبه الخمر، ومن عقدها ما يشبه الشعوذة ولعب الحواة؛ وهذه عقد قلما يجمعها سحر واحد في نسق، فإذا اجتمعت فأخلق بفعلها أن يطغي على صواب العقول

ينام الإنسان النوم المعروف بالمغناطيسي إذا أتأر نظره إلى الشيء الواحد لا يتحول الشيء عن مكانه ولا هو يتحول عنه بنظره. وتنقضي هنيهات على ذلك فيخدر الحس وتشتمل عليه حالة من حالات الغيبوبة، وتنقاد الواعية لذلك الذي نومها هذا التنويم انقياد المعبود للعابد أو المفتون للفاتن، ملكها وملأها فلا مشيئة لها معه ولا فراغ لها من وحيه وسلطانه

فماذا تصنع الصحراء بالذي يدمن النظر إليها إلا أن تنومه هذا التنويم وتشمله بمثل تلك الفتنة وتقوده بمثل ذلك القياد!

أنه لينظر إلى مائة شيء فيها فإذا هو ينظر إلى شيء واحد لتشابه المناظر وتقارب الألوان والهيئات؛ وأنه لينتقل ميلاً بعد ميل وساعة بعد ساعة وكأنه قائم في موضعه لا يتزحزح منه قيد خطوة، لأن العبرة بما يقع في الواعية لا بما تقع عليه الأقدام، وأن النائم لينام بعد هنيهات قليلة فكيف يكون الحال بمن تنقضي عليه في تلك النظرة أعوام، ومن تنقضي على آبائه وأجداده في تعاقب تلك الفتنة أجيال؟؟

تلك هي العقدة المغناطيسية في سحر الصحراء

أما عقدتها التي تشبه الخمر فما هي الخمر إن لم تكن نشوة الطلاقة وعزة الإفلات من القيود، وتوهم القدرة على كل مطلب في غير حذر من رادع ولا مبالاة بملام؟ تلك الطلاقة هي سكرة الآفاق الواسعة أو سكرة الصحراء التي لا تقوم فيها الحواجز، ولا تصطدم فيها الحدود، ولا يشعر فيها المرء بين الأرض المديدة والسماء الرفيعة بطغيان

مخلوق أو خضوع متهور
!!ثم شعوذة الحواة وحسبك منها السراب
مضينا في السيارة من الضحى إلى الغروب ثماني ساعات بين مرسى مطروح وسيوة فلم يغب قط عن أبصارنا منظر هذا السراب بعلو ويهبط، ويبدو ويختفي، ويتراءى حتى لا شك في صدقه، ويتوارى حتى لا شك في كذبه وزوره
!السراب السراب!! ما أشبه الحقيقة فيه بالكذاب، وما أولاه منا بالعجب العجاب
لقد عدنا وعلى الأفق غاشية من سحاب رقيق فلم نر سراباً في طول الطريق
فقلنا لبعض أصحابنا في السفر: أرأيت كيف يكون النور سبيل الضلال في بعض الأحايين؟ ترجم هذا لأعداء الحديث من الشعر وقل لهم: إن الذي يتحدث عن (ضلال النور) لا يتحدث بالأحاجي والألغاز، ولا يقول إلا ما تبصره العين فكيف بالضمير وكيف بالخيال؟ وقل لهم إنهم لا يفهمون الصحراء وهم يعيشون منها بين ذكريات النوق والوهاد، وأساطير الأفراس والجياد. وقل لهم بالإيجاز أنهم لا يفهمون!
سراب الصحراء، هذه المشعوذة البارعة
وخمر الصحراء، هذه المشعشعة الصارعة
وغيبوبة الصحراء، هذه المنومة الفارعة
وعراقة الصحراء هذه القديمة في الآناء، القديمة في الآماد والأجواء، القديمة في العروق والدماء
!ذلك هو سحر الصحراء
عباس محمود العقاد
بين الشرق والغرب
للأستاذ فليكس فارس
إذا لم تكن لنا قدرة على خلق حضارة شرقية فلنفعل على)
الأقل ما فعلت تركيا وننخرط بكل بساطة في سلك الأمم
(الأوربية
(توفيق الحكيم)
هذه كلمة جمعت خلاصة المقال الذي نشره في الأهرام تحت عنوان (هل يوجد اليوم شرق؟) كاتب مفكر له ثقافته الواسعة وعلمه العميق. وقد أعجبت بالمقال وما يعرض من الاعتبارات على المفكرين وشكرت لكاتبه صراحته ودعوته إلى الصراحة في موقف يتحتم فيه على الشرق العربي أن يختط له سبيلاً سوياً في ثقافته وحضارته
إن الأستاذ توفيق الحكيم لا يجهل أننا إذا عجزنا عن خلق الحضارة الشرقية وعن أحيائها بتعبير أصح فإن انخراطنا في سلك الأمم الأوربية لا يوصلنا إلى الهدف الذي تتجه إليه الأمة التركية ولما تصل إليه. فإن بين الفطرة التركية والفطرة العربية من الفروق ما لا يصح معه أن يتخذ العرب الترك قدوة. لذلك، لا احسبني مخطئاً إذا ذهبت إلى أن الأستاذ الحكيم لم يخير العرب بين حضارتين، إلا ليثبت لهم أن في أعماق قلوبهم شرقاً لا حياة لهم إلا بالاتجاه إليه واستجلائه وراء ظلمات الأحقاب
كنت أخذت القلم لأجول جولة بين نظريات الروسي والمصري اللذين دفعهما الأستاذ الحكيم إلى حوار خطير بين الشرق والغرب، ولكنني تذكرت أنني كنت ناظرت صديقي الدكتور إسماعيل أدهم منذ أشهر في حفلة حافلة في جمعية الشبان المسيحيين في الإسكندرية وكانت الوجهة الإيجابية من الموضوع (من الخير لمصر أن تأخذ بالحضارة الغربية) فرأيت أن آخذ من ردي على المناظر ما له صلة وثيقة بالمسألة التي أثارها مؤخراً الأستاذ الحكيم
بدأت في الرد بالتفريق بين الثقافة والعلم، فقلت إن العلم مشاع لكل الأمم ولكل الأفراد فهم يتفقون فيه على ما بينهم من اختلاف بعيد في نظريات الحياة في حين أن الثقافة مستقرة في الشعور فهي (دماغ في قلب) ولا قانون لها لأنها راسخة في الفطرة، والفطرة في الفرد
كما هي في الأمم ميزة خاصة في الذوق واستعداد خاص لفهم الحياة والتمتع بها. فإذا كان العقل رائداً لبلوغ الحاجة، فليست الفطرة إلا القوة الممتعة للإنسان بتلك الحاجة بعد الظفر بها؛ وكما أن لكل فرد ثقافته التي تتجلى فطرته فيها، هكذا لكل أمة ثقافتها المستقرة في فطرتها. فلا ريب إذاً في أن سعادة الفرد والمجموع وشقاء كل منهما

يتوقفان على ملاءمة الحياة أو عدم ملاءمتها لما فطرا عليه. وسواء أكان المرء مخيراً أم مسيراً في إرادته وأعماله فإنه على الحالين غير مخير في ذوقه في الحياة وفي لذته وألمه منها. فكل فرد خالفت طريقة حياته ما استقر من الحوافز في فطرته يفقد الشعور التام بتلك الحياة ويتعرض للسقوط في المعترك. وهكذا الأمم إذا خدعت نفسها وسارت في حياتها على ما يؤلم فطرتها فأنها تفقد قوت الارتقاء بذاتها فتميت شخصيتها دون أن تتدفق إلى الانبعاث في شخصية تستعيرها من سواها

وبعد أن وضعت هذا الحد بين الثقافة والعلم توجهت إلى تحليل عناصر الحضارة في الشعوب فقلت إن الخلاف الذي ينشأ بين باحثي مسألة الشرق والغرب إنما ينشأ من عدم التفريق بين المدنية الآلية الأدبية. فعندما يقوم أنصار الاتجاه إلى مدنية الغرب بدعوة عامة إلى (التفرنج) يثور عليهم أنصار الحضارة العربية مسفهين رأيهم داعين إلى مقاومة هذه الحضارة على وجه التعميم أيضاً. وهكذا يقع الفريقان في خطأ، لأن كل منهما يؤاخذ الآخر بتطرف يرتكبه هو. ولو أنهما ميزا بين الحضارة الآلية المبنية على العلم وبين الحضارة الأدبية المبنية على الفطرة التي كونتها السلالة والإقليم وتسلسل حوادث التاريخ لتوصلا إلى حل الخلاف!

بعد أن مهدت للرد على مناظري بهذه المقدمة وفصلت فيها فصلاً تاماً بين الحضارة الآلية والحضارة الذهنية، تناولت نظرياته متتالية واتجهت إلى تفنيدها. وهذه خلاصة من الرد أعرضها لبحث من يقدرون خطورة هذه المسألة بعد هذه المقدمة التي حددت فيها الثقافة ووضعت بينهما وبين العلم الوضعي ما أراه من فروق لا أخال مناظري معترضاً عليها أتناول بحثه في موضوع المناظرة سائراً على السبيل الذي أدى به إلى الاعتقاد بأفضلية الثقافة الغربية على الثقافة الشرقية العربية

وأول عبارة أراه يذهب منها إلى الاختلاف معي هي قوله:

إن للشرق روحه الذي يستوحيه أبناؤه نزولاً على فطرتهم، وللغرب منطقه الذي) (يستنير به أفراده نزولاً على وحي مشاعرهم

فمناظري إذاً يبدأ بحصر المنطق في الغرب منكراً على مصر وسائر الأقطار العربية أساس العلم، والعلم كما سبق أن أوضحت في تحديده تجاه الثقافة، إنما هو مشاع بين كل؛ الأمم وما اخترع الغرب المنطق ولا هو أوجد التفكير العلمي لنعترف له بثقافة قوامها التفكير ينفرد بها بين ما على الأرض من شعوب

ثم يجيء مناظري بعد ذلك إلى تحديد الثقافة المصرية فيقول: إن الحياة العلمية التي يحياها المصري الآن تجري على غرار ما كان يحياه أسلافه الفراعنة

وأنا لا أرى في حياة المصريين اليوم أثراً من الحضارة الفرعونية، لا في الحياة العلمية ولا في الحياة الأدبية، كما لا أرى شيئاً من حضارة الفينيقيين في حضارة أهل سوريا ولبنان، وما تبقى من هذه الحضارات المستغرقة في القدم إلا أهرام ومعابد وأعمدة وقصور وقبور

ولكنني لا أجد بداً من الاعتراف ببقاء رواسم للفطرة القديمة في سرائر أبناء هذا العصر على ضفتي البحر الأبيض يتجلى فيها كثير من الصفات النفسية والجسمية التي اتصف بها أجدادهم الأقدمون

غير أن الثقافة التي يدور البحث عليها في هذه المناظرة إنما هي العوامل التي تتوحد في أي مجتمع، وتتماثل في سريرة كل فرد من ذلك المجتمع؛ وهذه العوامل هي التي تقوم عليها الحضارات المختلفة بين الشعوب. ولا أرى داعياً للسير إلى أبعد من هذا التحديد بعد أن رأيت مناظري الكريم يأخذ بمثله ويقف في بحثه عند الثقافة الشرقية العربية دون تناول ثقافة الشرق الأقصى، فهو إنما يقصد الثقافة السامية العربية عندما يقول بوجوب تلقيح (الذهنية) المصرية بثقافة غربية تبعث فيها النشاط وتدفع بالأمة إلى الحياة

أما السبب الذي يراه المناظر موجباً لهذا الانحراف إلى ثقافة الغرب فقائم على اعتقاده بأن الثقافة العربية ذاتية تدفع بالإنسان إلى الذهاب مع الخيال، فردية تذهب بالفرد إلى الانعزال عن المجتمع، في أنه حين يرى ثقافة الغرب أو (ذهنيته) تستجلي حقائق الحياة بالتفكير الفلسفي والبحث العلمي

وهنا نقطة الخلاف في بحثنا

إن مناظري يقول بكل جلاء إن المدنية الغربية مستمدة من الثقافة الآرية العلمية، في

حين أن الشرق العربي يتوه ذاهباً وراء خياله
إذا صحت هذه المقدمة فللمناظر ملء الحق بدعوة مصر إلى الانسلاخ عن شرقيتها وعروبتها للأخذ بالعبقرية الآرية التي يراها مبعث العلم الصحيح ومنشأ التفكير النير المصيب، ولكن الأمر ليس كذلك، وإليكم البرهان أسنده أولاً إلى حقيقة نطق بها مناظري وأغفل الاسترشاد بها؛ فهو يقول إن عصرنا عصر العلم، ولقد بدأ ذلك العصر بثورة نفر من رجال القرن السادس عشر على العقلية القديمة التي تبحث عن علل الأشياء الأولى فسيروا سنن الطبيعة وأقاموا عليها المدنية الغربية مستمدة من الذهنية الآرية
إذاً إن أصحابنا الآريين كانوا يغطون في نومهم، ولم تزل تراود أحلامهم الآلهة التي خلقتها عقلية التعاون فيهم فبلغ عدد هؤلاء الآلهة الثمانية آلاف في الأساطير التي يراها المناظر غنية بالرموز والفن، وما هي في نظر الشرقي العربي إلا دلالة فقر مدقع في التفكير وجموح في خيال لم يدرك شيئاً من الوحدة التي تقوم حقائق الأشياء عليها وفي هذه الأثناء كانت الحضارة العربية تحتضن العلوم القديمة وهي ممثلة بأرسطو في الاستقراء، وبأفلاطون في القياسات العقلية. وما كانت هذه العلوم في ذلك العصر إلا في طور التدرج الأولى فاستولى عليها التفكير العربي لا ليدفعها إلى الارتقاء فحسب بل ليستنبط ويعدل ويوجد. ومما يجدر ذكره هو أن العرب حين اقتبسوا من تراث اليونان ما يعززون به تفكيرهم العلمي لم تستهوهم الثقافة اليونانية ولا حضارتهم الأدبية إذ أحسوا بما بين الحضارة التي كانت تتمخض في شعورهم وتقديرهم للحياة وبين حضارة اليونان الاجتماعية من مهاو سحيقة فأعرضوا عن شعرهم وموسيقاهم ونظم اجتماعهم؛ لذلك لا تجد في شعر العرب شيئاً من إبهام بيندار وأوريبيد وهوميروس، وهذا الأخير بقي مجهولاً حتى ترجمه البستاني في أوائل هذا القرن فقد برز العرب من تقدمهم في علوم الآلات وتوازن السوائل ونظريات الضوء والإبصار والهندسة وعلم الهيئة فوضعوا علم الكيمياء واكتشفوا أجهزة للتقطير وأوجدوا الإسطرلاب ووضعوا جداول الأوزان النوعية والأزياج الفلكية؛ وهم واضعوا علم الجبر والأرقام. وما
كاد ينقضي القرن الثامن الميلادي حتى كان هرون الرشيد يسير شوطاً بعيداً في مضمار الرقي ليسلم إلى المأمون سنة 813 المدينة التي أصبحت عاصمة العلم الكبرى في ذلك الزمان.
ويذكر التاريخ أن هرون الرشيد كان أرسل إلى شارلمان ساعة تدل على الزمان بحركة من الشريط المربوط فأفزعت حركتها هذا الملك حتى أمر بكسرها.
أنعيد إلى الذكر ما أحيا من العلوم الفلسفية والعملية العباسيون في آسيا والفاطميون في مصر والأمويون في أسبانيا؟
أبعد هذا يصح لقائل أن يقول أن رسالة الشرق روح وشعور فقط وأن رسالة الغرب عقل ومنطق؟
إن مناظري قد ضيق عدسة منظاره وحدق على مجال من الزمان لا يزيد على قرن ونصف قرن متطلعاً إلى الرقي العلمي في طوره الأخير، فخيل له أن الغرب قد أوجدوا وأبدع وأكمل بعقليته الآرية، ثم التفت إلى الشرق العربي وهو خارج محطماً من عبودية نيف وأربعة قرون، فحسب أن السامية العربية هي ما لمحه من عدسة منظاره.
ولقد شاء المناظر الكريم أن يقدم برهاناً على أن الحياة تقوم في العالم كله على أساس غربي ومنطق غربي فقال: أن هناك تجربة نجحت إذ كانت الدولة العثمانية تمتد حتى الدانوب وتعيش على غرار شرقي فكانت منبعثاً للفساد في العالم، فلما استقطعت عنها المجر ورومانيا والبلغار واليوغسلاف فأخذوا بمدنية الغرب تقدموا. . .
ونحن نجيب على هذا موافقين المناظر على قوله فأن الدولة العثمانية التي (عاشت على غرار شرقي) إنما كانت آرية في روحها وما تسنى لها طوال حكمها الذي سحب أذياله قروناً أن تدغم فيها العنصر العربي السامي أو تندغم فيه فارتفعت عليه ولم تتمكن من الارتفاع به بالرغم من اعتناقها دينه المبين. . .
وليت الدولة العثمانية بعد أن بنت سلطانها على السطوة عرفت أن تحتفظ به بالعمل على ترقية الشعوب المستظلة بعلمها. ليتها لم تكتف بالمظاهر معرضة عن الصفات

العليا التي أنار الخلفاء الأقدمون بها وجه الأرض وأقاموا عليها أروع حضارة عرفها التاريخ؛ إذن لما كانت الشعوب التي ذكرها المناظر لتتنفس الصعداء بزوال كابوس الدولة العثمانية عنها،

وما كان اليونان والبلغار وسواهم مرهقين متقهقرين لاتخاذهم الثقافة العربية فأنهم ما عرفوها وما عملوا بها بل كان موقفهم شبيهاً بموقف بلاد العرب تجاه دولة بينها وبين العدد الأوفر من رعاياها مهاو وأغوار. تلك حقائق لم تخف على الداهية أتاتورك فأنه عرف ما هي فطرة الشعب التركي وما هي الحالة الاجتماعية التي تتفق وما كمن في حوافزه. ويعلم المفكرون ما رمى إليه هذا المصلح لدولته من إضعاف كل عنصر لا يجاري روحها حتى أنه ناصب العداء الحروف والألفاظ العربية التي كانت اللغة التركية في عراك مستمر معها

أما ما يقوله المناظر عن أن اليابان نهضت بالمدنية الغربية بعد أن أعرضت عن منطق الحياة الشرقية، ففيه حقيقة كبرى تقوم برهاناً على خطأ نظريته. فأن اليابان لم تزل متمسكة بثقافتها كل التمسك وفي ذلك سر ارتقائها، فهي لم تأخذ من الغرب إلا الآلة والآلة فقط، وما الآلة إلا نتاج العلم العملي الوضعي الذي رافق الإنسانية منذ اكتشفت أول مكتشف شرارة النار في كهفه واتخذ في الصوان في العصر الحجري أوائل الآلات للحرث والقطع، وقد مر العلم على أدمغة جميع الشعوب على ممر الأجيال فليس للهندسة والكيمياء وعلوم الأحياء وسواها أي طابع قومي. ولو كان يصح أن تسند هذه العلوم إلى قوم دون سواهم لكان لنا أن نطالب بأن يطبع على كل آلة وجهاز اسم علم من أعلام العرب، إذ لولاهم لما كانت الحلقة الكبرى التي وصلت بين سلسلتي الماضي والحاضر، ولكانت أوربا لم تزل أوروبا القبائل الغارقة في بحر الظلمات

البقية في العدد القادم

فليكس فارس

فلسفة التربية

تطبيقات على التربية في مصر

للأستاذ محمد حسن ظاظا

- 19 -

(وثقافة الإنسان لا تقدر بمقدار ما قرأ من الكتب وما . . .
تعلم من العلوم والآداب، ولكن بمقدار ما أفاده العلم، وبمقدار
علو المستوى الذي يشرف منه على العالم، وبمقدار ما أوحت
إليه الفنون من سمو في الشعور وتذوق للجمال!
(أحمد أمين)

(للرجل المثقف جسم خاضع لإرادته، وعقل صاف متئد القوى سهل العمل مليء بما في الطبيعة من حق عظيم وقوانين كلية، هذا إلى امتلاء بالحياة المنسجمة الخادمة لضميره الحي، وإلى حب للجمال وكره للقبح، وإلى احترام للنفس وللناس، وإلى وفاق تام مع الطبيعة يفيدها فيه ويستفيد منها، ويسير معها كوزيرها أو ترجمانها وهي كأمه الحنون!)
(هكسلي)

خريج اليوم - 9

عرضت عليك في المقال السابق صورة لعقلية خريج اليوم وما فيها من ضيق ونقص وجمود والتواء. وأحب اليوم أن أعرض عليك صورة أخرى لعاطفته بنواحيها الدينية والذوقية والخلقية لتتبين أنها مشوبة كذلك بألوان كثيرة من الشذوذ والانحراف

العاطفة - 1

وأحسب أنك تعلم جدارة العاطفة في حياة الإنسان، وأنها تلي (العقل) مباشرة في الخطورة والأهمية، وأن الحياة بدونها صحراء لا ماء فيها ولا شجر؛ ولذلك نراهم يحرصون في

الغرب على صقلها وتهذيبها وتهيئتها لأن تكون خير سند للعقل السليم والخلق القويم والذوق الجميل، وخير معين يروي ظمأ الحياة ويسمو بها فوق الأدران والشهوات، ويجعل نصيبها من الإنسانية الرفيعة موفور القدر عظيم الدرجات!. فهيا إذاً نتحسس أثر (العاطفة) في خريجينا لنرى إلى أي حد قد نجحت مدارسنا في تكوين هذه الناحية

الخطيرة من نواحي التربية والتعليم
الدين (أ)
والدين كما تعلم من أقوى مظاهر العاطفة، ومن أبعدها أثراً في خلق الجماعة والفرد، ومن أعظمها قدراً في تقدم الأمم وتأخرها. ولذلك قد عنيت الحكومات بنشره وتلقينه ودراسته واهتمت بجعله جزءاً أساسيا في برامج التعليم الديني والمدني كيما يخرج النشء متمسكاً بدينه عارفاً لربه عاملاً بفضائل الكتب الدينية وأوامرها. ولكنك حين تبحث عن هذه الناحية في مدارسنا وخريجينا ترى عجباً. فالدين في المدارس المدنية ضئيل القدر سطحي النظرة، لا شأن له في نجاح التلميذ أو رسوبه، والفروض الدينية من صوم وصلاة وإحسان مهملة إلى حد بعيد مع خطورة أثرها في حياة المتخرج الحاضرة والمستقبلة،؛ ولذلك لا تعجب إذا رأيت الكثيرين من أولئك المثقفين لا يعرفون صوماً ولا صلاة ولا زكاة ولا إحساناً! ولا يدركون من دينهم إلا ألفاظاً وقشوراً، ولا يحملون له من العاطفة إلا ما لا ينفع في كثير ولا قليل. ولا تعجب كذلك إذا وجدت بين المصلين من يصلي دون أن تنهاه صلاته عن الفحشاء والمنكر، ودون أن تصده عن الكذب والرياء والتملق والادعاء مما تزدحم به حياة الدواوين وغير الدواوين على السواء!. ثم لا تجزع بعد هذا إذا تلمست الصبر والثقة بالله والاتكال والاحتمال في خريجينا دون أن تجد منها إلا أشباحاً متضائلة وصوراً متزايلة. وإذا تساءلت عن الزواج فسمعت من يقول لك ما ضرورته وما جدواه والأزمة شديدة والنساء كثيرات!! نعم لا تجزع يا عزيزي ولا تعجب فتلك جميعاً صدى لهذه التربية المدنية التي تغفل الدين وتهتم بالحشرات . . .!
أما الدين في المعاهد الدينية فأحسن حالاً وأقوم سبيلاً. ولكنك إذا شئت أن تتلمس فيه نقصاً فستجد وا أسفاه شيئاً كثيراً؛ ذلك أن خريج هذه المعاهد ما يزال مشوباً بضيق الأفق في تفكيره وتعصبه ونظرته للحياة الحديثة إلى حد هو الجمود أو ما يشبه الجمود! وما بالك بصديق لي منهم دعوته إلى رؤية قطعة من الأدب الحديث على مسرح الأوبرا أو مشهد من مشاهد التاريخ على الستار الفضي فكان جوابه أن في القرآن ما يغنيه عن رؤية كل ما في دور التمثيل والسينما؟؟ وما بالك بأئمة المساجد في القرى يتلون على الناس خطباً منبرية لا يهبطون فيها إلى مستوى عقلهم إلا فيما شذ وندر؟؟ وما بالك بتلك الروح روح التعصب الديني - ينفثها رجال الدين في الصدور فتقيم بين أبناء الوطن الواحد حاجزاً من الكراهية وعدم الثقة والمقت والازدراء؟ وأخيراً ما بالك بذلك الصدر الضيق لا يتسع للنقد ولا للاجتهاد، وبتلك البدع الدينية الكثيرة التي ليست من الدين في شيء، وبهذه وتلك مما تعرفه أنت وتعلم أنه يغضب الله والرسول؟؟
تلك يا عزيزي نتيجة التعليم الديني في معاهدنا قد عرضتها عليك في شيء من الجرأة والحياء فهلا ترى أنها نتيجة أليمة تحتاج إلى التعديل السريع ما دام الأمر لا يقتصر هنا على علاقة المرء بربه، بل يمتد ويمتد إلى صلة الأفراد ببعضهم وإلى رقي الدولة وانحطاطها؟؟
الأخلاق المدنية (ب)
والأخلاق مظهر قوي للعاطفة؛ فإذا هي فقدت منبعها الديني فماذا يتبقى لها غير الضمير الشخصي والاجتماعي؟؟ لنبحث إذاً في أخلاق الخريجين الموظفين منهم وغير الموظفين فسنجد كذلك عجباً. كم منهم من (يشعر بواجبه) شعوراً حقيقياً وينطلق إلى أداء هذا الواجب بإخلاص تام وهمة عالية؟؟ وكم منهم قد وضع لنفسه (مثلا أعلى) فهو يسعى لتحقيقه، ويصدر عنه في جميع أفعاله، ويتحمل الآلام في سبيل الذود عنه، ويعمل على نشره بين أهله وذويه متخذاً لنفسه في حياته رسالة شريفة يحيا من أجلها ويموت؟! الحق أنا مصابون في هذه الناحية بأخبث الأمراض وأشنعها وأكثرها دماراً ووبالاً. وحسبك أن تنظر في قوائم الإهمال والتقصير، والتزوير والتدليس، والتلاعب والاختلاس، والأقارب والأصهار، حتى يقف شعر رأسك فزعاً ورعباً من تلك الفوضى الخلقية التي تسيطر على رجالنا وتسير بسفينتهم إلى بحر الظلمات!! ألا يختلس المختلسون آلاف الجنيهات من مال الدولة الحرام؟ ألا ينحط الخلاف السياسي إلى جرائم الإفك والزور والكذب والاحتيال؟ ألا تباع الضمائر والأقلام في سوق المال بيع الأغنام؟؟ ألا ترتفع الشكوى لأولي الشأن دون أن يسمع سامع

ويستجيب مستجيب؟ ألا يتخذ الأجانب من بعض رجالنا سواعد لهم في الحكومة والشعب على السواء؟؟ ألا يصبح الرجل الحق أحياناً كاليتيم في مأدبة اللئام؟؟ ألا يميل ميزان العدل مراراً فإذا العدل ظلم والظلم عدل؟ أليس في المعلمين والأطباء والمحامين وغيرهم من يؤدي عمله أداء ناقصاً مشوهاً لا يعدل مطلقاً ما يتناول عليه من أجر؟ أليس في الموظفين من يكتم صوته ويطأطأ رأسه ويلوذ بالصمت الحقير إذا شعر أنه مهدد بمجرد النقل إلى بلد قريب فضلاً عن الخصم الحرمان؟؟ ثم ألا تذهب صيحات المصلين عندنا كصرخة في واد؟ ألا يعف شيوخ رجالنا عن كل جديد يأتي من ناحية الشبان؟ ألا تنمحي شخصيتنا المصرية في رجال الثقافة المدنية محواً أليماً؟ ألا نقلد الغرب في كل تافه حقير؟ ألا نترك صناعتنا المصرية تنتحر من أجل المظهر اللائق والبهرج المرذول؟؟ ألا يصمت الثائر منا ويمحو شخصيته ويندمج في التيار العام وكله يأس وعجز وأسى وقنوط؟؟

ذلك طرف من خلق كثير من الخريجين فهل تراه يرضيك؟ وإذا كان كل خريج زعيماً للشعب في دائرته فهل ترى للشعب زعماء صالحين؟؟ وحسبك اليوم ذلك وإلى اللقاء حيث أحدثك عن ناحية الذوق أيضاً

(يتبع)

محمد حسن ظاظا

محمد إقبال

شاعر الإسلام وفيلسوفه

للدكتور عبد الوهاب عزام

بقية ما نشر في العدد الماضي

ومن كلامه في (نقش فرنك) وهو القسم الرابع من (ييام مشرق):

جمعية الأقوام

يريد المرزوءون أن يسنوا سنة جديدة ليمحوا آية الحرب من هذا المحفل العتيق فما عرف قبل اليوم أن جماعة من سراق الأكفان ألفوا جماعة لتقسيم القبور نيتشه

خفق قلبه لضعف عناصر الإنسان، وخلق فكره الحكيم صورة أحكم وأمتن، فأثار بين الفرنج هياجاً بعد هياج: مجنون ولج مصانع الزجاج

إذا بغيت نغمة ففر منه، فليس في نايه إلا قصف الرعد. قد دفع مبضعه في قلب الغرب واحمرت يده من دم الصليب. هذا الذي بنى معبداً للصنم على قواعد الحرم، قد آمن قلبه وكفر دماغه

جلال الدين الرومي وهيجل

كنت ليلة أحاول أن أحل عقد الحكيم الألماني. ذلك الذي خلع فكره على الأبدي كسوة الآني، والذي أخجل العالم إذ ضاق عن سعة خياله. فلما نزلت في بحره صارت سفينة العقل طوفاناً، ثم سحرني النوم فأغمضت عيني عن الفاني والباقي، وازداد شوقي وقدة فتجلى لي وجه الشبح الإلهي: الشمس التي أضاءت آفاق الشام والروم، والذي وضع شعلته مصباح هدى في هذه الدنيا المظلمة، الذي تنمو المعاني من كلماته كما تنمو شقائق النعمان

قال لي كيف تنام. استيقظ، إنك تجري سفينة في سراب. إنك تجتاز طريق الفسق بالعقل. إنك تبحث عن الشمس بمصباح

وأما أسرار خودي ورموز بن خودي: أي أسرار الذاتية ورموز اللاذاتية (أو أسرار الأنانية ورموز الإيثار)، فهما المنظومتان اللتان شرح فيهما آراءه شرحاً مرتباً وجعل للبحث خطة واضحة

بين في الكتاب الأول قوة الذاتية وضرورتها في الحياة، ودعا إليها: هذه الحياة جهاد مستمر، والرجل الحي حقاً هو الذي يوقظ كل قواه، ويستخرج كل ما في فطرته، ويتأهب بمواهبه وأدواته للجهاد. السكون موت، والتقليد فناء، والحركة حياة، والاستقلال وجود. . . الخ

وبين في رموز بن خودي كيف تلتئم هذه الفردية القوية الكاملة في الجماعة، وكيف تقوى الجماعة وتضعف، وكيف تصلح وتفسد، وكيف تهتدي وتضل:

يشرح في أسرار الذاتية بعد المقدمة موضوعات منها:

أصل نظام العالم من الذاتية، وتسلسل حياة أعيان الوجود موقوف على استحكام الذاتية
حياة الذاتية من تخليق المقاصد وتوليدها
الذاتية تستحكم من العشق والمحبة
تضعف بالسؤال)
إذا استحكمت تسخر قوى المعالم الظاهرة والخفية)
ففي الذاتية من اختراع الأقوام المغلوبة ليضعفوا من طريق خفي أخلاق الأقوام الغالبة
أفلاطون الذي أثر في التصوف والآداب الإسلامية ذهب مذهب الخروفية، والاحتراز من أفكاره واجب
ثم بين أن تربية الذاتية لها ثلاث مراحل: الأولى الطاعة، والثانية ضبط النفس، والثالثة النيابة
الإلهية
في المقطوعات الثانية يتكلم في مثل هذه الموضوعات:
الأمة تظهر من اختلاط الأفراد، وكمال تربيتها من النبوة.
أركان الأمة الإسلامية - الركن الأول التوحيد - اليأس والحزن والخوف أمهات الشرور، والتوحيد يزيل هذه الأمراض الخبيثة. الركن الثاني الرسالة - المقصود من الرسالة المحمدية تأسيس الحرية والمساواة والأخوة بين بني آدم - الأمة المحمدية مؤسسة علم
التوحيد والرسالة فليس لها حدود مكانية. الأمة المحمدية ليس لها نهاية زمانية أيضاً -
حياة الأمة تحتاج إلى مركز محسوس، وهو للمسلمين البيت الحرام
خلاصة معنى الكتاب وتفسير سورة الإخلاص
وهذه أمثلة من أسرار خودي:
نهر الكنج وهملايا
قال نهر الكنج يوماً لجبل همالايا وهو يجري في سطحه! أيها المتوج بالبرد من فجر الخليقة والمنتطق بالأنهار الجارية، جعلك الله نجى السماء، ولكن حرمك التبختر في العراء، ما غناء الرقاد والرسوخ والرفعة، وقد سلبت الحياة والحركة؟ الحياة سعي دائم كالموج: وجوده حركته الدائمة. فلما سمع الجبل تعبير النهر أرسل أنفاسه بحراً من نار وقال: يا من اتخذت صفحة مرآتي وأكننت مئات من مثاله في صدري. هذا التبختر زينة الفناء! من ذهب عن نفسه فقد حرم البقاء. قد غفلت عن مقامك وفخرت بزوالك يا وليد الفلك الرفيع؛ إن خيراً منك الساحل الوضيع. قدمت نفسك قرباناً للمحيط، ونثرت روحك لقاطع الطريق. كن في بستانك ورداً ولا تذهب وراء القاطف لتنشر عبيرك. إن الحياة أن تنمو في مكانك، وأن تنشر العبير في بستانك
خلت القرون وأنا في طينتي ثابت القدم، وتحسبني إلى الغاية لم أتقدم؛ كلا قد عظمت حتى بلغت السماء، واستراحت على سفحي الجوزاء. ضل وجودك في البحر الخضم. وصارت ذروتي مسجد الأنجم. عيني بأسرار الفلك بصيرة، وأذني بطيرانه خبيرة. احترقت بنار السعي الدائم فجمعت في صدري الجواهر (في صدري حجارة، وفي الحجارة النار، وليس للماء إلى هذه النار سبيل) إن كنت قطرة فلا ترق نفسك بيدك، بل جاهد اللجة وحارب اليم لحياتك. كن جوهرا لألاء، يزيد جيد الحسناء ضياء، أو اسم بنفسك وأسرع المطار، وكن سحابا يرمي البروق ويمطر البحار، ليستجدي البحر إحسانك ويشكو ضيقه عن إنعامك ويرى نفسه أقل من موجة لديك، ويرتمي على قدميك
قصة الطائر الذي أنهكه العطش
بلغ العطش من طائر جهده فاضطرب نفسه موجة من الدخان في صدره، فأبصر في بستان
شذرة من الماس الوضاء، فخيل إليه العطش أنها ماء، وخدعت الطائر المجهود هذه الشذرة المتلألئة كالشمس فتوهم الحجر الصلب ماء سائلاً، وغره من هذا الجوهر بريقه فضرب بمنقاره فلم تنقع غلته. قالت الماسة: أيها الطائر المسحور! لشد ما ضربت بمنقار الغرور! لست قطرة من الماء، ولا مشربة للظماء ليست حياتي من أصل غيري. إن محاولة التقاطي جنون وغرور، وغفلة عن الحياة الذاتية الظهور. إن

مائي يكسر من الطير منقاره، ويصدع من الإنسان جوهر روحه. خاب أمل الطائر فأعرض عن هذه الشذرة الوضاءة، وانقلب الأمل في صدره حسرات، واستحالت أنيناً من النغمات. ثم بصر بقطرة من الطل على فنن من الورد تتلألأ كدمعة في عين البلبل ضياؤها أفناناً في وهج الشمس وهي من خوف الشمس في رعده كوكب ولدته السماء فلبث لمحة في نشوة الظهور والضياء، وخدعته ألوان الأكمام والأزهار فلم يأخذ من الحياة نصيباً كدمعة العاشق العليل، زانت الهدب لتسيل.

ويسرع الطائر إلى فنن الورد فيلتقط قطرة الندي

أيها المبتغي نجاة من الأعداء!! خبرني أجوهر أنت أم قطرة من ماء. ألم تر إلى الطائر حين أذاب العطش مهجته كيف وقي بحياة غير حياته؟ لم تكن القطرة في صلابة الجوهر، ولكن كانت الماسة صلبة المكسر

فلا تغفل عن حفظ الذاتية لمحة، وكن قطعة ماس لا قطرة

كن ناضج الفطرة راسخاً كالجبال وتحمل بحاراً من السحاب الهطال. وجد نفسك تقوي نفسك واستحل فضة بجمود زئبقك. أظهر نغمة الذاتية من أوتارها، وتجل للناس بأسرارها

في الكلام على الوقت

اسمع نكتة تضيء كالدر، لتعرف فرقا ما بين العبد والحر: العبد ضال في الليل والنهار، والزمان في قلب الحر ضال. العبد ينسج من الأيام كفنه ويخيط الليل والنهار على نفسه، والحر يخلع نفسه من الطين ثم ينسج على الزمان محرابه المتين. العبد طائر في شبكة الصباح والمساء، حرمت روحه لذة السبح في الهواء وصدر الحر الهمام، قفص لطائر الأيام. فطرة العبد تحصيل الحاصل، وخواطره تكرار قاتل. مقامه من الجمود واحد، وصوته بالليل والنهار راكد. والحر كل حين خلاق، يسكب نعمه مجددة في الآفاق. فطرته

لا تحتمل التكرار، وليست طريقة خلقة البر كار. العبد سلاسل من أيامه، والقضاء والقدر ورد لسانه، وهمة الحر مثيرة على القضاء قصور يده الحادثات كما تشاء. الماضي والآتي ماثلان لديه، والآجل عاجل بين يديه. . .

نضر الله عهداً كان سيف الزمان، حليف أيدينا على الحدثان، فبذرنا الدين في أرض القلوب، ورفعنا الحجاب عن وجه الحق المحجوب. . .

وحلت عقدة الدنيا أناملنا، ونظر وجه الأرض سجودنا وشربنا الصهباء من دن الحق، ثم سرنا بنشوته بين الخلق، يا من أترعت كأسه الخمر المعتقة، وأذابت كأسه الصهباء المحرمة، وملأه الكبر والغرور، فعيرنا بالفقر والمتربة. لقد كانت كأسنا كذلك زينة المحافل، يوم كنا وصدرنا بالقلب آهل، وثار من غبار أقدامنا عصر حديد، ينجلي بكل أمل بعيد ورويت مزرعة الحق بدمائنا، وسعد عباد الحق ببلائنا، ودوى العالم بتكبيرنا، وعمرت كعبات من ترابنا. وأنزل الحق كلمة (أقرأ) فينا، ثم قسم رزقه بأيدينا. فإن يكن ذهب منا الخاتم والتاج، فلا تحقر ذلك الفقير المحتاج. إن نكن يزعمك مفسدين، وبالأفكار العتيقة مغرمين، فنحن لا نزال الأحرار أنصار التوحيد، قوامين على العالمين والله شهيد

فرغنا من غم اليوم والغد، وحالفنا الله الأحد، فنحن في قلب الحق سر مكنون، ونحن ورثة محمد وموسى وهارون. لا يزال نورنا في الشمس والقمر مصوناً، ولا يزال سحابنا بالبرق مشحوناً

إن ذات المسلم مرآة الحق. وإن وجود المسلم من آيات الحق

هذه أمثلة قليلة من شعر إقبال، ولإقبال من الآراء والفكر والخيالات ما يستعصي على الحصر. ولكن يستطيع دارس شعره أن يقول إن أدبه يتناول العالم كله، وأن فلسفته تقوم على قواعد أبينها القوة - قوة الفرد وقوة الجماعة وقوة الأخلاق - والاستقلال الذي لا يعرف التقاليد، والحرية التي لا تضيقها قيود، والجمال في الأنفس والآفاق ومقصده الأعلى تهذيب الإنسان وخاصة المسلم، يشرح له من حقائق الحياة، ويبين له من مثل الفضيلة، ويكشف له ن أسرار الإسلام ومجد المسلمين الأولين حتى يملأه قوة وحماساً وأملاً وإقداماً، ثم يوجه في معترك الحياة إلى الغاية التي عندها شرف الدنيا والآخرة. وليس يتسع المقام لتفصيل الكلام في فلسفة هذا الرجل العظيم وأدبه. وعسى أن أوفق إلى

الإفاضة في ذلك من بعد: (إن الذي يعرف إقبالاً يعرف مصيبة العالم الإسلامي والأدب البشري بموته)
عبد الوهاب عزام
في اللغة
مجبر ومجبور
لأستاذ جليل
اطلعت عند أحد معارفي من الطراء اللبنانيين في هذه (البحرة) على كراسة ظهرت منذ أسابيع لفاضل كان قد جاء إلى مصر قبل الحرب الكبرى - أعادها الله جذعة - وكتب في مجلات القاهرة وجرائدها برهة، وهو الأستاذ (إدوارد مرقص) من أعضاء المجمع العلمي العربي ومن المشهورين في بر الشام. والكراسة هي في اللغة ونقد كلمات، وقد تصفحت صفحات منها، فوجدته يقول في إحداها: (يقولون إنه مجبور على كذا، والصحيح مجبر عليه أي مكره عليه، والفعل أجبر)
وإن قول القائلين: (إنه مجبور على كذا (لصحيح، والتغليط غالط، فجبر مثل أجبر، وكان ابن قتيبة قال في كتابه (أدب الكتاب): (وتجيء أفعلت مخالفة لفعلت نحو أجبرت فلاناً على الأمر وجبرت العظم) فقال البطليوسي في (الاقتضاب في شرح أدب الكتاب): (قد حكى أبو إسحاق الزجاج وغيره جبرت الرجل على الأمر وأجبرته إذا أكرهته عليه، ومنه قيل للفرقة التي تقول بالإجبار: جبرية، وجبرية لا تكون إلا من جبر)
وفي (القاموس): (وجبره على الأمر كأجبره)
وفي (اللسان)، قال الأزهري: (كان الشافعي يقول: (جبر السلطان) وهو حجازي فصيح. فهما لغتان جيدتان جبرته وأجبرته)
وفي (الفائق): (فقيل: يا رسول الله، أليس الطريق يجمع التاجر وابن السبيل والمستبصر والمجبور، المجبور المجبر على الخروج يقال: جبره على الأمر وأجبره)
فسوى الزمخشري بين اللفظتين ولم يقل أجبر هي أعلى وأكثر
وفي (الملل والنحل) للشهرستاني، - وهذا من مقالة الجهمية - وفيه مجبور: (إن الإنسان ليس يقدر على كل شيء، ولا يوصف بالاستطاعة، وإنما هو مجبور في أفعاله لا قدرة له ولا إرادة ولا اختيار، وإنما يخلق الله الأفعال فيه على حسب ما يخلق في سائر الجمادات وتنسب إليه الأفعال مجازاً كما تنسب إلى الجمادات كما يقال: أثمرت في الشجرة، وجرى الماء، وتحرك الحجر، وطلعت الشمس وغربت، وتغيمت السماء وأمطرت، وأزهرت
(الأرض وأنبتت إلى غير ذلك
فالمرء مجبر، مجبور كل المجبور كما تقول (الجهمية) الجبرية الخالصة. و (الأشعرية والماتريدية) جبرية متوسطة
جبران: جبر في الأرض، وجبر في السماء. فقل لي - يا أخا العرب -: هل يتحرر الإنسان بعد آلاف السنين أو بعد آلا ف من القرون فيعود يقدر أو يريد كما تقول (القدرية)
(الإسكندرية)
(* * *)
بين الرافعي والعقاد
للأستاذ محمود محمد شاكر
- 5 -
(تحرقك النار أن تراها، بله أن تصلاها)
منذ تسعمائة سنة قال الخفاجي حين ذكر البلاغة:
لم أر أقل من العارفين بهذه الصناعة، والمطبوعين على (فهمها) و (نقدها) مع كثرة من (يدعي) ذلك، ويتحلى به، وينتسب إلى أهله، ويماري أصحابه في المجالس، ويجاري أربابه في المحافل. وقد كنت (أظن) أن هذا شيء في مقصور على (زماننا) اليوم، ومعروف في (بلادنا) هذه، حتى وجدت هذا (الداء) قد أعيا أبا القاسم الحسن بن بشر الآمدي، وأبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ قبله وأشكالهما حتى ذكراه في كتبهما، فعلمت أن (العادة به جارية) و (الرزية فيه قديمة). ولما ذكرته رجوت الانتفاع من هذا الكتاب، أملت وقوع الفائدة به، إذ كان (النقص) فيما أبنته شاملاً، (والجهل) به

(عاماً، والعارفون به قرحة الأدهم بالإضافة إلى غيرهم، والنسبة إلى سواهم
ومع ذلك. . . فالأستاذ سيد قطب أحد (الأخصائيين!!) في اللغة التي نعبر بها
عاد الفاضل الأستاذ سيد قطب بحديثه عن الرافعي، ثم عقب عليه بالحديث عني وعما
كتبت في الكلمات السالفة. وكنت عزمت أن أدعه حتى يشفي ذات صدره من
الرافعي ومني؛ وكنت أجمعت الرأي على أمر، ثم هأنذا أتحلل من عزيمتي. . . ومرة
أخرى أقول كما قلت في الكلمة الأولى: إني سأتولج فيما لا أحب. . . لا كرامة للأستاذ
أو استجابة لدعائه بل لميط الأذى حسب. . . بل لميط الأذى حسب
ولقد علم من لم يكن يعلم أني كتبت ما سلف هادئاً لا أهاجم، إلا أن أترفق وأستأني
وأتصبر على كلام ينفد معه صبر الحليم. . . وأنا وإن كنت لا أبالي بشيء مما يصف
الأستاذ الكامل به كلامي فأنا لا زلت أحفظ للقراء عهدهم قبل الكتاب، فلا أدع القارئ
عرضة لرجل يفهم القول الرفيع بالفهم الوضيع، ولا لرجل يسيء القول في الناس
ويأبى عليهم أن يقولوا له أسأت فأجمل، ولا لرجل يرى الظل ممدوداً له - زمن القيظ
- فيتجنبه إلى وقدة
. . .الشمس
فهكذا أبى الأستاذ أن يأوي إلى مأوى يقيه، وتجرد يختال علينا، ويقتال إلى نفسه
جريرة شر. وما ظني وظنك برجل يصف الرافعي بألفاظ ملفقة، وهي على ذلك بينة
الدلالة على قبح الغرض، سافرة عن شنعة الإساءة، قليلة التذمم في حق الأحياء بله
الأموات ممن لم تجف عن قبورهم بعد دموع أزواجهم وأطفالهم وذراريهم ومن يمتون
إليهم بالحب والمودة والإخاء؟
وما ظني وظنك بإنسان قد حمل القلم ليستملي، فيتنزل عليه القول من بغضاء مربدة
باغية لا تتقي سوء المقال ولا مأثور الكلام؟
وما ظني وظنك بفهم يتعالى على سلاليم من القوارص والقوادع، لا تجد لها في الذي
تعرف سبباً قديماً أو علة محدثة تسوغ الأذى أو تحمل عليه؟
ما ظني وظنك بهذا الرجل الذي نترفق به ونستر (نفسه ودافعها في الحياة) بالإشارة
اللطيفة، فيأبى إلا أن يترجم القول إلى غير معناه. . . إذ يسمي ما كتبت له (شتائم). .
. شتائم. .! أنف في السماء. . . أأنا يدور في نفسي أن أكتب للأستاذ الفاضل ما
يسمى (شتائم)؟ لأنا يا سيدي الأستاذ قطب أحسن ظناً بك من هذا. وقد قلت ما قلت
من أن الناس كانوا يتعايشون بالدين والتقوى ثم رفع ذلك - كما قال الشعبي -
فتعايشوا بالتذمم والحياء، ثم رفع ذلك، ثم تعايشوا بالرغبة والرهبة، ثم رفع ذلك، وجاء
زمان يتعايش الناس فيه (بثلب الموتى). . . وهو زماننا هذا. ولو قد كنت (أخصائياً!)
في اللغة التي يعبر بها لما زعمت أني (رحت أتهمك بمجانبة الدين والتقوى، والحياء
والتذمم) فأنا لم أقصد ذلك، فهو أمر قد فرغ من الحكم فيه صاحبنا الشعبي. وما كان
قصدي إلا أن الذي كتبت أنت عن الرافعي الذي مات وسكت، والعقاد الذي بقي
يتكلم، بل عنهما معاً في قران واحد، هو ثلب للموتى وزلفى للأحياء. وحق لي أن أقول
ذلك فقد جمعت بين الرجلين، فوضعت الميت موضعاً لا يتنزل إليه حي في الضعة،
ورفعت الحي مكاناً لا يسمو إليه أحد في الرفعة، وضربت الكلام من هنا ومن هنا حتى
. . .استبان الغرض
أيريد (الأخصائي!) الفاضل أن نبين له موضع الإشارة في كلامنا هذا. . .؟ إذن فليسمع
حين قرأت الكلمة الأولى من حديثه في الرسالة، لم أشك ساعة أنه يختدع القارئ عن
نفسه
يبتغي أن يفهمه أنه يريد النقد، والنقد حسب، ولا شيء غير النقد! والح في ذلك إلحاح
الظنين في الإكثار مما ينفي الظنة عنه غافلاً عن أن تكلف نفي التهمة بالإلحاح يثير
الشك ويقظ الريبة في نفس من أراد الله له الخير. . . ثم يشرع الأستاذ (الأخصائي
في للغة التي نعبر بها) يأتي بالشواهد من كلام الرافعي في نقد (وحي الأربعين للعقاد)
ليثبت صدق ما ذهب إليه من الآراء في الرافعي
كان يشك في (إنسانية) الرافعي، ويزعم أنه خواء من النفس
ثم قرأ ما كتب الأستاذ سعيد العريان فعدل حكمه قليلاً!! ولم يعد يستشعر البغض
والكراهية للرجل وأدبه، ولكن بقي الأساس سليماً. . . فما هو؟
كان ينكر على الرافعي (الإنسانية) فأصبح ينكر عليه (الطبع)

وكان لا يجد عنده (الأدب الفني) فأصبح لا يجد عنده (الأدب النفسي)
وكان الرافعي ذكياً قوي الذهن، ولكنه مغلق من ناحية العقل والأريحية
والرافعي أديب الذهن الوضاء، والذكاء اللماع!
والرافعي مغلق القلب متفتح العقل وحدة للفتات والومضات. هذا في المقالة الأولى، ثم نزل في الرافعي في الكلمة الثانية، ثم لم يكد يرمي الثالثة حتى زعم أنه حين عاد بعد ذلك فقرأ رسائل الأحزان أحس أنه (خدع!) في - قياس - ذكاء الرافعي! ومعرفة طبيعته ودرجته! ولكنه يحس الغضاضة في هذا التراجع فيعزيه (الصدق)! الذي يعبر عنه حين ينصت لإحساسه ويصور حقيقة رأيه. . . وتأويل ذلك عنده في مقاله الثالث أنه أخطأ في عدم! تحديد (الذهن). . . فمن الذهن ما هو سليم أو مريض، وما هو مشرق أو خاب، وما هو منفتح أو مغلق، (أو كما قال) . . .
لقد قال في الكلمة الأولى ما رأيت، ثم قال في الثالثة ما رأيت من تراجعه، ولقد كان هذا التراجع في الثالثة مطوياً تحت الكلمات في الأولى وفهمناه وأدركناه، وكان أخر الرأيين هو الغرض الذي يسعى إليه. وإلا فما ظن أحداً يستطيع أن يعقل (ناقداً) قد فرض على نفسه النقد - أي التتبع والاستيعاب وصدق النظر - يصف رجلاً (بالذهن الوضاء) (والذكاء اللماع) والقوة في الذهن، والتفتح في العقل، ثم لا تمضي عشرة أيام. . . فيقرأ أحد كتب هذا الرجل، فيعود يقول في صفته إن ذهنه مريض غير سليم، (خاب غير مشرق)، (مغلق
(غير متفتح
أيريد الأستاذ (الأخصائي في اللغة التي نعبر بها) بياناً هو أوضح من هذا على سوء غرضه. .؟ الناقد رجل عدل منصف لا يزال يتتبع شوارد اللفظ، وأوابد المعاني يستنبئها أخبار أصحابها ويستنبط من قلوبها أسرار كتابها، ويكشف عنها خبيئة قائليها. .، ثم يحكم مميزاً مقدراً لا يجوز فيتجاوز الغاية، ولا يحيف فيقع دون المدى. وقد حكم هذا (الأخصائي!!) في كلمته الأولى حكمه الأول حين (استطاع أن يكون ناقداً، لا يكتفي بالتذوق والاستحسان أو الاستهجان، ولكن يعلل ما يحس ويحلله)!! كما قال في بدء كلامه
أوليس يقتضي - هذا على الأقل - أن يكون قرأ كل ما طبع من كتب الرافعي دون ما تفرق من كلامه في الجرائد والمجلات على كثرتها. .؟ بلى
أوليس يقتضي هذا - على الأقل أيضا - أن يكون حين حكمه قد استرد شتات ما بقي في نفسه من آثار كلام الرافعي فيها؟ قالوا بلى
أوليس يقتضي حق النقد والحكم - على الأقل أيضاً - ألا يصف الرافعي بالذكاء اللماع، والذهن الوضاء. . . وهذا الكلام المفخم - ألا يكون ذلك من آثار ما قرأ له من شيء. .؟ قالوا بلى
إذن فكيف - في عشرة أيام يا سيدي - يستطيع كتاب واحد للرافعي هو (رسائل الأحزان) أن يقلب - هذا (الأخصائي في اللغة التي نعبر بها)، وهذا الذي (استطاع!! أن يكون ناقداً) - رأساً على عقب، فلا يكتفي بسلب النعوت المفخمة (كالوضاء واللماع والمتفتح) فيترك الذهن هكذا مجرداً، بل يضع مكانها أضدادها فيجعله ذهنا (مريضاً خابياً غير لماع ولا وضاء، مغلقاً غير متفتح)
هآه. . . إني لأشك كل الشك في براءة الأستاذ مما غاظه من كلمتي الأولى مما سماه (شتائم). ولقد شهدت مرة أخرى (أن ما بالأستاذ قطب النقد، ولا به الأدب، ولا به تقدير أدب العقاد وشعره، فما هو إلا الإنسان وجه يكشفه النور ويشف عما به، وباطن قد انطوى على ظلمائه فما ينفذ إلى غيبه إلا علم الله). ولا زلت أقول له: (إنه لو عاد إلى داره مخلى من حوافز الحياة الدنيا) فقرأ ما كتب قراءة الناقد لوجد الاختلاط في لفظه بيناً، والغرض من ورائها متكشفاً. ولو شئنا أن نقول لقلنا فلم نكذب: إن كلامه لمشترك بين ضربين من
العقل أحدهما ظاهر نعرفه ولا ننكره لأنه مما عهدناه زماناً، والآخر ظاهر أيضاً. . . نعرفه وننكره، لأنه مما استحدثه بعد الرافعي رحمة الله عليه
وأما الأديب الكبير! الذي لقي الأستاذ (الأخصائي في اللغة التي نعبر بها) فضرب لنا الأمثال (بالجماعة الذين يجلسون في المأتم ويرجمون الناس بالحجارة، فإذا رجمهم الناس صاحوا وولوا، وملئوا الدنيا تسخطاً ونعياً على الأخلاق، لأن الناس لا يقدرون

حرمة المأتم، وهم الذين استهانوا بهذه الحرمة حينما رجموا المارة). فأن شاء أن يختفي في ألفاظ الأستاذ (الأخصائي!) فهو عتيق جبنه. وإن شاء أن يظهر من ورائه فسيرى كيف عرفناه من لفظه ومن أمثاله

وأيما كان. . . فالمثل فاسد من وجوهه كلها. . . فأن الأستاذ سعيد حين كتب لم يرجم أحداً، وإنما كتب تاريخاً؛ وحين قال إن رد العقاد على الرافعي سباب وشتائم، فهو لم يكن إلا كذلك، ولا يمكن أن يقال فيه إلا ذلك. . . إذ ليس فيه شيء مما يسوغ أن يعد رداً أو نقداً. . . حتى ولا على طريقة الأستاذ (الأخصائي!) في حل المنظوم ووصفه بالدعاية والطرافة والحيوية. . . وما إلى ذلك من اللفظ الذي لا يتخذه ناقد إلا بعد الإبانة عن محجته وسبيله. أو كما قال الأستاذ (الأخصائي!) في كلمته الأولى (في الناقد الذي لا يكتفي بالتذوق والاستحسان والاستهجان، ولكن يعلل! ما يحس ويحلله) ومع ذلك فهل يرى أحد أن (حل المنظوم) في ألفاظ ملفقة مذيلة، ثم نعته بالطرافة والحيوية. . . الخ، هو التعليل والتحليل الذي يتخذه النقاد أسلوباً لهم؟

ومع ذلك أيضاً. . . فلو فرضنا أن (سعيداً) رجم المارة، والمارة ههنا هم الأستاذ العقاد وحده، فلم تطفل الأستاذ (الأخصائي) فقاذف الأستاذ العريان؟ ولم لم يدع ذلك للمرجوم نفسه. . .؟

ثم وراء ذلك كله. . تطفل (الأستاذ الأخصائي) للقذف والرجم، فلم لم يخص سعيداً وحده دون أصدقاء الرافعي وأصحابه هم الذين كتبوا السعيد ما كتب!!

وبعد فهذه كلمة كتبناها لنقرر حقيقة واحدة هي أن الأستاذ (الأخصائي في اللغة التي نعبر بها)، كان أول حديثه عني - حين انتهى من حديث الرافعي - يضطرب ويؤخذ ويتناوح كأنه قصبة مرضوضة معلقة على عود هش قد يبس. . . أريد أن أقول بلفظ آخر إنه كان

يضطرب لأن حججه التي يتعلق بها حجج فاسدة، وإن أصل كلامه عن الرافعي خائر يتصدع، وإن فكره في الذي كتب لم يستقر على أي شيء صحيح لا يختلف عليه وسيرى فيما يستقبل من كلامنا أنه قد عجز كل العجز عن الإتيان بشيء يمكن أن يسمى نقداً. ولا يميل بنا إلى الرافعي. ويكفيه مما مضى في كلامنا وكلامه أن يعلم أنه نزه العقاد ورفعه أرفع درجه، وأننا لم ننزه الرافعي ولم نقل فيه بعض ما يقول هو في الشاعر الكبير صاحبه

محمود محمد شاكر

بين العقاد والرافعي

للأستاذ سيد قطب

- 6 -

جاء في حديث الأستاذ سعيد العريان عما بين العقاد والرافعي:

أصدر العقاد ديوان (وحي الأربعين) في سنة 1933، والسياسة المصرية يومئذ تسير في طريق معوج، وحكومة صدقي باشا تمكن لنفسها بالحديد والنار، و (الوفد) ومن ورائه الأمة كلها يجاهد حكم الفرد ويكافح للخلاص، والعقاد يومئذ هو كاتب الوفد الأول، يكتب المقالة السياسية فترن رنيناً، ويلقفها آلاف القراء بلهفة وشوق، في كل مدينة وكل قرية. فلا عجب أن يكون العقاد بذلك عند عامة القراء، هو أبلغ من كتب وأشعر من نظم، حتى ليؤول أمره من بعد إلى أن ينحله الدكتور طه حسين بك الوفدي (المتحمس) لقب (أمير الشعراء) تملقاً للشعب ونزولاً على هواه

ثم قال كلاماً آخر يمت إلى هذا الكلام، ويضرب على نغمته ويرجع انتصار العقاد على الرافعي في المعركة عند غالبية القراء إلى هذه العوامل السياسية. وكان هذا وأمثاله من الأسباب الأولى التي حفزتني للكتابة في الموضوع الذي أكتب فيه، لأنها ندت عن التاريخ إلى الحكم والتعليق والترجيح

يخطئ الذين يعتقدون أن العقاد يستمد قوته من ظروف طارئة أو قوى خارجة عن ذاته، كالسياسة، والحزبية، والصحافة. . . الخ

والبراهين على ذلك شتى

فلقد قيل أن العقاد كان قوياً بأن كان (كاتب الوفد الأول) ولكن العقاد خرج على الوفد أول الخارجين في إبان قوته وسطوته، وبعد تجربة في الخروج عليه ذهب بها إلى عالم النسيان ثمانية من أعضائه يتابعهم ثلاثون من الهيئة الوفدية

وقد لقي من الكيد، ووسائل النضال، الظاهرة والخفية، البريئة والشائنة، ما لو وجه إلى هيئة كاملة لضعضعها. فماذا كانت عاقبة هذا الخروج؟

لقد بقي العقاد هو (الكاتب الجبار)، وتضعضع خصومه ووراءهم قوة العدد، وقوة الحكم، وقوة المال، وقوة الماضي الوطني، وكل قوة مأمولة في الوجود!!

ثم قيل: إن العقاد يستمد قوته من الصحافة؛ ولكنه طوى قلمه عامين كاملين وكان ذلك بعض ما دبره له خصومه الأقوياء. فماذا كانت العاقبة؟

لقد بقي العقاد مع ذلك جهير الصوت، مسموع الرأي، وأخرج للناس في هذا الفترة ثلاثة مؤلفات: أحدها (سعد زغلول) وهو يكفي وحده لخلود كاتب عظيم، وبقي خصومه يحسبون حسابه، ويتوقون قلمه، وبقي كل فرد في القراء يرتقب عودته إلى الميدان. وقد عاد!.

ثم لماذا يكون العقاد قوياً بالسياسة وحدها، وخصومه - ومنهم الرافعي - كانوا يلجئون إلى الدين، وهو أقوى أثراً من السياسة، وأتباعه أكثر من أتباعها، فلم لم تكن لهم الغلبة وسلاحهم أقوى وأبرز؟

الحق، أن كل هذه تعلات وأوهام، وخطأ في تقدير أسباب الغلبة، ووسائل البروز، وإغفال للقوى الذاتية الكامنة التي هي مدار كل نصر وظهور في عالم الوجود

ألف حزب سياسي، وألف صحافة، وألف مناسبة طارئة، لم تكن كفيلة بإبراز العقاد، لو لم يكن العقاد نفسه قوة من قوة الطبيعة، وطاقة من طاقة الحياة؛ ولو لم تكن في أطواء نفسه ومواهبه، بذور العظمة، وخميرة التفوق، ودوافع النهوض

إنما انتصر العقاد لأنه يكتب في السياسة بالهام من الوطنية، ثم يجنح بالوطنية إلى النزعة الإنسانية، وينفق في هذا كله من ذخيرة روحية لا تفنى

والحقيقة أن العقاد - مع هذا - مغبون أشد الغبن، في مدى شهرته، وفي نوع شهرته. مغبون لأنه في بيئة بينه وبينها عشرات الأميال من الفوارق والخطوات، وقل فيها من يتابعه في سموقه، أو يترسم خطاه على بعد المسافة. ومغبون لأنه ليس معروفاً بخير ما فيه، لأن خير إنتاجه، يتطلب قراء من نوع مفقود أو شبه مفقود

ولو فهم ذلك بعض من نفسوا عليه وحقدوا، لأراحوا بالهم بعض الشيء، أو لعلهم كانوا يزيدون عداء وحقداً. . .

ويخطئ الذين يحاولن أن يدرسوا العقاد - ولا أقول ينتقدونه - وكل محصولهم من الثقافة، كتب لغوية درسوها، وكتب أدبية فهموها من آداب اللغة العربية. فليس العقاد أديب لغة وأديب أسلوب، حتى تكفي اللغة ويكفي الأدب الخالص في فهمه، ولكن نتاج العقاد مجتمع ثقافات ودراسات قديمة وحديثة، عربية وغير عربية، مصهورة في بوتقة طبيعة ممتازة،

ونفس رحبة، وذهن مشرق ومواهب تنتفع بالثقافة، وتعلو على حدود الثقافات!

ولقد رقيت إلى محاولة استيعاب العقاد - وأفلحت إلى مدى - على درج من دراسات شخصية جمة، ليست دراسة الأدب العربي ولا اللغة العربية إلا أولى خطواتها. دراسات تشمل كل ما نقل إلى اللغة العربية - على وجه التقريب - من الآداب الإفرنجية: قصة ورواية وشعراً، ومن المباحث النفسية الحديثة: نظريات العقل الباطن والتحليل النفسي والمسلكية. . الخ ومن المباحث الاجتماعية والمذاهب القديمة والحديثة ومن مباحث علم الأحياء - بقدر ما استطعت - وما نشر عن داروين ونظريته ومن مباحث الضوء في الطبيعة، والتجارب الكيماوية. ومما استطعت أن أفهمه عن أنيشتين والنسبية، وعن بناء الكون وتحليل الذرة، وعلاقته بالإشعاع. . . الخ

ولا أفصل أو أتوسع في هذا، فحسبي أن أقول: إنني انتفعت بكل معرب أو مؤلف، عن النظريات العلمية والفلسفية الحديثة في شتى أنواع الثقافة، مدفوعاً في ذلك بميل طبيعي، كان يسيرني - دون إرادة - حينما أتناول صحيفة كالمقتطف مثلاً أن أبدأ بقراءة البحوث النفسية، ومباحث علم الحياة، وما قد تتضمنه عن علم وظائف الأعضاء، وعن تحطيم الذرة. . . وما أشبه ذلك قبل أن أتناول ما بها من بحث أدبي أو قصيدة!

وبكل هذه الثقافات بعد الثقافة الأدبية، وبعد استعداد نفسي انتفعت في فهم العقاد واستيعابه إلى حد ما. وسأزداد له فهماً كلما اتسع مدى ثقافتي، وفتحت جوانب نفسي، وقويت نوازع الحياة فيها

فالذين يحسبون الأدب مادة لغة أو أسلوب، ويعتمدون على نفوس ضيقة وأذهان

محدودة، وثقافة من لون واحد، لا يصح لهم أن يطمعوا في دراسة العقاد، ولا يجوز منهم أن ينقدوا العقاد، لأن أدواتهم لا تزال ناقصة، أو معدومة فيما يتصدون له. بينما الرافعي أستاذهم لغة وأسلوب متى فهما لم يبق شيء وراءهما غير مفهوم، فهو سهل جداً لا يكلف مجهوداً ولا عناء.

واللغة والأسلوب وحدهما لم يكونا كافيين لدراسة أي شاعر عربي عظيم، في وقت لم تكن الثقافة الإنسانية قد بلغت مبلغها الآن، والذين يراعون اللغة والأدب المحض وحدهما لا يستطيعون دراسة المتنبي ولا المعري، بل لا يستطيعون دراسة ابن الرومي، وأبي نؤاس،

لأن جداول من الفلسفة ومن الفلك والطب والتنجيم وسواها، قد صبت في ثقافاتهم؛ فكان لا بد من قسط يعادلها عند نقادهم مع الاستعداد النفسي الأصيل إذا شاءوا النقد على حقيقته

وأقرب مثل على فساد النقد الذي يتصدى له اللغويون والأسلوبيون، ما أورده الأستاذ محمود محمد شاكر عن قزح وقوسه، وناقشته فيه في العدد الماضي. فهو يأخذ على العقاد نقده لبيت شوقي:

قصراً أرى أم فلكا ... وشجراً أم قزحا

وذلك لأن العقاد قد قال بعد هذا:

ألقى لهن بقوسه ... قزح وأدبر وانصرف

فلبسن من أسلابه ... شتى المطارف والطرف

وفساد هذا المأخذ أن الأستاذ لا يفرق بين صورة لغوية وصورة ذهنية خيالية. فلفظة (قزح) في بيت شوقي، لا تزيد على أنها (لفظة) لغوية ليس وراءها صورة ذهنية متخيلة مقصودة. فالمرجع فيها إلى القاموس، والقول قول القاموس؛ أما هي عند العقاد، فتعني (حالة) خاصة مطلوبة، فيها قزح ملك الألوان، ممسكا قوسه، وهؤلاء الحسان ينازعنه عليها، فيغلبنه، فيسلم بالغلبة، ويلقي قوسه وسلاحه وينصرف فلبسن منها شتى المطارف والطرف. فالمرجع هنا للذهن والذوق لا القاموس

وقد عانى الرافعي ما عاناه شاكر، وما تعانيه المدرسة الرافعية كلها في تفسير العقاد، لأن عدتها للنقد من استعداد طبيعي وثقافة مكسوبة، شيء قليل

ولا حيلة في فهم كثير من أدب العقاد بغير الاستعداد الطبيعي، مع لون من ألوان الثقافة الإنسانية الحديثة. والأمثال على ذلك قد توضح ما سبق من إجمال. فها هي ذي قطعة من (وحي الأربعين) بعنوان: (سعادة في قمقم)

هنا قمقم سابح في الدم ... أسائلُ عنه ولم أعلم

جهلت حباياه حتى أتى ... عريف الطلاسم بالمعجم

ففيه كما قيل مسجونة ... سعادة بعض بني آدم

تجن جنونا بنور الضحى ... وتذبل في حبسها المظلم

وقد زعموا أن إطلاقها ... رهين بهمة ذاك الفم:

يسر على شفتي فاتن ... يباح إلى شفتي مغرم

فهل أنت مطلقها منعما ... فديتك أم لست بالمنعم؟

وما أنا بالمشتهي قبلة ... ولا بالحريص على مغنم

ولكنما أنا أبكي أسى ... لتلك الشهيدة في القمقم!

فهل فهم الرافعيون شيئاً من هذه القطعة مع وضوح كل لفظة فيها وكل عبارة؟ وكيف يستطيع فهمها من لم يدرس شيئاً عن نظرية فرويد في (العقل الباطن) ويكون مع هذا على استعداد لأن يحس، بأن النوازع والرغبات المكبوتة في النفس والأشجان والبلابل والاضطرابات التي تعتريها في إبان ضرام الحب، تظل تعتلج النفس، وتقلقها وتهزها هزاً كمواد البركان المكتوم، حتى ينفس عنها، ويتاح لها التعبير، فإذا هي سعادة وهدوء وراحة

هذا ما يقوله العقاد في ثوب من الفن، وجمال من التعبير! عواطفه الثائرة، وبلابله المضطرمة، هي نفسها سعادة حبيسة إذا أتيح لها الكشف والتعبير، وكيف يكون التعبير؟ يكون بقبلة على (شفتي فاتن) تبيح السر إلى شفتي مغرم، وعندئذ تنطلق تلك الشهيدة في القمقم التي يبكي لها أسى.

فهنا النظرية العلمية، والحقيقة المدركة، والفن العالي، والدعابة القوية، والغزل

الشفاف، تلتقي كلها في قطعة قصيرة، يطلب بها قبلة!
وإليك مثالا آخر في (عابر سبيل) تحت عنوان (ابنا النور - الزهر يخاطب الجوهر)

يا جوهر الحسن لا تضعفي ... لديك بالموضع المهان
فالزهر والجوهر المصفى ... صوان في النور توأمان
أشعة النور في يدينا ... وديعة أو وديعتان
لكننا بيننا اختلفنا ... يا جوهر الحسن في الصيان
تصونها أنت من بعيد ... بالسيف والرمح والسنان
ولم تزل في يديّ كنزاً ... يصان بالعطف والحنان
ومعدن النور فيَّ حي ... وفيك معنى الحياة فان
فيا زماناً بلا حياة ... إني حياة بلا زمان
كل له من أبيه حظ ... ونحن بالحظ راضيان

فمن أين يدرك قارئ ما في مثل هذه القطعة من جمال، قبل أن يعرف المادة الخاصة لفهمها من دراسة (الضوء) وتوزيعه وأثره في الأحياء وغير الأحياء، ونصيب الزهرة منه ونصيب اللؤلؤة، ثم يضيف إلى هذا عاطفته هو، وإحساسه بمظاهر الحياة وعطفه على الزهرة الحية التي تحفظ كنز النور بالعطف والحنان. . . الخ

وقد اخترت هاتين القطعتين، تتطلبان دراسة علمية للنفس أو للضوء، ووراءهما كثير مما يتطلب دراسات أخرى أعمق وأوسع وأرقى في مدارج المعرفة الإنسانية، فيحسن أن أنبه إلى أن هذه الدراسات ليست هي كل ما في نتاج العقاد، ولا هي خير ما فيه، فأن وراءها ذخيرة نفسية وطاقة روحية، وإشراقاً ذهنياً، وهذه المواهب هي التي تحيل تلك الثقافات فناً سائغاً، ولكنه فن صعب المرتقى؛ تبدأ درجاته بالثقافة وتنتهي بفسحة النفس، ورحابة الحس، وتوفز الشعور. وليس كل من درس تلك النظريات بقادر على فهم العقاد ما لم يكن ذا نفس وقلب وحياة!

وموعدي مع القراء كلمات أخرى، لعلني بها أوضح الفروق الأساسية بين المدرستين، فينكشف سبب الخلاف الأصيل بينهما، ومقدار أصالة كل منهما، وحقه في الحياة والاحترام.

(حلوان)

سيد قطب

كلمة على الهامش

للأستاذ علي الطنطاوي

أنا لا أحب أن أنزل إلى ميدان المناظرة بين الأستاذين الفحلين شاكر والعريان، والأستاذ قطب؛ لأنه لا يقوم لأحدهما بله أن يعينهما عليه معين، على أن الحق لعمري يعينهما. ومع الحق بيان يجلو الحق، ولغة فخمة كأن فيها روحاً من روح الرافعي رحمه الله، ولهذا البيان قراء يبلغون مائة الألف انعقدت قلوبهم على محبة الرافعي وإجلاله، وآمن منهم من آمن بأن الرافعي رجل لم يكتب بالعربية من هو أبلغ منه بلاغة. . . فما حاجة ضعيف مثلي أن ينزل إلى الميدان؟

. . .!وفيما الخلاف؟ في (إنسانية) الرافعي

الأستاذ قطب يشك في (إنسانية الرافعي). . . أي أنه يشك في أنه إنسان، فماذا يكون إذن؟

ثم ماذا؟ ثم أنه (على رأي سيد قطب) تنقصه العقيدة! والعقيدة مشتقة من العقد، قال في اللسان: عقد قلبه على شيء لزمه. . . واعتقد كذا بقلبه أي رآه، فلابد إذن لتمام كلمة الأستاذ قطب من أن يبين الشيء الذي ينقص الرافعي رضي الله عنه اعتقاده، وألا فكلامه لا معنى له في العربية. . فهل ينقص الرافعي العقيدة في الدين، أو في الوطنية، أو ينقصه اعتقاد مذهبه في الأدب. أو ماذا؟

أو هي ألفاظ تساق ولا يدري لمساقها غاية إلا التهويل بها على القراء؟

. . .هذه مسألة لا يصح أن يكون عليها خلاف، أو تدور عليها رحى مناظرة

أما جوهر الخلاف بين أدب الرافعي وشعر العقاد، فهو الخلاف بين الأسلوب الذي يعتمد على البيان والصحة والصناعة والجمال، وبين الأسلوب الذي يستند إلى المعنى المبتكر، والصورة الجديدة، لم يظهرهما لفظ قوي، ولا أداء مستقيم. فالعقاد في شعره مبتكر مجدد، ولكني أشبه ألفاظه وهي تحمل معانيه، بصبيان ضعاف مهازيل،

يحملون الصخور العظيمة فتسحقهم ويموتون تحت أثقالها. . . كما أني أجد من الأساليب ما أشبه ألفاظه ومعانيه بعمالقة ضخام، ولكنهم يحملون حفنة من الحصى فالخلاف إذن على اللفظ والمعنى، هذه المشكلة التي تكلم فيها الجاحظ، ولم ينته القول فيها بعد. على أن في إطلاق اللفظ والمعنى تجوزاً، لأنه يستحيل أن يكون في الوجود لفظ بلا

معنى، من يذكر كلمة السماء ولا يتصور هذه القبة الزرقاء، أو يسمع اسم الكتاب ولا يذكر هذه الصحائف المجموعة؟ كما يستحيل أن يكون بلا معنى بلا لفظ، لأن هذا المعنى يبقى خاطراً هاجساً في نفس صاحبه لم يدخل نطاق الأدب. ولكن الكلام في قطعتين أدبيتين، إحداهما تزدان بالتعبير الجميل، والأسلوب البارع ولكنها تصف شيئاً تافهاً، أو تدور على معنى سخيف، والثانية يتصور صاحبها ناحية من نواحي النفس البشرية، أو ظاهرة من ظواهر الكون، فتجيد التصور ولكنه يعجز عن التصوير، فأي هاتين أسمى مقاماً وأدنى إلى الأدب الخالص؟

هذه هي المسألة!

أما المتقدمون من نقدة الأدب العربي فأكثرهم على أن المعاني على قوارع الطرق، وإنما يتفاضل الناس بالألفاظ. وليس معنى هذا احتقار المعنى وتهوين شأنه، فإن للمعنى المقام الأول عند نقادنا، ونستطيع أن نقرأ الفصل القيم الذي عقده الإمام الجرجاني في الدلائل، ولكن معناه أن الشعور بالجمال عام، ولكن الناس يتفاضلون بالتعبير عنه؛ إذا نظر جماعة من الناس إلى مغرب الشمس في البحر، أو بزوغ البدر من وراء الجبل، أدركوا جميعاً جمال ما يرون (وإن كان كل يدرك على نسبة استعداده وهوى نفسه)، وإن وقف جماعة في موقف الوداع أحسوا جميعاً بالألم يغمر نفوسهم، ولكن هذا الإدراك وهذا الإحساس لا يسميان أدباً، وإنما الأدب هو الصيغة اللفظية التي يعبر عن هذا الإحساس؛ وعلى مقدار التوفيق في هذه الصياغة تكون قيمة القطعة الأدبية

هذا هو الحق، ولكن هذه الفئة من المجددين، أرادت حين عجزت عن الأداء المستقيم والصياغة البارعة والديباجة الصافية أن تقلل من قيمتها وتحقرها، وتسمي كل أديب يعرف للغته حقها وكل أديب آتاه الله ملكة قوية، تسميه سطحياً فارغاً. ولقد بلغ من فساد أذواق بعض هؤلاء المجددين أن قرأت مرة لواحد منهم فصلاً يقدم به لكتاب، فوقع له فيه مجاز حلو أحسست لما قرأته بمثل ما أحس به حين تطلع على من الطريق فتاة جميلة، وعجبت له من أين جاء به، ولكن عجبي قد بطل حين رأيته يتعذر منه، ويريد أن يواريه كما يواري المرء سوأته، لأنه - زعم - يكون (بهلواناً) إذا جاء بمجاز حلو، فليتصور القارئ أي شيء يكون الأدب إذا اطرح المجاز واقتصر على الحقيقة؟

هذا سر الخلاف في رأيي. والرافعي رضى الله عنه، قد بلغ هذه الصناعة، وفي توليد المعاني، وفي نخل الألفاظ وتصفية الديباجة ما لم يبلغه كاتب عربي، فلا عجب إذا أبغضه خصوم البيان العربي

والعجب من الأستاذ سيد قطب! يأبى أن يناقش الأستاذ العريان لأنه لم يأته على أغراضه بدليل. . . ثم ينقد أبياتاً للرافعي يقطر ماء السلاسة من أعطافها، وتنطق كل كلمة فيها بألم صاحبها في حبه، وعذابه في غرامه لا، حين سمع أن للحب ليناً ووصالاً، ولكنه لم ير إلا قساوته وجفاءه، فهو يسأل المحبين كيف يكون هذا اللين، وينظر حوله فإذا قد (قضى كل ذي دين فوفى غريمه) فيأسى ويألم لنفسه أن بقيت ديونه وحدها لم توف. ثم يمد يده ينظر هل من مسعد أو من معين، ولكنه لا يريد مساعدة ولا عوناً، هو هانئ بالحب لأن الحب أهنئه حزينه، قال:

من للمحب؟ ومن يعينه؟ ... والحب أهنئه حزينه
أنا ما عرفت سوى قسا ... وته فقولوا كيف لينه
أن يقض دين ذوي الهوى ... فأنا الذي بقيت ديونه

فلا يجد نقداً لهذه الأبيات الثلاثة (وثالثها مأخوذ من بيت كثير المشهور، لم يتنبه لذلك سيد قطب) إلا أنها تقليد لشعراء الدول المتتابعة والمماليك في مصر. . .

هذا هو النقد الفني عند الأستاذ سيد قطب!

ويقول الرافعي رضى الله عنه:

قلبي هو الذهب الكريم ... فلا يفارقه رنينه
قلبي هو الألماس يع ... رف من أشعته ثمينه
فلا يفهم سيد قطب من هذا التشبيه البليغ إلا (أنه يذكر قلبه في سوق المجوهرات من الذهب والألماس معتقداً أن تلك المعادن أثمن من القلوب لأنها تقوم بالمال الكثير من السوق) - مع أن الأستاذ قطب يدعي في رأس مقاله بأنه أفهم لأدب الرافعي من الأستاذ العريان، فهو إذن يتعمد أن يتظاهر بأنه لم يفهم هذين البيتين لغرض في نفسه. . . ولا حيلة لنا معه في ذلك!
والأنكى من ذلك كله. . . أن ينقص هذا البيت الذي يعدل والله قصيدة، بل ديواناً من دواوين الغزل:
قلبي يحب وإنما ... أخلاقه فيه ودينه
أن انتقاد هذا البيت وتشبيهه وما بعده بالخطب المنبرية الجافة تحقير للحب، وتنزيل له إلى حيث يخالف الدين والأخلاق حتماً، ودعوى ضمنية بأن المحب لا يستطيع أن يحتفظ بخلق ولا دين!
على أن للرافعي رحمه الله عيوباً ومزايا. وليس إلا الله خالياً من العيوب، والرافعي ملك للنقد، ولكن للنقد شرائط. . . أولها أن يلقي الناقد عنه هواه، ويطرح بغضاءه. فأن البغضاء تدفع إلى الظلم، والهوى يعمى ويصم!
دمشق
علي الطنطاوي
ليلى المريضة في العراق
للدكتور زكي مبارك
- 20 -
تأهبت ظمياء للكلام فاستوقفها لحظتين لأنظر الأشرطة السينمائية التي يعرضها الشقاء أمام خيالي. فهالني أن اشهد ألوف المناظر وفيها المفرح والمحزن والأخضر والأسود، وضجت في أذني تلك الكلمة الباغية التي قالها أحد الزملاء المصريين وقد ترامت الأخبار بما بيني وبين ليلى من خلاف، قال ذلك الزميل وهو يلتهم حساء البقلة الحمقاء:
(كان رأيي من أول يوم أن الحكومة المصرية أخطأت في اختيار زكي مبارك لمداواة ليلى المريضة في العراق وهي تعلم أنه عجز عن مداواة ليلى المريضة في الزمالك)
أنا عجزت عن مداواة ليلى المريضة في الزمالك؟
أنا ما عجزت، وإنما رأيتها لئيمة لا تحفظ الجميل فضننْتُ عليها بالطب والدواء، وأخذت أدرس ما صرت إليه في هوى ليلى. فحب هذه المرأة هو أخطر ما عرفت في حياتي من ظلام وضلال
أحبك يا ليلى أحبك؟
وإنما كان كذلك لأنه ابتدأ بالعطف، عطف الصحيح على العليل، والعطف يؤصَّل جذور الحب ويهيَّئ القلب للهيام العَصُوف
كانت ليلى تصح على يدي من يوم إلى يوم، وكان حالي معها حال الْجنان الذي يتعهد إحدى الشجرات بالسقي والرعاية فتنمو عواطفه بنموها من حيث لا يعرف، ثم تصبح الشجرة وهي معبودته من دون البستان
أحبك يا ليلى أحبك
ورأت ليلى شغفي فلم تفطن إليه، ولعلها كانت تراه لوناً من ترفق الأطباء فمضت تناضلني الصحيح للصحيح، ولم تدر ما نقل المشرط إلى دمي، وآه ثم آه مما ينقل المشرط، فالناس لا يفهمون كيف يعيش العليل وجسمه موبوء بالجراثيم على حين تكون جرثومة واحدة ينقلها المشرط إلى جسم الطبيب وهو صحيح كافية لتقتل الطبيب
الناس لا يفهمون هذه الظاهرة وهي عندهم من الغرائب
ولكن تعليلها سهل. وهي أول درس تلقيته بكلية الطب في باريس
السبب يرجع إلى شعور الطبيب بخطر الجراثيم، فهو حين يشعر بانتقال العدوى إليه. ينفعل جسمه كله دفعة واحدة فيصرعه المرض
وهذا يشبه تمام الشبه ما يقع في عالم الاخلاق، فالرجل صاحب الوجدان السليم تؤذيه

الهفوة الصغيرة فيقضي سائر عمره في استغفار وقد يقتله تأنيب الضمير، ولا كذلك المريض بالجسم والوجدان، فالأول يعاني العلل المهلكات ثم يموت قبل أو أن الموت، والثاني يُجرم نحو نفسه ونحو الإنسانية ثم يعيش وهو مستور الحال، لأنه يجهل خطر ما يصنع

ومن أجل هذه المعاني عشت شقياً في حياتي، فأنا تلميذ قديم من تلاميذ الغزالي، وكل شيء يجوز عندي إلا إيذاء الناس، وقد يتفق في أحيان كثيرة أن أهجم على خصومي بعنف، ولكنه عنف مصطنع، لأني لا أحشو المسدس بغير البارود، فيثور من حولهم الدخان، ثم يسلمون لأن القذيفة لم يكن فيها رصاص

ويصنع خصومي غير ما أصنع، لأني غبيٌّ وهم أذكياء!

هم يحشون المسدسات بالرصاص ثم يقذفون، وكم يبقى الرميُّ على نبال؟! أولئك أعدائي، والعداوة الأثيمة تستبيح كل قبيح

ولكن ما ذنبي عند ليلى حتى تفضحني بين قومي وتضيع مستقبلي في مداواة الملاح؟

ما ذنبي عند ليلى التي هجرت في سبيلها وطني وأهلي؟

ما ذنبي عند ليلى؟ ما ذنبي عند عيونها السود وخدها الأسيل؟

ما ذنبي عند ثناياها العِذاب وصوتها الرخيم؟

أحبك يا ليلى وأستعذب في هواك كل عذاب

- ظمياء، ظمياء

- عيوني، عيوني

- هاتي التهم الثقال التي تفضلتْ بها ليلاي. انقليها بترفق. ما أحب أن أموت في بغداد، فمقابرها مهجورة منسيَّة، كأنها مقابر المحبين، وليس فيها مسجد استروح بأن يصلِّي عليَّ فيه يوم أموت، فمساجدها تعرف الجمال في القباب وتجهل الجمال في المحاريب

- أعرني أذنيك يا دكتور

- أعرتك قلبي، يا ظمياء

- أنت متهم عند ليلى بالشيوعية

- بالشيوعية؟ وكيف سكتت عني إذاً حكومة العراق، وبصرها أحدٌّ من بصر ليلى ولها عيون تنقل إليها كل شيء؟

- حكومة العراق تحارب الشيوعية الاقتصادية، وأنت متهم بالشيوعية الوجدانية، وليلى تعاقب على ذلك

- وأين شواهد هذا الاتهام الفظيع؟

- ما ظلمتك ليلى، وإنما ظلمت نفسك، فأنت الذي تقول

أَصْباك ما خلفَ الستار وإنما ... خَلْفَ الستائر لؤلؤ مكنونُ

والناس في غفلاتهم لم يعلموا ... أني بكل حسانهم مفتون

- ما قلت الشعر يا ظمياء

- هو في ديوانك المطبوع

- هذا شعر دسه السفهاء

- وكيف سمحت بنشره في ديوانك؟

- ما أذكر كيف سمحت، فقد كنت عضواً في جمعية أبوللون، وأرادت الجمعية أن تصح انتسابي إلى الشعراء فلفقت باسمي طائفة من الأشعار وأخرجتها في ديوان

- ولكن ليلى تقول إن في نثرك ما يؤيد هذا المعنى

- وكيف؟

- في بعض ما نشرت في جريدة البلاغ مقال تقول فيه إن الأطلال تملأ روحك بالمعاني لأنها تعيد إلى خيالك تاريخها القديم يوم كانت ملاعب تمرح فيها الظباء

- هذا أيضاً مدسوس

- وكيف؟

- كان لي بجريدة البلاغ زميل يعطف على أدبي، هو الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني، وكان يؤذيه أن تخلو مقالاتي من المعاني الوجدانية، فكان يضع اسمي على ما يبدع من

صور الوجدان
- أنت تسيء الدفاع عن نفسك يا دكتور
- دليني كيف أدافع عن نفسي، يا ظمياء؟
- أما تعرف كيف تدافع عن نفسك؟ أنا ألقنك الدفاع عن نفسك. قل إنك تعشق جميع الصور وتهيم بجميع المعاني
- هاتي يدك أقبلها يا ظمياء
- أعجبك كلامي؟
- ما هذا كلاماً، إن هو إلا سحر مبين، فأنا حقاً أعشق جميع الصور وأهيم بجميع المعاني؛ وظواهر الوجود هي عندي صور شعرية تموج بألوان السحر والفتون. الدنيا يا ظمياء لوحة فنية صاغها بديع الأرض والسموات، فما فيها من حسن فهو صنع فنان، وما فيها من قبح صُنْع فنّان، فأنا أدرس المحاسن والمساوي بذوق واحد. وقد أتفلسف يا ظمياء فأزعم أن خَلْق الوجه الدميم أصعب من خلق الوجه الوسيم. وعلى أهل الدمامة أن يشكروا خالقهم فقد سوّاهم بعناية، ثم تلطف فأباحهم التقلب في بقاع الأرض، وجعل لهم في دولة القبح سلطاناً. فان لم يشكر هؤلاء القباح خالقهم فسأشكره بالنيابة عنهم، وسأتصدق عليهم بالعطف والحنان
- دكتور، أنا أحبك!
- وأنا أبغضك يا ظمياء!
- أقول لليلى إنك أحسنت الدفاع عن اتهامك بالشيوعية في الحب؟
- ما تهمني ليلى، وإنما يهمني أن أحاسب خالق ليلى
- احترس يا دكتور، فهذا كفران
- سأحاسب ربي قبل أن يحاسبني، فما قضيت شبابي في دراسة الأدب والفلسفة إلا لأعرف كيف أناقشه الحساب، وسوف تنظرين
- كفرت، يا دكتور، كفرت
- الكفر الحق هو أجمل صورة للإيمان الحق
- وكيف؟
- ما تعرفين كيف وأنت وصيفة ليلى وخدينة الدكتور مبارك؟
- لست خدينتك
العفو! العفو! يا ظمياء
- تشتمني يا دكتور؟
- إنما أداعبك يا ظمياء، فاغفري ذنبي
- يغفر الله لك
- ويغفر الحب؟
- أسأل ليلاك
- غضبة الله ولعنة الحب على ليلاي!
- ظمياء!
- عيوني!
- تلك التهمة الأولى، فأين التهمة الثانية؟
- ليلى تتهمك بما اتهمتْ به الضابط عبد الحسيب
- وكيف اتهمت ذلك المسكين الذي سارت أخبار شقائه مسير الأمثال؟
- اتهمته بخيانة العروبة
- وهي تتهمني بخيانة العروبة وقد أَذْوَيت شبابي في خدمة لغة القرآن؟؟
- إن ليلى قرأت خطبتك في نادي المثّنى عن العروبة المصرية وقد نشرتها جريدة البلاد
- وما الذي عابته ليلى على تلك الخطبة؟
- العيب في ذلك أنكم في مصر لا تفرقون بين العروبة وبين الإسلام
- هذا صحيح يا ظمياء
- وهذه جريمة عربية يا دكتور
- اسمعي يا ظمياء، ثم بلغي ليلى ما أقول. العروبة يا طفلتي يا طفلتي الغالية في حاجة إلى إسناد قوية من الصداقة والعطف، وإسناد العروبة لن تكون في الممالك

الأوربية، وإنما ننشدها في الممالك الاسلامية؛ والسياسي الحكيم هو الذي يتعب في خلق الأصدقاء، والإمبراطورية البريطانية لن تفنها جيوش البر والبحر والهواء عن التفكير في خلق
الأصدقاء. والإسلام قوة يتودد إليها هتلر وموسوليني، وتشقى روما ولندن وباريس وبرلين في التعرف إلى مدارج هواه، وليس في بلاد الله قوة سياسية إلا وهي تحسب ألف حساب لغضب المصحف فما ذنبي عند ليلى أعلنتُ إسلامي؟ ما ذنبي عند ليلى وأنا أخلق لقومي وقومها جيوشاً من العواطف والقلوب؟
- ولكن الإسلام غير العروبة
- تلك يا ظمياء دسيسة استعمارية، هي دسيسة حيكتْ شباكها لتقويض الإمبراطورية العثمانية. وقد تقوضت لأن الأتراك عجزت حيلتهم عن قرض خيوط تلك السياسة، فهم اليوم أمة من الأمم، وكانوا بفضل الإسلام سادة المشرقين
- احترس يا دكتور فهذه سياسة، والسياسة محرمة على الموظف
أعترف أني موظف في حكومة العراق، ولكن لا خوف. فأنا أتهيب الشر في كل أرض، إلا في العراق؛ وأعتقد أن حكومة العراق لا تصادر حرية الرأي إلا إذا صدرت عن المنافقين، وقد حماني الله من النفاق. وقد عجب ناس من أن تسكت عني حكومة العراق على كثرة ما قلبت من وجوه الآراء في الصحف والمجلات. فليفهم الدساسون أن حكومة العراق فوق ما يظنون، والله من وراء الدساسين محيط، وسوف يعلمون
- إن العراق يثق بك ويعطف عليك يا دكتور
- وفي حماية تلك الثقة وذلك العطف أقول: إن أوربا اللئيمة خلقت فكرة لتقسيم أهل الشرق إلى عرب ومسلمين، وقد أحسست هذا المعنى حين بدأت أتعلم اللغة الفارسية في باريس سنة 1927 فقد رأيت معجما فارسيا فرنسيا نشر منذ أكثر من أربعين سنة وفي مقدمته تحريض صريح على قطع الصلات بين العرب والفُرس؛ وأعتقد أن مقدمة ذلك المعجم هي السبب في ثورة الأتراك والإيرانيين على الحروف العربية
- أخطأ الأتراك وسيخطئ الإيرانيون
- وماذا صنعنا لدفع هذا الخطأ يا ظمياء؟ لقد تجشمت مشيخة الأزهر ما تجشمت وأنفقت ما أنفقتْ، لترسل بعثة من العلماء إلى الهند، فهل فكرت هذه المشيخة في إرسال بعثة إلى تركيا أو إيران؟ هل فكرت مشيخة الأزهر في إرسال رجل أو رجلين لتذكير الفرس بماضيهم في خدمة اللغة العربية؟ هل فكرت في إرسال وفد إلى الغازي مصطفى كمال
يذكره بأن الحقد على العرب الذين خذلوا تركيا في الحرب لا يصح أن ينسيه فضل العرب الأبرار الذين نقلوا إلى تركيا بذور الإيمان بالله والرسول؟
هل قام رجل مؤمن يقول للأتراك: هبوا سيئات الحاضر لحسنات الماضي؟
هل قام رجل مؤمن يقول لأهل إيران: إن العرب إخوانكم في الله فلا تجرحوا إحساسهم بهجر الحروف العربية؟
لقد قمت بهذا الواجب وحدي فأقنعت وزيرين في العراق، وفكرتُ في الهجرة إلى إيران لأصلح ذات البين بين العرب والفرس. ولكن كيف وأنا رجل يرهقه جدول الدروس وتنهب عافيته دفاتر التلاميذ؟
لقد زار بغداد منذ أشهر صحفي إيراني ودعائي الأستاذ إبراهيم حلمي للتسليم عليه، فلم أستطيع مخاطبة بغير الفرنسية، مع أنه نشأ في وطن كان بعض أهله لا يعرفون غير العربية، ولذلك الصحفي جريدة تصدر بلغتين هما الفارسية والفرنسية، ولو كنا حفظنا العهد لكانت اللغة الثانية عربية لا فرنسية
- يظهر أنك مؤمن يا دكتور
- أنا ملحد يا ظمياء، فما يسرني أبداً أن أحشر نفسي في زمرة المسلمين الغافلين الذين يفكرون في إصلاح الوثنية الهندية ويغفلون عن هداية الثائرين على الإسلام في بلاد كانت من الدرر اللوامع في تاريخ الإسلام
- أنت مؤمن يا دكتور
- أنا كافر يا ظمياء
- أعوذ بالله!

- وأنا أعوذ بالشيطان!
- تعوذ بالشيطان؟ يظهر أنك ملحد حقاً وصدقاً
- اسمي يا ظمياء، الشيطان مخلوق شريف لأنه لا ينافق، فهو يعلن في كل وقت أنه من الضالين المضلين، ولو كشف كل إنسان عن سريرته كما كشف الشيطان عن سريرته لأصبحنا جميعاً من الملائكة لا من الشياطين
- أنت إذاً تعبد الشيطان؟
- أنا أعبد الله وأحب الشيطان
- قف عند هذا الحد يا دكتور
- سمعت وأطعت
(للحديث شجون)
زكي مبارك
التاريخ في سير أبطاله
ابراهام لنكولن هدية الأحراج إلى عالم المدينة
للأستاذ محمود الخفيف
يا شباب الوادي! خذوا معاني العظمة في نسقها الأعلى من سيرة هذا العصامي العظيم. . . . . .
- 14 -
وثمة حادثة أخرى لها دلالتها على عظمة الرجل ونبله وسمو نفسه؛ ذلك أنه تقدم عن طيب خاطر ليدافع عن حفيد كارترايت ذلك الرجل الذي طعنه في دينه قبل ذلك بعشرين عاماً وهو ينافسه في الوصول إلى مقعد في مجلس الولاية؛ وكانت هذه التهمة أيضاً تهمة القتل؛ ولشد ما تأثر كارترايت وهو اليوم شيخ كبير حينما شاهد حرارة دفاع خصمه لنكولن عن حفيده الذي ما لبث أن برئت ساحته. . .
وأي شيء لعمري أجمل من هذا؟ ألا إنه الخلق العظيم يبهج جماله النفوس ويملك طيبة الأفئدة، إن للناس فيه لقدوة أي قدوة، وإن لهم في صاحبه لأسوة لن يتسنى لهم مثلها إلا في الأفذاذ القلقين الذين ظهروا في هذا الوجود برهاناً على أنه ثمة من صلة بين هذه الأرض وبين السماء!
ونديرالحديث بعد إلى السياسة فنذكر أن المؤتمر الذي انعقد من الجمهوريين في سبرنجفيلد عام 1858 لترشيح عضو عن الولاية لمجلس الشيوخ قد اجتمعت كلمة رجاله على ترشيح لنكولن، ولقد فعلوا ذلك في غبطة وفي حماسة شديدتين وهكذا اتفقت كلمة الجمهوريين على لنكولن يقدمونه لينافس دوجلاس رجل الديمقراطيين في الانتخاب لمجلس الشيوخ؛ فيلتقي بذلك الخصمان ويكون بينهما هذه المرة جلاد دونه كل ما سلف من جلاد؛ وينتهي الصراع بينهما فإذا دوجلاس يرى نفسه وقد ابتعد عن الهدف بقدر ما اقترب منه ابن الأحراج، ثم إذا هو يفطن إلى طعنه سوف تحول بينه وبين غايته المرجوَّة فلا يظفر بها أبداً. . .
وعرف لنكولن مبلغ ما ينطوي عليه الموقف من خطر، وأدرك أنه ملاق منه رهقاً شديداً
وعنتاً. ولكنه يحس في قرارة نفسه أن له في ذلك ما يشفي نفسه، فهو يحمى على الصراع وهو لا تظهر مواهبه على أحسن ما تظهر إلا حين يبتعثها ضجيج الموقف وتستثيرها حرارة الدفاع
وكذلك أشفق دوجلاس وأوجس في نفسه خيفة، ولقد فطن وهو الخبير بأقدار الرجال، البصير بأمور السياسة، إلى دقة الموقف. وأدرك أن ابراهام اليوم غيره بالأمس، فهو منه إذ ذاك حيال قوة لا تنفع معها حيلة ولا يجد في مكر أو دهاء، قوة منشأها عقيدة صقلتها الأيام ووثقتها التجارب وأمدتها الفطرة بمثل ما تمد به التربة الصالحة الشجرة الطيبة من الغذاء الصالح؛ فليس ثمة ما يحول بينها وبين امتداد الجذور وسموق الفرع. وكأنما كانت ماري يوم فضلت لنكولن على منافسه ورضيت به زوجاً، تطلع على الغيب فترى هذا الصراع بين الرجلين ثم تصدر حكمها على هدي وبصيرة وعلى تجربة لا تدع مجالاً لوهم!
وهل كان انتخاب إبراهام لمجلس الشيوخ هو غاية ما يتمناه؟ كلا فما أهون هذا الأمر إذا قيس إلى ما كانت تجيش به نفسه من آمال لم يكن يراها وقفاً على نفسه بل كان

يراها لصالح غيره؛ وهو لن يشعر لها بقيمة أو خطر إلا أن يتسع مداها حتى يشمل أمريكا كلها؛ بل إنه ليرى رضاء نفسه في أن يشقى ليسعد بنو جنسه . . .
لذلك لم يكن عجباً أن يسير كما تملي عليه مبادئه وكما يوحي إليه قلبه، لا كما يتطلبه الانتخاب من محاولات ومداورات وألاعيب وأكاذيب ومرونة وليونة وغير ذلك مما يتذرع به الكثيرون من أصحاب السياسة حين يجعلون غرضهم النجاح في المعركة فحسب.
وما كان إبراهام يرى في الوصول إلى مقعد في الشيوخ إلا إحدى الوسائل لتحقيق غرضه الأسمى وذلك كما محصته الأيام هو حل معضلة العبيد مع المحافظة على كيان الاتحاد
وفيما كان رجال حزبه يقدمونه، كان هو يعد خطاباً حاسماً يعبر به عما في نفسه، ولقد ظل يثبت ما يجري في باله على قصاصات من الورق يدسها في قبعته، حتى استوى له موضوعه فجمعه بعضه إلى بعض ولم يفض به إلى بعض خلصائه إلا قبل إلقائه ببضع ساعات؛ ولقد أخذهم الدهش لما جاء فيه أنه لم ير رأيه منهم سوى صديقه هردون؛ ولكن لنكولن كان إذا صمم على أمر لن يلويه عنه شيء فقال لهم (أي أصدقائي: إن هذا الشيء
قد أجل مدة طويلة أرى فيها الكفاية؛ ولقد حان الوقت الذي ينبغي فيه أن أنطلق بهاتيكم العواطف، فإذا قدر لي أن يكون مصري السقوط بسبب هذا الخطاب فلأسقطن مربوطاً إلى الصدق؛ دعوني ألقى حتفي في الدفاع عما أرى أنه العدل والحق. . .)
ولما انعقد ذلك المؤتمر الجمهوري الذي كان ينتخب عضو الشيوخ قام فيهم لنكولن يلقي خطابه فقال: (حضرة الرئيس، حضرات السادة رجال المؤتمر: إذا استطعنا بادئ ذي بدء أن نعلم أين نحن وإلى أي وجهة، أمكننا أن نعرف ماذا نصنع وكيف نصنعه. إننا الآن بعد خمسة أعوام منذ تلك السياسة التي اتبعت مع وجود ذلك الوعد الوثيق الذي قصد به أن يوضع حد لذلك القلق الذي تبعثه مسألة العبيد، ولكن هذا القلق طالما أخذت تلك السياسة تفعل فعلها لم يقتصر أمره على أنه لم يوقف فحسب، بل لقد ظل يتزايد أبداً؛ وفي رأيي أنه لن ينتهي حتى يفضي بنا إلى أزمة نجتازها. إن البيت الذي ينقسم بعضه على بعض لن يقوم؛ إني أعتقد أن هذه الحكومة لا يمكنها أن تدوم ونصفها عبيد والنصف الآخر أحرار، وأنا لا أبغي أن تنقسم عري الاتحاد كما لا أبغي أن ينهار البيت، ولكني أبغي ألا يستمر في انقسامه؛ ولسوف يكون كله إلى هذا الجانب أو إلى ذاك؛ فأما أن يحول خصوم العبودية دون أي انتشار لها في المستقبل ويضعوها حيث يرتاح الرأي إلى أنها وضعت في الموضع الذي يفضي بها إلى الفناء النهائي، وإما أن يدفعها أنصارها إلى الأمام بحيث تصير قانونية في كل الولايات القديم منها والجديد والشمالي والجنوبي)
ذلك هو الخطاب الذي أفضى به لنكولن إلى رجال المؤتمر في صراحة وجلاء؛ ولقد أشفق أنصاره من لهجته الحاسمة ثم من تلك العبارة التي اقتبسها من الإنجيل وخافوا أن يحملها خصومه على غير محملها فيظنون وهو يريد بالبيت المنقسم على نفسه الولايات الأمريكية أنه يشير إلى قطع العقدة لا حلها وأن سبيله إلى ذلك الحرب . . .
وكان دوجلاس قد نزل بشيكاغو يدعو إلى انتخابه للشيوخ، فوجد في خطاب خصمه ومنافسه، لنكولن، فرصة يغتنمها فاتهمه أنه من دعاة التحرير بالقوة وأخذ يحذر الناس من انتخابه واغتاظ لنكولن لتلك التهمة النكراء، ولكنه لم يستكثرها على دوجلاس، وإنه لواثق أن الأيام ستقذف بحقه على باطل خصمه فيدفعه فإذا هو زاهق
وما كان إبراهام ممن يقرون الثورة مهما بلغ من مقته لنظام العبيد، ولسوف يبقى دستوره
هو حل تلك المسألة بما يتفق مع الصالح العام على أن يكون ذلك في كنف الاتحاد وتحت رايته التي لا يرضى إلا أن تظل خافقة عالية تجمع على محبتها وإكبارها أبناء الوطن كله
وعول دوجلاس أن يخوض المعركة على أساس خصومته لبيوكالون في مسألة دستور كنساس، لا على أساس مخاصمته لنكولن أو مخالفته فيما جاء في خطابه الجديد من أراء كأنه يستعظم أن يكون ذلك الرجل الذي ما زال شأنه منحصراً في ولايته نداً له؛ وإن كان دوجلاس ليحس بينه وبين نفسه مبلغ ما تنطوى عليه نفس الرجل من عظمة

ومبلغ ما يحمله قلبه من إيمان
ولقد شاع خطابه في الناس وتناقلته الصحف في طول البلاد وعرضها، فكان ذلك أبلغ رد على ترفع دوجلاس وذهابه بنفسه؛ وأحس إبراهام مبلغ ما أحدثه الخطاب من أثر في البلاد، لتبين ذلك في قوله: (إذا كان لي أن أمر بالقلم على صفحات تاريخي، وأمحو حياتي كلها عن الأنظار؛ وقد ترك لي أن أختار شيئاً استثنيه من هذا المحو فإني أختار هذا الخطاب فأدعه للعالم لم تذهب معالمه
وليس في قوله هذا شيء من المغالاة، فان خطابه كان أكبر حافز لأول الرأي أن يقفوا من مسألة العبيد موقف الذي يريد أن يصل إلى غاية، فلا تهاون ولا تلكؤ بعد اليوم، وإلا تفاقم الخطب واستعصي الحل، ودخلت البلاد في طور من الفوضى الجامحة فيأتي على الأخضر واليابس؛ كما أن هذا الخطاب كان أهم حادث في تاريخ حياته فبعده صار للسياسة كل همه، وبه قدر له أن يصير في السياسة من رجال أمريكا كلها لا من رجال الينواس فحسب. . .
ولقد خطب لنكولن بعدها في شيكاغو يرد على ما اتهمه به دوجلاس؛ فأعلن أن الوثيقة الكبرى التي يجب أن يتقيد بها الأمريكيون ويسيروا على نهجها هي وثيقة إعلان الاستقلال وأنه يجب أن ينظر إلى مسألة العبيد نظرة إنسانية، وأن يراعي اتفاق مسوري فيما يشجر بين الفريقين من خلاف
وتكلم دوجلاس بعد ذلك في بلومنجتن ثم في سبر نجفيلد، ورد لنكولن عليه في المرتين، حتى بدا له فخطا خطوة لم يسبقه إلى مثلها رجل من قبله في التاريخ السياسي للبلاد، وذلك أنه أرسل إلى دوجلاس رسولاً يعلن إليه أنه يتحداه أن يلتقي رأياه في مبارزة خطابية
يستمع فيها الناس إليهما ويحكموا بينهما حسبما يرون من كلامهما. . .
ولقد ضاق دوجلاس بهذا التحدي وهو الذي يعرف أصالة صاحبة وشدة إيمانه ذلك الإيمان الذي رسخ حتى ما يحتال عليه بحيلة أو تزعزعه مطاولة أو يفل منه جاه أو إغراء، والذي جعل كل وسيلة من وسائل المغالبة بحيث تكون منه كالموج من الصخر لا يلطمه إلا لينحسر عنه ولم يبق فيه من قوة الموج بشيء وأبي على دوجلاس كبرياءه وغلواؤه أن يتخاذل فيتخلف عن هذا النزال فقبله على كره منه قال: (سوف تصبح يداي مليئة؛ إنه رجل حزبه ذو البأس؛ ملؤه الذكاء والحقائق والتواريخ. . . وهو أمين بقدر ما هو أريب حذر، وإذا قدر لي أن أظهر عليه فسوف يكون انتصاري بشق النفس) وقال في موضع آخر (أني لا أحس - بيني وبينك - إني أرغب في الذهاب إلى هذا الجدال؛ إن البلاد كلها تعرفني ولقد سبق أن قدرتني وعرفت قدري؛ وأن لنكولن بالنسبة لي ليعد غير معروف، فإذا أتيح له أن ينتصر عليّ في هذا الجدل - وإني لأود أن أذكر أنه أقدر رجل في الحزب الجمهوري - فانه يكسب كل شيء بينما أخسر أنا كل شيء؛ أما إذا قدر لي الفوز فإني لن أغتم إلا قليلا؛ إني لا أحب أن أذهب في تلك المجادلة معه. . .)
ولكنه على الرغم منة ذلك لم يستطيع إلا أن يجيبه إلى ما طلب؛ وحددت سبع مدن يلتقي فيها الرجلان فيتناظران والناس من حولهما يشهدون ما يكون بينهما. وفرح لنكولن وقد أتيحت له أعظم فرصة ليعبر عما في نفسه؛ وأي فرصة هي؟ ألم يك دوجلاس في الناس أكثرهم استفزازاً له وادعاهم أن يبرز له ما استكن من مواهبه؟ ثم أليست هذه المجادلة كفيلة أن تجمع إلى أنصاره ومحبيه أنصار دوجلاس ومحبيه فيكون الكلام في حشد قلما يتسنى أن يلتقي على هذه الصورة؟ فإذا قدر له أن يكسب هذه القلوب أو أن يصل إلى إقناع هذه العقول فأي فوز هو وأي فخر؟
(يتبع)
الخفيف
الأنباط وأطلال بترا الخالدة
للأستاذ خليل جمعه الطوال
- 2 -
ديانة الأنباط
لقد كان للأنباط ديانة مستقلة، لها آلهتها العديدون، وطقوسها الخاصة. وتدل النقوش والكتابات النبطية المكتشفة على الهياكل والآثار العديدة في بترا على أن الأنباط كانوا

يعبدون الحية وبعض الأجرام السماوية. ففي طريق النبي هارون (الواقع بجوار بترا) لا يزال أثر الحية قائماً حتى اليوم بشكلها المخيف ورأسها المتفرع، وفي كثير من المعابد والمقابر، كأم الصناديق والصياغ وقبر الحديقة - وهي من آثار بترا الرائعة - رسوم عدة للثعابين والنجوم وما إليها. وقد وجد على بعض المعابد النبطية في حوران، تماثيل وأسماء لآلهة كثيرة، كأموس، وأثى، وبعلمين، وفقرة وثيندارتيس اليوناني، وآلييت. أما أشهر هذه الآلهة فهو الإله (ديشوره) إله الشمس، وواهب السرور والخصب؛ وهو عبارة عن حجر أسود طوله أربعة أقدام ومقعده قدمان، ولا يزال موجوداً حتى الآن في مزار النبي هارون؛ والبدو هناك يحيطونه بكثير من التقديس والإكرام، ويعتقدون فيه القوة على شفاء بعض الأسقام. ويقدر المستر جون وايتنج ثمن البخور الذي كان يحرق في بترا في المراسيم الدينية بعشرة آلاف جنيه فلسطيني، وهي قيمة وإن كان في تصديقها مجال كبير للافتراض والشك، إلا أنها تدل على مقدار تغلغل الروح الدينية بين الأنباط. وذكر المستر ج. أدم سمث في مؤلفه الجغرافية التاريخية للأرض المقدسة ص628: أنه قد بلغ من قيمة هذا الإله (ديشوره) أن أقيم له نصبان أحدهما في روما والآخر في بوتيولي

سيادة بترا التجارية

تقع بترا بحكم موقعها الجغرافي في نقطة تجارية عظيمة، وقد كانت حتى منتصف القرن الأول للميلاد نقطة التوريد والتصدير لمختلف البضائع الشرقية، ومركزاً لتبادل المتاجر المختلفة التي كانت تمر بها سائرة بين الجزء الجنوبي لجزيرة العرب، والهند، ومصر، وتدمر، وفلسطين. ولما قدم إليها الأنباط وسكنوها سعوا إلى تحسينها وترقيتها، فبنوا فيها القلاع والأبراج والمعابد والأسواق، والمدارج الرائعة، التي لا تزال قائمة حتى اليوم دليلاً على غابر مجدها، وسالف عزها؛ وقد ساعدهم على ذلك ميلهم الفطري لنقل المتاجر على قوافلهم، وقلة المنافسين لهم، وتفرع طرق تجارية عظيمة بين عاصمتهم وبين سائر الأقطار الأخرى، فقد ذكر (موزل) في كتابه الصحراء العربية ص 515: أنه كان يوجد طريق معبد بين تدمر وبطرا، وأخرى بين بطرا وغزة إلا أن اشتطاط الأنباط في الأجور الغالية التي كانوا يتقاضونها على النقل، وكثرة المصارفات التي كانوا يرهقون بها المتاجر التي ينقلونها، قد حدث بالناس إلى التفتيش عن طريق آخر لحمل البضائع الهندية، فقامت بذلك تدمر وازدهرت حيناً من الزمن حتى عام 273م. على حين تقهقرت حالة بترا التجارية الاقتصادية تقهقراً عظيماً. وفي عام 45م اهتدى هبالوس إلى طريقة الاستفادة من فعل الرياح الموسمية في تسيير السفن، فقل بذلك شأن الطرق البرية عامة، وطريق بترا خاصة، وقد كان ذلك نهاية لعصر بترا الذهبي

أسماء بترا التاريخية

يغلب على الظن أن أول من دعا بترا بهذا الاسم هم الرومان، وذلك لأنها منحوتة في الصخر الأصم، ومعناه باللغة العربية (المدينة الحجرية). وذكرتها التوراة في سفر الملوك الإصحاح الرابع عشر، والعدد السابع باسم (سالع) وفي اللغة العبرية باسم (سلاع) كما ذكرت أيضاً أن أمصيًّا ملك يهوذا قد هجم على الآدوميين في وادي الملح وذبح منهم عشرة آلاف رجل وأنه زحف على سالع (بترا) واحتلها ودعاها (يوقتئيل). وذكر المؤرخ جورجي زيدان في كتابه (تاريخ العرب قبل الإسلام) نقلاً عن المقدسي والمقريزي: أن من أسمائها المشهورة عند العرب (الرقيم). وقد جاء ذكرها أيضاً في القرآن الشريف في سورة الكهف. وذكر المستر باري في كتابه (التاريخ الروماني المدرسي) ص497: أن الإمبراطور هادريان قد زار بترا عام 129م، وأنها دعيت بهذا السم تخليداً لذكراه، كما ذكر أيضاً أنه أمر بسك نقود جديدة باسم بترا الجديد، وقد نقش عليها (هادريان متروبولس)

موقعها وأطلالها:

تقع بترا في الشمال الغربي من معان، وعلى بعد 260كم من عمان عاصمة الأمارة الأردنية، وهي طريق صالحة لسير السيارات في حين الجفاف وانقطاع الأمطار الغريزة حتى قرية وادي موسى التي تبعد عن بترا مسافة كيلو مترين ونصف كيلو متر؛ وهي قرية صغيرة يعتني أهلها بتربية الدواجن ولا سيما الخيل والبغال والحمير، التي يستفيدون منها في موسم السياح، وفيها نبع ماء غزير يستقي منه أهلها ويستفيدون

منه في زراعة بعض الخضر والحبوب. ويعتقد البدو الضاربون هناك أن النبي موسى قد مر بهذه القرية أبان خروجه من مصر يقود أثنى عشر سبطاً من أسباط بني إسرائيل؛ وإذ كان العطش قد اشتد بهم فقد أمر بنحر ما معهم من الإبل والنوق، وبفري اكراشها وشرب ما في داخلها من الماء، ولكن ذلك لم ينفع غلتهم، فكثر تذمرهم عليه، وعلا لغطهم، فركع وصلى لله، ثم انتصب وضرب بعصاه صخراً أصم كان إلى جانبه فتفجر منه ماء عذب زلال، ودعي ذلك المكان بعين موسى. والبدو عامة يقدسون هذه العين، ويعتقدون أن روح النبي موسى تقطن بجوارها وتحوم حولها دائماً وأبداً، ولذلك أقاموا عليها قبوا صغيراً يلجئون إليه كلما انتابتهم آفة، أو حز بهم مكروه، لاعتقادهم أن روح النبي القاطنة حوله تشفيهم من أسقامهم، وتسهل عليهم مشكلاتهم ومعضلاتهم. وكثيراً ما يحرقون داخل هذا القبو مقادير عظيمة من البخور، وعرق الند الزكي الأرج، ويضيئونه بمصابيح فخارية، وبزيت الزيتون الطيب النقي، وذلك إجلالاً لروح النبي كليم الله. وقد حدثني بعضهم أنه في كل عام ينحر في هذا المكان ذبيحة أو أكثر، ضحية عن موتاه، وتقرباً إلى النبي في يوم تقوم فيه القيامة وينتصب الميزان. وتبعد هذه العين عن القرية مسافة ميل ونصف تقريباً. وتحيط بوادي موسى الحقول النضرة، والحدائق الجميلة، من جميع جهاتها. ومما يزيد في جمالها الأخاذ انبساط أطلال بترا أمامها، تلك الأطلال الجميلة التي كأنما فرغ من زخرفتها الدهان بالأمس. وأي منظر أبدع وأجمل، واكثر رونقاً وبهاءً من أن يستقبل الإنسان منظر هذه الطلول المبثوثة المنضدة أمام وادي موسى في اتساق غريب وبديع تحار فيه العقول! هناك تقع الغزالة بأشعتها الذهبية أول ما تقع على أجمل وأبدع هيكل طبيعي، ظل قائماً ومحافظاً على استوائه طيلة هذه الأحقاب التي لم تستطيع قط أن تنال منه شيئاً. قمم مشمخرة في الفضاء تنعكس عليها أشعة الشمس صباح مساء، فترتد في شكل قوس قزح بل وأبدع منه، ومن فوقها قبة السماء الصافية الزرقة، وقد انبسطت تحتها حلة سندسية جميلة من الأعشاب

الخضراء تنساب خلالها شعبة من الماء الضحل، فتظهر فوقها كالحسام الصقيل فوق بساط بديع الوشى والحياكة تجثم فوقه أسراب الطيور البديعة الألوان، المختلفة الحجوم، الساحرة التغريد. إن منظر بترا من وادي موسى لمن المرئيات الجميلة التي تتوثب لها أحاسيس الحيوان الأعجم الهامد الشعور، فكيف بفعلها في الإنسان ذي الخيال المتوثب، والإحساس المتيقظ، والشعور المرهف؟ وإن زورة هذه الأطلال الخالدة لأسنى ذخيرة يقدمها الشاعر إلى خياله، والأديب إلى أدبه، والرسام إلى فنه، والعالم إلى سجله ومذكراته

يخرج السائح من وادي موسى ممتطيا فرساً يقودها دليل بدوي ماهر في حفظ الأسماء والمسميات، ذكي يفهم من الإشارة الموجزة؛ فيشاهد بعد مسير نصف ساعة قبور (بيلون العظيمة) وهي في طليعة الآثار، وتتركب من حجر عديدة تزينها الأعمدة الجميلة المحفورة في الصخر الرملي الجميل، والمسلات (المصرية الهندسة) الضخمة المدهشة، تقوم بينها طائفة من التماثيل الفنية التي ما تزال على روعتها وجمالها كأنما هي من عمل اليوم؛ لم نشهد من الزمان احداثاً، ولا من الأيام عبثاً ودولاً. ومما هو جدير بالذكر والمشاهدة عند زيارة هذه القبور مشاهدة صورة الحية الجميلة الرائعة التي تبلغ ثلاثة عشر متراً طولاً، والتي يتفرع من عنقها سبعة رؤوس فاغرة الأشداق حتى لكأنما قد رتبت لازدراد فريسة سائغة. وصورة أخرى تمثل جواداً، وقد شدّ عليه سرجه وقرط لجامه، وامتطى صهوته فارس لم تبق الأيام من هيكله الرملي سوى بعض أطراف رأسه المهشم وأصابع قدمه المبتورة

السيق

ويبعد عن قبور بيلون مسافة 150 متراً تقريباً، وهو نفق يخترق جبلين رمليين عظيمين، كثير المنعطفات والتعاريج، يبلغ أقصى اتساعه أحد عشر متراً، وقد يضيق في بعض الأماكن حتى لا يكاد يتجاوز الأربعة أمتار، وبالرغم من وعورة هذا النفق فإن خيول وادي موسى لاعتيادها عليه تسير فيه بكل سهولة. يبلع طوله ميلاً وبعض الميل؛ والراجح أنه كان مرصوفاً بالبلاط الرملي الجميل الذي لا يزال مطموراً تحت كثبان الرمال ورواسب المياه المتدفقة، التي كانت تخترقه مارة من وادي موسى، حتى

تصب في وادي العربة. وحوالي عام 50 ق. م. عندما بنى الرومانيون معبد إيزيس في نهاية السيق (أنظر شكل1)
حولوا عنه مجرى الماء إلى أقنية فخارية رميلة تمتد على جانبي السيق، على طول كل من الجبلين العظيمين القائم بينهما، وتوصل هاتان القناتان جبل خيتة بجبل الرملة، وتوجد على امتداد كل منهما آثار جدران ضخمة متداعية، كانت تقوم مقام السدود عند اشتداد تدفق الماء، وعند حدوث الفيضان. ويبلغ علو كل من هذين الجبلين اللذين يخترقها السيق نحو مائة متر تقريباً، وينبت في وسطهما في بعض الجهات شجيرات صغيرة من الدقلي والتين البري العاقر، ومما لاشك فيه أنهما كانا مزينين بطائفة من التماثيل البديعة التي تدل عليها مواضعها المحفورة، والتي عبثت بها الأيام فيما عبثت من آثار بترا الرائعة. وقد كان مدخل السيق سابقاً مزيناً بالأقواس الرميلة الجميلة التي تشبه شكل قوس قزح، وبالمحاريب الشاهقة الجميلة التي لا تزال آثارها الرائعة تنطق بسالف عظمتها وغابر مجدها بدليل ما اكتشف عليها من النقوش النبطية الكثيرة. . .

(يتبع)

خليل جمعه الطوال

رسالة الفن

فرنتس شوبرت

للأستاذ محمد كامل حجاج

بقية ما نشر في العدد الماضي

وقد أثر فيه موت بيتهوفن تأثيراً عميقاً، وما فتئ يظهر عليه البشر والحنان، هذا الوقت ظهرت قطعة المرنجلة والأوقات الموسيقية ولكنه كانت تزيد حالته سوءاً وبؤساً من يوم لآخر، فكان يشرب لينسى همومه؛ ثم كتب الأربعة عشر لحناً التي يقال أنهم وجدوها في أوراق بيتهوفن، وقد جمعت باسم (غناء البجع) أي الغناء الأخير، إذ يقولون أن هذا الطير يغني قبل موته. وفي 26 مارس سنة 1828 أقام حفلة موسيقية من مؤلفاته لأول مرة، فكان الإقبال عظيماً جداً والدخل وافراً. ولكن صحته كانت تتدهور من وقت لآخر حتى لزم الفراش في 11 نوفمبر ثم فاضت روحه المتألمة في التاسع عشر منه سنة 1828 وأصدقاؤه يحفون به، ودفن بجانب بيتهوفن. وفي سنة 1888 نقل الاثنان إلى المقبرة المركزية بفينا بجانب موزار وجلوك

وكانت هيئة شوبرت كألماني شريف ثقيل الحركة قليلاً، وكان ساذجاً مثل هيدن يلهو بأتفه الأشياء. له ولع شديد باجتماعات الأصدقاء التي تدار فيها كؤوس الجعة بكميات وافرة. يضع على عينيه نظارة. شعره جعد، كبير الوجه، غليظ الشفتين، ربعه، كبير البطن. وكان متأجج الشاعرية نابغاً مبدعاً نقي القلب ملك الأغاني كما عبرت عنه مدام ويظهر أن الحب لم يعبث بفؤاده إلا قليلاً جداً. ومن صفاته المميزة أنه كان ذا طبيعة سليمة كريمة مرهفة الحس لا تكتم في باطنها شيئاً. وقد قالت أخته كاتي: (كان طيب القلب جداً يأنف من الحسد، وكان لا يكتم سروره وطربه عند سماع الموسيقى الراقية، ويمسك بيديه رأسه ليتفرغ للإصغاء. وكان إعجابه بموزار وبتهوفن لا حد له. وقد جرى ذكر بيتهوفن على لسانه وهو يلفظ النفس الأخير، وهذا ما أولوه من أنه أراد أن يدفن بجانبه

كان شوبرت شاعر النفس، وقد قال عنه ليزت: (أنه أكبر شعراء الموسيقى على الإطلاق) وكان أشهى مجتمع له هذا النادي الأخوي الصغير المؤثث بأفقر الأثاث؛ وكان يرتجل فيه ألحانه الخالدة. وكانوا يسمون هذه الجلسات الرائعة (شوبرتياد) وكان النبوغ فيها ينير الشباب والصداقة. وقد قال ماير هوفر (إنني لا أنسى أبداً الساعات الهنيئة التي قضيناها في هذا المسكن الحقير ولم يكن عندنا غير بيانو رديء ومكتبة فقيرة وأثاث حقير ونور ضئيل؛ وفضلاً عن ذلك فإني قضيت هناك أسعد أوقات حياتي): وجاء في خطاب لصديقه الحميم شوبر أرسله إليه في 2 نوفمبر سنة 1821: (وددت لو كنت معنا لتنظر كيف تولد هذه الألحان الشجية وهي تموج بالفكر. وغرفتنا في كانت محبوبة جداً، وبها سريران وصفه ومدفأ حار وبيانو؛ وكنا نأتي بالجعة ليلا وندخن ونتسامر فيما مر في النهار ونطالع؛ وحينما تحضر صوفي ونيفل نشرع في الغناء

كانت هذه الاجتماعات الفقيرة البريئة التي تجمع أصدقاء شوبرت وهم يمرحون ويتسامرون ويغنون مؤلفاته التي كان يرتجلها تعد من اسعد أوقاته وأعظم عزاء لبؤسه وشقائه وسط قومه الذين لا يفهمون موسيقاه الساحرة ولا يقدرونها

إننا نستطيع أن ميز في مؤلفات شوبرت عدة مجموعات غنية قيمة غير متساوية في القوة

أولاً: موسيقى البيانو - ثانياً: التربو والكواتوور والكنتيت، ثالثاً: السانفوني - رابعاً: المؤلفات المسرحية.

خامساً: أغاني لليدر. سادساً: الموسيقى الدينية.

إن موسيقاه للبيانو لجديرة بأن توضع في صف واحد مع شومان وشوبان وستيفن هيلير وهي تشمل السوناتات والفانتيزي وأي المرتجلة. وقد كتب عشر سوناتات أشهرها الست الأخيرة. ولا نزعم أنه جدد في الشكل شيئاً ولكنه بث فيها صفاته العادية من الحنان واسترساله في التأملات والخيالات الرقيقة العاطفية؛ وأهم ما كتب في السونات الخامسة. وهي من مقام لامينور. وأما القطع المسماة فهي تستحق ما نالته من الشهرة والذيوع، وفيها من المهارة الفنية السهلة مالا يوجد عند من سبقوه من كتاب قطع البيانو. ولكن بعض مواضيع منها يؤخذ عليها أنها عادية، وهذا يرجع إلى سرعة الكتابة والتلحين؛ ولكن بعض هذه الهنات لا تحجب فتنتها الساحرة. إن نظرنا إليها وجدناها كالماء الصافي العميق نشاهد في قراره كل الخصال الشريفة المحبوبة التي تختلج في روح شوبرت وهذا النوع يتفاوت في الأهمية والقيمة

أما موسيقاه الخاصة بالآلات الوترية فانه أظهر في بعضها نبوغاً مدهشاً، ولو طال أجله لارتفع إلى ذروة الفن كبيتهوفن. وقد ابتدأ بكتب الكواتوور وهو في الرابعة عشرة وله منها عشرون؛ وكتب كثيراً من الثريو والكنتيت يعد بعضها من خير ما جادت به القرائح الجبارة، ولاسيما ما كتبه منها سنة 1824 وسنة 1826 وهما الكواتوور والذي من مقام سي مينور

ولقد ترك لنا شوبرت ثمانية سانفونيات الأولى كتبها وهو في السادسة عشرة وأهمها اثنتان التي من مقام أي دو سنة 1828 أو السنة التي مات فيها وقد هجرت في أول الأمر لصعوبة توقيعها ثم عثر عليها شومان في أوراق فردينان شوبرت وكان من المعجبين به. وقد أغدق عليها شومان من أنواع التقريظ ما شاءت له حماسته وقال أنها تكاد توضع في صف سانفوني بيتهوفن

الموسيقى المسرحية

كتب شوبرت ثمانية عشر مؤلفا للمسرح منها اثنان مفقودان، وواحد لم يتم، وأربعة منها أوبريت، واثنان موسيقى للمسرح وفيها كورس وفاتحات وانتراكت وميلودرام ورقص ويبقى بعد ذلك خمس أوبرات بالمعنى الصحيح، أهمها سنة 1822 وفيرا براس سنة 1823 وكل مهما ذات ثلاثة فصول. يتساءل الناس لمَ لمْ ينجح شيء من مؤلفات شوبرت المسرحية؟ لأنه لم يوهب الذوق المسرحي، وقد دهش منه ليزت إذ قال: (إن الذوق الأدبي الذي برهن عليه منذ صغره في اختياره لمتون الليدر قد فارقه وخانه في متون الأوبرات إذ كان يظهر له الغث والسخيف قيما حسنا، وكان يكتب له متون أوبيراته أصدقاؤه الذين لم يضربوا بسهم وافر في البيان ولهذه الاعتبارات لم تعش

موسيقاه المسرحية

لقد نبغ شوبرت في موسيقى الغناء حتى صاغها بمعنى عميق من التعبير الصوتي؛ وقد كتب نحو خمسين نشيداً (كور) لأصوات الرجال وعشرين لأصوات مختلفة، ولكنه قبل كل شيء صاحب الصولجان في الليدر التي سبكها في نحو مائة شكل من التعبير إذ تناول جميع أنواع الشعر فلحنها على جميع أنواع الأوزان إذ عالج كل ما وقع في يده من الشعر الوجداني والقصص والدرام؛ ورغماً من مرونة عبقريته وسهولتها كان يسود على موسيقاه تعبيره الشخصي إذ كان الرجل الحساس في القرن الثامن عشر

إن ليدر شوبرت تمثل كل صفات الإبداع والابتكار التي أوجدتها الطبيعة فلا تجد فيها شيئاً مصطنعاً لأنها ليست نتيجة الثقافة، ولم تتفتح في حدائق المدنية بل تفجرت كالسيل في محراب عميق بطبيعة لم تنتهك حرمتها؛ وترى موج الألحان يسيل منها كمنبع لا ينضب ماؤه. تتسرب موسيقاه إلى أعماق النفس فتهيمن عليها ويشعر الإنسان حينما ينصت إليها بتأثير لا يستطيع أن يثبت أمامه كما نفتتن بصباح جميل

عليل النسيم من أيام الربيع وقد كسا الطبيعة بأبهى حلله وعطر الأرجاء بعبقه الشذي.
وقد تناول في تلحينه ليدر جوت وشيليروهين وولتر سكوت وأوسيان وغيرهم من الشعراء
الموسيقى الدينية
يذكر الناس أن شوبرت عرفنا بحالته النفسية في خطابه الذي كتبه في يوليه سنة 1825 عندما لحن نشيد العذراء إذ قال: (لا يمكنني أن أتناول موضوعاً دينياً ما لم أشعر بالتقوى حينما تتملكني. ولم يكفه أنه أقتعد أرفع مكانة في الليدر والسانفوني وموسيقى الغرف بل أراد أن يثبت للجمهور مكانة لا تقل عنها رفعة في الموسيقى الدينية
وخلاصة القول أن شوبرت يعد من أكبر الشخصيات التي يشار إليها بالبنان في عالم الموسيقى. وقد اختطفته المنية وهو في نضرة شبابه أي في الواحدة والثلاثين؛ ولو عاش لجلس مع كبار النوابغ في صف واحد. وكأنه أحس بقصر عمره فطفق يسرع في إنتاجه بشكل أدهش الناس كما فصلنا ذلك في موضعه. وكان يتعزى في بؤسه وسوء حظه وسقمه بأصدقاء حميمين يحيون معه هذه الحفلات الفنية البريئة حتى ينسوه آلامه. وهناك كان يرتجل الليدر الشجية. تلقى دروسه الأولى بشكل ناقص لا يثمر ولكنه كان معلم نفسه. وكان أستاذه هولزر يبتدئ له بالقاعدة فيسبقه بتعريفها بإلهامه وذكائه فكان يقول له: (إنني لا أستطيع أن أفيدك شيئاً!) وقد وهب شاعرية موسيقية لم يوهبها غيره تفيض على تلحينه فتكسبه أرق العواطف وابلغ التعبيرات وأدق الأوصاف، هذا بخلاف رنة الحزن الحلوة التي تسود تلحينه وتصل إلى سويداء القلوب
كان طيب مرهف الحس محباً للخير لا يحسد غيره من كبار الموسيقيين بل كان يعجب بهم ويغبطهم؛ وكان محبوباً لدى الشعب قبل الأخوان. كانت موسيقاه في تقدم مطرد نحو الرقي والكمال بدليل أن مؤلفاته في سنيه الأخيرة كانت من أرقى ما كتب؛ ولو طال عمره قليلاً
لأتى بالمعجزات والمدهشات
محمد كامل حجاج
رسالة الشعر
حين أطرقت ملهمتي
للأستاذ محمود حسن إسماعيل
(لفها صمت عميق في مساء يوم من أيام اللقاء فبدت في هالة
من الجمال الحزين. . . أشبه ما تكون بأغنية سماوية على
شفة ملاك نائم!!)
أطرقَت كالخيال في خاطري السَّا ... جِى، وكالنَّبْع في الظلال الحزينَه
تتملى في صمتها، ذات جَفْن ... شاعرٍ في الدُّجى يُقاسي شُجونه
أطرقت! يا لكُرْبة النَّاي! من يُذْ ... كي هواهُ؟ ومن يُناغي لحونهْ
مَنْ يواسيه إنْ طَغَتْ ثورة القل ... بِ فهاجت لها الهمومُ الدَّفينَهْ
من لَهُ؟ آهِ! مَنْ لأنغامِهِ السُّو ... دِ إذا شَّبتِ الليَّالي أنينَهْ؟
كم شدا في ظلالها نعِيمَ اللَّحْ ... ن، وألقى على يديْها رنينهْ!
ناغماً بالهوى كَقُمْرِية الفَجْ ... ر، طَرُوَباً كالنَّحْلة المفْتُونهْ
مالهُ عادها فصدَّت أمانيه ... وظَلَّتْ في الصمْتِ وَلْهى حزينه؟
أطرقتْ في الظلام كالأبد الوسْ ... نانِ ما فَرَّت الدياجي سِنينَهْ
صَمْتهُ الغَيْب غلتفه يدُ الل ... هِ، وأخفت عن العقول كمينَهْ
مِثْلَ رَيْحانة الماء جفاها ... نَسَمٌ منه، فاستطابَتْ سكونه
يعبقُ المرجُ في الدجى من شَذاها ... وَهْيَ وَسْنَى بين الروابي سجينه!
إِيهِ مَنْ تُلْهم الأغاريد، تَنْدي ... مِن صفاء. . يا بؤس مَن تلهمينه!
ظِمِئَ النَّايُ للتغَّنيَّ. . فهاتي ال ... كأس، وارْوِي ليَاعَهُ وحنينهَ
أَنْتِ في الصمت آيةٌ فجَّر الل ... هـ عليها من الجلال مَعينه
فاْصمتي! أوْ فعاوِدي الصبَّ بالسَّحْ ... رِ! وناغِي هُيامَهُ وَفتونهْ

بَيْتُ شِعرٍ على جبينك غافٍ ... أَيقظ الصمت سرَّهُ وفنونهْ
. .وفؤادي الذي تكشَّفَ نجْواً ... هُ، وذَرَّى على الخيال دفينه
وعلى الأعْيُن السَّواجي صلاةٌ ... أنا منها في خشعةٍ وسكينهَ
ما لنُسَّاكها وجودٌ! ولكن ... عابدُ الحسن - وَحْده - تعرفينه
وعلى الصدْرِ هزَّةٌ جاوَبتْها ... ضجةٌ في مشاعري مجنونه
خِلْتُ منها وزَفرةُ الصمت تغلي ... نارَ زق من الأسى تنفخينه
وعلى الثَّغْرِ جدولٌ من أغان ... آه لوْ في جوانحي تَسْكبينهْ
!نشرَتْ مهُجتي القِلاع على شَطٍّ ... يهِ - شوقاً - فَرَحْمتا للسفينهْ
!لم تجدْ مَرفأً لديهِ سوَى الصَّمْ ... تِ، وشَطٍّ مغُيَّبٍ ترقُبينهْ
!وظلالٍ ورآء كونٍ بعيدٍ ... فجَّر الصَّمْت في رباها عُيونهْ
!طيْرُها نام في رُفاتِ الأغاني ... بعدما أسْكرَ التغَنِّي غُصونهْ
!فَلأيٍ من الصَّفافِ سيمضي ... سابحٌ في هواكِ لا ترحَمِينهْ
قد هَجَرْتِ الخيالَ والشَّعْرَ والصَّم ... ت. . . وخلَّفْتِ ناره وجُنونهْ
وأمحي كونُكِ المجسَّمُ. . . إلا ... قَبسٌ من صَبابةٍ تُشْعِلِينهْ
!رُحْتِ تُذكينهُ من النظرِ السَّا ... هي وفي مَعْبَدَ الهوى تُضْرِ مينهْ
رَحْمَةً بالحبيب يا هالة الوحْ ... ي! وزُفِّي ضياكِ يُسْني عُيونهْ
وابسمي! أو تكلَّمي! لا. . وإن شِئ ... تِ فَلحْظاً على دَمي تَنْشُرِينهْ
يُنْشَرُ السَّحْرُ والهوى والأماني ... فوْق دُنْيا بخاطِري مَحْزونهْ
أو فَصَمْتاَ. . . ورَفْرِفي حَوْل رُوحي ... واسْكُبي الوْحيَ في ظِلال السكينهْ
أنْتِ نَّسيتِنِي هدوئي في (الكُو ... خِ) وأفْنَيْتِ لَيَ ضَجيجَ المدينهْ
وجعلتِ الأكْوَانَ لْحَناً ... ليتَ - يا لوْعةَ المُنَى - تعزِفينهْ
وترى ماتَ في يدَيَّ حنيناً ... وغليلُ الهْيُاَمِ أبَلَى مُتونهْ
فأبعثيهِ من البلَى يتغنَّى ... مثلما كنتِ دائماً تَسْمَعِينهْ
لَفْظَةُ منكِ فِتنهُ وحياةٌ ... تتهادَى بهاَ الأغاني السجِينهْ
أنْتِ يا سُلْوَتي على نكَدِ الدني ... اوصَفْوِي على اللَّيالي الْحزِينهْ
شابَ عمري وَلاَتَ. . والرُّوح أضَحتْ ... مِنْ أساها يتيمةً مسكينهْ
!والرَّزايا أقَمْنَ عُرْساً لحظِّي ... لا تمنَّيْتُ مرَّةً تشهدينه
أنَعايا بشقْوتي! والمزامِي ... ر بكفَّي شَقِيَّةٌ مَوْهونه
. .يتَسلَّى بنا الوُجودُ. . . ولكنْ ... سُلْوَةُ الذَّئبِ بالشَّياهِ السمينه
وَنغُنَّيهِ مُلْهَمين حيارَى ... بْينَ رِجْسٍ، وغفلةٍ، وضغينه
فاعذُريني إذا ألحت بِيَ النَّجْ ... وَى لصوتٍ مقدَّسٍ تكتُمينه
فأنا ظامِئٌ. . . وصَوتُكِ للرُّو ... ح عَبيرٌ تذيعُهُ (ياَسَمِينه)
محمود حسن إسماعيل
مداعبة صديق
للأستاذ محمود غنيم
تعزيه موجهة إلى صديقنا الشاعر (. . .) عن سبعه جنيهات
احتال عليه دجال فسلبه إياها أحوج ما يكون إليها
هوَّن عليك وجفَّفْ دمعك الغالي ... لا يجمعُ اللهُ بين الشَّعر والمالِ
إنَّا لفي زمن فَقْدُ النقود به ... يُدمي العيون كَفقيد الصحب والآلِ
أدَّ التعازي في مال وفي ولد ... لا فرق ما بين أموالٍ وأنجالِ
مِنْ أين أصبحت ذا مال فَتُسْلَبَهُ ... يا أشبه الناس بي في رقَّةِ الحالِ؟
فيالها سبعةً من حبيبك انطلقت ... وأنت أحوجُ مخلوقٍ لمثقالِ
فريسةٌ من فم السنور قد نُزِعَتْ ... شَتَّانَ ما بين سِنَّوْرٍ ورئبالِ
عوَّدْ نقودك واعقِد حولها عُقَداً ... وثيقةً تتحدى كلَّ حلاَّلِ
قالوا خلت يدُهُ من كل ما ملكت ... فقلت بل رأسُه من عقله خالِ
لم يَبْقَ عندك ما تخشى عليه فَنمْ ... كما أنامُ قريراً ناعمَ البالِ
نفسي فداؤُك ليت اللصَّ صادفني ... قد يغلبُ اللِّصَّ بالإفلاس أمثالي
يا ليت شعرِيَ ماذا أنت صانعُهُ؟ ... أتزمعُ الصومَ حتى شهرِك التالي؟
عش من قريضك في ريٍّ وفي شبع ... إن كان ينتفعُ الظمآنُ بالآلِ

أقسمت ما سلبت تلك النقودَ يدٌ ... بل وَدَّعَتْ هرباً من جيبك البالي
الذئب لا يشتهي لحمَ ابنِ جلدته ... فكيف غَرَّرَ دَجَّالٌ بدجالِ؟
(كوم حمادة)
محمود غنيم
البريد الأدبي
مجمع أدبي مصري
منذ دخل صاحب المعالي الدكتور هيكل باشا عضواً في هذه الوزارة وهو يفكر مجداً في إنهاض الأدب وتوجيه الثقافة إلى الوجهة المنتجة. وقد طالع بهذا العزم فريقاً من أصدقائه الأدباء فبحثوا معه الأمر ورسموا له مشروعاً. فلما ولي الأمر في وزارة المعارف عقد النية على دراسة هذا المشروع فأصدر القرار التالي بعد الديباجة بما أنه قد لوحظ أن الحركة الأدبية في مصر وأن كانت قد نشطت وأصبح لها أثر ظاهر في تثقيف الجمهور وتوجيهه، إلا أنها لا تزال يعوزها التنظيم الذي يكفل لها اطراد التقدم وحسن التوجيه. وبما أنه قد نبتت فكرة الدعوة إلى إنشاء مجمع أدبي مصري يقصد به على الأخص إلى تنظيم الحياة الأدبية في مصر وإيجاد صلة منظمة تربط الأدب والأدباء بالجهود التي تبذلها وزارة المعارف في تنشيط هذه الناحية وتعاون على تنمية الثروة الأدبية في البلاد - على غرار ما هو متبع في البلاد ذات النهضات الأدبية الكبيرة. وبما أننا نرى تكوين لجنة تقوم بدراسة هذا المشروع والتقدم باقتراحاتها في نوع الوسائل الكفيلة بتحقيق الأغراض المتقدمة
لذلك قرر:
مادة وحيدة - تؤلف لجنة برياستنا وعضوية: - حضرة صاحب المعالي الشيخ مصطفى عبد الرزاق بك والدكتور طه حسين بك والأساتذة أحمد أمين وخليل مطران وعباس محمود العقاد وإبراهيم عبد القادر المازني وتوفيق الحكيم: لبحث وسائل تنظيم الحركة الأدبية في مصر
الأدب العربي في مصر منذ الفتح الإسلامي
أصدر وزير المعارف القرار التالي. وهذا نصه بعد بالديباجة. بما أن للأدب العربي في مصر طابعاً خاصاً اختلف في العصور الأولى للفتح الإسلامي عنه فيما تلا ذلك من العصور ويتناول هذا الأدب إنتاج الكتاب والشعراء الذين وفدوا من البلاد العربية والإسلامية إلى مصر وأقاموا بها كما يتناول إنتاج الكتاب والشعراء المصريين وبما أننا نرى ضرورة العناية بدراسة هذا الأدب في مختلف عصوره، وعلى الأخص تاريخه وصلته بالحياة العامة المصرية - اجتماعية وسياسية واقتصادية - وإظهار الصورة التاريخية التي يرسمها هذا الأدب المصري في عصوره المختلفة ولما كانت دراسة هذا الموضوع تتطلب الاستعانة برأي طائفة من المشتغلين بالأدب العربي في مصر لتعرف الوسائل التي تؤدي إلى حفز الهمم لإبراز هذه الناحية قرر:
مادة وحيدة - تشكل لهذا الغرض لجنة برياستنا وعضوية: حضرة صاحب المعالي الشيخ مصطفى عبد الرزاق بك ووكيل وزارة المعارف العمومية. والدكتور طه حسين بك. والأستاذ أحمد أمين. والأستاذ علي الجارم بك. وأستاذ الأدب العربي بدرا العلوم
وسائل مكافحة الأمية بين طبقات الشعب
أصدر وزير المعارف قراراً بإنشاء لجنة لبحث وسائل مكافحة الأمية بين طبقات الشعب، سواء منهم من كان في سن الإلزام أو من تجاوزه. وهذا هو القرار:
بعد الإطلاع على التقرير المقدم من اللجنة التي عهد إليها بحث مشروع مكافحة الأمية وبما أن جهد وزارة المعارف في مكافحة الأمية بنشر المكاتب العامة يقتصر أثره على الأطفال الذين في سن الإلزام، ومن نتيجة الاقتصار عليهم أن تبقي أغلبية الشعب الساحقة غارقة في غمار الأمية
وبما أننا نرى ضرورة اتخاذ الوسائل الكفيلة بالقضاء على الأمية لتهيأ لسواد الشعب المصري وسائل الاستنارة واكتساب قسط من الثقافة يرفع من مستواه ويصله بالحياة الصالحة الجديرة بالشعوب الناهضة
وبما أننا نرى تشكيل لجنة تعني بدراسة هذا الموضوع من جميع نواحيه وتتقدم باقتراحاتها لتحقيق الغرض المتقدم
لذلك قرر:

مادة وحيدة - تشكل لهذا الغرض لجنة برياستنا وعضوية: وكيل وزارة المعارف، الوكيل المساعد لوزارة المعارف، مراقب التعليم الأولى، محمد فهيم بك، إبراهيم تكلا بك، الأستاذ محمد مظهر

مشروع أعداد المعلمين لمدارس التعليم غير الأولية

بين المشروعات التي اشتغلت بها وزارة المعارف، مشروع إعداد المعلمين للمعاهد غير الأولية. وقد اتخذت الوزارة القرار التالي في صدد هذا:

بعد الاطلاع على الاقتراحات المقدمة من اللجنتين اللتين شكلتا لبحث موضوع إصلاح دار العلوم ومعهد التربية للبنين

وبعد الاطلاع على التقرير المقدم من وكيل الوزارة المتضمن رأيه في وسائل إعداد المعلمين للمعاهد غير الأولية

وبما أننا نرى وجوب العناية القصوى بحسن إعداد المعلم وذلك بوضع الأساس الصحيح الذي يقوم عليه كل إصلاح في وسائل التربية والتدريس

وبما أننا نرى - لتحقيق هذه الغاية - تشكيل لجنة تقوم بدراسة هذه المشروعات والاقتراحات وتتقدم برأيها في خير الوسائل لحسن إعداد المعلم وإصلاح المعاهد التي تقوم بهذا الإعداد

لذلك قرر:

مادة وحيدة: تشكل لهذا الغرض لجنة برياستنا وعضوية وكيل وزارة المعارف. الوكيل المساعد لوزارة المعارف. مراقبي التعليم الابتدائي والثانوي وتعليم البنات والتعليم الحر بالوزارة. عميد كلية الآداب. عميد كلية العلوم. ناظر دار العلوم ناظر معهد التربية للبنين

حول الرمزية

يسألني الأديب الفاضل السيد كامل الشرقاوي (الرسالة 256) (هل الغموض والإبهام من مستلزمات الرمزية وهل بدونهما لا تكون؟)

فالرمزية - حسبما بينت في الرسالة رقم 251 - على ألوان. فإن كانت الرمزية ناهضة على ما وراء الحس أو الطبيعة غلب الغموض بل قل الاستغلاق عليها (عند مالارميه وفاليرى وكلوديل مثلاً)، وإن كانت ناهضة على التأثر والإيقاع والتخيل المنسرح قلَّ الغموض فيها (عند فرلين ودي رينييه مثلاً). وأما الرمزية الناهضة على الدفائن والخواطر والواردات من حيث القابلية والإيهام والتلويح والتمثيل من حيث الأداء فإنما ينبسط على نواحيها ظل لطيف. ولتجدن بيان هذا في (التوطئة) التي صنعتها لمسرحيتي (مفرق الطريق)

وأما قصة جيران و (وليم بليك) فإني لا أزال عند رأيي (ارجع إلى الرسالة 251). ومما يعزز هذا الرأي قول (رودان) النحات في جيران، وتصيبه في المقدمة التي عملتها فنانة أمريكية (لا يحضرني أسمها الآن) لمؤلف لجبران يضم عشرين صورة وعنوانه: (وهو مطبوع في الولايات المتحدة)

وبعد، فهذه الرمزية تشق طريقها في الأدب العربي، إذ تطّرد الكتابة فيها (ولا سيما في الرسالة). إلا أن بعض ما كتب لا يمحصه نقد ولا يمدّه اطلاع، وليس بالقارئ اللبيب حاجة إلى التنبيه

بشر فارس

بين الرافعي والعقاد

جاء في مقال الأستاذ سيد قطب المنشور في عدد (الرسالة) الغراء رقم 256 ما يأتي:

إنه راح يتقصى ما قيل فيما يقرب من قول العقاد: فيك مني ومن. . . سائراً في . . .) تقصيه على النسق الخالي من كتب النقد العربي لقدامة وأبي هلال العسكري ومن ينقلان عنهما (كذا). . . من تتبع المعنى تتبعاً زمنياً وحسبان كل شاعر متأخراً أخذ هذا المعنى عن شاعر متقدم وزاد فيه أو نقص، وتصرف أو ولد. . . الخ)

وأنا لا أريد أن أخوض غمار المعركة وقد أرادني الأستاذ الزيات على الصمت حيناً، غير أنه يؤسفني أن أجد فينا من يحاول أن يحط من قدر القدماء ومن أجدادنا وأن ينظر إلى تراثهم الغالي نظرة احتقار وهو ما يزال في أول الطريق. . . ثم إني أريد أن

أنصف الأدب والتاريخ؛ فالذي يقرأ هذه الفقرة من كلام الأستاذ قطب يخيل إليه أن قدامة بن جعفر كان يعرض للبيت من الشعر (فيتتبع المعنى تتبعاً زمنيًّا) وأنا قرأت كتابي نقد الشعر ونقد النثر لقدامة فما وقعت عيني على شيء من هذا، بل هو نقد وتحليل يستطيع الأستاذ قطب أن يرى رأي الذين يفهمون الأدب لو قرأ في المقدمة التي كتبها الدكتور طه حسين لكتاب نقد النثر الفقرة الأولى ص 17 والفقرة الأولى من ص18 من طبعة دار الكتب المصرية، ثم لو قرأ في التحقيق الذي كتبه الأستاذ عبد الحميد العبادي الفقرة الأولى ص 35 والفقرة الثانية ص 36 من نفس الطبعة. . . وإني أرجو الأستاذ قطب أن يمعن في قراءة كتابيّ النقد لقدامه لعله يرى خطأ هذا الرأي، فهو في كتابيه لم يكتب حرفاً في الطرقة التي أشار هو إليها والتي لزمها القاضي الجرجاني في كتابه الوساطة بين المتنبي وخصومه، وهي طريقة لا تخلو من فائدة جليلة. . .

أما أبو هلال العسكري فلقد قرأت له كتاب الصناعتين، وكتاب ديوان المعاني، وكتاب محاسن النثر والنظم فما عثرت على شيء مما قال الأستاذ قطب

ولست الآن بسبيل أن أعرض لكل كتاب فأكشف عن الغرض الذي رمى إليه المؤلف وعن طريقة الكتابة وأبواب الكتاب، ولكني أريد أن أطلب إلى الأستاذ قطب أن ينبئني عن تفسير قوله (ومن ينقلان عنهما) ثم عن مواضع النقل البارزة في الكتب السابقة فهل لي أن أسمع منه كلمة هادئة في هذا الموضوع دون أن يتحدث عن القديم والجديد، فهذا باب آخر. . .

كامل محمود حبيب

تجميل وزارة المعارف وتشجيع رجال الفن

رأت وزارة المعارف أن في مصر طائفة كبيرة من رجال الفن الذين يبتدعون مختلف اللوحات الفنية الرائعة والتماثيل المنحوتة الجميلة، ثم لا يجدون الإقبال عليها مما يجعلهم في حالة يستحقون من أجلها المعاونة حتى يمكنهم النهوض بفنهم

وقد اعتزمت الوزارة إزاء هذا تجميل مكاتب كبار الموظفين بوضع اللوحات الفنية لرجال الفن المصريين كما اعتزمت تجميل حديقتها بوضع التماثيل فيها

وتأمل الوزارة أن تحذو الوزارات والمصالح الأخرى، والأسر الكريمة الراقية حذوها في اقتناء تلك الآثار الفنية الرائعة التي يضيق عنها متحف الفن، رغبة في تربية ملكة الذوق السليم في النشء من ناحية، وفي تشجيع رجال الفن من المصريين على المضي في ابتداعهم وإنتاجهم من ناحية أخرى

منحة المجلس البريطاني لخمسة من طلبة الآداب

تلقت الجامعة المصرية، كتاباً من المجلس البريطاني، ذكر فيه أنه يمنح خمسمائة جنيه لخمسة من طلاب قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب، تقسم بينهم بالمساواة فتتاح لهم بفضل هذه المعاونة المادية زيارة إنجلترا لتوثيق عرى الصداقة وتمكين الأواصر العلمية بين مصر وإنجلترا

وقد أعد لهم المجلس مقراً صيفياً في أكسفورد لهذه الغاية، وقد عرض هذا الكتاب على مجلس الكلية، فتقبله شاكراً، وسيعرض على مجلس الجامعة في اجتماعه يوم الثلاثاء القادم، ثم تختار كلية الآداب الطلاب الذين يسافرون في هذه البعثة الثقافية

بين الرافعي والعقاد

قرأت ما كتبه الأستاذ كامل محمود حبيب فيما رأيته من صيحة قول العقاد:

فيك مني ومن الناس ومن ... كل موجود وموعود تؤام

لأن كل شيء في الكون لا يخلو من حسن يسوغ إجراء بيت العقاد على عمومه، فلم يسعه إلا أن يعترف بعموم هذا الحسن ولكنه فسره بمعنى الدقة في الصنع وجمال الخلق

وهو يرى أن هناك جمالين: أحدهما جمال بهذا المعنى الذي ذكره من دقة الصنع وجمال الخلق. وثانيهما جمال لم يستطع تفسيره، بل قال إنه الجمال الذي يجذب القلب، ويأسر الفؤاد، ولا يمكن أن يجده الإنسان في الدودة وفي الدبابة وغيرها مما تشمئز منه النفس، ويعافه الذوق

وإني لأقول للأستاذ الفاضل إنه لا جمال في الدنيا إلا بمعنى دقة الصنع، وجمال الخلق، وهو عام في كل ما خلق الله تعالى، وإن كان لكل نوع من ذلك جماله الذي قد يكون

قبحاً في غيره
ولا شيء بعد هذا في أن يقول العقاد إن معشوقته فيها من كل شيء من هذا الكون الجميل، وهذا كما يقول إن زيداً فيه جزء من كل حيوان فيصح لك هذا القول، لأن الحيوانية العامة جزء من زيد، وهي جزء من كل حيوان
بل يجب أن نقبل هذا من العقاد كما نقبل منهم تشبيه الوجه الحسن بالبدر، مع أنك إذا ذهبت تستقصي في البدر ما تستقصيه في بيت العقاد يضيع منك هذا التشبيه الجميل، ويكون لك في البدر من الجبال والكهوف وما إلى ذلك ما في بيت العقاد من الدود والذباب ونحوها
على أن الأمر لا يقف في بيت العقاد عند الصورة الحسية من معشوقته، بل يتناول مع هذا صورتها النفسية، فهي حلوه ومرة، وهي نعمة وبلاء، وهي سعادة وشقاء، وهي في مرارتها أشد من الصاب، وإن شئت قلت من الملح الإنجليزي الذي تهكم به الرافعي رحمه الله، وهي في هذا حلوة وجميلة أيضاً، ومثلها في هذا مثل ذلك الممدوح الذي قال فيه بعض الشعراء:
هو عسل إذا ياسرته ... وإن عاسرته فهو صاب
ولست بعد هذا في حاجة إلى إعادة الكلام في بيت الأستاذ العقاد، وليس عندي من التعصب له أو للرافعي ما يدعوني إلى إطالة هذا الجدال
عبد المتعال الصعيدي
وفاة عالم بريطاني
فقدَ قسم العاديات المصرية والآشورية في المتحف البريطاني، عالما الآثار المصرية من العلماء الحديثين الذين كان يرجى لهم مستقبل عظيم، بوفاة المستر الان وين شورتر قضى نحبه بذات الرئة وهو في الثانية والثلاثين من عمره
وقد التحق المستر شورتر بالمتحف البريطاني في سنة 1929 فوجه أكثر عنايته منذ ذلك الوقت، إلى دراسة النصوص الدينية المصرية وقد وضع بضعة مؤلفات عن الحياة الدينية عند قدماء المصريين أنجز أخيراً الجزء الأول من (كتالوج) أوراق البردي المصري وفي عامي 1928 و 1929 اشترك في بعثة جمعية الاستكشافات بمصر
الكتب
كيفما اتفق
كتاب بالإنجليزية للدكتور أحمد زكي أبو شادي
للأديب نصري عطا الله سوس
الدكتور أبو شادي شخصية فريدة كل ما فيها معجب محبب، وهو مثال باهر للكاتب الذي يحيا حياة عامرة بمختلف أنواع النشاط الناهض. وحسب الطبيب الشاعر أنه إحدى الشخصيات القلائل التي تعددت نواحي أذهانها دون أن تطغى ناحية على أخرى. وهو مثل حي بليغ لاستحالة العداوة بين الفلسفة والدين والعلم والشعر. وإن الخلاف بين نوعين من أنواع المعرفة لا يجد له مكاناً إلا في الذهن الكليل الذي لا يمكنه أن يفهم إلا جزءا من كل، والذي توفرت له بعض المؤهلات ولم يتوفر له البعض الآخر؛ ولكن العقل الكبير يدرك بالبديهة قبل أن يثبت بالبرهان (إذا فرض إمكان الإثبات عن طريق العلم) أن العالم وحدة لا تتجزأ وأنه من المستحيل أن يناقض بعض أجزائها البعض الآخر
ويعجبني في الدكتور أبي شادي أنه كائن حي قائم بذاته يتفجر إيمانه بالحياة وربها وما بعدها من أعماق ذاته ولا يتقبل تعاليم السلف مغمض العينين. والاستقلال الذاتي صفة نادرة؛ ولكن الحياة بدونها تصبح باهتة رثة عديمة الطعم عديمة القيمة. وقد اتجه الدكتور إلى التأليف بالإنجليزية وبين يدي الطبعة الثانية لكتابه (كيفما اتفق) وقد تناول بالبحث في كتابه هذا أهم المشاكل العالمية مثل تحسين النسل، العوامل التي يجب أن تتوفر في الشخص المتمدين، العبقرية، الديمقراطية والحكم المطلق، الدين، المساواة بين الجنسين، الاقتصاد، التعاون، والأخلاق، ويجب على كل شخص يحس بوجوده أن يدرس هذه الموضوعات ويكوَّن له رأياً خاصاً فيها؛ وغرض الكاتب هو خير الفرد وسعادة المجموع. غير أني أختلف معه في بعض ما يقترحه من وسائل وغايات تطغى شخصية العالِم في هذا الكتاب على ما عداها. وأي عالم؟ ذلك الذي لا يؤمن إلا

بالعقل وحده والمنطق والمقاييس المضبوطة - وعهدي بأبي شادي شاعراً كبيراً ولكن شخصية الشاعر اختفت تماماً من هذا الكتاب، وفي هذا خسارة لا كسب. وقد تطرف الكاتب في بعض آرائه تطرفاً عنيفاً وهاجم بعض النواحي التي لا يسهل مناقشتها في مصر وإن كانت هذه النواحي أكثر الأشياء افتقاراً إلى البحث والتمحيص. ولا شك في أن كل مثقف يؤمن بما قاله المؤلف عن (الأساطير) وأن اعتناق الجماهير إياها مصدر الكثير من الضرر، ولكنه لن يجد من يؤمن بالعلم وحده. العلم الذي يتخذ المقاييس والرياضيات أساساً له - ومن العسف أن نهاجم عقائد الشخص العادي ونحاول تشكيكه فيها مهما كان فيها من خلط وزيف قبل أن نمده بما يشغل مكان هذه العقائد - والعلم لن يقوم مقام العقيدة، وكل حضارة لا تستند إلى إيمان قوي لا يمكنها أن تثبت لا لإرهاصات الزمن - ولا شك في أن العلم ركن قوي من أركان الحضارة ولكنه لا يمد الإنسان بالإيمان الذي يريح القلب ويطمئن الضمير، ولكن الإيمان ينبع من أعماق النفس ولا حيلة للمنطق معه! وستمر دهور ودهور قبل أن يترجم الإنسان العادي النور وتغريد الطيور وجمال الزهور إلى معان إلهيه. ومن هنا صعوبة مهاجمة (الأساطير) في الوقت الحاضر - وعندي أن كل إصلاح لا يبتدئ بالفرد مصيره الفشل المحتوم - فيجب على المصلحين أن ينموا شعور الفرد بإنسانيته وأن يستخدموا العلم في تحريره من ربقة المادة، وأن يفتحوا أمامه سبيل تهذيب الضمير بواسطة الآداب والفنون حتى يتفجر إيمانه بالقوة الخالقة من أعماق ذاته المحرَّرة. وعندئذ يمكنه أن يُنزل الأساطير مكانتها الحقيقية؛ ومتى وصل إلى هذا المستوى وشعر بكرامته الإنسانية فسيشعر بواجبه شعوره بحقه وسيفهم معنى الحياة الإنسانية الحقة، ويخصص نفسه لخدمة مثلها العليا، ولن يؤمن بالدكتاتورية أو يسمح بها. أما الإيمان بالعلم وحده فمظهر من مظاهر الصلف والاغترار الذهني

وأعتقد أن العالم الذي حوى صدره علم الأوائل والأواخر، والذي يقول (إن الحياة على هذه الأرض محض صدفة) أو يبلغ به التبجح إلى أن يقول: (إن الله عالم رياضي) إنسان بائس مسكين، والشخص العادي الضعيف الذي يرى أن مظاهر القدرة الالهيه مبثوثة في كل شيء اسعد منه بمراحل. والظاهر أن المؤلف تأثر بكتابات الذهنيين ونظريات برتراند رسل عن وحدة الروح والجسم وهلاكهما معاً. وحسبي أن أذكر مثلا من هذه النظريات يرينا خلل وضلال القياس الذهني:

يقول رسل إن حالة (الإشراق والصفاء) والمعاني اللطيفة التي تترقرق في قلب الإنسان

أثناءها تشبه حالة السكر وما يخالج النفس أثناءها من نزوات، لأن السكر حالة شاذة تقع بواسطة مؤثر خارجي هو الخمر؛ وكذا حالة الإشراق أيضاً لأنها تقع بواسطة مؤثر خارجي هو الصوم! وهذا هو ما يؤدي إليه الإيمان بالعلم وحده

ولا شك أن هذا الكتاب خطوة حسنة في سبيل توطيد العلاقات الثقافية بين مصر وبريطانيا؛ غير أن القارئ الغربي لن يجد في هذا الكتاب جديداً ولا يمكنه أن يتبين أن المؤلف رجل شرقي، لأن (الشخصية) بمعناها الأدبي معدومة الأثر في الكتاب. وقد عالج المؤلف موضوعات معروفة مطروقة في الغرب ولا فضل له فيها إلا الجمع والترتيب والاختيار؛ ثم عرض لبعض المظاهر الاجتماعية في مصر. ولعله ينحو في كتاباته المستقبلة نحواً جديداً بحيث تبدو فيها خصائص الروح الشرقية الحرة، وهذا ميدان واسع تعود الكتابة فيه بالفائدة على الشرق والغرب، لأن مظاهر العلم والفن والأدب في أوربا الحديثة متأثرة بما ترزح تحته هذه القارة من أنواع المحن والبلاء، ولا يمكن للشخص الغربي المنشَّأ في حلقة هذه الظروف أن ينظر إليها نظرة أصيلة فاحصة ولكن الرجل الشرقي الذي لم يتأثر بهذه الظروف يمكنه أن ينظر إلى هذه الأحوال نظرة أقرب إلى الحق والصدق، ويجب على الكاتب الشرقي أن يهْدي إلى الغرب مما عندنا لا مما يستعيره منه

بقي أن نقول إن الشرق مفتقر إلى مثل هذا الكتاب أكثر من افتقار الغرب إليه، ويقول المؤلف في مقدمته أنه يعني بكتابه القارئ العادي (الغربي طبعاً) ثم يعود فيقول إنه لا يعني بكتبه عموماً إلا الخاصة، وإنه لا يتهم بسواد القراء في الشرق؛ ولما كانت خاصتهم تعرف الإنكليزية فلا ضير عليه في الكتابة بها؛ ولكن المؤلف يدعو إلى التعاون العالمي، وهذا لن يكون إلا إذا ارتفع القارئ الشرقي العادي إلى مستوى

القارئ الغربي العادي ولعلنا نرى الكتاب مترجماً إلى العربية بعد تعديل يلائم الشرق
نصري عطا الله سوس
بونا انطون
الآنسة وداد سكاكيني
لما قرأت رواية (بونا انطون) للأستاذ كرم ملحم كرم لمست بخاطري
رواية نوتردام دو باري لشاعر الفرنسيس فيكتور هوجو، وخفق أمام
عيني مسرح الراهب كلود فرولو وقد ملأها الهواء فانتفخت حتى بدت
وراء ظهره كالقربة؛ تمثلته بالخيال يصعد عجلان سلالم الكنيسة، لا
حقاً بالرقصة الحسناء (ازميرالدا) ملحاً عليها بأن تحبه فيجثوا أمامها
ضارعاً لهيفاً، كما يجثو أمام المذبح في المعبد، ويناشدها الغرام الأثيم
ثم يقول لها: تخيري أحد أمرين: إما شهوتي العاتية وإما الموت
الزؤام، فاختارت الثاني فطوح بها هذا السفاح في مهاوي الردى وقد
اتهمها بالقتل، وما قتلت إلا يده الجانية وغيرته الطاغية فهو الذي طعن
حبيبها الأمير فوبوس من خلفه إذ كان إلى جنبها يناجيها في ليلة هادئة
مقمرة
ذكرت هذا كله حين قرأت رواية (بونا انطون) لنابغة القصة العربية في لبنان كرم
ملحم كرم وقلت: بأبي الحق وأمي إن جاء من أهله! لقد كتب الأستاذ كرم روايته عن
كاهن خبيث فصور لنا حياته الخفية التي لا يراها الناس، وعبر عن نزواته الصارخة
واحتياله الوضيع بأسلوب رشيق أخاذ. لقد كان هذا الأب يغدو كل صباح إلى سيدة
مهذبة فاضلة فيباركها ولا يكاد يقترب المساء حتى يهب في ديره إلى ارتداء قلنسوته
ومسوحه فيمسح بيده طيباً، وينطلق إلى بيت السيدة التي سبته وسامتها وخلبته
براعتها، فأصبح لها عاشقاً وامقاً، فيبارك عليها مرة وأخرى ويرمقها خلسة بعد خلسة
بلحاظ لاهبة ذاهلة
كان هذا الكاهن يتابع زوراته واعظاً باسم الدين، ذئباً في صورة إنسان، حتى كشفت
المرأة الذكية عن نيته وطويته، فإذا هو يحمل لها في قلبه حباً أقوى من حب روميو،
ويكظم في
نفسه شهوة لها أشد من شهوة كازانوفا؛ ولكن ماذا تفعل به وهي من المحصنات ولها
زوج كريم؟ فصدته عن السوء، وكفته عما أخذ بأطرافه من مراودة عن نفسها، فلم
يستعصم، وما يئس. وحين لم تستطع على جماحه كبحاً، أمرت الخادم أن لا تفتح الباب
للكاهن. فلما أحس مقتها ونفوها، فار الدم في عروقه من الغيض وثارت في صدره
وساوس الحقد والثأر، فآلى على نفسه أن يهدر سعادة المرأة الشريفة ويذيقها
العذاب الأليم، فنصب لزوجها شراك الشر وشباك الضلال، بتسخير امرأة خليعة ما جنة
تغريه بالمعصية وتغويه بالفجور، وقد ترضاها الكاهن بشفاعة وغفرانه فأذعنت له
وصرفت الزوج عن امرأته وبيته، ثم عاود الكاهن زوراته لعل المحبوبة الأنوف تخفف
من غلوائها وتفئ إلى حبه، فتبرمت به وهدمت بعفافها زهادته الكاذبة وتبتله الموهوم
هذا طرف من سياق الرواية الطريفة (بونا انطون) وهي رواية حافلة بالتحليل العميق
والوصف الدقيق، وقد فاضت بالحياة الصاخبة ونضحت بالصراحة العارية. كل سطر
فيها كالعرق النابض، وكل قارئ لها كالطبيب الحاذق يستطيع أن يعرف حالة عرق
فيصف دواء الأخلاق المريضة
لما نشر الأستاذ كرم ملحم كرم روايته في بيروت قامت عليه قيامة رجل من رجال
الكنيسة فأقام الدعوى على الأديب القصصي، وادعى فيها أنه هو المقصود بالأب
انطون، واخذ يؤلب الحكام عليه ويسخر بعض الموتورين لذمة وتسفيه روايته
واستهجان ما فيها، فذكرني مرة ثانية بما كان من أمر القصصيين الغربيين وكيف أقام
عليهم الدعاوى أناس ظنوا أنهم هم المقصودون في القصص، ثم خرج كتابها أبرياء،
ونفضوا عن أكتافهم غبار الأعداء، فطاح به الريح وأذراه في هبوبه وذاب رغاؤهم
وزبدهم، وبقي القصاص وضاح الجبين مرهف القلم رفيع الهدف، لأنه هو الذي ينفع
الناس، وهكذا خرج الأستاذ كرم ظافراً مغبراً في وجوه حساده وأعدائه، وبقيت روايته
حية خالدة
إن القصة العربية آخذة في السمو والإشراق، ولا يمضي عليها ردح من الزمن حتى

تسابق القصة الغربية وتماثلها قيمة ومقاماً؛ فالأقلام تمارسها بقوة ورغبة، والقراء يتقبلونها بشوق ولذة. ولا بدع إذا نهضت القصة والرواية في لبنان فان الأستاذ كرماً مهد السبيل لهذا الفن العريق فيه عهداً جديداً. وها إن المطبعة العربية في لبنان تزجي إلينا القصة أثر القصة،

والرواية تلو الرواية، وقلم الأستاذ كرم لا ينقطع عن قرطاسه فما تقع عيناه على أحداث الحياة في لبنان وما جاوره من بلاد العرب حتى يستوحي جوها ويستنطق بيئتها، فيسبر غورها، ويبادر إلى تصويرها بما فيها من قلق واضطراب ونقص وإخفاق. وإن له من ثقافته الأدبية وتضلعه من اللغة العربية وفطرته في القصة معيناً لا ينضب. ومصداق القول قصصه العديدة الرائعة ورواياته، وآخرها (بونا انطون) التي كتبها على ضوء الفن والواقع والجرأة وخلع عليها أسلوبه الحر الصقيل، فنزهها عن مزالق اللهجة الصحافية والكلام الدخيل.

وداد سكاكيني

العدد 258 - بتاريخ: 13 - 06 - 1938

من ذكريات الريف

. . .ليالي الحصاد

يا حبِّةِ الأَمْح زيدي ... وأملي المخازن علِينا
إنت دَهبْ مَلوِ إيدي ... لُولاكْ مَرُحْنا وجينا
يا شمعة العز إيدي ... واجلي بنوركْ عِنينا
داعيدْ حبايْبي وعيدي ... يا رب عودُهْ عَلِينا

بهذه الأغنية الرقيقة كان صوت أمينة الوتري الرخيم يموج لذيذاً في مسمع الليل المقمر الساجي؛ وكان أترابها يرجعن عليها اللحن ومناجلهن في أيديهن تجز سيقان القمح فتسمع لها في خلال النغم خشخشة آلة موسيقية غريبة!

كان ذلك في ليلة بين أواخر مايو وأوائل يونية، والزرع قد استحصد وتهالك بعضه على بعض من الذبول واليبس، فلم يعد يقوى على حمل سنبله. وكان الحاصدون والحاصدات قد خرجوا عشاء إلى الحقول الذهبية، في أيديهم المناجل، وعلى أكتافهم الأردية، وهم يوقعون على طرق الربيع العشيبة أهازيج الجذل والأمل، فباتت القرية هامدة كأنما ضرب على آذانها الموت فلا تسمع سامراً على مصطبة ولا نابحاً على تل. فأخذني منها ما يأخذ السائر الوحد من الغابة اللفة أو المقبرة الفسيحة. فخرجت أنشد الفرجة والأنس في حقل من حقولنا القريبة، وكنت أعلم أن في حصاده جوقة من الأوانس الحسان الوجه والصوت. فلما غمرني ليل الحقول، وملكني سلطان الطبيعة، أحسست في نفسي دنيا جديدة لم أحسها من قبل في نهار الناس ولا في ليل القرية!

فقد كان القمر حينئذ في الفخت يرسل أضواءه اللينة الرخية، هادئة كإشعاع الحلم، شاحبة كإسفار الأمل، فيلون الغيطان والغدران والطرق بلون الفضة الكابية؛ ونسيم آذار الندي العبهري ينفح بطراءة الفردوس الإنسان والحيوان والشجر، فينتعش الهامد ويتنفس المكروب وتتندى الحصائد؛ فتسمع الجنادب تصر في هشيم البرسيم، والضفادع تنق على حفافي الترع، والسواقي تنوح على رءوس الزروع، والحاصدات يغنين في مزارع القمح، وطيور المساء تبغم على أعالي الدوح، وكلاب الحراسة تنبح على أطراف البيادر، فيكون من كل أولئك إيقاع موسيقي عجيب يبعث الروعة في النفس، ويلقي الشعر على الخاطر!

على أن هذه الأصوات المتجاوبة على نشوزها لم تكن هي مبعث السحر الذي غلب على مشاعري؛ إنما كان مبعثه ذلك السجو العميق السحيق الذي ضرب على حياة الليل فهيمن على كل حس وسيطر على كل حركة فما نسمع الأصداء في جوف هذا السكون، إلا كما ترى الأنداء في رمال المفازة

كنت أمشي بين هذه الظواهر الليلية وئيد الخطو رزين الخيال مرهف الحساسة، لا أجد في طبعي ما كنت أجد في النهار من مرح الصبى وخفة الحداثة، فكأنما يضع الليل من ثقله على الجسد والفكر والشعور فيتغلب على المرء الهدوء والبطء. ذلك إلى أن الجو الاجتماعي في القرى ليالي الحصاد، يختلف عنه فيها أيام الجني. ففي حصاد القمح يأخذ القرويين حال من التدين الذاكر الشاكر، لأنهم يتقبلون فضل الله في هذه الحبة المقدسة ليحفظوا بها البدن، ويمسكوا عليها الروح؛ فهي عندهم مرادفة للحياة،

يسمون خبزها (العيش) و (النعمة)، ويتحرون في كسبها الحل والحرمة، ويذكرونها فيذكرون الرزق والصدقة والزكاة والبركة
أما في جني القطن فيدركهم مس من الطمع والغرور فيحبون الدنيا ويعشقون المال ويرغبون في اللهو ويذكرونه فيذكرون الربا والثراء والرواج والزواج والهم
كنت لدى ساقية الغيط الراقدة في كلةٍ من أغصان الصفصاف المرسلة حين ارتفع صوت أمينة الحنون بالأغنية التي ذكرت بعضها في مطلع هذا الفصل. وكان الحصدة من رجال ونساء يزحفون إلى القمح بمناجلهم صفاً فيتركونه ورائهم أضغاثاً من الحصيد منظومة الأسافل والسنابل، ثم يعودون الحين بعد الحين فيركمونها حزماً غليظة ويدعونها تنتظر النقل على الجمال إلى البيدر
وأجمل ما في ليالي الحصاد منظر الحقول المنبسطة على مدى الطرف وقد ضربت في صفرتها أضواء القمر فابيضت ابيضاض المصريات الحسان؛ ومجالس الشباب والشواب على حصائد القمح الوثيرة يديرون بينهم سقاط لحديث الفكه، ويتبادلون في احتشام كنايات الغزل الحي؛ وغناء الفتيات وزمر الفتية يتواردان على سمعك من قريب ومن بعيد، فيفعلان في نفسك ما لا يفعله الموسيقار الحاذق؛ ثم نوم هؤلاء وهؤلاء في الهزيع الأخير على فرش من الحصيد تكلاهم عين العفاف وتتمثل في أحلامهم صور الفضيلة. فإذا ما
تنفس الصبح على وجوههم المطلولة هبوا إلى القناة يتوضئون ويصلون، ثم يعودون إلى مناجلهم على أنشط ما يكون الفتى، وأرضى ما يكون المؤمن
أبداً لا أنسى أنني قضيت معهم تلك الليلة، ثم نمت هذه النومة، وقمت هذه القومة، وأسفر على ذلك الصباح الضاحك المنضور فأبصرت مسالك القرية تسيل بحاملات الفطور للحصاد، وسائقات الماشية للمرعى، ولاقطات السنبل من بنات الفقر، فكان لي من جمال تلك العشية وضحاها، لذة لا أزال أنعم بذكراها، وأتمناها!
احمد حسن الزيات
تأملات في الأدب والحياة
للأستاذ إسماعيل مظهر
شذوذ
تاريخ الصراع الأدبي في مصر، وتاريخ الصراع السياسي، يتلخصان في معارك تقوم بين أشخاص، ولقد أدركت هذه الظاهرة النقد أيضاً. فتاريخ النقد في مصر عبارة عن موازنة بين كاتبين أو شاعرين يحاول الناقد أن يعلي أحدهما على الآخر. أما مذاهب الأدب ومذاهب السياسة ومذاهب النقد. فهذه لا قيمة لها في نظر الأديب ولا في العرف السياسي ولا في تقدير الناقد وعامة ذا شذوذ، بل خروج على طبيعة الأشياء أفهم أن يقوم الصراع الأدبي بين مذهبين يمثلهما كتاب أو شعراء يعتنقون في الأدب مذهباً محدود المرامي بين الغايات. وأفهم أن يقوم الصراع السياسي بين أحزاب تقتتل على مبادئ عامة تتعلق في أكثر الأمر بالخير المنشود للعدد الأكبر من الناس. وأفهم أن يقوم النقد على فكرة منطقية يقتنع الناقد بصلاحيتها وحقها في البقاء، فيمضي في نقد الكاتب أو الشاعر انتصاراً لتلك الفكرة. وأفهم فوق هذا كله أن يقتتل كاتبان ولكن انتصاراً لمذهبين يعتنق كل كاتب مذهباً منهما، والغلبة للأصلح من المذهبين. أما الذي لا أفهمه ولا أستطيع أن أفهمه يوماً من الأيام، فأن يتطوع ناقد لنصرة كاتب على آخر، أو شاعر على شاعر غيره احتساباً لوجه الله الكريم، من غير أن يكون الناقد في نقده مخلصاً أول شيء لمذهب بين في الأدب يعتنقه الكاتب المنتصر له
وما أبرئ نفسي؛ فأن عدم قدرتي على فهم هذه الأشياء قوة لم أشهدها في نفسي إلا منذ عهد قريب، وما بعثها إلا ذلك الصراع الذي قام على صفحات (الرسالة) بين أنصار صديقي الأستاذ العقاد، وصديقي المرحوم الأستاذ الرافعي، صديقان مات أحدهما وأدعو الله أن يمد في عمر الآخر. سكت أحدهما وطواه الزمن، وصمت الآخر على ما كان بينه وبين الأديب الراحل تجلة للموت وتحية لذكرى أديب جاهد في سبيل الأدب، ودفعاً لحزازات ما أجدر الموت أن يكون ماحياً لآثارها وذكرياتها
لقد صمت صاحب الحق الأول؛ وما كان ليتكلم وقد خلا الميدان من مناظره، وهو يعلم أن الكلام في مثل هذا الظرف جريمة في شرعة الأدب، بل خطيئة من المنكرات

صمت صاحب الحق وتكلم غيره احتساباً، وحاشا أن أقول هنا لوجه الله، لأن الله لا يأمر بأن تنبش الحزازات وتحتفر الضغائن ويكشف عن السيئات دون الحسنات. أم نقول قولة أنطوني على جثة قيصر: (إن الشر الذي يعمله الناس يعيش من بعدهم، أما الخير فيدفن مع عظامهم؟!)

ولست أدري أي وصف توصف به هذه القضية لو تقدم بها خصم ثالث إلى مجلس حسبي ينصب لمحاكمة الأدباء؟

لتغير التاريخ

قرأت، كما قرأ غيري، قول بعض المؤرخين: (لو لم يكن كذا لتغير التاريخ). وهو قول ظاهره خلاب جميل؛ قول سمته الحق، ولكني لم أرى حقاً يراد به باطل أكبر من هذا الحق

قيل مثلاً: لو أن أنف (إقليو فطرا) كان أقصر قليلاً مما شاءت الطبيعة لتغير التاريخ. ولماذا؟ لأنها كانت بأنفها (الأقصر قليلا) تستطيع أن تغوي (أوكتافيانوس) كما أغوت (أنطونيوس) من قبله. وإن نظرة أولية في هذا الكلام تدلنا على أن ما فيه من الحق إنما هو بمثابة البرق الخلب، يبهر النظر ويأخذ باللب، ثم لا يترك في نفسك من الأثر إلا أثر اللمحة العابرة تستذكرها، ولكنك قلما تفكر فيها قليلاً. فمن ذا الذي أعلمنا أن أوكتافيانوس، قائد الرومان العظيم، وأول أباطرتهم العظام، كان يستغويه أنف دقيق ولا يستغويه أنف طويل؟ وعلى أية قاعدة نحكم بأن ذلك القائد كان على استعداد لأن يغوى، دق أنف الملكة المصرية أو كبر؟ أما الحق فأن أنف (إقليو فطرا) قد ظلم

وقيل أيضاً: لو لم يظهر نابليون لتغير التاريخ. وجملة ما في هذا القول من الحق في معتقدي أن التاريخ ما كان ليتغير إلا بأن يحذف منه اسم نابليون ليحل محله قائد آخر يفعل من الأشياء ويحدث من الأحداث ما قد أدت إليه أعمال نابليون بالذات، وما يصح عن نابليون يصح عن هينيبال وعن الاسكندر الأكبر وعن غيرهم من العظماء الذين نقول اعتباطاً إنهم غيروا التاريخ

لو صح قول القائلين: (لو لم يكن كذا لتغير التاريخ) لبدت الإنسانية في صورة عجماوات تضرب في فيافٍ وقفار، وتخبط في ظلمات مدلهمة خبط عشواء، تقبض على زمامها شهوات الأفراد وتقودها نزواتهم وانفعالاتهم، وتصرف أمورها أخيلة قلة من الناس في

مقدرتهم أن يخلقوا التاريخ ويبتكروا المستقبل ابتكاراً من غير أن يتقدم ذلك الابتكار أية مقدمات تسوق إليه، على العكس من كل تناسب في نظام التطور الاجتماعي، وعلى الضد من المنطق المدرك من نظام الطبيعة

أما إذا أردنا أن نثبت هذا المذهب فينبغي لنا أن نحلل مثلاً أو مثلين مما ذكرنا. أما مثل (إقليو فطرا) والقائد الروماني، فأن حوادث التاريخ ذاتها تدل على أن الحنق كان قد ملأ قلب أوكتافيانوس تلقاء ملكة مصر وزوجها أنطونيوس حتى ليتعذر معه أن يجد جمال إقليو فطرا أو فتنتها طريقاً إلى قلبه

كان أنطونيوس وأوكتافيانوس صديقين اقتسما القوة والبطش في رومية، وقضى أنطونيوس على قتلة قيصر في سلسلة من المواقع المشهورة، ثم نزا الشيطان بينهما ففرقت بينهما المكائد والدسائس، ثم تصافيا وتزوج أنطونيوس من شقيقة أوكتافيانوس توثيقاً لصداقتهما، ثم سافر إلى الشرق فالتقى بالملكة المصرية وتزوج منها وهجر رومية ومن فيها، ثم استبان الرومان أن ملكة مصر تحاول من طريق عشيقها الروماني أن تذل رومية وأن تصبح ملكة الدنيا، فقام الصراع بين مصر ورومية وانتهى بمصرع العاشقين. فهل هذه مقدمات يمكن أن تؤدي إلى غير ما حكم به منطق الواقع؟ وهل كان من المستطاع أن يغير أنف الملكة المصرية من مجرى هذا التاريخ شيئاً، قصر أم طال؟

وكذلك الحال في نابليون. فإن الثورة الفرنسية وما طل فيها من الدماء وما أحدثت من تخريب وما ذاع فيها من الخيالات وشاع من الأوهام، وتفكك بلاد ألمانيا وضغط إيطاليا وانحلال أسبانيا، وتيقظ الروح الحربي في فرنسا لما أن هاجمها أعداؤها ومرجل الثورة يغلي في بطنها؛ جماع هذا كان من شأنه أن يبعث (نابليوناً) لو لم يكن بونابرت لكان غيره، ولأحدث من الأحداث ما كان من الطبيعي أن يؤدي إلى نفس النتائج التاريخية التي أدت إليها أعمال نابليون هذا بالذات

وإن شئت فقل إن هذا كان شأن الاسكندر الأكبر. فأن الصراع بين بلاد فارس وبلاد الإغريق في آسيا الصغرى وفي إغريقية الأوربية بالذات من طريق البحر كان صراعاً مأثوراً بين الأمتين قبل عصر الاسكندر. وكذلك كانت السياسة التي اتبعها الملك فيلبس والده، فقد كانت سياسة حربية رمى بها إلى توحيد كل العالم الهليني تحت لواء مقدونيا،

فجيش الجيوش ونشأ القواد وأحيا روح البطولة في رجاله، وهم بطبعهم من سلالة جبلية فيهم شيمة القبيلة وطابع العنصرية. ولما مات فيلبس ورث عنه الاسكندر فيما ورث جيشاً منظماً كان قد أعده للزحف على الشرق عشية مقتله. ولو أردنا أن نعدد الوقائع الكبرى في تاريخ الاسكندر لما عدونا الثلاث عداً. هي: موقعة غرانيقوس وموقعة إسوس وموقعة أربل. أما ما بقي بعد ذلك فليست مواقع كبرى، وما عدا ذلك من حياة الاسكندر فحصار لبعض المدن ومخاطرات هي إلى الجنون أقرب منها إلى العقل. فهل جميع هذه المقدمات المادية الثابتة، والتي يزيدها ثباتاً تقلقل الإمبراطورية الفارسية في عصر دارا الثالث واستخدامه لمرتزقة من الأغارقة عملوا في جيشه جنوداً وقواداً، كانت تمحي وتزول لو لم يظهر هذا الاسكندر؟ إني أعتقد أن الاسكندر لو لم يظهر لظهر غيره ففعل فعله، وبقي غدير التاريخ متدفقاً في نفس الاتجاه وإلى الغايات التي رسمتها جميع هذه المقدمات التي ذكرنا

إن الإنسانية ولا شك تقودها يد خفية، ما الاسكندر وهينبال وأوكتافيانوس إلا ألاعيبها، وما هم إلا الكرات التي يضربها الصولجان إلى الأهداف المرسومة، ما هم إلا اللحن الذي يسجله القدر على صفحات التاريخ.

فلسفة وفلسفة

الصورة التي تلابس الفلسفة لا تحبكها الطبائع الخاصة لكل جيل من أجيال البشر ولا طبيعة البقعة التي يحتلها ذلك الجيل من كرة الأرض لا غير، بل إن للنظامات المدنية وأثر المعاهد في حياة الحكومات والأفراد أثراً فيها كبيراً. أما إذا أردنا أن نجلو عن هذه القضية فينبغي لنا أن نمضي في مقارنة نسوقها في الفارق بين أمتين كبيرتين من أمم العصر الحاضر، امتازتا بضربين من الفلسفتين لكل منهما طابع مستمد من خصائصهما الأصيلة، هما إنجلترا وألمانيا

إن نظرة دقيقة لتثبت لنا أن فلاسفة الألمان يشغلون في عالم الآداب الإنسانية مكاناً غير المكان الذي يشغله الإنجليز. وأول شيء يستلفت النظر أن النبع الذي يفيض بالفلسفة في إنجلترا، بصرف النظر عن بعض الشواذ، لم يكن الجامعات الإنجليزية، ولا الرجال الذين اشتغلوا بمهنة التلقين فيها. هذا على العكس مما هو في ألمانيا، فإن كنز الفلسفة ومشعل

الحكمة كان على الدوام في أيدي أساتذة الجامعات

ونظرة أخرى. فأنه لا شك مثلاً في أن إسرافاً كبيراً يحل بالجهود العقلية، وانحرافاً عظيماً يعتور البحوث الفلسفية إذا لم يهيمن على أمثال هذه الأشياء النظام المدرسي والروح الأقاديمي. ولكن في التحرر من هذا النظام وذلك الروح لقيماً أخرى لها من الشأن ما يعوض على الآداب ما تفقد بالتحرر من الروح الأقاديمي الصرف. فأن الباحث الذي يتعلم بنفسه ويشعر بكرامة العصامية العلمية التي يحوزها بجهده الذاتي لهو بذاته من تدعوه (المفكر المستقل) المتحرر من آثار تلك الظاهرة التي تدعى الائتمارية، ومعناها الأقرب الاتفاق بين فئات من المفكرين على الترويج لمذهب بعينه أو فكرة بذاتها أو نزعة ما. فأن المفكر المستقل، وتلك أولى مميزاته، إنما يكب على درس مشكلات الفكر والحياة، لا لأن من الواجب عليه أن يقول شيئاً فيها، كما يحتم النظام على أصحاب الوظائف، بل لأن تأملاته أدت به إلى إدراك معضلات حقيقية، فهو يعمل على حل مغلقها وفك طلسماتها.

وفي الفلسفة الألمانية ظاهرة أخرى. فقد تقيدت تلك الفلسفة خلال عدة قرون متتالية بتقاليد خاصة وانتزعت اصطلاحات بعينها واستعمالات بذاتها، تنزل من الفكر منزلة تسمو على عقول الأوساط من المتعلمين، وتقيد عقول الخاصة بنظام يجعل الخروج على مقرراتها من أصعب الأشياء. وعلى الجملة تمتاز الفلسفة الألمانية بأحكام الفكرة وأسلوب التفكير، مشفوعة بقوة ممتازة في التحليل المنطقي ولكن هذه المميزات لها ما ينتقصها. فقد قيل، وقيل بحق، إن الفلسفة في ألمانيا يكتبها الأساتذة،

إما لأساتذة، وإما لفئة يحاول أفرادها أن يصبحوا أساتذة. وكاتب الفلسفة الألماني من أجل أن ينال الحظوة عند الخبراء بالفلسفة أمثاله، يبتعد عن الاتصال بجمهور القراء، فلا يكون لما يكتب أثراً في الحياة العامة ولا في تكييف الذوق العام للأمة

هنالك مظهر آخر. فإن الفلسفة الألمانية لشدة ارتباطها بالنظام القائم في بيئتها، التصقت أيما التصاق باللاهوت، وتلونت في غالب الأمر باللون الذي يوائم ذوق الدولاب الحكومي. لقد اتخذت الفلسفة الألمانية وسيلة لصب النشء في قوالب خاصة ترضاها الحكومة. لهذا اتصفت تلك الفلسفة بشيء من الجمود ولبست ثوباً حكومياً شل اتجاهاتها الطبيعة، على الرغم من أنها كانت الأثر الفعال ترقية الأهلية الحكومية فجعلتها تتجه نحو المثل العليا

أما الفلسفة في إنجلترا، وهي كذلك في فرنسا، فقد كانت اللسان الناطق بالمعارضة لكل المعتقدات الرسمية للدولة، ومنابذة صور الفلسفة القديمة التي اتخذت معاقلها الحصينة في حدود المؤسسات الكنسية. ولفظة فيلسوف في إنجلترا وفرنسا، قد اقترنت دائماً بمعنى حرية الفكر والتحرر من قيود المأثور، بل فهم منها معنى الإلحاد ومعاندة كل ما تقرر في الأذهان من العقائد والآراء. وعلى الرغم من مختلف الصور التي لابست الفلسفة الإنجليزية منذ عصر هوبز إلى بنتام، ومن لوك إلى هيوم، فأن الغرض الذي رمت إليه لم يتغير، ولم يخرج يوماً على حرية الفكر وهي مصدر الابتداع والابتكار

ونحن إذ نرى أن الفلسفة الألمانية قد التزمت مصطلحات بعينها واتخذت لنفسها لهجة بذاتها. إذا بنا نجد أن الفلسفة الإنجليزية قد كتبت باللغة الدارجة في الأدب. وعلى الضد من هذا تجد الأولى، فإنك لا شك واقع في فلسفة (كنت) وفي كتابات الكثيرين ممن عقبوا عليه، على عبارات هي عند أهل لغتهم أنفسهم كتاب مغلق بسبعة أقفال لقد اعتقد بعض النقاد، ولعلهم اعتقدوا بحق، أن هؤلاء الفلاسفة قد اكتفوا في كتابة الفلسفة بأن يفهم بعضهم بعضاً، غير آبهين بأن يفهمهم غيرهم. لقد هام فلاسفة الألمان بالغموض حتى لقد نعتهم أهل بلادهم أنفسهم بأن فلسفتهم تعميه مقصود في سبيل العلم

في سبيل العلم ما احتمل غليليو، فقد قال إن الأرض التي تدور حول الشمس، على الضد من العقيدة اللاهوتية التي اعتنقتها الكنيسة الرومانية. لما هم رؤساء الكنيسة باتهام غليليو

كان مؤلفه قد ذاع في أنحاء أوربا، فزاد ذلك غضبهم عليه وتبرمهم به. وكان على رأس الكنيسة (إريان الثامن). ولم يكن بابا لا غير، بل كان أميراً من بيت (بربريني) فأخذته العزة بالإثم وأمر بأن يمنح غليليو وكتابه هبة منه لمحكمة التفتيش

وعبثاً حاول (كاستللي) البنديكتي أن يقنع رجال الكنيسة بأن غليليو يحترم الكنيسة ولا يهزأ بمبادئها، بل سدى ضاعت كل جهوده في سبيل أن يثبت لرجال الدين إذ ذاك (انه ما من شيء يمكن عمله، من شأنه أن يمنع الأرض من الدوران).

ولكنه طرد ونفي مغضوباً عليه مقصياً به عن الكنيسة، وقسر غليليو على أن يقف أمام تلك المحكمة الرهيبة واحداً فرداً بلا مدافع أو نصير. وهنالك عذب مراراً حتى اضطر إلى أن

يعلن جاثياً على ركبتيه الاعتراف الآتي:

أنا غليليو، وفي السبعين من عمري، سجين جاث على ركبتي، وبحضور فخامتك،) وأمامي الكتاب المقدس الذي ألمسه الآن بيدي، أعلن أني لا أشايع، بل ألعن وأحتقر، خطأ القول وهرطقة الاعتقاد بأن الأرض تدور(

إنه ولا شك قد غلب على أمره، لأنه قسر على أن يظهر أمام كل الأجيال القادمة بمظهر الحانث بعلمه المضحي بعقله ويقينه ومن أجل أن يتم انتصار الكنيسة عليه، وأن يودي بكل ما بقي له من شرف النفس، اضطر برغم منه أن يقسم بأن يفضي إلى محكمة التفتيش بأمر كل رجل من رجال العلم، يقول بهرطقة القول بدوران الأرض

ولقد أثار قسم غليليو هذا عجب الكثير من أهل زمانه ومن المؤرخين، حتى أن ذلك كان سبباً في أن ينكر عليه بعض أبناء عصر نعت (الشهيد). غير أن هؤلاء لم يقدروا ظروف الرجل قدرها. فلقد كان شيخاً كبيراً عمّر إلى السبعين من السنين المثقلة

بالهموم والأحزان، وحطمته آمال الدنيا ومخاوفها، وهدمته متاعبها وواجباتها. وكم سعى متلهفاً من (فلورنسا) إلى (رومية) مكباً على وجهه ونصب عينيه تهديدات البابا، بأنه إذا تأخر عن القدوم (أخذ في الأغلال). وكان فوق ذلك مريض الجسم منهوك العقل، سلم إلى أعدائه بيد الذين كان من الواجب أن يحموه. ولم يكد يبلغ (رومية) حتى احتوته غرف التعذيب وانصبت عليه الآلام ألواناً. ولقد كان يعرف جيداً ما هي محكمة التفتيش. وكان يلوح له شبح (جيوردانو - برونو) بين اللهيب ماثلاً أمامه، كأنما ذلك كان بالأمس الفارط، وفي نفس تلك المدينة ومن أجل (هرطقة) العلم والفلسفة. وكان يتذكر أنه من قبل ثمانية أعوام أحيط برئيس أساقفة (إسبالاترو) وسلم إلى محكمة التفتيش متهماً بهرطقة العلم، وبقي بين براثنها إلى أن مات في غيابات السجن، وإن جثته أحرقت بعد الموت مع ما كتب بمرأى من (المؤمنين)

ولقد استمر اضطهاد (غليليو) كل أيام حياته، بل بعد مماته. لقد بقى في المنفى بعيداً عن أسرته، بعيداً عن أصدقائه، مقصياً عن صناعته النبيلة؛ وقسر على أن يظل خاضعاً لعهده بألا يتكلم في نظريته. ولما أن توسل إلى أعدائه، وهو بعد يعاني أشد آلام المرض وأعظم تباريح السقام، مقرونة بأقسى الآلام النفسية التي سببتها الكوارث التي نزلت بأسرته، طالباً أن يمنح من الحرية بعض الشيء، كان التهديد بإلقائه في غيابات السجن، الجواب على

ملتمسه الصغير. ولما أن قررت لجنة خاصة عينتها السلطات الكنسية بأنه أصبح أعمى لا يبصر، وأنه ذهب ضحية المرض والحزن، منح بعض الحرية، ولكن بحدود جعلت تلك الحرية استعباداً

ولقد أجبر على أن يواجه هجمات أعدائه على ذاته وعلى نظريته هجمات الازدراء والسخرية والتضليل، من غير أن ينبس ببنت شفة أو يحرك بالرد لساناً. ورأى الذين محضوه الصداقة والحب والاحترام، ينزل بهم العقاب الصارم والظلم الفادح. فنفي (كاستللي). ورأى (ريكاردي) رئيس البلاط المقدس و (شيامبولي) سكرتير البابا يبعدهما (إريان الثامن) عن وظيفتيهما محقرين، ورأى عضو محكمة التفتيش في (فلورنسا) يوبخ أقذع توبيخ لأنه أمر بطبع كتابه. وعاش ليرى الحقائق التي استكشفها تكتسح من الكليات الكنسية ومن كل جامعات أوربا، بل ليرى عضو محكمة التفتيش يأمر بأن يستبدل كل نعت طيب يردد به ذكره في أي كتاب يراد طبعه، بأخبث النعوت وأحط الذكريات

ومات غليليو. فطلب إلى رجال الكنيسة أن يدفن في مقابر أسرته في (سانتا كروتشي) فأبوا. وأراد أصدقاؤه أن يقيموا فوق قبره أثراً تذكارياً فلم يسمح لهم. وقال البابا (إريان الثامن) (لنيكوليني) وهو السفير الذي كلف بأن يعرض بعض المطالب الخاصة بغليليو الميت عليه ما يأتي:

إنه لأسوأ مثل يعطى للناس أن نسمح بتكريم رجل وقف من قبل أمام محكمة) التفتيش الرومانية لأنه روج فكرة مثل فكرته المملوءة بالخطأ والكفران. ولم يقصرها (على نفسه بل أقنع بها غيره، فأحدث بذلك أعظم فضيحة عانت أمرها النصرانية

ونفذت إرادة البابا ورجال محكمة التفتيش، فدفن غليليو من غير تكريم بعيداً عن أسرته، ومن غير تأدية أي واجب ديني ومن غير أن يقام على قبره نصب أو تاريخ يشير إلى العظمة المخبوءة في ذلك الرمس الذي ضم رفاته

ومضى على ذلك أربعون عاماً جرؤ بعدها (بيروزي) أن ينقش على قبره تاريخاً يشير إلى حيث دفنت تلك العظام النبيلة. وبعد مائة سنة استطاع (نيللي) أن ينقل رفاته إلى مسقط رأسه ليضعها في مكان لائق بها، وأقام عليها نصباً. وكانت النار ما تزال مستعرة والعداء مستحكما، فقد طلب إلى رجال محكمة التفتيش أن يحولوا دون هذا التكريم (لرجل اتهم

بمثل ما اتهم به غليليو من السيئات والخطيئات) ولهذا رفضت السلطات الكنسية أن يكتب على قبره الجديد أي تذكار ما لم يعرض نصه على هيئتهم المختصة بمراقبة المطبوعات

فياله من علم ويالها من حياة!!

إسماعيل مظهر

فلسفة التربية
تطبيقات على التربية في مصر
للأستاذ محمد حسن ظاظا
- 20 -
(. . . وثقافة الإنسان لا تقدر بمقدار ما قرأ من الكتب وما تعلم من العلوم والآداب، ولكن بمقدار ما أفاده العلم، وبمقدار علو المستوى الذي يشرف منه على العالم، وبمقدار ما أوحت إليه الفنون من سمو في الشعور وتذوق للجمال!)
(أحمد أمين)
(للرجل المثقف جسم خاضع لإرادته، وعقل صاف متئد القوى سهل العمل مليء بما في الطبيعة من حق عظيم وقوانين كلية؛ هذا إلى امتلاء بالحياة المنسجمة الخادمة لضميره الحي، وإلى حب للجمال وكره للقبح، وإلى احترام للنفس وللناس، وإلى وفاق تام مع الطبيعة يفيدها فيه ويستفيد منها، ويسير معها كوزيرها أو ترجمانها وهي كأمه الحنون!)
(هكسلي)
خريج اليوم - 10
(تابع ما قبله)
عرضت عليك في المقالين السابقين صورتين لخريج اليوم واحدة لعقله وأخرى لخلقه. وسأعرض عليك في هذا المقال صورتين أخريين إحداهما لذوقه والأخرى لجسمه:
1 - الناحية الذوقية
وأحسبك لا تشك في جدارة هذه الناحية في حياة المثقفين وغير المثقفين على السواء، كما أحسبك ترى معي أن (الحياة الرفيعة) محتاجة إلى (فن) دقيق عظيم قوامه الذوق السليم والعاطفة المصقولة، والشعور الحي، والعقل المتزن جميعاً. فترى هل يعرف خريجونا هذا (الفن) في حياتهم الخاصة والعامة، كما يعرفها الإنجليز والألمان والفرنسيون على الخصوص؟؟ الحق أن دراستي الاجتماعية في مختلف البيئات الأوربية قد كشفت لي عن فقر مدقع وفوضى أليمة يسيطران معاً على حياة المثقفين عندنا ويملآنها بشتى صنوف العبث والإسفاف والجهل والاضطراب؛ وهاك بعض ما يثبت ما أقول:
الوقت والفراغ والذوق
والوقت كما تعرف سيف قاطع؛ فهل ترى الخريجين يستغلون كل ساعاته ودقائقه فيما يعود عليهم بالخير؟؟ ألا كم من ساعات وأيام وأسابيع تمر عليهم دون أن يخرجوا منها بشيء!! وألا كم من لحظات تسألهم عما يفعلون فيها فيجيبونك بأنهم إنما (يمضون الوقت) فحسب، ومعنى هذا أن الوقت عند خريجينا لا قيمة له ولا خطر، وأنهم لا يحرصون بعد إذ ينالوا درجاتهم العلمية على حسن الاستفادة منه في كثير ولا قليل، فأن هم قصدوا بعد ذلك إلى الترويح عن نفوسهم أثناء فراغهم من عملهم اليومي فقلما يأتي ذلك الترويح على ما ينبغي أن يكون! ذلك أنهم قليلاً ما يغشون الحدائق العامة أو يزورون المعارض الفنية والمتاحف العلمية، أو يطرقون المواقع الهادئة الخالية من الحركة والضجيج، ونادراً ما يمارسون الرسم أو التصوير أو القراءة الأدبية أو الأشغال اليدوية الفنية وشبه الفنية؛ وأغلب ما عساك واحدهم فيه بعد هذا هو المقاهي حيث يتحدثون حديثاً تافهاً أو يهذرون هذراً فجاً. أو المسارح الخليعة حيث يصفقون للرقص المبتذل، ويضحكون على النكات السمجة، ويعجبون بالفن الذي هو والتهريج سواء، أو دور السينما حيث يشهدون ما تزدحم به الحياة الغربية من حب غير مشروع ومن استهتار أليم يغذي خلق الفتيات والفتيان عندنا بأسوأ الدروس! أليس كذلك؟ حدائقنا الجميلة العامة من يملؤها وينعم بها كل يوم وكل أسبوع غير الأجانب؟ وتمثيلنا الفني الراقي ألم يكد ينتحر تحت ضغط المسارح المبتذلة والأفلام الكثيرة ذات المعنى السطحي والعرض الخلاب؟ ومعارضنا الفنية الراقية من يزورها ويطيل الوقوف فيها ويشجع ذويها بالشراء والإعجاب غير أقل القليل من المثقفين؟ ومحاضراتنا العلمية أو الفنية من يتردد عليها ويستفيد منها غير جمهور (الطلبة) على وجه الخصوص؟ والاطلاع الأدبي الفني هل تجد له أثراً عند غير رجال الأدب كالمحامين والأطباء والمهندسين وغيرهم من أولئك المعتزين بثقافتهم ومهنتهم اعتزازاً لا يرون

معه أن للأدب أو الفن فضل في الحياة أو نفع؟ ومجالسنا الخاصة ألا يدور فيها الحديث التافه والنكات
المبتذلة، وألا يعلو فيها صوت المتحدثين أحياناً على صوت الغناء المنبعث من آلة الراديو حتى ليتعذر عليك أن تطرب للموسيقى والإنشاد وتغني فيهما تماماً وأنت في وسطها؟ ثم ومنازلنا؟ أفي كل منها مكتبة كما في المنازل الأوربية؟ وأتزين حجراتها تلك الصور البديعة التي لا يكاد يخلو منها منزل غربي؟ وأخيراً أترى طريقة نقاشنا وأسلوب معاملاتنا يتفق وأصول الذوق السليم والحس الرقيق والشعور الحي؟ أترى نرسل اللفظ بقدر وحساب ونعامل الزوجة والولد والخادم والقريب والبعيد بما ينبغي أن تكون عليه المعاملة المثلى، فنعطي لكل حقه، ونرعى لكل عهده، ونحفظ فيما بين هذا وذاك قدرنا في عين الجميع؟
يقول الإنجليز إن (الرجل الدمث) الأخلاق هو ذلك الذي يعطف على الخجول، ويرحم السخيف، ويرعى الجميع فلا يثير ما يجرح الشعور ولا يعلو لصوته في المناقشات، ذلك الذي لا يفخر بما يعمل ويبدو في إعطائه كما لو كان هو الآخذ، ذلك الذي لا يستمع للوشايات ويفسر كل شيء من ناحيته المشرقة!)
فترى أين هو ذلك الرجل فينا؟
ستقول أنك تطلب من التربية كل شيء وترهقها من أمرها عسراً؟. وسأقول وما جدواها إذا هي اكتفت بحشو العقول وتركت الذوق فجاء غير مصقول؟ وهل نعيش في حياتنا بالعقل فحسب؟ ألا إن جانب العواطف والشعور أقوى في الحياة من جانب العقل، فإذا هي تركت هذا الجانب وأهملته فلن يكون تقصيرها إلا فادحاً شنيعاً! إذ ما عسى أن تكون الحياة بغير عاطفة مهذبة وذوق سليم حي؟ وإلى أين نلجأ في صحراء (العقل) إذا لم نلجأ إلى واحة (الشعور)؟ وكيف نوفق في معاملة الناس وفي حفظ قدرنا بينهم إذا لم يكن لنا ذوق سليم وشعور حي؟
2 - الناحية الجسمية
أما هذه الناحية فأحسب الكلام فيها يسيراً!ـ الرياضة عندنا غير محبوبة عند الأكثرية الساحقة، والأقلية التي تمارسها في المدارس تسيء أحياناً استعمالها وقلما تستمر فيها إذا شغلتها الحياة وتقدم بها الزمن. ولذلك لا تعجب إذا رأيت أجسام الخريجين عندنا غير رياضية، وإذا وجدت من الخريجين تقصيراً هائلاً في أوليات الرياضة البدنية اليومية وفي كل ما يقي الجسم غائلة الأمراض ويحفظ عليه مناعته الطبيعية! وها أنت ترى أن الطلبة
موبوءين بالعادات السرية، وأن الخريجين مسرفين في النواحي الشهوية عزاباً كانوا أو متزوجين! وها أنت ترى أن طلبة المعاهد الدينية محرومين أو شبه محرومين من التربية الرياضية إلى حد عجيب كأن الدين لا يقر الرياضة ولا يعرفها! وأن المدارس الأهلية كثيرة التقصير في هذه الناحية إلى حد شديد! ثم ها أنت ترى أن قليلاً منا من يدقق في اختيار الغذاء اللازم لجسده، ومن يعنى بتعرف حالته البدنية كل عام حتى يعد العدة لاتقاء الخطر، وأن أقل القليل من ينامون مبكرين ويستيقظون مبكرين ولا يأكلون حتى يجوعوا فإذا أكلوا لم يشبعوا. . .! ثم هاأنت ترى الكهولة والشيخوخة يزحفان على شبابنا بسرعة عجيبة، وأن الكثير من خريجينا يتناول الخمر إلى جانب التدخين في سهولة ويسر. . .!
فهل ترى بعد هذا أن مدارسنا قد نجحت في تكوين (الشخصية الكاملة) المنشودة، ذات العقل المنطقي المستقل، والعاطفة النبيلة المشبوبة، والجسم السليم القوي؟
(يتبع)
محمد حسن ظاظا
بين الشرق والغرب
للأستاذ فليكس فارس
تتمة ما نشر في العدد الماضي
يقول المناظر الكريم إنه كان يتمنى لو اتسع المجال لديه ليشرح لكم الثقافة الغربية والذهنية الآرية. فهو لم يزل يأخذ بالنظرية التي جاء الاستقراء العلمي واضحاً جداً لتبجح الآريين بها
وما تلك النظرية إلا توهم اتخذ به نحو جينو وأشياعه إذ قالوا بتفوق السلالة الآرية على

سائر سلالات الأرض لتفردهم بشكل خاص في جماجمهم، وبنوع خاص في شعرهم، وبلون فارق في جلودهم، فادعوا أن هذا الشكل دون سواه من بني الإنسان يملك صفاء الذهن وقوة الاختراع والعبقرية بأنواعها. غير أن الاستقراء قد اضطر دهاقنة علماء - الأحياء - إلى الاعتراف بفساد هذه النظرية بعد أم رأوا أن الجماجم التي ينطح بها الآريون السحاب إنما يحمل مثلها تماماً أقزام أفريقيا الوسطى، وأن شعورهم وجلودهم وسائر مميزاتهم الجسدية يتمتع بها كثير من القبائل والشعوب المنتشرة على وجه الأرض. . .

ثم يقول المناظر لنا أننا إذا ما أخذنا بما اكتشفه الغرب من علم يمكننا التحكم بمقدراتنا فأننا نستطيع أن نغير عقليتنا لنقتبس طرائف الغرب التي توصلنا إلى خير النتائج

ولماذا يجب أن تعمل الشعوب العربية على تغيير عقليتها وإنكار فطرتها وحوافزها التي تكونت من أعظم حوادث التاريخ طوال ألوف السنين ما دامت هذه العقلية نفسها قد أنارت الدنيا بعلومها وآدابها واكتسحت الغرب كله بروحانيتها وشرائعها؟

ولقد أورد المناظر استفهاماً إنكارياً بقوله ومتى أصلحت روحانية الشرق النفوس ما دام العالم هو هو لم يتغير بشروره؟

ونحن نقول له إن روحانية الشرق هي التي أسقطت ألوف الآلهة في الغرب عن عروشها، وأن الشعوب الآرية بدون استثناء أي عنصر منها إنما اهتدت إلى الحق والجمال في منشأ حضاراتها بتفكير الشرق ووحيه وإلهامه

فإذا نحن رجعنا بالذكر إلى حضارة أوربا الوثنية التي بنيت على خرافات الأساطير لا يسعنا بعد ذلك أن ننكر الواقع ونقول بأن الإنسان كان سيهتدي دون أن يهدي

أما ما قاله الدكتور بانزوفيل للمناظر مصرحاً له (بأنهم سيصلحون بالعلم من البشر ما عجزت الأديان عن إصلاحه منذ ألوف السنين) فقول يطرح على بساط البحث مسألة خطيرة لا نرى بداً من إلقاء نور المنطق السامي عليها.

إن العقلية الآرية المعززة بالعلم والثقافة العالية ستقطع دابر الأجرام بوسيلة علمية هي تعقيم المجرمين.

وأنا أحد أبناء هذه الأمة العربية التي يدعى الآريون قصورها في ميدان التفكير، أنا على ما أنا عليه من ضيق الاطلاع وفي قومي من رجال العلم من لا يشق لهم غبار، أستنير بعقليتي السامية وبأيماني في العربي المكين فأقول لعلماء الغرب لقد ضللتم

وأقول بخاصة إلى الدكتور بانزوفيل إنه مغرور بعلمه وإنه لا يداوي من العلة إلا أعراضها

إن الغرب يرى تكاثر عدد المجانين والبلهاء والمجرمين في شعوبه فلا يبحث عن منشأ العلة ليداويها بل يعمد إلى تعقيم ضحايا مدينته وثقافته ظناً منه أن هناك بعضاً من الأسر المصابة بداء وراثي وإنه إذا قضي على تناسلها خنقت العلة في منشأها!

ويل لهم! إنهم إذا استمروا على هذه المعالجة فأنهم سيعقمون ثم يستأنفون التعقيم إلى أن يقضوا على النسل بحجة تحسينه

إن للأجرام وللجنون وللبله جراثيم لم تتولد أصلاً من الأرحام.

ليفتشوا على هذا الجراثيم فأنني أراها بعين الخيال الشرقي والإلهام العربي مكبرة كالثعابين تتململ في المراقص وفي الحانات وفي المواخير التي أراها تكتسح هذه المعامل التي فتحت فيها الآلات أسواق النخاسة الفاتلة، أراها في كل مكان لا تسود عقليته الرحمة الموحاة من السماء، بل أراها حتى على فراش الزواج الذي أصبح تجارة وشركة بين أنانيتين.

ليعقموا ما شاءوا من المجانين والمجرمين، فإن هذه الحضارة التي أقامت العجل الذهبي لها إلهاً ستقذف للدكتور بانزويل وإخوانه بألوف من الزبائن لا ينتهي عددهم حتى ترجع مدنية الغرب إلى عقلية الشرق وثقافته

أما فرويد فنظريته صحيحة في هذه الأمراض النفسية التي تفتك فتكاً ذريعاً في أبناء المدنية

الغربية، وما كانت مثل هذه الأمراض لتعيب أبناء بلادنا في العصور الماضية إلا في القليل النادر لأن الذهنية الشرقية لم تحارب الغريزة الجنسية بل اعتبرتها جزءاً من إيمانها. وما التبتل إلا بدعة طرأت على تعاليم عيسى فاحتضنها الغرب وجعلها على ما

هي والشرق منها براء، وهذه شريعة النبي الكريم قد أتت بما لا حاجة لنا معه بمنظار الذهنية الغربية الذي كشف للعالم كما يقول المناظر إن الحياة الجنسية نور الحياة. وإنني لواثق من أن مثل هذه الأمراض النفسية التي تنشأ من كبت الغرائز لا يمكنها أن تصيب مؤمناً عربياً يعمل بشريعته لأن الدين دين الفطرة قد أنزل لتنظيم قوى الحياة لا لقتلها

وأخيراً أراد المناظر الكريم أن يثبت لنا أن الموسيقى الغربية خير من موسيقى الشرق وحجته العلمية في ذلك أن الغناء العربي إنما هو هتاف بصوت واحد في حين أن الغناء الإفرنجي غني بما فيه من طباق بين عدة أصوات ونحن إذا ما صرفنا النظر عن الغرائز المستقرة في العقل الباطني والتي يصدر عنها الفني الخاص بكل أمة وبحثنا الموسيقى من وجهة علمية استقرائية نجد أن الموسيقى العربية أصدق تعبيراً للطبيعة وأدق تصويراً للمشاعر بعديد نغماتها في الصوت المنفرد فأن الموسيقى العربية تمثل في نغماتها السبع الأساسية ألوان الطيف يتفرع منها ما يزيد على السبعين نغمة تخضع مرنة ناعمة للعاطفة فتظهر خفاياها كصورة اختطفت عن الأصل جميع أنوارها وأظلالها. أما العروسان الغربية التي تسجن الصوت في مقام ونصف مقام أعلى وأدنى، ولا تستوعب ربع الصوت وتمنه بل و116 منه تتناوله الموسيقى العربية إنما هي أشبه بالفرشاة الخشنة في يد رسام لا يمكنه أن يصور من المرئيات غير خطوطها الأولية.

إن الموسيقى الغربية رست على الطباق أو المطاوعة فكان لا بد لها من كبت النبرات الدقيقة المتمردة على الطباق ومن الاكتفاء بنغمات معدودات هي محل ثروتها. أما الموسيقى العربية فأنها هتاف عميق من النفس منفردة تجاه الوحدة المتجلية في مسلهمات الشرق ديناً وفناً. فهي وإن نقصها الطباق لعدم ملاءمته لحريتها ودقة نبراتها لا تزال حتى في دور انحطاطها اليوم، أغنى بأوزانها ونغماتها من الموسيقى الغربية الفنية بالصخب والفقيرة بالتنوع المنفرد!

إما أن تكون موسيقى الطبيعة أشبه بالموسيقى الغربية كما يقول المناظر فذلك ما لا نوافقه عليه ولبس في الطبيعة أجواق تتوافق على الهتاف بنشيد يطربك فأنك إذا ما أصغيت إلى بلبل واستسلمت نبراته المتناسقة الصافية وهو منفرد يذهب إنشاده إلى أغوار مشاعرك فتشاركه بما يلهمه النشر من شعر حنينه كلمات وتلاعبه معاني لا يدركها إلا المستغرق المطل على وحدة الوجود. ولكنك إذا وضعت عشرين بلبلاً أو عشرين مداحاً من أنواع الأطيار وأطلقوا جميعهم أصواتهم فعندئذ ندرك أن الطباق ليس من روح الطبيعة بل هو من أوضاع فناني الغرب الذين لم يهتدوا إلى الوحدة المليئة بالتنوع فاخترعوا لهم موسيقى مبنية على المطاوعة ليسدوا مجاعة إنشادهم المركب الفقير

وما أطول ما أقوله عن جهل للموسيقى الغربية فأنني قد ألفتها منذ كنت طفلاً وقد ألقت أناملي طويلاً استنطاق أوتار عودي العربي فأنا أفهم الأنغام التي قسمها الفارابي كما أفهم موسيقى موزار وبيتهوفن بل وموسيقى باغ أيضاً. ويمكنني أن أؤكد لكم أن الفن الغربي على ما بذل فيه من جهود لا يرتكز على أساس من الموسيقى الطبيعية التي تتجلى بكل روعتها في الإنشاد العربي المنفرد. ولو أن رجال الفن عندنا أدركوا هذه الحقيقة وانصرفوا إلى شرقية موسيقانا على أساسها دون أن يستهويهم ما يتوهمونه رائعاً في الموسيقى الغربية لكانوا ينتزعون من الطبيعة أروع موسيقاها ولكن أكثرهم كمن لديه ثروة يطبق خزانته عليها ليذهب مستجدياً من الغريب كسرات تتخمه ولا تسد جوعه

لعلني بعد هذا البيان الموجز تمكنت من إقناع مناظري الكريم

أولاً: إن العرب عندما رقوا العلوم ونشروها وأوجدوا أهمها، إنما عملوا بعقليتهم الشرقية العربية. وإننا لسنا بحاجة لتقليد الغربيين في أسلوب تفكيرهم لنجاريهم في مضمار العلوم.

ومن العرب اليوم في أوربا وأميركا ومصر وسائر الأقطار العربية علماء في كل فن

يفتخر العالم بأسره غربه وشرقه بسعة اطلاعهم وعبقريتهم وما بلغ هؤلاء الأعلام مقامهم إلا بعقليتهم العربية

ثانياً: إن العلوم الوضعية مشاع بين البشر جميعهم فليس على الأرض سلالة خصها الله بالعلن دون سواها

ثالثاً: إن لكل شعب، فطرته وهي ميزة خاصة في الذوق واختصاص في فهم الحياة والتمتع بها، وإن كل أمة تستبدل ثقافة غريبة بثقافتها إنما تؤلم فطرتها وتميت شخصيتها

رابعاً: إن الأخذ بالعلم عن أي شعب لا يستلزم مطلقاً اقتباس طرق حياته في الأسرة والمجتمع وتقليد ذوقه وسكناته وحركاته فأن العرب عندما احتضنوا العلوم الاستقرائية عن اليونان لم يأخذوا الفطرة اليونانية ولا ذوقها ولا معتقداتها كما أن أوربا عندما تلقت هذه العلوم عن العرب لم تتعرب بل بقي فيها كل شعب محتفظاً بثقافته. هذا فضلاً عن أن في الغرب ثقافات قد يراها من يحدجها من بعيد على شيء من التقارب غير أن من يدرسها عن كثب ليدهشه ما بينها من فروق تتناول صميم الذوق والعقيدة والشعور، فأي هذه الثقافات يشار على الشرق بأن يتبع وهل يظن المناظر الكريم أن تجربة التقليد شيء جديد لم يتضح لنا زيغه بعد. أفلا نرى في كل بلد من هذا الشرق العربي عدداً من المتفرنسين والمتألمنين والمتأكلزين والمتروسين الخ خرجوا عن الثقافة العربية وامتنع عليهم أن يتصفوا بالثقافات التي استهوتهم فأصبحوا لا للغرب يعرفهم ولا للشرق يعترف بانتمائهم إليه.

وهنالك ظاهرة غريبة نشأت من هذا التقليد وهي النعرة التي استحكمت بين هؤلاء المقلدين وهم أبناء البلد الواحد؛ فأنك لن تجد متفرنساً يمكنه الاتفاق مع متألمن أو سواه من المستغربين

كل إنسان يجبن أمام الحوادث في حياته فيلين لها حوافزه وفطرته إنما هو شخصية تائهة فقدت ذاتها، إنما هو الشبح الباكي، والحي المستجبي؛ ولقد تلمع إحداق مثل هذا الإنسان

بالظفر والمجد، ولكن أنوار السعادة تبقى منطفئة في عينيه، ونحن كأمة لا قبل لنا بأن نتحكم في هذا الناموس الثابت لأن فطرتنا مقدورة علينا كامنة فينا؛ كل أمة تحيا على غير ما تسوقها فطرتها إليها فهي أمة باكية بدموع صامتة، هي أمة مستضعفة مستعبدة لا معنى لحياتها ولا سعادة لها فيها

إن شعوب الشرق العربي مسؤولة أمام تاريخها بالمحافظة على ثقافتها وإحيائها والأخذ بما وضع لها وحي أنبيائها وإلهام عباقرتها لتجديد حضارتها، وإن كانت مدنية الغرب الحديثة؛ ترى الارتقاء يقوم على العلم وحده، على الاستقراء دون الاستلهام فأن للشرق العربي المستحفز للوثوب دستوراً يتضمن الحكمة علمته وفي العمل بها العظمة الحقيقية لكل إنسان ولكل شعب وهي:

أعمل لآخرتك كأنك تموت غداً، واعمل لدنياك كأنك لا تموت أبداً

فليكس فارس

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

1880 - 1937

للأستاذ محمد سعيد العريان

- 29 -

(مضى الأستاذ سيد قطب فيما سماه الموازنة بين الرافعي والعقاد على نهجه وطريقته؛ وقد آثرت الصمت رعاية لما بيني وبينه من صلات الود، وأغضيت في سبيل ذلك عن أشياء تنالني من قريب أو من بعيد. . .

(ولقد كان حرصي منذ بدأت هذا التاريخ أن أكون مؤرخاً وحسب، مجرداً من هوي الصاحب وميل الصديق؛ فما كان من حسنات الرافعي أو عيوبه فقد رويته على ما رأيته، إذ كان حق الأدب على أكثر من حقه. فلما كانت أولى مقالات الأستاذ قطب، هممت أن أقول شيئاً فخشيت. . .

وخشيت أن يكون لي في الدفاع حماسة توقظ هواي وحبي للرافعي فتغلبني عاطفتي على روح التجرد الذي أحرص عليه حتى أفرغ من هذا التاريخ. . . وكفاني الأستاذ

شاكر هذه المئونة حين انتدب لتزييف هذا النقد
ولكن الأستاذ قطب استمر مسرفا في التجني، ومضى يقول. . . ويقول. . . ويتهمني) في النهاية بأنني انحرفت عن منهج المؤرخ، وكنت عنده شبيها بمن يجلس في المأتم !. . .ويرمي الناس بالحجارة. . . وعفا الله عنه
فأن كان هذا هو كل عذر الأستاذ قطب من تمزيق أكفان الموتى بأظفاره فقد بلغ) وأبلغ، وسيذكر عذره هذا غداً فيما يؤثر من لطيف الأعذار، ولكنه لن يبلغ من القوة أن يمحو التاريخ الذي كان، وإن ساءه وأحفظه أن ينسب هذا التاريخ إلى صاحبه الذي (. . .يحاول أن يدفع عنه أو يدفع به
(العريان)
عود على بدء
لم تكن الكتابة عند الرافعي فكرة ومعنى وعاطفة فحسب؛ بل كانت إلى ذلك فناً وأسلوباً وصناعة، والأدب العربي منذ كان إلى أن يطوى تاريخه بين دفتين، هو فكر وبيان، ما بد من اجتماع هاتين المزيتين فيه ليكون أدباً يستحق الخلود. ذلك كان رأي الرافعي ومذهبه؛ فمن ذلك لم يكن يعتبر المقالة وقد انتظمت في خاطره معنى وفكرة، مقالةً تستحق أن تكتب وتنشر إلا أن يهيئ لها الثوب الأنيق الذي تظهر به لقرائها؛ وهذه هي المرحلة الأخيرة
وأول ما يعنيه في ذلك هو بدء الموضوع وخاتمته؛ لست أعني العبارة التي يبدأ بها والتي يختم، ولكني أعني طريقة البدء والختام في الموضوع. شأنه في ذلك شأن القاص: تجتمع له أسباب القصة بمقدماتها وحوادثها وما آلت إليه، مرتبة ترتيب الحادثة بما بدأت وبما انتهت؛ حتى إذا أراد أن يحكيها لمن يسمع أو يكتبها لمن يقرأ، قدم وأخر، وأظهر وأخفى، وبدأ القصة بما لم تبدأ، ليعقد (العقدة) ويرصد للحل والنفس مستشرفة إليه متطلعة إلى خاتمته. . . وكذلك كان الرافعي يفعل في مقالاته فإذا عقد العقدة ورتب موضوعه ترتيب الفصول في الرواية، آن أوان الأداء فأخذ . . . له أهبته، فيطوي وريقاته ساعة، ليرجع إلى كتاب أي كتاب من كتب العربية يقرأ منه صفحات كما تتفق، لإمام من أئمة البيان العربي، فيعيش وقتاً ما قبل أن يكتب في بيئة عربية فصيحة اللسان. وخير ما يقرأ في هذا الباب، كتابات الجاحظ وأبن المقفع، أو كتاب الأغاني لأبي الفرج
وسألته في ذلك فقال: (نحن يا بني نعيش في جو عامي لا يعرف العربية، ما يتحدث به الناس وما ينشئ كتاب الصحف في ذلك سواء، واللسان العربي هنا في هذه الكتب. إنها هي البادية لمن يطلب اللغة في هذا الزمان، بعد ما فسد لسان الحضر والبادية. . .)
على أنه كان لا يفيد من هذه القراءة اليسيرة قبيل الكتابة إلا الجو البياني فقط. أما حروف اللغة، وأما أساليب اللغة فلم تكن تعنيه في شيء؛ فيقرأ عجلان غير متلبث كما يطالع صحيفة يومية، حتى يفرغ من الفصل الذي بدأ؛ ثم يطوي الكتاب ويستعد للإملاء وإذا كان كثير من الكتاب تزعجهم الحركة والضوضاء وتعوقهم عن الاستمرار في الكتابة، فأن الرافعي كان - على ما في أذنيه - يزعجه أن يمر النسيم على صفحة خده. . . كان مكتبه إلى جانب باب الشرفة، وكان له نضد صغير إلى جانب مكتبه حيث أجلس ليملي
علي؛ فكان يلذني أحياناً والجو حار أن أفتح باب الشرفة لأتروح، فلا تكاد تهب نسمة بجانبه حتى يكف. وعرفت عادته هذه فكنت أغلق الشرفة والنافذة معاً، لأصلي حر الغرفة أربع ساعات أو يزيد حتى يفرغ من إملائه. وكان يؤذيني من ذلك أنني كثير التدخين؛ والحر والمجهود العصبي يزيدان الرغبة فيه، فلا يمضي ساعتان منذ بدأنا حتى يفسد جو الغرفة، فأفتح الشرفة برهة لتجديد الهواء نتبادل فيها الحديث ثم أعود فأغلقها ليملي علي. . . على أنه في غير وقت الكتابة كان يحب أن يقضي في الهواء الطلق أكثر وقته، حتى في برد الشتاء القارس؛ فكان إذا فرغ من إملائه خرج إلى الشرفة البحرية يفتح صدره للهواء يعبه عبا كما يقبل الشارب الحران على الماء في يوم قائظ. . .
ولم أكن أقاطعه حين يملي علي مقاطعة ما، إلا حين أشعر أنه يهم بالانتقال في الموضوع من فصل إلى فصل، فألقي إليه ما أريد أن أقوله مكتوباً في ورقة، لأحاوره

في عبارة أو لأستوضحه معنى. . . ثم يعود إلى إملائه وأنا أكتب صامتاً وهو لا يرفع عينيه إلي. . . كأنما يتحدث من وراء ستار إلى سامع غير منظور، أو كأنه في نجوى خاصة ليس فيها سامع ولا مجيب. ولقد كان يخيل إلي أحياناً وأنا صامت في مجلسي والقلم يجري في يدي على الصحيفة وأذني مرهفة للسمع - كأنه في شبه غيبوبة يتحدث إلى نفسه والمجلس خال إلا منه، فما أنا فيه بشيء إلا إدراكاً غير مجسد. وأحياناً أخرى كانت تتسع روحه وتنبسط حتى تشملني، فما اكتب كلاماً يمليه علي، ولكن تمليه نفسي على نفسي وإن صوته ليرن في أذني بما سبق إليه خاطري. . .

ولم يكن يملي مسترسلاً، ولم يكن يملي وانياً متمهلاً، ولم يكن في كل أحواله سواء؛ فحينا يطاوعه القول، وحيناً يتأبى عليه فيسكت وهو يدق على المكتب بحديدة في يده ويغمغم بصوت لا يبين؛ فإذا طال عليه الأرتاج تناول كتاباً أي كتاب على مكتبه، فيفتحه فيقرأ كلمة أو سطراً أو جملة؛ ثم يطوي الكتاب ويعود إلى الإملاء. ولقد يراه من يراه في هذا الوقت فيحسبه يملي مما يقرأ وما به ذاك، ولكنها كانت لازمة من لوازمه تعودها حين يرتج عليه وتعود أن يجد فيها مفتاح القول. . .

ولقد أرتج عليه مرة فطال به الصمت، فمد يده إلى كتاب على مكتبه وهو يقول ضاحكاً: يا أخي، لقد تعودتها وما أجد لها علة، وتعودت بها أن أجد ما أريد عن أول كلمة أقرئها ولو كان الكتاب معجماً لغويا. . .) وكان الكتاب الذي مد إليه يده هو (القاموس المحيط)، قلت: (إن في بعض الأشياء مثل المفاتيح العصبية. . .) قال: (صه، هذه هي الكلمة التي أريدها: المفاتيح العصبية. . .) ثم طوى الكتاب وعاد إلى الإملاء

وكانت له عناية واحتفال بموسيقية القول، حتى ليقف عند بعض الجمل من إنشائه برهة طويلة يحرك بها لسانه حتى يبلغ بها سمعه الباطن، ثم لا يجد لها موقعاً من نفسه فيردها وما بها من عيب، ليبدل بها جملة تكون أكثر رنيناً وموسيقى. وكان له ذوق خاص في اختيار كلماته يحسه القارئ في جملة ما يقرأ من منشآته، ولكني كنت أجد الإحساس به في نفسي عند كل كلمة وهو يملي علي. هذا الذوق الفني الذي اختص به، هو الذي هيأه إلى أن يفهم القرآن ويعرف سر إعجازه في كل آية وكل كلمة من آية وكل حرف من كلمة. وحسب القارئ أن يعود إلى تفسير الرافعي لقوله تعالى: (ولقد راودته التي هو في بيتها عن نفسه. . .) ليرى نموذجاً من هذا الذوق الفني العجيب في فهم اللفظ ودلالة المعنى، يقابله وجه آخر من هذا الذوق في اختيار ألفاظه عند الإنشاء. وكان إلمامه بمتن اللغة، وإحاطته بأساليب العربية، ومعرفته بالفروق اللغوية في مترادف الكلام - معينة له عوناً كبيراً من البلوغ بعبارته هذا المبلغ من البيان الرفيع. احتاج مرة أن يعبر عن معنى في أسلوب من أسلوبه، فأرتج عليه، فأخذ يغمغم برهة وأنا منصت إليه؛ فإذا هو يقرأ لنفسه من ذاكرته باباً من كتاب المخصص لابن سيده ثم دعا بالكتاب فأخرجته إليه؛ فما هو إلا أن فتحه حتى وقع على مراده، فطوى الكتاب وعاد إلى إملائه. . . وهو على صحة عبارته وسلامتها قلما كان يلجأ إلى معجم من المعاجم ليبحث عن كلمة أو معنى كلمة. ومع حرصه على أن يكون قوي العبارة عربي الديباجة قلما كان يستعمل عبارة من عبارات الأولين. وكم أجد على العربية من أساليبه ومعانيه. وكان له في إنشاء (الكناية) إحساس دقيق. وأحسب لو أن واحداً من أهل البيان أراد أن يتتبع ما أجد الرافعي على العربية من أساليب القول، لأخرج قاموساً من التعبير الجميل يعجز عن أن يجد مثله لكاتب من كتاب العربية الأولين؛ إذ كان مذهب الرافعي في الكتابة هو أن يعطي العربية أكبر قسط من المعاني ويضيف ثروة جديدة إلى اللغة، وقد بلغ ما أراد. إنني لم أعرف كاتباً غير الرافعي يجهد جهده في الكتابة أو يحمل من همها ما يحمل؛ وما أعرفه حاول مرة واحدة أن يسخر من قرائه أو يشعوذ عليهم ليملأ فراغاً من صحيفته يراد أن يمتلئ. على أنه أحياناً كانت تدعوه دواع إلى كتابة لم يتهيأ لموضوعها أو يفرغ لها باله، فيمليها على عجل بلا إعداد ولا توليد، ولكنك مع ذلك تجد عليها طابع الرافعي وشخصيته، فتعرف كاتبها وإن لم يذيلها باسمه. والعجيب أن هذا النوع من المقالات التي كان الرافعي يكتبها بلا إعداد ولا احتفال كان أحب إلى كثير من القراء، وكان الرافعي يرتفع به عن منزلته درجات عند طائفة من القراء. . .

والشاي أو القهوة هما كل المنبهات العصبية التي يطلبها الرافعي عندما يكتب، وفنجانة أو اثنتان هما حسبه في هذا المجلس الطويل. وعلى أنه في أخريات أيامه قد ولع بتدخين الكركرة (الشيشة) فأنه لم يكن يدخن إلا دخينة (سيجارة) أو دخينتين في مجلس الكتابة؛ فكان يشتري العلبة فتظل في درج مكتبه شهراً إذا لم يزره في مكتبه زائر شهراً إذا لم يزره في مكتبه. . .

فإذا فرغ الرافعي من إملاء مقاله، تناوله مني فطواه قبل أن يقرأه، ثم يودعه . . . درج مكتبه إلى الصباح ويخرج إلى الشرفة يشم نسيم المساء. . . ثم يأوي إلى فراشه. . .

وأول عمله في الصباح بعد صلاة الفجر أن يعود إلى المقال الذي أملاه علي في الليل فيقرأه ويصححه. . . ثم يسعى به ساعيه إلى حيث ينشر. . . ويفرغ يوماً لنفسه قبل أن يهيئ فكرة لموضوع جديد. . .

مقالة. . . هي عمل الفكر، وكد الذهن، وجهد الأعصاب وحديث النفس في أسبوع كامل؛ ولكنها مقالة. . . ومع ذلك فقد أنشأ كتاب (رسائل الأحزان) في بضعة وعشرين يوماً، وكتب (حديث القمر) في أربعين، وكتب (السحاب الأحمر) في شهرين. . . وقال قائل من خصومه: (إنه يقاسي في هذه (الكتابة) ما تقاسي الأم من آلام الوضع. . .!) وقال الرافعي يجيبه: (أتحداك أن تأتي بمثلها أو بفصل من مثلها. . . وعلى نفقات القابلة والطبيبة متى ولدت بسلامة الله!)

(شبرا)

محمد سعيد العريان

صحيفة أدب وأخلاق

عطفة القاياتي

للأستاذ حسن القاياتي

عطفة القاياتي فيما نتشهى ونتوسل، و (وعطفة الآلايلي) فيما تسمى ولا نحب، تلك عطفتنا العتيدة، قائمة حيث يحتضنها (باب زويلة) عند ملتقاه بالسكرية، فهي على يسرى المقبل من حي الحسين بن علي، الذاهب إلى (باب زويلة) عن يساري إذا دخلت من البا ... ب وإن كنت خارجاً عن يميني

تلك (عطفة الألايلي) في بهرتها دارنا القديمة الصغيرة (دار القاياتي): مسلك ضنك ملتو كمجرى النفس وجحر الأفعى؛ أشد من عرين الليث ظلمة ورهبة، وأضيق مسلكاً من لهاة الليث

يتصدر العطفة ربع قديم عادي البنية، ترحل عنه أهلوه من قدمه وخلوقته فهو خلاء قفر قام حرباً على المجتازين خشية التزلزل والتهادي.

أجل أيها الربع الذي خف آهله ... لقد بلغت فيك النوى ما تحاوله

ربع معطل خلاء، عطل من الغيد والصباحة، لا يطل اليوم من شرفاته ولا نوافذه الحسن، ولا تشرف كعهدها ربات الدل.

فنوافذه الخالية الساجية كالعيون الثاكلة المفجعة لا يشرف منها الحب ولا تطلع الفتنة يناوح هذا الربع المعطل بيت واهن متهالك، طالما تهدم وابتنى، وابتنى فتهدم، أحوالاً وأفانين حتى انتسخ البيت الأصيل وأعيد خلقاً آخر بالترقيع، فهو البيت وليس هو البيت كما قيل في طيلسان ابن حرب:

بقى الرفو وانقضى الطيلسان، ... لكثرة عرضه على الرفو والرفاء

يسلم عطفتنا هذا الربع إلى ربع ثان يسايره أعرق منه في البلى والخلوقة يملك حيزها الأكبر؛ شهدت بالأمس قطانه من الطبقة الدنيا المبتئسة يترحلون عنه خشية التداعي ويتناشدون بكاء على العطفة أو بكاء على الربع وعطفه

ما ربع ميَّة معموراً يطيف به ... غيلان أبهى رباً من ربعها الخرب

ثم تتسلسل يمنة ويسرة ومنازل العطفة بعد هذين الربعين بيتاً بيتاً فتشاكل هي كما تشاكل

أهلوها وهناً وضعة. وناهيك ساكنو الربوع حتى تشافه بيتنا الصغير فإذا هو معها كما قيل للعبادي: أي حماريك شر؟ قال: هذا ثم هذا. تشابهت هذه البيوت في الرثاثة والزراية حتى لتحسبها من التشابه بيتاً واحداً مردد الصورة، أو تحسب كل بيت منها إيطاء مع جاره وصاحبه، وليس في الحارة كلها بيت للقصيد.

وعلى هذا الذي نصف تمضي فتتصل الطليعة الأولى من حارتنا حتى تفضي إلى منزل قائم تبلغك هذه الكلمة حديثاً عنه: منزل يتصدر كأنما تختتم به العطفة أو تسد، ولكنها تستمر فتطرد بعده؛ بيد أنها تتشعب إلى شعبتين، تأخذ إحداهما ذات اليمين والثانية ذات الشمال كما تبسط ذراعيك للعناق!

تبارك الله ما أشرف وأنبل! ما شهدنا كهذه العطفة عطفة زهراء سامية ولا قطان عطفة جلهم بل كلهم من الطبقة الدنيا المتواضعة الوادعة، (إسكاف) إلى جانب (كناس) و (نجار) لدى (أديب)، وما إلى هؤلاء. أجل، لقد تنجب الحارات ولا كمن أنجبت حارتنا من (عزام) الإسكاف و (موسى) الزبال و (كريمة) النجار و (السيد) الشاعر وما شر الثلاثة أمَّ عمرو ... بصاحبك الذي لا تصبحينا

تلك حلية السكان في عطفتنا. ألست تشهدهم أيها القارئ ملء النفس، فكيف ظنك بزميلك الشاعر الفحل وقد خرج على هذا الملأ في وجاهته وزينته؟ أليس يزدهيك منه أنه أظهر أهل الحي نبلاً وأبينهم وجاهة؟

لم أر شيئاً حسناً ... منذ دخلت اليمنا
فيا شقاء بلدة ... أجمل من فيها أنا

ليس هذا وحده مما يشق على النفس والبصر فقد انتحى قاصية من العطفة حمام عتيق ومستوقد حمام سالت عليهما (الصحة) عجلات ومركبات تحمل القمامة ذهابا وجيئة، حتى إذا التقت مركب في مسالكها بمركب غصت بهما حلاقم العطفة وسد متنفس الطريق فقل في حبسة بل غصة صادعة كغصة الماء لا يسيغها الماء!

لو بغير الماء حلقي شرِق ... كنت كالغصان بالماء اعتصاري

إذا راح سدنة حمامنا أو اغتدوا عليه يحملون قدور (الفول المدمس) المنتفخة السوداء فقل في أشباه الحلاليف تحمل الحلاليف!!

أنا أبن الذي لا نزْل الدهرَ قدرُه ... وإن نزلت يوماً فسوف تعود
ترى الناس أفواجاً إلى ضوء ناره ... فمنهم قيام حولها وقعود

على أننا وإن تناولنا قدور (الفول المدمس) بهذه الدعابة فما نتغمد لها فضيلة ولا نغض من قدر، تلك أسوة البائسين بالسراة ومائدة المفلوكين معاً والمالكين، على حالة من المدنية شحيحة مناعة ليس لنا فيها طعام ابن جدعان ولا جفنة آل المحلق

نفى الذل عن آل المحلق جفنة ... كجابيةِ السَّيْح العراقي تَفهَقُ

لقد رمتنا هذه الحضارة والمدنية بمأدبات ومطاعم باخلة جل ما تتسمح به قدور وصحاف قدرتها الصناعة تقديراً فهي دقيقة زهراء كالدراهم والدنانير، غالية كأنما تطبخ فيها الدراهم والدنانير:

رأيت قدور الناس سوداً من الصّلَي ... وقدر الرقاشيين زهراء كالبدر
إذا ما تنادوا للرحيل سعى بها ... أمامهم الحوليُّ من ولد الذر

يعصف بنا مستوقد الحمام عصفته ويهب إعصاره، فحسبك أن تتعرف أن الله إنما أجرى الهواء طلقاً ليشتمه الناس غيرنا نسيما عليلا وحياة ولا نتجرعه نحن إلا حرقة أو غلة، فهو زفرة حرى أو تنهد. طالما أظلتنا غاشية كثيفة هوجاء من دخان هذا المستوقد بل جبل النار يظلم لها يومنا الطلق الأضحيان حتى ليخيل إلينا أن يومنا قد رغب عن لونه الأبيض الوضاح، أو كأنما صيغت لنا خاصة شمس سوداء تقد من أديم الليل!!

أما وقع العجلات من مركبات (الصحة) زائرات المستوقد لا في الفينات والفترات بل في اليوم الأطول والليل الأليل فإنما يكون على أشده إذا تحين الأديب لخواطره الشعرية ساعة من فترة الأحياء وهدأة الحياة!!

يميناً لقد عشت هذا الزمن الحفيل لا أتفهم كلمة المعري في شعر (ابن هانئ الأندلسي) حيث يقول: (ما أشبه شعر ابن هانئ إلا برحى تطحن القرون) حتى إذا رصفت عطفتنا بالحجر وتخطرت عليها مركبات الصحة، أيقنت إنما نحن في مطحن للقرون

هذا بعد أن رصفت العطفة بالحجر، أما قبل ذلك فقد كانت تستهل علينا السماء في الشتوة شآبيب كأنما تخرقت بها السماء حتى تتوحل الأرض فأكثر مشية السكان إذ ذاك مشية المقيد في الوحل

عليَّ وإلا ما بكاءُ الغمائم ... وفيَّ وإلا فيم نوحَ الحمائم؟

حمام السكرية وناهيك: حمام صحب الزمن حتى تحدث به التاريخ وظل ماثلا حتى

زرناه، أنقسم بنصفين فهو حمامان، قسم للجنس النشيط له باب من السكرية، وقسم للجنس اللطيف الدخلة إليه من عطفتنا؛ بيد أن شطره الجميل قد عطل عندنا من العمل فعطل الحي من الحسن

كانت تبتكر إلى حمام السكرية هذا أسراب من الغيد الفواتن بل زهرات الصباحة من كل رشيقة القد نفاثة العينين بالسحر، فيلتقي لأجلهن عنده فصائل من عبدة الحسن رواد الغزل قوامها شباب من الطبقة الدنيا، فما شاء الحسن، لا، بل ما شاء الفحش من كلمة غزل حارة أو قالة عوراء تنظر إلي نظرة خائنة أو تجميشة باليد، ثم ما شاء الشغب والفتنة من تهاتر وإلحاد في الحسن. فكم صريع هناك في معترك الغزل والجدل بأعين الفتيات الساحرات وأيدي (الفتوات)

فتية تلك للشغب والشر خليقة بهذه الكلمة الفكهة من زميلنا الأستاذ علي شوقي قال:

على الطريق تراهم ... يتحرشون برائح أو غادي (وملطعين)

فئة تقول لها إذا حييتها: ... يا معشر السفهاء والأوغاد

إن للغزل في مصر كلها مغاني ومواقف غراء مشهورة، منها حمام السكرية. فأن عد العرب من مغاني صبابتهم ومآلف غزلهم بانة الوعساء والرقمتين، عددنا المحملين وبين النهدين، أو تذاكروا (نجدا) (وسفح زرود)، فخرنا (بالمحمدي) و (أبي السعود)،

أفدى ظباء فلاة ما عرفن بها ... مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب

ولا برزن من الحمام مائلة ... أوراكهن صقيلات العراقيب

حسن الحضارة مجلوب بتطرية ... وفي البداوة حسن غير مجلوب

لم يكن للعطفة فيما سلف عهد بالنور فكانت الحوذية والمكارون يربطون حميرهم ومركباتهم في جنبتيها، فإذا أقبل الداخل إلى أهله في الظلمة لم يرعه إلا صدمة من مركبة مسندة أو رمحة من حمار مرتبط

أنا أعمي وصاحب القوم أعمى ... فدعونا في ظلمة نتصادم

فإذا هو دامي الجبين، دامي الفؤاد من شجى ولوعة

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى ... حتى يراق على جوانبه الدم

زَيّن لنا هذا بل زين لنا حسن الجِدَّ ولا نكذب الله، أن نكتب إلى ولاة الأمر في طلب النور، ونمى إلينا حديث ذلك الكاتب الكبير الذي طلب إليه أن يكتب رسالة إلي وليّ أمر في طلب النور للمساجد فارتج عليه ولم يدر كيف يكتب، فبينما هو نائم جاءه إبليس فقال له أكتب: إن في النور أنساً للسابلة ونفياً للريب والوحشة عن بيوت الله. فبدا لنا أن نساجل هذا الكاتب ونساير أسلوبه هذا في استجداء النور لعطفتنا وبيوتنا لا لبيت الله، وهممنا بأن أكتب هذه الكلمة على طرازه الإبليسي؛ بيد أنني قَنَيْت الحياء فلم أكتب وليتني كتبت:

أيتها الوزارة الأريحية:

نحن أهل (عطفة الألايلي) في ظلمة مطبقة، المشتكي إلى الله منها ثم إليك، فهل أنت متسمحة فمحسنة إلينا بخطرة من النور ولمحة من الضوء فان في النور تنويهاً بمواقف الغزل عندنا والصبابة، وأنساً لمآلف الصبوة، وهداية لمواقع القبلات والنظرات فلا يجمل أن يسلم الجمال ومناغاته إلى الظلمة وحيرة الموقف وإلى مثل كلمة الشاعر:

وبان بارق ذاك الثغر يوضح لي ... مواقع اللثم في داج من الظلم

على أن في النور عدا هاتيك الخلال النذير، من رمح الحمير، والنجاة من المركبات. فلما استجابت الوزارة لهذه الضراعة والتخشع بعد أن كتبنا إليها - ولكن في غير هذه اللغة - استجابت لنا بمصباحين ضئيلين فاتري اللمح باهتي اللون كان العهد بالنور قبلهما أن تتحلل الظلمة تحته، ولكنه نور افتر من (بارق ذاك الثغر) يتحلل تحت الظلمة

أما صرعى الكلاب والهررة الأليفة المفدَّاة وما إليها من الفيران وبنات عرس فما تطوي لها جثة من جنبات العطفة وأقطارها ولا تكتم رائحة وإنما تحشر في بطون الهوام والطير وتصعد معها أرواح الساكنين من صرعى الجراثيم والعلل

ستقبرني الطير كيلا أكون ... سواءً وأمواتهم في الرجم

ليست صناديق القمامة التي ترصدها الوزارة في الطرقات والميادين إلا صورة كاذبة مختالة للنظافة كأنما تدفع بها عن العاصمة معرة النقص من القادرين أو تكف أو بها

لذعة العيون والَحدَق على فرط القذر والدمامة، كما تعلق تميمة القروية البلهاء الغريرة على محيّا وليدتها الدميمة خيفة العين
ليس لدينا شيء معجب بحمد الله بل كل ما تباشره العين مما يشق على النفس والبصر، سوي مدرسة أولية وسبيل أثري تحت المدرسة يتصدران العطفة. أما المدرسة فتحمل إلينا من ذكر العلم والتربية ما يندى على الكبد الحرَّى برداً وروحا؛ وأما السبيل فان يكن عطل آنفاً حتى ما يبض بقطرة ماء في طاعة المدنية والوقاية فهو يذكرنا بإحسان أسلافنا الأولين وبرَّهم كالمحيا الفاتن شيَّع عهد الصبا والفتنة وغيض منه ماء الحسن ربما أذكرك بتقاسيمه أيام كان يشرق بماء الحسن والفتنة تبتكر الشمس فيبتكر معها قطعان من الباعة والصناع من صائح بالبامية والقلقاس، إلى مبيض النحاس، فينعقون بسلعهم المتعارفة تناهق الحمر فيمنعون القائلة الشهية يومهم الأطول، حتى إذا تمشت الشمس إلى المغيب، خلفتهم فصائل أخرى من الطراز الساخر تدق الدفوف، وتضرب بالكفوف، ثم تتغنى بكل ما تتغنى به الإذاعة العامة، فهم إذاعة متنقلة ليس يدري المستمع إليهم: أباعة هم يتغنون، أم مغنون يبيعون؟!
طال ليلي وبتْ كالمجنون ... واعترتني الهموم بالماطرون
هذا بعض ما نلقي في عطفتنا وفي دارنا، إلى أطفال من نشء الغوغاء والسوقيين، لهم عدة التراب كثرة، في خسة التراب، مباءة أمراض، ومسيل أقذار، وخريجو شغب وقحة، ونبت تشرد وجهل، كأنما عوض أهلوهم بكثرتهم ما افتقدوا من عزة العلم والجلال
يا فراخ المزابل ... ونتاج الأراذل
اسمعوا لا سمعتمو ... غير زور وباطل
نشء من الغوغاء لهم على ضؤولة الجراثيم فتك الجراثيم، تفتك بالعلات ويفتكون بالعلات والجهالات
أليست هذه الطفولة العابثة اللاهية هي الطفولة العاطلة المتشردة حذرك النعل بالنعل؟ وإذا كان يجمل بالدولة أن تحمل نشء الأمة على العلم والثقافة بسيف الإكراه القانوني فليس بمستنكر عليها أن تحمل هذا النشء على حذق الصناعات والفنون بالإكراه القانوني، ولئن كان العلم سبيل العيش والحياة، فإن الصناعات والعمل عيش وحياة
(البقية في العدد القادم)
حسن القاياتي
بين العقاد والرافعي
العقاد
للأستاذ سيد قطب
- 7 -
عاد الأستاذ شاكر إلى خلته التي تركناه لها، وتركناه من أجلها، وما أحسبه ولا الأدب بمفيدين من هذه الخلة شيئا، ما احسبني ولا رأيي بخاسرين بها كذلك. فليقل إذن، ما دام القول هكذا يريحه - وإنا لنبغي له الراحة إن شاء الله - ولسواه!
أما أنا فعلى منهاجي في تقسيم الموضوع سأسير، فان أتى الأستاذ بشيء، غير ما يحلو له أن يفرط علينا به، فسأجعل ختام حديثي عن العقاد نقاشا له فيه، كما صنعت في ختام حديثي عن الرافعي، وهذا آخر ما نستطيع أن نكرم الأستاذ به
وأما الأستاذ (الطنطاوي) فأنا أكرم (دمشق) وجيرتها أن أكسب خصومته إذا أنا شئت الجد في وصف كلمته، ووضعتها حيث ينبغي وضعها من الأدب والرأي، في مدارج الآداب والآراء. ولعني بصمتي عنها أكون قد شئت له أفضل مما شاء لنفسه. وليسأل في ذلك (المتقدمين من نقدة الأدب) الذين يقف عند آرائهم
سيد قطب
من الناس من يقف عند ظواهر الأشياء والآراء، كما يقف الميزان من الموزونات، لا يميز بين أنواعها، ولكن يميز بين كثافاتها. وهؤلاء هم (الشكليون) في إحساسهم وأحكامهم، وهم والميزان الميت الجامد سواء
وفي مثل هؤلاء يقول العقاد، مصدراً عن (طبع قوى يخلق المبادئ الخلقية، ويختار ما

يناسبه، ويرفض مالا يرتاح إليه، ولو تواضع الناس عليه) كما قلت في أول كلمة:
إنا نريد إذا ما الظلم حاق بنا ... عدلَ الأناسيَّ لا عدلَ الموازين
عدلُ الموازين ظلم حين تنصبها ... على المساواة بين الحرّ والدون
ما فرَّقت كفة الميزان أو عدلتْ ... بين الحليَّ وأحجار الطواحين
هؤلاء العادلون - على طريقة الموازين - يقولون: إن للعقاد مدرسة، وللرافعي مدرسة؛
ولكل من المدرستين تلاميذ وأنصار، فمن الغلو إذن أن ينكر أنصار إحدى المدرستين طريقة الأخرى، وأن يقسوا في نقدها والزراية عليها
ومن هؤلاء من يقول عنا: (ويكفيه مما مضى في كلامنا وكلامه أن يعلم أنه نزه العقاد ورفعه أرفع درجة، وأننا لم ننزه الرافعي ولم نقل فيه بعض ما يقول هو في الشاعر الكبير صاحبه) يقول هذا وهو يحسب أنه نصب ميزان العدالة الحساس في تورع وتنطس وإحكام
المسألة أيها الناس، ليست هي الاعتقاد في أمر من الأمور، ولكنها قيمة هذا الاعتقاد وحظه من البصيرة، وحقه من الاحترام والبقاء. والمسألة ليست مسألة طريقة خاصة في الأدب أو الرأي - أيا كانت قيمتها - ولكنها حقيقة هذه الطريقة وصلاحيتها للحياة والدوام
فلتكن للرافعيين مدرسة في الأدب، ولتكن عقيدتهم فيها ما تكون، فيبقى بعد ذلك أنني حين أنكرتها عليهم، لم أكتف بإشارات الصم البكم في القبول أو الإنكار، ولكني نقدت ما فيها نقص الحيوية، واستغلاق الطبع، وأتيت على هذا بالأمثلة التي تثبت موت هذه الطريقة، وعجزها عن مسايرة الحياة. وهذا هو مناط الحكم، وهذا هو (عدل الأناسي) الذي يحسب حساباً للكيف والنوع، لا عدل الموازين الذي لا يحفل بغير الكم والوزن
أما قوله أحدهم إنني رفعت صاحبي، ولم يقل هو في صاحبه بعض ما قلت، فلكأننا في معرض مفاخرة على طريقة القدماء، لا يهم فيها الواقع والصدق، إنما يهم فيها الفخر و (النخع)؛ وكأنما الحكاية كلام يقال، ثم لا ينظر ما وراءه من دليل
أنا يا سيدي أقول ما أقول، وأشفعه بالمثال والدليل، فإن كان لك قول فلتناقش هذه الأمثلة والأدلة، أو لتأت بغيرها مما يدل على نقيضها. فأما التظاهر بالتورع والتنطس! فقد يدل على غير العدالة النفسية التي لا تحفل الظواهر والشكليات، متى قام لها من حقيقة الموضوع ما يدعمها ويقنع بها
ولعل الذين يعدلون - عدل الموازين - يقنعون بهذا، ويفهمون أن المسألة ليست طريقة وطريقة، ولا رأياً ورأياً، وإنما هي قيمة هذا الرأي وتلك الطريقة
ومن الناس من هم عوام في تقديراتهم الاجتماعية، لا تبلغ قداسة الرأي عندهم، ولا دفعة اليقين بأمر من الأمور، أن يتغلبوا بهما على ما تواضع العوام عليه من رسميات وشكليات، والموت عند هؤلاء يكفي لأن تطبق فمك عن كل حق، وأن تضم شفتيك عن كل رأي، ولو
وجدت مناسباته ودواعيه
وفي هؤلاء يقول العقاد متعالياً على القيود الاجتماعية العامية:
أرى في جلال الموت إن كان صادقاً ... جلالة حق لا جلالة باطل
فلا تجعلن الموت حجة كاذب ... لمدحة مذموم ورفعة سافل
ومع تعديل في كلمتي (مذموم وسافل) تنطبق الحالة على ما نحن فيه اليوم من حديث عن الرافعي ونقده وأدبه. فما دام الرافعي قد مات، فيجب حينئذ أن يقول أنصاره عنه ما يقولون فلا نتعرض لتزييف مدائحهم فيه؛ ثم لا يكتفون بهذا بل يقولون عن خصومه ما يقولون فلا نتعرض كذلك لشيء مما يقولون! أليس الرافعي قد مات؟
فلئن كان الموت هكذا فليبطلن إذن عمل التاريخ، وعمل النقد، ولتتحطم مقاييس الرأي ومعايير الأدب، وليكونن الموت (امتيازاً) من الامتيازات التي يلوذ بها كل مخطئ وكل متخلف!
والحمد لله أن بنا من الشجاعة ما نواجه به عامية العوام في هذه الاعتقادات، ونصدر به الرأي خالصاً من كل تنطس مصطنع، وتكلف ذميم
ومن الناس من لا رأي له فيما يحس ويرى، أو لا عقيدة له في رأي أو اتجاه، أو لا

حماسة له في عقيدة، فهو من هذا يحسب الناس سواه كذلك، ولا يستطيع أن يلمح في عمل من أعمالهم دفعة اليقين، وحماسة الاعتقاد، ولا يفهم إلا أنخلفهم آخرين يدفعونهم ويزجونهم. ذلك أنه ناضب العقيدة، فاتر الحماسة، فقير العاطفة، لا يفهم ما لم يكابد، ولا يتخيل ما لم يحس

وليس عندي لهؤلاء ما أقوله، لأنهم منطقون مع نفوسهم، ومع طبيعة مدرستهم.

ولكني أقول لمن يستطيعون أن يفهموا شيئاً عن دوافع النفوس الإنسانية: إنه لم يكن من الحتم أن انتظر تأذى العقاد مما كتب الأستاذ سعيد لأشعر أنا بالتأذي؛ وأن العقاد ليس صاحب القضية وحده فيما يكتب عن أدبه وردوده، ونقد سواه له، وإنما صاحب القضية هو كل ذي رأي فيها، وكل صاحب عقيدة في الرافعي أو العقاد، وتلك فسحة في (النفس) لا نطمع أن تدركها المدرسة الرافعية. فبحسبها الفسحة في تنميق العبارات وتبخر الكلمات، وتثني الأساليب!

ثم نأخذ في الحديث عن العقاد تكملة لحديث البارحة، وتدليلاً على ما أوردنا من نظريات

مجملة، فيما يصب في نفس العقاد من ثقافات عالمية، وما ينضح به أدبه من هذه الثقافات، وما تخلقه طبيعته خلقاً من اتجاهات، تبدو فيها آثار الثقافة البصيرة، مما يحتم على دراسة - بله ناقده - الإلمام بالمعارف الإنسانية العامة، فوق فسحة في الضمير، وتوفز في الشعور. . يقول العقاد

بك خف الجناح يأيها الطي ... ر وما كنت بالجناح تخف

لطف روح أعار جنبيك ريشا ... فمن الروح من الريش لطف

فتحس هنا لطف الإحساس، ونفوذ البصيرة، ورفرفة الروح الفنية، وهي تتبع القوى الحية الكامنة في روح الطائر، وترى رفرفتها من الداخل، وتحس خفتها ورشاقتها في ماهيتها الأولى، حتى لتعير جانبيه ريشا

وهذه هي ميزة الفنان الحيّ في الشعور بالحياة الباطنة لا بمظاهرها الخارجية وحدها، وفي الالتفات إلى خلجاتها في الضمير، لا في السطوح بمفردها

ولكنك خليق أن تجد بجانب هذه النظرة مصداقها من الروح العلمية، فعلم وظائف الأعضاء يقول: إن الوظيفة تخلق العضو. فوظيفة الطيران هي التي خلقت الريش وقبله الجناح

وقد لا يكون الفنان الصادق في حاجة للعلم بهذه النظرية ليقول هذا القول. ولكن المفسر والناقد في حاجة ماسة إليها، ليدركا جمال الخاطرة كاملا، ويستوثقا من صدق الفطرة واضحاً، ولكي لا يخطر لهما أن ينظر إلى الأشكال الخارجية وحدها فيريا الطائر يطير بالجناح، فهذا إذن سبب الطيران!

ودراسة الأحياء هي (العلم) الذي يلذ لذادة (الفن) فالشاعر العظيم لا بد له من قسط منه، لأنه أصيل في طبعه، إذ كانت (الحياة) أجمل ما يلفت نظره وحسه، ويخالج وجدانه وضميره. وأنت واجد في شعر العقاد لفتات شتى إلى دراسة الأحياء علما وفنا.

وديوان (هدية الكروان) أحفل دواوينه بهذه الناحية في دراسة الطيور والتطلع إلى الحياة النابضة في ضمائرها وكيانها، وإلى عوامل التفاؤل والاستبشار في عيشها وتصرفانها، مع مزج ذلك بالنظريات الفلسفية منقولة إلى الصورة الفنية. وفي (وحي الأربعين) لفتات كذلك إلى الغرائز والطباع في الأحياء عامة في فصل (تأملات في الحياة) وقد فصلت رأيي فيها في محاضرتي عنه سنة 1934. وكذلك قد حوى (عابر سبيل) كثيراً من هذا.

يقف أمام (الجيبون) في حديقة الحيوان، فتنثال على نفسه الخواطر، وتلمح فيها نظريات علم النفس الحديث، إلى جانب الفلسفة الصوفية، ومزاجهما الإحساس بالحياة النابضة في ضمير هذا (الجيبون)، والآمال المترائية في خياله، والأشواق الفائزة في أحلامه، وهو يقفز ويرقص: وبجانب هذا كله أثر الدراسة لدوران ونظريته:

أيهذا الجيبون أنعم سلاما ... يا أبا العبقري والبهلوان

كيف يرضى لك البنون مقاما ... مزريا في حديقة الحيوان!

ألعب الآن وانتظر بعد حقبا ... ترق في (سلم الرقى) وتعل

كيف لم تصعد السلالم وثبا ... أيها الصاعد الذي لا يمل

يا عميد الفنون صبراً ومهلا ... وارض حظ الهتاف والتهليل

مرحباً مرحباً وأهلا وسهلا ... والهدايا ما بين لب وفول!
انتظر يا صديقي شيئاً فشيئاً ... تطبخ القوت كله بيديكا
غير أني أخال ما كان نيئاً ... منه أجدى في الحالتين عليكا
انتظر يا صديق مليون عام ... أو ملايين لست والله أدري
إن تدانيت بعدها من مقامي ... فقصارى المطاف أن لست تدري!
واصطبر إن عناك نثر ونظم ... سوف تتلو نثراً وتنظم شعراً
وغدا يطفر الخيال ويسمو ... والذراعان لا تطيقان طفراً
وإذا ما درست أوزان رقص ... بعد لأى فالرقص فيك انطباع
هل تنال الكمال من بعد نقص ... إن أقلتك فكرة لا ذراع
انتظر سوف تفهم الشيء باسم ... بعد رسم وغابر بعد حال
فإذا ما طلبت باطن فهم ... يا صديقي طلبت أي محال

ولا تقف الإشارة إلى نظرية النشوء والارتقاء في هذه القطعة - بجانب الإحساس الفني فيها - عند ظاهرها الذي يعلمه كل من سمع بها؛ فالمقاطع من الرابع إلى الثامن تدل على فهم تام لها وهي تشير إلى أن الطبيعة لا تسرف في المواهب، فهي حين تمنح موهبة تسلب ما كان يقوم مقامها. فهذا الجيبون حينما يطفر خياله في المستقبل فالذراعان لا تطيقان طفراً، وحينما تقله الفكرة ستخذله الذراع. ثم هناك بيان لمدارج الرقى بين الإنسان

والحيوان، فهذا يفهم الشيء برسمه، وذلك يفهمه باسمه، وهذا يتذكر الحاضر وحده، بينما ذلك يتذكر الغابر ويستعيده، ثم فيها الإقرار بالعجز الإنساني أمام الغيب المجهول، والسخرية بالمعرفة الإنسانية القاصرة، فقصارى الجيبون حين يصل إلى مرتبة الإنسان أن يعرف الأشياء بالأسماء ويتذكر ما فات وأن تقله الفكرة لا الذراع ويطفر خياله ويسمو

فإذا ما طلبت باطن فهم ... يا صديقي طلبت أي محال!

أو:

إن تدانيت بعدها من مقامي ... فقصارى المطاف أن لست تدري!

وهناك الإيمان بالغريزة والإعجاب بطابعها الخالص:

وإذا ما درست أوزان رقص ... بعد لأي، فالرقص فيك انطباع!

والنيء أجدى من المطبوخ في حالتي هذا الجيوب الصديق. وهناك بعد هذا كله ذلك التعاطف بين الحي والحي، والشعور بالآصرة التي تربطهما، واستعراض الآمال والأشواق في أبي العبقري والبهلوان!

وللقصيدة بقية تنحو هذه المناحي

وهذه قطعة واحدة من شعر العقاد، تزدحم بكل هذه الدراسات واللفتات، وذلك بعض ما عنيناه برحابة نفسه، وتوفر شعوره، وصدق فطرته؛ وذلك مالا يعني المدرسة الرافعية، لأنها مشغولة عن مثله بمآرب أخرى في تطريز الأساليب وتوشية التعبير واستعارة الحكم والأقوال المأثورة

ولعل في هذا رداً على (المتقدمين من نقد الأدب) الذين يرون المعاني ملقاة على قارعة الطريق. . .! وقد تكون كذلك ولكن ليس كل من يمر بالطريق مفتوح العينين ليراها ويدرك ما فيها من جمال وتعبير عن حقيقة ثمينة؛ حتى لا يكون أمامه بعد هذا إلا أن ينصرف لتجويد الأسلوب. وهاهو ذا (الجيبون) في حديقة الحيوان يمر عليه الرائح والغادي، ويراه الرافعيون كلما زاروا الحدائق. ولكن العقاد وحده هو الذي يقف أمامه ملتفتاً هذه اللفتات، لأن في نفسه ذخيرة ينفق منها، وحياة يفيضها على ما يراه؛ وتلك ميزته عمن عداه

(حلوان)

سيد قطب

كلمة أخرى على الهامش

أهذا نقد؟ أهذا كلام؟

للأستاذ علي الطنطاوي

أنا رجل له عمله الذي يملأ يومه، ونهجه الذي يدير حياته، وليس من عمله ولا في منهجه الدخول في هذه المناظرة التي يقوم سوقها بين الأستاذ الكاتب الفحل محمود

شاكر، وبين الأستاذ سيد قطب. وأنا رجل عرف شاكراً وعرف الرافعي العظيم رحمه الله، وغدا لطول ما قرأ لهما ووثق بهما يقبل كل ما جاءا به. ولكني لم أعرف الأستاذ قطب قبل اليوم ولم أعلم له وجوداً، فهو عندي كاتب جديد أرى اسمه للوهلة الأولى فلا أضعه في منزلة من نفسي، ولا أجدني من قرائه، ولا أعلم لآرائه من القيمة والخطر ما يدفعني إلى مناقشتها. فلا شأن لي في هذه المناظرة، وليس عليّ خوض غمارها، ولكن ما قرأته للسيد قطب في هذا العدد الأخير (255) حفزني إلى سوق هذه الكلمة أسأل فيها: أهذا نقد؟ أهذا كلام؟

لقد تعلمت (وعلمت تلاميذي) أن النقد يستند إلى دعامتين: دعامة من اللغة وعلومها - نحوها وصرفها وبيانها - يعرف بها خطأ الكلام من صوابه، ودعامة من الذوق يعرف بها جماله من قبحه. أي إن النقد (علم) حين يدور على الخطأ والصواب، و (فنّ) حين يبحث عن الجمال. أما (فنَّ النقد) فلا يمكن الجدال فيه لأن أداته الذوق، والذوق شيء شخصي ومداره على الجمال، والجمال لا يتبع قاعدة، ولا يعرف له مقياس. فإذا قال سيد قطب: إن هذا البيت من أبيات الرافعي قبيح، كان معنى قوله أن هذا البيت لا يوافق المثل الأعلى الذي أتصوره أنا في الشعر. وإذن يحق لغيره أن يقول له: بل هو جميل عندي. (أما علم النقد) الذي يستند إلى علوم اللغة فالجدال فيه ممكن بل واجب، والحق فيه معروف ظاهر، لأن لهذه العلوم قواعد وأسساً، فما قام عليها فهو صواب، وما حاد عنها فهو خطأ. . .

فلننظر بعد هذا في نقد الأستاذ قطب بيت الرافعي رضي الله عنه:

إن الظلام الذي يجلوك يا قمر ... له صباح متى تدركه أخفاكا

حين يقول: (والحب الذي هو ظلام لا يحتاج للتعليق، فما يوجد حب في الدنيا تظلم به الأرواح، ولكن الرافعي هكذا يقول). . .

فهل في الدنيا قارئ يفهم أساليب العرب يذهب إلى أن المراد من هذا البيت تقرير أن الحب ظلام؟ وهل يدل هذا على فهم صاحبه ووقوفه على علم البيان العربي وسنن العرب في كلامها؟ إن صغار الطلبة يعرفون من دروس البلاغة أن هذا (تمثيل) يراد منه تشبيه صورة كاملة بصورة كاملة ووضع إحداهما مكان الأخرى على الأسلوب المجازي المعروف؛ ولا يمكن أن ينفك جزء من أجزاء هذه الصورة عن جزء. ومعنى هذا البيت: أن الحب الذي يجعلك مثل القمر، ملء ناظري وملء الدنيا، لا بد أن تكون له نهاية، شأن كل حب في الدنيا، كالليل يبدو فيه القمر مجلواً وضاء، ولكن الصباح الذي لا بد منه يخفى هذا القمر ويمحوه

وفي الكتاب المدرسي المقرر في مصر لطلاب السنة الرابعة الثانوية ما يكفي العلم به لتجنب الوقوع في هذا الخطأ الذي وقع فيه الأستاذ سيد قطب. ومن أمثلته أن تقول لمن يقصر في عمله ويرقب (العلاوة): إنك لا تجني من الشوك العنب. فهل يصح لرجل أن يسخر مثلما سخر، وأن يقول هذا خطأ لأن العلاوة ليست عنباً؟ ولا دخل للعنب في هذه المسألة. . . أو تقول لتلميذ قصر في الاجتهاد: الصيف ضيعت اللبن. فهل يجوز لناقد من طراز سيد قطب أن يقول له: هذا خطأ لأن الدراسة تكون في الشتاء لا في الصيف، وأنه ليس في مقرر الصف لبن؟

أهذا نقد؟ أهذا كلام؟

ومثله انتقاد سيد قطب تشبيه الرافعي رضي الله عنه الليل والنهار بشقي المقص (المجتمعين تحت مسمار الشمس)، ورده عليه بأن (الرافعي على باله أن الليل والنهار من الظواهر الأزلية العميقة. وأن بناءها هكذا عمل سرمدي دائم من بدء الخليقة إلى نهايتها) وإنهما ليسا شقي مقص

برافو سيد قطب! لقد كشفت أميركا؟

وما قولك بتشبيه شوقي الشفتين بشقي مقص من عقيق. ألم يخطر على باله إن الشفتين ليستا شقي مقص وإنما هما شفتان؟ والمجاز كله؟ ألم يخطر على بال أصحابه أن له حقيقة قد صرفوه عنها ببراعتهم وحدة أذهانهم؟ أنهدم المجاز كله يا سيد قطب؟

أهذا نقد؟ أهذا كلام؟

إن الذي يجب الآن على الأستاذ شاكر وجوباً لا هوادة فيه، هو ألا يخط في هذه المناظرة

حرفاً بعد اليوم. كلا. ما هذه مناظرة، ولا هذا مناظر! ولا أدب الرافعي بيت من الورق لينهار من نفخة؛ إن أدبه قصر من الصخر، سيبقى بقاء الدهر!
(دمشق)
علي الطنطاوي
ليلى المريضة في العراق
للدكتور زكي مبارك
بقية المقال العشرين
- ظمياء
- عيوني
- أترينني أحسنت الدفاع عن نفسي؟
- بعض الإحسان
- وأنا مكتف بذلك، فما هي التهمة الثالثة؟
- ليلى تتهمك بالخداع
- وكيف؟
- لا تدري كيف وأنت أعظم مخادع؟
- آمنت بالله وكفرت بالحب، أفصحي يا بلهاء
- اسمي ظمياء
- أفصحي يا ظمياء
- رأتك ليلى تقول في كتاب (الموازنة بين الشعراء) أن الدمع في عين العاشق كالسم في ناب الثعبان، ثم شرحت رأيك فقلت أن العاشق يخدر محبوبته بالدمع كما يخدر الثعبان فريسته بالسم. وتقول ليلى إن هذا هو السبب في ألا تخلو قصيدة من قصائدك أو رسالة من رسائلك أو كلمة من كلماتك من ذكر الدموع. ولك كتابه اسمه (مدامع العشاق) وأنت في كل يوم تقول: (أكتب والدمع في عيني) أو تقول: (ودعت أحبابي بقلب خافق، ودمع دافق) أو تقول (غسلوني بدموعي يوم أموت) أو تقول: (أن ملوحة الدمع أشهى مذاقاً من الشهد) ولك من أمثال هذه التعابير عشرات أو مئات أو ألوف، فأنت بشهادتك على نفسك مخادع عظيم
- ظمياء، هذا دمعي، فكيف ترين؟
- هو السم في ناب الثعبان، وسنخلع أنيابك فلا تقول انك ثقبت لؤلؤة في بغداد
- أنت جاهلة يا ظمياء، وليلى أجهل، فما تعرف ولا تعرفين أن عرض بغداد هو عرضي، وأن عرائس بغداد هن أخواتي وبناتي. لا تعرف ليلى ولا تعرفين أن كل مكان في بغداد هو عندي محراب، وحيثما توجهت فثم وجه التاريخ، وأهل العراق هم في أنفسنا حماة الأدب في العصر القديم وأنصار الأدب في العصر الحديث
والمصريّ في العراق يرى وجه مصر في كل مكان: يراه في المدارس والمعاهد والمكاتب والملاهي والملاعب والأغاني والأناشيد، وجرائد مصر ومجلات مصر تقرأ في بلادكم وكأنها عراقية لا مصرية، فثقي يا ظمياء بوفائي وثقي بأدبي فسأحفظ ما طوقتم به عنقي من جميل
وقد نظرت فرأيت صحبة العراق كانت خيراً لكل من تشرف بها من أهل مصر؛ وما عاش مصري سنة واحدة في العراق إلا أصبح وفي دمه ذخيرة من النار والحديد؛ وما رآكم مصري واستطاع أن يذكركم بسوء في سر أو علانية
فماذا تريد ليلى أن تصنع معي يا ظمياء؟
ماذا تريد ليلى؟ ماذا تريد؟
إذا كان دمعي شاهداً على خداعي، فأين أجد الشاهد على وفائي؟
إن النساك يتقربون إلى أربابهم بالمدامع، فكيف لا يتقرب العشاق إلي أحبابهم بالمدامع؟
أواه من مصيري في هوى ليلاي!
سأرجع إلى وطني وأهلي مصدوع القلب مفطور الفؤاد وستعيش ليلى بعافية، وستنسى طبيبها الوفيّ الأمين
وكذلك كان حالي في كل أرض. كنت أغرس العافية في الأرواح والقلوب، وما عرفني إنسان إلا تحوَّل من غيّ إلى رشد، أو من هدى إلى ضلال. كنت أذيع الشرك في قلوب

الموحدين، وأذيع التوحيد في صدور المشركين، كنت مَلَكا، وكنت شيطاناً، ثم أصبحت وأنا مجرد من سماحة الملائكة وسفاهة الشياطين
أدبتني ليلى، وبلائي في ذلك التأديب. أحبك يا ليلى وأهواك
- وتحبني أيضاً يا دكتور؟
- وأحبك أيضاً يا ظمياء، وأحب كل مخلوق في العراق حتى القيظ والزوابع والأعاصير. أحب البلد الطيب الذي أرهف قلمي، وصقل وجداني، واستطعت بفضل الله وبفضله أن أقنع أهلي في مصر بأن لي قلباً يعرف معاني الشوق والوفاء
- دكتور
- ظمياء
- لقد أحسنت الدفاع عن نفسك في هذه التهم الثلاث، ولكن هناك تهمة رابعة لن تستطيع لها دفعاً، لأنها في خلقتك والخلقة لا تغيير لها ولا تبديل
- فهمت، فهمت. إن الجرائد المصرية تصورني دميم الوجه ولا ينبغي يا ظمياء تصديق كل ما تنشر الجرائد
- لا، لا، إن ليلى تراك أجمل مخلوق، ولكنها تقول إنك أخضر العينين، وهنا وجه الخطر، فالعيون الخُضر تهتاج الثعابين، وما رأى ثعبان إنساناً أخضر العينين إلا أغتاظ وأهتاج واستعد للقتال
- ومن أجل هذا تثور عليّ هذه الرقطاء؟؟ اسمعي أيتها الطفلة. اسمعي. اسمعي. إني ورثت خضرة العينين عن أمي، سقي قبرها الغيث، وأمي ورثت خضرة العينين عن جدتي، وكانت تركية الأصل، فعمن ورثت ليلى سواد عينيها؟ اسمعي يا ظمياء، لقد أطلقت التودد إلى أهل العراق، وسأصارحهم اليوم بحقيقة لم يتنبه إليها أحد سواي. ليس في العراق كله طرف كحيل إلا وهو مسروق من عيون الظباء، وجيرتكم للصحراء هي التي مكنتكم من هذا الانتهاب الفظيع، ولكن هذه السرقة لن تطول، فسيأتي يوم قريب أو بعيد يشتد فيه ساعد (عصبة الأمم) المقيمة في جنيف ثم تحول بينكم وبين انتهاب السواد من عيون الظباء
اخرجي يا ظمياء، ولا ترجعي إليّ بعد اليوم، فهذ آخر العهد
خرجت ظمياء محزونة وهي تعتقد أن ليلى جانية وأن العراق كله قد وقع سرقة دولية حين انتهب السواد من عيون الظباء
وبقيت أنا في كروبي وأشجاني، فأنا في سريرة نفسي أعتقد أن الظباء هي التي سرقت سواد العيون من أهل العراق، وقد عاش العراق كريما في جميع عهود التاريخ، فمن حنين غوانيه عرف الحمام كيف يسجع، ومن صيال أبطاله عرف الدهر كيف يصول
ولكن كيف أصحح خطأي فأسترد ليلى واسترجع ظمياء؟
كيف؟ كيف؟
إن ليلى لن ترجع بسهولة لأنها عراقية، والعراق مفطور على العناد
أحبك يا ليلى، أحبك يا روحي، واشتهي أن أخاصرك مرة ثانية ضوء القمر وفي سكون الليل. أحب أن أسامرك مرة ثانية تحت النجوم في مطلع حزيران قبل أن أرجع إلى مصر وطن الجفاء والعقوق
أحبك يا ليلى وأحب ذلك الطبع المتقلب الذي لا يستقر على حال أحب أن أنشدك مرة ثانية قول الشاعر احمد رامي:
يا من أخذت فؤادي ... أخذ العدو الحبيب
قلبي لديك فقل لي ... ما حاله في القلوب
أحب أن أصرخ مرة ثانية، أحب أن أصرخ صرخة الوجد في رحاب الكاظمية.
أحب أن أفتق بصراخي قلبك الأغلف وأذنك الصماء
أحب وأحب، ولكن أين السبيل إلى قلبك الظلوم!
طال شقائي بهجر ليلى، فماذا أصنع؟
إن بغداد تحقد عليّ ويسرها أن يطول في حب ليلى عذابي فأين شفعائي إلى ليلاي؟
أين لا أين؟
الحمد لله والحب! هذا خاطر لطيف قد ينفع بعض النفع، إن ليلى لها في الموصل بنات خالات، وبنات الخالات يقدرن على ما يعجز عنه أبناء الأعمام والأخوال، فلأمض إلى

الموصل لأشكو إلى ظبياته جروحي وآلامي
إلى الموصل، إلى الموصل
إلى الموصل الجميل أمتطي قطار الصباح بين اليأس والرجاء

طال بلائي بغضب ليلاي، وتهدم ما كنا رفعنا من صروح الأماني، وأمسى الحزن يصهر قلبي كلما تمثلت أطياف تلك الصروح
وطال حنيني إلى كلمة كانت تقولها ليلى في لحظات الصفاء، وهي كلمة (تعال) فكنت أهوى إلى صدرها كما يهوى الطفل إلى صدر أمه الرءوم، وما كان أدبي يسمح بأن أقترح شيئاً على ليلاي وإنما كنت أنتظر عطفها في صمت كما ينتظر العشب جود السحاب
وكنت خدعتها فزعمت أن تقاليد الأدب في فرنسا تقضي بأن يقبل الرجل يد المرأة، وقد انخدعت فكنت أقبل يديها في كل لقاء؛ ولكني مع ذلك حفظت وقاري فلم أكن أقبل يديها في السهرة الطويلة أكثر من سبعين مرة
وقد حملني الطيش في إحدى الليالي على أن أقترح تقبيل خديها فرفضت وعند ذلك أنشدت:
يا غزالاً لي إليه ... شافع من مقلتيه
والذي أجللت خدي ... هـ فقبلت يديه
أنا ضيف وجزاء الضي ... ف إحسان إليه
فقالت بعد تمنع: أقبلك أنا
فقلت: وما الفرق يا روحي؟
فقالت: القبلة منك حب، والقبلة مني عطف
فقلت: أقبلك قبلة عطف.
فقالت: ابحث عمن يصدق دعواك يا فاجر!
ورضيت بالقليل فقبلتني ليلى قبلة كادت تشوي جبيني.
تلك قبلة العطف فكيف تكون قبلة الحب؟
اشهد أن الله قدر ولطف!
ذلك نعيم ضاع، وما أدري كيف ضاع، فما كانت هفوتي خليقة بأن تصيرني إلى ما صرت إليه من الحرمان، ولكني متى طاب زماني حتى تطيب ليلاي؟
آه من كيد الزمان! وآه من غدر الملاح!
شاع في بغداد أني ذاهب إلى الموصل لأستشفع بالحور العين من قريبات ليلى، فللشقية هناك بنات خالات. وسمع بذلك أخ صادق فقال: خير لك أن تسافر إلى النجف، فهو أقرب من الموصل، وملاح النجف أرق وأظرف، وهن يعطفن على بلواك، وهذا اليوم أصلح الأيام
وسألت عن السبب فعرفت أن أهل النجف يحتفلون بميلاد الرسول في السابع عشر من ربيع الأول، وفي المولد النبوي تزدحم ساحات الحرم الحيدري بالعرائس فأختار من
الشفيعات ما أشاء. . .
وما هي إلا لحظات حتى عبرت الجسر إلى الكرخ، الكرخ الذي كان فيه قمرا بن زريق، والذي سامرت في رحابه قمراً غادراً لا يحفظ العهد، ستفيض مدامعه بالدم يوم يتلفت فلا يراني. وهل كنت إلا طيفاً زار في السَّحَر بساتين الكرخ وبغداد؟
ومن الكرخ ركبت سيارة إلى كربلاء
وفي الطريق مررت على الإسكندرية وكنت مررت عليها في طريقي إلى الحِلة منذ أشهر، ورجَّحت أنها البلدة التي ينسب إليها أبو الفتح الإسكندري في مقامات بديع الزمان؛ ولكني في هذه المرة حاولت أن أعرف مكانها من الماء لأن عيسى بن هشام جعلها من الثغور الأموية، فاهتديت إلى أصلها بعض الاهتداء، وقد أصل إلى جوهر الحقيقة بعد حين
لم أقض في كربلاء غير لحظات، وهي مدينة تحيط بها الخضرة من جميع النواحي، وفيها قتل الحسين كما هو معروف، وللحسين فيها ضريح لم أزره ولكني شهدت قبته العالية، وهي مكسوة بالذهب الوهاج، وفي كربلاء ضريح آخر للعباس أخي الحسين،

وهذان الضريحان يفيضان النور على كربلاء، وقتل الحسين كان نعمة على هذه المدينة؛ فقد أصبحت بفضل مرقده من مواسم القلوب
ومن كربلاء أخذت سيارة إلى النجف فأسلمتني إلى صحراء رأيت فيها الضب أول مرة، فتذكرت ما صنع الشعوبية حين وصموا العرب بأكل الضباب واليرابيع، والشعوبية كانوا جماعة من الأدباء لا يعرفون العواقب، وقد زعزعوا ما كان بين العرب والفرس من متين الصلات وسيلقون جزاءهم يوم يقوم الحساب
وأخذت تلك الصحراء تصنع بخيالي ما صنعت البادية بين دمشق وبغداد فكان فيها ألوان من خداع السراب. وبعد ساعة رأيت في الأفق ذهباً يتوهج، فحدقت فيه النظر لحظات ولحظات فرأيته يزداد إشراقاً إلى إشراق. فصح عندي أنه ذهب القبة العالية، قبة ضريح أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وعطر مثواه
ثم عبرت إلى النجف وادي السلام وهو مقابر طوال عراض عرفت ملايين الناس من سائر الأجناس
وأهل النجف يعتقدون أن من يدفن في وادي السلام لا يسأل في البرزخ، وهو اعتقاد لطيف، فمن عزاء الإنسانية أن تعتقد أن لها معتصماً من الحساب ولو إلى حين (للحديث شجون)

زكي مبارك

التاريخ في سير أبطاله

ابراهام لنكولن

هدية الأحراج إلى عالم المدنية

للأستاذ محمود الخفيف

يا شباب الوادي! خذوا معاني العظمة في نسقها الأعلى من سيرة هذا العصامي العظيم. . . . . .

- 15 -

واتخذ دوجلاس للأمر عدته، لم يدع وسيلة أو يغفل عن حيلة، أما ابراهام فلم تكن به حاجة إلى ما يحتال به من أساليب التأثير المتكلفة الخادعة، فما هو إلا أن ينصت له الجمع حتى يبتعث اليقين ما قر في نفسه فيحرك به لسانه فإذا هو كالنهر الحادر يفهق بما لا يفتأ يواتيه به المنبع، ويجيش بهذا الفيض ويهدر، ويتدفق لا يصده عن وجهه شيء. . .

وكان لدوجلاس من بعد الصيت ما جعل اسمه ملء الأسماع في طول البلاد وعرضها؛ وكان في رأي الأمريكيين أقدر رجال حزبه وأكثرهم فطنة وأطولهم في السياسة باعاً وأقواهم بمصاعبها اضطلاعاً، بل لقد كان عند الكثيرين من ذوي الرأي أعظم رجال أمريكا كفاية وأعلاهم كعباً وأعزهم مكانة، وكان يلقب (بالمارد الصغير) أن كان له على صغر جرمه وقصر قامته قوة المارد وسلطان المارد ودهاء المارد، وكانت له حيوية غريبة تنقطع دونها حيوية الرجال، وتتقاصر عنها هممهم. والحق لقد كان دوجلاس يومئذ أنبه الناس شأناً وأعزهم نفراً وهو من عهد قريب لم يكن يسمع به أحد خارج الينواس
لذلك كان للناس عجباً أن يطاوله ابراهام وأن يدعوه إلى نزال. وأخذ من لم يكن يعرفه منهم هذا الفعل من جانبه على أنه ضرب من الغرور أو نوع من الغفلة، ولو أنهم عرفوا دخيلة صاحبهم الذي افتتنوا به وتبينوا ما هجس في نفسه من الخواطر إزاء هذا التحدي الجريء لأيقنوا أن جبروت ماردهم وأساليبه ما كانت لتغني عنه شيئاً من هذا العملاق الذي درج من الغاية ليقف أمامه كأنه السنديانة!
وكانت أَتارَا أولى المدن السبع التي اختيرت ميادين لذلك الصراع؛ وقد جاءها الناس ليشهدوا ما لم تقع عليه من قبل أبصارهم أو تتعلق به أوهامهم، وقد أُتِّفِق أن يكون الكلام أول الأمر لدوجلاس فيخطب الجمع ساعة، ثم يعطي من بعده ابراهام ساعة ونصف ساعة؛ ويختتم دوجلاس هذا الدور بعده بحديث يستغرق نصف ساعة
وكان دوجلاس في انتقاله بين المدن في ألينواس يتخذ مركبة فخمة يجرها ستة من كرائم الخيل، وحوله ثلة من الفرسان يتزيد بهم من الهيبة والأبهة؛ وكان إذا دخل مدينة من المدن يقف في مركبته وقد تكلف أكثر ما يطيق من الصرامة فما يكاد يلمحه الناس ويقبلون عليه مصفقين مهللين حتى تنقلب صرامته وسامة فيحيي الجموع بيديه

وإيماءاته وابتساماته، ويلتفت لهذا ويهش لذلك كأنه ملك يتدلى من عليائه ليطلع على شعبه، وإذا هو حل بقوم أو سار إليه قوم عرف كيف يوحي إليهم تبجيله والإعجاب به، فهو بين الصلف وخفض الجناح، وبين الاحتشام والتبذل يحيى وجوههم وكبراءهم ويغمرهم بنعمة منه وفضل

أما لنكولن فكان ينتقل بين الناس كأحدهم؛ وكثيراً ما يكون دون بعضهم، فإذا أخذ مكانه في قطار أو في مركبة عامة مزدحمة كان بين ركابها كما كان بين الناس في نيو سالم حين كان يدير الحانوت أو حين كان يوزع البريد يتبسط لهم في القول ويسترسل معهم في شتى الأحاديث، ويقص عليهم من قصصه، وإن له في هذا كله لمتاعاً ولذة لن يحسها إلا من كان له مثل قلبه

والتقى الرجلان في أتاوا؛ واحتشد الناس في الموعد المضروب فضاق بهم مكان الاجتماع؛ وحانت ساعة الكلام، فوثب المارد الصغير إلى موضع مرتفع أطل منه على الناس فتمزقت بالتصفيق أكف أنصاره وتشققت بالهتاف حناجرهم، وهو يرسل نظراته في جنبات المكان ويوزع إيماءاته هناك، وهنا، حتى سكنت ريحهم فبدأ الكلام. . .

وكان يومئذ في الخامسة والأربعين، بادي الفتوة مرموق الشباب يتهلل وجهه لولا كدرة طفيفة هي مما فعلته به ابنة العنقود وسكنى المدن ولكنها كدرة كانت تنقشع حين تلتهب بالحماسة وجنتاه؛ وكان في موقفه بارز الصدر قوي الكتفين تتجه نظرات الإكبار إلى رأسه الضخم فما تلبث أن تلتقي بعينيه الزرقاوين السريعتين فترتد حاسرة كأنما غشيت من ضوء وهاج، وكانت تفتن الأنظار أناقة ملبسه ونظام هندامه، كما كانت تسحرها لفتاته وحركاته

كأنما كانت تقع الأبصار منه على ممثل قدير عرف سبيله إلى قلوب محبيه فهو يحرص ألا ينحرف قيد شعرة عما يشيع في نفوسهم السحر من مظهره. . .

وتكلم دوجلاس فكان في كلامه ثبت الجنان زلق اللسان وكانت له في هذا الاجتماع خطة بالغ في إحكامها وتسديد خطاها، ومؤداها أن يرمي لنكولن والمتشيعين له بأنهم من المتطرفين الذين يريدون حل مسألة العبيد بالقوة، ثم يحمل على بقية رجال الحزب الجمهوري فيرميهم بالتذبذب. . . وراح يخطو في سبيل ذلك خطوات؛ فيتحمس ويعلو بصوته ويكثر من الإشارات، ولكنه كان يسمو بعباراته أحياناً فلا ترقى إليها إفهام الكثيرين؛ على أنه كان له من جاهه ونفوذه وهيبته في قلوب الجماهير عوض عن ذلك، فحسبهم أنهم يستمعون إلى ذلك الذي بات يتحدث باسمه كل إنسان، حسبهم أنهم يستمعون إلى دوجلاس السياسي الأشهر ورجل الثورة العزيز الجانب! وإن في كثير من النفوس البشرية لما يميل بها من غرائزها إلى الخضوع للسلطان والانقياد لكل ما يشير به ولو كان مما هو جدير أن يقابل بالعصيان

وجاء دور ابراهام فطلع على الناس بقامته الطويلة فهتف باسمه أنصاره وتحمسوا له، واتجهت إليه الأنظار وإنه ليبدو كأنما أخذته من الموقف ربكة فليس له تطلع دوجلاس وتحفزه! ونظر الناس إلى شعره الأشعث وإلى ملابسه المتهدلة وخاصة إلى سرواله الذي يقصر عن ساقيه فيكشف عن جزء منهما، وقارنوا دون أن يشعروا بين تلك الملابس وبين حلة دوجلاس الأنيقة فبدت أكثر حقارة مما هي عليه! وكانت تستقر الألحاظ برهة على محياه وقد ازدادت مسحة الهم فيه وضوحا، وبدا عليه ما يشبه المسكنة والانكسار. . ولكن الناس على الرغم من ذلك يرتاحون إلى مظهر ذلك المحيا ويشعرون نحوه بالحب!

ويبدأ الخطيب في صوت أجش تتخلله حشرجة ثقيلة؛ ثم ما هي إلا برهة حتى تنطلق تعسه على سجيتها، فإذا ذلك المحيا يتهلل ويشرق وتشكل أساريره بما يهجس في خاطره، وإذا تلك العينان الواسعتان المتسائلتان تنفثان بسحرهما إلى أعماق القلوب، وإذا الرجل يبدو في هيئة يتقاصر عن وصفها لفظ الجمال. وتتفتح مسالك صوته فينطلق رائقاً له رنين يتشكل حسبما يعبر عنه من المعاني، وكان يعلو صوته إذا تحمس فيدوي في أرجاء المكان

وينساب السيل لا يصده عن وجهه شيء ولا تمشي في صفائه كدرة على تدفقه وجيشانه!

والناس مفتونون وإن هم لم يفطنوا على وجه التحديد إلى سر فتنتهم، فهم مأخوذون بما يسمعون عن أن يفكروا أو يحللوا؛ وإنهم لفي سكرة أشبه بما يجدون أنفسهم فيه

عند إصغائهم إلى لحن من تلك الألحان التي تسحر الأنفس وتملك الألباب تدافعت إلى ذهنه الألفاظ وتزاحمت عليه المعاني وقد أسفرت عن وجوهها ومشت إلى غايتها في غير تحرج أو التواء؛ ولقد برزت في ذلك اليوم مواهبه على أتمها فكان له ما شاء من سهولة اللفظ من بلاغته ودقة المنطق مع سلامته؛ هذا إلى يقين ينفث في قوله الحرارة؛ وتمكن يذيع فيه الروعة؛ وأمثلة يسوقها من الحياة العادية فتستقر في قلوب سامعيه ومعظمهم من عامة الناس ومن وراء ذلك العبقرية التي تستعصي على التحليل وتسمو على التأويل. . .

ونزل لنكولن وله في قلوب السامعين من أنصاره وخصومه مكانة غير ما كان له قبل من مكانته، فلقد استطاع أن يقنعهم، كما استطاع أن يشعرهم بما هو أقوى من الاقتناع وأبعد أثراً ألا وهو الإعجاب؛ وإنهم ليتهامسون بعضهم إلى بعض قائلين: ليت لسادتنا وكبرائنا قلوباً مثل قلب ذلك الرجل. . . مثل قلب أيب الأمين. . .

وتكلم دوجلاس بعد ذلك مسافة نصف ساعة أعلن بعدها أن الاجتماع الثاني سوف يكون في فريبورت

ولقد ارتكب دوجلاس من الخطأ في هذا الاجتماع الأول ما عد عليه أنه أفحش أخطائه في ذلك الجدال؛ وذلك أنه أبرز مكتوباً موقعاً عليه باسم لنكولن يفهم منه أن إبراهام من زعماء المتطرفين؛ ولكن سرعان ما أقام إبراهام في دوره الدليل على أنه زائف وأنه مما جاء فيه براء. وكانت لطمة قوية استخذى لها دوجلاس في سامي منزلته، وفقد بعدها ثقة الكثيرين. . .

وحل موعد الاجتماع الثاني فتسابق الناس إليه أفواجاً وقد اشتهر أمر ذلك الصراع إذ لم تبق صحيفة إلا وقد أسهبت في الحديث عنه؛ وفي هذا الاجتماع طعن لنكولن خصمه تلك الطعنة التي سلفت الإشارة إليها؛ فلقد أعد له سؤالا يلقيه عليه: أإذا أرادت ولاية أن تلغي نظام العبيد فيها فهل هي مستطيعة أن تفعل ذلك دون أي حرج؟ ولقد أنكر عليه أنصاره هذا السؤال إذ لم يفهموا الغرض الذي يرمي إليه منه، وهو يعلم أن دوجلاس سيجيبه: بلى تستطيع الولاية ذلك. فقال لهم ولكنه بذلك يفقد عطف أنصار مبدأ التمسك بالعبيد من أهل الجنوب فلا يمنحونه أصواتهم إذا هو تطلع للرياسة؛ ولن يضير لنكولن أن يظفر دوجلاس اليوم بمقعد في مجلس الشيوخ

ووجه لنكولن السؤال إلى دوجلاس فأجاب بقوله (نعم تستطيع الولاية أن تفعل ذلك في غير حرج)؛ وفرح لنكولن بتلك الإجابة التي يعلم أنها ستنفر أهل الجنوب منه. ولقد أيدت الأيام رأيه وبرهنت على بعد نظره. ومما قاله لنكولن في ذلك (إن دوجلاس ليتبعه عدد كبير من العميان، وإني أريد أن أجعل بعض هؤلاء يبصرون)

وفي الاجتماعين الثالث والرابع لم يأت كلاهما بشيء جديد؛ وإنما اجتهد لنكولن أن يدفع عن نفسه ما رماه به خصمه من الاتهامات؛ وخرج لنكولن من هذين الاجتماعين وقد أضاف إلى أنصاره أنصاراً جديدين. . .

وفي الخامس من هاتيك الاجتماعات اتخذ لنكولن خطة الهجوم، بعد أن أخذ ينشر خصمه ويطويه في الاجتماعين الماضيين حتى دوَّخه، وكان هجومه تلك المرة شديداً، ضاق به دوجلاس وانخلع عنه مكره؛ عاب عليه إبراهام أنه لا يحفل بالاعتبار الخلقي من مسألة العبيد، مع أن هذا الاعتبار بعد الخروج على اتفاق مسوري، هو السبيل الوحيد الذي يعوَّلُ عليه في منع انتشار العبيد؛ وعلى ذلك يكون دوجلاس داعية إلى أن تصبح مسألة العبيد مسألة قومية عامة لا تحرج منها ولا تأثم فيها. . .

وأحس دوجلاس مهارة الرمية وقوة الإصابة فراح يرد على رمية برمية، وعاد فاتهم لنكولن والحزب الجمهوري أنهم من دعاة الثورة وأنهم يدفعون البلاد إلى الدمار. . .

ولكن لنكولن جعل الاجتماع السادس لتحديد مذهب الحزب الجمهوري فقال في جلاء: إن الجمهوريين هم أولئك الذين يعتبرون نظام العبيد خطأ من النواحي الخلقية والاجتماعية والسياسية؛ ولكنهم يتمسكون بدستور الاتحاد ويسيرون في تحقيق أغراضهم على نهجه؛ أما الذين لا يرون عيباً في نظام العبيد فهم الديمقراطيون؛ وهم ليسوا من الجمهوريين في شيء. . . لذلك ليس من الجمهوريين من لا يعبئون بالدستور في موقفهم من نظام العبيد مهما بلغ من مقتهم لذلك النظام. . .

وحار دوجلاس ماذا يفعل أمام تلك القوة وأمام ذلك الوضوح الذي لا يدع مجالا لمستريب
فأخذ يداجي ويعبث وقد تثعلب بعد ما سبق أن استأسد
وضيق لنكولن عليه الخناق فطلب إليه أن يجيب على هذا السؤال البسيط في غير مداجاة (أيعتبر نظام العبيد صواباً أم خطأ)؟ وازدادت حيرة المارد الصغير وأحس أنه على جبروته يتلوى في قبضة ذلك العملاق وكأنه أمامه جذع من تلك الجذوع التي ما كانت تقوى على فأسه مهما بلغ من متانتها يوم كان يضرب بفأسه في الغابة قبل أن يعرف كيف يضرب بقلمه أو بلسانه
وعجب الناس لهذا الرجل الذي لا يرى نظيره في الرجال، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون: ماذا دهى المارد الصغير؟ وكيف تسنى لابن سبرنجفيلد المتواضع الذي لم يعرف سلطاناً ولا جاهاً أن يأخذ الطريق هكذا على ابن وشنجطون الجبار المدل بماله ومنعته ونفوذه؟
ولكن هاجساً يهجس في ضمائرهم أن للحق سلطاناً دونه كل سلطان، وعزة يستخذى أمامها كل اعتزاز، ومنعة ترتد عنها كل مطاولة؛ وأن الباطل مهما تنمر واستعدى على الحق من أساليب بهتانه وألاعيب مكره، لا يكون منه إلا كما يكون الليل من وجه الصباح. . .
وأدرك الناس أن خير خادم للناس من يدرج من بينهم فيحس إحساسهم، ولا يزال مهما بلغ من سمو منزلته واتساع ثقافته، قادراً أن يشاركهم عواطفهم وألا يضيق بأحلامهم وإن صغرت حتى يتلمس فيها السبيل إلى هديهم وشفاء أنفسهم؛ وأي هذين الرجلين ينطبق ذلك عليه؟ أهو دوجلاس الذي أثرى بغتة بحيلة لم تتطلب منه إلا أن يشتري قطعاً من الأرض بأبخس الأثمان ثم يعمل بنفوذه على أن تتخذ سكة الحديد فيها مجراها فيبيعها بما تمتلئ به خزانته؟ والذي باعد بينه وبين الناس وتكلف مظهراً أرستقراطياً تطرب له نفسه ولا ترتاح إلا له؟ أم هو لنكولن الذي ما برح يأكل من كده والذي ظل في الناس على رجاحة عقله وعلو همته أحد الناس، والذي لا يطيب له العيش إلا إذا استشعرت نفسه آمال الناس وآلامهم، ولا يحلو له السمر إلا حيث يجلس في قوم ارتفعت بينهم وبينه الكلفة وازدادت الألفة مهما يكن من الفوارق العلمية أو الفوارق المدنية؟. . .
تحدث ابراهام مرة يصف دوجلاس فقال: لقد سوته الطبيعة بحيث أن ضربه السوط إذا نزلت على ظهره هو تؤلمه وتؤذيه، بينما هي لا تؤلم ولا تؤذي إذا نزلت على ظهر أي
شخص سواه)؛ وما كان ابراهام مسرفاً في قوله؛ وما نحن بمسرفين إذا قلنا إن إبراهام قد سوته الطبيعة بحيث يحس ضربة السوط على ظهره هو إذا نزلت على ظهر أحد سواه من الناس. . .
(يتبع)
الخفيف
الأنباط وأطلال بترا الخالدة
للأستاذ خليل جمعه الطوال
- 3 -
معبد ايزيس
وينتهي السبق أمام معبد عظيم هو في الحقيقة أجمل وأخلد ما في الشرق الأدنى من الآثار النبطية الرومانية الرائعة. وقد حفر - معبد إيزيس - قبيل الفتح الروماني (بقرن ونصف القرن تقريباً) أي بين عام 50 ق. م. و 50 ب. م. وقد كانت بترا إبان ذلك في أوج عظمتها. يبلغ علو هذا المعبد (26) متراً ويتركب من طبقتين (انظر الصورة شكل 2) أما الطبقة السفلى فتتألف من ستة أعمدة رملية ضخمة متوجة بالتيجان الإغريقية الشكل، ومن فوقها جميعاً قوس روماني مثلث غاية في الرونق، والزخرفة، ويقوم المعبد في وسط هذه الأعمدة الهائلة وهو بهو واسع كان يجتمع فيه المتعبدون لإقامة شعائرهم الدينية وإحراق البخور في المجامر الحجرية المحفورة على جدرانه الأربعة، وإلى جانبه غرفتان كبيرتان، وهما للتعبد في الأيام العادية
أما الطبقة العليا فتتألف من ثلاثة هياكل رائعة، تقوم بين أعمدة رملية بديعة، متوجة

بالأقواس الرمانية المثلثة، ويدعي الهيكل الأوسط بمزار إيزيس، ولا يزال تمثال إيزيس قائماً في وسطه برونقه وبهائه، وتتوج هذا الهيكل قبة مخروطية الشكل يبلغ علوها ثلاثة أمتار، ويسميها البدو قبة فرعون، أو خزنة فرعون، وهم يعتقدون أن فرعون قد وضع تحتها كنزاً ثميناً، ولذلك فقد شوهوا جمالها بما أطلقوه عليها من الرصاص طمعاً في الحصول على هذا الكنز الموهوم، بهدمها وتحطيمها. ويشتمل القسم العلوي أيضاً على تمثالين آخرين يحيطان بتمثال إيزيس من اليمين والشمال. ومما يدعو إلى الدهشة حقاً محافظة هذا المعبد بتماثيله وأعمدته على رونقه وبهائه طيلة هذه الأحقاب بالرغم من تعرضه لعوامل الطبيعة الهدامة، ولعبث البدو السذج

الملهى الكبير

ويقع في الجهة الغربية من معبد إيزيس - أو الخزنة - وعلى مسافة قصيرة منه، وهو مدرج كبير يحتوي على (34) صفاً مستديراً، ويتسع لنحو ثلاثة آلاف متفرج. وقد حفر في الصخر الرملي الملون حفراً متقناً في المدة التي تقع بين 40ق. م. و 40ب. م. وهو من الآثار الرمانية العديدة. ويقال إن هذا المدرج كان كسوق عكاظ لا يؤمونه إلا في المواسم الخاصة به

أم الصناديق

تقع في الجهة المقابلة (للملهى الكبير) وهي قبور هائلة الحجم محفورة في جبل رملي كبير على شكل مساكن تتألف من ثلاث طبقات (أنظر شكل 3) عالية تتمثل فيها جميع تطورات الفن البيزنطي العربي، وذلك باختلاف أعمدتها، ونسق ترتيبها، وطريقة حفرها، إذ فيها البسيط الهين، والعظيم الرائع، ويتصل بعضها ببعض بمدارج صغيرة متعددة، وإلى الجهة الشمالية من أمَّ الصناديق مدرج صغير آخر كان يجتمع فيه الناس عند حدوث وفاة أو جنازة. وفي أم الصناديق نقوش ورسوم كثيرة يمثل أحدها فتاة مستلقية على سريرها

قبر التماثيل

وهو بناية هائلة، يبلغ علوها تسعة عشر متراً، تحيط بها أربع أعمدة كبيرة، وفي واجهتها بين الأعمدة ثلاثة تماثيل كبيرة ويقال إن هذا الهيكل الفخم، (وأم التركمانية) التي تقع في طريق الدير هما من القبور الخاصة بالعائلات الملكية والأرستقراطية. ويؤيد هذا النقوش النبطية الكثيرة المحفورة على عتبة التركمانية حفراً بارزاً. (شكل 4). ومن القبور العظيمة: (قبور السريان، وأم الصياغ، والسرايا، والمدحلة) وسنأتي على وصفها جميعها في مقال آخر

قصر فرعون (قصر البنت)

ويقع في وسط الساحة الرومانية العامة (الندوة) ويمتاز عن غيره من الآثار بأنه مبني من الحجارة الكبيرة وليس محفوراً في الصخور كغيره، يبلغ علوه 20 متراً. وقد تداعت أكثر جدارنه؛ ويوجد في وسطه أريكة حجرية، ومقاعد صغيرة كثيرة، وله مدخل كبير واسع تحيط به بعض شجيرات من العرعر. ويقابل هذا القصر مسلتان طويلتان: الأولى على بعد 30 متراً منه، وتعرف بمسلة فرعون، وهي تتألف من تسعة أعمدة، طول العمود الواحد نحو ثلاثة أمتار تقريباً. والثانية على بعد كيلو متر واحد من الأولى، وهي أطول منها وأضخم، وتدعى (مسلة النصارى). والراجح أن هذه التسمية قد أطلقت عليها خلال عام 460ب. م. في زمن أحد مطارنة اليونان، كما تدل على ذلك الكتابات والنقوش التي عليها (شكل5)

السيق البارد

وهو محطة صغيرة للقوافل النبطية التي تروح وتغدو من الشمال، تقع بين جبل البيداء وثغره، وقد عثر الدكتور نيلسون في هذا السيق على مخطوطات مجرية ذات قيمة فنية في تاريخ الديانة النبطية، إلا أنها - مع الأسف - قد نقلت إلى أوربا فيما نقل من آثار شرق الأردن الثمينة

المذبح الكبير

وهو من أماكن العبادة الرئيسية يقوم على جبل يبلغ علوه 150 متراً، ويصعد إليه بمدرج طويل يزيد على 250 درجة. وهو عبارة عن حضيض محفور في قمة الجبل المنبسطة، عمقه قدم واحد، وطوله ثمانية أمتار، وعرضه ستة أمتار، وتقوم في

وسطه حجرة ناشزة كانت هيكلاً للإله (ديشورة)، ويقع المذبح في الجهة الجنوبية من هذا الحضيض، وهو مستدير الشكل، وفي وسطه جرن صغير يتجمع فيه دم الذبيحة ويسيل في قناة صغيرة ضيقة حتى الهيكل. وقد كان الناس يجتمعون على قمة هذا المذبح مرة في كل عام، يقدمون قرابينهم وضحاياهم للآله ديشورة ويتلون أمامه صلواتهم وأدعيتهم الكثيرة، وذلك في طقوس وترتيبات عبادية خاصة

معبد الدير

ويقع في أقصى الآثار من الجهة الشمالية، وهو أعظم أطلال بترا روعة وبهاءً، ودقة وجمالا، وضخامة وعلواً حفر خلال القرن الواقع بين 50ق. م. و 50ب. م. ويبلغ علوه (40) مترا، وعرضه (50) متراً. وهو يتألف من ثلاثة أقسام هي: البهو، والهياكل، والقبة، (انظر شكل 7)، أما البهو فيقع في القسم السفلي منه، طوله (10) أمتار، وعرضه (12) متراً، وارتفاعه (14) متراً، وتزين وجهته الأمامية ثمانية أعمدة إغريقية التيجان، ضخمة

الشكل، يربط بعضها ببعض أقواس جميلة، تقوم بينها طائفة من التماثيل المشوهة، وفوق البهو (الكنيسة) الهياكل الثلاثة وهي تشبه هياكل معبد إيزيس إلاَّ أنها أكبر منها حجماً أما القبة فتتوج الهيكل الأوسط منها، وهي تتألف من قسمين يبلغ علوها معاً تسعة أمتار، ومحراب يناهز هذا العلوَّ أيضاً. وتتسع مساحة القسم الأسفل من القبة لنحو (50) رجلا أو أكثر. وهي ما تزال مشمخرة في الفضاء، ساخرة من عبث الأقدار وكر الحوادث الكبار.

أساطير طريفة

يسكن بترا فريق - عشيرة - من البدو، وقد سلمت إليهم يد الدهر والأقدار أطلال حضارة عريقة، لا عهد لهم بمرئياتها، ولا طاقة لهم على تقليدها؛ فاختلفوا في تعليل تلك القوة الخفية التي شيدت ذلك البنيان العظيم الذي يعجزون عن تقليده، واختلفوا أيضاً في تعليل مصدر تلك القوة الهائلة، فذهبوا لذلك يحيكون حولها مختلف القصص والأساطير، بالشكل الذي يمليه عليهم خيالهم وتصورهم، وبالكيفية التي توائم أذواقهم ومشاربهم فقالوا في موضوع المسلتين:

لقد كان لفرعون زوجتان، وقد خرجتا ذات يوم بطفليهما إلى الجبل المقابل للملهى،) وحدث أن استهانتا بنعمة الله الكبرى على الإنسان، إذ أنهما مسحتا غائط ولديهما بكسرة من الخبز، فعاقبهما الله بأن حولهما إلى مسلتين حجريتين.

أسطورة قصر فرعون

حدثني أحدهم، وقال: (كان لفرعون بنت بلغت سن الزواج، وقد حظر عليها والدها الخروج من القصر؛ وفي ذات يوم أجمعت أمرها على أن تتزوج من الشخص الذي يستطيع أن يجر إلى قصرها ماء أحد الينابيع. فقام لهذه الغاية شخصان، وتمكن كل منهما من جر ماء أحد الينابيع إلى قصرها في وقت واحد ويوم واحد، فسألت الأول: كيف تمكنت من جر الماء إلى قصري في مثل هذه المدة القصيرة؟ فأجاب: بقوتي وبقوة بطانتي وعشيرتي؛ ثم سألت الثاني. فأجاب: بعون الله الذي عضدني وعضد رجالي وجمالي؛ فسرت من جوابه، ودهشت لثقته بعون الله، وتزوجته. وفيما هي تفكر لتجمع عزيمتها على الزواج من أحدهما سقط جناح فراشة في قناة الرجل الأول، فتعطل الماء فيها عن الجريان،

ولم يستطع أحد أن يرجع الماء إلى مجراه، فتيقنت الأميرة أن الله قد قدر هذه الأعجوبة لتكون برهاناً لها على حسن اختيارها للرجل الثاني)

تلكم هي آثارنا، وذلكم هو تاريخنا، تشهد بعظمته هذه الأطلال الخالدة التي شدناها، وليس عاراً على من أهدى إلى المدنية هذه الثروة الكبرى، وأسدى إلى الإنسانية مثل هذه الخدمات الجلى ليس عاراً عليه أن يستريح ريثما يستجم يسترجع نشاطه، فيعيدها كرة عربية، وصرخة عالية تعيد إلى هذه الأطلال نطقها وماضيها

(شرق الأردن)

خليل جمعه الطوال

رسالة الشعر

من مشاهد المسرح

قلب راقصة

للأستاذ إبراهيم العريض

في مَسرحٍ للغَرب حي ... ثُ الشمسُ تشرِقُ في الليالي
ورِواقُه كالموجِ يزْ ... خرُ بالنساءِ وبالرجال
يتضاحكونَ. . . فلا ترى ... إلا الكواكب في اشتعال
والبنتُ يجذبُها فتا ... ها فهْي تخْطرِ في اختيال
طوراً هُنا، طَوراً هُنا ... كَ، لكل رُكن فيه خال
والكلُ منهم مُشرِقُ ال ... وَجنَات محْبُوبُ المثال
وقَفَ الفتى الشرْقِيُّ لَ ... كنْ قلبُه في غَيْرِ حال
تحتَ الشُعاع يرى الجُسو ... مَ كأنْها بعض الظلال
ويكادُ يفصح طرفُه ... عمَّا يكِنُّ من السؤال
يا عَينُ حسبك ها هُنا ... ما تَنْشُدين من الكمال)
تلك الحقيقةُ بينَهم ... تنْسابُ في حُلل الجمال
(هل ترقُبين بأن يُزا ... حَ السِتْرُ إلا عن خَيالي
ومضى يُحدْثُ نفسهُ ... لا يستقرُّ بهِ مكانُ
ويرى بناظرهِ مفا ... تنَ ظلَّ ينكرُها الجنان
ما هذه إلا السما ... ءُ وتلكَ أنجُمُها - الحِسان)
(في كل ركْنٍ كوكَبٌ ... وبكل زاوية قِران
حتى إذا أزِفَ الدخُو ... لُ وطال للجرَسِ الأذان
وتَهلّلَ البَهْوُ العظي ... مُ بسرِّ ما همس البِيانُ
فكأنّ للأنغام أشْ ... باحاً لها في الرقْص شان
هي والصدى أبداً كنا ... رٍ يستقلُّ لها دُخان
دخلوا جميعاً صامتي ... نَ. . . كأنَ صمتَهُم بيان
فمشى يُوازنُ خَطْوَهُ ... ويميسُ من طرَفَيهِ بان
حتى تخيل أنَّهُ ... ملَكٌ وتلك هِيَ الجِنان
وثوى على كُرسِيّهِ ... بُهْراً وليس له لسان
وانجابَ ذاكَ السترُ عن ... غَيْداَء ترفُلُ في صِباها
تمشى وئيداً والحرِي ... رُ يشِفُّ عن أدنى خُطاها
ملمُومةً كالوردةِ ال ... بيضاء في ورَقٍ حواها
حتى إذا وَقفتْ إزاَء ال ... خَلقِ يبْهرُهم سناها
نشرَتْ مُلاَءتَها الرقيْ ... قَةَ من حواشِيْها يداها
ومضت تُلَوِّحُ باليَدَيْ ... نِ كأنها ترعى انتباها
وتدُورُ دَوْرتها فين ... عكِسُ الضِّياءُ على حُلاها
كم بالغَتْ في الميْل حت ... ى كادَ أن يُطْوى قَفاها
ثمّ استوتْ فَوْقَ الأصا ... بعِ كالحشائش في رُباها
يهتزُّ منها كلُّ عُضْ ... وٍ نِعمةً حتى حشاها
وتهمُّ طوراً أن يُوَا ... زِيَ موْضِعُ الإبهَامِ فاها
فترى تَفتُّحَ جِسْمِها ... كالأقْحُوانِة في نداها
كانت تمثِّلُ فِتْنَةً ... وتثيرُ في الجمهورِ أخرى
وكأنَّ بينَ ضُلوعِهم ... قلباً أبى أن يستقِرّا
يشتَدُّ في الخفقَانِ عن ... دَ دُنوِّها حتى تمُرّا
لا، بل يُتابعُ مَوْطِئَ ال ... خطُوَاتِ بالأنغامِ تترى
فإذا نأت أضحى بأعْ ... يُنِهم يجاهِدُ مُستمرا
حتى يُشاهِدَ من شبا ... بِيكِ النواظِرِ ما تتحرى
وكأنها أَلِفَتْ بهذا ال ... حالِ منهم فهْيَ سَكرى
ثُغرى الشبِيبةَ بالفُتو ... نِ ولا تُبالي حينَ تُغرى
وتظلُّ تلعَبُ بالمُلاَ ... ءةِ حَوْلها طيًّا ونشرا
حتى إذا عطفَتْ قُبَا ... لةَ ذلكَ الشرْقِيِّ صدرا
ألْقَى عليها نظْرَةً ... كالطِّفْلِ بل كانت أبَرّا
فتحِسُّ مُهْجَتُها لأوَّ ... لِ وَهْلَةٍ بالحبِّ. . . سِرا

بقِيَتْ لقًى مثلَ الفرا ... شَةِ في تهافُتِها السريعِ
والناسُ تحسَبُ أنها ... بُهِرَتْ من الرَّقْصِ البديعِ
لما رَأَوْها لا تُح ... رِّكُ ساكناً غيرَ الضُّلوع
وعلى سِمَاطِ الصدْرِ فا ... كِهتانِ مِلء يدِ الخليع
حتى إذا أبدَتْ فُتو ... راً كالذي إثْر الهجوع
وتمايلت طرباً وهمَّتْ ... في غِناها بالشروع
ساد السكونُ على الجمو ... ع كأنهم صُوَرُ الخشوع
غنَّتْ غِناَء الأمِّ أوّ ... لَ ما تُهوِّدُ للرضيع
فتبُثُّ ما في قلبها ... من صورةِ الأمَل الرفيع
أرأيْتَ نورَ الشمس صُب ... حاً كيف يؤذِنُ بالطلوع
ومضت تُرجِّعُ باللُحُو ... نِ كأنها طيْرُ الربيع
ظلَّتْ لها الآذانُ تَشْ ... رقُ كالنواظرِ بالدموع
ما أوشكَتْ أن تنْتهي ... من نبْرَةٍ يحلُو صداها
إذ رنَّ بالتصفيق ذا ... ك البَهْوُ تصفيقاً تناهى
فتلفَّتتْ مُحمرَّةَ ال ... خدَّيْنِ من خجلٍ عراها
مضمومة الكفَّيْنِ فوق ال ... صدرِ - خائرةً قُواها
مُفترَّةَ الشفَتيْنِ عن ... برَدٍ جلا للثْم فاها
فكأنما معنى الأنُو ... ثَةِ قد تجسَّم في رُواها
والكل يهتِفُ أن تُعا ... وِدَ فنَّها ويقول: واها
وتساقطتْ باقاتُ زهْ ... رٍ حوْلها خَضِلٌ جَناها
فتناولتْ زهَراً ولمَّ ... اقرَّبتْهُ إلى لماها
ألْقَتْ بِهِ صَوْبَ الجمو ... عِ لمنْ تعلَّقهُ هواها
وإذا بزهرتها يفو ... زُ بها. . . أتدري منْ فتاها؟
هُوَ ذلك الشرقِيُّ في ... أحضانه عبقَتْ شَذاها
ثمَّ استقَلَّ بها السِّتا ... رُ. . . كأنه قبْرٌ حواها
وتألَّقَتْ في البَهْوِ أنْ ... وارُ المشاعِلِ في قناها
وتحدَّث الجمهورُ عن ... ها ساعةً حتَّى سَلاها
وانفَضَّ ذاك الجمعُ. . . لا ... عادت تراهُ ولا يراها

البحرين في 21 مارس سنة 1938

إبراهيم العريض

البريد الأدبي

المصريون واللغة النوبية

في الرسالة رقم 254 أخبرنا القراء أن عالماً مصرياً - لا يزال شاباً - هو الأستاذ مراد كمال الدكتور في الفلسفة واللغات السامية من جامعات ألمانية نشر (تاريخ اليهود) لابن كريون باللغة الحبشية

واليوم نشر الدكتور مراد كامل رسالة نفيسة على صغر حجمها في (مجلة الجمعية الألمانية للاستشراق) الصادرة في مدينة ليبتسش من مدن ألمانية (المجلد 91، الجزء الثالث) وموضوع الرسالة (تأثير اللغة العربية في اللغة النوبية) وهي باللغة الألمانية

ويستهل الدكتور كامل بحثه بقوله: (إن عدد الألفاظ العربية التي في اللغة النوبية موضع دهش عظيم، ولا يوازن هذا العدد إلا بعدد الألفاظ العربية التي في اللغة التركية، ذلك أن القسم العربي في اللسان النوبي كبير أيُّ كبر، حتى أن النوبي لا يستطيع أن يؤلف بعض جمل من دون أن يستعمل عدة ألفاظ عربية)

ويرد المؤلف هذا التأثير إلى الصلات التي بين بلاد النوبة ومصر: إما من طريق التجارة الجارية بين هذه البلاد ومدينتي أسوان وقنا، وإما من طريق النوب الراحلين إلى القاهرة خاصة ليعملوا فيها (سفرجية) و (بوابين)، وإما من طريق النوب الذين يطلبون العلم في الأزهر وما أشبهه من المعاهد الدينية حتى إذا رجع القوم إلى بلادهم جلبوا إليها معهم جانباً من اللغة العربية

وبعد هذا التقرير الصحيح يأخذ المؤلف في ثبت الألفاظ العربية التي تطرد في اللغة النوبية مع تبيين التحريف واللحن المتطرقين إليها، ومع إثارة الجدال حول ما يذهب

إليه غيره من المستشرقين في الباب نفسه
(ب)
مشروع إنشاء المجمع الأدبي
اجتمعت في وزارة المعارف لجنة تنظيم الحركة الأدبية برياسة معالي الدكتور محمد حسين هيكل باشا، وبحثت أولاً في مهمة المجمع وفي الوضع القانوني له، ثم درست مسألة
استقلاله بنفسه أو تبعيته لهيئة أخرى، وقد أتجه الرأي في هذه الناحية إلى الأخذ بالوضع الأول
وبعد أن وضع مشروع القانون بتأليف المجمع قرئ على حضرات الأعضاء فأقروا صيغته الأساسية ثم فوضوا إلى معالي الرئيس بحث هذا الموضوع قبل إقرار الوضع النهائي بتأليف المجمع
وقد تضمن هذا المشروع إدراج 5000 جنيه ميزانية سنوية للجنة، منها 1500 جنيه مكافآت للأعضاء بحسبان 150 جنيهاً لكل عضو، و1500 جنيه لخمس جوائز سنوية تمنح إحداها لأحسن قصة تختارها اللجنة، والثانية لأحسن كتاب في الأدب، والثالثة لأحسن كتاب في الشعر، والرابعة لأحسن كتاب في الأدب التمثيلي، والخامسة لخير كتاب أدبي يظهر كل عام في العالم العربي و1200 جنيه لإصدار مجلة و800 جنيه مصروفات أخرى
تاريخ الأدب العربي في مصر الإسلامية
اجتمعت بوزارة المعارف لجنة تاريخ الأدب العربي في مصر الإسلامية التي ذكرنا خبر تأليفها في عدد مضى، برياسة صاحب المعالي الدكتور محمد حسين هيكل باشا وزير المعارف
وقد بدأ معالي الوزير هذا الاجتماع فتحدث عن ضرورة الإلمام بتاريخ الأدب العربي في مصر، وأبان أن هذا واجب وطني كما أنه واجب علمي، وأنه يعتبر بمثابة الحجر الأساسي في بناء القومية المصرية. وبعد بحث الموضوع من مختلف نواحيه تقرر ما يأتي:
أولاً - تأليف لجنة من كبار الباحثين تتولى إعداد فهرس واف بالمراجع التي يركن إليها الباحثون، على أن تبادر بالقيام بعملها لتحقيق الغاية المقصودة من تأليفها.
ثانياً - تنظيم دراسة للأدب العربي في مصر بكلية الآداب بالجامعة المصرية تبدأ بمعالجة العصور الأولى من تاريخ هذا الأدب ثم تتدرج إلى ما يعقبها حتى يمكن في النهاية من كل هذه الدراسات تأليف مجموعة من الكتب تكون موسوعة تامة في تاريخ الأدب العربي المصري
ثالثاً - إثارة همم الشبان المصريين وتوجيه عنايتهم إلى بحث هذا الأدب بوضع جوائز سنوية قيمتها 500 جنيه توزع على ثلاثة حسب تقدير لجنة التحكيم
وسيصدر في خلال هذا الأسبوع القرار الخاص بدعوة المتسابقين إلى الاشتراك في المسابقة، وقد أتصل بنا أن الوزارة ستشترط في هذه الدعوة أن تكون الإجابة على هذه المسابقة في شكل رسالة جامعية يتوفر فيها التجديد والابتكار
وبهذه المناسبة نذكر أن هذه المسابقة ستكون سنوية في هذا الموضوع إلى أن يتم بعد سنوات وجود مجموعة كبيرة ثمينة من المؤلفات المصرية في هذا البحث الأدبي القومي
شارل موراس في الأكاديمية الفرنسوية
من أنباء باريس أن المسيو شارل موراس انتخب عضواً في الأكاديمية الفرنسوية في الدور الأول بأكثرية 20 صوتاً ضد 12 صوتاً للمسيو فرنان جريج وقد أمتنع أربعة أعضاء عن الاقتراع
والأستاذ موراس في السبعين من عمره وهو من كبار رجال الفكر والأدب في فرنسا بل في العالم، وهو يدير سياسة جريدة (الأكسيون فرانسيز) لسان حال الحزب الملكي مع زميله ليون دوديه منذ ثلاثين سنة وله فيها تلك المقالات السياسية اللاذعة
ولشارل موراس مؤلفات عدة منها: (طريق الجنة) - (ثلاثة أفكار سياسية) (شاتوبريان) - (ميشيلين) - (المستقبل والذكاء) - (تحقيق عن الملكية) - (الموسيقى الداخلية) - (كييل وطنجة) - (رحلة أثينا) - (من ديموس إلى قيصر) وغيرها

وقد أنشأ شارل موراس جماعة أصدقاء (الأكسيون فرانسيز) أي (العمل الفرنسوي) سنة 1899، وهي جماعة أنصار إعادة الملكية إلى فرنسا. وهو صاحب حركة فكرية جديدة تقوم على أن الفكر الإنساني لا يستطيع أن يدرك الأشياء المطلقة. وقد رأت الكنيسة الكاثوليكية من انتشار هذه الحركة ما حملها على توقيع عقوبة الحرمان على صاحبها. وقد اقتبس كثيرون من رجال الدول مبادئ موراس السياسية ولا سيما السنيور سالازار دكتاتور البرتغال الذي يجاهد بذلك فخوراً

الدكتور عبد الوهاب عزام في محطة الإذاعة الفلسطينية

دعت محطة الإذاعة الفلسطينية صديقنا الدكتور عبد الوهاب عزام إلى إلقاء محاضرة عن شاعر الإسلام المغفور له محمد إقبال الهندي في مساء اليوم الخامس عشر من شهر يونيه، وقد لبى الأستاذ الدعوة وينتظر أن يغادر القاهرة إلى القدس في مساء الغد

مؤتمر الجامعات

اشتركت الجامعة المصرية في مؤتمر الجامعات الذي سيعقد هذا العام ما بين 6 و 10 يوليو سنة 1938 في سويسرا والغرض من هذا المؤتمر تقريب وجهات النظر بين الجامعات المختلفة في العالم وتوثيق روابط الاتحاد والألفة بين الجامعيين في الأقطار المختلفة، والبحث في الحالات الاجتماعية والصحية والفكرية

ولقد انتدبت الجامعة المصرية لتمثيلها في هذا المؤتمر حضرات الدكتور إبراهيم رفعت ومصطفى السعدني وإبراهيم عبده والدكتور علي طراف والدكتور محجوب ثابت. وسيعالج المندوبون المصريون الروح الجامعية في مصر منذ إنشاء الأزهر إلى اليوم من نواحيها المختلفة

جبران والرمزية

قرأت رد الدكتور بشر فارس على ما وجهت إليه من أسئلة عن الغموض في الرمزية، وإنني أشكره على شرحه الموجز لهذه النقطة. إلا أنني أعود فأقرر أن جبران لم يسر على نهج الشاعر الإنجليزي وليم بليك في غموض أشعاره واستغلاق معانيها على القارئ مهما أجهد عقله في فهمها؛ وهذه كتب جبران كلها - وتبلغ قرابة العشرين - يستطيع كل مثقف أن يفهم ما ترمي إليه وما تهدف له وإن كانت ذات رمزية! أو رومانتيكية، أو كليهما معاً

وإذا كان الدكتور ينسب طريقة جبران في الرمزية إلى الشاعر الإنجليزي بليك فما أولاه أيضاً أن ينسب كتاب (النبي) الرمزي والرومانتيكي معاً إلى كتاب الفيلسوف الألماني نيتشة (هكذا قال زرادشت!). أما استشهاده بما قال النحات رودان وبما كتبته عنه فنانة أمريكية في مقدمته لكتاب لها (يضم عشرين صورة) فهو مما يؤيد رأينا: في أن رسوم جبران فقط كانت تغلب فيها الرمزية على ما عداها

وأما قوله أن الرمزية تشق الآن طريقاً في الأدب العربي. . . (المستحدث). . . فهذا صحيح ولا يتفق مع قوله أن الرمزية في مصر لم تفهم بعد حق الفهم في طرائقها وتعبيراتها ووسائلها فكان نتيجة لذلك ما يشكو منه الدكتور من كتابات مضطربة ترمي إلى غير هدف وتسير في غير طريق؛ ولكن الواجب على زعيمي الرمزية في مصر: الدكتور بشر والأستاذ الحكيم أن يضعا عنها كتباً مطولة تكشف عن مناهجها وما يحيط بها وما يندمج فيها من مؤثرات وما تؤثر هي به في الأدب وما تزيده تقدماً وشمولاً وإحاطة. . . لا توطئات مركزة دسمة إن هي أفادت فئة من الأدباء المطلعين على الثقافات الأجنبية إطلاعاً واسعاً فهي لا تكفي مطلقاً ذوي الثقافات المتوسطة من الأدباء، بله عامة القراء

والرمزية - بعد - في الأدب العربي المستحدث في أول الطريق، فالحديث ذو شجون ولازم على من يشقون ويوسعون الطريق لها فيه أن يطيلوا الكلام والإبانة عنها للسالكين!

وما أحرى الدكتور بشر في هذا المقام - إذا تفضل - أن يوالي مجلة الرسالة الغراء بمقالاته الثمينة عن الرمزية يوضح طرائقها ويترجم لزعمائها وقادتها ومدارسها منذ نشأتها إلى الآن توطئة لتأليف رسالة عنها بقلمه الفذ

وإنا لنشكر الدكتور بشر كل الشكر على علمه الغزير، وله منا سلام واحترام وحب

السيد كامل الشرقاوي

صاحب السمو الإمبراطوري ولي عهد إيران والعلم
كتب إلينا أحد الفضلاء من طهران يقول:
في الرابع عشر من الشهر الماضي زار سمو ولي العهد في إيران كلية العلوم العقلية والنقلية من كليات جامعة طهران زيارة رسمية يصحب سموه كبار رجال الحكومة وكان معالي رئيس الوزراء (محمود جم) وفخامة وزير المعارف (حكمت) وسعادة رئيس الكلية (السيد نصر الله تقوى) والعلماء الأساتذة واقفين في باب الكلية في انتظار سموه
وفي الساعة التاسعة مساء وصل موكب سموه إلى باب الكلية فاستراح قليلاً في غرفة خاصة ثم شرف بعد ذلك الخطابة وفيه كبار أساتذة الكلية وعدة من كبار أساتذة سائر الكليات الخمس الأخرى وعدة من ممثلي الصحف فشرف سموه الحاضرين بالتحية
وقام بين يديه الأستاذ (فروز انفر) معاون الكلية فعرض خلاصة ما قامت به الكلية من الأعمال العلمية فلما فرغ شرف سموه الأساتذة بخطاب حكيم قال فيه: (إن العناية من جلالة
الشاه كبيرة بهذه الكلية والأمل وطيد أن تعيد إيران مقامها الرفيع في العلم وأن تهيئ بهذا المعهد العلمي للعالم أساتذة كأسلافهم من أعلام الفرس المشهورين لتكون أفكارهم وآرائهم خير هاد للأمم
ومن المزايا التي ميزت طلبة هذه الكلية عن طلبة العلوم في العصور السالفة شدة الاهتمام بتربيتهم الجسمية بالرياضة البدنية في جنب تربيتهم النفسية والعقلية وأن الفرق بين هذا اليوم والأيام السالفة هو أن فضل كل شخص وشرفه من هؤلاء قائمان بمزاياه الروحية من الخلق الحميد والعلم والأدب لا بالكساء الخاص والذهب وليعلم الطلبة قبل كل شيء أن واجبهم الأول هو محاربة الأوهام والخرافات التي طالما أوهنت قوى هذه الأمة الروحية
من الحسن الجميل أن برنامج هذه الكلية شامل لجميع العلوم من الحكمة والأدب والتشريع والعلوم الرياضية
ويسرني أن أرى السادة الأساتذة باذلين جهودهم في تنوير أفكار الطلبة وصقل عقولهم وتربية نفوسهم ليهيئوا للمستقبل رجالاً يصبحون مصابيح للشعب الفارسي المجيد. ويجب على الأساتذة أن يجدوا غاية الجد حسب طاقاتهم في تعريف هذا المعهد العلمي للشرق كافة، وأن يظهروا للعالم حقائق المعارف الإسلامية السامية التي طالما استترت وراء ستار الأوهام، ونطلب منهم أن يفصلوا لب الروحانية الحقة الإسلامية عن القشور الفاسدة بوسائل العقل والمنطق، وأن يهيئوا كل ذريعة للرقي العقلي والاجتماعي، ويكونوا قدوة صالحة للأمة وسعيهم مشكور إن شاء الله تعالى من جلالة الملك بقدر سعيهم
إنا نفخر كل الفخر بأن ديننا الشريف وهو الإسلام لا مثيل له بين الأديان السماوية، وحقائقه المضيئة وأصوله السامية توافق الرقي الاجتماعي، وهو دين التوحيد ودين العقل، فيجب على السادة الأساتذة أن يكونوا مبلغي هذا الدين الحنيف، وأن يكونوا (أعلاماً يهتدي بهم، وأن يبثوا روحاً صالحة جديدة في الطلبة
ثم زار بع ذلك سموه خزانة كتب الكلية وبها كثير من النسخ النادرة النفيسة والمخطوطات الأثرية بخط (ياقوت) و (أتيرك) وآلات فلكية واسطرلاب أثري نفيس ونسخة خطية من (ديوان) نظامي الشاعر الشهير، وهي نسخة أرسلتها الحكومة الفارسية إلى معرض لننكراد
وكانت موضع إعجاب الزائرين، وهي تحتوي على صور بديعة من صنع أشهر المصورين في الصين والهند
من برجنا العاجي
اشتد الحر في البرج العاجي فلم يطب لراهبه المقام فيه. فأزمع السفر لتمضية الصيف في جبال الألب. وهو يودع قراءه إلى لقاء قريب.
قرية أدبية
جاءنا من روما هذا الكتاب من الأستاذ صاحب الإمضاء ننشره بنصه:
حضرة الفاضل الدكتور أمين حسونه

سيدي الدكتور! أحييكم أطيب التحية. وبعد فاليوم أطلعني مدير الإذاعة العربية بروما على خطاب منكم أدهشني بغرابته، فقد زعمتم في هذا الكتاب أن أحاديثي التي ألقيتها عن الأدباء الإيطاليين قد اختلست كلها من سلسلة مقالات لكم كنتم واليتم نشرها في (الرسالة) الغراء. على أن الحق يا سيدي أن مطالعة مقالاتكم التي لا أرتاب في أنها كانت ممتعة قيمة ومنتجة خصبة، حظ قد فاتني. ولست أدري هل يؤلمكم أن أقول في صراحة وصدق أني ما قرأت لكم حتى اليوم كلمة واحدة في هذا المنحى من مناحي الأدب أو في غيره. ولكني على أية حال لا أقصد إلى إيلامكم، وإنما أقصد إلى دفع تهمة جاءتني (من الهواء)

بيد أني لا أعلم في الحق مما أبري نفسي؛ فقد جاء كتابكم الكريم خلواً من الإشارة الواحدة إلى الموضع الواحد من مواضع الشبه أو الشبهة. وكان خيراً لو دللتم على هذه المواضع ولو في إجمال وإيجاز، فأني أريد تقويض اتهامكم فلا أجد (أركانه) كما يقول أصحاب الفقه

إن الطعن على الناس جزافاً وبلا تعمق للحقائق زلل أخلق بالرجل الأريب ألا يتورط فيه. وإذن فلعلكم أن تراجعوا النفس فيما زعمتموه، أو لعلكم تشيرون كما قدمت إلى مغمز في أحاديثي كلها أو بعضها في غير إبهام ولا غموض. ولكي أبسط لكم الأمر أقول إني تناولت في أحاديثي السالفة دانتي وبيراندلو ودانتزيو وبوكاشيو وبترارك وميكافلي وأريوسطو، وتناولت في حديث واحد أعلام (الحركة الإبداعية). فأي هذه الأحاديث يا سيدي تتهمونه أكثر من غيره؟ وأيها تحبون أن أبعث إليكم بنصه لتظهروا الناس على ما فيه من إنتهاب

لحقوقكم في التأليف بل لتحاكموني فيه إلى القضاء أيضاً إن كنتم صادقين في اتهامكم وإن كنتم لا تبغون حقاً سوى الإنصاف؟

إني لأعجل عليكم في الجواب حتى لا يطول بكم السخط عليّ والإشفاق على حقكم حيث لا موجب لسخط ولا إشفاق. وإني لأرجو مخلصاً أن تتقبلوا مني أوفى التبجيل (روما)

محمد أمين

(الرسالة)

لا تعرف أحداً بهذا الاسم كتب في هذا الموضوع في الرسالة إلا (محمد أمين حسونه) وهو بالطبع غير (دكتور). فإذا صح أنه هو الذي كتب ما كتب إلى مدير الإذاعة العربية بروما كان ذلك عجيبة من عجائب الأخلاق. فأنه لم يكتب في الرسالة إلا شيئا عن بيراندللو. وهذا الذي كتبه عن هذا الشاعر لا يصح عقلا أن يكون مصدراً لمحاضرات تناولت سبعة من نوابغ الأدب الإيطالي ذكرهم الكاتب في كتابه!!

لجنة المجلة في مجمع اللغة العربية الملكي

كان مما قرره مجمع اللغة العربية الملكي أن يخصص في مجلته قسم بنشر البحوث والمقالات التي تلائم أغراضه مما تجري به أقلام الباحثين والكتاب حرصاً على التعاون العلمي الذي يجب أن يكون بين أعضاء المجمع وغيرهم من أهل العلم والأدب، والحريصين على خدمة اللغة العربية وإعلاء كلمتها

ولجنة المجلة تتشرف بدعوة الذين يقدرون ذلك التعاون العلمي قدره إلى إرسال مقالاتهم باسم رئيس لجنة المجلة بدار المجمع بشارع قصر العيني رقم 110 بالقاهرة ولما كان الغرض الأسمى خدمة اللغة العربية والمحافظة على سلامتها، وجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون، مسايرة لها في تقدمها، ملائمة لحاجات الحياة في العصر الحاضر، بجانبه لما طرأ عليها من الفساد في الألفاظ والتراكيب كان المأمول من حضرات الكاتبين أن يراعوا في بحوثهم اللغوية هذه الأغراض السامية مع إيثار الطرافة والإيجاز المفيد

هذا وإن للنشر في المجلة مكافآت مالية معينة بحسب الصفحات للمقالات التي تقر لجنة

المجلة صلاحيتها للنشر

ومن شاء زيادة البيان فليتفضل بمكاتبة رئيس اللجنة بالعنوان السالف الذكر

الكتب

على هامش السياسة

تأليف الدكتور حافظ عفيفي باشا
للأستاذ محمد سعيد العريان

على هامش السياسة، هكذا يسميه سعادة مؤلفه الكبير، تواضعاً وعزوفاً عن التعاظم بالألقاب والأسامي، تسمية متواضعة إن دلت على شيء في موضعها فإنما تدل على خلق المؤلف وطبعه، لكنها لا تدل على الموضوع الهام الذي يتناوله الكتاب. ولقد كان أقرب دلالة على موضوعه أن يسميه (في صميم السياسة) فليست السياسة هي هذا التطاحن الحزبي الذي نشهده في اجتماعات الأحزاب السياسية، والتراشق بالتهم والسباب الذي نقرؤه في مختلف الصحف الحزبية؛ وليست السياسة هي هذه المظاهرات التي تعج بها الشوارع وتضج بالهتاف لفلان وفلان من رجال الحكم والسياسة. إنما السياسة حكمة وتدبير ونظر بعيد، وتفكير فيما يعود على الأمة أفراداً وجماعات بالخير. . .

إن لكل أمة هدفاً تسعى إليه، ولكن هذه الأهداف جميعها تلتقي في كل أمة عند معنى واحد، هو التقدم بالأمة والسمو بها إلى أقصى ما يمكن أن تصل إليه، والرقي بالشعب إلى المستوى اللائق به في العلم والثقافة، وفي الصحة العامة، وفي شئون الاقتصاد. . .

ولقد مضى على المصريين فترة غير قليلة وهم يجاهدون إلى غاية من غايات الشعوب الحرة، هي الظفر بالاستقلال. وقد طالت هذه الفترة والمصريون في جهادهم، وتنوعت أساليب الكفاح والمقاومة، حتى نسي المصريون ما وراء هذه الغاية، إذ كان جهادهم للاستقلال وحده، وطالت بهم الشقة حتى أوشك كثير منهم أن يوقنوا - سلباً أو إيجاباً - إن الاستقلال في ذاته غاية، فلما أذن الله أن تصل الأمة إلى هذه الغاية بعد طول جهاد، أحس الشعب بشيء من القلق السياسي، وتوزعت خواطرَ الناس شئونٌ وشجون؛ أما طائفة فقالت - وهي الأكثرية من الشعب -: وماذا أفدنا من الاستقلال؟ وماذا حصلنا بعد هذا الجهاد الذي أريقت فيه الدماء، وبذلت فيه الضحايا، وتحملنا فيه ما تحملنا من العنف والمشقة؟. . . وأوشكت هذه الطائفة أن تكفر بعد إيمان، وتعتقد أن ما بذلت في ساحة الجهاد منذ سنين وسنين لم يكن إلا عبثاً وجهداً بغير ثمرة. . .

وأما طائفة - وهم المؤمنون بحق هذه الأمة في الحياة - فقد بعدت مرامي همتهم، وانبسطت رقعة الأمل أمامهم، فقالوا لأنفسهم: ها نحن أولاء قد اجتزنا الدرب الشائك، ووقفنا على أول الطريق الذي يصل إلى المجد ويبلغ بنا مراقي السعادة. . . وأعدت أهبتها للجهاد إلى هدف جديد. . . فلم يكن ينقصها إلا الرائد الجريء الذي تترسم خطاه في هذا الطريق. وكان هذا الرائد هو مؤلف كتاب (على هامش السياسة)

على هامش السياسة كتاب تناول به مؤلفه أهم مسائلنا القومية في الوقت الحاضر، بأسلوب العالم الهادئ المتزن الفكر، فوصفها وصفاً صادقاً ليس فيه مبالغة ولا إغراق، ثم بين أسبابها وعللها ووسائل علاجها على ما هداه البحث. وتتلخص هذه المسائل في أربعة أبواب: الصحة العامة، والتعليم، ومسائلنا المالية، وسياستنا الاقتصادية

وقد تناول هذه الأبواب الأربعة فقسم كل واحد منها إلى فصول، تقسيما منطقياً واضح الأداء، بحيث لا يكاد يفرغ قارئه من قراءته حتى يكون قد ألّم بموضوعه إلماماً لا يدعه في حاجة إلى سؤال؛ كأنما يتحدث عن كل طائفة وفي كل مسألة واحدٌ من أهلها، فلا تفوته صغيرة أو كبيرة من مشاكلها وأمانيها

وإذا نحن قررنا أن هذه الأبواب الأربعة مما لا تتأتى دراستها مجتمعة على هذا الأسلوب لشخص واحد إلا إذا قُدِّر له أن يكون متخصصاً - عرفنا مقدار الجهد الذي بذله المؤلف حتى انتهى بمؤلفه إلى هذه الغاية من الكمال. وحمدنا له ما بذله من جهد وتضحية.

وما ليّ طاقة في هذا الحيز الضيق من الكلام أن أتحدث عن كل واحدة من هذه المسائل بذاتها؛ إذ كان ذلك مما تضيق به صفحات الرسالة؛ وإذ كانت كل مسألة من هذه المسائل في حاجة إلى عناية في العرض والتعليق لا تجزي فيها سطور

وإننا لنغمط هذا الكتاب حقه بأن نسميه كتاباً؛ فما هو إلا مصر الحديثة كلها في مشاكلها وأمانيها؛ وما ينبغي أن نقرأه على أنه كتاب فيه ما في الكتب من رأي صاحبه مما قد يلذ أو يفيد؛ ولكنه مجموع المسائل التي تشغل أفكار الطبقة المثقفة من المصريين عامة. ولسنا نغلو في تقدير هذا الكتاب إذا قلنا أنه ينبغي على القائمين

بشئون الحكم في مصر جميعاً أن يقرءوه ليعرفوا كثيراً مما فاتهم إلى اليوم أن يعرفوه من واجبات الحاكم المصلح. على أنه
في جملته - على وفائه بما وُضع له - ليس إلا تنبيهاً إلى الكتَّاب ورجال الفكر جميعاً أن يتناولوا مسائلة بحثاً وتمحيصاً ودراسة؛ فذلك هو الوقت الذي ينبغي أن ترسم مصر فيه لنفسه دستوراً قوميّاً تسير على نهجه إلى الغاية المأمولة في السعادة والمجد، وهذا الكتاب هو فاتحة البحث المنتج في هذا الموضوع. . .
ذلك عرض موجز لموضوع هذا الكتاب القيم، لا يُعرِّف به كل التعريف ولكنه يدل عليه بعض الدلالة. وإنه لعجيب في بلادنا أيُّ عجيب أن يكون من رجال الحكم والسياسة في مصر من يرصد وقته لمثل هذا البحث والدرس والاستقصاء في شئون لا تعود عليه في خاصة نفسه بالفائدة العاجلة؛ وإن أعجب منه أن يكون من هؤلاء الزعماء السياسيين عالم أو مؤلف أو أديب له فكر وبيان ومعرفة؛ وأعجب من هذين أن يكون بحثه ودرسه واستقصاؤه في شئون الطبقات الدنيا من الشعب بحيث يقف درسه على ما يهم سواد الناس ويكشف عن آلامهم وأماني أنفسهم. . .
ولكن هذه العجائب الثلاثة قد اجتمعت لسعادة الدكتور حافظ عفيفي باشا في مؤلفه القيم (على هامش السياسة)
ليس هذا فقط هو شأن هذا الكتاب، ولكن فيه شئوناً أخرى تستحق الملاحظة والتعقيب؛ فقد تعودنا وتعود الناس جميعاً ألا يروا ما تقع عليه أعينهم مرات متكررة في كل زمان ومكان؛ إذ كان الألف والعادة في المشاهدة مما يحملان على الغفلة والتعامي؛ فلن تجد كثيراً من الناس يعنون بالبحث والتدقيق في شأن ألفوه إلْف العادة ورأوه بأعينهم عشرات المرات حتى صاروا يمرون به فلا يحسون وجوده، ولكن الشيء الذي يسترعي الملاحظة ويبعث على التحري والتدقيق وتكرار النظر، هو الشيء الغريب الذي تشاهده العين أول مشاهدة. . . فنحن مثلا نعرف فلاحينا وأحوالهم ومعايشهم، وما منا إلا من عرف قليلا أو كثيراً عن القرية المصرية وشئون أهلها، ولكن قليلا منا من فكر في شئون هؤلاء الفلاحين أو نظر إليهم نظر الإنسان إلى أهله: يتعرف آلامهم ويفكر في سعادتهم. . . ومثل هذا الشأن شئون كثيرة في حياتنا، تسترعي اهتمام الأجانب والغرباء الذين يحلّون بيننا ضيوفاً كل عام ولا تثير أقل انتباه فينا، إذ كان هذا مما ألفنا أن نراه أو نسمع به، حتى أورثنا هذا الإلف بلادة في الملاحظة، فنمر به عمياناً أو كالعميان. . .
لذلك كان من عجائب هذا الكتاب أن نرى واحداً منا يحشد كل هذه المسائل في كتابه ويتناولها بالبحث والتدقيق والملاحظة على هذا النحو البديع الذي تناولها به الدكتور حافظ عفيفي باشا في كتابه. . .
والحقيقة أن قارئ هذا الكتاب ليجد فيه أشياء كثيرة تدعوه إلى العجب والإعجاب، وأشياء أخرى جديرة بأن تحمله على الفكر وإنعام النظر إلى مدى بعيد. . .
ومن يدري؟ فقد يكون مما يتحدث به التاريخ غداً حين يذكر هذه الفترة في الحياة المصرية، أن كتاباً ألفه الدكتور حافظ عفيفي باشا، كان هو الإرهاص الأول لنهضة الإصلاح في مصر المستقلة؛ ورب كتاب ألفه مؤلفه لغير التاريخ فكان هو نفسه فصلا من فصول التاريخ. . .
محمد سعيد العريان
العدد 259 - بتاريخ: 20 - 06 - 1938
بين العرب والفرس
بمناسبة المصاهرة الملكية
من دلائل التوفيق وبشائر النُّجح في توثيق ما أوهن الدهر من أواصر الأخوة بين دول الشرق الإسلامي، أصهار العرش الإيراني العريق إلى العرش المصري المؤثّل. فإن الغفوة الثقيلة الطويلة التي غفاها الشرق في ظلال الضراعة والجهالة والخمول، قطعت الأسباب بين حاضره وماضيه، ومزقت الأوصال بين قاصيه ودانيه، فأصبح فلولاً لجيش باد، وطلولاً لمجد تقوض. فلما أذن الله لليل الشرق أن يُصبح، أيقظ العرب والترك والفرس، وهم الأمم الثلاث اللاتي سطعت بهن شمسه، وازدهر بمجدهن أمسه، وانتشر بفضلهن نوره، فانتعش ما ذوى من رجائه، وتجدد ما خوي من بنائه، وهبت العبقريات الساميَّة والآرية والطورانية تتفتح مرة أخرى في ربيع الإسلام الدائم.

وحضارة الإسلام، وإن شئت فقل حضارة الدنيا، كانت نتاجاً لازدواج الوحي العربي بالخيال الفارسي، نشأ منه هذا الأدب الإنساني الذي حلل نوازع النفس، وهذا الفن العالمي الذي صور مدارك الحسَّ، وهذا التصوف الفلسفي الذي ترجم غوامض الروح، وذلك النظام الاجتماعي الذي جعل الحياة فناً وتمدين الناس طريقة

نعم كان لابد للفرس من العرب ليبصروا نور الحق، ويدركوا سمو النفس، ويعرفوا كلمة الله؛ وكان لا بد للعرب من الفرس ليعرفوا الدنيا، ويذوقوا النعيم، ويتعلموا الملك. فلما جمع الله الشعبين العظيمين بالإسلام، وربط بينهما بالضرورة، نزت في رأسيهما عصبية الدم النبيل وعزة النفس الحرة، فأدلَّ العرب بالدين والفتح والعروبة، وتبجح الفرس بالسلطان التليد والتاريخ المجيد والحضارة الرفيعة، فكان بين الأمتين ازورار طبيعي إذا اشتد كان عداوة، وإذا خف كان مصانعة.

والشخصية العربية الغلابة التي استطاعت أن تذيب في جنسها كل جنس، وتبيد بلغتها كل لغة، لم تستطيع أن تعرّب الفرس ولا أن تقهر الفارسية. فبقي استقلال إيران في القومية والطبيعة واللغة، وزال أو كاد في السياسة والعقلية والأدب. ثم تَنَزَّكت الخلافة فتترك هوى العرب؛ وأرَّث العثمانيون النار الخابية بين الشعبين بالخلاف المذهبي، فانفرجت الحال وتنكر الأمر، حتى قامت القيامة الصغرى في الحرب العالمية الكبرى، ووقف الشرق

العزيز حيال الغرب المقتدر، يحاوله في وجوده، ويصاوله على استقلاله، فتخفف الترك من تكاليف الماضي المشترك، وفروا بأنفسهم أوين إلى الأجواء الغربية، تاركين للعرب والفرس إنهاض الشرق الإسلامي اليوم، كما أنهضوه من دونهم بالأمس، فلم يكن للشقيقتين العريقتين بد من التكاتف على حمل هذه الأمانة العظيمة

إن الروابط الدينية والثقافية والتاريخية والاجتماعية التي تربط الفرس بالعرب لا يقوى على فصمها الدهر، لأنها جزء من وجودهما العقلي والروحي لا سلطان لنعرة الجنس عليه، ولا حيلة لأهواء السياسة فيه. وسيكون هَّم القيادة في الشعبين إحكام هذه الروابط بالتآلف والتحالف والمودة لأن، وَحْدة الغرب تقتضي ضم الشتات بإزائها، ونهضة الشرق تتطلب التكاتف على حمل أعبائها

إن مصاهرة إيران لمصر حادث جليل المغزى سيكون له في سياسة الشرق الأدنى عظيم الأثر. وبحَسْبك أن تعلم أن طهران كادت تنهج سبيل أنقرة في مجافاة الإسلام ومجانبة العرب، فاتصالها بالقاهرة المحافظة على عقيدتها وشرقيتها وتقاليدها يفصلها عن القافلة الشاردة، ويمُسكها على سَنَنِها الموروث، فتتطور ولا تتغير، وتتقدم ولا تحيد. فإذا نظرتَ إلى ما وراء ذلك رأيت هذه العلاقة الملكية الكريمة سفير وئام وسلام بين دولتين تجاورتا خمسة عشر قرناً ولا تزالان تطويان الصدور على حزازات الماضي. وستكون فاتحة الخير أن ينعقد في حاضرة النيل مجلس إسلامي عام ينتظم أقطاب الدين والعلم في أقطار الإسلام ليديروا الرأي فيه على ما أصاب المسلمين من صَدَعات الشيَع وضلالات البدع واختلافات المذاهب. ومن اليقين الجازم أن الدين - وهو دستور الأمة الإسلامية - إذا خلص من شوائب الجهل والغرض ضمن لأهله وحدة الرأي ووحدة الهوى ووحدة الغاية

ذلك إلهام الله في سياسة الفاروق المعظم. فهو يدبر الأمر ويمضيه على توجيه من فطرته ودليل من قلبه. وكأنما اصطفاه الله اصطفاءً لهذه الساعة المشهودة من حياة الشرق، فزوده بالقول الثابت والرأي الثاقب والسداد المرتَجَل والتوفيق الملهَم. فهو يولي وجهه شطر النور الأزلي الأبدي الذي ينبثق في مثل هذه الفترات المرَيجة فيبدد ظلام الحيرة، ويجمع شتات الوحدة، ويسدد الخطى الضالة في الطريق الأمينة

إن دلائل الحال تعلن أن عهد الفاروق المومق سيكون عهد الوحدة العربية، والجامعة الإسلامية، والعصبة الشرقية؛ فهل آن لنصف الكرة الأول أن يهب من سباته. ويبرهن بيقظته على استمرار حياته؟

أحمد حسن الزيات

تأملات في الأدب والحياة

للأستاذ إسماعيل مظهر

الشعر والمادة

إن بين كثير من الأمور النفسية والعاطفية، وبين كثير من الماديات تقابلاً، حتى يخيل

إليك أن الأشياء النفسية والعاطفية كأنها ماديات تحولت أشياء معنوية، أو كأن الماديات أشياء معنوية استحالت جمادات
من ذلك أن بين الشعر والمادة تطابقاً من حيث أن لكل منهما (ماهية) لم يتوصل العلماء إلى معرفتها في المادة، ولم يتوصل الأدباء والنقاد إلى معرفتها في الشعر. فإذا قيل مثلاً إن الأشياء الظاهرة في المادة إنما هي أعراض ينبغي أن يحملها جوهر فيه تكمن الماهية، فكذلك يستطاع أن يقال في الشعر إن كل الصفات التي يقول الأدباء والنقاد إن من الواجب أن تتوفر في الشعر حتى يحكم عليه بأنه جيد، إنما هي أعراض يحملها جوهر فيه تكمن ماهية الشعر
فإذا كان اللون والحجم والوزن والطول والعرض والثقل وما إلى ذلك جميعها أعراض ينبغي لكي تظهر لحواسنا أن تكون محمولة في جوهر ذي ماهية خاصة؛ وإذا كان الوزن والقافية واللفظ والصناعة والمعنى والخيال وما إلى ذلك جميعها أعراض يحملها جوهر، ما تلك إلا تعبيرات عنه ودلالات عليه، إذن فأين المادة وأين الشعر؟
أليس في مثل هذا التقابل بين الماديات والعاطفيات النفسية، مواضع للتأمل ومواطن للاستبصار؟
شاعرية الألفاظ
ما أقوى العلاقة القائمة بين الشعر وبين الحالات النفسية! وعندي أن التأثر النفسي بالشعر أقوى الأسباب التي تدعونا إلى نقد الشعر. ذلك بأن المعايير النقدية التي يخضع الشعر لسلطانها، على اختلافها وتباينها، تتضاءل جميعاً إذا قيست بالمعيار النفسي. على أن للمعيار النفسي في نقد الشعر عوامل كثيرة، منها الموسيقى المستمدة من القافية والروى، ومنها قوة الخيال، ومنها الاتجاه الذي يتوجه فيه الشعر إلى غير ذلك، وجميعها عوامل
تؤثر في المعيار النفسي في نقد الشعر. غير أن أقوى هذه العوامل تأثيراً معيار النقد النفسي للشعر، إنما ينحصر في شاعرية الألفاظ
فقد نسمع من كثير من النقاد أن هذا الشاعر بارد الأنفاس، وأن ذاك ماهر في اختيار الألفاظ، من غير أن نحدد المعنى المقصود من أمثال تلك العبارتين تحديداً يرضاه المنطق وتقره طبيعة العقل، إذ هي ترمي دائماً إلى تحديد معنى لكل لفظ مفرد، وإلى تحديد معنى لكل عبارة تكونت من ألفاظ. فإذا أردنا أن نجدد ما يقصد من عبارات تجري بها في العادة أقلام النقاد والكتاب، وجب أن نرجع بها إلى أصولها النفسية، حتى نستطيع أن نفسرها تفسيراً منطقياً يقبله العقل وتقره ما فينا من طبيعة الميل إلى تحديد كل المعاني التي نتخذ الألفاظ والعبارات وسيلة إلى التعبير عنها
والواقع إننا نقول إن شاعراً بارد الأنفاس، وإن آخر غير ماهر في اختيار الألفاظ، إنما نعبر بهذا عن حقائق نفسية، تنزل من أنفسنا منزلة ابعد الأشياء الدساساً في أغوار الفطرة. فقد نعلم أن من الحقائق النفسية ما دعاه النفسيون: (تداعي الأفكار). فان اللفظ الجميل المعني يدعو إلى الفكر دائماً كل المعاني الجميلة التي تلابسه أو تقاربه، ولفظاً قبيحاً أو محزناً يدعو إلى الفكر كل المعاني التي تدانيه أو تمت إليه بسبب من الأسباب. مثل ذلك إذا قلت: (الشاطئ المخضوضر) دعت هذه العبارة إلى ذهنك كل المعاني الجميلة التي تلابسها. فالنهر المنساب والماء الصافي والظل الوارف وصوادح الطير والرضا النفسي والأخذة الروحية، كل هذه المعاني تواتيك غير مختار لمجرد أن العبارة الأولى قد حملها وعيك فدعا معها جميع المعاني التي ترتبط بها وجميع الملابسات المرحة الجميلة التي تلازم الشاطئ المخضوضر. وإذا قلت القبر الصامت - أو - (الصحراء المجدبة) دعت هذه العبارة إلى وعيك جميع المعاني المحزنة التي تلابس القبر والصحراء المحزونة الصَّماء.
هذه الحقيقة النفسية لها في نقد الشعر أعظم الأثر. فان لفظاً جميل المعنى حسن الملابسات يدعو إلى الذهن شتى المعاني الأخاذة الجذابة، إن ورد في سياق الشعر أحدث في النفس شعوراً بالرضى والجمال وزاد إلى موسيقى الشعر القائمة على جمال الوزن والقافية، موسيقى نفسية تزيد الشعر تأثيراً في النفس، وتفتق الخيال، فيشرف الوعي من خلال ذلك
اللفظ على آفاق من الجمال اللامتناهي تزيد من قيمة الشعر بقدر ما يكون لألفاظه من أثرٍ في استدعاء ألوان الجمال أو التأمل أو العِطة أو الحكمة إلى غير ذلك. وعكس

هذا تماماً ما يحدثه لفظ رديء الملابسات فاسد المعنى. وهذا ولا شك ما يقصد النقاد إذ يقولون بأن الألفاظ شاعرية. على أن شاعرية الألفاظ إنما يحددها دائماً استعمال اللفظ في حيث ينبغي أن يستعمل فيكون مطابقاً دائماً لمقتضى الحال.

الشرق والثورة

حدثني صديق ممن تجمعني به ذكريات عزيزة ذكريات الثورة المصرية، عندما كانت أنفاساً حارة كاللهب المضطرم، وكانت أرواحنا مشبوبة كاللظى المتأجج. لهيب الشباب ولظى الفتوة. لم يكن عهد الكهولة قد أصاب شيئاً من تأملنا أو حفزنا بعد إلى اللجوء إلى قواعد المرجحات العقلية التي هي عندنا اليوم أشبه شيء بقانون المرجحات الرياضية، فما أن نرضيها وأما أن نعتقد أننا على غير صواب، وإننا إلى الشطط أقرب. حدثني ذلك الصديق عن الشباب وعن أيام الجهاد المستمر والسعي المتجدد في سبيل إذكاء روح الثورة في نفس الجماهير، وذكرني بما كان لنا من مواقف نعجب الآن كيف خرجنا منها وفينا نفس يردد أو عرق ينبض. كيف لم يحصدنا الرصاص. وكيف لم تسل نفسنا على شفرات السيوف؟ كيف هزأنا بالموت غير مقدرين أن الموت كان أقرب إلينا من حبل الوريد أشهراً طوالاً بل أعواماً، وكيف خلصنا من جميع هذا بأرواحنا سليمة وجسومنا لم يصبها كلمٌ واحد!

قلت له في خلال الحديث ما أشهى تلك الأيام! فان للمخاطرة بالروح لجمالاً لا يدركه الإنسان إلا بعد أن يفوز بالسلامة. ذلك جمال أشبهه بجمال الفقر الذي لا يدركه الإنسان إلا بعد أن يلوذ بالغنى. ولعل الأمر على عكس ما يخيل إلينا؛ ولعل الواقع أن المخاطرة والنقد ليس فيهما من جمال، وأن ما نستشعر من جمال فهما بعد الفرار من آصارهما قد يكون جمال الذكريات الماضيات إذ تحيي في النفس جزءاً من ماضيها، وتطبعها بطابع كاد يبلى على الأيام. قلت لصديقي من لنا يمثل تلك الأيام؟ قال الصديق: نعم نحن في احتياج إلى ثورة. إلى ثورة طاحنة تمضي بكل ما يقف في طريقها، وتأتي على كل ما يقاومها؛ ثورة شيطانية لا عقل فيها؛ ثورة مبرأة من الرشاد والحب والنهي. ثورة طائشة مجتاحة تأكل الحرث والنسل؛ ولكنها ثورة لا تنال من الجسوم ولا من الحطام؛ ثورة لا شأن لها بنظام قائم ولا بحكومة ولا بجيش ولا بأسطول؛ ثورة منزهة عن السيف والمدفع، وعن المدية والخنجر؛ ثورة لا يقوم بها جمهور من الناس ولا جماعات منهم؛ بل ثورة فردية يشنها كل فرد منا على نفسه؛ ثورة نفسية يتسلح فيها كل فرد منا بالإرادة ويروح يهدم من أخلاقه ومن ميوله ومن نزعاته التي كونها فينا تاريخنا القديم؛ ثورة تقتل فيها الإرادة حبنا للسلامة وتواكلنا على الأقدار وصمتنا عن الحق والحق مهضوم مأكول، كأنما قد أصبحنا جميعاً شياطين خرساً، والساكت عن الحق شيطان أخرس؛ ثورة تحطم مُثُلنا الأخلاقية القديمة، لتتبدل بها مُثلاً عليا من تلك المثل التي قادت أوائلنا بجيوشهم ومدنيتهم وعلومهم من شاطئ بحر الظلمات إلى جوف الصين

وكان صديق يتكلم متهدَّج الصوت منفعل النفس ثائر الوجدان. فلما فرغ من حديثه، شملنا صمت عميق ظل يسود مجلسنا حتى افترقنا لم يجر لساننا بكلمة واحدة

الطغرائي الشاعر

هو من أفذاذ الشعراء، ومن أهل البيان الذين يشار إليهم بالبنان. أنكره أهل زمانه على القاعدة السائدة في هذه الدنيا. وليس في ذلك عجب؛ ذلك بأن نكران الأفذاذ في زمانهم سنة أهل الشرق منذ أقدم عصورهم. وهذا الطغرائي على جلالة قدره يقول:

مالي وللحاسدين؟ لا برحت ... تذُوب أكبادهم وتنفطر
يغتابني عند غيبتي نفرٌ ... جباههم إن حضرت تنعفرُ
ألسنة في إساءتي ذُلقٌ ... يقتادها من مهابتي حصر
أنام عنهم ملء الجفون إذا ... أثارهم في المضاجع الآبر
يكفيهم ما بهم إذا نظروا ... إليَّ ملَء العيون لا نظروا
تغيظهم رتبتي ويكمدهم ... جاهي فصقوى عليهم كدَر
فنعمة الله وهي سابغة ... عندي من الحاسدين تنتصر
يعجبني أنهم إذا كثروا ... قَلُّوا غناءً وإن هم كثروا

وليس من عجب في أن يحقد جماعة على الطغرائي في زمانه، وليس من عجب في

أن يقول فيهم الطغرائي هذه الأبيات وأكثر منها مما يتضمن ديوانه. ولكن العجب في أن يُهمل
الطغرائي في زماننا فلا يتناوله كاتب ينقد ولا يذكره أديب يبحث، كأن هذا الشاعر العظيم من مطويات الأدب، تلك التي تطوي فلا تنشر، وتنسى فلا تذكر. ذلك في حين أن المتأمل في شعر هذا الرجل الفذ يدرك فيه سراً قلما تقع عليه في غيره من الشعراء: لا في شعراء عصره ولا في الشعراء الذين تقدموه، ولا في الشعراء الذين تلوه. وعندي أن هذا السر لا يشاركه فيه إلا شاعر واحد هو أبو العلاء المعري. أما ذلك السر فهو الجمع بين قوة الشاعرية ودقة الإحساس وصادق الوجدان وبين هدوء الطبع. أما إن ذلك سر من أسرار العظمة في الطغرائي، بل لا نبالغ إذا قلنا إنه سر عظمته، فذلك بأن الشعر عاطفة وخيال وحركة نفسية جياشة دافقة سيالة، فإذا حكم هذه الصفات هدوء نفس طبيعي، صفا الشعر ورق وأتساب انسياب الجدول المترقرق الهادئ، ولكنه في ترقرقه وهدوئه حادٌّ كالسيف قاطع كالفأس الباترة المحدودة وأبو العلاء المعري إن شارك الطغرائي هذا السر، فلا شك في أنه في نفسية الطغرائي أرس وأذهب في الوجدان. فان أبا العلاء شاعر حكيم بطبعه متشائم بفطرته. حمل على المرأة وطغي على الإنسانية، حتى لقد أراد أن يهدم كل قائم من غير أن يعرف كيف يقيم غيره، وأن يدرك كل أساس عملي في الحياة من غير أن يرسم للحياة طريقاً جديداً. ذلك على العكس من الطغرائي فانه عاش مع المرأة واندفع في غمرات الحياة وشرب من أفاويقها حلوة ومرة، فكان من صميم أهل الدنيا. فإذا لازم أبا العلاء شيء من هدوء الطبع ظهر أثره في شعره فذلك طبيعي بمقتضى النشأة والاتجاه الفكري. أما أن يلازم الطغرائي ذلك الهدوء وتحكمه تلك الطمأنينة، وهو بعد مغمور في الحياة محب لها هائم بمباهجها لَمَّاحٌ لما فيها من مغريات ومفاتن، فذلك سر من العظمة لا تألفه في الشعراء
ولقد يظهر أثر هذا السر في مرئياته، وهي أبعد الأشياء عن أن يلزم فيها شاعر هدوء نفسه وطبعه فلا يغلب عليه خيال جماح إلى غايات من الشعر يسبح من خلالها الشاعر في عالم الخيال البعيد المعلق بآفاق الوهم القصية. وله في الرثاء مقطوعة رثى بها عزيزة عليه، تلمح من خلالها مقدار ما لاقى في فراقها من لوعة عميقة الأثر بالغة الخطر، ولكنك تلمح فيها أيضاً ذلك الهدوء النفسي الذي يبلغ من قرارة نفسك مبلغاً لا تبلغه ثورة الشعر:

ولم أنسها والموت يقبض كفها ... ويبسطها والعين ترنو وتطرق
وقد دمعت أجفانها فوق خدها ... جني نرجس فيه الندى يترقرق
وحلَّ من المقدور ما كنت أتَّقى ... وُحمَّ من المحذور ما كنت أفرق
وقيل فراق لا تلاقي بعده ... ولا زاد إلا حسرة وتحرق
فلو أن نفساً قبل محتوم يومها ... قضت حسرات كانت الروح تزهق
هلال ثوي من قبل أن تم نوره ... وغصن ذوى فينانه وهو مورق
فواعجبا أنَّي أحم اجتماعنا ... ويا حسرتي من أين حلَّ التفرق
أحنُّ إليها إن ترَاخي مزارها ... وأبكي عليها إن تداني وأشهق
وأبلس حتى ما أبين كأنما ... تدور بي الأرض الفضاء وأصعق
وألصقها طوراً بصدري فأشتفي ... وأمسحها حيناً بكفي فتعبق
وما زرتها إلا توهمت أنها ... بثوبي من وجدي بها تتعلق
وأحسبها والحجب بيني وبينها ... تعي من وراء الترب قولي فتنطق
وأشعر قلبي اليأس عنها تصبرا ... فيرجع مرتاباً به لا يصدق

هذا شعر صادق الدلالة على الحقائق التي أحاطت بالشاعر وعلى الاحساسات التي اختلجت بها نفسه. قد تكون فيه لمحات من شعر الرثاء في شعر غيره من الشعراء؛ ولكن فيه إلى جانب هذا سر جديد عليك. ذلك ما تدرك من هدوء هذه النفس الثائرة كأنما ترى أرضاً انبسطت ونما فوقها العشب وغشتها الأزاهير، وأنت تسمع من تحتها دوي البراكين وهمهمة الزلازل تغلي في باطنها
ولقد حاولت أن أطلق على هذه الظاهرة العجيبة في شعر الطغرائي اسماً أميزها به، فلم أجد اسماً أطلقه عليها أجدر بها من أن ندعوها (الواقعية الشعرية) فإنها والحق يقال أقرب الأشياء فهماً مما ندعوه (الواقعية في الفلسفة) على أن المقارنة بين

واقعية الشعر وواقعية الفلسفة يحتاج إلى فراغ ليس هذا مكانه، أما إذا أردت أن تقف على طرف مما ذكرت فاقرأ له المقطوعة الآتية:

أقول لِنِضْوي وهو من شجني خلو ... حنانيك قد أدميت كلمي يا نضو
تعالي أقاسمك الهموم لتعلمي ... بأنك مما تشتكي كبدي خلو
تريدين مرعى الريف والبدو أبتغي ... وما يستوي الريف العراقي والبدو
هناك نسيم الريح مثلك لاغبٌ ... ومثلي ماء المزن مورده صَفْو
ومحجوبة لو هبت الريح أرفلت ... إليها الغياري بالعوالي ولم يلْووا
صبوت إليها وهي ممنوعة الحمى ... فحتىَّ مَ أصبو نحو من لالهُ نحو
هوى ليس يسلي القرب عنه ولا إلنَّوَى ... وشجو قديم ليس يشبهه شجو
فأسر ولا فك، ووجد ولا أسىً ... وسقم ولا برء، وسكر ولا صحو
عناء معنى وهو عندي راحة ... وسم زعاف طعمه في فمي حلو
ولولا الهوى ما شاقني لمح بارق ... ولا هدني شجو ولا هزني شدو

إن في هذا الشعر لثورة يخيم عليها هدوء نفسي قلما تأنسه في شاعر غيره. وعندي أن هذه الصفة لم تتجلَّ في شعر الطغرائي بقدر ما تجلت في لاميته المعروفة، وإن لنا لعودة إليها تحلل فيها هذا الشاعر الكبير على ضوء هذه الحقيقة الملموسة في شعره. ولقد يحفزنا إلى درس الطغرائي أنه شاعر فسيح الجوانب مديد الغايات وفي شعره تعلق بأسباب الأدب العالي، وما أحوجنا إلى هذه الأسباب

إسماعيل مظهر

حواء

ديوان شعر طريف في الغزل العرفاني من نظم الأستاذ الحوماني تحت الطبع، تحمل الرسالة منه إلى قرائها عدة نماذج قبل صدوره

!رَبَّ حواء

ربَّ حواَء! حين صوّرتَ حوّا ...َءكَ هل كان قبلها تصويرُ؟؟
والشعورَ اللاتي نشرتَ عليها ... هل طوى الليلَ قبلهن شعور؟؟
والعيون اللاتي شققتَ لها هل ... كان من قبلها عيونٌ حورُ؟؟
أوَهل بعدها يشع على الأح ... داقِ من عالَم الملائك نورُ؟؟
وتُرينا كثغرها وكعيني ... ها السموات أعينٌ وثغورُ؟؟
كُبرت أن تكون قبلاً وبعداً ... والذي خصها بذاك كبيرُ؟
هي بيت القصيد من شعرَك المن ... ظوم والكونُ شعرك المنثور

أنبئيني

أَنبئيني عما يجول بعيني ... كِ وما لا يجول من أسرار
لا بعيني الملأى من النور أشرف ... تُ على كنهها ولا أفكاري //
كلما ضجَّتِ الحقيقة في إذ ... نيَّ أخلدتُ للخيال الساري
وتسنمتُ ذِرْوة الأفق الأع ... لى إلى كل كوكب سيَّار
فأرتني عينايَ أنك في آ ... فاقها بعض هذه الأقمار
وعلى الأرض بعض هذى التماثي ... لِ من الناس أو من الأحجار
وأرتني عيناكِ أنيَ والكو ... نَ غريقانِ منكِ في تيّار

الحوماني

قصة الكلمة المترجمة

(القتل أنفى للقتل)

لأستاذ جليل

تلاقت عبقرية الأستاذ (الرافعي) - رحمه اله - في الأدب وعبقرية الأستاذ (العريان) في الوفاء؛ وأوحت الأولى إلى الثانية (وحيها) فكانت (حياة الرافعي)، أو هذه (المقالات الرافعية) في (الرسالة الغراء) وقد رآها الناس في هذا العام نجوماً، وسيجتلونه بعد حين بدراً بل شمساً ذات أضواء في كتاب. ولم تجتزئ هذه (المقالات) بخيرها العميم وفضلها العظيم - وإنهما لمحسبان - بل جلب الخير خيراً، وساق الفضل فضلاً؛ فقال الأستاذ محمود محمد شاكر (مقالة)، وجادل الأستاذ سيد قطب (جداله)، ولو لم يكن الرافعيُّ قطب أقطاب ما حدَّث عنه قطب. . . وما هذه الأحاديث التي أنصها اليوم في

الرسالة
وُنصَّ الحديثَ إلى أهله ... فإن الوثيقة في نصِّهِ
إلا من إحسان تلك المقالات التي أفضل بها إلى العربية فتى الفتيان وسيد الشبان الأستاذ محمد سعيد العريان
أشار الأستاذ محمد سعيد في (المقالة السابعة والعشرين) من مقالاته الرشيقة الأنيقة الرافعية إلى حكاية الكلمة الفارسية (القتل أنفى للقتل) وإني لأظن أن كثيرين من الأدباء والباحثين يودون أن يعرفوا تلك القصة بكمالها، فهأنذا أحكيها، وسأروي طائفة من الأقوال في الكلمة الفارسية، وقد تقتضي الحال زيادة في هذا القصص للإفادة والتبيين و (الحديث ذو شجون) فأمليها
كتب صاحب (العثرات في اللغة والأدب) في الرابعة والرابعين من (عثراته) في جريدة (كوكب الشرق الغراء) في (7 رجب 1352) كلمة عنوانها (موازنة) قال فيها: (قالت العرب قديماً في معنى القصاص وأنه جُنَّة من العدوان: (القتل أنفى للقتل)، ثم أقبل القرآن الكريم على آثار العرب فقال: (ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب) وقالت: (موازنة العثرات): (هي - أي عبارة القتل - كلمة عربية جاهلية) ثم سطرت شيئاً، محصوله أن الكلمة الفارسية قد فاتت الآية القرآنية
- والمقايسة بين الشيئين قد اختلف أيَّما اختلاف قدْرَاهما وتفاوتن كل التفاوت حالتاهما
تذكرنا بهذه الأملوحة في (عيون الأخبار) لابن قتيبة: (نافر رجل من جَرم رجلاً من الأنصار إلى رجل من قريش، فقال القرشي للجرمي: أبالجاهلية تفاخره أم بالإسلام؟ قال: بالإسلام
قال: كيف تفاخر وهم آووا رسول الله ونصروه حتى أظهر الله الإسلام؟!
(قال الجرمي: فكيف تكون قلة الحياء. . .؟
أفظعت (موازنة العثرات) وارتقت المرتقبون البيان الحق والقول الفصل في ذاك الهزل، فظهرت في جريدة (كوكب الشرق 12 رجب 1352) كلمة عنوانها (قالته الفارسية، وتنكره العربية، القتل أنفى للقتل) أعلن فيها أن هذه المقولة ليست جاهلية ولا عربية ولا مولدة، وأنها مترجمة. ومما قالته الكلمة: (أجل العربية المحكمة المبينة أن تقول هذا القول: (القتل أنفى للقتل) إنها لا تعرفه، إنها تنكره، ولو قالته - وهو يبدو حكمة ومثلاً - لروته رواتها، فلا الميداني صاحب (مجمع الأمثال) عرفه، وقد جمع في كتابه أكثر من ستة آلاف مثل، ولا ابن عبد ربه سمع به، ولو نمى في (الجزيرة) لانتظمته (جوهرة أمثاله) ولا أبو بكر البلاقلاني اشتمل عليه كتابه (إعجاز القرآن) ولا عبد القاهر أشار إليه في (دلائل الإعجاز) ولا (كشاف جار الله) وجدناه فيه. ودع كلام الذائدين عن (الكتاب) في إيراده معزوّاً إلى العرب وما سطروا. إنه قول ما قالته العربية ولا مولدوها، وإنما هو كلام فارسي نقله الناقل - وربما أخطأت الترجمة - ورائحتها فيه تكاد تفوح. ولو قالته العربية ما قالت: (القتل أنفى للقتل) وهي تريد أن القتل يزيل القتل، أو يستأصله أو يفنيه، ونفى القتل لا يبيده، ونفى المجرم القاتل لا يريح الناس منه. . . ومادة (ن. ف. ى) كاشفة ما يلتبس)
وقالت الكلمة: (ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب - قول عربي، قول قرآني لا يستقل بوصفه - إذا احتيج إلى وصفه - إلا بلاغة النبي، بل هو يصف نفسه، ويعلن فضله، وينادي إعجازه على إعجازه و (القتل أنفى للقتل) قول فارسي، نقله مترجم عربي، وفيه ضعف. معناه كريم، ولفظه لئيم، قاله (أردشير) الملك. قال الإمام الثعالبي في (الإيجاز والإعجاز): من أراد أن يعرف جوامع الكلم ويتنبه لفضل الاختصار، ويحيط ببلاغة الإيماء، ويفطن لكفاية الإيجاز - فليتدبر القرآن، وليتأمل علوه على سائر الكلام، فمن ذلك قوله (عز اسمه): ولكم في القصاص حياة. ويحكى عن أردشير الملك ما ترجمه بعض
البلغاء أنه قال: (القتل أنفى للقتل) ففي كلام الله تعالى كل ما في كلام أردشير وزيادة معان حسنة، منها إبانة العدل بذكر القصاص، والإفصاح عن الغرض المطلوب فيه من الحياة، والحثَّ بالرغبة والرهبة على تنفيذ حكم الله والجمع بين القصاص والحياة، والبعد من التكرير الذي يشق على النفس فان في قوله القتل أنفى للقتل (تكريراً، غيرهُ أبلغ منه
وأشارت (الكلمة) في (الكوكب) إلى إيجاز الآية الكريمة وإعجازها، وروت قولاً لصاحب

(دلائل الإعجاز) في (الموازنة بين بعض الآي وبين ما يقوله الناس في معناها) ونقلت كلام (الكشاف) في تلك الآية المعجزة

ثم ظهر مقال بليغ فائق للأستاذ الرافعي (رحمة الله) في جريدة البلاغ (15) رجب سنة 1352 عنوانه (كلمة مؤمنة في رد كلمة كافرة) قال فيه: (لقد تنبأ القاضي الباقلاني قبل مئات السنين بمقالة الكوكب هذى فأسلفها الرد بقوله: فان اشتبه على متأدب أو متشاعر أو ناشئ أو مرمد فصاحة القرآن وموقع بلاغته وعجيب براعته - فما عليك منه، إنما يخبر عن نفسه ويدل على عجزه، ويبين عن جهله، ويصرح بسخافة فهمه وركاكة عقله)

وقال الأستاذ الرافعي (رحمه الله): أنا أقرر أن هذه الكلمة مولدة وضعت بعد نزول القرآن الكريم وأخذت من الآية، والتوليد فيها بيِّن، وأثر الصنعة ظاهر عليها، فعلى الكاتب أن يدفع هذا بما يثبت أنها مما صح نقله عن الجاهلية)

ثم أوضح (رحمه الله) وهن الكلمة الفارسية أيما إيضاح، ثم أبان ببيانه العالي فضائل الآية الكريمة ومما قاله:

(ومن إعجاز هذه اللفظة أنها باختيارها دون كلمة القتل تشير إلى أنه سيأتي في عصور الإنسانية العالمة المتحضرة عصر لا يرى فيه قتل القاتل بجنايته إلا شراً من قتل المقتول، لأن المقتول يهلك بأسباب كثيرة مختلفة على حين أن أخذ القاتل بقتله ليس فيه إلا نية قتله، فعبَّرت الآية باللغة التي تلائم هذا العصر القانوني الفلسفي، وجاءت بالكلمة التي لن تجد في هذه اللغة ما يجزئ عنها في الاتساع لكل ما يراد بها من فلسفة العقوبة)

(إن لفظ (حياة) هو في حقيقته الفلسفية أعم من التعبير (بنفي القتل) لأن نفي القتل إنما هو حياة واحدة، أي ترك الروح في الجسم، فلا يحتمل شيئاً من المعاني السامية وليس فيه غير هذا المعنى الطبيعي الساذج، وتعبير الكلمة العربية عن الحياة (بنفي القتل) تعبير غليظ عامي)

(جعلُ نتيجة القتل حياة من أعجب ما في الشعر، يسمو إلى الغاية من الخيال، ولكن أعجب ما فيه أنه ليس خيالا بل يتحول إلى تعبير علمي يسمو إلى الغاية من الدقة، كأنه يقول بلسان العلم: في نوع من سلب الحياة نوع من إيجاب الحياة)

(فإذا تأملت ما تقدم وأنعمت فيه تحققت أن الآية الكريمة لا يتم إعجازها إلا بما تمت به من قوله (يا أولي الألباب) فهذا نداء عجيب يسجد له من يفهمه إذ هو موجه للعرب في ظاهره على قدر ما بلغوا من معاني اللب، ولكنه في حقيقته موجه لإقامة البرهان على طائفة من فلاسفة القانون والاجتماع هم هؤلاء الذين يرون إجرام المجرم شذوذاً في التركيب العصبي، أو وراثة محتومة، أو حالة نفسية قاهرة إلى ما يجري هذا المجرى، فمن ثم يرون أن لا عقاب على جريمة لأن المجرم عندهم مريض له حكم المرضى، وهذه فلسفة تحتملها الأدمغة والكتب، وهي تحول القلب إلى مصلحة الفرد، وتصرفه عن مصلحة المجتمع، فنبههم الله إلى ألبابهم دون عقولهم كأن يقرر لهم أن حقيقة العلم ليست بالعقل والرأي، بل هي من قبل ذلك باللب والبصيرة، وفلسفة اللب هذه هي آخر ما انتهت إليه فلسفة الدنيا)

(وانتهت الآية بقوله تعالى: (لعلكم تتقون) وهي كلمة من لغة كل زمن، ومعناها في زمننا نحن يا أولي الألباب، أنه برهان الحياة في حكمة القصاص نسوقه لكم، لعلكم تتقون على الحياة الاجتماعية عاقبة خلافه، فاجعلوا وجهتكم إلى وقاية المجتمع لا إلى وقاية الفرد)

هذا بعض ما قاله فقيد العربية الأستاذ الرافعي (رحمه الله وكافأه) ولما اطلع الأستاذ النشاشيبي على هذا المقال البليغ في (البلاغ) بعث إلى هذه الجريدة بكلمة عنوانها: (إنها مترجمة) نشرتها في 19 من رجب 1352 بعد مقدمة منها، ومما جاء في تلك الكلمة: (قال الأديب الكبير الأستاذ مصطفى صادق الرافعي في رده في (البلاغ) على كاتب في (الكوكب): (إن القتل أنفي للقتل مولدة وأنها مأخوذة من آية) ومعاذ الله أن تكون مولدة، وأن تكون قد أخذت من آية، ولو كان ذلك لوجدنا عليها مسحة - وإن قلّت - من الجمال القرآني وهاهي ذي، كما يراها رائيها، لا تكلف أحداً في البشاعة

وصفها فهي ليست بعربية ولا بمولدة، ولم تبصر في يومٍ ضياء القرآن، بل هي مترجمة، وربما أخطأ الناقل في
(الترجمة
(للقصة بقية)
* * *

فلسفة التربية
تطبيقات على التربية في مصر
للأستاذ محمد حسن ظاظا
- 21 -
(يجب أن تكون المدرسة صورة مصغرة للمجتمع المنشود)
(* * *)
(الديمقراطية هي النظام الذي يمكن الجميع من تحقيق أقصى
(مجهوداتهم
(باستور)
(يجب أن تكون أعمال الفرد في الجماعة الديمقراطية شائقة
(جذابة
(وولف)

11 - سبيل الإصلاح

واليوم ماذا أقول؟ لقد عرضت عليك فيما مضى صورة واضحة لشخصية خريج معاهدنا بما فيها من عقل وعاطفة وجسم، وبينت لك أن هذه الشخصية لا تتفق وروح التربية الحديثة في أقل القليل، ولا تصلح لأن تحقق آمال الوطن في صون الاستقلال وتزعم الشرق وإحياء المجد القديم! فلم يبق اليوم إلا أن أسير معك إلى طريق الإصلاح علنا نصيب هنالك شيئا:

1 - مجلس أعلى للتربية والتعليم

وكثيراً ما تناولت الصحف أمر هذا المجلس بالحديث، ولكن قليلاً ما عنيت الحكومة به وأخرجته إلى حيز الوجود! وأنت لا تكاد تجد دولة راقية بغير هذا المجلس الخطير، ولا تستطيع أن تتصور اتزاناً واستقراراً في ناحية البرامج المدرسية إلا إذا كان مصدر هذه البرامج لجنة فنية راقية ثابتة تمثل جميع الهيئات المتصلة بنواحي التعليم كالمدرسين والنظار، وعمداء الكليات ورؤساء النقابات، ورجال الأعمال وزعماء الأحزاب والأديان؛ فإذا ما أوجدنا مثل هذا المجلس أمكننا أن نوفق بين تجارب المدرسين والنظار ورؤساء الأعمال، وبين الخطط الدراسية والمناهج التعليمية وحاجات البلاد، وبذلك تكون لدينا غاية معلومة لها فلسفتها الخاصة، وخطة مرسومة توصل إلى هذه الغاية، واستقرار دائم يساعد على إحكام التجارب ويغذي مختلف النواحي بما يحقق نجاحها المنشود! أما الاقتصار على عدة لجان تمحو اليوم ما قررته بالأمس، وتسير بالسياسة العامة للتربية على غير هدى من التجارب الكافية أو الغايات الاجتماعية والاقتصادية والفنية المختلفة، فذلك كما ترى فصل بين المدارس والمجتمع، وإغفال لأسس وطيدة لا سبيل إلى النجاح والاستقرار بدونها

فترى هل يعمل معالي الوزير الحالي على تكوين هذا المجلس بعد أن توانى في تكوينه الوزراء السابقون؟ أملنا في معاليه كبير!

2 - قضية المعلمين

وأحسب أن أول ما يجب أن ينظر فيه هذا المجلس هو قضية المعلمين. وذلك أنك قد علمت فيما مضى أنهم اليد العاملة في تكوين النشء المموقين، وأن عدم التدقيق في اختيارهم، وعدم إنصافهم في أجورهم وترقياتهم وأعمالهم، كل ذلك قد جعلهم متذمرين من مهنتهم، ناقمين على القدر الذي ابتلاهم بها، مؤدين لها أداء ناقصاً مشوهاً لا يكاد يتفق في الكثير من الأحيان مع تلك الأصول النظرية العامة التي درسوها في مدارس المعلمين ومعاهد التربية! لذلك يجب أن تعمل الدولة على مساواتهم بطوائف القضاة والأطباء والمهندسين؛ ويجب أن تقلل جهد المستطاع من عملهم الشاق العسير؛ ويجب أن تحذف من حياتهم تلك الأعمال الكتابية الآلية التي تمطرهم بها إدارة المدرسة مراراً أثناء العام الواحد!، ويجب أن تشركهم إشراكا فعلياً في وضع

المناهج واختيار الكتب، ويجب أخيراً أن تصغي لاقتراحاتهم كما تصغي لرجال الطب أو القانون!

أما المعلمون فيجب أن يتحدوا وينظموا أنفسهم تنظيماً يعلي من شأنهم الأدبي والمادي ويرفع من قدر مهنتهم في عين الحكومة والشعب، كما يجب أن يحرصوا دائماً على التحلي

بتلك (الشخصية الفنية) التي تنشدها الحياة الحديثة منهم كمثقفين بوجه عام وكمربين على وجه الخصوص!

3 - مكافحة الأمية وتعميم التعليم الإلزامي

ويلي ذلك في الخطورة أو يعادله مكافحة الأمية وتعميم التعليم الإلزامي ومادمنا ننشد نهضة حقيقية قوامها الحياة الديمقراطية الصحيحة. ذلك أنه لا سبيل مطلقاً إلى الرقي المنشود إلا إذا تبدد ظلام الجهل وغدا الشعب مستنير العقل قوي الخلق مفتحة أمام ذكائه أبواب النشاط دون ما فارق بين غنى وفقير!، وإذا كانت الحكومة قد بدأت تفكر جدياً في مكافحة الأمية فإن التعلم الإلزامي ما يزال في حاجة قصوى إلى الدعاية والمرونة والتعديل والإصلاح على النحو الذي بسطناه من قبل عندما كنا نوجز آراء الدكتور جاكسون في الموضوع

4 - التعليم الحر

ولما كان التعليم الحر يقوم بنفس الوظيفة التي تقوم بها مدارس الحكومة فان العناية به، والتدقيق في الإشراف على رجاله، والإمساك عن صرف الإعانات للذين يستطيعون أن يستغنوا عنها تماماً بمصروفات التلاميذ، أو للذين لا يستحقون منها شيئاً لأنهم محتالون أو شبه محتالين! ثم الحرص على تسليحه بالمدرس الفني الكفء عن طريق إعداد أكبر عدد من المدرسين في معهد التربية بأقصى ما يمكن من سرعة، كل ذلك يجب أن تحققه الحكومة في القريب العاجل حتى لا يكون هناك وجود لمدارس تسيطر عليها الفوضى ويشيع فيها الحشو التافه والإعداد السقيم!

5 - توحيد الثقافة:

ولما كان تباعد العقليات في أبناء الأمة الواحدة يقسم الشعب إلى قسمين ويعرقل بذلك عملية الإصلاح والتجديد، فالواجب هو المبادرة بتوحيد الثقافة على قدر المستطاع كيما يكون التفكير متحدا والقلب مشتركا والتقدم متجانسا لا تخَلف فيه! على أنه يجب أن نحرص في ذلك التوحيد على طابعنا المصري دون أن نتعسف في الجري وراء كل جديد أو في التمسك بكل قديم!!

6 - خطة الدراسة:

أما خطة الدراسة ذاتها فيجب أن تتغير وتتطور حسبما تتطلب النتائج الباهرة التي تمخضت عنها طرق التربية الحديثة كطريقة (المشروعات) أو طريقة (دالتن)؛ وقوام الطريقة الأولى هو جعل الدراسة علمية تجريبية ترتبط فيها المواد ارتباطا معقولا، ويقوم الطلبة بدراستها كما لو كانوا يتعاونون معا في دراسة مشروع ما تحت إرشاد مرب حكيم؛ وقوام الطريقة الثانية هو الاعتراف (بفردية) الناشئ وتعويده على الدراسة الشخصية، وفتح المجال أمام ملكاته وقواه كيما يصير في طريقه الخاص مستنيرا بإرشاد صديق قدير هو الأستاذ العزيز!! هذا إلى أنه ينبغي كذلك أن نحرص على دراسة ميول الطلبة وعلى توجيههم توجيهاً سليماً بفحص ذكائهم، وكشف استعداداتهم، وإسداء مختلف النصح لهم ولذويهم كيما يدرسوا وينبغوا ويوفقوا في حياتهم الخاصة والعامة توفيقا سعيداً؛ أما حشد الطلبة في الفصول دون التفريق بين ذكيهم وغبيهم، وضبهم جميعاً في قالب واحد تنمحي فيه شخصياتهم، وتيسير العلم لهم وحشوه في أدمغتهم على نحو يشل فكرهم ويميت حماسهم وشعورهم، ثم جعل نظام المدرسة بعد هذا آليا لا وجود فيه للواجب والمسئولية والديمقراطية، فذلك كما تري أسوأ ما يمكن أن يتصور في هذه الأيام التي تقدمت فيها بحوث التربية وعلم النفس تقدما عظيما، والتي يدوي صوت رجال التربية والاجتماع بضرورة جعل المدرسة صورة مصغرة للمجتمع البشري في تطوره وتجدده وعلاقات أفراده بعضهم ببعض وبالدولة!

7 - مراعاة حاجات البلاد:

وينبغي بعد هذا أن نعمل مراعاة على مراعاة حاجة البلاد من الخريجين في مختلف نواحي النشاط المختلفة حتى لا نقع فيما نحن فيه الآن من أزمة المتعلمين العاطلين.

وذلك بتحديد عدد المقبولين في المدارس الفنية المختلفة حسبما تتطلب الحاجة المستنيرة بحقائق الإحصاء الماضي والحاضر، وحسبما تدل دراسة ميول المتقدمين الحقيقية واستعداداتهم. أما ترك الأمر فوضى وقبول الطلبة في كليات الطب والعلوم والزراعة والتجارة تبعاً لارتفاع (مجموعهم) أو انخفاضه فذلك كما ترى السبب في قلة التبريز عندنا وكثرة العاطلين.

8 - الامتحانات

ويتبقى أيضاً أن نغير نظام الامتحان عندنا تغيراً شديداً لأنه بصورته الحالية لا يدل على كفاية الطالب العقلية فضلاً عن الخلقية والذوقية، ولا يفعل أكثر من تحويل نظام الدراسة إلى عملية (حشو) هائلة لا نظام فيها ولا هضم! وحسبك أن ترجع لأقوال العلماء الكثيرين في ذلك الموضوع لترضى بما أقول، وحسبك أن تقرأ اقتراحاتهم بشأن هذا التغيير لتعتقد أنه ينبغي لنا أن نهدمه هدماً!

9 - تشجيع الخريجين

ثم لا نستطيع أن نختم القول دون الإشارة إلى وجوب تشجيع الخريجين على الحياة العلمية والعملية بتقديم الأعمال التي تساعدهم على تلك الحياة كما قد بسطت ذلك بإسهاب من قبل

10 - التربية الخلقية والدينية

كما لا نستطيع أن نختمه دون التنبيه على وجوب جعل التربية الخلقية والدينية أساسية ولا سيما في مرحلتي التعلم الابتدائي والثانوي. وسبيل ذلك هو إدخال الدين في الدراسة إلى جانب الأخلاق وجعل التقدير الخلقي جوهرياً في النجاح أو الرسوب لا مجرد شكليات وقشور!

11 - التاريخ والجغرافيا

وأخيراً ينبغي أن نعني في الثقافة العامة بجعل تاريخ مصر وجغرافيته محوراً لتاريخ العالم وجغرافيته. كما ينبغي أن نعني بإبراز أجمل عصورنا إبرازاً تاماً، وبتكوين العاطفة الوطنية المتأججة في قلوب النشء كيما نجد (رجالاً) يعيشون من أجل الوطن وفي سبيله يموتون!!

وبعد فتلك نظرة عاجلة في فلسفة التربية النظرية والعملية قد طبقتها على تربيتنا تطبيقاً سريعاً حال وقتي الضيق دون توفية حقه من البحث والتفصيل، فلعي قد وُفقت ولو إلى حد التنبيه فحسب! ولعلك قد استطعت أن تلحظ مجمل نزعتي العامة من هذا المقال ومن المقالات الكثيرة التي سبقته، ثم لعلك قد سئمت هذه الدائرة وتريد مني دائرة أخرى، فإلى اللقاء إذا حيث أحدثك عن شيء آخر، ولك و (للرسالة الغراء) وافر الشكر وعاطر التحية

محمد حسن ظاظا

بين الغرب والشرق

للدكتور إسماعيل أحمد أدهم

- 1 -

إن العقلية الغربية هي العقلية التي تتسق وحاجات هذه الحياة الدنيا. ونحن نتبع وحي) هذه العقلية بحكم أننا وجدنا في هذه الحياة الدنيا. أما العقلية الشرقية فتلائم الحياة الباقية، فإذا انتقلنا إلى الأخر فهنالك نتبع وحي هذه العقلية(

هابل آدم

قرأت ما كتبه صديقي الأديب النابغة فليكس فارس في عدد الرسالة السالف في موضوع الشرق والغرب؛ وكان حرَّيا بي ألا أرد على ما يكتبه صديقي ومناظري من ردَّ لآرائي التي سبق أن أدليت بها في مناظرتي معه منذ عام أو أكثر من على منبر جمعية الشبان المسيحية بالإسكندرية والتي نشرتها في وقتها (المجلة الجديدة)، لأني أعتقد أني في حينها أعقبت عليها بما رأيت فيه الكفاية لإثبات وجهة نظري في الموضوع. ولكن مناظري وقد أخذ من ردَّه على مل رآه اليوم ذا صلة وثيقة بذلك الحديث الذي أجراه الأستاذ الكبير توفيق الحكيم على لسان الروسي والمصري حول الشرق والغرب في روايته (عصفور من الشرق) التي صدرت خلال الشهر الماضي. ولقد أثار الأستاذ فليكس فارس في مقاله مسائل أعتقد أني بينت زعمها ومجانبتها لحقائق الأمور في تعقيبي عليه، لهذا عمدت بدوري إلى تعقيبي على رد مناظري الأستاذ

فارس لآخذ منه ما يدفع آراءه التي يؤيد بها اليوم إيمانه بتفوق ثقافة الشرق
لكل شعب في العالم تراثه التقليدي الذي خرج به من ماضيه، والذي يحف به في
حاضره، والذي يكمن فيه مقدمات مستقبله - تلك التي نطلق عليها اصطلاح (روح
الأمة) - وهو الذي يربط ماضي جماعة من الجماعات بحاضرها ويمضي بها إلى
مستقبلها. ومصر لم تخرج عن كونها مجتمعاً استوحى روح الشرق عصوراً متطاولة
وخرج ككل أمة بثقافة تقليدية كونها على مدى تاريخه الطويل. وإن وقف مجتمع مصر
اليوم من سير الزمن يطل على حاضر افتقدت فيه عناصر الحيوية في ثقافته
التقليدية، تلك الثقافة التي كوَّنتها مصر بما ورثته عن أسلافها الفراعنة في أصول الفن
الفرعوني القديم ومظاهر الحياة المعاشية
التي ترتكز عليها حياتها الاجتماعية. ويكفينا للتثبت من هذه الحقيقة أن نلقي نظرة
على الملايين العديدة التي تنزل ريف مصر والتي تنتشر على ضفتي النيل من الشلال
حتى البحر الأبيض المتوسط، في حياتها المعاشية التي يرتكز عليها المجتمع المصري،
وأن نرجع ببصرنا إلى الماضي بعدئذ مستمدين من النقوش التي قرأت على الآثار
والهياكل والتي انبثت على جنبات الوادي في مصر، ومن الكتابات التي خطت على
أوراق البردي والتي صورت حياة المصريين في العهد الفرعوني، لنخرج بصورة تمثل
وحدة الحياة المعاشية في مصر من عهد الفراعنة إلى يومنا هذا. وذلك راجع إلى أن
الحياة المعاشية صورة من احتياجات البيئة التي يعيش فيها الإنسان؛ والبيئة واحتياجاتها
لا تزال على وتيرتها الأولى في ريف مصر حيث ينزل معظم أبناء مصر. خذ إلى جانب
ذلك منطق التفكير وأسلوب الصياغة، وأعني بذلك اللغة من حيث هي صوغ المعاني،
والدين، مما اكتسبته مصر من العرب فكان ركناً من أركان الثقافة التقليدية لمصر.
ولقد اختلطت هاتان الثقافتان، الفرعونية من جانب والعربية من جانب، فكان من ذلك
مزيج. ذلك ما نعبر عنه بالثقافة التقليدية لمصر منذ أيام الفتح العربي
أما ما أثاره مناظري الأديب فليكس فارس من اعتراض على قولي إن الحياة
المعاشية التي يحياها المصري الآن تجري على غرار ما كان يحياه أسلافه الفراعنة
بقوله وأنا لا أرى في حياة المصريين اليوم أثراً من الحضارة الفرعونية لا في الحياة
العملية ويعني بذلك المعاشية ولا في الحياة الأدبية، فإنني لا أجد صعوبة في دفع
اعتراضه فأقول وأنا أرى في حياة المصريين اليوم أثراً من الحضارة الفرعونية في
حياة الشعب المعاشية!!
وأظن أن إثارة الاعتراضات ودفع الاعتراضات لا يقوم على مجرد القول بأني أرى أو لا
أرى، إنما تقوم على البحث والتحليل والنقد المستقصي. فإذا قلت إني لا أرى بي
حاجة لدفع اعتراض مناظري، فذلك واضح لأنه لن يأت بأكثر من قوله إني لا أرى!
ومع ذلك أحب أن ألفت نظر مناظري إلى أصول الري عند الفلاح المصري ونظام
معيشته ومسكنه الريفي وجلبابه الأزرق وعاداته وتواكله وانصرافه عن كل شيء
لقطعة الأرض التي يزرعها، الشيء الذي لم يتغير في مصر منذ سبعة آلاف سنة مما
يتضح للباحث من ابسط مقارنة بين فلاح اليوم في مصر الحديثة وفلاح الأمس البعيد
في مصر الفرعونية،
الشيء الذي يثبت أن الثقافة التقليدية تقوم على أساس من الفرعونية من ناحيتها
المعاشية؛ وإذ قلت الفرعونية فإنما أعني أن وحدة الحياة المعاشية تتماشى في ثقافة
المصريين التقليدية حتى العهد الفرعوني.
إذا صحّ هذا، فكأن الثقافة التقليدية لمصر من ناحيتها المعاشية فرعونية، أما من
ناحيتها العقلية فهي فرعونية تكيفت تبعاً لها الثقافة العربية تكيفاً يتلاءم وما تحتاج إليه
الثقافة الفرعونية في عهد الحكم الروماني من ملابسات لتجاري فن الحياة في ذلك
العصر. ومن هنا قامت أو قل استمدت اللغة العربية في مصر قدرتها على صوغ
المعاني بما يتكافأ ومحيط مصر، فكانت اللغة العامية في مصر، وهي في الحقيقة
الفرعونية الآخذة بأسباب التعرّب، ثم كان الدين الإسلامي ومنطق التفكير مما يتكافأ
الطبيعة المصرية الفرعونية، وهذا ما يثبته دخول الكثير من عادات وتقاليد المصريين
في تضاعيف العقيدة الدينية. يقول الدكتور سليم حسن بك عالم الآثار المعروف:
إن كل ما كان يحرزه المصري القديم من عادات وفن ودين إلى عصر الفتح الإسلامي)
قد سلمه برمته إلى مصر الإسلامية، اللهم إلاّ اللغة والدين - على أن الأولى بقيت على

قيد الحياة وأثرت في اللغة العربية في مصر إلى أن اندثرت في القرن السابع عشر وأقصد بذلك اللغة القبطية. أما الدين المصري القديم فقد ظهر عله الدين المسيحي ثم الإسلامي لفظا وشكلاً. والواقع أن معظم الطقوس الدينية في مصر الحديثة ترجع وأنت ترى أن (في أصلها إلى مصر القديمة وهي تعد في الدين الإسلامي بدعاً الأخصائيين في مصر الفرعونية يحكمون لنا في قضيتنا أن ثقافة مصر العقلية التقليدية فرعونية الأصل تكيفت تبعاً للثقافة التقليدية العربية تكيفاً يتلاءم وما تحتاج إليه الثقافة الفرعونية من ملابسات لتجاري فن الحياة في عصر الفتح الإسلامي

وهذه الثقافة التقليدية التي تتماثل صورها في سريرة كل مصري هي قرارة الذهنية المصرية. ولا يمكن أن تتقطع أوصال هذه العقلية من حيث هي تنزل عند حكم فطرة الشعب ما لم يهتز لذلك المجتمع المصري هزًّا عنيفاً ويدلف إلى حياة جديدة تتقطع معها أحكام البيئة والمحيط التي احتضنت ثقافة مصر التقليدية نتيجة لتكافئها معها. وما دامت لم تفز مصر بثقافة جديدة تهز المجتمع المصري في صميمه، فليس هنالك سبيل لتقطع ثقافة

مصر التقليدية.

إذن فلنصرف الكلام عن ذلك ولنبحث في هل هنالك من سبيل لتلقيح الثقافة التقليدية لمصر بعناصر أجنبية تبعث فيها النشاط وتدفعها لآفاق جديدة تتفق وحالات هذا العصر. وإذن يكون موضوع الخلاف الأساسي بيني وبين مناظري: هل من الخير لمصر أن تلقح ثقافتها التقليدية بعناصر من الثقافة الغربية لتساير مجرى الحياة، أم تمضي في أخذها عن الثقافة الشرقية؟

هذا هو موضوع الخلاف بين الشرق والغرب بالنسبة لمصر، وإذا قلت مصر، فإنما أعني مصر وحدها، لأن لمصر ثقافتها التقليدية التي تباين ثقافة السوريين التقليدية أو ثقافة اللبنانيين التقليدية، وما ينجح لمصر قد لا ينجح لغيرها

أما وقد وصلنا من البحث إلى هذا الحدّ، فلننظر قليلا في بحث معنى الثقافة، لأني أتبين خلافاً خطيراً بيني وبين مناظري في مفهوم الثقافة والعلم

وإني لأشعر قبل أن أدلف إلى أغوار البحث بخطورة ما سأدلي به، ذلك لأني أجد التفرقة بين العلم الوضعي والثقافة اعتبارياً. وإن كانت صيغة العلم موضوعية وصيغة الثقافة تتسم بطباع الذاتية. ذلك لأنه لا يمكن في عالمنا الحاضر التفرقة بين الثقافة والعلم، لأن الأولى نتيجة للثاني، وليس ذلك نتيجة لاغترار ذهني، وإنما نتيجة للنظر في مجتمعنا الراهن حيث يَسُود العلم الوضعي كل شيء، وينزل المنطق العلمي البحت أساساً لكل شيء. فان الحضارة الراهنة. . . الآلية بصورها المادية نتيجة لاستخدام المنطق العلمي في استغلال الطبيعة لصالح الإنسان، وكانت نتيجة استخدام المنطق العلمي أن نشأت حضارة تغلبها النزعة المادية تنزل منها ثقافتنا العصرية منزلة التاج، ولا يمكن لمجتمع أن يأخذ من العلم الوضعي نتائجه فيستخدمها دون أن يأخذ منطقه الذي يؤدي إلى هذه النتائج إلا ويكون عالة على الإنسانية. وارفع مثال ذلك اليابان التي ضربت بها مثلاً على أن أمة من الأمم لا تأخذ بالثقافة الغربية إلا وتنهض، فان اليابان ما نهضت إلا بأخذ الآلة والآلة فقط، ولذلك كان نهوضها آلياً لأنها لم تأخذ منطق التفكير الأوربي نتيجة لاحتفاظها بشرقيتها ومنطق تفكيرها التقليدي. وهذه حقيقة كبرى كما يقول مناظري، ولكن تقوم برهاناً على صحة كلامي، فاليابان اليوم عائشة عالة على أوربا وعلم أوربا، لأنها لم تأخذ علم أوربا ومنطق

تفكير أوربا، فكان نجاحها وقفاً على الآلة التي استعبدت أهلها فعاشوا ثمانين مليوناً من البشر في مرتبة أحط من السوائم والحيوانات إذ لم يرتفعوا إلى مرتبة الشعور بالحياة الإنسانية وكرامتها والنضال من أجلها كما هو الحال في أوربا حيث يعمل العامل للتحرير من استعباد الآلة

أظن أني خرجت عن الموضوع

إن ثقافة اليوم من حيث أنها تتبع العلم لا يمكن تخليصها من آثار العلم، والثقافة الأدبية يغزوها اليوم العلم بمنهجه الصارم ومنطقه، فمن الخطأ أن نفرق بين الثقافة من حيث أنها نتيجة معاشية وأسلوب في الحياة وبين العلم ومنطقه وهي أداة اليوم للعيش والحياة

إن الفرق بين الشرق والغرب ينحصر في هذا وحده: الغرب يقيم الحياة على أساس

إنساني ويترك للعلم أن ينظم الصلات الإنسانية بين البشر؛ والشرق يقيم الحياة على أساس غيبي ويترك للغيبيات تنظيم الصلات بين البشر. الغرب يقيم حياته على أساس من التفكير في إيجاد التكافؤ بين حاجاته ومحيطه مستخدماً في ذلك العلم؛ والشرق يقيم حياته على أساس من التواكل. ولهذا لما أخذت اليابان الآلة لم تعمل على إيجاد التكافؤ بين الحياة الجديدة التي دلف إليها اليابانيون وبين حاجات هذه الحياة الجديدة، لأن التواكل هنالك يقوم مقام العمل والتفكير، فكانت نتيجة ذلك أن استعبدت الآلة أهل اليابان

لا أرغب في التوسع أكثر من هذا في هذا الموضوع الآن

في ضوء ما قدمت يفهم معنى عبارتي: (للشرق روحه الذي يستوحيه أبناؤه نزولاً على فطرتهم، وللغرب منطقه الذي يستنير به أفراده نزولاً على وحي مشاعرهم)، تلك العبارة التي جعلت مناظري يستغرب مقالي لأن فيه حصراً للمنطق في الغرب. وفي الواقع ما هو حصر للمنطق فيهم، ولكن شاء الشرقيون أن يحصروه فيهم متبعة لدعوات خطيرة مثل التي يقوم بها اليوم الأستاذ فليكس فارس!

المنطق مشاع بين الأمم، ولكن يجب أن تمرن الأمم عليه قبل أن تصبح متغلغلة في تفكيرها، إذ ليس المنطق أسلوباً في التفكير يتبع وأقيسة يجري عليها، إنما هي قبل هذا كله ميل عقلي واتجاه ذهني يمكن أن يكتسب

أما قول مناظري (وما اخترع الغرب المنطق ولا هو أوجد التفكير العلمي) فذلك مجانب

للحقائق المعروفة في التاريخ من أن الإغريق هم أول من عرفوا المنطق وأوجدوا التفكير العلمي وعنهم أخذ العالم المنطق. ولا أظن أن هذا موضع نقاش، وإنما يظهر أن الروح الشعرية تغلب مناظري فتجعله يتناسى كل حقائق العالم!

أقف عند هذا الحد في هذا المقال في دفع اعتراضات مناظري الأستاذ فليكس فارس، ولنا في المقال الثاني عودة لموضوع الثقافة والعلم وثقافة العرب وثقافة الغرب وأنتهز هذه الفرصة لأدعو أنصار الثقافة الغربية للكتابة في موضوع الأخذ بثقافة الغرب لهذا الشرق النائم، وفي مقدمة هؤلاء أدعو صديقي الدكتور حسين فوزي صاحب (سندباد عصري) أن يبدي آراءه بصراحة في الموضوع، ولعل في هذا النقاش يكون الحد الفاصل بين القول بالشرق والغرب!

إسماعيل أحمد أدهم

صحيفة أدب وأخلاق

عطفة القاياتي

للأستاذ حسن القاياتي

بقية ما نشر في العدد الماضي

إنا ليملكنا الزهو باطلا بالكمالي البحت من ابتناء الضخم وإصلاح الطرقات ولا نعمل على الحاجى الحتم من ابتناء النشء وإصلاح العقول، ولولا النبل في بناة الأهرام لما فخرنا بالأهرام

يبني الرجالَ وغيره يبني القرى ... شتان بين قرى وبين رجال

ما أبين الرياء الخلقي والاجتماعي فينا! هذه حالنا من القذر الجسماني والمنزلي والشعبي لا ما تسمع أيها القارئ، بل ما تشهد وما تلمس لا ما تحدث. وقد حدثني ناظر أولي أن طبيب مدرسته رأى إحدى النافذات في المدرسة بدون أسلاكها الدقيقة فغضب لصحة التلاميذ غضبة كادت تعطل الدراسة لولا توسل صاحب المدرسة إليه واستخذاؤه

إنا لأمة لا قوام لأمرنا ولا اعتدال، فينا ينبت نشؤُنا على المذابل وشواطئ المستنقعات، ولا يقنعنا الصلف أن يدرس هذا النشء إلا في الروضات والجنات! ونحن أناس لا توسط بيننا ... لنا الصدد دون العالمين أو القبر

أما وقد أجرت كلمتنا حديث الحمامات القديمة فطالما عرفتنا وعرفناها كما عرف العصريون حماماتهم وعرفتهم. دخلنا نحن حماماتنا قديماً وآنفاً ودخل العصريون حماماتهم، وتجردنا لها داخلين وتجردوا داخلين إليها وخارجين، ودخلناها جنساً واحداً ودخلوها ومعهم الجنس اللطيف، فان تصعَّد في حمامنا نَفَس أو ندِىَ جبين فإنما يتصعد النفس أو يندي الجبين في الحمامات العصرية من بعض ما تجد أصحابنا من حرقة

على الحسن المتجرد السليب أو غضاضة على الحسن
ما أفتن الحمامات في مصر، أندية ترفيه، ومجالي نعمة وغضارة! بل مبتعث حكمة آونة وعظة، يقبل عليها شيع متباينة من الناس حتى إذا نكَّرهم في صورهم التجرد من الثياب وهي مظهر الجلال الزائف، نكرهم في نفسياتهم وطبقاتهم فلا يستبين للناظر المتوسم فيهم
أيهم السيد السريّ، وأيهم السوقي الزرى، ومن العالم الخطير والعامي القَدْم؟ فربما شهد رجلاً عليه مسحة من طراوة العيش وبضاضة المتجرَّد، وشهد آخر تعلوه طبقة من التقشف والشحوب وفقد التطرية والنضرة، فأقبل يحسب ذاك سيداً ضخماً من رجالات الشعب ويعتبر هذا رجلا من عرض الجماهير أي رجل هذا، حتى إذا أفضت بهم خاتمة المطاف إلى ملابسهم ورجع كل مستحم إلى ثيابه وحليته فشد ما يهول هذا المتوسم بل يملأ فمه ابتسامة من أمر صاحبيه أن أمثلهما في حكم نظره وتوسمه حوذي أو سائس بغل أو قرد، وأن ثانيهما الزَّرى عنده سيد نبيل من تقتدي بهم الأمم وتحاضر الملوك
ترى الرجل النحيف فتزدريه ... وفي أثوابه أسد هصور
ويعجبك الطرير فتبتليه ... فيخلف ظنك الرجل الطرير
أكبر اليقين لا الظن أن الله ينظر إلى خلقه كنظرتك إليهم في حمامهم مجردين من كل عظمتهم المصنوعة الساحرة، أنبلهم عنده أنبلهم نفساً لا ثوباً
أجل. إن الحمامات هذه خليقة بأن تُجدَّ لنا هذه الحكمة والعظمة:
إذا أنت وزنت الرجال وقدرتهم فانظر إليهم مجردين من كل مظاهرهم الخداعة كما تنظرهم في حمامهم، ثم ليكن قضاؤك على الألباب لا الثياب
ناهيك من الحمام بيت فخم أنيق يقطر بنضرة ورفاهية كما يقطر بماء وحرارة، ويتنفس بدفء وفتور ساحر معجب كأنه فتور الجفون كله حسن وطلاوة وتنهدات كتنهدات الصبابة بيد أنها برد وغبطة، ذلك إلى ما في سجيته من إرسال النفوس على السجية والتحلل ساعة من قيود الكلفة والتعمل الاجتماعي وخلع شيء من التوقر القائل في خلع الأثواب إلى ما فيه من سويّة في المكانة وأسوة بين الطبقات
بيد أن حمامنا القديم ربما تكشف عن هنات شائنة لو تجرد منها لكان نعيماً دنيوياً. وأناشدك الله أيها القارئ ماذا أنت قائل إلاَّ الشر في ذلك البخور الكريمة البغيض الذي يحرقونه أو يطلقونه كما يقولون ليطير الأرواح الخبيثة وقد شهد الله أنه من بغضه وكراهيته خليق بأن يطير الأرواح الطيبة قبل الخبيثة
ليس يَقَرُّ بعيني عصري متأنق صقلته الحاضرة أن يشهد في جنبات الحمام هذه الصراصر والحشرات سباحة حواليه تقذي بها عينه، ولا يطيب قلب هذا المتحضر أن يتولى نظافته
وصقله شيخ متوقر أشمط اللحية فيمتهن جلال هذه السن أو يذكر به جده الأعلى فيغضي على استحياء
ضحوا بأشمط عنوان السجود به ... يقطع الليل تسبيحاً وقرآناً
حدثني أزهري عصري النزعة حلو الفكاهة حار النادرة قال: دخلت الحمام فاستدعيت الخادم (صاحب الكيس) فأقبل عليّ شيخ أشيب دالف يحبو إلى التسعين ذكرت به جدي الأعلى، فلما دنا مني ليأخذ في مهنته جعلت أقطع النظر بينه وبين صورة في نفسي لأستاذي العالم في الأزهر أستاذ البلاغة، فإن عليه مسحة منه أبْيَنُها هذه اللحية المسترخية؛ ثم تقبلت خدمته على تكرُّه ومضض، وقد رمت رأسي بالإطراف وكسر الجفون ذكرى جدي الأعلى وتشابه شيخي الأكبر. قال محدثي الرقيق: لم أكد أتعرف حاجة للحمامات بخدمة هؤلاء الشيوخ الفانين خاصة وهذه اللحى المسترسلة حتى ابتدرت نظرة إلى ساحة الحمام فإذا الصراصر تمرح فيها فقلت: لقد علمت الآن: هذه المكانس لهذه الحشرات
ولحية يحملها مائق ... مثل الشراعين إذا أشرعا
لو غاص في البحر بها غوصة ... صاد بها حيتانه أجمعا
حُبَّبَ إلى راقصة فنانة بعيدة مسرى الصيت من معبودات الجماهير كما يقولون أن تزور حمامنا هذا فكان لها ما تشهَّت من تلك الزورة، فلما قضت منه كل حاجة خرجت إلى الطريق، وكان قد تسمع إلى خبر زورتها هذه فصائل من ولدان الحارة ونشئها

الصغار يحبوا أكبرهم إلى العاشرة، فلم تكد الفنانة تبدو خارجة من الحمام حتى تلقوها بالتحية فاصطفوا فريقين، قطعة هنا وقطعة هناك، وقد احتملوا بأيديهم الشموع موقدة تزهر نهاراً يحتفلون للزائرة المفداة، وأقبلت هي بسامة الثغر مزهوة تخطر كخطراتها على المسرح بين صفي نور وإجلال

ولقد تقضي زمن بعيد من لدن هذه الذكرى وما يتقضى العجب منها، أتساءل: هل استخف الصبية لتحية هذه الفنانة نباهتها، إذن فليس العجب أن تسحرهم النباهة وقد سحرت آباءهم من قبل، إن النباهة لسحَّارة، وإن كانوا إنما احتفلوا لحسن في الراقصة وفن، فما أبدع أن ترف حتى القلوب الطفلة على الحسن والفن

ومشبه بالغصن قلبي ... لا يزال عليه طائر

إن الحمامات قطعة من التاريخ القديم، إن تعهدها العصر بالتطرية والصقل كانت قطعة من النعيم:

وحمام دخلناه لأمر ... حكى صَقَراً وفيه المجرمونا

فيصطرخون فيه أخرجونا ... فان عدنا فإنا ظالمونا

هذا عهد للعطفة، ولقد تصرَّم قبله عهد كانت تشهد فيه حياة شيخ معهم من كُشَّاف الغيب طلائع المستقبل، شرَّق اسمه وغرَّب؛ وجاء الثناء على حذقة بالغيب من كل لغة ومنطق، يفضي إليه الناس كافة من شرقي وغربي، سيان في قصده حملة العمائم وحملة القبعات، أهل فينا عنده وباريس، كأهل أدفينا وسنتريس

كنا نشهد الباريسية المتحضرة الجامعية إلى جانب القروية المصرية داخلتين إلى الشيخ تستقرئانه رسالة المغيَّب فنقول: آمنا بالله! ما أشبه الناس بالناس! وما أقرب العلم من الجهل إذا تبرأ من العقل!

كان (السيد رمضان) صاحب ذلك البيت المتصدر نضر الله مثواه طليعة وعيناً على الغيوب والخفيات قلما تشهد في فصيلة الشيوخ والمعممين شيخاً مثله حلاوة شمائل ورقة هندام، ذلك إلى أنه كان قراره مزايا وملتقى خلال حسنه قلما تتهيأ لسيد غيره إلا بتوفيق من الله

كان السيد رمضان يحمل نفسا طروبا مرحة وأذنا موسيقية، صَناَع اللسان صَناَع اليد بالبيان العربي الساحر والتغني ونقر الأعواد والموسيقيات، كما هو صناع اللب بتكشيف المحجبات والخفايا، إذا جس أوتاره لمس بها القلوب، كما يلمس بأسراره الغيوب

فلما عبثن بأوتارهن ... قبيل التبلج أيقظنني

دعون هناك بأعوادهن ... فأصلحنهن وأفسدنني

شدَّ ما حفلت دار هذا المتجسس على الغيب في (ليالي حضراته) حتى فاضت بجمهرة ضخمة من العلية والسوقيين معا، وأمتها لأجلهم صفوة شائقة من نابغة المطربين في الشق كله. ناهيك منها (يوسف) و (عبده) و (عثمان) و (صالح العربي) وأين عهد صالح؟؟؟ فمن دون هؤلاء من المطربين إذ ليس فوقهم احد، ثم اختلف إليها معهم أسراب فاتنة من نبات الكناس وأسرى الحجال من كل مخبأة لعوب ميالة القد سحارة الطرف

وهي زهراء مثل لؤلؤة الغو ... ص ميزت من لؤلؤ مكنون

حشدت هذه الغانيات هناك حتى غصت بها نوافذ بيت الشيخ وشرفاته، وأقبل الذاكرون ومعهم المنشدون فذكروا كل شيء إلا الله ولم ينسوا النوافذ والشرفات

وكن متى أبصرنني أو سمعن بي ... سعين فرقعن الكُوى بالمحاجر

هنالك كل ما خيل إليك من غمزات الجفون وعمل الفتون.

بينا القوم على ذلك تكلمت الأوتار وتصعدت آهات المطربين الفتانة وتصعدت معها (أنفاس محترقة) من الحشيشة المباحة لذلك العهد فلم ينصرف القوم إلا بقلوب محترقة:

قالت حكمة عتيدة:

أجل: لو أن الغيوب مما يستشف أو يقرأ (لو أمكن الغيب من نفسه لاستبدل باسمه) لما استحقت أن تسمي غيوبا وإنما هي إذن شهود

لقد صبَّ الله على هذا الشيخ المتأنق في مشافهة المغَيّب قرويا حقيرا من صفوف النعال فطرَّى الطابع فطرى الروح واللُّب، فأخذ يقبل به في الخدعة ويدبر، فلم يعتصم ولا شافهه غيبه بدخيلة أمره مع هذا المتخُّيل عليه حتى استنزله هانئا قرير العين عن

ثلاثمائة دينار مصري كاملة زعم أنه مشترٍ له بها عقارا في الريف إذا هو رجع إلى أهله، فذهب بها طليقا مُرفَّهاً إلى اليوم ولم يشتر لعلاّمة الغيب إلا العار والسوءة: فهل ترشد الأمة المخدوعة؟

إن العلم والعقل ينصرهما الدين لم ينيرا سبيلاً إلى الغيب فما أجدر الحاكمين بأن ينزلوا بالشعوذة فتكة صارعة تغسل معرة الاجتماع وتثلج صدر العلم والعقل

هذه التي نصف، عطفتنا (عطفة الألايلى) فيما تُسمي و (عطفة القاياتي) فيما نريد، ضنكة مظلمة نأوي إليها مشتهاة فاتنة للألّف كما يأوي النحل إلى بيته وخلاياه، ورُبّ مملول لا يستطاع فراقه

ولي وطن آليت ألاّ أبيعه ... وألاّ أرى غيري له الدهر مالكاً
وحبب أوطان الرجل إليهم ... مآرب قضاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهمو ... عهود الهوى فيها فحنوا لذلكا

شيئان من هذه الحارة مكروهان عندنا جدُّ بغيضين، ولا كتمان للحق، أول الشيئين الحارة

نفسها، والثاني اسمها. أما الحارة فلسنا نملك تبديلاً لخلق الله فيها، وأما الاسم فهو لأسرة تركية عريقة كانت تقطن فيها ترحلت عنها قديماً فما يمتضغ اسمها أحد اليوم

ولا يختلج به صدرٌ ولا فمٌ حتى لتحسب كلمة (الألايلي) هذه اللغز الذي لا يحل

من أجل ذلك مشى الحي إلى ولاة الأمر بمقترح شهي لديهم أن يأذنوا في تسمية (عطفة الألايلي)، (عطفة القاياتي) أنساً بجيرانهم المعاصرين لهم واستئناساً بأن ذكر بيت القاياتي قد صاحب التاريخ في مصر فترة وامتضغ اسمه من قبل أيام كان جدهم الأعلى (شمس الدين القاياتي) قاضي القضاة بمصر ينزل في هذه الأحياء في سنة خمسة وثمانين وسبعمائة هجرية

مشي الحي بهذا المقترح المرجوّ إلى من يملك الأمر فلم يؤذون له أن يسمع ولا حظي عنده، والحاكم الله

إن كان ولاة الأمر قد اصطفوا (عطفة الألايلي) لأنهم يُعْلون بقدرها ويحتجزونها لتوسم (بعطفة الحرّية) أو (عطفة الاستقلال) ليوسم بها عهد الاستقلال والحرية فهنيئاً لنا بالحرية والاستقلال ويا برد هذا على الكبد، وإن لم يكن بهم إلا الضن علينا وحده

فليعلموا أن سنة من يكتبون إلينا ويتحدثون عنا قد مضت بأن يكتبوا إلينا (عطفة القاياتي) ويقولوها، وألسنة الخلق أقلام الحق، فلن يكون إلا ما نريد، ولن يكون الاسم الذي يحمله صدر العطفة وهو (عطفة الألايلي) إلاّ كذبا رسمياً كالدم على قميص يوسف، ولن تكون عطفتنا إلا (عطفة القاياتي)

حسن القاياتي

بين الرافعي والعقاد

العقاد

للأستاذ سيد قطب

- 8 -

لم يعجب الأستاذ (إسماعيل مظهر) ما نكتبه تحت هذا العنوان. ونحن ناسف أن لم ننل إعجابه أو رضاءه؛ ولكن يعزينا عن هذا الفقدان أنه يعجبنا نحن ويرضينا - مع الأسف كذلك!

يقول الأستاذ:

أما الذي لا أفهمه ولا أستطيع أن أفهمه يوماً من الأيام، فأن يتطوع ناقد لنصرة كاتب) على آخر، أو شاعر على شاعر غيره، احتساباً لوجه الله الكريم، من غير أن يكون (الناقد في نقده مخلصاً أول الشيء لمذهب بين في الأدب، يعتنقه الكاتب المنتصر له

هكذا يقول الأستاذ، أما نحن فنقول:

إن الذي لا نفهمه، ولا نستطيع أن نفهمه يوماً من الأيام فأن يكون رجل كالأستاذ) إسماعيل مظهر، أو أقل منه درجات، يقرأ ما كتبناه، ثم لا يتبين منه أننا ننقد مذهباً معيناً في الأدب ونعتنق مذهباً بيَّناً منه كذلك، وأن الكاتب الذي ننتصر له، يمثل مذهباً بيَّناً يدعوا إليه منذ خمس وعشرين سنة، وما يزال يشرحه ويقرره، ويعود إليه في نثره وشعره كله، وأننا من أخلص تلاميذ مدرسة هذا الكاتب لطريقته، واشد الناس فهماً (لها، واقتناعاً بها، ونسجاً على منوالها

ويتحدث الأستاذ عن الشذوذ في نصرة كاتب على كاتب، فإن شاء أن يعرف الشذوذ حقاً، فنحن محدثوه عنه:

إنه يا سيدي في تقديم هذه السوأة الأدبية الخلقية الإنسانية المسماة (على السفود)، في تقديمها ذاته، وفي طريقة تقديمها، وفي نشرها، دون تأذ ولا تأثم، ولا خشية على آداب الحديث في الأمة، ولا آداب الطريق (ودعك من آداب النقد) ودون رحمة بأسماع الناس وأبصارهم وآنافهم!

وإذا شاء الأستاذ أن يعرف نوع هذا الشذوذ، فليعلم أن هذه السوأة التي كشف عنها من قدَّمها للناس، لم يستطيع أشد تلاميذ الرافعي إخلاصاً له أن يبلعها، ولقد حاول أن ينحيها - في خفة - عن أعين النظارة، وهو يزن حسنات الرافعي، ويزعم وزن سيئاته، حتى لا تهبط هذه السوأة بالكفة إلى الحضيض لو هي لامست الميزان. وكان هذا عدالة منه من هذه (العدالات) الفريدة التي يتشح بعض الناس بوشاحها

فالأستاذ سعيد العريان يقول: (من قرأ (على السفود) فعابه على الرافعي وأنزله غير ما كان ينزله من نفسه. . . الخ)

وإذا قال الأستاذ سعيد مثل هذا، وهو يدغم الكلام، ويدحرجه ليبعد بهذه السوأة عن الأنظار، فالذين لم يصابوا بعد بداء العدالة التاريخية يستطيعون أن يعرفوا مقدار شنعتها

ولولا أنني أكرم أسماع القراء وآدابهم وإنسانيتهم من التدهور أو التأذي والتأفف، لنقلت لهم شيئاً من (على السفود) الذي لا يعتبر تقديمه ونشره وترويجه شذوذا، ولا مناصرة لأديب على أديب، ولا تدخلاً في الشخصيات، وإنما يعتبر نصرة لمذهب بيّن على مذهب بيّن في الآداب والآراء!

أما قصة الموت والموتى، فقد أسلفت الحديث عنها في الكلمة الفائتة، وبهذه المناسبة أقول للزميل الودود الأستاذ سعيد: إن زميله سيد قطب ليس هو الذي يمزق الأكفان بالأظفار، والذي يمزق بظفره، مخلوق آخر، أكرم آدابي وآداب الناس أن أقول: إن الأستاذ أو أحد زملائه من فصيلته! خشية أن نتدهور خطوة أو خطوتين بعدها فيصبح من النقاش (الأدبي) المعترف به، أن يقول الواحد للآخر: (يا ابن الـ. . .) ويكون هذا من أساليب النقاد!

بقي الرجل (الذي له عمل يملأ يومه ونهج يدبر حياته). وقد أكرمته وأكرمت (دمشق عن مناقشة قوله فأبى، وما زلت على رأيي الأول.

ولكني أرى من حق سوريا الشقيقة عليّ، وأنا ممن يحفلون بالدعوة إلى الرابطة الشرقية، أن أنفي عن (دمشق) وأهلها، ما قد يتبادر إلى نفوس المصريين من تقدير لها ولأهلها على أساس كلمات الأستاذ.

فليس كل من في (دمشق) يجهل الأدب والأدباء في مصر، ولا يطلع على كل الصحف الراقية هنا، حتى يكون ممن لم يروا (سيد قطب) إلا للوهلة الأولى. ولعل للأستاذ عذرا من

(عمله الذي يمل يومه ونهجه الذي يدير حياته)

وليس كل من في (دمشق) يقرأ لكاتب معين (فيقبل كل ما جاد به) هكذا بدون تروٍّ ولا تفكير ولا رأى خاص. ولا يقرأ لكاتب معين، فإذا ما قرأه (لم يعلم لآرائه من القيمة والخطر ما يدفعه إلى مناقشتها) مع أنها بين يديه، وتحت سمعة وبصره

وأنا أعرف من معارفي وأصدقائي السوريين، من لهم فكرة ورأي ومن لهم شخصية مستقلة، فليطمئن المصريون على عقيدتهم في جيرتهم!

وليس أدل من صواب رأي بادئ ذي بدء في ترك مناقشة هذا الأستاذ من ظنه أنه متى جاء لي ببيت لشوقي على مثال تشبيه الرافعي الذي انتقدته، فقد انتهى القول، وبطل الجدال!

لا. يا أخانا. يقول ألف رافعي، وألف شوقي، وبقي بعد ذلك مجال للنقد والتعليق والكلام. . .!

وقد فهمت من كلامه أن (عمله) الذي يملأ يومه، ونهجه الذي يدير حياته، والذي يمنعه - وهو معذور - من متابعة خطوات الأدب والأدباء في مصر، وربما في دمشق، هو التدريس بالمدارس

فأنا - في إخلاص - أقول لحضرته إنه يؤدي مهمة جليلة يجدر به الاقتصار عليها، فليس

من الضروري أن يكون كل إنسان أدبياً وناقداً، والمدرس عاطلاً ولا فارغاً ولا صاحب مهمة نافلة يتركها لسواها
فأما إذا لم يسمع هذه النصيحة، وأصر على الاشتغال بالأدب فله ذاك ما دام القانون لا ينص على شروط معينة فيمن يشتغلون بالآداب. . .!
وبعد فقد هممت أن أعاهد القراء على ألا أشغلهم بالالتفات إلى هذا الناس، بعد ما أصبحت يائساً أشد من فهمهم لما أقول، أو استعدادهم لمتابعة المدرسة العقادية في خطواتها. لولا أنني أعتقد أن للرسالة قراء آخرين غير الرافعيين، فلهؤلاء القراء أكتب؛ ولولا أنني أضطر تأدباً أن أرد على يوجه إليَّ الخطاب مهما كان شأن ما يقول
ولكن هذه في الحق خطة متعبة، وتأدب يكلف جهداً ومشقة؛ وأغلب الظن أنني سأعدل عنه، وسأسرع في استعراض البرنامج الذي وضعته للبحث منذ المقال الأول، وقصدي منه
إبراز صورتين متقابلتين للمدرسة العقادية والمدرسة الرافعية، في فهم الأدب وفهم الحياة
ولولا أنني اعتدت أن أضع الخطة وأنفذها، دون اعتداد بما يجد في الطريق، لآثرت الوقوف عند هذا الحد، فقد فهم من لديه استعداد للفهم، وبقي ناس لا حيلة في تبديل طبائعهم وخلق نفوسهم وأذواقهم من جديد
والآن إلى تتمة الحديث:
يعني العقاد - إمام المدرسة الحديثة - بالحياة النابضة في ضمائر الأشياء قبل الحياة الظاهرة على سطوحها، ويعني بالحياتين معاً قبل العناية بأشكالها وصورها، ويلتفت للخوالج النفسية قبل أن يلتفت إلى الصور الذهبية، ويعني بهاتين قبل العناية ببهارج الأسلوب وزخارف الطلاوة
ولا يعني هذا أن الأسلوب الفخم والتعبير الجيد بعيدان عن شعر العقاد. ولهذا مبحث خاص، سأفرد له كلمة، ربما كانت الأخيرة
يؤم المسجد يوم الجمعة للصلاة حشد حاشد، كلهم مصل، وكلهم خارج من المسجد بعد الصلاة، ويمر هذا المنظر على الشعراء والأدباء في مصر وغير مصر، ويتكرر الأسبوع تلو الأسبوع. ولكن العقاد وحده هو الذي يلتفت التفات الفنان المثقف ثقافة نفسية واجتماعية، إلى ما يجول في خواطر هؤلاء المصلين، وما تهتف به نوازعهم فتكتمه عقولهم الواعية، وما يسرب في ضمائر أو يغشاها. ذلك أنه يروي فيتخيل، ويلاحظ فينفذ، ويحس فيحلل؛ ثم هو بعد هذا وذاك يمثل ويجسم خفايا النفوس الإنسانية، ويعرض نماذجها المختلفة في معرضه الفني الحافل بصورة النفوس بعد صلاة الجمعة

على الوجوه سيمة القلوب ... فانظر إلى المسجد من قريب
وقف لديه وقفة اللبيب ... في ظهر يوم الجمعة المحبوب
إنك في حشد هنا عجيب
هذا الذي يمشي. ألا تراه ... كأنما قد حملت يداه
سفتجة صاحبها الإله؟ ... ذاك هو الدين. وقد وفاه
فليس للدائن بالمطلوب!
وذلك المبتسم الرصين ... كأنه بسره ضنين
أصغَى إليه سامع أمين ... فهو إذا صلى كمن يكون
في خلوة النجوى مع الحبيب!
وانظر إلى صاحبنا المختال ... في حلة ضافية الأذيال
أكان في حضرة ذي الجلال ... أم كان في عرض أو احتفال
يزهى على المحروم والسليب!
وكم مصل خافت الدعاء ... كأنما نصّ إلى السماء
رسالةً في عالم الخفاء ... فلا يني يبدو لعين الرائي
كالمترجي أوبة المكتوب!
ورب شيخ من ذوي الخلاق ... فرحان بالجمع وبالتلاقي
كأنه التلميذ في انطلاق ... بين تلاميذ له رفاق
عادوا إليه عودة الغريب

هذه هي الصورة الباطنة لتلك السحن الظاهرة، وليس فيها مالا نعرفه الآن، في مشاهد الصلاة، بعد أن أشار إليها العقاد. وهذه ميزة الشاعر ذي (النفس) الذي يلمح ما في النفوس، فيطلعنا على ما كان بين أيدينا غائباً عنا من صور الحياة وأنماطها، لأنه يجلوه في مرآة نفسه الخاصة

ثم يمضي بعد هذا الاستعراض، يطرق الفلسفة العامة، في دعابة وفسحة في النفس، تتلقى هؤلاء الأحياء المختلفي المطامع والأهواء تلقي الوالد العطوف لأبنائه، وهم يختلفون منازع واتجاهات، وهو يبسم ابتسامة التهكم الرفيق

تجمعوا في بيته تعالى ... وافترقوا في جمعهم أحوالا
وهل نسوا في أرضه النزالا ... فيحتويهم بيته أمثالا
على اختلاف السمت والنصيب!
لعلهم صلوا له ارتجالا ... فاختلفوا ما بينهم سؤالا
فلو أجاب السائلين حالا ... صب على رءوسهم وبالا
وألحق المخطئ بالمصيب

هذه قطعة واحدة من (عابر سبيل) يبعثها مشهد مألوف للجميع. وهو (على قارعة الطريق) ولكن المارة لا بد لهم من عين وذهن ونفس لتراه ثم تدركه، ثم تتغلغل فيه. وأنت خليق أن تجد عند العقاد كثيراً من هذا النوع ولا سيما في (عابر سبيل) وللعقاد عناية بتصحيح مقاييس الأحكام على الطبائع والنفوس منشؤه أنه صاحب (نفس) خاصة، و (طبع) أصيل، فهو لا يتلقى المبادئ والأحكام من الخارج، ولكن يفيض بها من الداخل، ويسمع فيها منطق الحياة الخالدة، ووحي الإنسانية الدائمة، لا منطق الفرد العابر، ولا الجيل القاصر. ومن هذا النحو قوله عن (عدل الموازين) و (جلال الموت) وقد استعرضتهما آنفاً ومنه:

من ساء بالناس ظناً دون ما ألم ... أحق عندي بسوء الظن والتهم
أسيء ظنونك لكي مكرها أبدا ... كمن يظن ببعض الآل والحرم

هذه قوله رجل (إنساني) تزخر نفسه بالعطف وتفيض بالثقة، فينكر فلسفة سوء الظن ارتجالاً وتطوعاً، فسوء الظن عنده بالإنسانية أمر مكروه لا يقدم عليه الإنسان وله منفذ إلى رجاء فيها، كمن يظن ببعض الآل والحرم، بعد ألا يجد بداً يجد بداً من الظنون، وبعد أن ينفد معين الثقة والتعاطف والتنزيه الفطري للآل والحرم. . . ويقول:

إذا ما تبينت العبوسة في امرئ ... فلا تلحَهُ واسأل سؤال حكيم
أجل سلة قبل اللوم فيم انقباُضه ... وفيم رمى الدنيا بطرفٍ كظيم
لعل طلابَ الخير سرُّ انقباضه ... وعلة حزن في الفؤاد مقيم
فما تحمد العينان كل بشاشة ... ولا كل وجه عابس بذميم
قطوب كريم خاب في الناس سعيه ... أحب من البشري بفوز لئيم

وهذه قوله رجل، معنًّي بالغايات النفسية، لا بالمظاهر البادية على الوجوه ورجل يعدل (عدل الأناسي لا عدل الموازين) في الحكم على قيمة العبوسة والبشاشة في الجبين. ورجل عطوف يتقصى أسرار النفوس ويقدر أحوالها، ويوسع صدره لبدواتها ولا يتسرع في سوء الظن بها، وبذلك ينفذ وصيته السالفة.

ويقول:

لا تقل: فاجر وبرٌّ. ولكن ... قل: هو الصديق والمراء صنوف
رُبَّ حق فيه نفيس ومرذو ... ل، وميْن يرجى وميْن يخيف
إنما الفاضل الذي فضله في الخي ... ر والشر فاضل وشريف

وهذه أبيات لا تكتفي بتصحيح مبدأ في الأخلاق، بل هي تخلق مبدأ. ويطول بنا الحديث لو ذهبنا نشرح هذا المذهب ونناقشه، ونوازنه بمذاهب الأخلاق، وتعريف الحسن والقبيح، وبيان أسباب هذا الحكم، الخ، فنكتفي بشرحها في اختصار:

ليست عناوين الأخلاق المتواضع عليها هي الحكم الفصل في تقدير قيمة هذه الأخلاق، فالصدق مثلا لا يعني أن كل ما ينطوي تحته فاضل وشريف، والكذب لا يعني أن كل ما ينطوي تحته مرذول وخسيس، ومثلهما بقية عناوين الفضائل المتعارفة. إنما مناط الحكم على الصدق وعلى الكذب، أمر آخر غير عنوانهما. ففي الصدق ما هو شريف ومرذول، وفي الكذب كذلك ما يكون هذا أو ذاك؛ وفي سواهما مثلهما وكم من كذبه عظيمة ألقاها مصلح، أوفاه بها بطل، أو زخرفها فنان، هي اشرف

وأعظم، من (صِدقة) حقيرة، ألقاها جاسوس، أوفاه بها مجرم، أو طرحها مطموس لا يبغي بها قصداً
وكم من (بوهيمية) عاش في ظلها فنان تمده بالخصوبة والإلهام، هي أشرف من استقامة عاش في ظلها جلف يقنع بها عن ضعف، أو انطماس بصيرة، أو فتور حيوية وعلى أية حال فتلك نظرية تمر هكذا في ثلاثة أبيات، بين الركود العقلي والنفس في مصر، ولو وجدت حياة زاخرة لكانت موضوع جدل ومناقشة، ومثار انقلاب في مبادئ الأخلاق. ولكننا في مصر حيث الركود والاستهتار
والذي يهمنا منها الآن، هو دلالتها على طبيعة العقاد، التي لا تحفل الظواهر والأشكال، إنما يهمها تقدير العامل النفسي الباطن في الأعمال والأقوال
ومثل هذه الخطوات هي الخطوات التي يسميها بعض ذوي النفوس الضيقة، والأحاسيس الضامرة، فلسفة لا شعراً. ويعنون أنها صور عقلية عمل فيها الفكر وحده وقد اتضح من شرحنا لها، أنها تقوم على العامل (النفسي) أول ما تقوم، وأن الطبع الحي البصير هو الذي يوحي بها
وكل ما ينقض هذه الخطرات لتكون من العاطفة في الصميم، أن صاحبها لا يضع لها لافتة (يافطة) مكتوب عليها: (هنا شعر عاطفي)!
أما أصحاب النفوس، فيحسون ويقدمون: أي نفس تلك التي تلتفت مثل هذه اللفتات، واي عاطفة عميقة في ثنايا هذه الأبيات
(حلوان)
سيد قطب
بين الرافعي والعقاد
في منطق التحليل
للأستاذ عبد الجليل محمد المحجوب
يريد الأستاذ (سيد قطب) أن يثير معركة تكون فاتحة لإظهار أدبه (النفسي)، وترويجاً له بين الشباب الحديثين. ولا يمنعه الحذر أن يعلن هاته الظاهر خشية الاستخفاف وضياع الأمل. وهو - كما يبدو من تحليل مقاله - رجل خضوع لنفسه، سهل الانقياد لعصبية القديمة؛ تؤثر فيه العلاقات الشخصية أكثر من علاقات الحقيقة بالعقل، والإيمان بالقلب؛ وبشريته العظامية تقوده للتقرب مما يدفعه إليه شعوره، وعاطفته المتمردة. ويقول إن له أدباً وشعراً، وملكه نقد وقادة تجعله يثور على كل من يتطاول إليه، أو يحاول أن يمس عبقريته بخطأ شائن، كما ثار العقاد على الرافعي ومخلوف إجابة لعلوّ النفس، وحفظاً لها من النزول إلى عقلية السوقة. ويعيب على الناقدين - دون نفسه - جهلهم بطبيعة الكاتب، وقساوتهم في الحكم قبل اتصالهم به واكتناه بواعثه!
ثم يذكر أنه كان (يكره نفسه على مطالعة الرافعي) لأنه عندما قرأ (حديث القمر) أحس بالبغضاء له! ويكذِّب الأستاذ سعيداً في تسمية ما كتبه العقاد في رده شتماً وسباً للرافعي. وفي تسمية ما كتبه عن (مخلوف) سباباً وشتائم) ويقول بعدئذ - في غير تحفظ - (إذا كتب (يعني العقاد) عن (مخلوف) يتهكم به، ويشنع بسوء فهمه للأدب، فمبعث ذلك عظم الفرق بين طاقة العقاد وطاقة مخلوف، والحنق على أن يكون مثل هذا ناقداً لمثل ذاك. . .
(. . .والحق أن هذا مما تضيق به الصدور الخ)
وحديث مثل هذا يفسر، بكل صدق، بأن حضرة الأستاذ سيد ليس له مبدأ في الجدال وأنه يتلاعب بالحقيقة، فطوراً ينفيها ويكفر بها، وطوراً يتوب ويتعذر!
وفي فقرة أخرى يأخذ على الأستاذ سعيد (تعرضه) بلقب (أمير الشعراء) الذي ينحله الدكتور طه حسين للعقاد (تملقاً) للشعب ونزولاً على هواه، ويرى أن هذا (اللقب) دون منزلة العقاد لأن (المسافة بينه وبين شعراء العربية في هذا العصر أوسع من المسافة بين السوقة والأمراء)
وهذا - لو كان للأستاذ شيء من المنطق - يحط من منزله العقاد إلى حدّ هائل، إذ كيف
وهو هو في علوه ورفعته لم ترض بإمارته سوقة؟!!
كما أنه يحمل على الأستاذ سعيد أيضاً فيما كتبه عن العقاد لأنه (يجهل طبيعة العقاد

ودوافعه في الحياة وعوامل الكتابة في نفسه) ويلتمس له العذر في ذلك لأنه (لم يختلط بالعقاد أولاً. ولأن نفسه لم تتفتح لأدب العقاد فيفهمه ثانياً) ويسمح هو لنفسه أن يكتب عن الرافعي ما يشاء وهو كما يعترف لا يعلم عن حياته شيئاً ولا يشعر في قراءته له غير الكراهية والنفور!. .

وأعجب من هذا أنه كان (ينكر) أن تكون للرافعي (إنسانية) و (نفس) ولكنه لما رأى الأستاذ سعيد يتحدث عن (حبه) و (عاطفته)، وحين استطاع أن يكون ناقداً أصبح ينكر عليه (الطبع) بدل (الإنسانية) ويريد منه (الأدب النفسي) بدل (الأدب الفني). وفي هذا تناقض وسقم في الإدراك. تناقض لأن في (الأدب النفسي): الأدب الفني، وفي أدب الذهن: (أدب الطبع). وليس من يشك في أن الفن صورة لشعور النفس، والطبع صورة لذهن الإنسان.

ولعل حضرة الأستاذ سيد يذكر تجربة العالم الذي أعلن هذه الحقيقة بكيفية مضحكة: فاستدعي خمسة وعشرين رساماً، ورجا من كل واحد أن يصور له حماراً. وبعد الانتهاء لم يجد صورتين متماثلتين تماماً: فكل واحد صوره كما أوحاه إليه شعوره النفساني، فهذا رسمه أبله. وذاك رسمه صبوراً. والآخر رسمه وديعاً. الخ. وكانت البراعة الفنية مترجمة عن خطرات النفس، واحساساتها. ثم استدعى خمسة وعشرين كاتباً ورجا منهم أن يكتبوا عن الحمار أيضاً فكانت النتيجة كالأولى. وساعتئذ قرر أن الفن صورة لإحساس النفس، وهما متلازمان تلازم العرض للجوهر. فما دام للإنسان (فن) فلا بد أن تكون له (نفس)

وأما (الطبع) فهو خاصة من خصائص الذهن، لأن الطبيعة أول ما تنشأ عن العقل، وفي أرضه تنبت وتمد عروقها، وللعالم النفساني مائة وخمس وعشرون تجربة تؤيد هذا الاكتشاف، منها: أنه وضع شيئاً من الحلوى في مكان مرتفع، وجاء بطفل صغير، وأغراه ليتناولها، فجعل الطفل تارة يمد يديه، وطوراً يقفز وأخرى ينظر إليها في صمت وسكون. ثم اهتدى إلى كرسي كان إلى جانبه، وتمكن منها. فصار كل يوم يضع قطعة أخرى من الحلوى، والطفل يتناولها بالوسيلة المتقدمة بدون أدنى تفكير. ثم كان ذاك مرة كل أسبوع،

ثم كل أسبوعين، ثم كل شهر. حتى كبر الطفل وأصبح يستطيع أن يتناول قطعة الحلوى بدون مساعد. ولكنه ظل على طبيعته المعتادة يستعين بالكرسي.

وبعد حين أقصى عنه الكرسي. . فضحك الطفل ومد يده وتناولها. واستمرَّ على وضع قطع أخرى، في أمكنة مختلفة، واستمرَّ الطفل على تناولها بيده. ثم أبعدها عنه حتى صار لا يستطيع أن يمسها بيده. وحينئذ فكر الطفل وأوحي إليه ذهنه أن يستعين بها. . . وهكذا بقي خمسين شهراً يكرر التجربة نفسها. وفي المرة الأخيرة أحضر جمعاً من علماء النفس والتربية وعلق قطعة من الحلوى في سلك مرتفع بحيث لا يقدر الطفل أن يتناولها. . . وعندما أمره بأخذها، شرع يستعمل جميع الوسائل التي اعتادها قبلاً دون تفكير في إفادتها. وبعد لأي وقف قليلاً صامتاً، ثم طفق يبكي ويلتفت إلى الحاضرين. . . وعندئذ قام وشرح أمره، وصرح في النهاية بأن جميع الطبائع والعادات كالمشي، والبكاء، والضحك وما شاكلها منبعثة عن العقل. وعلى هذا فطبيعة الأديب مستمدة من الفكر ومسيرة بأوامره. كما يتعين أن يكون (أدب الطبع) جزءاً من (أدب الذهن)

وإني لأنصح لحضرة الأستاذ سيد قطب أن يرجع لمؤلف وإلى غيره من كتب البسيكلوجيا التطبيقية فإنه لواجد فيها ما يبطل زعمه، ويعود به إلى حظيرة الحق والسكون

وبعد، فهذه نظرة قصيرة أحببت أن أشعر بها حضرة الأستاذ بأنه - نظراً لكتابته وما حشاه فيها من (الأفكار) المضطربة ما يزال بعيداً عن النقد والحكم البريء، عساه أن يجنح إلى السلم، ويعدل آراءه على ضوء المنطق، ويقين الملاحظة

وإن لي رأياً في أدب العقاد، وأدب الرافعي، كونته من مطالعتي لهما. سأعلنه متى قضت الظروف

(تونس)

عبد الجليل محمد المحجوب

ليلى المريضة في العراق
للدكتور زكي مبارك
(بقية المقال الحادي والعشرين)
وفي وادي السلام يقول الأستاذ علي الشرقي:
ثلاثون جيلاً قد ثوتْ في قرارةٍ ... تزاحم في عُرب وفُرس وأكراد
ففي الخمسة الأشبار دُكَّتْ مدائنٌ ... وقد طُوِيتْ في حُفرة ألف بغداد
عبرت على الوادي وسَفَّتْ عجاجةٌ ... فكم من بلاد في الغبار وكم ناد!
وأبقيت لم أنفض عن الرأس تربهُ ... لأرفع تكريماً على الرأس أجدادي
وكذلك كان الدخول إلى النجف من باب السلام، أي الموت!
وبحثت عن فندق فكان فندق السلام فتشاءمت، ثم أسلمت نفسي إليه، لعلمي بأني صائرٌ لا محالة إلى السلام، أي إلى الموت!
ثم رأيت فندق السلام بالنجف شبيهاً بأخيه فندق السلام في حيّ سيدنا الحسين بالقاهرة. رأيت الناس ينامون زرافات في حجرة واحدة، فأخذت أمتعتي وانصرفت، وذهبت إلى فندق ثان فرأيته أعجب من الأول، فمضيت إلى ثالث فرأيته أغرب من أخويه، وانتهى بي المطاف إلى غرفة حقيرة في فندق حقير هو أعظم الفنادق بالنجف ولعل الفنادق كانت كذلك لقربها من وادي السلام، فهي تروض المرء على قبول الدفن مع من يعرف ومن لا يعرف، وتقرِّب إلى ذهنه صورة المساواة في دنيا الأموات
كان غبار السفر الذي دام أكثر من أربع ساعات آذاني، وكنت أحب أن أصلح من شأني في الفندق لأستعد لمقابلة البهاليل من آل ليلى، فلم أجد في الفندق ما يسعف، ولكن لا بأس فسيعلم النجفيون بعد ساعات أني نزلت في فندف فيغضبون ويقولون (هذه فضيحة) وينقلون أمتعتي إلى منزل أحد الأصدقاء
وعندئذ أتذكر أن النزول في الفندق كان عند أهل العراق علامة من علائم المسكنة، يشهد بذلك قول الشاعر القديم
يا أيها السائل عن منزلي ... نزلت في الخان على نفسي
آكل من خبزي ومن كِسرتي ... حتى لقد أوجعني ضرسي
ويشهد بذلك قول شاعر حديث هو الرصافي:
سكنت الخان في بلدي كأني ... أخو سفر تَقَاذُفهُ الدروبُ
وأصرخ في وجه النجفيين قائلاً: إن المدينة التي تخلو من فندق نظيف لا تسمى مدينة، والذين عاشوا في أوربا كما عشتُ لا يستطيعون النزول في منازل الأصدقاء، والفندق النظيف هو المأوى الطيب للضيف، والحكومة المصرية لا تنزل ضيوفها في غير الفنادق، لأنها تعرف قيمة الفنادق، وكذلك تصنع حكومة العراق حين تستقبل ضيوفها في بغداد
فيا أهل النجف، تذكروا أن مدينتكم في حاجة إلى فندق نظيف، وتذكروا أن مثل ذلك الفندق ينقل مدينتكم من حال إلى أحوال
خرجت من الفندق أتلفت ذات اليمين وذات الشمال لأرى شبيهات ليلى، شفا الله ليلى وشفاني، ومنحني وإياها العزاء يوم الفراق، إن كان لنا سبيلٌ إلى التلاقي قبل الفراق
وساقتني قدماي، بل هداني قلبي إلى الحرم الحيدري
وقفت بصحن الحرم كالأرقم، والحمد لله على نعمة العافية، وليته يتفضل بحفظ هذه العافية ولو عشر سنين لأداوي جميع المرضى من الملاح
وقلت في نفسي: أنا تلميذ الشريف الرضي الذي يقول:
لو أنها بفناء البيت سانحةٌ ... لصِدتُها وابتدعت الصيد في الحرم
فإذا كان الشريف استباح الصيد في الحرم النبوي فأنا أستبيحه في الحرم الحيدري
ودرت حول الضريح مرتين، ثم وقع البصر على فتاة ساجية الطَّرف مشرقة الجبين فخفق القلب
ثم وقفت
أصاول عينيها بعيني والهوى ... يشيع الحميا في فؤادي وأعضائي
وظنت الفتاة أنها أقدر مني على الفتون، فحاولت قتلي، ثم لطف الهوى فصرعتها، فجمعت ما تبدد من قواها، وفرت فرار الغزال المطعون

وعَدَوتُ لاقتناصها فلم أفلح. وكيف يعدو النشوان وهو كالمقيد في الشوك!
من أي سحر صيغت تلك العيون؟
وإلى أية غاية تسير تلك العيون؟
ولأية حكمة خلقت المقادير تلك العيون؟
لقد أفلح الدساس الظريف الذي نقلني إلى النجف، وهو على ظرفه لئيم خبيث
وبالنجف الحاريّ إن زرت أهله ... مهاً مهملات ما عليهن سائس
خرجن بحب اللهو في غير ريبة ... عفائف باغي اللهو منهن آيس
ثم طفت بالحرم مرة ثانية فوجدت ناساً يقرءون أدعيات وصلوات وحولهم نساء يبكين
ورجال يبكون، فوقفت أسمع وأبكي، وهل في الدنيا بلاء مثل بلائي؟ أنا العاشق
المهجور الذي غدرت به ليلاه. ولو كانت ليلى واحدة لصبرت، ولكنهن ليليات!
فيا بديع الملاحات ويا فاطر السموات، كيف ترى حالي!
ويا خالق النخيل والأعناب، كيف سكبت الصهباء في روحي؟ ويا مجري الدمع في
الشؤون، كيف علمتني وعلمت الحمائم النُّواح
وما الذي أعددت لتكريمي يوم ألقاك وقد سبَّحت بحمدك فوق أفنان الجمال!
وما عندك لسلامتي من الناس، وقد خاصمت فيك جميع الناس!
وطفت بصحن الحرم مرة ثالثة فوجدت ضريح الحبوبي الذي يقول:
اسقني كأساً وخذ كأساً إليك ... فلذيذ العيش أن نشتركا
وإذا جُدت بها من شفتيك ... فاسقنيها وخذ الأولى لكا
أو فحسبي خمرةٌ من ناظريك ... أذهبت نسكي وأضحت منسكا
وانهب الوقت ودَعْ ما سلفا ... واغتنم صفوك قبل الرَّنق
إن صفا العيش فما كان صفا ... أو تلاقينا فقد لا نلتقي
وعند ذلك الضريح طال بكائي، فهذا شاعر قضى حياته في التغني بالجمال، ثم رآه
النجفيون صوفياً فدفنوه بجوار أمير المؤمنين، وأنا أفنيت شبابي في التغني بالجمال
ولم أجد غير العقوق!
فمتى يعرف قومي أني صوفيٌّ يؤمن بوحدة الوجود؟
ومتى يعرف قومي أني أصدق تلاميذ ابن الفارض في هذا الزمان؟
اللهم لطفك ورحمتك، فقد طال بلائي بالناس!
يئستُ من الصيد في الحرم الحيدري بعد فرار تلك الغزالة، وبدأتُ أعتب على سيدنا علي
بن أبي طالب، فمثلي لا يُكرَم في رحابه بالماش والجُلاَّش، وإنما يكرم مثلي بالهيام
في أودية الفتون، وما كنت في حياتي من الفاسقين، وإنما كنت مؤمناً يتقرب إلى ربه
بعبادة الجمال
وفي حومة هذا العَتْب تذكرت أن لي في النجف صديقاً من تلاميذ الأستاذ محمد هاشم
عطية هو السيد محمد تقي آل الشيخ راضي، فقلت أذهب إليه عساه يجد السبيل إلى
الظبية التي نفرت مني، ولكني ما كدت أصل إلى منزله بعد طول البحث حتى وجدته
في ارتياع، فقد علم أن الشرطة في النجف تبحث عني، لأني في ظنهم وردت النجف
لمطاردة الظباء، وقد رأى بفطرته السليمة أن ينفي الشبهة فدعا علماء النجف
للتسليم على العالم العلامة الدكتور زكي مبارك!
وما هي إلا لحظة حتى كانت الدار تموج بالغرّ البهاليل من أقطاب النجف
وجلست بين القوم جلسة العالم الحق، وما يصعب عليّ أن أمثل هذا الدور الفظيع،
فانتقدت صاحب مجلة الحضارة لأنه يدعو إلى تعديل المذاهب القديمة في التعليم،
وقلت أن مذاهب التعليم في النجف كمذاهب التعليم في الأزهر لا ينبغي أن تزول
وعجب القوم من أن يصدر هذا القول عن رجل متخرج في السوربون
ولكني في الواقع لم أكن مرائياً، فقد صح عندي أن الأساليب الأزهرية والنجفية
أساليب تنفع أجزل النفع في رياضة العقل، يضاف إلى ذلك أن الأزهر هو الذي حفظ
اللغة العربية في عهد المماليك، وأن النجف هو الذي حفظ اللغة العربية في عهد
الأتراك، ورعاية العهد توجب الإبقاء على تلك الأساليب التي استطاعت أن ترسل النور
الوهاج في دياجير الظلمات
وبعد طول الحوار فهمت أن في النجف ثورة فكرية تشبه الثورة التي وقعت في

الأزهر منذ أكثر من ربع قرن، وعرفت أن طلبة العلم في النجف يريدون أن يغيروا حالهم ليسايروا مناهج التعليم في العصر الحديث
وقد تأكد ذلك المعنى حين قال الأستاذ الصوري: ما رأيك يا دكتور في أن أخلع عمامتي؟ فقلت: أنا أبغض المعممين الذين يخلعون عماماتهم! فقال: هل تعرف ما قلتُ في العمامة؟ لقد قلت: إنها منعت رزقي وفِسقي
فابتسمت وقلت: وكيف تعيش يا مسكين بلا رزق، وبلا فسق؟!
وتقدم الأستاذ البلاغي صاحب مجلة الاعتدال فقص أحاديث يشيب لها الوليد، ومنها عرفت أن طلبة العلم في النجف يعيشون في بؤس. وقد طفر الدمع من عيني حين سمعت أن عالما نجفياً أشرت إليه في كتاب (عبقرية الشريف الرضي) جلس في صحن الحرم الحيدري يبيع كتبه ليسدَّ ما عليه من ديون، لم يجنيها لهوٌ ولاُ مجون، وإنما جناها الخبز والماء
وكان هذا العالم المحقق لقيني في الكاظمية منذ أشهر، لقيني لقاء المساكين؛ ولما لقيني في النجف تبسم وقال: كنت في الكاظمية غريباً، وأنا اليوم في بلدي، وأنا حاضر لخدمتك
وكنتُ أحب أن أقبل دعوته الكريمة، ولكني وا أسفاه كنت عرفت ترجمة حالة منذ لحظات ففررت من كرمه بترفق وتلطف
لا تحزن أيها الزميل؛ فسيكون لي ولك مكانٌ بين الصابرين
لا تحزن، فالدنيا أحقر من أن يبكي على نعيمها أحرار الرجال
لقد سمعت أنك بعت دارك بثمن بخس لتسدد ديونك. فهل علمت أن لك عقبى الدار يوم يجزى الله الصابرين؟
ثم مضيت فطوَّفت بالنجف وحولي جيش من أهل العلم والأدب والبيان، وفي أحد المنعطفات وقع البصر على طفلة من قريبات ليلى، فمددت يدي امسح خدها الأسيل فصرخت، وتضاحك الرفاق، ولكني سأرجع بإذن الله إلى النجف لأعرف أهل تلك الطفلة وأخطبها لأحد أبنائي، وبيت أهلها يقع في دربونة متصلة بدربونتين إحداهما توصَّل إلى الرابطة الأدبية، والثانية توصَّل إلى الحرم الحيدري، ولذلك البيت روشن عليه بَرَّادة، وبداخله بئرٌ وسرداب، وفوق الروشن حمامتان تسجعان، وفوق عتبات ذلك البيت تتحدر مدامع العشاق
يا شبيهة ليلى في حسنها ودلالها ولؤمها وغدرها! ترفقي بقلبي فقد تركته في الدَّربونة لتدوسه في كل صباح أقدامك الرقاق
يا شبيهة (كريمة) الغالية التي تداعت أباها في الأحلام تذكَّري أن طيفاً زارك في النجف ولن يعود. يا أخت (زينب)، تذكري أن الرجل الذي مدَّ يمينه ليمسح خدك الأسيل لم يكن فاجراً، وإنما هو مجاهد ترك وطنه وأهله في سبيل العقيدة والوجدان
إليك دمعي يا حلوة يا جميلة، وهو دمعٌ تمردَّ على الخطوب، ثم أذلَّته عيون الملاح. أحبك أيتها الطفلة الوسيمة وأشتهي أن أسمع صراخك مرة ثانية، فما كان وحق الحب ألا صراخ الدلال
واستيقظت في اليوم التالي مبكراً لأرى الكوفة، ولأقف بأطلالها كما وقف أستاذي ماسينيون، وكان أكبر همي أن أرى مسجد الكوفة الذي طُعن فيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، والذي فار في زاويته التنور لعهد نوح عليه السلام، والذي صلى فيه ألف نبيَّ وألف وصيَّ، والذي فيه عصا موسى، والذي هلك فيه يغوث ويعوق، والذي يحشر منه يوم القيامة سبعون ألفاً ليس عليهم حساب، وفي وسطه روضة من رياض الجنة كذلك تقول الأساطير
وما كانت في عيني وقلبي أساطير، وإن كنتُ تلميذ منصور فهمي وطه حسين
لقد شهدت بعيني كيفُ طُعنَ علي بن أبي طالب ورأيت دمه رأى العيان
ورأيت المكان الذي خطب فيه الحجاج خطبته المشهورة، الحجاج الهائل الذي أصلح العراق، وافسد العراق
ورأيت قبر مسلم بن عقيل رسول الحسين، ورأيت كيف يبكي الناس على قبره وكأنما قتل بالأمس، فتذكرت أن العراق يحوي ثروة عظيمة جدّاً من الحماسة الوجدانية، وتذكرت أن العراق تغلب عليه سرعة الانفعال، فهو يقتل المصلح بلا ترفق، ثم يجعل البكاء عليه شريعة من الشرائع

تذكرت أن العراق كالقوة الكهربائية التي تحيى وتميت، وهو ينتظر رجلا في طغيان الفرات وسماحة النيل
إن العراق من قُوى العروبة والإسلام، ولكن أين من يعرف؟
لقد هداني العراق وأضلني، وكان على الدهر مصدر هداية وضلال
ثم مضيت أتلمس آثار الحيرة البيضاء، مضيت أتلمس آثار الخورنق، فلم أعرف ولم يعرف رفاقي أين الخورنق
،وكان هيامي بأطلال الحيرة موسماً من مواسم الشعر والخيال
وفي ذلك الهيام عرفت شيئاً من مدينة العرب في الجاهلية
ولو كان لي شيء من الأمر في حكومة العراق لأجريت نهر السدير من جديد لأنقش في وجه الزمن ذكريات النعمان
مضينا إلى أطلال الخورنق مع سائق جهول فقادنا إلى مكان موحش، فقال الرفاق: !ليس هذا مكان الخورنق. فقال السائق: أنتم تبحثون عن أحجار، وههنا أحجار
!صدقت أيها الجهول، فنحن نبحث عن أحجار، ولكننا نبحث عن أحجار نواطق
عندئذ تذكرت فراعين مصر، فقد كانوا يدركون أن الزمن لئيم غدار، وأن التاريخ كلام في كلام، فبنوا أهرامهم وقصورهم بأساليب يعجز عن فهمها الزمان
وقد تقوضت آثار الملوك في المشرقين والمغربين وعجز الدهر الغادر عن هدم آثار الفراعين
ما أشقاك في دنياك وأخراك أيها النعمان! أنت قتلت سِنِمَّار ليبقى سر الخورنق، فهل بقي الخورنق؟
ليتك استعنت الجندي المجهول في وادي النيل، ليتك بنيت هرماً يعجز اللئام عن نقل أحجاره ليبنوا بيوتهم الخاوية
!أيها النعمان، سلام عليك من شاعر مصري يبكي لمصيرك في التاريخ
أيها النعمان، أيها الملك العربي العظيم، أين الخورنق وأين السدير. . .؟
اعترف أيها الملك بعظمة الشعر والشعراء، فنحن الذين حفظنا مكانك في التاريخ، ولولا الشعراء لطمس الزمن مكانك في التاريخ
وفدت على أطلال قصرك وأنا جائع ظمآن فما تزودت غير الأسى والأنين
وفدت على أطلال أنكرتها العين، وعرفها القلب
وفدت على أطلال لم يعرفها جيرانك من أهل النجف، وعرفها شاعر مصري مظلوم ينكره أهله، كما أنكرك أهلك
فيا زميلي في البؤس والشقاء، سلام عليك
!ثم مضينا نمتع النظر بطغيان الفرات، وأين طغيان الفرات من طغيان قلبي
هذه الكوفة الاسلامية، وتلك الحيرة الجاهلية، وأولئك الغافلون من العرب والمسلمين.
فيا رب الأرباب أنقذ عبدك المسكين من ظلم الجحود والعقوق
ورجعت إلى النجف أسأل عن أخوات ليلى، ولكن كيف؟ إن النجف كله يطارد العاشق المسكين الذي ضيع مستقبله في سبيل هواه
ويصمم النجفيون على إقامة حفلة تكريم للدكتور زكي مبارك فأرفض، لأن تلك الحفلة كانت توجب أن أتخلف عن دروسي في دار المعلمين العالية، وتخلفي عن دروسي أمر مستحيل. وكذلك أقهر علماء النجف وأمتطي السيارة إلى بغداد
رجعت في زي المساكين لأني لم أجد الشفيع إلى ليلاي
رجعت ذليلاً مقهوراً، فماذا أصنع؟
!آه من حبي وغرامي وبلواي
لقد هجرتني ليلي وصدفت عني ظمياء
فلأذهب إلى الموصل لأستشفع بقريبات ليلى هناك
. . .إلى الموصل الذي رقدت في ثراه عظام أبي تمام أمتطي قطار المساء
(للحديث شجون)
زكي مبارك
التاريخ في سير أبطاله
ابراهام لنكولن
هدية الأحراج إلى عالم المدنية

وما كان إبراهام كما أسلفنا يطمع من وراء هذا النزال أن ينال لنفسه شيئاً؛ وهل عُرفتْ في خلقه غميزة منذ كان يقطع الأخشاب ليشتري بالمئات منه سروالاً؟ أو ليست كراهته لنظام العبيد ترجع إلى صدر شبابه؟ أو لم يتنز بالألم قلبه يوم سافر إلى نيو أورليانز في تجارة لأحد الناس ورأى هنالك أسواق الرقيق ووقعت عيناه فيما وقعتا على تلك الفتاة التي عرضت نصف عارية على الأنظار كأنها مهرة كريمة؟
منذ ذلك اليوم وهو يسير إلى غاية، شعر بذلك أو لم يشعر به؛ فلقد استقر في نفسه مالا تقعد معه عن العمل أو تنصرف عن الغاية، فكانت ثمة عزيمة تهون أمامها جسيمات الأمور، وكانت ثمة رسالة يحلو في سبيلها الجهاد ويطيب الاستشهاد؛ ومرد ذلك كله إلى قلب إنساني كبير ونفس مطمئنة صابرة، وبصيرة، كأنما تشرف من حاضرها على المستقبل فلا تقف من دونها حجب الغيب. . .
إنه اليوم كما أراد حزبه ينافس دوجلاس على مقعد في مجلس الشيوخ فهل كان ذلك قصارى همه؟ كلا. وما كان بعض همه أن يرقى إلى كرسي الرياسة ذاته؛ وإنما كان همه أن تتحقق مبادئه ولو بدل في سبيلها نفسه؛ ولن يكون مقعد الشيوخ أو كرسي الرياسة عنده أمراً ذا بال إلا أن يكون وسيلة إلى السير بمبادئه إلى حيث يعتنقها الناس؛ وإلا فما الجاه والثراء والحكم عنده إلا من صغيرات الأمور؛ وهو إنما ينفر من كل أولئك بطبعه الذي يعزف عن الزهو، ويتخوف دواعي البطر. . .
وإن أمثال ابن الأحراج هذا في تاريخ البشرية لقليلون، ولكنهم هم الذين رسموا لها طريقها، وولوها قبلتها التي ارتضوها لها وأشاروا بأيديهم إليها، وما كان أتعس البشرية لو أنها افتقدت هؤلاء الذين يتمثل بهم ضميرهم أناساً يمشون على الأرض
قال إبراهام ذات يوم من أيام ذلك النزال (لست أدعي أنها السادة أني غير أناني، ولن أتظاهر بأني لا أحب أن أذهب إلى مجلس الشيوخ، كلا لن آتي هذا الادعاء المنافق، ولكني أقول لكم إنه في هذا الجدال الصارم، ليس يعنيكم ولا يعني عامة الناس من هذه الأمة ما إذا كان القاضي دوجلاس أو ما إذا كنت أنا بحيث تستمعون عنا بعد هذه الليلة أو لا تستمعون. وبما كان هذا أمراً تافهاً بالنسبة لكلينا، ولكنه إذا اعتبر من حيث علاقته بتلك المسألة العظيمة التي ربما كان يتوقف عليها مصير هذا الشعب فانه يكون في حكم العدم)
هذا هو ابراهام رجل المبدأ لا يعنيه أن يظفر أو أن ينهزم، وإنما تعنيه تلك المسألة العظيمة؛ ولن يهدأ له بال حتى تحل أو تسير في سبيلها إلى الحل
وأنى لدوجلاس أن يقف في وجه تلك القوة العاتية؟ أنى له أن ينال من ذلك الذي يتكلم فيخيل إلى سامعيه كان الأخلاق نفسها تقول كلمتها. حاول دوجلاس أن يعبر مرة عن عدم المبالاة من جانبه في مسألة العبيد فانبرى له ابراهام قائلاً: (إنني أبغض مثل هذا المظهر، مظهر عدم المبالاة. . . إن من شأنه أن يضعف حاسة العدالة في دولتنا، وإنه ليعطي أعداء النظام الدستوري السلمي شبه حق أن ينظروا إلينا كأننا منافقون، كما أنه في نفس الوقت يمد أنصار الحرية الحقيقيين بسبب وجيه لتشككهم في إخلاصنا). . . وقال في معرض آخر:
إنكم باعتيادكم أن تطئوا حقوق غيركم إنما تفقدون بذلك حقيقة استقلالكم أنتم،) وتصبحون طعمة لكل طاغية يخرج من بينكم. دعوني أخبركم أن مثل هذا إنما يعده لكم منطق التاريخ، إذا جاءت أدوار الانتخاب الآتية بحيث تجعل الحكم في قضية دردسكت التالية وغيره من الأحكام أمراً يقبله الناس. إنكم تستطيعون أن تخدعوا كافة الناس ردحاً من الوقت وبعض الناس طول الوقت، ولكنكم لن تستطيعوا أن تخدعوا جميع الناس طيلة الأبد)
بمثل هذا المنطق السائغ، وبمثل هذه العبارات السهلة الأخاذة كان ابراهام يأخذ الطريق
على دوجلاس في غير مشقة؛ وكان الناس كأنهم يلمسون الصدق في هذه العبارات وأمثالها؛ وهم واثقون من نزاهة غرضه وشرف مقصده. . .

ويريد ابراهام أن يصور موقف كل من الولايات القديمة والولايات الجديدة من نظام العبيد، فيصل إلى غايته في وضوح ويسر بعبارته الآتية التي أعجب بها السامعون، قال: (إذا أنا أبصرت ثعبانا قاتلا يزحف في طريق فأن أي رجل يقول بأن لي أن اعمد إلى أقرب عصا فأقتله؛ ولكني إذا وجدت هذا الثعبان في السرير بين أطفالي فان المسألة تتخذ وضعاً آخر فأني ربما آذيت أطفالي أكثر مما أوذي الثعبان وربما عضني ذلك الثعبان. وتختلف المسألة أكثر من ذلك إذا أنا وجدت ذلك الثعبان في سرير أطفال جاري وكنت على اتفاق وثيق مع ذلك الجار ألا أتدخل في شؤون أطفاله مهما يكن من الأمر. . ولكن إذا كان هناك سرير قد صنع حديثاً وأُرْمِعَ حمل الأطفال إليه واقترح أن يحمل إليه عدد من الثعابين توضع مع الأطفال، فليس في الناس من يرى أن هناك اختلافا في أي الطرق أسلك)

ولقد عرفنا فيما سلف من خلال ابراهام قدرته على التهكم، ورأينا كيف يرشق خصومه في ساحة القضاء بتهكماته حتى يزلزل أقدامهم، كل ذلك في عذوبة روح وترفع عن الإساءة وحذر شديد أن يخرج إحساس أحد؛ وها هو ذا اليوم في مناظرته دوجلاس يعمد إلى ذلك السلاح في مهارة يضيق عنها ذكاء خصمه وتتخلف دونها بديهيته، ويذهل عندها مكره. إستمع إليه كيف يسفه وسائله ويزيف آراءه، وقد رأى منه أنه غيَّر رأيه وأنكر رأياً سالفاً له (أقول إنك خلعت قبعتك، وإنك تثبت أني كاذب بوضعها على رأسك من جديد؛ وهذا هو كل مالك من قوة في هذا الجدال) ثم انظر إليه كيف يحمل الناس على الضحك بأن يستخرج من إحدى عبارات دوجلاس ما يشبه القانون الرياضي، قال دوجلاس: (إذا كان النضال بين رجل من البيض وبين زنجي فأني أقف إلى جانب الأبيض، أما إذا كان بين زنجي وتمساح فإني مع الزنجي) فأجاب ابراهام بقوله (يستنتج من ذلك أن الرجل الأبيض من الزنجي كالزنجي من التمساح، وعلى ذلك فبقدر ما يكون من الحق في معاملة الزنجي للتمساح يكون منه في معاملة الرجل الأبيض للزنجي)

ولم يدع إبراهام قولاً مما ساقه دوجلاس مساق المبادئ إلا حمل عليه وكشف عما فيه من بهرج، ومن ذلك ما أعلنه دوجلاس في مسألة نبراسكا وأبى إلا أن يسميه مبدأ سيادة الشعب؛ قال إبراهام: (مبدأ سيادة الشعب معناه حق الشعب أن يتولى حكم نفسه، فهل اخترع ذلك القاضي دوجلاس؟ كلا؛ فلقد اتخذت فكرة سيادة الشعب طريقها قبل أن يولد صاحب مشروع نبراسكا بعصور، بل قبل أن يطأ كولمبس بقدميه أرض هذه القارة. . . فإذا لم يكن القاضي دوجلاس هو مخترع ذلك المبدأ فدعنا نتتبع الأمر لنتبين ماذا اخترع. أهو حق المهاجرين إلى كنساس ونبراسكا في أن يحكموا أنفسهم وعدداً من الزنوج معهم إذا أرادوا ذلك؟ يظهر في وضوح أن ذلك لم يكن من اختراعه، لأن الجنرال كاس قد أعلن ذلك قبل أن يفكر دوجلاس في مثله بست سنوات. . . وإذاً فماذا اخترع المارد الصغير؟ لم يخطر على بال الجنرال كاس أن يسمى اكتشافه بذلك الاسم القديم ألا وهو سيادة الشعب. أجل لقد استحى أن يقول إن حق الناس أن يحكموا الزنوج هو حق الناس أن يحكموا أنفسهم. وهنا أضع تحت أنظاركم اكتشاف القاضي دوجلاس بكل ما فيه؛ لقد اكتشف أن تربية العبيد والإكثار منهم في نبراسكا هو سيادة الشعب)

رأى دوجلاس يعمد إلى المداجاة، ويجهد أن يلبس الحق بالباطل فشبهه بنوع خاص من السمك من خصائصه أن يفرز مادة سوداء كالمداد يضل بها الصيادين، فهو لا يفتأ يرسل من العبارات الجوفاء ما يرمي به إلى التعمية وطمس الحقائق. . . والناس يضحكون مما يقول ابراهام معجبين به مستزيدين منه. . .

ولقد رأى أبراهام في ذلك الصراع فرصة قلما تتاح له مثلها فعول ألا يدع في مسالة العبيد شيئاً غامضاً، وأخذ يقلبها على وجوهها في سهولة تستهوي الألباب، تلمس ذلك في مثل قوله عن المتمسكين بمبدأ العبيد، قال: (إن مبدأ الاستعباد عندهم يظهر لي كما يأتي: ليست العبودية صواباً من جميع الوجوه، وليست كذلك خطأ من جميع الوجوه، وإن من الخير لبعض الناس أن يكونوا عبيداً، وأنهم في هذه الحال يكونون خاضعين لإرادة الله. . . حّقاً ما كان لنا أن نعارض مشيئة الله، ولكن لا تزال هناك صعوبة في تطبيقها على بعض الحالات الخاصة، فمثلاً لنفرض أن هناك شخصاً اسمه

الدكتور روس الموقر يملك عبداً اسمه سامبو فأنا نتساءل هل مشيئة الله أن يظل سامبو عبداً أم هي أن يطلق صراحه؟ وإنا لن نظفر من الله بإجابة مسرعة عن هذا السؤال، ولن نجد في كتابه الإنجيل جواباً لذلك، أو لا نجد في الغالب إلا ما هو من شأنه أن يثير الجدل حول معناه. . . ولا يفكر أحد أن يسأل ما رأي سامبو في ذلك. وعلى ذلك يترك الأمر في النهاية للدكتور روس ليفصل فيه؛ وبينما هو يفكر في الأمر تراه يجلس في الظل وعلى يده قفازه يقتات بالخبز الذي يكسبه سامبو تحت الشمس المحرقة، فإذا هو قرر أن مشيئة الله هي أن يظل سامبو عبداً فانه بذلك يحتفظ بموضعه المريح؛ أما إذا قرر أن مشيئة الله هي أن يصير سامبو حراً فان عليه أن يخرج من الظل وينزع قفازه ويكدح من أجل خبزه؛ فهل يفصل الدكتور روس في الأمر بما تقضي به النزاهة التامة التي لابد منها في كل فصل حق؟)

وانتهى ذلك الصراع الذي اشتهر أمره، فكان نصيب الجمهوريين من المؤيدين مائة وخمسة وعشرين ألفاً؛ ونصيب الديمقراطيين دون ذلك بأربعة آلاف؛ ولكن مجلس الولاية التشريعي هو الذي كان يختار عضو مجلس الشيوخ، وكان بهذا المجلس أربعة وخمسون عضواً من الديمقراطيين وستة وأربعون من الجمهوريين؛ ولذلك فاز دوجلاس فصار عضو مجلس الشيوخ! ولقد عد انتصاره في نظر بعض المؤرخين بعد هذا الصراع أعظم انتصار شخصي في تاريخ أمريكا السياسي. . .

وهكذا يفشل ابراهام مرة أخرى في الحصول على مقعد في مجلس الشيوخ، ويخطئ دوجلاس دونه بذلك المقعد؛ ولكن ابراهام على عادته لا يعبأ بهذا الفشل، بل إنه ليستشعر الراحة بينه وبين نفسه أن استطاع أن يسمع تلك الآلاف صوته؛ وإنه ليحس أن مبادئه قد أخذت سبيلها إلى قلوب الكثيرين منهم على صورة طالما مني نفسه بها، وأي شيء هو أحب إليه من ذلك؟

لقد أصبح اسمه على كل لسان، وصار يعتبر من رجال أمريكا المعدودين، وأضاف الناس في الشمال إلى ألقابه لقباً جديداً فقالوا لنكولن (قاتل المارد)، وطنطنت باسمه الصحف؛ ومن ذلك ما قالته نيويورك ايفننج بوست، (لم يصل رجل في هذا الجيل إلى الشهرة في قومه بمثل تلك السرعة التي وصل بها لنكولن في هذا الانتخاب)؛ وكتب إليه رجل غريب عنه يقول: (إن مثلك اليوم كمثل بيرون الذي أفاق ذات يوم من نومه ليجد نفسه ذائع الصيت؛ إن الناس يستنبئون عنك بعضهم بعضاً، لقد قفزت دفعة واحدة من محام له الصدارة في الينواس إلى الشهرة القومية)

أما هو فقد وصف شعوره يؤمئذ بقوله: (مثلي مثل الصبي الذي اصطدم إصبع قدمه بشيء آلمه، فكان الألم أشد من أن يصحبه ضحك وكان الصبي أكبر من أن يبكي. . .)

ولاقى إبراهام عنتاً من بعض خصومه في تبرسبرج، فلقد أرادوا إيذاءه فتصايحوا ضده، وأسمعوه من البذاء ما أعرض عنه إعراض المؤمنين الصابرين. . . ولكنه في أتاوا استقبل استقبال الفاتحين فحمله شباب المدينة على أعناقهم والألوف تهتف به؛ وهو ضائق بهذا يقبله على رغمه ولو أنه استطاع أن يفلت منه لفعل ذلك مسرعاً ولكنه لا حيلة له فيه؛ وما كان أشبهه ساعتئذ بالخليفة الثاني عمر حين صاح بقومه أن كاد يقتله الزهو!

أجل؛ لقد تبرم لنكولن بهذا الزهو، فما كان من شيمته أن يزهى، ولا كان من خلقه أن يترفع أو أن يطغى؛ بل كان لا يتزايد حظه من الصيت إلا تواضع، ولا يعظم نصيبه من النفوذ إلا خفض جناحه وألان جانبه للناس جميعاً، أولياؤه وخصومه في الرأي في ذلك سواء. . .

وعاد إبراهام إلى سبرنجفيلد بعد أن قضى في ذلك النزال أكثر من شهرين؛ عاد إلى زوجه وأولاده فلقيته ماري راضية عنه على الرغم من إخفاقه في الحصول على مقعد في مجلس الشيوخ. أو ليست ترى الصحف كلها تذكر زوجها وترى أكثر صحف الشمال تطنب في مدحه وتعده بطلاً من أبطال قومه؟ أو ليست هذه هي النغمة التي يحلو لها سماعها؟ وأي شيء أحلى في قلبها وقعاً من أن ترى نفسها زوج رجل عظيم يعترف الناس بعظمته. . .

وأقبل على المحاماة من جديد فلقد أنفق في هذا الصراع من المال ما أرهقه من

أمره عسراً؛ هذا إلى أنه بانقطاعه طيلة تلك الأيام عن مهنته لم يكسب من المال شيئاً؛ وهكذا يعود ابن الغابة إلى كدحه ليقيم أوده وأود أسرته بينما يذهب دوجلاس الثري يرفل في النعمة إلى وشنجطون ويجرر ذيل الخيلاء السابغ الضافي
(يتبع)
الخفيف
حديث الرمزية
للدكتور بشر فارس
حديث يأبى أن ينقطع سلكه، إلا أنه منزَّه عن الفضول واللغو لطرافته ثم لتنوع مستطرداته. ووراء الأمر ظاهرتان: الأولى انجذاب نخبة من الأدباء والقراء إلى الجديد كأنهم يفطنون أن أعواد بعض أساليب الإنشاء القائمة الآن قد شظفت أي شظفٍ حتى إنها أمست تعجز عن حمل الثمر؛ أو كأنهم يلمحون في المذهب الرمزي بما قرءوا عنه - قلّ أو كثر - أداة فيها ما فيها من المتانة والاستقامة، وإن بدت ضرباً من ضروب الإفلات من قيود المنطق (الجليل) صاحب السلطان الأعلى في التأليف والتفكير. وأما الظاهرة الثانية فاستعداد القراء لتفهُّم مذهب لا يكاد يتصل بما ألفوه من الأدب العربي الحديث، فكلنا نشأ على قراءة التهزُّل الموضوعي عند المويلحي، والتصنع اللفظي عند البكري، والابتداعية حسب ترجمة الأستاذ الزيات) المفرطة حتى الإزعاج عند المنفلوطي. ثم قامت بعد ذلك طرائق، فكانت الطريقة التحليلية الواقعية في مصر، والطريقة التخَّيلية في المهجر
والظاهرتان دلالة على ارتجاج الذهنية الاتباعية، وشهادة لارتقاء شأن الاستحداث المطَّرد في الأدب. فأبْشِرْ بهما!
يقول الأديب الفاضل السيد كامل الشرقاوي في الرسالة (رقم 258 - البريد الأدبي)
(والرمزية - بعد - في الأدب العربي (المستحدث) في أول الطريق، فالحديث ذو شجون ولازم على من يشقّون ويوسَّعون الطريق لها فيه أن يطيلوا الكلام والإبانة عنها للسالكين. وما أحرى الدكتور بشر في هذا المقام. . . أن يوالي مجلة الرسالة الغراء بمقالاته. . . عن الرمزية يوضح طرائقها ويترجم لزعمائها وقادتها ومدارسها منذ نشأتها إلى الآن توطئة لتأليف رسالة عنها بقلمه. . .)
إني أشكر للأديب الفاضل رقة كلامه وحسن ظنه بي. غير أني أرى غير رأيه. فالذي عندي أن المنشئ المنصرف إلى الاستحداث في التأليف يخرج ما يخرج ثم يقبل النقاد ينظرون فيه، ويُطلعون القراء على خصائصه، ويدنون لهم طريقته إن هي بعدت عما خبروه، ويسوقون لهم قصتها، ثم يبرزون لهم انحراف المنشئ من هنا وهناك عن تلك الطريقة إن هو قدر على أن يدسَّ فيما يكتب ما يشف عن شخصيته. هذا وإن ظفر إنشاؤه
بالقبول وجدرت العناية بطريقته، قام العلماء بتاريخ الأدب والمنقطعون للبحث في فنونه وأساليبه يؤلفون المقالات والرسائل، فيدفعون إلى القراء ما غاب عنهم، ويبذلون لهم ما أشكل عليهم
والذي جرى للرمزية أني ألَّفت مسرحية على طريقتها مع شيء من الاستقلال بما نفسي إليه ترفّ وقلمي له ينساق. ثم جاء النقاد فأحست فئة منهم بغرابة الطريقة عن أذهان قراء العربية؛ فاستهل الأستاذ صديق شيبوب النقد بالكتابة في الرمزية (جريدة البصير)، وأردف الأستاذ الفنان زكي طليمات النقد ببحث لطيف فيها قائم برأسه (مجلة الرسالة)، ونشر الأستاذ أبو شهلا التوطئة التي عملتها للمسرحية ذهاباً منه أنها وافية (مجلة الجمهور البيروتية)، ونوّه بشأن هذه التوطئة الأستاذ الأب الكرملي والأستاذ الصيرفي (في المقتطف) والدكتور زكي حسن (في الأهرام) والأستاذ كامل محمود حبيب (في المقطم) والأستاذ ادجارجلاد في ? ثم نبه الأستاذ نجيب شاهين إلى اتصال الرمزية بالتصرف وخروجها عن الوضوح التام (في المقطم) ثم فرّ أحد من المتخرجين في كلية الأدب للجامعة المصرية ومن طلبة العلم في (جامعات فرنسا)، وإذا هو يؤلف مقالة عجيبة قد بين مبلغ اضطرابها الأستاذ محمد فهمي في مجلة الرسالة (رقم 256)
والرأي إذن أن للمنشي عملاً وللناقد عملاً وللعالم ثالثاً؛ غير أن المنشئ ربما حق عليه أن يؤلف المقالة أو الرسالة في الكتاب الذي يخرجه دفاعاً عنه أو توضيحاً له، وذلك ما

أقدمت عليه في مجلة الرسالة يوم آنست من جانب النقاد ميلا إلى إدراج الرمزية المستحدثة التي في (مفرق الطريق) في الرمزية الأولى إدراجاً لا استدرك فيه، فشرحت يؤمئذ خاصية الرمزية التي في مسرحيتي وميزتها في تفاصيلها من الرمزية الأولى

يريد الأديب الفاضل السيد كامل الشرقاوي أن يؤلف المنشئ (كتباً مطولة عن الرمزية تكشف عن مناهجها وما يحيط بها لا توطئات مركزة دسمة إن هي أفادت فئة من الأدباء المطلعين على الثقافة الأجنبية اطلاعاً واسعاً فهي لا تكفي مطلقاً ذوي الثقافات المتوسطة من الأدباء، بل عامة القراء)

إن الأديب الفاضل يومئ ههنا إلى (التوطئة) التي صنعتها بياناً للمسرحية، وقوله فيها حق!

فأني أردت أن تكون التوطئة كما يصفها الأديب الفاضل، وإني لفرح بالنجاح إذ كنت أعلل النفس بأن أؤلف توطئه طريفة تدخل في جانب الأدب (المركز الدسم) لا توطئة مقصورة على عرض المذهب الرمزي (من الخارج) كما تقول الفلاسفة، بأن أسود تاريخها وألم تفاريقها في أسلوب موضوعي بصيح: (إن هذه التوطئة ملفوظة من الكتب فما هي بثمرة تأمل وروية واجتهاد)

إنما المأمول في المنشئ أن يدفع للقارئ غذاء روحانيا لا مواد كتب وكلما (دسم) الغذاء و (تركز) جعل المنشئ القارئ يشاطره فنه. وتلك غاية الإنشاء العالي الناهض على الروّية والتأثر الدفين

فأبعد - إذن - بأدب الاطلاع وأدب التسلية!ّ

(الإسكندرية)

بشر فارس

رسالة الشعر

الشعاع المقيد!!

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

(إلى هالة الوطنية التي تتفجر أنوارها من تمثال رسول الجهاد الأول مصطفى كامل. . . وهو يرسف في قيوده بين ظلام النسيان والجحود)

خُذْ أماناً منَ الشعاع المُقَيَّدْ ... فهْوَ في القَيْدِ جَمْرةٌ تَتوقَّدْ
مِلْءُ ذَرَّاتهِ أناشيدُ مَجْدٍ ... بصداها مُحَرِّرُ النيل أنشَدْ
ذَرَّةٌ ترْعِبُ الحديدَ عَلَى الصَّمْ ... تِ! وَأُخْرَى في الهوْل تُرْغى وَتُزْبِدُ
غلَّلَتْهُ بالأَمْسِ كَفٌّ ضَلولٌ ... تَنْصُرُ البَغْيَ بالحُسام المجرَّدْ
شَدَّ طُغيانَها عتيٌّ منَ الغَرْ ... بِ، على النِّيلِ كم طغى وَتمرَّدْ!
ملَّكَتْهُ - والملك لله! - دُنْيا ... ظِلها عاجلُ الْفناءِ مُبدَّد
فَمضى في مسابح الشَّرْق كالْبَرْق ... دار يُشْقى كما يَشاء ويُسْعِدْ!
كم عَدا فاتِكاً! وأحكَمَ أَغْلاَ ... لاً الرِّقابُ في الشَّرْق تَشْهَدْ!
في (فِلَسْطين) ظُلْمُه أَقلق الدُّنْ ... ياَ وما هَزَّهُ الصُّراخُ المرَدَّدْ
وعَلَى (مصرَ) كم أَذَلَّ! وأَرْدَى! ... وتمَطَّى على النُّجوم وَهَدَّدْ!
عَبقريٌّ في الخَتْلِ يُدْمي وَيرْتَ ... د على الجرْح باكياً يتوجَّدْ
كم سَقَى النَّيلَ مِن ضراوَتِه الهوْ ... نَ وعيشاً من المذَلَّةِ أنكَدْ!
وتمادَى. . . فكُنْتَ يا (مُصْطفى) الهوْ ... لَ على هوْلهِ تَثورُ وَترعِدْ
في غباَء السّنين، والنيل مُغفٍ ... وبَنُوه من سكرَة الصَّيم هُجَّدْ
قُمت كالْعاصف المجلْجِل تَجتا ... حُ فلا تنْثَني ولا تتردَّدْ
تُلْبِسُ القيْدَ مِن جناَنكَ قَيْداً ... حَرُّهُ في الحديدِ نَقشٌ مُخَلَّدْ
هَتفاتٌ بِحُبِّ (مصر) وَموتٌ ... في هَواهاَ! ونَشوَةٌ! وَتَعَبُّدْ
وَصلاةٌ بمجدِها. . كُنتَ فيها الْ ... عابِدَ الصَّبَّ، والشواطئُ معبَدْ
وَذيادٌ عن حُرمةِ الوطن الشَّا ... كي بعزم (كَنيلهِ) ليس ينفَدْ
وَدِفاعٌ عن الحِمى كُنتَ فيهِ ... ما لِغير الحمى تَرومُ وتقصِدْ
فارسٌ في قَتَامَةِ النَّيل تمضى ... بشِهاب منَ السَّماءِ مُؤَيَّدْ
مِشْعَلٌ في يدَيْكَ شَرَّدَ بالأَضْ ... واءِ جُنحاً على الشَّواطئِ أربَدْ

كُنتَ تَسرى به فُتنهضُ فاني ... نَ علَيهم شيْخُوخَةُ اليأْس تُقِعدْ
بضِياءٍ منَ الهدَى أنعشَ الشَّرْ ... قَ وطَرفُ الزَّمانِ في (مصر) أرمَدْ
وَبَيانٍ كأنه لهبُ (البُرْ ... كانِ) تَختارُ جَمرَه وتُنَضِّدْ
كلَّ لَفظٍ منَ الصراحةِ سهمٌ... في حَشا الغاصبين ماضٍ مُسَدَّدْ
هاَتِ لي مِن صَداهُ نَبراً لَعلّي ... أنْفثُ النَّارَ من صَداىَ المغرِّدْ
هاتِه فالجحود وَارَاه في سجْ ... ن على شاطئِ الليالي مُشَرَّدْ
في زوايا النِّسْيان قَبرٌ. . . وَذِكرٌ. . . ... ورَخاٌ في الصَّمْت لهفان مُكْمَدْ
كاد يَنضو الأستارَ عنه وينعى ... أنا رَمزُ الفَخار يا (نِيلُ) فاشهَدْ!
أنا عَلَّمتُكَ الْوُثوبَ على القَيْ ... د! وعَلمْتني الأسى والتنَهُّدْ!
ما الذي في الضِّفاف نَسَّاكَ رُوحاً ... ذَاقَ من أجْلكَ الرَّدَى واسْتشهدْ؟
أشيُوخٍ على الكَراسيِّ هاَجُوا ... وَهْيَ منْ بَغْيهم تميدُ وَتُرْعَدْ!؟
أَمْ شبابٌ على تُرابِكَ يمشى ... حَول ساقَيهِ كالأسِير المصَّفَّد؟
خانعٌ في حِماك. . . ينتظرُ البَعْ ... ث ليمضى إلى الإمام وَينهَدْ
عَلَّموهُ. . الأرزاقُ في (مصر) رَهْنٌ ... بِرَجاءٍ! وذِلةٍ! وتَودُّد!
كيف يُلقى بعَزمه تحت نَعلَي ... هـ وفي الذلِّ يستنيمُ ويَرفُد!!
ما الذي في الضفاف نسَّاك يا (نيل) ... هَوى ذَلِك الشعاع المقَيَّد؟
فَمنحت التِّمثال شِبراً، عَليه ... تائهُ الدود في البِلَى يتمرَّد!
وَحرَمتَ الجهاد فجراً من النُّو ... ر، يُهَدِّي إلى عُلاكَ وَيُرشِد؟!
محمد حسن إسماعيل

صوفية الفن

للأستاذ زكي المحاسني

ما لعينيك تسموان إلي الج ... وكطير لم يلق في الجو حدّا
وتبيت الدجى كأنك شبْح ... خافق في ظلامه ليس يَهدا
شُدِهَ الناس من لَغَاك فظن ... وك سلبياً في جاحم تتردى
ورآك الحبيب تدلف سه ... وان فبكّى وراح يلطم خدا
أنظرُ الغيبَ في مداه فلا تم ... لك عيني عن وجهه الحلوِ ردا
أسمعُ اللحن خلفه فأراني ... هالكاً من صدايَ أبصرت وِردا
وإذا لفّني الظلام ترنَّحْ ... تُ على عِطفِه وقد نمت سُهدا
إن يقولوا إني جننت يصيبوا ... فأنا قد فقدت بالعقل رشدا
والجميل الذي تحسر لوكا ... ن حبيباً لصار لي اليوم ندا
أنا روحٌ خرجتُ منّي إلى الأف ... قِ البعيد البعيدِ قد عفت قِدا
طفت فوق الربى على الزهر أحنو ... وتَخِذْت الغمائم البيض مهدا
وهفا بي إلى الجمال خيال ... فتراءى فماً وعيناً ونهدا
والصباح الندىُّ عطر أنفا ... سي وكانت لي العشيات أندى
أيها الفن ما تقربت من عل ... ياك إلا وازددت بالقرب بعدا
أنا أهواك في السماء وفي الأر ... ض وأسعى إليك ما اسطعت جهدا

زكي المحاسني

البريد الأدبي

مجلس إسلامي أعلى بمصر

يهتم العالم الإسلامي في سورية والعراق وإيران والهند بالكتب التي أرسلها صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر إلى رجال الدين في الأقطار الإسلامية يواضعهم الرأي فيها على إنشاء مجلس إسلامي أعلى بمصر لينظر في إزالة ما أحدثته العصبيات والأهواء والبدع من الفروق بين أبناء الملة الواحدة ليعود المسلمون إخواناً في الهوى والرأي والعقيدة. وقد علمنا أن أهم أغراض المشروع هي:

(1) تقوية روابط الإخاء بين المسلمين في جميع أنحاء العالم

(2) إيجاد التعاون بين الهيئات التعليمية في البلدان الإسلامية على نشر الثقافة على وجه العموم والثقافة الإسلامية على وجه الخصوص

(3) تبسيط الكتب الدينية ليتسنى لعامة المسلمين فهم دينهم على الوجه الصحيح

تقريب وجهات النظر بين الطوائف الإسلامية حتى يشعروا بالأخوة الإسلامية التي (4)
تساعد على التناصر والتضافر والوحدة
والمفهوم أن سيتألف هذا المجلس من علماء المسلمين في جميع الأقطار الإسلامية
على اختلاف مذاهبهم ثم ينعقد بالقاهرة في وقت معين من السنة فتعرض عليه
المسائل والمشاكل والمقترحات فيضع فيها الرأي الموفق
بين مصر والمغرب
قدم القاهرة منذ أسابيع الأستاذ محمد المكي الناصري مدير معهد الأبحاث المغربية
في تطوان حاملاً من سمو مولاي الحسن خليفة المنطقة المغربية المشمولة بالحماية
الإسبانية إلى رجال الحكومة المصرية وإلى قادة الفكر بمصر - هذا الكتاب الذي يحدد
الغرض من مقدمه، ونصه:
من سمو خليفة جلالة سلطان المملكة المغربية أعزه الله وأيد أمره (الحسن بن
المهدي بن إسماعيل بن محمد):
يعلم من هذا الكتاب الرفيع قدراً ومقاماً أننا أرسلنا حامله خديمنا الأرضي مدير معهدنا
الخليفي بالعاصمة التطوانية الأستاذ الدراكة الألمعي الفقيه السيد محمد المكي
الناصري
مبعوثاً خاصَّاً من سمونا المعظم إلى مصر القاهرة رغبة منا في أن يقوم هنالك
بتأسيس مثوى خاص لبعثاتنا العلمية التي عزمنا على إرسالها إلى القطر المصري
الشقيق، وأن يضع الحجر الأساسي لمكتب ثقافي صرف ملحق بمعهدنا الخليفي نفسه
لترتكز فيه العلاقات الثقافية التي تربط بين الغرب الجديد ومصر الحرة الناهضة،
الحاملة للواء الزعامة في العالم العربي؛ وبالإجمال أرسلناه ليتخذ كل الوسائط
المناسبة التي تجعل نخبة مواطنينا المغاربة على اتصال تام بالنهضة العلمية الكبرى
التي أمد الله بها وادي النيل المحبوب، وليفسح المجال لمعهدنا الخليفي حتى يبلغ في
ميدان المعرفة أقصى ما يمكنه من كمال. فالرجاء من رجال الحكومة المصرية
الموقرة، ومن قادة الفكر المصري العباقرة، أن يساعدوا مبعوثنا الخاص حامل هذا
الكتاب السامي على مهمته الثقافية المجردة، وأن يتفضلوا فيقابلوه بما هو أهله من
العطف والتأييد والتقدير. أبقاهم الله تعالى لخير العروبة ومجد الاسلام، وحفظهم الله
زخراً للكنانة حتى يحرسوها على الدوام، والسلام
تطوان في 28 محرم عام 1357
وقد قدم الأستاذ المكي هذا الخطاب الملكي إلى صاحب المعالي الدكتور هيكل باشا
وزير المعارف فصرح له بما يأتي:
إن مصاير الأمم التي تتكلم اللغة العربية متحدة تمام الاتحاد من الوجهة الروحية، ولذا)
فأنا نغتبط كل الاغتباط بربط العلاقات الثقافية مع جميع البلاد الشقيقة، وليس هذا
الاتجاه اتجاه حزب من الأحزاب، بل هو اتجاه جميع الحكومات المتعاقبة في مصر فهو
اتجاه ثابت دائم. ونحن مستعدون كل الاستعداد لمساعدة المغرب الأقصى في جميع
ما يطلب من الناحية الثقافية سواء بإرسال المدرسين المصريين إلى مراكش أو
بقبول البعثات المغربية في مصر. وإني لأغتبط بالموافقة على مطالبكم التي
(قدمتموها للوزارة، وكونوا مطمئنين إلى أن مصر ستقوم بأكثر مما تنتظرون منها
وقد تم الاتفاق بينه وبين وزارة المعارف على إيفاد بعثة مغربية إلى مصر لا يقل عدد
طلابها عن العشرين للدخول في المدارس والمعاهد المصرية، وإيفاد بعثة من الأساتذة
المصريين تنتدبهم الوزارة للتدريس في المدارس المغربية. وسينفذ هذان المشروعان
اعتباراً من بدء السنة الدراسية الجديدة
معهد للثقافة الإسلامية في اليابان
تقدمت الثقافة الإسلامية في حكومة اليابان خطوة أخرى فتألف فيها معهد رسمي
للثقافة الإسلامية. والغرض منه تعريف البلاد الإسلامية والشرقية أحوال تلك البلاد
وعاداتها وطبائع سكانها وتنمية الروابط الثقافية والأدبية بين اليابان والبلاد الإسلامية
كافة
وقد تلقينا العدد الأول من مجلة يصدرها هذا المعهد باللغة العربية جاء في مقدمته عن
أغراض المعهد والمجلة ودعوتهما للبلاد الإسلامية ما يأتي:
إن الأمم الإسلامية التي اكتسبت فضائلها النفسية من محاسن الدين الإسلامي)

الحنيف لابد لها أن تطرب لهذا الصوت الذي يناديها من أقاصي الشرق طالباً منها المعونة والتأييد لتحقيق غرض مشترك سام يجلب الخير والبركات لا على اليابان والشعوب الإسلامية فحسب، بل على العالم الإنساني بأسره

إن أملنا بشعور هذا العالم السامي الحي وطيد بأنه سيتقدم نحونا بنفس الشوق الذي نتقدم نحن إليه للعمل جنباً لجنب في إنشاء عالم جديد يسوده السلام ويغمره الخير في آسيا يعيش الجميع في ظلاله بصفاء ووئام ويتمتع الكل بالراحة والنعيم المنشود والرخاء إن هذه المجلة ستعني عناية خاصة في أن تجعل نفسها همزة الوصل بين اليابان والإسلام وشعوبه ليعرف كل منهم الروابط الثقافية والودية ليتم التفاهم على أساس صحيح. وفي ذلك الخير للجميع والله ولي التوفيق)

التعاون العلمي بين مصر والأقطار الشرقية

تألفت في دمشق هيئة أطلق عليها اسم (المكتب العربي القومي)، ومن أغراضه توطيد صلات العلم والثقافة بين البلاد العربية المختلفة

وقد طلب هذا المكتب إلى وزارة المعارف إمداده بما يصدر عن الجهات الرسمية العلمية والثقافية من مؤلفات وكتب وقوانين إلى غير ذلك لضمها إلى مكتبه

وقد كتبت وزارة المعارف إلى وزارة المالية تطلب إليها رأيها في هذا الطلب، ذاكرة في هذا الصدد أن ما يطلبه المكتب المشار إليه لا يكلف الحكومة شيئاً يذكر

رحلة علمية لدرس طرق القوافل

من أنباء لندن أنه وصل إلى ميناء سوثمبتون المستر سمبتش والمستر مور من الأمريكيان ثم سافرا إلى الإسكندرية بالطائرة (كابيلا). وسيقومان برحلة تستغرق ثلاثة أشهر من النيل إلى دجلة والفرات يتفقدان في خلالها طرق القوافل القديمة ويقارنان بينها وبين طرق النقل الحديثة التي تستعمل اليوم

سفر بعثة علمية ألمانية من كوبنهاجن إلى جرينلند

من أخبار برلين أن بعثة علمية ألمانية سافرت أخيراً على الباخرة (جرترودراسك) من كوبنهاجن إلى جرينلند للقيام بمباحث جغرافية وجيولوجية ونباتية وحيوانية وقد وردت منها البرقية الآتية: (لا يوجد الآن جليد على سواحل جرينلند الشمالية. وقد نزلنا إلى البر بكل راحة والطوالع حسنة للقيام بأعمال مثمرة والجميع في خير حال)

الاستكشافات القطبية

تلقت وزارة الخارجية دعوة موجهة للحكومة المصرية، للاشتراك في مؤتمر دولي خاص بالاستكشافات القطبية سيعقد في مدينة برجن عاصمة النرويج في 15 مايو إلى 22 سبتمبر سنة 1940

وقد أحالت وزارة الخارجية تلك الدعوة إلى الوزارات المختصة للوقوف على رأيها في هذا الشأن، وستعرض أيضاً على لجنة المؤتمرات والمعارض في اجتماعها القادم

العالم العربي كما تصوره جريدة إنجليزية

نشرت جريدة إيكونومست مقالا رئيساً بحثت فيه أحوال العالم العربي وأشارت إلى الاقتراح القائل بوجوب عزل فلسطين عن جوارها بسياج من الأسلاك. لكنها أوضحت أن فلسطين غير قابلة للعزل على الإطلاق، لأنها محاطة من كل جانب بالعالم العربي، وما من حاجز مادي يستطيع أن يمنع مليون عربي مقيمين فيها من الشعور والتفكير والعمل بالاتفاق مع أربعين إلى خمسين مليون عربي يعيشون في مناطق واسعة من الأرض الداخلية

ثم قالت إن اللغة العربية هي اللغة الوحيدة في ذلك الفضاء الواسع، بل هي أم اللغات الشائعة بين الأهالي الحاليين في آسيا الجنوبية الغربية وأفريقيا الشمالية ما خلا بضع جزائر غريبة اللسان باق بعضها من الأزمنة السابقة لعهد العرب

فما هي الآمال القائمة اليوم في بعض الصدور؟ هل النزلاء الأوربيون الذين حلوا أخيراً في مملكة العرب القديمة سيزيدون عدداً حتى يملئوا الأرض التي كانت إلى الآن عربية؟ وهل يدفعون سكانها العرب أنفسهم على تخلية المدن والقرى والرجوع القهقري إلى الصحراء الجرداء القاحلة؟

لا شك أن في الدنيا بعض الصهيونيين يحملون في أن يجعلوا اللسان العبراني لسان الشرق من حيفا إلى تل أبيب على الطرف الغربي من الصحراء السورية، كما يوجد أيضاً بعض الفرنسيين الذين يحلمون مثل هذا الحلم ويرجون نقل لغتهم الفرنسوية من

وهران والجزائر إلى الطرف الشمالي من الصحراء الأفريقية وتحويل من هنالك من البرابرة الذين لم يصيروا عرباً حتى الآن إلى فرنسيين
فهل هذه الأحلام الأوربية بالتوسع العظيم على نفقة العرب تخيلات وهمية أم سياسة عملية؟
إن الرد على هذا السؤال يتوقف على كيفية تأثر العرب بهذا الاندفاع الأوربي. أن اشتراك اللغة وحدها لا يترتب عليه اشتراك في الشعور الاجتماعي ولا اشتراك في الغايات ولا في الأماني. وقد كان العرب حتى الآن متباعدين. ويستدل على عدم تضامنهم باختلاف الألوان الكثيرة على خريطتهم الجغرافية
فان في العالم العربي اليوم أربع دول: السعودية واليمن والعراق ومصر، مستقلة استقلالاً تاماً، وثلاثا على مقربة من الاستقلال وهي سوريا ولبنان وشرق الأردن، واثنتين ممنوعتين من الاستقلال مكرهتين على قبول نظام الحماية الفرنسوية وهما: تونس والمغرب الأقصى، وثلاثا محكومات فعلا بصفة مستعمرات مع أنهن في الواقع ذوات أحكام مختلفة. ففلسطين تحت الانتداب البريطاني، والسودان تحت السلطتين الإنجليزية والمصرية، ولوبيا تحت السلطة الإيطالية. وأخيراً الجزائر فان فيها ثلاث مقاطعات معدودة فرنسية كأراضي فرنسا الأصلية.
وهكذا نرى العالم العربي في حالته الحاضرة لا يختلف عن أيام الصليبيين. بل إن) الخريطة الحاضرة تشبه خريطة تلك الأيام إلى درجة مدهشة
ففي تلك الأيام كانت فلسطين وتونس كما هما اليوم النقطتين العربيتين اللتين رسخت فيهما قدم الغزاة الأوربيين، وكانتا كما هما اليوم نقطتي الخطر المميت. ومنهما انبعث قبلاً كما ينبعث اليوم النداء العام إلى تعاون العرب الذي كان محسوباً مستحيلاً وقتئذ كما هو محسوب الآن.
أن النورمان أخرجوا من تونس بقوة منقذين أقبلوا لنجدتها عليهم من المغرب الأقصى. وصلاح الدين الأيوبي استطاع وقف الحملة الصليبية الثالثة بقوات متحدة تحت سيطرته من سوريا والعراق ومصر.
فهل ترى التاريخ يعيد نفسه؟ - إن الأدلة التي تشير إلى ذلك عديدة.
نداءات الباعة في القاهرة
في العدد الأخير من مجلة مدرسة اللغات الشرقية بجامعة لندن بحث قيم طريف عن نداءات الباعة في شوارع القاهرة تحت عنوان ' وهو ما يسمعه الجالس على المقاهي أو الجائل خلال شوارع القاهرة ودروبها وأزقتها من مختلف النداءات التي يحاول الباعة أن يجتذبوا الجمهور بها إلى بضائعهم، والتي يبذلون غاية جهدهم في تنميقها حتى تكون مشوّقة، وهذا البحث جديد في بابه لم يلتفت إليه أو يُعْنَ به أحد قبل كاتبه مستر فهذا المقال الطريف بما حوى من مختلف النداءات التي تقرب من مائتي نداء تصور جانباً من الحياة النفسية في القاهرة للباعة المتجوَّلين، ويطلَّ القارئ منها على أساليب العيش في مصر، إذ أنها تمثل صميم الحياة الاجتماعية، ويذكرنا هذا البحث بكتيب صغير الحجم ألفه أحد الأمريكيين منذ أمد غير بعيد وقدمه رسالة لجامعة كاليفورنيا بأمريكا تناول فيه الأمثال الدارجة عند أهل الشام وترجمها إلى الإنجليزية وعلق عليها، فمنحته الجامعة لقب دكتور في الآداب
وعلى ذكر مجلة اللغات الشرقية نقول إن هذه المجلة إحدى نشرات جماعة المستشرقين القيمة التي تعني بالدراسات الشرقية على وجه العموم، فتلتقي على صفحاتها أقلام أعلامهم، متناولة شتى جوانب الحياة الشرقية والتفكير الشرقي ممثلين في آدابه ودياناته وحركاته الاجتماعية، ولقد ظل الأستاذ سير دينسون روس أستاذ اللغة العربية بجامعة منشستر محرر هذه المجلة منذ نشأتها حتى العام الماضي، ثم تولاها من بعده الأستاذ تيرنر وهو من
أفذاذ المستشرقين الإنجليز
الكتُب
التجديد في الشعر
أرجوحة القمر
للشاعر اللبناني صلاح لبكي
للأستاذ فليكس فارس

لا أحب هؤلاء المدعين التجديد في الإنشاء المرسل والشعر المرسل الذين يحسبون أنهم يجيئون بالعجب العجاب إذا هم قلبوا أوضاع اللغة وتصرفوا بلهجاتها وروعة اتساقها، فكأن تفكيرهم وشعورهم لا يقويان على الظهور إلا إذا خلقوا لنا لغة جديدة تقوى على اقتناص شوارد الخيال وجامحات التفكير فيهم؛ وكأن البيان العربي الذي اتسع لأقدس وحي وأروع إلهام، قد فقد روحه وأنحطم جناحاه في هذه الأيام

لا ريب في أن لشاعر الحضارة ما لم يكن لشاعر البداوة من الإنطباعات الذهنية والتأثر؛ ومن وقف عند القديم في مجال التصور والانفعال كان مقلداً يجره البيان إلى المعنى إذ لا يملك تحكيم معناه ببيانه

نحن اليوم في مرحلة يتنازع فيها إلهام الشاعر قوتان: قوة تفكيره وشعوره في بيئة تختلف عن البيئة التي ألهمت الشعراء الأقدمين، وقوة الأسلوب العربي الذي لا يسلس قيادة إلا لمن اهتدى إلى مواضع المرونة في قوته

إن من الشعراء الذين وقفوا إلى حد بعيد في إلهامهم وبيانهم الأستاذ صلاح لبكي وهو ابن المرحوم نعوم لبكي صاحب جريدة المناظر (جدة صحف المهجر) الذي قضى حياته محلقاً في أجواء السياسة والأدب فما جاراه إلا العدد القليل في أوائل النهضة بلاغة وجراءة وإخلاصاً. وقد طوى جناحيه في أواخر أيامه على صخرة جرداء كانت كرسياً لأول رئيس للمجلس النيابي في لبنان

والأستاذ صلاح محام لامع قدير لم ينضب القانون معين شاعريته، فالشاعرية الأصيلة كدوحة السنديان تنشب أصولها في كل تربة وتتغذى حتى من الصخور

وقد نشر مؤخراً في ديوان صغير بعض مقطوعات تعد بحق من نماذج التطور الذي لم يضل سبيله في الشعر العربي فاسمعه يقول في مقدمته:

ورب شعر نام عنه القضا ... مر بجيل بعد أجيال
يحمل منى زفرة مرة ... مرثاة أحلامي وآمالي
ردده عني فتى لم تدع ... منه الرزايا غير أسمال
مستأنساً بي جاهلا من أنا ... إني أخو الباكين أمثالي

وإذا ما وصلت إلي مقطوعة العاصفة فاقرأها كلها فهي ستة أبيات تقرأ فيها قصيدة طويلة

اسمعي الإعصار يدوي في الجبال ... اسمعي للغاب أناتٍ طوال
اسمعي كم طائر تحت الظلام ... تائه بلله القطر السجام
يتوخى مأمنا حتى الصباح ... من تُرى ينجيه من كف الرياح
افتحي الكوة في وجه السما ... وانظريها لبست ثوب الشقاء
وتوارت رهبة خلف الغيوم ... بعد أن أطفأت الريح النجوم
أغلقي الكوة في وجه الرياح ... للصباح
خبئي رأسك في صدري ونامي ... يا غرامي

وعندما تستوقفك قصيدة تشويق بمقدمتها الصوفية فاتلُ منها بصوت مرتفع هذه الأبيات لتشرك أذنك بما يتمتع به تفكيرك وشعورك من روعتها وسلاستها

رب يوم تمشين فيه إلى مغْ ... رِب عمر الحياة دون رجاء
يلفح الريح في طريقك والقر ... ويرسو عليك هم الشتاء
وتصيرين والضحى كبقايا ... علم رث تحت ستر الخفاء
نسجوه لكل مجد فلم يخْ ... فق بجو ولم يصن بدماء
وتبيتين دون ذكرى غرام ... كان دفء الصبا عجوز شقاء
فتعالي إني فرشت لك الحب ... وعطرت بالحنان هوائي
نتساقى الهوى ونذخر للتذ ... كار نوراً لساعة الإمساء
حينما لا نعود نسكر بالحب ... ويمسى التذكار كل المزاء

فليكس فارس

الحروب الصليبية

في نهاية العصور الوسطى

تأليف الدكتور عزيز سوريال

الدكتور عزيز سوريال عطية أحد القلائل - بين المؤرخين العالميين - الذين كرسوا جهودهم لدراسة الحروب الصليبية في عهدها الأخير، ولإيضاح الصراع الهائل الذي كان

بين الشرق والغرب إبان العصور الوسطى، والذي كانت تذكي حماسته عوامل مختلفة بعضها ماديّ وبعضها روحي. ولقد أصدر منذ بضعة أعوام كتابه عن (حرب نيقوبوليس الصليبية) فلقي من تحبيذ الهيئات العلمية والجامعات الأوربية ما دفع مؤلفه للسير في هذا السبيل الشائك برغم ما يعترض سبيل الباحث من عقبات كأداء تكاد تصرفه عن متابعة البحث في تلك الناحية.

واليوم يفاجئ المؤلف المصري باحثي التاريخ بكتاب آخر يضعه في مصاف أقطاب مؤرخي هذه الناحية الصعبة الولوج، إذ أصدر في الشهر الغابر كتابه الثاني الضخم (الحروب الصليبية في نهاية العصور الوسطى) في قرابة 620 صفحة من القطع الكبير، أصدرته مطبعة ماتيوين في إنجلترا في طبعة أنيقة، ولقد شمل الكتاب من اللوحات الفنية الملونة وغير الملونة عدداً لا يستهان به، وقد نقلت هاتيك اللوحات من المخطوطات الأصلية الموجودة في المتحف البريطاني ومكتبة الفاتيكان بروما وليدن وغيرها من مكاتب أوربا، ولا مشاحة في أن هذه اللوحات تعين القارئ على تفهم كثير مما يلقاه في ثنايا هذا السفر الضخم، كما أضاف المؤلف لكتابه خرائط عدة منقولة عن مخطوطات الرحالة التركي بيرى رئيس، الموجودة في مكاتب برلين ودرسدن، ولا شك في أن الدكتور عطية قد ذلل للقارئ السبيل بما قدمه له من خرائط رسمها بنفسه حتى يتفهم المرء من غير عسر مضمون أبحاث هذا الكتاب

وينقسم الكتاب إلى أربعة أقسام كبيرة، استعرض المؤلف في أولها تاريخ الشرق والغرب من حيث الحروب الصليبية وعلاقتها بالتاريخ العام في تلك الفترة، وشمل ثانيها تحليلاً للأصول الأوربية في الدعاية لهذه الحروب ومشروعاتها المختلفة، وألم المؤلف في ثالثها بموقف الشرق بما في ذلك أمم التتر والطوائف المسيحية الشرقية إزاء الحروب الصليبية؛

أما الأخير فيفصل تاريخ الحملات الصليبية نفسها واحدة فواحدة. كل هذه المباحث في عشرين فصلاً، أضاف إليها الدكتور ع. س. عطية خمسة ملاحق منها ما هو منقول عن مخطوطات لاتينية لم تنشر بعد، ورأت النور لأول مرة على صفحات الكتاب، ومنها ما هو تحليل لما اكتشفه المؤلف من رسائل سلاطين المماليك في ذلك العهد النائي لملوك أرغونة، وينتهي الكتاب بفهرس للمراجع الخطية والمطبوعة من عربية وتركية ولاتينية وفرنسية وإنجليزية وإيطالية وألمانية. الخ

ولقد جاء في تقدمة الناشرين: (إن مؤلف هذا الكتاب الهام - الذي برهن على مقدرته في تناول البحث بمجلده السابق عن حرب نيقوبوليس - يستعرض اليوم في كتابه الحاضر ذلك التاريخ الذي تعتبر نيقوبوليس آخر فصل فيه، ونحن نعتقد أن المشاق التي تجشمها في هذا الصدد قد أسفرت عن عمل ذي قيمة علمية عظمى، ولقد واصل المؤلف سلسلة دراساته لهذه الغاية في المخطوطات) العربية بقارتي أوربة وأفريقية، وهو إلى جانب إجادته لأحدث طرق البحث العلمي في أوربة، فإنه يتكلم الإنجليزية كلغته الأصلية، ومن ثم كان نتيجة بحوثه سفراً علمياً دقيقاً، وهو بالإضافة إلى كل هذا صورة حية للكفاح بين الشرف والغرب في القرن الرابع عشر، وتصوير لحال العالمين الإسلامي والمسيحي في ذلك العهد السحيق. ومن ثم لم تكن ثمة مندوحة عن هذا الكتاب للمؤرخ والسياسي ولكل مشتغل بدرس الشؤون العالمية وتفهم أصول الصراع الحاضر في شرق البحر الأبيض المتوسط) هذه هي كلمة الناشرين، أما نظرية المؤلف فتتلخص في أن الحروب الصليبية لم تنته بسقوط عكا - وهي آخر حصن للصليبيين - في يد المسلمين عام 1291، وإنما بقيت هذه الحركة قوية حتى سنة 1396، يدل على ذلك الاهتمام الشامل في أوربا بأمر غزوة بيت المقدس والحروب التي قامت بها الدول ضد المسلمين في مصر وشمال إفريقية وسوريا وتركيا، فكأن المؤلف بذلك ينفي الفكرة التي شاعت بين المؤرخين في هذه الناحية حتى وقتنا هذا، وهو بذلك يضع أساساً جديداً لاستعراض تلك الدراسة. ومن رأيه أيضاً أن نتيجة هذه الحركة قيام الإمبراطورية المصرية بالقضاء على ملك المسيحيين بالبحر الأبيض المتوسط وتوغل الأتراك في أوربا نفسها

والمؤلف المصري جدير بما أحلته إياه جامعات أوربة وتسابقها في الاحتفاء به، وهو بعد

كل شيء فخر لمصر في عالم البحث والتحليل
ح. ح
عصفور من الشرق
تأليف الأستاذ توفيق الحكيم
للأستاذ علي الطنطاوي
الأستاذ توفيق الحكيم أكبر أدبائنا القصصيين. لا يكاد ينازع في ذلك أحد، ومن أكثر الأدباء إنتاجاً وأخصبهم قريحة. عالج أنواعاً من القصة فوفق فيها وأني بالمعجب المطرب، ومن ذلك قصته الأخيرة (عصفور من الشرق) التي فرغت من قراءتها الآن، فأحسست كأني كنت في جنة سحرية، ثم هبطت إلى الأرض، وتمنيت لو طال نفس الأستاذ فيها حتى ما تنتهي. وأكبر ما أعجبني فيها هذه النظرة إلى الغرب وماديته، وهذه القولة الجريئة في بيان حقيقة الغرب وتخلفه في ميدان الروح، على سبقه في مجال المادة، تلك التي لو قالها غير الأستاذ توفيق الحكيم لا تهمه هؤلاء المفتونون بالغرب من شباننا بالجمود والرجعية وما إلى ذلك من الألفاظ التي حفظوها حفظ الببغاوات، وما فتئوا يرددونها ترديد الحاكي، فلما قالها الأستاذ الحكيم وهو الذي يعترفون بأدبه، ويقرون بسمو منزلته، ويتمثلون بأقواله، سكتوا ولكن على مضض.
وهذه ميزة كبيرة للقصة ترتفع فيها إلى صف القصص العالمية التي لم تنشأ لمجرد اللهو، ولإمتاع القارئ بالجمال الفني، وإنما جمعت إلى الجمال الفني نظرة تحليلية إصلاحية عميقة؛ غير أني أخذت على القصة أشياء، منها ما يتصل بالفن، ومنها ما يمس الدين، ومنها ما يعود إلى اللغة. أسأل عنها الأستاذ الكبير، ليوضح منها ما خفي، ويفتح ما استغلق
أولها: إن القصة تكاد تكون مؤلفة من حلقات ثلاث لا صلة بينها إلا صلة محسن الذي يمر فيها جميعاً، أندره وأمه العجوز وزوجها الهرم، ودارهم التي وصفها المؤلف وبيّن أنه لا مورد لشيخي الدار إلا ما يأتي من محسن، وبدا للقارئ أن بين محسن وأهل الدار أكثر مما يكون بين مستأجر وبين أصحاب المنزل. فلما انتقل محسن إلى المنزل، انقطع الحديث عن والدي أندريه وعن منزلهما، على حين أن القارئ يتشوق للعودة إلى حديثهما، وما كان من أمرهما بعد انتقال محسن
والحلقة الثانية: سوزي التي أحبها محسن وشغف بها ثم انتهت العلاقة بينهما على هذا الشكل، ولم يرجع لها في القصة ذكر، مع أن القارئ يحب أن يسمع شيئاً عنها ويعجب من
محسن هذا الذي كان مستهاماً عاشقاً، لا يفكر إلا في هذه التي يحبها، كيف ينساها أبداً ولا يجري اسمها على لسانه ولا تمر صورتها في جنانه، ولا يبقى لها أثر في نفسه؟ ما هكذا عهدنا المحبين يغفلون، فأي حب هذا؟
والحلقة الثالثة: إيفان الذي أنطقه المؤلف بأصح الآراء وأثمنها في حضارة الغرب ومذاهبه الفكرية، وهي حلقة منفردة عن الحلقتين، ولكنها حلقة مفرغة، ليس فيها نقص ولا خرم
أما ما يتصل بالدين، فهو أن الأستاذ ينظر إلى السيدة زينب نظر المسيحيين إلى القديسين والشفعاء، فيسميها حامية، وينسب إليها الضر والنفع، ويطلب منها ويتوسل إليها؛ وهذا كله مخالف لروح التوحيد الذي جاء به الإسلام، فليس في الإسلام حماة ولا وسطاء بين الله وعباده، ولا ينفع ولا يضر إلا الله، وإذا كان الله يقول لرسوله الأعظم: (ليس لك من الأمر شيء) وإذا كان النبي يقول لابنته فاطمة: (يا فاطمة بنت محمد، لا أغني عنك من الله شيئاً) فماذا تصنع السيدة زينب للأستاذ الحكيم؟ وكيف تحميه من الله الذي لا يشفع عنده واحد إلا بإذنه، فهل أذن لها الله بحماية الناس، أم إن من الناس قوماً (شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله)؟
أما ما يعود إلى اللغة، فشيء يعرفه الناس من لغة الأستاذ، لا حاجة إلى بيانه
هذا وإني أهتبل هذه الفرصة لأرفع إلى الأستاذ الكبير تحياتي وإكباري
علي الطنطاوي
العدد 260 - بتاريخ: 27 - 06 - 1938
المعرفة سيادة
للأستاذ عباس محمود العقاد

المسافة بين منشية الإسكندرية ومحطة الرمل قصيرة، ولكنها على قصرها تريك من أي طريق سلكتها عظم المسافة بين الأمم التي تسود والأمم التي تساد
عشرون أو ثلاثون مكتبة في هذه الطريق بين فرنسية وإنجليزية وإيطالية ويونانية، وفيها من الكتب الأدبي والقصصي والفلسفي والعلمي وكل ما يبحث فيه الباحثون ويصنف فيه المصنفون
والبلاد عربية، فأين هي المكتبة العربية بين جميع هذه المكتبات؟
لا ترى هناك مكتبة واحدة؛ وإن رأيت بعض الكتب العربية فقد تراها معروضة في إحدى الوجهات الإفرنجية فرعاً من الفروع الصغيرة، لا أصلاً من الأصول الكبيرة التي تتشعب عليها الفروع
لم هذا؟
ألأن السكندرية مدينة تجارية كما يقولون فلا شغل فيها للمصريين غير التجارة والسوق، وغير البضاعة والأسعار؟
إن كانت التجارة صارفاً عن الثقافة فالأجانب في الإسكندرية تجار أو عاملون في التجارة، ولعلهم هم القابضون على أزمة السوق وهم الظافرون منها بحصة الأسد، وما من أجنبي في الإسكندرية إلا وهو طالب مال ومشتغل بحرفة من حرف الاتجار والصناعة. فلم كثرت الكتب الإفرنجية وقلت الكتب العربية في المدينة؟؟
أم هي كثرة الصحف والمجلات كما يقولون قد صرفت المصريين عن دراسة الكتب إلى لهو القراءة وتزجية الفراغ؟
ليس هذا أيضاً بصالح لمعذرة ولا لتفسير، فأن الصحف والمجلات الأجنبية التي تظهر في القاهرة والإسكندرية، أو ترد إليها من لندن وباريس وروما أكبر عدداً وأوسع انتشاراً من صحفنا ومجلاتنا العربية، وهي مع هذا لا تصرف القراء عن مطالعة الآداب ومتابعة العلوم والأخذ بالنصيب المطلوب من الثقافات والفنون.
لا هذا ولا (الأمية) سبب معقول لشيوع الكتب الإفرنجية وندور الكتب العربية في عاصمة
القطر الثانية، أو في عاصمة الثقافة الشرقية على عهد من عهود مصر الغابرة، فان العارفين بالقراءة من المصريين في الإسكندرية لا يقلون عدداً عن العارفين بالقراءة فيها من النزلاء والغرباء، وإن كان فرق بينهما في العدد فليس هو الفرق الذي يكون بين صفر وثلاثين
إنما الفرق الصحيح هو فرق بين أمم تسود وأمم تساد
أو هو فرق بين من يطلبون المعرفة شوقاً واستطلاعاً، ومن يطلبونها تكليفاً واتباعاً، لأن التكليف فرض على المسودين حتى حين يعرفون
بل هو فرق بين النفس التي يبقى فيها جانب يطلب الغذاء بعد أن تشبع المعدة بالخبز والماء، وبين النفس التي يشبع منها كل جانب حين تمتلئ الأحشاء بالطعام والشراب وذلك هو الفرق الصحيح لا مراء
وفي الطريق من مصر إلى الإسكندرية على جانب الصحراء أديرة قديمة نعلم عنها من كتب الأجانب ما لسنا نعلم من الكتب العربية جمعاء.
ذهبت إلى الإسكندرية ومعي كتاب ضخم بالإنجليزية عن هذه الأديرة يقع في نيف وخمسمائة صفحة كبيرة بين كتابة ونقوش
لمن كتبه الكاتب؟
وماذا يعني القراء مما كتب؟
كتبه للمعرفة، ويقرأه القراء للمعرفة؛ وليس من سبب غير المعرفة يساوي الجهد المبذول فيه والثمن المقدور له والوقت الذي انقضى في تحضيره وتأليفه وضبط نقوشه ورموزه وتواريخه
أما هذا السبب فلعله آخر الأسباب التي تدفع الجمهرة عندنا إلى فتح كتاب، فضلاً عن تأليف كتاب
من يطلب المعرفة لفائدة يحصرها في المأكل والملبس والمسكن وما هو في حكم الطعام واللباس والبيوت، فإنما هو مسوق إلى ما يطلب، وإنما هو عبد في جهله وعبد في معرفته على السواء

ومن يطلب المعرفة لأنها المعرفة، فذلك هو السيد وتلك هي السيادة؛ وحسبه أنه هو يريد
أن يعرف ثم تأتى الفائدة في الطريق، وليس؛ يراد على معرفة شيء كما يراد على جهله، لأنه مسوق بسلطان الضرورة القاهرة إلى ما يريد
ولست أعني بسيادة العارف أن المعرفة سلاح في يديه يصل به إلى السيادة كما يصل المرء إلى السلطان بالسيف والمال والحيلة
كلا. فلو كان كل في ما المعرفة من سيادة أنها كالسلاح في هذا المطلب لكانت أداة تؤدي إلى غيرها ولم تكن غاية تتأدى إليها المقاصد وتنتهي إليها اللبانات.
ولكنما عنيت أن طلب المعرفة للمعرفة هو هو السيادة، وهو هو العلامة على أن الإنسان (سيد)، يفهم ما يفهمه لأنه طبيعة فيه ووظيفة من وظائف عقله وتكوينه، لا لأنه مغرى به إغراء الطمع، ولا لأنه مسوق إليه سوق الإجبار والإكراه
لم تعرف النفس؟
ألا تسأل: لم تنظر العين؟ ولم تسمع الأذن! ولم يشم الأنف؟ ولم تدرك الحواس؟ إن العين لا تنظر لسبب غير أنها حاسة فيها قوة النظر، والأذن لا تسمع لسبب غير أنها حاسة فيها قوة السماع، وكذلك الأنف وكذلك كل حاسة في الإنسان أو الحيوان. فما بالنا نبتغي سبباً للعقل أو للبصيرة حين يدركان ويعرفان؟ لماذا تنظر العين لغير علة ولا مطمع ولا فائدة، ثم نأبى على العقل أن يدرك ما يدرك إلا للعلل والمطامع والفوائد، وإلا لهذه العلل والمطامع والفوائد التي نحصرها في أضيق الحدود وأقرب الحاجات.
لأحرى بنا أن نسأل: لماذا يحجم العقل عن المعرفة، وأن نسأل لماذا تحجم العين عن النظرة، وأن نسأل لماذا تعجز الحواس عن الإدراك
عندئذ نفهم الجواب ولا يطول بنا العناء في فهمه، فذاك أن الحواس عاجزة مكفوفة، وأن العين عمياء، وأن العقل معدوم أو ضعيف.
أما أن نسأل لماذا يعنى العقل بالمعرفة فذاك هو اللغو والفضول، وذاك هو السؤال الذي يشبه سؤالنا: ما بال العين تقع على ما تراه ولا تنحرف عنه ولا تأبى النظر إليه حسب الشيء أنه يرى ليكون ذلك حقاً له في رؤية العيون
وحسب الشيء أنه يعرف ليكون ذلك حقاً له في معرفة البصائر والعقول
فأن جعلنا للمعرفة ثمناً من الحطام أو ثمناً مما يشبه الحطام فهي أذن معرفة اضطراراً أو
معرفة عبيد وأتباع؛ وهي إذن شيء وطبيعة السيادة شيء، ولو نجح صاحبها في السيطرة على الآخرين كما ينجح الجبان في يده المدفع وخصمه أعزل من السلاح
قال الأستاذ طمسون عن آراء أرسطو في علم الأحياء ما معناه: إن الفضل كل الفضل للفيلسوف الإغريقي العظيم أنه شعر بالحاجة إلى مراقبة الحشرات والأسماك في الخلجات، وفهم أن تقييد حركتها وتسجيل ولادتها ونموها معرفة تحسن بالحكيم؛ وليس الفضل أنه أتى بآراء في علم الأحياء يعول عليها الناس في العصر الحديث
ولو أن الفيلسوف الإغريقي لم يشغل عقله في زمانه إلا بما يفيد لتوه وساعته لما وصلنا إلى علم أحياء يفيدنا اليوم، أو لا يفيد
ليست الآفة عندنا أننا مشغولون بالتجارة عن القراءة، فالأوربيون أعظم منا اشتغالا بالتجارة واجتناء لخيراتها
وليست الآفة أن الصحف اللاهية تصرفنا عن كتب العلم والأدب والدراسة، فان الصحف اللاهية سبقتنا في أوربا ويسبقنا بها الأجانب في بلادنا المصرية
ولكنما الآفة أن التجارة تجارتان: تجارة أحرار فهم مسيطرون عليها، وتجارة اتباع فهي مسيطرة عليهم، وأننا إذا طلبنا المال أو المعرفة طلبناهما مسوقين ولم نطلبهما طلب السادة الذين يملكون من أنفسهم بقية يشغلونها بما يحبون
عباس محمود العقاد
تأملات في الأدب والحياة
للأستاذ إسماعيل مظهر
أديب طبعة ثانية
عرضت في كلمة سابقة إلى تلك المعركة القائمة على صفحات الرسالة بين الأدباء

حول أدب الأستاذ العقاد وأدب الأستاذ الرافعي رحمه الله؛ وسقت نقدي مساق من لا يبرئ نفسه مما تناول ذلك النقد من رأي واتجاه. فلم أخرج ذاتي من مجال النقد الذي سقت، معترفاً بان ذلك رجوع إلى الحق، واطمئنان إلى اتجاه جديد. ولكن هذا كله لم يرض الأديب سيد قطب فراح يتهكم ويسخر لا ليقول شيئاً جديداً ولا ليحاسب نفسه حساب الرجل القادر على كبح عواطفه ليجعل لعقله بعض القدرة على وزن الموقف بميزان لا يميل مع الهوى ولا ينساق مع الانفعال.

غير أن انفعال الأديب سيد قطب فيما كتب لم يكن ليجعل لعقله محلاً من الأثر في صوغ المعاني التي أرادها، فأخذ يرمي الجمل والكلم ذات اليمين وذات الشمال وعن أمام وعن خلف، شأن الثائر لا شأن الناقد؛ ثم خانته ثورته وخذله انفعاله، فاستيقظ عقله الباطن استيقاظة طفيفة، فرجع إلى قوله: (أنا)، كأنما طبيعته لم تقو على احتمال تلك الثورة ولم تستطع مقاومة ذلك الانفعال، فتبدت في ثوب ذي ألوان - ألقى إليه به قزح وأدبر وانصرف - كان أبين لون فيه ذلك اللون الذي تتخيله من قوله:

وإننا من أخلص تلاميذ مدرسة هذا الكاتب (أي الأستاذ العقاد) لطريقته، وأشد الناس (فهماً لها، واقتناعاً بها، ونسجاً على منوالها)

إذن فالأديب سيد قطب أشد الناس فهماً لأدب الأستاذ العقاد، وليس ذلك فقط فهو أيضاً أشد الناس اقتناعاً بطريقته؛ وليس هذا ولا ذاك فقط، بل هو فوق هذا وفوق ذاك أقدر الناس على النسج على منوال الأستاذ العقاد. وإذن يكون الأديب سيد قطب، أديب طبعة ثانية؛ فهو باعترافه أديب، غير أنه عبارة عن نسخة من أديب آخر؛ أديب شخصية صورة من شخصية أديب آخر، وأدبه لوحة من أدب شخص آخر؛ أديب أسلوبه كالطبعة التي يتركها في الرمل قدم أديب آخر؛ أديب نفسيته وطبعه وذاتيته كالصورة الموهومة التي تلتقطها المصورة الضوئية وتطبعها على الرق المعروف، ولكنها صورة وهمية

هذه الصورة الوهمية، قد أفرغ عليها الأديب سيد قطب صفات وحلاها بفضائل، لا أنكر أنه نسبها إلى الأستاذ العقاد، كما لا أنكر أنه إنما نسبها إلى الأستاذ العقاد، لتكون نسبتها إليه منصرفة بالتبعية إلى (الطبعة الثانية) من الأستاذ العقاد؛ وتلك الطبعة هي الأديب سيد قطب

أما هذه الصفات وتلك الفضائل، فلا أنكر أنها قد فخمت وحليت، حتى إذا لابست أدب الأستاذ العقاد، لابست بالتبعية (طبعة ثانية) سيد قطب. يقول الأديب سيد قطب في مقاله الأخير:

يعنى العقاد (والأديب سيد قطب باعتباره طبعة ثانية) إمام المدرسة الحديثة (والأديب سيد قطب باعتباره إمام المدرسة الحديثة طبعة ثانية) بالحياة النابضة في ضمائر الأشياء قبل الحياة الظاهرة على سطوحها، ويعني بالحياتين معاً قبل العناية بأشكالها وصورها، ويلتفت للخوالج النفسية قبل أن يلتفت إلى الصور الذهنية، ويعنى بهاتين قبل العناية ببهارج الأسلوب وزخارف الطلاوة)

ثم يقول:

وللعقاد (والأديب سيد قطب باعتباره طبعة ثانية) عناية بتصحيح مقاييس الأحكام على ومنشؤه أنه صاحب (نفس) خاصة، وطبع (أصيل)، فهو لا يتلقى (الطبائع والنفوس المبادئ والأحكام من الخارج، ولكن يفيض بها من الداخل، ويسمع فيها منطق الحياة الخالدة، ووحي الإنسانية الدائمة، لا منطق الفرد العابر، ولا الجيل القاصر) - ومن عندنا - تعبيرات الاختلاجات المستقوية على النفسانيات في كلمن سعفص قرشت هذا الكلام المغلق بسبعة أبواب كما يقولون، وأشباهه في كلام الأديب سيد قطب كثير وكثير جداً وجداً كثير، هو الذي يحاول أن يجلو به أستاذاً كالعقاد في مجال الكلام عن مذهبه، فإذا به يطمس المعاني ويرسل التعميمات التي لا حدود لها لتكون حدوداً لمذهب أدبي. غير أن لهذا الأمر حقيقة خفية؛ حقيقة تختفي وراء هذه الضربات القاسية المصمة التي يخرج من هذه الطبلة التي يضرب عليها الأديب سيد قطب. أما هذه الحقيقة فهي أن الأديب قطب لا يتكلم عن الأستاذ العقاد، وإنما يحاول أن يتكلم عن نفسه متخذاً من الأستاذ العقاد دريئة يحتمي بها. كيف لا والأديب سيد قطب (من

أخلص تلاميذ هذا الكاتب لطريقته، وأشد الناس فهماً لها، واقتناعاً بها، ونسجاً على منوالها)؟ أما أن الأديب سيد قطب (أشد الناس فهماً لطريقة الأستاذ العقاد واقتناعاً بها ونسجاً على منوالها) فأمر جدلي، ودعوى من السهل أن يدعيها أي إنسان؛ والدعوى شيء وإثباتها شيء آخر. وأما أنه يتكلم عن الأستاذ العقاد ليتكلم عن نفسه؛ وأما أنه لم يمدح الأستاذ العقاد إلا ليمدح نفسه، وليقول صراحة أنه خليفة العقاد في طريقته وإنه، أشد الناس فهماً لها واقتناعاً بها ونسجاً على منوالها، فدعوى نقولها ونثبتها بكلام ذلك الأديب نفسه.

وحيث أن الأديب سيد قطب أثار النقع متخذاً من خصومة أدبية قديمة بين أديبين ذريعة للكلام في أشياء بعيدة عن مذهبيهما

وحيث أنه نصر الأستاذ العقاد على الأستاذ الرافعي رحمه الله في حماسة متقدة دلت على أنه يحاول من ورائها كسباً أدبياً

وحيث أنه قضى بأن الأستاذ العقاد صاحب مذهب، وأن مناظره لا مذهب له من غير أن يقيم الحجة على ذلك

وحيث أنه أتضح أن السبب في ذلك إنما يرجع إلى غرض خفي هو أن يدعي لنفسه أنه أشد الناس فهماً لطريقة الأستاذ العقاد واقتناعاً بها ونسجاً على منوالها

وحيث أن المنطق يسلم بأنه لم يقصد من وراء ما كتب كله إلا بلوغ هذه الغاية الشخصية، وهو أن يكون خليفة الأستاذ العقاد، محاولاً أن يستل مجد أديب خدم الأدب ربع قرن ليدعيه لنفسه ببضع مقالات

لهذا كله يكون الأديب سيد قطب (طبعة ثانية) ولكنها طبعة مزورة من الأستاذ العقاد

هذا الاستقراء صحيح تحت مسئوليتي ولا أتكلم في هذا الموضوع مرة ثانية. فإن الحقائق التي نمت عنها كلمات الأديب تجعل كل نقاش في الموضوع فاقد القيمة، ما دام أن (أنا) هي المحور الذي تدور من حوله تلك البحوث

عن فولتير

من أنت؟ ومن أين أتيت؟ وما هو عملك؟ وما الذي سوف يحل بك؟ عامة ذي (1) أسئلة ينبغي أن يفكر فيها كل مخلوق في هذا الوجود؛ ولكن لم يجب عنها كائن ما. أتساءل عن النباتات بأي سر تنمو، وكيف أن الأرض الواحدة تؤتي بالثمر المتباين المختلف؟ إن هذه

الكائنات غير الحساسة - مع إيماني بأنها زودت بسر إلهي - تتركني أمامها شاعراً بالجهل العميق، سابحاً في فروضي العميقة. إني أقف حائراً أمام هذه القطعان الغفيرة من الحيوانات، فكلها ذات قدرة على الحركة والانتقال، وفيها من الاحساسات ما أجد مثله في نفسي، ولها انفعالات تمتد إلى حيث تكون الأفكار والذكريات. ومع هذا فانهم بأنفسهم أجهل مني بنفسي. فلأي شيء وجدوا؟ وإلى أي شيء سوف ينقلبون؟

لقد أظن أن السيارات وتلك الشموس العظيمة التي تملأ رحاب الفضاء يأهل بها مخلوقات مفكرة واعية، ولكن دونها حاجز أبدي يفصلني عنها، فأن واحداً من سكان تلك الكرات العظام، لم يستطع الاتصال بعالمنا

قال رئيس الدير، متجلياً في الطبيعة، للفارس: إن النجوم قد صنعت من أجل الأرض، وإن الأرض والحيوانات صنعت من أجل الإنسان. ولكن هذه الكرة الأرضية الصغيرة إذ تدور مع بقية السيارات من حول الشمس؛ وإن هذه الحركة المنتظمة المنتسقة التي تسيرها الأجرام السماوية إذ ربما تستمر ولو لم يكن ناس؛ وإذ كان في سيارنا الصغير من الحيوانات عدد اعظم من عدد أبناء آدم؛ فقد أتصور أن رئيس الدير قد شمله حب الذات وعمه الغرام بالنفس، فخيل إليه أن كل شيء قد صنع من أجله. وإني لأرى أن الإنسان عرضة لأن يلتهمه أي حيوان إذا لم يتقها بالسلاح، وإن كل الحيوانات تأكله بعد أن يموت. من أجل هذا داخلني الشك في أن رئيس الدير والفارس هما سيدا الطبيعة.

وباعتباري كائناً هو يحكم وجوده عبد لكل شيء يحيط به، لا سيداً آمراً مطاعاً؛ كائنا مكبلاً حيث ذهب وكان؛ كائناً تحيط به اللانهايات، أبدأ بحثي عن طبيعة نفسي.

ضعفنا - 2

إني حيوان ضعيف؛ ولدت بلا قوة وبلا معرفة وبلا غريزة. كنت عديم القدرة حتى على الزحف إلى ثدي أمي، على الضد من كل ذوات الأربع. استوعبت قليلاً من الفكرات، وحزت قليلاً من القوة عندما أخذت أعضائي تبرز وتتكون. ومضت القوة تزيد في، حتى

إذا بلغت حداً اكتملت فيه، أخذت من ثم في التناقص. وتلك القوة التي مكنتني من إدراك الفكرات أخذت بدورها تزيد وتستفحل حتى بلغت حدها الأقصى، ثم أخذت تتخاذل بعد ذلك، حتى لأشعر بأنها تفني شيئاً فشيئاً

ما هي تلك القوة الآلية التي تزيد من قدرة أعضائي في حدود هذا الهيكل الجسمي؟ إني لأجهلها. وأولئك الذين قضوا أعمارهم في الفحص عنها، ليسوا أكثر مني معرفة بها.

وما هي تلك القوة الأخرى التي تحمل الصور إلى ذهني، ثم تخزنها في ذاكرتي؟ أما أولئك الذين أجروا بالمال لكي يعرفوا شيئاً، فقد ذهبت كدودهم أدراج الرياح. ونحن وهم في الجهل سواء بالمبادئ الأولية التي تقوم عليها طفولتنا

3 - كيف أفكر

هل علمتني تلك الكتب التي حبرت في خلال الألفين الفارطين من السنين شيئاً؟ قد تشب في نفوسنا بعض الأحيان رغبة في أن نعرف كيف نفكر، وقلما تقوم في أنفسنا رغبة في أن نعرف كيف نهضم أو كيف نمشي. لقد تساءلت ما هو عقلي؟ والحق أنه سؤال كثيراً ما اربكني

لقد حاولت أن أكشف بقوة عقلي ما إذا كانت المصادر التي تجعلني أهضم وأمشي، هي بنفسها المصادر التي تجعلني أتقبل الفكرات. ولم أستطع أن أدرك كيف وإلى أين تذهب تلك الفكرات عندما يعضني الجوع بنابه السام، وكيف تعود وتتجدد بعد أن أسد نهمة الجوع بالأكل

استبنت فارقاً كبيراً شاسعاً بين الفكر والاغتذاء، بغيره لا أستطيع التفكير، حتى لقد اعتقدت أن في كياني مادة تفكر وأخرى تهضم. ومع هذا وبالرغم من أني رضت نفسي دائماً على الاعتقاد بأن في وجودي شيئين، فإني من الوجهة المادية أشعر شعوراً صادقاً بأنني شيء واحد. على أن هذا التناقض يؤلمني ويؤذيني

سألت بعضهم، وكانوا من أولئك الذين يفلحون الأرض، أمنا العظمى، عما إذا كان كل منهم شيئين، وعما إذا كانوا قد استكشفوا بفلسفتهم الخاصة أن فيهم جوهراً خالداً باقياً، ومع ذلك فهو مؤلف من لا شيء ولا امتداد له، وأنه يؤثر في أعصابهم من غير أن يلمسها، وإن هذا الجوهر قد حل فيهم بعد أن حملت فيهم أمهاتهم بستة أسابيع؟ فظنوا أني أهزل، ومضوا يفلحون الأرض مبتسمين من غير أن يحيروا جواباً

4 - أمن الضروري أن أعرف

لما أن وجدت أن عدداً عظيما من الناس ليس لهم أية فكرة في تلك المشكلات التي تساورني، وهم مع ذلك لا تختلجهم الشكوك فيما يتلقى في المدارس أو في الوجود عامة أو في المادة أو في الروح إلى غير ذلك؛ ورأيت أنهم يهزءون من رغبتي التي تدفعني إلى معرفة هذه الأشياء واستيعابها، شرعت الريبة تداخلني في ضرورة معرفتها؛ وتخيلت أن الطبيعة قد أعطت لكل مخلوق نصيباً هو حقه الطبيعي غير زائد ولا منقوص، وإذن تكون تلك الأشياء التي لا نستطيع أن نعرفها، ليست من نصيبنا، ولكن بالرغم من هذا اليأس، فأني لا أقدر على أن أجرد نفسي من الرغبة في أن أتعلم، فان حب الاستطلاع نزعة سوف تظل غير مكفية في نفسي.

5 - أرسطو طاليس وديكارت وغسندي

بدأ أرسطو طاليس كلامه بالقول بأن الشك نبع المعرفة، وتابعه ديكارت فانتقل بهذه النزعة خطوة أخرى حتى لقد علمني كلاهما بألا أعتقد في شيء يقولانه. وديكارت هذا على الأخص بعد أن ادعى أنه يشك، مضى يتكلم بأسلوب تقريري حاسم في أشياء لا يفهمها. يقول أنه موقن بالحقائق، بينما تجده على خطأ كبير في طبعياته. لقد بنى ديكارت عوالم وهمية، فان حلقاته الزوبعية وعناصره الثلاثة، أمور تثير الضحك، حتى لقد أشك فيما قال في النفس، إذا قست علمه بها على علمه بالأجسام

هو يعتقد، أو بالحري يظن أنه يعتقد، أننا نولد مزودين بفكرات غيبية، فهل يحق لي أن أقول بناءً على هذا أن هوميروس قد ولد مزوداً بالإلياذة، وأنها كانت كامنة في تضاعيف ذهنه. مما لاشك فيه أن هوميروس قد ولد وذهنه مهيأ لأن يستوعب فيما بعد فكرات شعرية، بعضها جميل، وبعضها متضارب، وفي بعض الأحيان مصبوغة بالمغالاة، وفي النهاية استطاع أن يؤلف الإلياذة، إننا إنما نولد في هذه الدنيا وفينا البذرة التي تتمخض عما سوف نكون، ولكن الحقيقة أننا نولد وليس فينا من الفكريات الفطرية

أكثر مما كان عند روفائيل وميكال انجلو من أقلام وألوان عند مولدهما
يحاول ديكارت أن يوحد بين خيالاته تلك، بأن يفرض بأن الناس يفكرون دائماً. من هنا ،أستطيع أن أفرض أيضاً أن الطيور تطير على وجه الدوام، وأن الكلاب تجري فلا تقف لأن في الطيور القدرة على الطير، وفي الكلاب القدرة على الجري.
إننا لا نحتاج، لكي نقتنع، بما يتناقض هذه الأقوال، إلا لفتة إلى تجاريبنا، وأخرى إلى الطبيعة البشرية. فليس في الإنسانية برمتها واحد بلغ منه الجنون مبلغ أن يعتقد أنه مضى يفكر كل حياته ليلا ونهاراً بغير انقطاع، من يوم أن كان جنيناً حتى مرضه الأخير؛ أما الملجأ الذي يلجأ إليه الذين يدافعون عن تلك الأقصوصة، فقولهم إننا نفكر على الولاء، وبغير انقطاع، من غير أن تدرك أننا نفكر، ومن هنا يمكن أن نقول إننا قد نشرب ونأكل ونركب الخيل من غير أن تدرك أننا فعلنا ذلك؛ وإذا كنت عاجزاً عن أن تدرك أنك تحوز فكرات، فكيف تعتقد أو توقن بأن فيك منها شيء؟ لقد سخر غسندي من هذا المذهب المتطرف، جهد ما يستحق أن يسخر منه. ولكن أتعلم ماذا كانت النتيجة؟ كانت أن ديكارت وغسندي قد رميا بأنهما من الملاحدة المنكرين لله.

إسماعيل مظهر

قصة الكلمة المترجمة

(القتل أنفى للقتل)

لأستاذ جليل

- 2 -

قرأ الأستاذ الرافعي (رحمه الله) كلمة الأستاذ النشاشيبي فأرسل إلى الجريدة بمقالة عنوانها (ليست مترجمة) - البلاغ 20 رجب 1352 - قال فيها:

قال الأستاذ الكبير محمد إسعاف النشاشيبي في كلمة للبلاغ إن عبارة (القتل أنفى للقتل) ليست بعربية ولا مولدة بل هي مترجمة. ولكن هذه الكلمة لم يشر إلى أصلها غير (الثعالبي) وهو مع ذلك لم يقطع فيها برأي، بل أشار إلى ترجمتها في صيغة من صيغ التمريض المعروفة عند الرواة فقال: (يحكى فيما ترجم عن أردشير) و (يحكى) هذه ليست نصاً في باب الرواية، ولو كانت العبارة مترجمة لتناقلتها الأئمة معزوة إلى قائلها أو لغتها التي قيلت فيها. ولقد ذكرها العسكري في كتابه (الصناعتين) على أنها (من قولهم) أي العرب أو المولدين ونقلها الرازي في تفسيره فقال: إن للعرب في هذا المعنى كلمات منها (قتل البعض إحياء للجميع) وأحسنها (القتل أنفى للقتل) وكذلك جاء بها ابن الأثير، ولم يعزها. وكل ذلك صريح في أن خبر الترجمة ما أنفرد به إلا الثعالبي، ولا يقوم الدليل على ترجمتها إلا بظهور أصلها الفارسي! فان كان علم ذلك عند أحد فليتفضل به مشكوراً مأجوراً)

قلت: هذه أقوال الذين أشار إليهم الأستاذ الرافعي (رحمه الله) أرويها وغيرها بعدها فوائد يرغب الأدباء في علمها:

قال أبو هلال العسكري في (كتاب الصناعتين): (والإيجاز القصر والحذف، فالقصر تقليل الألفاظ وتكثير المعاني وهو قول الله عز وجل: - ولكم في القصاص حياة - ويتبين فضل هذا الكلام إذا قرنته بما جاء عن العرب في معناه وهو قولهم: (القتل أنفى للقتل) فصار قول القرآن فوق هذا القول لزيادته عليه في الفائدة) ثم بين هذه الزيادة

وقال الرازي في تفسيره (مفاتيح الغيب): (اتفق علماء البيان على أن هذه الآية في الإيجاز

مع جمع المعاني باللغة بالغة إلى أعلى الدرجات، وذلك لأن العرب عبروا عن هذا المعنى بألفاظ كثيرة كقولهم: (قتل البعض إحياء للجميع)، وقول آخرين (أكثروا القتل ليقل القتل)؛ وأجود الألفاظ المنقولة عنهم في هذا الباب قولهم: (القتل أنفى للقتل)؛ ثم إن لفظ القرآن أفصح من هذا، وبيان التفاوت من وجوه) وهي ستة وقد ذكرها، منها: (أن قول القائل: القتل أنفى للقتل لا يفيد إلا الردع عن القتل، وقوله (القصاص حياة) يفيد الردع عن القتل وعن الجرح وغيرهما فهو أجمع للفوائد. إن القتل ظلماً - قتلٌ، مع أنه لا يكون نافياً للقتل. إنما النافي لوقوع القتل هو القتل المخصوص وهو القصاص، فظاهر قولهم باطل، أما الآية فهي صحيحة ظاهراً وتقديراً، فظهر التفاوت بين الآية وبين كلام العرب)

قلت: نسبة الرازي قولهم (قتل البعض إحياء للجميع) إلى العرب باطلة مثل نسبة عبارة القتل إليهم، فقد أطبق الأئمة المحققون على أن العربية الأولى، عربية (الجزيرة) لم تقل في وقت: (الكل والبعض). قال الجوهري في (تاج اللغة وصحاح العربية): (وكل وبعض معرفتان، ولم يجيء عن العرب بالألف واللام، وهو جائز لأن فيهما معنى الإضافة أضفت أو لم تضف) ونقل قول (الصحاح) صاحب (المختار) وقال ابن منظور في (اللسان): (وقال أبو حائم: قلت للأصمعي: رأيت في كتاب ابن المقفع: (العلم كثير، ولكن أخذ البعض خير من ترك الكل) فأنكره أشد الإنكار، وقال الألف واللام لا يدخلان في بعض وكل لأنهما معرفة بغير ألف ولام. قال أبو حاتم: ولا تقول العرب الكل والبعض وقد أستعمله الناس حتى سيبويه والأخفش في كتبهما لقلة علمهما بهذا النحو فاجتنب ذلك فانه ليس من كلام العرب)

وفي (القاموس): (بعض لا تدخله اللام خلافاً لابن دُرُستُويَه)

وفي (شرح القاموس): (قال ابن سيدة: وفيه مسامحة، وهو في الحقيقة غير جائز.

وفي العباب: وقد خالف ابن درستويه الناس قاطبة في عصره. وقال الناقدي:

فتى درستوي إلى خفض ... أخطأ في كل وفي بعض

دماغُه عقَّنه نومُه ... فصار محتاجاً إلى نفض

وقال ابن أبي الحديد في شرح النهج: (وقد استعملت في كثير فيما يتعلق بكلام المتكلمين والحكماء خاصة ألفاظ القوم مع علمي بأن العربية لا تجيزها نحو قولهم الكل والبعض

والصفات الذاتية والجسمانيات ونحو ذلك مما لا يخفى على من له أدنى أنس بالأدب، ولكنا استهجنا تبديل ألفاظهم فمن كلم قوماً كلمهم باصطلاحهم)

وقد روى أبو العلاء هذا البيت في (رسالة الغفران) لسُحيم:

رأيت الغني والفقير كليهما ... إلى الموت يأتي الموت للكل معمداً

لكنه قاله في (الرسالة) قبل ذلك: (وكذلك قوله: الكل (أي قول ابن القارح) إدخاله الألف واللام مكروه، وكان أبو علي يجيزه ويدعي إجازته على سيبويه، فأما الكلام القديم فيفتقد فيه الكل والبعض)

وفي (المصباح): (قال الأزهري وأجاز النحويون إدخال الألف واللام على بعض وكل) وتجويز نحوي لا يثبت عربية قول بل يجيز أن يقوله المولد وإن لم يرد

فقولهم: (قتل البعض إحياء للجميع) مولد محدث، وقد روى الجاحظ في كتاب الحيوان هذا القول: (وقد قالوا: بعض القتل إحياء وبعض العفو إغراء، كما أن بعض المنع إعطاء. وهو كلام حسن من حكم المولدين المنشئين

وقال ابن الأثير في (المثل السائر): وهو - أي الإيجاز بالقصر - أعلى طبقات الإيجاز مكاناً، وأعوزه إمكاناً، وإذا وجد في كلام بعض البلغاء فإنما يوجد شاذاً نادراً. فمن ذلك ما ورد في القرآن الكريم (ولكم في القصاص حياة) فان قوله تعالى (القصاص حياة) لا يمكن التعبير عنه إلا بألفاظ كثيرة. ولا يلتفت إلى ما ورد عن العرب من قولهم: (القتل أنفى للقتل) فان من لا يعلم يظن أن هذا على وزن الآية، وليس كذلك، بل بينهما فرق من ثلاثة أوجه) ثم ذكرها ثم قال: (وقد صاغ أبو تمام هذا المعنى الوارد عن العرب في بعض بيت من شعره فقال:

وأخافكم كي تغمدوا أسيافكم ... إن الدم المغبر يحرسه الدم

فقوله: إن الدم المغبر يحرسه الدم أحسن مما ورد عن العرب من قولهم: القتل أنفى للقتل)

وممن مشى وراء غيره في نسبة العبارة الفارسية إلى العرب يحيى بن حمزة صاحب (الطراز) فقد قال: (ومن هذا قوله تعالى: (ولكم في القصاص حياة) فانظر إلى اللفظة الجميلة كم يندرج تحتها من المعاني التي لا يمكن حصرها، ولا ينتهي أحد إلى ضبطها، فأين هذا مما أثر عن العرب من قولهم: القتل أنفى للقتل وقد تميزت الآية عنه بوجوه

ثلاثة) ثم ذكرها

ومنهم الأسيوطي فقد قال في (الإتقان): وقد فضلت (يعني الآية الكريمة) على أوجز ما كان عند العرب في هذا المعنى وهو قولهم (القتل أنفى للقتل) بعشرين وجهاً أو أكثر، وقد أشار ابن الأثير إلى إنكار هذا التفضيل وقال: لا تشبيه بين كلام الخالق وكلام

المخلوق وإنما العلماء يقدحون أذهانهم فيما يظهر لهم من ذلك) ثم ذكر العشرين وجهاً
وصاحب (المفتاح) قال: (والعلم في الإيجاز قوله (علت كلمته) - في القصاص حياة - وإصابته المحز بفضله على ما كان عندهم أوجز كلام في هذا المعنى وذلك قولهم: القتل أنفى للقتل)
ونقا القزويني في (التلخيص والإيضاح) كلام المفتاح فقال: (عندهم)
وقد ذكر ابن القطقطي في كتابه (الآداب السلطانية والدول الإسلامية) قول الله وتلك العبارة قال: (قال الله تعالى: (ولكم في القصاص حياة) وقيل: القتل أنفى للقتل)
وروى بعد ذلك هذا البيت غير منسوب إلى أحد:
بسفك الدما بجارتي تحقن الدما ... وبالقتل تنجو كل نفس من القتل
وهو أفصح من الكلمة الفارسية وأبين وأجود، وهو محدث.
وأضبط الروايات في نسب تلك العبارة رواية (غرر أخبار الفرس وسيرهم) للثعالبي.
قال في الصفحة 483: (فصول من كلام أردشير في كل فن: القتل أنفى للقتل الخ) و (غرر أخبار الفرس وسيرهم) كتاب جليل ترجمه كله أجمع إلى الفرنسية هـ. زتنبرج.
وقد قال في ترجمة عبارة أردشير:
ونشرت البلاغ (20 رجب 1352) بعد مقالة الأستاذ الرافعي (رحمه الله) كلمة للشيخ عبد العزيز الأزهري، عنوانها: (هي عربية) ومما قال فيها:
نشرتم أمس في صحيفتكم أن جملة (القتل أنفى للقتل) يراها الأستاذ النشاشيبي) مترجمة فهي ليست عربية ولا مولدة في رأيه. والذي أراه أنها عربية لما يأتي: أولاً - لأنها وردت بين ثنايا عهد القضاء الذي بعث به سيدنا عمر إلى أبي موسى الأشعري.
ثانياً - لأنها مما يوافق طباع العرب قبل غيرهم موافقة تامة فليسوا بحاجة إلى من يقرضهم أمثال هذه المعاني التي طفحت بها سيرهم وأملتها الدماء المهراقة بين لابتي الجزيرة العربية. فهي عربية لا مولدة ولا مترجمة، وقد يكون المترجم كلمة أخرى تشبهها هي: الاستعداد للحرب يمنع الحرب! فهذه معقول أن تكون مترجمة وخاصة في العصور الحديثة! لا بالعصور القديمة أو الوسطى التي كانت تضطرم نيران الحروب فيها لأوهى الأسباب)
قلت: قال الشيخ عبد العزيز الأزهري: (بين ثنايا عهد القضاء) والثنايا جمع الثنية. وقال (الصحاح): (والثنية واحدة الثنايا من السن، والثنية طريق العقبة). وقال اللسان: (كل عقبة مسلوكة ثنية وجمعها ثنايا. الثنية من الأضراس أول الفم، وثنايا الإنسان في فمه - الأربع في مقدم فيه، والثني من الإبل الذي يلقي ثنيته، وذلك في السادسة، ومن الغنم الداخل في السنة الثالثة تيساً كان أو كبشاً)
فلا ريب أن الشيخ يريد أن يقول: (في أثناء عهد القضاء) و (الثني واحد أثناء الشيء أي تضاعيفه. تقول: أنفذت كذا في ثني كتابي) كما قال (الصحاح)، وفي (الأساس): (ومن المجاز في أضعاف الكتاب: في أثنائه وأوساطه)
وقال الشيخ عبد العزيز: (بين لابتي الجزيرة العربية)، والجزيرة العربية ليست بين لا بتين وإن كانت فيها لوب كثيرة. وتخومها في البر والبحر معلومة. والتي بين لابتين هي المدينة، يثرب، مُهاجَر سيدنا ومولانا رسول الله (صلوات الله وسلامه عليه). وفي الحديث: (إنه حرم ما بين لابتيه المدينة) وهما حرتان يكتنفانها. قال صاحب (النهاية): (اللابة الحرة وهي الأرض ذات الحجارة السود التي قد ألبستها لكثرتها وجمعها لابات، فإذا كثرت فهي اللاب واللوب مثل قارة وقار وقور، وألفها منقلبة عن واو. والمدينة ما بين حرتين عظيمتين)
(للقصة بقية)
(* * *)
جورجياس
لأفلاطون
للأستاذ محمد حسن ظاظا
- 1 -
تنزل (جورجياس) من آثار أفلاطون منزلة الشرف لأنها)
أجمل محاوراته وأكملها وأجدرها جميعاً بأن تكون (إنجيلا)

(للفلسفة
إنما تحيا الأخلاق الفاضلة دائماً وتنتصر لأنها أقوى وأقدر)
(!من جميع الهادمين
(جورجياس - أفلاطون)
نبدأ اليوم فنقدم لقراء الرسالة الغراء ترجمة (محاورة جورجياس لأفلاطون) وهي من أجمل وأكمل محاورات الفيلسوف الخالدة إن لم تكن أجملها وأكملها جميعاً كما يقول الأستاذ (رينوفيير)؛ ولقد شئنا أن نختار هذه المحاورة على وجه خاص لأننا وجدنا فيها الكثير الجم من تلك المبادئ الخالدة التي هي جديرة تماماً بإنقاذ العالم من بحر المادية الصاخب الذي يغرق فيه اليوم، ومن تلك الفوضى الاجتماعية والسياسية والفكرية التي يعاني منها أشد العناء وينتحر على مذبحها انتحاراً أليماً!! ولما كان الكثير من القراء لا يعرف شيئاً عن هذه المحاورة فقد قصرنا هذا المقال على التعريف بها
مقدمة
ولد أفلاطون حوالي عام 427 ق. م في أسرة أرستقراطية عريقة. وشغف أثناء حداثته بالشعر، ثم ما لبث أن تركه بعد أن عرف أستاذه سقراط وأعجب به وبحواره العذب الطريف؛ وقد شهد في عصره عهد فوضى الحكومات الأرستقراطية والديمقراطية، كما
رأى الكثير من أحوال أولئك السفسطائيين الذي كانوا ينادون بأن الفرد مقياس كل شيء! وبأن الحواس أساس المعرفة! وبأن حقائق الأشياء لا يمكن أن تعرف معرفة يقينية! بل والذين كانوا يعلمون أبناء الأثرياء الفصاحة والبيان ليجعلوا منهم خطباء قادرين على إقناع الناس واستهوائهم آناً بالباطل وآناً بالحق، كيما يفوزوا بمناصب الدولة وببعد الصيت وكيما يستطيعوا أن يدافعوا عن أنفسهم ويبرروا سلوكهم إزاء هجمات الخصوم والمنافسين، وأمام القضاة والجماهير!
شهد أفلاطون ذلك كله وسمع بإذنيه قول القائلين بأن القوة حق!، ورأى بعينيه كيف زج (الشعب) بأستاذه العظيم سقراط في السجن وكيف راح يستمع إلى تمويه (أصحاب الدعوى) ويصم أذنيه عن صرخة الحق التي كان يجلجل بها صوت ذلك الأستاذ المظلوم!. فكان لنا منه تلك المحاورات الكثيرة التي جعل بطلها سقراط، والتي تناول فيها أولئك السفسطائيين بالسخرية والتصوير، والتي دعا فيها إلى تلك المبادئ التي كانت ولم تزل ولن تزال نوراً تهتدي الإنسانية بضوئه الساطع في مجال العلم والفن، والسياسة والاجتماع، والآداب والأخلاق على السواء
أما (جورجياس) فكان من أئمة السفسطائيين ومن أشهر خطبائهم ومعلميهم. ولد سنة 485 ق. م. وزار أثينا حوالي سنة 424 ق. م. وكان يدعي أن في استطاعته أن يجيب على كل سؤال!، وكان يقول إنه ليس من الضروري أن تعلم شيئاً عن الموضوع لتجيب عن الأسئلة التي توجه إليك بشأنه!؛ ولقد حاول بعد هذا أن يثبت في كتابه (اللاوجود) أنه لا يوجد شيء!، وإذا وجد فلا سبيل إلى معرفته!، وإذا أمكن أن يعرف فلا سبيل إلى إيصاله للغير!!
لذلك نرى أفلاطون يكتب عنه محاورة خاصة هي المحاورة التي نبدأ بتقديمها اليوم للقراء الأعزاء. وقد نقلت هذه المحاورة إلى جميع اللغات الهامة كسائر محاورات أفلاطون. والترجمة التي سنعتمد عليها هنا هي الترجمة الفرنسية للدكتور (بول لمير أستاذ الفلسفة المعروف. ولكنا نرجو على أية حال أن تصلنا قريباً ترجمة أخرى من باريس كيما نقارن الترجمتين ونخرج منهما بالنص المضبوط
وقد جاء في مقدمة هذه الترجمة للأستاذ (بول) ما يلي:
موضوع المحاورة
يصعب جداً تحديد الوقت الذي تحدث فيه سقراط مع السفسطائي، وربما كان ذلك) أثناء زيارة جورجياس لأثينا. وتعتبر هذه المحاورة من المحاورات التي ألفها أفلاطون في شبابه. وهي تبدأ بوصول كل من سقراط وشيرون متأخراً، وكانا يريدان سماع محاضرة لجورجياس
ومن ثم يريد سقراط أن يعرف من المحاضر مفتاح فنه وطبيعة تعاليمه، فيطلب منه المناقشة. أما موضوع المحاورة فهو فن البيان ويريد أفلاطون أنه فن إقناع الناس بالحق والعدل لا بالباطل والظلم، كما يرى أن وسائله في الإقناع كثيرة، إذ أنه أما أن

يضع الظواهر مكان الحقائق ويشير إلى الحواس والخيال والشهوات ثم العقل، وإما أن يشير إلى العقل ولكن بالمنطق السفسطائي الزائف كيما يخدعه. وبهذا يقتنع الشعب الوادع الجاهل، المخدوع دائماً بأولئك (الاستغلاليين) الذين يتملقونه!؛ والبيان بهاتين الوسيلتين دنيء حقير لا يعدو (فن الطبخ) في كثير! ولا يخرج على أن يكون خطاباً زائفاً منصباً على اللذائذ والشهوات فحسب؛ أما البيان الرفيع الصحيح فهو الذي يعني فقط بنصرة الحق والعدل؛ وتلك هي الناحية الإيجابية في المحاورة، ذلك أن الخطيب الحق عند أفلاطون، هو ذلك الصادق العادل الذي يستعين بالفلسفة في دراسة العدالة ونشرها، والذي يدعو لأن نكون أخيارا في السر والعلن، ولأن نكون عادلين دون أن نطمع في الجزاء!

ولم يكن أشجع بعد هذا ولا أجرأ من أن يعلن أفلاطون في وقت اختفت فيه فكرة (الواجب وانتهكت حرمة النظم والقوانين بالبلاد اليونانية، أن الأخلاق الفاضلة تحيا دائماً وتسود لأنها أقوى وأقدر من جميع الهادمين!، بل لم يكن أعظم ولا أجمل من أن تشيع هذه اللهجة السامية في جمهور متكبر اعتاد السياسيون أن يتملقوه، وامتلأ إيماناً (بحقه الأعلى) في شئون الدولة الصغيرة والكبيرة بغير استثناء!)

تحليل المحاورة:

أما الأستاذ (رينوفيير فقد حلل المحاورة تحليلا بديعا في كتابه , , ولذلك قد آثرنا أن نقدم هذا التحليل للقراء كيما نعدهم للترجمة أتم إعداد:

يقول (الظلم أفدح الشرور، وارتكابه أفدح من احتماله! وذلك هو الموضوع الذي يدعمه

سقراط ويدافع عنه أمام ثلاثة من السفسطائيين!، أحدهم جورجياس أستاذ البيان، وكان يدعي أنه يعلم الناس العدالة وأنه يعرفها حق المعرفة، ولكنه كان يقول أن البيان يعلمنا كيف نقنع الناس بالعدل والظلم، وكيف ندهشهم ونذهلهم ونظللهم ونحكمهم!؛ ولذلك يريه سقراط أنه يجهل العدل. فيتقدم إليه متحدث آخر بحماس، ويقول له إنه يعترف بأنه لا يعلم الناس العدالة وإنما يعلمهم فن القوة والسعادة، وإنه يعتبر ظالماً جباراً (كأرشليوس) (الذي قتل أخاه وعمه وأبن عمه ليصل إلى العرش) - أسعد الناس. . . فما يلبث سقراط أن يقرر أن الظلم شر، وأن العقاب بسببه خير، وأن أسوأ النفوس وأشقاها هي تلك التي تكون غارقة في بحر الظلم وتأبى مع ذلك أن ينقذها منقذ يبعدها عن العقاب!، وهنا يشك السفسطائي الثالث في أن سقراط يعني حقاً ما يقول و. . .، ثم يعلن أن الأفضل لنا هو أن نكون ذلك (الهرقل) الذي تصبح إرادته قانونا!، وان الضعفاء هم الذين يسنون القوانين ويسمونها عدلاً!. . .، وأن العدل في الطبيعة هو حق (الأقوى والأحسن) فيسائله سقراط: إذا كان الأمر كذلك فهل (تصبح إرادة (الجماعة) عدلا مادامت هي الأقوى؟

وهكذا يأخذ سقراط في إحراج المتحدثين الثلاثة وفي تضييق الخناق عليهم حتى يفسد عليهم حججهم، ويعلن (أننا نستطيع أن نستمد من العقل كل ما هو مشروع بالنسبة للجماعة والفرد، وأن الشخص العفيف يكون عادلاً وطيباً وشجاعاً، وأن غير العفيف يكون شقياً لا صديق له من الله والناس، لأنه خارج عن نطاق ذلك الكون الذي قد ربط الحب بين أرضه وسمائه وآلهته وأناسه بصلات وثيقة اقتضاها نظامه العام؛ فالظلم إذن أفدح الشرور لمن يرتكبه، ولن يكون سقراط العادل شقياً في يوم من الأيام، لن يُسرق أو يجلد أو يباع بيع الرقيق، ولكن الذي يشقى ويذل هو الذي يسرقه أو يجلده أو يبيعه بيع الرقيق!. . .

لهذا يجب أن نحفظ أنفسنا من ذلك الشر. . . وأن نكسب الفضيلة بكل ثمن، وأن (نبحث عن فن يساعدنا على ذلك الاكتساب ونمضي حياتنا في دراسته. . . الخ

وتنتهي المحاورة بخرافة كما تنتهي أغلب محاورات أفلاطون. وهو يصور لنا في هذه الخرافة ما تلقاه النفوس الظالمة الشريرة من عذاب الجحيم!

فإلى اللقاء حيث أقدم لك أشخاص المحاورة وأبدأ الترجمة بعد إذ قدمت لها بتلك المقدمة

(يتبع)

محمد حسن ظاظا

حول أصل قاسم أمين
للأستاذ محمد حسن البرازي
قرأت في العدد رقم 255 من الرسالة الغراء مقالة الأستاذ الجليل الذي أجهل أسمه - فهو لا يوقع أسمه - وأقر بفضله وأعجب بأدبه وسعة معارفه ودقة ملاحظاته. وعنوانها (قاسم أمين، هل كان كردياً؟) وكنت أطلعت قبل ذلك على قصيدة الأستاذ الجارم بك أما بيت القصيدة الذي يشير إلى أصل قاسم أمين الكردي:
يا فتى الكرد، كم بزرت رجالاً ... من صميم الحمى ومن أعرابه
فقد كنت، شأن الأستاذ الجليل، استعجبت منه ومن قائله؛ ولكن عجبي قد يختلف عن عجب الأستاذ بعض الاختلاف.
تعجبت من هذا القول، بل استنكرته، لأن فيه استخفافاً بقوم من الأقوام، فكأن الأستاذ الجارم سامحه الله يقول في بيته:
على الرغم من أنك كردي، أيها القاسم الأمين، فقد فقت العرب، وعلى الرغم من) أنك غريب فقد سبقت أهل البلاد).
إنني لا أدري إذا كان قاسم أمين كردي الأصل حقاً أم عربياً. ولكني أستفظع أن ينقص أصله لأنه كردي. فالكرد ليسوا من حيث المواهب والمؤهلات دون غيرهم من الشعوب. ولئن كنت أسلم مع الأستاذ الجليل ويسلم كل رجل يدين بالديمقراطية ويخضع لسلطان العقل والعلم، بأن (المرء بفضله لا بأصله) وأن (الإنسان - كما قال بديع الزمان - من حيث يوجد لا من حيث يولد). بيد أني لا أرى مجالاً لهذا الاستشهاد بصدد أصل قاسم أمين، لأنه ليس يزري بقاسم أمين أن يكون كردياً لا من حيث العلم والفضل، بل من حيث المنبت والأصل.
فهل طيب الأرومة وكرم العنصر وقف على قوم دون قوم وعرق دون عرق؟
إنني كما ينتقد الأستاذ الجليل من يقول من أبناء فرنسا مباهياً (أنا فرنسي، أنا ابن الغول) آخذ أيضاً على كل من يقول من المتكلمين بالعربية: (أنا عربي أنا من نسل قحطان أو عدنان) بمعرض المفاخرة على غيره من أبناء العربية المستعربين، أكراداً كانوا بالنسب، أم شراكسة، ألباناً أم صقليين.
إنها العصبية تسربت إلى الأستاذ الجارم في بيته (يا فتى الكرد) والعصبية نزعة قديمة بعثت حديثاً في بعض البلاد، كافحتها في القديم الأديان السماوية العالمية كالإسلام، والنصرانية، وتحاربها الآن جميع المذاهب التي ترمي إلى التقريب بين بني الإنسان وإحلال الوئام والسلام محل البغضاء والخصام
لقد كانت العصبية في الجاهلية مبدأ سائداً تقوم عليه الحياة الاجتماعية والسياسية فقد كانت الوحدة القبلية قبل الإسلام شبيهة بالرابطة تجمع بين أفراد الدولة الواحدة في عهدنا هذا. وقد بعثت العصبية من جديد في عهد بني أمية، بالرغم من مخالفتها روح الإسلام لغاية سياسية، خلاصتها دعم العرش الأموي ومقاومة خصوم الأمويين من آل البيت الذين كان أكثر دعاتهم وأقوى أنصارهم من غير العرب وجلهم من الفرس والأكراد.
اضمحلت العصبية بعد بني أمية. ولم يعد لها أثر يذكر إلا في الأدب العربي. وخاصة في الشعر لأسباب لا محل لتفصيلها الآن أجلها تقليد الأوائل ولا سيما الجاهليين
ولئن قامت في بعض البلاد الأوربية نزعات ومذاهب تشبه العصبية العربية كالقومية. في ألمانيا فهي تبرر عند أربابها على الأقل بأسباب حيوية لا نظير لها في البلاد العربية - ما خلا فلسطين التي نزلت بها من الصهيونية نازلة خاصة - فقد يكون للألمان بعض العذر بأن يتسلحوا بالقومية لمناوأة اليهود. لأن اليهود يتظاهرون في كل بلد يقيمون فيه بأنهم من صميم أهله في حين أنهم رغم السنين والقرون تمر عليهم، ورغم ما يفيدون من البلاد التي تلقتهم وآباءهم قبلهم من حقوق سياسية ومدنية يظلون يهوداً قومياً وعاطفياً تجمعهم جامعة قومية يهودية، ويبقون أمة داخل أمة. على أن العصبية أو القومية - أنى كانت وفي أي زمن وجدت - إذ تتخذ شكل رجحان عرق على عرق وجنس على جنس، ممقوتة ظالمة، خاطئة تنقضها الفكرة الحرة ويفندها العلم وتستنكرها المثل العليا الإنسانية.
لقد قام الإسلام الذي يدين به أكثر العرب على أساس غير قومي، فدين الإسلام كما قلنا فيما تقدم عالمي لا قومي، ومحمد (ص) لم يرسل للعرب وحدهم بل أرسل

للبشر عامة، ولا فضل في نظر صاحب الرسالة (لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأبيض على أسود ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى). ولكم نهى النبي (ص) عن العصبية بالتصريح، فقال (ليس منا من دعا إلى عصبية أو قاتل عصبية).
فاستحقار الأقوام غير العربية بالنسبة للعرب لا يقره إذن الإسلام الذي رفع من شأن العرب وأكسبهم مجدهم الخالد.
وفي نظر علماء الاجتماع والمتشرعين ما خلا الألمان لا تقوم الأمة على العرق والجنس، بل عن ما يكون الأمة حقاً الآن بعد أن ضعفت الرابطة الدينية، ولم يعد الدين العنصر المؤلف للأمم، هو الرضاء والرغبة في العيش عيشة مشتركة في الحاضر، مضافة إلى ذكريات ماضية مشتركة، وآمال مستقبلة واحدة (نظرية رنان) إذن فلا الإسلام يقر مبدأ القومية وتفوق قوم على قوم أو جنس على جنس، ولا العلم الحديث والمثل العليا الإنسانية تؤيد هذا المبدأ وهذه النظرية
ولئن كنا نستنكر ادعاء فئة من الغربيين تفوق العرق الآري - والكرد آريون - على العرق السامي، فأننا نأنف أيضاً من الاعتقاد يرجحان السامي على الآري. فاستحقار الأقوام غير العربية بالنسبة للعرب لا يقره الإسلام الذي رفع من قدر العرب وأكسبهم مجدهم الخالد، ولا يقبله العلم، ولا يرضى عنه الشعور الإنساني. بل أن فكرة الوحدة العربية التي تعلق عليها الأمم العربية آمالها لتحرر وتقوي وتستعيد مجدها الغابر، لا يمكن أن تتخذ العصبية أو القومية لها سلماً. وليس من العقل والحكمة في شيء أن يلهج بصددها بفكرة الجنس والعرق لأن الأقوام الآهلة بها البلاد الناطقة بالضاد مؤلفة من شتيت من الأجناس والأعراق. فالرابطة التي توحد بين أفراد كل أمة من هذه الأمم العربية ليست العصبية أو القومية، والجامعة التي تقرب بين الدول والأقطار العربية لا يمكن أن تكون آصرة جنسية، بل أنها رابطة سياسية عاطفية، قائمة على الإرادة والشعور والمصلحة
أردت من عرض هذه الفكرة أو التذكير بها - لأنها ليست مجهولة - أن أؤيد ما جاء به الأستاذ الجليل من تفنيد التفريق بين أفراد الأمة الواحدة بحسب أصولهم، وأبين الخطأ في النظر - لقاسم أمين إذا عد كردياً - ولكل من يحسب غير عربي من أشباهه كرجل خامل بنسبه وإن كان نابهاً بحسبه.
فليس يضر القاسم الأمين رحمه الله أو غيره من رجال الأمم العربية أن يكون أصله كردياً، بعد أن كان أمثال صلاح الدين بطل الشرق والإسلام والعرب، وكثير ممن تلاه من الملوك الأيوبيين ذوي الفضل العميم على مصر والشام أكراداً، بل له الفخر كل الفخر إذا جاز
لإنسان أن يفخر بأصله بجانب فضله أن يمت بالنسب إلى قوم أخرجوا أمثال هؤلاء الرجال وأشباه أولئك الأبطال الذين ما زال تاريخ العرب والإسلام والإنسانية يباهي بعظمتهم وعبقريتهم.
هذا وإني على يقين من أن الأستاذ العالم الجارم لم يقل البيت الذي حملنا على كتابة هذه الكلمة عن عصبيته، أو إيمان بمذهب (القومية) بل اعتقادي أنه نظم هذا البيت من قصيدته تأثراً من نغمة طالما سمعها في شعر العرب، وتلذذاً من حيث لا يشعر بالطباق بين العجم (أو الكرد) والأعراب. وقصيدة شاعرنا اللغوي النحوي في جلالة الملك فاروق سليل الأسرة العلوية الألبانية الأصل التي حبت مصر مجداً طريفاً يضاف إلى مجدها التالد، دليل على أن العرب العاربة والعرب المستعربة في نظره سواء.
دمشق
محمد محسن البرازي
دكتور في الحقوق وأستاذ في الجامعة السورية
بين الغرب والشرق
للدكتور إسماعيل أحمد أدهم
تتمة
كان ذلك منذ أشهر وكنت أحاضر جمهوراً من الأدباء بكلية الليسيه بالإسكندرية، وكان موضوع المحاضرة (الحياة الإنسانية بين قضاء وقدر الشرق ومذاهب الغرب في حرية الإرادة). وقد جاء في محاضرتي كلام جيد عن الفروق بين أهل الشرق وبين أهل الغرب، لهذا رجعت وأنا أجول جولتي في كلام مناظري الفاضل إليها آخذ منها لردي

على المناظر ما أراه ذا صلة وثيقة بالمسألة التي أثارها في العلم والثقافة.
قلت في محاضرتي ما نصه:
(هنالك فرق أساسي في منطق التفكير بين الشرقي والغربي، وهذا الفرق ينحصر في أن الشرقي يبدأ بحثه من الوحدة المتجلية حوله فينتهي للخالق ومنه للطبيعة. بعكس الغربي الذي يبدأ بحثه من التغاير الذي يكتنفه فينتهي للطبيعة ومنها للخالق)
هذا الفرق المشهود في أن الشرقي يبدأ من عالم الغيب لينتهي للعالم المنظور، بعكس الغربي الذي يبدأ من عالم المنظور لينتهي لعالم الغيب - كان سبباً لظهور اللاهوت عند الشرقيين والفلسفة عند الغربيين.
وهذا التباين في منزع التفكير ذهب بالعقل الشرقي إلى الاعتقاد بأن العالم حادث كما انتهى إلى أنه قديم عند الغربيين، ذلك أن الشرقي بدأ بحثه من الخالق فانتهى كما انتهى متكلمة المسلمين إلى أن العالم حادث وأن الخالق مطلق التصرف في الكون منفصل عنه ومدبر له، وأنه السبب لكل ما يحدث والعلة الأولى والأخيرة لكل ما يكون وما سيكون، بينما البحث عن التغاير المشهود في الكون يدفع بالأخذ بأساليب الاستقراء والمشاهدة إلى جانب أسلوب الاستنتاج والنظر، وهذا كله ينتهي بالإنسان كما انتهى بمفكري الغرب إلى أن لكل حادثة سبباً في الكون، وأن للعالم وحدته وانسجامه، وأنه خاضع لنواميس وسنن ثابتة لا تتغير لا في الزمان ولا في المكان، فإذا انتهى إلى الله قيده بهذه السنن والنواميس، وتصبح بذلك إرادة الله مقيدة بنظام هذا الكون وأفعاله قائمة على عنصر اللزوم والاضطرار.
والإنسان من حيث هو كائن في العلم المنظور، فهو في نظر الشرقي خاضع لإرادة عليا،
هي إرادة الخلق الحرة، هو الذي يقضي فيكون ويقدر فيحدث. وهذه فكرة القضاء والقدر عند الشرقيين، فإذا قضى الله أمراً فلا مرد لقضائه، وإذا أراد شيئاً قال له كن فيكون. غير أن الإرادة الإلهية لا تتعلق بالأمر الذي قضي بوقوعه إلا إذا تعلقت به إرادة الإنسان المخلوق الذي وهبه الخالق حرية الإرادة، في أن تتعلق بالأشياء فكأن للإنسان اختياراً، غير أنه عند النظر مقيد بالعلم الإلهي الأزلي وبتعلق الإرادة الإلهية لترجح.
أما في نظر الغربي فالإنسان وإن كان يتبع في تصرفاته وسلوكه نواميس الحياة ويخضع لها، فإن في قدرة الإنسان تغيير المقدر له عن طريق معرفة النواميس المتحكمة في وجوده والعمل على إيجاد الملاءمة بين حاجات الإنسان في الحياة ومطالبه في الوجود، وبين المقدر له عن طريق تغييره يتكافأ وصالحه.
وخلاصة القول أن قي الشرق استسلاماً محضا للغيب، والغرب نضالا محضا مع قوى الغيب، وبين منطق الغرب وروح الشرق تسير البشرية في قافلة الحياة.
هذا الكلام الذي لخصت فيه في ختام محاضرتي كل ما قلته في ذلك المساء، أجده بليغاً في الرد على مزاعم مناظري الفاضل.
وخشية أن يقف بعض الناس عند ظاهر هذا القول فلا ينزلون إلى أغواره القصية، أحب أن ألفت أنظارهم إلى أشياء.
1 - إن ما نعنيه باصطلاح الشرق والغرب لا يقوم على أساس من تقسيم العالم إلى شرق وغرب في تقويم البلدان، وإنما ترجع التفرقة عندنا إلى ما نلمسه من طابع ذهني للغرب ومنزع ثقافي للشرق، على اعتبار أن هذا الطابع عام للغرب وذلك المنزع عام للشرق. غير أن هذا لا يمنع أن نجد مجتمعاً غربياً ينزع منزع الذهن الشرقي في قلب أوروبا في زمن من أزمنة التاريخ نتيجة لغلبة الطابع الشرقي لأسباب خارجة وطارئة على المحيط الاجتماعي والبيئة الطبيعية، فمثلاً يمكننا أن نقول إن طابع التفكير في القرون الوسطى في أوروبا كان شرقياً في العموم لغلبة المنزع الشرقي على الطابع الغربي نتيجة لبلوغ المنزع الشرقي شغاف أوربا وغزوها الغرب مع الدين المسيحي.
2 - إن هذا المنزع الثقافي والطابع الذهني لكل من الشرق والغرب إذا اعتبرناه. من الخصائص الأولية لشعوب الشرق والغرب، فذلك لا يرجع لعوامل بيولوجية أو انتروبولوجية كما حاول أن يثبتها بعض مفكري القرن التاسع عشر، إنما هي ترجع لأسباب طارئة على المحيط الطبيعي والبيئة الاجتماعية فلهذا لا يرد علينا بما كتبه المناظر في الرد على غوبنيو.

3 - إن الفلسفة الإسلامية التي ظهرت على يد الفارابي وابن سينا وابن رشد وغيرهم من أعلام الفلسفة الإسلامية ليست شرقية الروح لأنها وليدة الفلسفة اليونانية والمنطق اليوناني. ويمكنك بكل سهولة أن تنزل بخطوط فلسفة فلاسفة الإسلام لأصولها عن أفلاطون وأرسطو وفلاسفة الإسكندرية من الأفلوطنيين، فمن هنا لا يعترض علينا بأن هنالك من الفلاسفة الشرقيين من علقوا إرادة الخالق بسنن الوجود وقوانين الكون. كذلك لا يعترض علينا بالجانب العلمي من الثقافة السلامية لأنها نتيجة الأخذ بأساليب الفكر اليوناني.

هذه أوليات ألفت إليها الأنظار حتى أكفي نفسي مقدماً الرد على ما سيثار حولها من رد وجدال.

قد يكون من الأهمية في مكان أن أستطرد قليلاً هنا وأنقل بعض فقرات من الأستاذ الحكيم استشهد بها على صحة ما أرى من الفرق بين منزع الفكر الغربي وطابع الذهن الشرقي.

يقول الأستاذ توفيق الحكيم:

(إن الشرق قد حل معضلة وجود أغنياء وفقراء وسعداء وتعساء على هذه الأرض في يوم ما، هذا لا ريب فيه. إن أنبياء الشرق قد فهموا أن المساواة لا يمكن أن تقوم على هذه الأرض وأنه ليس في مقدورهم تقسيم مملكة الأرض بين الأغنياء والفقراء فأدخلوا في القسمة مملكة السماء، وجعلوا أساس التوزيع بين الناس الأرض والسماء معاً، فمن حرم الحظ في جنة الدنيا فحقه محفوظ في جنة السماء. هذا جميل. ولو استمرت هذه المبادئ وبقيت هذه العقائد حتى اليوم لما إلى العالم كله في هذه الأتون المضطرم).

إن مذاهب الغرب حينما نزلت الميدان تحاول إصلاح الحياة ألقت قنبلة المادية والبغضاء واللهفة والعجلة بين الناس. لقد أفهمت الناس أنه ليس هنالك غير الأرض، يوم أخرجت السماء من الحساب، ذلك أن علم الاقتصاد الحديث لا يعرف السماء. أما أنبياء الشرق فقد القوا زهرة الصبر والأمل في النفوس يوم قالوا للناس لا تتهالكوا على الأرض، ليست الأرض كل شيء. إن هنالك شيئاً آخر غير الأرض يدخل في التوزيع)

وليس من شأني هنا أن أرد على الأستاذ الحكيم آراءه وأقول له بأننا ما دمنا في الحياة فيجب أن نعمل من أجلها ومن أجلها وحدها. . . اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، وإننا إذا لم نحل مشاكلنا على هذه الأرض فلن نحلها في وقت من الأوقات ولن تحل!

ليس هذا ما يعنيني؛ أما الذي يعنيني من هذا الكلام أن أستوضح الفرق وأستبينه بين منطق الغرب ألا ثباتي وروح الشرق الغيبي بملاحظة أن المنطق العربي ينظر للحياة الإنسانية كما هي، وعن طريق العقل وحده يحاول معرفة حقيقته وتنظيم الصلات بين أفراد المجموع البشري. بعكس الذهن الشرقي الذي يدخل عنصراً غيبياً في الحياة الإنسانية، وعن طريق هذا العنصر الغيبي يحاول تفسير الحياة وتنظيم الصلات الإنسانية وإقامة العلاقات بين أفراد الهيئة الإنسانية.

ولنا أن نخلص من هذا كله بأن الثقافة الغربية إنسانية وإنها انتمت إلى المرحلة الأخيرة من مراحل التفكير الإنساني الذي كشف عنه أوغست كونت، بعكس الثقافة الشرقية التي وقفت عند حدود المرحلة الثانية حيث يمتزج فيها العالم المنظور بعالم ما وراء المنظور.

وإذن من الخطأ التفريق بين مفهوم الثقافة ومفهوم العلم الوضعي باعتبار أن الثاني عام والأولى خاصة كما يريد أن يثبت مناظري الفاضل، والصحيح أن يقال إن العلم الوضعي رغم أنه عام يقوم بمنهجه الثقافي، وإن العلم يتلون (بروح الأمة) وهذا ما نلمسه نحن المشتغلين بمسائل العلم من قيام مدارس علمية في أمم متباينة الروح فتخرج متباينة المذاهب والطرائق والاتجاهات؛ ولا أدل على ذلك مما نراه من مدارس في العلم، كل تحمل اسم أمة بعينها. مثال ذلك المدرسة الألمانية والمدرسة الفرنسية في الرياضيات والطبيعيات وبقية فروع العلم مما يعرفه كل من درس العلم في أوربا في جامعاتها الكبرى.

إذا صح ما ذكرته كله ولا أخاله إلا صحيحاً - فمن العجيب أن يناقشنا الأستاذ فليكس فارس الرأي فيما قلناه من كون الثقافة الشرقية ذاتية بكلام يلقيه على عواهنه دون

أن ينظر إلى ما قدمناه من أدلة استفاضت بها كلمتنا التي أدلينا بها في مناظرتنا معه والتي شغلت أكثر من ثلاث صفحات من النص الذي نشرته (المجلة الجديدة). ومع ذلك أحب أن أنظر في كلام مناظري الفاضل، وأول شيء ألمسه أنه يعترف ضمناً بما نقول حيث كتب يقول:

(ومما يجدر ذكره هو أن العرب حين اقتبسوا من تراث اليونان ما يعززون به تفكيرهم العلمي لم تستهويهم الثقافة اليونانية ولا حضارتهم الأدبية إذ أحسوا ما بين الحضارة التي كانت تتمخض في شعورهم وتقديرهم للحياة وبين حضارة اليونان الاجتماعية من مهاو سحيقة فأعرضوا عن شعرهم وموسيقاهم ونظم اجتماعهم لذلك لا تجد في شعر العرب شيئاً من إبهام بيندار وأوربيد وهوميروس)

وأنت ترى مناظرنا يعترف بأن العرب لم يتقبلوا تراث اليونان الأدبي، لوجود مهاو سحيقة بينهم وبين ثقافة اليونان التقليدية التي احتضنها روح اليونان، وهذا ما نقوله ونشرحه بأن ثقافة العرب ذاتية وأن الثقافة موضوعية عند اليونان. ولهذا لن تجد في الأدب العربي شعراً قصصياً ولا شعراً تمثيلياً ولا شعراً تصويرياً لأن القصص والتمثيل والتصوير يستلزم الانسحاب من آفاق الذات إلى رحاب الموضوعية، وليس هذا في مكنة الذهنية العربية كما شرحنا ذلك في توطئة كتابنا (الزهاوي الشاعر) الذي صدر منذ عام وفي دراستنا الإنجليزية لشعر الدكتور أبو شادي.

يتساءل مناظري بعد ذلك أين كانت العقلية الغربية قبل عصر النهضة - الرينسانس - أيام كانت الحضارة العربية تحتضن العلوم القديمة، ويسبقنا بالجواب فيقول: إنهم كانوا يغطون في نومهم، ولم تزل تراود أحلامهم الآلهة التي خلقتها عقلية التعاون فيهم، فبلغ عدد هؤلاء الآلهة ثمانية آلاف في الأساطير. وأقول أنا رداً عليه: إنه لو قلب وجوه النظر في ما أدليت به في مناظرتي ما يجده منشوراً بالمجلة الجديدة، فانه ليجد الجواب موجوداً على ما أراده، وإذا أراد أن ننقل له الكلام بحرفه نقلناه. قلناه هناك ما نصه:

(قامت المدنية الرومانية على تراث الإغريق، غير أن المسيحية سرعان ما غزت روما وهبت عليها حاملة معها نزعات المنطق الأسيوي والروح الشرقية، إلا أن الحضارة الرومانية ابتلعت المسيحية وامتصتها ومثلتها، وكان في هذا الابتلاع والامتصاص والتمثيل بعض الخلاص لمنطق الغرب من روح النسك الأسيوية، ولو لم تكن المسيحية ديانة روحية صرفة قابلة للكثير من التفاسير مرنة بطبيعتها غير حاملة في طياتها منطق حياة اجتماعية معينة ونظم وشرائع مخصوصة لقام النضال بين منطق الغرب وأصول مجتمعه وبين روح الشرق وشرائعه التي هبت بها على أوربا. . . ولقد نضب معين مدينة روما

لعوامل داخلية فهاجمها البربر من الجرمان والصقلب والسلاف والهون، وسقطت إمبراطورية الرومان على ضفاف التبر. . . فكانت عصور ظلام في أوربا؛ غير أن الشعوب البربرية التي ورثت إمبراطورية الرومان احتفظت بالكثير من نظم الرومان الإدارية وعاداتهم، ولم يعد ما أحدثه البرابرة في أوربا سوى القضاء على التجارة الواسعة النطاق وعلى الإدارة العامة، وبذلك قامت بيوتات تجارية صغيرة تستطيع كفاية أهلها بمنتجاتها، فكان ذلك مقدمة للعهد الإقطاعي. وهكذا قدر لهؤلاء البرابرة أن يركزوا الحياة الاقتصادية في العمل الصغير، وبذلك وضعوا النواة لعهد الإنتاج الصناعي.

ثم طغت موجة العرب على الغرب. . . غير أن الغربيين نجحوا في وقف الموجة العربية عندما تفاقم أمرها. . . وكان نجاح شارل مارتل على العرب على نهر اللوار كنجاح الإغريق على الفرس سبباً في إنقاذ العقلية الغربية من طغيان روح النسك الأسيوية. . . في ذلك الوقت كانت العقلية الغربية رازحة تحت كاهل اللاهوت الكنسي الذي قام بروما رقيباً على النفوس والعقول محملاً بكل سيئات روح التنسك الأسيوية. . . غير أن العقلية الجرمانية لم تر في رقابة روما وتسلط البابا إلا روحاً أسيوية بعيدة عن طبيعة الذهن الغربي، فعملت كل الجهد في تقطيع أوصالها، وبدأ عهد الإصلاح بالصراع بين الذهنية الجرمانية الخالصة ممثلة العقلية الأوربية وبين العقلية الباباوية التي تحمل في طياتها شيئاً من روح النسك الأسيوية. . . في ذلك الوقت شق لوثر طريقه وكان عصر الإصلاح الديني وعهد الإحياء الفكري)

ومن هنا أرى عن حق أن مناظري الفاضل لم ينظر نظرة عميقة لكلامي وما أتى به لا

يعد نقاشاً لما قلته لهذا أستحسن أن ينظر في كلامي وهو منشور بالمجلة الجديدة، ثم ينظر في كلامه المنشور بعددي الرسالة وردي عليه قبل أن يكتب رده فذلك أجدى لحسم نقط الخلاف في الموضوع.

ويبقى بعد ذلك كلمة أو كلمتان في موضوع الموسيقى الذي أثاره المناظر ولم أجد له أصلاً فيما قلت، ومع ذلك فأنا عند ظن المناظر أنتدب له الدكتور حسين فوزي وهو أخصائي في فن الموسيقى وله من العلم الواسع في هذا الموضوع ما يمكنه من بيان نواحي الزيف في آراء المناظر، وهو على ذلك قدير

(الإسكندرية)

إسماعيل أحمد أدهم

بين العقاد والرافعي

الرافعي ومظهر و (على السفود)

للأستاذ سيد قطب

- 9 -

أجملت الحديث في الكلمة الماضية عن طابع وناشر ومروج (على السفود) الذي يعيب (الشذوذ في نصرة أديب على أديب) ليعرف الناس من أين تصدر الآراء، وكيف تصدر؛ وكم من الأعاجيب يكمن في تقلب هذه الآراء وطريقة عرضها، كلما دعا الغرض إلى عرض جديد

وأغلب الناس ممن يقرؤون الرسالة قد يكونون من غير المطلعين على هذا الكتاب، الذي قدمت له (العصور) وطبعته ونشرته. وليس من المستطاع نقل عبارات منه اليوم إليهم في الرسالة، مما يصور شناعة التعبير، ويكشف مقدار التبعة في النشر، لأن (الذوق. والأدب. والخلق) لا تسمح باستعراض تلك الأساليب ولكني سأتلطف لقراء الرسالة في نقل بعض فصوله (البريئة) مع تقديم العذر، في شنعة هذه البراءة!

وسيعرف الناس كيف يكون الإنسان، سيئ الفهم، قاصر الإطلاع، ثم يناقش العلماء النيري البصيرة المطلعين؛ ولا يكلف نفسه الإطلاع على أصل المسائل التي يناقش فيها، ويجد من الجرأة في نفسه أن يقول: إنه لم يطلع على هذا الموضوع، ولكنه يجزم بأنه كيت وكيت. أما الذي أطلع فهو جاهل و. . . و. . . الخ.

لشوبنهور رأي في الجمال يلخصه العقاد، في أن هذا الفيلسوف يقسم الدنيا إلى (فكرة) و (إرادة) ويقول: أن الدنيا في (الفكرة) هي الدنيا المكنونة قبل أن تظهر في حيز الأسباب والقوانين، وعلاقات الأشياء بعضها ببعض. وإن (الإرادة) هي هذه الدنيا التي نكابد أوصابها وقوانينها، ولا نذوق السرور فيها إلا لسبب من الأسباب التي تدور عليها أغراضنا وشهواتنا؛ ولما كان سرورنا (بالجمال) سروراً بلا سبب ولا منفعة فهو من قبيل الفكرة المجردة ننظر إليها كما هي في عالمها المنزه عن الأسباب والعلاقات)

ثم يقول العقاد ما ملخصه: إن رأيه هو أن (الجمال) هو (الحرية) وأنه يلتقي في رأيه هذا

مع رأي شوبنهور في نقطة ويختلف معه عند أخرى. فهما يلتقيان حين يقول شوبنهور: إن الفكرة لابد أن تكون بعيدة عن عالم الأسباب والضرورات، ومن ثم لابد أن تكون (مطلقة) من أسر الأسباب والضرورات؛ ويختلفان حين نذكر أن الحرية لا تكون بغير إرادة، وأن شوبنهور يخرج الجمال كله من عالم (الإرادة المسببة) إلى عالم (الفكرة المجردة).

ثم يرجح رأيه على رأي شوبنهور بأن الجمال يتفاوت في نفوسنا ويتفاضل في مقاييس أفكارنا، ولو كان المعول على إدراك (الفكرة) وحدها في تقدير الجمال، لوجب أن تكون الأشياء كلها جميلة على حد السواء.

ثم يوضح هذا بأن الشجرة كفكرة تستوي مع الإنسان كفكرة كذلك، ولكن جمال الأولى أقل من جمال الثاني - مع تساويهما لو أخذنا برأي شوبنهور - وذلك لأن الثاني أكثر حرية و (الحرية هي المعنى الجميل في الفكرة أو هي التي تهب الفكرة ما فيها من جمال)

وهذا - كما ترى - كلام واضح وهو كذلك دقيق. ولكن الرافعي لا يفهمه. وهو في عدم الفهم على درجات: بعضها يتعلق بالقصور النفسي عن تصور حالة من الحالات

النفسية، وهو ما نعذره فيه، ولا نطلبه بفهمه. وبعضها يتعلق بالقصور في فهم الأسلوب والكلمات وهو ما لا ندري كيف نسميه.

والنوع الأول يبدو في تعليقه بالهوامش على إن السرور بالجمال سرور بلا سبب ولا منفعة، فهو يقول: (وهل في الدنيا من يسر من الجمال (بلا سبب)

ونحن نقول له: نعم يا سيدي في الدنيا من يسر من الجمال بلا سبب، لأن بداهته وفطرته تتصل مباشرة بالجمال في (عالم الفكرة) كما يشرحه شوبنهور فيحس بالسرور. وفي هذا العالم لا توجد (أسباب) فهذه إنما تتعلق (بعالم الإرادة) أي العالم الموجود في الخارج. وهي على كل حال مسألة تتطلب (نفساً) فلا على الرافعي منها.

وهو يعلق على شرح العقاد (للفكرة) في رأي الفيلسوف الألماني بأنها بعيدة عن عالم الأسباب والضرورات، ومن ثم لابد أن تكون مطلقة من أسر الأسباب والضرورات.

فيقول: (ففكرة من تكون هذه الفكرة البعيدة عن عالم الأسباب والضرورات؟ وكيف تسمى فكرة؟)

وهذا القول غريب من رجل يدعى أنه يفهم الثقافة الإسلامية ويدافع عن علوم الإسلام.

وفي الفلسفة الإسلامية كثير من هذه المباحث، وقد ورد فيها ذكر (الهيولي) و (الصورة) وهي تقابل مع تعديل (الفكرة) و (الإرادة). وفي مباحث (علم الكلام) كثير من مثل هذه التعبيرات عند الكلام على صفتي (القدرة. والإرادة) فمن العجب ألا يفهم

إذن أن (الفكرة) بعيدة عن عالم الأسباب والضرورات. وهي على ضوء الفلسفة - ونمثل بها وحدها لما يدعيه الرافعي عنها - تمثل فكرة الخالق التي لا تتعلق بالأسباب والضرورات، لأنه منزه عن الضرورات وهي في كلام شوبنهور تمثل فكرة القوة الخالقة - أياً كان اسمها - فدارس الفلسفة الإسلامية لا يعسر عليه فهمها، ولا يسأل هكذا: (ففكرة من تكون؟)

وهذا أيضاً مسألة (ذهنية) تتطلب ذهناً مشرقاً. فلا على الرافعي منها كذلك!

إنما الطامة الكبرى أن يخطئ في فهم الكلمات المفردة. وهنا فليأخذ القراء حذرهم، فإنني سأنقل لهم بعض كلام الرافعي بنصه في هذا الموضوع - مع ما يتضمنه من شتائم (بريئة) إذا قيست إلى سواها، ونحن نكتبه بنصه وبعلامات ترقيمه:

إنه يقول:

بيد أن العقاد يقول بعد ذلك: (أين نتفق في هذا الرأي وأين نفترق؟ (ما شاء الله أين يتفق العقاد وشوبنهور وأين يفترقان) وأين يتساوى القول بأن الجمال فكرة، والقول بأن الجمال حرية؟ يتساويان حين نذكر أن الفكرة في رأي شوبنهور لا بد أن تكون بعيدة عن عالم الأسباب والضرورات. ومن ثم لا بد أن تكون مطلقة من أسر الأسباب والضرورات).

ثم أين يتعارضان. (المراحيضي! وشوبنهور)؟ يقول العقاد: يتعارضان حين نذكر أن الحرية لا تكون بغير إرادة، وأن شوبنهور يخرج الجمال كله من عالم الإرادة المسببة إلى عالم الفكرة المجردة).

وما الذي يرجح رأي فيلسوفنا! المراحيضي! بأن الجمال هو الحرية، على رأي شوبنهور بأن الجمال فكرة؟ يقول العقاد:

يرجحه أن الجمال يتفاوت في نفوسنا ويتفاضل في مقاييس أفكارنا؛ ولو كان المعول على إدراك الفكرة وحدها في تقدير الجمال لوجب أن تكون الأشياء كلها جميلة على حد سواء).

ونوضح ذلك فنقول: لو كانت الشجرة جميلة لأنها فكرة فقط، لما كان هناك داع لتفضيل فكرة الإنسان على فكرة الشجرة (افهموا يا ناس) ولصح لنا أن نزعم أن الناس أجمل من

الأشجار (برافو مراحيضي) ولكننا نعلم أن فكرة الإنسان غير فكرة الشجرة (تمام تمام!!!) وأن الفكرتين تتفاضلان في تقرير الجمال (صحيح لأن الشجرة تقدر جمال الناس كما يقدر الناس جمالها!) ولا بد أن يكون تفاضلها بمزية أخرى فما هي تلك المزية؟

قال المراحيضي- هي الحرية: فالإنسان أوفر من الشجرة نصيباً من الحرية (برافو. برافو!) ولذلك هو أجمل منها

يا سلام يا سلام على هذا المنطق. في رأي من هو أجمل منها؟ في رأي الجبل بالطبع)

لأنه لا بد من حكم بينهما يحكم أيها أجمل. وإلا فما الذي يمنع الشجرة أن تحكم (لنفسها كما حكم الإنسان لنفسه؟
والتعليقات التي بين أقواس كبيرة هي كلام الرافعي. وهي كلها قد نشأت من عدم فهمه للفظة واحدة في جملة العقاد:
لو كانت الشجرة جميلة لأنها فكرة فقط، لما كان هناك داع لتفضيل فكرة الإنسان) فالعقاد يريد بقوله (فكرة الإنسان) الفكرة التي صورت إنسانا. (على فكرة الشجرة ويقوله (فكرة الشجرة) الفكرة التي صورت شجرة. فيفهم صاحبنا (فكرة الإنسان) بأن الإنسان يفكر، و (فكرة الشجرة) بأن الشجرة لها فكرة في رأسها! ولما كانت الأشجار لا تفكر، فقد راح يقول: (افهموا يا ناس) وراح يقول: (صحيح لأن الشجرة تقدر جمال الناس كما يقدر الناس جمالها). وراح يقول: (في رأي من هو أفضل منها؟ في رأي الجبل بالطبع) لأن الجبل كذلك يفكر وله فكرة!
والمسألة هنا مسألة قصو في فهم ألفاظ ثم تعالم بعد ذلك وتهكم حيث يجب الخجل والانزواء
ثم ماذا؟ ثم أخذ يجمل هو رأي شوبنهور (الذي لم يطلع عليه باعترافه في هامش الكتاب حين يقول: (نحن لا نثق أن ترجمة العقاد عن شوبنهور هي نص معاني شوبنهور. . . إنما نذهب إلى (ما نظنه) الأصل في غرض الفيلسوف)!
فماذا قال؟
فان محصل كلام هذا الفيلسوف أن ما تراه بسبب من إرادتك وغرضك وشهواتك) فجماله فيك أنت لا فيه، لأنه في هذه الحالة صورة الاستجابة إلى ما فيك، فلو لم يكن معك أنت
هذا الغرض لم يكن معه هو ما خيل لك من الجمال، فهو على الحقيقة (باعتبار الفكرة المجردة لا جمال فيه) (لاحظ هذا) إنما أنت صبغته وأنت أوقعته ذلك الموقع من نفسك فالنتيجة من ذلك أن الأشياء تحزننا (أي لا نراها جميلة) كلما ابتعدت من عالم الفكرة واقتربت من عالم الإرادة، وأنها تفرحنا كلما ابتعدت من عالم الإرادة واقتربت من عالم الفكرة.
وهذا الرأي هو الرأي الصحيح في معنى الجمال وبه يوؤل اختلاف الناس في تقدير) (جمال الأشياء، لأن الجمال في أهوائهم وأذواقهم ومعاني نظرهم
وإن الإنسان ليفغر فاه عجباً من هذا التلخيص الرافعي لنظرية شوبنهور بل هذا المسخ الذي يمسخه للفيلسوف المسكين. ويحار في السؤال من أين وكيف يلتقي هذا الملخص بأصل الرأي، وما بينهما شبه ولا اقتراب في أي لمحة من اللمحات
ثم هذا الخلط بين الرأي الذي جاء به الرافعي وبين رأي شوبنهور، ونسبة كلام إلى الرجل هو يقول ضده تماماً. الفيلسوف يقول: إن الأشياء (تسرنا) كلما قربت من عالم الفكرة وابتعدت عن عالم الإرادة. فيقول الرافعي عنه: إن الأشياء (تحزننا) كلما ابتعدت من عالم الفكرة واقتربت من عالم الإرادة. وهو عكس قول شوبنهور. ثم يعود فيقول:
وهو عكس كلام (وأنها تفرحنا كلما ابتعت من عالم الإرادة واقتربت من عالم الفكرة) الرافعي الأول!! فأيهما يريد؟ أغيثونا بالله يا أصحاب الفهم وقولوا لنا: متى تفرحنا الأشياء ومتى تحزننا؟ وأي القولين ينسبه الرافعي لشوبنهور وأيهما ينفيه عنه؟
ولا يقنع الرافعي بهذا ولكن اسمعه يقول: (على مثل تلك الطريقة من الغباوة. وسوء الفهم وقبح الاجتراء والغرور والحماقة، تجد كل ما يولده العقاد، أو أكثره، ثم يزين له لؤم نفسه وعمى بصيرته أنه هو وحده الذي يهدي إلى سرائر الأشياء ويلهم حقائق المعاني. . . الخ)
ولو أننا نسمو بآدابنا وآداب المجتمع، لرددنا هذه الكلمات إلى من يستحقها - بعد هذا البيان - من الرجلين!
وبعد فقد نشر صاحب (العصور) هذا الكلام في مجلته، ثم جمعه وطبعه وقدم له معجباً مستحسناً. فهل كان يا ترى يعلم هذا الخطأ في الفهم وذلك التخليط، أم لم يكن يعلم؟ وأن كانت الأولى فكيف لم ينبه صاحبه إليه؟ وإن كانت الثانية، فكيف يتفق هذا مع علمه

واطلاعه؟
ثم ألم يجد جملة نابية، ولا لفظة خسيسة، في هذا النقد؟ بل ألم يجد فيه (شذوذا) ولم يلمح أن ليس وراءه انتصار لمذهب بين في الأدب، وإنما وراءه ارواء حفيظة شخصية بحتة؟
أفتونا أيها المنصفون، المتعالون عن الشخصيات!
(حلوان)
سيد قطب
كلمة ثالثة على الهامش
للأستاذ علي الطنطاوي
لقد أكرم الأستاذ قطب دمشق وجيرتها. . . وصمت عن تقويم كلمتي (ووضعها حيث ينبغي وضعها من الأدب والرأي في مدارج الآداب والآراء، وشاء لي بهذا الصمت أفضل مما شئت لنفسي) فلم يسعني إلا أن أشكر له ما تفضل به علي وعلى دمشق التي لن تنسى له هذا الفضل. . . ولكن متى سألت سيد قطب تقويم كلمتي ومتى طلبت إليه رأيه فيها؟ وهل بقى علي أن أصدر عن رأي سيد قطب فيما أكتب؟ لا يا سيدي، ما هكذا يكون النقد ولا هكذا تكون المناقشة. إني سقت رأياً إن كان خطأ عدت إلى الصواب الذي تكشفه لي فيه، وإن كان صواباً وجب أن تعود أنت إليه فبين خطأه من صوابه، وعد عن هذا الأسلوب أسلوب التعريض والسخرية، واعلم أني إن حططت عليك ساخراً ومعرضاً لم أدعك حتى تلتصق بالأرض، وأنا من أقدر الناس على ذلك، ولكن ذلك شيء يأباه الخلق الكريم، وتأباه (الرسالة) ولقد كانت لي في هذا الميدان جولات، صرعت فيها كثيراً من الكتاب المدعين المستكبرين، ثم أقلعت عنها واستغفرت الله، وأرجو ألا يضطرني أحد إلى مثلها. ثم إن العهد بك تنكر من الأستاذ شاكر هذا الأسلوب فما لك لا تنكر على أحد شيئاً إلا عدت فانغمست فيه إلى إذنيك؟
لقد أنكرت علي أن ذكرت المتقدمين من نقدة الأدب، ومازالت تبدأ في السخرية وتعيد، كأن ذكر هؤلاء المتقدمين جريمة في شريعة التجديد. . . وهاأنت ذا في مقالك الأخير (العدد 258) تقر بصحة مذهبهم في اللفظ والمعنى وتثبته بقولك في آخر مقالك: (قد تكون المعاني كذلك) - أي ملقاة على قوارع الطرق - وها أنت ذا تتبعه بفعلك: كانوا يأخذون البيت والبيتين فيتكلمون فيهما، وأنت تفعل فعلهم، تأخذ إذا تكلمت عن الرافعي بيتاً من الشرق وبيتاً من الغرب تتوهم أن فيه ضعفاً فتتخذه معولاً لهدمه، ثم تأخذ للعقاد ما تظن أن فيه قوة وجمالا، فتجعل منه وسيلة إلى مدحه، فكأنك لم تسمع بنقد حديث، ولم تدر به. . . وإلا فأين شروط النقد، وأين التجرد عن الهوى، وأين (الموضوعية) في البحث، وأين الدراسة العامة التي تكشف عن أدب الأديب من كافة نواحيه؟ أليس كلامك عن الرجلين هو المدح لهذا والهجاء لذلك؟ بل إني لأظنك والله لا تريد بالعقاد إلا شراً حين تختار له ما اخترت
إنا والله نجل العقاد، ونعرف له منزلته، ونعده في الأكابر من كتابنا، ولكن قوله:
أيها الجيبون انعم سلاماً ... يا أخا العبقري والبهلوان
هذا الشعر يشين طالباً ذكياً لو نسب إليه فكيف بالعقاد العظيم؟
دع الابتداء بـ (أيهذا) وما في هذا الابتداء من ثقل واستكراه، ودع الجيبون التي لو حلف متزوج بالطلاق على أنها لا تدخل شعراً لما أحسبه يحنث. وانظر في (أنعم سلاما) قالت العرب عم صباحاً، جاء في اللسان: (وأنعم الله صباحك من النعومة، وقولهم عم صباحاً كلمة تحية كأنه محذوف من نعم ينعم (بالكسر) كما تقول: كل من أكل يأكل فحذف منه النون والألف استخفافاً) فالنعومة في قول العرب مسندة إلى الصباح الذي هو زمان فإذا نعم صباح المخاطب كان سعيداً مسروراً فما معنى إسناد النعومة إلى السلام، هل المعنى أنه يطلب من هذا الجيبون أن يسلم سلاماً ناعماً؟ وماذا يعني بذلك؟
وانظر في قوله (يا أخا العبقرية والبهلوان)، ودع كلمة (البهلوان) وما فيها من صحة وجمال! وانظر إلى اقترانها بالعبقري تدرك مبلغ ما فيها من الغرابة والثقل على السمع وما فيها من غموض المعنى، حتى أن القارئ لا يفهمها إلا إذا قرأ كتاب دارون. . مع أن الشعر يجب أن يفهمه كل من كان ذا شعور مرهف، وكان واقفاً على لغة هذا .

الشعر، فإذا جاوز الأمر هذين الشرطين صار علماً منظوماً! لا فرق بينه وبين ألفية أبن مالك مطلقاً.

والبنون في قوله (كيف يرضى لك البنون مقاماً مزرياً) من هم هؤلاء البنون؟ إن الإقرار حجة قاصرة، وإنا لنسأل الله السلامة من خذلانه! إن هذه النظرية لم تثبت عند أصحاب العلم ولم تصبح بعد حقيقة علمية، أفكلما ظهرت نظرية في الفلك أو الطبيعة، فنظمها أديب، كان بنظمها شاعراً كبيراً؟ فلم لا ينظم الدكتور ناجي إذن في الطب، والمهندس في الهندسة، وأبو شادي في البكترلوجيا، وعوض في الجغرافيا؟ وأي فرق بالله بين نظرية دارون ونظريات غيره من العلماء؟

وتأمل قوله:

واترك مهلا التي لم تجئ إلا للقافية. وفكر في هذه (يا عميد الفنون صبراً ومهلا) الفنون التي صار عميدها قرداً في حديقة الحيوانات ثم انتقل إلى قوله:

مرحباً مرحباً وأهلا وسهلا ... والهدايا ما بين لب وفول

ألا تذكر بشاراً وربابة ربة البيت. . . أفيعقل أن يتصدر سيد قطب للنقد والكلام في مثل الرافعي أبلغ من كتب في العربية ثم يختار مثل هذا الشعر إلا أن يكون عدواً للعقاد يريد أن يذمه بما يشبه في ظاهره المدح؟ أو أن نكون قد فقدنا عقولنا فلم نعد نميز بين الحسن والقبيح، ولم نعد نعرف أقدار الكلام. . .

وبعد فأني أسأل الأستاذ البليغ صاحب الرسالة هذا السؤال الذي يتردد على فم كل قارئ للرسالة في دمشق؛ وأرجو أن يتفضل بالجواب: لماذا تنشر الرسالة هذه المقالات للأستاذ قطب؟ أللحقيقة، والحقيقة لا ظل لها في هذه المقالات؟ أم من أجل الأستاذ العقاد وفيها من الإيذاء للعقاد مثل ما فيها من المس بالرافعي؟ أم بغضاً بالرافعي والأستاذ صاحب الرسالة صديقه حميم، وهو شريكه في التلبس بجريمة البلاغة والحرص على البيان المشرق الذي يسوء هؤلاء المجددين؟ أم لماذا؟

أننا لم نفد من هذه المقالات إلا فائدة واحدة، هي أننا عرفنا أن الجديد إن كان كما يصوره سيد قطب فهو أهون شيء وأبعده عن الحق، وإنا راضون بقديمنا، مطمئنون إلى (رجعيتنا. . .) عرفنا هذا، أفلا يعفينا الأستاذ قطب من هذه المقالات؟ ألا يتفضل فيعلم أن قراء الرسالة قد غدوا بفضل الرافعي والزيات وسائر من كتب فيها من البلغاء لا يعدلون ببلاغة القول وصفاء الديباجة شيئاً وأن كل سعي لتكفيرهم بالبلاغة (والتبشير) فيهم بهذا الجديد سعي ضائع!

فهل الغاية إذن ملء صفحات الرسالة بمقالات الأستاذ سيد قطب؟

دمشق

علي الطنطاوي

والرسالة تجيب صديقها الأستاذ الطنطاوي بان من (الرسالة) مبادئها أن تكون صورة صادقة لأدب العصر فلا تسجل مذهباً دون مذهب، ولا تتوخى أسلوباً دون أسلوب. ومعارك النقد ظاهرة مألوفة في عصور الأدب عفت الرسالة عنها حيناً، ثم رأت من أخير أن تسجل هذه المعركة؛ لأن أدب الرافعي وأدب العقاد يمثلان وجهتي الثقافة في أقطار العروبة؛ فالقول فيهما - إذا حسن - يعين المتأدب على الوجهة التي يوليها، وينعش الأدب من الخمود الذي هو فيه. ومن حسن القول أن يتكلم الناظر في الأدب بلسان الأدب، وأن يعتقد أن أدب الرجل شيء آخر غير شخصه، فلا ينبغي أن يدخل الناقد في حسابه الحياة والموت، ولا الصداقة والعداوة

أما رأي الرسالة في الكاتبين العظيمين فقد سجلت في افتتاحياتها. فهي لا تحمل من تبعات ما تنشر غير ذلك الذي رأت

بين العقاد والرافعي

كلمة على الهامش أيضاً

للسيد عبد الوهاب الأمين

أوقفتني كلمة الأستاذ علي الطنطاوي في التعقيب على المناقشة الأدبية الرفيعة بين الأستاذ سيد قطب والأستاذ محمود محمد شاكر حول منزلة العقاد والرافعي في الأدب

الحديث، ولولا أني كنت أخشى أن أفسد هذا الحوار وهو في عنفوانه بين الأستاذين لما ترددت في أن أقول كلمة، ولكني احتبستها حتى قرأت تعليق الأستاذ علي الطنطاوي فرأيت أن موقفي المتزمت قد تحلل من قيوده

شاء الأستاذ علي الطنطاوي أن ينتصر للأستاذ شاكر وأن يكتسب له النصر، فلم يتوقعه، بل أكده لزميله، وليس في ذلك بأس كبير، فقد يكون الأستاذ شاكر عبر عن خوالجه تعبيراً محكماً فخيل إليه أن ذلك هو فصل الخطاب. والحق أن الأمر لم ينته، وأن بوادر الحال تدل على قوة مستجدة في كلام الأستاذ شاكر تنبئ بأن شدة المعركة لم تأت بعد، ولكن الأستاذ علي الطنطاوي يريد أن يظهر الأمر للقارئ كأنه انتهى

ثم ماذا؟

يأتي الأستاذ الطنطاوي مدافعاً عن (إنسانية) الرافعي فلا يجد ما يقول سوي أن الرافعي صاحب عقيدة، وأن العقيدة (مشتقة من العقد، قال في اللسان. . .) كأن الرجوع إلى اللسان مشكلة لا يتوصل إلى حلها إلا أمثال الأستاذ الطنطاوي، ولست أدري هل قرأ حضرته - على الأقل - كتاب (الآراء والمعتقدات) لكستان لوبوب وهو كتاب ترجم منذ سنين ليعلم أن خلافاً في أمور العقائد لا يحله الرجوع إلى اللسان، ولو كانت الخلافات على العقائد تحل بالرجوع إلى القواميس لما قامت الحرب الأسبانية مثلاً!

ثم ماذا؟

ثم يأتي كلامه في الخلاف بين أدب الرافعي وشعر العقاد (فهو الخلاف بين الأسلوب الذي يعتمد على البيان والصحة والصناعة والجمال، وبين الأسلوب الذي يستند إلى المعنى المبتكر والصورة الجديدة، لم يظهرهما لفظ قوي، ولا أداء مستقيم) فالأمر كله في نظر الأستاذ الطنطاوي إنما هو أمر اللفظ القوي والأداء المستقيم. أما أننا نعيش في عصر

الحديد والنار، العصر الذي يتطلب من أدبائنا أن يكونوا طليعتنا في إدراك الوضع الحاضر والاستعداد له وتلقف الفلسفات التي تنطوي عليها حضارة هذا العصر ومدنيته، فنتطلب من شاعرنا وأديبنا أن يكون شخصاً ذا رأي وعقيدة، فهذا أمر إن جاء في حساب الأستاذ فإنما يأتي في الدرجة الثانية أو الثالثة. . . وهو إذا أراد أن يقول كلمته في أمر اللفظ والمعنى فإنه يعود تواً إلى الجاحظ والجرجاني ولا يزيد عليهما. . . أما الأعصر التي مرت على البشرية بعدهما فلا حساب لها عند الأستاذ. . . (أما المتقدمون من نقدة الأدب العربي فأكثرهم على أن المعاني على قوارع الطرق (!. .) وإنما يتفاضل الناس بالألفاظ). ولسنا ندري على قارعة أي طريق وجد المعري معانيه في لزومياته ورسائله، أو المتنبي في شعره الخالد!

ويعود حضرته فيؤكد ويقول (وإنما الأدب هو الصيغة اللفظية التي يعبر بها عن هذا الإحساس، وعلى مقدار التوفيق في هذه الصياغة تكون قيمة القطعة الأدبية) فالأمر كله على الثوب ورحم الله حجا وثوبه في مأدبته المشهورة!

ولو كان نقد الأستاذ موجهاً إلى أحد أدباء العربية غير العقاد لجاز أن يوجه بعض التوجيه، ولكن العقاد أديب لم يتهاون مطلقاً في أمر اللفظ القوي والأداء المستقيم) وهو يتحرى ذلك فيما يكتب وينقد. وقد اضطر في نقد له لجبران أن ينزل به لأنه كان في نظره ليس بالمتين في اللغة والأداء. وبيان العقاد في العربية أنصع بيان وأقومه، ويشهد بذلك كل (بياني) ولو شئت لأتيت بالأمثلة، ولكنها لن تغني سادتنا (اللفظيين) لأن الفن فيها لا يستكنه بالرجوع إلى اللسان أو القاموس المحيط! فاللفظ هو كل شيء في أدب إخواننا أصحاب الرافعي. ولست أعلم ما رأي الأستاذ الطنطاوي في كتاب (ألف ليلة وليلة)، هل مرجع الأهمية فيه الصيغة اللفظية أم سمو الخيال؟ وهل يرى الأستاذ أن قصيدة (ترجمة شيطان) للأستاذ العقاد هي (أشبه بالعمالقة الضخام، ولكنهم يحملون حفنة من الحصى) أم أنها ملحمة لا مثيل لها في العربية؟

ولنأت الأستاذ الطنطاوي إلى آخر حديثه فنسمعه يقول عن نقد هذا البيت!

قلبي يحب وإنما ... أخلاقه فيه ودينه

أن انتقاد هذا البيت وتشبيهه بالخطب المنبرية الجافة تحقير للحب، وتنزيل له إلى) حيث

يخالف الدين والأخلاق حتماً. ودعوى ضمنية بأن المحب لا يستطيع أن يحتفظ بخلق ولا دين!)
هذا آخر سهم في الكنانة!
فان لم ينفع كل ما قيل فهناك الدين، وما أسهل ما ينقلب الأمر إليه فيكون العقاد وتلامذته كفرة جاحدين! وكذلك كأن الرافعي رحمه الله يقول عن كل ما يقع تحت مبضعه في النقد؛ فطه حسين والعقاد وسلامة موسى وسواهم كفرة؛ وإذا أراد العقاد أن يجادله في مفهوم إعجاز القرآن بلغة هادئة كلها منطق وحجج، فذلك لا يؤدي إلا إلى اتهامه في عقيدته الدينية. ولست أفهم كيف يرى إخواننا المعجبون بأدب الرافعي في النقد كالأستاذ شاكر والعريان والطنطاوي أن نقد العقاد للرافعي ما هو إلا (شتائم)، وماذا كانوا يقولون عنه لو أنه كتب في ثلب الرافعي رحمه الله كتاباً ككتاب (على السفود) وأقل ما فيه: وغد، ونذل، وزنيم؛ ولم يفعل العقاد عشر معشارها في نقد الرافعي؟ أكانت تبقى للعقاد حرمة عندهم؟ أم كانوا يسقطون منه فضيلة القول الجميل كما يريدون أن يسقطوا منه كل فضيلة؟
إن الأستاذ علي الطنطاوي لا يتجنى على العقاد وسيد قطب فحسب، بل هو يبتني سابقة غير محمودة في النقد، فليس من المروءة تأليب الطبقة المحافظة على كل أديب مجدد، وليس الدين مدار البحث في أدب الرافعي وشعر العقاد، بل هو موضوع قائم بذاته متى جاء البحث إليه جاز أن يقول فيه الناقدون مقالتهم، أما ونحن الآن في عصر لم نتخلص فيه بعد من عصبية جاهلية قائمة عند الأغلبية فان من الجناية التي لا جناية بعدها أن يدور الأستاذ الطنطاوي ويحوم حتى يأتي بالأمر إلى الدين! فيتهم الأستاذ سيد قطب من طريق غير مباشر بعدم الرعاية للخلق الديني.
وبعد فإن الحديث حول الرافعي والعقاد الآن حديث ذو دلالة في الأدب العربي المعاصر، ودلالته هذه في أنه يمثل عصرين يتطاحنان، ولا ريب عندنا في الغلبة لأحدهما. . . فالعصر الذي يمثله المرحوم الرافعي وإخواننا المنافحون عنه عصر يلفظ أنفاسه الأخيرة، وهو في حالة احتضاره يصحو صحوة الموت ليهدأ بعدها الهدوء النهائي، والعصر الذي يمثله العقاد وزملاؤه عصر الحاضر والمستقبل، عصر الأدب المنتج الخلاق، لا عصر التقليد والاجترار، عصر هضم الحضارة الغربية وتمثلها، لا عصر ازدرائها والابتعاد عنها؛ وهو بذلك العصر الذي سيعيش حتماً.
وما دمنا في الحديث عن العقاد فإن له كلمة تدخل في حديثنا هذا، فقد لقيه أديب مشهور في أثناء نقده لشوقي بهذا البيت:
شوقي تولاه عباس فأظهره ... واليوم يخمله في الناس عباس
فقال له: (بل إنه عصر يخمل عصراً، ولا غية وهم تخفتها صيحة حق) فالأمر في الخلاف بيننا وبين إخواننا المعجبين بأدب الرافعي كل هذا الإعجاب لا يقتصر على شخص العقاد أو الرافعي بل هو يمثل هذين العصريين المتطاحنين.
بغداد
عبد الوهاب الأمين
ليلى المريضة في العراق
للدكتور زكي مبارك
- 22 -
ليت ليلى تعرف بعض ما ألاقي في ليالي الصد من أهوال!
ليت ليلى تعرف كيف ندمت على التعرف إلى وجهها الجميل!
ليت ليلى تعرف كيف هدت عزمي وقوضت بنياني!
ليتها تعرف أن هواها أورث جسمي وقلبي أسقاماً وعقابيل ستكدر ما بقي من حياتي!
وليتني أعتبر بما صرت إليه فأتقي الله في نفسي وأتصون عن الهوى والفتون!
ما أشد حزني على ما ضيعت من شبابي في التغزل بالعيون السود!
ما أشد ندمي على الغفلة التي خضت أوحالها يوم وثقت بعهود الملاح!. . .
سيطول بكائي على العافية التي بددتها تبديد المسرفين على أنفسهم وأنا أتنقل من أرض إلى أرض في سبيل الجمال
سأكتوي بنار الحقد على الدنيا وعلى الناس كلما تفكرت فيما ردني الحب إليه من

ظلمات.
لم يبقى لي رجاء في غير الله.
ومن سوء البخت ألا أعرف الإيمان إلا في أيام الضر والبؤس!
إليك أرجع يا ربي، أرجع مقهوراً مدحوراً بعد طول الهيام بأودية الضلال
إليك أرجع، ولا فضل لي في هذا الرجوع، فقد انهد كياني، وانشقت مرارتي، وصار من الموجع أن أحمل إلى فمي كوباً من الماء
إليك أرجع، فامنحني من العافية ما أنقل به صور ذنوبي إلى ألواح خيالي، عساني أعرف كيف أستغفر وأنيب
لم أجد في النجف شفيعاً إلى ليلاى، فقلت أذهب إلى الموصل وتلك نهاية المطاف في البحث عن الشفعاء
وعقدت العزم على السفر بالقطار الذي يقوم من بغداد في الساعة التاسعة مساء
ولكن صديقاً موصليا طرق بابي في الساعة السادسة وعرف نيتي في الذهاب إلى الموصل، فنهاني، ولما استوضحت السبب قال:
إن أهل الموصل يحقدون عليك؛ فانزعجت وقلت: كيف؟ فأجاب:
أنت أطلت التشبيب بالعيون السود فغنمت عطف أهل البصرة وأهل بغداد، وخسرت مودة أهل الموصل، لأن عيونهم شهل لا سود. . .
فقلت: أتغزل بالعيون الشهل وأتناسى العيون السود
فقال: كان ذلك قبل اليوم
وتركني وانصرف
وكذلك قضيت نحو ثلاث ساعات في كرب وبلاء
أشهد أن ذلك الصديق طيب القلب، فما تعمد يوم إيذائي، ولكنه سيئ التصرف، فهو يزورني من حين إلى حين ليكدر صفائي، وهو يجد لذة في تنغيص من يعرف، ويشعر بارتياح حين يستطيع إلقاء صديقه في أتون العذاب
وقد وصل في إيذائي إلى ما يريد وخرج وهو جذلان
وفي غمرة هذا الحزن المظلم دخل موصلي آخر، موصلي كريم كاد أهله ينسونني أهلي، موصلي صيغ قلبه من العطف والحنان، فشاع الأنس في روحي حين اغتبقت بروحه الرفيق
وما هي إلا لحظات حتى كنت في القطار وهو يحملني التحية إلى أقربائه بالموصل الجميل
وفي القطار رأيت رجلا بيده مجلة تسمى (الأندلس الجديدة) وهي فيما أتذكر تصدر في البرازيل، وفيها رأيت مقالة في تجريح صديقي العزيز الدكتور زكي مبارك، فابتسمت وقلت: جرحوه كيف شئتم فستطيب الدنيا يوم يصل إلى فؤاده ليلاه!
وكان رأسي قد أثقله النعاس فلم أعرف شيئاً من معالم الطريق
وصلت إلى كركوك بعد عشر ساعات في القطار، وكركوك هي (شهرزور) في كلام القدماء، وفيها تشهد العين لأول نظرة مشاعيل اللهب، لهب النفط، فيدرك العقل أن هذا اللهب هو الذي يجذب الفراش، الفراش البغيض الذي يفد من وراء البحار ليسيطر على ذخائر تلك الأرض، وبعض البلاد تؤذي أهلها بفضل ما فيها من ذخائر وكنوز، والجمال يجني على أهله في أكثر الأحيان
ومضيت فسألت عن رئيس البلدية وهو الشيخ حبيب الطالباني فعرفني بأقربائه ودعاني
للتنزه في حديقته الغناء، وهناك جرى الحديث عن اللغة العربية فعرفت أن أهل كركوك بعضهم من الأكراد وبعضهم من التركمان وأنهم يتكلمون الكردية والتركية بأسهل مما يتكلمون العربية
وبعد لحظات رجع أبناؤه من المدرسة فدعاهم للتسليم علي، فوقفوا صفاً في أدب واستحياء، فسألتهم أن ينشدوا شيئاً مما يحفظون فأسمعوني نشيداً عربياً بديعاً دلني على أن أطفال تلك الناحية سيكونون بأذن الله من سواعد العروبة بعد حين
وكذلك عرفت أن الحكومة العراقية تستطيع بسهولة أن تؤلف بين عناصر العراق، وأن تجعل منه شعباً موحد اللغة والتقاليد في زمن قليل. ويؤيد ذلك أن العروبة هي في الواقع فكرة لا جنس، والكردي يتحول بعواطفه إلى العروبة بلا عناء

ومنظر كركوك جميل ولكن أهلها يشكون قلة المياه، وفيها اليوم نحو أربعين ألفاً من السكان، ودورها تبلغ ثمانية آلاف، وبها حديقة للشعب، ومكتبة، ولها ضواح صالحة لأن تكون من مرابع الابتهاج لو وجدت من يصلها بأصول التمدن الحديث.

وفي شهر زور - وهي كركوك - يقول أحد الشعراء:

وعدتِ بأن تزوري بعد شهر ... فزُوري قد تقضَّى الشهر زُورى
وموعد بيننا نهر المعَّلى ... إلى البلد المسمى شهر زُور
فأشهُر صدك المحتوم حقٌ ... ولكن شهر وصلك شهر زُور

خطرت ببالي هذه الأبيات وأنا أطوف بكركوك فحزنت، فذلك شاعر كان يشك في صدق ليلاه، كما أشك في صدق ليلاي. ورأيت أن أبحث عن قريبات ليلى هناك، ثم خشيت أن يصعب التفاهم باللغة العربية فمضيت إلى أربيل بلد المبارك بن حمد بن المبارك الذي يقول:

تذكَّرنيك الريح مرَّت عليلةً ... على الروض مطلولاً وقد وضح الفجرُ
وما بعدت دارٌ ولا شط منزلٌ ... إذا نحن أدنتنا الأمانيُّ والذِّكْرُ

وصلت أربيل في وقت القيظ فلم أجد من النشاط ما أصعد به لرؤية القلعة التي تحدثت عنها كتب التواريخ، وإنما اكتفيت بزيارة المسجد وشهود بعض الأسواق. وراعني أن تقوم أكثر المنازل على ربوة عالية تستدرج شياطين الشعر والخيال وفكرت في تلقف بعض المعلومات عن أربيل فلم أجد من يسعفني بما أريد، حتى الشرطي حارس الميدان لم يعرف شيئاً عن عدد السكان في أربيل ولم يستطع أن يرشدني إلى بعض المدارس، وهذا لا يمنع أن يكون في أربيل أدباء نرى آثار أقلامهم في بعض المجلات المصرية من حين إلى حين

ثم اتجهت نحو الموصل فراعني أن أرى حقول الحنطة على جانبي الطريق، وهي تشهد بما في تلك البقاع من خيرات، وراعني أن أرى السيارة تنتقل من نجاد إلى وهاد، ومن وهاد إلى نجاد كأننا في جبل لبنان

الله أكبر ولله الحمد!

هذا مسجد النبي يونس، وهو فوق هضبة عالية، وكأنه نوتردام دي لاجارد التي تروع من يدخل إلى مرسيليا أول مرة.

وعند الجسر يستوقفني الشرطي ليسأل عن أسمي فأقول: زكي مبارك. فيسأل: الدكتور؟ فأقول: نعم! فيبتسم ويقول: عرفت أخبارك، ولكن حدثني عند من تنزل؟ فأقول: عند آل ليلى! فيقول: وهذا وجه الإشكال!

وسأعرف بعد أيام لماذا يهتم الشرطة بمعرفة أسماء من يدخلون كركوك وأربيل والموصل

ألقيت أمتعتي في الفندق وخرجت أدبر الوسائل للبحث عن قريبات ليلى. واتفق أن جلست لأشرب كوباً من الشاي في إحدى القهوات ففاجأني الأستاذ محمد بهجة الأثري وهو يقول: أتراك تفلت من يدي يا دكتور؟ من جاء بك إلى الموصل؟ أذو نسب أم أنت بالحي عارف؟ ونقلني إلى المدرسة الثانوية للتسليم على الأستاذ بهجة النقيب، وهنالك طالعتنا مجلة الرسالة فقرأنا فقرأت من حديث ليلى المريضة في العراق، وحددنا موعداً للتلاقي بنادي الجزيرة في المساء

ولم تمضي ساعات حتى تسامع أهل الموصل بقدومي على غير ميعاد، فأقبلوا متفضلين للتسليم على الرجل الذي أحب العراق وأحبه العراق

تحدث أحدهم فقال: هل رأيت المنارة الحدباء؟

فقلت: لا. فقال: لقد هم الدكتور عبد الوهاب عزام بصعودها، وبعد أن صعد خمسين درجة دار رأسه فنزل

فقلت: يا فضيحة الجامعة المصرية!

وانتقلت إلى مجلس آخر فابتدرني أحد الأدباء بهذا السؤال: هل رأيت المنارة الحدباء؟

فقلت: لا. فقال: لقد هم الدكتور عبد الوهاب عزام بصعودها، وبعد أن صعد أربعين درجة دار رأسه فنزل

فقلت: يا فضيحة الجامعة المصرية!

وفي مجلس ثالث تحث رجل فقال: هل رأيت المنارة الحدباء؟ فقلت: لا. فقال: لقد هم الدكتور عبد الوهاب عزام بصعودها، وبعد أن صعد ثلاثين درجة دار رأسه فنزل

فقلت: يا فضيحة الجامعة المصرية!
ثم صممت على صعود هذه المنارة ولو كان في ذلك حتفي، لأنقذ سمعة الجامعة المصرية، على حجراتها وغرفاتها ومدرجاتها أزكى التحيات!
سميت هذه المنارة حدباء لغلطة هندسية أورثتها الاحديداب ومن أجلها سميت مدينة الموصل (الحدباء) على طريق المجاز المرسل، وباسم الحدباء سمي نوع من الخمر يستقطره الموصلين، وكذلك انتقل الاسم من المنارة إلى المدينة إلى الشراب!
والمنارة الحدباء هي أعظم منارة في أقطار العراق، ودرجاتها فيما سمعت مائة وثلاث وتسعون درجة، وهي منارة الجامع الكبير.
ابتدأت فزرت الجامع، وهو قديم يرجع تاريخه فيما قيل إلى ثمانمائة سنة، ولمحرابه قبة عالية، وإقامة القباب فوق المحاريب طراز معروف في العراق
وبذلك الجامع مقصورة خاصة بالنساء، ولا تقام فيه الصلوات لهذا العهد إلا في الجمع والأعياد
وفي أثناء الطواف سمعت هديلاً يسجع بحنين فاجع يذيب لفائف القلوب، وسجع الحمام مألوف في العراق وقد تحدث عنه مئات الشعراء، ولكنه في هذه المرة كان حماماً موصلياً يعيش في البلد الذي نسب إليه أبو إسحاق
وقد نظرت فرأيت الهديل يسجع وبجانبه ليلاه، فما الذي كان يصنع لو غابت عنه ليلاه! ليتني في مثل حالك، أيها الهديل البكاء!
ثم توكلت على الله وصعدت المنارة بصحبة جماعة من الرفاق يحملون المصابيح، وآذاني
أن أجد درجات المنارة مهتمة، وأن أعرف أن الصعود فوق الدرجات أمر صعب، ولو أنني حاولت ذلك وأنا في سن أصغر أبنائي لكان الخطب سهلاً، ولكنني اليوم عالم علامة، والعلماء العلامون يصعب عليهم السير في الطريق فكيف يصعدون المنارة الحدباء؟!
وبعد أن صعدت نحو سبعين درجة شعرت بالتعب، فقلت: أنزل!
وهل يعيبني أن أعجز عن صعود منارة عجز عن صعودها الدكتور عزام؟
وشجعني على النزول أن الدكتور عزام صديق عزيز والتعالي عليه ينافي الذوق، وهو بالتأكيد سينشرح صدره حين يعرف أنني عجزت عن صعود المنارة والضعفاء يعطف بعضهم على بعض!
وبعد أن نزلت درجتين مر بالبال خاطر مزعج: وهو أن ليلى قد تسمع بهذه القصة فتعرف أن طبيبها أصبح من الأشياخ
وكذلك انطلقت لصعود المنارة بعزائم الشياطين.
وقفت فوق المنارة ونظرت إلى الأرض فعرفت خطر ما أصيبت به من احديداب فالذي ينظر إلى الأرض من فوق تلك المنارة يتوهم أنها ستسقط به، ولكن هذا الوهم لا يجوز على رجل مثلي!
ذلك كان من أمر الصعود، ولكن كيف النزول؟
إن النزول بدا لي أمراً خطيراً جدا ومن كان في ريب من ذلك فليجرب، وقد خشيت أن تزل قدمي فأسقط، لأن درج تلك المنارة أصبح خيالا في خيال
واقترح السيد محسن جومرد أن أضع يدي على كتفه فرفضت لأن الاعتماد على الغير عند الشدائد هو بداية الانخذال.
نزلت من المغارة بلا مساعد ولا معين، فصح أن عافيتي لا تزال باقية، وتطلعت إلى الهيام بأرجاء الموصل لأرى ما فيها من بقايا السحر والفتون، ولأبحث عن الشفيعات إلى ليلاي.
وبدأت فزرت قبر أبي تمام، وكنت كتبت كلمة عن إصلاح قبره في جريدة الأفكار منذ ثمانية عشر عاماً، وكان من رأي أن تأليف كتاب جيد عن شاعرية أبي تمام أفضل من العناية بإصلاح قبره، فمتى أشرع في تأليف هذا الكتاب؟
كنت مبلبل الخواطر فلم أقرأ الفاتحة على قبر أبي تمام، وإنما قرأت على قبر أبي تمام قول
أبي تمام:
أحبَابَهُ لِمَ تفعلون بقلبهِ ... ما ليس يفعله به أعداؤهُ

وهاج حقدي على ليلاي فوقفت شارد اللب لا أعرف ما أصنع ثم تلفت فرأيت جنيات الشط، شط دجلة، فسألت رفيقي:
ما بال هؤلاء الملاح يلقين الشط بلا احتشام؟
فأجاب:
(للحديث شجون)
زكي مبارك
حواء
ديوان شعر طريف في الغزل العرفاني من نظم الأستاذ الحوماني تحت الطبع، تحمل الرسالة منه إلى قرائها عدة نماذج قبل صدوره
في ليلة عرس
اسألي الروضةَ هل كا ... ن بها إلاكِ غرسي
وهل العطر الذي يع ... بقُ منها غير نفسي؟
زهرها الذابل يا ميُّ ... غدي والغضُّ أمسى
وعلى المخضرِّ من أو ... راقها سطرت يأسي
فبدت منه على وج ... هـ السما صبغة وَرْسِ
وهوى كالزَهَرِ المن ... ثور في ليلة عرس
وتوارى لم يَرُق عي ... ناً ولم يعلق بحسّ
هو مثلي تعبق ال ... فاق منه وهو منَسي
فراش يتبارى
ما تَمُرِّينَ بآما_ليَ في الروض حياري
يترامين على الزه ... ر كبار وصغارا
ويساجلن دوالَيْ ... كِ على الدوح الهزارا
ويعانقن متى شئ ... ن شقيقاً وبَهارا
وإذا البسها من ... لونه الزهرُ إزارا
وسقاها من سَقيط ... الطل شهداً وعَقارا
فبدت ألوانها الزُّه ... ر لجيناً ونضارا
ومضت تختال من غص ... ن إلى غصن سكاري
تتبدي فوقه طو ... راً وطوراً تتواري
خِلْتهِا في أُفُق الر ... ض فَراشاً يتبارى
الحوماني
التاريخ في سير أبطاله
ابراهام لنكولن
هدية الأحراج إلى عالم المدنية
للأستاذ محمود الخفيف
يا شباب الوادي! خذوا معاني العظمة في نسقها الأعلى من سيرة هذا العصامي العظيم. . . . . .
- 17 -
عاد المحامي يكدح من أجل قوته كدحاً شديداً، ويأخذ قسطه من النصب مع صديقه هرندن؛ وكان قد تركه وحده طيلة ذلك الصراع العنيف، فهو بذلك يخرج من جهد إلى جهد؛ والناس يعجبون من تلك القوة البدنية التي ما زال يتمتع بها قاطع الأخشاب في الغابة بالأمس وهو اليوم قد ناهز الخمسين أو كاد.
وإن به بعد عودته هذه لحاجة شديدة إلى المال فهو اليوم ذو عسرة؛ وإنه لن يطلب المال ليستعين به في الوصول إلى جاه كما يفعل دوجلاس ومن على شاكلته من الناس، بل لينفق منه فيما باتت تطلبه السياسة من أوجه الأنفاق؛ وإنه ليفطن إلى أن عودته إلى المحاماة إنما هي إلى أجل قريب، فلقد خطا في السياسة خطوة لن يكون بعدها نكوص
ولم يجعل إبراهام للمحاماة كل همه كما كان يفعل من قبل حينما كان يمني بالفشل في السياسة؛ فأن للسياسة اليوم نصيباً كبيراً من وقته ومن جهده؛ فهو يقرأ الصحف قراءة تمعن ليرى ماذا يقول الناس في مسألة العبيد، ولينظر في الأمر ليتعرف كيف

يتطور وغلى أين يتجه البلاد فيه؛ وهو يدعم بنيان حزبه في ألينواس ويعدله ما استطاع من قوة يعتد بها في غد
ونظر الناس إليه اليوم نظرتهم إلى ذي جاه، ويشيرون إليه في إعجاب وإكبار، وهو يحس هذا فلا يزداد إلا دعة ولينا؛ فيدل بذلك على أن عظمته عظمة حقيقية تبدو للناس في أبسط مظهر لها فتكون بذلك في أبهى مظاهرها. . .
والعظمة الحق كالذهب الحر في بساطة جوهره وبهاء منظره ولن يخرج الذهب عن صفته إذا وجد غفلاً من الزخرف؛ والنحاس مهما أدخل عليه من النقش والزينة لن يكون إلا نحاسا؛ً والعظمة الحق هي التي تخلق الرجال وتبنيهم، وليست هي تلك التي يختلقها الرجال فيكون الواحد منهم بما يتصنع ويتكلف كالذي يحظر في حلة رائعة وهو لا خلق له؛ فلا تخفى الحلة سمته، ولا يكون منها إلا أنها تظهره أقبح منظراً وأحقر أمراً؛ فهو إنما ينبه الناس بما ينتحل ويدعى لنفسه من أوجه الكمال إلى حقيقته فيرون أنه ليس بالكبير ولكنه يتكبر، ولا تقع أعينهم منه إلا على مظهر وإن كان ليخيل إليه أنه جوهر. . .
ولقد كان لنكولن يفعل الفعل أو يرى الرأي في أمر من الأمور عن لقانة مدهشة وطبع معجب بكماله، فإذا رددت فعله أو رأيه على ما تواضع الناس عليه من عرف وما اتفقت عليه عقولهم وقلوبهم ما وجدت فيه شذوذاً ولا نقصاً؛ بل إنك لتراه حقيقاً أن يسير الناس كما يرمم، كأنه في أعماله كوكب في هذا الفلك الدائر يتحرك وفق نظام محدود فلا يضطرب ولا يتذبذب إلا أن ينفرط عقد ذلك النظام.
وكان من أحب الأشياء إلى نفسه أن يرفع الناس بينهم وبينه الكلفة، فهو يصاحبهم ويعاشرهم كأنه أصغرهم قدراً؛ وهو على كثرة بره بهم لا يبتغي على معروف جزاء وكان إذا غشى مجلساً لهم رآهم يتنحون له عن مكان الصدارة فيأبى إلا أن يجلس حيثما اتفق له؛ وإنه ليستحي أن يناديه الناس باسمه مجرداً عن كل لقب يراد به التعظيم وهو عندهم أيب الأمين أو أيب العجوز أو هما معاً، وهي ألفاظ لها في أذنه سحر الغناء لأن فيها جمال الصدق وجلال التواضع. . .
وحسبك دليلاً على جمال نفسه وطيب عنصره أنه طلب إليه يومئذ أن يكتب كلمة فيها ملخص حياته لتكون مرشداً إلى ترجمة توضع له فلم يشر إلى أنه نشأ في الغابة من أبوين فقيرين، وأنه عمل منذ صغره على كسب قوته فساعد أباه تارة واشتغل أجيراً تارة، وأنه تعلم القراءة والكتابة دون مساعدة تذكر من جانب غيره، وأنه ذهب إلى نيوأر ليانز في تجارة لأحد الناس وأنه أشتغل بعدها صبياً في حانوت، وأنه عمل في تخطيط الأرض وفي توزيع البريد، وأنه عالج المحاماة حتى حذقها، وأنه اختير عضواً في مجلس الولاية. . . كل أولئك دون أن ترى في كلمته هذه العبارة تشعر بفخر أو تنم على الزهو، حتى أنه ما استطاع أن يشير بكلمة إلى ما أصاب من نجاح في السياسة، وهو إن فعل لم يك يعدو الحقيقة في شيء. . .
رجع إبراهام إلى سبرنجفيلد ولكن اسمه ملء الأسماع في كل مدينة من المدن الكبيرة وخاصة في الشمال؛ والصحف لا تفتأ تشير إلى ما كان بينه وبين دوجلاس، ولا تكاد تذكر مسألة العبيد إلا مقرونة باسمه؛ ثم أن مسألة العبيد تذكر اليوم معها مسألة أخرى هي مسألة الوحدة، فقد أخذت تزداد في الجنوب دعوة الداعين إلى الانفصال عن الشمال؛ وكان خصوم ابراهام يجتهدون أن يرجعوا إليه وإلى الحزب الجمهوري السبب في هذا الانفصال إذا تم، وكانوا يسمونه الجمهوري الأسود حنقاً عليه وكيداً له. . .
وانهالت عليه الدعوات من مدن كثيرة في الشمال ليخطب الناس فيها، فأعرض أول الأمر عن إجابة هذه الدعوات قائلاً: إنه إن ترك عمله في المحاماة مدة كما فعل من قبل فسوف يعدم قوته؛ ولكن خصومه لن يدعوا الكيد له ولن يتوانوا عن تشويه مبادئه والطعن عليه بكل فاحش من القول وباطل من الاتهام؛ وإذاً فإلى مجادلتهم من جديد ما من ذلك من بد. . .
وكانت ماري على ما به من خصاصة تطلب منه الكثير من المال لتظهر به في المظهر الذي يليق بما أصبح له من مكانة؛ وهي في الوقت نفسه لا تنفك تستعجله في السياسة وتحرص ألا يتهاون في أمر من أمورها

ولقد عظمت ثقته بنفسه؛ ولكن تواضعه يغلب عليه فيرى نفسه بين عاملين يتنازعانه، فبينما هو يفطن إلى قوته ويحس أن منطق الحوادث يسير به إلى حيث يصبح رجل الساعة، إذا به - وكأنه يخشى الخيلاء - ينظر إلى نفسه نظرة لولا ما عرف عنه من الصدق والصراحة لأخذت على أنها نوع من المكر يلجأ إليه لغاية في نفسه. فهو يسر إلى صديق له أثناء منازلته دوجلاس أن امرأته تتوقع أن سيصبح رئيس الاتحاد، ثم يقول لهذا الصديق وهو يضحك ملء نفسه ويداه تعتقلان ركبتيه وهو مستلق على ظهره: (صور لنفسك يا صاحبي كيف يصير أبله مثلي رئيسا)

يا الله لهذا الرجل! ولكن المبدأ عنده كما أسلفنا فوق كل اعتبار آخر، وما الرياسة عنده إلا غرور ما لم تكن وسيلة إلى تحقيق ما استقر في نفسه، لذلك كان يجهد ويدأب كلما خاف

على مبادئه أن تعصف بها الأهواء والمغالطات، ولم يخطر بباله يوماً ما أن يخطو خطوة واحدة من أجل غرض شخصي

وكان لا يزال يرى في دوجلاس أخطر خصومه، لا لما كان بينهما من منافسة، بل لما كان يمتاز به ذلك الرجل من المكر الشديد والمقدرة على أن يخدع الناس في سياسة بلادهم ليصل من وراء ذلك إلى تحقيق أطماعه الشخصية وهو لا يراعي في الحق إلاً ولا ذمة

وكأن دوجلاس لم يكفه ما كان من جدال فحمل في أهايو على الحزب الجمهوري وقذفه بما شاء من اتهامات. فذهب لنكولن وخطب الناس في كولمبس وسنسناتي، وفي هذه المدينة أعلن سياسته في صراحة وجلاء، قال: (إني أعلن أول الأمر لأهل كنتولي أني كما يقولون - ولكن كما أفهم أنا - جمهوري أسود؛ إني أعتقد أن نظام العبيد خطأ خلقي وسياسي، وإني أود ألا تنتشر العبودية من بعد في هذه الولايات المتحدة!

ولم يقتصر كلامه على نظام العبيد بل تكلم في شؤون أخرى كانت تهم الناس، منها راس المال ونظام العمل، ولقد أطرب في ذلك السامعين وملك مشاعرهم؛ ولما رأى إقبالهم على هذا الحديث أعاده في سوق جمعية زراعية في حفل أقامته بعد ذلك بأسبوعين فقال أنه يرى رأس المال مديناً في وجوده للعمل، فللعمل لذلك أهم وأعلى منزلة، وإن خير عمل هو ما يقوم به الفرد الحر الذكي المستقل الذي يعد ذخر البلاد وعتادها. . .

وفيما هو ينافح عن حزبه ويجادل خصومه في مبادئه إذ وقع في البلاد حادث جديد زاد هياجها وكان مثله مثل الزيت يلقى به على النار وذلك هو حادث جون برون، فإن هذا الرجل على كبر سنه قد أعلن الثورة لتحرير العبيد، ولقد كانت له قبل ذلك بثلاث سنوات حركة جريئة لنصرة قضيتهم في كنساس، وقد عول اليوم أن يذكي نار الثورة في البلاد إذ لم يطق صبراً على بقاء هذا النظام البغيض، وكان أهل الجنوب قد قتلوا ابنه من قبل وباتوا يتربصون به ليقتلوه هو. . .

خرج هذا الرجل في ثمانين لا أكثر من الرجال، منهم خمسة من الزنوج؛ وكان قلبه يفيض حماسة، فأعلن خطته في جرأة الأبطال واستهتارهم بالموت، ألا وهي حق كل زنجي أن يثور على مالكه، فليس أمام هؤلاء الزنوج غير القوة؛ ولكن جون برون لم يكد يخطو الخطوة الأولى ويستولي على مركز يجعله قاعدة لحركته حتى غلب على أمره فحوكم

وأعدم. . . ولقد قابل الموت بجنان ثابت ونفس هادئة. ولما حانت منيته استنزل لعنة الله على الظالمين أعداء الحرية. . .

واغتدى جون بجرأته ثم بميتته هذه بطلاً عند دعاة التحرير في الشمال؛ وأخذوا ينظمون الأناشيد في بطولته ويجعلونه رمزاً لأحرار الشمائل ومثالاً يجب أن يحتذيه كل من كان له قلب يخفق بحب الحرية. . . ويرى دوجلاس في هذا الحادث فرصة يحذر أن تفوته، فيعلن أن ذلك ليس بعجيب فلن تفضي مبادئ الجمهوريين إلا إلى مثله. . .

وأدرك لنكولن خطر التهم، ولو كان غيره مكانه لأخذته مما رمى المارد الصغير ورطة؛ ولكن صوت الحق لا يضيع في ضجيج الباطل؛ فهذا لنكولن يتلقى دعوة من جماعة في نيويورك فيلبي مسرعاً ويلقي خطاباً من أبدع وأروع ما وانته به عبقريته وفي جمع لم يسبق أن وقف في مثله

احتشد لسماعه في تلك المدينة العظيمة جمع من كبار الساسة وقادة الرأي وذوي الثقافة وأساطين الصحافة، فكان لهذا الحفل بهم مهابة وجلال وخطر. . . واحتشد كذلك عدد هائل من عامة الناس ليروا لنكولن، هذا الذي كان يشتغل نجاراً أول ما نشأ فاستطاع أن يرقى حتى يقف من دوجلاس الشهير موقف الند من نده وأن يظهر عليه في الخطابة والمجادلة. . .

ولقد ارتاع فؤاده عند ما بلغ مكان الاجتماع وذلك حينما رأى هؤلاء السادة في ملابسهم الأنيقة، ورأى في وجوههم نضرة النعيم وفي أحاديثهم وتحياتهم روح المدنية؛ ولما نهض للخطابة شاهد بعض الناس علامات الحيرة عليه، فقد كان على غير ما ألف مشغول البال بملابسه المتهدلة العتيقة التفصيل والحياكة والتي تبدو بمقارنتها بما يقع عليه بصره كأنما جيء بها من متحف

وتطلع عامة الناس إليه في دهشة، وتقسمت ألحاظهم بين قامته الطويلة ويديه الكبيرتين اللتين تدلان في جلاء على أنهما خلقتا للمعول لا للقلم، ووجهه المصفار المسنون الذي تغشاه سحابة عميقة من الهم، وعينيه الواسعتين اللتين تعبران عن وداعة الأطفال وحماسة الأبطال، وأنفه الأشم الغليظ الذي يترجم عن صرامة عزيمته وشدته في الحق، وشعره الأشعث الذي يعلو رأسه الكبير في غير نظام كأنه ألفاف الغابة. . .

وكان صوته في أول الأمر خافتاً، ولكنه أخذ يعلو حتى ملأ الأسماع. وصفه أحد الحاضرين فقال: (أخذ وجهه يضئ بما في باطنه من نيران. . . وجلجل صوته وعظمت قوة خطابته، واتفق له إلى حد كبير مثل سهولة الإنجيل البالغة. . . وكان يسود المكان صمت عميق بينما هو يتكلم حتى لقد كان إذا سكت يسمع هسيس الغاز منبعثاً من ثقوب المصابيح، فإذا تحمس السامعون دوت في جنبات المكان رعود قاصفة من الاستحسان)

ولقد عد خطابه هذا من أبلغ الخطب السياسية قاطبة. قال عنه جريلي - وهو الذي رأيناه قبل ذلك بعامين يدعو إلى أن ينضم دوجلاس إلى الحزب الجمهوري ففقد بذلك مودته -: (ما من رجل استطاع أن يبلغ لأول مرة بخطابه إلى مثل هذا الأثر الذي بلغ إليه لنكولن أمام جمهور المستمعين في نيويورك)

عاد لنكولن فأوضح خطة الحزب الجمهوري بما لا يدع مجالاً من بعد لدسائس خصومه، ثم استنكر ما فعله جون برون ومما ذكره في ذلك قوله: (لا يمكننا أن نعارض في الحكم على جون برون جزاء خيانته ولاية من ولايات الاتحاد، لا يمكننا أن نعارض في ذلك ولو أنه يوافقنا فيما يراه من خطأ نظام العبيد فان ذلك لا يبرر العنف وسفك الدماء والخيانة)

وأقبل عليه الناس كبيرهم وصغيرهم عالمهم وجاهلهم يهنئونه بما ظفر به من توفيق في هذا الحفل المشهود، ويعلنون إليه حبهم وولاءهم وإعجابهم بمبادئه. ولقد طار صيته بهذا الخطاب عل نحو لم يرى مثله من قبل، وأخذ الناس يحسون أنه الرجل الذي تجتمع عليه القلوب والأهواء. ولقد رأى الصحف وهو في طريقه إلى سبرنجفيلد تتحدث عن ترشيحه للرياسة في الانتخاب الذي يحل ميعاده في نهاية هذا العام. . .

(يتبع)

الخفيف

تطور الحركة الأدبية في فرنسا الحديثة

بول فاليري

للأستاذ خليل هنداوي

يمكن القول إن شعر (بول فاليري) لا ينحدر من ينبوع واحد. فهو طوراً رفيق البرناسيين، وطوراً رفيق الرمزيين ولا سيما (ستيفان مالارمي) يغشاه عطف ناعم، وتكتنفه أحلام وتأملات ورموز. وشعر (فاليري) الطافح بالإبهام يبقى محافظاً على إيقاعه الموسيقي ولمعان صوره. وهنا سر عظمة الشاعر! وقد جرب (فاليري) أن يودع شعره (إلهامات) تجدد لغة العاطفة. وهذه الإلهامات قد أغنت عن كل الحريات، من الشعر الرمزي إلى البرناسي فالوجداني. ويرى فاليري أن هذه الحريات لم تنقذ الشعر ولم تعتقه من قيوده، إذ الشعر لا يمكن أن يولد إلا من حالة قهر أو من شدة، من صراع ومن ظفر. وقد يمتزج سهله مع النثر. ومقاطيع المقبرة البحرية - إذاً - قد

بنيت وتحدرت كالشعر المدرسي، وفيها وفي حركتها قدرة - لو أنها دقت وانجلت - على أن تحمل الفكرة بوثبة لا تقهر، حتى في الموطن الذي لا تفهم فيه الفكرة، لأنه شعر حمل على الإبهام. وفاليري يعمل ضد المدرسة الرمزية والوجدانية بإعطائه - الشعر - خاصة الترنم لا بالأهواء وإثارة المشاعر ولكن بالأفكار! فالعاطفة يجب أن تقاد بالعقل. ويجب أن يكون محكوماً بصورة منظورة. على أن هذه الفكرة هي مولدة الشعر المدرسي. ولكن الشعر المدرسي لا يقيس من العقل إلا فكرة كبيرة واضحة. والعاطفة - وهي الشعر الصافي - إنما يجب أن تعبر عن العقل الصافي. وهذا العقل الصافي لا يربطه شيء بمنطق نصائحنا، ولا بأي مظهر من المظاهر الواضحة لحياتنا العملية. فهناك - في منطقة منعزلة بعيدة عن أنظمة هذه الحياة أو سطحيات اللغة العامة، هنالك عالم (للأفكار الصافية). فإذا ما استطعنا أن نستنقذ أنفسنا من هذه العبوديات في المظاهر بما أوتينا من جهد ندخل حالاً عالم الشعر. . . الشعر الذي اكتشفه أفلاطون ووجده مصوغاً من النور ومن هذا الخلود الحي للرؤى العقلية. في هذا العالم لا يفكر بمنطق كما يفكر نثرنا وشعرنا. وإنما هذه الرؤى العقلية تترابط، أو تنحدر بحسب الإيقاع الضروري لها، كالزهرة ثم الثمرة تنشأن من الغرسة، لا كالقدوم يطرق المسمار. القصائد يجب ألا تفهم بالنظر في بنائها الظاهر كأنه مشهد نحن غرباء عنه،

ولكن يجب أن تفهم بالتأمل في باطنها، بجهد يجعلنا نحس أننا قادرون على خلقها في أنفسنا!

الشعر خلق لا تأثير ولا حالات إحساس - كما هو عند الرمزيين - ولكنه قوة إحساس عقلي.

إن شعر (فاليري) هو أكثر تعلقاً من شعر (مالارمي) بالعاطفة التي تنحدر إلى ما وراء الطبيعة. هو جهد يضعنا في اتصال - لا بأهواء إنسان ولا بهذا العدم الذي هو إنسان ولكنه يصلنا بنفس الوجود المنظور كلعبة دقيقة من الأفكار السامية. وإن من الصعب التكهن عن مستقبل هذا النزوع المبتدع. فقد يمكن أن يتلاشى غداً ولا يبقى منه شيء. ولكن من المحتم الإيمان بعبقرية فاليري الشعبية. . . ولا ينكرها عليه من لا يرون في هذا النزوع إلا هزيمة متكبرة، وإلا مقاطيع يتلقنها صاحبها من العمل المبهم وقبسات الجمال الخالد، ولا يمكن جحود تأثير الشاعر الراهن، ولكنه ما هو إلا شعر فئة مصطفاة ضئيلة العدد، ولكن الذين يتلون سببنوزا وهيجل قليلون ولم يغض هذا من عظمتهما وعبقريتهما.

المذاهب الأدبية المضادة للمذهب المدرسي

لقد رأيت أن شعر (مالاري وبول فاليري) ومن حذا حذوهما كان كله نزوعاً حاداً للانفصال عن تقاليد العقل والفن، ومنها التقاليد التي تبدو لنا أنها متعلقة بطبيعة عقلنا ومعانينا. هنالك مدارس ترى أن هذه التقاليد ليست إلا اصطلاحات بل أبسط اصطلاحات وأكثرها سطحية.

الموسيقى يجب ألا تكون إلا لذة الألحان، فكل الموسيقيين إذا وضعوا فيها أفكاراً وعواطف هي شكل مسهب لأفكارنا؛ والدهان يجب أن يكون اللذة الوحيدة للأشكال والألوان، فكل الدهانين إذاً وضعوا فيه مواضيع، منها موضوع زهرة أو مرجل والزهرة تلقن فكرة زهرة، والمرجل فكرة مرجل! أما الفن فيجب أن يكون محضاً أو صافياً، أي تنظيم ألحان وألوان وأشكال. يكفي لنفسه ويبدع لنفسه شرائعه الخاصة دون أن ينشأ أي سأم من تشابهه مع الحقيقة العلمية. وهكذا نشأ فن محض في أنواع الفن، ومنه الأدب الذي نشأت فيه مقاطيع وروايات يظهر أن هدفها ليس إلا إذهال نفس القارئ أو الناظر. وما شعر مالارمي أو فاليري إلا مشاهد ذات لون خاص، طليقة من كل تقاليد العقل والفن، ومنها التقاليد القائمة على عقلنا وحواسنا. ونشأ بين الروائيين (برست) صاحب كتاب (وراء الزمن

الغابر) وهو الروائي الذي ما عاش إلا ليلاحظ نفسه أو يلاحظ غيره. وقد ذهل عن حياته ومطامعه وانجذب بتفهم نفسه وتفهم غيره. ولقد كان ملاحظاً محللاً تطغى فيه صفة التحليل على صفة الإبداع، ولم يكن ميالاً إلى النظر العقلي أو النظرية الخفية، ليس هنالك في تحليله مواضيع فوق الوضع، ولا منحدرات في ظلمات اللاوعي. . . وأن كان تحليله النفسي تحليلاً ظاهراً دقيقاً. وهو في كل مظهر له يبدو أنه ينطلق عن

الأسرار المجهولة في النفس، وجل عمله يميل به إلى إظهار هذه الأسرار المتحركة وتوضيح المنطق الذي يقود حياته وحياة الآخرين. وهي ليست بأسرار خفية أو غير قابلة للتحليل؛ إننا نخفيها عن أنفسنا، و (بروست) يعمل على إظهارها من خفاياها. وقصصه إنما تخرج كحياة نفسه أو كالحياة. وهو لا ينتخب له طريقة معينة في القصة، فقد تأتي قصصه اعترافية، وهو فيها البطل. وقصصه مما لا يمكن تقليدها لما فيها من قوة وتحليق!

خليل هنداوي

رسالة الشعر

هكذا قالت بغي. . .!

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

وَاسِ يَا دَهْرُ! وكَفكِفْ من صُرُوفي ... وَأَعِنِّي!

طَالَ بالْعَارِ عَلَى الدُّنْيا وُقُوفي ... لاَ تَلُمْني!

وَخَبَتْ من خِزْيِهَا تَحْتَ شُفُوفي ... نارُ حُزْني!

ما الذي في زَلَّةِ الجسم الضَّعيف ... كان مني؟

بِعْتُ عِرْضي - يا إلهي - بِرَغيفٍ ... فَاعْفُ عني. . .!

قيلَ: إِنَّ الرِّقَّ قد ذَابتْ قُيُودُه ... وَتَصَرَّم!

كذبوا. . . هذا على جسمي حديدهُ ... يتضرَّمْ!

كلما هلَّتْ على رجْسي وُفُودُه ... تتنعم!

غَاصَ بِي في الشَّهْوَةِ الدُّنْيا عَبِيدُهْ. . . ... رَبِّ فارْحَمْ!

وَأنا. . . كالعودِ يُشْجيهم نشيدُه ... وَهْوَ مُلْجَمْ. . .!

ساقَني الْقُوتُ وَساقَتْكم إليَّ ... شهواتُ!

جِذَبتْكم للهوى من شفتيَّ ... جمراتُ

أزهرتْ حُمْرَتَهَا من رِئتيَّ ... زفراتُ!

هي في شرعِكُمُ الجاني عليّ ... صبوات

وَهْي لحنُ الزَّادِ غَنَّيْتُهُ لديّ ... قُبُلاتُ!

في سبيلِ العَيْشِ يا شَرْعَ التُّرابِ ... ما أكابدْ!

حَرَّمَ اللهُ. . . وَحَلَّلْتُمْ. . . شَبَابي ... لِلْمفَاسِدْ!

وَارْتَجَلْتُمْ شِرْعَةً سَوَّتْ خَرَابي ... بالمعَابِدْ. . .

في زَحامِ الإِثْمِ لا يَطْرُدُ بابي ... أيَّ قاصِدْ!

لا. . . وَلا يُغْضي حَيَاءً من عَذَابي ... طَرْفُ زَاهِدْ. . .

أيُّ شَرْعٍ قالَ: في الْقَيْدِ اسْلُكُوهَا. . . ... لِلفجُور؟

وَإِلى سِجْنِ الْمَواخيرِ ابْعثُوهَا. . . ... لاَ الْخُدورِ!. . .

أَلاَّتِي كُنْتُ أَنْثَى خَدَعُوهَا ... بالسُّفورِ؟

حِينما الْعِفة هَاجتْ. . . أَغْرَقوهَا ... في الخُمورِ. . .

لَيْتَهُم - لما أفَاقَتْ - شَيَّعُوهَا ... لِلقُبُورِ!!

أنا رَيَحْانَةُ عَارٍ قد رَوَاهاَ ... إِثْمُ أَرْضي!

بَعْدَ ما لَوَّثَ جانيها شَذَاهَا ... راح يُغْضي. . .

نَجْمَةٌ كمْ أسْكَرَ الكونَ سَناَهاَ ... ماَتَ وَمْضي

هكَذَا الدُّنياَ على الدُّنياَ هَوَاهاَ ... رَاحَ يَقْضي:

حُرَّةٌ باللقْمَةِ الْعفْراءِ - وَاهاَ! =بِعْتُ عِرْضي!!

(المجمع اللغوي الملكي بمصر)

محمود حسن إسماعيل

من وحي الصحراء

للأديب أحمد فتحي

ظَمِئْتُ، عَلَى قُرْبي، مِنَ النَّهْل وَالعَلِّ ... فَهَلْ عَافَ عَذْبَ الْوِرْدِ ظَمآنُ مِن قَبْلي؟

وَضِفْتُ بلَيْلى، ساهداً، وَلَوَ أنَّني ... تَعَزَّيْتُ لم أَشْكُ التَّشَهُّد في ليلى!

وغشَّتْ حَياتي وَحْشَةٌ ليسَ يَنْتَهي ... مَداها، وَدُوني سائرُ الصَّحْبِ وَالأَهْلِ

وأَقْبَلْتُ، أَشْكُو للصَّحَارَى لواعِجِي ... وآنَسُ بالإخْلادِ في كَنَفِ السَّهْلِ

وقلتُ أَجئُ البيدَ ملَء سكونها ... وأسْمَعُ هَمْسَ الريح في أُذن الرمْلِ

تُقَبِّلُهاَ طَوْراً، وطوراً تُريدها ... تُنَقِّلُ كالحسناءِ رِجْلاً إلى رِجل
وأُبْصِرُ بالشمس التي مَلَّتِ النَّوَى ... إلى الغَرْبِ تمشي مِشْيَةَ الواهِنِ الكَهْلِ
أراها، حريقاً أَضْرَمَ اللهُ نارهُ ... لتأكلَ آجالَ السنينَ عَلَى مهل!
أُحِسُّ لظاها في ضلُوعي وتَنثَني ... ويبقى اللظى يُغْرِي مَآقيَّ بِالْهَمْل
نَجِيَّةَ رُوحِي لا عَدِمْتِ عواذلا! ... فماذا يكونُ الحبُّ، إن يَخْلُ من عَذْلِ؟
وهل كان يُغْري الشاربين بِرَاحِهِمْ ... سِوَي أَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنَ الرَّاح في حِلِّ؟!
وما أنا والعُذَّالُ، يمضي حديثُهُمْ ... وَيبقَي حديث الحبِّ في قولِهِ الفصل؟!
أَصِيخِي إليَّ السَّمْعَ، لا تَتَعَجَّلي ... بناتِ خيالي بل دعيها على رِسْلِ
ولا تحسبي نجوايَ من عَبَثِ الهوَى ... وَلَغْوِ حديثِ الشِّعْرِ، في الجدِّ والهَزْلِ
فَرَرْتُ من الدنيا ومِنْكِ تَشَوُّقاً ... إليكِ ولِلدنيا فيا للهوى الثُّبلِ
أُطَهِّرُ نفسي بالبِعادِ، لَعَلَّهُ ... يُعَلِّمُني صَبْري على الهَجْرِ وَالدّلِّ
وما الحبُّ إلاَّ لهفةٌ، وَتَصَبُّرٌ ... وَطُغْيانُ تَبْريح على عاشق مِثْلِي
سَمَوْتُ بأفكاري إليكِ ولم أزَلْ ... نَجِيَّكِ في أحلام يقظانَ بالوَصْلِ
وأَسْرَى خَيالي طائفاً بكِ باسماً ... كما تَبْسِمُ الأزهار في الفجر للطَّلِّ
وظلَّ يُنادِي لطْفَ حُلْمِكِ في الكرى ... إلى سابقاتِ العَهْدِ، بالوصل والشَّمْلِ
فهل لَقَيِ البَرَّ السَّمِيعَ نِدَاؤُهُ ... تُرَى، أم يعودُ الطيفُ بالمنْعِ والخَذْلِ؟!
نَجِيَّةَ رُوحي قد رَمَتْ بي يدِ النَّوَى ... بخيلا من البَيْدَاء يجزل في البخل
تَلَفَّتُّ حَوْلِي، لم أَجِدْ لِيَ مُؤْنساً ... وقد كان كلُّ الأنس لو شِئْتُ مِنْ حَوْلي
وأَصْغَيْتُ للصحراء يَنْشُدُ مِسْمعي ... حديثاً، ومَنْ لي بالحديث بِهاَ، مَنْ لي؟!
هُناَ الصَّمْتُ حَرَّانُ الجوانِحِ مثْلَما ... يُصَعِّدُ صَبٌّ زَفْرة الشوقِ لِلْوَصل
هنا مَلْعَبُ الذِّكرى وميدانُها الذي ... تَشَعَّبَ بالعُشَّاقِ، سُبْلاً إلى سُبْلِ
ومَسْرَح أفكار تساءل عن هَوًى ... بعيدِ المرامي لا قريب ولا سَهْلِ
وَمهْبِطُ إيحاءٍ ومَذْرَفُ أَدْمُع ... تحيَّرْنَ بين الكِبْرِ في العَيْنِ والذلِّ
وَمَعْبَدُ حُسْنٍ قَدْ تحكَّمَ في الورى ... قضاءً جَرَي بالظلم حيناً وبالعدلِ
وَرَوْضٌ مِنَ الأوهام لاذَتْ بِظِلِّهِ ... قوافِلُ في الرَّمْضاءِ، تُحْدَى إلى الظِّلِّ
ودُنيا من الحِرْمَان ضجَّ ضَجِيجُها ... تَصَايَحُ بالزَّمرِ الطَّرُوبِ وَبالطَّبْلِ!!
نَجَيَّةَ رُوحي يا مُناها وسُؤْلهاَ ... هنيئاً لرُوحي بالأماني والسُّؤْلِ
تَرَيْنَ شبابي ملء عَيْنَيْكِ ناضراً ... يُغنِّي كما تشدو الطيور على النَّهل
أَعِنْدَكِ أنَّ القلب طفل وإنَّني ... أَخَافُ تَبَاَريح الغرام على طِفْلي؟
تَبَدَّى له النيرانُ ورداً وإنَّهُ ... من الخوف والنيران بالوَرِدِ في شُغْل
فلا تَفْجَعِيه في الأماني وحُسْنِهاَ ... ولا تُرِكِبيهِ مَركَبَ الشَّطَطِ الهَوْل
خُذِيه حَناناً في يديك ورحمةً ... ولا تُغْلظِي يوماً لطفلكِ في قَوْل
وغَنِّي لَهُ الألحان فَرْحَى رقيقَةً ... فَعَلَّي أن أَحْظَى بأصَدائِهاَ عَلَي
وَرَاعيه كالأُمِّ الرَّؤُوم تَلَطفاً ... فَوَيْلِي إذا ما اليُتْمُ رَوَّعَهُ وَيلي
ولا تُشْبِهِي الصحراء في جَدْبِ قَلْبِهاَ ... إذا جَاءَها الظَّمآنُ للنَّهْلِ والعَلِّ!!
(القاهرة)

أحمد فتحي
مدرس بالتعليم الفني والصناعي

البريد الأدبي

توحيد الثقافة بين الشعوب الشرقية

تلقت وزارة الخارجية من وزير مصر المفوض ببغداد تقريراً عن زيارة صاحب العزة محمد العشماوي بك وكيل وزارة المعارف للعراق في أثناء عطلة العيد الأضحى الماضي، وعما نجم عنها من تفاهم مع رجال وزارة المعارف العراقية على الدعوة إلى مؤتمرات ثقافية، تعقد كل عام لتوحيد الثقافة بين الشعوب الشرقية.

وقد رفع صاحب العزة العشماوي بك وكيل المعارف إلى معالي الدكتور حسين هيكل باشا مذكرة يقترح فيها تشكيل لجنة لدراسة هذا الموضوع وقد جاء في هذه المذكرة ما يأتي:

عند وجودي في العراق جرى الحديث مع كبار رجال التعليم في موضوع توحيد) المناهج والخطط في البلاد الشرقية، بقصد توثيق الروابط الثقافية بينهما وانتفاع البلاد

الشرقية بموارد بعضها العلمية، وإن مثل هذه الفكرة تؤدي إلى التفكير في بحث تمهيدي للدعوة لمؤتمر يدرس شؤون التعليم بين أمم الشرق ووسائل التربية والسياسة العامة في نشر الثقافة، ويواجه بعض المشاكل التي تعرض لهذه الأمم وتكاد تكون متشابهة.

وقد أثار هذا التفكير في العراق وسورية اتجاه هذين البلدين للاستعانة بموارد مصر الثقافية، وسعيها لأن تقتفي أثرها في نهضتها العلمية وتترسم خطاها.

وقد كان عقد المؤتمر الطبي في بغداد من المناسبات التي أثارت هذا البحث، وشجع نجاح المؤتمر على زيادة العناية بهذه الفكرة. ولما تشرفت بمقابلة صاحب الجلالة الملك غازي الأول، أثار سعادة وزير مصر المفوض هذه الفكرة فلقيت من جلالته كل تشجيع.

وإنني أرى أن الوقت قد حان لاتخاذ خطوة تمهيدية لتحقيق هذا الغرض وذلك بأن يعهد إلى لجنة من كبار رجال التعليم في الوزارة والجامعة بحث الفكرة من جميع نواحيها وتوحيد الموضوعات التي ينبغي العناية ببحثها، حتى إذا أقرت هذه الفكرة بدأت مصر في الاتصال بالبلاد الشرقية لمواصلة تنفيذها في الوقت المناسب).

فلما عرض هذا الموضوع على معالي الدكتور حسين هيكل باشا رأى أن تحقيق هذه الفكرة يتمشى مع السياسة التي يعنى باتباعها في هذه الأيام والتي ترمي إلى الروابط الثقافية بين ممالك الشرق المختلفة ولهذا أصدر معاليه قراراً بتشكيل لجنة لبحث الموضوع وفيما يلي

نص القرار بعد الديباجة:

المادة الأولى - تشكيل لجنة تمهيدية لبحث هذا الاقتراح على الوجه الآتي:

وكيل الوزارة رئيساً، والوكيل المساعد وعمداء الكليات ومحمد فهيم بك والدكتور عبد السلام الكرداني بك والأستاذ نجيب حتاتة أعضاء.

على أن يكون محمد فهيم بك سكرتيراً عاماً لهذه اللجنة.

المادة الثانية - تكون مهمة هذه اللجنة بحث الفكرة من جميع نواحيها، وتحديد الموضوعات التي يتعين العناية ببحثها حتى إذا أخذ بهذه الفكرة بدأت مصر في الاتصال بالبلاد الشرقية لمواجهة تنفيذها في الوقت المناسب

فلما وقف حضرات أعضاء البعثة الإيرانية السامية على هذا المشروع أبدوا رغبتهم إلى وزارة المعارف أن توافي وزارة المعارف الإيرانية بجميع القوانين واللوائح والإحصاءات المختلفة عن الشئون التعليمية التي تضطلع بها وزارة المعارف والجامعتان المصرية والأزهرية، وذلك لتكون تحت نظرها أثناء البحث في المشروع الذي يرمي إلى التعاون العلمي والثقافي بين البلاد العربية ومصر.

وقد تقدم حضراتهم إلى سعادة وكيل المعارف بالمقترحات التالية التي تنمي تلك الروح بين مصر وإيران.

أولاً - عقد اجتماعات دورية في أوقات متباينة بين القاهرة وطهران تنتظم أساتذة الجامعات المصرية والإيرانية دينية ومدنية.

ثانياً - تبادل الأبحاث الخاصة بالكشف الأثري الذي يتم في كل من البلدين.

ثالثاً - توطيد صلات العلم بين جماعات العلماء المشتغلين بالآثار والتاريخ والأدب في مصر وإيران

رابعاً - تبادل المطبوعات التي تصدر في كل من المملكتين.

في مؤتمر المستشرقين.

يعقد مؤتمر المستشرقين الدولي ببروكسل من اليوم الخامس إلى اليوم العاشر من شهر سبتمبر المقبل، ويمثل مصر فيه عميد كلية الآداب رئيساً، والأساتذة أحمد أمين أستاذ تاريخ الآداب العربية في الكلية، والدكتور عبد الوهاب العزام الأستاذ المساعد للغتين الفارسية

والتركية في هذه الكلية، والدكتور سامي جبرة أستاذ تاريخ مصر القديمة، ومسيو جاستون فييت مدير دار الآثار العربية والحفريات أعضاء.

وسيتقدم الدكتور طه حسين بك إلى المؤتمر ببحث عن تبسيط النحو، والأستاذ أحمد أمين ببحث عن امتزاج الثقافات في البيئة المصرية، وسيمثل الدكتور عبد الوهاب عزام الثقافة الفارسية، والدكتور سامي جبرة ناحية الآثار الفرعونية، ومسيو فييت

ناحية الآثار الإسلامية
زيارة عضوين من البعثة الإيرانية السامية لمجمع اللغة
الملكي.
زار حضرتا صاحبي السعادة الدكتور قاسم غني والدكتور مؤدب نفيسي من أعضاء البعثة الإيرانية دار المجمع الملكي للغة العربية يرافقهما معالي الدكتور هيكل باشا وزير المعارف.
وكان في استقبالهما صاحب السعادة توفيق رفعت باشا رئيس المجمع، والأستاذ الشيخ عبد العزيز البشري مراقب المجمع، والدكتور فارس نمر باشا، والدكتور منصور فهمي بك، وعلي الجارم بك، وأحمد العوامري بك، والشيخ إبراهيم حمروش والشيخ محمد الخضر حسين، من أعضاء المجمع. فزارا معهم غرفة معجم الدكتور فيشر اللغوي التاريخي وكان يشرح ما فيها لسعادتهما الدكتور منصور فهمي، ثم زارا غرفة فيشات معجم الدكتور فيشر وهي تحتوي على معظم الألفاظ العربية، وطافا بعد ذلك بغرف المكتبة واطلعا على كتب تاريخية قديمة وأخرى خطية مما يعني به المجمع لحصر كلمات اللغة
وأعرب معالي الوزير عن رغبة المجمع في ربط الثقافة الإيرانية بالثقافة المصرية وأنه يسر المجمع المصري أن يعين فيه أربعة أعضاء إيرانيون مراسلون وطلب إلى سعادة الدكتور قاسم غني أن يقدم الأسماء التي يقع عليها الاختيار إلى المجمع لتتولى إدارته اتخاذ الإجراءات السريعة لتعيين حضراتهم فقدم سعادته كشفاً فيه أربعة أسماء فتسلمه الأستاذ الشيخ عبد العزيز البشري.
واتفق كذلك على تعيين أربعة أعضاء مصريين مراسلين للمجمع الإيراني.
متحف التعليم الفني
يفتتح - بعد أيام - معالي الدكتور حسين هيكل باشا وزير المعارف القسم الأول لمتحف التعليم الفني المقام بسراي المعارف بأرض المعارض بالجزيرة، وهو المتحف الذي وضعت نواته الوزارة في العام الماضي عندما احتفلت بعيدها المئوي.
ويشمل هذا القسم ثلاثين مجموعة، يحتوي كل منها نماذج بالحجم الطبيعي. ومن أبدع تلك المجموعات مدرسة نموذجية كاملة في الهواء الطلق، وكذلك حجرة مذاكرة لطالب من الأرياف يتلقى علومه في معاهد التعليم بالقاهرة.
وإلى جانب هذا طائفة كبيرة من النماذج المصغرة المجسمة، والتماثيل والصور المصبوبة صباً في غاية الإتقان، والرسوم البيانية التي أعدت على أحدث الأساليب، والطرائق الفنية التي تمثل اطراد النهضة التعليمية في مصر في العصور المختلفة.
إلى الدكتور عبد الوهاب عزام
قرأنا مقالكم الرائع المنشور في العدد (256) من الرسالة الزهراء عن فقيد الشعر والشرق محمد إقبال، وعند ذكركم مؤلفاته رحمه الله، لم تذكروا سفرين جليلين له نظمهما قبل كتابه الأخير (أهلك حجاز)، أحدهما باللغة الأردية أطلق عليه (صور إسرافيل)؛ والثاني باللغة الفارسية سماه (بس جيه بايد دكرداي أقوام شرق) أي (وماذا يجب أن نعمل أيتها الأمم الشرقية). وقد وضعه متأثراً بالحرب الإيطالية الحبشية الأخيرة واندحار الأحباش كما هو معلوم
هذا ما أردت ملاحظته على مقال الأستاذ الكريم، راجياً الالتفات إليه، داعياً الله أن يفسح له المجال، حتى يحدثنا عن شعر إقبال وفلسفة إقبال، إنه سميع مجيب.
(بغداد - الكرخ)
محمود العيطة
الكلمة الأخيرة إلى الأستاذ سيد قطب
أكتب هذه الكلمة جواباً عما تفضل به الأستاذ الناقد الأديب. . . سيد قطب في الرسالة (259) عبث . . . ثم لن أعود إلى الموضوع لأن الكلام فيه مع الأستاذ تضمن جواب سيد قطب أموراً ثلاثة:
أولها: أنه جعل جهلي بحضرته (جهلاً بالأدب والأدباء في مصر)، وطمأن المصريين بأنه ليس كل شامي مثل (علي الطنطاوي) في هذا الجهل. . . ومعنى هذا أن (سيد قطب) هو (الأدب والأدباء في مصر) من عرفه فقد عرف ذلك ومن جهله فقد جهله، وهذا من الادعاء وعوج الفهم بمكان؛ وأنا بحمد الله أعرف أدباء مصر شعراءهم وكتابهم: أعرف

شوقي وحافظ رحمهما الله والجارم ومحرم ورامي والهراوي، وأعرف الرافعي رحمة الله عليه والعقاد والمازني وهيكل والزيات وطه والبشري وأحمد أمين وكثيرين لأجدى من عد أسمائهم؛ وقرأت لهم (كل) ما كتبوه ولكني لم أتشرف بمعرفة سيد قطب؛ فهل يمحو جهلي به علمي بكل أولئك؟

وثانيها أنه لم يأخذ من كلامي أو لم يفهم منه إلا أني استدللت على صحة تشبيه الرافعي بأن لشوقي مثله، مع أن كلامي بين أيدي القراء، وأن الذي قلته هو أن الأستاذ سيد قطب لم يستكمل أدوات النقد، ولم يرع المعروف من قواعد البلاغة، وأنه أشتغل عنهما بما يبدأ فيه ويعيد من الدعاوى العريضة في العلم والفن والتجديد، فلماذا ترك ذلك كله من كلامي وأخذ مثالاً عارضاً جئت به، وعلماؤنا يقولون: (ليس من دأب المحصل المناقشة في المثال)

وثالثهما أن الأستاذ ينصحني بالاقتصار على التدريس وترك الأدب، ويخرجني من زمرة الأدباء، وهذا كلام لا أحب أن أجيب عليه، ولا أعود إلى البحث مع من يقوله، لأنه لا يقوله إلا جاهل بأصول النقد بعيد عن المنطق، لأن النقد لا يجيز شتم الخصم والكلام على شخصه، وإنما يدعو إلى مناقشة الرأي الذي رآه، والمنطق يقضي عليه أن ينظر في كلامي ويرد عليه أو يدع، ويذكره المنطق (لو كان من أهله) بأن إقرار التحكيم والاعتراف بكفاية القاضي وسلطانه، مقدم على إصدار الأحكام. فمنذا الذي نصب هذا المحترم قاضياً بين الأدباء وحاكماً فيهم؟

وآخر ما أقوله للأستاذ سيد قطب تحية و. . . (سلاماً)!

علي الطنطاوي

إلى الأستاذ سيد قطب

عاب سيد قطب على الأستاذ شاكر أن نقده مملوء بالغمز واللمز والتعريض، وعاب عليه أيضاً أنه لا ينفذ إلى صميم الموضوع عند ما يناقش. وكنا ننتظر من سيد قطب أن يرد على الكلمة التي كتبها الأستاذ الطنطاوي في عدد مضى، فيناقشها مناقشة هادئة تدل على أنه ناقد منصف ومناظر نزيه. . . أو يتجاهلها فلا يذكر شيئاً. وإذا به يتصف بالخلة التي عابها على الأستاذ شاكر فيعرض بالأستاذ الطنطاوي تعريضاً، ويكرم دمشق أن يكسب خصومته إذا وضعها حيث ينبغي وضعها من الأدب والرأي. فما ندري أحسب سيد قطب أن كلمة الأستاذ الطنطاوي وظيفة إنشاء. . . أريد منه أن يتفضل فيدلي برأيه فيها ويضعها حيث ينبغي وضعها من مدارج الآداب. . .؟ وكأن دمشق قد فرغت من مشكلاتها ومصائبها، وانتهت من قضية (المعاهدة) و (اسكندرونة) ولم يبق لها إلا أن تتفرغ لسيد قطب! فنحن نريد أن يطمئن الأستاذ قطب وألا يجزع، وأن يتنازل فيناقش الأستاذ الطنطاوي مناقشة هادئة منصفة أو يقبل ما جاء به. . . ولن تغلق أسواق دمشق احتجاجاً بعد ذلك؟. . .! ثم لن ترسل البرقيات إلى عصبة الأمم. . .! فهل يكفي سيد قطب هذا التطمين؟ إذن:

فقد وجدت مكان القول ذا سعة ... فان وجدت لساناً قائلاً فقل

(دمشق)

صلاح الدين المنجد

نداء الباعة

قرأت في العدد الماضي في البريد الأدبي كلمة حول هذا الموضوع، قال مسطرها: إن كاتباً إنجليزياً نشر بحثاً ضافياً في هذا الموضوع في صحيفة إنجليزية، وقد عنى فيه بالجانب النفسي عناية فائقة. ثم أثنى كاتب الرسالة على الباحث الإنجليزي وأعجب بطرافة موضوعه.

وأود - حفظاً لحق أدبي - أن أقول: إنني سبقت الكاتب الإنجليزي إلى معالجة هذا الموضوع، ولكني عالجته شعراً في قصيدة تزيد أبيتها على الثلاثين، بداءتها قولي:

نَطَقْتمْ مقاطِعَ لم أدْرِها ... ولم تكشف النفسُ عن سِرِّها

وصُغْتمْ نفوسكم هتفةً ... تبينتكم من صدَي جَأْرِها!

ولا أريد أن أثبت تمام القصيدة في تلك الكلمة القصيرة، وسوف أنشرها - إن شاء الله - في ديواني عند طبعه.

(الإسكندرية - الشاطئ)

العوضي الوكيل

بين مذهبين
جاءتنا كلمة بهذا العنوان من الأستاذ محمد سعيد العريان، يرد بها على شيء تناوله به الأستاذ سيد قطب في عدد الرسالة الماضي، ولكنا لم نتمكن من نشرها لوصولها بعد إعداد هذا العدد وترتيب موضوعاته، فموعدنا بنشرها العدد القادم.
تصويب
في (قصة الكلمة المترجمة): (في الرابعة والرابعين) وهي (في الأربعة والأربعين) و (تذكرنا بهذه الأملوحة) وهي (بهذه الأملوحة) و (أبو بكر البلاقلاني) وهي (الباقلاني) و (نفي القتل لا يبيده) وهي (القاتل) وفي الشرح: (وإن كنت في الصنيعة) وهي (الصنعة).
مزالق الأدب
القصة الأدبية دعامة قوية يعتمد عليها الأدب الحي ويرتفع بناؤه الشامخ الوطيد، وهي لون جميل من ألوان الحياة الفكرية ومظهر خلاب من مظاهر الثقافة والتهذيب . . .
وإن أدب القصة يحتل اليوم المكانة الأولى والمنزلة السامية بين الآداب الأخرى، كما أن القارئ المصري ينظر الآن في القصة لا (للتسلية) فحسب بل ليجد فيها المتعة الأدبية والغذاء الروحي والحكمة الموفقة والموعظة الحسنة.
وقد حمدنا لبعض كتابنا عنايتهم بذلك الضرب من الأدب، وبذل الجهود السامية في سبيل نصرته وتقوية أركانه، ووضع ما يكفل له الحياة والنمو!
بيد أن هناك كتاباً قد وجدوا في ترجمة القصة (البوليسية) سوقاً نافعة وربحاً وفيراً، فحبسوا جهودهم عليها. وقد انزلق بعض كتاب هذه القصة فذكروا في قصصهم ما يعبد طريق الشر والفساد، ويبعث في نفس القارئ - الشاب - العوامل المختلفة المتباينة، وقد تؤدي هذه العوامل إلى الوقوع في مهاوي الجريمة. وحسبك أن ترجع إلى تلك القصص لترى فيها فساد الرأي، وعدم التوفيق إلى فكرة صالحة، تشاهد المجرم وقد صوره القاص في صورة البطل الفذ، وقدمه إليك في مهارة وعبقرية، بعد أن وضع على رأسه إكليل الغار.
لا جدال في أن ذلك الأدب الرخيص لا يؤدي إلى الغاية المنشودة ولا يحقق الرجاء المنتظر، بل ينزلق بالقارئ إلى مكان سحيق لا نرجوه له . . .
وبعد. فنحن في صدر طفرة جديدة وعهد جديد، فيجب علينا أن نتخير نوع الغذاء الروحي لأبنائنا، حتى يتسنى لنا أن نجعل منهم جيلاً جديداً له من نبل أخلاقه وحسن صفاته ما يحمله على النهوض والتقدم.
(بني مزار)
الطهناوي
الكتب
سندباد عصري
تأليف الدكتور حسين فوزي
للأستاذ محمد سعيد العريان
في صيف سنة 1933 خرج الدكتور حسين فوزي مدير معهد الأبحاث المائية في بعثة من رجال العلم الأوربيين للاستكشاف ودراسة الأحياء المائية في البحر الأحمر والمحيط الهندي؛ وقضت البعثة في تجوالها تسعة أشهر ثم عادت، وكان من نتائج هذه الرحلة كتاب سندباد عصري. . .
ولكن كتاب (سندباد عصري) لا يتحدث عن هذه الرحلة حديثاً علمياً؛ إذ كان مؤلفه قد لخص أبحاثه العلمية ونتائجها في تقرير قرره من قبل؛ ثم أنشأ هذا الكتاب من بعد، ليقص به قصة هذه الرحلة كما هي في شعوره وفكره ووجدانه، بعيدة عن العلم ونظرياته وأبحاثه ونتائجه. على أنها ليست قصة بمعنى القصة تبدأ بدأها وتنتهي إلى نهايتها؛ ولكنها خواطر وصور ومشاهدات مما أجتمع للمؤلف في رحلته: مما وقع عليه نظره، أو انفعلت به نفسه، أو انطبع في وجدانه، أو بعث في نفسه معنى من معاني الفن أو الشعر أو الجمال. فصول مفرقة هي خفقات قلبه، ونبضات روحه، وخلجات نفسه، وصورة من إحساسه وعواطفه في هذه الرحلة منذ بدأت إلى أن انتهت
وقد قسم المؤلف كتابه إلى مقدمة وأربعة أبواب: الباب الأول عبث وفكاهة، والثاني صور ومشاهدات، والثالث جد ودراسة ورأي، والرابع عواطف ومشاعر وخيال وفن؛

وتحت كل باب من هذه الأبواب فصول عدة، يتحدث كل فصل منها عن موضوع بذاته، ليس بينه وبين سابقه أو لاحقه صلة، إلا الصلة التي جمعت بين كل هذه المشاهد تحت عيني كاتب فنان له روح وعاطفة وفي نفسه شعر وفن.

على أن ما يحكيه المؤلف أو يتحدث عنه في هذه الفصول ليس هو مشاهداتٍ صامتة كبعض ما يصف الرحالون والرواد، ولكنها حكاية نفس رأت فتأثرت فألقت ظلالها وألوانها وعواطفها على ما رأته؛ فما يصف المؤلف مشاهداته، ولكنه يصف نفسه في مشاهداته؛

ومن ثمة فإن قارئ هذا الكتاب لن يعرف منه أول ما يعرف إلا نفس كاتبه قبل أن يعرف ما كتب عنه؛ وهو بذلك كتاب له ميزته، لأن فيه (صدق) الرواية؛ وله خطر، هـ لأن فيه القدرة على خداع القارئ ليقوده إلى الإيمان بالرأي الذي لم يكن يؤمن به لو لم يتوق بالحذر واليقظة والانتباه. . .

وأول ما تعرف من رأي مؤلف الكتاب ومن نفسه هو قوله الذي يصدر به الكتاب:

(درجت على حب الغرب والإعجاب بحضارة الغرب؛ وقضيت أهم أدوار التكوين من عمري في أوربا، فتمكنت أواصر حبي، وتقوت دعائم إعجابي؛ فلما ذهبت إلى الشرق، عدت إلى بلادي وقد استحال والإعجاب إيماناً بكل ما هو غربي .. .!)

هذه الكلمة، وفيها صراحة الرأي على ما يمكن أن يلقي هذا الرأي من شدة المقاومة، هي نهج المؤلف ورائده ورفيقه طوال مدة الرحلة؛ وهي نفسه الصريحة التي تتراءى للقارئ في كل صفحة من كل موضوع في كل فصل مما أنشأ المؤلف من فصول هذا الكتاب. وإنني - على يقيني بأن هذا الرأي لن يجد له نصيراً عند كثير من القراء، وبأن حظه من الاستنكار سيكون اكثر من حظه من الرضا - أكاد أوقن بأن كثيراً من القراء سيخرجون من قراءة هذا الكتاب أكثر إعجاباً بالكتاب ومؤلفه على ما بينهم وبينه من اختلاف في الرأي والمذهب والعقيدة، وأشد استمساكاً برأيهم ومذهبهم وعقيدتهم فيما بين الشرق والغرب. . .

وإنني لأبيح لنفسي وقد قرأت هذا الكتاب وحللت صداه في نفسي - أن أتقحم على قدس هذا الرأي في نفس الدكتور حسين فوزي، فأزعم أنه مؤمن بالشرق وما فيه إيمان الرأي والعقيدة والدم المورث؛ وما هذا الرأي الذي يجهر به إلا صدى معكوس لبعض هذا الإيمان، أنشأه في نفسه إحساس قوي بمحبة هذا الشرق، ورغبة غالبة في إنهاضه، وأسف بالغ لما صار إليه؛ ثم ثورة فائرة في أعماقه على أكثر ما يرى ويحس من عادات الشرقيين وتقاليدهم؛ فلما هم أن يصيح صيحته قائلاً: (يا بني قومي، ليست هذه روحانية الشرق وليست هذه مفاخرة. . .) عقه البيان فلم يجد إلا هذه العبارة التي صدر بها كتابه يترجم عن ذات نفسه في لغة من لغة الغرب الذي تعلم فيه فتكلم بلسانه. . .

على أن هذا الشرق الذي رآه الدكتور حسين فوزي بعينيه ليس هو الشرق الذي ندعو إلى

إحياء مجده وتجديد حضارته. إن للشرق حضارة أخرى لا تجتليها العين ولا تدركها المشاهدة فقد درست معالم هذه الحضارة فلم يبق منها فيما تراه العين إلا أرض وناس، وتاريخ يتحدث عن ماضي يخزى من ذكر حاضره. وليس الشرق هو هذا الهند الغارق في العبودية والأسر والهوان، ولا هذه الجزر المبعثرة بين شواطئ المحيط الهندي والبحر الأحمر؛ ولكن الشرق معنى عام إن لم يبد اليوم لعينيه فيما شاهد من نؤى وآثار وحجارة مركومة، فان حرياً أن يشرق في نفسه معناه إن حاول أن ينفذ بعينيه إلى ما وراء ما يرى من آثار وحجارة وناس. . .

على أنني في هذا الموضوع لست أريد الحديث عن شرق وغرب، فما هو إلا معنى يستتبع معنى، وإنما أردت أن أعرض هذا المؤلف الجديد بما فيه من رأي صاحبه وفكره، واحسبني قد بلغت في ذلك مبلغاً ما.

ولا يفوتني قبل أن أفرغ من هذا الحديث أن أنوه بالروح الأدبي الذي ألهم مثل الدكتور فوزي أن يؤلف هذه الفصول الشائقة في مثل هذه الرحلة العلمية، على أن هذا الموضوع كان حقيقاً بأن يكون أقرب إلى الكمال وأكثر جدوى وفائدة لو أن مؤلفه (العالم) لم يضن بعلمه على قرائه فيما أنشأ من فصول هذا الكتاب. ولعله حسب ذلك مما لا يهم القراء، على أنه كان عندي وسيلة يكمل بها فما أجمل أن يكون بين علمائنا

الأجلاء أديب مثل الأستاذ فوزي في دقة الملاحظة وصراحة الخلق وفكاهة الواقع وخفة الروح وسهولة الكتابة، ليقدم لقراء العربية شيئاً من (الأدب العلمي) أو (العلم الأدبي) فان العربية في حاجة إلى هذا اللون الجديد من أدب الإنشاء الذي لا يقدر على مثله إلا مثل الدكتور حسين فوزي في علمه وأدبه.

وما أريد أن أتحدث عن هذا الكتاب في أسلوبه ولغته؛ إذ لم يكن مما يعني الدكتور فوزي أن أتكلم في هذا الكتاب عن أسلوبه ولغته؛ وإذا لم يكن من حقنا أن نتحدث عن مثل هذا الكتاب في أسلوبه ولغته، لذلك نغض النظر عما فيه من هذا الباب، راجين أن يكون لنا حديث آخر عن كتاب آخر أو كتب أخرى يخرجها الدكتور حسين فوزي لقراء العربية؛ فانه لمما يؤسف قراء العربية أن يكون فيها مثل الدكتور حسين فوزي من الأدباء المجهولين لأنهم لا يخرجون ثمرات عقولهم إلى القراء. . .

محمد سعيد العريان

العدد 261 - بتاريخ: 04 - 07 - 1938

بين مصر والعراق

تجري أحكام القدر على أسباب خافية من حكمة الله لا يؤثر في منطقها مقتضيات السياسة، ولا مناسبات الظروف ولا مجاملات الصداقة. ولو كان لهوى النفوس ومشيئة العقول أثر في تدبير الأحداث وتغيير الأقضية لما اخْتُبل في ذلك الوقت هذا الطالب العراقي المسكين فأراق على ثرى دار الحقوق البغدادية نَفْس الدكتور سيف، ودم الدكتور عزمي، وهما يجاهدان غريبين في سبيل العلم، ويؤديان مخلصين للعراق فروض المودة. وأقول في (ذلك الوقت) لأن وقوع هذا القدر المروِّع في هذه الساعة التي تنعقد فيها أوَاخي المصاهرة بين مصر وإيران أتاح لبعض النفوس الجاهلة أو المريضة أن توازن بين ما يفعل إخوان النسب وبين ما يعمل إخوان العقيدة. ومثل هذا الحادث المشئوم يقع في كل قوم وفي كل يوم، فلا تضطرم له القلوب، ولا تضطرب به الألسنة، ولا تهن منه العلائق، ولكن وقوعه ظلماً على الغريب النافع، من القريب المنتفع، أعطاه معنى التضحية وجعل له تأثير الشهادة. وابن الوطن إذا قتل في وطنه كان مصابه مصاب أسرته، وإذا قتل في وطن غيره كان مصابه مصاب أمته. أضف إلى هذه الملابسات شائعات مكذوبة وتعليقات مشوبة استطار بها السماع فدلَّست على الناس وجوه الحكم، وآذت أصدقاء العراق وعارفيه فهبوا يصححون الخطأ في المجالس، ويعلنون الصواب في الصحف، رعاية لأسباب الإخاء، وإدامةً لتعاون الفكر، وضناً بأخلاق هذا الشعب النبيل على الأفواه القارضة.

شهد الله أني قضيت بالعراق ثلاثة أعوام لم ينلني فيها كلمة تؤذي ولا فَعلة تسوء؛ إنما كنت أتقلب في بغداد كما يتقلب الطفل على أحناء الصدر الحنون، لا أحس غربة، ولا أستشعر وحشة، ولا أجد في العيون ولا على الشفاه إلا العطف عليّ والإعجاب بمصر. وربما وجد المصري في غير مصر تناكرا بين وجه ووجه، وتدابراً بين عاطفة وعاطفة، إلا في العراق، فإنه يجد وجهه في الوجوه وهواه في الأهواء؛ ويحس أن الأدب الذي درس، والتاريخ الذي قرأ، يتمثلان لباصرته وذاكرته في كل شخص وفي كل شيء؛ ويرى أن هؤلاء الناس الذين خُلقوا كما خُلق من النهر ذي الغرين الخصب، وعاشوا كما عاش على الأرض ذات الطلّع والحب، لا يختلفون عنه في سَحنةٍ ولا خلق؛ والعراقيون من جهتهم يؤيدون حسبانه ووجدانه بالطلعة الأنيسة، والمروءة الجزْلة، والكرم المحض.

كانت مصر إذا ذكرها في المجلس ذاكر نزعت إليها قلوب القوم كما تنزع الأسْرة إلى عَصَبتها النازحين إلى بلاد الذهب والأدب والجمال. وكان المصريين في بغداد على قلتهم منزلة ملحوظة بين الجاليات الأخرى لا تحوم حولها شبهة الارتزاق ولا سُبَّة التشرد، لأن العراقي وإن كان ضنيناً بخيره على الأجنبي الواغل، يعرف عن المصري ما يعرفه كل الناس من عزوفه عن النقلة من قرية إلى قرية، فكيف بالرحلة من وطن إلى وطن؟

وهذا الذي رأيته بعيني لا أزال أسمعه بأذني من الأساتذة المصريين الذين لا يزالون يسفرون بين الشعبين الشقيقين بالثقافة والمودة. فالأحاديث التي تندس اليوم إلى الأندية اندساس الفتنة لا ترجع إلى حق ولا تذهب إلى منفعة. وهذا الحادث على فظاعته ظاهرة من ظواهر المجتمع، يحدث في الأمم المدنية كما يحدث في الشعوب

الهمجية؛ ويقع من القريب على القريب، كما يقع من المواطن على المواطن؛ وحقد النفس على النفس من طبائع الإنسان، وضلال العقل ووهن الأعصاب من آفات الحي، وما يستطيع غير الله أن يعلم خوافي الصدور وخوائن العين.

فماذا كانت تعمل حكومة العراق وأمة العراق لتدرأ ذلك العدوان الفردي المحتوم وقد تهيأت أسبابه خفية في نفس مضطربة وأعصاب موهونة ويأس مضل؟ إن الذين قَالوا إنما كان هناك وعيد كُتب، وتهديد قيل، لم يثبتوا أن الصديق الجليل عزمي قد عاج بهذا الوعيد، أو أخبر الحكومة بهذا التهديد. وإذن لا يبقى إلا نزق الشباب الذي لا طِبَّ له، وقدر الله الذب لا حيلة فيه.

إن العلاقة بين مصر والعراق طبيعية لم يفتعلها طمع الاقتصاد ولا طموح السياسة؛ إنما هي علاقة الدم واللغة والأدب والتاريخ والمجد والعقيدة؛ فإذا طاشت يد هناك، أو هفا لسان هنا، فلا ينبغي أن يقع ذلك من البلدين الأخوين إلا موقع العبث الضروري الذي لا تكون الحياة دنيا إلا لوقوعه فيها، ولا يكون الإنسان بشراً إلا لوقوعه منه.

هذه كلمة كنا نود ألا نقولها، فإن الحاجة إلى تقرير الود بين الصديقين مظنة لوقوع الشك فيه، ولكن قعائد البيوت وأحلاس المقاهي لا يحبون أن يزجُّوا فراغهم الثقيل إلا بزخرفة الأحاديث على حساب الحق، فلم يكن لنا ولهم بد من هذه الهمسة!

أحمد حسَن الزيات

الكبريت

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

(أشعل لي سيجارة)

وكنا نسير بسرعة، فيداي لا ترتفعان عن عجلة القيادة مخافة أن يؤدي أضأل انحراف في التوجيه إلى اصطدام بشيء. ثم إن فمها حلو، وشفتيها رقيقتان، وليس عليهما شيء من الأحمر، ولست أحب السيجارة المبتلة، ولكني قلت لنفسي إن رضابها لا بد أن يكون عذباً.

وكانت السجاير بيني وبينها على المقعد، فتناولتها، ثم جعلت تتلفت وتتحسس باحثة عن الكبريت فقلت:

(- هو في جيبي)

فدست يدها في الجيب، ثم ضحكت

قلت: (ماذا؟ أشركينا. . .)

قالت: (ثلاث علب كبريت. . .!؟ ما هذا؟)

فصحت، والتفت إليها برغمي، وأحسست وأنا أفعل ذلك أن يدي ترعش.

(بس؟)

قالت مستغربة: (بس؟ هل تريد أن تجتر بالكبريت؟)

قلت: (هذه سرقة. . . لا بد أني سُرقت. . . كان في هذا الجيب خمس علب، فأين ذهبت الاثنتان؟ هه؟ طارتا؟ لا يمكن! احترقتا؟ مستحيل! واضح جداً أنهما سُرقتا. . . فمن هو السارق يا ترى؟ هذه هي المسألة التي تتطلب الحل السريع. . . أهو أنت؟ من يدري؟)

قالت: (والله ما أخذت شيئاً، ولا كنت أعرف أن جيبك هذا فيه كبريت. . . بل لم أكن أدرك أن هنا جيباً. . . ثم ماذا أصنع بالكبريت وأنا لا أدخن عادة؟)

وكان في صوتها الفضي اللين من الجزع ما أضحكني فقلت:

لا عليك يا فتاتي. . . كوني سارقة أو لا تكوني. . . فأنت على الحالين. . . ماذا؟ هه؟ (. . .قولي أنت)

فابتسمتْ - أحسست أنها تبتسم، فقد كنت معنياً بالطريق الغاص بالناس والسيارات والغنم والحمير، والجمال. . . ولا سيما الجمال فإنها شر ما أخاف، فإن لها لفزعاً غريباً من السيارات.

وصمتنا قليلاً، ثم فركت جبينها الصابح ببنانها وقالت كأنما تذكرت شيئاً:

(قلت إنه كان في هذا الجيب خنس علب، فهل تعني أن في جيوبك الأخرى كبريتاً؟)

قلت (لم يخب ضني فيك يا فتاتي. . . ذكية والله!)

وكنا قد بلغنا أول شبرا، فاستوقفني وزعمت أنها تريد أن تشرب، فوقفت، ونظرت

إليها - حدقت في وجهها - متفرساً ثم قلت:
وتناولت ذقني بيدي (علي بابا يا حميدة؟)
قالت: (ماذا تعني؟)
قلت: (هل تريدين أن تشربي، أو تريدين أن تريْ ما في جيوبي من الكبريت؟ أنا أريحك، وأرضي فضولك. . خذي!)
وأخرجت من كل جيب بضع علب من الكبريت، وألقيت ذلك كله على المقعد بيننا فصار كوماً صغيراً
فقالت: (إحدى عشرة علبة! مدهش! ما حاجتك إلى كل هذا؟ لماذا تحشو به جيوبك، وفي واحدة منه الكفاية؟
قلت: (هذه أسئلة ليس لها عندي جواب. وما أضن بالجواب لو أني كنت أعرفه، وأحسب هذا مظهراً لبعض ما يخفي على المرء من نفسه، فما أبالي أن أخرج وليس معي فلوس، وليس يكربني أن أكون في مكان منقطع وليس معي سجاير، فإني أستطيع احتمال هذا الحرمان، ولكن لا أطيق أن أمشي إلا إذا كانت جيوبي مفعمة بالكبريت، وأشعر أن رأسي يدور، وأني كالضائع التائه إذا نقص الكبريت الذي معي عن حد الكفاية في رأيي وإحساسي. . . وحدُّها عندي أن تكون جيوبي ملأى. . . وأن أتحسس هذه الجيوب من الخارج فأشعر بالرضى والارتياح. . .
(لا أدري لماذا ولكني هكذا. . . والآن أما زالت بك الحاجة إلى الماء تطفئين به ضمأك؟
فضحكت وقالت (أهذا مظهر لشذوذ العبقرية؟)
قلت (لا تتهكمي. . . إن لكل منا ولعاً بشيء، وحرصاً على شيء. . . وفي وسعك أن تقولي إن لكل منا موضع ضعف، وأحسب أن مواضع الضعف عندي كثيرة، ولكن هذا من أبرزها، وإن كان أخفاها على الناس، فإن من حسن الحظ أن الناس لا يبلغ من فضولهم في العادة أن يتحسس بعضهم جيوب بعض، وأظنهم يرون انتفاخ جيوبي (فيظنون ما فيها ورقاً ولا يستغربون)
قالت (ولكني لا أفهم. . .)
قلت (ولا أنا. . ولا أعلم حتى متى بدأت هذه العادة. . . لقد اعتدت أشياء كثيرة أستطيع تعليلها. مثلاً في وسعي أن أكتب والمدافع حولي تطلق قذائفها، فلا أكاد أسمعها، والمحقق على كل حال، أني لا أتأثر بها، ولا أشغل عما أنا فيه. . . اعتدت ذلك لأن الضرورة قضت به وألزمتنيه. - ضرورة العمل في الصحف اليومية التي يتخذ الزوار من مكاتبها مقهى أو مصطبة أو ناديا. . . وأنا أستحي أن أحجب نفسي أو أرد زائرا، فلم يبق لي مفر من اعتياد العمل في هذا البيمارستان. . . ولكن الكبريت مسألة أخرى. . . لا أذكر متى بدأت احتفظ به وأحرص عليه. . . وأنت تسخرين وتقولين إن هذا مظهر لشذوذ العبقرية أو جنونها. . لا يا سيدتي. . . لا عبقرية ولا يحزنون. إنما هو عندي مظهر لنزعة نفسية خفية كان من الممكن - لو أتيحت لها فرصة. . أن تظهر في صورة أخرى، ولكن ما هي هذه النزعة؟؟ هذا ما لا أعرف. . . ولكن أتعبني كثرة الغوص في أعماق نفسي على الأصل في هذا الحرص على الكبريت، فنفضت يدي يائساً، وأسلمت أمري إلى الله، وللمتهكمين والمتهكمات من أمثال حضرتك. . . .)
فضحكت، فقلت (والآن هل نمضي؟)
وعدت بها إلى بيتها، وقلت لأمها وأنا أسلم عليها (قد رددت الأمانة فاستودعك الله)
فتعلقت بي حميدة وقالت: (حتى تسمع ماما حكاية الكبريت) وسمعت (ماما) حكاية الكبريت، واستغربت - كما كان لا بد أن تفعل - وأسدت إلي نصحاً كثيرا، لا شك أنه نفيس، وأكدت لي أنها تخشى علي الاحتراق، وأيدتها حميدة فزعمت أني كالبركان الذي لا يؤمن انفجاره في أية لحظة، وكانت النتيجة التي لا معدى عنها أن حميدة وماما أخلتا لي جيوبي من الكبريت. . .
وانحدرت إلى الشارع، وأنا أحس أني كما قال القائل (خالي الوفاض، بادي الأنفاض)
وكان من المستحيل أن أعود إلى بيتي هكذا، وماذا عسى زوجتي تقول حين ترى أن جيوبي

فرغت من الكبريت؟؟ إنها تكون حكاية لا آخر لها، لهذا لم يسعني إلا أن أعرج على دكان وأشتري مقدارا كافيا من رضى النفس وراحة البال. . . .

إبراهيم عبد القادر المازني

التعليم الإلزامي في مصر

للأستاذ أبي خلدون ساطع الحصري

مدير دار الآثار العراقية

قرأت في مجلة مصرية مقالة لأحد الأساتذة، يقول فيها: (إن تقارير مفتشي التعليم ومراقبيه) أظهرت في السنين الأخيرة شيئاً جديداً لم يكن ملحوظاً من قبل، وهو أن الأولاد الذين يمارسون الزراعة في الحقل أو الصناعة في المعمل أو التجارة في السوق من متخرجي المدارس الإلزامية، لا تكاد تمضي عليهم أربع سنوات أو خمس، حتى ينسوا القراءة والكتابة، وتمحى من ذاكرتهم البقية الباقية من الحروف الأبجدية، فيعودون بذلك إلى الأمية مرة أخرى. . .)

إنني لم أطلع على نصوص التقارير التي يشير إليها صاحب المقال، فلا أعرف تفاصيل ما لاحظه المفتشون في هذا الباب. ومع ذلك لم أجد في هذه النتيجة شيئاً يستوجب الاستغراب، نظراً إلى ما أعرفه عن الظروف المحيطة بالتعليم الإلزامي في مصر من جهة، وعن التجارب التي مرت على الأمم الغربية في هذه القضية من جهة أخرى. . .

إنني لا أشارك المحرر في الأسباب التي يعزو إليها هذه النتيجة، كما لا أوافقه على الوسائل التي يقترحها لمعالجة القضية. ومع هذا لا أرى لزوماً لمناقشة الآراء الواردة في المقال المشار إليه، بل أفضل أن أبحث عن القضية من (أساسها)، بقطع النظر عن آراء المحرر فيها.

- 1 -

يظن الكثيرون أن (تعليم القراءة من الأمور البسيطة) التي يستطيع أن يقوم بها كل من (يعرف القراءة والكتابة) وبالأحرى كل من يعلم شيئاً من (مبادئ أصول التدريس). في حين أن هذا التعليم من الأعمال الدقيقة المحفوفة بالمزالق الكثيرة التي لا يمكن تجنبها إلا بيقظة متواصلة وتمرين خاص. .

لأن (تعليم القراءة) لا يعني (تعويد الطالب على قراءة بعض الكتب المعينة)، بل يعني (إكساب الطالب المقدرة على قراءة أي كتاب كان).

ومع هذا، فكثيراً ما نجد أن المعلمين لا يقدرون خطورة هذا المبدأ حق التقدير؛ فيوجهون جهودهم إلى تعليم القراءة من الكتب المدرسية المخصصة لهذا الغرض، دون أن يمرنوا الطلاب على القراءة السريعة بوجه عام.

في حين أن الطلاب كثيراً ما يتعلمون قراءة تلك الكتب على طريقة الاستظهار، دون أن يجهدوا أنظارهم وأذهانهم في تتبع الكلمات المطبوعة في سطورها. وكثيراً ما ينخدع المعلمون بسرعة هذه القراءة، فلا ينتبهون إلى أن الطالب قد قرأ معظم ما قرأه عن ظهر الغيب، دون ملاحظة الكتاب. وهذه الحالة تتفشى بوجه خاص، عندما يكون الصف مزدحماً بالطلاب، وعند ما يتمشى المعلم في تدريسه على طريقة ميكانيكية، لا نصيب فيها لليقظة والاهتمام. يقرأ المعلم العبارة بنفسه بصوت جهوري، ثم يطلب قراءتها من أحد الطلاب، ثم من ثان، فثالث، فرابع؛ ويكرر هذه العملية عشرات المرات. . وكثيراً ما تنصرف أنظار القسم الأعظم من سائر الطلاب - خلال هذه القراءة والتكرار - عن أسطر الكتاب إلى أشياء أخرى؛ غير أن آذانهم تبقى مستهدفة لتأثير الألفاظ التي يلفظها المعلم ويكررها سائر الطلاب، بطبيعة الحال. وإذا ما تكررت قراءة العبارات عدة مرات، يكون هؤلاء الطلاب قد حفظوا الشيء الكثير منها عن طريق السمع؛ وإذا ما جاء دورهم في القراءة، أخذوا يقرءونها (قراءة ظاهرية) تكون حصة النظر فيها محدودة جداً، ويكون العامل الأصلي في سرعتها هو الحافظة السمعية وحدها. .

ولذلك كثيراً ما نرى بعض الطلاب (يقرءون دون أن ينظروا)؛ وإذا ما طلب إليهم أن يبدءوا القراءة من محل غير المحل المعتاد، يضطرون إلى التهجي، فيقرءون بتلعثم وتردد وبطء؛ غير أنهم إذا ما تمكنوا من قراءة الكلمة الأولى بعد هذا الجهد، فتذكروا الكلمة التي تليها، أخذوا يستعينون بذاكرتهم السمعية، فصاروا يقرءون ما بعدها بسرعة واسترسال. . . . وكثيراً ما لا ينتبه المعلمون إلى (حقيقة الأمر) في هذه

القراءة الظاهرية وينخدعون بهذه السرعة، ويظنون أنهم نجحوا في تعليم القراءة. . شاهدت هذه الحالة في عدد غير قليل من المدارس في دروس مئات من المعلمين، وما أعرفه عن مدارس التعليم الإلزامي في مصر يخولني حق الجزم بأن هذه الحالة ليست من الأمور النادرة هناك أيضاً. . . .

وعندما تكون طريقة تدريس القراءة مشوبة بهذه الصورة بنواقص وشوائب كثيرة، فلا حاجة للبيان بأن عدداً غير قليل من الطلاب عندما ينتهون من الدراسة الإلزامية، لا يكونون قد تعلموا القراءة بكل معنى الكلمة، بل يكونون قد تعلموا قراءة بعض الكتب قراءة ميكانيكية، لم تخرج من دور التهجي والتردد إلا بإعانة الذاكرة السمعية. . . فهل من مجال للاستغراب إذا ما فقد هؤلاء خلال بضع سنوات ما كانوا قد اكتسبوه من المقدرة السطحية في القراءة الميكانيكية فعادوا إلى الأمية بصورة تدريجية؟

فإذا أردنا أن ننجو من هذه المزلقة الأليمة، يجب علينا أن نهتم بإصلاح طرق تعليم القراءة، ونسعى إلى حمل الطلاب على قراءة كتب متنوعة، فنتجنب كل ما من شأنه أن يجعل القراءة ميكانيكية وظاهرية

مع هذا يجب عليّ أن أصرح بأن كل ذلك أيضاً لا يضمن معالجة المشكلة التي نبحث عنها معالجة قطعية.

لأن (مقدرة القراءة) في حد ذاتها ليست من الأمور التي ترسخ في النفس بمجرد اكتسابها، بل هي من القابليات التي لا تعيش وتنمو إلا بالعمل والتكرار والمران. . إنها من القابليات التي تضعف وتتلاشى شيئاً فشيئاً عندما تبقى (عاطلة) ولا تجد مجالاً للعمل بصورة متصلة. . .

افرضوا أن طالباً مجتهداً ونبيهاً، قد تعلم القراءة بصورة جيدة، فأصبح قادراً على قراءة الكتب بصورة مرضية. . ثم تصوروا أن هذا الطالب ترك القراءة بعد خروجه من المدرسة؛ فقد مضى عليه عدة سنوات دون أن يقرأ شيئاً، ودون أن يجد في بيئته دافعاً يدفعه إلى استعمال قابلية القراءة التي كان اكتسبها قبلاً. لا شك في أن القابلية المبحوث عنها سوف لا تحافظ على قوتها مدة طويلة من الزمن، بل ستكون عرضة للضعف بصورة تدريجية. . . وسيزداد هذا الضعف على ممر السنين فيعود صاحبها إلى دور القراءة (بالتهجي) كالمبتدئين؛ وإذا استمر الحال على هذا المنوال مدة أخرى، فسيفقد قابلية القراءة التي كان اكتسبها في المدرسة، وسيعود إلى الأمية مرة أخرى. وهذا هو ما يحدث في الحياة الاعتيادية. في كثير من الأحيان ينتهي الطفل من التعليم الإلزامي فيترك المدرسة ويذهب إلى الحقل أو المعمل، للاشتغال مع والديه. . . ولا يجد

هناك فرصة لتغذية القابلية التي كان قد اكتسبها، ولا يشعر بدافع يدفعه إلى قراءة شيء يحرك ويجدد تلك القابلية، فينسى في حياته الجديدة، بصورة تدريجية كل ما كان اكتسبه في حياته المدرسية. . .

إن القول بأن (التعليم في الصغر كالنقش في الحجر) بصورة مطلقة، لا يتفق مع الحقائق الراهنة: فإن الدماغ ليس نوع من الأحجار الجامدة التي تحافظ على كل ما ينقش فيها؛ والقابليات التي يكتسبها الدماغ لا تشبه النقوش التي تحفر على الحجر بوجه من الوجوه؛ ولا سيما دماغ الطفل، فإنه يمتاز بمرونة كبيرة، يكتسب بسرعة، غير أنه قد يفقد أيضاً بسرعة

هذه حقيقة هامة يجب أن نضعها نصب أعيننا عندما نفكر في أمر التعليم الإلزامي ومكافحة الأمية: يجب علينا أن نهتم بتغذية قابلية القراءة وتقويتها - بعد المدرسة - بقدر ما نهتم بتوليدها وتنميتها في المدرسة. . . يجب علينا أن نتوسل بشتى الوسائل التي تدفع إلى القراءة - بعد الانتهاء من الدراسة الإلزامية - خلال مزاولة أعمال الحياة الاعتيادية. . .

وإلا، فيجب علينا ألا نستغرب إذا ما وجدنا (قابلية القراءة) التي بذلنا كل تلك الجهود في سبيلها قد أخذت تندثر وتتلاشى شيئاً فشيئاً. . . و (الأمية) التي قضينا كل تلك الأوقات في سبيل مكافحتها داخل المدرسة وفي سن الطفولة، عادت إلى الحكم بعد مدة، فاستولت على النفوس تدريجياً في ساحة الحياة، وفي سن الرشد والشباب. . .

إن تجارب الأمم الغربية - المسطورة في تواريخ معارفها - تؤيد الملاحظات النظرية التي سردناها آنفاً؛ فإن رجال معارف تلك الأمم أيضاً كانوا قد اصطدموا بالمشكلة التي بحثنا عنها، في بدء انكبابهم على تعميم التعليم ومكافحة الأمية؛ وهم أيضاً كانوا قد لاحظوا - عندئذ - أن معظم الطلاب الذين يتخرجون من المدارس الابتدائية ويدخلون معترك الحياة، ينسون بصورة تدريجية الكثير مما كانوا تعلموه في المدرسة خلال سني التعليم الإلزامي. وكثيراً ما يصل بهم الأمر إلى درجة (نسيان الأبجدية) والعودة إلى الأمية

إن هذه النتيجة مَثَلت للعيان، على وجه أخص، عندما أخذوا يفحصون معلومات الراشدين الذين يبلغون السن العسكرية فيدخلون الثكنات. . . فقد وجدوا بين هؤلاء الجنود عدداً غير قليل من الذين لا يستطيعون أن يقرءوا شيئاً بالرغم من أنهم تعلموا القراءة والكتابة - في طفولتهم - في المدارس التي داوموا فيها.

ولذلك أخذوا يبذلون الجهود الكبيرة لمعالجة هذه المشكلة، ويتوسلون بوسائل شتى لتوقي هذه النتيجة

وكان من جملة الوسائل التي توسلوا بها إحداث دروس ومدارس تجمع الراشدين أيام الأحد، أو أحد ليالي الأسبوع طول السنة، أو خلال بعض الأشهر منها بقصد (تكرار) و (ترسيخ) المعلومات التي كانوا اكتسبوها خلال دراستهم الابتدائية. . .

إن الألمان الذين كانوا أسبق أمم الغرب إلى تطبيق نظام التعليم الإلزامي، أحدثوا مثل هذه الدروس منذ القرن الثامن عشر، وجعلوا المواظبة عليها من الأمور المحتمة على كل فرد، منذ انتهائه من الدراسة الابتدائية حتى دخوله الخدمة العسكرية. . .

إن كثيراً من الأمم الغربية حذت حذو الألمان في هذا الباب، في القرن التاسع عشر، وأحدثت مثل هذه الدروس والمدارس، تحت أشكال وأسماء مختلفة. . .

في الواقع أن الحاجة إلى التوسل بمثل هذه الوسائل قد زالت من الغرب، نظراً إلى انتشار القراءة والكتابة بين جميع الطبقات، وازدياد حاجة الناس إليها في كل البيئات وفي جميع نواحي الحياة، وانتشار الكتب التي تلذ الناس وتفيدهم مع ازدياد المكتبات التي أصبحت في متناول أيديهم. . . فإن كل ذلك لم يدع - في البلاد الغربية - حاجة إلى لإدامة الدروس والمدارس التي كانت تستهدف (التكرار) و (الترسيخ). . . ولذلك حدث تطور عظيم في أهداف الدروس والمدارس الخاصة بالراشدين. غير أن الأهداف الحالية والتطورات الأخيرة يجب ألا تنسينا الغرض الأصلي الذي كان استوجب إحداث مثل هذه الدروس والمدارس. ويجب أن نلاحظ على الدوام أن تلك الدروس والمدارس لعبت دوراً هاماً في ضمان نجاح التعليم الإلزامي، ومكافحة الأمية في عهودها الأولى

إنني أعتقد أن الملاحظات الآنفة الذكر تكفي لإظهار أنواع الواجبات التي تترتب على وزارات المعارف التي تهتم بأمر التعليم الإلزامي ومكافحة الأمية:

يجب عليها أن تسعى لتحسن طرق تدريس القراءة، وتدريب المعلمين للقيام بأعباء هذا التدريس

كما يجب عليها أن تتخذ التدابير اللازمة لإيجاد سلسلة كتب ونشرات ملائمة لحاجات الناس وميولهم، على اختلاف مهنهم وبيئاتهم. . .

ويجب عليها أن تتوسل بوسائل متنوعة لنشر تلك الكتب بين الناس، لتسهل تغذية رغبة المطالعة في نفوسهم. . . .

وأخيراً يجب عليها أن تتوسل ببعض الوسائل التي تضمن اجتماع الشبان في المدرسة من حين إلى حين - بعد انتهائهم من سني التعليم الإلزامي - لإدامة علاقتهم بالدرس والمطالعة بصورة منتظمة. . .

وإذا لم تفعل ذلك يجب أن تعلم جيداً أن الجهود التي تبذلها والنفقات التي تنفقها في سبيل نشر التعليم في الأرياف وبين جميع طبقات الناس، لا تثمر الثمرة الكافية، ولا يبعد أن يذهب معظمها هباء منثورا. . .

أنتهز هذه الفرصة لألفت أنظار وزارات المعارف في البلاد العربية - ولا سيما في مصر - إلى هذه الواجبات التي تترتب عليها لإتمام مهمتها في نشر التعليم ومكافحة الأمية بصورة فعلية

قلت: لا سيما في مصر. . . لأنها المملكة العربية الوحيدة التي استطاعت أن تسن قانوناً للتعليم الإلزامي، وأن تضع خطة عملية لتنفيذ أحكام ذلك القانون، وتحقيق نشر التعليم بين جميع طبقات الناس وفي جميع أنحاء البلاد. . . . فعليها - قبل غيرها - يترتب واجب الإسراع في اتخاذ التدابير التي سردناها آنفاً. . .

(بغداد)

ساطع الحصري

قصة الكلمة المترجمة

(القتل أنفى للقتل)

لأستاذ جليل

تتمة

انتشرت كلمة الشيخ عبد العزيز الأزهري (البلاغ 20 رجب 1352) فكتب الرافعي (رحمه الله) مقالة عنوانها (ليست الجاهلية) - البلاغ 22 رجب 1352 - قال فيها: أثبت الأستاذ عبد العزيز الأزهري فيما نشره في البلاغ أن هذه الكلمة عربية واحتج لذلك بحجج أقواها: زعمه (أنها وردت بين ثنايا عهد القضاء الذي بعث به سيدنا عمر إلى أبي موسى الأشعري) ولا ندري أين وجد الكاتب كلمة (القتل) فضلا عن (القتل أنفى للقتل) في ذلك العهد المشهور المحفوظ، وقد رواه الجاحظ في البيان والتبيين، وجاء به المبرد في الكامل ونقله ابن قتيبة في عيون الأخبار، وأورده ابن عبد ربه في العقد الفريد، وساقه القاضي الباقلاني في الاعجاز، وفي كل هذه الروايات لم تأت الكلمة في قول عمر، بل لا محل لها في سياقه، وإنما جاء قوله (فإن أحضر بينته أخذت له بحقه، وإلا وجهت عليه القضاء. فإن ذلك أنفى للشك) أما سائر حجج الكاتب (فلا وزن لها في باب الرواية التاريخية وقد أصبح عاليها سافلها كما رأيت

قلت: كتاب أحمد ابن عبد ربه اسمه (العقد) والفريد زيادة نسخ ومطبعة. قال ابن خلكان: (وصنف كتابه العقد وهو من الكتب الممتعة) وقال الفتح ابن خاقان: (وله التأليف المشهور الذي سماه بالعقد) والكتب التي سميت العقد الفريد هي (العقد الفريد في أحكام التقليد، العقد الفريد في أنساب بني اسيد، العقد الفريد في علم التجويد، العقد الفريد في علم التوحيد، العقد الفريد، للملك السعيد)

وقلت: جاء (القضاء) في البيان والتبيين، والعقد، وعيون الأخبار. ووردت (القضية) في الكامل، وإعجاز القرآن. وجاءت (استحللت) في هذين الكتابين. والقضاء والقضية مصدران، والاسم القضية فقط؛ و (القضية العصرية) لا تعرفها العربية. والعبارة في العهد أو الرسالة (فإن ذلك أنفى للشك) قول عربي متناسب، و (النفي) نازل فيه منزله. ورسالة

الفاروق إلى أبي موسى مشهورة، وقد رواها رواة وعزوها إليه. وذكر الجاحظ في البيان والتبيين كتابا من عمر إلى الأشعري (رضي الله عنهما) فيه تعليم وإرشاد وتذكير، والله اعلم.

وقال الأستاذ الرافعي (رحمه الله):

والذي آنا واثق منه أن الكلمة لم تعرف في العربية إلا في أواخر القرن الثالث من الهجرة. وهذا الإمام الجاحظ يقول في موضع من كتابه (البيان والتبيين) في شرح قول علي كرم الله وجهه: (بقية السيف أنمى عددا وأكثر ولدا) ما نصه: (ووجد الناس ذلك بالعيان الذي صار إليه ولده من نهك السيف وكثرة الذرء وكرم النجل. قال الله تبارك وتعالى: (ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب) وقال بعض الحكماء: قتل البعض حياة للجميع. ولم يزد الجاحظ على هذا. ولو كانت الكلمة معروفة يومئذ لما فاتته كما هو صنيعه في كتبه، وهذه العبارة الأخيرة (قتل البعض. . .) هي التي زعم الرازي في تفسيره أنها للعرب. . . فلا عبرة في هذا الباب بكلام المفسرين ولا المتأخرين من علماء البلاغة، وإنما الشأن للتحقيق التاريخي)

قلت: في النسخة المطبوعة: (قتل البعض أحياءٌ للجميع) ولم تجيء هذه العبارة والآية الكريمة قبلها قول علي (رضي الله عنه) - أن قصد أنهما جاءتا شرحا له، فالمقاصد مختلفة. وإيراد الجاحظ الآية والعبارة هو كعادته في إملاء ما يمليه في كتابه، وقد وردت قبل جملة وكلمةٍ للمهلب في معناها أقوالٌ متنوعة، وتلت الآية والعبارة مقطوعةٌ لهما الرقاشي، ثم تبع الشعر قولٌ لخارجية يشاكل الجملة العلوية، ثم خبر

وشعر، ثم أحاديث متنوعة. وإن حسب الجاحظ أن الآية والعبارة تحكيان (بقية السيف. . .) فقد أخطأ حِسبانه

ثم روى الأستاذ الرافعي (رحمه الله) قولاً للجاحظ في (حجج النبوة) في القوم الذين كانوا يولدون الأخبار ويطعنون بها على (الكتاب) ثم قال: (وإن لم ينهض الدليل القاطع على أن تلك الكلمة مترجمة عن الفارسية بظهور أصلها في تلك اللغة! ورجوعه إلى ما قبل الإسلام فهي ولا ريب مما وضع على طريقة ابن الراوندي الذي كان في منتصف القرن الثالث)

قلت: الكلمة لم تظهر في مصنفات نعرفها في القرن الثاني أو الثالث فينسبها إلى أحد من العرب أو غيرهم ناسب أو يقصد بها مقصد ابن الراوندي وتلك الشرذمة شرْير. وما هي إلا قول من جنس الأقوال الفارسية والإغريقية التي ترجمها النقلة وروى مثل الثعالبي وابن هند وطائفة منها.

ظهرت مقالة الأستاذ الرافعي (رحمه الله) فنشر البلاغ (25 رجب 1352) كلمة للشيخ عبد العزيز الأزهري عنوانها (القتل أنفى للقتل) قال فيها: (لأول مرة في حياتي الأدبية أقرأ للأستاذ البحاثة مصطفى الرافعي كلاماً يخترمه التناقض، وينسف آخره أوله. إن الأستاذ محق في أن نسبة الجملة الماضية إلى وثيقة القضاء التي بعث بها سيدنا عمر إلى أبي موسى الأشعري ليست حقيقية، ومما لا شك فيه أن الذي أوقع في حسبانها منها مشابهتها لعجز الجملة الآتية في الرسالة: (فانه أنفى للشك) وقليلون هم أولئك الذين يشبهون الأستاذ في قوة الذاكرة، ووفرة كتب المراجعة، وانفساح الوقت. و (ظروفي) المدرسية وأكداس الكراسات التي تنوء بالعصبة أولى القوة (أرغمتني) على أن لا أتصفح الجرائد إلى إلماماً مثل حَسْو الطير ماء الثماد، ففي اللحظة التي كنت أنتجع فيها الراحة وقع نظري على كلمة الأستاذ النشاشيبي وفيها يرى أن الجملة مترجمة لا جاهلية ولا مولدة، فكان ردي عليها أنها عربية، وبرهنت على ذلك بعدة أدلة، لهذا غشيتني الدهشة عندما حكم الأستاذ بأن الأدلة التي ذكرت أصبح عاليها سافلها لنقض بعضها، فهل عدم العثور عليها في عهد القضاء (يترتب عليه) ثم ذكرت ما يثبت عنده جاهلية تلك الكلمة مفصلا

1 - عدم الحاجة إلى اقتراض هذه المعاني

2 - خشونة الجملة

3 - عنجهيتها البدوية

4 - رنين لفظة القتل في المسامع

5 - حالة العرب قبل البعثة أسالت على شباة ألسنتهم (يعني حكماءهم) أمثال هذه المعاني ثم قال: (ومما أعجزني فهمه ادعاء بحاثتنا الكبير أن الكلمة لم تعرف إلا في أواخر القرن الثالث الهجري) ثم قال: (الحق الذي لا مرية فيه أن القتل أنفى للقتل كلمة عربية لحماً ودماً وعصباً، وأن قلم الأستاذ خانه في هذه المرة فكان من نتائج شطحاته! أن (انزلق) به إلى هذا الحكم. فليتقبل مني الأستاذ الأديب هذا الرأي وليثق أنه لم يؤثر في منزلته في نفوسنا هذا الشطط! إلا بمقدار ما تنداح دائرة)

قلت: وجدت كلام الشيخ في الأستاذ الرافعي (رحمه الله) طرفة فرويته، والله يشهد أني ما قصدت بروايته تنقص قائله

ثم نشر البلاغ في اليوم الثاني (26 رجب 1352) كلمة عنوانها (ليست جاهلية ولا مترجمة!) للفاضل (أمين الحافظ شرف بنيابة طنطا) قال فيها: (عاد الأستاذ الأزهري إلى دعواه أن كلمة (القتل أنفى للقتل) جاهلية، ولم يضف إلى براهينه الأولى شيئاً يعتمد عليه في تأييد هذه الدعوى رغم اعترافه بأنها لم ترد في عهد القضاء من عمر إلى أبي موسى كما وهم أولا ونبهه إلى وهمه الأستاذ الرافعي، وكل ما جاء به ليبرهن على جاهليتها بعض استنتاجات فرضية لا تقوم عليها دعوى. أما وقد بّين الأستاذ مصطفى صادق الرافعي أن تلك الكلمة لم تعرف قبل القرن الثالث الهجري ولم يروها أحد إلى ذلك العهد على كثرة ما روى عن الجاهليين فلا محل للقول بأن هناك أدلة عقلية أو منطقية، فهي ليست جاهلية ولا مترجمة! إلا أن تؤيدها الرواية الصحيحة أو يعرف أصلها الأعجمي!)

قلت: قول السيد أمين (رغم اعترافه) عربيته: مع اعترافه أو على اعترافه) والمعروف

الاعتراف بالذنب، يقال: اعترف بذنبه وفي (الكتاب): (وآخرون اعترفوا بذنوبهم) وفي حديث عمر: (اطردوا المعترفين هم الذين يقرون على أنفسهم بما يجب عليهم فيه الحد والتعزيز، كأنه كره لهم ذلك، وأحب أن يشتروه على أنفسهم) كما ذكرت (النهاية) و (استنتاجات) في كلمة (الأمين) غريبة في العربيات.

ثم ظهرت في البلاغ (غرة شعبان 1352) كلمة عنوانها (أسئلة القتل أنفى للقتل) للأستاذ (أزهري، المنصورة) قال فيها: (الظاهرة أن الشيخ عبد العزيز الأزهري يريد أن تكون (القتل أنفى للقتل) جاهلية، فأن يتشبث برأيه ولا يرجع عنه يُطالبْ بجواب هذه الأسئلة:

المجمع عليه أن اللغة العربية هي لغة الرصانة والأحكام فلن تضع كلمة إلا موضعها، فهل يجوز أن تستعمل العربية (النفي) في تلك الجملة؟ وما معنى (القتل أنفى للقتل)؟ وهل توضح ألفاظ الجملة معناها؟ وما معنى (النفي) في اللغة؟ وهل استعملت مادة (ن ف ي) واللغة لغة والعرب عرب، في مثل هذا المقصد؟

فإذا أقام الشيخ عبد العزيز دهراً طويلاً يبحث فلا يجد للنفي في العربية مثل هذا الاستعمال، فهل تبقى (القتل أنفى للقتل) جاهلية أو عربية؟

قلت: النفي: التنحي، التنحية، الطرد الإبعاد عن البلد، التساقط: تساقط الشعر، التغريب الذي جاء في الحديث، الجحد (ومنه نفى الأب والابن يقال: ابن نَفيّ إذا نفاه أبوه) كما في التاج، الرد (نفيت الشيء إذا رددته، وكل ما رددته فقد نفيته)

ولو استُبدل (القتل) بـ (النفي) في العبارة الفارسية فقيل: القتل أقتل للقتل لصح اللفظ، ولكن تدهى الأذن والدماغ والعصب والجسم حينئذ داهية، وتجيء ثلاث (قافات خشنة كل قاف كجبل قاف) كما قال أحمد بن الحسين الهمذاني وتخالف العبارة قول المتنبي:

فقلقلت بالهم الذي قلقل الحشا ... قلاقل عيس، كلهن قلاقل

قال الكعبري في (شرح التبيان): (عاب الصاحب إسماعيل ابن عباد أبا الطيب بهذا البيت وقال: (ماله - قلقل الله أحشاءه - وهذه القافات الباردة) قال أبو نصر بن المرزبان: ثلاثة من الشعراء رؤساء، شَلْشلَ أحدهم، وسلسل الثاني، وقلقل الثالث. فالذي شلشل الأعشى والذي سلسل مسلم وأما الذي قلقل فالمتنبي. قال الثعالبي: فقال لي أبو نصر: فبلبل أنت. قلت له: أخشى أن أكون رابع الشعراء. . . ثم قلت بعد مدة:

وإذا البلابل أفصحت بلغاتها ... فأنف البلابل باحتساء بلابل

كان الخطأ مطبعي في الكلمة السابقة (أسئلة) فنشر الأستاذ (أزهري المنصورة) كلمة عنوانها (التطبيع) - البلاغ 8 شعبان - قال فيها: (بعثت إلى (البلاغ) والقوم يقتلون فيه (القتل أنفى للقتل) بحثاً - وقد قتلت، وقد رمست، وللأقوال كما للقائلين آجال - بكلمة فيها أسئلة، ولما جاءت إليّ الجريدة وجدت وذكر الكاتب الخطأ المطبعي (لا الأخطاء كما يقول بعض الأدباء) ثم قال: فعجبت وما عجبت، وقلت هي المطبعة، وهي السرعة في العصر البراقيّ. وقد أردت أن أسمي مثل هذا فقلت: لما كانت الصحيفة والصحف والصحائف والقلم الكاتب قالوا: (التصحيف) فهل لنا - واليوم يوم المطبعة - أن نقول (التطبيع) وقل من يستعمل هذه اللفظة في هذا الزمان للمعنيين القديمين. والصحيفة الخطأ في الصحيفة مولدة، والتطبيع (الخطأ المطبعي) عصرية بنت العصر وفي بنات العصر كريمات)

ثم ظهرت في البلاغ 16 شهر رمضان 1352 كلمة عنوانها (القتل أنفى للقتل مولدة لا جاهلية) للأستاذ محمود محمد شاكر قال: (كانت هذه الكلمة سبباً في لجاج بعض الكتاب حين قال الأستاذ مصطفى الرافعي في مقاله الذي نشر في بلاغ السبت (15 رجب 1352

نوفمبر سنة 1933) بعنوان كلمة مؤمنة في رد كلمة كافرة): (أنا أقرر أن هذه 4 - الكلمة مولدة وضعت بعد نزول القرآن الكريم، وأخذت من الآية، والتوليد فيها بيّن، وأثر الصنعة ظاهر عليها) وقد قال بعض الكتاب بترجمتها عن اللغات وقد بحثت طويلاً عن أصلها وكنت أود أن أسوق الأدلة كلها على نفيها عن عرب الجاهلية، ولكن لا يتسع وقتي الآن لذلك، ثم وجدت أخيراً النص القاطع على أنها ليست من كلام الجاهلية في كتاب الإيجار والإعجاز لأبي منصور الثعالبي المطبوع بمطبعة الجوائب سنة 1301 مع

رسائل أخرى (ثم نقل كلام الإمام الثعالبي وفيه (ويحكي عن أردشير الملك ما ترجمه
بعض البلغاء أنه قال: القتل أنفى للقتل) وقد رُوِي النصُّ كله من قبل في كلمة
الكوكب ثم قال الأستاذ محمود: (وهذا نص يؤيد ما ذهب إليه الرافعي ولا موضع للجدل
بعده)
فنشر الأستاذ (أزهري المنصورة) بعد هذا القول كلمة عنوانها (الكلمة المترجمة،
الأقوال الفارسية في العربية) - البلاغ 19 شهر رمضان 1352 - ومما قاله: (هذا النص
بنفسه قد أورده الأستاذ النشاشيني في جريدة (كوكب الشرق في (12) رجب 1352
وكان قول الثعالبي من جملة الأدلة على أن تلك الكلمة مترجمة، ويظهر أن الأستاذ
محمودا لم يقرأ المكتوب في الكوكب إذ لو رآه ما كان أتعب النفس في نقل ذلك
النص. وكان قول الأستاذ الرافعي في تلك الكلمة المترجمة في (15) رجب 352 وقد
طلب الأستاذ الأصل الفارسي، والظفر بالمطلوب في هذا الوقت مستحيل. ولولا ذلك
لسألنا العالم الهمام الدكتور عبد الوهاب عزام الأستاذ في الجامعة المصرية أن يهدينا
إلى مظنته.
الأقوال المنقولة عن الفارسية بعضها عزي إلى أهله فعرفناه، وبعضها جهل أصله فلم
يدر أعربي هو أم فارسي. فهل للنابغة العالم بلغة العرب والأعاجم الدكتور عبد
الوهاب عزام أن يطرف الناس بحثاً مستفاضا فيه عن الأقوال الفارسية في العربية.
آباء عزام كان (قِرَي الأضياف سّجيتهم، ونحر العشار دأبهم وهجيراهم) وقد جمع الأبناء
(بين القرَيَيْن: قري الضيفان بالجفان وقرى العقول والأذهان بالعلم والعرفان).
وفي (البلاغ 8 شوال 1352) ظهر قول عنوانه: (الكلمة المترجمة، الأقوال الفارسية
في العربية) للدكتور عبد الوهاب عزام. وهذا هو القول: (نشر فاضل (أزهري) كلمة
في البلاغ تحت العنوان المصدرة به هذه الأسطر، تناول فيه الكلام عن الأقوال الفارسية
المنقولة إلى العربية، وطلب مني أن أكتب ما أعرف في الموضوع، وأحسن الظن بي
وبآبائي، فأثنى علينا بما شاء له خلقه الكريم وأدبه الرفيع.
وإني ليؤسفني أن فاتتني هذه الكلمة فلم أطلع عليها حتى تفضل أديب العرب الأستاذ
محمد إسعاف النشاشيبي فأرسل إلي من فلسطين قطعة من البلاغ تتضمن كلمة
الأديب (أزهري).
فالآن أبادر إلى شكر أستاذنا النشاشيبي والاعتذار إلى أديبنا (أزهري) وشكره، راجياً
أن أشرّف بإجابة دعوته إلى الكتابة في هذا الموضوع حين يتيسر لي ما تصديت
(لمعرفته وجمعه من الكلمات في هذا الصدد
قرأ الأستاذ (أزهري المنصورة) قول الدكتور عبد الوهاب عزام فنشر كلمة عنوانها
(موهبة الله واهبها، الدكتور عبد الوهاب عزام) - البلاغ 19 شوال 1352 - قال فيها:
(قال المحبي في (خلاصة الأثر): تعلم العلامة البوريني اللغة الفارسية حتى صار يتكلم
بها كأنه أعجمي، وفي ذلك يقول:
تعلمت لفظ الأعجميْ وإنني ... من العرب العرباء لا أتكتم
وما كان قصدي غير صون حديثكم ... إذا صرت من شوقي به أترنم
وإن كنت بين المعجمين فمعرب ... وإن كنت بين المعربين فمعجم
فأغدوا بأشواقي إليكم مترجماً ... وسركم في خاطري ليس يعلم
وقد تعلم العلامة الأستاذ الكبير (عبد الوهاب عزام) اللغة الفارسية والتركية وغيرهما
من لغات الأعاجم وحذقها، كما نبغ في العربية وأدبها ليستفيد نشء العرب - قل
وشبانهم وشيبهم - من بحثه وتحقيقه، وتفتيشه وأدب درسه استفادتهم من سيرته
وخلقه وأدب نفسه، وليهدي في المشكلات من يستهديه، وليظهر للناس ذلك الكنز
العظيم الذي أثرت به العربية. والكنز المعنى هو (الشاهنامه). قال ضياء الدين بن
الأثير: (كما فعل الفردوسي في نظم الكتاب المعروف بشاه نامه وهو ستون ألف بيت
من الشعر يشتمل على تاريخ الفرس؛ وهو قرآن القوم، وقد أجمع فصحاؤهم على أن
ليس في لغتهم أفصح منه)
إن الذي عند الدكتور عبد الوهاب عزام - قلت أو الدكتور موهوب عزام - هو موهبة،
(الله واهبها، والله (الوهاب) وهو في الفضل والعلم من أولى (العزم)
قلت: انتهت القصة

(الإسكندرية)
(* * *)
حواء
ديوان شعر طريف في الغزل العرفاني من نظم الأستاذ
الحوماني تحت الطبع، تحمل الرسالة منه إلى قرائها عدة
نماذج قبل صدوره.
اباعثتي
تَلَفتُّ أسأل ماضيَّ عما ... وعيتُ فألفيتُه لا يعي
وأيقَنتُ أنَّ ربيع الشباب ... تولىَّ ولم يكُ قلبي معي
كأنَّ أناشيده قبلما ... خلقتُكِ لم تجرِفي مسمعي
ولا فتّق الصبح أكمامها ... عن الحب ريانَ من أدمعي
أباعثتي قِبَلَ الأربعين ... جديدَ الصِبا قلقَ المضجع
مشت بيَ أيامُكِ القهقري ... من الأربعين إلى الأربع
فأبصرتُ والشمس عند المغ ... يب، تباشيرَهاِ قبَلَ المطلع
وأنضرَ فوديَّ من ناضريكِ ... شبابٌ تدفقّ في أضلعي
رأيتك. . .
يراكِ بعينيه مَن لا يرا ... كِ في ظلمة اليأس فجرَ الأمل
يراكِ بنفسجة في الحضيض ... وزنبقةٍ في سماء الجبل
يراكِ ندي في جيوب النسيم ... وبدراً تنقّل حتى اكتمل
فيا زهرة في رياض الربيع ... وبدراً تكبّد قلب الحمل
حنانيك والزهر يجني عليه ... ضحى الصيف والبدر يغشى الطفَل
رأيتكِ والعينُ لمّا تَسَعْ ... كِ أحجيَّة في ضمير الأزل
رأيتُكِ، والعينُ ملء الفؤا ... دِ، ملء النهى عُقَداً لا تُحل
رأيتُكِ أنشودةَ العبقري ... وأضحّية في فؤاد البطل
رأيتكِ بين يديْ ناظريَّ ... فما أتلقّاه غضّ القُبَل
فماً وشَّعتْ بسماتُ الخلود ... حواشيه باللثم حتى اشتعل
الحوماني
جورجياس أو البيان
لأفلاطون
للأستاذ محمد حسن ظاظا
- 2 -
تنزل (جورجياس) من آثار (أفلاطون) منزلة الشرف لأنها أجمل محاوراته وأكملها (جميعاً بأن تكون (إنجيلا) للفلسفة)
(روبنوفيير)
الأشخاص والمحاورة
بينت لك في المقال السابق أهمية هذه المحاورة وموضوعها. وأقدم إليك اليوم أشخاصها، ثم أبدأ في ترجمتها وفي التعليق على ما يحتاج منها إلى تعليق:
1 - الأشخاص
أولهم: (سقراط) بطل المحاورة كما قلنا. وسنرى أفلاطون متقمصاً إياه ومعلناً تلك الأفكار السامية المتعلقة بطبيعة (البيان) و (الأخلاق). وسنرمز له في الهامش بالحرف (ط)
وثانيهم: (جورجياس) وهو السفسطائي ومعلم البيان الذي يتخذ منه سقراط محوراً يدور حوله ويمطره وابلا من أسئلته البارعة ليثبت له أن فلسفته قائمة على المغالطة والجهل والغرور والكبرياء، وسنرمز له بالحرف (ج)
وثالثهم: (شيروفون) وهو صديق (سقراط) وتلميذه. وسنرمز له بالحرف (ش)
ورابعهم: (بولوس) وهو تلميذ (جورجياس) وصفيه، وسنرى أن (جورجياس) يتخذ منه محامياً يذود عن أفكاره أمام هجمات سقراط. وسنرمز له بالحرف (ب)
وخامسهم: (كالكليس) وهو من أهل (أثينا). ويتخذ أفلاطون منه ومن تلميذي سقراط وجورجياس الأنفين همزة وصل لإحكام الحوار. وسنرمز له بالحرف (ك)

المحاورة - 2
وتبدأ المحاورة في منزل (كاليكليس) حيث يصل (سقراط) متأخراً وكان يريد أن يستمع
إلى حديث جورجياس السفسطائي فيقابله صاحب المنزل بقوله:
ك - أو هكذا تجيء (بعد المعركة) كما يقولون يا سقراط!؟
ط - وهل تأخرنا كثيراً عن (العيد) كما يقال؟
ك - نعم. نعم ولقد جئتم بعد عيد كامل البهجة والظرف.!
إذ الحق أن (جورجياس) كان يسمعنا منذ لحظة أشياء جميلة لا حصر لها!
ط - إن شيروفون - الموجود بيننا الآن - هو المسئول عن ذلك التأخير يا كاليكليس لأنه أرغمنا على الوقوف في الطريق
ش - ليس من ضير يا سقراط لأني سأصلح الأمر على أية حال. إن جورجياس صديقي، ولذلك سيكرر الآن إذا ما أردت نفس ما قد قال، أو هو سيرجئ الحديث إلى فرصة أخرى إذا فضلت
ك - ماذا يا شيروفون؟ أو بسقراط فضول لأن يسمع جورجياس؟
ش - لقد جئنا نقصد ذلك
ك - حسن! هيا معي إذاً فهو يقيم هنا. وسيبسط لكم الموضوع
ط - شكراً يا كاليكليس. ولكن أتراه يقبل التحدث معنا؟ إني لا أريد أن أعرف منه معرفة تامة خواص الفن الذي يمتهنه، وماذا يعد به وماذا يعلمه للناس، أما ما عدا ذلك فسوف يحدثنا عنه كما تقول في فرصة أخرى
ك - ليس أجدى من أن تسأله هو نفسه يا سقراط لأن هذه الناحية ليست بالدقة إلا جزءاً من الشرح الذي سيقدمه
ليس أجمل من هذا. فعليك إذاً أن تسأله يا شيروفون -!
ش - وماذا أطلب منه؟
ط - أي شيء هو!
ش - ماذا تريد أن تقول؟
ط - ألا تفهمني؟ إذا كانت مهنته - مثلاً - صناعة الأحذية فسيجيبك بأنه صانع أحذية!
ش - لقد فهمت وسأسأله قائلا: أخبرني يا جورجياس! أصحيح ما يقول كاليكليس من أنك تعد نفسك للإجابة على كل الأسئلة التي يستطيع أن يقدمها لك الإنسان؟
(يتقدم جورجياس)
ج - نعم يا شيروفون، فهو نفس ما قد أعلنت منذ لحظة وأضيف إليه الآن أنني لم أتلق من أحد منذ سنين كثيرة سؤالاً واحداً يعتبر جديداً على مثلي!
ش - وإذا فيجب أن تكون إجابتك يا جورجياس متناهية السهولة والسرعة!
ج - ليس عليك يا شيروفون إلا أن تجرب!
ب - نعم. ولكن سلني أنا إذا أردت يا شيروفون لأنه يبدو لي أن جورجياس خائر القوى بعد إذ تحدث في أشياء كثيرة.
ش - ماذا يا بولس؟ أتملق نفسك بادعائك أنك تستطيع أن تجيب بأحسن مما يجيب جورجياس؟
ب - وماذا يهمك إذا كنت سأجيبك إجابة تكفيك؟
ش - طبعا هذا لا يهم فأجب ما دمت تريد!
ب - سل
ش - ذلك ما سأفعل. إذا كان جورجياس ماهراً في نفس الفن الذي يحذقه أخوه هيروديكوس فأي الأسماء يصلح لأن نطلقه عليه إطلاقاً صحيحاً؟ أليس هو نفس الاسم الذي نطلقه على هيروديكوس؟
ب - من غير شك!
ش - وإذا أنكون محقين إذ أسميناه طبيباً؟
ب - بلا ريب.
ش - وإذا كان منهمكاً في نفس الفن الذي يشتغل به ايستوفون بن أجلاوفون أوفى فن أخيه فأي الأسماء نطلقها عليه؟
ب - واضح أنه اسم (المصور).

ش - حسن. ولكن في أي فن قد صار جورجياس عالماً، وأي اسم يصلح له فنطلقه عليه؟
ب - للناس يا شيروفون فنون كثيرة، والإنسان مدين في كشفها للتجربة لأن التجارب هي التي تجعل حياتنا متمشية مع قواعد الفن، بينما عدمها يجعلها تسير مع الصدفة العمياء. والناس يختلفون فيما بينهم، فالبعض ينهمك في ذلك الفن، والبعض ينهمك في فن آخر،
ولكن أفضل الفنون هي ما كانت نصيب أفضل الناس كجورجياس لأن الفن الذي يشتغل به أفضل الفنون جميعاً!!
ط - يلوح لي حقا يا بولوس أن جورجياس قد مهر جداً في الخطابة لأنه لا يواصل الحديث الذي وجهه إلى شيروفون!!
ج - وكيف هذا يا سقراط؟
ط - يبدو لي أنه لا يجيب عما يسأله الناس!
ج - سله بنفسك، إذ لتجدنه مستعداً!
ط - إذا كان يسرك أن تجيب، فإني أسألك بسرور أعظم إذ يلوح لي أن ما يقوله بولوس يدل على أنه قد حذق فن (البلاغة) أكثر من حذقه فن المناقشة والإقناع!
ب - وماذا يحملك على هذا القول يا سقراط؟
ط - ذلك لأنك - وقد سألك شيروفون عن الفن الذي مهر فيه جورجياس - رحت تمدح هذا الفن دون أن تخبرنا عن ماهيته كأن هناك من يحتقره ويحط من شأنه!!
ب - ألم أقل إنه أفضل الفنون جميعاً؟
ط - ليكن كما تريد! ولكن أحداً لم يسألك عن صفة هذا الفن وكيفيته. لقد سألناك فقط عن ماهيته، وعن أي اسم يجب أن نطلقه على جورجياس، ولقد دَلَّك شيروفون على الطريق بالأمثلة، فأجبته في المبدأ إجابة حسنة قليلة الكلمات
فقل لنا كذلك: أي الفنون يمارس جورجياس؟ وأي الأسماء يصلح له؟؟ أو - بالأحرى - قل لنا أنت يا جورجياس: أي الأسماء يجب أن نسميك به؟ وبأي الفنون تشتغل؟
ج - بالبيان يا سقراط!
ط - إذاً يجب أن نسميك معلم البيان؟
ج - نعم، ومن المعلمين المجيدين يا سقراط، إذا ما شئت أن تسميني بما أفخر به على حد تعبير هوميروس!
ط - ليكن ما تريد!
ج - حسن - سمني إذاً هكذا!
ط - أتقول إنك قادر على تعليم هذا الفن للغير؟
ج - هذا ما أمتهنه هنا وفي كل مكان!
ط - وهل تريد يا جورجياس أن تستمر آناً مسئولاً وآناً مجيباً كما نفعل الآن، مرجئاً هذه الخطب الطويلة - كتلك التي بدأ بولوس بإحداها - إلى وقت آخر؟ إن يكن فخذ فيما وعدتنا به، واجعل إجابتك على كل سؤال قصيرة
ج - هناك يا سقراط من الإجابات ما يحتاج بالضرورة إلى سعة وبسط، ولكني سأحاول مع ذلك أن لأجيب بكل اختصار لأن من بين الأشياء التي تعجبني من نفسي انه لا يوجد من ينطق بنفس الإجابة في أقل تعبير كما أفعل
ط - هذا ما يجب هنا يا جورجياس. فأرني إذا ذلك الاختصار الفريد ولتترك الأقوال المطولة إلى فرصة أخرى
ج - سأسرك. وسترى أنك لم تسمع شخصاً يشرح باخصر من قولي؟
(يتبع)

محمد حسن ظاظا

بين مذهبين

للأستاذ محمد سعيد العريان

لقد مات الرافعي - يرحمه الله - فانقطع بموته ما كان بينه وبين خصومه من) عداوات. وما أريد أن أوقظ فتنة نائمة يتناولني لهيبها أولَ ما يتناول؛ فما لي طاقة على حمل العداوة، ولا اصطبار على عنت الخصومة، ولا احتمال على مشقة الجدال؛ وإنما هو تاريخ إنسانٍ له على العربية حق جحده الجاحدون فنهضت للوفاء به؛ فإن كنت

أكتب عن أحد من خصومه أو أصحابه بما يؤلم أو يسيء، فما ذلك أردت، ولا إليه قصدت، ولا به رضيت؛ ولكنها أمانة أحملها كارهاً، واضطلع بعبئها مضطراً، لأؤديها إلى أهلها كما تأدَّت إليّ. وإني لأعلم أني بما أكتب من هذا التاريخ أضع نفسي بالموضع الذي أكره، وأتعرض بها لما لا أتوقع؛ ولكن حسبي خلوص النية، وبراءة الصدر، وشرف القصد، ولا عليّ بعد ذلك مما يكتب فلان، ولا مما يتوعد به فلان؛ فإن كان أحد يريد أن يصل بي ما كان بينه وبين الرافعي من عداوة فانقطعت، أو يربط بي رابطة كانت بينه وبين فلان فانفصمت، أو يتخذ من الاعتراض عليّ زلفى إلى صديق يلتمس ودَّه، أو يجعل مما يكون بيني وبينه سبيلاً إلى غرض يرجو النفاذ إليه، أو وسيلة إلى الهوى يسعى إليه - إن كان أحد يريد ذلك فليمضِ على إرادته، وإن لي نهجي الذي رسمتْ؛ فلتفترق بنا الطريق أو تلتقِ على سواء، فليس هذا أو ذاك بما نعي من المضيّ في سبيلي ومن الله التوفيق!

(وهذه خصومة أخرى من خصومات الرافعي، ومعركة جديدة من معاركه؛ وإني لأشعر حين أعرض لنبش الماضي فأذكر ما كان بين الرافعي والعقاد، أني كمن يدخل بين صديقين كان بينهما في سالف العمر شحناء ثم مسحت على قلبيهما الأيام فتصافيا، فانه ليذكِّر بما لا ينبغي أن يُذكر، والموت يحسم أسباب الخلاف بين كرام الناس؛ فإذا كان بين الرافعي والعقاد عداوة في سالف الأيام فقد انقطعت أسبابها ودواعيها، فإن بينهما اليوم لبرزخاً لا تجتازه الأرواح إلى أخراها إلا بعد أن تترك شهواتها وأحقادها وعواطفها البشرية. فهنا ناموس وهناك ناموس، ولكل عالم قوانينه وشريعته؛ فما تخلص ضوضاء الحياة إلى آذان من في القبر، ولا ينتهي إلى الأحياء من عواطف الموتى إلا ما خلفوا من الآثار في دنياهم. . . هنا رجل من الأحياء وهناك رجل في التاريخ، وشتان ما هنا وهناك؛

فما أتحدث اليوم عن خصومة قائمة، ولكني أتحدث عن ماض بعيد. والرافعي الذي يحيا بذكراه اليوم بيننا غير الرافعي الذي كان؛ فما ينبغي أن تجدد ذكراه ماضي البغضاء. . وهذا عذيري فيما أذكر من الحديث ..)

ذلك قول قلته منذ بضعة أشهر وقدمتُ به للحديث عما كان بين الرافعي والعقاد؛ . . . وكأنما ألقيَ إليَّ من وراء الغيب أن كاتباً مثل الأستاذ سيد قطب سيحشر نفسه فيما لا يعنيه وما لا يصلح له، وما لا يُحسن أن يقول فيه، ليحاول أن يجعل التاريخ غير ما كان، مظاهرة لصديق، أو انتصاراً بالباطل . . .

ولقد كنت أكرم (صديقي) أن يكون هو الذي يحاول هذا العبث إسرافاً في حسن الظن بفهمه وأدبه وسمو نفسه، ثم كان ما لم أكن أتوقع . . .

وإني لأشعر الساعة - وقد خرجت من الصمت الذي فرضته على نفسي شهرين رعاية لحق الصديق وإبقاء عليه - بشيء من الألم يخزني في صدري ويجعل القلم يضطرب بين أناملي؛ فما سهلٌ على مثلي أن ينسلخ عن ماضيه وينكر صاحبه ليقول على ملأ من الناس: (يا هذا، لستُ منك ولست مني. . .!) ولكن سيد قطب قد قالها فما بدٌ لقائل أن يقول. . .

لقد كان بين الرافعي والعقاد عداوة وشحناء سارت مسير المثل بين أدباء الجيل، فهل كان من الحتم تبعاً لذلك أن يكون سعيد العريان وسيد قطب عدوين، لأن أولهما يؤرخ للرافعي والثاني يجري في غبار العقاد. . .؟

ولكن سيد قطب يرشح نفسه ليكون في غد شيئاً له في الأدب خطر ومقدار، وما يرى نفسه بالغاً هذه المنزلة إلا أن يجري على نهج صاحبه ويتأثر خطاه؛ فكان أول سعيه إلى غايته أنه احتقب كنانته وخرج إلى الطريق يرمي الناس باليمين والشمال لا يعنيه أين يصيب ولا من يصيب ولو كان أحرص الناس عليه وأرفأهم به. . .! وكان إلى سعيد العريان أول ما راش من سهامه يا صديقي الذي كان. . لقد أخطأت الهدف المؤمَّل. . .!

ما بي في هذا المقال أن أتحدث عن الرافعي ولا عن العقاد، ولكنّ مذهبين سماهما سيد قطب أريد أن أضرب لهما مثلين: أما أحدهما فقول سعيد العريان يعتب على صاحبه: (. . فإن كان هذا هو كل عذر الأستاذ سيد قطب من تمزيق أكفان الموتى بأظفاره فقد بَلغَ وأبلغ. . .)

وأما ثانيهما فهو قول الأستاذ قطب نفسه يرّد على عتاب صاحبه: (. . . إن سيد قطب ليس هو الذي يمزق الكفان بالأظفار، والذي يمزّق بظفره (مخلوق آخر)، أكرم آدابي وآداب الناس أن أقول: إن الأستاذ (العريان) أو أحد زملائه من (فصيلته)! خشية أن نتدهور خطوة أو خطوتين بعده فيصبح من النقاش الأدبي المعترف به أن يقول الواحد للآخر:

(!ويكون هذا من أساليب النقاد (. . .يا ابن الـ

تُرَى هل عرف القراء فرق ما بين المذهبين؟

نعم، ولكن لا بأس من زيادة البيان والايضاح، فقد يكون في القراء طائفة من أمثال الأستاذ سيد قطب، لا يقنعون بغير ما هو صريح الدلالة في موضعه وإن كانوا مثله . . .(أخصائيين) في اللغة وفي أساليب البيان

لقد ظل المرحوم الرافعي دائباً في تجديد الآداب العربية سبعاً وثلاثين سنة، يتردد أسمه في المحافل والنوادي ومجامع الأدب، فليس بين قراء العربية أحد لا يعرفه، وسيد قطب واحد من قرائها الأخصائيين في اللغة كما يعرف القراء، ولكنه مع ذلك لم يشرع قلمه ليجرَّد الرافعي من (النفس) ومن (الإنسانية) ومن (العقيدة) وليزيِّف أدبه ويكشف عيبه إلا حين غيَّبه التراب وآن أوان ذكراه. فهل يكون ذلك شيئاً غير تمزيق أكفان الموتى بأظفار. . .؟

ليس الأستاذ سيد قطب - ولا شك - كلباً، ولا ذئباً، ولا ثعلباً، ولا شيئاً من ذوات الظفر والناب؛ ولكنه مع ذلك - عندنا - يمزق أكفان الموتى بأظفار. . .

هذه هي عربيتنا نحن أنصار المذهب القديم، فبأيّ عربية فهمها الأديب الناقد المجدّد الأخصائي في اللغة وفي أساليب البيان الأستاذ سيد قطب؟. . . لقد فهم أننا نجرّده من إنسانيته وأننا نعني أنه. . . أنه. . . أنه ذو ظفر وناب. . .!

وأساء الظن بآدابنا وبنفسه. . . ورّد شتيمة بشتيمة، وزاد في الرّد عبارة يريد أن يجعلها من أساليب النقّاد. . . .

وعفا الله عنه؛ فما يملك أحدٌ يناله سيد قطب بالإساءة إلا أن يعفو عنه. . .!

معذرة . . .!

لقد فاتني أن أنوه بفضيلة من فضائل سيد قطب تتصل بهذين المَثَلين، وإنها لبسبيل من مذهبه في أدب (النفس) وأدب (الطبع)، وإنها لتكتشف عن أسلوب من أسلوبه. . . إن سيد قطب لم يشتم، ولم يقل شيئاً يستحق العفو أو المؤاخذة. إنه يقول فيما يرد: (. . . إنني أكرم آدابي وآداب الناس أن أقول. . .) أتراه قال شيئاً؟ لا، إنه ليُكرم آدابه وآداب الناس أن يقول؟ فمِن التجنِّي عليه أن تزعم أنه قال. . . أيعرف سيد قطب شبيهاً بهذا الأسلوب فيما يتحدث الناس؟. . . أما أنا فأعرف: أعرف (مجدّدين) غيره من الصعاليك والسوقة يهمّ أحدهم أن يشتم خصمه فيقول له ما ترجمته في مثل لغة الأستاذ قطب: (إنني أكرم آدابي أن أقول. . .) ويكون بذلك عند العصبة المتجمهرين حولهما مؤدباً كريماً عفيف اللسان لأنه لم يقل شيئاً، ويكون بذلك مجدداً في أسلوب الشتم وإن لم يعترف سيد قطب بأن مثله من المدرسة الجديدة. . .

ويبقى بعد ذلك قول الله تعالى: (أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً؟) فيكون . . . معناه على هذا القياس في مذهب الأستاذ قطب: (من منكم تهفو نفسه إلى أكلة شهية فيها مسلوق وقديد ومشويّ من لحم بني آدم؟) ويكون جواب هذا الاستفهام صوت (إنسان) يقول: (أنا. . .!) فيمسخه الله كلباً أو ذئباً أو ثعلباً أو شيئاً من ذوات الظفر والناب. . .

أليس هذا هو مدلول هذا الاستفهام عند من لا يؤمن بالكناية والاستعارة والمجاز في أساليب البيان والله أعلم بمراده. . .!

أراني أطلت في شرح هذا المثال قبل أن اخلص إلى ما أريد، وما تثبت القاعدة بمثال واحد؛ فهذا مثال آخر: يقول سعيد العريان في وصف المرحوم الرافعي حين يهم أن يجمع خواطره لموضوعه قبل أن يكتبه: (. . فكان يرسل عينيه وراء كل منظر، ويمد أنه وراء كل حديث، ويرسل فكره وراء كل حادثة، ويُلقي باله إلى كل محاورة. . .) فيقول سيد قطب: (. . . إن المرحوم الرافعي لم يكن يمد أذنه وراء كل حديث كما يعرف من يعرفه؛ ولم تكن هذه الحاسة من أدواته في التنبه والتأمل، فكان من

(الصدق) ألا تذكر دون أن يضيره هذا أو يعيبه، إذ كان هذا مما لا يعاب. .)
فالأستاذ الأديب الناقد سيد قطب الأخصائي في اللغة، لا يفهم من كلمة (يمد أذنه وراء كل حديث) إلا معنى السماع بالأذن؛ وإذا كان الرافعي معطَّل الأذن لا يسمع فان هذا التعبير ليس من الصدق في الرواية. وذلك هو المذهب الجديد. . .
ويبقى بعد ذك قوله تعالى: (يد الله فوق أيديهم) فتكون دلالته عنده على معنى من معنيين: أن لله يداً، أو أن ذلك ليس من (الصدق) في تعبير القرآن. . . وأستغفر الله العظيم. .!
وقال لي قائل من صحابتي: (إنك لتتعسف في هذا التفسير وفي تطبيقه على المذهب الجديد)؛ وإنك (لمعذور في هذا الجهل لأنك لم تختلط بالعقاد أولاً، ولأن نفسك لم تتفتح لأدب العقاد فتفهمه ثانياً. . .!) إن سيد قطب ليس من الجهل بحيث لا يفهم: (يمد أذنه وراء كل حديث) على وجهها؛ ولكنه يعيب عليك في التعبير أن تُعنَى بما سماه (استيفاء الأشكال) وتغض النظر في سبيل ذلك عن (الصدق) في العبارة. . .)
قلت لصاحبي: (لست أفهم ما يعنيه بقوله (استيفاء الأشكال) فما يكون الاصطلاح الجديد؟)
قال: (وأنت معذور في هذا أيضاً، لأنك لا تستطيع أن (تماشي الأستاذ قطب في سموقه) الفكري وفي مبتكراته العلمية التي اثمرتها دراساته الشاملة لكل ما نُقل إلى العربية من الآداب الإفرنجية ومن المباحث النفسية الحديثة ونظريات العقل الباطن والتحليل النفسي والمسلكية، ومن المباحث الاجتماعية والمذاهب القديمة والحديثة ومن مباحث علم الحياء ونظرية دارون ومباحث الضوء وتجارب الكيمياء ونظرية آينشتين والنسبية وتحطيم الذرة ووظائف الأعضاء وو وو)
قلت: (حسبك! إنما أريد أن أعرف معنى (استيفاء الأشكال) وما يقصد بها!)
قال: (ألا تعرف في (البديع) شيئاً يسمونه. . .؟)
قلت: (يسمونه ماذا؟)
قال: (أنظرني حتى أسأل سيد قطب فقد نسيت. . .!)
وحسب سيد قطب أنه جاء بجديد حين جاء بما سماه (استيفاء الأشكال)، ونسي ما سماه علماء البديع منذ كان ابن المعتز؛ ثم نسي ثانية فسماه عيباً لأنه سمع العقاد مرة يعيب شاعراً بالتزام محسَّنات البديع. .
ولكنه مع ذلك (أخصائي) في اللغة التي نعبر بها. . .!
أما بعد فهذا شيء من أشياء تفرق بين مذهبين سماهما الأستاذ قطب؛ وما كان لي أن أعنى بالحديث عنهما إلا لأنبهه إلى وجوب (استيفاء الوسائل) قبل أن ينتدب للنقد؛ وما كان لي أن أعنى بتنبيهه إلى ذلك لولا علمي بأن ذلك يفيده ويجدي عليه، ويعينه على فهم ما يكتب أهل الأدب فلا يتورَّط فيما تورط من الحديث عن فصائل ذات الظفر والناب فيسيء إلى نفسه وإلى صحابته!
وليس يغنيه عن استيفاء هذه الوسائل أن يدعي ويستطيل ويبالغ في الإعجاب بنفسه ليكون أديباً وناقداً له مكان ملحوظ ومنزل مرموق
وإني على ما سائني من صديقي لأرجو أن يقبل نصحي خالصاً لله فيكف عما هو فيه؛ فلقد كشف بهذا الذي يكتب عن أشياء في نفسه لم يكن يعرفها إلا الخاصة من أصحابه. ولقد جلا على القراء كل ما يستطيع أن يجلو من ألفاظ (الطرافة والحيوية، والسموق، ولفتات الذهن، والاستغراق) مما يجعل وراء كل بيت فارغ يحاول أن ينثره من شعر العقاد ليثبت له ما ليس فيه؛ وقد نثر كل ما في كنانته من ألفاظ (الجمود، والاستغلاق، وضيق الفهم) مما يحاول أن يرمي به كل من يعرض له من مناظريه.
فإن سمع أراحنا وأراح نفسه، وإلا فقد علمتُ وعلم القراء ما يدفعه إلى هذه المحاولات؛ فما بي حاجة بعدُ إلى مناقشته والرد عليه؛ ولقد أكرمته من قبل فسكتّ عنه حفاظاً عليه وحرصاً على مودته. وإني لأكرمه وأكرم نفسي من بعدُ بالسكوت عنه حتى يفرغ؛ لعل في ذلك شفاء أو وفاء أو قضاء لحاجة نفسه
والسلام عليه
(شبرا)
محمد سعيد العريان

بين العقاد والرافعي
صرخة مفزوع - 1
ابن الرومي حياته من شعره - 2
للأستاذ سيد قطب
- 10 -
نحن نعتذر لأخينا صاحب (العصور) وناشر (على السفود) ونحس في أنفسنا استعداداً للعطف على صرخته في العدد الماضي من الرسالة!
نحن نعتذر فالظاهر أن الضربة التي ووجه بها كانت اعجل مما ينتظر وآلم مما يحتمل، لأنها خلعت عنه لحية الوقار المستعار وشعار العدالة المصطنع، وقد شاء أن يلوح بهما في عام 1938 فبدا للناس على حقيقته يحلل المر عاماً ويحرمه عاماً، ويدور في التحليل والتحريم حول الأشخاص في الوقت الذي يعيب فيه نصرة الأشخاص!
هذه هي المسألة يا صاحب العصور ونحن نعذرك في المهاترة التي أجبتنا بها، ونعذر أنفسنا إذا وقفنا لحظة على أول درجات السلم في هذه المهاترة، لنرتفع بعدها إلى مستوانا، ونأخذ في القضية الأولى التي تهم القراء
ونحن حين نعتذر إليك عن توجيه تلك الضربة، نعتذر لأنفسنا عن احترامنا لك إلى هذا الحد الذي أوجب البطر، ولو استطعنا من أول الأمر أن نهبط إلى المستوى الذي هبطت إليه في كلمتك الأخيرة لتغير وجه المسألة!
أنت يا سيدي - أولاً - لا تفهم الكلام، ومن هنا كان تفسيرك للجملة التي أقول فيها: (وأننا من أخلص تلاميذ مدرسة هذا الكاتب لطريقته، وأشد الناس فهماً لها، واقتناعاً بها، ونسجاً على منوالها). فهمت منها أن الذي يقول ذلك يكون (طبعة ثانية) للعقاد
وهنا كلام نقوله للناس، وكلام نقوله لك:
فأما كلمتنا لمن يفهمون فان الخلاص لطريقة في الأدب والاقتناع بمذهب خاص، والنسج على منوال مدرسة معينة، لا يعني تقليد شخص معين فقد ينشأ إمام وينشئ له مدرسة، ويكون لهذه المدرسة تلاميذ، ثم يكون لكل تلميذ من هؤلاء طابعه الشخصي ومميزاته
الذاتية، ولا سيما إذا كانت هذه المدرسة هي مدرسة العقاد التي تقوم في أساسها على الدعوة إلى أدب (الشخصية) وتنكر التقليد وتشتط في إنكاره. فمن يخلص لطريقة هذه المدرسة، فإنما يخلص للاستقلال و (الخصوص) والتفلت من القيود والتقليد
وأما كلمتنا لك، فنحن نسلم أننا (طبعة ثانية) من العقاد، فماذا تكون أنت؟. إننا نقول لك: كن أنت - إن استطعت - طبعة ثانية من العقاد أو أي فنان سواه، أو كن - على حد تعبيرك المؤدب - الطبعة التي تتركها في الرمل قدم العقاد تكن خيراً مما أنت الآن عشرات المرات!
وأنت يا سيدي - ثانياً - لا تحترم نفسك. فلقد كنت تقول يوم نشرت كتاب (على السفود) إنك تريد به (مثالا يحتذيه الذين يريدون أن يحرروا بالنقد عقولهم من عبادة الأشخاص ووثنية الصحافة في عهدها البائد). فكانت مسألة نصرة الأشخاص يوم ذاك - على ما تدعي - بعيدة عن غرضك، بل كنت ممن يقاومونها وينشرون هذه الكتب (الساقطة) لدفعها
ثم هاأنت ذا الآن تقول إنك كنت وقتها تناصر شخصاً وأنك تبت مما عملت: (سقت نقدي مساق من لا يبرئ نفسه مما تناول ذلك النقد من رأى أو اتجاه. فلم أخرج ذاتي من مجال النقد الذي سقت، معترفاً بان ذلك رجوع إلى الحق، واطمئنان إلى اتجاه جديد) وتعني بهذا أنك - إذن - ممن كانوا يناصرون الأشخاص على الأشخاص، بينما كنت يومها تبرأ من ذلك.
قلها يا مولانا كلمة صريحة أنت وأمثالك ممن لا يجدون في أنفسهم الشجاعة الكافية لمواجهة من يريدون مواجهته، فيلفون ويدورون، ويتخذون طرائق المرأة في الدفاع والهجوم. قل: أنه ما دامت الشتائم توجه إلى العقاد فهي حينئذ نصرة مذهب على مذهب؛ أما حين تكون مدافعةٌ وردٌّ لهذه الشتائم، فهي - إذن - نصرة أشخاص على أشخاص!
وقل يا مولانا: إنك تحقد على العقاد حقدا دفينا لا سبب له - إذ ليس بينكما منافسة

على أدب ولا موهبة فنية - وأنك لهذا ترحب بشتائم الرافعي له وتطبعها وتروج لها وتسميها علوا عن الشخصيات. وأما حين يقوم (أديب) مثل (سيد قطب) ليكشف عن شنعة هذه الشتائم، وليشرح بعض نواحي أدب العقاد بالقدر الذي تتسع له مجلة، فانك تتألم وتثور حفيظتك فتسمي هذا الشرح وذلك الرد مناصرة للشخصيات؟

قلها يا مولانا واسترح. أراحك الله

قلها ولا تخش (صديقك) العقاد كما عبرت عن العلاقة بينكما قبل العدد الأخير، وأنت تتخاذل وتتضاءل وتدخل بعضك في بعضك، وتدعي صداقة الرجل الذي ثلبته وشتمته، ومهدت لشتمه بأحقر الوسائل.

قلها. ورزقك على الله!!!

أما سيد قطب. فسمه أديبا. سمه باسمه مجردا. فسيظل هو هو الذي أسقط عنك لحيتك المستعارة، وأثارك كل هذه الثورة وكشف للناس عن خبيئة نفسك، وحقيقة آرائك، ثم ها هو ذا الآن يمتحن رجولتك التي لا تثبت على رأي، ولا تواجه الخصوم و (الأصدقاء) بما يقابل به الرجال الرجال. أما أنك لم تفهم ما كتبت، فأين الرومي يقول في هذا كلاماً أحيلك عليه إن كانت لك دراية به!

وقل بعد هذا ما تشاء، فلن اهبط مرة اخرى، ولن اجرف (الرسالة) ولا قراءها إلى حيث تابعناك قليلا في لغة الكلام

أما كلمتي اليوم عن العقاد، فعن كتابه (ابن الرومي. حياته من شعره) وإنما اخترت هذا الكتاب بالذات لأمور:

الأول: ما يدعيه خصوم العقاد من أن الصحافة تساعده، وتشهر مؤلفاته ولا تقبل نقالات النقد التي يكتبها نقاده.

والثاني: أن هذا الكتاب مظهر من مظاهر عبقرية العقاد الفنان والناقد. والبصير بالطبائع والفنون

والثالث: أن فيه تصحيحاً لكثير من النظرات الفنية وشرحاً لكثير مما نتحدث عن من (أدب الطبع)

فماذا كتب في الصحف عن هذا الكتاب الفريد؟

إنها بضع كلمات بين ثناء كالإعلان، أو نقد كالشتائم. وهي في مجموعها لا تساوي ما يكتب عن مؤلف صغير لأديب ناشئ

والحقيقة أن ذلك نصيب كتب العقاد كلها من الصحف، فإذا استثنينا (وحي الأربعين) والمعركة التي دارت حوله وجدنا ما يشبه التعمد في إدارات الصحف للسكوت عن كتب العقاد.

وقد طالما سمعت أصدقاءه يشكون لأن مقالاتهم عنه دفنت في مكاتب رؤساء التحرير!

وتلك ضريبة العظمة التي يسددها العقاد!

وإنه لمن المفزع أن يعقد الإنسان موازنة بين كتاب ابن الرومي وصداه بقوله حتى ليحس إنما ألقى به في موماة تائهة لا حياة فيها ولا إحساس. لا تستطيع إلا العبقرية دون سواها من المواهب الإنسانية أن تخرج هذا المؤلف على هذا النحو.

ولكي نعرف معنى هذا المقال يجب أن نستعرض (ابن الرومي) قبل هذا الكتاب وبعده، ثم نستعرض فهم الأدب والحياة، وفهم الفنون والطبائع قبل صدوره وبعده

فماذا كان ابن الرومي قبل كتاب العقاد عنه؟

إنه كان بضعة أخبار متناثرة في ثنايا بعض كتب الأدب والتاريخ القديمة أغلبها عن طيرته وتشاؤمه، وأقلها عن حياته ومعاشه. بضعة أخبار ضئيلة هب كما قال عنها الكاتب العظيم: (ومثلنا في ذلك كمثل المنقبين في المحفورات، إذ يعترون ببعض العظام المهمشة من جسم مدثور فهم يقيسون المفقود على الموجود، ويصنون بما وجدوه على الضياع، ولو لم يكن به قوام)

وماذا صار بعد كتاب العقاد؟

إنه صار إنساناً حياً، نراه ونأنس به، وندرك خفايا ضميره وخوالج نفسه، ونعرف حركاته وسكناته، ومن ورائها أسبابها وبواعثها، ولم تعد تخفى علينا ملامحه بين الملامح الكثيرة وليس هذا بالشيء القليل، ولا بالميسور لكل كاتب. ولكنه ليس الكسب الوحيد الذي

تخرج به، فقد عرفنا شكل خلقته بمحاسنها وعيوبها، وعرفنا أخباره وسيرته في لبابها، وعشنا معه في داره، ورافقناه في غدواته وروحاته، وعلمنا أسفاره ورحلاته، وشاهدنا ما حدث له من خير وشر، وما لاقاه من نعيم وجحيم

ولم نعرف هذا وذاك وحدهما، فقد تصورنا في لمحات سريعة صورة العصر الذي كان يعيش فيه، بل عشنا في صميم هذا العصر بضع ساعات، ولقينا شخصيات هذا المجتمع، وفهمنا طباعهم الغالبة، وسيماهم الظاهرة والباطنة، وكدنا نكابد ما كانوا يكابدون من تقلب الصروف، وألاعيب السياسة، وأعاصير الانقلابات، وتيارات الدسائس. . إلى آخر ما

يعرفه المطلع البصير من مجتمع يعيش فيه فعلاً، ويدرج بين أهله وعشيرته

وما تستطيع غير العبقرية أن تنفخ الحياة في العظام النخرة بعد أن تكسوها لحماً وتملؤها دماً، وتنفث فيها من الخوالج والخواطر ما يفهمها حساً وفكراً. وما تستطيع غير العبقرية أن تنفخ في ميت العصور روحاً، وتبعث هوامد السنين حية تتحرك وتمر مرها في الفلك ودورات النجوم من جديد

ولكن هذه القدرة الخالقة، لم تقف عند هذا الحد، ولم يكن ابن الرومي ولا حياته، ولا فنونه ومزاياه، هي التي أفادت من هذه القدرة حياة. . بل لم يكن هذا إلا أقل ما في الكتاب من مزاياه

وإنما الميزة الكبرى - في نظرنا - هي البيان العجيب للفن والحياة والبائع الإنسانية، وشرح العبقرية الفنية وحدود النظر للأدب نظرة صحيحة، وتصحيح كثير من الأغلاط الشائعة في ذلك قديماً وحديثاً. بحيث تصلح فصوله أن تكون ديواناً للنقد البصير الحصيف في الأدب العربي، ومقوماً للطبائع والأذهان والافهام، لمن يجد في نفسه استعداداً للإفادة

اسمعه يتحدث عن (عبادة الحياة) في أدب ابن الرومي: (حب الحياة خليقة نادرة، وإن ظن أنها اعم شيء بين الناس وعامة الأحياء، فليس الحب - سواء حب حياة، أو حب شيء من أشيائها - سهلاً رخيصاً يطمع فيه كل من يريد. فمن الناس من يحب الحياة وكأنه مسوق إلى حبها، ومنهم من يحبها كأنه مأجور على عمله، ومنهم من يحبها كأنما يحب شيئاً غريباً عنه؛ ومنهم من يحبها كما (يحب) الحيوان الأعجم ما هو فيه؛ ومنهم من يحبها حب العاشق الذي يختار معشوقه، أو يستوي عنده الحب على القسر والحب على المشيئة، لأنه يريد ما يقسر عليه ويأبى أن يفرض للفراق وجوداً، أو يتوقع لهواه تغيرا، فهو سعيد بأن يحب، وان يسمح له بأن يحب؛ وهو يحب الحياة لأنه حي لا موت فيه، ولا عمل لكل حاسة في نفسه إلا أن تحس وتحيا، وتستجد إحساساً وحياة، ولا تشبع من الإحساس والحياة. وهكذا كان ابن الرومي يعبد الحياة عبادة لا يبتغي عليها أجراً غير ما يبتغيه خلص العابدين. فكان حياً كله لا مكان فيه للموت إلا الخوف منه والتفكير فيه)

وإنك لتقرأ هذا فتعجب لانتباه العقاد لكل ألوان (حب الحياة) وفهمه لأصحاب هذه الألوان وطبائعهم، وتعرف أن ذلك وليد إدمان اطلاع وملاحظة للنفوس والآداب، ولكنك خليق أن

تقدر وراء الاطلاع والملاحظة طبيعة فائقة مستعدة للنفاذ في اطلاعها وملاحظاتها، وفي تقييد ما تلاحظه، وطريقة تقييده كذلك

وما التفت العقاد إلى هذا كله إلا لأنه في خلة حب الحياة كابن الرومي مع الفرق بين طبيعته الصارمة، وطبيعة ابن الرومي المتماوجة. نعم هذا سر التفاته للحياة ومحبيها وطرائق حبهم وطبيعتها. ودواوينه فائضة بدلائل هذا الحب بل العبادة للحياة

ثم يتحدث عن (حب الطبيعة) بمناسبة حب الشاعر القديم لها:

وصف الطبيعة شعراء كثيرون، ولم يمنحها الحياة إلا قليلون! أما الذين منحوها حياة) نحبها وتحبنا، ونعطف عليها وتعطف علينا، ونناجيها وتناجينا، فأقل من هؤلاء القليلين.

وذاك أن الشاعر قد يؤخذ بأحمرها وأبيضها وأصفرها وأخضرها، ويفتن بما فيها من الزراكش والأفانين، ثم لا يعدو بذلك أن يمدح شيئاً قد يجد مثله في ألوان الحلي وأصباغ الطنافس ونقوش الجدران. أو نحن نخطو وراء ذلك خطوة فنقول: إنه لا يعدو بذلك أن ينظر إلى دمية فاتنة، يروقه منها وجه مليح، وقوام ممشوق وحسن مفاض على الجوارح والأوصال ولكنه لا يتطلع منها إلى عطفن ولا يفتش فيها عن طوية.

وقد يستريح الشاعر إلى الطبيعة لأنها ظل ظليل، ومهاد وثير وهواء بليل، وراحة من عناء البيت وضجة المدينة، فلا يعدو بذلك أن يستريح إليها كما تستريح كل بنية حية إلى الماء والظل والهواء. كذلك تهجع السائمة في المروج وكذلك تهتف الضفدع في الليلة القمراء.

وقد يمنحها الشاعر حياء من عنده، أو من عند الخرافات والأساطير، فإذا هي حياة بغيضة لا تصلح للتعاطف والمناجاة، ولا يصدر عنها إلا الفزع والإحجام، ولا تقوم بينه وبينها إلا الحواجز والعداوات.

أما الطبيعة التي تحب وتناجي، ويتم التعاطف بين الشاعر وبينها عن ثروة غزيرة من الشعر والشعور فهي طبيعة الحور الخافقات في الهواء، والعرائس السابحات بين الأمواج، والعذارى الراقصات في عيد الربيع، والجنيات الهامسات في رفرفة النسيم ورقرقة الغدير وحنين الصدى وحفيف الأغصان، وإن شئت فقل: إنها هي الطبيعة العامرة بما في البروق والرعود والسموات والأعماق من بطولة وعظمة ونضال جياش بالغضب الظافر والسطوة

المجيدة والخطر المثير والشجاعة التي تقدم ولا تحجم وترجو ولا تخاف، أو إن شئت فقل: إنها هي الطبيعة التي تبث الأغراء في كل شيء حتى ليحذر الملاح لجة البحار مخافة أن تستهويه بنات الماء من وراء زرقة الأمواج فيثب إلى أحضانها وكأنما يثب إلى أحضان عروس طال بها عهد الغياب

فعلى هذا النحو تتجلى الطبيعة للعبقرية التي تحبها وتمنحها الحياة فليست هي دمية ولا حلية، وليست هي مروحة للهواء ولا مجلسا للمنادمة، ولكنها قلب نابض وحياة شاملة ونفس تخف إليها وتأنس بها، وذات تساجلها العطف وتجاذبها المودة، ثم هي عماد لا خواء فيه، وأسرة لا تبرح منها في حضرة قريب يناجيك وتناجيه، ويعاطيك الإخلاص وتعاطيه

وقد كان ابن الرومي يحب الطبيعة على هذا النحو ويستروح من محاسنها نفساً تتصبى الناظر إليها وتتبرج له (تبرج الأنثى تصدت للذكر) ويرى وراء هذه الزينة التي تبدو على وجهها عاطفة من عواطف العشق تتعلق بها العفة والشهوة تعلقها بالعاطفة الإنسانية الشاعرة)

هكذا يتحدث العقاد عن (حب الطبيعة) بالطاقة التي تحدث بها عن (حب الحياة) وبالشرح الوافي الذي تجده هناك

وليس من المصادفات أن يكون العقاد نفسه من محبي الطبيعة فهو إن لم يكن من طراز ابن الرومي، فعلى طراز يتفق وإياه في الأساس، ويختلف حين يكون حب العقاد ممزوجاً بالفلسفة، والوعي الفني لما يخالط نفسه من هذا الحب، وهو في هذا يتفق مع طبيعته، ويسير مع اتجاهه الخاص في حياته وتفكيره

ثم اسمعه يتحدث عن (التشخيص والتصوير) في ابن الرومي: (القريحة المطبوعة على إعطاء الحياة، مطبوعة كذلك على إعطاء الشخوص، أو على ملكة التشخيص ولكننا نحب أن نستثني هنا ذلك التشخيص الذي تلجأ إليه ضرورة اللغة وتسهيل التعبير، مع المتكلم بما في كلامه من المجاز والمفارقة، فقد يتكلم الشاعر أو غير الشاعر عن الشمس بضمير المؤنث وعن القمر بضمير المذكر،، وقد يسند إليهما أفعال الأحياء العاقلة وغير العاقلة، ولكنه بعد تعبير لفظي ليس وراءه تصور، وليس وراء التصور - إن كان - اثر من الشعور، ولا سيما الشعور المتبادل بين طرفين متعاطفين وإنما المقصود بالتشخيص تلك الملكة الخالصة التي تستمد قدرتها من سعة الشعور حيناً أو من دقة الشعور حيناً آخر. فالشعور الواسع هو الذي يستوعب كل ما في الأرضين والسموات من الأجسام والمعاني فإذا هي حية كلها لأنها جزء من تلك الحياة المستوعبة الشاملة؛ والشعور الدقيق هو الذي يتأثر بكل مؤثر، ويهتز لكل هامس ولامسة، فيستعبد جد الاستبعاد أن تؤثر فيه الأشياء ذلك التأثير، وتوقظه تلك اليقظة، وهي هامدة جامدة صفر من العاطفة خلو من الإرادة. وهذا الشعور الدقيق هو شعور ابن الرومي بكل ما حوله وسبب ما عنده م قدرة الأحياء وقدرة التشخيص: قدرة التشخيص التي هي ملكة مقصودة تكون عند أناس ولا تكون عند آخرين، وليست قدرة التشخيص التي هي حلية لفظية تلجئنا إليها لوازم التعبير ويوحيها إلينا تداعي الفكر وتسلسل الخواطر)

وعلى هذا النحو البارع يمضي العقاد في تصوير ملكات ابن الرومي مستطرداً إلى بحث كامل في الملكات عامة، يبين صحيحها من زائفها، ويكشف عن وشائج هذا بذلك مستلخصاً الصحيح من النظرات، ممحظاً خالصاً

وبمثل هذه البراعة يحلل الأمثلة التي يستعرضها من شعر ابن الرومي، ويكشف عن نواحي القوة أو الضعف فيها؛ فإذا الرجل شاخص وراء هذا التحليل، تطالعك نفسه كالصفحة المبسوطة تحت المجهر الدقيق

هذه ومضات عن ذلك الكتاب الذي ظن أحد الكتاب عندنا أنه يمنحه أقصى حقوقه حينما قال عنه: (لو تقدم به صاحبه إلى أية جامعة لمنحته الدكتوراه!)

!هه! الدكتوراه

ومن يكون الأساتذة الذين يناقشون هذه الرسالة إذن ولمن يمنح (كرسي الأدب) في أية جامعة من جامعات الدنيا إذ ذاك؟

(حلوان)

سيد قطب

بين الرافعي والعقاد

القديم والجديد

نقد وتحليل

للأستاذ محمد أحمد الغمراوي

- 1 -

لعل من أسوأ سيئات عصور الانتقال ظاهرة التمرد التي تغلب على الناشئين فيها، فقد كان الناس قبل أن يبتلوا بعصر الانتقال هذا يرجعون فيما يختلفون فيه إلى أصول مقررة تستند إلى ما يسلمون به جميعاً من دين، أو عرف مستمد من دين، أو إلى أدب عريق تحددت أحكامه وتبينت معاييره ورسخت أصوله على طوال القرون. فلم يكن صغير يخرج على كبير في تحديد ما ينبغي، ولم يكن ناشئ يتطاول على أستاذ فيما يعلم أنه ناشئ فيه وإنه حديث العهد به. فكان الصغير إذا خالف في سلوكه رأى الكبير يخالف وهو يعرف أنه مخطئ، ولم يكن ناشئ مبتدئ في الأدب أو غير مبتدئ يخطر بباله - إذا لم يقتنع برأي أستاذه أو من هو في منزلة أستاذه في اللغة أو في الأدب أو في الدين في مسألة بدا له فيها رأي خاص - أن يعيب أستاذه أو يثلبه أو يصغره أو يحاول أن يعرضه لسخرية الناس. وكان الكبار إذا اختلفوا يتحاكمون إلى ما أجمعوا على التسليم به من الأحكام والأصول. فلم يكن الخلاف في المقاييس ولكن في طريقة القياس؛ لم يكن في القواعد ولكن في التطبيق. فكانوا سرعان ما ينتهي خلافهم إلى اتفاق إن كانوا ممن يبتغون الحق للحق لا للشهوة، أما الذين تأخذهم العزة بالإثم فلا ينزلون على حكم الحق وإن وضح فأولئك في كل عصر هم مصدر الشقاق والفراق، سواء أكان العصر عصر استقرار في المعايير أم كان فيها عصر اضطراب يشبه الفوضى كعصرنا الذي نعيش فيه

كان الأمر كذلك وكان الناس في راحة من أجل ذلك. كان يكفي أن يحتج أحد المتناظرين لرأيه بآية كريمة أو حديث شريف أو رواية في اللغة ثابتة تشهد لأحد الرأيين حتى ينزل صاحب الرأي الآخر على رأي الأول من غير أن يجد في نفسه غضاضة، لأنه في قرارة نفسه يعرف انه نزل على حكم الآية أو الحديث أو الرواية الصادقة، وهذه عنده أحكام

يجب أن تطاع وأصول يجب أن تتبع، والغضاضة كانت عنده والهوان في مخالفة تلك الأحكام والأصول بعد أن وضح له وجه الحق منها، لا في مخالفتها نزولا على حكم الهوى والشهوة. وكان الأمر في ذلك كله مداره الدين وعلمُ المرء أن الله سائله عن الحق لَم لمْ يتبعه وقد وقر في نفسه، وعن الباطل كيف اتبعه وليس به الحق رغم ضميره ورغم قلبه. فكان هذا الوازع الداخلي حاملاً على الحق صارفاً عن الباطل حق الضعف في الناس على الأخص بفشو هذا التجديد الذي يستمد كل قوته من جلال الغالب في نفس المغلوب

ومسألة القديم والجديد عمرها لا يكاد يزيد على ثلاثين عاما أثارها في الناس نفر تثقفوا ثقافة غربية من غير أن يكون لأكثرهم من الثقافة الإسلامية نصيب مذكور. والغرب والشرق على طرفي نقيض لا يلتقيان كما يقول رديارد كبلنج، وإن كان من

الممكن أن يلتقيا في العلم الذي هو مفخرة الغرب والذي هو جزء من الإسلام الذي يدن به الشرق. لكن الذي أثاروا مسالة القديم والجديد لم يكونوا يعرفون، ولعل أنصارهم لا يزالون يجهلون أن العلم الذي ظهر به الغرب هو في الإسلام جزء من الدين، وأن المدنية الغربية ليس فيها ما يستحق أن يطلب ويؤخذ إلا ذلك العلم الطبيعي الذي اهتدى إليه الغرب بالعقل والتجربة، والذي يمثل فطرة الله التي فطر عليها الأشياء. أما فطرة الله التي فطر عليها الناس فتلك يمثلها الإسلام عن يقين فكأن الغرب والشرق قد اقتسما علم الفطرة: عَلِمها الغرب في الماديات بالعلم والتجربة وعلمها الشرق في الروحانيات والاجتماعيات بالدين والوحي. فكان الشرق مخطئا حين لا يأخذ بعلم الغرب، وكان الغرب ضالا حين يخالف الإسلام كما أنزله فاطر الفطرة على محمد عليه الصلاة والسلام. وكان سبيل الكمال لهما معا وللإنسانية أن يجتمعا على العلم والدين، علم الغرب الطبيعي ودين الشرق الإسلامي، فيجتمع لهما بذلك علم الفطرة ونظامها في المادة والروح. وكان هذا أيضاً هو سبيل التجديد الصحيح لمن يريد أن يكون مجدداً مصلحاً، يجدد للشرق شبابه ومجده من غير أن يعرضه لشر ما يهدد الغرب من أخطار. وهذا هو السبيل الذي دعا إليه جمال الدين الأفغاني وسار على آثره فيه محمد عبدة. لكن دعاة التجديد الذين جاءوا بعدهما ممن لم يكن لهم مثل علمهما ولا بصرهما بالإسلام ضلوا سبيل الدعوة وصدّقوا الغرب في ظنه الذي ظن بالإسلام من أنه كان سبب تأخير الشرق. ولما لم يطيقوا أن يهاجموا الإسلام مواجهة

فيدعوا الناس صراحة إلى نبذه، عمدوا إلى مهاجمته مداورة بدعوة الناس إلى قبول كل ما عليه الغرب إن كانوا يريدون أن يكون لهم ما للغربيين من قوة وحياة. وزعموا للناس أن المدينة الغربية كل لا يتجزأ، فأما أن تؤخذ كلها أو تترك كلها، إما أن تؤخذ باجتماعياتها وأدبياتها وعلمياتها وإما لا يؤخذ منها شيء. فوقع الناس بهم في مصيبة طامة وفتنة عامة لأن الناس يلمسون قوة الغرب ويريدون أن يكون لهم مثل قوة لينجوا مما هم فيه من رقه واستعباده. فإن كان حقاً ما يزعمه لهم دعاة التجديد الغربي من أن لا سبيل إلى ذلك إلا بأخذ المدينة الغربي بحذافيرها فليس لهم فيما يبدو مفر من ذلك ولو كان في ذلك خروج على الإسلام. ونجحت حركة الالتفات التي قام بها دعاة الغرب ضد سلطان الإسلام في نفوس من أصغى إليهم من الناس حين ألجئوهم إلى أن يميزوا أنفسهم ذلك التمييز بين الإسلام وبين القوة والحياة، من غير أن يتعرض أولئك الدعاة في سبيل ذلك الخطر الذي كانوا تعرضون له من غير شك لو أنهم دعوا الناس مباشرة إلى نبذ الإسلام. وأصبح الذين أصابتهم فتنة ذلك التجديد كمن أحاط به العدو لا بد له من الموت أو التسليم، أو كمن وجد نفسه مضطراً إلى الاختيار بين قتل ولده وبين الحياة. ولقد كان سهلاً على من وقف هذا الموقف من الناس أن يفك عن نفسه ذلك الحصار ويخرج من ذلك الاضطرار الوهمي لو أنه كان يعرف حقيقة دينه وتاريخه حتى صدر الخلافة الراشدة على الأقل، لكن أولياء أمور المسلمين عفا الله عنهم وتداركهم بهدايته وتسديده كانوا ولا يزالون يهملون تعريف المسلمين بدينهم، وتنشئ أبنائهم وبناتهم في الروح الإسلامي بالتربية الإسلامية. ومن هناك كان المسلمون عوناً لعدوهم على أنفسهم. ومن هناك كان كل ما أصاب أولئك (المجددون) من نجاح، وما يهدد الإسلام في بلاده وفي نفوس أهله من خطر. ومن هنا أيضاً هب لدرء هذا الخطر فريق من المجاهدين المحتسبين الذين آتاهم الله فقهاً في الدين وقوة في الجنان وبسطة في البيان، وفي طليعة هؤلاء كان الرافعي رحمة الله عليه فالمسألة بين القديم والجديد كما يسمونها ليست مسألة اختيار بين أدب وأدب وطريقة وطريقة، ولكنها في صميمها مسألة اختيار بين دين ودين. فالذين يسمون أنفسهم أنصار التجديد يؤمنون بالغرب كله ويريدون أن يحملوا الناس على دينهم هذا ولو خالف الإسلام في أكثره. والذين يسميهم هؤلاء أنصار القديم يؤمنون بالإسلام كله وبالقرآن كله ويأبون أن يؤمنوا ببعض ويكفروا

ببعض، أو أن يدينوا للغرب مؤمنين به من دون الله. وكل الخلاف بين أنصار (القديم) وأنصار (الجديد) منشؤه هذا ومرده إلى هذا. هؤلاء مثلاً يريدون متابعة الغرب في السفور والاختلاط لينعموا بالحب! كيفما شاءوا، وأولئك يرون السفور والاختلاط مفسدة أي مفسدة لأن الله وهو أعلم بخلقه نهى عنهما في الكتاب. هؤلاء يريدون

متابعة الغرب في ألا يتزوج متزوج إلا واحدة، وأولئك يرون إباحة تعدد الزوجات لأن الله سبحانه أباحه في الكتاب. هؤلاء يريدون التسوية بين الذكر والأنثى في كل شيء ظناً منهم أن الغرب يسوي بينهما، وأولئك يرون غير ذلك فيما لم يسوّ الله بينهما فيه في الكتاب. هؤلاء يرون الإسلام ديناً عربياً أنزل للعرب ولا يلائم إلا العرب، وأولئك يعتقدونه دين الإنسانية الكامل أنزل للناس كافة بما يضمن صلاح الناس كافة غير متقيد بزمان ولا متخصص بمكان كما نص الله عليه في القرآن وكما يتجدد عليه في كل عصر البرهان

ثم أنصار (الجديد) يضيقون ذرعاً بالقيود الأخلاقية التي قيد الدين بها الناس فيما يعملون وفيما يقولون، ويريدون أن يتحللوا منها فيزعموا للناس أن هذه الأخلاق وقيودها إن هي إلا عرف وتقاليد، وإن التقيد بالعرف والتقاليد في الفن والأدب يعوق الفن ويحول دون ترقي الأدب، فيجب إذن إطلاق الفن وتحرير الأدب من تلك القيود. ومن هنا نشأ خلاف آخر بين الفريقين نقل العراك بينهما من ميدان الاجتماع إلى ميدان الأدب. فأنصار الجديد يدعون إلى الفن العاري والأدب المكشوف ويّدعون للفنان والأديب حرية في القول والفعل لم يأذن الله فيها لإنسان، وأنصار قديم الإسلام يدفعونهم عن هذا ويحدون حرية الفنان والأديب بما حد الله به حرية كل إنسان من قيود الدين والأخلاق وإلا عمت البلية بالأدب وصار شراً ووبالاً على الناس. وأتسع الخلاف وتشعب بين الفريقين. بمضي أنصار الجديد الغربي في توهين السد الإسلامي الذي يجدونه قائماً في وجوههم أينما تلفتوا فيزعمون للناس من طرف خفي أن القرآن من صنع عبقري لا من صنيع الله، وأنه آية فنية لكنه آية فنية إنسانية لا معجزة إلهية، وإذن فينبغي أن يخضع لما يخضع له كل عمل إنساني من النقد والفحص والبحث العلمي فيما يزعمون، ويهب لدرء هذا الإفك العظيم كل كريم نجد من رجال الأدب أو غير رجال الأدب من المسلمين، ويقاتلونهم على إعجاز القرآن وحرمته وتقديسه، ويدعونهم إلى خطة إنصاف ليس من إنصاف بعده: إما أن يتركوا القرآن وشأنه لا يتعرضون له بشيء إن كانوا لا يؤمنون به، وإما أن يذكروه ويدرسوه إذا قدروا على دراسته، ولكن بنفس روح الاحترام والاحتياط والإجلال الذي يدرس به العلماء الشمس والنجم والبحر وما إليها من الظواهر الكونية الثابتة التي لا يد في خلقها للإنسان. وهي كما ترى كلمة سواء غاية في الإنصاف، لو كان لدى أنصار الجديد الروح الذي يقضي بقبولها لما كانت هنالك تلك المرارة في القتال التي جلبها عدم قبولهم شطر الكلمة الأول، ولاصطلح الفريقان وتحابا واجتمعا على التجديد الحق في الأدب وغير الأدب لو أن أولئك قبلوا شطر الكلمة الثاني. وإذن لما كان هناك أنصار جديد وأنصار قديم، ولكن فئة واحدة من المجددين المصلحين الذين يعملون بالحق للحق ضمن دائرتي العلم والدين اللتين يشملهما الإسلام جميعاً

إن من اشد ما يؤسف له أن تفترق قوة أولى القوة في الشرق هكذا فرقتين، إحداهما تهدم والأخرى تدفعها عن الهدم، فيشغل الفريقان جميعاً عن التجديد والبناء وعدوهما واقف لهما بالمرصاد. لكن التمني لا يجدي والواقع هو الواقع. فستستمر المعركة بين أنصار جديد الغرب وأنصار قديم الإسلام كأشد وأحمى ما تكون حتى يقضي الله بينهما حكمه. ومهما يكن من ذلك فالموقف بين الفريقين هو في صميمه كما صورنا. وعلى أساسه يمكن النقد في غير كبير عناء أن يضع الأمر بينهما في نصابه فيما كان وفيما يجد من خلاف. وسنضرب فيما نستقبل من الكلمات مثلاً لذلك بتبيين وجه الحق فيما احتدم حول أدب الرافعي رحمه الله من جدال.

محمد أحمد ألغمراوي

بين الرافعي والعقاد

على هامش المعركة

للأستاذ محمد رفيق اللبابيدي

سيدي الأستاذ محرر الرسالة

كتب الأخ الصديق الأستاذ الطنطاوي في معرض التعليق على ما يكتبه الأخ الصديق والزميل الأستاذ سيد قطب. وآثر أن يشتد فيما كتب وأن يسرف في سوء الظن فيما يكتبه الأستاذ قطب.

وبيني وبين الأستاذين الطنطاوي وقطب من الدالة ما يسمح لي أن أقول كلمة في

الموضوع الذي بسطا القول فيه، ومن حقي كزميل للثاني عرفه حق المعرفة أن أرد على أخي الطنطاوي برفق قوله: إنه لا يعرفه وإنه الخ. . . فلقد سبق أن عرف الأستاذ الطنطاوي الأستاذ سيد قطب وزامله أيضاً حين كنا ثلاثتنا في فصل واحد وفي سنة واحدة من مدرسة دار العلوم العليا، على أني لست بسبيل تقرير هذه المعرفة فهي ليست بشيء في الموضوع الذي أريد أن أقول كلمتي فيه

كنت قبل أن يكتب الأخ الطنطاوي أوشك أن أكتب في موضوع الخلاف بين الأساتذة العريان وشاكر وقطب، وأنا أعرف رأي الأخ قطب في الرافعي من قبل، وأعرف أنه رأي (غير تقليدي، فلقد كنت في دار العلوم وكانت حلقة الأخوان تضم قطباً وكنا دائماً على طرفي نقيض، فجماعة منا مع الرافعي وأخرى عليه، وكان على ما أذكر الأخ قطب لسانها، فليس حقاً أن يتهم الأستاذ قطب في رأيه هذا، فهو رأي العقيدة - وإن كنا نخالفه فيها كل المخالفة - ثم أن الأخ قطباً من إخواننا النابهين المعروفين في البيئة الأدبية، وليس من العدل أن يجهل هذا الجهل ويرميبهذا النبز من القول الذي جاء في مقال الأخ طنطاوي.

وإذا كان خطأ مناظرك في الرأي مدعاة للتجهيل والوقوع فيه وفي فضله وفي علمه فلم يبق ثمة مجال للجدل والنقاش الأدبيين، وهنا اتهام صريح للرسالة ومحرر الرسالة في إفساح المجال لمن لا يعبأ بقوله أو رأيه. وأعتقد أن الأخ الطنطاوي على قدري إياه كل التقدير وإعجابي به كل الإعجاب قد تنكب أصول النقاش والنقد في الأدب في الوقت الذي يتهم

سواه بهذا الجنوح. . .

بعد هذا نحب أن نلج موضوع النقاش من بابه ولا نثب من النافذة، فالأستاذ سيد قطب على ما نعتقد ونرى وعلى ما يتسع له علمنا واطلاعنا لم يوفّق بعض التوفيق في رأيه في فقيد الأدب العربي المرحوم الرافعي، كما أنه لم يوفق ولا بعض التوفيق في نفاحه عن الأستاذ الكبير العقاد

وأصوله وقواعده التي اتجه إليها في كتابته في هذه الموازنة على تسامحنا بهذه التسمية ليست أصولَ الملمْ بأدب من وضعهما في كفتى الميزان الفني. فلا هو يستطيع أن يقول: إنه قرأ كتب العقاد جميعها - على ما يذهب إليه من وجوب اجتماع أكثر من ثقافة واحدة لفهم ما يكتب أو يقول الأستاذ العقاد - ولا هو يطيق أن يقول أيضاً: إنه قرأ الرافعي قراءة المستوفي المستكمل

والأخ الأستاذ سيد قطب معي في أن ما تناوله من أدب الرافعي غيض من فيض، ولعله جنحإلى ما يمكن أن يوقع فيه واختاره ليقول فيه قول الذي قال، وما يمكن أن يقال في مثل هذا من شعر الرافعي يقال في مثل هذه القصيدة التي أضعها بين يدي القراء من شعر العقاد، قال الأستاذ من قصيدة يعارض فيها ابن الرومي:

هل يعرف البيضُ أن الحسن جوهرة ... لها الثراءُ ثراءُ النفس أثمانُ
يقنو نفائسه من لا يسوّمه ... وقد يعز على اللّآل قنيان
يا جوهراً بت أرعاه على أمم ... رعى الشحيح ومالي فيه سلطانُ
ما في يدي منه لا عينٌ ولا أثرٌ ... ولى عليه مغاليقُ وأعيانُ
قد نلت ما نلت من حظ به عرضاً ... وقد تولى فحظي منه فقدان
إني على الرعي من عينيك مفتقرٌ ... يا ضوء قلبي فان القلب مِدْجانُ

وحسبي أن أسأل الأستاذ قطباً رأيه فيها دون أن يكون مني أي تعليق. . .

بعد هذا فالحق أن الأستاذ العريان كان منصفاً كل الإنصاف فيما يؤرخ به حياة الرافعي - رضوان الله عليه - وليس معنى هذا العصمة من كل خطأ، وأيُّ الكاتبين كامل؟؟ ومن الحق أن الأستاذ قطباً تقحم الموضوع على الأخ العريان وأراد أن يثير بين أنصار الرافعي وأنصار العقاد، والفريقان كثر، معركة أدبية لعل من الخير لو ثارت على غير هذا

اللون من البحث، والجدلُ البعيد عن الأثرة يفتق القرائح، وربما جاء بخير كثير وأفاد منه النشء والبيئة الأدبية، ولربما كشف عن مواهب كانت مستورة، وعلم كان خبيئاً، وفضل لم يكن يعرفه القراء

وقد قرأت ما كتبه الأستاذ قطب في نقده فوجدت ألمعية واستعداداً ذاتياً وقوة وبراعة واتساع أفق، ولكني لم أجد في تضاعيف هذا كله الحجة التي تقنع أو تمسح ما في

نفسي مما قرأت لها من أدب الرافعي وأقرأها إياه الكاتبون في أدب الرافعي والرافعي - أحسن الله للأستاذ الزيات - كان كنزاً مخبوءاً في نثره كشفته الرسالة لقراء العربية عامة بعد أن كان معروفاً عند الخاصة في كتبه وفي نتف من بيانه الذي كان يتناقله الأدباء من هنا وهنالك

وقد يجوز للأستاذ قطب أن ينكر ناحية من نواحي أدب الرافعي وأن يدلل على ذلك بقوة، ولكن لا يجوز في منطق سائغ أن ينكره أدبياً على الإطلاق

كما يجوز لي - على صغري وضيق أفقي - أن أنكر شاعرية العقاد إنكاراً أود لو يتسع لي المجال من فسحة هذا العمل الآلي لأبرهن عليه بما يسعني من حجة أو تدليل، على أن إنكاري هذا ليس بضائر فضل الأستاذ العقاد وهو في رأي الكاتب الناثر الجبار في عمق مادته وسعة اطلاعه وغزارة ثقافته

أما أن أثب وثباً منقطع النظير فأنكر العقاد أدبياً وأتجاهل رأي الكثرة الكاثرة من قرائه وأصحاب الرأي الحسن فيه فذلك مما لا يقفني موقف المسموع الرأي عند أهل البصر في الأدب

وقرأت للأخ قطب مقاله الأخير ومحاولته أن يجعل من قصيدة الأستاذ العقاد في الجيبون دائرة معارف ثقافية ففيها من كل علم ومن كل فكر، فهل لو صح هذا كان شعراً. والشعر من الوجدان وإلى الوجدان وماله وهذه اللفتات إلى ما هو عميق متكلف؟

وهل لو صح هذا الوزن لشعر الشراء واصطنعنا هذه المقاييس التي يتفضل بها الأستاذ قطب نكون قرّبنا الشعر من الطبيعة الصادقة والفطرة السليمة ولذوق الذي لا تشوبه شائبة النظريات العلمية القلقة. . .

اللهم لا، ثم لا. وللحديث رجع إن شاء الله

(حيفا - فلسطين)

محمد رفيق اللبابيدي

المدرس بمدرسة حيفا الثانوية الأميرية

الفروسة العربية

للأستاذ جميل قبعين

- 1 -

محاضرة قيمة ألقاها الميجر كلوب قائد قوة البادية في شرق الأردن بتاريخ 25 تشرين ثاني سنة 1936 في الجمعية الأسيوية الملكية في لندن ونشرتها مجلة الجمعية في عدد يناير سنة 1937

تحمل كلمة الفروسية معاني مختلفة في إنكلترا وتوقظ في أذهان الكثيرين منا شعوراً مبهماً وانطباعاً خيالياً عن فرسان بأسلحتهم اللامعة وملابسهم الجميلة الجذابة، وقد نستعمل هذه الكلمة في كثير من الأحيان للدلالة على احترام المرأة، ولكن إذا ما رجعنا إلى الحقيقة وجدنا هذا الاتجاه في التفكير في الفروسية سطحيا وخيالياً لأن الفروسية نشأت وانتشرت كنظام خاص في الحياة عند بزوغ فجر المدينة. ولكي أوضح ما أقصد باستعمال كلمة الفروسية يجب أن أرجع بكم إلى العصور الخالية.

عندما كانت موارد الرزق تنحصر في الزراعة وتربية المواشي، وكان الإنسان في إنكلترا وأوربا على العموم يستطيع أن يجمع بين العملين معا لأن جو هذه البلاد الرطب كان يهيئ كثرة الكلأ وخصوبة المرعى، ولذلك كان بإمكان المزارع أن ينصرف إلى أعمال الحرث والحصاد، وفي نفس الوقت يقتني المواشي التي ترعى بالقرب من مزرعته لكثرة الأعشاب. ولكن تطبيق هذه الطريقة في تنظيم العمل كان متعذراً في القارات الأخرى وعلى الأخص آسيا وأفريقيا حيث تقل الأمطار وتعاني مساحات واسعة منها المحل والجفاف لقلة سقوط الأمطار وبطبيعة الحال تقل المراعي وتبعد المسافة بينها - ولذلك كان المزارع الذي لا يتمكن من ترك حقله غير واجد مرعى لأغنامه. وهكذا كان الجمع بين الزراعة والرعي غير ممكن. ولذلك بقي سكان تلك البلاد ألوف السنين منقسمين إلى قسمين متباينين الرعاة والمزارعين أو البدو والحضره وهكذا أوجدت طريقتا المعيشة بينها

تباينا في الأخلاق وتباعدا في المجتمع فتأصل العداء.
قد يستغرب الرجل الإنكليزي في هذه الأيام أن يجد عندما يزور البدو تشابها عظيما بين عاداتهم وبين عادات الفرسان الأوروبيين في العصر الإقطاعي، ولهذا ترون أنني استعملت كلمة (الفروسية) عنواناً لمحاضرتي.
وقد يكون غريباً أن تعلموا أنه لا توجد كلمة في اللغة العربية للدلالة على الفروسية كنظام خاص مع العلم بأننا نرى البدو يعيشون بروح فرسان القرون الوسطى، والسبب في ذلك أنهم لا ينظرون إلى نظام معيشتهم كنظام يمكن درسه بل كحياة طبيعية ولما كانوا لا يعرفون القراءة لم يتمكنوا من درس أنظمة غيرهم من الأمم، ولهذا لم يجدوا ضرورة لإيجاد اسم خاص لطريقتهم. في الحياة. ولو وصفت الصفات المميزة للفروسية لمزارع أو حضري من سكان هذه البلاد لأجابك على الفور أنك تتكلم عن حياة البدو. وعليه فإني أرجو من حضراتكم أن تبعدوا المعنى الخيالي الذي يتصل بكلمتي الفروسية والفرسان لأني أعني باستعمال هذه الكلمة عادات البدو أي نظام الحياة اليومي ونظام الحكم الديمقراطي بينهم.

حياة البدو والمزارع

يمكننا عند دراسة أخلاق وطباع البدوي والمزارع أن نبدأ بدراسة وجهة نظر كل منهم نحو الحرب. تنحصر كل ثروة المزارع في مسكنه وحقوله وأشجاره فإذا ما سلم أملاكه إلى عدو يصبح على الفور جائعاً متشرداً، وهذه النتيجة المنتظرة تجبره على الاستماتة في الدفاع إذا ما هوجم، وفي نفس الوقت نرى أن الزراعة عمل مستمر يستوعب كل أوقات الفصول الأربعة بحيث لا يبقى له وقت يقضيه بالسفر والتنقل بحثاً عن المغامرة، ولذلك تجده يدافع دفاع المستميت دون الاهتمام بقواعد الحرب أو بتطلب المجد الشخصي، وحالة المزارع هذه تقوده إلى أن ينظر إلى الحرب نظرة الكراهية، فإذا ما هوجم ترى أن همه الأول أن ينتصر بأسرع ما يمكن بطرق شريفة أو غير شريفة، وبما أن غرضه الأسمى هو الدفاع لا المجد، وبما أنه يقطن في القرى نراه يفرض على كل شخص في المجتمع أن يشترك في الدفاع لكي يضمن السلامة والفوز. وهكذا يمكننا حصر نظرة المزارع إلى الحرب فيما يلي:

1 - الدفاع المستميت
2 - كره المغامرات الحربية
3 - التصميم على الفوز بطرق مشروعة أو غير مشروعة
4 - فكرة خدمة المجتمع

أما نظرة البدوي للحرب فهي على العكس تماماً وذلك لأن ثروة البدوي هي الخيل والجمال والغنم وليست من الأملاك الثابتة كالبيوت والحقول والبساتين، لذلك نراه غير مضطر لمقاتلة عدو إلى الرمق الأخير بل على العكس قد يتمكن من إنقاذ كل أمواله بتقهقر منظم سريع. وعلاوة على ذلك فإن المواشي شيء مزعج في الحرب إذ أنها قد تتشتت أو تذبح ولو كان صاحبها منتصراً في الحرب. كل هذه الاعتبارات تشير إلى حقيقة واحدة وهي أن طريقة البدوي في الدفاع ضد عدو قوي هي التقهقر السريع وليست الاستماتة في الدفاع كما يفعل القروي

وهنا لا يسعني إلا أن أتحول قليلاً من البحث عن الحرب إلى السياسة. إن الفلاح يدافع عن بلدته ويقاتل قتال المستميت دونها ولكنه إذا غلب على أمره خضع واستسلم إلى العدو تمسكاً بقطعة أرض يتركها له غالبوه، وإذا ما سمح له بالبقاء يدفع الضرائب الفادحة صاغراً ويتحمل أنواع الذل والإهانة. أما البدوي فإذا وجد نفسه محاطاً بعدو قوي استكان دون مقاومة وتظاهر بتقديم الخضوع إلى كبير الفريق الغالب حتى إذا ما رأى من عدوه غفلة رحل بسرعة إلى مكان قصي أمين حيث يصبح حراً طليقاً. وهكذا نرى أن البدوي رغم ضعفه في الدفاع ذو نفسية استقلالية تصبو إلى الحرية وهو أوسع حيلة وأعز نفساً واعظم كبرياء من القروي

وفي الهجوم أيضاً تجد البون شاسعاً بين البدوي والمزارع فإن هذا الأخير مرتبط بأرضه وبأعماله المستمرة، أما البدوي فقليل المشاغل كثير الفراغ وهو بسائق فطرته وطريقة معيشته معتاد ركوب الخيل والجمال وتحمل الأسفار البعيدة الشاقة ولذلك كانت المغامرات الحربية موضوع فخر وتسلية له وكانت الشهرة والمجد مطمعه في الحياة، لأن نظرة البدوي إلى الحرب لا تتجه لخدمة المجتمع نراه يتطلب في حروبه

المجد والفخر والقيام بالأعمال العظيمة التي تنيله الشهرة، فالمجد والشهرة هما غايته من الحرب لا سلامة
المجتمع.

إن أساليب الحرب في نظر البدوي أهم بكثير من النصر وكسب المعركة، والمجد بالتسابق بأعمال البطولة على أساليب الشرف هدفه الأسمى في القتال. وقد نشأ عن ذلك أساليب وعادات معقدة ورثنا بعضها فيما نسميه الروح الرياضية. فالبدوي لا يجد من الشرف أن يهاجم رجلاً نائماً أو أقل منه سلاحاً، وهكذا ظهرت تقاليد أهم صفاتها تطلب المجد والشهرة وإثارة روح التقدير والإعجاب في الآخرين بإتباع أساليب الشرف. ولا يجدي البدوي غضاضة في الاعتراف ببطولة العدو إذا كانت أساليب الشرف والاستقامة رائد هذا العدو في الحرب. كما أنه ينظر بازدراء للقروي الذي يحارب بقصد النصر دون التمسك بأساليب الشرف.

توجد ناحية غير مستحبة في طباع البدو الحربية وهي الأنانية والحسد، فالمحاربون البدو يحاربون لإظهار فروسيتهم ورجوليتهم وشجاعتهم الفردية بقدر الإمكان، وقد لا يشعر أحدهم بكراهية نحو عدو بعيد ولكنه ينفجر حاقداً إذا ما نافسه أحد رجال قبيلته بأعمال البطولة وسبقه بالشهرة. قد نرى نحن الأوربيين أن هذا أمر غير مستحب، ولكن الحقيقة أن هذه الصفة كانت من أهم الصفات الظاهرة لدى النبلاء الأوربيين في العصر الإقطاعي ومع أنها صفة غير جذابة ولكنها إحدى صفات الفروسية.

معاملة المرأة

إن الشيء الثاني الذي يميز حياة الفروسية أو حياة البدو هو طريقتهم في معاملة المرأة، فالمزارع مرتبط بعمله المنهك فلا ينتظر منه أن يشجع زوجته على التجمل والراحة في البيت بينما هو يقضي 12 - 13 ساعة يوميّاً في أعماله الزراعية، ولذلك تجد أن نساء المزارعين كن دائماً خشنات المظهر لاشتراكهن في الأعمال الشاقة خارج البيت. ولربما أوجدت حياة المزارع الجافة فيه عقلية خاملة خالية من الجو الخيالي البهيج
ولكن نظرة البدوي إلى المرأة تختلف تماماً عن نظرة المزارع إليها لما ذكر فيما سبق من أن البدوي قليل المشاغل وغايته القصوى في الحياة المجد وإثارة الإعجاب. ومن الطبيعي أن الإنسان عندما يتطلب ميزة خاصة على غيره يتطلب أن تعترف له المرأة بتلك الميزة، وأن إعفاء المرأة البدوية من الأعمال الجسيمة الشاقة المنهكة جعلها تحتفظ بنعومتها
ورشاقتها، ومن الممكن أن فراغ وقتها أعطاها الفرصة الكافية للتزين والتجمل، ولذلك بقيت جميلة مشتهاة أكثر من زميلتها القروية الخشنة.

ينظر القروي إلى المرأة كوسيلة للخدمة والولادة وواسطة للربح. أما البدوي فيرى فيها مخلوقاً يجب العطف عليه والتغني به ويتخذها البدوي حكماً لتقدير أعماله. ومن المفيد أن نذكر أن المرأة البدوية بالرغم من كونها تعامل معاملة أحسن من زميلتها القروية، فإنها لم تكن مساوية للرجل، وأن التقدير والإعجاب اللذين كانا محيطين بها راجعان إلى اختلافهما في التكوين والخلقة عن الرجل - فالرجل كان المحارب والحاكم، والمرأة هي الجمال. إن الفروسية لا تعترف بمساواة الجنسين لأنهما مخلوقان مختلفان والمرأة لم تحاول أن تشارك الرجل في الحكم يوماً. وفكرة مثل هذه كانت غير مستحسنة من الطرفين
مزايا البدو الأخرى

إن طلاب المجد وحب الشهرة خلقا في البدوي مزايا أخرى أهمها الكرم والسخاء. يعتمد البدوي في حياته على قطعانه، وهي بطبيعة الحال عرضة للسلب والفقدان في كل لحظة، وهذه الحال قد تجعل الرجل الغني الوفير الخيرات في القبيلة يصبح فقيراً معدماً في اليوم التالي - وفي نفس الوقت قد يسترجع ما فقد بغزوة ثانية موفقة يقوم بها، ولذلك فإن البدوي يشبه الأموال بالأوساخ العالقة باليد تأتي اليوم وتذهب غداً. إن حياة التنقل المستمر جعلت من الصعب على البدوي أن يحتفظ بكثير من ضروريات الحياة، كما أن حبه للظهور وتعطشه للمجد كان لهما أثر كبير في أعماله القريبة من الخيال؛ فهو مستعد دائماً لأن يبذل كل ما يملك أو يمنح بسخاء جميع ما غنمه في غزوة شاقة خطرة لكي يظهر بمظهر شائق. أما القروي فهو بعكس ذلك

تماماً لأن حياة الشقاء التي يعيشها واستقراره وتمكنه من التوفير أسباب كافية لجعله مقتراً
إن إحدى النتائج التي أجدها الكرم هو حسن الضيافة. وإني لأجد ضرورة لأن أقول بأن كل بدوي يملك بيتاً مفتوحاً أو بالأصح خيمة مفتوحة للضيوف في جميع ساعات الليل والنهار، وتكون الخيمة مقسمة إلى قسمين أحدهما للعائلة والآخر للضيوف. ولقد جرت العادة أن يضيف البدوي ضيفه ثلاثة أيام قبل أن يسائله من أين أتى وما هي مهمته
وهذا الكرم يصل إلى الفقراء من القبيلة، إذ أن من عادات البدو ألا يهملوا شيخاً ولا فقيراً،
ولا يمكن لإنسان يعيش بين البدو أن يموت جوعاً. وكثيراً ما نرى شيخ القبيلة يوزع بعد عيد أو وليمة اللحم والأرز بنفسه أو يرسله إلى بيوت المسنين والأرامل. ويمكننا تلخيص صفات البدو فيما يلي:
1 - السعي وراء الشهرة في الحرب بالقيام بأعمال البطولة والمغامرات الفردية دون الاهتمام بربح المعركة
2 - تقدير المرأة واحترامها لأنوثتها واتخاذها وسيلة للتسلية والتمجيد وإن كان لا ينظر إليها كمساوية للرجل
3 - وجود دافع في البدوي يدفعه إلى القيام بأعمال البطولة والكرم حتى تكون أعماله هذه أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة في أكثر الأحيان
4 - الكرم وحسن الضيافة الحاتميان ويرجع سببهما أولاً إلى عدم الاطمئنان إلى بقاء الممتلكات بصورة مستمرة، وثانياً إلى حب التفوق والمجد اللذين يسعى البدوي إلى تحقيقهما في الحرب أيضاً
ولكي أشرح هذه الصفات الأربع سأستشهد ببعض قصص تصف لنا الفروسية العربية. والقصص التي من هذا النوع أكثر من أن تحصى. وقد أشاد بذكرها الشعراء وامتلأت بأخبارها كتب الأدب وتغنى بها العشاق والمطربون. ولقد كان هذا شأن التروبادور في القرون الوسطى في أوربا، واسمهم هذا مشتق من فعل طرب العربي. وقد كانوا يتجولون في البلاد مثيرين الحماسة برواية قصص الأبطال والأحاديث الغرامية وسأقتصر على بعض القصص والحكايات كما أني سأذكر تجاربي الخاصة.
يتبع
جميل قبعين
ماضي القرويين وحاضرها
للأستاذ عبد الله كنون الحسني
- 1 -
كتب الأستاذ علي الطنطاوي في العدد (236) من (الرسالة) بمناسبة إظلال العيد الألفي للجامع الأزهر يقترح على أبناء جامع القرويين والزيتونة والنجف أن يتحدثوا لقراء (الرسالة) عن شيء من تاريخ هذه المعاهد وما ساهمت به في خدمة الثقافة الإسلامية وفنون المعارف الأخرى، كما سيتحدث أبناء الأزهر في ذلك العيد القريب عن أزهرهم ويقومون بإحياء ذكراه الخالدة المحفوظة في ضمير الزمان ما بقي من يراعي الجميل من بني الإنسان. وذلك لأن كثيراً من الناس يتشوقون إلى معرفة أحوال هذه المعاهد والأطوار التي اجتازتها منذ تأسيسها إلى الآن، وسيبلون عطشهم بالنسبة إلى الأزهر؛ أما بالنسبة إليها فسيبقون أعطش مما كانوا، لأن الذكرى تبعث الذكرى. فلا أقل من أن يحظوا ببلالة من العلم في كلمة أو كلمتين عن تلك الجامعات التي غيرت هي والأزهر مدى أجيال تشع على العالم أنوار العلم والمعرفة وتتدرج بالفكر الإنساني في مدارج النمو والارتقاء.
وقد استحسنا اقتراح الأستاذ ولبثنا مدة ننتظر من يستجيب له ويمتعنا بالحديث عن أي جامع كان من تلك الجوامع فما ظفرنا إلا بالخيبة والملل، وأخيراً تكلم بعض أفاضل النجف عن جامعه وهو ثالث الثلاثة الأحق ببسط الكلام فيه والتوسع في الحديث عنه، ولكن ذلك الفاضل اقتضب القول فيه اقتضاباً ووعد بالتبسط مرة أخرى وإنا لوعده لمنتظرون. وقد حبب إلينا لما بقي الميدان خالياً بل رأينا من الواجب أن نتقدم بكليمات عن جامعنا القروي العامر يتعرف بها الجمهور العربي من قراء (الرسالة)

عظمة تاريخ ذلك المعهد وما قام به من خدمات جلى للعلم والمعرفة طوق بها المدنية الغربية في فجر نهضتها بأياد بيضاء:

فأولى الميزات التي تبعث على الفخر والازدهار، وهي مما أختص به هذا الجامع، أن مؤسسه امرأة، وامرأة من صميم الشعب، لا ملكة ولا أميرة. وفي هذا ما يكفي لرد ما يتقوله المتقولون على المرأة المسلمة ويصمونها به من الجهل والتأخر عن مجاراة سنن الحياة؛ إذ ما عهدنا في تاريخ أمة من الأمم وفي العصر الحاضر أن يكون مؤسسو الجامعات العلمية العالمية من النساء. ولكن الإسلام الذي رفع من شأن المرأة وأعلى من قدرها إلى ما لم تبلغه في أية شريعة أخرى سواء كانت سماوية أو وضعية هو الذي سما بنفس السيدة أم البنين فاطمة بنت محمد الفهري - إلى هذا المقصد النبيل وبعث فيها الرغبة الملحة إلى بناء جامع القرويين بمالها الحلال الذي ورثته من أبيها وزوجها، لم تنفق فيه سواه احتياطياً منها وتحرجاً من الشبهة؛ وذلك عام (245) وكانت لم تزل صائمة منذ شرعت في بنائه إلى أن تم وصلت فيه شكراً لله تعالى الذي وفقها لذلك العمل المبرور.

وهذا التاريخ الذي بنى فيه جامع القرويين لا شك أنه أقدم من تاريخ بناء الأزهر الذي كان سنة (359). فقول الأستاذ فريد وجدي في دائرة المعارف: (إنه أقدم مدرسة في العالم بعد مدرسة بولونيا بإيطاليا فقد تقدمته بأكثر من أربعة قرون) غير صحيح، لا بالنسبة للقرويين كما رأيت، ولا بالنسبة إلى كلية بولونيا المذكورة لأن تأسيسها إنما كان سنة (1119م) أي بعد الأزهر بنحو قرن ونصف. إذ أن مقابل تاريخ بنائه من الميلادي يكون حوالي (970) وحينئذ فترتيب هذه الجامعات في القدم يكون هكذا: القرويين فالأزهر فجامعة بولونيا

ومن المعلوم أن القرويين لأول بنائها لم تكن على ما هي عليه اليوم من السعة والفخامة، فقد زيد فيها كثير، وجدد بناؤها مراراً، وأولى الزيادات كانت في أيام دولة زناتة سنة (307)، ثم في أيام عبد الرحمن الناصر الأموي خليفة الأندلس الذي دانت له البلاد ردحاً من الزمن. وقع تجديد لبناء القرويين وزيادة أخرى فيه وذلك سنة (345)، ثم كان إصلاح جديد في أيام المنصور ابن أبي عامر حاكم الأندلس وحاجب الخليفة هشام بن الحكم سنة (388). ثم في دولة لمتونة في أيام أمير المسلمين علي بن يوسف ابن تاشفين نقض المسجد كله وزيدت فيه زيادة مهمة من جميع جهاته واحتفل في بنائه وزخرفته إلى الغاية وكمل ذلك سنة (538) أي بعد وفاة أمير المسلمين علي بن يوسف بسنة.

ولما ملك الموحدون فاس سنة (540) خاف فقهاء المدينة وأشياخها أن ينتقد عليهم الموحدون النقش والزخرفة التي فوق المحراب لقيامهم بالتقشف والتقلل، وقيل لهم إن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي يدخل غداً المدينة مع أشياخ الموحدين بقصد صلاة الجمعة بالقرويين، فأتى الحمامون الجامع تلك الليلة وغطوا على ذلك النقش والتذهيب الذي فوق لمحراب وحوله بالورق ولبسوا عليه بالجص ودهن بالبياض فاختفى أثر ذلك ولم يبق ظاهراً إلا البياض

ونلاحظ هنا أن فقهاء المدينة وأشياخها إنما خافوا انتقاد الموحين عليهم لما كانوا هم المباشرين لبناء المسجد وزخرفته ولم يكن ذلك من عمل المرابطين الذين قام عليهم الموحدون؛ وكذلك كان هذا المسجد منذ تأسيسه من الشعب وإليه. فمعظم هذه الزيادات - إن لم نقل كلها - كانت مما قام به أفراد من الشعب فقهاء وأئمة وغيرهم، بعد استئذان الحاكم طبعاً. ولشد ما كانوا يتحرون في المال الذي ينفق على ذلك، بل في الآجر والماء والتراب الذي كان يدخل في البناء فلا يصرفون فيه إلا ما كان من أصل طيب؛ وربما اشتبه عليهم مال أحدهم فأدى الأيمان الغليظة على أنه من الحلال الخالص الموروث عن آبائه الذين صار إليهم من عمل شريف إلى غير ذلك مما تراه مفصلاً عند ابن أبي زرع في القرطاس والجزنائي في زهرة الآس وابن القاضي في جذور الاقتباس

هنا كان قد بلغ الجامع كماله فأتى دور المصالح والمنافع والمرافق الملحقة به من فسقيات وميضآت ومستودعات وخزانات ومقاصير ومدارس وما إليها. وأهم ذلك خزانة الكتب التي أسسها به السلطان أبو عنان فارس المريني وأودعها كما يقول

الجزنائي: (من الكتب المحتوية على أنواع من علوم الأبدان والأديان واللسان والأذهان وغير ذلك من العلوم على اختلافها وتنوع ضروبها وأجناسها ووقفها ابتغاء الزلفي ورجاء ثواب الله الأوفى، وعين لها قيما لضبطها ومناولة ما فيها وتوصيلها لمن له رغبة.
وأجرى له على ذلك جراية مؤبدة تكرمة وعناية وذلك في جمادى الأولى سنة 750) وأسس أبو عنان كذلك مصاحف احتفل في بناها وتشييدها بما لم يسبق إليه، وأعد فيها جملة كثيرة من المصاحف الحسنة الخطوط وكلف بها من يتولى أمرها على أحسن الشروط. ثم لم تزل الملوك والسوقة تقف الكتب على خزانة القرويين بعد ذلك حتى اجتمع بها من المجلدات العلمية والأدبية والدينية ما لا يدخل تحت حصر ولا يستوفيه عد ولا حساب
وأما المدارس وهي بيوت الطلبة الملحقة بالقرويين، فإن من أقدم ما بني منها مدرسة الصابرين التي أسسها أمير المسلمين ابن تاشفين حوالي منتصف القرن الخامس الهجري (450) والمرينيون هم سباق هذه الحلبة الذين خلفوا لنا أكبر عدد من المدارس المتقنة الصنع المحكمة الوضع، لا حول القرويين فقط بل في جميع أنحاء المغرب ولما كان كلامنا
هنا إنما يساق إلى القرويين فلنذكر بالخصوص مدرسة العطارين التي بناها السلطان أبو سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق. ومدرسة أبي عنان اللتين تعدان قطعتين خالدتين من فن العمارة والنقش والتخريم والتزويق المغربي. وقد تلحق بهما مدرسة الشراطين التي بناها مولاي رشيد من ملوك دولتنا العلوية العلية. أما غير هذه المدارس فإنها وإن لم تكن مثلها في بداعة الشكل وجمال الصنعة إلا أنها لا تقل عنها فخامة بناء ورحابة فناء
هذه العناية الفائقة بالقرويين والاهتمام البالغ النهاية بأمره من الشعب ثم من الحكومة في كل عصر وفي كل دولة - تدلنا على ما كان له من مكانة سامية في النفوس منذ عهد تأسيسه وما كان يخص به من الاحتفال والاهتمام دون بقية المساجد الأخرى. وإلا فأخوه وشقيقه جامع الأندلس الذي بنته السيدة مريم أخت أم البنين وشقيقتها لم يظفر بعشر مما ظفر به هو من ذلك، بل إنه ما لبث أن غطى على جامع الأشراف الذي أسسه المولى إدريس ثاني ملوك الدولة الإدريسية ومختط فاس وبانيها سنة (192) فنقلت خطبة العدوة القروية من مسجد الأشراف المذكور إلى القرويين وأصبح هو المسجد الجامع في تلك العدوة كلها
وأبتدأ نجم القرويين يلمع في سماء العلم منذ أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع، وما كاد القرن الرابع يبلغ النصف حتى كان مثل عبد الله بن أبي زيد القيرواني صاحب الرسالة والنوادر والذي يعرف بمالك الصغير يشد الرحلة إلى أحد رجاله وهو دراس بن إسماعيل المتوفى سنة 357هـ وفي هذا العهد كان أيضاً أبو جيدة ابن أحمد وهو فقيه فاس ومحررها من سطوة عامل المنصور بن أبي عامر. ولا شك انه كان أحد أساطين هذه الكلية وممن عملوا على رفعة شأنها وعلو قدرها
وتتوالى حلقات السلسلة حتى تصل إلى العصر الحاضر مؤلفة من رجال وقفوا حياتهم على خدمة التشريع الإسلامي تحت راية مالك وأصحابه فبلغوا به الغاية التي ما بعدها غاية في الكمال، وطارت لهم شهرة مطبقة في أرجاء العالمين الشرقي والغربي. فما منهم إلا إمام فتوى ومجتهد مذهب مثل الفقيه ابن عمران الفاسي المتوفى سنة 430 والفقيه ابن محمد صالح المتوفى سنة 631 والفقيه راشد الفاسي المتوفى سنة 675 والفقيه أبي الحسن الصغير المتوفى سنة 719 والفقيه أبي عمران العبدوسي المتوفى سنة 776 والفقيه
القوري المتوفى سنة 872 والفقيه المشارك أبي عبد لله بن غازي المتوفى سنة 917 والفقيه أبي علي بن رحال المتوفى سنة 1140 والفقيه الرهوني المتوفى سنة 1230 وغيرهم
وفي الحقيقة إن اكثر الجهود في الكلية في كل عصر كانت موجهة إلى هذه الناحية من التعليم، ومعظم إنتاج رجالها كان في هذا العلم: علم الفقه وما إليه على مذهب مالك رحمه الله حتى ليصح القول إن أهل كل بلاد لم يخدموا مذهبهم بقدر ما خدمه أهل المغرب، وإن المذهب المالكي لم يصل إلى ما وصل إليه من الخصب والنماء والنضوج - حتى أن أتباع غيره من المذاهب ربما اضطروا إلى الأخذ عنه والاقتباس منه

كما في بعض قوانين المحاكم الشرعية بمصر - إلا بفضل القرويين وما أبدوه من الهمة الصادقة في هذا السبيل.
(يتبع)
(طنجة)
عبد الله كنون الحسني
رِسَالة الشعِر
في حادث العراق
جناية الأقدار
للأستاذ محمود غنيم
كلمة أوحى بها إلى حادث العراق الأليم على أثر ما قرأته من حملات بعض غير المنصفين من كتابنا المصريين وعلى الأخص في جريدة الأهرام
أمر به سَبَق القضاءُ الجاري ... ما حيلةُ الإنسان في الأقدارِ
لا تأخذوا بالذنب غيرَ جُناتِه ... إن الصوابَ تلمُّسُ الأعذارِ
الرُّزءُ يذهب بالعقول جلالُه ... فحذَارِ من شَطَطِ المقالِ حذارِ
إن تسرفوا في الاتِّهام جَنَيْتُمُو ... أتتم على القُطر الشقيق الجارِ
هي أمةٌ وَزِرَ امرؤٌ من أهلها ... أفتثقلون الكلَّ بالأوزارِ؟
اللهُ يعلم أنَهم ما أضمروا ... للنيل غيرَ الحبِّ والإكبارِ
أوَ لم يُصُبْ (سعدٌ) بأيدي أمةٍ ... تَفدِّيه بالأسماع والأبصارِ
إن الذين أصاب (سيفاً) سهمُهُمْ ... مِنْ دمعهم غسلوه في أنهارِ
ولو استطاعوا لافتَدُوُه من الحِما ... م بألف سيفٍ منهمو بتَّارِ
قالوا: العراقُ ومصرُ قُلنا: بل هما ... مِصْرَانِ بل مصرٌ من الأمصارِ
هذا أبٌ أودى به نَزَقُ ابنه ... ماذا تقول لِصِبْيَةٍ أَغْرَارِ؟
ماذا تقولُ لنائبٍ عن رُشده ... يَجْني جنايتَه وليس بدارِ؟
ما حاد عن سَنَنِ العدالة آخذٌ ... لغريمه من نفسه بالثارِ
عُذْرُ الشبيبة طيشُها والخِطْءُ ما ... فعلوه عن عَمْدٍ وعن إصْرَارِ
لا كان مخترع (الرصاص) فإنه ... باع المنونَ رخيصةَ الأسعارِ
بغدادُ عذراً للكنانة إن قست ... في عَتْبها والعَتَبُ للأحرارِ
أو ما نظرت إلى الكنانةِ أعيناً ... تَهْمي وأفئدةً بغير قرارِ؟
إنا لنرخصُ في سبيل الوُدِّيا ... بغدادُ ما يغلو من الأعمارِ
وهو الودادُ إذا عُراه توَثَّقَتْ ... أَضْفَى على الآثام كلَّ ستارِ
إحسانُ من عاديتَ كلُّ إساءةٍ ... وكبارُ من صافيتَ غيرُ كبارِ
هذا شهيد العلم عزَّزْنَا به ... مَنْ راح من شهدائنا الأبرارِ
خلِقَ الجهادُ لنا سواءٌ عندنا ... مَنْ بالحديد يموت أو بالنارِ
والعلمُ مختلِفُ الضحايا كم طوى ... من سابحٍ وقضى على طيَّارِ
يا رُبَّ مخترعٍ يروح ضحيةً ... للكشف عَن سر من الأسرارِ
ومعلِّم قد راح يبذلُ نفسه ... بذلَ الكرام لناشئينَ صِغارِ
تمتَصُّ أفواهُ الشبيبة رُوحَهُ ... مثلَ امتصاص النحل للأزهارِ
إذا التأمتْ جراحُك في غدٍ ... وبرئتِ فاشكُر للطيف الباري (عزمي)
أنت ابتدأتَ رسالةً فأَتمَّها ... واهزَأ بما تَلْقَى من الأخطارِ
املأْ مكانك في العراقِ وقل له ... لا يعرف الجبنَ الأشَمُّ الضاري
محمود غنيم
أنت دير الهوى وشعري صلاة
للأستاذ محمود إسماعيل
(إلى غمامتي الشاردة. . . أهدي هذه الصلاة)
أَقبِلي كالصَّلاة رَفْرَقها النُّسْ ... كُ بمحرابِ عابدٍ مُتَبَتِّلْ
أقبلي آيةً من الله عُلْيا ... زَفَّها للفُنون وَحْيٌ مُنزَّلْ
أَقبلي فالجِراحُ ظمآى! وكأس الْحُ ... بِّ ثكلَى! والشِّعرُ نايٌ معَّطلْ
أَنْتِ لحنٌ على فمي عبقريٌ ... وأنا في حدائق الله بُلْبُلْ
أقبلي. . . قبل أنْ تَمِيلَ بنا الرِّي ... حُ! وَيهوى بنا الفناءُ المعجَّل

زَوْرقِي في الوجود حَيرانُ شاكٍ ... مثْقَلٌ بالأَسى، شريدٌ مُضَلَّلْ
أزعَجَتْهُ الرِّياحُ، واغتالَهُ اللي ... ل بجنُحٍ من الدياجير مُسبَلْ
فَهْوَ في ثَوْرَةِ الخضَمِّ غريبٌ ... خلَطَ النَّوْحَ بالمنى وتنقَّلْ
أقبلي يا غرامَ رُوحِي فالشَّطُ (م) ... - بعيدٌ! والرَّوح باليأس مُثقَلْ
وَغمامُ الحياةِ أغْشَى سواديَّ (م) ... ونورُ المنى بقلبي ترحَّلْ
أنا مَيْتٌ تغافَلَ القبرُ عنِّي ... وهْوَ إنْ يَدْرِ شِقْوتي ما تَمَهَّلْ
فاسكُبي لي السَّناَ وطوفي بنَعشي ... يُنْعش الرُّوحَ سِحْرُكِ المتَهَلِّلْ
أنتِ نَبعي، وأيْكتي، وظِلالي ... وَخِمِيلي، وجَدْوَلي المُتَسَلْسلْ
أنْتِ لي وَاحةٌ أفِيء إليهاَ ... وَهَجيرُ الأسىَ بجنبَيَّ مُشْعَلْ
أَنتِ تَرْنيمَةَ الهدُوء بشِعري ... وأنا الشاعِر الحزينُ المبَلْبَلْ
أنتِ نَهويدَةُ الخيَال لاحزَا ... ني بأطْيَافِ نورِها أتَعَلَّلْ
أنتِ كأسِي وَكَرْمَتي وَمُدَامِي ... والطِّلاَ من يدَيْكِ سُكَرٌ مُحَلَّلْ
أنتِ فَجْرِي على الحقُولِ، حياةٌ ... وصَلاةٌ، وَنَشْوَةٌ، وَتَهَلُّلْ
أنتِ تَغْريدَةُ الخُلود بألْحا ... ني. . وشِعْرُ الحَياةِ لَغْوٌ مهَلْهَلْ
أنتِ طَيفُ الغُيُوب رَفرَفَ بالرَّح ... مةَ والطهْر وَالْهُدَى والتَّبَتلْ
أنتِ لي توبَةٌ إذا زَلَّ عُمرِي ... وصَحا الإثْمُ في دمي وتَمَلْمَلْ
أنتِ لي رَحْمَةٌ بَراها شُعاعٌ ... هَلَّ من أعْيُن السمَّا وَتَنزَّلْ
أنتِ لي زَهْرَةٌ عَلَى شاطئ الأحْ ... لام تُرْوَى بمُهْجَتي وتُظَلِّلْ
أنتِ شِعْرَ الانسام وَسَوْسَتِ الفُجُّ ... رَ، وذابَتْ عَلىَ حَفِيف السُّنْبل
أنْتِ سِحْرُ الغُرُوُب، بل مَوْجَةُ الإش ... راقِ عن سِحْرِهاَ جَنَاني يُسْأَلْ
أنتِ صَفوُ الظِّلالِ تَسْبَحُ في النه ... ر وَتلهوُ عَلَى ضفاف الجدْوَلْ
أنتِ عيدُ الأطْيَار فوْق الروابي ... أقبِلي! فالرَّبيعُ للطير أقْبَلْ . . .
أنتِ هَولْي وَحَيْرَتي وجنوني ... يومَ للحُسنِ زهوةٌ وَتدَلِلْ
أنتِ دَيْرُ الهوَى وَشِعْرِي صَلاةٌ ... لكِ طابت ضَراعَتِي والتذلّلْ
أنتِ نَبْعٌ من الحَنَانِ، عليه ... أطرَقَ الفَنُّ ضارعاً يتوسَّلْ
أعيُنٌ للخشوع تُغري، فَخَلِّي ... هاعلى لوْعَتي تُغَضُّ وتُسْبَلْ
واتُرِكيها وسِحْرَهَا يتمادى ... عَلَّماَ (بابلٌ) بنجواه تُشغَلْ
هو فنِّي، ومُلْهمِي. . . فابعثيهِ ... فهْو من زَهْوِه شَحيحٌ مُبَجَّلْ
يَتَغَافى عل الجُفون، فإن رُحْ ... تُ أناجيه لَجَّ في الكَرى وتَوَغَّل
وانتشى من سَنَاك وانساب في لْح ... ظِكِ يحسو الضّياَء منه وينْهلْ
وَانْبرَى من جُفُونك البيض كالأق ... دار يُرْدِى كما يشاءُ ويقتُلْ
لَيْتَ لي من صراعِهِ كلَّ يوم ... غزوةً في سكون قلبي تجَلْجلْ
وَلَكِ الصوتُ ناغما عادَةُ الشَّوْ ... قُ فأضحْى حَنينُهُ يترسَّلْ
نَبَراتٌ كأنَّهَا شَجَنُ الأو ... تارِ في عودِ عَاشِقٍ مُتَرَحِّلْ
أو حَفيفُ الأذَانِ في مِسْمعِ الفَجْ ... ر نَدِيُّ الصَّدَى، شِذَيٌّ، المنْهلْ
أو غِنَاءُ الظِّلالِ في خَاطِرِ الغُدْ ... ر انِ شعْرٌ في الصَّمْتِ عانٍ مكَبلْ
أو نَشيدٌ أذابَهُ الأفُقُ النَّا ... ئي، وَغَنَّاهُ خاطِري المُتأمِّلْ!
ولكِ البَسْمَةُ الوديعةُ. . طُهْرٌ ... وصفاءٌ، وصَبْوَةٌ، وتعزُّلْ
لذةُ الهمْسِ في دَمِي تَنقُلُ الرو ... حَ لِوَادٍ بِصَفْو عُمْري مُظَلَّلْ
فاسكبيها على جَناني، وخَلِّي ... سِحرَها في مشاعري يتَهدَّلْ!
ولكِ الهدْأةُ التي تغمُرُ الحِ_سَّ فيرْوَي من السَّكون وَيَثْمَلْ
وَاحةٌ للجمال، قَلْبِيَ فيها ... من أسى الدهرِ ناسِكٌ مُتعزِّلْ
علمتني ظلالُها كيف أنْسي ... صَخَبَ الهم وهو عَصْفٌ مُزَلزِلْ
وَلكِ العِفَّةُ التي عاد منها ... (مريَميُّ) السُّنُور فوقَكِ مُسْبَلْ
فتعالَيْ نَغيبُ عن ضَجَّة الدُّن ... يا، وَنمْضي عن الوجود ونرْحَلْ
وَإلَى عُشْنا الجميلِ. . . فَفيهِ ... هَزَجٌ للْهوَى، وظِلٌّ، وسَلْسَلْ
وعَصافيرُ للمُنى تتَغَنَّى ... بالتَّرانيم بين عُشْبٍ وَجدْوَلْ
وَغرامٌ مُقَدَّسٌ، كاد يَصْوِي ... نوُرُهُ العَذْبُ في سَمانا وَيشْعَلْ
وَوَفاءُ يكاد يَسْطَعُ للدُّن ... يا بِشَرْعٍ إلى المحبِّينَ مُرْسَلْ

. .عادَ لْلعُشِّ كلُّ طَيْرٍ، ولم يَب ... قَ سِوى طائرٍ شَريد مخَبَّلْ
!هو قَلْبي الذي تناسَيتِ بَلْوَا ... هُ فأصْحَى على الجِراح يُوَلْولْ
أَقْبِلي. . قبلَ أن تميلَ به الري ... حُ، ويَهوِى به الفَنَاءُ المُعَجَّلْ
(!أَقْبِلي. . . فالجراحُ ظمأى! وَكَأسُ الْ ... حُبِّ ثَكْلىَ! والشِّعْرُ نايٌ مُعَطَّلْ)
(المجمع اللغوي الملكي بمصر)
محمود حسن إسماعيل
-
البَريدُ الأدَبيّ
مؤتمر دولي للقوانين ودعوة الأزهر للاشتراك فيه
تلقى صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر كتاباً من جامعة جوهانبرج يقول إن فريقاً من علماء القانون ومن أعضاء مؤتمر القوانين الذي عقد في السنة الماضية في هولندا واشترك فيه الأزهر فكروا في إقامة مؤتمر عالمي للقوانين يشترك فيه جميع الهيئات والجامعات التي فيها دراسات قانونية ويشترك فيه كذلك كبار علماء القانون والتشريع في العالم كله
ثم جاء في كتاب الجامعة أنها ترجو أن يستطيع الأزهر المساهمة في العمل لنجاح هذا المؤتمر بإبداء الملاحظات والاقتراحات التي يرى إبداءها على فكرته وموضوعاته وأن يساهم بقسط من المعاونة الأدبية فيه
ثم قال إن أبحاث المؤتمر ستشمل جميع القوانين والتشريعات والمبادئ التي تؤدي إلى تقدم البشرية وتقارب قوانينها ومن التشريعات التي تضمنت قسطاً كبيراً من المبادئ القانونية السامية في الشريعة الإسلامية
أندريه موردا في الخالدين
من أنباء باريس الأخيرة أن الكاتب الفرنسي أندريه موروا انتخب عضوا في الأكاديمية الفرنسية في المقعد الذي خلا بوفاة (رينيه دوميك) رئيس تحرير مجلة العالمين والذي كان سكرتيراً دائما للأكاديمية
وأندريه موردا ابن صاحب مصانع كبرى للنسيج في مدينة (روان) وهو اليوم يتولاها أيضا فتدور المصانع على خير وجه يدر المال، وتدور المطابع في باريس بكتبه فتدر المال والمجد
لفت اندريه موروا الأنظار بقصة (صمت الكولونيل برمبل) إذ نجد فيها خلاصة تجاربه واتصاله بالإنكليز في أثناء الحرب عندما كان ضابط اتصال نظرا لتضلعه في اللغة الإنكليزية، هذا التضلع الذي ما لبث أن ظهر أثره في كل كتبه بعد ذلك إذ جعل أكثرها لتاريخ حياة أبطال الإنكليز في الأدب والسياسة مثل بيرون وشللي ودزرائيلي كما كتب حياة تورجنيف والماريشال ليوتي، فضلاً عن (محاورات في القيادة) و (صور إنكليزية) و
.ثم محاظراته في جامعة اكسفورد التي لفتت إليه جميع الأنظار (مطالعات في ديكنز)
هذا وقصص موروا من أروج القصص الأدبية والجمهور يتهافت عليها في كافة أنحاء المعمورة. ومن خير ما وصفه به صديقه أندريه بيلي قوله: إنه الذكاء، وطيبة القلب، والحساسية، والاستعداد الدائم للفهم والعطف. . . ليس فيه من التعالي أو التغالي شيء. وكان نجاحه العظيم السريع جاء مفاجئاً بحيث لم يتبينه هو ذاته ولم يقدره قدره!)
وأندريه موروا صديق عزيز لمصر، زارها أكثر من مرة ويحمل لها كل مودة، وفي نيته أن يخصص كتاباً من كتبه.
العربية الفصحى في تدريس المواد
أذاعت وزارة المعارف على حضرات المراقبين والمفتشين ونظار المدارس الكتاب التالي: -
كثرت الشكوى من ضعف التلاميذ في اللغة العربية الصحيحة في تدريس المواد، ولهذا توجه وزارة المعارف نظر حضرات المفتشين ونظار المدارس إلى مراقبة تدريس المواد التي تلقى باللغة العربية سواء أكانت علمية أم أدبية، ووجوب إلقائها بلغة عربية سليمة، والبعد عن استعمال العامية حتى تتمكن في نفوس التلاميذ ملكة اللغة الفصحى ويسهل عليهم الحديث والكتابة بها. وفي مكنة الأساتذة أن يبسطوا أسلوب

اللغة الفصحى حتى تكون في متناول جميع التلاميذ على اختلاف أعمارهم وثقافتهم
الثقافة الإسلامية في المدارس الثانوية
يهتم وزارة المعارف بتعزيز برامج التعليم في المدارس الثانوية ببرنامج مفصل عن الثقافة الإسلامية، يدرس في السنتين الرابعة والخامسة، وقد عهد معالي الوزير إلى لجنة مؤلفة من بعض مفتشي اللغة العربية بالوزارة وكبار رجال التعليم وضع هذا البرنامج بحيث يمكن البدء بتنفيذ في السنة الدراسية القادمة
وسيشمل هذا البرنامج بحوثاً مهمة تدور حول التاريخ الإسلامي في أزهى عصوره، والبطولة الإسلامية والسيرة المحمدية الشريفة
حول نظرية التطور
عرض الأستاذ علي الطنطاوي في نقده لشعر الأستاذ العقاد في الجيبون لنظرية التطور وذكر أنها لم يؤيدها العلم، وكنا نود لو يرشدنا الأستاذ الفاضل إلى عالم يحترم علمه يدحض هذه النظرية التي غزت جميع المعارف البشرية وبها سهل تعليل كل نظم الحياة. أما إذا كان اعتماد الأستاذ على ما ينشر في الصحف الرخيصة من أخبار مشعوذي العلم الذين يعارضون النظرية ظناً منهم أنها تعارض الدين، فهذا تملق رخيص لعقلية جمهور القراء لأن خصومها لا يعدون بعض جهلة القساوسة الذين يرون فيها الخطر الداهم على مذاهبهم، في حين أن الطبقة المستنيرة من رجال الدين في إنجلترا يرون فيها ما يؤيد دعواهم الدينية، لذلك نرى المطران انج أبرز شخصية في الكنيسة الإنجليزية يعترف بها، ويعظ بها في كنيسته، والنظرية ليست حديثة كما ذكر الأستاذ طنطاوي فقد بصر بها فلاسفة الإغريق والعرب حتى جاء داروين وجمع شتات الأدلة العلمية ونشر كتابه أصل الأنواع 1858، فكان أول بحث مؤيد بالأسانيد العلمية في هذا الموضوع تلاه أبحاث كثيرة من علماء آخرين أيدوا وجهة نظر داروين، مثل هكسلي وولاس وهيكل والثير ارثر كيث. ومن المفيد أن أذكر أن ابن خلدون كان مغرقاً في إيمانه بالتطور فقد قال إن الجماد يتحول إلى نبات والنبات إلى حيوان والحيوان إلى إنسان
أما اعتراض الأستاذ على معالجة فنون العلم شعراً فهو اعتراض ليس له وجاهة لأن نظرية التطور علم وفلسفة، فهي رغم حقائقها العلمية لها جانب فلسفي يبعث على التأمل، وقد عاش في القرن الماضي بإنجلترا شاعر لا يحضرني اسمه الآن أطلق عليه شاعر التطور لأنه عالج فلسفة التطور شعراً. وقد نظم المرحوم الزهاوي شعرا عن التطور أعجب به كل من قرأه
والدليل على أن لها فلسفة أن سبنسر بنى فلسفته على نظريات التطور فأطلق عليه فيلسوف التطور. وما يقال عن نظرية التطور يقال عن كل علم من أن له جانباً فلسفياً، وعلى ذلك لا يمنع أن يعالج الدكتور ناجي نواحي الطب شعراً. وقد قرأت للعلامة ماكنزي كتاباً في الفسيولوجيا ختمه ببحث فلسفي بديع عن الموت لو وضع في قوالب الشعر لكان تحفة فنية رائعة. وقد نشرت مجلة طبية فرنسية بباريس تدعى فيلسفون منذ أعوام شعراً لطائفة من أطباء فرنسا عن تأملاتهم في الحياة من الوجهة العلمية يعد بحق نوعاً جديداً في
الأدب الفرنسي. وقس على ذلك المهندس والرياضي، ما دام وراء كل علم جانب فلسفي للتأمل. وبديهي أنني لا أقصد أن توضع حقائق العلم في قوالب الشعر كما وضعت قواعد النحو في ألفيه ابن مالك، لأن هذا ليس من الشعر في شيء
كامل نصيف
عضو بالمعهد الفلسفي البريطاني بلندن
الحلاج
جاء في (قصة الكلمة المترجمة) في الجزء الماضي: (لكنه قاله في (الرسالة) قبل ذلك: (وكذلك قوله الكل (أي قول ابن القارح) إدخاله الألف واللام مكروه) (قاله) صوابه قال - أعني أبا العلاء - وقولي ابن القارح خطأ، صوابه الحلاج. وقد وردت (الكل) في أبيات له رويت من قبل في (رسالة الغفران) قال الحلاج:
ياسرَّ سرٍ يدق حتى ... يجلّ عن وصف كل حيْ
وظاهراً باطنا تبدي ... من كل شيء لكل شيْ
يا جملة الكل لستَ غيري ... فما اعتذاري إذن إليْ

قال أبو العلاء: (قولهإلىْ) عاهة في الأبيات، إن قيْدَ فإلتقييه لمثل هذا الوزن لا يجوز عند بعض الناس، وأن كَسَر الياء من (إلىْ) فذلك رديء قبيح. وأصحاب العربية مجمعون على قراءة حمزة: (وأنت بمصرخيِّ) بكسر الياء، وقد رُوى أن أبا عمرو بن العلاء سئل عن ذلك فقال إنه لحسن تارة إلى فوق وتارة إلى أسفل، يعني فتح الياء في مصرخي وكسرها، والذين نقلوا هذه الحكاية يحتجون بها لحمزة ويذهبون إلى أن أبا عمرو أجاز الكسر لالتقاء الساكنين، وان صحت الحكاية عنه فما قالها إلا متهزئا على معنى العكس، وهذا كما يقول الرجل لولده إذا رآه فعل فعلا قبيحاً: ما أحسن هذا!: وهو يريد ضد الحسن)

الإسكندرية

(* * *)

سؤال إلى الأستاذ سيد قطب

تقول في العدد (259) من الرسالة، إن العقاد (يعني بالحياة النابضة في ضمائر الأشياء، قبل الحياة الظاهرة على سطوحها، ويعني بالحياتين معاً قبل العناية بأشكالها وصورها، ويلتفت للخوالج النفسية قبل أن يلتفت إلى الصور الذهنية، ويعني بهاتين قبل العناية ببهارج الأسلوب وزخارف الطلاوة)

1 - فهل هناك حياة نابضة في ضمائر الأشياء غير الحياة الظاهرة على سطوحها؟ أو ليست الحياة واحدة في الضمائر والسطوح، وفي الأفئدة والقلوب، وفي الجوارح والأعضاء؟ وإذا كان للحي الواحد حياتان كما تقول، فما حدّ كل واحدة منهما، وما هو وصفها الذي تختلف به عن أختها؟

2 - وهل الحياة الظاهرة على سطوح الأشياء - على حد تعبيرك أنت - غير أشكال الحياة وصورها؟ وما هو الفرق بينهما وكيف تكون العناية بهذه قبل تلك؟

3 - وما هو الفرق (العلمي) بين الخوالج النفسية والصور الذهنية؟ وهل تعني بالصور الذهنية المحاكمات العقلية أم تعني بها ما يسمى بتداعي الأفكار، والخيال المرجع، في علم النفس؟ وما معنى قولك: أدب ذهن، وأدب نفس؟

4 - وهل تريد من قولك أن العقاد يعني بهذا قبل عنايته بالأسلوب والطلاوة - أن من كانت له هذه العناية بالحياة النابضة، والخوالج النفسية، كان شاعراً ولو جاء بأسلوب ركيك، ولغة مرذولة، وعيّ فاضح؟

هذا ما نحب أن تبينه لنا، فما فهمنا والله ما تريد منه. وإن في كل فقرة لك لمجالاً لمثل هذه الأسئلة حين تتكلم فلا نفهم عنك، وتأتي بألفاظ لا نعرف لها مدلولاً، وأنت بين شيئين: إما أنك تذهب بنفسك علواً حتى ما يتعلق بك قارئ، وإما أنك لا تدري معاني ما تقول (بالضبط. . .

(دمشق)

ع. . .

بين الرافعي والعقاد

جاء في بحث الأستاذ سيد قطب عن العقاد والرافعي في (الرسالة رقم 260) ما اعتبره الأستاذ تناقضاً بين تلخيص الرافعي لرأي الفيلسوف شوبنهور في الجمال وبين رأي الفيلسوف الحقيقي

وبرجوع القارئ إلى ذلك البحث وتدبِّره لا يذهب مع الكاتب فيما ذهب إليه من وجود ذلك التناقض. ولعل الأستاذ قطب يقرنا على ذلك

فقد قال شوبنهور ما نصّه: (إن الأشياء (تسرنا) كلما قربت من عالم الفكرة وابتعدت عن عالم الإرادة) وقال الرافعي فيما اعتقده رأياً للفيلسوف (إن الأشياء (تحزننا) كلما ابتعدت عن عالم الفكرة واقتربت من عالم الإرادة)، ثم قال (وإنها (تفرحنا) كلما ابتعدت عن عالم الإرادة واقتربت من عالم الفكرة)

فإنه واضح من مراجعة الكلام بأنه لا تناقض بين قولي الرافعي الأول والثاني فهما رأي واحد لا تناقض في مضمونه. ولعل الأستاذ قطب قد اعتبر عكس الألفاظ في شقي القول أساساً للتناقض وقد غاب عن خاطره أن (تحزننا) عكس (تفرحنا).

ثم نحن لا نجد (مسخا) لرأي الفيلسوف لأن الرافعي لا يناقض في أي من قوليه رأي الفيلسوف (وهما ينطبقان عليه تمام الانطباق)
ونحن إن أخذنا على الأستاذ قطب عدم تدبره في الحكم في هذه الحالة فنحن نأخذ على الأستاذ الرافعي، رحمه الله، عدم وثوقه بترجمة الأستاذ العقاد مع أنه انتهى في تلخيص رأي الفيلسوف إلى ما ترجمه العقاد
وليسمح لنا القارئ إن نحن طالبنا الكاتبين عن أدب الرافعي والعقاد ألا يتخذوا من عبارات وألفاظ مستهجنة (جاءت معبرة عن حالة عاطفية) أساساً يدعمون به حكمهم على كل من الأديبين الكبيرين. ونحن ندعوهم إلى بحث شخصيتهما الأدبية في مخلفاتهم التي تركاها وهم أكثر ما يكونان سكونا وهدوءاً فيجيء حكمهم نزيهاً معتبراً في نظر القراء ويسلمون من كثير من المهاترات التي تصيبهم بين الحين والحين
فلسطين
علي كمال
الكُتُبْ
إلهام
قصة مصرية
تأليف الأستاذ نقولا يوسف
هذه قصة دفعها إليْ صديق من أصدقاء المؤلف، ورجاني أن أقرأها وأرى رأيي فيها؛ وما سهلٌ على كاتب من الكتاب أن يتحدث عن كتاب هو مرجُوٌّ أن يتحدث عنه ويري رأيه فيه، فإن ذلك خليق أن يصبغ الرأي بلون من ألوان الهوى تختفي وراءه بعض الحقيقة؛ ولكني مع ذلك سأحاول أن أكتب، وسأحرص في هذه المحاولة أن أكون ناقداً وحسب. . .؛ ولن يفوت القارئ بعد ما قدّمتُ أن يعرف الرأي في هذا الكتاب على حقيقته، وأن يستخلصه مما قد يكون عالقاً به مما تزيفه النفس على صاحبها لتخدعه عن رأيه. . .
وبعد فهذه قصة مصرية ألفها مؤلفها منذ إحدى عشرة سنة، ولم ينشرها إلا منذ أشهر، وكان مؤلفها يوم ألفها شاباً في الثالثة والعشرين؛ وما بُّد لمن يؤلف مثل هذه القصة في مثل هذه السن أن ينظر إلى ما يحيط به؛ وهذا شئ لا ينكره المؤلف ولا يعترف به كل الاعتراف؛ فهو يقول في تقدمة هذه القصة:
(أعددت قصة إلهام للطبع في سنة 1927. . . . . .؛ ثم أرغمني كثير من ظروف الحياة على أن أهمل أمرها عشر سنوات، وفي هذه السنة أعدت قراءتها، وكنت في أثناء تلك القراءة كمن يسير بين قبور عزيزة تضم رفاتاً مقدساً وذكريات تثير الأشجان ومع أن هذه القصة لا تصور حياة المؤلف إلا أن فيها بعضاً من نفسه وتجاريبه ومشاهداته. . .)
أما الغاية التي يقصد إليها المؤلف من قصته فإنه يقول عنها: (. . . وسترى أنها قصة مصرية لا تدور حول غاية معينة من أنواع الإصلاح، يغلب عليها ذلك النوع التصويري الذي يصور المناظر والشخصيات والميول والخواطر، لا سيما ما ينساب منها أحياناً في الرأس بلا ترتيب. . . .)
وهذه القول الذي يقوله هو حق إلى حد ما؛ فهو لم ينشئها ناظراً إلى غاية معينة من غايات
الإصلاح وإن كان فيها كثير من الدعوة إلى الإصلاح مبثوث في تضاعيف القصة وفي أثناء الفصول بلا ترتيب ولا نظام، وتجد أكثره فيما جعل من الحوار على ألسنة أبطال القصة؛ بل لقد كان حرصه على أن يثبت رأيه ودعوته إلى الإصلاح داعياً له إلى أن يقحم كثيراً من القول في أساليب المحاورة لغير وقته، فكانت بعض المحاورات تطول أحياناً طولاً يدعو إلى الملالة ويبعد بموضوع المحاورة عن أصله وداعيه. والمحاورة كما يعرف كل من عالج القصة أو درس فنها - ليست موضوعاً ملائماً للدعوة إلى الإصلاح وبيان أوجه الرأي فيه، ولكنها وسيلة من البيان في أوجز عبارة تصل بين رأي ورأي أو حادثة وحادثة مما يفيض به موضوع القصة؛ ولن يكون الحوار أبداً وسيلة إلى بث فكرة أو دعوة إلى إصلاح إلا بقدر غير ملحوظ ولا مُدرَكْ في جملته. إنما يكون ذلك في الحادثة لا في الحديث، وفيما يُحكى لا فيما ينطق به. . .
على أننا وقد وافقنا المؤلف على أنه لم يكن له غاية من قصته في الدعوة إلى نوع

من الإصلاح، نقول إن (ذلك النوع التصويري الذي يصور المناظر الشخصيات والميول والخواطر) هو في نفسه غاية من الغايات الرفيعة يقصد إليها كثير من أهل الفن؛ وقد بلغ المؤلف في ذلك وأجاد وانتهى إلى غاية. ولقد كنت أقرأ بعض ما كتب المؤلف من الفصول التصويرية في هذه القصة فأشعر بكثير من اللذة والإعجاب؛ وأجمل ما قرأت من هذه الفصول وصفه في الفصل الأول عيد (شم النسيم) كما يحتفل به كثير من طوائف المصريين في الريف والحضر؛ وفي الفصل الرابع وصف حياة الشاب العزب تترامى الآمال حوله في الزواج والمصاهرة، وتعترك حوله أماني الأهل والأصدقاء؛ وفصول أخرى لا تقل عن هذين الفصلين جمالاً وروعة

أما عناية المؤلف بالفن ومقدار توفيقه فيه، فما أريد أن أسهب في الحديث عنه؛ فإن من الظلم أن تكلف فتى في الثالثة والعشرين أن يكون له من السيطرة على نفسه وعلى وجدانه ما يساعده على حبك قصة طويلة كهذه القصة على ما يقتضي فن الرواية على وجهه؛ إذ كان كل هم الشباب في مثل هذه السن أن يحشد كل خواطره وأماني نفسه ومصورات خياله فيما يكتب؛ فأنه ليصعب عليه أن يغفل معنى أو فكرة أو حادثة تلُحّ على نفسه؛ ومن هنا جاءت قصته - كما قرأتها - وكأنها في نفسي قصتان لا رابطة بينهما إلا فيما تبدأ القصة وفيما تنتهي؛ أما في العرض وفي تسلسل الرواية فإن القارئ يكاد يحسّ في أكثر من موضع أنه انتقل من قصة إلى قصة فلا يشعر أنه فيما كان فيه إلا حين يوشك أن يبلغ نهاية الفصل. وذلك شيء حقيق بالنظر والتدبر عن من يريد أن يكون قاصّاً موفقاً؛ فإن أول شرط القصة هي أن تتسلسل بحوادثها تحت عيني القارئ حتى تبلغ بذلك أن تنقله من جو إلى جو فيسير في قراءتها وكأنه يعيش بين أبطالها وعلى مقربة من زمانها ومكانها؛ وما أنكر أن المؤلف قد بلغ إلى ذلك في بعض الفصول ولكنه لم يبلغ إليه في جملة القصة؛ على أن هذا التنافر في موضوع الرواية لا يستمر إلى نهايتها؛ فما هو إلا أن ينتهي القارئ إلى حد ما ثم تسير القصة إلى خاتمتها طبيعية لا تكلف فيها ولا اصطناع، حتى تنتهي إلى نهايتها في حيلة موفقة

على أن هذه القصة - وهي مصرية المغزى والموضوع في جملتها - تبتعد كثيراً في بعض فصولها وحوادثها عن المألوف من عاداتنا وما نعرف، فهي لا تصوّر صورة مصرية عامة يراها كل أحد؛ ولكنها صورة خاصة قامت في نفس كاتبها في يوم ما فرآها على التعميم حقيقة بالتسجيل في قصة يريد أن يجعل بها صورة لبعض ما في مصر؛ ولقد كنت أريد أن ألخص موضوعها في هذا الفصل لأعرضها عرضاً جلياً لمن يريد أن يعرف، ولكني أوثر أن يكون تعريفي بها من بعيد حتى لا أقطع الطريق على من يريد أن يقرأها بقلم مؤلفها ليعرفها العرفان الحق

أما أسلوب المؤلف في الأداء فهو الأسلوب السهل الطبيعي، لا تكلف فيه ولا صناعة؛ وفيه إلى ذلك روح وعاطفة وقلب نابض؛ تقرؤه فتعرف نفس كاتبه بما تجيش به من أماني والآم تراها مصوَّرة أدق تصوير وأبرعه، فكأن وراء كل عبارة قلباً ينبض، وكأن وراء الظلال من كل فصل نفسية سامية تؤمن بالمثل الأعلى إيمان الرأي والعقيدة، وتقف جهدها على تحقيق المعنى الإنساني العام في كل نفس وفي كل إنسان؛ فهو أسلوب قصة، وهو صرخات نفس حانقة، وهو غيظ حبيس يتفجر نثراً وكتابة، وهو أماني وأحلام، وهموم وأحزان؛ وهو غبطة ورضا، وسخط وألم. وإن فيه لمعاني جديدة وفكراً جديداً . . .

ولكن ذلك كله لا يحمل الناقد المنصف على تجاهل ما في أسلوب المؤلف من غلطات في اللغة والنحو وفي استعمال الكلمات كان حرياً أن يتنزه عنها؛ ولو أنها غلطات تعد لما كان

من حقي أن أشير إليها هذه الإشارة، ولكنها غلطات عامة ومتكررة بحيث لا تكاد تخلو صفحة من غلطة. . . وإني وقد قرأت للمؤلف وتذوقت فنه وأدبه لأجد من الخيانة أن أغض النظر عن هذه الغلطات؛ فإن كاتباً مثل مؤلف هذه القصة حقيق بأن يكون في غد من أصحاب القلم والفكر في هذا البلد لو كان أحرص من ذلك على لغته وعبارته؛ وإن ذلك الأمل في مستقبله الأدبي ليحملني على أن ألفته إلى ذلك ليستكمل أدواته ويمهد لمستقبله

أما بعد فإنها قصة مصرية وما تزال القصة الطويلة في العربية شيئاً نحاوله فلم نبلغ

فيه حد الكمال أو ما يقرب منه؛ وإنه لفن رفيع يستحق العناية من أدبائنا ليسدوا نقص العربية في هذا الباب؛ فما يغيب عني وقد ذكرت ذلك أن أثني على المؤلف الفاضل لهذه المحاولة؛ وما يغيب عني مع كل أولئك أنها قصة ألفها مؤلفها منذ إحدى عشرة سنة وما يزال يومئذ شاباً حدثاً يخطو خطاه الأولى إلى هذا المعترك الأدبي؛ فإذا كنت اليوم أرى فيها ما يستحق الملاحظة والتعليق، فإنها ملاحظات على الأديب الناشئ نقولا يوسف الذي ألف قصة (إلهام) سنة 1927 وهو في الثالثة والعشرين من عمره؛ وهو عندي غير الأديب الفاضل (الأستاذ) نقولا يوسف في سنة 1938، الذي عرفه القراء فيما أنشأ بعد ذلك من مؤلفات لها خطر ومقدار وهو مع ذلك غير الأستاذ نقولا يوسف الذي نرجو أن يكون في غد. . .

(س)

العدد 262 - بتاريخ: 11 - 07 - 1938

أسباب ما نعمل

للأستاذ عباس محمود العقاد

السيدة الأرمنية العجوز التي تسكن معنا في الدور الأرضي من المنزل أزمعت النقل إلى منزل آخر على مقربة من الحي، وهي واقفة على الباب تراقب الحمالين وهم ينقلون الأثاث ويرتبونه. ولابد من كلمة تحية ومجاملة في الطريق. فوقفت وسألتها:

إلى أين يا سيدة؟ وما الذي أغضبك من منزلنا؟

قالت: قسمة!

قلت: ألعلك وجدت مسكناً خيراً منه في هذا القيظ؟

قالت: لا. بل هي آخر قسمتنا فيه، وإنما هي كما تقولون أعتاب وأيام!

(سبب امرأة)

نعم. فقد تعودنا حين نسمع أمثال هذه الأسباب التي لا تعليل فيها أن نبتسم ونصرف الحديث قائلين: سبب امرأة، أو هو سبب من الأسباب التي لا يقنع بها غير النساء والمتفق عليه بيننا معشر الرجال أن أسباب النساء هي الأسباب التي لا تعطيك تفسيراً ولا تزيدك علماً بعلة ما يصنعن وما يتركن، فإذا سألت امرأة: لم صنعت هذا؟ أو لم لم تصنعيه؟ فأغلب ما يكون الجواب: هكذا! أو هل تراني عارفة؟

هذا أو تعطيك جوابين نقيضين لتعليل العمل الواحد. فقد رووا أن رجلا صحب زوجته إلى متجر الملابس لينتقيا حلة تعجبها. فاختار لها لونا من الحرير عرضه عليها، فصاحت به: ما هذا؟ إن جميع الناس يلبسون منه. . . واختار لها لوناً آخر فصاحت به الصيحة الأولى: ما هذا؟ إني ما رأيت قط أحداً يلبسه!

فكان السببان النقيضان عندها صالحين لتعليل العمل الواحد وهو الإحجام عن شراء الحلة المعروضة عليها

لكن جهل الأسباب في الواقع غير مقصور على النساء، وكذلك هذا النمط العجيب من التسبيب

سعيد وإبراهيم وإسماعيل ثلاثة اخوة صغار يلعبون أمام المنزل في معظم الأحيان، أكبرهم في التاسعة وأصغرهم في نحو الخامسة؛ فهو لا يذهب إلى المدرسة أو لا يريد أن يذهب إليها.

لقيته يوماً يلعب مع غير أخوته فسألته:

ماذا تصنع يا إسماعيل؟

قال: لا أصنع شيئاً.

قلت: لكني أراك تلعب، فأين ذهب أخواك؟

قال: إلى المدرسة؟

قلت: ولم لم تذهب أنت معهما؟

قال: هكذا!!

قلت: هكذا؟ هكذا كيف؟

فأعادها مرة أخرى، وأدركه طفل أكبر منه بالجواب، فقال: إنه صغير! وهو على كل حال جواب يحسن السكوت عليه.

قد يقال: وأسباب الأطفال أيضاً هي أسباب النساء .!

لكن الواقع أن جهل الأسباب على هذا النمط غير مقصور على النساء والأطفال، وأن أناساً كثيرين بعضهم متعلمون وبعضهم غير متعلمين يجهلون أسباب ما يعملون وأسباب مالا يعملون، وتسألهم عن أمر من الأمور التي تقوم عليها الحياة وتتصل بها الأرزاق، فلا يعطونك سبباً، أو يعطونك سبباً قلما يغنيك عن التعليل.

أعرف أسرة من الأذكياء المتعلمين ينتقلون من منزل إلى منزل كل ستة شهور أو كل سنة على أبعد أجل، ويحيل أحدهم على الآخر في بيان أسباب الانتقال، فهذا المنزل كرهه فلان، وهذا المنزل انتقاه فلان، وآخر ما يقال في تهوين هذه المشقة وتهوين ما يتبعها من خسارة ونفقة:

وما الفرق بين بيت مستأجر وبيت مملوك إن كان الإنسان لا يتنقل بين البيوت؟

ومن الواضح أن الإنسان لا يزعج نفسه وأسرته بالانتقال وتحطيم بعض الأثاث وتجديد بعضه على حسب تنظيم المسكن الجديد لغير شيء إلا أن يجد الفرق بين البيت المستأجر والبيت المملوك، أو أن ينفس على شخص واحد أن يتقاضاه الأجر زمناً طويلا فيفرقه بين أشخاص متعددين.

فلا بد من سبب ولا بد من باعث، ولكننا نحن الآدميين جميعاً نعمل ولا نكلف عقولنا تبيين أسبابها، وإن كنا نبالغ في سؤال الآخرين عن الأسباب

وقد يسهل على الأكثرين أن يعرفوا أسباب ما يعملون إذا استقصوا هذه الأسباب. أما الذي يصعب على الأكثرين فهو عرفانهم أسباب مالا يعملون، كأنما يحسبون أن الإنسان يترك جميع الأعمال لغير سبب، أو أنه لا يحتاج إلى الأسباب إلا عندما يعمل شيئاً أو يشرع في عمل شيء، فأما أن يكف عن العمل أو عن الشروع فيه فذلك طبيعة لا تحتاج إلى سؤال

هذه حالة إذا أفرطت من إحدى جهتيها انتهت إلى الإباحية التي تتساوى عندها جميع البواعث والدواعي، أو إلى الإباحية التي وصفها ابن المعتز في قوله:

قليل هموم القلب إلا للذة ... ينعّم نفسا آذنت بالتنقل

يعب ويسقي أو يسقى مدامة ... كمثل سراج لاح في الليل مشعل

ولست تراه سائلا عن خليفة ... ولا قائلا من يعزلون ومن بلى

ولا صائحا كالعير في يوم لذة ... يناظر في تفضيل عثمان أو علي

وهي حالة قريبة مما نراه من قلة المبالاة أو قلة التمحيص أو قلة (التدقيق) على حد تعبير أبناء البلد - عند أناس كثيرين في العصر الحاضر يعملون وينظرون إلى غيرهم يعمل ثم لا يسألون ولا يفكرون. . . وهذا إن كانوا يعملون وينظرون.

أما إذا أفرطت هذه الحالة من جهتها الأخرى فنهايتها إلى الوسواس والمراجعة في كل شيء والمحاسبة على أهون الأمور، والتردد بين الخواطر حتى لا إقدام ولا إحجام ولا فائدة من الإقدام والأحجام.

إنما الحد القوام بين هذا وذاك أن يكون المرء قادرا على تعليل عمله والنفاذ إلى باطن مشيئته، لأنه متى قدر على ذلك استولى على زمام نفسه، وقبض على سكان سفينته في زعازع هذه الحياة. فمن عرف لماذا يعمل عرف كيف يجتنب العمل إذا وجب عليه اجتنابه

وعرف كيف يقنع به غيره إذا حسن عنده إقناعه

وعرف كيف يصنع على مثال أجمل وأكمل إذا لاحظ تقصيرا فيه

وكذلك من عرف لماذا لا يعمل شيئا من الأشياء، فانه خليق أن يروض نفسه على عمله متى عرف سهولة المانع أو عرف ما فيه من مؤاخذة ونقيصة. وخليق أن يفهم دواعي

الأحجام عنده فيعالجها بما يصلحها أو يقربها إلى الصلاح

بعض علماء النفس ينصحون طلاب الرياضة النفسية بتسجيل المذكرات اليومية، لإثبات أعمالهم وقياس الفارق بين أمسهم ويومهم

والذي نراه أن تسجيل المذكرات اليومية لا يجدي جدواه ما لم ينته إلى مساءلة النفس عن بواعثها ودواعيها. فليجرب من شاء أن يختار حادثة من حوادث الحياة كل يوم يسأل عن سببها ويستقصي دخائلها ويصمد على ذلك شهرا واحدا ثم ينظر في نتيجة هذه الرياضة، فإنه واجد لا محالة أنه يتقدم في طريق القدرة على النفس والقدرة على الحياة، وأنه يصبح يوما بعد يوم سيد نفسه ومالك قياده، وتلك بغية

الرجل الكامل في الثقافة وفي الرياضة وفي الآداب والأخلاق
عباس محمود العقاد
فأصبحتم بنعمته إخوانا
لأستاذ جليل
إلى حضرة الدكتور محمد حسن البرازي
الأستاذ في الجامعة السورية
يا سيدي، إن قولي: (المرء بفضله وفصله، لا بزخرفه وأصله، والأمة إنما هي بلغتها وأدبها وعقيدتها ومصلحتها) وتمثّلي بحديث الهمذاني وجميع ما رقمتُه في تلك القطعة من (الكلمة) - هو إعلان حقيقة قالوها، وليس في شاهدي من كلام (البديع) إزراء بأصلٍ ما، أو استصغار قبيل إن ظن أحد إن ذلك فيه
ولم أنعَ في (كلمتي) - كما لاح لأخي الدكتور - علي مُعْتز إلى الفرنسية نخوته حين قال: (أنا فرنسي، أنا فرنسي، أنا ابن الغول) إنّ له أنْ يقول وينتخي كما يقول الإيطالي والجرماني والبريطاني وغيرهم مزهوين. والمكتوب هناك هو شرح حال.
وأرى أن أذكر في هذا المقام أن الأمة الألمانية في تلفيقها وتأليفها إنما هي مثل الفرنسيس وغيرهم من الأمم، وكان صاحب مجلة جرمانية قد اعتزم قبل (الحرب الكبرى) على أن يبحث عن عناصر الجرمان بحث العلماء المحققين فمنعته وزارة الحرب من ذلك
ألمانية نقية صافية خالصة مروَّقة مصفَّقة ما كانت ولن تكون
والسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب (خرَّيج الملك نور الدين محمود بن الشهيد رضي الله عنهم أجمعين) وسادتنا الأيوبيون ملوك العرب لا أعدهم - ونحن في هذا الشكل من البحث - أكراداً، بل هم عرب، بل هم أعرب من يَعْرُب ابن قحطان. وقولي في البرازيين الكرام، في بلاد الشام مثل قولي في الأيوبيين، ولا أقصد بما أقول تفضيل عربية على كردية، أو تفضيل كردية على عربية، فلست في حديثي هذا من (المفضلة).
وبعد فنحن نتلهى في غيبة السلطان الأعظم (أعني الإسلامية) بهذه المسماة (جنسية وقومية ووطنية) ومشابهما من الفتن الأوربية، فإذا جاء القرآن، إذا جاء محمد، إذا جاء الإسلام، الإسلام الصحيح خرست العربية المصرية، وخرست الأعرابية الجزَرية، وخرست الكردية، وخرست الشامية والعراقية، وخرست البربرية والمغربية والغربية، وخرست
الهندية والفارسية والصينية والحاوية والتترية
(إنما المؤمنونَ إخوة)
واعتصموا بحبل الله جميعاً، ولا َتفرَقوا، وذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألَّف بين قلوبكم، فأصبحتم بنعمته إخوانا، وكنتم على شَفا حُفرةٍ من النار فأنقذكم منها، (كذلك يبين اللهُ لكم آياته لعلكم تهتدون)
قل: نار الضلال والتعادي، نار الجنسيات والقوميات والوطنيات والعصبيات والطبقات
قال الدكتور البرازي في (مقاله): (دين الإسلام عالمي) وهذا أظهر من الشمس، وهذا واضح بّين مثل ضياء القرآن المضيء الباهر
(إنْ هو إلاّ ذِكرٌ للعالمين)
(قُلْ: يا أيها الناسُ إني رسول اللهِ إليكم جميعاً)
ومن الأفاكيه التي تُروى للإطراف والتفكيه قول (طائفة من اليهود يقال لهم: العيسوية - وهم أتباع عيسى الأصفهاني - إن محمداً رسول الله صادق مبعوث إلى العرب وغير مبعوث إلى بني إسرائيل) وقد ذكر ابن حزم هذه الطائفة ومقالتها في كتابه (الفِصَل في الملل والأهواء والنحل) قال: (العيسوية هم أصحاب أبي عيسى الأصبهاني كان باصبهان، وبلغني أن اسمه كان محمد بن عيسى، وهم يقولون بنبوة عيسى ابن مريم ومحمد (صلى الله عليه وسلم) ويقولون إن عيسى بعثه الله (عز وجل) إلى بني إسرائيل على ما جاء في الإنجيل وإنه أحد أنبياء بني إسرائيل وإن محمداً نبي أرسله الله بشرائع القرآن إلى بني إسماعيل وإلى سائر العرب كما كان أيوب نبياً في بني عيص، وكما كان بلعام نبياً في بني مواب بإقرار من جميع فرق اليهود، ولقد لقيت ' من ينحو إلى هذا المذهب من خواص اليهود كثيراً)

وفي (الفرق بين الفرق) للبغدادي: (وقوم من شاذ كانية اليهود حكوا عن زعيمهم المعروف بشاذ كان أنه قال: إن محمداً رسول الله إلى العرب وإلى سائر الناس ما خلا اليهود. وأنه قال: إن القرآن حق، وإن الأذان وإقامة الصلوات الخمس وصيام شهر رمضان وحج الكعبة - كل ذلك حق، غير أنه مشروع للمسلمين دون اليهود)
قلت: إن الله (عز وجل) يقول:
(وأرسلناك للناس رسولا)
(وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين)
فهل ترى هذه الطائفة أو تري يَهودُ أنهم ليسوا من الناس. . . وليسوا من العالمين. . .؟؟
الإسكندرية
(* * *)
جورجياس أو البيان
لأفلاطون
للأستاذ محمد حسن ظاظا
- 3 -
تنزل (جورجياس) من آثار (أفلاطون) منزلة الشرف، لأنها أجمل محاوراته وأكملها وأجدرها جميعاً بأن تكون (إنجيلاً للفلسفة!)
(رينوفيير)
(إنما تحيا الأخلاق الفاضلة دائماً وتنتصر لأنها أقوى وأقدر من جميع الهادمين!)
(جورجياس: أفلاطون)
الأشخاص
1 - سقراط: بطل المحاورة: (ط)
2 - شيروفون: صديق سقراط: (س)
3 - جورجياس: السفسطائي: (ج)
4 - بولوس: تلميذ جورجياس: (ب)
5 - كاليلكس: أثيني: (ك)
ط - حسن! ومادمت تُعجب بمهارتك في فن البيان، وبقدرتك على تعليمه للغير، فأخبرني ما هو موضوع ذلك الفن. إن لفن النسج مثلاً موضوعاً هو صنع الأقمشة. أليس كذلك؟
ج - بلى
ط - وموضوع الموسيقى هو تأليف الألحان؟
ج - نعم
ط - يالجينون! إني لمعجب جداً بإجاباتك يا جورجياس! إذ لا يستطيع أحد أن يجيب بأقصر من ذلك!
ج - وأنا أغبط نفسي لنجاحي التام في هذه الناحية!
ط - الحق أنك غير مخدوع في ذلك قط! فأرجو أن تجيبني بالمثل عن علم البيان وأن تخبرني عن موضوعه!
ج - موضوعه الخطب والأحاديث
ط - أية خطب يا جورجياس؟ أتلك التي تشرح للمرضى قانون الغذاء الذي يجب أن يتبعوه كما يتم لهم الشفاء؟
ج - كلا
ط - إذا لا يشمل موضوع البيان كل أنواع الخطب؟
ج - من غير شك
ط - ولكنه يعلم الناس - مع ذلك - الكلام؟
ج - نعم
ط - وهو يعلم أيضاً التفكير في سبب تعليمه الكلام؟
ج - نعم دون ما تناقض

ط - ولكن ألا يبحث فن الطب - الذي اتخذناه مثلاً - ويتكلم في الأمراض؟
ج - بالضرورة
ط - وإذاً أيكون الكلام من موضوعات الطب كما يبدو؟
ج - نعم
ط - أو بالأحرى الكلام الذي يتعلق بالأمراض على الأقل؟!
ج - تماماً!
ط - وبالمثل، ألا يكون موضوع (الرياضة البدنية) هو الكلام في حسن استعداد الجسد أو سوئه؟
ج - هذا صحيح
ط - وهل الأمر بالمثل في الفنون الأخرى يا جورجياس؟ هل موضوع كل منها هو الكلام
المتعلق بما تعالجه من شئون؟
ج - يلوح ذلك
ط - ولم لا تطلق إذاً اسم (البيان) على تلك الفنون الأخرى التي موضوعها (الكلام) ما دمت تطلق هذا الاسم (إطلاقاً) على فن موضوعه الكلام؟
ج - يرجع السبب في ذلك يا سقراط إلى أن الفنون الأخرى تكاد تتعلق فقط بأعمال اليد أو بما يشبه هذه الأعمال من إنتاج. أما البيان فلا ينتج أي عمل يدوي. ولا يقوم كل أثره ونفوذه إلاّ في الكلام فحسب. وهذا ما يجعلني أصرح بأن موضوع البيان هو الكلام، وما يجعلني أدعى أن قولي هذا صحيح!
ط - أعتقد أني فهمت ما تريد أن تعنيه بذلك الفن. ولكني أريد أن يزداد الأمر وضوحاً فأجبني: أليست عندنا فنون كثيرة؟
ج - بلى!
ط - ومن هذه الفنون - كما أظن - ما يقوم في أساسه على العمل دون أن يحتاج لغير أقل قدر من الكلام، أو دون أن يحتاج إلى كلام قط؛ فيتم عمله في صمت تام كالحفر والتصوير وفنون كثيرة أخرى مما قد قلت عنها - فيما يتراءى لي - أنها لا تتصل بالبيان قط؟ أصحيح هذا؟
ج - إنك لتمسك بفكرتي تماماً يا سقراط
ط - هذا بينا توجد على النقيض فنون أخرى تعتمد تقريباً على الكلام ولا تحتاج إطلاقاً إلى أي عمل كالحساب والإحصاء والهندسة ولعب الشطرنج وفنون أخرى كثيرة، إذ بين هذه ما يتطلب من الكلام أكثر مما يتطلب من العمل، بل إن أغلبها يتطلب بالفعل (كلاماً) أكثر. ولذلك تقوم كل قوتها وأثرها في الكلام فحسب. فترى هل البيان من ذلك النوع الذي ذكرت كما يبدو؟
ج - إنك تقول حقاً
ط - ومع ذلك فقصدك - كما أظن - ليس إطلاق اسم البيان على أحد هذه الفنون، لأنه ما إن نقول عامدين إن البيان فن تقوم كل قوته في الكلام حتى يتعلق بعضهم بالألفاظ ويخرج منها قائلا: (إنك إذاً تطلق البيان على الحساب يا جورجياس!). ولا أحسب أنك تسمي
الحساب أو الهندسة بهذا الاسم
ج - إنك مصيب يا سقراط وقد فهمت قولي كما يجب أن يفهم!
ط - إذاً أتمم إجابتك على سؤالي. ما دام البيان أحد هذه الفنون التي تعتمد الكلام اعتماداً أساسياً، وما دامت هناك فنون مثله في ذلك الاعتماد، فأخبرني من أية ناحية يعتمد البيان على الكلام؟ إذ لو سألني مثلا أحدهم عن موضوع فن من الفنون التي أسميها بأسمائها وقال ما هو الحساب يا سقراط؟ فإني أجيبه - كما أجيب الآن - بأنه أحد الفنون التي تعتمد تماماً على الكلام. فإذا سألني ثانياً: من أية ناحية ذلك الاعتماد؟ أجبته: من ناحية الزوج والفرد كيما ندرك عدد الوحدات في هذا وفي ذاك. . . وهو إذا سألني بالمثل عن الإحصاء قلت له أيضاً إنه أحد الفنون التي كل قوتها في الكلام. فإذا طلب: من أية ناحية ذلك؟ قلت: - كما يفعل جامعو الأصوات في الجمعية - إن الإحصاء يقوم للفنون الأخرى مقام الحساب لأن موضوعهما واحد: أي معرفة الزوج والفرد. وهناك فقط هذا الفارق: وهو أن الإحصاء يبحث في كمية الزوج والفرد لا إطلاقاً

فحسب، ولكن أيضاً في علاقات هذه الكمية ونِسبها. وكذلك إذا سألني أحدهم ثانياً عن الفلك وأضاف بعد قولي له إنه فن يعبر بالكلام عما هو في دائرة اختصاصه - أضاف: على أي شيء ينطبق القول في الفلك؟ أجبته بأنه ينطبق على حركة الكواكب والشمس والقمر كما يمتد فيتناول علاقات سرعتها بعضها ببعض

ج - حسن جداً يا سقراط

ط - إذاً أجبني بالمثل يا جورجياس! أليس لبيان أحد هذه الفنون التي تعالج كل شيء وتنجزه بالكلام؟

ج - هذا صحيح!

ط - ولكن أخبرني من أية ناحية هذا؟ وما هو الموضوع الذي يتصل به ذلك الكلام الذي يستعمله البيان؟

ج - إنه يا سقراط أعظم أعمال الإنسانية وأرفعها!

ط - لم يزل ما تقول يا سقراط موضع شك وغموض! ويبدو لي أنك قد سمعت في الولائم تلك الأغنية التي يعدد فيها الندماء خيرات الحياة ويقولون إن أول هذه الخيرات هو الملبس الحسن، وثانيها الجمال الرائع، وثالثها الغنى الحلال كما يقول مؤلف هذه الأغنية؟

ج - لقد سمعتها حقاً ولكن لم تذكرها؟

ط - ذلك أن أصحاب هذه الخيرات التي يتغنى بها الشاعر كالطبيب، ومدرب الرياضة البدنية، ورجل الأعمال، سيقفون في الحال إلى جانبك، وسيبدأ الطبيب فيقول لي إن جورجياس يخدعك يا سقراط لأن موضوع فنه ليس من خيرات الإنسانية الكبرى في شيء، بينا موضوع فني أنا هو الذي يتصل بهذه الخيرات! فإذا سألته: وما مهنتك أنت يا من ترسل هذا القول فإنه سيقول (إنني طبيب!) وإذا ما سألته: ماذا؟ أتدعي أن أعظم خيرات الإنسانية هو ما ينتج من فنك؟ أفلا يحتمل أن يقول لي متسائلاً: وهل يستطيع أحد أن يجحد ذلك ما دامت (الصحة) هي ثمرة هذه الفن؟ وهل هناك خير يفضل الصحة لدى الناس؟

(يتبع)

محمد حسن ظاظا

حواء

ديوان شعر طريف في الغزل العرفاني يصدره الأستاذ الحوماني تحت هذا الاسم . . . وستقدم الرسالة لقرائها نماذج منه في أعدادها التالية ريثما ينتهي طبع الديوان

عبقر الفنان

الأمانيُّ أَعْلَقَتْ بِيَ عيني ... كِ وعيناكِ رمز هذي الأماني
كيف لا أرصد النجوم لعيني ... كِ طوالَ الدجى ولي عينان؟
أفما جالتا - وقد خفق الحا ... لم - من وجنتيكِ في بستان؟
تملأ النفسَ منه بالأمل الغضّ ... رُؤى عبقرية الألوان
لا عيون الرائي تفوز بما تُب ... صر منها ولا أكفُ الجاني
إنما هن في السما مُثُلُ الفنِّ ... وفي الأرض عبقر الفنان

روح الله

مبدعَ الفن! أيُّ كفيكَ خطَّت ... عجب الفن تحت هذه الجباهِ!
في صدور تموج تحت صدور ... وشفاهٍ تهتز فوق شِفاهِ؟
إن في الابتسام والدمع سِرًّا ... هو غير العيون والأفواهِ
أهوَ الحبُّ خلفهن؟ وما الحبُّ؟ ... هل الحب غير روح الله؟
آمنت فيكَ هذه الناس ساهي ... نَ وآمنتُ فيك غير السَاهي
قد تحسست ذات قدسك لا في النا ... ر مسجورة ولا الأمواهِ
إنما الحب دمعة وابتسام ... وهما أنت في الحقيقة لا هي

الحوماني

أحمد الإسكندري بك

بمناسبة مرور أربعين يوماً على وفاته

1875 - 1938

بقلم تلميذه وصهره الأستاذ محمد أحمد برانق

أتصل بي كثيرين من الأدباء الذين يقدرون المغفور له الأستاذ أحمد الإسكندري قدره، ويقرون له بالفضل (وبخاصة أدباء لبنان وفلسطين وغيرهما من الأقطار الشقيقة)، وطلبوا إلى أن أقدم لهم كلمة في تاريخ حياته، موجزاً عن آثاره العلمية والأدبية، ليكون نواة لما يقال عنه في حفلة تأبين يقيمها أدباء بيروت، ولما يلقى من محطة الإذاعة في فلسطين، ولكن شدة وقع المصيبة كاد يصرفني عن كل شيء حتى هذا، إلا أني غالبت ذلك الضيق الذي أحس مرارته في نفسي، واستطعت أن أكتب ما أرجو أن يكون فيه بعض الغناء إلى حين، حتى إذا أمكنتني الفرصة من وضع يدي على آثاره الأدبية المخطوطة، جلوتها للأدباء، وفاء له، واعترافاً بفضله.

نشأته:

صدر العلماء، وغرة الأدباء، وباقعة عصره - أحمد بن علي عمر الإسكندري، ولد في مدينة الإسكندرية في 26 فبراير سنة1875، تعهده أبوه بالتعليم، وبعد أن حفظ القرآن وأجاده التحق بالمعهد الديني بالإسكندرية المعروف بجامع الشيخ. وأكب على التحصيل، ولكن مناهج التدريس لم تشبعه، فكان يقرأ الكتب التي تقع تحت يده، ومنها قصص عنترة، وأبي زيد، وسيف بن ذي يزن وألف ليلة وليلة، ونحوها، فأولع بالأدب، وقرض الشعر يافعاً، وعرفه بعض أبناء الأعيان المتأدبين، ولكن الأفق العلمي في الإسكندرية أصبح محدوداً أمامه، فرغب في النزوح إلى القاهرة حيث الأفق أوسع، ولكن والده لم يوافقه؛ إلا أن الهمة البعيدة الموهوبة، تفك القيود، وتحطم الأغلال، وتحتال لتقهر كل صعب، فصمم الغلام أحمد الإسكندري على الرحلة إلى القاهرة، وجمع كتبه وحزمها، وخرج في غفلة من أهل الدار، وليس في جيبه إلا دريهمات كان قد ادخرها، وصحبه في سفره اثنان لا أذكر اسميهما، أما أحدهما فإنه تخلف في حدود الإسكندرية، وأما الآخر فأنه صحب أحمد وركبا مركباً يسير في ترعة المحمودية حتى وصلا إلى مدينة كفر الزيات. وهنا نفذ زادهما ودريهماتهما، فعاد الرفيق إلى الإسكندرية، أما هو فأن عزمه حديد لا يفل؛ فقد حمل كتبه على ظهره، ومشى على قدميه من مدينة كفر الزيات حتى وصل إلى القاهرة وهو حدث.

والتحق بالأزهر ليتلقى علوم اللغة والدين. وفي سنة 1894 التحق بمدرسة دار العلوم، وكان أصغر زملائه سناً، وأنبههم ذكراً، وأوسعهم معرفة. وكان من عادة المدرسة حينئذ أن تعقد في أول كل سنة دراسية اختباراً عاماً لطلبة المدرسة في كتب تعينها لهم، ثم في المعلومات العامة، فكان الإسكندري في كل عام فارس الحلبة الذي لا يدرك، فتخصه المدرسة بجوائزها

وكان أيام الطلب مبرزاً في مادة الإنشاء بديع الصنعة، مليح الصيغة. كتب أول أمره على الطريقة الشائعة إذ ذاك، وهي طريقة السجع، وله موضوعات كانت موضع إعجاب أساتذة الإنشاء في عصره، فأطروها ونشروها منسوبة إليه في كتب لهم؛ ولعل من هؤلاء الشيخ مفتاحاً - إن لم تكن الذاكرة قد خانتني - فإنه نشر له موضوعاً في وصف قنطرة قصر النيل (الخديوي إسماعيل الآن) في كتاب له

تخرج في دار العلوم سنة 1898، واشتغل بالتدريس في المدارس الأميرية، ثم كان ناظراً لمدرسة المعلمين في الفيوم والمنصورة؛ وفي هذه الأثناء ظل على نشاطه الفكري، فأخذ من محاسن الآداب بأوفر حظ.

في دار العلوم

في سنة 1907 انتقل إلى دار العلوم لتدريس مادتي الإنشاء والأدب العربي وظل يزاول ذلك العمل بتلك المدرسة زهاء سبعة وعشرين عاماً، ألف في أثنائها كتاباً عن الأدب العربي في العصر العباسي، أجمع الأدباء على أنه كان المعين الذي استقى منه جميع من بحثوا في تاريخ الأدب من بعده. وضع لطلبته مذكرات في العصور الأخرى، كانت وما تزال عدة الطلبة، يجدون فيها طلبتهم فيستعينون بها على تهيئة أنفسهم لأن يكونوا أدباء باحثين لما تحتويه من الحقائق العلمية والفنية الخالية من الزخرفة والتهويل، ولأنها ترسم لهم طريق البحث في أحدث صورة. وكان منهج تاريخ الأدب في دار العلوم يحتوي فوق النظريات العامة تراجم كثيرة لعدد كثير من الكتاب والشعراء والخطباء والعلماء وغيرهم؛

فكانوا يضطرون إلى وضع مختصرات تشبه المتون؛ وهذا لا يعلم الطلبة، ولا يربي فيهم ملكة البحث فاقترح - رحمه الله - أن يكتفي بدراسة بضع تراجم بحيث يدرس المترجم دراسة تفصيلية تحليلية وافيه، يرى فيها الطلاب نبراساً يهتدون به إذا حاولوا مزاولة البحث أو تصدوا لاستقصاء أي عمل علمي؛ وحمل هو هذا العبء بادئاً ونهض به. وكان من حسن حظي أن كنت من أول من تتلمذوا عليه حين زاول هذا العمل، فاستفدنا منه أجل فائدة، وهو أول من اقترح تدريس فقه اللغة في مدرسة دار العلوم، وكان غير معروف من قبل في المدارس المصرية. وتقدم لعمل المنهج، وحمل عبء تدريسه، فقسمه قسمين: قسم فلسفي نظري يتعلق بنشأة اللغات والاشتقاق والنحت واختلاف اللهجات وغير ذلك؛ وقسم نظري يتعلق بوضع الألفاظ اللغوية للمسميات، وكان مجدداً في ذلك، فوفقه الله كل التوفيق، وجاء من بعده فاهتدوا بهديه، وساروا في نهجه.

وفي سنة 1922 عرض عليه موظف كبير كان بوزارة المعارف أن يزج بنفسه في المعترك السياسي، وأن يحرر مقالات ينشرها في الصحف اليومية، يؤيد بها حزباً معيناً، فأبت عليه نفسه أن يفعل، محتجاً بأن العلماء أحرى بهم ألا يكونوا ساسة، وأن ما يتطلبه العلم من الأخلاق غير ما تتطلبه السياسة.

وجميع من تخرجوا في دار العلوم من سنة 1907 إلى سنة 1934 تتلمذوا عليه ما عدا فرقتين اثنتين.

في الجامعة

وفي سنة 1933 اختير أستاذاً للأدب العربي بقسم اللغة العربية بكلية الآداب، فاضطلع بذلك العمل على أكمل وجه وأتمه، فأحبه تلاميذه، وأقبلوا عليه، وأفادوا منه.

في المكتب الفني

وفي سنة 1935 كتب إليه وزير المعارف إذ ذاك خطاباً يخبره فيه أنه يريد أن ينتفع بعلمه الواسع وتجاربه الطويلة في المكتب الفني في وزارة المعارف، فكان فيه عضواً عاملاً؛ وكانت له مشاركة تامة في وضع مناهج اللغة العربية للمدارس الابتدائية والثانوية، وفي مراجعة الكتب العربية لهذه المدارس.

في المجمع اللغوي

عندما أنشئ المجمع اللغوي الملكي في 13 ديسمبر 1932 وقع عليه الاختيار ليكون عضواً من أعضائه. وإن من يراجع محاضر جلسات المجمع في سنواته الخمس، يجد أنه كان المحور الذي تدور حوله المقترحات والمناقشات، فكان بحق كما وصفه بعض العارفين: (مخ المجمع). ولما تكونت اللجان الفرعية ساهم في أكثرها، فكان عضواً في لجنة الرياضات، ولجنة العلوم الطبيعية والكيمائية، ولجنة علوم الحياة والطب، ولجنة المجلة، ولجنة خزانة الكتب، ولجنة الميزانية، ولجنة الأصول العامة، فكان عضواً في سبع لجان من إحدى عشرة لجنة.

تعصبه للغة العربية

كان يحب اللغة العربية ويتعصب لها تعصباً جعله يصف من يتهاون في أمر من أمورها بالزندقة والإلحاد. وكان يعتبر التساهل وفتح الباب للغات الأجنبية، لغزو اللغة العربية، جريمة شنيعة ومن يرجع إلى محاضر جلسات السنة الأولى للمجمع اللغوي يجد أنه جاهد جهاداً شديداً حتى جعل المجمع يوافق على عدم اللجوء إلى التعريب إلا لضرورة قصوى. وكان يعجب من القوم الذين يعيبون على المجمع استعمال ألفاظ غريبة لمسميات جديدة، لأنه كان يرى أن هذه الألفاظ وإن بدت غريبة الآن فإنها بالاستعمال والمران تسهل على السمع وتجرى على اللسان، وهي أصون للغة من الدخيل. وله في مسألة التعريب مواقف مشهودة وقفها في نادي دار العلوم القديم الذي كان يرأسه المرحوم عاطف بركات باشا، وفي المجمعين اللغويين الأهليين القديمين اللذين رأسهما المغفور له العلامة الشيخ سليم البشري ولطفي السيد باشا؛ ومبدؤه هذا كان يبثه في تلاميذه، ويحضهم على الاستمساك به، حتى لتجد جمهرتهم إن لم يكن كلهم من رأيه ومبدئه.

مؤلفاته

أول كتبه كتاب تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي، ثم ألف كتاباً عن اللهجات العامة، قدمه لمؤتمر المستشرقين سنة 1911، ورأيته عنده مخطوطاً ولم يقع نظري

عليه منذ سنتين. ثم ألف كتاباً للمطالعة للمدارس الثانوية في عدة أجزاء، وسماه (نزهة القارئ) طبع
منه جزءين نفدت منهما طبعات، قررته وزارة المعارف سنة 1934، ولكن أموراً شكلية تتعلق بشروط قائمة بينه وبين (مكملان) حالت دون التنفيذ
وألف كتاباً عاماً في الأدب العربي في جميع عصوره، يقع في بضعة آلاف صفحة، وكان في نيته أن يطبعه، واشتغل في السنة الأخيرة من حياته بوضع مقدمة له وصفها هو بأنها: تقع من تاريخ الأدب موقع ابن خلدون من التاريخ؛ وأعد العدة لذلك، ولكن عاجلته المنية، فاقتطعه دون الأمنية
وله بعد ذلك مؤلفات في فقه اللغة كان يضعها لتلاميذه؛ لكنه لم يجعلها كتاباً عاماً لاعتقاده أن هذا من شئون الخواص. واشترك مع غيره في وضع كتب مدرسية في التاريخ العام وتاريخ الأدب والنصوص الأدبية أكثرها يدرس اليوم. وليس مقام البحث في هذه الكتب ودراستها، ولكنه مجرد سرد موجز لما عمله.
أخلاقه وصفاته وعلمه:
كان هيناً، ليناً، صريحاً، أبياً، عذب الحديث، بارع الجد، حلو الفكاهة، سريع الخاطر، حاضر النكتة، ظريف التفصيل والجملة، ميالا إلى العزلة، فكان يقضي في بيته أياماً لا يبرحه. وكان كثير القراءة، تمر به أيام يقرأ فيها خمس عشرة ساعة أو أكثر في اليوم. وكان سريع التعليق، ويقتني مكتبة عظيمة، وليس فيها كتاب لم يقرأه ولم يعلق عليه.
وكان أهم ما يعني به في قراءته بعد أن استوعب الكتب القديمة مطبوعة وخطية - هو الكتب المترجمة، وكان أول ما يقرأ في الصحف برقياتها الخارجية
أما معلوماته العامة فواسعة المدى، فهو سياسي مع الساسة، وأثري مع علماء الآثار، ومصور مع علماء التصوير، واجتماعي مع رجال الاجتماع، وهو كذلك رياضي وطبيعي وكيميائي ومؤرخ. وكانت له في كل هذه العلوم مشاركة تامة تدل على استبحاره. والموضوعات التي عالجها في كتابة نزهة القارئ، والكلمات التي وضعها في مجلة المجمع، ورسالته الأخيرة التي قدمها للمؤتمر الطبي العربي ببغداد - كل هذا يشهد بأنه كان ذا نشاط جم، وعقل جبار
ومجالسه مع أصدقائه تشهد بما كان له بينهم من جليل القدر وعظيم الأثر. حدثني أحد الفضلاء أنه شكا إليه يوماً تخبط الإنجليزية واضطرابها في شرح نظرية دارون، وأنه تعب كثيرا في التقصي والبحث إلا أنها لم تصر جلية في ذهنه كما يجب، فأفاض الشيخ في شرح هذه النظرية ببيانه المعروف عنه، وتوضيحه وتذليله وتصويره للحقائق في أيسر صورها، حتى ترك صاحبه ومن كانوا معه يقولون: كأن دارون لم يفض بحقيقة نظريته إلا له، فاختصه الله القدرة على تفهيمنا.
وحدث صديق له قال: صحبته وبعض خلصائه يوماً إلى دار الخيالة؛ وما كدنا نصل إليها حتى أبدى أحدنا غرابة مما وصل إليه العلم من عرض الصور الصغيرة وتكبيرها؛ ثم تسجيل الصوت؛ فما كاد يسمع منه ذلك حتى أنطلق يشرح لهم نظريات عن فن التصوير والعدسات وأنواعها وكيفية استعمالها، ثم عن التقاط الأصوات في (الاستوديوهات) وما يعانيه الممثلون والممثلات. والتفت حوله جمع من الناس وأقبلوا عليه بمجامعهم، يستمعون منه، معجبين به، بل ود بعضهم لو أبطل صاحب الخيالة خيالته ليتم له حديثه.
من ذلك تعلم أنه تبوأ مكانه بجدارة بين علماء عصره. وكان ركناً عظيما تعتمد عليه وزارة المعارف والمجمع اللغوي والهيئات العلمية والأدبية.
وكان إذا أراد أن يعالج موضوعاً عالجه غيره من المحدثين لا يطلع على ما كتبه ذلك الغير إلا بعد أن يكتب. وكان في كبره لا يهاجم من يخطئون كما كان يفعل أيام شبابه، ولكنه كان يرد عليهم في أثناء بحثه من غير إشارة إليهم ومن غير أن يمسهم من قرب أو من بعد.
وكان موضع الثقة من كثير من العلماء الأعلام، يراسلونه ويستفتونه في كثير من المسائل التي يشتبه عليهم الأمر فيها، أو لا يهتدون إلى مصادرها، ومن هؤلاء الفضلاء الأب أنسطاس ماري الكرملي؛ فإن رسالاته لم تنقطع عنه حتى في أيام مرضه الأخير. وكان الأب على جلالة قدره يعترف له بالفضل والأستاذية، كما كان يعترف غيره. كتب إليه يوماً يقول: (. . . جاءني كتابك وفيه من سبحات النور ما جعلني أدعو الله أن

يزيدك فضلاً وعلماً للمستجيرين بك واللائذين إلى بحر عرفانك الجم. ولو كان في الإسلام في عصرنا هذا عشرة مثلك في مصر. لانتقل الحنفاء جميعهم إلى هذه الديار المباركة للاقتباس من فيض نورك المتدفق. . . الخ).

وكان في جلسات المجمع الأصلية والفرعية إذا أشكل أمر أو أظلمت مسألة خرج هو على الأعضاء بما يزيل اللبس ويكشف الغموض والإبهام. وكانوا جميعاً يعترفون له بالسبق،

ويعتبرونه جهيزة تقطع قول كل خطيب. قال الدكتور منصور فهمي بك عضو المجمع اللغوي في معرض رثائه: (. . . إنا أمس الأول - حين جمعتني وبعض زملائك حلقة من حلقات المجمع اللغوي - كنا نقول فيما كنا نتذاكر فيه: انتظروا السكندري، وأرجئوا المسألة فعند السكندري علم ما أشكل علينا، ولديه حل ما استعصى علينا، والآن يموت حلال المشكلات، والمرتجى في اللغة للمستعصيات. . . الخ).

وعندما سافر سنة 1911 إلى مؤتمر المستشرقين في بلاد اليونان بصحبة المغفور لهم: الأمير فؤاد (جلالة الملك فؤاد)، وأمير الشعراء أحمد شوقي بك وأحمد زكي باشا، وحفني ناصف بك، وغيرهم، خطب في موضوع اللغة العربية الفصحى، وقلة انتشارها بين الغالبية العظمى من أهل الممالك الإسلامية المختلفة، وعرض على جماعة المستشرقين استفتاء في رأى المرحوم يعقوب أرتين باشا وكيل وزارة المعارف إذ ذاك، في: (هل يجوز أن تحل في كل بلد لغة أهله العامية - وهي لغة السواد الأعظم - محل اللغة الفصحى في الكتابة، وتستعمل في المخاطبة؟) وذكر لغات البلاد العامية ولهجاتها المختلفة، وأدب كل لغة في نثرها ونظمها، وقرأ ذلك من كتاب له غير مطبوع. . . قال إن يعقوب باشا كلفه بوضعه عن لغات هذه الشعوب الإسلامية العامية، فقضى في بحث هذه اللغات واللهجات بضع سنين، واقتبس منها ما دونه في كتابه المذكور، وهي لغات العامة في بلاد العرب والشام والعراق ومصر وتونس والجزائر ومراكش وغيرها من البلاد التي يتكلم أهلها اللغة العربية بلهجتها العامية الخاصة بها. وقد اهتم المستشرقون بهذا البحث وناقشوه فيه، وقضوا وقتاً طويلاً في مباحثته ومساجلته، ثم انتهوا من ذلك إلى قرار صريح بأن: (اللغة العربية الفصحى هي اللغة التي تصلح للبلاد الإسلامية العربية للتخاطب والكتابة والتأليف؛ وأن من واجب حكومات هذه البلاد أن تعني بنشرها بين الطبقات الشعبية لتقضى على اللهجات العامية التي لا تصلح كلغة أساسية لأمم تجمعها جامعة الدين والعادات والأخلاق). وكان هذا القرار فوزاً بالغاً له سر به المجمع، لأنه كان تعزيزاً لرأيه ضد رأي أرتين باشا، وهو نصير اللغة العامية، وإحلالها محل اللغة العربية الفصحى.

وفاته

وفي منتصف الساعة الخامسة من مساء الثلاثاء 18 من صفر سنة 1357 - 19 من إبريل سنة 1938: لحق بالرفيق الأعلى، على أثر مرض ألزمه الفراش أسبوعين ولم يجد دواء الطبيب، فلكل أجل كتاب:

دخل الدنيا أناس قبلنا ... رحلوا عنها وخلوها لنا

فنزلناها كما قد نزلوا ... ونخليها لقوم بعدنا

محمد أحمد برانق

الإسلام في فارس

للأديب حسن حبشي

لعل أبلغ معجزة للإسلام هي تلك السرعة التي وسِم بها انتشاره في رحاب المعمورة، حتى لقد خفق لواؤه في مدي قرن من الزمان على كثير من بلدان آسيا وإفريقيَّة، وتغلغلت شريعته وحبه والإيمان به في نفوس قوم درجوا على الشرك، وكانوا لا يألون جهداً - هم وأسلافهم من قبل - في صدِّ كل عادية عنه. ومن مظاهر هذه المعجزة إسلام التتر بعد أن كاد الإسلام أن يحتضر من خطبهم وتدميرهم، فلقد كانوا (المصيبة الكبرى التي عقّتِ الأيام والليالي عن مثلها، فأن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها) فإذا هم - بعد اعتناقهم إياه - من أكبر الذَّابين عن حياضه، المدافعين عن بيضته. ويذهب السير توماس أرنولد في تعليله لهذا الانتشار والسبق الذي اختُص به الإسلام دون غيره إلى ما أتَّسَمَت به العقيدة الإسلامية من بساطة لا تعقيد فيها، وإلى وحدانية الله، وإلى أن محمداً عبده ورسوله

لقد درج الإسلام في بلاد الحجاز، ثم ما لبث أن اتسعت رقعته وامتدت فتوحه شرقاً وغرباً فأصبحت العراق وفارس ومصر والشام وفلسطين وبلاد الخزر وإفريقية والنوبة والهند إمارات إسلامية قد انتقلت من الشرك والاضطهاد والنضوب الفكري إلى وحدانية مشرقة، وعدل أظل الجميع بفيئه، ونهضة اجتماعية وذهنية غيرت معالم الحياة بأسرها. ولا غرو فالإسلام في جوهره دين عقلي بأوسع ما تدل عليه هذه الكلمة من معنى

وتاريخ الإسلام في مبدئه هو تاريخ تلك الأقطار المفتوحة، وحسبنا في هذا البحث الموجز أن نرى مدى انتشاره في إيران وإن ذهب أهلها شيعاً وتباينوا عقائد ويرتبط تاريخ إيران الإسلامية أيما ارتباط بهذه الجماعات التي كانت تفد عليها متاجرة أو مهاجرة من جهة، ومن جهة أخرى بتاريخ اللملوك والخانات الذين كان لبعضهم فضل الجهاد في سبيل نشر الدين، وإن وجدوا في كثير من الأحيان إقبالاً من الشعب نفسه يرجع في جرثومته إلى أسباب عدة ليس هذا مجال بحثها. كما أن بعض القواد لم يدخر وسعاً في سبيل نشر الإسلام فكان ابن القاسم فاتح بلاد الهند داعيةً من دعاته، وأحد الحريصين على بث مبادئه العاملين على بسط نفوذه، فلقد عرض على أمراء الهنود اعتناقه، ولم يكن الطمع في الغنيمة فحسب هو الدافع للجند العرب المسلمين على الاستبسال ولاستماتة في هذه

الفتوح العظيمة؛ تلك الروح التي تتمثل في قول خالد ابن الوليد حين لاقاه أهل الحيرة فقال لهم (أدعوكم إلى الإسلام فإن أنتم فعلتم فلكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم، وإن أبيتم فأعطوا الجزية، فان أبيتم فقد أتيتكم بقوم هم أحرص على الموت منكم على الحياة)

لقد كان فتح العرب لبلاد فارس حادثا جديدا في تاريخ الإسلام من الناحتين الفكرية والاجتماعية، كما كان له أثره القوي فيما بعد - في الناحية السياسية والدينية لِما ظهر عند أهله من هوى عنيف للمذهب الشيعي، وإن أرجع بعض المستشرقين هذا الميل إلى زواج الحسين بن عليّ (بشاه بانو) إحدى بنات يزدجر الثالث آخر ملوك آل ساسان، ومن زعماء هذا الرأي الأستاذ جولد تسيهر.

دخل المسلمون هذه البلاد الغريبة عنهم في حضارتها وتاريخها ونظمها السياسية وتفكيرها، فكان ثمة احتكاك تولدت عنه نزعات جديدة في كل هذه الأمور، ولعبت العصبية القومية دورا خطيراً على مسرح الحياة العامة فكانت دعامة الدعائم في قيام الدولة العباسية التي اتخذت عاصمتها في بلدٍ ينزع أهله إلى تأييدها

كانت بلاد الفرس وقت أن دخلها العرب مللاً متباينة، ونحلا مختلفة متنازعة، فهناك الصابئة والمجوس وأتباع ماني وزرادشت، وهناك أهل الكتاب من يهود ونصارى، فكان القوم بين مشرك ووثني وموحِّد ومثلث، فلم يكن الاضطراب سياسيا فحسب، بل كان دينيا كذلك. فوجد العرب هذه البلاد على حال من الفوضى السياسية والاجتماعية والدينية، فكان العبء عليهم ثقيلا، وكانت التركة بين أيديهم تتطلب منهم سياسة حكيمة ماهرة، حتى يستطيعوا أن يهيئوها لغد يزهو على الأمس، ويجعلوا من أهلها دعاة للحنيفية السمحاء

لقد مرت القرون تنري والقوم مقيمون على الشرك وعبادة النار والنجوم، فما أهل الإسلام عليهم بنوره حتى تسارعوا زمراً لاعتناقه والدفاع عنه، فكان أئمة الدين وجلة علمائه من أهل فارس حتى لقد لاحظ ذلك ابن خلدون فقال: (من الغريب الواقع أن حملَة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم، لا من العلوم الشرعية، ولا من العلوم العقلية إلا في القليل النادر وإن كان منهم العربي في نسبته فهو عجمي في لغته ومرباه ومشيخته مع أن الملة عربية وصاحب شريعتها عربي) وكان أشد المدافعين عن الدين وعن العرب من رجال الفرس حتى في الأوقات التي ظهرت فيها العصبية القومية بأجلى معانيها، وفي الوقت

الذي أطلت فيه الشعوبية تزعم ما تزعم من جحود ونكران للواقع، وكأن هذا الميل القوي للإسلام لم يرق في نظر البعض فذهب إلى أن مرجع اعتناق الفرس للإسلام أنهم ألْفَوا في القرآن الأركان الأساسية لديانتهم القديمة وإن اختلفت قليلاً، فلم يكن من العسير على الفارسي أن يقبل على عبادة اهرمزدا واهريمان إلهي الخير والشر حيث استترا وراء كلمتي الله وإبليس في الديانة الجديدة، كما يقول إن الإسلام اتفق

والوثنية الفارسية القديمة في القول بخلق الإنسان ووجود الملائكة والبعث يوم القيامة وعودة الروح والجسم ثانية وفي فكرة الجحيم والجنة، فالتقت العقيدة القديمة والدين الجديد في هذه النواحي. وغرض دوزي من ذلك الطعن في إسلام الجماعة الأولى من أهل فارس، وتجاهل هذه الروح الكريمة التي امتاز الإسلام والتي لا زال يغزو بها القلوب حتى في عصر المادة فلا كبرياء ولا أرستقراطية مستهجنة)

لم يقصر فضل الإسلام على الناحية السياسية وانتشال البلاد من التدهور الاجتماعي، بل تعداها إلى الناحية الدينية بين القوم وغيرهم من أهل الكتاب من النصارى واليهود، فعامل الجميع معاملة حببت الجماعة فيه، ولم يرغمهم على التصديق به والإيمان برسالته وإنما حاجَّهم فإن أبوا فليس إلا الجزية، إذ (هي واجبة على جميع أهل الذمة من اليهود والنصارى والمجوس والصابئين والسامرة)

ولم تكن هذه الجزية دينية بحتة، وإنما كانت كذلك للقيام بالمحافظة على دافعيها وضمان سلامتهم، في ظل هذا النظام الجديد الذي لم يألفوه من قبل أيام دولة الأكاسرة التي استبدت وبطشت بالمسيحيين وعصفت بهم ولم تحترم شعورهم، بل كانت شديدة الوطأة عليهم فلاقى من عنتها اليعقوبيون والنسطوريون ألواناً من العذاب والتنكيل واضطربت أمورهم في أيامها. أما المجوس فقد اكتفى العرب منهم بالجزية، فلقد قال أبو يوسف إنه (ذكر لعمر بن الخطاب رضى الله عنه قوم يعبدون النار ليسوا يهودا ولا نصارى ولا أهل كتاب (يعني المجوس) فقال عمر ما أدري ما أصنع بهؤلاء؟ فقام عبد الرحمن بن عوف فقال أشهد على رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال (سنوا بهم سنة أهل الكتاب) وذكر أنه (كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المنذر بن ساوي أن من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم، له ذمة الله وذمة رسوله فمن أحب ذلك من المجوس فهو آمن ومن أبى فعليه الجزية)

يقول الأمير كايتاني (لقد كان الاضطراب المعنوي الذي ملأ أذهان المسيحيين يسير جنباً إلى جنب مع الفوضى السياسية في الدولة، وإذ شغلهم توالي نزول هذه الكوارث والتدهور الخلقي الذي حاق بهم من جراء هذا الصراع العنيف بين المذاهب المتنافرة الموجودة بينهم فلقد مالوا إلى هذا النمط الذهبي العجيب الذي يسهل على العقيدة الجديدة أن تتمكن فيه. ولقد كان أهل فارس - وخاصة الأجناس السامية - في نفس هذه الحال الذهنية مما جعلهم يرحَّبون بالثورة الإسلامية التي سرعان ما أزالت من طريقها فساد الماضي، وساعدها على ذلك ما امتازت به العقيدة الجديدة من بساطة خالصة، هيأت النفوس لعهد جديد فائض بالآمال وخلصت القوم من الرق). . . لقد شهد بذلك كيتاني وهو من هو في دراسته للتاريخ الإسلامي والعقلية الإسلامية

وكان دخول الإسلام بلاد فارس مؤذناً بعصر جديد من التحرر الفكري، كما رأى فيه المسيحيون مخلصاً لهم - كما يقول أرنولد - من استبداد ملوك آل ساسان، ولم يركن المسلمون إلى الشدة والعنف في سبيل بث مبادئ دينهم هناك، وما كان إسلام القوم - من مجوس وصابئة ومانوية - عن طريق السيف إذ (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) وما كان الإسلام وهو دين العقل ليحاول أن يخرج عما رسمه من حدود النقاش. وحسبه أن يعرض للأمر من جميع نواحيه فلا يزال يدعمه بالحجة والبرهان الصادقين في منطق مستقيم حتى يأخذ به من اتبع العقل ولم يُكابر في الحق. وإذا كانت هناك بعثات تبشيرية فإنها لم تكن تسير على خطة دبرها البعض، وإنما هيأتها الظروف والملابسات وطبيعة الحياة كما كانت مدفوعة بإيمانها الصادق. وكان أغلب هذه الجماعات التي قامت بالتبشير في فارس والهند وبلاد آسيا الوسطى وبلاد ما وراء النهر من التجار الذين كانوا حلقة اتصال بين الوثنيين وبين الإسلام أو بين ماض مشترك ومستقبل لا يقر إلا بالوحدانية (قل هو الله أحد الله الصمد) ترفع عن الماديات (لم يلد ولم يولد) وجلَّ عن كل ما يخاله الذهن البشري القاصر عن إدراك ذاته (ولم يكن له كفواً أحد)؛ فالعامل الأساسي في تاريخ الفتوح الإسلامية كما يقول الأستاذ جب إنما هو هذا التبادل الدائم بين أهلي الأقطار المفتوحة وبين العرب

حسن حبشي

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

أنا لا أعبأ بالمظاهر والأغراض التي يأتي بها وينسخها يوم آخر، والقبلة التي أتجه إليها) في الأدب إنما هي النفس الشرقية في دينها وفضائلها، فلا أكتب إلا ما يبعثها حية ويزيد في حياتها وسمو غايتها ويمكن لفضائلها وخصائصها في الحياة؛ ولذا لا أمس من الآداب كلها إلا نواحيها العليا، ثم إنه يخيل إليّ دائماً أني رسول لغوي بعثت للدفاع عن القرآن ولغته وبيانه. . .)

الرافعي
مقالاته للرسالة

سأحاول في هذا الفصل أن أتحدث عن كل مقالة من المقالات التي أملاها على الرافعي في الفترة التي صحبته فيها منذ بدأ العمل في الرسالة حتى صيف سنة 1935؛ وما يجهل القراء أن كل مقالة يكتبها كاتب لها ظروفها وملابساتها ودوافعها، وما يجهلون أن لكل كاتب عند كل مقالة يكتبها حالة نفسية خاصة يظهر أثرها فيما يكتبه، وإني لأعلم أن هذا التاريخ لا يتم تمامه في نفسي ولا يتأدَّى مُؤدَّاه إلى قارئه على وجهه إلا أن أثبت بعض ما أذكر من دوافع الرافعي إلى كل مقال مما أملاه عليَّ؛ وإني بهذا الفصل لأحاول جديداً في فن الترجمة؛ فما أعرف كاتباً من كتاب التراجم في العربية حفل بهذا الباب في تاريخ الأدباء، على أن له أثراً أي أثر في دراسة أدب المترجم يعين على فهمه وتصويب الحكم عليه؛ فمن ذلك كانت عنايتي بهذا الباب، وإني لأرجو أن تعينني الذاكرة على تمامه حتى أبلغ منه إلى ما أريد. . .

لم يكن بين الرافعي والزيات صلةٌ ما قبل صدور الرسالة، إلا صلة الأديب بالأديب، وما أحسبهما التقيا قبلها قط إلا في كتبهما ورسائلهما. ثم صدرت الرسالة فكانت بريد الأدباء عامة إلى الأدباء عامة؛ وكانت بريد الزيات إلى الرافعي، فتعارفا وأتلفا وإن لم يلتقيا وجهاً لوجه. . . ومضت أشهُر. . .

وتصفَّحتُ الرسالة ذات مساء من صيف سنة 1933؛ فإذا فيها كلمة عن (أوراق الورد) للزيات، يجيب فيها فتاة سألته أن يرشدها إلى شيء مما كتب أدباء العربية في رسائل الحب. ومضت فترة وكتبت الفتاة (عفيفة السيد. . .) رأيها في أوراق الورد فعابتْه ونزلت به منزلة. وكان الرافعي في هذه الأثناء بعيداً عن طنطا يصطاف في (سيدي بشر)، وكان عليَّ في هذه الفترة، والرافعي بعيد عن ميدان الأدب في مصطافه، أن أجمع له كل ما يهمه أن يقرأ مما كتبت الصحف؛ فلما قرأت ما كتب الزيات وما ردَّت به الفتاة، قصصته من صحيفته وبعثت به إليه في سيدي بشر ومعه رسالة مني. . .

وقرأ الرافعي ما بعثت إليه، فانتضى قلمه وكتب كلمة للرسالة يردَّ بها رأي الفتاة. وكانت كلمة قاسية لم يجدها الزيات إلا فصلاً من (على السفود) لا تقوى على لذعاته الفتاة الناعمة. . . فطوى الزيات كلمة الرافعي ونشر كلمة في الرسالة يعتذر بها إليه وإلى القراء، ويرجوه بهذه المناسبة أن يكتب للرسالة شيئاً من منثور أوراق الورد. . .

ولم يجب الرافعي هذه الدعوة إلا بعد بضعة أشهر

كانت كلمة الرافعي إلى (عفيفة السيد) عن أوراق الورد هي أول ما أنشأ للرسالة من مقالاته، ولم تنتشر. ثم سعى إليه يوماً شاب من المرتزقين بمراسلة الصحف اسمه (يوسف. . .) وكان الرافعي يعطف عليه ويعينه على العيش بما يحسن إليه؛ وإذ كان الرافعي لا يملك ما يحسن إليه بالمال - والمال في يده قليل - فأنه كان يحسن إليه بما يملي عليه من رسائل الأدب، ليأخذها فيبيعها إلى بعض المجلات فيستعين بما تدفع إليه من ثمنها على حاجات الحياة، وهو ضرب من الإحسان على قدر طاقة الرافعي!

جاءه هذا الشاب يسأله ويطلب منه الجواب: (لماذا لا تعالج القصة؟) . . .

وأملى عليه الرافعي جوابه، فذهب فنشره في الرسالة بعنوان (فلسفة القصة).

وكانت أول ما نشر للرافعي في الرسالة

ثم كان عيد الهجرة بعد ذلك بقليل، فطلبت الرسالة إلى الرافعي أن يكتب فصلاً للعدد الممتاز؛ فأنشأ مقالة (وحي الهجرة في نفسي)؛ وهو فصل كان يعتز به الرافعي اعتزازاً

كبيراً ويتمنى لو أتيحت له الفرصة ليتم الحديث عن (فلسفة) حياة محمد (صلى الله عليه وسلم) على هذا النهج، ليكون كتاباً بتمامه عن السيرة النبوية على نسق غير النسق الذي جرى عليه (القصَّاص) ممن كتبوا عن حياة محمد. . . ومضى شهر، وأهدى إليه الشاعر محمود أبو الوفا (ديوان الأعشاب) وكان مرجوَّاً أن يكتب عنه؛ إذ كان المقصود من طبع هذا الديوان - وطابعه غير صاحبه - أن يكون إعانة مادية لناظمه توسِّع عليه ما ضاق من دنياه. . .!

وقرأ الرافعي ديوان الأعشاب ثم. . . ثم هزَّته أريحيته إلى أن يكتب عنه، تحقيقا لرجاء الراجين فيه، وبرَّاً بصاحبه. وأبت كبرياؤه أن يكتبه مقالاً يُعَنْونه بعنوانه ويذيله باسمه؛ فدعاني إليه واصطنع حديثا بيني وبينه فأملاه عليَّ لينشر في الرسالة مذيَّلا باسمي؛ وما كان بيني وبينه حديث في شيء، ولكنها مقالة تواضعت من كبرياء فسماها حديثاً. . وأرضى كبرياءه وعاطفته الرحيمة في وقت معا..

كان الرافعي في حرج وهو يملي عليَّ هذا الحديث؛ إذ كان يخشى أن يناقض نفسه في الرأي وهو يكتب عن هذا الشعر رعاية لصديق، ولكنه خرج من هذا الحرج بحسن احتياله، فجعل أكثر مقالة عن الشعر بمعناه العام ورأيه فيه ومذهبه منه؛ ثم خص الديوان بكلمات في خاتمة الحديث كانت هي خلاصة الرأي فيه؛ وبذلك بريء من الإسراف في المدح ومن الإيلام من النقد، وخرج من الأمرين معاً إلى تحديد معنى الشعر ووسائله وغايته. فأجاد وأفاد في باب من القول له منزلة ومقدار.

ومن كلماته في هذا الحديث:

متى ذهبت لتحتج لزيغ الشعر من قِبَل الفلسفة، وتدفع عن ضعفه بحجة العلم، وتعتل) لتصحيح فساده بالفن؛ فذلك عينه هو دليلنا نحن على أن هذا الشعر. . . لم يستوفي تركيبه، ولم يأت على طبعه، ولم يخرج في صورته؛ وما يكون الدليل على الشعر من رأى ناظمه وافتتانه به ودفاعه عنه؛ ولكن من إحساس قارئه واهتزازه له وتأثره به. . .)

ونشر هذا الحديث في الرسالة، ومضى شهر آخر. . . ثم جاء البريد ذات صباح إلى الرافعي بكتاب من الزيات، يعرض عليه أن يكون معه في تحرير الرسالة بمقالة ينشرها كل أسبوع أو كل أسبوعين، وقدر له أجراً. . . وقَبِل الرافعي، وما كان له بدٌّ من أن يقبل،

لبعض ما قدمت من الحديث عن شئونه الخاصة في هذه الفترة من حياته. وكانت مقالته الأولى بعد هذه الدعوة، هي مقالة (لا تجني الصحافة على الأدب ولكن على فَتَيَّته)

وتوالت مقالات الرافعي بعد ذلك في الرسالة، فنشر في الأسبوع التالي مقالة (الإشراق الإلهي وفلسفة الإسلام) وأحسبه اختار هذا الموضوع - على انقطاع الصلة بينه وبين الموضوع السابق - احتفاء بالمولد النبوي؛ إذ كان هذا موسمه

ثم نشر (موت أم) وهي صورة حية نابضة لصبْية فقدوا أمهم وما يزال أكبرهم في الثامنة؛ وهي صورة حقيقية مرَّت أمام عينيه فانفعلت بها نفسه؛ أما هذه الأم فهي زوج صديقنا الأستاذ حسنين مخلوف، وأما هؤلاء الصِّبية فبنوها؛ اهتصرها الموت في ريعانها فمضت وخلَّفت وراءها أربعة، فبكاها الرافعي بكاء الوالد؛ وما أعلم أنه مشى في جنازة قبل جنازتها، ودفنت في مقبرة آل الرافعي بطنطا. ولما عاد الرافعي من الجنازة ليعزي الأستاذ مخلوفاً في داره، دعا بولده ليمسح على رأسه ويسرِّي عنه، فكان بين عينيه وعينيَّ الطفل حديث طويل؛ فما غادر مجلسه إلا ورأسه يفيض بشتى المعاني وقلبه يختلج بفيض غامر من الألم، وعيناه تترقرق فيهما الدموع!

وروَّح إلى داره فجلس إلى مكتبه يفكر. . . ومضى يوم ثم أرسل يدعوني إليه فأملى عليَّ (موت أم!)

وكان في الأسبوع التالي موعد امتحان الشهادة الابتدائية فكانت مقالته (حديث قطِّين) وإنها لتتحدث بنفسها عن مناسبتها. وإن فيها لشيئاً من خلق الرافعي لم يكن يعرفه إلا الخاصة من أصحابه، ذلك هو طبيعة (الرضا) بما هو كائن؛ فقد كان ذلك من ألزم صفاته له؛ فكان دائماً باسماً منبسط الوجه، يقنع نفسه في كل يوم بأنه في أسعد أيامه؛ فمن ذلك كان يحاول أن يجعل من كل ألم يناله لذةً يُشعر بها نفسه، ومن كل فادحة تنزل به خيراً يترقبه ويهيئ له. ولعل أحداً لا يعرف أن الرافعي لم يكن يرى في

تلك العلة التي ذهبتْ بسمعه وما يزال غلاماً، إلا نعمةً هيأتْه لهذا النبوغ العقلي الذي أملى به في تاريخ الأدب فصلاً لم يُكتب مثْله في العربية منذ قرون! ولا شيء غير الإيمان بحكمة القدَر وقانونِ التعويض يجعل الإنسان أقوى على مكافحة أحداث الزمن فلا تأخذ منه النوازل بقدر ما تعطيه. . . وذلك بعض إيمان الرافعي!

هذا الخلُق هو المحور الذي كان يدور حوله الحديث الذي اصطنعه الرافعي على لسان القِطَّين؛ وهو الذي حمله من بعد على إنشاء مقالتي (سمو الفقر) في العددين التاليين من الرسالة؛ والشيء يُذكر بالشيء؛ فلولا ما جاء في امتحان الشهادة الابتدائية لذلك العام ما أنشأ الرافعي حديث قطين، ولولا ما ألهمه حديث القطين من المعاني في فلسفة الرضا ما أنشأ مقالتي سموَّ الفقر؛ ففي هذه المقالات الثلاث موضوع واحد اختلف عنوانه واتحدت غايته وكانت مناسبتُه ما قدَّمْت. . .

ثم أنشأ مقالة (أحلام في الشارع) وقصتها أنني كنت أساهر الرافعي أحياناً في قهوة (المنوس) بطنطا أو في السينما؛ فإذا ما انتهت السهرة صحبته إلى قريب من داره ثم أروح وحدي، وكنا نمر في طريقنا كل ليلة بدار (بنك مصر)، ففي ليلة ما كنا عائدين من السينما وقد انتصف الليل؛ فلما صرنا قبالة (البنك) وقف الرافعي هنيهة ليشهد منظراً استرعى انتباهه: طفل وطفلة من أبناء الشوارع نائمان على عتبة البنك، وقد توسَّدت الفتاة ذراعاً وألقت ذراعاً على أخيها. . . ووقف الرافعي ووقفْت. . . ورأى الشرطيُّ ما رأينا فأسرع إلى الطفلين. . .

وفي الغد أملى عليَّ الرافعي مقالة (أحلام في الشارع!). . . وكانت المقالة التالية (في اللهب ولا تحترق!)

وهي الممثلة الراقصة المغنية ف. . . وكانت تعمل في فرقة من الفرق التمثيلية المتنقلة بين الحواضر، حلت مع فرقتها في طنطا في صيف سنة 1934، ولسبب ما لم يذهب الرافعي إلى مصيفه في سيدي بشر هذا العام، واستغنى عن البحر والمصيف بما قد يكون في طنطا من أسباب الملذات والرياضة؛ وإن فيها لَغَناء وعوضاً. . .

وكنا ثلاثة من أصدقاء الرافعي نسمر معه كل مساء (س، ا، ع) وجلسنا حوله ذات ليلة، وكان متعبا مكدوداً يشعر بحاجته إلى لون من ألوان الرياضة يرد إليه نشاطه وانبساطه؛ قال: (أين تقترحون أن نقضي الليلة؟)

قال ا: (إن في متنزه البلدية فرقة تمثيلية، هبطت المدينة منذ أيام، وإن فيها لمغنية راقصة، أحسبها خليقةً أن توحي إليك بفصل جديد من أوراق الورد!)

فمط الرافعي شفتيه ولم يعجبه الاقتراح. وأحسب أن الصديقين اوع كانا على رغبة مشتركة في هذه السهرة، فما أحسَّا رفض الرافعي حتى قال ع: (. . . ولكنها راقصة ليست كالراقصات: إنها صوَّامةٌ قوَّامة، تصوم الشهر وستة أيام بعده، وتقوم الليل إلا أقلَّه، وتصلي الخمس في مواعيد الخمس؛ وما أحسب رقصها وغنْاءها إلا تسبيحاً وعبادة. . . إنها. . .!)

مغنية وراقصة، ولكنها صوامة قوامة. . . يا عجباً وهل في الراقصات كهذه التي يصفها الصديق العابث ع؟. . . ولكن الرافعي صدَّق، وعرف الصديق طريق الإقناع إلى قلب الرافعي. واتفقنا على الرأي. . .

هكذا قال الصديق (ع) فاشرأب الرافعي ينظر من (. . .هذه هي الراقصة التي أعنى) وراء الصفوف. لقد رآها، ولكنها لم تكن أمام عينيه كما هي في أعين هؤلاء الناس. . . كانت تحت عينيه إنسانة أخرى لها طهر وقداسة واحترام. . .

هذا الصدر الناهد، وهذه الساق اللفاء، وذلك القوام الأهيف، وهاتان العينان الحالمتان، وهذا الخد الناضر، وهذه الشفة الباسمة، وذلك الشعر اللامع. . . هذه كلها سحر وفتنة، تعترك حولها شهوات الرجال، وتترامى إليها أماني الشباب؛ ولكن رجلاً واحداً بين النظارة لم يكن يبصر شيئاً من ذلك: رجلاً لم يكن أحد فيمن أعرف أضعفَ منه بازاء سحر المرأة، ولكنه الليلة شخص غير من أعرف؛ ولكن هذه الراقصة بازائه غيرها بازاء الناس. . . هي في عين الجميع (أنثى) فاتنة، ولكنها بعينيه هو قديسةٌ تستحق التبجيل والاحترام. . .

كانت على عين الجميع راقصة تغني، وكانت بعينيه عابدة تسبِّح وتصلي. . . كان الناس ينظرون إلى الراقصة وهي تفتنُّ في إغراء الرجال بالنغمة والحركة والرَّنْوَة الفاتنة، وكان الرافعي ينظر في أعماق نفسه إلى صورة أخرى رسمها من خياله فقامت حياله

!تريه مالا يراه الناس
وانفض السامرون إلا قليلا تحَّلقوا حول الموائد يقرعون كأساً بكأس، ونهض الرافعي فيمن نهض. . .
ومضى يومان، ثم دعاني ليملي عليَّ مقالة (في اللهب ولا تحترق!)
ولما فرغ الرافعي من شأن هذه المقالة، دعا إليه بصديقه (ع) يستزيده من خبر هذه الياقوتة الكريمة، ويسأله الوسيلة لقائها إن كان بينهما سبب، لعل اجتماعاً بينها وبين الرافعي يفتق ذهنه عن موضوع جديد يكتبه لقراء الرسالة؛ فابتسم الصديق (ع) وقد دبر في نفسه حيلة
تجمع بينها وبينه؛ وهل يعجزه هو - وهو مَن هو - أن يجد وسيلة لمثل هذا اللقاء ليمضي في مَزْحَته إلى النهاية؟
وذهب (ع) يسأل عن الراقصة ويستقصي خبرها فعرف. . .
لقد فرَّت (الياقوتة) مع موسيقيَّ الفرقة، ومضى زوجها في أثرهما، فانحلت الفرقة وغادرت المدينة
وجاء النبأ إلى الرافعي؛ فما عرف إلا من بَعد أنها كانت مزحة من الصديق ع فأسرَّها في نفسه. . .
وعاد الرافعي إلى المقال يقرؤه منشوراً في الرسالة وهو يضحك ويقول: (أهذا ممكن؟ أهذا مما يكون؟ أتكون في اللهب ولا تحترق؟)
فرد الصديق (ع) قائلاً: (لقد احترقت!)
!وكانت كذبة، ولكنها أنشأت مقالة لم يُنشأ مثلها فيما قرأت من روائع الأدب
(شبرا)
محمد سعيد العريان
بين العقاد والرافعي
مناقشات وشروح
للأستاذ سيد قطب
- 11 -
عتب علي كثير من الإخوان، وكثير من القراء، انشغالي في بعض الأحيان بالردود على بعض من كتبوا في الرسالة - عن الموضوع الأصيل الذي اخترت الحديث فيه، وعن شرح الآراء العامة التي أدليت بها في أدب العقاد وأدب الرافعي، وسوق الأمثلة وتقرير الحقائق
وعند هؤلاء الإخوان أن آخذ بسبيلي في الموضوع الأصيل غير ملتفت إلى شيء مما يقال - لأنه لم يقل شيء يستحق العناية به - وهذا كان رأيي الذي صرحت به مرة ومرة
وبودي لو أطعت هؤلاء الراغبين في الاستفادة، ولم ألق بالي إلى شيء مما يقال، ولكنني في الواقع أرى هناك ارتباطاً وثيقاً بين الموضوع ذاته وبين المناقشات التي تدور حوله، لا في موضوعها وقيمتها، ولكن في شكلها وبواعثها
وأفسر هذا فأقول: إن المدرسة العقادية تعني بتصحيح المقاييس الأدبية عنيتها بتصحيح المقاييس النفسية، وقد أوردت من هذا نماذج في شعر العقاد، عن (عدل الموازين والعبوسة والبشاشة. ودرجات الفضائل. . . الخ) فإذا ما عنيت بمناقشة الأستاذ العريان، والأستاذ مظهر، أو سواهما، فإنما أوجه عنايتي إلى (كشف) العوامل النفسية التي تبعثهما على الكتابة، وإلى (فضح) الظواهر المصطنعة التي تبدو فيها الأحكام، وإلى (تشخيص) العنت و (العدالة الزائفة) في إصدارها
وهذا كله يعني المدرسة الحديثة عنايتها بالآراء الأدبية ذاتها، فما تقصد هذه المدرسة إلى تصحيح معايير الآداب والفنون، إلا وهي تعني من ذلك تصحيح الأمزجة والنفوس. وهي لا تقصد بهذا الدعوة إلى المبادئ الخلقية التي يحترمها الناس بقوة العرف والاستمرار، ولكن تريد إن تصح النفوس فتكون هذه المبادئ أثراً لتفاعلها مع الحياة، أو جزءاً من غذائها اليومي الذي يدخل في كيانها، لا أن تكون كالثوب تلبسه وتخلعه حسب المناسبات!
ومن هنا كشفت عن (العدالة الفريدة) التي تصف رد العقاد على الرافعي بأنه (سباب وشتائم) وتصف نقد الرافعي بأنه (منزه عن العيوب) وكان هذا الكشف بالأمثلة التي لا

تدع قولاً لقائل!
ومن هنا كذلك كشفت عن (النزاهة العجيبة) في وصف الدفاع عن العقاد ومدرسته بالشذوذ ومناصرة شخص على شخص ووصف (على السفود) بأنه (مثال يحتذيه الذين يريدون أن يحرروا بالنقد عقولهم من عبادة الأشخاص) وجئت كذلك بما استطعت أن أنقله عن الرافعي من أسلوب في شتم العقاد!
وأنا أعتبر هذا جزءاً من تصحيح أساليب الأدب - باعتباره وسيلة لتصحيح النفوس - ولا أدرى أنني عدوت الموضوع الذي أتحدث فيه على هذا الاعتبار.
فأما الواقع فإنني أعجب لهذه الكثرة التي كتبت ترد عليّ دون أن تقول شيئاً في (الموضوع) مع مطالبتها لي أن أترك (الذاتية) وأتناول (الموضوعية) في أدب العقاد وأدب الرافعي!
وهاأنذا أراجع كل ما قيل. فماذا أرى؟
كل ما كتبه أنصار الرافعي، إنما هو شتائم شخصية، لسيد قطب، أكثرها في أدبه وخلقه ونفسه - وهو خارج نهائياً على الموضوع - وأقلها في تفكيره واستعداده واطلاعه - وهو قد يتصل بالموضوع - ولكن بدون دليل، إلا إشارات البكم، وتعبيرات العوام عن المسائل المبهمة في نفوسهم، التي لا يحسنون التعبير عنها ولا يقدمون الدليل.
أفيعنيكم - يا هؤلاء جميعاً - أن تشتموا كاتب هذه الكلمات؟ لئن كان الأمر هكذا فأنا معكم أعاونكم في شتمه إذا عجزتم، وأصرح لكم عنه بما يمنعكم خوف تقاليد الأخلاق - لا حياء نفوسكم - من التصريح به!
ولكن ماذا يعني هذا، وأي شيء يكون قد استوى لكم، أو للمتأدبين والقراء؟ إنه ليبقى وراء ذلك آراء أبديت في أدب الرجلين وأمثلة قدمت لهذه الآراء، وشروح تضمنت بعض النظريات في الأدب وفي الحياة؟ وكل هذا قد بقى سليما كما هو، لم تتناوله ردودكم ومناقشاتكم، لأن شتيمة كاتب معين شغلتكم عن كل ما عداه من الآراء والأمثال!
ولقد أظهرت هذه المعركة أنكم تمضون في الشتائم والتهم فينفسح لكم المجال، حتى إذا
قاربتم (الموضوع) وأردتم مناقشة الأمثلة، ظهر العجز الفاضح والقصور في الفهم والاطلاع. ليست كلمات الأستاذ (الطنطاوي) ببعيدة، وقد عجبت لاستطاعة الأستاذ (عبد الوهاب الأمين) أن يصبر على مناقشتها كما عجبت لصبر الأستاذ (كامل نصيف) في الرد عليها، في حين لم أجدني مستطيعا - على فرط المحاولة - أن أنظر إليها كشيء يستحق الالتفات!
وكيف يمكن أن تلتفت مثلا لرجل يكاد يفهم من قول العقاد عن الجيبون (يا عميد الفنون) أننا سنأتي غدا بقرد نجعله عميد (كلية الآداب) أو (الفنون الجميلة) فيفرَق لهذا الحدث الخارق من المجددين!. ثم ينتفض ذعرا من قوله (يا أبا العبقري والبهلوان) ويسأل الله السلامة من هذا (الاعتراف) الذي هو لحسن الحظ (حجة قاصرة)!
أو كيف يمكن أن تصبر على مناقشة رجل، يحلف لك بالطلاق أن كلمة (الجيبون) لا تدخل في شعر عربي، أو يستحلف سواه، ويفتي له بعدم طلاق امرأته! ويكون الحكم طبعا هو (مأذون الشرع) في قيمة الآداب!
وليته مع ذلك ابتكرها، فإنما هي بعينها قولة الرافعي في (على السفود) عن بعض الألفاظ في قصائد العقاد!
ووددت لو يحلف الأستاذ على هذا، فأفرق غداً بينه وبين زوجه - أن كان متزوجاً - لأن (ابن الرومي) وحده وهو شاعر عربي ذكر من مثل هذه الألفاظ العشرات في ألوان الطعام وأسماء الفواكه والخمر. كما ورد في أدب غيره!!
وبعد هذا تجد من يكتب فيقول لك: لم لا تناقش هذا الكلام؟ أناقشه؟ أكل من لاقاك في الطريق فقال كلاماً - أي كلام - تقف لتناقشه؟
على أنني وددت لو خفت حدة المناقشات، ولو عاد إليها هدوءها الذي بدأتها به في الكلمة الأولى. وهاأنذا أحاول الاهتمام ببعض مالا يصح الاهتمام به من الأقوال، وتناسي ما فيها من تعالم وتحفز، أو تفاهة وضآلة. ولعلني مفلح في تحويل هؤلاء الناس - كلهم - إلى معالجة الموضوع

وأبدأ بكلمة الأستاذ (رفيق اللبابيدي) وقد مهد لها بدالَّة الصداقة والزمالة، وساقها مساق من يورد رأيه - وليكن ما يكون - مما يشفع في تناولها بالتمحيص أول ما يراه أنني لم أقرأ كتب العقاد - على مذهبي من ضرورة الثقافات المختلفة لقراءتها - ولم أقرأ كذلك كتب الرافعي كلها

فأما العقاد، فقد قلت: إنني فهمته بمقدار استعدادي واطلاعي، وإنني سأرتقي في فهمه كلما زدت ثقافة واتسعت جوانب نفسي. فكان تفسيري له في هذه الحدود الضيقة بالنسبة له، الواسعة جد اتساع، بالنسبة لمن ينصبون أنفسهم نقاداً له، فيخرجونه من عالم الشعراء، بل الأدباء، وهم جالسون في راحة غبية، و (طمطمة) بليدة!

وأما الرافعي فقد قرأت له معظم ما كتب، فلم أر في شيء منه دلائل على أن هناك استعداداً، لأن يخرج هذه الطبيعة شيئاً مما أطلبه، يحفزني لقراءة الباقي، على الأمل في وجود ذخيرة نفسية. وقد عنيت أن أقرأ له الكتب والمقالات، التي تفيض النفس الإنسانية فيها بالشعور الخاص - عادة - فإذا لم يكن في هذا المجال صاحب ذخيرة، فما هو بصاحب ذخيرة على الإطلاق

أما الأمثلة التي سقتها، فليست منتقاة على اعتبار أنها (مما يوقع فيه) ولكن لأنها أدل على تصوير طبيعة خاصة، ناضبة من الذخيرة الإنسانية، ومن دفعة الحياة والعقيدة (العقيدة في الأدب والحياة لا في القاموس!)

ولي رأي في الأمثلة لا بأس من إيراده هنا. فالأديب قد يخطئ وقد يهبط في كثير من المواضع، ولكنه يبقى بعد أديباً لا تسلبه أخطاؤه ولا يسلبه ضعفه، صفة (الإنسانية) في أدبه (لا الإنسانية التي تقابل الحيوانية في تكوينه كما فهم بعض من يفهمون!) ولا تسلبه صفة (الطبيعة الفنية) وقد يخطئ أديب آخر مرة واحدة، فتسلبه هذه المرة كل الصفات

ومرجع ذلك هو (نوع) الغلطة ومقدار دلالتها على فهم الرجل للحياة، وعلى نوع إحساسه بها. كالرجل الذي يحدثك عن زيارته لمدينة القاهرة، فيترك كثيراً مما فيها من المشاهدات ويخطئ في وصف الكثير، ولا يدل ذلك على كذبه في وقوع الزيارة؛ ولكنه لو قال مثلاً: (إنه كان من المشاهد التي رآها أسد يخترق الشوارع والطرقات) لحكمت من فورك بأنه كاذب في دعواه، وهي مع هذا غلطة واحدة لا غلطات!

فحين يقول الرافعي: إن الحبيبة لا تتعلق بقلب حبيبها بعد انتهاء الحب إلا بخيطين اثنين هما غيظها له، وغيظه لها. . . يدل على أنه لم يحس الحب يوماً ما، ولم يحسن ملاحظته

في غيره، بل لم يكن ذا طبيعة قابلة للحب، ولا مستعدة لتلقي دفعاته وانفساحه ولو كتب بعد ذلك عن الحب ألف كتاب

وحين يقول ما يفهم منه أنه يرى النهر الذي حافتاه من الذهب والفضة ومجراه من الدر واليواقيت، أجمل من النهر الذي حافتاه من العشب الأخضر، ومجراه من المدر والطين. . . يدل على أنه لم يحس الإحساس بجمال (الطبيعة)، بل على أنه لم يوهب الطبيعة التي تحس هذا الجمال

وهكذا كل مثال جئت به لمثل هذه الغاية، فهي غلطات: (الأسد الذي يخترق شوارع القاهرة) لا غلطات النسيان والضعف الطارئ، والخطأ العارض في التعبير، ولعل في هذا البيان كفاية

ولعل القسوة التي يتخيلها الأستاذ، ليست في الحكم الذي أصدرته؛ ولكنها في وضع الرافعي مقابلا للعقاد، والجمع بينهما في عنوان؛ فمن هنا بدأت مطالبة الرافعي بأدب الطبع، وأدب النفس، لأن المقابل له فياض بهذا النوع، مبرز فيه، بل هو ميزته ورمز فنه. وقد كان من جراء مطالبة الرافعي بهذا اللون الرفيع من الفن الأدبي، ظهور خوائه، وإنكار أدبه (إذ كان المطلوب نوعاً خاصاً منه يعلو على مجرد الأسلوب المتمايل، والجمل المنقوشة). فهذه هي القسوة. ومتى أعفينا الرافعي من أدب النفس والطبع، فقد نجده بعد ذلك شيئاً في التعبير، في الأخذ بطريق خاصة في هذا التعبير، ولكن ما قيمة ذلك في عالم الطبائع الفنية، وفي معرض التعبير عن النفس وتمثيل الحياة؟

ثم يسألني رأيي في أبيات اقتطعها من قصيدة للعقاد، وشعر العقاد وحدة لا بد من

عرضها كاملة - ومع هذا فأي شيء؟ لعله يريد أن يقول: ها هو ذا العقاد يشبه الحسن بالجوهرة، ويذكر اللآلئ كما ذكرها الرافعي!

وهذه ملاحظة شكلية، فما قلت: إن كل من ذكر هذه الألفاظ يكون خواء من تقدير الجمال الروحي، ولكن الذي يقول كما قال الرافعي، ويبدئ ويعيد، ويراها أجمل من الطبيعة كما قال عن (النهر). . . يكون كذلك

فأما حين نقول: إن الحسن جوهرة، ثم لا يكمل البيت حتى نقول: (لها الثراء) (ثراء النفس أثمان) وحين نقول: إن هذا الحسن يناله من لا يعرف قيمته، ويحرمه الخبير بجماله

وسحره وطبيعته، كالجوهرة التي يحرمها اللآل ويقنو نفيسها من لا يسومها. . . الخ حين نقول مثل هذا فنحن في صميم الشعور الروحي. والجوهرة واللآل هنا أدوات للتشبيه، وليست مقصودة لذاتها، ولا مغالي في قيمتها. (وثراء النفس) هو الملتفت إليه، والمقدر ثمنا لهذا الحسن الفريد

أما إنكار الأخ لشاعرية العقاد فليس لي فيه كلام. ووددت - والله - لو أنني أملك طبيعة فنية أخرى، أهبها للزميل. ولكني آسف معذور. وكذلك قولي في الحديث عن (الجيبون)!

أما أسئلة (ع. . . دمشق) فوددت لو خلت من هذا (الجفاف الناشز) في آخرها. ومع هذا فسأغض الطرف عنه، وأعتبرها أسئلة لمستفهم لا متعالم!

فمن السؤال الأول: أذكر أن في الأشياء حياة نابضة في ضمائرها، وهي أعمق وأولى بعناية الفنان من الحياة الظاهرة على سطوحها ولو اتصلتْ بها - فحياة الزهر الظاهرة تبدو في لونها ورائحتها وطراءتها. . . الخ. أما الحياة النابضة في ضميرها فهي المتصلة بتعبير الحياة المعنيَّ في هذه الزهرة، وقصد الطبيعة من إنشائها. وهي الحياة التي تستمد من نهر الحياة الكبير الجاري منذ بدء الخليقة إلى نهايتها، المتدافعة أمواجه في كل حي وجد أو سيوجد. وهي الحياة التي تكون حلقة في سلسلة الحياة الكبرى المتطورة من الخلية الواحدة إلى الإنسان. وهذا الالتفات الأخير هو الالتفات الفني لنظرية دارون، الصالح لأن يتناوله الفن والأدب، لأنه يتناول الحياة في معرض أطوارها ونماذجها المعبَّرة

وعن السؤال الثاني: أذكر أن السائل أخطأ في إرجاع الضمائر إلى ما تعود عليه في الجملة. فنشأ هذا اللبس، فأنا لم أقصد أن الحياة الظاهرة على سطوح الأشياء - غير أشكال (الحياة) وصورها. إنما أردت أنها غير أشكال (الأشياء) وصورها فلا داعي للسؤال. أما أن العناية بالحياة في الضمير والحياة في الظاهر أولى بالتفات الفنان من صور الأشياء وأشكالها، فهذا حق. والذي يقول:

وكأن محمر الشقي ... ق إذا تصوب أو تصعد
أعلام ياقوت نشر ... ن على رماح من زبرجد

لا يرى غير أشكال الأشياء وصورها، ولا يعني بحياة الشقيق في سطوحها ولا في أعماقها، فيكون قوله تافهاً وإن سومه عشاق التشبيهات النفيسة بسعر كبير!

وعن السؤال الثالث: أذكر أن الخوالج النفسية والصور الذهنية، وأدب الذهن، وأدب الطبع، تدل على ألوان من الأدب تكاد الآن تكون قد أخذت وضوح دلالة (العلم) على المسمى. وقد ضربت لها أمثلة - مع هذا - فمن لم يكن قد سمع شيئاً عن هذه الألوان من الأدب، ولم يكن قد أمكنه الانتفاع بالأمثلة التي سقتها، فليقرأ، ولينتظر حتى تنضج في نفسه هذه المعاني

أما السؤال الرابع فلا معنى له بعد ما قلت عن أسلوب العقاد ما قلت، وبعد ما وعدت بالإفاضة عن هذا الأسلوب. فليقرأ السائل كلماتي كاملة. وليراجع كلمة الأستاذ عبد الوهاب الأمين فهمي مفصحة عن هذه الناحية

وأما ملاحظة الفاضل (علي كمال. فلسطين) فنصفها في موضعه؛ وقد نشأ هذا من اضطراب في ترتيب بعض الجمل! وكثيراً ما يقع مثل هذا فنكتفي بفطنة القارئ. ولكن مع هذا بقي التناقض بين قول شوبنهور وتلخيص الرافعي واضحاً

فالرافعي يقول: (فإن محصل كلام هذا الفيلسوف أن ما تراه بسبب من إرادتك وغرضك وشهواتك، فجماله فيك أنت لا فيه لأنه في هذه الحالة صورة الاستجابة إلى ما فيك، فلو لم يكن معك أنت هذا الغرض، لم يكن معه هو ما خيَّل لك من الجمال.

فهو على الحقيقة (باعتبار الفكرة المجردة لا جمال فيه)
وأول هذا الكلام لا صلة بينه وبين شوبنهور، ولا علاقة في منزع ولا اتجاه، وإنما هو رأي آخر في تعليل الجمال يعتبر رخيصاً جداً إذا قيس مستواه بمستى تفكير شوبنهور في رأيه وآخر هذا الكلام مناقض تماماً لرأي الفيلسوف (راجع ما بين القوسين الكبيرتين على كلام شوبنهور)
وبينما هو يقول - عن شوبنهور خطأ -: (فهو على الحقيقة باعتبار الفكرة المجردة لا جمال فيه) - وهو عكس رأي شوبنهور - يعود فيقول: (فالنتيجة من ذلك أن الأشياء تحزننا كلما ابتعدت من عالم الفكرة واقتربت من عالم الإرادة، وأنها تفرحنا كلما ابتعدت من عالم الإرادة واقتربت من عالم الفكرة) وهذا عكس ما نسبه الرافعي أولاً لشوبنهور، وإن كان حقيقته هو رأي الفيلسوف المسكين!
الشيء باعتبار الفكرة المجردة جميل في رأي الفيلسوف الصحيح. والشيء باعتبار الفكرة
المجردة لا جمال فيه، في الرأي الذي ينسبه الرافعي إليه. وهذا هو سوء الفهم والتخليط
وعلى كل فأنا شاكر لحضرة الأديب ملاحظته
أما الأستاذ سعيد العريان، فقد شغلنا عنه وعن كلامه الطويل بما هو لائق أن نتحدث فيه، فمعذرة يا أستاذ سعيد!
(حلوان)
سيد قطب
حول أدب الرافعي
بين القديم والجديد
للأستاذ محمد أحمد الغمراوي
- 2 -
كتب سيد قطب مقالات عدة يجرح فيها الرافعي وأدبه. وسيد قطب ليس من تلاميذ الرافعي ولا يبلغ أن يكونه، فما أظنه ولد إلا بعد أن ولدت مسألة القديم والجديد، وعمرها كما نبهنا في الكلمة السابقة لا يزيد على ثلاثين عاماً، وإذن فعمره من يوم ولد إلى يوم كتب لا يمكن أن يبلغ عمر أدب الرافعي الذي بدأ يقول الشعر الجيد على رأس التسعمائة كما يدل عليه ما نشرت الرسالة من نماذج شعره في ذلك العهد (أنظر مثلا العددين 213و214 من الرسالة)، وإذا كان عمر أدب الرافعي رحمة الله عليه أكبر من عمر صاحب تلك المقالات فقد كان المعقول أن يكتب عن الرافعي وأدبه بغير تلك اللهجة وبغير ذلك القلم لولا أننا في عصر انتقال من أسوأ سيئاته تمرد الشباب على النظم ولو كانت فاضلة، وتطاول الصغير على الكبير في الإشارة والعبارة إذا كان بينهما خلاف
ونحن إذ نقول هذا لا نأخذ على صاحب تلك المقالات أن يكون له في الرافعي رأي يخالف رأي جمهرة الأدباء، ولكن نأخذ عليه ما أخذه غيرنا من طريقة إبداء هذا الرأي. فلو كان ندا للرافعي لما حسن فيما يبدي من رأي إلا أن يكون مهذب اللفظ مؤدب القلم، فكيف وهو ليس للرافعي بند ولا لبعض تلاميذ الرافعي؟ إن الأديب من غير شك يستطيع أن يعرب عن رأيه في مقام كهذا من غير خروج على أدب القول ومن غير أن يزيد الطين بلة بالتماسه إلى هذا الخروج العلل والمعاذير
على أن إسراف تلك المقالات فيما ذهبت إليه من سوء الرأي في الرافعي وأدبه لا يشك فيه أحد ممن له شيء من الاتزان في التفكير. فلو غير صاحب تلك المقالات خطر له في الرافعي مثل هذا الرأي المسرف من أن ليس للرلفعي إنسانية ولا طبع ولا نفس ولا قلب ولا ذوق ولا ذهن ولا حياة إلى آخر ما شاءت له بغضاؤه أن ينفي عن الرافعي - لو غيره خطر له هذا في الرافعي لوقف من هذا الخاطر موقف المتهم المتشكك على أقل تقدير، إذ
غير معقول أن يبلغ الرافعي رحمه الله ما بلغ من حسن السمعة وبعد الصيت في عالم الأدب العربي ثم لا يكون له من كل تلك الصفات حظ يفسر ما نال من صيت حسن وتقدير كبير عند جمهرة الأدباء رغم بعض العيوب البادية في بعض ما كتب من مثل (على السفود) ورغم ما في بعض كتاباته من صعوبة أو غموض. فالرافعي نال ما نال

من حظوة ومكانة في عالم الأدب العربي رغم هذه العيوب، ثم نال ذلك غير مؤيد بمال ولا جاه ولا سياسة، وهذا معناه عند الناقد المتزن أن أدب الرافعي لابد عند التصفية أن تبقى منه بقية. كبيرة صالحة تكفي لتمجيده إن لم تكف لتخليده. وإذن يكون عمل النقد الأدبي أن يميز تلك البقية ويُجليها للناس تراثاً طيباً يضم إلى ما خلفت القرون من التراث العربي الأدبي الطيب. لكن مثل هذا الناقد يحتاج من قوة العقل، وسعة الاطلاع، ومحبة الحق والخير، ومجانبة العصبية والهوى، إلى ما لا تنبئ عنه تلك المقالات

إن أظهر ما تنبئ عنه تلك المقالات أنها نتاج العاطفة قبل أن تكون نتاج العقل. فالعاطفة الجامحة أوحت بكتابتها، والعاطفة الجامحة لونت الوقائع لقل صاحبها حين سخرته لحياكة ذلك النقد طبق وحيها. ومدار هذه العاطفة هو حب العقاد وبغض الرافعي: حب العقاد حب مفتون، وبغض الرافعي بغض مجنون. فلا مدح أكبر من أن يفيضه على العقاد، ولا ذم أوضع من أن يكيله للرافعي، وكأنه يعتذر في الحالين من التقصير. ولا عليه في حب العقاد أو غير العقاد أسرف في الحب أو اقتصد، بل لا عليه في بغض الرافعي أو غير الرافعي ما بقى بغضه سلبي الأثر؛ أما إذا حركه الحب أو البغض إلى العدوان على من يبغض في سبيل من يحب، فعندئذ تبدأ تبعته، وعندئذ تجب مراقبته ثم محاسبته على ما يكتب أو يقول خصوصاً إذا أراد أن يستتر بالنقد مبالغة في الكيد أو احتماء من القانون

لو كان للنقد الأدبي في مصر أو في العالم العربي قوامون يغارون عليه ويرعونه لتهيب اقتحامه من لا يحسنه، ولما أقدم على نقد مثل الرافعي من لا يعرف أو لا يراعي أوليات النقد. إن من أبسط أوليات النقد الإحاطة بالموضوع. وصاحبنا الذي لا يعجبه مذهب الأقدمين في النقد، ويريد أن يشق للناس طريقا جديدا، يقدم على نقد الرافعي فيما زعم من غير أن يحيط بأدب الرافعي أو يحاول أن يحيط به. وهو فيما يظهر لا يحس أنه اقترف بهذا جرما لأنه يعترف به في غير اعتذار ولا حياء. يقول في مقاله الثالث إنه كتب كلمته

الأولى على صدى مطالعته القديمة للرافعي، وكتب كلمته الثانية وليس بين يديه إلا وحي الأربعين. ثم ذهب إلى رسائل الأحزان يتلمس الأمثلة توضيحا لرأيه فاصطدم بالرافعي كما يقول من جديد؛ وعلى وقع هذا الاصطدام كتب عن الرافعي ثم كتب حتى أبلغ كلماته إلى ثمان. فعمدته في تقدير الرافعي على الأخص شيئان: صدى مطالعاته القديمة، ورسائل الأحزان. وصدى مطالعاته القديمة هو كما يقول (صدى غامض يدل على الجملة ولا يمد الناقد بالتفصيل). ومطالعاته القديمة لا تعدو (حديث القمر) وما كان يكره نفسه على قراءته بعد (حديث القمر). و (حديث القمر) كما أخبر في كلمته الأولى كان أول ما قرأ للرافعي وقد أحس بعده ببغض الرافعي بغضا جعله لا يقرأ للرافعي إلا كارها، فتزداد كراهيته بما يقرأه من غير أن يعرف لذلك تعليلا كما يقول. فصدى هذه المطالعات كان من غير شك صدى بغضاء وكراهية، ومع ذلك فقد ظفر الرافعي من صاحبنا في مقاله الأول بنصيب يكاد يعدل نصيب العقاد حين أراد صاحبنا أن يقسم المزايا الأدبية بين الاثنين. فالعقاد أديب الطبع، والرافعي أديب الذهن. (العقاد أديب الطبع القوي والفطرة السليمة، والرافعي أديب الذهن الوضاء والذكاء اللماع. والعقاد متفتح النفس ريان القلب، والرافعي مغلق من هذه الناحية متفتح العقل وحده للفتات والومضات) هكذا حكم سيد قطب بين الأديبين الكبيرين، وحكم لنفسه ضمنا بشيء كثير حين نصب نفسه حكما بينهما. وإذا تذكر أنصار الرافعي أن هذا الحكم فيما يتعلق بصاحبهم هو صدى غامض لمطالعات قديمة محفوفة بالكراهية والبغضاء كان لهم حقا أن يغتبطوا به. ولا عليهم من (مغلق) (ومتفتح العقل وحده للفتات والومضات) فان الحكم لا يعطي العقاد شيئا من التفتح العقلي ولو للفتات والومضات. فهو سوى بين الاثنين تسوية تكاد تكون تامة، أو بالأحرى جعل المزايا الأدبية قسمة بينهما على سواء تقريبا: أخرج العقاد من دائرة الذهن والعقل، كما أخرج الرافعي من دائرة النفس والقلب، وخص أحدهما بما نفى عن الآخر. فإذا شك أنصار العقاد في أن هذا مفهوم حكم صاحبهم على صاحبه ومنطوقه فليقرءوا مقدمة الحكم إذا شاءوا:

وبعد فما كان يمكن أن يتفق العقاد والرافعي في شيء! فلكل منهما نهج لا يلتقي مع)

(الآخر في شيء
فهل لا يزال أنصار العقاد بعد هذا على شك من مفهوم حكم صاحبهم؟ إنهم ليس لهم أن
يشكوا بعد هذه المقدمة، إذ لو كان العقاد يشرك الرافعي في أدب الذهن لاتفق الاثنان في شيء، والتقى الأدبان على شيء! أما وهما لا يتفقان ولا يلتقيان في شيء في حكم هذا الحكم المجدد، فما أثبته للرافعي من أدب الذهن الوضاء والذكاء اللماع لا بد أن يكون نفاه عن العقاد إن كان يعرف ما المنطق وما التفكير. ليس عن ذلك محيص لكن لا عليهم هم أيضاً من حكم صاحبهم فانه لا يعني ما يقول ولا ينظر في أعقاب الكلام ونتائج المقدمات. هو حسن النية يلقي الكلام دفاعاً عن صاحبه كما ألقت الدبة ذلك الحجر المعروف
على أنه كان لحكمه هذا قيمة فقد عاد فنقضه في مقاله الثالث. نقضه بالنسبة للرافعي من غير أن يصلحه بالنسبة للعقاد. ولو خطر بباله أن حكمه ينتج غير ما يريد بالنسبة لمن يحب لأصلحه، ولكن ذلك يخطر بباله فاكتفى بأن نفى عن الرافعي الدائرة التي كان أثبتها له، دائرة أدب الذهن، وترك العقاد في الدائرة التي كان أثبتها له، دائرة أدب القلب، من غير أن يثبت له الدائرة الأخرى التي كان قد نفى عنه. وليس لرجوعه عن حكمه للرافعي داع إلا أنه فيما زعم ذهب يتلمس في (رسائل الأحزان) الأمثلة التي تفصل مجمل ما دل عليه الصدى الغامض لمطالعاته الرافعية السابقة، فاصطدم بالرافعي (واختلف الصدى الغامض القديم عن الصوت الواضح الجديد) كما يقول. فهو حين ذهب إلى (رسائل الأحزان) لم يذهب ليستوثق من صحة دلالة الصدى القديم التي بنى عليها حكمه الأول، لأنه لم يكن يخالطه في صحتها شك، إذ (ما من شك أن الرافعي كان ذكيًّا قوي الذهن) كما يؤكد في كلمته الأولى حين كان يلتمس أن ينفي أن يكون أدب الرافعي أدب طبع عن طريق تبيين أنه (كثيراً ما يختلط أدب الذهن وأدب الطبع إذا كان مع ذكاء وقوة). لم يذهب إلى رسائل الأحزان إذن ليستوثق من صحة تلك الدلالة أو ذلك الحكم ولكن ليؤيدهما ويفصلهما بأمثلة. فلما اختلف الصوتان وتعارضت الدلالتان مال عن الدلالة القديمة الغامضة إلى الدلالة الجديدة الواضحة؛ وهو يظن أن هذا كاف للرجوع عن حكم حكمه ورأى أرتاه، ولا يرى في ذلك شيئاً من سطحية الحكم والنظر التي كثيراً ما يرمي بها خصومه من غيره مبرر. لكن النظر السطحي وحده هو الذي يبرر الرجوع عن ذلك الحكم بمثل هذه السهولة لمثل هذا السبب. إن الغموض الذي وصف به صدى مطالعاته القديمة قد فسره هو وحده بأنه عدم إمداد الناقد بالتفصيل. فذلك الصدى إذن صحيح في جملته وإن لم يكن واضحاً في تفاصيله. والتفكير الصحيح كان يقضي ويتطلب أن يتفق الصديان أو الصوتان في الجملة إن كانا مما يبني عليهما حكم، فإن اختلفا لم يمكن بناء حكم على أيهما حتى يتبين وجه الحق فيهما ببينات جديدة. وكان المنتظر ممن جشم نفسه دراسة المباحث النفسية الجديدة ومباحث علم الأحياء ومباحث الضوء في الطبيعة إلى آخر ما حدث عن نفسه في مقالة السادس أنه قد درسه كي يرقى إلى محاولة استيعاب العقاد - كان المنتظر من مثل هذا أن يكون قد انتفع أيضاً بتلك الدراسات العلمية إلى حد الرقي إلى تذوق الروح العلمية وتفهم الطريقة العلمية في النظر، فهذا أنفع له وأجدى عليه من كل ما عرف من مفردات الوقائع والحقائق والنظريات. فلو كان رقي إلى الروح أو الطريقة العلمية في النظر والاستدلال، ووجد في البحث الذي كان بصدده أن رسائل الأحزان تخالف في دلالتها حديث القمر، وما تبعه من مطالعات للرافعي وأن قلّت، إذن لوقف موقف العالم الذي يجد نفسه حيال فرضين كل منهما يفسر شطراً من الوقائع التي لديه من غير أن يفسر الشطر الآخر، فينبذ الفرضين جميعاً ويسعى للوصول إلى فرض جديد يفسر الوقائع جميعاً. فإن كانت الوقائع قليلة، كما هي في حالة صاحبنا حين أراد أن يحكم على الرافعي من كتابين اثنين - سعى العالم إلى تكثير الحقائق قبل أن يطمئن إلى فرض يفسرها، كما كان يجب على صاحبنا أن يقرأ كل ما كتب الرافعي قبل أن يطمئن إلى حكم يحكمه، لا أن يقرأ كتابين على فترة طويلة من الزمن حتى إذا اختلف صداهما عنده حكم لأحدهما على الثاني من غير قرينة ولا مرجح. وإذا كان الرأي الذي حكم له أقرب إلى ميله واتجاه عاطفته - كما هو الواقع - لم يبق شك في أن صاحبنا الناقد المجدد مسير

بعاطفته لا بعقله: يتبع العقل ما اتفق وعاطفته، فإذا اختلفا ترك عقله واتبع هواه
ومن عجيب أمر كاتبنا الناقد أنه أصدر في أمر الرافعي أحكاماً ثلاثة في كلمتيه الأولى والثالثة من غيره أن يكون لأحد هذه الأحكام أساس معقول. قرأ حديث القمر وما إليه فازداد كراهية لذلك اللون من الأدب من غير أن يجد لذلك تعليلا، غير أنه كان يزعم لإخوانه أن الرافعي خواء من (النفس) وأن ذلك سبب كراهيته له. هذا حكمه الأول أبداه على تردد وكأنه يعتذر منه فكان بذلك أقرب إلى المعقول
ثم كتب صديق الرافعي الحميم فصوله الممتعة في تاريخ الرافعي وضمنها تاريخ حب الرافعي في الأعداد 226 إلى 232 من الرسالة بدأها أول نوفمبر وانتهى منها حوالي منتصف ديسمبر سنة 1937 فاغتبط ناقدنا كما يقول لأنه وجد للرافعي حبا له مظاهر وخطوات وأخذ يعلل اغتباطه ذلك بقوله: (إن خيالي المنبعث من قراءة الرافعي لم يكن يطوع لي أن ألمح إمكان وجود هذه العاطفة في حياته، فالحب يتطلب قلباً وكنت أزعم أن ليس للرجل قلب، والحب يقتضي (إنسانية) وكنت أفتقدها فيه). حسن. ها هو ذا قد عرف أن خياله المنبعث من قراءته الرافعي كان مخطئاً، فهل تراه غير رأيه في الرافعي وأثبت له ما كان ينفيه عنه من قبل من أخص خصائص الإنسان بله الأديب؟.
لا. واسمع له يتم لك بقية حديثه فانه حديث عجب:
أي قاسياً على الرافعي ينفي الإنسانية والقلب عنه - (حتى - (لقد ظللت هكذا) استطعت أن أكون ناقداً لا يكتفي بالتذوق والاستحسان والاستهجان ولكن يعلل ما يحس ويحلله فماذا كانت النتيجة؟ لقد عدلت حكمي قليلاً، وخفت حدته ولم أعد أستشعر البغض والكراهية للرجل وأدبه ولكن بقي الأساس سليما
كنت أنكر عليه (الإنسانية) فأصبحت أنكر عليه (الطبع)؛ وكنت لا أجد عنده (الأدب الفني) فأصبحت لا أجد عنده (الأدب النفسي)
كلام مرصوص قد ينخدع به مثل كاتبه، إن جاز على أصحاب (الأدب النفسي) فلا يجوز على أصحاب (الأدب الذهني) تأمل هذا الكلام قليلا، تأمل أوله ثم تأمل آخره. لقد ظل ينكر على الرافعي الإنسانية والقلب حتى أصبح ناقداً يعلل ويحلل. وقد رأيت من كلامه قبل ذلك أنه كان على هذا الإنكار حتى حدثه العريان بحديث حب الرافعي في أواخر سنة 37. إذن فاستطاعته أن يكون ناقداً لا يمكن أن تكون سبقت هذا التاريخ، وإن حدثنا في مقاله الخامس عن محاضرة له في وحي الأربعين ألقاها سنة 34. فتلك المحاضرة إذن كتبها قبل أن يستطيع نقداً أو تعليلاً أو تحليلاً إن كان يعني كلامه السابق، ويكون كلامه السابق هدما لما في تلك المحاضرة من نقد وتحليل يحيل عليه في مقاله الخامس. أما إذا كان لا يعني كلامه السابق وكانت محاضرته تلك تحتوي على نقد نفيس فان هناك تفسيراً واحداً لهذا التناقض هو أن صاحبنا الكاتب الأديب لا يحسن التعبير عما يريد باللغة التي هو أخصائي
فيها
عد عن هذا وسلم له استطاعته النقد حين قرأ حديث حب الرافعي، بصرف النظر عن مبدأ هذه الاستطاعة؛ وانظر في النتيجة التي رتبها عليها. لقد عدل حكمه قليلاً. لماذا هذا التعديل القليل أو الكثير؟ وما علاقته باستطاعة صاحبه النقد والتعليل والتحليل؟ إنه لم يقرأ للرافعي شيئاً جديدا ينقده، ولم يرجع إلى ما قرأ قديما فيعيد قرأته ليحلله أثره في نفسه. إن المقروء القديم هو: حديث القمر وأكره نفسه عليه. ولو كان قرأه ثانيا من جديد ما كان صداه ذلك الصدى الغامض الذي يدل على الجملة ولا يمد بالتفصيل. إذن فماذا نقد وماذا حلل ولماذا عدَّل؟ هل نستطيع لهذا جوابا؟ هل يستطيع هو لهذا جوابا لا مراوغة فيه ولا (لعب على حبل)؟ إن أحاديث العريان عن حب الرافعي يجب أن تؤخذ كلها أو تترك كلها لأنها من قبيل الأخبار. فان أخذت كلها لزم الكاتب الناقد إثبات (الإنسانية) و (القلب) للرافعي من غير قيد ولا شرط. وإن تركت كلها لزمه الوقوف عند رأيه الأول من غير تعديل كثير أو قليل. فلماذا إذن ذلك التعديل القليل وما علاقته باستطاعة صاحب المقلات النقد والتعليل والتحليل؟ أم هي كلمات ترص ليس تحتها معنى مقصود محدود؟ أم هي العاطفة تسير صاحبها في حكمه وإن قام على خطئها الدليل؟
على أننا سنغض الطرف عن هذا كله ونفرض أن استطاعته النقد مكنته بطريقة ما من تعديل الحكم تعديلا قليلا. فهل تراه عدله تعديلا ما! لقد كان يزعم قبل أن يعرف

للرافعي حبا أن الرافعي خواء من (النفس) والآن وقد عرف للرافعي حبا كثيرا أصبح لا يجد عند الرافعي (الأدب النفسي) بعد إن كان لا يجد عنده (الأدب الفني)! أتجد فرقا بين خلو الرافعي من (النفس) وخلو أدبه من (الأدب النفسي) الذي لا يصدر إلا عن (نفس) على حد تعبيره؟ ما نرى صاحبنا إلا وقد سلب الرافعي باليمين ذلك القليل الذي أعطاه بالشمال، وقد صرح بهذا السلب في صدر مقاله الثالث وإن زعم في مقاله الأول أنه اغتبط لما حدثه به العريان من حديث حب عدَّل حكمه من أجله بعض التعديل.

بقيت واقعة صغرى ليست بذات بال في نفسها وإن كان لها دلالتها النفسية على تعبير صاحب تلك المقالات. إنه حين أحس بالغضاضة في التراجع عن حكمه الأول بين الرافعي والعقاد إلى حكمه الأخير الذي بناه على رسائل الأحزان، أراد أن يمهد لذلك التراجع لدى

القارئ في مواربة وجمجمة، فهل تدري ماذا صنع؟ إنه زعم أنه أخطأ في عدم تحديد (الذهن) الذي قال إن الرافعي يصدر عنه في أدبه في مقاله الأول، فإن من الأذهان ما هو مشرق أو خاب وما هو متفتح أو مغلق إلى آخر ما قال. لكن رجعة إلى صيغة حكمه الذي نقلناه لك في هذا المقال تبين لك حظ هذا الزعم من الصراحة والصدق. إنه لم يخطئ في عدم (تحديد) الذهن لأنه حدده بأوضح الألفاظ في ذلك الحكم. وقد كان يستطيع أن ينكر ويتراجع في صدق وصراحة من غير لف أو اختداع للقارئ. ولا عليه من شيء قاله أو يقوله من مدح أو ذم، من إطراء أو هجاء، فان المدح والذم يستويان عند (ذوي المواهب الذهنية) إذا صدرا عن (ناقد) تسخَّر عقله العاطفة، كما بينا في هذا المقال، وكما نرجو أن نزيده إن شاء الله بياناً فيما يأتي من الكلام

محمد أحمد الغمراوي

محمد إقبال

للدكتور عبد الوهاب عزام

منذ شهرين خفت صوت كان يقصف في أجواء الشرق ليوقظه، وخبا برق كان يتلألأ في الظُلَم المتراكمة يضيئها، وطفئ مصباح كان نوراً للسالكين في هذه الغياهب، وهدى للحائرين في هذه الفتن، وسكن قلب كان يحاول أن يزلزل الأرض بخفقانه، وينشئ الناس نشأة أخرى بإيمانه، وهمدت نفس حرة كانت تكبر على حدود الأوطان والحدثان، والزمان والمكان

منذ شهرين فقد الناس عامة، والمسلمون خاصة شاعراً مفلقاً، ومفكراً مُبدعاً، وفيلسوفاً حرّاً؛ وافتقد شباب المسلمين في الهند وغيرها حامل اللواء الذي كان يدعو إلى السمَّو فوق كل عقبة، والسير وراء كل غاية، ويناديهم صباح مساء

آه للعشق الذي قد ذهبا ... ملأ الأرض ضياء وخبا

رُزق الميلاد في أرض الحرم ... وأتاه الموت في بيت الصنم

كلا. ما خفت الصوت، ولا خبا البرق، ولا طفئ المصباح، ولا سكن القلب الكبير، ولا همدت النفس الحرة، فكل أولئك خالد في آثار إقبال

- 2 -

كان محمد إقبال عقلاً كبيراً، وقلباً عظيما؛ درس ووعى مدنية الإسلام ومدنية أوربا ثم قام ناقداً لا مقلداً، وحرّاً لا عبداً؛ فكان من عظم عقله، ووقدة ذكائه، وكبر نفسه، وسموَّ قلبه، ومن العلم الواسع والإلهام الإلهي هذه الآثار الخالدات

وهب إقبال فكره وقلبه للمسلمين يوقظهم ويعلمهم، ويصف داءهم ودواءهم، ويُشيد بماضيهم، ويبشر بمستقبلهم، ويصوغ وحي عقله وعاطفة فؤاده شعراً يوقظ النفوس الهاجدة، ويشعل الهمم الخامدة بل يكاد يبعث الأموات، ويحيى الموات، تنسم فيه نفحات صوفية، وتنير في جوانبه لمعات الاهية. وقد صدق شاعر الإسلام محمد عاكف بك رحمه الله إذ قال: لو أن جلال الدين الرومي صاحب المثنوي بعث في هذا العصر لكان محمداً إقبالا

- 3 -

نظم إقبال عشر منظومات نشرت على هذا النسق:

1 - أسرار خودي (أسرار الذاتية)

2 - رموز بي خودي (رموز اللاذاتية)

3 - بانك درا (صوت الجرس)
4 - بيام مشرق (رسالة المشرق)
5 - زبور عجم (زبور العجم)
6 - جاويد نامه (كتاب جاويد سماه باسم أحد أبنائه)
7 - مسافر
8 - منظومة نظمها أثناء الحرب الحبشية وجعل عنوانها (وبعد فما العمل يا أمم الشرق)
9 - ضرب كليم
10 - بال جبريل (جناح جبريل)
ومات وهو ينظم أهنك حجاز (لحن الحجاز)
ومن هذه المنظومات التسع ثلاث بالأوردية والأخريات بالفارسية
وله مؤلفان باللغة الإنكليزية: الأول (تطور ما وراء الطبيعة في إيران) والثاني محاضرات أراد فيها أن يبني العقائد الإسلامية على أسس جديدة وسماها (إصلاح الأفكار الدينية في الإسلام)
ولا يتسع الوقت للكلام عن هذه المنظومات وما ضمنت من شعر رائع وفلسفة عالية، فحسبي أن أشير إلى كتابيه أسرار خودي ورموز بي خودي، فقد شرح فيهما فلسفة في الذاتية واللاذاتية، وبين أن العالم قائم على الذاتية وأن على الإنسان أن يقويها ما استطاع، ثم بّين كيف تلتئم الذاتيات القوية في الجماعة واتخذ من تاريخ المسلمين رجالهم وجماعتهم مُثُلا لتطبيق هذه الآراء
وكذلك أشيرُ إلى كتابه (بيام مشرق) الذي جعله جواباً للشاعر الألماني جوته صاحب (ديوان الغرب) وفيه صوَر من الشعر والفلسفة يفخر بها الشرق على الغرب، وفيه نقد لكثير من مذاهب أوربا وفلاسفتها
ثم أشير كتابه جاويد نامه الذي قصَّ فيه رحلته في الأفلاك ولقاءه عظماء المسلمين في
العصور القريبة والبعيدة. وكان دليله في هذه الرحلة جلال الدين الرومي، ولهذا الرجل العظيم على إقبال تأثير عظيم
- 4 -
منظومات إقبال فيها سعة النفس العظيمة التي لا تحد؛ ولكن يستطيع قارئها أن يتبين أصولا خمسة يدور حولها كثير من شعره:
1 - الحياة هي الجهاد الدائم وتسخير قوى العالَم
(ما الحياة؟ هي أن تأسر نفسُك هذا العالم. فكيف تجعل نفسك لهذا العالم أسيرة؟)
2 - وإنما يصلح الإنسان للجهاد بتقوية نفسه، واستخراج كل ما فيها من قوى. وقد بنى على هذا مذهبه في الذاتية وشرحه في كتاب (أسرار خودي) . . .
ومن كلامه في بيام مشرق: (أخرج النغمة التي هي أساس فطرتك. أيها الضالَّ عن نفسه! خل نفسك من نغمات غيرك.) ويقول على لسان البراعة والحباحب: (لست كالفراشة اصطلي بنار غيري. ولكني أشتعل بنفسي ولا أحمل لأحد منَّة؛ إذا صار الليل أحلك من عين الظبي أنرت بنفسي لنفسي الطريق)
وتقتضي هذه الذاتية الحرية، وحرَّية إقبال ألا يحدَّ النفس شيء حتى الزمان والمكان
هو بالأمس خبير بغدِ ... وهو اليوم نجيُّ الأبد
وقد بين في أسرار خودي الفرق بين العبد والحر في قوله:
(العبد ضال في ليله ونهاره، والحر يضل في قلبه زمانه. العبد يخيط الليل والنهار على نفسه، وينسج من الأيام كفنه، والحر ينسج على الزمان عزائمه - العبد طائر في شبكة الصباح والمساء، حرمت روحه السبح في الهواء، وصدر الحر الهمام، قفص لطائر الأيام. فطرة العبد تحصيل الحاصل، وخواطره تكرار قاتل. ومقامه من الجمود واحد؛ وصوته بالليل والنهار راكد. والحرَّ كلَّ حين خلاق يسكب نغمات جديدة في الآفاق، فطرته لا تحتمل التكرار، وليست طريقه حلقة البر كار، العبد في سلاسل من زمانه، والقضاء والقدر ورد لسانه. وهمة الحرَّ مشيرة على القضاء، تصوَّر يده الحادثات كما تشاء)
4 - العلم وحده حجاب دون الحقائق وعقبة في سبيل الحياة - كما يقول ناحت صنم

وبائع صنم وعابد صنم لا بد مع العلم من العشق. وهو يذهب في هذا مذهب الصوفية كفريد
الدين العطار في الكلام على العلم والعشق، وهم يعنون بالعشق الوجدان اليقظ وهذه الحرقة التي تسمو بالإنسان عن السفاسف إلى العظائم وتدفعه إلى الحق والخير، وتوجهه إلى الله. وقد ضرب في ذلك مثلاً ابن سينا وجلال الدين الرومي؛ قال: ضل أبو عليَّ في غبار الناقة ونالت يد جلال الدين ستر الهودج، هذا دار مع الفتاة على وجه الماء وذاك غاص في اللجة فظفر باللآلئ
هذه الأصول في فلسفة إقبال لها مُثل لا تحصى في مقاصد الإسلام وسننه - 5
وتاريخه. وهو يكره النزعات الوطنية الضيقة ويشيد بالأخوة الإسلامية العامة. وقد بدأ نشيده الذائع في الهند والذي يسمى النشيد الملي بقوله: وحين وعرب هماراً هندوستان همارا مسلم هين هم، وطي هم ساراجهان همارا (الصين والعرب لنا والهند لنا، نحن المسلمون وطننا كل هذا العالم)
وقال في بيام مشرق: إن الناس لاموا طارق بن زياد حينما أحرق السفن وقالوا هذا بعيد من الشرع والحزم. فسل سيفه وقال الأرض كلها ملكنا لأنها ملك ربنا)
- 5 -
كان إقبال واثقاً بنفسه، معتداً بآرائه يتدفق في شعره تدفق البحر لا يعرف خوفاً ولا تردداً. وكان يرى أحياناً أنه بشير المستقبل، وأنه صوت شاعر الغد، وأن العصر الحاضر لا يدرك معانيه، والجيل القائم ليس كفء كلامه
يقول:
أنا شمس حديثة الميلاد، لا تعرف رسوم هذا الفلك، كما يغمر النجوم ضياؤها ويرقص) على صفحات البحار شعاعها. . . أنا نغمة لا تبالي بالمضراب، أنا صوت شاعر الغد. . . إن عصري لا يفهم الأسرار. . أنا يائس من الأصحاب القدماء، وإن طوري يشتعل ليظفر بكليم، بحر أصحابي كالقطرة لا تزخر، وقطري كالبحر فيها طوفان مضمر. نغمتي من عالم آخر وجرسي لغير هذه القافلة. . . كم مرت بهذه الصحراء قوافل تمشي الهوينى كما تسير الناقة ولكني عاشق الصياح إيماني وضوضاء الحشر طليعتي أنا نغمة ولكنها أكبر من الوتر، ولست أشفق على هذا العود أن ينكسر كم شاعر ولد بعد الموت أغمض عينيه ليفتح عيوننا وبدا من وراء الموت كما تنبت الأزهار في تربته.
ذلكم الرجل الذي فقدناه أمس، والذي يدرك عارفوه ماذا فقد المسلمون منه.
كان إقبال يتمنى أن يموت في الحجاز فإن تكن فاتته هذه المُنية فله بعض العزاء في أن يستمع العالم الحديث عنه من البيت المقدس، من المسجد الأقصى من قبلة المسلمين الأولى
عبد الوهاب عزام
تيسير قواعد الإعراب
لأستاذ فاضل
- 1 -
ألفت وزارة المعارف جماعة لتيسير قواعد تدريس اللغة العربية من حضرات الأساتذة طه حسين عميد كلية الآداب، وأحمد أمين وإبراهيم مصطفى الأستاذين بهذه الكلية، وعلي الجارم بك مفتش اللغة العربية الأول، ومحمد أبي بكر إبراهيم المفتش بوزارة المعارف، وعبد المجيد الشافعي الأستاذ بدار العلوم
وكان على وزارة المعارف أن تراعي مكان الأزهر في هذا العمل الذي أرادته، فتضيف إلى رجالها الذين اختارتهم من كلية الآداب ودار العلوم أستاذين أو أكثر من رجال الأزهر، حتى يأتي هذا العمل الذي أرادته باتفاق معاهد العلم في مصر، فيكون له مكانته واحترامه، لأن التغيير الذي عملته تلك الجماعة لا يقتصر على تيسير قواعد تدريس اللغة العربية، بل يتعدى هذا إلى إحداث تغييرات خطيرة في نفس تلك القواعد، فكان من الواجب أن يختار لذلك جماعة من هذه المعاهد المختلفة في بيئتها وثقافتها، ليتم الأمر فيه بعد تجاذب العقول المختلفة، والمشارب المتباينة، وبعد دراسته دراسة متزنة تقوى على النقد، وتقبلها هذه البيئات المختلفة
ولقد ظهر عمل هذه اللجنة فظهرت حركة يراد منها القضاء على كل ما عملته بجملته

وتفصيله، ولا يهمها بعد هذا أمر تيسير تلك القواعد التي ألفت هذه الجماعة من أجله، وهو أمر لا بد لنا منه في هذا العصر الذي تزاحم فيه العربية مزاحمة شديدة يخشى منها عليها، وتأخذ نفوس كثير من أبنائها إلى الانصراف عنها لما تجده من تعقيد في بعض قواعدها، فلا بد لنل من تذليل هذه القواعد المعقدة وتيسيرها، ولا بد من حذف ما فيها من حشو يمكننا الاستغناء عنه، ويجب إذا ظهر أمامنا عمل في هذا السبيل أن نعمل على الاستفادة منه، وأن يكون رائدنا البحث في تهذيبه وتكميله، ولا يصح أن يكون رائدنا هدمه وتقويضه لا غير، فكم جنى هذا على محاولات الإصلاح فينا، وكم نشر فينا من عوامل اليأس في إصلاح حالنا. وسيكون نظرنا في عمل هذه اللجنة قائماً على أساس التهذيب والتكميل، ونرجو أن يكون هذا رائد كل محب للغته، حتى يتم لنا النهوض بها، ولا يكون حظنا في

هذه المحاولة الإصلاحية كحظنا في غيرها من محاولات الإصلاح، معركة من التنابذ والتخاصم تفسد ولا تصلح، وتهدم ولا تبني، ويعمل فيها سوء الظن بكل جديد عمله في توسيع مسافة الخلف، وعدم الوصول إلى شيء يصح الاتفاق عليه. ولولا هذا الظن السيئ بكل جديد لأمكننا أن نصل إلى هذه الغاية التي تقضي على أسباب الخلاف بيننا، وتعمل على توحيد كلمتنا، وتجعل التعاون على الإصلاح رائدنا في كل أعمالنا

باب الإعراب

ترى اللجنة وجوب الاستغناء عن الإعراب التقديري والإعراب المحلي، لأن مثل - الفتى - يعرب بحركات مقدرة على آخره منع من ظهورها التعذر، ومثل - القاضي - تقدر فيه حركتا الرفع والجر لأجل الثقل، ومثل - غلامي - تقدر فيه الحركات الثلاث لأجل المناسبة، وفي تقدير الحركات وفي الإشارة إلى سبب التقدير مشقة يكلفها التلميذ من غير فائدة يجنيها في ضبط كلمة، أو في تصحيح إعراب. كذلك الإعراب المحلي، فمثل (هذا هُدىً) هذا يبنى على السكون في محل رفع، ومثل (يا هذا) مبني على ضم مقدر منع منه سكون البناء الأصلي في محل نصب، وكذلك (يا سيبويه) مبني على ضم مقدر منع من ظهوره حركة البناء الأصلي في محل نصب. وهذا عناء مضاعف وجهد يبذل لغير شيء، فيجب الاستغناء عن الإعراب التقديري وعن الإعراب المحلي في المفردات وفي الجمل، ويوفر على التلميذ والمعلم والعلم هذا العناء

وعندنا أن الذي يمكن في هذا إدماج الإعراب المحلي في الإعراب التقديري، فيستغنى بهذا عن باب البناء كله، ويوفر على التلميذ والمعلم والعلم ما يبذل من الجهود في هذا الباب، وما يجب أن يراعى في التطبيقات من الفروق بين الإعراب والبناء، بأن يقال إن هذا مبني وذاك معرب، وبأن يقال في المبني إن محله كذا من الرفع أو النصب أو الجر، ولا يخفى ما يذكر في علة البناء من تكلفات لا داعي إلى ذكرها هنا

فلغة العرب تمتاز على غيرها من اللغات بأنها معربة، أي بأن أواخر كلماتها لا تلازم حالة واحدة، وهذا الحكم عام في أسمائها وأفعالها وحروفها، لأن حروف العربية منها ما هو مفتوح الآخر مثل رُبَّ، ومنها ما هو مضموم الآخر مثل مُنْذُ، ومنها ما هو مكسور الآخر مثل جَيْرِ، ومنها ما هو ساكن الآخر مثل عن، فمثل - رب - يقال في إعرابها إنها منصوبة بالفتح الظاهر، ومثل - منذ - يقال في إعرابها إنها مرفوعة بالضم الظاهر، ومثل - جير - يقال في إعرابها إنها مجرورة بالكسر الظاهر، ومثل - عن - يقال في إعرابها إنها مجزومة بالكسر الظاهر

وكذلك أفعال العربية وأسماؤها، فأفعالها منها ما هو مفتوح أو مضموم أو ساكن، مثل الماضي في - نام - ناموا - نمت - ومنها ما هو مضموم أو مفتوح أو ساكن، مثل المضارع في - يفهم - لن يفهم - ليفهمنَّ - لم يفهم - يفهمن - ومنها ما هو ساكن أو مفتوح مثل الأمر في - افهم - افهمنّ

وهذا كله فيما يتعلق بحركات الإعراب الأصلية، أما العلامات التي تنوب عنها فسيأتي الكلام عليها في العلامات الأصلية والفرعية

وأما أسماؤها فمنها ما هو مضموم مثل المبتدأ والخبر في قولك (الباب مفتوح) ومنها ما هو مفتوح مثل اسم إن في قولك (إن العدل محمود) ومنها ما هو مكسور مثل المضاف إليه في قولك (غلام زيد). ويمتاز الإعراب في الأسماء بأنه يجري على حسب أنواعها لا على حسب مفرداتها، فكل مبتدأ فيها مضموم وهكذا، وكل مفعول فيها مفتوح وهكذا، وكل مضاف إليه فيها مجرور وهكذا، ومثلها الأفعال في ذلك إلى حد ما

والإعراب التقديري يأتي في الكلمة العربية بأن يكون لها حكم في الإعراب باعتبار نوعها، ولكنها تكون في ذاتها متحركة بحركة تخالف حكم نوعها في إعرابه، فمثل (جاء الفتى) الفتى فيه فاعل حكمه الضم، فيكون ضمه تقديرياً، ومثل (جاء سيبويه) سيبويه فيه فاعل مضموم، فيكون ضمه تقديرياً أيضاً

ولا بد من تقدير هذا الإعراب لأنه إذا كان لا يظهر في صاحبه فانه يظهر في تابعه، فتقول (جاء هذا الفاضل)، (ورأيت هذا الفاضل)؛ (وسررت بهذا الفاضل) ولا شك أن وجود هذا الإعراب في التابع يدل على وجوده في متبوعه

وعلى هذا يكون إعراب - جاء سيبويه - مثل إعراب - جاء الفتى - كل منهما فاعل مرفوع بضم مقدر، ولا داعي إلى ذكر سبب التقدير في كل منهما، لأن هذه فلسفة لا طائل تحتها، والاشتغال بها حشو في النحو لا فائدة فيه

ويكون الإعراب التقديري في ثلاثة أقسام من أنواع الكلام: أولها الكلمة المقصورة - مثل

عصى - يخشى - الفتى - وثانيها الكلمة المنقوصة مثل - يرمي - القاضي - وثالثها الاسم اللازم، وهو اصطلاح جديد نطلقه على الاسم المبني بعد أن ألغينا ذكر هذا الاصطلاح في النحو، ويدخل في هذا القسم كل اسم لا يتغير آخره في حالات إعرابه من الضمائر والموصولات وأسماء الإشارة ونحوها، فإذا اتفقت الحركة التي يلازمها مع حركة إعرابه كان إعرابه ظاهرا لا مقدراً، مثل - نحن نفهم - فنحن مبتدأ مرفوع بضم ظاهر في آخره، ويكون حاله في هذا قريبا من حالة القسم الثاني وهو المنقوص، إذ يقدر إعرابه في حالتي الرفع والجر، ويظهر في حالة النصب، ولا يقدر إعرابه في جميع حالاته كما يقدر إعراب المقصور

(للكلام بقية)

أزهري

الفروسية العربية

للميجر كلوب

ترجمة الأستاذ جميل قبعين

- 2 -

الحرب

لا تتجه نظرة البدوي في الحرب إلى ربح المعركة كما قلت سابقاً. وإنك لا تجد فرقاً بين القرون الوسطى في أسبانيا أو مغامرات ريكاردوس قلب الأسد في حروبه عندما يصطف الفرسان ويتبارز الفارس والفارس وبين حروب البدو، وقد انقرضت هذه العادة منذ عشرين سنة فقط. إن حب المفاخرة وتطلب الشهرة واحترام تقاليد أساليب الحرب مع عدم وجود الكراهية الشخصية بين الفريقين المتحاربين هي الروح التي تسيطر على المعارك. وإن البدوي يجد في الهجوم ليلاً على مخيم العدو نذالة بل جبنا؛ وإن معاونة الجرحى وعدم التعرض للنساء في الحرب أمر عادي لديه. ومن تقاليد البدو وعاداتهم إذا ما التقطوا جريحاً أو أخذوا أسيراً أن يعاملوه باحترام ويقدموا إليه طعاماً وشراباً ومأوى إلى أن يشفى، ومن ثم يزودونه بالمؤونة وببعير ليذهب إلى قبيلته بسلام. إن العقيدة أو الفكرة التي نخرج بها من كل هذه التقاليد والاعتبارات هي أن البدوي يهتم أن يحارب بشرف قبل أن يهتم بربح المعركة

والمرأة هي التي تثير حماسة الرجال في الحرب، وكما قلت تحكم على بطولتهم، وقد جرت العادة أن تحضر النساء الموقعة راكبة فوق الجمال في كتبان مزينة، وكثيراً ما تبرز المرأة من الهودج محلولة الشعر كاشفة الصدر وهي تتغنى بأعمال البطولة راوية أعمال الأبطال السابقين، وكثيراً ما تنادي الفرسان بأسمائهم؛ ولا أرى ضرورة لأن أذكر أن الطرفين كانوا يعفون عن النساء أو لا يقربونهن

ومن جهة أخرى فان الإبل كانت تلعب دوراً هاماً في الحرب. إن الإبل من أهم الضروريات للبدوي، ومن المعتاد أن اغتنام قطيع الإبل دليل على انتصار الفريق الغانم على الآخر، ولما كانت الإبل هي ثمرة الحرب فقد كان شيوخ البدو يحرصون عليها ويتوارثونها جيلاً بعد جيل، وقد جرت العادة أن يسمي الشيخ قطيعه باسم خاص. إن هتاف فرسان البدو في الحرب ينحصر في اسم حبيبة الفارس أو باسم أخته أو باسم قطيع جماله. فيهتف مثلاً (أنا أخو جوزا - فيصل) أو (لعيون حميده) أو (خيال العليا -

النوري) والعليا قطيع من الإبل
ومن الحكايات التي تروى عن سلطان بن سويط، وقد كان شيخاً لعشيرة الظفير منذ ثلاثة أو أربعة أجيال، أن جماعة نهبت أموال فتاة على حدود الحجاز؛ ولما كان سلطان مشهوراً بشجاعته وفروسيته فقد هتفت الفتاة: (أين أنت يا سلطان لتدافع عن فتاة) وقد تناقل العرب هذه الحكاية حتى وصلت إلى سلطان فأقسم لينتقمن لها، وكيف لا وقد استغاثت به ولو على بعد مئات الأميال
وسأروي لكم حكاية حقيقية وقعت منذ جيلين فقط: - اشتهرت في الجنوب قبيلتا عتيبة وقحطان بعدائهما الشديد وكثرة غارات بعضهما على بعض، وقد كان لابن هادي شيخ قحطان ابنة صارت مضرب المثل عند العرب في الجمال - وقد رفضت كل الذين تقدموا لخطبتها. وكان ابن حميد اشتهر بشجاعته وفروسيته وكثرة غزواته الموفقة التي شنها على قحطان حتى أقسم شيوخ قحطان يوماً أنهم سينحرون إبلهم في اليوم الذي يأسرون به ابن حميد. وقد حدث أن تقدم رجل لخطبة ابنة هادي، فلما راجعها والدها بهذا الشأن أجابته قائلة: إنني لن أتزوج إلا أشجع فرسان العرب وأكرمهم وأجملهم. وقد كان رجل صليبي يسترق السمع فسمع ما دار من الحديث بين الوالد وابنته، وعندما خرج والدها دخل عليها خدرها وقال إن هذه الصفات لم تجتمع يا مولاتي إلا لابن حميد. فأجابته: ليتني أراه ولو مرة واحدة. فنقل الصليبي هذا الحديث لابن حميد. وقد كانت شهرة بنت هادي وصيت جمالها قد سبقا وصول خبرها إلى ابن حميد فكتم هذا الحديث في نفسه حتى إذا جن الليل غادر منازل عشيرته ذاهبا إلى منازل قحطان وتسلل بين البيوت حتى دخل خيمة الفتاة وأيقظها بلطف وعرفها بنفسه ففرحت به، ولكن لم تكد تهدأ أعصابها بعد فرحها بلقائه حتى جزعت عليه لهذه المغامرة فطمأنها. وظلا يتسامران حتى مطلع الفجر. وكانت العادة أن يجتمع البدو عند شيخ القبيلة صباحا لشرب القهوة وللتداول في شئون العشيرة. فلما اجتمع الشيوخ خرجت الفتاة إلى والدها قائلة: يا أبت أطلب أمنية فهل تعدني بإجابتي إليها؟ فأجابها: إن أمنيتك مستجابة قبل أن تطلبيها. عندئذ قالت اشهدوا يا شيوخ قحطان على قول والدي. فأجابوها: نحن شهود على قوله. فقالت: حينئذ أريد أن تُبقي على بن حميد. فأجابها والدها لا تكوني سخيفة! هذا عدو قبيلتنا؛ وعلى كل حال بيننا وبينه مائتا ميل على الأقل. فأجابته: كلا إنه في هذه الخيمة. فقام والدها يريد الرجل لينتقم منه فاستوقفته منادية شيوخ قحطان الذين تدخلوا في الأمر وذكروه بوعده، فخضع للأمر الواقع، وهنا خرج ابن حميد ليتزوج حبيبته بينما نحر شيوخ قحطان إبلهم لا لأسر ابن حميد بل احتفاء بزواجه من فتاتهم.
هذه الحكاية ترينا بجلاء أن غاية البدوي الفخر والمجد لا النصر، والحرب وسيلة المجد وليست وسيلة الكسب. وأمثال هذه الحكاية كثيرة لا تحصى.
لا يكون حديثنا عن الفروسية تاما دون التحدث عن صلاح الدين. في الحقيقة أن صلاح الدين كردي، وقد قاتل لأجل الدين لا لأجل المجد والشرف، ولكن روح الفروسية ظهرت بجلاء في كثير من أعماله. حينما حاصر صلاح الدين قلعة الكرك لأول مرة كان أميرها همفري أوف تورن يعقد قرانه على اليزابث أخت ملك القدس. ولما علم صلاح الدين بالأمر منع جنوده عن رمي السهام على القلعة، كما أن صاحبها أرسل إلى القائد المسلم الخبز والخمر واللحم من وليمة العرس. ولما خرج ريكاردوس قلب الأسد للدفاع عن يافا بالبركان كان راكبا دابة استعارها من أحد السكان، ولكن صلاح الدين الشهم أرسل إليه فورا جوادين مع خادم ليركبهما البطل العربي في المعركة ومثل آخر من أمثلة الفروسية ما فعله القائد الفرنسي الباسل في فونتانتوني إذ دعا الحامية الإنكليزية إلى إطلاق النار أولا.
إننا في وقتنا الحاضر قد نزدري مثل هذه الأعمال ولكن يجب علينا ألا ننسى أن عقيدة البدوي في الفروسية هي القيام بالأعمال التي تنيل المجد والفخر لا كسب المعركة الكرم.
يحمل الكثيرون من الأوربيين - كنتيجة لزيارتهم للشرق - فكرة سيئة عن العرب لكثرة المتسولين، ولكني أصرح بأن الذين يتسولون هم الطبقة الدنيا من العرب؛ أما الطبقات الأخرى حتى التي يكثر فيها الفقراء فهم لا يتدانون لمثل هذا العمل، وإذا ما أخذ البدوي

دراهم (بخشيشا) فأنه يأخذها ليكرم بها. لأن البدوي كما قلت لا يهتم لمتاع هذا العالم
- وهو لا يتردد أبدا في نحر آخر ما يملكه من الإبل لإطعام ضيف يمر به ولو كان هذا الضيف غريبا.

توجد قبيلة من البدو قاطنة في شمال الحجاز فقيرة معوزة حتى أن أفرادها لا يملكون خيماً يأوون إليها وهم يقطنون الكهوف، ولكنهم إذا ما رأوا ماراً بالطريق ركضوا نحوه وأحضروه ونحروا له ما يملكون من المواشي

(يتبع)

جميل قبعين

رسَالَة الشِّعر

وحي الشاعرية

مصريات

للأستاذ حسن القاياتي

الجمود العلمي - مشيخة الإسلام - أمنية الإصلاح - مناجاة
- الشرق خلال العصر - النيل والحرية - الرياء والذلة
الانتخابات الزائفة - إلى المنبت

من الملائك في زيِّ الأَناسيِّ ... تبارك اللهُ يا مصر الأَمانِيِّ
النيل مجتمع الحسنى كما احتشدت ... ملاحةُ الروض في خَدِّ الأقاحيِّ
علمٌ وجنَّاتُ نبت مصر بينهما ... أحظى من النحل بالشهد النباتيِّ
العلم حلية عصر نحن شارته ... صوغَ الهلال على العام الهلاليِّ
من يحك عَنَّا يردِّد كلَّ ساحرةٍ ... كالعود ترجم للصوت الغنائيِّ
أدل بالغرْب جيلٌ أوّليتُهُ ... لم تشهد الحسنَ لغربيٍّ
كُنا وكانوا فتلك الشمس مخبرةً ... أن ليس في الغرب نُورٌ غير شرقيٍّ
في عين شمسٍ لنا أو أرض أندلُس ... وَادٍ من العلم صحَّابُ الاوَاذِيِّ
لنا البديعُ كأن الشمس قد نُثِرتْ ... صبغاً على كل حالٍ منه شمسيِّ
سحر اليراعة فنَّ كم نساجله ... بكل صنَّاعةٍ للسحرِ فنيِّ
ما أرسلت مصرُ بالتبيان ساحرةً ... إلاّ وقد حاسبته بالقباطيِّ
عطفاً على لغة التنزيل إن لها ... في ندوة الحيِّ شأناً غير منسي
صونوا البيان فللدولات ناهضةً ... شَأْوُ في وقع الرُّدَيْنيِّ
مصرُ على قِلةٍ في مصر مكثرةٌ ... عَدَّ الأماجيد كالرقمِ الحسابي
نمشي إلى جنة العلياء نسلُبها ... برد الجوانح من ظلٍّ ومن رِيِّ
الجدُّ يعليك فيمن لا تشابُهُ ... كالأرض تخطر في ركب الدَّراريِّ
النيل بالأزهر الوضاح نهضته ... كالبيت قام على الركن اليماني
ما أنبل الأزهر الديني يقيسه ... عهدُ الصقليِّ من عهد التِّهاميِّ
لله شيعيّة صَلَّتْ بقبلته ... فَراح أزهر سُنيٍّ وشِيعيِّ
ما أجدر العلم أن يحيا بموثقه ... وُدُّ الشتيتين مشدود الأواخيِّ
بيتٌ وبيتٌ أقام الرشدُ مدرسةً ... بالقاهريِّ وصلَّى بالحجازيِّ
واهاً له أزهراً لو أن عالمه ... مشى إلى الدين في الرأي الأمامي
العلم يَفْتَنُّ وَضَّاحاً فنطلبُهُ ... بالأزهريِّ مُقيماً في الأحَاجيِّ
غفرانك الله إن العصر مُدَّخِرٌ ... للأزهريين ذكراً غير مطويِّ
يا أزهر العلم دُمْ للشرق مدرسةً ... عَزَّ العراقيُّ فيها بالشاميِّ
حيَّ الجديد فما يرضَى معارضهُ ... حتى لدى الموت قبراً غير عصريِّ
لا نضرَّ الله للتثقيف آونةً ... أنحت على الوحي بالشرح الخرافيِّ
عَهْدٌ تزار به الموتى لخشيتها ... وربك الحيُّ فيه غير مخشيِّ
إن الكتاب الذي صَلَّى بسورته ... محمدٌ بَاتَ صَوْتاً في الأغانيِّ
غنت به (أم كلثومٌ) فجاوبها ... من (آلِ رفعت) أَشْبَاهُ القْمَاريِّ
دين الحنيفيِّ لا يُجْزَى بأزهره ... خيراً وبجزاه للدين السِّيَاسِيِّ
الشرع في القوم يبنيه ويهدمه ... غاوٍ تأنق في الحلم المَنامِيِّ
أزرى على العلم والدنيا مثقّفةٌ ... علامةُ النَّاس بالعلم اللَّدُنِّيِّ
قطب من الرشد أدنى ما يؤُمُّ له ... من السماحة في القَطب الشماليِّ

إذا تشكيت لِلمنَّاع لاعِجَةً ... سقيت رِيًّا من الماءِ السَّرَابي
زين للشيوخ حَرِيٌّ أَنْ يُسَدِّدَهُ ... هُدَى الكتاب إلى الجواد الفراتي
لا أظلم الجودَ كم سحتوت أرملة ... لدى (الإمامين) والقبر (الحسيني)
يعطي لدى كل قبر كل مكتنز ... باب الزكاة لديه عير مرضِيّ
بنو الحياة حُلاها كيف نطلبها ... بكل غادٍ على الموتى قرافي؟؟
لله علامة بالدين يعصمه ... إن بات عالم دين غير ديني
مِلْءُ العيون سنا والشرق محمدة ... مِلْءُ النفوسِ هدى مِلْءُ الأماني
إن دام للأزهر الوَضَّاءِ حاضِرُهُ ... فالأحمديُّ به فوقَ المراغي
تبا لمشيخة الإسلام يفرضها ... مَنْ ينزل الوحي بالأمر الوزاري
شيخ ومن أين للإسلام مشيخة ... لولا تكذّبُ داعٍ أو حواري؟
معليك يا دين إن شابتك زائفةٌ ... فَلَّ الزجاجَ برأيٍ منه ماسِيِّ
باسم الولاية كم شيخ مراشفه ... على يدَيْ كل (شَبَّاك وسُبْكيِّ)
الغرب يضحك والإسلام يخجله ... من شيخه قبلة في كفِّ سُوقيِّ
بعضُ العمائم يطويه على سخَفٍ ... دين العفيفيِّ عن وحي السباعي
صاد الرفاعيُّ ثعباناً فألَّهَهُ ... يا آيَ موسى هنيئاً بالرفاعيِّ
هيهات لن يؤمن الأشياخ أو يصلوا ... دون الأناسيّ خلاَّق الأناسيِّ
يا مصلح الأزهر المصدوق آمله ... حياك باريه بالروح السَّماَويّ
طبعت للنفع طبع الشمس منتحياً ... إلى الهُدى سنة النور الصباحيّ
للدين ندعوك، للإصلاح يؤنسُهُ ... مجدُ القُدَامىَ، وللنبت العصاميّ
أقبل كوصفك نوراً أيَّ مشترك ... لا خير في شيمة العلم الأنانيّ
الدين إن لم تَصُلْ بالعلم حجته ... فاز الخرافيُّ منه باليقينيّ
أعمل حجاك فما أحرى بنيِّره ... أن يجلي الله في العرش الإلهيّ
ذمّ القديمُ فما أصفى بتكرمة ... سوى عتيد العلى من كل عاديّ
أُفٍّ لنفسي فما ترضى بصالحة ... ليس العصاميُّ فيها بالعظاميّ
جهل الأبوة بين النشء مقتلة ... ماذا يحب من الداء الوراثيّ
في معهد أبناءٌ أبُوَّتُهُمْ ... في معهد الدين ألْفَوْا كل عصريّ
إن الحنيفيّة الغراء يشغفها ... لُبُّ الثقافيّ في هدْى الحنيفيّ
يا رُبّ دمع الإسلام منَّهم ... كما تسمَّعتَ للنوح الحماميّ
خافوا على الدين من علم وفلسفة ... ما أنت يا دين بالصرح الزجاجيّ
عداوة العلم والإسلام يعشقه ... سجية الإفن في اللُّبّ الثقافيّ
العلم أجمع فيه الخير أجمعه ... كالنحل ماذية رفَّتْ بماذِيّ
مهلاً بني العصر قد جنت شمائله ... إن الهداة حمام عند بازيّ
لا السَّرحُ يحميه من أودت بعصمته ... دُنيا الفُتُونِ ولا الراعي بمحميّ
مَنْ نصطفيه لدى الإصلاح ترجمةً ... لآية الرشد في العصر الإباحيّ؟
يا آسي الشرق إن الشرق محتشداً ... يجزيك نعماءِ هادٍ عند مَهدِيّ
واهاً لوصفك مسكيًّا ننافحه ... بكل ذاكٍ من الأمداجِ مِسْكِيّ
خُذْنَا إلى النور لذاعاً بميسمه ... فلن تضئَ بنورٍ غير ناريّ
الجدُّ من بغية الإصلاح أنجبه ... خلِط الحريريّ منه بالحديديّ
السائسُ البرُّ جبارٌ بصرفه ... لُبُّ الدراسيّ في عزم الحماسيّ
بدِّدْ من الجهل ليلاً أنت غُرَّته ... إن الصَّباح من الليل الغُدافيّ
يا حلكة الجهل فصّاحاً بسبَّته ... متى تجليك بالضوءِ النَّهاريّ؟؟
لا أكذب العصر إن العصر مختلفٌ ... مجد الرشيد وأكوابُ النواسيِّ!
بنا ظِماَءٌ إلى الساقي على يده ... كأس تدفق بالسَّمّ الشَّرَابي
ويحي على النيل إن ردت مشارعه ... رِيَّ القلوب من العذب الزلاَليّ
تلك الكؤوس ملاءً كيف يجرعها ... من يرهن النيل في الدين العقاري
نقضي من الدين ما نخزي بمطلبه ... وللكرامة دين غيرُ مقضِيّ!
لُؤمُ التصرُّف إذ نودي بنافعةٍ ... قد لَفّ حَاجِيَّها ثوبُ الكماليّ
إنَّا لنحمل بالآداب زائفةً ... عبء الخدود من الورد الصِّناعي
كم في الشمائل مطليٌّ نخادعه ... بكل خدٍّ صنيع الحسن مَطْلِيّ

نُنُحي على الحسن إغواءً وتحليةً ... كالشعر يحنو على السحر الخياليّ
ما أعدل الحسن تجزينا لواحظه ... على تصبّيه سحريًّا بسحريّ
يا ربُّ، يا ربُّ خُذْ للنيل من فئةٍ ... ألقَتْ على مصر عاراً غير مصريّ
خافوا علي زيفهم من كل منتقدٍ ... يا ليث رحماك للدَّلّ الكناسيّ
لو أَرَّخَ الفتحُ لم يعدل مُؤَرّخُهُ ... (بيوم بدر) سوى (يوم البداري)
يوم البداريّ فوز ليس يعدله ... للنيل فوزٌ سوى النصر العرابيّ
لله درُّ فلان لست أغمزهُ ... ولا رثى الله للعّهد الفُلاَنِيّ
عهد بكينا له إبَّان مولده ... شرَّ العهود وولَّى عيرَ مبكيّ
أنحى على الفكر نفسيًّا فوا كبدي ... هل أنبت السعد فكرٌ غير نفسيّ
إن كان صاحبُ لُبٍّ ليس يعمله ... فأين حدثتَ باللّبّ الجمادي؟
خُلْفُ الطوائف للأصلاح منقبة ... شمائل الرشد في الرأي الخلافيّ
لا يملك الشائنُ الفَضَّاحُ منزلةً ... بين الأبيين من ناهٍ ومنهيّ
الْحُرُّ للخطة العلياء غضبته ... وغضبة الوغد للرأي العدائيّ
عُبَّاد كل رئيس لمة ضربت ... في مصرفي مصنع الضرب الحكومِّي
هَمَتْ براعاتهم بالحق منصلتاً ... وَيْحَ الحديديّ من وقع الحريري!
وا حر قلباه كم نفضي إلى شرسٍ ... من الأناسِيّ في صولات جِنِّيّ
الأمر يبرم سِرّيًّا فَتُلهَمُهُ ... منابتُ الغيّ من بادٍ وسويي
وعدُ المحبين مأتِيٌّ فإنْ ظفرت ... به العُداة فوعدٌ غيرُ مَأْتِيّ
قيل انتخاب فعاذوا في نيابتهم ... بكل ذئب حديد النَّاب وحشيّ
ما أقتل العدل في الشورى إن التفتت ... عن كل محتفل بالرأي شورى
ضحوا بكل أبيٍّ ليس يفجعهم ... أن رَدَّ دُستورهم بعض الأضاحيّ
ويح الكراسيّ للنُّواب كم حملت ... أشلاء جَلْدٍ على سلب الكراسيّ
إن الدساتير إن خطت معطلةً ... قتل الأمانيّ باللَّوْم الكتابيّ
ما أعدل الله فرداً في حكومته ... وأعدل الحكم شورى عير فرديّ
للرفق إلمامةٌ بالنبت واعظةٌ ... مثل الجفون ألَمَّتْ بالأناسيّ
يا نبتة النيل يا أذكى صحائفه ... حييتما بين فَدَّاءٍ ومَفْدِيّ
ألنَّبْتُ للنيل فليَنْهَدْ لعزته ... بالجد بالعلم، بالسحر البيانيّ
السكرية - دار القاياتي
حسن القاياتي
البريد الأدبي
بين العراق ومصر
سيدي الأستاذ الجليل صاحب الرسالة
لكم تألمت حين قرأت في (الأهرام) وغير الأهرام وسمعت من إخواننا المصريين ما كتبوا وقالوا في تأويل حادث الدكتور الشهيد سيف رحمه الله. وكم وددت أن أكتب كلمة في الموضوع أبعث بها إلى الرسالة أدفع فيها عن العراق وأبين عن وجه الحق، ثم ظننت أن الرسالة تضيق عن مثل ذلك صفحاتها فترددت، حتى طلعت علينا يا سيدي بمقالتك البليغة التي قطعت قول كل كاتب وخطيب، فسرني منها ما يسرني من كنز أقع عليه، أو أمل أصل إليه، وشكرتها لك أنا وأصحابي، شكر الله لك سعيك وجزاك خيراً، فلقد ذدت والله عن الحق حين ذدت عن العراق، ولقد شهدت شهادة الحق بما رأيت في العراق
وهذه شهادة أخرى، أشهدها بالله ولله، أن قد عشت في العراق سنة، كنت فيها مع التلاميذ أخاً بين إخوان، لا مدرساً بين تلاميذ، فما رأيت إلا كرماً ووداً، ووفاء وتقديراً، ورقة في الطبع وسموًّا في النفس. ولقد كنت على أن أكتب ذلك من أمد طويل، فكان يمنعني أن الناس يظنون بكل صاحب ثناء رهبة أو رغبة، وما بي رغبة ولا رهبة، وإنما بي حب العراق وإجلاله كحبي لمصر وإجلالي إياها
وأشهد لقد عرفت هذا الطالب في العام الماضي طالباً في صف البكالوريا فعرفت فيه الفتى المهذب الوديع، فلما سمعت بفعلته التي فعل، بلغ مني العجب، ولم أرد ماذا حاق به بعدي؛ ثم سألت وتحسست الأخبار فعلمت أنها صدمة (الرسوب) طارت بلبه

ولم يطق عليها صبراً (والصبر عند الصدمة الأولى) وتملكته حال لو رأى معها أباه لقتله، فعزم وأمضى عزمه في لحظة واحدة فهل يلام في شرع أو عرف من ذهب اليأس بلبه فمضى يفعل فعله من غير لب؟ وهل تؤخذ بجريرته هذه الأمة الحبيبة الوفية المسلمة العربية، وهل تنسى
حسناتها كلها لشبه إساءة؟
لئن يكن الفعل الذي ساء واحداً ... فأفعالها اللائى سررن ألوف
وهل لنا (نحن معشر العرب المسلمين) إلا العراق ومصر؟ هناك العروبة منشورة اللواء، وهنا الإسلام رفاف العلم، بل هنا وهناك العروبة والإسلام. لقد أسمعتنا هذه الأمة الطيبة، وهذه الحكومة العربية المسلمة، صوت الإسلام يخرج (في أسبوع المولد) من (محطة) بغداد فتتجارب به أرجاء هذه الكرة، ولقد سمعنا الكلمة من كل مصري في مصر. أفتفصم عرى هذه الأخوَّة التي عقدتها يد الله من فوق سبع سماوات فعلة شاب يائس؟ هل يمكن أن يفرق شيء بين الأمتين المسلمتين الحبيبتين، أمة الملك الصالح فاروق زين شباب المسلمين، والملك الماجد غازي فخر شباب العرب؟
لا والله، إلا أن تبدل الأرض غير الأرض والسماوات؟
فرحمة الله على الدكتور سيف البطل الشهيد، وعلى الطالب القاتل البريء، وعزّى الأمتين الشقيقتين، بل عزّى الأمة المسلمة (الواحدة) على ضفاف النيل وشواطئ الرافدين، وزادها عزًّا ومجداً و (اتحاداً)
(دمشق)
علي الطنطاوي
نجاح الفنانين المصريين
تلقت إدارة الفنون الجميلة بوزارة المعارف من مدير الجناح المصري بمعرض (بيينال) الدولي للفنون الجميلة المقام الآن بمدينة البندقية والذي اشتركت مصر فيه لأول مرة هذا العام - كتاباً يشير فيه إلى نجاح القسم المصري بهذا المعرض نجاحاً حمل بعض الشخصيات الأوربية على إبداء الرغبة في اقتناء بعض معروضات الفنانين المصرين المشتركين في المعرض. وطلب المدير تحقيقاً لهذه الرغبة أن يخفض الفنانون المصرين أثمان معروضاتهم حتى يتمكن من تسهيل نشر الفن المصري بين الأوساط الأوربية الراقية
ولا شك أن نجاح القسم المصري في معرض دولي يعد من أكبر معارض الفن بأوربا لمما يدعو إلى التفاؤل بمستقبل الفنانين المصريين بفضل الجهود التي تبذلها مراقبة الفنون
الجميلة بوزارة المعارف
آثار حملة نابليون بونابرت
سيفتتح قريباً في قصر (التويليري) بباريس معرض لآثار حملة نابليون بونابرت على مصر. وسيضم هذا المعرض مجموعة قيمة من الوثائق الخاصة بإعداد هذه الحملة؛ وهي تدل على أن نابليون - الذي عرف كيف يجمع حوله العلماء - كان قد فكر في جميع التفاصيل المادية. ومن أمثال ذلك أنه حمل معه مطبعة لإعداد مجموعة من البيانات العلمية
وسيتضمن هذا المعرض أيضاً مجموعة من الصور تمثل القواد الشبان الذين اشتركوا في حملة مصر
ولا شك في أن التحفة النادرة في المعرض ستكون الجمل المحنط الذي حمل نابليون في مصر ولا سيما في معركة الأهرام
ومع أن نابليون كان يشعر بمثل دوار البحر عندما يمتطي جمله فقد تعلق به وعهد إلى أحسن علماء الطبيعيات في المتحف بحشوه بالقش بعد أن نفق
وقد مر أمام هذا الجمل مئات من الزوار في متحف باريس أو في متحف نابليون في ايكس
وقد عاد هذا الجمل التاريخي الآن إلى باريس حيث يظهر في المعرض وعليه رحل مزخرف بالذهب والفضة
ويحتمل أن ينقل الجمل - بعد انتهاء المعرض - إلى قصر ماليزون بجوار باريس حيث

يبقى إلى جانب السرير الصغير الذي كان ينام عليه بونابرت في منفاه بجزيرة القديسة هيلانة

وفاة أديب إنجليزي

توفي المستر برسي هويت الصحفي الروائي في السادسة والثمانين من عمره، وقد تولى رياسة تحرير جريدة (الرأي العام) ببلك أوبنيون عشر سنوات، واشتغل محاضراً في آداب اللغة الإنجليزية بالجامعة المصرية من سنة 1911 إلى سنة 1924

مكتبة عصبة الأمم ودراسة نظامها

وافقت وزارة المعارف على إيفاد الأستاذ أحمد رامي إلى جنيف لزيارة عصبة الأمم ودراسة نظام العمل في مكتبتها توطئة لاقتباس هذا النظام وإدخاله على دار الكتب المصرية

مقالة في الجدل للإمام الاسفراييني

للإمام أبي حامد الاسفراييني مقالة في الجدل مبينة، وللعلامة أبي نصر السبكي تعليقة عليها لطيفة. وقد رأيت أن أروي التعليقة والمقالة، وإنهما لحقيقتان بالرواية في (الرسالة):

قال أبو حيان التوحيدي: سمعت الشيخ أبا حامد (الاسْفَرَايني) يقول لطاهر العبَّاداني:) لا تعلق كثيراً لما تسمع مني في مجالس الجدل؛ فإن الكلام يجري فيها على ختل الخصم ومغالطته ودفعه ومغالبته، فلسنا نتكلم لوجه الله خلصاً، ولو أردنا ذلك لكان خطونا إلى الصمت أسرع من تطاولنا في الكلام، وإن كنا في كثير من هذا نبوء بغضب الله (تعالى) فإنا مع ذلك نطمع في سعة رحمة الله)

قال أبو نصر السبكي: (قلت: وهو طمع قريب، فإن ما يقع من المغالطات والمغالبات في مجالس النظر يحصل به من تعليم إقامة الحجة، ونشر العلم، وبعث الهمم على طلبه - ما يعظم في نظر أهل الحق، ويقل عنده قلة الخلوص، وتعود بركة فائدته وانتشارها على عدم الخلوص، فقرب من الإخلاص إن شاء الله)

(القارئ)

من آفات المناظرة

من آفات المناظرة في بلادنا (دون بلاد الله كلها) أن جمهرة القراء تنظر إليها نظرها إلى شكل من أشكال الصراع أو القتال لا ترى بينها وبين الملاكمة فرقاً ظاهراً. فليس الظافر من جاء بالحجة الظاهرة والدليل القاهر، ولكن الظافر من كان أكثر كلاماً، وأطول لساناً، وأدنى إلى التعريض والتسميع بخصمه وأقدر على النيل منه، ومن كان في الجدال؛ بل إن كثيراً، من القراء يرون الظافر من كان صاحب الكلمة الأخيرة، أي أنهم يقرءون لهذا فيميلون معه، ثم يقرءون لذلك فيميلون إليه حتى يسكت أحد الخصمين فيحكموا عليه. أما الموازنة بين الحجج والمفاضلة بين الدلائل، والحكم حكم المنصف العادل والناقد البصير، فشيء لا يكاد ينصرف إليه أحد. ثم إن القراء لا يعجبون بأحد ما يعجبون بكاتب يدافع

وحده ويقابل جماعة من الناس، ولو كان مبطلاً يقول الواحد نصف الثلاثة، ولو كانوا محقين يقولون الواحد ثلثها، ولو كان مغالطاً وكانوا أصحاب الدليل، ولو كان ضعيفاً في نفسه، وكان كل واحد منهم أقوى منه؛ والقراء بعد ذلك يريدون من المناظر أن يجيب كل قائل، ولو لم يفرق بين كلمة العقيدة مثلاً تراجع اللسان، وبين العقيدة ذاتها تدرس في كتاب الآراء والمعتقدات، ويحسبون من العجز أن يعرض المرء عن بعض القائلين ولو نالوا منه ولا يجدهم للجواب أهلاً. هذا إذا لم يكن القارئ صاحب هوى يميل حيث يميل به الهوى، ويستقر حيث تطرحه صداقة أو عداوة، فلا يفيد مما يقال شيئاً . . .

فأي فائدة للمناظرة مع هذه الآفات؟ . . .

(دمشق)

(ع. . .)

تحية إلى الأستاذ العقاد

عزيزي الأستاذ الزيات صاحب (الرسالة) الغراء

أطلعني (بعضهم) على كلمات هزيلة درجت في جريدة (الإصلاح) السورية تستفتيني الحكم النزيه في أدب الأستاذين العقاد والمرحوم الرافعي، وتدعوني إلى أن أخوض المعمعة الأدبية التي أثارها تلاميذ الكاتبين العظيمين؛ ثم ينقل المحرر عني حديثاً ملفقاً

مختلفاً يثبت فيه أني من أنصار الأستاذ المرحوم الرافعي؛ ودليله على ذلك (طبعاً) الحفلة التأبينية الكبرى التي كنت قد عزمت على إقامتها في مدينة ابن الوليد إجلالاً للكاتب العربي الكبير وتقديراً لمنافحته عن الإسلام والعروبة. ثم حالت الظروف القاهرة من دون تنفيذها وإخراجها إلى حيز الواقع والوجود. . .

وليت المحرر الفاضل وقف عند هذا الحد فلا يغش القراء ولا يظلم الحقيقة، بل هو يأبى إلا أن ينحلني مقالة مذيلة بإمضائي مؤداها أني ثائر على أدب العقاد، منكر عليه شعره وفنه، ناعٍ عليه ضيق أفقه وغباوة فهمه لمعنى الأدب الصحيح. . .!

وأنا - الذي أصرح الآن على صفحات الرسالة الغراء بأني من أشد الناس تعصباً لأدبه وعبقريته - لا يسعني إلا أن أحيي الأستاذ الكبير العقاد وأقول باختصار: إن كان كل ما يرويه المحرر الفاضل من هذا القبيل فويل للحقيقة منه وويل له من الحقيقة. . .

(حمص)

عبد القادر جنيدي

أسرار أبي الهول

أنجز الأستاذ سليم بك حسن وكيل مصلحة الآثار كتاباً جديداً نفيساً باللغة الإنكليزية في (أبي الهول وأسراره) وهو في نحو أربعمائة صفحة ومائة وثمانين صورة، والمنتظر أن يقدم للطبع في إنكلترا قريباً

والكتاب أربعة فصول أولها يحتوي على بحث الحفائر حول أبي الهول من عهد الملك خفرع إلى سنة 1938، والثاني بحث في الملوك الذين زاروا أبا الهول من عهد الأسرة الثامنة عشرة المصرية إلى عهد الرومان، والثالث أصل أبي الهول وتحوله شكلاً ورمزاً في الأمم التي أخذته عن مصر، والرابع في المعنى الديني لأبي الهول ووجود مستعمرة كنعانية أو إسرائيلية في جواره والعثور على البلد المفقود اسمه والذي كان هؤلاء القوم يقطنون فيه

وفي هذا الفصل الأخيرة ولا سيما الكلام الخاص بالمستعمرة الكنعانية أمور كثيرة جديدة خطيرة الشأن كشفها الأستاذ سليم بك حسن وأفضت إلى فهم كثير من الأسرار التي كانت ولا تزال مقترنة باسم (أبي الهول)

نشأة الصحافة المصرية اليومية وتطورها

قدم الدكتور كمال الدين جلال رسالة عن (نشأة الصحافة اليومية المصرية وتطورها) إلى جامعة برلين نال بها إجازة الدكتوراه في علوم الصحافة فنال بها أعلى درجة جامعية، وأرسلت الجامعة إلى الجهات المصرية الرسمية في برلين تقريراً تثني فيه على جهود الدكتور جلال وتمتدح رسالته

ولا شك أن أسرة الصحافة المصرية التي يخدمها الزميل جلال خدماته الجليلة المعروفة منذ سنوات يهمها الوقوف على ما تحويه هذه الرسالة النفيسة التي جمعت لأول مرة تاريخ الصحافة في مصر منذ نشأتها الأولى حتى اليوم والتي سيكون لها بعد طبعها قريباً قيمتها العلمية المنتظرة

تعد الرسالة خير دعاية لجهود الصحافة المصرية وكفاحها في سبيل الشعب المصري حتى أصبحت عونه الأول والأخير في نضاله وتقدمه الاجتماعي

قسم المؤلف رسالته - وتقع في نحو 350 صفحة - إلى أقسام يختص كل قسم بعصر سياسي تاريخي في مصر، وقد بدأ الرسالة ببحث ليس بالقصير يقع في فصلين، أولهما عن طريق النشر عند قدماء المصريين (وقد نال هذا الفصل تقديراً وثناء من الأستاذ جرابو أستاذ علم الآثار المصرية في جامعة برلين) وثانيهما عن طرق النشر في مصر تحت الحكم العربي، ثم تطرق الدكتور جلال إلى موضوع رسالته الأصلي فقسمها إلى:

1 - الحملة الفرنسية وأثرها في نشأة الصحافة في مصر
2 - نشأة (الوقائع) في عهد محمد علي
3 - الصحافة المصرية في عصر إسماعيل
4 - الصحافة في عصر توفيق إلى مبدأ الثورة العرابية
5 - الثورة العرابية وأثرها في الصحافة المصرية
6 - الصحافة في عهد الاحتلال إلى أول نشوب الحرب الكبرى

7 - الصحافة أثناء الحرب الكبرى
8 - الصحافة في الثورة الاستقلالية
9 - الصحافة من إعلان الدستور حتى اليوم
هذه هي أبواب الرسالة الرئيسية قسم المؤلف كلا منها إلى ثلاثة فصول: درس في الفصل الأول العصر من الوجهة السياسية والاجتماعية والاقتصادية وذكر في الثاني الصحف التي نشأت في العصر فتحدث عن كل صحيفة بالتفصيل ثم ترجم لمؤسسيها والمشتغلين بها، وتكلم في الفصل الثالث عن عوامل العصر السياسية والاجتماعية التي أثرت في تطور الصحافة. وقد قارن الدكتور جلال في كثير من العصور صحافة مصر بصحافة البلاد الشرقية المجاورة
أتت هذه الرسالة على جل ما يتعلق بصحافة مصر العربية، فكانت سفراً علمياً جامعاً سد به المؤلف فراغاً في تاريخ النهضة المصرية الحديثة
ولقد أحسن الزميل إذ ذكر في مقدمة رسالته أنه يهدي ثمرة جهوده هذه إلى صحافي مصر الذين اتخذوا الصحافة مهنة لهم يخدمون بها وطنهم مصر والذين لم يبالوا بما أصابهم ولن يعبئوا بما يصيبهم في سبيل القيام بهذا الواجب المقدس
فالشباب المصري يفتخر بجهود هذا الصحفي الشاب الذي جمع بين العلم والصحافة وجعلها سلاحه في خدمة بلاده والدعاية لها، ونحن نهنئه من قلوب تنبض سعيدة مستبشرة كلما شعرت بجهود ناجحة في سبيل الواجب
مراد كامل
دكتور في اللغات السامية
الكُتبُ
الباب المرصود
تأليف الأستاذ عمر فاخوري
من مطبوعات دار (المكشوف) - بيروت
للأستاذ محمد سعيد العريان
دأبت دار (المكشوف) على أن تنشر لقراء العربية خير ما يؤلفه أدباء لبنان في الآداب والفنون
والمكشوف كما قد يعرف قراء العربية في مصر هو جريدة أدبية يقوم على شئونها طائفة من خير أدباء لبنان، وهي لسان الجيل الجديد من أدبائه وكتابه وشعرائه
أما كتاب اليوم فهو سلسلة مقالات أنشأها منشئها الفاضل في مناسبات عدة، فلما بلغت عَّدتها أن تكون كتاباً أخرجته دار المكشوف لقراء العربية
أما الأستاذ عمر فاخوري مؤلف هذه الفصول فأديب من أدباء لبنان لا نجد ما نعرِّفه به إلى القراء إلا من قوله في بعض رسائل هذا الكتاب
(إني كثير المطالعة قليل الكتابة. وقد أوتيتُ بسطة من العيش وكثيراً من الفراغ يسَّر إلى الانصراف إلى كتبي ودفاتري، أقرأ وأقيَّد ما يعن لبالي، وقلما أغفل شاردة أو واردة لاعتقادي أنها تفيد يوماً من الأيام. ولو شئت الآن أن أعيد النظر في حياتي الماضية وأحصى ما مرَّ عليَّ من حوادث جديرة بالذكر، كي أكتب سيرتي بنفسي، لاستطعت دون عناء اختصارها في هذه الجملة الجامعة (مطالعات في زاوية بيت) فان الكتب التي طالعتها هي أعظم حوادث حياتي!)
ويبدو لي أن هذا الذي يقوله المؤلف عن نفسه هو حق؛ فإن أثر مطالعاته الشاملة المنوعة من أدب الشرق وأدب الغرب، واضح كل الوضوح فيما أنشأ من فصول هذا الكتاب، سواء في الرأي والفكرة والاتجاه العقلي، أو في أسلوب الكتابة
أما موضوع الكتاب فقد أسلفت الإشارة إليه، فهو فصول عدة كتبها كاتبها في مناسبات مختلفة بين سنتي 1926، 1937، ولكنها على طول العهد بين أجزائها تجمعها رابطة
واحدة يصح أن نسميها (نظرات في الشعر من بعض نواحيه)
ويتحدث المؤلف في الفصل الأول من هذا الكتاب عن (الشاعر وأبنائه) ويعني بأبنائه: مؤلفاته، أو بنات أفكاره على ما نسميها أحياناً؛ أما الباب الثاني فيتحدث عن الباب المرصود: الباب الذي يخال الإنسان أن وراءه السعادة التي يدأب في السعي إليها وهو في الفصل الثالث يتحدث عن (كنوز الفقراء)، الكنوز التي يتعزَّون منها بوهم

الأماني في الحكايات والخرافات وأساطير الأولين. وله في هذا الفصل فكر وروح شاعرة؛ ولكن له فيه إلى ذلك حديثاً عن النبوة والأنبياء كنا نؤثر ألا ينزلق إليه، وإن كنت أومن في نفسي أنه لم يقصد إلى معنى من المعاني التي تتبادر إلى ذهن قارئه. ولكنا نحب ألا نتناول الحديث عن النبوة والأنبياء إلا بالعبارة الصريحة التي تؤدي إلى نفس قارئها غير معنى واحد

وفي حديثه عن الشعر القومي وعن صديقه الشاعر (عمر الزعني) تقرأ له رأياً في العامية والفصحى أحسب أن لا أحد من أصدقاء الوحدة العربية يوافقه عليه

وله فصل بعنوان (المرأة المجلوة والمرآة الصدئة) جمع فيه إلى رأيه آراء، وتحدث عن الصلة بين الأخلاق والفن، وعن الأسلوب والمعنى، وعن الموضوعات التي ينبغي أن يتناولها الأديب، وهو موضوع له خطره تناوله الكاتب بروح الشاب الثائر يحكم فيه الحكم (المبرم) قبل أن تجتمع له مقدماته؛ فما ينبغي أن نتحدث عن صلة الأدب والفن بالأخلاق قبل أن نتفق على الرأي في الغاية من الأدب وفي رسالة الأديب وما يعود منهما على الإنسانية. ومهما يكن الرأي في ذلك فلا جدال في أن الأمة العربية في حالها الواقع لم تنضج بعد النضج الأدبي أو الخلقي الذي يبيح لنا أن ندعو إلى ما يسمونه الأدب المكشوف، على ما قد يكون فيه - كما يقول دُعاتُه - من السمو بالآداب والفنون!

وفي الكتاب غير ذلك فصول ممتعة، خليقة بأن يجد فيها القارئ لذة وفكراً ومعرفة؛ وحسبي أن أذكر منها: العمود الهادئ، والأحلام، والشاعر في السوق. فأنها فصول جديدة في موضوعها، وقد وفَّق الكاتب في تناولها توفيقاً يدعو إلى الإعجاب . . .

أما بعد فهذا كتاب من منشورات إخواننا العرب في لبنان وما أقل ما نعرف عن أدباء لبنان وغيرها من الأقطار العربية، وأقل منه ما نقرأ من مؤلفاتهم ومنشوراتهم؛ على حين يعرف إخواننا في الشرق العربي من أدبائنا ويقرءون من مطبوعاتنا في مصر أكثر مما تعرف مصر نفسها عن أدبائها ومؤلفيها. وما نذكر ذلك لمعنى نفاضل به بيننا وبينهم في الأدب، ولكن لنذكر إخواننا في مصر بأن عليهم واجباً في الوفاء لإخواننا في البلاد العربية عرفوه ونسيناه، وإني لأشير إليه في هذه الكلمة اعترافاً بالحق وعرفاناً بالجميل

وإني لأشعر بكثير من السرور إذ أقدم هذا المؤلَّف إلى من يريد أن يقرأه من أدباء مصر، وإذ أعرفهم بأديب من جيراننا ينبغي أن يعرفوه ويقرءوا له؛ ولعلي بهذا أكون قد اعتذرت لإخواننا مما يظنون بنا وقمت بشيء مما علينا لإخواننا من الوفاء وعرفان الجميل

محمد سعيد العريان

العدد 263 - بتاريخ: 18 - 07 - 1938

من الذكريات الجميلة

على ذكر الجدال في الشرق والغرب

عرفت في باريس عام 1925 الآنسة (فرناند) ابنة أحد القضاة في محكمة (ديجون). كانت طالبة بالسنة الأخيرة من كلية الحقوق، وكان لها بالمستشرق المرحوم (ب. كازانوفا) أستاذ الأدب العربي في الكوليج دي فرانس صلة قرابة أو صداقة، فعرفني إليها لتكون لي في مدينة النور ما كانت (بياتْرِكْس) لدانتي في جنة الفردوس وكانت هذه الفتاة آية في الجمال والذكاء والظَّرف؛ وكان أعجب ما فيها أنها تؤلف في نفسها بين المتناقضات فلا يكاد النظر العادي يلحظ ما بينها من التنافي! فهي منطقية الفكر حرة العقيدة؛ وهي خيالية الذهن شاعرية العواطف؛ تؤمن بنيتشه كما تؤمن بالمسيح، وتقدس جمهورية الثورة كما تقدس مَلَكية البربون، وتُشيد بفتح العرب للأَندلس كما تشيد بغزو الصليبيين للقدس، وتعجب بروحية الشرق كما تعجب بمادية الغرب، وتحدثك في ذلك كله حديث المطلع المقتنع الفاهم؛ فإذا أخذت عليها شذوذاً في قياس القضية، أو نشوزاً في سياق الحديث، عمدت إلى المزاح البارع أو التهكم اللاذع أو الأسلوب الخطابي فتميت على لسانك البيان، وتُطير من عقلك الدليل أدهشني منها إلمامها بأدب العرب وحكمة الإسلام وفلسفة الشرق. فلما عرفت اتصال سببها بالأستاذ كازانوفا وهو الذي جعل فنَّه أساطير الشرق وأدب القرآن، عزوت إليه

هذا الميل وذلك العلم؛ وعرفت منها بعدئذ أنها كانت تستمع إلى محاضراته في التفسير ومسامراته في الآداب، وأنه أهدى إليها (حديقة الزهور) لصاحب المعالي الأستاذ واصف غالي، وأعارها ترجمة ألف ليلة وليلة لماردروس، فكان أكثر حديثها عن بغداد ودورها التي تفيض بالنعيم والسحر، وتنفح بالبخور والعطر، وتمرح بالقيان والغزل؛ وعن دمشق باب الجزيرة إلى الفردوس، وطريق البادية إلى الحضارة، وملتقى القبائل والقوافل في الخانات المملوءة بالسماسرة والتجار، والأسواق المحفوفة بالمغامرات والأسرار، والغوطة الفياضة بالجمال والحب؛ ثم عن مصر التي خلقت المدنية، وأنشأت الفن، وشرعت الدين، وولدت موسى، وآوت عيسى، وتوجت الملوك بالشمس، وكفنتهم بالخلود، ودفنتهم في الذهب. ثم كانت تتحرق شوقاً إلى النيل وأيامه المشمسة التي يضحك فيها القطن، ولياليه المقمرة التي يحلم بها النخيل. فكنت أقرن شوقها إلى مصر بالدعاء إلى الله أن يهيئ لهذا المحيا الفاتن أن يتفتح نظيراً في جوها الإضحيان الطليق

أدينا الامتحان معاً؛ ثم أرسلت نفسي الحشيمة على هواها ومناها، فزرنا معابد الطبيعة في فنسين وسان كلو وفنتينبلو، وحججنا محاريب الفن في اللوفر والأوبرا وفرساي. وكنت يومئذ أترجم (رفائيل) فكان ما أقرأ وما أكتب وما أسمع وما أرى نَسَقاً عجيباً من الجمال والجلال والفن والشعر والحب والتأمل والاستغراق، لا يدع للخيال الوثاب مَسْبحاً، ولا للنفس الطماحة رغبة. ثم أحَمَّ الفراق فرجعتُ إلى مصر ولحقت هي بأهلها في مدينة (رويَّان)

وكان بيني وبينها رسائل مسكية المداد، وردية الورق، تؤلف كتاباً من شعر القلب والعقل تناول فيما تناول الفروق الناشئة بين الشرق والغرب من اختلاف وجهة نظريهما إلى الحياة، إذْ هي في نظر الشرقي دار ممر، وفي نظر الغربي دار إقامة وفي فبراير من عام 1928 زارت مصر هي وزوجها، وهو ضابط فرنسي كان في طريقه إلى عمله في جيش سورية؛ فكنت لهما ترجماناً ودليلاً مدى أسبوعين إلى مخلفات الفراعين، وطلول الفسطاط، وقطائع ابن طولون، وقاهرة المعز. وسنحت الفرصة المرجوة فاجتمع القلبان والذوقان على فتون الشرق الحبيب. ورأيت من (مدام روجيه) عزوفاً قوياً عن الشوارع الأوربية في مصر الحديثة، وولوعاً شديداً بالتجوال في الغورية والنحاسين والجمالية وخان الخليلي، وشوقاً ملحاً إلى استطلاع المجهول، واستكناه الغامض، واستخبار الناس، واستحضار الماضي. وكانت كلما أوغلت في هذه الأحياء، واستبطنت دخائل هذه الأشياء، شعرت بالحاجة إلى زيادة الإيغال وإطالة النظر وإدامة التقصي، كأنما كانت تبحث عن شيء تعتقد وجوده ولا تراه، ثم قالت ذات مساء وهي على شرفة القلعة تشاهد مغرب الشمس من وراء الأهرام:

رباه!! إن من وراء هذه الآثار التي أجهدها الدهر، وهذه المآثر التي شوهها الجهل، وهؤلاء الناس الذين مسخهم الفقر، لروحاً خفية تبعث من خلال هذه الأغشية الكثيفة هذا الشعاع اللطيف الذي يشرق في هذه الوجوه الشقية المحرومة فيبدد عنها كُرَب العيش

هذه هي روح الشرق الإلهية المجهولة، فمن زعم أنه يحكم عليها من وراء هذه الأخلاق المنحلة، والنظم المعتلة، والمشاهد الزرية، كان كالذي لم ير الشمس ثم يحكم عليها من وراء الغمام والقتام والبعد! اجلوا عن هذا الروح العظيم هذه الغشاوة، واكشفوا عن هذا الجوهر الكريم هذا الرغام، ثم اجعلوه إلى جانب الغرب الخلاق بالعلم، البراق بالصنعة، واحكموا بينهما فلعلكم بذلك تكونون أدنى إلى السداد

أحمد حَسن الزياتْ

بين الشرق والغرب

رد على رد

للأستاذ فليكس فارس

كتبت مقالي في العددين (257 و 258) من الرسالة تحت عنوان الشرق والغرب فأوردت فيه بعض مباحث دارت بيني وبين الدكتور إسماعيل أدهم، فإذا به يأتي في عدديْ (259 و 260) بما يعتقده مؤيداً لرأيه، وهو المبدأ الذي حاول تعزيزه في مناظرة (20 مارس سنة 1938) يثبت أن من الخير لمصر أن تأخذ بالحضارة الغربية. وقد أحسن الدكتور أدهم بإيراده ملخص أقواله إذ عرض بذلك على المفكرين ما يتمم

البحث بإيضاح النظرية الإيجابية في قضية تشغل كل محب لأوطانه في هذا الشرق العربي الذي آن له أن يعين اتجاهه ويتطلع إلى مصير أبنائه وأحفاده

هذا ولا بد لي في هذا المقام أن أكرر على قراء الرسالة ما قلته لمن غصَّ بهم رحب قاعة المناظرة حين دافع الدكتور عن نظريته، ولمحت شيئاً من الأشياء لموقفه على وجوه الشبيبة العربية. قلت: إن صديقي الدكتور أدهم فيلسوف غربي لا يسلم تفكيره في الاجتماع من نزعات فطرته، كما لا يسلم تفكيرنا نحن من نزعات فطرتنا. فالمسألة مسألة اجتماعية يدور بها الشيء الكثير من حوافز الذوق الموروث، لذلك أرى موقف صديقي مهاجماً أحرج من موقفي مجارياً، فأشكره على صراحته معتقداً بحسن نيته وبأن حبه للشرق ولمصر هو ما يحفزه إلى محاولة إقناعنا بأفضلية الحضارة الغربية؛ ليس عدوًّا من ناقشك ودعاك إلى الأخذ بم يعتقده حقًّاً لأنه يتمنى لك ما ارتضاه لنفسه

والآن لأرسلن نظرة عجلى في ما كتبه الدكتور أدهم في الرسالة متناولا ما يستوقفني فيه مما لم أتناوله في مقالي السابق متجنباً التكرار متوخياً حصر الموضوع في دائرة محدودة نصل منها إلى نتيجة، لأن اقتحام الجدل من أجل الجدل لا يؤدي في الغالب إلا إلى الانتقال لفروع القضية بالتغاضي عن أصلها

1 - إن مُناظري يعترف بأن لمصر ثقافة تقليدية لا يمكنها أن تخرج عنها ما لم يهتز المجتمع في صميمه، ولكنه يعود بهذه الثقافة إلى أصل فرعوني راسخ سواء في طرق المعيشة أو في الدين؛ ودليله على استقرار مصر على حضارة فرعونية جلباب الريفي الأزرق وطرق الري، وبرهانه على استقرارها على دين الفراعنة تطرق تقاليده إلى الدين الإسلامي، وبتعبير أصح إلى حياة المسلمين

أما أن يعد المناظر طريقة استغلال الأرض فطرة فذلك مما لا يوافقه أحد عليه، لأن المسألة هنا تتعلق بتطور في أساليب الصناعة، ولا شأن للفطرة فيها. ولو كان الأمر كما يقول المناظر لكان كل مرتَدٍ لغير القميص الأزرق، وكل حارث بآلة حديثة، وكل مستبدل (شادوفاً) (بطلمبة)، فاقداً للفرعونية التي يريد المناظر بعثها أساساً لحضارة مصر. . .

أما أن تكون التقاليد التي احتفظ بها السكان من الحضارة المنقرضة دليلاً على بقاء الدين فرعونياً في مصر فذلك ما لا يقره عليه أحد، لأن ما تبقى من العادات يعد بدعاً لا يزال الدين يعمل على اقتلاعها من المجتمع لخيره وسلامة إيمانه

إن مصر لن تكون فرعونية في القرن العشرين إلا إذا تراجع الزمان القهقري طاوياً معه كلمة الله التي جعلت قوم فرعون حديثاً في تاريخ الشعوب

2 - إن مناظري يستبعد سائر البلاد العربية عن البحث مدعياً أن ثقافة مصر مستقلة تجاه الحضارة العربية، لأن لها طابعاً خاصاً، ولأن لغتها العربية استمدت من الثقافة الفرعونية قدرتها على صوغ المعاني بما يتكافأ ومحيط مصر، فاللغة العامية في هذا الوادي إنما هي - بحسب رأي الدكتور أدهم - فرعونية آخذة بأسباب التعرب. . .

أما أن تكون مصر ذات ثقافة خاصة تتميز بها عن سائر الأقطار العربية فذلك ما ننكره على المناظر، لأن لشعوب سائر الأقطار العربية كلها جدوداً عاصروا الفرعونيين وتركوا في التاريخ ذكرى حضارات لم يبق منها سوى أعمدة محطمة وهياكل متداعية

إن في كل من الأقطار العربية من المميزات الإقليمية ما لا ينكره أحد؛ وقد تجد مثل هذه المميزات في أحياء مدينة واحدة، ولكنها أضعف من أن تسلخُ هذه الشعوب عن ثقافة عامة شاملة لها في اللغة والموسيقى ونظام الأسرة وروح التشريع. وهذه المميزات العامة هي ما تقوم الحضارة الأدبية عليه في كل الأمم

أما أن تكون اللغة العامية في مصر عبارة عن لغة فرعونية في أصلها فذلك مما نقف عنده متسائلين عما إذا كان الدكتور أدهم لا يقصد هزلاً به. . .

ليست اللغة العامية في مصر إلا كسائر اللغات العامية في الأقطار العربية، لغة أفسدتها

عصور الانحطاط، فانك لو أغضيت عن اللهجات في كيفية الإلقاء، وهذا مما يصعب توحيده في أقاليم أية أمة، فإنك لا تجد إلا كلمات معدودات يختلف النطق بها بين مصر وسوريا وبغداد مثلاً؛ غير أنها كلمات عربية شوهها الاختصار، ولكنه استبقى على أصلها. فأين (دلوقتي) (وإزيك) من لغة الفراعنة؟ وأين (شو بدَّكْ) من لغة أبناء فينيقيه؟

3 - أراد مناظري أن يجعل العلم والثقافة شيئاً واحداً، فهو يقول بانبثاق الثقافة من العلوم الأصلية، ونحن لا نعلم ما هي العلاقة بين علم طبقات الأرض مثلاً والمبادئ الأدبية التي يقوم المجتمع عليها. وقد أوردنا في مقالنا السابق ما يغنينا عن التكرار في هذا الموضوع

يرى المناظر أن اليابان أصبحت عالة على أوربا لأنها أخذت العلم الوضعي عنها ولم تأخذ بحضاراتها في آن واحد. فحضرته يميز إذن بين العلم والحضارة. . . في حين أنه يقول بصدور الحضارة عن العلم

ثم هو يقول إن أوربا تعمل بحضارتها للتحرر من استعباد الآلة. ونحن نرى أن أوربا لن تخلص من هذا الاستعباد إذا هي لم تخرج على مبادئ حضارتها

4 - يعود المناظر إلى التمسك بقوله إن الشرق يقيم الحياة على أساس غيبي لتنظيم الصلات بين البشر؛ ونحن لا ننكر على الشرق هذه الفضيلة، ونود لو اتخذها الغرب أساساً لحضارته؛ لأن كل تنظيم لعلاقات البشر في المجتمع لا يرسو على الإيمان باستمرار الحياة بعد الموت، لا يجد مرتكزاً له في غير مبدأ الحق للقوة سواء أكان ذلك بين الأفراد أم بين الأمم

5 - نشكر للمناظر اعترافه بأن المنطق مشاع بين الأمم، بعد أن كان في مناظرته ينكره على الشرق. ولعله يذكر كما يذكر من حضر المناظرة إصراره على القول بأن الإقليم والبيئة في الشرق يجنحان بأهله إلى الخيال دون التفكير والاستقراء مما دعانا إلى الرد عليه بقولنا:

6 - إذن، لماذا تدعونا إلى ما لا قبل لنا به ولا إمكان لاقتباسه ما لم نهجر أوطاننا ونذهب إلى الغرب نتوطن فيه أجيالاً نستبدل بأدمغتنا الشرقية أدمغة غربية. إذا كان لا يسعنا أن نملك المنطق إلا بهذه التضحية فعلى المنطق العفاء. . . غير أننا كنا عندما أنشأنا حضارتنا على أرض هذه الشرق وتحت سمائه أسياد المنطق في العالم

أما وقد أعلن المناظر أخيراً اعتقاده بأن المنطق مشاع بين الأمم وأنه يضعف إذا أهمل، فقد أصبحت دعوته للشرق للأخذ بمنطق الغرب دعوة لا مبرر لها، بل قد أصبحت ولها معنى واحد وهو الاهابة بالشرق للنهوض وللعمل على استعادة مجده بالرجوع إلى تفكيره وشعوره

7 - يقول المناظر إن الفلسفة الإسلامية روحها يونانية ومنطقها يوناني، لأن الفارابي وابن سينا وسواهما علقوا إرادة الخالق بقوانين الكون. ولا نعلم ماذا يقصد الدكتور بهذا. إن فلسفة المفكرين ليست إسلامية ولا مسيحية؛ إن هي إلا آراء في الخلق لا تمتُّ إلى الدين بسبب. إن الإيمان لا يقبل جعل الخالق أسيراً لما خلق. فإن كان الله جل جلاله قد وضع لهذا الكون نظاماً أفيعجز عن تبديله حين يشاء؟ إنها لفلسفة غريبة هذه الفلسفة التي تذهب متحرشة بإرادة المبدع قاصدة تحليلها لتعلم ما إذا كان بوسعه أن يحكّم إرادته فيما أبدع

إننا نسلّم للدكتور بل نرجوه أن يقتنع بأن هذه الفلسفة منحدرة من ذهنية يونانية تعودت خلق سيئات الآلهة واختراع الأساطير عنهم وتحليل إرادتهم وغضبهم وغشهم وجنونهم وسكرهم

8 - يقول المناظر في ردّه على الأستاذ توفيق الحكيم إن علينا أن نعمل لدنيانا كأننا نعيش أبداً، ثم يقف فلا يورد الشق الثاني من هذه الآية العربية وهو (واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً) غير أنه عليّ أن ألفت مناظري إلى أن الملحد لا يمكنه دون أن ينقض مبدأه أن يعمل لدنياه كأنه يعيش أبداً لأنه يعلم أنه صائر إلى العدم وأن أبناءه مولودون لدود القبور فهو مطالب بالتنعم في يومه ما استطاع. إن من لا أبدية له لا غد له. . .

9 - إن المناظر يجد قصوراً في عدم مجاراة العرب لليونان في آدابهم التي جالت على قوله في رحاب الموضوعية خارجة من رحاب الذات، ويذهب بهذا إلى القول بأن التحليل ليس من مكنة الذهنية العربية

لا يا مناظري، إن الأديب العربي قد استوعب في ذهنيته كل ما جال في خاطره وفي الآفاق حوله، فما كان عليه أن يصوّر حياة اليونان أو يتذوق أساطيرهم وخرافاتهم فيحذو حذوهم، لأن فطرته لم تكن تستنيم لثقافة غريبة عنه. وهل لنا أن نلوم الألماني مثلاً لأنه لا يأتينا بما أتى به موسيه، أو نلوم هوجو لأنه لم يكتب كنيتشه؟ . . .

إن الآداب صورة لثقافة الشعب وحياته، وقد أخذ أجدادنا العلوم عن اليونان لأن العلم مشاع كما سلمت. فهل كانت حضارتنا الأدبية يونانية لتكون آدابنا يونانية؟

إن المناظر يرى في انتصار شارل مارتل إنقاذاً للعقلية الغربية من طغيان روح - 10 النسك الآسيوية. وهو يعترف في الوقت نفسه بأن العقلية الغربية كانت رازحة تحت كاهل اللاهوت الكنسي الذي قام في روما رقيباً على النفوس والعقول محملاً بكل سيئات النسك الآسيوية

أفليس من الغريب أن يرى الدكتور أدهم في انتصار مارتل إنقاذاً للغرب من روح النسك الآسيوية في حين أن الإسلام لم يكن فيه شيء من هذه الروح التي سادت بها روما باسم المسيحية؟ فإذا كان مارتل أراد إنقاذ الغرب من النسك، أفما كان عليه أن يتحول من نهر اللوار إلى روما بخيله ورجله؟

بقي علي أن ألقي نظرتي الأخيرة على أول كلمة توَّج بها مناظري ردَّه. وهي كلمة (هابل آدم) التي أوردها آية يدعونا بها إلى الأخذ بعقلية الغرب لنصلح حياتنا حتى إذا انتقلنا إلى الحياة الأخرى فهنالك نتبع العقلية الشرقية الملائمة للحياة الباقية (كذا. . .) مرحى لهابل آدم. . . أفيلسوف اجتماعي من يقول بمثل هذا؟

ليذهب أشباه (هابل) في هذه الحياة بعقليتهم المنكرة لكل عقاب وثواب. ليسحق الأقوياء الضعفاء سحقاً سواء أكانوا أفراداً أم شعوباً، وليدوسوا على الحق بالقوة الغاشمة وبالقوة المتحيلة، حتى إذا اجتاز الكافرون معبر الموت حقّ لهم أن يعملوا بذهنية الشرق وأن يقفوا أمام الديان هاتفين: ربنا إننا نتوب إليك فاحشرنا مع المؤمنين الصالحين.

(البقية في العدد القادم)

فليكس فارس

شوقي

توارد الخواطر

لأستاذ جليل

قصد شاعرنا (أحمد شوقي) وهو تلميذ باريس يطلب (علم الفقه) فيها على علمائها ليرجع إلى مصر قاضياً أو مِدْرها (محامياً) وقد فطره الله شجاع الجنان جبان اللسان مثل الرضيّ (الموسويّ) (محمد بن الطاهر) القائل:

جناني شجاع إن (شعرت) وإنما ... لساني إن سيم النشيدَ جبان

وفخر الفتى بالقول لا بنشيده ... ويروي فلان مرة وفلان

وفي باريس الفاتنة الساحرة هذه قال شوقي قصيدة (خدعوها) وفيها هذان البيتان:

يوم كنا (ولا تسل كيف كنا) ... نتهادى من الهوى ما نشاء

وعلينا من العفاف رقيب ... تعبث في مراسه الأهواء

وقد قال شاعر قديم الأبيات الآتية وهي في الجزء الرابع من (طبقات الشافعية الكبرى) غير منسوبة إلى أحد:

ما على عاشق رأى الحِبّ مختا ... لا كغصن الأراك يحمل بدرا

فدنا نحوه يقبل خدي ... هـ غراماً به ويلثم ثغرا

وعليه من العفاف رقيب ... لا يُداني في سنة الحب غدرا

وهذه الأبيات لم تُر في ذاك الوقت في غير (الطبقات) ولم تكن المطبعة - وشوقي ناشئ أو شاب - قد أظهرت ذلك الكتاب. فهل قرأها شوقي في الطبقات المخطوطة؟ وهل كان يطالع مثل هذه المصنفات في حداثة سنه أو رآها في كتاب مطبوع غير الطبقات أم هذا من توارد الخواطر؟

أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري يقول في كتاب الصناعتين: (قد يقع للمتأخر معنى سبقه إليه المتقدم من غير أن يُلم به، ولكن كما وقع للأول وقع للآخر. وهذا أمر عرفته من نفسي فلست أمتري فيه، وذلك أني عملت شيئاً في صفة النساء: سفرن بدوراً وانتقبن أهلة، وظننت أني سبقت إلى جمع هذين التشبيهين في نصف بيت إلى أن وجدته بعينه لبعض البغداديين فكثر تعجبي، وعزمت على ألا أحكم على المتأخر بالسرق من المتقدم حكماً حتماً

قلت: والبغدادي هذا هو أبو القاسم الزاهي وقد روى الثعالبي له في (خاص الخاص) و (الإيجاز والإعجاز) هذين البيتين، وقال: (أمير طرائفه وأحسن شعره قوله في النسيب:

سفرن بدورا، وانتقبن أهلة ... ومِسن غصوناً، والتفتن جآذرا
(وأطلعن في الأجياد بالدر أنجما ... جُعلن لحبات القلوب ضرائرا
وفي شرح المقامات للشريشي: (سئل المتنبي عن اتفاقات الخواطر، فقال: الشعر ميدان، والشعراء فرسان، فربما اتفق توارد الخواطر، كما قد يقع الحافر على الحافر)
ولقد صدق المتنبي وما كذب، فهناك حقاً توارد الخواطر وهناك - وعلم هذا عند أبي الطيب - غارات الشاعر. . . وقد قال الإمام المرزباني في (الموشح): (كان الأخطل يقول: نحن معاشر الشعراء أسرق من الصاغة. . .)
الياء في مثل هذا الاسم (شوقيّ) هي للنسبة أو الإضافة - كما يسميها صاحب (الكتاب) - وهي هدية أو بلية تركية. ومثل شوقيّ، عدليّ، رشديّ، صدقيّ، حلميّ، حقيّ، حمديّ، حسنيّ، سريّ، سعديّ، فتحيّ، شكريّ، فهميّ، فوزيّ، فخريّ، فكريّ، وصفيّ
والترك اللذين أتحفوا العربية بمثل هذه البلية هم (جيل من الناس) كما قال الصحاح والجمع أتراك، قال الإمام محمود جار الله الزمخشري في كتابه (أساس البلاغة):
(وتقول: تراكِ تراك صحبة الأتراك)
ومن مشهوري الترك وأبطالهم ورجال القتال فيهم: جنكزخان، هولاكو، تمرلنك، أتاتورك
فيحق على كل ناطق بـ (الضاد) في كل إقليم أن يرفض هاتيك (الياء)، وإن الأسماء الجميلة الكيّسة في اللسان المبين لسان القرآن لأكثر عدداً من رمال الدهناء ومن نجوم السماء
(الإسكندرية)
(* * *)
جورجياس أو البيان
لأفلاطون
للأستاذ محمد حسن ظاظا
- 4 -
تنزل (جوريجياس) من آثار (أفلاطون) منزلة الشرف، لأنها
أجمل محاوراته وأكملها وأجدرها جميعاً بأن تكون (إنجيلا
للفلسفة!)
(رينوفييه)
إنما تحيا الأخلاق الفاضلة دائماً وتنتصر لأنها أقوى وأقدر
من جميع الهادمين!)
(جورجياس: أفلاطون)
الأشخاص
1 - سقراط: بطل المحاورة: (ط)
2 - شيروفون: صديق سقراط: (س)
3 - جورجياس: السفسطائي: (ج)
4 - بولوس: تلميذ جورجياس: (ب)
5 - كاليلكس: أثيني: (ك)
ط - (تابع ما قبله) وإذا قال لي بعد ذلك مدرب الألعاب الرياضية: (إني لجد دهش يا سقراط لأن جورجياس يريد أن يريك أن الخير الذي ينتج عن فنه أعظم من الخير الذي ينتج عن فني): فإني سأقول له: ومن أنت وما مهنتك يا صديقي؟ وطبعاً سيجيب بأنه مدرب ألعاب، وبأن مهنته هي تجميل الجسم وتقويته! ثم إذا أتى رجل الأعمال بدوره واحتقر جميع المهن الأخرى وقال فيما أظن: (أحكم بنفسك يا سقراط إذا كان جورجياس أو
غيره يستطيع أن يأتي بخير أعظم من الثروة؟) فإنا سنقول له: ماذا؟ وأي شيء تمتهن؟؟ وسيجيب مؤكداً ما قال!! وهنا سنسأل: ومن أنت إذاً؟ وسيقول: إنه رجل أعمال! ومن ثم سنقول له: عجباً! أتعتبر الثروة أعظم الخيرات جميعاً؟ وسيكون جوابه: نعم بكل تأكيد!)
فترى هل أتبع يا جورجياس من يدعي أن فنه ينتج خيراً أعظم من الخير الذي ينتجه

فنك؟ واضح أنه سيسأل بعد ذلك عن هذا الخير الأكبر الذي تقول به يا جورجياس! فتصور إذاً أن نفس السؤال قد وجه إليك منهم ومني، وأخبرني من أي شيء يتركب ذلك الذي تسميه أعظم خيرات الإنسان، والذي تفخر بأنك تجلبه للناس؟

ج - إنه في الحقيقة يا سقراط أكبر الخيرات وأعظمها! بل إنه ما ينسب إليه الناس دفعة واحدة استقلالهم، وما يمد كل فرد في مدينته بالوسيلة التي يسود بها على الآخرين!

ط - ولكني مازلت أسأل ما هو؟

ج - إنه - فيما أرى - أن يكون المرء قادراً على أن يقنع بالخطاب القضاة في محاكمهم، والشيوخ في مجالسهم، والجماهير في جمعياتهم، أو هو - في كلمة - إقناع من يكونون كل نوع من أنواع الاجتماع السياسي؛ وبهذه القدرة يترامى الطبيب ومدرب الألعاب على قدميك، بل وبها ترى أن رجل الأعمال لا يثرى من أجل نفسه، بل من أجل شخص آخر هو أنت يا من تمتلك فن الكلام وكسب روح الجماعات!

ط - يلوح أخيراً يا جورجياس أنك قد أريتني بكل ما تستطيع من تقريب أي فن هو البيان في رأيك. وإذا كنت قد فهمت حسناً فإنك تقول إنه (عامل الإقناع)، وإن الإقناع غاية كل عملياته، وإنه - بالاختصار - ينتهي إليه.، فهل تستطيع حقيقة أن تبرهن لي على أن قدرة البيان تذهب إلى أبعد من توليد الإقناع في نفوس المستمعين؟؟

ج - أبدا يا سقراط! وأرى أنك قد عرفته تعريفا حسنا لأنه إنما يرد إلى ذلك حقا.

ط - أصغ إليّ يا جورجياس! إذا كان هناك من يتحدث إلى غيره ويرغب في نهم أن يعرف تماماً موضوع الحديث، فكن واثقا أني أملق نفسي بأني من هذا النوع، بل وأحسب أنك منه أيضاً.

ج - وإلى أي شيء يتجه يا سقراط؟

ط - يتجه إلى هذا. سأقول لك إني لا أتبين بوضوح طبيعة ذلك الإقناع الذي تنسبه إلى البيان، ولا من ناحية أي الأعمال يأخذ ذلك الإقناع مكانه!، وليس هذا لأني لا أشك فيما تريد أن تقول فحسب، بل لأني سأطلب منك أيضاً أي إقناع يولده البيان، وحول أي المواضيع يدور ذلك الإقناع. ولتعلم أني إذا سألتك بدلا من أن أشركك معي في أوهامي وظنوني، فإني لا أبغي بسؤالي شخصك، وإنما أبغي به أن يتقدم بنا الحديث على نحو يحدد لنا موضوع السؤال بالوضوح المستطاع. فاحكم بنفسك هل أنا مصيب في سؤالي إذا سألتك: من أي أنواع المصورين وإذا أجبتني بأنه مصور حيوان، ألا يكون لي الحق في أن أطلب منك فضلا عن ذلك: أي الحيوانات يصورها؟ ومن أية ناحية؟؟

ج - بلا شك.

ط - أو ليس الأمر كذلك لأن هناك مصورين كثيرين يصورون حيوانات أخرى كثيرة؟

ج - بلى.

ط - بينما لو كان هو المصور الوحيد للحيوانات فعندئذ تكون إجابتك حسنة.

ج - بالتأكيد.

ط - فأخبرني إذا فيما يتعلق بالبيان، أيلوح لك أنه الوحيد الذي ينتج الإقناع، أو أن هناك فنونا أخرى تستعمل الإقناع بمقدار ما؟ أريد أن أقول أيقنع كل من يُعلمُ شيئا ما ذلك الذي يعلمه أم لا يقنعه!

ج - إنه يقنعه تماما من غير ما تنقض يا سقراط.

ط - ولكيما نعود إلى نفس الفنون التي أشرنا إليها من قبل، ألا يعلمنا الحساب ورجاله كل ما يتعلق بالأعداد؟

ج - بلى.

ط - أو لا يُقنعون بها في نفس الوقت؟

ج - نعم.

ط - فالحساب إذا عامل إقناع كذلك!

ج - يلوح هذا.

ط - فإذا سأل سائل: أي إقناع ومن أية ناحية؟، فالجواب هو الإقناع الذي موضوعه كمية العدد فردا كانت أم زوجا وكذلك نستطيع أن نبين إزاء الفنون الأخرى التي نتكلم عنها أنها

تنتج الإقناع وأن نميز فيها النوع والموضوع. أليس ذلك صحيحاً؟
ج - بلى.
ط - إذا ليس البيان وحده هو الفن الذي موضوعه الإقناع!؟
ج - إنك تقول حقاً.
(يتبع)
محمد حسن ظاظا
دراسات للمستشرقين
قيمة التراجم الأعجمية الموجودة للقرآن
للعلامة الأستاذ الدكتور أ. فيشر
حين أبدأ بنشر تعريب بعض آثار المستشرقين أرى أن أذكر أني طالما ترددت في أن أنقل إلى العربية دراسة من دراسات هؤلاء العلماء لتكون ضمن مواد (الرسالة)، وما ذلك إلا لأنه (أولاً) ليس من السهل أن يقع الاختيار على بحث قائم بذاته ليس له ارتباط بدراسة أخرى سابقة له أو لاحقة تستكمله أو تنقض شيئاً منه، ثم هو إلى ذلك مما يستهوي قراء الرسالة. و (ثانياً) لأن أبحاث المستشرقين النابهين هي دراسات علمية أجمع على صحتها، ويستسيغ من تابع دراسة الاستشراق دراسة منظمة فهم تلك الأبحاث وإدراك كنهها. وكنت أخشى أن يصطدم بعض حضرات القراء بهذه العقبة، ولكني وجدت في دراسة العلامة الأستاذ الدكتور أ. فيشر لقيمة التراجم الأعجمية الموجودة للقرآن ما يغنيني عن الأخذ بهذه التقديرات. وأرى قبل أن أسوق إلى إخواني في اللغة بحثه معرباً - وكان قد نشره باللغة الألمانية في أواخر سنة 1937 - أن آتي بشيء من سيرته؛ أما التبسط فيها فله مجال آخر. وهأنذا أستعير كلمات المغفور له ج. برجستراسر الأستاذ السابق بالجامعة المصرية لنتعرف منها على مكانة الأستاذ العلامة أ. فيشر، فقد وصفه (بالمعلم الأكبر) في الحفلة التكريمية التي أقامها له العلماء المستشرقون من ألمان وإنجليز وفرنسيين وروسيين وغيرهم في جامعة ليبزج بمناسبة بلوغه الستين من عمره، وكان ذلك في اليوم الرابع عشر من شهر فبراير سنة 1925. وقد أسس معهد اللغات السامية في ليبزج منذ سبع وثلاثين سنة. وتفرغ للغة العربية الفصحى لعصرها الذهبي (حتى صار حجتها ومرجعها)، (جامعاً بين علوم اللغة وآدابها، متفرداً في دراسة الشعر)، (محيطاً بتاريخ الشعوب الإسلامية والعربية والسامية) (واقفاً على دقائق الحياة الفكرية فيها). ثم هو إلى ذلك (يسيطر على كل اللغات السامية التي لها بالعربية صلة قريبة أو بعيدة). وهو في كل بحث له يتعقب مسائله مسألة مسألة إلى أقصى حدودها) لذلك كانت (دراساته التي ينشرها قطعاً من ذهب جاء بها من كنزه الذي لا يفنى). أما معجمه اللغوي التاريخي الذي أخذ منذ سنين يضحي من أجله جل وقته وجهده، ثم أهداه إلى مجمع اللغة العربية الملكي الذي يسّر له
متابعة العمل فيه لنشره فسيكون كما قال برجستراسر (ذخيرة للأجيال المقبلة يستفيد منه أبناء العربية وعلماؤها)
وإني أكتفي بهذا القدر من التوطئة والتعريف بمكانة أستاذي العلامة أ. فيشر ليطلع القارئ الكريم على بحثه فيما يلي:
توجد للقرآن عدة تراجم إلى اللغات الأعجمية. ولقد تعرفت البلاد الغربية القرآن لأول مرة عن طريق الترجمة اللاتينية التي أوصى ببترفون كلوجني المعروف باسم بطرس فنرابيليس ذي النظر الثاقب، كلا الراهبين روبرتس رتننسيس والأرجح أنه كاسترنسيس أي المنسوب إلى شستر والراهب هرمانوس والماتا بوضعها، وكان ذلك حول منتصف القرن الثاني عشر. غير أن هذه الترجمة لم تظهر إلا عام 1543 ميلادية عن تيودور بليباندر من مدينة يال ثم اتخذت هذه الترجمة تكأة لأقدم التراجم التي نعرفها في اللغات الإيطالية والألمانية والهولاندية. وتعد ترجمة لدفيكو مراتشي التي تم طبعها في مدينة بادوا عام 1698 ميلادية، وقد حولت الأصل العربي والترجمة اللاتينية والتخطئة أحسن ترجمة للقرآن ظهرت في ذلك العصر. ومن ذلك العهد لم تنقطع قط سلسلة تراجم القرآن إلى اللغات الغربية. ويجدر بنا أن نذكر أن المسلمين من غير العرب ممن لا يفقهون العربية شعروا منذ أمد بعيد بحاجتهم هم كذلك إلى ترجمة القرآن للغاتهم القومية، فكان أن ظهرت تراجم للقرآن إلى اللغات الفارسية

والتركية والهندستانية والجودشراتية والبنجانية والسندية والبنغالية والتأميلية ولغة الباشتو ولغة أهل الملايا (وكذلك أيضاً اللغة الصينية؟)، كما أنه ظهرت تراجم ببعض اللغات الأفريقية. ويعد قيام المسلمين في العصر الحالي بترجمة القرآن إلى مختلف اللغات الأوربية أمر له خطورته العظمى. والمرجو عندئذ أن تتوارى التراجم التي قام بها غير المسلمين والتي قد تحمل في طياتها نزعات معادية للإسلام. كذلك يرجى لهذه التراجم المنتظرة أن تكون بمثابة دعاية حسنة للإسلام بين المسيحيين. وهذا الدافع الأخير له أثر كبير في نشاط الأحمدية في هذا الميدان. والأحمدية هي فئة ظهرت حديثاً في لاهور بالهند ابتدعت مذهباً جديداً في الإسلام ونزولا على اقتراح بهذا الشأن لشيخ الجامع الأزهر حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي المعروف بنزعته العصرية، ذلك الاقتراح الذي عضده فيه جماعة كبار علماء الأزهر الشريف بفتوى منهم، أخذت الآن وزارة المعارف العمومية المصرية في درس الموضوع وتألفت لذلك عدة هيئات من العلماء ليروا هل يحسن أن يترجم القرآن ترجمة أمينة يعتمد عليها، أم يكتفي بترجمة معاني القرآن إلى اللغات الحديثة الحية، فيترجم أولاً إلى اللغات الإنجليزية والفرنسية، وما ذلك إلا لأن ترجمة كلام الله الكريم في كتابه العزيز أمر مستحيل. كذلك تألفت في حيدر آباد (الدَّكن) هيئة جمعت عددا من أجلاء الهند بغيتها نشر ترجمة للقرآن الكريم بمختلف اللغات الحية مبتدئة باللغة الإنكليزية تتفق ومذهب أهل السنة.

وإذاً ما هي قيمة جميع التراجم الموجودة للقرآن؟

(للبحث بقية)

إبراهيم إبراهيم يوسف

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي 1880 - 1937

للأستاذ محمد سعيد العريان

- 31 -

مقالاته للرسالة (2)

كان أكثر جلساء الرافعي في هذه الفترة هم الأصدقاء (س. ا. ع)، فكان لهم سره ونجواه، وإلى موعدهم مغداه ومراحه؛ وكان حديثهم إليه وحديثه إليهم هو عنده مادة الفكر وموضوع الكتابة؛ وكان لكل واحد من الثلاثة الأصدقاء في هذه الفترة مشكلة تملأ فراغ رأسه، فهي له في الليل مشغلة وفي النهار مشغلة. . .

أما (س) فكان على نية الزواج، وقد ترامتْ أمانيه إلى واحدة من أهله، ولكن (التقاليد) وقفت بينها وبينه موقفاً ما، أورثه ضجراً وملالة وسخطاً على الناس وتبرُّماً بالحياة وخروجاً على ما تواضع الناس عليه من التقاليد في شئون الزواج. . .

وأما (ا) فكان في عهد بين عهدين من حياته: قد ودَّع ماضيه بما فيه من عبث ومَجَانة، وطلَّق شهواته ونزواته إلى عهد يستشرف إلى ما فيه من المتاع الحلال في ظلّ الزوجة المحبوبة المحبّة؛ فسمّى زوجته وعقدَ عقْدَه، ثم وقف ينتظر اليوم الذي يبني فيه بأهله قلقاً عجلان، واليوم الموعود لا يحين لأن التقاليد تبعد به كلما دنا موعده. . .

وأما (ع) فشاب قد انفرد في الحياة من أهله: فَقَد أمه وهو غلام، فما كاد يستوي شبابه حتى مضى يلتمس ما فقد منذ طفولته من حنان الأنثى، فتزوج، ثم فقد زوجه؛ ثم تزوج، فما بقيتْ الثانية إلا بمقدار ما بقيت الأولى، ولكنها خلَّفتْ بضعة منها بين يديه مصوَّرة في طفلة سلبتها القدرةُ أمَّها يوم منحتها الحياة!

هو أب ولا زوج له، وهو عزَبٌ وكانت له زوجتان، وهو فتى يؤمن بالله ويلحد في القدر، وهو شخصيتان منفصلتان تعرف إحداهما في المسجد وتعرف الثانية في الشارع، وله عين عفة وعين فاجرة؛ وله في الحياة تجربة ورأي، وله إلى الهوى والملذات مثلُ اندفاع الشاب الذي لم يذق ولم يجرب بعد!. . .

ثلاثة نفر لكل منهم رأيه في الحياة ومذهبه، ولكنهم قد التقوا في مجلس الرافعي على هوى واحد، فأحلوه من أنفسهم وأحلهم من نفسه؛ فكان له من أحاديثهم شعور الشباب ولهم من حديثه حكمة الشيخ، وللأدب من كل مجلس يجمعهم وإياه موضوع حي مما كتب الرافعي لقراء الرسالة. . .

ومن هذه الموضوعات (قصة أب)

ذلك هو الصديق (ع) كان الله له . . .!
جلس مجلسه يوماً إلى الرافعي يشكو بثه وهمه والدموع تترقرق في عينيه؛ واستمع الرافعي إلى شكاته متألماً حزيناً؛ فما فرغ (الأب) من قصته حتى جمع الرافعي (قصاصات) الحديث فجعلها في جيبه وجلس يتفكر. . . ثم كانت (قصة أب)
وفي الأسبوع التالي كان زفاف أبنته إلى ابن أخيه في حفل أهلي خاص وصفه الرافعي في مقاله (عرش الورد)؛ وهو العرش الذي نظمه بيده الأستاذ سامي الرافعي لمجلس العروسين، وجعل فيه فنَّه وعاطفته نحو أخته وابن عمه وقدَّمه إليهما هدية عرس ولما جلس العروسان ذراعاً إلى ذراع في عرش الورد، بارك لهما الرافعي ودعا؛ ثم خرج ليمضي ساعات في القهوة. ولقيني هناك وحدي، فانتحينا ناحية على حِدْ الشارع لا يترامى إليها من أضواء القمر إلا شعاع حائل؛ وكان الرافعي يؤثر دائماً أن يجعل مجلسه على ذلك الرصيف في جانب من القهوة، ويسميه (بلاج طنطا) إذ كان انفساح الشارع أمامه، وما يتعاقب عليه في الليل والنهار من ألوان الجمال في الطبيعة والناس - مما يحبِّب إلى العين أن تنظر، وإلى النفس أن تنبسط، وإلى الفكر أن يبدع فيما يخلق من ألوان الجمال. . .
وكان الليل نائما يحلم، والطبيعة ساجية لا يُسمع من صوتها إلا همسٌ خافت، وفي الجو شعر يهزج في سِرار النسيم وفي حفيف الشجر، وعرائس الخيال تُطيف راقصة تنفح بالعطر وترفُّ بالنور. . ولكن الرافعي جلس مجلسه صامتاً لا يتحدث، إلا كلمات إلى النادل يطلب كوب ماء ليشرب أو جمرات للكركرة. . . واحترمتُ صمته فسكتُّ عنه . .
ومضت ساعة، ثم رفع عينيه إليّ وهو يقول: (الليلةُ عرس ابنتي. . .!)
ولم يسمع جوابي، لأن دمعة كانت تترقرق في عينيه وهو يتحدث حبستني عن الجواب . . .!
دمعة لم أترجم معناها إلا بعد سنتين، يوم جاءني يقول والدمع يلمع تحت أهدابه: (إن وهيبة مسافرة إلى زوجها في أمريكا؛ ليس من الحق أن تبقى هنا وهو هناك!)
ثم يومَ جاءني بعدها يقول وفي يده صحيفة أمريكية. (انظر هذه الصورة، إنهم يسمونه هناك: أصغر سائح مصري في أمريكا. . إنه حفيدي الصغير. . .!)
لقد كان الرافعي يحب أولاده حباً لا أعرف مثله فيمن أعرف؛ ووهيبة كبرى أولاده، ذكرها في (الديوان)، وغنى لها في (النظرات) وأرَّخ زواجها في (عرش الورد)
وكانت المقالة التالية هي (الإنسانية العليا)
وهي باب من القول في الأدب الديني تنتظم مع (وحي الهجرة) و (الإشراق الإلهي) و (سموّ الفقر) تحت باب واحد. . .
كان يعتاد الرافعي كما يعتاد كلَّ إنسانٌ، نوباتٌ من الضيق والهم تقعد به وتصرفه . . . عما يحاول من عمل؛ ولم يكن له علاج من هذا الضيق الذي يعتاده إلا أن يقرأ قرآناً أو ينظر في كتاب من كتب السيرة النبوية، فينفرج همه ويزول ما به، ويهون عليه ما يلقى من دنياه. . .
في نوبة من هذه النوبات التي تضيق بها الدنيا على إنسان، تناول الرافعي كتابا من كتب الشمائل يسرِّي به عن نفسه، فاتفق له رأي. . . وخرج من مطالعته بمقالة (الإنسانية العليا)
وكان للرسائل التي ترد للرافعي في البريد من قراء الرسالة أثر يوحي إليه في . . . أحيان كثيرة بما يكتب لقرائه، فهي منهم وإليهم؛ فمنذ بدأ الرافعي يكتب في الرسالة أخذت رسائل القراء ترد إليه كثيرة متتابعة في موضوعات شتى ولمناسبات متعددة، حتى كان يبلغ ما يصل إليه أحياناً في اليوم الواحد ثلاثين رسالة؛ وكان يقرؤها جميعاً ويحفظها في درج خاص من مكتبه؛ وسأتحدث عن هذه الرسائل في باب خاص له موعده، إنما يعنيني اليوم أن أتحدث عن الموضوعات التي استملاها من رسائله. ومن هذه الموضوعات مقالة (تربية لؤلؤية)
كانت تصدر في القاهرة في ذلك الوقت مجلة (الأسبوع) وقد فتحت صدرها لطائفة من شباب الجنسين يكتبون فيها وحي عقولهم وقلوبهم و. . . وغرائزهم، وكانت صفحاتها

لهؤلاء الشبان والشابات أوسع من صدر الحليم، فلم تلبث بهذه السماحة أن صارت - كما يقول العامة - بطن حمار! وأصبحت ميداناً للغزل البريء وغير البريء، وموعداً من مواعد التلاقي والوداع

وفي صبيحة يوم، حمل البريد إلى الرفعي رسالة من سيدة كريمة، تلفته إلى محاورة داعرة تعترك فيها أقلام طائفة من الشبان في مجلة الأسبوع. وبعث الرافعي في طلب أعداد المجلة فجيء بها؛ فما قرأها حتى تناول القلم وأملى على مقالة (تربية لؤلؤية)

في هذه المقالة، خلاصة رأي الرافعي في حرية المرأة وحقها في المساواة؛ وترى لهذا الرأي بقية فيما نشر من مقالات الزواج والطائشة، والجمال البائس، وغيرها؛ وهو يزعم أنه بهذا الرأي من أنصار المرأة عند من يعرف أين يكون انتصار المرأة. وللرافعي حين يتحدث في هذا الموضوع حجة قوية وبرهان ماض، إلى روح رفافة شعر ساحر. ولست واجداً أحداً يرد عليه في ذلك على قلة من تجد من أنصاره، وقد جلست مرة إلى المربي الكبير الأستاذ محمد عبد الواحد خلاف نداول الرأي في أدب الرافعي ومذهبه الاجتماعي لمناسبةٍ ما فيما كتب الرافعي للرسالة، فقال لي (إنك لن تجد أحداً من أنصار الجديد يرضى هذا المذهب، ولكنك لن تجد أحداً - أيضاً - يستطيع أن يصاول الرافعي في هذا الميدان بمثل حجته وقوة إقناعه. . .!)

وأرضى الرافعي بهذا المقال السيدةَ الكريمة التي كتبت إليه، ولكنه أغضب مئات . . . من القارئات وعشرات من القارئين؛ فانثالت عليه الرسائل من هؤلاء وهؤلاء غاضبة مستنكرة، إلا بضع رسائل . . .

ولما كتب مقالة (تربية لؤلؤة) وأرسل بها، ركب قطار البحر إلى الإسكندرية ليستريح يوماً هناك، يتزود فيه لفنه وأدبه من عرائس الشاطئ. . . كان قد كتب مقالة السالف وأرسل به، ولكن معانيه بقيت في نفسه؛ فلما ذهب إلى الشاطئ وجد تمام موضوعه، فعاد ليملي عليّ مقالة (لحوم البحر) وهي قصيدة مترجمة عن الشيطان على نسق من النثر الشعري فاق فيه الرافعيُّ وغلَب . . .

كان للرافعي عادةٌ حين يعجبه موضوع مما كَتب أن يسأل عنه كلّ من يلقى من أصحابه. . . (هل قرأت مقالتي الأخيرة. . .؟ وما رأيك فيها. . .؟ هل يملك أحد أن يعرض لرأي فيها بالنقد. . .؟)

وكان يعتدّ كثيراً بمقالة (تربية لؤلؤة)، وفي ذات مساء بعد نشر تلك المقالة، قصد إلى القهوة ليريح أعصابه؛ فصادف الأصدقاء (س. ا. ع)؛ فما كاد يستقر به المجلس بينهم حتى أخذ يسأل كل واحد: (هل قرأت. . .؟ ما رأيك. . .؟ هل يملك أحد. . .؟)

كان للرافعي في كل واحد من أصدقائه الثلاثة رأي، وكان لكل واحد في نفسه حقيقة، ولهم في الحياة نظرات تغترب وتقترب؛ وكلهم قد حُرِموا المرأةَ لوناً من ألوان الحرمان؛ ولكل منهم في المرأة رأي؛ مما تخيّلها، أو مما كابدها، أو مما شقي بها . . .

والرافعي رجل قد فارق الشباب وخلعه فيما خلع من ماضيه؛ وإنه لزوج وأب ويوشك أن يكونَ جدًّا؛ فلا قدرة له على أن يعود القهقري إلى ماضي شبابه يستوحيه خواطر الفتيان وأحلام الشباب في المرأة والحب والزواج؛ وهؤلاء الأصدقاء - على ما قدّمتُ من نُعوتهم في أول هذا الفصل - تجمعهم صفة العزوبة على اختلاف ألوانها؛ وما يزالون في باكر الشباب وفي يقظات الحُلم؛ وكلهم قد مارس المرأة نوعاً من المراس: في وهمه أو في حياته . . .

فما كاد الحديث يبدأ بين الرافعي وأصدقائه حتى أخذ يتشعب فنوناً، وساقهم الرافعي بحسن احتياله إلى هدف يرمي إليه. . . فما انفض المجلس حتى كان ثلاثتهم على ميعاد مع الرافعي ليجيبوه كتابةً عن أسئلة ثلاث وجهها إلى كل منهم، على أن يلتزم الصدق، وبجانب الحياء، ويخلص في الإجابة؛ وكانت الأسئلة هي:

(ا) كيف ترى المرأة في وهمك؟ وأين مكانها من حياتك؟ وماذا مارست من شأنها وعرفت من خبرها؟

(ب) لماذا لم تتزوج؟

(ج) صف ما تحب من أخلاق زوجتك المستقبلة؟

وجاء الميعاد المضروب، وسعى الأصدقاء الثلاثة إلى الرافعي بأجوبتهم؛ فمنها كانت

مقالة الرافعي (س. ا. ع) وهي أولى مقالاته في الزواج؛ ثم تتابعت مقالاته في هذا الموضوع، فخطا بها إلى قلوب الشباب خطوات، وكان بينهم وبينه من قبلُ سد منيع قبل أن يكتب الرافعي هذه المقالة بأيام، جاءه رسالة من بعض الأدباء يسأله أن يكتب إليه
في أسباب أزمة الزواج؛ استيفاء لبحث يهم أن يصدره في كتاب. . . وأحسب أن هذا السؤال كان الحافز الأول للرافعي إلى الكتابة في هذا الموضوع. وقد بعث الرافعي إلى السائل بجواب سؤاله؛ وكان جواباً فيه كثير من الدقة والتحديد والعمق، ولم أقرأه منشوراً منذ أرسله إلى طالبه
بدأ كثير من الشبان يهتمون بما يكتب الرافعي؛ إذ كان بهذا الموضوع يعالج مشكلة كل شاب عَزَب، وتضاعفتْ رسائل القراء إليه، وطال الجدل في موضوعه بين طواف من الشباب في مجالسهم الخاصة. . .
فلما كانت أيام بعد مقالة (س. ا. ع) جاء إلى مجلسنا في القهوة شاب من أصدقائنا المتأدبين، هو الأستاذ إسماعيل خ، وهو محام ناشئ له ولوع بالأدب وشهوة في الجدل، وفيه إلى ذلك لين في الخلق وشذوذ في الطبع؛ وكان الرافعي يعرفه عرفاننا فما رآه حتى وجد فيه عنوان مقالة. . . فما عليه يسأله ضاحكا. . . وأجاب الأستاذ إسماعيل:
(الزواج! وما يحملني على هذا العنت؟ أتريدني على أن أبيع حريتي من أجل امرأة؟. . .) ومضى يؤيد دعواه بالبراهين والأمثال. . .
وتم للرافعي موضوعه، فأملى عليّ في اليوم التالي مقالة (استنوق الجمل)
في هذه المقالة يجد القراء سبباً آخر لانصراف الشباب عن الزواج غير ما قدّم س. ا. ع في المقالة السابقة؛ فهي الحلقة الثانية من هذه السلسلة. . .
وأحس الرافعي بالتعب، فانصرف عن الكتابة أسبوعاً ليستجم، ولمْ من هنا ومن هناك طائفة من منثور القول فأرسله إلى الرسالة بعنوان كلمة وكليمة. وهي عبارات قصيرة من جوامع الكلم، ليس بينها رابطة في الفكر ولا في الموضوع، وكل كلمة منها موضوع بتمامه
وقد قدَّمت القول عن هذه الكلمات القصار التي كان الرافعي ينشرها بعنوان (كلمة وكليمة)؛ فحسبي هنا أن أشير إلى موضوع هذه الكليمات ودوافعها:
في هذه الكلمات التي نشرها بالعدد 65 سنة 1934 كلمات عن المرأة والحب؛ وهذه من فضلات المعاني التي اجتمعت له في مقالات المرأة والزواج ولم يجد لها موضعاً مما كتب. . . وفي هذه الكلمات رسائل إلى (فلانة) من تلك الرسائل التي قدّمت الإشارة إليها عند الحديث عن حب الرافعي. وفيها كلمات عن السياسة المصرية يعرف دوافعها من يذكر
الحال السياسة التي كانت في مصر لذلك العهد وحكومة صدقي باشا تحتضر. . .
فمن هذه العناصر الثلاثة اجتمع له هذا القدر من كلمة وكليمة
(طنطا)
محمد سعيد العريان
تعليم أبناء الفقراء في إنجلترا
للآنسة الفاضلة أسماء فهمي
درجة شرف في التاريخ ودرجة الأستاذية من إنجلترا
وأستاذة بمعهد التربية
استأثرت الطبقات الغنية في إنجلترا بما كان يعد أرقى أنواع التعليم والثقافة إلى ما بعد منتصف القرن التاسع عشر. وكان يتلقى أبناء تلك الطبقات العلم في المدارس الخصوصية وفي جامعتي اكسفورد وكمبردج، ذات النفقات الباهظة والنزعة الأرستقراطية البحثة، تلك المعاهد التي استحالت بالتدريج إلى معاهد خاصة بذوي اليسر والجاه وأن لم تنشأ في أول الأمر من أجل هذه الطبقة بالذات
أما أبناء الطبقات الفقيرة فكانوا يتلقون قشور العلم في مدارس أولية متواضعة تشبه الكتاتيب في مصر في أكثر نظمها وأساليبها. وكان يقوم بتأسيس هذه المدارس الجمعيات الخيرية وأهل البر والإحسان؛ أما الحكومة فلم تتدخل في أول الأمر تدخلاً مباشراً في شئون التعليم بل اكتفت بتقديم الإعانات المالية للجمعيات ابتداء من سنة 1833، وبتكوين اللجان من حين إلى حين لدرس حالة التعليم وتقديم الاقتراحات

والتقارير للقائمين بشأنه، مما كان له أثر يذكر في النهوض بالتعليم وتوجيهه التوجيه الصالح
ولقد كانت نظرة الحكومة والمتطوعين لنشر التعليم بين الفقراء قاصرة مبتورة، إذ كان الغرض مجرد القضاء على الأمية وتعليم الأطفال بعض الأعمال اليدوية التي قد تساعدهم على كسب الرزق. وعلى ذلك كان منهج الدراسة الأولية عبارة عن مبادئ القراءة والكتابة والحساب والدين ذلك الذي كان يمزج بتلقين الطاعة للرئيس والقناعة بنصيب المرء في هذه الحياة الدنيا. والواقع أن التعليم كان مبنياً على أساس الاحتفاظ بنظام الطبقات العتيق وخضوع الفقراء للأغنياء، فكان يخشى أن يؤدي التوسع في تعليم الفقراء إلى عدم رضائهم بحظهم من الحياة. ولقد تجلت تلك النظرة المحدودة في تقرير اللجنة المعروفة بلجنة عهد إليها بدراسة حالة تعليم أبناء الشعب فأصدرت تقريراً وافياً عام 1860 أعلنت فيه رضاءها عن حالة تعليم أبناء الفقراء إذ ذكرت بشيء من الدهشة أن في مكنة ثلاثة أخماس
التلاميذ المدونة أسماؤهم في سجلات المدارس الأولية أن يتعلموا القراءة والكتابة دون صعوبة ظاهرة، وأن يقوموا بإجراء العمليات الحسابية البسيطة التي تتصل بحياتهم اليومية كما يتلقون مبادئ الدين الأساسية وما يتصل بها من التعاليم الخلقية. . أما مواد الثقافة العامة كالتاريخ والجغرافيا التي كانت قد بدأت تشق لنفسها طريقاً . في المنهج فلم تعرها اللجنة التفاتاً إذ لم تكن معتبرة من المواد الأساسية
على أن تلك النظرة الضيقة إلى تعليم أبناء الفقراء أخذت تتغير تغيراً كبيراً في الثلاثين سنة الأخيرة من القرن التاسع عشر تحت تأثير عوامل مختلفة أهمها انتشار الأفكار الحرة ونمو حركة العمال واتساع نطاق الحقوق الانتخابية التي شملت طبقة العمال سنة 1867، فأصبحت تلك الطبقة تلعب دوراً هاماً في مصير الأمة وتكييف شئونها. وسرعان ما شعرت الطبقة الحاكمة بأهمية هذا الانتقال الذي أوجب تعليم الطبقات الفقيرة بما أنها ضمت إلى زمرة السادة والحكام نتيجة تعديل نظام الانتخاب. وعلى ذلك نجد الحكومة الإنجليزية تتدخل تدخلا جدياً في شئون التعليم وتسن القوانين لتعميم التعليم الأولى ففي سنة 1870 صدر قانون بتكوين مجالس للتعليم الأولى في المناطق المختلفة التي تقل فيها أو تنعدم المدارس التي كان يقوم بإنشائها الجمعيات الخيرية للقيام بسد النقص وتوفير التعليم لجميع أبناء الشعب، كما جعل من اختصاصها الإشراف على التعليم في المدارس الأولية المختلفة بينما جعلت مدة الدراسة الأولية خمس سنوات من سن الخامسة إلى العاشرة. على أن التعليم لم يصبح إجبارياً يعاقب القانون على تركه إلا في سنة 1880. ومنذ ذلك الانتقال الهام أدخلت مواد جديدة في برامج التعليم الأولى في حين منحت إعانات مالية لكثير من التلاميذ الفقراء النجباء لمساعدتهم على دخول المدارس القانونية والفنية والجامعات. وهكذا نجد أن اتساع دائرة الحقوق النيابية في إنجلترا يقابلها اتساع وإصلاح في دائرة تعليم الفقراء، وفي ذلك بلا نزاع لب الحكمة، إذ أن الخطر كل الخطر في وضع القوة السياسية أو الحقوق الانتخابية في يد قوم جهلاء يقضون على الديمقراطية باسم الديمقراطية
وفي القرن العشرين خطا تعليم أبناء الفقراء خطوات واسعة حوالي سنة 1900، فمدت الدراسة الأولية إلى سن الرابعة عشرة، وأنشئت الخدمة الطبية للمدارس سنة 1907
للاهتمام بصحة فقراء التلاميذ. وكان للحرب الأوربية الكبرى أعظم الأثر في تدعيم مبادئ الديمقراطية والمساواة ظهر أثره بجلاء في ميدان التعليم والعناية بأمر الأطفال دون تمييز بين الطبقات. ويشير الأرل بلدوين رئيس الوزارة الإنجليزية السابقة إلى تلك النزعة الحديثة عندما يقول: (إن وجود نوع واحد من الثقافة من أقوى عوامل الوحدة والائتلاف بين أفراد الشعب، وإن إنجلترا لم تربح في الماضي بسبب عدم اهتمامها بتكوين التفاهم والارتباط العقلي بين طبقات الأمة. فلقد كانت مدارسنا مقسمة بحسب الطبقات لا بحسب الفروق العلمية. . . ولكن قد بزغ فجر عهد جديد الآن، فان بناء المدرسة الأولية الهرم قد أقيم أخيراً على أنقاضه بناء جديد. . .)
والواقع أن هذا القرن يمتاز بالرغبة والعمل على القضاء على آثار الفروق المادية والاجتماعية من ميدان التعليم، تلك الفروق التي لم تكن تؤدي إلى الاختلاف في أنواع الثقافة والتربية بين أبناء الشعب فحسب، وإنما كانت تحول في أغلب الأحايين دون

ظهور نبوغ أبناء الفقراء لسبب إهمال تنمية مواهبهم مما ينتج عنه بطبيعة الحال إقلال عدد النابغين في الأمة خصوصاً إذا راعينا أن الطبقة الفقيرة لا يقل عدد أفرادها عن أربعة أمثال عدد أفراد الطبقة الغنية والمتوسطة معاً، وأن عدد النابغين فيها إن لم يزد على عدد الموهوبين في الطبقتين المذكورتين لا يمكن أن يقل؛ وهكذا يضيع نصف نبوغ الأمة سدى إذ يقصر على تأدية الأعمال الوضيعة التي لا تستغل ولا تنمي المواهب العالية

ولتحقيق أغراض التربية الحديثة يبدأ الاهتمام بأمر الأطفال الفقراء في سن مبكرة؛ فمن سن الثانية إلى الخامسة يرسل الأطفال - إذا أرادت الأم - إلى مدارس الحضانة التي توجد عادة في الأحياء الصناعية الفقيرة المكتظة بالسكان حيث تضطر الأمهات في أغلب الأحيان إلى مغادرة منازلهن في الصباح الباكر للعمل مع أزواجهن في المصانع؛ فتقوم هذه المدارس بتعهد الأطفال للعب في أمكنة معرضة لأشعة الشمس والهواء، وتزود بكل أنواع اللعب المعدة للتسلية والحركة والابتكار؛ ويقضي الأطفال اليوم في اللعب والغناء والحركات التوقيعية وسماع القصص المصورة كما يعودون على القيام ببعض الأعمال التعاونية كالاشتراك في إعداد مائدة الطعام وتنسيق الأزهار وترتيب الحجرة، كما يعودون على آداب المائدة والترتيب والنظافة واحترام رغبات الغير

ويبدأ التعليم الإلزامي من سن الخامسة إلى الرابعة أو الخامسة عشرة. وتقسم مرحلة التعليم الإلزامي الآن إلى ثلاث مراحل؛ فالمرحلة الأولى من سن 5 - 7، وفي هذه المرحلة تسير الدراسة وفق برنامج رياض الأطفال في مصر فيهتم بالألعاب والقصص والرسم والأناشيد والرقص، ويبدأ تعليم القراءة والكتابة عن طريق اللعب. والمرحلة الثانية من سن 7 - 11. وفي هذه المرحلة يدرس الأطفال ما يدرسه تلاميذ المدرسة الابتدائية المصرية ماعدا اللغات الأجنبية في أكثر المدارس. ويهتم في هذه المدارس اهتماما كبير بالأعمال اليدوية والموسيقى. أما المرحلة الثالثة فتبدأ من سن 11 - 14 أو 15 وهذه المرحلة تعرف بمرحلة التعليم الثانوي. وعند بدء هذا الدور يعقد امتحان عام للتلاميذ الذين يبلغون الحادية عشرة، وبمقتضى نتيجة هذا الامتحان يقسم التلاميذ إلى ثلاثة أقسام، فالتلاميذ المتفوقون يرسلون إلى المدارس الثانوية التي تعد للجامعات والوظائف الفنية؛ والذين يكونون في المرتبة الثانية يذهبون إلى نوع آخر من المدارس الثانوية تسمى المدارس المركزية تختلف عن المدارس الثانوية العادية في كونها تتجه في السنتين الأخيرتين اتجاها عمليا، فترتبط مواد الدراسة بالبيئة كأن تشمل مادة الجغرافيا دراسة حالة البلد الاقتصادية وأسواقها التجارية وصناعاتها وعلاقاتها بالأمم الأخرى الخ، وكأن تكون اللغة الأجنبية التي تدرس لغة حية يكون الغرض من دراستها التفاهم بخصوص الشئون التي تتصل بحياة الطالب وعمله ودائرة تفكيره لا أن تكون أكاديمية بمعنى أنها تهتم بخواص الأجرومية أو المعاني والمصطلحات التي قلما يحتاج إليها في الحياة العملية. أما تلاميذ المرتبة الثالثة فيرسلون إلى مدارس ابتدائية راقية تتمشى برامجها إلى حد ما مع برامج المدارس الثانوية من ناحية الاهتمام بالثقافة العام بينما توجه عناية كبيرة إلى إعداد الطالب لبيئته الخاصة فتهتم مثلا بالعلوم الزراعية إذا كان الطالب يعيش في بيئة زراعية، أو بالمواد التجارية إذا كان الطالب يعيش في منطقة تجارية. وبالجملة يراعى في هذا التقسيم التمشي مع مقدرة الطالب العقلية ثم الاهتمام بالناحية الثقافية وتوسيع دائرة اهتمام الطالب بالروابط الإنسانية ونواحي الحضارة المختلفة. ولا يقصد بهذا التقسيم التوجيه المهني بالذات أو إعداد الطالب لكسب العيش بطريقة مباشرة، وإنما الغرض الأول من الدراسة الإلزامية في مراحلها الثلاث أي من سن الخامسة إلى الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة هو إعداد الطفل لأن يكون إنساناً مهذب الخلق والإحساس ذا قسط من الثقافة قبل أن يعد لأن يكون تاجراً أو صانعاً

ولا يقصر الاهتمام في هذا الدور من التعليم على التربية العقلية والخلقية، وإنما يولي أولو الشأن عناية كبرى إلى صحة التلاميذ الفقراء. فلقد جعل لهم عيادات طبية يشرف عليها أطباء وممرضات تعطي العلاج والدواء مجاناً للتلاميذ، وتقوم الممرضات بعيادة منازل الأطفال لتوجيه النصح والإرشاد للأمهات كما توجد مستشفيات ودور نقاهة

خاصة بهؤلاء الأطفال. كذلك تعمل المدارس على علاج ضعاف الأجسام من فقراء التلاميذ بتقديم اللبن لهم مجاناً حتى في أيام المسامحات لمن تظهر عليهم علامات الضعف بسبب رداءة التغذية. ومما يستحق الذكر في هذا المقام أن الأموال التي جمعت لعمل تذكار للملك جورج الخامس خصصت لشراء أراض واسعة تستعمل ملاعب للأطفال الفقراء

ولقد كان من نتائج زيادة الاهتمام بالتعليم الإلزامي وتعديل مناهجه مضاعفة الاهتمام بالمدرسين وإعدادهم إعداداً يتمشى مع تلك النزعة الديمقراطية الحرة؛ وعلى ذلك نجد الاتجاه الآن أن يكون المدرسون ممن حصلوا على تعليم جامعي أو ما يعادله حتى تتوفر لديهم الثقافة الواسعة والتهذيب العقلي والعاطفي الذي يحتاج إليه مربي النشء من بيئة ديمقراطية

ولا تقف مطامع المشتغلين بالتربية في إنجلترا وأنصار مبادئ الديمقراطية والمساواة عند هذا الحد إذ هم لا يكتفون بتعليم أبناء الفقراء حتى سن الخامسة عشرة بل يطالبون بإطالة مدة تعليمهم على نفقة الدولة حتى سن الثامنة عشرة، إذ يرون أن الولد الذي يبدأ حياته العملية في سن الخامسة عشرة لا يكون مزوداً بالمعرفة الكافية، ولا بالإعداد الذي يعينه على اقتحام معركة الحياة بنجاح. وإن الدلائل كلها لتدل على احتمال تحقيق هذا الرأي إما عاجلاً وإما آجلاً

مما ذكر يتبين لنا التغيير الهام الذي طرأ على الأفكار بخصوص تعليم أبناء الفقراء في بحر قرن تقريباً. ففي أوائل القرن الماضي كان يتساءل أعضاء البرلمان الإنجليزي عما إذا كان تعليم الطبقات الفقيرة أمراً مرغوباً فيه؛ واليوم يقولون جميعاً في إيمان إن التعليم الشامل الصحيح الذي يعم جميع الطبقات والذي يبرز النبوغ وينمي الاستعداد ويكون الخلق

ويهذب العقل والقلب ويبين السمين من الغث هو حق ضروري لكل طفل بغض النظر عن العوامل المادية. وعلى ذلك لا يكتفي الآن بتعليم القراءة والكتابة ومبادئ الدين والحساب لأن هذا التعليم المحدود لم يعد يلائم حاجات الديمقراطية ولا المبادئ الإنسانية التي لحسن الحظ قد أثمرت أينع الثمر في ميدان التعليم.

أسماء فهمي

درجة شرف في التاريخ

ودرجة الأستاذية في التربية في إنجلترا

ذكرى مدام كوري

للكاتب العظيم اميل لودفيج

لا أظن سيدة ذات عبقرية كانت أقل هيمنة على أفئدة الرجال، وفي الوقت نفسه لها من السلطان في نفوسهم ما ليس لغانية من غواني باريس، كمدام كوري

من وقت لآخر كان يفد إلى العالم الفرنسي الكبير بول بانلفية بعض ذوي العبقريات الفرنسيين ويجلسون للسمر لديه في بهوه المتواضع الذي تراه أشبه بالأماكن العامة منه بمجلس عظيم من عظماء فرنسا وكبير من وزرائها، شأن العجوز الأرمل، بل شأن العالم الكبير الذي نفذت بصيرته إلى جمال الحقيقة والعلم فتسلى به عن زخرف الأرائك والطنافس

قصدت ذات يوم هذا البهو وقد سبقني إليه نفر من رجال العلم والسياسة. وكان رب الدار ملازماً لفراشه لانحراف ألم به، فصافحه كل منا على حدة في مرقده، بينما كانت شقيقته تسبغ علينا التحية في مجلس الضيافة. وكنت أشعر بأن عدم وجود بانلفيه بيننا قد جعل رابطة الجماعة مفقودة ومعين سمرها ناضباً

وكذلك كان المجلس فاتراً كأن برودة الطقس قد شابته وأثرت عليه، وبدلاً من إذكاء الحماسة فيه بفنجان من الشاي فقد أعدت مائدة طعام على الطراز القديم المنمق ثم دعينا إليها بعبارات ملؤها التبجيل والاحترام

وقد أعجبت بانلفيه أن يقدمني إلى ثلاثة من ضيوفه وأهل طبقته من رجالات العلم والسياسة، وهم بيران ولانجفان وأميل بوريل، فأخذتني الرهبة أمام هذه الرؤوس الكبيرة والجباه العريضة لرجال عظماء في أبسط ما يكون من المظاهر، تلك البساطة التي هي زينة العلماء الفرنسيين والتي كانت في العصر الغابر شيمة العلماء الألمان. نعم أخذتني الرهبة أمام هؤلاء الرجال الذين يتعذر على مثلي أن يقدر أعمالهم من

تلقاء نفسه وبطريق مباشر. ولما كان من العسير عليّ فهم ما يتخلل أحاديثهم من المباحث العلمية جعلت أتفرس في أدمغتهم الكبيرة وقوالبها المختلفة وما تحمل من علم وثقافة

وبينما نحن كذلك نقطع الوقت بين حديث متكلف تارة وسكوت عميق تارة أخرى، إذ دخلت علينا سيدة عجوز لا تمت إلى الجمال بصلة. كانت ترتدي معطفاً أزرق وعلى عينيها

نظارة كبيرة تزيد وجهها عبوساً، وكان من الطبيعي قيام المجتمعين لتحيتها، ولكن هيئة قيامهم، وهيئة انتظارهم مصافحتها إياهم جعلتني أعتقد أنها سيدة المجلس وأميرة المجتمعين، تلك هي مدام كوري التي وقف الجميع لها وقفة الجنود أمام القائد، كما وقفت منعزلاً أفكر في هذه الجماعة المنسجمة من العلماء

ثم انتهت هذه الضيافة وانصرف كل إلى سبيله. وما أصبح اليوم التالي حتى كنت عند مدام كوري في معملها الخاص ومعهد أبحاثها، فوجدتها بين الأجهزة والمعدات المختلفة أهدأ بالاً مما كانت بالأمس حيث لا يرهقها التكلف الذي تضطر إليه بحضرة الرجال. ثم حادثتني قليلاً وقضينا الوقت في التفرج على ما في المعمل من أجهزة وأدوات

كانت تلك السيدة البولونية ذات عيون سوداء قلقة، لامعة كالنجوم، وجميع ملامح وجهها مشربة بالحدة التي في عينها، وعلى الرغم من خشونة مظاهرها، تلك الخشونة التي هي سمة العلماء، فقد ظهرت شيئاً فشيئاً بلين الجانب ووداعة النفس حتى لقد لاحظت ابتسامة خاطفة تشرق من شفتيها في بعض الأحايين. . .

وكانت صورة زوجها التي تعلو رأسها رمزاً ناطقاً لما كان بين هذين الزوجين من تعاون وتعاضد في العمل، فقد كان يجمع إلى صفات الرجل الواسع الخيال، ذي القريحة الوقادة، ما تمتاز به المرأة من تطلع للخلق والابتداع، بينما كانت هي على الضد من ذلك أقرب إلى صفات الرجولة منها إلى الأنوثة، أو بعبارة أخرى كانت تتمثل فيها العلوم الطبيعية بأسرها

وسواء هي في حياة زوجها أم بعد موته فقد كانت تحكم عواطفها وتسيطر على احساساتها بحيث لا ينم حديثها الحازم الدقيق عما يعتلج في صدرها من عواطف واحساسات

ولم يكن المجتمع مديناً لهذين الزوجين باختراعهما السحري الذي أنقذ الملايين من الهلاك، وبصغيرتهما الأنيقة في حسن الذوق فحسب، بل إنه مدين لهما أيضاً بفتاة أخرى هي أولى ثمار حياتهما الزوجية التي ترسمت خطاهما في العمل

وبينما كنت أتحدث مع والدتها في المعمل إذ دخلت علينا بخطى الشباب وألقت نحوي نظرة استفسار وتقص. وعلى الرغم من أنها رشيقة القوام لدنة الغصن فقد كان يبدو عليها الامتعاض من أن أجنبيا يزور المعمل فيعكر عليهما صفاءه التام

وقد رأيتها على جانب عظيم من طهارة الملائكة الذين أجاد سكان فلورانس الأقدمون تصويرهم على شاكلة الشباب، ووجدتها سالكة نهج أبويها لا من ناحية العلم فقط بل كذلك من جانب نوع الحياة الذي اختارته لنفسها حيث لم ترض زوجا لها إلا أحد الطلاب المنتسبين إلى (معهد أبيها بيير كوري)

هكذا رأيت تلك الشجرة المباركة والعائلة الجميلة، سلالة بيير كوري، ولمست بنفسي أساليبها في المحافظة على أصلها والعناية بموهبتها وعنوان فخارها، مما جعلني أتساءل عما لو كان مبدأ المحافظة على السلالة مرعيا لدى الملوك رعايته عند عائلة بيير كوري!

ثم أخذت مدام كوري تذكر لي شيئا عن ابنتها قائلة:

- إن لهما بنتا صغيرة!

وكأنها بذلك تريد أن تذكر لي أن في هذا البيت شيئاً آخر غير الراديوم، ثم قالت:

- وإنها أيضاً تشتغل جيدا، ومما يؤسف له جد الأسف أن والدها لم يكن بين الأحياء فينعم خاطره بعمل ابنته!

وبينما نحن عند السلم نريد اجتيازه إلى معمل آخر رأيتها تلقي نظرة كلها عطف وحنان على ابنتها هذه التي سلخت ثلاثين ربيعا والتي أخذت ترشدني إلى مادة لامعة في ضوء حجرتها الضئيل، ولكني بدلا من الإصغاء جعلت أتأمل بريق شعرها المجعد.

وبعد هنيهة عادت مدام كوري للحديث:
- عجب كلها الحياة! معلمة بولونية فقيرة، تجذب طبيبا فرنسيا، فقيرا أيضاً، فيميل إليها قلبه ثم يفهمها وتفهمه!!!
ثم قالت بعد ذلك بصوت الفرح الظافر السعيد بحاضره:
- لم يكن لنا سوى حجرتين في سطح البيت مما يعد لسكنى الخدم!
هكذا يتحدث كل ظافر في معركة الحياة فيذكر أيام بؤسه وشقائه وقد تمكنت فكرة السعادة في نفسه فظل ينشدها حتى اقتنصها وظفر بها. وهكذا بيير كوري وزوجه، فبينما هما في العزلة بغرفتيهما المتواضعتين إذ طلع نجم سعدهما فاهتديا إلى الراديوم وعرفا خواصه الخارقة العجيبة، وسرعان ما تمت الشهرة وذاع الصيت في أنحاء المعمورة ثم نعما بالخير والسعادة، بالسرور والابتهاج، بالنصر والظفر
علمت الدولة بأمرهما فانتشلتهما من وكرهما بسطح البيت وشيدت لهما معهداً فخماً وأغدقت
عليهما الأموال ليتسر لهما العبء ويسهل عليهما البحث
على أن هذه السعادة لم تغيرهما ولم تبدل شيئاً من حياة البحث التي اعتاداها، بل واصلا العمل في ظل معيشتهما الهادئة، وربيا طفليهما على حب المثل الأعلى الذي رسماه لأنفسهما. وهكذا كان عماد حياتهما وقوام سعادتهما حجراً ذا سر خفي اهتديا إليه فأرسل عليهما ضياءه، وأسبغ عليهما نعماءه، إلى ما تلا ذلك من نفع عام إذ سلمت به الإنسانية من العطب ونجت به من الهلاك
وما زال بيير كوري وزوجه جادّين في عملهما النافع حتى دهمهما القضاء بغتة، على نمط مفاجأته لهما بالثورة، فقضى على الرجل العظيم واختطفه من أحضان زوجه وكريمتيه، ولكن هذا القضاء لم يفل من عزيمة مدام كوري فقامت وحدها تفكر في عملهما وفي بنتيهما، ثم شمرت عن ساعدها، ومازالت تخطو إلى الأمام حتى اهتدت إلى خاصة أخرى كانت لها مجداً ثانياً وفخراً أبدياً في العالم أجمع
وهاهو ذا رئيس جمهورية الولايات المتحدة قد أهدى إليها قطعة عظيمة من الراديوم تقدر بالملايين، بينما كان الملوك السابقون يهدون إلى العالم مسعطا (علبة نشوق) مزخرفاً بالجواهر. وكم من فرق بين مسعط لا خطر له وقطعة من الراديوم تعتبر تحفة نادرة وتجلب السعادة للملايين من الناس!
والحق يقال إن مدام كوري قد عانت آلاماً كثيرة وقاست هموماً عديدة، ولم تكن مسرات الحياة لتسرِّي عنها إلا في النادر من الأيام، ولكنها مع ذلك إذا دخلت مجلساً فإن عظماء الفرنسيين وكبار علمائهم يقومون لتحيتها وإجلالها، ذلك أن القدر قد رفع هذه المعلمة البولونية الفقيرة، ووضعها فوق رؤوس الملكات والأميرات في العالم كله

ترجمة سيد سليم درويش

بين العقاد والرافعي

1 - الدين والأدب

2 - سارة وغزل العقاد

للأستاذ سيد قطب

- 12 -

وهذا أيضاً واحد . . . !

وقد عرفت الآن نظام فريق الرافعي! ففي كل أسبوعين أو ثلاثة، يتقدم (عضو منتدب) فيقول كلاماً؛ ثم يدركه الإعياء، وتفرغ جعبة الكلام عن (سيد قطب) بالذات، فيجلس (ليأخذ نفسه ويبلع ريقه) كما يقولون؛ ويتبعه آخر فيعيد الكلام الأول في صورة جديدة أو في الصورة الأولى نفسها مع لف وتطويل شديد!

هكذا قال الأستاذ (شاكر)، وهكذا قال الأستاذ (الطنطاوي)، وهكذا قال الأستاذ (سعيد العريان)، وهكذا أخيراً قام يقول (الغمراوي)

ولست أدري لم يطيل هؤلاء الناس هكذا في الحديث، ولم يمطون الأساليب مطّاً، وكل ما قالوه حتى اليوم يمكن تلخيصه في صفحة واحدة من هذه الصفحات الكثيرة التي شغلوها من (الرسالة)، ولاسيما (المنتدب) الأخير، وإني لأشفق والله عليهم من هذا الكد الطويل!

ولكن من الإنصاف أن نعترف لهذا الأخير، أنه أتى بما لم يستطعه الأوائل، فقد - والله

- أخافنا وأفزعنا، وهو يجعل المسألة (ديناً ولا دين) ويلخص المعركة بين المدرستين القديمة والجديدة، في أنها المعركة بين أهل الجنة وأهل النار!

نعم هكذا مرة واحدة؟ ومن لم يكن قد عرف الخوف فليعرفه الآن. فهاهو ذا رجل يمسك بيده ميزان الحسنات والسيئات: فأما من كان مع الرافعي فقد أزلفت له الجنة، وأما من كان مع العقاد فقد فغرت له جهنم أفواهها. وليكن من شاء كيف شاء، فهو وحده الملوم!

فما قولكم. دام فضلكم!

الدين. الدين. . . هذه صيحة الواهن الضعيف، يحتمي بها كلما جرفه التيار، وهو لا يملك من أدوات السباحة ولا وسائلها شيئاً

وأشد الجناة على الدين، وأشد المشوهين له والمشككين فيه أولئك الذين يضعونه مقابلا للعلم تارة، وللفن تارة، ثم يحكمون أيهما أصح وأولى بالاتباع!

وللدين مهمة قام بها وأداها خير أداء في إصلاح نفس الفرد للمجتمع، وفي تهيئة هذا المجتمع لحياة الفرد، بالنصح تارة وبالتخويف تارة، وبالتشريع تارة، وبكل الوسائل التي تكفل هذه الغاية الكبيرة، على مدى الأجيال

ولم يأت الدين ليخوض في المسائل العلمية البحتة، ولم يأت ليكون منهاجاً فنياً. فكل زج به إلى الميادين التي لم يأت لها، ظلم له، وتعريض به، وعمل كعمل الدبة التي تحدث عنها صاحبنا الحديث المحفوظ

يقوم الدين على الإقناع الوجداني، وعلى البحث العقلي، بينما يقوم العلم - معظم العلم - على المشاهدات والملموسات، والتجارب المحسوسة، فليس من الحكمة وضع هذا مقابلا لذاك جهلا باتجاه الدين وغايته، لأن كثيرا من النفوس يضطر لتصديق المحسوس المشاهد، متى أرغم على الاختيار بين الطريقتين!

وليس من الحكمة كذلك وضع الدين مقابلا للفنون، فهذه خاصة بالترجمة عن النفس الإنسانية وأحاسيسها وآمالها، وليس هذا من اتجاهات الدين، إلا في الدائرة التي تهمه لإصلاح نفس الفرد للمجتمع، والمجتمع للفرد، على طريقته الخاصة. ومن الناس من يستعز بالخوالج والخواطر والآمال التي تجلوها الفنون، لأنها تلمس كل عنصر حي فيه، وليس من الحكمة أن نسوم هذا الفريق الاختيار بين طريق الفن وطريق الدين، في حين لا يعني الدين ذلك، ولا يرصد نفسه له، وإنما هي الدبة التي تلقي الأحجار على وجوه الأصدقاء!

الدين. الدين. . . قولوها مائة مرة، فلسنا والحمد لله ممن تخيفهم هذه الصيحات الفارغة، ونحن أكثر منكم دراسة وفهماً للدين

ثم ما هذا الرجل (الغمراوي) الذي يفهم أن (السن) هي الحكم في المبادئ والآراء، فمادام (سيد قطب) لم يولد إلا بعد أن كان للرافعي أدب، فلا يحق له أن يكون له رأي في هذا الأدب، ولا يجوز أن يسقطه إن كان يستحق السقوط

ما هذا الفيض الغزير في (القواعد العلمية للنقد)؟ وما يكون الشأن مع أدباء الجيل الماضي

الذين ماتوا قبل أن نولد، وما يكون الشأن مع شعراء الجاهلية؟ لنتناولنهم بالتقديس، أو لنبعدهم كالآلهة! أليسوا قد سبق بهم التاريخ؟!

والآن فلندع (اللت والعجن) الذي ليس معه إلا إرخاص الوقت، واحتقار المناقشة الأدبية، وامتهان المعارف الإنسانية

لندع هذا إلى عالم آخر. لنتحدث عن (سارة) قصة العقاد قصة الحب، ترجمة لحياة قلب، فإذا كان هذا القلب قلب العقاد أو قلباً صاغه العقاد، فهي إذن ترجمة حياة ممتازة. وهذه هي (سارة)، التي كان نصيبها من الصحافة المصرية (الصحافة التي تحابي العقاد)! بضع كلمات، لم تصل واحدة منها أن تكون فهماً كاملا لهذه الترجمة الممتازة، ولم تصل الحياة الأدبية في مصر أن تكون لهذه القصة شروح وفقرات تربى على حجمها الأصلي مرات. وهو الذي كان يجب أن يكون!

حين نقول عن هذه القصة: إنها تصوير صادق للحب في النفس الإنسانية، لا نكون قد فهمنا شيئاً كثيراً منها، ولكنا حين نقول: إنها (فيلم) فني يستعرض قلباً وعقلا ممتازين أو (طبيعة فنية ممتازة) في حب امرأة خاصة بكل معاني الخصوص نكون قد وضعنا شيئاً من الرموز لهذه القصة الفريدة

ليس في القصة حوادث (في الخارج) ولكنها حافلة بالصور النفسية الباطنية، والخلجات القلبية المضمرة. وليست مصوغ على مثال من أنواع القصص، ولكنها مصبوبة في القالب الوحيد الذي يناسبها، ويناسب طبيعة العقاد في آن

ما الحب؟

سؤال له عشرات الأجوبة؛ ولكن أي نوع من أنواع الحب هو المراد بالسؤال؟ إن للحب (أنواعا) شتى، فلكل نفس حب، وللنفس الواحدة صنوف منه شتى. فأي (صنف) منه كان حب (همام لسارة) في قصة العقاد؟

إنه حب الرجل الفنان الناضج ذي الطبيعة الممتازة، للمرأة الممتازة في نفسها وجسمها وطبيعتها

وإذا قلنا (الرجل) فقد عنينا الصحة والسلامة في هذا الحب؛ وعلمنا أنه قائم على أسسه الطبيعية الخالدة، التي رسمتها الطبيعة للحياة يوم خلقتها، ومهدت لها وسائل الدوام والخلود

وإذ قلنا (الفنان) فقد عنينا الإشراق والجمال في هذا الحب وعلمنا أنه متطلع إلى غاية من غايات الحياة الكبرى، وأمل من آمالها المذخورة لكل قلبين تلمح فيهما فسحة التطلع والرجاء

وإذا قلنا (الناضج) فقد عنينا الفهم والمعرفة في هذا الحب، وعلمنا أنه يعلم منشأه وغايته، ويعرف ما يأخذ وما يدع، ويحسن الانتفاع بكل قوة مذخورة فيه في أقصر مدى، وبأيسر المجهود

وإذا قلنا (الطبيعة الممتازة) فقد عنينا الامتياز في نوع هذا الحب، وعرفنا أنه ليس حب كل يوم وكل ساعة، ولكنه المثال الذي تبدعه الطبيعة بعد مجهود لتقيس عليه وتبرز خصائصه ويهمها من أمره ما لا يهمها من آلاف الأنواع الرخيصة المألوفة

فإذا تقابلت هذه المميزات مع امرأة (خاصة) في طبيعتها، فقد تم لهذا الحب كل عناصر الامتياز والتفرد، وكان جديراً بعرضه في سجل الحياة الممتاز، الذي لا يحوي إلا بضع صور منتقاة في عمر الحياة الطويل

وهكذا كانت (سارة) بقلم العقاد

وحين نريد أن نقوم بالشرح الفني لقصة (سارة) نحتاج إلى مؤلف في حجمها عشر مرات، كما تخفف الشراب المركز بإضافة أضعاف حجمه إليه من الماء ليصبح في متناول الجميع، شراباً تهضمه المعدات. وإذا كان هذا ليس مستطاعاً فإننا سنحاول استعراض شيء من نواحي الامتياز في القصة، بقدر المستطاع

يبدو في بطل القصة، الالتفات إلى كل ذرة في نفس حبيبته، وكل لحظة من لحظات حبه، وكل مظهر وكل لفتة وحركة في الواقع أو الخيال، ومن شأن هذا الالتفات أن يضاعف الشعور بالحب، وأن يجعل منه عالما كاملا يموج بشتى الأطياف، وشتى (الحيوات) ويخلق من هذه المرأة الواحدة، عشرات (المرآت) الخواص الممتازات.

وليس الرجل الذي يحب المرأة حباً مبهماً، مندفعا في تيار الغريزة أو تيار الخيال الجامح، كالرجل يحبها وهو متيقظ لكل ما يحب فيها وكل ما يجتنب، وكل ما يرجى فيها وكل ما يخاف. وهو متنبه لخوالجها وحركاتها، متحفز لتلقي معانيها وإشاراتها، ملاحظ لأدق خصائصها، وأدق خصائص نفسه معها؛ فكل هذا معمق للحب، مضاعف لما فيه من لذة واستمتاع.

وإنه ليبلغ في ذلك ألا تفوته منها دلالة الملابس التي ترتديها، ودلالة الزينة التي تبدو فيها، وإنه ليتعمق في دراسة طبيعة جسمها والزمن الكافي لشفاء جروحها، ويجري كل هذه الملاحظات حيث تجري في تيار حبه، ومتعته بهذا الحب، في كل لحظة وكل حالة!

والقصة مليئة بمثل هذه الالتفاتات نختار واحدة منها:

وسارة كانت من ذوات الملامح والوجوه اللواتي لا يطالعنك بمنظر واحد في) محضرين متواليين: تراها مرة فأنت مع طفلة لاهية، تفتح عينيها البريئتين في دهشة الطفولة وسذاجة الفطرة بغير كلفة ولا رياء؛ وتراها بعد حين - وقد تراها في يومها - فأنت مع عجوز ماكرة أفنت حياتها في مراس كيد النساء ودهاء الرجال. وتضحك ضحكة فتعرض لك وجها لا يصلح لغير الشهوات، وضحكة أخرى - وقد تكون على أثر الأولى - فذاك عقل يضحك ولب يسخر، كما تسخر عقول الفلاسفة وألباب الشيوخ

المحنكين.
هي تارة أم رؤوم تفيض بحنان الأمهات حتى ليوشك أن تسع به أطفال العالمين.)
وحسبك أن ترسمها هكذا ولا تضع في أحضانها طفلا يرضع ولا إلى جانبها طفلا يدرج، لتستحق الصورة عنوان الأمومة
وهي تارة أخرى شريدة بوهيمية لم تستقر قط في دار ولا وطن، وما استقرت قط) مع عشيق
لها صورة إلى جانب سرير، لو نحيت عنها السرير جانباً لمثلت لك راهبة خاشعة تهم) بالصلاة، أو ضحية من ضحايا الآلهة تساق إلى محراب القربان
ولها صورة على سفح الهرم لو أخفيت منها الهرم لخلتها حورية مخمورة في أرض) يونان القديمة تهم بالرقص في كروم باخوس.
وكان همام يراقب هذه الشخوص ويتصفح هذه الوجوه وهو مغتبط تارة، ومشفق تارة) ويعزو تقلبها واطرادها إلى الفتوة الحية التي لم تحبس في محابس الأفكار (أخرى والعادات والتقاليد، فهي أبداً في أيدي العواطف والنوازع، كعجينة الخلق المهيأة (للصوغ والتركيب في كل ساعة
ونقول نحن بعد قول العقاد: (وكان همام يتمتع بكل هذه الشخوص في حب واحد، كما قالت سارة له في فكاهة بارعة صادقة: احمد ربك. عندك من سارة المظلومة حريم كامل، فلا
(تشكر نفسك كثيراً على الوفاء
وصحيح أن سارة صاحبة الفضل لأنها صاحبة هذه الشخوص، ولكن (هماما) صاحب الفضل الأول في الفطنة لها، والاستمتاع بها. أو قل: هو العقاد صاحب الفضل ومنشئ سارة وهمام!
ويكمل هذا ذلك الحوار البارع الطريف، الذي عقده العقاد، بين شخوص سارة المختلفات ما بين صفحة (116) وصفحة (119) من الكتاب
ويلفت النظر في هذه القصة، ذلك المزيج الغريب بين متعة الروح ومتعة الجسد، بحيث لا تفترقان ولا تتميزان، فأنت تجد (هماماً) يحب في (سارة) روحها وعقلها وجسمها، ولكن هذه كلها مزاج واحد، وقد ارتفع بلذة الحس فيها إلى الروحانية الصافية، ولكنها ليست روحانية الخيال الغرير، بل روحانية البحر الذي يطهر كل ما فيه ويجلوه ويحيه
وإنك لتقرأ رسالة همام إليها فتدرك منها كل شيء. وإليك بعضها وهو يحاول استنقاذها من السقوط الجسدي الرخيص
اذكري نوبات الحيرة وتبكيت الضمير التي كانت تساورك حين تحضرين إلي، واذكري) كيف كنا نفترق وقد هدأت نفسك بعض الهدوء واسترح ضميرك بعض الراحة. . . كان اهتمامي بك حتى بالغضب عليك يفرج شيئاً من الضيق الذي يسد عليك منافذ الأمل لأنه يعطيك فكرة عالية في نفسك، فيعزيك ويقويك ويرفع عنك ذلك الصغار الذي يسمم كل شعور وينغص كل نعيم
اذكري كيف كان وجهك يشرق بالبشاشة من عهد قريب، وكيف ظهر ذلك على) صحتك وملامحك، فسألتني في يوم من الأيام بين الجد والمزاح: أصحيح: أصحيح أن وجهي يمتلئ ويحلو؟ كان ذلك وأنت تشعرين إلى جانبك بنفس إنسانية تحنو عليك وتفكر فيك، وتجتهد في عذرك ما استطاعت، وترعاك في الغيبة والحضور. وهذا أحوج ما تحتاج إليه المرأة خاصة في هذه الحياة
فكل امرأة - بلا استثناء - في وسعها أن تجد رجلاً يأخذها جسداً، ويطرحها سائماً بعد) حين، بلا أسف ولا شكر ولا احترام
ولكن ليست كل امرأة واجدة تلك النفس العطوف التي تفهم الدنيا وتفهمها، وتحب) لها
الخير لغير غاية، وتهتم بها وحدها بين جميع الناس وتراها أهلاً للرضى والغضب والشكر (والملام
وأنت خليق أن تدرك أكثر مما تشير إليه هذه الرسالة متى علمت أن (سارة) أو شبيهتها في موقفها هي المعنية بهذه الأبيات:
تريدين أن أرضى بك اليوم للهوى ... وأرتاد فيك اللهو بعد التعبد

وألقاك جسماً مستباحاً وطالما ... لقيتك جم الخوف جم التردد
رويدك إني لا أراك مليئة ... بلذة جثمان ولا طبيب مشهد
جمالك سم في الضلوع وعثرة ... ترد مهاد الصفو غير ممهد
إذا لم يكن بد من الحان والطلا ... ففي غير بيت كان بالأمس مسجدي
فتدهش حين ترى المتاع الحسي بامرأة، لا يخلع عنها روعة المسجد، ولا يجعل صاحبها يرتاد فيها اللهو بين الحان والطلا، بعد التعبد والتردد
وما من شك أن هذا إحساس فريد جدير بالتسجيل والبروز لأنه من النماذج التي لا تجود بها الطبيعة إلا وهي شحيحة ضنينة، وما تختص بها إلا نفس فنان عظيم، تتطهر فيها الأرجاس وتشرق وتشع المواد المتكتلة، فإذا هي أشعة وظلال
ومن الأحاسيس الفريدة في (سارة) موقف (همام) مع حبيبته يوم جاءت تعترف له بأنها خانته فعلاً، فلم يجد في هذا الاعتراف ما يستوجب قطع صلاته بها، لأنه كان يحس أن هناك ذخيرة موفورة له في نفسها، وفيضاً غزيراً لها في نفسه. وهو يقول في هذا:
(لم يشعر ذلك اليوم وهو ينتظرها بخداع ولا استغفال ولا احتقار. ولكنه شعر بخسارة وأسف، وانتظرها كما ينتظر الطبيب مريضاً يلجأ إليه، واستقبلها عاطفاً عليها متطلعاً إلى ما وراء حديثها، مستعداً للتسامح في الإصغاء إليها)
وبينما يتلقى اعترافها هذا بالقبول، ويستأنف بعد صلاته بها، وإذا به يقاطعها بعد ذلك لمجرد الوسواس والظنون، لماذا؟ لأن الذخيرة النفسية بينهما قد نضبت، فلم يكونا في حاجة بعد ذلك إلى دليل حاسم، ولا اعتراف مكشوف
وهو يصف الفرق بين الحالتين، ذلك الوصف الفريد:
(في تلك الأيام كانت كل هنيهة لها شعورها المحبوب المتجدد البهيج. إذا انفتح الباب للقاء،
فذلك شعور القائد الذي يفتح باب حصنه، ليلتقي نجدة الأمان والاطمئنان إلى زمن طويل، وليطرد المخاوف من وراء ذلك الباب إلى مهرب سحيق؛ وإذا انفتح الباب للوداع، فذلك شعور الشارب الذي استوفى نصيبه من العقار، وبقي له نصيبه من النشوة والتذكار، ونصيبه من الشوق في الغد إلى مثل هذا اللقاء، ومثل هذا الوداع، ومثل هذا الانتظار؛ وبين لقاء كل يوم ووداعه ألف لقاء وألف انتقال من حال إلى حال، وألف سكينة وألف ابتدار
(تلك أيام!)
(ثم جاءت بعدها أيام)
(وشتان أيام وأيام)
(نعم شتان حقيقة وتمثيل. . . وأي تمثيل؟! تمثيل اللاعب الذي يساق إلى دوره سوقاً لأنه يخشى الفشل، لا لأنه يأمل النجاح
(واستمرت المواعيد، واستمر اللقاء، واستمرت السآمة واستمر الشقاق، واستمرت مع كل ذلك محاولات عقيمة مستميتة أن يعود ما لا سبيل إلى أن يعود
(وكانت هي تقلد نفسها في أيام الصفاء، فتمد يدها إلى جيبه بعد عاصفة من اللوم الجارح، والملاحاة الموجعة، كما كانت تمد يدها إلى جيبه بعد ساعات الرضا والدلال، لتخرج منه المفكرة المعهودة، وتكتب فيها أسطراً أو كلمات تسجل بها ما كان في ذلك اليوم، فكتبت يوماً بعد مقابلة لم يسمع فيها إلا جدال ومحال، أو سكوت هو أثقل من الجدال والمحال: (نزهة رسمية في عربة، ثم مناقشة جدية، ثم مصافحة وتقبيل، ولا عجب في ذلك. . . فإن الحب يسهر!)
(نعم يسهر من الأرق لا من العناية!)
(وسهر الحب إلى اليوم التالي فالتقيا وتراضيا، وتناولت هي المفكرة وكتبت فيها خمس كلمات: (سامحت من غير سبب. أحبك)
(ولكنها كانت آخر ما كتبت في مفكرة ذلك العام. وفيما بعده من أعوام
بهذا التصوير البارع يسجل الفرق بين الحالتين: فليس بدعا أن يعفو في الأولى مع الاعتراف، وأن يجفو في الثانية لمجرد الشكوك
ولو كان - غير العقاد - واحد من السطحيين، أو الذهنيين لجعل القطيعة في الأولى أمرا مقضيا بعد الاعتراف، أو لجعل القطيعة في الثانية أبعد الاحتمالات!
أليس هذا هو منطق الذهن؟ قد يكون ذلك! ولكن للنفس وللفطرة الصادقة منطقا

آخر، هو الذي صوره العقاد في نفس (همام)
وهذا ما نعنيه بأدب الطبع، وما نعنيه بفسحة النفس، وما نعنيه بامتياز الإحساس
وبعد ففي (سارة) حديث آخر، وفي غزل العقاد حديث أبقيهما إلى الأسبوع القادم.
فإلى اللقاء
الإسكندرية
سيد قطب
حول أدب الرافعي
بين القديم والجديد
للأستاذ محمد أحمد الغمراوي
- 3 -
لو كان الرافعي حياً وعدا عليه عاد في نفسه وأدبه كما عدا سيد قطب ما تحرك بالدفاع قلم غير قلم الرافعي. وما أظن سيد قطب كان يتحرك إذ ذاك بثلب للرافعي أو تنقص لأدبه. أما وقد مات الرافعي فقد ظن سيد قطب أنه يستطيع أن يعدو على الرافعي ويسخر من أدبه باسم النقد، وهو آمن أن يوقعه ذلك في ورطة مهلكة كالتي كان يقع فيها لو أنه تناول أدب الرافعي في حياته، بمثل القلم الذي تناوله بعد مماته، لكن الأدب الكبير الحق، ككل شيء حق كبير في الحياة، يدفع عن نفسه بنفسه عدوان العادين حتى بعد موت صاحبه. ودفاع الحق عن نفسه له مظهران: مظهر إيجابي تقف فيه عناصر الصواب والصدق والخير تجادل عن نفسها عند كل ذي عقل وقلب، وتجعل منه حكماً يحكم لصاحبها ولو بين نفسه ونفسه؛ ومظهر سلبي لعله أعجب المظهرين وأخصهما بطبيعة الحق، يتجلى في تورط مخاصم الحق في أغلاط ومزالق ومهاو يتردى فيها من حيث يحذر ومن حيث لا يحذر، فيكون مخاصم الحق بذلك هو نفسه الذي ينتقم للحق من نفسه بما يكشف من عوارها ويبدي من مقاتلها
والأغلاط التي تورط فيها سيد قطب بالعدوان على الرافعي في نفسه وأدبه كثيرة لم يكن ما بيناه في المقال السابق إلا لأقلها. ويؤذن النقدً بها في أول ما يطالع من تلك الكلمات تطرف صاحبها البالغ في الرأي. والتطرف هو دائماً دليل الهوى وفقدان الاتزان في الحكم إن أغتفر للعامة فلا يعذر فيه الخاصة. فالعقاد عند الكاتب أديب الطبع القوي والقلب، ولا طبع ولا قلب للرافعي. والعقاد عنده لا يليق به لقب أمير الشعراء لأن المسافة بينه وبين شعراء عصره أكبر من المسافة بين الأمراء والسوقة؛ ومعنى هذا أن الرافعي الشاعر لا يبلغ أن يكون في السوقة حين يكون العقاد في الأمراء
ويزداد شطط الكاتب كلما تقدم به الشوط. فالعقاد يكتب عن عقيدة في الأدب والرافعي
يكتب عن غير عقيدة. والعقاد يخلق حتى المبادئ الخلقية، والرافعي لا يستطيع أن يخلق شيئاً. ونحن نظن أن الرافعي رحمه الله لم يكن يسره أن تبلغ به المقدرة حد خلق المبادئ الخلقية، لكن كان يسره من غير شك أن يكون له على خلق غير المبادئ الخلقية شيء من المقدرة
والعقاد بعد ذلك هو أديب الذهن المشرق (مقال 6) والطبيعة الممتازة والنفس الرحبة والمواهب التي تنتفع بالثقافة وتعلو على حدود الثقافات! أما الرافعي فهو أديب الذهن المريض الخابي المغلق غير ذي النفس ولا الثقافة. ثم العقاد فوق ذلك وقبل ذلك هو الكاتب الجبار الذي بقي (وتضعضع خصومه ووراءهم قوة العدد وقوة الحكم وقوة المال وقوة الماضي الوطني وكل قوة مأمولة في الوجود)! أما الرافعي فهو أحد خصوم العقاد الذين لم يغن عنهم حيال جبورته التجاؤهم إلى الدين وهو أقوى أثراً من السياسة وأكثر اتباعاً، فكانوا رغم استعانتهم بالدين في محاربة العقاد من المغلوبين. فصاحبنا كما ترى لا يتشكك في أن العقاد هو هزم الوفد وهو هزم غير الوفد ممن استعان في خصومته بسلطان السياسة أو الدين. وتقوم غاشية الهوى دون عقل صاحبنا فلا يبصر العوامل المتعددة القوية التي كان مجموعها أقوى من سلطان الوفد فانهزم، ولا يذكر أن المعركة التي انهزم الوفد فيها كان أمضى سلاحها سلاحاً دينياً، وكان من أكثر الناس استعمالا له حين جد الجد العقاد
إلى هذا الحد من الإسراف والغفلة بلغ بصاحبنا هواه. وجدير لمن يتصدى للحكم بين

اثنين هذا مبلغ إسرافه فيهما على نفسه أن يغفل حسنات أحدهما ولا يبصر سيئات الآخر، وأن يخرج النقد من قلمه شيئاً آخر أو أقل خلقاً آخر ينكره الحق ولا ينكره الباطل لغلبة الهوى عليه وقلة أثر العقل فيه

لكن صاحبنا لا يعجبه أن ينبه منبه إلى ما في إسرافه ذلك من خطر عليه هو: على نزاهة حكمه وحرية رأيه واستقلال فكره وحيوية نفسه وسلامة طبعه، فيرد على من نبهه رد المغيظ المحنق رامياً إياه بتكلف التورع والتنطس تارة، وبعدم التفريق بين الكيف والكم ولا بين الصدق و (النخع) تارة أخرى، زاعماً أنه فيما قال إنما يتبع البرهان والدليل! وإلى الخطر الذي يحيط ببرهانه هذا ودليله أريد تنبيهه، فلم يزد على أن جاء بدليل آخر على إسرافه في التشيع حين لم يتنبه إلى احتمال وقوع الخلل في رأيه ،ومنطقة من جراء غلوه

وحين زعم زعم لنفسه وللناس أن رأيه ذلك إنما بناه على البرهان والدليل

إن الناقد الحق كالقاضي العدل، من أظهر صفاته وأوضح إماراته أن يطبق قانونه تطبيقاً واحداً على المتخاصمين. قد يكون للقانون الذي يطبقه القاضي معيباً في ذاته، لكن القاضي لا يسأل في العادة عن ذلك وإنما يسأل عن التطبيق. وقد يخطئ القاضي في التطبيق لكنه على أي حال يجب ألا يخطئ الروح روح الإنصاف والتسوية بين الناس عند تطبيق القانون. والناقد كالقاضي في هذا الشرط شرط وجوب التزام روح الإنصاف والتسوية بين الخصوم عند تطبيق معايير النقد، إلا أن الناقد له على القاضي مزية التمتع بقسط غير قليل من الحرية في اختيار معاييره ومقاييسه في حين أن القاضي لا يملك شيئاً من الحرية في اختيار القانون الذي يحكم به بين الناس. فالناقد والقاضي متساويان في تبعة الروح الذي به يطبقان ما بيدهما من أصول وقواعد، لكن تبعة اختيار هذه الأصول والقواعد إذا أعفي منها القاضي فلا يمكن أن يعفي منها الناقد كل الإعفاء، بل ولا بعض الإعفاء عند التحقيق

والقواعد التي جرى عليها الكاتب في المفاضلة بين الرافعي والعقاد وفي محاجة المنتصرين للرافعي ممكن استنباطها في سهولة من تضاعيف كلامه، لكنا لا نريد الآن أن نحاسبه على قواعده ومعاييره ومبلغها من الصحة والدقة، ولكن نحاسبه الآن على الحد الأدنى من تبعة الناقد وهو القدر المشترك بين الناقد والقاضي من تبعة التسوية بين الخصوم في تطبيق الأصول والقواعد مهما تكن تلك القواعد والأصول

لكنا لا نكاد نشرع في قياس كفايته في النقد ونزاهته في الحكم بهذا الحد الأدنى الضروري حتى يتضاءل وينزوي عنه سجل النقاد كما يتضاءل القاضي وينزوي إذا حاكم الخصمين في المسألة الواحدة إلى غير قاعدة أو مادة واحدة وغلب ذلك عليه في قضائه بين الخصوم

فناقدنا لم يقترف في نقده جرماً أقل من كيله بمكيالين وتفكيره بمنطقين في حكومته بين الطرفين في الموضوع الواحد والنقطة الواحدة، فله ولصاحبه منطق ومكيال، ولخصومها في نفس الموقف ونفس الموضوع منطق آخر ومكيال آخر. والقاعدة في ذلك - على ما يظهر - أن يكون الحكم دائماً لمن يحب على من يبغض. وإليك من ذلك أمثلة في غير إطالة ولا استقصاء

يرى الكاتب أن العريان أساء تقدير العقاد لأنه لم يختلط بالعقاد أولاً ولم تنفتح نفسه لأدب

العقاد فيفهمه ثانياً. والكاتب يقر بأنه لم يختلط بالرافعي وبأنه يكره أدبه ولا يخطر بباله مع ذلك أنه أساء تقدير الرافعي لنفس السبب الذي من أجله رأى أن العريان أساء تقدير العقاد

ويرى الكاتب أنه ينبغي في تحديد معنى السب والشتم أن يطبق علم النفس وعلم الأخلاق على العالم الأدبي فلا ينظر إلى الألفاظ ولكن إلى أسبابها وملابساتها. ولا يلتمس للرافعي عذراً من هذا الباب الذي فتحه لالتماس العذر للعقاد

ويعذر العقاد في قسوته على الرافعي لأنه يصور على الأقل ما يعتقد هو أنه حقيقة، ولا يعذر الرافعي بمثل هذا العذر في قسوته على العقاد

ويعتذر عن العقاد فيما أتى إلى مخلوف باعتقاد العقاد عظم الفرق بين نفسه وبين مخلوف، وحنقه أن يجترئ مثل مخلوف على نقده. وقطب نفسه مستعد للثورة والحنق إذا تناول أدبه متناول بمثل ضيق الفهم واستغلاق الشعور اللذين تناول بهما

مخلوف أدب العقاد. أي يعتذر عن نفسه وصاحبه في غضبهما لأدبهما بحسن رأيهما في نفسهما وسوئه في غيرهما، وهو باب من العذر يسع كل الناس لكنه لا يتسع للرافعي ومن معه وإن كان الرافعي أجدر أن يثور لإنكار العقاد إعجاز القرآن كما حكاه العريان

ويعتب على العريان في صدد ما كتب عن تلقيب العقاد بأمير الشعراء أنه سمح لصداقته للرافعي أن تعدو على التقدير الصحيح للعقاد، ولا يعتب على نفسه هو أن سمح لصداقته أو محبته للعقاد أن تعدو على التقدير الصحيح للرافعي. وبعبارة أخصر، يتهم العريان في تقديره العقاد لصداقته للرافعي، ولا يتهم نفسه في تقديره الرافعي مع ما يعلم من بغضه الرافعي ومحبته العقاد

ويعيب على الرافعي إتيانه في شعره بالمعاني المألوفة المأنوسة التي سبق إليها الشعراء مثل:

إن يقض دين ذوي الهوى ... فأنا الذي بقيت ديونه

ومثل:

تضني المحب كأنما أجفانها ... ألقت عليه فتورها وملالها

يرى ذلك من ناحيته تقليداً من الرافعي لشعراء الدول المتتابعة والمماليك في مصر وشعراء

أواخر العهد العباسي! ويراها من ناحية أخرى معاني مطروقة (يباع كل عشرة منها بقرش في هذه الأيام). حتى إذا قال الرافعي:

يا من على الحب ينسانا ونذكره ... لسوف تذكرنا يوماً وننساكا

وهو كما ترى معنى على أفواه الناس سبق إليه القصص القديم ولابد أن يكون سبق إليه كثيرون من شعراء الدول المتتابعة أو شعراء غير الدول المتتابعة - حتى إذا قال الرافعي هذا لم يعبه عليه ولم يتنقصه من هذه الناحية! وهل تدري لماذا؟ لأنه يعتقد أن الرافعي أخذ البيت عن العقاد

ويعيب على محمود شاكر توسعه في تبيين مذهب المقتدرين من شعراء العربية في العصور المختلفة في الغرض الذي كان بصدده، يعد ذلك منه جرياً (على النسق الخالي من كتب النقد لقدامة وأبي هلال العسكري ومن ينقلان عنهما من تتبع المعنى تتبعاً زمنياً، وحسبان كل شاعر متأخر أخذ هذا المعنى عن شاعر متقدم. . .) وهو مذهب يظن الكاتب به (القصور والجمود) ومع ذلك فظنه هذا لم يمنعه من حسبان الرافعي قد أخذ بيته المذكور آنفاً عن العقاد كما رأيت. ولعل عذره في ذلك أن الرافعي والعقاد كانا متعاصرين حين قيل ذلك البيت فلا سابق منهما ظاهراً في الزمن ولا مسبوق ثم يرى ناقدنا أن (الحكم على النيات عمل عسير لا يصح الاستخفاف به) إذا كان الأمر متصلاً بالعقاد ونية طه حسين في تلقيبه إياه بأمير الشعراء، أما إذا كان الأمر متصلاً بنية الرافعي في خصومته للعقاد فعندئذ يزول العسر ويجوز الاستخفاف وتتدخل نظرية فرويد والتحليل النفسي في الموضوع فتجعل كوامن الإنسان تظهر من فلتات اللسان، وتكشف قلم الرافعي في رسائل الأحزان عن الرافعي في أعماقه، وتنبئ ناقدنا ذا التعليل والتحليل أن (أهم أسباب الحقد في نظر الرافعي وأظهر دوافعه) هو (فوقان؟ إنسان على إنسان في النتاج الأدبي) وتجعله يصيح: (وهكذا كان الرافعي مع العقاد)!

هذه ثمانية مواقف في الخصومة القائمة حول أدب الرافعي والتي أثار غبارها سيد قطب وجعل نفسه فيها ناقداً وحكما ليس لأحد الطرفين في موقف منها كلام إلا ويصح أن يقوله الطرف الآخر، ولا يمكن أن يستند في الحكم لأحدهما على مبدأ أو أصل أو قاعدة إلا ويمكن الاستناد على نفس هذا المبدأ أو الأصل أو القاعدة في الحكم للآخر لما بين الطرفين

في كل موقف من تمام التشابه. لكن صاحبنا واسع الحيلة في النقد، يستطيع أن يفرق بين المتشابهات في الخصومة وأن يطبق المبادئ والأصول والقواعد بحيث تأتي الأحكام كما يريد، فيخرج أحد الخصمين دائماً ظافراً والآخر خاسراً وليس بيد أحدهما من الحجة ما ليس بيد الآخر إلا أن الظافر محبوب والخاسر مكروه لدى ناقدنا المجدد الذي لا يعجبه في النقد مذاهب القدماء

ترى كيف أمكن لهذا الناقد أن يخطئ في تطبيق مبادئه هذا الخطأ ويفرق بين الخصمين في المواقف المتشابهة هذا التفريق إن لم تكن عاطفته قد جمحت به

وجعلته يجنح عن صراط النقد السوي والتفكير الحر المتزن ذلك الجنوح الكبير؟ إننا قد بدأنا نشفق على هذا الناقد الناشئ من هول ما جنى على نفسه بتسخيره عقله لهواه في أمر كبير كالذي تصدى له. ولو علمنا أن هذا القدر يكفيه ليفئ إلى أمر الله لوقفنا عند هذا الحد رفقا به وإبقاء عليه فإن فيه عناصر ذات قوة لا يحول بينها وبين النفع والخير إلا أنها تحاول أن تشق لنفسها مجرى غريبا آخر تضيع به حتما بدلا من أن تنضم إلى النهر نهر العربية الكريم الواسع الذي أجراه الله لها بالقرآن.

إن هناك في تاريخ العربية، جداول ضلت الطريق إلى هذا النهر فضاع ضعيفها وكوّن قويها مناقع الأدب العربي ومآسنه ودمنه الخضراء الوخيمة. وأدب الرافعي رحمة الله عليه لم يخطئ منه مجرى هذا النهر القرآني إلا القليل، وإلى هذا القليل نبه الأستاذ العريان فيما أرخ للرافعي وإنْ بأسلوب آخر. وعيب الأديب قطب أنه لم يعرف هذا القليل ولا ذلك الكثير على وجهه، ويحاول أن يتوصل بكل سبيل إلى هدم الرافعي الشاعر الكاتب المجاهد في سبيل الله والعربية والقرآن؛ لكن الذي يحاول هدم الحق ينهدم به وإن تحفظ، ونحن نشفق على أخينا سيد قطب من عاقبة معاداة الحق ومجافاة طريق القرآن. فهل له في أن يفئ إلى الحق وإلى أمر الله؟ إننا نكون أول المغتبطين له وبه إن فعل ونستغفر الله إليه مما يسوءه في هذه الكلمات

(بور سعيد)

محمد أحمد الغمراوي

من كتاب البحث عن الغد

لروم لاندو

للأستاذ علي حيدر الركابي

(أحببت أن أعقب على بحث الأستاذ العقاد بترجمة بعض المقاطع التي تناول فيها المؤلف لبنان وسورية والعراق وفلسطين وشرقي الأردن لما تضمنته من تحليل دقيق وآراء صريحة ومعلومات قيمة)

1 - الجمهورية اللبنانية

لبنان

إن الصلة بين لبنان (هو قطر يسود فيه النصارى) وفرنسا قديمة ترجع إلى عهد الحروب الصليبية ولكنها ازدادت توثقاً سنة 1860 عندما تدخلت الدول الغربية وأجبرت الحكومة العثمانية على منح لبنان شيئاً من الاستقلال المحلي. ومنذ ذلك العهد توسعت المصالح الفرنسية في البلاد وتهيأت نفسية الشعب للحكم الفرنسي بفضل المدارس الفرنسية والكلية اليسوعية في بيروت والرهبان اللبنانيين الذين تلقوا علومهم في فرنسا والكهنة اليسوعيين الفرنسيين. ومع أن دمشق هي عاصمة سوريا الحقيقية إلا أن المندوب السامي يقيم دائماً في بيروت لأن لبنان بسواحله الممتدة يهم فرنسا أكثر من سوريا ذات الحدود الواسعة التي يصعب الدفاع عنها وذات الصحراء المترامية الأطراف

ومع أن فرنسا قد خلقت في سورية عدداً من الدويلات المستقلة كاللاذقية وجبل الدروز وسنجق الاسكندرونة إلا أن سورية ولبنان هما الدولتان الرئيسيتان من الناحيتين السياسية والقومية. وأهمية هاتين الجمهوريتين أعظم بكثير من حجمهما، فمساحتهما لا تزيد على (60. 000 م. م.) وسكانهما لا يزيدون على (3. 500. 000 نسمة). والفضل في هذه الأهمية عائد إلى الوضع الجغرافي والنهضة الفكرية والاتصال الدائم بالغرب. وقد اتحدت

كل هذه العوامل مع التنبيه القومي العظيم فجعلت للدولتين أهمية روحية في العالم العربي تكاد تضاهي أهمية مصر. وقد لعب السوريون دوراً رئيسياً في أكثر الثورات والحركات الفكرية والسياسية التي حدثت في الشرق الأدنى منذ عام 1919

يمتاز لبنان على سائر الأقطار العربية بأن الأحزاب السياسية المتناقضة فيه هي المسيطرة على سير الحوادث. والحزبان الرئيسيان هما: أولاً حزب الحكومة المستند بالدرجة الأولى على تأييد النصارى أكثر من غيرهم والذي يرمي إلى أتباع سياسة إفرنسية. وثانياً: الحزب الذي يعارض الأول كل المعارضة ويؤيده أكثر المسلمين وبعض النصارى. وهناك فئة ثالثة ذات رأي معتدل تسعى إلى الابتعاد عن المنازعات الطائفية،

أعضاؤها من اللبنانيين المتعلمين والأجانب الذين تمكنوا - بشكل من الأشكال - من أن يلعبوا دوراً هاماً في حياة البلاد
رئيس الجمهورية
لقد دعاني المسيو أميل اده رئيس جمهورية لبنان لتناول طعام الغداء في بيته، وبهذا أتاح لي الفرصة للوقوف على وجهة نظر الحكومة من مصدر عال
يقعُ مكتب المسيو إده الرسمي في السراي الصغيرة في ميدان بيروت الرئيسي، وهي دار الحكومة؛ أما بيته الخاص فهو في الطابق الثاني من عمارة حديثة ذات طوابق متعددة وعلى مدخلها ألواح تشير إلى وجود طبيب وأشخاص من مهن مختلفة بين سكانها. ومع ذلك فإن (الدركيّ) الواقف على الباب والعلم الفرنسي ذا الأرزة في زاويته المرفوع على السطح والعلم الآخر الصغير الموضوع في مكان بارز على السيارة الفخمة الواقفة خارج البناء، كلها دلائل على مكانة أحد سكان العمارة الرفيعة. أما البيت نفسه فهو كبير ومؤثث بفرش حديثة عادية وعلى جدرانه رسوم ليست حديثة تماماً.
إن المسيو اده نصراني لبناني، ولابد في لبنان من ذكر دين الشخص لمعرفة مكانته الرسمية. وقد استقبلني بصحبة زوجه وولدهما. أما منظره فيدل على ذكاء، وهو قصير القامة ويرتدي الملابس الضيقة وقد وضع في صدره شارة جوقة الشرف لجيون دُونير. وكانت كل كلمة أو حركة منه تدل على حيوية لم يسع صاحبها إلى كتمها أو ضبطها. ولو قيل لمن ينظر إليه إنه نائب في مجلس النواب الفرنسي عن مقاطعة في جنوبي فرنسا لما
تعجب من ذلك. وهو محام لعب دوراً خطيراً في السياسة اللبنانية منذ الحرب العظمى. وقد تدرج في النيابة إلى رياسة مجلس النواب، إلى عضوية مجلس الشيوخ، إلى رئاسة الوزارة حتى تبوأ أخيراً أعظم مقام رسمي في البلاد.
وكان طعام الغداء لذيذ جداً قدمه لنا خادمان يرتدي كل منهما سترة بيضاء وقفازاً أبيض من القطن. وكان الحديث مثيراً شأن كل حديثٍ يتبادل أثناء تناول الطعام في صحبة أشخاص فرنسيين مثقفين، وكان كرم المائدة أعظم ما يواجه الإنسان عادة في بيت مماثل في فرنسا، ولكني مع ذلك كنت أشعر كل الوقت بأني بين جماعة من الفرنسيين حتى أن مظهر زوج الرئيس الجذابة (هي مصرية المولد) وابنته الجميلة وابنه الشاب (الذي يمتهن المحاماة وينظر إلى نفسه والحياة عامة نظرة جدية) كان فرنسياً إلى درجة شعرت معها بأني في باريس نفسها لا في وسط الأسرة الأولى في شعب يفتخر بأنه من نسل الفينيقين.
وبعد الغداء أخذني المسيو إده إلى غرفة صغيرة حيث جلسنا نتحدث، وقد سرني منه أنه كان يستمتع ببسط وجهة نظره أمامي بدرجة استمتاعي بسماعها. قال:
- إن الفكرة القومية هي الأساس الطبيعي الذي تبنى عليه حياة بلاد فتية، ومعنى هذه القومية في نظرنا هو استقلال لبنان التام باعتبار أنه يشكل وحدة جغرافية وسياسية، وتحالفه المؤبد مع فرنسا. إن بعض المسلمين يتكلمون عن الاتحاد مع سورية إلا أن هذا الاتحاد مخالف لجميع مصالحنا. إننا كنصارى نشكل أكثرية في لبنان، فإذا اتحدنا مع سورية ابتلعنا الأكثرية الإسلامية. وهناك أسباب أخرى تجعلنا معارضين لهذا الاتحاد:
(إن شعبنا - من جهة - يختلف اختلافاً كلياً عن الشعب السوري، إذ أن تقاليدهم غير تقاليدنا وطرز معيشتهم غير طرزنا. أنظر إلى بيروت، هل هي مدينة شرقية؟ إن دمشق شرقية تماماً، ولكن مدينتنا لا تختلف عن أية مدينة في جنوبي فرنسا. أنظر إلى بيوتنا وملابسنا وسياراتنا التي تكاد تبعدنا مئات الأميال عن دمشق. تذكر ليس فقط أن أولادنا قد تعلموا في جامعات أوربية بل أيضاً أن آباءنا قد تربوا تربية غربية، وأن الكثيرين منهم قد تثقفوا في الخارج. أما السوريون فهم ليسوا سوى عرب مسلمين ليس فيهم شيء غربي البتة.
(ثم لنبحث في الناحية الاقتصادية: إن السوريين متشوقون كثيراً إلى مشاركتنا في واردات
الكمارك مع أن أكثر هذه الواردات تستوفى من ضريبة مفروضة على بضائع نشتريها نحن لا هم، إذ أن احتياجاتنا أكثر من احتياجاتهم ووسائل الراحة التي نتطلبها أكثر من وسائلهم. نريد أن نكون أصدقائهم ولكن (وهنا أشار المسيو إده بيديه إشارة قوية تدل

(على التأكيد) يجب أن نعارض دائماً فكرة الاتحاد معهم
فقلت: (إذاً فإنكم تفضلون يا حضرة الرئيس التحالف مع فرنسا على التحالف مع سورية؟)
فأجاب: (إن هذا التحالف (أي مع فرنسا) هو نتيجة طبيعية للوضع الذي وجدنا أنفسنا فيه. فإن فرنسا قد ساعدتنا في الماضي وأكثرنا يتكلم لغتها. خذني مثالاً لذلك: إني فرنسي أكثر من أن أكون عربياً؛ وقد تربيت تربية نصرانية وجميع تصرفاتي مشابهة تماماً لتصرفات الفرنسيين). وقد شعرت برنة فخر في صوته عندما تفوه بهذه العبارة وسألته (ولكن ما الحكمة في تحالف أبدي مع فرنسا؟)
فأجاب (لأننا إذا لم تحمنا دولة أجنبية قوية ابتلعنا جيراننا. وأضيف إلى ذلك أننا نحمل رسالة مقدسة يجب تأديتها في الشرق الأدنى: ذلك لأننا الجزيرة النصرانية الوحيدة في بحر من البلاد الإسلامية)
- (إذاً فأنتم معارضون للوحدة العربية؟)
- إن الوحدة العربية هي ضد مصلحتنا. فإذا اعتنق هذه الفكرة بعض المسلمين عندنا (فإن كل النصارى يكرهونها)
- لقد أشرتم قبل لحظة إلى رسالتكم المسيحية مع أن النصرانية ليست دين الدولة (الرسمي في لبنان)
- كلا! فلعل جمهورية لبنان هي الدولة الوحيدة في الشرق الأدنى التي ليس لها دين رسمي. والسبب يعود إلى وجود عدد كبير من الطوائف الدينية عندنا. ومن سوء الحظ أن الدور الفعال الذي يلعبه دائماً رجال الدين التابعون إلى هذه الطوائف المختلفة قد تجاوز الحد وأصبح مضراً بمصلحة البلاد. ولما كانوا يخلطون بين الدين والسياسة فلا نريد أن نعقد الأمور بإدخال الدين رسمياً في المعمعة بشكل من الأشكال، إذ لو فعلنا ذلك لوقعنا في ورطة عظيمة ولضعنا بين الأكثرية المارونية والروم الأرثوذكس والروم الكاثوليك واللاتين والسنة والشيعة والدروز والأرمن والبروتستانت واليهود!) وهنا ظهرت على وجهه لأول مرة إمارات القلق الشديد وتوقف عن الحديث هنيهة ثم استرسل قائلاً:
- إن للطوائف المسيحية المختلفة نفوذاً سياسياً قوياً بفضل رجال الدين. ولو أردنا أن نحول دون نشاطهم السياسي لعجزنا عن ذلك؛ ولهذا رأينا المصلحة تقضي بترك هذه المسألة.
ومع ذلك فان تعيين جديد في الحكومة يسبب تذمراً لدى طائفة من الطوائف الدينية. آه لو كنا أحراراً - أحراراً نعمل كما يجب أن نعمل - أحراراً نعين الناس بالنظر إلى مؤهلاتهم لا بالنظر إلى أديانهم. . .)
- (لعل دكتاتوراً يستطيع تسهيل أمرا الحكم في لبنان؟) فرفع يديه وكأنه مشمئز وقال:
(أنا ضد كل دكتاتورية، أنا أؤيد الديمقراطية) وهنا توقف قليلا ثم عاد إلى الكلام بلهجة مختلفة:
(حبذا لو كان بإمكاننا تطبيق النظام الديمقراطي كما تعرفونه في إنكلترا حيث لم يفرض فرضاً غير طبيعي على شعب غير مهيأ له بل كان نتيجة طبيعية للتربية السياسية وفكرة راسخة عند المواطنين الإنكليز. آه ما أسعدكم في إنكلترا وأعظم بها من بلاد!)
وقد رافقت هذه الكلمات أنة شديدة دلت بجلاء على صدق عاطفته
(بغداد - دار المعلمين الريفية)
علي حيدر الركابي
حواء
ديوان شعر طريف في الغزل العرفاني يصدره الأستاذ . . .
الحوماني تحت هذا الاسم وستقدم الرسالة لقرائها نماذج منه
في أعدادها التالية ريثما ينتهي طبع الديوان
كيف أشقى؟؟
خَبِّريني كيف أَشقى وعلى ... فيكِ من روحيَ هذي البَسَماتُ؟
كيف أشقى، وعلى خديكِ من ... كبدي لونٌ، ومن لثمي شِياتُ؟
وعلى عينيكِ من لون الضحى ... حَوَرٌ تطفو عليه القُبَلات

أَوَ أَشقى، والهوى ملءُ فمي ... عَسَلاً تَنْهَلُ منه الوجناتُ؟؟
وبكفيَّ ثمارٌ أنضجتْ ... طَلَعَها مني شفاهٌ قَلِقات
ما السعاداتُ التي يَنشدها ... شاعرٌ حَصّتْ جناحَيْه الحياة؟
أَهيَ غيرُ الحبِ، ترعى روضَه ... من قوافيهِ مهاةٌ فمهاة؟؟
خفقتْ روحُكِ في آفاقهِ ... فبدا صبحٌ وهبتْ نَسَماتُ
وطغت في الكون أمواج السنا ... فسرت روحٌ وخفت حركات
أنت لحني
سلِمتْ عيناكِ لي، إنهما ... كانتا رمزَ حياتي وخلودي
أَستشِفُّ الروحَ في ظلهما ... فأرى بينهما سرَّ وجودي
كلما اهتزَّ على سلكهما ... ناظري مارستُ فني من جديد
وتولَّتْ شفتي تدوينه ... بدمي فوْق شفاهٍ ونهود
وإذا الفن طغى خفَّتْ إلى ... رسمهِ بين عيون وخدود
كلما مرّت بها أنشودةٌ ... كنتِ من أبياتها بيتَ القصيد
كنتِ في مطلعها زهرَ فم ... وعلى مقطعها لفتة جِيد
أنتِ لحني كلما أنشدتُها ... وإذا لحنتُها كنتِ نشيدي
الحوماني
التاريخ في سير أبطاله
ابراهام لنكولن
هدية الأحراج إلى عالم المدنية
للأستاذ محمود الخفيف
يا شباب الوادي! خذوا معاني العظمة في نسقها الأعلى من
سيرة هذا العصامي العظيم. . . . . .
- 18 -
وكان ابراهام في الحادية والخمسين من سني عمره بينما كانت تتأهب البلاد لانتخاب رئيس جديد للولايات إذ كان عام ستين وثمانمائة وألف هو نهاية مدة الرئيس القائم؛ وكان انتخاب رئيس الولايات أهم الحوادث السياسية التي تشهدها البلاد، وإنه لأعظم خطر اليوم وأبعد في مصير البلاد أثراً؛ ذلك أن الانتخاب إنما يقوم هذه المرة على ما يشغل الناس في أمر العبيد وفي أمر الوحدة، لهذا كان ذلك العام نقطة يبدأ منها تاريخ البلاد عهد جديدا ويتدرج في مسلك جديد. . .
وكان الحزب الجمهوري وهو الذي ينتمي إليه ابراهام ويعد من أبرز رجاله، أقوى الأحزاب نفوذا وأعزها نفرا،، إذ كانت مبادئه أقرب من غيرها إلى قلوب الناس في الشمال فهو يعمل على أن يحول دون انتشار العبيد وهو يكره نظام الاستعباد ولكنه يرعى جانب الدستور في كل ما يقول أو يعمل
أما الحزب الديمقراطي فقد هان على الناس أمره بانقسامه وتنازع رجاله؛ ففريق من أهل الجنوب يكرهون اليوم دوجلاس لما كان منه أيام مجادلاته مع لنكولن. . . أو لم يصرح إن لكل ولاية الحق كل الحق أن تقضي على نظام العبيد فيها متى شاءت ذلك، فوقع بتصريحه هذا في حبائل خصمه؟ ثم إن فريقا من الديمقراطيين في الشمال قد كرهوا منه معارضته الرئيس بيو كانون في دستور كنساس حتى لقد فكر بعض الجمهوريين في ضمه إلى حزبهم! وإنه اليوم ليجني ثمار غرسه. وهل كان له أن يجني من الشوك العنب؟. . . لذلك
فشل الديمقراطيون حينما عقدوا مؤتمراً لهم ليجمعوا أمرهم على رجل يعدونه للرياسة وانفض مؤتمرهم وقلوبهم شتى.
وأخذ الجمهوريون يستعدون للمعركة القادمة فامتلأت صحفهم بفيض أقلامهم، وماجت كبريات البلاد في الشمال بمظاهر نشاطهم ومعالم استعدادهم.
ففي ربيع ذلك العام الفذ عقد الجمهوريون في ألينواس مقاطعة لنكولن، مؤتمراً لينظروا في نشر الدعوة له في الولايات ليحظى ابراهام بترشيح الحزب إياه في مؤتمره العام ليكون رجله في انتخاب الرياسة! وفي ذلك المؤتمر التمهيدي الذي عقد في مدينة ديكاتور اشتدت حماسة المؤتمرين لابراهام فما تهتف الألسن إلا به وما تحنو الجوارح إلا عليه؛ ولا يقتصر الأمر على المؤتمرين فهاهو ذا جمع حاشد من الناس

يهتف به في شوارع المدينة، وعلى رأس هذا الجمع ابن عم له كان يعمل معه في شق الأخشاب قبل ذلك بثلاثين سنة. . . أنظر إلى ابن عمه هذا يحمل العلم على قطعتين شوهاوين من الخشب، وهو ينبئ الناس في زهو أنهما من صنع أبراهام قطعتهما فأسه يوم كان يعمل في الغابة، فهو من الناس وللناس! ثم انظر إلى وجوه القوم كيف تتهلل بشراً، واستمع إلى ألسنتهم كيف تضيف إلى ألقاب ابراهام التي ألفوها لقباً جديداً، فهو أيب الأمين وهو أيب العجوز وهو أيب فالق الأشجار. . .

وانعقد في الصيف المؤتمر الجمهوري العام في شيكاغو، وتدارس المؤتمرون طويلاً ثم أعلنوا ما اتفقت عليهم كلمتهم من المبادئ، فلم تخرج عما أوضحه ابراهام في خطبه وأحاديثه، وقد احتشد في تلك المدينة عدد عظيم من أهلها ومن غير أهلها بلغ أربعين ألفا ليشهدوا هذا المؤتمر العظيم والتفت تلك الجموع حول مكان الاجتماع. . .

وجاء دور الانتخاب واجتمع ممثلو الولايات لاختيار رجل يمثل الحزب جميعا، وجرت في القاعة أسماء خمسة أشخاص يختار منهم واحد، من هؤلاء لنكولن من سبرنجفيلد وسيوارد من نيويورك. . . وكان سيوارد في نظر أهل الشمال الزعيم الحقيقي للحزب الجمهوري فهو رجل واسع الثقافة عظيم الخلق يحب بلاده ويكبرها وهو كابراهام يمقت نظام العبيد وقد ظل يحاربه زهاء ربع قرن في غير هوادة.

وظن الناس وشاع فيهم بادئ الأمر أن الأمر سيتم لسيوارد في هذا المؤتمر! وكذلك ظن سيوارد فلم يكن يحس منافسة ابراهام إياه؛ أما ابراهام فكان فؤاده يحدثه أن النصر له هذه المرة فهو يحس في أعماق نفسه دون أن يدري لما يحس سببا أنه عند الناس أرجح كفة من صاحبه وأن شبه لهم غير ذلك

ولكن القلق يساوره أحياناً وهو جالس في سبرنجفيلد في قاعة أحد أصدقائه من رجال الصحافة أثناء انعقاد المؤتمر فهو يقول لهذا الصديق (إني أعتقد يا صديقي أني سأعود ثانية إلى مكتب المحاماة وأعمل عملي في القانون. . .) ثم يعاوده الأمن برهة ويخالجه الشك برهة كما يحدث عادة في مثل هذه الأحوال حينما ينتظره المرء عاقبة أمر يهمه؛ وأي أمر هذا الذي كان يتوقع إبراهام عاقبته؟ إنه اليوم في مفرق الطرق من حياته، فإما إلى رسالته وإما إلى حرفته. . .

لقد طال به الانتظار حتى كاد أن يسأم، ولم يأته نبأ عن المؤتمر فلينصرف إلى القراءة حيناً، وإنه لكتاب شعر لبيرنز، هذا الذي يقلب صفحاته، ويقرأ كما يقرأ المرء في مثل تلك اللحظات بعينيه أكثر منه بعقله؛ ولكنه يدع الكتاب ليفكر وليتنازع فؤاده الشك واليقين. . .

والمؤتمر منصرف إلى عمله في شيكاغو يفتتح في رواية البلاد فصلاً جديداً سوف يترتب عليه كل ما يليه من فصول. . . والناس من حوله يموج بعضهم في بعض، وهم يتساءلون لمن يكون النصر؟ فيؤكد هذا بأن النصر لسيوارد في إشارة حازمة ولهجة جازمة، فيقبل عليه جماعة منهم فرحين؛ ويصيح ذاك: كلا بل النصر لفالق الأخشاب. فيتهافت عليه كثيرون. . .

وتعلن نتيجة الدفعة الأولى للولايات فإذا سيوارد يزيد على إبراهام بسبعين صوتاً وصوت، فيهتف أنصار سيوارد ويكتئب أصحاب ابراهام. . . وتعلن الدفعة الثانية فإذا ابراهام لم يبق بينه وبين سيوارد سوى ثلاثة أصوات. . . ويسود الصمت في جنبات المؤتمر وقد علقت الأنفاس وشخصت الأبصار وخفقت القلوب وتأهب رجال الصحافة لتلقي النبأ الأخير. وما هي إلا لحظة حتى يرتفع صوت باسم لنكولن، فهبت في المكان عاصفة هائلة من الهتاف والتصفيق تجاوبها خارجه عاصفة أشد منها قوة وأطول أمدا إذ يظل الناس يتعانقون ويتصايحون ويقذفون بقبعاتهم في الهواء ويتواثبون ويرقصون زهاء ربع الساعة كأنما مسهم طائف من الجنون. . .

وابراهام في غرفة صاحبه في سبرنجفيلد يوجس خيفة في نفسه طوراً، ويثق في النصر طوراً، وحوله جماعة من أنصاره ينتظرون كما ينتظر، وإنهم كذلك إذ يقبل شاب من مكتب البرق يحمل رسالة ويطفر بها كما يطفر العصفور من المرح ويقبل على ابراهام فيحمل إليه النبأ السار، ثم يهيب بالحاضرين أن يهتفوا ثلاث مرات لأيب الأمين رئيس الولايات المقبل. . .

ويقبل على ابراهام صحابته وفي مآقيهم دموع الفرح وعلى ألسنتهم ما لا يفي بالتعبير

عما في قلوبهم من معاني الابتهاج، وهو منشرح الصدر مثلج الفؤاد ولكنه واقف بينهم معقود اللسان لا يجد من الكلام ما يفصح عما في نفسه، وبعد برهة يقول لهم: (إن امرأة صغيرة قصيرة هنالك في بيتنا يسرها أن تعلم هذا النبأ. يقول ذلك ويمضي مسرعاً إلى ماري فيفضي إليها بأجمل وأبهج ما انفرجت عنه أمامها شفتاه. . .

ويأتي بعد ذلك وفد من قبل الحزب يعلن إليه رسمياً نتيجة الانتخاب فيلقاهم ابراهام في داره، فما يبرحونها إلا وقد ارتبطت قلوبهم بقلب ذلك الرجل العظيم. . . وهكذا يظفر ابراهام لنكولن فالق الأخشاب بتأييد أكبر حزب في البلاد. . . هكذا يظفر النجار ابن النجار فيصبح رجل الساعة ومناط الرجاء في قومه

ولبث ابراهام نحو أربعة أشهر في سبرنجفيلد حتى حان موعد الانتخاب للرياسة، لبث في المدينة هذه المدة فما عهد عليه أحد من أهلها أدنى تغير عما كان عليه، فهو في الناس فرد منهم وإن كان بسبيل أن يذهب عما قريب إلى البيت الأبيض. . . وهل كان مثله يتغير حتى بالذهاب إلى هذا البيت العتيد؟ وهل كانت عظمته إلا منبعثة من نفسه حتى يتكبر أو يظغي؟ إنما هو من الناس وللناس ولسوف يظل أول خادم لهم حتى تزهق روحه في سبيل مبدئه. . .

وظلت سبرنجفيلد أياما في ابتهاج ومرح وابراهام يلقى الوفود في داره خافضا لهم جناحه باذلاً لهم من وده وحبه أكثر مما يبذلون وهم معجبون برجلهم الذي استحق محبتهم وظفر بتأييد كبارهم وتعظيم صغارهم. . . يعجبون منه بكل شيء وخاصة ذلك التواضع الذي يبدو رائع الجلال باهر الجمال. . . لقد أحاطوا بداره ليلة مجيء الوفد وطلبوا إليه أن يخطبهم فأطل عليهم قائلاً (أي مواطني! توجد لحظات في حياة كل سياسي حينما يكون

خير ما يفعل أن يحتفظ بشفتيه مضمومتين؛ وإني أحسب أن مثل تلك اللحظات قد حانت الآن بالنسبة إلي)

ولما ضاقت بالوفود داره جعل لقاء الناس في قاعة من مقر الحكم للمدينة، ولا يرد عن مجلسه أحداً، ولا يأخذ الحيطة من أحد، فإذا سأله شخص عن أمر في السياسة ناقشه في هدوء أو أعطاه نسخة من مجموعة خطبه؛ وهو يذهب بنفسه إلى مكتب البريد فيحضر رسائله المتعددة التي تأتيه من كل فج فيفضها ويقرؤها ويرد على ما يتطلب الرد منها إما بيده أو بيد كاتب قد اتخذه له منذ قريب. . .

ولقد سخط الناس في الجنوب على اختيار رجال حزبه له؛ وأصابهم من ذلك كرب شديد وضيق، وراحت صحفهم تناله بفاحش الهجاء، فهو تارة الجمهوري الأسود، وآونة فالق الأخشاب الجاهل، وأحياناً الرجل الذي لا يحسن إلا النكات الخشنة المسفة، وطوراً الشبيه بالغوريلا؛ وهو يقابل ذلك كله بالصبر الجميل مترفعا ترفع الكرام عن جهل اللئام. . . ولم يحدث منذ تألف الاتحاد أن قامت العداوة والبغضاء بين أهل الجنوب وأهل الشمال مثلما قامت بينهم عقب اختيار الجمهوريين لنكولن

أما أنصاره فما فتئوا يثنون عليه في صحفهم وأحاديثهم ويدفعون عنه مكر أعدائه ويدحضون أباطيلهم؛ وضرب سيوارد للناس مثلا طيبا فكتب في إحدى صحف نيويورك يثني على ابراهام ويهنئ البلاد باختياره هذا ويتمنى له الفوز في المعركة الأخيرة. . .

وظل هو في سبرنجفيلد لا يتكلم عن نفسه ولا يأبه لما يتقول عليه أعداؤه؛ أما عن أنصاره فكان يرتاح إلى دفاعهم وإن كان ليتبرم بينه وبين نفسه بما يزجونه إليه من عبارات المديح والإطراء. وما فتئت الكتب تلقى إليه من أنحاء البلاد وهو يجيب عنها غير متخلف ولا مبطئ؛ ومن أجمل تلك الكتب وأغربها كتاب جاءه من بنت صغيره تستفهمه فيه عن أسرته وتطلب إليه أن يطلق لحيته. ولقد رد عليها بهذا الكتاب قال:

(أي فتاتي الصغيرة العزيزة: تلقيت كتابك الجدير جداً بالقبول، المؤرخ في 15 من أكتوبر عام 1860، وإني آسف أن أراني مضطراً إلى إخبارك أنه ليس لي ابنة. . . إن لي ثلاثة بنين عمر الأول سبعة عشر عاما والثاني تسعة والثالث سبعة، ومن هؤلاء، وأمهم معهم تتألف أسرتي كلها. . . أما عن إطلاق لحيتي، أفلا ترين، ولم تكن لي من قبل لحية، أني إذا أطلقتها الآن إنما آتي بذلك ما يعد ضربا من التكلف السخيف؟. . . هذا وإني لك الصديق الوفي المخلص. ا. لنكولن).

. . .

وهبت من الجنوب الشائعات بالنذر، فلقد ازدادت الدعوة إلى الانسحاب من الاتحاد،

وإلى إعلان التمرد والعصيان إذا قدر أن ينتخب لنكولن رئيسا للولايات؛ ونمى إليه فيما نمى من الأنباء أن أهل الجنوب يطاردون بالقوة كل من يدعو إلى تحرير العبيد في ولاياتهم. على أن أعظم ما أزعجه يومئذ ما أفضى به إليه قائد من القواد من أنهم في الجنوب يعدون معدات القتال!. . . لقد ارتاع ابراهام لذلك وأحس بميل شديد إلى معرفة كل شيء ولكنه يشعر، ولم ينتخب للرياسة بعد، أن ليس له حق فيما هو فيه من الاستطلاع فيطلب إلى ذلك القائد أن يتبين قبل أن يزده علما بما يجري فإذا لم يكن في الإفضاء بما يعلم خيانة فليفض به وهو يترك الحكم في ذلك له. . .

(يتبع)

الخفبف

الفروسية العربية

للميجر كلوب

ترجمة الأستاذ جميل قبعين

- 3 -

ومن أشهر الحكايات ما جاء في التوراة عن سيدنا إبراهيم الخليل (بينما هو جالس في باب الخيمة وقت حر النهار - رفع عينيه ونظر وإذا ثلاثة رجال واقفون لديه، فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة وسجد على الأرض وقال يا سيد إن كنت قد وجدت نعمة في عينيك فلا تتجاوز عبدك. خذوا قليل ماء واغسلوا أرجلكم واتكئوا تحت الشجرة، وخذوا كسرة خبز لأنكم قد مررتم على عبدكم. فقالوا هكذا نفعل كما تكلمت. فأسرع إبراهيم إلى الخيمة إلى سارة وقال أسرعي بثلاث كيلات دقيق سميد اعجني واصنعي خبز ملة ثم ركض إبراهيم إلى البقر ثم أخذ عجلاً رخصاً وجيداً وأعطاه إلى الغلام فأسرع ليعمله. ثم أخذ زبداً ولبناً والعجل الذي عمله ووضعها قدامهم وإذ كان واقفاً لديهم تحت الشجرة أكلوا) وأرجو أن ألفت نظركم إلى أن سيدنا إبراهيم عندما دعا هؤلاء الجماعة لم يكن يعرف من هم وقد طلب منهم أن يتناولوا شيئاً من الخبز والماء قائلاً (إن وجدت نعمة في أعينكم) وهذا دليل على أنهم يرفعون من شأنه بتناولهم الطعام عنده، ونراهم جلوساً بانتظار الخبز والماء ولكن نراه يقدم لهم عجلا وزبداً ولبناً بدل الذي دعاهم إليه. ثم يقف بين أيديهم لخدمتهم. فالبدوي يقدم آخر شاة عنده طعاماً لضيف غريب، وهذه هي عادتهم التي ساروا عليها من قرون طويلة. وأظن أن أخبار حاتم الطائي معروفة لديكم إذ أنه بعد أن ذبح جميع ما يملك من ماشية وإبل لإطعام الفقراء من قبيلته في سنة محل ذبح لهم فرسه وهي آخر ما يملك. ومن المتبع أن يقف عبيد الشيوخ على باب الخيمة منادين على الطعام. وقد لقب الناس ابن مهبد أحد شيوخ عنزة (بالمنادي على الطعام) لأن عبيده كانت تنادي الناس يومياً إلى الطعام في سنة قحط

إن العيب كل العيب في نظر البدوي أن تعطي طعاماً يكفي لضيوفك فقط، وحتى في رمضان عندما تكون القبيلة بأجمعها صائمة ترى أنهم ينحرون ثلاثة أو أربعة خراف لإطعام بضعة أشخاص مع علمهم بأن بقية الطعام ستذهب سدى. ولقد تعدى كرم البدوي الإنسان إلى الحيوان. ويروى أن عنترة نحر في يوم زفافه مئات الإبل ورماها في البراري لتشاركه الوحوش في فرحه. والبطل السوري مقري الوحوش كان يطلق في البرية كل ما يربحه من غزواته لأنه كان يطلب المجد لا الكسب. وأنا شخصياً أعرف شخصاً اسمه (معشي الذيب) كان يربط جدياً في البرية عندما يسمع ذئباً يعوي قائلاً: (لا يناديني ضيف في المساء دون أن يتناول الطعام). لقد دعوت أنا شخصياً منذ مدة سمو الأمير عبد الله أمير شرق الأردن إلى وليمة بقرب وادي موسى - بتراء، وقد حضر ما يقرب من 500 شخص من الفلاحين للسلام على سموه، ولم أكن أتوقع حضور مثل هذا العدد، ولكن رجالي وكلهم من البدو لم يكونوا مستعدين أن يعرضوا أنفسهم لألسنة الفلاحين الجارحة، ولذلك فإن الطعام الذي طهي كان فضلا عن كفايته لإطعام الخمسمائة شخص فقد قدموا رزاً مسلوقاً وزبدة إلى مطايا الزائرين

حماية الضعيف

وبالإضافة إلى الثلاث الخصال التي تتصف الفروسية بها يوجد طبع آخر في البدو يحمل نفس الطابع الخيالي الذي اتصفت به عاداتهم الثلاث (المجد في الحرب. احترام المرأة. الكرم) التي سبق أن ذكرناها - وهو حماية الضعيف. فعندما يلتجئ غريب أو

أرملة أو يتيم إلى بدوي تراه يدافع عنه حتى ليقاتل أقاربه لأجله. فمثلاً حرب البسوس التي وقعت منذ ألف وثلاثمائة سنة عندما أطلق كليب وائل - كبير شيوخ معد - سهماً على ناقة لخالة جساس أخي جليلة زوجة كليب فقد ذهبت تلك العجوز إلى جساس وروت له الحادث، فما تمت رواية قصتها حتى قام ولبس ملابس الحرب وذهب وقتل كليباً. ويقال إن حرباً دامت أربعين سنة بين الفريقين المتحاربين كانت نتيجة لهذا الحادث. وقد وقع مثل هذا الحادث في قبيلة الرولا - إذ طلب شيخ من عجوز من قبيلة الشرارات وهي قبيلة تحتقرها بقية القبائل يتخذ رجالها صناعة النحاس مهنة لهم، فاستجارت العجوز بابن مشهور الشعلان الذي أنجدها حتى أطلق على نفسه في الحرب (أخو ربدة) اسم المرأة التي استجارت به زيادة في تمجيد عمله العظيم. ومن عادات البدوي نجدة من يلتجئ إلى الخيمة. وبهذه المناسبة أود أن أذكر حادثاً وقع معي شخصياً عندما ثار فيصل الدويش مع قبائل مطير على ابن مسعود فحاربهم وانتصر عليهم وقد أرادوا الالتجاء إلى العراق عندما طاردتهم الجيوش السعودية، ولكن أوامر مشددة صدرت إلي بمنعهم من الالتجاء إلى العراق. وقد تمكنت من إيقافهم في موقع وبقيت في انتظار وصول الجيوش السعودية لسوقهم. وفي ذات يوم بينما أنا في خيمتي إذا برجل - وهو أحد زعماء العجمان - يدخل الخيمة ويصيح: أنا أطلب الحماية - وكان هذا الزعيم من المكروهين والمغضوب عليهم من ابن سعود - لقد كان موقفاً حرجاً ومحيراً إذ أن عادات البدوي تقضي بحماية الرجل، وأوامر حكومتي تقضي بعدم السماح لأحد من المرور إلى العراق. ولكني في النهاية قررت أن أتبع تقاليد البدو فأركبته جملا وأفهمته أن يتوجه إلى قبيلة عراقية ساكنة بالقرب منا. لقد كنت أظن أن هذا الحادث قد انتهى وأن ابن سعود لن يسمع به. ولكن راعني أن قدمت في صباح اليوم التالي أربع سيارات سعودية تحمل وفداً برياسة سكرتير ابن سعود الخاص للاحتجاج على عملي بتهريب الرجل. ولكني بلطف صرفت ذلك الوفد. وبعد فترة عاد الوفد يحمل كتابا شديد اللهجة حول تصرفي - لقد تحرج موقفي إذ أن أوامر حكومتي كانت صريحة ولكني صممت على أن أبقى أمينا على عهدي مع الرجل. لم أجد لي مخرجاً من هذا الأمر إلا بأن أفهمهم الحقيقة. وقد فعلت. طلب ابن سعود من الحكومة العراقية بعدئذ تسليم جميع اللاجئين ولكنه لم يشر بحرف إلى رجلي. إن العرب صلاب أشد الصلابة في المطالبة والمدافعة عن حقوقهم، ولكنك إذا التجأت إلى كرمهم فلن يخيبوا ظنك. وهذه قصة سمعتها من شاب ساكن مع بني صخر في شرق الأردن أصله من البلاد الواقعة قرب الخليج الفارسي - قال: قام الوهابيون وكنت معهم بهجوم على بني صخر فقتلنا منهم وقتل منا خلق كثير. وفي تلك الموقعة أصبت بجراح وأغمي علي حتى لم أفق إلا في صباح اليوم التالي أمام خيام بني صخر. قمت أتحامل على نفسي حتى قربت من بيت شَعر وإذا برجل ما كاد يراني حتى أطلق علي عيارين ناريين - وكان قد فقد أخاه في معركة الأمس - ولكن الغضب والحقد أعمياه فأخطأني. حينئذ أسرعت حتى دخلت الخيمة فما كان منه إلا أن رمى بندقيته وأقبل يغسل جراحي.

ومن عادات البدوي التمسك بالصداقة والاعتراف بالجميل. في يوم من الأيام اقتتل ابن علي وابن رشيد من شيوخ قبيلة شمر فطرد ابن علي ابن رشيد مع أخيه من القبيلة، ترك الإخوان القبيلة ومعهما جمل واحد قاصدين البلد المعروف اليوم بشرق الأردن وفي طريقهما نزلا ضيفين على الخريشة فأكرم العبيد وفادتهما إذ كان الشيخ غائباً. وفي صباح اليوم التالي تهيآ للسفر فوجد أن جملهما قد نفق. فسارا على الأقدام. وفي الطريق قابلهما بدوي فسألهما عن حالهما فأخبراه بواقعة الحال، فنزل عن جمله وقدمه إليهما قائلاً: أنا الشيخ ولن يضيفني إنسان راكباً ويترك منزلي راجلا. وعندما عاد ابن رشيد إلى الحكم بقيت الخريشة صديقة معززة مكرمة. ومن الصفات التي يفتخر العرب بها الأمانة، وقصتنا هي حادثة السموأل الذي ضحى بولده على أن يسلم الدروع التي ائتمنه عليها امرؤ القيس. منذ سنين قليلة مضت أغار عودة أبو تاية حليف لورانس على عنزة وكانت الغلبة لعودة، وفي أثناء المعركة رمى شخص نفسه على عودة يطلب الأمان، فأمنه، ولكن الرجل طلب علامة يدرأ بها الخطر عن نفسه فأعطاه عودة كوفيته ونزل إلى المعركة حاسر الرأس. ومرت السنون وإذا برجل

غريب يقدم نفسه إلى عودة قائلاً: إن لك عندي قطيعا من الماشية. فسأله عودة عن ذلك فقال: إنني الرجل الذي أعطيته كوفيتك في الموقعة الفلانية وقد بعتها واشتريت بها ماشية وتكاثرت وهأنذا أقدمها لك. إن عودة كان قد نسى ذلك الرجل وكان العداء لا يزال على أشده بين القبيلتين

(يتبع)

جميل قبعين

رسالة الشعر

وحي الشاعرية

نفسية

للأستاذ حسن القاياتي

ظمآنُ لو شئتَ وردْ ... لولاك يا نيل اتقّدْ
برَدُ الحناَ رشفةُ ... للنيل تستَلُّ الكمدْ
للنيلِ من حيث اغتدىَ ... قلبي ومن حيث اعتمدْ
كم صفَّدُوه فاصطفَوْا ... للنيل مُفْتَنَّ الصَّفَدْ
جنَّاتُ علمٍ رَوَّضَتْ ... في مصر جنَّاتِ الرَّغَدْ
!لَهفي لمصرٍ جَنَّةً ... لَيْسَتْ تُناغَي بالرشَدّ
البرّ فيناً لمحةٌ ... والغيُّ جياشُ المددْ
غَرّدتُ حتى شفنِي ... منْ يرْتمي طير الغَردْ
عصرُ المرجَّى شد ما ... يمشي إليه في الزَّرَدْ
شكواي وَثابُ الهوى ... في النيلِ خَوَّارُ الجلدْ
!تذل التباري يَعْتَلِى ... بالغيِّ طَمَّاحَ الأمدْ
غنيتُ بالعلم احْتَفَى ... والتعتُ للجهل احتشدْ
إن يهذِ غِرٌ بالعُلَى ... فالهزل رُؤيا من رَقد
بدعان منْ حلي النُّهى ... تَفْوِيفُ شعري والْغَيَدْ
نمقتُ جنَّاتِ النَّدَى ... فاختالَ فيها من جَحَدْ
كم جفّ رفد بذلهُ ... كاللثم لم يُثقلْ أَحَدْ
إن تَعلُ دُوني رَغوةٌ ... فالنيل فياضُ الزَّبَدْ
صَليتِ حلو المجتَنَى ... يا مصرُ حرَّ المُجْتَلَدْ
من لأبن علياء ابتَنَى ... للوغد مجداً فاقْتَعَدْ؟؟
لم يَحْن فيما يَشْتَهي ... من رأس أوّابٍ سجدْ
إن لم تَسدْ بي عِزَّةٌ ... فالدرُ يخزي من زَهد
الندب يخفي حِليةً ... كالروح يخفيه الجسدْ
عصرُ تَغنَّى فازدهىَ ... بالجهل أزري إذ خَلَدْ
يَبْنون لَغْواً كم علا ... كالنعش فاستلَّ الحسَدْ
النبل هَلاَّ يُفتَدىَ ... والهون أَنَّى يُفْتَقَدْ؟؟
حَسبتُ التحدي يرتقي ... للسيِّدِ البرِّ السَّنَدْ
ذَمَّ التجنِّي فانثنَى ... برّ التَّمَنِّي وانفردْ
أَسْوان لو كان اشتفَى ... حَرَّإنُ لو كان ابْتَرَدْ
لم يحلُ ظبيٌ أو مُنىً ... إلاَّ تَهَاوتْ أو شَرَدْ
الذُّلُّ يغريه الهوَى ... والعونُ يأباه الصَّيَدْ
الجورُ إما نَاهِدٌ ... في الجيش أو صدر نَهَدْ
مَلَّ التشكيِّ سيداً ... مَلَّ التشكيِّ فاقتَصَدْ
كالحسن لو شاء استَبَى ... كالعلم لو شاء انتقدْ
سُنَّ التسامي فانبرى ... وانهلَّ رفدٌ فابْتعدْ
ليت المزايا طَلَقْةٌ ... من وَدّ فتَّاناً وجَدْ
الحسن من شاَء انْتَقىَ ... والرأي من شاء اعتقدْ
!!لو رق حسنُ لم يذُدْ ... عن كل ظبي بأسدْ
الحرُّ سَلهُ ما ارتأى ... والغرُّ سَلهُ ما عَبَدْ؟؟
أهلاً بشورَى لا الهوىَ ... أحييت ولا الشَّعْبُ اتَّعَدْ

الشعْبُ طفلاً قَلما ... تنهاه شورى عن لَدَدْ
للرأي فانْهَدْ وحدَهُ ... العزمُ عند المُعْتَقَدْ
!!لا حُرّ في أرض الفتَى ... سموه بالفرد الصَّمد
حُرُ المساعي سيدُ ... حُرُّ المنى حُرَّ البَلَدْ
السكرية - دار القاياتي
حسن القاياتي
قصيدة القاياتي
وقع تحريف مطبعي في أبيات قليلة من قصيدة السيد حسن القاياتي (مصريات) المنشورة في العدد الماضي، نثبت صوابه فيما يأتي:
باسم الولاية كم شيخ مراشفه ... على يَدَيْ كل (سبَّاك وسبكي)
أعمل حجاك فما أحرى بنيِّره ... أن يُجْلِسَ الله في العرش الإلهي
ذم القديم فما أصفى بتكرمةٍ ... سوى عقيد العُلى من كل عاديِّ
في معهد العصر أبناءُ أبوَّتُهم ... في معهد الدين ألْغَوْا كل عصري
تلك الكؤوس عُقَاراً كيف يجرعها ... من يرهن النيلَ في الدَّين العقاريّ
الأمر يبرم سِرّيّاً فتلهمه ... منابتُ الغَيِّ من بادٍ وسرِّيِّ
نجوى القمر
للأستاذ فريد عين شوكة
لَمْلَم الضوء يا قمرْ ... وامْضِ عن مصر في خفر
!قلَّ في مصر من سعى ... لك في الليل أو سهر
إنما أنت في القرى ... باعث الأنس والسمر
تضحك الدور إن بدا ... نور عينيك وازدهر
وتُجلى بك الحقو ... لُ ويزهو بها الزهر
وبنو الريف ساهرو ... ن وما أطيب السهر
تخذوا ضوءك الأبا ... ريق والكأس والوتر
فانتشوا منك بعدما ... شربوا الضوء بالنظر
تسكر العين بالجما ... لِ ويا ويل من سكر
هيه يا باعث الجوى ... هل عن الريف من خبر؟
هل ترى مجلس الهوى ... باقياً فيه أم دَثر؟
وحبيبي! أما يزا ... لُ على العهد؟ أم غدر؟
هدى القلب بعدما ... لُحْتَ للقلب فاستعر
ضوءُك الساحر الرُّؤى ... بين جفنيَّ كالشرر
حرَّك الماضيَ الدفي ... ن وأغري بيَ الفِكَرْ
يوم كنا ويوم كا ... نَ بك الريف يزدهر
أمسيات تناثرت ... والصبا بعدها انتثر
وطغت موجة النوى ... ودنت ساعة الخطر
فافترقنا وباعدت ... بيننا ضربة القَدَر
فريد عين شوكة
البريدُ الأدبيّ
النهوض باللغة العربية
اجتمعت اللجنة التي ألفت للنظر في النهوض باللغة العربية بديوان الوزارة برياسة الأستاذ محمد عوض إبراهيم بك الوكيل المساعد وعضوية الأستاذ محمد أحمد جاد المولى بك وعلي الجارم بك ومحمد قاسم بك ومحمد عطية الابراشي أفندي ومحمود عبد اللطيف أفندي والشيخ عبد المجيد الشافعي
وبعد أن أطلعت اللجنة على التقارير التي كتبت في هذا الصدد وتبادلت الأفكار وناقشت المقترحات وافقت على ما يأتي:
أولا - إن الطلبة ليسوا ضعافاً في اللغة العربية إلا بمقدار ما يراد أن يكونوا عليه من تقدم يناسب ما عليه أبناء الأمم الأخرى ذات اللغات الحية، وإن الطلبة قد تقدموا تقدماً ظاهراً في الكتابة والخطابة لا يفضلهم فيه أسلافهم من الطلبة
ثانياً - لتنمية هذا التقدم ومجاراة روح العصر الحديث والنهضة باللغة العربية لتؤدي

واجبها في هذا العصر ينبغي أن توجه إليها العناية من الطفولة في أوساط التربية والتعليم المختلفة لتكون لغة النطق والكتابة والتعليم ولهذا نظرات اللجنة في وضع قواعد عامة تتناول مراحل التعليم كلها وفي وضع قواعد خاصة لكل مرحلة من مراحل التعليم الأولي والابتدائي والثانوي. وتجمل اللجنة ذلك في ما يأتي:

القواعد العامة

ترى اللجنة أن نشر اللغة العربية وجعلها لغة التخاطب والتعليم بين الطبقات جميعاً لا يكون حقيقة واقعة إلا إذا تمت الواجبات الآتية:

1 - محو الأمية بنشر التعليم الأولي بين الأميين الذين يبلغون أكثر من 80 % من أبناء الأمة لأن المشاهد أن التعليم كلما نهض نهضت معه اللغة الصحيحة وأقبل الناس على القراءة والاطلاع وهذا مما يقوم الألسنة

2 - أن تكون كتب القراءة العربية مما يشوق التلاميذ ويحبب إليهم الاطلاع ومداومة النظر وأن تكون من الكثرة وحسن الاختيار بحيث تغذي التلاميذ وتصرفهم عن غيرها مما يحسن ألا يتناولوه إلا في ظروف خاصة

3 - أن يكلف المدرسون النطق باللغة الصحيحة سواء في هذا مدرسو اللغة العربية ومدرسو المواد الأخرى التي تدرس بها وأن يحاسب هؤلاء جميعاً على كل تقصير حتى يشب التلاميذ في بيئة مدرسية صالحة تعوضهم مما يفقدونه في البيئات الخارجية

4 - أن تزداد حصص اللغة العربية في مراحل التعليم

5 - أن يؤخر تعلم اللغات الأجنبية إلى ما بعد السنة الثانية من التعليم الابتدائي ليكون للأطفال وقت كاف لدراسة اللغة العربية واستعداد لتلقي غيرها معها. وقد أجمع علماء التربية على أن دراسة لغتين في وقت واحد وفي سن مبكرة مما ينتهي بالضعف فيهما جميعاً. ويجب أن يكون بين دراسة لغة وأخرى فترة كافية من الوقت وأن يبدأ الأولاد دراسة لغتهم الوطنية وإجادتها أولاً وقبل كل شيء

6 - ألا يقبل بالرياض من كانت سنه أقل من خمس سنوات ولا يقبل بالتعليم الابتدائي إلا من كانت سنه ثماني سنوات ليكون الأطفال أقدر على التعليم والانتفاع بالدراسة والاستعداد لها مع صحة أجسادهم ونمو أفكارهم

7 - أن يعرض ما يقرر من الكتب قبل طبعه على لجان من أساتذة اللغة العربية لإقراره ونفي ما تراه من الألفاظ العامية والأعجمية التي تشوه اللغة وتفسد النطق وتنشر الخطأ

8 - ومما يدعو إلى مضاعفة العناية ما تشعر به اللجنة من أن مكتبة التلميذ العربية فقيرة أشد الفقر ليس فيها ما يحبب إليه المطالعة والأدب وأنها إذا قيست بمكتبة الأطفال في الأمم الحية لم تكن شيئاً مذكوراً. ومن الواجب المبادرة من الآن بإمداد المكتبات المدرسية حتى تنهض وتقوم بقسطها في الحياة المدرسية

مشروع وزارة المعارف العراقية لتعزيز تعليم العربية

رأت وزارة المعارف العراقية أن تأخذ بمشروع مهم لتعزيز تعليم اللغة العربية في المدارس. ولما كان أساس الموضوع يتصل بالمعلمين فقد اختطت الخطة الآتية:

1 - ستختار أكابر الأساتذة الاختصاصيين في تعليم اللغة العربية وآدابها للتعليم في دار المعلمين العليا في بغداد، وهؤلاء الأساتذة يستخدمون من خارج العراق

2 - ستختار أساتذة ضليعين في اللغة وآدابها وتعليمها الدار المعلمين من الخارج أيضاً

3 - ستستخدم جماعة من الأساتذة القديرين لتعليم العربية وآدابها في المدارس الثانوية الكاملة في أنحاء القطر العراقي بالاستعانة بأساتذة الأقطار الأخرى

4 - سيؤسس فرع خاص في دور المعلمين الابتدائية للغة العربية وآدابها يختار لها الطلاب ذوو المواهب الأدبية ويدرسون اللغة وآدابها بمنهج خاص (بجانب دراساتهم مواد دور المعلمين) ويرسم لهم اختصاصات معينة ليصبحوا بعد تخرجهم أساتذة مختصين لتدريس العربية وآدابها.

وبمقتضى هذا المشروع ستحتاج وزارة المعارف العراقية هذه السنة لاستخدام جماعة من أساتذة العربية وآدابها من الأقطار الأخرى ولاسيما مصر حيث يتوفر فيها وجود مثل هؤلاء المدرسين المطلوبين

محاضرة عن مصر القديمة في لندن

ألقى المستر امري العالم الأثري الذي اكتشف ضريح السلالة الفرعونية الأولى في سقارة محاضرة أمام الجمعية الآسيوية في لندن قال فيها: (من المحتمل أن تنقضي أعوام عديدة في الدرس والتحليل والمقارنة قبل أن نصل إلى إدراك نهائي لمعاني الرسوم الهيرغليفية المنقوشة على سبعمائة إناء صغير وجدت في هذا الضريح. فإذا أمكننا قراءتها وإيضاحها أرسلت شعاعاً نيراً مهماً على أحوال السلالة الأولى التي قل ما نعرفه عنها. أما حفر مقبرة سقارة فتم في أقل من عشر سنوات

ثم أشار المحاضر إلى احتمال العثور على اكتشافات أهم من هذه في المكان عينه. وقال: (أكاد أكون على ثقة بأننا سنجد ضريحاً ملكياً كبيراً. ونحن لم نكشف حتى الآن إلا جزءاً صغيراً من تلك المنطقة)

الإمام الاسفرايني وأبو حيان التوحيدي

ذكر في الجزء السابق من (الرسالة) الغراء أبو حامد أحمد ابن طاهر الأسفرايني، وروي له قول في الجدل. وفي الرواية شيء رأيت التنبيه عليه:

راوي المقالة هو أبو نصر عبد الوهاب السبكي صاحب (طبقات الشافعية الكبرى) وقد قال فيها في سيرة الإمام الأسفرايني (قال أبو حيان التوحيدي سمعت أبا حامد يقول الخ) فإن كان السبكي يقصد أبا حيان التوحيدي صاحب المقابسات والصداقة والصديق والإمتاع

والمؤانسة فقد وهم فيما حكى؛ واليقين أن صاحب أبي حيان هو أبو حامد أحمد بن عامر المروروذيّ وقد ذكر السبكي نفسه في طبقاته أن (أبا حيان تفقه على القاضي أبي حامد المروروذي) وفي (بغية الوعاة) للأسيوطي: (قرأ أبو حيان على أبي حامد المروروذي) وقال ابن خلكان في (الوفيات) في سيرة أبي حامد هذا: (قال أبو حيان التوحيدي سمعت أبا حامد المروروذي يقول: ليس ينبغي أن يحمد الإنسان على شرف الأب ولا يذم عليه كما لا يحمد الطويل على طوله ولا يذم القبيح على قبحه) وإنما ورط السبكي في روايته التقاء الكنيتين والاسمين واتحاد المذهبين فكلاهما فقيه شافعي، وكلاهما إمام وهما في عصر واحد وإن سبق أحدهما إلى الدار الأخرى صاحبه، فوفاة المروروذي سنة (362) ووفاة الاسفرايني سنة (406)

وإذا ثبت أن مقالة الجدل للاسفرايني كان أبو حيان التوحيدي غيرَ ذاك الخبيث الشيطان صاحب (مثالب الوزيرين): ابن العميد والصاحب (وقد تلتقي الأسماء في الناس والكنى كثيراً) كما قال الفرزدق

وأقول مادمت في التنبيه والإصلاح: جاء في (قصة الكلمة المترجمة) في الجزء (260): (وقد ذكر ابن القطقطي في كتابه الآداب السلطانية والدول الإسلامية) صوابه ابن الطقطقي، الطاء قبل القاف

(ق)

كتاب جديد عن فلسطين

ظهر كتاب جديد عن فلسطين بعنوان (سرج فارس فقير) لمؤلفه دوجلاس دف وقد نشرته دار هربرت جنكنز

ولعل أهم ما يستوقف الأنظار فيه الاقتراح الذي يقترحه المؤلف لحل مشكلات الأرض المقدسة. فهو يقترح أن يتخلى اليهود عما يملكونه في الشمال من بئر سبع وأن ينتقلوا كتلة واحدة إلى (النجب)، ففي هذه المنطقة أربعة آلاف وخمسمائة ميل مربع من الأرض الصالحة للحرث حتى تسترد خصبها القديم المشهور. واليهود بما عرف عنهم من القدرة على استصلاح الأراضي ونشاطهم في تحويل الغامر عامراً خير من يقوم بهذا العمل

ويشترط في هذا طبعاً أن يكونوا مستعدين لتحمل المشاق والمصاعب التي تعرضوا لها في بدء استعمارهم الحديث لفلسطين وأن يكون العرب الذين يقطنون في منطقة النجب مستعدين أن يغادروها لينزلوا الأراضي التي أصلحها اليهود في الشمال

وعند المؤلف أنه إذا صح هذا كان فاتحة عهد جديد في فلسطين. ومما يتصوره ويتوقعه إنشاء ميناء من الدرجة الأولى في العقبة في حالة نجاح هذا المشروع وشق طرق صالحة للمواصلات تؤدي إلى الأسواق المصرية وإنشاء مطارات كثيرة

ومؤلف الكتاب كان من رجال البوليس بفلسطين ويعرف البلاد وسكانها معرفة دقيقة، ولكن بعده عن فلسطين قطع ما بينه وبين تحول شؤونها في السنوات الأخيرة

على أن ذلك لم يحل دون نقده لليهود وانقسامهم ونقده للعرب وانقسامهم كذلك
وقد كتب السر متاجيو برتون توطئة للكتاب أشار فيها إلى خطة له من شأنها في رأيه أن تحل بعض مشكلات فلسطين، وقاعدة هذه الخطة منح العرب جميع الأراضي التي قررتها لهم لجنة بيل ماعدا يافا والنجب وتحويل الباقي إلى مستعمرة من مستعمرات التاج. ويكون هذا النظام تجربة. فإذا رؤى في سنة 1950 أن في الوسع استئناف الشركة العربية اليهودية فعندئذ تمنح البلاد كلها مقام دمنيون. وإذا تعذر استئناف الشركة بين العرب واليهود وظهر أن تجربة المستعمرة أصابت نجاحاً فعندئذ تمنح البلاد ماعدا الأراضي التي استولى عليها العرب مقام دومنيون وتستبقي بريطانيا حقوقاً دائمة في مرفأ حيفا وأنابيب النفط والمطارات
والكتاب في ماعدا ما تقدم تلذ مطالعته وإن غلبت عليه مسحة التشاؤم، لأن الكاتب وقد رأى بعينه حدة النضال بين فريقي العرب واليهود، قلما تلوح له بارقة أمل في إمكان الصلح بينهما
الكتب
المعجم القضائي
تأليف الأستاذ خليل شيبوب
هذا سفر آخر ينضاف إلى (معجم النبات) للدكتور أحمد عيسى و (معجم العلوم الطبيعية) للدكتور شرف و (معجم الحيوان) للدكتور الفريق أمين المعلوف ليهيئ اللغة العربية إلى مجاراة الحضارة الثقافية لهذا العهد
إن اضطراب شأن المصطلحات في لغتنا أمر معروف. ولو أخذنا نرقب أعمال مجمع اللغة العربية في سبيل تقويمه لنفد الصبر قبل أن تنقع الغلة. فنهوض أفراد من العلماء والأدباء إلى تصنيف المعجمات المختلفة - وإن انطوت هنا وهناك على مغامز - أمر واجب وحقيق بالتنويه
فهذا الجزء الأول من (المعجم القضائي) لصاحبه الأستاذ خليل شيبوب الأديب الإسكندري والشاعر الابتداعي المعروف. وميزة هذا المعجم أنه يترسم المنهج العلمي للمصادر والمراجع القديمة والحديثة التي يقوم عليها، نحو (أحكام القرآن) للجصاص و (رد المحتار) لابن عابدين و (بدائع الصنائع) للكاساني و (تنوير الحوالك) للسيوطي و (كتاب الموافقات) للشاطبي ثم (كتاب الفقه على المذاهب الأربعة) لعبد الرحمن الجزيري و (القانون الدولي العام) لسامي جنينة ومؤلفات أخرى أمثال نجيب الهلالي والسنهوري وعبد السلام ذهني
وقد استعان المؤلف - فوق هذا - بكتب أدبية، نحو (المخصص) لابن سيدة و (صبح الأعشى) و (نهاية الأرب) فأحسن، وهنا فات المؤلف أن يرجع إلى (مقدمة) ابن خلدون و (الأحكام السلطانية) ثم إلى المعجمات المقصورة على الاصطلاحات، مثل (التعريفات) للجرجاني و (الكليات) لأبي البقاء و (كشاف اصطلاحات الفنون) للتهانوي، فضلا عن أنه أهمل تصانيف المستشرقين ولاسيما مباحثهم المنشورة في دائرة المعارف الإسلامية
ومن ينظر في هذا المعجم يطمئن إلى الطريقة التي أجرى عليها لما يلازم الفصول والفقر من البحث المطرد والتقصي والتفصيل. غير أن المؤلف قليلاً ما يثبت المظانّ، فيجهل القارئ آللفظة مما استعمله القدماء أم هي من وضع المحدثين
- هذا ومما يحسن التنبيه إليه، على سبيل الإشارة، أن المؤلف - في تضاعيف معجمه يقول:
ص88 - (جيش الاستعمار). والمراد (جيش المستعمرات) (لأن جيش الاستعمار) (أ) هو الذي يُجهَّز لفتح البلد المطلوب استعماره. وأما (جيش المستعمرات) فهو الذي يُعبأ من أهل البلاد المستعمرة. والعبارة الفرنسية تنظر إلى المعنى الأخير
ص231 - (طائفة) والمراد (ملّة) بمعنى جماعة دينية (ودليل ذلك (كتاب الملل (ب) والنحل) للشهرستاني و (المجلس المللي) عندنا في مصر. وأما لفظة (طائفة) بهذا المعنى فمستحدثة على ما أظن)
ص301 - (العرف. العادة) للمبادئ القانونية (المستمدة من التقاليد والعادات) (ج) والوجه أن لفظة (العرف) وحدها تفيد المعنى المقصود. وأما لفظة (العادة) فلها مدلول آخر معروف وإن جاور مدلول لفظة (العرف)

وبعد، فالمعجم في جملته نفيس لا سبيل عنه لمن يشتغل بالقضاء والمحاماة واللغة
ب. ف
علم النفس في الحياة
تأليف ماندر
ترجمة الأديب نظمي خليل
طبع بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
يعتبر علم النفس من العلوم الحديثة التي أخذت تهم جمهور الباحثين ولاسيما بعد أن انفصل من الفلسفة وأصبح له طابع العلم الصحيح. فبعد أن كان الباحث يحاول أن يقف على خصائص الروح ومواطن العقل وعلاقته بالجسم وغيرهما من المسائل الدقيقة الفهم، البعيدة المنال، أصبح الآن يفسّر جميع مظاهر سلوك الإنسان ويعالج مشاكله النفسية والاجتماعية بالطرق العلمية المعروفة وهي الملاحظة والتجربة ولقد تقدم البحث في علم النفس في الخمسين سنة الأخيرة تقدماً كبيراً حتى تغلغل في سائر العلوم الأخرى كالطب والتربية والاقتصاد والقانون، كما نشطت حركة التأليف في علم
النفس الاجتماعي ومحاولة تفسير جميع علاقات الإنسان في ضوء النظريات السيكولوجية الحديثة مما كان له أكبر الأثر في رقي المجتمع وسعادة الأسرة
ومن بين الكتب الحديثة التي عالجت هذا الموضوع، هذا الكتاب الذي عنيت بنشره لجنة (التأليف والترجمة والنشر) والذي ترجمه إلى اللغة العربية الأستاذ نظمي خليل ترجمة صحيحة تتوافر فيها دقة التركيب وجودة اللفظ وسلاسة الأسلوب
أما موضوع الكتاب فقد شرحه الدكتور (عبد العزيز القوصي) في مقدمته إذ قال: يبدأ الكتاب بالتحدث عن الأسس الأولية التي تتكون منها الشخصية ثم طريقة هذا التكوين ثم يعرض إلى وسائل تنمية العادات الطيبة واستئصال العادات الضارة، ويتخلل هذا الكثير من التفسيرات الصحيحة لغرائب السلوك عند الكبار والصغار، فهو يفسر لنا سلوك من نقابل من أخواتنا وأطفالنا وأصدقائنا وتلاميذنا وأزواجنا ورؤسائنا ومرءوسينا كما يفسر لنا الكثير من سلوكنا الخاص، وما يدخل في هذا السلوك من القوى والدوافع شعورية كانت أو لاشعورية، فطرية أو مكتسبة. ولا ريب أن هذا النوع من المعرفة يجعلنا أقدر على التعامل مع غيرنا ويجعل حياتنا أكثر احتمالا، وسعادتنا أقرب (منالا
فنحن نرحب بهذا النوع من التأليف العلمي الذي سيتيح لقراء العربية الوقوف على بعض تلك الموضوعات الشائقة والمسائل الدقيقة
(* * *)
العدد 264 - بتاريخ: 25 - 07 - 1938
قنطار ثمين
للأستاذ عباس محمود العقاد
رأيي في الجسم الجميل أنه الجسم الذي لا فضول فيه، وأنه الجسم الذي تراه فيخيل إليك أن كل عضو فيه يحمل نفسه، غير محمول على سواه
من هنا جمال الرأس الطامح، والجيد المشرئب، والصدر البارز، والخصر المرهف الممشوق، والردف الماثل، والساق التي يبدو لك من خفتها وانطلاقها واستوائها أنها لا تحمل شيئاً من الأشياء، ولا تنهض بعبء من الأعباء
بل من هنا جمال الحيوان الأعجم، وجمال المهر الكريم وقد اختال بعنقه وشال بذنبه، وضمر بدنه وأصبح في جملته كالكلام المختصر المفيد، أو الكلام المختصر البليغ، لأنه يبلغ حيث شاء
كان هذا هو الرأي المصري في الجمال قبل ببضعة آلاف من السنين، أيام كان المصريون سادة في الحياة وكان المثال الفائق عندهم لجمال الرجولة والأنوثة ما نراه على الهياكل من صور الرجال والنساء
ولم يكن هذا هو الرأي المصري في الجمال قبل بضعة أجيال، يوم ركد المصريون ركود البطء والكسل فأصبحت الكثافة الواهنة عندهم مقياس الملاحة والقسامة، وأصبح جمل المحمل و (التختروان) مثال الحسن المطلوب في النساء: تعلو المرأة السمينة وتهبط في مشيتها وما تنتقل شبراً في أقل من خطوتين، والمقرظون من

حولها يهللون ويكبرون ويباركون الخلاق العظيم ويعوذون هذا الجرم الذي لا تمضي فيه السيوف من لحظات العيون، ومن حسد الحاسدين!
العالم كله يثوب إلى مذهب المصريين الأقدمين في جمال النحافة والرشاقة والنسج الدقيق، ومن العالم كله المصريون المحدثون
وشاع هذا المذهب بعد الحرب العظمى أشد من شيوعه في زمن من الأزمان، حتى غلا بعضهم فأوشك أن يلتمس الجمال في الهياكل العظمية، وهي على أية حال أجمل من هياكل الشحوم واللحوم!
أهي نفحة من نفحات الفن العلوي هبت فجاءة على أذواق الناس في العالم كله فأصبحوا
جميعاً من صاغة التماثيل الملهمين؟
مثل هذه النفحات - فيما أحسب - أغلى وأرفع من أن تكال جزافاً للملايين في المغارب والمشارق، وبين الأذكياء والأغبياء، وعند من يحسون ولا يحسون
إنما هي (الطيارة) جزاها الله خيراً بما هذبت من أذواق وأصلحت من أخلاق
إنما هي (الطيارة) قد أتمت مذهب السرعة في كل شيء، والسرعة والخفة لا تفترقان، والخفة والسمنة لا تتفقان
فالرجل الذي يقفز من القاهرة إلى الإسكندرية في ساعة واحدة لا يلتفت بعد ذلك إلى امرأة تزن القناطير المقنطرة من الشحم واللحم، ليعجب منها في مشيتها بجمل المحمل والتختروان
والرجل الذي يصعد إلى السماء لا يصبر على حمل الجبال، فالملائكة وحدها هي التي تحسن الصعود إلى تلك الآفاق
وهكذا تعلمنا الآلات أحياناً كيف نشعر وكيف نتذوق الجمال وكيف نصحح الأذواق على شاطئ الإسكندرية - والمصادفة من أجمل المصادفات - طيارة في الهواء، وفتاة على الأرض هي أولى بالطيران من تلك الحديدة الصاعدة؛ بل هي تطير ولا يتخيلها الناظر إلا طائرة تفلت من لحظات العيون وخطرات الأرواح
لا تحس العين أنها أدركتها، لأنها إذا أدركتها تأملت فيها وسرحت في معانيها، فإذا هي بعيد بعيد، أبعد من الفراش الذي يقع عليه الطفل فإذا هو على الغصن، ويثب إليه في غصنه فإذا هو في الهواء
تلك هي القنطار الثمين!
لأنها لا تزيد في الوزن على قنطار، ولم يخلق في الدنيا قنطار أثمن وأولى بالاقتناء منها، أيا كان معدنه ومبناه
جمالها يزيدك عجباً من دقتها، ودقتها تغريك بوزنها وتقويمها. فأما الوزن فهو ما علمت؛ وأما التقويم فهو ما لا تعلم وما لا يدخل في حساب، لأن هزة من الشعور قد تسومها بكنوز الأرضين والبحار، وهزة من الشعور قد تبذلها رخيصة لمن تهواه
قل إنها تساوى وزنها من ذهب
وقل إنها تساوى وزنها من كريم الجوهر
فإنما الحياة هنا هي مقياس التقويم والتقدير، وما أحسب شيئاً في هذا العالم إلا ومرجع تقويمه إلى حظه من الحياة
وإلا فكم يساوى القصر المشيد إذا لم يشعر به الساكن فخامة وزهواً وجمالا وطمأنينة وراحة، ولم يشعر به الناظر هيبة واستحساناً ورغبة؟
وكم تساوى السيارة إذا لم يشعر بها راكبها ولم يشعر بها ناظرها ولم يشعر بها من يملكها ومن يتمناها؟
إنما (الاقتصاد) الصحيح هو اقتصاد (الفنان) لا اقتصاد السماسرة وحملة السهوم ومديري المصارف والشركات
إنما الاقتصاد الصحيح هو الذي يقومَ هذا القنطار الثمين فإذا هو أثمن من كل قنطار في معادن هذه الدنيا، لأن ما يحويه من ذخائر الشعور أكبر وأنفس من كل مملوك ومذخور
وإنه ليرخص بالشعور كما يغلو بالشعور. فدع قنطارنا هذا الثمين يهيم حباً بمن شغل عنه، ثم أنظر كم يكون له من ثمن، وكم يكون له من وزن وكم يكون له في رأي نفسه من حساب وتقويم!

وما ندري أمن حسن الحظ أم من سوئه كما يقولون أننا نشعر بالقصور ولا تشعر بنا القصور!!
وإلا فلو وهبت كل قنية ثمينة نفسا تريد هذا المالك ولا تريد ذاك فماذا يبقى من الأثمان؟ وماذا يبقى من البيع والشراء؟
هذا القصر يبذل نفسه لمن يريده بغير ثمن، ويأبى أن يأوي إليه شارٍ غيره ولو بذل فيه ألوف الألوف؛ فهو تارة بدرهم وتارة بالألوف المؤلفة من الدنانير، وهو تارة أخرى بالمجان لمن لا يسومه حتى بهذا الثمن الرخيص
إن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن الشعور هو (وحدة) التقويم والتسويم في كل ما نملك وما نريد، وأن الذين يشبعون من الحياة هم أغنى الناس وأعظم أصحاب الثراء، وان لم يعرف لهم اسم في خزانات المصارف ودفاتر الشركات
أنت يا بنية ذخيرة في الحياة
أنت يا بنية كنز من الفتنة والحب والمتعة واللذائذ والآمال والأشجان والأحلام
أنت يا بنية قنطار ترخص عنده قناطير الذهب والفضة وقناطير الجواهر والفصوص.
أنت كل هذا حتى يأخذ منك الشعور ما أعطاك الشعور. وسألت من خلقك هذا الخلق السوي إلا يأخذ منك إلا بمقدار ما يعطيك، وألا يرغبَك إلا بمقدار ما يرغب فيك، فليس آلم من هوان النفيس عند الصيرفي العليم بالحياة إلا نفاسة الهين الزهيد
أنت يا بنية هكذا في لغة الزمان الذي لا نسمع فيه إلا (كم نقصت فلانة) وكم زاد فلان؟ وكم يساوى هذا وتلك في أسعار الأوان؟
وعلى مقربة من (مثابة) الإسكندرية ما أشبه هذه اللغة بأسلوب المكان!
على شاطئ الإسكندرية ثروة لمن أحب الغنى
ثروة لم يملكها قارون عند من يحسب موارده بحساب الحياة وكل ما تتقاضاك من جهد بضع نظرات
عباس محمود العقاد
بين الشرق والغرب
رد على رد
للأستاذ فليكس فارس
(تتمة ما نشر في العدد الماضي)
أي صديقي أدهم إن الغرب لا يرتقص على براكين من النار إلا لحفرة مثل هذه الآيات القاتلات على ألواحه. . .
أن صاحبك هابل الكاتب الذكي الذي قام بدور له شأنه في عالم الأدب لا يقصد الجدَ فيما يقول، بل هو يتهكم تهكماً ويقول للناس: إن العقلية الشرقية تلائم الحياة الباقية، (فإذا) انتقلتم إلى الأخرى فهناك اتبعوا وحي هذه العقلية!
إن (إذا) لا تفيد الظرفية هنا بل تفيد شرطاً ممتنعاً وما هي إلا أداة تحَد صريح وإنكار مطلق لكل ما لا يقع تحت الحواس الخمس، فكأنك أيها المناظر الكريم وأنت تدعونا إلى اقتباس العقلية الغربية، تهيب بنا مع صديقك هابل آدم إلى الاعتقاد بالعدم قبل الحياة وبعد الحياة. فهل يجاريك علماء الغرب الذي نباهي بحضارته؟ هل يوافقك من يدعون أهل الشرق معك إلى الاتجاه نحو الحضارة الغربية في القول بأن هذه الحضارة الآرية لم تصل إلى ما وصلت إليه إلاّ عن طريق الإلحاد؟
إن حضارة الأقوام التي ترغب إلينا أن نقتبسها إنما بنيت في تاريخها القديم كما بنيت في تاريخها الحديث على الاعتقاد بحياة أخرى. وما تدعوه (منطق الغرب الإثباتي) الذي ورثه الرومان عن الإغريق هذا المنطق الذي تنكره على العرب لأنهم ذوو استلهام ولأنهم يؤمنون بالغيب ويوحدُّون علة الوجود، إنما هو منطق نشأ في ذهنية فلاسفة كانوا يؤمنون (بأولمب) يغص بالآلهة ذكوراً وإناثاً؛ تلك كانت حضارة الغرب القديمة لم تقتل المنطق فيها حتى عبادة الأوثان ولكنها لم تكن إلاّ حضارة غاشمة شطرت فيها الإنسانية إلى شطرين: الإنسانية المتنعِّمة. والإنسانية التي تعرق دماً تحت لسعات السياط
أما حضارة أوربا الحديثة فقد قامت على ما نعلم بتعاليم عيسى، وإذا كان قد بقى فيها شيء من الرحمة فهي من آثار موعظة هذا الناصري على جبل من جبال الشرق. وإذا كان قد

هبٌ فيها بعد انتصار شارل مارتل من دعوا إلى إصلاح المسيحية فما كان صوت هؤلاء المصلحين إلاّ صدى للصوت الذي دوى في صحراء العرب منذ ثلاثة عشر قرناً. . .

إن الإيمان الشرقي الذي يدعوه المناظر نسكاً أسيوياً لم يحل إذاً دون سير الغرب على سبيل الاكتشاف والاختراع، وما منع باستور إيمانه وتدينه من اكتشاف الجراثيم وإيجاد أمصالها لإنقاذ الإنسانية من أفظع أدوائها. وما كان أديسون وماركوني ومن تقدمهما من المخترعين إلا من المؤمنين بالله وباليوم الأخير

إن الدكتور أدهم يريد أن يميز بين عقلية الشرقي وعقلية الغربي فيقول إن الأولى مستسلمة (محضاً) للقضاء والقدر تخضع للغيب، والثانية تناضل نضالاً (محضاً) ضد الغيب.

أما أن يكون الشرقي هذا المستسلم الضعيف فمما يكذبه التاريخ، تاريخ المسيحية وتاريخ الإسلام على السواء، فما كان المسيحيون الأولون ليجبنوا حتى بين أشداق الأسود، وما كان المسلمون إلا مجاهدين بالجهادين، توكلوا فما تواكلوا وسلموا أمرهم لله فما استسلموا لزعازع الحياة بل أرغموها إرغاما ليسيطروا عليها بمكارم الأخلاق.

أما قول المناظر بأن العقلية الغربية تناضل ضد الغيب فقول فيه جنوح في التعبير، ولا نعتقد أن الدكتور أدهم يقصد الغيب بل أسرار المادة وما يكمن فيها من تفاعل، لأن الغرب إنما هو من هذه الإنسانية التي حُدت قواها فوقفت واجمة أمام نظام الكون وسرّ الحياة والموت، وما نعلم أن العمل على درس خفايا المادة كان وقفاً على الغرب دون سواه، وقد رأينا العرب يذهبون إلى أبعد الأشواط في هذا السبيل.

هذا وأن الحضارات قد توالت على هذه الغبراء فكان لكل أمة دورها في الاعتلاء والانحطاط، فما تراث الذهنية العلمية إلا مشاع لكل رأس فيه دماغ يفكر لاستخدام عناصر الطبيعة لمنفعته.

ليس هنالك إذاً عقلان عقلٌ للغرب وعقلٌ للشرق في ميادين الاستقراء؛ غير أن هنالك فطرة أو ثقافة تختلف بين شعب وشعب. وقد أراد المناظر أن ينكر استقلال الثقافة الأدبية عن العلم الوضعي فأسماها روحاً كأنه يمحو أثرها باستبدال اسمها.

لتكن الثقافة روحاً كما يريد الدكتور أدهم، فلماذا يطلب حضرته أن يلفظ أبناء الشرق روحهم لتتقمص روح الغرب حضارتهم؟

ثم أليس من غرائب المنطق أن يقول المناظر بفرعونية مصر وبتمردها على العروبة نيفاً وثلاثة عشر قرناً ثم يطلب منها أن تتفرنج بين عشية وضحاها؟

إذا كان ما يرمي إليه الدكتور أدهم من تفرنج مصر دفعها إلى طريق الرقى العمراني فقد أثبتنا له أن مصر كسائر البلاد العربية تأخذ بالحكمة السامية: (اطلبوا العلم ولو في الصين) فلا تأنف من الأخذ بعلوم أوروبا الوضعية كما أخذ أجدادنا بعلوم الإغريق من قبل دون أن (يستغرقوا) فعلام يراد منا أن (نستغرب) نحن؟ . . .

ما هي الفائدة التي يرجوها المناظر لمصر إذا هي أنكرت إيمانها وأفسدت لغتها وتغنت على الأنغام الإفرنجية التي تتنافر مع ذوقها وحتى مع مخارج ألفاظها، ورَّقصت أبنائها وبناتها متفاخذين متباطنين متناهدين؟ . . .

أية فائدة نرجوها لمجتمعنا إذا نحن أعرضنا عن الأخذ بحضارة ثوت مبادئها العليا في سرائرنا لنصبح كالقردة مقلدين نتحرك تبعاً لحوافز غيرنا؟

وأخيراً لا يظنن مفكرٌ أننا نقصد بالحضارة العربية هذه الحالة الراهنة التي أوصلتنا إليها قرون من الويلات والعبودية لأرهقتنا حتى تنكرت لنا أنفسنا

لقد طغت على مجتمعنا في معتقداته وفي نظم أسرته وفي آدابه وفي حكوماته دخيلات من متخلفات جميع العصور وجميع الأمم، فنحن اليوم أشبه بنبيل أخنى عليه الدهر فأجاعه، فهو يأكل من فضلات موائد الأمم، ومزّق ثوبه فهو يستر عورته بترقيعه ملتقطاً له الخرق أمام كل بيت غريب، ومن كل مزبلة تعترض طريقه.

أما والله ما يُهيب بنا إلى الدعوة لإقامة حضارة عربية شرقية بهذه الأوطان إلا الاشمئزاز يستذرف الدمع لما يصدم سريرتنا كل يوم من هذه المساخر تتمشى وهي لا تبالي على قبور الأجداد وعلى مهود الأطفال

وقد يكون هذا النفور نفسه ما يدفع بالمفكرين الأجانب حتى وبعدد من مفكري العرب أنفسهم إلى الإهابة بالشرق للنهوض من كبوته ليستبدل بروحه الراقدة روحاً غربية ناهضة

إنها لعاطفة قد يكون الألم والإشفاق مصدريها، ولكن العربي الأصيل بما يسمع في أجواء نفسه من هتاف القبور لا يقطع الرجاء من حقه في الحياة
لقد ذهبت الطوائف الدينية كل من جهتها مذاهب جد غريبة عن روح الدين الذي أنار الدنيا
من مشارقها حتى أصبح من الأسهل عليها أن تعتنق الإلحاد من أن تقضي على تعصبها وتطرح التآويل التي تقضي على اتحادها على الأقل في إقامة حضارة تكفل حياتها
لقد تبلبلت النظم الاجتماعية بيننا إلى درجة يسهل على شعوبنا فيها أن تُغرق فطرتها الأصلية المريضة في تيارات مدنية الغرب من أن تستفيد منها قوتها وتعمل على شفائها
إن الاندفاع إلى الأغوار أسهل على المتعب من العودة إلى تسلق الذرى التي انزلق عنها
ولكن أترضى النفوس العربية النابهة التي لا تجهل ما يكمن في هذه البلاد من قوى أن تتخير الجمود فلا تقوم بواجبها لتحول دون انتحار شعب بزغت أنوار الهداية من آفاقه وبقيت حضارته مدى أربعين قرناً محوراً لتيارات التفكير في العالم؟
لتكتب الأقلام العربية في هذا المطلب، لتملأ الصحف السيارة بالآراء، وليتناقش المفكرون
إن كل أمة قد مرَّت على مفرق الطرق قبلنا لم يتأخر مفكروها عن وضع الكتب الضخمة فالتهمها الشعب الحائر التهاماً، أما هنا فمن العبث أن نعقد الفصول الطوال في كتب عناوينها نفسها تنفر جمهور القراء منها
لقد نشرت في العام المنصرم كتاباً بعنوان (رسالة المنبر إلى الشرق العربي)
فاستنفد نصف نسخه في بلاد المهاجر حيث يعرف النازحون قيمة الوطن، وحيث يشعرون بغربتهم في حضارات ليسوا منها وليست منهم. أما هنا في الأقطار العربية فلم يقرأ كتابي إلا أربعمائة قارئ أهديتهم إياه وثلثهم أو أكثر لم يتفضل بإرسال بطاقة أعرف منها وصول الكتاب إليه
إن معظم القراء يهتمون للمشاكل الراهنة الجوالة من الأمور السياسية والإدارية التي تؤثر في حياتهم في يومهم، فنحن نعيش لعصرنا كأننا لا نترك على أرض الشرق أبناءنا وأحفادنا
لقد تناولت في رسالة المنبر بحث ما نحن عليه الآن وما يجب أن نأخذ به من حضارة تتوافق وسرائرنا وأحوالنا، فإن أنا أردت استيفاء موضوعي الآن حقه اضطررت أن أنشر كتابي برمته على صفحات الرسالة. فلأكتفين الآن بإيراد فقرة من مقدمته أجعلها ختاماً لهذا الرد
إنني مازلت معتقداً منذ قدر لي أن أعتلي المنابر أن هذه البلاد العربية مستودع) لأشرف الثقافات ومكمن لأسمى المواهب، وإن من واجبي أجناد المنابر والأقلام فيها إظهار هذه
القوات لأبنائها نزوعاً بهم عن الانقياد لدخيلات العادات والأخلاق التي تغلبت عليهم بما أوجدوه من التوهم في أنفسهم فاستصغروها.
إن كلاً من سلالات العالم تنتفض الآن لتنبه ما يكمن في قومياتها م حوافز وهي تناوئ قوميتنا الساميّة منزلتها منزلة تنحط عن مراتب الشعوب الآرية. فالأقوام المنتشرة في جزيرة العرب وفلسطين وسوريا ولبنان ووادي الفرات ووداي النيل وعلى الشواطئ الشرقية للبحر المتوسط وشواطئ البحر الأحمر تدمغها حضارات الغرب والعالم الجديد بطابع التواكل والخمول، في حين أن القومية في الشرق العربي لا تقف تجاه السلالات المنكمشة على ذاتها في العالم موقف كتلة تبني وحدتها على المميزات الجسمية مفتشة عن الوحدة في الأنساب والعروق بل هي تبنيها على المميزات الروحية في حوافز أصبحت فطرة لكل سلالة قديمة توطنت هذه البلاد التي خشع عظماء العالم تحت سمائها الصافية وفوق أرضها المطهرة بدماء الشهداء من أجل الإخاء الإنساني والحق المطلق. فإذا ما افتخرت قوميات الدنيا بالعرق، فإنما نحن نباهي بالفكرة الحية السماوية التي أقامت من شتاتنا أسرة واحدة كلمة التعارف بينها (اسم الواحد الأحد رب العالمين
فليكس فارس

. . .حظي بالشيء
. . . .الرافعي، المجمع اللغوي، أزهري المنصورة، اليازجي
. . . . .
لأستاذ جليل
- 1 -
روى الكاتب الألمعيّ الأستاذ محمد سعيد العريان في مقالاته الرشيقة الرافعية شيئاً من حكاية هذا الفعل: (حظي بكذا) وأعلن - وهو صديق أبي الساميّ الصادق المَصدق - أن صاحب هذا الاسم: (أديب صغير) في (البلاغ) هو الأديب الكبير الأستاذ مصطفي صادق الرافعي (رحمه الله) وإنه ليؤيد إعلان الأستاذ (العريان) بلاغةٌ في القول المعزو إلى فقيد العربية وبراعة ولباقة بتصريفه وتوجيهه حيث يشاء. وهل يقدر على مثل ذلك إلا الأديب المقتدر، إلا الأديب الرافعي
ومما ينفع الأدباء ويخدم به هذا اللسان أن يروى في (الرسالة) مجلة العرب، وسيحل اللغة والبلاغة والأدب - ما قيل في تغليط من قال: (حظي بالشيء) وتصويبه وحظي بكذا، وفاز به، وحصّله، وأدركه - من المترادف والفعل الأول هو في الكلام العربي وفي أقوال كبار، ولم يُخَطَّأ إلا في هذا الزمان، خطأه الشيخ إبراهيم اليازجي اللغوي الكبير في مجلته (الضياء) في ثلاثة مواضع، وخطأ الأديب الكبير الأستاذ الرافعي (رحمه الله) في (البلاغ) وصوّب قائليه المرحوم العالم الفقيه الشيخ حسين والي: (المجمع اللغوي) والأستاذ (أزهري المنصورة)
وسأورد في هذه الفصول من أقوال المغلطين والمصوبين ما يستوجبه البحث وما يفيد ثم اتبعه طائفة من شعر القوم وكلام الأئمة تحق صحة ذاك الفعل. وهناك الشرح والتعليق إذا اقتضتهما حال
وإني لأجهر اليوم كجهري أمس بأن هذا الذي أمليه - وهل كاتب غيري في أدب الرافعي في (الرسالة) أو غيرها إلا مثلي - هو من إحسان الأستاذ (العريان) ومن معروف الأستاذ (الرافعي) المفضل الجاري على العربية في الحياة وفي الممات فتىً عيش في معروفه بعد موته ... كما كان بعد السيل مجراه مرتعاً
والرافعي في أدبه أعظم ممن قيل فيه هذا البيت في كرمه
أديب كبير شعر فجوّد، ثم نثر فبهر، وكان (وحيُه) في (الرسالة) فكان ختام كلامه في حياته مسكاً
وفي هذا المقام أقول: إن أخطأ كبير في لفظة أو مقالة فهذا دليل الإنسانية، برهان أنه إنسان، وأيّ أديب لا يخطئ؟ وأي عالم لا يهفو؟ وأي عظيم ما زل؟ (ومن ذا الذي ترضى سجياه كلها) كما قال بشار
ولن يضع من فاضل باحث خفيت عليه في مباحثه خافية أو خافيات ثم بُيِّنت له - أن يتقبل هذا التبيين أو التذكير بقبول حسن، فإن كان ثمة نقص تمم، أو كان خطأ اصلح، أو كان لبْس وضح؛ إنه العلم ينوره ويَزينه التحقيق، وإنه العالم يجله ويعليه الإذعان للحق
ومن مزايا الأدباء المهذبين، والفضلاء الكاملين، والعلماء المسلمين - العملُ بقول الله: (ولا تبخسوا الناس أشياءَهم).
كان (مجمع اللغة العربية الملكي) - وقد قيلت في تكوينه أقوال، وأي شيء أو أي شخص في هذه الدنيا يخلص من القيل والقال - واجتمعت رجاله من العرب والعَربَانيين في داره في شارع (ابن ارحب) في (الجزيرة) في 14 من شوال سنة 1352: ولم ينشد المنشد في ذاك الجمع بيت المتنبي:
تجمع في كل لِسْن وأمة ... فما تفهم الحُدّاث إلا التراجم
بل أنشد بيت البحتري:
إذا تقاربت الآداب والتأمت ... دنت مسافة بينِ العجم والعرب
وقال رئيسه (كلمة الافتتاح) وفيها تحية الأعضاء، والترحيب بهم وتهنئتهم، ثم تلفظ عضو ب ـ (كلمة الشكر) شكر فيها للرئيس تحيته، ودعا لحضرة صاحب الجلالة الملك الذي (رفع شأن مصر بين الأمم وشأن الدين الإسلامي واللغة العربية بهذا المجمع) ثم أرسلت الجماعة إلى (حضرة صاحب المعالي كبير الأمناء) بهذه البرقية:

(قصر عابدين
حضرة صاحب المعالي كبير الأمناء
أرجو أن ترفعوا إلى السُّدة الملكية السامية، أن أعضاء مجمع اللغة العربية الملكي، المجتمعين من مصر والبلاد العربية والغربية، في عهد حضرة صاحب الجلالة المليك المعظم - ذلك العهد الناهض باللغة العربية وآدابها المزدهر بالعلوم والفنون - يتضرعون إلى الله تعالى أن يمن على جلالته بالشفاء التام، والصحة الكاملة، ليحظى المجمع بتشريف جلالته لافتتاحه قريباً إن شاء الله تعالى، وينتهزون هذه الفرصة لرفع ولائهم وإخلاصهم إلى صاحب العرش المُفَّدى
30 من يناير سنة 1934
عن أعضاء المجمع
(محمد توفيق رفعت
قلت: يا ليت، يا ليت أن القوم استبدلوا التاريخ الإسلامي في برقيتهم بهذا التاريخ الفرنجي
فملتنا أنّنا مسلمون ... على دين صدّيقنا والنبي
حدّثت الجرائد في اليوم الثاني (15 شوال 1352) أخبارَ المجمع، وأوردت فيها تلك البرقي، فظهرت في جريدة (البلاغ) المشهورة في 16 شوال 1352 كلمة عنوانها (أول الغلط من المجمع اللغوي) للأستاذ (أديب صغير) وهو الأديب الكبير الأستاذ الرافعي (رحمه الله) قال فيها:
قالت إحدى الصحف إن حضرات أعضاء المجمع اللغوي اجتمعوا: إلى أن قالت:) ثم ذكر (واتفقوا على إرسال البرقية التالية ورفعها إلى الأعتاب الملكية وهذا نصها البرقية ونقد اضطراباً في أسلوبها العربي رآه ثم قال: (وما لهذا كتبنا هذه الكلمة وإنما كتبناها لنسأل حضرات أعضاء المجمع اللغوي في أي كلام فصيح جاء مثل هذا التعبير (ليحظى المجمع بتشريف جلالته) وهل يجوز استعمال الباء مع حظي ثم هل يعرف حضراتهم كيف دار هذا الفعل (يحظى) في كلام المتأخرين، ومن أي معنى أخذوه، وكيف مكنوا له في استعمالهم هذا التمكين؟ فإنهم إن عرفوا هذا كان ذلك نقداً آخر.
ويقولون (تشريف جلالته لافتتاحه) ففي أي كلام عربي يستعمل التشريف بمعنى الحضور؟ إنا نسمع العامة يعظمون الضيف فيقولون (شرفت) وهم بالطبع لا يريدون معنى حضرت إذ يكون هذا عبثاً من الكلام. غير أن المجمع اللغوي استعمل التشريف بمعنى الحضور، وهو خطأ شائع)
اطلع المجمع اللغوي على هذا النقد فنشر المرحوم الشيخ حسين والي في (البلاغ 17 شوال 1352) كلمة عنوانها (نقد في غير محله) قال فيها:
نشر البلاغ (لأديب صغير) مقالة بعنوان (أول الغلط من المجمع اللغوي) ينقد فيها كما زعم كلاماً هو في الحقيقة رفيع وَفْق أصول البلاغة والحال التي اقتضت، ولم تنحرف ثم أشار إلى سداد الكلام واطراده ثم قال: (وقال الناقد (كلمة منه عن جادة العربية (وهل يجوز استعمال الباء مع حظي) نعم يجوز فقد قال الزمخشري في أساس البلاغة (وحظي بالمال وتقول ما حلي بطائل ولا حظي بنائل وأحظاه الله بالمال والبنين) وقال الناقد (ويقولون تشريف جلالته لافتتاحه وفي أي كلام عربي يستعمل التشريف بمعنى الحضور) لم يستعمل التشريف بمعنى الحضور، وإنما استعمل بمعناه الأصلي ومعموله مفهوم أي تشريف جلالته إياه، فليرجع الناقد إلى علم البلاغة)
الإسكندرية
(* * *)
جورجياس أو البيان
لأفلاطون
للأستاذ محمد حسن ظاظا
- 5 -
تنزل (جورجياس) من آثار (أفلاطون) منزلة الشرف، لأنها)
أجمل محاوراته وأكملها وأجدرها جميعاً بأن تكون (إنجيلا)
(للفلسفة!)
(رينوفييه)

(إنما تحيا الأخلاق الفاضلة دائماً وتنتصر لأنها أقوى وأقدر
من جميع الهادمين!)
(جورجياس: أفلاطون)
الأشخاص
1 - سقراط: بطل المحاورة: (ط)
2 - جورجياس: السفسطائي: (ج)
3 - شيريفين: تلميذ سقراط: (س)
4 - بولوس: تلميذ جورجياس: (ب)
5 - كاليكليس: الأثيني: (ك)
ط - (رداً على جورجياس) وإذاً فمادام البيان ليس هو الفن الوحيد الذي ينتج الإقناع، ومادامت هناك فنون أخرى تنتج من الإقناع بقدر ما ينتج البيان، فمن حقنا أن نسأل زيادة على ما تقدم (كما سألنا في موضوع المصور): بأي إقناع يختص البيان؟ وما موضوع ذلك الإقناع؟ ألست ترى أن هذا السؤال الثاني مناسباً؟
ج - إنه لكذلك
ط - فاجب إذا مادمت تراه مناسباً
ج - حسن يا سقراط. إنني اعني الإقناع الذي يؤُخذ به في المحاكم والجمعيات الأخرى العمومية كما قلت منذ هنيهة، والذي يتعلق بالأشياء الظالمة والعادلة
ط - لقد كنت أشك في أنك تعني حقيقة هذه الأشياء وذلك الاقناع، ولكنني أسألك مع ذلك من جديد، وأرجو ألا تعجب إذا طلبت منك في مجرى الحديث أن تشرح ما يبدو واضحاً من الأشياء، إذ لست أفعل ذلك من أجلك كما قلت قبلاً وإنما أفعله من أجل البحث كيما يتتابع منتظماً، وكيما لا تتذبذب أفكارنا إزاء الأوهام البسيطة يمنة ويسرة، وكيما تستطيع أنت أخيراً أن تكمل القول حسبما تشاء، ووفقاً لما تضع من أصول.
ج - أرى أن ليس هناك أحصف من ذلك السلوك يا سقراط
ط - فلنتقدم إذاً ولنبحث ذلك أيضاً: أتسلم بما يُدعى (معرفة؟)
ج - نعم
ط - وبما يدعى (عقيدة؟)
ج - نعم
ط - وهل ترى أن المعرفة والعقيدة - أي العلم والاعتقاد شيء واحد أو شيئان مختلفان؟
ج - أرى يا سقراط أنهما شيئان مختلفان
ط - إنك تقول حقاً، وتستطيع أن تحكم على هذا النحو إذا سألك سائل قائلاً: هناك يا جورجياس اعتقاد باطل وآخر حق؟ ألست ستوافقه على ذلك دون ريب؟
ج - بلى
ط - ولكن ماذا؟ أهناك بالمثل علم باطل وآخر حق؟
ج - كلا بالتأكيد
ط - فواضح إذاً أن الأمر ليس واحداً؟
ج - ذلك صحيح
ط - ومع ذلك فأولئك الذين (يعرفون) يقتنعون كما يقتنع أولئك الذين (يعتقدون)
ج - أوافقك على ذلك
ط - وإذاً أنستطيع أن نضع نتيجة لذلك نتيجة لذلك نوعين من الإقناع، أحدهما ينتج الاعتقاد من غير علم، والآخر ينتج العلم فحسب؟
ج - حسن جداً
ط - وأي هذين النوعين يستعمله البيان بالمحاكم وبالجمعيات الأخرى في موضوع العدل والظلم؟ أهو الذي ينتج العقيدة بلا علم؟، أم هو الذي ينتج العلم فحسب؟
ج - واضح يا سقراط أنه هو الذي ينتج العقيدة
ط - فالبيان إذا - كما يلوح - عامل الإقناع المولد (للاعتقاد) في موضوع العدل والظلم، لا المولد (للمعرفة) في ذلك الموضوع؟
ج - نعم.
ط - ولا يُعنى الخطيب في المحاكم وغيرها من الجمعيات بتعليم العدل والظلم، ولكنه

يسعى فقط لحمل الناس على (الاعتقاد) بهما. ثم هو لن يستطيع أن (يُعلم) أفراداً كثيرين دفعة واحدة مثل تلك الموضوعات الخطيرة في وقت قليل كهذا
ج - كلا بلا شك.
ط - وإذ قد قررنا ذلك أرجو أن نبحث عما ينبغي أن نقوله في البيان لأني لم أكون بعد فكرة دقيقة عما يجب أن أقوله فيه. عندما يجتمع أهل المدينة ليختاروا الأطباء وبناة السفن ومن عداهم أنواع الصناع، أليس صحيحاً أنه سوف لا يكون للخطيب أو (رجل البيان) هنا نصيحة يقدمها، مادام واضحا أنه يجب أن نختار الأكفأ والأمهر في كل من هذه المهن؟؟ وبالمثل في بناء الأسوار والمواني ومصانع الأسلحة: ألا نأخذ بآراء المهندسين؟؟ بل وعندما نتناقش في اختيار أحد القواد أو في النظام الذي نتقدم به نحو العدو أو في الموانئ التي يجب أن نستولي عليها: ألا يبدي هنا رجال الحرب رأيهم من دون الخطباء؟؟ ما رأيك في هذا يا جورجياس؟ إنك رجل بيان، وإنك لقادر على تأليف الخطب، فأنت خير من يتوجه إليه المرء لمعرفة أساس فنك، وتستطيع أن تصور لنفسك فضلاً عن ذلك أنني أعمل هنا من أجل مصلحتك. وأنه قد يوجد بين المساعدين من يرغبون في أن يكونوا تلاميذ لك كما ألاحظ في الواقع، ومن هم كثيرون في العدد إلى حد كبير، ولكنهم قد لا يجرؤون مع ذلك على توجيه الأسئلة إليك. وإذا فأقنع نفسك بأنني عندما أسألك فإنما أفعل كما لو كانوا هم أنفسهم يسألون؛. قائلين: ماذا عساه يحدث لنا لو قد أخذنا بدروسك يا جورجياس؟؟ وعلى أي أساس نعتمد عندما نسدي النصح إلى مواطنينا؟؟ أنعتمد على العدل والظلم فحسب؟ أم أيضاً على تلك الموضوعات الأخرى التي تكلم عنها سقراط تواً؟؟. فحاول إذاً أن تجيبهم!؟
ج - أريد في الواقع يا سقراط أن أوضح بالتدريج كل خصائص البيان لأنك قد وضعتني تماماً في الطريق حقاً وأحسب أنك تعلم يقيناً أن مصانع أسلحة الأثينيين وأسوارهم ومواني إنما أنشأت برأي (تمستوكل) من ناحية، وبرأي (بركليس) من ناحية أخرى دون أن يؤخذ رأي واحد من الصناع!
ط - اعلم يا جورجياس ما يقولون عن (تمستوكل). أما (بركليس) فقد سمعته بنفسي عندما كان ينصح الأثينيين بإقامة سور (مينشي)
ج - وهكذا ترى يا سقراط أنه عندما نحتاج إلى بحث الموضوعات التي تتحدث عنها فهم الخطباء الذين ينصحون والذين يعلو رأيهم!
ط - وهذا ما يثير العجب في نفسي أيضاً يا جورجياس، وما قد دفعني إلى توجيه السؤال إليك عن خواص البيان طوال ذلك الوقت. ويلوح لي أن دراسة تلك الخواص على ذلك النحو عظيمة للغاية
ج - إذا عرفت كل شيء يا سقراط فسترى أن البيان يحوي على ذلك الرأي جميع خصائص الفنون الأخرى. وبرهاني على ذلك قاطع ومؤثر. إذ كثيراً ما دخلت مع أخي وأطباء كثيرين على مرضى معينين ممن كانوا لا يتناولون جرعة الدواء ولا يقاسون الحديد والنار بسبب عجز الطبيب عن كسب نفوسهم؛ وممن نجحت أنا أخيراً معهم دون مساعد غير فن البيان. . .
(يتبع)
محمد حسن ظاظا
دراسات للمستشرقين
قيمة التراجم الأعجمية الموجودة للقرآن
للعلامة الأستاذ الدكتور أ. فيشر
- 2 -
ذكر الأستاذ ي. شاخت في بدء مقدمته لكتاب للمطالعة في تاريخ الأديان عنوانه: (الإسلام، باستثناء القرآن) (.1931 (, ' أنه استبعد القرآن من كتابه لأنه كما قال (توجد للقرآن تراجم وافية بالحاجة وبعض التراجم الألمانية كاملة وافية، وعلى المرء أن يختار منها ما يشاء) ويصح أن يشمل حكمه هذا المترجم الإنجليزية أيضاً، التي يعتبرها الكثيرون أحسن التراجم (وإني أضع اعتبارهم هذا موضع التساؤل، كذلك يصح أن يشمل حكمه هذا الترجمتين الفرنسيتين الأولى لكازيمرسكي والثانية لمونتيت كما يشمل الترجمة السويدية لزترستين والترجمة الإيطالية لبونللي وبعض تراجم أخرى

سبق لي أن كتبت ما يلي سنة 1906: - (لا يداخل الذي تعمق في أسرار العربية شك في أنه لا يوجد بين تراجم القرآن - سواء كانت ترجمة كاملة له أو هي قاصرة على بعض آيات منه - ترجمة تفي بالمطالب اللغوية الدقيقة) راجع , ?- , , 34 , 1وذكر شوالي رأياً قريباً من هذا في:
(2 ? ' , 219)
إذ قال: (رغم الخطوات الكبيرة التي اجتازها في البحث في القرآن منذ سال لا توجد حتى اليوم ترجمة له تثبت أمام هذا العلم أو أمام التفسير) وذكر باريه في:
, , - , 1935 , 122):
وراجع أيضاً (لابد من إيجاد ترجمة للقرآن صالحة للاستعمال يصح الاعتماد عليها) اقتراح صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر الشريف والمقدمات المنطقية للفتوى التي أصدرها علماء الأزهر في شأن ذلك الاقتراح، وفيها يعربون عن رأيهم في أن التراجم الموجودة للقرآن فيها (أغلاط كثيرة)
وعلى أي حال فإني لازلت إلى اليوم أعزز رأيي الذي صارحت به عام 1906 وليست ترجمة القرآن بالأمر الهين، فقد تنحى عنها أشهر المستعربين من العلماء المستشرقين أمثال رايسكه وساسي وفليشر وده غويه و ? نولدكه وجولدزهر وغيرهم لأسباب منها على الأقل إدراكهم كبير صعوباتها. ولقد كان أغلب مترجمي القرآن مستعربين من الطبقة الثانية، بل ومنهم من هم دون الطبقة الثالثة والرابعة
على أن أهم الصعوبات التي تعترض مترجم القرآن ويتحتم عليه التغلب عليها هي:
1 - كلمات وجمل غير قليلة وردت في القرآن لها معنى مبهم أو لها أكثر من معنى. وقد تأيد ذلك في موضع جدير بالاهتمام (السورة الثالثة الآية السابعة - مصحف ميري).
وَهُوَ الذي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ، فأَمَّا الذينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَبِعُونَ ما تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وَابتِغْاءَ تأْوِيلِهِ، وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فيِ العِلْمِ يَقُوُلونَ آمَنَّا بِهِ كلٌ مِنْ عِندِ رَبَنَا وَما يَذّكَّرُ إلاَّ أُولَوُا الأَلْبَابِ)
وفيما يلي نص ترجمة هذه الآية بالألمانية من قلم الأستاذ الدكتور أ. فيشر:
, ? , , , , , , ? , , ' ?
ونزلت هذه الآية على النبي صلعم حين حاول أعداؤه (وكانوا يهودا وأعرابا أذكياء واسعي المعرفة) إثبات وجود غموض ومتناقضات في الذي أنزل عليه، وكانت محاولاتهم هذه لا تنقطع
2 - يحوي القرآن عدداً وفيراً من التوريات عن أشخاص بالذات وعن أعداء عاديين وعن حوادث تاريخية وعن أحوال عامة وأخرى خاصة. وكثير ما يكون إيضاح وتفسير هذه التوريات صعباً غاية الصعوبة، ذلك لأن هذه التوريات وردت عادة بأسلوب سهل ممتنع لم يرد فيها أي أسم. وفي الروايات العربية القديمة عنها تناقض كثيراً كشف عن عدم كفايتها، ويوجد هذا التناقض في تفاسير القرآن وفي كتب الحديث وفي أقدم السير للرسول، إلا أن التمحيص قد يساعدنا على استقراء حالات كثيرة منها
3 - جمع القرآن وترتيبه ينقصه الوحدة أو الترتيب التنسيقي أو الترتيب التاريخي للسور، وقد تتألف السور الطويلة من وحي نزل مرات عديدة لأسباب متباينة وفي أوقات مختلفة، ولهذا كان غالباً من الصعب تبينها وإدراك كنهها
4 - توجد للقرآن عدة قراءات، وغالباً ما يُعلل وجودها إلى عاملين أحدهما أن الوحي لم يدون في حينه ومنذ بدايته بطريقة منتظمة، بل بقي إلى أمد بعيد يتناقل أغلبه بالرواية. والعامل الثاني أن الخط العربي الذي كتبت به الآيات القرآنية بادئ ذي بدء لم يكن وافياً، إذ كان ينقصه الحروف المتحركة وغيرها من علامات الشكل، كذلك كان ينقصه التفرقة الصحيحة بين الحروف الساكنة. ولهذا كان اختيار واحدة من القرارات المحتملة لتلك المخطوطات ليس بالأمر الهين. وقد قام المسلمون في العصر الحديث بأداء أهم جزء من ذاك العمل
وكان من جراء تلك الصعوبات أن اختلفت التفاسير العربية للقرآن الكريم منذ العصور الأولى للإسلام فقد تباينت تبايناً كلياً في تفاسير مواضع كثيرة من القرآن. وليس بالأمر النادر أن يورد بعض المفسرين ستة معانٍ أو أكثر لموضع من المواضع العويصة في القرآن ليتخير منها ما يشاء. ومع ذلك لا يمكن بحال من الأحوال أن نستغني عن هذه

التفاسير، وفي الغالب لم يَعْنِ المترجمون الغربيون العناية الكافية بهذه التفاسير حين قيامهم بترجمة القرآن. ومن المحقق أن البعض أهملها لأن فهمها كان عليهم عسيراً.
أما الذين عنوا فلم يكن لدى الأولين منهم خاصة سوى التفاسير المتأخرة فقط، تلك التفاسير التي جاوز فيها الشرح المذهبي التأملي لكتاب الله التفاسير التقليدية القديمة التي لازالت تعتبر إلى حد ما تاريخية لغوية (وأهم هذه التفاسير تفسير الطبري)
ومن هذا البيان يتضح أن الإنسان لن يكون في وسعه أن يدرك كل دقائق القرآن.
ولذلك فالمترجم الأمين يضطر دائماً إلى التشكك في صحة عمله، كما يضطر إلى تدوين مختلف المعاني المحتملة.
(للبحث بقية)
إبراهيم إبراهيم يوسف
للأدب والتاريخ
مصطفي صادق الرافعي
1880 - 1937
للأستاذ محمد سعيد العريان
- 32 -
منذ عام دعاني الأستاذ الزيات لأنشر هذا الحديث على قراء الرسالة، فصدعت بأمره) عرفانا بحق الداعي والمدعو له. واليوم وقد بلغت هذا المبلغ فلم يبق إلا بضعة فصول، فإنني أتقدم بالرجاء إلى قراء هذه المقالات أن يعينوني على تمام هذا التاريخ؛ فأيما أحد كان عنده من خبر الرافعي شيء أغفلته، أو سهوت عنه، أو تصرفت فيه بنقص أو زيادة، أو لم يبلغني نبؤه - فليتفضل بالكتابة إلي في البريد أو على صفحات الرسالة؛ وفاء بحق الأدب على أهله. وإني لأعني بهذه الدعوة أصدقاءه وخاصته، ومن كتبوا إليه وكتب إليهم، ومن كان عندهم من رسائله ومن أوراقه؛ ولا أستثني هؤلاء الذين عرفوه على بعد أو سمعوا من أنبائه؛ على أني لا أسأل أحداً رأيه، فما يعنيني في هذه الفصول (إلا الرواية والخبر والحادثة، وللرأي كتاب ثان بعد الفراغ من تدوين التاريخ
سعيد العريان
مقالاته للرسالة (3)
كان بين الرافعي والابراشي ما قدمت الحديث عنه في بعض الفصول السابقة، وكان منه أن انقطعت صلة الرافعي بصاحب العرش ليحل محله الأستاذ عبد الله عفيفي. . .
وسارت الخصومة بين الرافعي والابراشي إلى مدى، حتى انتهت إلى قطع المعونة الملكية عن (الدكتور) محمد الرافعي مبعوث الخاصة الملكية لدراسة الطب في جامعة ليون!
وضاقت نفس الرافعي بهذا اللون من ألوان الكيد، ولكنه صبر له واحتمل مشقاته وتكاليفه؛ وألزمته الضرورةُ أن يقوم بالإنفاق على ولده حتى يبلغ مأمله، على قلة إيراده وضيق ذات يده؛ فاستمر يرسل إليه أول كل شهر ما يقدر عليه وفي نفسه أن يأتي يوم يرفع فيه أمره
إلى الملك فيحط هذا العبء عن كاهله! ووجد الفرصة سانحة لذلك في عيد الجلوس الملكي سنة 1934، فانشأ كلمة بليغة في تحيته بعنوان (آية الأدب في آية الملك) وأرسل بها إلى الرسالة لتنشر في العدد 66 سنة 1934، فلم تنشر به وإنما نشرتها الأهرام في صبيحة عيد الجلوس، وقرأها من قرأها. ثم كانت آخرة العهد الابراشي بعد ذلك بشهر واحد، فكتب من كتب من خصوم الرافعي يعددّ فيما يعدد من (جناية الابراشي باشا على الأدب) أنه كان يصطنع الأدباء ليحارب بهم سلطة الأمة، ويسخرهم للإشادة بحكم الفرد؛ وكان الرافعي عنده من صنائعه، وآيته هذا المقال وآيات أخرى من تلفيق الخيال!
وأرسل الرافعي إلى الرسالة بدل هذا المقال مقال (أرملة حكومة) وكانَ يعني به صديقنا الأديب المهندس محمداً، وهو شاب من (أدباء القراء) أبيقوري المذهب صريح الرأي؛ سلخ من عمره ثلاثين سنة ولم يتزوج، وبينه وبين الأستاذ إسماعيل خ صاحب (أستنوق الجمل) صلة من الود، وشركة في الرأي، وصحبة في البيت والندي والشارع. . .
لقينا مجتمعين في القهوة اجتماعنا كل مساء، فعاج يسلم ثم جلس، وسأله الرافعي:

(. . . وأنت فلماذا لم تتزوج؟)
قال المهندس: (لست والله من رأي صاحبي فيما حدثكم به أمس، إني لأريد الزواج وأسعى إليه؛ ولكن من أين لي. . . من أين لي المهر، وهدايا العروس، وأكلاف الفرح؟ إن الزواج عندي ليشبه أن يكون معجزة مالية لا قبل لي بها!. . . ولو قد عرفت أن هذه المعجزة تتهيأ لي بالبخل على نفسي والقصد في نفقاتي وباحتمال العسر والمشقة على نفسي وعلى من حولي - لما وجدت ما يشجعني على هذا الاحتمال. إني لأعرف من بنات اليوم ما لا يعرف غيري، أفتريدني على أن أحتمل هذا العنت سنتين أو ثلاثاً حتى يجتمع لي من المال ما يجتمع، من أجل الوصول إلى زوجة قد يكون لي منها شقاء النفس وعدو العمر. . .؟)
وقال الرافعي. . . وقال الشاب. . . وطوى الرافعي ورقاته وقد اجتمع له موضوع جديد. وتهيأت له الفكرة تامة ناضجة فأملى علي مقالة (أرملة حكومة) وبعث بها إلى الرسالة في البريد المستعجل لتدرك موضعها في عدد الأسبوع
وقلت للرافعي وقد فرغ من إملاء هذا المقال: (أراك لم تنصف صاحبنا المهندس فيما كتبت عنه وما نقلت من رأيه وما رددت به، إنه ليعتذر إليك بعذر لم أجد جوابه فيما أمليتَ عليّ، لقد صدق؛ فمن أين له. . . من أين له هو؟. . . إنه لحري بك أن توجه العتب والملامة إلى آباء الفتيات وإلى هذه التقاليد التي تفرض على الشاب الذي يريد الزواج ما لا طاقة له به إلا أن تكون له معجزة مالية!)
فضحك الرافعي وقال: (أتراه كان يتحدث بلسانك؟. . لقد أخفيتها عني يوم سألتُك؛ وليس ثمة ما يمنعني أن أصحبك غداً إلى ع. . . لأطلب إليه أن يعفيك من هذه المعجزة المالية!)
ومضت أيام، ثم دعاني ليملي عليّ (قصة زواج): قصة سعيد بن المسَّيب إمام . . . المدينة وعالمها الذي ردّ رسولَ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان وقد جاءه في خطبة ابنته لولي عهده الوليد بن عبد الملك، وزوَّجها من طالب العلم الفقير أبي وداعة على مهرٍ ثلاثة دراهم!
كانت هذه القصة هي جواب ما سألتُه تأخر إلى ميعاد. وكانت هي أول ما أنشأ من القصص لقراء الرسالة
وإني لأراني وقد بلغت هذا الحد، مسئولاً أن أتحدث عن قصص الرافعي، وكيف كان يؤلفها، وأول ما عالج منها، وطريقته فيها:
لم يعالج الرافعي القصة - فيما أعلم - قبل قصة سعيد ابن المسيب إلا مرتين: أما أولهما ففي سنة 1905، وكانت مجلة المقتطف قد سبقت بين الأدباء جائزة لمن ينشئ أحسن قصة مصرية، فأنشأ الرافعي قصته الأولى وكان عنوانها (الدرس الأول في علبة كبريت) ولم يحصل بها على جائزة، ولكن المقتطف كافأته بنشرها اعترافاً بما بذل فيها من جهد. وقد أعاد الرافعي نشرها بعد ذلك بثلاثين سنة، بعنوان (السطر الأخير من القصة) وسأتحدث عنها في موضعها
أما القصة الثانية فأنشأها في سنة 1925 بعنوان (عاصفة القدر) ونشرتها المقتطف أيضاً. ثم كانت قصة سعيد ابن المسيب في سنة 1934
على أن ثمة فرقاً بين هذه القصة والقصتين الأوليين؛ ذلك أن هاتين القصتين هو أنشأهما إنشاءً فلم يعتمد فيهما على حادثة في التاريخ أو حدث في كتاب؛ أما قصة سعيد بن المسيب فلها أصل معتمد في التاريخ فلم يكن له في إنشائها إلا بيان الأديب وفن القاص، وكانت
نواةً فمهد لها وأستنبتها فنمت وازدهرت. وفي الأدب القديم نوَيات كثيرة من مثل هذه النواة لم ينتبه لها الذين يدعون إلى العناية بأدب القصة في العربية، ولو قد تنبهوا لها لوجدوا معيناً لا ينضب كان حرياً بأن يمدهم بالمدد بعد المدد لينشئوا في العربية فناً جديداً من غير أن يقطعوا بين ماضينا وحاضرنا في التاريخ الأدبي؛ وبمثل هذا تحيا الآداب العربية وتتجدد، وإلى مثل هذا ينبغي أن تكون دعوة المجددين، لا إلى الاستعارة والاستجداء من أدب الغرب والجري في غبار كتابه وشعرائه
أعترف بأن الرافعي لم يكن يعرف عن فن القصة شيئاً يحمله على معالجتها . . . ويغريه على العناية بها؛ وقد قدمتُ القول بأنه كان يسخر ممن يقصر جهده من الأدباء

على معالجة القصة ولا يراه أهلاً لأن يكون من أصحاب امتياز في الأدب؛ إذ لم تكن القصة عنده إلا ضرباً من العبث ولوناً من ألوان الأدب الرخيص لا ينبغي أن تكون هي كلَّ أدب الأديب وفن الكاتب. وقد كان يعيب عليّ لأول عهدي بالكتابة أنني لا أكاد أكتب في غير القصة، وأنني أجعل بعض همي في دراسة الأدب أن أقرأ كل ما أستطيع أن أقرأ عن فن القصة وأسلوبها وطرائقها ومذاهب الكتاب فيها، وكان يرى مني ذلك تخلفاً وعجزاً ونزولا بنفسي غير منزلتها بين أهل الأدب!

على أنه إلى ذلك كان يجد لذة في قراءة القصة على أنها لون من ألوان الرياضة العقلية لا باب من الأدب؛ كما يشاهد رواية في السينما أو يقرأ حادثة في جريدة. وأحسب أنه كان يعتقد - على أنه كان لا يعرف التواضع في الأدب - بأنه لا يحسن أن ينشئ قصة ولا ينبغي له. واحسبه أيضاً حين انشأ قصة سعيد بن المسيب لم يقصد إلى أن تكون قصة، ولكنها هكذا جاءت على غير إرادته فكأنما اكتشف بها نفسه . . .

والحقيقة أن الرافعي كان يملك طبيعة فنية خصبة في القصة، يعرفها من يعرفه في أحاديثه الخاصة بينه وبين أصحابه، حين كان يعتمد العبث والتسلية، فيطوي من الحديث وينشره، ويكتم ويوري، ويورد الخبر إلى مورده، ويهزل ولا يقول إلا الجد؛ ويطوي النادرة إلا آخر الحديث، ويقول في آخر المقال ما كان ينبغي أن يكون في أوله.

وكان له إلى ذلك تعبير رشيق وفكاهة رائقة يخترعها لوقتها لا تملك معها إلا أن تضحك وتدع التوقُّر المصنوع؛ وإن له في هذه الفكاهة لمذاهب عقلية بديعة تحس فيها روحه الشاعرة وحكمته المتزنة وسخريته اللاذعة. ويكاد كثير من مقالاته يكون برهاناً على ذلك؛ فقلما تخلو إحداها من دعابة طريفة أو نكتة مبتكرة.

وهذه هي كل أدوات القاص الموفق؛ فما ينقصه إلا أن يدرس فنّ القصة ومذاهبها . . . ليكون فيها من السابقين المبرَّزين. ولكن الرافعي كان يجهل طبيعة نفسه، وكان له في كتَّاب القصة ما قدمت من الرأي، فكان تخلفه من هذين!

وحتى فيما أنشأ من القصص بعد ذلك، لم يكن له مذهب فني خاص يحتذيه ويسير على نهجه؛ ولكنه كان يقص كما تلهمه فطرته غير ملقٍ باله إلى ما رسم أهل الفن من حدود القصة وقواعدها؛ فإننا بذلك لنستطيع أن ندرس طبيعته وطريقته القصصية خالصةً له وحده، غير متأثر فيها بمذهب من مذاهب المتقدمين أو المتأخرين من كتاب القصص؛ على ما قد يكون فيها من نقص وتخلُّف، أو ابتكار وتجديد.

وطريقة الرافعي في كتابة قصصه غريبة، وغايته منها غير غاية القُصاص، فالقصة عنده لا تعدو أن تكون مقالة من مقالاته في أسلوب جديد؛ فهو لا يفكر في الحادثة أول ما يفكر، ولكن في الحكمة والمغزى والحديث والمذهب الأدبي، ثم تأتي الحادثة من بعد؛ فهو إذا هم أن ينشأ قصة من القصص، كان همه الأول أن يفكر في الحكمة التي يريد أن يلقيها على ألسنة التاريخ - على طريقته في إنشاء المقالات - فإذا اجتمعت له عناصر الموضوع وانتهى في تحديد الفكرة إلى ما يريد، يكون بذلك قد انتهى إلى موضوعه فليس له إلا أن يفكر في أسلوب الأداء، وسواءٌ عليه بعد ذلك أن يؤدي موضوعه على طريقة المقالة أو على طريقة القصة فكلاهما ينتهيان به إلى هدف واحد؛ فإذا اختار أن تكون قصة تناول كتاباً من كتب التراجم الكثيرة بين يديه، فيقرأ منها ما يتفق، حتى يعثر باسم من أعلام التاريخ، فيدرس تاريخه، وبيئته، وخلانه ومجالسه؛ ثم يصطنع من ذلك قصة صغيرة يجعلها كالبدء والختام لموضوعه الذي أعده من قبل؛ وإنه ليلهَم أحياناً ويوفق في ذلك توفيقاً عجيباً، حتى تأتي القصة وكأنها بنت التاريخ وما للتاريخ فيها إلا نادرة ويرويها في سطور، أو إلا أسماء الرجال . . . . . .

على أن الإبداع في ذلك هو قدرة الرافعي - يرحمه الله - على أنه يعيش بخياله في كل عصر من عصور التاريخ، فيحس إحساسه ويتكلم بلسان أهله، حتى لا يشك كثير ممن يقرأ قصة من قصص الرافعي في أنها كلها صحيحة من الألف إلى الياء . . .

وأحسب أن الرافعي لم يتخذ هذه الطريقة في تأليف القصص عن عمد واختيار؛ فلم يكن ثمة ما يدفعه إلى معالجة القصة واختيار طريقة فيها - ورأيه في القصة رأيه - ولكنه مذهب اتفق له اتفاقاً بلا قصد ولا معاناة؛ وإنما تأتى له ذلك من طريقته التي أشرتُ إليها في الحديث عنه عندما يهم بالكتابة؛ فقد أسلفتُ القول أنه كان يحرص

على أن يعيش وقتاً ما قبل الكتابة في جو عربي، فيتناول كتاباً من كتب الأدب القديم يقرأ منه فصلاً ما قبل أن يشرع في إملاء مقاله؛ فمن هنا كان أول الطريق إلى مذهبه في القصة. ولكل شيء سبب. وأحسبه لما همَّ أن يكتب عن (المعجزة المالية) في تقاليد الزواج وعن فلسفة المهر، وقد اجتمعت له الفكرة في ذلك، تناول - كعادته - كتاباً من كتب العربية يقرأ فيه ما تيسر، فأنفق له في مطالعته أن يقرأ قصة سعيد بن المسيب والوليد بن عبد الملك وأبي وداعة فرآها أشبه بموضوعه وفيها تمامه، فبدا له أن يؤدي موضوعه هذا الأداء فكانت قصة. وأذكر أنه لما دعاني ليملي عليّ هذه القصة قال لي في لهجة الظافر: (. . . لقد وقعت علي نادرة مدهشة من التاريخ تتحدث عن فلسفة المهر حديثاً لا أعرف أبلغ منه في موضوعه. . .!)؛ فمن ذلك أعتقد أن أول هذا المذهب في القصة كان اتفاقاً غير مقصود، صادف طبيعة خصبة ونفساً شاعرة فكان فناً جديداً

وأكثر قصص الرافعي من بُعد على هذا المذهب. على أن لكل قصة من هذه القصص - أو لأكثرها - أصلاً يستند إليه من رواية في التاريخ أو خبر مهمل في زاوية لا ينتبه له إلا من كان له مثل طبيعة لرافعي الفنية وإحساسه ويقظته؛ على أن أهم ما أعانه على ذلك هو عندي صلته الروحية بهذا الماضي وشعوره بالحياة فيه كأنه من أهله ومن ناسه؛ فإن له بجانب كل حادثة وكل خبر من أخبار ذلك الماضي قلباً ينبض كأن له فيه ذكرى حيةً من ذكرياته تصل بين ماضيه وحاضره، فما يقرؤه تاريخاً كان وانطوت أيامه ولكنه يقرأ صفحة من ماضيه ما يزال يحس فيها إحساس الحيّ بين أهله فما أهون عليه أن يترجمها من لغة التاريخ إلى لغة الأحياء!

وتماماً لهذا البحث سأحرص في فصل قادم على أن أرد كل قصة من قصص الرافعي إلى أصلها من التاريخ وأنسبها إلى راويها الأول، ليكون النموذج واضحاً لمن يريد أن يحتذي

ليتمم ما بدأ الرافعي على مذهبه في تجديد الأدب العربي.

(سيدي بشر)

محمد سعيد العريان

حواء

عَلَم على ديوان شعر طريف في الغزل العرفاني من نظم الأستاذ الحوماني تحت . . . الطبع تحمل الرسالة نماذج منه إلى قرائها في عالم الفن

حكمة المجنون

أمِنَ الفن كنتِ إذ كنتِ في العا ... لَم، أَم كنتِ عالماً للفنون؟
جُنَّ فيكِ الحكيم فافتَنَّ حتى ... كنتِ في فيهِ حكمةَ المجنون
أتناساكِ، والعوالم فوقي ... وأناجيكِ، والعوالم دوني
أفَكالناس كنتِ فيهم وسّوا ... كِ أبوهم من صَلصَلٍ مسنون؟
سَفَهٌ في اكتناهِ ذاتك أن نخل ... صَ منه إلى اكتناهِ الطين
إنما كنتِ كيفما شئتِ إذ قا ... ل لكِ الله كيفما شئتِ كوني

فم في فم

أسلميني واستسلمي لي فالح ... بُّ فم في فم وخدٌّ لخدَّ
واكشفي لي نهديكِ أشرفْ على ... غُرَّ لياليَّ في قرارة مهدي
هل تَرَينَ الحياة ثمةَ إلا ... قطرةً من دمي على كل نهد؟
عند عينيك لي من الأمل البا ... سم في الحب ما لعينيك عندي
فأعِلي خديك من دم عينيَّ ... وزيدي بما يعلاّنِ وجدي
ودعيني أشمُّ منكِ شذا الح ... بِّ فما يستفزُّني عطر وردِ

الحوماني

أثر المرأة في النهضة القومية

للآنسة فلك طرزي

في هذه الآونة العصيبة التي تجتاز فيها الدول الأوربية أزمة سياسية خطرة قد تؤدي إلى حرب طاحنة تقضي على ما بذلته الأمم المتمدنة من جهود في سبيل رفع المستوى الإنساني وإيصاله إلى المثل الأعلى المنشود - يجدر بنا نحن الذين تضعنا حالنا الحاضرة إزاء مشاكل دولية دقيقة، أن نلقي نظرة على أحوالنا الشخصية منها

والعامة، نظرة نافذة ثاقبة نسبر بها أغوارنا، لنفحص على بينة ووضوح كل ناحية من نواحي هذه الأمة، فإن اهتدينا إلى تشخيص العلة الأساسية التي تسبب لنا أنواعاً من الآلام والأسقام، استطعنا بعد دقيق الفحص وبُعْد التأمل، إيجاد العلاج الذي يبرئنا شيئاً فشيئاً من هاتيك الآلام والأسقام

ولقد جرينا على عادة لست أدري أأنسب ما نحن فيه من قلق وفوضى إليها، أم أنسبه إلى الظروف الطارئة التي كانت الحائل بيننا وبين ما نصبو إليه جميعاً من واسع الآمال والأماني التي نبتغيها كاملة صحيحة؟

جرينا على أن نبذل في مجتمعنا الكثير من بضاعة الكلام، ونعرض على الأنظار أشكالاً مختلفة من أجناسها وألوانها ثم نهمل العناية بتحويل هذه البضاعة إلى صنوف من العمل المثمر، لنبصر بالعين ما سمعناه بالأذن، ونلمس باليد ما صورناه بالكلام وتأصلت هذه العادة في أنفسنا بحكم ما أوليناها من شديد الرعاية والعناية، وأخذت تضغط بقوة أثرها الذي تغلغل في كل خفية من خفايا نفوسنا على بقية القوى الكامنة فينا التي في استطاعتنا إذا تعرفنا الوسائل الممهدة لسبيل إبرازها - أن نستغلها أحسن استغلال فنستعين بما تمنحنا من رغبة في العمل وصبر على الجهاد، على تذليل العثرات التي قد تعترض سبيلنا أثناء قيامنا بتحقيق أقدس الأهداف وأنبلها

فأي كلام يبشرنا بنهضة اجتماعية مباركة تضاهي النهضات الأوربية الحديثة لم نسمعه؟ وأي كلام ينبئنا فحواه بمستقبل نير وضاح يبدد سطوع شموسه ما تراكم من سحب وغيوم على سماء حياتنا فحجب رونقها وصفاءها، لم نصغ إليه؟

بل أية آمال وضاءة لألأءة لم نبصرها شذرات متفرقات في هبوب الريح بعد أن أصغينا إلى رنين ضحكاتها يتردد بين قيم الألفاظ وجميل العبارات؟

لقد سمعنا كلمة (البشرى) تتردد على الأفواه حلوة فحسبناها لفظاً مبطناً بحقيقة تحمل إلينا ما في الحياة من معاني الكمال والحق

وسمعنا كلمة (المستقبل) ترتل أناشيدها الشفاه، فحسبناها لحناً مستمداً من القلب تكمن وراءه الحيوية المبدعة الخالقة

ثم أصغينا إلى صوت الأمل تتجاوب نبراته بين السطور، فحسبناه أغنية تهدهد أنفسنا المظلمة المكدودة على نغماتها وتدعونا إلى سنة من عميق النوم ولذيذه، فلبينا ما حسبناه صواباً ورحنا في سبات عميق استغرق سنين طوالاً فقدنا خلالها الكثير من الصفات الشخصية والشعبية، فخملت حيويتنا، وبلد تفكيرنا، وانحصرت عقليتنا ضمن ذاكرة تحدها الأوهام وأشباح التقاليد البالية التي قضت عليها وبددت ظلماتها أنوار العلم والثقافة

ولما استيقظنا من نومنا، واستفقنا من سباتنا، تلفتنا يمنة ويسرة، وأدرنا رؤوسنا ناحية الغرب وناحية الشرق، فإذا بكل من هذه اللفتات تضع أنظارنا المشدوهة إزاء تطورات قومية وشعبية، وتنبه حواسنا المخدرة على انقلابات فكرية وعقلية، فمن أقاصي الشرق إلى أقاصي الغرب، تحفز نحو المجد والتقدم، كل أمة تجاهد وتستميت في سبيل التفوق وفرض السيادة على العالم سواء من الناحية العلمية أم الفكرية، أم التجارية. وقد رأينا كيف أخذت اليابان تكتسح الأسواق العالمية ببضائعها وتجارتها. وعمدت بعض الأمم إلى التمسك بنظرية تفوق جنسها على بقية الأجناس البشرية لبلوغ ما تصبو إليه من عزة وقوة وفخار. كل هذه القوى الفعالة التي مهدت لها سبيل البروز والظهور الحرب العالمية الكبرى وما ينتج عنها من التطورات والانقلابات تجري حوادثها أمام أنظارنا، فنسمع بالخيال قرقعة الأسلحة والمدافع تدوي وتنذر بالويل والتهديم، وهي مازالت آلات مفككة تحت آلات المصانع، وندرك بالعقل مبلغ الرقي الذي توصلت إليه في الغرب الآداب على تنوع بحوثها والعلوم على مختلف أنواعها، والفنون على تعدد فروعها، تلك القواعد الثلاث التي لا تقام حضارة أمة بغير أسسها، ونتعرف بالاختبار أي أثر بليغ تتركه التربية العائلية في نفوس الناشئة، وأية توجيهات مختلفة توجهها المبادئ التي تتلقاها في محيط الأسرة حين الصغر، فالناشئة التي تزدهر سنو طفولتها في وسط يدرك الحياة على حقيقتها ويتعمق في معانيها ويسبر غاياتها، هي غير تلك التي تنمو وتشب في آخر لا يدرك من الحياة إلا سطحها، ولا يفقه من معانيها وغاياتها إلا قشورها دون لبابها

ثم نلقي نظرة إجمالية إلى تلك القوى التي تسير العالم المتمدن فنراها منهزمة مرة،

منتصرة أخرى، ناهضة تارة، منحطة تارة أخرى، مجسمة في حال نهضتها وانحطاطها، وانتصارها وانهزامها، صورة الإنسان في آلامه وآماله وجبروته وعجزه، وبطشه وضعفه، وطموحه ومطامعه، صورة الإنسان الذي كلما اكتمل تكوينه العقلي والجسدي، اكتشف نقائص جديدة تخل من توازنهما فيعمد إلى مختلف الوسائل يتوسل بها لتقويتها وضبط هذا التوازن بينهما

وكثيراً ما يتعثر بالصدمات فينهزم حيناً تعود بعده نغمة الأمل تتنفس في صدره حارة تمنحه قوة أشد بأساً من كل قوة تنسيه فشله وهزيمته، فيعاود الكفاح والمناضلة من جديد، وكلما عراه ضعف يقاومه بالإرادة والطموح النفسي إلى أن يتغلب عليه

فأي شعور يعترينا يا ترى ساعة يتجسم في مخيلاتنا بعض من صور هذه القوى التي عرضتها الآن؟

بل أي إحساس نتحسسه عندما نأخذ بتقييد كل صنف من صنوف الرقي الذي أمدته الأمم كل من هذه القوى ومهدت له السبيل لتحقيق غاية من الغايات؟

لا شك أننا نتحسر وتنقبض صدورنا ألما كلما تنازعنا فكرة نهضتنا القومية الفتية وإلى جانبها النهضات القومية الأخرى التي قطعت شوطاً بعيداً في مضمار التقدم والحضارة وثقن أيتها السيدات أنني لا أبني من تساؤلي هذا إضافة حسرة جديدة إلى ما نشعر به من حسرات تتمشى بين جنباتنا كلما شاعت في نفوسنا مرارة هذا التساؤل

وإني ما تساءلته قط إلا ليقيني بأنه يدور في خلد كل منا، وإننا جميعاً مذ أخذت أنفاس اليقظة تنفح على وجوهنا نفحات الجد والتوثب، لا نفتأ نولي أنظارنا ناحية الغرب نتبع حركاته وخطواته ونرقب تطوراته، نستعين بما يسن من قوانين ودساتير على تنظيم هيئاتنا الحكومية والإدارية، ثم نقبس عن مدنيته قبسات تجعل حياتنا شبيهة بالحياة الغربية من بعض نواحيها

ولِمَ لا نتساءل، وبالتساؤل نتعرف مدى شعورنا ومبلغ قوته وغزارته؟

ولم لا نتساءل وبالتساؤل نزداد إحساساً بنقائصنا؛ وكلما ازددنا إحساساً بها ازددنا رغبة في التبرؤ منها؛ وليس الشعور بها شعوراً دقيقاً صحيحاً إلا بشيراً بزوالها

فنحن إذن المرضى، ونحن إذن الأطباء، نسمع أنات الألم تزفرها صدورنا المكلومة فنعكف على هذه الصدور نشخص داءها ونتبين علتها، فإذا ما انكشفت العلة والداء سهل علينا وصف الدواء الذي يجدد قوى أمتنا ويشفيها من آلامها

إن أمتنا مريضة في هذه الآونة أيتها السيدات؛ ومرضها لا تشكو منه ناحية جسمها دون بقية النواحي، إنما هو مرض يشمل جميع أطرافها ويخشى عليا من فتكه، إذا لم نسارع إلى إنقاذها من براثنه هي مريضة في تفكيرها، مريضة في ثقافتها، مريضة في عقليتها، مريضة في أخلاقها، ثم هي مريضة بسبب العلة المزمنة التي أصابت موضع القلب منها

فأي شأن من هذه الشؤون يعالج قبل الآخر يا ترى، ليتم لنا ما نريد ونبلغ ما نصبو إليه جميعاً من صميم أنفسنا؟

أنعالج ثقافتها، والعقلية التي تهضم هذه الثقافة وتستسيغها مازالت قلقة مقيدة؟

أم نعالج أخلاقها، والأداة التي تعالج بها هذه الأخلاق - وأعني بها الإرادة - ما برحت ضعيفة واهنة؟

أم نعالج الفكر، والصلة الوثقى التي تربط الفكر بكل ما في هذا الكون من خفايا الأمور وأسرارها مفككة الأجزاء؟

أنا أرى أن أول شأن يجب معالجته قبل بقية الشؤون هذا القلب، أيتها السيدات، لأنه ميزان الحياة الدقيق، والصلة التي تربط الإنسان بها، ومتى قامت بين الإنسان والحياة رابطة متينة تغلغل فكره في زواياها وخلاياها وأدرك كل معنى من دقيق معانيها، وشعر بها تتفجر في أعماقه قوة وحيوية

فإن كان القلب سليماً خفاقاً، جرت الحياة في شرايين الجسم حارة متدفقة

وإن كان سقيماً عليلاً بلدت حركتها واعتراها كثير من الضعف والخمول

فإذا نحن عالجنا القلب ودققنا في تشخيص دائه، فمعنى ذلك أن كل واحدة منا انعكفت على ذاتها، وأخذت تفحص هذه الذات على نور من البينة، فإن بدا لها ضيق في ناحية من نواحيها وسعته، وإن اتضح لها نقص قومته، لأن المرأة من هيكل الأمة

بمثابة القلب من جسم الإنسان يضبط توازنه، وينظم الحركة الحيوية فيه
وقد يعترض على قولي هذا معترض، ويخالفني مخالف، مبيناً ما يزعمه من خطأ هذا القول. غير أن في نفسي من العقيدة المبنية على عديد التجارب، ما يجعلني أومن بهذه الحقيقة إيماناً صحيحاً لا يخامره شك ولا يزعزعه ريب.
ولم لا نقر بها وكلنا يعلم أن المرأة مربية الرجل ومهذبته، ومعلمته الأولى في مدرسة الحياة؟
ولم نرتاب في صحتها وقد علمنا الماضي من تاريخ الإنسانية وحاضرها أن نصف الأمة لا يصلح إذا بقي نصفه الأخر مشلولاً؟
بل لم لا نأخذ هذه الحقيقة بعين الاعتبار، وقد لمسنا أثر المرأة البعيد واضحاً في تكوين نفسية الطفل، وعرفنا مدى تأثيرها في حضارة الأمم؟
فنحن إذا نفذنا إلى دخيلة أمتنا وتغلغلنا في كل مناحيها، مرهفين السمع إلى دقات الحياة ينبض بها قلبها، فماذا نسمع أيتها السيدات؟
أنسمع دقات يؤلف مجموعها وحدة موسيقية جميلة اللحن، منسجمة النغم، تطرب لسماعها القلوب وتسر؟
كلا! إننا لا نسمع إلا دقات متفرقات، تنبض مضطربة حائرة، لا تكاد دقة منها تنبعث من بين الضلوع متزنة قوية، حتى تتبعها أخرى وأخرى، تعيد القلب إلى مجرى الفتور والخمول الذي كان عليه.
فالمريض إذاً من جسم أمتنا هو القلب، وأول الأدواء الذي تجب مداواته هو داؤه لأن عقل الأمة المفكر الذي هو الرجل لا يصبح دقيقاً صحيحاً إلا إذا شفي هذا القلب وعاد ملاذاً أميناً يأوي إليه العقل ليجدد بقربه قواه الفكرية، ويستعين ببصيرته النافذة على استكشاف ما مضى عليه من أمور.
منذ أيام كنت أتحدث إلى عالم جليل وزعيم في طليعة الزعماء الذين أحيوا الحركة القومية في هذه البلاد وبعثوها حية من تحت أردية الموت. ومما قال لي هذه الجملة التي ينطوي معناها الدقيق على حقيقة بليغة:
(إذا أبصرت عبقرية تشع أنوارها وتلألأ في سماء المجد ساطعة، فأيقني أن ورائها امرأة توقد جذوتها وتبعثها من مكمنها.)
عبقرية تبعث فيها الحياة امرأة؛ وتوقد شعلتها المقدسة وتحولها نوراً ينشر ضيائه اللامع
على مشارق الأرض ومغاربها، مخترقاً النفس البشرية موضحاً ما غمض من أمورها، كاشفاً ما خفي من ألغازها؟
إنها نغمة انبعثت أول ما انبعثت من أرض عربية، ثم انتشرت على بقية الآفاق فغناها أبناء الغرب وما زالوا يتغنون بها بينما نحن نسينا لحنها
إنها نغمة انبعثت إلى الوجود يوم انبثق فجر الرسالة العربية من آفاق غار حراء، وأخذت أشعته المنيرة تخترق قلب كل عربي فتبدل كفره إيماناً، وشكوكه ثقة وعقيدة، ويوم كانت إلى جانب الرسول العربي الكريم امرأة تحيي عبقرية النبوة في قلبه كلما أصابتها فرية من سهام المفترين
غير أنني لا أحمل المرأة وحدها تبعات هذا النسيان؛ فلشريكها الرجل نصيب غير ضئيل منها، لأنه أهمل شأنها زمناً طويلاً وأسرف في هذا الإهمال، فكان من جرائه أنها بقيت قابعة في زاوية مظلمة من زوايا الحياة لا تشترك في أمر من أمورها حتى تكون لدى الكثير من الرجال اليقين بأنها مخلوق وجد ليحيا على هامش الحياة، وأن جميع حقوقها وامتيازاتها محفوظة للرجل في كل زمان وفي كل مكان
لست في حاجة، أيتها السيدات، إلى إثبات خطأ هذا الادعاء، لأن جسامة خطئه واضحة فيه. بل ما أريده هو كشف اللثام عن إدعاء لست أدري أيسر التصريح به أسيادنا الرجال أم يغضبهم
إن إسراف الرجل في أنانيته قد حمله على إبعاد المرأة عن جد الأمور وخطيرها معللاً ذلك بسبب تجردها من الصفات العقلية والفكرية التي تمكنها من إدراك دقائق هذه الأمور وتقدير خطورتها
وكأني بهذه الدعوى بل هذه النظرية المبنية على غير الواقع قد سرت بالعدوى إلى المرأة فأخذ وهمها يستولي عليها مع مرور الزمن شيئاً فشيئاً حتى أضحت لديها حقيقة

واقعة يخيل إليها أنها تبصر وميضها يشرق من نوافذ عقل الرجل ناسية أنها الأم التي أنشأته طفلاً وكونته رجلاً، وأنها الزوج التي قاسمته الحياة على السراء والضراء. فنشأ فيها من جراء هذه الخاطئة ضعف أضاف إلى وضعها الطبيعي ضعفاً آخر، وجعل منها برهاناً يدعم به الرجل صحة دعواه، ودليلاً يثبت خطأ هذه الدعوى

وقد انطبعت في المرأة السورية هذه العقيدة المغلوطة، وتمكنت من عقلها إلى حد حملها على اليقين بصحة النقص القائم بينها وبين الرجل، وأنها حقاً دونه عقلاً وفكراً وإدراكاً، وتناست أن مستواها العقلي والفكري كان قد يساوي المستوى العقلي والفكري عند الرجل، لو أن أنانية هذا لم توح إليه بإهمال شأنها وإهمال رفع مستواها إلى أوج الكمال النسبي

فأخذت نظرته إليها - أي الرجل - تنحط مع الزمن وتنحصر ضمن نطاق محدود، وأخذ اعتباره إياها يتضاءل يوماً بعد يوم، حتى أصبح ذات يوم وفي نفسه نحوها احتقار يبيح لسانه الحط من قيمتها واعتبارها وسيلة من وسائل اللهو والتسخير

فليس عجباً أن نفيق بعد هجعتنا الطويلة فنبصر حال المرأة في أوساطنا متقهقرة، وقد أدركنا سر هذا التقهقر. وليس بمستغرب أن نرى الرجل في هذه الأوساط ناقص التربية ناقص التهذيب وقد وقفنا على سبب ذلك النقص. إنما المستغرب في كل هذه الأمور أن ندرك سرها وأسبابها ثم نقف عند حدود الإدراك دون أن نتجاوزه إلى حيز العمل، حيث تظهر حقيقة المرأة ويسطع جوهرها

وفي المرأة أيتها السيدات صفات فطرية مفقودة عند الرجل فهي حساسة بغريزتها رقيقة بطبيعتها، والحس والرقة صفات إذا توصلت المرأة إلى صقلها وتهذيبها استحالت من مخلوق بشري إلى ملاك سماوي يحمل بين جوانحه معاني الرأفة والحب والسلام

والمرأة شاعرة بطبعها وفطرتها، فإن هي عرفت كيف تنمي هذه الشاعرية فيها، وعرفت كيف تغذيها، تحولت كوكباً ينبعث من صميم الحياة نوراً ينشر على هذه الحياة أشعة من الود والصفاء

فأثر المرأة لا يظهر جلياً واضحاً في النهضات القومية ولا يخلف بعده أفضالاً وحسنات ترفع الأمة من الحضيض إلى العلاء، إلا في حين يستيقظ فيها الحس العميق بوجوب تهذيب الصفات الطبيعية التي فطرت عليها، وتحويلها من غريزة إلى شعور سام رفيع، يجعل من رسالتها إلى الأمة، رسالة الحياة وكل ما تحوي هذه الحياة من معاني المجد والحضارة والازدهار.

فلنستعن سيداتي بما ترك لنا أولئك الذين أدركوا النفس البشرية على حقيقتها، واستطاعوا بقوة بصيرتهم اختراق لفائفها والنفاذ إلى أعمق موضع فيها، لنستعين بأنوار نفوسهم على

إنارة نفوسنا، فإذا ما نفذت هذه إلى أعماقنا واستقرت فتحت أعيننا على عوالم من مختلف المشاعر والعواطف تحيا في هذه الأعماق فتهدينا إلى كل موضع من مواضع السحر والجمال التي يحويها العالم الخارجي لنتأمل مفاتنه ونصغي إلى موسيقاه، فمن كان له قوة التأمل وقدرة الإصغاء أدرك كبائر الحياة وصغائرها. ويخيل إلي أن نجاح أمتنا وحضارتها متوقفان على دقة البصر وإرهاف السمع. ومن غير المرأة التي فطرت على الإحساس يدرك هذه الدقائق؟.

(دمشق)

فلك طرزي

الثقافة الإسلامية

مصادرها - 1

. . . . . لمناسبة اهتمام معالي وزير المعارف بأمر الثقافة الإسلامية

. . .

للأستاذ إبراهيم جمعة

ثقافة العرب الجاهليين - العرب يستقبلون الإسلام أبعد ما يكونون عن علم أو فلسفة - أثر اليهود والنصارى فيهم - أثر النساطرة من أتباع الكنيسة الشرقية - فضل الإسكندرية على الثقافة الإسلامية - مراكز العلم في حران ونصيبين وجنديسابور - مهمة النساطرة والسريان في النقل عن الإسكندرية إلى الشرق الأدنى - اشتغال

العرب بالعلم والفلسفة متأثرين بالنساطرة وبالصابئة في حران - حركة النقل وما نقل العرب عن الأمم الأخرى

الثقافة الإسلامية كما يؤخذ من اسمها وليدة الإسلام، فالإسلام، هو العامل الوحيد في نشوئها، والعرب هم حملة لواء الإسلام فهم إذن الكواهل التي نهضت بهذه الثقافة وأقامت على الزمن بنيانها المكين. ولم يكن العرب ليؤدوا هذه الرسالة الكبيرة وهي رسالة علم جامع شامل، لو لم يكن في طبيعتهم لذلك استعداد وقبول

والعرب الجاهليون أميون، أبعدتهم تضاعيف شبه الجزيرة العربية عن الأمم ذات الحضارة، وعزلتهم عنها انعزالاً لم يخفف من حدته سوى خروج بعض الأعراب وبخاصة من قريش في التجارة إلى الشام ومصر. وقد ذقت أخفاف الإبل على وجه الجزيرة العربية طريقين هامين: الأول طريق حضرموت والبحرين والخليج الفارسي، والثاني طريق اليمن والعسير ومكة والبطراء، فإذا ما انتهت المتاجر إلى خليج فارس وتخوم الشام كان اختلاط بين العرب وسكان الحضر، وكان تبادل في التجارة، وكان امتزاج فيه مصلحة مادية، وفيه تبادل أفكار، وفيه أخذ وعطاء فكريان إلى جانب الأخذ والعطاء المعروفين في التجارة

وقد حل عرب الحجاز محل اليمنيين في السيطرة على الحركة التجارية وعلى مسالك التجارة قبل انبثاق فجر الإسلام بقليل، وكاد عرب الحيرة بسبب شدة ولائهم لفارس، ورغبتهم في تنحية ما عداهم من الأعراب عن خدمة الفرس يستأثرون بتجارة إيران. وظلت متاجر الهند والحبشة والبقاع الخصبة في جنوب شبه الجزيرة العربية تنقل إلى تلك البلاد حتى جاء الإسلام فشغل العرب بالجهاد في سبيله، وانصرفوا إلى الفتح، وما يصحبه من شواغل، واستوطنوا أرضاً جديدة أو قل استوطن كثير منهم البلاد المفتوحة فوجدوا فيها غناء صرفهم عن الكدح في سبيل العيش على النحو الذي عرفوه في جاهليتهم، وكفاهم سواد العراق أول الأمر مشقة السعي المضني وراء الرزق في هجير البادية - ثم استقبلتهم وديان الشام بما خصها الله من خير، وانفتحت لهم أبواب مصر فأبدلتهم بقتاد الصحراء جنة فيحاء، فكان استقرارهم وامتزاجهم بالعناصر الأجنبية سبباً في التحضر وترك عيشة البداوة، والاقتباس الذي زاد على الزمن وانفرجت دائرته، فأحاطت بالشيء الكثير مما عرفت أمم إيران والجزيرة والشام ومصر من مظاهر التمدن. وعلى هذا كان اختلاط العرب بالأمم المجاورة قبل الإسلام بسبب التجارة وامتزاجها بها بعد الإسلام بسبب الفتوح أول خطوة في سبيل تكون ثقافة جديدة لم يكن يعرفها العالم من قبل

هؤلاء العرب الذين شهدوا الحضر شهوداً موقوتاً وهم يقومون على أمر قوافل التجارة أو الذين نزلوه واستقر بهم المقام فيه جنوداً أو بطوناً مهاجرة لم يكن لهم من مظاهر الثقافة إلا ما كان للعرب الجاهليين عامة من لغة وشعر وقصص وأمثال. وينسب إليهم بعض المؤرخين دراية بالطب والتنجيم والأنساب والأنواء. وليس من العدل في شيء أن ننسب إلى جماعة هبط مستواهم الاجتماعي إلى مثل ما هبط مستوى عرب الجاهلية علماً منظماً. بل إن كل ما عرفه العرب من هذا القبيل معلومات تقوم على الخبرة التقليدية التي كثيراً ما تخطئ وقليلاً ما تصيب. يقول الأستاذ أحمد أمين في كتابه فجر الإسلام: (ومن الخطأ أن تسمى هذه الأشياء علماً كما يفعل الألوسي وغيره فيقول - ومن علومهم علم الطب وعلم الأنواء وعلم السماء، ثم يشيدون بذكر ذلك حتى يوهموك أنه كان عندهم علم منظم بأصول وقواعد، فإن ما كان عندهم من هذا القبيل لا يتعدى معلومات أولية وملاحظات بسيطة لا يصح أن تسمى علماً ولا شبه علم)

وقد جهل العرب الجاهليون الفلسفة جهلا تاماً وكل ما عرف عنهم خطرات فلسفية يقول عنها الأستاذ أحمد أمين أيضاً:

(هناك فرق كبير بين مذهب فلسفي وخطرة فلسفية؛ فالمذهب الفلسفي نتيجة البحث . . . المنظم، وهو يتطلب توضيحاً للرأي، وبرهنة عليه، ونقضاً للمخالفين وهكذا. . . وهذه منزلة لم يصل إليها العرب في الجاهلية. أما الخطرة الفلسفية فدون ذلك لأنها لا تتطلب إلا التفات الذهن إلى معنى يتعلق بأصول الكون من غير بحث منظم وتدليل وتفنيد، وهذه الدرجة وصل إليها العرب)

إذن استقبل العرب الإسلام وهم خلو من كل علم صحيح أو فلسفة حقة. ويجدر بنا قبل أن نتعرض إلى الموارد التي تطرق إليها العرب ونهلوا منها علماً وفلسفة خارج ديارهم - أن نذكر شيئاً عن أثر الديانتين اليهودية والنصرانية. أما اليهود فالمعروف أنه كانت لهم جاليات في يثرب وتيماء وفدك وخيبر ووادي القرى. وللثقافة اليهودية ناحيتان: الأولى مادية، فقد نشروا بين الأعراب معرفة بضاعة المعادن ولاسيما الأسلحة، كما عرفوا الزراعة. والأخرى معنوية، فقد بثوا بين الأعراب كثيراً من تعاليم التوراة قبل الإسلام، فعرف هؤلاء شيئاً عن البعث والحساب والعقاب، وظل تأثير اليهود باقياً على شكل أساطير وخرافات، ومن ذلك ما بثه في الإسلام كبار من أسلموا من اليهود مثل كعب الأحبار الذي نقل إلى الإسلام فكرة (تحريم التصوير) وهو في ذلك ناقل عن تعاليم اليهود ومتأثر بطبيعة الجنس اليهودي، تلك الطبيعة التي تكره التصوير لأنها تعجز عنه وتقصر دونه

ومن أهم المصادر الثقافية التي أخذ عنها العرب أيضاً المسيحيون في شبه الجزيرة قساوستهم ورهبانهم ومنهم الشعراء والبلغاء أمثال أمية بن أبي الصلت وقس بن ساعدة

واليهود والمسيحيون متأثرون بالثقافة اليونانية التي ازدهرت على شواطئ البحر الأبيض المتوسط وغزت بلاد الشرق الأدنى وامتزجت بنفوس سكانه، واتخذت لها مواطن تركزت فيها أشهرها حران وإنطاكية والإسكندرية. فكأن شيئاً من الثقافة اليونانية كان قد وصل العرب عن طريق انتشار اليهودية والمسيحية في بلاد شبه الجزيرة قبل الإسلام، ولكن الأثر البالغ لهذه الثقافة الإغريقية وصل إلى العرب عند ما انطلقوا من عقالهم والتقوا خارج بلادهم بممثلي هذه الثقافة في مراكزها أو بعبارة أخرى في البؤرات التي تركزت فيها

وأشهر الأوساط الثقافية التي كان لها على العرب فضل لا يعدله فضل (الإسكندرية) مدينتنا

العظيمة، ففيها اختلط ما كان للإغريق من علم وفلسفة، وهناك امتزجت الفلسفة بالدين امتزاجاً جعل منها ضرباً من ضروب التصوف الفلسفي. ولا غرابة في ذلك فقد كان معظم المشتغلين بالعلم في العصور الوسطى من رجال الدين وقد لجأ هؤلاء إلى الفلسفة والمنطق يؤيدون بهما تعاليم المسيحية

واشتهر النساطرة واليعاقبة من أتباع الكنيسة الشرقية باحتفاظهما بعلوم الأقدمين وفلسفتهم، وهم في واقع الأمر حلقة الاتصال بين العلمي اليوناني وبين العرب. وكان النساطرة مترجمين لكثير من كتب الفلسفة واللاهوت عن اليونانية إلى اللغة السريانية كما حذقوا الطب والكيمياء وعرفوا بهما في فارس وفي البلاط العباسي. والعلاقة وثيقة - كما يقول الأستاذ الدكتور بطلر في كتابه (فتح العرب لمصر) - بين لغة السريان وبين العلم. والظاهر أنه كان لابد لكل من يريد أن يحذق علوم الأقدمين من الإلمام باللغة السريانية أولا، وأن يتتلمذ على أساتذة من النساطرة ثانياً

ويهمنا بنوع خاص كمصريين أن نتعرف مقدار ما أفاد العرب من الإسكندرية. والمؤرخون العرب والسوريون يعتبرون الكاتب والمؤرخ (حنا الأجرومي) أصدق ممثل للحركة العلمية الإسكندرية وآخر رجالها، وإليه وإلى الفيلسوف السفسطائي (اصطفان الإسكندري) وإلى اصطفان الأثيني وهو طبيب مؤلف ومعلق على بعض تصانيف (جالين) الطبيب الإسكندري يرجع الفضل فيما نقل العرب من علوم الإسكندريين

وحنين بن اسحق من أكبر الناقلين لعلوم الإسكندرية يذكر لمناسبة نقله لمقالات جالينوس إلى السريانية والعربية أنه قبل الفتح العربي بقليل تضافرت جهود أطباء الإسكندرية على جمع سبعة من مصنفات جالينوس الطبية، أصبحت أساساً للدراسات الطبية في وقت كاد لواء العلم فيه يسقط أو قل سقط بالفعل في مدينة الإسكندرية، اللهم إلا إذا اعتبرنا تلك الاجتماعات التي كانت تعقد ليتذاكر فيها المجتمعون من محبي العلم عامة والطب خاصة بعضاً مما وضع جالينوس، أو بنقلها إلى لغة أخرى من غير كبير تقيد بتعاليم جالينوس نفسه

وممن يذكر المؤرخون العرب أنهم اشتركوا في العمل الطبي الكبير في أخريات أيام العلم الإسكندري: حنا فليوتس واسطفان الإسكندري وجسيوس وبلاديوس ومارينوس، الذين

علقوا على مؤلفات أبقراط وجالين
ومما شهد العرب في الإسكندرية مدرسة فلسفية مسيحية أعقبت المدرسة (الأفلاطونية الحديثة) التي كان يتزعمها (الشيخ اليوناني) أفلوطين الإسكندري كما يصفه الشهرستاني
ومن أشهر فلاسفة هذه المدرسة الفلسفية المسيحية الفيلسوف المسيحي السرياني (حنا الأفامي) نسبة إلى أفامية إحدى مدن سوريا الشمالية، والطبيب (سرجيوس الرسعني) المعروف باسم تيودوسيوليس الذي نقل عدداً لا بأس به من مقالات جالينوس إلى اللغة السريانية. وقد أنتجت هذه المدرسة نفسها الطبيبين المصنفين (بولس الأجانيطي) و (أهرون) وقد أثر عن هذا الأخير كتابه (الفتاوى الطبية) الذي نقل من السريانية إلى العربية وكان له أثره المحسوس في الطب الإسلامي في أوائل عهد العرب بالاشتغال بالعلوم الطبية
ومن الطريف أن نعرف كما يقول الأستاذ الدكتور ماكس مايرهوف أن الحجة الذي يحدثنا عن مدرسة الإسكندرية في عصر من عصور اضطراب الإسكندرية وركود حركتها العلمية إنما هو (الفارابي) الفيلسوف العربي الذي عاش في القرن العاشر الميلادي، يقول في كتابه عند ذكر الفلسفة اليونانية وهو كتاب مفقود الآن إلا فقرات منه وعاها كتاب (عيون الأنباء) لابن أبى أصيبعة تفيد أن إمبراطور المسيحيين كان يتدخل في حرية البحث والدراسة ويقصر ما يدرس من علم المنطق في كتب أرسطو على نقط لا تتعدى باب (الأشكال الوجودية) وكان يحرم دراسة ماعدا ذلك لتعارضه مع التعاليم المسيحية. ولا يهمنا ذلك إلا للدلالة على أن الإسكندرية لم تصبح قبيل الفتح الإسلامي وسطاً صالحاً للدراسة الحرة كما كانت من قبل، بل أصبحت الحركة العلمية فيها وقفاً على رجال الدين؛ ولم يكن من خير العلم أن يتناوله رجال الدين؛ فيخضعونه للدين وسلطانه
ويذكر الفارابي أيضاً أن أستاذه المسيحي (يوحنا بن حيلان) رفض أن يعلمه فصولاً بذاتها من علم المنطق لأرسطو كان محظوراً على فلاسفة الإسكندرية في ختام القرن التاسع الميلادي تعليمها إلا حين أبيح ذلك في وقت ما للمسلمين دون سواهم
ولا يعزب عن البال أن الحركة العلمية وإن تكن قد فقدت في الإسكندرية مرتعها الخصب فقد وجدت في النسطورية المنتشرة في الشرق الأدنى وتطرقها إلى جوف الإمبراطورية
الساسانية ما أيقظ في الناس هناك رغبة صادقة في العلم في شكله الهليني السرياني
ويعرف التاريخ أنا الإمبراطور (زينو) كان قد أمر بتحطيم مدرسة علمية نسطورية عام 489م كانت مزدهرة في (أودسا) فأعقبتها على الأثر مدرسة قامت في (نصيبين) ببلاد الفرس. ونرى أنه قامت بجند يسابور بإقليم خوزستان بفارس أيضاً مدرسة طبية ذات بال ظلت حتى القرن التاسع الميلادي، وفيها تخرج كثير من الأطباء الذين خدموا بلاط الخليفة العباسي ببغداد وجلهم من المسيحيين. ويهمنا ذلك للدلالة على أن النساطرة كانوا على أقل تقدير منذ القرن الخامس الميلادي يشتغلون بالعلم وبالطب خاصة في أودسا ونصيبين وجنديسابور من أعمال فارس فلم يكن غريباً أن يكونوا حلقة الاتصال بين علم الإسكندرية والعرب فيكون منهم نقلة هذا العلم والحفظة عليه في عصر عصفت فيه أنواء الاضطراب فهددت الثروة العلمية الهيلينية بالزوال
ويحدثنا الأستاذ ماكس مايرهوف عن وثائق قيمة يتضمنها كتاب تاريخ الحكماء لابن أبي أصيبعة وأصلها عن كتاب لأبي نصر محمد الفارابي مفقود تتضمن (أنه بعد خضوع الإسكندرية للإسلام انتقل مركز الثقافة منها إلى (إنطاكية) وهناك استقر طويلا حتى قضى معظم أساتذة العلم نحبهم غير رجلين هجرا إنطاكية يحملان ما اقتنيا من كتب، أحدهما من (حران) في أعالي أرض الجزيرة، والثاني من (مرو) في بلاد العجم. وكانا من تلاميذ (المروزي) هذا إبراهيم المروزى ويوحنا بن حيلان. أما تلاميذ (الحراني) فكان منهم القس (إسرائيل) و (الكويري) وهذا الاسم الأخير تحريف للاسم السريانى كيوريه اوقيرس
وقد أفادت بغداد من علم الكويري والقس إسرائيل وحنا بن حبلان ما أفادت وانتفع بلاط العباسيين بطب هؤلاء، وأخذت عن هذا وذاك الثقافة الإسلامية ما أخذت عن طب

القدماء وفلسفتهم.
وكان انتقال مركز العلم من الإسكندرية مستقر العلم الهليني اليوناني إلى إنطاكية في خلافة عمر بن عبد العزيز ومن إنطاكية إلى حران في خلافة المتوكل العباسي. وانتهى العلم في زمن المعتضد إلى عالمين هما (الكويري) و (يوحنا بن حيلان) الذي مات ببغداد في خلافة المقتدر، وعن هؤلاء انتقل إلى (إبراهيم المروزي) و (محمد بن كرنيب) وأبى بشر متي بن يونس وهما تلميذان لإبراهيم المروزي. وينسب إلى متي هذا إنه علق على كتب
أرسطو في علم المنطق. وبوفاة متي هذا ببغداد في خلافة (الراضي) انتقلت الفلسفة العربية إلى أبي نصر محمد بن محمد الفارابي أحد تلاميذ حنا بن حيلان وهو أشهر من يرجع إليهم في المسائل الفلسفية من العرب والذي لم يكن ينافسه غير مسيحي واحد هو (أبو زكريا يحيى بن عدي)
ولقد سبق أن عرفنا أن دراسة الفلسفة اليونانية على الشكل الذي انتهت إليه في الإسكندرية هاجرت إلى (حران) مغادرة إنطاكية؛ وغدت حران بذلك وسطا لدراسة الفلسفة اليونانية، وعلم النجوم كما عرفه اليونانيون ولاسيما وقد صادفت هذه الناحية من نواحي الدراسة في حران فئة (الصائبة) من عبدة النجوم فوجدوا فيها مرتعاً ووجدت فيهم تلاميذ مخلصين. وهنا في حران نشأ بعض أعاظم فلكيي العرب أمثال (ثابت بن قرة) والبتاني وغيرهما
وقد تجلت العقلية العربية الهاضمة بكل مزاياها ومميزاتها في حركة النقل الكبرى في عصر المأمون فترجمت إلى العربية أشهر الكتب في كل ناحية من نواحي الثقافة. ويمكننا أن نعتبر هذه الثروة الفكرية الهائلة التي نجمت عن هذه الحركة أساس الثقافة الإسلامية كلها، وهي ثقافة متشعبة الأصول واسعة الأطراف يحتاج الإلمام بفكرة إجمالية عنها إلى مقال خاص
ولا غنى لطالب الثقافة الإسلامية عن الإلمام بالنواحي المختلفة التي شملتها هذه الثقافة وبعضها فكري بحت والبعض مادي له اتصال وثيق بالحضارة. وهذا الجانب المادي في اعتبارنا هو الطابع الجديد الذي طبعه العرب على وجه العالم منذ القرن السابع الميلادي حتى العصر الذي فشت فيه المدنية الأوربية بما استصحبت من ذوق جديد شغف العالم به فكان قاضياً على كثير من نواحي الحضارة الإسلامية، فحب الإيرانيين وشغفهم بتقليد الأوربيين في زمن الدولة الصفوية في القرن السادس عشر طبع التصوير الفارسي وهو مظهر من مظاهر الحضارة الإسلامية بطابع أوربي أفقده مميزاته الأساسية التي هي سر جماله وسحره، وانتشار الطراز الأوربي في البناء قضى في مصر مثلاً على الطراز التركي العثماني وهو آخر مدرسة من مدارس العمارة الإسلامية
ولعل هذه العناية التي بدت من جانب وزارة المعارف لإحياء الثقافة الإسلامية لا تكون قاصرة على إحياء الجانب الفكري منها، بل لعلها تتناول الجانب المادي أيضاً منها، فيعود
إلى الحياة طراز إسلامي في البناء تتسم به مصر الإسلامية وينبعث منها إلى البلاد الإسلامية المجاورة، وتعنى مصانع النسج بإخراج أقمشة ذات أنماط فارسية بارعة الجمال كالتي عرفناها في دراساتنا. وتتمتع بلادنا بمركزها الجغرافي بمكانة طالما أدت بها أجل الخدمات كوسيط بين الشرق والغرب. وقد أغرم الغرب يوماً ما بفنون الشرق والغرب. وقد أغرم الغرب يوماً ما بفنون الشرق وحضارته وكان ناقلاً عنه بإعجاب شديد. ويعي تاريخ الفنون كثيراً من المعلومات عما كان بالبندقية في القرن السادس عشر من مدارس فنية مهمتها تقليد التحف النحاسية الشرقية والخزف الشرقي وما كان لصقلية من (طراز) أو مصانع النسج التي كانت تخرج منتجاتها محاكية الأنماط المصرية والفارسية محاكاة تدعو إلى كثير من الاغتباط والإعجاب
ولنا في موضوع الثقافة الإسلامية جولات مستقبلة إن شاء الله نتناول في إيجاز حركة النقل ونشوء المدارس والجمعيات العلمية الإسلامية في مقالنا التالي
(دار الآثار العربية)
إبراهيم جمعة
خريج معهد الدراسات العليا للآثار الإسلامية بدرجة الشرف

حديثي اليوم عن (سارة) وعن غزل العقاد، فما يصح - في الحقيقة - أن يكون إلى جانب الفن الممتاز، والحياة الدافقة، والعبقرية المرموقة، مجال للأحاديث التافهة، والجدال العقيم، والطبائع المغلقة. نحن هنا في حرم مقدس، فلا يليق تدنيسه بالأهاذير!

ولقد كنت أخذت بعد إجمال الرأي في مكانة سارة من الأدب، أشخص بعض خصائصها. وسأتمم اليوم ما بدأت؛ إلا أن هناك ملاحظة أحب أن أعرضها. فالقارئ لسارة، المتتبع لمواقفها وحالاتها النفسية، التي تجسم حتى تصبح شخوصاً ملموسة، يجد كثيراً من الحالات والشخوص التي تشابهها في قصائد العقاد الغزلية؛ وقد مثلت لهذا في الكلمة الماضية بقطعة (الحان المسجد). وليس هذا عجيباً، فالعقاد هو خالق هذه الشخوص هنا وهناك، ولكنه جدير أن يلفت النظر بدلالته على أن شخصيتي (همام وسارة) عميقتان في نفس الؤلف، وأنه استوعبهما في نفسه وحسه قبل أن يبرزهما على الورق (قصة) ومن هنا كانت حياتها، وكان امتيازها. وسيرى القارئ أمثلة أخرى للتوافق أو التشابه بين كثير من الشخوص النفسية في القصة وفي الديوان

من الخصائص الفريدة في (سارة) تلك الملاحظة الدائبة على تسجيل الحالات النفسية وإبرازها وتحليلها. فما من خطرة خاطرة، أو خلجة عابرة، إلا وهي واضحة مرسومة، تبلغ في وضوحها حد التشخيص. وفي هذا القول ما يشمل الخاصية الأولى التي أشرت إليها في الكلمة الفائتة من التفات همام إلى (كل ذرة في نفس حبيبته وكل لحظة من لحظات حبه) ولكنني أعني هنا أكثر مما عنيت هناك، أعني الحالات النفسية التي أحس بها همام، أو أحستها سارة، أو أحساها معاً في مدى حبهما كله. فمن هذه الحالات تبرز شخوص شتى، تساوي أحفل القصص بالشخوص الحقيقية التي تعيش في الحياة.

والواقع أن (الشخوص النفسية) كما أسميها في (سارة) أعمق، والالتفات إليها أصعب، لأنها تعيش

فينفس من يرصد نفسه لملاحظتها وتسجيلها! فهي في حاجة إلى طاقة فنية كبيرة، وإلى ترتيب عقلي محكم، لكشفها وإبرازها

وكل شخص من تلك الشخوص لا يقل أصالة وفنية عن سواه، ولكنا نختار:

بعد قطيعة همام لسارة لقيته مصادفة، ودار بينهما حوار، واتفقا على أن تزوره في الساعة الخامسة موعدها القديم للقاء. ولكن هماماً كان قد ذاق قبل القطيعة ما ذاق، ثم آوى إلى ركن شديد واعتصم بالفراق والسلوان الكظيم. فلما كان هذا اللقاء المفاجئ، عادت إليه عقابيل الداء، ولم يعد مصمماً على انتظارها ولا مصمما على لقائها، و (العقاد) يصفه في يوم الموعد:

ثم استيقظ في الصباح وهو يسأل نفسه كأنما يسأل مخلوقاً غريباً يجهل ما عنده من) نية وشعور؟

(أتنوي أن تنتظرها في الموعد

فما هو إلا أن وضح السؤال في خاطره، حتى شعر بأنه سؤال غريب، يدل على ما) وراءه، وحتى بدت له الدهشة من أن تكون هناك نية معقولة غير الانتظار!

وهنا دارت في سريرة هذا الرجل - هذا الرجل الواحد - مناقشة عنيفة طويلة كأعنف) ما تدور المناقشة بين رجلين مختلفين كلاهما مصر على عزمه، وكلاهما يحاول جهده أن يخدع الآخر ويستميله إلى رأيه، وكلاهما يبذل كل ما هو قادر عليه في هذا الحوار من أساليب الإقناع والأغراء والرياء والتصريح

- كيف لا تنتظرها؟ أتعطي سيدة موعداً ولا تنتظرها فيه؟ أهذا يليق برجل؟

- ولكنها ليست سيدة كسائر السيدات، ولا زائرة من زائرات المجالس العامة اللواتي تقع بيننا وبينهن هذه التكاليف إن هذه المجاملات أو هذه القيود لا حساب لها في العلاقات التي انطلقت من جميع القيود

- ولكن مم عساك أن تخاف؟ أنتظرها وقل لها: إنك لا تريد أن تراها بعد هذا الموعد!

- عجباً. . . أتجهل ما أخافه؟ أتجهل تلك الآلام التي لا حيلة فيها لمخلوق، ولا تزال

تبتدئ من حيث تنتهي، وتنتهي من حيث تبتدأ لأنها تبتدئ من الشكوك، وليس للشكوك قرار حاسم ولا مقطع بيقين؟ أتجهل تلك الأشباح اللئيمة التي تطل عليك في أطيب أوقاتك
فتنغص عليك كل لذة، وتكدر عليك كل صفاء؟
- لكن علام كل هذه الشكوك التي ليس لها أول ولا آخر. . . اصرفها عنك مرة واحدة، وافرض أسوأ الفروض، وقدر أنها تخونك، وأنك تلهو بها في ساعات فراغك، ولا يعنيك من شأنها بعد ذلك إخلاص ولا خداع
- أأنت مخلص فيما تقول؟ وكيف تنقلب هذه المرأة التي كانت كل نساء الأرض عندي، وكل ما يخفق له قلبي، فتصبح بين مساء وصباح، وهي لهو ساعة، ومتعة فراغ؟ أهذا خداع يجوز على إنسان؟ أو تضمن إذا أنا اتخذتها لهواً ومتاعاً ألا يتمكن الهو وبطيب المتاع، وأننا لا ننكفئ بعد أيام أو بعد أسابيع إلى استغراقنا القديم، وشكوكنا القديمة، وعذابنا الأليم؟ لا، لا هذا مجال باطل، واستدراج لا يستر ماوراءه، وتزوير لا أرضاه
- (لكن الفتاة مليحة مع ذاك. . تصور بضاضتها وهى جالسة إلى جانبك في المركبة، وأنفاسها وهى تهب على خدك فتسري في جميع أوصالك، وقبلتها وهى ترتعش على شفتيك، وحلاوتها وقد زادها النحول في هذه الأشهر حلاوة على حلاوة، ونحولها نفسه وما ينبئ عنه ويكشفه لك من المودة والحنين، وتصور ذلك كله بين يديك في مدى بضع ساعات، وأنت مع هذا تفكر. . تفكر في ماذا؟ في نبذ هذه النعمة التي تسعى إليك، وفي الخوف والجبن والفرار!
- (ولكن. . ولكن هذا حق كله. إن الفتاة لمليحة ولا نكران!
- (ولا . . . لا تنال منها ما لا تنال. . . انتظرها واله بها، ولا تدعها لغيرك ينال منها ما لا تنال. . . ولا تستضعف عزيمتك هذا الاستضعاف المهين، وأنت رجل ذو عزيمة ومضاء، فإذا عاودتك الشكوك فأنت قادر على قطع العلاقة بينك وبينها كما قطعتها من قبل، وإلا فأنت رابح ما استرجعت من متعة وسرور.
- (عزيمتي؟ وأين هي عزيمتي إن كانت لا تنجدني في هذا النزاع العنيف؟
- (إنها تنجدك في كل حين، ولكنك أنت لا تريدها الآن. . . لا تريد عزيمة الجفاء والقطيعة، ومتى أردتها غدا فهي حاضرة لديك، وهى في كل ساعة طوع يديك. . ومع هذا ألا يشوقك أن تستمع إلى حديثها عن أيام القطيعة بينكما؟ ألا يجوز أن تفسر لك بعض الغوامض، وتريك من البواطن ما ينقض الظواهر، وتصف لك من حالها في غيابها عنك
ما يهمك ولو من باب الدراسة والاستقصاء؟.
(وتعاقبت الساعات ساعة بعد ساعة في هذا الحوار الحثيث ولا قرار
(وتناول صاحبنا غداءه ولا قرار
(وجاءت الساعة الرابعة ولا قرار
(نعم لا قرار فيما يشعر به صاحبنا، أو صاحبانا المتحاوران، على أصح التعبيرين. غير أن الذي حدث بعد ذلك يدل دلالة لاشك فيها على أن الإنسان يقرر ما ينويه وهو لا يشعر ولا يعترف بشعوره، بل يدل على أن صاحبينا المتحاورين لم ينفردا بالميدان فيما شجر بينهما من عراك عنيف، وإنما كان معهما ثالث لا يدريان به، وهما ماضيان في الإقناع والإنكار.
(ففي الساعة الرابعة وبضع دقائق - والحوار على أشده بغير قرار - وجد صاحبنا أنه يلبس ملابس الخروج، ويفتح باب حجرته، وينحدر على الدرج، إلى حيث لا يعلم إلا أنه خارج من المنزل وكفى. ومضى في طريقه مهرولا كمن يمضي إلى غاية معلومة يخشى أن يفوته لحاقها، وركب سيارة لم يعرف إلى أين تحمله إلا بعد أن استقر فيها، واستطاع أن يمكث حيث ذهب ساعات ثلاثا لا ساعة واحدة ولا نصف ساعة كما كان يتمنى وهو يعالج أن ينجو من الموعد المحدود!
(ثم ساوره القلق، ودلف إلى منزله بالسرعة التي فارقه بها، واستحالت كل حيرته قبل الخروج إلى حيرة أخرى، أو شوق
آخر: وهو أن يعرف ما حدث في غيابه بجميع تفصيلاته: هل حضرت في الساعة الخامسة أو حضرت قبلها أو بعدها؟ وماذا قالت حين علمت بخروجه؟ وما بدا على وجهها وهى تصدم بهذه (المقابلة)؟ وإذا كانت لم تحضر فما الذي عاقها عن موعدها؟

ولماذا ضربت ذلك الموعد باختيارها؟ هل ضربته وهى تنوي أن تخلفه من اللحظة الأولى، أو طرأ الحائل بعد ذلك على الرغم منها؟)

أما الذي حدث بعد هذا، ففي القصة نبؤه والى هنا يستطيع القارئ أن يدرك الصدق والبراعة والامتياز في تصوير هذه الشخوص النفسية. ومتى علمنا أن القصة حافلة بها، أدركنا قيمتها الفنية، وقيمتها كذلك في الدراسات النفسية العالية.

ولعل مما تزيده هذه الحالة وضوحا قراءة هذه الأبيات بعنوان (النعيم المفقود)

فيم اجتنابك ظلها الممدودا؟ ... ولم اتقاؤك يومها الموعودا؟
ولأي طارقة كرهت مزارها ... وذممت طالعه، وكان حميدا؟
تلك المآلف كنت تهتف باسمها ... كيف اجتويت جنابها الممهودا؟
تخشى اللمام بها وتفزع أن ترى ... شفة تردد ذكرها ترديدا
كانت سماءكما فأصبح وردها ... كالقبر يغشاه النزيل وحيدا
وغدت كأنك حيث تقبل واجد ... شبحاً هنالك للنعيم شريدا
الآن فاستقبل بكل محلة ... رصداً يردك هائماً مزءودا
وأقم لنفسك في منازل لهوها ... منفى على قرب الديار بعيدا
لا النيل مطروق الرياض ولا حمى ... خوفو على تلك الذرا مقصودا
وترى دواعي (عين شمس) بُدّلت ... لعناتِ شؤم ينتحين طريدا
يجني عليه بشوشها ويذوده ... ما كان يجذبه إليه سعيدا
وجد الجحيم بكل أرض من رأى ... في حيث سار نعيمه المفقودا

وإذا كنت لا أستطيع أن أستقصي الحالات النفسية في القصة، فلابد أن أشير إلى حالة الشك من ص24 إلى ص27 في القصة، وأن أنصح طلاب الأدب النفسي الرفيع بمراجعتها وقراءة قصائد: (يوم الظنون ص327 والحب المريب ص328 من الديوان.

وكذلك فصل (القطيعة) والوعي الفني لحالة همام وسارة قبلها، وهما يندفعان في القرب واللقاء، ويندفعان في الوقت ذاته إلى القطيعة من حيث يشعران أو لا يشعران!، ولا يكون للحب من غذاء هذه الفترة إلا قوة الاستمرار من الماضي، وخوف المستقبل، لا الرغبة في البقاء والدوام وذلك من ص86 إلى ص90 من القصة.

ومثلهما حالة (همام) بعد اليقين وسفر أمين في ص191 من القصة ومعها قصيدة اليقين ص339 وقصيدة السلو ص335 من الديوان

وفي قصة (سارة) عقد المؤلف فصلا بعنوان (لماذا هام بها؟) تقرأ هذا الفصل فترى فيها التفسير الكافي لا لحب (همام) بل كذلك لغزل (العقاد) كله في دواوينه، وتلمح فيه ذلك النضوج الفني والنفسي الذي ألمعنا إليه في خصائص (سارة) الأولى.

فقد (هام بها) أولاً: لأنها تعمقت في حياته، وتعمق في حياتها رويداً رويداً، وكانت الطبيعة من ورائهما تدفعهما إلى هذا التعمق، وتوغل بهما في دروبها ومنحنياتها، وهما يلتذان هذا الإيغال، لأن الالتذاذ به وديعة مذخورة في نفسيهما من ودائع الطبيعة الأريبة

ثانياً: كما يقول لأنه وجد (لذة الاستكشاف الدائم المصحوب بالتجديد (وهام بها) والتنويع، فإن الرجل ليسره أن يستكشف المرأة، ويسره إلا يزال واجداً فيها كل حين ميداناً جديداً للاستكشاف، ويسره أن يراقب المرأة وهى تستكشفه وتتخذ لها منسرباً إلى عواطفه، وترفع من دخائله حجاباً وراء حجاب، ويسره أن يستكشفا الدنيا معاً، والناس معاً والطبيعة معاً، بروح مركبة من روحين وجسد مؤلف من جسدين، وضياء كله شفوف وتجديد، وآفاق تنساح إلى آفاق

فإن وقف الاستكشاف ولم يتجدد من جانب الرجل ومن جانب المرأة فقد يكون سبباً) للسآمة والعزوف لا سبباً للشغف والهيام

إن المرأة في استكشافها الرجل لكمن يجوس خلال الغابة المرهوبة ليهتدي أولاً) وآخراً إلى موطن الرهبة منها ووسيلة الطمأنينة إلى تلك الرهبة؛ ثم يرتع في صيدها وثمرها ويشبع من مظاهر العظمة والفخامة فيها

وإن الرجل في استكشافه المرأة لكمن يجوس خلال الروضة الأريضة ليهتدي إلى مجتمع الظل والراحة والمتعة والحلاوة بين ألفافها وثناياها. فهو يستكشفها ليعرف أحلى ما فيها، وهي تستكشفه لتعرف أرهب ما فيه، ثم تصبح الروضة روضة وغابة، وتصبح الغابة غابة وروضة، ويقوم حواليهما سور واحد يشعران به إذا خرجا إلى الدنيا، ولا يشعران به وهما بنجوة منها

وكان همام وسارة يتكاشفان كل يوم ولا يخفيان أنهما يتكاشفان، بل يتحدثان بما يعن)
لهما من شأنها وشأنه، كأنهما رحالتان في نزهة طويلة، يشتركان في مراجعة عمل
النهار كلما سكنا إلى ظلال الخيمة في المساء
كان يراقبها في نفسها ويراقبها في نفسه؛ كان يرى المرأة المرحة الطروب وهى)
تلهو وتعبث، ويرى المرأة الكسيرة المطواع وهى تلتمس الأمان والعزاء، ويرى
الإنسانة الفطرية وهى تطيع الغريزة وتلبس (دورها) على مسرح الطبيعة بين نباتها
وحيوانها
ومكانها وأهوائها، ويرى المرأة الذكية وهى تقرأ النثر والشعر، وتنتقد الصور المتحركة،
ويرى المرأة العصرية وهى تتغلب على امرأة الجيل الغابر في ميدان، وتخضع لها
وتنهزم أمامها في ميدان، ويرى من وراء ذلك جميعه، وفي كل ذلك جميعه، المرأة
الخالدة التي لا تتحول ولا تتبدل، و (الأنثى) السرمدية التي يهمها من (الذكر) الحماية
والجاه قبل كل شيء وبعد كل شيء، ولا يهمها العقل والرجحان والفضائل والمناقب
(إلا لأنها وجه من وجوه الحماية والجاه
و (هام بها) ثالثاً: لأنهما (مازالا يتكاشفان ويتكاشفان حتى علما أنهما مكشوفان لا
يتواريان في جنة لا ينبت فيها ورق التين، فكان هذا التكاشف سبباً ثانياً من أسباب
هيام همام
ومن أسباب هيامه بها ألفة متغلغلة في أنحاء النفس والجسد كألفة المدمن للعقار)
المخدر: من شاء أن يسميها حباً فهو صادق ومن شاء أن يسميها بغضاً فهو صادق،
ولمن شاء أن يزعم أن المدمن يتعاطى عقاره وهو راغب فيه، ولمن شاء أن يزعم أنه
يتعاطاه وهو ساخط عليه. فقصارى القول أنه يتعاطاه، وأن الإقلاع عنه يكلفه جهد
(الطاقة وغاية المشقة
و (هام بها) لغير هذا وذاك وذلك من الأسباب، والقارئ خليق أن يقولها في نفس
واحد، لقد هام بها لأنه رجل كامل الرجولة، ولأنها امرأة كاملة الأنوثة مع ما فيهما بعد
ذلك من امتياز واختصاص
والناس يحبون، ولا يسألون أنفسهم لماذا أحبوا، ولا يكلفون أبطال قصصهم هذا
السؤال. ولكن العقاد هو الذي يصنع ما يقول همام:
أنا أستمتع بالشيء ثم أبحث عن فلسفته، وإنني لأبحث عن فلسفته كما يجيل)
الشارب الكأس في جميع جوانب فمه ولهواته، كما لا يبقى جانب من النفس لا يأخذ
(!نصيبه من متاعه، فأحسه، واعمله، وأذكره، وأفكر فيه، وأستقصي معناه
وهذه الجملة مفتاح من مفاتيح أدب العقاد، ولاسيما غزله الذي يقف أمامه المغلقون،
فيقولون هو غزل عقلي، تملؤه الفلسفة، وتقل فيه العاطفة. ولعلهم يعرفون الآن
لماذا يتفلسف العقاد بعد الاستمتاع، ولعلهم يدركون أن هذه إحدى وسائله لتعميق
الإحساس بالحياة، وإفساح جوانبها لمتعة العاطفة، وكل جوانب النفس الإنسانية
وأنت واجد بعد كل أولئك في (سارة) مظاهر واضحة لنضوج الحب في نفس (همام)
وفسحة النفس لتلقي أطيافه المختلفة، وفسحة أخرى لتلقي أنواع الجمال، وأنواع
المرأة وإعطاء كل منهن ما تستحقه طبيعتها من الاهتمام والاتجاه. وخبرة تامة بنفسية
المرأة الخالدة وغرائزها وخصائصها الأنثوية، وخبرة مثلها بنفس (سارة) ممثلة هذه
المرأة الخالدة، وتصوير بارع لخصائصها ومميزاتها، وتدرك منه مقدار امتيازها
واستحقاقها لحب (همام) وقد عقد عنها فصلاً بعنوان (من هي؟) ولكنك خليق أن
تطلبها كذلك في غير هذا الفصل من مبدأ القصة إلى نهايتها، فأنت واجد في كل
صفحة، وكل موقف جزءاً من (ماهيتها) التي حللها في الفصل المعنوي المحدود
وإنما أجمل هذا الأجمال السريع حيث يحلو التفصيل ويجمل لأنني استغرقت الفراغ
المحدد لي من (الرسالة) ولم أتحدث عن (غزل العقاد) وإن كنت قد وضعت بعض
الأسس للحديث عنه
فإلى اللقاء.
(حلوان)
سيد قطب
حول أدب الرافعي
بين القديم والجديد

أشفقنا على كاتب المقالات (بين العقاد والرافعي) من هول ما جنى على نفسه بتسخيره عقله لهواه فيما تصدى له، فدعوناه إلى أن يفيء إلى الحق ويسلك في أدبه سبيل القرآن قبل أن يحق عليه ما حق على كل مجانب لطريق القرآن من قبله. لكننا لم نكد نتم قراءة مناقشاته وشروحه التي بسط في العدد 262 من الرسالة حتى أيقنا أننا أمام مغرور لن يدع له غروره مرجعاً إلى حق، ولا رجوعاً عما هو بسبيله من مكابرة ومماراة

وكان أكبر ما أيأسنا وآسفنا منه في كلمته تلك جوابه على ملاحظة الفاضل الفلسطيني الذي نبهه بجلاء ووضوح إلى خطئه فيما اعتبره تناقضاً بين تلخيص الرافعي لرأي شوبنهور في الجمال وبين حقيقة ذلك الرأي. في ذلك الجواب بعد أن ذكر أن نصف تلك الملاحظة في موضعه قال: (وقد نشأ هذا عن اضطراب في ترتيب بعض اجمل! وكثيراً ما يقع مثل هذا فنكتفي بفطنة القارئ) ولكن مع هذا بقي التناقض بين قول شوبنهور وتلخيص الرافعي واضحاً). وأكبر المآخذ على هذا الكلام خلقي لا عقلي، وموضع المؤاخذة هو ما بين قوسين - والقوسان من عندنا - فقد كبر عليه أن يعترف بالخطأ صراحة فجعل يخادع عن خطأه بالتماس تعليل لا ينطبق على الواقع كما فعل بالضبط في مقاله الثالث حين أراد أن يخرج من رأي ارتآه في الرافعي إلى رأي. ومخالفة تعليله هذا للواقع يتضح من كلامه الذي انتقده الفاضل الفلسطيني من مقاله التاسع في العدد 260 من الرسالة. ونحن موردون الآن ذلك الكلام بنصه؛ قال:

(ثم هذا الخلط بين الرأي الذي جاء به الرافعي وبين رأي شوبنهور، ونسبة كلام إلى رجل يقول ضده تماماً. الفيلسوف يقول: إن الأشياء (تسرنا) كلما قربت من عالم الفكرة وابتعدت عن عالم الإرادة. فيقول الرافعي عنه: إن الأشياء (تحزننا) كلما ابتعدت من عالم الفكرة واقتربت من عالم الإرادة. وهو عكس قول شوبنهور. ثم يعود فيقول: (وإنها تفرحنا كلما ابتعدت من عالم الإرادة واقتربت من عالم الفكرة. وهو عكس كلام الرافعي الأول!! فأيهما يريد؟ أغيثونا بالله يا أصحاب الفهم وقولوا لنا متى تفرحنا الأشياء ومتى تحزننا؟ (وأي القولين ينسبه الرافعي لشوبنهور وأيهما ينفيه عنه؟

هذا نص كلام سيد قطب الذي يزعم أن في ترتيب بعض جمله اضطراباً هو علة الخطأ الذي نبهه الفاضل الفلسطيني إليه، ويزعم وراء ذلك أن هذا الاضطراب الموهوم في ترتيب الجمل كثيراً ما يقع فيكتفي بفطنة القارئ! والقارئ يرى في الكلام اضطراباً ولكن في الفهم والحكم لا في ترتيب الجمل، فإن الجمل ترتيبها مستقيم كما يتضح لسيد قطب نفسه فإنه مدرس لغة عربية؛ وليس هناك شك في أن الجمل كانت مرادة كما هي بترتيبها ومعناها حين خرجت من قلمه أول مرة. لكن العزة تأخذه بالإثم فيحاول أن يفر من تبعة خطأ في الفهم قد يغتفر فيقع في تبعة ادعاء مخالف للواقع لا يمكن أن يغتفر بحال. ويزعم مع ذلك أنه يمثل مدرسة (جديدة تعنى بتصحيح المقاييس الأدبية عنايتها بتصحيح المقاييس النفسية)!

مثل هذه المكابرة في الواضح المحسوس هو الذي ييئسنا من هذا الكاتب أن يقر بخطأ أو يرجع إلى الحق إذا وضح مادام هذا الحق عليه لا له

وقد ارتكب سيد قطب ذلك الخطأ الخلقي ليفر من خطأ عقلي فوقع في خطأ جديد من غير أن ينجو من خطئه القديم. إن كلام الرافعي في تلخيصه شوبنهور كلام متسق لا ينقض أول منه آخراً ولا آخر أولاً. وإذا كان آخره يوافق رأي شوبنهور بإقرار قطب فأوله يوافقه أيضاً. إنما أراد الرافعي أن يفسر رأي شوبنهور ويقربه للذهن بتعليل معقول يزيل عنه غموضه وتجرده فلم يفهم قطب تفسير الرافعي واستمسك بجملة فيه قطعها عن أخواتها فبدت له كأنها تثبت ما يريد من تناقض الرافعي

شوبنهور يقول - فيما لخصوا له - إن الجمال يكون في عالم الفكرة المنقطع عن الأغراض والشهوات، ولا يكون في عالم الإرادة المتصل بالأغراض والشهوات. وهو كلام غامض ليس يسهل فهمه وتصوره، فالتمس الرافعي له توجيهاً وتعليلاً حسناً بقوله أن الجمال المتصل بغرضك وشهوتك ليس بجمال، لأن غرضك وشهوتك هما زينا

الشيء لك فبدا جميلاً وإن لم يكن جميلاً في الحقيقة. فهو باعتبار الإرادة أي الغرض والشهوة جميل،
وباعتبار الفكرة المجردة عن الغرض والشهوة لا جمال فيه. فتعلق قطب بالكلمات (باعتبار الفكرة المجردة لا جمال فيه) كما يتعلق الغريق وقال إن الرافعي يناقض بها رأي شوبنهور! ولو لم يكن يفكر بهواه لا بعقله لرأى أن هذه الكلمات في كلام الرافعي راجعة إلى شيء في عالم الإرادة تعلق به الغرض والشهوة، وهذا الشيء في رأي شوبنهور غير جميل باعتراف سيد قطب نفسه. فقطب هو الذي لم يفهم عن الرافعي، ورمى الرافعي بأنه لم يفهم عن شوبنهور في كلام طويل جعل يشير فيه ويصيح ويستغيث.

هذا المقال يمثل من الناحية العقلية ضربا آخر من أغلاط قطب ويبرز علة أساسية في سوء تقديره الرافعي. إنه في كثير من الأحوال يخطئ غرض الرافعي ويفهم من كلامه غير ما أراد ثم يحكم عليه بما لم يرد وما لا يدل عليه كلامه: يسرف على نفسه وعلى الرافعي في الحكم وهو في الحقيقة قد أخطأ جوهر الموضوع.

خذ مثلاً لذلك رميه الرافعي بأنه ينظر إلى الأمور نظرة مادية ويذكر نفسه وقلبه في سوق (المجوهرات) معتقداً أنها أثمن من القلوب إلى آخر ما تشدق به وافترى على الرافعي.

وسيد قطب يلقي الدعاوى ثم يثبتها بأمثلة، وهو طريق في إثبات الدعاوى غريب لا يثبت منها شيئاً ولو صحت الأمثلة كلها. ومع ذلك فإن كل مثال جاء به سيد قطب ليثبت به دعواه تلك هو مثال أخطأ فيه غرض الرافعي وأخطأ لب الموضوع

إن أول ما هاج قطب إلى تلك الدعوى قول الرافعي من قصيدة له في الحب معجبة:

قلبي هو الذهب الكري ... م فلا يفارقه رنينه
قلبي هو الألماس يع ... رف من أشعته ثمينه

وواضح أن هذه كأبيات العقاد التي ذكرها اللبابيدي، من باب التشبيه ومن التشبيه في ناحية مخصوصة واضحة في كل من البيتين. فالرافعي يشبه قلب نفسه بالذهب الكريم لا من ناحية سعره وقيمته - ولو قال الرافعي هذا ما كان فيه عليه من بأس إذ يكون واضحاً عندئذ أن قلبه في القلوب كريم كالذهب في المعادن - ولكن من ناحية أن عاطفته النبيلة لا تفارقه كما لا يفارق الذهب رنينه. والذهب في لغة العلم فلز نبيل لا يصدأ في الجو ولا تؤثر فيه الأحماض ولا القلويات وإن أثر فيه الكلور المتولد. فكأن الرافعي يقول إن قلبه يحتفظ بنبله وطهارته رغم المغريات والفتن كما يحتفظ الذهب برنينه رغم المصدئات والمغيرات. واختيار الرافعي خاصة الرنين من بين خواص الذهب رمزاً لتلك الخواص ينطق بلطف شاعرية الرافعي وسلامة طبعه، فإن خاصة الرنين أشبه خواص الذهب بعواطف القلب: هذه يثيرها ويحركها وقع الحوادث والمناظر، وذاك يثير موجاته نقر القضبان والأنامل. فليست القافية هي التي ألجأت الرافعي إلى اختيار كلمة الرنين، ولو فعلت لكان ذلك أوثق لشاعريته، لأن من أصدق الدلائل على شاعرية الشاعر ألا تصرفه قافية عن غرضه، ولا تستنزله عن بعضه، بل تخدم قافيته غرضه فيجتمعان له كلاهما في سهولة ويسر. وهذا من أصدق مظاهر الطبع في الشعراء

والمهم في بيت الرافعي أنه لم يشبه قلبه بالذهب من حيث قيمته ولا من حيث نوع رنينه، بل في الخاصة الواحدة التي يمتاز بها الذهب من سائر الفلزات غير النبيلة: أنه لا يفارقه رنينه، وإن اختلفت عليه المؤثرات والظروف. وهناك فلزات أخرى كالنحاس والفضة لها رنين قد يكون في الأذن أوقع من رنين الذهب لكن هذا خارج عن مقصد الرافعي. إنما الذي يريد الرافعي توضيحه بالتشبيه هو ثبوت قلبه للحوادث وعدم ذهاب المغريات والأهواء بلبه كما تذهب بأكثر القلوب والألباب. فهدته شاعريته إلى تشبيه قلبه في هذه الخاصة التي تميزه في القلوب بالذهب الكريم الذي يمتاز من غير النبيل من أفراد جنسه باحتفاظه بخواصه ورنينه، على رغم المؤثرات المغيرة، لا يشركه في ذلك فضة ولا حديد ولا نحاس

أما نوع العاطفة التي يستجيب بها قلبه للحوادث فقد أشار إليها ألطف إشارة في البيت الأول حين وصف الذهب بأنه الذهب الكريم. ويشهد للطف حس الرافعي في الشعر أنه اختار هذا الوصف دون كل الأوصاف التي يستقيم بها الوزن. فلم يقل مثلاً

قلبي هو الذهب الثمين فيدع لكل متجن مترصد متكأ يتكئ عليه في تهمته التي يتهم بها. والرافعي طبعاً لم يكن يعرف الغيب لكن الشاعر المطبوع يتجنب المزالق بلطف حسه وقوة طبعه. وهذا مظهر آخر من أصدق مظاهر الشاعرية والطبع في الشاعر المطبوع

لكن الرافعي أراد أن يتبع تلك الإشارة اللطيفة إلى نبل قلبه بما يظهرها ويوضحها فلا يكون هناك شك في نبل ما يتحرك به قلبه من عاطفة، كما لم يكن هناك شك بعد بيته الأول في ثبوت قلبه على تلك العاطفة برغم الفتن والأحداث. أراد ذلك فأتبع بيته الأول بيته الثاني:

قلبي هو الألماس يع ... رف من أشعته ثمينة

والألماس يعرف بعدة خواص: يعرف بكثافته النوعية، ويعرف بصلابته، فهو يخدش ولا يخدش. لكن هاتين الخاصتين لا تصلحان مطلقاً لأن تكونا وجه شَبه بين الألماس وبين قلب الرافعي، لأنها إلى وصف القلب بالغلظة والقسوة أقرب. فهدى الرافعي لطف حسه وصدق طبعه مرة أخرى إلى اختيار الخاصة الواحدة من خواص الألماس التي تليق أن تكون جامعة بين الألماس وبين قلب مثل قلب الرافعي: خاصة أخذ الألماس للنور والتأثير فيه بتفريقه إلى أضوائه المتعددة بألوانها الزاهية الجميلة، ثم إرسال تلك الأضواء كلها مجتمعة غير مشتتة فتخرج منه باهرة يكاد بريقها يذهب بالبصر. وهي خاصة يشرك الألماس فيها الزجاج والبلور إلى حد ما، ولكن لا بتلك الدرجة التي اختص بها الألماس والتي هي أساس تقدير الناس له، فالألماس بهذه الخاصة الفريدة أشبه قلب الرافعي، وأشبهه قلب الرافعي فيما يتناول ويجمع من مختلف الأحاسيس الكريمة والعواطف النبيلة فيهذبها وينظمها ويرسلها أشعة قلبية كريمة طاهرة باهرة تعرفها في مقالاته رحمه الله في الرسالة، وتعرف قلبه بها في القلوب كما يعرف ثمين الألماس بأشعته من مزور الألماس.

أرأيت دقة هذين التشبيهين وحسن التمثيل فيهما وشموله وكرم المعنى مع كرم اللفظ؟ هذا هو الذي أخطأه سيد قطب فلم يفهم من ذلك اللفظ الواضح إلا ما تبادر إلى ذهنه من المعاني السطحية السوقية المتعلقة بالماديات وسوق (المجوهرات)، فيزعم أن هذا هو مراد الرافعي، ويحكم على الرافعي به وما يحكم إلا على نفسه. ولو كان العقاد هو قائل هذين البيتين لأدرك قطب منهما هذا المعنى الذي وضحنا مع تمام التطابق في أوجه الشبه بين طرفي التشبيه، ولأتخذهما دليلاً لا على نبل العقاد وسموقه وتفرده فقط كما يجب أن يقول، لكن أيضاً على اتساع ثقافته وعلمية تفكيره. لكن اصطناع المعاني العلمية في الأدب يحتاج فيما يظهر إلى شرط آخر حتى يعجب سيد قطب، يحتاج بعد الفهم إلى أن يكون مصطنع ذلك في الأدب هو العقاد.

على أن الرافعي رحمة الله عليه لم يكتف بما في بيتي التشبيه من دلالة على ما يريد مما فصلناه، بل أراد ألا يدع الأمر في ذلك للفهم وقد يخطئ، ولا للتأويل وقد يختلف، إذ قد يكون القلب ما يكون ويزعم صاحبه أنه نبيل يخفق بكل نبيل من العاطفة والشعور.

أراد الرافعي أن يرفع الشك من هذه الناحية بالتصريح عما يريد فيكون ذلك تلخيصاً لمراد البيتين وتفسيراً لهما وقطعاً للشك في معناهما فأردفهما رحمة الله عليه بقوله:

قلبي يحب وإنما ... أخلاقه فيه ودينه

فهو يتأثر بالجمال في شتى مظاهره ومواطنه، لكن تأثره بالجمال وإن عظم لا يخرجه عما يرضي الخلق الكريم والدين القويم كما تخرج أكثر القلوب خصوصاً في هذا الزمن الغريب الكنود الذي كأنما طابع أهله الجحود فيأبون إلا أن يجعلوا شكر الله على نعمة الجمال معصيتهم لله فيه. ولا كذلك الرافعيُّ، فقلبه رحمه الله كان يستجيب لدواعي الجمال فيخفق له خفقاً ويهتز به اهتزازاً لكن من غير أن يخرج في ذلك عما يعلم أن لله فيه رضا. قلبه يحب وإنما أخلاقه فيه ودينه. وهذا عندنا من الفروق الأساسية بين المدرسة القرآنية التي ينتسب إليها الرافعي وبين المدرسة التي تتلقب بالجديدة وهي قديمة قدم الشهوة على وجه الأرض. وقد أشرنا إلى ذلك في كلمتنا الأولى ونرجو أن تكون لنا إليه عودة قريبة إن شاء الله

هذان موضعان أخطأ فيهما ناقد الرافعي غرض الرافعي برغم وضوح كلامه، فأخطأ لب

الموضوع واتخذ ذلك دليلاً على ما الرافعي منه بريء
وموضع ثالث أخطأ فيه جوهر الموضوع مرة أخرى واتهم الرافعي، قول الرافعي فيما نقل الكاتب من رسائل الأحزان حين أراد أن يقص على صاحبه قصة حبه بغير ترتيب: (فإن هذا مما يحسن في تاريخ صخرة تتدحرج، أما أنا فسأقدم لك تاريخ لؤلؤة فريدة) هذا قول الرافعي الذي جعله سيد قطب مثالاً لمادية الرافعي ومغالاته (بالمجوهرات)
إذ لا فرق لدى الفنان الحي بين أن يقص تاريخ صخرة وتاريخ لؤلؤة إلا أن يكون (الثمن) هو الفارق بينهما. والفنان الحي الذي يستشعر الحياة في أعماقها في رأي قطب كان يقول في هذا الموضوع إنه سيقص قصة بنية حية يدخل في تأليفها الحس والشعور (أو تاريخ نبتة تنمو من داخلها أكثر مما تنمو من خارجها) إلى آخر ما أظن أنه يدل على حياة الفنان. ولو جاء الرافعي بمثل ما قال صاحبنا ما سلم من قوارص كلمه وباطل تهمه. وإذا كان كتاب يضطرم بالحب ويتضرم بآثاره لا يدل عند مثل سيد قطب على حياة القلب الذي زاد به
العذاب حتى فاض بالكتاب تنفيساً عن نفسه، فهل كان يدل على حياة ذلك القلب عنده أن يمثل في جملة عارضة بنبتة حية أو بنية حية، أو ما شاء أن يختارها من عالم الأحياء؟
على أن النبتة الحية أو البنية الحية التي يدخل أو لا يدخل في تكوينها الشعور لا تغني شيئاً في التمثيل لما أراد الرافعي أن يمثل له. إن الرافعي أراد أن يقول أنه سيقص قصة حب قليل الشبيه عزيز النظير: حب نادر كاللؤلؤة الفريدة لا حب عادي كالصخرة المتدحرجة. فالنبتة الحية أو أي بنية حية يقترحها قطب مما قرأ في علم الأحياء هي والصخرة المتدحرجة سواء في العادية والشيوع، من شاء يضع يده على مثلها وضع. ولو مثل الرافعي بها للحب القادر الذي يريد أن يقص قصته لما كان هو الرافعي في لطف حسه وسلامة طبعه ونفوذ بصره وصدق تمثيله، ولوقع فيما لا يصح أن يتهم من أجله بأنه شكلي ينظر إلى ظواهر الأشياء ولا يفقه بواطن الأمور. لا! ما كان الرافعي في مقام التمثيل للشيء الفريد النادر ليقع فيما كان يقع فيه صاحبنا الفنان الحي من التمثيل بنبتة حية أو بنية حية، دخل في تأليفها شيء غير الزمان والمكان أو لم يدخل. لكن الرافعي اختار للتمثيل شيئاً نادراً قابله بشيء عادي هو الصخرة المتدحرجة من السهل أن يراه الإنسان في مكانه المناسب
ومن الغريب أن الرافعي اختار للتمثل لحبه النادر الذي كان، شيئاً فريداً لا ينتج إلا من الحياة، ومن الحياة عند ملتقى بحرين، وإن كان هو في ذاته غير حي. وكلها أوجه شبه بين اللؤلؤة الفريدة وبين حب الرافعي الذي كان. فهو حب فريد أنتجته الحياة عند ملتقى قلبين أو نفسين مختلفتين في النوع اختلاف البحر والنهر وبينهما مع ذلك من الصلات الفطرية الوثيقة ما بين البحر والنهر. ثم هو حب كان وانقضى فهو كاللؤلؤة لا في الانفراد فقط ولكن في انقضاء النمو وفي عدم الحياة. ترى هل كان الرافعي رحمه الله ينظر إلى كل ذلك حينما مثل لحبه باللؤلؤة الفريدة ولم يمثل بالماسة الفريدة مثلاً، وهي والصخرة من قبيل واحد؟ أكبر الظن أنه كان ينظر إلى كل ذلك في مثله الذي اختار. ولئن لم يكن واختار بفطرته المثال الواحد الذي يشبه حبه من كل تلك الوجوه فلقد أقام من حيث لا يقصد الدليل الحسي الذي لا ينقض على انه رجل الفطرة السليمة والطبع الذي لا يضل. ولا يضره بعد ذلك ألا يسمو إلى فهمه أناس يتهمونه اتهام البغضاء، وهو مما يتهمونه براء
وهناك أمثلة أخرى كثيرة أخطأ فيها سيد قطب جوهر الموضوع، لكنا نقتصر الآن على ما هو من قبيل الأمثلة السابقة في غير تفصيل إذ لا نرى الآن إلى التفصيل من حاجة. هناك قول الرافعي عن الأعرابي الذي كانت الشمس تلوح له على حائط حبيبته أحسن منها على حيطان جيرانها: (قد والله صدق وبرت يمينه فإن في كلماته الشعرية لأثرا من عينيه، إذ يرى الشمس على حائطها كالشمس على البلور الصافي لا على الحجر والمدر) فظن سيد قطب أن الرافعي اختار البلور لأنه أثمن من الحجر والمدر، وليس كذلك؛ إنما اختاره لفعله في أشعة الشمس وتفريقها إلى الألوان المحببة التي يفرح بها الصغار إذا نظروا إلى الأشياء من خلال منشور من زجاج الثريات والتي تبدو للكبار إذا ترقرق الندى في ضوء الشمس في الصباح، وتبدو للكبار والصغار إذا انعكس الضوء المائل عن مرآة سميكة من البلور. ولا شك أن الأعرابي في سذاجته لو رأى

الشمس ساطعة على (حائط) من البلور لراقته تلك الألوان ولفضلها على الشمس على بقية الحيطان. لكن سيد قطب برغم قراءاته في علم الضوء في الطبيعة لم يفهم عن الرافعي ما أراد فاتهمه مما هو منه براء

وهناك قول الرافعي في رسائل الأحزان: (ثم يجري كلامه فيها شعراً خالداً مطرداً كنهر الكوثر في رياض الجنة حافتاه من ذهب ومجراه على الدر والياقوت). قال الرافعي هذا فزعم صاحبنا أن الرافعي لا يتشكك في أن النهر الذي حافتاه من ذهب ومجراه على الدر والياقوت (أجمل) من النهر الذي حافتاه من العشب الأخضر ومجراه على الرمل والطين. ولا ندري كيف استباح أن ينسب إلى الرافعي كلاماً لم يقله ومعنى لم يقصده، وهو على أي حال فيه بعد حتى عن الواقع. فالنهر لا تكون حافتاه دائماً من العشب الأخضر، ولو كانتا فإن الرافعي لم يذكرهما بعشبهما، ولو ذكرهما ما كان ذلك حكماً منه للذهب بأنه أجمل من العشب لأن المقام ليس مقام تمثيل للجمال ولكن مقام تمثيل للخلود والاطراد. وليس هناك من شك، حتى عند مثل سيد قطب فيما نظن، في أن الذهب أمكن في الخلود والاطراد من العشب، بل ولا في أن العشب إنما يضرب به المثل في التغير والزوال لا في الاطراد والخلود، مهما كان حظه من الجمال. فماذا يقول الإنسان فيمن يتصدى لنقد أديب أيا كان، بله مثل الرافعي في أدبه، فيقرأ له ولا يفهم عنه، أو يفهم ولكن غير ما يريد أو عكس ما يريد مع وضوح اللفظ ووجود النص، ويتقول على الأديب غير ما قال، ويتجنى عليه غير ما يقصد، ثم يسرف عليه ويطيل فيه القلم واللسان، فإذا ما نبه إلى غلطه مضى في التجني والتجرم وزعم أن زلة الأديب المنقود زلة بألف، ككذبة الذي يقول أنه رأى أسدا يسير في شوارع القاهرة؟ ماذا يقول الإنسان في ناقد كهذا جديد أو قديم؟ وماذا يظن في إنسان كهذا؟

إن الرافعي هو المسكين لا شوبنهور!

محمد أحمد الغمراوي

تيسير قواعد الإعراب

لأستاذ فاضل

- 2 -

ولابد من تقدير الإعراب في الجمل أيضاً، لأنه قد يعطف على الجملة اسم مفرد يراعى فيه تقدير إعرابها، فيجب من أجل هذا تقدير الإعراب فيها، ومن ذلك قول الشاعر:

يا رُبَّ بيضاَء من الْعَواهِجِ ... أمِّ صبي قد حَباَ أو دَراِج

ومن قوله تعالى: (يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي)

فإذا قلنا - زيد يحسن - فزيد مبتدأ مرفوع بالضمة الظاهرة، وجملة يحسن خبر المبتدأ مرفوعة بضمة مقدرة. وهكذا كل الجمل التي تقع خبراً عن مبتدأ أو حالا أو صفة أو نحو ذلك؛ أما الجمل التي لا تقع هذا الموقع فلا يقدر إعراب فيها

وقد ثبت من هذا كله أن ألفاظ العربية كلها معربة، ومن الواجب أن ينقل الإعراب بعد هذا إلى اصطلاح غير الاصطلاح المعروف له، لأن اصطلاحهم في الإعراب أنه عبارة عن تغير أحوال أواخر الكلم لاختلاف العوامل الداخلة عليها لفظاً أو تقديراً، والإعراب على هذا لابد له من عامل يقتضيه، فإذا لم يكن هناك عامل لم يكن هناك إعراب، ولهذا كانت الحروف وبعض الأفعال عندهم غير معربة. وقد ذهب بعض من النحويين إلى إعراب فعل الأمر فلم يكن له بد من تكلف عامل في إعرابه لأنه لا يوجد إعراب لا عامل له، والكوفيون هم الذين ذهبوا إلى إعراب فعل الأمر، وهو عندهم مجزوم بلام أمر مقدرة، لأنه في رأيهم مقتطع من المضارع، فأصل - قُمْ - مثلاً - لِتَقُمْ - حذفت اللام للتخفيف، وتبعها حرف المضارعة وهو التاء، وقد قال صاحب المغني: وبقولهم أقول، لأن الأمر معني فحقه أن يؤدى بالحرف، ولأنه أخو النهي وقد دل عليه بالحرف أما الإعراب في الاصطلاح الذي ننقله إليه فهو عبارة عن تغير أواخر أجزاء الكلام على حسب ما جاء عن أهل اللغة، فلا يلزم في الإعراب على هذا الاصطلاح أن يكون معه عامل مقتض له، ولهذا يجيء عندنا في الحروف والأفعال التي يرى القوم أنها مبنية لا معربة، وهذا الاصطلاح يغنينا عما تكلفوه من العوامل في بعض المواضع التي جاء الإعراب فيها بدون عامل، كالمبتدأ الذي يتكلفون له عاملاً يسمونه الأبتداء، وكالمضارع

الذي يتكلفون في رفعه عاملاً يسمونه التجرد من الناصب والجازم
على أن هناك ما هو أهم من هذا في ترجيح اصطلاحنا في الإعراب على اصطلاحهم وما يثبت به أن هذا هو معنى الإعراب في اللغات المعربة، لأن اللغات الغير معربة هي التي تنتهي أواخر كلماتها بالسكون دائماً ولا فرق في ذلك بين أسمائها وأفعالها وحروفها، وهذا كما نراه في لغاتنا العامية وغيرها من اللغات التي لا إعراب فيها، أما اللغات المعربة فهي التي لا تلزم أواخر كلماتها هذه الحالة من السكون، بل يتغير آخرها من ضم إلى فتح إلى كسر إلى سكون على حسب ما جاء عن أهلها، فيجب أن يكون الإعراب فيها بهذا المعنى فلا يختص به نوع من ألفاظها، ويكون عاماً في كلماتها كلها، ويشمل في ذلك أسماءها وأفعالها وحروفها
وقد ذكرنا أن الكوفيين يذهبون في فعل الأمر إلى أنه معرب لا مبني، وهذا يدل على أن مسألة الإعراب والبناء مسألة تقديرية، وأنه لا شيء في أن نذهب فيها ذلك المذهب الذي يتفق مع تلك الغاية التي تريدها وزارة المعارف من تسهيل قواعد الإعراب، وقد جاء عملنا فيها أتم من عمل جماعتها وأعم إصلاحاً منه، وأقرب إلى الغاية التي تريدها، كما جاء دليلاً على أنها كانت مخطئة حينما تناست رجال الأزهر في هذا العمل الذي ألفت من أجله هذه الجماعة ولم تظم إليها من الشيوخ الأزهريين من يهمه أمر هذه اللغة كما تهمها
العلامات الأصلية والفرعية للإعراب
ترى الجماعة في هذا أن تجعل كلا من هذه العلامات أصلاً في بابه، وأن يقسم الاسم المعرب إلى الأقسام الآتية:
1 - اسم تظهر فيه الحركات الثلاث وهو اكثر الأسماء
2 - اسم تظهر فيها الحركات الثلاث مع مدها وهو الأسماء الخمسة
3 - اسم تظهر فيه حركتا الضم والفتح وهو الممنوع من التنوين
4 - اسم تظهر فيه حركتا الضم والكسر وهو الجمع بالألف والتاء
5 - اسم تظهر فيه حركة الفتح وحدها وهو الاسم المنقوص
6 - اسم تظهر فيه ألف ونون أو ياء ونون وهو المثنى
7 - اسم تظهر فيه واو ونون أو ياء ونون وهو المجموع بهما ويستغنى بهذا عند الجماعة
عن الإعراب التقديري، وعن القول بنيابة علامة عن علامة
وقد عرفت أنه لا يمكن الاستغناء عن الإعراب التقديري، فلا نعيد ذلك هنا، وكذلك لا يمكن الاستغناء عن القول بنيابة علامة عن علامة، لأن اسم الضم كالمرادف لأسم الرفع وكذلك الفتح مع النصب، والكسر مع الخفض أو الجر؛ فإذا حصل رفع بغير الضم أو نصب بغير الفتح أو خفض بغير الكسر كان الأقرب إلى الفهم في ذلك أن يجعل بطريق النيابة، فيكون ما ذهبت إليه الجماعة فيه تعسيراً لا تيسيراً، وليس هناك ما يدعو إلى ارتكابه من اختصار في الإعراب أو نحوه، بل الأبواب هي الأبواب بحالها، والعلامات هي العلامات بدون تغيير فيها، الله إلا ذلك التغير الذي لا طائل تحته فيجب أن تبقى علامات الإعراب على حالها، وأن تكون علاماتها الأصلية هي الضم في الرفع، والفتح في النصب، والكسر في الخفض، والسكون في الجزم، وأن تكون علاماتها الفرعية كما هي بدون زيادة أو نقص فيها إلا علامة واحدة نرى زيادتها في باب النداء، لأن المنادى فيه إذا كان مفرداً ينصب بالضم وما ينوب عنه من الألف والنون أو الواو والنون، فتكون الضمة في ذلك نيابة عن الفتحة، وقد نابت الكسرة عن الفتحة في جمع المؤنث السالم، ونابت الفتحة عن الكسرة في الاسم الذي لا ينصرف، فلا شيء في أن تجعل الضمة وما ينوب عنها نائبة عن الفتحة في المنادى إذا كان مفرداً فيقال في إعراب - يا أحمد - أحمد منادى منصوب بالضمة نيابة عن الفتحة، وفي إعراب - يا زيدان - زيدان منادى منصوب بالألف النائبة عن الضمة نيابة عن الفتحة، وفي إعراب - يا زيدون - زيدون منادى منصوب بالواو النائبة عن الضمة نيابة عن الفتحة، وفي إعراب - يا سيبويه - سيبويه منادى منصوب بالضمة المقدرة نيابة عن الفتحة، ولابد من تقدير الضمة في المثال الأخير كما قدرت فيه عند الجمهور، لأن ظهورها في تابعه دليل على تقديرها فيه
ولا شك أن تقدير الجمهور للضمة في نحو - يا سيبويه - فيه تقريب لما ذهبنا إليه من

تقديرها في نحو - جاء سيبويه - لأن الذي منع من ظهور الضمة عند الجمهور في نحو - يا سيبويه - إنما هو حركة البناء الأصلي، وهذا هو عين ما ذهبنا إليه من جعل هذه الحركة موجبة لتقدير الاعراب، وجعلها في ذلك كألف المقصور وياء المنقوص سواء بسواء

(يتبع)

أزهري

رسَالة الشَعر

الشاعر في مصر

شكوى

للأستاذ محمود عماد

جبالٌ ووديانٌ جِهامٌ وآجامُ ... أُذِللها بالصبر أم تلك أيامُ؟
وما جهدُ هذا الصبر حتى أسومه ... صعاباً بها ناءت نجومٌ وأجرامُ؟
لعلى نجم ضلّ فيها مدارَه ... فأسقطه نحسٌ إلى الأرض جشّام
وإلا فكيف اندك في الأرض جِرمهُ ... ولاح دخان يحتويه وإظلام؟
أذلك شِعري أكتوي بلهيبه ... وفي الشعر ترويحٌ إذا اشتدّ إيلام؟
وذلك فضلي أبهمتني غيومه ... وهل آية الفضل المؤثّل إبهام؟
وهل هذه الدنيا التي في نعيمها ... تحجبت الأخرى فلم يُهدَ أقوام؟
لئن يَهنهِم فيها طعامٌ ومتعةٌ ... فإني ليهنيني صيام وأسقام!
أما قيل إن الصوم يسمو بحسِّنا ... إلى حيث لم تبلغ على الأرض أحلام؟
بلغتُ إذن بالشعر ما فات وهمهم ... وإن خيل أنّ الشعر في الكون إيهام
نعمتُ به في شقوتي فهو دوحة ... وعيشي صحارى لم تطأهن أقدام
إذا اشتدّ بي حَرٌّ أرحتُ بظلّه ... فراوحني منه نسيمٌ وأنغام
وطاف بصحرائي من الوحي طائف ... وهل في سوى الصحراء وحي وإلهام؟
فيالكَ من شعر بدنياي كلها ... شربتُ. ألا غبنٌ هناك وإلزام؟
ويا أمّةً أعلنتُ فيها رسالتي ... أكلّكِ فرعونٌ لموساه ظلامّ؟
ألفتِ خوارَ العجلِ حيناً فإن شدا ... هزارٌ نولّي سمعَكِ اليوم إبهام!
إذا كان لَغوُ السامريَّ حقيقةً ... فتوراةُ موسى في بني مصر أوهام
وإن كان حبْوُ العاجزين تقدما ... فإن بحسبي أن عدَوْيَ إحجام
سيلبث شعري رمزَ ظلمٍ وعزةٍ ... بمصر كما في الدهر ترمز أهرام
يقولون لا تجزع ستظفر في غدٍ ... يذكر وللتاريخ في الناس أحكام
فأهونْ به ذكراً، لكي ما أناله ... أموت ابتداءً ثم تمحق أعوام!
متى كانت الأموات تهتزُّ غبطةً ... بذكر ويشفيها من الموت إعظام؟
تعلاتُ إفلاس ومَن فاته الغنى ... يقلْ إن فقرَ المرء صونٌ وإكرام
ولكن رويد المترفين فربما ... نعمنا بما نالوا وهم عنه نوّام
نرى الزَهرَ في جناتهم فيروقنا ... ويا ربما هم ما رأوه وما شاموا
لقد جهلوا فيه الجمال وما دروا ... بأن فريقاً بالذي جهلوا هاموا
ولو قيل فيه من طعامٍ لأقبلوا ... أما تأكل الزهر المقدسَ أنعام؟
يزينون بالأصنام أبهاءَ دورهم ... وما عزّت الأبهاء من قبل أصنام
لقد جلبوها لا لفنٍ وإنما ... بها من سجاياهم جمودٌ وإعجام
وهذا قضاءٌ ما خلا من عدالةٍ ... جمودٌ ومالٌ. أو شعورٌ وإعدام!
إذا أنت لم تفقد لدى الكون مطلبا ... فما أنت بحاثٌ ولا أنت مقدام

محمود عماد

. . .عودي إلي

(!إلى التي أنتظر صوتها. . . لأحس بالحياة)

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

لا زلتُ أَنتَظرُ اللِّقاَء. . وأتَهِ ... عَهدٌ لِمَنْ صانَ العُهود قَسَمْتِهِ
عَهْدٌ تَرَكتِ به الحَبيبَ مُضيَّعاً ... ما ضَرَّ يا دُنْيا المُنَى لوْ صُنتِهِ؟!
خَلَّفْتني. . وعلى (المَسَرَّةِ) خاطري ... أَمَلٌ عَلَى أسلاكِها ضَيَّعْتِهِ
تَهفْوُ لها أُذُنْي كأنَّ بقَلبها ... لحنا عن الوتَر الحَزينِ حَبَسْتْهِ

وكأنَّ صَمْتَ حَدِيدِهاَ تَغْريدةٌ ... سَوْداءُ في نايي الذّي يَتَّمْتِهِ
خَرْساءُ يَصْخَبُ في ظلالِ سُكونِها ... لَهَبٌ بِكَفَّكِ للمُنْى أشعَلْتِهِ. . .
عُودي إلَيَّ. . وَأسرِعي لِمُدَلّهٍ ... طَلَبَ الخُلْودَ مِن السَّماءِ فجِئتْهِ
وذَهَبْتِ ما تركتْ عُيونُكِ في دَمي ... إلا عذاباً لَوْ عَلِمْتِ رَحَمْتِهِ
وأتَيْتنيِ مِنْ قَبْلُ يُطفَأ مِشْعَلي! ... وتَدُوبُ أيّامي عَلَيْكِ وأنْتَهي
محمود حسن إسماعيل
الرسم المحترق!
للأستاذ أحمد فتحي
أَهْدَيتَ لي رسْمَكَ في نشوَةٍ ... منْ صَبْوَةِ الحبِّ وسِحْرِ الغَرامْ
وقد تَفَضَّلْتَ، فَطَرَّزْتَهُ ... باسْمِكَ توقيعاً بديعَ النَّظامْ
مؤَكِّداً لي، أن قَلْبي لَهُ ... فيكَ نظيراً عاشقاً مُسْتَهَامْ
حَفِظتُ للرَّسم حقوقَ الهوى ... وصُنْتهُ في مأمَنٍ لا يُرامْ
وكِنتُ إن جَدَّتْ بنا فُرقَةٌ ... وَعزَّ مَرآكَ وَضجَّ الهيامْ. . .
أَخرجْتُهَ، أملأُ من حُسنِهِ ... عَيناً جَفاهاَ - في نَوأكَ - المنامْ
أراكَ فيه حاضراً واصلاً ... يؤنِسُني من شَفَتَيكَ ابْتِسامْ
أَضَلُّ أدعوك بِنجوى لها ... في خاطري لُطْفُ صَفَاءِ المُدَامْ
كأنما رَسمُكَ في راحتي ... تميمةٌ - بالوَهم - تَشفي السِّقَامْ
وكم أطالَ الناسُ لي عَذْلَهمْ - فيكَ وكم ذا أسْرَفواُ في المَلامْ
عاصَيتُهم فيك جميعاً، ولم ... يُرْعَ لهم عند غرامي ذِمامْ!
شُبِّهَ لي ناصِحُهُمْ بُومَةً ... وَصوْتُ حُبيَّ لك شدو الحَمامْ
وقد ظلَلنا زَمناً لا نَرىَ ... لنا مثيلاً - في الهوى - في الأنام!
نسْموُ بِهِ عن سانِحاتِ المُنى ... فَهيَ عَلينا إن عَدَتهُ حَرامْ!
وما الأمانيُّ؟ إذا لم تكنْ ... وَصْلَ حبيب في ليالي وئامْ؟!
يا رَحَم اللهُ عهوداً طَوَتْ ... في صَفْحَتَيها الدهْرَ، عاماً فَعامْ!
قد لَقيَ الحبُّ بأكنافِهاَ ... فيْئاً وَريفاً من ظِلالِ السَّلامْ
ظنَنَهْا تَخْلُدُ، إذ لم أكنْ ... أحسبُ دُنياهاَ لغَيرِ الدَّوامْ!
حتى تنكرَّتَ لعهد الهوى ... وسُمْتَهُ - بالغَدرِ - سُوَءَ الخِتامْ
سَمِعْتُ همساً دارَ حولي بما ... أثِمْتَ، وأنساَبَ إليَّ الكلامْ
فكذّبَتْ أذُنيَ ما أسمِعَتْ ... عنك وقالتْ من هراءِ الطغاَمْ
لكنني اسْتَوثَقْتُ من أنَّني ... خُدِعتُ في ودَّكَ خَدعَ الكرامْ
وأسفَرَ الحقُّ مُبَينَ السَّنَى ... وأنماطَ عن وَجهكَ ذاكَ اللثامْ
فَعُدتُ للرَّسمِ الذي صُنتُهُ ... من غَضبي عَفَّرْتُهُ في الرِّغامْ!
وجِئتُ للنارِ فألقَيتُهُ. . . ... كَيمْاَ أرى حُسْنُكَ بين الضِّرامْ!
حتى احْتَوَتْهُ في لَظىَ قَلبِهاَ ... فاضَ عليهِ من دمُوعِي سِجَامْ!
(بني عياض)
أحمد فتحي
البَريدَ الأدَبيّ
حكومة التشيك ووضع قاموس للغة العربية
وفد على مصر، منذ أيام، أحد كبار المستشرقين هو وزوجه مندوبين عن حكومة تشيكوسلوفاكيا
وقد قصدا إلى وزارة المعارف وقابلا صاحب العزة الأستاذ محمد العشماوي بك وكيل الوزارة، وذكرا له أنهما قدما إلى مصر رغبة في وضع قاموس باللغة العربية واللغة الإنجليزية واللغة الوطنية في بلادهما (تشيكوسلوفاكيا) وطلبا إلى سعادته معاونتهما فيما قدما من أجله. وقد رحب وكيل الوزارة بالضيفين
وقد صدر بناء على ذلك قرار بتأليف لجنة من الأستاذ علي الجارم بك مفتش أول اللغة العربية بالوزارة والأستاذ محمد أبي بكر إبراهيم عضو مكتب تفتيش اللغة العربية للقيام بهذه المهمة على أن تعرض الأعمال التي تفرغ اللجنة من إنجازها على سعادة وكيل الوزارة.
وسيبقى المستشرق والسيدة زوجه في مصر إلى أن ينجزا وضع هذا القاموس

وسيغادران مصر ثلاثة أشهر في كل سنة يزوران في غضونها السودان للوقوف على حالة اللغة العربية فيه، ومقدار الاختلاف بين اللهجات في القطرين الشقيقين.

هبة الماجور اندرسون

بدأت وزارة المعارف في اتخاذ التدابير لتنفيذ القرار الذي أصدره مجلس الوزراء في يوم 4 يوليو الحاضر خاصاً بقبول هبة الماجور جاير اندرسون بك إلى الأمة المصرية وتقوم تلك الهبة على تنازل الماجور اندرسون عن مجموعاته الأثرية العربية والأوربية وتقدر قيمتها المادية بنحو خمسة آلاف جنيه للأمة المصرية مضافاً إلى ذلك هبة قيمتها خمسمائة جنيه تستمر ويستخدم ريعها في حفظ المجموعات وصيانتها

وقد منحته الحكومة حق استعمال الدارين (المعروفتين ببيت الكريدلية) والبيت الملحق به المعروف بدار (آمنة بنت سالم) وهما متصلتان وقائمتان على جانبي عطفة المتولي وهي حارة تؤدي إي جامع ابن طولون، وأن يستعملهما دون أن يشاركه فيهما أحد إلى حين وفاته أو مغادرته بلاد المملكة المصرية نهائياً، وذلك بدون إيجار أو مقابل من أي نوع كان فيما

عدا نفقات المياه والنور، وأن يقوم المأجور بتبويب هذه المجموعات وان يحتفظ بحق استعمالها وحيازتها هي والقطع التي تضم إليها في المستقبل إلى حين وفاته أو مغادرته البلاد

وتقوم الحكومة بصيانة هذين المنزلين وإبقائهما على حالتهما الراهنة

سلامة الأسلوب العربي في تدوين المقررات المدرسية

لاحظت وزارة المعارف أن كثيراً من الكتب والمؤلفات التي توضع باللغة العربية في مختلف المواد وفروع العلم المقررة في درجات التعليم المتباينة، تبعد في بعض أجزائها عن الأسلوب الذي يجب أن يعنى بها المؤلفون

وقد أعدت الوزارة منشوراً لتلاف هذا النقص، طلبت فيه أن يلاحظ دائماً في الكتب التي توضع باللغة العربية في مختلف المواد وتكون لجان الفحص قد قررت صلاحيتها للدراسة أو تداولها بين الطلاب المترددين على المكتبات المدرسية أو الكتب التي تضعها لجان تؤلفها الوزارة، أن تعرض على أحد حضرتي مفتشي اللغة العربية الأولين لمراجعتها بنفسه أو من يندبه من حضرات مفتشي تلك اللغة وذلك للتحقيق من سلامة الأسلوب وملاءمته من وجهة اللغة لمستوى التلاميذ الذين يقرأ لهم

آلة لتصوير المخطوطات في مكتبة الأزهر

كانت مشيخة الأزهر، وقد اشترت فيا لعام الماضي آلة لتصوير المخطوطات من طراز ألماني حديث، وقد ركبت هذه الآلة في مكتبة الأزهر ورئي أن يقوم باستعمالها أخصائيون متمرنون على التصوير. ولهذا دربت المشيخة بعض موظفيها في أحد المعامل، ولما أتم تدريبه نقلت آلة التصوير، إلى غرفة خاصة بالإدارة العامة، وسيشرع، بواسطتها، في نقل المخطوطات النادرة في مكتبة الأزهر، وإرسال نسخة منها إلى الآثار والمكتبات الكبرى

ومن بين الآثار التي عني بالتقاط صور لها، كتب على جلود الغزلان، ويرجع تاريخ تأليفها إلى أكثر من ألف سنة.

إلى السادة الكتاب

يجمل إلينا البريد فيما يجمل مقالات ورسائل غفلاً من الإمضاء، وقد أعلنا من قبل أننا لا

ننشر مقالاً لا يمضيه كاتبه. وللكاتب الحق في أن يرمز لأسمه ما يشاء على شرط أن يكون اسمه معلوماً لرئاسة التحرير. فنرجو من حضرات الكتاب أن يراعوا ذلك حتى لا نضطر إلى إغفال مقالاتهم وهي قيمة

الفروسية العربية

ورد في القسم الثاني من المقال المنشور تحت هذا العنوان في العدد 262 من الرسالة الغراء ما يلي:

والمرأة هي التي تثير حماس الرجال في الحرب. وكما قلت تحكم في بطولتهم. وقد) وقد شرح المعرب (جرت العادة أن تحضر النساء الموقعة باكية فوق كتبان مزينة كلمة كتبان في نهاية الصفحة بقوله:

والصواب كما اعتقد أن كلمة (الكتب) - إذا لم يكن (الكتب أو الغبيط نوع من الهوادج)

فيها تطبيع - غير صحيحة ولا تؤدي هذا المعنى. وإنما التي تؤديه (القتب) وتجمع على أقتاب لا (قتبان) كما جمع المعرب كلمة (كتب):
وجاء أيضاً في المقال عينه: (أن هتاف فرسان البدو في الحرب ينحصر في اسم حبيبة الفارس أو اسم أخته أو اسم قطيع جماله، فيهتف مثلاً (أنا أخو جوزا، أو لعيون حميدة، أو خيال العليا) والعليا قطيع من الإبل)
وأقول إن البدوي إذا هتف بقطيع جماله لا يقول (خيال العليا وإنما يقول (راعي العليا) وكلمة (خيال) يرددها عادة إذا هتف بجواده. فيقول (خيال الشقرا) أو (خيال الشهبا) مثلاً كما سمعت ذلك بنفسي من البدو النازلين في أطراف بادية الشام أثناء قيامي برحلتي الطويلة في سوريا.
وأضيف إلى ما تقدم أن البدوي يستهل هتافه دائماً بكلمة (لحّد) فيقول مثلاً (لحّدونا أخو فلانه) وأظنه يقصد بها (لأحد أحد) أي لا أحد يجوس الحمي وأنا أخو فلانه حيَّ ارزق.
هذا وما أبديته لا يمنعني أن أعترف لصاحب الموضوع (الميجر كلوب) بما تحمله من جهد في جمع مواده. وبتحريته الصدق في نقله إلى أبناء جلدته
يافا - فلسطين
محمد سليم رشدان
دقائق لغوية في حاجة إلى الجلاء عنها
جاء في الصحاح: (ويقال جمة عظيمة، وجمة عظيمة أي جماعة يسألون الدية). قال الشاعر (وجمة تسألني أعطيت). وفي القاموس وشرحه تاج العروس؛ (ويقال جاء في جمة ويضم (الأول) أي جماعة يسألون الدية. قال ابن الإعرابي: الجمة البركة (بالضم فالسكون) والجمع جمم ولم يضبط حركة الجيم
وفي النهاية لابن الأثير. (الجم (ولم يضبط الأول) جمع جمة وهم القوم يسألون في الدية) وفي القاموس وشرحه: (اللجنة (بالفتح) الجماعة يجتمعون في الأمر ويرضونه) وفي البستان أن هذا الحرف ضبطته التكملة بالضم أي لجنة. ففي هذه النصوص ما يأتي:
(1) كل من الجمة (بالفتح) والجمة (بالضم) بناء مستقل عن الآخر أو هما أصل وفرعه. فأيهما الأصل، وما الدليل على أن كليهما أصيل أو على أن أحدهما فرع عن الآخر؟
(2) كيف يضبط جمم بناء الجمع أبضم ففتح أو بفتحتين؟ وإذا كان الوجهان صحيحين فعلام لم يرد ذلك في التاج نصاً
(3) لم يضبط صاحب النهاية بناء جم، فهل هو بالضم وما الدليل أو بالفتح وما الدليل؟
(4) الجمة بالضم تقع على الجماعة كما مرّ وعلى مجتمع شعر الرأس، فهل ورد المعنيان لبناء واحد أو كل معنى له بناء خاص؟ فإذا كان لكل منهما بناء خاص فما بناء كل منهما؟ وما الجمع؟ لأن الخال بمعنى شقيق الأم له جموع ليست للخال (الشمة) والتليل بمعنى العنق ليست للتليل بمعنى القتيل
(5) الجمة (بالفتح) الجماعة كما مر والبئر، فهل هما معينان لبناء واحد أو كل بناء منهما مستقل عن الآخر وله معناه الخاص، وما جمع البناء الأول وما جمع البناء الثاني؟
(6) ما الفرق بين اللجنة والجمة - وعلام في القاموس وشرحه ذكر اللجنة بالفتح دون الضم ويغير صيغة جمع لها؟ وهل استدراك التكملة صحيح؟ وما وجه صحته؟ وعلام اللجنة بالفتح جمع على لجان كسخلة وسخال، ومرة ومرار وخطوة وخطا؛ وليس لجمة جمع على جمام
(7) ماذا تعد الجمة واللجنة، أمن أسماء الجنس أو من أسماء الجموع أو من الجموع؟ وما الدليل الذي يعين الحقيقة؟
ألتمس ممن ندبوا لاستخراج المعجم الوسيط من أعضاء مجمع اللغة العربية الملكي الجلاء عن هذه الدقائق، لأنها من المشاكل التي تعترض عملهم أثابهم الله مشكورين (دمشق)
أمين ظاهر خير الله
الكتب
ديوان الجارم

للأستاذ حسنين حسن مخلوف

عهد إلي الأستاذ صاحب (الرسالة) أن أكتب عن ديوان صاحب العزة الأستاذ علي الجارم بك إذ كنت عن كثب من الديوان عند طبعه، وكان بيني وبين نغمات هذه القصائد والخيال الخصب الذي ملك علي سمعي وبصري في نسمات الأسحار، حديث ومجاوبة؟ وربما قرأت القصيدة ورددتها مراراً، وظللت مدة طويلة مأخوذاً بسحر البيان حتى أنسى الغرض الذي شرفني الشاعر بالقيام به. فأما إن كتبت عن الديوان فإنما أكتب عن مبلغ علمي، جاهداً أن أصور للقراء شخصية شاعرنا ممثلة في شعره، وأن أرسم ما أحسست به عند قراءتي شعره

إذا جلست إلى الأستاذ الجارم بك رأيت رجلاً تمثلت فيه أعصار الآداب العربية وفنونها من عصر امرئ القيس إلى اليوم؛ فهو قد قرأ الآداب العربية منذ نشأته، ووقف وقفة طويلة عند كل شاعر وكاتب، وحفظ ما استطاع أن يحفظ، فامتزج ذلك كله، وجاوبته نفس نزاعة إلى الأدب فكان الأستاذ الجارم بك. إن شئت أن ترى المتنبي وعمقه وغزارة مادته وجبروته الشعري فأجلس إلى الجارم بك وأقرأ شعره. وإن أردت أن ترى حضور البديهة ورقة الشعور ولباقة التعبير والروح الشعرية الوثابة التي تتمثل في الحديث والظرف والسلام والكلام، فأجلس إلى الجارم بك. فهو شاعر بطبعه، شاعر ببديهته، شاعر بكل معنى من المعاني التي تلمحها في روح الشعراء

إن قرأت أدباً عباسياً أو أندلسياً فرأيتهم يقولون: إن الشاعر لا يكون شاعراً حقاً إلا إذا تمكن من أدوات الأدب، ومارس شعر العرب، وملك ناصية الأدب، ثم أعانه على ذلك قريحة وقادة وبديهة مسعفة وخيال قوي، فإن ذلك كله موفور لشاعرنا الكبير

كان أستاذنا مصطفي صادق الرافعي - طيب الله ثراه - ينكر على الشعراء الذين أنبتتهم طبيعة مصر عمق الخيال وامتداد النفس الشعري؛ وكان يرى أن الشعراء المصريين صغار الدواوين لا يقف الواحد منهم على شاطئ بحر الخيال حتى ينزوي عن ذلك البحر. فلما حدثني بذلك الرأي، وكتب عنه في الصحف عزّ عليّ ذلك؛ فجئته في اليوم التالي بعدد

من مجلة (المعرفة) وقد نشرت فيها قصيدة للجارم بك، ونسى محررها أن ينسب القصيدة إلى قائلها، وأطلعته عليها فطرب لها وبخاصة الأبيات الآتية منها:

لعبت بك الحسناءُ تدنو ساعة ... فتثير ما بك ثم تهجُرُ عاما

والحبُّ ما لم تكتنفه شمائلٌ ... غرٌ يعود معَرةً وأثاما

والحبُّ أحلام الشباب هنيئة ... ما أطيب الأيامَ والأحلاما

والحبُّ نيران المجوس لهيبها ... يحي النفوس ويقتل الأجساما

والحبُّ من سرَّ السماء فسمه ... وحياً إذا ما شئت أو إلهاما

يا جنةً لو كان ينفع عندها ... نُسْك لبثْنا سجَّدا وقياما

وسألني: لمن هذا الشعر؟ فلم أجب. وقلت: إن كان هذا شاعراً مصريّاً فقد اعترفت لهم بالقوة وعمق الخيال. إنك شاعر وكاتب ومطلع اطلاعاً وثيقاً، وعليك أن تنسب الشعر إلى صاحبه من غير أن أدلك على اسمه؛ فأجاب فوراً: إنه الأستاذ الجارم. فقلت: أتراني كسبت القضية؟ قال: إنني عندما أستحضر صورة وجه الجارم وهو من رشيد، ورشيد على ساحل البحر أحكم أن دمه ليس خالصاً لمصر؛ فليست كل شاعريته مصرية؛ كشوقي مثلاً فهو مجموعة من عقليات أمم كثيرة تعاقبت على الزمان بالمصاهرة كما قال هو عن نفسه

ولقد كان أستاذنا الرافعي قاسياً على الشعراء المصريين؛ وقسوته في ظني كانت تعود إلى عوامل محلية في علاقته بأدباء مصر وعلاقتهم به، فقد كانوا أثرين يغتصبون الشهرة اغتصاباً، ويتخذ كل شاعر شيعة تسبح بحمده، وكانت الشهرة الأدبية ميداناً للتزاحم ليقول كل واحد: أنا!! فيقول له الآخر: لست ذاك!. وأنا أرجو أن يطهر النقد الأدبي في العصر الحديث من هذه الصغائر والخزعبلات، وأن تتجه الجهود إلى بناء لا إلى الهدم، فالعصر عصر السرعة ونسيان النفس إن أرادت مصر نهوضاً حقاً، وغسلت نفسها في كل نواحيها السياسية والأدبية من قوله أنا! وبعدي الطوفان!

لكل أمة من الأمم بيئة خاصة، وعقلية خاصة، وتيارات في الحياة خاصة توجه أدبها، وهذا الاتجاه يتوارث على توالي القرون؛ فالمدح أو الرثاء في الشعر العربي من طبيعته، وتصوير الأشخاص ورسم صورة فنية لعمال العظماء كانت ولا تزال مجال

الشعراء العرب قديماً وحديثاً، والأسلوب كذلك تراث نقلته إلينا الأجيال؛ فالأستاذ الجارم بك تمثلت
فيه العقلية العربية وجزالة اللفظ قوة الأسلوب وضخامة التعبير في كثير من الأحيان.
ويظهر أن رأيه أن يخدم الأدب العربي العالي بانتقال القراء إليه لا أن ينزل هو إلى القراء ويتملقهم، ويفني شخصيته فيهم، لذلك عهد إلى بعض تلاميذه يشرح الديوان وأبرع ما ترى في شعره تصويره لشخصية مليكنا الشاب فاروق الأول. وقد تغلغل شعره في نهضة هذه الأمة الكريمة وفضل الأسرة العلوية عليها كقوله في (التاجية الكبرى) التي أنشدها في تتويج مولانا الفاروق:

لله يومك والضياء يعمّه ... فعشيه سِيان والأبكارُ
يومٌ تمناه الزمانُ وطالما ... مدّت إليه رءوسَها الإعصارُ
حامت نسور النصر حول جيوشهم ... حتى كأنّ غُبارها أوكارُ

وقوله في العيد المئوي لوزارة المعارف

فأتاها (محمدٌ) جَدّ (إسما ... عيل) بالخصب مورقاً والحياةِ
هل رأيت النجم الذي يُبهرُ العي ... شَ ويمحو دياجر الظلماتِ
هل رأيت الآمال بعدَ نفار ... واقتبال الشبابِ بعد فواتِ

شاعران في مصر سجلا عزها القديم والحديث، ونثرا على صفحات الأوراق أمجاد العرب والفراعنة في صورة جميلة جذابة ومنطق قويّ خلاب هما شوقي والجارم؛ كلاهما أحس بأمجاد الآباء، وامتزاج روحهم بمصر الحديثة، واتخذ من ذلك سبيلاً إلى إنهاض الشباب وحفز الروح الوطنية والعزة القومية

ولكن شوقي شغف بمصر القديمة بقدر شغف الجارم بمصر العربية والحضارة الإسلامية؛ هما نشأتان في طريقين مختلفين إحداهما في طريق مختلطة اتصلت ببيت الملك والعرش أيما اتصال، وعرش مصر تراث عربي فرعوني. ذلك مجال شوقي.
والأخرى في طريق خالصة للعروبة تمت إلى الدين واللسان العربي بأقوى الأسباب منذ الصبا إلى يوم الناس هذا. ذلك مجال الجارم. وكلاهما يغرف من بحر العربية الأكبر، وتطاوعه ثقافته العربية الواسعة فيلعب بالألفاظ لعب الرياح بالأعواد

اقرأ قصيدته بمناسبة انقضاء خمسين سنة على دار العلوم وأنا ضمين لك أن أعطافك ستثب مع أعطاف الشاعر حين كان يلقيها ومنها مخاطباً دار العلوم: -

بسمةٌ للزمان أنت تلتها ... كشرة للزمان عن أنياب
كلما رمتُ خدعْ نفسي بنفسي ... كشفت لي المرآة وجه الصواب
أين تلك الأيام بانت وبنَّا ... وتولت بشاشة الأحباب
إيه دارَ العلوم كنت بمصر ... في ظلام الدُّجى ضياء الشباب
في زمانٍ من كان يُمسك فيه ... قلما عُدّ أكتب الكُتاب
تخذت فيك بنت عدنان داراً ... ذكرتها بداوة الأعراب

فإذا بكى الجارم واستبكى أحسست زفير الحزن يضطرم في قلبك، ودويّ صوته يعتصر عينيك. وبخاصة قصيدته في رثاء المرحوم أبي الفتح الفقي الذي كان وكيل دار العلوم ورئيس جماعتها

أما الحكم البالغة والأمثال السائرة فهي منثورة في جنبات قصائده كقوله:

الدّين طبّ النفس من آلامها ... وهداية الحيران في بيدائه
يكره الظلمُ كلَّ شيء من الضو ... ء ولو كان في ابتسام الفتاة

وفي عزم شاعرنا بعد فترة وجيزة أن يخرج للناس الجزء الثاني من الديوان وفقه الله إلى خدمة العروبة، وأعلى به منار الأدب.

حسنين حسن مخلوف

العدد 265 - بتاريخ: 01 - 08 - 1938

يا لله لفلسطين!

يا لله لفلسطين مشرق الهدى والسلام، ومهبط الوحي والإلهام، ومجتَلى عين موسى، ومسرح قلب عيسى، ومسرى روح محمد، وقدس الأديان الثلاثة، وقبلة الإسلام الأولى، ومهد الأنبياء، ومقبرة الرسل، ومعبد الشرق والغرب، ومجرى العسل واللبن!!

يا لله لفلسطين! ماذا فعلت بها الأحداث وجرَّت عليها المطامع؟ أبعد أن رفع الإسلام عنها آصار العبودية وأوزار اليهودية تعود بها المقادير السود إلى استعمار (طيطوس)

القاهر، واستثمار (يهوذا) الجشع، فيعود إليها الفساد والفوضى والقهر والفقر والموت؟!

أبعد أن استخلصها للعروبة (عمرو الداهية) من (أرطبون)، وسجل استقلالها العالمي (صلاح الدين) على ناصية (جودفروا) يستبيح ذمارها طرائد البشرية وفي صدورهم تِراث الأمم وحزازات القرون، فينزلونها نزول الوباء، ويحلونها حلول الفتنة، ويمتصونها امتصاص العلق؟!

لقد قال المسيح لذلك اليهودي الذي منعه ظل جداره وهو مجهود، وقرى داره وهو جائع:

(. . .ستظل تائهاً في الأرض حتى أعود)

فهل عاد المسيح في ثوب (بلفور) أم كذبت نبوءة (السيد)؟ إن لعنة الله ودعوة المسيح لا تزالان تحرقان قدمي إسرائيل، فهو لا يثبت له قدم في أرض، ولا تطمئن له نفس في وطن؛ وكان من أثر ضلاله البعيد في الآفاق أن اكتسب خلائق النَّوَر: فهو يلصُّ ليعيش، ويخدع ليغلب، ويستوحش ليأمن، ويتعصب ليدافع، حتى انقطعت بينه وبين الناس وشائج النوع، فأصبح خَلْقاً آخر لا يألف ولا يؤلف. فمحاولة إسكانه مع غير أهله وفي غير أرضه تكذيب لكلمة الله وتزوير على قانون الطبيعة!

ليس بصددي اليوم أن أفند هذه السياسة المريضة فحسبها منطق الحوادث وأدلة الواقع؛ إنما أريد بهذه الكلمة أن أصور فلسطين العربية بين بحر يرشُّها باليهود والحرب، وقفر يحصبُها بالمرض والجدب، وأخواتها في العروبة وفي الإسلام مطمئنات على ضفاف الأنهر النضاحة بالنعيم، وعلى رياض السهول الفواحة بالنعمة، ينظرن إليها نظر الغرير الأبله وهي تمشي في النار، وتخوض في الدم، وتطلب القوت فلا تجده، وتنشد الأمن فلا تناله. أريد أن أصور حال هؤلاء الكماة الأُباة الذين يغاديهم الفزع، ويراوحهم الموت، وهم يدافعون عن حقهم في الحياة، وينافحون عن مرقدهم من الأرض، ويقولون للواغل الثقيل

وللحامي الدخيل: إنها موتة لا مناص منها. ولأَنْ تُنثر أشلاؤنا على أديم الوطن، وتقبر أجسادنا في ثرى الأجداد، أحب إلينا من أن نعيش عيش اليهود شرداء في كل طريق، طرداء في كل بلد!

لقد شن يهود الأرض على عرب فلسطين الحربَ في صراحة ووقاحة؛ وأعلنوا الجهاد الديني والقومي بالتطوع والتبرع، وسلحوا ذؤبانهم بالمنايا والمنى، ودفعوهم في وجه الحق والعدل والشرف ومن ورائهم مصارف اليهود تمدهم بالذهب، ومصانع الإنكليز تمدهم بالحديد؛ فانطلقوا يخرِّبون المدن، ويحرِّقون الحقول، ويقطعون السبل، ويحصرون المؤمنين الآمنين في أجواف الدور، وفي شعاف الجبال، لا يجدون منصرَفاً إلى الزرع، ولا سبيلاً إلى القوت. وقد شغلهم الدفاع المقدس عن الحمى والنفس عمن وراءهم من الشيوخ والأطفال والنسوة، فتركوهم يتضاغون من الجوع، ويرتعدون من الخوف، ويكابدون رُحاء الهموم على وطن يستبيحه الغريب، وشعب يتخطفه الموت، وحق يتحيفه الباطل، ومستقبل يتكنفه الظلام، وحال من البؤس تقطع الرجاء وتوهي الجَلَد لولا إيمان المسلم وبسالة العربي واستماتة المظلوم

فلسطين العربية كلها اليوم بين منفى يلوذ بكنف الأعداء، وضعيف يتباهى بالدعاء والبكاء، ومدافع يقتات بالعشب ويعتصم بالصحراء؛ وليس للمنفى شفيع إلا الأمل، ولا للضعيف عائل إلا الصبر، ولا للمدافع منجد إلا الأيمان.

أما إخوان النسب وإخوان العقيدة فكأنهم لا يملكون لمأساة فلسطين الدامية إلا عزاء المجامل، ورثاء الشاعر، ودعاء العاجز، وبكاء المرأة.

أيها المسلمون! إذا ذهبت عصبية الجنس فهل تذهب نخوة الرجولة؟ وإذا ضعفت حمية الدين فهل تضعف مروءة الإنسان؟ إنا لا نقول لكم تطوعوا، ولكننا نقول تبرعوا. وليس في التبرع للجريح بالدواء، وللجائع بالغذاء، نقض لمعاهدة ولا غدر بصداقة. وأقل ما يجب للقريب على القريب، وللجار على الجار، يدٌ تواسي في الشدة، وقلب يخفق في المصيبة، ولسان يحتج في المظلمة. فهل يزكو بعربيتكم والجود غريزة في كيانها، وبإسلاميتكم والمواساة ركن من أركانها، أن تقفوا في فلسطين موقف الخلي المتفرج، يسمع الأنين فلا يعوج، ويبصر الدمع فلا يكترث!

إن فلسطين تقاتل للحياة لا للمجد، وتناضل عن القوت لا عن العزة؛ وخليق بمن يدفع عن نفسه أن يُعان، وبمن يذود عن رزقه أن يُعذر

إن فلسطين من البلاد العربية بمكان القلب، ومن الأمم الإسلامية بموضع الإحساس؛ وسيعلم الغافلون أن محنتها سبيل المسلمين إلى التعاطف، وصرختها نداء العرب إلى الوحدة. . .

أحمد حسن الزيات

-

سخرية الأقدار

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

كنت في يوم من الأيام جالساً إلى مكتبي أترقب أن يحمل إلي ساعي البريد (حوالة) مالية. وكنت عاكفاً على الكتابة ولكني كنت أحصى الأبواب والوجوه التي أنفق فيها المبلغ المرقوب. وللذهن قدرة على الاشتغال بأكثر من موضوع واحد في لحظة واحدة. فبينما كنت أجري القلم بوصف ما تعاني فلسطين، وأعرب عما جاشت به نفسي من العواطف من جراء هذه القنابل التي تلقى على باب المسجد الأقصى وفي الأسواق العامرة الغاصة، فتقتل النساء والأطفال والرجال، وتطير أشلاء الإنسان والحيوان وتخلطها بالخضر والفاكهة، واللحم والسمن والعسل، والأنقاض التي تهاوت، والقُفَف التي تبعثر ما فيها؛ وأقول إني أعرف حكومة فلسطين نسفت بيوتاً عدة للعرب، وفرضت غرامات متفاوتة على قراهم الفقيرة، ولا أعرفها هدمت بيت يهودي واحد، أو غرمَّت حياً من أحيائهم أو مستعمرة من مستعمراتهم - أقول بينما كان القلم يسحُّ بهذا كنت أتخيل الثياب الجديدة التي سأشتريها، والأثاث الحديث الذي أحب أن يحل محل القديم في بيتي، والسيارة الجديدة التي سأستبدلها بسيارتي وإن كان عمرها عاماً، وأسأل نفسي هل أستشير المرأة الصالحة التي لا تعترض لي طريقاً، ولا تأخذ عليَّ مُتوَجَّهاً، ولا تنكر من فعلي أو قولي شيئاً، ولا أراها في أي حال إلا راضية، ولا أعرف أن غيرها في هذه الدنيا يمكن أن يطيقني ويحتمل عبثي وسخافاتي وحماقاتي؟

في هذا كله أيضاً كان تفكيري. وكنت أتصور الألوان والثيات والأشكال، وأحاور نفسي وأجادلها، وأتلقى الاعتراضات وأردها، والقلم مع ذلك لا يتوقف ولا يكف عن المضي، وجاءني الخادم بإيصال رسالة بريدية مسجلة لأوقعها، فاستبشرت وقلت: (الحمد لله جاءنا الخير المرتقب. . . خذ يا شاطر فتح الله عليك، ولك. . . (ومددت له يدي بالإيصال) وأسرع. . . عجل، ولك الحلاوة)

وخرج الخادم، وهو يبتسم، وراح هو أيضاً ولا شك يتخيل ما سينعم به في يومه السعيد (بعد أن أعطيته الحلاوة) الموعودة. ومضيت أنا في الكتابة، مغتبطاً، وإن كان القلم يقطر بالنقمة على رؤوس المستعمرين، ورأيتني أدندن، وأنا أجري القلم، ولم لا؟ ألست مسروراً

منشرح الصدر، ولا نكران أني كنت ساخطاً ناقماً، ومغيظاً محنقاً، وثائراً فائراً، ولكن هذا جانب، وذاك جانب، فأنا - في الجانب المشرق الوضاء من نفسي - أشعر بالاغتباط والمرح، فأدندن، ولكن هناك جانباً آخر حالك السواد لا يضيئه إلا ما يتهاوى فيه من صواعق الغضب، والجانبان لا يختلطان، ولا يتداخلان، ولا يعدو واحد منهما على صاحبه؛ فالسواد هنا لا يعصف بالبشر المتألق، والسرور هناك لا يمتد نوره إلى الظلمة الطاخية. . .

وعاد الغلام الخفيف الحالم بالحلاوة، ودفع إلي الرسالة المسجلة فنظرت إليها وأنا أتناولها منه، وعرفت ممن جاءتني قبل أن أفض غلافها. ولم يكن هذا لأني ذكي ألمعي أرى بأول الظن آخر الأمر من وراء الغيب، بل لأن الاسم مطبوع على الظرف وابتسمت وأنا آخذ الرسالة، وأضعها على المكتب كما هي، وأنقدت الغلام المسكين قرشين، وأكببت على الورق أكتب. . وماذا عسى أن أصنع غير ذلك؟ لم تجئ الحوالة المالية المرتقبة، ولا ضير من هذا، ما كانت بي حاجة ملحة إليها، وهي خير إذا جاء فأنعم به وأكرم، وإذا لم يجئ فلا بأس، وستجيء على كل حال غداً إذا لم تجئ اليوم أو بعد شهر أو أكثر، ولو اقتصر الأمر على حرمان ما نعمت نصف ساعة بتخيله لهان، ولكن المضحك. . . نعم المضحك. . . أن يجيئني بالبريد المسجل في هذه اللحظة على

الخصوص إنذار من محام بتنفيذ حكم صدر خطأ في غيابي، وعندي المستندات التي تثبت أني أبرأت ذمتي، ولكني لسوء حظي مهمل وشديد النسيان، فلست أذكر أين وضعت هذه الأوراق، وقد كلفني هذا النسيان ما لا يعلمه إلا الله، وبدا لي - لسذاجتي - أن من السهل أن أقنع الخصم بمراجعة أوراقه وحسابه ليتبين أني أديت إليه حقه.

وخطر لي أن هذا أسهل من عثوري أنا على مستنداتي التي لا أدري ماذا صنع بها الإهمال، وكان الخصم يضحك مني ويقول للحاضرين (اسمعوا. . . هذا جديد. . . يريد مني أن أقدم أنا له ما يثبت براءة ذمته!! فلماذا لا يعد هو مستنداته؟) فأقول له محتجاً (يا أخي إن المسألة ليست مسألة خصومة وعناد، وإنما هي مسألة ذمة وحق، وعندك دفاتر مسجلة تقيد فيها مالك وما عليك وأوراقي لا أدري أين هي، والبحث عنها يضيع وقتي، ويطير عقلي، ولا صبر لي على هذا على كل حال؛ ولأهون على أن أؤدي إليك المال مرة أخرى من أن أنفق عمري وأطير صوابي

في البحث عن هذه الأوراق، فلماذا لا تؤثر العدل والحق فتعاونني؟ إنك ناس، والموكل بهذا الحساب قد ترك عمله عندك، والمراجعة لا تجشمك عناء، فمر واحداً من عمالك (أن يقوم بها

وقد ضاعت سنتان من عمري وعمره في هذه المراجعة التي لم تخل من بعض الفائدة، فقد اهتدينا إلى مبالغ ثبت أني أديتها فتزعزعت ثقته بعامله الذي أكد له أني ما زلت مديناً، ولكن دفاتره كانت على حال من الفوضى كالتي عليها أوراقي في بيتي.

ويظهر أنه سئم أو تبلد فلم يعد وخز الضمير يؤلمه أو يزعجه، فقال أنفذ الحكم عليه بما لم نجد دليلاً على أدائه وأريح نفسي، وعليه هو - لا علي أنا - أن يبرئ نفسه بإبراز ما عنده!

وهكذا تلقيت إنذاره

وأتممت المقال ثم فضضت الظرف وقرأت ما في الكتاب وضحكت. لقد كنت أنتظر فرجاً أوسع به على نفسي، فإذا بي أطالب بأداء دين مرة ثانية!؟ فماذا أصنع؟ قلت لنفسي - وكان اليوم الخميس - هذا موقف ممتع. وخير ما أصنع هو أن أركب سيارتي وأستصحب بعض الرفاق، ونمضي جميعاً إلى الإسكندرية فنقضي على ساحل البحر أياماً وليالي ننسى فيها سخرية الأقدار وتهكم الأيام. . .

وقد كان. قمنا إلى الإسكندرية قبل الغروب بساعة، فلقينا في رحلتنا ما هو أعجب وأغرب مما سأقصه على القراء في المقال التالي

إبراهيم عبد القادر المازني

صحيفة وصف وأخلاق

النادي

للأستاذ حسن القاياتي

بكَّرتُ إلى ضاحية نضرة مؤنقة ألفت أن أزور نادياً فيها يتألفني بشفوف حسنه الصامت، ويقر بعيني أن أبادله أنفاسي الحرار ببرد نسيمه الذي يأذن له فيتلعب بغلائل زائراته من الغانيات بأرفق من تلعب العيون بالقلوب، ويطيب لي أن أشهد سكونه المعجب لا يحس فيه غير نبض الجوانح بالحب، أو سُرى العيون بنظرة مدلهة

كم خلوت في هذا النادي بنجوى الأمانيَّ الحسان كأنما أتناولها من رقعته النضرة الغضة، وللأمانيَّ في الجو الطلق رفيف كرفيف نسمته يندَى على الكبد

أمانيُّ من ليلى حسان كأنما ... سقتنا بها ليلى على ظمأ بَرْدا

مُنىً إن تكن حقاً تكن أحسن المُنَى ... وإلا فقد عشنا بها زمناً رغداً

المتنزه أو النادي جنة معطار بالنسيم، يتيامن قليلا عن الطريق الشارع حيث المدينة، ويتياسر شيئاً عن المزرعة حيث الريف، فهو بينهما قائم يشرف على رقعة نضرة، كأنه الحد بين مصنوع الحسن ومطبوعه، وتلك من أكبر ما يغريني به فقد طبعت عليَّ خلال من حب الوحدة إلى غاية من التبرُّم

أما النادي في صورته فبناء مؤلف من طبقتيه السفلى والعليا، بيد أن عليا الطبقتين خلاء من كل ناحية، سقف على عمد، هل رأيت مظلة في يد؟

تشافهه ذكاء شارقة غاربة، فتطالعه في مشرقها بوجه وضاح متهلل يعيره في المشتى أنفاساً حِرارا كأنفاس الصبابة، وصفرة في أصائل المصيف كصفرة المحب، فاترة اللمح والحرارة، فناهيك من مصيف ومشتى

الخضرة حول المتنزه سائدة، ربما أربق عليها عسجد الشمس فهي بساط رائع، كأنما التقت عليه الخضرة والصفرة في سدى ولحُمة، تؤلف نقوشه من زهرات ترفات لم أر أملح من الفراش يتنقل عليهن تنقل النظر في خدود الأوانس المتوردات

وقد استدارت حوله شجرات قديمات قامت هنالك عطلاً من الثمر والنَّور، كأنها نصفات من الغيد ودعن عهد الشبيبة والذل، فهن سليبات من الحلي وإن كن لا يعدمن مسحة من

الحسن. على أن تلك الشجرات ربما أجنت عصفورا لبِقا بالصفير يخرج رأسه في الفينات من حفافي ورق نضر كما تطل مغنية من شباك فيضرب الفتن مرات بجانبي منقاره كما تمسح القلم مرات يمنة ويسرة، أو كما يصلح المغني عوده، ثم يتكلم العصفور بصوت ساحر

وقد يشرف الجالس فيه على ضروب من الغراس حديثة العهد بماء ضحضاح إذا تمايلت فيه وصفها مترجحة كالراقصات أمام المرآة، ذلك حسن منثور فيه، أينما تلفت رأيته كالمحيا الفاتن تجيل طرفك فيه بين فنون من الروعة، فتنقله من خد إلى جيد، ومن طرف إلى خد

تلك حلية النادي في يومه الساحر الوضاح، أما هو في ليله فذلك الحسن كله والسحر، يقبل عليه الليل بقطعاته الجهمات فتتشابه سماؤه وأرضه: السماء روض زهراته الكواكب، والروض سماء كواكبه الزهرات، وتأخذ لألأة الكواكب بالبصر حتى يحسبها الناظر شقوقاً في ثوب الليل، فيرده عن وهمه أن ثوب الليل تشيب، وأنه بعد في مقتبل. أما القمر في ليالي القمر، فأن له على تلك الساحة طغياناً ساحراً كما تدفق النهر في الحديقة؛ وطالما رف بلبل في جوه فرجع ترجيعات مليحات آنقت الأسماع حتى ما يمارى أحد في أن تغريد الطيور من ألحان الطبيعة، وإن كان لا يحسن أن يقول: من أية نغمة هو، وإن تعرَّف حسنه بما أودعه النفس من حرارة الشغف

إن الناظر ليجيل طرفه فيرى على مدى بصره القطار الأبيض في جيئته وذهوبه يتدفع بين تلك الأنحاء السندسية، فيحسبه قناة ماء مسجور يتدفق بين الرياض، ويخيل إليه أن زمجرته هدير القناة، أو يحسبه وهو يمرق ليلاً في غشاء من ضوئه نيزكاً سابحاً يجرر ذيلاً من النور

أجل؛ إن الحياة المريرة النكداء أبخل من أن تخليَ منظراً طريفاً كمنظر هذا النادي من منظر قاس مرٍّ يشق على النفس والبصر. هذه مقبرة قديمة جثمت على قيد خطوات من النادي البديع إذا تلفت الجالس تعثر بها طرفه وشجته كما يشرق الشارب بالماء العذب، هذه المأساة بذلك الجذل سنة الحياة

ألفت غشيان هذا النادي في الأصايل وليلات القمر أسراب من غانيات الأسر فيهن المصرية والغربية، تغرب الشمس فيشرقن فيه يتفرجن من يوميات البيت الجاهدة، ويستسلمن إلى سمر حار ممتع يرسل نفوسهن على السجية؛ وتارة هو ملتقى صفيين يخلوان إلى نجوى الشوق في غفلة من الوشاة

إن الوجوه لتتقابل هناك متعارفة مؤتلفة لكثرة ما تلتقي لديه، حتى لقد ترعى بين زائريه حدود الآداب فيعرف أحدهم لجليسه كرسيه ومجلسه، وكأنما أجد لهم طول الإلف ضرباً من التفاهم يلفهم فيه أسرة واحدة يرمون المحدث فيهم بالنظر الشزر.

أنا جالس في ندينا الساعة حيث أكتب هذا، والدولة لليل، وقد نبض سلك الثريات بالنور فأضاءت، وحوالي خفرات من الأوانس محجبات وسوافر يبسمن لذويهن فيذبن الأسى، تحلل الظلمة تحت الثريات، ويفاوحن الروض بعرف زكي كأنما يرود لهن القلوب، والعَرف من بَريد الحب

شدَّ ما يسترسل الأوانس هناك في تبذلٍ ومجانة يتجاوزن بهما حد الرشاقة والدل إلى الخلاعة، كأنهن حين شهدن تبرج الطبيعة تشهَّين أن يسايرن حسنها السافر فساقطن عن حر الوجوه براقع شفافة كأنها أغشية البلور، وأخذن في مرح بحت يعملن فيه الرشاقة والدل

تلك التي انتبذت ناحية طفلة ناهدُ في سنِّ البدر وحسنه، أحسبها تفلتت الساعة من المدرسة لما يلوح عليها من غرة بالتلفف

جلست الفتاة تتنظر خديناً لها فهي تتلفت متململة تلفُّت الطائر على الغدير، حتى أقبل طلقاً وضاح الأسارير فسلم ثم عدل بها إلى مكان يجور عن مساقط النور ومواقع

النظرات، ألف العشاق أن ينزلوه، يسرهم أن يجمعوا بين كحل ظلمته وبين العيون فما ينيره غير جبين وضاح
جلسا معاً هناك، وجه إلى وجه، وساق على ساق، في أمن من سرى الأبصار والظنون:
أقول وجنح الدجى مُلْبِدُ .. وليل في كل فج يدُ!!
ونحن ضجيعان في مِجْسَدٍ ... فلّله ما ضمن المجسَدُ!
أيا ليلة الوصل لا تنفدي ... كما ليلة الهجر لا تنفدُ
ويا غَدُ إن كنت بي راحماً ... فلا تدْن من ليلتي يا غدُ
يتناجيان حينا بحرِّ الصبابة فيضرِّج الحياء خدها الرقيق:
راض بحكمك فاعدلي أو جوري ... ولك المكانة فاهجري أو زوري
ناجيت فاتنتي فأشرق خدُّها ... بالحسن وقْعَ النور في البلور!
وربما سكتا عن حديث البشاشة فتكلمت العيون!
متحابان غاب عن يومهما العَذَل فدعهما حيث شاء لهما الحب ونجواه
وتلك عقيلة نَصَف على أنها مستتمة الملاحة لبقة بالغزل والتصبي، ذات وليد مرضع تحمله وصيفة زنجية متلففة. أقبلت العقيلة تمشي إلى رجل رزين الجلسة هو قرينها فيما يخيل إلى ناظره، أفنى هزيعاً من الليل في توقعها، فالآن حيث أقبلت تخطر حتى جلست إليه في غير تحية ولا كلفة. وإني لأشهدها الساعة تتململ حائرة النفس، وتتخبط برجلها تخبط الظبي في حبالته لترى الجلوس ساقها الضخمة الملتفة كأنها لفائف البللور، وتسارق جاراً لهم النظرات تنتحل لها العلات حذراً من يتقظ الريبة في نفس القرين، وتكثر أن تكشف جيب الثوب عن ناهد رخص مستدير تعلل به الوليد، وجل ما تعتمده أن ترى النظارة وبخاصة ذلك الجار أنها تحمل غض الرمان:
بنفسي من لو مرّ بِرْدُ بنانهِ ... على كبدي كانت شفاء أنامله
ومن هابني في كلّ أمر وهبته ... فلا هو يعطيني ولا أنا سائله
وهذه فتاة أخرى تتردد بين الصبيحة والدميمة، على نصيب من رشاقة الدل واللباقة، ولكنها طياشة لا يحتويها مكان، تغرق في هذر وضحكات خليعة تستثير بهما هوى الجالسين كما يطارد الصائد الظبي إلى الحبالة فإذا هو أخيذ:
فرقت إني رجلٌ فروق ... من ضحكة آخرها شهيق
تجربات عدة صادقة أفدت منها أن العفاف لون من ألوان المرأة لا جوهر، وأن المرأة لا يسلم لها شرفها الرفيع كائنة من كانت إلا محرزة مكنونة، أو يراق على جوانبه الدم، وإنها إذا استشرفت للريبة استبيحت فلم تعتصم
ذلك رأيي في المرأة جد سديد، وإلا فما هذه النظرات الخائنة التي تخترق الصدور إلى الأفئدة؟ والتفلت من كل عقد اجتماعي أدبي؟
إن المرأة لتحسب أن من وحي الفطرة الزهادة في الأليف الفرد، وذهاب الحسن طلقاً مع الهوى كأنما تخشى عطلة الغزل، وتنفس بالحسن على التملك فيما يقول الإعرابي الغر
يقولون: تزويج وأشهد إنما ... هو البيع إلا أنَّ من شاء يكذب
وكأنما تقول:
إن المرأة مخلوقة من جو هذا الكون ونسيمه، فأخلق بها أن تروح في حرية ذلك الجو الطّلق
يعز علي أن يكون رأيي في المرأة هذا الحكم الجافي، ولو آثرت العاطفة دون العدل لم يكن أحد آثر من المرأة بالترفق
إن اليد التي تصرف القلم بالعاطفة لا تحسن إلا حمل الدف أو العود
هذا كله وأكثر منه في طبقة النادي العليا، أما طبقته السفلى فأن لها شأنا غير تلك نصفه على أنه أعف وأنزه. هذا قس رزين مثر من القساوسة خلفاء المسيح صلوات الله عليه، يحمله إلى النادي مركب سريٌّ، وله ضيعة فخمة، كلُّ ما يلوح عليه من سمات الدين لحيته وطيلسانه، ومسبحة يديرها آونة، لا يكاد يساجل جليسه إلا حديث الضيعة وقصر يبتنيه؛ ولكنه غر كريم بكل ما يشهده حوله من هذه الحياة الماجنة، يصف الهداية كما تصفك المرآة وكأنه في هذا النادي المستهتر بقية الهدى في فؤاد المفتون!
حبيب إلى نفوسنا أن يتنزل رجال الدين من علياء مجدهم وتدينهم إلى حيث الطبقة

المتحضرة اغتباطاً بدنوِّ الدين المصلح الرشيد من المدنية الفاتنة المسترسلة، وأنى يكون ذلك؟
تريدين كيما تجمعيني ومالكاً ... وهل يجمع السيفان ويحك في غمد؟؟
وذلك رومي يجلس على مقربة مني لا ينفك فمه يختلج بهمس تتحرك له شفتاه كأنه ممرور أو موسوس، وكأنما يعد شيئاً يعقد له أنامله. وماذا عسى يعد هذا المنكود إلا أيام عشيق هاجر كأنه يتبرم بالحب؟ وهل لأحد على حبه خيار؟ ذلك طماح شديد
دعي عد الذنوب إذا التقينا ... تعالي لا أعُدُّ ولا تعدَّي
أما تلك الفتاة اللعوب الشرهة النظرات التي تتصدر في حفل لها فيه عشيق، فقد ألبس علينا أمرها، أمستباحة هي أم حَصان مخبأة؟ فإنا لفي هدأة من ليل ساج يكاد أحدنا يحبس فيه نبضه خشية أن يقطع سكونه، ويترفق بالنفس خيفة أن يضرمه بحرقته، إذ خلصت إلينا مع النسيم نغمة فاتنة ساحرة، يحملها حمل النفحة مجهولة المهب، على أنها حلوة الخطرة
تمسك الحشاشة:
يا ساقيَّ أخمر في كؤوسكما ... أم في كؤوسكما هم وتسهيد؟
أصخر أنا؟ مالي لا تحركني ... هذي المدام ولا تلك الأغاريد؟
ماذا لقيت من الدنيا وأعجبُهُ ... أني بما أنا باكٍ منه محسود
واطربا لك أيها الشادي! وحر قلبي عليك! لقد أحسنت وأربيت. من أنت جعلت فداك؟ ومن أية النواحي مَسرَى الموت؟
تلفتت العيون بعد أن تلفتت القلوب تطلب مغدي الصوت فإذا فتاتنا اللعوب هي التي ترسله حاراً كزفرة المحب، وإذا هي مطربة نابهة من المعروفات كأنما تناست مجلسها من الحفل وخيل إليها المرح أنها جالسة بين زملائها على (التخت) فانفرجت شفتاها بتلك الأغنية ثم بدا لها أن تقني الحياء فأمسكت ولم تبرح إلا مكرمة مفداة بينما نصغي بأسماعنا إلى غناء الآنسة الأخاذ دخل إلى النادي رجل عسكري عظيم في (رتبة اللواء) ألف طروقه يتحدث فيه إلى أستاذ مدرس من المعممين فيزأران بالحديث حتى يستحيل النادي بصوتهما كلية للفنون أو معئرك حرب، يزخر مرة بالبحث والتحليل، ويفهق أخرى بالصليل
يلقى المنية في أمثالٍ عدتها ... كالسيل يقذف جلموداً بجلمود!
ولعهدي لهذا الصوت الصاخب ينشد شعراً مرة، فليت شعري من راض ذلك الطبع العصيَّ على رقة الأدب، وتناشد الأشعار؟ أجل، إن الراضة يأخذون الليث الهصور بالرياضة والتأنيس حتى يصبح أنيساً طيعاً. هذا كلب صاحب الناديقد شهدت من يلقي له قطعات السكر فيأكلها التهاماً، فلما سمعت الشعر يمتضغه العسكري العظيم، قلت: ما أشبه الشعر في فم الرجل الجاف الخشن بالسكر في فم الكلب الشره! وإن من الشعر لحكمة:
وهذا الرومي صاحب النادي يأبى كل الأباء أن يعد النرد للاعبين في الطبقة العليا من ناديه إغلاء بهدوء الزائرين، أفلا تكون للضابط العظيم شمائل ذلك الرومي الجافي فيعفينا بل يعفي زائراته الرقيقات من الصخب، كما أعفانا صاحبه من (النرد) بل ليت لنا من يقول له: رفقاً أيها الأسد بالظبيات أو القواريرليس فيما يقطع السكوت في الخلوات أشهى إلى المستريض المبعد مسه السغب من نداء
الباعة على الطعام الشهي اللذّ، والطعام كله على تلك الحالة لذ شهي، بل هو أهنأ الطعام وأمرؤه، وإن فيمن يضمه نادينا الحفيل رجالاً لهم شارة تشهد بغضارة ونعمة. ذلك السيد السري المتصدر واحد منهم، لا تبرح تحت طاعته سيارة وسائق فاره، وهو إذا عاد إلى مثواه عائد لا محالة إلى قصر مشيد وخدم، وبَدِيه إن له طاهياً محسناً لا يصنع طعامه المعجب فحسب، بل يصنع معه الشهية لآكله. وها هو بحيث أراه مكب على قطعتي جبن وخبز ينحى عليهما بأنيابه إنحاء الجائع المقرور!
لقد سوت المسغبة ونزوح ساعة عن المدينة بين السيد الشريف والبائس الذي يتبلغ بالخبز القفار. وتلك حسنة للخلوات تقرّب بين الطبقات بالتسوية فتتركهم سواسية كما هم في رأي الفطرة، سيان الشريف والدون. معدلة من الطبيعة ونصفة؛ على حين تقضي سنة المجتمع ونظمه بتفرقة جارمة

مخلسنا في النادي تحت كرمة عنب فينانة تظل ناحية منه، وتتدلى علينا بأوعية المدام أو العناقيد كأنها ثريات النور
تحملي أوعية المدام كأنما ... يحملنها بأكارع النغران
أذكرتني الكرمة بالراح، وإن كنت لا أشربها والحمد لله الذي يحمد على المحبوب والمكروه، كما تذكر النتيجة بالمقدمات، فذكرت كذلك أن النادي معطش منها، تعطل فيه الأكواب، وأن صاحبه الخبيث يتحرق لهفة لأنه استجدى الأذن ممن يملكه بأن يديرها فيه فلم ينعم له بحمد الله. وخيل إلي أنني تعرفت من وقوع الطير على العناقيد ونقره حبات العنب، لأية علة كانت عربدة العصافير والتغريد. ولو أتيح للخمار الداهية أن تحتث عنده كؤوس الشراب لروعنا بعربدة العيون الساحرة النشوى، فصرنا إلى ناد طروب تعربد سماؤه وأرضه وتُغرد طيوره وغيده!
لا تسقنيه فأني أيها الساقي ... أخاف يوم التفاف الساق بالساق
إن الشراب تهيج الشر نشوتُه ... فميز الشر منه واسقني الباقي
فضيت من الرياضة كل حاجة، وتزودت لرئتيَّ من النسيم العليل، فتشهيت العودة وأخذت سمتي إلى بيتنا الصغير، فإني لجالس فيه صبيحة تلك الليلة جلسة المتعب المكدود أتمثل ما مر بي بالأمس، إذ دخل علينا آنستان فاتنتان كأنهما صورة الحسن، فلما سمعتهما تسألان
عني قلت: لبيكما، أنا ذاك. فأقبلتا فجلستا في تخفر واستحياء متصنعين؛ بيد أنهما تخبآن السحر في العيون ثم تحدثتا إلي بأنهما أقبلتا من مدرسة فلان في طلب المسعدة ليتامى قسمها المجاني ويتيماته - فيما زعمتا - ودفعتا إلي بصحيفة أعدتاها للمتبرعين يثبتون فيها الأعطيات، ثم التوقيعات، فتسمحت نفسي بقليل نذر يتذمم الجواد المفضل منه، ثم وقعت في الصحيفة (صانع خير!) ومن يبخل عند الأوانس؟ فانصرفتا في امتنان وحمد. ويمين لا عاهر ولا حانث، ما أعرف أصانع خير أنا أم صانع شر؟ ولكني أعرف أن هذه أساليب هذا العصر، أو هذا البلد، وطرازه الطريف في الاستجداء الكاذب المخزي لمعونة العلم والبر، وأين العلم والبر؟
في الناس من يقتني نفعاً بمُندِيةٍ ... كما جرت قبلة (في سوق إحسان)
وا حر قلباه! حتى البيوت فيها أوانس المجتمعات العابثات؟
لمحة دالة من صفة نادينا الذي يتألفنا بجماله، وهو على ما فيه من هنات إنما يصف المجتمع ونفسياته، كما تصفه كل منتدياتنا، وخلف ما ذكر ما لم يذكر استحياء من الأدب والفضيلة
إن الأندية مرآة صقيلة للشعب تصفه على ما هو عليه من دمامة في صورته الخلقية أو وسامة
(السكرية - دار القاياتي)
حسن القاياتي
حواء
عَلَم على ديوان شعر طريف في الغزل العرفاني من نظم الأستاذ الحوماني تحت . . . الطبع تحمل الرسالة نماذج منه إلى قرائها في عالم الفن
وحي القمر
قرأتكِ في الأفق حتى جرت ... سبائكه في جيوب السحرْ
وحتى تدفّقَ من جانبيه ... ضبابٌ على الأرض غطى الشجر
وأوقَدَ في ذرواتِ الغصون ... قناديلَ يزلق عنها البصر
تنوّعَ فيهن لونُ الحياة ... أفانينَ تحمل شتى الصور
تلمستُ روحكِ في أفقها ... وروحُكِ في الأفق وحي القمر
فكانت من الزهر هذا العبير ... ومن ذِروة الغصن ذاك الثمر
في فم الشاعر
لروحكِ في مُلتقى خافقيَّ ... خيالٌ يُرقِّه عن ناظري
أراه بعينيَّ في يقظتي ... وإن نمتُ وأشرق في خاطري
تمرُّ به نسمات العشيَّ ... على صفحة القمر الحائر
وتندى به نسمات الصباح ... فتلفظه في فم الشاعر
وكم صفَّقت جنبات الغدير ... على رقصه في فم الطائر

خيالُكِ مرآة قلبي، يُطلَّ ... على الكون من فمها الساخر
تدور بها في سماء الخلو ... دِ أرحيةُ الفلكِ الدائر
الحوماني
في مصر الإسلامية
السيادة المصرية في صدر الإسلام
للدكتور حسن إبراهيم حسن
أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية الآداب
كان الخراج في الدولة الإسلامية من أهم موارد بيت المال، فلما فتح العرب مصر وجبا عمرو بن العاص خراجها لم يرْض عمر بمقدار الخراج، وظن في عمرو الظنون، فأرسل إليه ابن مَسلمة ليقاسمه ماله، ثم عزله سنة 23هـ قبيل وفاته بقليل عن ولاية الصعيد وأسندها إلى عبد الله بن سعد بن أبي سرح. فلما ولي عثمان الخلافة عزل عمراً وولى ابن أبي سرح مصر كلها، فكان ذلك سبب الجفاء والعداوة بين عمرو وعثمان حتى قيل إن عمراً أخذ يؤلب الناس على عثمان وعلى سياسته وإن له ضلعاً في مقتله
على أن ابن أبي سرح لم يكد يستقر في ولاية مصر حتى انتفض الرومان وكتب أهل الإسكندرية إلى قسطنطين بن هرقل إمبراطور الروم يصفون له ما هم عليه من الذلة والهوان ويهونون عليه فتح الإسكندرية لقلة من بها من حامية المسلمين، فأنفذ قسطنطين قائده الأرمني الإسكندرية على رأس جيش كثيف فاستولى عليها وأخذ جنده يعيثون في الأرض فساداً حتى وصلوا إلى مدينة نقيوس
ولم يكن قبط مصر يرحبون برجوع بلادهم إلى حوزة الرومان خوف أن يسوموهم الخسف والهوان لما قاموا به من مظاهرة العرب ورضائهم بحكمهم من جهة، ولما كان بينهم وبين الرومان من الخلاف المذهبي الذي كان مصدر شقائهم ومصائبهم في عهد الرومان من جهة أخرى. فكأن عودة مصر إلى حوزة الروم معناه زوال تلك الراحة والطمأنينة اللتين تمتع بهما المصريون في ظل الحكم الإسلامي
لهذا كتب قبط مصر إلى عثمان يلحون في إسناد حرب الرومان إلى عمرو بن العاص لما أحرزه في حروبه معهم من الخبرة الناشئة عن طول المراس، ولأنهم أنسوا فيه الدراية والكفاية على رد غارات الأعداء بخلاف ما كانوا يعرفون عن واليهم الجديد، فولى عثمان عمرا الإسكندرية على أن يتولى حرب الرومان وإخراجهم من مصر وفي مدينة (نفيوس) دار القتال بين جند عمرو وجند مانويل في البر وفي النهر، وكثر الترامي بالنشاب حتى وقع فرس عمرو من تحته. ثم طلب المسلمون المبارزة بين فارس منهم وفارس من الرومان فكانت الغلبة لفارس المسلمين فثارت حميتهم وشدوا على العدو وانتصروا عليه وقتلوا قائده، ثم تعقبوه إلى الإسكندرية وأعملوا السيف في رقابهم. وهنا أمر عمرو بإيقاف رحى الحرب، وأن يبني في الموضع الذي رفع فيه السيف مسجد أطلق عليه فيما بعد (مسجد الرحمة) وهدم عمرو سور الإسكندرية، وبهذا ثبتت أقدام العرب في مصر سنة 25هـ
أقام والي مصر الجديد في الفسطاط يراقب الأمور عن كثب وينتظر ما تلده تلك الحرب الناشبة بين العرب والروم في مصر. ولا شك أن انتصار عمرو ثبت قدم ابن أبي سرح في ولايته. فحذا حذو سلفه في الإصلاح الداخلي وفي الفتوحالخارجية، أما الإصلاح الداخلي فلم يترك له عمرو شيئاً جديداً اللهم إلا ما كان في زيادة الخراج في ولايته حتى بلغ أربعة عشر مليوناً (إن صح أن يسمى هذا إصلاحاً)
أما من ناحية الفتوح الخارجية فإن ابن العاص كان قد أمّن حدود مصر من جهة الغرب بفتح برقة عام 21هـ صلحاً، وبفتح طرابلس سنة 24هـ عنوة. ثم بعث نافع بن القيس الفهري (وكان أخا العاص بن وائل لأمه) إلى بلاد النوبة فقاتله أهلها قتالاً شديداً فانصرفوا، فلما ولي مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح غزا أفريقية سنة 27هـ وقتل ملكها وغنم المسلمون الغنائم الوفيرة حتى قيل أن سهم الفارس بلغ ثلاثة آلاف دينار والراجل ألف دينار
ثم وجه ابن أبي سرح همه إلى الجنوب فغزا بلاد النوبة من جديد، وبلغ دنقلة في سنة 31هـ وقاتل أهلها قتالا شديدا، ومع ذلك فإن النصر لم يتم لابن أبي سرح، فلجأ إلى مهادنة النوبيين وعقد معهم صلحاً رواه من المؤرخين البلاذري والكندي والمقريزي

وترجمه لين بول في (تاريخ مصر في العصور الوسطى) (ص 20 - 21) وهو أشبه بمعاهدة اقتصادية بين مصر والنوبة: هذه تمدهم بشيء من الحبوب والعدس، وتلك ترسل إليهم الرقيق

كذلك تولى ابن أبي سرح قيادة معركة بحرية نشبت سنة 31هـ بين العرب والبيزنطيين

تحت قيادة ملكهم قسطنطين بن هرقل، وكان النصر للعرب على الروم في هذه الموقعة التي عرفت باسم موقعة (السواري) أو (ذات السواري) لكثرة سواري المراكب التي اشتركت في القتال

أما مثير هذه الحرب فهو قسطنطين بن هرقل فلقد دبَّ في نفسه دبيب السخط فعمل على الأخذ بالثأر لما أصاب المسلمون من أملاكه في غرب مصر، فخرج في عدد من المراكب يتراوح بين خمسمائة وألف على ما ذهب إليه المؤرخون على اختلافهم، وخرج ابن أبي سرح بمائة مركب، واشتبك القتال بالغرب من الساحل الأفريقي في الفرضة المسماة بفرضة زيواره

حسن إبراهيم حسن

. . .حظي بالشيء

لأستاذ جليل

. . . .الرافعي، المجمع اللغوي، أزهري المنصورة، اليازجي

. . . . .

- 2 -

طالع الأستاذ الرافعي (رحمه الله) كلمة المجمع اللغوي (البلاغ 17 شوال 1352) فنشر مقالة عنوانها (أول الغلط من المجمع اللغوي، رد على رد) - البلاغ 18 شوال 1352 - أطنب فيها في أمر البرقية ثم قال: (وانتهى الأستاذ (أي مدره المجمع الشيخ حسين والي) إلى مادة اللغة فلم يأتنا بكلام من الفصيح جاء فيه مثل استعمال (يحظى بتشريف) بل سكت عن هذا مع أنه هو كل ما نريد. ثم قال: إنه يجوز استعمال الباء مع حظي واستدل بقول الزمخشري في الأساس (حظي بالمال وأحظاه الله بالبنين) وها هنا أردنا أن يبحث أعضاء المجمع في وجه استعمال حظي بالمال وحظي بالبنين، فأنهم إن اهتدوا إليه فسيرونه رداً عليهم. ولا نزال نطلب إليهم أن يأتونا بالتاريخ الاجتماعي لهذا الفعل (حظي) لينكشف لهم الخطأ في استعماله. ثم قال فضيلته: (إنهم استعملوا التشريف بمعناها الأصلي لا بمعنى الحضور، ومعموله مفهوم أي تشريف جلالته إياه) قال هذا وسكت عن الباقي، والباقي هو قولهم (تشريف جلالته إياه لافتتاحه) فإذا لم تكن هذه اللام في (افتتاحه) نصاً في تقييد معنى التشريف بالحضور فما موضعها هنا؟ إن المجمع على كل حال قد حظي بتشريف جلالته إياه) إذا أريد من التشريف معناه الأصلي، فإن هذا المجمع إنما هو عناية سامية من جلالة مولانا الملك وأثر من آثار فضله وبركة من بركات يمنه وكل هذا تشريف، فعلى تأويل (حضرة العضو يكون كلامهم لغواً لا محل له، وإلا فرده هو لغو لا محل له

الأستاذ الرافعي وأزهري المنصورة

في 19 من شوال سنة 1352 ظهرت في (البلاغ) كلمة عنوانها (حظي بالشيء والأديب الصغير) للأستاذ أزهري المنصورة. ومما قاله: (قال (ديوان الحماسة): أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته ... ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

وقال (الأساس): (وحظي بالمال، وتقول: ما حِليَ بطائل، ولا حظي بنائل) وديوان الحماسة هو الذي اختاره أبو تمام، قالوا: (لم يجمع في المقطعات مثل ما جمع أبو تمام) وأبو تمام حجة، فما قولك فيما رواه من شعر العرب. قال (الكشاف): (وهو وإن كان محدثاً لا يستشهد بشعره في اللغة فهو من علماء العربية، فاجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه. ألا ترى إلى قول العلماء: (الدليل عليه بيت الحماسة) فيقتنعون بذلك لوثوقهم بروايته وإتقانه)

والأساس هو (أساس البلاغة) لأستاذ الدنيا جار الله (ومن خصائصه - كما قال أبو القاسم - تخيّرُ ما وقع في عبارات المبدعين، وانطوى تحت استعمالات المفلقين) فالأديب الصغير لم يحض بالصواب حين خطّأ (حظي بالشيء) في قول حضرة أعضاء المجمع اللغوي لا (حضرات أعضاء المجمع) كما قالت حضرته، لأن الأعضاء كلهم

أجمعين حضرة واحدة، ومن المستحيل أن يكونوا حضرتين أو ثلاث حضرات أو أكثر من ذلك
أجلْ، إن أعضاء المجمع اللغوي محظوظون كل المحظوظين لكنهم ما أخطئوا في فعل (الحظوة) كما قال (الأديب الصغير) اليوم، وأديب كبير من قبل
رد الأستاذ الرافعي (رحمه الله) في (البلاغ 21 شوال 1352) على الأستاذ أزهري المنصورة بمقالة عنوانها (حظي بالشيء) ومن هذا الردّ:
جاءنا حضرة أزهري المنصورة بالحجة القاطعة والشهادة القائمة على أن (حظي بالشيء) هي من كلام العرب، فكان كل ما قاله في هذا هو هذا: (قال ديوان الحماسة (وأورد البيت) وقال الأساس (وذكر قوله)
نحن نشير في كلامنا في انتقاد (العشرين حضرة) إلى مغامز دقيقة لا نستطيع أن نكشفها، ولذا طالبناهم أن يأتونا بالتاريخ الاجتماعي لفعل (حظي) إن كانوا علماء لغة وفلاسفة لغة، وسألناهم عن الكلام الفصيح الذي جاء فيه مثل قولهم (حظي بتشريف) وما نجهل ما قاله الأساس ولا بيت الحماسة، ولو سأل (أزهري) حضرة الأستاذ صاحب البلاغ لبيّن له أنا كتبنا هذا البيت في كلمتنا الثانية في الرد على فضيلة الأستاذ الشيخ والي ثم ضربنا عليه وأسقطناه من الكلام إذ ليس من عملنا نحن أن نأتي بالأدلة الفاسدة ثم نزيفها، ونبين فسادها
البيت لمحمد بن بشير الخارجي وهو من شواهد النحاة المشهورة ولا مطعن عليه.
لكن الشاعر لا يريد الحظوة بل أراد معنى آخر فضاق باللفظ، ولم يوفق إلى غرضه فاضطر أن يضمن (حظي) معنى (ظفر) ونقل الفعل عن أصله، وحوله عن دلالته فلم تبق الكلمة حظي بل ظفر وسقطت حجة أزهري
وقد نص النحاة في شرح البيت على ما ذكرناه من معنى التضمين، ويدل عليه أن بشار بن برد لما أراد هذا المعنى وأطلق العبارة لم يستعمل حظي بل قال:
من راقب الناس لم يظفر بحاجته ... وفاز بالطيبات الفاتك اللهج
أما قول صاحب أساس البلاغة فلا دليل فيه لأعضاء المجمع بل هو من دليلنا نحن، لأننا ننكر الاستعمال ونستهجنه مقيداً باعتبارين: الأول أنه من أعضاء مجمع اللغة، والثاني أنه في كلمتهم المرفوعة إلى جلالة الملك
وبعد هذا نقول (لأزهري): إن سجعة الزمخشري التي استدل بها هي كأكثر سجع الرجل في كتابه من الكلام الغث البارد الذي لا وزن له، وقد سمّي الرجل كتابه أساس البلاغة ولم يسمه أساس اللغة)
قلت: قال الأستاذ الرافعي (رحمه الله): وهو (أي بيت محمد بن بشير) من شواهد النحاة المشهورة
والشاهد فيه حذفه حرف الجر من (مدمن) ومثل ذلك جائز. ويحذف هذا الحرف في المعطوف على ما تضمن مثل المحذوف وإن انفصل عنه بلا كقوله - وهو من شواهدهم -
ما لمحب جَلَدٌ أن يهجرا ... ولا حبيب رأفة فيجبرا
ولبيت بشار المذكور في (الرد) حكاية لطيفة رواها أبو الفرج وابن الخطيب:
غضب بشار على سَلم الخاسر، وكان من تلامذته ورواته فاستشفع عليه بجماعة من إخوانه، فجاءوه في أمره، فقالوا: جئناك في حاجة، فقال: كل حاجة لكم مقضية إلا سلماً. قالوا: ما جئناك إلا في سلم، ولا بد من أن ترضى عنه لنا، فقال: أين هو الخبيث؟ قالوا: هاهو ذا. فقام إليه سلم فقبّل رأسه، ومثل بين يديه وقال: يا أبا معاذ، خريجك وأديبك. فقال: يا سلم من الذي يقول:
من راقب الناس لم يظفر بحاجته ... وفاز بالطيبات الفاتك اللهج
فقال: أنت يا أبا معاذ، جعلني الله فداءك! قال: فمن الذي يقول:
من راقب الناس مات غمًّا ... وفاز باللذة الجسور
قال: خريجك يقول ذلك. قال: أفتأخذ معانيّ التي قد عنيت بها وتعبت في استنباطها فتكسوها ألفاظاً أخف من ألفاظي حتى يروى ما تقول ويذهب شعري؟ لا أرضى عنك أبداً. فما زال يتضرع إليه ويشفع له القوم حتى رضي عنه)
ولقد تجرأت فذكرت قول الأستاذ الرافعي (رحمه الله): (إن سجعة الزمخشري التي. . أجل أن أبين أن الكبير قد يحل على شئ غضبه في بعض الأحايين فيقول. والشاهد .)

في (الأساس) هو (وحظي بالمال) والسجعة إنما هي مثال
وإني لموقن حق موقن أن ليس في هذا العصر من يسبق الأستاذ الرافعي في إجلال إمام الأئمة وعرفان مقداره
وإذا استنزل بعض سجعات في (الأساس) مستنزل ففي (الكشاف) ما (تنقطع عليه أعناق العتاق السبّق، وتني عنه خطا الجياد القرح) وثغث عنده أقول بليغة، قائلوها بلغاء من الطراز الأول
أجاب الأستاذ أزهري المنصورة في (البلاغ 26 شوال 1352) الأستاذ الرافعي (رحمه الله) وعنوان الجواب (أئمة اللغة، حظي بالشئ، الشيخ إبراهيم اليازجي) ومما قال:
1) - أوردنا بيت (الحماسة) وفيه أن (يحظى بحاجته)، وقد شرح هذا الديوان أئمة كثيرون، وجمع الإمام التبريزي شروحهم، ولم يعترض على قائل ذلك البيت معترض
2 - وجئنا بكلام (الأساس) والزمخشري هو صاحب الكشاف عن حقائق التنزيل
3 - وجاء في (نهج البلاغة): (وحظوا من الدنيا بما حظي به المترفون، وأخذوا منها ما أخذه الجبابرة المتكبرون)
وقد فسر العلامة (ابن أبي الحديد) العهد الذي فيه هذه اللفظة ولم ينقدها، وشارح النهج من أئمة العلم والأدب
وإذا قيل: هو النهج، وقد قالوا فيه ما قالوه - قلنا: حال (النهج) كحال الأقوال لوفود العرب على كسرى ووفود قريش على سيف بن ذي يزن وأمثالها، وقد اطمأنت الأئمة إلى عربيتها
والنهج معظمه ظهر حين افتعال تلك الأقوال. والقرن الثاني والثالث أوله ومنتصفه أقرب إلى العربية الأولى من آخره ومن جميع الرابع. وقد أملى ابن دريد في زمانه (ووفاته سنة 321) تلك الروايات والأساطير، وأصبحت لغتها في كتاب (الأمالي) حجة المحتج
4 - وجاء في المقامات لابن الحريري (وهو من أئمة اللغة) في المقامة الأربعين: (نهضا وقد حظيا بدينارين) وللعلامة ابن الخشاب البغدادي رسالة في تخطئة الحريري، وقد غلطه في ألفاظ كثيرة في مقاماته ولم يخطئه في (حظيا بدينارين)
قد يكون هذا الفعل (حظي بكذا) نشأ في الزمن الإسلامي أو الأموي نشوء ألوف مثله لا قبل ذلك، لكن هذا لا يضير، وقد نجمت ألفاظ في القرن الخامس في (الجزيرة) ولما جاء الإمام الزمخشري وسمعها استجادها وأودعها كتبه
كيف كانت الحال لو لم يجئ الإسلامي والمولد والمعرب؟ وهل كانت ألفاظ (الجزيرة) (في الجاهلية تجزئ في تلك المدينة الزاخرة؟
قلت: أشار الأستاذ (أزهري المنصورة) إلى ناشئات القرن الخامس أو (نواشئه) وإيداع الزمخشري بعضها كتبه. وهذه نتفة منها في (أساسه):
(أهل الحجاز يسمون الزرع والطعام (عيشاً))
سماعي من فتيات مكة: الصوفية (اللوفية): لاف الطعام لوفاً وهو اللوك والمضغ الشديد
سمعتهم يقولون في كل شئ لا يحسن الإنسان عمله: قد (محقه)!
اكتريت من إعرابي فقال لي أعطني من (سطاتهن) أراد من خيار الدنانير
سمعت خادماً من اليمامة يقول - وقد وكف السق -: يا سيدي هل (أهب) عليه التراب بمعنى هل أجعله عليه، وهو من الهبة لأن معنى وهب له الشيء جعله له
رأيت العرب يسمون الكزبرة (الدقة) وسمعت باعة مكة ينادون عليها بهذا الاسم
سمعت بمكة من يقول لحامل الجُوالق (استشق به) أي حرفه على أحد شقيه حتى ينفذ الباب
سمعت بعضهم يقول: (عكشتك) بمعنى سبقتك من قوله (عليه السلام): (سبقك إليها عُكّاشة (وهو عكاشة بن محسن الأنصاري)
ومما أورده الإمام الزمخشري في (كشافه): (مما طنَّ على أذني من ملح العرب أنهم يسمون مركباً من مراكبهم بالشُّقْدف وهو مركب خفيف ليس في ثقل محامل العراق، فقلت في
طريق الطائف لرجل منهم: ما اسم هذا المحمل، أردت المحمل العراقي، فقال: أليس ذاك اسمه الشقدف؟ قلت: بلى، فقال: هذا اسمه (الشقنداف) فزاد في بناء الاسم

(لزيادة المسمي
ومن كلمة الأستاذ أزهري المنصورة (لم يقل أحد شيئاً في الفعل (حظي بالشيء) إلا العلامة الشيخ إبراهيم اليازجي وكان هذا الرجل قد جاء مصر وأنشأ فيها مجلة (البيان) ثم مجلة (الضياء) وعلق ينقد ويغلّط. وكان يغلط كثيراً في تغليطه ونقده. ومن هفواته التي أذكرها زمن الطلب في الأزهر تخطئته الأديب الكبير (حافظاً) في قول في كتاب (البائسين) وقد لاقاه بعد هذا النقد حجة الإسلام (السيد محمد رشيد رضا) فقال له -
وقد سمعنا قوله -: (يا شيخ، يا شيخ، إن الذي خطأته في كلام حافظ إبراهيم هو في أول صحيح البخاري) فبهت الشيخ إبراهيم، وترك السيد وهو كاسف البال. وكان وقوف الشيخ اليازجي على المعجمات وكتب الآلات أكثر من اطلاعه على كلام العرب، ومن هنا ومن فرط ميله إلى القياس هوى فيما هوى فيه)
الإسكندرية
(* * *)
للأدب والتاريخ
مصطفى صادق الرافعي
1880 - 1937
للأستاذ محمد سعيد العريان
- 33 -
(سقط من المقالة الثانية والثلاثين المنشورة بالعدد الماضي من الرسالة، بعض عبارات خفي فيها بعض المعنى؛ كما وقع بها بضعة أغلاط مطبعية ابتعدت بها قليلاً عن النهج؛ فنعتذر من هذا وذاك إلى قرائنا، راجين ألا تلزمنا الضرورة مرة أخرى أن نعود إلى مثل هذا الاعتذار)
سعيد العريان
مقالاته للرسالة (4)
كان فيما تحدث به صديقنا المهندس الأديب محمد؟ إلى الرافعي من أسباب عزوبته أن الزواج عنده حظ مخبوء، فإنه ليخشى أن يحمل نفسه على ما لا تحتمل من العنت والمشقة في سبيل إعداد ما يلزم للزواج، ثم تكون آخرة ذلك أن يجلوا عليه فتاة دميمة لا يجد في نفسه طاقة على معايشتها ما بقي من حياته، أو فتاة فاسدة التربية لا يدخل بها على زوجته ولكن على معركة. . .
وقد ظل هذا القول عالقاً بذهن الرافعي يلتمس الوسيلة إلى تفنيده والرد عليه، حتى وقع على قصة أحمد بن أيمن (كاتب ابن طولون) فأنشأ مقالة (قبيحٌ جميل) وهي القصة الثانية مما أنشأ الرافعي لقراء الرسالة؛ وهي الحلقة الخامسة من سلسلة مقالاته في الزواج، وفيها توجيه معتبر للحديث الشريف: (سوداءُ ولودٌ خير من حسناء لا تلد!) يسلك هذه المقالة في باب (الأدب الدينيّ) الذي أشرتُ إليه في بعض ما سبق من الحديث.
ثم كانت الحلقة السادسة هي قصة (رؤيا في السماء)، وتتصل بما سبق من المقالات بأسباب، على أنها تتحدث عن الزواج بمعناه الأسمى، وتدعو إليه الدعوةَ الإنسانية التي تعتبر الزواج باباً من الجهاد لسعادة البشرية كلها. . .
في هذه المقالة؛ لا أعرف سببا خاصا من مثل ما قدمت ' دعاه إلى إنشائها، ولكنها جملة الرأي وخلاصة الفكر وأثر اشتغال الواعية الباطنة قرابة شهرين بموضوع الزواج؛ فهي من الموضوع كالهامش والتعليق، أو الحكم بعد المداولة، أو هي الصفوةُ الصريحة بعد ما يذهب الزَّبد وتنطفئ الرغوة. . .
وقد ترجم هذه القصة إلى الفرنسية الأديب الباحث الأستاذ فليكس فارس؛ وكانت هي أول الصلة بينه وبين المرحوم الرافعي ثم اتصل بينهما الود.
لما أنشأ الرافعي (قصة زواج) تحدث بها الأدباء في مجالسهم وتضاعفت رسائلهم إليه معجبين مستزيدين؛ وتضاعف إعجابه هو أيضاً بنفسه. . فاستزاد واستعاد، والتزم الكتابة على أسلوب القصة، فكان على هذا النهج أكثر رسائله من بعد
وجلست إليه ذات مساء نتحدث حديثنا، فقال وهو يدفع إلي طائفة من رسائل القراء: (اقرأ يا شيخ سعيد. . . أرأيت مثل هذا؟ أيحق لأحد أن يزعم لنفسه القدرة على خير مما أكتب في موضوعه؟ أيملك كاتب أن يردَّ عليّ رأياً من الرأي؟. . . ومضى في

طرائق من مثل هذا القول عن نفسه وعن طائفة من خصومه؛ فعرفت أنه في لحظة من تلك اللحظات التي تتنبه فيها النفس البشرية إلى طبيعتها، فتؤمن بنفسها من دون كل شئ مما خلق الله، إيماناً هو بعض الضعف الإنساني في طبيعتنا البشرية وهو بعض أسباب القوة في النابغين من أهل الآداب والفنون! ذلك الإيمان الذي نسميه أحياناً صلفاً وعنجهية وكبرياء؛ ونسميه في النابهين والعظماء ثقة بالنفس وشعوراً بالقوة!

وكان يلذني في أحيان كثيرة أن أشهد الرافعي في مثل هذه الساعة من ساعات الزهو والإعجاب بالنفس، وأجد في ذلك متاعاً لنفسي وغذاء لروحي؛ لأن الرافعي بما كان فيه من طبيعة الرضا والاستسلام للواقع كان رفيقاً متواضعاً؛ فلا تشهده في مثل هذه الحال إلا نادرة بعد نادرة؛ فإذا شهدته كذلك مرة فقد شهدت لوناً طريفاً من ألوانه، يوحي إلى النفس بفيض من المعاني وكأنما هو يعدي سامعه من حالته، فيحس في نفسه قوة فوق قوته، وكأن شخصاً جديداً حلَّ فيه. . .

وسرني أن أجد الرافعي كذلك في تلك الليلة، فأصغيت إليه ومضى في حديثه؛ فلما انفض المجلس ومضيت إلى داري، وسوس إلي الشيطان أن أعابثه بشيء. . . فكتبت إليه رسالة بإمضاء (آنسة س) أرد عليه رأيه في قصة سعيد بن المسيب وأعيب ما صنع الرجل بابنته، وعمدت في كتابة هذه الرسالة إلى تقليد أسلوب من أسلوب الدكتور طه، يعرفه قراء الرسالة ويعرفه الرافعي. . .

وبلغته الرسالة فقرأها، فنبهته إلى ما كان فيه من أمسه؛ ووقع في نفسه أن مرسلها إليه هو تلميذ أو تلميذة من تلاميذ طه موحَى إليه بما كتب فتحمس للرّد، وأنشأ (ذيل القصة وفلسفة المهر) وجعل أول مقاله رسالة (الآنسة س) وراح يسخر منها ومن صاحب رأيها سخرية لاذعة؛ ثم عاد إلى موضوع فلسفة المهر. . .

وقرأ الزيات المقالة فرأى فيها تعريضاً بصاحبه لم يرض عنه، فكتب إلى الرافعي يطلب إليه أن يوافق على حذف مقدمة المقالة، حرصاً على ما بين الرسالة وصاحبه من صلات الود. . . وكان له ما طلب، فنشرت المقالة في موعدها خالية من هذا الجزء ولكنها لم تخل من إشارات مبهمة إلى أشياء غير واضحة الدلالة وكذلك نشرت من بعد في وحي القلم. . .

ثم كانت قصة (بنت الباشا) وهي السابعة من مقالاته في الزواج، وقد ألهمه موضوعها صديقه (الزبال الفيلسوف) الذي تحدث عنه في هامش هذه المقالة. وهذه المقالة فيما ترمي إليه تعتبر متممة لموضوع (قصة زواج) فهي دعوة اجتماعية لآباء الفتيات إلى الانطلاق من أسر التقاليد في شئون الزواج، وفيها إلى ذلك شئ من الحديث عن (فلسفة الرضا) التي أسلفت القول عنها في (حديث قطين)

أما هذا الزبال الذي نوه به الرافعي في أكثر من مقالة، فهو من عمال قسم النظافة في (بلدية طنطا)، وكان عمله قريباً من دار الرافعي في الشارعين اللذين يكتنفانها، وكان إذا فرغ من عمله في الكنس والتنظيف اتخذ له مستراحاً على حيد الشارع تجاه مكتب الوجيه محمد سعيد الرافعي (المقاول)، فيقضي هناك أكثر أوقات فراغه، نائماً أو محتبياً ينظر الرائحين والغادين من أهل الثراء والنعمة، أو شادياً يصدح بأغانيه؛ فإذا جاع بسط منديله على الأرض فيأكل مما فيه، ثم يشعل دخينة ويعود إلى حبوته يتأمل. .

كان هذا الزبال صديق الرافعي، بينهما من علائق الود وصفاء المحبة ما بين الصديقين؛ وكان الرافعي يسميه (أرسطو الجديد). وأول هذه الصلة التي بينهما أن الرافعي كان يلذه أحياناً أن يجلس على كرسي في الشارع أمام مكتب أخيه، حيث اتخذ الزبال (محله المختار) فكان يوافقه في مجلسه ذلك على ما قدمت من وصفه، فيرفع يده إلى رأسه بالتحية وهو يبتسم، ثم يجلس؛ فكان يحادثه أحياناً في بعض شئونه يلتمس بعض أنواع المعرفة. . . ويكرمه ويبره. وأنس إليه الزبال، فكان يسأل عنه إذا غاب، وينهض لتحيته إذا حضر؛ وصار من بعض عادات الرافعي من بعد، أن يسأل عن الزبال حين يغيب، وأن يشتري له كلما لقيه دخائن بنصف قرش، مبالغة في إكرامه. . .

وكان الرجل أمياً ولكن الرافعي كان يفهم عنه من حركات شفتيه، وأحياناً يستدعي بينهما من يترجم له حديث الزبال مكتوباً في ورقة، وقد كنت الترجمان بينهما مرة.

وكان الرافعي يحرص على هذه الورقات بعد نهاية الحديث كما يحرص الباحث على مطالعة أفكار من غبر عالَمه!

ومما كان يدور بين الرافعي وصديقه هذا من الحديث، عرف الرافعي طائفة من ألفاظ اللغة العامية كان يجهلها، وطائفة من الأمثال ونبهه ذلك من بعد ' إلى العناية بجميع أمثال العامة، فاجتمع له منها بضع مئات بمصادرها ومواردها، وأحسبها ما تزال محفوظة بين أوراقه. كما أفاد الرافعي من صداقة هذا (الفيلسوف الطبيعي) معاني وأفكاراً جديدة في فلسفة الرضا لم تلهمه بها طبيعته.

ولهذا الزبال صنع الرافعي أكثر من أغنية، أعرف منها الأغنية التي نشرها لقراء الرسالة في العدد 71 سنة 1934 وأغنية أخرى دفعها إلى الآنسة ماري قدسي معلمة الموسيقى بوزارة المعارف لتضع لها لحناً يناسبها.

وقد كان في نفس الرافعي أن يكتب مقالة عن هذا الزبال يتحدث فيها عن فلسفته الطبيعية العملية، وكان محتفلاً بهذه المقالة احتفالا كبيراً، حتى إنه همّ بموضوعها أكثر من مرة ثم عداها إلى غيرها حتى تنضج؛ وقد هيأ لها ورقة خاصة كان يجمع فيها كل ما يتهيأ له من الخواطر في موضوعها ليستعين به عند كتابتها، ولكن الموت أعجله عن تمامها، وأحسب أن هذه الورقة ما تزال بين ما خلف من الأوراق.

سيدي بشر

محمد سعيد العريان

دراسات للمستشرقين

قيمة التراجم الأعجمية الموجودة للقرآن

للعلامة الأستاذ الدكتور أ. فيشر

- 3 -

وإذا كان الأمر كذلك فليس للإنسان بالطبع أن يطلب اعتبار كل ما حوته تراجم المترجمين الغربيين منَّزهاً عن كل شك. ولكن يمكن مؤاخذة هؤلاء المترجمين - إن قليلاً أو كثيراً كل حسب عمله - على الأمور الآتية: -

(1) أنهم لم يحاولوا فهم القرآن قبل كل شئ من نصه أولاً، كما يقضي بذلك قانون علم التفسير، بل إنهم انزلقوا دون تريث في البحث وتثبت في الاستقصاء إلى الخرافات القصصية التي ذكرها العرب، وإلى شروح المفسرين المتأخرين التي جارت الافتراض المذهبي التأملي، والتي مر ذكرها

(2) وأنهم كانوا على العكس من ذلك، قليلي الاهتمام بالبيانات اللغوية التي أوردها المفسرون العرب

(3) وأنهم لم يعنوا إلا قليلاً بمختلف قراءات القرآن التي عرفت لعهدهم

(4) وأنهم كانوا يبحثون دائماً عن عناصر يهودية ونصرانية في القرآن، ناسين أن الرسول (صلعم) نشأ في أيام الجاهلية وأنه لذلك تأثر بادئ ذي بدء بعادات ذلك العصر وبالاتجاهات والأسلوب واللغة لشعر ذلك العهد، إذ كان للشعر أهمية عظمى في الحياة الثقافية للعرب الجاهليين

(5) وأنهم لم يكونوا من المسيطرين على دقائق علم النحو القديم ولا هم من المتمكنين من المجاز والاستعارة والمعاني الاصطلاحية في اللغة العربية الفصحى لعهدها المتقدم

(6) أن تراجمهم كانت حرة أكثر مما يجب، وأنهم لم يفقهوا الكثير من المواضع العويصة المبهمة الواردة في القرآن، ولذلك كثيراً ما يحصل القارئ على معنى لا ينطبق بحال على ما حواه النص الصحيح

ولأبرهن على أن حججي التي أوردتها مسبّبة ومدّعمة آني بمثل مجسم هو معالجة ما صارت إليه ترجمة الصورة الحادية عشر بعد المئة في مختلف التراجم الموجودة ونص هذه الصورة الصغيرة الشهيرة هي:

(1) تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهبٍ وَتَبَّ

(2) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ

(3) سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهبٍ

(4) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الحَطَبِ

(5) في جِيدَهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدِ

كذا في المصحف الشريف طبع المطبعة الأميرية وكذلك في المصحف طبع فلوغل.
وسيأتي الكلام عن بعض الرسوم الهامة التي وردت بها هذه السورة. وإلى جانب هذا نذكر ما يلي:
في الآية الأولى: وردت أَبُو بدل أَبي؛ أنظر الشواذ لابن خالويه صحيفة 182، والكشاف للبيضاوي، وغيرهما، ووردت لَهْبٍ بدلاً من لَهَبٍ؛ أنظر التيسير للداني صحيفة 225، والكشاف، والإملاء للعكبري، وتفسير غريب القرآن للنيسابوري (حاشية تفسير الطبري، الطبعة الأولى) الجزء الثلاثين
وأورد أُبَي بن كعب بين الآية الأولى والثانية الآية التالية:
حَالَفَ البَيْتَ الوَضِيعَ عَلَى البَيْتِ الرَّفيعِ فَشُغِلَ بِنَفْسِهِ ثُمَّ شُغِلَ
راجع:
, ' 1973) , 180.
وفي الآية الثانية: وردت اكْتَسَبَ بدلاً من كَسَبَ (ابن مسعود)، أنظر 112 وابن خالويه صحيفة 182
والرأي عندي أن الذين ترجموا القرآن حتى الآن لم يترجموا من هذه الآيات الخمس الصغيرة سوى الآية الثالثة ترجمة صادقة، أما الآيات الأربع الأخر فقد أساء الجميع دون استثناء فهمها
الآية الأولى والثانية: الفعل الماضي تَبَّتْ وَتَبَّ الوارد في الآية الأولى من السورة، وكذلك الفعل ما أَغنَى الدال على نفي أو على استفهام في معنى الإنكار الوارد في الآية الثانية
ترجمها أغلب المترجمين بما يدل على تَمَنٍ - أي دعاء بالشر؛ أو أنهم ترجموها - بما لا يختلف عن ذلك كثيراً - بما يدل على معنى الاستقبال؛ ويندر من ترجمها بما يدل على معنى الحال. والتمني سواء كان للخير أو للشر يكون في اللغة العربية الفصحى، كما هو معروف، بواسطة المفعول المطلق - انظر من تراجم القرآن مثلاً: سال (غالباً لندن طبعة سنة 1734، والنسخة التي لدى طبعة لندن سنة 1850؛ ويري
' , 1882 - 86 , , 293)
ثم أورد الأستاذ أَ. فيشر نص ترجمة سال الإنجليزية. وكذلك أنظر كازيمرسكي (ترجمة القرآن طبعة باريس سنة 1840 غالباً، والنسخة التي طبعت سنة1865) - ثم أورد الأستاذ أ. فيشر نص ترجمة كازيمرسكي الفرنسية وكذلك انظر ألمان (ترجمة القرآن طبع كريفلد سنة 1840، الطبعة التاسعة سنة 1896؛ والنسخة التي لدى الطبعة الثالثة سنة 1844) - ثم أورد الأستاذ أَ. فيشر نص ترجمة ألمان الألمانية. وانظر كذلك (سبرنجر في كتابه , 1 , 484
ثم أورد الأستاذ أَ. فيشر نص ترجمة سبرنجر الألمانية. وانظر كذلك شنيري في كتابه: , 439 , 1 ,)
ثم أورد الأستاذ أَ. فيشر نص ترجمة شنيري الإنجليزية. ويماثلهم رودول وبالمر وكلامروث وجريجل وهننج وبدرسن في:
`

كتاب للمطالعة في تاريخ الأديان لواضعه ليمان، الطبعة الأولى، صحيفة 138 وغوستاف فيل (في ترجمته للسيرة الجزء الأول صحيفة 174) وغيرهم. وكذلك عدد من المترجمين الحديثين أمثال: محمد علي (أحمدية إينوماني أشاءاتي إسلام، لاهور الطبعة الثانية سنة 1920) - ثم أورد الأستاذ أ. فيشر نص ترجمة محمد علي الإنكليزية وكذلك:
, , 1923 , 25
جِريمة، - وأورد الأستاذ أ. فيشر نص ترجمة جِرُيمة الألماني وكذلك ورد في:
. . , 1926
ثم أورد الأستاذ أ. فيشر نص ترجمة ماردرو الفرنسية؛ وكذلك بونللي 1929) - ثم - أورد الأستاذ أ. نص ترجمة بونللي الإيطالية. وكذلك بوول في هـ. شيدر، طبع ليبزج سنة 1930 صحيفة 168، - ثم أورد الأستاذ أ. فيشر نص ترجمته الألمانية. وكذلك بكتهول. طبع لندن سنة 1930، - ثم أورد الأستاذ أ. فيشر نص ترجمته الإنجليزية.
وكذلك:

- ,)
لاي - ميش وابن داود، - ثم أورد الأستاذ أ. فيشر نص ترجمتها للفرنسية. وكذلك جميل سعيد استانبول سنة 1924
ثم أورد الأستاذ أ. فيشر نص الترجمة التركية. ولا تختلف كثيراً عن هذه حقي، الطبعة الثانية استانبول سنة 1932
ثم أورد الأستاذ أ. فيشر نصها التركي. وكذلك نيكل (أنظر فيما يلي) وغير هؤلاء
(للبحث بقية)
إبراهيم إبراهيم يوسف
جورجياس
أو البيان
لأفلاطون
للأستاذ محمد حسن ظاظا
- 6 -
(تنزل (جورجياس) من آثار (أفلاطون) منزلة الشرف، لأنها
أجمل محاوراته وأكملها وأجدرها جميعاً بأن تكون (إنجيلا
للفلسفة!)
(رينو فييه)
(إنما تحيا الأخلاق الفاضلة دائما وتنتصر لأنها أقوى وأقدر
من جميع الهادمين!)
(جورجياس: أفلاطون)
الأشخاص
1 - (ط) سقراط: بطل المحاورة:
2 - (ج) جورجياس: السفسطائي:
3 - (س) شيريفين: صديق سقراط:
4 - (ب) بولوس: تلميذ جورجياس:
5 - (ك) كاليكليس: الأثيني:
(تابع ما قبله)
ج - وأضيف إلى هذا أنه إذا دخل طبيب وخطيب مدينة ما، ثم احتاج الأمر إلى المفاضلة
بينهما أمام الجمهور المجتمع أو أمام أية هيئة أخرى، فأنه لن ينتبه أحد إلى الطبيب: وسنفضّل من هو قادر على الكلام إذا كان بالفعل كذلك. وقل بالمثل إذا نافس الخطيب أي رجل من رجال المهن الأخرى،: إذ دائما ما يفضل الخطيب غيره مهما كان ذلك الغير. لأنه ليست هناك مادة ما إلا ويستطيع أن يتكلم فيها أمام الناس بطريقة أكثر إقناعا من طريقة أي صاحب مهنة أخرى مهما كان شأنه!، والحق أن للبيان ذلك المرمى وتلك الخاصة! ولكن يجب أن لا نستعمله مع ذلك يا سقراط إلا كما نستعمل التدريبات الأخرى، ذلك أنه ولو أن الإنسان يستطيع أن يتعلم بتلك التدريبات الملاكمة وطرق استعمال أسلحة الحرب الأخرى بطريقة تكفل له قهر الأصدقاء والأعداء على السواء، فأنه لا يجوز له أن يستعملها من أجل ذلك ضد الجميع، أو أن يضرب بها أصدقاءه ويطعنهم ويقتلهم! ولا يجوز لذلك الذي أكثر من التدريب في الملاعب، وكوّن فيها جسما قويا، وأصبح بين جدرانها مصارعا مجيدا، لا يجوز له أن يضرب أمه أو أباه أو أحدا من أقرباء والديه وأصدقاءه، وأن يعادي ويكره مدربي الرياضة والسيف فيطردهم من المدن! إذ الحق أن هؤلاء المدربين لم يروضوا تلاميذهم بهذه التدريبات إلا بقصد أن يحسنوا استعمالها ضد الأعداء والأشرار، وفي الدفاع لا الهجوم! فإذا وجه التلاميذ بعد ذلك قوتهم وحيلتهم إلى الشر على غير قصد أساتذتهم، فلا ينتج عن هذا أن أساتذتهم أشرار وأن فنهم شرير، لأن الخطأ قائم فقط - كما أرى - فيمن يسيئون استعمال الفن؟.
وهكذا نستطيع يا سقراط أن نصدر نفس الحكم على البيان: إذ الحق أن الخطيب يستطيع أن يتكلم ضد الجميع وعن كل شيء لأنه أجدر الناس بإقناع الجماهير بما يريد، ولكن ما كان هذا ليساعده قط على تشويه اسم الأطباء وغيرهم من رجال المهن

الأخرى لأن الأمر على نقيض ذلك تماما؛ وإذا فلا يجب أن نستعمل (البيان) إلا وفقا لقوانين العدالة كما هو الحال في التدريبات الأخرى. فلئن أساء أحدهم - ممن قد أعِّدوا له - استعماله كقوة وفن بقصد ارتكاب عمل ظالم، فلن يكون لنا الحق - فيما أظن - أن نعتمد على العمل وحده ونكره الأساتذة الذين لقنوا الفاعل ذلك الفن وننفيهم من المدن، لأنهم لم يلقوا بفنهم بين يديه إلا بقصد أن يستعمله في أغراض ولأسباب عادلة، فراح هو يستعمله استعمالاً يناقض قصدهم تمام التناقض؛ وإذا فالعدل هنا أن نكره التلميذ المسيء وأن نطارده ونقتله، وليس العدل أن نفعل ذلك مع الأساتذة!!

ط - أظن يا جورجياس أنك قد اشتركت مثلي في مناقشات كثيرة، وأنك قد لاحظت فيها شيئا: هو أن الناس عندما يشرعون في المناقشة يجدون مشقة كبيرة في تحديد أفكارهم من سائر النواحي، وفي الوصول إلى موضوع المناقشة بتوضيحه لأنفسهم وتحقيقه على التبادل، وإذا ما نشأ بينهم بعض التناقض وادعى أحدهم أن الآخر لا يتكلم إلا بقليل من الوضوح والحق، فأنهم يغضبون ويظنون أن المقاطعة إنما توجه إليهم بباعث الحسد وأن المرء إنما يتكلم بعامل الخصومة دون أن يبغي توضيحا للقضية المعروضة. ولذلك ينتهي الأمر ببعضهم إلى تبادل الشتائم المقذعة ثم الانفصال بعد الاحتكاك بشخصيات بغيضة ممقوتة، كما ينتهي بالمشتركين إلى (المساعدين) في المناقشة إلى أن يستنكفوا من وجودهم في مثل تلك الأحوال

فهل تدري لم أخبرك بذلك؟ إنما أخبرك به لأنه يلوح لي أنك لا تتكلم الآن بنحو مجد وبطريق يلتئم تماما مع ما قررت من قبل عن البيان!؛ وأفهم أني إذا ما ناقضتك فسوف لا تقول إن قصدي هو أن أناقضك وأن أقوم في وجهك، وإنما ستقول إن قصدي هو أن يتضح لنا فقط موضوع الحديث!؛ فإذا كنت تنظر للأمر كما أنظر إليه فسأسائلك باغتباط؛ وإلا فلن أذهب معك إلى أكثر من ذلك، وهاك نظرتي: إنني من أولئك الذين يحبون أن يُناقَضوا عندما لا يقولون الحق، ولكنهم يحبون أيضاً أن يُناقِضوا غيرهم عندما يرونهم حائدين عنه، وليس سرورهم بعد هذا من مناقضة غيرهم لهم بأقل من سرورهم عندما يناقضون هم غيرهم! إذ الحق أني أعتبر المناقضة يا جورجياس خيراً عظيما، وأرى أن الأفضل لنا هو أن نخلص أنفسنا أولا من أسوأ الشرور بدلا من أن نخلص غيرنا منها؛ كما أني لم أعرف بعد وزراً يعدل وزر أن يكون لدينا أفكار خاطئة عن الموضوع الذي نعالجه؛ فإذا كان حقاً ما تدعي من أنك مثلي في النظر والاستعداد فلنعد للمناقشة، وإذا كنت ترى أنه يجب أن نتركها حيث وقفنا فليكن ما تريد ولننته الحديث

ج - إني لأفخر يا سقراط بأني من أولئك الذين صورتهم تصويراً، ومع هذا فأحسب أنه يجب أن نعنى كذلك بأولئك الذين يشتركون معنا في الحديث لأني قد شرحت لهم أشياء كثيرة قبل مجيئك بزمن طويل، وإذا نحن عدنا إلى المناقشة فيها ثانياً فسيذهب بنا القول بعيداً جداً. ولهذا يحسن أن نفكر فيهم حتى لا يبقى منهم من يكون له عمل آخر يشتغل به أثناء الحديث

س - إنكما لتسمعان بنفسكما يا جورجياس وسقراط ذلك الصوت الذي يحدثه الحاضرون ليكون شاهداً على رغبتهم في الإنصات إليكما إذا واصلتما الحديث وأرى من ناحيتي أنه لا يرضي الآلهة أن يكون لدي من الأعمال الكثيرة الهامة ما يضطرني إلى ترك مناقشة كلها الفطنة والمنطق كيما أشتغل بما هو أكثر ضرورة منها!

ك - لقد أصبت وحق الآلهة جميعاً يا شيريفين! فأنا الآخر أشتغل بأعمال كثيرة ولكني لا أعرف منها أبداً عملا واحداً يسبب لي من اللذة بقدر ما تسبب لي هذه المناقشة. ولعل هذا هو السر في أنكما تطوقان جيدنا بالفضل (يا جورجياس وسقراط) إذا شئتما وتناقشتما هكذا طوال اليوم!

ط - لن تجد يا كاليكس أية عقبة من ناحيتي إذا وافق جورجياس على المناقشة.

ج - ليكونن عاراً على ألا أوافق بعد اليوم يا سقراط، خصوصاً وقد ادعيت لنفسي القدرة على إجابة جميع ما يوجه إلي من الأسئلة، فلنعد إلى الحديث ما دام في ذلك سرور للحاضرين واعرض علي ما تراه جديراً بالعرض

ط - فلنعرف إذا ما يدهشني من حديثك! - وقد يكون أنك لم تقل غير الحق وأنني قد

أسأت الفهم! - إنك تدعي أنك تستطيع أن تجعل ممن يرغب في دروسك خطيباً!؟
ج - نعم
ط - ومعنى ذلك أنك تجعله قادراً على الكلام في كل موضوع بطريقة ساحرة أمام الجماهير بحيث يقنعهم دون أن يعلمهم!؟
ج - تماماً
(يتبع)
محمد حسن ظاظا
التاريخ في سير أبطاله
ابراهام لنكولن
هدية الأحراج إلى عالم المدنية
للأستاذ محمود الخفيف
يا شباب الوادي! خذوا معاني العظمة في نسقها الأعلى من سيرة هذا العصامي العظيم. . . . . .
- 19 -
وجاء يوم الانتخاب ففاز لنكولن وأصبح رئيس الولايات المتحدة، أصبح فالق الأحشاب الخليفة الخامس عشر لوشنجطون العظيم بطل الاستقلال. فكأنما كان مجيئه يومئذ من تدبير الأقدار لقرن اسمه في تاريخ أمريكا باسم محررها الأول فعليه اليوم أن يمسك بنيانها أن يخر من القواعد

وكان نجاح ابراهام محققاً قبل يوم الفصل بما كان لحزبه من جاه ونفوذ في أهل الشمال وهم أكثر عدداً وأحكم سياسة من أهل الجنوب، وذلك فضلا عن اتحاد كلمة ذلك الحزب ونشاط أعضائه بينما كان يتنازع الديمقراطيون ويتنابذون وكأن بينهم عداوة

على أن خصوم ابراهام يعيرونه بهذا الفوز إذ كانوا لا يعدونه فوزاً، فهم يقولون أن ما ناله منافسوه من الأصوات يربو كثيراً على ما ظفر به، هذا إلى أن عدداً من الولايات الجنوبية لم يجد عليه أهلها بصوت واحد. . . ولكن أصحابه يعلنون أنه الغالب فأنه ليندر أن فاز قبله أحد بمثل ما فاز به من الأصوات وإن بينه وبين دوجلاس أقوى منافسيه وأقدرهم لفرقاً كبيراً يشهد بغلبته وعظم مكانته. . .

وكان على ابراهام أن يقضي أربعة أشهر أخر قبل أن يحتفل بتسلمه أزمة الحكم فقضاها في سبرنجفيلد بينما كان الرئيس بيو كالون يكمل مدته بقضاء تلك الأشهر في البيت الأبيض في وشنجطون

ولبث ابراهام في سبرنجنفيلد يلقى زائريه كل يوم ويمشي في الطرقات بين الناس لا يجعل

بينه وبينهم كلفة ولا يتخذ من دونهم حجابا، يحييهم فيدعوهم بأسمائهم ويردون فيدعونه بأحب أسمائه إليه، فمنهم من يناديه أيب الأمين ومنهم من يناديه أيب العجوز ومنهم من يقولها مجردة من النعوت

وتبدو (أيب العجوز) يومئذ أقرب النعوت منه وأعلقها به، فإن على محياه لكآبة هي من أثر ما يهجس في نفسه، وأنه اليوم لكثير التأمل والإطراق لا يسمع الناس من أقاصيصه ما كانوا قبل يسمعون، ولا يشهدون من عذوبة روحه ما كانوا يشهدون

أما امرأته فمرحة طروب، لا تملك نفسها من الزهو حينما تقف إلى جانب بعلها في شرفة الدار وهما يطلان على الجماهير الهاتفة وإن كانت لتكره وتتبرم منه بهذا الوجوم وهذا الصمت، وإن كانت لتنكر عليه ما يظهر فيه من ملابس وخاصة قبعته التي ألحت عليه وما تفتأ تلح أن يستبدل بها أخرى جديدة فلا يطيع!

وحق له أن يبتئس وأن يرتاع فما تزال تترامى إليه الشائعات والأنباء المزعجات، فهذه صحيفة من صحف الجنوب تعلن نبأ اختياره للرياسة تحت عنوان أخبار خارجية، وهذا حاكم كارولينا الجنوبية يتناول المعول فيهدم أول حجر من بناء الاتحاد. . . لقد استقال أعضاء الشيوخ لهذه الولاية وانسحبوا من وشنجطون، بينما أخذ الحاكم يعد ما استطاع من معدات الحرب وصحفه تذيع في صراحة أن قد صار الاتحاد أثراً بعد عين؛ وهو يسعى بالتفرقة ويحرض الولايات الجنوبية على الانسحاب بعد أن أعلن على لسان المجلس التشريعي في ولايته أن لا صلة لهذه الولاية بالاتحاد

وما كان ارتياعه عن خور حين آذنت العاصفة بالهبوب؛ ولعمري ما يكون الخوف كل آونة جبناً ولا الدم كل يوم حلالاً. ثم لعمري ما يكون الإقدام في كل موقف شجاعة، ولا الوثوب في كل مأزق بطولة؛ وإلا فما أضيع الحكمة، وما أتفه البصيرة، وما أسخف الأنات. . . وما كان يخاف ابراهام إلا أن تصيب بلاده فتنة تذهب بكل شيء وإنه ليدور بعينيه في هذه المحنة يبحث عن الرجال الذين يشدون أزره فيرى - والأسى يرمض فؤاده - أن رجال حزبه أنفسهم لا يرون رأيه فهم يميلون إلى مصالحة أهل الجنوب وعلى رأس القائلين بذلك سيوارد. . . ولكن ابراهام يعلن إليهم في ثبات عجيب أن مصالحة أهل الجنوب معناها التهاون في المبادئ والتسليم بانتشار العبيد والاعتراف
بحقهم في اتباع القوة وفي الانسحاب من الاتحاد وهو لن يأمن أن يعودوا إلى ذلك في أي وقت؛ فيسمعون ذلك ولكنهم لا يعقلونه ويحملونه كل ما عساه أن يترتب على موقفه من مصائب
والنذر لا تني تأتي من الجنوب بما يقلق المضاجع ويزعج النفوس، فها هي ذي ست ولايات أخرى تنسحب من الاتحاد وتنضم إلى كارولينا الجنوبية فتؤلف من بينها اتحاداً جديداً تختار لرياسته جفرسون دافيس. . . وهكذا يصبح في البلاد حكومتان! وهكذا ينهار البناء حجراً بعد حجر والرئيس الجديد ما يزال في سبرنجفيلد يشهد ما تفعل العاصفة
ويحمل البريد إلى ابراهام كل يوم آلافا من الرسائل بينها نوع جديد تنفر منه نفسه، بينها نوع ملؤه الوعيد والسباب وتفصيل صور الموت التي تنتظره إن هو مضى فيما هو فيه وأصر على عناده؛ وهو يطوي تلك الرسائل ليلقي بها في النار مخافة أن تقع عين امرأته على صور الخناجر التي تتوج الكثير منها. . .
ويتطلع ابراهام في هذا المأزق الشديد إلى وشنجطون ليرى ما عسى أن يفعله بيو كالون الرئيس القائم؛ ولكن بيو كالون لا يتحرك فيزيد بتهاونه النار اشتعالا ثم يصرح بأنه إذا لم يكن للولاية حق الانسحاب من الاتحاد فليس لحكومة الاتحاد حق ردها إليه بالقوة إذا هي انسحبت فيكون بتصريحه هذا كمن يلقي الحطب على النار حين يجدر به أن يلقي عليها الماء. . .! وتشيع الخيانة في وزرائه فيرسلون الرجال والمال إلى الولايات الجنوبية ويستقيلون. . .
ويشتد عدوان أهل الجنوب وقد اتخذ الاتحاد الجديد هناك دستورا جديدا يقر نظام الاستعباد ويعلن أنه أمر مشروع من ناحيتي الدين والخلق ونظام الاجتماع. . . ويعظم هياج العاصفة ويشتد دويها. . .
وابراهام في سبرنجفيلد كالسنديانة العظيمة لا تهز العاصفة إلا فروعها، ولن يصيب الجذر مصيبة إلا أن تزلزل من تحته الأرض فتشقق فتميد. . . يخوفه سيوارد عاقبة الأمر فلا يحجم ولا يلين؛ ويسخط أهل الشمال أنفسهم على ابراهام ويظنون به الظنون، ولكنه يقول ذات مرة لرجل ممن يحاورونه (اذهب إلى شاطئ النهر وخذ معك غربالا متيناً فاملأه بالحصى؛ فسترى بعد هزات قوية أن الرمل وصغيرات الحصى تنفذ من الثقوب وتتوارى
عن الأعين إذ تضيع على الأرض، وتبقى في الغربال الحبيبات التي تزيد عنها حجما إذ أنها لا تنفذ من بين الخيوط. . . وبعد هزات أخرى متكررة يتبين لك أنه من بين القطع الباقية في الغربال تصل كبرياتها إلى القمة، وهكذا فأنه إذا لم يكن من الحرب بد وأن هذه الحرب سوف تهز البلاد من وسطها إلى جوانبها فإنك ستجد صغار الرجال يتوارون عن الأنظار في هزاتها، وبينما ترتكز الكتل على قواعد ثابتة ويرتقي أكابر الرجال إلى القمة؛ ومن هؤلاء يبرز أعظمهم فيكون منه قائد القوم في الصراع القائم. . .)
هذا هو العزم الذي لا يعرف التردد، ولكن من وراء هذا العزم نفساً شاعرة وقلباً يحب الخير وينأى بجانبه عن الشر وينفر بطبعه منه؛ وما كانت هموم نفسه إلا مما يريد أن يدفعه عن بلاده من شر وبيل فهو لا يهمه أن يذوق الموت بعد أن وطد على الجهاد عزمه ووهب إلى بلاده نفسه. . .
ها هو ذا قد وصل في بلاده إلى القمة فهل ابتغى من وراء ذلك جاهاً أو تلهى بالعرض عن الجوهر؟ هل تنفس الصعداء واستكان إلى الدعة وجعل من المنصب متعة

وغرورا؟ كلا فها هو ذا يجعل من وصوله إلى هذه المرتبة مبدأ مرحلة جديدة في جهاده المرير. . وإنه ليحس أنه هالك في هذا الجهاد ولا محالة ففي نفسه من المعاني ما يشير إلى ما سوف يلقاه من خطوب وويلات. . تحدث هذا الصنديد الجلد إلى صديق له بعد فوزه بالرياسة بسنوات يصف ما كان يهجس في خاطره عقب ذلك الفوز فذكر أنه نظر يومئذ ذات مرة، وقد جلس متعباً على مقعد، إلى مرآة أمامه فرأى فيها لوجهه صورتين فهب من مكانه يستوثق من ذلك فامحت الرؤيا ولكنها عادت كما كانت حين عاد فجلس؛ وكانت إحدى الصورتين تخالف الأخرى في أنها تبدو مصفارة مخيفة. ولقد أوجس ابراهام خيفة في نفسه؛ ولم يكن خوفه مما رأى في ذاته بل لما انبعث منه في نفسه من المعاني. ولقد تكرر ذلك المنظر بعد أيام ثم انقطع على رغم محاولاته أمام المرآة. . أما امرأته ففسرت ذلك أنه سيختار للرياسة مرة أخرى ثم يموت في تلك المرة! يا لله ما أعجب نبوءات هذه المرأة!

وكأنما كان صاحبنا يحس ما يخبئه له الغد من مكروه فهو يقدم في عمله على علم بما وراءه ولذلك لا يتهيب ولا ينكص، يحذر ويتدبر أن تصيب بلاده دائرة . . .

وظل يمني نفسه أن يثوب أهل الجنوب إلى رشدهم فتخشع للحق قلوبهم، ولكنهم في شطط من عنفهم وغرورهم. فهاهي ذي الأنباء تأتي بجديد من كيدهم، وبيان ذلك أنه كانت لحكومة الاتحاد حصون في الولايات الساحلية بها جند تحميها وكان من تلك الحصون في كارولينا حصنان أهمهما حصن سمتر، فأرادت كارولينا أن تستولي على الحصنين لتتم سيادتها فلم تفلح إلا في أحدهما، وكان ذلك عقب إعلان انفصالها واحتمى الجند في حصن سمتر وأرسلوا إلى الرئيس بيو كالون أن يمدهم بالعون والذخيرة، فلم يستطع بيو كالون أن يصم أذنيه عن هذا الطلب وأرسل سفينة تحمل المؤونة والرجال ولكن أهل كارولينا أطلقوا عليها النار في ميناء شارلستون وأجبروها على الرحيل. . . وطلبت حكومة الاتحاد الجنوبي تسليم حصن سمتر فرفضت الحامية بقيادة القائد اندرسون أن تسلم، فضرب عليها الحصار. . . وبات في الواقع أهل الشمال وأهل الجنوب في حرب

وعاد سيوارد يلح على ابراهام أن يتفق أهل الشمال مع أهل الجنوب على شروط تخفف من غضبهم، فرفض ابراهام ذلك وأعلن أنه مصر على الرفض مهما يكن من الأمر. . . ولما يئس سيوارد من إقناعه عرض عليه أن يزحف على العاصمة في جيش من المتطوعين ويأخذ بيده زمام الأمور من بيو كالون قبل أن يستفحل الشر فرفض ابراهام أن يفعل ذلك لما فيه من خروج على الدستور . . .

وازداد الموقف خطورة حين ترامى إلى سمع لنكولن أن كثيراً من الناس يودون لو ينسحب ويدع تقرير الأمور إلى رئيس غيره من جديد. . . ولو أن رجلاً غيره في موقف مثل موقفه هذا لخارت عزيمته، وانكسرت نفسه، ولكنه ما وهن ولا استكان وما زادته الشدائد إلا صبراً وعزماً ولا المحن إلا رغبة في الجلاد والنضال . . .

وجلس يختار مجلس وزرائه فعظمت حيرته ووقع اختياره أول ما وقع على سيوارد وقد وقف إلى جانب ابراهام بعد أن رأى من ثباته ما لم يتعلق به من قبل وهمه، ورضى سيوارد بادئ الرأي أن يعمل معه في مركز يعادل مركز وزير الشؤون الخارجية في الحكومات الحالية مضافا إلى ذلك أنه كاتم سره ومستشاره وحامل أختامه. . وأخذ ابراهام يبحث عن غيره ممن يأنس فيهم الكفاية في مثل هاتيك الشدة . . .

وجال ابراهام جولة في البلاد التي قضى فيها صدر شبابه، وزار من لا يزال على قيد الحياة من أهلها، وحج إلى قبر والده وأوصى أن يعنى به، وبعد أن قضى أرب مشاعره ولبانة قلبه عاد إلى سبرنجفيلد ليودع أهلها قبل رحيله إلى وشنجطون . . .

ولما أزف يوم الرحيل لاحظ على وجهه أهل المدينة شيئاً مثل ذلك الذي يبدو على وجه من يوشك أن يرحل عن وطن اشتد حبه له وعظم تعلقه به، ولقد زاده هذا نحولا على نحوله وهماً على همه، وكذلك اشتد أسف الناس فهم لا يدرون كيف يصبرون على رحيله عن مدينتهم ولقد كان لصغارهم الأب العطوف الرؤوف ولكبارهم الصديق الوفي، والناصح الأمين. ولكنهم يتأسون على فراقه بما باتوا يأملونه من خير للبلاد جميعاً على يديه

(يتبع)

محمود الخفيف

لا يزال صاحبنا (الغمراوي) ماضياً في طريقه، عند السفح من مدارج الإحساس والفن والحياة. وما يزال يظن المسألة ردوداً ومحالا. بينما نحن لم نرد إلا أن ينتفع هو وأمثاله ومن هم خير منهم كذلك بما نكتب، وأن يخرجوا قليلا من ذلك الطابق المغلق الذي ينزوون فيه، إلى عالم النور والطلاقة والفن الجميل، المتحرر من القيود والقشور، فيحسوا - ولو مرة - دفعة الحياة، وطلاقة الفن، وفسحة الشعور. ومن حسن الحظ أن يكون الحديث اليوم عن (غزل العقاد) فليحاولوا أن يثبوا ونحن نأخذ بيدهم إلى هذا (العالم) العبقري الفسيح. وإلا فليعذرونا إن نحن جاوزنا الجحور والمغاور، إلى المرج الواسع، أو العيلم المسجور!

الإحساس الساذج الفطري بالحب قريب في منبته من إحساس الجوع والظمأ، ومطلب قريب لا يعلو كثيراً على مطالب الجسد؛ والمتعة فيه غذاء من أغذية الدم واللحم، والحرمان نوع من الخمص والطوى، والآلام لون من وخز الجلد أو لذع النار، أو لفحة السموم. والتعبير عن كل ذلك شبيه بالضحكة والصرخة والآهة والأنين، من أنواع التعبير الفطري عن اللذة والألم

والشاعر حين يقف في إحساسه بالحب، أو التعبير عنه، عند هذا الحد لا يستحق منا لقب الشاعر - بله الشاعر الكبير - وهو لا يستحق هذا اللقب، حتى يكون له في حبه منحى خاص (ليكون شاعراً) وفلسفة شاملة تجعل من هذا الحب مجتمعاً للأحاسيس الفريدة بأعماق الحياة وأصولها وتتصل بوشائج الطبيعة الكبرى، وغاياتها البعيدة، وأنماطها الأصيلة (ليكون شاعراً كبيراً)

فليس الحب الفني، ولا التعبير عنه من السهولة كما يتصورها الكثيرون من ناشئة الشعراء، ومقلدي النقاد، إنما هما عمل عسير في الاستيعاب والتصوير، وما نقرأ لتسعين في المائة من الشعراء، إلا ضحكات وابتسامات أو صرخات وآهات، يحسبونها غاية الحب
وغاية التعبير!

لا تقل: إنني أحب؛ وإنني أستمتع بالحب، أو أتعذب وأتألم ثم تحسب نفسك شاعراً، حتى تقول لنا: إنني أحب على لون خاص، وأستمتع بالحب بطريقة خاصة، أو أتعذب وأتألم على لون من ألوان العذاب والآلام. ولا تقل: (أنا أطلب الجمال) وتسكت فلا بد أن تبين لنا ما نوع الجمال أو أنواعه التي تستهويك، وما المعاني التي يشعها فيك هذا الجمال، وماذا تفهم من الصلات بينه وبين غايات الحياة الكبرى، وماذا بينه من الوشائج وبين الطبيعة في كيانها ومراميها

والعقاد وحده في الشعر العربي كله هو الذي يقول لنا هذا في عمق ودقة وقصد، ويصوره بأوضح وأصح ما يستطاع. وأقول (في الشعر العربي كله) وأنا أعني ما أقول، فما يوجد شاعر واحد يجتمع له في شعره العربي ما اجتمع للعقاد، وتتوفر في نفسه هذه الأوتار المتعددة، التي يوقع عليها الحب هذه النغمات كلها، ويخرجها هكذا واضحة سليمة

نعم، يوجد بعض هذه الأوتار، متفرقاً في نفوس الشعراء ولكنها لا تجتمع هذا الاجتماع، ولا تلتئم هذا الالتئام في نفس واحدة، وما يوجد منها متفرقاً لا يبلغ في تفرده وخصوصه وطرافته هذا المبلغ عند أولئك الشعراء

فإذا خطر لأحد أولئك الذين يفغرون أفواههم لسماع هذا الكلام، ويستنكرون تقرير الحقائق وليس لهم من البرهان على إنكارهم إلا إشارات الصم والبكم، فليأتوا بنظائر لكل هذه الأوتار والنغمات لشاعر عربي واحد حتى الآن، أو لعشرة مجتمعين في جميع العصور

وقبل أن نعرف (ما الحب) عند العقاد، لا بد أن نعرف (ما الجمال) الذي يثير هذا الحب، ويدفعه إلى الغزل والتعبير

عرف القراء مما نقلناه عن رأي (شوبنهور) في الجمال، وتعليق (العقاد) عليه، أنه يرى الجمال في (الحرية) وفي العدد الفائت من الرسالة توضيح لهذا الرأي حين يقول:

رأيي في الجسم الجميل إنه الجسم الذي لا فضول فيه، وأنه الجسم الذي تراه)
فيخيل إليك أن كل عضو فيه يحمل نفسه غير محمول على سواه
من هنا جمال الرأس الطامح والجيد المشرئب، والصدر البارز، والخصر المرهف)
الممشوق، والردف المائل، والساق التي يبدو لك من خفتها وانطلاقها واستوائها، أنها لا
(تحمل شيئاً من الأشياء ولا تنهض بعبء من الأعباء
ويقول من الكلمة نفسها في وصف فتاة:
على شاطئ الإسكندرية - والمصادفة من أجمل المصادفات - طيارة في الهواء، وفتاة)
على الأرض هي أولى بالطيران من تلك الحديدة الصاعدة، بل هي تطير ولا يتخيلها
الناظر إلا طائرة، تفلت من لحظات العيون، وخطرات الأرواح
لا تحس العين أنها أدركتها، لأنها إذا أدركتها تأملت فيها، وسرحت في معانيها، فإذا هي)
بعيد بعيد، أبعد من الفراش الذي يقع عليه الطفل، فإذا هو على الغصن، ويثب إليه في
(غصنه فإذا هو في الهواء
وقد عثرت أخيراً في الديوان على امتداد لهذا الرأي، يريد أن تبلغ الحرية بالجمال ألا
يشعرنا حين ننظره بتعلقنا وتقيدنا به، بل يطلقنا نسبح في الآفاق، ونسمو على الحدود والقيود
والجميل الحق ما يذهلنا ... عنه، لا ما فيه للحس إسار
والجمال عوض عن شين كثير من النفوس في هذه الحياة، وتكفير منها عن هذا
الشين، كما أنه رمز لآمال الحياة في مستقبلها المموق، تشير به إلى ما يختلج في
صدرها من الشوق للكمال:
أغلى جمالَك في النواظِر أنه ... عوض لشين في النفوس كثير
وأنا لَهُ مثّا المقادةَ أنه ... في الأرض رمز كمالها المحظور
وفي الجمال غناء عن الدنيا كلها، وهو نعيم قريب كالنعيم المتخيل في الآخرة كذلك،
فهو نعيم الدنيا حين يقول:
إن نفوْني اليوم من دنياهمو ... وأباحوا لي من الزاد المرام
ثم قالوا ما تشا منها فخذ ... قلت: هذا. وعلى الدنيا السلام
قلت: هذا، وتطلعت إلى ... هوة الغيب وفي الثغر ابتسام
كيف لا يبسم من قبلته ... تنظم الأوطار طرا في نظام؟
وإذا قبلته مستضحكا ... في تخوم الكون والكون سدام
فهو سخري بالذي ودعته ... واغتباطي بمقامي حيث قام
وهو نعيم قريب كنعيم الآخرة البعيد حين يقول:
أيها الباحث عن كوثره ... في السموات. لقد شط المزار
إنما الكوثر ثغر باسم ... من حبيب لك مأمون النفار
والوجه الجميل، هو (الصدق) في هذه الحياة، الذي ينفي عن النفس الريب والشكوك فيها
لك وجه كأنه طابع الصد ... ق على صفحة الزمان المئوف
إن يوماً يمر بي لا أراه ... هو يوم أعده في الريوف
وهو كذلك داعية الرجاء في هذه الدنيا، ومنبع التفاؤل والقبول:
أرى لك أنت فلسفة صراحا ... بلمح العين أقرؤها جميعا
أذم العيش في ألفي كتاب ... وتَعرضُ لي فأمدحه سريعا!
والجمال هو الفضيلة، أو الفضيلة هي الجمال:
شرعك الحسن فما لا يحسن ... فهو لا يحلو وإن حل الحرام
ليس في الحق أثام بيّن ... غير مسخ الحسن أو نقص التمام
ما عدا هذين مما يمكن ... فاستبحه وعلى الدنيا السلام
ولهذا يحلل الجمال كل شئ، ويمنحه الفضيلة والعفة والثناء:
كل الثياب لمن يزي ... نُ ثيابَه عفٌّ حميد!
والجمال حرم مقدس يحترمه الخصوم والأصدقاء ويلقون لديه السلاح حيث لا تصنع
ذلك المعاهدات و (عصبة الأمم) والشرائع والقوانين:
حرم بميدان الحيا ... ة وملجأ لا يعتسف

والجمال الإنساني يرقرق جمال الكون ويصفيه، ويظهره خلاصة نقية:
لا أرى الدنيا على نور الضحى ... حبذا الدنيا على نور العيون
هي كالراووق للنور فلا ... نور إلا صفوها العذب المصون
وهذا الجمال خلاصة جمال الدنيا، وخلاصة تجارب الحياة في مثل الكمال. وله في هذا قطعتان بارعتان: الأولى بعنوان (نشوء وارتقاء)، يتحدث فيها عن جميل كان مولده في الشتاء:
زانك الله بصفو ... وسلام يا شتاء
طال بي فكر الليالي ... أو ما فيك عزاء؟
قال لي: هاك فخذها ... زهرة مني إليك
ذات حسن وحياء ... ولها فضل لديك
وسمت بالفكر فاقبس ... فكرة في راحتيك
قلت: حقًّا يا شتاء ... هي حسن وحياء
غير أني وهي صمت ... ليس لي فيها عزاء
قال: يرضيك إذن شا ... دٍ من الطير مجيد
هو للجنة يدعى ... وله منها نشيد
يعشق الليل وإن لم ... يك فيه بوليد
قلت: حقًّا يا شتاء ... هو حسن وغناء
غير أني وهو صوت ... ليس لي فيه عزاء
قال: يرضيك إذن سا ... رٍ من البرق بشير
يصدع الظلماء، يزجي ... عارض الغيث، ينير
فيه من قلبك نبض ... ومن اللمح سمير
قلت: دعني يا شتاء ... من شعاع في فضاء
أئذا جاد بغيث ... كان لي فيه عزاء؟
قال: والشمس فما ظن ... ك بالشمس ذكاء؟
كلما عدت بها سبّ ... ح عشاق السماء
قلت: حقًّا يا شتاء ... هي نور ورجاء
غير أني وهي صبح ... ما عزائي في المساء؟
قال لي: أنفدت كنزي ... كله بين يديك
غير ذخر من بني الإنس ... ان أبقيه عليك
فيه من صبح ومن لي ... ل قصارى غايتيك
أتراه؟ قلت: حقًّا ... هو في الدنيا العزاء
هو حب وحياة ... وربيع يا شتاء!
من بني الإنسان في ذا ... ت شتاء ولدا
زينة للعين والل ... ب وللقلب بدا
طاهر كالمزنة البيضا ... ء صاف كالندى
كنبات الروض مفت ... ن الحلي جم الحياء
وارف كالظل مُحْيٍ ... في شذاه كالهواء
يا شتائي فيم إخفا ... ؤك هذا السر عني
أي روض أي برق ... أي شمس فيك أعني
أنا مستغن به عن ... ها فماذا عنه يغني؟
قد تعلمتَ وأيقن ... ت أفانين السخاء
منذ عشرين وخمس ... من سني الدهر سواء
تم عندي كل ما تع ... طي إذا تم العطاء
وجميل كل بدء ... ينتهي خير انتهاء
وجميل زهرك النا ... مي على هذا النماء
صدق العلم وقال ال ... حب حقًّا يا شتاء
سنة الزهر نشوء ... في المعاني وارتقاء
هذه قطعة لا أجدني مضطراً لشرح ما فيها من الجدة والطرافة، فوق الدلالة على فكرتها المقصودة، وفوق تناسقها الفني مع طبيعة الشتاء التي لا تمنح ذخرها إلا ذرة

ذرة على ظن وبخل. فمن لم يحس هذا كله بمجرد قراءتها، فخسارة ألف خسارة أن نضيع الوقت في أن نخلق له إحساساً وما نحن بقادرين. وأما الثانية فبعنوان (الثوب الأزرق) وهي كزميلتها في الطرافة البارعة:

الأزرق الساحر بالصفاء ... تجربة في البحر والسماء
جرّبها (مُفصّل) الأشياء ... لتلبسيه بعد في الأزياء
مجوّد الإتقان والرواء ... ما ازدان بالأنجم والضياء
ولا بمحض الزبد الوضاء ... زينته بالطلعة الغراء
ونضرة الخدّين والسيماء ... ولمعة العينين في استحياء
إن فاتني تقبيله في الماء ... وفي جمال القبة الزرقاء
فلي من الأزرق ذي البهاء ... يخطر فيه زينة الأحياء
مُقَبّلٌ مبتسم الأضواء ... مردّد الأنغام فالأصداء
وقبلة منه على رضاء ... غني عن الأجواء والأرجاء
وعن شآبيب من الدأماء ... وعنك يا دنيا بلا استثناء

وغير هاتين القصيدتين كثير من الحديث عن هذه الفكرة الصحيحة الطريفة مثل:

وكل ما في الكون من روعة ... لها نظير فيك حيّ جديد
بل أنت دنيا غير هذي الدنا ... وكل حب فيك كون وليد

ويقول عن القماريّ:

وللأناسي حسن لا أبوح به ... هل تعرف الطير ما حسن الأناسي
غنت لزهر وسلسال ولو رشفت ... ثغر المباسم جنت بالأغاني

لذلك فالكون حفي بهذا الجمال الإنساني فخور به:

فلو لم نولّ القلبَ شطرك لامنا ... على الجهل كون بالجمال فخور

ويتضح هذا في قصيدة (عيد ميلاد)

تهيأ الكون من قديم ... ليوم ميلادك السعيد
فعابد الكوكب العظيم ... أحيي ببشراك يوم عيد
ومولد (السيد) الرحيم ... وافقه المولد الجديد
يوم تهدَّي على المديح ... وزفه الخلد بالثناء
فالدهر في عمره الفسيح ... عوّده البشر والدعاء

والإله حفيٌّ كذلك بهذا الجمال، فقد تبارت الشفاه في مزاياها، وتقدم جبابرة العالمين يُدِلون بقوتهم ونادى العبقريون الملهمون بمزاياهم:

وأقبل سرب الظباء الملا ... ح رخيم البغام مليح الكحل
فقال وفي قوله لثغة ... كأنك ترشف منها العسل
لنا القول فيكم رجال الكلا ... م لنا القول فيكم رجال العمل
لمسنا شفاها ففاضت سنى ... وجرنا على جائر فاعتدل
ومنا تذوقون طعم الحيا ... ة وهل طعمها غير طعم القبل
تسمونها قبلة واسمها ... رحيق الخلود وريا الأمل
فماذا تظنه كان رأي الإله الذي جلس ليحكم في المباراة؟
فأطرق ربهمو لحظة ... ونادى بأقربهم فامتثل
وقبّل مبسمه قبلة ... تضرم منها مكان الخجل

وقال: أجل! تلك أغلى الشفا ... هـ فأصغوا جميعاً وقالوا: أجل!

ومتى برز هذا الجمال الإنساني، فقد بطل كل جمال، حتى نظم الشعر الذي يستعز به العقاد، فهو يخاطب (جيرة البحر) بعد أن سماهن (المعاني الحية) وبعد أن قال لهن:

إن الإله والبحر والشمس وهبوا لهن هبات وافرة:

ورأيت رفرفة النسي ... م على الجسوم الطائرة
فالآن ماذا تنظرون ... من النفوس الشاعرة
لم يبق في كنز الخيال ... بقية من نادرة
برزت معاني الشعر في ... ثوب الحياة الظاهرة
أنتم معانيه فما ... تغني النفوس الحائرة
أنتم عرائسه وها ... تيك المسارح عامرة
هيهات ما لممثل ... أو شاعر من خاطرة

ما الترجمان وتلك أسْ ... رار التراجم سافرة
فإذا بخلنا بالقصي ... د فعاذر أو عاذره
ومتى كان ذلك شأن الجمال الإنساني البارع، فهو يخاطب جميلا:
يغنيك حسن أنت لابس تاجه ... عن دولة السفاح والإسكندر
وما على الفنان إذن إلا أن يسمع نصيحته الشاعرة:
قسم حياتك بين حسن بارع ... يذكي الحياة وحكمة تنميها
ما في سوى الحظين من أمنية ... للمرء ينشدها ويستبقيها
وإنه ليعيش هكذا؛ وقد فهم الجمال، وعرف صنوفه، ولاحظه في كل جميل، وانتهى فيه إلى رأي، وعلم غاية الحياة منه وقصد الطبيعة فيه، على هدى وبصيرة
هذه أبيات متفرقة أو قصائد كاملة عرضناها عرضاً سريعاً وهي ليست كل شئ في ديوان العقاد عن مجرد (تعريف الجمال) عنده، وهي وحدها ذخيرة نفسية وغزلية، لو قالها شاعر وسكت، لكان شاعراً كبيراً ممتازاً، وهي مع ذلك نصف (المقدمة) للكلام عن (غزل العقاد)!
وما من شك أن الإحساس بالجمال هكذا، عمل متعب عسير، غير ميسور لكل الطبائع، وهو في حاجة إلى طبيعة عميقة، ونفس فسيحة، وشعور واغل في قلب الحياة، يسمع نبضاته، ويحس آماله، ويستشعر أشواقه، ويشاركه خفقه وهو ينبض بالجمال
وقد استغرق هذا حديث اليوم كله، فأما رأي العقاد في (الحب) فسأتناوله في حديث آخر، وحينئذ نخلص إلى (غزل العقاد) في هينة واطمئنان
(حلوان)
سيد قطب
حول أدب الرافعي
بين القديم والجديد
للأستاذ محمد أحمد الغمراوي
- 5 -
لقد أخذنا على كاتب مقالات (بين العقاد والرافعي) أنواعاً من الأغلاط ذكرنا لكل منها أمثلة عدة دون استقصاء. فهناك أغلاط اضطراب في التفكير كالتي ذكرنا في كلمتنا الثانية؛ وهناك أغلاط جور ومحاباة كالتي عددنا في كلمتنا الثالثة؛ ثم هناك أغلاط ضعف في الفهم أخطأ بها الكاتب لب الموضوع كالتي فصلنا في الكلمة الرابعة. وكلها تدل دلالة واضحة على أن كاتب تلك المقالات لم يكن فيها يفكر بعقله وإنما كان يفكر بهواه.
إلا أن أغلاط التفكير بالهوى ليست كلها في الدلالة أو في التبعة سواء. فان ذا الهوى المتعصب لمذهب أو لكاتب قد يتأثر عقله بعصبيته وهواه من حيث لا يدري، فيقع في الخطأ من حيث لا يقصد، وتكون آثار الهوى والعصبية ظاهرة في كتاباته وأحكامه لكل إنسان سواء هو ومن لف لفه. مثل هذا لا يزيد الهوى والعصبية على أن يفسد عليه تفكيره فتصبح أفكاره وآراؤه وأحكامه غير ذات قيمة، ولكن من غير أن يحمل في ذلك تبعة خلقية تذكر.
أما إذا تأثر ذو العصبية والهوى بعصبيته وهواه إلى الحد الذي يشعر بأثرهما في رأيه وحكمه ثم لا يقاومهما مقاومة مجدية ولكن يتابعهما ويطاوعهما فيما يوحيان إليه من إخفاء ما لا يوافقهما من الحق، وتحريف ما يخالفهما من الواقع، فأنه عندئذ يكون قد جمع على نفسه ضعفين: ضعف العقل وضعف الخلق؛ وتحمل في سبيل هواه تبعتين: تبعة الخطأ وتبعة سوء النية فيه.
وقد كان فيما نبهنا إليه بالفعل من أغلاط ذلك الكاتب غلطتان لا يمكن حملهما على مجرد الخطأ العقلي. وقع في أولاهما حين أراد أن يعتذر عن تغيير رأي كان أرتآه، فيه بعض مدح للرافعي، ووقع في أخراهما حين أراد أن يعتذر عن سوء فهم لبعض ما قال الرافعي نبهه إليه الفاضل الفلسطيني علي كمال. وقد اعتذر في كلا الموقفين بما يخالف الواقع:
اعتذر في الموقف الأول بأنه لم يكن حدد نوع الذهن حين قال إن الرافعي أديب الذهن، والواقع أنه كان حدده تحديداً واضحاً، وحدده بنفي بعض الأقسام التي قسم إليها الذهن عند اعتذاره ذلك. واعتذر في الموقف الثاني باضطراب وقع خطأ في

ترتيب الجمل التي عبر بها عن رأيه، والواقع أنه لم يكن في ترتيب جمله تلك أي اضطراب، ولم يكن له عذر في مخالفته الواقع في ذينك الموقفين، لأنه كان يستطيع الاستيثاق مما قال أو كتب بالرجوع إلى ما كان قد خطه قلمه في موضعه من كلامه إن كان ضعف الذاكرة هو الذي جعله ينسى حقيقة ما كان قد كتب ولم يكن قد مضى عليه أكثر من أسبوعين. لكن الذي به ليس هو ضعف الذاكرة ولكن صعوبة أو استحالة يجدها في الاعتراف بحق إذا كان عليه، فاعتذر بما اعتذر به رغم مخالفة الواقع اعتماداً فيما نظن على أن القراء يقل فيهم من يكلف نفسه عناء مضاهاة ما زعم بما وقع منه بالفعل.

لكن هاتين السقطتين ليس لهما فوق دلالتهما النفسية أية أهمية ذاتية إذ هما منه وإليه. هو أخطأ وهو يجتهد في ستر خطئه عن الناس ولو بشيء من التوسع في تحديد الصدق. فإذا كان قد فارق الصدق بهذا فالضرر لاحق به هو لا بغيره. أما إذا كان ضرر ذلك يعود على غيره من قريب أو من بعيد فان وجه المسألة يتغير بقدر ذلك. ويصبح وجه المسألة أشد تغيراً إذا كان الذي يتناوله بالتحريف والتلفيق كلام غيره لا كلامه هو. أما إذا كان الكلام المحرف أو الملفق هو كلام شخص يكرهه قد تصدى هو لنقده وكان التحريف والتلفيق من شأنه أن يؤذي الشخص المنقود كما وقع للرافعي، فإننا عندئذ نصبح أمام مسألة جديدة تتعدى الإنصاف في النقد إلى الأمانة في النقل، وتتجاوز الخطأ في الرأي إلى التدليس العمد وإلى محاولة النيل من الخصم في النقد الأدبي عن طريق غير شريف.

ومقالات (بين العقاد والرافعي) لم تبرأ من هذا العيب. ولعلنا كنا نعفو فلا ننتبه إليه لولا غرور ومكابرة يبدوان فيما يكتب صاحبها، ولولا أن صاحبها جعل من الفروق الأساسية بين مدرستي (الرافعي والعقاد) امتياز الثانية على الأولى بما سماه (الصدق الجميل) من ناحية، وتصحيح الأمزجة والنفوس بالأدب وللأدب من ناحية أخرى. فنحن مضطرون إلى تبيين ظاهرة كالتي أشرنا إليها، لا لأنها من الواقع فحسب، ولكن وفاء بحق النقد واختباراً لتينك الميزتين أمتحققتان هما في الكاتب كنموذج للمدرسة التي ينتسب إليها أم غير
متحققتين

والزلات التي سقط بها الكاتب وجانب فيها الصدق يصح تقسيمها إلى قسمين: قسم يتعلق بتحريف ما كتب إخوان الرافعي عن الرافعي، وقسم يتعلق بما كتب الرافعي عن نفسه، وهو أهم الاثنين

ونحن إذ نتعرض لتحريف الكاتب بعض ما قال الأستاذان سعيد العريان ومحمود شاكر لا نريد بذلك أن ننصفهما، فهما قادران على الانتصاف حين يريدان، ولكن نريد أن ننصف الرافعي الذي استعان الكاتب على الإساءة إليه بتحريفه قول صديقيه، متخذاً من قولهما المحرف شاهداً عليه

وأول ما يلقي الناقد من هذا النوع من سقطات ذلك الكاتب تؤيده فيما قال العريان في موضعين على الأقل في مقاله الأول: أولهما يتعلق برغبة الرافعي عن شراء (وحي الأربعين) وهي نقطة تافهة لولا أن صاحبنا المحلل النفسي مولع باستخراج الخطير من التافه. وثانيهما يتعلق بالبواعث التي دعت الرافعي لنقد (وحي الأربعين)

وقد قدم الكاتب بين يدي ما اقترف قوله: (إنما يعنيني اليوم ما كتبه الأستاذ سعيد العريان! ففيما كتبه وهو أخص أصدقاء الرافعي مصداق لكثير مما تخيلته فيه). ثم انتقل إلى تفصيل ما أجمل في هذه العبارة فقال:

في إباء الرافعي أن يشتري كتاب وحي الأربعين مع حاجته لنقده ما يشير إلى ضيق) (الأفق النفسي الذي كان يعيش فيه، وتصوير للون من الحقد الصغير قلما يعيش في نفس (رحبة الجوانب الخ)

فأنت ترى كيف أجدت مطالعاته في مباحث علم النفس الحديثة هذه المقدرة على استنتاج الخطير من التافه. وسنسلم له أن كل ما استنتج من ضيق الأفق النفسي والحقد الصغير أو الكبير ينتج من إباء الرافعي شراء كتاب وحي الأربعين مع حاجته لنقده. سنسلم له تلك النتيجة من هذه المقدمة! لكن بقى أن نثبت المقدمة حتى تصح النتيجة وإلا كان هذا الرجل يفتري على الناس مرتين: يفتري الشتم ويفتري الأسباب إليه. وقد اعتمد كما ترى في ثبوت هذه المقدمة على ما كتب أخص أصدقاء الرافعي،

سعيد العريان. فإذا صح هذا فله بعد ذلك أن يستنتج منها ما شاء طبق وحي قراءته الحديثة في علم النفس. وواضح أن
مدار الاستشهاد في تلك المقدمة ليس هو إباء الرافعي أن يشتري كتاب العقاد - فما نحسب العقاد ولا قطباً يشتريان شيئاً من كتب الرافعي - ولكن موضع الاستشهاد هو إباء الرافعي شراء الكتاب (مع حاجته لنقده). فبعبارة (مع حاجته لنقده) هي مدار الاستشهاد في الواقع. وعمدة قطب في إثبات هذه الحاجة عند الرافعي هو سعيد العريان
لكن سعيد العريان لم يقل شيئاً من هذا بل أخبر بعكس هذا، أخبر في مقاله الخامس والعشرين (رسالة 240) أنه هو حرض الرافعي على نقده (وحي الأربعين) انتصافاً لمخازن ولدار العلوم، وأن الرافعي أبى أولاً ثم أجاب على شرط أن لا يكون هو مشتري الكتاب (لأن عليه قسما من قبل ألا يدفع قرشاً من جيبه في كتاب من كتب العقاد. . .!)
ولسنا ندري متى أقسم الرافعي ذلك القسم، وليس هذا بمهم الآن، إنما المهم أولاً أن الرافعي لم ير حتى في رغبته في إرضاء صديق ما يبرر نكثه بذلك القسم، وهذا إن دل على شيء فهو يدل على أن الرافعي أقسم حين أقسم عن عقيدة، واستمسك بذلك القسم حين استمسك عن عقيدة، وهذا ضد ما ذهب إليه قطب في أن الرافعي كان يصدر في أدبه عن غير عقيدة. ثم المهم ثانياً أن الحاجة إلى نقد (وحي الأربعين) لم تكن بالرافعي، ولكن بسعيد العريان. العريان حرض الرافعي على النقد كما ذكرنا ولرغبته في رؤية الأديبين الكبيرين يتصاولان. لكن المسألة على هذا الوضع المتفق مع ما أخبر به صديق الرافعي، ليس فيها شيء يشهد لقطب في شيء مما يريد. فماذا يفعل سيد قطب وهو يريد أن يستشهد لنفسه بصديق الرافعي على الرافعي؟ ينقل حاجة العريان إلى نقد (وحي الأربعين) فينسبها إلى الرافعي، ويترك الخبر بعد تحريفه منسوباً إلى العريان كما كان، فيكون العريان بذلك هو الذي شهد على الرافعي، ويتم لقطب ما يريد من الاستشهاد ولا بأس في ذلك على ما يظهر عند المدرسة الجديدة التي يمثلها سيد قطب، والتي يميزها عن المدرسة القديمة مذهب (الصدق الجميل)
أما الموضع الثاني الذي تزيد فيه قطب ليستشهد بالعريان على الرافعي فقوله من نفس المقال:
وحي الأربعين (كما صورها صديقه ما يصور نظرة (وفي البواعث التي تدعوه لنقد) الرجل إلى النقد والأدب والغاية منهما ومدى نظرته العامة للحياة واتساع مداها في نفسه،
وهو لا يبعد كثيراً عن المدى الذي تصورته له) وليس في هذه العبارة شيء حتى تأتي إلى آخرها فتنقلب دلالتها عندك ويصبح الرافعي المسكين بين صديقه وعدوه قد اجتمعا في الجملة على تجريحه وذمه وكاتبها لا يكلف نفسه بها شيئاً، فهو يلقيها دعوى عريضة ثم يتحقق بعد ذلك من صحتها من شاء أو لينقضها من شاء! أما هو فلا يكلف نفسه من إثباتها شيئاً، ويكفيه أن ينتفع فيها بالإيحاء النفسي معتمداً على تصديق القارئ إياه فيما يلقي في روعه عن تصوير صديق الرافعي لبواعث الرافعي على نقد وحي الأربعين. وأكثر القراء حتى من أنصار الرافعي لا يجشمون أنفسهم اختبار صدق دعوى سيد قطب هذه بعرضها على ما قال العريان في موضعه من فصوله في تاريخ الرافعي، فيمر أكثرهم وقد وقر في نفوسهم شيء من هذا الاتفاق ولو في الجملة بين صديق الرافعي وعدوه على تجريح الرافعي.
إنك تقرأ تاريخ نقد الرافعي وحي الأربعين فيما قصه العريان في فصليه الخامس والعشرين والسادس والعشرين فلا ترى أساساً لهذا الذي يدعيه قطب، بل ترى شيئاً ينقض في صميمه دعواه هذه وينقض غيرها مما ادعاه. يعرض الرافعي على العريان ومخلوف أن يختارا أجود ما في الديوان لينظر فيه ثلاثتهم فما اتفقوا عليه فيه جعلوه حكمهم على الديوان كله. وليس وراء هذا في إنصاف خصم لخصمه في الأدب مذهب. فلما استبطأهما فيما انتدبهما له قال (أحسبكما لم تجدا ما تطلبان ولن تجدا. . . إذن فلنقرأ الديوان معاً من فاتحته فما أحسب الشاعر يختار فاتحة الديوان إلا من أجود شعره. . .!) وآخر قوله هذا مظهر آخر لنفس الرغبة في إنصاف العقاد وإن كان أولهما يدل على عقيدته في أدبه ويستشهد لها ضمناً بإبطاء أديبين في اتفاقهما على جيد في

الديوان ينتقيانه، كأن الجيد الذي يتفق على جودته قليل في ذلك الديوان. سيقال طبعاً إن هذا ليس بحكم يعتد به على الديوان، فلو كان الأديبان الناظران فيه من المدرسة الجديدة لأسرع إليهما الاتفاق على جيد كثير. حسن. ولسنا نريد بما قلنا حكماً على الديوان ولكن نريد حكما على الروح التي نظر بها الرافعي وأخواه فيه، وهي روح إنصاف ورغبة في إنصاف من غير شك على نقيض الروح الذي نظر وينظر به سيد قطب ممثل المدرسة الحديثة في أدب عميد المدرسة التي يلقبها بالقديمة ولا يعجبه من أدبها ولا من روحها شيء.

نظر الرافعي وأخواه في ديوان العقاد معاً ساعات طووه بعدها، وأشار الرافعي على مخلوف فكتب، وهاج به العقاد ساخراً منه ومن دار العلوم، ولام مخلوفاً إخوانه على تهييج العقاد بدار العلوم، وألقى العريان تبعة ذلك اللوم على الرافعي يريد تحريكه لنقد الديوان؛ وتحرك الرافعي للنقد بعد تردد، ولكنه بعد إذ عزم مضى لا يبالي بما كان للعقاد يومئذ من سلطان مكنه له الأدب السياسي لدى القراء، ولا يعتبر إلا مذهبه في الأدب وطريقته، وسواء عنده أكان رأيه هو رأي الجماعة أم لا يكون ما دام ماضياً على طريقته ونهجه كما يصف العريان.

أي شيء في هذا يا ترى مما يمكن أن يؤخذ على الرافعي من قريب أو من بعيد؟ لا شيء! لا شيء يمكن أن يراه الناقد إلا ناقداً ينظر في أعمال الرافعي بمجهر البغضاء ثم لا يرى إلا ما يصوره الخيال. إنها حكاية واقعية غير عادية تصور الرافعي أستاذاً في مدرسته يلقي على تلميذين وزميلين له درساً عملياً في النقد وفي ما ينبغي للناقد من نزاهة في الحكم، وتحرز من الهوى عند الخصومة وشجاعة في المنازلة إذا لم يكن من المنازلة بد، وتضحية في سبيل الغاية، واستمساك بما يعرف أنه الحق. أما ما ارتآه العريان من تحفز كان بالرافعي لعراك العقاد فالعبرة فيه بأن ذلك لم يسرع بالرافعي إلى تحيف العقاد وظلمه في ديوانه أو هضمه. وفي رأينا أن هذا مظهر لفارق أساسي آخر بين المدرستين: مدرسة الأدب الأخلاقي، ومدرسة الأدب غير الأخلاقي اللتين تتنازعان توجيه الأدب الآن، وهو فارق نعرف أثره في كتابة المنتسبين إلى كل من المدرستين، نعرفه في نزوع شاكر والعريان إلى الإنصاف حتى من أنفسهما وصاحبهما، وقد يغلوان في ذلك أحياناً كما يشتد المدرس على ابنه التلميذ في فصله مبالغة في العدل بين طلبته، وتعرفه في نزوع سيد قطب إلى التزيد والتحريف والإسراف.

أما شاكر فأنه أيضاً لم يسلم مما أصاب العريان من تحريف لقوله في الرافعي. وقد مثل معه سيد قطب حكاية عمرو مع أبي موسى من جديد. لكن يكفينا الآن ما كتبنا في تبيين القسم الأول من مغالطات قطب وتحريفاتها لننتقل إلى تحريفه أقوال الرافعي وهو أهم القسمين.

إن آخر مثال ضربناه في المقال الماضي لسوء فهم قطب هو في الواقع أول مثال لتحريفه

كلام الرافعي ليستقيم له وجه الاستهزاء به والزراية عليه. فقد ضرب الرافعي بنهر الكوثر يجري بين شاطئين من ذهب على أرض من الدر والياقوت مثالاً للشعر الخالد المطرد بقوله المحب في حبيبته، فجاء قطب وقال إن الرافعي لا يتشكك في أن نهراً يجري بين شاطئين من ذهب على الدر والياقوت (أجمل) من نهر يجري بين شاطئين من العشب الأخضر على أرض من الرمل والطين. ومهما تكن نتيجة المفاضلة بين النهرين عند المدرسة الجديدة من ناحية الجمال، فان نتيجة المفاضلة بينهما من ناحية الخلود والاطراد ليست موضع شك عند أحد. ولو أخذ قطب الكلام على ظاهره لم يكن فيه مغمز يغمز الرافعي به، فلم يجد بأساً في أن يضع الجمال بدلاً من الخلود والاطراد في كلام الرافعي ليصل إلى ما يريد. ولو غير مدرس للغة العربية فعل هذا لالتمسنا له العذر عن طريق جهله بمعاني الكلمات على وضوحها وبساطتها في هذه الحالة، لكن سيد قطب أخصائي في اللغة العربية وأديب وشاعر فلا يمكن أن يلتمس له العذر من هذه الناحية، ولم يبق إلا أن يكون تعمد التحريف في كلام الرافعي ليصل إلى ما يريد. فإذا أصر على ما فعل، وعدها على الرافعي غلطة بغلطات كخبر (الأسدي الذي يخترق شوارع القاهرة) في مثل زائر القاهرة الذي ضربه ليخلص إلى أن الرافعي (لم يحس الإحساس بجمال (الطبيعة بل. . . لم يوهب الطبيعة التي تحس هذا الجمال) - إذا أصرَّ

قطب على زلته إمعاناً في تشويه الرافعي عند القراء كما فعل في مقاله الحادي عشر زاد ذلك في شناعتها وسقط بها في هاوية مالها من قرار.

وإلى مثل هذا عمد قطب حين أراد أن يتكلم عن حب الرافعي ليثبت أنه لا يعرف ما الحب وأن ليس له قلب يقول الرافعي:

نصيحتي لكل من أبغض من أحب ألا يحتفل بأن صاحبته (غاظته) وأن يكبر نفسه عن) أن يغيظ امرأة. إنه متى أرخى هذين الطرفين سقطت هي بعيدا عن قلبه، فإنها معلقة وهي قطعة مقتبسة من كتاب (رسائل .(إلى قلبه في هذين الخيطين من نفسه الأحزان) وهو تاريخ حب للرافعي انقلب إلى بغض كما بين ذلك سعيد العريان في فصوله لمن لم يكن قرأ ذلك الكتاب، فالقطعة تدور كلها وتتوقف استقامة معناها على كلمة (أبغض) الواردة في أولها. لكن سيد قطب لما لم يجد فيها كما هي موضعاً لتهكمه ولا دليلاً على مزاعمه عمد

إليها فحرف معناها بأن أسقط منها ما يؤدي معنى البغض وراح يصيح: (أرأيت؟ - إن الحبيبة (بعد انقطاع الحب) لا تتعلق بنفس من كان يحبها إلا بخيطين اثنين: غيظها له وغيظه لها! ولا شيء وراء ذلك!) ثم طفق يعلق على ذلك ما شاء له الحنق والبغض، وانتهى به الأمر في مقاله الحادي عشر إلى أن يقرر في غرور وتوكيد وإصرار: (فحين يقول الرافعي إن الحبيبة لا تتعلق بقلب حبيبها (بعد انتهاء الحب) إلا بخيطين اثنين هما غيظها له وغيظه لها. . . يدل على أنه لم يحس الحب يوماً ما ولم يحسن ملاحظته في غيره، بل لم يكن ذا طبيعة قابلة للحب، ولا مستعدة لتلقي دفعاته وانفساحه ولو كتب بعد ذلك عن الحب ألف كتاب). وتستطيع أن تتبين مبلغ إسرافه بهذا الكلام على الرافعي إذا وضعت فيه بدلا من (بعد انتهاء الحب) كلمات تؤدي معنى الرافعي مثل (بعد انقلاب الحب إلى بغض). هنالك يتضح مبلغ جناية هذا الرجل على الرافعي وعلى الحقيقة وعلى النقد بذلك التغيير الطفيف الذي أدخله على كلام الرافعي جرياً فيما يظهر على قاعدة (الصدق الجميل) الذي يفرق عند هذا الناقد الجديد بين مدرسة الرافعي ومدرسة العقاد. . .

بقى مثال واحد ثم نغلق هذا الباب. انتقد الرافعي بيت العقاد:

فيك مني ومن الناس ومن ... كل موجود وموعود تؤام

بما انتقده به وأخذ على العقاد، وإن في لفظ شديد، أنه لم يحترس مما يدخل في عموم (كل موجود) مما لا يليق أن يكون في حبيبة محب ذي ذوق. وأراد قطب أن يسخف نقد الرافعي فزعم أن الرافعي قال إن (كل موجود هو البق والقمل والنمل. . . الخ) ولو نسب إليه أنه قال: (إن من كل موجود كذا وكذا. . . إلخ) لكان كلاماً ظاهر الصدق ليس فيه موضع للتسخيف الذي يريده صاحبنا والذي لا يتأتى إلا إذا سقطت (من) الدالة على البعضية. فلم ير صاحبنا مانعاً من إسقاطها! وهل هي إلا حرف ذو حرفين يتحقق بإسقاطه شيء من تصحيح الأمزجة والنفوس؟

وقد رد أخونا محمود شاكر هذه الغلطة من سيد قطب إلى أنه لم يفهم الفرق بين (من) في كلام الرافعي و (من) في كلام العقاد. ووددنا لو أن الأمر كان كذلك فان عدم فهم الحرف أخف من تعمد إسقاطه، لكن سيد قطب خريج دار العلوم وأخصائي في اللغة العربية يعلم منها تلاميذه كل يوم مثل هذا الذي يعتذر عنه محمود شاكر بأنه يجهله. فلم يبق إلا الاحتمال الآخر على ما فيه.

تلك ثلاثة أمثلة حرف فيها صاحبنا كلام الرافعي تحريف الحاذق الماهر: تحريفاً طفيفاً من حيث اللفظ عميقاً من حيث المعنى، ورتب على ذلك من النتائج الخطيرة ما لا ينتج من كلام الرافعي، فهو قد تجنى على الرافعي مرتين: مرة بذمه ذماً بالغاً باطلا، ومرة بتحريف كلامه لتبرير ذلك الندم. فصدّق بذلك وبأغلاطه الأخرى ما نبهنا إليه من قبل من انزلاق مخاصم الحق وتورطه في أغلاط ومهاو ما كان لولا معاداته الحق ليتردى فيها وينتقم بذلك من نفسه للحق أبلغ انتقام.

محمد أحمد الغمراوي

الفروسية العربية

للميجر كلوب

ترجمة الأستاذ جميل قبعين

(تتمة)

وقد روى لي سمو الأمير عبد الله الحادث التالي: عندما كان الملك الراحل الحسين شريفا على مكة: كانت السلطة على البدو بيده رغم حكم الأتراك؛ وفي يوم من الأيام بينما كان الشريف مع ولده الشريف عبد الله سائرين وقافلة في الصحراء أراد الشريف أن يسبق القافلة ليختار محلا لإقامة الخيام - فذهب معه ولده حتى وجدا محلا مناسبا تحت شجيرات، وكانت بجانبهم إبل ترعى بحماية ولد وأخته الصغيرة، وكعادة العرب ساءل الشريف الولد إلى أي قبيلة ينتمون، فأجاب الصبي من البقوم، فقال له الشريف (ألا تخاف أن ترعى على حدود بني عتيبة الذين قد يأخذون إبلكم) وكان الصبي منبطحا على ظهره يلوح بقدميه في الفضاء فأجاب (أيها الشيخ المجنون البارد، أنت لا تفهم) فأجاب الشريف: قد أكون مجنونا ولكني لم أعرف السبب بعد. فأجاب الولد قائلا (ألا تعلم أنه ما دام الحسين على السرج فنحن لا نخاف الغارات) وعند هذا الحد أقبلت القافلة فعرف الولد أن الذي كان يكلمه هو الشريف حسين، فخاف كثيراً ولكن الملك الراحل طمأنه وسر من هذه الشهادة غير المقصودة. وبقي كل سنة يطلب الولد وأخته إلى مكة ويعيدهما إلى أهلهما مع النقود والملابس.

لقد قلت إن إحدى صفات البدوي القيام بأعمال غريبة لإثارة الإعجاب - ومن ذلك عادة الجاهلية. يحدث أن يعتدي على شرف بدوي أو غير ذلك من الأمور التي تستلزم الترضية، ويرفض البدوي الترضية التي يقدمها المعتدي ويصر على الأخذ بالثأر - وعندها يجتمع شيوخ القبيلة في شبه وفد يذهب إلى بيت المعتدى عليه، وبطبيعة الحال يقدم لهم طعاماً يرفضون تناوله قبل أن يعد بإجابة سؤلهم فيعد بذلك وبعد انتهاء الطعام يشرحون فوائد الصلح إلى آخر ذلك فيتنازل البدوي عن حقه كاملا. فاتهام العرب بالطمع والجشع أمر تنقضه الحقائق، والقصص التي رويتها لكم قمينة بإعطائكم فكرة صحيحة عن

العرب والبدوي من هذه الناحية. إن إلحاح البدوي في طلب حقه غريب، ولكنك إذا ما التجأت إلى كرمه كقولك أعفني يا أخا فلانة - فأنه يتنازل عن دَينه. ولعلنا لم ننس قصة هيرودس مع ابنة شالوم التي طلبت أمنية أجابها إليها قبل أن يعرف ما هي تلك الأمنية، وقد كانت رأس يوحنا المعمدان وقد كان هيرودس في شرق الأردن.

الخلاصة

ولكي نجمع ما سبق نقول بأن الفروسية هي نظام حياة البدوي اليومي وأهم مميزاته:

1 - تمجيد الحرب المبني على أساس طلب العلى والقيام بأعمال البطولة لا بكسب المعركة والحرب.

2 - احترام يشوبه الغزل للمرأة المفروض فيها الأنوثة الكاملة والمتممة للرجل مع عدم مساواتها له. والنظر إليها كتسلية للرجل والحكم على أعماله.

3 - الكرم ومساعدة الضعيف لأن هذه الصفات فرصة للقيام بأعمال غريبة تثير الإعجاب وتقرب من الخيال.

4 - وكنتيجة لهذه الصفات نشأت عادة التنافس بين الفرسان حتى أدى ذلك إلى نزاع داخلي في القبيلة.

5 - عدم الاهتمام بالمجتمع لتطلبهم المجد الشخصي.

6 - الفقر الدائم مع احتقار حياة العمل الشاق والبخل وبعكس هذا تجد أن الصفات المميزة للحضر هي:

1 - كره الحرب والدفاع بشدة إذا ما هوجم. همه الأول ربح المعركة دون الاهتمام بالطريقة، شريفة كانت أو غير شريفة.

2 - تطبيق النظرية القائلة بعمل الكل لأجل المجتمع.

3 - عدم الاهتمام بالمرأة وتكليفها بالأعمال الشاقة والنظر إليها كمصنع للأولاد ووسيلة للربح. وقد ترتفع منزلتها عند الحضر فتصبح مساوية للرجل ولكن ليست المتممة له

4 - نظرة الإعجاب إلى العمل الشاق المتواصل والعطش الشديد إلى جمع الثروة.

ولهذا أرى أن نبعد عن أذهاننا نحن الأوربيين المعنى الخيالي الغرامي الذي يصوره لنا خيالنا عن كلمة الفروسية، لأن الفروسية هي النظام الخاص لحياة البداوة الذي يميزها عن حياة

الحضر
نظرية
إن كل بحث عن الشعوب القديمة يكون ناقصاً مملاً مدرسياً ما لم تحاول أن تربطه بحياتنا اليومية الحاضرة. لا مراء في أن الحضارة الرومانية هي أولى الحضارات التي غزت أوربا وقد كانت حضارة زراعية، وتتكون نظريتهم عن الحرب في أن الفرد يجب أن يفنى في سبيل المجموع وأن الحرب خدعة. وفي القرن السابع ظهر الفتح الإسلامي حاملا معه روح الفروسية - روح الشرق - الروح التي تثير الإعجاب وتهيج النفوس. فغزت هذه الروح جميع البلدان التي اتصل العرب بها، وانتشرت بين سكانها. ولكن إذا نظرنا إلى الفاشستية اليوم نرى أنها احتفظت بالروح الرومانية القديمة بل تطرفت بها وهذه الروح تتنافى مع الروح العربية - روح الفروسية
غزا العرب أسبانيا وفرنسا حتى تور فانتشرت بالبلدين روح الفروسية، ومن فرنسا تسربت هذه الروح إلى إنكلترا ولكنها لم تتعداها - وقد يكون هذا هو السبب في مقاومتنا لروح الدولة الكلية المتطرفة والتي هي عماد الدولة في كل من روسيا وإيطاليا وألمانيا وهي البلدان التي لم تتصل بها ولم تنتشر فيها روح الفروسية. فان صح هذا ألا يكون مبدأ الحرية الفردية الذي نتمسك به وندافع عنه هو تراثنا من العرب؟ بالرغم عن التطورات الحديثة واتباعنا نظرية أن الحرب خدعة - فأننا ما زلنا نحافظ على روح الفروسية فيما نسميه اليوم (الألعاب الرياضية)
إننا نخطئ خطأً فاحشاً إذا ما ظننا أن العرب كلهم بدو، فأكثر العرب اليوم مقبلون إقبالا عظيما على درس الحضارة والمدنية الأوربية برغم نظام الفردية بينهم - وقد لا تمضي فترة قصيرة حتى نراهم يسيرون والأوربيين جنباً إلى جنب في ميدان الحضارة. إن تجاربي السياسية قليلة، ولكني قمت ببعض المهام الصغيرة مع الحكومة السعودية. ولقد كنت أظن أن التفاهم معهم صعب عسير ولكني سرعان ما غيرت هذا الظن إذ وجدت أنني أنا نفسي صرت أحسدهم. إذا صارحتهم - صارحوك. جرب دائما أن تكون معاملاتك مع العرب مبنية على الشرف والأمانة. ويجب ألا يعزب عن بالنا أننا ورثنا عنهم النظرية التي تهمنا نحن الإنكليز بنوع خاص وهي (إن لعب اللعبة أحسن من ربحها)
أسئلة بعد المحاضرة
سير رونالد ستروس - هل يتغنى البدو بالشعر الرمزي؟ وهل هناك قصائد جديدة؟
المحاضر - البدو يجهلون الشعر الرمزي ولكن القصائد تتلى في كل خيمة؟
سير برسي كوكز - ما الذي يمكن الإنسان عمله إذا أراد بدوي معدم أن يذبح شاة لإطعام ضيف؟
المحاضر - من الصعب معرفة ما يمكن عمله، ولكني أرى أنه يكون مضطراً إلى محاولة إقناعه بأن يتحول إلى فلاح (ضحك)
مستر ي رانكن - هل تجدون صعوبة في حفظ النظام مع الجنود الأغرار من البدو
المحاضر - ليت الوقت يسمح لي ببحث هذا السؤال. ولكني أقول إننا نجد صعوبات جمة في بادئ الأمر
والنظام مع البدوي يختلف طبعاً عما هو عليه مع الفلاح. لأن البدوي ديمقراطي بطبعه، فالضابط والجنود يأكلون من صحن واحد ويشربون القهوة معاً. والبدوي يفخر بانتمائه إلى القوة التي توافق هواه. وإرهابه بأخذ سلاحه أو بإخراجه من القوة يؤثر فيه أكثر من أي عقاب آخر. ولكن طلبهم المجد الشخصي يولد الحسد فيهم ويسبب بعض المتاعب
لورد ونترتون - أظن، سيداتي وسادتي، أنه لم يبق لي إلا أن أشكر المحاضر بلسان كل فرد منا على محاضرته القيمة النفيسة وأحب أن أقول إن نظريته حول الارتباط بين العرب والإنكليز توافق نظريتي تماماً. إذ أنني أرى أن هنالك مكانين يمكن الإنسان أن يعيش بهما سعيداً وهما البادية وهذه البلاد. ولكن للأسف يوجد فرق واحد: أن البدوي إذا هوجم يستطيع التقهقر إلى صحرائه حيث لا مطمع لأحد هناك، ولكننا إذا هوجمنا فقد يحتل العدو بلادنا. وفي هذا درس علينا أن نحفظه. هذه نظرية قد تشرح قول بعض الأوربيين عنا: إننا مجانين. ولماذا وكيف نصادق كثيراً من الشعوب الآسيوية.

المترجم
جميل قبعين
أنشودة
(!ليتها تعيها إلى الربيع المقبل)
للأستاذ صالح جودت
كان ميعادُكِ في هذا الربيعْ ... ثم أخلفتِ، فكان الموتُ لي
ضاع عمري في غرام لن يضيعْ ... فاذكريه في الربيع المقبلِ
الربيعُ الآن؟ مالي لا أرى ... بعد إخلافكِ، ما كنتُ أراهْ؟
!هاهو الرَّوضُ، أراه مُقْفِرَا ... ما به من رَونق. . . إلا ثراهْ
هاهي الدَّوْحاتُ صفراَء الذُّرَى ... تتلوَّى بين أغصانٍ عُرَاهْ
هاهو الينبوعُ. . لكن. . ما جرى؟ ... خبريني يا غرامي، ما اعتراه؟
أهُو اليومَ كما نعهدهُ؟ ... ربما كان لغيري ينجلي
أنا مَنْ قد فاته موعدُهُ ... فاذكريه في الربيع المقبل
كانت الزرقةُ ثوباً للسماءْ ... كانت الخضرةُ ثوباً للأدِيمْ
كان في الروض أزاهيرُ وماءْ ... كان في الدَّوْح رجيعٌ ونسيمْ
كان في الدنيا غرامٌ ووفاءْ ... كان في قلبكِ لي حُبٌ مقيمْ
كل هذا شِمتُهُ قبل المساءْ ... كل هذا ذقتُهُ قبل الجحيمْ
أَهْوَ باقٍ مثلما كان لنا ... في لذاذات اللقاءِ الأول؟
إن يكن ما مات، فالميْتُ أنا ... فاذكريني في الربيع المقبل
!. . .إلى (القصر) الغاشم
(!نفثة جريحة اهتز بها قلبي حيال قصر الملهمة)
للأستاذ محمود حسن إسماعيل
. .لَوْ كُنْتَ تَسْمَعُ صَرْخَتي وشَكاتي ... يا (قَصْرُ)! ما قَيَّدْتَ سِحْرَ حَياتي
جَجَّبْتَها عَذْرَاء كادَ غَرامُها ... يُذْكِي سَعيرَ الحُبِّ في الْغُرُفاتِ
!وَلَو أنَّها مَلكَتْ جَناح حمامَةٍ ... طارَتْ لعابدِها من الشُّرُفاتِ
لمَحَتْهُ مِنْ خَلَل السُّتور مُشَرَّداً ... حَيْرانَ مُرتَجِفاً على الطرُقاتِ
!في جَفْنِهِ صَخَبٌ! وفي أنفاسِهِ ... لهبٌ! وَسِرُّ المَوْتِ في النَّظَراتِ
وعَلَى الشِّفاهِ قَصِيدَةٌ غَزَلِيَّةٌ ... مَحْنُوقَةُ الألْحانِ والنَّبَراتِ
صَرَخَتْ تُذيعُ غَرامَهُ. . فَأَذَابهَا ... هَوْلُ الأسَى في جاحِم الزَّفَراتِ
. . .يَبْكي ويَضْرِبُ في الْفَضاءِ مُضَيَّعاً ... كالتَّائهِ المْأخُوذِ في الْفَلَواتِ
قَلْبٌ عَلَى عَتَباتِكَ انْتَحَرتْ به ... أحْلامُهُ يَوْمُ الْفِراق الْعَاتي
وأتاكَ مُنْتَفِضَ الحَنين، كأنَّهُ ... ذِكْرَى مُجَرَّحَةٌ تَعودُ (فَتاتي)
!يا (قَصْرُ) أَبْلِغْهُ الضِّفافَ. . . فَعِنْدها ... أمَلي، وصَفْوُ مَزاهِري، وَحَياتي
!الدمية الحسناء
للأستاذ أحمد فتحي
!فيكَ من رَوْعَةِ الجمال نَصِيبٌ ... شاهدٌ أن للدُّمَى إغْراَء
!وقديماً أضلَّ قومٌ من الخلْ ... قِ، فَضَلُّوا ضلالةً عَمْياَء
!عبدوا الوَهْمَ والأساطيرَ حتى ... قدَّسُوها حجارةً صَمَّاء
!وإذا شاءتِ المقاديرُ تَلْهُو ... سَخَّرَتْ للجهالة الفُهَمَاء
لستُ أَنْسَى يوم الْتَقَيْنَا وكانت ... صفحةُ الرَّوْض، فتنةً تتراءى
الأزاهيرُ رائحاتٌ غوادٍ ... تَتَثَنَّى مع الصَّبا كيف شاء
!والأمانيُّ باسماتٌ لِعَيْنَي ... يتضاحَكْنَ غِبطةً وصفاء
والأغاريدُ هاتفاتٌ على الدَّوْ ... حِ نشيداً يُداعبُ الأفْياء
ولقد كنتَ في الخميلةِ تمثا ... لاً من الْحُسنِ رائعاً وضَّاء
لاح لي من لحاظِ عَيْنَيْكَ سِحْرٌ ... بابِليٌّ، يستضعِفُ الأقوياء
ودعاني هواكَ فانْطَلَقَ القل ... بُ على وجههِ يُلَبِّي النداء
فَرَّ من بين أضْلُعي ينشُدُ الْحُب ... بَ، كما ينْشدُ الظِّماءُ رَوَاَء
!وأتاك المسكينُ حالاً من اللوْ ... عةِ تشكو فصيحةً خَرْسَاَء
ظَنَّ في صْمتِكَ الرِّضى عن غرامٍ ... كان فيه، غِوايةً شَنْعَاَء

عادَ لي ضاحكاً، قريراً يغَنِّي ... يملأ الأرض شَدْوُهُ والسَّماَء
فَتَوَهَّمتُ أنه رُزِقَ الخَي ... رَ، وأَصْحَى يُسَاجِلُ السُّعَدَاَء
ثم بارَكْتُهُ غراماً عزيزاً. . . ... قد كفاني الهمومَ وَالْبُرَحَاء
ما سَلاَ القلبُ عنك إذ جَدَّ بيْنٌ ... صَيَّرَ الصُبْحَ وَحْشَةً ظَلْمَاء
شَفْنِي الوَجْدُ والنحولُ وكابَدْ ... تُ غرامي داءً دَوِيًّا عَيَاء
وَعفَا الصبرُ عن لِقاَئِكَ حتى ... عَلّمَ العينَ أن تذوبَ بُكاَء
سلك الدَّمْعُ من مآقِيَّ سُبْلاً ... كُنَّ من مَسْلَكِ الدُّموع خَلاَء
زهِدَتْ نفسي الصواحبَ طُرًّا ... وَمَللْتُ الحياةَ وَالأحْياَء!
وَتمنَّيْتُ لو لقيتُكَ يوماً ... وافتقدتُ المعاشرَ الْخُلَصاَء
عَلِمَ اللهُ كم سَهدْتُ الليالي ... أتشهَّى الرُّقاَدَ والإغْفاَء
يَقِظاً للخيالِ؛ إن طرَقَ الطَّي ... فُ رآني بَقِيَّةً وَذِمَاء!
ولقد طالما تَعَللْتُ بالقَرْ ... بِ، فكانت عُلاَلَةً حمقاَء
كيف أنساكَ يومَ قيلَ مُوَافٍ ... يحملُ البُرْءِ قُرْبُهُ والشِّفاَء؟!
قلتُ للنفسِ ها انْعَمِي بعد بُؤْسَي ... جَرَّعَتْكِ النَّوَى صباحَ مساَء
والتقينا أشكو الذي صنَعَ الشَّوْ ... قُ بقلبٍ تَنَفَّسَ الصُّعَدَاء
وترامتْ على يَدَيْكَ دُمُوعي. . ... قَطَرَاتٍ كبيرةً حمرَاء!
وتوسَّلْتُ أن تُنَهْنِهَ مِنها ... فإذا أنتَ لا تجيبُ الرَّجاء!
فَتَهاوَتْ مع المدامع آما ... لٌ تُسَامِي صُرُوحُهَا الجوزاء!
وتناثَرْنَ، في الأعاصير نَفْعاً ... حَمَلَتْهُ، قويَّةً، هَوْجاء!!
عاتَبَتْ نَفْسيَ الحزينَةُ قلبي ... في هواكَ الذي أضَّرَ وساء
هَتَفَتْ، أيُّها المعَذَّبُ بالخَفْ ... قِ، تَجَشَّمْ هزيمةً نكْرَاء
قد حَمَلْتَ الغرامَ زَيْفاً من الوهْ ... م أضاعَ الشبابَ عُمْراً هَبَاء
خَدَعَتْك المَنى اللَّعُوبُ، وكانت ... قِصَّةُ الحُبِّ، كِذْبَةً بَيْضاء
شَغَفَتْكَ الحياةُ بالحُسْن، حُبّاً ... فَتَعَشَّقْتَ دُمْيَةً حَسْنَاَء!!

فرحة

للأديب محمد قطب

أحلى الأماني والمراح مراحُ حُب
قد فاض قلبي بالسعادة بعد جدب
وطفرت كالمرح اللعوبِ وأي لِعْب!
عاد الشبابُ إليّ بعد طويل شيب!
يا حب ليس سواك فكّ عِقال قلبي
أطلقتني حراً أشارف كل صوب
لا مَنْ يعوق خطاي عن جَرْي ووثب
هي ذي معي، وأنا أبوح بسر حُبي
ما أجمل الحب السعيد وأنتِ قربي
وجمال همس كالطيور أوانَ أوْب
همس الحياة تحيطني من كل جنب
وتحيطني وتحيط بالإعجاب حبِي
فرحانة هي بالغرام يضيء قلبي
إني أحبك يا سعاد وأي حب!
حب تسامى فوق كل هوى محب
حب يرفرف كالحنان المستحَب
حب فريد لن تريه بغير قلبي
إني أتيه على الغرام (بِنَوعِ) حبي!
وأنا سعيد أن أحب وأن تحبي
سترين إعجابي بمن أهوى وعجبي
وسترشفين خلاصة من كل ذوب
ذوب الغرام وذوب تفكيري وقلبي
ذوب الحياة ممحضاً من كل شوب

ذوب السعادة خالصاً من كل ريب
أعطيكِ ما قد شئت عذباً أي عذب
أعطيكِ حتى ترتوي حتى تعبّي
!أعطيكِ. لست بآخذ أبداً وحبي
إلا الجمال فإنه هو وحي قلبي
هاتيه كيف أردت من دل وعجب
!إني رضيت بما سآخذ دون غضب
أفأنت راضية وحظك سوف يُربى؟
البريد الأدبي
باريس، أحمد حافظ عوض، أبو تمام
الأستاذ الكبير أحمد حافظ عوض بك اليوم في باريس. وهو يبعث منها برسائل أحمدية: ذات بساط أحمدي. . . وقد أخبر في الأولى التي عنوانها (ما بال باريس اليوم ليست باريس؟) أنه يمم حاضرة الفرنسيس من قبل وهو في الثلاثين ويجئ إليها اليوم أخا ستين - أخو ستين يا أبا الحفَّاظ، الله أدرى بالحقيقة - وأنه ما رآها وهو شيخ كما آنسها في الشباب في شبابه:
!لا يبعدنْ عصرُ الشبا ... ب الناعم الغض الرطيب //
كان الشباب حبيبنا ... كيف السبيل إلى الحبيب!؟
ومما سطره: (فماذا جرى يا ترى، أترى باريس تغيرتْ كما تغيرت، أم كبرتْ كما كبرت؟) ثم أفاض الأستاذ في المقال ثم قال في آخره: (فباريس ليست باريس لأنك أنت لست أنت) ولو تذكر صاحب (الكوكب) بعد هذا الكلام (حبيباً) لأعطاه هذه الأبيات العبقريات فجاءت في الختام من آيات التمثيل الباهرات. وهأنذا أرسل بها إليه في (الرسالة) لينشدها الأستاذ في كل صبح ومساء، ما أقام في باريس:
!لا أنتَ أنتَ، ولا الديار ديارُ ... خفَّ الهوى، وتولت الأوطار
!كانت مجاورة (الربوع) وأهلها ... زمناً عِذاب الوِرد، فهي بحار
!أيامَ تدمى عينَه تلك الدُّمى ... فيها، وتقمر لُبه الأقمار
!إذ لا (صدوف) ولا (كنودُ) أسماهما ... كالمعنيين، ولا (نَوارُ) نوارُ
!بيض فهن إذا رُمقن سوافراً ... صور، وهن إذا رَمقن صُوار
!في حيث يُمتهن الحديثُ لذي الصِّبا ... وتحصّن الأسرار والأسرار
وصدر هذا البيت، فحواه أن هناك (اللقاء والحديث) فقط والشطر الثاني ظاهر، وأنا ما ذهبت إلى باريس فلست أعرف حالها، فهل يصدق (العجز) فيها؟ العلم عند الأحمدِين العارفين: أحمد شوقي، أحمد حافظ عوض، أحمد حسن الزيات، العلم عند العارفين. .
.
(القارئ)
تكريم الدكتور زكي مبارك
أقام الفنان الأديب الأستاذ مدحت عاصم وكيل محطة الإذاعة المصرية شاياً موسيقياً للترحيب بمقدم الدكتور زكي مبارك من العراق دعا إليه نخبة من رجال الأدب والعلم والتعليم والصحافة وعلى رأسهم الأستاذ الجليل محمد بك العشماوي وكيل وزارة المعارف
وقد انتثر المدعوون في جوانب حديقة الدار يستمعون إلى نغمات الموسيقى، ثم انتقلوا إلى موائد الشاي فتناولوا الحلوى والمرطبات، ثم وقف الأستاذ مدحت عاصم وألقى كلمة حيا بها الدكتور مبارك وشكر فيها المدعوين على تلبيتهم الدعوة، وقال أنه ليس بعجيب أن يكرم الفنان أديباً، فالفن والأدب توأمان لا ينفصلان، والدكتور زكي مبارك أديب يقوم أسلوبه على قواعد موسيقية. . .
وبعد ذلك وقف صاحب العزة الأستاذ محمد العشماوي بك فارتجل كلمة رقيقة داعب فيها المحتفل به. وقال أنه لا يتكلم الآن باسم الوزير، ولا باسم الوزارة. ولكنه يتكلم معبراً عن رأيه الشخصي. واستطرد فقال:
أعرف الدكتور مبارك رجلاً مشاغباً! وكنت قرأت له حملات على الأدباء والشعراء، فأرى فيه معولا يحتاج إليه البلد في هدم القديم على أن ينشئ مكانه جديداً نافعاً ولما عرضت فكرة إيفاد معلمين إلى العراق قلت أنها فرصة طيبة للتخلص من شغب

الدكتور زكي!
لم يكن الدكتور زكي مبارك قبل سفره، قد عمل شيئاً في وزارة المعارف، فلما سافر إلى العراق عمل هناك أشياء كثيرة. وخلال زيارتي للعراق تحدثت إلى وزير معارفه عن عيوب الدكتور زكي مبارك فقال الوزير - وهو من رجال الأدب المعدودين - إننا راضون بالدكتور على عيبه!. . .
ثم وقف الدكتور مبارك فألقى كلمة بليغة سننشرها في العدد القادم
وفاة الأستاذ نللينو
نعت أخبار روما أستاذنا الجليل الدكتور نللينو الأستاذ بالجامعة المصرية والعضو في مجمع اللغة العربية، وإمام المستشرقين في تاريخ الآداب العربية وأصول اللغة الحميرية وأسرار الحضارة الإسلامية. اتصلت أسبابه بمصر زهاء ثلاثين سنة منذ اختاره المغفور له الملك فؤاد لتدريس الأدب العربي في الجامعة المصرية القديمة يوم كان رئيسها وهو أمير فألقى الأستاذ بها أربعين محاضرة في الأصول المقررة في الأدب والنقد عند العرب فكانت الأساس الوطيد والمنهج السديد لدراسة الأدب العربي في مصر. ثم انقطع ما بينه وبين مصر حينا من الدهر حتى انتدب مرة ثانية للتدريس في الجامعة المصرية الجديدة وانتخب عضواً في مجمع اللغة العربية الملكي فغذى الجامعة والمجمع بأبحاثه القيمة وآرائه السديدة وخبرته الطويلة. وقد بلغ من حبه للغة العرب أن حبب إلى ابنته دراسة الآداب العربية، فهي اليوم من الفتيات الإيطاليات اللاتي يعرفن الشرق العربي معرفة صحيحة ويكتبن عن أدبه كتابة المطلع الفاهم؛ وقد أعانها على ذلك أنها زارت مصر معه مرارا، فلا جرم أن فقد الدكتور نللينو خسارة للأدب العربي وللاستشراق لا يسهل العوض منها، فإن الرغبة في دراسة الشرق القديم قد ضعفت في نفوس الأوربيين بعد أن استبانت معالم الشرق واتضحت السبل إلى استعماره
كتاب رسالة المنبر
تفضل صديقنا الأستاذ فليكس فارس فأهدى إلى مشتركي الرسالة مائة نسخة من كتابه رسالة المنبر. ومتى تسلمتها إدارة الرسالة فسترسلها إلى من يطلبها على شرط أن يكون من مشتركي الرسالة وأن يرسل أربعة قروش نفقة الإرسال
تنظيم دار العلوم
أصدر صاحب المعالي وزير المعارف قراراً باعتماد اللائحة الجديدة لتنظيم (دار العلوم) على منوال يكفل لها استقلالا شبيهاً بالاستقلال المكفول لكليات الجامعة، ويجعل الدراسة فيها تجري طبقاً للمبادئ الجامعية من حيث المحاضرات والبحوث وتقضي هذه اللائحة بإنشاء قسم إعدادي مدة الدراسة فيه سنتان. ويلتحق به الطلبة الذين أتموا دراسة السنة الثالثة للمعاهد الدينية الثانوية على أن يكون ذلك بامتحان مسابقة بين المتقدمين مع اختبارهم شخصياً
وسيلحق هؤلاء الطلبة بالقسم الداخلي لتهيئة جو صالح لتكوينهم
وسيدرسون إلى جانب العلوم العربية والشرعية طائفة من مواد الثقافة المدنية وهي الرياضة، وعلم الأحياء والعلوم، وإحدى اللغات الأجنبية، والتاريخ، والجغرافيا. فإذا انتهت مدة السنتين انتقلوا إلى (دار العلوم) فيقضون فيها خمس سنوات بدلا من أربع على أن تخصص السنة الخامسة لدراسة علوم التربية وما يتصل بها
وقد نظمت هيئة التدريس على مثال هيئة التدريس بالجامعة تماماً
وقضت اللائحة بإنشاء مجلس أساتذة له ما لمجالس الجامعة المصرية من اختصاصات وكذلك أنشأ مجلس أعلى برياسة وكيل وزارة المعارف، وعضوية وكيل الوزارة المساعد، وأقدم مراقبي التعليم العام، وأحد أساتذة الأدب العربي بالجامعة، وعضو من أعضاء المجمع الملكي للغة العربية، وأستاذين من دار العلوم، وأثنين من خارج الوزارة والجامعة من المشتغلين بالأدب العربي، وقد منح هذا المجلس اختصاصات مماثلة لاختصاصات مجلس الجامعة، وتعرض قراراته على وزير المعارف مباشرة، وقد أطلق على ناظر الدار اسم (عميد دار العلوم) وأطلق على دبلومها اسم (إجازة دار العلوم) وستتخذ الوزارة الإجراءات لإذاعة نص اللائحة الجديدة وسيعمل بها ابتداء من العام الدراسي الجديد

كتاب حياة الرافعي
جاء في جريدة الأخبار البغدادية هذه الكلمة: جاءنا بتوقيع (أديب) ما يلي:
نظراً إلى أن الكثيرين من العراقيين يرغبون في اقتناء كتاب الرافعي تأليف الأستاذ محمد سعيد العريان، ولما كان ثمنه قبل الطبع مائة فلس في مصر فالرجاء إلى الأستاذ صاحب مجلة (الرسالة) الغراء أن يوعز إلى وكيل المجلة ببغداد بقبول الاشتراك في هذا الكتاب بزيادة عشرين فلساً أجرة البريد، وحبذا لو أجابت الرسالة الغراء هذا الطلب
والرسالة تجيب عن رجاء الأديب بأن الاشتراك المخفض في هذا الكتاب (الرسالة): يقبل من جميع أقطار العربية ولا يزيد على الاشتراك بمصر إلا أجرة البريد.
الكتب
معلومات مدنية
تأليف الأستاذ محمود العابدي
للسيد عبد اللطيف الصالح
مؤلف هذا الكتاب ناظر لإحدى المدارس الحكومية بفلسطين قد اتجه في دراساته الخاصة نحو التاريخ العام فغدا مؤرخاً معروفاً في فلسطين يقدم للنشء والمكتبة العربية ثمار بحوثه وغرس ثقافته، والأستاذ العابدي بمؤلفه (معلومات مدنية) أسدى لا للنشء فحسب بل للمعلم أيضاً خدمة جليلة، وقد قسم مؤلفه إلى ثلاثة أقسام، فجعل الأول لتاريخ المجتمع الإنساني وتنظيماته من العصور الحجرية إلى نشوء نظام السوفيت في روسيا ويدخل فيه تنظيمات اليونان والرومان والعرب والقرون الوسطى والحكومات الأوروبية الحديثة. كل ذلك بتفصيل كاف عن حركة العمال في العالم والقسم الثاني منه جعله الأستاذ العابدي للمقابلة بين الحكومات في إنكلترا والولايات المتحدة وفرنسا وسويسرا والمستعمرات وجمعية الأمم ودوائرها، وألم بهذه المواضع إلماماً مناسباً بحيث يخرج القارئ من هذه الموضوعات ولديه فكرة تاريخية واضحة عن الاصطلاحات السياسية، فقد وفى ذلك. قال المؤلف في مقدمة الكتاب (وفي كل يوم ترد الصحافة تعابير وكلمات كلجنة الانتدابات الدائمة، ومجلس عصبة الأمم والحماية والانتداب وتقرير المصير والدستور والنقابات والسوفيت والبرلمان وحكومة الاتحاد والسكرتير العام والنائب العام، لا يعرف حقيقتها معرفة متوسطة. ومن النقص على شعب يعد نفسه للتقدم والنهوض أن تجهل أكثريته مثل هذه المعلومات الأساسية، وهذا أول دافع دفعني لوضع هذا الكتاب) وفي هذا القسم بحث مستفيض عن أهم إدارات الحكومة النافعة للشعب كالتعليم والصحة والبوليس وواجبات الفرد وحقوقه
والقسم الثالث من هذا الكتاب جعله الأستاذ العابدي لحكومة فلسطين فهو ضروري لكل فلسطيني يريد أن يعرف كيف تدار بلاده، بل إن الاطلاع عليه ضرورة لكل عربي يؤمن بفكرة العروبة وكل مسلم تهمه شئون الإسلام حتى يقف على حالة هذه البلاد التعسة التي
هي الآن في فورة دموية قد تجاهل صوتها قادة الرأي في الأقطار الإسلامية، واكتفى بعضهم بقوله: (إنا نعطف على عرب فلسطين ونتمنى لهم الخير) كأن مثل هذه الجملة كافية لردع الإنجليز عن هذه المذابح التي تغرق فيها بلاد هي مهبط الوحي الأمين ومهد الرسالة الربانية. نعم تناول المؤلف في هذا القسم حكومة فلسطين بحيث يخرج منه القارئ وعنده فكرة صادقة عن كيفية الإدارة في هذا الشعب المدافع.
ولقد ظهر لي أثر مجلة (الرسالة) الغراء واضحاً في هذا الكتاب فأستطيع أن أعده من ثمار غرس هذه المجلة العربية التي عم تناولها أبناء العروبة وانتشرت بين أبناء الضاد انتشاراً لا يدانيها في ذلك مجلة أخرى، ولقد أحسن المؤلف في اقتباسه عن أساتذة هم أعلام ثقافات وعلوم كالأساتذة أحمد أمين، وحافظ عفيفي باشا وساطع الحصري وأحمد سالم الخالدي وغيرهم، حتى جاء مؤلفه عصارة مركزة لأبحاثهم المتعلقة بموضوع كتابه
والذي يطالع كتاب (معلومات مدنية) يرى أنه يغلب على أسلوب الأستاذ العابدي الدقة في التعبير مع وضوح وإبانة للغرض الذي يريده، وقد يقرأ القارئ فيه صفحة واحدة فيخرج منها بعلم قد لا تستوعبه صفحات كبيرة، وهذا آت من تمكن الأستاذ العابدي

من مادة التاريخ ومن سعة اطلاعه في نواحيها المختلفة. ولا شك أن اتجاه المؤلف نحو الناحية التاريخية في دراساته كان له أثر كبير في قيمة هذا المؤلف فهو دائرة معارف نافعة تغنى به المكتبة العربية كما تغنى بغيره من مؤلفات عربية ثقافية أو اجتماعية

عبد اللطيف صالح

مقاييس الكفاءة للاستقلال

تأليف الدكتور ولتر هولمز رتشر

للأديب محمد فهمي عبد اللطيف

نشرت جامعة بيروت الأميركية هذا الكتاب لمؤلفه الدكتور ولتر هولمز رتشر أستاذ العلوم السياسية في تلك الجامعة ولا شك أن هذا الكتاب مما يهم العالم العربي الإطلاع عليه، لأنه يبسط قضية سياسية هي قضية العالم العربي بأسره، فقد تكلم فيه مؤلفه الفاضل عن مقاييس الكفاءة للاستقلال في العراق وفي جزر الفليبين وفي الهند، ثم تكلم عن مقاييس الاعتراف بالدول الجديدة، ومقاييس الدخول في عصبة الأمم، ثم ختم البحث بخاتمة حافلة بالاستنتاجات والمقارنات، جمع فيها أطراف الموضوع جمعاً يحصره في ذهن القارئ، ويقربه من نفسه وإدراكه.

ولقد قدم المؤلف كتابه بمقدمة ضافية، أشار فيها إلى مقاييس الكفاءة للاستقلال كما كانت معتبرة في الماضي، ثم تكلم عن المادة الثانية والعشرين من ميثاق عصبة الأمم فقال بأنها لم تشر بتاتاً إلى المقاييس أو إلى الطرق التي يمكن أن تقدر بها كفاءة الأمم للاستقلال بشؤونها ثم خلص من ذلك إلى توضيح النهج الذي انتهجه.

ولقد جرى المؤلف في حدود المعالم التي رسمها لنفسه فأجاد وأفاد، وأحسن كثيراً في اختيار الأدلة التاريخية المتعلقة بالمقاييس الضرورية لإثبات الكفاءة للاستقلال، كما أحسن في اقتباس الشواهد من التقريرات التي وضعتها اللجان التي قامت بعد الحرب للبحث في حالة الأمم التي هي تحت الانتداب أو التي تطمع في الانتظام في عصبة الأمم.

أما المقاييس التي لاقت القبول العام، والتي يمكن اعتبارها مقاييس صحيحة لكفاءة الاستقلال في نظر المؤلف فهي ترجع أولاً إلى وجود حكومة مستقرة يبرهن على استقرارها بمقدرتها على تسيير الشؤون الجوهرية في الحكومة بصورة منظمة، وأن تكون قادرة على المحافظة على سلامة أراضيها وعلى الأمن العام في البلاد كلها، وأن تكون لديها موارد مالية تسد حاجاتها الاعتيادية، كما يجب أن تكون لها القوانين والأنظمة القضائية التي تضمن العدل المطرد للجميع، ثم لا بد من رأي عام متحد يؤيد طلب الاستقلال.

ثانيا النية الصريحة على إتمام المسؤوليات والواجبات التي تفرضها العضوية في عصبة الأمم، وهذه الواجبات تشمل صيانة الأقليات العنصرية واللغوية والدينية، وحماية مصالح الأجانب القضائية والمدنية والجنائية، ومنح حرية الضمير والعبادة وممارسة الأعمال ضمن نطاق المحافظة على الأمن العام والأخلاق والإدارة ثم القيام بالعهود المالية المقطوعة باسمها ولمنفعتها بواسطة الدولة المنتدبة سابقاً واحترام كل نوع من الحقوق المكتسبة شرعياً في ظل الانتداب.

هذه هي المقاييس التي ارتضاها المؤلف والتي يجدها القارئ في كتابه مشروحة شرحاً وافياً في أسلوب سهل مرسل قد يقع فيه بعض الأخطاء اللغوية والنحوية، ولكنها لا تغض من قيمة الكتاب.

محمد فهمي عبد اللطيف

العدد 266 - بتاريخ: 08 - 08 - 1938

بقية المذهب

للأستاذ عباس محمود العقاد

في مقالي السابق (قنطار ثمين) قلت رأيي في الجسم الجميل وهو (الجسم الذي لا فضول فيه، والجسم الذي تراه فيخيل إليك إن كل عضو فيه يحمل نفسه، غير محمول على سواه)

ومن الواجب في هذا المقال أن أذكر أن الجسم الجميل غير الجسم اللذيذ وغير الجسم الصحيح وغير الجسم القوي وغير الجسم النافع، لأن الجسم قد يكون نافعاً أو

قوياً أو صحيحاً أو لذيذاً، وهو في كل ذلك غير جميل
قيل لبعض الحكماء: إن فلانة كبيرة البطن ضخمة الثدي فقال: (نعم، حتى تدفئ الضجيج وتروي الرضيع). . . فهذا وصف صادق للجسم النافع ولكنه لا يستلزم جمال الجسم الموصوف، كما يقال إن هذا الكساء يدفئ صاحبه و (يعيش) سنوات ولا يستلزم ذلك جماله فيما يكون به جمال الكساء
نعم ويجب أن نذكر للذين يخرجون من (درس الألفية) ليفصلوا في مذاهب الجمال أن المرجع في هذه الآراء لن يكون إلى أعرابي قضى حياته في بادية جرداء وفي جاهلية عمياء، وإنما يكون إلى أناس سلمت لهم محاسن الأذواق ودرسوا فلسفة الجمال وأصلحوا مئات من الأجسام الجميلة وفاقا لعلم الصحة وفن الرياضة البدنية وأساليب التحسين والتقويم المتخذة في معاهد التطرية والتنسيق، واستعانة بأصول التشريح وأصول التلوين والتظليل، وتجارب التاريخ التي عرضت عليهم صنوفاً من الشمائل الإنسانية في كل أمة خلقها الله
لقد وصف بعض الأعراب نساء (محبوبات) فاستملحوا الضخامة ومدحوا الكسل وبطء الحراك، وافتتن أميرهم بعذارى قال في وصفهن ما يقال في وصف الغيلان:
وظل العذارى يرتمين بلحمها ... وشحم كهداب الدمقس المفتل
نعوذ بالله!
فإن كان هذا وأشباهه وصفاً لشيء فهو وصف للجسم الشهي أو الجسم اللذيذ، وليس بوصف للجسم الجميل على اعتبار الجمال معنى من المعاني التي تقاس بالإدراك، كما يقاس معنى البيت البليغ، ومعنى الصورة البارعة، ومعنى التمثال المتقن، ومعنى الخيال
المجرد، ومعنى الحلم البعيد
والرجال في تفضيل الجسم الشهي أو الجسم اللذيذ مذهبان مختلفان:
رجل عنده عادة الاستحسان كعادة التدخين، فهو يألف طرازاً واحداً من (المرأة) كما يألف المدخن لفيفته المعهودة، فلا يغيرها ولو كان الخلاف بينها وبين غيرها كالخلاف بين علامة (الجمل) في التبغ الأمريكي وعلامة (الخلطة السعيدة) وهما من أصل واحد هذا الرجل إذا استحسن المرأة الطويلة لم تعجبه القصيرة ولو كانت لها ملاحة ونضارة ومتعة وحلاوة
وإذا استحسن السمراء لم تعجبه البيضاء، أو استحسن بنت العشرين لم تعجبه بنت الثلاثين، أو استحسن المصرية لم تعجبه الإنجليزية أو الروسية، وهما معجبتان هذا مذهب
والمذهب الآخر مذهب رجل يستحسن النساء كما يستحسن الفاكهة، أو كما يستحسن صحاف الطعام، والمعول على صناعة الطاهي وغواية الأوان!
فالتفاح مقبول، والبرقوق كذلك مقبول، والتين لا يرفض، والجميز لا يعاف، والشواء مستطاب، والسمك المملح له وقت يجوز اشتهاؤه فيه
ومن المعقول أن يشتهي أعرابي من الأعراب امرأة سمينة موفورة الشحم واللحم قليلة الحركة نؤوم الضحى كما يقولون، فإنما عاش الأعراب في صحراء يسوّمون فيها الناقة بمقدار ما عليها من لحوم وشحوم، ويكبرون فيها الأغنياء بمقدار ما يأكلون من سمن ولبن ودهون، ويقال فيها إن فلاناً يملأ جوف امرأته بما يسمنها ويقعدها عن الحركة فيحسبون ذلك غاية العزة والفخار، وذروة النعمة واليسار
أما نحن في عصرنا هذا الذي تتحرك فيه المرأة لتلعب في ميدان الكرة والصولجان إن لم تتحرك لتخدم نفسها وذويها في بيتها، والذي تعددت فيه مظاهر الغنى فلا يحسب فيه امتلاء الجوف بالطعام عنوان وفر وثراء، ولا تحسب فيه الناقة ولا ألبانها (وحدة المعاملة) في الأسواق. . .
أما نحن في هذا العصر فما حاجتنا إلى اقتداء بذلك الأعرابي فيما استملح واستطاب، وما لنا ولغيلانه وعذاراه، أصلحه الله وأشبعه ورواه!
وما بالنا نقتدي به ولا نقتدي بإخوانه الذين عرفوا ملاحة الهيف والرشاقة وتجملوا تارة بجمال الفطرة، وتارة أخرى بجمال الحضارة؟
أذكر أنني نظمت قصيدة في شتاء أسوان يوم كانت تزدحم بالوافدين والوافدات من آفاق المغرب والمشرق، فشببت فيها بالعين الزرقاء والشعر الأصفر والوجه

الأزهر. . . فعابها ناقدون يقرءون الألفية ويحكمون على الآداب والفنون ومذاهب الجمال، وقالوا: يا رعاك الله! متى كان الشعر الأصفر مما يستملح في القصائد العربية؟ ومتى كانت زرقة العينين مما يحمد فيه الغزل والتشبيه؟
وكنت أقول لهم يومئذ: إني إن زعمت أن حسان أوربا سود العيون والشعور كذبت على الحقيقة
وإن زعمت أنهن زرق العيون مذهبات الشعور ولكنهن دميمات مجتويات كذبت على نفسي وعلى الله. . . فكيف تريدوني أن أقول؟
صفعة على القفا، علمت الآن، أجدى في مناقضة أولئك (الآدميين) من كل ذلك النقاش والحوار
قال ابن أبي ربيعة:
ولما تفاوضنا الحديث وأسفرت ... وجوه زهاها الحسن أن تتقنعا
وقال المثل المصري: (من أعجبه جسمه عرَّاه، ومن أعجبه صوته علاَّه)
ورأينا نحن مصداق هذا وذاك على شاطئ الإسكندرية، ولا نزال نراه في كل معرض جمال
فهنا لا تلبس المرأة شيئاً ولا تخلع شيئاً إلا لتبدي حسناً وتستر عيباً، وهنا بحر زاخر لمن ينظرون على مذهب التدخين، ومن ينظرون على مذهب الفاكهة والطعام، ومن ينظرون على مذهب الجسم الجميل كما بيناه، رفيعاً جداً فوق مذهب المدخنين ومذهب الآكلين، ورفيعاً جداً فوق مذهب الجسم النافع والجسم اللذيذ.
عباس محمود العقاد
مائة صورة من الحياة
للأستاذ علي الطنطاوي
مجدد - 1
لقيته في مكتبة كان من عادتي أني أرتادها كل يوم فألبث فيها ساعة أو نحوها كما يرتادها غيري من المشتغلين بالأدب والواغلين عليه، ومن أهل العلم والأدعياء فيه، فيقلبون المكتبة إلى ناد أدبي، أو قاعة للجدل والمناظرة، فلا يكون حظ صاحبها المسكين من تجارته إلا الكلام، تمتلئ به أذناه، وجيبه من المال خال. . . وهل عاش قط وراق على أديب؟ ومتى كان عند الأدباء مال حتى يشتروا؟ إن الناس بين رجلين: رجل يحب الكتب ولكنه لا يجد ما يشتريها به، ورجل عنده مال ولكنه لا يحب الكتب. فيا بؤس الوراقين بين هذين الرجلين!
لقيته ولم يكن لي شرف معرفته، فنسبوه إليّ وعرفوني به: (الأستاذ فلان) فقلت الكلمة التي يضطرني النفاق الاجتماعي إليها: (تشرفنا) كأننا كنا قبل لقائه على غير شرف. . . وانتظرت منه أن يتكلم لأضعه في منزلته؛ وقديماً قال من لست أدري من هو: (إنك لا تعرف منزلة الرجل حتى يتكلم، فإذا تكلم رفعته أو وضعته) أو ما هذا معناه فما احفظ الكلمة على أصلها. . . ولم يطل الرجل بحمد الله انتظاري، وراح يلقي كلاماً أقرّ على نفسي بأني لم أفهم منه حرفاً، اللهم إلا كلمات تتردد فيه لها في أفرادها معان، وليس لها في جملتها معنى، من أمثال: (الوعي الطبقي) و (التقدمية واللاتقدمية)، وطفق يسرد أسماء إفرنجية لها أول وليس لها آخر، ثم قفز قفزة إلى التاريخ، فعاب علينا أننا نكتب في التاريخ، ونؤلف الكتب عن أبي بكر وعمر، وساق في ذلك كلاماً على نحو كلامه الأول، ثم جاء بالطامة فقال بأن سورة (الناس) ليس فيها من بلاغة القول شئ، وزعم أن كاتباً من أبلغ كتاب العربية في هذا العصر (ذهب مغفوراً له) قال: لو أن تلميذاً كتبها لي في امتحانه لأعطيته الصفر. . .
فلم أعد أطيق على وقاحته وجهالته صبراً. وللمرء أن يتكلم في الأدب أو في النقد، ويطيل أو يقصر، ويعرض جهله أو علمه، وسفاهته أو تهذيبه، فالناس يميزون الخبيث من الطيب ويعرفون المحق من المبطل؛ وما كل من قال كلاماً كان بليغاً، ولا كل من أمسك بقلم ونشر
كلاماً في مجلة، كان ناقداً أو كاتباً. . . أما أن يتكلم أمرؤ في الدين بلا علم ولا هدى، وبغير بينة ولا دليل فلا. . . ثم لا!
تركته يوقد نار حماسته في كذبه، حتى إذا ظنها استحالت جمرة متقدة ألقيت عليها دلو ماء فقلت له:

- هل تسمح يا سيدي بسؤال: كيف عرفت أن سورة (الناس) ليس فيها من البلاغة شيء، مع أن علماء هذا الفن ومن هم المرجع فيه والحجة قالوا غير ما تقول؟
قال: لأن للبحتري شعراً لا شك (عندي) أنه أبلغ منها
قلت: أئن كان للبحتري شعر أبلغ من شعر المعري مثلا كان شعر المعري خالياً من البلاغة؟ ثم من قال لك إن شعر البحتري أبلغ من سورة الناس؟
قال: لأن البلاغة فيهِ أظهر!
قلت: ما هي البلاغة (عندك)؟
قال: هي أن يكون الكلام بليغاً. . .
فكان الضحك عاماً مجلجلاً!
ولقيت هذا المجدد كرة أخرى فلم يقل شيئاً، لأنه قال كل ما يحفظ في المرة الأولى، ثم لم ألقه بعد أبداً!

2 - أوربي

فلان. . . من أسرة دمشقية أصيلة، ولكنه أقام في أوربة سنين عايش فيها القوم، فظن أنه حين أساغ في حلقه طعامهم، وأدار في فمه لسانهم، قد صب في عروقه دماً من دمائهم، ووضع في رأسه دماغاً من أدمغتهم، فاستقر في رأسه أنه أوربي ولكن النطفة أخطأت طريقها فكانت شرقية فلما عاد من أوربة ودخل علينا - وكنا يومئذ تلاميذ وكان هو أستاذنا - استقبلناه استقبال التلاميذ المخلصين أستاذهم الذي غاب عنهم سنين بعد ما اتصل حبله بحبالهم وأحبوه وأحبهم ورحبنا به فنظر إلينا نظر المنكر، وقلب شفتيه اشمئزازاً ولوح بيديه على طريقة أهل باريس، وقال لنا بالفرنسية (ما ترجمته بالحرف):
- ما هذا؟ أهكذا يكون الاستقبال؟ إنكم يا أهل الشرق لا تتمدنون أبداً. ولقد رأيت اليوم ما كنت أسمعه. . . فيا ليتني لم أسافر إلى الشرق!

(دمشق)

علي الطنطاوي

في مصر الإسلامية

سياسة العرب المالية في مصر

للدكتور حسن إبراهيم حسن

أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية الآداب

كان الوالي يُعَيّن من قبل الخليفة لينوب عنه في حكم البلاد، وهو الرئيس الأعلى للقضاء والصلاة والخراج والجند والشرطة وما إليها من مهام الدولة. وكان يستعين في إدارة البلاد بطائفة من كبار الموظفين وأهمهم ثلاثة: عامل الخراج أو صاحب بيت المال، والقاضي، والقائد أو صاحب الشرطة. وكانت وظيفة الخراج أهم هذه الوظائف الثلاث

وكان الوالي يحتفظ بها لنفسه؛ وربَّما أسندها الخليفة إلى رجل من قبله فيعمل هذا مع الوالي جنباً إلى جنب: هذا يدير دفة السياسة. وذاك يتولى أعمال الدولة المالية. فكان بمثابة الرقيب على أعمال الوالي، فكأنّ مصر إذ ذاك كان يحكمها واليان من قبل الخليفة مما أدى إلى تنازع السلطة والمنافسة بين الرجلين. وذلك مما يعلل قصر عهد الولاة وعمال الخراج، وبهذا خسرت مصر تحت حكمها أكثر مما كانت ترجوه من التقدم في سبيل الإصلاح.

كان القضاء والصلاة من الأمور الجوهرية التي تناولها هذا التغيير في النظم الإدارية في عهد الإسلام لارتباطها ارتباطاً وثيقاً بالدين، وهو مصدر الحكم في الإسلام.

أما عن الخراج فقد سار عمرو بن العاص مع المصريين بمقتضى شروط الصلح من حيث تقسيم الجباية ومراعاة حال النيل في النقصان والزيادة مما أضطره أحياناً إلى تأخير الخراج على الرغم مما اشتهر عن عمر بن الخطاب من التشدد في دفعه. ذلك أن عمرا حين جبى خراج مصر في السنة الأولى من ولايته عشرة ملايين دينار لم يعجب ذلك عُمر، بل ولم يعجبه أيضاً ما كان من نقصان الخراج إلى اثني عشر مليوناً في السنة التالية، وذلك لما بلغ الخليفة من أن الخراج وصل في عهد المقوقس إلى عشرين مليوناً وأكثر، وجعله بعض المؤرخين 24 , 400 , 000 دينار في عهد الفراعنة، وبالغ بعضهم فجعله في زمن الريان بن الوليد (وهو فرعون يوسف) 90 , 000 , 000

دينار، فلا غرابة إذا عجب عمر من أن البلاد لا تؤدي نصف ما كانت تؤديه إن صح أن مصر كانت
تؤدي هذا المقدار قبل الإسلام. على أن عُمر إنما أراد بتشدده وتمسكه أن يحلب البلاد حلباً ويقطع درها بخلاف ما كان يتوخاه عمرو بن العاص من مراعاة حال البلاد من شدة ورخاء.
وقد لغط المؤرخون في مقدار الخراج، وقصره بعضهم على جزية الرءوس التي كان مفروضاً أداؤها على أهل الذمة من القبط وغيرهم لأن الخراج في عهد الإسلام كان من ناحيتين (الأولى) الضرائب الشخصية المعروفة بالجزية أو جزية الرءوس (والثانية) ضرائب الأطيان، ومجموع هذين يعرف بالخراج.
على أن قصر بعض المؤرخين الخراج على جزية الرءوس مع خطئه يجعل الاهتداء إلى معرفة عدد سكان مصر وقت الفتح أمراً مستحيلاً، ناهيك ما هنالك من الاختلاف الكبير بين روايتي ابن عبد الحكم (267هـ=781م) وهو أقدم مؤرخي مصر الإسلامية والبلاذري (290هـ=892م) وهو من معاصري ابن عبد الحكم.
وقد ذكر ابن عبد الحكم أن عدد من ضربت عليهم الجزية من المصريين في عهد عمرو ثمانية ملايين عدا الصبيان والنساء والشيوخ، ولو بلغ عدد من ضربت عليهم الجزية رُبع سكان البلاد لكان أهل مصر طبقاً لهذا التقدير اثنين وثلاثين مليوناً من النفوس. وهذا بعيد التصديق، إذ لو كان هذا العدد صحيحاً لبلغت جزية الرءوس وحدها ستة عشر مليون دينار وهو يخالف ما أجمع عليه المؤرخون من أن خراج مصر بنوعيه لم يزد في السنة الأولى من ولاية عمرو على عشرة ملايين، ولم يزد في السنة التالية على اثني عشر مليوناً. كذلك روى البلاذري أن عمرا فرض على كل مصري عدا النساء والصبيان والشيوخ دينارين فبلغ خراج مصر (بما فيه جزية الرءوس) مليوني دينار، فإذا خصصنا لجزية الرءوس مليوناً اقتضى أن يكون عدد من فرضت عليهم الجزية خمسمائة ألف نسمة، وعلى هذا القياس لا يزيد سكان مصر على مليوني نسمة.
هذا ولم يكن للخراج نظام ثابت، فكانت ضريبة الأطيان تقل وتكثر حسب الاهتمام بالتعمير وإصلاح الجسور والخلجان ونحوها، كما أن جزية الرءوس كانت تتناقص بالتوالي لدخول أهل مصر في الإسلام، إما رغبة في اعتناق هذا الدين، أو فراراً من دفع الجزية. وقد رأى بعض العمال عدم دفع الجزية عمن أسلم. يدلك على ذلك كتاب وإلى مصر إلى الخليفة
عمر بن عبد العزيز يشكو إليه من أن الإسلام أضرّ بالجزية ويسأله أن يأمر بفرضها على من أسلم، فما كان من عمر إلا أن كتب إليه كتابه المأثور، وفيه يقول (. . . فضع الجزية عمن أسلم - قبح الله رأيك - فان الله إنما بعث محمداً صلى الله عليه وسلم هادياً، ولم يبعثه جابياً. ولعمري لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم في الإسلام على يديه)، وعلى الجملة فقد كانت سياسة الخلفاء ترمي إلى الإكثار من الخراج حتى أن بعضهم لم يأبه بما حلّ بالأهلين من شراهة العمال الذين عملوا على إرضاء الخليفة، الذي كان رضاؤه متوقفاً على تأدية الخراج، وعلى سدّ جشعهم في جمع الثروة الضخمة حتى لا تعوزهم الحاجة بعد عزلهم، الذي كانوا يترقبونه في كل وقت؛ مما أدى في كثير من الأحيان إلى انتقاض الأمة، وقيام الثورات في عهد بني أمية وبني العباس.
وليس أدلّ على عناية الخلفاء بإكثار الخراج من أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح لما جبي خراج مصر وبلغ 14 , 000 , 000 دينار بعد أن جباه عمرو 12 , 000 , 000 دينار، عيّر عثمان بن عفان عمرا بقوله: (إن اللقاح بعدك درّت ألبانها) فأجابه عمرو (. . لأنكم أعجفتموها) مما يدلّ على أن سياسة الخلفاء نحو جباية الخراج كانت تميل إلى الشدّة، وعلى الأخص في عهد بني أمية وبني العباس، على أن خراج هذه البلاد أخذ يقلّ بعد عمرو وابن أبي سرح حتى أنه لم يبلغ زمن الأمويين والعباسيين ثلاثة ملايين إلا مرات معدودات حتى اضطر بعض الولاة إلى وضع الجزية على من أسلم.
حسن إبراهيم حسن
. . .حظي بالشيء
لأستاذ جليل
. . .الرافعي، المجمع اللغوي، أزهري، المنصورة، اليازجي
. . . . . .

ردَّ الأستاذ الرافعي (رحمه الله) في (البلاغ 28 شوال 1352) على الأستاذ أزهري المنصورة (البلاغ 26 شوال 1352) فقال:
عاد الفاضل أزهري المنصورة إلى هذا الفعل وجاءنا بدليلين آخرين من استعماله) فتمت حججه أربعا أحصاها هو بقوله: (1) - أوردنا بيت الحماسة. . (2) - وجئنا بكلام الأساس. . (3) - وجاء في نهج البلاغة: (وحظوا من الدنيا بما حظي به المترفون) (4) - وجاء في مقامات الحريري: (نهضا وقد حظيا بدينارين)
وعجيب جداً أننا لم نجد أحداً يتنبه إلى مدار الحجة أو يفطن إلى وجه النقد. على أننا أومأنا إلى شيء، وعرضنا بشيء، وقلنا: أن لهذا الفعل (حظي) تاريخاً اجتماعياً وأن هذا التاريخ هو الذي يعين للكلمة ظاهرها الظاهر وباطنها الباطن. وكان في هذا كاف أن يدرك من يدرك أن في اللغة ألفاظاً أخذت من معنى بعينه، ولا يستعمل إلا فيما هو بسبب من هذا المعنى
أما بيت الحماسة فقد قلنا إن حظي فيه مضمنة معنى (ظفر) فهي هذه لا تلك وبطل الاستدلال بالبيت. ونقول مثل هذا في كلمة الحريري وإن كان الشريشي قد فسرها بمعنى (سعد) وهو المعنى العامي الذي شاع به الكلام في العصور المتأخرة. فيقولون: حظينا بلقاء فلان، وحظينا بتشريف فلان. وأكثر ما كان هذا الاستعمال في البلاد التي يعسفها الحكم التركي، ولهذا كانت فاشية في سوريا حتى لا عامي ولا خاصي هناك إلا وهي في لسانه وبخاصة الجرائد
وأما كلام صاحب الأساس فقد قلنا أنه من دليلنا لا من دليل المجمع ونحن على هذا الرأي
وأما عبارة نهج البلاغة فهي الآن محل القول، وسنرفع عليها مصباحاً من مصابيح علاء الدين ليتبين الأزهري والمجمع بنوره الساطع كيف وقعت (حظي) من العبارة في أحسن مواقعها، وقامت في الكلام على رجليها لا على أصابعها!
يقول الإمام: (وحظوا من الدنيا بما حظي به المترفون) فالجملة الأولى مقيسة على الثانية في الاستعمال إذ الأصل هو ما حظي المترفون به ثم أخذت من حظوة الآخرين الذين أشبهوهم: فبماذا يحظى المترفون ومن هم؟ جواب هذا في قوله تعالى: (واتَّبَع الذين ظلموا ما أُتْرِفوا فيه) وقوله: (وأخذنا مُترفيهم بالعذاب) وقوله: (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها، فحق عليها القول، فدمرناها تدميراً)
والآن فلنطفئ مصباح علاء الدين فان لم يكن المعنى الذي نرمي إليه قد انكشف ففي (مقالة أخرى سنستعير مصباحاً كشافاً من الأسطول البريطاني
قلت: في هذا التفسير تعمُّق، وهذه هي الجمل التي وردت قبل عبارة (الخطوة) وبعدها، وفيها البيان الكشاف:
إن المتقين ذهبوا بعاجل الدنيا وآجل الآخرة، فشاركوا أهل الدنيا في دنياهم، ولم) يشاركهم أهل الدنيا في آخرتهم، سكنوا الدنيا بأفضل ما سكنت، وأكلوها بأفضل ما أُكِلت، فحظوا من الدنيا بما حظي به المترفون، وأخذوا منها ما أخذه الجبابرة المتكبرون، ثم انقلبوا عنها بالزاد المبلغ والمتجر الرابح. أصابوا لذة زهد الدنيا في دنياهم، وتيقنوا أنهم جيران الله غداً في آخرتهم).
وقال الأستاذ الرافعي (رحمه الله: (ثم قال الأزهري: لم يقل أحد قولا في (حظي بالشيء) إلا العلامة الشيخ إبراهيم اليازجي في هذا الزمان، ثم ذكر انتقاد اليازجي استعمال شاعرنا حافظ إبراهيم في ترجمة البؤساء قال: (فلاقاه بعد أيام حجة الإسلام السيد رشيد رضا فقال له - وقد سمعنا قوله - يا شيخ يا شيخ إن الذي خطأته من كلام حافظ إبراهيم هو في أول صحيح البخاري قال: فبهت الشيخ وترك السيد وهو كاسف البال).
وترى ما الذي فهم القراء من هذا؟ وما هو الذي يُعد من كلام حافظ إبراهيم وفي صحيح البخاري في وقت معا؟.
لا بأس أن نفيد قراء (البلاغ) فائدة وأن نصحح لحضرة أزهري، فأن اليازجي لم ينتقد (حظي بالشيء) كما يزعم، وإنما انتقد استعمال المصدر قال: (ويقولون الحظوي وإنما هي

الحظوة) بالهاء ولم يزد على ذلك. ومما أخذ به حافظ في ترجمة البؤساء أنه يتكلف في الاستعمال وعد من ذلك قوله: (كأني أسمع صوتاً يقطر منه الدم) قال: وقطران الدم من الصوت مما لا تأنس به الأفهام. وهذه هي العبارة الواردة في البخاري ولكن حافظ (رحمه الله) لم يأخذها من البخاري وإنما سلخها من (الأغاني) وقد سار شيطانه بعد انتقال اليازجي، فلقى بعض أصدقائه فقال له بالحرف: (اليازجي غير مطلع في العربية).

قال الصديق: لماذا؟

قال: أنه عاب عليّ: (أسمع صوتاً يقطر منه الدم) مع أن العبارة في الأغاني

قال صديقه: يا حافظ، اتق الله، لأن يقول الشيخ: إن في العبارة مجازا بعيدا خير لك من أن يقول: أنك سرقتها من الأغاني. . .

(أمّا هل أخطأ اليازجي أو حافظ فهذا كلام آخر

قلت: ومما نقده الشيخ اليازجي في (البؤساء): (فخرجت ربة المنزل بالصمت عن لا ونعم أي لم تقل لا ولا نعم، ومن هذا القبيل: أحمل له ضبَّ الضغن. على أن الضب والضغن شيء واحد وكلاهما بمعنى الحقد)

ولم يحك لنا (صديق حافظ) قوله في نقد اليازجي هاتين العبارتين فحالهما كحال ذاك (الصوت) والقياس يدل أن هناك ثورة وسورة وقولا. . .

وقد غزا حافظ في الأولى بشارا:

لم يطل ليلي ولكن لم أنم ... ونفى عني الكرى طيفٌ ألم

وإذا قلت لها: جودي لنا ... خرجت بالصمت عن لا ونعم

وأغار في الثانية على ربيع بن مقروم:

وكم من حامل لي ضبّ ضغن ... بعيد قلبه، حلو اللسان

قال التبريزي في (شرح الحماسة): (الضب الحقد. وأضافه إلى الضغن لأن الضغن العسر، فكأنه حقد عسر) وغزوات حافظ البريطانية الإيطالية الفرنسية. . . وغاراته التركية. . . في (بؤسائه ولياليه) تخبرنا أنه خليفة سعيد بن حميد في هذا العصر قال ابن النديم في (الفهرست): (سعيد بن حميد كاتب شاعر مترسل عذب الألفاظ، مقدم في صناعته، جيد التناول للسرقة كثير الإغارة. لو قيل لكلام سعيد وشعره: ارجع إلى أهلك لما بقي معه

شيء) ومن نقد (البؤساء) لليازجي: (استعماله (البرهة) للزمن القصير و (باهت اللون) بمعنى كمده و (تبقى عليه كذا) أي بقي و (ألم تعثر في طريقك أيها الراهب بغلام) والمنصوص عليه في هذا المعنى عثر عليه لا به، وبقيت (تقضقض) من البرد أي تقفقف، ولم يجيء قضقض بهذا المعنى).

قلت: قضقض الشيء فتقضقض كسره فتكسر، والقضقضة صوت كسر العظام، وفي شعر أبي تمام:

طلبُ المجد يورث المرء خبلا ... وهموماً تقضقض الحيزوما

وفي حديث صفية بنت عبد المطلب: (فأطل علينا يهودي، فقمت إليه فضربت رأسه بالسيف، ثم رميت به عليهم، فتقضقضوا) أي انكسروا وتفرقوا كما في النهاية

وفي ذاك (النقد): (ولمحتُ بأحد فخذيك (فدعا) والفدع يكون في القدم لا في الفخذ، وهو أن يعوج الرسغ حتى تنقلب القدم إلى انسيها، وقيل: هو أن يمشي على ظهر القدم).

قلت: أكثر ما يكون الفدع في الرسغ من اليد والقدم، وفي (اللسان): (الفدع عوج وميل في المفاصل كلها خلقة أو داء كأن المفاصل قد زالت عن مواضعها، لا يستطاع بسطها معه).

ومن ذاك (النقد: (عولت على مغادرة ابنتي: أي أجمعت وصممت، وليس هذا معنى اللفظة، ولكن يقال. عوّل عليه بمعنى اتكل).

قلت: في (الجمهرة): عوّل عليّ بما شئت أي حملني ما شئت من ثقلك، وفي (الصحاح): عول علي بما شئت أي استعن بي ومثل هذا في (اللسان والأساس) وفي (الأساس): (ويقال: عول على السفر إذا وطّن نفسه عليه) وقول حافظ يضارعه. وفي الرابعة والثلاثين من المقامات الحريرية: (قال: أتدري لمَ أعولت، وعلام عوّلت؟) وقد فسر بعض الشراح عول بمعنى عزم واعتمد، وهو مقصود ابن الحريري، ولم ينقد ابن

الخشاب هذه اللفظة. وفسر الشريشي عول بمعنى اتكل، وعبارة المقامة لا تعني الاتكال.
ونقد اليازجي (النجمة للنجم).
قلت: النجمة ضرب من النبت كما في (الصحاح) والنجمة الكلمة، ولم أجد النجمة للنجم في المعجمات المعروفة المطبوعة. غير أني قرأت في (التاج) في مستدركه: (ونجمة الصبح فرس نجيب) ورأيت في (أقرب الموارد): (النجمة النجم وهي أخص منه) وقد جاء هذا بعد
تفسير: (علم النجوم، نجوم الأخذ، فلان ينظر في النجوم) فغير العارف يظن أن النجمة مثل النجم. والأصل لما فيه (أقرب الموارد) هو في (النهاية): (ومنه حديث جرير: بين نخلة وضالة ونجمة وأثلة. النجمة أخص من النجم وكأنها واحدته كنبتة ونبت)
وروى (اللسان) هذا الكلام، فنقل صاحب (أقرب الموارد) منقوله، ورتبه كما رتّب ليظل من يطالع معجمه. والشيخ سعيد الشرتوني فاضل كبير، وله مصنفات حسنة، ومقالات متقنة، لكن معجمه (أقرب الموارد) لا يوثق به، فقد تكردست فيه الأغلاط تكردسا.
الإسكندرية
(* * *)
للأدب والتاريخ
مصطفى صادق الرافعي
1880 - 1937
للأستاذ محمد سعيد العريان
- 34 -
مقالاته للرسالة (5)
لم تكن قصة (بنت الباشا) هي آخر حديثه عن الزواج، وإن كانت آخر ما أنشأ في هذا الموضوع بخصوصه؛ ثم بقي عنده طائفة من المعاني والخواطر في موضوع الزواج والمرأة جاءت مبعثرة في طائفة من المقالات من بعد؛ ومنها مقالة (احذري) وهي قصيدة من النثر الشعري مترجمة عن الملك، تقع منزلتها بازاء القصيدة المترجمة عن الشيطان في مقالة (لحوم البحر).
وكان الرافعي في هذه الفقرة قد اصطنع مودة بينه وبين طائفة من الشباب اللاهين، كانت تجمعهم قوة (لمنوس) في طنطا للعبث واللهو والمجانة؛ فتألفهم بالنادرة والفكاهة ليجمعهم إليه فيستمع إلى أحاديثهم في شئون المرأة والزواج؛ وقد قدَّمت القول في بعض ما سبق من هذه الفصول بأن ذهن الرافعي كان سريع الالتفات إلى معاني المرأة، وكانت أعصابه قوية الانفعال بحديث النساء، حتى لتراه وهو يستمع إلى محدِّثه إذ يتحدث عن الحب والمرأة كأنما يخيل إليه أنه يرى قصة ما يسمع، وأنه يشهد حادثة لا حديثا؛ ثم يزيِّن له خياله ما يزين فيضيف من وهمه إلى ما سمع ما لم يسمع؛ فتراه كما ترى الفتى المراهق: يجد حديث الغزل والحب حريقا في دمه وثورة في أعصابه لا حديثا في أذنيه. . . فيستزيد مما يسمع وهو صاغٍ ملذوذ؛ فيحمل محدثه بذلك على الإطناب والاسترسال حتى ينفض جملة ما في نفسه من رواية الواقع أو مبتدعات الخيال. . .!
وعلى شدة إحساس الرافعي بمعاني (الجنس) إلى هذا الحد، فانه بإيمانه وخلقه وتديُّنه واعتصامه بالوحدة، كان قليل الخبرة ضئيل المعارف في هذا الباب: فكان له علم جديد في كل ما يسمع من هؤلاء الفتيان من قصص ما بين الشبان والشابات من ناشئة هذا الجيل؛
وكان هذا العلم الجديد يسرع به إلى سوء الظن بكل فتى وكل فتاة، وكان من هذا الظن مذهبه الاجتماعي الذي يعرفه القراء.
من أحاديث هؤلاء الفتيان، كان إليه وحي المعاني في قصيدة (احذري)؛ كما كانت توحى إليه حوادث بعض الصحف وأحاديث بعض المجلات بكثير من المعاني وكثير من الموضاعات؛ إذ كان يحرص على أن يقرأ كل ما تنشره الصحف والمجلات من أحاديث الهوى والشباب ومصارع الأخلاق.
وكان الرافعي يختلف في طنطا إلى بيوت طائفة من مهاجرة لبنان كان بينه وبينهم

صداقة ومودة؛ فكان يزورهم بين أهليهم، فيكرمونه ويتسعون له ويحفون به؛ والرافعي محدِّث لبق ظريف المسامرة؛ فكانت مجالسه هناك تطول ساعات يتحدث إليهم ويتحدثون إليه. وفي بيوت المتمصرين من أهل لبنان عادات غير ما نعرف في بيوتنا، فكان الرافعي يجد هنالك جواً يوحي إليه ويمده بعلم جديد. . .

وأنا لم أصحب الرافعي في طنطا إلى (زيارة مصرية) إلا فيما ندر، على أني كثيراً ما كنت أصحبه في تلك الزيارات. . .!

وأعترف بأن الرافعي لم يكن يقصد إلى زيارة أصدقائه هؤلاء لغرض مما يتزاور من أجله الأصدقاء، ولكنها كانت زيارات يقصد بها إلى معنى مما يتصل بفنه وأدبه؛ وأحسب أن كثيراً ممن كان يزورهم ويزورهن كن يعرفن له ذلك فيهيئن له أسبابه وكثير من نساء لبنان أحفل بالأدب من رجال في مصر.

وقد صحبته مرة إلى زيارة أسرة الآنسة ق، وهي فتاة ذكية من أهل الفن والأدب؛ وقد ألحَّ عليَّ يومئذ إلحاحاً شديداً أن أصحبه، ولم أكن أعلم ما يقصد إليه بهذه الزيارة إلا أن تكون تسلية بريئة ومتاعاً من متاع أهل الفن.

وكنت في ذلك اليوم صانعاً أغنية عامية في معنى من معاني الشباب تعبر عن حال من حالي في تلك الفترة، ودفعتها إلى الرافعي لينظر فيها؛ فلما قرأها طواها وجعلها في جيبه. . .

وصحبت الرافعي إلى حيث يريد، فاستقبلتنا الفتاة وأمها وشاب من قرابتها، ثم لم . . . يكد يستقر بنا المجلس، وأهل الدار حافون بنا يبالغون في إكرامنا، حتى أخرج الرافعي الورقة

من جيبه فدفعها إلى الفتاة. . .

وقرأت الفتاة الأغنية، ثم ردتها إلى الرافعي وهي تقول: (جميل. . . شعر عاشق!)

قال الرافعي وهو يشير إليَّ مبتسما: (إنها أغنيته!)

قالت: (إيه. . .! أعاشق هو!)

قال الرافعي: (نعم!. . . ومن أجلك صنع هذه الأغنية!)

ومضت فترة صمت، وصبغت حمرة الخجل وجه الفتاة، وتولتني الدهشة مما سمعت فما استطعت الكلام، ونظر الرافعي إليَّ نظرة طويلة لم أفهمها، وكان بي من الحياء أضعاف ما بالفتاة. . . وكانت دعابة غير مألوفة ولا منتظرة، أوقعتني في كثير من الحيرة والارتباك. . .

وقطعت الأم هذا الصمت الثقيل قائلة: (أغنية رقيقة!)

وردد الشاب صدى صوتها يقول: (. . . رقيقة!)

وثبتُّ في مكاني لا أتحرك، لا أرى أمامي غير تلك الابتسامة الغامضة على شفتي الرافعي. . .

ثم نهضت الفتاة إلى الغرفة الثانية وعادت بطبق الحلوى فقدمته إليَّ؛ ثم إلى الرافعي؛ واتخذت مجلسها إلى جانبي. . . وعاد الحديث ألواناً وأفانين بين الجماعة وأنا صامت في مجلسي لا أكاد أفهم ما يدور حولي من الحديث!

وجعلت أسائل نفسي وأكاد أنشق غيظاً: (ترى ماذا حمل الرافعي على هذا القول. . .؟)

فلما انفض المجلس وخرجنا إلى الطريق نظرت إلى الرافعي مغضباً أسأله جلاء السر، فضحك ملء فمه وهو يقول: (قصة طريفة. . .) لقد عقدنا العقدة فانظر في طريقة للحل. . . سيكون فصلا أدبياً ممتعا يا شيخ سعيد، تكون أنت مؤلفه وعليَّ أن أرويه؛ لقد سئمنا الخيال فالتمسناك وسيلة إلى الحقيقة. . .!)

وغاظني حديث الرافعي أكثر مما غاظني الذي كان منه فتمردت عليه، ولكن الرافعي عاد يضحك ويقول: (أتراك - إن أبيت - تستطيع أن تمنع نفسك الفكر فيها وأن تمنعها؟ لقد بدأت القصة فما بدٌّ من أن تكون لها خاتمة!)

وضقتُ بهذه الدعابة وثارت نفسي فأخشنتُ القول؛ فزاد به الضحك وهو يقول: (وهذه الثورة أيضاً هي حادثة من فصول هذه الرواية. . .!)

واعداني مرح الرافعي وانبساطه فضحكت، ثم لم أجد للجدال فائدة فسكتُّ على غيظ ضاحك. ولقيتُ الفتاة بعدها مرتين فتناسيت ما كان ولم أسأل نفسي عن شيء من خبرها. . . ومضى زمان، ثم جاءني الرافعي يوماً يقول: (أن بينك وبين صديقنا الأديب

ج لشيئاً؟) قلت: (ماذا؟)
قال: (أحسبه يغار منك على خطيبته الآنسة ق؛ فأنه ليعلم أن بينكما عاطفة. . .!)
وقال لي ع الذي صارت ابنته في داري من بعد: (أتراك كنت مع الرافعي أمس في زيارة فلانة؟) فتوجست من سؤاله شيئاً. . .
وكادت تكون قصة كما أراد الرافعي ولكني حسمت أسبابها فراراً بنفسي!
من مثل هذه الحادثة كان يلتمس الرافعي موضوعاته ويبدع معانيه في المرأة . . .
والحب والزواج ومشاكل الأسرة؛ ومن هذه المجالس التي كان يصطنعها أو يسعى إليها ويهيئ أسبابها، كانت تنجلي له الفكرة ويومض الخاطر وتتشقق المعاني؛ ومن هذا الجوّ زخرت نفسه بالعواطف النابضة التي ألهمته من بعد أن ينشئ ما أنشأ من القصص لقراء الرسالة، ومنها كانت قصص الأجنبية، وسموّ الحب، والله أكبر، واليمامتان، وغيرها، وما أعني أن ذلك كان يملي عليه القصة والموضوع، إنما كان يمده بالمعاني والخواطر حتى يملأ نفسه ويوقظ حسه؛ فما تزال هذه الخواطر والأفكار مضمرة في الواعية تزبد وتتوالد وينضم شيء منها إلى شيء حتى يأتي وقتها؛ فإذا همّ بموضوع مما يتصل بهذه الخواطر المضمرة انثالت عليه المعاني انثيالا حتى يتم الموضوع تمامه على ما يريد.
ولما قص الرافعي قصة (الأجنبية) وحكى حكايتها على لسان ولده الدكتور محمد، أحس بالتعب والملل، وراجع ما كان من عمله في الأشهر الستة الماضية منذ بدأ يعمل في الرسالة، وما عاد عليه؛ فضاقت نفسه وبرمتْ به، وأحس في نفسه شعوراً جديداً ليس له به عهد، وقال لنفسه وقالت له، وثقل جسمه في الفراش بما يحمل في صدره من هم وما يضني جسده من علة؛ وخفت روحه إلى سماواتها، وتنازعته قوتان. . . وهم أن يكتب إلى الأستاذ صاحب الرسالة ليعفيه من الاستمرار في العمل. . . وطال الحديث بينه وبين نفسه فأرّقه ليلة. . .
وتركته وروّحت إلى داري وهو شاك متبرم ينكر موضعه من الحياة ومكانه بين أهل الأدب. فلما كان عصر اليوم التالي دعاني ليملي عليّ (قلت لنفسي. . . وقالت لي. . .)
من أراد أن يعرف الرافعي العرفان الحق، فليقرأ هذا الحديث يعرف نفسه الصريحة على فطرتها؛ ثم يعرف مذهبه في الأدب وهدفه في الحياة.
إن غاية ما ينشده الباحث عندما يهم بالبحث في حياة إنسان له أثر في تاريخ الحياة أو تاريخ الأدب، أن يعرف مضمر نفسه من ثنايا أعماله أو من حديث معاصريه؛ وإنه مع ذلك ليخطئ أو يصيب سبيل المعرفة، ولكن هاهنا إنساناً يتحدث عن نفسه وتتحدث نفسه إليه، حديثاً كله صدق لا اختراع فيه ولا تزوير ولا سبيل فيه إلى الخطأ
وأشهد أني رأيته قبل أن يملي عليّ الحديث وان في وجهه لمعانيه قبل أن يكون كلاماً؛ فما رأيته ورأيت حديثه من بعد إلا كما تصور معركة في حكاية وصف: هذه هي هذه، وكانت حركات صامتة فصارت عبارة ناطقة.
وأكثر معانيه في هذا الحديث قديم في نفسه؛ وقد نظم شيئاً منها قبل ذلك بسنتين أو ثلاث في قصيدة نشرها في مجلة المقتطف
وكما تثوب إلى المحزون نفسه إذا صرح بشكاته إلى صاحب سره، هدأت نفس . . . الرافعي بعد إملاء هذا المقال وثاب إلى الطمأنينة والرضى، وكأنما نفض همومه وأحزانه في هذه الكلمات وكانت تثقل رأسه؛ أو كأنما كان يستمع إلى مداولة الرأي في محكمة الضمير بين نفسه وهواه، فما هو إلا أن استوعب ما قال وقالت حتى اطمأنت نفسه إلى الحكم الأخير، وانتصرت الروح السامية على ما كان ينازعها من أهواء البشرية. . .
ثم كان هلال رمضان فأنشأ مقالة (شهر للثورة) وهي السابعة مما أنشأ من المقالات الدينية لقراء الرسالة
(سيدي بشر)
محمد سعيد العريان
جورجياس أو البيان
لأفلاطون
للأستاذ محمد حسن ظاظا

تنزل (جورجياس) من آثار (أفلاطون) منزلة الشرف، لأنها
أجمل محاوراته وأكملها وأجدرها جميعاً بأن تكون (إنجيلا
للفلسفة!)
(رينو فييه)
(إنما تحيا الأخلاق الفاضلة دائما وتنتصر لأنها أقوى وأقدر
من جميع الهادمين!)
(جورجياس: أفلاطون)
الأشخاص
1 - سقراط: بطل المحاورة: (ط)
2 - جورجياس: السفسطائي: (ج)
3 - شيريفين: تلميذ سقراط: (س)
4 - بولوس: تلميذ جورجياس: (ب)
5 - كاليكليس: الأثيني: (ك)
ط - (مخاطباً جورجياس) وقد قلت زيادة على ذلك أن الخطيب يولد من الاعتقاد فينا
ينفع الجسد أكثر مما يولد الطبيب!؟
ج - نعم. قلت هذا ولو أن عمل الخطيب يختص بالجمهور!
ط - وتقصد بالجمهور الجهلة من غير شك لأنه واضح أن الخطيب لا يفضُل الطبيب
أمام
جمع من المتعلمين؟!
ج - إنك تقول حقاً!
ط - وما دام الخطيب أجدر بالإقناع من الطبيب فهو أجدر به أيضاً من العارف؟!
ج - بلا شك!
ط - حتى ولو كان هو في نفسه غير طبيب، أليس كذلك؟
ج - بلى
ط - ولكن واضح أن ذلك الذي هو ليس من الطبيب في شيء يجهل الأشياء التي
يحذق علمها الطبيب؟!
ج - نعم - هذا واضح -
ط - وهكذا يصبح الجاهل أقدر من العالم على إقناع الجهلة في اللحظة التي يصبح فيها
الخطيب أليق للإقناع من الطبيب؟ أليس ذلك معقولاً؟ أم ترى عندك شئ آخر؟
ج - كلا، فهذا هو الذي يحدث في هذه اللحظة
ط - وهذه الخاصة التي يمتاز بها الخطيب وفنه: أليست واحدة بالنسبة للفنون
الأخرى؟ أعني ليس ضرورياً أن يعنى رجل البيان بطبيعة الأشياء، وحسبه أن يلتمس
طريقة ما للإقناع بحيث يبدو في عين الجهلة من الناس كما لو كان أكثر علماً من
أولئك الذين يجيدون هذه الفنون؟
ج - أليس جميلاً يا سقراط ألا نكون محتاجين إلى تعلم فن آخر غير ذلك الفن الذي لا
ينبغي أن نتنازل عنه قط لأي محترف آخر؟
ط - سنبحث حالاً فيما إذا كان الخطيب يتنازل عنه من هذه الناحية للغير أو لا يتنازل
حسبما يتطلب الموضوع. ولكن لننظر أولاً فيما إذا كان الخطيب يستطيع إزاء الحق
والباطل، والجمال والقبح، والخير والشر: أن يكون كما يكون بالنسبة لما يجلب الصحة
ولموضاعات الفنون الأخرى، بحيث يجهل ما هو الخير وما هو الشر، وما هو الجمال،
وما هو القبح، وما هو الحق، وما هو الباطل، ولكنه يتخيل مع ذلك وسيلة للإقناع بهذه
الموضاعات، ويبدو في عين الجهلة كما لو كان أكثر علماً من العلماء، بينما هو نفسه
جاهل خاوي الوفاض! أو فلنر بالأحرى إذا كان لازماً وضرورياً لمن يريد أن يدرس
البيان
أن يبحث عن كل هذا وبمهر فيه قبل أن يتلقى دروسك؛ أم أنك - وأنت أستاذ البيان -
سوف لا تعلم شيئاً من كل هذه الأشياء إذا لم بك لديه معرفة بها لأن هذا ليس من
شأنك؛ وأنك فقط ستسلك معه - في هذه الحال - سلوكاً يجعله يبدو كما لو كان عارفاً
بها، ويخلع عليه الخير دون أن يكون رجل خير بالفعل! أم (لا هذا ولا ذاك) لأنك سوف

لا تستطيع أن تعلمه البيان مطلقاً قبل أن يعرف الحقيقة المتصلة بهذه الموضوعات على الأقل؟ فماذا ترى في هذا يا جورجياس؟ وهل ترى - وحق جوبتير - أننا نتقدم في خواص البيان كما وعدت أنت منذ لحظة؟

ج - أرى يا سقراط أنه عندما لا يكون لديه شيء عن كل هذه الموضاعات فإنه يستطيع أن يتعلمه مني!

ط - أرجو أن تقف هنا فإن إجابتك حسنة للغاية! أليكما تستطيع أن تجعل من أحد الناس خطيباً يجب أن يكون (هذا الراغب في الخطابة) عارفاً بالظلم والعدل، سواء أتت هذه المعرفة قبل مجيئه إلى مدرستك، أم منك أنت؟

ج - لا تناقض في هذا!

ط - ولكن ماذا؟ أيكون هذا الذي تعلم (النجارة) نجاراً أم لا يكون؟

ج - يكون نجاراً

ط - وعندما يتعلم الإنسان الموسيقى، ألا يكون موسيقياً؟

ج - بلى

ط - وعندما يتعلم الطب، ألا يكون طبيباً؟ وبالاختصار فيما يتعلق بالفنون الأخرى - ألا يكون الإنسان كما ينبغي أن يكون تلميذ كل فن منها عندما يتعلم كل ما يتعلق بها؟

ج - أوافق على هذا

ط - ويكون - لنفس السبب - كل من تعلم ما يختص بالعدالة عادلاً!؟

ج - دون تناقض

ط - ولكن هل يؤدي الرجل العادل في مظهره أعمالاً عادلة؟

ج - نعم

ط - وإذاً يجب أن يكون الخطيب عادلاً، وأن يكون الرجل العادل راغباً في أداء الأفعال العادلة!؟

ج - هذا ما يلوح - على الأقل -!

ط - ولا يرغب الرجل العادل أبداً في ارتكاب ظلامة ما؟!

ج - هذه نتيجة محتومة!

ط - ويجب بالأحرى أن يكون الخطيب بعد كل ما قيل رجلاً عادلاً؟!

ج - نعم

ط - وإذاً فلن يرغب الخطيب في ارتكاب ظلامة ما؟!

ج - يلوح أن لا

ط - وهل تذكر أنك قلت منذ قليل إنه لا يجوز أن نقف في وجه مدرب الألعاب وننفيه من المدينة لأن أحد المصارعين أساء استعمال الملاكمة وارتكب بها عملاً ظالماً، وإنه - لنفس السبب أيضاً - إذا أساء أحد الخطباء استعمال البيان يجب ألا نُرجع الخطأ لأستاذه وننفيه من المملكة، بل يجب أن نلقي المسئولية على الفاعل الذي لم يستعمل البيان كما ينبغي؟ أقلت هذا أم لم تقله؟؟

ج - قلتُه

ط - وهل ترى هذا الخطيب نفسه عاجزاً عن ارتكاب ظلامة ما أو سوف لا نراه؟

ج - سنراه!

ط - وقد قررنا من المبدأ يا جورجياس أن موضوع البيان هو الكلام الذي يعالج العدل والظلم لا الزوج والفرد، أليس هذا حقاً؟

ج - بلى

ط - عندما تكلمت بهذا النحو ظننت أن البيان لا يستطيع أن يكون أبداً شيئاً ظالماً لأن كلامه يدور دائماً حول العدالة. ولكن عندما سمعت بعد قليل أن الخطيب يستطيع أن يستخدم البيان استخداماً ظالماً عجبت واعتقدت أن قوليك متناقضان. وهذا ما جعلني أقول إنك إذا كنت ترى معي أن المعارضة خير فأننا نستطيع أن نواصل المناقشة، وإلا فلنتركها حيث وقفنا؛ فلما أن درسنا الموضوع فيما بعد رأيت بنفسك أننا قد اتفقنا على أن الخطيب لا يستطيع أن يستخدم البيان استخداماً ظالماً ولا أن يرغب بنفسه في ارتكاب ظلامة ما

وأرى - وحق الكلب - أن هذه ليست بمادة مناقشة يسيرة يا جورجياس، وإذاً فلنبحث في عمق ما يجب أن نراه في ذلك الشأن

ب - ماذا يا سقراط؟ أعندك حقيقة الفكرة التي قد ذكرتها عن البيان؟
(يتبع)
محمد حسن ظاظا
غزل العقاد
للأستاذ سيد قطب
- 15 -
لقد جهد أخونا الغمراوي أن ينقض ما قلت عن الرافعي فجاء بمغالطات لم يعصمه منها ما يتشح به من دين وخلق محتكرين للرافعيين وأغاليط يعرفها طلاب المدارس الثانوية عن المعادن وخواصها! ثم لم يبلغ بعد الجهد والعرق المتصبب إلا كما يبلغ من تقول له: إن هذه المسألة ليست من الرياضيات العالية، فهي مسألة على (القواعد الأربع الأصلية) وحلها هو كذا. فيأتي لك بحل آخر، ويظن أن ذلك يخرجها من الحيز الضيق، حيز القواعد الأصلية، إلى مجال الرياضيات العالية
ذلك شأني وشأنه في تفسير كلام الرافعي، وربما كان ختام هذه المقالات، تفكها بتلك (الغمراويات) والأمر لله!
على حدود تعريفنا للشاعر الكبير، التقينا البارحة بالعقاد في حديثه عن الجمال، ونحن بالطبع لم نستقص ما قال، ولكنها نماذج تبين الوجهة، وتكشف عن المعدن، وسيأتي غيرها في (غزل العقاد)
وهانحن أولاء نلتقي به اليوم كذلك في حديثه عن (الحب) على هذه الحدود، بل نلمحه وراءها ببعيد، يهضب في خطواته الجبارة، وهو ما يكاد يلقي باله إلى الزواحف والفواحص حوله من المتظلعين على الطريق!
فما الحب عند شاعرنا الكبير؟
إنه لن يقف به عند اللهفة الظامئة، أو الفورة العارمة، ولا عند الحنين والدموع، أو الفرحة والاستمتاع. فللحب بعد هذا وذلك وشائج بالحياة الكبرى، ومسارب في الكون والطبيعة، ومدارج وملاعب في ساحة الخلود
وليس هو إحساساً في نفس فرد، ولكنه فورة وقوة في نفس كون، ودفعة ومضطرب في ضمير دنيا، وحياة وحركة في قلب وجود
وليس هو مصادفة عابرة، ولا فلتة غير مقصودة، ولكنه نظام وقصد، تهيئهما الأقدار لبلوغ مآرب وغايات، ولتحقيق آمال وخيالات
والنفس الكبيرة التي يحملها العقاد، والقلوب المنفسحة التي وهبت لأمثاله، إنما هي معارض يبدي فيها هذا الحب فنونه ويلعب أدواره ويقرب فيها من غاياته، ويحقق أحلامه في أنسب الظروف والأحوال!
فالحب تمهيد للخلود، ومران على حياة الخالدين، حتى لا يفاجأ القانون بهذه الحياة، على بعد النقلة والشقة بين الحياتين!
هذي الليالي الدنيوية نفحة ... من عالم الملكوت والأعراف
لولا النعيم بها لما خطرت لنا ... مُثلُ النعيم بجنة ألفاف
ولهذا يتيقظ المحبون، ويعافون النوم. أليس النوم راحة لأهل الفناء من المتاعب وتجديداً لقواهم المنخذلة في كد العيشة، فما شأنه في اللحظات المقبوسة من النعيم الخالد
يقظة الحب من خلود وماذا ... يصنع النوم بين أهل الخلود؟
وإذا ذقت من موائد هذا الح ... ب فالنوم من فتات العبيد
والحياة والأحياء، إنما كانوا ينزعون للخلود، ويبتغون الدوام، فلما عز عليهم المطلب، وأبت طبيعتهم ما يطلبون، عوضوا عنه بالحب، فكان عوضاً كاملاً شائقاً تمناه الخالدون!
ما الحب، ما الحب؟ إلا أنه بدل ... من الخلود فما أغلاه من بدل
نزهي به حين يزهى الخالدون بما ... نالوه من أبد باق ومن أزل
داموا فلما تقاضينا الدوام لنا ... قالوا لنا: (حسبكم بالحب من أمل)
داموا وقد حسدونا في سعادتهم ... على السعادة بين الموت والقبل
وفي هذا الإحساس الفريد، يلتقي الشاعر الكبير، بالعالم المفكر، بالفيلسوف العظيم، وتصح نظرة كل منهم في الحب، وغاية الطبيعة منه، وذلك حد العبقرية في الفنون

ويصح أن نتبع بما سبق قوله:
أتحلمين بشيء كامل أبداً ... أتم من عالم في قلب حِببن؟
المنشود في الحب صنو (الخلود) أو غايته أو وسيلته: فهو صنوه لأنه غرض (فالكمال) مثله من أغراض الحياة؛ وهو غايته، لأن الحياة إنما تريد الدوام لتتهيأ به للكمال؛ وهو وسيلته، لأن الحياة لن تنال الخلود وهي ناقصة متحيفة الجوانب والأجزاء وهو هذا كله في حس الشاعر الملهم بما في ضمير الأكوان والآباد
ويكمل هذه النظرة ويشرحها حديثه في كتاب (مراجعات في الآداب والفنون) في فصل: (الزهر والحب):
لقد تعودنا أن نحسب العلاقة بين الذكر والأنثى أصلاً الحب بجميع صنوفه وألوانه،) ولكنا إذا واجهنا الحقيقة من وجهة أعم وأعمق، تبين لنا أن هذا الحب بين الذكر والأنثى هو فرع طارئ من أصل إلهي قديم شامل للموجودات، مستقر في طبيعة الوجود، هو حب الكمال والدوام، وليس الحب بين الذكر والأنثى غاية في ذاته، وإنما هو واسطة (من وسائط هذا الحب الأصيل
والحب قد احتضن الحياة وهي جنين، حتى إذا برزت للوجود أخذ بيدها وقادها في مسالك الطبيعة، وحاول أن يسمو بها عن منبتها وينزع بها إلى الخلد والسماء:
هي الحياة جنين الحب من قدم ... لولا (التجاذب) ما ضمتك أكوان
والتجاذب بين (الإلكترون) و (البروتون) يقوم عليه بناء الذرة، فتبنى على أساسها الأكوان. ولم يكن العقاد في حاجة للعلم بهذه النظرية التي أثبتها أخيراً (تحطيم الذرة) ليقول إن الحياة جنين الحب، ولكنها الشاعرية الكبيرة تنساح في تيارها العلوم والثقافات حتى تعود جزءاً منها لا ينماز عن طبيعتها وماهيتها
والحب يقود هذه الأرض، وينزع بها عن منشئها، ولهذا ينادي ربان الزورق النائم، وهو في سبحة من سبحات الحب:
نام ربانا وهمنا بعيداً ... فامض يا فلك في يدي (كوبيد)
وأتّبعه فالكون أجمع يا فل ... ك لقي في يمين هذا الوليد
هو ربان هذه الأرض فأمن ... هـ على ملكك الصغير الزهيد
وتعلم منه عبور السموا ... ت فما دون سبحه من بعيد
وإذا كان الجمال كما قدمنا آنفاً هو خلاصة آمال الوجود وأشواقه، فحب هذا الجمال حب للوجود، ما كان منه ومن كان. والمعانق للجمال معانق للفضاء بأسره بما فيه من أنواع وأطماع. ومن يعش في بحبوبة الحب فإنما يعيش في الكون كله، فهو مدار العالم. يتضح كل ذلك في قصائد متفرقة:
إنا لمن معشر حب الجمال لهم ... حب لما كان في الدنيا ومن كانوا
وأنا المعانق للفضاء بأسره ... في جسم أغيد كالندى شفاف
نحن في بحبوحة الحب وهل ... غير هذا الحب في الكون مدار؟
والحب رفعة للنفس؛ ونقلة إلى عالم النجوم، وعمق في الحيوية تطول به الأعمار، وإيغال في المجاهل والآباد والعهود والأزمان
كم علونا من دارة بعد أخرى ... وطوينا العهود بعد العهود
والحب من يغش ركبه ... يساير النجم كل حين
لحظة ترفع عمري ... حقبا متصلات
ربّ عمر طال بالرف ... عة لا بالسنوات
لحظة لا بل خلود ... لاح بين اللحظات
كالسموات تراها ... في شباك الحلقات
رب آباد تجلت ... من كوى مختلفات
وقطيرات زمان ... ملأت كأس حياة
وأنني لأكتفي في هذه النماذج، بما سقتها من أجله؛ وإلا فوراء هذا مجال واسع لبيان الطرافة في الحس والتعبير، في رؤية الخلود من خلال هذه اللحظات، كالآباد تتجلى من كوي مختلفات أو كالقطيرات التي تمتلئ بها الكأس، وهي قطيرات زمان فاضت بها كأس حياة. . .
والحب قدرة قادرة، تهب أصحابها مشابه من الألوهة، ومقابس من النبوة، وتنضح بالمعجزة. لا، بل إنها لتهب في بعض الأحيان ما لا تهبه الأقدار:

ليس مكان في السماء كلها ... عن شاعر أو عاشق بناء
بجناحيه من الحب ومن ... حسنك الخفاق ينجاب الفضاء
داوني داوني فقد كان عيسى ... يبعث الداثرين بالأسماء
وكلا الحب والعبادة وحي ... فوق ذرع الحجا وفوق الذكاء
أمسيت أنظر لا أرى أمنية ... كبرت وما خلقي بالاستخفاف
تبسم ألا يرضيك أن ابتسامة ... بثغرك أمضي من صنوف المقادر
والحب بهذه القدرة يجمّل الحياة ويجددها، ويخلق منها دنيا بعد دنيا، وكوناً وراء كون:
أنظر فهل تجد المروج كعهدها ... من قبل في الحدقات والآناف
وهي السماء أم ارتقت أجوازها ... في النور آلافاً على آلاف؟
ويقول في أبيات بعنوان (معنى جديد):
قد شهدتُ الزمان في كل وجه ... وبلوتُ الحياة في كل معنى
وختمت الدنيا! فما من قديم ... كان إلا يعاد وصفاً ولوناً
فإذا للحياة معنى جديد=لم نجده من قبل أو لم يجدنا
ذاك معناك أنت حين وهبت ال ... قلب نوراً من طلعة الشمس أسنى
ومنحت الحب الإلهي حبًّا ... وكسوت الحسن السماوي حسناً
وفي قصيدة بعنوان: (جمال يتجدد)
كما قلت لي الربيع جميل ... قلت حقاً وزاد عندي جمالا
عجباً لي. بل العجيبة عندي ... صور الكون كم يسعن كمالا
خلتني قد وعيتهن عيانا ... وتتبعت من وَعوها خيالا
شاعراً عاشقاً وقارئ كتب ... قرأ الكتب دارساً، فأطالا
فإذا نظرة بلحظك تبدى ... صوراً ما طرقن عندي بالا
بعداد الأنوار في أعين الحُ ... بِّ نعد الأكوان والأجيالا
وبعض هذا كان يمكن سوقه في معرض الحديث عن (الجمال) ولكن التفرقة بين حديث الحب وحديث الجمال في النفس الشاعرة ليس بمستطاع في كل الأحوال، وكلاهما مادة واحدة في الحس والخيال
ويحسن أن نتبع حديث الشعر بحديث النثر، وكلاهما يتساوق ويتكامل في فن العقاد.
يقول في كتاب المراجعات من فصل بعنوان: (أصل الجمال في نظر العلم):
ومما لا مراء فيه أن الحب يرينا من فتنة الحياة مالا نراه بغيره وأن جمال المرأة) أغلى محاسن هذه الدنيا المشهودة. بيد أن الحب لا يخلق فتنة الحياة؛ وليس جمال المرأة هو كل ما في الدنيا من المحاسن، ولكنهما يصبغان الدنيا بهذه الصبغة لأنهما يوقظان القلب ويذكيان الشعور ويبعثان كوامن الوجدان فيفتح لما حوله، ويرى ما لم يكن يراه، ويستوعب ما كان يلمحه بطرف العين، ويستحسن ما كان في غفلته عن حسنه قبل أن تتراءى الدنيا لخواطره
في ثوبها الجديد. وكذلك تفعل الخمر حين تركض بالشعور وتلهب الدم فإنها تري النشوان من المحاسن ما لم يكن يراه في صحوه وتضاعف إحساسه وعطفه فيشعر بسرور هذا العطف في داخل نفسه ويشعر في الدنيا ببهجة تخفي على من حوله؛
(ولذلك قيل إن الحب سكر أو أنه ضرب من الجنون
والحب ملخص للأحاسيس الإنسانية في نفس الشاعر
غض عينيك قليلاً واستعد ... خطوات العام في الأفق الوسيع
كم ترى من خفقة غنت بها ... ساعة العمر التي بين الضلوع
كم ترى من قبلة رنت بها ... تلكم الساعة؟ قل لو تستطيع
كم ترى من نشوة حامت بنا ... حول عليين والعرش الرفيع
هو (حب) فإذا فرقته ... فهو ما راع قديماً ويروع
ووراء دلالة هذه الأبيات على ما أوردناها له تلمح ملكة التشخيص والتصوير، وهي تعمل عملها في نفس الشاعر وتخلق له من لحظات حبه شخوصاً ماثلة في ضميره، يغمض عينيه عن الدنيا الظاهرة ليتملاها ويستمتع بها واحدة واحدة، ويعمق بهذا متعة الحب، ويجوف خطراته
ولا ننس وراء ذلك كله هذا الخيال الطريف الذي يصور (العام) وهو يخطو في الأفق الوسيع، مرموقاً باللحظ والانتباه والإعجاب!

والحب معلم، يهب الحس فطانة، والروح نفاذا، والفكر يقظة، وفيه مهرب من الحياة إذا ساءت إلى دنيا جديدة:

إذا ساءت الدنيا ففي الحب مهرب ... وتحسن دنيا من أحاط به الحب
فبالحب تدري الحسن والقبح عندها ... وفي الحب علم لا تعلمه الكتب

والحب هو الذي يعمر القلب ويحييه، وحين يخلو القلب منه ينتهي إلى عالم خراب، وجدب كجدب اليباب:

هو الحب الذي يع ... مر هذا القلب لا المجد
حبك إن أخل منه يوماً ... خلوت في عالم خراب
يمر بي اليوم لا أراك كما ... يمر بالأرض عامها القاحل

وهو ليس دموعاً ولا آهات، وليس ابتسامات وتثنيات:

إنما الحب شراب عاصف ... يسكر الراوين منه والظماء

لهذا كله فالكون والحياة حفيان بالحب، يستقبلانه بما فيهما من سرور وابتهاج، ويهيئان له من الطرافة والجدة كل ثمين مذخور، ويبذلان له من كنوزهما وأسرارهما ما لا يباح، ويعترفان بحقه عليهما وفضله:

وهو يقول من قصيدة عن يوم لقاء:

قال: سيوفي زائراً في غد ... يا لغد! كيف غد يشرق
بالشمس؟ أم شمس غد وحده ... مذخورة من أجله تخلق
كيما نرى الدنيا، وما شأنها ... سربالها المبتذل المخلق
في حلة لا تتحلى بها ... إلا لمن يَعشق أو يُعشق

وفي قصيدة بعنوان عروس الليالي:

عروس الليالي تهبط اليوم من عل ... وتدنو على طول النوى والتدلل
سرت بين شرق من ضياء ومغرب ... وبين جنوب من ضياء وشمأل

ولما سألته الحياة جواز المرور بها، لم يجد أحظى لديها من الحب يفتح منها المغاليق والستور:

قالت جوازك قلت هاك ... حب أنال به رضاك
فدخلت في حذر الحيا ... ة وراء ألفاف الشباك

هذا هو (الحب) عند العقاد: عالم مترامي الأطراف، وفن من أعجب فنون الحياة، ومجال للخيال والحس والتعبير على غير مثال

ونحن نعيدها مرة أخرى: لو أن شاعراً قال هذا وسكت لجاوز حد الشاعر الكبير وعلى هدى من رأيه في الجمال، ورأيه في الحب، سنتحدث عن (غزل العقاد). وإن كان كثيرون سيتساءلون الآن: ماذا سيقول غير ما قال؟ وسنجيبهم بعد قليل: تلك أوليات المقال

(حلوان)

سيد قطب

حول أدب الرافعي

بين القديم والجديد

للأستاذ محمد أحمد الغمراوي

- 6 -

لعل من الخير أن ننظر نظرة في الأمور التي تشبه أن تكون أصولاً في النقد عند صاحب مقالات (بين العقاد والرافعي) والتي يمكن استنباطها من كلامه

ولعل من أبرز هذه الأصول ما يصح أن يسمى بالعلمية. ولسنا نريد بالعلمية هنا علمية التفكير، فقد وزناه من ناحية علمية التفكير فلم نجده منها في شيء؛ إنما نريد بها هنا علمية الأفكار. فصاحب تلك المقالات معجب جداً فيما يبدو بالعلم وبما يمكن أن يدخله الأديب في أدبه من النظريات والحقائق العلمية. تعرف ذلك من طبيعة أكثر الأمثلة التي ضربها لتفوق العقاد عنده على الرافعي، وتعرفه من تجشيمه نفسه قراءة ما قرأ من المباحث العلمية المنقولة إلى العربية كي يرقى كما يقول إلى محاولة استيعاب العقاد. وهذه النزعة إلى العلم تشكر فيه لولا ما يفسدها عليه في الموضوع الذي هو بصدده من تعصب للعقاد يجعله يتلقى كل ما يرد أو يتوهم أنه ورد على قلم العقاد من الأفكار العلمية كما يتلقى الوحي بالتسليم والإكبار المطلقين

والمثال الأول الذي ضربه لاحتياج الناظر في أدب العقاد إلى ألوان من الثقافة كالتي استمدها هو من قراءاته العلمية قطعة من (وحي الأربعين) عنوانها (سعادة في قمقم). وقد تساءل بعد أن ذكر أبياتها التسعة (هل فهم الرافعيون شيئاً من هذه القطعة مع وضوح كل لفظة فيها وكل عبارة؟). وما نظن الرافعيين أو غير الرافعيين يفهمون من مرماها شيئاً حتى يبلغوا البيت السادس منها

بسر على شفتي فاتن ... يباح إلى شفتي مغرم

وهو بيت رقيق ليس في القطعة كلها مظهر للشاعرية غيره، إذا بلغه القارئ ظن أن القطعة كتبت في قبلة، لأن السر الذي يباح إلى شفتين لا يمكن أن يكون غيرها. حتى إذا بلغ القارئ البيت الثامن

وما أنا بالمشتهي قبلة ... ولا بالحريص على مغنم

زال عنه كل شك في المراد من القطعة كلها، وإن بقي حيث كان من صعوبة توجيه القطعة إلى المعنى المراد كما يصعب أحياناً على قارئ اللغز حتى بعد عرفانه الحل أن يطبق لفظه على الشيء المقصود!

ولكي يشاركنا القارئ في تقدير القطعة نوردها له وإن شغلت مكاناً.

هنا قمقم سابح في الدم ... أسائل عنه ولم أعلم

جهلت خباياه حتى أتى ... عريف الطلاسم بالمعجم

ففيه كما قيل مسجونة ... سعادة بعض بني آدم

تجن جنوناً بنور الضحى ... وتذبل في حبسها المظلم

وقد زعموا أن إطلاقها ... رهين بهمة ذاك الفم

إلى هنا لا نظن قارئاً مهما بلغت ثقافته من التنوع والعمق، وبلغ هو من الاستعداد الطبيعي، يستطيع أن يدرك من هذه الأبيات معنى واضحاً، أو أن يقول إن المقصود بها هو قبلة حتى يقرأ عقب ذلك:

بسر على شفتي فاتن ... يباح إلى شفتي مغرم

فهل أنت مطلقها منعماً ... فديتك أم لست بالمنعم؟

وما أنا بالمشتهي قبلة ... ولا بالحريص على مغنم

ولكنما أنا أبكي أسى ... لتلك الشهيدة في القمقم

فليس في القطعة كما ترى ما يدل على المراد منها غير البيتين اللذين ذكرنا. والآن وقد عرفت المراد هل تستطيع ولو بشيء من التعسف أن تطبق القطعة على القبلة المطلوبة؟ سيد قطب يقول إنك تستطيع بشرط أن تعرف نظرية فرويد في العقل الباطن، وأن تكون على استعداد لأن تحس (بأن النوازع والرغبات المكبوتة في النفس، والأشجان والبلابل والاضطرابات التي تعتريها إبان ضرام الحب، تظل تعتلج في النفس وتقلقها وتهزها هزا كمواد البركان المكتوم حتى ينفس عنها ويتاح لها التعبير فإذا هي سعادة وهدوء وراحة.) (وكيف يكون التعبير؟ يكون بقبلة على شفتي فاتن تبيح السر إلى شفتي مغرم، وعندئذ تنطلق تلك الشهيدة في القمقم التي يبكي لها أسى). فهل تستطيع الآن بعد هذا التفسير الطويل المبني على نظرية فرويد في العقل الباطن أن تطبق أبيات القصيدة على القبلة المقصودة فتقول مثلاً ما هو ذلك القمقم السابح في الدم المسجونة فيه تلك الشهيدة؟ أما نحن فلا نحسب أحدا في حاجة إلى نظرية فرويد أو غير فرويد في العقل الباطن أو الظاهر ليعرف أن رغبات الحب التي يتلهف إليها تؤلمه قبل تحققها فإذا تحققت هدأ وارتاح وسعد زمنا ما، ولا نحسب معرفة ذلك تحتاج إلى استعداد خاص في أحد، فكل إنسان يدركه في نفسه، حتى الطفل لو نطق وأحسن التعبير لقال إن ذلك كذلك، وفي دموعه قبل تحقق كل رغبة شديدة وابتسامه أو ضحكه بعد تحققها ولما تجف دموعه ما يغني عن كل نطق وتعبير. لكن صاحبنا ذا الثقافات يزعم أنك لا تعرف ذلك إلا إذا كنت ذا استعداد خاص وتثقفت بنظرية فرويد!. ليكن ذلك. فكيف يمكن فهم تلك الأبيات إذن في ضوء نظرية فرويد؟

إن أقل ما يطلب في الشعر الجيد ذي المعاني العلمية المتراكبة أن يحتوي على إشارات واضحة تكون مفتاحاً إلى تلك المعاني لمن يعرفها، بحيث إذا توجه الذهن إليها بدأ يدرك المعنى العميق المقصود، ولا يزال ذلك المعنى يزداد وضوحاً وتفصيلاً بالإشارة بعد الإشارة، والقرينة جنب القرينة، حتى يرتفع كل شك فيه، ويلبسه الكلام

كأنما كان مقدراً عليه. لكن هذه القطعة فيها إشارات تصرف الذهن عن معناها إذا كان معناها هو كل ما ذكر سيد قطب. وأول ما تلقى فيها من هذه الصوارف هو هذا القمقم السابح في الدم، فانك تحاول جهدك أن تجد له تفسيراً حتى بعد معرفتك مرمى القطعة فلا تستطيع.

ثم ليكن ذلك القمقم ما يكون، فعند أي طرفي الحب هو! إن كان عند المحب فهو لا شك يعرف رغبة نفسه ويعرف طريق التعبير الذي يريد، فلا حاجة إلى معجم عريف الطلاسم ليحل له اللغز. وإذا كان القمقم للحبيبة وكانت سعادته هو مسجونة فيه - كما هو الأقرب إلى المعقول - قام تفسير السيد قطب وتطبيقه نظرية فرويد حائلاً دون ذلك، إذ تصبح النوازع والرغبات المكبوتة هي نوازع الحبيبة ورغباتها، فكأنها هي التي تشتهي القبلة لا هو، والشعر صريح في أن عكس ذلك هو المقصود.

فالقطعة كما ترى متخاذلة متضاربة إن حاولت أن تطبق عليها كل علم سيد قطب، وأن تفهم منها بالعقل ما فهم هو منها بالوهم. أما إذا تركت النظرية العلمية جانباً وحاولت أن

تفهم من القطعة مرادها في بساطة بدليل البيتين اللذين ذكرنا لك، أصبح للقطعة معنى مفهوم على غموض فيه وعيوب فيها. فما دام المطلوب هو قبلة من الحبيبة فيها سعادة المحب، والحبيبة هي التي تملك منحها من فمها الشبيه إلى حد ما بالقمقم، أمكن توجيه القطعة وتبرير الشاعر إلى حد كبير في تخيله أن سعادته المتمثلة في قبلة من حبيبته محبوسة في فم تلك الحبيبة حتى تطلقها هي. أما وصف القمقم بأنه سابح في الدم فيجب حمله على ضرورة الشعر والقافية، أو على أنه وصف معيب لشدة احمرار الشفتين، أو على أن الشاعر أراد أن يلغز في قبلة فجاء بهذا الوصف وبغيره ليعمي على القارئ بعض التعمية.

فأنت ترى أن القطعة لا تحتاج إلى علم فرويد أو علم سيد قطب لحلها، بل هي تزداد تعقيداً وبعداً عن المعقول إن أنت حاولت إدخال العلم فيها. لكن العقاد لا يكون هو ما هو عند سيد قطب إلا إذا حشر العلم في شعره، وإلا فبم يمتاز العقاد على الرافعي ويمتاز هو عن مثل شاكر والعريان؟

هذا عن المثال الأول. أما المثال الثاني فقطعة مأخوذة عن (عابر سبيل) تحت عنوان (ابنا النور - الزهر يخاطب الجوهر) وهي في رأينا قطعة حسنة أوضح كثيراً من القطعة الأولى، لكنها لا تحتاج من العلم لفهمها أكثر مما يعرف الطالب الثانوي عن انعكاس الضوء وانكساره وامتصاصه، وعن التمثيل الخضري في النبات. وليس هناك بعد ذلك إلا خيال الشاعر في التصوير يجاريه خيال القارئ في التصور. وقد أحسن كل الإحسان حين لخص الموقف في طول عمر الجوهر الجماد وقصر حياة الزهر بقوله على لسان الزهر يخاطب الجوهر:

ومعدن النور فيك حي ... وفيك معنى الحياة فان

فيا زماناً بلا حياة ... إني حياة بلا زمان

وإن كنت تلمح شيئاً من تقصير اللفظ عن المعنى في قوله:

فان (فانٍ) في الغالب لا تستعمل إلا للدلالة على الموت (وفيك معنى الحياة فان) الذي سيكون بدلاً من الموت الواقع، لكن الشاعر المقيد بالقافية قلما يجتمع له في الشعر كل ما يريد. على أن المهم فيما نحن بصدده هو ما في تقدير سيد قطب للثقافة اللازمة لفهم القطعة من الإسراف والتهويل

أما المثال الثالث فهو قول العقاد:

بك خف الجناح يا أيها الط ... ير وما كنت بالجناح تخف

لطف روح أعار جنبيك ريشاً ... فمن الروح لا من الريش لطف

وهما بيتان ليس فيهما معنى كبير، وليس فيهما من الصنعة أكثر من عكس الترتيب الطبيعي وهو كثير في الأدب العربي؛ لكن سيد قطب الذي لا بد أن يجد لكل قول للعقاد معنى علمياً ما أمكن ذلك، يتمثل في هذين البيتين نظرية علمية يحكيها في قوله (فعلم وظائف الأعضاء يقول إن الوظيفة تخلق العضو) ويطبق النظرية بقوله: (فوظيفة الطيران هي التي خلقت الريش وقبله الجناح!)، فجاء قوله هذا دليلاً واضحاً على أن الأديب إذا لم يترب تربية علمية، وجمع آراءه وأفكاره العلمية من الكتب

والمجلات، يكون أميل إلى تصديق كل ما يساق إليه باسم العلم وإن خالف في ظاهرة المعقول. وإلا فكيف يمكن أن تخلق وظيفة الطيران الريش والجناح قبل أن توجد الوظيفة نفسها؟ إذ من الواضح أن لا طيران ولا وظيفة طيران في طائر قبل أن يوجد الريش والجناح. فلو قال قائل مثل هذا الكلام من غير أن ينسبه للعلم لكان موضعاً لتهكم صاحبنا واستهزائه. أما وقد نسب هذا الكلام إلى العلم فيما قرأ فهو يقبله من غير نظر ولا تمحيص.

إن المعقول ليس هو خلق الوظيفة العضو، ولكن تنميتها إياه. فالعضو لا بد أن يوجد لأداء الوظيفة، واستعماله فيها بعد ذلك ينميه ويقويه ويرقيه. أما سبب إيجاد العضو فليس العلم يعرفه وإن حاول بعض العلماء أن يفسره بمثل هذا الغرض الذي لا يفسر شيئاً، والذي لا يعبأ العلم به في الواقع لأنه لا يمكن أن يختبر صحته لا بالتجربة ولا بالمشاهدة. والفروض العلمية لا حرج على العلماء في فرضها. فليفرض منهم منها ما شاء ما دام ذلك يساعده على التفكير. لكن العلماء يعرفون أن لا قيمة لهذه الفروض ما لم تساعد على إجراء تجارب ومشاهدات لاختبارها، وما لم تؤيدها هذه التجارب والمشاهدات بعد إجرائها؛ لكن غير العلماء يكبرون كل ما ينسب إلى العلم وينزلونه من عقولهم منزلة واحدة، فلا يفرقون بين حقائقه ونظرياته وفروضه. وعندنا أن مسارعة المشتغل بالأدب إلى قبول مثل هذا الفرض الذي يخالف المعقول تنازل من ذلك الأديب عن حرية التفكير التي يحرص عليها

مثلاً ويغالي فيها إذا كان الموضوع لا يتصل بالعلم ولكن يتصل بالدين.

والمثال الرابع الذي ضربه سيد قطب لاتساع ثقافة العقاد وتفوقه بها على الرافعي يتصل بنظرية دروين، وهو مقطوعة (الجيبون) أو (أمام قفص الجيبون) وأحسن ما في هذه المقطوعة خيالها؛ أما اتصالها بالواقع وبحقيقة نظرية دروين فليست منه في شيء كبير. إنها تذكر النظرية كما يفهمها غير العلماء، فتجعل (الجيبون) أبا العبقري أي الإنسان، وتجعل الناس أبناء (الجيبون). والناس في العادة ينسبون هذا الرأي لدروين ودروين منه بريء، فان دروين لم يقل إن الإنسان أصله قرد كما يقول العقاد، وإن صح أن يفهم من نظريته في أصل الأنواع بالانتخاب الطبيعي أن القرد والإنسان يرجعان في سلسلة النشوء إلى أصل واحد بعيد ليس بقرد ولا إنسان، فترقي فرع عن هذا الأصل فصار إنساناً، وسار فرع آخر سيرة أخرى فصار قرداً. فقول العقاد للجيبون:

كيف يرضى لك البنون مقاماً ... مزرياً في حديقة الحيوان

قول يدل على سوء فهم لنظرية دروين.

ثم إن النظرية لا تقول بأن الفرق بين الإنسان والقرد فرق زمني في صميمه، ولا أن الإنسان أقدم من القرد حتى يصح لأحد أن يظن أن القرد إذا استوفى زمنه ومرت عليه ملايين السنين صار إنساناً. إن القرد أقدم ظهوراً على الأرض من الإنسان في حكم العلم إلى الآن، فلو كان القرد يستطيع رقياً إلى الإنسانية لترقى. إن سنن الترقي قد حكمت حكمها بين الاثنين، فلن يصير القرد إنساناً مهما عاش، وإن جاز أن ينحط الإنسان فيصير قرداً أو شبه قرد إذا قصر في استعمال ما وهبه الله على الوجه الذي اختاره الله له حقبة كافية من الزمن؛ فان هناك سنة انحطاط بالترك والإهمال والمعصية، كما أن هناك سنة ارتقاء بالاستعمال والإحسان والطاعة.

والناس يعطون نظرية دروين فوق ما لها من قوة عند العلماء فيظنون أنها تفسر خلق الأنواع، ويضل منهم بهذا الظن من يضل إذ لم يبق عنده لوجود الإله من داع. لكن النظرية في حقيقتها لا تفسر إلا حفظ الأنواع، أما مجيء الأنواع وخلقها فان النظرية لا تفسره. هي - كما يقول دريتش في محاضرات جيفورد التذكارية - سلبية الأثر لا إيجابيته: تفسر كيف انعدم المنعدم من الأنواع، ولا تفسر كيف وجد الموجود.

على أن من المهم أن ننبه في هذا المقام أن سنة التطور لا يشك فيها الآن أحد من العلماء، لكن طريق التطور وعلمه وأسبابه هي موضع الأخذ والرد والبحث بينهم. فأخونا علي الطنطاوي كان على حق حين أنكر نظرية دروين كما يصورها العقاد في مقطوعته، والذي انتقده في الرسالة على حق في قوله: إن التطور يقول به كل العلماء المعتد برأيهم، وعلى باطل إذا كان قصده بهذا أن هؤلاء العلماء يفهمون من التطور ما فهمه ووصفه العقاد في مقطوعته.

فمقطوعة العقاد إذا أخذت بتفاصيلها العلمية مبنية على خطأ كبير، وهي من الناحية

العلمية لا تساوي أكثر مما يعتقده الناس عادة في نظرية دروين؛ وإذا أخذت من الناحية الشعرية الخيالية وحمل خطؤها العلمي على أنه خيال شاعر كان لها شيء من القيمة، ولكن شتان بين قيمتها هذه وبين ما يدعيه لها سيد قطب بضعفه العلمي وافتتانه بالعقاد.

فالعلمية التي يقيس بها سيد قطب تفوق العقاد على الرافعي علمية ضعيفة ناقصة في بعض الأمثلة، ومهوَّلة هوّلها الوهم والافتتان في بعض الأمثلة الأخرى. وهي في الحالتين لا تزيد شيئاً عنها في الأمثلة التي جاء بها من كلام الرافعي واتخذ منها سبباً للزراية عليه، وإن سلمت أمثلة الرافعي من الخطأ الذي وقع في بعض أمثلة العقاد.

ومن أول ما تهكم به على الرافعي من هذا النوع قوله في حبيبته:

سيالة الأعطاف أين ترنحت ... تطلق لكهربة الهوى سيالها

وقوله فيها أيضاً:

يا نجمة أنا في أفلاكها قمر ... من جذبها لي قد أضللت أفلاكي

ولا يزيد قطب في نقد هذين البيتين على أن يقول مبالغة في الإيحاء بتهكمه إلى القارئ: (ولا شيء وراء هذا العبث الذي لا نريد له نقاشاً)!. ويظهر أن عيب هذين البيتين وأمثالهما عنده هو وضوح معناهما، فان الرافعي عنده (سهل جداً لا يكلف مجهوداً ولا عناء)، مع أننا لا نظنه يفهم كثيراً من (حديث القمر) لو أعاد قراءته الآن. فصعوبة الكلام على فهمه مزية يكبر بها الكلام عنده فيما يظهر، ويسميها في العقاد سموا وسموقا وإن كان يسميها في الرافعي مداحلة ومعاظلة! هذا هو القياس عنده في الواقع لا العلمية، وإلا فأي فرق في العلمية بين المعنى العلمي الواضح والمعنى العلمي الغامض لو كان يقيس قياساً صحيحاً؟ بل الوضوح في المعاني العلمية أحق بالتقدير في الأدب من الغموض إن السبيل في مثل هذا أن ينظر إلى دقة المعنى العلمي ودقة التطابق في الاستعارة بين الحقيقة وبين المجاز. وليس أصدق في التعبير عما يعتري المحب من هزة ورجفة إذا اقترب منه حبيبه من تشبيه ذلك بالهزة التي تعتري من يسري فيه سيال كهربائي. ولا يقدح في التعبير وحسنه ولا في البيت وصدقه أن المعنى العلمي المستعار معروف مألوف، فذلك مما يزيده حسناً عند من يريدون بالكلام الإفهام لا الإبهام. أما البيت الثاني فهو من باب الاستعارة التمثيلية النادرة. وهو بيت بقصيدة وحده. ثم معناه ليس بالشائع المبتذل، والقانون العلمي المشار إليه فيه أعم وأهم من نظرية دروين. فذلك البيت الفريد ليس فيه عيب ولكن السبب في ناقده الذي يكيل بمكيالين ويفكر بمنطقين

ومثل هذا البيت الثاني قول الرافعي لحبيبه الناسي له:

يا من على البعد ينسانا ونذكره ... لسوف تذكرنا يوماً وننساكا

إن الظلام الذي يجلوك يا قمر ... له صباح متى تدركه أخفاكا

وهذا البيت الثاني هو أيضاً من الاستعارة التمثيلية النادرة والمعنى المستعار ظاهرة طبيعية معروفة مألوفة، لكن المطابقة بين حال الرافعي في شقائه بحبه المنسي ورجائه الفرج بالنسيان، وبين ظلام الليل يجلو القمر فإذا جاء الصباح أخفاه - هذه المطابقة في الاستعارة مطابقة نادرة لا يكاد الإنسان يقضي حقها وحق أمثالها عجباً. لكن صاحبنا الذي يرمي الرافعي ومن معه بأنهم شكليون يخطئ جوهر الموضوع مرة أخرى فلا ترى من البيت إلا تمثيل الحب بالظلام، والحب عنده لا يكون ظلاماً أبداً فالرافعي لا يمكن أن يكون ذاق الحب أبداً، وليس يشفع للرافعي أن الحب الذي شبهه بالظلام هو حب شقي به لنسيان حبيبه إياه، فلا يصح في إنصاف ولا في أدب أن يقاس على حب آخر يسعد به صاحبه لاستجابة حبيبه له فيه. لا! الحب أياً كان لا يمكن أن يكون ظلاماً عند سيد قطب؛ فمن رآه ظلاماً فقد زل زلة بألف، ودل دلالة قاطعة على أنه شكلي لم يذق الحب قط! ليت شعر النقد - إن صح هذا - ماذا يكون الحكم فيمن شبه الحب بالجحيم وظلمتها؟ ومن هو؟ سيد قطب! هو سيد قطب في شعره الذي نشره بالرسالة (عدد 220) بعنوان (ريحانتي الأولى أو الحرمان)

وإليك بعضه إن كان لا بد أن نذكر لك منه مثالاً:

ريحانتي الأولى وروح شبابي ... أئذا دعوت سمعت رجع جوابي

أنا في الجحيم ها وأنت بجنة ... من روح إعجاب وريق شباب

أنا في الجحيم وأنت ناعمة المنى ... خضراء ذات تطلع وطلاب
أنا لا أريدك ها هنا في عالمي ... إني أعيذك من لظى وعذاب
ولكيلا تظن أن سيد قطب يتفلسف حين يقول هذا اقرأ له من مقطوعة أخرى من نفس الشعر:
عيني رعتك وأنت نابتة فلم ... تغفل ولم تفتر ولم تتألم
حتى إذا أينعت وانطلق الشذى ... ألفيت نفسي في صميم جهنم
ملقى هنالك لا أحس ولا أرى ... إلا الشواظ وكل داجٍ معتم
أفي نورٍ هذا من حبه يا ترى أم في جب من جهنم؟ هذا هو الذي لم يعجبه بيت الرافعي فتجنى عليه ما تجنى وأطال قلمه فيه بما أطال، وأنساه تجنيه وهواه الواقع وما خطت يمينه قبلها ببضعة أشهر ليكون كلامه حجة عليه يفضحه الله به، وليعلم الناس أجمعون أن مقالات (بين العقاد والرافعي) كتبها عابث يتجنى لا ناقد يتحقق، ولا أديب يبتغي وجه الأدب

محمد أحمد الغمراوي

البحث عن غد - 2

للكاتب الإنجليزي روم لاندو

للأستاذ علي حيدر الركابي

روم لاندو كاتب إنجليزي معروف، زار بلاد الشرق الأدبي زيارة المستطلع الباحث، ثم دون ما رأى وسمع في نشره بعنوان (البحث عن الغد) وقد نشرنا ما يتصل بمصر مترجما بقلم الأستاذ العقاد فلم يعترض على قوله أحد؛ ثم أخذنا ننشر ما كتب عن لبنان وسورية مترجما بقلم الأستاذ علي حيدر الركابي فلم يكد ينشر المقال الأول حتى ثارت النفوس في بيروت لهذا الحديث الغريب الذي نسبه الكاتب إلى رئيس الجمهورية اللبنانية، وعقدت الوزارة مدفوعة بهذه الثورة جلسة خاصة أبرقت على أثرها إلى الرئيس تسأله في عرض البحر عن هذا الحديث، فأجاب بأنه لم يعط حديث كهذا وطلب من الحكومة أن تكذبه فكذبته. إزاء هذا التكذيب الرسمي لم نشأ أن ننشر ما كتبناه وكتبه غيرنا تعليقا على هذا الحديث الطائش، ولكن بقي لنا أن نسأل: من الذي زور هذا الحديث على فخامة الرئيس؟ لا يمكن أن يكون أحد غير الكاتب الإنكليزي نفسه، لأن الحديث لم ينشر في صحيفة يجوز عليها الدس والغفلة، وإنما نشر في كتاب أصدره الكاتب تحت اسمه وعلى مسئوليته، وسمى فيها الأشخاص وذكر المكان والزمان والمناسبة، فلا مناص إذن من أن تتخذ الحكومية اللبنانية إجراء قضائياً أو دبلوماسيا نحو الكاتب (الكاذب) ليتسنى له هو أيضا أن يقول كلمته (المحرر)

الجمهورية اللبنانية

وجهة نظر المعارضة

لقد تحدثت إلى أحد الوزراء كما تحدثت إلى بعض الوجهاء فلمست منهم تأييداً لوجهة النظر الرسمية التي بسطها رئيس الجمهورية، حتى إن بعضهم أكد لي بأن الوحدة العربية إنما هي الوحدة الإسلامية بعينها. ومع ذلك فان زعماء المسلمين الذين زرتهم قد نفوا لي هذه الفكرة. ومما يؤيد صحة نفيهم أن الشعور الديني لدى مسلمي لبنان سائر نحو الضعف

بصورة جلية تجعل المرء يعتقد أن ميلهم إلى الوحدة العربية لا بد أن يكون مبيناً على أسس غير الأسس الدينية. وهذا ما قاله لي عربي من كبار رجال التعليم في بيروت: (لا بد لنا إذا أردنا الحياة من أن نتعاون في الأمور العسكرية والاقتصادية، ولا يتحقق هذا التعاون إلا بواسطة الوحدة العربية أو - في بادئ الأمر - الوحدة السورية. إن الناحية العنصرية لا تهمنا كثيراً، ولكن اشتراكنا في اللغة وتحملنا نفس المصاعب لما يدفعنا للسعي وراء نوع من أنواع الاتحاد. قد تختلف بلاد مصر ونجد والحجاز وشرقي الأردن وسورية والعراق الواحدة عن الأخرى، إلا أن أمام كل واحدة منها مشاكل متشابهة يجب حلها، منها تعليم الفلاحين والبدو وسكان الجبال، وتعميم الوسائل الحديثة لحفظ الصحة العامة، ورفع المستوى العام من الناحيتين الثقافية والاجتماعية. إن التعليم في مصر نفسها لا يتعدى طبقة محدودة راقية. وهناك رابطة التاريخ المشترك التي تعطينا الحق في أن نفتخر بماض زاهر، ونسعى لإحياء ذكرى هارون

الرشيد. ولعلك تعتبر هذه الرابطة خيالية وعاطفية، ولكني أؤكد لك أننا نعتبرها دافعاً حقيقياً وقوياً لنا في نهضتنا. إن الماضي يمكن أن يصبح حاضراً مرة ثانية إذا اتحدنا مع (سورية أولاً، ثم مع الأقطار العربية الأخرى

قد يظن البعض أن العرب الذين يعتنقون فكرة الوحدة السورية غارقون في بحر من الأوهام. والواقع أن فكرتهم هذه بالرغم من غموضها لأجدر بالتقدير من فكرة الرجال الرسميين ذوي الخبرة الواسعة وأتباع الحقيقة دون الخيال الذين أتضح لي أن تفكيرهم محصور لا يتجاوز مراميهم القريبة. لقد وجدت أنصار الوحدة السورية من العرب عنيفين وغير منظمين، إلا أني واثق في نفس الوقت من أنهم أصحاب بصيرة، وأن نار إيمانهم بمثَلهم الأعلى لتتأجج تأجج النيران العظيمة في باطن الأرض

وقد اتضح لي - كما كنت أتوقع - أن كلا الفريقين: الرسمي والعربي كان متطرفاً قد خفي عليه جزء من الحقيقة. وهذا أمر طبيعي في بلاد أصبحت القومية فيها قوة ذات قيمة بالرغم من حداثة عهدها. والواقع أن ارتفاع مستوى المعيشة وزيادة الثروة قد ولدا في اللبنانيين ميلاً إلى احتراف السياسة سواء كانوا من السياسيين المسيحيين أم من المسلمين. وقد سلم بعض العرب في لبنان بالفكرة الفكرة القائلة بأن البلاد لا يمكن أن تستغني عن فرنسا، وأن الصواب يقضي بالاعتراف بالأمر الواقع ونبذ أحلام الوحدة العربية. وهذا

الشعور بالانخذال قد جعلهم أقل إيماناً بتحقيق المثل العليا في عرب سورية. ومن نتيجة ذلك - على ما يقال - أن الأغراض الشخصية تلعب في بيروت دوراً أعظم من الذي تلعبه في دمشق

النصرانية العملية

إن أعظم مشكلة معقدة يجابهها لبنان هي مشكلة الدين، فإننا نرى من جهة أن المزج بين السياسة والدين قد حشر الدين في أمور غريبة عنه في الأصل. ومن جهة أخرى فان الدين قد أصبح بعيداً كل البعد عن أسسه المشروعة

ليست حكومة لبنان حكومة حزبية ولا هي بالحكومة ذات الاختصاص الفني البعيدة عن الأحزاب، وإنما هي حكومة تتشكل من ائتلاف دائم يمثل الطوائف المختلفة. فان كلا من الوزير والموظف الإداري والمعلم وطبيب البلدية يعين بالنظر إلى طائفته لا بالنظر إلى مقدرته الفنية. وقد أدى تدخل الكنيسة في السياسة إلى إساءة الاستعمال كما أدى إلى انحطاط عام في الدين. وقد كاد جميع من تحدثت إليهم (وبينهم أستاذ الجامعة والسياسي والتاجر وصاحب العمل الحر والمسيحي والمسلم) يجمعون على الشكوى من أعمال الكنيسة السياسية، ومع ذلك فلم أجد لدى أحد ما الجرأة الكافية لمعالجة هذا الموضوع

إن الفرنسيين يفتخرون في بلادهم بفصل الدولة عن الكنيسة، ولكنهم في لبنان قد استعملوا الاكليروس الماروني منذ البدء لتحقيق غاياتهم السياسية. إن كليات اليسوعيين الفرنسيين ومدارسهم نفسها قد أصبحت مراكز للدعاية الفرنسية، حتى إن أكثر القسيسين الفرنسيين يعتبرون أنفسهم جنوداً يخدمون الراية المثلثة الألوان كما يخدمون الصليب. وقد شعر رجال الاكليروس من غير الموارنة أنهم لا يجوز أن يتأخروا عن إخوانهم في هذا المضمار فدخلوه بدورهم، وأخذوا يستعملون نفوذهم الديني لتحقيق الأغراض السياسية. أما المسلمون فان دينهم في الأصل لم يفرق بين القوانين الدينية والمدنية، ومع ذلك فقد كانت سلطة الأئمة والمفتين في الأمور غير الدينية لا تشمل غير الأفراد التابعين لهم. أما الآن فقد أصبحوا هم أيضاً يلعبون دوراً سياسياً

إن الدولة المنتدبة لم تعمل شيئاً للوقوف في وجه حركات رجال الدين السياسية، بل هي على العكس قد شجعتهم عليها لأنها أدركت أن أي خلاف ينشب بين فئات متباينة من أهل

البلاد من شأنه أن يقوي مركزها. إن روح الاستخفاف التي تنطوي عليها هذه السياسة قد بينتها جريدة الطان بجلاء، إذ أشارت في مقال لها في شهر يناير عام 1926 إلى مهمة المسيو دو جوفنيل المندوب السامي الجديد بهذه لعبارة: (إن وظيفة المسيو دو جوفنيل لواضحة تماماً: فهو يجب أن يفرق لكي يسود) على أن خطر هذه السياسة قد أخذ يتناول الفرنسيين أنفسهم، فالمارونيون شرقيون في الدرجة الأولى وإن كانوا

نصارى؛ ولا رغبة لديهم في أن ينقادوا لفرنسا انقياداً أعمى. ومن المحتمل أن يجدوا أنفسهم في المستقبل في صف المسلمين
والإنصاف يقضي بأن نعترف بأن اشتغال رجال الدين بالسياسة لم يمح كل أثر للشعور الديني، فإننا نجد بين النصارى طائفة لا تزال شديدة التمسك بالدين، ألا وهي طائفة الأرمن، وكذلك الفلاحون في الجبال الذين يختلفون عن باقي فلاحي الشرق الأدنى بسمو أخلاقهم. أما الإسلام فهو منذ الحرب العظمى قد أخذ نفوذه يضعف. وأما الدروز فأنهم على الرغم من تمسكهم بدينهم كادوا يفقدون تأثيرهم في حياة المجتمع الروحية بسبب اعتصامهم وراء طقوس دينهم السرية
إن الكثيرين من مثقفي النصارى والمسلمين لا يفرقون بين الدين كما هو معروف في بلادهم وما تتطلبه الحزبية من دسائس وفساد. وهذا ما حمل بعضهم على الافتخار بأنه لا ديني؛ ففي بادئ الأمر كنت أستغرب قول بعض المتمسكين بتعاليم الدين لي بأنهم ضد الدين، ولكني ما لبثت أن أدركت أنهم يقصدون بذلك أنهم ضد رجال الدين
إن الحكومة اللبنانية تشعر بضعفها وهي لهذا لا تجرؤ على السعي للقضاء على نفوذ رجال الدين السياسي لكيلا تعرض نفسها لغضب قسم من رعاياها عليها
(يتبع)
علي حيدر الركابي
فتاوى شرعية
معضلات العصر
للأستاذ الجليل محمد بن الحسن الحجوي
وزير معارف الحكومة المغربية
- 1 -
إن أهم ما اهتم به النبيون والمرسلون صلوات الله عليهم أجمعين ثم الفلاسفة الأقدمون والمتأخرون؛ والعلماء المؤلفون، معضلات عصورهم التي تهم الفكر العام. وعليها يتوقف تحسين حال مجتمعهم وإن كان في غفلة أو إغفاءة عنها في بعض الأوقات.
ففي عصر نبينا العربي عليه صلوات الله وسلامه، كان أهم معضلة هي الوثنية وفساد المعتقد وتنوعه في جانب الله؛ وعن ذلك ينشأ تشتت الأفكار، وفداحة الجدل. ثم رداءة حال العرب بل العالم من حيث افتقاره إلى شريعة منظمة تكون رابطة متينة للمجتمع تذهب بها فوضى الحقوق والأخلاق، وتنتظم بها الأحوال وتتناسق الأعمال.
وهكذا النبيون قبله، ما من رسول إلا وقد جاء بحل أهم المعضلات، وأعقد المشكلات؛ وكذلك الفلاسفة اليونانيون وغيرهم ما كانت فلسفتهم إلا لحل مشكلات عصورهم، يعلم ذلك من يتتبع موضوعات مؤلفاتهم المتنوعة.
ثم كان علماء هذه الأمة الكريمة على ذلك، فتجد أكثرهم يؤلف في النوازل التي تنزل أو يتوقع نزولها بعد المعضلات. وبالنظر في كتب الفتاوى والأحكام يتبين ذلك، بل لا تجد كتاباً في فن إلا والقصد منه سد فراغ وكفاية حاجة من حاجات المجتمع في نظر مؤلفه.
بناء على هذه السنة جعلت هذه الأوراق أجوبة على أسئلة ثلاثة وردت عليّ من عالم نبيل من علماء أشقودرة (ألبانيا) يطلب مني الجواب عنها وهي:
1 - لبس البرنيطة 2 - قبض مرتب بدون عمل 3 - مفتريات أهل الطريقة التجانية.
وهذا نص السؤال، ويليه الجواب:
(الأستاذ الكبير الإمام الشيخ محمد ابن الحسن الحجوي الثعالبي الجعبري وزير معارف الحكومة المغربية. بعد إتحافكم درر التحيات السنية، وغرر التسليمات البهية، أعرض صاحب الفضيلة والسماحة والأيادي الجليلة، لا زالت أعماله مشكورة، وآثاره مبهورة، أن كثيراً ما يجول في عقولنا ويخطر ببالنا الترامي إلى أعتابكم الشريفة سائلين منها حل مسائل يكون الناس فيها ما بين كفر وضلال، وكثر فيها القيل والقال، حتى افترق الناس فريقين في أكثر البلاد خصوصاً في بلادنا الألبانية وأشقودرة، إلا أن الشواغل التي كثرت لديك من المسائل العلمية التي توجه إليك من جميع الأطراف قد منعتنا من السؤال عنها، لكن عندما اشتد الخلاف فيها الآن بحيث صار لا يمكن أن يدفعه أحد غيرك في اعتقادنا ما وجدنا مناصاً من أن نطلب ونرجو من فضيلتكم أن تضع هذه

المسائل في مقدمة المسائل التي تعني بها عناية كبيرة لما لها من شأن عظيم وهي:
مسألة البرنيطة أو القبعة
كان ملك ألبانيا قد أصدر أمراً لكل رجل موظف له مرتب شهري أن يلبس البرنيطة وإلا يعزل عن الوظيفة والمأمورية؛ فهل يجوز لذاك المأمور الموظف أن يلبس البرنيطة تبعاً لأمر الملك أو يترك الوظيفة والمعاش ويقبل العزل؟ وكذلك قرر مجلس وزراء ألبانيا أن يلبسن البرنيطة جميع الصبيان الذين يداومون بالتحصيل في المدارس والمكاتب، فهل يجوز أيضاً لآباء وأولياء هؤلاء الصبيان أن يلبسوا البرنيطة الصبيان أم يقبلوا طردهم وإخراجهم من المدرسة ويتركوهم بدون تحصيل ولا تعليم خصوصاً في هذا الزمان؟ يعني هل يعد التحصيل والمعاش ضرورة للبس البرنيطة أم لا؟ وغير الموظفين والمأمورين من العوام قد تركهم الملك مخيرين إن شاءوا لبسوا لباس القوم الأرناءودي مع الطربوش الأبيض كما هي عادة أهالي أشقودرة وألبانيا. هؤلاء الذين تركهم الملك مخيرين هل يباح أو يكره أو يحرم عليهم لبس البرنيطة أو يكفر لابسها إن لبسها بالاختيار. ثم إن القلنسوة التي ذكرها الفقهاء في الكتب الفقهية بقولهم: من وضع قلنسوة المجوس على رأسه قيل يكفر وهو الصحيح، وقيل لا يكفر. ما المراد بهذه القلنسوة؟ أهي التي جعلوها علامة على خدمة دينية أو الدخول في الدين كطيلسان اليهود وجبة القسيس وما يلبسه صبيان النصارى وبناتهم حين الدخول في التكليف الديني، أم تشمل كذلك القلنسوة التي لم يقصد منها الدلالة على الدين، وإنما هي لباس أمة صادف أن كان كلها أو معظمها غير مسلمين بحيث يلبسها النصراني واليهودي ومن كان يولد من تلك الأمة، بها وكذا يلبسها المسلمون في هذا الزمان، يعني ما الفرق بينهما؟
المسألة الثانية:
رجل ألباني أو بغدادي أو شامي مثلاً في دار يأخذ مرتباً شهرياً سياسة من الحكومات المتجاورة مثل إيطاليا أو فرنسا: أو فرَّ وخرج من دار سياسة أيضاً إلى دار أخرى ويأخذ من تلك الحكومة التي يقيم فيها هل يحل لذلك الرجل أن يأخذ فرنكات كثيرة من تلك الحكومة المجاورة أم لا؟
المسألة الثالثة:
وهي أن الطريقة التجانية المنتشرة في أكثر البلاد حتى البلاد الأرناؤودية ولا سيما بلدتنا أشقودرة هل المندمج فيها غير مناف للشريعة الغراء، ومنتسبو تلك الطريقة يدعون أفضلية قراءة (صلاة الفاتح) لما أغلق على تلاوة القرآن ستة آلاف مرة وهو أكبر الأذكار متأولين بأن ذلك بالنسبة لمن لم يتأدب بآداب القرآن كما فصله في (كتاب جواهر المعاني) المنسوب إلى التجانية، وأن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بتلك الصلاة الخاصة إنما يترتب عليها الثواب إذا اعتقد أنها من كلام الله القديم من قوله عليه السلام: من صلى عليَّ مرة صلى الله عليه عشراً. وإن تلك الصلاة مع فضيلتها بتلك المثابة لم يعلمها النبي عليه السلام لأحد إلا لمؤسس تلك الطريقة، وفي ذلك ما لا يخفي من لزوم الكتمان ومنافاته للتبليغ المأمور به عليه السلام؛ وإن مؤسس تلك الطريقة أفضل الأولياء، مع أن الإجماع هو أن الأفضل بعد نبينا محمد عليه السلام الخلفاء الأربعة على الترتيب المعلوم؛ وأن من انتسب إلى تلك الطريقة يدخل الجنة بلا حساب ولا عقاب ويغفر ذنوبه الصغار والكبار، حتى التبعات وغير ذلك مما هو مبسوط في الكتب التجانية.
فهنا نحن متعطشون لفتواكم فهي لنا بمثابة نور يسطع وسط الظلمات فيبددها حتى نكون بعد ذلك على طمأنينة، ولذلك نطلب ونرجو من فضيلتكم توضيح هذه المسائل المهمة بالبراهين القاطعة والأدلة المقنعة موقنين أنكم ممن يعملون بقوله تعالى (وأما السائل فلا تنهر) نسأل الله تعالى أن يفيض عليك من نعمه، ويمدك بوافر فضله وكرمه، وأن يقيك من جميع البلايا والآفات، في جميع الأزمان والأوقات، وتقبلوا فائق احترامي وجميل شكري.
أحد منتمي العلم في بلدة أشقودرة
حافظ إبراهيم ربيشطي
وأن تتفضل بإرسال الأجوبة الشافية بكتاب خاص بالعنوان بالحروف اللاتينية:
انتهت الأسئلة بحروفها

(يتبع)
محمد بن الحسن الحجوي
مصر والبلاد العربية
للدكتور زكي مبارك
أشكر لأدبكم وكرمكم التفضل بالحضور للتسليم على صديق كان قد اغترب مدة في سبيل خدمة العلم في العراق
وأعتذر عن كلمة (اغترب) واقترح حذفها من المعاجم فهي كلمة تفردت بها اللغة العربية، ولا يكاد يوجد لها نظير في اللغات الأجنبية، وعن لغة العرب نقلت إلى الفارسية والتركية وهي كلمة حزينة يتمثل سوادها في كلام من يقول:
وكل محبّ قد سلا غير أنني ... غريب الهوى يا ويح كل غريب
وفي كلام من يقول:
أنا في الغربة أبكي ... ما بكت عين غريب
لم أكن يوم خروجي ... من بلادي بمصيب
عجباً لي ولتركي ... وطناً فيه حبيبي
ولي مع هذه الكلمة الحزينة تاريخ، فقد سببت أول معركة أدبية شهدتها في العراق، ذلك بأني كنت نشرت مقالاً في مجلة الرسالة عنوانه (القلب الغريب في ليلة عيد) فعزّ على أدباء العراق أن أقول إني في بلدهم غريب، ودار الجدل أشهراً حول ذلك المقال في الجرائد والمجلات. والحنين إلى الوطن مرض لا يصيب غير الضعاف في عالم الإنسان والحيوان، فأرجو أن يكون فينا من القوة ما يعصمنا من هذا المرض العضال.
أنا ما كنت غريباً في العراق، وإنما كنت بين أهلي وقومي.
وإذا صح للمصري أن يشعر بالغربة وهو في وطن عربي مثل العراق فماذا ترونه يصنع لو هاجر إلى بلد في استراليا أو في إحدى الأمريكتين؟
لقد آن للمصري أن يبرئ نفسه من ذلك المرض الذي يقضي بان يتوجع حين تنقله الحكومة من القاهرة إلى حلوان، آن للمصري أن يفهم أن في دمه روحاً عربياً يسوقه إلى الانتقال من أرض إلى أرض في سبيل المنافع العلمية والأدبية. آن للمصري أن يفهم أن رجولته لا تكتمل إلا إذا واجه المصاعب واستطاع أن يخلق لنفسه ولوطنه أصدقاء في مختلف البلاد.
وما أقول إني كنت أقوى من سائر الزملاء الذين تشرفوا بخدمة العلم في العراق، وإنما أقول إني رضت نفسي على التخلق بأخلاق أسلافنا من العرب فرأيت الأرض كلها وطناً أصيلاً ولم تجرِ كلمة الغربة على لساني إلا تأثراً بالميراث الحزين الذي قضى بأن تتفرد لغتنا بكلمة (غريب) من بين سائر اللغات.
ولما زار سعادة العشماوي بك مدينة بغداد دعا الأساتذة المصريين لسماع ما قد يكون عندهم من مقترحات أو شكايات، فمضيت أبحث عمن أعرف منهم لأصدهم عن حضور ذلك الاجتماع فقد كنت أحب ألا يكون بيننا وبين حكومة العراق وسيط ولو كان ذلك الوسيط هو العشماوي بك الذي أحب العراق وأحبه العراق.
إن صداقتنا للعراق لا تزال في أول عهد من عهود التكوين، وهي لا تزال في حاجة شديدة إلى من يحرسها ويرعاها، وهي تستحق الحراسة والرعاية لأنها رباط بين أمتين كانت بينهما صلات ودية من أقدم عهود التاريخ.
ولا يعرف قيمة هذه الصداقة إلا من زار العراق. فأهل العراق بمودتهم المتينة يبعثون فينا شعور الثقة بالنفس، ويفرضون علينا أن نؤمن بأن جهادنا في سبيل العلم والمدنية لن يضيع.
أهل العراق منا ونحن منهم. ولو نطقت الأحجار لحدثتكم أن علماء العراق اتصلوا بمصر ونقلوا إليها علومهم ومعارفهم يوم أراد التتار أن يقرضوا حضارة بغداد.
ولعل هذا هو السبب في أن مخارج الحروف لا تتفق بين أمتين عربيتين كما تتفق بين مصر والعراق.
أهل العراق منا ونحن منهم؛ فالمؤلفات القديمة في معاهد مصر هي في الأغلب عراقية، والمؤلفات الحديثة في معاهد العراق هي في الأكثر مصرية. فأرجوكم بالله أن تكونوا جميعاً أنصاراً للأخوة التي تربط بين مصر والعراق.

وقد عجب بعض الناس حين رأوني أتصدى لدفع الأذى عن سمعة العراق، فاعرفوا إن شئتم أني أدفع ديناً ثقيلاً. فأهل العراق في أنديتهم وجرائدهم ومجلاتهم ومدارسهم يدفعون عن مصر قالة السوء ويخاصمون في سبيلها كثيراً من الناس، ولو عرفتم من ذلك بعض ما عرفت لرأيتم أن من القليل أن ينهض كاتب أو كاتبان للإشادة بفضائل أهل العراق.

إن القاهرة تقوم في العصر الحديث بالواجب الذي كانت تقوم به بغداد في عصر بني العباس، فمن واجب القاهرة أن تحمل من التكاليف ما حملت بغداد، بل من واجب القاهرة أن ترحب بمطلع اليوم السعيد الذي يقضي بان يكون لها في الشرق منافس قوي هو بغداد، فتفرد القاهرة بالزعامة الأدبية قد يضر أكثر مما ينفع، لأن التفرد بالتفوق قد يخلق عيوباً أيسرها الزهو والخيلاء والاطمئنان إلى أن ليس في الإمكان أبدع مما كان.

وقد بدأت هذه العيوب تظهر مع الأسف، فأهل مصر شغلتهم ثقافتهم التي اتسعت وتشعبت عن التطلع إلى ما يبدع أهل العلم والأدب في العراق وسورية ولبنان وفلسطين والحجاز واليمن والجزائر وتونس ومراكش وما إلى هؤلاء من البلاد العربية؛ وانصراف أهل مصر عن الأدب في تلك البلاد يحجبهم عن تطور الحياة في أقطار حية سيكون لها بإذن الله مكان بين الأقطار التي تسود العالم في المستقبل القريب.

ومن الواجب في مقامي هذا أن أوجه أنظاركم إلى حقيقة لا يختلف في صحتها اثنان: تلك الحقيقة هي أن مصر تتفرد اليوم بالسيادة العقلية في البلاد العربية. فمؤلفات مصر ومجلات مصر ليس لها مزاحم يخشى خطره في تلك البلاد؛ وشعراؤنا وكتابنا هم الذين يقدمون الغذاء الأدبي لجمهور المتعلمين في الأقطار العربية، وبفضل إقبال أولئك الإخوان على مؤلفات مصر ومجلات مصر استطاعت اللغة العربية أن تقف على قدميها بجانب اللغة الفرنسية واللغة الإنجليزية. فاللغة العربية اليوم لغة حية حقا وصدقاً، وهي تكافح وتناضل لتسيطر وتسود. وما كان من الغريب أن تسيطر اللغة العربية في أقطار كتب الله أن تستعرب منذ أجيال طوال، ولكن فساد الزمن وتوالي الأحداث والخطوب جعل سيادة اللغة العربية في بلادها من الغرائب، فلنفهم ذلك ولنواصل الجهاد، ولنعرف أن من أعظم الشرف أن نكون في الحياة من المجاهدين، ولنتذكر دائماً أن انتصار اللغة العربية في أوطانها هو البشير بأن تلك الأوطان تستعد من حيث تشعر أو لا تشعر لحياة مجيدة سترون أعلامها بعد حين.

وإخواننا العرب يعجبون من تفرد مصر بالتفوق في اللغة العربية، فان أذنوا شرحت لهم بعض أسرار هذا التفوق. فمصر هي الأمة الوحيدة التي استعربت استعراباً تاماً، وصارت العربية لغتها الرسمية والقومية في مدة ترجع إلى ثلاثة عشر قرناً. وهذا حظ لم يظفر بمثله

المغرب ولا الشام ولا العراق، فما انقرضت اللغة البربرية في المغرب، ولا اللغة السريانية في الشام، ولا اللغة العبرانية في فلسطين، ولا اللغة الكلدانية في العراق.

وإنا لنرجو أن تكون لمصر يد بيضاء في رجوع اللغة العربية إلى بلاد فارس بفضل المودة الجديدة التي أنشأتها المصاهرة الملكية بين مصر وإيران. فمن المؤكد أن قادة الرأي في تلك البلاد سيراعون عواطفنا مشكورين فلا يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير، كما فعل إخواننا الأتراك سامحهم الله حين استبدلوا الحروف اللاتينية بالحروف العربية.

وقد وقع بيني وبين سفير إيران في العراق عتاب حين رأيته أول مرة في بغداد، ولم أكن أعرف أن الله سيخلق بيننا وبينهم صلات جديدة تجعل من الحق علينا أن نذكرهم بماضيهم الجميل في خدمة لغة القرآن يوم كان منهم كبار النحويين وكبار اللغويين.

إن فرنسا لها مدرسة في طهران لنشر اللغة الفرنسية بين أهل إيران، فمتى يجيء اليوم الذي تقوم فيه مدرسة عربية في وطن الجرجاني والتوحيدي وابن العميد؟

لقد ألفت كتابي النثر الفني أول مرة باللغة الفرنسية وأنا في باريس، وكان قلبي يفيض بالحزن الدامي كلما تذكرت أن أكثر من تحدثت عنهم في كتابي كانوا رجالاً نشأوا في بلاد فارس، وأن لغة العرب في تلك البلاد صارت غريبة الوجه واليد واللسان.

وكذلك كان حالي حين ألفت كتاب التصوف الإسلامي فقد رأيت أن أرواح التصوف

هبت علينا من الأقطار الفارسية.
فيا أصدقائي الأعزاء في إيران تذكروا ثم تذكروا وأنتم مسلمون أبرار أن اللغة العربية هي لغة القرآن ولغة الرسول، وتذكروا أن الأمم العربية لها في العالم السياسي والأدبي والاقتصادي موازين، وأنها خليقة بأن تزيدكم قوة إلى قوة حين تراكم ترحبون باللغة العربية التي كان لها في بلادكم أبناء وأحفاد وأسباط. . .
تلكم مكانة مصر بين الأمم العربية والإسلامية، وذلكم حظها بين الممالك والشعوب، وهذا التجاوب الأدبي بيننا وبين من نعرف ومن لا نعرف لم يقع من باب المصادفات، وإنما هو علامة حب صادق يضمره لمصر من عرف فضلها من الرجال.
وأخشى، والحزن يفعم قلبي، أن يكون ما ضفرنا به من المجد الأدبي ميراثاً تلقيناه عن أجدادنا النبلاء الذين ملأوا الدنيا بالتأليف والتصنيف وجعلوا مصر تاجاً تزدان به هامة اللغة العربية.
أخشى ألا تكون لنا سياسة رشيدة تفكر دائماً في حفظ مكانة مصر بين الأمم العربية.
أخشى أن نجهل نعمة الله علينا فننسى أننا أغنى الأمم العربية بالأموال والرجال.
أخشى ألا نعرف أن الجهاد في سبيل اللغة العربية هو مجد أبقى على الزمن من الأهرام ومن قصر الكرنك وقصر أنس الوجود.
إن اللغة العربية هي التي ستجعل لنا لسان صدق في الآخرين، وهي التي ستسطر محامدنا على جبين الزمان.
والذي أدعوكم إليه هو تجارة لا تعرف غير الربح، فإن كنتم في ريب من ذلك فسيروا في الأرض وانظروا كيف تذكر مصر بالحمد والثناء.
إنني أفرض زيارة الشرق على رجلين: الأول وزير المعارف والثاني وزير الخارجية.
أما وزير المعارف فهو اليوم معالي الدكتور محمد حسنين هيكل باشا، وليته كان في بغداد كما كنت في بغداد يوم ظهور كتابه عن منزل الوحي، ليته كان هناك ليرى كيف استقبل البغداديون كتابه بموكب لم يعرفه القاهريون. وأما وزير الخارجية فهو اليوم دولة عبد الفتاح يحيى باشا، وليته يرى كيف يأنس أهل بغداد إلى صوره الكاريكاتورية في الجرائد والمجلات، إنه لو رأى ذلك لعرف أن مصر لا تعيش وحدها في وإنما تعيش في أنس بأصدقائها في الشرق.
ولن أنسى اليوم الذي زرت فيه نادي المعارف في بغداد مع سعادة الأستاذ طه الراوي، فقد رأيت مكتب رئيس النادي يزدان بصورتين كريمتين: صورة الملك فاروق الأول وصورة الزعيم سعد زغلول.
ولما زرت النجف أراد أدباؤه أن يقدموا إلي هدية فكانت تلك الهدية هي صورة الرجل الموفق محمد العشماوي بك، وكان زار النجف واستقبل فيه أكرم استقبال.
ولما زرت الموصل رأيت رئيس نادي الجزيرة أحد تلاميذي القدماء فأحسست أنني في داري وبين أهلي.
فيا أهل مصر، متى تعرفون نعمة الله عليكم؟ ومتى تؤدون للأمم العربية واجب الوفاء؟
إن الذي كتب أن تكون عاصمتكم عروس الشرق هو وحده القادر على أن يجعلكم أهلاً لرعاية العهد وحفظ الجميل.
زكي مبارك

تيسير قواعد الإعراب

لأستاذ فاضل

- 3 -

ألقاب الإعراب والبناء

جعل النحاة للإعراب ألقاباً هي: الرفع والنصب والجر والجزم، وجعلوا للبناء ألقاباً هي: الضم والفتح والكسر والسكون، وقد رأت جماعة وزارة المعارف أن هذه التفرقة دعت إليها الدقة في الاصطلاح بدون حاجة إليها، ولهذا رأت ألا يكون هناك فرق بين ألقاب الإعراب وألقاب البناء.
ولا يخفي أن ما ذهبنا إليه من إنكار البناء في العربية لا تتأتى معه هذه التفرقة، ولكن لا بد فيما ذهبنا إليه من أن يبقى الرفع والنصب والجر والجزم ألقاباً للإعراب، وتبقى الحركات من الضم والفتح والكسر وما ينوب عنها والسكون وما ينوب عنه علامات

لهذه الألقاب. ولا شك أن ما تذهب إليه هذه الجماعة من أن يكون لكل حركة لقب واحد غير جدير بالاعتبار، لأن هذا قد يمكن في الإعراب بالحركات، أما الإعراب بالحروف فلا يتأتى فيه ذلك، لأنا إذا جعلنا الرفع عبارة عن حركة الضم لم يمكن أن نجعله عبارة عن حرف من الحروف التي تدل عليه، كالواو في جمع المذكر السالم، وكالألف في المثنى. ومن الإعراب بالحركات ما لا يتأتى فيه ذلك أيضاً، وهذا كما في جمع المؤنث السالم في حالة النصب، لأنه ينصب بالكسرة، فلا بد أن تكون الكسرة في ذلك علامة لا لقبا، لبعد ما بين اللقب والعلامة فيه. وإذا كانت جماعة وزارة المعارف قد وجدت من السهل ألا تفرق بين النصب والفتح في مثل - رأيت إنساناً - فإنه يصعب عليها ألا تفرق بين النصب والكسر في مثل - أكلت تفاحاتٍ

الجملة

رأت الجماعة أن تجري في النحو على إصلاح علماء المنطق فتسمى جزأي الجملة موضوعاً ومحمولاً، والموضوع هو المحدث عنه في الجملة، وحكمه الضم عندها إلى أن يقع بعد إن أو إحدى أخواتها، والمحمول هو الحديث أو المحدث به

1 - ويكون اسماً فيضم إلا إذا وقع مع كان أو إحدى أخواتها

2 - ويكون ظرفاً فيفتح

3 - ويكون فعلاً أو مع حرف من حروف الإضافة أو جملة ويكتفي في بيان إعرابه بأنه محمول

وترى الجماعة أنها بهذا كله يسرت إعراب الجملة وقللت إصلاحاتها وجمعت أبواب الفاعل ونائب الفاعل والمبتدأ واسم كان واسم إن في باب الموضوع، وجمعت أبواب خبر المبتدأ وخبر كان وخبر إن في باب المحمول، وخففت عن المعلمين والمتعلمين برد باب ظن إلى الفعل المتعدي

ونحن نرى أن كلاً من تقليل الاصطلاحات وتفصيلها قد يكون يسراً في العلم وتدوينه، وقد يكون يسراً فيه، فيجب أن يصار إليهما بقدر ما تدعو إليه الحاجة فيهما، وإلا كان الإجمال غموضاً في العلم وكان التفصيل حشواً لا فائدة فيه، وهذه الأبواب التي جمعت في باب واحد ذات أحكام كثيرة مختلفة، فمن الواجب أن يقتصد في جمعها، وقد يؤدي الإسراف في تقليل اصطلاحاتها إلى عكس ما نرجوه منه

والذي نراه في ذلك أن يلحق باب كان وأخواتها وباب إن وأخواتها بباب المبتدأ والخبر، فتجمع هذه الأبواب الثلاثة في باب واحد، ويعرب اسم كان وخبرها مبتدأ مرفوعاً وخبراً منصوباً، ويعرب اسم إن وأخواتها مبتدأ منصوباً وخبراً مرفوعاً لأن الإعراب فرع المعنى ودليله، وهذه الصيغة الإعرابية المشهورة لا يمكن أن تدل على معنى في جملة كان وأخواتها وجملة إن وأخواتها، بل هي صيغة لا معنى لها في ذاتها، إذ لا يمكنك أن تفهم معنى لكون اسم كان وأخواتها اسماً لها، ولا لكون خبرها خبراً لها، وكذلك الأمر في إن وأخواتها، فصاحب الخبر في قولك: كان زيد قائماً - هو زيد لا كان، وموقعه في هذه الجملة موقع المبتدأ المخبر عنه، فأصدق شيء في إعرابه أن يقال إنه مبتدأ، وأن يقال فيما بعده إنه خبره لا خبر كان، وليست كان في جملتها إلا قيداً فيها، لأنها تقيد الخبر بمفادها وهو الزمان الماضي، فكأنك قلت في ذلك المثال - زيد قائم في الزمان الماضي

وأمر ذلك في إن وأخواتها أظهر منه في كان وأخواتها، لأن قولك - إن زيداً قائم - لا تفيد إن فيه إلا تأكيد ثبوت الخبر للمبتدأ، فلا يزال المبتدأ فيها مبتدأ على معناه وإن تغيير إعرابه، ولا يزال الخبر خبراً له بإعرابه الذي كان له

وليست منزلة هذه الأدوات من المبتدأ والخبر إلا كمنزلة أدوات الشرط من فعل الشرط وجوابه. وأنت حينما تعرب فعل الشرط لا تقول إلا أنه فعل الشرط، ولا تقول إنه فعل الأداة، وكذلك تقول في الجواب إنه جواب الشرط، ولا تقول إنه جواب إن وأخواتها، فإذا أضيف الشرط أو الجواب في بعض الأحيان إلى هذه الأدوات فان ذلك لا يكون إلا على ضرب من التجوز، لما لها من علاقة المجاورة والعمل فيهما، ولا يدل على أمر حقيقي في معنى الجملة

فهذا هو الذي نراه في اختصار هذه الأبواب، قد راعينا فيه ما يجب من مطابقة الإعراب للمعنى، ولم نقصد فيه الاختصار لذاته كما قصدته هذه الجماعة

وعلى ما ذهبنا إليه في ذلك يكون المبتدأ هو الاسم المحدث عنه في الجملة الاسمية، فيشمل ذلك اسم كان واسم إن، ويكون الخبر هو الاسم المحدث به في الجملة الاسمية، فيشمل ذلك خبر كان وخبر إن. وقد ذهب الكوفيون إلى أن المنصوب بعد كان وأخواتها حال لا خبر؛ ويمكن على هذا أن يكون المرفوع بعدها فاعلا لها، ويكون حكمها في ذلك حكم سائر الأفعال، ولا يكون هناك داع إلى تقسيم الأفعال إلى تامة وناقصة

ولا نرى بعد هذا كله في ذلك الموضوع إلا أن يلحق باب النائب عن الفاعل بباب المفعول به وغيره مما ينوب عن الفاعل، فيكون لنا مفعول به مرفوع في نحو - قُضيَ الأمرُ - ومصدر مرفوع في نحو - فإذا نُفخ في الصور نفخة واحدة - وظرف مرفوع في نحو - سهرت الليلة - وهذا الإعراب أولى من الإعراب المشهور في ذلك، لأن إعراب ذلك نائب فاعل لا يقوم على أساس قوي، إذ ليس في ذلك إلا حذف الفاعل للعلم به أو نحوه مما يحذف لأجله، والمفعول بعد حذف الفاعل باق على مفعوليته، ولا معنى لدعوى نيابته عن الفاعل، بل قد يحذف الفاعل ولا يجود ما ينوب عنه، نحو - سُقط في أيديهم - وهم يذهبون في هذا إلى نيابة المجرور، ولكنه تكلف ظاهر، وليس من اللازم أن ينوب شيء عن الفاعل عند حذفه، كما لا يلزم هذا في حذف المبتدأ ونحوه

(يتبع)

أزهري

رسالة الفن

موت فرنشيسكو فرنشا

مترجمة عن الإيطالية

يا بني! لا جدال في أن عصر النهضة الإيطالية عصر ربيع الحياة الفنية العظيمة؛ أورق الفن فيه وأزهر، ونهض الرسم نهضة قوية جبارة، إذ نفض عن كاهله رماد الموت، ونفخ في هيكله روح حياة جديدة، فجاءنا بكل شهي بهي، وأسعف ذوقنا بكل رائع خلاب

أوجد من الرجال العظام ومن الرسامين الفطاحل ما يدهش لمده وحصره كل قارئ وكل مؤرخ: رجال أكفاء، أفذاذ، في المناقب والأعمال، جبابرة في التفكير، عظماء في الإبداع والخيال

وكلنا مشوق ولا شك إلى دراسة حياة رجالات هذا العصر، لتفهم طراز درسهم للفن، وطرق تدرجهم نحو ذروة الكمال والمجد: بعد أن طواهم الردى واحتوتهم الرموس ومن الغريب العجيب كما قال (أوسيان) أننا حين ذكرانا لهم وتتبعنا لخطواتهم ينهضون معاً ويأتوننا مجتمعين ليذكرونا بقيمة فهم المتحد المشترك، وبقوة الدهر الذي عاشوا بين أحضانه حتى اصبحوا خير مثل

هناك حوادث كثيرة، ومناقب طريفة نقلنا إلينا تاريخهم العامر المجيد، قد نظنها عند سماعها إنها من خيال الكتاب أو من تزويق الرواة مستحيلة الوقوع خارقة لطبيعة الواقع. ولكن ها هي آثارهم الخالدة لا تزال تستهوي لباً بعد أن طواها البلى، فكيف بها وقت أن كانت في صبح شبابها الرائع، وفي عصرها الذهبي الذاهب؟!

هناك قصة يهلع لسماعها القلب ويخشع، هي قصة الفنان العظيم (فرانشيسكو فرانشا) أستاذ المدرسة البولونية اللومباردية

ولد فرانشيسكو فرانشا في أسرة متواضعة فقيرة

ثم جعله أهله في صغره عند صائغ فكان الفن الرفيع متجلياً فيما يبدع. ولما شب كان أمراء (لومبارديا) يتقدمون إليه لينقش لهم صورهم على العملة التي كانوا يسكنوها. ولم يقتصر الإعجاب به على أمراء بلده فحسب، بل تدعاهم إلى أمراء المقاطعات المجاورة، فكانوا هؤلاء إذا زاروا (بولونيا) - موطن الفنان - أوفضوا إليه ليطبع صورهم على اللوحات

المعدنية، وينقشها على العملة التي يريدونها، كما كان يصنع لأمراء بلدة وأقيالها

ومع ما بلغه فرانشيسكو من المنزلة السامية والمكانة المرموقة كانت نفسه التواقة تتطلع إلى ذروة أسمى مما وصلت. ولما بلغ الأربعين حولاً، وجه عزيمته الجبارة لشق طريق جديد لم يسلكها أحد قبله. . . تعتمد على العلم والدراسة والذوق والحس. . .

وها هوذا يبدأ بدراسة الرسم، فيدرس توافق وتراكيب الرسوم، وتناسب وامتزاج

الألوان، وأثر وقوى النور، وأساليب رسم المنظور بالطرق الهندسية. فاستطاع بعد هذه الدراسة يخط في مدة قصيرة لنفسه طريقة جديدة في عالم التصوير: هي المعروفة في التاريخ (باسم المدرسة البولونية اللومباردية)

اعترى سكان لومبارديا ضرب من الذهول والتعجب حين طلع عليهم فرانشيسكو بلوحاته الجميلة وجاماته البديعة، وكانوا يعتقدون استحالة الجمع بين النقش والتصوير، وخاصة بهذه السرعة العجيبة. ولكن الأمراء لم يسيروا مع ذهولهم ولم تطل ساعة تعجبهم بل راحوا يختطون ما أنتج من لوحات وما أبدع من جامات ليزينوا بها دورهم وقصورهم كما كانوا يستبقون قبلاً لشراء آثاره المعدنية المنقوشة. . .

نال فرانشيسكو فرانشا منزلة سامية في الرسم لا تقل عن منزلته في النقش في وقت كان فيه اسم (رافائيللو سانسيو) العظيم فنان روما وصاحب الحظوة عند البابا، قد سار به الركبان ورده الخافقان. فنجاح فرانشيسكو لا يفسر بخلو المكان وفقدان المنافس، كما أن شهرته في النقش لم تكن زريعة للنجاح أو الزلفى إلى الأمراء والكبراء، لأن الكفاية الفنية ليست كضربة لاعب أو رمية رام؛ بل هي ومضة علوية تشع آلاف الأشعة الوهاجة، فتنير من نفسها طريق الفهم وتدلنا على مواقع الإسفاف أو السمو بدون إبهام ولا خداع؛ فنرى بأعيننا آثار هؤلاء الفنانين العظام الذين هم بحق نعمة من نعم السماء

لا شك أن فرانشيسكو كان من ألمع رجال الفن في عصر النهضة. له كما لهم المنزلة المرموقة في نفوس رجال النقد والتأليف في العالم أجمع، لا لشيء إلا لأن هذه الصفوة العجيبة من الفنانين العظام استطاعت أن تشيد على أنقاض الجاهلية الجهلاء صرحاً مكين الدعائم رفيع الأركان في أفسح ساحات المدينة الفاضلة وفي عالم الفن الرفيع المخلد. وكانت يد فرانشيسكو من أطول الأيدي وأقدرها على رفع الأساطين وتشييد الجدران،

فأنتجت وافر الإنتاج وأبدعت غاية الإبداع، وطافت على قصور (لمبارديا) فكستها الجمال، وأكسبتها الفتنة والملاحة. وراحت إيطاليا كلها بعد لومبارديا تذكر فرانشيسكو بكل إجلال وإكبار

كان رافائيللو في روما يرهف سمعه للصدى الخلاب الذي تتجاوبه الأفواه المعجبة. وكان يصغي بقلبه للحديث العذب الذي يتحدث به أهل بولونيا عن فنانهم العظيم، وكان يطرب لموسيقى اسم الفنان ويتشوق لرؤية آثاره وطلعته، وقد أسعفه الحظ فرأى ما أعجبه فاتصل روفائيللو بفنان لومبارديا فأطرى طريقته إطراء جميلاً وامتدح أسلوبه وقرظ فنه الحسن العجيب

لقد بلغ فرنشيسكو بحق منزلة رفيعة من لطف الحس ورقة الروح وجودة الأسلوب ودقة العمل، وقد أعجب بفنه كثير من الكتاب، وغالي أحدهم فدعاه إله الفن. وقد قال (كافاتزوني) إن روفائيللو بعد أن رأى (عذراء فرانشيسكو) تحرر من الجمود الذي علق بفنه من إتباعه طريقة (بروجا) وخلص من الجفاف المشاهد اليوم على بعض لوحاته من قبل تأثره بفن فرانشيسكو. وروح الفنان كالأسفنجة ما جاورت غديراً إلا تشربت من مائه

لم يكن إطراء رافائيللو لفرانشسكو إلا قوة جديدة دفعته إلى الاستزادة، ورأى أن فنه لم يصل بعد إلى المكانة القصوى، واتخذ من مدح رفائيللو له جناحاً جديداً سيساعده على الطيران في عالم الخلود

كان فرنشيسكو دون سائر الفنانين يستطيع أن ينافس رفائيللو الحظوة التي كان ينعم بها عند البابا وفي نفوس أهل روما، وكان في قدوة فرنشيسكو أن يباري رفائيللو في حلبة الفن ويطاوله في سماء المجد، ولكن الحظ لم يواته فلم ير لرفائيللو أثراً ليضرب الطريقة التي يسير عليها ضربة قاتلة. كان مقيما ببولونيا لم يبرحها طيلة حياته، وكان رفائيللو مقيما بروما وروما ضنينة به والبابا من أحرص الناس على ملازمته. وكان فرانشيسكو الشيخ يتشوق لرؤية آثار فنان روما قبل إغماضه الغمضة الأخيرة، رغم الفكرة التي استخلصها من وصف الناس لفنه ومن الكتب التي كان يتلقاها منه لماماً، فقدر أنه مثيله في نواح متعددة، وقد يفوقه في إحدى النواحي العميقة التي وصل إليها بطول المدة التي مارس فيها الرسم

جاءه البريد يوماً بكتاب من رفائيللو يقول له فيه: إنه أرسل إليه لوحة (للقديسة سيشيليا) أعدها لكنيسة (سان جوفاني) بمدينة بولونيا نفسها، وأنه يرسل هذه اللوحة إلى صديقه (فرانشيسكو) أولاً راجياً منه التكرم بمراقبة وضعها بالمكان الذي أعدت له. وقد يكون السفر الطويل قد أضر بها، أو ربما يرى فيها بعض هفوات فنية، فهو (أي رفائيللو) يرجو منه إصلاح ما فسد وتصحيح ما أخطأ فيه. على أن لغة التواضع التي اتبعها رفائيللو في كتابه إلى صديقه فرانشيسكو وأذن له بأن يعمل ريشته في اللوحة التي سيرسلها إليه ليتحقق من سلامتها وصحتها؛ كل هذا أثار في نفسه ثورة متضاربة شديدة من الأخيلة المضطربة، ولم تسعفه مخيلته في تصور ما سوف يري، أو في تقدير ما سيشاهد من المقدرة الفنية والبراعة التصويرية

وفي عصر يوم من الأيام التي مرت على وصول رسالة رفائيللو إليه رأى تلاميذه يوفضون إليه فرحين مستبشرين يزفون إلى أستاذهم خبر البشرى بقدوم اللوحة المنتظرة، وكانوا قد أعدوا لها مكاناً حسناً في المعمل على ضوء كامل

. . .ها هي الدنيا تدور برأس فرانشيسكو الشيخ. . . ولماذا؟

أنى لنا أن نصف لرجال هذا العصر الشعور الذي غمر نفس ذاك الفنان العظيم حين شاهد لوحة أعجبته وملكت لبه؟! هو شعور أخ فارق أخاً له منذ الصغر، وارتقب عودته على نار الغضى. . . وفي الوقت الذي فتح ذراعيه لعناقه كان أمام. . . أمام ملاك سماوي باهر الضياء

خفق قلب الشيخ المسكين وعنا وجهه وخشع أمام جلال الفن الرهيب، وانحنت رجلاه ساجدتين كأنه أمام كائن سماوي مهيب. . .

سمر في مكانه وتسارع الطلاب إلى أستاذهم يسرون عنه بعض ما حل به، ولا يفهمون لكل ما حدث سبباً. . . أمطروه بالأسئلة والشيخ في عالم غير عالمهم. . .

صحا الشيخ قليلاً. . . ولكنه ما زال شاخصاً نحو اللوحة السمائية (لوحة رفائيللو) ينظر وينظر. . . وكيف لنا أن نعرف ماذا كان يفكر في هذه الساعة الرهيبة؟

لقد تحطم المسكين أمام شعاع العظمة. . . وهاهو يسائل نفسه بغصة وألم عن السبيل إلى التفكير عن الجريرة التي اقترفها. إنه لكنود كفور. تطاول على رفائيللو العظيم وغمطه

فنه. ولقد خيل إليه عن جهل وطمع أنه صنو له وند. . . وقد طفق يعمل أصابعه الواجبة بشعره الأشهب الأشيب ويزرف الدمع سخيناً غزيراً على ما فرط في جانب الفن. لقد كد وجد في حياته طعماً في المجد، ولكنه في الساعة الأخيرة من عمره رأى صرح فنه الفخم ينهار أمام عظمة روفائيللو. تطلع إلى حيث كانت تنظر القديسة المصورة. . . إلى السماء وكشف عن قلبه المحطم وصلى صلاة قصيرة طلب فيها الصفح والغفران. . .

. . .خانته ركبتاه وضعفت رجلاه عن حمله فسارع تلاميذه إليه فحملوه

وكان هو خارج من معمله ينظر إلى بعض لوحاته المعلقة ونفسه تذوب حسرات وألما. وألقى نظرة الوداع على لوحة دفن القديسة سيشيليا التي كانت لا تزال في معمله وخرج.

مرض الشيخ، واصطلحت عليه الأوصاب. وأخذت ذاكرته تخبو، واستولى عليه هذيان الحمى الأخير، وراحت تعتاده السكرات والغمرات. . . لقد خان العقل الجبار صاحبه في أواخر ساعاته، ذلك العقل الذي غبر زمناً طويلاً يبدع الوجوه المشرقة ويسوى الأجسام على الأقمشة بالألوان والأصباغ. . .

واجتمعت تلك الوجوه التي أبدعتها مخيلته السحرية وخلقتها ريشته الصناع دفعة واحدة مع سعير الحمى المتأججة وراحت ترقص رقصة الشماتة والسخرية. وترفل في ثياب رثه بهيئات مقلوبة ممسوخة ووجوه مشوهة دميمة، تدق طبول الهلع وتنفخ في بوق الفزع، وتقرب ما بينه وبين الهوة المجهولة. . .

. . .وزاره طلابه يستفسرون عن صحته. . . فإذا هو قد فارق الحياة

حقاً لقد كان هذا الرجل عظيماً، حينما شعر بالضعف أمام عظمة روفائيللو العلوية، عظيماً عندما أثر في نفسه فن رفائيللو هذا الأثر الغريب. إن عبقرية فرانشيسكو في رأي حكم النقاد والمؤرخين هي في طليعة العبقريات الفذة، وآثاره تنطق بأنه راح ضحية النشوة والانفعالات الفنية

زفر الشيخ (فاسرى) زفرة عميقة وهو يقص على فاجعة الفن بموت أبي الفن فرانشيسكو فراننشا، ثم أردف قائلاً: عجبي من تلك العقول القاصرة التي تدعي النقد والعلم والتي لا تريد أن تفهم أو التي لا يمكنها أن تفهم سر تلك العبقريات التي أودعها الله سبحانه تلك النفوس العظيمة التي هي ولا شك من طينة غير طينة الناس، وتريد هذه العقول أن تقول

إن كل ما نقل إليها وما قيل لها عن هؤلاء الأبطال الجبابرة حديث خرافة أو ضرب من خيال الرواة، وليس هذا غريباً من عقول لا تسمو بطبيعتها إلى عقول هؤلاء الرسل والأنبياء: رسل الإلهام والخيال، وأنبياء الفن والجمال

إنني لآسف يا بني أن نسمع من يقول بوقاحة وصفاقة إن فرانشيسكو فرانشا قد مات بالسم.

المترجم

محمد غالب سالم

خريج الأكاديمية الملكية للفنون الجميلة بروما

من صميم الصحراء

إنسانة الحي

للأستاذ إبراهيم العريض

اسْتَمرَّتْ ذُكاءُ شا ... خصَةً من مغيبِها
وعلى البِيدِ حوْلها ... أثرٌ من شُحُوبِها
صُفرةٌ شابَها مِن ال ... ظِلِّ ما يزْدَهي بها
وكأنَّ الرِمالَ في ... لُجَّةٍ من كِثيبها
تارةً تكتِمُ الرسو ... مَ وطوراً تشى بها
وتَوارتْ. . . فأعْلَنَ ال ... أفْقُ منْعى غُرُوبها
ثُم أرخَى سُدولَه الْ ... ليلُ. . . تنْدَى بِطيبها
فتُطِلُّ النجومُ با ... سِمةً من ثُقوبها
أيُّ طَيْفٍ أثارَ رحْ ... منَها في قُلوبها
إنَّها غادةٌ على ... موْعِدٍ من حبِيبها
غادة في وُجومِها ... كالدُمى البِيضِ ساحِرَهْ
من خِلالِ الخِيام تَحْ ... دِقُ في الليْلِ حائره
تُطْرِقُ الرأسَ كيْ تِس ... يخَ إلى النُوقِ سادره
ثم تُلقِي بطَرْفِها ... حوْلَها كالمحاذِره
لأقلِّ القليلِ من ... هَمساتِ العبَاقره
وإذا قلَّبتْهُ ترْ ... سِمُ في الأفْق دائره
لا ترى في الظلامِ غيْ ... ر يدِ الله قاهره
يُثْقِلُ النومُ جفْنَها ... ثمَّ تخْشى بَوادِره
فتُناجِي بكفِّها ... أنجُمَ الليْلِ حاسره
(جنِّحِي يا عرائِسَ ال ... ليْلِ باليُمنِ طائرَه)
لمحَتْ شخْصَهُ على ... تلَّةٍ من تِلالِها
فتَثنَّتْ. . . كأنها ... بانةٌ في اعتِدالها
بعْدَ أن نفَّضتْ عباَ ... ءَتَها مِن رمالها
ومشَتْ كالقَطاةِ نا ... هِدةً في اختِيالها
وَهْيَ تُوحِيْ لصَدْرِها ... خَفَقاتِ انتِقالها
ثم حيَّتْهُ عِندَ نا ... رِ قَرًى في اشتِعالها
لم يكُنْ حوْلها ولا ... واحِدٌ من رِجالها
وعلى ثغْرِها ابتِسا ... مٌ جزَى عن مَقالها
فرَأى ما يزِيدُ في ... حُسنِها من دَلالها
ظبْيةٌ في كِناسِها ... ملء عيْنَيْ غزَالها
طلَعا فوْق ربْوَةٍ ... رفَّ كالليْل ظِلُّها
وعلى قُلَّةٍ من ال ... رمْلِ ضافٍ محلها
من وراءِ الخِيام حيْ ... ثُ ترى البِيْدُ كلها

بسَطتْ كفُّهُ الرِدا ...َء إلى مَنْ يُجلِها
خشْيةً أن يَمسَّها ... من نَدى الأرض طَلَها
وهُناكَ اسْتَمرَّ في ... حُظْوَةٍ لا يَملها
لم يعِبْ حُسنَها سِوى ... أنَّهُ يسْتَقِلها
ظمَأً في لهاتِهِ ... هلْ لها ما يبلها
غيْرَ أنْفَاسِ ساعةٍ ... في الدُجى يسْتَغِلها
فَتَعاطى مِنَ الحدِيْ ... ثِ مُداماً يَعِلُّها
ناوَلتْهُ يمينَها ... فحنا فوْقَها الشِفاهْ
هامِساً بيْنَ قُبْلتَيْ ـنِ تشِفَّانِ عن جواه
بلسانٍ مُبلبلٍ ... بعْضَ ما جاشَ من هواه
وأسمُها في حَدِيثِهِ ... دائِرٌ دوْرةَ الحياه
ثم ألقَتْ بطرْفِها ... في فُتورٍ إلى الفلاه
فترى في شُرُوقهِ ... قمراً مُرسِلاً سناه
يَملأ البِيْدَ فِضَّةٍ ... دُونَها فِضَّةُ الغُزاه
فتُناجى حبِيبَها ... لوْ يراهُ كما تَراه
أفَيُلقِي لغيْرِها ... بالَهُ. . . وهْيَ في سماه
إنَّما في سَوادِ نا ... ظِرِها كلُّ مُشتهاه
ها هُمَا - والنُجُومُ تر ... عاهُما - وهْيَ زاهِيَهْ
صورَةٌ حُلْوةٌ لقُ ... رةِ عيْنٍ بثانِيه
إنّها كالرَضيع بَيْ ... نَ ذِراعيْهِ غافيه
والي الشَعْرِمن غَدا ... ئِرِها في ترامِيَهْ
أرَجُ كالنَسيم يَنْ ... فحُ من كلِّ ناحِيه
كلَّما سرَّحت أنا ... مِلَها فيهِ ساهيه
مالَ من فَوْقِها ليُنْ ... شِدَها فيهِ قافيه
ثم يغْزُو بثغْرِهِ ... تغْرَها من حواشِيه
فيَمسُّ الشِّفَاهَ وَهْ ... يِ تحاذيهِ راضِيه
ريْثَما تُصْبحُ الشِّفا ... هُ من الْحُبِّ دامِيه
تَصْهرُ الشمْسُ جمْرَةَ ال ... قَيْظِ في البِيْدِ ثانِيَه
فتَبينُ الرِّمالُ بِيْ ... نَ يدَيْهَا كما هِيَه
وعلى الرَّمْلِ حبَّةٌ ... من لآلٍ ثمانِيَه
هِيَ قَبْلَ الصَّبَاحِ كا ... نَتْ على جِيَّدِ غانِيَهْ
(البحرين)
إبراهيم العريض
الباحث عن الهدوء. . .
للأستاذ محمود حسن إسماعيل
(وإني لأخشى أن يستمرئ القلق حياتي فيحجبني عنك . .
الهدوء الأخير!)
لَقَدْ نَصَبَ الْعُمْرُ إلاَّ شُعَاعاً ... يَكادُ عَلَى أَعْيُنِي يُحْتَضَرْ
يَشُقُّ إلَيكِ ضَبَابَ الْحياةِ ... وَيَنْفُذُ في غَيْبِها المُسْتَتِرْ
فَيَخْتَنِقُ النوُّر في صَفْحَتَيْهِ ... كما اخْتَنَقَتْ آهَةُ المُنْتَحِرْ
وَيمضِي. . عَلَيْهِ غُبَارُ الْجُنُونِ ... وَتَهوِيمَةُ الفارِسِ المُنْدَحِرْ
وَذُلُّ النَّدَى في شِغَافِ الْهَجِيرِ ... وَذُلُّ الدجى في ضِفَافِ الْقَمَرْ
وذُلُّ السَّنَا في جُفُونِ الْحَزينِ ... إذا شَابَ في مُقْلَتَيْهِ السَّهَرْ
وذُلُّ السَّنَا في جُفُونِ الْحزينِ ... إذا شَابَ في مُقْلَتَيْهِ السَّهَرْ
وذُلُّ الأماني بِقَلْبي الْجَرِيحِ ... وَقَدْ مَزَّقَتْهُ رِياحُ الضَّجَرْ
فلا يلْمَحُ النُّورَ فَوْقَ السُّهُولِ ... ولا الظِّلَّ تحْتَ غَوافي الشَّجَرْ
ولا بَسْمَةَ الْجَدْوَلِ الْعَبْقَرِيِّ ... إذا عانَقَتهُ طُيُوفُ السَّحَرْ
ولا فَرْحَةَ الْمَرْجِ يَوْمَ الرَّبيعُ ... تَلَقَّاهُ في لَوْعَةِ الْمُنْتَظِرْ
فألْقَى عَلَيْهِ الهوَى وَالشَّبَابَ ... وَأحْيَا لَدُنيَاهُ عِيدَ الزَّهَرْ. . .

سَوَاءٌ لَدَيْهِ مُسوُحُ الشِّتَاءِ ... وَأَشجانِهِ في الظَّلاَمِ الْعَكِرْ
وَفَجْرُ الرَّبيعِ وَقَدْ شاعَ فيهِ ... عَلَى صَفْحَةِ النُّورِ فَنُّ القَدَرْ!
سَوَاءٌ لَدَيْهِ رَأى كَوْنَهُ ... أَمْ ازْوَرَّ عَن كَونِهِ وَانحَسَرْ
لَقَدْ ذابَ فيهِ خَيَالُ الْوُجُودِ ... وَشَرَّدَهُ الْقَلَقُ المُسْتَمِرْ
فلا تَسْأَليهِ هُدُوَء الْحَيَاةِ ... فَقَدْ ماتَ في خاطِري وَانْدَثَرْ
سَلاَمٌ عَلَيْكِ مَعَ الْهَادِئينَ ... وَفي قَلَقي جَذْوَةٌ تَسْتَعِرْ
كَأني سَفَاةٌ دَهَتْهَا الرِّياحُ ... وَجُنَّ بهَا عَاصِفٌ ذُو شَرَرْ
كأَني جُنُونُ الهوَى في الْقلُوبِ ... إذا عاجَلَتْها لياَلي السَّفَرْ
عَلَى رِعْشَةِ الشَّوْقِ لا أَسْتريحُ ... ولا أَسْتَفِيقُ، ولا أَسْتَقِرْ. .
أَلاَ فارْفَعِي السِّتْرَ طالَ الْعَذَابُ ... وَطالَتْ لَيَالي الأَسَى وَالْفِكَرْ
وَعَنَّيْتُ حَتَّى مَلِلْتُ الْغِنَاء ... وَمَلَّتْ عَذَابي شُجُونُ الْوَتَرْ
أَلاَ أَسْرعي قَبْلَمَا يَحْتَوِيني ... هُدُوءُ الْبِلَى في ظَلاَمِ الْحُفَرْ!

محمود حسن إسماعيل

البريد الأدبي

فلسطين وصاحب الرسالة

جاءتنا هذه الكلمة الكريمة من صديقنا الأستاذ الجليل محمد إسعاف النشاشيبي فنشرناها نزولا على إرادته. قال شكر الله له:

يُطلّ من مصر كاتبُ العرب وأديبهم الأستاذ أحمد حسن الزيات صاحب (الرسالة) على أخوته الأشقياء البائسين من العرب والمسلمين في هذا الإقليم الشقيّ المبتلَي بالإنكليز وباليهود، ويشاهد ما يشاهد - ولا تسلْ عن هول تلك المشاهد - فتُملى على يراعته إسلاميّتُه وعربيته وبلاغته مقالته: (يا لله لفلسطين!)

وإنها (والله) لصفحة عربية عبقرية تضاف إلى صفحات لها مثلها كثيرات، وحسنةٌ أحمدية حَسَنِيّة مضمونة عند الله وفي التاريخ إلى مآثر جمة له وحسنات

وإن (أحمد) لَلْمسلم المؤمن يذكّره (كتابُ الله) فيدعو ويقول، وإنه لَلْبليغ كل البليغ يجول في ميادين الإنشاء والإبداع ويصول. وما (رسالته) في مصر إلا رسالة الإسلامية تخدم محمداً (صلوات الله عليه) وقرآنه وأمته ولغته وبيانه و (فيها هدًى ونور)

فحيّا الله أخانا في الدين والعربية، وحيّا رَبْعَه، وشكراً له وشكراً لهم، وبارك الله في (مصر) التي وقت حضارة الإسلام والعرب في الأمس، وأعادت ذلك المجد القديم اليوم

محمد إسعاف النشاشيبي

رأي مجلس الشيوخ في الجامعة المصرية

قدمت اللجنة المالية في مجلس الشيوخ تقريرها عن ميزانية الجامعة بهذه الكلمة:

ثلاثون سنة انقضت على وضع الأسس الأولى للجامعة قبل أن تتسلمها وزارة المعارف العمومية وتلحق بها تباعاً للمدارس العليا فتكون منها كليات تتألف منها (الجامعة المصرية) الآن وهي كليات الآداب والعلوم والحقوق والطب والهندسة والزراعة والتجارة والطب البيطري. وقد نمت روح الجامعية وترعرعت وكان لها أثر يذكر في بيئاتنا العلمية والاجتماعية على حداثة عهد هذه المؤسسة عندنا

فالجامعة المصرية بفضل عدد الكليات التي تتألف منها، والدرجات العلمية التي تمنحها، وأعلام الأساتذة الذين يشغلون كراسيها، والروح الجديدة التي أشاعتها في أساليب البحث والدرس، قد أصبحت أداة صالحة لنشر الثقافة العليا، وهيئة كاملة التكوين من الهيئات المماثلة في البلدان الراقية

على أننا نطمع في أن تسير جامعتنا خطوات واسعة إلى الأمام من حيث رفع مستوى التعليم، وبث روح البحث والتنقيب في صدور الأساتذة والطلبة رغبة في العلم من أجل العلم، حتى تصبح في القريب من الزمن منارة علم وعرفان يشع نورها في أنحاء هذا الشرق فيقصدها طلابه من كل صوب للاستزادة من التثقيف، كما يقصدون الجامعات المعروفة في أوروبا وأمريكا، وكما يقصدون الجامعة الأزهرية للاستزادة من العلوم الدينية، ولا شك في أن النهوض بهاتين الجامعتين لمن أهم العوامل الكفيلة بالاحتفاظ للمملكة المصرية بزعامتها الأدبية والفكرية، بل والسياسة أيضاً بين دول

الشرق، فتستعيد سالف مجدها وعزها
وليس بنا من حاجة إلا الإضافة في هذا الموضوع، فان كمبردج وأكسفورد في إنجلترا، والسوربون والكوليج دي فرانس في فرنسا، من أهم دعائم عظمة هاتين الأمتين. ويقال مثل هذا في سائر الجامعات في سائر البلدان. ولعلنا قائلون قريباً مثل هذا القول عن جامعتنا المصرية بالنسبة إلى مصر
المجمع اللغوي وتبسيط قواعد النحو
ذكرنا من قبل أن وزارة المعارف ألفت لجنة من أساتذة الجامعة ودار العلوم ومفتشي اللغة العربية بالوزارة، وأن هذه اللجنة أتمت مهمتها وهي وضع قواعد لتبسيط اللغة العربية وتدريسها لطلبة المدارس
وقد تلقت رئاسة المجمع الملكي للغة العربية كتاباً من وزارة المعارف تطلب فيه من المجمع درس المقترحات التي وضعتها اللجنة خاصة بتبسيط القواعد وموافاتها بملاحظات المجمع على هذه المقترحات. وأرفقت الوزارة بكتابها صورة من قرار اللجنة
وقد أرسلت إدارة المجمع كتاباً خاصاً إلى جميع الأعضاء تبلغهم فيه كتاب الوزارة وصورة مقترحات اللجنة وتطلب إلى كل منهم دراستها وإبلاغ إدارة المجمع ملاحظاته عنها
،وقد تلقت الإدارة بعض ردود من الأساتذة الأعضاء تضمنت طائفة من هذه الملاحظات سترسل إلى وزارة المعارف، بعد وصول تقارير بقية الأعضاء
مؤتمر تعليمي عربي
فتى العرب الدمشقية:
علمت أن وزارة المعارف السورية تدرس فكرة عقد مؤتمر تسليمي عربي تدعو إليه الأقطار العربية كافة، وقد وضعت الوزارة النقط اللازمة لدراستها والعمل على تحقيق هذه الفكرة
وقد اتصل بها أن الوزارة تفكر الآن في إرسال بعثة من الطلاب والأساتذة إلى العراق لزيارة القطر الشقيق وأخرى إلى القطر المصري لتبادل الزيارات بين الأقطار العربية وتوطيد العلائق والروابط بينهما
تأثير اللاسلكي في اللهجات
جاء في نشرة هيئة الإذاعة البريطانية الأسبوعية للإذاعة العربية ما يلي:
بين الأحاديث التي يتناولها برنامجنا لهذا الأسبوع حديث الأستاذ حميدة الذي سيعالج فيه مسألة السينما واللاسلكي وتأثيرها في مختلف اللهجات. والموضوع من حيث فكرته ليس بالجديد في أوربا فقد شغلت هذه المسألة بال علماء اللغة في إنكلترا منذ أن استهدفت اللغة الإنكليزية لخطر النطق المبتور والتعبيرات المهلهلة التي بدأت تتسرب إليها عن طريق بعض الأفلام الأمريكية.
ولا غضاضة - في عرفنا - أن يكون كل من السينما الناطق واللاسلكي أداة لتقريب اللهجات المختلفة، فمصلحة أبناء اللغة الواحدة تقضي بأن يفهموا جميع لهجاتها. ولكن هل من مصلحة أمة تتفاوت في اللهجات كالأمة العربية مثلا أن تتكلم لغة واحدة؟ وإذا كانت المصلحة تقضي بذلك فأي اللهجات ستختار؟ هل تختار يا ترى اللهجة الحجازية أو العراقية أو لهجة مصر أو الشام؟ أو هل يمكن النهوض بالتعليم إذا تكلم جميع أبناء العربية اللغة الفصحى؟ هذه هي المعضلة التي تجابه في إنكلترا أنصار توحيد اللهجات فاللغة الإنكليزية تشمل عدة شعوب وأقوام كل منها يتكلم لغته الخاصة وإذن كان من الصعب التوفيق بين هذه اللهجات المتنافرة؛ وطبيعي أن تثير هذه المسألة اهتمام هيئة الإذاعة
البريطانية فسعت لحلها بطريقة من شأنها الاحتفاظ بكرامة اللغة الصحيحة مع عدم المساس بلهجتها المحلية فهداها البحث إلى الاستعانة برأي لجنة استشارية مؤلفة من أعلام اللغة الإنكليزية أسندت إليهم مهمة توحيد النطق ووضع قواعد له وقيدت مذيعها باحتذاء هذه القواعد في إذاعتهم للأخبار والبيانات. واحتفظت فيما عدا ذلك باللهجات المحلية المختلفة وبذلك أمسكت العصا من طرفيها - على حد التعبير الغربي - على أن هذا الحل الوسط إذا أرضى مستمعي هيئة الإذاعة البريطانية فأنه لا يعتبر حلا كاملا لهذه المسألة الدولية التي ما زالت مدار بحث جدلي بين العلماء

حول لجنة من لجان الوزارة. .
حمدنا لوزارة المعارف عنايتها باللغة العربية والعمل على إنهاضها وتقوية أركانها، ووضع ما يضمن للتلميذ حياة أدبية خالصة تقوم على العلم الصحيح والمعرفة الحقة بأساليب الأدب وضروبه. . .
وكنا نرقب مع الراقبين ما تطالعنا به اللجنة المؤلفة من أعلام وزارة التربية والتعليم لمعالجة مشكلة لغة الضاد، وما يجده الطالب من صعوبة في تفهم ما في بطون الكتب من معان وأفكار
وقد قامت اللجنة بوضع المبادئ التي رأتها صالحة لتقوية الناحية الأدبية من نفوس النشء، كما واعتمدت في عملها هذا على ما لها من خبرة واسعة بالتعليم وشئونه. . .
بيد أن هناك ملاحظة بخصوص الكتب الحديثة التي اختارتها اللجنة على أنها صورة من أدب العصر، تدرس في معاهد العلم. وقد وقع اختيارها على الكتب الآتية: (قصص القرآن. ويوميات نائب في الأرياف. وديوان الجارم. والنظرات. وزينب. وعلى هامش السيرة. والأيام. وديوان حافظ. والفضيلة. والمختار (الجزء الأول). وحياة محمد. ومطالعات في الكتب. وديوان شوقي. والمثل الكامل. وقادة الفكر. وعلى هامش السياسة. وحصاد الهشيم. وضحي الإسلام. وديوان البارودي. وابن الرومي)
وفي ذلك الاختيار كثير من التجني على الأدب والأدباء معا؛ فليس من الخير في شيء أن تختار اللجنة كتابين أو ثلاثة لأديب واحد في الوقت الذي أغفلت فيه طائفة من الأدباء الأفذاذ الذين لهم أثر ظاهر في توجيه الحياة الفكرية في الشرق، ولهم أيضا أدب أثر يمتاز
بقوة العبارة وسمو المعنى وجمال اللفظ. . .
وبعد فهذه ملاحظة أردنا أن نسوقها إلى أعضاء اللجنة، وإليهم يساق الحديث
بني مزار
الطهناوي
(الرسالة)
جاءنا في هذا الموضوع طائفة من الرسائل وكلها مجمعة على أن اللجنة لم ترع جانب الحق حين قصرت اختيارها على كتب أعضائها ومن ترجوهم أو تخشاهم من الأصدقاء والرؤساء. . .
حقيقة جامع طوكيو
كتب العلامة السيد سليمان الندوي في مجلة (المعارف) التي تصدر عن أعظم كره (الهند) في عددها الصادر في شهر يونيه حقيقة جامع طوكيو ما يأتي:
نجم قرن الإسلام في اليابان وأخذت أشعته تنبسط في عواصمها - فأسس أول بيت) الله في مدينة كوبي، وذلك قد تم بفضل التجار الهنود. وكان أولو الأمر بهذا المسجد قد سعوا لدى الحكومة اليابانية راجين منها أن تعترف به معبداً للمسلمين رسمياً، فذهب سعيهم سُدًى؛ بيد أنهم أرسلوا هذا العام وفداً من أعضاء لجنة التنظيم للمسجد إلى طوكيو عاصمة اليابان بفضل مساعيهم زال بعض العراقيل من أمامهم وبعد تشييد الجامع بكوبي شعر المسلمون في طوكيو بحاجة إلى مسجد، لكنهم جماعة قليلة العدد ولا يتيسر لهم أن يجمعوا مالاً كافياً لبناء هذا المسجد بها، ففطن بعض رجال الحكومة اليابانية إلى أهمية عمل هكذا في عاصمة اليابان. ثم فجمعوا من ذوي الخير والسراوة نحو مليون وربع مليون (ين) وبنوا بها جامعاً ومدرسة بجانبها. تم بناء الاثنين وافتتحا رسمياً في شهر مايو الماضي، وأدى رسم الافتتاح المستر (تویاما) من دهاة اليابان وهو الذي دخل المسجد أولا ومشى بقدميه قبل الناس فلحقه التتار داخلين مكبرّين، ثم صلوا ركعتين شاكرين، وكان بخارج المسجد سرادق نصب للاحتفال خطب فيه دهاة اليابان وأكابر المندوبين من البلاد الإسلامية. وكان الأمر الذي يبدو عجيبا للمسلمين الحاضرين أن
مندوبي أفغانستان وتركيا وإيران لم يحضروا الحفلة؛ ولعل سبب ذلك أن هذا المسجد ذو صبغة سياسية
يقيم في طوكيو زعيم تتاري معروف باسم قربان علي، له مكانة ممتازة نصفها من لون ديني والنصف آخر من لون سياسي - وله جماعة من الأنصار من التتار عدتها خمسة وعشرون رجلاً، وغيرهم من التتار المقيمين في طوكيو وغيرها من مدن اليابان

وعددهم يصل إلى خمسمائة على التقريب - كانوا يشكون منه مرّ الشكوى - فاعتقل لذلك في وسط مايو وفوضت الزعامة إلى الشيخ عبد الرشيد إبراهيم فزال بعض العراقيل التي كانت تؤدي إلى عدم تعاون التتار مع رجال الحكومة في شأن المسجد. ثم أرسل رجال طوكيو دعوتهم إلى المسلمين بكوبي يرجون اشتراكهم في أمور جامع طوكيو؛ غير أنهم أجابوا: (نحن مستعدون للاشتراك إذا كان للمسلمين حرية مطلقة في تصريف أموره). فوعدهم رجال الحكومة اليابانية بذلك وها نحن أولاء ننتظر الوفاء. . .)

بدر الدين الصيني

تأديب الناشئة بآداب الدين الإسلامي

أذاعت وزارة المعارف منشوراً على نظار المدارس هذا نصه:

(تحرص وزارة المعارف على أن تكون دراسة الدين الإسلامي مقصوداً بها تأديب الناشئة بآدابه وإحساسها الإيمان الصحيح والخلق السليم، وأن المرء لا يكمل إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وتهذيب نفس الناشئ وتقوية عقله وقلبه بالمبادئ الإسلامية السامية مبادئ الإباء والأنفة والمحبة والإيثار والبر والتقوى ليصل بذلك إلى كمال الخلق وليحصل منه القواعد السليمة لصلاته بغيره، وهذه قواعد لحضارة إنسانية يقوم النظام الروحي والحياة لكمال الخلق ويكون الخلق فيها أساساً للمعاملات فيها أساساً الاقتصادية.

وتثبيت هذه القواعد في نفس الناشئة بتفقيههم في قواعد الإسلام وعباداته وتوجيههم إلى إدراك الحياة على أساسها إدراكا علمياً دقيقاً وتفتح أذهانهم بذلك إلى المثل الأعلى الذي يدعو الإسلام إليه وتقويم أخلاقهم ليكون هذا المثل الأعلى غاية مبتغاهم، هو ما نرجو أن يكون الثمرة للتعليم الديني في المدارس حتى يتأتى لمصر بقوة إيمان أبنائها أن تنهض

(بحظها من رسالة الحضارة في العالم.

جامعة عليكرة الإسلامية

جاء من مراسل الشرق العربي في بمبادئ أن عظمة نواب رامبور قرر أن يساهم بمبلغ كبير في توسيع نطاق جمعية الطلبة في جامعة عليكرة الإسلامية التي يشملها عظمته برعايته.

وجامعة عليكرة فريدة في نوعها في العالم الإسلامي؛ وقد أنشأها السير سيد أحمد خان وهو أول مسلم أذاع فوائد الثقافة الغربية في بلاده، وحاول التوفيق بين هذه الثقافة والثقافة الإسلامية في الهند. وبفضل مساعيه قررت الحكومة الاشتراك في جامعة عليكرة، ولا تزال إلى الآن تدفع لها إعانات مالية تخليداً لذكرى سيد أحمد خان.

وكان المرحوم حميد علي خان والد عظمة نواب رامبور من الذين شملوا الجامعة برعايتهم، وكانت الجامعة في ذلك الوقت تدعى المدرسة الإسلامية الإنكليزية الشرقية.

ومساهمة عظمة نواب رامبور السخية في توسيع جمعية الطلبة جاءت الآن برهاناً جديداً على أهمية اتحاد الطلبة وهو أقدم اتحاد في الهند اشترك فيه عدد كبير من الأشخاص البارزين والطلبة يتمرنون في هذا الاتحاد على الخطابة وغيرها من العلوم والفنون والاتحاد يتمتع باستقلال خاص والطلبة ينتخبون رؤساء الاتحاد ولجانه. وقد تألفت في جامعة عليكرة جمعيات عدة تعني بالدروس الدينية الإسلامية ويلقي فيها كثيرون من الطلبة القدماء محاضرات نفيسة في الشؤون الاجتماعية والدينية.

وقد أنشئ أخيراً في الجامعة فصلان جديدان لتدريس الشرع عند الشيعة والسنيين ويدير هذين الفصلين فرع الشريعة في الجامعة.

وكانت الصلاة في الجامعة تفرض على الطلبة بموجب قانون خاص ولكن هذا القانون لا يعمل به الآن نظراً إلى اهتمام الطلبة بشؤونهم الدينية من تلقاء أنفسهم.

إعادة الحياة بعد الموت

لقد دفع حرص الناس على الحياة منذ العصور القديمة بعض العلماء إلى محاولة إعادة الحياة إلى الأجسام بعد أن تفارقها أرواحها. وزعم فريق منهم أنهم قاموا بتجارب رجحت

إمكان وصولهم إلى ما يبتغون. ولعل أحدث تجربة من هذا النوع هي التي قام بها الدكتور روبرت كورنيش أحد أطباء كلفورنيا ولكنه لم يجرها على إنسان بل على كلب. وطريقة ذلك أنه خدر الكلب بالكلوروفورم ثم قتله به. وبعد أن تأكد أن الكلب أصبح جثة هامدة انتظر بضع دقائق ثم حقنه في القلب بمادة الأدرنالين ومدده على مائدة في الهواء الطلق. فبعد دقائق لاحظ أن القلب عاد يعمل وأن دقاته بدأت تعود إلى حالتها الطبيعية.

وبعد بضع ساعات استطاع الكلب أن ينهض وأن يلعق بعض السوائل؛ وبعد عشرة أيام استطاع أن يتناول طعاماً، ثم يحرك رجليه بضع خطوات.

ولكن الدكتور لاحظ أن الكلب لم يستعد قواه الذهنية وأنه فقد الكثير من حساسيته، إذ أصيب بالصمم فلم يسمع صفيراً حاداً كما فقد حاسة الشم؛ وضعف نظره ضعفاً شديداً فكان لا يرى إلا المرئيات القريبة الكبيرة الحجم كما أن صوته ضعف فاصبح لا يقوى على النباح.

وظل الكلب يعاني هذه الحالة ثلاثة شهور ثم فاضت روحه من الضعف الشديد الذي أنهك جسمه.

على أن الدكتور روبرت كورنيش يزعم أن هذه التجربة التي قام بها تعتبر الأولى من نوعها من حيث نتيجتها، كما أنها مكنته من ملاحظة حالات سيسترشد بها في التجارب القادمة التي اعتزم القيام بها.

وبالرغم من أن بعض العلماء يرجحون إعادة الحياة إلى الأجسام التي تفارقها أرواحها، فهم يشكون في إمكان إعادة الحساسية إلى الأعضاء والقوة إلى الذهن. وأقصي ما يطمعون فيه هو أن يطيلوا خفقان القلب بضع ساعات يتمكنون فيها من القيام ببعض الأبحاث العلمية.

العدد 267 - بتاريخ: 15 - 08 - 1938

هذه داري وهذا وطني
ولكن أين أحبائي؟!

للدكتور زكي مبارك

هذه داري، الدار التي أقمتها على أطراف الصحراء بمصر الجديدة لأفتح أمام قلبي آفاق المجهول من عوالم المعاني، وهذا وطني، الوطن الذي عانيت من أجله ما عانيت، ولم أخنه في سر ولا جهر، ولم ير مني غير الصدق والوفاء

هذه داري وهذا وطني، ولكن أين أحبائي؟

من كان يظن أني أقضي الأيام والأسابيع فلا أجد من يسأل عني بعد غياب الشهور الطوال؟ من كان يظن أني لا أجد أنيساً غير بريد بغداد على بُعد ما بيني وبين بغداد؟

من كان يظن أني أحبس نفسي في داري لياليَ وأياماً فلا يُسهد لعزلتي جفن، ولا يحزن قلب، ولا يرتاع وجدان؟

من كان يظن أني لم أتلق من الإسكندرية غير خطاب واحد، ولم أتلق من دمياط غير خطاب واحد، ولم أتلق من سنتريس غير خطابين اثنين، وسكت من أهواهم في المنصورة وأسيوط؟!

من كان يظن أني لم أعبُر شارع فؤاد غير مرة واحدة منذ رجعت من بغداد؟

وما فائدتي من عبور ذلك الشارع المتموِّج؟

كان لي في القاهرة هوًى معبود فتبدد وضاع، كانت ليلاي في الزمالك، فأين ليلاي وأين الزمالك؟

أنا أطفئ المصباح بعد نصف الليل وأفتح النوافذ لأرى كيف يهيم نور القمر فوق رمال الصحراء. فماذا تصنع ليلاي بالزمالك أو ليلاي في العراق؟

آه ثم آه من حيرة القلب في غفوات الليل!

أيتها الصحراء

إن حالك مثل حالي مَوَات في مَوات

وقد تمرح فوق ثراك الميت هوامّ وحشرات

وفوق ثرى قلبي الميت تمرح هوام وحشرات هي السخرية من الناس، واليأس من صلاح

القلوب، وجمال الوجود
وقد ترقّ حواشيك بالندى أو الغيث فتنبت فوق ثراك الأعشاب!
أما قلبي فقد أمحل إلى الأبد ولن ينبت فيه شيء
وأشقى الناس من يعيش بقلب أبخل من الصحراء
أيها الليل!
هل رأيت في دنياك من ينافسك في ظلامك غير قلبي؟
هل عرفت منذ أجيال وأجيال شقاء مثل شقائي؟
أيها الليل
خذ السواد من قلبي إن أعوزك السواد
خذا الظلام من حظي إن أعوزك الظلام
خذ من قلبي ومن حظي ذخيرتك للأحقاب المقبلات
خذ مني ما تشاء، أيها الليل، فلن تجد مشتهاك عند إنسان سواي
خذ مني ما تشاء بلا مَنٍّ عليك، فما أخذت السواد إلا منك ولا ورثت الظلام إلا عنك،
ومثلي يحفظ الجميل
أيها الليل
لا تجزع من العزلة، فأنا هنالك أسامرك وأناجيك
لا تفزع من الوحدة، ففي قلبي ظلمات تساير ما تحمل من ظلمات
عندي آلامي، وعندك آلامك، والجريح يأنس بالجريح بالليل
أنا أعرف من أنا في دنياي، فمن أنت في دنياك، يا ليل؟
أنت جزء من الزمان هجرته الشمس فأظلمت دنياه
وأنا جزء من الوجود هجرته الشمس فأظلمت دنياه
إن شمسي تغرب في الزمالك أو في بغداد، فأين تغرب شمسك
إن شمسك تغرب ثم تعجز عن الصبر على فراقك فترجع
وشمسي تغرب فلا ترجع
فليت حظي كان مثل حظك يا ليل!
والمقادير تترفق بك فتسوق القمر والنجوم لإيناسك
وأنا أعاني الظلام المطلق حين تغيب الشمس التي تعرف
فليت حظي كان مثل حظك يا ليل!
وأنت باق على الزمان، وأنا صائر إلى الفناء
فليت حظي كان مثل حظك يا ليل!
والناس يخافون بأسك فيتقربون إليك بالقناديل والمصابيح
وأنا مأمون الجانب فلا يتقرب أحد إليّ بشيء
فليت حظي كان مثل حظك يا ليل
من أسمك يا ليل جاء اسم ليلى، ففيها طغيانك وفيها ظلامك فلا عفا الحب عنها ولا عفا
الله عنك!
هذه داري، وهذا وطني، ولكن أين أحبائي؟
إن قلبي يستحق التأديب، فليتلق من الضيم ما هو له أهل
ألم يتلق رسائل الشوق من بغداد فسكت عنها سكوت الغادرين؟
ألم يتلق رسائل الشوق من باريس فسكت عنها سكوت الجاحدين؟
ألم تنتقل إليه الغادة النورمندية فاستعفى من صحبتها بالقاهرة محافظة على سمعته بين
الناس؟
إن قلبي يستحق التأديب، فليتلق من الضيم ما هو له أهل
أيها الليل
قد اقترب صباحك، فمتى يقترب صباحي؟
لك الخلاص من ظلماتك، فأين الخلاص من ظلماتي؟
ستمضي لشأنك وتتركني يا ليل
إن الظلمات تقتل شبابي وتحيي شبابك

إن الظلمات تصَّيرك أقوى وأعنف، وتصيرني أرقَّ وألطف، والرقة واللطف من بواكير الفناء
أيها الليل!
لقد عرفت قسوتك في بلاد كثيرة من الشرق والغرب، وما كنت أعرف أنك أقسى ما تكون في داري وفي وطني
أما بعد فأنا أعترف أن قلبي يستحق التأديب
كنت أصم أذني عمن يسألون عني في باريس وفي بغداد لأفرغ لما سموه الواجب، فليتني
أجبت الدعوة في باريس وفي بغداد لآخذ ذخيرتي من الحب والعطف!
ليتني صنعت وصنعت، ولكن هيهات فقد فات ما فات!
أيها الليل في مصر الجديدة
أنا على كل حال رفيقك وأخوك
وستمضي الأعوام والدهور، ولا تعرف أصدق مني يا ليل
سيذكرني الناسون يوم تشوكهم ... شمائلُ من بعض الخلائق سُودُ
سيذكرني الناسون حين ترُوعهم ... صنائع من ذكرى هوايَ شهود
فوالله ما أسلمت عهدي لعدرةٍ ... ولا شاب نفسي في الغرام جحود
ولا شهد الناسون مني جناية ... على الحب إلا أن يقال شهيد
زكي مبارك
ذكريات مدرسية
للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني
سأقتصر في هذا الفصل على طائفة من الذكريات تخيرتها من عهدين - عهد كنت فيه تلميذاً وعهد تال كنت فيه مدرساً وسأكتفي بالمعالم الكبرى والخطوط الرئيسية التي تغنى عن التفاصيل، ولست أرمي إلى غاية من هذا التصوير سوى ما يمكن أن يستفاد من مقابلة عهد بعهد ومواجهة ماض بحاضر. فمثلاً يمكن بسهولة أن تتصوروا حال التعليم الابتدائي إذا قلت إن تلميذاً كان معنا في المدرسة نال الشهادة الابتدائية فعين في السنة التالية مدرساً لنا في السنة الرابعة التي تعد لنيل الشهادة الابتدائية. وأبلغ من هذا في الدلالة أنه كان يدرس لنا ما كان يسمى (الأشياء) وهي عبارة عن معارف عامة وكان تدريسها يومئذ باللغة الإنجليزية. وأرسم خطاً آخر تتم به الصورة فأقول إن ناظرنا كان يقول عن نفسه إنه جاهل جاهل ولكنه إداري إداري، وكان حديث عهد برتبة البيكوية فكانت عبارة (يا سعادة البك) تغفر كل ذنب وتمحو كل خطيئة. وليس أقدر من الصغار على التفطن إلى مواطن الضعف في الكبار، وليس أعرف بالمعلم من تلاميذه. وحسبه كشفاً لستره أن مئات من العيون تفحصه كلما بدا لها، وأن مئات من الألسنة الثرثارة لا تنفك تلغط بما أدركته رؤوس أصحابها الصغيرة. وأذكر أني كنت ألاعب تلامذاً فشتمني فضربته بسلسلة مفاتيح فقطعت جلد وجهه، فذهب يعدو إلى الناظر والدم يسيل من جرحه وقال له وهو يبكي: (يا أفندي ابن عبد القادر ضربني) فأسرها الناظر وبعث يطلبني وسألني لماذا فعلت ذلك؟ فقلت: (يا سعادة البك إنه شتم أبي) وأنكر المضروب وقال: (لا والله يا أفندي) وتكرر من المضروب نعت الناظر بالأفندي وتلقيبي له بسعادة البك، فضاق صدر الناظر جداً وأهوى على المضروب بخيزرانته وهو يقول: (أفندي في عينك قليل الحيا) ولا أحتاج أن أقول إني نجوت مما كنت أستحقه من العقاب وإن الفضل في نجاتي إنما كان لكوني لم أنس (يا سعادة البك) وأن خصمي نسيها
وأوفدني إليه التلاميذ يوماً لأرجو منه أن يسمح لنا بزيارة حديقة الحيوانات مجاناً فدخلت عليه وسلمت ومهدت بيا سعادة البك ورفعت إليه رجاء الفرقة فدق صدره بكفه وقال: (حوانات حوانات إيه يا ابني. . . أسد فك السلاسل نهش عيل منكم نبقى نقول يا مين؟)
فلم نزر حديقة الحيوانات كما لم يزرها ناظرنا الذي كان يتوهم أن الأسود فيها تربط بالسلاسل
ودخل علينا مرة ونحن نتلقى درساً في الحساب فوجد المدرس يملي علينا مسألة خلاصتها أن فلاناً أقرض فلاناً مبلغاً من المال بفائدة كذا في المائة، فاستوقفه الناظر

وقال لنا أن المسألة غلط، وطلب منا أن نبين موضع الغلط فيها، ويظهر أن المعلم كان أعرف منا بالناظر فقد اكتفى بالابتسام، ورحنا نجيب بما يخطر لنا والناظر يرفض كل جواب. وأخيراً التفت إلى المدرس وقال له: (يا فلان أفندي المسألة كذب في كذب فأرجو ألا تعلم الأولاد الكذب مرة أخرى) وخرج

وكان في كل مدرسة فرقة للعب الكرة ولكن أعضاء هذه الفرقة لم يكونوا جميعاً من التلاميذ، فأني أذكر أن المدرسة جمعت من كل تلميذ منا خمسة قروش لتدفع للوزارة (المصروفات المدرسية لرجل ضخم عملاق حليق اللحية والشاربين أحمر الوجه ليلعب مع الفرقة في المباريات مع المدارس الحكومية الأخرى، وكان هذا العملاق المخيف يجيء إلى المدرسة وقت الظهر ويخرج منها بعد الغداء، وكانت مائدته تزدان بأنواع من المخلل يؤتى له بها خاصة. وكان إذا أحب أن يبقى في المدرسة نصف ساعة أو ساعة لا يجلس إلا في غرفة المدرسين وهناك تقدم له القهوة والسجاير فيشكر ذلك بهزة من رأسه، والساق على الساق والسيجارة في فمه انتظاراً لمن ينهض إليه ليشعلها له من المدرسين. وكنا نحن نتزاحم على الباب والنوافذ لنفوز برؤية هذا المنظر

أظن هذه الخطوط كافية لرسم صورة واضحة لمدرستنا الابتدائية الحكومية في ذلك العهد. والآن أنتقل إلى طائفة أخرى من الصور للمدارس الثانوية

كان التعليم الثانوي انتقالاً بأدق المعاني فقد صار كل ما في المدرسة إنجليزياً - الناظر والمدرسون والتعليم - ما عدا اللغة العربية. وأنا إلى هذه اللحظة لا أعرف كيف كنت أنجح في الامتحانات، وأكبر ظني أنهم كانوا يترفقون بنا ويعطفون علينا ويتساهلون معنا ويتركوننا ننجح على سبيل الاستثناء. وأدع غير وأقتصر على نفسي فإني أعرف بها، فأقول إني ما استطعت قط أن أفهم علوم الرياضة أو أن أقدر فيها على شيء، ومع ذلك كنت أنتقل من سنة إلى أخرى بلا عائق. وكان الأساتذة يختلفون فمنهم الفظ ،ومنهم الرقيق

وأذكر أن أحدهم كان يذكرني درسه بالكتاب الذي حفظت فيه القرآن الكريم، فقد كان يملي درس الجغرافية، فإذا كان الدرس التالي طالبنا به محفوظاً عن ظهر قلب، وكان يقف أمامه التلميذان والثلاثة دفعة واحدة وعلى مكتبه الكراسة والتلاميذ يتلون وهو يسمع، ثم يضع في كل ركن واحداً من الحافظين ليمتحن زملاءه. وكنت لا أستطيع أن أحفظ شيئاً عن ظهر قلب فكنت أحبس بعد كل درس في الجغرافيا حتى كرهتها وكرهت حياتي كلها بسببها. وكان لنا مدرس آخر من أظرف خلق الله وأرقهم حاشية وأعفهم لفظاً، فكان إذا ساءه من أحدنا أمر وأراد أن يوبخه قال له: تهج كلمة بليد مثلاً أو مجنون أو غير ذلك كراهة منه لإسناد الوصف إلى التلميذ مباشرة. ولم يكن تدريس اللغة العربية خيراً من تدريسها في الوقت الحاضر ولكنا كنا أقوى فيها من تلاميذ هذا الزمان - لا أدري لماذا!. وكان المفتش الأول للغة العربية المرحوم الشيخ حمزة فتح الله، وكان من أعلم خلق الله بها وبالصرف على الخصوص، وكان رجلاً طيباً ووقوراً مهيباً، فكان إذا دخل علينا يسرع المدرس إليه فيقبل يده فيدعو له الشيخ، ولا نستغرب نحن شيئاً من ذلك بل نراه أمراً طبيعيًّا جدًّا. وأعتقد أن منظر أساتذتنا وهم يقبلون يد الشيخ حمزة كان من أهم ما غرس في نفوسنا حب معلمينا وتوقيرهم، فأني أراني إلى هذه الساعة أشعر بحنين إلى هؤلاء المعلمين ولا يسعني إلا إكبارهم حين ألتقي بواحد منهم وإن كنت لم أستفد منهم شيئاً يستحق الذكر. ومن لطائف الشيخ حمزة أنه كان يقول ملاحظاته على المعلم على مسمع منا، ولكنه كان لا يكتب في تقريره إلى الوزارة إلا خيراً. وقد اتفق لي بعد أن تخرجت في مدرسة المعلمين وعينت مدرساً في المدرسة السعيدية الثانوية أن جاء الشيخ حمزة للتفتيش فاغتنمت هذه الفرصة وقلت: (يا أستاذ، ما هو الاسم العربي الصحيح لهذا الدخان الذي نسميه الدخان تارة والتبغ تارة أخرى) فقال: (أنظرني يا سيدي حتى أنظر في الكناشة). وأخرج مما يلي صدره تحت القفطان كراسة ضخمة لا أدري كيف كانت مختبئة غير بادية وقلب فيها ثم أنشد هذا البيت:

كأنما حثحثوا حصا قوادمه ... أو أم خشف بذي شت وطباق

ومضى عني. وفكرت أنا في كلمة الطباق التي جاءني بها الشيخ. فاستحسنتها ورأيت

أنها على العموم خير من كلمة التبغ التي نعرب بها اللفظ الإنجليزي أو الفرنسي (توباك أو
(توباكو
ومن حوادث الشيخ حمزة معي أني كنت أؤدي الامتحان الشفوي في الشهادة الثانوية وكان هو رئيسا للجان اللغة العربية فلما جاء دوري اتفق أنه كان موجوداً، فلما انتهت المطالعة وجاء دور المحفوظات وكان لها مقرر مخصوص سألني ماذا أحفظ. وكنت في صباح ذلك اليوم قد قرأت خطبة قصيرة للنبي صلى الله عليه وسلم فعلقت بذهني وألهمني الله أن أقول إني أحفظ خطبة للنبي، ففرح الشيخ جداً وخلع حذاءه وصاح (قل يا شاطر قل يا شاطر. قل يا شاطر فتح الله عليك) وسترني الله فلم أخطئ، فاكتفى الشيخ بهذا وأعفاني من النحو والصرف والإعراب
ولكنه في مرة أخرى كاد يضيع علي سنة. وكنت طالبا في مدرسة المعلمين وكانت لجنة الامتحان في اللغة العربية برياسته فقال أحد أخواني بعد خروجه من الامتحان: أن الشيخ حمزة يفتح كتاب النحو والصرف ويطلب من الطالب أن يتلو الفصل الذي يقع عليه الاختيار. ولم نكن ندرس لا نحوا ولا صرفا في المدرسة لأن الدراسة كانت مقصورة على الأدب، فأيقنا بالفشل. وجاء دوري فدخلت وأنا واثق من الرسوب وجلست أمامه فناولني كتاب مقدمة ابن خلدون فقرأت. ولا أزال أذكر فاتحة الكلام وهي (أعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها) الخ. فقال: ضع الكتاب. موضعته، فسألني عن العدوان والفعلين عدا واعتدي وانتقلنا إلى الصيغ المختلفة التي يكون عليها (الفعل) (اعتدى) مثل (اعتديا) للماضي المثنى و (اعتديا) للأمر، فسألني لماذا كان الماضي بالفتح والأمر بالكسر فلم أعرف لهذا سببا وقلت إنه لا سبب هناك سوى أن العرب نطقوا بهما هكذا. فدهش لهذا الجواب وقال: ولكن لهذا سبباً، قلت: إن اللغة سبقت النحو والصرف، وكل هذه القواعد موضوعة بعدها، وما دمت أنطق كما كان العرب يفعلون فان هذا يكفي ولا داعي للبحث عن سبب مختلق. فغضب وظهر هذا على وجهه فلم أبال بغضبه، وحدثت نفسي أنه خير لي وأكرم أن أسقط بخناقة من أن تكون علة سقوطي الجهل. وأصررت على رأيي وكاد يحدث ما لا يحمد، لولا أن المرحوم الشيخ شاويش - وكان عضوا في اللجنة - تدارك الأمر، فقد نظر في ساعته ثم التفت إلى الشيخ حمزة وقال: (العصر وجب يا مولانا) فنهض الشيخ وهو يقول (أي نعم) وذهب للصلاة ونسيني فكان في هذا نجاتي. وقد حفظت هذا الجميل للشيخ شاويش، وكانت هذه الحادثة بداية علاقتي به
ولم تكن المواد كثيرة أو طويلة في مدرسة المعلمين، ويكفي أن أقول إنه كانت لنا في الأسبوع ثماني ساعات لا نتلقى فيها أي درس، فترك هذا التخفيف وقتاً كافيا للمطالعة الخاصة؛ وكان أساتذتنا وناظرنا يشجعوننا عليها بكل وسيلة ولا يفوتهم مع التشجيع والحث أن يوجهونا وينظموا لنا الأمر، وأحسب أن هذا نفعنا جدا
وقد صرت معلما بعد ذلك وظللت أشتغل بالتعليم عشر سنين؛ خمس منها في الوزارة وخمس في المدارس الحرة، وفي هذه السنوات العشر لم أحتج أن أعاقب تلميذا أو أوبخه أو أقول له كلمة نابية. ولم يقصر التلاميذ في محاولة المعاكسة ولكني كنت حديث عهد بالتلمذة وبشقاوة التلاميذ، فكنت أعرف كيف أقمع هذه الرغبة الطبيعية في الشقاوة. وكانت طريقتي أن أتجاوز عن الذي لا ضير منه فلا أشغل به نفسي والتلاميذ، مثال ذلك أن يحتاج التلميذ إلى قلم أو نشافة فيطلبها من جاره ويكلمه في ذلك فلا أعد هذا من الكلام الذي لا يباح، ولا أقيم ضجة من أجله. وقد حدث يوما وأنا مدرس في الخديوية أن دخلت فرقة فألفيت على مكتبي كل أدوات الرياضة مرصوصة على نحو لا شك أنه معتمد، وكان تلاميذي لا يجهلون كرهي للرياضة، وكنت أنا لا أكتمهم أني أعد نفسي جاهلا بها حمارا في علومها؛ وكان غرضهم من رص هذه الأدوات أن يعابثوني عسى أن أثير الضجة التي يشتهونها ولا يفوزون مني بها. ولكني لم أفعل بل اكتفيت بأن دعوت الفراش فحمل هذه الأدوات ووضعها في مكانها ثم بدأ الدرس. وأتفق يوماً آخر أن دخلت الفصل فإذا رائحة كريهة لا تطاق، وكان الوقت صيفاً والجو حاراً جداً فضاعف الحر شعوري بالتنغيص من هذه الرائحة الثقيلة. وأدركت أنها هي المادة التي كنا ونحن تلاميذ نضعها في الدواة مع الحبر فتكون لها هذه الرائحة

المزعجة. فقلت لنفسي إنهم ثلاثون أو أربعون وأنا واحد، وإذا كانت الرائحة القبيحة تغثي نفسي فإنها تغثي نفوسهم معي أيضاً. فحالهم ليس خيراً من حالي، والإحساس المتعب الذي أعانيه ليس قاصراً علي ولا أنا منفرد به؛ وإنهم لأغبياء لأنهم أشركوا أنفسهم معي وقد أرادوا أن يفردوني بهذه المحنة. والفوز في هذه الحالة خليق أن يكون لمن هو أقدر على الصبر والاحتمال، فتجاهلت الأمر وصرت أغلق النوافذ واحدة بعد أخرى لأزيد شعورهم بالضيق والكرب فلا يعودوا إلى مثلها بعد ذلك، وقد كان.

تصبرت وتشددت ودعوت الله في سري أن يقويني على الاحتمال، ومضيت في الدرس بنشاط وهمة لأشغل نفسي عما أعاني من كرب هذه الرائحة الملعونة. وكنت أرى في وجوههم إمارات الجهد الذي يكابدونه من التجلد مثلي فأسر وأغتبط وأزداد نشاطاً في الدرس وإغضاء عمن يرفعون أصابعهم ليستأذنوا في الكلام فقد كنت عارفاً أنهم إنما يريدون أن يستأذنوا في فتح النوافذ عسى أن تخف الرائحة ويلطف وقعها.

وظللنا على هذا الحال نصف ساعة كادت أرواحنا فيها تزهق، ورأيت أن الطاقة الإنسانية لا يسعها أكثر من ذلك، وأن التلاميذ خليقون أن يتمردوا إذا أصررت على عنادي المكتوم، واغتنمت فرصة إصبع مرفوعة وسألت صاحبها عما يريد، فقال إنه يريد أن يفتح النافذة لأن الحر شديد. قلت افتحها، وفتحت النوافذ كلها. وتشهدنا جميعاً واستأنفنا الدرس ولكن بفتور لشدة ما قاسينا من رياضة النفس على احتمال مالا يطاق. وانتهى الدرس وخرجت فخرج ورائي ثلاثة أو أربعة من التلاميذ ولحقوا بي، وقال لي واحد منهم إنهم يأسفون لما حصل وإن الأمر كان مقصوداً به غيري، وإنهم يطلبون الصفح، فسررت ولكني تجاهلت وسألتهم عما يعنون. وقالوا: الرائحة الكريهة التي كانت في الفصل. وقلت: رائحة. . . أي رائحة؟ إنني مزكوم ولهذا لم أشم شيئاً فلا محل لاعتذاركم. ومضيت عنهم، وكان هذا درساً نافعاً لهم ولو أني عاقبت أحداً لما أثمر العقاب إلا رضاهم عن نفوسهم لأنهم استطاعوا أن ينغصوا علي، وأن ينجح معي عبثهم الطبيعي في مثل سنهم

وفي آخر سنة من اشتغالي بالتدريس توليت أمر مدرسة ثانوية فقلت للأساتذة: إني ألغيت العقوبات جميعاً فلا حبس ولا عيش حاف ولا شيء مما اعتاد المعلمون أن يعاقبوا به التلاميذ. ونظريتي هي أن المدرس الذي يحتاج إلى معاقبة تلميذه لا يصلح لهذه المهنة وخير له أن يشتغل بغيرها، وأن العلاقة بين المعلم وتلميذه ينبغي أن تقوم على المودة والاحترام، وأن يكون أكبر وأقوى عامل فيها هو شعور التلميذ بأن المدرس والد له يبغي له الخير ويخدمه ويفتح له نفسه ويقوي مداركه وينمي استعداده، وأنه لا يلزمه بدرس ولا يفرض عليه شيئاً بل يرغبه في الدرس ويحبب إليه التحصيل. وعلى هذا فليس لأحد من المعلمين أن ينتظر مني أي معونة على ضبط النظام، وقد كان. قضينا في هذه المدرسة سنة كاملة لم يشعر فيها التلاميذ بسلطان أو سطوة، وإنما شعروا أنهم أبناء لنا وأننا إخوان

كبار لهم وأصدقاء نافعون ولم أكتف بهذا بل ألغيت (الجرس) الذي يدق إيذاناً بابتداء الدرس أو انتهائه لأني لم أر حاجة إليه بعد أصبح التلاميذ يحرصون على الحضور والمواظبة من تلقاء أنفسهم وبدافع حبهم للمدرسة ورغبتهم في الوجود بها مع إخوانهم المدرسين حتى لقد كان الواحد منهم يمرض فيحضر، وبهذا استغنيت أيضاً عن الدفاتر الكثيرة التي تستعمل في المدارس والتي تحتاج إلى موظفين كثيرين لا داعي لهم. وقد كنت أحب أن أظل في هذه المدرسة لأرى نتيجة التجربة. ولكن الحركة الوطنية بدأت في صيف ذلك العام وجرفنا جميعاً تيارها الزاخر فهجرت التعليم إلى الصحافة. ولو عدت إليه الآن لكان من المحقق أن أخفق فقد اختلف الحال جداً وانقلبت الأوضاع.

إبراهيم عبد القادر المازني

حرمة البيان

للأستاذ عبد المنعم خلاف

لو كان الأدباء (إلهيين) يقدمون لله الأزهار التي يقطفونها بأقلامهم من حديقته قبل أن يقدموها للناس، لحسبوا للحق والشرف والجمال الأصيل أكبر حساب، ولاستحيوا أن يقدموا لعين الله الناقدة العالمة كلاماً باطلاً أو دنيئاً أو زائفاً. . . ولكن كثيراً منهم رضوا بأن يكونوا (وثنيين) ينحتون من الألفاظ أصناماً يزوقونها ويصرفون الإنسانية بها عن

وجه الله في بعض الأحيان. . .!
فهم يقدمون أزهارهم للأعين الكليلة البليدة مُغْفلين (الفنان الأعظم!) الذي يجب أن يرفع إليه كل عمل جميل شريف حتى يوقع عليه بطابعه. . .
ما هو الجمال؟ ما هو الحق؟ ما هو الشرف؟ لولا الله. . .
كل المعايير والموازين ساقطة باطلة مبلبلة إذا لم تكن في يده هو!
كل الصدق كذب. . . وكل الخير شر. . . وكل الحق باطل إذا لم يقله لنا هو!
ما الفرق بين صانع الكلام وصانع الأحذية إذا كان مدار الكلام هو الخبز. . . أو إرضاء جمهور الحرفاء أو الشهرة الجائعة التي لا تشبع أبداً؟
إني أقرأ بعض صحف الكلام فأشعر أنها من حقارتها وذلتها كالنعل. . . وكالنعل البادية القذرة لكثرة ما فيها من خروق عقل صاحبها أو خروق خلقه. . .
إن حاسة البيان جانب مقدس لأنها خاصة الإنسان المترجم عن الإلهية، فيجب أن يكون فيها ذلك السيال الخفي في الأصوات أو في السطور
وإن في حديقة الله أعاجيب وتهاويل وحقائق كبيرة لا يسمح إلا للأقلام النظيفة بالقرب منها ورصدها وتقريبها لذوي النظر القاصر من الإنسانية المادية العاملة التي ليس لها وقت للوقوف عند كل شيء ومحادثته وأخذه في النفس بالتأمل والدرس
إن في الأدب صوفية وكذلك في الفن على العموم، والصوفية نظافة وإدراك مرهف ودوران حول النفس والطبيعة وحساب دقيق للنسب بين الموجودات ثم نظرة دائمة إلى الفنان الأعظم!
فمتى يدرك الأدباء أن هذا أساس البيان وأن مقاييس الشرف الأدبي تسقط الأدب الكاذب أو
الداعر أو الزائف أو الجاهل بهذه الحقائق ولو ساقوا ألف دليل ودليل على أن مهمة الأدب تسجيل كل ما في الحياة ولو كان فحشاً أو نكراً؟
إني أنزه حرمة البيان أن أسخره في شيء تافه أو دنس حتى لا أصرف عنه عيون عشاق الحكمة الشرفاء الذين إليهم وحدهم يجب أن يرفع الكلام ويوجه الأثر الفني. . .
وحتى لا أقذي به عيون النساء والناشئين الذين يجب أن نصونهم عن القبح والزيف؛ والطفولة والشباب هما موضع آمال الإصلاح وقوالب المثل العليا التي فاتنا أن نحققها في أشخاصنا، والنساء هن مستودع تلك القوالب. . .
أنا أريد وأتمنى أن يكون الأدب واحة في صحراء الحياة المادية بجانب واحة الدين، لتفر إليها النفس المتهالكة المختنقة من ضجة الآلات ومادية العيش والارتفاق. وإن في الأدب صوراً تلمس فيها ذكاء وعبقرية صنع، ولكنها لا تحرك في نفسك ذلك الإحساس العميق بالحياة، ولا تثير في قلبك ذلك الدم النادر الذي لا يثور إلا في عبادة خالصة أو في فرح مقدس أو ألم مقدس. وهنالك أدب يشعرك بذلك المعنى السامي الذي يؤكد لك الإحساس به أنك أعظم من جسدك الحيواني. . . وأنك أوسع من تلك الكتلة اللحمية المحدودة. . . وأنك أخف من ذلك الجرم الترابي الكثيف المربوط بالأرض. . . وأنك باستمرار محوط بأسرار وقوى تخاطبك وتجاذبك. . . ولكنك لا تسمع ولا تحس إلا إذا فتحت سمعك كلمة منبهة من قلم نظيف حساس. . .
جوهر النفس والطبيعة ينبغي أن يكون هو وحده مطلوب الفنان، أما القشور فلا يطلبها فنان ذو افتتان بالحقائق الكبيرة التي تتطلب من راصدها عشقاً لها وحدها وأمانة لقوانينها وفضائلها.
هنالك أدب كموسيقى (الجازبند) يثير في النفس أطيش ما فيها وأخفه وأحمقه، ولا يدخل عليها محصولاً من شعور نبيل أو فكرة كريمة، ولا يلفتها إلى شيء مخبوء، ولا يفتح لها باباً مغلقاً. . . هو تماماً كتلك الموسيقى المجنونة البربرية التي تحمل على طيش الجسد ورقصه وضجة شهواته وحماقاته. قد يكون فيه براعة لفظية وخفة يد أو لسان. . . ولكنها كبراعة (الحاوي) وخفته. . . ولا تحملك على اعتقاد بأن صاحبها خالق أو جاد يقصد لباب الحياة. . .
ومنذ أن قال امرؤ القيس أقواله الفاحشة في المرأة، ونظم الفرزدق وجرير الشتائم والسباب، وقال أبو نواس وبشار وأضرابهما في معاني الشذوذ والضعف الخلقي، وامتلأ العصر العباسي الثاني بالتفنن في تسجيل الصور الدنيئة من حياة الإنسان كما يتمثل في يتيمة الدهر (قاموس الأدب الداعر الوقح!) - منذ ذلك كله تحول ذوو الطبائع

الجادة وعشاق الحكمة والمشغولون بالحق والجمال الأصيل إلى وجهات أخرى في الحياة غير وجهة الأدب والاشتغال بمحصوله
لماذا يتكلم الناس؟ أللإبانة عما في نفوسهم؟ أم لإخفاء ما فيها كما يقول (تاليران) الخطيب الفرنسي المشهور؟
أنا مع تاليران كما دلتني مواقف كثيرة كنت أقرأ فيها على الوجوه وأشعة العيون غير ما يقول اللسان. . . وقد قرر عمر بن الخطاب أن مع التفاصح النفاق حين حبس الأحنف بن قيس مدة لما رأى من فصاحته ولَسنه فخشي أن يكون وراءهما نفاق، ثم تبين له شذوذ القاعدة في الأحنف فأطلقه. وقد دلتني على ذلك أيضاً ألاعيب صناع الكلام والمفتونين فيه الذين يكفرون بالحق لأجل كلمة، ويغيرون معايير الطبيعة لأجل قافية، ويخسرون صداقة الفضيلة لأجل سجعة أو نكتة!
ولو كنت ذا وصاية عامة على تهذيب الناشئين لكانت مهمتي تتلخص في تربيتهم على الاقتصاد في الكلام ما وسع الصمت وعلى التفكير فيه وحديث النفس به قبل إعلانه على تلك الآلة الصغيرة الخطرة: اللسان أو القلم!
التفكير التفكير، وارتياد طريق الكلمة قبل تسجيلها بالصوت أو المداد، وبعث الكشافة من شعور النفس وفروض السامعين أو القارئين، والإتيان بجديد إن كان المقصود بالبيان هو (الأثر الفني) وترك الآثار مدة حتى تختمر وترجع النفس وافرة وتقر الأخلاط الثائرة وتذهب فتنة ابتداء القول والإعجاب به كما يقول الجاحظ، وكما أشار العماد الأصفهاني إلى طبيعة الإحساس بالنقص في الأثر البياني من صانعه بعد مرور حين من الزمان. . .
لا يعني الشاعر المتأمل أن يتكلم بقدر ما يعنيه أن يتأمل! وإن لذة الخلوص إلى النفس، والشعر النفسي الذي ترسله الروح بحوراً لا قيود لها ولا تكلف ولا كذب ولا ألفاظ بها قراءة آثار الغير وقراءة الدنيا بدل الإملاء عليها. . . ليست أقل من لذة الكلام وإظهار ما
في النفس، إن لم تفقها بأضعاف! بل إن الثانية يصحبها ألم تقييد المطلق وتحديد اللانهائي وتضييق الواسع وضغط المعاني في قوالبها وطمس جمالها بالألفاظ العجزة وأنا شخصياً لا أجد في نفسي نشوة حين أقول بقدر النشوة التي أجدها حين أفهم ما يقال من الآثار الجميلة
والإلحاح في طلب الشهرة من طريق تتابع الآثار الأدبية الخفيفة الوزن والمحصول هو عيب أكثر أدباء الشباب. فلو عرف كل أديب أن لا عليه أن يصمت حيث لا جديد عنده يضيف إلى ميراث الأدب سطراً قيماً، لاستراح هو من النقد واستراح القارئ من تكرير المعاد المكرور (ومت بداء الصمت خير لك من داء الكلام)
والإلحاح في طلب الشهرة ينبئ عن (مركب نقص) دخيل يحسه صاحبه ويريد أن يغطيه عند نفسه أولا وعند الناس ثانيا. وما يعظم العظيم حتى يتوارى عن أعين الناقصين إشفاقا عليهم من آلام الحسد والفقد. وإذا اكتملت معاني الثقة والعظمة في نفس عاشت منها في ضجة يخيل إليها معها أن بصيرة الناس تحسها وآذان القلوب تسمعها، فلا حاجة بها بعد ذلك إلى إعلان أو إلحاح ولجاجة.
وكم يحملني شخص لم يكتب إلا كلمة أو لم يخطب إلا مرة واحدة على احترامه وتقدير ما عنده لأني عرفت نفسه وجوهر فكره وقلبه.
وكم يحملني آخر من (محترفي صناعة الكلام) على احتقاره وازدراء ما عنده ولو غطى نفسه بألف رداء من التظرف أو التوقر أو البراعة في اللعب بالألفاظ. . . جوهر النفس أشع وأوضح من أن يخفى. . فليعرف ذلك الخادعون للناس والمخدوعون في أنفسهم المغرورون بالألفاظ، السيئو الظن بعقول الناس وذاكرتهم وتأويل صمتهم. . .
ألاعبون بالألفاظ أيها الأدباء. . أم مؤمنون بالخير والجمال الأصيل؟
أأرضيون أنتم تترجمون عن حياة حيوانية. . أم متعلقون بما فوق. . .؟
أأذكياء أنتم تعرضون فصاحتكم وشقشقتكم واختلاج ألسنتكم وأقلامكم. . . أم لكم قلوب تشيرون بها وحدها إلى الحقائق الكبيرة في الحياة؟
أمصرون على التلهي بالأصداف والقواقع والقشور. . . أم ساعون جاهدون إلى إدراك الجوهر واللب؟

أأوابد مفرقة متهاترة. . . أم جنود في كتيبة واحدة لغاية واحدة؟ إنكم بالأوضاع الأولى محترفون للتعيش والكسب. . . وبالأوضاع الأخرى أصحاب رسالة. . . إنكم بالأولى ترضون أن تبيعوا أقلامكم وتعيشوا من غير عقيدة وهدف وتؤجروا كما تؤجر النوادب . . .أو القيان للوقوف في المآتم والأعراس بدون قلوب ولا دموع ولا ابتسام ولا ابتهاج وإنكم بالأخرى تفرضون صحتكم على أمراض العقول وتصحيحكم على أغلاط الناس . . .وتسيرون في الناس كالراعي في القطيع وكالآباء في الأسرة

يا لضيعة الإنسانية إذا ما سخرت جهالتها علومَها وآثامها فضائلها وأمراضها سلامتَها! يا لضيعة الرءوس إذا ما تحكمت فيها الأقدام والأيدي والمعدات!

غفرانك يا قلم! وصفحاً عن جريرة الذين يحملونك ولا يدرون مجدك وملكوتك! هم لا يدرون أين يغمسونك. . . فهم يغمسونك في الأوحال والأدناس ويقدمون على طرفك للناس بعراً. . . وهم يتوهمونه زهراً. . . من تدليس معاطسهم وكيد أنوفهم وانتكاس طبائعهم

إن بعض الكتاب لا يغمسونك إلا في دماء قلوبهم ولا يصدرون بك إلا عن وحي الحق والواجب والمجد والجمال الأصيل فهم لا يكتبوا ليملؤا صحائف بمداد أسود وكفى. . . فعل الذين يعلنون به عن أنفسهم التي تحس الحقارة وتغطيها بالشهرة وتريد أن تقول حتى للحمير والكلاب والأحجار: هأنذا. هأنذا أديب كبير أيتها الأحجار والحمير! ولكنهم يكتبون فاهمين حرمة القلم الذي أقسم به الإله. . . وفاهمين أنه هو الذي غير تاريخ البشرية وجعلها تسير نحو مجدها وتسجل خطواتها، فليس لأحد أن يستعمله إلا في مطالب الشرف

ولو درى بعض الأدباء أي جناية يجنونها على الخلق والشرف والجمال في نفوس الشباب لحطموا أقلامهم واستبدلوا بها الفئوس أو المكانس. . . فان استعمال الفأس أو المكنسة معنى سامياً في خدمة الإنسانية من وجوه . . .

إن بعض الأدباء أفلسوا في أن يقدموا للإنسانية معنى يرفعها أو شعاعاً يهديها. . . فماذا يفعلون ليشتهروا؟ لا شيء إلا أن يقدموا لها معنى يخفضها. . . على مذهب القائل:

إذا أنت لم تنفع فضر فإنما ... يرجى الفتى إذ ما يضر وينفع

وشهد الله أننا ما نكتب لشهوة الكلام، ولا لرؤية الصحف المسودة. . . ولا ليقال عنا إننا

كذا وكذا. . . وإنما نكتب حين نشعر أن دمنا يسير إلى أقلامنا ويرعش بنائنا فترسم به صوراً. . .!

ليس بنا فتنة الحديث إلى أحد. . . وإنما نتحدث إلى أشياء أخرى لا يراها الناس. . . نتحدث إلى طبقة (أرستقراطية) مخبوءة مضنون بها على أكثر العيون والأسماع. . . نقول لها وتقول لنا، ونلازمها وتلازمنا متفاهمين ليس بيننا غل ولا شحناء. ترينا من عجائبها وتلبسنا مما عندها مناظير وأثواباً. . . وتضيء لنا بمصابيحـ. . . وتعرفنا إلى جهات مجهولة، وتقذف بنا إلى كل ناء بعيد. . . وتقول للدنيا المستورة: هذا قارع لبابك طويلاً فافتحي له وخذيه. . . .

وأعود فأكرر: إن في حديقة الله أعاجيب وتهاويل وحقائق كثيرة لا تنالها ألا الأقلام النظيفة

وإن في الأدب الحق صوفية تحتم إدامة النظر إلى (الفنان الأعظم) الذي (إليه يصعد الكلم الطيب)

(القاهرة)

عبد المنعم خلاف

البصرة

للدكتور عبد الوهاب عزام

خرجنا من الناصرية على الفرات جنوبي العراق نريد البصرة يوم الخميس 30 أبريل سنة 1936 والساعة ثلاث وعشر دقائق بعد الظهر، والناصرية حاضرة لواء المنتفق بنيت على نظام حسن منذ ثمانين عاماً، وسميت باسم ناصر باشا السعدون رئيس عشائر المنتفق، وبينها وبين البصرة مائة وخمسة عشر ميلاً.

سارت بنا السيارة ثلاث ساعات على حافة بادية الشام في قسمها الجنوبي المسمى

بالسماوة، نجد على البعد ريح نجد ونرى الشيح والقيصوم؛ وبينا نحسب الساعات والأميال، تشوقنا البصرة وذكرياتها. قال أحد الرفاق: انظروا إلى شجرة الأثل - هذا أثل الزبير. قاربنا المدينة

مدينة الزبير مدينة صحراوية على مقربة من البصرة الحديثة بينهما نحو عشر كيلات، وكانت في العصور الخالية قسماً من البصرة القديمة، سميت باسم الزبير بن العوام أحد الصحابة قتل بعد موقعة الجمل في وادي السباع على مقربة من المدينة ودفن بها وسكان الزبير معظمهم نجديون أهل نشاط وتجارة، وقد جلبت إليها الحكومة العراقية الماء من البصرة منذ سنتين وكان شربهم من الآبار

وبها من المشاهد قبر الزبير رضي الله عنه في مسجد كبير، وفي جانب من هذا المسجد قبر عتبة بن غزوان مؤسس البصرة في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنهما. قلت في نفسي: قبر العتبة يذكرني بالفتح والتعمير، وضريح الزبير يذكر بالخلاف والقتال بين المسلمين، وتلك أمة قد خلت. أسأل الله إصلاح النفوس وتأليف القلوب. وخرجنا من مسجد الزبير إلى ظاهر البلد فرأينا قبة صغيرة تحتها قبران: قبر الحسن البصري، وقبر محمد بن يسرين من التابعين، قلت: قد أصطبحا حيين وميتين. وإن الذي يذكر الحسن يملأ نفسه الإجلال والإكبار لهذا الرجل رجل الذكاء والعلم والفصاحة والورع والجرأة في الحق. وقد روي عن ثابت بن قرة أنه قال: ما أحسد هذه الأمة العربية الأعلى ثلاثة أنفس: عمر بن الخطاب والحسن البصري والجاحظ. وقال عن الحسن: كان من دراريّ النجوم علما وتقوى، وزهدا وورعا وعفة ورقة وفقها ومعرفة. . . يجمع مجلسه ضروبا من الناس، هذا يأخذ عنه الحديث، وهذا يلقن منه التأويل، وهذا يسمع منه الحلال والحرام، وهذا يحكي له الفُتيا، وهذا يتعلم الحكم والقضاء، وهذا يسمع الوعظ، وهو في جميع ذلك كالبحر العجاج تدفقا، وكالسراج الوهاج تألقا. ولا تنس مواقفه ومشاهده في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند الأمراء وأشباه الأمراء بالكلام الفصل واللفظ الجزل. . . الخ

وأما قبور الصالحية التي ذكرها ابن بطوطة كمالك بن دينار وسهل ابن عبد الله فلم نجد عند القوم خبرا عنها. وأما قبر أنس ابن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم فعند وادي السباع بعيد عن المدينة.

فصلنا عن مدينة الزبير فرأينا على بعد قبة منفردة في البرية وعرفنا أن تحتها ضريح طلحة بن عبد الله أحد الصحابة، وقد قتل في واقعة الجمل أيضاً. ثم مررنا بمأذنة مفردة ليس بجانبها بناء فقيل إنها مأذنة مسجد علي رضي الله عنه. وكان هذا المسجد في وسط المدينة. وكان مسجداً عظيماً بقي وحده بعد خراب البصرة القديمة ورآه ابن بطوطة وقال إنه من أحسن المساجد وصحنه متناهي الانفساح، مفروش بالحصباء الحمراء التي يؤتى بها من وادي السباع، وفيه المصحف الكريم الذي كان عثمان رضي الله عنه يقرأ فيه لما قتل

ثم دخلنا مدينة البصرة وهي على ثمانية أميال إلى الشمال والشرق من البصرة القديمة التي تم خرابها في أوائل القرن الثامن الهجري وخراب البصرة يضرب به المثل

ولله ذكر تحيط بالداخل إلى البصرة! إنها ذِكَرُ الفتح والتعمير الإسلامي. إنها ذكر العلوم والآداب العربية. هنا ولد النحو وعلوم اللغة؛ هنا أبو عمرو بن العلاء والخليل بن أحمد وسيبويه والأصمعي ثم الحريري؛ وهنا بشار وأبو نواس؛ وهنا أئمة المعتزلة إبراهيم النظام وأبو الهذيل العلاف؛ وهنا نادرة الزمان أبو عثمان الجاحظ. هنا إخوان الصفاء الذين دونوا خلاصة الفلسفة الإسلامية، وهنا المربد حيث كان يجتمع الشعراء والفصحاء فيستمع الناس ويقضون لمتكلم على آخر. هنا أنشد جرير والفرزدق وغيرهما.

سألت أين المشان قرية الحريري التي كان بها نخله الكثير فقيل لا يزال اسمه معروفاً شمال البصرة فأنشدت ما كتبه سديد الدولة ابن الأنباري إلى الحريري:

سقي زرعي الله المشان فأنها ... محل كريم ظل بالمجد حاليا

أسائل من لاقيته كيف حاله ... فهل يسألن عني ويعرف حاليا

البصرة اليوم مدينة عامرة كبيرة، واسعة التجارة قد شمل التنظيم الحديث قسماً كبيراً منها، وقسمها الحديث يسمى العشار يقع على شط العرب، وتشرف على هذا النهر العظيم قصور أغنياء البصرة تتباين فيها الغنى والبذخ والترف، لها مجالس على

النهر وسلاليم ترسو عليها الزوارق
وعلى بضعة أميال من المدينة تقع ميناء البصرة الحديثة تدخل إليها البواخر الكبيرة، ولها مستقبل تجاري وحربي عظيم؛ والجهة التي بها الميناء تسمى المعقل ويسميها الأوروبيون مركيل وأحسبها مسماة باسم معقل بن يسار المزني. وكان هناك نهر يسمى نهر معقل. وجاء في الأمثال: إذا جاء نهر الله فقد بطل نهر معقل
والبصرة مدينة البندقية العربية فهي واقعة على شط العرب العظيم تخرج منه أنهار كثيرة تخترق المدينة، فتجد الأنهار في شوارعها الفسيحة تطل عليها الدور والبساتين
وأذكر أني سرت من المدينة إلى أبي الخصيب في طريق معبدة تظلها النخيل والأشجار نحو عشرين ميلاً فاجتزت أربع عشرة قنطرة على الأنهر الآخذة من شط العرب
والبصرة أكثر بقاع العالم نخلاً، بها نحو عشرة ملايين نخلة. ويكاد النخيل يتصل ما بين القرنة حيث يجتمع دجلة والفرات إلى مدخل خليج البصرة وذلك نحو 150 كيلا. وقد روى الأصمعي عن الرشيد أنه قال: نظرنا فإذا ما على وجه الأرض من ذهب وفضة لا يبلغ ثمن نخل البصرة. . . الخ
وهذا الخصب العظيم والعمران الكثيف على مقربة من البادية. فمن شاء تحضر ونعم بألوان الحضارة، ومن شاء تبدّى واستمتع بحرية البداوة وبالصيد وغيره
وقد قال ابن أبي عيينة المهلبي يصف البصرة:
يا جنة فاقت الجنان فما ... يعدلها قيمة ولا ثمن
ألفتها فاتخذتها وطنا ... إن فؤادي لمثلها وطن
زوّج حيثانها الضباب بها ... فهذه كنة وذا ختن
فانظر وفكر لما نطقت به ... إن الأديب المفكر الفطن
من سفن كالنعام مقبلة ... ومن نعام كأنها سفن
وقال خالد بن صفوان: يغدو قانصنا فيجيء هذا بالشبوط والشيم، ويجيء هذا بالظبي والظليم. . . والشبّوط والشيم من أنواع السمك
وقال ابن أبي عيينة أيضاً:
ويا حبذا نهر الأبلة منظرا ... إذا مدّ في إبانه الماء أو جزَر
ويا حسن تلك الجاريات إذا غدت ... مع الماء تجري مصْعدات وتنحدر
وسقيا بساتين البصرة ومزارعها من المد. وذلك أن شط العرب يمد ويجزر. وقد وصفه الشعراء والكتاب والرحالون على اختلاف العصور
قال خالد بن صفوان:
وأما نهرنا العجيب فان الماء يُقبل عنقاً فيفيض متدفقاً، يأتينا في أوان عطشنا، ويذهب في زمان رينا، فنأخذ منه حاجتنا ونحن نيام على فُرشُنا. فيقبل الماء وله عباب وازدياد لا يحجبنا منه حجاب، ولا تغلق دونه الأبواب، ولا يتنافس فيه من قِلّة، ولا يحبس عنا من علة
وقال الجاحظ وهو يعدد عجائب البصرة:
منها أن عدد المد والجزر في جميع الدهر شيء واحد، فيقبل عند حاجتهم إليه ويرتد عند استغنائهم عنه؛ ثم لا يبطئ عن الأرض إلا بقدر هضمها واستمرائها وجمامها واستراحتها، لا يقتلها عطشاً ولا غرقاً. يجيء على حساب معلوم، وتدبير منظوم ومدد ثابتة، وعادة قائمة، يزيدها القمر في امتلائه كما يزيدها في نقصانه. فلا يخفى على أهل الغلات متى يتخلفون ومتى يذهبون ويرجعون، بعد أن يعرفوا موضع القمر وكم مضى من الشهر، فهي آية وأعجوبة، ومفخرة وأحدوثة، لا يخافون المحْل ولا يخشون القحط
قال ياقوت الحموي:
كلام الجاحظ هذا لا يفهمه إلا من شاهد المد، وقد شاهدته في ثماني سفرات لي إلى كيش ذاهباً وراجعاً، ويحتاج إلى بيان ليعرفه من لم يشاهده: وهو أن دجلة والفرات يختلطان قرب البصرة ويصيران نهراً عظيماً يجري من ناحية الشمال إلى ناحية الجنوب؛ فهذا يسمونه جزراً، ثم يرجع من الجنوب إلى الشمال ويسمونه مدا، يفعل ذلك كل يوم وليلة مرتين. فإذا جزر نقص نقصاناً كثيراً بينا بحيث لو قيس لكان الذي نقص مقدار ما يبقى أو

أكثر. وليست زيادته متناسبة بل يزيد في أول كل شهر ووسطه أكثر من سائره الخ أ.
هـ. كلام ياقوت
وهذا النظام لا يزال سارياً اليوم، ولكن حفر مدخل الشط في السنين الأخيرة لتتمكن السفن العظيمة من الدخول فصار المد أقل مما كان قبلا
وأما هواء البصرة فحار رطب. وكان من حسن حظنا أن كنا بها في أوائل أيار (مايو) فلم نصادف إلا هواء معتدلا بالنهار بارداً بالليل. وقد وصف القدماء هواء البصرة بشدة الاختلاف. قال الجاحظ: من عيوب البصرة اختلاف هوائها في يوم واحد، لأنهم يلبسون القمص مرة، والمبطنات مرة لاختلاف جواهر الساعات. ولذلك سميت بالرعناء، قال الفرزدق:
لولا أبو مالك المرجو نائله ... ما كانت البصرة الرعناء لي وطناً
وذلك أن ريح الشمال في البصرة باردة، وريح الجنوب حارة؛ ولذلك قال ابن لنكك الشاعر البصري:
نحن بالبصرة في لو ... نٍ من العيش ظريف
نحن ما هبت شمال ... بين جنات وريف
فإذا هبت جنوب = ...
ويكمل الشاعر بيته بشطر لا يحسن إنشاده
وكانت البصرة إلى عهد قريب كثيرة الحميات، ويقول ابن بطوطة بعد ذكر المد والجزر: (وبسبب ذلك كان هواء البصرة غير جيد) وألوان أهلها مصفرةً كاسفة حتى ضرب بها المثل. وقال بعض الشعراء وقد أحضرت بين يدي الصاحب أترّجة
لله أترج غدا بيننا ... معبرا عن حال ذي عبرة
كما كسا الله ثياب الضنى ... أهل الهوى وساكني البصرة
وسمعت في العراق أن أهل البصرة قد ألفوا الحمى حتى أن أحدهم يكون سائرا مع صاحبه فيحس الحمى فيقول له: ائذن لي أن أذهب إلى البيت لأحمّ. هذا كله كان قبل أن تنالها يد العناية - عناية الحكومة العراقية. وأما اليوم فقد أصلحت الحكومة الطرق والأنهار والمستنقعات، وتوسلت بوسائل طبية كثيرة حتى قلت الحمى هناك جدا، ويرجى أن تزول
فلا يبقى لها أثر بعد سنين قليلة.
ومن الإنصاف أن أذكر ما عرف به أهل البصرة في الماضي والحاضر من كرم الخلق ورعاية الغريب. قال ابن بطوطة:
وأهل البصرة لهم مكارم أخلاق، وإيناس للغريب، وقيام بحقه، فلا يستوحش فيما) بينهم غريب(
وفي ياقوت: (وقال شاعر يصف أهل البصرة بالبخل وكذب عليهم) وياقوت خبير بالبلد وأهله
وكذلك أهل البصرة اليوم تغلب عليهم الأخلاق العربية على كثرة ما نابهم من محن، ومر بهم من شدائد
وفي البصرة مدارس أولية وابتدائية كثيرة ومدرسة متوسطة وأخرى ثانوية. والتعليم فيها يزداد ويزدهر سريعا. وعسى أن يكون لها بعد قليل ما كان لها من مجد وصيت يوم كانت مهد العلوم العربية والإسلامية.
ويعد للبصرة من موقعها وأرضها ومائها وعناية الحكومة العراقية بها ما يضمن لها مستقبلا زاهرا. وإنا لنرجو أن تعيد سيرتها، ولتعمل لخير العربية والإسلام ما عملت في ماضيها إن شاء الله.
عبد الوهاب عزام
. . .حظي بالشيء
لأستاذ جليل
. . . .الرافعي، المجمع اللغوي، أزهري المنصورة، اليازجي
. . . . .
- 4 -
تتمة
قال الأستاذ الرافعي (رحمه الله): (فلقي (حافظ) بعض أصدقائه، فقال له بالحرف:

(اليازجي غير مطلع في العربية) قال الصديق ولماذا. . .)
وأغلب الظن أن ذلك الصديق الذي حاور حافظاً هو الأستاذ الرافعي بنفسه، وكأن ضلعه في حديثه على حافظ، وهو يبدو منافحاً عن صاحب (الضياء) وكان يوقر صاحبه، وسماه في إحدى مقالاته (أديب النصرانية) وقد طالع أقواله جلها أو كلها. وفي (تاريخ آداب العرب) من مجلتي البيان والضياء) شيء كثير وإن لم يُعزَ إليهما، وخطة الأستاذ الرافعي في ذلك الكتاب قلة العزو، وهذا قوله بيناً: (أصطلح بعض المتأخرين على أن يذكروا في مؤلفاتهم أسماء الكتب التي ينقلون عنها، ويعينون مواضع النقل ليخرجوا من تبعة ما ينقلون إذا كان خطأ فيلقون ذلك على الكتاب زيادة في حسنات مؤلفه. . . أما نحن فلما كنا نستهجن أن نثبت شيئاً لا نمخض الرأي فيه، ولا نثق بصحته بعد تقدم النظر دون أن ننبه عليه إن مست الضرورة إلى إثباته فقد أهملنا ذكر الكتب لأن ذلك تطويل من غير طائل، ولأننا نبسط كل معنى نأخذ فيه، ولم نعين مواضع ما ننقله لأن علينا تبعته)
ومما أخذه من (البيان) قوله: (وهم (أي الإسماعيلية) ينسبون إلى إسماعيل عليه (عليه السلام) وخبر نزوله بالحجاز مذكور في التوراة! وقد تزوج هناك برعلة بنت مضاض أحد ملوك جرهم وهي القبيلة التي ذكر جدها في التوراة باسم ألموداد)
و (البيان) يقول: (وسائر القبائل العرب تنسب إلى أجداد ذكرت في التوراة، منها ألموداد جد قبيلة جرهم التي اتصل بها إسماعيل بن إبراهيم الخليل فتزوج برعلة بنت مضاض أحد ملوكها وكانت مساكنها في الحجاز)
وفي منقول الأستاذ الرافعي رحمه الله شيء نفوّض البحث عنه إلى الكاتب المشهور الدكتور طه حسين ليفيض فيه حتى يطرفه محمد نور ثانٍ أخاً لذاك (القرار) . . .
وقد عرف الشيخ اليازجي فضل الأستاذ الرافعي في مبتدأ أمره، وأطراه في مجلته، وقرظ الجزء الأول والجزء الثاني من ديوانه، وروى طائفة منهما في التقريظين، ونقد أبياتاً في الأول منها هذا البيت:
أرى ذا الليل قد خفقت حشاه ... وبيض عينه نزف الدموع
قال: (فأنث الحشا وهو مذكر)
قلت: الحشا مذكر، وقد جاء في (رسائل الجاحظ) التي انتقاها من كتبه الأديب الأستاذ حسن السندوبي: (فأنا بين حشا خافقة ودمعة مهراقة) فهل كان الأصل: (فأنا بين حشا خافق ودمع مهراق) ثم جاءت هذه البركات، هذه التاءات من عند الناسخين أو الطابعين أو المنتقين. . .؟
وفي (أقرب الموارد) للشرتوني: (وهو (أي الحشا) يؤنث كقوله:
لا تعذل المشتاق في أشواقه ... حتى تكون حشاك في أحشائه
والبيت للمتنبي، والرواية في (ديوانه) يكون - بالياء - لا تكون - بالتاء -. وممن أنث الحشا ابن الفارض وابن نباتة المصري وقد نقدهما اليازجي
ومن نقد اليازجي العروضي لأبيات للرافعي:
أنا لم يبق بين جنبيّ إلا ... كبد من لوعة الشوق حرىّ
في عجزه نقص خفيف بين كبد ولوعة
صدّت فكان كلامها نزرا ... وغدت تضن بذلك النزر
(جاء بالعروض الجذاء مضمرة والإضمار مع الحذذ لا يقع إلا في الضرب
وقد ذكّرنا نقد اليازجيَّ الرافعيَّ بنقده (شوقيّاً) في مثل ذلك:
ما نحن قلنا فالحب قائله=وما فعلنا فللهوى الفعل
وإن نقلنا لبقعة قدما ... فللهوى لا البقعة النقل
البيت الثاني مختلف الوزن من بحرين، لأن الشطر الأول من (المنسرح) وهو بحر سائر القصيدة والثاني من ثالث السريع:
تلك سماء الهند شاهدة ... وأرضها والجبال والسهل
(خالف بين الشطرين فجعل الأول من السريع والثاني من المنسرح
ثم قال اليازجي بعد نقده تلك الأبيات في ديوان الرافعي: (على أن هذا لا ينزل في قدر الديوان وإن كان يستحب أن يخلو من مثله، لأن المرآة النقية لا تستر أدنى غبار، ومن كملت محاسنه ظهر في جنبها أقل العيوب، وما أنقدنا هذه المواضع إلا ظناً بمثل هذا النظم أن تتعلق به هذه الشوائب ورجاء أن يتنبه لمثلها في المنتظر، فان الناظم

كما بلغنا لم يتجاوز الثالثة والعشرين من سنيه، ولا ريب أن من أدرك هذه المنزلة من البراعة في مثل هذا السن سيكون من الأفراد المجلين في هذا العصر، وممن سيحلون جيد البلاغة بقلائد النظم والنثر)

قلت: صدقت كهانة الشيخ فقد أمسى الرافعي من الأفراد المجلين في هذا العصر، وهو إن صلى في النظم فقد جلى في النثر

ونشر الأستاذ الرافعي (رحمه الله) ثلاث قصائد من شعره في مجلة (الضياء) الثالثة في السنة السابعة من تلك المجلة (الجزء السابع 15 يناير 1905) وعنوانها (حسان الأرض والسماء) وفي القصيدة هذا البيت:

هيهات قد أصبح معنى الهوى ... بين الغواني نحو (سوِّرْ يدي)

قلت: فهن يبغين قلْباً ولا قَلْباً، قلوباً لا قلوباً: (يُردن ثراء المال حيث عَلِمْنَه)

وقد رأيت وقد رويت قول (أديب النصرانية) في (أديب الإسلامية) وإن لم يكن الرافعيُّ يومئذ الرافعيَّ - أن أورد قولا لحجة الإسلام الإمام الشيخ محمد رشيد رضا في الأستاذ الرافعي وفي كتبه عامة وكتاب المساكين خاصة:

(الأستاذ مصطفى صادق الرافعي صاحب هذا الكتاب أشهر من نار على علم، يراها كل أحد ولا يصل إليها أحد، فهو معروف والمعروف لا يعرّف. أوتي عقله نصيباً كبيراً من فلسفة النفس والاجتماع فهو يغوص في أعماقها، وأوتي خياله حظاً عظيماً من المعاني الشعرية فهو يطير في أجوائها، وأودع ذهنه مادة واسعة من اللغة العربية مفرداتها وأساليبها؛ فهو يبرز النظريات الفلسفية في صور من التخيلات الشعرية، تتجلى في طرز طريفة (مودات) من الحلي والحلل اللغوية، جمع فيها بين الإجادة في المنظوم والمنثور

وقلما تتفق الإجادة فيهما معاً إلا للأقلين كما قال الحكيم ابن خلدون. وبهذه المزايا كان أمة وحده في الكتاب والشعراء والمصنفين، وكان جمهور قراء العربية يشكون شيئاً من الغموض في كلامه، والحاجة إلى التأمل الكثير في بعضه لاستبانة مراده، ولكن لا ينكر أحد من أولي الفهم أن كل قارئ له يرى فيه من فرائد اللغة ودقائق التعبير البليغ عن المعاني ما لم يكن يعلمه، فهو كثير الابتكار والإبداع. ولو كان جمهور القراء يفهمون لغته حق الفهم لعم انتشارها

له عدة مصنفات أجلها موضوعاً وأوضحها بياناً (إعجاز القرآن) وقد أعطيناه حقه من التقريظ فنشر معه، وطبع ثلاث مرات، ويليه (تاريخ آداب العرب) و (تحت راية القرآن) ومنها (حديث القمر، ورسائل الأحزان، والسحاب الأحمر، وأوراق الورد) وهذه الأربعة كتب فلسفة وشعر

وأما كتاب المساكين الذي جعلناه ذريعة لتقريظها كلها فقد عرفه مصنفه بكلمة بيّن بها ما أراده منه وكتبها تحت اسمه وهي: (أردت به بيان شيء من حكمة الله في شيء من أغلاط الناس) ولقد صدق في قوله ووفى بمراده، ولقد كنت أعجز كما أخال أن كل أحد غيره يعجز عن تعريفه هذا. ثم وصفه بكلمة أخرى قال: إنها (من قلم الغيب) وذكر أنها أوحيت إليه في النوم وهي: (هذا كتاب المساكين، فمن لم يكن مسكيناً لا يقرؤه لأنه لا يفهمه، ومن كان مسكيناً فحسبي به قارئاً، والسلام) فإن صدق في أن هذه الكلمة من قلم الغيب كما صدق في أن من لم يكن مسكينا لا يفهمه، فأنا أظن أنه لا يوجد مسكين يفهمه، ذلك بأنني أظن أنني مسكين ولم أفهمه، إلا أن مسكنتي مسكنة أخلاق لا مسكنة إملاق، ولا أدري أية مسكنة ينتحل منشئ كتاب المساكين الذي لا يفهمه من ليس بمسكين. قرأت صفحات منه ففهمت بعض جمله، وأعجبت ببعض حكمه، واستعذبت بعض استعاراته التمثيلية والتخييلية. ولكني اقر بأنني لا أفهمه كله فهما إجماليا يمكنني تلخيصه به، ولا أفهم فصلا منه فهما تفصيليا يمكنني من تفسيره لمن لم يفهمه ولا تفسير كل جملة من جمله، فالكتاب في جملته من قلم الغيب، هبط على عالم الشهادة، وفي الاطلاع على عالم الغيب من اللذة الروحية والأنس ما ليس في الاطلاع على عالم الشهادة، وإن حارت فيه الإفهام، وكان حلما من الأحلام)

قلت: إن الأئمة قالوا:

(أبلغ الكلام ما حسن إيجازه، وقل مجازه، وكثر إعجازه)

(أحسن الكلام ما أعرب عن الضمير، واستغنى عن التفسير)

لا يستحق الكلام اسم البلاغة حتى يكون معناه إلى قلبك أسرع من لفظه إلى)
(سمعك
(البلاغة أن تظهر المعنى صحيحاً، واللفظ فصيحاً)
ولا ريب في أقوال الأئمة هذه، وفضيلة العربية بيانها، وفضيلة العربي التبيين، وهذا
اللسان إنما هو اللسان المبين. ولو اطلع (حجة الإسلام) على (وحي القلم) وهو
مقالات (الرافعي) في (الرسالة) لراقه فيه كلام جليّ، وسرّه قولٌ منوِّر
ووحي القلم هو كما قال فيه الأستاذ النابغة الموهوب (الدكتور عبد الوهاب عزام) في
(الرسالة): (إن شئت فقل جنات في صفحات، وعباب في كتاب، وإن شئت فقل: إنه
العالم في سطور قد انتظم، ووحيٌ إلهي سماه الرافعي وحي القلم)
أجاب الأستاذ أزهري المنصورة الأستاذ الرافعي (رحمه الله) في (البلاغ في 2 من ذي
القعدة 1352) فمما قال:
1) - انتقد الشيخ إبراهيم اليازجي استعمال المصدر لحظي في مقالة (لغة الجرائد)
فقال: (ويقولون طلب الحظوى بهذه النعمة وسرتني الحظوى بلقاء فلان، والصواب
الحظوة بالهاء) وهو في نقده هذا مصيب، وقال ما قاله في شأن حظي بالشيء في
غيرها من مجلته (الضياء)
2 - ما حقيقة (ظفر بالشيء وحظي بالشيء) وهل اللفظتان عربيتان، وقد نجمتا في
(الجزيرة) وكانتا من المجاز، فكانت الأولى من إنشاب الضاري أظفاره في فريسته أو
الصائد في طريدته، وكانت الثانية من حُظوته بحظوة أو حِظاء أو حظوات للصيد أو
غيره؟
فإن كانتا عربيتين وكان أصلهما ذلك الأصل فظفر بالشيء وحظي به سواء، والحظ إن
كان عربياً فمن (الحظوة) لا من غيرها
3 - الحضرة، المجلس، (المشهد) المقام (المقامة) بمعنى واحد فتقول: رأت حضرة
أعضاء المجمع اللغوي، أو قال مجلس أعضاء المجمع (أو قالت مقامتهم) ولا تقول:
قالت حضرات
أعضاء المجمع أو قالت مجالسهم (أو مقاماتهم) لأنهم كلهم أجمعين حضرة واحدة،
(مجلس واحد. وهذا واضح
قلت: هذه الكلمة هي آخر ما قيل في البحث عن (حظي بكذا) ولم يظهر في (البلاغ)
شيء بعدها في هذا المعنى
هذه أقوال الشيخ إبراهيم اليازجي في مجلته (الضياء) في نقد الفعل (حظي بالشيء)
في السنة (6) في الصفحة (216) في جواب سؤال:
وأما قوله (يحظى على الانسجام) يريد يظفر به ويحصل عليه فهو من كلام العامة لأن)
الحظوة في اللغة بمعنى المنزلة والمكانة والقرب المعنوي كما فسرها في تاج
العروس تقول: حظي فلان عند الأمير وحظيت المرأة عند زوجها، على أن العامة
(يقولون حظي بالشيء ولا يقولون حظي عليه فهو غلط في اللغة العامية أيضاً
في السنة (7) في الصفحة (375) في مقالة عنوانها (لغة الجرائد): (ويقولون حظوت
برؤيا فلان أي فزت برؤيته فيضعون الرؤيا مكان الرؤية، والأشهر فيها أنها مصدر رأي
الحلمية وأما رأي البَصَرية فيقال في مصدرها الرؤية كما أن رأي العقلية في مصدرها
الرأي، وقولهم (حظوت) فيه غلط في اللفظ والمعنى؛ أما في اللفظ فلأن هذا الفعل
من باب علم لا من باب نصر فيقال فيه حظيت بالياء مع كسر الظاء، وأما في المعنى
فلان الحظوة - وهم يقولون الحظوى - معناها المكانة والمنزلة يقال حظي فلان عند
الأمير وحظيت المرأة عند زوجها، ولا يقال حظي بالشيء بمعنى ظفر به إنما هذا من
استعمال العامة)
في السنة (8) الصفحة (545) في مقالة عنوانها (أغلاط المولدين):
قال محمد بن بشير الرياشي:
أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته ... ومدمن القرع للأبواب أن يلجا
أراد أن يظفر بحاجته فعبر بيحظى ولا يكون يحظى بهذا المعنى كما نبهنا عليه في لغة
الجرائد. قال في لسان العرب: الحظوة والحظة والمكانة والمنزلة للرجل من ذي
سلطان ونحوه، وقد حظي عنده، ورجل حظي إذا كان ذا حظوة ومنزلة. ا. هـ. ومثله
في سائر اللغة، ولم ينقل أحد حظيت بكذا بالمعنى المتقدم، ولا ورد في كلام قديم،

لكن غاية ما هناك أنه يمكن أن يقال حظي فلان عند الأمير بصدق خدمته مثلا أي كان صدق خدمته سبباً
لحظوته عند الأمير ومن هذا قول أبي نُوَاس:
ومالكَ غير ما قدّمت زاد ... إذا جعلت إلى اللهوات ترقى
وما أحد بزاد منك أحظى ... ولا أحد بذنب منك أشقى
قوله فما أحد بزاد منك أحظى أي لا يكون أحد أحظى بواسطة هذا الزاد منك كما لا يكون أشقى بذنبك منك، وعبر بلفظ التفضيل وهو غير مراد، والمعنى لا يسعد أحد بالزاد الذي تقدمه سواك كما أنه كما أنه لا يشقى أحد بالذنب الذي تقترفه سواك.
ومثل قول محمد بن بشير قول الصفيّ الحلّي:
من لي بقربك والمزار عزيز ... طوبى لمن يحظى به ويفوز
وقول ابن التعاويذي:
(لم أحظ منها بسوى نظرة ... خالستها من جانب الخدر وهو استعمال عامي
قلت: بيت أبي نواس روايته الصحيحة هي:
وما أحد بزادك منك أحظى ... وما أحد بذنبك منك أشقى
وهي رواية (الديوان) ورواية المبَّرد في (الكامل) ومن قبيلة بيت الفرزدق وهو في (النقائض) وفي (ديوانه):
فأدركها وازداد مجداً ورفعة ... وخيراً، وأحظى الناس بالخير فاعله
وبيت الحَكميّ (أبي نؤاس) لا يفتقر إلى مفسر أو ترجمان ولا إلى هذا الذي خطة الكاتب (اليازجي)، ومن عجائب الزمان أن مخطئ العربي الأول يستعمل في أثناء تخطئته قول المتأخر فيقول (بواسطة هذا الزاد) والواسطة في العربية معروفة هذه طائفة من الأقوال العربية والإسلامية والمولدة قد جاء فيها حظي بالشيء بمعنى ظفر به، ولم أورد معها ما ذكره الأستاذ أزهري المنصورة. والقائلون من المولدين كلهم أئمة:
في (سيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) لابن هشام في قصيدة لحذيف بن غانم:
وخيرهم أصلا وفرعاً ومعدناً ... وأحظاهم بالمكرمات وبالذكر
في (كتب الحماسة) للبحتري في مقطوعة لعمر بن مالك:
موارده فيها الردى وحياضه ... وإن أترِعت لم يحظ بالري شاربه
وفي (أمالي القالي) من قصيدة للشنّي
ولست بقائل قولا لأحظى ... بقول لا يصدقه فعالي
ومن الشواهد النحوية:
ماذا ولا عتب في المقدور رمت أما ... يُحظيك بالنجح أم شر وتضليل
وفي (الأغاني) لبشار:
بكيت على من كنت أحظى بقربه ... وحق الذي حاذرت بالأمس إذ ساروا
وفي (ديوان أبي تمام)
منظمة بالموت يحظى بحليها ... مقلدها في الناس دون المقلَّد
وفي (الأغاني) في سيرة بشار: فلم يحظ منه (أي من المهدي) بشيء فهجاه
وفي (الأغاني) في الجزء الثامن: حظي بها من غير نصب ولا كدح
وفي (طبقات الشعراء) للجمحي: فلم يحظ ولم يحل منه بشيء
وفي (الموشح) للمرزباني: فوالله ما حظي البحتري من المعتز في هذه القصيدة بطائل
وفي (رسائل الهمذاني) في مناظرة الخوارزمي: أو قلت لك أكتب كتابا يخلو من الحروف العواطل، هل كنت تحظى منه بطائل، أو تبل لهاتك بناطل
وفي رسالة (الغفران): لقد شقيت في الدار العاجلة بجمع الأدب ولم أحظ منه بطائل
وفي (سقط الزند) لأبي العلاء:
وزند عاطل يحظى بمدح ... ويحرمه الذي فيه السوار
وفي (المقامات الحريرية) في الثلاثين: صلى الله عليه صلاة تُحظيه بالزلفة
وفي (الاقتضاب في شرح أدب الكتاب) للبطليوسي في شرح المقدمة عند ذكر كاتب التدبير: ويحظى بمنزلته لديه
وفي (مفتاح العلوم) للسكاكي، في خاتمته: وإذا جئتهم من علم الأصول وجدت

علماءهم مقلدة ما حظوا إلا بشم روائح
الإسكندرية
(* * *)
للأدب والتاريخ
مصطفى صادق الرافعي
1880 - 1937
للأستاذ محمد سعيد العريان
- 35 -
مقالاته للرسالة (6)

كانت خير أوقات الكتابة عند الرافعي في المساء حين يعتدل الجو، وتسكن الحركة، وتخف المعدة؛ إذ كان عمله في المحكمة يملأ بياض نهاره. فلما كان رمضان سنة 1353 (1934 الميلادية) سألني: (كيف نصنع يا شيخ سعيد في هذا الشهر وأيّ أوقاته نجعلها للكتابة؟) قلت: (فأنظر فيما تراه خيراً لك ولست أرى ما يمنع أن تستمر على عادتك فتجعل مجلسك للكتابة بعد العشاء) قال: (لا سبيل إلى ذلك والمعدة مثقلة بعد خلاء، ولكني سأحاول أن أكتب في العصر، فأنه حيثما ما امتلأت المعدة ثقل الرأس، فلعل فراغها في النهار أن يشحذ الذهن ويصقل الفكر).

وحاول أن يكون ذلك فلم يقدر عليه، ومضى يوم ويوم ويوم وانتهى الأسبوع الأول من رمضان ولم يكتب شيئاً للرسالة، واستحيا أن يعتذر، فلم طائفة من (فتات المكتب) وجعلها الجزء الثاني من (كلمة وكليمة) وبعث بها

في هذه الكلمات المنشورة بالعدد 76 كلمات عن السياسة تفسرها الحالة السياسية في مصر في أوائل عهد وزارة المغفور له نسيم باشا، وفيها حديث عن الزكاة والصوم، وفيها كلمات عن الزواج والمرأة، وفيها رسائل إلى (فلانة)!

ثم كانت مقالة الأسبوع التالي هي قصة (سمو الحب)

أشياء ثلاثة أملت عليه موضوع هذه القصة: رمضان، وكتاب الأغاني لأبي الفرج، وما يسمع من أحاديث الشبان عن الحب.

أما رمضان فسما بروحه وأمده بما في القصة من المعاني الدينية التي حكاها على لسان مفتي مكة وإمامها (عطاء بن أبي رباح) والرجل الزاهد (عبد الرحمن القس بن عبد الله بن
(أبي عمار

وأما كتاب الأغاني فأعطاه صلب القصة وأساس البناء في سطور يرويها من خبر (سلاّمة المغنية) جارية يزيد بن عبد الملك، وقد وقع الرافعي على هذا الخبر اتفاقاً في إحدى مطالعاته في كتاب الأغاني

وأما أحاديث الشبان فحفزته إلى إنشاء هذا الفصل ليضربه مثلا لسمو الحب يصحح رأي الناس في الحب ويكون منه لشباب الجيل درس وموعظة

في هذا الفصل يجد كل سائل جوابه إن كان يعنيه أن يعرف كيف يجتمع الدين والمروءة والحب في قلب رجل كالرافعي يعرفه الناس فيما يكتب شيخاً من شيوخ الدين فيه تحرج وخشية، ويعرفه من يعرفه من أصحاب مجنونَ لَيْلَياتٍ وقيسَ لُبنَيات!

ولكي ينتفع الرافعي بوقته في رمضان كان يتخفف من طعام الفطور، ثم يجلس . . . مجلسه بعد العشاء للإملاء؛ فإذا فرغ من الكتابة أو الإملاء تناول السَحور، فيعوِّض فيه بعض ما فاته من فطوره ثم ينام!

على أنه لم يجد راحته في هذا النظام أيضاً؛ فلما كان الأسبوع الثالث لم يجد في نفسه خفة إلى العمل، فعاد إلى أوراقه القديمة يبحث بينها عن شيء يصلح للنشر ليستريح أسبوعاً من العمل، فوقع على ورقات من مجلة المقتطف في سنة 1905 كان قد نشر بها قصته الأولى: (الدرس الأول في علبة الكبريت)، فعاد إلى قراءتها، فلما فرغ من القراءة التفت إلي قائلا: (هذه قصة ينقصها السطر الأخير) قلت: (وماذا يكون هذا السطر؟). قال: (اسمع: هذا غلام سرق علبة كبريت منذ ثلاثين سنة فحوكم بها وحكم عليه. . .) قلت: (نعم!). قال: (فما تظن هذا الغلام الآن بعد هذه الثلاثين؟) قلت: أراه الآن رجلاً يفلح الأرض أو يعمل بالفأس في حجارة أبي زعبل!)

قال: (هذه الأخيرة أمثل به؛ لقد تلقى الدرس الأول في علبة كبريت فقاده إلى

الحبس، فهل تراه بعد هذه الثلاثين إلا قد أتم دروسه ووقف على عتبة المشنقة. . .؟
أكتب. . . أكتب)
وأملى على مقالة (السطر الأخير من القصة)
لم يغير الرافعي هذه المقالة عن أصلها فيما عدا الخاتمة وعبارات قليلة؛ وزاد عليها شيئاً من المحاورة بين الغلام وقاضيه؛ وما كان حرصه على بقائها كذلك إعجاباً بها، ولكن كأنما
ردته هذه المقالة إلى شيء من ماضيه ترقَّح فيه من روح الصَّبي والشباب؛ فمن ذلك كان إبقاؤه عليها ليبقى فيها روح الصَّبي والشباب!
وفي الأسبوع التالي - وهو الأسبوع الأخير من رمضان - أملي على قصة (الله أكبر) وهي بسبيل مما سمع من أحاديث الشبان عن الحب، وهي رُقية ثانية من رُقى الحب الداعر: كانت الرُقية الأولى هي كلمة (برهان ربه) في قصة سموّ الحب، وكانت الرقية هنا هي كلمة (الله أكبر)
وأول الأمر في هذه المقالة أنني كنت جالساً إلى الرافعي في القهوة نتحدث في شأن ما، وساقنا الحديث مساقه إلى بعض شئون العيد، ولم يكن بيننا وبين عيد الفطر إلا أيام، وقال الرافعي: (. . . وأنا لو ارتدّ إليّ السمع لن يطربني شيء من النشيد ما كان يطربني في صدر أيامي نشيد الناس في المساجد صبيحة يوم العيد: الله أكبر الله أكبر! يعج بها المسجد ويضج الناس. . . ليت شعري هل يسمع الناس هذا التكبير إلا كما يسمعون الكلام! الله أكبر! أما إنه لو عقل معناها كل من قالها أو سمع بها لاستقامت الحياة على وجهها ولم يضل أحد!)
ومضى يتحدث عن روح المسجد وفلسفة التكبير عند الأذان وفي كل صلاة، فما فرغ من الحديث حتى طرقنا زائر من روَّاد القهوة فحيا وجلس. . . وتنقل الحديث بيننا من فن إلى فن إلى فنون. . .
وتهيأ موضوع القصة في فكر الرافعي، فلما دعاني ليمليها عليّ لم يجد في نفسه إقبالاً على العمل، فوقف في الإملاء عند منتصف المقالة ونسأ البقية إلى غد، ثم كان تمامها وفي صبيحة يوم العيد ذهب على عادته إلى المقبرة لزيارة أبويه وقد كان في الرافعي حرص شديد على ذكرى أبويه؛ فهما معه في كل حديث يتحدث به عن نفسه، وزيارة قبرهما فرض عليه كلما تهيأت له الفرصة؛ وما إيثاره الإقامة في طنطا على ضيقها به وجهلها مقداره إلا ليكون قريباً من قبر أبيه وأمه. وقد نقلته وزارة الحقانية مرة نقلة قريبة، فتمرد على أمر الوزارة وأبى الانتقال وانقطع عن العمل في وظيفته قرابة شهرين حتى ألغت الوزارة هذا النقل، وكانت كل حجته عند وزارة الحقانية في إيثار طنطا: أن فيها قبر أبيه وأمه!. . . وقد مات ودفن إلى جانب أبيه وأمه، فلعله الآن سعيد بقربهما في جوار الله
ولعلهما به
ولما عاد من زيارة المقبرة أملى عليّ مقالة (وحي القبور!) . . .
ثم عاد إلى موضوع الزواج يتناوله من بعض أطرافه، فأنشأ قصة (بنته الصغيرة) وهي الثالثة مما نحل أئمة الصدر الأول من القصص؛ تحدث في (قصة زواج) عن سعيد بن المسيب، وتحدث في (سمو الحب) عن عطاء بن أبي رباح، وتحدث هنا عن مالك بن دينار والحسن البصري
في هذه القصة يتناول الرافعي موضوع الزواج على النحو الذي تناوله به في قصة (رؤيا في السماء) على أنه باب إلى السمو بالإنسانية، وفيها إلى ما فيها من الدعوة إلى الزواج وبر البنات شيء من الأدب الديني يضمها إلى سابقاتها
ثم نشر بعد هذه القصة الجزء الثالث من (كلمة وكليمة) - العدد 84 سنة 1935 - وفيها كلمات عن السياسة وحديث عن المرأة، ونظرات في أخلاق بعض الناس أوحى إليه بمعانيه قضية كانت له في المحكمة شغله أمرها وقتاً ما. وقصة ذلك أن الرافعي كان اشترى قطعة أرض للبناء في شمال المدينة ونقد البائع ثمنها وجعل لها حدوداً مرسومة؛ ثم أعجزه أن يبنيها فضلت خلاء بضع سنين، وكانت هي كل ما حصل الرافعي من الاشتغال بالأدب أكثر من ثلث قرن؛ ثم طمع البائع أخيراً فيما باع؛ فتحيّف القطعة من أطرافها، واصطنع بينه وبين الرافعي مشكلة قانونية تعجزه عن بلوغ حقه إلا بعد مطاولة تدفع إلى اليأس، وشكاه الرافعي وتأهب لمناضلته، فاستعان عليه

خصمه بواحد من ذوي صهره يعمل مفتشاً في وزارة الحقانية، فانْتدَب للتفتيش عن أعمال الرافعي الرسمية في محكمة طنطا مهدداً متوعداً، لعله يحمله بذلك على النزول عن بعض حقه!

طالت القضية بين الرافعي وخصمه، وتعددت جلسات المحكمة وطالت كذلك دور التفتيش وكثرة تحدي المفتش للرافعي، حتى لزمه ثلاثة أشهر يفتش عن أعماله. فحص فيها عن بضع مئات من القضايا التي قدر الرافعي رسومها، لعله يعثر لهو فيها على غلطة تحمله على الخضوع له؛ وغلطة في تقدير الرسوم لقضية من القضايا معناها غرامة مالية. . . ومن أين للرافعي؟

وكنت متعودا أن أغدو على الرافعي في المحكمة في أوقات الفراغ؛ فلما علمت أن مفتشا عنده أقصرت؛ فلما علم مني سبب امتناعي عن زيارته قال: (لا عليك وخلِّ عنك هذا الوهم فلا تغير شيئا من عادتك!)

وزرته بعد ذلك مرات والمفتش عنده، وكان يدنيني إليه في مجلسه، ويجعل كرسيَّ إلى جانب كرسيه خلف المكتب، ويتأبىَّ على المفتش أن يذهب إليه حيث يكون، ليحمله على الحضور بنفسه ليسأله عما يريد من غير أن يغادر مجلسه؛ وفي أحيان كثيرة كان يحضر إليه المفتش وأنا في مجلسه ليسأله عن أمر من الأمر، فيدعه الرافعي واقفاً ويتحدث إليه وهو جالس حديثا كله سخرية وتهكم، ثم لا ينظر إليه إلا ريثما يجيبه عما سأل، ثم يغضي عنه ويدعه واقفا، ليعود إلى ما كان فيه من الحديث معي أو المطالعة في صحيفة أو كتاب!

وعلى أن المفتش لم يظفر بشيء مما أراد بالرافعي، فإنه استطاع أن يشغله بنفسه ثلاثة أشهر أو يزيد، على رغم ما كان يبدو على الرافعي من إهمال شأنه وعدم الاكتراث به!

ثم انتهت قضية قطعة الأرض إلى الحكم للرافعي، وانتهت كذلك دورة التفتيش . . . على غير طائل؛ ولكن هذه وتلك قد شغلتا الرافعي شطراً كبيرا من سنة 1935، وأوحت إليه بكلمات وكُليمات مما نشر لقراء الرسالة في هذه الفترة.

ولم يفرغ بعد كل أولئك مما يتصل بموضوع الزواج وشئون الأسرة، فكانت القصة . . . التالية (زوجة إمام) الإمام أبو محمد سليمان الأعمش، وزوجه، وتلميذه أبو معاوية الضرير.

قصة أراد بها أن يستوفي موضوع الزواج بالحديث إلى النساء عن واجب الزوجة؛ وبها تم ما أملاه عليّ في موضوع الزواج، وعِدتّه ثلاث عشرة مقالة في خمسة عشر عدداً، أولها مقالة (س. ا. ع) بالعدد 63 سنة 1934 وآخرها الجزء الثاني من (قصة إمام) بالعدد 86 سنة 1935

وددت لو أن الرافعي حين أعاد نشر هذه المقالات في وحي القلم، نشرها على الترتيب الذي كانت به والذي رويت ما أعرف من أسبابه الظاهرة؛ فان ذلك كان خليقاً أن يعين الباحث على دراستها مجتمعة متساوقة فصولها فصلا إلى فصل؛ ولكنه جمعها في وحي القلم على ترتيب رآه فجعل منها القصة، والمقالة، والحديث الديني؛ وجعل كلا من هذه الثلاثة في بابه؛ على أن ذلك لا يمنع الباحث الذي يتهيأ للرأي في هذه المقالات أن يقرأها على الترتيب الذي قدمت أسبابه وأسبابها معه.

(سيدي بشر)

محمد سعيد العريان

حول أدب الرافعي

بين القديم والجديد

للأستاذ محمد أحمد الغمراوي

أستاذ الكيمياء بكلية الطب

- 7 -

لقد آن لنا أن نختم هذه الكلمات بعد أن بلغنا من تزييف مقالات (بين العقاد والرافعي) أكثر ما نريد. لقد كانت حملة جائرة قامت على الإفك والباطل تلك التي قام بها صاحب تلك المقالات على الرافعي رحمة الله عليه. وكان أمامنا لتبيين إفكها وباطلها طريقان: طريق يهملها ويجلو للناس حقيقة أدب الرافعي بدراسة ذلك الأدب ونقده؛

وطريق يدع أدب الرافعي حيث هو، يعرفه من يعرفه، ويجهله من يجهله، ويعمد إلى تلك المقالات فيضرب بعضها ببعض وينسفها بعوامل نسفها المستكنة فيها. وكان الطريق الأول يحتاج إلى زمن وجهد أكثر مما يتيسر لنا فاضطررنا إلى الطريق الثاني. ونظن أن لم يبق بحمد الله من تلك المقالات الآن إلا ما يدع اللغم من البناء المنسوف غير أننا نحب مع ذلك ألا نختم الموضوع من غير أن نقول كلمة نبين بها ما نعتقد أنه الفارق الحقيقي بين المذهبين اللذين يمثلهما في الأدب كل من الرافعي والعقاد لقد جرى الناس على رد التفاصيل في الأدب إلى أصلين: اللفظ والمعنى، وابدءوا في ذلك وأعادوا وأسرفوا في الاختلاف بينهم: أي هذين الأصلين يقدمون على الآخر في تقديم أديب على أديب. واختلافهم هذا الشيء عجيب، فان اللفظ والمعنى ركنان متلازمان لا ينبغي التقصير في أيهما للأديب المكتمل. فكأن مثل اختلافهم لك لا تدعو إليه الحاجة إلا عند المفاضلة بين أدباء مقصرين. وإذا كان لا بد من الإعراب في هذا الشأن عن رأي فالتعبير له المقام الأول في الأحوال التي تكون الفكرة المعبر عنها شائعة لا تكلف مجهوداً؛ والتفكير له المقام الأول إذا كان الموضوع يستلزم أعمار الفكر لاستخراج الصواب؛ وعندئذ يكفي من التعبير الصحيح ما يجلي ذلك الصواب، ويكون كل ما يعوق ذلك عيباً ولو كان زيادة تفنن في التعبير. فإن أمكن الجمع بين التفنن في التعبير والجلاء والدقة في

المعنى المعبر عنه كان الأديب أمكن في الأدب من غير شك وكان أولى بالتقديم إن امتلاك ناصية اللغة أمر لا بد منه لكل أديب يريد أن يبلغ في الأدب مرتبة الخلود. وليس معنى هذا أن امتلاك ناصية اللغة وحده كاف للخلود، فليس في الأدب مكانة لخلود صاحب المعنى الخسيس في اللفظ الأنيق إلا إذا انحط الأدب. إنما الآداب الرفيعة آداب نبل قبل كل شيء: نبل في المعنى ونبل في التعبير على السواء. ونبل التعبير راجع إلى حد كبير لنبل المعنى عند تمام الأداء. لكن لن يستطيع البلوغ في الآداب حد التمام إلا من امتلك ناصية اللغة فلم يعجزه معنى مهما دق أو اتسع عن أن يجد له من التعبير ما يلبسه ويظهره ويستفرقه، فلا يقصر عنه ولا يزيد عليه. فشرط امتلاك ناصية اللغة شرط أساسي في كل أديب يطمع في ذلك المجد الباقي الذي نسميه الخلود خلود الذكر إذا صار الأديب حديثاً من الأحاديث. هو شرط أساسي لكنه وحده غير كاف، كالماء أو الهواء أو الطعام كل منها ضروري للحياة لا تقوم بدونه، لكنه وحده لا يكفي للحياة

وإذا تسائل متسائل أي الأدبين أدل على امتلاك لناصية اللغة واقتدار على التفنن والتصرف في التعبير بها؟ أدب الرافعي أم أدب العقاد؟ كان الجواب الذي يسرع إلى الإنسان في غير تكلف ولا تحيز: أدب الرافعي كان أملك لناصية اللغة من غير شك وأكثر افتناناً فيها وتصرفاً بها. ولا نظن العقاديين أنفسهم يمارون في هذا، فأكبر ما ادعاه للعقاد مفتونهم به هو أن الأسلوب الفخم والتعبير الجيد غير بعيدين عن شعر العقاد

لكن التفوق من ناحية اللغة لا يبلغ أن يكون فارقاً بين مذهب ومذهب، فأبناء المذهب الواحد في الأدب كثيراً ما يتفاوتون في المقدرة اللغوية تفاوتاً مذكوراً. لو كان العقاد ممن يثبطون عن اللغة أو يدعون إلى اتخاذ العامية لغة كتابة كما هي لغة حديث لكان ذلك فارقاً أساسياً بين الرجلين ينسبهما في اللغة إلى مذهبين مختلفين. لكن العقاد لا يفعل شيئاً من هذا. إنه يرجو أحياناً أن يجد الشعر العربي طريقاً إلى أن يتحلل بعض التحلل من القافية ليتسع مثلاً لشعر الملاحم، لكن هذا وحده، مهما خالفه الرافعي فيه إن كان خالفه، لا يكفي لأن يتعاديا فيه أو ينتسبا به إلى مدرستين أو مذهبين في الأدب مختلفين

بقيت ناحية المعنى. ولم نر أحداً ظلم في معانيه مثل ما ظلم الرافعي. فكلام بعض أنصاره مثل أخينا علي الطنطاوي لا يقدر ناحية المعنى حق قدرها فيظن خصوم الرافعي أن هذا

هو مذهب الرافعي، ويتخذونه فيما يتخذون دليلا على تقصير الرافعي من ناحية المعنى. أخونا الطنطاوي يرى المعاني قريبة المتناول يأخذها الإنسان مما يسمع أو يقرأ أو يشاهد، فلا فضل فيها لأحد على أحد، ويكون التعبير عنها هو مظهر التفاضل بين أديب وأديب. لكن هذا إذا صدق على الشائع المألوف من المعاني فليس يصدق

على النادر الطريف. ومعاني الرافعي يكثر من بينها الطريف كثرة تدعو إلى العجب؛ كثرة لا نظن أحداً من المحدثين يفضله فيها أو يزحمه. فالرأي الذي ذهب إليه أخونا الطنطاوي من شأنه - عرضاً - أن يهضم الرافعي من هذه الناحية التي تعد من أكبر مفاخره.

وطرافة معاني الرافعي يرجع جزء كبير منها إلى خياله. ومن رأينا أن ناحية الخيال من النواحي التي تفوق فيها الرافعي وامتاز فتم بها تفوقه في التعبير والبيان. هذه الناحية في الرافعي أدعى إلى الإعجاب حتى من مقدرته اللغوية، فالمقدرة اللغوية لا تحتاج بعد الاطلاع والإحاطة إلا إلى حسن الاستعمال؛ لكن الخيال ملكة أخرى لعل قوتها ورقيها أدل الدلائل على الشاعرية. ونحن فيما قرأنا للقدماء أو المحدثين لم نرها بلغت من النمو والقوة والسمو ما بلغته في الرافعي. وليس معنى هذا طبعاً أن أدب الرافعي هو خير أدب وجد، لكن معناه أن ناحية الخيال أظهر في أدب الرافعي وأسمى منها في أدب أي أديب قرأنا له. وسواء أكان من قرأنا لهم في الأدب كثيرين أو قليلين، فليس لدينا شك في أن ناحية الخيال ناحية امتاز فيها الرافعي وتفوق على العقاد.

لكن ليست المعاني كلها تدور حول الخيال، وإن كان الرافعي لقوة حاسة الخيال فيه يكاد يجد للخيال موضعاً في كل معنى. إن روح المعنى بالطبع هو منزلته من الحق ومن الصواب، والحق والصواب لهما معايير ليس الخيال أحدها قد ضلها المتأدبون في هذا العصر حتى كاد الأمر يكون بينهم فوضى. فأما ما اتصل من المعاني بالعلم فمن السهل الرجوع فيه إلى أصل يحسم الخلاف أو يخفف من الخصومة فيه. لكن ما الحيلة فيما اتصل من المعاني بالفن، والفن قد كثرت مذاهبه وتضاربت حتى لم يبق لترجيح رأي على رأي ولا مذهب على مذهب إلا الميل والهوى الذي يسمونه الذوق؟ كيف يمكن تبين الحق والصواب في ميدان الفن الذي منه ميدان الأدب، فيما لم يتصل بعلم وفيما لم يتصل بلغة؟ إن الوصول إلى جواب صائب على هذا السؤال أمر حيوي لا غنى عنه البتة، لا لأنه

يعين النقد في الحكم بين أديب وأديب، أو بين مذهب، في الفن ومذهب حكما يبقى على الورق لا يدري من تأثر به، ولكن ليتبين الناس به سبيلهم في فوضى الفنون هذه فيأخذون من الفنون ويدعون طبق ما هو حق وطبق ما هو خير

إن الفن ومنه الأدب له من الأثر في حياة الفرد وفي حياة الجماعات أكثر مما للعلم، لأنه متصل بدخيلة هذه الحياة في حين يتصل العلم عند أكثر الناس بظاهرها؛ وإذا اتصل عند أقلهم بباطن حياتهم النفسية فقد صار باباً من عند ذلك القليل. إن الفن يعمل في نفس الفرد ويكيف حياته الباطنة أن لم يكن كل التكييف فبعض التكييف، لكنه على أي حال تكييف بعيد الأثر في حاضر الإنسان ومستقبله. ولسنا نغالي إذا قلنا إن مستقبل الإنسان فرداً أو جماعة يتوقف الآن على نوع هذا الأثر الذي يحدثه الفن في النفوس

ومن عجيب الأمر أن الناس يكتبون ويتكلمون عن الفن كأنه دائماً يوجه إلى الخير وكأنه دائماً على صواب. إنه ينبغي أن يكون دائماً كذلك من غير شك، لكن هل هو دائماً كذلك؟ بل هل هو دائماً كذلك؟ إنك لا تستطيع أن تجيب جواباً نافعاً حتى يكون لديك معيار صدق تعرف به الخير من الشر في الفنون كما تستطيع أن تعرف الحق من الباطل في العلوم. ولن تجده في هذه الفوضى السائدة بين مذاهب الفلسفة والأخلاق والفنون وإنما تجده من غير شك في الدين

لكن أصحابنا المجددين أنصار ما يسمونه الأدب الحديث يفرقون من ذكر الدين كأنما تلسعهم من اسمه النار. كذلك فزع أحدهم بالعراق، وكذلك يفزع هذا الآخر في مصر وإن زعم أنه أفهم منا في للدين. ليته كان كذلك حقاً فنغتبط له، فان ذلك مما لا ينقصنا من ديننا شيئاً ولكن يزيده في دينه. لكن المسألة في الدين ليست مثلها في الأدب الذي يكتبون كلاماً لا يرجع فيه أصل ثابت ولا معيار. إن كل ما يتصل بالدين ممكن الرجوع فيه إلى الأصل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه: القرآن. وما غمض علينا من القرآن يمكن تبين معناه المقصود من السنة سنة الرسول صلوات الله عليه. ونحن معشر المسلمين مأمورون بأن نرد كل ما نختلف فيه إلى الله والرسول إن كنا نؤمن بالله واليوم الآخر: (يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى

الأمر منكم، فان تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلك خير وأحسن تأويلا) فلعل صاحبنا إن
كان أفهم منا للدين لا يعيب كلامنا هذا بأنه من كلام خطباء المساجد ويقبل على تفهم وجه الحجة فيما نلقي عليه فإنما الحق والإصلاح نريد
إن المسلم الذي يفقه دينه ويفقه الحياة أينما نظر لا يجد مفراً من أن يصل هذه الحياة أدبها وفنها وعلمها بالدين كما أنزله الله على رسوله محمد بن عبد الله، أي كما يتبين من القرآن ومن عمل الرسول. إن الإسلام دين يشمل الحياة بحذافيرها ويحيط بها من جميع أطرافها. ومن أخص خصائصه أن يكون الإنسان في خلجات نفسه مع الله، وأن يخلص نوايا قلبه لله، وهذا هو معنى إسلام الوجه لله، ومنه اكتسب الدين اسمه الكريم: الإسلام. والمظهر العملي للإسلام هو طبعاً إتباع ما شرع الله للإنسان في الحياة من نظم وأحكام، لكنه لن يستطيع أن يحقق هذا حتى يكون سره ونجواه ونيته لله. وعن هذا الطريق طريق إسلام الوجه والنفس والقلب لله يكون تمام اتصال الإنسان بربه خالق الكون وفاطر الفطرة الذي إليه المرجع ومنه الهدى وبه الحياة . . .
فإذا كان ذلك كذلك، وإنه لكذلك، فكيف يجوز في غريزة أو عقل أو علم أن يجمع الإنسان بين الحياة الإسلامية والحياة الفنية أو الأدبية أو العلمية إن لم يكن بين الفن والأدب والعلم وبين الإسلام تمام التطابق والاتفاق؟ والاتفاق التام بين العلم والإسلام ثابت لا شك فيه، فليس في الثابت من العلم شيء ينقض شيئاً من الإسلام، وليس في الإسلام أصل ينقض حقيقة ثابتة في العلم. وكل ما يثبته العلم في المستقبل يقبله الإسلام مقدماً بنص القرآن، ويؤول إليه النص إن خالفه في الظاهر. وهذا دليل جديد لا ينقض على أن الإسلام هو حقّاً من عند الله فاطر الفطرة، وأنه حقا دين الفطرة كما وصفه الله في القرآن. أفلا ينبغي أن يثبِّت هذا في الدين هؤلاء المتزلزلين من أهل (التجديد) الذين يريدون أن يَلُفُّوا الدين ويضعوه على الرف ويقطعوا باسم التقديس ما بينه وبين الحياة في مظاهرها خارج المساجد في الأدب والفنون والاجتماع؟
إن الفطرة كلها منشئها واحد هو الله سبحانه وتعالى، والعلم والدين كلاهما قد اجتمعا على استحالة التناقض في الفطرة. فإذا كانت هذه الفنون من روح الفطرة كما يزعم أهلها وجب ألا تخالف أو تناقض دين الفطرة دين الإسلام في شيء. فإذا خالفته في أصوله ودعت صراحة أو ضمناً إلى رذيلة من أمهات الرذائل التي جاء الدين لمحاربتها، وعاقت الإنسان
أن يعمل بالفضائل التي جاء الدين لإيجابها على الإنسان حتى يبلغ ما قدر له من الرقي في النفس والروح - إذا خالفت الفنون الدين في شيء من هذا أو في شيء غير هذا فهي بالصورة التي تخالف بها الدين فنون باطلة، فنون جانبت الحق ودابرت الخير وأخطأت الفطرة التي فطر الله عليها الناس والخلق، والتي تريد الفنون أن تكون منها في الصميم، فإذا كان من شأن بعض ما يعمل أو يكتب باسم الفن أو الأدب أن يتجاوز في تأثيره ما سبق على عظمه، فيحول بين الإنسان وبين ربه، ويدخل عليه الشك في دينه بأي صورة من الصور ولأي حد من الحدود، كان ذلك البعض المعمول أو المكتوب باسم الفن أو باسم الأدب زوراً وإفكاً في الفن والأدب والفطرة والدين على سواء فنحن حين ندعو إلى وجوب نزول الفن والأدب على حكم الدين وروحه، وتحريهما التطابق التام بينهما وبينه، لسنا نبعث ولا نتجنى ولا نتحكم في الأدب والفن بما لا ينبغي التحكم به فيهما
إننا نوجد معياراً للحق والصواب والخير في الفن والأدب حين لا معيار لذلك كله فيهما؛ ونيسر للفن والأدب طريق التثبت من انطباقهما على الفطرة التي فطر الله عليها الناس، ونحقق لهما بذلك اتحادهما مع الفطرة في الصميم. ونحن بذلك الذي ندعو إليه ونقول بوجوبه نحقق بين الفن والأدب وبين الدين تلك الوحدة المتحققة بين الدين والعلم، فتتحقق وحدة حياة الإنسان كلها بذلك وتبرأ حياته من ذلك الداء المستعصي والشر البالغ شر وجود التناقض والتنافر بين ما يعشق من فن ويعتقد من دين. ثم نحن بعد هذا ووراء هذا نترك الفن والأدب بما قلنا ودعونا إليه من وجوب سيرهما مع الدين يداً بيد، وجنباً لجنب، وروحاً مع روح، على الطريق التي يحققان منها رسالتهما في الناس، رسالة الصدق والحق والخير والفضيلة والعزة والسعادة والهدى والنور، لا رسالة الكذب والباطل والشهوة والإثم والمجون والفجور

فالمسألة في الأدب - إذ لا بد من الرجوع إلا ما كنا فيه - ليست مسألة لفظ ومعنى فقط ولكنها في صميمها مسألة روح. فريق يريد أن يجعل روح الأدب روحاً شهوانياً بحتاً يتمتع صاحبه بما حرم الله وما أحل، لا يفرق بين معروف ومنكر، ثم يصف ما لقي في ذلك من لذة أو ألم أو غيرهما من ألوان الشعور ويخرج ذلك للناس على أنه هو الأدب! وفريق يريد

أن يحيا الحياة الفاضلة في حدودها الواسعة التي حدها الله، وبمظاهرها المختلفة في الفطرة كما طهرها الله، لا كما دنسها أو يريد أن يدنسها الإنسان، ويصف ما يتمتع به من تلك وما يلقي أو يتجشم في سبيل ذلك غير ناس لحظة أن الوجود كله من الله وأن الدين كله لله، وما يصف ويحلل يخرجه للناس على أنه هو الأدب. فأي الأدبين يا ترى أرحب وأسمى وأطهر، وأيهما أولى بالحياة وأصلح للبقاء؟ إنه لا شك عندي فيما تجيب به بفطرتك على هذا السؤال

إن أدب الفريق الأول هو ما يسمونه بالأدب الجديد ويمثله العقاد، وأدب الفريق الثاني هو ما يسمونه بالأدب القديم ويمثله الرافعي، وقد عرفت الآن فيم يتفقان وفيم يفترقان. الرافعي كما قلنا يتفوق على العقاد في التعبير وفي الخيال؛ وكلاهما يحتفل بالمعنى أكبر احتفال؛ غير أن الرافعي عنده نور يهتدي به ليس عند العقاد فكان لذلك أقل من العقاد عاباً وأكثر صواباً. لكن ذلك كله لا يكفي لأن يفرق بين أدبيهما تفريقاً يجعل منهما ممثلي مذهبين مختلفين في الأدب. إنما الخلاف الأساسي بينهما خلاف في الروح؛ هما من حيث الروح مختلفان كل الاختلاف، وعندك للحكم بين الروحين معيار صدق لا يخطئ هو معيار الدين. وإذا أردت معياراً جزئياً يغنيك عند التقريب فمعيار الخلق الفاضل. وإذا قست الأدبين بأحد هذين المعيارين لم يبق عندك شك في أيهما أولى بالإكبار وأصلح للبقاء لأنه أعون للإنسان على الارتقاء: الأدب الأخلاقي أم الأدب غير الأخلاقي، على ألطف وأخف تعبير

والمقياس الذي نبهنا إليه في الفن والأدب ليس من البعد عن الفن والأدب كما يصور العقاديون، بل هو من روح الفن والأدب في الصميم. أليس روح الفن والأدب والجمال، أليس الجمال النفسي روح الجمال الإنساني؟ ثم أليس روح الجمال النفسي إخباته وإخلاده وإسلامه لله؟ من هذا الإخبات والإخلاد والانقياد لله تأتي الفضيلة والسلامة والسعادة في الحياة، ومن محبة الله سبحانه يشيع في النفس الهدى ويشع منها النور. فقل لي بربك كيف يمكن أن يكون لأدبهم المكشوف نصيب من روح الجمال الإنساني يستهوي النفس التي فيها بقية من الفضيلة والخير؟ إنا لا نشك في أن ذلك الأدب المكشوف مثل سارة وما إليها يصدم أول ما يصدم مقر الفضيلة من النفس ويؤذي أول ما يؤذي حاسة الجمال النفسي في الإنسان. فهو في صميمه أدب غير جميل، يلذه ويستمع به من مسخت نفسه فصارت تعاف

الطيب وتستمرئ الخبيث. أما غير هذه النفوس مما لا يزال هلا من الخير والفضيلة والدين نصيب فأنها تجد صعوبة في أن تمضي في قراءة مثل ذلك الكتاب إلى تمامه إلا أن تعطل من ذوقها أو تنيم من ضميرها أو تحتال عليه بالإقرار له أن الكتاب من الناحية الخلقية معيب قبيح لكنها تقرأه لتحيط بأدب العصر أو لتدرس من الكتاب أسلوبه أو ما شابه ذلك من معاذير. ويكون جزاؤها على ذلك أن تخرج من القراءة وقلبها أكثر مرضاً، وذوقها الأدبي أقل تمييزاً، وحسها الخلقي أكثر انثلاماً. ولا تلبث إذا تكرر ذلك منها أن تفقد أكبر مميزاتها ومزاياها فتهبط من معارج الرقي النفساني إلى مدارج الانحطاط؛ ويكون الأدب المكشوف بذلك قد فعل فعله وأدى رسالته من مسخ الطباع وإفساد النفوس والصد عن سبيل الله

محمد أحمد الغمراوي

التاريخ في سير أبطاله

ابراهام لنكولن

هدية الأحراج إلى عالم المدنية

للأستاذ محمود الخفيف

يا شباب الوادي! خذوا معاني العظمة في نسقها الأعلى من سيرة هذا العصامي العظيم. . . . . .

وجاء يوم الرحيل وآن لفتى الأحراج أن يؤدي رسالته. . . آن لابن النجار أن يأخذ بيديه أزمة الحكم في قومه؛ وتأهب ليواجه العاصفة، وإنه ليراها اليوم عاصفة دونها تلك العواصف التي طالما هبت في الغابة هوجاء عاتية، فزعزعت باسقات الدوح وشعثت كثيفات الألفاف وأفزعت الرجال والدواب. . . إنه يراها اليوم عاصفة من عمل الإنسان لا من عمل الطبيعة، وما أهول ما يفعل بنو الإنسان حين ينسون إنسانيتهم فتستيقظ فيهم غرائزهم التي دبت فيهم أول ما دبوا على هذه الأرض. . .

عول على الرحيل (الرجل القادم من الغرب) كما اعتاد أن يسميه أهل العاصمة وغيرهم من أهل المدن الشرقية السابقة في المدنية. . . وتقدم الربان ليقود السفينة ودوى الأنواء في مسمعيه

ذهب مساء اليوم السالف ليوم رحيله إلى مقر عمله في المحاماة فجمع طائفة من الكتب والأوراق فلفها وربطها بيده وحملها معه ثم أوصى أن تظل الرقعة التي تحمل اسمه واسم زميله هرندن حيث هي على الباب قائلاً: إنه عائد - إن مد في أجله بعد انقضاء مدته في الرياسة - إلى عمله في المحاماة كأن لم يكن هناك شيء

وكان قد حزم متاعه وأعد كل شيء ليكون على أهبة إذا تنفس الصبح، وأعد فيما أعد خطاباً يذيعه في الناس ساعة الاحتفال بتسلمه مقاليد الأمور، ولقد احتفل لهذا الخطاب وكانت معانيه محتبسة في نفسه زمناً تهدر كالسيل وتجيش وتجتمع

وأسفر الصبح فركب وجماعة من أصدقائه مركبة أقلتهم إلى المحطة وقد تلاقى هناك نفر من أهل المدينة جاءوا يحيونه فما رآهم حتى وقف على سلم العربة وأطل عليهم وقد شحب لونه وتندت عيناه فقال: (أي أصدقائي؛ لن يستطيع أي رجل لم يكن في مثل موقفي هذا أن يدرك ما يخالجني من الحزن لدى هذا الرحيل. إني مدين بكل شيء لهذا البلد ولكرم أهله؛ ولقد لبثت فيه من عمري ربع قرن وتدرجت فيه من شباب إلى رجل مسن. . . هنا ولد أبنائي وهنا دفن واحد منهم؛ وهأنذا أرحل ولست أدري ما إذا كنت عائداً إليكم بعد اليوم. . . أرحل وأمامي عمل هو أعظم من ذلك الذي ألقى على كاهل وشنجطون، ولا نجاح لي ما لم أصب معونة الله الذي كان معه أبداً. . . ولئن ظفرت بهذه المعونة فلن أخيب. فلنأمل في حسن المنقلب مخلصين واثقين في الله الذي هو معي ومعكم والذي يكون منه الخير في كل مكان، وإني حين أكلكم إلى عنايته كما آمل أن تكلوني إليها في صلواتكم أقرئكم وداعاً حارًّا. . .)

وانطلق به القطار وقطرات المطر تنزل على رؤوسهم الحاسرة كأنها دموع منصبة من السماء، ولكم التقت ساعتئذ تلك القطرات بما فاض من المآقي. . . ورحل أبراهام ليعود بعد جهاد شديد ومراس فإذا هو شهيد تمزق الجراح جثته

وقضى في رحيله إلى العاصمة اثني عشر يوما. وعلم الناس بهذا الرحيل، فكانوا يلقونه في المدن التي يمر بها مرحبين، وقد تلاقت جموعهم على نحو لم تشهده البلاد من قبل، فما في الناس إلا من ملكه حب الاستطلاع؛ وكثير منهم كانت تدفعهم المحبة إلى هذا اللقاء

وكان قد عقد النية أن يظل صامتاً إلا ما يكون من تحية يرد بها على ما كان يلقاه من تحيات؛ ولكن إصرار الناس في كل مكان على أن يسمعوا حديثه جعله يتحلل مما اعتزم؛ ثم إنه - دون أن يعرف التظاهر أو الغرور - رأي أن هذه كانت آخر فرصة يتحدث فيها إلى عامة الناس، وهم الذين يعول عليهم ويطمع أن يتخذ منهم ظهيراً فيما هو مقدم عليه من كفاح

وكانت له في خطبه أثناء ذلك المسير خطة رشيدة؛ فقليلاً ما كان يبرم أمراً أو يقطع في المسائل القائمة برأي؛ وإنما كان يشرح الأمور حتى تستبين، ثم يتساءل عن أوجه الصواب تاركاً الناس يتدبرون حتى تأتيهم البينة، تتمثل ذلك في مثل قوله في أنديا نابولس: (أي مواطني، لست بمبرم أمراً، إنما أنا ألقي عليكم أسئلة لتتدبروها. . .)

ولقد تكلم في هذه المدينة فأشار إلى ما كان يجري على الألسن يومئذ حول حق الاتحاد في رد الولايات الخارجة عليه بالقوة؛ ولقد عد أنصار الجنوب ذلك العمل عدواناً؛ فتساءل الرئيس هل يكون في الأمر عدوان إذا لجأت حكومة الاتحاد إلى المحافظة على ما تملك هناك من عقار، أو إذا حافظت على سبل مواصلاتها وحرصت على جباية المال المقرر على البضائع الواردة؟

واستقبل إبراهام في سنسناتي استقبالا لم تر هذه المدينة لأحد من قبل نظيراً له؛ وتزاحم الناس عليه يريدون رؤيته وباتت المدينة في مثل فرحة العيد، ففيها الأنوار الوضاءة والأناشيد الصداحة والجموع الغفيرة المستبشرة، وفيها ما هو أعلى من سمات العيد هذه ألا وهو الحب الصادق تفيض به القلوب

ومر بحدود كنتوكي وهي ولاية من ولايات العبيد تشتد فيها الدعوة إلى الانسحاب من الاتحاد فقال يوجه الكلام إلى أهلها مشيراً إلى ما اعتاد أن يخاطب به أهل الجنوب من قبل: (أي مواطني أهل كنتوكي، هل لي أن أدعوكم بمثل ما أدعو؟ إني في موقفي الجديد، لا أجد حادثاً ولا أحس ميلا يدعوني أن أغير كلمة من هذا، فإذا لم تنته الأمور إلى الخير فثقوا أن الخطأ ذلك لا يكون خطئي. . .)

وفي بتسبرج أفصح عن سروره أن كان استقباله هناك استقبالاً شعبياً لا أثر للحزبية فيه ثم قال: (إذا لم تجتمع كلمتنا الآن لننجي سفينة الاتحاد القديمة الطيبة في رحلتها هذه، فلن يكون ثمة من فرصة بعدها لقيادتها إلى رحلة غيرها)

وفي محطة من المحطات الصغيرة وقف لنكولن بعد أن قرت حماسة المستقبلين فقال إنه يذكر أن خطاباً جاءه من فتاة هذه بلدتها تسأله فيه أن يطلق لحيته، ولقد فعل كما أشارت فهو ذو لحية اليوم كما يراه الناس، ثم عبر عن رغبته في رؤية تلك الفتاة إن كانت حاضرة، فبرزت من الجموع تلك الفتاة ومشت على استحياء حتى وصلت إلى الرئيس، فقبلها قبلة على جبينها، والناس بذلك معجبون فرحون!

وفي ألبني عاصمة ولاية نيويورك العظيمة كانت حفاوة الناس به شديدة؛ وكذلك كان شأنه في مدينة نيويورك التي سبق أن زارها لأول مرة من قبل ليخطب الناس فأصاب من النجاح ما سلفت الإشارة إليه

ووقف في ترنتن على مقربة من ميادين القتال التي سالت فيها دماء الثورة غداة حرب الاستقلال، فأخذه جلال الموقف وهزته روعة الذكرى فجرى لسانه بما اختلج في نفسه قال (إني لأرجو أن تسامحوني إذا ذكرت في هذه المناسبة أني في أيام طفولتي وفي مستهل عهدي بالقراءة قد تناولت كتاباً صغيراً يدعى حياة وشنجطون تأليف ويمز؛ وإني أتذكر كل ما جاء فيه عن ميادين القتال وعن مواقف النضال من أجل الحريات في هذه البلاد، ولكن ما من حادثة تركت في نفسي من أثر مثل ما تركه موقف النضال هنا في ترنتن نيوجرسي). . . وبعد أن أشار إلى بعض الحوادث قال. . . (وإني لأذكر الآن أني فكرت يومئذ ولما أزل غلاماً صغيراً أنه لا بد أن يكون أمراً غير عادي ذلك الذي كافح من أجله هؤلاء الناس؛ وإني لأحس رغبة ملحة قوية أن هذا الذي كافحوا من أجله وشيئاً آخر هو أعظم من الاستقلال القومي: شيئاً ينطوي على وعد يوعد به الناس جميعاً في هذا العالم في كل ما هو آت من العصور. . . أقول أني شديد التطلع أن أرى الوحدة والدستور وحريات الناس بحيث تصبح أبدية وهي مقرونة بتلك الفكرة الأصلية التي من أجلها قام الكفاح. ولسوف أكون جد سعيد إذا أصبحت الآلة المتواضعة في يد القوى العلي وأيدي هؤلاء الذين يكادون أن يكونوا شعبه المصطفى للعمل على أن يدوم ذلك الذي انبعث من أجله ذلكم النضال العظيم)

وكان الكتاب الذي يشير إليه لنكولن في هذه الذكرى هو بعينه ذلك الكتاب الذي أعاره إياه أحد معارفه والذي بللته قطرات المطر فأصابته ببعض العطب، وتركت الصبي الفقير في حال شديدة من الغم حتى لقد سار يحمله إلى صاحبه وهو شديد الحيرة، فلما جاءه عرض عليه أن يعمل عنده بما يساوي ثمنه. . . ذلك هو الكتاب الذي قرأ فيه النجار الغلام حياة وشنجطون العظيم، ولم يكن يدور بخلده أنه سيجلس يوماً حيث كان يجلس وشنجطون ويسدي إلى بني قومه وإلى الإنسانية جميعاً من صنيعه ما لو شهده ذلك البطل الكبير لطمع أن يكون ما تقدم يداه فوق ما قدمت

واستأنف الرئيس لنكولن ومن معه سيرهم إلى العاصمة حتى وصلوا فيلادليفيا؛ وهناك علم أن فريقاً من بني جنسه يأتمرون به ليقتلوه!. . . سمع إبراهام أن أمامه الخطر يوشك أن يحدق به؛ وما كان إبراهام بدعاً من العظماء، فكم من أماثل خلوا من قبله لاقوا مثلما يلاقي اليوم من عنت، ودبر لهم مثلما يدبر له، فما وهنوا ولا اصرفوا عن وجهتهم حتى أدركوا الغاية أو أدركهم الموت. . .

وارتاب لنكولن أول الأمر، فما كان يظن أن أحداً تحدثه نفسه بإتيان هذا العمل، ولكن جاءه رسول من عند صديقه سيوارد ينبئه أن قائد الجيش حدثه أن هناك مكيدة تدبر له وأن عليه أن يحذر حتى لا يكون ضحية للغادرين. . . فلما سمع لنكولن هذا لم يعد يرتاب وبات على حذر وإن لم تأخذه خيفة

وكانت لفيلادليفيا وهي المدينة التي كتب الثوار فيها وثيقة الاستقلال وصاحوا صيحة الحرية منزلة عظيمة في نفسه وفي نفس كل أمريكي من أنصار الحرية، وكان أبراهام قد وافق أن يخطب الناس في تلك القاعة التاريخية التي ولدت في ساحتها الحرية، وكأنما توافقت الذكريات لتزيد في جلال الموقف فلقد تصادف أن كان ذلك اليوم هو عيد ميلاد الزعيم وشنجطون؛ ورغب الناس أن يرفع العلم على رأس القاعة الزعيم لنكولن. . . ووافق لنكولن على ذلك مغتبطاً مرحباً كما وافق أن يخطب الناس مساء ذلك اليوم في مدينة هرسبرج وكانت تقع غير بعيد من فيلادليفيا. . .

وخشي أصحاب أبراهام أن يفتك به المجرمون في زحمة الناس في ذلك اليوم المشهود في أي من المدينتين وأشاروا عليه أن يقتصد في الاتصال بالناس فيفوت على الغادرين قصدهم، ولكنه أبى إلا أن يفي بوعده ولو كان في ذلك هلاكه. . .

ورفع أبراهام العلم في فيلادليفيا وكان في ذلك موفقاً، فإنه صعد في ثبات إلى حيث ينتصب العمود الذي يثبت فيه العلم فشد الحبل فانبسط العلم ورف، وخفق الناس واستبشروا وهم ساعتئذ جموع خلفها جموع إلى آخر ما يذهب فيهم البصر. . . وكلهم يحيون الرئيس في حماسة وغبطة

وخطب في القاعة التاريخية فأفصح عن شيء من سياسته على خلاف ما جرى عليه في خطبه السالفة؛ قال: (كثيراً ما سألت نفسي ما ذلك المبدأ أو ما تلك الفكرة التي حفظت الاتحاد هذا الزمن الطويل؛ إنها لم تكن مجرد انفصال المستعمرات عن الأرض الأصلية، ولكنها كانت تلك العاطفة التي منحت الحرية لا لهذه الأمة فحسب، بل للناس جميعاً في كل

عصر مقبل كما أرجو؛ إنها كانت تلك التي بشرت أنه متى حان الوقت المناسب رفع العبء عن كواهل الناس جميعاً ومنح كل امرئ فرصة على قدر ما يمنح أخوه. . . تلك هي العاطفة التي انطوى عليها إعلان الاستقلال. والآن أسائلكم يا أصدقائي هل يتسنى خلاص هذه البلاد على هذا الأساس؟. . . إذا أمكن ذلك فإني إن استطعت أن أساعد على خلاصها أعد نفسي من أسعد الناس في هذا العالم. أما إن كان من المستحيل خلاصها إلا أن يضحي هذا المبدأ، فإني أفضل أن أغتال في هذا المكان على أن أضحي به. والآن أرى من شواهد الحال القائمة أنه ليس ثمة من ضرورة إلى سفك الدماء والحرب. ليست ثمة ضرورة إليها؛ وإني لا أميل إلى اتجاه كهذا؛ وأضيف إلى ذلك أنه لن تقوم حرب إلا إذا أجبرت الحكومة عليها؛ ولن تلجأ الحكومة إلى القوة إلا إذا أشهر في وجهها سلاح القوة. . . أي أصدقائي! هذه كلمات جاءت على غير ترتيب سابق ألبتة؛ فأنا لم لأكن أتوقع قبل وصولي أن أدعى إلى الكلام هنا؛ لم أكن أحسب إلا أني سأرفع العلم فحسب؛ وعلى ذلك فربما كانت كلمتي هذه خلواً من الحرص ولكني لم أقل إلا ما أريد أن أعيش به وما أريد - إذا كانت تلك مشيئة الله - أن أموت به. . .)

وذهب لنكولن في المساء إلى هرمسبرج وخطب الناس كما وعد؛ وكانت بلتيمور هي المدينة التي اعتزم المجرمون أن يقتلوه فيها وهي في طريقه إلى العاصمة؛ فعاد لنكولن إلى فيلادليفيا قبل الموعد المضروب، وركب ومن معه قطاراً عادياً كان قد استبقي بناء على إشارة قادمة ليحمل (طرداً) هاماً إلى وشنجطون وترك لنكولن القطار الخاص الذي كان معداً لسفره، فمر ببلتيمور قبل الموعد المعروف ففوت بذلك على الكائدين كيدهم فكانوا هم المكيدين. . .

وفي الساعة من صباح اليوم التالي وصل (الرجل القادم من الغرب) ومن معه إلى وشنجطون، فدخل المدينة على حين غفلة من أهلها؛ اللهم خلا سيوارد ورجل آخر كانا على علم بمقدمه فلقياه. . . وركب لنكولن إلى فندق لينتظر بضعة أيام حتى يحتفل بتسليمه أزمة الحكم. . . دخل الزعيم لنكولن عاصمة البلاد في مثل تلك الساعة المبكرة وفي مثل تلك الحال المتواضعة ليجلس في كرسي الرياسة الذي جلس فيه من قبل وشنجطون، دخل ليحمل العبء وليبدأ في حياته مرحلة من الجهاد والجلاد دونها كل ما سلف من جهاد

. . .وجلاد
(يتبع)
الخفيف
فتاوى شرعية
معضلات العصر
للأستاذ الجليل محمد بن الحسن الحجوي
وزير معارف الحكومة المغربية
- 2 -
نص الجواب عن الأسئلة الأشفودرية
جواب السؤال الأول:
الحمد لله الفتاح العليم، والصلاة والسلام على النبي الكريم، وآله وصحبه المستحقين لكل تكريم. أما بعد فأما مسألة إلزام الملك أحمد زوغو سدد الله له الخطا، وأبعد عن الخطا، موظفيه وتلاميذ المدارس لبس البرنيطة (القبَّعة) - فاعملوا أنه لم يأت في القرآن العظيم ولا في الأحاديث الصحاح التي وقفت عليها أن النبي صلى الله عليه وسلم ألزم من أسلم من أهل الكتاب أو المشركين، ولا الخلفاء الراشدون بعده، تغيير الزي أو جعلوا للمسلم لباساً خاصاً يتميز به. قال الله تعالى: (قُل من حرَّم زينةَ الله التي أخرج لِعباده والطيِّباتِ من الرزق)، وزينة الله ما يتزين به عباده من اللباس على اختلاف أنواعه. وقد استثنت السنة من ذلك الحرير والذهب، فان لبسهما حرام على ذكور الأمة دون نسائها. وقد أسلم عدي بن حاتم الطائي وكان نصرانيّاً حاملاً لصليب فأمره النبي صلى الله عليه وسلم بطرحه ولم يصح أنه أمره بتغيير اللباس ولا أمره غيره بذلك. وفي الصحيح: أن النبي صلى الله عليه وسلم لبس جبَّة روميةً ضيقةَ الكمين في السفر. وما جاز لبسه في السفر جاز في الحضر من باب لا فرق. وقال عليه السلام: (كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير إسراف ولا مخيلة) أخرجه البخاري تعليقاً ووصله أبو داود الطيالسي والحارث بن أبي أسامة في مسنديهما ولم يقع الاستثناء في رواية الطيالسي وسقط وتصدقوا من رواية الحارث وزاد في آخره: إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عباده. وأخرجه ابن أبي الدنيا بتمامه في كتاب الشكر. وإبيان البخاري بصيغة الجزم وهي قال دليل على قوة إسناده، بل على صحته كما هو مصطلحه في المعلقات من صحيحه. وعلق البخاري من صيغة الجزم أيضاً عن ابن عباس موقوفاً عليه: (كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك اثنتان سرف أو مخيلة): وقد وصله ابن أبي شيبة في المصنف. نعم استثنت السنة أيضاً ما كان من باب التشبه بالكفار، فقد أخرج الطبراني في الأوسط بسند لا بأس به عن علي كرَّم الله وجهه مرفوعاً: (إياكم ولبوس الرهبان فان من تزيا بهم أو تشبه فليس مني) فاتضح لكم ما استثني من الآية وما بقي فيها على العموم. وأعلم أن التشبه بالكفار في اللباس سواء للبدن أو الرأس أو الرجل فيه نوعان:
النوع الأول أن يَلبس لباساً خاصاً بالرهبان دالا على رتبة من رتب الرهبنة وكان بحيث أن من لبسه يدل حاله على أنه ارتدّ عن الإسلام ودخل في الكفر. هذا هو الذي يترتب عليه الكفر لأنه دليل على تغيير الاعتقاد الديني وتحوله إلى معتقد الرهبان؛ وهذا هو المعنيُّ بحديث عَليٍّ السابق؛ ولذلك قال عليه السلام: فليس منّي. وفي هذا النوع يقول الشيخ خليل المالكي في مختصره: الردة كفر المسلم بصريح أو لفظ يقتضيه أو فعل يتضمنه كإلقاء مصحف بقذر وشد زُنّار قال. بناني في حاشيته: الزنار ثوب ذو خيوط ملونة يشده الكافر في وسطه يتميز به عن المسلم. قال والمراد به ملبوس الكفار الخاص بهم قال ومَحل هذا إن فعل ذلك محبة في ذلك الزيّ وميلاً لأهله؛ وأما إن فعله هزواً ولعباً فهو محرم، إلا أنه لا ينتهي لحد الكفر كما قال ابن مرزوق ا. هـ. ا. فالردة عند المالكية متعلقة بتغيير الاعتقاد الإسلامي بناء على أن الإيمان محله القلب؛ وكذلك الكفر فلا يحكم بالردّة إلا إذا صدر عن المرتد قول يصرح بذلك أو فعل يقتضيه اقتضاء واضحاً كشد الزنار لقوله تعالى: (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله) فالآية واضحة الدلالة على أن الكفر والإيمان مناطهما الاعتقاد بالقلب، فكل ما دل على ترك معتقد المسلمين دلالة صريحة فهو كفر كنبذ أحكام الإرث والزواج والطلاق وكل ما علم من الدين بالضرورة،

وكل ما لم يصل إلى ذلك فلا. واعلم أن الحكم على المسلم بالردَّة حكم بإخراجه من جماعة المسلمين وحكم بإراقة دمه، ولا أخطر من هذا الأمر في الإسلام الذي يحرص على تنمية عدد المسلمين وليس من شأنه أن يطردهم لأدنى شبهة وهم يذكرون الله ويعبدونه، فان الله يقول: (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) الآية ويقول: (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله) الآية

وننبه هنا إلى أن متأخري السادة الحنفية حكموا بالكفر في عدة فروع بأدنى شبهة وخالفوا مبدأ إمامهم المبني على التثبت والأخذ بحديث: إدرأوا الحدود بالشبهات. وتوسع في درء الحد بالشبهة إلى أقصى حد؛ ولهذا أنكر عليهم الإمام ابن الهمام منهم، فكان يترك الفتوى بما رأوه ويفتي بغيره. ولنكتف بهذا القدر تجنباً من الدخول في معمعة مذهبية غير مرغوب فيها

النوع الثاني من التشبه كان خفيفاً لم يصل إلى حد الكفر بحيث لا يدل دلالة واضحة على تغير اعتقاد المسلم كحلق اللحا، ولبس لباس غير زنار، وسدل شعر الرأس. وفي هذا ورد حديث البخاري عن ابن عباس: (كان النبي صلى الله عليه وسلم يحب موافقة أهل الكتاب مما لم يؤمر فيه؛ وكان أهل الكتاب يسدلون أشعارهم، وكان المشركون يفرقون، رؤوسهم فسدل النبي صلى الله عليه وسلم ناصيته ثم فرق بعد) يدلنا هذا الحديث على أن الأمر العادي إن وقع السكوت عنه في الشريعة ولم ينزل فيه وحي كان يحب موافقة أهل الكتاب تأليفاً لهم وطمعاً في اجتذابهم إلى الإسلام، أم لأنهم أهل شرع سماوي بخلاف كفار العرب الوثنيين، ثم لما أيس منهم صار لا يوافقهم ففرق شعره. وكان الصحابة بعده مخيرين من يفرق منهم ومن يسدل إذ ليس هذا من قبيل التعبد بدليل قوله فيما لم يؤمر فيه، وعلى هذا فلا نسخ في الحديث إذ لا تعبُّد فيما يظهر، وبعيد كل البعد أن تكون الأحكام الإلهية تبعاً للأحوال السياسية، والوحي ينزل: هذا وليس كل ما فعله الكتابي أو المجوسي يجب علينا مخالفته فيه. كلا. فهذا عمر بن الخطاب أحدث التاريخ في الرسائل الرسمية ودون الدواوين وكتبها بلغات أجنبية ونظم البريد وفعل غير ذلك مما يفعله الروم والفرس ولنا فيه فائدة تعم مصلحتها. وعلى هذا فكل ما لنا فيه فائدة ومصلحة عامة كلباس الجند وإحداث الأنظمة المحكمة وتقريب المواصلات وتعجيل الأخبار كالتليفون والبرق وغير ذلك مما لا يحصى من الأمور الصحية والطبية ونظام الجندية واقتناء آخر طرز من الأسلحة والطائرات الجوية وغير ذلك، فكل ذلك لا معنى للطعن على من أخذ به أو الانتقاد بالتشبه عليه أو نسبته لفعل بدعة دينية. فالتشبه الذي نهينا عنه له حدٌ محدود وقرينة الحال تدل على ذلك؛ وهو كل ما كان راجعاً إلى تغيير الأمور التعبدية أو إذهاب الشعائر القومية التي تفني بذهابها ذاتية الأمة في ذاتية أمم أخرى مما يمس جوهر الإسلام وأبهته ويحط من

قدره. وإذا نظرنا إلى تغيير الزِّي بلبس البرنيطة الذي هو غير مفيد للإسلام في شيء وعرضناها على المعنى المقصود وجدناها ليست من النوع الأول قطعاً الموجب للردة، إذ ليست خاصة بأهل الكفر من الرهبان؛ وإنما هي من النوع الثاني لما فيها من محو شعار القومية، فغاية الأمر أن تكون محرمة أو مكروهة. وأما حديث أبي داود والترمذي مرفوعاً: فرق ما بيننا وبين المشركين العمائم على القلانس، فلا تنهض به حجة لقول الترمذي: إن إسناده ليس بالقائم وفيه رجلان مجهولان. ثم إن البرنيطة بالنسبة إلى موظفي ألبانيا قد تكون جائزة في حق من هو فقير منهم بحيث إذا عزل أصبح يتكفف الناس وله عيال، وهذا وإن لم يصل لحد الضرورة المبيحة كأكل الميتة لكنه محتاج إلى ذلك والحاجة في المذهب المالكي ملحقة بالضرورة. وقد أفتى ابن مرزوق: أن من لبس الزُّنار الذي هو موجب للردة مضطراً كأسير عندهم فلا حرمة عليه فضلا عن التكفير؛ نقله بناني في الحاشية وسُلِّم له؛ كما أفتى بأن من لبس الزنار هزلاً ولعباً لا يكفر؛ وإنما يكون فعل حراماً. أما أغنياء الموظفين الذين ألزموا بلبسها وهم غير محتاجين للوَظيفة فهؤلاء قد يقال تكون في حقهم محرمة أو مكروهة، ولا ردة تلزمهم في ذلك ما دام الإيمان ثابتاً في قلوبهم. أما من تورع عنها وزهد في وظيفته لا يكون فيه حرَّاً حتى في لباسه فذلك أحسن

وإني على علم من أن بلدكم هي الدولة الإسلامية الوحيدة في أوربا ويتعادل فيها عدد المسلمين مع غيرهم. فلو أننا كلفناهم بتقديم استقالتهم جميعاً احتجاجاً على عدم

رضاهم بتغيير زيهم الذي هو شعار قوميتهم التي تتعين المحافظة عليها، لأخذ وظائفهم غير المسلمين ودال الأمر إلى تمكين غيرهم من التصرف في مصالحهم بما قد يكون مضراً بهم وبدينهم. والقاعدة الشرعية إذا اضطر المسلم إلى أحد الضررين وجب اختيار أخفهما. وعلى هذا فلا تحرم حتى على أغنياء الموظفين ولا على من استعملها في بلد غير إسلامي قصد الستر وأمن المكر. أما المسلم الذي يلبسها اختياراً في بلد إسلامي فلا شك في الحرمة لما فيه من التشبه وإهانة القومية وتفريق جمع الإسلام وإباحة عرضه للطاغين

نعم لو فرضنا أن الموظفين المسلمين لا يستغني عنهم، وأن الملك يضطر عند تقديم استقالتهم جميعاً إلى العدول عن أمره بلبس البرنيطة وجب عليهم جميعاً تقديم استقالتهم، ووجب على غيرهم ألا يقبل أي وظيفة منها إلا بعد الرجوع في الأمر المذكور؛ والوسيلة

تعطي حكم مقصدها؛ وأظن أن هذا عندكم غير متيسر، بل إن الأفكار (الكمالية) فعلت فعلها واحتلت كثيراً من الأدمغة الألبانية حتى تخطتها إلى علية القوم وسراتهم لذلك لا يسعنا إلا أن نفتيكم بامتثال أمر الملك المؤيد، وننصحكم بالعدول عن كل حركة يخاف منها على الأمن في مملكة صغيرة فتية محاطة بالمطامع نرجو لها النمو والنجاح. فإياكم إياكم الخلاف ما أمكن. وعليكم طاعة السلطان إن كانت في المعروف، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. لكن للضرورة أحكام. وطاعة السلطان واجبة كطاعة الوالدين التي جعل لها الحق سبحانه نهاية وآخرة في قوله: (وإن جاهداك على أن تُشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما)

أما تلاميذ المدارس الذين ألزموا ألا يقبلوا في مدارس الحكومة إلا بالقبعة (البرنيطة). فأما من كان منهم دون بلوغ فغير مخاطب بتكفير ولا بتحريم وإنما المخاطب بذلك وليّه. وأما من كان بالغاً عاقلاً فان مصلحة تعليمه مقدمة على مفسدة تغيير زي قوميته في نظري. ولا داء أدوأ من الجهل للبالغ وغير البالغ. يا إخواني إن هذه السياسة العميقة التي تشدَّ إزرها الأحوال والأفكار المحدَّثة تسوَّغ لي أن أتنبأ لكم والأسف ملء جوانحي بأن البرنيطة عما قريب ستصير لكم اللباس القومي والشعار الألباني قبل انقراض الجيل الحاضر. وا أسفاه! إن اللباس العربي الذي كان يلبسه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين فتحوا أكثر العالم في مدة جيل واحد وهذبوا وعلموا ومدنوا ما فتحوا - قد قضت عليه أزياء الفرس والروم، بل حتى أزياء الرهبنة، فأن القنباز عندنا قريب من سترة الرهبان، وهكذا الطربوش النمسوي الذي عمَّ الممالك الإسلامية، والجبدور الذي يوجد في أكثر بلاد الإسلام؛ حتى النعال، كل ذلك نسخ اللباس العربي ولم يبق منه إلا العمامة والقلنسوة. وهذه البقية الباقية من الزي الشرقي والشعار الإسلامي قد أخذت الأفكار الكمالية تكتسحها وتعفي أثرها، ولله في خلقه شؤون. وأرجو أن تكونوا قد أخذتم أيضاً بالتغييرات والإصلاحيات الحقيقية المفيدة التي أدخلها الكماليون على بلادهم لتذهب الحسنات بالسيئات. ذلك كتنظيم الجند على الطراز الحديث، وجعل أسطول جوي عتيد يقاوم كل طمع في بلادكم، وكتنظيم المالية بالضبط الحقيقي، وتوحيد الفكرة الألبانية في كل ميادين الحياة؛ واستخراج كنوز الأرض لكفايتها أهلها عامة، وتوحيد طرق التعليم والتهذيب لتجمع الأمة شملها وتكون على

قلب رجل واحد؛ وترقية الشؤون الاقتصادية. إلى غير ذلك

إخواني إن الإسلام ركنه الأعظم فكرة واعتقاد متين مؤسس على أصول الوحي والعقل القطعيين فلا تزعزعه الكوارث ولا يتأثر بالتغيرات

والذي أوصيكم به وأحضكم عليه والذي تبذلون دونه كل غال ورخيص، ونفس ونفيس، هو القرآن الذي هو الحبل المتين، والركن المكين، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والسنة النبوية الصحيحة، مَرّنوا أولادكم على التمسك بهما وحفظهما والاحتفاظ بهما، والعمل بما فيهما، فذلك برنامج الفتح الإلهي، والتقدم الحقيقي. عضُّوا عليهما بالنواجذ ولا يضر المسلم أن يتقمص في أي ثوب كان إذا كان متمسكا بهما؛ ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها. عليكم إخواني بالتعليم. . . التعليم. . . التعليم. . . تعليم العلوم القرآنية الخالية من شوائب الشذوذ، والعلوم الحديثة الصحيحة واتباع طريق السلف الصالح وخير القرون في كل أمر ديني. وعليكم بالجد

والاجتهاد في اقتناء العلوم الدنيوية على اختلافها كيفما كانت ومن أيِّ جهة جاءت، والبلوغ في الاقتصاديات لأعلى المجد واتباع أحدث الطرق فيها. وروح النجاح في ذلك كله هي الأخلاق الإسلامية المؤسسة على السيرة النبوية وتاريخ الإسلام المجيد الذي هو الإكسير الصحيح الذي يقلب الأمم الخاملة إلى أمم راقية ناهضة؛ والله يؤيد حكومتكم ويجمع عليها كلمتكم ويؤلف بين قلوبكم وبين قلب كل الباقين كيفما كان مذهبه ويبعد عنكم أحقاد التفرقة السياسية بمنه وفضله آمين

(يتبع)

محمد بن الحسن الحجوي

رسالة الشعر

في دخان اليأس

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

(يقولون: غن الشعر أبيض هادئاً ... وكيف تغني في الهجير البلابل؟)

وَقيَّدَ عُمْرِي حُبُّها في قرَارةٍ ... مِن الْهمِّ لا يُرْجَى لها الْيَوْمَ ساحِلُ

عَلَيْها دُخَانُ الْيَأسِ سَأمانُ، وَاجِمٌ ... كَظِيمُ الْحَواشي مُقْلَقُ الذَّرِّ ذَاهِلُ

قتامٌ عَلَى أَسْدَالِهِ يمْرَحُ الأسى ... وَقَبْرُ الْمُنَى في ظِلِّهِ يَتَخَايَلُ

وَلِلْخَيْبَةِ الكُبْرَى عَلَى جَنَبَاتِهِ ... خَيَالٌ لِحظِّي في دُجَى النَّفْسِ ماثِلُ

إِذَا أنا سَرَّحْتُ الْخَوَاطِرَ صَدَّها ... وَعادَ بِهَا لُجٌّ منَ الْيَأسِ غائِلُ

كأنِّيَ أَعْمَى يَخْبِطُ الْكَوْنَ هائماً ... عَلَى خَطْوِهِ سِنُّ الْعَصا تَتَخَايَلُ

سَوَاءٌ لَدَيْهِ حِينَ يَظْمأُ لِلسَّنَا ... عَشايَاهُ يُتْرِعْنَ الدُّجَى وَالأصَائِلُ

كأني لَحْنٌ طاشَ مِنْ كَفِّ عازِفٍ ... عَلَى وَتَرٍ جافَتْ هَوَاهُ الأَنامِلُ؟!

نزَلْتُ عَلَى الْوَادِي وَنَفْسِي كَئِيبَةٌ ... وَنايَي مَفْجُوعُ التَّرَانِيمِ ثاكِلُ

وَبِي أَمَلٌ أَنْ يْمسَحَ الْحُبُّ شَقْوَتي ... وَيُوهِنَ مِنْ عِبْئِي الذي أنا حَامِلُ

فعُدْتُ وَبي قَيْدَانِ: قَيْدَ صَبابَتي ... وَهَجْري وَقَيْدٌ أَحْكَمَتْه النَّوازِلُ

كأني سَجِينٌ سُدَّتْ الأرضُ حَوْلَهُ ... وَكادَتْ بِساقَيْهِ تَنُوحُ السَّلاَسِلُ

فلاَ الدَّهْرُ أَخْلاَني وَلاَ غادَةُ الهوى ... أفاقَتْ لأَشْجَاني، فما أنا فاعِلُ؟

يقُولونَ غَنِّ الشِّعْرَ أَبْيَضَ هادِئاً ... وَكَيْفَ تُغَنِّي في الهجيرِ الْبَلاَبِلُ؟

وَكَيْفَ وَقلبي لا يُفِيقُ مِنَ الأسى! ... وَنَجْمِي إلى أُفْقِ الْمَنِيَّاتِ مائِلُ!

لأَقْسَمْتُ ما غَنَّيْتُ شِعْراً! وَإِنما ... حُشاشَةُ رُوحي بالأسَى تَتَهَادَلُ!

فَيَا غادَةَ الإلهامِ وَالشِّعْرِ! وَمْضَةً ... لَعَلَّ بِصَحْرَائي تَرِفُّ الخمائِلُ

وَتحياَ الرُّبى وَالظِّلُّ وَالزَّهْرُ والشذَى ... وَتَيْنَعُ أَيَّامِي، وَتَصْفُو المناَهِلُ

فَتَشْرَبُ مِنْ أحلاَمِنا خَمرَةَ الهوَى ... وَيَجْرَعُ مَنْ سُمِّ الْهَوَانِ الْعَوَاذِلُ . . .

أَطلِّي عَلَى دُنْيَاي - سِحْراً - وأَشْرِقي! ... جَبِينُكِ ما أَمَّلْتُ فيها، وَآمُلُ!

وَذَاتُكِ قُدْسي وَانْتِعاَشي وَفَرْحَتي ... وَفَيْءٌ لِرُوحي ما وَعَتْهُ الظِّلاَئِلُ

فَلاَ تَتْرُكي يأسِي يَلِجُّ فإنَّهُ ... ظَلاَمٌ لرُوحي الْمُسْتَهاَمَةِ قاَتِلُ

وَأَخْشَى يُنادِيني الرَّدَى فأُجِيبُهُ ... فَيَصْمُتُ طَيْرٌ بالهوَى الْعَفِّ زَاجِلُ

وَتَخْرَسُ أَيَّامِي. . . وَيَنْدَثِرُ الّذِي ... قَضَى الْعُمْرَ عَنْ يَوْمِ اللِّقَاءِ يُسائِلُ!

حواش وجيوب

للأستاذ الحوماني

قربي نهدَيكِ أَلمسْ وَأَرى ... كبدي فوقهما كيف تذوب؟

كلما أمررتُ كفي بهما ... ندَّ عنها برعمٌ واحمرّ كُوبُ

أتلقى بفمي زهرهما ... فإذا ملءُ فمي خمرٌ وطِيبُ

وإذا أمعنتُ في عصرهما ... دَمِيتْ منا عيونٌ وقلوب

ما ترى عيناكِ من أخيلةٍ ... تتراءى لي وأحياناً تغيبُ

أَهيَ الآلامُ مرّت وعلى ... وجهها منا غبارٌ وشحوبُ؟؟

أم هِيَ الآمال لاحت وعلى ... صدرها منا حواشٍ وجيوب؟

مبسمٌ من قُبَلِ الآتي نَدٍ ... ومُحيَّا من دم الماضي خضيبُ

الحوماني

عزلة

للأستاذ خليل هنداوي

أغادرُ هذا الحمى هائماً ... وأَسرى، وأسرى أريد الفضاءْ
فلا يسع الكون قلبي الصغير ... ولا تسع النفس كل السماءْ
بنا عزلة جوعها دائم ... تضيع بوحشتها الأضلع
ونطعمها من طعام القلوب ... ونملأ فاها فلا تشبع
يضم الهوى جامعاً بيننا ... وتسكرنا رشفات القبل
فننسى الحياة وننسى الوجودْ ... وتغمرنا مغريات الْأَمل
ولكننا بعد ذاك العناق ... تعاودنا العزلة القاسية
تريد غذاء جديداً لها=فنذبح أنفسنا ثانية. . .
خليل هنداوي
وحي الشاعرية
للدين
للأستاذ حسن القاياتي
ليس يدري أن للناس إلهْ ... كلَّ غاوٍ لو دراه لاتقاهْ
سادَ بالدين فريقٌ شدَّ ما ... آنق الأعين في زيِّ الهداه
قام يَدْعُو من يصلي والخنا ... قائمٌ يضحك من تلك الصلاة
المصلي في خداع ماله ... قام فخاً، ما طَوَاهُ ما ثناهْ؟
يذكر الله ويُوْصِي لحظُهُ ... من أتيحا للخنا أن يُشْرِكاه
صَرَّع الموتُ غويًّا فانبرَى ... مَعْبَداً يلحد فيه من دعاه
ويح شعب لم يُسَدَّد بابنه ... للمساعي كيف أودى فارتجاه؟
إن في الشرق لَعِلماً كلما ... أقبل الشرقُ على النُّبل نَهاَهْ
كل سفرٍ لست تدري صوغه ... من خبال حيث تدري ما عناه!
طاعة الدين لدى جُهَّالِهِ ... تصرع التفكير عن حكم الرُّواهْ
يا بني الأُخْرَى وساءت سُبَّةً ... إن للمجد سواكم لدُعَاهْ
إن للتقبيل في راحاتكم ... نغمة الفحشاء في لثم الشفاه
كيف تقبيلُ بنانٍ لم يكن ... رَبُّهاَ بَرًّا. ولم تحمد يداهْ؟؟
(السكرية - دار القاياتي)
حسن القاياتي
جرح هوى قديم
جرح هواكِ اليومَ في مهجتي ... ما زلتُ أستشعر منهُ الألمْ
كأنه جرح هوى طارفٍ ... لا جرح حبّ مُوغلٍ في القِدَمْ
العوضي الوكيل
البريد الأدبي
إلى الأساتذة أحمد أمين والجارم بك وجاد المولى بك
أعضاء لجنة إنهاض اللغة العربية
نشرت البلاغ في عددها الذي صدر يوم الخميس الماضي هذه الأسئلة، ونحن ننقلها عنها بنصها:
ذكرتم في تقريركم الذي رفعتموه إلى وزارة المعارف أن من وسائل إنهاض اللغة العربية أن يكون في أيدي التلاميذ طائفة اخترتموها من الكتب الأدبية الحديثة لم نر من بينها (في أصول الأدب) ولا (آلام فرتر) ولا (رفائيل). وهذه الكتب قد عرفها الجمهور وقرأها وحكم لها؛ فإذا كنتم تجهلونها كان هذا الجهل عيباً في الاختيار الذي نشرتموه. وإذا كنتم تعرفونها ثم أغفلتموها حق لي أن أوجه إليكم هذه الأسئلة:
1 - إذا كان اختياركم مقصوراً على الكتب الأدبية الموضوعة، فلماذا اخترتم الفضيلة (بول وفرجيني) وتركتم (في أصول الأدب؟)
2 - إذا كان الاختيار مطلقاً من هذا القيد فلماذا أغفلتم (آلام فرتر) و (رفائيل)؟
3 - هل تستطيعون انتم ومعكم غيركم أن تأخذوا على هذه الكتب شيئاً في اللغة أو في الأسلوب أو في الغرض؟
4 - إذا كنتم لا تختارون إلا لأدباء وزارة المعارف فلماذا اخترتم للعقاد والمازني والمنفلوطي وشوقي
5 - إذا سألكم هذه الأسئلة وزير الأدب هيكل باشا فهل تستطيعون الإجابة عنها من

غير حرج؟
(سائل)
وهذه الأسئلة بعينها يصح أن يوجهها إليهم (سائل) (الرسالة)
عن كتب الرافعي وعزام وزكي مبارك
الأستاذ العقاد وامرئ القيس
قال الكاتب الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد في مقالته (بقية المذهب) في الجزء السابق من (الرسالة) الغراء: (لقد وصف بعض الأعراب نساء (محبوبات) فاستملحوا الضخامة ومدحوا الكسل وبطء الحراك، وافتتن أميرهم بعذارى قال في وصفهن ما يقال في وصف الغيلان:
وظل العذارى يرتمين بلحمها ... وشحم كهداب الدمقس المفتل
نعوذ بالله!
قلت: امرؤ القيس يقول هذا البيت في وصف الناقة التي عقرها للعذارى (المحبوبات) لا في وصف فتاة من الفتيات، وقبله:
ويوم عقرتُ للعذارى مطيتي ... فيا عجباً من كورها المتحمَّل
وقد قال الزوزني في البيت (اللحمي والشحمي): (فجعلن يلقي بعضهن إلى بعض شواء المطية. .)
وامرئ القيس الكندي أو حماد الرواية أو صاحب هذه القصيدة إنما يستحسن في المرأة ما يستحسنه الأستاذ العقاد النقاد ويستقبح ما يستقبحه وهو يقول في (معلقته) التي لم تعلق في كعبة ولا خيمة ولا خصّ:
مُهفهفة بيضاء غيرُ مفاضة ... ترائبها مصقولة كالسجنجل
قال الزوزني: (يقول: هي امرأة دقيقة الخصر ضامرة البطن، غير عظيمة البطن ولا مسترخيته، وصدرها براق اللون متلألئ الصفا تلألؤ المرآة) فأمير الأعراب - وهذا قوله - ونائب الأمة في (دار الندوة) الأستاذ العقاد في قضيتهما في (الحسان) سيان، ولم يختلف في الحق الأميران. . .
(القارئ)
مالطة عربية
كتب المستر مكنزي المحرر في جريدة أجبشيان غازيت رسالة إلى جريدة (الديلي تلغراف) تناول فيها ما يزعمه الإيطاليون من أن بينهم وبين أهالي مالطة علاقة لغوية وبالتالي عنصرية. ويؤكد المستر مكنزي أن اللغة المالطية ذات علاقة شديدة باللغة العربية. وهي من ثم من آثار العهد الذي كانت فيه للعرب دولة عظيمة مترامية الأطراف. يقول عنها الدكتور فيليب حتى اللبناني أستاذ التاريخ في جامعة برنستون في الولايات المتحدة إنها كانت (أعظم من الدول الرومانية في عنفوان مجدها) فمن جهة اللغة تكون مالطة إذن عربية الأصل أكثر كثيراً مما هي إيطالية
مصر والثقافة العربية
سافر إلى لبنان حضرة صاحب العزة الأستاذ الجليل محمد بك العشماوي وكيل وزارة المعارف، فكان موضع الحفاوة والترحيب من رجال الأدب والفضل في لبنان. وقد تحدث مرة في حلقة منهم بحديث عن عناية مصر بالثقافة العربية قال فيه:
(سأسعى لأن تنفذ الثقافة المصرية إلى جميع أقطار العرب؛ فمصر واجب عليها أن تتزعم الحركة الفكرية وأن تكون فعلا في المقام الذي تضعها فيه بلاد العرب وارى أن توحيد الثقافة العربية ومناهج التعليم واجب؛ وسأسعى إلى ذلك بما في جهدي وطاقتي
وقد أنشأت وزارة المعارف المصرية فرعاً خاصّاً ليكون على اتصال تام بجميع أقطار العرب يتابع النهضة الثقافية فيها ويقدم إلى البلدان العربية جميع ما تعمله الوزارة من أعمال وما تقرره من شؤون
ولا يقتصر النشاط والاهتمام ببلادنا العربية على وزارة المعارف فان وزارة الخارجية أنشأت قسماً شرقياً خاصاً لهذا الشأن فمصر ستعني عناية خاصة بكل ما يجري من تحول في البلدان العربية والاهتمام الثقافي هو الخطوة الأولى التي تتبعها خطوات أخرى في جميع الميادين

وليس أدل على اهتمام مصر ببلاد العرب من هذه الحالة التي أبسطها فان مدارس المعارف
تضم تلاميذ من طيطوان كما أنها تضم تلاميذ من سورية والعراق والحجاز ولبنان وكلهم يتلقون التعليم الابتدائي والثانوي والعالي على حساب الحكومة المصرية ويحاطون بكل عناية
وفي المدة الأخيرة كتب حضرة سلطان حضرموت إلى صاحب الجلالة الملك فاروق الأول بشأن إيفاد بعثة من التلاميذ تعلم مجاناً في مدارس المعارف المصرية فاصدر جلالة الملك أمره بقبول البعثة مع تسديد نفقات إقامتها وملابسها وجميع ما تحتاج إليه ولا تتأخر مصر عن الاضطلاع بما تعده واجباً عليها للغة العربية والعرب
وأشار في ختام حديثه إلى المؤتمرات التي أعدتها مصر وإلى المؤتمرات العربية التي تنوي عقدها عاماً فعاماً في جميع بلدان العرب لتوثيق العلاقات بينها وبين تلك البلدان)
ثقافة السودان
كتب إلى جريدة التيمس المستر كيروان يقول: (إن مراسل التيمس في الخرطوم كتب إليها حديثاً يقول فيه إن السودان كسائر البلدان العربية في العالم الحديث يجب أن يعتمد في إقامة ثقافته الوطنية على مصدرين أساسيين. الأول ميراثه الإسلامي وتقاليده العربية، والثاني الثقافة الحديثة في الغرب. وأهم طريق للوصول إلى المصدر الأول هو مصر، وإلى الثاني هو إنجلترا
فالشق الأول من هذا البيان قابل للمناقشة: فان ميراث السودان الإسلامي وتقاليده) العربية التي يستفيدها عن طريق مصر تظهر لنا ضئيلة. فالسودان بخلاف البلدان العربية الأخرى إنما اعتنق الإسلام منذ عهد قصير ربما لا يرجع إلى أبعد من القرن السادس عشر. وكان قبل ذلك ميداناً للنصرانية، وقبل ذلك قضى السودانيون أجيالا طوالا متمتعين بثقافة راقية كل الرقى مستفاد بعضها من مصر. وتحت وشاحهم الإسلامي الحالي يمكننا أن نلحظ حتى اليوم تلك الثقافات السالفة
فيكون إذن مهما للسودان أن يستند في تأسيس مدينته الأهلية الجديدة إلى ميراثه الوطني من تقاليد إسلامية وتقاليد سابقة للإسلام والعرب
عنصر جديد في عالم الطب
جاء في مذكرة تلقتها وزارة الخارجية من المفوضية المصرية بألمانيا: أن البروفسور فالدمان الطبيب الألماني المشهور كشف مادة جديدة لمقاومة الحمى القلاعية وأنه بهذه الواسطة حقق غرضاً من أهم الأغراض العلمية بإيجاد (عنصر جديد في عالم الطب) كما قالت الصحف الألمانية
ونظراً إلى أهمية هذا الاستكشاف وما ينتظر له من النتائج أرسلت المفوضية نص حديث للبروفسور مع الصحف الألمانية عن هذا الموضوع الذي ينتظر أن يعني ببحثه قسم الطب البيطري في وزارة الزراعة
تيسير قواعد اللغة العربية
وضعت جماعة دار العلوم ملحوظات قيمة على تقرير اللجنة التي ألفت في وزارة المعارف لتيسير قواعد اللغة العربية. وتقع هذه الملحوظات في اثنتي عشرة صفحة من القطع الكبير بينت فيها الطريق الذي سلكته اللجنة ثم ناقشت آراءها في النحو والصرف والبلاغة وما اقترحته في هذا الشأن
وقد قدمت الجماعة هذه الملحوظات إلى وزارة المعارف
تكريم شاعرة فرنسية في إفيان
في آخر الأسبوع الماضي رفع الستار عن النصب التذكاري الذي أقيم في أمفيون بالقرب من إفيان للشاعرة آن نواي في أملاك هائلة برنكوفان. وبعد أن أقيمت حفلة في دار البلدية أطلق محافظ المدينة اسم الشاعرة على الطريق الذي يربط إفيان بأمفيون
وقد ألقى كل من مندوبي معهد فرنسا والأكاديمية الملكية في بلجيكا وبلدية باريس ومحافظ إفيان خطباً تناسب المقام
وأقيمت مأدبة عشاء خطبت فيها هيلين فا كارشيكو والبرنس كوتسنتين دي برنكوفان
الكتب
هكذا أغني

ديوان الأستاذ محمود حسن إسماعيل
للأديب عباس حسان خضر
يقول شاعرنا:
إن تسل في الشعر عني ... هكذا كنت أغني
. . .ونحن نسأل عنه في الشعر، فلننظر كيف يغني
هو يغني بشعره، صادراً عن طبيعة خصبة، مترجماً عن نفس زاخرة بعناصر الشاعرية من إحساس مرهف، وعاطفة مضطربة، وعقل (فني) يدرك به الجوانب الفنية للأشياء، يتملك كل هذه خيال طامح متوثب. وهو عندما يشحذ هذه العُدة يمضي متدفقاً مندفعاً عنيفاً، وفي كثير من الأحيان يتبع هذا التدفق والعنف عدم اكتراث بسلامة الذوق، واعتساف في الفكر وفي التعبير - كما نبين فيما يأتي - معتمداً في ذلك على قوة طبيعته ونشاط خياله، غير متقيد ولا محترس، فهو يعول على الهبة الفطرية أكثر مما يعول على المهارة الاكتسابية
ويمتاز شعر هذا الديوان بشيء لعلي موفق إذ أسميه (الروعة) وهو ذلك الذي يستغرق المشاعر ويروع العواطف ويأخذ بالذهن إلى عوالم متنائية الأطراف، ولعل مبعثه بُعد المدى في الخيال، والإيغال في تصوير الأشياء التي يكتنفها الغموض، ومن ذلك كثرة ترديده لذكر الرهبان والقسس والأديرة وانتزاع الصور من محيطها الغامض. ومما تتجلى فيه تلك الروعة قصيدة (دمعة في قلب الليل) وقد أبدع في وصف الدموع في هدأة الليل، وأفتن في تصوير المعاني افتتاناً. قال يخاطب الليل:
خلني للدموع وحدي أناجي ... ها في العزلة السوداء
أنا من كأسها شربت صبيًّا ... خمرة سلست من البأساء
عصرت من مطارف الألم الدا ... وي بقلبي وعتقت في دمائي
تخذتْ جامها المحاجر والسا ... قي همًّا يؤج في أحشائي
هي أشهى إلى عيوني من النو ... ر، وأبهى من لمحة الأنداء
هات يا ليل قطرها فهي حيرى ... كتمت برحها من الكبرياء
فأنظر كيف يصور الدموع خمراً عصرت من قلبه موطن آلامه ثم اتخذت لها مسرى دمائه دناناً تعتق فيها، ثم صبت في كؤوس من محاجر العيون، يقوم على سقيها ساق من الهم يضطرب في الأحشاء. . . ثم انظر كيف يستقطرها الليل لتترقرق مستورة حيرى في عزلة الليل وقد برح بها الكتمان لأن الكبرياء أبت عليها الظهور في وضح النهار. وإن كان قد شاب هذه الصورة بفساد في بعض التصوير، فقد قال (عصرت من مطارف الألم) فجعلنا نتمثل امرأة حاسرة عن ذراعيها أمام طست الغسيل تعصر تلك المطارف والأثواب. . .
وهاك مزهراً تتكون أوتاره من الأهداب وتحدث أنغامه من رنين البكاء:
همسها في الجفون أصداء ناي ... بلعت شدوه رياح المساء
مزهر للعيون أوتاره الهد ... ب. . . وأنغامه رنين البكاء
يستعذب الشاعر دموعه ويطرب من ذرفها فيصورها في الجفون هذا التصوير الرائع. . كصدى الناي البعيد تستهلك شدوه الرياح فلا يصل إلى السمع منه إلا كالهمس. . .
هذه - من غير شك - دموع شاعر يتغنى على تسكابها فيبدع ويطرب
وهناك في ذلك الظلام السائد يرزح تحت أثقال الليل كوخ:
رجفت شمعة بجنيه تهفو ... في دجاه كالمقلة العمشاء
خنق الليل نورها خنقة البؤ ... س لأرواح أهلها التعساء
إنك لتشعر بالروعة حيال هذا المنظر: كوخ يعاني ضوء شمعته الخافت من الظلام ما يعاني أهله من البؤس
وأبرز شيء في شعر شاعرنا اللمعة الذهنية المتألقة حتى أنه ليُذهل بها عن كثير مما لم يمسه التنقيح والتهذيب، فهو بذلك يختلف عن شعراء يعاودون كلامهم بالصقل ويتناولونه بالتشذيب فيخرج سليماً مثقفاً، ومع ذلك ليس فيه من المفاجآت الشعرية ما يملك الحواس ويؤثر في العواطف
وقصيدة (ثورة الإسلام في بدر) تدل على اقتدار الشاعر على استيحاء الحوادث أروع معاني الحياة وانتزاع المغزى الفني من الوقائع المادية، فهو يتعرض لمواقف غزوة بدر تعرض شاعر يزجي الحقائق ملونة بخواطره، ويبرز ما يرمي إليه في أبرع الصور حتى

لقد جاءت هذه القصيدة ملحمة صغيرة رائعة. استمع إليه ينطق الأصنام بالحديث عن الإسلام:

سجد (اللاتُ) مؤمناً! وجثا (العز ... ى) يناجي (مناة) يا صاح أبشر!
هلْ في ساحنا وميض من النو ... ر غريب التلماح، خافي التصور
ذره أرعد الصفا! وأحال الص ... خور روحاً يكاد في الرمل يخطر
لا من الشمس فيضه فلكم شع ... ت علينا فلم ترع أو تبهر
لا من النجم لمحه. . فلكم لا ... ح كئيب الضياء وهنان أصفر
قد نسخنا به! ومن غابر الده ... ر نسخنا البلى ولم نتغير
ألهونا. . وعفروا - وهم الصي ... د - علاهم على ثرانا المعفر
سر بنا يا (مناة) نخشع جلالا ... لسنا النور. . . عله اليوم يغفر
عجباً! خرت المحاريب والأص ... نام دكا. . والعبد ما زال يكفر!

وشاعرنا فنان يصرف الكلام تصريف اللبق، يقول في جلالة الملك:

سجدات وجه مشرق نضح التقى ... في كل ما لمحت به سيماؤه
لو راءه عاتي المجوس تخشعت ... للنار من غي النهى أعضاؤه
لانحاز في ركب النبي، وناره ... نور تدفق في الصلاة ضياؤه

استطاع - بمهارة في التعبير - أن يحول المجوسي من غيه في عبادة النار إلى الإعجاب بنور الهدى

تلك بعض خصائص الشعر في ديوان (هكذا أغني) وذلك بعض ما تغنى به فأطرب. . .

وقد ألمعنا إلى مآخذ فيه (وهي النشاز) يقتضينا الإنصاف أن نسوق من الدلائل عليها:

يقول في قصيدة (يوم التاج) يصف مغنياً في حفلة عابدين الساهرة:

وقف المغني في حماك مجلجلا ... باللحن تخفق في الورى أصداؤه
فيه من الأقدار وهلة غيبها ... خبأته عن لمع الحجا أطواؤه
ومن الكتائب أرزمت أسلاتها ... صخب يزمجر بالفتوح نداؤه
ومن المواكب هولها في فيلق ... نشوان في يوم الفخار لواؤه

فأي مغن هذا المجلجل الذي اجتمعت فيه وهلة الأقدار وصخب الكتائب وهول الفيالق؟! إن هذه الصفات المروعة لا تصطلح على مغن ولو كان من (مطربي) محطة الإذاعة اللاسلكية بالقاهرة. . .

يقول في قصيدة (الذهول)

أم بلبل تحت ظلال النخيل ... أسكره الصدح
فنام. . . واستلقى عليه الأصيل ... والظل والدوح!

فإذا تصورنا استلقاء الأصيل أو الظل على البلبل بمعنى وقوع الظلال عليه، فكيف تستلقي الدوح على ذلك المسكين دون أن يرديه هذا المزاح الثقيل. . .؟

ويقول في هذه القصيدة:

الوجه ساج كصلاة الغدير ... . بين الطيور

فكيف يصلي الغدير بين الطيور؟ لعله يريد (صلاة) الطيور على الغدير بحسوها منه، فقلب التعبير، كما فعل في مطلع قصيدة (عارية ستانلي باي) إذ قال:

من علم البحر لجاج الهوى ... وأترع الحب بشطآنه

فما أرى للشطر الثاني معنى مستقيماً إلا على (القلب) كأنه يريد: وأترع شطآنه بالحب، وإلا فما معنى أن الحب ملئ بشطآن البحر؟ ليس هذا إلا كخرق الثوب للمسمار!

يقول في قصيدة: (دمعة في قلب الليل)

لامَني في هواه خال من اله ... م بليد الفؤاد جمُّ الغباء
ردَّ عني يا ليل دعواه. . . إني ... كدت من لومه أحطم نائي

وهو - بطبيعة المعنى - يقصد من (نائي) الناي، ولكن القافية الهمزية العصّية جنت على الناي فهمزته ولمزته. . . ولست أدري لماذا لم ينتفع الشاعر بهذه الكلمة (ناء) التي اخترعها - في تصريع قصيدة (يوم التاج) إذ قال في المطلع:

شاديك من قصب الفرادس نايه ... ومن السنا والطيب علَّ غناؤه

ولم يقل (ناؤه) بدل (نايه)؟ لعله لم يرد استغلال الاختراع كثيراً، فاقتصر على حاجة القافية الماسة، أما التصريع فأمر فواته أهون. .

يقول في قصيدة (من لهيب الحرمان):
رب ومض من لحظ عينيك ساج ... فجر الوحي من سنا لمحاتك
ومض لحظ العينين هو سنا اللمحات، فكيف يفجر ومض لحظ العينيين الوحي من ومض لحظ العينين؟
يقول في قصيدة (الذهول) السالفة، ويظهر أن الشاعر قالها في ذهول:
وذاع من جفنيك فيها عبير ... . دام حسير
إذا أكرهنا المجاز على تقبل ذيوع العبير من الجفنين، فأي ذوق يسيغ وصف العبير بأنه دام. . .؟
تقدم في أبيات من قصيدة (دمعة في قلب الليل) قوله:
عصرت من مطارف الألم الدا ... وي بقلبي وعتقت في دمائي
والمقصود هنا كلمة (الداوي) فهي من الأغلاط الشائعة لأن الفعل الموجود لهذا المعنى (دوَّى) بالتشديد وليس هناك (دوي) ثلاثياً حتى يجئ منه (الداوي)
الشاعر مغرم بكلمات يرددها كثيراً مثل الغناء واللحن والناي وما إليها، حتى أنه في قصيدة واحدة هي قصيدة: (هكذا أغني) أطال استخدام مادة واحدة هي: (غنى يغني) وصاغ منها ثماني قواف. . .
وبعد فإن ديوان: (هكذا أغني) زاخر بالشعر النابض بالشباب، يتمثل فيه جلال التخيل، وقوة العاطفة، وتألق الشاعرية، والقدرة على استخدام تعابير حية؛ والواقع الغريب أن استشراء الصفات الثلاث الأولى يؤدي بالشاعر إلى الاندفاع الجارف. والأستاذ محمود حسن إسماعيل لا ينقصه - ليكون في شعراء الذروة - إلا أن يعاود ما ينشده بالصقل والإصلاح

عباس حسان خضر

المسرح والسينما

التلفزيون في دور السينما

نشرت إحدى المجلات السينمائية الإنكليزية بحثاً عن التطورات السينمائية التي ينتظر أن يمتاز بها العهد السينمائي الجديد فقالت إن (التلفزيون) هو أهمها وأقربها إلى أن يكون حقيقة واقعة في العام القادم. والتلفزيون جهاز لالتقاط إذاعات لاسلكية صوتية وبصرية في وقت معاً. ولا شك أن احتواء البرامج السينمائية عليه هو خطوة كبيرة في سبيل إبلاغ السينما إلى المستوى (العلمي) المنشود. ولكن هل التلفزيون من الوجهة (الفنية) يعتبر تحسيناً للسينما؟ وهل يعده الجمهور ميزة فيزداد إقبالاً على الدور التي تحوي برامجها شيئاً منه! يقول الفنيون إن التلفزيون لا يمكن أن يعد تحسيناً، لأنه سيقتصر على بضعة مجموعات من الإذاعات المنقولة - صوتاً ونظراً - لتحل محل (الجريدة السينمائية) والطبعات الأخيرة من الجرائد السينمائية الناطقة، ليست في الواقع إلا إذاعات ناطقة مصورة، وفيها نرى (المشاهد) على الشاشة أهم الحوادث العالمية الجارية كما نسمع أشهر الخطب و (الإستهلالات الموسيقية) التي تصنع من أجل التمهيد لهذه الخطب وخلافها؟!
فإذا كان ما قرأناه صحيحاً، وهو أن البرامج اللاسلكية المصورة سوف تقتصر إذاعتها على دور السينما الكبيرة ولن يكون في مقدور من لديه جهاز للتلفزيون أن يتلقاها على الشاشة المنزلية فلماذا يعد احتواء البرامج السينمائية على بضعة إذاعات لاسلكية مصورة تطوراً جديداً في صناعة السينما، بعد ما ثبت أنه لا جديد فيه وأن محطة أو محطات معينة هي التي سوف تقدم لدور السينما فصوله اللاسلكية المصورة، سواء أكانت مصنوعة أو مأخوذة من الطبيعة مباشرة؟!
إن التلفزيون على النحو السابق إنما يعد تقدماً أو تحسيناً في (طرق العرض السينمائي) لا في (صناعة السينما) ذاتها. .!

في السينما المحلية

يكاد النقاد السينمائيون في مصر أن يتفقوا على أن شركاتنا السينمائية قد استطاعت أن تخطو بالفلم المحلي الخطوات الابتدائية التي جرت العادة بأن تكون متعبة يبذل فيها من الجهود أضعاف ما يبذل في الخطوات التي تليها
وبدهي أن فيما أخرجت شركاتنا المحلية أخطاء كثيرة. ولا غرو فالأفلام تخرج - في مصر وغيرها - وفاقاً لأصول جملة فنون وصناعات عملية لا يملك الإنسان أعنّتها إلا بعد

المران، ونحن لا نزال ناشئين في هذه الصناعة. لذا وجب على الناقد أن يساهم في توجيه الجهود الفنية الوجهة المنتجة
وأول ما نريد أن نلفت النظر إليه هو ضرورة التخصص. فالشركة الصغيرة ينبغي لها أن تتخصص في نوع معين من الأفلام والممثل السينمائي يحسن به أن ينصرف إلى تمثيل نوع معين من الأدوار أو الروايات، والمخرج الذي ينتظر له النجاح والإجادة هو الذي يقتصر على إخراج نوع معين من الروايات وبطريقة معينة
والواقع أن نظام التخصص قائم عندنا إلى حد ما، ولكن في الشركات التي تتولى إخراج أفلام خاصة، كشركة الأستاذ محمد عبد الوهاب التي تخرج الأفلام الغنائية التي يكون هو بطلاً لها، وكشركة يوسف وهبي التي تخرج أفلاماً درامية من النوع العنيف يكون هو بطلها، وكشركة لوتس فيلم التي تخرج أفلاماً من نوع الفودفيل الدرامي الضاحك يقتصر تمثيلها دائماً على الثلاثي الفني آسيا وجلال وماري كويني. . .
ولكننا نريد أن يعم هذا النظام شركاتنا الكبيرة ذات الأموال الكبيرة، كاستوديو مصر مثلاً، وكالشركة الكبيرة الجديدة التي أنشأها الأستاذ أحمد سالم
ونظرة واحدة إلى الأفلام الأمريكية تكفي لأن يسلم الجميع بأن التخصص هو العامل الأول والأهم في نجاح الشركات والنجوم كذلك
(سينمائي)
العدد 268 - بتاريخ: 22 - 08 - 1938
تفريع على البقية
للأستاذ عباس محمود العقاد
في أوربا تقل قيود المرأة وتقل قيود الفنان، ولكننا يندر أن نرى امرأة ممن عاشرن الأدباء ورجال الفنون على شرط الجمال الأوفى عند أولئك الأدباء والفنانين، وهم كما نعلم نقاد الجمال وخلاقو المقاييس والآراء فيه.
وقد رأينا صور النساء اللواتي عاشرن بيرون وجيتي ودانتزيو، وهم قبل كل شيء من طبقة النبلاء أو يعيشون في تلك الطبقة ويتنقلون حياتهم بين الأمراء وأميرات، وهم بعد هذا شعراء (عالميون) استفاضت شهرتهم في البلاد الأوربية وغير الأوربية، وهم بعد هذا أرفع أمثالهم ذوقاً وأدباً وقدرة على الانتقاء صنوف الجمال، ومنهم من لعب بالمال لعبا وساح في الأرض وهام بالنساء.
ومع هذا يندر كما قلنا أن تجد بين حبائبهم ومواصفاتهم من هي على شرط الجمال الأوفى عندهم وعند ممن يشابهونهم ويتوسلون بأشباه وسائلهم.
وسبب ذلك معروف لا ينبغي أن نستغربه ولا أن نحار في تعليله، فان الدواعي التي تدعو الرجال إلى المرأة أو تدعو المرأة إلى الرجل كثيرة غير الجمال في صفاته العليا، فمنها الذكاء، فقد تكون المرأة ذكية وهي قليلة الحظ من الجمال، أو غبية وهي أجمل من ترى العيون؛ ومنها العطف، فقد ينجذب الرجل إلى المرأة، العطوف وينفر من المرأة الشموس وهي سيدة النساء في جمال الوجوه والأجسام؛ ومنها المركز الاجتماعي، ومنها الرغبة الجنسية، ومنها الغرابة التي تستهوي الرجال حين لا تستهويهم المحاسن والأخلاق؛ ومنها التنافس على الغلب كما يتنافس الفرسان على قصبة وهي من سقط المتاع.
فإذا وصف الشعراء امرأة أو أحبوها فليس باللازم أن تكون هذه المرأة طرازهم الأعلى في محاسن النساء وشرائط الجمال بله الطراز الذي يتفق عليه جميع الناس، وتتلاقى عنده جميع الآراء، وتتوافى لديه جميع الفلسفات. وإذا قلنا إن الجسم الجميل هو الجسم الذي لا فضول فيه والذي يحمل كل عضو من أعضائه نفسه غير محمول على سواه، ثم رأينا ألف امرأة على غير هذه الصفة ممن أحبهم ملوك الذوق وأساتذة الفنون فليس ذلك بمانع صحة التعريف ولا بناقض صواب الرأي، لان (ملوك الذوق وأساتذة الفنون هنا) كالقاضي خارج
الجلسة، أو كالقاضي الذي بينه وبين المدعين قرابة واتصال.
وهذا بين الأوروبيين على ما عندهم من حرية وثقافة ذهنية ورياضة بدنية وعلوم صحية ومعارض يومية وتاريخية، فكيف بأعرابي في البادية يقولها كلمة عائرة ولعله لا يعني ما يقول!!.
قلنا في مقالنا السابق (بقية المذهب):

لقد وصف بعض الأعراب نساء (محبوبات) فاستملحوا الضخامة ومدحوا الكسل وبطأ) الحراك، وافتتن أميرهم بعذارى قال في وصفهن ما يقال في وصف الغيلان:
وظل العذارى يرتمين بلحمها ... وشحم كهداب الدمقس المفتل
(نعوذ بالله
وكتب (القارئ) الفاضل في الرسالة يقول أن امرأ القيس يستحسن في المرأة ما يستحسنه الأستاذ العقاد النقاد ويستقبح ما يستقبحه وهو يقول في معلقته:
مهفهفة بيضاء غير مفاضة ... ترائبها مصقولة كالسجنجل
يعني امرأة دقيقة الخصر ضامرة البطن غير عظيمة البطن ولا مسترخية، وصدرها . . . براق اللون متلألئ الصفاء تلألؤ المرآة.
فأمير الأعراب ونائب الأمة في دار الندوة الأستاذ العقاد في قضيتهما في الحسان سيان. . .)
فأحب أن يذكر (القارئ) الفاضل أن امرأ القيس قال أيضاً:
إذا ما بكى من خلفها انصرفت له ... بشق. . . . . إلى آخر البيت
وهذا ما ليس يقال في امرأة على ما وصف في البيت الذي استشهد به
وقال أيضاً:
إذا قلت هاتي نوليني تمايلت ... عليَّ هضيم الكشح ريا المخلخل
وامتلاء الساق مع دقة الخصر ليس من الصفات المنتقاة في نماذج الجمال.
ثم نقض قوله حين عاد فقال، إن كان عاد أو إن كان قال:
وكشح لطيف كالجديل مخصّر ... وساق كأنبوب السقي المذلل
ثم قال:
وتضحى فتيت المسك فوق فراشها ... تؤم الضحى لم تنتطق عن تفضل
فهو يستحسن الكسل والتراخي، وكثرة النوم، والترامي بالشحم واللحم وليس ذاك مما يستحسن في رشيقات النساء
وقال امرئ القيس في غير هذه القصيدة:
إذا ما الضجيع ابتزها من ثيابها ... تميل عليه هونة غير مجبال
كحقف النقا يمشي الوليدان فوقه ... بما احتسبا من لين مس وتسهال
وأين هذا من الجسم الذي لا فضول فيه؟
فلو أن (القارئ) الفاضل الذكر هذا وما جرى مجراه من الشعر الذي قاله الشاعر أو نسب إليه لعلم أن صاحبنا في عالم غير عالم التعريف بالجمال المثالي أو المذاهب الفنية فيه، بمعزل عن أهواء الفنانين، ولعلم كذلك لماذا وضعنا كلمة (محبوبات) بين قوسين قبل أن نسمع منه مثل هذا الاعتراض، فأن وصف الرجل لامرأة يحبها ويستمتع بها غير وصف الفنان للجمال الخالص أو لصفاته التي تبلغ مبلغ الكمال، والتي تدركها القرائح معنى من المعاني كمعنى البيت والصورة والنشيد والتمثال.
ومصداق ذلك أن كاتب هذه السطور وصف امرأة محبوبة في رواية سارة:
هي جميلة لا مراء. ليست أجمل من رأى همام في حياته، ولا أجمل من رأى في أيام (فتنته وشغفه، ولكنها جميلة جمالاً لا يختلط بغيره في ملامح النساء. فلو عمدت إلى ترتيب ألف امرأة هي منهن لنظمتهن واحدة بعد واحدة في مراتب الجمال المألوف، ونحّيت سارة عن الصف وحدها. . . فمها فم الطفل الرضيع لولا ثنايا تخجل العقد النضيد في تناسق وانتظام، ولها ذقن كطرف الكمثري الصغيرة، واستدارة وجه، وبضاضة جسم لا تفترقان عن سمات الطفولة في لمحة الناظر؛ وبين وجهها النظير وجسمها الغضير جيد كأنه الحلية الفنية سبكت لتنسجم بينهما وفاقاً لتمام الحسن من كليهما. . . وتكفل بها مدير معهد من معاهد التجميل الحديث لخفف شيئا من قوامها الرواح بين الربعة والطويل قبل أن يبرزها في معرض الرقص والرشاقة. ولو تكفل بها قهرمان القصر عند كسرى أو عبد الحميد لما ضاره أن يزيد فيها حيث ينقص زميله الحديث قبل أن يزفها إلى الشاهنشاه)
فالمرأة المحبوبة شيء والمرأة الموصوفة على مثال الجمال في معانيه المجردة شيء آخر.
وامرئ القيس لم يحبب قط امرأة على مثال الجمال، وإن كان قد وصف من النساء شمائل محمودة عند من ينظرون إلى ذلك المثال. ولعله فطن لهذه الشمائل بذوق

الحاضرة وذوق الإمارة، لا بذوق الأعراب في عماية الجاهلية. ولو أنه تعمد أن يرسم للأنوثة مثالا موافقاً لمعاني الجمال بمعزل عن المتعة أو الرغبة الجنسية لأعياه المطلب، لتخلف الأوان وندرة الأسباب.

سألني سائل: أولا تكون المرأة إذن جميلة على شرط الفن والرياضة الحديثة إلا أن يكون وزنها قنطاراً أو دون القنطار؟

وجاوبنا الذي نطمئن به الكثيرين على عجل: كلا! قد تكون ووزنها قنطاران، إذا تهيأ لامرأة أن تبلغ من الطول والجسامة ما تزن به القنطارين في غير فضول واسترخاء. وستتلو هذا المقال (حاشية على التفريع) نتم فيها ما ينبغي إتمامه من هذا البحث الذي لا فضول فيه!

عباس محمود العقاد

مائة صورة من الحياة

للأستاذ علي الطنطاوي

مجنون - 3

أصبحت اليوم خاثر النفس لَقساً، فتركت عملي وركبت (الترام رقم 6) الذي يجوز بداري ثم يذهب فيخترق (الغوطة الشرقية) - حديقة الأرض - حتى ينتهي إلى (دوما).

فنزلت على ابن عم لي فيها طبيب، فلم ير أبلغ في إكرامي من أن يحملني في سيارته إلى (القصير) فيجمعني بإخواننا الكرام ساكني تلك الديار. ولم يكن الدخول إلى (القصير) سهلا ولا ميسوراً، وما كنّا نطمع أن يؤذن لنا به، فجعلنا نطيف بتلك الحدائق الواسعة الجميلة فما راعنا إلا القوم قد ملئوا الحدائق، خارجين إلى النزهة والعمل فجعلنا نكلم من نراه منهم من وراء الدرابزين فنسمع عجباً كما نرى عجباً. فمنهم من هو نائم على وجهه؛ ومنهم من قائم على رجل واحدة؛ ومنهم من يرسم في الهواء دوائر وهمية، ويكلم أشباحاً لا ترى؛ ومنهم من هو باك منتحب ثم لا يلبث أن يضحك حتى يكركر من الضحك. . . وما ظنك بسكان القصير؟

وكان أعجب ما شهدنا من العجب رجلاً عارياً إلا من خرقة تستر عورته، ولحية له طويلة عريضة تبلغ والله سّرته وتحجب صدره. حقيقة أقول لا مبالغة ولا مجازاً، وقد انتحى ناحية من حدائق (المارستان) ثم مشى فيها مقبلاً مدبراً متبوعاً عجلا، فقلت لابن عمي: تنح بنا عنه وتنكب طريقه، فربما بطش بنا. . . وإني لأرى جسماً قوياً، وعصباً مشدوداً، وما في كل من رأينا (أو ما رأينا فأننا نتحدث عن المجانين) من هو أظهر منه جنوناً، وأبدى حماقة. . .

قال: عجباً منك! هذا الشيخ فضل الحموي!

قلت: بل منك والله العجب. . . أتراني سائلاً إذا هشم أنفي وهتمت أسناني، أفعل ذلك الشيخ فضل الحموي أم الشيخ محمد المغربي؟ حسبي منه أنه مجنون. . . فعدّ بنا عنه!

قال: إذن يذهب سعيي باطلا، فما حملتك في السيارة وجئت بك إلى هذه الديار، إلا لأريك الشيخ فضل الحموي؟

قلت: دعني. فلقد رأيت مجانين كثيرين، شباناً ومشايخ، وأدباء وعلماء، وعاشقين ومعشوقين، ولم يبق لي في رؤية مجنون أرب. . . وإنما غدا أربي في رؤية عاقل

قال: هذا هو الذي تريد. . . هذا رجل يتظاهر بالجنون، وهو أعقل العقلاء

قلت: أو يكون هذا؟ أئذا لم أجد في المدرسة والكلية عاقلاً والسوق والنادي أجده في (البيمارستان)؟

قال: نعم، تعال انظر

فأقبلنا نميل إليه. فلما رأى السيارة مقبلةً قال ما لا يفهم، وأشار بيديه وأبدى سيما المجانين، فنظرت إلى ابن عمي وابتسمت، فأشار لي أن أنتظر؛ ونادى الرجل باسمه، فلما عرفه هدأ، وقال له: هذا أنت يا فلان؟

قال: نعم. وهذا الشيخ. . . (وسمّاني)

فنظر إليَّ وابتسم، فظننت أنه قائل لي مقالة كل (عاقل) يلقاني: أين العمة واللحية والشارب؟ كأن الشيخ لا يكون شيخاً إلا بهذا! ولكن (المجنون) لم يقل شيئاً. فقال له ابن عمي:

ألا تعجب منه شيخاً حليق الوجه حاسر الرأس؟

قال: ويحك يا فلان! ألا تعلم أنها إذا اتصلت الأرواح، بطلت الأشباح؟
وأفاض في كلام مثل هذا بلغة صحيحة وإلقاء متزن، فقلت في نفسي هذا من (عقلاء المجانين) الذين ألف في أخبارهم أبو القاسم الحسن بن محمد النيسابوري رحمه الله، ولست آمن أن تدركه الآن جُنته فيؤذينا، ووقفت حذراً. . . .
فلما انتهى قال له ابن عمي وقد أمتد إلينا الظلام ونحن في ظلال الأشجار
ألا تسير بنا إلى النور؟
فقال لنا وهو يضحك، وما رأيناه إلا ضاحكا:
لولا أننا هنا لقلت لكم (إن نوركم كاف) ولكن مثل هذا (النفاق) لا يقال هنا. . .
فقلت: ولمه؟ أولا ترى لنا نوراً؟
فقال: إن في كل كائن نوراً وجمالا، ولكن العيون المدركات قليل. . . إن الناس جميعاً يؤخذون بجمال القمر، ولكن الشمس لا يؤخذ بجمالها إلا من كان له عين تصبر على نورها. ولذلك كان الشمسيون من الناس (والتعبير له) أقل من القمريين وأندر؛ وهؤلاء هم
الكبار من الصوفية، فإذا جازوا مرحلة الشمس ونفذوا منها إلى منطقة السديم استوى عندهم جمال القمر وجمال النجم، واستوت عندهم الظلمة، والنور لأنهم بلغوا مرتبة الفناء في الموجد، فلم يبالوا بعد بالموجودات. . .
وتكلم في مثل هذا أكثر من ساعة كلاماً ما سمعت مثله ولا قرأته، وفسر آيات، وتمثل بأبيات، وذكر نظريات العلماء المحدثين حتى أدهشني والله، وكاد يمضي في كلامه إلى الليل لولا أن قرع الناقوس ليدخلوا فودعناه وقلت له: لقد استفدت منك
فضحك وقال: لا ترفع صوتك فيسمعك أحد
قلت: ولمه؟
قال: ولمه؟ أعاقل يستفيد من مجنون؟
وكان الحارس قد وصل، فلما رآه الشيخ فضل غمرني بعينه وعاد يقول ما لا يفهم، ويشير إشارات المجانين، فدعوت الحارس فسألته:
ما هو جنون هذا الرجل؟
قال: أما ترى؟ أما ترى لحيته وعريه؟
قلت: بلى، فماذا في العرى؟ أليس الرجال جميعاً والنساء على ساحل الإسكندرية وحمامات بيروت على مثل عريه؟ ألا يتكشف (الكشافة) دائماً؟ أما اللحية فقف في السوق وانظر كم ترى من لحية. فلم أمسكتم بهذا وحده دون أولئك؟
قال: هذا يقول بأن كل شيْ هو الله. أما هذا جنون؟ أما هو كفر؟
قلت: من حسن حظ الشيخ محي الدين بن عربي أنه مات قبل افتتاح مستشفى القصير!
قال: أنه يتكلم ساعات فلا يفهم عنه أحد
قلت: كذلك كل الفلاسفة وكذلك أكثر المعلمين. .
قال: ويسكت أحياناً يومين كاملين
قلت: هذا من العقل، هذا. .
فنظر إلي الحارس نظرة فهمت منها أنه يعجب مني كيف لا أدخل المستشفى وأكون من أهله! فأسرعت بالهرب قبل أن يقبض علي بتهمة الجنون. . .
(دوما)
علي الطنطاوي
الدين والأخلاق
بين الجديد والقديم
لأحد أساطين الأدب الحديث
الظاهر أن الأستاذ الغمراوي رجل حسن النية صادق السريرة. وقلت الظاهر لأني لا أعرفه؛ ولا أريد أن أتعرض لنقده ما يسميه المذهب الجديد، ولا للنزاع الثائر بين أنصار الرافعي وبين أنصار العقاد. ولو كان الأستاذ قد اكتفى بالنقد الفني وقصره على ذلك النزاع الفني لسلم من بعض الهفوات التاريخية والاجتماعية؛ فقد قال إن نزعة التجديد يرجع أولها إلى نحو ثلاثين سنة، وقد ذكر فيما ذكر من التجديد أخذ الآراء الأوربية، ولم يكتفي بذكر ما أخذ منها مما هو في باب الآداب، بل ذكر أيضاً ما أقتبس من النظم

والمبادئ الاجتماعية. وهذا الوصف الشامل للتجديد لا ينطبق على نزعة بدأت منذ ثلاثين سنة، وإنما ينطبق على النزعة بوجه عام منذ جاء نابليون إلى مصر، ومنذ عهد محمد علي باشا وإسماعيل باشا، ومنذ أدخلت المطابع وأرسلت البعوث العلمية واقتبست القوانين المدنية، ونظمت المحاكم الأهلية التي صارت تحكم بغير أحكام الشريعة الإسلامية، وكثر نقل الكتب إلى العربية. والأستاذ الغمراوي يعيب على المجددين أنهم يريدون رفض بعض أحكام الشريعة، ويذكر كيف أن بعض الكتاب يحبذ منع تعدد الزوجات. ويقول الأستاذ أن للدين وحدة تامة فلا يجوز أخذ بعضه وترك بعضه. ويا حبذا لو أن الأستاذ كان قد فصَّل هذه الناحية من التجديد في مقال مستقل عن النزاع على التجديد في معاني الشعر والنثر، إذ ما صلة الذين قاموا بإنشاء المحاكم الأهلية وأحلوا أحكامها محل الشريعة الإسلامية، وما صلة الذين يريدون منع تعدد الزوجات ومنع الطلاق، بمعاني شكسبير والمتنبي وملتون وأبي العتاهية مثلاً، ولعل أكثرهم كانوا لا يهمهم النزاع الفني الأدبي مطلقاً. نعم إن الدين والأخلاق لها مظاهر في الشعر والنثر فكان ينبغي للأستاذ الغمراوي وقد حكم للمذهب القديم أنه قوام الدين والأخلاق، وحكم على المذهب الجديد أنه بؤرة الإلحاد والمجون، أن يثبت هذا الزعم فينفي عن شعراء المذهب القديم كل كفر وإلحاد ومجون، وينفي عن شعراء المذهب الجديد كل تدين وإيمان بالفضائل مستشهداً بأقوالهم من شعر ونثر فإن هذه هي الطريقة الفنية للمفاضلة بين المذهبين من حيث الدين والأخلاق. وإن لم تخني الذاكرة

فأن الأستاذ قد لخص المذهب الجديد في الأدب بأنه نزعة تغليب دين على دين، وإذا كان لهذا القول معنى فمعناه أن أدباء المذهب الجديد يريدون تغليب الديانة المسيحية على الديانة الإسلامية. فإذا لم أكن مخطئاً في هذا التفسير كان واجباً على الأستاذ أن يقيم الدليل على أن أدباء المذهب الجديد يريدون تغليب دين على دين، وقد نسى الأستاذ أن كثيراً من مظاهر الحضارة الأوربية الحديثة لا علاقة له بالمسيحية التي هي دين أكثر الأوربيين، أو لعل الأستاذ قد أراد أمراً آخر لم نفهمه. ولو رجع الأستاذ إلى العصر الذي كانت فيه النزعة الدينية المسيحية متغلبة في أوربا وهو عصر القرون الوسطى عصر التزهد والرهبنة والتقشف لعلم أن المحافظين من رجال الدين والكتاب كانوا يخشون على الدين والأخلاق من غزل العرب ومجون شعرائهم وقصصهم ومن حرية أفكارهم في المسائل الدينية والكونية، وكانوا يرمون الأدب العربي بالإباحية في الأخلاق، وكانوا يلومون الآباء الذين يرسلون أبناءهم إلى مدارس البلاد العربية كالأندلس وصقلية؛ فلم يكن عداؤهم للكتب العربية الدينية فحسب، بل كان عداؤهم لكتب الأدبية العربية والفكرية أشد. وموقف هؤلاء المحافظين من الأدب والفكر العربي كان شبيهاً بموقفهم من الأدب والفكر الإغريقي القديم. وهذه الحقيقة تنبه الأستاذ إلى أن الدولة العربية الإسلامية لم تلبث على الفطرة السليمة وعلى حالها من الأدب كما كانت في صدر الإسلام مثلا بل دخلها الترف وتفشت فيها لذائذ الحضارة وكثر المجون في أقوال الشعراء والكتاب وبقية أصناف المجون والإلحاد مخطوطة إلى عهد أن دخلت المطابع البلاد العربية الإسلامية. ولا احسب أن أهلها كانوا على فطرة يخشى عليها من تلك الكتب فأن حالة الأخلاق في عهد دخولها لم تكن أرقى مما هو موصوف في تلك الكتب إلا في أوساط محدودة معروفة بالنزاهة والعفة والاستقامة وصدق القول والعمل؛ وكان يضرب بها المثل؛ وكانت كالشامة البيضاء تنعت نفسها لوضوحها في الجلدة السوداء. ولا تنس أن البدو كانوا بطبيعتهم يكرهون الضوابط والروادع أية كانت، فسرعان ما حثتهم الحضارة ولذائذها على التحلل من روادع الدين. وقد بدأ المجون يعود إلى استفحاله بعد عهد قريب من صدر الإسلام، وبلغ أشده في الدولة العباسية، وكان مصحوباً في كثير من الأحوال بالكفر والزندقة والالحاد، وكان كل منهما في بعض الأحايين مستقلا عن الآخر، فقد كان بعض الملحدين من أشد الناس زهداً ومحافظة على الفضائل كما كان المعري مثلا

يقول الأستاذ إن المذهب الجديد في الأدب الذي يقول عنه الأستاذ إنه بدأ منذ ثلاثين سنة خطر على الأخلاق والدين، فهل يستطيع الأستاذ أن يأتي بأبيات من شعر هذا المذهب الجديد في شناعتها كأبيات ابن الرومي النونية التي يقول فيها:

صوت يد العجان في العجين ... أو صوت رجلي عامل في الطين
وهي أبيات قد أختارها له السيد توفيق البكري في كتاب (صهاريج اللؤلؤ) الذي ألفه كي يقرأه الناس رجالا ونساء وفتياناً وفتيات، والبكري كما يعلم الأستاذ الغمراوي كان شيخ السادة البكرية ورجلاً من رجال الدين والفضل ومن أدباء المذهب القديم، ولكنه لم يتحرج من إطلاع سيدة أو فتاة فاضلة على ما في كتابه هذا من المجون الشنيع. ولأن يعطي الأديب من أدباء المذهب القديم أي قول قاله شعراء وأدباء المذهب الجديد لأخته أو لفتاة من أقربائه لتقرأه؛ لأصون لها ولأخلاقها من أن يعطيها كتاب صهاريج اللؤلؤ هذا إلا إذا طمس المجون قبل أن يقدم إليها الكتاب. وقد طبع الشيخ شريف جزءين من ديوان ابن الرومي في أحدهما أرجوزة مطلعها (رب غلام وجهه لا يفضحه) وفيها يصف طرق اللواط في أوضاع وأشكال مختلفة. وقد عنى الشيخ شريف بشرح لفظه ومعناه كما عني السيد توفيق البكري بشرح الأبيات النونية. والشيخ شريف كان مفتش اللغة العربية وأديباً من أدباء المذهب القديم، ولكنه لم يتحرج كما لم يتحرج البكري من شرح وطبع هذا المجون وإيضاح معناه كي يقرأه ويفهمها الفتيان والفتيات. فأي أديب من أدباء المذهب القديم يرى أن يعطي أخته أو أخاه الصغير هذا الكتاب، أو أن يطلعهما على قصيدة ابن الرومي أيضاً في (بوران). أو على ديوان أبي نواس أو على ما في كتاب الأغاني أو كتاب يتيمة الدهر للثعالبي من مجون لا تسمح أية دولة أوربية بنشره، بينما أدباء المذهب القديم يشرحونه ويطبعونه ويستحلونه في مجالس أنسهم ويضحكون تفكها به، حتى إذا جاء ذكر ما يسما بالمذهب الجديد وأثر الأدب الأوربي فيه أخذتهم رعدة الغضب وادعوا أن المذهب القديم عماد الأخلاق والدين، وأن المذهب الجديد بؤرة المجون والإباحية والإلحاد. إن المسألة بسيطة والأمر هين. نستطيع أن نطبع على الناحية اليمنى من صفحات المجلة ما نجده من مجون وإباحية شعراء المذهب القديم في العصور المختلفة حتى عصرنا هذا، وعلى هؤلاء
الأدباء أن يقدموا ما يستطيعون أن يعثروا به من أقوال أدباء المذهب الجديد لتطبع في الناحية اليسرى من المجلة. لاشك أن أدباء المذهب القديم يتهربون من مثل هذه المقابلة كل التهرب. وما يقال في كتب المذهب القديم الأدبية يقال أيضاً في كتب التاريخ. أنظر بالله إلى الأبيات التي زعموا أن مسيلمة الكذاب بعث بها إلى سجاح المتنبئة والتي فيها (وإن شئتِ. . . وإن شئتِ) كيف يستطيع أديب من أدباء المذهب القديم أن يطلع أخته أو بنته أو قريبة له من الفتيات على هذا الشعر؟
ثم أنظر إلى ذكر الفحش وقصصه ونظم الهجاء فيه شعراً تجد أن أدباء ما يسمى بالمذهب القديم في كل عصر حتى عصرنا هذا كانوا أكثر حظاً منه. ولا أعني جميعهم، ولكنهم حتى الأفاضل منهم قد وجدوا هذا الأسلوب من القول عادة صقلها الدهر وهون أمرها فأصبحوا لا يجدون خطراً على الأخلاق في نظم الهجاء فحشا ولا في التحدث عنه، ولكن الخطر كل الخطر هو تأثر الأدب العربي بنواحي القول كما وردت في كتب الأدب الأوربي.
وبعد فأي أدب أوربي يعنون؟ لقد تقلبت على الدول الأوربية عصور اتخذ الأدب في كل منها نزعة خاصة، ولكنهم إذا تكلموا عن الأدب الأوربي خيل للقارئ أنهم يعدون جميع الأدب الأوربي في عصوره المختلفة على طراز واحد وأنه مأوى المجون والإباحية والزندقة. أن عصور الأدب الأوربي تختلف اختلافا يجعل بعضها أقرب إلى بعض الأدب العربي منها إلى عصور أخرى من عصور الأدب الأوربي، فالأدب الإغريقي في سهولة معانيه وخيالاته أقرب إلى الأدب الجاهلي العربي منه إلى الأدب الرمزي الأوربي الحديث. والأدب الأوربي الحديث في حرية الفكر أقرب إلى الأدب العباسي العربي منه إلى الأدب الأوربي في القرون الوسطى. فإذا كان بعض الأدب الأوربي الحديث قد دعا بعض أدباء المذهب الجديد إلى إبهام الإيجاز والصور المتداخلة بعضها في بعض وإلى غموض الرمزية فقد ألف بعض أدباء المذهب القديم على هذه الطريقة في إبهام الإيجاز من غير أن يطلعوا على الأدب الأوربي. أنظر مثلا إلى إيجاز الرافعي في كتاب (حديث القمر) والكتب الأخرى التي كتبها، وكأنه لم يكتبها إلا لكي يثبت أنه يستطيع أن يزيد على معاني وصور أدباء أوربا والمذهب الجديد وأنه أغنى منهم بمعانيه كما أنه

أغنى منهم بأساليبه اللفظية الفصيحة العربية؛ ولكن فصاحة لغته العربية لم تخف الحقيقة الفنية، وهي أن الرافعي
صاحب (حديث القمر) و (السحاب الأحمر) أقرب إلى أدباء الرمزية الأوروبيين منه إلى الرافعي صاحب كتاب (إعجاز القرآن). وإن بين أدباء المذهب الجديد من هم أقرب إلى الرافعي صاحب (إعجاز القرآن) وأقرب إلى أدباء العربية الأقدمين من الرافعي صاحب (حديث القمر) وأعني القرب في أسلوب التخيل وأسلوب عرض الصور الفكرية وكل صورة مستقلة غير متدخلة في أختها. فإذا أراد إذاً ناقد أن ينتقد المذهب الجديد أو الأدب الأوربي كانت الطريقة المثلى أن ينتقد ما يعيبه فيه على طريقة النقاد الفنيين فيبين الغث من السمين ويوضح أسباب حكمه على كل قول وكل أديب. أما أن يقول أن الأدب الأوربي كأدب المذهب الجديد فأسد المعنى والخيال ينبو عنه الذوق العربي وتمجه الفصاحة العربية، وإنه مباءة المجون والإباحية والزندقة، فقول من لا يريد أن ينقد ولا أن تقدر قيمة ما يقول قدراً صحيحاً، ولا أعني الأستاذ الغمراوي فان هذه أحكام شائعة. نعم إن بعض الأدب الأوروبي ولاسيما الحديث منه يحث أدباء العربية على بعض ما يخالف العرف والتقاليد الإسلامية، ولكن أليس في أقوال الشعراء العرب وأدبائهم في كل عصر أشياء كثيرة تخالف العرف والتقاليد والآداب والأخلاق الإسلامية كما أوضحنا بالشواهد؟
ونعترف أن في بعض الأدب الأوروبي الحديث ما يحث على الإلحاد، ولكن أليس في أقوال زنادقة الدولة العباسية وفي لزوميات رجل فاضل كالمعري مالا تسمح الحكومة بنشره لو أن أحد شعراء المذهب الجديد كان هو قائله؟ ولكن أقوال أدباء الدولة العباسية والمعري أقوال صقلها الدهر واعتادها الناس فلا بأس من أن يتفكه بها أدباء المذهب القديم في مجالسهم ولا بأس من نشرها وإيداعها مكتبات المدارس
وكما أن بعض الأدب الأوروبي أقرب إلى بعض الأدب العربي منه إلى عصور أخرى للأدب الأوروبي فكذلك بعض أدباء المذهب الجديد أقرب إلى أدباء المذهب القديم منهم إلى أدباء آخرين من أدباء المذهب الجديد، فأدباء المذهب الجديد اليوم أكثر حرية في القول واكثر نصيباً من الرمزية من أدباء المذهب الجديد الذين ظهروا منذ ثلاثين سنة
(قارئ)
جورجياس أو البيان
لأفلاطون
للأستاذ محمد حسن ظاظا
- 8 -
تنزل (جورجياس) من آثار (أفلاطون) منزلة الشرف، لأنها أجمل محاوراته وأكملها) وأجدرها جميعاً بأن تكون (إنجيلا للفلسفة!)
(رينوفييه)
(!إنما تحيا الأخلاق الفاضلة دائماً وتنتصر لأنها أقوى وأقدر من جميع الهادمين)
(جورجياس: أفلاطون)
الأشخاص
1 - سقراط: بطل المحاورة: (ط)
2 - جورجياس: السفسطائي: (ج)
3 - شيريفين: صديق سقراط: (س)
4 - بولوس: تلميذ جورجياس: (ب)
5 - كاليكليس: الأثيني: (ك)
ب - (متحديا سقراط) ماذا يا سقراط؟ أعندك حقيقة تلك الفكرة التي شرحتها عن البيان؟ أولا تعتقد أن الحياء قد أخذ جورجياس فلم يستطع أن ينكر أن الخطيب يعرف الخير والحق والجمال، عندما أضاف إلى أقواله أنه إذا أتاه من لا يعرف هذه الأشياء فانه سيعلمه إياها بنفسه؟ لقد نتج عن ذلك ما يحتمل أن يكون بعض تناقض في كلامه فاتخذت أنت من ذلك مسرة لك ورحت تشغل الغير بهذه الأسئلة المعسولة؟ ولكن أتصدق أن من الناس من لا يصرح بأنه يعرف العدالة وبأنه يستطيع أن يعلمها للغير؟ الحق أنه الذوق السقيم الذي قد طوح بالمناقشة إلى مثل هذه الأرض!

ط - يالك من ظريف يا بولوس! وهل نريد الأصدقاء والبنين لشيء غير ذلك؟ إنما نريدكم أيها الصغار لكي تقوموا أعمالنا وتصححوا أقوالنا عندما تتقدم بنا السن وتزل القدم! وها
أنت ذا هنا لترد زلتي أنا وجورجياس إذا ما أخطأنا في المناقشة لأن هذا هو واجبك. وأقول من ناحيتي أنك إذا وجدتنا غير مصيبين في الاتفاق على هذه النقطة أو تلك فإني مستعد للنزول على هواك إذا لاحظت شيئا واحدا. . .!
ب - أي شيء؟
ط - التقليل من هذا الإسهاب الذي بدأت به يا بولوس!
ب - كيف؟ أليس لي الحق في الكلام بإسهاب كما أشاء؟
ط - ليكونن عار عليك يا بولوس العظيم أن تحضر إلى أثينا - وهي البلد الإغريقي الفريد الذي يسمح للناس بأكبر قسط من حرية القول - فتعرف فيها بهذه الخاصة! ومع كل فضع نفسك موضعي!: ألا يكون من حقي - إذا رأيتك ترسل الكلام الكثير دون أن تجيب على أسئلتي -: أن أرثي لنفسي وأن آسف على عدم السماح لي بالرحيل دون سماعك؟ الحق إذا كان يسرك ما أخذنا فيه من قول بحيث ترغب في تنقيته وتصحيحه، فلتعد توّاً كما قلت إلى أية نقطة تشاء، ولتسائل أو فلتدعنا نسائلك كما فعلت مع جورجياس، بل ولتناقض أو لتتركنا نناقضك!، إنك تدعي بلا ريب أنك تعرف نفس الأشياء التي يعرفها جورجياس!؟ أليس كذلك؟
ب - بلى
ط - وأنت تدعوا مثله الشبان إلى توجيه ما يشاءون من الأسئلة إليك لأنك واثق من قدرتك على إجابتهم؟
ب - بالتأكيد!
ط - حسن! فأختر ألان ما يروقك سائلا أو مجيبا!
ب - هذا ما سأفعل!. أجبني- أي شيء هو البيان في رأيك ما دام قد لاح لك أن جورجياس مرتبك في طبيعة هذا الفن؟
ط - أتسأل عن أي نوع من الفنون هو في نظري؟
ب - بلى!
ط - إذا شئت الحق فأنا لا أعده فنًّا!
ب - وإذاً فماذا تراه؟
ط - أراه شيئاً جعلت أنت منه فنًّا في الرسالة التي قرأتها لك أخيراً-
ب - وماذا تعني بذلك؟
ط - أعني نوعاً من التمرين والممارسة؟
ب - وإذا فالبيان في رأيك تمرين وممارسة؟
ط - نعم. إذا لم يكن لديك اعتراض!
ب - وعلى أي شيء ينطبق ذلك التمرين؟
ط - أنه يجلب نوعاً من اللذة والاستحسان
ب - ألا ترى إذاً أن البيان شيء جميل ما دام يجلب اللذة؟
ط - سنرى يا بولوس! أو قد أصغيت حتى الآن إلى رأيي في البيان كيما تقفز هكذا وتسألني عما إذا كنت أراه جميلا؟
ب - ألم أسمعك تقول إنك تعده نوعاً من التمرين؟
ط - وما دمت تعلق أهمية كبيرة على جلب اللذة، ألا تود أن تسبب لي قليلا منها؟
ب - إني لأبغي ذلك بكل سرور!
ط - إذاً- سلني من أي نوع من أنواع الفنون هو (الطهي) في رأيي؟
ب - وإني لأسائلك أي فن هو الطهي؟
ط - أنه ليس من الفن في شيء يا بولوس!
ب - إذاً فأخبرني ما هو؟
ط - إنه نوع من الممارسة والتمرين!
ب - وعلى أي شيء ينطبق؟
ط - إنه يجلب اللذة والاستحسان يا بولوس!
ب - وإذاً فكلا البيان والطهي واحد؟!

ط - كلا، ولكنهما قسمان في مهنة واحدة!
ب - وأية مهنة تريد أن تذكر؟
ط - قد يكون من الخشونة والغلظة أن نصرح بالحقيقة يا بولوس. وإني لأتردد في الإفضاء بها لوجود جورجياس! ذلك أني أخشى ألا يتصور غير رغبتي في الهزء به والسخرية منه. إنني لا أدري إن كان البيان الذي يمتهنه جورجياس من النوع الذي أعرفه أم ليس منه، لأن مناقشتنا منذ هنيهة لم توضح لنا قط فكرته عنه. ولكن ما أدعوه أنا بالبيان ليس إلا قسما من شيء ليس بالجميل على الإطلاق!
ج - أي شيء ذاك يا سقراط؟ تكلم دون أن تخشى إساءتي!
ط - حسن يا جورجياس: فأني أعتقد أنه عمل لا يحتاج إلى شيء من الفن، ولكنه يتطلب فقط ذهناً فطناً جريئاً وقادراً بالطبع على الاتصال بالناس. وأساس هذا العمل كما أرى هو: الملق والرياء، ويشمل الملق أقساماً كثيرة الطهي أحدها، ويعد البعض هذا الأخير فناً ولكني أراه مجرد تجربة وتمرين. كما أرى بالمثل أن البيان والتزين والسفسطة من أقسام الملق كذلك، فكأننا لدينا أربعة أقسام متصلة بأربعة موضوعات
فإذا شاء بولوس الآن أن يسألني فليفعل لأني سأبين له من أي أقسام الملق هو البيان في رأيي، إذ هو لا يتصور أني لم أجبه بعد عن هذه النقطة، وهو يلح فقط في سؤالي عما إذا كنت أراه جميلاً! ولكني سوف لا أخبره إن كنت أعد البيان جميلاً أو قبيحاً قبل أن أجيبه: أي شيء هو؟ وإلا فلن يكون كلامنا منطقياً يا بولوس! وإذاً فسلني - إذا كنت تريد أن تعرف - أي قسم من أقسام الملق هو البيان في عُرفي؟
ب - إني لأسائلك عن إي قسم هو؟
ط - أترى ستفهم إجابتي؟ إن البيان عندي صورة ومثال لأحد أقسام السياسة!
ب - وماذا تعني بذلك؟ أتريد أن تقول أنه جميل أم قبيح؟
ط - أريد أن أقول إنه قبيح لأني أسمي قبيحاً كل ما هو رديء! ما دام يجب أن أجيبك كما لو كنت تعرف ما أريد أن أقول
ج - وأنا بالمثل لا أفهمك وحق زيوس يا سقراط!
ط - لست أعجب من ذلك لأني لم أشرح بعد قولي! ولكن بولوس شاب متحمس!
ج - فلتدعه ولتخبرني كيف تستطيع أن تقول أن البيان صورة ومثال لأحد أقسام السياسة!؟
ط - سأحاول إذاً أن أبين أي شيء هو البيان في رأيي، فإذا لم يك على ما أعتقد فليناقضني بولوس: أهناك من غير شك ما يسمى بالجسد وما يسمى بالنفس؟
ج - بلا تناقص
ط - ألا تعتقد أن لكل من هذين حالة تدعى (صحة)؟
ج - بلى
ط - وقد تكون هذه الصحة ظاهرية فقط وليست بحقيقية! أريد أن أقول إن كثيرين ممن يلوح أنهم ذوو جسم صحيح ضعاف في صحتهم، وعسير على غير الطبيب أو مدرب الرياضة البدنية أن يتبين ذلك؟!
ج - هذا صحيح
ط - وأدعي أنه يوجد في النفس والجسد بالمثل ما يجعلهما يلوحان في حالة جيدة بينما هما ليسا كذلك؟
ج - إنك تقول حقّاً
(يتبع)
محمد حسن ظاظا
السلطتان الروحية والزمنية
كما يراها الإسلام
للأستاذ عباس طه
كانت السلطة الزمنية والسلطة الروحية - ولا تزالان - في تقدير الإسلام من أخص أوضاعه ومميزات أسراره
والسلطة الروحية هي التي تنظم علاقة الإنسان بربه في عباداته ومعاملاته الظاهرة والباطنة، وتخضع ناموس المشاعر وقوانين القلوب لذلك السلطان القاهر الذي له

الهيمنة على الإنسان في شتى مناحيه
والسلطة الزمنية هي التي تنظم علاقة الإنسان بالإنسان وترسم لتلك العلاقة حدوداً في المعاملات بشتى ملابساتها وتتفرع عن هذه السلطة سلطات ثلاث: السلطة التشريعية والسلطة القضائية والسلطة التنفيذية
كانت هاتان السلطتان متلازمتين في الإسلام، فهما ملاك هذا الوجود وقطب رحاه، وهما اللتان أقام منهما حارساً على بناء هذا المجتمع أن تنهار أسسه وتتداعى نظمه؛ ذلك الإسلام في مناعته وقوة حياطته وما كفله في أطوائه من تلمس أقوى العوامل إنهاض هذا المجتمع حتى يظل باقياً يؤدي رسالته ويذيع في البشر أمانته إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين. وبدهي أن الإسلام دين روحي زمني ينتظم في أبلغ أوضاعه عملي الدنيا والآخرة، فهو بطبيعة وجوده مصدر يصل بين حياتي المعاش والمعاد، ويكل إلى المضطلعين بأعباء السلطة الزمنية أن يستمدوا قوانينها ومبادئها وأحكامها من السلطة الروحية، ضرورة أن السلطة الروحية قد فرضت الفروض ورسمت الحدود في آي الفرقان بما يجمع تراثاً خصباً صالحاً حين ترجع أليه الرسل ومن بعدهم خلوفهم. من أجل ذلك رأينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمد أحكام السلطة الدنيوية من السلطة الدينية لأنهما توأمان لا يمكن ألبتة الفصل بينهما إلا بتحكم الطغيان الجائح فيهما فقد درج الخلفاء الراشدون والصحابة من بعده صلى الله عليه وسلم على تطبيق الجزيئات الفرعية والمسائل الموضعية التي لم ينص عليها قانون المسائل الكلية وإن شملها بالقواعد العامة المندرجة في أطوائه، وذلك يكون بالمقارنة والاستنباط وملاحظة المفاهيم العامة والمآخذ المطلقة ورد الفروع إلى أصولها. ومن هنا كان اصل القياس منبعثاً من منابع ثروة التشريع الإسلامي حتى لا تشذ الجزئيات عن كلياتها، وحتى لا تبطل في الأرض حجج الله وبيّناته، وحتى ينتظم التشريع الإلهي حيوية تلك المجموعة الشمسية، ومن ذلك كان الإجماع القطعي من الطرائق العملية، حكمه في إثبات الأحكام الفرعية وتحقيق النظريات الفقهية حكم الكتاب والسنة والقياس مع الفارق المرسوم بين هذه الأصول الأربعة قوة وضعفاً، وفي توجيه النصوص الروحية أو الزمنية الصرفة وما كانت مزيجاً منهما
لذلك لما كان الإسلام دين تشريع وهداية كان تطبيق الأحكام على الناس حسب مقتضيات الأحوال ومناسبات الأسباب والعلل، فمن المتعذر أن يؤخذ الناس بأحكامه طفرة واحدة ضرورة أنهم لم يمرنوا على مثل هذه الطفرات في أبان ظهوره خصوصاً ما كان متعلقاً منه بأمور لم يكن لهم بها عهد ولا ممارسة، فكان بديهياً أن يحمل الدين الإسلامي في أطوائه تينك السلطتين: السلطة الزمنية والسلطة الروحية، لتكون له المكنة مجتمعة من تنظيم حياتي المعاش والمعاد عند معتنقيه، وإقامة المجتمع على مناهج لا عوج فيها ولا أمت حتى تكون طريقاً إلى الحياة الأخرى في أسعد غاياتها وأرفه نهاياتها. وإلا فلو أغفل الإسلام تلك السلطة الزمنية وبقى لا يحمل إلا السلطة الروحية لكان دينا كهنوتياً في مراميه، ولأجفل الناس عنه إجفالا يمكن لهم في الفوضى وسوء المنقلب، ولتراخت الهمم وتخاذلت العزائم وأصبح المسلمون شيئاً لا يحده قانون الاجتماع ولا تعرفه نواميس البشرية
كذلك لو أغفل الإسلام السلطة الروحية وظل مستمسكا بالسلطة الزمنية لكان مزيجاً من أخلاق متدافعة وعادات متناقضة، ولكان قصارى جهد معتنقيه أن يخضعوا لنواميس هذا المجتمع في علله وأوصابه وتدافع أسبابه، وأن تكون الغلبة فيهم للقوي العاتي، وأن توجد الفروق بين الطبقات والأسر والقبائل والبطون قلة وكثرة وقوة وضعفاً وعزة وذلة، والأشياء ونقيضها، فلا يعدو أن يكون كالشريعة الرومانية أو الفقه الروماني ارتحلت صولته وبقيت محنته وسقطت هيبته وزالت روعته، ثم بعد هو لا يعدو أن يكون بين الأجيال المتلاحقة أنباء قصصية ونظريات فلسفية أفلاطونية، تعالى الإسلام عن ذلك علواً كبيراً.
من أجل ذلك مشت السلطة الزمنية في الإسلام بجانب السلطة الروحية في نظام الحكومة على معنى أن نظام الحكومة كان مستهدياً في جميع أدواره بهدى السلطة الروحية، وكانت السلطة الزمنية أساساً من الأسس السماوية التي جاء بها الكتاب لترسم الحدود وتقيم المعالم وتشعر الحاكمين والمحكومين بتبعاتهم كل في حدود

عمله، وتقوم على رعاية الأنظمة البشرية في المعاملات المختلفة سواء منها ما كان متعلقاً بأحوالهم الشخصية أو بالمعاملات المتبادلة بينهم القائمة على البيع والشراء وما يلحق بهما حتى في الحكومات التي لم يكن لها لون ديني بالمعنى المفهوم. وكثيراً ما لجأ الملوك والأمراء في عهود سابقة إلى حملة الشريعة وحماة الدين إذا عميت السبل عليهم في المعضلات وحجبتهم الجهالة المطلقة عن الوصول إلى شاكلة الصواب، يتعرفون منهم المنهاج الصالح لشكل الحكومة وترسيخها على أمتن الدعائم حتى تبقى تلك الحكومة بما تستمده من هدى الفرقان محتفظة بهيبتها وجلالها ومحبة الشعب لها، لأن الشعب إذا أستيقن نزاهة الحكم وتوزيع العدالة بين الأفراد بالقسطاس، المستقيم وقتل روح الأثرة، والاستجابة إلى داعية القربى والمصاهرة، والتفرقة بين العمال الموكلة بهم خدمة الجماهير ورعاية مصالحهم في فرض الجعالات وسن الإتاوات وتغليب عوامل التشهي على أي عامل آخر، وسم خصومها بميسم الخيانة العظمى، واختلاق الأكاذيب عليهم، وبث عوامل الشكوك والريب في نفوس الجماعات في أولئك الخصوم وتأليب الأوشاب والدهماء على منافسيهم - اتخذوا من تلك الحكومة مثلاً صالحاً وأحلوها من قلوبهم محل الشغاف، والعكس بالعكس

حمل الإسلام فيما حمل أسمى المبادئ مبدأ الشورى لتكون أساس الحكومة الصالحة ودعامته، تتلاقى عنده سائر الرغبات والأماني، لأن الشورى في أبسط أحكامها خير من رأي الفرد، فهي وليدة آراء مستخلصة من قوة الجماعة لا يراد بها غير إسعاد المجموع وإشعاره بمبدأ العدالة والمساواة حتى يظل آمناً في سربه حصيناً في أغراضه ومراميه، وإن لم تكن الشورى القائمة بيننا الآن في الشرق والغرب هي التي تعنيها مبادئ الإسلام فالشورى التي تعنيها مبادئ الإسلام هي المستخلصة من قوة الجماعة كما قلنا ليس فيها أثارة من تشيع الهوى أو أخذ بنحيزة أو إصغاء إلى ضغن في سائر مرافق الدولة

من أجل ذلك نرى فقهاء القانون الدستوري في حواضر أوربا يقيمون النظريات الصادقة

على فشل الحياة النيابية في الأمم المتحضرة في عصرنا الراهن، وعجز الدستور بأحكامه عن أن يخلع على الناس خير الأشكال يقيمون عليه دعائم حياتهم وأسس وجودهم. وكثيراً ما تحاكم المسلمون في صدر الإسلام إلى الكتاب والسنة فما ضلوا في حياتهم وما حادوا عن الجادة الواضحة قيد أنملة، لأنهم اطرحوا دواعي النزوات واستجابوا دواعي الإخلاص لله في السر والعلانية فمكن لهم في الأرض وخضعت لسلطانهم شعوب وقبائل

قرر الإسلام السلطتين الزمنية والروحية معاً فلا يمكن فصل إحدى السلطتين عن الأخرى لأنهما متلازمتان في وجودهما.

فالسلطة الزمنية ترسم شكل الحكومة ومقاصدها المختلفة، وتؤسس الأنظمة المتنوعة لشتى الأفراد والأسر والجماعات والقبائل والأمم، وتضع أحكام الحرب والسلم وسياسة القضاء والإدارة ونواميس الاجتماع؟ ثم هي تنساب بعد إلى الأحوال الشخصية المتعلقة بذات الإنسان فتنشئ علاقة زوجية صالحة بين الرجل والمرأة وترتب عليها حقوقاً قبل المرأة وحقوقاً قبل الرجل، ثم تتناول أحكام الإرث فتوزع الأنصباء من تركة الميت على ذويها توزيعاً قائماً على أدق أنواع الرعاية وأحكم مراميها، ثم تتعهد الحاكمين بالوصايا الجامعة حتى لا يندوا عن شريعة الحق ولا تصغي قلوبهم إلى شوائب الهوى، ثم تهيب بالمحكومين إلى السمع والطاعة فيما أمر الله، وبهذا التساند بين الهيئتين ينتظم الأمة والحكومة عدل قائم على الخلاص المتبادل وتسودهما روح طيبة في مرافق البلاد وحيويتها

لقد جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلوفه من بعده في يديه بين السلطة الروحية والسلطة الزمنية فأقام بهاتين السلطتين خير حكومة من حكومات الأرض في تاريخ البشرية، وأسس للإنسانية العامة أفضل المناهج في الحكم حتى فاضت القلوب باليقين الراسخ والطمأنينة الشاملة، ولا أدل على ذلك من أقوال الرسول وأعماله وما ينزل به الملك من الآيات منجمة بحسب الوقائع سواء أكان ذلك متعلقاً بأمر من أمور المعاش أم المعاد إذا استثنينا بعض مسائل تقليدية تافهة لا يتصل وجودها بقانون

الحكومة أو الاجتماع، ثم درج من بعده خلوفه على قدمه صلى الله عليه وسلم فكانوا نعم الخلف لنعم السلف. وناهيكم بعمر الفاروق الذي كثرت على يديه الفتوح الإسلامية مؤسسة على الكتاب والسنة وهدى الرسول الأعظم، فاستدام بذلك القاموس السماوي أصلح الطرائق في أنواع
الحكم وأهدى السبل في إسعاد الأفراد والجماعات والأمم، ولا يزال الإسلام يذيع في الناس رسالته متعلقة بالسلطة الزمنية إلى يومنا هذا، فهو يعني بنشر هذه السلطة ألا توجد فروق موهونة ذات أثر سيئ في كيان الشعوب ووجودها على معنى أنه يريد التوحيد بين الأمم في الأخلاق والعادات وأن يسودها نوع من المعاملات صالح يوحد بين مرافقها ويجمع بين شتاتها وان اختلفت لغة وإقليما وترتب على ذلك الاختلاف تباين في العادات ضرورة أن تلك الأمم المتخالفة لغة وإقليما لو خلت من تطبيق السلطة الزمنية وهيمنتها على مرافقها لكانت لكل أمة ندحة أن تسن لها تشريعا إسلاميا ينشئ قانون شكل الحكومة وأنواع المعاملات، على حين أن الجميع يدينون بالسلطة الروحية ويؤمنون بحياة المعاد في قرارة نفوسهم.
وهذا من غير شك من شأنه أن يفت في عضد المسلمين وأن يوتر ما بينهم من صلات وأن يجعلهم خاضعين لأحكام قوانين وضعية لا تثبت صلاحيتها لحكم الشعوب إلا بمقدار ما تتوارى عيوبها وأخطاؤها، فإذا دلت التجارب على فساد أحكامها وعقم نتائجها فما أسرع العدول عنها وأن تصير في تراث الماضي البغيض
أما تلك الشريعة السماوية فهي شريعة الخلود والبقاء لأنها جمعت بين حلقات من الزمن دابر وحاضر فوضعت لكل عصر وجيل أحكامه وطرائقه فكانت شريعة الإسلام خير الشرائع وأمثل القوانين
وغني عن البيان بعد هذا التقرير أن الذين يقولون بضرورة فصل السلطتين وبالتالي فصل الدين عن السياسة قد جهلوا حقائق الإسلام أو على الأقل تجاهلوا نظام الحكم فيه في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وفي عهد خلوفه من بعده، أولئك الغر الميامين الأطهار الذين حكموا دينهم في الدولة فسادوا لأنهم قضوا بهذه السياسة العالية أوطار الأفراد والجماعات وحققوا لهم كل رغبة صالحة ثم اجتاحوا لوثة الوثنية ومستهجن العادات في عهود الجاهلية
ولعل النمط الذي جرى عليه توزيع الزكاة والصدقات وإقامة الولاة في الدولة ورسم الحدود ووضع الخطط التي ينتهجونها في أمثل حكومة عادلة بواسطة برامج تكشف لهم حقيقة حكم الشعوب الداخلة في الإسلام وأخذهم بالهوادة في موضعها وتيسير الأمور عليهم حين لا يضيق عنهم التيسير ونوع معاملة أولئك الولاة للذمي والحربي والمدى الذي توزع به
السلطات بين شؤون الرعية آية الآيات على أن الإسلام في حقيقته لا يعرف الفصل بين السلطتين، لكن قد تغلغلت المدنية الآرية في الشرق فانطمست معها الحقائق وغابت السلطة الزمنية للإسلام بتضافر شتى العوامل مما سنكشف عنه في أعداد تالية إن شاء الله
عباس طه
المحامي الشرعي
حرمة البيان
للأستاذ عبد المنعم خلاف
- 2 -
لا تزال في نفسي بقية من هذا الحديث، هي حديثي عن واجب الأدباء في أن يكونوا مخلصين لفنهم وأنفسهم فيصنعوا المقالة الأدبية كما يصنع المهندس بيتاً لنفسه يعيش فيه، يري فيه ويرى له الناس أنه مأواه وحصنه وعش أطفاله.
حينئذ سيلمس القارئون نبضات قلوب الكتاب في الألفاظ كأنهم يضعون أيديهم منها على أجسام حية. . . وحينئذ سيعز على الكتاب أن يرسموا صورا بأيديهم ثم يدوسوها بنعالهم. . وأن يخلقوا خلقا جميلا ثم يئدوه ويدفنوه. . .
فمن حرمة البيان أن يعيش فيه أصحابه ولا يتركوه ألفاظا خربة كالتماثيل الجامدة القائمة من غير روح الحياة.
أجل! إن صنع الألفاظ أكبر مسئولية من صنع التماثيل والدمى والصور، يحتاج إلى أن

ينطق بها صاحبها ويفعل ما ينطق. فإذا خص أديب الطبقة الفقيرة برعاية قلمه فواجب أن يخصهم برعاية جيبه. . .
وإذا أكثر من أدب القوة فليكثر على الأقل - من مواقف الرجولة والبطولة في محيطه وإذا أدمن على تصوير الجمال فلا أقل من أن يكون نظيف النفس والثوب مهندم المظهر بقدر الإمكان. .
وإذا أكثر في أدب النفس فحذار أن يخالف على أمره فيقذف من حالق وتهوى به الألسنة والأقلام في مكان سحيق، ثم يرجم برجوم من ألفاظه هو. .
وهكذا يعيش الأديب الحق كما تعيش دودة القز لعمل القز ثم (تموت) في صميم ما صنعت لتبعث منه خلقاً آخر: فراشاً جميلاً طائراً على الأزهار. . . وكذلك يبعث الأديب الصافي بعد موته روحاً رفافاً على الأرواح. .
أريد وأتمنى أن يعيش الأديب المبين دائماً بصميم نفسه التي يرسمها في صحفه ولا يدعها تفارقه لحظة. . .
فالذين يواجهون الحياة دائماً بنفوسهم وبمثلها العالي وبوسيلتها إليه وإيمانها به. . . هؤلاء
هم الذين يتركون آثارهم ويشقون طريقهم ولو في الصخور. . . لأنهم ألحوا على جبهة واحدة في الحياة، ولم يتخذوا لأقلامهم سبيلا عوجاء؛ فكان من اللازم المحتوم أن ينفذوا من السدود، ولو كان مبلغ آثارهم قطرة واحدة متكررة دائبة كما يقول إنجيل برنابا ما معناه: القطرة الصغيرة المتكررة تشق الصخرة الكبيرة أو تترك فيها آثارها والأديب المخلص لمثاله العالي الذي يصوره لا يتعب دارسيه في تطبيق حياته على آرائه، ولا يحملهم على الإسراع بالشك في تلك الآراء حين يرونه في حياته الخاصة بعيداً عنها مكذباً لها ولا يحملهم كذلك على رجمه بألفاظه كما رجم حسان بن ثابت بأبياته في الشجاعة إذ كان جباناً، وكما رجم أبو العتاهية بأبياته في الزهد إذ كان بخيلا، وكما رجم البحتري بأبياته في الجمال إذ كان قذراً، وكما رجم المتنبي بأبياته في الحكمة إذ كان أخرق وإن كان قد كفر عن جرمه هذا بإسراعه إلى تلبية نداء شعره حين ذكره غلامه ببيته: الخيل والليل والبيداء. . . الخ. وقتل دفاعاً عن حرمة بيانه، وكتب بيته ذاك بدمه بعد أن كتبه بمداده. . .
فأمثال من ذكرنا من الأدباء حكم عليهم التاريخ ببقاء ألفاظهم خربة من نفوسهم.
ولكن ما الفائدة من أن أقول قال فلان كذا. . . بينما تاريخ فلان هذا يقول لي كذب صاحبك! لا جرم أن تطير هالة الخيال إذا رُئي المثال، وأن يدخل البيان إلى النفس في استحياء وخجل تكاد تُزْلقه عيون الشبهات!
فالخلود الحق للأديب أن تعيش نفسه في نفوس قارئيه مع كل كلمة من كلامه تملؤها وتشرحها وتشير إلى النموذج الذي حققته الحياة. . .
فليحذر الأدباء أن يحكم على ألفاظهم رعاة الإنسانية الذين وضعت الأقدار في أيديهم موازين الحكم والنقد والاعتبار كما حكم محمد رسول الله على أمية بن أبي الصلت أنه (قد آمن شعره وكفر قلبه)
أنا بالطبع في دنيا غير دنيا أكثر الأدباء التي يعيشون فيها ويأخذون منها أفكارهم. . . أناديهم من مكان بعيد. . . ولكن ما حيلتي والحقائق الكبرى في الحياة هي التي توحي بذلك. . . الإيمان والحق والخير والجمال والحب والقوة، تلك المعاني التي حملها وحدها الرجال الأمهات. . .! الذين ولدوا الإنسانية وعاشوا لها وعاشت في نفوسهم وتقاليدهم. . .
ولم يخلد من الأدباء بل من الناس جميعاً إلا خدام هذه الحقائق مجتمعة أو منفردة.
وخدمتها لا تكون أول ما تكون بألفاظ وأناشيد. . . وإنما بالنفس! ومعنى خدمتها بالنفس أن تفقهها وتراها رأى العين أنها أعمدة السموات والأرض فتلوذ بها وتعيش معها دائما، ثم تخلقها هي مرة ثانية بالقول الجميل أو اللحن الجميل أو الرسم الجميل. . .
إني إنسان سائر مع الطبيعة. . . أستحي من وجوهها الصادقة أن أمر عليها بوجه كاذب. . . وإن صداقتي لها أمر ثمين عندي أثمن من صداقة الناس. . وإني أستحي من الجماد والنبات والحيوان أن أكون أقل منه صيانة لقانون الله بارئي وبارئ الفطرة. . . والتناسق والنظام يحتمان عليَّ أن أسير في مواكب الطبيعة على قدم واحدة

. . .وموسيقى واحدة وإشارة واحدة
لماذا يكذب الإنسان وحده؟! إن النحلة لا تخرج علقما. . . والحية لا تقبِّل الخدود. . .
. . .والحنطة لا تنبت عقارب. . . والنار تحرق دائما. . والماء يغرق دائما
!إن كل شيء صادق في الدنيا فلماذا نكذب نحن؟
:عجبا أعجبه معك يا أبا العلاء حين تسأل عن النجوم
وتكذب؟! إن المين في آل آدم ... غرائز جاءت بالنفاق وبالعهر
نكبة الأدب هي التزوير فيه: تزوير النفس وتزوير الحياة حتى تستحيل إلى خيال
. .شارد
لماذا يتغزلون وهم لا يحبون؟ ولماذا يمدحون وهم يكرهون؟ ولماذا يتظرفون وهم
ثقلاء؟ ولماذا يتحمسون وهم خونة جبناء؟ ولماذا يفخرون وهم ناقصون؟ ولماذا
يسودون الحياة في وجه الناس وهي بيضاء، ويبيضونها وهي سوداء؟ لماذا يبلبلون
قلوب الناشئين ويبذرون فيها بذور الشك في الحقائق الثابتة التي لا يمكن الدنو منها
والحكم عليها إلا بعد الامتلاء والانتهاء من العلم والدين والفن وتجارب الحياة؟
!أكل هذه الفتنة القول والقوافي والأسجاع والنكات والشهرة؟
أتت علل المنون فما بكاهم ... من اللفظ الصحيحُ ولا العليلُ
!كلا بل ضحكت منهم الألفاظ وشيعتهم ساخرة يا أبا العلاء
إن الخواطر لا تنتهي، وإطلاقها ينتهي بعقول أصحابها إلى الجنون. . . وحرية الأفكار
ليس معناها حرية الطباع، والحرية الفكرية معناها تقديم مقترحات ضد بعض الأوضاع
والتقاليد التي يرى ناقدها أنها فاسدة ولكن في عرض جميل. . . لا تقديم خواطر تهجم
. . .على حق أو تجرح فضيلة
ويا ويل من يقع قلبه فريسة لأدب الأدباء المزورين! إنه لا يتيقظ إلى أنهم متناقضون
متهافتون إلا بعد فوات الأوان. . . بعد أن ينطبع ذهنه على قبول الخيال الناقص
والكاذب ويقئ الحقائق ولا يهضمها. والأدباء المزورون أهل شطحات، ينسون فيها كل
ماضيهم وآرائهم فيناقضون أنفسهم مناقضة فاضحة إلى حد أن يحكموا على أنفسهم
أحكاما قاسية مسقطة لعدالتهم الأدبية وهم لا يشعرون
وهم لا يصدرون آرائهم عن وجهة واحدة في الحياة، ولذلك تراهم (في كل واد يهيمون)
وليس لهم مذهب ورأي ذو سلطان له مدرسة وتلاميذ يتشيعون له ويعيشون لنشره
وشموله ولو أقتصر كل منهم على المتح مما في نفسه من منابع الإلهام وعلى رصد
مخلوقات قلبه، ولم يتكلف نظم قول لا يؤمن به ولا يحسه حياً في نفسه، إذاً لظفرت
الآداب بكنوز من دفائن القلوب، ولأحس القارئون حين يقصدون إلى فصل أدبي، أنهم
. . .قادمون على معرض جميل من معارض الحياة لفنان صادق
فواجبهم أن يستحضروا الجد ويقظة الدرس والتحصيل لما في هذا المعرض من آراء
وأرصاد ورؤى وفكاهات وعضات قنصها ذلك الفنان الصادق من خواطره وإلهامه
. . .ليقدمها للناس على أنها نتيجة التقائه بالحياة
ومجتمع الرأي: أنني لا أومن بالأدب ولا أعترف بحرمة البيان - ذلك الجانب المقدس
في الإنسان - على أنه تسلية وتزجية فراغ تقصده النفس في غير إجلال، وتلعب فيه
الأيدي بالأقلام لعب الأرجل بالكرة. . . وإنما أُومن به على أنه - في مجموعه - معرض
للآراء المصححة لأغلاط الحياة، وللمشاعر النبيلة من حياة القلوب، وللموسيقى
اللفظية التي تساعد على خلق جو روحي أثناء القراءة
وأختتم هذا الحديث بإيراد أقصوصة تمثيلية قرأتها في بعض الآثار اليهودية، وهي تمثل
:حرمة البيان وجنابه العظيم
:قيل أنه لما فرغ الله من خلق الدنيا قال لأحد الملائكة
أنظر هل ترى في السماء والأرض والماء والهواء نقصاً؟ فنظر ثم عاد فقال: لا ينقصها
إلا شيء واحد يا رب، هو الكلام الذي يبين ما فيها ويتحدث عنها. فخلق الله ذلك النوع
!الممتاز
(القاهرة)
عبد المنعم محمد خلاف
حواء
ديوان شعر طريف في المرأة يصدره الأستاذ الحوماني وتقدم الرسالة منه بضعة

نماذج لقرائها قبل صدوره في مأتي وجه ثمنه عشرون قرش صاغ قبل صدوره ويطلب من إدارة الرسالة

دموع قيثارة

يتصبَّاني من الروض إلى ... وجهكِ الفاتن أرضٌ وسماءٌ
الثرى عينٌ وخدٌ وفمٌ ... والسما نورٌ وعطرٌ وغناءٌ
يستظلُّ الزهر أفياء المنى ... والمنى تطغى عليه الْخُيَلاَءُ
فتمجُّ الشمس في أعطافها ... خمرة نكرع منها ما نشاءُ
يتصباني إلى عينيكِ من ... روضتي غصنٌ وعصفورٌ وماءٌ
يتغنين فيملأنَ فمي ... ضَرَباً تغرف منه الندماء
يا لها قيثارة، ملءُ يدي ... من مآقيها دموعٌ ودماء
خفقت بين يديها كبدي ... فجثت بين يديَّ الشعراء

بعض كياني

ألهميني سرَّ عينيكِ وما ... يعتريني كلما أبصر ثاني
كم تساءلتُ ونفسي عنهما ... وتحرّيتُ شعوري وبياني
فإذا زهرهما ملءُ فمي ... وإذا عطرهما ملءُ جناني
وإذا السرُّ الذي أنشده ... فوق ما يشعر قلبي ولساني
ربما ألهمني سحرهما ... روعةً تملأ بي كل مكان
وأراني همتُ في الأرض فما ... وسعتْ رقعتها بعض كياني
وتشوّفتُ إلى الأفق الذي ... يسع الشعر فأعياني عياني

الحوماني

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

1880 - 1937

للأستاذ محمد سعيد العريان

- 36 -

مقالاته للرسالة (7)

كان الرافعي قلما يجلس إلى مكتبه في المحكمة إلا أن يكون له عمل؛ فإذا لم يجد له عملا في المحكمة أنصرف لوقته إلى حيث يشاء غير مقيد بموعد من مواعيد الوظيفة.

وكان يزورني أحيانا في المدرسة ليقضي معي وقتا من الوقت أو ليصحبني لبعض حاجته. وكان يغبطني على عملي ويزعم أنه لو كان في مثل هذا الجو المدرسي لوجد لنفسه كل يوم مادةً تلهمه الفكر والبيان؛ ويعجب لي كيف لا أجد في صحبة هؤلاء الصغار الذين يعيشون في حقيقة الحياة ما يوقظ في نفسي معنى الشعر والحكمة والفلسفة. . .

وزارني يوما، وكان من تلاميذي في المدرسة طفل في العاشرة أبوه من ذوي الحول والسلطان؛ فكان يصحبه شرطيٌّ كل يوم إلى المدرسة ويعود به، وكان فتى لدنا، فيه طراوة وأنوثة، وله دلال وصلف، فاتفق أن حضر إليَّ لشأن ما والرافعي معي، ووقف الشرطي ينتظره على مقربة من مجلسنا؛ ونظر الرافعي أليه وقد وقف يكلمني وهو يتثنى ويتخلّع لا يكاد يتقار في موضعه. . .

ثم أنصرف الغلام وانصرف الشرطي وراءه يحمل حقيبته، وألتفت الرافعي إليَّ يسألني: (. . . وبين تلاميذك الكثير من مثل هذا الشَّمعون؟)

وكلمة (شمعون) عند الرافعي هي عَلَم مشترك لكل فتى جميل. وتاريخ هذا الاسم قديم، يرجع إلى أيام صلة الرافعي بالمرحوم الكاظمي الشاعر؛ إذ كان الكاظمي له صديق من الغلمان يحبه ويؤثره ويخصه بالسر. . . وكان اسمه (شمعون) - قال لي الرافعي: (وكان فتى جميلا لولا ثياب الغلمان لحسبته أنثى. . .!) - ورآه الرافعي كثيراً في صحبة الكاظمي، فوعى أسمه وصورته، ثم كان اسمه عند الرافعي من بعد علما على كل غلام متأنث. . .

قلت للرافعي: (هذا ابن فلان الحاكم، وهذا الشرطي الذي يتبعه هو من جنود أبيه، . . . وإن من خبره. . .)

قال الرافعي: (وهذا موضوع جديد!)
فهذا كان سبب إنشائه قصة (الطفولتان)
وكان الرافعي مؤمن بالغيب إيمانا عميقا لا ينفذ إليه الشك. وكان له عن الشياطين والملائكة، وعن الوحي والإلهام، وعن تجاوب الأرواح في اليقظة والنوم، أحاديث ينكرها كثير من شباب هذا الجيل. . .
وكان له - إلى إيمانه وتديُّنه - نزوات بشرية تعقبها التوبة والندم، فكان أكثر وقته . . . على تربص دائم من وسوسة الشيطان، فكان إذا مرت أمامه امرأة فأتبعها عينيه، أو سمع حديثاً عن غائب فتعقبه بالحديث عن بعض شأنه، أو ناله أحد بمساءة فردها إليه، استعاذ وحوقل، وقال: هذا من عمل الشيطان!. . . وإذا همت نفسه بشيء تنكره المروءة، أودعته داعية من هواه إلى ما يتحرج منه المؤمن، أو صرفه شأن من شئون الحياة عن واجب من واجبه، حمل نفسه على ما لا تحتمل، وأنكر على نفسه ما همت به أو دعت إليه أو انصرفت عنه، وذم الشيطان وتجنى عليه الذنب. وفي مقالته (دعابة إبليس) حديث يحقق هذا المعنى
فأني لَمعَه ذات مساء إذ جاءه البريد برسالة من آنسة في دمشق، ومعها صورتها . . . مهداة إليه، تبثه لواعجها وأشجانها، وتشكو إليه أنها. . . مفتقرة إلى رجل!
ونظر الرافعي إلى صورة الفتاة فأطال النظر، ووقف الشيطان بينه وبين الصورة يحاول أن يزيدها في وهمه حسنا إلى حسن، ويرسم له خطة. . .
ثم وضع الرافعي الصورة في غلافها وهو يقول: (أعوذ بالله من الشيطان. . . أما إنه. . .)
وقال شاب في المجلس: (وهل الشيطان إلا هوى النفس؟)
وقال الرافعي: (وهل تنكر. . .؟)
وطال الجدل، ومضى الحديث في فنون. . .
من هذا الحديث وهذه الحادثة كانت مقالة (الشيطان)
وكان لولده الأستاذ سامي زوج لم يدخل بها، وقد مرضت بذات الصدر بعدما سماها وعقد عليها؛ فأقامت زمناً في مصحة حلوان؛ ثم ارتدت إلى طنطا لتقيم بين أسرتها ما بقي، وزوجها حفيٌّ بها قائم على شئونها، ثم جاء موعدها فدعا الرافعي ليراها فجلس إلى جانبها لحظات وهي تحتضر، فكان له من هذا المجلس القصير، مقالة (عروس تزف إلى قبرها!)
كنت ليلتئذ على موعد معه في القهوة، فظللت أنتظره ساعات ولم يخلف الرافعي موعده معي مرة من قبل، فلما طال بي الانتظار مضيت لشأني. وفي الصباح جاءني نعي الفتاة فعرفت عذره؛ فلما كان العصر ذهبت في نفر من الأصحاب لتعزيته في دار صهره، والتمسناه فما وجدناه، وسألنا عنه فعرفنا أنه آب إلى داره بعد الجنازة لبعض شأنه؛ ولقيته بعدها فعرفت أنه ترك المأتم والمعزين ليفرغ لكتابة مقالة قبل أن تذهب معانيه من نفسه!
يرحمه الله! لم يكن يمر به حادث يألم له، أو يقع له حظ يسرُّ به إلا كان له من هذا وذلك مادة للفكر والبيان، وكأنما كل ما في الحياة من مسرات وآلام مسخرة لفنه؛ فهي عند الناس مسرات وآلام، وهي له أقدار مقدورة ليبدع بها ما يبدع في تصوير الحياة على طبيعتها وفي شتى ألوانها، ليزيد بها في البيان العربي ثروة تبقى على العصور، وهو إخلاص للفن لم أعرفه في أحد غير الرافعي!
وإذ ذكرت السبب الذي دعا الرافعي إلى إنشاء مقالة (عروس تزف إلى قبرها!) أراني مسوقاً إلى ذكر حيث بيني وبين الرافعي يتصل بهذا الموضوع، وإنه ليدل على خلق الرافعي وطبعه، وهو بسبب مما سميته فيه من قبل (فلسفة الرضا)
لم يكن لأحد رأي في خطبة هذه العروس إلى سامي، ولكنه هو خطبها لنفسه، وكان يحبها ويرجوها لنفسه من زمان، ولم يكن بينهما حجاب، فإنها بنت خاله؛ فلما أجمع أمره على خطبتها بعدما تخرج وصار له مرتب يكفيه، ذهب يعرض أمره على والده، فعارضه فيما ذهب إليه لسبب سببه، ولكنه مع اعتداده برأيه في هذه المعارضة تركه لهواه ولم يفرض عليه رأيه؛ إذ كان يرى من حق ولده أن يختار زوجته لنفسه، فليس له عليه في هذا الشأن إلا أن يبذل له النصح، ثم يدع له الخيرة في أمره

وخطب سامي فتاته، وعقد عَقده. وكان حموه يعمل في مال فأكلته الأزمة، وقُدر عليه رزقه
بعد سعة؛ ثم مرضت الفتاة مرضها، فأكرمها زوجها وأقام على شئونها، وأنفق ما أنفق في طبها وعلاجها سنتين أو يزيد، بين طنطا وحلوان!
وتداعت فنون الحديث يوماً بيني وبين الرافعي حتى جاء ذكر سامي وزوجته، وكانت ما تزال في مصحة حلوان؛ فقال لي الرافعي: (أنظر! إنها حكمة الله فيما يجري به القدر! ظلّت البشرية إن هي حاولت النفاذ إلى الغيب لتتحكم في أقدار الناس. . . ليس للإنسان خيرة من أمره، ولكنه قدر مقدور منذ الأزل يربط أسباباً بأسباب، ويجري بالحياة وحدة متماسكة، فما يجري هنا هو بسبب ما يجري هناك، فلا انفصال لشيء منها عن شيء. . . تُرى مَنذا كان ينفق على هذه المسكينة ليطب لها من دائها لو لم تكن الأقدار قد أحكمتْ نظامَها وكان سامي هو زوجها؟ هل كان إصراره على الزواج منها بعدما قدمت له من الرأي والنصيحة إلا لأنه في تدبير القدر المرجوُّ لهذا الواجب من بعد. لقد كنت مستيقناً من أول يوم أن من وراء هذا الزواج حكمة خافية، وإنني اليوم وقد انكشف لي هذا السر العجيب في حكمته البالغة لأشعر بكثير من الرضى إلى ما كان!)
ثم كتب بين مقالة (بين خروفين)
وهي تمتّ بسبب إلى مقالة (حديث قطين)؛ وفيها حديث عن ولده عبد الرحمن، وهو أصغر بنيه؛ وكان الرافعي يرجوه ليكون من أهل الأدب؛ فما يزال يستحثه ويحمله على الدأب والمثابرة ليكون كما يرجو أبوه، ويحمله بذلك الرجاء على ما لا يحتمله. وكان (الإيحاء) وسيلة الرافعي إلى تشجيعه وتحميسه إلى العمل؛ ويبدو مَثل من هذا الإيحاء فيما تحدث به الرافعي عنه في أول هذا المقال
وكان الرافعي معنياً بمستقبل أولاده عناية كبيرة، فكان يحملهم على العمل بوسائل شتى. وكثيراً ما كان يرسم لهم الخطة للتحصيل والمذاكرة، وقد وجدت بين أوراقه حديثاً له إلى ولده إبراهيم ينصحه ويرسم له منهجاً ليهيئ نفسه للامتحان، لو أنه اتبعه لكان اليوم غير ما هو!
ومن أجل أولاده أنشأ كثيراً من المقالات عن عيوب الامتحانات لمناسبات مختلفة كان ينشرها في المقطم؛ وكانت له طلبات ومقترحات إلى وزارة المعارف أجابت أكثرها ولم ينتفع بها أحد من ولده ومن أجلهم أنشأها!
أنشأ هذه المقالة قبيل عيد الأضحى، وكان اشترى خروفين للتضحية أودعهما فوق سطح الدار إلى ميعاد؛ فما نزعه إلى كتابة هذا المقال إلا هذان الخروفان، ثم حاجته إلى أن يقدم إلى ولده نموذجاً في الإنشاء يعينه على بعض واجبه المدرسي
وكان للرافعي رأي فيما تنقل الصحف من أخبار تركيا تفسره مقالة (تاريخ يتكلم) وقد دعاه إلى إنشاء هذا المقال أخبار تناقلتها الصحف في ذلك الوقت عن أحداث تجري في تركيا، رأى فيها مشابهة من حوادث سبقتها في مصر قبل ذلك بألف سنة في أيام الحاكم بأمر الله الفاطمي
وفي أحيان كثيرة كانت تثور نفس الرافعي لما يسمع من أخبار تركيا فيهمْ أن يكتب ثم يمنعه من ذلك خشيته أن يكون فيما يكتبه شيء يقفه موقف المسئول عن غلطة تعكر صفاء ما بين الدولتين؛ ثم جاءت مناسبة هذه المقالة فأنشأها وجعل الحديث فيها عن الحاكم بأمر الله وهو يعني رئيس الجمهورية التركية؛ وكانت هذه التعمية وسيلته ليتهرب من التبعة السياسية، ومنها كان الغموض في كثير من معانيه؛ فمن شاء فليعد إلى هذا المقال ليقرأه وقد عرف داعيه، فلعله لا يجد فيه غموضاً من بعد
ومن أجل هذا السبب ولهذا المقصد نفسه كان مقالة (كفر الذبابة) الذي أنشأه على أسلوب كليلة ودمنة بعد ذلك بأشهر.
(سيدي بشر)
محمد سعيد العريان
تحرير الألفاظ
الروعة والطرب
للأستاذ محمد شوقي أمين
تقول اللغة في مشهور ما تقول: طرب الرجل: فرح، وطرب: حزن. وتقول أيضاً: راعه

الأمر أعجبه، وراعه: أفزعه
والقائم في الأذهان أن لفظيْ الروعة والطرب من باب الأضداد المتعارف شأنهما في خصائص الفصحى؛ على حين أنهما في الحق لا يدلان على واحد من الضدين بعينه حقيقة ووضعاً، فحقيقتهما ووضعهما للموجان والتضرّب لا غير. فالروعة والطرب يدلان كلاهما على اهتزاز النفس وتحركها، وهيْج الخاطر وتأثره؛ وإنما يدل كل منهما على معنيي الفرح والحزن دلالة مجازية يبين السياق نص موقعها من الإبانة والإفهام، وتؤازر القرائن المقصود لذاته منها أسلوب الكلام
وربما كان الصوت الرخيم شبيه ما نحن بصدده من هذين اللفظين، فإن الدلالة المعنوية للصوت الرخيم على معنيي الحزن والفرح، أكثر شيء وفاقاً لدلالة لفظي الروعة والطرب على ذَيْنِك المعنيين
متى ذكر جمال الصوت ورقته، انصرف الذهن أول ما ينصرف إلى الفرح؛ فالغناء فيما يبدو للناس على وجه عام، بريد المسرة، ووافد الابتهاج. مع أنه في حقيقة الأمر يستنبث الشجو، كما يستثير الغبطة؛ ويرتاح له الشعور الحزين، كما يأنس به البال الرفيه. فهو منتجع الشجيين والخليين على سواء بينهما. وكم أنبطَ الغناء من عبرات حِرَار لم تكن تبضَّ قطراتها لولا رِشاء النغم الحنون!
تلك هي النائحة المستأجرة، تبعث صوتها المتحزِّن في مناحات النساء، فإذا به وقود تتضرّم به مجامر الزفرات، ورنين تستيقظ به كوامن الأحزان. فتمضي النساء وقد حضرتهن الهموم يبكين شجْوَهن!
وهذا ابن سريح ظل صدر شبابه ينوح. وقد أُنسيت: أين؟ أفي مكة أم في المدينة؟ وحيثما كان فقد نوّح دهراً وهو ورقاء هتوف، قبل أن يغني في بغداد وهو بلبل صَيْدَح. . هاج صوته خلف الجنائز لواعج الحزانى، من المكيين أو المدنيين بين رجال ونساء، وأحيا ذلك
الصوت نفسه ليالي البغداديين الملاح، فكان عون اللهو ورُقْيةَ الصبوات!
ذلك لأن الغناء في ذاته لا شأن له بما يكون في النفس من أفراح أو أتراح. وإنما هو ذوب ينسرب إلى أذن السامع، وسحر يمشي في حسه، فيهزَّ مناحي الشعور، ويضيء ظلام الجوانح، فينكشف مستورها من الأفراح أو الأتراح. . .
فعمل الغناء على هذا هو التنبيه والإيقاظ، سواء أكانت النوائم آلاماً أم لذائذ. وهكذا الشأن في لفظي الروعة والطرب فهما يدلان على الهيجة والهزة والتحرك، سواء أكان ذلك للذائذ أم للآلام
أما مفاد القول اللغويين في لفظة الروع فهو: الفزع، وقالوا: سُمي القلب رَوعاً بالضم، لأنه موضع الفزع. فقولك: راعه الأمر، أي بلغ الرّوْع رُوعه، والأمر الرائع هو الذي يصل الفزع منه إلى القلب
وفي رأيي أن العرب سموا القلب روعاً وجرا بينهم استعماله ثم اشتقوا منه الفعل: راع، ليفيد إصابة القلب كما يقال: فأده أصاب فؤاده، ورأسه أصاب رأسه، وعانه أصاب عينه. وهذا الباب من أبواب العربية ينفسح لكل الأعضاء، فقد ألمع العلماء إلى اطراده، تقول: فَعَلَه، أي: أصابه، وفُعِل هو، بالبناء للمجهول، أي أصيب
وقد أخلي أصحاب المعجمات أسفارهم من الإشارة إلى هذا الوجه خلال أقوالهم في اشتقاق فعل: راع، وعلقوا الصلة بينه وبين الروع بمعنى القلب على بلوغ الفزع، وذلك التعليق هو الذي إياه نأبى، وغيره نرى.
على أنهم في تعليلهم لبعض الاستعمالات العربية في هذا اللفظ ذكروا ما يقوم مقام التنزُّل عما سبق أن علّقوه. جاء في شرح القاموس نقلا عن حُذاق اللغة: (ما راعني إلا مجيئك، معناه: ما شعرت إلا بمجيئك. كأنه قال: ما أصاب رُوعي إلا ذلك) وهذا التفسير اللغوي يفيد، على الجلاء، أن راعه الأمر: أصاب روعه، أي قلبه، دون ذكر لخوف أو فزع.
وهذا تعبير عربي وثيق، تقول: (وقع ذلك في روعي، أي نفسي وخلدي وبالي) فالوقوع هنا خالص مجرد، وهو يفيد الوصول إلى القلب، غير محدود بوصف، ولا معّين في وجه.
ومن فُصح العربية كذلك قولك: (فلان يرتاع للخير) ووجه هذه العبارة أن ارتاع هنا مطاوع راع، ففلان يروعه الخير، أي يمس قلبه، ويقع في نفسه، فهو يرتاع للخير، أي

يرتاع إليه، ويطمئن به.
وعلى هذا، تقول: راعني الأمر، أي وصل إلى خاطري، وتأثر به جناني، فإن كان ذلك الأمر داعية بهجة فذاك، وإن كان نذير مساءة فكذلك، فالزينة الرائعة هي الرائقة التي يبلغ إلى القلب الإعجاب بها؛ والفجيعة الرائعة هي المفزعة التي تهزُّ القلب نبأتها.
وأما لفظ الطرب فأن الخطب فيه أيسر. وقد تضاربت فيه أقوال فقهاء اللغة، ومن هذه الأقوال ما نوافقه فيما ذهبنا إليه.
هي آراء ثلاثة في ذلك اللفظ:
أولها أن الطرب للفرح، وللحزن. ومن شيعة ذلك الرأي (ابن الأنباري) فقد حشده في كتاب (الأضداد) فيما حشد من مادة كتابه!
والثاني أنه حلول الفرح وذهاب الحزن. وقد ذكر هذا الرأي صاحب اللسان، وكأنه عرف ضعفه فصان اسم صاحبه عن نسبته إليه
ثالث الآراء هو الذي نواطن اللغويين عليه، وهو أن الطرب خفة تعتري عند شدة الفرح أو شدة الحزن. وقد ذكره مكن أعلام اللغة جمع بينهم (ابن دريد) في الجمهرة و (الجوهري) في الصحاح
وممن أرتضى هذا الرأي من المتأخرين صاحب المصباح، فأنه أثبته في موضعه من معجمه وزاد عليه قوله: (والعامة تخص الطرب بالسرور). فهل فات الفيومي أن العامة تجري في هذا التخصيص على رأي أسلفنا ذكره هو الرأي الثاني؟ أم يذهب إلى أن هذا الرأي ينزل من الآراء منزلة العامة وقالة السوق؟!
ولعل أوفق ما قيل في معنى لفظ الطرب قول الثعلب: (الطرب (عندي) هو الحركة) فهذا هو القول الصائب على ما ترى؛ ولكن ابن سيدة قال في التعليق عليه: (ولا أعرف ذلك). . . على أن فقد المعرفة ليس بإنكار ولا تخطئة، ولثعلب أن يكون له (عند) وما هو بظنين
وثم لفظان هما عسيَّان أن يدخلا من هذا الباب، وتصدق عليهما هذه الصفة، ذانك لفظ الشجو، ولفظ الوله. فقد أصفق اللغويون - وبينهم الكسائي - على أن شجاه: حزنه وطرَّبه ضد. وذكر بعض منهم في المعجمات أنه قيل: إن الوله يكون من الحزن والسرور. وأنا لم أجد حول هذا الذي قيل في الوله ما يعزز جانبه، ولم أجمع من صيغه ولا من صيغ لفظ
الوله ما يسفر به وجه الاشتقاق، فأحتسب الآن بالإشارة إليهما، والتنبيه عليهما، غير مبرم لهما قولاً، ولا قاطع فيهما برأي
وقصار البحث أن لفظي الروعة والطرب لا يدلان إلا على تأثر النفس بما يُحضرِّك ما فيها من المباهج أو الكروب، فالغناء يَرُوع ويُطرب، والمغنِّي رائع مطرب؛ لأن روعة الغناء وطربه يستخفان المشاعر؛ فَتَتَبرج الفرحة الخَفرة أو يهتاجُ الأسى الكظيم؟
محمد شوقي أمين
غزل العقاد
للأستاذ سيد قطب
- 16 -
الآن يصل أخونا (الغمراوي) إلى النهاية البائسة التي وصل إليها إخوانه من قبل. فهم وهو، يظلون متماسكين - بعض الشيء - وهم يدورون بالكلام ويلفون حول الأشخاص بالجمل العائمة والتعبيرات التي ينبت رأسها في ذيلها - وبالعكس! - حتى إذا بلغوا الحديث عن النماذج، ولمسوا جانب الأحكام الأدبية، (آن لأبي حنيفة أن يمد رجله)!
من كان ينظر إلى (الجمال) وينظر إلى (الحب) نظرة (العقاد) التي أسلفنا عنها الحديث في مقالي (سارة) وفي مقالي (غزل العقاد) فهو خليق أن يسمعنا من تعبيراً عن أثر الجمال والحب في نفسه - أنماطاً أخرى غير ما عهدناه في - (الغزل) الشعر العربي قديمه وحديثه، وأن يكون في هذا الغزل صاحب (خصوصية) أولا، وصاحب (فلسفة) شاملة ثانياً
وليقل بعض الجهلاء الغلاظ ما يشاءون عن فلسفة الشاعر، ولينكروا أن يكون لكل شاعر كبير فلسفة خاصة، يفسر بها الحياة كما تنطبع في نفسه النموذجية، لا نتيجة (التأمل) وحده كما يفهمون، بل نتيجة الفطرة الممتازة كذلك، ونتيجة الطبع المتفرد، الذي تهبه الحياة لصاحبه، وهي ترتقب منه دنيا جديدة يخلقها، لا كدنيا الناس، تضمها

إلى متحفها الضخم الفريد
والعقاد في غزله يجيبان إلى ما نترقب، ويرتفع فوقه درجات، ويحيل الدنيا - حين يحب - متحفاً حياً من الصور والحالات النفسية، ومن شخوص اللحظات والليالي والأيام التي تدب وتتنفس وتحيا! ومن الألوان والظلال التي تلقيها المواقف والآلام والأحلام والآمال؛ ومن الأصداء المنبعثة من أوتار نفس متعددة الأوتار
هي دنيا عجيبة يعيش فيها القارئ بضع ساعات، فيلتقي فيها بوجوه عدة، وأنماط من الشخوص نادرة، ويرى هناك نفساً - بل نفوساً - هادئة ثائرة، راضية ساخطة، بانية هادمة، محلقة في الرجاء، وجاثية في القنوط أو محيرة في الشك والارتياب، ويجدها روحانية ترفرف بأجنحة من السماء تارة، وبوهيمية تلتهم قطوف الواقع تارة، وكثيراً ما تجمع بين السماء والأرض في قدرة كقدرة الخالدين
ولكن الميزة الكبرى لهذه النفس أنها تبدو صادقة في كل حالة، طبيعية في كل وجه، أصيلة في كل سحنة، فليست هي في حالة المتعة والإقبال بأقل منها في حالة العزوف والأدبار؛ وليست هي في ساحة الرجاء الطليق بأفضل منها في حرج القنوط المطبق، أو الشك الأليم. . .
وتلك قدرة - أو موهبة - لا تتاح لكل شاعر كبير، بل لعدد محدود من الشعراء الكبار؛ فقد يكون شاعراً كبيراً وهو يمتاز في ناحية واحدة من نواحي الاتجاهات النفسية الكثيرة ويرى الدنيا كلها في ضوء هذه الناحية الممتازة فيه
ونحن لا ننصف الرجل حين نقول: إن الأوتار التي يوقع عليها الحب في نفسه، لم تجتمع قط لشاعر عربي، ولا تجتمع لعشرة من شعراء العربية في جميع العهود نحن لا ننصفه حين نتحدث عن اللغة العربية وحدها؛ ولكنا نقول ذلك مؤقتاً، لأنها اللغة التي نستطيع الحكم على آدابها حكما نملك أدلته كلها ونجزم فيه بالصواب. وإلا فبين يدي معربات كثيرة لشعراء من الغرب مشهورين معروفين (كبيرون وشيلي والفريد دي موسيه وفكتور هوجو)
لا أرى فيها من تعدد الجوانب الصادقة الأصيلة ما أراه في غزل العقاد وشعره عامة وما أقول هذا وأقصد به إصدار حكم لا أملك كل مستنداته ولكنه توجيه لدارسي هذه الآداب، ودراسة تنفع للحكم بين شاعر مصري كبير ينالنا شرف سبقه وتفوقه في هذه الميادين، وبين شعراء العالم المشهورين المقروءين.
أول ما يطالعك في غزل العقاد - وفي شعره عامة - اليقظة والوعي الفني، والانتباه لما يجول في نفسه من الخواطر والأحاسيس، وما ينبض به قلب من يحب من المشاعر والأشواق وما يحيط بها من أجواء وآفاق.
وينشأ عن اليقظة الاتجاه الفلسفي، لتعميق الإحساس بالحب، كما ذكر على لسان (همام) في (سارة) وأسلفنا عنه الحديث. كما ينشأ هذا الاتجاه عن رأيه في الحب والجمال، وعلاقتهما بأغراض الحياة الكبرى، ووشائجها بالكون في آماله الفسيحة.
ولا مفر لمن ينظر هذه النظرة أن يجاوز التعبير عن خاصة نفسه في الغزل، إلى صلة حبه بالحياة والكون، وان تتسرب إلى هذا تجاربه وتأملاته في الحياة ما دامت النفس الإنسانية وحدة لا تقوم الحواجز بين أجزائها ومكنوناتها. فتتألف من ذلك كله فلسفة، يحسبها السطحيون بعيدة عن الحب والغزل لأنه لم يكتب عليها لافتة (يافطة) تقول: (هنا عاطفة!)، ولأن الحب عندهم هو ذلك الظمأ والطوى، الذي لا يبعد كثيراً عن الحس الساذج القريب، ولأنهم ذوو نفوس ضيقة ناضبة لها وتر ضئيل.
وليس في غزل العقاد ولا في شعره كله هالات وظلال، (مما قد يكون جميلا في شعر آخرين ليست لهم هذه الطبيعة) وليس هو ميالا للرمزية - وبخاصة كما يصورها بعض أتباع هذا المذهب في هذه الأيام - واليقظة والوعي الدقيق، والانتباه الصارم، لا يناسب هذه الرمزية ولا يستريح إلى الإيغال فيها إلا بمقدار.
ومثل العقاد في هذا كمثل الجهاز السليم الدقيق، يرصد الكواكب والسدم، فيدركها واضحة محدودة عما حولها، فعلام تكلفه أن يظهر لك الصورة ظلالا وأشباحا، وهو يرى أضواء وشخوصا؟ ألأن جهازا آخر مختلا أو ضعيفا، أو على عدسته غشاوة يسجل تلك الظلال والأشباح؟
نعم قد يظهر لك في بعض الأحيان غشاوات وسحبا، لأن هناك سدما غير واضحة في ذاتها - لا في عدسته - وهنا تكون الرمزية الصادقة التي تكنى لأنها لا تملك التصريح،

وتسجل الغشاوة لأنه لا سبيل إلى الوضوح
على أن هناك سبباً آخر لسلوك العقاد هذا المسلك في الإحساس بالحياة والتعبير عنها في وضوح دقيق، ذلك هو فلسفته العامة عن الحياة
فالعقاد ليس من الشعراء الذين لا يجدون في هذه الحياة المنظورة جمالا فيعمد إلى التوشية والتظليل ليداري العيوب ويخلق المحاسن المتخيلة الغامضة؛ أو يتركون هذه الحياة كلها، ويرسمون من الخيال حياة أخرى يغشيها الضباب والدخان، وتزينها التهاويل والأطياف!
إن هذه الحياة المنظورة جميلة عند العقاد تستحق الحب والالتفات، وهي كذلك رفيعة تستحق التقديس والاحترام:
يا طالباً فوق الحياة مدى له ... يعلو عليها. هل بلغت مداها!
ما في خيالك صورة تشتاقها ... إلا وحولك لو نظرت تراها
ومن المستحسن أن نوضح ماذا يعني العقاد بالحياة المنظورة، فهو يعني بها الحياة في كنهها وذاتها، في ماهيتها كقوة خالدة، ويراها وحدة من مبدئها إلى منتهاها ويظم إليها آلامها في جهادها وأشواقها إلى غايتها، وخطواتها إلى الدوام والكمال
هذه هي الحياة التي يهيم بها العقاد - كما هي - ويراها وافية بتحقيق مطالب الخيال والأشواق؛ وليست هي حياة الساعة واليوم، أو حياة الفرد والجيل المحدود
وهذه الحياة - عنده - (روح نلمسها بيد من المادة)، ولا انفصام - بل لا اختلاف - بين القوة والمادة فيها، وقد يرهن العلم في محاولاته الأخيرة على صدق هذه النظرة بالفطرة السليمة، فما الذرات التي تتألف منها المواد إلا كهارب موجبة وسالبة ينشأ من تعادلها وجود المادة في الحس، وليس ما يعرف في الطبيعة (بالمقاومة) إلا قوة تعارض قوة ايتهما زادت طاقتها تغلبت وظهرت
ومن هنا ينشأ احترام العقاد للجسم في عالم الجمال، أو ما اصطلحنا على أن نسميه (جسما) وهو طاقة من قوى الحياة تتمثل فيها للحس، وتلمس باليد. ولهذا فحين يبلغ الحس غايته يجعل من المحسوسات أرواحاً، ويحيل المتع كلها روحية علوية:
ما نعيم يمنح الك ... فَّ غذاء المهجات؟
تقصر الألباب عنه ... وهو بعض اللمسات
في يدي أدعوه خصراً ... تارة أو زهرات!
في فمي أدعوه ثغراً ... تارة أو قبلات!
والسماء والأرض - على هذا - متقاربتان في الحياة. أنظر إلى الحياة في قيودها وضروراتها فأنت منها في أرض جاثية. وانظر إليها في آمالها وأشواقها، فأنت منها في سماء طليقة. وهي هي الحياة في أرضها وسمائها وحدة لا تتجزأ، مقبولة الأعذار، مغفورة الزلات، محبوبة المباهج، مرموقة المناظر، لأنها الحياة!
ومن شأن هذه الفلسفة ألا تلجأ إلى الألغاز والمعميات، ولا إلى الأشباح والخيالات، ولا إلى الظلال والغشاوات، إلا حيث يكون هذا كله جزءا من كنه الحياة وقبساً من طبيعتها. وذلك لأنها تواجه الحياة بخيرها وشرها، وتعترف بهذا الخير والشر كمزاج أصيل لها، وتدرك ما فيها من جمال حقيقي موجود، لا غاية بعدها لوهم ولا لخيال
وقد استطردنا في بيان فلسفة العقاد العامة، فسقنا فيها بعض خصائصه في غزله وهي (التوحيد بين متعة الحس ومتعة النفس أو بين الأرض والسماء). ثم دعانا هذا الاستطراد إلى تأجيل الأمثلة التي نأخذ منها دلائل اليقظة والوحي الفني. والآن فلنأخذ في إيراد الأمثال:
يقول في قصيدة بعنوان (تبسم):
تبسم فإن القلب يسعد بالذي ... سعدت به واضحك وغرد وخاطر
يلذ لنا منك اغترارُك بالصبا ... غرورُ الصبا روْح لقلب المحاذر
ويعجبنا أنا نرى فيك معجَبا ... مدلا على الأيام إدلال ظافر
بشوشاً تكاد العين تلمح قلبه ... وتسرد في نجواه نظم السرائر
إذا غامت الجلَّى تبلجت بينها ... تبلج ومض البرق بين المواطر
وتضحك والأتراح حولك جمة ... تخافك خوف الجن رجم الزواهر
وتبكي وأفراح الحياة كثيرة ... يحاذرننا من حولنا كالطوائر
فيا قرب ما بيني وبينك في الهوى ... ويا بعد شقّيْ دارنا في الخواطر

طوى الحب ما بيني وبينك من مدى ... فنحن قرِينَا موطن متجاور
أيا من رأى ليلاً وصبحاً تلاقيا ... وإلفين من صفو وشجو مخامر
لئن تخش مني الليل صعباً مراسه ... لقد بت أخشى منك شمس الهجائر
فيا لي من ليل بحبك موثق ... وثاق الضواري في كناس الجآذر
تطالع منه الهولَ سهلا مقاده ... رخاءٌ غواشيه، شجيَّ الزماجر
ويا ربَّ مرهوب السطا وهو مطلق ... إذا كُفَّ أضحى متعة للنواظر
أنا الليل فاطرقني على غير خشية ... ولجْ باب أحلامي وجلْ في حظائري
وسرْ حيث يخشى غيهب الليل نفسه ... وتعثر بالظلماء ظلماء كافر
لتعلم ما الدنيا إذا غال غولها ... وأنت أمين من طروق الدوائر
وتعلم أن الشمس تكذب قومَها ... إذا حدثتهم عن خفي وظاهر
فكم بين لألاء الضحى من مناظر ... طوتها يد الأحداث عن كل ناظر

فها هنا رجل يحب ويعبر في غزله عن هذا الحب، ولكن اليقظة التي ابتعثها الحب في نفسه وفكره تجعله جميعاً يتنبه إلى خصائص نفسه وخصائص من يحبه، ويلمح الفروق الواضحة بينهما التي يؤلف منه الحب وحدة ونظاماً! ثم تدخل في المضمار فلسفته العامة ونظرته إلى الحياة قيودها وطلاقتها، ضروراتها وأشواقها، فيتألف من ذلك كله غزل ناضج فريد على غير مثال

ومن حق الأدب علينا أن نشرح هذا كله في تلك الأبيات يعجب العقاد في حبيبه بالجمال، ولكنه لا يقف عند هذا الذي يدركه كل شاعر - إن أدركه هو على نحو خاص - فإنما يعجب فيه باغترار الصبا، والإدلال على الأيام إدلال ظافر، والبشاشة التي لا تفرض وجوداً لعبوسة الحياة

وإلى هنا يمكن أن يصل شاعر ممتاز. ولكن ما يعجب العقاد في هذا هو معنى أبعد وأرقى. إنما يعجبه من هذه الغرارة والبشاشة، غلبة الحرية على الضرورة في هذا الجميل، وغلبة الفرح الطليق على الانقباض الحبيس، وغلبة البشاشة الراجية على العبوسة اليائسة

ثم يلقى نظرة أخرى على هذين القلبين اللذين جمع بينهما الحب، فإذا أحدهما يضحك والأتراح حوله جمة، وثانيهما يبكي وأفراح الحياة حوله كثيرة، وهي مفارقة من مفارقات القدرة الخالقة في الحب، التي تهزأ بالظواهر والأشكال وتمزج بين العناصر أبعد ما تكون طبيعة وكنهاً. ويلتفت من هذا إلى أثر هذا المزاج العجيب، فإذا قلبه المرهوب بما فيه من آلام وجماح، وقد غدا مروضاً مذللاً بهذا القلب الآخر المشرق البشوش، فصار مأموناً لا يرهب، كما تشاهد الضواري موثقة فتكون مسلاة، وكانت وهي طليقة تبعث الرعب والفزع

ثم ينتهي من هذا إلى أحسن تعبير عن اطمئنان صاحبه إليه، والتذاذه بكشف مجاهل نفسه وغياهبها، في ظل الحب وحراسته وأمنه فيدعوه أن يجول في هذا القلب الوعر المرهوب ليستمتع بمشاهدة الخطر المأمون، ويعلم أن الشمس لا تكشف إلا الدنيا الظاهرة، وأن ليس غير الحب يكشف أعماق القلوب

مثل هذا لن يفهمه من يفهمون الغزل لهفة ودموعاً، أو فرحة واستمتاعاً؛ ولن يفهمه بطبيعة الحال من يريدون عواطف الحب قالباً مصبوباً من غزل العذريين أو البوهيميين في الشعر العربي المحدود. ولكنه أحق القول باسم (الغزل) وأدخل قول في العاطفة اليقظة المشبوبة، المنيرة بالحب حتى تكشف ما حولها، وتضمه بجناحيها

ويقول في قصيدة بعنوان: (المغنم المجهول):

يا من عليه تلهفي وتلددي ... قد جرت فلتهنأ بأنك جائر
وأريتني ما لا ترى، ووهبتني ... ما لست تملكه. فما لك شاكر
محضتني سرَّ الحياة وسرُّها ... خاف عليك: جليله والضامر
أن الضياَءُ يرى العيونَ ولا يرَى ... والحسن يوقظ وهو غاف سادر
فلئن بخلت بما ملكت فحسبنا ... ما لست تملك. فهو عندك وافر!
أنسيتني نفسا وقد أذكرتني ... نفسا. خيرهما التي أنا ذاكر
لكشفت باطنها فقد أنكرتُها ... لما بدا منها القرار الغائر
فامنح وصالك أو قلاك فإنني ... راض بتلك الحالتين وصابر

وهنا أيضاً شاعر يتغزل، ويقول في أول هذه القصيدة ما ينتظر من شاعر مثله في

الحب والجمال، ووصف هجر حبيبه وما يبعثه في نفسه من إحساس، ثم يتيقظ إلى ما أثاره هذا الحب في نفسه - مع الحرمان - وأنه وهبه ما كان مخبوءا عنه في أطواء نفسه، لا يعلم حتى هو بوجوده، وأن هذه الهبة لا يملكها الحبيب الهاجر، لذاته ولا لصاحبه، وأنها مغنم جليل يعوض عن المتاع والوجدان.

وندع العقاد نفسه يعبر عن هذه الأماني أدق تعبير حين يقول:

(إذا اعتلجت بالنفس عاطفة قوية أثارت رواكدها، واستفزت رواقدها، فانكشف للإنسان من نفسه ما لم يكن يعرف، واختبر من قواه وطباعه ما كان خافيا عنه، فصحح نظره في الحياة، وتغيرت بين يديه حقائق الأشياء فرآها كما ينبغي له أن يراها، لأن معرفة النفس مقياس معرفة الوجود، ومن أخطأ تقدير نفسه لم يصب في تقدير ما حوله، لأنه يقيس الأشياء بمقياس مختل مجهول

(والحب أقوى العواطف وأعمقها تفتيشاً في النفس. فهو ينبه فيها الإعجاب والعبادة والبغض والألم والغيرة والاحتقار والشفقة والقسوة، وكل ما تشتمل عليه من حميد الخصال وذميمها؛ فإذا وقف الإنسان على حقيقة نفسه، وقف على كل حقيقة يتاح له الوقوف عليها. وكان الجمال له معلماً يستفيد منه ما لم يعلمه الجمال نفسه، ومنعما يهبه ما لا يملك! كالشموس والأقمار التي تضيء للعين المنظورات، وهي بلا عين تبصر أو نفس تشعر.

فإذا خسر الإنسان في الحب غرضاً أراده، ربح منه غرضاً لم يرده، وكان ما جاءه من الربح عفواً أكبر مما توخاه عمداً)

وهذا القول نفسه دليل من أدلة اليقظة التي يبعثها الحب في نفس العقاد اليقظة (المركبة) التي تتيقظ وتعرف أنها تتيقظ في الوقت ذاته. وهذا نادر في النفوس وبين يدي ثلاثون مثالا على ما ذكرت على هذه الخاصة في غزل العقاد، بل لدي غزل العقاد كله يصدق هذا الكلام، ولكن حسبي المثالان السالفان، وإلى مقال آخر نستعرض الخصائص الأخرى هذا الاستعراض

(الإسكندرية)

سيد قطب

فتاوى شرعية

معضلات العصر

للأستاذ الجليل محمد بن الحسن الحجوي

وزير معارف الحكومة المغربية

تتمة

نص الجواب على الأسئلة الأشفودرية

جواب السؤال الثاني:

إن الذي يأخذ مرتباً كبيراً من الدولة الأجنبية سواء الذي في بلاده أو في بلاد مجاورة إن كان يتقاضى ذلك في مقابلة عمل يضر بأحد كالجوسسة أو الوسوسة أو خدمة مؤامرة أو إيقاد فتنة أو إي ضرر آخر بفرد أو بالأمة، فالمرتب حرام وسحت، والفعل المذكور مذموم وخيانة عظمى، والجاسوس ملعون ومعلوم حكمه في كتب الفقهاء فلا نطيل عليكم به. ومن أحكامه إباحة دمه حسب نظر الإمام وكما تقتضيه المصلحة، ما لم يؤد ذلك إلى فتنة أعظم فللإمام النظر فيه. وبالجملة إن السؤال عن المرتب وهو سحت وحرام فأن لم يكن في مقابلة ذلك بل كان لأمر اقتصادي أو مرتباً عمريًّاً في خدمة مشروع أو نحو ذلك مما لا ضرر فيه على أحد فلا شيء فيه

جواب السؤال الثالث:

. . .في الطرق الصوفية التيجانية أو غيرها . . .

إن هذا السؤال كان سألني عنه شيخ الإسلام المقدس المبرور سيدي احمد بيرم التونسي بذاته وكنت أجبته مشافهة بمحضر جمع من علماء تونس والجزائر ومنهم العلامة صفينا سيدي الحاج أحمد سكيرج، أحد عظماء الطريقة التيجانية الأعلام وهأنذا أكتب لكم ملخص الجواب الذي أجبته به بمحضرهم بمعناه: إن الطرق الصوفية تجانية أو غيرها، إنما حدثت في الإسلام لجمع قلوب المسلمين على إقامة الشريعة الغراء إقامة كاملة كافلة تطهير النفوس من الأخلاق الذميمة، وتحليتها بحلية مكارم

الأخلاق ضمن دائرة العمل بالكتاب والسنة والمحافظة على أنفاس العمر ألا تضيع في سفاسف الأعمال،
مع التراحم والتواد بين عموم المسلمين كما أشرت لهذا في كتابي (الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي) في الربع الثالث منه عند الكلام على تاريخ علم التصوف، وقد بسطته أتم بسط في كتابي (برهان الحق في الفرق بين الخالق والخلق) حيث تكلمت على الكثير من الطرق ومنها الوهابية
فكل طريقة وجدناها تخدم الإسلام بإخلاص سائرة على هذا المبدأ سيراً مستقيما فأنعم بها وأكرم؛ وكل طريقة حادت عن هذا المبدأ نبذناها نبذ المستقذرات وتبرأنا من عملها تبرؤ إبراهيم من أبيه. أن سيدي الوالد المقدس كان من أتباع الشيخ التيجاني - رحم الله الجميع - وكان يؤكد لي أن الشيخ كان يقول لأصحابه: زنوا كلامي بميزان الكتاب والسنة، فما وافقهما فخذوه، وما خالف فانبذوه. فنحن نعمل بوصية الشيخ ونزن ما ينسب إليه بعض الجهلة من أصحابه إليه الذين لا يفرقون بين النبي والولي ولا بين الخالق والمخلوق - بميزان الشريعة، ثم نفعل ما أمرنا به قدس الله روحه
وعلى هذا فالقولة التي شاعت وذكرها بعض المؤلفين منهم ونسبها للشيخ وذكر أنه وجدها بخطه وهي: أن صلاة الفاتح لما أغلق تعادل ستين سلكة من القرآن أو ثمانين. ثم جاء بعض المؤلفين منهم فزاد صفراً وقال ستمائة، ثم جاء محشيه وزاد صفراً ثانياً وقال ستة آلاف سلكة
نقول إنا عرضناها على الكتاب والسنة فلم نجد إلا ما يردها وينبذها لأنها تقتضي كناية وهي أبلغ من التصريح أنها أفضل من الصلاة الإبراهيمية التي صحت بها الأحاديث بل ومن القرآن أيضاً وأن كلام المخلوق أفضل من كلام الخالق (ولذكر الله أكبر) دعني من فرية أنها من الكلام القديم فمثل هذا لا ينطلي حتى على المغفلين ولا يلتفت إليه المؤمن بالله الذين يعلمون أن الوحي انقطع بموت النبي صلى الله عليه وسلم، وأن إلمامات المتصوفة والمرائي المنامية لا قيمة لها في الحجية عند كافة أهل العلم والدين المعتد بهم؛ والثواب على الأعمال ومقداره عند الله لا يدرك إلا بطريق الوحي الحقيقي ولسان النبوة الناطق؛ خلافاً للمعتزلة القائلين بالتحسين والتقبيح العقليين؛ وأن العقل يستقل بمثل هذا
ومن المكر الخفي والكيد للإسلام المنطوي تحت هذه المقالة تزهيد الناس في القرآن العظيم وفي تلاوته ثم الأعراض عنه إلى ما هو أخف عملاً وفي الميزان أثقل في زعمهم الباطل
وإني لأعجب لمسلم استنار قلبه بنور القرآن يقبل هذه المقالة الشنعاء في الإسلام فلا حول ولا قوة إلا بالله
لذلك إذا أحسنا الظن بالشيخ - كما هو شأن المسلمين مع سلفهم الصالح - واعتقدنا فيه الكمال، فلنكذب نسبتها للشيخ ونسترح، فإن الاشتغال بتأويل كلام غير المعصوم من العبث وتضييع الوقت. ثم لأن سند نسبة المقالة للشيخ واه من أصله لضعف سند الوجادة إن صدقنا من قال إن الخط خط الشيخ. وقد جرب المحدثون التغفل على الكثير من العباد والمتصوفة، لذلك ضعفوا رواية كثير منهم كما هو مقرر في فن المصطلح. كما أننا جربنا الكذب والبهتان والتغفل والبله على كثير من الأتباع لما يحملهم عليه التعصب الطرقي والتحزب المذهبي وحب انتشار الطريق، لأن ذلك من أساليب الارتزاق، واستغلال استبلاه المغفلين الجاهلين، يحببون إليهم الطرق بتكثير ثواب الأعمال وطرح المشاق وسهولة الوصول وتخفيف المسؤوليات أمام الله.
فيقولون للمريد: من عمل في طريقنا قليلاً كان له أكثر من الأجر الذي يكون لغيرنا بأضعاف. فإذا كان لمطلق المسلم ليلة قدر واحدة في السنة فالتجاني كل لياليه ليلة القدر. وإذا كان لغيرنا على الحسنة عشر حسنات فلنا آلاف الحسنات؛ وإذا كان غيرنا عليه حساب ومسؤولية أمام الله ثم عقاب، فنحن ندخل الجنة بغير حساب. نحن لنا سيد أحمد التجاني ضامن وهم لا ضامن لهم؛ وكل تجاني يحضر سيدي أحمد لقبض روحه. إلى غير هذا مما هو معلوم لدى كل من خالطهم، فيصورون له طريق التجانية بأجمل صورة يتصورها الوهم. فكأنها ورقة حماية من دولة لها سلطة عالمية، تعلى من يجير ولا يجار عليه، فكأنهم نسوا القرآن
فبهذا صارت الطريقة التجانية في نظر أهل العلم بالسنة والكتاب كأنها مسجد الضرار

ضد الإسلام
فالله يقول في نبيه خاتم النبيين، وهم يقولون في الشيخ التجاني هو الختم، وهو لبنة التمام للأولياء، فحجروا على الله ملكه وقطعوا المدد المحمدي وهم لا يبالون أو لا يشعرون، وحتى إن شعروا فالمقصد يبرر الواسطة؛ وإذا سمعوا أن النبي أفضل النبيين قالوا أن التجاني رجله على رقبة كل ولي لله بهذه العبارة الجافة من كل أدب والجارحة لعواطف
كل مسلم، لأن الولي في عرفهم يشمل النبي، إذ يقولون إن ولاية النبي أفضل من نبوته، ولا يبالون أن يكون أصحابهم أفضل من أبي بكر وعمر والعشرة المبشرين بالجنة الذين كانوا يخافون الحساب ولا يأمنون العقاب؛ ولم يكن عندهم بشارة النجاة منهما. إذ لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون
حكي لي بعض القضاة قال: كان في محكمتي تسعون عدلاً في البادية. وقد تقصيت الصالح والطالح منهم لأعلم مقدار ثقتي بهم في حقوق المسلمين فوجدت عشرين منهم متساهلين لا يؤتمنون على الحقوق؛ وحين دققت النظر في السبب تبين لي أنهم جميعاً تجانيون، فبقيت متحيراً حتى انكشف لي أن السبب هو اتكالهم على أنه لا حساب ولا عقاب بترصدهم فانتزع الخوف من صدورهم. كل هذا سببه الفساد الذي أدخله جهال الطريق عليها فأفسدوها وانعكس المقصود من الطرق التي كان يقصد منها ردع الخلق عن المعاصي والتوبة منها وزيادة خوف الله فصارت إلى أمن مكر الله، وإزالة مخاوف الآخرة من عقولهم فلا يبقى في قلوبهم ذرة من خوف الله وإنما تمتلئ بتعظيم شيخهم حتى تتراءى لهم عظمته فوق عظمة الله ورسوله
ومعتقدي في الطريق التجانية الحقيقية نزاهتها عن هذه الهذيانات وهذه الإباحة المقنعة إذ كان فيها فحول الدين وأساطين العلم، مثل أشياخنا: مولاي عبد الملك العلوي الضرير سيدي محرب التهامي الوزاني، سيدي الوالد المقدس، سيدي الحاج محمد بن محرب عبد السلام كنون، سيدي أحمد بن أحمد بناني. . . ومن قبلهم كسيدي إبراهيم الرياحي التونسي ومن قبله، ومن بعدهم ممن هم موجودون الآن وفر الله جمعهم ووفقهم للقيام بأحكام الطريق. وقد ذكرت في الفهرست وفي الفكر السامي تراجم جملة منهم. وكانوا سرج هدى في علوم القرآن والسنة والوقوف عند أمرهما؛ وحاشاهم أن يتمذهبوا بطريق تؤسس على ما يوهم خلاف عظمة الإسلام والشرع الإسلامي أو يرضوا بذلك وهم من هم علماً وديناً وورعاً وذباً عن الإسلام وغيرة عليه. ومنهم من كان يذكر هذه الزوائد علناً، ومنهم من أنفصل عن الطريق لأجلها كسيدي الفاطمي وغيره رحمة الله عليه
أما كتاب (جواهر المعاني) الذي ألفه أحد العوام من أصحاب الشيخ التجاني، فأخذ أكثره حتى الخطبة بلفظها من كتاب (المقصد الأحمدي) الذي ألفه قبل الشيخ التجاني سيدي محمد
ابن الطيب القادري في مناقب سيدي أحمد بن عبد الله معن الأندلسي، والمقصد الأحمدي قد طبع فبان عوار جواهر المعاني حتى الشعر الذي قيل في سيدي أحمد بن عبد الله أخذه بنفسه وجعله في الشيخ التجاني ونقل الفضول بلفظها، بل كل ما وصف به سيدي أحمد بن عبد الله جعله وصفاً لشيخه ظاناً أن اتحاد الاسم اتحاد للوصف. وذلك ما يدلك على براءة الشيخ التجاني من كل ما تضمنه الكتاب المذكور ومن أغلاط أدباء هذه الطائفة وغلوّهم المفرط أنهم جعلوا قانوناً لطريقتهم ضمنوه مختصراً على لهجة مختصر الشيخ خليل المالكي نسقاً وأسلوباً، وبينوا فيه الأحكام الخمسة من وجوب وحرمة وندب وكراهة وجواز كأنهم لم يسمعوا قوله تعالى (إن الحكم إلا لله)
ومن عجيب أمرهم أنهم جعلوا حكم الردة عن طريقهم أقسى وأهول من حكم الردة عن الإسلام
فإن من ارتد عن الإسلام تقبل توبته ولو تكررت: (إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا) الآية. أما من أرتد عن الطريق التجاني فلا تقبل توبته وليس له إلا الخلود في النار والموت على سوء الخاتمة، ويبقى عندهم ملحوظاً بتلك السمة، ولا مطمع في قبول توبته، ولو أناب ورجع لطريقهم. ويظن بعض أنه لو كانت لهم سلطة متمكنة لقتلوه وما استتابوه

فعملهم هذا يتخيل منه أن لهم برنامجاً خاصا يستدرج طريقهم لتصير ديانة مستقلة عن الإسلام. . . حكي لي أن محمد الأمين الشنقيطي لما ألف المختصر المذكور ظاناً أنه عمل عملاً عظيماً حميداً - جاء به إلى الأستاذ العارف سيدي العربي الموساوي ساكن زرهو، وهو من علماء هذه الطائفة الكبار ومقدميها الأخيار؛ فلما اطلع عليه وبخه توبيخاً عنيفاً قائلاً: أتجعلون طريقنا مسجد الضرار للإسلام؟ السنة تجمعنا والبدعة تفرق بيني وبينكم، أو ما هذا معناه. ولم يقدروا على إظهار هذا المختصر إلا بعد وفاة هذا السيد الجليل رحمه الله. وبعد موته وجد في تركته فسرقه من سرقه ونسبه لنفسه وطبع ونشر فكان موت الأكابر زلة الأصاغر

لقد وقع مثل هذا في الديانات تسلط عليها الجهلة فأفسدوها ظانين الإصلاح فكيف بالطرق؟

وهذه صورة مصغرة ترينا كيف وقع في الديانات حتى اختل نظامها وطمست أعلامها وهرمت بالقلب والإبدال الذي أشار إليه القرآن. . .

وإذا لم يتدارك هذه الطريقة علماؤها بحذف ما زيد فيها، وإبطال كل ما خالف القرآن والسنة ونبذ كل تأويل وتضليل فإنها تؤول للاضمحلال، إذا الإسلام أفاق من سكرته، ولم تعد أفكار أهله تقبل أدنى شيء يمس بجوهر أصول الكتاب والسنة أو يخالف العقل الصحيح

وتمسكوا أي تمسك بقاعدة أن الدين لا أمت ولا عوج؛ وهو ما بين دفتي المصحف والبخاري ومسلم وصحيح السنة من رواية العدول الثقات دون المغفلين الجاهلين، ورموا خلفهم كل ما خالف ذلك غير ملتفتين لتأويل المؤولين وتظليل المرتزقة المضللين

وإني على يقين أنه بانتشار التعليم الصحيح المؤسس على الأصول السابقة، تنكمش تعاليم المخرفين وتظهر رداءة نفوذهم المزوَّرة، فتنكشف صبغة نفوذهم المدبرة بإشراق شعاع شمس الكتاب والسنة والعقل الصحيح؛ فاجتهدوا في تعليم أولادكم الدين القويم قبل أن يسبق إلى قلوبهم أي تعليم آخر سواه؛ فهو يناضل عن حوزته لأن برهانه في نفسه: (وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا). (إن الله متم نوره ولو كره الكافرون) وعليكم سلام الله ورحمته من منبطه وجامعه معتذراً بقصوره وكثرة شواغله

(الرباط)

محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي الجعفري

تيسير قواعد الأعراب

لأستاذ فاضل

وذلك التكلف في نيابة المجرور عن الفاعل في نحو - مُرَّ بزيد - هو ما ذهب إليه جمهور النحاة. وهناك تكلفات أخرى فيه، منها أن النائب ضمير مبهم مستتر في الفعل، وبه أخذ ابن هشام وغيره

ومنها أن النائب ضمير عائد على المصدر المفهوم من الفعل، وبه أخذ ابن درستويه والسهيلي والرُّنديُّ

ومنها أن النائب حرف الجر وحده في محل رفع، وبه أخذ الفراء. وقد قال أيضاً بأن الحرف في محل نصب بعد الفعل المبني للفاعل في نحو - مررت بزيد - وهو عندهم مذهب في غاية الغرابة، لأن الحرف لا حظ له في الأعراب أصلاً، ولكنه عندنا مذهب يؤيد ما ذكرناه من أن مسألة الأعراب والبناء مسألة تقديرية، ويجعل ما ذهبنا إليه من الأعراب الظاهر في الحرف مذهباً قريباً سائغاً، لأنه أقرب من ذلك الأعراب المحلى الذي يتكلفه الفراء فيه

فالمذاهب في ذلك أربعة كلها متكلفة. ومذهبنا أن الجار والمجرور متعلق بالفعل، وتعلقه به في ذلك كتعلقه به في نحو - مررت بزيد - وإذا بطلت النيابة عن الفاعل في ذلك بطلت في غيره، ولا شيء في أن يكون لنا مفعول به منصوب ومفعول به مرفوع، ولا في أن يكون لنا مبتدأ مرفوع ومبتدأ منصوب، ولا في أن يكون لنا خبر مبتدأ مرفوع وخبر مبتدأ منصوب، فإن هذا كله لا يبلغ الأمر فيه أكثر من أن يكون مثل الفعل المضارع في رفعه ونصبه وجزمه، فهو فعل مضارع في جميع حالاته، مع أنه قد

تأثر في لفظه ومعناه بدخول عوامله عليه كما تأثر المبتدأ والخبر عواملهما، فليكونا مثل المضارع في ذلك، وكذلك غيرهما مما ذكرنا

متعلق الظرف وحروف الجر

- قسم النحاة هذا المتعلق إلى قسمين: متعلق عام كمتعلق - زيد عندك أو في الدار ويقدرونه - كائن أو استقر - وهو عندهم واجب الحذف، ويعربونه هنا خبرا الثاني متعلق خاص كما في نحو أنا واثق بك، وهو الخبر أيضا وترى جماعة أن المتعلق العام لا يقدر، وأن المحمول في مثل - زيد عندك أو في الدار - هو الظرف والجار والمجرور لا المتعلق. ونحن نرى أن الخطب في هذا سهل، وقد ذهب إلى مثل ذلك الرأي بعض النحاة، فهو رأي قديم معروف، وليس برأي جديد لهذه الجماعة

الضمير

ترى الجماعة إلغاء الضمير المستتر جواز أو وجوبا. فمثل - زيد قام - الفعل هو المحمول ولا ضمير فيه، فليس بجملة كما يعده النحاة، وهو مثل - قام زيد - ومثل - الرجال قاموا - الفعل محمول اتصلت به علامة العدد ولا يعتبر جملة، ومثل - أقوم ونقوم - الفعل محمول والهمزة أو النون إشارة إلى الموضوع أغنت عنه والجماعة هنا تناقض نفسها، فبينما ترى الاستغناء عن الضمير المستتر جوازاً أو وجوبا ترجع إلى تقديره في مثل - أقوم ونقوم - وتجعل الهمزة والنون دليلا عليه، ولا بد لها أيضا من تقديره في مثل - قم - بدون أن يكون هناك ما يدل عليه من همزة أو نون، وإذا رجعنا إلى التقدير في الضمير المستتر وجوبا فلنرجع إلى التقدير في المستتر جوازا من باب أولى، لأن جواز ظهوره فيه دليل على وجوده عند عدم ظهوره، بخلاف الضمير المستتر وجوبا، فأنه لا يجوز ظهوره كما يجوز ظهور الضمير المستتر جوازا وقد غفلت الجماعة عما يجب من ربط الخبر بالمبتدأ، فلم تقدر الضمير في مثل - زيد قام - مع أن الضمير هاهنا واجب التقدير لأجل ما يجب من هذا الربط في هذا المثال ونحوه

التكملة

وترى الجماعة أن كل ما يذكر في الجملة غير الموضوع والمحمول فهو تكملة، وحكم التكملة أنها مفتوحة أبداً إلا إذا كانت مضافاً إليها أو مسبوقة بحرف جر، ثم ذكرت أن التكملة تجيء لبيان الزمان أو المكان، ولبيان العلة، ولتأكيد الفعل أو بيان نوعه ولبيان المفعول، ولبيان الحالة أو النوع؛ وقد ظننت أنها بذلك جمعت كثيراً من الأبواب كالمفاعيل والحال والتمييز تحت أسم واحد وهو التكملة دون أن تضيع في ذلك غرضاً ونحن نرى أنها لم تفعل في ذلك شيئاً، فقد كانت هذه الأبواب يجمعها قديماً أسم الفضلة، فلم تفعل الجماعة إلا أن جمعتها تحت أسم التكملة، ثم قضى عليها ما بينها من خلاف أن ترجع إلى تفريقها في بيان اختلاف أغراضها، وكذلك يقضي بهذا التفريق اختلاف أحكامها وأحوالها، فكل واحد منها لابد له من باب تجمع فيه أحكامه، وتبين فيه أحواله، وهذا أوفى بضبطها من جمعها كلها في باب واحد تحت أسم التكملة، وليس هناك ما يدعو إلى جمعها في باب واحد. وقد حاولنا أن نجمع فيها مثل ما جمعنا في باب المبتدأ والخبر فوجدناها أبواباً مختلفة المعنى، متميزة الغرض، ولم نجد إلا أن نتركها على حالها

الأساليب

ذكرت الجماعة أن في العربية أنواعاً من العبارات تعب النحاة كثيراً في إعرابها وفي تخريجها على قواعدهم مثل التعجب فله صيغتان هما - ما أجمل زيداً، وأجمِلْ بزيد - فرأت أن تدرس أمثال هذه العبارات على أنها أساليب يبين معناها واستعمالها ويقاس عليها، أما إعرابها فسهل - ما أحسن - صيغة تعجب والاسم بعدها المتعجب منه مفتوح، و - أحسن - صيغة تعجب أيضاً، والاسم بعدها المتعجب منه مكسور مع حرف الجر

ونحن نرى أن هذا أعراب ناقص لا يبين معنى الجملتين، وأنه لا شيء في أن نختار من إعراب النحاة فيهما أقربه إلى الفهم وأدناه إلى تصوير المعنى المراد من اللفظ، فالصيغة الأولى - ما أحسن زيداً - ما فيها أسم بمعنى شيء أبتدئ به لتضمنه معنى التعجب، وأحسن فعل ماض، وزيداً مفعول به، والمعنى شيء عظيم أحسن زيداً. والصيغة الثانية - أحسن بزيد - أحسن فيها فعل أمر، وفاعله ضمير المخاطب، والجار

والمجرور متعلق بفعل الأمر، والمعنى أعجب بحسن زيد؛ فهذا إعراب تام عرف فيه موقع كل كلمة من هذا الأسلوب، وليس فيه ما يمكن أن تأخذه هذه الجماعة عليه وقد انتهت الجماعة بهذا من رأيها في تيسير قواعد الإعراب ثم سكتت عما وجه إليها من النقد، لأنها قد أخذت فيه بأمور لا يمكنها أن تدافع عنها. ولا أدري ما يسكتها عنا وقد ذهبنا في نقدها مذهباً يتفق مع غايتها في إصلاح قواعد الإعراب، ويذهب في ذلك إلى أكثر مما ذهبت إليه، ويقوض من القواعد القديمة ما لم تمن به من يوم أن دونها الأقدمون من النحاة

وسيكون ما ذهبنا إليه من ذلك فخراً جديداً للأزهر الذي تناسته وزارة المعارف في هذا الإصلاح الذي ظنت أنها تقدر بدون الأزهر عليه. وسيكون مذهباً نحوياً جديداً تباهي به مصر في عهد الفاروق نحاة البصرة والكوفة في عهد الرشيد والمأمون، ويقف به الأزهر مجدداً مجتهداً في النحو، وينفض عنه غبار التقليد الذي تراكم عليه حتى ناء به

وأما حظي من هذا المذهب فإني أدخره للمستقبل الذي يمكنني أن أصرح فيه باسمي، وآمن فيه على نفسي مما يمكن أن يصيبني بمخالفة المألوف في النحو من يوم خلقه وتدوينه، وأجد في الأزهر من يعنى بما جئت به من ذلك على خلوه من المآخذ التي أخذت بها جماعة وزارة المعارف، ومع هذا تجد هذه الجماعة من وزارة المعارف عناية بعملها، فتعرضه على رجالات العلم هنا وهناك، ولا يضيق صدرها بمخالفته للمألوف في ذلك العلم، وهذا أمر نحمدها عليه، وندعو الله تعالى أن يقرب ذلك اليوم الذي يأخذ فيه الأزهر بمثله

(أزهري)

ماضي القرويين وحاضرها

للأستاذ عبد الله كنون الحسني

- 2 -

ولم يصل الاشتغال ببقية العلوم الإسلامية بالقرويين إلى درجة الاشتغال بالفقه ولكنه لم يقصر عنها كثيراً؛ فكانت علوم الحديث والتفسير والأصول مما لم ينقطع تدريسه في الكلية في أي عصر حتى العصور المتأخرة. حين كان بعض هذه العلوم في بلاد أخرى لا يقرأ إلا للتبرك بسرده. وكانت هذه الدراسة مجال البحث والاستنتاج وفرصة المحاضرات القيمة في التربية والتهذيب، وحسبك أن تقرأ وصف مجلس من مجالس العلامة أبي القاسم العبدوسي الذي قضى التونسيون العجب منه في ذلك الوقت وأن تعلم أن ابن الصباغ أحد رجال هذه الجامعة أملى علي حديث: يا أبا عمير ما فعل النفير 400 فائدة

ومن ثبت أسماء النابهين في هذه العلوم وأسماء مؤلفاتهم تدرك مبلغ القيام الذي كان لأهل القرويين عليها. ونحن نذكر بعض البعض ممن نعرفهم ونعرف انقطاعهم في الكلية الذي تنقطع دونه الأطماع، ولا يمنعنا من التبسط في شرح ذلك إلا إرادة الإيجاز وخوف الإملال وهؤلاء مثل العالم الصوفي الجامع علي ابن حرزهم المتوفى سنة 550 والمتكلم أبي بكر السلالجي صاحب البرهانية في علوم الاعتقاد، كان يعد في طبقة أبي المعالي الجويني؛ توفى سنة 564، والمفسر المحدث ابن عبد الجليل القصري المتوفى سنة 615، والمفسر الأصولي أبي عبد الله المزدغي المتوفى سنة 655 والمحدث الرواية ابن رشيد السبتي المتوفى سنة 692، والعالم الصوفي الجامع الشيخ زروق المتوفى سنة 899، والحافظ أحمد بن يوسف الفاسي المتوفى سنة 1021، والحافظ أبي العلاء العراقي المتوفى سنة 1183 والمفسر المتكلم الشيخ الطيب ابن كيران المتوفى سنة 1227

ولا ننس أن ننبه إلى ما كان لعلوم القراآت من شأن كبير في الكلية فقد كانت العناية بها شديدة في كل عصر، وكان يتخصص فيها كثير من العلماء فضلا عن مشاركة جمهورهم فيها، لأن أوائلها كانت تتلقى في الكتاتيب القرآنية التي ما كان يتولاها إلا كبار الأساتذة المتحققين بتلك العلوم وغيرها. تأتي هي الثانية بعد الفقه في برنامج العلوم التي كانت تدرس في القرويين وفي جميع المغرب. ويكفيك أنه كان لطلبتها مدرسة خاصة بهم هي

مدرسة السبعيين (أي القراء بالروايات السبع) الواقعة بازاء مدرسة الأندلس والتي كانت قد درست معالمها وأغلقت منذ مدة ثم هي الآن قيد الإصلاح والترميم.

ومن نبغاء خريجي القرويين في هذه العلوم ميمون الفخار صاحب التحفة والدرة وغيرهما المتوفى سنة 716 وابن بري صاحب الدرر اللوامع المتوفى سنة 731 والخراز صاحب مورد الظمآن المتوفى سنة 818 وسواهم كثير.

وأما علوم اللغة والأدب فقد ظلت الكلية رافعة رايتها منذ انبثاق فجر النهضة العلمية في المغرب على عهد المرابطين إلى يوم الناس هذا. ومر عليها زمن لم يكن ينافسها معهد آخر أيا كان في أداء رسالة الأدب العربي والقيام على حفظ تراثه من الضياع، وذلك حين يقول الشيخ محمد بيرم الخامس في كتابه (صفوة الاعتبار): (لعمري أن صناعة الإنشاء في الدولة باللغة العربية كادت تكون الآن مقصورة على دولة مراكش) ولقد درج في الكلية من فطاحل علماء اللغة وكبار أهل الأدب ما بقي فخراً لها على مر السنين والأعوام، مثل الشاعر الأديب يحيى بن الزيتوني الذي قهر ابن زيدون في بلاط ابن عباد، والشاعر الباقعة ابن حبوس الفاسي، والعلامة ابن رقية من ذرية المهلب ابن أبي صفرة كان حجة في الأدب وله كتاب في الشعر والأنساب توفى سنة 606هـ. والشاعر المشهور أبي العباس الجراوي الذي يعد من مفاخر هذه العدوة، وصاحب كتاب صفوة الأدب وديوان العرب المعروف بالحماسة المغربية الموجود مختصره في مكتبة بالأستانة توفى سنة 609 بعد وفاة المنصور الموحدي مخدومه بنحو 14 عاماً خلاف قول ابن خلكان أنه توفى في آخر أيامه. والشاعر الفيلسوف أبي العباس الجزنائي الذي كان محفوظه من شعر المحدثين فقط عشرين ألف بيت. توفى سنة 479؛ والنحوي أبي عبد الله بن آجروم المشهور المتوفى سنة 723؛ والنحوي اللغوي أبي زيد المكودي المتوفى سنة 807 والنحوي أبي العباس القدومي المتوفى سنة 992، والأديب الشاعر الناثر عبد العزيز القشتالي، مفخرة المغرب في عصره، المتوفى سنة 1032؛ والنحوي محمد المرابط الدلائي المتوفى سنة 1089؛ والشاعر الأديب أبن زاكور شارح الحماسة والقلائد وصاحب كثير من الكتب الأدبية القيمة المتوفى سنة 1120؛ والشاعر الرقيق ابن الطيب العلمي صاحب الأنيس المطرب المعروف المتوفى سنة 1134؛ وإمام أهل اللغة في عصره أبي عبد الله محمد بن الصميلي صاحب الحاشية الفريدة على القاموس الذي استقى منها كثيراً السيد مرتضى صاحب (التاج)، وعنه يعبر بشيخنا وله عشرات الكتب غيرها في اللغة والأدب توفى سنة 1170، إلى غير ذلك. . .

بقى الكلام في العلوم الفلسفية بمعناها القديم الذي يشمل الرياضيات والطبيعيات ومنها نوعان لهما ماض زاهر في الكلية، فمنذ انضمام الأندلس إلى المغرب في أيام المرابطين، جعل الاحتكاك بأهل الجزيرة يفعل فعله في توجيه أنظار أهل هذه البلاد إلى الأخذ بأسباب تلك العلوم، وكان أن انتقل إلى هنا - بانتقال الدولة - كثير من علمائها المتحققين بأجزائها فتهافت عليهم طلبة القرويين يقتبسون من مشكاتهم ويأخذون بأدواتهم فما لبثوا أن شاركوهم في جميع تلك التعاليم ونظروا إليها نظرتهم ونبغ منهم أفراد كثيرون كان لهم قياس (حس) على فنون من العلم الطبيعي والرياضي والإلاهي وآثار جميلة في جميع ذلك وما برحوا عاملين على بثها ونشرها والتواصي بتبليغها وتلقينها لمن يأتي بعد جيلاً فجيلا حتى تأدت بقية منها إلى العصر الحاضر في مظهر من البلى والقدم لا يُرضي أنصارها ومحبيها وإنما كان ما تحت ذاك المظهر لا يزال يحوي كثيراً من الفوائد القيمة والحقائق العلمية الثابتة

فمن رسل الثقافة العلمية من أهل الأندلس إلى المغرب أبو بكر ابن باجة الفيلسوف والعالم الطبيعي والرياضي والطبيب والموسيقار المشهور، وأبو العلاء بن زهر الطبيب البارع المدقق في شتى الأمراض، وابنه أبو مروان صاحب كتاب التيسير في المداواة والتدبير، والذي أثر تأثيراً بليغاً في الطب الأوروبي بترجمة كتبه وهو ميت فكيف يكون تأثيره في المغرب وهو حي؟ وأبو بكر ابن طفيل الفسكسي والطبيب والفيلسوف المشهور صاحب قصة حي بن يقظان وأبو الوليد بن رشد الذي ما أثر تأثيره أحد في نهضة العلوم بأوربا. وقد كان في بلاط الخليفة الموحد يوسف ابن عبد المؤمن الذي بلغ في رعايته وإكرامه وهو الذي حمله على شرح كتب أرسطو وتلخيص فلسفته ومن الأفراد النابغين في هذه العلوم من أبناء البلاد الذين درجوا من الكلية وتخرجوا فيها العلامة أبو الياسمين كان فرداً في العلوم الرياضية من هندسة ونجوم وعدد، وله أرجوزة في الجبر قرأت عليه بأشبيلية سنة 587 وكان هو الذي نشر ذلك العلم بها.

ويوسف بن مأمون الإسرائيلي الطبيب والرياضي الكبير قرين موسى بن ميمون وصاحبه بمصر
واجتمع هو وإياه على إصلاح ابن افلح الأندلسي. وهذا وان لم يدرس بالقرويين فإن تخرجه على يد علمائها لأنه من أهل فاس وبها درس كما يقول ابن القفطي. وابن البناء العدوي، العلامة الرياضي والفلكي والطبيب المشهور له موضوعات كثيرة في الحساب والجبر والفلك وغير ذلك وتفوق على كثير من علماء الرياضة قبله سواء في الشرق أو المغرب وخاصة في حساب الكسور، توفى سنة 721؛ وابن أبي الربيع اللجائي العالم الرياضي الفلكي المبدع له أعمال متفوقة وآلات نافعة في علم الهيئة، وكانت وفاته سنة 773 والعلامة الجادير صاحب روضة الأزهار في علم الهيئة المتوفى سنة 818؛ وأبي الفديم الوزير الطبيب والعالم النباتي المشهور صاحب مدينة الأنوار في شرح ماهية العشب والأزهار، وكان طبيب المنصور الذهبي الخاص. وأبي القاسم الغول العالم الرياضي والطبيب مؤلف كتاب حافظ المزاج ولافظ الأمشاج المتوفى سنة 1059 وابن حميدة المطرفي صاحب المقرب في الهيئة المتوفى سنة 1001، وأبي سليمان الشروداني الفيلسوف والرياضي البارع له أعمال وآلات لم يسبق بها في الفلك توفى سنة 1095 وعبد الرحمن العبابي العلامة الطبيعي والرياضي والفيلسوف مؤلف الأنتوم في مبادئ العلوم تكلم فيه على زهاء (150) علما واستوعب نظرياتها واستوفى حدودها فهو من الموسوعات العظيمة الفائدة توفى سنة 1096، وعبد الوهاب أدران الطبيب المدقق صاحب الذيل على أرجوزة ابن سينا وغيره من الكتب الموضوعية المتوفى سنة 1159، وعبد القادر بن شقرون صاحب الشقرونية وغيرها في الطب، وكثير غير هؤلاء لم نشر إلى أسمائهم اختصاراً لحصول المقصود من الرسالة على ما قامت به هذه الجامعة في الماضي من نشر الثقافة العلمية وتأدية رسالة العربية كما حملت. ولهذا لا يستغرب أن يؤمها الطلبة من أقصى بلاد أوربا وغيرها، فهناك في تلك العصور التي يدعونها عن حق - بالعصور المظلمة - لم يكن قد تقرر للعلم مدلول بعد. وقد اشتهر كثير ممن درس فيها من الأجانب وكان لهم تأثير قوي على العقلية الأوربية في ذلك الحين، ومن أعظمهم البابا سلفستر، الذي هو أول من أدخل إلى أوربا الأعداد العربية التي لا تزال مستعملة في المغرب إلى الآن وتعرف بحروف (الغبار) أو (بالغباري) بدون إضافة
ثم إن نظام الدراسة في القرويين لا يختلف عما هو عليه في الجامعات الإسلامية الأخرى،
كما لم يختلف عما كان عليه منذ الأزمان المتطاولة: يجلس الأستاذ فيحلق عليه الطلبة ويأخذ في إملاء درسه الذي يكون في الغالب تفسيراً لمتن وتقريراً لأقوال شراحها ونظراً فيما بينها من الاختلاف، وقد ينجر به الحديث إلى الخروج عن الموضوع، إنما إذا كان ضليعاً في مادته واسع الاطلاع عظيم المحفوظ فلا خوف على الطالب من ذلك الخروج، بل أنه ليستفيد منه ما لا يقدر أن يجده في كتاب أو يهتدي إليه بمجرد فهمه وإذا كان الطالب ممن لازم الحضور بمجلس أستاذ ما، وظهرت عليه مخايل النجابة فانه يحق له أن يتقدم إلى ذلك الأستاذ بطلب إجازة تكون - كأنها أهم ما أنشأه في حياته الدراسية - بمثابة أطروحة منها تتقرب منزلته في التحصيل
(يتبع)
(طنجة)
عبد الله كنون الحسني
رسالة الشعر
مَيّ
للأستاذ إبراهيم العريض
وَلما تفيَّأنا ظِلاَلَ خَمِيلَةٍ ... تُساَقِطُ مِثْلَ الدُّرِّ فوق خُطاناَ
وحدَّثتُهاَ بالْحُبِّ وَهْيَ مُصِيخَةٌ ... عَلَى أَمَلٍ أن تلتقي شفَتاناَ
أشاحتْ إلى الأزهارِ عنِّي بوجهِها ... دَلاَلاً وقالَت لي كفَى هَذَياناَ
أَتأملُ مني أن أُصَدِّقَ بالهوَى ... جُزافاً. وطرْفي لا يراهُ عياَناَ
فقلتُ لها يا مَيُّ ما الروضُ ناضِراً ... ولا الطيرُ أحلى ما يكونُ لِساناَ
بِأحْسَنَ من خَدٍّ تَوَرَّد في الصِّبا ... وأعْذب من ثغر يفيضُ بيَاناَ

لقد كانَ أَولى أن نمتِّعَ بَعضْنَا ... بأَنظارِ بعْضٍ في جُنونٍ صِباناَ
وَما قِيمةِ الأزْهَارِ في جانِبِ الهوى ... أَليسَ الهوَى يا مَيُّ أعظَمَ شاناَ
أَناشِدُكِ الْحُبَّ الذي عَهْدُنا بهِ ... سوِيّاً كأَخْفَى ما يكونُ مكاناَ
ألم تَشْعُري شيئاً تمثَّلَ بيْنَناَ ... لأَوَّلِ عهدٍ تمَّ فيهِ لِقاناَ
أَبعْدَ تعاطِينا مَعاً كأسَ أُلْفَةٍ ... يجوزُ لنا ألاَ نحِسَّ صَداناَ
فماَلكِ تَسْتَعْدِين قلبي عَلَى الهوَى ... كأَنَّكِ ما شاطرْتِهِ الخفَقاناَ
تعالَيْ إلى عَهْدٍ وَثيقٍ من الهوَى ... نعِيشُ عليهِ في الْحَياةِ كلاناَ
فلا يَرْدَهِي قلبي بِشَيءٍ مُؤَمّلٍ ... إذا لم يُصَادِفْ في فُؤَادِكِ شاناَ
ونُفرِغُ في كأسِ الأمانِيّ حُبَّناَ ... فتَسعَى بِهِ ما بيْنَناَ شفَتاَناَ
وَلا تْلتَقِي إلا كما لَقَّتِ الصَّبا ... فُروعاَ تفيَّأنا بِهن أَماناَ
ونختالُ في رَوْضِ المحبَّةِ وَحْدَنا ... فلا يتَغَنّى طَيْرُها لِسِوَانا
وإن تَعْهَدِي يَوْماً فؤَادَكِ خافِقاً ... شَعَرْتُ لقلبِي مِثْلَهُ خفَقاناَ
كأنَّ الذي ينساَبُ مِلءِ كِليْهِماَ ... صُباَبَةُ ما سَاقي الغَرَام سقاَناَ
وآناً نُبَكِّي كالطّيُورِ وُجُودَنا ... بِلحْن وكالأزْهارِ نَضحَكُ آناَ
فنُسْعِد بعضاً باشتِرَاكِ سُرُورنا ... ونُسْعِد بعضاً باشتِرَاكِ أساَناَ
كذلِكِ نحْياَ بالسَّوَاءِ وَها فَمي ... ضَماناً لعَهْدٍ لو أَرَدْتِ لكاناَ
فَعِنْدَئذٍ مالَتْ إليَّ ببِشْرِها ... فأيْقَنْتُ أنّا شَيِّقاَنِ كِلاناَ
فأَدْنَيْتُ ثَغرِي باشْتِياقٍ لِثَغْرِها ... فما افتَرَّ حتَّى قَبَّلَتْهُ حَناناَ
وقالت (إذاً هَذَا هُوَ الْحُبُّ) قلتُ (لا ... بَلِ الراحُ) قالت (فَلْنَبُلَّ صَدَاناَ)
(البحرين)
إبراهيم العريض
أنا ما لي. . .
للأستاذ صالح جودت
تركَتْني في اعتلالي ... وَرَمَتْني لليالي
بعدما أشهدْتُها القل ... بَ فقالت: (أنا ما لي!)
أنتِ يا مَنْ أرسلُ الدم ... ع إليها. . . وهو غالِ
أنا ما آمنتُ قب ... لك يوماً بالجمالِ
وأنا بالسحر والفت_نة ما كنتُ أبالي
ذهب الحبُّ بنفسي ... ووقاري وجلالي
!أيّ خَطْبٍ عندما تدْ ... مَعُ آماق الرجال
أَنتِ يا مَنْ أسأل الأيَّ ... امِ عنها والليالي
!ليتها تستشعر القس ... وَةَ في ذُلِّ السؤال
تركتني في اعتلالي ... لم يَرُعْهاَ سوءُ حالي
فتضرعتُ إلى اللي ... ل بقلبٍ غيرِ سالِ
قلتُ يا ليلُ أما عن ... دكَ من طَيفِ خيال؟
رَقَّ قلبُ الليل حتى ... بَعَثَ الطيفَ حيالي
فتمنيتُ عليه ... بشحوبي وهزالي
إن رَأَى رَبَّتَهُ قَ ... صَّ عليها ما جرى لي
فانثَنى عني ملالاً ... وَتَوَلَّى في دلال
بعد ما ردد ما يح ... فظ عنها: (أنا ما لي!)
قلتُ لله وقد قَ ... لَّ مع الدنيا احتيالي
أأنا يا رَبِّ عبدٌ ... لك لم يخطرْ ببال؟
وإذا ضَلَّ فؤادي ... أفيعييكَ ضلالي؟
وإذا ضاقَتْ بيَ الأر ... ضُ فهل تأبى احتمالي؟
آه لو قلت كما قا ... ل حبيبي (أنا ما لي!)
حسناء في بحر الروم
للأستاذ محمود عماد
عومي على الماء يا أَصفَى من الماءِ ... ثم ارسبي فيه ضوءًا طيَّ أضواءِ
واستقبلي موجَهُ يُقبلْ على عجل ... إليكِ موجُ المحيطِ الهادئ النائي

يا فرحةَ البحر تَسْرِى في جوانبه ... ووحشةَ البرِّ أقوَى أَيّ إقواءِ
سَلِي الأجاجَ أَلَم يفقدْ ملوحتَهُ ... وأنتِ مطويّةٌ منه بأطواءِ؟
كم من قلوب عليكِ اليوم حائمة ... لا تغرقيها إذ ما غبتِ في الماءِ
كذا أظلتْ سليمانَ الطيورُ فهل ... أتاكِ هدهدُكِ الوافي بأنباءِ؟
أم أنتِ (فينوس) تُجلَي من محارتِها ... في يوم ميلادها الثاني إلى الرائي؟
هاتي قصاراكِ من حُسنٍ ومن مرح ... واعلِي على كل تشريع وإجراءِ
فعالَم البحرِ يَرْعَى شرعةً وسطا ... ما بينَ عالم أشباحٍ وأحياءِ
تجردَ الجسمُ فيه من كثافتهِ ... وهام كالطيفِ في ماءٍ ولألاءِ
لم أدرِ ما الأرضُ لولا البحر لطّفها ... ولا الحياة بلا لهوٍ وإغراءِ

لحن جديد

للأستاذ فريد عين شوكه

أَسْلَمْت لِلْقَدَر الرَّضِيِّ يميني ... فحناَ ولم يُخْلِف عليَّ ظُنُوني
وَمَضى فَوَافَى بي إلى سِيفِ المنَى ... فَلَثَمْتُ طهْر ترابه بجبيني
وَعَبَأْتُ أحشائي بطيبِ نَسيمه ... وكَحَلْتُ بالنُّور السنِيِّ جُفوني
وَسَعَيْت في جَنَباتِه أشكو لها ... عَبَثَ النَّوَى وأبثُّهُنَّ حنيني
يا طالماَ أَمَّلْت حُلوَ لقائه ... فتحَطَّمت دون اللقاء سَفِيني
وظلِلْتُ في بحرِ الحياة مُغالِباً ... موجاً يثور عليَّ كالمجنونِ
ما كان أضعفني حِيالَ كِفاحِهِ ... لولا المنَى بَرِقَتْ فجنَّ جُنوني
لولا الأمانيُّ العِذابُ وَسِحْرها ... ما عاش هذا الكونِ بِضْع سِنينِ
يا مَشرقَ الأمَل الرَّغِيبِ الْمُشْتَهَى ... لا زال فَيْضُ سَناكَ مِلْء عُيُوني
لازلْتَ تُسْعِدُني بكل رَجِيَّةٍ ... تَجلُو الأسى عن قلبيَ المحزونِ
بَدِّدْ ظَلاَم اليأس بينَ جَوَانحي ... وَارْدُدْ عليَّ الْبِشرَ غيرَ ضنِين
وانشُرْ شُعاَعاتِ الرِّضى في خاطِرِي ... تُسْكِنْ نَوَزِايَ ثَوْرَتِي وَشُجُوني
ما أَفْسَدَ الأيَّامَ يغمرها الأسى ... فتضيع بينَ شكايةٍ وَأنينِ
يا قَلْبُ وَافَتْكَ المنَى بَسَّامَةً ... كالْبَدْرِ يَسْطَعُ في الليالي الْجُونِ
فَتَحَتْ ذراعَيْها إليكَ وَأَقبَلتْ ... فَتَّانَةً تسعَى إلى مَفْتُونِ
صَفِّقْ لها يا قلبُ بَعْدَ صَبابَةٍ ... وَاطْفِرْ بها يا قلبُ بَعْدَ سكونِ
وَاغْنَمْ لذاذَتَها وَعُبَّ رَوِيَّها ... عَبَّ الظِّماءِ وَرَدْن خير مَعَينِ
وَدِّعْ حياةَ الزُّهد فهي ثقيلَةٌ ... كالسجْنِ أَعْبَاءٌ على المسْجُونِ
وَانْعَمْ فأيَّام الحياةِ عزيزة ... إن وَدَّعَتْ أرخَصْنَ كل ثمين

البريد الأدبي

بيننا وبين لجنة إنهاض اللغة العربية

أرسل ألينا صديقنا الأستاذ أحمد أمين هذا الكتاب جواباً عما سأل (سائل) في (البلاغ) وفي (الرسالة) ننشره ثم نعقب عليه:

أخي الأستاذ الزيات

سلام عليكم ورحمة الله

قرأت في مجلة الرسالة سؤالاً موجهاً إلى لجنة إنهاض اللغة العربية يسأل صاحبه لِمَ لم تقرر اللجنة كتب الأستاذ الزيات

ورداً عليه أقول: إن اللجنة لم تفتها كتب الأستاذ كتبت فيما كتبت للوزارة:

إن للأستاذ الزيات كتابين في مستوى الطلبة هما آلام فرتر ورفائيل، وهما من خير الكتب من حيث دقة الترجمة وجزالة الأسلوب ونصاعة التعبير وقوة البيان - ولكن آلام فرتر موضوعه حب هائم ينتهي بانتحار فضيع. ورفائيل رسائل غرام بن شاب وامرأة متزوجة

ولم نرى من الخير أن توضع أمثال هذه الكتب في أيدي الطلبة لناحيتها الأخلاقية لا لناحيتها البلاغية، ولو فعلنا لخالفنا ضمائرنا وهاج علينا أولياء أمور الطلاب بحق

أما كتاب (في أصول الأدب) فقد منعنا من اقتراحه عدم الوحدة في موضوعه واشتماله على مقالات فوق مستوى الطلبة

فهل يرى السائل بعد هذا البيان أن اللجنة تجنت على الأستاذ الزيات أو غمطته حقه في الأدب أو مست شيئا من مكانته في علو البيان؟

لا شيء من ذلك ولكنه الحق قدمته على كل اعتبار. وهل يطالب المرء بأكثر من أن يعمل وفق ما يعتقده من حق؟
أما ما وراء ذلك من لمز بأننا تملقنا الرؤساء وقصرنا اختيارنا على مؤلفات من نرجوهم أو نخشاهم فإننا نعرض عن الرد عليه والخوض فيه، فقد التزمنا في الحياة أن تصم آذاننا عن السباب وما يتصل به. والسلام عليكم ورحمة الله
17 - 8 - 938
أحمد أمين
ذلك هو جواب الأستاذ أحمد أمين عن أسئلة (سائل). والذي يعرف الأستاذ أحمد أمين ويعلم أن أخص ما يميزه حياة الضمير وسلامة المنطق، يدرك ما كابده الأستاذ من الجهد في إقناع نفسه بهذا الجواب. فإن (آلام فرتر) كتاب عالمي قرأه ولا يزال يقرأه ملايين من الفتيان والفتيات في جميع أمم الأرض، ولم نعلم أن أمة من هذه الأمم حضرته على الطلاب لأن (موضوعه حب هائم ينتهي بانتحار فظيع). وقد ترجم إلى العربية منذ ثمانية عشر عاماً، وأعيد طبعه سبع مرات، وقرأه كل مثقف في بلاد العروبة، ولم نسمع أن حاثة من حوادث الانتحار اليومية قد وقعت بسببه. وماذا يكون مصير التعليم والتمثيل إذا طبقنا عليه مثل هذا المبدأ على مآسي النوابغ في كل أدب؟. على أن فرتر مثال العفة والإخلاص والإيثار والتضحية، فلا يمكن أن يعاب من جهته الأخلاقية؛ والأستاذ أحمد أمين نفسه حين ألف كتابه (الأخلاق) قد اقتبس صفحة منه وعزاها إليه
أما (رفائيل) فحبه حب عذري صوفي لا نجد له مثيلا في الكتب ولا في الطبيعة. فهل يرى الأستاذ أن الحب جريمة وإن لم يجُرُّ إلى معصية؟ إن كان ذلك رأيه فلم لم يحضر القرآن على طلاب المسلمين لأن فيه (سورة يوسف)، والتوراة على الطلاب النصارى واليهود لأن فيها (نشيد الأناشيد)؟
لا أدري كيف قال الأستاذ: (ولم نر من الخير أن توضع أمثال هذه الكتب في أيدي الطلبة لناحيتها الأخلاقية لا لناحيتها البلاغية، ولو فعلنا لخالفنا ضمائرنا وهاج علينا أولياء أمور الطلبة بحق) فهل نسي صديقنا الأستاذ أحمد أمين أنه رئيس (لجنة التأليف والترجمة والنشر) وأنه هو نفسه الذي قرر طبع هذين الكتابين على نفقتها، وأنه هو نفسه الذي طلب إلى وزارة المعارف أن تشتري منهما لمكتبات مدارسها فاشترت؟
بقي الكتاب المسكين الثالث (في أصول الأدب)، وهذا الكتاب هو مجموعة مبتكرة من المحاضرات والمقالات تدور كلها حول الأدب وأصوله وقواعده. فليت شعري ماذا يريد الأستاذ بوحدة الموضوع الذي لم يجدها فيه؟ نحن لم ندع أنه قصة، ولم نقل أنه كتاب في موضوع معين. إنما هو بحوث نشرناها مفردة ثم جمعناها تحت وصفها العام كما فعل العقاد في (المطالعات)، والمنفلوطي في (النظرات)، والبشري في (المختار).
ثم ما هذا المستوى الذي وضعه الأستاذ للطلاب وجعل فوقه (في أصول الأدب) وتحته (ضحى
الإسلام)؟ وهل يصعب على الطالب الذي يفهم ضحى الإسلام لأحمد أمين، وابن الرومي للعقاد، أن يفهم (في أصول الأدب) وأكثره مقرر على طلاب السنة التوجيهية حتى لم يجد المعلمون والطلاب في العام المنصرم مرجعاً غيره في هذا المنهج؟
الحق أن أسئلة (سائل) لا تزال تطلب الجواب، وأن اضطهادنا في وزارة المعارف يرجع إلى أسباب غير هذه الأسباب. .
الزيات
الثقافة النسوية واللغة العربية
أصدر صاحب المعالي وزير المعارف القرار التالي:
بعد الإطلاع على القرار الوزاري الصادر في 14 سبتمبر سنة 1931 بإنشاء معهد تربية للبنات به قسم للتخصص في اللغة العربية. وبناء على ما تجمع لدينا من معلومات بشأن هذا القسم وأنه في حاجة إلى رفع مستواه وإلى أن تكون فيه دراسة الدين والثقافة الإسلامية اللذين يتصلان اتصالاً وثيقاً باللغة العربية عنصراً مهماً بين مواد الدراسة، ورغبة في إعداد مدرسات لا تقتصر قدرتهن على التدريس في المدارس الابتدائية، وبناء على ما عرضه علينا وكيل الوزارة - قررنا ما يأتي:
المادة الأولى - ينشأ قسم بإحدى المدارس الثانوية للبنات بالقاهرة يسمى (قسم اللغة

العربية الثانوي) تكون مدة الدراسة فيه ست سنوات تدرس التلميذات به في السنوات الأربع الأولى مواد الثقافة العامة على حسب منهج التعليم الثانوي للبنات مع مزيد عناية باللغة العربية والثقافة الإسلامية، وفي السنتين الأخيرتين توجه الطالبات توجيهاً كاملا في اللغة العربية وموادها وفي الثقافة الإسلامية

المادة الثانية - تؤلف لجنة لوضع المناهج التي يستلزمها إنشاء هذا القسم

المادة الثالثة - تعد مناهج انتقالية لشعبة اللغة العربية بمعهد التربية الحالي بالسنتين الأولى والثانية تسير عليها الدراسة في بدأ العام المقبل بحيث تكون هذه الدراسة متجهة إلى الغاية التي تنشدها الوزارة من التخصص في اللغة العربية والثقافة العربية تاريخ الأدب المقارن في دار العلوم

رأى معالي وزير المعارف عند بحث مناهج القسم العالي لدار العلوم على أساس تنظيمها الجديد أن ضروريات الثقافة العربية لا تقتصر على دراسة الأدب العربي في كل عصوره، بل تشتمل دراسة الآداب الأجنبية الحديثة والإلمام بكيفية تدرجها في الممالك المختلفة ووجوه الاختلاف بينها وبين الأدب العربي من حيث الخيال وطرائق التصوير وروح الأسلوب وإرجاع ذلك إلى أسبابه من آثار البيئة واختلاف المواطن وقوة العقلية. وتحقيقاً لاستكمال هذه الغاية أشار معاليه على المختصين بإضافة دراسات أدبية من هذا النوع إلى مناهج الأدب بهذا المعهد، على أن تشمل فضلا عن الجانب التاريخي والدراسة المقارنة دراسة أخرى لتاريخ بعض البارزين من أدباء إنجلترا وفرنسا وألمانيا وروسيا في العصر الحديث وبعض البارزين في الممالك الأخرى التي اشتهرت بازدهار الأدب فيها

هذا وقد روعي في العمل بهذا الرأي ما لوحظ من أن القراءة الغربية لها أثر كبير في إنهاض اللغة العربية إذا ما كان القارئ ذا ثقافة عربية أصيلة وذا سيادة شخصية وطابع خاص في تقبله لمختلف الآراء والمذاهب

على أن فائدة هذا التوجيه الأدبي الجديد تكون في صورة أجلى وأوضح إذا ما راعينا أن أستاذ اللغة العربية الذي تعده وزارة المعارف للمستقبل يجب أن يكون من كافة النواحي كامل الثقافة حتى يحتفظ بهيبة الشخصية أمام تلميذه الذي يلم ولو بنزر يسير من الآداب الغربية

قرار جماعة كبار في قضية فلسطين

اجتمعت جماعة كبار العلماء بالجامع الأزهر يوم الخميس 22 جمادى الثانية سنة 1357 الموافق 18 أغسطس سنة 1938، واستعرضت حالة فلسطين وما يجري فيها من التصادم، وأسفت أشد الأسف لهذه الحالة التي هي بلا شك نتيجة للسياسة التي انتهجتها حكومة الإمبراطورية البريطانية نحو هذه البلاد وبخاصة سياسة التقسيم التي يراد فرضها على بلاد عربية إسلامية ذات ذكريات عند المسلمين لم تغب بعد عن أذهانهم، والتي من شانها تصبغ بلاداً عربية إسلامية صبغة أخرى بطريق لا مبرر له، ومن شأنها أن تؤثر في علاقات الأمم الإسلامية بحكومة الإمبراطورية البريطانية تأثيراً سيئاً

لذلك قررت جماعة كبار العلماء ما يأتي:

1 - تحتج على استمرار هذه السياسة وعلى مشروع التقسيم على أية صفة يجري عليها التقسيم والمطالبة بأن تبقى للبلاد صفتها العربية الإسلامية وأن يحافظ على كيانها القومي

2 - تدعو جماعة كبار العلماء زعماء بلاد الإسلام إلى التكاتف واتخاذ ما يرونه مفيداً من الطرق للمحافظة على بلاد فلسطين، وعلى إيجاد حل ينهي هذه الحالة السيئة ليسود السلام بين الأمم

3 - تدعو جماعة كبار العلماء المسلمين إلى تذكر قضية فلسطين ليلة المعراج وأن يتوجهوا إلى الله سبحانه في تلك الليلة بأن يحفظ هذه البلاد مما يراد بها، وأن يحفظ الآثار المقدسة من الأخطار القريبة والبعيدة

وقررت إبلاغ هذا إلى الجهات المختصة بواسطة حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء بالنيابة

احتجاج مسلمي الهند على كتاب للمستر ولز

روت جريدة الديلي اكسبرس أن المسلمين الهنود أعضاء جمعية الشبان المسلمين

في لندن اجتمعوا أمس واحتجوا على فقرة واردة في كاتب ألفه المستر هـ. ج ولز الكاتب الإنجليزي وعنوانه (مختصر تاريخ العالم). وقد تكلم خطيب بعد آخر قائلين أن ولز أهان الإسلام وطلبوا من السلطات الهندية أن تمنع دخول الكتاب إلى الهند. واحرقوا نسخة من ذلك الكتاب

ثم اتفق المجتمعون على السير بموكب منظم إلى مكتب مندوب الهند السامي إلى وزارة الهند، واقترحوا أن يمروا بموكبهم على منزل المؤلف في لندن لمطالبته بالاعتذار

وقد جاء من كلكوتا أن ألوفاً من الهنود حضروا الاجتماع الذي عقد فيها أخيراً للاحتجاج على المؤلف

وقد نشر هذا الكتاب لأول مرة في سنة 1922. ولكنه ترجم في المدة الأخيرة بطريقة ملخصة إلى اللغة الهندوستانية. وقد نشرت جريدة تصدر هناك باللغة الوطنية مقالا عنه نددت فيه به وطعنت في المستر ولز فهاجت خواطر الناس وعقدوا اجتماعاً للاحتجاج في كلكوتا. وقام الآن بعض المخلصين لإيمانهم في لندن يصنعون كما صنع إخوانهم في وطنهم

وقد قابل ممثل إحدى الصحف الهندية الكبرى المستر ولز فقال أن انتقاداته لم تكن قليلة الاحترام للعقائد وهو عارف بما أدى الإسلام لثقافة العالم من الخدمات، وليس من العدل أن يحكم هؤلاء المسلمون على آرائه بفقرة شاردة وردت عرضاً في تلخيص كتابه

وقالت جريدة إيفنن ستاندر إن عشرة من المسلمين المتشددين يعملون الآن ليل نهار في صنع ثلاثة تماثيل من الورق الصفيق للمستر ولز يريدون إحراقها في أرض مسجد لندن. فيعقدون هناك اجتماعاً وبعد أن يصلوا يدفعون بالمستر ولز الرمزي إلى النار

تعليم الأميين في إيران

جاء من طهران أن المساعي المبذولة لتعليم الأميين في إيران قد وصلت إلى نتائج باهرة. فقد أنشأت الحكومة مدارس ليلية للكبار، وبعد سنتين منحت وزارة المعارف شهادات لخمسة وعشرين ألفا و245 شابا كانوا قبل ذلك أميين تماما.

وقد أنشئت هذه المدارس منذ ثلاثة أعوام في كل أنحاء المملكة وفي هذا العام تقدم للامتحان 24 ألفا و233 شابا أكثرهم تجار من أصحاب الحوانيت الصغيرة وباعة متجولون فمنحت الوزارة شهاداتها لخمسة عشر ألفا و722 منهم. ويرى الناس الآن إعلانا منشورا في كل مكان تعريبه: (العلم هو القوة)

الكتب

حول نقد ديوان

هكذا أغني

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

بقلم الأديب مختار الوكيل

يقول الأديب عباس حسان خضر إن محمود حسن إسماعيل، شاعر الريف النابغة، صاحب ديوان (هكذا أغني) (يمضي متدفقاً مندفعاً عنيفاً، وفي كثير من الأحيان يتبع هذا التدفق والعنف عدم اكتراث بسلامة الذوق، واعتساف في الفكر وفي التعبير - كما نبين فيما يأتي - معتمداً في ذلك على قوة طبيعته ونشاط خياله، غير متقيد ولا محترس، فهو يعول على الهبة الفطرية أكثر مما يعول على المهارة الاكتسابية.)

ولم يتبع هذا الكلام بيانٌ دقيقٌ عن عدم اكتراث الشاعر بسلامة الذوق واعتساف الفكر والتعبير كما قال؛ وإنما مضى يقول بعد ذلك:

(يمتاز شعر هذا الديوان بشيء لعلي موفق إذْ أسميه (الروعة) وهو ذلك الذي يستغرق المشاعر ويروع العواطف ويأخذ بالذهن إلى عوالم متنائية الأطراف، ولعل مبعثه بعد المدى في الخيال، والإيغال في تصوير الأشياء التي يكتنفها الغموض!)

ويفهم أي قارئ لهذا الكلام أن الكاتب يحاول أن يهاجم الشاعر النابغة ولكن إحساسه الباطني بشاعرية محمود إسماعيل تخونه في التعبير الذي يقصد! فالكاتب يذكر أول الأمر أن محموداً في شعره متدفق مندفعٌ عنيفٌ، ولكنه لا يكترث غالباً بسلامة الذوق الرفيع، ويعتسف في الفكر والتعبير؛ وبمعنى آخر يريد أن يقول إن محموداً شاعرٌ مطبوعٌ ملهمٌ ولكنه لا يجيد صناعة الألفاظ، وهذا الكلام في صالح محمود ولعل الكاتب

لم يقصد إليه.
وقوله بعد ذلك إن الشاعر يأخذ الذهن إلى عوالم متنائية الأطراف وإنه بعيد مدى الخيال، وإنه يوغل في تصوير الأشياء التي يكتنفها الغموض اعتراف صريح بعبقرية الشاعر؛ فما أظن أن هناك تعريفاً لشعر شاعر أجمل من هذا التعريف الذي ندَّ به قلم الكاتب الفاضل عن غير قصدٍ. أقول عن غير قصد، ومعي الدليل البيِّن على ذلك، إذ لم تمض بضعة
سطور على هذه الإشادة الظاهرية بشاعرية محمود، حتى يفجأ الكاتب قارئه بنقدٍ لبيت رائع من قصيدة (دمعة في قلب الليل). فالكاتب يسخر من قول الشاعر النابغة في حديثه عن الدموع:
عصرت من مطارف الألم الدا ... وي بقلبي وعتقت في دمائي!
بقوله: (فجعلنا نتمثل امرأة حاسرة عن ذراعيها أمام طست الغسيل تعصر تلك المطارف والأثواب. . .)
وهذا الكلام لا يجوز أن يدلي به ناقد يفهم المعادن الشعرية فهماً كاملاً، أو يكد ذهنه في اكتشاف الخبيء من المعاني الجميلة التي ينشط خيال الشاعر الجبار في اقتناصها وكما بينت، يتردد الكاتب في إظهار حقيقة عواطفه نحو الديوان في بعض الأحيان، فهو يعود فيطري قصيدة (ثورة الإسلام في بدر). وما كان في وسعه أن يعدو ذلك أو يقول بنقيضه؛ بيد أنه يقول عن أبيات محمود الخالدة:
وقف المغني في حماك مجلجلاً ... باللحن تخفق في الورى أصداؤه
فيه من الأقدار وهلة غيبها ... خبأنه عن لمع الحجا أطواؤه
ومن الكتائب أرزمت أسلاتها ... صخب يزمجر بالفتوح نداؤه
ومن المواكب هولها في فيلق ... نشوان في يوم الفخار لواؤه
من قصيدة (يوم التاج) التي أذاعها الشاعر في مهرجان الوادي بتتويج صاحب الجلالة المليك المحبوب: (فأي مغن هذا المجلجل الذي اجتمعت فيه وهلة الأقدار وصخب الكتائب وهول الفيالق؟! إن هذه الصفات المروعة لا تصطلح على مغن ولو كان من (مطربي) محطة الإذاعة اللاسلكية بالقاهرة. . .)
يا أيها الكاتب المحترم، كيف عرفت أن الشاعر قال هذه الأبيات في مغن معين؟! لم يقل محمود هذه الأبيات في عبد الوهاب ولا في عبد الحي، ولو قال في أيهما لما كان شاعراً وإنما قالها في هذا الشعب العظيم الذي شملته نشوة روحية بيوم التاج السعيد، فانطلق يغني غناء الشعوب، تجلجل ويجتمع في غنائها هولة الأقدار وصخب الكتائب وهول الفيالق؟! كما تقول أنت حقاً!! ومحال أن تصطلح هذه الصفات على مغن من (مطربي) محطة الإذاعة اللاسلكية بالقاهرة كما تقول. . .! فالشاعر الذي يأخذ مثله الأعلى من أية محطة
للإذاعة، بل من أية موسيقى هزيلة ضعيفة، ليس بحقيق أن يدعى شاعراً، ولكن الشاعر الذي يبشر بمقبل باسم للموسيقى، إذ يتوجه بها إلى القوة وتصوير الحروب والكتائب، على نحو ما تأتي به موسيقى (فردي) و (بيتهوفن) و (موزار) وأضرابهم من العباقرة هو الشاعر الذي تحلم به مصر، وهو الشاعر الذي يأتي ليرقى الأحاسيس، وينمي الابتكار الخيالي، المنعدم مع الأسف في محيط الحياة المصرية قاطبة!!
ثم يهاجم الكاتب هذه الصورة الرائعة التي اغبط الشاعر عليها بحق:
الوجه ساج كصلاة الغديرْ ... بين الطيورْ!
فهو كان يحب أن تصلي الطيور لغدير وهي تحسو الماء منه، وهذا هو المعنى الذي لا يصح أن يلتفت إليه الناقد المدقق، ولكن المعنى العميق الدقيق هو أن الغدير في سجوه وهدوئه يؤدي صلاة روحية عميقة، والطيور حواليه ترشف منه ساعة صلاته وذهوله؛ فهو ينظر إلى حركة الطيور الآلية عندما ترشف الماء من الغدير على أنها صلاة. والواقع أن الصلاة لا تصدق من الظامئ المفهوم المشغول بحسو الماء من الغدير، ولكنها تصدق كل الصدق من الغدير الساجي الهادئ المعطي الباذل ماءه لطيور الظماء!
وهل يجهل الناقد أن هنالك شيئاً في الشعر اسمه (امتزاج الأحاسيس) وأن هذا الشيء كتب فيه الشعراء واستعان به الكتاب ولعل ابن الرومي هو الذي أتقن هذا النوع من الشعر. ولماذا نذهب بعيداً فالرافعي رحمة الله عليه - يقول في بعض كلامه (واقتليني

يا حبيبتي قتلة معطرة!!) وعلى هذا الأساس يجب أن يعيد الكاتب النظر في هذه الأبيات حتى يخرج منها بالصورة المركزة الدقيقة التي عانها الشاعر في قصيدته (في لهيب الحرمان) و (الذهول)

واختتم هذه الكلمة العابرة راجياً أن يراجع الكاتب الأديب مدارسة الديوان فسيجد فيه فتحاً جديداً في الشعر العصري، واتجاهات رائعةً أغفلها الشعراء عندنا. سيجد حديثاً عن الريف، ومظاهر الطبيعة الحزينة والطروب، وسيجد تعبيراً عن آلام الفلاح المصري، وسيجد غزلاً مطرباً صادقاً، وعند ذلك يكتب عن شاعر الريف الجديد الذي نبغ على صغر سنه، في هذا المضمار الرائع المستقل.

وسنتبع هذه الكلمة بحديث مسهبٍ عن شعر محمود إسماعيل إذا سمحت الظروف وسمحت

(الرسالة).

مختار الوكيل

المسرح والسينما

القصة المسرحية

بين حقيقة الواقع وخيال المتفائلين

أعلنت إدارة (الفرقة القومية) هذا العام، كما أعلنت في الأعوام السابقة، عن مباراتها في التأليف المسرحي والترجمة والاقتباس للمسرح المصري وحددت للمتفوقين عدداً من الجوائز المالية القيمة، واهمة أن في تلك الجوائز ما يغري كبار أدبائنا وكتابنا بمعالجة القصة المسرحية

وقد جرى لنا مع الأستاذ خليل مطران مدير الفرقة حديث في صدد القصة المسرحية والروايات التي تقدم للفرقة وأثر المسابقات والمباريات في ظهور المسرحيات القوية والمؤلفين المنسبين أو الذين لم تتح لهم فرصة التعرف إلى أصحاب الفرقة وتقديم مسرحياتهم لهم. وكان من دواعي سرورنا أن اتفقت وجهة نظر كل منا مع الآخر

وخلاصة هذه الوجهة المشتركة من النظر في التأليف المسرحي هي أن القصة المسرحية الناجحة، كانت وما تزال وستظل إلى ما شاء الله غاية الفرقة القومية التي لا تكل ولا تمل في سبيل الوصول إليها، والتمتع بما يدخل على المسرح المصري من نتائجها

ولكن الطريق إلى القصة الناجحة وعر، والرحلة إليها طويلة شاقة؛ فقد لوحظ أن المؤلفين الذين يتقدمون للمباريات في التأليف المسرحي يكونون عادة واحداً من أثنين: مشتغل بالمسرح يعرف كيف (يحبك) قصته ويطبعها بطابع الفن الناجح ولكنه ركيك العبارة ضعيف الأسلوب وليست لديه القدر الكافي من الثقافة العامة. وأديب أو كاتب ليست له براعة الأول في إجادة التصور وحبك الحوادث وإن كان جزل العبارة لطيف الأسلوب غني في الثقافة. هذا بينما القصة المسرحية التي تنشدها إدارة الفرقة هي القصة القوية الموضوع، السلسة الأسلوب، المحبوكة الحوادث، الملأى بالمواقف التي تستدر العاطفة وتثير الإعجاب.

وقد يكون من أشد ما يأسف له الكاتب أن يضطر إلى التصريح بالحقيقة المؤلمة التي يعرفها كل بصير وخبير بدولة الأدب والكتابة في مصر، وهي أن الكاتب المسرحي الناجح لا وجود له بين ظهرانينا حتى الآن. . .

وهناك جملة عوامل هي المسئولة عن هذه الحال التي يؤسف لها أشد الأسف. منها أن فترة النهضة المسرحية لم تدم أكثر من عشر سنوات، أقفلت بعدها لأغلب الفرق أبوابها، وأعلنت توقفها وإفلاسها. وأي صناعة لا يهتم زعمائها بالتدقيق والتركيز، مقضي عليها بالذبول والاندثار لا محالة. ومنها أن الضائقة المالية التي عرضت للفرقة على اختلاف ألوانها، حدت بأصحابها إلى التنكر لكبار أدبائنا وكتابنا الذين رأوا أن يساهموا في هذه الناحية الأدبية التي كانت وما تزال بكراً في بلادنا، ولا نذكر أن كاتباً كبيراً من كتابنا أثنى ذات يوم على مدير لإحدى فرقنا التمثيلية المندثرة أو القائمة حتى الآن. . .

ومنها أن نفراً من صغار النقاد جروا على الشماتة بكال رواية يقال إن صاحبها هو الأديب الكبير (فلان الفلاني) والزراية بجهوده وتأليفه بحق بغير حق، وبدافع من الفن أو من الحقد وصغار النفس. . .

والمباريات وإن كانت وسيلة من أحدث الوسائل لتشجيع البادئين والناشئين من

المجتهدين، إلا أنها لا يمكن أن تؤدي النتائج المرجوة لرفعة المسرح والقصة المسرحية في أقصر زمن مستطاع. وبديهي أن الواجب إعداد المدرس قبل إيجاد التلميذ. . وإلا فعلى إي أساس يكتب البادئون قصص لزعماء الفن مشهود لها بالجودة، ومن أقلام كبار الكتاب والأدباء؟! لاشك أن كثيراً من شباننا المثقفين عندهم استعداد كبير للظهور في ذلك الميدان الذي نكرر انه ما يزال بكراً، ولا تنقصهم إلا الإرشادات (الفنية) التي يمكن اكتسابها بالتعلم أو بتدقيق النظر في المسرحيات الناجحة.

سينمائي

أنباء سينمائية ومسرحية

فلم الدكتور

قطع الأستاذ نيازي مصطفى شوطاً كبيراً في الفلم الجديد الذي يخرجه لحساب استديو مصر. وهو الفلم الذي يسمى (الدكتور) وأن يقوم بالدور الأول فيه الأستاذ سليمان نجيب. والفلم مأخوذ من مسرحية قديمة للأستاذ نجيب، وحبذا لو غير اسمه حتى يتفق مع الحادث الكبير في الرواية

سينما تريومف

يفكر بعض المسئولين في شركة مصر للتمثيل والسينما في الطرق التي من شأنها تحويل هذه الدار الفخمة إلى سينما لعرض البرامج العربية، وقد تعاقدت الشركة مع وكالة المتروجلدوين على احتكار عرض أفلامها في الموسم القادم، ولكن ذلك كلفها نحو (250) ج م عن كل فلم

فلم الأستاذ أحمد سالم

بدأ الأستاذ أحمد سالم تصوير المناظر الخارجية لفلمه الذي تبدأ به الشركة الجديدة عملها، ونحن ننتهز هذه الفرصة فنهنئ عالم السينما المحلية بدخول الأستاذ سالم إليها مستقلاً وعاملاً لحسابه الخاص. وقد علمنا أن موضوع الفلم متصل بالطيران وأن بعض المناظر الخارجية اشتركت فيها بعض وحدات الطيران الحربية المصرية وسنعود إلى الحديث عن الأستاذ وجهوده السينمائية في فرصة أخرى

السينما في هوليوود

- يقوم (إدوارد ربنسون) بدلاً من (بون موني) بتمثيل دور (جواريه) في رواية (عرش من الفولاذ) وهي الرواية التي تقوم بالدور الأول فيها (بت ديفيز) أمام (فردريك مارش)

- أختيرت (كلوديت كولبير) و (كاي فرنسيس) للقيام بالدورين النسائيين الأولين في رواية (إخوان وارنر) الجديدة (عندما تسدل الستار)

- يعيد (سام جولدوين) رواية (ثلاثة أسابيع) التي كان قد أخرجها أيام السينما الصامتة للكاتبة السينمائية الشهيرة (إلينور جلن)؛ وكان بطلاها السابقان هما (إيلين برينجل) و (كونراد فيدت)

- أعدت شركة برامونت رواية خصوصية لإيزا ميراندا، وذلك بعد ما تقرر عدم إعطائها الدور الأول من رواية (زازا)

العدد 269 - بتاريخ: 29 - 08 - 1938

إلى صاحب المعالي وزير المعارف

أذكر يا سيدي أني كتبت إلى معاليك يوم سموت إلى منصب الوزير ورتبة الباشا كلمة صادقة صريحة في هذا الموضع من (الرسالة) قلت فيها: إذا كان غيرك قد وصل بالأدب من غير خلق، أو بالصحافة من غير أدب، أو بالسياسة من غير صحافة، فإنك لم تصل إلا بهذا الأدب الشامل الذي يشرق فيه وميض الروح، ويسيطر عليه نبل النفس؛ لذلك نعدُّ بلوغك هذه الغاية من المجد انتصاراً للأدب المجاهد، وترضية للقلم المجهود، وتمكيناً للفكر الجميل أن يؤدي رسالته في عالم أوسع وعلى طريق أسد؛ ولذلك نجعلك من بين الوزراء الصلة الطبيعية بيننا وبين أولي الأمر، فقد قطعوا أسبابنا الواصلة، وسَفِهوا حقوقنا المعلومة، واعتقدوا أننا حِليّ تزين ولا تنفع، ودُمىً توجد ولا تعيش. . .

وأذكر يا باشا أنك كتبت إلي على أثر هذه الكلمة الطيبة كتاباً رقيق العبارة كريم العاطفة صريح الوعد بأنك ستكون وليّاً للأدباء ونصيراً للأدب.

ثم أذكر أنك وأنت عميد الصحافة المعارِضة كتبت في (نزاهة الحكم)، وخطبت في

(الحكم الصالح) مقالات سماوية وخطباً مثالية لا تزال فِقَرِها وحججها ترن في أذن الحكومة وتجري على لسان المعارضة

أذكر كل أولئك يا باشا وأنسى أنني طلبت الإذن على معاليك فلن أناله، وأنني كتبت إليك كتاباً فيه بعض العتب فلم تقبله؛ ثم أنسى أنني سمعت بعد ذلك أنك لم تُرِد إنصاف (الرسالة) وقد سألتك إياه، وأنك محوت أسمى من مشروع (المجمع الأدبي) وقد كان فيه. نعم أنسى كل ذلك يا باشا لأن هذه المعاني البشرية لا تلبث أن تموت أو تضعف في خاطر رجلين: الوزير لأنه ينفذ أمر الملك، والقاضي لأنه يعلن حكم الله. وولي الأمر أو ولي القضاء متى شعر أنه مظهر الإرادة العليا أخذته حال من السمو الإلهي ترفع النفس وتُرهِفُ الضمير وتُوَثِّق الذمة.

فأنا أتقدم إلى معالي الوزير بشكوى الأدب الحر وأنا مطمئن إلى عدله واثق بجميل رأيه. والأدب الحر يا باشا هو الأدب المجاهد الذي ليس له حزب يحميه ولا منصب يسنده، وشكواه أن الأدب الرسمي بغى عليه بقوة السلطان وحكم الأثرة، فشهد فيه الزور وحكم عليه بالباطل

هذه لجنة إنهاض اللغة العربية - ولا أريد أن أعرض لغيرها اليوم - تألفت بقرار منك فأصبحت حدودها الموقوتة أداة من أدوات السياسة العليا تنظر بعين المصلح، وتنطق بلسان الوزير، وتحكم بذمة القاضي. ولكنها يا باشا لم ترد أن تخرج عن إطارها الشخصي، فمكنت لنزعات الهوى أن تطير بين آرائها في عمل من أعمال الناس وشأن من شؤون الدولة!

لقد سلكت في اختيار الكتب التي تساعد الطلاب على اكتساب ملكية البيان طريقاً عجيباً إن ضمن فائدة الكاتب لا يضمن فائدة الطالب، وإن قضى حاجة الصداقة لا يقض حاجة اللغة

ولا أريد أن أضرب مثلاً على تجنيها غير ما نالني منها. وأدع لغيري من الذين حكمت عليهم بالإغفال أن يضربوا بقية الأمثال فإن لهم أقلاماً وألسنة

هل تصدق يا باشا أن هذه اللجنة التي ألفتَها من أربعة شيوخ من شيوخ الدين والأدب قد استطاعت أن تحمِل العقل والضمير والفن والمنفعة على أن تلعن كتابين ألفهما جوتة ولامرتين، وترجمهما الزيات، وقدم لهما طه حسين ومنصور فهمي، وطبعهما ونشرهما أحمد أمين، وقرأهما الشبان والشواب في جميع أقطار العروبة ثمانية عشر عاماً لا يرون فيهما غير الخلق النبيل والبيان المشرق والأدب المحض والإلهام المقدس؟

هل علمت يا معالي الباشا أن هذه اللجنة الأخصائية في علوم العربية قد أغفلت كتاباً في صميم الفن ألف للكتاب والطلاب، وعالج مسائل مبتكرة في تاريخ الأدب، وأضاف قواعد جديدة إلى قواعد الكتابة، وليس في المكتبة العربية اليوم ما يحل محله؟

لقد تساءل الناس في الأندية والصحف عن سر هذه اللعنة، وسبب هذا الإغفال، فأعياهم أن يجدوا الجواب، حتى رد عليهم الأستاذ أحمد أمين عضو اللجنة بما نشرناه وعلقنا عليه في العدد السابق من الرسالة، فانقلبت الأسئلة إلى شكوك وظنون، وراب الأدباء من لجان الوزارة أن يكون هذا مبلغ الحق والعدل، في لجنة عرف أعضاؤها بالنزاهة والفضل، وعجبوا أن يمتهن المنطق رجال المنطق ويظلم الأدب حماة الأدب، وقالوا ماذا عسى يصنع الدهر بلجان الاختيار والتأليف والمسابقة؟

هذا (بلاغي) يا معالي الوزير أرفعه إليك لتحقق ما فيه بعدما قرأتَ في العددين السابقين سؤال السائل وجواب المجيب ورد المتعقب. وصاحب المعالي هيكل باشا غني عن السؤال والجواب والبينة، فإنه بملكته الأدبية يعلم الفن، وبحاسته القانونية يدرك الحق، وبسلطته الوزارية يملك الحكم

ومعاذ الله أن يكون لهذه الشكوى مبعث غير الحِفاظ للأدب وللكرامة. فقد سلخنا في الجهاد الأدبي ثلاثين عاماً نعمل بين الجمهور وللجمهور فما شعرنا بالحاجة إلى حماية ولا معونة. وهذه منزلة من الإيمان والصبر لا يستطيع أن يصفها لهيكل باشا الوزير، إلا هيكل باشا الأديب

أحمد حسَن الزيات

الأصل وغيره

بقلم إبراهيم عبد القادر المازني

أراني أحد الإخوان رواية لكاتب إنجليزي معاصر اسمها (مذنبون بكرههم) وقال اقرأها. وقد اقتنيت نسخة منها، ولكني ما زلت محجما عن قراءتها وإن كان قد مضى يومان وهي على مكتبي تخايلني كلما جلست إليه. وأحسب أن في اسمها ما يصدني عنها. ولست أعني أني أكره القصص التي تتناول الخطيئات والذنوب والآثام، فقلما تخلو رواية من شيء من ذلك، بل يندر أن تخلو حياة من هذا، فإن العصمة (عليا مراتب الأنبياء) وإنما أكره ما يبدوا لي من النفاق أو المغالطة أو الجهل أو المداجاة في هذا الاسم. ولو قال إنهم أخيار أو أطهار أو طيبون بكرههم لكان أشبه بالحق. فإن رأيي أن الإنسان مطبوع على ما نسميه الشر، وليس بمفطور على ما ألفنا أن نسميه الخير وما إلى هذين من صفات قبيحة وطيبة. والذي نعده خيراً ليس أكثر من عادة أو ضرورة، ولكن الذي نقول إنه الشر أصل. وقد صدق النّواسي في قوله:

أنت يا ابن الربيع ألزمتني النس ... ك وعودتنيه، والخير عاده

وقد سألت نفسي غير مرة لو كنت، ومعي ابني - والأبناء فيما يعرف الناس ويحسون أفلاذ أكبادهم - في صحراء جرداء لا ماء فيها ولا شجر، ولم يبق معنا من الزاد إلا كسرة، ومن الماء إلا قطرة، وبرح بنا الجوع والظمأ، فماذا كنت عسى أن أصنع؟؟ أأوثره على نفسي، أم أوثر نفسي عليه؟

وآثرت الإخلاص وصدق السريرة في الجواب فقلت إن أول ما كان خليقاً أن يدور بنفسي هو أن أوثر نفسي على ابني، ولعلي حقيق إذا ثقلت وطأة الاحتمال عليّ أن أقاتله على اللقمة أو قطرة الماء. ومهما يكن من ذلك فان المحقق عندي - فيما أشعر وأعلم - هو أن الخاطر الأول يكون هكذا، أي أن تحدثني نفسي بالاستئثار دون ابني بما بقي لنا. وقد يتغلب العقل وعادة الكبح ولنظام الذي نجري عليه في حياتنا المتحضرة. فيحدث أحد أمرين مثلاً: أن يكون الباقي مما يحتمل القسمة، فاقترح اقتسامه ومن يدري؟ لعلي وأنا أكسر اللقمة الباقية أجور عليه في القسمة؛ وإذا كان الأمر لا سبيل فيه إلى مشاركة، فقد أقول لنفسي إن من قلة العقل أن أخطف الكسرة والماء فأطيل بذلك عمري ساعات، وما يبدو لنا أمل في نجدة قريبة، وأنا قد عشت أكثر مما عاش، وسيقضى كلانا نحبه فليس بضائري أن يبقى بعدي ساعات؛ وهب ناساً أدركونا وأنقذونا فان الباقي من عمري دون الذي مضى وانقضى، وهو على كل حال شيخوخة وتهدم، وأمراض وعلل، وأوصاب وعجز، فما حرصي على ذاك؟ ولكن هذا صغير ولا يزال أمامه شباب طويل وريف، فهو أولى بالحرص على الحياة والتعلق بها وأحق بذلك مني، وقد أكره أن يرى أثرتي وقبحها وشناعتها، وأخاف أن يعرف ذلك عني بوسيلة ما، فأناوله الماء وأجود عليه بالخبزة الناشفة، وأتظاهر بالرحمة، وأتكلف الإيثار وأقول له: إنك ابني وفلذة كبدي، فبقاؤك استمرار لحياتي وامتداد

وفي الدنيا عشاق مجانين غير قليلين وقد يهم الواحد منهم بالانتحار إذا ضنت عليه حبيبته بابتسامة أو أعرضت عنه في مجلس، أو أبت عليه قبلة وضمة. خذ هذا العاشق الولهان، المدله، المزدهف اللب، المشغوف القلب، وأجلسه إلى جانب حبيبته المعبودة في البرد القارس والمطر المنهمر، وأنظر ماذا يحدث؟ أتظن أنهما يتناجيان في تلك الساعة بحبهما؟؟ أتراه يشتهي حينئذ أن يقبلها أو يضمها، أو يبالي ابتسامها أو إعراضها، أو يحفل ما يكون من ذلك منها؟ بل سل نفسك أيخطر له الحب وهو ينتفض من البرد والمطر ويرعد؟؟ وقد يندفع بحكم العادة فيخلع سترته ويضعها على كتفي المحبوبة المعبودة، ولكنه لا يفعل ذلك إلا وهو كاره له، وساخط عليه، وناقم على الضرورة التي تدفعه إلى ذلك. ويزداد البرد مع طول الجلسة، ويعانيان منه ما لا طاقة لهما به، فلا يبقي لهما هم إلا في هذا وفيما يمكن أن يصنعا لاتقاء عواقبه، أو النجاة منه، ويذهب الحب وتذهب دواعي الانتحار، وتهبط قيمة ذلك كله إلى الصفر. فليت العشاق الذين يسلب الحب عقولهم، يكابدون شيئا من هذه المكاره ليعلموا أن في الوسع أن يقل احتفال المرء بابتسامة حبيبته، وتفتر الرغبة في ضمها وتقبيلها، بل إن في الوسع أن يحيا بغير هذه الحبيبة، ولا يفكر فيها، ودع عنك الانتحار من أجل قبلة أبتها عليه!

وهذه الشجاعة ماذا هي؟ إن الأصل في الإنسان الجبن لا الشجاعة، لأن غريزة المحافظة على الذات تقضي بذلك، ولكنه يتشجع، ويحتمل التعرض للمكاره أو المعاطب، ويلقي بنفسه في التهلكة، مرغما، فقد يكون الذي يفر منه شرا مما يرمي نفسه عليه، أو يكون في الجبن الهلاك فيستوي الأمران، وإذن تكون الشجاعة أولى، وأجلب لحسن السمعة وطيب الأحدوثة، ففيها حتى مع الهلاك عزاء أدبي. أو يكون الموقف من شأنه أن يورط المرء فلا يبقى مفر من الإقدام، والأمر معه. وقد يكون المرء ضعيف الخيال، أو قليل الإدراك فهو لا يحسن أن يقدر الأمور، ولا يبالغ في توهم الأخطار وتجسيدها؛ أو يكون على نقيض ذلك كبير العقل واسع الخيال، فلا يرى بأسا من الجرأة لأن فرص النجاح أو السلامة كفرص الإخفاق والتلف، أو أكثر، إلى آخر ما يمكن أن يكون باعثا للإنسان على مقاومة الحرص الطبيعي على الحياة والضن الفطري بها

ولا أعرف ما شأن غيري، ولكني أعرف نفسي على قدر ما يتيسر لي ذلك، وأعلم أني أشتهي كل ما يُشتهي في الحياة، وإذا كُنت لا أواقع كل لذة أشتهيها، أو أطلبها، أو أحلم بها، فما هذا مني عن عفة فطرية، وزهد في طباعي، فان لكل حالة من حالات الحرمان علة لا تخفي عليّ، ولا أستطيع أن أغالط نفسي فيها، وإن كنت أغالط الناس ولو سألني ربي - كما سيسألني بعد عمر طويل - لأقررت بذنوب لم أقارفها، وخطايا لم أرتكبها، وشهوات تبحث نفسي عنها، أو استعصى عليّ إرضاؤها، ولطال بي الاعتراف، والخلائق ورائي تنتظر دورها تحت الشمس المحرقة في تلك الساعة التي تذهل الأم عن ولدها، فأشفق عليهم، وأوجز وأقول إن ربي أدرى بي وأعرف بالظاهر والباطن، فلا حاجة إلى الإفاضة في الاعتراف. وإني، على الجملة، ومع تفاوت واختلاف قليلين لكما قال السمير رحمه الله:

فتراني طول عمري ... تائبا من غير عفة

فلا نجاة لنا إلا برحمة من الله ومغفرة.

إبراهيم عبد القادر المازني

عود إلى الموضوع

الدين والأخلاق بين القديم والجديد

لأحد أساطين الأدب الحديث

- 2 -

لو أن الأستاذ الغمراوي قصر حديث الدين والأخلاق على الرافعي لكانت حجته أقوى، ولكنه وقع في خطأ منطقي إذ حسب أن جميع أدباء المذهب القديم قد راعوا حرمة العرف والتقاليد وآداب الدين وأخلاقه كما راعاها الرافعي. فكأن حجته مقسمة حسب التقسيم الذي يُستشهَدُ به في الخطأ المنطقي: هي أن الرافعي راعى حرمة أخلاق الدين، والرافعي من أدباء المذهب القديم، فنستنتج من ذلك أن المذهب القديم يراعي حرمة أخلاق الدين. وهذا الاستنتاج كاستنتاج من يقول: الفيل له خرطوم، والفيل حيوان، فكل حيوان إذاً له خرطوم. وقد ظهر هذا البرهان المنطقي في أكثر من مكان في مقالات الأستاذ الغمراوي ولا سيما في المقال الأخير. أنظر إلى قوله (فالمسألة في الأدب إذاً ليست مسألة لفظ ومعنى ولكنها في صميمها مسألة روح. فريق يريد أن يجعل روح الأدب روحاً شهوانياً بحتاً يتمتع صاحبه بما حرم الله وما أحل، ولا يفرق بين معروف ومنكر، ثم يصف ما لقي في ذلك من لذة وألم أو غيرهما من ألوان الشعور؛ وفريق يريد أن يحيا الحياة الفاضلة. . إن أدب الفريق الأول هو ما يسمونه الأدب الجديد. . . وأدب الفريق الثاني هو ما يسمونه بالأدب القديم. . .)

ومن الغريب أن عدد الرسالة الذي كتب فيه الأستاذ الغمراوي هذه الجملة فيه مقال للأستاذ خلاف يشير إلى كتاب يتيمة الدهر للثعالبي وإلى غيرها من كتب الأدب القديم، ونستشهد منه بالجملة الآتية: (ومنذ أن قال امرئ القيس أقواله الفاحشة في المرأة، ونظم الفرزدق وجرير الشتائم والسباب، وقال أبو نواس وبشار وأضرابهما في معاني الشذوذ والضعف الخلقي، وامتلأ العصر العباسي الثاني بالتفنن في تسجيل الصور الدنيئة من حياة الإنسان كما يتمثل في كتاب يتيمة الدهر (قاموس الأدب الداعر الوقح)؛ منذ ذلك كله تحول ذوو الطبائع الجادة إلى وجهات أخرى في الحياة غير وجهة الأدب والاشتغال بمحصوله)

فالأستاذ خلاف يثبت في مقاله أن الأدب الداعر بدأه أمير شعراء الجاهلية في مثل قوله (إذا ما بكى من خلفها. . . الخ) واستمر في عصور الإسلام إلى أن استفحل كل الاستفحال في عصر الأدب العباسي الثاني. فهل يعد الأستاذ الغمراوي أدباء هذه العصور الذين يعنيهم الأستاذ خلاف من أدباء الأدب الجديد أم من أدباء الأدب القديم؟ وهل قول الأستاذ الغمراوي (فريق يريد أن يجعل روح الأدب روحاً شهوانياً الخ الخ) ينطبق أولاً ينطبق على أدباء الأدب القديم الذين ذكرهم الأستاذ خلاف؟ وهل ينكر الأستاذ الغمراوي أنه قلما يخلو كتاب من كتب الأدب القديمة من أشياء لا يليق بالفتيات والفتيان ولا بأي إنسان أن يقرأها، وأن الأستاذ خلاف عندما ضرب الأمثلة لم يقصد أن يذكر كل ما وجد من هذا القبيل؟ إن في كتاب يتيمة الدهر أشياء لو قرئت على الأستاذ الغمراوي لوضع إصبعه في أذنه وفر وهو يقول: مرحباً بالجديد. وما رأي الأستاذ الغمراوي في شرح السيد توفيق البكري شيخ السادة البكرية، ورجل الفضل والدين لأبيات ابن الرومي التي ذكر فيها صوت يد العجان في العجين (راجع صهاريج اللؤلؤ)؟ فهل السيد توفيق البكري من أدباء المذهب الجديد؟ وما رأيه في الشيخ شريف رجل الفضل والدين ومفتش اللغة العربية في وزارة المعارف وقد شرح أرجوزة ابن الرومي التي أولها (رب غلام وجهه لا يفضحه). وليس من موبقة إلا وفي كتب الأدب القديم وصفها والافتخار بها على شكل لم يبلغه الشبان المولعون بما يسمونه (الأدب المكشوف). ومن الغريب أن الذين ينبهون الحكومة إلى سقطات هؤلاء الشبان لا ينبهونها إلى ما في كتب الأدب القديم من مخاز لا تسمح أية دولة بنشرها. راجع في الأغاني أمثال قصة إصبع بن أبي الإصبع ومطيع ابن إياس، على ما أذكر، أو سل الأستاذ خلاف عما وجد في كتاب يتيمة الدهر حتى سماه قاموس الأدب الداعر، بل خذ أي كتاب أو ديوان، خذ مثلاً ديوان أبي تمام وراجع القصيدة التي يخاطب فيها الحسن ابن سهل في قوله:

ولاسيما البيت الذي أوله (سبحان) في الطبعة (إن أنت لم تترك السير الحثيث الخ) غير المنقحة، أو خذ ديوان البحتري وانظر كيف أفحش في المجون في حضرة أمير المؤمنين المتوكل في القصيدة التي يمدحه بها وأولها (سقاني القهوة السلسل) وانظر إلى البيت الذي أوله (وقطع) فهل هؤلاء من شعراء المذهب الجديد؟ وهل أمير المؤمنين المتوكل من أدباء

المذهب الجديد؟ أو خذ ديوان أمير المؤمنين عبد الله ابن المعتز ففيه أيضاً مخازٍ يعجب لها الأستاذ الغمراوي. أو خذ ديوان الرجل التقي النقي العلوي صفي الدين الحلي وانظر إلى مجونه وغزله المؤنث والمذكر، أنظر مثلاً إلى سبب تضمينه الأبيات الآتية في قصيدة له والأبيات أولها (أيا جبلي نعمان بالله خليا الخ الخ)

إن أدباء المذهب القديم وأدباء المذهب الجديد في أيام شبابهم قد قرءوا كل هذه الكتب وقرءوا ما فيها مما لو رآه الأستاذ الغمراوي لطمسه. وقد تأثر كثير منهم بها إلى حد جعلهم لا ينكرون وجودها وجعلها في نظرهم أشياء طبيعية مألوفة. وأدباء المذهب الجديد قد قرءوا الكتب العربية قبل قراءتهم كتب الأدب الأوربي الذي يخشى الأستاذ الغمراوي قدوتها. فإذا كانت كتب الأدب الأوربي قد أثرت فيهم فان كتب الأدباء والشعراء التي يستنكرها الأستاذ خلاف لا بد أن تكون أبلغ أثرا في نفوس الفريقين؛ وهي أيضاً بليغة الأثر في نفوس فتيات وفتيان المدارس لأن هذه الكتب يستعيرها التلاميذ والتلميذات بمدارس البنين والبنات، فهي بمكتبات المدارس ويُحَثُّ التلاميذ والتلميذات على قراءتها. لو كان الأستاذ الغمراوي يعرف ما يكتبه الطلبة من الحواشي أحيانا على هامش هذه الكتب المستعارة لعرف مقدار أثر كتب الأدب القديم في نفوس النشء. إني أتوسم في الأستاذ الغمراوي الإنصاف، ومن أجل ذلك أعتقد لو أنه بحث هذه المسألة وفحص أثر هذه المؤلفات وأمثالها بعد أن يدرس مجونها ويهتدي إليه بهداية أهل العلم بأماكنه لا أعترف أنه إذا كان لأدبٍ ما أثر في دفع الشبان إلى المجون والإباحية في الأخلاق فهو أثر الأدب القديم، وأن هذا الأدب القديم غير مقصور الأثر على التلاميذ والتلميذات، بل إن أثره يشمل أدباء المذهب القديم العصريين وأدباء المذهب الجديد على السواء. ولا يعجب الأستاذ الغمراوي إذا قيل أن الأدب الأوربي الحديث إنما يؤدي دينا عليه للعالم العربي، فأن الأدب والشعر والفكر العربي كما كان في الحضارة العربية ولا سيما العباسية والدويلات التي أتت بعدها كان كثير الحرية إلى

حد الإباحية في الخلق أحياناً؛ وقد كان هو والأدب الإغريقي القديم من العوامل التي قضت على أدب التعفف والتقشف المسيحي في القرون الوسطى.
وما يقال في الأدب القديم عن الآداب والأخلاق يقال أيضاً عن العقيدة. نفسها فلو رجع الأستاذ الغمراوي إلى كتب الملل والنحل العربية لوجد أن بعضها لم يترك إلحادا إلا وصفه ولا كفر إلا أطال القول في معانيه
وأقوال ملاحدة الدولة العباسية وغيرها من الدول لا تزال أمام القراء من شعر ونثر، وما ترك الأول للآخر شيئاً.
إذاً يحسن بالأستاذ الغمراوي أن يقصر قوله على الرافعي، وأن يمجده ما شاء، وأن يقدس مراعاته حرمة الآداب والأخلاق الإسلامية، أما أن يقع في خطأ الاستنتاج فهو أعظم من ذلك منزلة؛
وإذا كان الأستاذ الغمراوي يريد أن يقضي على سبب من أهم أسباب فساد الأخلاق فعليه أن يحث وزارة المعارف وإدارة المطبوعات على تشكيل لجنة لفحص الكتب العربية وطمس ما هو مفسد للأخلاق في الموجود من نسخها وتحريم طبعه في الطبعات الجديدة فان ائتمان أمثال هذه الكتب وهؤلاء الأدباء على أخلاق النشء (ومحاربة الأدب الأوربي) يكون كمن يأتمن لصاً وطنياً على بيته وأمواله وأثاثه لأنه وطني؛ وقد يكون هذا اللص الوطني أشد خطرا لأنه يؤتمن ويمهد له السبيل ويعطى له مفتاح المنزل. أو كمن يأتمن فاجرا داعرا على أبنائه لأنه كان صديق صباه وأليف أيام شبابه.
قارئ
للتاريخ السياسي
المشكلة التشيكوسلوفاكية
للدكتور يوسف هيكل
من أهم المشاكل الدولية الحالية وأبرزها: المشكلة التشيكوسلوفاكية، فقد كادت تكون في المدة الأخيرة سبب حرب عالمية، ولا تزال موضع اهتمام ساسة الغرب ولا سيما الإنكليز والفرنسيين منهم، والذين يعملون على حل هذه المشكلة ليزيلوا شبح الحرب من أوروبا الوسطى
والمشكلة التشيكوسلوفاكية معقدة عويصة، يحتاج تفهمها إلى التعرض لتاريخ تشيكوسلوفاكيا قبل الحرب العالمية، والى عرض صعوبات الحكومة التشيكوسلوفاكية قبل الحكم النازي في ألمانيا، والى إظهار تغير الحكم الهتلري لعوامل المشكلة التشيكوسلوفاكية والمفاوضات الجارية لحلها. وأخيراً إلى مرامي السياسة الألمانية
تقع جمهورية تشيكوسلوفاكيا في أوربا الوسطى، وهي محاطة بألمانيا والنمسا وهنغاريا ورومانيا وبولونيا، ومكونة من مقاطعات بوهيميا وموارافيا وسيليسيا، بلاد التاج البوهيمي قديماً، ومن قسم من هنغاريا القديمة، وعاصمتها مدينة براغ.
ويجب ألا يغيب عن الذهن أن بوهيميا كانت مدة خمس قرون، ما بين عام 1068 - 1526 مملكة مستقلة، وأن ملكين من ملوكها، وهما شارل الرابع وونسيلاس الرابع، كانا ملكين رومانيين مقدسين.
وفي أثناء حروب القرن الخامس عشر الدينية قاوم أهل البلاد بنجاح الهجمات النمساوية وحافظوا على استقلالهم. غير أن تاج بوهيميا وتاج هنغاريا وُحِّدا عام 1526على رأس الإمبراطور فرديناند الأول، من أسرة هابسبورك. ومنذ ذاك التاريخ ابتدأت حكومة النمسا تدريجياً تجعل الحكم مركزياً، وتحكم بوهيميا مباشرة. وقد تم ذلك بعد ثورة 1618، واندحار رجال التشيك أمام الجيوش النمساوية في موقعة الجبل الأبيض عام 1620. ومن حينئذ زال استقلال بوهيميا باستيلاء النمسا عليها، وأصبح السلوفاكيون تحت اضطهاد الإقطاعيين المجربين
وفي أوائل القرن التاسع عشر ابتدأت الحركة القومية التشيكية، وبرغم خيبة الأمل في نجاحها أثناء الثورة الفرنسية عام 1848، بقيت تناضل وتطالب بالاستقلال الإداري والسياسي على أساس الاتحاد الشخصي بإمبراطور النمسا. ولكن هذه المطالب رفضت ولم يتحقق استقلال التشيك والسلوفاك إلا في 28 أكتوبر عام 1918 بقيادة مازاريك وبنيس
وتضم الحدود التشيكوسلوفاكية الآن ما ينيف على خمسة عشر مليوناً من السكان

منهم: 7. 447. 000 تشيك أي أكثر من النصف بقليل، و3. 218. 000 ألمان، و2. 809. 000 سلوفاك، و720 , 000 مجريون، و569. 000 راتينيون، و100. 000 بولونيون، و266. 000 جنسيات أخرى ويهود

ومما هو جدير بالملاحظة أن ما ينوف على الثلاثة ملايين من الألمان في تشيكوسلوفاكيا، لم يكونوا قط تحت سيادة الحكومة الألمانية، بل كانوا من الرعايا النمساويين المجربين

إن وجود هذه الأقليات المتعددة ضمن حدود الجمهورية التشيكوسلوفاكية، خلق مشكلتها، مما جعل الرئيس مازاريك يعرِّف مشكلة بلاده بأنها: (مشكلة الأقليات فيها)

وعند البحث في وضعية الأقليات الألمانية في تشيكوسلوفاكيا يجب التنبيه إلى أن الأكثرية الساحقة من هذه الأقلية تعيش متجمعة. وأهم من ذلك أن هذه الجموع الألمانية تؤلف إطاراً محكماً على طول الحدود التشيكوسلوفاكية الألمانية. ولذلك يمكن القول بأن الأقلية الألمانية في تشيكوسلوفاكيا هي أقلية حدود. فوضعية هذه الأقلية الجغرافية تحول عملياً بين تحقيق ما تطلبه من الاستقلال الذاتي.

ثم إن مصانع تشيكوسلوفاكيا واقعة في شمالي بوهيميا ومورافيا وسيلسيا، في الأراضي التي يتكلم سكانها الألمانية، لذلك لا تتساهل حكومة براغ في استقلال الألمان السوديت، لأن ذلك يؤدي إلى خسران البلاد التشيكوسلوفاكية مصانعها الهامة التي هي من أعظم مواردها الاقتصادية. إن لم تكن أعظمها، وإلى استيلاء ألمانيا عليها

ومن نتائج وجود المصانع التشيكوسلوفاكية في الأقاليم المأهولة بالألمان، تأثر سكان هذه الأقاليم الصناعية بالأزمة الاقتصادية. ومن الطبيعي أن التذمر من الأزمة الاقتصادية يؤدي إلى التذمر السياسي. فأخذت الأقلية الألمانية تتهم حكومة براغ باتباع سياسة التحيز، سياسة السهر على مصلحة التشيك بإيجاد أعمال لهم، وعدم الاعتناء بالعاطلين الألمان؛ واتسع باب التذمر وتعدى الحدود الاقتصادية إلى الحدود الثقافية والإدارية فأفهمت الأقلية الألمانية

حكومة براغ أنها لا تراعي حقوق الأقلية في التعليم واستعمال لغتها، ولا في تعيين الموظفين، بل هي تخالف في أعمالها معاهدة الأقليات المؤرخة في 10 سبتمبر 1919

وكانت نتيجة هذا التذمر نزاعاً بين الأقلية والحكومة، أدى إلى احتجاج الأقلية الألمانية على الحكومة التشيكوسلوفاكية في عصبة الأمم. وأدى هذا النزاع إلى توليد البغض الشديد بين التشيك والأقلية الألمانية

لم تبق المشكلة التشيكوسلوفاكية مشكلة محلية، أي مشكلة أقليات، حسب تعريف الرئيس مازاريك، بل أصبحت منذ استلام النازي زمام الحكم في ألمانيا مشكلة دولية بتدخل ألمانيا في سياسة تشيكوسلوفاكيا عن طريق الأقلية الألمانية. والأقلية الألمانية في تشيكوسلوفاكيا ليست حزباً واحداً بل هي أحزاب، منها من يريد الانضمام إلى ألمانيا، ومنها من يريد البقاء متحداً مع حكومة براغ. ولما تسلم الحزب النازي الحكم رضى متطرفو الألمان في تشيكوسلوفاكيا به، وأظهروا ميلهم إليه، وقاموا بحركات عدائية نحو حكومة براغ، مما أدى إلى حل الحزب الألماني القومي والحزب الاشتراكي القومي. وبعد ذلك بقليل قامت حركة جديدة بين الألمان السوديت بقيادة الهر هنلين، فعظم شأنه وقوى حزبه

وقف الهر هنلين موقفاً يخالف موقف بقية زعماء الألمان في تشيكوسلوفاكيا، إذ هم يعملون على إنالة الأقليات الألمانية حقوقها التي جاء ذكرها في معاهدة الأقليات مع بقائهم ضمن وحدة الجمهورية. أما الهر هنلين فطالب باستقلال السوديت الذاتي، وتدخل في سياسة تشيكوسلوفاكيا الخارجية. وذلك صريح من خطابه الذي ألقاه في مؤتمر كارلسباد في 23 إبريل سنة 1938 إذ قال بعد أن ذكر مطالب حزبه الثمانية:

(إننا نعلن رسمياً وبصراحة أن سياستنا مستمدة من المبادئ والأفكار الاشتراكية القومية - مبادئ النازي - فان كان سياسيو التشيك يريدون الوصول إلى تفاهم دائم معنا نحن الألمان، ومع الرايخ الألماني، فعليهم أن يلبوا مطلبنا في التغيير التام لسياسة التشيك الخارجية التي قادت الحكومة حتى اليوم إلى صفوف أعداء الشعب الألماني)

أما المطالب الثمانية فتتلخص فيما يلي:

1 - المساواة التامة بين التشيك والألمان في المنزلة
2 - ضمان هذه المساواة بالاعتراف للسوديت الألمان بكيان شرعي
3 - تحديد المناطق الألمانية ضمن نطاق تشيكوسلوفاكيا والاعتراف بهذه المناطق قانونياً
4 - منح هذه المناطق الاستقلال الذاتي التام
5 - منح الحماية القانونية لكل مواطن يقيم خارج المنطقة الخاصة بجنسيته
6 - إزالة المظالم التي نزلت بالسوديت الألمان منذ عام 1918 وتعويضهم عنها
7 - الاعتراف بالمبدأ الذي يقرر توظيف الألمان في المناطق الألمانية
8 - منح الحرية التامة لمن يرغب في الجنسية الألمانية

والهر هنلين يعمل على تنفيذ السياسة النازية الرامية إلى احتلال ألمانيا البلاد التي تتكلم أكثرية سكانها اللغة الألمانية، وإلى إلغاء المعاهدتين اللتين تربطان فرنسا وروسيا بتشيكوسلوفاكيا، واللتين تضمنان لها استقلالها. وهذه السياسة ليست سرّاً، فقد صرح الهر هتلر في خطابه بتاريخ 20 فبراير 1938 مذكراً الريشتاغ (إن ما يزيد على عشرة ملايين من الألمان يعيشون في بلدين مجاورين لحدودنا). وأضاف إلى ذلك قوله: (إن ألمانيا الحالية تسهر على مصالح الريخ الألماني الذي من مصلحته حماية هؤلاء الألمان الذين يعيشون وراء حدودنا، والذين هم غير قادرين على نيل حقهم في الحرية العامة، والشخصية، والسياسية، وفي اتباع مثلهم الأعلى). وقد أجاب الدكتور هودزا رئيس وزراء تشيكوسلوفاكيا في 4 مارس على ادعاء حماية الألمان لحكومة براغ بأنها (تعني تدخلاً في شؤون بلادنا الداخلية، وإذا كانت ملاحظات الهر هتلر تعني محاولة التدخل في شؤوننا الداخلية - تدخلا يتعارض مع مبدأ الاعتراف بسيادة الدول الأخرى - فان الحكومة التشيكوسلوفاكية تمج ذلك كثيراً، وهي لا تترك أحداً يشك في أن سكان هذه البلاد سيدافعون عن جميع عناصر استقلالهم كدولة بجميع ما لديها من قوى حينما يعتدي على هذه العناصر. . .)

وبعد أسبوع اتخذت المشكلة التشيكوسلوفاكية شكلها الخطر على سلام العالم. لأنه في 11 مارس اجتازت الجيوش الألمانية الحدود النمساوية، وفي 13 مارس أعلن ضم النمسا إلى ألمانيا، فأصبح في عشية وضحاها ثلثا عشرة الملايين الذين جاء ذكرهم في تصريح الهر هتلر في 20 فبراير مواطنين ألمانيين. عندئذ أخذ السياسيون يتساءلون عن مصير الثلث الثالث؛ هل تعامله ألمانيا كما عاملت النمسا؟ ولكن وضعية هذا الثلث الدولية ليست بسيطة

كما كانت وضعية النمسا لأن فرنسا وروسيا لا تقفان مكتوفتي الأيدي أمام اجتياز الجيوش الألمانية تشيكوسلوفاكيا؛ وفي ذلك خطر على السلام ومن جراء ذلك تنشأ حرب عالمية

وفي الواقع لم تتردد فرنسا في إظهار موقفها إذ هي في اليوم التالي لضم النمسا إلى ألمانيا أكدت بكل صراحة وعزم، أن فرنسا تنفذ تعهداتها لتشيكوسلوفاكيا المذكورة في معاهدتي 25 يناير 1924و16 أكتوبر عام 1925؛ وفي 15 مارس أعلنت روسيا بأنها ستقوم بواجباتها نحو تشيكوسلوفاكيا التي تقتضيها معاهدة الدفاع المتبادلة المؤرخة في 16 مارس عام 1935. وفي 14 مارس رفض رئيس الوزارة البريطانية التعهد لتشيكوسلوفاكيا بمساعدتها حين التعدي عليها؛ غير أنه ذكر أن القوى البريطانية تساعد الدولة المعتدي عليها في نظر حكومة جلالته. ثم أضاف منذراً: (إنه عند ما ينظر في السلم أو الحرب لا تراعى فقط الواجبات الحقوقية. . . وإنه من المحتمل أن بلاداً أخرى بجانب البلاد التي هي داخلة في النزاع تصبح حالا فريقاً فيه. وهذا الحكم صحيح بصورة خاصة على بريطانيا العظمى وفرنسا) ومعنى ذلك أنه إذا دخلت فرنسا الحرب لإنقاذ تشيكوسلوفاكيا فان بريطانيا ستكون بجانبها

كان لهذه الإنذارات الثلاثة وقع شديد في برلين، وكان من نتائجها أن حفظ استقلال تشيكوسلوفاكيا، وفتح باب المفاوضات بين حكومة براغ والهر هلنين لحل مشكلة السوديت. وقد نصحت حكومتا لندن وباريس حكومة براغ بالتساهل مع رعاياها الألمان. وكانت حينئذ حكومة براغ آخذة في وضع نظام الأقليات، فتقدم حزب السوديت الألماني إليها في 7 يوليو (تموز) عام 1936 بمذكرة عرض عليها فيها الدخول في مفاوضات على أساس تحقيق المطالب التي جاء ذكراها في المذكرة.

وكان من المتفق عليه أن يظل محتوى المذكرة مكتوماً خلال المفاوضات بين الحكومة ورؤساء الأحزاب لتسهيل سيرها. وكان مفهوماً حينئذ أن مضمون هذه المذكرة لا يختلف عن المطالب الثمانية التي أعلنها الهر هنلين في خطابه الذي ألقاه في كارلسبارد في 23 أبريل.

اجتمع الدكتور هودزا في 9 يونيو (حزيران) مع مندوبي الهر هنلين وباشروا المفاوضات. وفي 15 منه صدر بلاغ رسمي مشترك يشير إلى أن الاتفاق تم على أن تكون مذكرة السوديت ونظام حكومة بشأن الأقليات بمثابة أساس مفاوضات بين الحكومة والسوديت.

في 19 يوليو (تموز) نشر حزب السوديت الألماني المذكرة برغم أن المفاوضات مع الحكومة كانت لا تزال في دورها الأول وأن نصوص نظام الأقليات لم يعلم بعد، وهي تحتوي على 14 طلباً رئيسياً، يستخلص منها ولا سيما من الطلبين الخامس والسادس أن الألمان السوديت يريدون تنظيم الحكومة من جديد بصورة يصبحون فيها مستقلين تمام الاستقلال في إقليم السوديت، وفي الوقت عينه يكون لهم صوت معادل لصوت التشيك في إدارة شؤون الدولة التشيكوسلوفاكية. وطلبات السوديت الألمان تعني في نظر براغ أن كل ألماني سيملك (استقلالاً ذاتياً) يعطيه حقاً باتباع مجموعة أقسمت يمين الطاعة إلى (زعيم) لا إلى الدولة، وأن مثل هذه المجموعة ستكون منظمة ومداراة حسب طريقة النازي، فالنتيجة تكون تأسيس دولة أوتقراطية ضمن دولة ديمقراطية!

فهذه النقطة تظهر البون الشاسع بين مطالب الألمان السوديت وبين ما تريد حكومة براغ منحهم من الامتيازات.

نعم إن نظام الأقليات لم يعلم مضمونه بعد بصورة رسمية، غير أننا نعلم رسمياً أنه لا يحتوي على استقلال ذاتي لأي مقاطعة مّا من مقاطعات البلاد التشيكوسلوفاكية، وأن الحكومة مستعدة لقتل كل حركة انفصالية. ذلك ما صرح به رئيس الوزارة في 7 يوليو (حزيران) ووزير الحقانية في 8 منه.

وقد نشر في 27 يوليو 1938 بطريق غير رسمي أن نظام الأقليات يتضمن ثلاثة عشر قسما، تحتوي:

- على مساواة بين جميع الموظفين بدون تمييز بين العناصر التابعة لها
- وعلى حرية انتخاب الجنسية التي يريدها المرء متى بلغ الثانية عشر، على أن يكون ملماً بلغة تلك الجنسية. أما اليهود فيحق لهم انتخاب الجنسية اليهودية - دون معرفتهم اللغة العبرية
- وعلى حماية الجنسية الشخصية، بعقاب كل من يحاول تحويل جنسية آخر.
- وعلى نظام التمثيل النسبي للعناصر في الوظائف وفي الشؤون الاقتصادية، كالإعانات والأشغال العمومية
- وعلى النسبة في التعليم والاستقلال الذاتي للأقليات في التعليم والتربية

وعلى كل حال فقد حلت المفاوضات بين حكومة براغ والسوديت الألمان الأزمة التشيكوسلوفاكية، ولكن هذا الحل ظاهري؛ فظلت هجمات الصحافة الألمانية شديدة على سياسة الحكومة التشيكوسلوفاكية. ولم يكف الرجال المسؤولون في حكومة برلين عن التصريحات العدائية الشديدة ضد حكومة براغ. وكان الموقف، ولا يزال، معقداً وخطراً على السلام، مما أدى إلى تدخل حكومة لندن تدخلاً فعلياً في المشكلة التشيكوسلوفاكية. فقررت بالاتفاق مع باريس: إيفاد اللورد رنسيمان إلى براغ ليكون محققاً ووسيطاً في مسالة الأقليات. فقبلت حكومة براغ وساطة بريطانيا، ووافق السوديت على تحكيم اللورد رنسيمان

ويستخلص من إيفاد اللورد رنسيمان إلى براغ نتيجتان قوبلتا بالارتياح وهما: (أن الوصاية التي تتولاها إنكلترا تستلزم عند الاقتضاء كفالة أو ضماناً، وأنه قد زاد الأمل في الوصول إلى اتفاق سلمي وضعف الخطر الذي كان يخشى من استخدام القوة) كما يقول مسيو بلوم رئيس وزارة فرنسا السابق، في جريدة البوبلير

ولكن هل يوفق اللورد رنسيمان في إيجاد حل ملائم لهذه المشكلة يرضي براغ من جهة، وبرلين والألمان السوديت من جهة ثانية؟

إن مهمة اللورد رنسيمان صعبة، إذ عليه التوفيق بين وجهتي نظر متعارضتين. فألمانيا

ترمي إلى أبعد من إزالة المظالم عن الألمان السوديت وإعادة حقوقهم إليهم. وأقل حل تقبله ألمانيا، وبالتالي يقبله السوديت الألمان، هو استقلال السوديت الألمان استقلالاً ذاتياً، واتباع حكومة براغ سياسة خارجية لا تتضارب مع سياسة الرايخ الخارجية، وذلك بترك حكومة براغ معاهدتي الدفاع مع فرنسا والروسيا، واتباع سياسة تتمشى مع سياسة حكومة برلين، أو على الأقل اتخاذ خطة حيادية شبيهة بوضعية بولندا. واتباع إحدى هاتين الخطتين، في نظر حكومة براغ، لا يتفق مع بقاء البلاد التشيكوسلوفاكية بلاداً مستقلة. وهي تؤدي إلى انضمام الأقاليم التشيكوسلوفاكية المأهولة بالألمان إلى ألمانيا، وإلى زوال الحصن العائق من طريق ألمانيا إلى أوربا الجنوبية والشرقية، وإلى تمكين ألمانيا من استئناف السياسة التي أحبطتها الحرب العالمية عام 1918.

ربما تقبل ألمانيا الآن حلا آخر أقل ملائمة لها، ولكن ذلك الحل لا يكون في نظرها إلا مؤقتاً. وفي الواقع اقترحت ألمانيا عقد مؤتمر رباعي من بريطانيا وألمانيا وفرنسا وإيطاليا لإيجاد اتفاق - مؤقت - لحل المشكلة التشيكوسلوفاكية. وفي اقتراحها هذا تريد تأجيل حل المشكلة التشيكوسلوفاكية إلى أوقات أكثر مناسبة لتحقيق سياستها، وفي الوقت عينه تحاول إقصاء الروسيا عن كل اتفاق يتم بشأن حليفتها تشيكوسلوفاكيا

وعلى كل حال ستظهر لنا الأيام القريبة نتيجة جهود اللورد رنسيمان. وسنرى ما يقترح من حل لهذه المشكلة المعقدة الخطرة على سلام أوربا

يوسف هيكل

حواء

يقول لي الأستاذان أديب عباسي وجمعة الطوال إن مقدمة قطع حواء في الرسالة الزاهرة لا تفي حق حواء فأجيبهم:

كل معروض يدعوا له غيره إلا الشعر فانه يدعو بنفسه لنفسه

(الناظم)

فم يضحك

تلمّستُ وجهكِ بين الوجوه ... ووجه الحقيقة لا يُدركُ
فلم أدرِ أيَّ دروب الحياة ... إلى دَرْكِ غايته أسلك
هُواتُكِ ما فتئوا حائمين ... على نور وجهكِ أو يهلكوا
تراموا إليه حفاةَ العقول ... فما أدركوه ولا أوشكوا
ولو بصروا من وراء الدموع ... دموع الهوى بكِ لم يأفكوا
ولا كشفت سخريات الوجود ... لأعينهم عن فم يضحك
رمز الحقيقة

(ختام الديوان)

جهلتُ الحقيقةَ بين القصور ... وأخطأتها في ضِلال الشجر
تلمّستها في صَميم الحياة ... وفتشت عنها بطون السير
وقلّبت من صحف الكائنات ... صحائف تحمل شتى الصور
فلم أدر أيّةُ أرض تحلّ ... ولا أيُّ أفق لها مُستقَرّ
أفوق السما هي بين الملا ... ئك أم هي في الأرض بين البشر؟
وكم خضتُ في غمراتِ السكون ... وأنعمتُ في صفحتيهِ النظر
أسائل عنها بهيم الظلام ... وأنشدها تحت ضوء القمر
فما بهر العين منها الضياء ... ولا رنَّ في السمع منها الوتر
ولما توسدتُ بين القبور ... ضريحك أدركتُ بعض الأثر
وقلتُ الحقيقة تحت التراب ... ورمز الحقيقة هذا الحجر

الحوماني

صلاح الدين وموقعة حطين

من أمين الريحاني

إلى محمد إسعاف النشاشيبي

قرأ الأستاذ أمين الريحاني خطبة الأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي في (موقعة حطين) فكتب هذا الكتاب ومنه قوله:

حيا الله الأخ الأعز، والصديق الأبر)
حبر أحبار اللغة العربية، حياه الله
كبير أنصار الوحدة القومية، حياه الله
رافع أعلام النبوة الخضراء والحمراء
لإعزاز العرب
ولبلوغ الأرب
ولهدْى من اغترب - حيَّاه، حياه الله
النافخ في الصور، المنهض المحرّض المثير، حياه الله
بحر البلاغة الزاخر، وأفق المعاني الباهر، ومرج البيان الساحر، حيّاه الله
إن بيانه لإعصار فيه نار
وإنه لسماء تتلألأ بالأنوار
وإنه لبستان قلبه من النرجس وعينه من الجلّنار
وإنه لمعرض من بنات الأفكار، بنات العرب الأبكار
معرض الحب والجمال
من بنات السهول
وبنات البوادي
وبنات الجبال
بنات العروبة والاستقلال، حياه، وحياهن الله
والسلام والصلاة على كل من يردون التحية، ويسارعون فزعين مناصرين
الله أكبر، الله أكبر، والوطن الأعز الأقدر، والاستقلال الأتم الأنور.
الله والوطن والاستقلال
الله والوطن والاستقلال
لا حياة دون الثلاثة لأمة
ولا مجال، حتى لشبح من الآمال
إن لندائك صوتاً بعيد الصدى والقرار
وإن بيانك لجدير بإكليل من الغار
وبتهليل الأحرار
وبصلوات الأبرار
وإن إيمانك وإيماننا لمن لدن الجبار، رب العلم والاقتدار
القائل بلسانك ولساني: اليوم جهاد وغداً انتصار
أمين الريحاني
وهذا قسم من تلك الخطبة وهو خاتمتها:
(محمد بن عبد الله، محمد بن عبد الله!
نحن جماعتك، نحن شيعتك، نحن منتمون إليك، منتمون إلى قرآنك، منتمون إلى دينك
هل تريد أن نبيد، هل تريد أن يبيد قرآنك، أن تبيد لغتك هل تريد أن تضيع بلادك، أن تهلك أمتك؟؟
محمد!
أدركنا، أنجدنا، خلّصنا، أنقذنا، نجِّنا، إن الأعادي تداعت من كل صوْبٍ علينا، ونحن في الدنيا جنودك، ونحن في الدنيا رجالك!!
أبا القاسم، أبا القاسم!
إن التخلي عن الأحباب يوم الضنك، يوم الضيق، يوم البؤس، يوم الكرب - ممقوت أبا القاسم، أبا القاسم، إنا لسنا بالحريصين على الحياة، إنا لسنا بالحريصين على بقاء، إنا لسنا بالحريصين على هذه الدنيا وزينتها وزخرفها.
البقاء والفناء عندنا سواء، الحياة كالممات، والممات كالحياة. الوجود كالعدم، والعدم كالوجود
أبا القاسم، أبا القاسم! إنا إنما نبغي أن تكون في الدنيا من أجلك لأجلك، لأجل قرآنك، لأجل
لغتك، لأجل عربيتك. ولولا أنت، لولا أنت لصحنا: حيَّ على الفناء، حيهل بالفناء، وعلى الدنيا العفاء

هاتف من وراء الغيب يقول: لا تحزنْ، لا تيأس، لا تقنط نور الدين، صلاح الدين، حطين
إنْ خذل قرآني، إن خذل ديني، إن خذل إسلاميتي، إن خذل عربيتي، متسمَّى بالخليفة
. . .في بغداد، متسمى بالخليفة في القاهرة متسمى بالخليفة في المغرب
إن خذلني سلاطين مشتغلون بالملاهي، قد ألهتهم عني بنات الليل. وإن أولئك، وإن
. . .هؤلاء إلا أسماء، إن هم إلا هواء
إن خذلني خاذلون (كرِهَ اللهُ انبعاثهم فثبَّطهم وقيل: اقعدوا مع القاعدين)
إن خذلني خاذلون مخذولون فعندي عندي محمديان، بكريان، عمريان، علويان: عندي
بطلان، عندي سيفان من سيوف الله المدخرة ليومٍ باسلٍ ذي أيام. كل واحد بأمة، كل
واحد بأممٍ جَّمة، كل واحد بجميع قطين الأرض
:عندي بطلان يجيئان وينقذان بلادي وأمتي وديني وقرآني وعربيتي ولغتي. خذ، خذوا
محمود بن الشهيد ويوسف بن أيوب؛ ثم اذهب واذهبوا، واشهدْ واشهدوا موقعة
!!!حطين
قد أمسى الصليبيون في الهالكين (وكم أهلكنا قبلهم من قَرْنٍ، هل تُحس منهم من
أحد أو تسمع لهم رِكزًا)
!!!حِطْين، حطين، حطين
لولا حطين، لولا حطين لهلك المسلمون
لولا حطين لاضمحلت لغة الضاد. يوم بَدْر، يوم اليرموك، يوم حطين
أيها الغربيون، ارجعوا إلى بلادكم مذمومين مدحورين، انقلبوا إلى دياركم خائبين
!مقهورين
أيها الغربيون! علمكم نور الدين وصلاح الدين ما لم تكونوا تعلمون: علماكم المروءة
والوفاء، ومكارم الأخلاق والعدل، وأن تكونوا متمدنين مهذبين. لكنكم، لكنكم تلاميذ
ألفينا كم بعد قرون (أرى الله بكم) جهالاً أغماراً، غير كرام، غير متمدنين، غير مهذبين
نورَ الدين! صلاح الدين! إن القوم قد رجعوا، إن القوم قد عادوا، وأعادوها بعد قرونَ
جَذَعة
اللنبي، غورو، قد أتانا ما قلتما، فتعلَّما أنها لما تنتهِ
أيها الغربيون! هذى بلادنا، هذه الدار دارنا، زايلوا بلادنا، غادروا بلادنا. إنا لكم،
ولسلطانكم، ولوجوهكم (شاهت وجوهكم، لا حياها الله وجوها) ولمدنيتكم الممّوهة
الكاذبة المزورة، ولظلمكم ولجوركم، ولانتقامكم - من القالين، من المبغضين، من
. . .المنكرين، من الجاحدين، من الكافرين
هذى البلاد بلادنا. اخرجوا من بلادنا! إلى بلادكم! إلى بلادكم أيها الطارئون
. . .هناك محمد، هناك محمد
. . .(والدهرُ بالناس دوّاريٌّ)
. . .والدنيا دول
(. . .وتلك الأيام)
(ووراء الغيب ما وراء الغيب)
!حنظل وتفاح
للأستاذ عبد المنعم خلاف
سقيتني يا دنيا بكأسيك في يوم واحد! وكنت شاعرة حاذقة حين قدمت إلى هاتين
الكأسين في وقت يكاد يكون واحداً؛ حتى امتزجت في مذاقي المرارة بالحلاوة. . .
وكنت صديقة مخلصة ناصحة في معاملتي حينذاك
قدَّمت إلى كأس الحنظل حين توجهت معزياً إلى عش ذي أفراخ زغب طارت عنه
صاحبته وبانيته: أمهم الحمامة الوديعة التي أتت بهم خمسة متلاحقين، ثم مضت عنهم
. . .وخلَّت بينهم وبين أبيهم
وجلست أنظر فيهم من الصغير إلى الكبير - وسنه ثلاث عشرة سنة - ثم أحادث أباهم
الواجم الباسم الحمول. . . ثم أطير بخيالي فجأة إلى قبر الحمامة الولود. . . ثم أرجع
إلى نفسي أختزن فيها قوتها من بيدر الحزن الرفيع الذي أمامي، لأن مادة نفسي في
. . .مجاعتها
. . .قال لي الفرخ الأصغر: أمي سافرت إلى بعيد، وسترجع، ومعها حلوى ولعب
فقال الذي يليه: لا، أمي ماتت وبكيت عليها مع النسوان. قال هذا وهو يضحك،

فطفرت الدموع إلى عين الأكبر وحَدَرت، فخرج من الحجرة ليخفي البكاء وخرج وراءه أبوه، ووقفت أخته على باب بيننا وبينها، وارتسمت علامات وجوم متدرجة على وجوه الأطفال بحسب أسنانهم وإدراكهم، وبقي الأصغر يضحك وأنا معه أضحك بدموع، وأرشف من الكأس المرة!

ماذا عسى الأب أن يقول لابنه الأكبر الباكي في مثل هذه الحالة ليصرف عنه البكاء؟ أيقول له إن أمك مسافرة وسترجع إليك بحلوى ولعب؟ لا يصدق. . . أيقول له: سلم لله لأن الموت آخر الحياة، وهو منجل يحصد العاهل والباهل. . . وما إلى ذلك من (أجرومية) التعازي؟ لا يفهم ذلك لأنه لم يبلغ مبلغ من تطفئه هذه الأفكار. . . إذاً فالأولى أن يتركه حتى يذهب عنه وجدان الحزن فتجف دموعه وحدها

وشعرت كأن روح الأم حضرت البيت في ذاكرة الأطفال إزاء هذه الأزمة النفسية فبكى قلبي، وتكلفت المبالغة في ملاعبة الأصغر حتى ألهيه عن أخيه وعن نفسي، وجلست برهة

. . .ثم نهضت مثقلا

لو أننا نخدع في إدراك المصائب كما خدع الأصغر، أو لو أننا ندركها باردة بسيطة كما أدركها الذي يليه، أو أننا ندركها إدراك ذلك الأب الصبور الحمول العارف بقوانين الحياة، لكان في هذا نجاة من وطأتها على نفوسنا. أما أن ندركها إدراك كبير هؤلاء الأطفال من غير علة ولا تَعِلَّة وعزاء، فذلك أشد الألم، لأنه ألم المصيبة وألم الحيرة في إدراك أسبابها وعلاجها. هذه كأس حنظل . . .

وأما الأخرى فقد تناولتها من يد الدنيا في عشية ذلك اليوم نفسه في عش يبنى لفتى وفتاة. . . والمدعوون جالسون كل منهم باش يرسل نكتة أو يضحك من نكتة، وفرح الحياة يترقرق في الوجوه ترقرق الشراب في كؤوس بلورية

وكان على شفتيّ بقية من كأس الحنظل التي شربتها في الصباح فوجدت طعمها فيما قدم إلي من شراب العرس. وهنا أدركت أن دنياي شاعرة حاذقة، وأنها ابتدأت تصاحبني بصدق. وشربت كأس التفاح وأنا أجمجم بكلمات خفية كما يجمجم المجوس على الطعام. . . وكانت هذه الكلمات قصائد وصلوات تلاها في حلقي ذاك المزيج الذي ذقت فيه خلاصة صنعة الدنيا الشاعرة. . والذي تحولت قطراته إلى كلماتها الآتية:

(اشرب! اشرب! ولا تخش السكر من هذه الكأس التي مزجتها لك بيدي! فإن ما فيها من أضداد تصطرع، كفيل بأن يترك عقلك دائماً في غاية الصحو. . . اشرب ولا يحاول لسانك أن يميز بين عنصري هذا المزيج فيُبَلبَل ولا يستطيع البيان. . . اشرب وإنظرني دائماً في قرارة الكأس متجسدة عارية لعينيك. . .

. . .اشرب واحتفظ بمذاق هذا الشراب دائماً حتى تستطيع تقدير الطعوم الأخرى اشرب وأحذر أن تحدث من يحيطون بك في مجلس العرس بما تجد في كأسك فيقولوا عنك: (هذا سكران يهذي. . .)

(طالما شربتَ من كأس الحنظل وحدها حتى سكرتَ بالألم فوقعت منك الكأس وتحطمت. . .

وطالما شربت من كأس التفاح وحدها حتى سكرت من اللذة فوقعت منك الكأس وتحطمت. . .

وقد تعودتم أن تضيفوا لفظة (السكر) إلى اللذة وحدها. ألا وإن للألم سكراً لا يقل شناعة وطيشاً وهذياناً وسفهاً عن سكر اللذة!

انظروا إلى أبي العلاء المعري! إنه عندي لا يقل إثماً عن الأعمى الآخر بشار، ولا عن أبي نواس!

. . .لقد غرق المعري في كأس الألم وغرق الآخران في كأس اللذة ففقدتهم جميعاً

لقد أتى المعري بهذيان كثير جعله يخرج عن دائرة الحياة العاملة ويعيش جامداً على هامشي أنا الحركة الدائمة العنيفة المنتظمة، يرصدني من بعد في محبسيه بعينيه المغلقتين، ويلمسني في خشونة وجهه المجدور، ويذوقني في طعامه المحدود، ويستنشق أجوائي في محبسه الضيق الخانق، ويراني عدماً وفقداً لأنه أنهى حبل النسل الذي تناهى إليه آدم. . . فهذى في كثير ولم يميز بين كثير من حقائقي وأباطيلي وحلاوتي ومرارتي وأزهاري وأشواكي، وكان الحرمان المطلق جذوة شعره وباعث سكره. . .

ولقد أتى الآخران بالهذيان المعهود لكم من سكارى اللذة الآثمة، وما زالا كذلك حتى ارتعشت يداهما وعجزتا عن حمل الكأس الفاتنة
رفع أبو العلاء الكأس طافحة بماء الحنظل لا يرى لها لوناً ولا يشم رائحة وليس له نديم. وقد طال وقوف الكأس على يديه حتى ساغت في حلقه على مرارتها، وشعشعها بالظلام الدائم الساكن في عينيه. تمر به مواكب الحياة بجليلها وحقيرها وجميلها وقبيحها فيراها من سكره بآلامه، جنازة موتي وكومات أنقاض. . . برغوثها كشحاذها يستحق الإحسان والإطلاق، وفرّوجها كشبلها يستحق الإجلال والخشية، وحشراتها وبهائمها تستحق الحياة الدائمة كإنسانها. . .
أليس هذا هذياناً كهذيان أبي نؤاس حين يرفع كأسه طافحة بماء العنب مشعشعة بنطاف دجلة وسناء الضحى ونور البدر، يصطبح ويغتبق ويعبث بحرمات الحياة في شغل عن دنيا الآلام الرفيعة والأمجاد والوصاية على مقدرات الأمم حتى (تكشفت له عن عدو في ثياب صديق) كما قال هو!
بلى! إنهما وجهان للسكر في الحياة بإدمان الشراب ذي العنصر الواحد الذي يجعل المدمن ينظرني من جانب واحد)
كذلك كانت الدنيا تحدث نفسي في مجلس بناء عش جديد بعد مجلسها في العش المنهدم. ولم أشعر بأن نفسي بلغت من الفقه والحكمة إلى حد أن تأكل التفاح بشفتين عليهما مرارة الحنظل كما شعرت بها في ذلك المجلس!
ولقد صحوت بعد ذلك من السكر المطلق بالألم كما صحوت من السكر المطلق باللذة. وسآخذ بوصية دنياي الصديقة الشاعرة لأظل دائماً يقظان صاحياً غير مخمور بنشوة ولا لوعة.
عبد المنعم خلاف
الطريقة العلمية
أو القواعد الأربع للبحث والتفكير
للفيلسوف الفرنسي الكبير رينيه ديكارت
بقلم السيد أحمد محمد عيتاني
رينيه ديكارت أشهر من أن يعرف، فهو أبو الفلسفة الحديثة، وواضع أسسها، وباني) كيانها، عاش في القرن السابع عشر، وألم بجميع فروع الفلسفة، وترك لنا مؤلفات عديدة فيها، كلها ذات قيمة فذة، لما احتوت عليه من الحقائق العلمية، والملاحظات الدقيقة، والنظريات والآراء التي أحدثت هزة عنيفة في عالم العلم والفلسفة، فغيرت مجرى بحوثهما، وحملتها على الاتجاه في اتجاه جديد كان نتيجة لها. من بين المؤلفات التي وضعها ديكارت، رسالة صغيرة، بسط لنا فيها موجز تاريخ حياته العلمية، وعرض الظروف والمناسبات التي ساعدته في الوصول إلى طريقته العلمية الخاصة، التي بنى عليها بحوثه العلمية والفلسفية، وقد أسمى هذه الرسالة (رسالة الطريقة أو القاعدة) ووضعها باللغة الفرنسية، فكانت أول مجهود فلسفي كتب بهذه اللغة، وكان في ذلك خروج على عادة الفلاسفة والعلماء الذين ألفوا أن يكتبوا أبحاثهم ويدرسوها باللغة اللاتينية، ولهذا كان أسلوب المؤلف في رسالته أسلوباً جامداً معقداً غامضاً في بعض المواضع، طويل الجمل، كثير اللف والدوران، يصعب فهمه لأول وهلة، ولكن هذا لم يضع من قيمة الرسالة، ولم يمنعها من أن تكون من أجل مؤلفات هذا الفيلسوف الكبير خطراً وأبعدها أثراً، لما اشتملت عليه من القواعد العلمية، والنظرات الصائبة. وفيما يلي فصل من فصولها، يصور لنا الظروف والمناسبات التي أحيط بها المؤلف قبيل وضعه قواعده الأربع التي صاغ فيها طريقته العلمية، واتبعها في قيادة عقله (للبحث عن الحقيقة والعلم الصحيح
(أحمد عيتاني)
كنت يومذاك في ألمانيا. وقد دعتني إليها مناسبة الحرب التي لم تكن قد انتهت فيما بعد، واتفق أني بينما كنت عائداً من حفلة تتويج الإمبراطور لألحق بالجيش، أدركني الشتاء، وأوقعني في إحدى الثكنات العسكرية، وهناك لم أجد ما ألهو به، ولم يكن لدي من حسن
حظي ما يشغل بالي من الشئون والأعمال، فكنت أقضي سحابة نهاري، منزوياً في غرفتي، حيث وجدت المجال الكافي من الزمن لأستعرض أفكاري وأخلو بها

اختلال الأعمال المكونة من جهود كثيرة متباينة
كان في طليعة تلك الأفكار ما لاحظته من أن الأعمال المكونة من أجزاء وأقسام كثيرة، إذا اشتغلت فيها عدة أيام، أصبحت وليس فيها من الروعة والإبداع ما في أشباهها من الأعمال الأخرى التي لم تمتد إليها سوى يد واحدة:
فالبناء الذي أشرف عليه وأنجزه مهندس واحد أكثر جمالاً ونظاماً من سواء من الأبنية التي عمل فيها الكثيرون، والتي رسمت مراراً، وبني على أسسها الهرمة أبنية لم تكن معدة لها.
وكذلك المدن القديمة التي أصبحت من الزمن مدنا كبيرة، بعد أن كانت قرى وضياعاً، فهي عادة فوضى في بنائها، إذا قيست بتلك المدن الحديثة التي وضع تصميمها مهندس واحد قبل المباشرة في بنائها. ونحن لو نظرنا إلى أبنية تلك المدن القديمة لوجدنا أن فيها ما لو أخذناه على حدة لما كان يقل فناً وروعة عن أبنية المدن الحديثة، ولكن نظرة واحدة تظهر لنا ما هي عليه من النظام والوضع: فهنا بناية كبيرة، وإلى جانبها أخرى صغيرة، وكلها تتحكم بالشوارع والطرق، فتردها متعرجة: عريضة هنا، ضيقة هناك.
وكذلك الشعوب المتوحشة سابقاً، تلك الشعوب التي لم تتحضر إلا شيئاً فشيئاً مع مرور الزمن؛ وبقدر ما كانت تدفعها إلى ذلك مغايرة الخصومة والنزاع للحياة فقد رأيت أن ليس بإمكانها أن تضاهي بنظامها تلك الأمم الأخرى التي عرفت الحضارة منذ أقدم العصور، فاجتمعت كلمتها وأجمعت على اتباع دستور واحد يضعه لها مشرع حكيم.
وكان في حكم الثابت لدي أن حكومة الدين الحق، هي مطلقاً وبدون منازع، خير الحكومات نظاماً، لأنها من صنع الله تعالى وحده. ولما لا نقصر كلامنا على الأمور البشرية؟ فأنا أعتقد أن مدينة إسبرطة إذا كانت قد ازدهرت قديماً فليس ازدهارها عائداً إلى أن كل قانون من قوانينها كان صالحاً في ذاته، فلقد كان في قوانينها شيء كثير مما هو غريب وغاير للحق القديم، وإنما ازدهارها عائد إلى أنها اتبعت تشريعاً واحداً، وضعه شخص واحد، كان يرمي في جملته إلى غاية واحدة.
ورأيت أيضاً أن ما تشتمل عليه الكتب والمؤلفات من علوم ونظريات، إنما تكوّن من آراء
كثير من الأشخاص المختلفين، شيئاً فشيئاً. لذلك لم يكن - أو على الأقل تلك العلوم التي لا تملك سوى أسباب تقريبية والتي لا يقوم عليها دليل ولا برهان - أقرب إلى الحقيقة، من ذلك التفكير البسيط الذي يقوم به شخص عادي ذو عقل سليم في بعض ما يعرض له من الأشياء.
هذا وقد بدا لي أيضاً أننا وقد كنا جميعاً أطفالاً، قبل أن نكون رجالاً، وأننا مكثنا زمناً طويلاً تحت سلطان أساتذتنا وسيطرة ميولنا، وهما ضدان، كلاهما لا يمحضنا النصح ولا يهدينا سواء السبيل، فمن المستحيل تقريباً أن نكوِّن لأنفسنا أحكاماً نزيهة ثابتة، كما كان شأننا لو وسعنا استعمال تفكيرنا منذ ميلادنا دون أن نركن لقيادة سواه
صعوبة الإصلاح العام
نعم، إننا لم نر أبداً من يدمر منازل مدينة ما لمجرد الرغبة في تجديدها وتجميل طرقها وشوارعها، ولكننا نرى كثيراً من الناس يهدمون بيوتهم بأيديهم ليعيدوا بناءها ثانية، وربما وجدوا أنفسهم أحياناً مرغمين على القيام بهذا العمل، حين يشعرون أنهم في خطر، وأن بيوتهم هذه ذات أسس واهية فهي تكاد تنقض على رؤوسهم. وعلى هذا فأنا موقن بأن ليس هناك إنسان واحد يحاول إصلاح دولة ما بقلبها رأساً على عقب، أو بتدميرها وبنائها ثانية؛ كما أني موقن أن ليس هناك شخص واحد يحاول إصلاح الهيكل العلمي أو نظام تدريسه السائد في المعاهد كلها
إمكان الإصلاح الخاص
أما آرائي وأفكاري التي تسربت إلى نفسي فلا أرى أفضل من نزعها عني تماماً لأعيد غيرها، أو أعيدها نفسها ثانية، أو أعيد قسماً منها بعد أن أحكم عقلي فيها، وبهذه الوسيلة أستطيع أن أنجح في حياتي نجاحاً أعظم مما لو بنيت على أسس خاطئة، أو استندت إلى مبادئ تلقنتها أثناء صباي، واعتقدت بها دون أن أمحص حقيقتها. ولقد شعرت أن عملي هذا لا يخلو من صعوبات جمة، إلا أنها صعوبات يمكن تذليلها، وهي لا

تماثل تلك الصعوبات التي يجدها المرء في إصلاح أيسر الأمور التي تمس المجتمع: فالأجسام الضخمة هذه، إذا هدمت فهي صعبة البناء، وإذا هزت فهي صعبة الإمساك، وإن سقوطها
لابد أن يكون قاسياً
أثر العادة في الشئون العامة
هذا، ولو كانت هناك مساوئ في بعض شؤون المجتمع، وهي مساوئ لابد من وجودها، ينم عليها ما بين شؤون المجتمع وأموره من تباين وتناقض، فالعادة ولاشك قد لطفت كثيراً من حدتها، وأصلحت الشيء الكثير منها، وجعلتنا نتحاشى منها ما لم يكن في الإمكان تحاشيه بمهارتنا. أضف إلى ذلك أن احتمال هذه الأمور - على ما فيها من مساوئ - أيسر من تغييرها. وما مثل ذلك إلا مثل الطرق التي تسير بين منعطفات الجبال، فهي تصبح مع الزمن طرقاً منبسطة ملائمة للسير من كثرة ارتيادها، ويكون أيسر على المرء أن يسلكها من أن يحاول السير في خط مستقيم، متسلقاً النجاد وهابطاً الوهاد
غاية ديكارت في رسالته
لذلك لا أستطيع مطلقاً أن أفهم تلك الطائفة من الناس ذات الأمزجة الثائرة، والعقول الحائرة؛ تلك الطائفة التي لا تنفك تفكر في أن تدخل على شئون المجتمع شيئاً من التقويم والتعديل، وذلك رغماً عن أن ليس لها من المكانة والجاه ما يؤهلها لذلك. ولو أني رأيت في رسالتي هذه ما يبعث على اتهامي بهذا الضرب من الجنون لكنت جد أسف، ولأحجمت عن نشرها، لأن غايتي منها لم تتعد مطلقاً ما أريده من إصلاح آرائي الشخصية، لأبني فيما بعد على أسس هي ملك لي كلها. وإذا أخرجت إلى الناس هذا النموذج من عملي، وقد راقني بعض الشيء، فليس معنى ذلك أني أدعوهم للضرب على وتيرتي، لا! فأنا أخشى اجتراء الكثيرين على ذلك، فأن إرادة النفس على التجرد من جميع ما اكتسبه قديماً من الآراء، لا يجب أن يكون مثالاً يحتذيه كل إنسان. ذلك لأن العالم يشتمل على نوعين من العقول البشرية، وكلاهما لا يصلح له هذا العمل أو هذا المثال
فالنوع الأول هو تلك العقول التي تقدر ذاتها أكثر مما هي حقيقة، فلا تتمالك من أن تتسرع في أحكامها، ولا تجد من الصبر ما يكفي لأن تقود تفكيرها بانتظام. ومن هنا ينتج أنها إذا منحت نفسها حرية الشك فيما تلقنته من المبادئ، وحادت عن الجادة العامة، ولو مرة واحدة، لم تعد تستطيع أبداً الاهتداء إلى الطريق التي يجب أخذها للسير في طريق قويم،
فتبقى تائهة طيلة حياتها
والنوع الآخر هو تلك العقول التي لها من التواضع وبعد النظر ما يحملها على أن ترى ذاتها أقل قدرة على تمييز الخطأ والصواب من بعض عقول أخرى، فهي ترى إمكان التتلمذ على هذه العقول، وهي ترى واجباً اتباع آرائها دون أن تكلف نفسها عناية البحث عما هو خير منها
أما أنا فلقد كنت ولاشك في عداد تلك الطائفة الأخيرة، لو لم أتتلمذ على أكثر من أستاذ واحد، ولو لم أطلع على ما بين آراء الفلاسفة من تباين وتناقض، في كل عصر وزمن، فلقد لمست منذ أيام الدراسة أن ليس هناك ما يمكن أن يتصوره العقل مما يدعو إلى الدهشة ويجل عن التصديق إلا ويكون قد أثر عن الفلاسفة وعزى إليهم
العرف والمعرفة الصحيحة
ولمست وأنا أتجول وأتنقل أن جميع أولئك الذين تتضارب أخلاقهم وعاداتهم مع أخلاقنا وعاداتنا ليسوا برابرة ولا همجاً لمجرد هذا التضارب، بل أن فيهم كثيرين ممن يعقلون مثلما نعقل أو أكثر مما نعقل. ولاحظت كم يكون الشخص الواحد ذو العقل الواحد إذا نشأ في وسط إنكليزي أو فرنسي مختلفاً عن نفسه، فيما لو نشأ في وسط صيني أو هندي. بل وجدت أن الزي الواحد من أزيائنا الذي كان يروقنا منذ عشر سنين، والذي ربما راقنا بعد عشر سنين أيضاً، قد يبدو لنا الآن غريباً مزرياً. وهكذا يتدخل العرف وتتدخل العادة لا قناعنا أيضاً أن ليس هناك معرفة أكيدة صحيحة
القواعد الأربع
إذاً فلم يكن في مقدوري اختيار شخص يبدو لي في آرائه ما يدعوني إلى إيثارها على

آراء سواه، وبذا ألفيتني مرغماً على أن أقود نفسي بنفسي، ولكني عزمت على أن أسير متمهلاً كمن يسير وحده في الظلام، وأن أتفطن إلى كل شيء بحيث لو لم أتقدم إلا ببطء احترست على الأقل من الزلل. وقد أبيت المباشرة بنزع أية فكرة من الأفكار التي تسربت إلى نفسي عن غير طريق العقل قبل أن قضيت زمناً طويلاً في تهيئة خطة العمل الذي حملت نفسي عليه، والبحث عن الطريقة القويمة التي توصلني إلى كل ما يستطيعه عقلي

كنت درست في صباي بين فروع الفلسفة شيئاً من المنطق، ودرست بين الرياضيات الجبر والتحليل الهندسي، وهي ثلاثة علوم أو فنون كان ضرورياً أن أجد فيها شيئاً مما شرعت في البحث عنه، ولكني عند فحصها وجدت أن قضايا المنطق ومعظم تعاليمه تستعمل لبيان ما يعرفه الناس لا لتعليمهم ما يجهلون، أو هي كفن لول تستعمل للتحدث دون ما تفكير فيما نجهله من الأشياء، وأنها وإن اشتملت على كثير من القواعد الصحيحة القيمة، فهي جامعة أيضاً لكثير من القواعد الزائدة أو الضارة، وهذه يصعب فصلها عن تلك كما يصعب إخراج تمثال للآلهة ديانا أو الآلهة مينرفا من قطعة من المرمر لم تقطع بعد. أما التحليل الهندسي القديم والجبر المحدث فهما لا يتناولان سوى معنويات ليس لها أية فائدة واضحة. فالتحليل الهندسي يقتصر على النظر إلى الأشكال الهندسية، ولا يجلوها إلا إجهاد الخيال إجهاداً عظيما. والجبر مستمسك بقواعد وأرقام جعلته فناً غامضاً مهوشاً يشوش العقل بدلا من أن يغذيه

كل هذا حدا بي إلى التفكير في وجوب البحث عن قاعدة تضم محاسن قواعد هذه الفنون الثلاثة وتكون بمنجى عن شوائبها، إلا أني رأيت أن كثرة القواعد والقوانين وتعدادها يسببان عادة مساوئها، بحيث أن الدولة ذات العدد القليل من النظم والقوانين تكون أكثر نظاماً وقوانينها أدق رعاية، ولهذا رأيت أن أكتفي بالقواعد الأربع الآتية على أن أوطد النية والعزم على ألا أخرج عنها في حياتي أبداً

1 - طريقة الوضوح

فالقاعدة الأولى هي: ألا أنظر إلى أي شيء بعين الحقيقة إلا بعد أن أدرك أنه كذلك. ومعنى هذا أني أتلافى التسرع والتنبؤ، ولا أتبنى من الآراء إلا ما تجلى لعقلي بوضوح وسرعة يحولان دون الشك فيه

2 - طريقة التحليل

والقاعدة الثانية هي: تجزئة كل مشكلة من المشاكل التي أقوم بدراستها إلى أكبر عدد من الأجزاء يمكن ويجب أن تنقسم إليه، وذلك للتمكن من حلها على أصلح وجه

3 - طريقة التدرج

والقاعدة الثالثة هي: تسيير تفكيري بانتظام، فأبدأ بأبسط الأمور، وأسهلها فهماً وأصعد تدريجياً لمعرفة أكثرها تعقيداً مع افتراض وجود النظام أيضاً بين الأمور التي لا يتعلق بعضها ببعض

4 - طريقة الإعادة والاستقصاء

أما القاعدة الرابعة والأخيرة فهي: القيام بإحصاءات تامة، في كل لحظة، والقيام باعادات عامة، لأتأكد من أني لم أهمل شيئاً

أحمد محمد عيتاني

عضو بعثة جمعية المقاصد في معهد التربية

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

1880 - 1937

للأستاذ محمد سعيد العريان

- 37 -

مقالاته للرسالة (8)

هلّ هلال المحرم، وتهيأت الرسالة لإصدار (العدد الممتاز) في ذكرى الهجرة، فكتبتْ إلى الرافعي فيمن كتبت من أسرة الرسالة، تطلب إليه أن يهيئ موضوعاً مناسباً لذكرى الهجرة، وضربت له أجلا. واستبق الرافعي الميعاد فأعدّ قصة (اليمامتان) وبعث بها إلى الرسالة قبل موعد العدد الممتاز بأكثر من أسبوع. وحسبت الرسالة أنه بعث إليها بمقاله الأسبوعي المعتاد، وأنه ما يزال يعدّ موضوعه للعدد الممتاز، فنشرت قصة

اليمامتين قبل موعدها، وكتبت إليه تستنجزه المقال الثاني. وكان الرافعي متعب الأعصاب، يشكو وجعاً في أضراسه يثقل رأسه، وقد غاظه أن الرسالة فوَّتت عليه الفرصة فسبقت إلى نشر القصة التي أعدها للعدد الممتاز قبل موعدها وتركته في حيرته، ولم يجد في نفسه خفة إلى العمل، فذهب إلى أوراقه القديمة يفتش بينها عن موضوع خليق بالنشر في هذه المناسبة، فوقع على مقالة (حقيقة المسلم)، وكان كتبها قبل ذلك بسنتين إجابة لدعوة جمعية الكشاف المسلم لشام، ونشرها بالأهرام في ذكرى المولد النبوي لسنة 1352هـ فبعث بها إلى الرسالة لتنشر في العدد الممتاز لسنة 1354هـ

يتحدث الرافعي في قصة اليمامتين عن الفتح الإسلامي، وأخلاق العرب، وتعريب مصر الفرعونية الرومانية، وفتنة القبط بسجايا العرب ومزايا الإسلام؛ وفيها إلى ذلك حديث عجيب عن الحب والمرأة في قصة خيالية افتعلها الرافعي ليبلغ بها ما في نفسه من معاني الحب؛ ثم جعل في خاتمتها (نشيد اليمامة) اليمامة التي تقول الرواية العربية إنها تحرَّمت في جوار عمرو ابن العاص فمنعته أن يقوض فسطاطه!

كان لهذه القصة عند الرافعي وعند قراء الرسالة عامة موقع لم تبلغه قصة سعيد بن المسيب. وقد افتتن بها كثير من القراء، حتى كان منها أن اهتدى إلى الإسلام أستاذ مسيحي من أساتذة التاريخ في بلاد الجزائر، فكتب إلى الرافعي رسالة يعلن فيها إليه إسلامه، ويسأله الوسيلة إلى دراسة هذا الدين والتفقه فيه. ولم أعثر بعد على هذه الرسالة بين ما خلّف الرافعي من رسائل أصدقائه إليه

ومن اعتداد الرافعي بهذه القصة وبما بلغ فيها من التوفيق، جعلها فاتحة كتابه (وحي القلم)

ولم يكفه أسبوع للاستجمام والخلاص مما يعاني من وجع الضرس وتعب الأعصاب، فاستراح أسبوعاً آخر وبعث إلى الرسالة بالجزء الثالث من (كلمة وكليمة)

. . .ثم وقعت حادثة اهتزت لها نفس الرافعي اهتزازاً عنيفاً ونقلته من حال إلى حال جلست يوماً نتحدث من أحاديثنا، فقال: (. . . إن صديقنا الأستاذ م. لم يكتب لنا من زمان. . ليت شعري ما منعه عنا. إن بي قلقاً عليه وفي نفسي أن أراه أو أعرف من خبره!)

وفي صبيحة اليوم التالي طالعتنا الأهرام بخبر غامض: (. . أن شاباً من الأدباء هو ابن شيخ من شيوخ الأزهر، قد حاول الانتحار بقطع شريان في يده!)

وقرأ الرافعي الخبر فاربدّ وجهه وانفعلت نفسه، وقال: (اقرأ، إنه هو. . .!)

قلت: (من تعني؟)

قال: (صديقنا الأستاذ. م، لقد غلبه شيطانه على دينه آخرة أمره. غفر الله له!)

فجزعتُ وطارت نفسي، وقلت وأكاد أغصّ بريقي: (م؟ إنك لتتوهم، وإنك مما تفكر في شأنه ليُخَيل إليك. إن لصديقنا لديناً، وإن فيه لتحرجاً وخشية؛ وما أراه في أي أحواله يقدم على هذه الجريمة!)

ولكن الرافعي لم يلتفت إلى ما أقول، وأخذ يحوقل ويسترجع ويستعيذ بالله من غلبة الهوى وفتنة الشيطان. ثم مد يده إلى مكتبه فكتب رسالة إلى م يسأل عن حاله وخبره ويرجو له العافية في دينه ودنياه؛ ثم يطلب إليه أن يصف له ما كان منه وما حمله عليه وما آل إليه أمره؛ ولم ينس مع كل أولئك ومع ما تفيض به نفسه من الحزن والألم أن يرجوه (الدقة في وصف المرحلة التي كان فيها بين الحياة الموت؛ فأنها المرحلة التي لا يحسن أن يصفها إلا من أحسّ بها. . .)

وصديقنا الأستاذ. م. أديب واسع المعرفة، له دين ومروءة، وفيه تحرج وخشية؛ وقد نشأ في بيت له ماض في الدعوة إلى الإسلام والدفاع عنه والذَّود عن حرماته؛ وهو شاب عزب، بعيد الخيال، دقيق الحس، مرهف الأعصاب؛ وعلى أنه يعيش في ظل وارف ونعمة سابغة، فأنه من سعة خياله ودقة حسه وحدة أعصابه متشائم النظرة، لا تراه إلا رأيت في وجهه وعلى طرف لسانه معنى دفينا من معاني الألم؛ وما يرى نفسه في أكثر أحواله إلا غريبا في هذا العالم وبين هذا الناس؛ فان له من خياله دنيا غَير دنيا الناس، وعالماً غير هذا العالم، يتمثل فيه المثل الأعلى الذي أعياه أن يبلغه على هذه الأرض. وكان بينه وبين الرافعي ودٌ وله في نفسه مكان؛ فكان له سره ونجواه منذ

كان فتى يافعاً لم يبلغ العشرين. وكان الرافعي يعتد بصداقته ويقرّ إليه ويعجب بدينه وتقواه ويتوقع له مستقبلا مجيدا بين المجاهدين من أهل الأدب ودعاة الإسلام.

فلما بلغ الرافعي نبأ شروعه في الانتحار جزع وتطير وضاقت نفسه، وناله من الهم ما لم ينله لحادثة مما لقي من دنياه. فمن أجل هذه الحادثة أنشأ الرافعي مقالات (الانتحار)

ولم يكن الرافعي يعلم من أحوال صاحبنا ما دفعه إلى هذه المحاولة الطائشة؛ فأخذ يتكهن وينتحل الأسباب ليبني عليها الحديث والقصة؛ فما جاء جواب الأستاذ (م) إلا بعد المقالة الثالثة، فأخذ من هذا الجواب مادة الجزء الرابع من هذه المقالات، وجعل الحديث في هذا الجزء على لسان (أبي محمد البصري) وهو يعني الأستاذ (م)، فهو هو وكلامه كلامه في جملته ومعناه، لم يغير منه الرافعي إلا قليلاً من قليل. فما يدل على حالة صاحبنا إلا المقالة الرابعة من هذه المقالات الست. أما ما عداها مما سبق أو لحق، فهي قصص مفتعلة من وحي هذه الحادثة في نفس الرافعي

ومقالات الرافعي في (الانتحار) هي باب من الأدب لم ينسج على منواله في العربية من قبل، فيها فنه القصصي، وفيها روح المؤمن الذي لم تفتنه دنياه عن ربه، وفيها إلى ذلك شعر وفلسفة وحكمة، وقلب رجل يعيش في حقيقة الحياة

وكان بين الرافعي والأستاذ حسن مظهر محرر اللطائف المصورة مودة. فلما تولى تحرير اللطائف كتب إلى الرافعي يرجوه أن يكتب فصلاً لقراء اللطائف عن (سحر المرأة)؛ فكتب فصلاً بديعاً يصف فيه نفسه وصاحبته (فلانة) في أول لقاء بينهما

فلما فرغ من مقالات (الانتحار) تناول هذا الفصل فزاد فيه ما زاد وبعث به إلى رسالة بعنوان (ورقة ورد) لأنه سار فيه على نهج كتابه المعروف (أوراق الورد) فهذا الفصل عنده هو من تمام هذا الكتاب

وكان من زملاء الرافعي في محكمة طنطا الأديب فؤاد. . . وهو شاب له ولوع بالأدب؛ وعلى أنه زوج وأب، فانه كان بأناقته ولباقته مرعى أنظار كثير من الفتيات، وكان له في الغرام جولات. . .

ثم فاء إلى نفسه بعد حين، فانصرف عن اللهو والغزل إلى شئون أسرته وولده؛ وراح ينشر بعض مغامراته الغرامية في إحدى الصحف الصغيرة التي تصدر في طنطا. . .

وقرأ الرافعي بعض ما ينشر صاحبنا، فرأى (علماً جديداً) لم يدخل إليه من باب ولم يقرأه في كتاب؛ فأرسل يستدعي صاحب هذه المقالات إليه ليفيد علماً من علمه ومن تجاربه. . .!

وجلس صاحبنا يتحدث إلى الرافعي ويقص عليه، والرافعي صاغ إليه ملذوذ بما يسمع؛ فما انتهى صاحبنا من حديثه حتى كان على موعد مع الرافعي أن يحضر له طائفة من مذكراته ورسائل صواحبه، لعله يجد فيها موضوعاً يكتبه لقراء الرسالة

فمن هذه المذكرات ومن هذه الرسائل استملى الرافعي مقالات (الطائشة) و (دموع من رسائل الطائشة) و (فلسفة الطائشة). . .

فهذه القصة حقيقية لا افتعال فيها، وليس فيها شيء من صنع الخيال؛ وما حكى الرافعي من الرسائل الطائشة هو من رسائلها نفسها كما نقلها إليه صاحبها؛ وفلسفتها هي فلسفتها كما فهمها الرافعي من رسائلها ومما كان من أمرها مع صاحبها

لقد نال الرافعي من ملامة الفتيات ما ناله بسبب هذه المقالات، وقرأها أكثر من قرأها منهن على أنها قصة من الخيال اخترعها الرافعي ليحتج بها فيما يحتجْ لمذهبه في الحب والمرأة وتجديد الأخلاق، والحقيقة فيها هي ما قدَّمت؛ وقد زاد الرافعي إيماناً بمذهبه بعد هذا الذي سمع من صاحبه وقرأ من مذكراته ومن رسائله!

ولم يكتب الرافعي قصة (الطائشة) على أنها قصة؛ إذ كان صاحبها قد كتب قصتها على طريقة من فنه، فآثر الرافعي أن يتناولها من أطرافها ليحكم بها حكمه ويتحدث عن رأيه في طائفة من فتيات العصر؛ فترك صلب القصة ليكون حديثه عن التعليق والحاشية

وقد قرأت القصة مع الرافعي كما أنشأها كاتبها؛ فكان الرافعي يقف عند كثير من عباراتها موقفاً بين الإعجاب والدهشة؛ إذ كان مؤلفها يكتب ما في نفسه كما هو في نفسه، فكان فيها وحي عاطفته ونبض قلبه ويقظة روحه، فجاء بأدق ما في الفن وأبلغ ما في التعبير غير قاصد إلى شيء من ذلك، وما كان يبلغ شيئاً من ذلك لو أنه قصد

إليه؛ إذ لم يكن هو بين أهل البيان في هذه المنزلة، ولكنه كان من أهل الحب؛ وكان هذا هو دليل (الصدق) عند الرافعي فيما كتب صاحبه وما نقل إليه من قصة صاحبته. . .

ولما كتب المقالة الثالثة (دموع من رسائل الطائشة) خلا إلى نفسه أسبوعاً ليستجم، وبعث إلى الرسالة بالجزء الرابع من: (كلمة وكليمة) وفيها حديث عن العقاد وفي هذا الأسبوع كان الرافعي يجمع خواطره حول ما سمع من قصة الطائشة، فأنشأ مقاله الرابع بعنوان (فلسفة الطائشة)

ثم أملي عليَّ مقالة (كفر الذبابة) يعني بها الحكومة التركية لبعض ما ذهبت إليه في شئون الإسلام والعربية. وهي آخر ما أنشأ من الفصول على أسلوب كليلة ودمنة وكانت مقالة (كفر الذبابة) هي آخر ما أملي على من المقالات؛ وذلك في صيف سنة 1935. ثم تهيأ للسفر إلى مصيفه في (سيدي بشر)، وتهيأت للسفر إلى القاهرة فكانت فيها إقامتي، فلم أكن ألقاه أو يلقاني إلا ساعات كل أسبوع: فأسبوعاً أزوره في طنطا، وأسبوعاً يزورني في القاهرة. على أن الرسائل فيما بين ذلك لم تنقطع بيننا حتى يناير سنة 1937، قبل موته ببضعة أشهر. ثم تجافينا لشأن ما، فما التقينا إلا مرة واحدة قبل موته بشهرين، فكان لنا مجلس في قهوة (بول نور) بالقاهرة مع الأصدقاء: شاكر، وزكي مبارك، وكامل حبيب، وزيادة؛ ثم افترقنا بعد منتصف الليل وفي نفسي منه شيء وفي نفسه مني. . .

وفي صبيحة الغد بدأت المعركة الأخيرة بينه وبين الدكتور زكي مبارك حول (وحي القلم)

ومضى شهران بعد تلك الليلة لا ألقاه ولا يلقاني؛ وهو يشكوني إلى صحابتي . . . وأشكوه؛ حتى جاءني نعيه. . . غفر الله لي!

لكأنما كانت هذه القطيعة بيننا وقد دنا أجله، لتخفف عني وقع المصاب من بعد؛ أو لتحملني - غير محمول من أحد غير واجبي - على كفارة الذنب الذي أذنبت بهذه القطيعة؛ فأبذل ما في الطاقة من الجهد الجاهد لكتابة هذا التاريخ فأقوم له بعد موته بالحق الذي عجزت عن وفائه في حياته. يرحمه الله!

لم يمْلِ عليَّ الرافعي شيئاً بعد مقالة كفر الذبابة؛ ولكنه طلب إلي أن انسخ له . . . صورة من مقال كان نشره في المقتطف قبل ذلك بسنوات عنوانه (سر النبوغ في الأدب)

فلما سافر إلى مصيفه بعث إلى الرسالة بمقالة (كلمات عن حافظ) لمناسبة ذكراه؛ ثم أصابته قُرحة في كفه منعته من العمل، فأخذ مقالة (سر النبوغ في الأدب) فجعل عنوانها (الأدب والأديب) ثم جعلها مقالة الأسبوع التالي. وهي مقالة من مقالات الرافعي الفريدة، تهم الباحث الذي يريد أن يدرس الرافعي صاحب (تاريخ آداب العرب)

ثم توالت مقالات الرافعي يمليها على نفسه ويكتبها بخطه؛ على أني بما كنت ألقاه وبما كان بيني وبينه من الرسائل إلى ما قبل موته بأشهر، لم يفتني أن أعرف دوافعه إلى كثير مما كتب بعد ذلك من المقالات لقراء الرسالة؛ فسأحرص - تماماً لهذا البحث - على أن أذكر ما أعرف من دوافع بعض المقالات التي أنشأها وحدها من بعد غير معتبر ترتيبها في النشر، إذ لا عماد لي فيما أكتب عنها إلا عنها إلا الذاكرة.

(سيدي بشر)

محمد سعيد العريان

التشريع المصري والتشريع الإسلامي

للأستاذ عباس طه

سجل العلامة الكبير المستشار عبد السلام ذهني بك في بعض المجلات العلمية بحثاً مستفيضاً ضافي الذيول والمرامي يتلخص في ضرورة تجميع الفقه الإسلامي في مختلف ما تكشفت عنه قرائح الأئمة المجتهدين ونحا نحوه الفقهاء من الأحرار الباحثين، ثم مقارنة مستفيضة بين الفقه الروماني وأثره في بضعة قرون ووفائه بحاجة المعاصرين يومئذ ونهوضه إلى مستوى سد حاجة الناس في باب المعاملات والأحوال الشخصية، ثم كيف استطاع أن يكون أثره في الخلود طويلاً ووفاؤه بحاجة

الناس عاما، ثم بضرورة وضع موسوعة تتسع لآراء الباحثين من الأئمة المشترعين كما فعل في عهد جستنيان الخ

ونحن العلماءَ في الفقه الإسلامي نحمد لعزته تلك الألمعية وغيرته الفياضة على تراث المسلمين أن يذهب بدداً وأن تتحكم في أساليبه ومراميه وصياغته فئة من غير الناطقين بالضاد حتى أحالته ترثاً مهلهلاً لا يشفي علة ولا ينفع غلة. وبقى ذلك الداء العياء يتغلغل في أزهى عصور التاريخ وأغنى عهوده بالعلماء، فما انفرجت شفتان عن ضرورة تجميع هذا التراث الموروث عن أئمة الدين الذين أخرجوا إلى الإنسانية خير ما يقتدي به الناس في أمر معاشهم ومعادهم، وما يحكم حركة التعاون بين أفراد النوع الإنساني ويقيمها على أسس من الخير صالحة لا يتطرق إليها وهن ولا فساد

لكني أسائل أولئك الذين يكتبون حول هذه الموضوعات: ماذا يريدون بهذا التجميع؟ أيريدون بذلك أن تجمع أقوال الفقهاء المشترعين والأئمة المجتهدين في سفر واحد تراثاً مزيجاً من الآراء الفقهية بين رجل اجتهد وكد لينشئ له مذهباً ثم عاد فرجع عنه أو بقي ولكنه على وهن، وذلك شائع في مذهب الإمام مالك وأبي حنيفة، ففي هذين المذهبين أئمة اشتغل علماء الفقه الإسلامي بالتعقيب على آرائهم الفقهية فباتت غير صالحة لاستهداء الناس بها والسير على مناهجها - وبين آخر صح اجتهاده، وقام على منارة الحق سداده، ولكنه ابتلى بفريق من المعتنقين لمذهبه اشتغلوا بتجريح غيره من المذاهب والإشادة بمذهبه دون سواه، فبقى طلاب الحقيقة في قطع من الليل البهيم يتلمسون لهم ما يكشف الحقيقة في صميمها ويرد الواقع إلى نصابه؟ أم يريدون أن يجمع الصحيح من أقوال الأئمة المجتهدين

في موسوعة واحدة يعم نفعها وتنتشر فائدتها؟ وإذا فما قيمة هذا التجميع في نظر الواقع والتاريخ والعلم؟

لقد بذل المرحوم محمد قدري باشا مجهودا لا بأس به في تجميع شطر غير قليل من مذهب أبي حنيفة مما لم يقم به العلماء المتخصصون منذ عهد الناس بمنشأ الفقه الإسلامي فاستنبط مجهوده من كتب صيغت بأساليب رث حبلها ونقضت أشلاؤها ودق على الباحثين وجه الصواب فيها، وكان العمل يومئذ بمذهب أبي حنيفة دون سواه مما جعل قدري باشا يضع في باب الأحوال الشخصية والوقف بنوعية كتابيه على صورة مواد حتى يكون قانوناً يسهل الرجوع إليه والاستشهاد به

لكن ما أسرع أن تمخضت حيل الناس في تطبيق مواد الطلاق ومواد النفقة وافتنانهم في الهرب من تطبيق الأحكام الشرعية على مذهب أبي حنيفة عن عجز القضاة الشرعيين وعدم قدرتهم على تطبيق تلك الأحكام تلقاء ما يبديه المطلق من أفانين وحيل للفرار من طائلة العقاب، وما يبديه المحكوم عليه بالنفقة وما يبدو من حيل المحامين الشرعيين في ذلك الميدان المنبسط الذي لا يحده تقنين ولا يردع عن العبث به رادع، فجأر القضاة الشرعيون بالشكوى من فشل هذه التجربة، والأستاذ المراغي يومئذ منهم في الطليعة يشاطره قوم ذوو دراية وكفاية؛ وقد شعروا بضرورة البحث في غير مذهب أبي حنيفة من المذاهب عما يسد حاجة المتقاضين ويفسح المجال للقضاة باعتبارهم المطبقين لأحكام الشريعة والمهيمنين على تنفيذها في مواد الأحوال الشخصية نائبين في ذلك كله عن ولي الأمر في البلاد، وما يقطع الطريق على حيل المحتالين، وما يفتح عيون الباحثين على ثروة غزيرة من العلم كانت ولا تزال منهلا ينهل منه المتقاضون وغير المتقاضين، وما يقوم دليلاً في كل يوم على أن الفقه الإسلامي كفيل بمسايرة كل عصر وجيل وخليق بأن يحمل أمانة البشر في مختلف مرافقه حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين؛ فوضع قانون رقم 25 لسنة 1920 خاصاً بأحكام النفقة وبعض مسائل الأحوال الشخصية مؤلفاً من ثلاث عشر مادة، وهو يتناول معالجة الأحوال التالية.

(1) النفقة (2) العجز عنها وما يترتب على ذلك العجز من الآثار (3) حكم المفقود وما يترتب عليه قبل الخصوم من حقوق (4) حكم القاضي بالتفريق للعيب وما يترتب على ذلك العيب من آثار مباشرة وغير مباشرة (5) الترخيص للزوجة بطلب التفريق من القاضي حال قيام العيب في زوجها وحاجة المجتمع إليه (6) أحكام عامة متفرقة. ثم درجت المحاكم على تطبيق ذلك القانون بأمانة وتوفيق، ودرج المفتشون القضائيون في وزارة الحقانية على تتبع تطبيق هذا القانون وتبين المدى الذي وصل إليه من

إصابة حاجات الجمهور وسد كفايتهم وإقناعهم بأن في ثنايا الفقه الإسلامي ما يكفل بعث الطمأنينة إلى قلوبهم وإيصال الحقوق إلى ذويها، فلم تمض فترة من الوقت غير طويلة حتى استفاضت تقارير المفتشين القضائيين بأعطر الثناء على ذلك الأثر الطيب الذي تركه قانون سنة 1920 في نفوس المتقاضين.

وهكذا تحررت عقول طلاب الإصلاح من ربقة التقيد بكل قديم واقتنعوا بأن تطور الحياة وتشعب مسالكها وما يجد فيها من أحداث وعبر من أقوى الحوافز على تلمس أفضل المناهج في باب التقاضي، وكفالة مصالح الناس وردها إلى أمثل طريق وأبلج محجة. من أجل ذلك اطرد البحث عما يساير مصالح الناس ويماشي رغائبهم، وما يدفع عن المجتمع علله وأمراضه، فشعر المصلحون مرة أخرى بضرورة حماية الأسر من تلك الأمراض الفواتك التي لم يدفعها كثير من أحكام أبي حنيفة المتعلقة بالطلاق وبالتفريق للغيبة وبدعوى النسب وسن الحضانة وما إلى ذلك، فوضع مرسوم بقانون رقم 25 لسنة 1929 خاص ببعض الأحوال الشخصية يتألف من 25 مادة، وهو يقع في تسعة أبواب: الباب الأول الطلاق (2) الشقاق بين الزوجين (3) التطليق لغيبة الزوج (4) دعوى النسب (5) النفقة والعدة (6) المهر (7) سن الحضانة (8) المفقود (9) أحكام عامة

ولا تزال الأمة في مسيس الحاجة إلى وضع قانون موضوعي، فأشير بوضع ذلك القانون. ثم تألفت لجنة تحت رياسة فضيلة شيخ الجامع الأزهر، وهي وإن سارت بخطى بطيئة إلى الآن لاعتبارات بعضها يرجع إلى المحيط الراهن، وبعضها يرجع إلى ثقل المسئولية في هذا القانون، فهي فيما نعتقد بالغة إن قريباً وإن بعيداً ما تصبوا إليه الأمة من كفالة لمرافقها وسد عوزها التشريعي في حياتها. هذا القانون الموضوعي إذا كتب له الوجود فسوف يجمع بين دفتيه تراثاً صالحاً في شتى المذاهب حتى مذاهب الأحرار من الفقهاء المشترعين الذين كانوا ولا يزالون بعيدين عن المحيط العملي، فكان العلماء في الأزهر لا يأخذون بآرائهم ولا يلقنونه لطلبتهم بل كانوا على النقيض من ذلك من المتبرمين بهم والزارين عليهم، وكان محذوراً على القضاة الشرعيين أن يتخذوه مدداً لآرائهم القضائية أو مصدراً لثروتهم العلمية لأنهم كانوا مأخوذين بالقضاء على أرجح الأقوال من مذهب أبي حنيفة، لكن لما تشعبت الحياة في مناحيها، واتضح بجلاء أن مذهب أولئك الأحرار المشترعين خليق بتقديره وبعثه من مرقده واتخاذه قبلة للناس في بعض أحوالهم الشخصية (والحاجة كما يقولون تفتق وجه الحيلة) لجأ طلاب الإصلاح إلى سن قانون موضوعي يحيط قدر المستطاع بمرافق الناس ويسد كفايتهم القضائية ويحرر العقول من كل تقليد لا يتفق ومصالح الجمهور. فأين نحن الآن من فكرة تجميع الفقه الإسلامي في موسوعة واحدة والأحداث كل يوم تحفزنا إلى جديد من الفن في كل شيء لنلقي بين أيدينا دروساً من العظة بالماضي، وإن ما صلح اليوم للعمل به قد لا يصلح غداً؛ وإن سلسلة التجارب لما يقع تحت المشاهدات ستظل متصلة الحلقات بالوجود اتصالاً وثيقاً؛ ثم ما لنا ولتجميع الفقه الروماني وقد كان الفقه الروماني - كما يقول بحق الباحث العلامة الدكتور عبد الحميد أبو هيف - قائماً بأسسه وقواعده على التفرقة بين الطبقات؛ أما الإسلام بقواعده وأسسه فهو قائم على الديمقراطية العادلة والمساواة الواضحة؛ وأية ديمقراطية ومساواة أعمق في الوجود أثراً وأخلد في المجتمع ذكراً من تلك التي أسس قواعدها وشيد بنايتها فاطر السموات ومدبر الكائنات وبعثها على لسان الرسول الأعظم قام من بعده خلفاء راشدون، وحسبك من بينهم عمر الفاروق هذا الذي يضرب أعلى المثل وأنبلها في المساواة وخفض الجانب واحتقار الأثرة في الواقعتين التاليتين:

مرَّ الفاروق كعادته في جوف ليلة وقد اتكأ على جانب جدار أحد المنازل فسمع امرأة تقول لابنتها: يا بنتاه، قومي إلى ذلك اللبن فامزجيه بالماء. فأجابت الفتاة: أما علمت يا أماه بما كان من عزم أمير المؤمنين؟ قالت الأم: وما كان من عزمه؟ قالت الفتاة إنه أمر مناديه فنادى في الناس ألا يشاب اللبن بالماء. قالت: يا ابنتي قومي إلى اللبن فامزجيه بالماء، فنحن في موضع لا يرانا فيه عمر ولا مناديه. قالت الفتاة: يا أماه، والله ما كنت لأطيعه في الملأ وأعصيه في الخلاء. كان هذا الحوار الطريف يجري بين

الأم وابنتها على مسمع من عمر وهو أشد ما يكون البنت إعجاباً وبالأم تبرماً. فلما تحقق من ظفر الفتاة برأيها
وانتصار الحق على الباطل - أمر تابعه أن يعلم الباب ليسهل الاهتداء إلى موضعه. وما أن أشرقت الغزالة من خدرها حتى بعث رسوله يستقصي خبرهما ويرى هل الصبية بكر أم متزوجة؟ فلما علم أنها بكر جمع أولاده بين يديه وقال لهم: هل فيكم من يحتاج إلى زوجة رشيدة بصيرة بأمور دينها، شديدة المراقبة لله، تحذر الآخرة وترجو رحمة ربها؟ ويميناً لو كان بأبيكم حركة إلى النساء ما سبقني منكم أحد إليها. فاعتذر ولداه عبد الله وعبد الرحمن لأنهما متزوجان، فتقدم ولده عاصم الصغير وقال: هأنذا يا أبتاه لا زوجة لي، زوِّجني ممن اخترتها. ثم بني بها. فقال الناس: تزوج عاصم بن عمر أمير المؤمنين من فتاة راعية فقيرة تبيع اللبن! ولكن عمر لم يأبه لما به أرجفوا. وصدقه الله فيما نوى، فقد أنجبت للعالم الإسلامي عمر الثاني وهي الصورة المشبهة معنى وروحاً للفاروق - نعم ولدت زوج عاصم بنتاً وولدت البنت الخليفة عمر بن عبد العزيز أو عمر بن الخطاب الثاني. وكذلك صدقت فراسة الفاروق في صلاح هذه الفتاة وتقواها، ولم يطش ظنه فيها حينما رفعها من سكنى الكوخ إلى رفيع القصور ورضى على نفسه أن يقال: صاهر أمير المؤمنين فتاة راعية، ولكن عمر لا يأبه لكلام الناس ولا يكترث للأنساب والألقاب فليس عنده من نسب إلا نسب الإسلام، وليس له من الجاه إلا التقوى
ولقد حفظ التاريخ لعمر حادثة مشهورة رفعت قدره وأعلت ذكره، وخلدت له المثل الأعلى في النزاهة وشرف النفس وإعلاء الحق بالتضحية بأعز ما يملك في سبيل الدين. ومن أجل إحيائه تقديس شعائره - أنه قدم ابنه فلذة كبده وأحب الناس إليه ضحية على مذبح الدين وفداه لسنة الرسول الكريم
سمع انه شرب خمراً في مصر ولم يقم عليه ابن العاص الحد على ملأ من الناس ويحلق رأسه كما يجب وكما كان مفروضاً على كل مسلم، فبعث إليه يقرعه ويأمره أن يرسل ابنه وشيكاً على قتب، ففعل عمرو. وقد وصل عبد الرحمن وهو في أشد حالات الإعياء والنصب وهو يصيح:
لقد أقيم عليّ الحد في مصر يا أبت فلا تقتلني بإقامته مرة ثانية. لكن غيرة عمر وشدته في الحق على عامة المسلمين لم تكن تعرف المداجاة في زوج أو ولد، وهو الذي كان يسوي ذاته في ميزانه بأقل الناس، فلا غرو أن يقيم الحد على ولده ثم يشاهده وهو يلفظ النفس
الأخير، فلا يجد عند ذلك إلا أن يهنئه على طهارته من أرجاس المعصية وأن يحمله السلام إلى صاحب الأمانة التي قام بها عنه خير قيام
غير أن لي كلمة في خاتمة هذا البحث لا تزال بصدري جياشة، وهي أن التجميع للتشريع الإسلامي وفي أوسع حدوده ومراميه لا يلقي من أهل الرأي تأييدا إلا إذا أيده المسلمون أنفسهم بقوة ما يشع في صفوفهم من وحدة، وما يقوم على رباطهم من سلطان، وبقوة تلك الروحانية التي تهيمن على عقائدهم واتجاهاتهم وتصهر ما في تلك العقائد من زيغ وريب، فإذا حل ذلك اليوم وصارت فيه الغلبة للإسلام تيسر للمسلمين تجميع الفقه الإسلامي تجميعا ما بعده تجميع. وأكبر يقيني أن هذا اليوم مؤذن في القريب ببزوغ شمس سوف تنبسط على أرجاء الشرق فتنتظم أطرافه! وإذ ذاك يحل ذلك اليوم المومول وتستكمل مصر زعيمة الشرق في الإسلام ونشر رسالته أقوى أسباب سعادتها واطمئنانها وعلو كلمتها في ظل حضرة صاحب الجلالة فاروق الأول، أيد الله دولته، ورفع في الأنام رايته، إنه أكرم مسئول وأعظم مأمول.
(للبحث بقية)
عباس طه
المحامي الشرعي
غزل العقاد
للأستاذ سيد قطب

من أهم ما تدعوا إليه المدرسة الحديثة - وتقدم العقادَ نموذجاً له - تفتحُ النفس لألوان الأحاسيس، وانفساحها لصنوف المؤثرات، وتهيؤها لشتى الانفعالات؛ وكثرة الأوتار

المرنَّة بها في العاطفة الواحدة، والعواطف المتعددة، ومطاوعتها لما تتأثر به، لا لما تحفظه وتحتذيه من القوالب المصبوبة
وكل هذا من خصائص الحياة الموفوزة، الغنية بالمذخور من المشاعر المتهيئة للتجدد والنماء، المستعدة للتفرد والامتياز
وقد كان النقد العربي - إلى أمد قصير - قد وضع للعواطف الشعرية مراسيم وقيودا، وجعل لها قوالب مصبوبة، ومن هذه العواطف (الحب)
ترى هذا في كتاب (الصناعتين) مثلا وتراه في الكتب المدرسية والمذكرات، وتلمح أثره في كتابات من يتصدون للنقد بعد اطلاعهم على الكتب القديمة وحدها
وتلمح أثر هذا التحديد في ذوق المتأدبين الذين لا يصبرون على صورة جديدة يرونها في غزل جديد أو قديم، لا تكون وفق قوالب خاصة، وعلى طراز محدد من طراز التعبير
ولقد كان هذا يدعوني إلى اتهام الطبيعة العربية والطبيعة المصرية على السواء؛ فما يصبر الطبع الموهوب على هذا الجمود في ألوان الحس والتعبير؛ وما تقف النفس عند صور محدودة معلومة إلا وقد ضاقت عما عداها، واستغلقت دون سواها. ولولا أن هناك فروضاً وأعذاراً تلتمس لقد كان سوء الظن أولى، والاتهام أوجب. ولكنا في انتظار ما يطلع به المستقبل من الأدباء والمتأدبين
والعقاد أفسح شاعر عربي نفساً في غزله، وأكثرهم أوتاراً مرنَّة. فلا عجب تزيد الأنغام في شعره على ما تستطيع الأذن المصرية - إلا نادراً - أن تسمعه وتطرب له؛ ولا عجب يجد الكثيرون صعوبة في تقبل هذه النغمات لأنها تجهد آذانهم وأذواقهم، وتحملهم استعارة طاقات نفسية لا قبل لهم بها، كما تجهد العين الضعيفة تحت المنظار القوي الذي يجمع لها من الضوء فوق احتمالها!
ولكن من الحق كذلك ألا يبيح هؤلاء لأنفسهم مهمة الحكم، وأن يسمعوا قول من يطيقون السماع ويطربون لشتى النغمات، ويصدقوا ذوي العيون التي تحتمل المناظير القوية، فيما تبصر من رؤى وأطياف لا تراها عيونهم الكليلة!
وحين يتابع الناقد غزل العقاد في دواوينه السبعة، يعجب كيف يكون قائل هذه الأنماط كلها رجلاً واحداً لولا أن يثوب إلى خصائص العقاد العامة في هذه الأنماط على اختلافها. وتروعه هذه النفس الفسيحة التي تتلقى نماذج الحبيبات كل بما تستحقه، ثم تنفسح بعد هذا لتلقى الحالات النفسية المتتابعة مع كل حبيبة؛ وتتسع لنماذج الحب المختلفة بين الصوفية والحسية، وبين الغرارة والتجريب، وبين البساطة والتركيب، وبين الصعود والهبوط. . . وتقول في كل حب، وفي كل حالة شعراً أصيلاً كأنه - وحده - هو اتجاهها الوحيد!
ولعل من الخير قبل أن نستعرض هذه الأنماط، كما لحظناها في شعره الغزلي، أن نأتي باستعراض العقاد نفسه لصنوف الحب التي تيقظ لإحساسه بها على ضوء حب أخير حين يقول:

عرفت من الحب أشكاله ... وصاحبت بعد الجمال الجمال
فحب المصور تمثاله ... عرفت وحب الشباب الخيال
وحب القداسة لم أعده ... وحب التصوف لم يعدني
وفي كل حب ورى زنده ... سماتٌ من المؤمن الدين
وحب المزخرف والمنتقى ... وحب المجرد والعاطل
وحب الجماح وحب التقى ... وحب المجدد والناقل
وحب الثقات وحب الصحاب ... وحب الطبيعة في حسنها
وحب الرجاء وحب العذاب ... على يأس نفسي من حزنها
وحب التي علمتني الهوى ... وحب التي أنا علمتها
ومن أستمد لديها القوى ... ومن بالقوى أنا أمددتها
وحب الجياع صحاف الطعام ... وحب الظماء كؤوس الشراب
وحب الكفاح وحب السلام ... وحب الضلال وحب الصواب!
صنوف من الحب لا تلتقي ... وفيك التقى لبها المحتوى
فلولا هدى نورها الأسبق ... لما كنت كفؤاً لهذا الهوى

وفي (سارة) يفصل بعض صنوف الحب التي يحسها القلب الإنساني فيقول:

وقد يميز الرجل امرأتين في وقت واحد. لكن لابد من اختلاف بين الحبين في النوع،)
أو في الدرجة، أو في الرجاء.
فيكون أحد الحبين خالصاً للروح والوجدان، ويكون الحب الآخر مستغرقاً شاملاً)
للروحية والجسدية.
أو يكون أحد الحبين مقبلا صاعداً، والحب الآخر آخذاً في الأدبار والهبوط)
(أو يكون أحد الحبين مغرياً بالرجاء، والحب الآخر مشوباً باليأس والريبة)
ثم يذكر نموذجين في الحب، لنموذجين من المرأة، اجتمعا على (همام) بطل القصة،
قد يفيد ذكرهما هنا لبيان رفاهة حس هذا الشاعر ودقته في الإحساس بالحب والنساء:
لقد كانت سارة وهند على مثالين من الأنوثة متناقضين: كلتاهما أنثى حقاً لا تخرج عن)
نطاق جنسها، غير أنهما من التباين والتنافر بحيث لا تتمنى إحداهما أن تحل محل
الثانية، وتوشك أن تزدريها)
ماذا أقول؟ بل لعلهما من التباين والتنافر بحيث تتمنى كلتاهما قبساً من طبيعة)
الأخرى، لولا أنها تنكر الاعتراف بذلك بينها وبين نفسها، فتسمح للتمني أن يستحيل
إلى نفور
فإذا كانت سارة قد خلقت وثنية في ساحة الطبيعة، فهند قد خلقت راهبة في دير، من
غير حاجة إلى الدير!
تلك مشغولة بأن تحطم من القيود أكثر ما استطاعت، وهذه مشغولة بأن تصوغ حولها
أكثر ما استطاعت من قيود، ثم توشيها بطلاء الذهب، وترصعها بفرائد الجوهر
الحزن الرفيع والألم العزيز شفاعة عند هند مقبولة إذا لم تكن هي وحدها الشفاعة
المقبولة. أما عند سارة فالشفاعة الأولى بل الشفاعة العليا هي النعيم والسرور
تلك يومها جمعة الآلام. وهذه يومها شم النسيم
تلك تشكو ويخيل إليك أنها ذات أرب في بقاء الشرور تستديم بها معاذير الشكوى،
وهذه تشكو كما يبكي الطفل لينال نصيبا فوق نصيبه من الحلوى
تلك مولعة بمداراة نقائصها لتبدو كما تتمنى أن تكون. وهذه مولعة بكشف نقائصها
لتمسح
عنها وضر الخجل والمسبة، وتعرضها في معرض الزينة والمباهاة
(تلك لها عدة المتانة والمجاملة، وهذه لها عدة الرخاصة والبساطة)
ثم يمضي يعدد خصائص كل منهما على هذا المنوال البارع فتفهم أنه متيقظ أشد
اليقظة، بكل وسائل التنبه والإدراك في طبيعته، لكل ذرة، في كل حبيبة.
والآن نتابع العقاد في غزله، ونتصفح الوجوه التي هام بها، وقال فيها، فنجد منها ستة
وجوه بارزة، ونجد غيرها منزوياً متناثراً
فأما الأول فيستغرق الجزأين الأول والثاني تقريباً، وفيه تلمح العقاد شابا حدثا، في
نفسه روعة وحذر وإشفاق من وهلة الجمال والحب، يكتفي أول الأمر باللمحة
والنظرة، ويحوم على الجمال في ورع وتنطس، ويحسب للمجهول والغيب كل حساب،
ثم يأخذ بعد حين في الاستمتاع على حذر كذلك وتلطف واستئذان.
وتجد إلى جواره حبيباً ساذجاً، عاطلاً من كل حلية نفسية أو فكرية إلا الجمال المجرد
الغرير، فلا عمق ولا سيطرة ولا أطوار
وهكذا - في الغالب - حب الشباب، وإن فهم الكثيرون أنه أقرب إلى الفتك والبوهيمية
والجراءة. فالشاب غالباً تمنعه القداسة، فأن لم تكن أذهلته الروعة قيده حذر
المجهول الذي لم تكشفه التجارب، والعزيز الذي لم يرخصه الاستعمال
إنما يستهتر - حق الاستهتار - الكهل الذي تجعله التجارب يسخر من المقدسات
والغيبيات، وتدفعه بقية القوة التي لم تنضب إلى الاستمتاع بالباقي قبل الفوات!
واسمع العقاد في ورع وإشفاق ينادي حبيبه:
وقف عليك تحيتي وعظاتي ... وعلى صباك نصائحي وعظاتي
أُوتيت من حسن الشمائل نعمة ... والحسن في الدنيا من الآفات
هو جوهر يجني عليك وميضه ... عدوان سراق وحقد عفاة
فأحذر فان مع الجمال لغرة ... وأراك تأمن جانب الغفلات
واحرس جمالك فالجمال وديعة ... (لله) ترعاها إلى ميقات

واحمل شبابك للمشيب مبرءاً ... مما يكدر ناصع الصفحات
وهكذا إلى نهاية هذه التسبيحة أو التعويذة القانتة!
ثم تسمعه بعد هذا كالطيف الهامس في حذر وتقاة:
إنا لمن معشر حب الجمال لهم ... حب لمن كان في الدنيا ومن كانوا
ليأمن الطير. إنا لا نكيد له ... ولا يخف مكرنا وحش وعقبان
الخ
ثم تنظره وقد انجلت هذه الروعة قليلا عن بدء الحسية والاستمتاع ليلة الوداع:
ويا ليلتي لما أنست بقربه ... وقد ملأ البدر المنير الأعاليا
تطلّع لا يثني عن البدر طرفه ... فقلت: حياء ما أرى أم تغاضيا
فقبلت كفيه وقبلت ثغره ... وقبلت خديه وما زلت صاديا
كأنا نذود البين بالقرب بيننا ... فنشتد من خوف الفراق تدانيا
كأن فؤادي طائر عاد إلفه ... إليه فأمسى أخر الليل شاديا
إذا ما تضاممنا ليسكن خفقه ... تنزى فيزداد الخفوق تواليا
أوشج في كلتا يديه رواجبى ... وشيجاً يظل الدهر أخضر ناميا
وتلمس كفي شعره فكأنني ... أعارض سلسالا من الماء صافيا
وأشكوه ما يجني فينفر غاضبا ... وأعطفه نحوي فيعطف راضيا
ثم تتدرج من هذا إلى متاع صريح، ولكنه خفيف سريع:
أتعلم أم أنت لا تعلم ... بأني عاشقك المغرم
أتقسم أنك لا تكتم ... بلى أنت تكتم أمراً ظهر
ولا تنس في عين شمس لنا ... ليالي موقرة بالجنى
ترف عليها طيور المنى ... مغردة في ضياء السحر
فكم بت أسهر تلك الجفون ... وأذبلها بالطلى والمجون
فباتت كما يعشق العاشقون ... مضاعفة السحر تسبي الفكر
أجل فليكن! ولكن شاعرنا لا يزال شاباً يستكثر الليالي المختلسة فيشيد بذكرها، ويفصلها تفصيلا، ويكاد في (واقعيته) يحدثنا عن صور الخيال!
وينتهي الحب الأول أو يزحمه الثاني ويعفى على آثاره. والناقد يطالع في هذا حبيباً قريباً في خصائصه من الحبيب الأول، يمتاز عنه بأنه شره للمعجبين بجماله، يريدهم حشداً لا فرداً. ولكنه يرى شاعرنا وقد نفض عن كاهله كثيراً من صوفية الشباب وحذره وتوجسه، غير أنه لا يزال يستمتع في دائرة محدودة، وبذخائر معدودة عند حبيبه:
يا أشره الناس حسنا ... إلى عبيد وصحب
وأنعم الناس بالا ... بناظر مشرئب
يا ليت لي ألف قلب ... تغنيك عن كل قلب
وليت لي ألف عين ... تراك من كل صوب
وليت لي ألف وسم ... وليت لي ألف عيب
لعل حسنك يغَني ... عن ناظر أو محب
ولا تبيت معنىَّ ... بمن تروع وتسبي
ثم ينجلي الأمر عن حبيب مواف ومحب متفتح، قد أخذ بعد المتعة والاكتفاء في ترف الطلاقة والفلسفة:
إيهاً أبا الأنهار فوقك شادن ... يشفي الغليل وأنت لست بشاف
فرعون لم يحمل عليك نظيره ... والبحر لم يحرزه في الأصداف
أوفى علينا من سماء جماله ... فاحلم بطلعته وماؤك غاف
واحفظ لديك وديعة من صفونا ... مأنوسة الذكرات والأطياف
سيطول أيام الصدود سؤالنا ... لك عن مواقع هذه الألطاف
ونود لو تغنى الودادة آسفا ... رجعى الزمان ولا رجوع لعاف
إلى أن يقول في يقظة طريفة وتأمل واع:
إني سعدت بقدر ما استرجعت لي ... يا نيل من حقب ومن أسلاف
دهر قد انبسطت عليه ساعة ... فاستأنفته أحسن استئناف
وصلت حديث زماننا بقديمه ... وصل الصحيفة نائي الأطراف

وبدت لنا صور العصور كأنها ... رسم على صفحات مائك غاف
ومناظر القمراء أشبه بالذي ... أحييت من ذِكرٍ مضين ضعاف
فالذكر والنظر العيان كلاهما ... حلم بها متشابه الأفواف
وتتبين في نهاية هذا الحب نضوج الشاعر، وانتباهه إلى خطرات الأيام والصروف والأقدار على ضوء حبه، وتأمله في الكون والطبيعة وإجراء ذلك كله في غزله:
أيها المعطى غدا عن سعة ... أعط إذا أنت مليء بالعطاء
إنما اليوم لدينا كغد ... وغد يا صاحبي اليوم هباء
آه لو يبقى على الدهر الصبا ... آه لو يرأف بالحب الفناء
فرصة فيها جمال وصبا ... ثم تمضي فإذا الكل سواء
وإذا المعشوق في العين كمن ... تتخطاه عيون الرقباء
كاختلاف اللون في الصبح لنا ... وتساوي بعدُ قبح ورواء
نحن في صبح وقد لا نلتقي ... ليت الليل ابتداء وانتهاء
ثم قطعة بعنوان: (ودع جمالك) اقتطفت بعضها عند الحديث على خاصة اليقظة والوعي الفني، واقتطف في هذا المجال بعضاً آخر، وإن كان يخيل لي أن المقصود بها هو الحبيب الأول ولكنها أقرب شبهاً بما قيل في فترة الحب الثاني، لما فيها من تأمل وعمق في الإحساس:
أمودعاً حسن الأحبة إنني ... ودعت قلب الهائم المغرور
ميتان في جدث نزورهما معاً ... وا وحشتا من زائر ومزور
يهنيك أنك لا تزال مقيدي ... بك حين لا شوق إليك مثيري
لم أبك وجهك إذ بكيت وإنما ... أرثي خرائب عالم مدثور
فاعجب لمن يبكى فجيعة سرمد ... بدموع مبتور الحياة حسير
وهي إحدى القصائد الطريفة التي تتجلى فيها (خصوصية) العقاد
ومتى بلغنا الجزء الرابع من الديوان التقينا هناك بشخصيتين أقرب ما تكونان إلى شخصيتي (سارة وهند) اللتين أسلفنا عنهما الحديث، وعلة ذلك مفهومة، وقد أوضحتها عند الحديث على (سارة) والتقينا بالشاعر في قمة النضوج النفسي والفني، وقد وضحت أمامه المعالم، وانتهت به التجارب إلى فلسفة كاملة في المرأة والحب والحياة، واكتملت به جميع القوى اللازمة للإحساس والتعبير، وعرف غاية الطبيعة من الحب، وغاية كلا الجنسين، فلم يبق أمامه إلا أن يعتصر من كل حب رحيقه، ويرتشف من كل كأس ثمالتها في طلاقة وبراعة وصراحة
فأما إحدى الشخصيتين فيطلع عليك وجهها من خلال قوله:
أريد التي ألقى سلاحي وجنتي ... إليها وألقاها من البأس أعزلا
وأطرح أعباء الجهاد وهمه ... لدى قدميها مغمض العين مرسلا
وأنت إذا أقبلت أقلبت جحفلا ... وجرت أسيافاً وشيدت معقلا
فان تهزميني فاهزمي عن بصيرة ... مريدا لأسباب الهزيمة مقبلا
ويطلع عليك وجهه معها من خلال قوله:
أيها الداعي إلى الله لنا ... ما ترى في دعوة منك إليك؟
أنت لو تعلم دائي - في غنى ... عن نداء الغيب والطب لديك -
تسأل الله شفائي ولقد ... جعل الله شفائي في يديك
وترجيَّ نظرة لي من علٍ ... ورجائي كله في ناظريك
فادع لي نفسك أو لا فادع لي ... رحمة الرحمن من وجدي عليك
إن قضاها الله أو لم يقضها ... حسبنا خطرتها في شفتيك
يفضل الصحة عندي أنني ... بعض ما تطوي عليه جانبيك
وهي كما ترى متحفظة متصونة، وهو محترس يقظ يلمح ولا يصرح أو هما كما قال العقاد:
(كانا أشبه بالشجرتين منهما بالإنسانين، يتلاقيان وكلاهما على جذوره، ويتلامسان بأهداب الأغصان، أو بنفحات النسيم العابر من هذه الأوراق إلى تلك الأوراق)
وأما الشخصية الأخرى فتطل عليك من قوله:
ماذا من الدنيا لعمري أريد ... أنت هي الدنيا فهل من مزيد؟
فيك لنا نور ونار معاً ... وأنجم زهر وأفق بعيد

وفيك روض مسفر عاطر ... وجوهر حر ودر نضيد
ونشوة الخمر إذا قوبلت ... بنشوة منك متاع زهيد
والفن إن لم تك نجواه من ... نجواك لغوٌ باطلٌ لا يفيد
وكل ما في الكون من روعة ... لها نظير فيك حي جديد
بل أنت دنيا غير هذى الدنى ... وكل حب فيك كون وليد
للمرء دنياوان: مطروقة ... فوضى وأخرى هو فيها فريد
وهذه، لا تلك، ما يشتهي ... وهي له الموئل وهي الوجود
وتتبين وجهه معها في قوله:
قبلات كل يوم وعناق ... ووداع كل يوم ولقاء
واشتياق كلما حان الفراق ... وعهود كلما جن المساء
وعتاب كل يوم وخصام ... جائر الحكم كثير العلل
نرتمي فيه بأهوال جسام ... بين سخريِّ المنى والقبل
وعلى توقيع أنغام الرجاء ... نبعث القلبين حباً وخصاما
عبث الطفلين في مهد الصفاء ... كلما راعتهما الضجة ناما
وحياة بين روض وغدير ... وحياة بين ألفاف كتاب
هذه أو تلك يحويها العبير ... ويروى سرحها ماء الشباب
لا ظلام الليل يثنيك ولا ... لفحة القيظ ولا اليوم المطير
في دلال منك موفور الحلي ... وكلال منك كالظبي البهير
وهي كما ترى أنثى ناضجة بوهيمية، وهو رجل فنان متفتح قد بلغ من المتعة إلى النزف فانتشى؛ فانطلق يتفلسف فقال:
وابل من قبل تمطرها ... من سماء الحب أخلاف غزار
جزلة المسِّ شهي لمسها ... حلوة المزجين من ماء ونار
سقيها محض ولاء خالص ... لم يكدره من الدنيا اعتكار
وكذا الإخلاص حر مطلق ... كصفات الله ما فيها اضطرار
روَّ من الدهر واضحك ساخرا ... إن طغى الدهر بأيديه القصار
هاهنا لا العيش محسوس الحظا ... لا ولا الوقت بمحدود المطار
. . .الخ
فإذا اجتاز الناقد الأجزاء الأربعة الأولى من الديوان إلى (وحي الأربعين) و (هدية الكروان) و (عابر سبيل) لم تبعد به النقلة كثيراً عن جو الجزء الرابع، ولكنه يجد انطلاقاً إلى مدى أوسع في التوحيد بين الأرض والسماء، أو بين المادة والروح في غزل العقاد،
كما يجد الهدوء الرتيب، لا تخالجه اللهفة إلا قليلا، وهي بعد شوق إلى المتاع الطليق، أكثر منها حرقة إلى إرواء الضرورة المقيدة، أو هي طلاقة فيها سخرية المجرب الذي سلك الطريق مرة ومرة، فانجلت في نفسه الروعة وانكشف المجهول، ولم يعد أمامه إلا تأمل المشاهد وتسجيل الشواهد، والموازنة بين ما مضى وما هو آت في رحلته الحاضرة. والذي علم قيمة العرف والتقاليد ومبلغ إخلاص الناس لها أو تفلتهم منها، فلم يعد يحسب لمن في (الخارج) حسابا، وإنما همه أن يعيش في عالم من صنعه هو، يضع تقاليده وحدوده
ولهذا يلوح الشاعر في الأجزاء الأخيرة منطلقا من القيود في الإحساس والتعبير انطلاقا لا تجده في شعر شبابه، وهذا أثر التجربة وحكم السن والممارسة.
ومع العقاد وجهان أصيلان في هذه الدواوين الثلاثة، وعدة وجوه عارضة:
فأحد الوجهين هو الذي يقول فيه قصيدة (غزل فلسفي) والذي فيه (من كل شيء) في الأرض والسماء، وفي الماضي والمستقبل و (من كل موجود وموعود توأم). . . الخ
ولعل هذه القصيدة أدل القصائد على هذا الوجه الذي يشُع في نفس الشاعر كل معاني الوجود، لأن الشاعر - حينئذ - مستعد لتلقي كل أطياف الوجود، متفتح لكل معنى من معانيه
والوجه الثاني هو الذي يقول فيه:
بعد سبع من السنين وعشر ... عرف الناس فضل ذا الميلاد

عرفوا أي نعمة زارت الأر ... ض بأضعاف حسنها المرتاد
عرفوه لما رأوا بينهم شم ... ساً مع الشمس أشرقت في البلاد
عجبوا كيف فاتهم يوم وافى ... فرعوا عهده بذكر معاد
ذاك ميلادك السعيد هنيئاً ... للذي فاز فيه بالإسعاد
ويقول فيه معظم غزليات (هدية الكروان)
والخطوط التي تفرق بين هذين الوجهين صعبة التمييز لولا أن الثاني أكثر بشاشة وطراءة، والأول أشد حيوية وتأثيراً
وعلى العموم فالشاعر يبدو في هذه الفترة واثقاً من نفسه وزمنه، يترشف كأس الحب في نشوة ولذة وتأمل وتمهل، وفي بشاشة ودعابة واطمئنان
ولولا أن المقال قد تضخم وطال لأكثرت من الأمثال، فهذه هي فسحة النفس التي عنينا، والتي امتاز بها العقاد كل الامتياز
(حلوان)
سيد قطب
إلى وزارة المعارف
كلمة حق في كتب
على أثر ما نشرناه في العدد الماضي من جواب الأستاذ أحمد أمين وتعليقنا عليه جاءتنا طائفة من المقالات والرسائل في هذا الموضوع لم نر من المفيد أن نشغل بها صفحات الرسالة فاقتصرنا منها على هذه الكلمة شاكرين لكتابها الأفاضل غيرتهم على الأدب ودفاعهم عن الحق
(المحرر)
كنا في مجلس ضم لفيفاً من الطلبة ورجال التعليم، والكل في مقتبل العمر وعنفوان الشباب، فمنهم من اجتاز مرحلة ثانوية في دراسته، ومنهم من اجتاز مراحل في تعليمه الجامعي. والحديث ذو شجون، (وللراسلة) حظها من الحديث، ولما ينشر فيها نصيبه من التعليق والمناقشة؛ وما يكاد الجمع يندفع حتى ترى القوم يتواعدون في أن للحديث صلة، وإلى الملتقى في أعداد الرسالة المقبلة
جئت بهذه الكلمة لأقول إن السبب (الذي من أجله صرف النظر عن تقرير بعض الكتب للمطالعة في مدارس المعارف المصرية) كان محل نقاش طويل في هذه الساعة القصيرة
ونحن نعيذ أنفسنا من الغرور يذهب بنا إلى الحطِّ من كفاية اللجنة التي عهد إليها اختيار كتب المطالعة. لكننا لم نر بأساً في أن نبعث برأي لفيف من الطلبة والأساتذة لا نعتقد أنهم ارتأوه أو اعتقدوه تزلفاً للزيات. فالصلة التي تصلهم بالأستاذ الزيات هي عين الصلة التي تصلهم بالأستاذ أحمد أمين، وهي صلة الأدب والذوق المشترك، هذه الصلة التي تدفع كل واحد إلى إبداء رأي هو صدى صادق للكيفية التي أدرك بها الإنتاج الأدبي لأي كاتب أو شاعر أو صاحب فَنٍّ
ومن الطبيعي أن نتحسس ذلك الضعف الأخلاقي لو كان في كتابين عالميين قُدِّر لهما من سعة الانتشار ما لم يقدر لغيرهما من الكتب. لقد كان الأستاذ الزيات أميناً في نقل هذين الكتابين إلى اللغة العربية، أتراه حور من مضمونهما بحيث ترى الفضيلة في (رفائيل) جريمة، والعاطفة في (آلام فرتر) ضعفاً أخلاقياً؟
لست أدفع عن المترجم تهمة هو أبعد الناس عنها فقد كان أميناً في ترجمته، ولكنني أدفعها
عن مؤلفي هذين الكتابين وهما على ما يعلم الناس من أعلام فلاسفة الغرب وفحول شعرائهم. ونحن لا نرى حاجة إلى أن نلجأ للعبارة نصوغها دفاعاً عنهما فالكتابان بين أيدينا ووقائعهما في ذاكرة الكثيرين منا، ولم تستطع أن تلمح الأثر الذي من أجله صرف النظر عن هذه الكتب
كنا وكان غيرنا في سنِّ الصبا يوم صدر (رفائيل)، وأذكر جيداً أن هذا الكتاب ما كان يبقى في يد القارئ أكثر من يومين اثنين لقلة النسخ وكثرة الطلاب المتلهفين على قراءته.
ولو لم يكن رفائيل كتابا فيه عاطفة نبيلة وشعور حي لكفى أن يكون في لغتنا قطعة فنية. وأشهد أن لأسلوب الترجمة الفنية التي ظهر بها هذا الكتاب هذا أكبر الفضل في

تحسين أسلوبنا الإنشائي يوم كنا نجيل البصر في الكتب على الرفوف فلا نرى غير ركام من ألفاظ وعبارات يمجها الذوق ولا يلازمها الحسن أو شبهه.
وإلى القارئ آلام فرتر! فهل كان (جوت) الفيلسوف مخادعاً يوم قدَّم كتابه إلى العالم وقال في مقدمته (إنك لن تستطيع وأنت تقرأه أن تحبس نفسك عن الإعجاب بفكره وقوة حسِّه، ولا قلبك عن الولوع بخلقه وشرف نفسه، ولا عينك عن البكاء لمثار جده وبؤسه!)
اللهم إنا لم نجد في الكتاب غير ما قدم المؤلف به كتابه، ففيه الشرف الصميم وفيه الخلق الكريم وفيه الإخلاص والإيثار والصبر والجلد.
وما أرى أن الدكتور طه حسين كان مدفوعاً للثناء يوم قال في مقدمة الكتاب (لقد وفق صديقنا الزيات حين نقل إلى اللغة العربية آلام فرتر للشاعر الفيلسوف (جوت). وفق إلى حسن الاختيار فما كان لشعب يُجل نفسه ويريد أن يعد بين الأمم الحية أن يجهل شاعراً فيلسوفاً كجوت قد أثر نبوغه الفني والفلسفي في الحياة العلمية والنفسية للعالم الحديث أشد تأثير. وما كان لهذا الشعب أن يجهل كتاباً كآلام فرتر قد عرفه الناس جميعاً في أوربا فأحبوه وكلفوا به، حتى أنك لا ترى فتى ولا فتاة في السادسة عشر من العمر إلا قرأه وقرأه وحاول أن يتفهم معانيه ويتأسى بما فيه).
لا نظن الدكتور طه حسين منع هذا الكتاب عن أولاده أو نصح لهم بالحيطة في قراءته ولا نشك في أن رجال المعارف بلا استثناء يزينون مكتباتهم بهذا الكتاب العبقري الخالد ويسرهم أن يروه في أيديهم بنيهم وبناتهم
بقيت مسألة هي مدار البحث ويجب ألا تعتبر كلمتي فيها فضولاً. فأن لمصر مكانتها في العالم العربي، ولثقافتها المكان المرموق في نظر طلاب العلم والأدب. فالكتاب الذي يرى أئمة الأدب في مصر أنه صالح للتداول يصبح هذا الرأي كورقة النقد تصرف في أي مكان. فهل من الحق أن كتاب (رفائيل) وكتاب (آلام فرتر) لهما أثرهما في الأخلاق من (ناحية عكسية؟). الطالب يجيبك: لا، والأستاذ لا يمنع أن يكون هذان الكتابان في صدر مكتبه وبين أهله وأولاده
أذكر أن (فرانس بيكون) قال في الكتب: (إن من الكتب ما يذاق، ومنها ما يبلع ويزدرد، ومنها ما يمضغ ويهضم ويتمثل) فكم في مكاتبنا من تلك الكتب التي تذاق وتبلع وتمضغ على درجاتها؛ اللهم إني إذا أجهدت نفسي وبحثت مع غيري عن الكتب التي تضمنتها مكاتب الكثيرين من طلاب المعاهد في العالم العربي لم أعد إلا وفي قلبي طعنة الأسى والأسف لهذه المختارات والمنتخبات يعودون إليها بين الحين والحين
إذا كان رفائيل وفرتر مفسدين للأخلاق فماذا يقال في آلاف الكتب البوليسية والروايات الخليعة والمجلات الساقطة التي تغص بها مئات المكاتب في القاهرة والقدس وبيروت ودمشق وبغداد؟ إذا كان في هذه الكتب انتحار فلماذا لا نمنع الصحف عن أعين الطلاب وفيها عشرات الحوادث من هذا النوع في كل يوم؟
لو لم تقرر اللجان كتاباً من الكتب واكتفت وذلك بأن تفرض رقابة على وسائل الإنتاج الثقافية لكان ذلك خيراً. أما أن تترك الأدب الرخو الخليع المكشوف يطغى على أكبر جزء من تفكير الشباب ثم تمنع أو لا تحبذ تقرير كتابين هما درة الكتب لأعلام الكتاب فهذا ما تؤاخذ عليه
(فلسطين)
علي كمال
ماضي القرويين وحاضرها
للأستاذ عبد الله كنون الحسني
- 3 -
وليس لأوقات الدراسة ضابط معين بل النهار كله من طلوع الفجر إلى المغرب وقت صالح للتدريس وتزاد عليه الحصة الواقعة بين العشاءين أيضاً. والدرس قد يمتد إلى الساعتين والثلاث بحسب قوة الأستاذ. وتدرس العلوم العقلية والنقلية في الصباح والمساء على السواء، إلا أن الغالب تخصيص الحصة التي بين العشاءين بالدروس الدينية والتهذيبية والوعظية من التفسير والحديث والفقه لحضور العامة لها إذ يكون الوقت وقت فراغ وانصراف عن الشغل. وكذا يقال في الدرس الأول الذي يكون عقب

صلاة الصبح. وأيام العطلة هي في الغالب الأخمسة والجمع وأسابيع الأعياد وأيام المواسم. على أن منهم من يغتنم فرصة هذه الأيام فيقرأ فيها فنوناً متنوعة في كتب صغيرة مما يتهيأ ختمه في مدة قريبة

ومواد الدراسة لا تنضبط بعدد ولا تستقر على حال. على أن الدروس الدينية واللغوية لم تنقطع من الجامعة في وقت من الأوقات ودائماً تكون لها الأغلبية، في حين أن العلوم العقلية منها ما لا ينهض إلا بمناصرة السلطة التي يكون هواها مع هذا العلم أو ذاك كما حصل على عهد الموحدين من إحياء علو الفلسفة والأخذ بضبع أهلها لِما كان من ميل يوسف بن عبد المؤمن (مأمون المغرب) لها وشغفه بها. ومنها ما كان يروج وينفق إذا وجد من يحسن القيام عليه والدعوة إليه من أهله المتحققين به المتفرغين له كالنهضة العظيمة التي كانت لعلوم الرياضة على عهد المرينيين، والتي أوجدها أفراد من العلماء كانوا في عهدهم منقطعي القرين في تلك العلوم

ثم الطلبة قسمان: (1) أهليون ونعني بهم أبناء فاس، وما زال أهل فاس من أحرص الناس على طلب العلوم الدينية في القرويين (2) وآفاقيون ومنهم الواردون على فاس من مختلف المدن والقرى في المغرب بل والجزائر والصحراء، وعددهم يتراوح بين (500) و (700) طالب. ومحل سكناهم المدارس التي سبق الكلام على بعضها، ويتناولون من الأوقاف بصفة مؤونة رغيفاً واحداً في اليوم. ولبعضهم جرايات وقفية لا بأس بها يأخذونها

مقابل بعض الأعمال التي يقومون بها في المساجد الأخرى والقرويين نفسها وكان للطلبة قبل هذا الأبَّان صولة كبيرة بحيث أن السلطة لم تكن تتدخل في شؤونهم وإنما يرجعون في فصل خصوماتهم إلى مقدميهم وإلى الأساتذة. ومما يدل على مزيد الاعتبار الذي كان لهم سواء عند الشعب أو الحكومة، تلك النزهة الربيعية التي كانوا يقيمونها كل سنة على ضفاف وادي الجواهر خارج فاس ويشارك فيها جميع طبقات الشعب والحكومة نفسها فيرسل السلطان ممثله، ويهدي السلطان إلى الطلبة هدية جميلة في مهرجان حافل، بينما يقدم الطلبة على لسان سلطانهم طلبات مهمة إلى السلطان، وقد يكون فيها العفو عن مجرم أو الرضا عن قبيل ما، أو تحريرهم من مغرم ونحوه إلى غير ذلك، فتنفذ الطلبات بسرعة ويرجع الطلبة مفعمين بالسرور والزهو والحبور. وهذه النزهة لا زالت تقام حتى اليوم لكن لم يبق لها الاعتبار السابق.

وإذا نظرنا إلى تاريخ العلوم في القرويين نجد أنها اجتازت بثلاث مراحل مهمة:

الأولى: عند قيام الدعوة الموحدية في منتصف القرن السادس حيث انتصر مذهب الأشعرية في الاعتقاد على مذهب السلف الذي كان عليه أهل المغرب منذ البدء، فدخل علم الكلام على طريقة الأشعري بما يستلزمه من نظريات الفلسفة ومقدماتها إلى القرويين وتوطد أمره فيها منذ ذلك العهد إلى يوم الناس هذا

والثانية: عندما أعلن يعقوب المنصور ثالث خلفاء الموحدين الحرب على علم الفروع وعمل على نشر السنة بالترغيب والترهيب وأحرق كتب الفقه من المدونة والتهذيب والواضحة وغيرها، فانصرف الناس إلى علوم الحديث والتفسير وإحياء ما اندثر من أصولهما وكان ذلك فاتحة عهد جديد في الدراسات الإسلامية بالقرويين

والثالثة: عندما أصدر السلطان سيدي محمد بن عبد الله العلوي منشوره الإصلاحي الهام إلى الشيخ التاودي بن سودة، وكان رأى ما آلت إليه الحركة العلمية في القرويين من الفتور والاضمحلال فساءه ذلك المآل وعمل على بعثها وتجديدها بما أثر في حياتها المستقبلية بعد ذلك تأثيراً بليغاً

هذا مجمل نظام القرويين والحالة العامة التي كانت عليها إلى انقضاء الثلث الأول من القرن الرابع عشر الحاضر. وبعد ذلك في عام 1232هـ ـ دخلت الكلية في طور الإصلاح

والتنظيم الحديث إذ اصدر السلطان مولاي يوسف رحمه الله أمره بتأسيس مجلس للنظر في شؤون القرويين ووضع برنامج للدراسة فيها، فتألف المجلس ووضع البرنامج، وكان من أهم ما اشتمل عليه مما يُعدُّ حدثاً جديداً في تاريخ الكلية، تقسيم منهاج الدراسة إلى ثلاثة أقسام: ابتدائي وثانوي ونهائي، وتقرير نظام المراقبة والامتحانات، ولكن تنفيذ هذا البرنامج كان من العسير لمخالفته لمألوف الناس الذين يقفون كثيراً مع العادات. وجاءت مشاركة بعض الشخصيات الغربية في وضعه ضغثاً

على إبالة، فاستراب الناس به حتى من كان يحب الإصلاح ويميل إلى التجديد. وهكذا بقى ما كان على ما كان. وحدث أن السلطة كانت تستخدم بعض الشخصيات البارزة من العلماء في مختلف المصالح، والبعض الآخر كان ينتثر عقده بالموت، فلم يشعر الناس إلا وجامع القرويين يكاد ينعق فيه البوم والغراب لخلوه من أهل الكفاية والجد الذين كانوا يعمرونه بالدروس النافعة الدائمة ولا يبغون على ذلك ثواباً ولا أجراً.
فغلقت الأفكار وساءت الظنون وكثرت المساعي التي ترمى إلى الإصلاح العملي والتنظيم الجدي، فما كان إلا أن اصدر الأمر الملكي المحمدي الكريم بذلك ونفذ في محرم فاتح عام 1250 ولا يزال العمل عليه إلى الآن
ينص هذا الأمر على تقسيم منهاج الدراسة إلى ثلاثة أقسام كالسابق ويزيد عليه بجعل القسم النهائي على نوعين: ديني وأدبي.
ويحصر مدة الدراسة في (12) سنة منها ثلاثة للابتدائي وستة للثانوي وثلاثة للنهائي.
وفضلاً عن تقريره لجميع العلوم الشرعية وآلاتها التي كانت تدرس في الكلية من قبل - فإنه أضاف إليها علوماً جديدة كالتاريخ والجغرافية والهندسة وجعل عدد الأساتذة النظاميين (مبدئياً) 32 وعين لهم أجوراً لا بأس بها، وحدد مدد العطلة، وضبط أمر امتحانات النقل والتخريج، وبين نتائج النجاح وما يخوله نيل الشهادة في كل من الأقسام الثلاثة
(يتبع - طنجة)
عبد الله كنون الحسني
بين الفكاهة والجد
تحية كلب
إلى الكلب البوليسي (هول)
للأستاذ محمود غنيم
كلبٌ ينمُّ على الجناهْ ... تمشي العدالة في خُطاهْ
إن قال أرهفت النيا ... بةُ سمعها وصغى القُضَاه
كم أَفْلَتَ الجاني فشمَّ ... ر ساعديه واقتفاه
لم يُعْي أهلَ البحث س ... رٌّ غامضٌ إلا جلاه
يستخرج السرَّ الدفي ... نَ كأنه بعضُ الْحُواه
وكأنما هو إذ ترا ... هُ مشعوذٌ يتلو رُقاه
عَيُّ اللسان وإنما ... في أنفه جُمعت قواه
هو لا يحيد عن الصوا ... ب ولا يُحابي من رشاه
لا يعرف القربى ولو ... كان الذي يجني أخاه
هيهات لا إشكالَ في ... ما يَدَّعيه ولا اشتباه
كم ناطقٍ تبع الهوى ... فلوى بغير الحق فاه
ضَلَّ ابنُ آدمَ نهجَهُ ... حتى رأى كلباً هداه
ما أَضعفَ الإنسانَ مَقْ ... دِرَة وأكثرَ ما ادَّعاه
قد بات يرعى الأمْنَ (هُو ... لُ) وغيرُه يرعى الشياه
كلبٌ عصامِيٌّ بَنَتْ ... أركانَ دولته يداه
يا رُبَّ مفتخرٍ عَلي ... كَ ببيت مجدٍ ما بناه
كلبٌ وضيعُ الأصل لا ... ليثٌ ولا ليثٌ نماه
استقبلوه مُصَفِّقي ... نَ كأنه بعضُ الغُزَاه
كم وَدَّ شبلُ شرًى بجَدْ ... ع الأنف لو أضحى أباه
خافته دون الله أف ... ئدة الجبابرة الطغاه
يخشاه من لا أذنَ تس ... معه ولا عينٌ تراه
عجباً يخاف الكلبَ قو ... مٌ لا يخافون الإله!
شيخَ الكلاب أَخَفْتَ ذئ ... بَ الأنس لا ذِئبَ الفلاه
لهجَتْ بذكرك أَلْسُنٌ ... وروت حوادثك الرُواه
وَسلبْتَ كلبَ الكهف ما ... بيديهِ من عزٍّ وجاه
لم تَقْضِ في النوم الحيا ... ةَ كما قضى فيه الحياه
لكن سهرتَ على السلا ... م وبات ينعَمُ في كراه

صاد الكلابُ فكان صي ... دُهم الحمامَة والقطاه
وأنفت من صيد البُزَا ... ة فصدت صيَّادَ البُزَاه
إن طوقوك فطالما ... طوَّقْتَ أَعْنَاقَ العُتَاه
أو سلسلوك فطالما ... سَلْسَلْتَ أَقدامَ العصاه
يا أيها الواشي رَعا ... كَ اللهُ من بين الوشاه
يا رُبَّ مَظْلومٍ له ... كُتِبَتْ على يدك النجاه
بإشارة منك الحيا ... ة لمن تشاء أو الوفاه
للأمن شُرْطِيٌّ علي ... هِ ساهرٌ يحمي حماه
لا يستقلُّ بمكتبٍ ... بين اليراعة والدواه
قبض المرتَّبَ غيرُهُ ... والخبزُ في الدنيا كفاه
ما زان مِعْصَمَهُ شري ... طٌ أو تألَّقَ مِنْكباه
أدَّى لوجه الله وا ... جِبَهُ بحزمٍ وانتباه
متواضعٌ بين الجنو ... دِ يلينُ إذ يقسو القساه
يا رُبَّ جنديٍّ بدا ... لك بيدقاً في ثوب شاه
يمشي فيغضبُ حين لا ... تعنو لطلعته الجباه
قالوا أَتُطْرِي الكَلْبَ قل ... تُ لهم ومن أطرِي سواه؟
يرعى الودادَ وما رأي ... تُ من الأنام فتًى رعاه
لا أبتغي صلة الأنا ... م فكلُّهم مثلي عُفاه
كم لَذَّ طعمُ وعودهم ... عند المرور من الشفاه
فتبخرت تلك الوعو ... دُ كما تبخرتِ المياه
الصُّلْبُ بين الناس إنْ ... أنت استندت إليه وَاه
والليثُ فيهم ساعةَ ال ... جُلَّى يفرُّ فِرَار شاه
لا يؤمَنُونَ عَلَى الأذى ... والكلْبُ مأمُونٌ أَذَاه
سألوا الكلابَ الحقَّ إذْ ... وَجدُوه بينَ الناسِ تاه
محمود غنيم

الغد المشؤوم!!

(إليك. . . وقد وعدتني بلقاء الغد فما عدت! ولا عاد!!)

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

وَقُلْتِ: (غَداً تَبْرَا جِرَاحُكَ) فانْطَوَتْ ... عَلَى نارِها تَحْتَ الدُّجى تَتَضَرَّم
تُغَمْغِمُ باسم الفَجْرِ، عَلَّ صباحَهُ ... بِفَرْحَتِهاَ فَوق الرُّبَى يَتَبَسَّمُ
وَعَادَتْ كما كانَتْ جِرَاحاً حزينَةً ... تَكَادُ عَلَيْها خَيْبَةُ الرُّوح تَلْطِمُ!
وَقُلْتِ: (غَداً لَيْلاَتُكَ السُّودُ تَنْجَلِي ... ويَهْجُرُ دُنْياناَ الْعَذابُ الْمُخَيِّمُ!)
فَقَيّدْتُ أَجْفاَني عن النَّوْمِ عَلَّهاَ ... إذا مَات لَيلِي في ضُحَى الْحُبِّ تَنْعَمُ
فَعاَدَتْ كما كانَتْ وَجُنَّ ظَلاَمُهاَ ... فَذَابَ به طَيْفُ الصِّياَءِ الْمُهَوِّمُ!
وَقُلْتِ: (غَداً يا شاَعِري تَلْمَحُ الْمُنَى ... عَلَى رُوحِكِ الشَّاكي الْحَزينِ تحَوِّمُ!)
فَعَلّلتُ ساعَاتي! وَقُلْتُ: لَعَلّما ... هَوَاكِ غَداً يا نَفْسُ يَحْنُو وَيَرْحَمُ
وجاَء غَدِي الْمشْؤُومُ خَيْباَنَ بَعْدَ مَا ... قَضَى اللَّيْلَ - مَفْطُورَ الرَّجَاءِ - الْمُتَيَّمُ!
وَقُلْتِ: غَداً صَحْراءُ عُمْرِكَ جَنَّةٌ ... وَصَفْوٌ لِدُنْياناَ، وَلهوٌ وَأَنعُمُ
وَتَسْبِيحُ أَحْلاَمٍ، وآفاَقُ نَشْوَةٍ ... وَدُنْياَ أَغانٍ لِلهَوَى تَتَرَنَّمُ!
وَجاَء غَدِي قَفْراً مَحِيلاً سُكُونُهُ ... مَناَحاتُ جِنٍّ في الْكُهُوفِ تُدَمْدِمُ!
وَقُلْتِ: دُخانُ الْيَأسِ وَلى وَفي غَدٍ ... سَيَسْعَدُ هذا الْيَائِسُ الْمُتَجَهِّمُ!
وَجاء غَدي لا كانَ جاَء وَلا انْتَهَى ... إليِّ بهِ دَهْرِي الأَثيمُ المُذَمَّمُ!
فَسِرْتُ وَأَيَّامِي خَرابٌ! وَظُلْمَةٌ! ... وَعَيْشِي مَلاَلٌ كلُّهُ وَتَبَرُّمُ!
عَلَى شَبَحِي الْمَهْدُودِ فَوْضَى! وَضَجَّةٌ ... وَيَأْسٌ! وَفي قلْبِي مِنَ الْحُزنِ مَأتَمُ!
وَفي نَفَسِي لوْ ينْشَقُ الْمَوْتُ ريحَهُ ... زَوَافِرُ تَبْلَى مِنْ لظاَهاَ جَهَنَمُ
فَياَ غادَتي أَقْسَمْتُ بالْحُبِّ بالْمُنَى ... بِنُورِكِ بالْفَنِّ الذي رَاحَ يُلْهِمُ
لَقَرَّبْتِ لي يَوْمَ اللِّقاَءِ! وَعُدْتني ... لِيَهْدَأَ مَفْجُوعُ الأَماني مُسْقَمُ
وَأَسْعَد قَبْلَ الموْتِ لوْ شئْتِ لَحْظَةً ... أُرَوِّدُ مِنْهاَ لِلْخُلُودِ وَأَغْنَمُ

وَإنْ شِئْتِ نِسْيَاني . فَيَاَ ضَيْعَةَ الهوَى! ... وضَيْعَةَ أَحْلاَمِي التي كُنْتُ أَحلمُ!
وَيَاَ ضَيْعَتَي في الْعاَشقِينَ! كأنَّني ... مِنَ الْيَأْسِ لُغْزٌ في فَم الْحُب مُبْهَمُ!
دعوة إلى المرح
للأستاذ فريد عين شوكة
ودِّعْ الَهمَّ وَالشَّجَنْ ... فالجوَى يُفْسِدُ الزَّمنْ
وَاغْتَنِم ساعةَ الرِّضى ... فالرضى راحة البدن
عِشْ بدنياك كالطيور ... مَرِحَ النفس منشدا
لا تَدَعْ عمرك القصير ... يتقضى في البكا سُدَى
سوف تبكي وتنتحبْ ... والورى عنك في شُغُلْ
وإذا دمعك أنسكب ... ضحكت حولك المُقَلْ
هل ترى شاكياً شكا ... فشكا واحدٌ مَعَهْ؟
أو ترى باكياً بكى ... كفكف الناس مدمعه؟
طِبعَ المرْءُ مَالَهُ ... غير إشباع رغْبَتِهْ
وإذا الخطبُ غالَهُ ... راحَ يشكو لِصُحْبَتِهْ
يا مشُوقاً لما مَضَى ... هل يوافيك ما اندثَرْ؟
ما مضى فات وانْقَضَى ... وَغَدٌ مَعْقِدُ النظر
فاشْحَذِ العزمَ لِلْغَدِ ... إنه مَوْئِلُ الْمُنَى
وادفع اليأسَ باليدِ ... تجد الصعب هَيِّناً
إنما اليأس في الحياه ... مِعْوَلٌ يَحْطِمَ الْقُوَى
وإذا لامَسَتْ يدَاه ... صَرْح مجدٍ بها هَوَى
فريد عين شوكة
البَريدُ الأدَبّي
إلى الأستاذ الجليل محمد بن الحسن الحجوي
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته- وبعد فلقد قرأت بإعجاب ما نشرتموه في الرسالة جواباً على الأسئلة الأشفودرية، وأفدت منه علماً كثيراً أشكركم عليه وأسأل الله أن يجزيكم عنه خير الجزاء. ولكني وقفت عند قولكم (أن الطرق الصوفية تجانية وغيرها إنما أحدثت في الإسلام لجمع قلوب المسلمين على إقامة الشريعة الغراء إقامة كاملة، إلى أخر ما قلتم)، وخشيت أن يفهم بعض القارئين من هذه الجملة أن جمع قلوب المسلمين على إقامة الشريعة لا يكون إلا بهذه الطرق، فتكون الشريعة إذن ناقصة تحتاج إلى متمم، مع أنكم لا تريدون هذا، ولا تشكون في أن الشريعة جاءت كاملة مكملة، لا تحتاج إلى أدنى زيادة، وأنها تكفل للمسلم كل خير ينبغي له في دنياه وآخرته- وإذا كان ذلك كذلك فماذا يبقى لهذه الطرق من عمل؟ وهل تخلو من أحد شيئين: إما أن تكون زيادة على الإسلام فهي مردودة، وإما أن تكون الإسلام نفسه فلا يبقى فرق بين مسلم شاذلي أو نقشبندي، ومسلم ليس له طريقة من هذه الطرق، وتكون الطرق على هذا الغرض تحصيل حاصل وهو باطل. وليت شعري ما القصد من هذه الطرق؟ إن كانت للذكر المرتب ففي كتاب الأذكار للنووي من الأذكار المأثورة ما يملأ يوم المسلم وليلته، وهي أفضل قطعاً من الأذكار التي وضع صيغها شيوخ الطرق؛ وإن كان القصد تهذيب السريرة وتنقية القلوب فليس وراء الكتاب والسنة ما يهذب سريرة وينقي قلباً؟ فهل القصد إذن تفريق جماعة المسلمين؟
هذا كله إذا خلت الطرق من كل ما يخالف أصل الدين، أما إن وقع فيها الخلاف كما هو الشأن في كثير من الطرق فهي مردودة بالاتفاق
بقي يا سيدي عدكم (الوهابية) من الطرق الصوفية، مع أن الوهابية حركة سلفية يراد منها ترك كل مبتدع في الدين ومنه هذه الطرق، والرجوع إلى الكتاب والسنة. ثم إنه ليس في الدنيا مذهب أو طريقة تدعى (الوهابية)، ولا يعرف هذه الكلمة أهل نجد أنفسهم، ولا كان ابن عبد الوهاب صاحب مذهب وإنما هو مصلح منبه، وأهل نجد حنابلة على مذهب الإمام أحمد ناصر السنة
هذا ولكم يا سيدي الشكر الأجزل والسلام عليكم ورحمة الله
(دمشق)
علي الطنطاوي

مكتبة دار الآثار في بغداد
روت (الأخبار) البغدادية ما يأتي:
ذكرنا في أعدادنا السابقة لمعا عن مكتبة دار الآثار في العاصمة وما تحويه هذه الخزانة العلمية من أسفار وكتب يفتقر إليها الكثير من مكتبات الأمم الراقية في هذا الباب، ونوهنا بالجهود الكثيرة التي يبذلها سعادة الأستاذ الكبير ساطع الحصري مدير دار الآثار القديمة في سبيل جعل مكتبة العراق الأثرية في طليعة مكتبات الآثار في العالم بما تضمه في رفوفها وخزاناتها من المؤلفات القيمة في العاديات والآثار القديمة من جميع النواحي
ونذكر اليوم طائفة كبيرة من هذه الكتب الثمينة أضيفت إلى المكتبة الأثرية العراقية، وكيفية ذلك أنه يوجد في الولايات المتحدة الأمريكية معهد باسم معهد الأبحاث الأمريكية الشرقية غايته التعاون مع البلاد الشرقية من الناحية الأثرية. كان بعض العلماء الأثريين الأمريكيين قد أوصوا بمكتباتهم لهذا المعهد على أن يبعث بها إلى بغداد عاصمة العراق عند قيام دار الآثار فيها بتأسيس معهد للآثار. وقد مر زمن طويل على ذلك دون أن تقدم هذه الكتب إلى دار الآثار العراقية تنفيذاً لرغبة الموصين بها، وعليه فقد سعى الأستاذ الحصري في جلب هذه الكتب والاستفادة منها هنا. وأخيراً وبعد جهود كثيرة نجح الأستاذ الحصري في مسعاه إذ قد وصلت هذه الكتب القيمة التي يبلغ عددها بضعة آلاف إلى مديرية الآثار العراقية وخصصت لها غرفة واسعة نظمت فيها الخزانات وصنفت عليها الكتب بترتيب يسهل على المطالعين الاستفادة منها
عقد مؤتمر عام للدفاع عن مصالح الإسلام
وزع مكتب الأنباء الألماني هذه البرقية من دمشق:
اجتمع هنا أقطاب علماء الإسلام وقرروا دعوة جميع رؤساء الدين المسلمين إلى مؤتمر إسلامي عام. وسيبحث هذا المؤتمر طرق الدفاع عن مصالح الإسلام، ورجا المجتمعون من فضيلة شيخ الجامع الأزهر في القاهرة أن يشترك في هذه المؤتمر
اللغة العربية في الكلية الطبية العراقية
كانت وزارة المعارف قد اقترحت على الجهات المختصة أن يلزم خريجو المدارس الثانوية في الدخول سنة واحدة إلى الكلية الطبية العراقية بغية تقوية ثقافتهم باللغة الإنكليزية. وقد عرض هذا الاقتراح على سعادة الدكتور السيد هاشم الوتري عميد الكلية فعارضه نظراً لاعتزامه تغيير لغة الدراسة في الكلية المذكورة وجعلها باللغة العربية أسوة بالكلية الطبية في دمشق التي لا يدرس طلابها العلوم إلا باللغة العربية وقد رفع العميد إلى الجهات المختصة مقترحات بهذا الصدد. ولا ريب أن هذا العزم لو تحقق سيكون للكلية الطبية العربية شأن كبير الأثر في خدمة الطب في هذه البلاد نظراً لما في ذلك من بعث للمصطلحات الطبية التي كان يستعملها أطباء العرب الأقدمون
إلى الأستاذ الكبير العقاد
بمناسبة البحث القيم الذي تعالجونه على صفحات الرسالة الغراء، أرجو التبسط والإفاضة فيما يأتي:
2) هل تؤمنون بمقاييس الجمال التي تعتمد أول ما تعتمد على الأرقام؟
2) أيتوقف تذوّق الجمال على مقدار التحْضر والتثقف، أم هو فن كالشعر. . . يتوقف على الإلهام والمواهب الطبيعية؟
3) وعلى ذلك. هل يعجز أمرؤ القيس وهو ذلك الفنان البارع، ذو الخيال الوثاب الذي استطاع أن يتذوق جمال الطبيعة، ويترجم عنها في قصائده عن (رسم مثال للأنوثة موافق لمعاني الجمال بمعزل عن المتعة لتخلف الأوان. . .)
4) وهل لتخلف الأوان دخل في تقدير الجمال؟ وإذا كان كذلك، فما بالنا نرى تمثال (فينوس) مع تخلف أوانه رمزاً ومقياساً لمعاهد الجمال في العصر الحديث؟
(القنايات)
عبد المنعم شلبي
صناعة السيللوز من دوالي العنب

وصل المهندس الكيميائي فالانيي بعد تجارب عدة إلى اكتشاف طريقة لاستخراج السيللوز من دوالي العنب المستعملة في إنتاج الورق والحرير الصناعي، وهذا الاكتشاف يساعد مساعدة كبرى على الوصول إلى الاستقلال الاقتصادي بينما يسمح بتشغيل الأيدي العاملة القروية والصناعية

تضامن وتواثق

قال الأستاذ الجارم بك في بعض محاضراته عن الأخطاء الشائعة في اللغة العربية التي ألقاها بواسطة الإذاعة اللاسلكية إن كلمة (تضامن) فشت فشوا عظيما في هذا العصر وليست موجودة في لغة العرب ثم استبدل بها كلمة (تواثق) واستشهد بقول كعب بن زهير: (ليوفوا بما كانوا عليه تواثقوا) ولكن كلمة تواثق لا تحل محل كلمة تضامن خصوصاً في هذا العصر لما حملها القضاء من معنى مختلف جداً عن (تضامن) لأننا إذا قلنا تواثق سعيد مع حليم على تنفيذ هذا العمل أردنا بأنهما تعاهدا فيما بينهما والتزم كلاهما بتنفيذ شروطه التي تخصه؛ وأما إذا قلنا يقر سعيد بأنه ضامن متضامن مع حليم في دفع هذا المبلغ أردنا بأنهما سيلزمان بدفع المبلغ معاً أو سيدفعه حليم وحده إذا لم يتوقف

فإذاً كلمة التوافق تفيد القيام بتنفيذ الالتزامات وكلمة التضامن تفيد كفالة شخص ما في دفع ما عليه أو الدفع معه أو الدفع محله.

فالفرق إذاً بعيد بين الكلمتين ولن تغني إحداهما عن الأخرى شيئا.

ولن نستطيع أن ننبذ اليوم كلمة التضامن بعدما أصبح لها من معنى خطير في القضاء. وليس يضير العربية إذا لم تكن هذه الكلمة موجودة في كتبها ومعاجمها وأوجدناها نحن للفائدة الضرورية على القياس الصحيح. وقد ذكر الأستاذ في المحاضرات التالية ألفاظاً أجراها على القياس ولم تكن موجودة في العربية ككلمة (عبّ) في قصيدة المتنبي البائية الخ. . .

فهل من كلمة عربية صحيحة تفيد المعنى المطلوب وتغني عن تضامن؟

ن. م. ب

الكُتُب

الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عهده

تأليف الأستاذ جمال الدين سرور

للأديب حسن حبشي

ترى إلى أي مدى بلغ اهتمامنا بتاريخنا القومي. . .؟ خطر ببالي هذا السؤال وأنا أتصفح هذا الكتاب الذي حاول فيه مؤلفه الشاب أن يرسم صورة لعصر في تاريخ مصر له قيمته من الناحيتين القومية والدينية. ومما يسترعي انتباه المتتبعين للدراسات العالية هو انصراف أكثر الباحثين إلى نواح خاصة من التاريخ والأدب انصرافاً كلياً، على حين أن هناك نواحي في كلا هذين الفرعين لما تزل بكراً، ومن ثم كان اهتمام الأستاذ جمال الدين سرور بتناول هذه الناحية أمراً يشكر عليه، فلقد خصص من حياته الجامعية عامين لدراسة عصر الظاهر بيبرس، فخرج بهذا الكتاب القيم الذي منحته كلية الآداب من أجله درجة (أستاذ في الآداب)

أن كلا من الظاهر بيبرس وعصره موضوع جديد يتطلب من الباحث الرجوع إلى الكثير من المخطوطات، ومرجع ذلك قلة من يعنيهم تناول تاريخ مصر بعد القرن التاسع الهجري تقريباً، بل وقبل ذلك بكثير، حتى ليخيل إلى الكثيرين أن مصر كانت تعيش طوال هذه الفترة على هامش الحوادث السياسية في العالم الإسلامي، على حين يتراءى العكس لمن يتعمق بعض الشيء في دراسة ظواهر هذا العصر. . . لقد كان العصر الطولوني في مصر، فهل كان في تاريخ أمة من أمم الشرق حينئذ ما يبزه من الناحية الاجتماعية أو السياسية؟ لقد آثرنا هذا العصر بالذات لدلالته على حيوية مصر في زمن كانت الدولة العباسية لا تزال فيه على جانب شديد من البطش والقوة. وتوالت على مصر بعد ذلك عهود لدول مختلفة كان موقف مصر في أثنائها كلها في صلتها بالخلافة العباسية موقف الند للند، لا التابع للمتبوع

ومن العصور الطريفة في تاريخ مصر عصر الأيوبيين ثم المماليك، لما امتازت به هذه الفترة في الشرق والغرب بأنها كانت عصر تلاحم ديني تعدى حدود الجدل إلى امتشاق

الحسام فكانت الحروب الصليبية التي ظلت زمناً طويلاً أهرق فيه من الدماء ما يدعونا لتسميتها بالمجازر البشرية
وفي أوائل عهد الدولة المملوكية كانت الخلافة العباسية مشرفة على الدمار، فلقد ظهر المغول في فارس، وتقدموا شطر أطراف الدولة ينتقصون منها شيئاً فشيئاً فدمروا مملكة خوارزم شاه وحملوا الدمار والهلاك، وكانوا يضمرون من الشر للإسلام ما تنبئ عنه مخالفاتهم الكثيرة مع البابوات وملوك أوربا لهدم الحنيفة السمحاء. وتم للمغول بعض ما أرادوه، فأزالوا الخلافة من بغداد ثم تحولوا شطر مصر، وكانت - كما هي اليوم - معقل الإسلام، فأخذت حملاتهم تنقض على أطرافها من جهة الشام، ولكن قيض الله للإسلام إذ ذاك هذه الدولة الفتية المملوكية فوجد رجالها في محاربة التتر ما يتفق وما نشأوا عليه من الفروسية. والعجيب في أمر هذه الدولة الناشئة أنها استطاعت أن تصد عادية قوم وطئوا أرض أوربة وأشرفوا على سهول المجر، وقضوا على الدولة الخوارزمية والخلافة في بغداد
وكان من رجال المماليك الظاهر بيبرس، فوجه جهوده بعد أخذه مقاليد الحكم بعد قطز إلى صد التتر فهزمهم عند البيرة كما هزمهم من قبل عند عين جالوت. والواقع أن ما بذله بيبرس من صدهم ونجاحه في هزيمتهم قد مكن لهيبة مصر في العالم الغربي حيث كانت الدول المسيحية تترقب الفرصة للانقضاض على مصر التي اضطلعت بأعباء السياسة ومواجهة العالم الغربي. كذلك خافه أمراء البيت الأيوبي لهزيمته قوماً كان يظن أن لن يستطيع أحد ما خضد شوكتهم. كذلك قضى على طائفة الحشيشيين في بلاد الشام، وكانوا شوكة تقض مضجع ملوك المسلمين وتهدد الإسلام.
ولقد عرض الأستاذ جمال الدين سرور لهذه النواحي في شيء من الإسهاب والتفصيل، وأن لم يكن ذلك بالكثير من أجل تاريخ حياة رجل أمد الإسلام بقوة، بعد أن كان مهدداً بالزوال أو الضعف الذي لم تكن ترجى بعده قوة له
كذلك تناول المؤلف الحضارة المصرية في عهده، فجاء بصورة مشرقة النواحي، تختلج الحياة بين سطورها، وتلتمع الفكرة الرشيدة والغاية النبيلة في النتائج التي جاءت بها هذه الحضارة من الاهتمام بالجيش والبحرية والرخاء المادي. ولو أنني حاولت في هذا المقال
أن أحلل ما تناوله الأستاذ سرور من أوجه الحضارة المادية والأدبية لضاق النطاق، وإن كان فصله عن الحياة العلمية والأدبية (185 - 164) فيه شيء من الجدة والرونق، ولكن حسب القارئ أن يطالع بنفسه عرضه الوافي الممتع لضروب هذه الحضارة المختلفة، حتى يقف بنفسه على مدى الجهد الذي بذله المؤلف في هذا السبيل. غير أني آخذ على الصديق سرور عدم دراسته للحياة الشعبية، فذلك بحث لا يخلو من طرافة وجدة، وما كان أولاه أن يخصص من أجل هذه الناحية فصلاً، فما أسمى النواحي التي تناولها إلا (بالحياة العليا)
وبعد فان مؤلف هذا الكتاب جدير بأن يتابع دراسته في هذه الناحية العظيمة المجهولة
حسن حبشي
محاضرات إسلامية
تأليف الأستاذ عبد الرحمن الجديلي
بقلم الأستاذ إسماعيل السعداوي
ألقى الأديب المعروف، الأستاذ عبد الرحمن الجديلي، السكرتير للمرحوم سعد باشا، على العالم العربي، من مذياع مصر، هذه المحاضرات التي طبعت جماعة الوعظ والدعوة الإسلامية الجزء الأول منها، وضمنته عشرين محاضرة
والأستاذ الجديلي، ربيب ثورة مصر الأدبية والسياسية. ضمه قائدها العظيم سعد إلى خاصته، وألقى إليه بأسراره وتدوين أفكاره، لما رأى أن تياره الأدبي والفكري، يتفق وما يشتهى في المثل القومي للشباب المصري الجديد
ومكث في معهد سعد ما مكث، أبصر ما يكون شاب بطريق الحياة لقومه، والسعادة لوطنه. وكثيراً ما كانت تدفعه روحه القوية للعمل في الميدان الأدبي، فيظهر لأدبه طابع خاص، تبدو على جوانبه ثورة الشباب الدائب، في ثروة الأدب الشاب الذي يمد المشاعر والأفكار بما يعوزها من تصور وتصوير
ثم هو - قبل ذلك - قد نشأ نشأة دينية، بين مدارج الأزهر الشريف، ومعارج القضاء

الشرعي، حين أزهر نبت الأستاذ المجدد الشيخ محمد عبده. فتضافر المعهدان - الأزهر والقضاء الشرعي - على تموينه، وتكاتفت الثورتان - ثورة الإمام وثورة سعد - على تكوينه، فجاء وكأنما دعت إلى وجوده ضرورة من دين، ونزعة من أدب، وحاجة من قصص، وداع من ثقافة عالية سامية.

سمعناه من المذياع، ورأيناه بين صفحات الكتاب، وسمعنا عنه شيئا ما، فكان - في ذلك كله - سبيكة واحدة، ميزتها الأحداث الحارة بالصقل واللمعان.

وقد نسج محاضراته من رفيع الأدب، وعالي المثل، وقويم النظريات، وروح الإسلام. وجعلها في ثوب قصصي شائق. يغري الآذان بالإنصات، والنفوس بالإعجاب وأكثر ما يغري بها - تعرضها لما بين السلف والخلف من خلاف على الذوق، والخلق، وفهم الحياة، ومعنى استخدامها الإنسان، واستخدام الإنسان إياها. فهي تحكم الحكم الفصل الذي لا يدع ضغينة ولا حفيظة بين الجميع، وتستخدم المنطق والواقع في استدلالها، وتدعو

إليه حتى تهتز لدعوتها الأفكار والألباب فإذا هي إيمان ويقين.

فإذا دعونا إلى تأثره في الخطي، وتتبعه في الإنتاج الديني الأدبي، فلأنه - حقاً - جدير بذلك، وبما هو فوق ذلك

إسماعيل السعداوي

المسرَح والسِّينما

السينما المحلية

أجنحة الصحراء

أول أفلام الأستاذ أحمد سالم

نشطت حركة السينما المحلية في السنوات الثلاث الأخيرة نشاطاً يدعو إلى السرور والاغتباط. ولا ريب في أن السينما المحلية ربحت ربحاً كبيراً ببقاء الأستاذ أحمد سالم في ميدانها بعد استقالته من أستوديو مصر. فهو شاب مقدام وطموح، تواق إلى العمل دخل الأستاذ أحمد سالم الميدان السينمائي مزوداً بكل ما ينبغي أن يتزود به مخرج ومنتج سينمائي، ولا نزاع في أن الأفلام التي أخرجها أستوديو مصر في العامين الأخيرين قد أكسبه الإشراف عليها خبرة ومراناً عملياً تاماً. ومادمنا في معرض الحديث عن الأستاذ سالم فلنقل إن (أفلام الطيران الحربي وحياة الطيارين) هي (مودة) الموسم القادم في أمريكا وأوروبا، وأول فيلم يفتتح به سالم حياته كمخرج ومنتج مستقل هو: (أجنحة الصحراء) والفلم كله (طيران) وبطله ضابط طيار. . . وفي هذا الاختيار ما يدل على تتبعه لآخر (المودات) في عالم السينما!

والقصة من تأليفه، وموضوعها - كما قدمنا - جديد مبتكر، وخلاصته أن ابناً لأحد كبار الذوات في مصر خطب ابنة عمه وهو طالب طيران في الكلية الحربية. ولما تخرج ضابطاً عين في (مرسى مطروح)، وبعد مدة قضاها هناك عاد إلى القاهرة بطائرته وفيها التقى بعمه وطلب إليه الإسراع بتأثيث المنزل الجديد حتى يستطيع حمل الأثاث إلى مقر وظيفته وحتى يستطيع إجراء حفلة الزفاف قبل انتهاء الإجازة. وفي ذات يوم يكون (الضابط) جالساً في المطار هو وخطيبته فتهبط في المطار طائرة أخرى يملكها ابن أحد الأغنياء الذين لا عمل لهم إلا قضاء الوقت في النزهات والرحلات على متن الهواء. . . وتصاب الطائرة بعطب أثناء نزولها فيخف (الضابط) إلى نجدتها، وبعد أن يتم له ذلك يحدث بينه هو وخطيبته، وبين ركاب الطائرة، تعارف قوي. . .

ومن بين ركاب الطائرة (صديقة) لذلك الشاب الوارث، من بنات الهوى، ترى الضابط ومعه خطيبته، فتشعل بقلبها نيران غيرة عمياء، وتنوي على الفور إفساد ما بينهما واقتناص ذلك الضابط الوجيه لنفسها. . . فتنتهز فرصة غياب (الخطيبة) وتظل تغري الضابط حتى تستميله إليها وتعده بالنزوح معه إلى مرسى مطروح إذا هو تزوجها. . وتعود الخطيبة فيقول لها الضابط إنه قد رأى عدم إتمام الزواج بعد تفكير كثير، وتحار الخطيبة بادئ الأمر ولكنها تعود فتغلب عليها عاطفة (الحبيبة) المخلصة فتضحي بسعادتها وتزور على نفسها رأياً ليس لها، وتعود إلى أبيها فتقول له إنها قررت بعد تفكير عدم إتمام الزواج. . . ويلح عليها والدها في معرفة السبب فتقول له إنها رأت أخيراً أنها لا تحبه. . . وأنها تشعر بأنها لن تكون سعيدة معه. وتذهب بنت الهوى مع الطيار في طائرته إلى مرسى مطروح ولكن عيشة تلك الجهات الحربية الصحراوية لا

تروقها، ولا تمضي بها شهور حتى تكون قد شعرت بأنها سجينة، وساعد على نمو هذا الشعور في نفسها أن زوجها كان كثير المهام الرسمية فلم يكن يجد عنده الوقت الكافي لمرافقتها في نزهتها

وبمناسبة أحد الأعياد الإفرنجية تقضي العادة أن تقام حفلة راقصة في (استراحة) المدينة. فانتهزها الطيار فرصة وأسر في نفسه أن يصطحب زوجته معه في تلك الليلة إلى المرقص، لتبهج نفسها، ولترقص، وليغشى بصرها بصيص من نور الحياة الأوربية التي حرمتها مرة واحدة. وإنه لكذلك إذا بإشارة مستعجلة يتسلمها الضابط وكان قد اختير رئيس فرقة لمهارته وذكائه، يأمره القائد العام بالذهاب إلى جهة بعيدة بأقصى سرعة مستطاعة. وإذ كان الضابط لا يعرف نفسه وزوجه قبل أن يعرف واجبه، أسرع إلى طائرته بعد ما أفضى إلى زوجته بجلية الأمر، وانطلق على بركة الله وفي سبيل الواجب. . .

في نفس تلك السويعات يصل إلى مرسى مطروح ابن الذوات الذي كان الضابط قد أنقذه، وكان طبيعياً أن يفكر - أول ما يفكر - في زيارة منزل الضابط الذي أنقذه والذي توشجت بينه وبينه عرى صداقة وثيقة، ويذهب إلى المنزل فلا يجد الضابط ويجد زوجته، فلا تكاد تراه ولا يكاد يدعوها للذهاب معه إلى الليلة الراقصة، ويفهمها أنه جاء من مصر إلى مرسي مطروح ليرقص في هذه الليلة حتى تستجيب لدعوته، وترافقه إلى الاستراحة حيث البهجة والرقص. ومعلوم أن صداقتها القديمة له لابد أن يكون لها أثرها في موقفهما الشيطاني اللعين

وترقص الزوجة، وتمعن في الرقص، وتشرب وتسرف في الشراب، وتمجن وتذهب في المجون إلى آخر الشوط. ويرى ذلك (القومندان) رئيس زوجها الذي يعرف فيه الشرف والاستقامة، فتثور ثائرته ويغار على شرف مرؤوسه، ولكنه لا يجرؤ على أن يفعل شيئاً آنذاك في العلن وعلى ملأ من الناس، ويرى زملاء الطيار ما انزلقت إليه زوجة زميلهم، فيسخطون ويتذمرون. حتى إذا انتهت الليلة عادت الزوجة إلى منزلها بعد أن اتفقت مع (صديقها القديم) على الهرب. . . ويلحق (القومندان) بها ويؤنبها على سلوكها ويفهمها كل ما صدر عنها مما لا يصدر عادة عن الحرائر الكريمات، ولكنها تهزأ بتأنيبه ولا تسمع لقوله فيخرج وقد صمم على الإفضاء إلى زوجها بكل شيء. . .

ولا يكاد (القومندان) يوليها ظهره حتى تجمع ملابسها في حقيبة وتسرع فتلحق بصديقها وتتحرك بهما الطائرة في طريقهما إلى مصر. . . ولكن الطائرة لا تصل إلى مصر إذ يصيبها حادث فتفقد توازنها وتهوى براكبيها في جهة غير صالحة لنزول الطائرات

وكانت إدارة مطار القاهرة تنتظر وصول الطائرة، فلما لم تحضر في الموعد أبلغت الأمر إلى جهات الاختصاص، وجرى البحث عنها دون جدوى، ويقر رأي الجميع على أنه ليس لإنقاذ هذه الطائرة والبحث عنها إلا ضابطنا البطل. . . ولكنه يرفض أن يقوم للمرة الثانية بإنقاذ اثنين خاناه وعبثا بشرفه. . . وأخيراً يصله خطاب من ابنة عمه وخطيبته السابقة - بعد أن تكون قد عرفت كل شيء من الصحف - تعرض عليه حبها من جديد وتطلب إليه أن يقوم بإنقاذ الطائرة المفقودة. . . ويفعل الطيار ذلك، وفي عودته يصاب بحادث من فرط ألمه، بعد أن تكون زوجته قد اعترفت له بأنها هربت ولكنها لم تعبث بشرفه قط، وإن هربها إنما هو لسبب أنها تعيش معه عيشة لم تخلق لها. . . ولا يصحو في المستشفى إلا وابنه عمه إلى جوار رأسه ويستيقظ وزوجته القادمة تداعب شعره وتقبله قبلة الحب والتضحية

أخبار سينمائية ومسرحية

فيلم أم كلثوم الجديد

عرض الأستاذ رامي على الآنسة أم كلثوم مسودة روايتها السينمائية القادمة مع ألحان هذه الرواية، وقد فهمنا أن الآنسة قبلت الرواية وبدأت مراجعتها هي و (مجلس مستشاريها الفني) لإدخال التعديلات اللازمة عليها في الحوادث وبعض عبارات الأغاني لا في الرواية طبعاً!

عودة عبد الوهاب

يعود الأستاذ محمد عبد الوهاب إلى مصر في الأسبوع الأول من الشهر القادم ويبدأ العمل مباشرة في فيلمه الجديد الذي وضع قصته الأستاذ محمود بك تيمور، والسيناريو

الأستاذ محمد كريم. والذي علمناه حتى الآن أن الرواية من نوع جديد، وسيفاجأ الجمهور بابتكارات جديدة في الإخراج واختيار ممثلي الأدوار المختلفة

عودة فالنتينو

بمناسبة الذكرى السنوية للنجم الشهير ردولف فالنتينو، عرضت بعض دور السينما في أوربا وأمريكا بعض رواياته الصامتة. وقد دل الإقبال الهائل الذي صادفته هذه الأفلام - رغم مرور خمسة عشر عاماً على عملها - على أن الفقيد فالنتينو لم يفقد شيئاً من مكانته في قلوب العذارى على الأقل

بول موني وهتلر

يقرأ (بول موني) مسرحية الكاتب الشهير (أرنست توللر) عن (هتلر) تمهيداً لقيامه بتمثيلها على المسرح وإذا عزم على تمثيلها فشركة إخوان وارنر هي التي تتولى الاتفاق على إخراجها

عودة شيهان إلى المتروجولدوين

عاد المخرج المعروف (وينفيلد شيهان) إلى العمل كمخرج في استيديوات المتروجولدوين ماير وذلك أثر استقالته من رئاسة الإخراج في شركة فوكس. وقد بدأ إخراج فيلم تدور حوادثه في أحد ميادين سباق الخيل

العدد 270 - بتاريخ: 05 - 09 - 1938

حاشية على التفريع

للأستاذ عباس محمود العقاد

إذا كان الجسم الجميل هو الجسم الذي به فضول، فما هو الفضول الذي يعيب الأجسام؟

الفضول في تعريف عاجل هو الزيادة عن الحاجة. ونعود فنسأل: ما هي الحاجة؟. أن الجسم قد يحتاج إلى الصحة، وقد يحتاج إلى الحركة، وقد يحتاج إلى الظهور، وقد يحتاج إلى الخفاء، فكيف نعرف الحاجة التي يتعلق بها الفضول ثم يتعلق بها النظر إلى الجمال؟

نقول في تعريف عاجل أيضاً: أن الحاجة إلى إنجاز (الوظيفة الحية) في تكوين الأحياء فالزرافة لها عنق طويل لا نستقبحه إذا رأينا هذا الحيوان، ولكنا لو رأينا عنق الزرافة على جسم حصان لقلنا أنه حصان قبيح مشوه مختل التكوين؛ والتشويه والجمال ضدان لا يجتمعان

يسأل سائل فيقول: إذن يرجع الجمال إلى المنفعة؟ إذن نستطيع أن نقول إن العضو الجميل هو العضو النافع على وجه من الوجوه؟

ونسرع فنقول: لا. أن الجسم النافع ليس هو الجسم الجميل في جميع الأحوال، بدليل أن هناك حيواناً أجمل من حيوان، فلماذا يكون الحصان مثلاً أجمل من الزرافة أو تكون الهرة مثلا أجمل من الفار إذا كان المرجع في نظر الجمال إلى منفعة الأعضاء؟

كل عضو في حيوان فهو نافع لذلك الحيوان، وعنق الزرافة نافع لها لأنها حيوان يعيش في الغابة ويختار من لطائف الشجر كل ما ارتفع في الأغصان. ولكن لماذا كان عنق الحصان أجمل من عنق الزرافة؟ ولماذا كان الحصان في جملته أجمل من الزرافة في جملتها، وكانت حركة الحصان أجمل من حركة الزرافة في السرعة أو المهل؟

ذلك أن مرجع الأمر في نظر الجمال إلى شيء غير المنفعة للحيوان أو لمن يستخدم ذلك الحيوان

مرجع الأمر إلى الحرية كما بينا في مقالات كثيرة سبقنا بنشرها قبل سنوات فكلما كان الجسم أقل ضرورة وأكثر حرية كان أقرب بذلك إلى الجمال؛ وعنق الزرافة يفيدها بالغابة، وليس هذا هو الشأن في عنق الحصان فأنه لا يفيده بمكان. فهو من ثم أجمل من الزرافة في هذا الاعتبار

وإنما نرجع إلى (الوظيفة الحية) لنعلم أن الطول أو القصر في جزء من أجزاء الحيوان ليس بطول تشويه ولا بقصر تشويه، لأن التشويه الجمال لا يتفقان

فأنت إذا رأيت عنقا طويلا على كتفي زرافة لم تحسب أنها زرافة شائهة أو زرافة ممسوخة؛ ولم يمنعك إذن مانع التشويه أن تحسبها (زرافة جميلة)

أما إذا رأيت هذا العنق كما هو على كتفي غزال، فانك معتقد فيه المسخ والتشويه

على البديهة، ومعتقد من ثم أنه لن يكون على شيء من الجمال، بل هو نقيض الجمال
على هذا المعنى كان جسم الرجل أجمل من جسم المرأة، وإن صعب فهم هذا على
بعض الأذواق التي تنساق بالغريزة، دون النظر إلى جمال المعاني وجمال الأوضاع
فمن رأى جسم المرأة رأى لأول وهلة أنه جسم ملحوظ فيه ضرورات كثيرة، وأنه
منظور فيه إلى مخلوق آخر غير صاحبة الجسم التي لا تحتاج إلى ذلك التركيب، وهذا
المخلوق الآخر هو أما الجنين الذي تحمله في أحشائها، وإما الرجل الذي ينظر إليها
نظرة الاستحسان
فإذا قلنا إن العضو الجميل هو عضو يحمل نفسه ويخيل إليك أنه غير محمول على
سواه فالمرأة كلها محمولة على تركيب حيوان آخر منعزل عنها، ولا بد أن يجوز على
ما في تركيبها هي من معاني الجمال العليا
فيلاحظ في أغلب أجسام النساء طول الجذع واتساع المسافة بين الحرقفتين، وإنما
يوجب ذلك أنها في حاجة إلى مكان الجنين ومكان خروجه بعد تمام حمله، وقل ذلك
في النهدين والثديين، أو قل شبيهاً بذلك في ضيق الكتفين، فان قصر الكتف وضعفها لا
يضيرانها في إنجاز وظائفها، فهي على هذا المعنى تنجز وظيفتها بزيادة في مواضع
ونقص في مواضع أخرى منظور فيها جميعا إلى تركيب خارج عن تركيبها؛ ولن يبلغ
الجسم حد الجمال الأقصى ما دام جماله معلقاً على شيء غيره؛ وما دام ذلك الشيء
أولى بالملاحظة والتقديم في بعض الأحوال
لهذا يصعب التوفيق بين ضرورات الوظائف الحية وبين معاني الجمال المطلق في
جسم المرأة
فالمرأة التي يقصر جذعها ويضيق حوضها هي جسم جميل؛ ولكنها قد تجور بجمالها
على
أمومتها
والتوفيق بين الأمرين من أندر الأمور، في حين أن جسم الرجل لا يحتاج إلى صعوبة
في التوفيق بين إنجاز شرائط الأبوة فيه وإنجاز شرائط الجمال
ومع ندرة التوفيق بين الشرطين في المرأة، لا غنى عن التجوز والتسهل في كثير من
الأحوال، فأقصر النساء جذعاً وأضيقهن حوضاً وأكملهن أكتافاً لا يحمد منها أن تلوح
كالرجل في تركيب هذه الأعضاء؛ ولا بد من التجوز والتسهل في بعض الزيادة على
الردفين وبعض النقص على الكتفين، وإلا كان ضمور الردفين ضموراً تاماً علامة تشويه
لا علامة جمال، إذ كان الأصل في المرأة أن لها وظيفة الحمل والولادة، فإذا تجردت
من هذه الوظيفة فهي مشوهة، وإذا احتفظت بها فمن مرض؛ ولا شك أن تكون عظام
الردفين غير مكسوة باللحم الذي لا بد منه لكل جسم صحيح سليم
وعلى هذا تكون المرأة جميلة ولا تكون قنطاراً واحداً لا زيادة عليه
تكون جميلة إذا قل فيها الفضول ولو زاد الوزن غاية ما يقدر له المزيد
وتكون مع ذلك (امرأة جميلة) وليست جميلة بمعاني الجمال على إطلاقها؛ وهي كما
أسلفنا القرب من الحرية والبعد من الضرورة؛ وأن يكون الجسم معلقاً على نفسه غير
معلق شروط في خارجه، سواء صعب أو سهلت في التحصيل
ولا بد من التجوز والتسهل على هذا الاعتبار في حدود ما قدمناه
ويلحق بتفصيل ما قدمنا الجواب عن سؤال وجهه إلينا الأديب (عبد المنعم شلبي)
يقول فيه:
هل يعجز امرئ القيس وهو ذلك الفنان البارع ذو الخيال الوثاب الذي استطاع أن)
يتذوق جمال الطبيعة ويترجم عنها في قصائد عن رسم مثال للأنوثة موافق لمعاني
الجمال بمعزل عن المتعة لتخلف الأوان؟ وهل لتخلف الأوان دخل في تقدير الجمال؟
وإذا كان كذلك فمالنا نرى تمثال فينوس مع تخلف أوانه رمزاً ومقياساً لمعاهد الجمال
(في العصر الحديث؟
والجواب أن أحيل الأديب صاحب السؤال إلى ما أسلفت عن سبب قصور امرئ
القيس في تعريف مقاييس الجمال، فأنني لم أقل أنه يقصر في هذا الباب لتخلف
الأوان ثم سكت على ذلك؛ بل قلت أنه يقصر فيه (لتخلف الأوان وندرة الأسباب)
ومن الأسباب ولا جدال أن الأعراب في البادية لم يصنعوا التماثيل كما صنعها اليونان
الأقدمون أصحاب فينوس، ولم يشغلوا عقولهم وأذواقهم وأخيلتهم بمطالب هذه

الفنون، وما تستتبعه من دراسة للأجسام ونظر في تمثيل الأعضاء
وليذكر الأديب صاحب السؤال أن الله عز وجل وعلا لم يغضب على المحدثين جميعا لأنهم محدثون، بل خلق فيهم أناسا وهبهم (الفن والخيال والبراعة وأتاح لهم يتذوقوا جمال الطبيعة). . فإذا تساوى ما بينهم وبين امرئ القيس في هذه الناحية فهناك زيادة العصر الحديث بل زياداته التي يضيق بها الحصر في مذاهب الفنون والأذواق والعلوم والأرقام

عباس محمود العقاد

عود ثان

الدين والأخلاق بين الجديد والقديم

لأحد أساطين الأدب الحديث

ليسمح الأستاذ النمراوي أن نؤكد له أن حرية القول في الأدب الأوربي ولا سيما الحديث منه ما كانت لتؤثر في أدباء اللغة العربية بمقدار ما أثرت، وما كانت تحتذي بمقدار ما احتذيت، لولا أن أدباء اللغة العربية تأثروا قبل اطلاعهم على الأدب الأوربي بحرية القول في الأدب العربي، ولا سيما العباسي وما يليه؛ فالشاب الذي يُحثُّ على قراءة دواوين العرب وكتب الأدب ويستوعبها لا بد أن يحتذيها في صراحتها. ألا ترى أن السيد توفيق البكري والشيخ شريف رأيا أن الأبيات التي أشرنا إليها في المقالات الماضية أشياء غير مستنكر شرحها وطبعها؟ فإذا كان شيوخ الدين والتربية يتأثرون هذا الأدب اللغوي المكشوف تأثراً لا يشعرون به، ويجعله مألوفاً ألفة تمنع الاستنكار، فكيف لا يتأثره الشبان الذين لم تكن لهم سابقة الاشتغال بأمور الدين أو التربية، وربما أطلعوا عليه وهم في سن المراهقة كما يفعل الفتيان والفتيات الذين يستعيرون كتب هذا الأدب من مكتبات مدارسهم. والقارئ المسن يستطيع أن يتذكر فورة شبابه أيام المراهقة، ويستطيع أن يحكم كيف تؤثر قصائد ابن الرومي التي شرحها البكري والشيخ شريف في شهوة المراهق، وكيف تؤثر الدواوين والكتب القديمة المشحونة بأمثال تلك القصائد. وانظر كيف يتغير نظر الشاب المراهق إلى اللائق وغير اللائق مما ينبغي أولا ينبغي الاطلاع عليه عندما يرى أن شيوخ الدين والتربية يعنون بشرح هذه الفحش ويطبعونه له، وعندما يرى أن المدارس تحثه على قراءة الكتب التي طبع فيها وتؤنبه إذا لم يقرأها. ومعاذ الله أن نقول إن البكري أو الشيخ شريف أرادا بالشبان والفتيات شراً، إنهما فعلا ما فعلا على قاعدة أن لا حياء في اللغة وأدب اللغة، وأن الفن يراد للفن لا لما به من الفحش، كمن يستجيد مثلا صنعة أبي نواس البيانية في مجونه لا بسبب حبه للمجون بل لحبه للبيان والبديع. ولكن هل تلوم الشبان إذا تأثروا بهذا الأدب اللغوي المخالف للعرف والتقاليد والآداب والأخلاق الإسلامية وسن المراهقة له حوافز ودوافع؟

وإذا قرأ الشاب بعد ذلك بعض مجون شاعر أوربي كمجون هنري هيني الألماني (وهو كلا مجون إذا قيس بما في كتب العرب) ألا يرى أن العالم كله الشرقي والغربي يبجل هذا الأدب اللغوي ويعنى بشرحه وطبعه، وأنه إذاً لا ضير عليه من احتذائه؟ وإذا قرأ بعد ذلك قصة عشيق الليدي شاترلي وجد مجوناً كمجون الفحش العربي ولو أنه كتب بطريقة تحليلية علمية أرقى بعض الرقي من فحش ماجِني الدولة العباسية. ألا يرى القارئ أن تأثر الشباب بالأدب العربي مثل شعر بشار بن برد والحسن بن هاني وغيرهما يسهل قبوله للأدب الأوربي الذي يشكو منه الأستاذ النمراوي؟

لكن الأستاذ تجاهل تاريخ الأدب العربي القديم والحديث لكي يستطيع أن يبرهن على أن الأدب القديم غير مخالف للفضائل والآداب والأخلاق، وأن الأدب الجديد أو أدب المذهب الجديد مخالف للشهوات ومخالف للفضائل. والحقيقة أن هذا التقسيم غير حقيقي وغير منطقي، فأدب المذهب القديم به ما يراعي الفضائل والأخلاق وبه ما لا يراعيها، وأدب المذهب الجديد أيضاً به ما يراعي الفضائل وبه ما لا يراعيها سواء بسواء. فكان الأحجى بالأستاذ أن يقسم الأدب إلى مذهب قديم ومذهب جديد، بل إلى أدب فاضل وأدب إباحي في الأخلاق، ثم ينتقد الأقوال لا الأدباء جملة، لأن كل أديب أو شاعر قد يكون له ما يضعه الأستاذ في القسم الأول، وقد يكون له ما يضعه في القسم الثاني. أو لو أراد قصر مقاله على الرافعي لاستطاع أن يقول إن كل أدبه من

أدب الفضائل من غير أن يتجاهل تاريخ أدب اللغة كله، ومن غير أن يحكم حكمين كل منهما جائر لما فيهما من التعميم الذي يخالف طبيعة العلماء أمثال الأستاذ، فان العلماء الباحثين ولا سيما علماء الكيمياء والطبيعة يتحرجون من إصدار أحكام عامة بسبب شواهد خاصة معدودة، فلا يقولون إن أدب المذهب القديم هو أدب الفضائل، وإن أدب المذهب الجديد هو أدب الرذائل على وجه التعميم

لكن الأستاذ النمراوي عالم، فلا بد أن فطنته وبحثه قد أوصلاه إلى حقيقة أراد أن يفسرها فبالغ في تفسيرها وأشتط وأصدر هذه الأحكام العامة. ومن أجل أن نتتبع تفكير الأستاذ ينبغي أن ننظر إلى الفرق الحقيقي في أدب المذهب القديم وأدب المذهب الجديد من حيث الروح. إن الأدب القديم وصل في عهده الأخير إلى أدب احتذاء لا أدب اجتهاد، ونعني بالاجتهاد الاصطلاح الفقهي لا المعنى اللغوي، فأن نصيبه من الاجتهاد كبير إذا أريد

المعنى اللغوي للاجتهاد. وهذا هو الفرق الحقيقي بين اجتهاد أدباء المذهب القديم واجتهاد أدباء المذهب الجديد؛ فالمذهب الجديد يريد بحث النفس وعواطفها وشرائعها وسننها، لا قصر البحث على شهواتها، ولا رغبة في إطلاق هذه الشهوات من عقالها كما يقول الأستاذ. فبحث النفس يقتضي بحث جانب الإيمان منها كما يقتضي بحث جانب الشك؛ ولكنه الشك الذي يبعثه الإيمان، وهو الشك الذي يبحث عن أمل للإنسانية في هذه الحياة وبعد هذه الحياة، والذي يحاول أن يداوي شرور الحياة ما استطاع الإنسان ذلك. وهذا الشك لا يستقيم لمن كان قلبه غير عامر بالايمان؛ والشاعر لا يكون شاعرا إلا بمثل هذا الإيمان الملِحْ العنيف الذي يريد أن يزكي نفسه. وهذا أول أسباب سوء الظن بهذا المذهب. وثانيها أن الاجتهاد شبه الفقهي في تفسير الحياة وعوامل النفس قد يشط أحيانا. وقد أقفل باب الاجتهاد في الفقه النفسي والفكري لم يقفله المذهب الجديد. فخصائص المذهب الجديد الروحية هذه أي الرغبة في بحث جوانب النفس والحياة واستئناف اجتهاد الفقه الفكري والروحي هي خصائص يشط معها الأديب في بعض الأحايين، ويكون شططه في عهد الصبا أكثر، إذ تكون خبرته قليلة واندفاعه عظيماً. ثم أن بعض الأدباء قد تشط بهم هذه الخصائص دائما شططا بعيداً؛ ومن أجل ذلك ليس من الحق أن نسلك جميع الأدباء في نظام واحد. ألا ترى أن الأدب الأوربي الحديث يشمل نزعات مختلفة كل الاختلاف منها ما يحدث صلة بينه، وبين الأدب الأوربي في العصور السابقة، ومنها ما ينأى به عنها؟ فحكم الأستاذ النمراوي على المذهب الجديد كمن يحكم حكماً عاماً واحداً على الأدب الأوربي الحديث على اختلاف نزعاته الذي يشبه اختلاف نزعات الأدب المصري الجديد من أجل أن أساس تلك النزعات واحد وهو بحث التجارب النفسية والفكرية؛ فمن الأدباء من يبحثها على طريقه المعري، ومنهم من يبحثها على طريقة شكسبير، ومنهم من يبحثها على طريقة أدباء الرمزية. . . الخ. وكما أنه ليس من الحق أن يحكم الأستاذ حكماً عامّاً على أدباء المذهب القديم (وبينهم تفاوت في الروح)، ولا من الحق أن يحكم حكماً عاماً على أدباء الأدب الجديد، فليس من الحق أن يحكم حكماً عاماً على الشاعر أو الأديب الواحد، فإن الشاعر نفس وللنفس مظاهر مختلفة تقتضي تفصيل الحكم عليها ما دام لا يحكم على قول أو عمل واحد، أو عليها في حالة أو زمن خاص وليس من الحق أيضاً أن يُغْفِل الأستاذ أثر

حرية القول في الأدب العربي الذي شرحناه في أول هذا المقال، ولا من الحق ألا يرى أن حرية القول الناشئة من إطلاق الشاعر نفسه من القيود أثناء البحث شططا منه لم يأت بأشنع من الأمثلة التي ذكرناها للأستاذ من الأدب العربي، بل لعلها أقل شناعة؛ وهي على أي حال ليست من لوازم أي مذهب، فمثلها في آداب العصور والأمم موجود، وواجب الناقد أن يميز بينها وبين الصالح من قول الأديب أو الشاعر. ومما يدل الأستاذ على أن الأدب المصري الحديث خليط من القديم والجديد أن أحدهما يلقى زميله فيسأله هل أنت من أنصار المذهب القديم أم من أنصار المذهب الجديد؟. كأن الحكم ليس لما يؤلفه الأديب من شعر أو نثر، وكأنما يصح أن يكتب الأديب على طريقة المذهب الجديد ويختار أن يعد من أنصار القديم أو العكس. لكن هذا السؤال له معنى وقيمة؛ إذ هو دليل على الحيرة من أجل أن أدب كل أديب خليط من مؤثرات الأدب العربي في عصوره المختلفة والأدب الأوربي أيضاً؛ وإنما هذا الخليط عند كل

واحد باختلاف مقادير عناصره. ومن الأسباب التي تدعو إلى سوء الظن بالأديب الجديد علاوة على ما ذكرنا، ما يقرأ منه أحياناً من سخر وتشاؤم، وقد يكون فيهما شطط، وقد يحسبان من قلة الإيمان، ولكنهم قد يكونان من الإيمان الحائر في وجوه الكون والحياة الذي لم يوهب نعمة الأستقرار، وهي حالة تعرض لكثير من النفوس فلا يستطيع تجنب وصفها كل التجنب. وإذا نظر الأستاذ إلى ما ينشر في الصحف والمجلات والكتب في جميع الأقطار العربية من شعر ونثر وجد في تباين أبواب القول الذي يترك جانباً من النفس والحياة لم يحاول نعته، ما يدل الأستاذ على أن هذا التنوع هو خصيصة الأدب الحديث، وهو يشمل ما يشكو منه الأستاذ، ولكنه أعم مما يشكو منه، وقد صار هذا التنوع في الأدب وشموله بحث نزعات النفس وجوانب الحياة قاعدة عامة في آداب العالم كله؛ ولا يمكن إعادة عقارب ساعة الزمن إلى ما كانت عليه في الماضي للقضاء على ما يشكو منه الأستاذ. فإذا أراد أن يظفر بتطهير الأدب كان الأحجى به ألا يتعصب لقديم ولا لجديد، وأن يأخذ من الجديد على تنوع أغراضه وأبوابه ما لابد لإشباع مطالب النفس والفكر في عصر تعددت فيه مطالبهما وأصبحت كمد النهر في فيضانه، وألا ينتقد هذا الأدب الجديد بالجلة كي يصيب سامعاً مجيباً إذا هو قصر نقده على ما في هذا الأدب الجديد من شطط، وأن يتخذ في نقده هذا الشطط طريقة التحليل النفسي والإلمام

بأسبابه ونتائجه وشواهده على طريقة الطبيب المداوي بالتحليل النفسي، وألا يقصر نقده على شطط الجديد من غير نظر إلى شطط القديم، وقد أوضحنا أن حرية القول في الأدب الجديد تمت بسبب إلى الأدب القديم سواء أكان ذلك في الغزل والأمور النفسية أم في الأمور الفكرية، وليطهر كتب الأدب القديم وعاداته المألوفة من مجون وشطط فكري كما بينا

وإني لأربأ ببصيرة الأستاذ وعقله أن يظن كما يظن بعض الناس أن إسقاط أديب أو أكثر من أديب من أدباء المذهب الجديد يقضي على هذا المذهب. ولو كان من المستطاع القضاء على كل ما قاله أدباء المذهب الجديد من شعر أو نثر - الجيد منهما وغير الجيد والمقبول، وغير المقبول - فان القضاء على ما قاله المعاصرون لا يقضي على الأدب الجديد، لأن أسبابه أعم وأكبر من أن تحسب من ابتكار أديب أو أكثر من أديب. وربما كان من الحكمة أيضاً ألا ينسى الأستاذ وهو الخبير بالنفس الإنسانية أن بعض العداء الذي لاقاه المذهب الجديد من غير المبرزين الفطاحل كان بسبب الإجادة المحمودة المأثورة المحسودة في بعض هذا الأدب الجديد، وإن كان عداء المبرزين الأفاضل أمثال الرافعي بسبب اختلاف حقيقي في الرأي والروح

(قارئ)

سهو

ذكرت سهوا أن أبيات ابن الرومي في (كتاب صهاريج اللؤلؤ) والحقيقة أنها في كتاب (فحول البلاغة) للمؤلف نفسه أي البكري ولا يوجد شرح ولكنه اختارها هي وقصيدة (بوران) ولم يكف عن اختيار المجون تحرجا. وكذلك لا يوجد شرح في الأرجوزة الأخرى ولكن عدم التحرج ملحوظ أيضاً

(ق)

بيجو

للأستاذ عباس محمود العقاد

حُزناً على بيجُو تفيض الدموعْ
حُزناً على بيجُو تثور الضلوع
حُزناً عليه جهد ما أستطيع
وإن حزناً بعد ذاك الولوع
والله - يا بيجو - لَحُزْن وجيع
حزناً عليه كلما لاح لي
بالليل في ناحية المنزل
مُسامري حيناً ومستقبلِي
وسابقي حيناً إلى مدخلي
كأنه يعلم وقت الرجوع

وكلما داريت إحدى التحفْ
أخشى عليها من يديه التلف
ثم تنبهت وبي من أسف
ألاّ يصيب اليوم منها الهدف
ذلك خير من فؤاد صديع
حزناً عليه كلما عزّني
صِدْقُ ذوي الألباب والألسن
وكلما فوجئت في مأمني
وكلما اطمأننت في مسكني
مستغنياً، أو غانياً بالقنوع
وكلما ناديته ناسيا:
بيجو! ولم أبصر به آتيا
مداعبا، مبتهجا، صاغيا
قد أصبح البيت إذن خاويا
لا من صَدىً فيه ولا من سميع
نسيت؟ لا. بل ليتني قد نسيتْ
أحسبني ذاكرَه ما حييت
لو جاءني نسيانه ما رضيت
بيجو مُعَزَّيَّ إذا ما أُسِيت
بيجو مُناجيّ الأمين الوديع
بيجو الذي أسمع قبل الصباح
بيجو الذي أرقب عند الرواح
بيجو الذي يزعجني بالصباح
لو نبحةٌ منه، وأين النباح؟
ضيّعت فيها اليوم مالا يضيع
خطوته. . . يا بَرْحَها ألأم!
يخدش بابي وهو ذاوي القدم
مستنجداً بي. . . ويح ذاك البكم!
بنظرة أنطَقَ من كل فم
يا طولَ ما ينظر!. . هذا فظيع!
نَمْ. لا أري النوم لعيني يطيبْ
أنتم خبيرون بنهش القلوب
يا آل قِطمير هواكم عجيب
غاب سَناَ عينيك عند الغروب
وتنقضي الدنيا. . . ولا مِن طلوع
نَمْ واترك الأفواج يوم الأحدْ
والبحر طاغٍ، والمدى لا يحدْ
عيناي في ذَاك، وهذا الجسد
بوحشة القلب الحزين انفرد
والليل. والنجم. وشعب خليع!
أبكيك. أبكيك وقَلَّ لجزاء!
يا واهب الود بمحض السخاء
يكذب من قال: طعام وماء
لو صح هذا ما محضتَ الوفاء
لغائب عنك. . . وطفل رضيع
مائة صورة من الحياة
للأستاذ علي الطنطاوي
وطني - 4
كنت عند صديق لي شاب ذكي، نال شهادة البكالوريا، فلم يطف بها على دواوين

الحكومة يستجدي (وظيفة) ويسأل (الخزينة) حسنة، كما يفعل كل شاب في هذا البلد، وإنما نزل إلى السوق ففتح للتجارة محلاً يعيش فيه سيداً عزيزاً، على حين يعيش الموظفون مقيدين مسودين، ويأكل خبزه بكسب يده على حين يأكله كثيرون بضمائرهم وأديانهم، ويخدم أمته هادئاً صامتاً على حين يؤذي أمتهم كثيرون، وهم يخطبون الخطب الوطنية، ويملئون الدنيا كلاماً جميلاً. . .

كنت عند هذا الصديق، ومن دأبي أن أزوره كلما مللت العمل أو نزلت إلى البلد، آنس به، وأشرف من دكانه على الدنيا فأرى ما فيها. . . فرأيت رجلاً يدخل عليه، فيريه نماذج من البضائع يعرض عليه أن يكون وكيل معملها، والتفرد ببيعها لما سمع عنه من الثناء وما وصف له به من الذكاء والاستقامة، ويخبره بالأثمان، فيتهلل وجه صاحبي، ويشرق فرحاً بهذه الأرباح التي سينالها، ولكنه يتريث فيسال الرجل أن يدع له البضاعة ويتركه ساعة يفكر، ثم يعود إليه فيأخذ الجواب. . .

فيمضي الرجل، ويميل عليَّ صاحبي فيسر إلى أن هذه الصفقة أجدى من دكانه وما فيه، فأهنئه وأتمنى له ما يتمنى لصديقه الصديق، ولكنه لا يلبث أن يقلب البضاعة فيعلو وجهه الأشمئزاز، ويبدو عليه الغضب. فأسأله: مالك يا صاحبي؟

فقال: مالي؟ إنها بضاعة صهيونية!

فقلت له: وماذا يعينك منها؟ أنت تاجر، فبع من شاء أن يشتري ولا تدعُ إليها أحداً

قال: معاذ الله! أأنا عدو وطني وديني؟ إني تاجر، ولكني أعلم أن على التاجر أن يخدم أمته من الناحية التي أقامه الله فيها كما يخدمها المعلم والموظف والصحفي. . .

وخدمة الأمة بأن تتقدم لها منفعة في مالها أو أخلاقها أو أبنائها أو صحتها، أو تدرأ عنها ضرراً. ليست خدمة الأمة بالجعجعة والصياح والخطب المدوِّية والمقالات الطنانة؟

قلت: وهذا الربح الذي وصفته لي أترضى بأن تدعه لغيرك؟

قال: من أراد أن يأخذ جمرة من جهنم فليفعل. أما أنا فلا أريد، سيغنيني الله عنه

ولقيته بعد أيام، فقلت: ما فعل الله بتلك الوكالة؟

قال: رفضتها فعرضوها على أهل السوق فقبلها منهم فلان!

قلت: رئيس لجنة مقاطعة البضائع الصهيونية؟

قال: نعم!

معصرة - 5

كنت أسير في (دوما) قصبة الغوطة الشرقية، فرأيت شارعها الأعظم (الذي يشقها شق شارع الرشيد مدينة بغداد) رأيته يمضي مستقيماً سوياً حتى إذا جاوز ثلثيها انحرف ذات اليمين وما ثمة مسجد يغشى عليه الهدم، حتى ينحرف لأجله الشارع ولا أثر قيم، ولا صخرة قائمة، فعجبت وسألت صاحبي الذي كان يمشي معي

فقال: كان هنا في سالف الدهر معصرة لوجيه من الوجهاء لم يقدر على هدمها، فلوى من أجلها الشارع!

فقلت: هذه هي مصيبتنا! ولو أنها معصرة واحدة لاحتملت، ولكنا كلما خططنا في الحياة طريقا مستقيما اعترضتنا (معصرة) لوجيه من الوجهاء. فكم من (معصرة) في طريق القوانين والنظم، وفي طريق العدالة والقضاء؟

هل خلا طريق لنا من (معصرة)؟ فمتى تهدم هذه (المعاصر)؟

(دمشق)

علي الطنطاوي

البحث عن غد

للكاتب الإنكليزي روم لاندو

للأستاذ علي حيدر الركابي

- 3 -

الفجر في سورية

سورية وفرنسا

لقد قبل أهل لبنان الانتداب الفرنسي بلا مقاومة عنيفة، بينما بقي السوريون يعتبرونه حالة لا مبرر لها. وقد عبروا عن كراهيتهم له بمقاومات مستمرة مشروعة وغير مشروعة. وكانت ثورة سنة 1925 أبلغ هذه المقاومات أثراً، ولم ينجح الفرنسيون في قمعها إلا بعد عامين. وقد بدأت بعصيان قادة الزعيم الدرزي سلطان باشا الأطرش

في جبل الدروز الواقع في الجنوب الشرقي من سورية. إلا أن هذا العصيان ما لبث أن توسع حتى عم البلاد كلها. وقد أدت هذه الثورة التي كانت سادس حركة تحريرية قام بها السوريون إلى ضرب الفرنسيون دمشق بالقنابل في شهر أكتوبر سنة 1925م إذ ضربت مدافعهم بعض أحياء المدينة كما ألحقت الضرر الجسيم بكثير من الأماكن ذات الأهمية التاريخية مثل (الطريق المسمى بالمستقيم)

وسار السوريون في جهادهم للحصول على حقوقهم الطبيعية إلى أن منحهم الفرنسيون عام 1930 رئيساً للجمهورية ووزارة دستورية ومجلساً نيابياً. على أن الدستور الجديد لم يقض على سلطة المندوب السامي الواسعة، فهو ما زال يدير شئون سورية من مركزه في بيروت، كما أنه لم يخرج الجيش الفرنسي من البلاد. أما معاهدة سنة 1936 التي ستوضع موضع التنفيذ بعد ثلاث سنوات من عقدها فهي تتعهد بمنح سورية استقلالها التام. والتحالف السوري الفرنسي بموجب هذه المعاهدة ليس مؤبداً كتحالف لبنان، بل هو موقت بخمس وعشرين سنة

يوجد بين الأهلين في مصر والعراق والسودان أناس يعترفون بفضل بريطانيا العظمى عليهم في الماضي، ولا يشعرون بكره نحو الأفراد البريطانيين. أما هنا فالعداوة بين السوريين والفرنسيين ذات صفة شخصية؛ وهي ليست موجهة ضد الأفراد الفرنسيين فحسب، بل إنها تتعداهم إلى أسرهم. وقد شرح لي أحد السوريين الشعور الذي يحمله أبناء وطنه بهذه العبارة: (أنني أحب فرنسا وأحترم الفرنسيين في بلادهم، ولكي أكرههم في بلادي التي باتت تئن من سوء إدارتهم)

أن أهم ما يتذمر منه السوريون هو أن فرنسا تسعى لجر المغانم المادية من وراء سورية. وهم يحملون الفرنسيين مسؤولية تأخر سورية الاقتصادي منذ عام 1920؛ وهم يتهمون موظفي فرنسا وجنودها باستعمال مراكزهم الرسمية لابتزاز المال. وقد قلت مرة لسوري: أن الرشوة وسوء الاستعمال هما عند الموظفين من التقاليد التي اشتهرت بها الإدارة الوطنية. فأجاب: (من المحتمل أن تكون مصيباً في ملاحظتك، وأنا أؤكد لك أن الذين يؤمنون إيماناً صحيحاً بنزاهة موظفينا في عهد الاستقلال الآتي هم قليلون؛ ولكن إذا كان لا مفر لنا من الخيانة فإننا نفضل أن تذهب الرشوة إلى جيوب السوريين دون جيوب الأجانب فان صرفها في بلادنا لأرجح من صرفها في فرنسا)

ويقال أن هناك سبباً آخر ذا علاقة بالأخلاق يزيد في موقف السوريين العدائي؛ فالأسرة تلعب دوراً مهماً في حياتهم، والفساد الجنسي عندهم أقل مما هو عليه عند الأكثرية من جيرانهم العرب، ولهذا فأن معظم سكان سورية يعترضون بشدة على وجود الجنود الفرنسيين (الملونين) بينهم أن بقاء الجند الأجنبي في البلاد في أيام السلم لابد أن يأتي بنتائج مضرة، وخصوصاً إذا كانت جيوش الاحتلال منسوبة إلى أقوام يشتد عند أفرادها الميل الجنسي

مشاكل وزعماء ومجاهدون

كنت أود الاطلاع على المشاكل التي سيكون لها أثر في حياة سورية المستقبلة، ولهذا قصدت زيادة كل من: بطريرك الروم الأرثوذكس وهو رئيس أكبر طائفة مسيحية في سورية، وفارس الخوري وهو أكبر رجال السياسة في البلاد، والدكتور الكيالي وزير المعارف وعميد الجامعة، وفخري البارودي زعيم الشباب السوري وهو السياسي الذي يحتل المكانة الأولى في قلوب الجماهير

حديث فارس الخوري

فارس الخوري هو رئيس مجلس النواب وزعيم الحزب الوطني وقد تمكن بفضل تجاربه الكثيرة في ميدان السياسة التي مارسها مدة طويلة أن يتمتع بنفوذ عظيم بين رجال السياسة في البلاد. وهو من خريجي الجامعة الأمريكية في بيروت وأستاذ في الحقوق في الجامعة السورية. وهو رجل قد أسبغت عليه مقدرته العقلية بالاشتراك مع مظهره المهيب حلة من الوقار. إلا أن جملة لم تكن خالية من الزخرف اللفظي الذي بمبل إليه بصورة جلية. وقد ذكرني وهو جالس وراء منضدته في مكتبة الخالص في دار البرلمان الجديدة بالأستاذ نيكولاس ماراي بتلر. قال بلغته الإنكليزية الصحيحة:

أن سورية في نظرنا لا تنحصر بالمقاطعة المعروفة بهذا الاسم اليوم، بل هي تشمل) كل البلاد التي كانت في وقت من الأوقات جزءاً منها: أي لبنان وفلسطين والعراق. إن حدودنا الحقيقة يجب أن تتاخم حدود تركيا والحجاز ومصر والبحر الأبيض المتوسط

وإيران. إننا لا ننكر أن توحيد هذه الأقطار مستحيل الآن، ولهذا فإن همنا موجه أولاً إلى تشكيل اتحاد للدولة العربية تكون أعضاؤه مستقلة. إن اتحادنا مع لبنان هو أول خطوة لتحقيق هذه الغاية، فان انفصالنا عنه أمر غير طبيعي. إن اللبنانيين الذين يتحدثون عن الاختلاف بيننا في الأصل وفي المصالح الاقتصادية لمبالغون. فالواقع أن وجوه الاختلاف بيننا أقل من وجوه الشبه

(إن أمامنا مهمتين رئيسيتين، ألا وهما تشكل الجيش الوطني وتحقيق الإنعاش الاقتصادي. أما الجيش فهو ضروري لحفظ كرامتنا، وفرقة واحدة منه تكفينا الآن إذ أن الجيش الفرنسي الذي لا يوجد عندنا غيره في الوقت الحاضر قد يوجه في يوم من الأيام ضد مصلحتنا وذلك عندما تفكر فرنسا في تحويلنا إلى سفتجة تعرضها عند اللزوم على بريطانيا أو تركيا أو - حتى - إيطاليا. وبالإضافة إلى ذلك فلسنا كالإناث وهنا رفع صوته (حتى نحتاج حماية جيش أجنبي، فنحن قادرون على حماية أنفسنا ليؤكد جملته الأخيرة، وأجال بصره حول الغرفة كأنه يستعرض تلك (الفرقة الواحدة) ثم تابع كلامه بلهجة هادئة فقال:

(أما المهمة الثانية وهي تقوية دعائم البلاد الاقتصادية فان الوحدة العربية ستبقى خيالا إذا لم تسبقها هذه التقوية. إن ما نستورده في الوقت الحاضر من الخارج يساوي أربعة أمثال ما نصدره، وعليه فلا بد لكل دولة عربية من تحقيق توازنها الاقتصادي قبل تحقيق الوحدة العربية المنشودة. ولن تنجح سورية في تعديل ميزانها الاقتصادية ما لم تعمل على تخفيض مقدار ما تستورده تخفيضاً شديداً، وتسعَ إلى خلق صناعات جديدة في البلاد وتحسين الزراعة

(إن نسبة تقدمنا الثقافي تكاد تفوق نسبة ما تتحمله البلاد من تقدم اقتصادي. فالسوري ذو ميل فطري للدراسة؛ ونحن نثقف أولادنا في الجامعات الأوربية حتى أوشك عدد المتعلمين عندنا أن يزيد على الأعمال المفتوحة لهم)

(يتبع)

علي حيدر الركابي

النظام القضائي في مصر الإسلامية

للدكتور حسن إبراهيم حسن

أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية الآداب

القضاء في أمة من الأمم مظهر من مظاهر تقدمها. ولقد قال لينبول في معرض كلامه عن القضاء في مصر الإسلامية: (إن هذه الروح الاستقلالية عند القاضي الذي كان يُضرَبُ بالسياط إذا ما خالف الأوامر العالية كانت رمزاً لما كان يعامل به غيرُه ممن هم في مرتبته وفي مركزه. ولقد ساد الظلم في هذا العصر وتفشت الرشوة في سائر الأعمال الإدارية، ودخلت البلاد تحت حكم طائفة من الولاة وعمال الخراج ممن جمعوا الأموال كرهاً وعسفاً في عصر لم يكن القاضي ليؤتمن فيه على الشريعة الغراء. هذا فضلا عما كان هنالك من رشوة متفشية وتهديدات مصوبة إلى هذا القاضي

(وربما كانت الشريعة الإسلامية محدودة المادة، وقد يكون القاضي متطرفاً في اعتقاده. غير أنه كان على الأقل على نصيب من العلم والمعرفة، وله خبرة اكتسبها من اشتغاله بالتشريع الإسلامي، كما أنه اشتهر لدى الجمهور بالاستقامة وسمو الخلق، ولما كان لمركزه من أهمية ولشخصه من كبير نفوذ لم يكن يجري عليه ما كان يجري على غيره من العمال، بل ظل القاضي في كثير من الأحيان يشغل منصبه في عهد ولاة عدة، بل كثيراً ما أعيد إلى منصبه إذا ما تولى الحكم أو وال جديد

(ولم يكن هناك أسرع من القاضي في تقديم الاستقالة إذا تدخل في أحكامه الشرعية متدخل. وقد بلغ من محبة الناس للقضاة أن أصبح الولاة يفكرون ملياً إذا حدثتهم أنفسهم بالإقدام على عزلهم حتى لا يعرضوا أنفسهم لكراهة الجمهور التي قد يجرها إليهم أي تدخل من جانبهم في السلطة القضائية. وفي الحق لم يعدَ الوالي في العصر العباسي يملك سلطة عزل القضاة. ويظهر أن تعيين القضاة أصبح منذ أيام أبن لهيعة (155 - 164هـ) تصدر به المراسيم من بغداد عادة، كما غدت مسألة تحديد الراتب ودفعه موكولة إلى الخليفة نفسه)

وهذه العبارة التي ذكرها لينبول في جملتها بمثابة وصف موجز لحالة القضاء في هذا

العصر. على أنه بالرغم من ذلك فقد أتى بعض قضاء هذا العصر بضروب من الإصلاح بارزة، فعرف توبة ابن نمر الحضرمي (115 - 120هـ) بالاستقامة، وكان يهيب إخوانه ويصلهم بكل ما ملكت يداه حتى وصفه الناس بالتبذير هذا إلى أن توبة كان أول قاض وضع يده على الأحباس (118 هـ) حفظاً لها من التَّوى والثورات وجعل لها ديواناً كبيراً كذلك كان القاضي غوث بن سلمان الحضري (135 - 140هـ) حسن الأحدوثة وقد عمل على تطهير القضاء من العيوب التي كانت متفشية فيه وأخصها شهادة الزور. ولقد عالج هذا العيب فكان يسأل عن الشهود سراً. فإذا تأكد من استقامتهم وحسن شهادتهم قبل شهادتهم. وقد عرف غوث بالنزاهة والاستقامة، وكان كما قال الكندي (أعلم الناس بمعاني القضاء وسياسة) وأشتهر بالعدل والاعتدال في أحكامه على الرغم من عدم تضلعه في الفقه الإسلامي. يدلّك على ذلك ما كان من كثرة الخصوم على داره بعد وفاة خلفه. وقد بلغ من عدل غوث هذا أنه جعل الخليفة المهدي العباسي وامرأة شكته إليه على قدم المساواة في الحكم. ولما وكّل الخليفة عنه رجلاً، ساوى بين هذا الرجل وبين الخصم في مجلس القضاء

كذلك كان أبو خزيمة إبراهيم بن يزيد (144 - 153هـ) فقيهاً متضلعاً في علم الشريعة. ولقد بلغ من نزاهته أنه كان لا يأخذ عطاءه عن اليوم الذي لم يعمل فيه للقضاء شيئاً. وربما يعجب القارئ لما كان عليه هؤلاء القوم من النزاهة والورع في هذا الوقت، ولقد كان يقضي هذا القاضي يومه بعيدا عن مجلس الحكم إذا رأى التخلف لغسل ثيابه أو لحضور جنازة أو نحو ذلك حتى عبر عن اعتقاده بقوله (إنما أنا عامل للمسلمين، فإذا اشتغلت بشيء غير عملهم فلا يحل لي أخذ مالهم)

ولعل القارئ يعجب كيف يتخلف ذلك القاضي العظيم، وهل كان يوجد في ذلك الوقت من يكفيه مؤونة غسل هذه الثياب؟

ولكن أخلاق القضاة في ذلك الوقت كانت أخلاقا إسلامية متواضعة، وكانوا يقتدون بالرسول صلى الله عليه وسلم في تواضعه وتنزهه عن الكبرياء، فلقد أُثِرَ أنه كان يخصف نعله ويرقع ثوبه ويقضي كثيرا في حاجاته بنفسه؛ وهذا العمل في حد ذاته رياضة محبوبة ينزع إليها كثير من العلماء، وهو نوع من الديمقراطية لإرضاء الفقير وكان أبو عبد الله بن لهيعة (155 - 163هـ) أول قاض ولي من قبل خليفة في العصر العباسي، كما كان أول قاض حضر في إثبات رؤية الهلال. ولقد أتى المفضل بن فضالة (168 - 169، 174 - 177هـ) بكثير من ضروب الإصلاح التي أدخلها على نظام القضاء. وكان كذلك أول من عنى بالسجلات وجعلها تامة وافية، فدوّن فيها السَّحايا والوصايا والديون وأول من أتخذ (صاحب المسائل) ومهمته الوقوف على حقيقة الشهود.

ويظهر أن هذا الإصلاح الأخير إنما كان ظاهرياً فقط، فقد قيل أن هذا الموظف كان يرتشي من بعض الناس ليقرر عدالتهم لدى القاضي. على أن المفضّل فطن إلى ضرر الاستعانة بهذا الموظف، وأضطر أمام الأمر الواقع فعين عشرة رجال للشهادة، ولكن هذا العمل لم يرق في نظر الجمهور لاتخاذ الشهود بهذه القلة، ولأنه عمل جديد لم يسبق إليه أحد من القضاة، فقال رجل يدعى اسحق بن معاذ يقبح رأي القاضي:

سننْتَ لنا الجوْرَ في حكمنِا ... وصّيرت قوماً لصوصاً عُدولا
ولم يسمع الناسُ فيما مضى ... بأن العدول عديداً قليلا

وقد نظم لهيعه بن عيسى الأحباس وكانت في أيامه على ما قال هو لأحد أصحابه (سألت الله أن يبلغني الحكم فيها فلم أترك شيئاً منها حتى حكمت فيه وجدّدت الشهادة به) ولا غرو فقد جمع الأموال التي من الأحباس وخصص منها نصيباً لأهل مصر كما أدخل فيها المطوعة الذين كانوا يعمرون المواخير وأجرى عليهم العطاء من الأحباس فكان ذلك أول ما فُرضت فروض القضاة فسنّ الناس هذه السنة بعد لهيعه وسميت (فروض لهيعة) ثم سميت بعد ذلك فروض القاضي وفي ذلك يقول فراس المرادي

لعمري لقد سارت فروض لهيعة ... إلى بلد قد كان يهلك صاحُبهْ
إلى بلد تُقرَى به واليوم والصدى ... تعاوره الروم الطغام تحارُبهْ
رشيد وإضنا والبرلّس كلها ... ودمياط والأشتوم تقوى تغالبه
لهيع: لقد حزت المكارم والثنا ... ومن عند ربي فضله ومواهبه

فقد عمَّرت تلك الثغور بسنة ... تعد إذا عدت هناك مناقبه
على أن لهيعه قد أغضب أهل مصر لما كان من اتخاذه ثلاثين رجلاً من الشهود جعلهم بطانة له، فقال أبو شيب مولى نجيب في صحابه لهيعة شعراً ننقل بعضه لأنه يبين كيف كان يعقد مجلس الحكم في هذا العصر، وأن كنا نرى في هذا الوصف مبالغة قوامها التشهير بهذا القاضي وصحابته:

لازموا المسجد ضلاً ... لاً من الأمر الرشيد
لحوانيت بَنَوْها ... بغناً كلّ عمود
والأحُوا بجباهٍ ... من نطاح الحُصر سودِ
تحت أميالٍ طِوال ... كبراطيل اليهود
وتراهم للوصايا ... وعدالات الشهودِ
في مراءٍ وجدال ... وقيام وقعود
وخشوع وابتهال ... وركوع وسجود
وعلى القسمة أضرى ... من تماسيح الصعيد

هذا حال نظام القضاء في مصر إبان هذا العصر، غير أنه للأسف لم يكن خالياً من عيوب ونقائص جعلته متمشياً في جملته مع تلك الحال السيئة التي سادت البلاد في هذا الوقت. نعم! قد عرف بعض القضاء بسوء السيرة فأساءوا إلى سمعتهم وسمعة كتابهم بما أتوه من أعمال الرشوة؛ على أنه يلوح لنا أن الخلفاء كانوا لهؤلاء وأمثالهم بالمرصاد، فقد ذكر الكندي أن هشام بن عبد الملك الأموي بلغه أن يحيى بن ميمون الحضرمي (105 - 114هـ) لم ينصف يتيما احتكم إليه بعد بلوغه، وحوّل قضيته إلى عريف قومه، وكان اليتيم وقتئذ في حِجره، ثم حبسه حين أتصل به أنه أخذ يشنع عليه ويرميه بعدم إنصافه، وعلم الخليفة بهذا فعظم ذلك عليه وصرفه، وكتب إلى الوليد بن رفاعة عامله على مصر يقول: (أصرف يحيى عما يتولاه من القضاء مذموماً مدحوراً، وتخير لقضاء جندك رجلاً عفيفاً ورعاً تقياً سليما من العيوب لا تأخذه في الله لومة لائم)

حسن إبراهيم حسن
فلسفة الأسماء
للأستاذ السيد شحاتة

إن أول ما يصادف الإنسان في حياته فيوسم به ويبقى ملازماً له، ويشتهر به حتى بعد موته، ويمتاز به عن غيره من الناس، هو الاسم. وقد ترتفع بالإنسان الشهرة وذيوع الصيت إلى أن يكون طبيباً نطاسّياً أو شاعراً فحلا أو عالماً نحريراً أو خطيباً لسناً أو صانعاً ماهراً فلا يعرفه الناس ولا يقرون له بفضل إلا مقروناً باسمه

فالاسم هو السمة الواضحة البارعة التي تفصح عن صاحبها وتبين عن مواهبه. وفي القديم والحديث تفنن الناس في انتقائها وجهدوا في اختيارها حتى اتخذوا من الأسماء علامات للخير والشر والذكاء والغباء والسعادة والشقاء

ولرجال التربية مذهب في تسمية الأبناء فهم يرون أن أول واجب على الأب أداء هذا الدين على وجه موفق محبوب باختيار اسم جميل يكون عنواناً محبباً مقبولاً لابنه على تقادم الأيام، يرى فيه عزة وكرامة لا مهانة وسخرية. فهم ينصحون الآباء بأن يؤدوا الأمانة أحسن أداء فلا يسمون أبناءهم باسم قبيح مرذول حتى لا يحيدوا عن طريق الصواب

وفي الحقيقة أن للاسم تأثيراً كبيراً في توجيه عقلية الإنسان وفي سعادته وفي نبوغه وفي شهرته. وقد تسعد الأسماء أو تشقى بسعادة أصحابها أو شقائهم. وقد يتهافت الناس على أسم فيشيع ويذيع لأنه لنبي أنار الظلمات، أو ولى أزال الشبهات، أو قائد أو زعيم طارت شهرته، فأخذ الناس بسناه، وتأصل بينهم من اسمه سحر يجذبهم إليه

الإنسان والأسماء

لقد كانت التسمية عند الإنسان هي المحور الأساسي الذي تدور عليه قواعد التسمية أجمع، لأن الاسم من أفضل علامات التكريم ومن أبين دلائل الرقي والكمال. وما من شك في أن الله قد كرم بني آدم وفضلهم على سائر المخلوقات

ولكنا على رغم هذا نجد الإنسان نفسه قد استعار من أسمائه ومن غيرها فسمى الخيل والشوارع والقطط والكلاب والبلاد وغير ذلك فأطلق على الخيل (فواز) (غاوي)

(سحاب). . . الخ
وفي كل منزل يسمي الناس كلابهم وقططهم بأسماء خاصة يقصدون فيها إلى الرشاقة
والدلال. وكذلك الشوارع تسمى بأسماء يخذها المختصون من التاريخ أو الموقع أو اسم أحد الفطان الملوك والزعماء
ولقد غدا تكريم الملوك والعظماء يأخذ من أسماء الشوارع أعز مكان. فهم يطلقون أسم ملك أو العظيم حباً فيه وتخليداً لذكراه واعترافاً بأياديه
والمدن تنسب إلى الملوك (كالإبراهيمية. الفاروقية. الإسماعيلية. بور سعيد. بور فؤاد. الإسكندرية). وقد تدل على صناعة أو زراعة راجت فيها مثل (معمل الزجاج. المعصرة. كفر الزيات. كفر البطيخ. التل الكبير). ومنها ما تنسب إلى شخص أشتهر فيها مثل (أبو حماد. سيدي جابر. جرجا) - نسبة إلى ماري جرجس - ولبعض المدن أسماء غربية من اللغة القبطية القديمة مثل (دمنهور). وهور: أحد آلهة المصريين القدماء. ودمن: أي مدينة
وقد أنساق الناس في تعليلات طريفة لبعض أسماء المدن والقرى فهم يزعمون أن يوسف عليه السلام تقابل مع زليخا زوج العزيز بعد أن طوي شبابها تتابع الأيام فذوت نضرتها وذبل جمالها - تقابل معها في المكان المعروف بمديرية الجيزة فقال لها (أصبح البدرشين) فلذلك سميت مدينة البدرشين باسمها هذا
ويزعمون أن القائد جوهر أراد أن يضع أسس البناء في عاصمة مصر في ساعة سعيدة يقدرها رجال الفلك، فجعل أجراساً تدق للبنائين ليضعوا البناء إذا ما حانت ساعة سعيدة، ولكن الحظ خانه إذ حرك طائر حبال الأجراس، فرنت، فوضع الأساس في ساعة القهر فسميت القاهرة. وهذه مزاعم دفع الناس إليها حرصهم على المبالغة في التعليل.
والمدن كالإنسان خاضعة عند تغيير اسمها إلى قانون فلا يجوز تغيير اسم بلد إلا بعد موافقة وزارة الداخلية ووجود ضرورة لهذا التغيير.
التسمية عند القدماء
لقد وضعت أسماء الأعلام والأجناس للدلالة على أفراد النوع الإنساني وما يحيط به في بيئته الطبيعية وما يبتكره في حياته الفكرية. وليس من شك في أن وضع هذا النوع من الأسماء قد جاء سابقاً في المرتبة على وجود الأفعال والحروف التي ما وجدت إلا لتربط الأسماء في الجمل المختلفة.
ولكن المرجح أن الإنسان لم يتذوق التسمية بمعناها السامي الفني، ولم يعن بها ولم يتفنن
في اختيارها قبل أن يعرف الحضارة والمدينة ويسمو إلى أفق الحياة الكاملة. وإنما كان الناس في عصور الجهالة يطلق بعضهم على بعض أوصافا تميز كل واحد منهم من الآخر؛ وهذه الأوصاف تدل على ميزة كل شخص بقدر الامكان، كقولهم (الرجل القصير. الرجل البدين. ذو العين الواحدة. وهكذا. . .) ولكنا نحن في عصورنا هذه عصور الحضارة والمدينة نلجأ إلى ذلك في مواطن كثيرة. فإذا أردنا وصفا دقيقا لمن لا يعرف اسمه وصفناه بأخص صفاته وأظهرها
وقد كان المتوحشون يخافون أن تستحسن العفاريت والأرواح الشريرة أسماء أولادهم فتقبض أرواحهم، فلذلك كانوا يسمون أولادهم بأسماء بشعة (القذر. الوغد. الجبان) وكان بعضهم يسمى الطفل باسم تاريخي (القحط. الوباء. الحرب) وما زلنا نحن نسمي أولادنا بأسماء تاريخية (عيد. خميس. جمعه. شعبان. رجب، محرم. ربيع)
ولبعض الأسماء القديمة دلالة تدل على ميزة بها أو أصل طبيعتها؛ فقد أشتق (آدم) من أديم الأرض لأنه خلق من الطين واسم (إبليس) من الابلاس وهو اليأس
التسمية عند العرب
ذهب عرب الجاهلية مذاهب شتى في تسمية أبنائهم، فمنهم من تفاءل بالنصر والظفر فسمى (غالب. غلاب. ظالم. طارق. معارك. منازل) ومنهم من تفاءل بنيل الحظوظ فسمى (سعد. سعود. غانم. غياث. غوث) ومنهم من قصد التسمية بما غلظ وخشن لإظهار القوة فسمى (صخر. جندل. جبل. قهر)
ومن العرب من كان يخرج وزوجته قد جاءها المخاض فيسمى من تلده امرأته بأول

أسم يقابله كائناً ما كان (سبع. ثعلب. كلب) ويروون في هذا أن أسماء بنت دريم من قبائل العرب كانت تلقب (أم الأسبع) لأنها سمت أولادها (كلب. أسد. ذئب. فهد. ثعلب. سرحان. خثعم. هر. ضبع)

ومن العرب من أضيف إلى عبودية الأصنام (عبد العزى. عبد مناه) وقد كان في الأمة العربية من اشتهر بلقب غلب عليه في شعره حتى أصبح علماً له مثل: (عمرو بن رباح السلمي) (أبو الخنساء - الشاعرة المشهورة) إذ سمى (الشربد) لقوله:

تولي إخوتي وبقيت فرداً ... وحيداً في ديارهم شريدا

ومنهم (عمرو بن سعيد - الملقب بالمرقش) لقوله:

الدار قفر والرسوم كما ... رقش في ظهر الأديم قلم

ومنهم سالم بن نهار العبدي الذي لقب بالمزق لقوله:

فإن كنت مأكولا فكن خير آكل ... وإلا فأدركني ولما أمزق

وكذلك أمرؤ القيس أمير شعراء الجاهلية يلقبونه (بذي القروح) لقوله:

وبدلت قرحاً دامياً بعد صحة ... فيالك من نعمى تحولت أبؤسا!

وما زلنا نحن في عصرنا هذا نسمي الناس بشيء يرتبط بهم من صناعة أو أي عمل؛ فعندنا الآن ألقاب ربما شاعت بين الناس حتى طغت على شهرة الاسم الحقيقي، فأصبح المسمى لا يعرف إلا بها (الصحافي العجوز. أبو بثينة. برسوم المجبر. ابنة الشاطئ) وفي العرب أسماء كثيرة من هذا النوع. كما أن بينهم أسماء أخذت في حوادث معينة - مثل جرير الشاعر الأموي المشهور؛ فقد ذكروا في ذلك - أن الجرير في اللغة هو الحبل. وقد سمي الشاعر بذلك لأن أمه رأت في منامها وهي حامل به أنها تلد حبلاً يخنق الناس، فذهبت في الصباح إلى معبر للرؤيا وقصت عليه رؤياها فقال لها (لتلدن ولداً يكون شراً على الناس) وفعلا كان كذلك جرير. وكانت أمه ترقصه وهو صغير وتغني له:

قصصت رؤياي على ذاك الرجل ... فقال لي قولا وليت لم يقل

لتلدن عضلة من العضل ... ذا منطق جذل إذا قال فصل

وسمى الجاحظ جاحظاً لجحوظ عينية. والمتنبي لادعائه النبوة كما أشتهر كثيراً بنسبتهم إلى بلادهم أو قبائلهم (البحتري. أبو العلاء المعري. الطائي. الخزرجي. المزني) ونحن نسمي الأشخاص نسبة إلى بلد أو صناعة (إبراهيم المصري. خليل الزيات. بيومي الطبال. محمد النجار. خديجة العياشة)

وكذلك (الصباغ. الجمال. الدباغ) ومما تحسن الإشارة إليه بمناسبة الدباغ. أن رجلا في الماضي القريب أسمه إبراهيم الدباغ اشتهر بكثير الأكل، فأطلق الناس كلمة دباغ على كل إنسان يكثر الأكل

أما النسب إلى القبيلة كما كان الحال عند العرب، فقلما نجده الآن لشيوع روح المدينة وتقطع التواصل بين الناس وعدم الاعتزاز والفخر بالقبيلة كما فعل العرب، ولأن الوحدة

أصبحت للدولة لا للقبيلة

الأسماء والأديان

لم تكن للأسماء في العصور الأولى صبغة دينية خاصة، إلا أن الحال تغيرت بعد ظهور المسيحية، إذ أخذ المسيحيون يقلعون شيئاً فشيئا عن بعض الأسماء اليهودية والوثنية ثم يختارون أسماء جديدة

وفي أوائل عهد النصرانية درج النصارى على أن يسموا أبناءهم بأسماء القديسين والأنبياء، إذ يعلن الأب اسم ابنه جهاراً عند المعمودية فيصبح اسماً معترفاً به قانوناً وفي فرنسا لا يجوز لأحد أن يبتدع لابنه اسماً غريباً لم يعرفه الناس من قبل، وما يزال في فرنسا حتى اليوم سجل رسمي يحتوي الأسماء التي يجوز للإنسان أن يختارها لأبنائه ولا يجوز له أن يسمى بما عداها، وهذا السجل يهذب من وقت لآخر بإضافة أسماء حديثة وحذف أخرى قديمة

وفي أسبانيا - حيث ديانتهم الرسمية الكاثوليكية وقد كانت حكوماتهم ملكية - كان الآباء مقيدين عند تسمية أبنائهم بطائفة من أسماء القديسين والقديسات مأخوذة من تقويم الكنيسة؛ ولكن بعد زوال الملكية قريباً قد أبطل هذا وصار الآباء أحراراً في تسمية أبنائهم

ولما ظهر الإسلام تطورات الأسماء عند العرب، إذ سمي النبي (محمد) مع أنه لم يسم أحد من قبل بهذا الاسم، ثم شاعت الأسماء المضافة إلى عبودية الله وتعدت لفظ الجلالة إلى غيره من أسماء الله الحسنى. والآن نجد بين المسلمين نحو النصف من الأسماء تدعى محمداً أو ما اشتق منه مثل محمود- أحمد. حامد، وقد أثر عن النبي (صلعم) أنه قال (خير الأسماء ما حمد ثم ما عبد)

والأديان على العموم لا تحرم اسماً ولا تبيح آخر، بل الإنسان حر في التسمية بما شاء. غير أنه على الرغم من هذه الحرية المطلقة نرى بعض أسماء اختص بها المسلمون، وأخرى اختص بها اليهود، وغير ذلك من الأسماء تفرد بها المسيحيون. فمن أسماء النصارى الخاصة (بطرس- ميخائل. حنا. جرجس. عبد المسيح- هيلانة. ماري) ومن أسماء اليهود الخاصة (باروخ. عزرا. كوهين. ليفي. حانان) ومن أسماء المسلمين الخاصة (محمد. مصطفى. حسن. علي. فاطمة. عائشة) ومن أسماء المسلمين المشتركة (يوسف.

(سليمان. إبراهيم. داود- يعقوب. توفيق

وفي الواحات المصرية كما في جزيرة قبرص أسماء مخلوطة، فهناك بطرس حسين. جورج محمد. نقولا عثمان. وفي سوريا من المسيحيين من سمى ابنه محمداً- وفي مصر تميل الأسماء المسيحية شيئا فشيئا نحو الإسلامية، حتى أنها لتشتبه بها في كثير من الأحيان. وفي أسبانيا حيث مكثت الديانة الإسلامية نحو ثمانية قرون، نجد كثيراً من أسماء الأجداد الأولين للأسبان المعاصرين تنتهي بأسماء إسلامية.

(البقية في العدد القادم)

السيد شحاته

بين الفن والنقد

للأستاذ عبد المنعم خلاف

قالت لي نفسي بعد شهودها معركة للنقد بين جماعة من أصدقائي لحق منها مؤسسين عظيمين من مؤسسي الأدب الحديث جملة من النعوت أذكر أنها لم تكن لتلحقهما لو مضيا من الحياة ولم يتركها بيانهما العظيم:

حطم قلمك! وأغلق أقفالي عليّ، واتركني أمضي من الحياة من غير صوت ولا ذيول) يتعلق بها متجن وعابث. ودعك من أسطورة الخلود. . . تلك التي تفتنكم وتجركم إلى النزاع وإضافة تعبيرات جديدة إلى سجل الشتائم المهذبة الخالدة المذاعة وقل في تلك الأسطورة ما قال المازني الأديب الساخر منذ سنوات في صحيفة البلاغ: (طُزْ!)

فقلت لها يا نفسي: ألم تعلمي في سنن الحياة أن لكل شيء وجهين: وجه جمال، ووجه قبح؟. ألم تحفظي قول القائل:

نقول هذا مجاج النحل تمدحه=وإن تذم فقل قيء الزنابير

وتاريخ الآداب والفنون (والعظيم دائماً يحظى بشرف المبالغة من أنصاره وأعدائه) والعلوم مملوء بالمعارك العنيفة بين المنتج والناقد وأنصارهما. ولم يفد الأدب والعلم بقدر ما أفادا من النقد على شريطة الإنصاف فيه والبعد عن المهاترة وتسقط العيوب وإدخال النوازع الشخصية في موازينه

غير أن المنتج غيور على إنتاجه، فتارة يجهد نفسه في التجويد والتهذيب والتنقيح قبل أن يعرض نتاجه كما يفعل زهير في حولياته. وتارة لا يلقي باله إلى كلام النقاد ولا يحفل رضاهم أو سخطهم ما دام هو راضياً عن نفسه، كما قال الفرزدق لناقد احتار في إعراب كلمة من شعره (عليَّ أن أقول وعليكم أن تعربوا) وكما قال المتنبي:

أنام ملء جفوني عن شواردها ... ويسهر الخلق جراها ويختصم

وكما قال الأستاذ العقاد في تقدمه ديوانه:

هذا كتابي في يد القراء

ينزل في بحر بلا انتهاء

فليلق بين القدح والثناء

ما شاءت الدنيا من الجزاء

وكما هو شعار برناردشو الذي يستدفئ بموقد كتبت على حافته هذه الكلمة:

(. . .إنهم يقولون. . . ماذا يقولون؟ دعهم يقولون)

وتارة يحمل المنتج على النقاد فيخافون لسانه ويقرظونه أو يسكتون عنه كما كان

يفعل ابن الرومي
وتارة ينال المنتج من الناقدة ثأره كما قال شلي الشاعر الإنجليزي (ما عدا أمثلة نادرة لا يمثل النقاد سوى سلالة غبية خبيثة. وكما يتحول اللص المفلس إلى خفير كذلك يتحول المؤلف العاجز إلى ناقد!) وقال كولردج (النقاد هم عادة أناس كان ينتظر أن يكونوا شعراء ومؤرخين وكتاب سير لو استطاعوا. وقد جربوا مواهبهم في هذا أو ذاك ففشلوا؛ ولذلك انقلبوا نقاداً)
غير أن من القليل النادر أن نجد هذه الغيرة من الفنان والمنتج تبدو في صورة (الكبت) أو (الوأد) ولن يقدم على ذلك أديب أو عالم محترف أو مؤمن بنفسه يريد أن يفرضها على التاريخ؛ وإنما هو أحد رجلين: رجل (هاو) يجمع إلى إنتاجه وفنه حرفة أخرى يلابس الحياة بها وينال احترام الناس منها، فلن يضيره أن يتخلى عن إذاعة فنه عندما يرى أنه سيجلب عليه تنغيصاً ومحنة وعداوة من حيث يرجو الترفيه والحب؛ كما قال المتنبي (أعادي على ما يوجب الحب للفتى)؛ أو هو رجل شاك في نفسه رافع ثقته فيها لا يراها إلا بعيون الناس، فإذا قالوا لها أو عليها فهو وما قالوا
والأستاذ عبد الرحمن شكري والدكتور الشاعر إبراهيم ناجي مثلان مضروبان للرجل الأول في عهد من عهودهما بين يدي هذا العصر؛ كما يضرب أبو حيان التوحيدي الأديب المتوفى سنة 403هـ مثلاً في العصر القديم، فقد أحرق مؤلفاته ولما سئل في ذلك أجاب (شق على أن أدعها لقوم يتلاعبون بها ويدنسون عرضي إذا نظروا فيها ويشمتون بسهوي وغلطي إذا تصفحوها ويتراءون نقصي وعيبي من أجلها)
هذه صورة من غيرة المنتج، في بعضها يصل الناقد إلى حد الجناية لأنه يحمل بعض النفوس على الكبت أو الوأد لما لا بد أن يشتمل على نفع كثير للإنسانية ما عساه أن يكون فيه من ضرر أو تفاهة. نعم إن بعض المنتجين يعرضون أشياء تافهة أو مكررة تستحق
التزييف وتأديب أصحابها لأنهم لم يعوا معنى كلمة الجاحظ (ينبغي لمن يكتب كتاباً أن يكتبه على أن الناس كلهم له أعداء، وأنهم أعلم منه بما يقول. وأن لابتداء القول فتنة وعجبا)، ولا قول الآخر: (من ألف فقد استهدف)
غير أن هذا كله ليس مبرراً لتهجم الناقد على نفس المنقود وذهنه، وليس داعياً إلى تحطيم حرماته وإهدار قداسته الطبيعية التي هي له حق طبيعي من قبل أن يخط حرفاً أو يعمل عملا هو فيه حسن النية لا ريب؛ إذ أنه يريد أن يشارك به في المجهود الإنساني. فإذا لم ينل الشكر فلا أقل من ترك حرماته من غير تجريح
وأذكر أنني قرأت منذ عشر سنوات لكاتب تونسي لا أتذكر اسمه كلمة في مقدمة كتاب ألفه، تفيض باسترحام القارئ ليفضي عما في الكتاب من نقص يجده؛ إذ أن مؤلفه كتبه بضياء عينيه ساهداً في جوف الليل ليسعد به قارئوه الذين كانوا نياماً في ذلك الوقت. وهو معنى جميل لو وضعه الناقد أمام عينيه لوقف وقدر ثم وقف وقدر كرتين قبل أن يعمل قلمه بالنقد المسلح الجارح
وأظن أن كاتباً ما، لم يحمل قلمه ويخط به حرفا إلا وهو يضمر مع ما يضمر من شهوة خلود الذكر أو الشهرة، النفع وتنمية الميراث الفكري. وهذا وحدة يحتم علينا احترام اتجاهه تشجيعا له ولغيره. اللهم إلا الكاتبين الهدامين الذين في تركهم أو تقديرهم خطر؛ فأولئك يجب هدمهم بالنقد وإهدار حرماتهم كما أهدروا حرمات المجتمع
:- وما أجمل مذهب القائل - وأظنه شاعرا سوريا أو لبنانيا معاصراً
أيها الناقص أعمال الورى ... هل أريت الناس ماذا تعمل؟
لا تقل عن عمل: ذا ناقص ... جيء بأوفى ثم قل: ذا أكمل
إن يغب عن عين سارٍ قمر ... فحرام أن يعاب المشعل
القاهرة
عبد المنعم خلاف
جورجياس أو البيان
لأفلاطون
للأستاذ محمد حسن ظاظا

تنزل (جورجياس) من آثار (أفلاطون) منزلة الشرف، لأنها أجمل محاوراته وأكملها)

(!وأجدرها جميعاً بأن تكون (إنجيلا) للفلسفة
(رينوفييه)
(!إنما تحيا الأخلاق الفاضلة وتنتصر لأنها أقوى وأقدر من جميع الهادمين)
(جورجياس: أفلاطون)
الأشخاص
سقراط: بطل المحاورة: (ط) - 1
جورجياس: السفسطائي: (ج) - 2
شيريفين: صديق سقراط: (س) - 3
بولوس: تلميذ جورجياس: (ب) - 4
كاليكليس: الأثيني: (ك) - 5
ط - (رداً على جورجياس) وإذا فلنر الآن إذا كنت أستطيع أن اشرح لك ما أريد أن أقول بوضوح أكثر. عندنا من الفنون بقدر ما عندنا من الجواهر. وأحد هذه الفنون يختص بالنفس وأدعوه (السياسة) والآخر يختص بالجسد ولست أجد له الآن اسماً مفرداً وإن كنت أميزُ في وحدته قسمين هما (الرياضة البدنية) و (الطب) كما أميز في السياسة بالمثل (التشريع) ويقابل الرياضة البدنية، و (العدالة) وتقابل الطب. ولما كانت فنون هاتين المجموعتين تتصل بموضوع واحد فإنها بالطبع ذات علاقات فيما بينها؛ كما هو الحال في الطب والرياضة البدنية من ناحية، وفي العدالة والتشريع من ناحية أخرى، ولكن توجد بينها مع ذلك بعض الفروق. . .
هناك إذاً تلك الفنون التي ذكرتها، والتي تعمل على تحقيق أعظم الخيرات، والتي يختص بعضها بالجسد، وبعضها الآخر بالنفس. وهناك (أيضاً) (التملق) الذي لا نستطيع أن نتصوره إلا بالظن والتخمين دون العقل المنطقي، والذي ينقسم في نفسه إلى أربعة أقسام تنزلق تحت تلك الفنون الأربعة الآنفة وتتداخل فيها، ويدعى أنه هو نفس الفن الذي انزلق تحته واختفى فيه. . .، وهو (أي التملق) لا يعني بالخير قط، ولكنه يجذب الحماقة دائماً بما يقدمه لها من (طُعم) اللذة فيغشها ويخدعها وينال بذلك تقديراً كبيراً!؛ (فالطهي) مثلاً ينزلق تحت (الطب) ويتخفى فيه ويدعي مفتخراً أنه يعرف أفضل الأغذية الملائمة لصحة الجسم بحيث لو تجادل الطاهي والطبيب أمام الأطفال - أو من هم مثلهم عقلاً وفهماً - في:
أيهما أعرف من صاحبه بالأغذية المفيدة والضارة؟
لا نخذل الطبيب وباء بالخسران المبين
وإذا هو ما أدعوه (بالملق) يا بولوس، وما أدعى أنه شنيع وكريه، لأنه يهتم باللذات (الحسية) ويهمل الخيرات. وأنا أوجه ذلك التأكيد إليك وأضيف أنه ليس بفن؛ ولكنه مجرد تجربة وتمرين؛ لأنه لا يستطيع أن يبين الطبيعة الحقيقة للأشياء التي يشتغل بها، ولا أن يقدم لها تعليلا! ولذلك لا أستطيع أن أطلق (الفن) على شيء لا تفكير فيه. فإذا كنت تنازعني في ذلك فإني مستعد للدفاع عن قولي!. . . (لا ينطق بولوس)
وأستطيع أن أكرر ثانية أن الملق المتعلق بالطهي ينزلق تحت الطب ويختفي فيه، وأن التزين (أو التبهرج) ينزلق بالمثل تحت الرياضة البدنية ويصبح شيئاً مؤذياً خداعاً دنيئاً غير جدير بالإنسان الحر، لأنه يعمل على تمويه الصور والأشكال، والألوان والأثواب، والبريق والصقال، كيما يجلب للمرء جمالا مصطنعاً، ويصرفه بذلك عن الجمال الطبيعي الذي تستطيع أن تقدمه الرياضة البدنية
وجرياً وراء الاختصار سأحدثك بمنطق الهندسة لأنك قد تفهمني إذا خاطبتك بهذا المنطق فهما أدق وأصح. -: إن التزين بالنسبة للرياضة البدنية كالطهي بالنسبة للصحة. وبالأحرى التزين بالنسبة للرياضة كالسفسفطة بالنسبة للتشريع، والطهي بالنسبة للطب كالبيان بالنسبة للعدالة. وتلك هي الفروق الطبيعية بين هذه الأشياء، ولكنها لما كانت
متقاربة فيما بينها فان الخطباء والسفسطائيين يختلط فيهم الحابل بالنابل على نفس الأرض؛ وحول نفس الموضوعات؛ ولا يعرفون ماذا عسى أن تكون وظيفتهم الحق؛ كما لا يقل عنهم جهلا بهذه الوظيفة. . .، والحق أن النفس إذا كانت لا تحكم الجسد، وكان هو المتصرف في أمر نفسه بحيث لا تختبر هي الأشياء بذاتها ولا تفرق بين الطهي والطب، وكان هو الذي يحكم وحده تبعا لما يحصل عليه من لذات، أقول: الحق

أن لو كان الأمر كذلك لرأينا في الغالب تلك (الفوضى) التي تعرفها يا عزيزي بولوس، والتي ذكرها (أناجساجور) في قوله (كان حابل الأشياء يختلط بنابلها!)، ولَكُنَّا لا نستطيع أن نفرق بين ما يختص بالطب، وما يختص بالصحة أو الطهي!!. .

فها قد سمعت ما أعتقده في البيان وعرفت أني أعتبره للنفس كالطهي للجسم!؛؛ وقد يكون من التناقض أن أحرم عليك الأقوال المسهبة وأضطرك مع ذلك إلى الإنصات إليّ هكذا طويلا؛ ولكني جدير في الواقع بالعذر؛ لأني عندما كنت أتكلم بإيجاز كنت ألاحظ أنك لا تفهمني ولا تستطيع أن تخرج بشيء من أقوالي؛ فوجب لذلك أن أقدم لك الشروح الكافية؛ وإذا رأيتُ بدوري غموضا في إجابتك فتستطيع أن تبسطها مثلي. أما إذا فهمتها فاتركني أقنعُ بها لأن من حقي. ويسرني الآن أن أسمع ما في مقدورك أن تذكره عن حديثي!.

ب - وماذا قلت؟ أتدعي أن البيان مجرد تملق ورياء؟

ط - لقد قلت إنه قسم من الملق فحسب!. أفيحتاج شبابك يا بولوس إلي ذاكرة؟ وماذا يكون شأنك غدا إذا ما تقدمت بك السن؟

ب - أتعتقد أن الخطباء المجيدين يعدون في المدن كالمتملقين وأنهم لذلك أقل احتراما؟؟

ط - أذلك سؤال توجهه إليّ أم هو حديث ستشرع فيه؟

ب - إنه سؤال

ط - حسن. فأنا ممن يعتقدون أنهم غير محترمين على الإطلاق!. . .

ب - وكيف يكونون كذلك وهم أقوياء وجِدَّ أقوياء في الدول؟

ط - ذلك إذا كنت تعد (القوة) خيراً لمن يمتلكها!

ب - أني لأعدها كذلك!

ط - حسن. ولكني أرى أن الخطباء أضعف المواطنين قوة وبأساً!

ب - وكيف؟ ألا يستطيعون أن يقتلوا من يشاءون، وأن ينهبوا أموال من يسرهم أن يفعلوا معه ذلك ثم ينفونه إلى الخارج كما يفعل الجبابرة الطغاة؟

ط - إني لأسأل نفسي - وحق الكلب - يا بولوس عند كل كلمة تقولها لا أعرف إذا كنت تتكلم بلسان أستاذك، أم تعبر عن رأيك الشخصي، أم تبغي رأيي فحسب!

ب - إني لأبقي رأيك أنت!

ط - ليكن يا صديقي! ولكنك توجه إليّ سؤالين دفعة واحدة!. . .

ب - وكيف ذلك؟

ط - ألم تقل منذ لحظة أنهم يقتلون من يشاءون كما يفعل الجبابرة الطغاة، وينهبون وينفون من يسرهم أن يفعلوا معه ذلك؟

ب - بلى!

ط - حسن! أرى أن هذين سؤالين مختلفين، وسأجيب على أحدهما ثم على الآخر: إني أعتقد يا بولوس أن الخطباء والطغاة لا يملكون في الحكومات إلا قدراً ضئيلاً جداً من القوة كما ذكرتُ منذ لحظة؛ لأنهم لا يعملون تقريباً شيئاً مما يريدون؛ وإن كانوا ينفذن مع ذلك ما يلوح لهم أنه أفضل الأشياء!

ب - حسن. ولكن أليس هذا (قوة)؟

ط - كلا! وعلى الأقل بالنسبة لما يقول بولوس!

ب - وهل قلت (كلا)؟ لقد قلت على النقيض إن ذاك (قوة)!

ط - كلا وحق الإله! أنك لا تقول ذلك ما دمت قد أكدت أن (القوة) العظيمة خير لمن يمتلكها!!

ب - أتعتقد أنه من الخير للمرء أن ينفذها ما يبدو له كأفضل الأفعال إذا ما كان مسلوب العقل؟ وهل تسمى مثل هذه الحال (قوة كبيرة)؟

ب - كلا!!

(يتبع)

محمد حسن ظاظا

التاريخ في سير أبطال

ابراهام لنكولن

هدية الأحراج إلى عالم المدنية

وأقام لنكولن في الفندق ينتظر يوم الاحتفال؛ وإنه ليحس أنه كالغريب في هذه المدينة العظيمة؛ ولقد كان كثير من أهلها يتوقعون قبل وصوله أن تصلهم الأنباء عن مقتله في الطريق؛ فلما فوت على الماكرين قصدهم ودخل المدينة ولم تزل غافية أصاب المؤتمرين به كمدوغم؛ ولكن هل فاتت الفرصة فلا سبيل لهم إليه بعدها؟ كلا فما زال الكائدون يتربصون به حتى لقد سرت في الناس إشاعة قوية أنه لن يحتفل بالرئيس الجديد؛ وأنه راجع إلى سبرنجفيلد قبل ذلك اليوم حياً أو ميتاً
وكانت المدينة إلى أهل الجنوب أكثر ميلاً منها إلى أهل الشمال؛ وكان سادتها وكبراؤها ممن يقتنون العبيد ويتمسكون بنظام العبيد؛ وكانت تقع عين القادم إلى المدينة على العبيد رائحين غادين؛ ولقد كان هذا منظراً تنفر منه عينا لنكولن وهو يطل على المدينة من الفندق. . . وكان ذوو النفوذ من أهلها يكرهون الجمهوريين ويسمونهم الجمهوريين السود. . . لذلك أحس ابراهام أنه في جو غير جوه كالنبات نقل إلى حيث لا يجدي معه ري ولا ينفع غذاء
وجلس ابراهام يفكر ويتدبر، فإذا امتد إلي الحاضر فكره رأي كيف تشيع الفتنة وكيف يستفحل الشر، وكيف يزلزل بناء الاتحاد حتى ليوشك أن ينهار. . . وإذا استشرفت للمستقبل نفسه رأى ظلمات فوقها ظلمات؛ فالحرب كما يبدو له واقعة لا محالة، ما لم يقع ما ليس في حسبان أحد. . . وهي إذا شبت نارها واستعرت اكتوى بسعيرها أبناء الوطن
الواحد وأصحاب المصلحة الواحدة؛ إنها حرب سوف تكون بين نصفي شعب بقاؤه وسعادته لن يكونا إلا في اتحاد كلمنه والتئام شمله. . .
وليت الفتنة اقتصرت على الناس ولم تمتد إلى الحكومة؛ إذاً لكانت أهون على الرئيس وعلى الشعب. . هاهي ذي تندس حتى تتغلغل في وحدات الجيش والبحرية والسادة المسؤولين من رجال الدولة؛ ولقد وقف بيوكانون حائراً لا يدري ما يأخذ مما يدع حتى لم يعد في إمكانه أن يحسم الشر؛ فكان بذلك وجوده على رأس الحكومة يومئذ شراً على شر
ولكن ابراهام لم يكن بيوكانون؛ وحسبه عزمه المصمم الجبار في هذا الموقف الرهيب؛ هذا إلى إخلاصه وكراهته للعدوان ويقينه الذي لا يداخله شك ولا يحوم حوله شيء مما ينسج الباطل من وهم وما يصور من ريبة
ولقد أشفق من لم يكونوا يعرفونه، بل لقد جزع بعض الناس أن تلقى أزمة الحكم في مثل هذه الظروف في يدي رجل هو في زعمهم لم تحسن يداه أن تقبضا على شيء غير المعول؛ وعجبوا أن تترك الأمور للرجل القادم من الغرب. . . لذلك المحامي الذي كان من قبل يخطط الأرض ويوزع البريد؛ والذي نشأ بين الأحراج ونما كما ينمو وحشي النبات. . . وسخط أعداؤه ممن لا يجهلون مقدرته واشتد بهم الغيظ ألا يجلس في كرسي الرياسة يومئذ إلا هذا الجمهوري الأسود! هذا الذي يعد في الجمهوريين كبيرهم. . . الذي ألهمهم ما يلوكونه من عبارات تؤذي الأسماع وتخز القلوب وتقبض الصدور
أما الذين عرفوا لنكولن وعرفوا خلاله فما خالطهم شك أنه الرجل الذي ليس غيره في الرجال تكون على يده السلامة ويتم الخلاص. . والحق لقد خلقت هذه الحوادث هذه الأزمة وخلقت في الوقت نفسه الرجل الذي ينهض لها والذي لن يقوىعلى حمل أعبائها سواه. . ولو لم يكن في أمريكا في تلك الأيام ذلك الرجل الذي أخرجته أحراجها لتغير تاريخها باتخاذه وجهة غير التي سار فيها
وإنا لنرى في ابراهام أحد الأفذاذ الذين يبرهنون بأعمالهم على فساد الرأي القائل بأن الظروف هي التي تخلق العظماء؛ فهذا رجل نجم عن أبوين فقيرين ودرج بين أحراج الغابة وألفافها؛ فلما واجه الحياة وأخذ يعول نفسه راح يشق طريقه في زحمتها ومفاوزها كما كان يشق طريقة بين الأدغال، ولا عاصم له مما يحيط به من مخاوف إلا عزيمته

وفتوته
راح ابراهام يستقبل الحياة ويمشي في مناكبها، وكأن الظروف كلها عدوه؛ فما زال يغالب الظروف وتغالبه، ويعركها وتعركه، حتى وصل إلى مركز الرياسة في قومه، دون أن يستمد العون مرة من أحد؛ أو تكون له وسيلة من جاه أو مال؛ أو حظوة عند ذي قوة، أو غير هذا وذاك مما يبتغي به الناس الوسائل إلى ما يطمحون إليه من غايات. . .

ولما أن بلغ هذا المركز كانت البلاد كما أسلفنا تتوثب فيها الفتنة ويتحفز الشر؛ فكانت الظروف يومئذ كأسوأ ما تكون الظروف؛ ولكنه على الرغم من ذلك سار إلى غايته غير خائف ولا وان ولا منصرف عن وجهته إلى وجهة غيرها حتى عقد له النصر وتم له أداء رسالته. . .

وكيف لعمري تخلق الظروف والعظماء؟ وكيف يسمى عظيما ذلك الذي تخدمه الظروف فلا يكون له من فضل إلا ما يجيء عن طريق المصادفة؟ ألا إن العظيم الحق إنما هو الذي تخاصمه الظروف فينجح على الرغم ما تكيد له الظروف؛ وتتجهم له الأيام فيقدم على العظائم على الرغم من تجهم الأيام، وتعترضه الصعاب الشداد فلا تثنى له عزمه أشد الصعاب. بذلك تكون الظروف هي التي تخلق العظماء؛ فيكون الرجل الذي يظهر عليها ويظفر على الرغم منها هو العظيم، ويكون في ذلك كالدر تطهر النار جوهره

لبث ابراهام في الفندق ينتظر حتى يتخلى له بيوكانون الشيخ عن قيادة السفينة؛ وكان ابراهام يستمع إلى دوي العاصفة يزداد يوماً بعد يوم فيتلفت فلا يرى حوله غير سيوارد؛ ولكن سيوارد وصاحبه لا يلبث أن يدب بينهما خلاف شديد؛ فلقد كبر على سيوارد ألا يشاوره ابراهام في الخطبة التي أعدها ليوم الاحتفال وكان قد كتبها قبل أن يسافر من سبرنجفيلد. . .

وعلم ابراهام بالأمر فألقى بالخطبة بين يدي صاحبه؛ فاقترح عليه أن يغيِّر فيها أشياء وأن يضيف إليها أشياء، فلم ير ابراهام رأيه؛ على أنه قبل أن يضيف إلى الخطبة خاتمة كتبها سيوارد وتناولها ابراهام بالتغيير ليلتئم أسلوبها مع أسلوب الخطبة؛ وظن ابراهام أنه أرضى بذلك صديقه. . . ولكنه فوجئ في اليوم السابق ليوم الاحتفال بخطاب من عند صاحبه ينبئه فيه أنه يتحلل من وعده الذي سبق أن قطعه على نفسه بالاشتراك معه في الحكم؛ وطوى ابراهام الخطاب متألماً مكتئباً. . . ألا ما أشد عنت الأيام! حتى سيوارد الذي ليس غيره ترجى منه المعونة تكون من جانبه العقبات؟

وأشرقت شمس اليوم الرابع من مارس عام 1861، وكان يوماً من أيام الربيع طلق المحيا رخي النسائم. . . فخرج الناس يشهدون موكب الرئيس الجديد؛ وكان موكب الاحتفال بتولية رئيس الولايات من أعظم ما تهتم به البلاد؛ وهو في هذه المرة أجل قدراً منه في كل ما سلف من الأيام؛ وذلك لما كان يحيط بتولية ابراهام من معان تجيش بها نفوس الخصوم والأنصار

وقضى ابراهام صباح ذلك اليوم يقرأ خطبته من جديد ويهذبها بالحذف والإضافة، حتى متع النهار فجاء بيوكانون إلى الفندق في عربة فركب معه ابراهام، والناس على طول الطريق إلى بناء المحافظة (الكابتول) تقع أعينهم على الرجلين، فهذا هو الرئيس القديم يشيع في رأسه الشيب ويبدو على بدنه ومحياه الهزال من أثر السنين ومن اثر ما حمل من عبء أوشك أن يلقيه وقد أربى على السبعين. . . وهذا هو الرئيس الجديد يبدو قوياً فتيّاً وهو يومئذ في الثانية والخمسين؛ هذا هو الرجل القادم من الغرب، هذا هو ابن الغابة. . . هذا هو النجار تملأ الأعين قامته الطويلة التي تلوح للأعين أكثر طولا إلى جانب صاحبه الشيخ الضئيل. . . وهو يرتدي اليوم حلة ما ارتدي مثلها من قبل، حلة ارتضتها له ماري وهيأتها لذلك اليوم، ثم هو يقبض بيده الكبيرة التي أكسبها حمل المعول كبرها وخشونتها، على عصا جميلة أنيقة

وضاقت بالناس الطرقات؛ وكان رجال الشرطة قد أبعدوا الجموع قليلاً عن حافتي الشارع، وقد أمرهم كبيرهم ألا يسمحوا بأي عبث بالنظام مهما خيل لهم أنه تافه. وكان كبير الشرطة يخاف أن تمتد أيدي الآثمين إلى الرئيس بالعدوان إذ كانت الإشاعات قد اتخذت مجراها في كل سبيل، وملأ الهمس بها الآذان، ووجفت من هول

الجريمة قلوب الكثيرين من المخلصين
ووصل الرئيس إلى مكان الاحتفال، وهو مرتفع أعد لهذا الغرض، وقد امتلأت الساحة المحيطة به بجموع من الناس حتى ما تتسع بعدهم لقدم. . . وكان على مقربة من المكان تمثال وشنجطون وقد نحت من المرمر الأبيض وهو يتلألأ في ضوء الشمس وتنبعث منه
. . .معاني البطولة والعظمة والحرية والفداء
ووقف الرئيس الجديد يوجه الكلام للشعب جميعاً لأول مرة وقف فتى الأحراج هاتيك المجموع ثبت الجنان، مستوي القامة، مرفوع الهامة، وإلقى نظرة أمامه على علية القوم من الشيوخ والأعيان ورجال الجيش ورجال الدين والقضاة وغيرهم وغيرهم ثم مدّ بصره في المجموع وقد سكنت ريحهم فتهيأ للكلام. . . ولكن ماذا عراه؟. لقد وقف يمسك بإحدى يديه عصاه وبالأخرى قبعته، فكيف يمسك الورق ليتلو منه خطبته؟ ها هو ذا يسند العصا إلى الحاجز الخشبي أمامه فأين يضع القبعة؟ لقد أوشك أن يقع في ورطة، وأوشك أن يثير ضحكات الخصوم بحيرته؛ ولكن هاهو ذا رجل يثبت من مكانه وكان يجلس منه في سمت بصره، فيأخذ القبعة من يده. . . ومن هو ذلك الرجل؟ إنه دوجلاس خصمه القديم ومنافسه ذو البأس الشديد. . .
وكان دعاة الانسحاب من أنصار الجنوب يأملون أن يتهدد لنكولن الولايات الجنوبية ويتوعد، فيشتد بذلك الهياج في تلك الولايات ويتعذر لعدها أن يجنح هؤلاء للسلم، ولكن لنكولن خيب ظنونهم وزادهم بحكمته وحصافته وبعد نظره ويقظته غماً على غم. . .
كانت خطبته خير مثال للاعتدال في غير تفريط، وللتواضع في غير استخذاء أو استسلام، وللتحذير في غير إثارة أو استفزاز، وللمرونة في غير رياء أو التواء، وللعدالة في غير مشادة أو عناد. . . كما كانت كالسلسل العذب فصاحة وسهولة؛ ناهيك بما امتازت به من نصوع البرهان ومتانة الحجة واستقامة المنطق وجمال السبك وبراعة السياق ودقة الإلمام بالموضوع، وسعة الإحاطة بما كان يشغل الأذهان
وكان الخطيب رنان الصوت، قوي الجرس، وثيق الإشارات تشيع في كلماته حرارة الإيمان وقوة اليقين وصدق الإخلاص فتنفذ إلى قلوب أنصاره وخصومه على السواء؛ وإن كان خصومه ليكرهون فوزه وينكرون مبادئه. . .
قال يشير إلى مخاوف أهل الجنوب: (يظهر أن المخاوف تنتشر في الولايات الجنوبية، ومبعثها أن قبولهم الحكم الجمهوري من شأنه أن يعرض أملاكهم وسلامتهم وأمنهم على أشخاصهم المخاطر. إنه لم يكن هناك سبب معقول لهذه المخاوف؛ بل لقد قامت بينهم أقوى شهادة على نقيض ذلك، وكانت دائماً سمعهم وبصرهم. . . إنها تكاد توجد في كل خطبة
من خطب ذلك الذي يحدثكم الآن، وإني لأقتبس من إحدى تلك الخطب حين أقول ليس لي من غرض مباشر أو غير مباشر في التدخل في نظام العبيد في الولايات التي يقوم فيها ذلك النظام. . . وإني أعتقد أنه ليس من حقي أن أفعل ذلك، وأن الذين رشحوني وانتخبوني إنما فعلوا ذلك وهم على علم تام أني صرحت كثيراً بمثل هذا، ولم أتزحزح مرة عما قلت)
ولم يقف الرئيس في اعتداله عند ذلك الحد، بل لقد ذهب إلى التصريح بأن العبد الفار إلى الولايات الحرة لا تمنح له الحرية. ولقد أشفق كثير من أنصاره من هذا التصريح، ولكن لنكولن يستند في ذلك التصريح إلى مبادئ الحزب التي لا يمنح بمقتضاها العبد حريته إلا إذا ذهب مع سيده غير فار إلى ولاية حرة وأقام فيها
وتكلم لنكولن عن انسحاب الولايات من الاتحاد فقال: (لن يخول القانون لأية ولاية حق الانسحاب) ثم أردف قائلا أن القسم الذي أقسمه على المحافظة على الدستور يجعل لزاماً عليه أن يقوم بواجبه فيعمل على أن يكون قانون الولايات المتحدة نافذاً في جميع الولايات. وأختم الحديث في هذا الموضوع بقوله: (إني واثق أنكم لن تحملوا على التهديد كلامي، بل إنها كلمة الاتحاد يعلن أنه سوف يحمي ويدعم بناءه على أساس من الدستور. وهو إذ يفعل ذلك لا يرى ثمة حاجة إلى سفك الدماء والعنف، وسوف لا يكون شيء من هذا إلا إذا أجبرت عليه السلطة القومية
وأشار إلى الوحدة من الناحية العضوية فقال أن نصف الشعب لا يستطيع أن يقوم بغير الآخر، وإذا كان في الدستور عيب فمن الممكن إصلاحه على يد مؤتمر يجتمع فيه

ممثلو الشعب. فإذا رأى الشعب الانفصال حقاً لكل ولاية فله رأيه وليفعل كما يرى، أما هو فليس لدبه من قوة إلا ما منحه الشعب
وتكلم عن الداعين إلى الثورة فقال إنه لا مبرر للثورة إلا إذا لجأت الأغلبية إلى الطغيان؛ ومثل هذا المبرر لا وجود له، وإن الانسحاب معناه الفوضى ولا نتيجة للفوضى إلا الاستبداد. . .
واختتم لنكولن خطبته بتلك العبارة التي اقترحها سيوارد وتناولها بالتعديل قال: (لسنا أعداء بل نحن أصدقاء؛ ويجب ألا نكون أعداء. ومع أن الغضب قد جذب حبال مودتنا فيجب ألا
يقطعها؛ وأن الأناشيد الخفية التي ترن في الذاكرة منبعثة من كل ميدان من ميادين القتال ومن كل قبر من قبور الوطنيين، إلى كل قلب حي وإلى جانب كل موقد في هذه البلاد العريضة لتزيد في جوقة الاتحاد، إذا ما مسها من جديد كما نثق أنها ستمس - وحي من طبيعتنا
وأقسم ابراهام اليمين ويمناه على الإنجيل. وتولى صيغة القسم القاضي تين صاحب قضية دروسكوت الشهيرة وكان يومئذ القاضي الأعلى للبلاد. وبعد أن أدى ابراهام اليمين أن يحترم الدستور ويحافظ على قوانين البلاد سار إلى البيت الأبيض، وكان أول عمل له بعد وصوله أن تناول القلم فكتب إلى سيوارد الخطاب الآتي:
(سيدي العزيز: تسلمت رقعتك المؤرخة 2 الجاري التي تسألني فيها أن اقبل انسحابك من الاشتراك معي في إدارة الحكم؛ ولقد كانت رقعتك هذه سبباً لأعظم قلق عندي إيلاما، وإني لأشعر أني مضطر إلى أن أرجوك أن تلغي هذا الانسحاب. أن الصالح العام ليدعوك أن تفعل هذا، وإن شعوري الشخصي ليتجه في شدة الاتجاه. أرجو أن تتدبر وأن يصلني رد منك في الساعة التاسعة من صباح الغد. . . خادمك المطيع. . .)
(يتبع)
الخفيف
تيسير قواعد الإعراب
لأستاذ فاضل
- 5 -
تطبيقات
فرغنا في مقالاتنا السابقة من ذكر مؤاخذاتنا على جماعة وزارة المعارف فيما رأته من تيسير قواعد الإعراب، وكان سبيلنا في هذا مخالفاً لسبيل غيرنا في مؤاخذاته عليها، لأنا نتفق معها في غايتها من الإصلاح، فهدمنا من عملها لنبني أتم منه، وأبطلنا من رأيها لنصل في الرأي إلى ما لا يمكن هدمه، فتعلو به كلمة الإصلاح، وينتصر ما نريده من التجديد النافع. وقد بلغني عن صديق لي أن عضواً بارزاً من هذا الجماعة ذكر له أنه معجب بما كتبناه في ردنا عليهم، فلا أدري ما بمنعه من ذكر رأيه فيما كتبناه من ذلك على صفحات مجلة الرسالة الغراء، ليتبين الحق في هذا الموضوع ونصل إلى ما تريده وزارة المعارف من الإصلاح في قواعد الإعراب
وإني أريد الآن أن أذكر تطبيقات على ما ذهبت إليه في إصلاح هذه القواعد، ليتبين أن ما ذهبت إليه من هذا مذهب مطرد، ورأي لا شذوذ فيه ولا اضطراب
التطبيق الأول
ألا إنَّ قلبي لدى الظاعِنينَ ... حزينٌ فمن ذا يعزَّى الحزينا
(ألا) أداة استفتاح مجزومة بالسكون (إن) حرف توكيد منصوبة بالفتحة (قلبي) مبتدأ منصوب بفتحة مقدرة قبل ياء المتكلم، وهو مضاف وياء المتكلم مضاف إليه مجرور بكسرة مقدرة على آخره (لدى) ظرف مكان منصوب بفتحة مقدرة على آخره، وهو متعلق بحزين مقدم عليه، ولدى مضاف والظاعنين مضاف إليه مجرور بالياء نيابة عن الكسرة (حزين) خبر المبتدأ مرفوع بالضمة (فمن ذا) الفاء للتفريع منصوبة بالفتحة، ومن اسم استفهام مبتدأ مرفوع بضمة مقدرة في آخره وذا خبر المبتدأ مرفوع بضمة مقدرة في آخره (يعزى) فعل مضارع مرفوع بضمة مقدرة في آخره، وفاعله ضمير مستتر جوازاً تقديره هو (الحزين) مفعول به منصوب بالفتحة، ولا داعي إلى ذكر أن الجملة صلة لا محل لها

من الإعراب، وإنما يعنى بتقدير الإعراب في الجمل التي لها حظ منه
التطبيق الثاني
ببذلِ وحلم ساد في قومه الفتى ... وكَوْنُكَ إيَّاه عليك يسير
الباء حرف جر مجرور بالكسرة، وبذل مجرور بالباء وعلامة جره الكسرة في (ببذل) آخره، والجار والمجرور متعلق بساد (وحلم) الواو حرف عطف منصوب بالفتحة، وحلم معطوف على بذل مجرور بالكسرة (ساد) فعل ماض منصوب بالفتحة (في قومه) في حرف جر مجزوم بالسكون، وقوم مجرور بفي وعلامة جره الكسرة، وقوم مضاف والضمير مضاف إليه مجرور بكسرة في آخره (الفتى) فاعل مرفوع بضمة مقدرة (وكونك) الواو حرف عطف منصوب بالفتحة، وكون مبتدأ أول مرفوع بالضمة، والكاف المضاف إليه مبتدأ ثان مرفوع بضمة مقدرة (إياه) خبر المبتدأ منصوب بفتحة مقدرة في آخره (عليك) على حرف جر مجزوم بالسكون، والكاف مجرور به وعلامة جره كسره مقدرة، والجار والمجرور متعلق بيسير (يسير) خبر المبتدأ الأول مرفوع بالضمة ولا غرابة في أن يكون المضاف إليه مبتدءا في هذا البيت، فان هذا هو الواقع في أمره، أما إعرابه اسما للسكون فأنه هو الغريب في الحقيقة، لأن المضاف إليه ليس اسما له. وإذا كان لنا مبتدأ مجرور بالحرف في نحو - ربه فتى - فأنه لا يكون هناك غرابة في أن يكون لنا مبتدأ مجرور بالإضافة في ذلك المثال ونحوه
التطبيق الثالث
يُغْضِي حياءً ويغضَي من مهابته ... فما يُكلَّم إلا حين يبتسم
فعل مضارع مرفوع بضمة مقدرة، وفاعله ضمير مستتر جوازاً تقديره هو (يغضي) (حياء) مفعول لأجله منصوب بالفتحة (ويغضي) الواو حرف عطف منصوب بالفتحة، ويغضي فعل مضارع محذوف الفاعل مرفوع بضمة مقدرة (من مهابته) من حرف جر مجزوم بالسكون، ومهابة مجرور بمن وعلامة حره الكسرة، وهو مضاف والهاء مضاف إليه مجرور بالكسرة والجار والمجرور متعلق بقوله يغضي (فما يكلم) الفاء للتفريع منصوب بالفتحة، وما نافية مجزومة بالسكون، ويكلم فعل مضارع محذوف الفاعل مرفوع بالضمة،
والمفعول ضمير مستتر جوازاً تقديره هو (إلا) أداة استثناء مجزومة بالسكون (حين) ظروف زمان منصوب بالفتحة (يبتسم) فعل مضارع مرفوع بالضمة، والفاعل ضمير مستتر جوازاً تقديره هو، والجملة من الفعل والفاعل مضافة إلى حين مجرورة بكسرة مقدرة
وفي هذه التطبيقات الثلاثة كفاية
(تم البحث)
أزهري
بين اللغة والأدب والتاريخ
الفالوذج
للأستاذ محمد شوقي أمين
- 1 -
لفظه. تعريفه. الإبدال من حروفه. مستعمله في الأدب. واحده. جمعه. معناه. رحلته إلى العرب. إطعامه الناس. تهيب ذوي الورع إياه. رحلة أعرابي إليه.
- 1 -
الفالوذج كلمة فارسية النشأة، أصل على ألسنة أهلها: بالوذة، فأول حروفها: الباء التي بين الباء والفاء، أو المخلوطة بالفاء على تعبير الشهاب الخفاجي. وختامها: الهاء الساكنة على اصل اللسان الفارسي. ومن حروفها الذال المعجمة كما في الكثير الأكثر من كتب اللغة وأقوال الأئمة. ولكن الشيرازي محمداً علياً قال: إن الفالوذج معرب عن بالودة بالدال المهملة. وهذا يؤيد ما نقلته المعجمات المؤلفة لهذا العهد من قولها: إن الفالوذج بالمهملة، لغة فيها بالمعجمة. والشيرازي من نبعة الفرس، فهو يتحدث عن لغة قومه. فحقيق بنا أن نرجع إليه، ونعول عليه، وندع ما لكسرى لقوم كسرى!
وقد عرّب العرب هذه الكلمة، بعد تشذيب وتثقيف، مبالغة في تحقيق الجنسية اللغوية، كما يقول الرافعي، فقد سَمَوْا بالحرف الأول المترجح بين الفاء والباء، إلى الفاء، إذ كان هذا الحرف المذبذب ليس في عداد الأصلي من حروف الفصحى، واستبدلوا الذال

بالدال، كما صنعوا في سَذَاب وساذَج وباذَق، فالذال عوض من الدال الفارسية في هذا الألفاظ. ثم جعلوا الهاء جيماً، على أسلوبهم الأغلبيّ في التعريب. فقالوا: فالوذج، ولم يرتض هذا الإبدال الأخير جمع من نقدة اللغة، فقالوا: بل تبدل الهاء قافا، وهي طريقة العرب كذلك، أو تحذف الهاء دون إبدال، وعلى هذا القول المخّير بين أثنتين من الحذف أو إلحاق القاف: تماسَح فقهاء اللغة، فما إن تجد في المعجمات الوثيقة وما في حكمها إلا: الفالوذ، أو الفالوذق

فأما مناهل الأدب والتاريخ، ومكانز النوادر والطرف، فقد آثرت كلمة الفالوذج على هذا الوجه، فهي ثَمَّ مستعملة سائرة، لا يُعدل عنها إلا في الندرة والفلتات. وهي كذلك في أكثر

شعر الشعراء بين القديم ومحدث، ولا سيما عصر بني العباس. وما أجدر ذلك على اجتماعه أن يكون برهاناً قائماً على أن جمهور الأمة العربية كان يجري على إبدال الهاء جيماً، وأن اللفظ قد ذاع على هذه الصورة أول ما ذاع. فتلقفته الألسن بعد ذلك عصراً في أثر عصر، وفي التصحيح اللغوي أثراً مهجوراً لا يقتفيه أحد في صحراء المعجمات!

والطائفة من هذه الحلواء: فالوذجة، كما قال السيرافي، وهذا قول يَعُدَّ كلمة الفالوذج في أسماء الأجناس التي يُفرق بينها وبين وأحدها بالتاء، كتمر وتمرة، وبطيخ وبطيخة. وهي قياس في المخلوقات، سماع في المصنوعات، فما يجئ من هذه مُشَبَّه بما جاء من تلك

ولو أريد جمع الفالوذج جميعاً صناعياً على ما ينقاس في مثله، لكان أقرب شيء متناوَلاً جمع الألف والتاء، كما هو مفهوم قول سيبويه، وصريح رأي أبن عصفور. فيكون: الفالوذجات. ولم يقع لي هذا الجمع فيما قرأت. بيد أن الزمخشري أثبت جمع الفالوذ على فواليذ، في سجعة من أسجاعه الرقاق. ولست أحُق: أذلك تطبيق على القواعد وصناعة، أم نقل لمأثور، أم تقييد لسماع؟. لم ينته إليّ من علم ذلك إلا أن الجمع صحيح على أية خطة!

وقد ذكر أبو علي الفارسي أن الكلمة الفارسية ترجمها: الحافظ للدماغ؛ ويبدو أن هذا التفسير كان متعارفاً للخاصة من العرب حين حلِيَت موائدهم بالفالوذج وحلَت. والدلالة على ذلك فيما حكى عن الخليفة الأموي: سليمان بن عبد الملك، فقد كان أعرابي على مائدته يسرع في الفالوذج. فمازحه سليمان بقوله: أأزيدك منه يا أعرابي، فانهم يذكرون أنه يزيد في الدماغ؟ فقال الأعرابي: كذبوك يا أمير المؤمنين، لو كان كذلك لكان رأسك مثل رأس البغل!

فلم يَنبس سليمان، واحتملها منه، ولم يحتملها له

وكلمة الفالوذج تدل على حلواء ليست من أطعمة العرب، وإنما هي من جملة ما اجتلبوه من موائد الفرس في مستهل الحضارة، قبيل فجر الإسلام. وقد حكى أن عبد الله بن جدعان التيمي، وهوالملقب بحاسي الذهب، لأنه كان يشرب في إناء ذهبي، وفد على كسرى مرة، وأكل عنده الفالوذج، فتعجب منه، وسأل عن حقيقته، فلما أجيب بصفته، ابتاع من بين الفرس غلاماً يحسنُ صنعه، ورجع به إلى مكه، ثم سَمَّت به أرْيحِيَّته إلى أن يطعم الناس

عامةً جديد هذه الحلواء. فبسط الموائد بالأبطح إلى باب المسجد، ثم نادى: من أراد أن يأكل الفالوذج فليحضر، فاستجاب له الخلق من كل فج، وكان ممن حضر أمية بن أبي الصلت

فقال يمدحه من قصيدة:

لكل قبيلة هاد ورأس ... وأنت الرأس تقدم كل هادِ

عماد الخيف قد علمت معدٌّ ... وإن البيت يرفع بالعماد

له داع بمكه مُشْمَعِلٌ ... وآخر فوق دراته ينادي

إلى ردح الشَّنرى ملاء ... لباب البريُلْبَكُ بالشهادِ

ومالي لا أحييه وعندي ... مواهب يطَّلعن من النجاد؟.

ولما حفلت موائد العِلْية والسراة من العرب المتحضرين بالفالوذج، طوفت في شأنه الأقاويل، فتهيبه ذوو الورع، إذ كان المسلمون حديثي عهد بالحنيفية، يتعففون عن كل ما تطالعهم به الأمم الدخيلة في مختلف أسباب الحياة، وبخاصة المتع واللذائذ، قانعين

من شئون اجتماعهم بما أشرقت عليه شمس الإسلام، وما رأي النبي صلوات الله عليه الناس يأكلونه فلم ينههم عنه. فإنه ليحكى أن الحسن البصري - إمام الفقه والفتوى - سمع رجلاً يعيب الفالوذج، فذكر له الحسن أخلاطه التي يبني عليها، وقال: ما عاب هذا مسلم!. . . وعلم الحسن كذلك أن رجلاً يتنزه أن يأكله، فراجعه، فقال الرجل: يا أبا سعيد، أخاف ألا أؤدي شكره، فقال الحسن: يالكع، وهل تؤدي شكر الماء البارد؟ ثم تلا عليه قول الله: يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم

ويظهر أن انتشار الفالوذج في الأمصار العربية والحواضر، وتَضوع أخباره في البوادي، شوق الأعراب إلى استكناه هذا الطعام الموصوف، فأني لأنسي ولا أنسى نادرة يقطر منها ماء الظرف، وقعت لي في بعض القراءات، وهي أن أعرابيا خرج يضرب آباط الإبل إلى حضَر المسلمين، يسأل: ما الفالوذج؟. ومُ يُبَرَّدْ ظهر مطيته حتى وصف له، فلما سمع الوصف تَمَطَّق، ثم قال: أي والله لو نزلت هذه الصفة في القرآن لكانت موضع سجدة. . . وهكذا كشف تلك الرحلة الفالوذجية العاجبة، أمنية أدعى إلى العجب، وهي أن تنزل صفة الفالوذج في محكم الكتاب: سورة الحلوى!!

(للبحث صلة)

محمد شوقي أمين

حول الطريقة التجانية

للشيخ محمد الحافظ التجاني

شيخ هذه الطريقة بمصر

قرأت في العدد (266) من مجلة الرسالة أسئلة من ألبانيا إلى الأستاذ الحجوي وهذا نصر السؤال:

(أن الطريقة التجانية المنتشرة في أكثر البلاد حتى البلاد الأرناؤودية ولا سيما بلدتنا أشقودرة هل المندمج فيها غير مناف للشريعة الغراء؟ ومنتسبو تلك الطريقة يدعون أفضلية قراء (صلاة الفاتح) لما أغلق على تلاوة القرآن ستة آلاف مرة وهو أكبر الأذكياء متأولين بأن ذلك بالنسبة لمن لم يتأدب بآداب القرآن كما فصله في كتاب جواهر المعاني المنسوب إلى التجانية، وأن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بتلك الصلاة الخاصة إنما يترتب عليها الثواب إذا أعتقد أنها من كلام الله القديم من قوله عليه السلام (من صلى عليَّ مرة صلى الله عليه عشراً)، وأن تلك الصلاة مع فضيلتها بتلك المثابة لم يعلمها النبي عليه السلام لأحد إلا لمؤسس تلك الطريقة. وفي ذلك مالا يخفى من لزوم الكتمان ومنافاته للتبليغ المأمور به عليه السلام؟ وأن مؤسس تلك الطريقة أفضل الأولياء مع أن الإجماع هو أن الأفضل بعد نبينا محمد عليه السلام، الخلفاء الأربعة على الترتيب المعلوم، وأن من انتسب إلى تلك الطريقة يدخل الجنة بلا حساب ولا عقاب وتغفر ذنوبه الكبار والصغار حتى التبعات وغير ذلك مما هو مبسوط في الكتب التجانية)

وحيث أننا - أهل هذه الطريقة أحق الناس ببيان ما نحن عليه - وكان في تلك الأسئلة تحريف عن الحقيقة التي عرفناها ونقلناها عن شيوخنا قاطبة، فإنني أعلن بلسان كل من ينتسب إلى هذه الطريقة أن من يعتقد أن صلاة الفاتح أو غيرها من الصلوات أفضل من القرآن فهو ضال مضل ما عرف الإسلام؛ وليس هناك في طريقتنا من يعتقد تلك العقيدة الزائفة، وقد قال شيخ الطريقة الأكبر في جواهر المعاني:

أما تفضيل القرآن على جميع الكلام من الأذكار والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وغيره من الكلام فأمر أوضح من الشمس كما هو معلوم في استقراءات الشرع وأصوله شهدت به الآثار الصحيحة

أما الذي نقول به فهو أن من لم يحسن أدب تلاوة الكتاب الواجبة، فلأن يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم أفضل له من أن يتلو القرآن وهو مخل بشروط تلاوته. فالمقارنة في حال التالي لا في المتلو فأنه لا خلاف في أفضلية القرآن. فأي شيء في ذلك وهو الذي يقول به العلماء؟

على أنه لا حرج في رجاء الإثابة على العمل القليل بالجزاء الكثير، وإن كان العامل لا يستحقه ولا العمل، والفضل الإلهي يتسع لإثابة المؤمن على تسبيحة واحدة بجزاء عمل كثير من محض الفضل الإلهي بغير استحقاق. وقد صح في التأمين والتسبيح والذكر شيء من ذلك. وليس هذا من باب تفضيل غير القرآن على القرآن بأي وجه

من الوجوه. ولا يذكر هذا ليتكل عليه المؤمنون فالمؤمن يعمل ويخاف ويرجو - وعدم الأمن أصل في العمل بالطريق - ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون - ولا بيأس من روح الله إلا القوم الكافرون. وإن من مكارم الأخلاق حسن الظن بالله وحسن الظن بعباد الله

وليس هناك في طريقتنا من يعتقد أن الشيخ أفضل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كما زعم السائل

وقد صرح في جواهر المعاني أنهم أفضل ممن بعدهم مستدلا بما روى عنه صلى الله عليه وسلم: (إن الله أصطفى أصحابي على العالمين سوى النبيين والمرسلين) وقال: أعمالنا معهم كسير النملة مع سرعة طيران القطاة. وذكر أن أعمال من بعدهم في صحيفتهم. أما دعوى تفضيله على النبيين فهي دعوى لا تستحق أن يلتفت إليها لوضوح بطلانها

أما صلاة الفاتح ودعوى أن أهل الطريقة يقولون إن النبي صلى الله عليه وسلم كتمها عن أصحابه وأعطاها للشيخ وكونها من كلام الله القديم، فهذه الصلاة موجودة قبل الشيخ، وهي منسوبة لسيدي محمد البكري وهو موجود قبل ولاة الشيخ بزمن طويل، فكيف تكون مكتومة؟ ومن نسب الكتمان له صلى الله عليه وسلم فيما أمر بتبليغه فهو كافر مرتد. وكذلك من اعتقد أنها من أي نوع من أنواع وحي النبوة. ولم يقل أحد عندنا إنها من الأحاديث القدسية. والذي حققه حجة هذه الطريقة سيدي العربي بن السائح في كتابه (بغية المستفيد) أنها يصح أن تكون من الإلهام الذي يجوز للأولياء قال صلى الله عليه وسلم: (ذهبت النبوة وبقيت المبشرات. قالوا وما المبشرات يا رسول

(الله؟ قال: الرؤيا الصالحة يراها العبد الصالح أو ترى له

والرؤيا ليست بقاصرة على ما يراه المرء في نومه كما هو معروف في اللغة. وذكر الحافظ بن حجر في شرح حديث أبن عباس هي رؤيا عين أريها صلى الله عليه وسلم الخ في البخاري فيصح أن تشمل ما هو معروف بالإلهام والمشاعر والوقائع والتحديث ونحوه مما حقق العلماء أنه جائز أن يكون نصيب الولي من ميراث النبوة. ويجب عرض ذلك على الشريعة فما وافقها أخذ به ومالا فلا؛ وقد يكون له تأويل كالرؤيا المناسبة سواء بسواء. وصح عنه صلى الله عليه وسلم: (أنه كان فيمن قبلكم رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء)

وأهل هذه الطريقة قاطبة في أنحاء المعمورة فيهم واحد على غير مذاهب أهل السنة والجماعة، فهم حنفية أو مالكية أو شافعية أو حنابلة. ومعتقدهم معتقد أهل السنة الذي عليه الفقهاء والمحدثين والأصوليون والصوفية. وقد بلغ فيهم الكثيرون الإمامة في عصرهم في أقطارهم كسيدي إبراهيم الرياحي شيخ الإسلام بتونس، وسيدي أحمد كلانباني شيخ الجماعة بفاس، والفقيه جنون، وسيدي علي بن عبد الرحمن مفتي وهران، وسيدي محمد الحافظ العلوي الشنقيطي

وكل ما يوهم في كتبنا غير هذه العقيدة فقد تصدى علماء الطريق لبيان المراد منه وحمله على الوجه الذي يوافق ما عليه الجماعة ولنا أسوة بمن سبقنا من العلماء. أما ما نسب للشيخ رضي الله عنه مما لا يمكن تأويله ولا يمكن حمله على وجه صالح فنحن نراه كذبا عليه ونرده. وقد سئل: (أيكذب عليك؟. قال نعم - إذا سمعتم عني شيئاً فزنوه بميزان الشرع)

وقد كذب على الله والرسول والصالحين فأي حرج أن يكذب عليه؟

وإن الواقع هو أوضح دليل على براءة الشيخ وطريقته من هذه الأكاذيب المفتراة أو التي ولدها فهم في كلامه لا نقول به يحسب صريحا وهو عندنا مؤول يحرم الأخذ بظاهرة. ذلك الواقع أننا نجد أصحابه لا يقولون بها. وقد أطبق علماء الطريق من عصر الشيخ على إعلان البراءة منها صريحا وبيان أن من يعتقدها ليس في الطريق في شيء. ومعلوم أن أتباع كل امرئ أخبر الناس بما هو عليه. وصريح كلامه الذي لا إبهام فيه ولا غموض هو

المرجع الصحيح، وقد تبرأ من كل قول يخالف الشرع ولم يجعل ميزاناً بينه وبين أتباعه غيره

وإذا فليس في هذه الأمور معضلة من معضلات العصر، ولكن المعضل حقيقة هو

النزاع فيما بيننا معشر المسلمين؛ ولا شك أن لأعداء الإسلام المصلحة في التفرقة ولا أدري ألم يحن الوقت الذي يترك فيه نزاع الطوائف الإسلامية ويوضح سلاح الافتراء والتحريف وسوء الظن الذي يتحاربون به؟ وهلا ييسر لهم من يسعى في التفاهم على أساس حسن الظن بينهم وجمع كلمتهم والتماس المعاذير لمن لعل له العذر منهم؟ وليس هذا كل ما يقال عن الطريق فقد ذهب نزاع الطوائف إلى حمل كل موهم في كتبنا على أسوأ الوجوه مما لا يخطر على بال أحد منا ولم نسمعه إلا من خصوم الطريق، وإلى أبعد من هذا، إلى التدليس كما يقال: فويل للمصلين - ويترك الذين هم عن صلاتهم ساهون، وإلى الاختلاق والكذب على التاريخ وعلى الأحياء من العلماء، ووصل حتى إلى الأمور الشخصية، وسأقدم للعالم الإسلامي مثيلين واقعين من ذلك الافتراء:

فها هو ذا جواب العلامة المحدث السيد عبد الحي الكتاني أطال الله حياته على سؤال رفعته إليه عن دعوى رجل زعم أن جواهر المعاني ألفه بعض المستشرقين الفرنسيين وزعم أن الأصل موجود في مكتبة السيد

وزعم قوم أن قبر أوريلي الفرنسية زوجة سيدي أحمد عمار حفيد الشيخ الأكبر جعلت عليه قبة ورسم عليها صليب. والحقيقة أنها ماتت مسلمة وثبت لدى الحكومة الفرنسية ودفنت بالفعل في مقابر المسلمين وليس على قبرها أثر لقبة ولا لصليب. وها هي ذي صورة قبرها بكوردان التابعة للأغواط في صحراء الجزائر. وترى قبور مجاورة سيدي أحمد عمار، وقبر أوريلي هو الثالث الملاصق للجدار في فضاء حديقة القصر ليس فوقه إلا السماء، وقد وضع رجل يده على حجر قائم عليه يقابله حجر آخر عليه تاريخ وفاتها، وأنها ماتت مسلمة بشهادة عدول مسلمين

ولست بعد ذلك بصدد التعرض لجواب الأستاذ الحجوي لأن هذا هو الذي لدينا ونبرأ من كل ما يخالف شرع الله وشرع رسوله صلى الله عليه وسلم، وأصحاب هذه الطريق ولله الحمد من أشد الناس قياماً بالقرآن تلاوة ومدارسة، وبالسنة علماً وعملاً، وأساسها تصحيح

العقيدة، والقيام بالواجبات، والانتهاء عن المحرمات جميعها، والتقرب إلى الله بالنوافل على حسب الاستطاعة مع عدم الأمن - ولا واجب عندنا إلا ما أوجبه الشارع ومنه وفاء المكلف بنذره بشرطه المعروف في الفقه، ولا مندوب إلا ما ندب إليه، ولا حكم إلا لله وليكتب خصوم الطريق (قائمة) بكل ما يخالف الكتاب والسنة من العقائد فنكتب تحتها: هذا باطل لا نقول به، ونستطيع أن نريهم من كلام الشيخ نفسه ما يرده. والفقهاء فيها ممن لهم الباع الطائل في الأصول والفقه كثيرون ولله الحمد، وكلهم أهل سنة واستقامة، وقد بينوا ذلك وشرحوه

وقد عاشرت كثيراً ممن بالمشرق والمغرب من السادة التجانيين فما وجدت أحدا منهم يعتقد شيئا مما يتهم به أهل الطريق مما يخالف الكتاب والسنة. وعلى فرض أن جاهلا اعتقد ذلك فليس منا لمخالفته اعتقادنا، ونحن من اعتقاده بريئون

وإذن فذلك الإنكار المتفرع على تلك العقائد الزائفة لا يصلنا منه شيء، فهو موجه إلى غيرنا ممن يعتقدها. والطريقة وشيخها وأتباعه يبرءون من كل ما يخالف كتاب الله وسنة رسوله، وليس لديهم إلا ما عليه أهل السنة والجماعة

(الزاوية التجانية بالقاهرة)

محمد الحافظ التجاني

ماضي القرويين وحاضرها

للأستاذ عبد الله كنون الحسني

تتمة

ومنذ جريان العمل بهذا النظام والانتقادات توجه إليه من كل طبقة من الطلاب. وأحق هذه الانتقادات بالالتفات أن غالب المواد أسندت إلى من لا يحسنها، وأن كتب الدراسة لم يدخل عليها أي تعديل. فالفقه مثلاً لا زال في مختصر الشيخ خليل ذي الشروح العديدة والحواشي الكثيرة؛ والنحو لازال يدرس في الابتدائي بشرح الأزهري للأجرومية. والألفية أبدل شرح المكدودي لها بشرح أبن الناظم وليس بذاك على أن الذي لا يصح إنكاره من محاسن هذا النظام فضلا عن ضبطه لأوقات الدراسة هو إحياؤه لعلوم الحديث والتفسير، وإدخاله لبعض العلوم التي كان الطالب القروي

محروماً منها كالتاريخ والجغرافية والهندسة. فأما كون المواد تسند إلى غير أهلها فالحقيقة في ذلك أن بعض العلوم لم يكن لأهل القرويين في الوقت الحاضر بها مساس مع ما انضم لذلك من إبعاد نبغاء أهل العلم والأدب عن الكلية وأخذهم للوظائف الحكومية؛ فواجب أن تجلب الحكومة بعض أساتذة تلك العلوم من معاهد الشرق بينما ترسل بمئات من أبناء القرويين للتخصص فيها وتدريسها عند عودتهم. كما يجب أن يعاد أولئك الأفاضل المقصون عن الكلية إلى حظيرة التعليم؛ فمن الجور أن يضيع عمرهم في غير ما خلقوا له ويضاع معه مستقبل الطلبة الذي نحن عليه جد حريصين

وأما مسألة الكتب فإن الزمان كفيل بتعديلها على أحسن الوجوه. ومن الإنصاف أن نعترف أن الوقت لم يحن بعد لتسويقها كما ينبغي، لما نرى عليه بلادنا من التأخر المزري في وسائل النشر وصناعة الطبع. وعسى ألا يستمر الأمر على ذلك زماناً طويلاً ولا سيما بعد تنظيم خزانة القرويين والاهتمام بجمع كنوزها وذخائرها وحفظها من التلف ورد اليد العادية عنها فالمستقبل باسم إن وجد من يعمل بجد وإخلاص هذا، ولنا نظر في إصلاح القرويين ونبديه هنا - ولو لمجرد المناسبة - فهو أقرب تناولا وأمثل سرعة وأنسب حالا من كل إصلاح غيره. وذلك أننا نرى أن تخصص الكلية بالدراسات الإسلامية المحضة وما يعين عليها، من علوم القرآن بما فيها القراءات التي قدمنا ما كان لأسلافنا من العناية بها، والحديث والفقه والأصلين ووسائل ذلك من النحو والفقه والبيان والمنطق والحساب والهيئة ونحوها، على أن تكون دراسة هذه بحسب التبع لتلك، ومن أجل أنه لا يتوصل إلى المطلوب إلا بها، ولذلك كان أشياخنا رحمهم الله يسمونها علوم الآلات، والمقصود الأهم الذي يجعل نصيب العين بالتعمق في النظر والتوسع في البحث هو الفقه والحديث وسائر العلوم المذكورة سابقاً التي نؤمل من وراء دراستها على هذا النمط والانقطاع لها بهذه القابلية أن نخرج رجالاً متضلعين منها أشد التضلع، متقنين لها أحسن الإتقان، فنعيد عهد مالك والشافعي والبخاري وأحمد بن حنبل والأشعري والماتريدي وأبن حزم وأبن العربي وعياض وأبن تيمية وابن حجر وأضرابهم

وذلك في حين توجه الرغبة واشتداد الطلب وتضافر الجهود إلى تأسيس جامعة عصرية ' تتكون من ثلاث كليات إحداهما للأدب والثانية للطب والثالثة للعلوم. والتي للأدب نعوض بها تلك الدراسة الناقصة العقيمة التي حذفناها من برنامج القرويين، إذا اصبح من المسلم به أن الأدب لا يحيا بتلك الطريقة، ولا ينتظر أن يكون له مستقبل في هذه البلاد ما دام لم يوجه الاتجاه المطلوب التي تقتضيه الظروف الحاضرة، وامتداد إبان البحث إلى ما لم تكن عليه في الأزمان الغابرة. واللتان للطب والعلوم نسد بها مفاقرنا في الحياة العلمية والعملية التي ما فتئنا نسمع التبشير بها والوعد باستقبالها منذ ربع قرن فأكثر كما كنا لا نرى لها أثراً إلا عند الغير

وبقطع النظر عن مسألة القرويين ونحن لا نرى بداً - إذا كنا نريد نهضة حقيقية مبنية على أساس متين من الإصلاح الاجتماعي الشامل - من إنشاء هذه الجامعة التي كم عنينا بأمرها وتهممنا بشأنها. ولذلك نتوجه بطلبنا هذا إلى سدة ملكنا المحبوب سيدي محمد الذي نحمد الله على شفائه من مرضه وحفظه لأمته التي لها فيه آمال كبار ومتمنيات جسام لا طمع لها في غيره بتخفيفها وإقرار عينها بها، ومن جملتها الجامعة التي تشرف المملكة السعيدة وتغني كثيراً من أبناء المغرب عن تكبد مشاق السفر والغربة في طلب العلم في البلاد الأجنبية، وما ذلك على همته العلوية بعزيز

(طنجه)

عبد الله كنون الحسني

القصص

أماني حسناء

للقصصي الفرنسي كاتول مانديز

بقلم الأديب صلاح الدين المنجد

كاتول مانديز شاعر وروائي وقصصي. . . أوتي من الفهم والذكاء ما جعله يخوض في) كل فن ويطرق كل باب. . . قضي حياته في العمل المثمر والسعي المتواصل، وكان يعشق الحياة والشباب والجمال وله في ذلك قطع أرق الشعر وأحلاه. أشهر مؤلفاته:

(الأماسي الكئيبة، مجموعة أقاصيص، عذراء افيلا
كانت رائعة الحسن غضه الصبا. ظهر الورد في خديها الناعمين فوق الزغب الحريري الجميل. وبدا السحر في أهدابها الوطف الناعسة، وتفتحت أنوثتها الرقيقة عن جسم بض ريان، وثديين بارزين فيهما السحر الحلال، فغدت كزهرة من أزهار التفاح في أوائل نيسان. . . كلها فتنة، وكلها جمال
انطلقت ذات صباح تتهادى بين الحقول بتيه وخيلاء؛ يعلو جبينها المشرق سحابة من هّم روع قلبها وأضناه. فرأتها جنية صغيرة كانت تتنقل بين الأعشاب، فحزنت لها وأشفقت على ذلك الشباب. . . فخرجت إليها تجرر ثوبها الأزرق الحريري، وسألتها بصوت هادئ رنان:
- ما الذي يشجيك يا حسناء. . .؟ لقد أوتيت من الحسن ما تتمناه كل فتاة! إن لك لشعراً لونه كلون سنابل القمح في حزيران. . . وإن لك لعينين لونهما في زرقة السماء إذا تنبه الفجر الوسنان. . . وإن لك لفماً رقيقاً وطلعة ساحرة مشرقة، ومشية خفيفة فاتنة، فما الذي ينغص عيشك ويحزنك يا أختاه. . .؟
-. . . . . .؟
- لم لا تقولين ما بك يا فتاة. . .؟ أتشتهين ارتداء ثوب حريري جميل. . .؟ أتودّين لبس حذاء رصع بجوهرة نادرة وزين بشرط ناعمة؟
- أواه! أواه!
- لكن حدثيني. . . مالك. . .؟ أتشكين من الخبر الذي تأكلينه؟ أترغبين في العسل الشهي والرُطب الجني؟. . لشد ما تحزنيني يا صبية! تكلمي وأسمعيني. . أتطمعين في أن تكوني ابنة أمير غني ظالم ترفلين في قصره بالدمقس وبالحرير بين ستور الخز ونضائد الديباج، وتحيط بك الوصائف والجواري، تغمضين أجفانك إذا أقبل الليل بين أناشيدهن العذاب، وتفتحين أجفانك إذا أقبل النهار بين رقصاتهن السواحر. . . ويأتي إليك الأمراء ينشدون ودك ويطلبون رضاك. . لتنظري إليهم بطرفك الفتاك، أو لتبتسمي لهم بثغرك الفتان. . .! تكلمي. . تكلمي. . .
قالت الفتاة وقد وضعت كفيها الصغيرتين فوق وجهها لتخفي ابتسامة علت ثغرها كلها سحر ودلال. . .
- كلا. . كلا. . ما أريد هذا ولا ذاك! ولكني أغار. . نعم أغار من الأزهار. إنهن لجميلات. . وإني لأغبطهن تارةً، ويداخل قلبي الحسد لهن أخرى. . . آه لو كنت زهرة بنفسج في أحد المروج الخضر. . .!
- هه. . هه. . . إذن كوني زهرة بنفسج يا حسناء. . .!
فانقلبت حسناؤنا فجأة إلى زهرة بنفسج نبتت بين الأعشاب الندية في أحد الحقول. . . وراحت تغازل الشمس في النهار، وراح القمر يغازلها في الليل. . لقد كانت فاتنة تبهر العين وتغريها. ولقد كان لها أريج عَطِرٌ يسكر النفس ويحيها. . . يا لجمالها! إنها ترقد بهناء وسرور. . تضحك وتلهو. . وترسل شذاها يملأ السهل والوادي. . حتى إن أزاهير الغاب حسدنها، ورحن يتهامسن ويقلن: (يا لسحر هذه الزهرة!. إن الفراشات ليتشاجرن من أجلها، ويترامين فوقها. . يا لسحرها. . يا لسحرها!
ولكن. . ما لها. .؟ أن الكآبة قد عاودتها، وكاد الذبول يقضي عليها؛ وإنها لتذرف الدموع صباح مساء. . .!
وجاءت إليها جنيتا تمشي فضلاً بثوبها الأزرق الحريري. . . وقالت لها:
- إيه يا زهرة البنفسج! ما الذي يشجيك أيضاً. . .؟ أما تمنيت أن تكوني زهرة بنفسج فكنتها. . .؟ إنك الآن سيدة الأزهار. . . أن صواحبك زهرات الغاب ليحسدنك على جمالك ونضرتك. فتكلمي يا زهرة البنفسج. . .
-. . . . . .!
- لك الله يا زهرة البنفسج! كم أنت حزينة. . . أرغبت عن الحياة بين الأعشاب؟ أتريدين العيش وسط الخمائل والرياض؟ تكلمي. . . أيتها الزهرة الصامتة!
-. . . . . .؟
- أأصابك الملل يا حسناء من أولئك الفراشات اللائي يطفن حولك ليل نهار ويتشاجرن من أجلك ويسعين لتقبيلك؟
فتنهدت الزهرة ولم تقل شيئا

قالت الجنية:
- لشد ما يغيظني صمتك يا زهرة البنفسج! ألم ترقك الحياة هنا؟ أتريدين أن تعيشي في قصور الأميرات لتوضعي في أواني الصين الفاخرة فيعجب من حسنك كل من يراه! ولتحلي صدور أولئك النواعم الحسان. . .! آه منك يا زهرة البنفسج. . . لم لا تكلميننى!
قالت الزهرة:
- كلا يا أختاه. . ولكن حسبت أن زهرة البنفسج هي أجمل الأزهار، وما علمت أنها صورة الحزن ورمز الألم. .! وأنا أنفر كما تعلمين من الحزن وأخاف الألم. . . آه لو كنت زنبقة في إحدى الرياض. . . أن الزنبق لأجمل الأزهار. أليس كذلك؟
- أوه! أهذا كل ما تتمنينه؟ إذن كوني زنبقة كما تريدين!
فانقلبت زهرة البنفسج إلى زنبقة ما رأت العين أجمل منها أبداً. ولكن. . . لقد عاودتها الكآبة بعد أيام. إنها تريد أن تكون ياسمينه بيضاء. . كلا. . كلا، أن الفل أجمل من الياسمين. . وأن شذاه لمسكر! ولكن. . . الورد. . . الورد. . أليس الورد ملك الأزهار؟ إنها تريد أن تكون وردة. . . وردة حمراء. . .!
وانقلبت الفتاة من زنبقة إلى ياسمينه، ومن ياسمينه إلى وردة؛ عندئذ قالت:
- الآن طاب لي المقام وطاب لي العيش. لقد أصبحت سيدة الأزهار وهدية الأحباب إلى الأحباب. . .! وما عليَّ إلا أن ألهو براحة وهناء. . .!
فلما كان الليل رأت فتى وإلى جانبه فتاة يتقدمان على مهل حتى أستقرَّ بهما المكان إلى جانبها. فهمست في أذن جارتها:
- أواه أنها لجميلة. . . انظري إلى الجمال كيف يرفُّ في وجهها، وإلى السحر كيف يشيع في صوتها. . . لقد كنت أجمل منها إذ كنت فتاة! يا حسرتاه. . .!
وراحت الوردة تنظر وتصغي. . . تنظر إلى الحبيب يعانق حبيبته، فيلثم ثغرها ويجس نهدها. . . أو يناجيها بأرق الغزل وأحلاه. في هدأة هذا الليل المقمر الشاحب، فتجيبه بكلمات تخالها قطع الرياض كسين زهراً!
وذرفت الوردة دمعة. . . وقالت
- آه لو بقيت فتاة إذن لكنت. . . ولكان لي فتى. . .! ولكن. . . أن جنيتي قد تولت عني فمن لي بها؟ لقد قالت لي إنها سترجع، ولكن أين هي؟ وتنبهت الوردة عند السحر، فذكرت ما رأته في الليل. . . وما سمعته، وذكرت جمالها وسحرها، وكيف ذهب الجمال وغاض السحر. فذرفت دمعاً بلَّل خديها وراح يروى الثرى؛ وقضت نهارها في وجوم يبعث في النفس الأسى. فلما كان أصيل الغد، وكادت الشمس أن تطفل، رأت امرأة بارعة القد، صبيحة الوجه، تمشي الهوينا إلى جانب رجل في ريعان الشباب، ومعهما طفل يعدو وراء الفراشات فجلسا إلى جانبها. قالت المرأة:
- أنظر إلى طفلنا يا عزيزي. . كيف يهيم وراء الفراشات هه. . . هه. . . أتذكر يوم لقيتني لأول مرة على ضفاف البحيرة في حديثة كهذه، فجئت إلى فصددتُ عنك. . . ثم. . . يا لله لشد ما تزدحم الصور في مخيلتي! ثم جئت إليَّ وكلمتني كلمات. . . وكلمُك كلمات. . . وكان يوم الزفاف بعد أسبوع. . .!
أتذكر يوم قلت لي إنك تريد طفلاً يدخل على نفسينا السرور وعلى عيشنا الهناء؟ فأضحك. . . ها هو ذا طفلنا يلهو ويلعب، وها هي ذي الحياة تبسم لنا وتضحك! تعال يا طفلي أقبلك. تعال فأنت الذي أذقني طعم الهناء. . .
وقام الزوج يطبع على ثغر زوجته قبلة أودعها كل معاني الحب والإخلاص. قالت الوردة:
- الآن فهمت معنى الأمومة ومعنى الزواج
كانت الشمس ترسل أول شعاع لها فتنبه شجيرات الورد الناعس عندما جاءت إليها الجنية تقبلها قبلة الصباح وتسألها عما بها فتجيبها بصوت هادئ حزين:
- آه! لن أتمنى بعد اليوم شيئاً! أريد أن أرجع فتاة لأكون أماً!
صلاح الدين المنجد
إلي نورك السجين. . .
للأستاذ محمود حسن إسماعيل
من أحلام كوخي البعيد، أهتز لك بهذه الأنشودة. . . لعل)

(!فيها سلواناً لعذابك
إنْ رَأيْتِ النُّورَ مذعُو ... رُ الْخطَى نحْوَ الْمَغيبِ
وَرَأيْتِ الطَّيْرَ يَنْعي ... هـ لأوْرَاد الكثيبِ
وَرَأيْتِ الْعطْرَ نَعْساً ... نَ عَلىَ الأيْكِ الرَّطِيبِ
وَرَأيْتِ النَّهْر سرًّا ... لَفَّهُ صَمْتُ الْغُيُوبِ
وَرَأيْتِ الشَّمْس لا شَم ... ْس سَوى طَيْفِ الْغُرُوبِ
وَرَأيْتِ اللَّيْل (قدَّي ... ساً) تَهادَي لِلصَّلِيبِ
غامضِ الأسْرَارِ يَحْكى ... سِتْرُهُ نَعْشَ الذُّنُوبِ
!فانْظُرِي منْ شُرْفةِ الْقَص ... رِ ونادِي: يا حَبِيبي
تُشْرِقُ الدُّنيا وبَنْدي ... جَوُّها مِنْ كلِّ طِيبِ
وَتَهِلُّ الْفَرْحَةُ الْكُبْ ... رَى عَلَى قَلْبي الْكَئِيبِ
!وَيُعودُ الأملُ ألهاً ... رِبُ لي عَوْدَ الْغَرِيبِ
وَإِذَا ما الْفَجْرَ أضْفَى ... نُورَهُ فَوْقَ التِّلاَلِ
وَزكَتْ (مِئْذَنةُ) النَّا ... سِكِ منْ عِطْرِ (الهِلالِ)
وَإِلى اللهِ دَعا الدَّا ... عِى بِطُهْر وابتِهَالِ
وَأفاقَ الدَّيكُ يَنْعِي ... خَلْفَ (تابوُتِ) اللَّيالي
وَأنْتَشَى الوادِي مِنَ الن ... ورِ وَصَهْباءِ الطِّلالِ
وَمَضَى الرَّاعِي إلى دُنْ ... ياهُ في سَفحِ الْجبَالِ
وَاحْتَسَى الْعُصْفُورُ في الرَّوْ ... ضِ عَبيرَ الْبُرْتُقَالِ
وتَنَاغَى هَزَجُ (النَّح ... لِ) بِأفْيَاءِ الدَّوالي
وغَدَا النَّيْلُ من الْبَهْ ... جَةِ قُدْسيَّ الْجَمالِ. . .
فانْظرِي منْ شُرْفةِ الْقصْ ... رِ عَلَى الوْادِي حِيَالي
تسْكِرُ الدَّنيَا لِمَرْآ ... كِ تَسَابِيحُ الْجلاَلِ
وَتَرَيْن السَّحْرَ سِحْرَ الْ ... كَوْنِ يَفْنى في خَيَالي
أنْتَ سِحْري وَفُنُوني ... وَصَلاَتي وَابتِهالي
لا تَظُنِّي نوُرَك الْعل ... ويَّ تُفنِيهِ الْقُيُودُ
هُوَ كَوْنٌ عَبْقَرِيٌ ... لا تُوَاتِيهِ الْحدُودُ
وهْوَ دُنْيَا مِنْ صَفاَءِ ... لا يُسامِيها الْوُجُودُ
رَفْرَفٌ للْخلدِ لا يَرْ ... قَى لِشطَّيْهِ الْخلُودُ
تَهْرَمُ الدُّنيا وَتَبْلَى ... وَهْوَ شَعْشاَعٌ جدِيدُ
مَاَلهُ منْ مِهُجَتي (... م) إلا التَّغَّني وَالسجُودُ
فاسْكُبِيهِ فَوْقَ عُمْر ... كادَ يُبْلِيهِ الصُّدُودُ
!أنا ظْمآنُ. . . وَلكِنْ ... خانَ أيَّامي الوُرُودُ
. .وَعَلىَ كَفَّيك أفْدَا ... حِي وخَمري وَالنَّشيدُ
فَدَعِي الأغْلاَلَ ماشَا ... ءَتْ غَداً يَبْلَى الْجدِيدُ
قَدْ رَعَى اللهُ هَوَاناَ ... وَأظَلَّتْهُ الْعهُوُدُ
!ما الَّذي يَبْقَى سِوَى أنْ ... يُشْرِقَ الْفَجُر السَّعِيدُ
!تحية دامية
للأستاذ أمجد الطرابلس
غردَّي يا دمشقُ لحنَ العيدِ ... وَذي النَّدبَ وأصْدَحي بالنَّشِيدِ
وأسْدلي برُقُعَ الأباءِ على الدّم ... عِ، وأخفى الجراحَ تحت البرودِ
واهتفي فرحةً بأشبالِ مصرِ ... وميامينِها الأباةِ الصِيد
!لبت أيّامَكِ الطِّوالَ جميعاً ... مثلُ هذا اليومِ الضَّحوكِ السَّعيد
إيِه أحبابَنا وقد تُنْكَرُ الكُلْ ... قَةُ في رفرفِ الهوى المدود
هذه الدارُ داركم، وبنوها ... أهلكم بين شارخ ووليد
قبَّلتكم فيها ثغورُ الأقاحي ... والنسيماتُ في الربى والنجود
!فأنزلوها ملَء القلوبِ الوجيعا ... تِ، ولا تنكروا قَتَادَ المهود
أيها العرب يا فجار الحضارا ... ت، وأشودة العُلى والخلودِ
يا مشعَّ الأنوارِ وسط الدياجي ... يا سيوفاً أبت إسارَ الغمود

ليس ينجي النَّعاجَ من شفرة الجزَّا ... ر إيمانُها بعدلِ الوجود
فاحطموا في الإسارِ إيمانكم بالغر ... بِ والعدل قبلَ حَطْمِ القيود
وانزعوا من صدوركم طِيبةَ القل ... بِ، وشُبوَّا فيها لهيبَ الحقود
فالسياسات لا تدينُ بحقٍ ... لضعيف ولا تفَي بعهود
لو أراد القويُّ إنقاذ شعبٍ ... لم يمدَّنه باللّظى والحديد
تَعسِ الخلقُ أن غَداً في البرايا ... من قيودِ المستعبدِ المصفودِ
تَعسَتْ هذه المرؤاتُ إمَّا ... أصبحت في الأنامِ دين العبيد
تعس برُّ العهود إذا صا ... رَ دليلاً على الونَى والجمود
إنما الخلقُ ما يقولُ قويٌّ ... يتجنىَّ بعدّةٍ وعديد
كذبُ الأقوياء صدق وعدلٌ ... واعتداء القويّ فوقَ الحدود
ورشادُ الضَّعيفِ شرُّ الضلالا ... تِ، وشكواه من عجيب الكنودِ
وبلاد الضَّعيفِ جسم بغيٍّ ... مستباحُ الهوى لكلِّ مريدِ
يتُنَادى عليه بين الضَّواري: ... أيُّها الطامعون هل من مَزيد؟
أيها العربُ، آن أنْ يعصفَ الهو ... لُ، فيهوي بكلَّ جَوْرٍ مَشيد
آن أنْ يجمع الأتيُّ على الأسْ ... رِ ويَطغي على مَنيعِ السّدود
آن أن تُحْشَدَ الحشودُ إلى المجدِ ... وتختالَ تحت حُمْرِ البنود
آن أن تَنبذوا النعيم إباءً ... أنكَدُ العيشِ في الهوان الرّغيد!
لا يسيغُ الهناء ندبٌ، أخوه ... من سياطِ الطعام دامي الجلودِ
وعيونُ الكرامِ بَسْلُ عليها ... في جراحِ الكرامِ طَعْمُ الهجوِ
هذه الشام في اللّظى فحرامٌ ... أن تناموا على رنين العودِ
تتلوى على جراحاتِ جَنْبَيْ ... ها، وما للجراح من تضميد
تَصرُخُ الصَّرْخة التي ترعش الأفـ ... قَ وتبلو النُّجُومَ بالتسهيدِ
وتمدَّ اليدين ترجوا نصيراً ... وهي بين التّتْريك والتَّهويد!
بسمت في وجوهكم وهي تخفى ... من جراح الأيّام أيَّ وقودِ
وكذلك الأباةُ يخفونَ أوجا ... عَ اللّيالي تحت الإباءِ العنيد
إيه أحبابَنا! شكوتُ إليكم ... وَعَذيري ما بيننا من عُهودِ
من لنا أو لكم إذا الغاصِب العا ... تي تَمادى في العَسْفِ والتنكيد!!
هل يُرَجّي الشقيق إلاْ أخاه ... في دُجَي الخطب والبلايا السُّودِ
فإذا عُدْتُمْ غداً في أمانٍ ... ونعمتم بنيلكم والصَّعيد
فاذكروا رفارف الشام أهلاً ... وَجَدوا لقائِكُمْ خَيْرَ عِيدِ!
سحر لبنان
للأستاذ عبد الحميد السنوسي
ربوع لبنان أم جنات رضوان؟ ... وصورة الخلد أم تصوير فنان!
بوركتَ يا فتنة الأجيال من جيل ... سامي الذري مشمخرَّ الأنفـ ريان
زاهي الربي ناصر الوديان متشح ... في كل ناحية بالحسن فتان
يا ملتقى الخلق من بدو وحاضرة ... ومجمع الشرق من قاص ومن دان
ملأت عينيّ سحراً والفؤاد مُنَى ... ودب سحرك من روحي لجثماني
وشاع عطرك في نفسي فأسكرني ... وذاع ضوءك في قلبي فرواني
لم يبق جارحة إلا نفثت بها ... سحراً حلالاً فجددت الصبا الفاني
حتى غدوت فتياً ضاحكاً مرحاً ... من بعد ما هدت الأيام بنياني
لو كان أهليّ في لبنان ما نزعت ... نفسي إلى وطن لي غير لبنان
عبد الحميد السنوسي
البريد الأدبي
من غرور الأدب الرسمي
على أثر ما كتبناه عن لجنة إنهاض اللغة العربية وغمطها لحق فريق من الأدباء لشهوة أو جفوة، تحدث إلينا في التليفون الأستاذ محمد جاد المولى بك أحد أعضائها ومفتش اللغة العربية الأول، حديثاً كان في معناه وروحه خيراً من كتاب صديقنا الأستاذ أحمد أمين. فقد أعترف الأستاذ جاد المولى بالحق، وصرح بالاعتذار، وود أن ما حدث لم يحدث. ولكنه قال آخر حديثه:

سنعوضك تعويضاً أدبياً أن شاء الله!
وما هذا التعويض الأدبي يا أستاذ؟ -
أن الوزارة بصدد أن تؤلف كتاباً في المختارات وستختار لك فيه بعض القطع -
سبحان الله يا أستاذ! وهل تعتقد بإخلاص أن هناك فرقاً جدياً بين ما ينشره الكاتب في كتبه للناس، وبين ما تنشره له وزارة المعارف في كتبها للطلبة؟ لعل الأستاذ يرى أن وزارة المعارف حين تختار من الكتاب تشهد له رسمياً بأنه يحسن الكتابة! إن كان ذلك ما يراه الأستاذ فأظنني شببت عن هذه الشهادة. وإني أشكر للأستاذ جميل اعتذاره، وخلوص نيته، وحسن قصده؛ وأسأله أن يدع للقراء أن يقرءوا، وللأدباء أن يحكموا، وللزمن أن يغربل!
الزيات
حول ديوان الجارم
كتبت زميلتنا (المكشوف) الغراء كلمة بليغة في (أنانية الأدب الرسمي)، وأشارت إشارة لبقة إلى ديوان الجارم وسرعة إخراجه وطريقة شرحه. ولولا أن يداً أخذت المكشوف ولم ترده لنقلنا هذه الكلمة في العدد الماضي. واليوم أرسل إلينا أديب معروف هذا السؤال ننشره من غير جواب ولا تعليق، قال:
كتب الدكتور زكي مبارك كلمة حق عن ديوان الجارم في مجلة الرابطة الأدبية فغام (عليه الأفق في وزارة المعارف، وأخذه الرعد من كل مكان. وكتب أستاذ آخر مقالين في تقريظ هذا الديوان نشرهما في البلاغ، المقال الأول وهو في التدريس، وأمضى المقال الثاني وهو
(في التفتيش. فهل كان ذلك لمجرد المصادفة السعيدة؟
(ز. ح)
بين الأستاذين الغمراوي وقارئ
كتب إلينا صديقنا الأستاذ الغمراوي ما يأتي:
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد فقد قرأت مقال الأستاذ (قارئ) وأنا مريض ببور سعيد، وقرأت عوده إلى الموضوع وأنا مريض بالقاهرة؛ وهذا هو عذري إليك وإلى الأستاذ (قارئ) وإلى قراء الرسالة في تأخيري الإجابة عن نقده. وكل الذي أستطيع أن أقوله الآن هو أن الذي انتقده الأستاذ (قارئ) شيء لم أرده بما كتبت، مع علمي بأكثر الوقائع التي ذكرها الأستاذ في نقده. أما تفصيل ذلك فموعده حين يأذن لي الطبيب في الكتابة
والسلام عليكم ورحمة الله
محمد أحمد الغمراوي
جانب من الوطنية العراقية
ورد لي من العراق منذ أن رجعت منه إلى مصر لقضاء عطلة الصيف ما يزيد على عشرين رسالة من الطلاب. ومما لفت نظري في أكثرها وحملني على زيادة التقدير والإعجاب بالوطنية العراقية أن كل هذه الرسائل ما عدا واحدة، تفيض بأحاديث الغيرة على سمعة العراق، وباللهفة على تعرف أثر مقتل المرحوم الدكتور سيف، وبرجائهم أن نعمل على محو هذا الأثر - إن وجد - بإفهام إخوانهم المصريين أنه حادث فردي لظروف خاصة
وقد تعمدت - كما بينت في ردودي على هذه الرسائل - أن أمرّ هذا الحادث مروري على أي حادث من نوعه يقع في مصر أو في العراق، ولا أشترك في رد الغلو الذي ورد في كتابة بعض الذين تهيجوا للحادث، فعلقوا بعض تعليقات شذت عن تقدير الظروف تقديراً صحيحاً، ورأيت أن ذلك أولى بنا كأمة واحدة، أو كأمم ربط الله مصائرها وآمالها وآلامها برباط واحد، وأن ذلك أحرى بها ما دامت ترمي إلى أهداف مشتركة نرجو من المستقبل
القريب أن يحقق لها الوصول إليها. فلا بد أن تتلقى هذا الحادث وأمثاله - ولا أكثر الله من أمثاله - بشيء كبير من سعة الصدر، وعدم التعليق الكثير عليه، والتمطيط في سيرته، والتشقيق لحديثه؛ شأنها في الحوادث المحلية العادية التي تحدث في مصر أو في العراق كما قدمنا. وذلك كله لإفهام الجماهير في الأمتين الشقيقتين والأمم العربية جمعاء، أن أمثال هذا الحادث يجب أن تتوطن النفوس على وقعه ولا تحسب له حساباً

في العلاقات الدائمة بين هذه الأقطار
ولكن هذه الظاهرة الحميدة التي لمستها في الوطنية العراقية مما ورد لي من رسائل شباب العراق الذين لم يبلغ أكثرهم بعد درجة المسؤولية الوطنية فيما يتعلق بحسن سمعة الوطن والغيرة عليها بلهفة، وتصحيح خطأ وقع من فرد منها. . . هذه الظاهرة وحدها هي التي حملتني على تسجيل هذا الحديث، وما لغيرها كنت أرضى أن أخوض في حديث هذا الحادث
ومقياس الوطنية عندي هذه الغيرة الحادة اليقظة التي قد تتحول في بعض النفوس الكريمة إلى شبه أنانية فردية. فكأن ما يقع على عموم الوطن يقع على خصوصية الفرد. . . وكأن كل فرد يحمل وطنه على قلبه، فما يثقل على الوطن من مصيبة أو سوء سمعة أو شبهة يثقل على قلوب الأفراد
وفي الحق أن هذا الجانب من الوطنية العراقية يشاهد نامياً بارزاً جدا، مما يجعل الوطن في ضمانه وحمايته وفي أمل كبير منه
فإلى أصدقائي الذين راسلوني من العراق وأداروا هذا الحديث في رسائلهم أرسل هذه الكلمة على صفحات (الرسالة) لأن موضوعها ليس لي ولهم ولا لمصر والعراق فقط، بل هو فوق ذلك أنه للعروبة في جميع بقاعها ممن يقرؤون (الرسالة) ولتطمئن قلوب الشباب العراقي، وهنيئاً للعراق هذه الغيرة في قلوب بنيه
(القاهرة)
عبد المنعم خلاف
بين الرافعي والقشاشي
مضى الأستاذ محمد سعيد العريان مترجم فقيد الأدب العربي المرحوم مصطفى صادق الرافعي في سبيله يكتب ذلك التاريخ الزاهر، وينشره بشكل مقالات في (مجلة الرسالة) حتى بلغ الآن المقالة (32) وفيها دعا من كان عنده شيء من أخبار الرافعي غير ما ذكره هو، أن يتفضل بالكتابة إليه رأساً أو على صفحات (الرسالة) يحيطه علماً بذلك، وفاء بحق الأدب وأهله، ورجاء إتمام ذلك التاريخ الذي كاد يغمره النسيان ويجني عليه الإهمال
ونحن إجابة لدعوة الأستاذ ننبهه إلى خصومة أخرى كانت قد نشبت بين الفقيد الكريم والأستاذ مصطفى القشاشي صاحب مجلة (الصباح)، ولعلها آخر الخصومات الأدبية للرافعي؛ وقد كانت هي التي أوحت إليه بمقال (صعاليك الصحافة) المنشور (بالرسالة) (أعداد: 189 و 190 و 191 و 192) وقد عرض فيه بالصباح تعرضاً مكشوفاً، إذ أتى في العدد 191 على جملة من عناوين مقالاتها التي كانت صدرت فيها أثناء تلك المدة، كنماذج للموضوعات التي تطرقها تلك المجلة
وكان السبب في هذا الحملة من الرافعي على صاحب (الصباح) أنه حمل إليه كتابه (وحي القلم) ورجا منه أن يكتب تقريظاً له، وهذا ما يؤخذ من كلام الأستاذ القشاشي؛ وبما أن القشاشي تأخر مدة عن كتابه التقريط، وعذره أن الكتاب ضخم يتألف من جزأين في تسعمائة صفحة ويتناول مائة موضوع وموضوع، فإن الرافعي ظن السوء بصاحبه وقام يجلد صعاليك الصحافة، ويا لله من غضب الرافعي فإنه يزري بغضب عنترة!
وشاءت سخرية القدر أن يبرز مقال (الصباح) في تقريظ (وحي القلم) بعد أن ينشر الرافعي ثلاثة أقسام مقاله (صعاليك الصحافة) والقسم الثالث منه الذي به انكشف مراده فظهر أنه يعني صاحب الصباح، صدر في عدد (191) أول مارس 1937 على حين أن تقريظ الصباح كان في عددها 545 (الصادر) في خامس مارس المذكور، وقد كان تقريظاً بليغاً يرضى الرافعي ويدخل على نفسه السرور، وحسبك منه هذه الجملة التي يقول فيها الأستاذ القشاشي: (أن كتاب وحي القلم ليحتاج إلى كتاب آخر في الإشادة بذكره، فلعل ضيق المجال يعتذر لنا عند الأدب العربي ثم عند الأستاذ الرافعي)
ولكن الأستاذ الرافعي قد عجل - وفي العجلة الندامة - فسرعان ما انقلب مدح (الصباح) له قدحاً فيه، وثناؤها عليه طعناً. وكنا نحن قد انتظرنا ذلك لما قرأنا القسم الثالث من مقال

صعاليك الصحافة، فكيف وقد قرأنا أيضاً ثناء الصباح وتقريظها؟ وأخذتنا الشفقة على الأستاذ الكبير الذي طالما أشفقنا من الخصومات التي كانت تثور بينه وبين أهل الأدب ولا سيما الإمام العقاد. وهكذا صدق ظننا فبرز مقال الأستاذ القشاشي (صعاليك الأدب واستجداء المدح والثناء) في العدد التالي من (الصباح). ولا تسأل عما يحوي من قوارص الكلم وفاضح التعريض

قلنا إننا نشفق من هذه الخصومات التي تقع بين كبار الأدباء لأنها في الغالب لا يكون باعثها النقد النزيه، فيسمح عندنا أن ينزل مثل العقاد والرافعي من عليائهما إلى ميدان المهاترة إرضاء لحالة الموجدة وطبيعة الغضب كما وقع في قضية الرافعي والقشاشي، فبينما الصفاء والسلام إذ الحقد والحرب. ونحن لسنا من مقلدة الرافعي ولا من المتعصبين للعقاد، ولكن لهما معاً عندنا مقام سام، وفي أنفسنا لكل منهما حيز لا يشغله الآخر. عرفناها معاً من قديم واغتبطنا بآثارهما كل الاغتباط؛ وكنا نأسف على ضياعهما بين قومهم وعدم عرفان حقهما حتى جاءت (الرسالة) فعرفت بالرافعي الذي كان أكثرهما ضياعاً وأنكرهما عند جمهور القراء في العالم العربي. وسيكون لهما من الذكر في المستقبل الأيام ما يغطى على غيرهما أياً كان، بل أنها سيكونان علمي عصر النهضة في تاريخ الأدب العربي الحديث، ورمز المذهبين المدرسي والابتداعي المتكونين في هذا الأدب كما يجب الآن.

ولسنا ندلي برأي إلى الأستاذ العريان، وحسبه من كلمتنا هذه ما يتعلق منها بخصومه الرافعي والقشاشي، لكن القراء أيضاً لهم حظهم فيما يقرأون، فلذلك تطرقنا ولو بهذه الإلمامة الخفيفة إلى وجه الرأي في أدب الرافعي والعقاد، حاسبين أن ما كان بينهما من خصومة إنما هو نتيجة الغيظ وحدة البادرة وأن ما كتبه كل منهما في هذه الخصومة إنما من قبيل ما كتبه الرافعي والقشاش باعثه الظن السيئ والعجلة. وللقوم وفي عمرو بن الأهتم وما كان بينه وبين الزبرقان بن بدر من المنافسة والمشاتمة بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم شافع وعذر. . .

(طنجة)

عبد الله كنون

مستعمرة مصرية في إنجلترا

نشرت جريدة نيوز كرونيكل في مكان بارز خلاصة درس لكتاب عنوانه إيزيس ونفتيس في ولتشير وخارجها، تأليف الدكتور رندل هاريس العالم الأثري الشهير وقد طبعته شركة الطباعة في بريستول

فالدكتور هاريس يعالج نظرية مؤداها أن الآثار السابقة للتاريخ قرب سالسبوري التي زارها الملك فاروق أثناء وجوده في إنجلترا إنما هي من آثار قدماء المصرين، وقد ثبت له الآن أن مركز المستعمرة المصرية وجد فعلاً في (لتشير) قرب برادفورد أون أفون ويعتقد الدكتور هاريس أن المصريين صعدوا في نهر أفون من بريستول واحتلوا تلك الأماكن. وهو يقدم سلسة أدلة لتأييد اعتقاده، مثال ذلك الاحتلال المصري لمنطقة تشالفيلد. فيقول هاريس إن (تشال) محرفة عن الكلمة المصرية (تشار) وهي إحدى الأسماء العديدة المزدوجة للإلهتين إيزيس ونفتيس

المؤتمر الدولي الثامن للعلوم التاريخية

عقد المؤتمر الدولي الثامن للعلوم التاريخية جلسته الأولى في زوريخ يوم الاثنين الماضي، وقد بلغ عدد أعضاء الوفود الممثلة للحومات والجامعات والمجامع العلمية في المؤتمر ألفاً ومائتين، وكان أكثر الوفود عدداً الوفد الألماني ويليه الوفد الفرنسي فالإنجليزي فالبلجيكي فالإيطالي فالبولندي

وأما الوفود الشرقية فأكبرها عدداً الوفد المصري الذي يرأسه الأستاذ محمد قاسم بك ناظر دار العلوم، والوفد التركي وعلى رأسه الأستاذ فؤاد كوبريلي الاختصاص في العلوم التاريخية. ولكل من إيران وأفغانستان وسوريا ممثل واحد ولم يمثل العراق ولا لبنان أحد

وسيلقي ممثل مصر في إحدى جلسات المؤتمر محاضرة موضوعها (توسع أساليب المباحث التاريخية في مصر)

ويتكلم الأمير شكيب أرسلان ممثل سورية عن سيرة صلاح الدين الأيوبي الشخصية.

وسيتوفر للشرق الأدنى قسط كبير من مباحث العلماء في المؤتمر: فالأستاذ كوبريلي التركي جعل موضوع محاضرته سياسة الإقطاع عند المسلمين والترك في القرون الوسطى، ويبحث الأستاذ لامونتي الأميركي في أسباب عظمة الإقطاع الإفرنجي في سوريا إبان الحروب الصليبية وانهيارها؛ ويتكلم زميله (ليبيار) عن أهمية السلطان محمد الفاتح في التاريخ؛ وسيتقدم الأستاذ (هاليكي) البولندي ببحث طويل عن تاريخ العلاقات بين الغرب والشرق؛ ويتناول العالم الإيطالي (مونداييني) تاريخ السياسة الاستعمارية والمستعمرات من سنة 1815 أي منذ سقوط الإمبراطورية الفرنسية الأولى إلى نشوب الحرب العظمى سنة 1914؛ ويحاضر الأستاذ (جويله) الفرنسي في تاريخ البحر المتوسط في القرن التاسع عشر؛ ويخطب أستاذ إيطالي آخر في مساهمة إيطاليا في كشف أفريقيا في القرنين الخامس عشر والسادي عشر، ويتحدث المؤرخ (راين) الألماني عن بسمارك وسياسته الافريقية؛، وجعل مندوب الجمهورية الأسبانية محور بحثه (أصل القنصليات البحرية في سواحل البحر المتوسط)

بين القديم والجديد

سيدي الأستاذ الكبير صاحب الرسالة

تحية: وبعد فقد حسب الأستاذ محمد احمد الغمراوي في آخر مقال حول أدب الرافعي (بين القديم والجديد)، أنه انتهى من (تزييف) كلام الأستاذ سيد قطب إلى المبلغ الذي كان يريد وأكثر؛ وأنه وضع العقاد موضعه والرافعي موضعه، وإن كان هذان الموضعان ليسا إلا أن الرافعي أنصع لفظاً من العقاد، وأنه رجل يهتدي بنور الدين، والعقاد لا يهتدي بأي نور!

كذلك حسب الأستاذ الغمراوي أنه فصل بين الحق والباطل في هذا الأمر واستراح إلى نتيجة تلك، ولم أكن أود أن أنفس عليه هذه الراحة لولا أنه شاء أن يعرض لكلمة سابقة لي في هذا المضمار، ورأى أن يرميني بالفزع من ذكر الدين فزع (الملسوع) بالنار فقال:

(لكن أصحابنا المجددين أنصار ما يسمونه الأدب الحديث يفرقون من ذكر الدين كأنما تلسعهم من اسمه النار، كذلك فزع أحدهم بالعراق، وكذلك يفزع هذا الآخر. . .)

وأنا المقصود ولا ريب بالفازع الأول. والقارئ يذكر أن فزعي المزعوم هذا لم يكن من الدين، فما فيه ما يفرع أو يلسع، وإنما كنت اعترضت على إقحام الدين - بدون داع ولا مبرر ولا فائدة - في نقد أدبي قاله الأستاذ سيد قطب حول بيت من أبيات الرافعي، وجاء الأستاذ الطنطاوي يحوره ويتجه به نحو الدين كما يفعل الأستاذ الغمراوي الآن، وكما فعل المرحوم الرافعي في كل نقد أدبي له، وكما يفعل كل من يؤوده أن يكسر من شوكة هذا الذي يسمونه تجديداً أو كفراً من سادتنا الرافعيين! فما الذي يقصده الأستاذ الغمراوي بالفزع؟ وما شأن الدين بكل شيء يتصل بالأدب الحديث الذي يسعى إلى التجديد والنهوض وتوسع أفق الحياة الأدبية وإخراجها من عصر الاجترار والتخلف، إلى عصر التمثيل والحيوية؟

وإذا كان الأستاذ الغمراوي يقول في مقالة الآنف الذكر:

(إن الفطرة كلها ينشئها واحد هو الله سبحانه وتعالى، والعلم والدين كلاهما قد اجتمعا على استحالة التناقض في الفطرة، فإذا كانت هذه الفنون من روح الفطرة كما يزعم أهلها وجب ألا تخالف أو تناقض دين الفطرة دين الإسلام في شيء. . .)

وهو بذلك يريد أن يحد من مفهوم الأدب، فما نصنع إذن بالأدب الذي أقره العالم واعترف به أدباً سامياً ولم يكن مصدره الدين الإسلامي، والذي لم يخلفه أدباء مسلمون ولم يأتلف مع قواعد الدين الإسلامي في شيء؟ أقول ماذا بأدب طاغور، وملتون، ودانتي، وتورجنيف، وإيبانيز، وابسن، وموباسان، وغوركي، وهاردي، وجيتي؟. . بل ماذا نصنع بأدب بودلير، وفرلين، ولورنس، وجويس، وهينسكي، ولوتي؟ هل نرمي بهم في البحر أن نعترف بأدبهم؟ وهل يتفق أدبهم مع الفطرة؟ وهل هو خير أم أدب الرافعي؟

وحضرة الأستاذ يذكر أدب الإيمان فهل يرى أن الشك لا أدب له؟ وما يقصده من التعرض بالإيمان، والشك؟ والحوم حوالي الدين في كل مناسبة عرض لها في نقده وبحثه أدب العقاد والرافعي؟ هل يريد أن نفهم من أقواله تلك أن العقاد ومن يرى رأيه

ملحدون لا إيمان ولا نور لهم يهتدون به؟ وكيف يتسنى له أن يحكم هكذا بدون تدليل؟
سيدي الأستاذ:
إن الأستاذ الغمراوي - وقبله الأستاذ الطنطاوي - يريد أن يضع ما اسمه (الأدب) على الرف ويريد أن يدخله في بوتقة الدين بوجه عام، والدين الإسلامي بوجه خاص، وفي هذا من الجناية على الأدب مقدار ما فيه من التجني على الدين وأكثر. ولا أظن الأستاذ يخالفني في أن موضوع الدين موضوع شائك جداً لم يتعرض له متعرض سلم من تهمة المروق! فليفسر موقفنا كيف شاء، وليسمه فزعاً وهلعاً، فالحق أن الدين الإسلامي لم يدخله التأويل
والخلاف من كل باب إلا بعد أن أقحم في غير مجالاته! وهو بعد مقحم إقحاماً في موضوع الجدل هذا
وما دام الأستاذ الغمراوي يرى أنه فصل أدبياً في أمر العقاد ومكانه من الأدب الحديث، فلماذا يريد أن يخرجه من دينه فيقول عنه معرضاً: (إن الرافعي عنده نور يهتدي به ليس عند العقاد؟)
وبعد فليكن الرافعي عند الأستاذ الغمراوي ما يشاء له أن يكون، فان ذلك لا يمنع العقاد أن يكون هو الآخر حيث يشاء له الأدب والحق أن يكون. ولسنا نعجب به لشخصه، بل لأنه يؤدي الرسالة عنا؛ فما يقال فيه فينا نحن أنصاره والمعجبين به؛ ولذا أود أم أكرر ما سبق أن قلته وهو أن من الواجب اعتبار الدفاع عن العقاد دفاعاً عن مذهبه في الأدب وفي الحياة لا دفاعاً عن شخصه، فلسنا نملك حق الدفاع عنه
وتقبلوا تحيات المعجب بكم
(بغداد)
عبد الوهاب الأمين
المسرح والسينما
المسرح المصري والطريق إلى إنهاضه
يروق لبعضهم في مثل هذه الأيام من كل عام أن يتحدث عن المسرح المصري وطرق إنهاضه ووسائل ترقيته والأخذ بيده في مدارج النجاح. وقد يكون مثل هذا الكلام مفهوماً إذا صدر عن مجرب كبير أو إحدى الأساطين التي يقوم عليها صرح المسرح في مصر. ولكن من غير المفهوم أن يتصدى للحديث في هذا الشأن لفيف من الشباب كل ما يعرفونه عن المسرح أن الناس يذهبون إليه من أجل اللهو والتسلية! ولا ريب أن الخطر على المسرح قائم من جراء هذه الكتابات التي تسيء إليه وإلى القائمين بأمره أكثر مما تفيد أصحاب الصحف الذين يفضلون أن يملئوا صحفهم بأي كلام !. . .(والسلام)
كتبت إحدى الزميلات الأسبوعية تقول في لف ودوران إن وزارة المعارف قد عهدت إلى الأستاذ سليمان نجيب بالأشراف على إدارة الفرقة القومية طول غياب مديرها الأستاذ خليل مطران بالإجازة، وأضافت إلى ذلك كلاماً يفهم منه أنها علمت أن الإشراف على هذه الفرقة سوف يعهد به نهائياً إليه، لما تعرفه عنه الوزارة من كيت وكيت. . .
والغرض من كتابه هذا الكلام وأضح، ولا داعي لأن نكشفه؛ ونحن وإن كنا نقدر الأستاذ سليمان وكيل دار الأوبرا ونعرف عنه القدرة على التمثيل الجيد المتقن، إلا أننا نرغب عن نشر أخبار غير صحيحة من جهة، وعن الإساءة إلى بعض الكرامات من جهة أخرى ولعمري ماذا يجدي وجود مطران أو غيره على رأس الفرقة، إذا كان جسمها ذابلاً خائر القوى تنذر حاله بالموت والفناء؟ ماذا يفعل حاكم الصحراء مع ما قد يكون مشهوداً له به من فروسية وشجاعة إذا أغار على صحرائه جيش وكان هو بلا جيش تتوافر فيه عوامل الكفاح والنضال، أو كان له جيش ولم يكن لديه من الميرة والذخيرة ما يكفل النصر ويؤدي إلى ضد الغارة؟
في أستوديو مصر
يبذل أستوديو مصر جهوداً مشكورة موفقة ليغزو سوق الأفلام المحلية بثلاثة أفلام كبيرة من أفلام الدرجة الأولى، انتهى العمل في اثنين منها هما: (لاشين) و (شيء من لا شيء)، وأوشك العمل أن ينتهي في الجزء الداخلي من الفلم الثالث وهو فلم (الدكتور). ولن نسبق

المناسبة فنتحدث بالتفصيل عن هذه الأفلام وإنما ندع ذلك لحين عرضها، ونكتفي اليوم بأن نقول بأن - ثلاثتها - جديدة الموضوع، حية الإخراج، ولكن أهم ما ينبغي أن نسجله في هذه الكلمة الوجيزة هو أن الأستاذ (نيازي مصطفى) مخرج الفلمين الأول والثالث ويساعد الأستاذ نيازي مصطفى في إخراج فلم الدكتور الزميل الفاضل الأستاذ أحمد كامل مرسى، وهو من أكثر شبابنا المثقف إلماماً بالشئون المسرحية والسينمائية وقد اشتهر في الأوساط السينمائية لأول مرة، كناقد ذي أسلوب خاص، وذوق خاص، وإخراج خاص يرضى الفن وكذلك يرضى الجمهور ثم اشتهر بعد ذلك بأنه بطل تجربة عملية الدوبلاج الصوتية التي أجريت بنجاح لفلم جاري كوبر في نيويورك

(ناقد قديم)

أخبار سينمائية

هل يستقيل

ترددت في الأوساط الفنية في الأسبوع الماضي إشاعة فحواها أن سفر الأستاذ حسني نجيب مدير استديو مصر إلى أوربا لم يكن إلا تمهيداً لاستقالته من إدارة الاستديو. وقد حاولنا أن نتحرى عن هذه الإشاعة فلم نوفق ولم نسمع ممن سألناهم غير كلمة (يجوز)!

والحق أننا لم نجد مبرراً لهذه الإشاعة. فالمعروف أن الأستاذ حسني نجيب منتدب لإدارة الأستوديو ولم يعين مديراً له قط، وانتدابه يجوز أن ينتهي في أي وقت تراه شركة مصر للتمثيل والسينما، سواء أكان ذلك بعد عودته من أوربا أو بعد شهرين أو بعد عامين، ولكن ما حيرنا من هذه الإشاعة هو: هل يستقبل من إدارة الأستوديو ويبقى في وظيفة أخرى كسكرتير الأستوديو أم يترك الأستوديو بتاتاً؟ والذي سمعناه هو أنه سوف ينقل إلى وظيفة بالبنك وقد نعود إلى الكلام في فرصة أخرى

طبعة جديدة من فلم ليلى بنت الصحراء

سافرت السيدة بهيجة حافظ إلى أوربا منذ أسبوعين وتركت قرينها الفاضل الأستاذ محمود حمدي يؤدي جهود شركة (فنار فيلم) في الناحية الجديدة التي اختارت أن تكون ميداناً لجهودها هذا العام. ومما ينبغي ذكره أن إدارة هذه الشركة تعني الآن بإدخال تعديلات كثيرة على فيلم ليلى بنت الصحراء وعمل نسخة فرنسية منه لعرضها في باريس وفي الأقطار العربية التابعة لفرنسا، أما مهمتها الرئيسية هذا العام فستكون عرض كثير من الأفلام الفرنسية الكبيرة التي حصلت على امتياز عرضها في الموسم القادم، وقد يذكر القراء أن شركة فنار فيلم استأجرت استديو ناصيبيان لمدة عام كامل، فمعنى هذا أن الشركة سوف تستغل هذا الأستوديو بطريق تأجيره للراغبين في العمل به

عودة الثلاثي الفني

عاد الثلاثي الفني - آسيا - جلال - ماري كويني - من رحلتهما في تركيا ولبنان وسيشرع الأستاذ جلال على الفور في كتابة السيناريو الجديد الذي سمعنا أنه سيفوق سائر السيناريات الماضية رغم أنها كانت جميعاً قوية وناجحة وشهد لها الجمهور شهادة حسنة

ونهنئ الأستاذ جلال وباقي الثلاثة بالعودة ونرجو لهم توفيقاً كبيراً في الموسم القادم.

أخبار خارجية

- ظهر (راي ميلاند) في عدة روايات ناجحة في الموسم الماضي منها رواية (السفينة الملعونة). وسيراه الجمهور المصري في سينما رويال في رواية (الضوء الذي خبا) ومن طريف ما نذكره أن راي يمثل في هذه الرواية دور رجل أعمى، وقد اضطر من أجل إتقان دوره إلى معاشرة رجل ضرير لمدة ثلاثة شهور درس فيها نفسية الأعمى وحركاته وخاصياته وأعطاه في نظير ذلك خمسمائة جنيه!

- ومن أشهر الأفلام التي تعرضها رويال للمتروجولدوين ماير في هذا الموسم رواية (ماري انتوانيت) التاريخية الكبرى ويشترك في تمثيلها (نور ماشيرر) والنجم اللامع الشاب (تيرو ماباور)

- وتعرض برامونت للنجم الهزلي الشهير (هارولد لويد) فلما فكاهياً جديد اسمه (كن على حذر أيها المدرس!)

- لما رأى دوجلاس فيربانكس الصغير رواية (طالب في اكسفورد) أرسل برقية إلى

النجمة (بربارا ستانويك) يقول فيها (أنا لا أعرف روبرت تايلور ولكن أحب أن تبيني له كم أعجبت بنبوغه في تمثيل الدور وتهنئيه باسمي) وتصادف أن النجم كان يتناول العشاء مع بربارا، وقت وصول البرقية فرد عليه ببرقية يقول فيها (وصل الشكر. . . أشكركم)!!

- يعود (كارل بريزون) إلى الشاشة بعد غياب عامين ونصف فيقوم بالدور الأول في رواية (كلود دوقال)، وآخر فيلم له كان من إخراج البرامونت وكانت تدعى (قهوة في سفينة)

- انتهى النجم (ريكاردو كورتيز) من إخراج أول رواية عهدت إليه بإخراجها استيديوات فوكس القرن العشرين واسمها (فرصة عملية للغاية) وقد حصل كورتيز من إدارة الشركة على عقد بمقتضاه يحق له أن يشتغل مؤلفاً ومخرجاً وممثلا

- من أفلام المتروجولدوين الكبيرة التي تعرض هذا الموسم رواية (امتحان الطيار) ويقوم بتمثيل الدور الأول فيها معبود السيدات كلارك جابل وتشترك معه في تمثيلها (ميرنا لوى)

العدد 271 - بتاريخ: 12 - 09 - 1938

إنهاض اللغة العربية

للدكتور زكي مبارك

أخي الأستاذ الزيات

جرى قلمك بإضافة اسمي إلى المؤلفين الذين نسيتهم لجنة إنهاض اللغة العربية، وذلك منك تفضل وتلطف، فمن الغريب حقا أن اخطر على بالك أو على بال غيرك، ومالي وسيلة في هذه البلاد غير الكدح الموصول في التفكير والتأليف، وهي وسيلة ضعيفة في زمن لا ينفع فيه غير تضييع الوقت في خلق الصداقات والمودات مع الذين يملكون تأليف اللجان لتقرير مصاير العلوم والآداب والفنون

وأنت قد تشجعت فقلت ما قلت لأنك خارج القفص

أما أنا فأعيش في قفص لأني موظف في الحكومة المصرية، وقد سمعت أنها حكومة رقيقة القلب يؤذيها أن يمر النسيم على خدها الأسيل!

ومن واجبي أن أتلطف بهذه الحكومة وأترفق، وإلا كان جزائي أن اخرج من القفص لأعيش كما كنت أعيش بين الأزهار والرياحين

ولكن الحكومة أمكنتني من ناصيتها هذه المرة؛ لأنها في هذه القضية ممثلة في جماعة من الأدباء كنا نصلح لمحادثتهم ومسايرتهم منذ حين. ومن ذا الذي يتوهم إني اعجز عن مصاولة علي الجارم أو أحمد أمين، وهم خلق من خلق الشعر والنثر والتأليف؟ من ذا الذي يتوهم إني أتهيب مناوشة القائمين بتأليف اللجان في وزارة المعارف وفي يدي قلم أمضى من السيف وأحد من السنان؟

اعترف باني أتردد في الهجوم على وزير المعارف لأنه يملك إيذائي حين يشاء ولكن وزير المعارف في هذه المرة زميل قديم. وللزمالة وإن قدمت حقوق. وهو قد شغل نفسه في الأعوام الأخيرة يدرس الدين الحنيف، ولابد أن يكون عرف أن لصاحب الحق مقالا، وصاحب الحق في قضية اليوم هو مؤلف النثر الفني، الكتاب الذي استحق أن يثني عليه معالي الدكتور هيكل باشا في مجلة الهلال

ولكن ماذا صنعت لجنة إنهاض اللغة العربية حتى نوجه أليها الملام؟

إنها اختارت طوائف من المؤلفات الحديثة فأقرت مبدأ تعبنا في الدعوة إليه منذ سنين فلها

منا أطيب الحمد واجزل الثناء

وأنت تعيب عليها أنها نسيتك ونسيتني، واللوم في هذا عليَّ وعليك، لأننا لم نحسن التذكير بأنفسنا عند السيدين الكريمين علي الجارم واحمد أمين

وأخشى أن نكون أسأنا اختيار الظرف المناسب للتذكير المنشود، فهؤلاء الزملاء يملكون ما لا نملك، وكان العقل يقضي ن ننتظر حتى يتفضلوا بالاعتراف بأننا بشر مثلهم نكتب وننظم ونؤلف!

وكلمة (زملاء) تسبق إلى قلمي بلا تحفظ، لأني واثق بأنهم اكرم والطف من أن يبخلوا علينا بهذا التطاول الخفيف!

إن لجنة إنهاض اللغة العربية فوق الشبهات، ولكني لا افهم كيف جاز أن تقرر كتاب

ضحى الإسلام وتنسى كتاب النثر الفني مع أن كتاب ضحى الإسلام لا علاقة له بتقويم الأساليب
ومن الصعب عليّ أن اقبل أن يكون في اللغة العربية كتاب يشبه كتاب النثر الفني، ولكني راضٍ للضرورة بأن يكون قريعا لكتاب ضحى الإسلام. أنا راض بان أكون من زملاء الأستاذ احمد أمين في قوة التأليف ليصل كتابي عن طريق وزارة المعارف إلى الجيل الحديث، إن كان التواضع ينفعني عند أولئك الناس
وأين كانت اللجنة من كتاب (الموازنة بين الشعراء)؟
دلوني متى عرف النقد الأدبي مثل هذا الكتاب؟
إن الحياة في مصر أصبحت جحيما لا يحتمل ولا يطاق بفضل ما يقع فيها من الاستهانة بآثار العقول. وأخشى إن طال هذا الليل أن تنقرض حياة التفكير والتأليف، وأن ينفض الباحثون أيديهم من الثقة بموازين العدل في هذه البلاد
إن مصر لا تعرف أنها مدينة بسمعتها الأدبية والعلمية إلى رجال يعدون بالآحاد لا بالعشرات ولا بالمئات ولا بالألوف، وهؤلاء الآحاد ينفقون من أعصابهم ودمائهم ليحفظوا لمصر مكانتها العلمية بين الأمم العربية
وما يليق بمصر أن تترك مصاير هؤلاء الآحاد لرجل آو رجلين يسمى أولهما علي الجارم وثانيهما احمد أمين
ما يليق بمصر أن تسكت عن أبنائها الأوفياء حتى يصرخوا من الظلم والإجحاف
ما يليق بمصر أن يعرف علماؤها وأدباؤها أن لا حياة لهم ألا أن ضيعوا ذاتياتهم بالفناء في خدمة الأحزاب
أما بعد فأنا لا انتظر شيئا من وزارة المعارف، ويكفي ما ظفرت به من القراء الذين استطعت بفضل إقبالهم أن أقول إن في مؤلفاتي ما طبع مرتين وما طبع ثلاث مرات
هذا عصر التضحية يا صديقي، وهذه مصر التي لا تعرف أبناءها الأوفياء
فإن سمعت إننا قهرنا المصاعب فصدق
وان سمعت أننا أمنا عدوان الأحقاد والضغائن فصدق أيضا
صدق كل شيء يا صديقي، إلا شيئا واحدا، هو ما تسمع أحيانا من اعتدال الموازين
وكل ما أرجوه في ختام هذه الكلمة الوجيزة أن تسكت عني سكوتا مطلقا فلا تذكرني بهمومي في وطني وبين أهلي
لقد كنت نسيت فكيف جاز لك أن تصنع ما صنعت!
وهل كان الأمل في إنصاف الزملاء إلا باباً من الخيبة والضياع؟
إن أرزاقنا في آسنة أقلامنا، وسنصبر بعون الله على الصدق في الجهاد والعاقبة للصابرين والصادقين.
(مصر الجديدة)
زكي مبارك
في الطريق إلى مؤتمر المستشرقين
من القاهرة إلى بروكسل
للدكتور عبد الوهاب عزام
بنيتي العزيزة بثينة
أحدثك عن رحلتي راجيا ألا تكلفيني ترتيب الحديث على ترتيب المشاهد. فإنما هي فرص تنتهز. فسأبدأ بالحديث عن سويسرة قبل الحديث عما رأيت في الطريق إليها.
اكتب إليك من قرية في قمم جبال سويسرة الشامخة اسمها برجنشتوك وقد أضحى النهار، والدجن مطبق، والجو بارد، أحس منه مثل ما أحس في شتاء مصر إذا قرس.
وأنا أضع قلمي بين الحين والحين لأعرك كفي إحداهما بالأخرى حتى احسن إمساك القلم. فشتان ما بيني وبينكم! شتان ما بين حلوان وبرجنشتوك!
لا تقع العين هنا إلا على خضرة أو زرقة، أو بياض: خضرة العشب الأثيث، والشجر الكثيف، وزرقة السماء إذا تصحو، وزرقة البحيرات ترى من قمم الجبال بعيدة بعد السماء، وبياض السحب.
تسالين: ما الذي أحللك هذه القرية الباردة في تلك القمم العالية؟
نزلت أنا وزميلي الأستاذ احمد أمين مدينة لوسرن من سويسرة، وأردنا أن نركب في البحيرة: بحيرة لوسرن إلى مكان قريب. فقيل: كرسيتن. فقصدناها على باخرة

صغيرة بين مناظر معجبة بل مدهشة من جبال تخالط قممها السحب، ويزين سفوحها حلل من الأشجار ضافية في الماء وتطل في مرآة البحيرة منازل متفرقة أو قرى صغيرة كأنها أعشاش الطير بين أفنان الدوح

بلغنا كرسيتن بعد أربعين دقيقة، فنزلنا لنجول فيها قليلا فإذا شاطئ ضيق بين الماء والجبل، فيه فندق ومطعم ودور قليلة، وإذا الناس يجتمعون عند السفح، وإذا مركب عجيب مدت أمامه قضبان من الحديد، ولكن إلى أين؟ إلى ذروة الجبل الرفيعة التي يكاد الطرف يعيا دونها. مدت القضبان على السفح، واعد هذا المركب على شكل لا يميل راكبه مع انحدار الطريق بل يجلس مستويا كأنه في قطار عادي. ويجذب هذه (المرقاة) حبل من حديد مفتول فتصعد خمس دقائق في طريق ضيق عن يساره الجبل، وعن يمينه مهوى

هائل إلى الحضيض. انتهى بنا هذا المرتقى المخيف إلى مكان به فنادق عظيمة وطريق ضيقة معبدة، فسرنا نتأمل جمال الخليقة وجلالها حتى راقنا مكان قصيٌّ على سفح اخضر؛ فصعدنا إليه، وأخذنا حظنا من الراحة والتأمل والتعجب. وكان معنا طعامنا فطعمنا

وسرنا إلى مرقب يطل على البحيرة يعلو على البحر ثلاثة آلاف وأربعمائة قدم، فجلسنا قليلا ولحق بنا جماعة من السائحين الأمريكانيين معهم امرأة تدلهم الطريق والتاريخ. وقفت وحفوا حولها فقالت: (هنا منظر من أروع مناظر العالم؛ هنا سبع بحيرات؛ إلى اليسار بحيرة سمباخ. ولها صيت في تاريخ سويسرة: هنا كانت حرب بين النمساويين والسويسريين الذائدين عن بلادهم، وكان الأولون مثلى الآخرين عدداً. فلما أعيت السويسريين بين الحيل تقدم واحد منهم إلى معسكر العدو فجمع من رماحهم ما استطاع وهم بالرجوع لولا أن أدركه العدو فقتله. وتحمس قومه وحاربوا حتى ظفروا. هذا البطل اسمه (وينكل ريد). ومضت في حديثها عن البحيرات. وقد رأيت اسم هذا البطل على إحدى البواخر الماخرات في البحيرة

وقرانا في لوحة هناك إن على مسيرة عشرين دقيقة مصعدا هو أعلى المصاعد وأسرعها في أوربا. يصعد خمسمائة وستا وخمسين قدما. فسرنا في طريق بين الأشجار الباسقة تلوح من خلالها زرقة السماء وزرقة البحيرة، وقد تتابعت الأشجار على السفح هابطة، وإن الواحدة منها ليرى جذعها مستقلا بعيدا على السفح، وتشرف ذروتها معتلية مشرفة فوق الطريق. وهذه الأشجار السامقة ترى من الحضيض كأنها أعشاب على سفح أو شجيرات

وانتهى المسير إلى المصعد، فإذا قضبان محكمة على جانب الجبل يصعد بها هذا المصعد وينزل في دقيقة. يصعد من جوف الجبل حينا ثم يبدو بين جدارين ناتئين من السفح، ثم يظهر معلقا في اللوح كأنه طائر يحاول ذروة شاهقة

بدا لنا أن نترك لوسرن لنقيم في هذه الناحية أياما. فسرنا نرود المكان وفنادقه حتى وقف بنا الاختيار على فندق صغير منفرد هو اقرب مكانا ومنظر إلى الريف منه إلى المدن. فقلنا: هذا منزل حسن. . ماذا نصنع بالمدن وهي متشابهة في العالم كله؟ وماذا نرى في الفنادق الكبيرة وهي لا تختلف بين مدينة وأخرى إلا قليلا؟ هنا نظفر بالهدوء والسكون، ونقرب من الغابات والحقول ونرى من عادات القوم ما لا نرى في لوسرن

وجاءت الخادم تكلمنا بلغتها وهي لا تعرف لغة مما نعرف فتفاهمنا بالألفاظ المتقاربة بين الإنكليزية والفرنسية وبين السويسرية، ولمحنا في جانب الحجرة رجلا أشيب فأشرنا أليه ليكلمنا فأشارت الخادم انه أصم فقلت: (كالمستجير من الخرساء بالصمم)

أخذنا بعض متاعنا من لوسرن إلى برجنشتوك. وبلغنا الفندق حين الغذاء (والساعة اثنتا عشرة وربع) دخلنا قاعة الطعام فإذا امرأتان ليس في القاعة غيرهما، وقد اعد لنا الطعام معهما. وليس بيننا لغة إلا الإشارات وكلمات حائرة بين ما نعرف وما تعرفان من اللغات. وقدم اللحم فرابني بياضه. فأشرت: أي لحم هذا؟ قالت إحداهما كلاما وحكت صوت الخنزير - وهذا الخنزير يخيفني حيثما حللت من أوربا - أشرت إننا لا نأكل الخنزير. قالت المرأة الأخرى لصاحبتها: إسرائيليان. قلت: لا، لا، لا، ولكن المصريين لا يطعمون لحم الخنزير. فكانت حركة في الفندق وارتباك. ثم قدم لنا لحم البقر سريعا.

وفي العشاء قدم إلينا الكاكاو وكثير من اللبن وعجة البيض وفاكهة مطبوخة ورأينا القوم يأكلون العجة مع الفاكهة فعجبنا من اختلاف العادات والأذواق.
استرحنا ثم نزلنا لنخرج فدعينا إلى شرب القهوة وقدم لكل واحد مع القهوة ملء كوب من اللبن الجيد، اللبن عندهم موفور لكثرة البقر وقرب مراتعها، وأصحاب الفندق أسرة من الفلاحين
وكنا حين قدمنا هذا الصقع لأول مرة، سمعنا جلجلة أجراس مختلفة لا تنقطع فحزرت، وصدق الحزر، أنها أجراس في أعناق البقر أو الغنم. (وكننت رأيت في أصفهان من بلاد الفرس أجراسا في أعناق الإبل والثيران، ورأيت البدو يعلقون جرسا في رقبة الكبش تهتدي به الغنم وتجتمع على صوته؛ ورأيت هذا في مضارب قبيلة شمر في العراق وعلمت انهم يسمون هذا الكبش المرباع) فلما استقر بنا المقام في الفندق أردنا أن نجوس خلال الحقول لنرى البقر في مراتعها. وكانت أجراسها تجلجل في الأرجاء بين هذا الجمال الأخضر والجلال الرائع، بل في هذا المعبد العظيم من الخليقة فكأنها أجراس المعابد!
سرنا بين المروج فرأيناها مقسمة بحواجز. كأن لكل بيت مساحة من المرعى، ورأينا على الطريق أبوابا تمنع البقر إن تجاوز مراعيها. ثم رأينا بقر يرعى وقد جعلت أجراسها على قدر أسنانها: للعجل جرس صغير، وللثنى جرس اكبر منه، وللبقرة الفارض جرس كبير
كأنه القدح. ورأينا حظائر للبقر تأوي أليها في الشتاء، وهي بيت من الحجر فيه قنوات لسيل الماء، وعنده حوض لشرب الدواب، وفوقه بيت من الخشب يوضع فيه الحشيش وأدوات الفلاحة. وتجعل الحظائر بجانب مكان عال ليتسنى دخول عربة الفلاح إلى الطبقة العليا. وبيوت الفلاحين جميلة المرأى يتجلى فيها النظافة والترتيب والنعمة. وكم تمنيت أن يكون لفلاحنا بعض ما لهؤلاء
ورأينا على الطريق نصبا عليه صليب، فاقتربنا منه فإذا حجر واحد نحتت في أعلاه طاقة عليها شباك من الحديد. فاطلعنا فيها فإذا صورة قديس وقديسة، ورأينا امرأة مرت بهذا النصب فوقفت قليلا تتعبد، وكان كل من يمر بهذا الطريق يقف هناك وقفة للعبادة. وكذلك رأينا بجانب الفندق بنية صغيرة يعلوها صليب، فاطلعنا فيها فإذا معبد يتسع لبضعة نفر، واحسبناه معبد الأسرة التي تقوم على الفندق. وهكذا يحرص القوم على دينهم ويتوسلون إلى العبادة بكل الوسائل
وأما الفندق فهو مثل من نشاط القوم ونظافتهم ونظامهم. هناك أم كثيرة الأولاد قد أحسنت تربيتهم، ومنحت من قلبها ويدها ما جعلهم قرة عين الرائي صحة وجملا ونظافة. وهي قائمة على الفندق تعينها خادم واحدة لا ترى إلا ساعية أو عاملة أو متكلمة أو ضاحكة. وقد تبؤات الأسرة بعض الفندق وجعلت للنزال بعضه، ولم تنس حقها ولا حق النزال من رفاهية ومتاع. وأنا اكتب الآن وقد جاء صبي من هذه الأسرة يطرب الحاضرين بموسيقاه. وهكذا يبدو النشاط والمرح والسرور ليل نهار
وحول الفندق أشجار الفاكهة، ومزرعة صغيرة عليها سياج ومن هذه الأشجار وهذه المزرعة فاكهة الفندق وبقوله يجنيها الأولاد كما تأمرهم الأم
أحدثك مرة أخرى عن روعة هذا الصقع فقد بدا لي إن أعود إلى هذا الحديث:
خرجنا عصر اليوم فسرنا إلى المصعد الذي وصفته آنفاً في طريق ضيقة نحتت على سفح الجبل ينيف فوقها جبل شامخ وتبدو تحتها هوة هائلة. فلما جاوزنا المصعد تمادت بنا الطريق صاعدة في السفح تخترق الجبل بين الحين والحين إذا لا تجد على السفح منفذاً. فلما اعجز القوم النحت في مواضع من هذا الطود العاتي الأشم مدد الطريق على دعم من الحديد مثبتة في الجبل، فترين السائر معلقاً بين السماء والأرض على هذه الشقة الضيقة
حتى يبلغ الغاية
وقصارى القول أن تسخير الإنسان للخليقة سهلها ووعرها وصعبها وسهلها، شجرها وزرعها، وبرها وبحرها، يبدو للسائر هنا في كل خطوة، بل لست ادري أأقول: هنا جهاد الإنسان والخليقة أو اصطلاحهما على العمل والسعادة؟
ولا أنس جلسة في العشي ونحن عائدون إلى الفندق وقد جلل الضباب الخليقة، وأطبقت السحب وأسف بعضها دون القمم، وتتابعت على العين قمم الجبال تسيل

منها النضرة والجمال على السفوح، والمساكن والفنادق منثورة في هذه المرائي المدهشة! منظر لا يمكن وصفه، ولا يدركه إلا من يراه!
لا ينقص هذا الجمال إلا أن تكوني أنت وأخواتك معي فأرى دقائقه بأعينكن، وأسمع بيانه البليغ من أفواهكن. فليت ثم ليت!
(جنتشو)
عبد الوهاب عزام
في (الحب)
للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني
- 1 -
يا أخي، أقول لك الحق وأمري إلى الله، أنا لا أعرف الحب، ولا أستطيع أن أحب، ولم يخلقني الله لأحب، فأنا على الأرجح مخلوق ممسوخ، أو هذه الخلائق هي المسيخة إذا صدق ما يزعمون عن الحب وما يعانون من تدليهه؟)
فهز صاحبي رأسه مفكراً وسألني: (وإبراهيم الكاتب؟)
فقلت: (إبراهيم الكاتب مخلوق لا حقيقة له. . . أنا الذي خلقته، فإذا كنت لم أحسن خلقه فاعذرني، فإنها أول تجربة لي في (الخلق). ومع ذلك أدر عينيك في الغادين علينا والغاديات والرائحين والرائحات، وتدبر نفوسهم إذا استطعت، واعذرني: وأحسبك تريد أن تزعم أني وصفت حب إبراهيم هذا، أو معاشقه، وأن هذا وصف خبير. ربما! الحقيقة أني نسيت حكاية إبراهيم هذا ولكني واثق أن عقله لم يطر من الحب، ولبه لم يزدهف، وأنه كان يعرف القيمة الحقيقية لكل واحدة ممن أحب، وكان يستطيع أن يكبح نفسه ويصرفها)
فكابر بالخلاف، فتركت له الصفقة، إيثاراً للراحة من عناء الجدل الذي لا طائل تحته، وأردت أن أستطرد عن هذا الموضوع إلى سواه، فأبى أن يدعني أهرب، فدار بي فعاد إلى الحب، فقلت له: (إني أراك جائعا) قال: (جائع؟ أبداً) قلت: (والله جائع، ومتضور أيضاً. . .) ووضعت إصبعي على قلبه: (هنا فراغ أسميه أنا جوعاً، فأنت لهذا فيما أرجح، تجد لذة في الكلام في الحب الذي حرمت ما تتوهمه نعمته. . . أعترف!)
قال بضحك: (ليتني أكون محباً محبوباً. . . الحقيقة إن حياتي صحراء جرداء)
قلت: (اشكر الله، وأسأله دوام هذه النعمة.)
قال: (يا شيخ، حرام عليك!)
قلت: (والله إني أريد لك الخير، أو اسمع، إذا كان لا بد من هذا، فأحب أنت كما تشاء، فأن أمرك يبقى بيدك، ولكن إياك أن تكون محبوباً من امرأة، فأن هذا هو العذاب الغليظ)
فظنني أمزح، فقلت: (لا والله. وإني في هذا لأتكلم بلسان الخبير المسكين. هل تصدق أن امرأة في هذه الدنيا يبلغ من قلة عقلها أن تترك الناس جميعاً وتحبني أنا؟)
قال: (ولم لا؟ هذا جائز)
قلت: (جائز. . . وهل أنا أتكلم في الجائز وغير الجائز؟ جائز أيضاً أن تصح ساقي المهيضة، وتسلم؛ وجائز أن تطول قامتي وتعرض ألواحي، وأن اصبح مصارعاً ومن أبطال العلم في هذا الباب. . . ولكن تصور عقل هذه الفتاة المسكينة! وتصور موقفي أنا حيالها. . . أنا الذي ليس له طاقة على الحب ولا صبر لي على ما يغري به من الحماقات والسخافات. أقول لها مثلاً، وأنا أناشدها أن تثوب إلى رشدها: (يا ستي! يا حبيبتي! أين ذهب عقلك؟) فتترك السؤال. . . لا تسمعه في الحقيقة. . . وتصيح وتلوح بيديها وتقول: (حبيبتك!؟ هذه أول مرة أسمع فيها منك هذا اللفظ الجميل. . . أعده على سمعي. . . أرجو) فأدهش من سوء التأويل وأقول لها: (يا ستي إنما عنيت. . . لم أعن شيئا في الحقيقة. . . مثل قولي يا صديقتي لا أكثر) فتقطب وتقول (خيبت أملي! لماذا تأبى عليَّ حتى أن أسعد بلفظ؟) فأقول: (يا ستي والله ما أكره لك السعادة ولا أنا آباها عليك لو كان بيدي إسعادك؛ ولكني لا أستطيع أن أكذب عليك، وعلى نفسي. . . هذا الحب شيء لا قبل لي به) فتقول: (ولكني أريده) فأقول: (إذن التمسيه عند غيري. . . اطلبيه من دكان آخر) فتغالط نفسها وتقول: (أنت هكذا دائماً. . مكابر. . هذا أنت. . . بس أريد أن أعرف ماذا تخسر إذا اعترفت؟) فأقول: (وكيف أعترف بما لا أحس به؟) فتروح تحاورني وتداورني، وفي ظنها أني أغالطها وأكذب عليها، أو أن، بي

كبراً يمنعني من الإقرار لها بحبها، وتمسح لي شعري. . . أعني الشعرات العشر الباقية في رأسي. . . وتربت على كتفي برقة فأضحك، فتدير إلي محياها الدقيق وعلى ثغرها الرقيق اللين ابتسامة سرور، وفي عينيها ومضة أمل، فأقول، وأنا أرد القهقهة التي أحس أني أوشك أن أنفجر بها: (أتراني لعبة؟) فتقول (لعبة؟ استغفر الله! لماذا تقول هذا؟ أنت عندي. . .) فأقاطعها وأقول (دعي هذا. . . فأني أعرف منزلتي التي لا تدانيها منزلة. ولكن أن تمسحي لي شعري؟ أين هذا الشعر الذي تمسحينه؟ سبع شعرات ونصف شعرة! ومع ذلك أقول لك الحق: أنا استحيي أن أراك تصنعين هذا. . . أحس - لا أدري لماذا؟ - أني ارتددت طفلا صغيرا تلاعبينه. . .) فتقاطعني هي وتقول (يسرني أن ألاعبك. . أن تكون لعبتي!) فأقول: (أما الملاعبة فأنا فيها خادمك المطيع، تعالي نلعب كما تشائين. . . ولكن أن تلعبي أنت بي أنا. . .؟ هذا لا يكون. . . لا استكبارا مني، بل لأن طباعي، وفطرتي لا تساعد على هذا. . . ثم كيف تلعبين بي؟ أأنا كرة؟ أم ماذا! ألا ترين أن هذا كلام فارغ، وإنا نضيع الوقت فيما لا خير فيه ولا متعة؟ أولى بنا أن نضحك، ونلعب. . .)

فتعود إلى رأس البلاء وتقول (ولكن لماذا تكره الكلام في الحب؟ أليس لذيذا؟)

فأقول (لست أكره شيئا، وإنه ليسرني أن يكون مدار حديثنا على شرط أن لا أكون أنا مداره! ثم قولي لي، أليس في عينك نظر؟)

فتعبس وتهز رأسها مستفسرة فأقول: (تحبينني أنا؟ يا خبر أسود! وهل خلت الدنيا من الناس فلم تجدي سواي؟)

فتطمئن وتضحك، وتقول (أنت متواضع. . جدا)

فأقول (يا ستي والله أبدا. . . إن بي كبرا أن يكون بي كبر. ولكن الحقيقة أنك بلهاء أو لا أدري ماذا دهاك. . .)

فتسأل بلا مناسبة: (لماذا لا تحبني؟)

فأقول: (هذا سؤال غريب. . . طيب أسمعي. . . أنا لا أحبك لأني لست عدوك!)

فتصيح: (ايه؟)

فأقول: (تمام. الحب في لغتنا لفظ سقط منه حرف. . . كان يجب أن يسمى الحرب!)

(حرب؟)

(أي نعم يا مولاتي! لأنه ضرب من الجوع)

(جوع؟)

أي نعم مرة أخرى يا مولاتي. . تجوعين فتشتهين الملوخية بالأرانب، أو الإوز،) وتجوعين جوعاً آخر فتشتهين رجلا. . . وأنت تحبين الملوخية، ولكن ليس بينكما مودة متبادلة، وإنما العلاقة بينكما أكل بمأكول؛ وكذلك الجوع الذي نسميه الحب، فأنه ليس أكثر من رغبة في الاستيلاء على مخلوق آخر أو التهامه إذا شئت. وإذا كان الحب متبادلا فان معنى هذا أن الحرب معلنة من الجانبين - كل جانب يريد أن يستحوذ على الجانب الآخر بأسلحة شتى، منها الغزل والقبل والعناق والضم وغير ذلك من وسائل التليين. . .)

قالت: (لا أصدق هذا الكلام الفارغ)

قلت: (سامحك الله. وخذي كلاماً آخر لا تصدقينه. . . كما أن الإنسان لا يستطيع أن يصبر على طعام واحد، فلا يأكل سوى الملوخية مثلا، كذلك لا صبر للإنسان على امرأة واحدة. وصدقي هذا أو لا تصدقيه، فأنت حرة؛ ولكن ثقي أن من يقول لك غير هذا يكون خادعاً أو مخدوعاً: خادعاً إذا كان يدرك الحقائق، ومخدوعاً إذا كان مثلي يأبى أن يواجهها، وأنا أعرف منك بالحياة وأخبر. الرجال جميعاً خوانون غدارون - إذا صح أن نسمي غدراً وخيانة ما ليس سوى نزول منهم على حكم الطبيعة)

فقالت بسرعة: (هذا صحيح. . . كلهم خائن)

قلت: (لا تعجلي فالنساء أيضاً مثل الرجال. والطبيعة واحدة يا ستي!) فلم تقتنع يا أخي، وقد تعبت ومللت، وخطر لي مراراً أن أتركها وشأنها، ولم أكتمها أني ضجرت من هذا الحب، ولكني أشفق عليها وإن كان هذا الحب منها يغيظني ويحنقني. وما ذنبها إذا كانت لا تستطيع أن تدرك هذا الذي أبينه لها؟؟ ثم إن عقولهن غير عقولنا - نحن الرجال عقولنا في رؤوسنا، أو نحن على الأقل نتوهم ذلك، أما النساء فعقولهن ليست في رؤوسهن - هذا محقق - وقد قلت هذا مرة، فثارت علي فتاة ذكية جميلة مثقفة

وسألتني وهي محنقة (أين إذن عقل المرأة إذا لم يكن في رأسها؟) فحرت كيف أجيب، وكان الجواب حاضراً ولكن الإفصاح عنه لا سبيل إليه، وألهمني الله أن أخرج من المأزق بقولي (عقولهن في قلوبهن) فأرضاها هذا التعبير الحسن عن معنى يعده الجهلة سيئاً وما هو بسيئ، وإنما هو الطبيعي. فكيف تريد مني وهذا تصوري للأشياء أن أعرف الحب كما تريد النساء والشبان أن أعرفه. . . خيالات وأوهاماً وأباطيل ما أنزل الله بها من سلطان، ووفاء وحفاظاً إلى آخر هذا الهراء الذي لا يكون؟؟
فهز رأسه متعجباً، ولم يقل شيئاً، فحمدت الله واغتنمت فرصة سكوته واستأذنت في الانصراف

إبراهيم عبد القادر المازني
الدين والأخلاق بين الجديد والقديم
لأحد أساطين الأدب الحديث

لو أن الأستاذ الغمراوي فحص عن أخلاق أمة من الأمم في نفوس آحادها لوجد اتفاقاً أو شبه اتفاق في خصائص تلك الأمة.
ولا نعني بالخصائص أنها تفردت بأخلاق لا يوجد مثلها في أمة أخرى، فإن الأخلاق شائعة في النفوس البشرية، وإنما نعني أن تلك الأخلاق أكثر شيوعاً فيها بالرغم من تفاوت نفوس آحادها في خصال الحمد والذم والخير والشر، ويستوي في تلك الخصائص من يقرأ فلسفة هربرت سبنسر ومن يقرأ كتب الغزالي، ومن يقرأ شعر شكسبير ومن يقرأ شعر المتنبي، فان تلك الخصائص المتوارثة لها عدوى تذيعها في البيئة الواحدة وهي راسخة لا تغيرها أيام ولا سنوات قليلة، وأسبابها حوادث وشرائع اجتماعية ظلت تؤثر في الأمة زمناً طويلا.
فإذا نظر إلى أخلاق البيئة المصرية وفحص عنها على ضوء هذه الحقيقة وجد أن الخصائص الخلقية شائعة يشترك فيها العظيم والحقير، ويشترك فيها الشيخ والأفندي كما يشترك فيها الفلاح وساكن المدينة بالرغم من التفاوت الظاهري في العادات وفي مقادير رسوخ هذه الخصائص أو المقادير التي تظهر بها وإن كان التشابه في مقاديرها الكامنة أعظم. وأوجه الاختلاف الظاهري تظل ملازمة للمرء ملازمة كبيرة وإن حاول أن يحول بعض خصائص نفسه إلى جانب المقادير المقهورة التي يخفيها في النفس إذا أنتقل من طائفة إلى طائفة أخرى من طوائف الأمة؛ فالفلاح إذا ألبسته طربوشاً أو قبعة لا يخلع خصائصه ولا يستطيع خلعها ويبقى فلاحاً بخصائصه، ولكنه ربما حاول أن يخفي بعض تلك الخصائص في نفسه.
والمذهب الجديد في الأدب هو إلى حد كبير كالطربوش أو القبعة التي يلبسها الفلاح؛ والمذهب الجديد كما أوضحنا قد تأثر مباشرة بما أخذه عن المذهب القديم وبما أخذه بطريق غير مباشر بعد أن تأثر الأدب الأوربي الذي هو وليد نزعة أحياء العلوم في أوربا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر بالأدب والفكر العربي.
ولابد أن الأستاذ الغمراوي قد عاشر طوائف مختلفة من طوائف الأمة وإن لم يكن قد درس حالة الأدباء الخلقية دراسة العشير الذي لا يُخاتل لا دراسة القائل بما يسمع. ولابد أن الأستاذ قد أيقن من اتفاق طوائف الأمة في الخصائص الخلقية. ولو أنه أتيح له أن يدرس أخلاق الأدباء لوجد أن الخصائص الخلقية متشابهة فيهم بالرغم من المذهب القديم والمذهب الجديد، وأن التفاوت الفردي بين آحاد كل طائفة ربما كان أهم من تفاوت أدباء كل مذهب. فالاستقامة والصدق والعفة والنزاهة والسماحة في الخلق والوفاء الخ ليست ملكا لمذهب في النثر أو الشعر. وكذلك اللؤم والكذب والغدر والانصراف إلى الملذات والحقد ليست ملكا لمذهب في الشعر أو النثر. ولو أن الأستاذ بحث هذه الخصال لوجد أن خصال الحمد والذم لابد أن توجد في المذهبين، فأن هذه خصال وميول متوارثة تزيدها حوادث الحياة وحالاتها قوة أو ضعفاً. أما غير هذا الرأي فلا يأخذ به إلا من يسهل أن يخدعه التعصب لجماعته، فأن المذهب القديم أو الجديد ليس دينا له أخلاق معينة لا يتعداها، وإلا فإن الأديب الذي يكتب على طريقة الأدب الجديد متأثرا بالأدب الأوربي ويطري الاستقامة، يعد في نظر الأستاذ كافرا بالأدب الحديث؛ وإن الأديب الذي يطري أبياتا فيها مجون من صنع شاعر من شعراء

المذهب القديم يعد كافرا بالمذهب القديم. وعلى هذه القاعدة يكون أكثر شعراء العرب وأدبائهم من عهد امرئ القيس (كما ذكر الأستاذ خلاف) إلى عهدنا هذا كافرين بالمذهب القديم؛ وإذاً لا يكون هناك مذهب قديم في عالم الوجود، ويكون السيد توفيق البكري متفرنجا عندما اختار لابن الرومي أرجوزته النونية في وصف الزنا، ويكون الشيخ شريف مفتش اللغة العربية ورجل التربية متفرنجاً عندما شرح أرجوزة اللواط لفظاً ومعنى، أو يكون الأديب الواحد تارة من أنصار المذهب القديم إذا تمثل بأبيات من زهد أبي نؤاس أو أبي العتاهية، وتارة من أنصار المذهب الجديد إذا تمثل بمجونهما. ويكون إذاً حافظ إبراهيم من شعراء المذهب الجديد إذا قص قصص المجون في مجالسه أو روى أشعار المجون، ويكون حافظ إبراهيم نفسه من شعراء المذهب القديم إذا تناول مسبحة وروى أشعار الزهد والتقوى، ويكون كل أديب أو شاعر من شعراء أو أدباء المذهب القديم كما يكون حافظ في حالتيه. ويكون الأديب منهم من أنصار المذهب الجديد إذا تمثل بأبيات من لزوميات المعري لا يرضى عنها الأستاذ الغمراوي، ومن أنصار المذهب القديم إذا تمثل بأبيات أخرى من اللزوميات يرضى عنها الأستاذ. وفي اللزوميات ما يرُضي وما لا يرُضي الأستاذ؛ ويستطيع الأستاذ أن يتخلص من هذه الورطة فيقرر أن الشاعر الذي يجهل اللغات الأوربية ولا يقرأ الأدب الأوربي المنقول إلى العربية هو من أدباء الفضيلة (والفضيلة كما قرر الأستاذ هي المذهب القديم) حتى ولو قال النثر والشعر في المجون والزيغ متأثراً بمجون وزيغ شعراء (الفضيلة) القدماء ممن كتبوا باللغة العربية، وأن الأديب الذي يعرف اللغات الأوربية والذي درس آداب اللغات الأوربية والذي يعد نفسه من أدباء المذهب الجديد هو في الحقيقة من أدباء (الرذيلة) حتى لو أطرى الفضيلة كما أطراها شكسبير وفكتور هيجو. وإذاً يكون من الواجب المحتوم أن الشاب الذي لا هو من أدباء المذهب القديم ولا الجديد، لأنه ينقل عبارات إفرنجية نقلا حرفياً كالضحكة الصفراء (وغيرها من العبارات المضحكة التي يدعي أدباء المذهب القديم أنها من خصائص المذهب الجديد) أقول إنه من الواجب المحتوم أن يعد هذا الشاب من أنصار المذهب القديم مادام يطري الفضيلة حتى ولو أطراها كما أطراها فكتور هيجو إطراء صحيحا ولكن بأسلوب عربي سقيم، وأخشى أن هذا المنطق الغريب قد يسوقنا إلى أن نعد الأسلوب السقيم إذاً من خصائص المذهب القديم مادام صاحبه يطري الفضيلة، وأن نعده من خصائص المذهب الجديد إذا كان صاحبه يطري الرذيلة. على أننا لو فرضنا أن الأستاذ قد أصاب في جعله المذهب القديم مرادفاً للفضيلة وأنه عقيدة دينية، فكم من معتنق عقيدة يقول بلسانه ما لا يتفق وأخلاقه وأعماله! فكيف به وهو ليس عقيدة دينية حتى ولو كان كل أدبائه من عهد حسان بن ثابت إلى اليوم منزهين عن الفحش في قولهم وعملهم فكيف به وليسوا كلهم منزهين عن الفحش في قولهم وعملهم بل كان منهم من بلغ من الفحش في القول والعمل غاية ليست بعدها غاية. ألا يرى الأستاذ أن جعله المذهب القديم مرادفاً للفضيلة مع هذه الحقائق يؤدي إلى أن ينافق من ينافق فيدعي أنه حامي حمى الدين والفضيلة كي ينال ما يرادف هذه الألقاب حسب اصطلاح الأستاذ فيلقب بزعيم النثر وسلطان الشعر؟ إن بعض أدباء المذهب القديم قد نشروا هذا الاصطلاح بكل ما أوتوا من بيان، كما كان كل فريق من الدول في الحرب العظمى يدعي أنه حزب الله المصطفى وأن الفريق الآخر حزب إبليس الخاسر عليه لعنة الله. فكان الإنجليز يقولون إنهم يدافعون عن الفضيلة والحضارة والعدل والخير والحق، وإن خصومهم خصوم هذه الصفات العليا. وكان الألمان ينشرون مثل هذه الدعوة لأنفسهم حذوك النعل بالنعل. وكان كل فريق يضحك في سره من سذاجة من يصدق أقواله. وكذلك يفعل بعض الأدباء هنا وهم يخفون ما يعرفون من أن الشطط في القول لم يكن مقصوراً على مذهب في الفنون والآداب، وأن مناصرة الفضائل ليست مقصورة على مذهب، وأن جعل الفضيلة مرادفة للمذهب القديم والرذيلة للمذهب الجديد شطط وظلم لا يتفق وروح العدل الذي تأمر به الشرائع السماوية، وأنه حتى على فرض أنهم يفعلون ذلك مناصرة للشرائع السماوية لا كسباً للرزق والشهرة والمكانة، فإن مناصرة الشرائع السماوية بما ينقض عدل الشرائع السماوية من تعميم هو غاية الظلم يجعل مناصرتهم للشرائع السماوية مهزلة لا يرضاها الله،

فان مناصرة الشرائع السماوية لا تكون ألا بفضائلها، فكيف وهم يعلمون أن شطط القول أو الفعل لم يكن قديماً ولا حديثاً مما يلتصق بطائفة دون طائفة، وأنه لم يخلق الله مذهباً من مذاهب الفنون من عهد آدم إلى اليوم يصح أن يعد مرادفاً للفضيلة في جميع مظاهره؟

قال الأستاذ الغمراوي إن النزعة إلى التجديد بدأت منذ ثلاثين سنة. وقد أوضحنا أن التجديد بمعناه الأعم الذي شرحه الأستاذ بدأ منذ دخول نابليون مصر وذاع أيام محمد علي باشا وإسماعيل باشا، فليس له مبدأ واحد. أما التجديد بالمعنى الأخص وهو التجديد في أبواب الشعر والنثر ومعانيهما فهو أيضاً مما لا يحد بمبدأ واحد كما يعرف من يدرس حياة الأمم ونمو النزعات والأفكار فيها، ولكن الذي يقرأ مقالات الأستاذ وأقوال بعض الكتاب يحسب أن النزعة إلى التجديد هذه نزعة متضامنة الأفراد متحدة العناصر متفقة الأهواء والمشارب والمبادئ بدأت بمؤامرة على الدين والأخلاق. والذي يدرس حياة الأمم ونمو الأفكار فيها يعرف أن هذا خيال في خيال. والذي يدرس النزعة إلى التجديد يرى أنها ليست ذات مبادئ واحدة وأنها نزعات مختلفة، فان من أدباء التجديد من يرى في المذهب الرمزي كل علو فني، ومنهم من لا يستلذه ولا يقنع عاطفته إلى الفن لإبهامه وسقوط الصلة بين الرموز والحقائق التي تشير أليها الرموز، ولتكاثر الصور فيه بعضها فوق بعض. وقد أوضحنا أن الرافعي - وهو في رأي أصدقائه زعيم المذهب القديم - كان أقرب إلى المذهب الرمزي في بعض كتبه مثل حديث القمر. وليس من البعيد أن يأتي يوم يعد فيه الرافعي من زعماء المجددين في الأدب الرمزي أو زعيمه الأكبر. ولا أحسب أن الأستاذ الغمراوي كان منذ ثلاثين سنة متتبعاً تلك النزعات تتبع المعالج للبحث الاجتماعي، فهو إذاً يقول بالسماع. وقد أوضحنا في مقال سابق أن الأستاذ يصنع خيراً لو أنه اجتبى من المذهب الجديد ما يرتضيه وهو واجد الكثير المرتضى نقده يكون أوقع وأنفذ، وإصلاحه أقدر، وحكمه أعدل. أما جعله مذهباً مرادفاً للفضيلة ومذهباً آخر مرادفاً للرذيلة، فليس ذلك من اعتدال أمثاله من العلماء

(قارئ)

عود على بدء

بين الغرب والشرق

للدكتور إسماعيل احمد أدهم

- 3 -

(قلنا في المقال الأول في الرد على مزاعم مناظرنا الفاضل الأستاذ فيلكس فارس إن لكل أمة في العالم روحها التي تحتضن تراثها التقليدي، وعن طريق تحليل تراث مصر التقليدي انتهينا إلى أنها فرعونية آخذة بأسباب العربية لتجاري فن الحياة في ذلك العصر الذي طغت فيه العربية على كل شيء وكانت مركزاً للجذب الاجتماعي في الشرق الأدنى.

وفي المقال الثاني بينا الفروق الأساسية بين ما سميناه ذهنية للغرب وطابعاً للشرق، وقلنا إن نزعة الذهن الغربي يقينية ونزعة العقلية الشرقية غيبية، واستدللنا على هذه الحقيقة من حقائق التاريخ، واستشهدنا بكلام للأديب الكبير الأستاذ توفيق الحكيم. ولهذا قلنا إنه من الصعوبة بمكان أن تأخذ مصر الثقافة الغربية وهي محتفظة بثقافتها التقليدية وأساسها الإيمان بالغيب. وقد قرأ قراء (الرسالة) منبر الأدب الحي في الشرق العربي رد مناظرنا الفاضل على ما قلناه في عددي الرسالة 263، 264، لهذا اضطررنا أن نعيد الكرة من جديد لدحض ما أثاره المناظر الفاضل من اعتراضات. ولن نتقيد في ردنا على المناظر بما جاء في كلامه، وإنما سنرجع لكتاب رسالة المنبر إلى الشرق العربي فهو إنجيل المناظر في الأيمان بثقافة الشرق)

يقول الأديب النابغة فيلكس فارس:

(الثقافة راسخة في الفطرة، والفطرة في الفرد كما هي في الأمم ميزة خاصة في الذوق واختصاص في فهم الحياة والتمتع بها، فإذا كان العقل رائداً لبلوغ الحاجة فليست الفطرة إلا القوة المتمتعة في الإنسان بتلك الحاجة بعد بلوغه إياها)

هذا. . . ونحن نفرق بين الثقافة والفطرة، بين تراث الشعب الذي يخرج به من ماضيه

انسلالا على مدى الدهور والأعوام، وبين الفطرة من حيث هي روح الأمة التي تحتضن تراثها. فتراث مصر الفرعونية التي أسلمته لمصر الإسلامية فاختلطت نتيجة لذلك الفرعونية والعربية فكان من ذلك ما سميناه لمصر من ثقافة تقليدية شيء والروح المصرية شيء آخر. إلا أن هذا لا يمنع من أن ترسخ الثقافة التقليدية وتصبح وكأنها من صميم فطرة الشعب. وانسلاخ الشعب عن ثقافته التقليدية، وإن كان لها رجة في صميم الفطرة والروح إلا أنها لا تعني انسلاخ الشعب عن روحه وفطرته. وما ثقافة الشعب وتراثه إلا أثر وقوع الفطرة والروح تحت تأثير ظروف ومؤثرات تجد في طريقها للمحيط الاجتماعي والبيئة الطبيعية للشعب. بيان ذلك أن الروح المصرية تحتفظ بذاتيتها منصبة في قوالب شتى، فهي في قالب في العصر الفرعوني، وهي في قالب في العصر الإسلامي، وجماع هذه القوالب المختلفة يكافئ الحالات المتباينة التي يتضمنها المحيط اجتماعياً وطبيعياً. وإنكار هذا معناه أن الروح المصرية تغيرت من العصر الفرعوني إلى صورة أخرى في العصر الإسلامي. فما الذي يمنع أن تتغير إلى صورة أخرى في العصر الحديث؟ ولعمري هذا لا يتفق مع ما يعرف من قواعد الاجتماع وعلم تكون الشعوب، لأن روح الشعب شيء مجرد، يكتسب عن طريق وقوعه تحت تأثير الفواعل الاجتماعية والطبيعية خصائص متباينة شكلا وإن كانت متفقة روحاً من هذا أرى أنه من الضروري التفرقة بين روح الأمة من جهة، وثقافتها وتراثها الشعبي من جهة أخرى، وإذاً أيكون من الممكن لمصر أن تتجرد عن ثقافتها التقليدية، وتستبدل مثلاً بدينها ديناً آخر وبلغتها لغة أخرى كما حدث ذلك في عهد الفتح العربي ومع ذلك تحتفظ مصر بروحها وفطرتها، لأن ما ستأخذه الروح من القوالب سيكون عن طريق الوقوع تحت تأثير عوامل ومؤثرات وجدت طريقها للمحيط الاجتماعي والطبيعي، ويكون بذلك صور متباينة تأخذها فطرة الشعب، وبمعنى آخر قوالب شتى، غير أن قانون العادة يدخل لاستحداث المماثلة في عقل ومشاعر الشعب فيكون من ذلك تماثل الثقافة التقليدية الجديدة في سريرة كل فرد من أبناء الشعب على هذا الوجه فقط يمكن تعليل تفسير القالب العربي للروح المصرية والذي تكون نتيجة لوقوع الروح المصرية تحت تأثير الثقافة العربية. وعلى نفس الوجه يمكن تفسير وجه قيام الثقافة الغربية في مصر مع احتفاظ مصر بروحها وفطرتها.

وأظن أن هذا الإيضاح كاف يقطع السبيل على كل اعتراض يمكن توجيهه من أن الثقافة
الغربية لا تتفق والروح المصرية.

وكل الخلاف على ما يتبين أخيراً راجع إلى عدم التفريق بين الثقافة التقليدية والروح، فعندما يقوم أنصار الثقافة الغربية بدعوة إلى مدنية الغرب يثور عليهم أنصار الثقافة العربية قائلين إن معنى ذلك ضياع الروح المصرية والقومية، مع أن الروح شيء ثابت والثقافة شيء عرضي يتقوم بالروح وفطرة الشعب.

والآن لنتمش مع كلام المناظر في رده ولنعقب عليه بما يكفي لإظهار زيغه وبيان وجه بطلانه.

1 - نقلنا في صدر كلامنا في المقال الأول في الرد على مزاعم مناظرنا الفاضل كلمة عن هابل آدم بك الفيلسوف الاجتماعي المعروف. والكلام واضح بين في أننا بحكم كوننا في الحياة يجب أن نفكر فيها وحدها وأن نعمل لأجلها وأقامتها على أساس إنساني بدون أن نجعل للغيب سبيلاً للتدخل فيها. وهذه الكلمة تتجلى في صدر الحديث النبوي: (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا). ومع ذلك رأى المناظر فيها غموضاً وحاول أن يتعسف بتأويل الكلام إلى أن معناه إنكار الآخرة. وقال وأين عجز الحديث: (واعمل لأخرتك كأنك تموت غداً)

يا صديقي ليس هكذا يكون الكلام!

قد يكون بدؤنا في طريق الله ونهايتنا في طريق الله، لكن (الوسط مدرجة بيوتنا ومصانعنا وحوانيتنا، وبكلمة أخرى طريق بعضنا إلى البعض) يجب أن يكون مبدؤها ومردها الأول والأخير عندنا، حيث يقوم العقل الإنساني بتنظيم الحياة البشرية

هذا هو حقيقة كلام هابل آدم في ضوء تحليل مدلول عبارته التي أستهل بها كتابه الخالد (مصطفى كمال للترك كتابي) الذي ترجم لأكثر اللغات الحية ونقل ملخصاً إلى العربية بقلم صديقنا الأستاذ إسماعيل مظهر عن ترجمته الإنجليزية.

2 - قلنا إن موضوع الخلاف بين ثقافة الغرب وثقافة الشرق يرجع إلى كون الثقافة الشرقية وقفت عند حدود الدرجة الثانية في سلم الارتقاء الفعلي بعكس الثقافة الغربية فإنها اجتازت هذه الدرجة إلى التي بعدها. ولا أدل على ذلك من بعض المراجعة لثقافة كل من الشرق والغرب في ضوء قانون الدرجات الثلاث الذي كشف عنه أوغست كونت

يقول أوغست كونت:

(إن كل فكراتنا الأولية ومدركاتنا وكل فروع معرفتنا لا بد من أن تمر على التوالي بثلاث حالات مختلفة: الأولى الحالة الخرافية وهي حالة تصورية تخيلية، والثانية الحالة الغيبية وهي حال تجرد، والثالثة الحالة اليقينية وهي حالة تيقن)

ومع ذلك يجادلنا المناظر فليكس فارس مرجحاً الحالة الغيبية وهذا قلب لقانون الدرجات الثلاث!

3 - يرى المناظر متابعة لاعتقاده برجحان الحالة الغيبية أن ميزة الشرق هي في الحالة الغيبية وفي إيمانه بالغيبيات. وهذا القول لو صدر من شخص ليس في مكانة مناظرنا الأستاذ فليكس فارس - وهو على علم واسع وفضل راجح - لما اهتممنا له. ولكن صدوره من مناظرنا يجعله حدث الأحداث في عصرنا الراهن

وإذا كان وقوف الشرق عند الدرجة الثانية في سلم الارتقاء العقلي سبباً للاعتقاد بتفوق هذه الدرجة على ما بعدها، فماذا يكون موقف مناظرنا إزاء أحد الزنوج أو متوحش أفريقيا إن وقف يرجح الحالة الهمجية والحالة الخرافية اعتقادا منه بتفوقها على ما فوقها، وقال لمناظرنا ما يقوله هو لنا؟ إذن ماذا يكون منه الجواب؟

4 - إن قول المناظر برجحان الحالة الغيبية على الحالة اليقينية وإن كانت ظاهرة البطلان إلا أن هذا البطلان لا يمنعنا عن مناقشتها حتى لا يظن مناظرنا أن كلامه حق يعلو على التجريح والنقد

يقول العالم الياباني (موريكاتو إيناجاكي) إن في كل عنصر بشري استعداد لأن يظن في نفسه الكمال. ويثبت هذا العالم هذه الحقيقة من حقائق علم النفس والإنسان. وفي ضوء هذا القول نفهم اعتقاد مناظرنا برجحان ثقافة الشرق الغيبية، ولكن ما هي الأسباب العلمية والفلسفية التي يبرر بها المناظر إيمانه بتفوق ثقافة الشرق الغيبية؟ بحثت كثيراً في كلام المناظر وفتشت بين السطور عن الأسباب العلمية لإيمانه بتفوق ثقافة الشرق الغيبية، ولكن بلا جدوى. فرجعت لكتابه (رسالة المنبر إلى الشرق العربي) فلم أخرج بغير (قانون الرجعي) سببا في تفوق ثقافة الشرق الغيبية!

يرى المناظر أن العلم الحديث أكد وجود قوة مستترة في الإنسان أسماها العقل الباطن،

وهي مستودع الفطرة والانطباعات السابقة، وهي نفسها تسير الآن متلبسة بمظهر الاختيار. وما العقل الباطن كما دلت التجارب إلا الحوافز التي وجدت في الأجداد ونمت على اتجاه مقدور أيضاً زمن الطفولة. وهذه الحوافز تكمن فيها فطرة الأمم لأنها أداة شعورها بالحياة. وما دام الأمر كذلك فهو يرى أن سعادة المجتمع العربي في ملاءمته لما فطر عليه هي الغيبيات لأنها استلهام للروح العليا

كلام كما تراه يخترمه التناقض ومجانبة الحقائق. ومع ذلك فلننظر فيه

من المعلوم أن الإنسان بتكوينه الطبيعي يستجيب للمؤثرات الداخلية والخارجية استجابة ذاتية وهذه الاستجابة مرتبطة فيه بأنصاف الكرات المخية التي هي أعضاء رد الفعل في الإنسان. وترتبط بهذه الأنصاف الكروية المخية الوراثة والعقل الباطن. بيان ذلك أننا لو أتينا بكلب ووضعنا أمامه قطعة من الحلوى فان لعاب الكلب يسيل. هذه الظاهرة تحدث بتأثر ذاتي في الكلب ومن غير أن يكون للتجربة يد في تغييره أو تكوينه؛ ومن هنا تعتبر فعلاً عكسياً أصيلاً. وهذه الأفعال العكسية الأصيلة هي ما كنا نسميها من قبل بالغرائز. فالغرائز مجموعة من الأفعال العكسية مندغم بعضها في بعض كما هو الحال في غريزة بناء الطيور لأعشاشها. غير أن هذا الفعل العكسي الأصيل وإن كان يحدث بقاسر ذاتي في الأحياء العضوية لا يتغير فإن ذلك وقف على الأحياء الدنيا. أما في الأحياء العليا في سلم المملكة الحيوانية فان سلوك هذه الحيوانات وإن كان مرتكزاً على استجاباتها بقواسر ذاتية للمؤثرات فإنها تستفيد من التجارب، إذ تترك التجارب أثراً بيناً في سلوكها. والإنسان كأحد أصناف المملكة

الحيوانية العليا يخضع لنفس هذه السنن. والأفعال العكسية المستفادة من التجارب مؤصلة لأنها مكتسبة يكتسبها الحي من ظروف حياته كنتيجة لما يلابسه من مؤثرات؛ وهذه الأفعال تختفي وتضمحل إذا ما تغايرت المؤثرات. ولما كانت الأفعال العكسية في الأصل تحدث بقاسر ذاتي مصحوبة بحركة انفعالية جاز لنا أن نعتبر الأفعال العكسية المؤصلة - وهي المستفادة من التجارب - كنمو ارتفاقي في الأفعال العكسية الأصيلة.

ولما كانت هذه الأفعال تقوى وتضمحل وتضعف وتتغاير باضمحلال المؤثرات وتغايرها، فإن مراكزها في الكرات النصفية المخية تكون قابلة لدرجة قليلة أو كبيرة لإمكان تكون الانعكاسات المؤصلة حيث تعتمد في قوتها على التكرار الاصطحابي كما أن ضعف أواصر التلازم أو تقطعها يؤدي إلى ضعف الانعكاس المؤصل أو اضمحلاله. غير أنه يعود بصورة أيسر لأنه يكون قد ترك أثراً في الحي من حالته الأولى الارتفاقية. وهذه الحقائق بإثباتها ديناميكية خاصة للنفس وساحة لا شعورية تبين إلى أي حد قد جانب المناظر في كلامه حقائق العلم. لأن الحوافز التي بالأحياء نتيجة للارتباط الارتفاقي بين الأفعال العكسية الأصيلة والمؤصلة وليست نتيجة للوراثة. وهذا لا يمنع أن الإنسان يولد وفي تضاعيف تلافيف مخه، وفي ثنايا أنصاف كراته المخية، وفي لحائها، وفي مراكز أعصابه ميول وكفايات إمكان لبعض الأفعال المؤصلة. والإنسان بخروجه لعالم الحياة يكون جهازه العصبي في طور نمو وتكوين إذ تسيطر عليه الأفعال العكسية سيطرة مطلقة، وهذه الأفعال مجردة. . . ويكون للمؤثرات التي تلابس الإنسان أثراً في أن تحدث استجابات تكون مقدمة لفعل عكسي مؤصل. فأذن العلاقة بينما هو كائن في النفس عن طريق الوراثة لا تتعدى الإمكان المحض. وهو تحت تأثير المؤثرات يظهر مصحوباً به. فالاعتقاد بوجود أساس وراثي يرثه الإنسان ويتركب عليه مكتسباته لا يتعدى هذه الحقيقة. وهو لا يثبت دعوى أن اللاواعية أو العقل الباطن يحتوي على الحوافز المتوارثة عن الأجداد

فإذا لاحظنا هذا كله وجدنا أن للمحيط الاجتماعي وما يعرض له من العوامل والمؤثرات الأثر الأكبر في تكوين الإنسان على غرار معين. . . وإذاً يكون التجاء المناظر إلى الوراثة والحوافز المتوارثة عن الأجداد - وهي حالات إمكان في النفس - خطأ من الناحية العلمية، ويكون بالتبعية اعتقاده في سلامة وسعادة المجتمع لما فطر عليه من الحوافز المتوارثة خطأ. والصحيح أن يقال إن الإنسان من حيث يولد وهو طفل وأفعاله العكسية المؤصلة هي التي تستحكم في جهازه العصبي، وبتعبير أدق غرائزه، يكون مطواعاً للمؤثرات التي يحتويها محيطه الطبيعي والاجتماعي، ويخرج مصبوبا في قالب معين يكافئ الحالات التي أحاطته. ونظراً لأن المحيط الطبيعي والاجتماعي عادة واحد في الحالات الاعتيادية فإن المؤثرات تكون واحدة، ومن هنا يخرج الناس في قبيل معين وجيل معين مصبوبين في قالب معين.

وقانون العادة يتدخل لأحداث المماثلة في القالب المصبوب فيه القبيل حتى ينتهي لذلك. أما

في الحالات التي تكون فيها المؤثرات في المحيط الاجتماعي متباينة، فان القبيل يخرج في قوالب شتى جماعها يكافئ الحالات التي يتضمنها المحيط الاجتماعي؛ وهذا ما هو حادث اليوم في مصر. فإن أهل المدن من الطبقة المتوسطة وفوق المتوسطة يعيشون على غرار غربي، لأن العوامل في محيطهم الاجتماعي متأثرة بالروح الأوربية، بعكس أهل الريف الذين يعيشون على غرار شرقي. وهذا الانقسام في المجتمع المصري ملحوظ للنظر.

وإذن تكون نقطة الخطأ في كلام المناظر، بل الخطأ الأساسي هو إغفاله للمؤثرات الطارئة التي تدخل في المحيط الاجتماعي، وتؤثر في المجموع الإنساني، وتصبهم في قوالب جديدة تكافئ المحيط الاجتماعي في الصورة الجديدة التي أخذها بالمؤثرات التي طرأت عليه. وهذه الحقيقة تتبين من نظرة سريعة في كتاب (رسالة المنبر إلى الشرق العربي).

ولقد كشفنا عن هذه الحقيقة في النقد الذي كتبناه في مجلة (العصبة الأندلسية) في عددي فبراير ومارس سنة 1938 لكتابه، وهي تبين أن المناظر يمضي في كلامه مغفلاً

شأن العوامل والمؤثرات التي تجد طريقها إلى المحيط الاجتماعي للشرق العربي.
ومن هنا نرى أن الشرق العربي شاء أو لم يشأ مفكروه سيمضي في سلسلة من التغايرات حتى ينتهي إلى أن يحوز المكافأة للمؤثرات التي دخلت محيطه؟
(إسكندرية)
إسماعيل احمد أدهم
كتاب المبشرين الطاعن في عربية القرآن
أمسلم مصري أم مبشر بروتستنتي؟
لأستاذ جليل
- 1 -
اقترحت وزارة المعارف المصرية ذاك المقترح في تيسير (القواعد)، وأعلن أولئك الفضلاء (الميسرون) منهجهم، فقال قائلون من العلماء لما رأوه: إن هذا التيسير تعسير، وإنما تسهيل القوم تصعيب. وتجادل الفريقان في الجرائد والمجلات والكراريس. و (كتاب العربية) يقول: (فأما الزبد فيذهب جُفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض)
والعربية هي كسائر اللغات وليست بأصعبهن، وإن نحوها - وإن لطفت دقائقه وجلت حقائقه - إلا كنحوهن
وليست المشكلة في صعوبة اللغة أو سهولتها ولا في (قاعدتها) وإنما هي في (المعلم والكتاب) فهما اللذان يسهلان ويصعبان، وهما اللذان يهديان ويضلان، وهما اللذان يحببان إلى الفتى لغته أو يكرهان. فالمعضلة كل المعضلة هي في المعلم وعلمه وتعليمه وكتاب كل صف من الصفوف وتبويبه وتربيته وتبيينه، ولو غزت الوزارة هذين لقرطست
ومن ظن أو أيقن أن تقريب العربية أو تسهيلها هو في تهديم قواعد فيها - فهو مهوَّس يهذي، أو موسوس يلغو. وليست اللغة العربية ملك كاتب أو كويتب، أو أديب أو أدِّيب، أو عالم أو عويلم، حتى يتصرف فيها تصرف المتملكين، كلا، ثم كلا. إنها تراث قرون وملك أمم، فأين يذهب بكم يا لاعبون؟
واللغات في المشارق والمغارب إنما يقدم فيها ويؤخر، ويلغي ويعلق، وينقص أو يزيد، ويحيا أو يبيد - فأنه لا يفعل ذلك إلا الاحتياج الطبيعي أو الانتخاب الطبيعي وإلا الدهر، لا اللاعب العابث ولا الجاهل الغر. ولقد كان التبديل الطبيعي في هذا اللسان في كل عصر. ولو استمرت تلك المدنية، ولولا التتر والصليبيون المخربون في الشرق، والفرنج الجاهلون المدمرون في الأندلس في الغرب، لرأت الدنيا من ارتقاء العربية كل عجيبة
كان مقترح الوزارة أو فتنة الوزارة، وجاء شر يقفوه شر، وأهزأ مهرئون، وانبرى الصبيان يقولون، ونطق الرُّوَيْبِضة (واستنت الفصال حتى الفرعي) ثم جاءت الطامة الكبرى: (أعني الضلال الضال في مجلة في القاهرة؛ فقد نجم فيها ناجم وتهدَّم على هذا اللسان العربي وكتابه الكريم بالقول السخيف مُشيعاً بالرأي الركيك والصنع اللئيم.
ولو أقتصر هذا الخارجي على بقبقته في تقويض (القواعد) أو نسفها ما باليناه بالةً ولقلنا:
إنما هو ضحكة جاء بأضاحيك، فليضحك الضاحكون؛ لكنه شاء أن ينقلب لعنةً يلعنه اللاعنون؛ فقد تمسك هذا الكاتب في هاتيك المجلة بالذيل أو (التذييل) لكتاب (مقالة في الإسلام) لجرجس سال الإنكليزي (وهو الكتاب الذي نشرته جماعة التيسير بل التضليل من البروتستانت في مصر) وانجرأ واستجر مسلم ابن مسلمين - يا للأسف - للطاعنين في الدين، والمُقْدمين وقحين على تنقص القرآن وتغليطه في العربية . . .!
وهذا هراء صريع (التضليل)! وهذا بذاء صاحب (التذييل)! فاسمع - يا أخا العرب - غرائب العصر، ومضحكات في مجلات في مصر؛ بل شاهد أشراط الساعة، بل انظر أهوال يوم القيامة!
قال الكاتب المسلم في المجلة:
وإلا فكيف نعرب كلمة (الصابرين) في قوله تعالى: (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل) المشرق والمغرب، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي

الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا، والصابرين في البأساء والضراء) كيف نعرب كلمة الصابرين المنصوبة هنا مع كونها معطوفة على جميع المرفوعات التي سبقتها إلا إذا عاوننا المفسرون؟)

وقال كتاب المبشرين البروتستانت:

وإذ قد تقرر هذا فلنشرع في تعقب خطئه. قال في سورة البقرة: (ليس البر الآية)) وكان الوجه أن يقول والصابرون لأنه عطف على قوله والموفون، لكن المفسرين قالوا إنه نصب الصابرين على المدح)

قال الكاتب المسلم في المجلة:

وقوله تعالى: (رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين) فنفهم) المعنى وإن فات بعضنا سر جزم (أكن) مع مجيئها معطوفة على فعل (أصدق) المنصوب بفاء السببية!)

وقال كتاب المبشرين البروتستانت:

وقال في سورة المنافقين (وأَنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت) فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين) بجزم أكن والوجه وأكون بالنصب)

قال الكاتب المسلم في المجلة:

وقوله تعالى: (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن) فيكون) فنفهم معنى الآية وإن كنا لا نفهم لماذا قال (كن فيكون) بدلا من كن فكان مادام سياق الرواية كله في صيغة الماضي)

وقال كتاب المبشرين البروتستانت:

وقال في سورة آل عمران: (إن مثل عيسى الآية) والوجه فكان، وفي هذا الموضع) يقتضيه بصيغة الماضي)

قال الكاتب المسلم في المجلة:

وقوله تعالى: (وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطا) فنفهم المراد وإن عجبنا لتأنيث العدد) مع أن العدد مذكر، وإن قيل لنا إن السبط يذكر ويؤنث فسنظل نعجب من جمعه المعدود ونتساءل لماذا لم يقل اثنتي عشرة سبطا)

وقال كتاب المبشرين البروتستانت: (وقال في سورة الأعراف (وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطا) فأنث العدد وجمع المعدود والوجه التذكير في الأول والإفراد في الثاني كما هو ظاهر)

قال الكاتب المسلم في المجلة: (وقوله تعالى: (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئون من آمن بالله. . . الخ) فنفهم معنى الآية ويدهشنا في الوقت نفسه رفع (الصابئون) رغم كونها معطوفة على المنصوبات التي قبلها وكلها واقعة في اسم إن)

وقال كتاب المبشرين البروتستانت: (وقال في سورة المائدة: إن الذين آمنوا والذين هادوا

والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) والوجه أن يقول والصابئين)

قال الكاتب المسلم في المجلة:

وقوله تعالى: (لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما) أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر) فنفهم أيضاً معنى الآية ونحن لا ندري من سر نصب (المقيمين الصلاة) مع كونها معطوفة على المرفوعات التي سبقتها وأعقبتها إلا ما يقوله المفسرون من أنها وحدها منصوبة على التخصيص)

وقال كتاب المبشرين البروتستانت: (وقال في سورة النساء (لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر) وكان الوجه أن يقول والمقيمون الصلاة كما قال بعده والمؤتون الزكاة. هذا ما تقتضيه القاعدة إلا أن المفسرين زعموا أنه نصب المقيمين الصلاة على المدح)

فمسطور (المضلَّل) - كما يرى القراء - هو مكتوب (المذيَّل) وقد نتش (المسلم) أقوال (المبشر) وأربى عليها ذاك الهزأة باستهزائه بآيات (الكتاب). وهل قوله (وإن كنا

!لا نفهم لماذا) (فسنظل نعجب) (ويدهشنا في الوقت نفسه) - إلا تهكم؟
وقد تَتَرّس الكاتب في المجلة بقوله (وقوله تعالى) وما حكى (وقوله تعالى) ومسيء
إلى إسلاميته وعربيته ومصريته وشرقيته بتصديق الحاقدين الجاهلين ومظاهرة
المبشرين رسل الغربيين المغيرين - إنما هو أعزل، وإنما هو أكشف، وإن استجن بكل
ترس أو مجن
وسأبين جهل الجاهل وضلال الضال تبييناً
الإسكندرية
(* * *)
فلسفة الأسماء
للأستاذ السيد شحاتة
(بقية ما نشر في العدد الماضي)
القديم والحديث من الأسماء
الأسماء عنصر تاريخي مهم إذ نعتمد عليها كثيراً في الاستدلال على مختلف التقلبات
السياسية والاجتماعية، وترشدنا إلى مقدار النفوذ والسلطة لطائفة أو فرد في أيام
معينة، كما أن منها ما يتناساه الناس حيناً من الدهر خوفاً من بطش الجبابرة. وقد
قالوا إن الناس كانوا يتحاشون تسمية أبنائهم بأسماء علوية خوفاً من بطش الأمويين
هذا إلى أن الأسماء أوضح بيان ولع المغلوب بالتشبه بالغالب ومحاكاته، فمصر في
أيامها الحديثة غلبت عليها أسماء تركية أيام أن كانت تابعة للعثمانيين، وسار بعض
الناس في تيار الأسماء الأجنبية بعد الاحتلال. كما أننا نجد الأسماء الفارسية واليونانية
تشيع أيام العباسيين مما يدل على نشاط هذه العناصر وقوتها في تدعيم أركان الدولة
وقد ينتاب الناس نوع من الاندفاع فيأخذون باسم مخصوص فتكثر التسمية به ويزيد
الإقبال عليه. وقد لاحظت ذلك في مواطن معينة من القطر المصري فوجدت اسما
مخصوصاً يشيع في الفيوم وآخر يفشو في طنطا وثالثاً يذيع في المنصورة وهكذا. .
وليس لذلك من سبب إلا وجود كبير أو ولي يشتهر في كل إقليم
وإننا لندرك عند البحث أن هناك أسماء بادت وانقرضت فلا يسمى بها الناس الآن إلا
نادراً (أم الخير. ست أبوها. زنوبة. زهرة. حنونة. مصطفية. مريم - عمر. سالم.
جرجس. حنا عثمان) وكثير من الناس اعتادوا في العصر الحديث أن يسموا أبناءهم
بأسماء مستحدثة ينظر فيها إلى التجديد والابتكار والرشاقة اللفظية (نبيل. سمير.
كميليا. سوسن. آمال. سهير)
كما أن هناك أسماء أخرى يميل أصحابها إلى الشذوذ والغرابة لاعتقادهم أن التسمية
تحفظ صاحبها من العين والحسد، أو أنها تطيل العمر فتجد من يسمس (دحيكة.
حلوتهم. حلموس. الفص. قطش. بعزق. بندق. مليم. أبو قرشين) وهناك أسماء تدل
دلالة صريحة على
الموطن، فعندنا في الصعيد مثلا أسماء مخصوصة قل أن تجدها في الوجه البحري (أبو
عميرة، وأبو ستيت) ومن الأسماء ما يدل على الجنس كالأسماء الأرمنية فكلها تقريباً
تنتهي؛ (يان) (ملكونيان ماتوسيان ببازيان صاروخان يعقوبيان)
الألقاب
لم تعرف اللغة العربية تفخيما في الأسماء قبل عهد العباسيين، وإنما نشأ عن اختلاط
الفرس بالعرب إبان الدولة العباسية أن تأثر العرب بالمغالاة في التعظيم والتفخيم،
فكانت أسماء الملوك لا ينطق بها أصلا وإنما يطلقون ألقاباً للتعظيم اشتهرت حتى
أصبحت أعلاماً (الرشيد - الهادي - الأمين - المأمون)
وفي أزمنة الغلو الديني والتشيع المذهبي يقترن لفظ الجلالة بأسماء الخلفاء والأمراء
(الحاكم بأمر الله والعزيز بالله والواثق بالله) وقد يتجرد الاسم عن لفظ الجلالة
(المعتمد - المعتصم - المعتضد) مما دعا ابن شرف القيرواني إلى أن يقول:
مما يزهدني في أرض أندلس ... أسماء معتمد فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها ... كالهر يحكي انتفاخاً صورة الأسد
وفي تركيا درج الأتراك منذ الزمن القديم على طريق ذكر الاسم مجرداً عن اللقب، إلا
أنه في العهد الأخير قرروا أن يتخذوا ألقاباً تدل على أسماء تركية يظهر فيها معنى
تاريخي أو قومي. فقد تسمي رئيس الجمهورية (أتاترك) ومعناها (أبو الترك)، كما لقب

رئيس وزرائهم عصمت باشا بلقب (أون أوين) وهو أسم لبلدة ريفية كانت فيها الموقعة التي انتصر فيها الترك على اليونان في حرب الأناضول
وما تزال الأسر العريقة تشفع أسمها بألقاب مأخوذة من أسماء المقاطعات التي ينتمون إليها (دوق بربانت) - (برنس أوف ويلس) - (دوق يورك). وإن إطلاق اسم أمير الصعيد على صاحب السمو الملكي ولي العهد المحبوب لمن هذا القبيل. ولدينا في مصر بعض من الطرق الظريفة يلجأ إليها الناس في التسمية والتلقيب، فمن ذلك بعض الأسماء التي تطلقها بعض الجرائد والمجلات على كثير من الناس والهيئات فإذا بتلك الأسماء أشهر من الاسم الحقيقي. وفي كثير من الحوادث والمناسبات يشتهر إنسان باسم خاص فيصبح لقباً لأسرته من بعده لا يحيد الناس عنه
كما أن ببلادنا نوعاً غريباً من التلقيب وهو دلالة الكنى على أسماء معينة: مصطفى (أبو درش) يوسف (أبو حجاج) حسن (أبو علي) إسماعيل (أبو السباع) علي (أبو علوة) إبراهيم (أبو خليل) محمد وأحمد ومحمود (أبو حميد) كل اسم مصدر بعبد (أبو عبدة) سليمان (أبو داود)
وقد جرت مصر على عادة الألقاب ففيها، كلمتا (أفندي) و (شيخ) وهما تمنحان بلا حساب ولا رقيب، ولقب حاج ويقابله عند المسيحيين المقدس، ولا يلقب بهما إلا من تمتع بالوصول إلى الأماكن المقدسة. وأما بك وباشا فهما من حق صاحب الجلالة مولانا الملك ينعم بهما على من يشاء. ومن الألقاب التي تملكها كل سيدة لقب (هانم) إلا أن العرف والعادة خصت الفتاة قبل الزواج بالآنسة وأطلقت عليها بعد الزواج لقب (السيدة) وقد سار الغربيون على عادة ذكر الزوج بعد اسم زوجته بدل أبيها. ولقد حاكاهم أخيراً كثير من المصريين وشاعت هذه الطريقة الآن , ومن أشهر من سمي بها (صفية زغلول. هدى شعراوي) وكثيرات غيرهما
وقد درج الناس على أن ينعموا بأحد اللقبين (أفندي وشيخ) على من يشاءون، يسمون من كان مطربشاً بالأول ومن كان معمما بالثاني، وفي ذلك من الحيد عن وجه الصواب وما فيه. أما الشيخ فهي كلمة عربية ومعناها (من تجاوز سن الشباب) أو (من توفرت له حكمة الشيوخ وفضلهم ولو كان شاباً). أما الأفندي فهي كلمة تركية كانت تطلق على ولي العهد في تركيا زمن الخلافة، ثم نقلت إلى مصر وشاعت فيها. وإنجلترا تسير على نظام الألقاب (مستر وسير ولورد) أما فرنسا فقد ألغيت فيها الألقاب ولم يبق للعظيم والحقير إلا كلمة (مسيو)، وكذلك فعلت تركيا في عهدها الأخير. وفي سوريا قررت الكتلة الوطنية هناك إلغاء جميع الألقاب من باشا وبك وأفندي وصاحب الدولة والفخامة والعزة والاستعاضة عن كل ذلك بلقب (السيد)؛ وقد قابلت الطبقات السورية كلها هذه الخطة بالمدح والاستحسان. أما في مصر فقد صدر قانون منذ خمس سنوات يحرم ألا يلقب بلقب إلا من أحرزه، فقلل بذلك الألقاب الزائفة إلا أن الأمر مع الأسف اقتصر على المكاتبات الرسمية والصحف. أما في غير ذلك فلا زال الناس يكيلون بغير حساب. وحسناً تفعل الحكومة المصرية لو أنها ألغت جميع الألقاب فيصبح متساوين ولا فضل لأحد على أحد إلا بعمله ونبوغه وقدرته
غرائب التسمية
للأسماء غرائب مدهشات نذكر بعضاً منها:
جرت العادة أن يعرف الإنسان باسمه واسم أبيه وأسرته، إلا أننا في كثير من الأحيان نجد الاسم يطغى على اسم الأب والأسرة فكثير من الناس قد يعرفون الملك أو العظيم باسمه فقط على أنهم يجهلون اسم أبيه
ومن عجائب الأسماء ما شاع اليوم من إطلاق اسمين على مسمى واحد، يظهر ذلك في الذكور والإناث (محمد طلعت - محمود شكري - زينب كميلة - فاطمة ثريا - ثروت هانم).
وفي مصر من أعجب الأسماء أننا نسمع عن اسمين أحدهما أخ للآخر، ولكنا لا نلمح أي اتفاق في اللقب حتى يكادان أن يكونا متباعدين (إسماعيل صدقي أخوه محمد نجيب شكري. عبد الخالق ثروت أخوه مصطفى رياض. أمين أنيس باشا أخوه محمد بك رياض) وتلك طريقة غريبة تضيع معها ألقاب الأسرات بمرور الزمن. ومن أغرب ما سمعت أن المدارس المصرية في عهد المغفور لهما محمد علي وإسماعيل كانت

تطلق أسماء جديدة على تلاميذها يعرفون بها في المدرسة ويشتهرون بها في الحياة العامة
وفي الصين نجد معظم السكان لا تتعدى أسماؤهم أربعة (شانج - وانج)
وكل مسمى في الغالب له حظ من اسمه فالذي اسمه (ماهر، ذكي، سعيد) ينال في الغالب شيئاً من دلالة اسمه. و (فؤاد، فاروق، فايزة، فوزية، فوقية، فايقة، فتحية) أسماء بدأت بالفاء: فكل من يسمى بواحد منها يتفاءل أولا لأنها أسماء ملوك وأمراء، وثانياً لأن فيها معنى الفوز والفتح والفضل
والذين ينجمون ويتعرفون حظ الإنسان ويكشفون له عن مستقبله كل عمادهم على الأسماء: فهم يرون في حروف كل اسم ما يدل على حظ صاحبه وما قدر له في عالم الغيب، ولهم في ذلك طرق كثيرة: منها أنهم يقسمون الحروف طوائف وكل طائفة منها تدل على معان يتصف بها صاحب الاسم الذي تغلب فيه هذه الحروف. ومنها أيضاً أنهم يجمعون الأعداد الدالة على الحروف وهو ما يعرف عندهم (حساب الجمل) فيجمعون اسم الشخص واسم
أمه ثم يسقطونها سبعة سبعة، والباقي يدل على حظ صاحبه
الأسماء واللغة
اصطلح علماء العربية على تقسيم الأسماء الأعلام إلى ثلاثة: كنية وهي المصدرة بأب أو أم (أبو طالب، أبو الفضل - أم كلثوم أم الخير) ولقب وهو ما أفهم مدحاً أو ذماً (الرشيد، الفاضل، الجاحظ، السفاح) والثالث اسم وهو ما سمي به الإنسان (أحمد، علي، فرج، سليم)
ولو تتبعنا معظم الأسماء لوجدناها تقريباً (من المشتقات) فمنها أسماء فاعلين (حامد، قاسم، راغب، ماهر، عادل) ومنها أسماء مفعولين (محمود، منصور، معروف، مبروك، مسعود) ومنها صفات مشبهة: (سعيد، بخيت، سمير، كريم، ذكي، نبيل) إلا أنه على الرغم من كونها مشتقة فإننا نعتبرها من القسم الآخر وهي أنها جامدة
كما أن هناك كثيراً من الأسماء يختلط فيها المذكر بالمؤنث (عطية، إحسان، ثروت، آمال، رجاء، صوفي) واللغة العربية تنزل المذكر المسمى باسم من هذا النوع منزلة المؤنث فتمنعه من الصرف
اقتراح
وأخيراً لقد تقدم عالم أمريكي وقال إن الأسماء قد كثرت كثرة عظيمة، وصارت من أسباب الفوارق بين أبناء الأمة الواحدة لدوافع دينية، فهو لذلك يقترح الاستغناء عن الأسماء بتاتاً وتسمية الناس بأرقام فيقال مثلا (43 ابن 35) وهكذا. ولذلك سوابق، فالمسجونون والعساكر وعمال الترام يعرفون في معظم الأحوال بأرقامهم
والإنجليز يشيع بينهم اسما (جون) و (إسميث) حتى ليبلغ عدد من يسمون بهذين الاسمين في إنجلترا مليوناً من السكان
وفي مصر نجد الأغلبية يشيع بينها (محمد، محمود، أحمد، علي)
وللألقاب كذلك غرابة: فبعضها يدل على معان غريبة، ربما كانت ثقيلة، ولكنها اشتهرت فأصبحت سهلة ذائعة مقبولة (البلط، الجحش، أبو شوشة، البرش. أبو شناف، عجور، شبايك)
الأسماء والقانون
جرت العادة أن يطلق الاسم على الطفل فتسجله القابلة في سجل أعد لذلك بمكاتب الصحة، ومتى عرف الابن أو البنت بهذا الاسم فلا يجوز تغييره إلا بشروط خاصة، أن يتقدم الطالب إلى بعض الجهات القضائية ويدفع رسماً خاصاً، ويأتي بشهود ويسجل اسمه الجديد، والغرض من هذا التشديد في التغيير تضييق السبل أمام من يريد الفرار من حكم القضاء أو من دين عليه. وكثير من الناس يتقدمون لتغيير أسمائهم إما لأنها مكروهة في نطقها أو لاشتهارهم بغيرها بين الناس
وهناك كثير من الناس لهم أسماء رسمية وأخرى عرفية: فالأسماء التي سجلت في سجل الميلاد وهي الرسمية، وقد يعرفون بغيرها عرفاً واصطلاحاً بين مواطنيهم ولكن الأحكام القضائية والشهادات الدراسية تصدر بالاسم الرسمي
الأسماء والخط
التفاؤل بالأسماء والتشاؤم بها قديم جداً، فقد كان قدماء المصريين يتفاءلون بأسماء

آلهتهم فيسمون بها أو ينسبون إليها (خفرع، آمون، حتب، توت عنخ آمون) وكان العرب يسمون أولادهم بأسماء يتشاءم منها (تأبط شرا، أبو الغول، أبو لهب، أبو جبل) وفي نفس الوقت يسمون عبيدهم بأسماء يتفاءل بها (الفضل، جوهر، فرج، سالم، سرور) وقد سئل بعضهم في ذلك فأجاب: (إنما سمينا عبيدنا لنا، أما أبناؤنا فسميناهم لأعدائنا) ومما يؤثر: أن عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم حينما بشروه بولادة النبي قال سموه (محمداً) فإني لأرجو أن يحمد في الأرض وفي السماء، والمسلمون يتفاءلون دائما بهذا الاسم المبارك الكريم

ولكن الاسم فيه معنى من معاني التكريم للإنسان والسمو إلى منزلة يتفرد بها ويمتاز عن غيره من المخلوقات، فلو أخذنا بنظام الأرقام كان ابن آدم سلعة من المتاع ولكن من يدري:

فالليالي من الزمان حبالى ... مثقلات يلدن كل عجيب

السيد شحاتة

المدرس بالجامعة الأمريكية

خواطر ورموز

للأستاذ عبد المنعم خلاف

1 - أطماع لا حد لها

تكتب يد بليدة ما رأته عين ضيقة في الدنيا الواسعة ذات الأبواب التي لا عدد لها، كتابة المتعجل الذي يريد أن يرى ويسجل قبل الرحلة التي لا رجعى بعدها هنا. . .

ورحلتنا من هنا قد حملت كثيراً من الركب على أن يتخففوا ما استطاعوا، وأن يمروا على أشياء الدنيا بالنظرة الخاطفة، والخطوة العابرة، إيماناً بأن كل شيء هنا للفناء والعفاء، فلا غناء فيه ولا وراء من أخذه في الحس وتسجيله في النفس والطرس بالتأمل والدرس

بيد أن كل هذه الأضواء الفانية، والألوان الفاصلة، والرؤى المتلاحقة، والدنيا التي تمتلئ وتفرغ كل لحظة. . . هي أحق شيء بالتسجيل وفتح الأعين الخفية عليها من غير إغماض أبداً

فلئن عشنا حياة أخرى، وهو الموقن به في إلهام الروح، والمحكوم به في إثبات العقل، فان أمتع شيء لنا هناك أن نستعرض صورنا هنا يوم تمحي هذه الأرض من الوجود ولا تبقى إلا في النفس الإنسانية كمرحلة من مراحلها في سيرها إلى غايتها المجهولة

ولكن الألفاظ ضيقة والدنيا واسعة والحياة سريعة السير. فلا أدري هل أنا مستطيع أن آخذ في ألفاظي الضيقة ما أريد أخذه حتى أشعر يوم يقبل اليوم النهائي أنني خارج من الدنيا ممتلئ الأوعية (بأفلام) طويلة كاملة الإخراج؟

أنا في إرهاق دائم بمطالب العيش ومشاكل الناس وضرورات الأبدان. . . وإنما أنظر إلى ما أمام الستار وما وراءه، في فترات قصيرة كفترات الأحلام.

فما لي على إدراك هذا يدان ولا قدرة إلا أن يضاعف صاحب الحياة من قوى نفسي فيمدني بعيون كثيرة وآذان كثيرة (وعدسات) كثيرة.

من لي بمن يدمجني في كل شيء حتى أتحدث عنه كأنني هو متحدثاً عن نفسه؟!

فيا أيتها الدنيا البُعْدَى. . .! اكشفي لي القناع واهتكي أستارك لتلك العين الضيقة التي أرمدها السهر على بابك، وولهها الدنو من رحابك، حتى ما وراء الستار.

فإن مبلغ علمي بدنياي أن أولها: أنا. . . وثانيها الأرض. . . وثالثها: السماء. . ورابعها: أنا غير الأولى. . .! وخامسها: هؤلاء جميعاً. . .

فهات يا دنيا! املئي يدي وفمي وكل وعاء فيَّ. . . إني واقف أنتظر الكنوز الموعودة. . . يداي مازالتا مبسوطتين منذ أن عرفت. . . وفمي فاغر إلى فوق،. وعيناي كهفا ظلام لم تقنعا بما ينفذ إليهما من هذا الضوء الذي تراه أيضاً كل العيون الضالة فلا يهديها. . .

2 - والمحصول؟

ولكن. . .

هل في الدنيا إلا طريق واحد تذهب فيه الأقدام طولا وعرضاً على الشوك والحصى والغبار، ثم تنتهي إلى الحفرة التي لا تشبع أبداً من الجثث والحطام؟

وهل أنا عالم بذلك علم الذي ينظر الخواتيم دائما في المبادئ؟

وهل لا يزال يزيغ حواسي ذلك البريق الخالب فأجري وراءه وأنا أعلم أني أجري إلى لا شيء؟
أو لم أجرب العناوين وما وراءها ودنيا الألفاظ التي تضع الأسماء ليعيش الناس بها فقط؟
وهل أذهب كما ذهب أكثر الناس غريق الوهم والسعي المكدي إلى الأصفار التي غرنا منها أنها تعد أيضاً كما تعد الأرقام؟
!. . .ماذا وراء التراب المزوق يا أولي الألباب؟ املئوا منه أواعيكم ما شئتم
!. . .ماذا وراء التجارة بالألفاظ أيها الحكماء؟ املئوا الصحف بها ما أردتم
فليس في الدنيا إلا يوم واحد تفرغه الشمس أضواء وظلاماً على أجسادنا فتبينها ثم نبليها به. . .
والأرض دائماً تقرع بالأقدام. . . والصبح دائماً معه صوت الطير. . . والليل دائماً معه نجومه. . . والمحصول عدد لا نهائي من الأصفار!
3 - لابد من جنون أيها العقلاء!
. . .ولكن أيضاً
لابد من جنون أيها العقلاء لندرك!
لابد أن نصر على هذا النداء:
أمسكي الماء أيتها الغرابيل. . . اقبضي على الريح أيتها الأصابع. امضغي الهواء أيتها الأضراس. . . أدلي الدلاء إلى السراب أيتها الأيدي. . . اطحني القرون أيتها الطواحين. . .
4 - الأعمى والمرآة
- وهذا الإصرار هو أمانيُّ أعمى ينظر في مرآة! ليرى فيها خيوط ضوء من أفق مجهول يقع على وجهه المجهول لديه الخالد في الظلام بخلود أقفال عينيه!
. . .إنه يتعزى بأن المرآة هي التي تراه. . . فاعذروه واتركوه يقلب وجهه فيها
عبد المنعم خلاف
مائة صورة من الحياة
للأستاذ علي الطنطاوي
6 - رطل عنب
كان عندنا منذ أسبوع عمال أنفذهم صحب المنزل ليصلحوا شيئاً في الدار. وابتغاهم من الأرمن ولم يسمع نصيحتي إليه بان يستبدل بهم عمالاً من أهل البلد، وتعلل عليَّ بان هؤلاء أجود عملاً، وأقل كلفة. ولقد وجدتهم والله كما قال: عملوا في اليوم ما لا يعمله غيرهم في الثلاثة، فكنت أرقبهم وأدرس طبائعهم فما أنكرت منهم شيئاً حتى أظهر الظهر وزال النهار، فقطعوا العمل، وقعدوا يأكلون ويستريحون، فلم يجدوا العنب، والعنب الأحمر في الشام قوام حياة العامل لقلة ثمنه، وكثرة فائدته، وإن من يأكله إنما يأكل الصحة والقوة ثمراً شهياً، فبعثوا أحدهم، بقروش ليشتري لهم رطلاً، ولبثوا ينتظرون. . . فمضى ربع ساعة وربع آخر، وربع ثالث، ولم يحضر، ثم جاء يلهث من التعب، فلم أتمالك أن صحت به:
- أين كنت يا هذا؟ أرحلت في طلب العنب، والعنب ملء الأسواق؟
- قال: لقد اشتريته من (البرامكة)
- قلت: من البرامكة؟ على مسافة كيلين اثنين؟ ولم هذا العناء؟. . .
- قال: لم أجد بائعاً أرمنياً إلا هناك!!. . .
7 - أبوه!
أخبرني صديق لي من جلة العلماء، قال:
كنت أتولى المدرسة الخيضرية، وهي من المدارس القديمة في دمشق، فجاءني ذات يوم شيخ هرم عليه ثياب أخلاق، وعمة بالية، فأقبل على استحياء يسألني عملا في المدرسة وظيفته خمسة أرغفة في اليوم. فأعطيته الذي يريد، ولم أسأله عن نفسه حتى مرت أيام، فخبرني أن له ابناً، ولكن ابنه يعرض عنه وينكره، فعجبت من ذلك وقلت له: من هو ابنك؟
- قال: فلان!

فلما سمعت الاسم صعقت، وعدت أسأله:
- ؟. فلان؟ الأستاذ الكبير، صاحب الشهادات الكبرى من أوربا
- قال: نعم، هو والله ابني. ولقد أنفقت عليه مالي وشبابي، فلما صار شيئاً، جزاني شر جزاء، وجعل مكافأتي الإنكار والاحتقار، واضطرني إلى سؤال الناس وإراقة ماء وجهي في رغيف من الخبز
. . .فقلت: أنا أكلم ابنك، فهو صديقي
قال: لا، لا تفعل سألتك بالله. . . فأنه إن عرف أني خبرتك ضربني وآذاني. لقد حرم عليَّ أن أنبئ أحداً أني أبوه!
. . .!قال صديقي الأستاذ: هذا والله ما كان، ما زدت فيه حرفاً ولا نقصت
(دمشق)
علي الطنطاوي
للأدب والتاريخ
مصطفى صادق الرافعي
1880 - 1937
للأستاذ محمد سعيد العريان
- 38 -
1 - (. . . وأنا على كل أحوالي إنما انظر إلى الجمال كما أستنشي العطر يكون متضوعاً في الهواء: لا أنا أستطيع أن أمسه ولا أحد يستطيع أن يقول أخذت مني. ثم لا تدفعني إليه إلا فطرة الشعر والإحساس الروحاني، دون فطرة الشر والحيوانية، ومتى أحسست جمال المرأة أحسست فيه بمعنى اكبر من المرأة، اكبر منها غير انه هو منها!)
2 - (. . . ولكنه عاشق ينير العشق بين يديه؛ فكأنه هو وحبيبته تحت أعين الناس: ما نطمع إلا أن تراه وما يطمع إلا أن يراها ولاشيء غير ذلك؛ ثم لا يزال حسنها عليه ولا يزال هواه اليها، وليس إلا هذا
والذي هو اعجب أن ليس في حبه شيء نهائي فلا هجر ولا وصل، ينساك بعد ساعة) ولكنك أبدا باقية بكل جمالك في نفسه. والصغائر التي تبكي الناس وتتلذع في قلوبهم كالنار ليجعلوها كبيرة في همهم ويطفئوها وينتهوا منها ككل شهوات الحب، تبكيه هو أيضاً وتعتلج في قلبه، ولكنها تظل عنده صغائر ولا يعرفها إلا صغائر؛ وهذا هو تجبره على جبار الحب!)
(هو الرافعي)
الجمال البائس
وهذا حب جديد وليلى جديدة، ولكنه حب كما وصف الرافعي؛ فما هو إلا سمو بالنفس فوق نوازع البشرية إلى غيب السماوات يتنور في عوالمها الخفية نور الإنسانية في حقائقها العالية
كان ذلك في صيف سنة 1935، وكان الرافعي يصطاف في سيدي بشر؛ ثم كان يقصد إلى الإسكندرية أحيانا ليلقى صديقه السياسي الأديب الأستاذ حافظ. . .؛ فان بينهما لصلات من
الود ترجع إلى نحو عشرين سنة، منذ كان الأستاذ حافظ محاميا في طنطا.
وكان صديقه يقضي أجازته في الاسكندرية، مشغولا بكتاب يهم أن يصدره في شأن من شئون الإسلام أوحى إليه بموضوعه فترة غير قصيرة من تاريخه السياسي قضاها في بلاد الحجاز، وكان الرافعي يعاونه في إنشاء كتابه. . .
وكانا يتواعدان على اللقاء في ملهى من ملاهي الإسكندرية على شاطئ البحر، حيث تتهيأ لهما الفرصة من هدوء المكان في النهار وقلة إقبال الناس عليه، لما هما فيه من عمل
في هذا الملهى كانت تعمل فرقة الراقصة المشهورة (ببا) فيعج كل مساء بمن يفد إليه من طلاب اللهو والهوى، ليفرغ للرافعي وصاحبه في النهار يداولان الرأي في شئون الأدب والدين والفلسفة. وشتان ليله ونهاره!
وكثر تردد الرافعي وصاحبه على هذا الملهى حتى ألفهما المكان وألفا ما فيه، وألفهما فيمن أَلِف فتاة من راقصات الفرقة، هي الإيطالية الحسناء (بـ. . .) فما كان بينها وبين

. . .الرافعي إلا نظرة وجوابها ثم كانت قصة حب
وجلس الرافعي إليها يتحدثان ذات نهار، وكشفت له عن صدرها وكشف لها، فكان بينهما حديث طويل، شهده الأستاذ حافظ من بدايته إلى منتهاه، ثم ترك الرافعي لهواه وتركته صاحبته. . .
وذاق الرافعي مرة أخرى لوعة الحب وبرجاء الهوى، وكانت محبوبته الأخيرة راقصة من بنات الهوى تعمل في مسرح هزلي من مسارح الصيف المتنقلة بين شواطئ الإسكندرية. . .!
تلك هي صاحبة (الجمال البائس)
وانتهت اشهر الصيف وعاد الرافعي إلى طنطا وعادت الفرقة الراقصة إلى القاهرة، وشت ما بين الحبيبين!
ولقيت الرافعي بعدها فحدثني حديثه والكلمات ترتعش على شفتيه وفي عينيه بريق عجيب؛ ثم تهدج ورق صوته وهو يقول: (مسكينة! يا ليتني أستطيع أن ابلغ ما في نفسها لأعلم ما تشكر من حظها وما تنكر. . . ليس موضعها هناك، ولكنه القدر!)
ولقيته في القاهرة ذات مساء، وقد فرغ من مقالات (الجمال البائس) فدعاني أن اصحبه إلى
الملهى الذي تعمل فيه ليراها من بعيد، وأرسل من يطلب له تذكرتين عند الشاب من أبناء عمومته يعمل في (دار الهلال) وأبطأ عليه الرسول فلم ينتظر، فنهض ونهضت معه واتخذ طريقه إلى (عماد الدين). .
ووقف بالباب ينظر الصور ويقرأ الإعلان وهو يسألني: (أين اسمها؟ وأين صورتها؟ وأين. . . وأين هي!)
وطالت وقفته وهو ينظر إلى صورتها في إطار كبير إلى جانب الباب يضم صورتها إلى صور شتى من راقصات الفرقة ما منهن إلا لها جمال وفتنة، ولكن عينيه كانتا تنظران إلى صورة واحدة، إلى صورتها!
ثم تحول عن الباب مسرعا عجلان وهو يجمجم بكلام لا يبين
وقال لي وقد أسرعت إليه حتى حاذيته: (أيليق أن ندخل إلى هذا المكان؟ أتراه من المروءة؟ وددت لو رأيتها ولكن. .)
وانتهينا إلى قهوة (بول لور) فجلس وجلست، ومضى يتحدث عن السحر والشعر وفتنة الجمال؛ فما هي إلا لحظة ثم مرت بنا منحدرة من شارع فؤاد إلى شارع سليمان باشا، فأتبعها عينيه من نافذة إلى نافذة حتى توارت في مزدحم الناس ثم عاد إلى نجواه وشكواه. . .
وجلس مرة يتحدث إلى صديقه الأستاذ حسن مظهر محرر (اللطائف) عن ذات (الجمال البائس) فأهدى إليه صورتها؛ فما زالت هذه الصورة معه إلى أخريات أيامه لا تفارقه.
ولقد كان يحسن الظن بعلمها وفهمها، حتى ليحسبها من قراء الرسالة فتفهم ما كتب من مقالات الجمال البائس لتعرف موضعها من نفسه!
وكان لا ينفك يسأل: (أتراها علمت؟ أتراها قرأت. . .؟)
. . .وما أحسبه لقي صاحبا من أصحابه إلا تحدث إليه عن صاحبة الجمال البائس
جلست منذ قريب إلى الأستاذ توفيق الحكيم نتحدث عن الرافعي ونذكر من خبره فقص عليَّ، قال: (كان الرافعي يجلس على هذا الكرسي، من هذه الغرفة، وكان ذلك قبل منعاه بأشهر قليلة؛ ومضى الحديث بيني وبينه حتى جاء ذكر صاحبة الجمال البائس؛ فأخذ الرافعي يصفها لي وصفا لا أجد أبلغ منه ولا أجمل من صاحبته، وطاوعه القول على
تصويرها كما هي في نفسه؛ فما كانت عندي بما وصف إلا امرأة قد أجتمع لها من ألوان الجمال وفنون الحسن وسحر الأنوثة ما لم يجتمع مثله لامرأة؛ وتمثلت صورتها لعيني كما أراد أن يصف؛ فلما بلغ آخر الحديث عنها، قدم إلى صورتها في ورقة لأرى بعيني مصداق ما سمعت. . .
قال الأستاذ توفيق الحكيم: (ونظرت إلى الصورة التي صورها لي حديث الرافعي والى الصورة التي في الورقة، فكأنما استيقظت من حلم جميلّ. . . يرحمه الله لقد كان شاعرا. . .)

كذلك كان سلطانها في نفسه وأثرها في خياله!
وكانت نشأة هذه الفتاة في طنطا لأول عهدها بالرقص، وكانت تعمل مع فرقة قروية أقامت (خيمتها) في طنطا بضع سنين؛ ولم يكن الرافعي يعلم ذلك حتى عرفتها في فرقة (بيا) ورأيت صورتها؛ فلما أخبرته به أغمض عينيه وراح في فكر عميق. . . أتراه كان ينظم شعرا لم يجهر به ولم يسمعه أحد؟
والعجيب أن الرافعي وهو في غمرة هذا الحب الجديد لم ينس صاحبته (فلانة) ولم يفتر حبه لها، بل أحسبه كان أكثر ذكرا لها وحنينا إليها مما كان، وكأنما كان قلبه في غفوة فأيقظه الحب الجديد ورده إلى ما كان من ماضيه
لقد كان قلب الرافعي عجيبا في قلوب العشاق؟ ليت من يستطيع أن يكشف عن أعماقه!
طنطا
محمد سعيد العريان
جورجياس أو البيان
لأفلاطون
للأستاذ محمد حسن ظاظا
- 10 -
تنزل (جورجياس) من آثار (أفلاطون) منزلة الشرف، لأنها أجمل محاوراته وأكملها (وأجدرها جميعاً بأن تكون (إنجيلا) للفلسفة!)
(رينوفييه)
(إنما تحيا الأخلاق الفاضلة دائماً وتنتصر لأنها أقوى وأقدر من جميع الهادمين!)
(جورجياس: أفلاطون)
الأشخاص
1 - سقراط: بطل المحاورة: (ط)
2 - جورجياس: السفسطائي: (ج)
3 - شيريفين: صديق سقراط: (س)
4 - بولوس: تلميذ جورجياس: (ب)
5 - كاليكليس: الأثيني: (ك)
ط - (مجيبا بولوس) فبرهن لي إذاً على أن الخطباء قوم عقلاء، وعلى أن البيان من الفنون وليس بأحد أقسام الملق، وهنالك تكون قد ناقضت رأيي!، أما إذا لم تناقضني فلن يكون للخطباء الذين يفعلون في الدولة ما يشاءون، ولا للجبابرة الطغاة أي خير! وها قد اعترفت بنفسك - حسبما جاء في قولك -: بأن القوة خير، وبأن فعل ما يشاء الإنسان عندما يكون مسلوب العقل شر!، أليس كذلك؟
ب - بلى
ط - وإذا كيف يصير الخطباء والجبابرة جد أقوياء في الدول إذا كان بولوس لم يناقض سقراط ولم يقنعه بأنهم يفعلون ما يريدون؟
ب - يا للرجل. . .!
ط - إنني أدعي أنهم لا يفعلون ما يريدون! فناقضني!
ب - ألم توافق منذ لحظة على أنهم يفعلون ما يبدو لهم كأحسن الأفعال؟
ط - ومازلت للآن موافقا على ذلك؟
ب - فهل يفعلون - على ذلك - ما يريدون؟
ط - ذلك ما أنكره!
ب - حتى ولو كانوا يفعلون (ما يسرهم)؟
ط - بلى
ب - إنك لتقول أشياء بالغة الغرابة وجديرة بالرثاء يا سقراط؟
ط - لا تلمني هكذا سريعاً يا بولوس إذا استعملت لهجتك وأسلوبك!، إنك إذا كنت قادرا على توجيه الأسئلة إليَّ فبرهن لي أني قد غششت نفسي!، وإلا فلتجبني بنفسك
ب - وإني لجد راغب في إجابتك كيما أعرف أخيرا ماذا تريد أن تقول!
ط - أتعتقد أن الناس يريدون كل ما يفعلون من أعمالهم أم هم لا يريدونها إلا من أجل شيء آخر؟ مثلا أولئك الذين يتناولون جرعة الدواء التي يقررها الطبيب: أتراهم

يريدون في رأيك أن يبتلعوا ما لا يسيغونه؟ أم هم لا يفعلون ذلك إلا من أجل شيء آخر هو (الصحة)؟
ب - واضح أنهم لا يريدون من ذلك غير الصحة!
ط - وبالمثل أولئك الذين يركبون البحر أو ينهمكون في كل بحارة أخرى فانهم لا يريدون ما يباشرنه يومياً - لأن من يواجه البحر يعرض نفسه لصنوف العوائق والأخطار - وإنما الذي يريدونه في رأيي هو الشيء الذي من أجله يبحرون وأعني به (الثروة)، لأنا لا نبحر إلا لكي نثري!
ب - ذلك مؤكد!
ط - أو ليس الأمر بالمثل في جميع الأفعال؟ أي إذا فعل الإنسان شيئا من أجل غاية ما، فانه لا يريد ما يفعل، ولكنه يريد (الغاية) التي من أجلها يفعل ما يفعل؟
ب - بلى!
ط - والآن هل يوجد في الدنيا شيء لا يكون حسنا أو رديئا، أولا هو بالحسن ولا هو بالرديء؟
ب - لا يوجد في الدنيا شيء على خلاف ذلك يا سقراط!
ط - أو لا تعد الحكمة والصحة والثروة وكل الأشياء الأخرى المماثلة من الأشياء الحسنة؟ بينا تعد نقائض هذه من الأشياء الرديئة
ب - نعم
ط - وألا تقصد بالأشياء التي هي بين بين، تلك التي قد تكون حسنة وقد تكون رديئة، أعني تلك التي لا تمايز فيها، كالجلوس والمشي والملاحة والجري، أو كالحجارة والخشب وكل ما شابه ذلك من موضوعات؟ أليست هذه في رأيك هي التي ليست بالحسنة وليست بالرديئة؟ أم ترى هي شيء آخر؟
ب - كلا! إنها كذلك لعمري!
ط - والآن عندما نفعل هذه الأشياء غير المتمايزة، أنفعلها من أجل أشياء حسنة أم نفعل الأشياء الحسنة من أجلها؟
ب - لا شك في أننا نفعل هذه الأشياء من أجل غايات حسنة.
ط - وإذا فهو (الخير) الذي نسعى إليه بالمشي عندما نمشي لأننا نرى أننا نكون في حالة أحسن إذا مشينا. وبالمثل عندما نبقى - على النقيض - ساكنين، فإننا نفعل ذلك من أجل نفس الغرض، وهو الخير، أليس ذلك صحيحاً؟
ب - بلى!
ط - ونحن كذلك لا نقتل - عند ما نقتل، ولا ننفي الغير ولا نسلبه إلا عندما نقتنع بأن الأفضل لنا هو أن نفعل ذلك لا نفعله ألا نفعله؟
ب - بالتأكيد!
ط - وإذا فنحن لا نفعل كل ما نفعل من هذا النوع إلا من اجل (الخير)!
ب - أوافق على ذلك.
ط - وإذا قد اتفقنا على أننا عندما نفعل شيئا من اجل غرض ما، فإننا لا نبغي الشيء حينذاك وإنما نبغي الغرض منه؟
ب - بالتأكيد!
ط - وإذا فنحن لا نريد ذبح الناس ونفيهم وتجريدهم من أملاكهم لمجرد هوى يسير، وإنما نفعل ذلك مريدين عندما يكون في ذلك نفع لنا. أما إذا كان في ذلك ضرر لنا فنحن لا نريده لأنا لا نريد إلا الخير كما صرحت أنت بذلك، أما ما هو ليس بالحسن ولا بالرديء فنحن لا نريد كما لا نريد بالأولى كل رديء، أترى ذلك صحيحا؟ أيلوح لك أني محق يا بولوس؟ أجبني بالنفي أو الإثبات. .! مالك لا تجيب؟
ب - إنك محق يا سقراط؟
ط - وما دمنا قد اتفقنا على ما تقدم، فهل إذا قتل خطيب أو طاغ شخصاً آخر أو نفاه من المدينة، أو جرده من أملاكه معتقداً أنه يخدم بذلك منفعته، بينما لا يكون في ذلك إلا ضرره، أتراه يفعل حينذاك ما يسره؟
ب - بلى
ط - ولكن أتراه يفعل أيضاً ما (يريده) إذا رأى أن النتيجة ستكون وبالا؟. . . لماذا لا تجيب؟

ب - لا يلوح لي أنه يفعل حينذاك (ما يريد)!
ط - وإذاً أيمكن أن يلوح لمثل هذا الشخص (قوة كبيرة) في المدينة، إذا صح ما سلمت به من أن القوة الكبيرة خير؟
ب - كلا، فذلك مل لا يمكن أن يكون!
ط - وإذاً فقد كنت محقاً في قولي إن المرء يستطيع أن يفعل في الدولة ما يسره دون أن يكون عنده من أجل ذلك قوة كبيرة أو دون أن يكون فاعلا لما (يريد)!
ب - وما دام من شأنك يا سقراط أنك لا تفضل أن تكون (حراً) في الدولة بحيث تفعل ما يسرك، على أن تكون بعكس ذلك، أفلا تحسد من تراه يقتل ويسلب ويقيد بالحديد؟ من يسره أن يفعل معه ذلك؟
ط - أتقصد أنه يفعل ذلك عدلا أم ظلماً؟
ب - ليكن عدلا ذلك أم ظلماً، أفلا ترى أنه جدير بالحسد في كلتا الحالتين؟
ط - قل شيئاً أفضل من ذلك يا بولوس!
ب - ولم لا؟
ط - لأننا يجب ألا نحسد من هم ليسوا جديرين بالحسد كما لا يجوز أن نحسد الأشقياء والتعساء! بل يجب على النقيض أن نرحمهم يا بولوس!
ب - ماذا؟ أترى أن أولئك الذين أتحدث عنهم جديرون بالرحمة؟
ط - وكيف لا يكونون جديرين بها؟
(يتبع)

محمد حسن ظاظا

غزل العقاد

للأستاذ سيد قطب

- 18 -

متى كان الشاعر صادقا في شعوره وتعبيره، صاحب خصوصية في فهم الحب والحياة، متعدد الجوانب منفسح الآفاق؛ كثرت غزله - وفي شعره كله - صور (الحالات النفسية) - وهي الخاصة التي رصدنا لها هذا المقال في غزل العقاد - ولم يقف في الغزل عند الصور العامة الشائعة، لأنه معنيّ بإظهار خاصة نفسه، وتصوير خلجات ضميره.

وخصائص العقاد العامة - كما قلت في الكلمة الماضية - لا يخطئها الناقد في كل بيت له وكل قصيدة، حتى ليستطيع دارسه أن يثبت له أو ينفي عنه أقوالا لم يعلم صدورها عنه. وبعض إخواني الآن يتفكه معي، فيعرض عليَّ أقوالا منثورة ومنظومة ناسبا إياها للعقاد، فلا أجد صعوبة ما في نفي بعضها وإثبات بعضها، وبيان حكمة النفي والإثبات بخصائصه العامة التي لا تخطيء ولا نتخلف

هذه الخصائص أشد وضوحا في شعر (الحالات النفسية) بطبيعة الحال. وهذا الضرب من الشعر يمتاز فيه العقاد بالوفرة والتنوع والشمول، كما يمتاز (بالخصوصية) والتفرد.

ولا بد من التنبيه إلى هذه الامتيازات. فشعر الحالات النفسية قد يكون، ولكنه يكون ذا لون واحد، أو قريبا في غوره وانبساطه، فلا يكون - إذ ذاك - ميزة للشاعر، إلا من حيث إشارته إلى وجود البذرة الصالحة للإنبات؛ بذرة الأساس الصادق الأمين.

والحالات النفسية التي سنعرضها في هذا المقال فيها الطريف في نوعه وشكله، وفيها الشائع في نفوس المحبين الصادقين، ولكنه معروض في شكل جديد ونسق واتجاه خاصين خصوصية العقاد في عالم الشعراء

الصبابة المنشورة:

الحب الذي طمسه السلوان، وعفى عليه النسيان، يبعثه العقاد حيا، ويشخصه جسما، ويقول له ويستمع إليه، ويعجب منه ويرثي لمصيره، في جو مرهوب مسحور، كجو البعث والنشور.

صبابة قلبي! أقبل الليل غاضياً ... فهبي فقد يغشى الرفاتُ المغانيا
وقد تهجر الموتى القبورَ أمينة ... إذا الليل غشى بالرقاد المآقيا
وثوبي إلى الدنيا مع النوم فانظري ... مكانك قد أقوى وعرشك خاويا
ومري به مر الغريب. وطالما ... تربعت فيه قبل ذاك لياليا
ولا تسألي: من بالديار؟ فإنها ... على موثق ألا تجيب مناديا

بدا شبح عار من اللحم، عظمه ... يجاذب أضلاعا عليه حوانيا
يقاربُ في قيد المنية خطوَه ... ويمشي به ليلا مع الليل ثانيا
وقال: سلام! قلت: فاسلم وإن يكن ... دعائي لميت بالسلامة واهيا!
من الطارق الساري؟ فقال: صبابة ... نعمت بها حينا وما أنت ناسيا
فقلت: أرى جسما عري من روائه ... وعهدي به من قبل أزهر كاسيا
جهلتكِ لولا مسحة فيك غالبت ... بشاشتها أيدي المنون المواعيا
جهلتكِ لولا هزة في جوانحي ... يدَ الدهر لا تبقي من الشك باقيا
ألا شدَّ ما جار البلى يا صبابتي ... عليك فكيف استل تلك المعانيا
أأنت التي أسهرتني الليل راضيا ... وأنت التي أسكرت عيني صاحيا
وأنت التي كنا إذا الناس كلهم ... تولوا، وجدنا مغنما فيك وافيا؟
وأنت التي جليت لي الأرض جلوة ... أسائل عنها الأرض وهي كما هيا
أسائل عنها كل شيء رأيته ... أما كنت فينان المحاسن شاديا
نفختِ بها روحا فغرد صامت ... ورنم جلمود، وأصغيت لاهيا
فلما ألمّ البين لاذت بصمتها ... وأمسيت حتى يأذن الله صاغيا
وهل يسمع الصاغي إلى القبر نأمه ... ولو كان فيه (معبد) القوم ثاويا
نعم أنت لولا ساتر من منية ... وحسبك ستراً بالمنية ساجيا
وإن امرأ ماتت خوالج نفسه ... لقد جمع الشرين حياً وفانيا
حياة لها حد ولا حد للردى ... فليت المنايا والحياة تواليا
كما تتوالى يقظة العيش والكرى ... وتعقب أنوار الصباح الدياجيا
إذن لتشوقنا الحمام اشتياقنا ... إلى النوم واشتقنا الحياة دواليا

درج الحب:

الحب الظامئ للمزيد ما يصل إلى غاية حتى يتطلع إلى ما وراءها، وهي حالة من أصدق حالات الحب التي لا يلتفت إليها المحبون، في حين أنها تكاد لا تتخلف في كل حب طويل.

أبصرته. فوددت ألزمه ... باللحظ في حل ومرتحل
وطفقت أرجو أن يحادثني! ... فبلغت ما أرجو على مهل
حادثته والنفس شيقة ... للنهل من فمه وللعلل!
وتهم تتبع كل بادرة ... من فيه باللثمات والقبل
قبلته فتجدّدت علل ... غير التي داويت من عللي
الآن أطمع أن أكون له ... ويكون إذ يمسي ويصبح لي!
وأكاد أشفق أن تراعيه ... - حرصاً عليه - شواردُ المقل!
في القلب شيطان يقول له ... زِدْ، كلما أوفي على أمل
بالوكف لا نرضى فوا عجبي ... كيف ارتضينا أمس بالبلل؟

اليوم الموعود:

وليس هو يوم لقاء عادي، ولكنه يوم سيجعل له من جنته التي يخطر فيها كالغريب ملكا ذلولا، يلتذ فيها التذاذ المالك الحر المنطلق من قيود الوله والضرورة والخلسة إلى آفاق المتعة المطلقة الراوية القريرة. وهي قطعة من ثمرات النضوج الفني والنفسي، ومن قطوف الحس الرفيه المترف الذي يفرق بين أدق ألوان الشعور وفي أولها تعبير مبتكر طريف عن اللهفة إلى الموعد المرتقب حين يقول:

يا يوم موعدها البعيد ألا ترى ... شوقي إليك؟ وما أشاق لمغنم
شوقي إليك يكاد يجذب لي غدا ... من وكره يكاد يطفر من دمي
أسرع بأجنحة السماء جميعها ... إن لم يطعك جناح هذى الأنجم
ودع الشموس تسير في داراتها ... وتخطها قبل الأوان المبرم
ما ضر دهرك إن تقدم واحد ... يا يوم من جيش لديه عرمرم؟

ثم يأخذ في بيان مهمة هذا (اليوم الموعود) وتفرده في الأيام، وما عقد بمفرقه من تحول في هذا الحب إلى الطلاقة والاستقرار:

لي جنة يا يوم أجمع في يدي ... ما شئت من زهر بها متبسم
وأذوق من ثمراتها ما أشتهي ... لا تحتمي مني ولا أنا أحتمي

وتطوف من حولي نوافر عصمها ... ليست بمحجمة ولست بمحجم
وتلذ لي منها الوهاد لذاذتي ... بتصعد في نجدها وتسنم
لم آس بين كرومها وظلالها ... إلا على ثمرٍ هناك محرم
فكأنما هي جنة في طيها ... ركن تسلل من صميم جهنم
أبدا يذكرني النعيم بقربها ... حرمان مزءود وعسرة معدم
وأبيت في الفردوس أنعم بالمنى ... وكأنني من حسرة لم أنعم
يا يوم موعدها ستبلغني المنى ... وتتم لي الفردوس أي متمم
لا غصن رابية تقصر راحتي ... عنه، ولا ثمر يعز على فمي
سأظل أخطر كالغريب بجنتي ... حتى أثوب على قدومك فاقدم
فأبيت ثم إذا احتواني أفقها ... لم أنهَ عن أمل ولم أتندم
فرحي بصبحك حين تشرق شمسه ... فرح الضياء سرى لطرف مظلم

ثم يختم القصيدة بخاطرة هي إحدى (خصوصيات) العقاد في فلسفة الحرية والضرورة ممزوجة بعاطفة الحب، فيرى الوله نوعاً من نداء الضرورة لا يليق بالخلد الذي تشبع فيه الرغبات، وتقر القلوب وتحس بالحرية والانطلاق من الضرورات:

أمعيرتي خلد السماء سماحة ... صونيه عن ولهٍ صيانة مكرم
رفقا بخلدك أن تشوبي صفوه ... إن لم ترى رفقاً بمهجة مغرم

الليلة الفطيم:

المتعة الخاصة التي لا يغني عنها سواها، لأن لها أما لا يغني عنها سواها، ولو كن جميلات شهيات، فإذا اجتمعن ولم تحضر هذه (الأم) فالليلة الفطيم لا ترضع ثدياً آخر ولا تجد متعة أخرى!

ياله من طريف!

بكت الليلة الفطيم شجاها ... ما بكاء الفطيم بين الثديِّ
الثدي الحسان تبغي رضاها ... ما لثغر الفطيم غير رضيّ؟
لو أرادت لكان عند مناها ... كل صدر، وكل نهد شهي
أمها! أمها! وليس سواها ... ذات صدر على الشفاه ندي

ثم يخاطب ليلته هذه خطاب الأب الواثق، يداعب طفلته واليقين يملأ نفسه، والرضا يطلق البشاشة والدعابة في وجهه ولسانه:

ليلتي. ليلتي الحزينة صبرا ... ليس هذا الفطام بالأبديِّ
سوف تروين من أمْيِمك ثغرا ... فارضعي الآن من دموع الشجي
واذرفي هذه المدامع غزرا ... هل يضير البكاء عين الصبي؟
من أذاب الرضا عينيه وسهرا ... في ارتقاب النعيم، غيرُ شقي

يوم:

يوم أوله لقاء ومتاع، وآخره فرقة ووحشة. وهو يوم يمر على كل حبيبين، وهي وحشة تلمس كل قلب في هذا الموقف، ولكن العقاد وحده هو الذي يعبر هذا التعبير، وهو الذي يستقصي كل شوارد الإحساس، ويتتبع كل مطارح الشعور ويفصل كل هواجس الضمير

ذهب الليل ودار الملوان ... وشدا قبل الصباح الكروان
ومشى الصبح على مهل كمن ... يطرق الدار على غير أمان
وتلمست هنا تغريدة ... في فمي تصدح في هذا الأوان
قبلة منك هي الفجر وفي ... طيها تبدو ثناياه الحسان
عن شمالي كلما ولى الدجى ... وسرى فجر وحنت شفتان
وتراءت نظرة ناعسة ... عند أخرى فتلاقت نظرتان
بان ليلي لا تسلني كيف بان ... أنت تدري فاغتفر عِيَّ البيان
كلما يممتُ داري قلت لي ... أجناحان لنا أم قدمان؟
فأتيت الدار لا احسبها ... قربت قط ودوني خطوتان
لم أكن أطلبها ويحي ولا ... أطلب المهرب منها حيث كان
أين أمضي؟ أين تحدوني الخطا؟ ... ضاقت الدار وضاق المشرقان
راعني نقص بعيني ويدي ... وفمي الصادي وقلبي واللسان

خلتني بدلت منها غيرها ... ولو أستبدلها الخطب لهان
أهزيع منك يا ليل مضى؟ ... أمضى نصف؟ أما ينشطران
بان ليلي؟ لا تسلني كيف بان ... حاطك الله من الليل وصان
إي وربي بان. لكن بعد ما ... نفدت ساعات عمري في ثمان!
لا زمان حيثما لاقيتني ... فإذا فارقتني كان الزمان
طلع الصبح حزينا عاطلا ... أتراه كان بالقرب يزان؟
وسرت أنفاسه يا حسرتا ... أين أنفاسك يا زين الحسان؟
نسمات الصبح أورت كبدي ... فحجبت الأنف عنها والعيان

ثم ماذا؟ ثم يرى أن يتسلى بالقراءة، وأن يستمع إلى أصدقائه وخاصته من دواوين الشعراء. فماذا يكون؟

وتمشيت إلى كتبي على ... مضض مني وللكتب أوان
يا (أبا الطيب) لا تهرف ـ ويا ... صاحبي (الرومي) ما هذا الرطان!
شعراء الشرق والغرب أما ... تملكون الصمت يوما في عنان؟!
أو فهاتوا الشعر لي صرفا بلا ... أحرف في الطرس منه أو معان
أفرغوه جملة في خاطري ... ليس لي بالطرس والدرس يدان
رب شعر شاقني لما تكد ... شفتا قائلة تنفرجان!

هذا شأنه مع الكتب - وهو ملول قلق - فما شأنه مع الأصدقاء الأحياء؟

وتجلى الباب لي عن زائر ... من أودائي كأنا أخوان
فتعلمت ولبي شارد ... كيف يكسى الود ثوب الشنآن
قال لي: (الأفق جميل) قلت لا ... بل دميم. قال: زاه. قلت: قان
قال: زبد قلت: حاشا فانثنى ... نحو عمرو. قلت: كلا بل فلان!
فمضى يعجب مني سائلا: ... أسلام؟ قلت: بل حرب عوان
ذهب اليوم وما أحلكه ... كان من يوم نماه النيران
لم يكن في صبحه أو ليله ... حظ عين، أو لسان، أو جنان
ذاك يوم يا حبيبي واحد ... وغد منه غني عن بيان

نعم يا سيدي (غني) عن بيان، فقد عشنا معك في هذه القصيدة يوماً مخنوق الأنفاس، مكروب الصدر، ورأينا فيه وحشتك وقلقك وتبرمك، بل احسبنا نحن بالوحشة والقلق والتبرم، وتمثل لنا يومك لحظة وساعة ساعة، كالح الوجه كئيب الطلعة، ثقيل الخطوات!

(للمقال بقية)

سيد قطب

تاريخ الحياة العلمية
في جامع النجف الأشرف
للأستاذ ضياء الدين الدخيلي

- 1 -

هاهي ذي مجلة الأستاذ الزيات تحمل على أجنحتها رسالة الإخاء الإسلامي العربي! أما ترى كيف أصبحت رابطة التعارف بين أستاذ في جامع النجف الأشرف وبين أخ له وراء الصحارى والقفار؟

أي وكرامة العروبة والإسلام هو أخ لي تضمني إليه ربقة الجامعة المقدسة وإن لم تسبق لي معرفة بذاته الكريمة. هلم بي يا قلمي لتلبية الدعوة وإن أثقلتك المشاغل.

هذا أخي الأكرم يناديني من (طنجة) لأبادله المعرفة وأسهب له في حديثي عن سير المعهد العلمي الذي أنتمي إلى قدسيته. . . فهيا إلى (الرسالة) مجلة الأدب العالي أيها الأخ، إن تاريخ الدراسة في هذا المعهد الجليل يتوغل إلى أعماق العصور الإسلامية إلى أمد بعيد. وبما أن نواته هي البناية التي أقيمت على مرقد الإمام علي بن أبي طالب (ع) فلابد للراغب في معرفة حياته العلمية والأدبية في أدوارها من طفولتها إلى شيخوختها - أن يلم إلمامة قصيرة بنشأة هذه البنية وتطورها في مراقي العمران. فقد كان حب الشخصية الإسلامية القوية الدفينة هنا، هو الذي جذب العلماء إلى مجاورة المرقد الطاهر ليشيدوا قواعد هذه المدرسة ويكونوا الحلقات لرفع منار الثقافة الإسلامية من الحديث والفقه وأصوله والفلسفة وما تستلزم من مقدمات تمهيدية

وأسس أصبحت بعد حين مباني مستقلة بنفسها كفنون الأدب والرياضيات من هندسة وحساب وهيئة. لقد أستمر التدريس في بناية القبر العلوي حتى الآن، فقد درست فيها النحو والمنطق والمعاني والبيان وعلم الفقه وأصوله والفلسفة الإسلامية على أساتذة عرب وفرس في حلقات كبرى وصغرى ولقد نظمنا فيها الجماعات للتذاكر وحل عوائص تلك الأفانين من الثقافة وقضيت فيها ردحاً من الزمن قيماً. أما كيف قامت أركان هذه المدرسة العالية فذلك حديث جذاب ممتع

هناك أسطورة تقص (في إرشاد الديلمي وعمدة الطالب) تقول إن القبر كان مخفياً عن عبث أعداء الدعوة العلوية إلى أن أظهره الرشيد وبنى عليه قبة ذات أربعة أبواب من طين أحمر وعلى رأسها جرة خضراء وتحتها الضريح من حجارة بيضاء. وحكى في فرحة الغري في قصة طويلة أنه قبل الرشيد وضع داود بن علي المتوفى سنة 133هـ صندوقا دُرس بإهماله خوف سطوة العباسيين الذين تبدلت سياستهم تجاه العلويين حتى بطشوا بهم واضطهدوا شيعتهم وقعدوا لهم كل مرصد. وسبب آخر في اندراسه هو عامل طبيعي غير هذا الأدبي، فقد ساعد على ضياعه وقوعه في منخفض الوادي معرضاً لجري السيول ومهب الرياح

قال في نزهة القلوب: وعقيب بناء الرشيد بعد سنة 180هـ جاوره الناس. ويمكنك أن تعتبر هذه المجاورة بذرة الحياة العلمية الأدبية الحاضرة، فمن مستلزمات مجاورة هذا المعبد الإسلامي الذي كان ولا يزال منتجع الزوار من قاصي الأرض ودانيها - تدبر الشريعة الإسلامية وتداول أحكامها. وقد وجدت إجازات برواية أحاديث قال راووها إنهم تلقوها في رواق قبر الإمام (ع) وكان عهد هذا التلقي للعلم الإسلامي سحيقاً في القدم. وقرأت في (فرحة الغري) أنه في أيام المعتضد العباسي بني محمد بن زيد العلوي الداعي الصغير (صاحب طبرستان الذي ملكها عام 270 بعد أخيه الحسن ثم قتل عام 287 كما في كامل أبن الأثير وقد تنسب العمارة لأخيه الحسن) - قبة وحائطاً وحصناً فيه سبعون طاقا. وقد لوح أبن أبي الحديد إلى هذه العمارة إذ قال (زار القبر جعفر الصادق وأبوه محمد ولم يكن إذ ذاك قبراً معروفاً ظاهراً وإنما كان به سرح عضاه حتى جاء محمد بن زيد الداعي صاحب الديلم فأظهر القبة) وقال أبن الأثير (وفي سنة 282 هـ وجه محمد بن زيد العلوي سراً من طبرستان إلى محمد بن ورد العطار باثنين وثلاثين ألف دينار ليفرقها على أهل بيته ببغداد والكوفة والمدينة فسعى به إلى المعتضد فأمره أن يكتب إلى صاحبه بطبرستان أن يوجه ما يريد ظاهراً وأن يفرق ما يأتيه ظاهراً وتقدم بمعونته على ذلك) وهذا يؤيد ما رواه ابن أبي الحديد. وقد طرأ على ما بناه الداعي بناء الرئيس الجليل عمر بن يحيى القائم بالكوفة فقد عمر قبر جده (ع) من خالص ماله ثم قتل عام 250هـ وحمل رأسه في قوصرة إلى المستعين العباسي

وبعد هذا تقوم بناية ضخمة يشيدها رجل السطوة والعمران عضد الدولة البويهي، فحين تولى السلطة في العراق شاد عمارة القبر الثالثة (أقام بعسكره في ذلك الطرف قريباً من السنة وبعث فأتى بالصناع والأساتذة من الأطراف وخرب تلك العمارة وصرف أموالا كثيرة جزيلة وعمر القبر عمارة جليلة حسنة)

وقرأت في عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب. . . إلى أن كان زمن عضد الدولة فناخسرو ابن بويه الديلمي فعمره عمارة عظيمة واخرج على ذلك أموالا جزيلة وعين له أوقافا، ولم تزل عمارته باقية إلى سنة 753 وكان قد ستر الحيطان بخشب الساج المنقوش فاحترقت تلك العمارة وجددت عمارة المشهد على ما هي عليه الآن (توفى المؤلف سنة 828) وقد بقي من عمارة عضد الدولة قليل

وقال آخر إن عمارة عضد الدولة من أجل العمارات ومن أحسن ما وصلت إليه يد الإنسان في ذلك الوقت بذل عليها الأموال الطائلة وجلب إليها الرازة والنجارين والعملة من سائر الأقطار. قالوا إن هذه العمارة وإن كان لعضد الدولة يرجع تأسيسها فقد عرضت عليها إصلاحات جمة وتحسينات قيمة من البويهيين ووزرائهم والحمدانيين ومن المستنصر العباسي الذي عمر الضريح المقدس وبالغ فيه وزاره مراراً (كما في فرحة الغري) وكذلك لقد عمر من قبل: بني جنكزخان وغيرهم حتى وصلت العمارة

إلى ما شاهده ابن بطوطة الرحالة الذي وردها بعد أن قضى حجه عام 725هـ وقال في رحلته: (نزلنا مدينة مشهد علي بن أبى طالب (رضه) بالنجف وهي مدينة حسنة نظيفة في أرض فسيحة صلبة من أحسن مدن العراق وأكثرها ناساً وأتقنها بناء. . .
ودخلنا باب الحضرة حيث القبر الذي يزعمون أنه قبر علي (ع) وبازائه المدارس والزوايا والخوانق معمورة أحسن عمارة وحيطانها بالقاشاني وهو شبه الزليج عندنا لكن لونه أشرق ونقشه أحسن. ويدخل من باب الحضرة إلى مدرسة عظيمة يسكنها الطلبة والصوفية من الشيعة؛ ومن تلك المدرسة يدخل إلى باب القبة عليه الحجاب والنقباء والطواشية يأمرون الزائر بتقبيل العتبة وهي من الفضة وكذلك العضادتان؛ ثم يدخل القبة وهي مفروشة بأنواع البسط من الحرير وبها قناديل الذهب والفضة منها الكبار والصغار، وفي وسط القبة مسطبة مربعة مكسوة بالخشب عليه صفائح الذهب المنقوشة المحكمة العمل مسمرة بمسامير الفضة قد غلبت على الخشب بحيث لا يظهر منه شيء، وارتفاعها دون القامة وفوقها ثلاثة قبور يزعمون أن أحدها قبر آدم (ع) والثاني قبر نوح (ع) والثالث قبر علي (رض)، وبين القبور طسوت من ذهب وفضة فيها ماء الورد والمسك وأنواع الطيب يغمس الزائر يده في ذلك ويدهن وجهه تبركا. وللقبة باب آخر عتبته أيضاً من الفضة وعليه ستور من الحرير الملون يفضي إلى مسجد مفروش بالبسط الحسان مستورة حيطانه وسقفه بستور الحرير وله أربعة أبواب عتباتها فضة وعليها ستور الحرير. وخزانة الروضة عظيمة فيها من الأموال ما لا يضبط لكثرته)
(العراق. النجف الأشرف)
(يتبع)
ضياء الدين الدخيلي
رسالة الشعر
في الليل
يا ليلُ طُلْ يا لَيْلُ ... على أليف الوِسَادْ
الويل كلُّ الويلْ ... لمن دهاه السهادْ
دقيقةٌ ساعاتْ ... وساعةٌ أيامْ
!شَطْرٌ من الليل فاتْ ... كأنه أعوامْ
مُصْنيً طَوَاهْ المساءْ ... وَلَفَّهُ في الظُّلَمْ
فهاجت الأدواءْ ... في جسمه المنهدمْ
حيرانُ! ما يستريحْ ... كزورق في عُبَابْ
يشكو بقلب جريح ... ما ذاقه من عذابْ
ويرسل الأسماعْ ... تصغي إلى الأفواهْ
!فما توَافِي الرِّباعْ ... بمثله أَوَّاهْ
ويبصر الأشجارْ ... من حوله وَسْنَى
وفوقها الأطيار ... تقضي الدجى أَمْناَ
أَكلُّ ما في الوجودْ ... غفوانُ حتى الجمادْ
إلا المُعَنَّى الشريدْ ... فقد جفاه الرقادْ؟
الفجْرُ! أين سناه ... يشع في مُقْلَتَيْهْ
وأين طيبُ نداه ... يَرِفُّ عطفاً عليه
يا ليلُ طلْ يا ليلْ ... على صريع الهوَى
سيلُ من السهد سَيْلْ ... طواه فيمن طوَى
نَزَا به العِرْبيدْ ... يستعجل الوعدا
والدهرُ جافٍ عنيدْ ... يزيده بُعْدا
كم عَاثَ بالعقربيْن ... في الساعة الدائرةْ
وما هما واقفَين ... بل عينُهُ القاصرةْ
وكم أَرَاهُ الخيالْ ... في الموعدِ المُنْتَظَرْ
دُنْيَا من الآمالْ ... تْسيي النهَى والفِكَرْ
وَحان وَقتُ اللقاء ... ولَم يُوَافِ الحبيبْ
فلم يَزَلْ بالرجاءِ ... يدعوه ألا يخيبْ

وَبَثَّ منه العيونْ ... ترتادُ أقْصَى مَدَى
يا مُسْرِفاً في الظنون ... صَفِرْتَ منها يَدَا
وعاد يطوي حشاهْ ... على لظىً سَوَّارْ
يضجُّ! وا أسفاه ... نار ولا كالنار
والليلُ عوْن الهمومْ ... يهيجها السكونْ
ما الليل للمحروم ... إلا مَثار الجنون
نَمْ يا خَلِي الفؤاد ... وانعمْ بطيب المنامْ
خَلَّ الْجَوى والسُّهادْ ... لِذِي الهوى والسقام
(منوف)
فريد عين شوكة
شك وأمل
وقنعت منك بنظرة وبلفتة ... وطفقت أحلم بالنعيم المقبل
أصغي إلى رنات صوتك مثلما ... يصغي الغدير إلى هزيج البلبل
وشربت من هذا الحديث المشتهي ... كأساً ألذَّ من الرحيق السلسل
كاشفتك الحب الدفين فأشرقت ... عيناك تفحصني وتنكر مقولي
وظننتني ألهو بقوليَ مثلما ... يلهو الوري في خسة وتبذل
إني أمحضك الوداد فصدقي ... فالشك يطعن مهجتي في مقتل
لوددت أن يبدو فؤادي حاسراً ... لتريْ وفائي في هواك فتعدلي
ستجيئك الأيام بالخبر الذي ... ينبيك عن قلبي فلا تتعجلي
أو ما قرأت الحب في عيني وفي ... نبرات صوتي الواجف المتبلبل
وأبنت لي شطراً من الهم الذي ... يجثو على جنبيك مثل الجندل
فبكى فؤادي حسرة وعجبت من ... دنيا تغر الناظرين وتبتلي
أفمثل هذا الحسن يجرع في الأسى ... ويبيت في ليل بهيم أليل
أخشى عليك لهيب حب جامح ... فأصد عنك وفي صدودي مقتلي
ألقاك بالذكرى على رغم الألى ... بخلوا علينا باللقاء الأول
لأطعت فيك صبابتي مستهتراً ... لولا حديث المحنقين العذل
لكن بحسبي أن قلبك عالم ... بنوازعي وخوالجي وتعللي
إني لأهزأ بالعوالم كلها ... ما دمت أشعر أن قلبك صار لي
(الإسكندرية)
عبد الحميد السنوسي
يا أيها الطفل
يا أيُّها الطِّفلُ أَنْتَ أُغْنِيَةُ ... غَنّى بها الدَّهرُ في مَجاَهِيلِ
الشَّدْوُ من نَاظِرَيْكَ أسمَعُهُ ... يُتْبِع ترتيلَه بتَرْتِيلِ
وَاللّحْنُ من لَفْتَتَيْكَ مُنْطلقْ ... بنْساَبُ حُرًّا بغير تَكبِيلِ
يا أَيُّها الطِّفلُ، أنت أُمنيةُ ... وأنت نَبْضٌ في مُهجَة الزَّمنْ
كَيْفَ تَرَاني وَكيفْ تَسمعُني ... أجْمَعَ ما في الحياَةِ في قَرَنِ
وكلُّ لحنٍ مما بَعَثتَ به ... طِفلٌ بِحسّ الوجودِ جِدُّ غَنِي
يا أيُّها الطفلُ، أنت خاطرةٌ ... من قبلُ لاحَتْ في خاطِرِ الأَبَدِ!
دَعَا بها اللفظُ وهي سَانحةٌ ... فَحُوصرَتْ بين ذلك الْجَسدِ
قد قالَكَ الكونُ قِيلةً عجباً ... في لَفْظةٍ فَرْدَةٍ وَلم يَزِدِ!
(دماص)
العوضي الوكيل
بيجو
كلب الأستاذ العقاد الذي رثاه في العدد الماضي بتلك المرثية)
(الفريدة
من الأرض سلام لكا (بيجو)
قد عز عندي أن تهلكا
لو لم تكن مستأهلاً ذلكا
لما بكى (الجبار) من أجلكا

واهتزت الدنيا لهذا الصنيعْ
دنيا الوفاء الحق لا الكاذب
والود: ذاك العجب العاجب
أين صديق الناس يا صاحبي؟
إن لم يكن في سوقها الكاسب
!أيشتري - خير له - أم يبيع؟
خُلدت (يا بيجو) ونعم الخلود
وعدت حياً أيهذا الفقيد
في عالم الذكر الذي لا يبيد
تهفو لك الدنيا بذاك النشيد
فيه أمير الشعر باك ضريع
(دمنهور)
إبراهيم إبراهيم علي
البريد الأدبي
مؤتمر المستشرقين في بروكسل
احتفل رسمياً في صباح اليوم الخامس من هذا الشهر بافتتاح مؤتمر المستشرقين في بروكسل وناب عن جلالة ملك البلجيك أحد كبار رجاله، وأعلن وزير المعارف افتتاح المؤتمر بخطاب ألقاه باللغة الفرنسية ثم باللغة الفلمنكية، حيا فيه الأعضاء ورحب بهم؛ ثم تلاه رئيس المؤتمر الأستاذ كافار وهو عالم كبير في الآثار المصرية وله مؤلفات ومقالات تربى على 300، من أحدثها كتابه عن الحضارة المصرية وقد صدر في سنة 1936، فشكر لوزير المعارف وعدد فضائل الأسرة المالكة في بلجيكا واهتمامها بالعلوم ولا سيما الاكتشافات الأثرية في مصر
وتكلم الدكتور طه حسين بك عن كتاب (الفصول والغايات لأبي العلاء المعري) وهو الكتاب الذي صححه وشرحه وضبطه ونشره عن نسخته الوحيدة الأستاذ محمود حسن زناتي
ثم ألقى الأستاذ ماير من جامعة القدس بحثاً عن الدراسات الإسلامية الحديثة في فلسطين ونوه بجهود الجامعة العبرية في المخطوطات وفي الحفر عن آثار الأمويين وأشار إلى النقود الإسلامية
وألقى الأستاذ محمد محمود جمعه بحثاً عن العرب في بلاد فارس في عهد الفاطميين وفي المساء أقام حاكم بروكسل حفلة شاي فخمة لأعضاء المؤتمر خطب فيها مرحبا بهم، ورد عليه المسيو كافار
واجتمع المؤتمر في اليوم الثاني فتكلم الأستاذ سامي جبره عن اكتشافات الجامعة المصرية الحديثة وعرض بعض صورها
وألقى الأستاذ بروجلهان المستشرق المعروف بحثاً عن الشعر العربي من عهد المرحوم محمود سامي البارودي باشا ذكر فيه من شعراء مصر شوقي وحافظ وأبا شادي وخليل مطران
وتكلم الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام عن السلطان النوري وعلاقته بالعلوم والآداب وعن مخطوط (نفائس المجالس السلطانية)
ودعي المؤتمر في المساء إلى حفلة كبيرة أعدتها لهم الحكومة؛ واحتفلت بهم في اليوم التالي جامعة لوفان. وفي الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم لبوا دعوة وزير المستعمرات وفي يوم الأربعاء ألقى الأستاذ جب المستشرق الإنجليزي محاضرته في آراء أهل السنة في الخلافة. وفي يوم الخميس زار الأعضاء المكتبة الملكية وشهدوا حفلة افتتاح معرض الدراسات الشرقية
وسيرسل إلينا صديقنا الدكتور عبد الوهاب عزام خلاصة وافية عن أعمال هذا المؤتمر، وسننشر كذلك عنه فصلاً قيماً للدكتور بشر فارس، فقد شهد المؤتمر عن نفسه وعن الرسالة
حول ديوان الجارم
أخي الأستاذ الزيات
أشرتم في البريد الأدبي إلى أن مجلة المكشوف أشارت إلى سرعة إخراج ديوان

الجارم، فكأنها تريد أن تقول أنه أخرج بسرعة ليضاف إلى الكتب المقررة لطلبة المدارس
فمن الخير أن أصرح بأني كنت من الداعين لإخراج هذا الديوان وقدمت أصوله إلى المطبعة منذ أربعة عشر شهراً، فالشبهة من هذه الناحية منتفية تمام الانتفاء
وكتب إليكم أحد الفضلاء يقول إني حين شرعت في نقد ديوان الجارم غام على الأفق في وزارة المعارف وأخذني الرعد من كل مكان
ومن حقي عليكم أن تعلنوا أني لم أر في وزارة المعارف شيئاً من بوادر الغيم والرعد، ولن أتهيب كلمة الحق ولو أنذرتني السماء بالصواعق
والجارم لا يملك شيئاً من مصير ديوانه، وسأمضي في نقده بعد الفراغ من طبع كتاب التصوف الإسلامي
والعناية بنقد ديوان الجارم هي مظهر مودة لذلك الصديق. ولو كنت أضمر العتب عليه لسكت عنه. ولعله يعرف أن الثناء الذي يكال لديوانه في بعض الجرائد بلا حساب قد يكون بابا لسقوط ذلك الديوان
لقد انعدم النقد الأدبي أو كاد
فلنتوكل على الله ونواجه ذلك الصديق بكلمة الحق، وإن كنت أومن بصواب الحكمة التي
تقول: (إن قول الحق لم يدع لي صديقاً)
إن الجارم هو الصديق الذي بقي على الأيام، فلنضفه باسم النقد إلى قائمة من أضعناهم من الأصدقاء. والقلم يجني على صاحبه في أكثر الأحيان، وقد جنى علي ما شاء له العنف والإسراف
زكي مبارك
المؤتمر الدولي الثامن للعلوم التاريخية
أقيمت الحفلة الختامية للمؤتمر الدولي الثامن للعلوم التاريخية الذي عقد في زوريخ، وقد وقع الاختيار على الدكتور ليلاند الأمريكي ليتولى رياسة الاجتماع القادم الذي سيعقده المؤتمر في مدينة براغ في مايو سنة 1939. وقد أجلت المناقشة في الدعوة التي أرسلتها الحكومة الإيطالية لعقد المؤتمر في روما عام 1942
وكانت أهم ما امتازت به أعمال المؤتمر الحالي امتداد نشاطه إلى الهند والشرق الأقصى. وبدلا من أن ينظم المؤتمر الدراسة التاريخية بموضوعات مختلفة، حاول في هذه المرة توسيع نطاق النظام الإقليمي للأبحاث التاريخية، وألف ثلاث لجان لدرس أحوال البلطيق والشرق الأدنى والشرق الأقصى. وستتناول لجنة الشرق الأدنى بلاد البلقان وتركيا واليونان ومصر وفلسطين وسورية؛ وسيكون أهم دراستها الوقوف على مدى نفوذ الفكرة الإسلامية وتأثيرها في هذه البلدان. وسيكون غرض اللجنة التحقق من حالة المعارف الحالية وزيادة عوامل الاتصال بين المؤرخين وجمع المعلومات الجديدة.
إلى الأستاذ محمد سعيد العريان
سيدي الأستاذ الجليل صاحب الرسالة:
أقرأ بإمعان الفصول الممتعة البليغة التي توالون نشرها في (الرسالة) الغراء عن حياة المرحوم الرافعي. وأشهد أن الأستاذ محمد سعيد العريان - صديق الفقيد وكاتب وحيه - قد أنفق جهداً قوياً في أن يجتنب القراء مشاركته فيما يحتمل من عناء ويلقى من مشقة ويذوق من مرارة الصبر والمصابرة ليظهر لهم تاريخ حياة الرافعي كما هو من دون أن يعدل عن الأمانة التاريخية والتحقيق اللذين يفرضهما البحث الحديث فرضاً على الأدباء والمفكرين.
وأشهد أيضاً؛ لقد وفق الأستاذ سعيد في ترجمة حياة الرافعي ترجمة يغلب عليها الأسلوب التحليلي الفني أكثر من الأسلوب العلمي الجاف، على ما في الثاني من قوة وسمو. فأنت ترى كيف يعرض علينا حياة الرافعي والمناسبات التي ألجأته إلى كتابة فصوله الممتعة القوية فتحس أنك أبعد شيء عن جفاء التاريخ وجفوته، وأدنى شيء إلى جمال الفن وعذوبته. . .
لن تكن حياة الرافعي وفصوله الممتعة منذ اليوم، كما كانت من قبل، غامضة مضطربة يتحدث عنها الأدباء بالتقريب لا بالتحقيق، ويقولون فيها بالظن لا باليقين

بلى.! ولسوف يجدون الرافعي عاش مخلصاً للفن يدع أهله وذويه وما هم فيه من هم وبلوى - على فقد زوجة أبنه - ليسجل على القرطاس خلجات فؤاده وشكايات ضلوعه
. . .وليخرج لقراء العربية قطعته الخالدة: (عروس تزف إلى قبرها)
. . .ثم ماذا؟
ثم نود أن نسأل أخانا العريان عن سر هذا التناقض الذي وقع في السبب الذي من أجله كتب الرافعي مقالاته: الانتحار. فالأستاذ العريان يحدثنا عن السبب بقوله: (فلما بلغ الرافعي نبأ شروعه (شروع الأستاذ م وهو أبن لشيخ كبير من شيوخ الأزهر) بالانتحار جزع وتطير وضاقت نفسه وناله من الهم ما لم ينله لحادثة مما لقي في دنياه
. . .فمن أجل هذه الحادثة أنشأ مقالات الانتحار)
ولكن الرافعي يزعم غير هذا الزعم فيقول (عندما انتهيت إلى هذا الموضع من تصنيف هذه الكلمات ألقى إلى كتاب ورد من مدينة (حمص) يذكر فيه صاحبه ضيقاً وشدة ويسأل: (ما هو علاج الملل النفساني واليأس الدنيوي إن لم يكن الموت أن لم يكن الانتحار؟) ثم يرجو أن يتولاه أول عدد ينتهي إليه من (الرسالة) كيلا يبغي على نفسه: وهاأنذا أعجل له كلمات تأتي على أثرها إن شاء الله في العدد التالي مقالة الانتحار)
. . .فما هذا التناقض بين الروايتين؟ـ . . أرجو أن يجلوه لنا الأستاذ سعيد وله الشكر (حمص)
عبد القادر جنيدي
الحفلة التذكارية السنوية لجبران
كان عدد المكشوف الأخير خاصاً بوصف الحفلة التذكارية السنوية لجبران ونشر ما قيل فيها من الخطب. ولعل قراءنا لا يعلمون شيئاً من تاريخ هذه الحفلة، فنحن ننقل لهم طرفاً مما كتبت المكشوف:
عندما توفى جبران خليل جبران منذ سبعة أعوام خلف ثروة قيل أنها تبلغ خمسين ألف دولار، أوصى بها لشقيقته مريانا التي رافقت جثمانه إلى لبنان، ثم عادت إلى بوسطن، حيث تقيم الآن
وفتحت وصية جبران فإذا هو يطلق يد ماري هاسكل في مخلفاته الأدبية ولوحاته الزيتية على أن تختار ما تشاء منها فترسله إلى بشرى. أما ريع مؤلفاته الإنكليزية فقد أوصى بإنفاقه على المنافع العامة في وطنه الصغير
وبلغ مجموع ما أرسل إلى بشرى منذ سبع سنوات إلى اليوم 25 ألف ليرة لبنانية سورية، ويتراوح الدخل السنوي من المؤلفات بين 6و7 آلاف دولار
وترك جبران مخطوطة كتاب بالإنكليزية عنوانه (حديقة النبي). ولكن شقيقته مريانا رفضت ضم دخل هذا الكتاب إلى دخل رفاقه بحجة أن الوصية تشمل الكتب المطبوعة لا المخطوطات. وكانت بينها وبين لجنة جبران الوطنية في بشرى منازعة حول هذا الحق نظرت فيها المحاكم الأميركية فحكمت لها، لأن لجنة جبران لم تتمكن من إقامة وكيل عنها إلا بعد مرور الزمن بعد صدور الحكم لمصلحة مريانا
أما ماري هاسكل فقد نفذت القسم المتعلق بها من الوصية وتتولى الآن تنفيذ القسم المتعلق بالإنفاق على المنافع العامة في بشرى لجنة مؤلفة من 16 عضواً يمثلون جميع الأسر البشراوية ويرأس هذه اللجنة الأستاذ سليم رحمة. ويتجدد أعضاؤها كل سنتين، وهي التي تحيي كل سنة حفلة تذكارية لليوم الذي وصل فيه جثمان جبران إلى لبنان. فيقام قداس في دير مار سركيس الذي يضم بين جدرانه رفات جبران، ثم تقام حفلة خطابية يتكلم فيها أدباء بدعوة من اللجنة
وكان يوم 21 أغسطس الماضي موعد الحفلة التذكارية، فانتدب غبطة البطريرك الماروني
سيادة المطران الحاج لإقامة الذبيحة الإلهية في الصباح. وبعد الظهر غصت باحة فندق لبنان الكبير بالمدعوين إلى الحفلة الأدبية التي ترأسها سعادة فؤاد بك البريدي محافظ الشمال وحضرها جمهور غفير من الأعيان والمصطافين وقد تعاقب الكلام عن جبران وأدبه الأساتذة مارون عبود وعمر فاخوري وخليل تقي الدين وحليم كنعان
وقد قال الأستاذ سليم رحمة في خطابه الذي تحدث فيه عن الأعمال التي قامت بها اللجنة:
أما العمل الذي تعتبره اللجنة في مقدمة واجباتها فهو إنشاء جائزة سنوية قدرها مائتا)

ليرة لبنانية سورية تشجيعاً للتآليف القيمة وسعياً لتحقيق أمنية في نفس جبران عندما كان لا يزال في قيد الحياة. ويسر اللجنة أن تساهم بهذه الجائزة في الحركة الأدبية، على أن تمنح الجائزة الأولى لأفضل كتاب يدرس جبران درساً واسعاً عميقاً شاملا. وقد سعت اللجنة في تأليف مجمع أدبي من كبار أدباء لبنان قوامه تسعة أعضاء: سبعة من حملة الأقلام المعروفين واثنان من بشرى)

ومن أنفس ما نشر في هذا العدد فقرات من رسائل تبودلت بين جبران ومي وُجدت بين مخلفاته؛ وهي تكشف عن ناحية مجهولة في حياة الصديقين العبقريين نختار منها قطعة من رسالة لمي تاريخها 15 يناير سنة 1924

ما معنى هذا الذي أكتبه؟ إني لا أعرف ماذا أعني به. ولكني أعرف أنك محبوبي . . .) وأني أخاف الحب. إني أنتظر من الحب كثيراً فأخاف ألا يأتيني بكل ما أنتظر. أقول هذا مع علمي بأن القليل من الحب كثير. ولكن القليل في الحب لا يرضيني. والجفاف والقحط واللاشيء خير من النزر اليسير.

كيف أجسر على الإفضاء إليك بهذا وكيف أفرط به، لا أدري. الحمد لله أني أكتبه على الورق ولا أتلفظ به، لأنك لو كنت حاضراً بالجسد لهربت خجلا بعد هذا الكلام، ولاختفيت زمناً طويلا فما أدعك تراني إلا بعد أن تنسى. حتى الكتابة ألوم نفسي عليها أحياناً لأني بها حرة كل هذه الحرية

أتذكر قول القدماء من الشرقيين: إنه خير للبنت ألا تقرأ ولا تكتب؟ إن القديس توما يظهر هنا. وليس ما أبدي هنا أثر الوراثة فحسب، بل هو شيء أبعد من الوراثة. ما هو؟ قل لي أنت ما هو هذا؟ وقل لي ما إذا كنت على ضلال أو على هدى، فإني أثق بك وأصدق بالبداهة كل ما تقول. وسواء أكنت مخطئة أم غير مخطئة فإن قلبي يسير إليك، وخير ما في يظل حائماً حواليك، يحرسك ويحنو عليك.

غابت الشمس وراء الأفق. من خلال السحب العجيبة والأشكال والألوان حصحصت نجمة لامعة، نجمة واحدة، هي الزهرة إلهة الحب. أترى يسكنها كأرضنا بشر يحبون ويتشوقون؟ ربما وجد فيها من هي مثلي، لها جبران واحد حلو بعيد بعيد هو القريب القريب، تكتب إليه الآن والشفق يملأ الفضاء، وتعلم أن الظلام يخلف الشفق، وأن النور يتبع الظلام، وأن الليل سيخلف النهار، والنهار سيتبع الليل مرات كثيرة قبل أن ترى الذي تحبه، فتسرب إليها كل وحشة الشفق، وكل وحشة الليل، فتلقي بالقلم جانباً لتحتمي من الوحشة في أسم واحد: جبران.

مصر، 15 يناير سنة 1924

وحي بغداد

صديقنا الدكتور زكي مبارك من الشعراء المقلين القلال. وقد يفيض عليه الإلهام في بعض أحواله فيطول نفسه ويتسع مداه. وقد نظم في هذه الأيام قصيدة عصماء بلغت أبياتها 111 بيت عنوانها (من جحيم الظلم في القاهرة، إلى سعير الوجد في بغداد). وقد تفضل فخص بها الرسالة، وسننشرها في العدد المقبل.

الكتب

الفلسفة الشرقية

تأليف الدكتور محمد غلاب

للأديب السيد احمد صقر

الدكتور محمد غلاب في طليعة رجالنا الممتازين الذين جمعوا بين الثقافة العربية، والثقافة الغربية؛ وتذوقوا ما جمعوا، وهضموا ما تذوقوا، وأنتجوا مما هضموا نتاجاً شهياً يمتاز بالعمق، وجدة العرض، وغزارة المادة، ورشاقة الأسلوب. ويمتاز الدكتور غلاب من بين هؤلاء الأفذاذ بميله الشديد للفلسفة، ولعل لوظيفته في ذلك أكبر الأثر. فهو أستاذ الفلسفة في كلية أصول الدين إحدى كليات الأزهر. ولقد كان الأزهر إلى عهد غير بعيد يحرم الفلسفة ويقذف المشتغلين بها بالزندقة والمروق، أما اليوم فقد صارت الفلسفة بأنواعها تدرس فيه، ووجد من رجاله من يؤلف فيها كتباً قيمة كهذا الكتاب الذي ألفه الدكتور ليسد ثغرة كانت مفتوحة في الحياة العقلية المصرية؛ إذ أن ثقافتنا قد بلغت في العلوم الطبيعية شأواً يسمح لنا بالوقوف في صفوف الأمم الراقية، ولكنها في العلوم العقلية ليست شيئاً مذكوراً (فلا تزال مصر مقفرة في الفلسفة إقفاراً يندى له جبين الإنسانية خجلا، ولا تزال معارفنا الفلسفية بالقياس إلى أوربا تعد

جسما بلا روح أو كائناً أعجم إلى جانب إنسان) لذلك أعتزم الدكتور القيام بهذه المحاولة الخطيرة مسترشداً بنور الحق والواجب ففكر وقدر ثم نظر فألفى الشرق - وهو منبع الحكمة، ومصدر العرفان - مغموط الحق، مطمور المجد، مجحود العظمة، في هذه الناحية، فأراد أن يصحر من مجده، ويظهر من حقه، ويجلو من عظمته بكتاب الفلسفة الشرقية والفلسفة الشرقية ليست كما يصورها (بارتلمي سانت هلير) عديمة النفع (لا تفيدنا دراستها إلا من جهة إرضاء النزعة في الإطلاع دون أن يتصل بنا أمرها كثيراً، فليس علينا أن نصعد إليها لنعرف من نحن ومن أين جئنا) بل هي جمة المنافع، حرية بالبحث والتحليل. والواجب على من أراد دراسة الفلسفة أن يبدأ بها ليكون على بينة من العناصر الأساسية التي تكون منها الجسم المراد درسه من جهة، ولكي يصل (أوائل حلقات السلسلة العقلية بأواخرها من جهة ثانية

يقع هذا الكتاب في 550 صفحة من القطع الكبير، وهو مصدر بمقدمة اشتملت على مناهج البحث في العصر الحديث وعلى ما يجب أن يسلكه الفيلسوف في استعراض المذاهب الفلسفية، وما يجب أن يكون عليه من الصفات، وما يجب أن يلاحظ من ترتيب الحوادث بعضها على بعض تبعا لقانون المنطق القويم حتى تكون نتائجه سليمة قويمة، واشتملت فوق ذلك على بحث مشكلتين عويصتين طال فيهما لجاج العلماء. وهما: أصل الفلسفة وهل هي إغريقية مبتدعة أم شرقية متبعة؛ وتسلسل الثقافات بعضها من بعض. أما الكتاب نفسه فقد عرض في تفصيل وتحليل دقيقين للفلسفات المصرية، والهندية، والفارسية، والصينية، والكلدانية، والعبرانية، فدرس في مصر الحياة العقلية منذ نشأتها، وتعقب التفكير وتطوره في عصر ما قبل التاريخ، ثم في عصور: منفيس، ومدينة الشمس، وطيبة، فأبان بإسهاب التطورات التي تعاقبت على آراء المصريين في الألوهية، والنفس والآخرة، والسؤال والميزان، والعقاب والثواب، والأخلاق والآداب، والفنون والعلوم. ولعل من الطريف أن نذكر هنا أن الدكتور قال: عرف المصريون الضمير منذ أقدم عصورهم، ووصفوه وصفا فلسفيا فقال فيه قائلهم: إن قلب الإنسان هو إلهه الخاص، وإن قلبي قد رضى عن كل ما عملته وكل من رضى (قلبه عن عمله التحق بمرتبة الآلهة

ثم أنتقل الدكتور إلى الهند فتناول فيها أربعة عشر مذهبا بين ديني وفلسفي بتحليل ونقد لو أننا حاولنا تعقبهما لطال بنا الكلام ولكنا نكتفي بالإشارة إلى مدارسة (ساسكيهيا) التي وجد فيها المنطق قبل أن يوجد أرسطو بأمد بعيد، ولم يذر الحديث عن الهند حتى قرر (أن الفلسفة بجميع أقسامها قد أزهرت فيها إزهارا فائقا، وأن اليونان مدينة لتلك البلاد بكثير من نظرياتها التي يعتقد السطحيون أنها مبتدعة) وحسبك أن تعلم أنهم (وصلوا إلى نظرية الذر أو الجوهر الفرد قبل (يموقريت) و (لوسيب) وأنهم أساتذة (فيثاغورث) أكبر رياضي اليونان على الإطلاق)

وبعد أن فرغ من الهند انتقل إلى الكلام عن الفرس. فدرس الديانات القديمة ومذاهب (زرادشت) و (ماني) و (مزدك) دراسة وافية ممتعة. ثم عرج على الصين فتناول عصر ما قبل التاريخ. ثم العصر المنهجي، حيث درس في عمق مذاهب: (لاهو - تسيه) و (كونفوشيوس) و (مانسيوس) والمدرسة السوفسطائية والمنطق في الفلسفة الصينية إلى

غير ذلك من المباحث القيمة. ثم عرض بما يشبه ذلك إلى الفلسفتين: الكلدانية والعبرية، وبالأخيرة ينتهي الكتاب

ولا أخالني بحاجة إلى أن أقول إن الدكتور أجاد العرض وأحسن القول فقرب الفلسفة إلى الناس، بعد طول نفور وشماس، فذلك معروف له من الفصول التي نشرتها الرسالة من الكتاب قبل ظهوره. بيد أني بحاجة إلى أن أقول كلمة صغيرة لا أجد مناصاً من قولها الخاص) كما يسميه ذلك القديم:

ذهب الدكتور إلى أنه هو الذي أثبت بالأدلة القاطعة (سذاجة أرسطو وأذنابه في دعواهم أن الفلسفة نشأت للمرة الأولى في (إيونيا) في القرن السادس قبل المسيح، وأن أول فيلسوف في الدنيا هو (تاليس المليتي) والحق أن هذا الإثبات قديم الميلاد، وليس أدل على ذلك مما قاله الدكتور عن (ديوجين لا إرس) أنه أثبت في كتابه (حياة الفلاسفة): أن الشرق قد سبق الغرب في النظر العقلي وأنه كان أستاذه وملهمه) وقد عاش هذا المؤرخ الإغريقي في القرن الثالث قبل المسيح.

وبعد فهذه كلمة عابرة أردنا بها التعريف بهذا الكتاب العظيم الذي سيكون - إن شاء الله - عظيم الأثر في حياتنا العقلية عامة، وفي نهضتنا الفلسفية خاصة.

السيد احمد صقر

المسرح والسينما

وسائل الإنعاش للمسرح المصري

يبدي كثير من كتاب المسرح الأسف من حالة الضعف والذبول التي وصل إليها في السنوات الأخيرة، ونلاحظ أنهم يسرفون في إبداء ذلك الأسف ويبالغون في تصوير الدرك الذي تسفل إليه المسرح، ويكتفون بعد ذلك بالوقوف على هيكله المحتضر وقراءة الفاتحة من أجله!

وقد جرت للكاتب محادثات طويلة مع أقطاب المسرح وعمده في مصر وأتفق رأينا جميعاً على أن إنعاش المسرح المصري ينبغي له إجراء تجديد شامل في الطرق والوسائل التي يظن أنها مؤدية إلى ما نريد له من سمو وازدهار.

وخلاصة الرأي عندنا جميعاً أن هناك ناحيتين كبيرتين هما اللتان يجدر بنا أن نركز فيهما جهودنا وهما الجمهور والعرض.

وإذا نحن نظرنا ملياً في الأسباب التي من أجلها عاش المسرح في فرنسا وإنجلترا واستطاع أن يقف في وجه التيار السينمائي الجارف محتفظاً بجمهوره وتقاليده، نجد أن من أهم تلك الأسباب وجود جمهور كبير - في فرنسا وإنجلترا على السواء - مسرحي الثقافة والليل، ولا يستبدل بالمسرح سينما أو استعراضاً راقصاً ولا يستغني عن مشاهد المسرحيات الحديثة، على فداحة أسعار الدخول وتخصص المسارح المختلفة في نوع واحد من المسرحيات. وخلق جمهور مثل هذا ليس من الأمور اليسيرة ولكنه ليس متعذراً ولا مستحيلا، لا سيما بعد ما أخذت وزارة المعارف بنظام تعميم فرق الهواة بمدارسها على اختلاف درجاتها، وبعدما أسست الوزارة فرقة كبيرة حبتها بأسباب البقاء والاستقرار وخصصت لها نيفاً وعشرة آلاف جنيه

ولكن قيمة (البضاعة) هي أهم العوامل في جذب العميل بلا مراء. وكلما زاد احتواؤها على الميزات والخصائص التي يرغبها ويريدها، أزداد إقباله عليها وتشجيعه لها. وأنجح الفرق لدينا هي التي تميزت إدارتها بفهم مزاج الجمهور وميوله. ومع ذلك فهناك بدهيات عامة يتفق عليها الجميع، ويقر بها الجميع، وفي مراعاتها إنهاض حقيقي للمسرح.

وخلاصة هذه البدهيات أن المتفرج الذي يذهب لمشاهدة إحدى المسرحيات، يقوم في خياله

أنه سوف يشاهد قصة قوية الموضوع، واضحة الفكرة، باهرة الإخراج، رائعة التمثل، تعينه على قضاء سهرة مفيدة ولذيذة في نفس الوقت.

وروعة التمثيل مصدرها محاكاة الطبيعة والواقع والبعد عن التكلف. ومع أشد الأسف نعترف بأنه قل بين ممثلينا ومخرجينا من يجهل هذه البديهة، ولكن قل منهم في نفس الوقت من عرف كيف يتخلص من ذلك التقليد المسرحي القديم، وهو التهويل في كل شيء! أما القصة فقد تحدثنا عنها في الأعداد الماضية بما يثبت أن القصة المصرية الصحيحة، القوية الموضوع الواضحة الفكرة لم توجد بعد والنادر لا حكم له والحركة الحركة! فإن السينما لم تكتسح المسرح إلا لأنها نشاط وحركة دائمة مستمرة؛ أما المسرح فتهويل وتكاسل ونوم عميق

فليكن أول همنا خلق (الجمهور المسرحي) وليكن اعتمادنا في خلقه على المرغبات العملية التي نقدمها له. ولا فائدة من أية محاولة تقوم على غير هذا الأساس الواضح لكل ذي عينين

(الناقد القديم)

أخبار سينمائية ومسرحية

الانتهاء من فلم الدكتور

يتقدم العمل في إخراج فلم الدكتور بسرعة فائقة والمنتظر أن ينتهي في آخر هذا الشهر. وهو ثالث الأفلام المصرية التي يقدمها لنا (أستوديو مصر) في الموسم الذي بات على الأبواب. وممثل الدور (الرجالي) الأول في هذا الفيلم هو الأستاذ سليمان نجيب صاحب الرواية المسرحية الشهيرة بهذا الاسم. أما السيناريو فقد شاركه في

وضعه الأستاذ عسر. وتمثل الدور الأول أمامه الفنانة الموهوبة الآنسة أمينة رزق كما تقوم بدور نسائي كبير آخر السيدة دولت أبيض. ويقوم بالإخراج الأستاذ نيازي مصطفى الذي بزغ نجمه في عالم الإخراج المحلي منذ أخرج شريط (سلامة في خير)
للأستاذ نجيب الريحاني

فلم عزيزة أمير

ويسرنا أن نعلن على صفحات (الرسالة) عودة مؤسسة فن السينما في مصر إلى إخراج أفلام لحسابها فقد شرعت السيدة عزيزة أمير في عمل سيناريو الرواية التي ألفها لها الزميل حسين فوزي. والمنتظر أن تبدأ العمل قبل نهاية شهر ديسمبر، أما اسم الرواية فلم يستقر عليه الرأي بعد

سيمون سيمون

في أوائل هذا الشهر انتهى العقد بين سيمون سيمون النجمة الفرنسية الأصل المعروفة. وبين شركة فوكس القرن العشرين وعاهلها (داريل زانوك) ومما يؤسف له أن (داريل) رفض تجديد ذلك العقد الذي بمقتضاه ظلت (سيمون) طوال العامين الماضيين تتقاضى أجراً قدره 200 جنيه عن كل أسبوع دون أن تعمل ما يساوي ربع هذه القيمة، إذ أن الشركة لم تستفد منها كما يجب إلا في روايتي (حب وإشارات) و (وأجوزيت) وقد نشرت إحدى المجلات الأمريكية أن سيمون سوف تشتغل بصالات الرقص الغنائي في برودواي

فرانك كابرا

تعرض شركة كولومبيا لفرانك كابرا رواية كبرى هذا العام (أنت لا يمكنك أن تأخذها معك) ويشترك معه في تمثيلها من المشاهير (جين أرثر) و (ليونيل باريمور) وهي مسرحية فكاهية نجحت للغاية في برودواي ولها كسائر روايات في هذا النجم مغزى سام

والت ديزني

جددت شركة (راديو) العقد مع (والت ديزني) الرسام العالمي الشهير. وبمقتضى العقد الجديد في تعهد والت بتقديم فيلم طويل واحد وثمانية عشر فلماً قصيراً للشركة في العام القادم والسبب في قصر الأفلام الطويلة على فيلم واحد هو فيلمه الطويل السابق (سيندريلا والأقزام السبعة) لم ينجح بدرجة فيه من الوجهة المالية، كما كانت به عيوب كثيرة من الوجهة الفنية.

العدد 272 - بتاريخ: 19 - 09 - 1938

تذييل للحاشية

للأستاذ عباس محمود العقاد

الشاطئ قليل الزوار، مقفر أو وشيك الإقفار، وقد ظهرت الكروش في الحمامات، فكان ذلك علامة من علامات (التقويم) الذي اصطلح عليه رواد الشواطئ ومراقبوها، فلا تظهر النساء ذوات الكروش في الحمامات المشهورة إلا كان ذلك دليلاً على إقبال الخريف وانقضاء الصيف. إذ كان الزحام مغرياً بالتنافس في محاسن الأجسام، فإذا قل الزحام قل التنافس واجترأت على الظهور، من لم تكن قبل ذلك تجترئ على العبور وقضى الله ألا يكون شيء من الأشياء نافعاً كل النفع ولا ضاراً كل الضرر. فمن محاسن الشاطئ الذي كثرت أضراره في رأي الوعاظ والمرشدين أنه يهدي إلى حاسة الجمال ويبثها في سليقة النساء والرجال. وهذا غرض كان الأقدمون يتوخونه بالرياضة، وكان الإسبرطيون يبلغونه بإقامة المواسم التي يتبارى فيها الفتيان والفتيات في مرانة الأعضاء ومرونة الأوصال. ولا ينحصر النفع بعد ذلك في تحسين الجسد أو تحسين الذوق أو تحسين الحركات، بل8 يسري إلى الأذهان والأخلاق والأعمال والمعاملات، فإن الذي تعود ملاحظة الجمال في تركيب الجسم وتوجيه حركاته خليق أن يتعود مثل ذلك في فهم الأمور وتقدير المناقب والصفات، ثم يقل اشتهاؤه للجسد من ناحية الغريزة الحيوانية، لأنه لا يستطيع أن يشتهي كل ما يراه، ولأنه يألف ما يراه ساعة بعد ساعة ويوماً بعد يوم فينظر إليه نظرته إلى الصور والتماثيل، ويعرضه على مقاييس الفهم والتمييز، ولا يعرضه على مقاييس الشهوات واللذات

فالحسناء التي تبدو على الشاطئ عارية أو شبه عارية لا تثير من غريزة الناظر بعض ما تثيره وهي لابسة جلباب النوم في شرفة الدار، فإذا كان ما يراه مائة حسناء - ولم

يكن فرد واحدة - فليس في وسع غريزته أن تنطلق في جماع شهواته ونزواته، ولا بد له من الإخلاد إلى التأمل والاكتفاء بالنقد والتمييز والتطبع بهذا الطبع والإعراض عن حكم الغريزة وحده في النظر إلى الأجسام

وعلى الشاطئ يعرف الناظر معنى الاصطلاح في قوانين الاجتماع، ويعرف أن مسألة الملابس أكثر ما تكون مسألة اصطلاح وعادة وتواضع بين الأمم كل أمة بما درجت عليه

وجنحت مع الزمن إليه

فقد كنا نجلس في ديوان من دواوين الحكومة والى جانبنا نافذة تطل على الطريق، وأمام النافذة بيوت وشرفات، فظهر على إحدى هذه الشرفات رجل يلبس (البيجامة) أو المنامة كما سماها صديقنا المازني وأصاب في إحدى قصصه الصغار، فما راعني إلا تأفف لمحته على وجه الموظف الكبير الذي كنت أزوره، وإذا به يصيح في غضب واشمئزاز: أهذا أدب؟ يتعلمون لبس المنامات ولا يتعلمون كيف يلبسونها وأين يدارونها عن الأنظار؟

فخطر لي أن الدعابة هنا واجبة وأنها من الدعابات التي يجئ معها البحث وتحسن فيها المناقش،

فقلت:

أترى الفرق عظيما بين المنامة والملابس التي يلبسها الموظفون من أهل الهند في دواوين الحكومة؟ أليس السروال هنا أسبغ على الجسم وأدنى إلى الوقار؟

فسكت قليلاً كأنما كان هذا السؤال لا يخطر له على بال، وراح يقول في تلعثم: (ولكن الناس عادات، وما يجوز في الهند قد يعاب بيننا نحن المصريين، وهذه المنامة من ملابس الأوربيين فإذا اقتدينا بهم فيها فليكونوا قدوة لنا في مواضع لبسها وآداب الأزياء عندهم في جملتها. . .)

وكان جوابه في الحقيقة مقطع القول وفصل الخطاب في مثل هذا الموضوع، لأن المسألة مسألة اصطلاح وتقدير، فإذا كانت البيجامة لباساً للنوم والتبذل فهي لا تحسن في غير مواضعها من البيت أو مواضعها من رفع التكليف، ولا محل للمقابلة بينها وبين أزياء أهل الهند في دواوين الحكومة لأن الهندي الذي يلقاني بالقميص الطويل والسروال الواسع لا يعتقد ولا أعتقد أنا أنه يلقاني بثياب التبذل أو بثياب النوم، وهذا هو الفارق الذي يفصل بين زي وزي في مشارق الأرض ومغاربها، ولا فارق سواه في اعتبار الثياب والأزياء

إن لاعب الكرة لا يغطي من جسمه نصف ما تغطيه المنامة، ولكنه يظهر بين مئات الألوف في ميدان لعب الكرة ولا يقدر على الظهور بالمنامة لواحد من الزوار غير من يعاشرونه في البيت ويرفعون بينهم وبينه التكليف، وقد بلغ من تحرج بعض الأوربيين أنه لا ينتقل إلى حجرة الاستقبال في داره بغير ملابس الاستقبال، ولو لم يكن هنالك أحد من الزائرين

فالمسألة كلها مسألة اصطلاح حسب الوقت وحسب المكان وحسب السكان

ومن أجل هذا جاز أن يمشي الرجل والمرأة على شاطئ الحمام كالعاريين، ولم يجز لهما في عرف الشرطة أو عرف السابلة أن يصعدا السلم بهذه الحالة إلى عرض الطريق. ولقد يكون الشاطئ حافلا بالمئات من النظارة مستحمين أو غير مستحمين، ويكون الطريق خلوا من عابر واحد في تلك اللحظة، ولكن الاصطلاح وحده هو الذي يمنع هنا ما يجيزه هناك

ليست المسألة إذن مسألة طول (القماش) ولا مسألة شكله ولا مسألة تفصيله أو الجانب الذي يبديه أو الجانب الذي يخفيه، ولكنها كما أسلفنا مسألة المعنى الذي يوقعه في روع الناظر والشعور الذي يبعثه ويوحيه. ومن ثم يأتي اليوم الذي يغلب فيه الاصطلاح المتبع على الاصطلاح المهجور، وتخف وطأة الحكم الذي نحكمه على المستحمين والمستحمات ونحن صادرون عن معنى سابق وشعور قديم

على الشاطئ يعرف الإنسان هذا جميعه ويعرف معه سلطان الإرادة على تكوين الأعضاء، وتكوين الأذواق

فالأجسام الحسان التي ترى هناك لم تولد كلها ولا ريب على هذا الصقل وعلى هذا

الهندام، ولعلها لم تكن كذلك قبل عام أو عامين، ولم تصل إلى ما وصلت إليه إلا بفعل العلاج في الغذاء والعلاج في الحركة والعلاج في سائر الأعمال
وبهذه المثابة نفهم سلطان الإرادة، ونفهم أن الإرادة مسخرة لشعور الجمال حين يستعصي تسخيرها لشعور العقائد والفرائض والعادات
فهذه الحسناء اللعوب التي تحرم نفسها القوت والراحة وتنظر أمامها مشتهيات الطعام على المائدة فلا تقربها، وتصبر على يد الحلاق ساعات، وعلى يد الطبيب شهوراً وسنوات - كم تطيق من كل هذا أو بعض هذا في شهر رمضان؟
وكم تطيق من كل هذا أو بعض هذا إن كانت مسيحية وفرض عليها الدين أن تجتنب اللحوم والأسماك في بعض الأيام؟
بل كم تطيق من كل هذا أو بعض هذا إن قيل لها إن خطراً على الحياة يوجب عليها الصيام عن هذا الطعام أو التدثر بهذا الكساء على غير أحكام المساهر والأزياء؟
لا تطيقه كله ولا بعضه، ولا معنى لذلك إلا أن الإرادة تصوغ الأجسام، وأن شعور الجمال يصوغ الإرادة كما يشاء حين يستعصي أمرها على العقائد والفروض. ومتى علمنا ذلك فليس هو بالعلم الهين اليسير، ولا هو بالعلم الذي يأتي في عرض الشاطئ ويذهب في عرض الطريق، لأنه علم أصيل نستفيده ونستفيد به في التربية والتعليم:
تربية الأفراد وتربية الجماعات
عباس محمود العقاد
في الطريق إلى مؤتمر المستشرقين
من القاهرة إلى بروكسل
للدكتور عبد الوهاب عزام
- 2 -
بنيتي العزيزة بثينة
لعل رسالتي الأولى بلغتك فسرَّتك. وهذه رسالتي الثانية.
قلت لنفسي وأنا على الباخرة (محمد علي): قد ركبت هذا البحر بحر الروم أربع عشرة مرة فلماذا لم يوح إليَّ شيئاً؟ لماذا لم أصفه أو أصف حالي فيه بكلمة؟ إنني حين أسافر إلى الشام أو العراق أو تركيا أو إيران أكتب عنها جهد المقِل، وعلى قدر ما يواتيني البيان، وتأذن لي المشاغل. وإن لم أكتب أظلّ راغباً في الكتابة، وتبقى في نفسي معان تودّ الإعراب عن نفسها أحدث بها نفسي وأصحابي بين الحين والحين.
فلماذا لم أخط حرفاً عن البحر الأبيض وأوربا؟
قالت نفسي بعد تفكير طويل: أنت رجل عصبيٌّ قد ملأ نفسك التعصب لقومك العرب ولدينك الإسلام فلست تبالي بغيرهما، ولا تستلهم البيان إلا منهما
قلت: هذا حق، ولكن يحسن أن تُصوِّريه صورة أخرى؛ أجرى بك أن تقولي: إنك حينما ذهبت في بلاد الشرق وجدت قومك ولغتك وتاريخك وآثار أسلافك فتفرح أو تحزن، وتنبسط أو تنقبض، ويجول فكرك بين الماضي والحاضر فاخِراً أو خجلاً، راضياً أو ساخطاً، داعياً أو ناهياً الخ. ولكن أوربا وأهل أوربا ليس بيننا وبينهم من سبب إلا ما أصابنا منهم وإلا هذا الجلاد الدائم بيننا وبينهم
قالت: ألا تكون مرة إنسانياً تسمو على العصبيات وتخرج من هذه الدوائر الضيقة، وتنظر إلى الإنسانية في سعتها، والحقائق في شمولها، والعالم في جملته؟
قلت: قد سألت السبب لك الحق، وصدقتك الجواب؛ فأما الإنسانية والعصبية فموضوع آخر لا أريد أن أكدَّر على نفسي صفو هذا السفر الممتع في هذا الجوَّ الصاحي والبحر الساجي، بالكلام في الإنسانية والعصبية وما يتصل بهما؛ فهذا كلام إن عرف أوله لم يعرف آخره
على أني - وحقاً أقول - أحسّ الآن في نفسي معاني كثيرة يلهمني إياها هذا البحر العظيم الذي نبتت حضارة الإنسانية على شواطئه، وحوت أعظم وقائع البشر صفحاته، ولا يزال تاريخ البشر يسكن إذا سكن ويهيج إذا هاج. كم وعى التاريخ من حادثات على سواحل هذا اليم العظيم وعلى أمواجه!
ألم يكن العرب فوق هذا البحر سلطان أعظم من لججه، وعزمات أهوال من أمواجه؟
إن دولتهم لم تبلغ من عمرها خمس عشرة سنة حتى طمحت إليه، ومدت سلطانها عليه؛ ولم تبلغ العشرين حتى جالدت الروم فيه، وحطمت أساطيلهم بأسطولها، وشهد

العالم أعجب وقائع البحار: العرب الذين لم يعرفوا إلا الإبل سفن الصحراء، يغلبون الروم في البحر! أجل، هزموهم في موقعة ذات الصواري سنة إحدى وثلاثين. ثم فتح العرب الجزر الشرقية، ثم سارت من بعدُ أساطيل بني الأغلب لفتح صقلية فاستولوا عليها حقباً طوالاً، ثم . . .

قالت نفسي: قد انتكستَ في العصبَّية فانفسح لك مجال القول وانطلق لسانك تُشيد بالعرب ومجد العرب. ألم أقل إنك عصبي؟ ألم أقل إنك عربيٌ مسلم متعصب؟

قلت: إن هذا الأمر عجب! إن ذكرت تاريخ قومي كان هذا عصبية، وإن رويت تاريخ غيرهم كانت إنسانية؟ أليس قومي من البشر فتاريخهم للبشر تاريخ؟

لقد جاوزنا البارحة جزيرة كريد التي سماها العرب إقريطش وكان لهم دُول وغِيَر. أفتلزمني الإنسانية أن أذكر كل من ملكوا هذه الجزيرة إلا العرب؟ ليست العصبية أن أذكر قومي وأشيد بمآثرهم، وليست الإنسانية أن أنساهم وأغمط حقهم وأعق تاريخهم؛ ولكن العصبية أن أتزيد في القول فأحمدهم بما لم يفعلوا، أو أتحيف غير قومي فأبخسهم ما فعلوا. فأما أن أذكر الحق وأروي الصدق، فحقٌّ على الناس جميعاً وهو لقومي أحق

هاهو ذا مضيق مسْينا قد اقترب، والسواحل عن يميننا وشمالنا تشتعل بالأضواء المتلألئة، والمصابيح المنشورة بين السواحل والجبال. وهو، ونور الحق، وجمال الشعر، منظر رائع جميل في هذا الليل السياحي، والباخرة تشق طريقها متمهلة تأخذ ذات اليمين مرة وذات الشمال أخرى، تتحرى سبيلها بين شعاب البحر وصخوره. والمنارات تومِض وتخبو، تهدي السفينة طريق النجاة وتحذّرها مواطن العطب. لشدَّ ما تعجبني وتملأ نفسي غبطة

هذه الحضارة الوهاجة، والمدنية المضيئة! وشد ما أرجو الخير للناس جميعاً في ضوء هذه الحضارة! ولشدَّ ما يؤلمني ويملأ نفسي أسفاً أن أذكر أن في طيّ هذه الحضارة دمارها وأن تحت هذه الأنوار نارها، وأن هذه المياه وهذه السواحل وما وراءها يبيّت للحضارة شرًّا، ويريد بها أمراً نُكرا. ليت الناس يدركون السلام، ويعرفون الوئام، فلا يبنوا ليهدموا، ويعمروا ليدمروا . . .

إن السفينة تتجه شطر الشمال الآن. وهاهو القطب أمامنا وبنات نعش الكبرى قد دارت إلى الشمال وهوت نحو الأفق. ونحن الآن في المضيق. فهذه إيطاليا إلى اليمين، وهذه صقلية إلى اليسار. أأستطيع أن أمر هنا، إنساناً أو شيطاناً، فلا أذكر قومي في صقلية وسواحل أوربا وأفريقية، وما كان لهم من مجد مؤثل، وعزة قعساء، ثم أذكر ما يحل اليوم بساحتهم في أرجاء العالم من العذاب والخراب؟ أأذكر طرابلس أم أذكر المغرب أم أذكر فلسطين؟

إن قلبي يكاد يوحي إلى لساني لعن هذه الحضارة. إني أتخيل الآن ذلك الفقيه . . . أسد بن الفرات يقود جيش الأغالبة على لجج البحر لفتح صقلية، وهو يحمل قلباً أبر بالإنسانية والحضارة من قلوب أبناء عصرنا

قالت نفسي: لا تغضب إذا ذكرتك أن العصبية جاوزت بك الحق. أترى أسد بن الفرات وأساطيله شيئاً مذكوراً بجانب هذه المدنية الخلاقة التي تذكرك بها هذه السفينة الكبيرة تمخر عباب البحر في ظلمات الليل لا تبالي أهاج البحر أم سكن؟

قلت: لم أتكلم عن الصناعة والعلم ولكن ذكرت الرحمة والبر بالناس، والعمل لإسعادهم والإخلاص في إنصافهم، والدعوة إلى المؤاخاة بينهم والتواضع للحق والبعد من الزهو والإعجاب والفخر والكبرياء، ومراقبة الله في خلقه

وبعد فقد جاوزنا المضيق وتركنا صقلية كما ترك الزمان تاريخ العرب. فأريحيني من هذا الجدال، وانظري إلى السماء والماء، واستشعري شيئاً من الصفاء والسلام

وبعد فيا بنيتي العزيزة! قد أخذت القلم لأصف لك بعض ما رأيت بعد أن فارقنا السفينة، وأحدثك عن سفري من جنوة إلى لوسرن في سويسرا، ولكن سبق إلي حديث البحر وتبعه القلم، ولست أجد الآن فراغا لاطالة الحديث. فحسبك هذه النبذة في هذه الرسالة. وعسى أن أجد عما قليل فراغا للرسالة الآتية. وأحسبها ستكون رسالة أختك مي لا رسالتك. والله

يحفظك ويرعاك والسلام.
(بركسل)
عبد الوهاب عزام
على هامش أبحاث التيسير
ملاحظات انتقادية على قواعد اللغة العربية
للأستاذ أبي خلدون ساطع الحصري بك
مدير دار الآثار العراقية
- 1 -
هذه ملاحظات انتقادية، كانت قد عنت لي في أوقات مختلفة خلال دراستي للكتب المدرسية الموضوعة لتعليم قواعد اللغة العربية في المدارس الابتدائية والثانوية؛ وكنت سردتها على بعض علماء اللغة ومعلميها، غير أنني أحجمت عن جمعها ونشرها على صفحات الصحف. . إلى الآن.
أما الآن، فبعد أن أطلعت على تقرير اللجنة التي ألفتها وزارة المعارف المصرية لدرس وسائل (تيسير قواعد النحو والصرف والبلاغة) وبعد أن قرأت طائفة من الملاحظات التي أبدتها بعض المحافل اللغوية على المقترحات المدونة في التقرير المذكور، رأيت من المحتم علي أن أجمع وأنشر هذه الملاحظات والانتقادات.
ولهذا السبب جئت أرجو صديقي الأستاذ الزيات أن يتوسط في عرضها على أنظار قراء الرسالة بوجه عام، وعلى أنظار علماء اللغة ومؤلفيها بوجه خاص.
(أبو خلدون)
كلمة تمهيدية
إن الغاية التي استهدفتها في بحثي هذا، تنحصر في مناقشة (قواعد اللغة العربية: الصرفية والنحوية) وحدها، ولا تتضمن شيئاً في انتقاد (اللغة العربية) نفسها. . .لأنني أعتقد أن (اللغة العربية) شيء، و (قواعد اللغة العربية) شيء آخر
فإن (اللغة) - بوجه عام - تتكون تحت تأثير الحياة الاجتماعية، وتتطور بتطورها؛ في حين أن (قواعد اللغة) تتولد من الأبحاث التي يقوم بها العلماء، وتتبدل بتبدل النظريات التي بضعها هؤلاء. . .
فنستطيع أن نقول: إن (خصائص اللغة) تدخل في نطاق (الأمور الطبيعية) التي لا يمكن
أن تقاس بمقاييس العقل النظري والمنطق الموجود، في حين أن (قواعد اللغة) لا تخرج عن نطاق (الأمور الاجتهادية) التي يجب أن تبقى خاضعة لحكم العقل والمنطق على الدوام.
إنني لا أعترض - في مقالي هذا - على من يقول بوجوب التمسك (بخصائص اللغة) على علاتها؛ غير أني أقول في الوقت نفسه: إن (قواعد اللغة المدونة في الكتب) لا تدخل في نطاق (خصائص اللغة)؛ فمهما تطرقنا في الأخذ بمبدأ (التمسك بخصائص اللغة على علاتها)، ومهما استرسلنا في الدفاع عن نظرية (المحافظة على تلك الخصائص بدون تبديل وتحوير)ـ . . يجب أن نسلم في الوقت نفسه بأن ذلك لا يستلزم - بوجه من الوجوه - (التمسك بقواعد اللغة) على أشكالها الحالية. فيجب أن نتذكر على الدوام أن هذه القواعد من وضع علماء اللغة الأقدمين، وهي تمثل - بطبيعة الحال - طرق تفكيرهم في مسائل اللغة، وأساليب استنباطهم لقواعدها. لذلك لا يجوز لنا أن نقبلها بدون مناقشة وتفكير؛ بل يجب علينا أن نعيد النظر فيها، ونطيل التفكير حولها، لنكشف مواطن الخطأ والصواب فيها، فنسعى إلى إصلاحها وتصحيحها وفقاً للطرق المنطقية المتبعة في الأبحاث العلمية بوجه عام. . .
إن الملاحظات الانتقادية المعروضة في هذا المقال، مستندة على هذا الرأي الأساسي، ومنبعثة عن هذا الاعتقاد الصريح، وهي تقوم بحملة على (قواعد الصرف والنحو المدونة) وتطلب إصلاحها إصلاحاً جوهرياً. . . دون أن تتجاهل (الخصائص) التي تختص بها اللغة العربية، ودون أن تدعو إلى إهمال تلك الخصائص أو الخروج عليها
هذا، ومما يجب ألا يغرب عن البال في هذا المقام أن العلماء الذين توغلوا في استنباط قواعد اللغة العربية وتدوينها لم يتفق بعضهم مع بعض في جميع المباحث والأمور؛ بل كثيراً ما اختلفوا في عدد غير قليل من المسائل والقواعد؛ واختلافهم هذا

أدى إلى تكوين مذاهب لغوية شتى
إنني لم أر داعياً لاستعراض جميع الآراء والمذاهب اللغوية خلال هذا الانتقاد؛ بل رأيت أن أحصر بحثي وانتقادي على (قواعد اللغة العربية) التي أصبحت (رسمية نوعاً ما) لدخولها في الكتب المدرسية واندماجها تقاليد التدريس
وأعتقد أن الكتب المدرسية التي تمثل (القواعد الرسمية) أحسن تمثيل، هي السلسلة المطبوعة في مصر بعنوان كتاب (قواعد اللغة العربية)، لأن هذه السلسلة تدرس في جميع المدارس المصرية بناء على قرار (وزارة المعارف العمومية) منذ عدة سنوات؛ وهي تحمل توقيعات عدد غير قليل من كبار الأساتذة والمفتشين؛ فقد ألفتها لجنة مكونة من خمسة أساتذة، (ووضعت خطتها وراجعتها لجنة مؤلفة من) خمسة آخرين، وبين هؤلاء المؤلفين والمصححين ثلاثة من أساتذة الجامعة المصرية ومدرسيها: (طه حسين، أحمد أمين، إبراهيم مصطفى)، وثلاثة من أساتذة دار العلوم: (محمود السيد عبد اللطيف، عبد المجيد الشافعي، علي عبد الواحد وافي)، وثلاثة من المفتشين: (محمد عطية الإبراشي، محمد مهدي علام، ومحمد أحمد جاد المولى)؛ وقد ساعدت المكانة العلمية والأدبية التي اشتهر بها هؤلاء الأساتذة والعلماء على انتشار سلسلة هذه الكتب خارج القطر المصري أيضاً، حتى إن هذا الانتشار أخذ في آخر الأمر شكلاً رسمياً في العراق إذ اقتفت وزارة المعارف العراقية أثر وزارة المعارف المصرية في هذا الباب، فقررت تدريس الكتب المذكورة في جميع المدارس الابتدائية والثانوية
فإذا اعتبرنا (قواعد اللغة) المدونة في سلسلة هذه الكتب - المقررة في مصر والعراق - بمثابة (القواعد الرسمية) كنا قد عبرنا عن الحالة الراهنة أحسن تعبير
إن الملاحظات الانتقادية في هذا المقال تحوم حول الخطط المتبعة في الكتب الرسمية المذكورة وقواعد اللغة المدرجة بها
1 - تبويب المباحث
إن أبرز المآخذ التي تلفت أنظار الباحث في كتب (قواعد اللغة العربية) تعود إلى الطريقة المتبعة في (تبويب المباحث وعرضها) فان هذه الطريقة تخالف أصول التربية والتعليم مخالفة صريحة، كما تنافي العقل والمنطق منافاة تامة
وأعتقد أن الأمثلة التالية تكفي لإظهار هذه الحقيقة بكل وضوح وجلاء:
1 - من المعلوم أن مفهوم (المضاف) مرتبط بمفهوم (المضاف إليه) ارتباطاً وثيقاً، لأن كل واحد منهما يكون ركناً أصلياً من ركني (الإضافة). فلا نستطيع أن نتصور أحدهما دون أن نفكر في الآخر؛ ولا يمكننا أن نعطي فكرة واضحة عن أحدهما دون أن نتطرق إلى الآخر.
فالمنطق يقضي علينا بالبحث في المضاف والمضاف إليه بصورة مرتبطة، بحيث لا ينفك أحدهما عن الآخر
غير أن (قواعد اللغة العربية) الرسمية تهمل هذا الأمر البديهي إهمالا غريباً فلا تهتم بالعلاقة الوثيقة بين المضاف والمضاف إليه، وإنما تجعل من كل منهما بحثاً مستقلا يدخل في باب خاص
غير أن (قواعد اللغة العربية) الرسمية تهمل هذا الأمر البديهي إهمالا غريباً فلا تهتم بالعلاقة الوثيقة بين المضاف والمضاف إليه، وإنما تجعل من كل منهما بحثاً مستقلاً يدخل في باب خاص
فإذا تتبعنا جميع الأبحاث المتعلقة بالمضاف والمضاف إليه في سلسلة كتب القواعد التي نحن بصددها، نجد أن الجزء الأول منها يبحث في (المضاف إليه) وحده فهو يحاول تفهيم (المضاف إليه) عن طريق مقابلته بـ (النعت)، ويعرفه بهذا التعريف: (اسم يكمل معنى اسم سابق ولا يدل على صفة فيه) (ص - 45)
وأما الجزء الثاني فيذكر (المضاف) في أوائل أبحاثه مستقلاً عن (الإضافة) وعن (المضاف إليه). يتطرق إليه في بحث (المعرفة والنكرة) عندما يستعرض أنواع (المعرفة) تحت تعبير (المضاف إلى معرفة) (ص - 11). وأما (المضاف إليه) فلا يذكره إلا في أواخر أبحاثه في باب الأسماء المجرورة. وهناك فقط يذكر العلاقة بين (المضاف والمضاف إليه) (ص101)
إنني أعترف بأنه يصعب عليّ أن أتصور طريقة بحث وتبويب أبعد من منطق اللغة من هذه الطريقة، كما يستحيل علي أن أبتكر خطة عرض وتعليم أفعل في تصعيب

. . .الأبحاث وتشويش الأذهان من هذه الخطة
2 - من المعلوم أن الأسماء تقسم من حيث شمول مدلولاتها إلى قسمين أصليين: أسم خاص أو أسم علم، واسم عام أو اسم جنس. ويعتبر هذا التقسيم من التقسيمات الأساسية والمباحث الأولية في جميع اللغات
غير أن قواعد (اللغة العربية) الرسمية (لا تذكر شيئاً عن اسم الجنس). وأما اسم العلم فتذكره في الجزء الثاني، دون أن تقابله بنقيضه. إنها تذكره في بحث (النكرة والمعرفة)
كنوع من أنواع المعرفة، بين الضمير واسم الإشارة والاسم الموصول والمضاف إلى معرفة (ص - 11)
إنني أعتقد بأن من ينظر في هذه الخطة نظرة انتقادية مجردة عن تأثير (الألفة المخدرة)، يضطر إلى التسليم بأنها لا تتفق مع أصول التصنيف العلمية بوجه من الوجوه، كما أنها تنافي أساليب التعليم الصحيحة كل المنافاة
3 - لا يخفي أن الفعل ينقسم - من حيث المعنى - إلى قسمين: لازم ومتعد، ولا حاجة إلى البرهنة على أن المنطق يقضي بشرح هذا التقسيم في باب الأفعال. غير أن (قواعد اللغة العربية) لا تسير على هذه الطريقة المنطقية، بل تذكر ذلك عرضاً في بحث المفعول به، عند استعراض الأسماء المنصوبة في باب (إعراب الأسماء) (الجزء الثالث - ص106)
4 - كذلك لا يخفي أن الفعل ينقسم - من وجهة أخرى - إلى معلوم ومجهول، والمنطق يقضي بشرح ذلك في باب الأفعال بطبيعة الحال؛ غير أن (قواعد اللغة العربية لا تلتزم هذه الطريقة المنطقية، بل تذكر (المجهول) وحده، وذلك بصورة عرضية في بحث (نائب الفاعل) عند استعراض الأسماء المنصوبة في باب (إعراب الأسماء)! (الجزء الثاني ص45)
5 - من المعلوم أن (حرف التعريف) من أهم عناصر الكلام في اللغة العربية؛ وهو كثير الاستعمال جداً في التكلم والقراءة والكتابة؛ ومع هذا إذا تتبعنا كتب (قواعد اللغة العربية) نجدها لا تهتم به اهتماماً يتناسب مع كثرة استعماله:
فإن الجزء الأول منها لا يذكر شيئاً عن حرف التعريف بالرغم من كثرة وروده في عبارات الكتاب اعتباراً من صفحاته الأولى. والجزء الثاني أيضاً لا يلتفت إليه مع أنه يفرد بحثاً خاصاً للمعرفة والنكرة، ويذكر خمسة أنواع من المعرفة فيها الضمير، واسم الإشارة، والاسم الموصول، والمضاف إلى معرفة
إن حرف التعريف لا يثير شيئاً من اهتمام واضعي الكتب المذكورة إلا في الجزء الثالث منها، وهو الجزء الخاص بالصف المنتهي من الدراسة الابتدائية؛ وذلك في بحث أنواع المعارف تحت عنوان (المعرف بأل) (ص - 41)
6 - من المقرر أن التنوين من خصائص اللغة العربية التي تستعمل كثيراً، والتي تؤثر في معنى الكلمات تأثيراً كبيراً. ومن الغريب أن كتب قواعد اللغة العربية لا تذكر شيئاً عنه إلا في أواخر الجزء الثالث منها؛ وذلك في بحث (الممنوع من الصرف) - وفي صدد (إعراب الممنوع من الصرف) (ص - 61)
وإذا أجلنا النظر في ذلك البحث وجدنا فيه استعراضاً طويلا للكلمات التي لا يجوز أن تنون، ولكيفية إعراب تلك الكلمات دون أن نجد فيه إشارة إلى مواطن استعمال التنوين، والمعاني المستفادة من التنوين، والعلاقة الموجودة بين التعريف والتنوين. . .
7 - من الواضح أن أسماء الأعداد من أهم أركان اللغات؛ وهي من الكلمات التي تستعمل بكثرة خلال الحديث والقراءة والكتابة؛ غير أن كتب قواعد اللغة العربية لا تهتم بها ولا تذكر شيئاً عنها إلا في الجزء الثالث منها. كما أنها لا تفعل ذلك بصورة عرضية في بحث التمييز خلال استعراض الأسماء المنصوبة) في باب الأسماء المعربة. (ص - 130) . .
أنا لا أرى لزوماً حاجة إلى الإكثار من هذه الأمثلة، ولا إلى إطالة الشرح لإظهار مواطن الخطأ والشذوذ في كل واحدة منها غير أنني لا أود أن أختم ملاحظاتي على كيفية (التبويب والعرض) دون أن أشير إلى ما أعتقده في منشأ هذه المآخذ والأخطاء الغريبة وأسبابها - أعتقد أن أسباب كل ذلك تتلخص في نزعة واحدة وهي نزعة (الاهتمام بالأحكام النحوية وبمواطن الإعراب) أكثر من (الالتفات إلى المعاني

المفهومة، ومواطن الاستعمال). كل شئ في الطريقة المتبعة في تبويب القواعد وعرضها يدل على أن الذين دونوا هذه القواعد وجهوا جل اهتمامهم إلى مسائل الإعراب، واعتبروها الغاية القصوى من دراسة اللغة، كأنهم ممن يعتقدون - ضمناً - أن جميع أبحاث قواعد اللغة يجب أن تبتدئ من وجهة نظر الإعراب، وتنتهي بتثبيت قواعد الإعراب، وتبوب حسب ما تقتضيه أحكام الإعراب؛ وأما المعاني التي تؤديها الكلمات والوظائف التي تقوم بها في تكوين العبارات فهي من الأمور الثانوية التي يجب أن تترك على الهامش، أو من الأمور التافهة التي يجب أن تهمل بتاتاً. . .

إن آثار هذه النزعة المخالفة لأهم أسس التربية والتعليم تظهر بكل وضوح وجلاء في الطرق المتبعة في قضايا (التبويب) كما شرحناها آنفاً، وتظهر بوضوح أكثر في الطرق المتبعة في أمور (التعريف) كما سنذكرها بعد. . .

طريقة التعريف - 2

إن معظم التعريفات المدونة في كتب (قواعد اللغة العربية) مخالفة للقواعد المنطقية التي يجب أن تراعى في كل تعريف، ومنافية للأسس التربوية التي يجب أن يبنى عليها كل تعليم. . .

وأبرز أمثلة هذه المخالفة تتجلى في تعريف (اللازم والمتعدي) من الأفعال. . . هذا التعريف مسطور في الجزء الثالث من كتب الدراسة الابتدائية والجزء الأول من كتب الثانوية. . فإذا راجعنا كتاب الدراسة الابتدائية وجدنا فيه هذا التعريف: (يسمى الفعل متعدياً إذا نصب مفعولا به، ويسمى لازماً إذا لم ينصبه) (ص 106) فهذا التعريف لا يدعو إلى التأمل في مدلولات الأفعال لتمييز اللازم والمتعدي منها، بل يطلب النظر في تأثيرها في إعراب الكلمات التي تليها دون ملاحظة طبيعة الحدث المفهوم منها وإذا استعرضنا جميع التفاصيل التي تتقدم هذا التعريف نجد أن جميعها تسير على نفس النمط: المفعول به هو الاسم المنصوب الذي وقع الفعل على مسماه. . قد ينصب الفعل مفعولا واحداً. . وقد ينصب مفعولين أصلهما مبتدأ وخبر. . . وقد ينصب مفعولين أصلهما ليس مبتدأ وخبراً. . . ويسمى الفعل متعدياً إذا نصب مفعولاً به، ويسمى لازماً إذا لم ينصبه. . . (ص105 - 106) هذه هي سلسلة الإيضاحات التي توصل إلى التعريف الآنف الذكر. . .

وأما إذا راجعنا الجزء الخاص بالدراسة الثانوية، وجدنا فيه أيضاً تعريفاً مماثلا للتعريف المذكور بعد كلمة عن رفع الفاعل ونصب المفعول به:

(إذا قلت انفتح البابُ، وفتح عليٌ البابَ، وتأملت الفعل في المثالين وجدت الأول رفع الفاعل فقط، ورأيت الثاني رفع الفاعل ونصب المفعول به. . . وكل فعل من النوع الأول يسمى لازماً، وكل فعل من النوع الثاني يسمى متعدياً. . . فاللازم مالا ينصب مفعولا به، والمتعدي ما ينصب المفعول به (ص - 68)

إن نزعة إهمال (المعنى) والاستناد على (الإعراب) تتجلى في هذه الشروح والتعريفات بكل وضوح وجلاء، وتؤدي إلى التباعد عن جادة المنطق تباعداً غريباً؛ لأن الأسماء التي تقع تحت أبصارنا عندما نقرأ في الكتب والجرائد لا تكون مرفوعة أو منصوبة في حد ذاتها، بل تكون مشكولة، فتحتمل الرفع والنصب على حد سواء. ونحن نحتاج إلى (قواعد النحو) لنعرف ما إذا كان يجب علينا أن نقرأ أواخر تلك الكلمات مرفوعة أو منصوبة. . وكذلك الأمر في الكلمات التي تجول في خاطرنا عندما نفكر في موضوع ونحاول التعبير عنه، فإنها أيضاً لا تكون مرفوعة أو منصوبة في حد ذاتها؛ ونحن نقدم على رفعها أو نصبها حسب ما تعلمناه أو اعتدناه من قواعد النحو، لذلك نستطيع أن نقول: إن اعتبار (نصب المفعول به) واسطة لتعريف (الفعل المتعدي) يكون بمثابة قلب الأمور رأساً على عقب. . .

إن أبسط قواعد المنطق تقضي بتعريف اللازم والمتعدي من جهة، والفاعل والمفعول من جهة أخرى، حسب معانيها ومعاني العبارة التي تتألف منها، وذلك كما يفعل لغويو العالم بأجمعهم

وأما كيفية الإعراب فيجب أن تكون بمثابة (القاعدة التي نصل إليها، لا (الأصل) الذي نبدأ منه، أو (الأساس) الذي تبنى عليه. . .

فلا يجوز لنا أن نقول: هذا الفعل متعد، لأنه نصب مفعولا به، بل يجب أن نقول: هذا الفعل متعد فيحتاج إلى مفعول به؛ وهذا الاسم مفعول به، فيجب أن يعرب منصوباً

إن طريقة (تعريف الكلمة بالنظر إلى إعرابها) في كتب قواعد اللغة العربية ليست من الأمور المنحصرة في بحث (المتعدي واللازم)، بل هي من الطرق المتبعة في كثير من الأبحاث الأخرى أيضاً:

المبتدأ - اسم مرفوع يقع في أول الكلام (ج - 1 - ص30)

الفاعل اسم مرفوع يدل على الذي فعل الفعل ويذكر بعده (ج 1 ص32)

نائب الفاعل اسم مرفوع حل محل الفاعل بعد حذفه، وتقدمه فعل مبني للمجهول (ج 2 - ص46)

المفعول المطلق اسم منصوب من لفظ الفعل يذكر لتوكيد فعله أو لبيان نوعه (ج 2 - ص71)

المفعول لأجله اسم منصوب يبين سبب حصول الفعل الذي قبله (ج2 - ص74)

المفعول معه اسم منصوب يبين الشيء الذي قارن وجوده وقوع الفعل، ويكون مسبوقاً بواو بمعنى مع (ج2 - ص77)

ظرف الزمان اسم منصوب يبين زمن حصول الفعل (ج2 - ص80)

ظرف المكان اسم منصوب يبين مكان حصول الفعل (ج2 - ص80)

الحال - اسم منصوب يبين هيئة الفاعل أو المفعول به عند حصول الفعل (ج2 - ص85). . .

كل من ينعم النظر في هذه التعريفات على ضوء الملاحظات التي سردناها آنفاً حول تعريف اللازم والمتعدي يسلم بأنها لا تتفق مع (منطق التعريف) بوجه من الوجوه، كما أنها تخالف (أسس التعليم) مخالفة صريحة. في الواقع أنها لا تستند إلى أحكام الإعراب وحدها - مثل تعريف اللازم والمتعدي الذي انتقدناه آنفاً - ولكنها تجعل الإعراب ركناً أساسياً من أركانها، وتخلط - بهذه الصورة - بين التعريف والقاعدة، وبين الأصل والنتيجة، خلطاً غريباً. فإذا أردنا أن نرجع هذه التعريفات إلى مقتضيات المنطق العلمي، وجب أن نحذف منها كل ما يعود إلى الإعراب. أما مسألة الإعراب، فيجب أن نفرغها في قالب (قاعدة) مستقلة عن التعريف.

فلا يسوغ لنا أن نعرف الفاعل بقولنا: (الفاعل اسم مرفوع يدل على الذي فعل الفعل) بل يجب أن نعرفه بقولنا: (اسم يدل على الذي فعل الفعل) ثم نأتي بقاعدة في إعراب الفاعل مستقلة عن تعريفه، فنقول: (الفاعل يعرب مرفوعاً)

كما يجب أن نتبع خطة مماثلة لما ذكرنا في بقية التعريفات المذكورة آنفاً

ومما يلفت الأنظار في هذا الباب، بوجه خاص، هو أن واضعي كتاب (تكوين الجمل) - الذي يؤلف الجزء الأول من سلسلة كتاب (قواعد اللغة العربية) - كانوا عرفوا الفاعل على هذا النمط دون أن يدمجوا قاعدة إعرابه في تعريفه، وذلك في الطبعة الأولى من كتابهم؛ ولكنهم غيروا خطتهم هذه في الطبعة الثانية، كأنهم اعتبروا تعريفهم الأول خروجاً عن المألوف وغير واف بالمقصود، فأرادوا أن يصححوه بتعريف يستند إلى الإعراب قبل كل شيء. فقالوا: (الفاعل اسم مرفوع يدل على. . .). وبذلك أخرجوا هذا التعريف أيضاً عن جادة المنطق والصواب. . .

يظهر من هذه التفصيلات أن الخطة التي يمشي عليها المؤلفون في التعريفات تستمد اتجاهها من النزعة التي ذكرناها آنفاً، خلال تعليلنا للخطة المتبعة في أمر التبويب، وهي نزعة الاهتمام بالإعراب أكثر من الالتفات إلى المعنى والمفهوم

غير أني أعتقد أن لهذه الخطة - ولهذه النزعة - بعض العوامل التاريخية التي تعود إلى أدوار نشأة (قواعد الصرف والنحو)، فان من العلوم أن هذه القواعد دونت - في الدرجة الأولى - تحت تأثير حاجة الأعجام الذين لم ينشئوا على العربية، وذلك كما حدث في أمر تدوين القواعد في سائر اللغات بوجه عام؛ وكان القصد الأصلي من تعليم العربية لهؤلاء الأعجام تمكينهم من قراءة القرآن وتسهيل فهمهم لمعانيه. ومما لا يحتاج إلى إيضاح أن الأعجمي الذي يقرأ القرآن يرى أمام عينيه سلسلة كلمات مشكولة، بعضها مرفوع، وبعضها منصوب، وبعضها مجرور، وبعضها ساكن، فيرى ويقرأ هذه الكلمات قبل أن يفهم شيئاً من معانيها، فإذا اتخذ رفع الكلمة أو نصبها نقطة بدء لدرسه وبحثه فلا يكون قد سلك مسلكاً مخالفاً للعقل والمنطق، من الوجه العملية: فإذا قال: (هذا اسم مرفوع، وقع في أول الجملة فهو المبتدأ إذن. . .) وهذا اسم مرفوع أتى بعد الفعل، فهو الفاعل إذن، يكون قد سار على خطة لا تجانب الصواب -

من الوجهة العملية - بالنسبة إلى حالته الخاصة
غير أن الاستمرار على اتباع خطة مماثلة لهذه في هذا العصر ولا سيما في تعليم أبناء الضاد الذين يتكلمون العربية ويقرءون الكتب والجرائد والمجلات المطبوعة - لا يمكن أن يتفق مع مقتضيات المنطق بوجه من الوجوه، ويخالف أصول التربية والتعليم من كل الوجوه
إنني لا أجد سبيلاً لتعليلها إلا بإرجاعها إلى تأثير الأحوال الخاصة التي أشرت إليها، وباعتبارها من تراث العصور القديمة التي نوهت بها. والمآخذ التي سأذكرها في بحث (العلامات) تؤيد هذا التعليل بوضوح أقوى
(يتبع)
ساطع الحصري
كتاب المبشرين الطاعن في عربية القرآن
أمسلم مصري أم مبشر بروتستنتي؟
لأستاذ جليل
- 2 -
أراد الكاتب المسلم في تلك المجلة أن يغم إحدى الجريمتين - أعني جريمة اللصوصية فأوراد في تضاعيف أقوال المبشرين هذا المُمْلي :-
ألسنا نقرأ قوله تعالى: (جنتان ذواتا أفنان) ونراه يثني (ذات) بذواتا مع أن نحونا) (يقول: إن مثنى ذات ذاتا
وقوله تعالى: (يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذاباً أليما) فلا ندرك) (سر نصب الظالمين إلا عندما يقول لنا المفسرون إنها منصوبة على التخصيص
وقوله تعالى: (ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً) قالتا أتينا طائعين). فنسأل كتب النحو لماذا لم يقل طائعتين بدلاً من طائعين، وهو يخاطب مثنى والمجيب مثنى أيضاً فلا تسعفنا كتب النحو بجواب وإنما يسعفنا المفسر (بقوله: إن المجيب هنا هم سكان السماء والأرض فنفهم المعنى وإن اختلفت القاعدة
إن تلاعب الكاتب بخلطه أقوالاً بأقوال لم يستر لصوصيته بل ثبتها تثبيتاً، وعلن بأنه خريج في الضلال والتضليل غير حاذق، ودل على أنه يجهل (النحو) الجهل كله و (قتلت أرضٌ جاهلَها) وسأبين اليوم تخليطه ثم أجيء إلى كتاب المبشرين مغلط القرآن في العربية. . .
قال الكاتب المسلم: (. . . مع أن (نحونا) يقول إن مثنى ذات ذاتا)
أقول: إن علم العربية (أي النحو) في كتبه المختصرة وفي مؤلفاته الكبيرة يقول: إن مثنى ذات (ذواتان) وتقول مثل قوله المعجمات القديمة والمعجمات العصرية المبثوثة في كل مكان. و (ذاتان) قليلة جائزة في الشعر، وهي ليست بالقاعدة
قال (الكاتب): (فإنك تقول: ذووي ردّ إلى أصله، لأن أصله فعَّل؛ يدلك على ذلك قولهم ذواتان، وكذلك الإضافة إلى ذاه ذوَويّ)
وقال الرضي في (شرح الكافية): (وردَّ لام ذات في التثنية فقالوا: ذواتا مال، وقد جاء أيضاً ذاتا مال وهو قليل)
وقال ابن منظور في (لسان العرب): (وتقول هي ذات مال وهما ذواتا مال، ويجوز في الشعر ذاتا مال والتمام أحسن) ونقل قوله الزبيدي في (تاج العروس)
قال الكاتب المسلم: (. . . فلا بد سر نصب (الظالمين) إلا عند ما يقول لنا المفسرون إنها منصوبة على التخصيص)
أقول: قد ذكرني كلام هذا الكاتب بقول للعامة: (فلان من معرفته بالصحابة يترضى عن عنتر) وصاحبنا من تضلعه من النحو يخلط الخلط الذي ترى. وقد أوضحت الكتب المصنفة للصبيان (مثل الألفية وشرحها لابن عقيل) هذه (القاعدة) وعنوانها فيها: (اشتغال العامل عن المعمول). قال سيبويه في (هذا باب ما يختار فيه إعمال الفعل مما يكون في المبتدأ مبنياً عليه الفعل): (رأيت عمراً وعبدَ الله مررت به، ولقيت قيساً وبكراً أخذت أباه، ولقيت خالداً وزيداً واشتريت له ثوباً. وإنما اختير النصب ههنا لأن الاسم الأول مبني على الفعل فكان بناء الآخر على الفعل أحسن عندهم. ومثل ذلك: قوله عز وجل يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً)
وقال (المفصل) في (ما أضمر عامله على شريطة التفصيل): (فالمختار في موضعين

أحدهما أن تعطف هذه الجملة على جملة فعلية)
قال شارحه ابن يعبش: (إذا كان النصب من غير تقدم فعل جائزا كان مع تقدمه مختارا
إذ فيه تشاكل الجملتين؛ قال الله تعالى: (يدخل من يشاء الآية)
يقول الكاتب المسلم: (. . . فنسأل كتب النحو لماذا لم يقل طائعتين. . .)
قلت: لو سأل الكاتب (النحو) لأجابه، ولو استهدى لهُدي، لكنه كأنه في مسطوره -
!فاهالفيه - من (المصحبين. . .) فهو (يلفت القول لفتاً ماضياً على المخَيّل)
إن المثنى قد تبدي (جمعاً) إذ (أن المثنى جمع) كما قال الرضي شارح (الكفاية) و (من
حيث أن التثنية جمع في الحقيقة) كما قال ابن يعيش شارح (المفصل) و (نظيره
قولك: فعلنا وأنتما اثنان فتكلمُ به كما تكلم به وأنتم ثلاثة لأن التثنية جمع) كما قال
كتاب سيبويه: و (من سنن العرب إذا ذكرت اثنين أن تجريهما مجرى الجمع) كما قال
الثعالبي في (سر
العربية ومجاري كلام العرب وسننها) وهذا من النحو - والنحو أنحاء - والذي حوَّشته
مصنفاته هو جزء من أجزاء، وقد أبان ذلك العالم الشيخ (إبراهيم مصطفى) في كتابه
(إحياء النحو)
وقد قال (الكتاب): قالتا أتينا طائعين - ولم يقل طائعتين والسماء والأرض مؤنثتان لأن
النون والألف اللتين هما كناية أسمائهما في قوله: (ائتيا) نظيرة كناية أسماء المخبرين
(من الرجال عن أنفسهم فأجرى قوله طائعين على ما جرى به الخبر عن الرجال كذلك
وإن قال جاهل ضال عمه أو خادم جوعان من خدام المحترفين بالتبشير (التضليل).
هي السماء وهي الأرض فتأتيان طائعات لا طائعين فما لهما والياء والنون - أجاب
(النحو) في الكتاب): (وأما كل في فلك يسبحون، ورأيتهم لي ساجدين، ويا أيها النمل
ادخلوا مساكنكم فبمنزلة من يعقل من المخلوقين ويبصر الأمور، فجاز هذا حيث
صارت هذه الأشياء تؤمر وتطيع وتفهم الكلام وتعبد بمنزلة الآدميين) وقال ابن يعيش
مثل هذا، وقال (النحو) في (شرح الكافية): (يشبه غير ذوي العلم بهم في الصفات إذا
كان مصدر تلك الصفات من أفعال العلماء كقوله تعالى: (أتينا طائعين) وقوله (فظلت
أعناقهم لها خاضعين) (ورأيتهم لي ساجدين) ومثل ذلك في الفعل: (وكل في فلك
يسبحون) وقال كتاب (أسرار العربية) لأبي البركان الانباري: (فإن قيل: من أين جاء
هذا الجمع في قوله تعالى: (فقال لها وللأرض الآية)؟ قيل: لأنه لما وصفها بالقول
والقول من صفة من يعقل أجراهما مجرى من يعقل، وعلى هذا قوله تعالى: (إني
رأيت الآية) لأنه لما وصفها بالسجود وهو من صفات من يعقل أجراها مجرى من يعقل،
فلهذا جمعت جمع من يعقل) وفي (أسرار العربية) للثعالبي مثل ذلك
وذكر الكاتب المسلم في هاتيك المجلة: (إن هذان لساحران) مشددا النون، وسلك في
القول الكريم المسلك الزائغ المنحرف. وفي قول (الكاتب) قراءات: (إن هذين
لساحران) (وإن هذان لساحران) وإن مخففة واللام هي الفارقة و (إن ذان إلا
ساحران) و (أن هذان ساحران) بفتح أن وبغير لام بدل من النجوى، و (إن هذان
لساحران) والهاء مراده والتقدير إنه هذان لساحران، وحسنت اللام إذ كانت الجملة
مفسرة للمضمر كما قال ابن يعيش. وقال الرضي: (وقد جاء ذان وتان واللذان واللتان
في الأحوال الثلاثة) ومما قاله في (ذان): (ذان
(صيغة مرتجلة غير مبنية على واحده ولو بنيت عليه لقيل ذيان
ذلك بيان نحو العربية (علم العربية) - لا تفسير المفسرين - في أقوال في (كتاب
العربية) وقد أطلت بما أوردت لكيما تعلن خربشة المخربشين وتخاليط المخلطين
علانية، وليعلم الجاهلون إما كانوا ينشدون هدى وعلما أن ليس ثم (نحوان): نحو
العربية ونحو (القرآن)، إنما هو نحو (الكتاب)، وإنما هو نهج (الكتاب)، وإنما هو بلاغة
(الكتاب)، وإنما هي سنة (الكتاب)، وإنما هي شرعة (الكتاب). وهل أقام (قواعد)
العربية، وهل شاد مجد العربية، وهل أبدع حضارة العربية، وهل هدى الناس كلهم
أجمعين إلا القرآن؟
إنه (والله) لمن دواهي الدهر أن يصير أناس في الغباوة والجهل إلى حيث صاروا،
فنجبر أن نقعد نشرح الجلي كل الجلي، وأن نقول مصوّتين في الشرق، في مصر، في
نهار غير مغيم، في راد الضحى، أو في الظاهرة: هذه الشمسُ وهذا ضوءها، فانظروا
!. . .يا ناظرين

الإسكندرية
(* * *)
الدين والأخلاق
بين الجديد والقديم
لأحد أساطين الأدب الحديث
- 5 -
جاء في كتاب الأغاني أن الأخطل الشاعر قال لرجل من شيبان: (إن الرجل العالم بالشعر لا يبالي وحق الصليب إذا مر به البيت العائر السائر الجيد أمسلم قاله أم نصراني). وكل نقاد العرب قديماً وحديثاً يقولون مثل هذا القول سواء أكان الناقد من أدباء المذهب الجديد أم أدباء المذهب القديم. ولو أن محدث الأخطل سأله عن اليهود والبوذيين لأضافهم إلى النصراني في قوله. وأنت ترى أن الأخطل أراد أن يؤكد قوله فحلف بحق الصليب. وكان كثير من المسلمين يفضلون الأخطل على غيره من شعراء عصره بالرغم من النعرة الدينية في قوله. وكان يحدث هذا في صدر الإسلام ولم يكن الدين في صدر الإسلام أقل أثراً في نفوس المسلمين منه اليوم، وإنما كان الأدباء وسامعو الشعر أعرف بتذوق الشعر وأكثر حظاً من نشوته وأريحيته من قراء اليوم. ولم يكن بين الأدباء في صدر الإسلام من يحس خوفاً على منزلته بين الأدباء والشعراء فيدفعه إلى أن يقول إن النصرانية أسقطت شعر الأخطل. نعم إن جريراً يعير الأخطل بخضوعه لرجال دينه. ولم يبحث النقاد عن عقيدة أبي تمام كي يحكموا بها على شعره. ولم يقل أحد من أمراء الشعر والنثر في عصور الأدب العربي إن الأُخُوَّة في الشعر أُخُوَّةَ في الله، أو أن الأُخُوَّةَ في الله أُخُوةٌ في الشعر. فهل كان أمراء البيان في الشعر والنثر في تلك العصور الطويلة على ضلال لا يفهمون الشعر ولا يجيدونه ولا يتبينون أصوله وشروطه وسننه ولا يعرفون كيف يتذوقونه؟ أم أنهم أصابوا عندما قصروا الأخوة في الدين على شعر حواشي ومتون كتب الفقه الديني؟ أليس ادعاء بعض أدباء العصر إحلال عامة الشعر منزلة شعر حواشي الفقه الديني دليلاً على فساد الذوق الشعري في هذا العصر؟ ثم أليس في اتخاذهم وسائل الدول السياسية بنشر الدعوة ضد منافسيهم واتهامهم أنهم أنصار إبليس والرذيلة، ما يدل على جانب من الضعف، وعلى أنهم إنما يريدون استغلال تعصب العامة وأشباه العامة في عصر لا يدرك
فيه الرأي العام الشعر كما كان يدركه الرأي العام في عصر الأخطل؟
وليت أن هذه الوسائل كانت تعين على عز وجاه في بلد للشعر فيه كل العز والجاه والمال، ولكنها وسائل لا تغني فتيلا ولا تقرب من عز أو جاه أو مال، لأن هذه أمور لا تنال بالشعر إلا التافه الحقير منها وما أكثر طلابه.
أما الأستاذ الغمراوي فليست له مطامع دنيوية، وإنما هي العقيدة التي تقدمت به وبهذا المبدأ الذي يريد أن يسنه للشعراء؛ ولكنه لو كشف له عن سريرة الأدباء جميعاً حتى أشدهم تعصباً للقديم لوجد في سريرتهم أنهم يقولون كما قال الأخطل وأنهم يعرفون من أدب اللغة العربية ما يقصر أخوة الدين على شعر الحواشي والمتون.
قال الأستاذ الغمراوي إن أدباء المذهب الجديد يأخذون عن الأوربيين ما يخالف التقاليد الإسلامية، وأنهم إذاً يريدون (تغلب دين على دين) أي دين الأوربيين على دين العرب المسلمين، وإنهم يبيحون الشهوات، وإنهم أنصار الرذيلة. وقد ناقض الأستاذ نفسه في هذا القول لأنهم لو كانوا يريدون تغليب المسيحية حقاً ما أباحوا الشهوات ولا كانوا من أنصار الرذيلة. وإن إباحة الشهوات ليست مذهباً في الشعر أو النثر جديداً، ففي الأدب العربي في كل عصر من هذه الإباحة ما ليس له مثيل في هذا العصر. وكان الأدباء المبيحون للشهوات أمثال بشار وغيره لا يدينون بدين. وإن أدباء المذهب القديم في عصرنا لا ينكرون أن بشاراً وأبا نواس وغيرهما من مذهبهم الذين يدافعون عنه، أي المذهب القديم، وإن الفضائل إذاً ليست عامة فيهم والرذائل ليست عامة في خصومهم ولا التدين أيضاً، وإنما هم يعرفون أن سليقة الشعر فسدت في أكثر القراء والرأي العام عموماً في عصر عظمت فيه قوة الرأي العام ونفوذه، فهم يريدون استغلال تعصب الرأي العام الذي فسدت فيه سليقة الشعر ولم يبق له أو لطائفة كبيرة منه غير النعرة الدينية التي يريدون أن تستبيح كل شيء حتى المجون ابتغاء

مرضاة الله. فقد بلغ القراء خبر الحفلة التي أقيمت لإحياء ذكرى حافظ بك إبراهيم، وقد نشرت الصحف القصائد التي قيلت فيها، وكان بها من المجون ما لو قاله أحد الأدباء الشبان من أنصار المذهب الجديد لقال أدباء المذهب القديم للناس: انظروا إلى خصائص المذهب الجديد كيف يستبيح المجون في حضرة كبار رجال الدولة والذين ينوبون عن المقام السامي! أما والذين نظموه لم يكونوا من أدباء المذهب الجديد فهو إذاً ورع وتقوى وغيرة سامية على الفضائل في القول والعمل. هكذا ألف بعض الأدباء مجون الشعر العربي القديم حتى صار يُعَدُّ من الأخلاق السامية. وما على الأديب في هذا العصر إلا أن يعلن على رءوس الشهود أنه من أنصار المذهب القديم فيباح له كل شيء من أجل عدائه للجديد. ويكون مثله مثل الرجل الذي إذا عده العامة من أولياء الله الصالحين رفعوا عنه (الكلفة) وأباحوا له ما لا يبيحون لغيره من عباد الله. فإذا أرتكب أحد (أولياء) العامة أمراً (ينتقد) وحاول أحد النظارة أن يعيبه به تجمهر الناس حوله وكل يقول له: أتركه يا شيخ ولا تعبه، لأنه من أولياء الله وعباده الصالحين وقد رفعت عنه (الكلفة) فهو غير مسؤول عما يفعل. ومن الغريب أن بعض الأدباء أراد أن يفهم الحاضرين أن حافظ بك مات شهيد الحرب التي شنها عليه أدباء المذهب الجديد، ولم تكن هناك حرب وإنما انتقده الأستاذ المازني نقداً بريئاً خالياً من الفحش والمجون. أما الحرب فقد كانت سجالاً بين أنصار حافظ وأنصار شوقي وكان الفريقان من أنصار المذهب القديم وكانا يستبيحان كل سلاح مهما كان، وتشهد بذلك نسخ الجرائد الأسبوعية التي طبعت في ذلك العهد. وكان أشد الناس حرباً على حافظ بك أنصاره من المرتزقة وكانوا يصنعون صنع الجنود المرتزقة فيخذلونه في أثناء المعركة من أجل رشوة وأجر مُطمع من خصمه

فإذا كان حافظ بك قد هزم في بعض معاركه فالذنب ذنب الجنود المرتزقة الذين خانوه والمعركة قائمة ولم يقدر خيانتهم. ولم يكن للمذهب الجديد وقتئذ أنصار عديدون، ولو قامت بينه وبينهم معركة ما استطاعوا لكثرة أنصاره أن ينالوا منه، ولم يكن لهم حول حتى يدبروا له الدسائس. فكل ما قيل من هذا القبيل في الحفلة من قبيل السمر بالقصص الخيالية، وله منفعة أخرى جلب العداء لأنصار المذهب الجديد بالطريقة التي بها يجلب لهم العداء إذا قيل إنهم أنصار إبليس اللعين. ولو أن حافظ بك إبراهيم كان اليوم حياً لضحك ضحكاً كثيراً إذا سمع ما يقوله أدباء المذهب القديم من أن أدباء المذهب الجديد نالوا منه ودسوا له. نعم إن الرجل كان محاطاً بالوشايات والسعايات من الأدباء، ولا نعني أهل السياسة فهذه مسألة أخرى، وهذه الوشايات كان يتقدم بها الأدباء إما نكاية من بعضهم لبعض واستعانة بحافظ بك في تلك النكاية، وإما نكاية لشوقي منافسة كما كان جلساء شوقي يسعون عنده بحافظ نكاية له

ولو أنا رجعنا إلى ما ألف من المقالات والكتب منذ ثلاثين سنة ما وجدنا أثراً لهذا الاصطلاح: أعني اصطلاح تقسيم الأدب إلى جديد وقديم، وإنما كان الشعراء الذين يسمون الآن أدباء المذهب الجديد يدعون إلى نبذ شعر الغزل المتكلف الذي كان مقدمة لقصائد المدح والهجاء والسياسة، ونظم الشعر فيما تحسه النفس من حب أو غير حب على طريقة شعراء الجاهلية وصدر الإسلام. وكانوا أيضاً يدعون إلى نبذ المغالاة في المحسنات اللفظية التي أولع بها شعراء الدولة العباسية والرجوع إلى طريقة شعراء الجاهلية وصدر الإسلام في تفضيل صنعة العاطفة أو ذكرى العاطفة (وذكرى العاطفة عاطفة). وكانوا أيضاً يدعون إلى نبذ التضييق في أبواب الشعر ونبذ المغالاة في تقييد حرية القول والرجوع إلى شيء من حرية القول التي كانت في كثير من عصور الشعر العربي القديم من غير دعوة خاصة إلى إباحة حرية القول من أجل الإباحية في الخلق

هذه كانت مبادئهم؛ فهم إذاً كانوا أخلق بأن يدعوا رجعيين، فهم كانوا رجعيين في طلب احتذاء شعراء الجاهلية وصدر الإسلام في وصف أحاسيس النفس وخواطرها رجوعاً عن الغزل الصناعي وأبواب القول الصناعي التي أولع بها المتأخرون. وكانوا رجعيين في طلب احتذاء سهولة العبارة وأقربها دلالة على الإحساس والمعنى كما كان يفعل شعراء الجاهلية وصدر الإسلام رجوعاً عن المبالغة في الصناعة التي أولع بها العباسيون. وكانوا رجعيين في طلبهم ألا يقصر الشعر على معان متفق عليها كما كان المتأخرون يفعلون والرجوع إلى طريقة المتقدمين في إظهار كل شاعر خصائص

نفسه وفكره وأن يباح له القول إذاً أكثر مما كان يباح للمتأخرين
فالنزعة إلى التجديد كانت في أول الأمر نزعة رجعية كما ترى؛ واتفق أن أنصارها قرءوا الشعر الأوربي فرأوا أن مبادئ رجعيتهم هي مبادئ الأدب الأوربي الصحيح السليم، وأن الأدب الأوربي يعينهم على تحقيق تلك الرجعية، وأنه إذا تقدم بهم الأدب الأوربي فيكون تقدماً كما كان يتقدم أدب الجاهلية وصدر الإسلام لو أنه لم تعترضه عوارض الجمود والقيود المصطنعة التي تغلبت على الأدب العربي بعد ذلك
فإذا كانت هذه النزعة قد دخلتها المغالاة فهي أمر طبيعي يعترض الأمور في أول الأمر حتى تستقر؛ وإذا كانت قد تفرعت منها فروع بعيدة فهذه سنة طبيعية، فالقرامطة والحشاشون والباطنية فروع بعيدة تفرعت من الشيعة كما تفرعت الشيعة من الإسلام. وربما كان من تلك الطوائف البعيدة ما ينكره الشيعة. كذلك تفرعت من نهضة التجديد الرجعية فروع بعيدة ولا تزال تتفرع، ومن يحاسب نهضة التجديد عليها كمن يحاسب المسلمين عموماً على عقائد بعض الطوائف التي تفرعت من الإسلام تفرعت من شيعة التجديد طائفة لم تراع أنه إذا أريد الإقلال من صناعة العباسيين فلا بد من الإكثار من سلامة أسلوب كأسلوب شعراء صدر الإسلام مع تجنب حوشي الكلام، فدعت هذه الطائفة إلى أن يكون أسلوب الشعر أقرب الأساليب إلى لغة الكلام؛ وهذا لا عيب فيه إذا روعيت سلامة اللغة والعبارة. وتفرعت طائفة لم تراع أن وصف أحاسيس النفس وخواطرها ينبغي ألا يبلغ حد الإباحية في الخلق إذا أريد أن يحل شرح الأحاسيس والخواطر وبحثها محل الغزل وأبواب القول المصطنعة التي أولع بها المتأخرون. ولا ننكر أن أشد الشعراء حيطة في وصف النفس الإنسانية وخواطرها على هذه الطريقة قد يشتط في بعض قوله، ولكنه شطط محدود ولا يهدم فضيلة المذهب، كما أن الغصة أو التخمة لا تقضي على فضيلة الأكل والطعام. وتفرعت طائفة لم تراع أن تجديد المعاني والأخيلة ينبغي ألا يتعدى المعاني والأخيلة التي يقرها ويفهمها العقل البشري سواء أكان مصرياً أو إنجليزياً أو صينياً. أما الأخيلة البعيدة وأوجه الشبه القصية والضئيلة والتي لا قيمة لها ليست من أوجه التشبيه في الشعر الراقي الذي يعد من الطراز الأول في أي مكان. وتفرعت طائفة ترى أن انقطاع الصلة بين الرموز والأمور التي يرمز إليها بالرموز، وتدخل صور الرموز بعضها في بعض، مما يروق بعض القراء لأنه يروع نفوسهم، ونسوا أن طمس معالم الصور إذا راق فترة لجماعة ليس من وسائل الشعر الخالد الذي يروق العقل البشري العالمي في كل زمان ومكان. وتفرعت طائفة تريد أن تحكم الوعي الباطني (أو العقل الباطن) بدل تحكيم ملكات العقل الظاهر المألوف، ورأوا أن هذه وسيلة للغوص إلى أعماق النفس ونسوا أن الغوص في أعماق النفس يقتضي يقظة الوعيين والعقلين الظاهر والباطن واتفاقهما وإلا كان ما يقوله القائل بالوعي الباطن وحده لا قيمة له
إن أدباء المذهب القديم عندما يحدثون عن نهضة التجديد يغفلون أسبابها والضرورة الاجتماعية التي دعت إليها، وأنها في أولها كانت نزعة رجعية أو شبه رجعية، وأن الأدب الأوربي درس ليشد أزر الرجعية المقبولة، وأن الطوائف المتطرفة التي تفرعت من النهضة لا تمثل النهضة كلها، وأن النهضة لا يحكم عليها إلا بأحسن مظاهرها، وأن أدباء المذهب القديم هم أيضاً قد تأثروا هذه المبادئ الرجعية الحميدة التي تحث عليها نهضة التجديد

(قارئ)

ليوم الإسراء: يوم فلسطين

الثورة الفلسطينية ثروة ضخمة للنفس العربية

للأستاذ عبد المنعم خلاف

يا مريقي دمائهم لنا! عقوق ما بعده عقوق أن نقدِّم لكم كِفاءها من المداد الأسود!
وأنا أعلم أنكم في شغل بجمع أشلائكم وآرابكم المبعثرة في الطرقات والجبال والمدن، عن جمع هذه الحروف والألفاظ من الصحف؛ وفي شغل يدوي الرصاص عن هذه الأصوات من بني عمومتكم الذين يكتفون في جهادهم لكم بإنشادها وتزويقها وتزويرها أمام عيونهم العمياء وأسماعهم الصماء. . . فلست أسوقها لكم فأهين قضيتكم وعزائمكم التي تقول لنا: الآن فات أوان الكلام وقصائد التشجيع والإطراء. . . وإنما أسوق هذه الكلمة لأنبه القوالين هنا وفي كل مكان عربي إلى أن من العيب

الفاضح والقصور الفاحش أن نصر على ألا ندفع في مقابل هذه الثروة النفسية الضخمة التي قدمها أهل فلسطين للعالم الإسلامي والعربي إلا الألفاظ العاجزة الذليلة، وأن نتلهى بإدارة أحاديث شقائهم، ونقنع لهم بدعاء العجائز. . .

إننا نحصل كل صباح ومساء من ثائري فلسطين - والكل فيها ثائر - على مقتنيات من معاني التضحية والأيمان والبسالة، ما حصلنا عليها من كتاب ولا تاريخ ولا مشهد من مشاهد الدنيا ولا حركة من ثورات الأمم

لقد اشترى الله منهم نفوسهم ثم وزعها على أمثالنا من فقراء النفوس! ففي كل نفس مسلمة وعربية الآن قطعة من نفوس مجاهدي فلسطين، وزعها الله القوي بيده ليعطينا خمائر الإيمان به وبالحق إيمان المجاهد لا إيمان الضعيف المستضعف. ولعل وراء هذه المحنة إرادة خفية للقدر في إيقاظ نفوس العرب والمسلمين وتوجيههم إلى الطريق. . . ولعلها رسالة جديدة من فلسطين أرض الرسالات والنبوات. . .

فالله - له العزة - يقترض من الأغنياء للفقراء، والغنى والفقر على سواء في الأموال والأنفس. . . فلنفهم هذا

ولقد تضخمت الثروة النفسية للعرب والمسلمين من هذا القرض الذي يعقده الله لنا من الشهداء والمجاهدين. وقد كنا نعيش في فقر مدقع من الأمجاد والمفاخر منذ عهد صلاح الدين، حتى أتى هؤلاء وجادوا علينا بأقصى غاية الجود فأصبحنا في غنى كبير

إن الله وحده هو الذي استطاع أن يشتري هذه النفوس الشابة من أسواق الحياة الناعمة وأن يرفعها على أعين المسلمين شهيدة كما ترفع الراية أمام الجيش المهزوم فتجمع فلوله، وتذكره بشرفه وترده إلى فكرة وطنه وأهله وذرياته ومصالحه

لقد أعطى الفلسطينيون أممهم الإسلامية والعربية قطعة من الزمن الخالد الذي يقف في مكانه من ذاكرة التاريخ جديداً عجيباً دائماً! مع الأيام الخالدات التي مضى الدهر وتركها للناس لأنها الساعات الفاصلة في وجود نوعهم على وجه الأرض. . . فهم يحتفظون بها في يقظة واعتزاز ويسلمونها كذلك إلى الذريات والأنسال

ولقد كتبوا بدمائهم وآلامهم براهين جديدة على صدق مولانا محمد، وأنه لن يزال مستطيعاً بحفنة من أبنائه أن يفعل في الدنيا الجديدة ما فعله في الدنيا القديمة بحفنة (بدر)!

أتقرءون أيها القراء أخبار ثورة فلسطين كما تقرءون بقية الحروف السوداء في الصحف؟

إني أقسم أني أراها حمراء نارية، صارخة، مطاردة، متربصة، لها وجوه وأجسام تسعى على الصحف كما تسعى وتحيا معانيها ومدلولاتها في الجبال والوديان والكهوف والمدن والقرى!!

إنها أول ما أبادر إلى قراءته كل يوم قبل الوضوء والصلاة لأغسل قلبي بالدم الكريم الذي يفيض من حروفها على نفسي. . ولأتلوها صلاة قبل الصلاة المكتوبة التي أقف فيها بعدئذ بنفس تشعر أنها ذليلة طريدة لم تدخل إلى الله كما دخل هؤلاء المجاهدون، وتشعر أنها في آخر الصفوف حين تكتفي في خدمة الله والحق والمجد بتزويق الحروف!

وقد أصبحت حريصاً على أن أدخل إلى نفسي في صباحها ومسائها أخبار هذه الزلزلة والتحطيم ومصارعة عوامل قوة الضعف لعوامل ضعف القوة، لأرى كيف تترك النفوس المؤمنة الشريفة حياة اللذة والرفاهية وتعيش في الجبال مشردة كالصقور والنسور. ولا ريب أن هذا يفتح أعيننا اللاهية على آفاق في الحياة رؤيتها ألذ من اللذة بألوان النعيم المعهود

ولقد أصبحت أكرر دائماً هذه الجملة:

لابد من جنون أيها العقلاء!

وهي جملة أوحاها إلي قلمي مصرع الشهيدين عز الدين القسام وفرحان السعدي: الشيخين اللذين فتحا باب الثورة في فلسطين بتدبير جنوني في رأي من يستعبدهم واقع الحياة، وليس لهم إلهام العقيدة الذي يمتد بالملهمين إلى ما وراء عالم الأعين والحواس. . .

ولكن هذا التدبير أنتج صميم العقل والمنطق لأنه دفع بالقضية الفلسطينية إلى

الموقف الفاصل بعد أن سئم المحقون الجدل مع (الثعلب) و (الأسد) في الحق الذي ينادي على نفسه وأصحابه. . .

وسواء انتهى النضال في فلسطين بفوز العرب أم بفوز أعدائهم لا قدر الله، فإنهم أعذروا وأقاموا الحجة وشفوا نفوسهم ونفوس العرب وخلوا أنفسهم من تبعات التقصير، والتبعة الكبرى بعد ذلك على بقية العرب والمسلمين

وآفتنا في قضايانا الوطنية هي هؤلاء العقلاء المناطقة الذين لا يعرفون الفرص التي يجب على الإنسان فيها أن يجن! وأول درجات جنونه ألا يفكر في نفسه، وأن يذهل عنها. وحين ينحرف لهذا عقله وطبعه يفعل الأعاجيب، ويحصل بالجنون من الحياة التي لم تنصفه العقول فيها على كل ما يطلب. . .

انظر إلى المنطق الذي يقعد المسلمين عن الموقف الحاسم في المشكلة الفلسطينية: إنه يتمثل في هؤلاء الأفراد الذين لا يدينون إلا بالفردية ويسخرون من الأشخاص السائرين وراء كلمة الشرف أو (الوطنية) أو (العقيدة) وهؤلاء مقيدون بواقع منافعهم وخصوصياتهم ولذاتهم وحماقات نفوسهم وأجسامهم، وليس عليهم وراء ذلك مسئوليات وتبعات

وهؤلاء هم الذين يقعدون دائماً بأممهم عن الوثبات والقفزات لأنهم غلف القلوب عمي العيون عاجزو الأقدام

فلو فكر الفلسطينيون (بالعقل الوضعي) و (الواقع العملي) في قوة إنجلترا وغنى الصهيونيين، مقارنين ذلك بضعفهم وفقرهم أكانوا أقدموا على عمل شيء من هذه المعجزات التي يقومون بها الآن؟

لقد انطلقوا من كل قيد وصاروا قوة تفكر بالرؤوس والأرجل والأيدي كما توحي الساعة وتلهم الظروف وتحتم الحياة. وصاروا قوة من قوى الطبيعة الغاضبة كالأعاصير والزلازل والبراكين

أولى بساستنا وجماهيرنا أن يشعروا حلفاءنا الإنجليز في موقف حاسم تتجمع فيه كل الإيرادات بما في طويتنا من أننا لا يمكن أن نسلم بأن تخرج فلسطين من أيدينا.

والواقع أن هذا هو ما سيكون. ولكن ترددنا وتفرقنا وعدم إظهار مكنون صدورنا في الوقت المناسب هو الذي أطمع اليهود وأوهم الإنكليز أننا سنخدر بالتدريج ونخدع عن مصير فلسطين.

وأؤكد أن الفلسطينيين والمسلمين لو أبدوا من ابتداء ظهور القضية الصهيونية ما يبدونه الآن من الثورة العملية في فلسطين والثورة النفسية المنذورة بالشر في كل بقاع العرب والمسلمين. .

ما سارت فلسطين إلى مطمع لليهود. ولكن ترددنا وانقسامنا وعدم النظر البعيد إلى المستقبل هو الذي أطمعهم في أن يكون لهم حق فيها وان يصير هذا الحق مكتسباً بتوالي الهجرة.

يا أهل فلسطين المعذبين! وحق العزة والشرف لأنتم أسعد المسلمين الآن، وأغناهم وأكثرهم أمنا!

أسعدهم، لأنكم تركتم نحس الذلة وكآبة العبودية، وتحررتم من كل شهوة دنيئة إلى الحياة الحقيرة المحدودة التي يرومها لكم المتآمرون عليكم

وأغناهم؛ لأنكم ملكتم دنياكم وظروفها إذ ملكتم أنفسكم الرحبة العظيمة وصرَّفتم مقدرات وطنكم بها ولم تبيعوا منها شيئاً بشيء من أوساخ الدنيا وأثمان الناس. . بل جعلتموها وقفا محبوسا لله يأخذ منها ويوزع على المسلمين الفقراء إلى النفوس. .

وأكثرهم أمناً؛ لأنكم لكم ما تخافون عليه من الموت بعد أن صار الفداء مشتهى أحدكم. ومتى ما صارت المنايا أماني فالأموال والثمرات والأولاد تسقط من موازين التقدير وحساب الموجود والمعدوم. والنفس تنطلق كما ينطلق الإعصار لا يبالي أن يقع بجسمه على مطرح لين رخو كماء البحر، أو على مطرح قاس كوجه الصخر! إنه قوة مسلطة جائحة، قيل لها من إرادة الحياة العليا: كوني طائعة في يدي. . . ثم هُبي ثائرة جارفة كما أريد فكانت. . .

فالنفس الثائرة لحق الله وحق الحياة، آمنة غاية الأمن ولو طبخت بالنار. . . ولو زلزلت

من تحتها الأرض. . . ولو وقع عليها سقف الدنيا!
أيها المسلم!
أيها العربي!
أدفع ثمن ما تأخذ من أهل فلسطين كل يوم من المعاني الكريمة التي تخلقك خلقاً آخر. . . أدفعه للأرامل والأيتام والعجزة المنكوبين في سبيلك وفي سبيل مقدساتك أدفعه لنفسك إذا كنت ذا نفس!
وإذا كنت أثيراً أنانياً لا تفهم هذا الكلام فافهم وتعلم أن تطفئ النار التي في بيت جارك قبل أن تمتد إلى دارك
(القاهرة)
عبد المنعم خلاف
البحث عن غد
للكاتب الإنكليزي روم لاندو
للأستاذ علي حيدر الركابي
- 4 -
الفجر في سورية
حديث الدكتور الكيالي
إن وزير المعارف والعدلية الدكتور الكيالي رجل قصير القامة ذو شكل عادي لا يوجد في كلامه أو مظهره ما يميز عن غيره. ولما زرته لأول مرة في مكتبه في (السراي) وجدته شديد التحفظ والخجل، ولكنه فيما بعد بينما كنا نتناول طعام الغداء معاً شعر باهتمامي الزائد فخرج من تحفظه وحدثني حديثاً شائقاً إرضاني أكثر من أي حديث آخر في زيارتي سورية. وقد تبين لي من حديثه أن اهتمامه بروح الأشياء أعظم من اهتمامه بالأشياء نفسها. قال:
(إنه لا خوف على الناحية الفكرية من التعليم في سورية. فالسوريون أذكياء، وقد هضم شبابنا القسم العلمي من منهجهم الدراسي بسرعة، إلا أننا نجد صعوبة في إيجاد واسطة تعبر تعبيراً صحيحاً عن الدافع الروحي وراء ميولهم. ولا شك أن هذا لا يتحقق إلا بإدخال الروح الديني الصحيح على المعارف العامة)
وتوقف الدكتور الكيالي لحظة كأنه يتساءل عما إذا كنت قد صدمت بعبارة كهذه يتفوه بها رجل تربى تربية علمية، ولكنه لما رأى إمارات الموافقة على وجهي استرسل في حديثه وقد زاد حرارة عن ذي قبل. قال:
(ما هو الدين؟ وهل هو عبارة عن دخول المساجد أو إطاعة قوانين الكنائس؟ قد يكون الدين الذي من هذا النوع ضرورياً لغير المتعلمين الذين لا يعرفون ما يمكن جنيه من نتاج الأفكار والعلوم الحديثة. إلا أن هناك نوعاً آخر أبعد نظراً من هذا، ألا وهو السعي الروحاني وراء شيء أسمى من المادة. والرغبة في هذا السعي موجود في كل واحد منا وإن خنقها التعليم المغلوط وجمود القواعد الدينية المقررة عند الطوائف المختلفة. ويمكن تحقيق هذه الرغبة عمليّاً بواسطة تقوية العقيدة الدينية. إن من واجب الدولة أن تنبه هذه الرغبة في شبابها وأن تفسح لهم المجال للتعبير عنها، إذ بدونها لا تبقى ثمة فائدة للدين أو العلم
وفي نفس الوقت لا يمكن لوزارة المعارف أن تلعب دور المنافس للمؤسسات) الدينية مع أن هذه المؤسسات لا تقوم دائماً بما هو مترتب عليها، وأكثر رجالها يشكون من ضعف الشعور الديني ضعفاً يزداد يوماً عن يوم بينما تتوالى الطلبات على المراجع المختصة في الوزارة من الآباء الذين يرغبون في تعميم التعليم الديني
وكيف يمكن إجابة طلبات كهذه؟ إن الأولاد الذين شبوا في محيط تشتد فيه محافظة) الآباء على الناحية الشكلية من الذين يجب ألا يخرج تعليمهم الديني على القواعد المألوفة والمعروفة، في حين أن الذين قد خرجوا على القواعد التقليدية بتأثير الأفكار الغربية يجب أن يهذبوا تهذيباً دينياً يوجه شعورهم الديني نحو تقوية العقيدة ويكون بعيداً عن الاختلافات المذهبية
إن الأثرة صفة بارزة في شبابنا، ونحن في أشد الحاجة إلى تبديلها بصفة أسمى ترمي) إلى حملهم على التفكير في المجموع، وإن كان تحقيق هذا الهدف أمراً عسيراً. يجب

أن نشجع التعاون القائم على إنكار الذات: ومعنى ذلك أننا في الصناعة السورية مثلاً يجب أن نفضل جهود الجماعات وشركات التعاون على الجهود الفردية التي تنحصر غايتها في نفع الذات

إن أمام جميع الأقطار العربية هدفاً واحداً في التعليم يجب عليها السعي لتحقيقه، ألا) وهو تنبيه الشعور الاجتماعي في الصغار وتلقينهم معنى الخدمة العامة أو - باختصار - السعي لإظهار أحسن ما فيهم من صفات كامنة)

كان وزير المعارف، بين من قابلت في سورية، الرجل الوحيد الذي يتكلم بما يمليه عليه صوت قناعته الوجدانية، ذلك الصوت الذي لم أسمعه منذ أيامي الأخيرة في القاهرة، ومنذ تحدثت إلى الملك ابن السعود. وهو نفسه الصوت الذي يحطم الحواجز التي كثيراً ما حالت دون تفاهم العقلين الشرقي والغربي تفاهماً صحيحاً

رأي البطريرك

لم يكن كره الأساليب التقليدية للدين محصوراً في طبقة معينة من السوريين بل هو كره عام لمسته في كل مكان، وقد قال لي البطريرك نفسه إن الطبقات الفقيرة إنما تعتبر الدين واسطة اقتصادية. وقد أخذ أفراد هذه الطبقات في اتباع الكنيسة التي تقدم لهم أكبر مساعدة مالية بصورة مباشرة أو بشكل صدقة. وقد اعترف لي بأن كل الكنائس في سورية قد بدأت تشعر بوطأة ضعف الشعور الديني

حديث فخري البارودي

إن المعروف عن فخري البارودي أن الجماهير تحبه حباً لا يشاركه فيه غيره من رجال السياسة في سورية، وهو نائب دمشق وزعيم الشباب السوري. وقد طلب مني أن أزوره ذات صباح في (مكتب فخري البارودي) المشهور. ولما فعلت استقبلني عند الباب عدد من الشبان ألقوا علي بعض الأسئلة، ثم قادوني إلى باحة داخلية نفذنا منها إلى غرفة كبيرة فارغة نصبت في إحدى زواياها منصة صغيرة جلس فوقها فخري البارودي وراء مكتب صغير يستقبل الزائرين الذين كانوا يساقون إليه الواحد بعد الآخر، فإذا اقترب منه أحدهم مال إلى أذنه وهمس بعض الكلمات بحيث لم يستغرق حديث الشخص الواحد أكثر من دقيقة. إن هذه الحالة حملتني على الظن بأن هناك مؤامرة تحاك لا نائباً يستمع إلى مطالب ناخبيه

ولحظت خارج الغرفة بعض الشبان وهم يرتدون الخوذ والقمصان الرمادية اللون ويرفعون الأيدي بالسلام الفاشستي، وكلهم متلهف لتلقي أوامر القائد، فتنبهت إلى أن هذا المكتب هو في نفس الوقت مركز أول هيئة عسكرية لتنظيم الشباب في سورية وهي فرق القمصان الحديدية.

لم أجد في مظهر فخري البارودي ما يبرر نفوذه السياسي وتعلق الشباب به، فهو رجل نحيف قصير القامة قد تجاوز الخمسين من العمر، وهو في شكله وحركاته وسكناته يمثل سكان الشرق الأدنى أحسن تمثيل. شعره خفيف وغير مرتب، وهو ذو حيوية عصبية هائلة تجعله يقفز من هنا إلى هناك بسرعة واستمرار. ولكني مع ذلك لم أشك قط في إخلاصه الملتهب الذي لمسته فيه أثناء الحديث فرفعه في نظري وجعله ذا شخصية جذابة بعد أن كنت أميل إلى الظن بأنه لا يختلف عن أي سياسي عادي كثير الكلام والحركة.

ولما انقطع حبل الزائرين أخذني إلى غرفته الخاصة في الطابق العلوي حيث سألته: - (وكيف حظيت بهذه المكانة في القلوب؟ وهل توصلت إليها عن طريق الخطابة؟) فدهش في أول الأمر ثم التفت إلى ثلاثة من الشبان وقفوا بين يديه ينتظرون أوامره وسألهم:

(الخطابة؟ وهل أنا خطيب؟ وهل بذلت جهوداً خاصة لاكتساب قلوب الشباب؟)

فهز الثلاثة رؤوسهم ثم ضحكوا. . .

ومع ذلك فقد أكد لي كل من حدثته في دمشق أن خطبه قد ساهمت مع إخلاصه ورفعته إلى المكانة التي يحتلها. إنه يعرف كيف يستعمل لغة الجمهور الذي كثيراً ما دخل السرور إلى قلبه وضحك ملء شدقيه لتورية خبيثة أتى بها أو فكاهة تفوه بها، وعلى هذا فإن بعض الناس يميل إلى اعتبار فخري البارودي (أفكوهة قومية) لأنه في نظرهم غير جدي، مع أن هناك براهين عديدة على أن إخلاص الخطيب ومحبة الجمهور

له لأبلغ أثراً من المواهب الأخرى التي لها صلة بالعقل والأخلاق
وسألته:
(وما هو في نظرك الواجب الأول للشباب السوري؟)
فأجاب:
أن يحصلوا العلم الذي يجعلهم مساوين لشباب أي شعب أوربي. ومع ذلك فلا تكفي)
المعرفة والعلم وحدهما: يجب أن نربيهم تربية قومية وسياسية لا يحتاجها شباب
بريطانيا وفرنسا وغيرهما من الدول التي لها كيان قومي وقد نالت استقلالها منذ أمد
بعيد. أما نحن فإننا مازلنا نسعى إلى تحقيق استقلالنا القومي التام، ولهذا فإن فكرة
القومية هي أسمى أهدافنا، فلا فائدة لنا من وجود الأطباء والمهندسين الأخصائيين إذا
لم يكن الشعور الوطني قوياً عندهم
إن مثل شبابنا الأعلى - وهو المثل الأعلى لكل السوريين - هو الوحدة العربية. وأول)
خطوة لتحقيقها الاتحاد مع لبنان، ثم مع باقي الأقطار العربية الواحدة بعد الأخرى.
وستدخل مصر نفسها في هذه الوحدة آجلا أو عاجلا. قد نحتاج لتحقيق الوحدة إلى
(عشرين سنة أو خمسين ولكنها لا محالة واقعة في النهاية
(يتبع)
علي حيدر الركابي
غزل العقاد
للأستاذ سيد قطب
(بقية المقال الثامن عشر)
والآن نستعرض حالة دامية وجيعة، عميقة الألم والفجيعة، يزيدها جرحا وإيلاماً ما يبدو
به قائلها من تماسك وتجلد وتجمل.
إنه (يوم الظنون): يوم يقف الإنسان تتجاذبه الدوافع والانفعالات، ويتقاذفه الإقدام
والإحجام، وتتراءى له المسارب والطرقات، وهو لا يدري أيها أولى بالاتباع، بل هو لا
يملك أن يدري، لأنه مسلوب اللب والإرادة
فإذا وضعت إلى جانب هذه الصورة شخصية العقاد الجبارة، أمكن أن تدرك مدى الألم
العاصف، ومبلغ الفاجعة القاصمة:
يومَ الظنون صدعتُ فيك تجلدي ... وحملت فيك الضيم مغلول اليد
وبكيت كالطفل الذليل أنا الذي ... ما لان في صعب الحوادث مِقودي
وغصصت بالماء الذي أعددته ... للري في قفر الحياة المجهد
لاقيت أهوال الشدائد كلها ... حتى طغت فلقيت ما لم أعهد
نارَ الجحيم إليَّ غير ذميمة ... وخذي إليك مصارعي في مرقدي
حيران أنظر في السماء وفي الثرى ... وأذوق طعم الموت غير مُصرَّد
أروَى وأظمأ: عذبُ ما أنا شارب ... في حالتيَّ نقيع سُم الأسود
وأجيل في الليل البهيم خواطري ... لا شارق فيه ولا من مسعد
وتعيدُ لي الذكرات سالف صبوتي ... شوهاء كاشرة كما لم أشهد
مسخت شمائلها وبُدِّل سمتها ... وبدت بوسم في السعير مخلد
يا صبوة الأمس التي سعدت بها ... روحي، وليت شقيها لم يسعد
وعرفت منها وجه أصبحَ ناضر ... ورشفت منها ثغر العس أغيد
سومحتِ بل جوزيتِ كيف وعيت لي ... بالأمس فيك ضراوة الذئب الصدى؟
سومحت بل جوزيت كيف طويت لي ... زرق الأسنة في الإهاب الأملد
أمسيت حربي في الظلام وطالما ... جلّيت لي وجه الظلام المربد
ورجعت أهرب من لقاك وطالما ... ألفيت عندك في الشدائد مقصدي
ما كان من شيء يزيد تنعمي ... إلا يزيد اليوم فيك تلددي
أواه من أمسي ومن يومي معاً ... والويل من طول التردد في غدي
أهب الخلود كرامة لمبشري ... أن ليس يومي في العذاب بسرمد
وأبيع حظي في الحياة بساعة ... أنسى بها عمري كأن لم أولد
وأسوم مرعى العيش غير مزود ... وأرود روض الحسن غير مقيد
يا للهول! لكلما قرأت هذه القطعة سرت رعدة في مفاصلي، وقشعريرة في كياني،
وأحسست أمامي بإنسان يعتصر نفسه قطرة قطرة في ألم مبرح كظيم. وهو مع هذا

يقظ متنبه لكل وخزة لا ينسى أن صبوة الأمس كانت تخفي في طياتها ضراوة الذئب الصدى، وأنها كانت تفعمه متعة، لتفعمه بعد ذلك ألماً منشؤه هذه المتعة ذاتها لا سواها

وفي يقيني أن هذا أفجع موقف مر بالشاعر، وقد لقي أياماً كثيرة من أيام الظنون، ولكنها ليست من هذا النوع المسموم؛ وما كان ليستطيع بعده أن يفارقه، وما كان قلبه ليصلح أن يوغل في الحب هذا الإيغال، وأن يأخذه بهذا الجد الصارم الذي يجعل الشك فيه دامياً تنضح منه النفس قطرات

وقد عاد إلى الحديث عن هذه (الظنون) في قطعة (الحب المريب) من الوزن والقافية والشعور! فكشف عن حالة نفسية فريدة، صور فيها كيف يحيل الشك متعة اللقاء إلى جحيم لا يعد له جحيم الفقدان، وكيف يقيم الحواجز والأبعاد بين أقرب قريبين في الوجود:

إني لفي ألمي بقربك كالذي ... يحنو على ولد مريب المولد
أبدا يغص بقربه ويبعده ... ما بين عطف أب وجفوة مبعد
وأراك طوع يدي وألبث حائرا ... بين المحاذر منك والمتودد
أرضى وأغضب، لا الرضا ببالغ ... أمن اليقين ولا الغضاب بمهتد
وأظل أسخر من رضاي وغبطتي ... وأظل أسخر من عذابي الأنكد
وأشد من برح اللقاء بلية ... تأبى الشقاء عليك غير مفند
يا هذه الدنيا أيندم باذل ... يعطي القنوط ندامة المتردد؟
جودي علي بشقوة لم ترجعي ... فيها على ندم إذا لم تسعدي!

ونستعير هنا من حديث العقاد عن (همام) في (سارة) ما نستعين به على شرح هذه الحالة التي صورها في نفس صاحبه أبدع تصوير:

(كانت شكوكا مريرة لا تغسل مرارتها كل أنهار الأرض، وكل حلاوات الحياة. كانت كأنها جدران سجن مظلم ينطبق رويدا رويدا؛ ولا يزال ينطبق وينطبق، حتى لا منفس ولا مهرب ولا قرار؛ وكثيراً ما ينتزع ذلك السجن المظلم طبيعة الهرة اللئيمة، في مداعبة الفريسة قبل التهامها؛ فينفرج وينفرج وينفرج، حتى يتسع اتساع الفضاء بين الأرض والسماء، ثم ينطبق دفعة واحدة، حتى لا يمتد فيه طول ولا عرض، ولا مكان للتحول والانحراف: بطل المكان فلا مكان ولا أمل في المكان، ووجب البقاء حيث أنت في ذلك الضيق والظلام، فلا انتقال ولا رجاء في الانتقال.

وكان صاحبنا كالمشدود بين حبلين يجذبه كلاهما جذباً عنيفاً بمقدار واحد وقوة واحدة، فلا إلى اليمين ولا إلى اليسار، ولا إلى البراءة ولا إلى الاتهام. . . بل يتساوى جانب البراءة وجانب الاتهام، فلا تنهض الحجة هنا حتى تنهض الحجة هناك، ولا تبطل التهمة في هذا الجانب حتى تبطل التبرئة من ذلك الجانب؛ وهكذا إلى غير نهاية، والى غير راحة ولا استقرار)

حتى إذا انتهى من الظن إلى (اليقين) كان يقيناً قاتلاً دامياً كالظنون!. وهي كذلك حالة فريدة من الحالات النفسية التي تجيش بها نفس العقاد الخاصة:

مضى الشك مذموماً وما كان ماضيا ... فليتك تمسي عن يقينك راضيا
وجل عن التصديق أنك هاجر ... وأنك مهجور وأن لا تلاقيا
فلله ماذا حل بالقلب فارغوي ... وآمنت بالحق الذي كنت آبيا
وأمسيت تدري أن للود غاية ... وأن زماناً سوف يلقاك خاليا
وعشت ترى حبا كحبك ينقض ... وما خلته إلا يد الدهر باقيا
مضى غير مردود كأنك لم تكن ... بعينيك ترعاه وبالنفس فاديا
ألا لا تذكرني بصدق وددته ... على جنبات الغيب ما زال خافيا
ألا لا تذكرني يقيناً شربته ... بأنفس ما يغلو به الشك شاربا
لكذبتُ صدق الهجر لو أن موطناً ... من الشك يوماً لم أثب منه خاويا
سل الصبح كم ماريتهُ كلما بدا ... ولم يبد فيه ذلك الوجه حاليا
سل الليل كم جافيتهُ كلما سجا ... ولم أرتقب فيه الحبيب الموافيا
سل النيل كم أنكرته كلما جرى ... ولم ألق فيه ذلك الحسن جاريا
سل الدار كم ناشدتها القرب راجيا ... وأرهفت في أنحائها السمع صاغيا
ويخدعني ما اعتدت من طول قربه ... فأحسبه عندي وقد بات نائيا

يريب فمي صمتي لياليَ لا يرى ... على خده منه نجيا مناغيا
وتنكرني كفي ليالي لا ترى ... على خصره منها نطاقا مدانيا
وتطلبه مني جفون تعودت ... على البعد أن تلقاه في الحي آتيا
ويسألنيه كل يوم وليلة ... فؤاد يراه حيثما كان رائيا
وأين؟ ولو أني قدرتُ لما غدا ... به القلب ملتاعاً ولا الجفن شاكيا
وكيف بالنسيان الأليف الذي به ... تذكره الدنيا إذا راح ناسيا
تفقده في كل شيء فما انثنى ... فآمن بعد اليأس بالبين عانيا
سل الروض مطلولا. سل القفر صاديا ... سل النجم لماعا. سل البدر ساريا
فإنك تدري كيف صدقت باسما ... إذا بت تدري كيف كذبت باكيا
وإنك لا تخشى ردى الموت بعض ما ... خشيت ردى الحق الذي لاح هاديا
وهكذا سار إلى اليقين، بعد ما طرق كل باب من أبواب الشك، فعاد منه خاويا، ولم يصر إليه مع هذا في سهولة ويسر، ولكنه أنكر الدنيا ومعالمها، وأنكرته نفسه وجوارحه. ولولا إرادة من حديد، ما ثاب إلى هذا اليقين الأليم.
علام تدل هذه الصورة النفسية الفريدة؟
إنها دليل الثروة في الأحاسيس، والانفساح في الشعور، ومظهر الحياة النفسية المهيأة للتأثر، القابلة للصوغ والإنشاء.
وهذا وذلك من ميزات المدرسة الحديثة، التي تخلص للحياة والإحساس بها، لا للأوراق وما حفظته منها
وفي ماضي الأدب العربي كله وحاضرة كذلك، لا تجد نظيرا لهذه الصور النفسية، مع شيوع الأحاسيس التي تستدعيها في كل حب قديم أو حديث
إنما هي النفس المهيأة، والطبيعة الخصبة، لا الحادثة التي تخلق القول أو الإحساس
(حلوان)
سيد قطب
للأدب والتاريخ
مصطفى صادق الرافعي
1880 - 1937
للأستاذ محمد سعيد العريان
- 39 -
(أشكر للأديب الفاضل - عبد القادر جنيدي بحمص - رأيه في هذه الفصول التي أكتبها من تاريخ المرحوم الرافعي؛ كما أشكر لغيره من الأصدقاء الكرام الذين رأوا في هذه الفصول ما يحملهم على الحديث عنها في صحف مصر والأقطار العربية ناقدين أو معجبين أو معقبين. . .
(على أن اعتراض صديقنا الأديب (جنيدي) على السبب الذي نسبنا إليه مقالات (الانتحار) لا يغير شيئاً من حقيقة ما كتبت؛ فإن سببها هو الذي ذكرت فيما سبق؛ أما الرسالة التي يقول الأديب الفاضل إنها وردت إلى المرحوم الرافعي من حمص وأشار إليها في الاستطراد المنشور بذيل كلمته المنشور في العدد 95 فقد جاءته اتفاقاً في الوقت الذي كان يتهيأ فيه لكتابة مقالات الانتحار لسبب سابق، وأحسب الرافعي قد حرص على الإشارة إلى هذه الرسالة في ذيل كلامه ليصرف ظن بعض القراء عن صديقنا الأستاذ (م) الذي كان نبأ شروعه في الانتحار بين الذيوع والكتمان، حتى لا يؤذيه في وقت هو مسئول فيه أن يخفف عنه، إذ كانت نزوة يحرص على كتمان خبرها. وما تزال رسالة الرافعي إلى صديقه (م) محفوظة لديه ذلك، وعلى هامش هذا الجواب إشارات بقلم الرافعي إلى جمل وعبارات من هذا الجواب نقلها الرافعي بنصها في الجزء الرابع من مقالات الانتحار؛ وكان الأستاذ (م) قد اشترط على الرافعي حين كتب إليه جوابه أن يرده إليه بعد أن يقرأه لأن فيه بعض سره، فوفى له الرافعي بما شرط، فاجتمعت - بذلك - الرسالة وجوابها عند الأستاذ (م) عافاه الله وفسح له!)
(م. سعيد)
المشكلة
استملى الرافعي موضوع (المشكلة) من رسائل قرائه إليه وصاحب هذه المشكلة هو صديقنا الأستاذ كامل. . . وهي كانت أول صلته بالمرحوم الرافعي ولم يكن لقيه من

قبل؛ ولقد كانت قبل أن يكتب إليه مشكلة اثنين: هو وهي؛ فصارت من بعد مشكلتهما ومشكلة الرافعي معهما إذ لم يجد لها حلا. ولقد شغلته هذه المشكلة زمناً غير قصير، ثم اتصل بموضوعها عن كثب حين اتصلت أسبابها بصاحبها وصاحبته. وقد كتب الرافعي ما كتب في هذا الموضوع، ثم مضى وخلف دنياه وما تزال هذه المشكلة قائمة تنشد من يحل عقدتها. . .

كان ذلك في الخريف من سنة 1935 حتى جمعتني ظروف العمل بصديقي الأستاذ كامل في إحدى مدارس القاهرة؛ ولم يمض على تعارفنا أيام حتى استودعني كل السر. . .

فقد أمه وهو غلام، فلم يلبث غير قليل حتى حلت غيرها محلها في بيت أبيه. وكان . . . أكبر ثلاثة أخوة، فاقتضاه حق أخويه عليه أن يستشعر معاني الرجولة وما يزال في باكر الشباب. ورأى أبوه أن عليه شيئاً لهذا الرجل الصغير فسمَّى عليه بنت خاله قبل أن يدرك؛ ورأت تقاليد الريف الذي نشأ فيه أن عليها دوراً في هذه القصة فحجبت الفتاة عن خطيبها ولما تبلغ التاسعة وأغلقت دونهما الباب. . . ومضت سنوات وسنوات وسنوات وهو لا يراها ولا تراه، وفرغ من حسابها بينه وبين نفسه، ثم نسى ما كان وما ينبغي أن يكون؛ وكان يبغضها بغض الطفل والطفلة، فلما باعدت بينهما السنون انقطعت بينهما أسباب الكره والمحبة فلا يذكرها ولا يذكر شيئاً من خبرها. . .

وانتهى الفتى إلى مدرسته العالية وابتعد عن أعين الحراس والرقباء في القرية، فمضى على وجهة في القاهرة العظيمة يلتمس لذات الشباب. . .

وكان له فكر وفلسفة، وفيه خلق ودين ومروءة، وبين جنبيه قلب يحس ويشعر ويتأمل؛ وعلى أنه كان يهيئ نفسه ليكون من أساتذة (العلوم) فإنه كان ولوعاً بالأدب مشغوفاً بمطالعته، فكان له من ذلك روح وعاطفة ورقة؛ وكان في دمه ثورة وغليان، وكان في عقله مثال يريد أن يحققه، وكان في رأسه شِعر يحتاج إلى بيان؛ وكان له من كل أولئك قلب يتحفز لوثبة من وثبات الشباب في قصة حب؛ ثم لم يلبث أن اشتبك في الملحمة. . .

وأحبها وأحبته فما كان له من دنياه إلا الساعة التي يلتقيان فيها، وما كان لها . . وأجمع أمره على أن يتزوجها لينعما بالحب ويحققا المثل الذي ينشدانه من زمان؛ وكان قد مضى على الباب المغلق بينه وبين الفتاة المسماة عليه بضع عشرة سنة. . فما يذكرها ولا يفكر فيها. . وكان نائما يحلم حين ترامى الخبر إلى أبيه بما أجمع أمره عليه، فما وجد أبوه وسيلة إلا بتعجيل زفافه إلى بنت خاله وفاء بوعد مضى في ذمة التاريخ. . .!

غضب الفتى واحتج وثارت كبرياؤه ورجولته أن ينزل على رأي أبيه في شأن هو من خاصة شئونه؛ ولكن الكثرة من أعمامه وأخواله قد أرغمته على إرادته، وساقته في عماية إلى دار خاله ليزف على عروسه ثم يصحبها في السيارة من ليلته مرغما إلى بيته في القاهرة. . . وابتدأت المشكلة. . .

هذه الفتاة هي بنت خاله، وهي زوجه أمام الله والناس، ولكنه لا يحبها؛ ولكنه لا . . . يطيق أن ينظر إليها؛ ولكن فتاة أخرى تنتظر؛ وأن عليه واجبا تحتمه عليه رجولته. . . وما أطاق أن يمنحها نظرة أو يبادلها كلمة على طول الطريق حتى بلغت السيارة بهما الدار في القاهرة. . . كانت إلى جانبه ولكنه هناك، عند صاحبته التي فتنته واستولت عليه؛ فما نظر إلى وجه زوجه لأول مرة منذ بضع عشرة سنة إلا حين همت أن تنزل من السيارة لتدخل داره. . .

وكان حريا أن تثوب إليه نفسه حين نظر إليها فيعود إلى الحقيقة التي كتب عليه القدر أن يعيش فيها، ولكنه لم يفعل، وما رأى زوجته حينئذ إلا سجانه الذي يحرمه أن يستمتع بالحرية التي وهبها له الله يوم وهب له الحياة، وتأرَّثت في نفسه البغضاء من يومئذ لهذه المسكينة. . .!

وعاشت في بيته بضعة أشهر كما يعيش الضيف: لا يقاسمها الفراش، ولا يؤاكلها على المائدة، ولا يؤنسها من وحشتها بكلمة. . . فما تراه ولا يراها إلا في الصباح حين يخرج إلى عمله، وفي المساء حين يعود إلى داره قبيل منتصف الليل، وما كان بينهما من صلة تجمعهما إلا البغضاء التي تؤج في صدره، والحسرة التي تتسايل دموعا من عينيها، وإلا هذه الخادم التي تقوم لسيدها بشئونه وتقوم لها. . .

ولم يفتر صاحبنا عن لقاء صاحبته والاختلاف إلى ملتقاهما؛ على أن ذلك لم يزده إلا ولوعاً بحبيبته وتبرما بزوجته. . .
ومضت الأيام تباعد من ناحية لتقرب من ناحية، حتى جاء اليوم الذي وجد صاحبنا فيه أنه غير قادر على احتمال هذه الحياة أكثر مما احتمل. . . فمضى يدبر أمراً للخلاص من هذه المشكلة، ولكن المشكلة زادت تعقيداً على الأيام ولم يجد وسيلة إلى الحل. . .!
كان كل طريق يفكر فيه للخلاص محفوفاً بأشواك؛ فلا هو يرضى أن يطلق زوجه، ولا هو يطيق أن يهجر حبيبته، وليس في استطاعته أن يجمع على نفسه همين؛ وكان تفكيره في ذلك هماً ثالثاً يضنيه وينهك أعصابه ويعرق عظامه!
وكتب إلى الرافعي يستفتيه في مشكلته. . .
كنت مع كامل حين كتب قصته إلى الرافعي؛ وفي مساء اليوم التالي كنت في مجلس الرافعي بطنطا وبين يديه قصة صاحب المشكلة لم يفض غلافها بعد. . .
وقرأ الرافعي الرسالة ثم دفعها إليَّ وهو يقول:
(ماذا ترى حلَّ هذه المشكلة؟)
قلت: (لقد جهدت جهدي قبل اليوم فما أفلحت!)
قال: (أو تعرف صاحب المشكلة إذن. . .؟)
قلت: (نعم، وما كتب إليك هذه الرسالة إلا برأيي)
وأطرق الرافعي هنيهة يفكر وفمه إلى الكركرة (الشيشة) كما هي عادته حين يستغرقه الفكر، ثم رفع رأسه إلى قائلا: (تعرف؟ إن صاحبك لمفتون بصاحبته إلى درجة الحمق والسفه، وما تنحل هذه المشكلة إلا أن يكون له مع نفسه إرادة صارمة، وأن يكون له سلطان على هواه، وهيهات أن يكون له! فما هنا إلا وسيلة واحدة ترده إلى رشاده فتنحل المشكلة. . .)
قلت: (فما هذه الوسيلة؟)
قال: (أن تدخل بينه وبين صاحبته دخول الشيطان فتفرق بينهما. . . أتراك تستطيع؟)
فضحكت وقلت: (ثم ماذا؟)
قال: (فإذا بدا له من سيئاتها ما ينكر، وإذا بدا لها. . . انتهى ما بينهما إلى القطيعة فيعود إلى زوجه نادماً، وإن مرور الأيام لخليق أن يؤلف بينهما من بعد!)
قلت: (فهمت، ولكن ماذا تراني أقول حتى أبلغ من نفسه ومن نفسها ما تريد؟ وهبني عرفتُ أن أقول له فمن أين لي أن أستطيع لقاءها فأتحدث إليها؟)
قال: (اسمع: أتراها تقرأ؟)
قلت: (إنني لأعرف مما حدثني عنها أنها قارئة أدبية، وأنها من قراء الرسالة، وقد كان فيما أهدى إليها كتاب (أوراق الورد) وأحسبها تنتظر ما تكتب في هذه المشكلة؛ فقد حدَّثها صاحبها أنه كتب إليك. . .)
قال: (حسن! فسأجرب أن أكون شيطاناً بينهما، بل ملَكا يحاول أن يرد الزوج الآبق إلى زوجته بوسيلة شيطانية. .!)
وكتب الرافعي المقالة الأولى من مقالات المشكلة، وكان مدار القول فيها أن يتنقص صاحبَ المشكلة ويعيبه وينسب إليه ما ليس فيه مما ينزل بقدره عند صاحبته، ثم نشر أجزاء من رسالته إليه ودس فيها ما دس مما يوهمها أن صاحبها هو كاتبه، وإن فيه لما يعيبها ويثلبها ويضعها بازاء صاحبها موضعاً لا ترضاه. فلما فرغ مما أراد جعل حديثه إلى القراء يسألهم أن يشاركوه في الرأي ويحكموا حكمهم على الفتى وفتاته بعد ما جهد في تصويرهما في الصورة التي أراد أن يكون عليها الحكم في محكمة الرأي العام، وترك الباب مفتوحاً لترى صاحبة المشكلة رأيها في القضية فيمن يرى من القراء. . .
ولقيت صاحب المشكلة من الغد، فسألني: (هل رأيت الرافعي؟)
قلت: (نعم!)
قال: (ورسالتي إليه!)
قلت: (بلغته!)
قال: (وماذا يرى؟)
قلت: (ستقرأ رأيه في الرسالة بعد أيام!)
وأخفيت عنه ما كان بيني وبين الرافعي من حديث وما دبّر من خطة. . . ونشرت

المقالة الأولى من (المشكلة)، ومضى يوم، وجاء صاحبي غاضباً يقول: (كيف صنع الرافعي هذا؟) لقد نحلني من القول ما لم أقل. أتراني قلت عنها كما يزعم: لقد خلطتني بنفسها حتى لو شئت أن أصل إليها في حرام وصلت. . .! لقد ساءها ما نحلني الرافعي من الكلام، وقد تركتها الليلة غاضبة لا سبيل إلى رضاها .!)
وتحقق للرافعي بعض ما أراد، وانثالت عليه رسائل القراء يرون رأيهم في هذه المشكلة، وجاء في ما جاء من الرسائل، رسالة من صاحبة المشكلة نفسها . . .
وفعل برسالة صاحبة المشكلة ما فعل برسالة صاحبها، ولكنه تلقاها تلقِّياً حسنا، ومضى يتحدث عنها حديثا ليس فيه من رأيها ولا مما تقصد إليه، ولكنه إيحاء، إيحاء إلى الفتاة بأنها في مرتبة أعلى، وأن ما بها ليس حبا وإن زعمت لنفسها هذا الرأي؛ ولكنه شيء يشبه أن يكون صورة عقلية لخيال بعيد تظنه من صور الحب وما هو به. . . ثم مضى يفسح لها الطريق للفرار من هذه المشكلة بالإيحاء والإغراء والحيلة . . .
وكانت المقالات الثلاث الأخيرة تعليقا على آراء القراء وسخرية ونصيحة.
وفرغ الرافعي من مقالات المشكلة فما هو إلا أن تلاشى الصدى حتى عاد فلان وعادت فلانه، وما تزال المشكلة تطلب من يحلها. ومضت ثلاث سنين وفي الأتون ثلاثة قلوب تحترق. . وعلى مقربة من النار صبي يحبو ينادي أباه، وأبوه في غفلة الهوى والشباب. أترى إلى هذه المشكلة وقد دخل فيها عضو جديد قد أوشكت أن تبلغ نهايتها، فيكون حلُّها على يدي هذا الصغير وقد عجز الكبار عن حلها بعد مجاهدة سنوات ثلاث، أم هو قلب رابع سينضم إلى القلوب المحترقة في أتون الشهوات . . .!
ومعذرة إلى صديقي الأستاذ كامل . . .!
(شبرا)
محمد سعيد العريان
حول تيسير القواعد العربية
للآنسة أمينة شاكر فهمي
سيدي الأستاذ صاحب (الرسالة):
تحية وسلاماً. أما بعد فلقد تتبعت بشغف واهتمام مقالات الأستاذ الفاضل (أزهري) عن تيسير قواعد الإعراب إلى أن تم بحثه من عملية التيسير والتغيير، فدهشت جداً لما جاء في مقاله الأخير من تطبيق؛ وما كنت أظن أن موجة التبديل والتحوير تطفو يوماً على اللغة وتمسخها بهذا الشكل الذي ينكره كل مخلص للعربية. فمهما فشت عملية التمدين والتقليد فلا ينبغي أن تمس اللغة التي هي فوق كل المشكلات الاجتماعية والحزبية والعلمية أيضاً. إن لدينا مشاكل عدة أحوج إلى الإصلاح والتيسير من لغتنا المقدسة
نعم إننا نعيش في عصر السرعة التي وفدت إلينا من أمريكا، ولكن غريب أن تطغي السرعة على قواعد اللغة والإعراب فتختصره بهذه الصورة المدهشة التي يقدمها الأستاذ أزهري في بحثه الأخير. فقد اختصر الإعراب وحذف منه حتى كدت لا أتعرفه، وخيل إلي أنني أقرأ لغة أجنبية
غريب أن يتأثر الأزهريون بحياة السرعة الأجنبية فيستعملوها حتى في اللغة وهم حماتها من كل اعتداء. وإني أرجو سيدي الفاضل صاحب (الرسالة) أن يأذن لي بنشر ملحوظتي هذه ربما كان بها شيء من الصحة
لست أدري سبباً لكل هذه الضجة الهائلة على قواعد الإعراب واللغة ومحاولة تيسيرها، وليست اللغة بحاجة إلى تيسير، وإنما التيسير لازم للأسلوب الذي تلقن به اللغة للنشء والكيفية التي تقدم بها إلى التلاميذ. فلا داعي لأن تقوم جماعة الأدب الرسمي بإبدال وتغيير وتحوير وحذف هو أقرب إلى التعقيد منه إلى التيسير، فتضيع معاني الجمل، ويستحيل على التلميذ تفهمها إلا إذا حفظها حفظاً. والإعراب لا يحفظ، بل هو تحليل معنوي للجمل والكلمات.
وكأن اللغة لم يكفها ما نالها من جماعة الأدب الرسمي حتى جاءت الآنسة ابنة الشاطئ تملأ صفحات الأهرام بدفاع عن كل ما تجريه الجامعة من تغيير في اللغة سواء أكان ذلك حقاً أم باطلاً. وفي رأيي أن الفلاح وقضيته أحوج إلى دفاع الآنسة الفاضلة من اللغة

وأخيراً جاء الأستاذ الفاضل (أزهري) يبحث في تيسير قواعد الإعراب ويتحفنا بدراسات تكاد تكون قيمة لو لم يناقض نفسه بنفسه ويزيد في تعقيد الإعراب، ثم يأتي بتطبيق غريب لا يتفق وقواعد اللغة. فكيف نعلم التلميذ إعراباً مخالفاً لما حفظناه من قواعد؟ وهل تغير كل قواعد اللغة كي تطابق الإعراب الحديث؟

يقول الأستاذ في مقاله الرابع: (إن الحرف لا حظ له من الإعراب أصلا). ثم يعرب (في، ومن، والباء) بأنها حروف جر مجزومة بالسكون أو مجرورة بالكسرة. ولفظة مجرور ومجزوم لا تستعمل إلا للألفاظ المعربة. والحروف كلها مبنية، فكيف نعلم التلميذ أن الحروف كلها مبنية ثم نقول له إن (في) حرف ولكنه حرف مجزوم؟! ثم ما هي العوامل التي جزمت أو جرت (في، ومن، والباء؟) هل سبقت بحرف جر أو جزم؟ أم كان موقعها في الجملة دافعاً لجرها وجزمها، مع العلم أن حروف الجر لا محل لها من الإعراب؟!

فكيف يتسر للطالب فهم هذه المتناقضات؟ وما المانع من أن نلقنه إعراباً مطابقاً لما جاء في كتب القواعد - من أن الحروف كلها مبنية، وأن (في) حرف جر مبني على السكون - كي تطبق القاعدة على الإعراب؟ وإلا وجب أن نغير القاعدة فنقول إن الحروف معربة وإنها تجزم وتجر وتنصب وترفع حسب موقعها في الجملة وما يتقدمها من عوامل؟! وفي هذا من الشذوذ والاضطراب مالا حد له

يقول حضرة الأستاذ في التطبيق الأول:

ألا إن قلبي لدى الظاعنين ... حزين فمن ذا يعزي الحزينا؟

(قلبي) مبتدأ منصوب. وباب المرفوع في كتاب النحو يثبت أن المرفوع من الأسماء المبتدأ والخبر واسم كان وخبر إن. . . الخ. فكيف يفهم الناشئ وقد حفَّظناه أن المبتدأ دائماً مرفوع - ثم نعلمه إعراب مبتدأ منصوب؟ فمتى يكون المبتدأ منصوباً ومتى يكون مرفوعاً؟ وهل نترك التلميذ المسكين يتخبط في هذه الظلمات أم نخترع له قاعدة جديدة تفهمه الحالات التي يكون المبتدأ فيها مرفوعاً أو منصوباً، وربما يكون مجروراً أيضاً؟ ثم نحذف القاعدة العتيقة التي تنص على أن المبتدأ يجب دائماً أن يكون مرفوعاً ونستبدل بها قاعدة (مودرن). وما الدافع يا ترى - وقد غرسنا في أذهان الطلبة أن إن وأخواتها تنصب الاسم - أن نحذف هذه القاعدة. فبدل أن نعلمهم إعراب (قلبي) اسم إن منصوب لأن القاعدة تنص على أن اسم إن وأخواتها دائماً منصوب - إذ نقول إنه مبتدأ منصوب وقد حفظ التلميذ أن لفظة (مبتدأ) لا يليها إلا كلمة (مرفوع) ولفظة (اسم إن) لا يليها إلا كلمة (منصوب)؟!

وليسمح لي سيدي الأستاذ الفاضل أن أقول إنه أسرف في اختصار الإعراب إلى درجة التشويه والتعقيد. فإن هذا الاختصار لا ييسر الإعراب بل يزيد في اضطراب التلميذ وتعقيد المعنى عليه. ففي اختصار إعراب (إن) وحذف ذكر عملها ينسى التلميذ أن الاسم الذي يليها يجب أن يكون منصوباً. ولا بد أن يستفيد التلميذ من تكرار ذكر هذه القواعد أثناء الإعراب فترسخ في ذهنه. وفي الإعادة إفادة.

ثم ما رأي الأستاذ في الضمائر؟ هل من رأيه أن نحذف لفظة (ضمير) من اللغة؟ فما باله يختصر إعراب الياء في (قلبي)؟ فهل يرهق التلميذ أن يقول ياء المتكلم ضمير متصل - لأن في اللغة ضمائر منفصلة - مبني على السكون - لأن كل الضمائر مبنية - في محل. . . فيطبق ما حفظ من قواعد على الإعراب.

أما (الظاعنين) فيجب على التلميذ أن يذكر أن علامة الجر هي الياء لأنه جمع مذكر سالم، إذ من الضروري تعليل كل حركة كي يطبق القاعدة على الإعراب وتثبت في ذهنه. أما إن اقتصر على أن (الظاعنين) مجرور بالياء فربما استغلق عليه المعنى وظن أن كل ياء علامة جر. وليس بمستبعد أن يظن أن ياء (غَنِيّ) علامة جر. وأذكر مرة إعراب تلميذ كلمة (لسان) إذ قال اللام حرف جر وسان مجرور باللام!

ويترك الأستاذ النون معلقة في الهواء. فكيف تنتظر أن يعرف التلميذ شيئاً عنها؟ ثم نشكو اللغة وصعوبتها ونعيب ما بها من تعقيد.

وأخشى أن تضيق صفحات الرسالة عن التحدث عن باقي التطبيق. وأكتفي بذكر فعل (ساد) في التطبيق الثاني للأستاذ (أزهري) إذ يقول إنه فعل ماض منصوب. والفعل الماضي دائماً مبني ولفظة منصوب لا تطلق إلا على المعرب من الأفعال وغيرها. فما هو الضرر من القول إنه فعل ماض مبني على الفتح؟

فإن كان قصد حضرات علماء اللغة من تيسير القواعد والإعراب هو اختصار الإعراب فإني أرى هذا الاختصار يزيد في ارتباك التلميذ. وأؤكد هذا بعد تجارب عدة قمت بها في تدريس القواعد والإعراب سنين عدة. ولقد نجحت في تدريس القواعد والإعراب بالتطويل وتعليل وتحليل كل حركة وكل شاذة عن القاعدة. وكانت حصة القواعد أقرب إلى حصة إثبات وتعليل وبحث وتطبيق منها إلى حصة دروس نحوية جافة.

إن ضعف الطلبة في اللغة العربية لم ينتج عن عيب في اللغة أو تعقيدها، بل ليسمح لي حضرات علماء اللغة أن أصرح أنه ناتج عن فساد طريقة التعليم، وأن مدرسي اللغة أحق بالعناية والتيسير من اللغة. ولله در من قال:

. . . نعيب زماننا والعيب فينا.

وإنني واثقة أنه لو وجه حضرات المشتغلين بالتيسير اهتمامهم إلى مدرسي اللغة في كل المدارس وحاولوا أن تكون طريقة إلقاء الدروس النحوية والتطبيق على أسلوب التحليل والتعليل بسهولة وسلاسة لزال كل ما يشكو منه الطلبة من صعوبات وسلمت اللغة من خطى عملية التيسير.

وخير لنا ألا نستعمل السرعة الأمريكية في تغيير قواعد اللغة والإعراب، فإن هذا عمل أخطر من أن يتم في هذه المدة الوجيزة وبهذه السرعة.

فنحن مسئولون أمام العالم الشرقي كله عن كل حرف يحذف أو يضاف إلى اللغة، وعن كل تغيير في كتب القواعد التي تثبت أجيالاً مضت ولم نثبت بعد خطأها ولم نأت بأحسن منها.

أمينة شاكر فهمي

تاريخ الحياة العلمية
في جامع النجف الأشرف
للأستاذ ضياء الدين الدخيلي

(تابع)

وتدل الآثار أنه كان في عهد عضد الدولة حول القبر الشريف العلوي مدرسة إسلامية فيها الفقهاء والقراء يتعاهدها بخيراته ذلك الملك العمراني المحب للعلم وأهله ففي فرحة الغري عن يحيى بن عليان الخازن بالقبر الكريم أنه وجد بخط ابن البرسي المجاور بمشهد الغري على ظهر كتاب بخطه: قال توجه عضد الدولة عام 371هـ إلى المشهد الشريف الغروي وزار الحرم المقدس فكان مما فرقه ألف درهم على الناحية (الذين ينوحون على الحسين) وثلاثة آلاف درهم على الفقراء والفقهاء. وروى ابن مسكويه في تجارب الأمم (ص407ج6) وابن الأثير (ص234ج8) أنه في عام 369 أطلق عضد الدولة الصلات لأهل الشرف والمقيمين بالغري وغيرهم من ذوي الفاقة وأدرت لهم الأقوات

وفي أثناء عهد عمارة عضد الدولة حصل حادث مهم في تاريخ جامع النجف الأشرف كان له الأثر الفعال في تمركز التدريس فيه، فقد هاجر إلى الغرب العلامة شيخ الطائفة محمد أبو جعفر الطوسي فأقام نهضة علمية كبرى ونظم الحركة الفكرية وقواها ورفع منار الثقافة الإسلامية فأم النجف الأشرف من سائر أقطار الشيعة جمع غفير ليرتشفوا أفاويق العلم، وقد صارت في ذلك اليوم مركزاً مهما من مراكز العلوم الإسلامية الكبرى وأنشئت فيها المدارس الكثيرة والمكتبات من قلب سلاطين الشيعة ووزرائهم وأهل الثروة والعلماء أنفسهم

قدم الطوسي عام 408 فدرس على الشيخ المفيد ببغداد مدة حياته وبعد موته على السيد المرتضى صاحب الأمالي، وكان السيد يجري عليه شهرياً اثني عشر ديناراً كما يجري على تلامذته كل سنة. ولقد عظمت منزلته أخيراً وأصبحت له مكانة علمية أقبلت عليه طلاب العلم. حدث في (روضات الجنات) ورجال المامقاني أن فضلاء تلاميذه الذين كانوا

من المجتهدين يزيدون على ثلاثمائة فاضل من الشيعة، أما من أهل السنة فما لا يحصى، وأن الخلفاء العباسيين في بغداد أعطوه كرسي الكلام، وكان ذلك لمن كان وحيداً في ذلك العصر. وكانوا مبالغين في تعظيم العلماء لا فرق لديهم بين المذاهب الإسلامية، ولكن الوشايات أخذت تدب حول هذا العلم حتى اضطرته أخيراً أن يغادر

الزوراء ويشد الرحال إلى جوار ابن عم الرسول وهناك يقيم دعائم مدرسته. حكى القاضي في مجالسه عن ابن كثير الشامي أن الطوسي كان فقيه الشيعة مشتغلا بالإفادة في بغداد إلى أن وقعت الفتنة بين الشيعة والسنة (وهذه الفتن الداخلية هي التي خضدت شوكة الإسلام حتى انهار مجده) سنة 448هـ. واحترقت كتبه وداره في باب الكرخ فانتقل من بغداد إلى النجف وبقي هناك إلى أن توفي سنة 460هـ. وأضاف في الروضات احتراق كرسيه الذي كان يجلس عليه للكلام. وحكى جماعة أنه وشى بالشيخ إلى الخليفة العباسي فاستدعاه؛ غير أن الطوسي استطاع أن يزيل ما علق بخاطره فرفع شأنه وانتقم من الساعي وأهانه. وقال ابن الأثير (ج 9 ص 222) وفي سنة 449 نهبت دار أبي جعفر الطوسي بالكرخ وهو فقيه الأمامية وأخذ ما فيها وكان قد فارقها إلى المشهد الغروي. هاجر الشيخ الطوسي إلى النجف الأشرف وسكنها وبقي يدرس اثنتي عشرة سنة، وألف كتباً قيمة في التشريع الإسلامي لم تزل مراجع؛ للعلماء فمنها (تهذيب الأحكام) و (كتاب الاستبصار فيما اختلف من الأخبار) و (المبسوط) و (الفهرست) و (ما يعلل ومالا يعلل) و (المجالس) الخ. ثم بقي تلامذته بعد وفاته عند مرقد الإمام واستمر التدريس والمهاجرة إلى المعهد العلمي النجفي حتى ظهر في الحلة المحقق الأول صاحب شرائع الإسلام (المتوفى عام 676) فاتجه رواد العلم إليه وقامت حركة فكرية قوية فيها فيما بعد، من أقطابها تلميذه العلامة الحلي صاحب المؤلفات القيمة الكثيرة في الفقه وأصوله والكلام وغير ذلك وفي أثناء ازدهار الحركة العلمية في الحلة لم تضمحل في جارتها النجف، فهذا الشيخ الرضي كما قال السيوطي في بغية الوعاة (ص 24) هو الأمام المشهور صاحب شرح الكافية لابن الحاجب الذي لم يؤلف عليها بل ولا في غالب كتب النحو مثله جمعاً وتحقيقاً وحسن تعليل. وقد أكب الناس عليه وتداولوه واعتمده شيوخ هذا العصر فمن قبلهم في مصنفاتهم ودروسهم، وله فيه أبحاث كثيرة مع النحاة واختبارات جمة ومذاهب، ينفرد بها وله أيضاً شرح الشافية في الصرف. قال في (الروضات) توطن الشيخ الرضي بأرض النجف الأشرف وصنف شرحه المشهور على الكافية في تلك البقعة المباركة، وذكر في خطبته أن كل ما وجد فيه من شيء لطيف وتحقيق شريف فهو من بركات تلك الحضرة المقدسة، توفى عام 686 انتهى. وقد نقل لي بعض الفضلاء أن الرضي ألف شرحه في مكتبة الأمام (ع) التي في الصحن الشريف وأنها كانت مكتبة عظيمة وحتى الآن لا تزال بقاياها تحوي نفائس الكتب، من جملتها قرآن بالخط الكوفي كتب عليه أنه بخط أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)، ومن ضمنها كتب علمية وأدبية نادرة قديمة الخطوط جداً، ويوجد فيها شرح الدريدية لأبن خالويه بخطه؛ ولكن لا ينتفع اليوم بنفائس هذا الكنز لأنه مقبور بالإهمال؛ وكان على مديرية الأوقاف العراقية أن تعهد بهذه المكتبة إلى رجل ضليع لينظمها ويعرضها لاستفادة رواد العلم وإلا فإن تبعثرها وضياعها واضمحلالها أقرب النتائج المترقبة وقد احترقت هذه المكتبة عام 755هـ وجددها جماعة من العلماء منهم ابن الآوي الذي كان صدراً للحكومة الأيلخانية وفخر المحققين ابن العلامة الحلي (كما أخبرني الأستاذ السمّاوي)

جدد تسعير بناية القبر عام 760هـ بعد احتراق عمارة عضد الدولة بعمارة رابعة ذكرها مؤلفون القرن الثامن الهجري مجهولا صاحبها يظن أنه من رجال الحكومة الأيلخانية، وقد أصلحها الشاه عباس الأول من أعظم ملوك إيران المتأخرين، وفي عهد هذه العمارة قويت الهجرة إلى جامع النجف الأشرف في عهد المقدس الأردبيلي (المتوفى عام 996هـ) وكان عالماً فاضلا مدققاً جليل القدر له عدة مؤلفات منها آيات الأحكام قد فسرها فيه وأرجح إليها قضايا الفقه، وله شرح الهبات التجريد وتعليقات على شرح المختصر للعضدي وشرح لإرشاد الأذهان في الفقه. وقد تولى الدرس في مدرسة الصحن الشريف، وكانت له حجرة فيه، هاجر إليه طلبة العلم وتخرج على يده جماعة من النوابغ منهم العلامة السيد محمد العاملي صاحب المدارك في الفقه وشرح القصائد العلويات السبع لأبن أبي الحديد في مدح الأمير (ع) وشرح الشواهد المدرجة في شرح بدر الدين لألفية أبيه ابن مالك وهو كتاب جليل مفعم بالفوائد غزير المادة الأدبية، وممن درس على الأردبيلي صاحب المعالم أحد الكتب المقرر تدريسها في

جامع النجف الأشرف. ولنعد إلى بناية القبر الفخمة فإنها تضعضعت وحصلت صدوع في القبة المنورة بمرور العصور وتعاقب الأعوام، وأراد
الشاه صفي حفيد الشاه عباس الأول توسعة ساحة الصحن الضيقة فأمر بهدم بعض جوانبه وشيدت هذه العمارة الضخمة الباقية إلى اليوم وفي هذه العمارة كانت القبة الكريمة والإيوان والمئذنتان مبنية بالحجر القاشاني إلى عهد ملك إيران نادر شاه
أما هذا فقد نذر إذا فتح الهند أن يذهب قبر الأمام (ع). وكذلك لقد أمر عام 1155هـ بقلع الحجر القاشاني عن القبة المقدسة والمئذنتين والإيوان وتذهيبها، وبذل أموالا عظيمة فقام بالتذهيب أكثر من مائتي صائغ ونحاس قد جمعهم من سائر أقطار الأرض وفيهم الصبي والهندي والتركي والفارسي والعربي وقد طليت كل آجرة بمثقالين من الذهب الخالص على ما ذكر بعض الصاغة الذين تولوا إصلاح القبة أخيراً
وقد وضع في خزانة القبر الشريف تحفا جسيمة مما استلبه من ذخائر ملوك الهند، هذا فضلا عما أهدى إليها غيره من الملوك والأمراء المسلمين، ففيها من المجوهرات والنفائس مالا يثمن، وإن الأحجار الكريمة لا تعد ولا تحصى. أما القناديل الذهبية المرصعة والسجاد الفاخر الموشى بالذهب والستائر المنتظمة فيها الجواهر، الأمور التي تعز على - الملوك فهي أعلاق ونفائس تبهر العقول ولا يصدق اجتماعها في أعظم الكنوز
وإن بداعة الفن في البناية تبهر الأنظار وتخلب الأفكار بزخرفها وطلائها. وقد قال رحالة مصري: (وقبة القبر ومئذنتاه تكسى بالذهب الخالص في بريق خاطف. جزت الباب إلى الفناء السماوي المربع تطل عليه الحجرات المتجاورة ثم دخلت باب الضريح، وأنى لقلمي الكليل أن يصف إبداعه من نقوش وتطعيم بالذهب والفضة وزخرف بالبلور والزجاج والقيشاني ما فاق فيه جميع المساجد الأخرى) وإن هذه الحجرات كانت مساكن لطلبة العلم قبل أن تشاد المدارس العديدة
وعسانا نعود لدراسة النواحي الأخرى المهمة من جامع النجف الأشرف وحياته العلمية والأدبية
(العراق - النجف الأشرف)
ضياء الدين الدخيلي
بين اللغة والأدب والتاريخ
الفالوذج
للأستاذ محمد شوقي أمين
- 2 -
صلاحية معجزة بني. أخلاطه. شهرة النشا به. زعفرته. زبلته اللوزية. لونه. أكان يؤكل حاراً. وصفه بالترجرج. رقة جوانبه. أكان يؤتدم به.
وكما تمنى ذلك العربي، في ظرف وتملّح، أن تكون صفة الفالوذج آية من الآي، وتنزيلا في التنزيل، بل موضع سجدة، ومحراب ضراعة؛ إغلاء بالوصف، وإعلاء لكلمة الموصوف: ترجّي أخ له من بعد أن يكون الفالوذج معجزة نبوة، وبرهان رسالة، فإنه في حساب هذا العربي الفكه، لجدير أن تهفو إليه القلوب، وتجتمع عليه الإيرادات؛ وما هي إلا أن يؤمن الناس بمن يجيء بالفالوذج من عند الله: دليل إيحاء، ومظهر إعجاز. . فقد ذكر أبو هلال أن إعرابّياً سئل عن رأيه في الفالوذج، فقال: والله لو أن موسى أتى فرعون بفالوذج لآمن به، ولكنه أتاه بعصاه!
- 3 -
وأخلاط هذه الحلواء: لباب البر، ورضاب النحل، وخالص السمن وكان يضاف إلى هذه الأخلاط: النشا. ولعله لباب البر نفسه قال الأصمعي: النشا: شيء يعمل به الفالوذ، فانظر: كيف يذكر النشا بالفالوذج، وكيف صارت نسبته إليه تعريفاً به؟ وإنما جاء ذلك من بعد صيت الفالوذج، وذيوع صفته، ولن يُعرَّف شيء بآخر، حتى يكون الآخر أوسع شهرة، وأندى صوتاً. . .
وكان الزعفران كذلك من أدوات الفالوذج، فقد وصف رجل طعاماً أكله عند بعض الناس، فقال: أتانا بأُرُزَّةٍ ملبونة، في الطبرزد مدفونة، وفالوذجة مزعفرة مسمونة. ولا أوقن: أكان يجعل فيه أم كان يصبغ به؟ فإن الكلام يحتمل أن تكون الزعفرة فيه التلوين، إلا أنه يجعل الزعفران فيه أولى، وبسياق الجملة أشكل. ففي الجملة:

الملبونة وهي التي فيها اللبن، والمسمونة وهي التي فيها السمن. وقد يكون للزعفران في الفالوذج عملان معاً فهو مادة
فيه، وهو صبغة له وطِيب
ومما يؤيد أن الفالوذج كان يصبغ بالزعفران، وأن هذه الصبغة كانت من علامات التجوُّد فيه، وحسن الصنعة له؛ ما يؤثر من أن الكراريسي دعا أبا الحسن بن طباطبا، وقرب إليه مائدة، فخرج أبو الحسن ينظم قصيدة يذم فيها ما قدم له الكراريسي من ألوان الطعام، ويسمي كل واحد منها باسم يعيبه به، ويَزْري عليه؛ وكان مما أنكر من تلك الألوان الفالوذجة، لأنها كانت قليلة الزعفران والحلاوة؛ فسماها: صابونية، وبيتها في القصيدة:
وجام صابونية بعدها ... فافخر بها إذ كانت الخاتمة
فلما بلغ الكراريسي شعر أبي الحسن، وعلم أنه في معشر يبتدرون أكله، ويتنقلون بذمه، حلف لا يُدخل أبا الحسن ولا أحداً من أصحابه داره، ولا يحضرهم طعامه!
وقد اتخذت للفالوذج فوق ذلك زينة مجلوبة، تمدُّ منظره بالبهاء والرونق، وتزيد في طعمه اللذاذة والسواغ، وهي: اللوز المقشور. فكان ينضد أنصافاً في جوانبه كاللؤلؤ، أو ينثر كالنوّار. فلما تواصف الأدباء هذه الحلواء المعجبة، تناولوا زينتها بالتشبيه الجميل. فقد نسب الحصريّ إلى أهل عصره جملة منثورة في وصفه هي: (كأن اللوز فيه كواكب در في سماء عقيق)
ولون الفالوذج كما يدل عليه ظاهر الصفة فيما سبق من النوادر: الحمرة، إذ كان العقيق أحمر تشبه به الأشياء في الاحمرار؛ غير أنه قيل لأعرابي: أتعرف الفالوذج؟ قال: نعم أصفر رعديد! ومفاد قولة الأعرابي الصفرة، على أنه قد يكون المراد منها: لون الورس والزعفران فإنه قيل فيهما: الأصفران. والورس: نبت يضرب من الاحمرار إلى الاصفرار ورَعْياً لهذا يسوغ لنا أن نقول: إن لون الفالوذج هو ما يكون بين الحمرة والصفرة ضارباً إلى هذه والى تلك؛ فهو اللون الورسي الزعفراني المقارب للعقيق، المشبه إياه في التوهج والبريق!
ولهذا شبهوا الفالوذج فيما وصفوه، بالشمس وهي متضيفة للغروب، حائلة اللون، بين الصفرة والحمرة؛ وقد ذكر الثعالبي أبياتاً لأبي الحسن الممشوق الشامي يصف جام فالوذج، منها:
فقد اغتدت في جامها وكأنها ... شمس على بدر أوان المغرب
وتخال فيها اللوز وهو منصف ... أنصاف درّ فوق صحن مُذْهب
ويجمل ألا نغفل هنا أن العقيق ليس مقصوراً على النوع الأحمر المتعارف، فمنه أصفر وأبيض، وربما كان الواصف في الكلمة التي نقلها الحصري أراد بالعقيق النوع الأصفر منه، إلا أنني لا أجد في نفسي ميلاً إلى وفاق هذا التخريج على سلامته، فالنوع الأحمر من العقيق هو مضرب المثل، وهدف الوصف، وهو مصرف الذهن إذا أطلق فلم يقيد بنوع خاص من أنواعه المختلفات.
ويشد عضد هذا أن الكلمة المنثورة التي نقلها الحصري تروي شطر بيت في قطعة للسري الرفاء، بعث بها إلى أبي بكر الخالدي، يصف جام الفالوذج ويشير إلى أن أبا بكر يقبل هذه الحلواء رشوة ينحاز بها إلى أحد الخصمين في الأقضية، قال السري:
إذا شئت أن تجتاح حقا بباطل ... وتغرق خصما كان غير غريق
فسائل أبا بكر تجد منه سالكا ... إلى ظلمات الجهل كل طريق
ولاطفه بالشهد المخَلَّق وجهه ... وإن كان بالألطاف غير حقيق
بأحمر مبيض الزجاج كأنه ... رداء عروس مشرب بخَلُوق
له في الحشا يرد الوصال وطيبه ... وإن كان يلقاه بلون حريق
كأن بياض اللوز في جنباته ... كواكب لاحت في سماء عقيق
فقوله: أحمر، وقوله كذلك: لون الحريق، وما تقدم من أن الزعفرة من عملها التلوين، يمنع كل المنع أن يكون المقصود من العقيق النوع الأصفر؛ ما من ذلك بُدّ!
والسري قد جعل المقطع من أبياته تضمينا لبيت لأبي بكر الخالدي المهجو، فإنه يروي له قوله يصف الخمر لا الفالوذج:
كأن حباب الكأس في جنباتها ... كواكب در في سماء عقيق
وفي الحسبان أن العرب كانوا يأكلون هذه الحلواء مثلوجة باردة، إذ كانت كذلك تؤكل

لعهدنا هذا. ولكن الجاحظ نقل طرفة واضحة الإفصاح بأنها حارة، وأنها كانت تقدم على هذه الصفة. أو أن منها ما كان يؤكل حاراً، فليست تثبت القصة إلا أن الفالوذج قدم مرة لآكليه يزفر أنفاسه الحرار. قال أبو كعب: كنا عند عياش بن القاسم، ومعنا سيفويه القاص، فأتينا بفالوذجة حارة، فابتلع سيفويه منها لقمة، فغشى عليه من شدة حرها. فلما أفاق، قال:

مات لي ثلاث بنين ما دخل جوفي عليهم من الحرقة ما دخل جوفي من حرقة هذه اللقمة! فلو صح أن الفالوذج كان لا يقدم إلا حارا فيؤكل فاترا لوجب تخريج ما سلف من قول السري الرفاء: (له في الحشا برد الوصال وطيبه) فيكون الوصف بالبرودة لغير حسّ الفالوذج، وإنما، هو لمعناه وأثر الالتذاذية. وإذاً يجري الكلام على أن للفالوذج في النفس من اللذة والهناءة، ما للوصال من برد في الصدر وثلج، وهو تخريج بديهأتاً، لا تأباه طبيعة البيان ولا يمس التشبيه بتشويه

وكانت هذه الحلواء هنية الريق، لينة المُزْدَرَد. وهي كذلك عريضة هفهافة الأعطاف، تستجيب للداعي بالغمزة الخفيفة؛ وبمثل ذلك يصفها صاغة الكلام، ويشهُّونها إلى الأفواه فقد سمع الثعالبي صديقه الخوارزمي يقول في وصف طعام قدمه إليه بعض أصحابه: جاءنا بشواء رشراش، وفالوذج رجراج

وقد تكون بعض جوانب الفالوذج في الجامات والصحاف أرق من بعض، فيكون ما رق منها أغبط عند الناس مما غلُظ، وأولى بالإيثار والتكرمة. حدث الجاحظ عن نفسه قال: كنت على مائدة محمد بن عبد الملك، فقدِّمت فالوذجة، فأومأ بأن يجعل ما رق منها على الجام مما يليني، تولُّعاً بي، فتناولت منه، وظهر بياض الجام بين يدي، فقال محمد بن عبد الملك: يا أبا عثمان قد تقشَّعت سماؤك قبل سماء غيرك؛ فقلت أصلحك الله لأن غيمها كان رقيقاً!

وما كنت أفهم حتى الساعة إلا أن الفالوذج كان يؤكل وحده، لا كالطعام يكون إداماً للخبز، فهو حلواء، والحلواء مكتفية بنفسها أبداً، وهو يحوي مادة الخبز كذلك في جوهره، فإن لباب القمح رأس من رؤوس أخلاطه التي يسوَّى بها. ولكن أبا العلاء في بعض تقوله اللغوية قرن الفالوذج بضرب من ضروب الخبز، فأدى إلينا الشك والتَّظَنِّي، ولا سيما أنه يعزو ذلك إلى خلف الأحمر، ومجمل الطرفة التي نقلها المعري أن خلفاً أنشد البيتين:

أَلَمّ بصحبتي، وهمُ هجوع ... خيال طارق من أم حِصْن
لها ما تشتهي: عسلاً مصفى ... إذا شاءت وحُوَّارَي بسَمْن

ثم قال لأصحابه: لو كان موضوع أم حصن: أم حفص، ما كان يقول في البيت الثاني؟ فسكتوا، فقال: وحواري بلمص، واللمص: الفالوذج، والحوَّاري خبز يكون من لباب البر، وهو السميد. وقد تابع المعرَّي خلفا الأحمر في تغيير قافية البيت الثاني بأشتات من ألوان الإدام، وأصْبِغة الطعام، وتعبير هذا في غير تَرَيبِ أن الفالوذج كان يؤتدم به مع السميد أو غيره مما يختبز، أو أنه كان يؤكل تارة وحده، ويؤكل مع الخبز تارة أخرى

(للبحث صلة)

محمد شوقي أمين

من وحي بغداد

من جحيم الظلم في القاهرة إلى سعير الوجد في بغداد

للدكتور زكي مبارك

وَفَدْتُ عَلَى بغدادَ والقلب مُوجَعٌ ... فهل فرَّجتْ كَربي وهل أَبْرَأتْ دائي
تركتُ الخُطوب السُّودِ في مصرَ فانبرتْ ... سِهامَ العُيُونِ السُّودِ تَصْدَع أحشائي
تركتُ دُخَاناً لو أردتُ دفعتُهُ ... بعَزْمة مفْتُول الذَّراعين مضَّاء
وجئتُ إلى نارٍ سَتَشْوي جَوَانحي ... وتصْهَرُ أضلاعي وتسحق أحنائي
فيا ويح قَلبي عضَّه الدهر فاكتوى ... بلَفْحَةِ قَتَّالَيْن: جَوْرٍ وإصباء
سمعتُ حَمامَاتٍ يَنُحْن فَعَزَّني ... حَنيني إلى صحب بمصرَ أشِحَّاء
هُمُ أسلَمُوني لا عفا الحبُّ عنهمُ ... إلى ليلةٍ من غمْزَةِ الحُزن لَيْلاء
أنادِمُهُم بالوَهْم والقلبُ عارفٌ ... بأني لَدَي كأسٍ من الدَّمُع حمراء
شربتُ الأسى صِرْفاً فثارتْ مدامعي ... تذِيعُ حديثي في الغرام وأنبائي
أنا الطائرُ المجروحُ يَرْميه بُؤْسُهُ ... لشقْوَتِه ما بَيْنَ نارٍ وَرَمْضاء

فإن عشْتُ آذتْني جُرُوحي وإن أَمُتْ ... شَوَتْنيَ في الأرواحِ نيرانُ بأسائي
أحبَّايَ في مصر تعالَوْا فإنني ... أُوَدِّعُ في بغدادَ أُنسي وسَرَّائي
تعالوْا أَعِينوني على السُّهد والضَّنَى ... فلم يَبْقَ مني غَيْرُ أطياف أشلاء
تعالوا أُحدِّثْكم ففي القلب لَوْعَةٌ ... هي الجاحمُ المَشبُوبُ في جَوْف قصْباء
تعالَوْا تَرَوْا بغدادَ أَغرتْ بمهجتي ... نُبُوبَ المنايا في صَبَاحي وإمسائي
أحبَّايَ في مصر، وَهَلْ لي أَحِبَّةٌ؟ ... أحباي في مصر تعالَوْا أحبائي
تعالَوْا إلى بغدادَ تَلْقَوْا أخاكم=صريعَ خُطُوب يَنْتَحِين وأرزاء
تعالَوْا تَرَوْني في صروفٍ من الجوى ... تهدّم بُنْيَاني وَتَنْقُضُ حَوْبائي
عفا الحبُّ عن بغدادَ، كم عِشْتُ لاهياً ... أكاثرُ أيامي بليلَى وظمياء
فكيف وقعتُ اليومَ في أَسْرِ طِفْلَةٍ ... مكحَّلةٍ بالسحر ملثوغةِ الراء
أصاولُ عينيها بعينيَّ والهوى ... يُشِيعُ الْحَميَّا في فؤادي وأعضائي
وأشهدُ أطياف الفراديس إن بدتْ ... تراودُ أحلامي مزاحاً وأهوائي
وألمس نيرانَ الجحيم إذا مضتْ ... تَرُوم بعين الجِدّ بُعدي وإقصائي
أكاتِمُ أهليها هُيلَمي ولو دَرَوْا ... لهامت بجنب الشط أرواح أصدائي
إلى الحب أشكوها فقد ضاق مذهبي ... اخلفني بعد الفراق أعزائي
إلى الحب أشكوها فلولاهُ لم أَبِتْ ... حَليفَ هُمُوم يَصْطَرِعْن وأنواء
إلى الحب أشكو بل إلى الله وَحدهُ ... أفوِّض بأسائي لديها ونعمائي
أَرَبَّاهُ أنقذني فأنت رميتني ... بقلبٍ على عهد الأحباء بَكَّاء
أَرَباهُ لا تفعل فإني أرى الهوى ... عَلَى وَقْدِهِ بالقلب أنفاسَ رَوْحاءِ
أُحِبُّ سعير الوجد فارْمِ حُشاشتي ... على جمراتٍ منه حمقاء هوجاء
أحب شقائي في الغرام وإنهُ ... لأرْوَح من مطلولة الزَّهر شَجْراء
فيا خالق النار العَصُوف وشقائي ... إليها أَدِمْ فيها لَوَاعج إصلائي
أحبك يا ربي فهل أنت شافعي ... إلى سرحةٍ في شَطِّ دجلةَ زهراء
شهدت فنائي فيك حين رأيتها ... تحاول إضلالي وَتَنْشد إفنائي
وَمَن أنت يا ربي؟ أجبني فإنني ... رأيتك بين الحسن والزهر والماء
أنا الفاتِنُ المفتونُ فارحم بليَّتي ... وَقدَّر بأرجاءِ الفراديس إثوائي
وَلاتُخْلني في جنة الخُلْد من هوىً ... بِرُعْبُوبَةٍ لا تعرفُ الرفقَ حمقاءِ
أُحِبُّ المِلاح الهُوجَ في الخُلْد نفسهِ ... عساني بدار الخلد أهجر إغفائي
تباركتَ! ما الجناتُ من دون لوعةٍ ... سوَى بُقْعَةٍ في غابة الموت جَرْداء
يحبّ ضعيف الروح في الخلد أُنسَهُ ... إلى غادَةٍ مأمونة الغيب بَلْهاء
وَأنْشدُ في الجناتِ إن ذُقْتَ رَاحَهاً ... مَلاَعِبَ مِن طَيْش وَفَتْكٍ وَإغوَاء
أضاليلُ يُزْجيها خيالي وَأَنْثَني ... إلى ساحةٍ مطموسة الأنس قَفْراء
لقد كنتُ في مصر شقيّاً فما الذي ... سَتَجْنين يا بغدادُ من وَصْل إشقائي
أهذا جزائي في العراق وَحُبِهَّ ... أهذا جزائي في رَوَاحي وإسرائي
أَخِلاّيَ ما بغدادُ راحي وإن دَرَتْ ... قلوبُ صَبَايَاها مدَارِجَ إصبائي
أَخِلاّيَ رُدُّوني إلى مِصرَ إنني ... أرى الظلم دُونَ الوجد تسعير لأواء
سَقَى الغيثُ أيامي بحلوانَ وارتوتْ ... مَلاَعِب أَحْلامي هناك وأَهْوائي
فما غدرَتْ بي في حماها نَسَائِمٌ ... سقاها رَبيعُ الْحُبِّ أكوابَ أَنْدَاء
وَللهِ عَهْدٍ بالزمالك لم يكنْ ... سِوَى لمحاتٍ يَزْدَهِينَ وأضواء
هصرْتُ به غُصناً نضيراً تفتحتْ ... أزاهيرُهُ في ظِل خضراءِ لفَّاء
وأين على مصرَ الجديدةِ مَوْرِدي ... وأين سُهادي في حماها وإغفائي
أطايبُ ذقناها ولم نَدْرِ أنها ... لنُدْرَتِهَا في الدَّهر أزهارُ صَحْراءِ
أَحِبَّايَ في مصر الجديدةِ سارعُوا ... فقد صَرَّعْتني حول دجلة أدوائي
أَجِدّكمُ هل تعلمون بأنني ... وإن كنت جار الشط أشرب إظمائي
خذوني إليكم يا رفاق فإنني ... أحاذِرُ في بغدادَ حَتْفِي وإصمائي
أخاف العيونَ السُّودَ فليرحم الهوى ... فجيعةَ أهلي يوم أقضي وأبنائي
أنادمُ أحْبائي وفي الحق أنني ... لهول الذي ألقى أصَاولُ أَعْدَائي
أَدِجلةُ ما بيني وبينك؟ أَفْصِحِي ... فقد طال في مغناك تبريح إضنائي
وردتك أستشفي فثارت بليَّتي ... وَأَرْمضني حُزْني وَأَضْرعني دائي

وَرَدْتُك أشكو النيل يطغي جُحُودُهُ ... فأين سلامي في حماك وإشكائي
سقى وَرْدُك المعسولُ غيري ولم أَجِدْ ... لهول بلائي غير أوشاب أقذاء
أطال أُناسٌ فيك نجوى نعيمهمْ ... وفي شِطك المورودِ ناجيت بأسائي
أدجلة أين الحب؟ قولي فإنني ... تقلبت في نارين: حقدٍ وبغضاءِ
أدجلة أين النور؟ قولي فإنني ... على الشط أستهدي دياجير ظلمائي
أدجلةُ أبلاني اغترابي وَشَفَّني ... هُيامي بظُلمي في بلادي وإشقائي
أدجلةُ أنت النيلُ بغياً وَكُدْرَةً ... فكيف من النارين تسلم أحشائي
أدجلةُ ساقتني إليك مَقادِرٌ ... تأنَّقنَ في كيدي وأبدعن إيذائي
أَدجلةُ واسيني فللضيف حَقُّهُ ... إذا شئت من زادٍ وحبٍ وصهباء
طغى موجك الصخاب فاهتاج لوْعتي ... وَأَيقظ أشجاني وبلبل أهوائي
وقفتُ أبثُّ الجسر ما بي فلم أكِنْ ... سوى نافثٍ في أذني رَقطاءَ صَمَّاءِ
وقفتُ أرجِّيه ولم أَدْرِ أنني ... أُسطِّر أحلامي على ثَبَجِ الماء
إلى أين هذا التِّبْرُ يجري وحولَهُ ... حرائقُ من أرضٍ على الريِّ جَدبْاء
أرَقْتُ دُموعي في ثراها فما ارتوَتْ ... وهل كان دمعيٍ غير أطياف أنداء
شَوَتْني الخطوب السُّودُ شياً فلم تدع ... لمُعْتَسِفٍ حُلْماً إذا رام إبكائي
أَجِبني يا صَوْبَ الغوادي فإنني ... على علتي في الدهر أسّاءُ أَدْوَاء
تحدَّرتَ مُختالاً فلم تُغن أمةً ... تَشْهي لطول الجدب أو شال أنهاء
بكى حولك الماضون دهراً فهل رَأَوْا ... لدي موجك الصخّاب لحظة إصغاء
تَشَكي العراقُ الجَدْبَ وارتعتُ أبتغي ... نصيبي فلم أَظْفر لديكَ بإرواء
أَعِنْدَكَ يا صَوْبَ الغوادي تحيةٌ ... لناس عَلَى شَطَّيْكَ ذاوينَ أنضاءِ
تروحُ إلى البحر الأجاج سفاهَة ... عَلَى شوْق أهل في العراقِ أوِدَّاءِ
أبوك السحاب الجَوْدُ يرتاحُ جُوُدهُ ... إلى كلِّ أرْض في العراقيين مَيثْاَءِ
فعمَّنْ أخذت البخل يا جار فتيةٍ ... هم الجعفر المنساب في جوف بطحاء
شكا الزهرُ في شَطَّيْكَ فاخجل وَنجِّهِ ... مِنَ الظمأ الباغي وَمِنْ حيةّ الماءِ
جريتَ بلا وعيٍ إلى غير غاية ... مُحَجَّلة بين المصاير غراء
فدعني أُطل فيك الملام فلم أكن ... سوى شاعرٍ للحمد واللوم وشّاء
أأنت الذي يجفو الظّماء لينْضَوِي ... إلى لُّجُةٍ في باحِة البحر هوجاء
أأنت الذي يسقي البحار وحولهُ ... أزاهير في سهل يفُديه مِظْماءِ
وقفنا على شطيك نشكو أوامنا ... على نبرات الدف والعود والناء
فأين العطاء الْجَزلُ يَا فَيْضَ مُزْنةٍ ... مُحَمَّلةٍ بالخير والشر كَلْفَاء
عشقت شقائي فيك للحبِّ إنني ... أُحبُّ شقائي في رحاب أحبّائي
أبغدادُ هل تَدْرين أنيِّ مودِّعٌ ... وأن سَمُومَ البين تلفح أحشائي
وردتُك مُلتاعاً أصارع في الهوى ... دموع رفاقٍ وامقين أخلاّء
تَنَادَوْا إلى باب الحديد فودّعُوا ... بقايا فؤادٍ وافرٍ العطف وضاء
وفيهم خَتُولٌ لو أراد لَرَدّني ... إلى روضة من يانع الأنس غنّاء
تقدم يستهدي العناق فلم يجد ... سوى صخرة مكتومة السِّرِّ خرساء
وعاد يروض العَتْبُ أحلام قلبهِ ... على خُطة من شائك الهجر عوجاء
وردتك مطعوناً تثور جروحهُ ... فكان بنوك الأكرمون أطبائي
لحبك يا بغداد والحبُّ أهوجٌ ... رأيت فنائي فيك مَشرِق إحياء
تناسيتُ في مصرَ الجديدة صِبيْة ... هم الزهَرُ الظمآن في جوف بيداء
يناجون في الأحلام أطياف والدٍ ... لعهد بنيه وَالْبلَيَّات نسَّاءِ
أبغدادُ هذا آخرُ العهد فاذكري ... مدامعَ مفطورٍ عَلَى الحبِّ بكّاء
أبغدادُ يضنيني فراقك فاذكري ... لدى ذمة التاريخ بيني وإضنائي
خلعت على الدنيا جمالكِ فانثنتْ ... تخايَلُ في طِيبٍ وَحُسْنٍ وَلألاء
سيذكرني قومٌ لديك عهدتُهُمْ ... يحبوُّن ظلاّمين ضُرِّي وإيذائي
سيمُسي خصومي بعدَ حين أحبةً ... يذيعون مشكورين أطيبَ أنبائي
ستذكرُ أرجاءُ الفراتين شاعراً ... تفجَّر عن مكنونة الدر عصماء
سيسأل قومٌ مَن زكيٌّ مباركٌ ... وجسميَ مَدْفونٌ بصحراءِ صماء
فإن سألوا عني ففي مِصْرَ مرقدي ... وفوق ثرى بغداد تمرح أهوائي

ستذكرني غيدٌ ملاحٌ أَوانسٌ ... أطلن بلائي في الغرام وإشقائي
ستذكرني مِصرٌ وَما كان قلبها ... سوى صخرةٍ في جانب النيل مَلْساء
إلى اللهِ أشكو لؤم دَهْرِي وَصَرْفَهُ ... وَعِنْدَ الإلهِ البَرِّ أُودِع حَوْبائي
زكي مبارك
البَريدُ الأدَبيّ
حول لجنة إنهاض اللغة العربية
سيدي الأستاذ الزيات
سرني وأرضىَ نفسي ما كتبتم وما نشرتم لكرام الكتاب من الملاحظات على قرار لجنة إنهاض اللغة العربية وما انتهت إليه في اختيار الكتب التي تصلح لأن تكون في أيدي تلاميذ المدارس الثانوية وسيلةً إلى تقويتهم في اللغة العربية
ولكن شيئاً هاماً في قرار اللجنة قد فاتكم التنبيه إليه وما كان ينبغي أن يفوت: ذلك هو حق أدباء العروبة في مختلف أقطارها في أن يكون لهم ولمؤلفاتهم الأدبية اعتبارا في نظر وزارة المعارف المصرية أولا، ثم أعضاء هذه اللجنة. . .
فهل تذكرت وزارة المعارف المصرية يوماً أن في هذه الأقطار التي تريد أن تفرض عليها زعامتها الأدبية - علماء وأدباء وكتاباً ومؤلفين، هم في الطبقة الأولى من رجال الفكر العربي؟ وهل عرفت أن لهؤلاء الأدباء كتباً ومؤلفات حقيقة بأن تكون موضع تقدير رجال المعارف في مصر حين يريدون أن ينهضوا بالثقافة الإسلامية
ذلك - ولا شك - شئ تعرفه وزارة المعارف ولا تنكره، ويعرفه أدباء مصر ولا ينكرون، ولكن ما وراء هذه المعرفة؟ هل قررت يوماً كتاباً في مدارسها لكاتب عربي في غير مصر؟ هل عملت على أن يعرف تلاميذها في مصر أن تلك البلاد كتاباً وأدباء ينبغي أن تُدرس آثارهم وينتفع بها؟
إن الكتب المصرية تملأ أسواق الشرق العربي ومكتباته ومدارسه، ولا تخلو منها يد تلميذ عربي في تلك البلاد. فهل حرصت مصر على أن ترد هذا الجميل إلى أهله؟ أم تراها ضريبة على هذه البلاد تؤديها لمصر غير منتظرة جزاء عليها ولو كان هذا الجزاء هو الاعتراف بالجميل؟
أين مؤلفات الأساتذة إسعاف النشاشيبي في فلسطين، وأمين الريحاني في لبنان، وعلي الطنطاوي في دمشق، وساطع الحصري وطه الهاشمي في العراق؟ أليس لهؤلاء مؤلفات يمكن أن ينتفع بها في مصر، لتزيد الروابط بين البلاد العربية توثيقاً وقوة؟
م. سعيد
اقتراح على الشعراء
تغلي أطراف العالم العربي والعالم الإسلامي لأنهم يوقدون على قلبهما بالحديد والنار والمكيدة في فلسطين، وتسجل الأيام أروع قصة من قصص البطولات والإباء والتضحية في التاريخ كله، وتصبحنا الأنباء وتمسينا بما يبسط قلوبنا ويقبضها سروراً بانتصار إخواننا أو ألماً من اندحارهم
وتلتقي مشاعر المسلين والعرب لقاء عجيباً في هذه البقعة المقدسة من الأوطان العربية مما جعل الثورة الفلسطينية مبدأ عهد لتكوين الشعور الإسلامي والعربي، ومدار ذكرى ومداولات حول النفس العربية وتاريخها وخصائصها وجهادها ومستقبلها
فكيف تمر بنا هذه الحوادث الجسيمة، وتعرض على أعيننا وقلوبنا هذه المشاهد والمشاعر الفذة ثم لا تسجل تسجيلاً فنّياً خالداً في مطولات و (ملاحم) كما كانت حروب (طروادة) مدار أناشيد الإلياذة اليونانية؟
إن في شخصيات باعثي هذه الثورة وفي قوادها وفي جنودها رجالاً ونساء وفي شرفهم وسمو أخلاقهم وفي الأهوال التي تحيط بهم. . . معاني روائية نادرة ومنابع إلهام لذوي الأقلام
فمن يا ترى تنتدبه الأقدار وتصطفي قلمه لكتابة هذا الديوان الخالد كما اصطفت قلم الشاعر الكبير أحمد محرم لكتابة ديوان مجد العرب والإسلام الذي نرجو له التوفيق فيه؟
إني أخشى أن أشير بإصبعي في هذا المقام إلى بعض الشعراء الذين أعرف في خيالهم الواسع قدرة على ملء الفجوات التي بين الحوادث، وقدرة على تلوين

الشخصيات والأحداث، وعلى الربط و (الحبكة) الفنية في الإخراج، وعلى خلق شخصيات خرافية عند اللزوم
أخشى هذه الإشارة حتى لا أصد بعض الذين قد يقعدهم أن ذكرهم نبأ عنه القلم في هذا المعرض. ولعل طبعهم الشاعر قد سما ونضج بالثورة الفلسطينية، و (قد يسمو الطبع الخافت لأن حادثة ما تحمله إلى الأفاق العليا من التفكير والأفتنان، كما تعلو العاصفة بالهشيم والريش إلى حيث تحلق ذؤابات الدوح وأجنحة النسور). كما يقول الأستاذ العقاد
ومن منا لم تسم بمشاعره حوادث فلسطين وتفجر في طبعه الشعر النفسي الذي يفيض على القلوب في بحوره المرسلة؟
إني لم أتمن أن أكون من رجال الشعر المنظوم الذي يرضي نفسي إلا اليوم حتى أظفر بهذا الشرف العظيم
فيا شعرائنا عشاق الخلود!
ليس التغزل في جسد جميل أو كأس فاتنة، ولا البكاء المزري بالرجولة من نفس هلوك على حبيب هاجر وخدين غادر، ولا الخواطر الكزّة الضيقة في مناسبات الحياة الشخصية الأنانية، ولا الوصف التقليدي للطيارات والقطارات والإبل والأشجار والأطيار، ولا. . . ولا. . . إلى آخر المكرور المعاد من العناوين المتوارثة كما تورث الأوعية والآنية ليصب فيها. . . ليس كل أولئك شيئاً ذا خطر ورجاحة في ميزان المواريث الأدبية الخالدة، لأنها لا تقترن بالنفس العربية العامة الواحدة في كل الأشخاص والأمكنة والأزمنة. . . وما لم يكن على الأثر الأدبي هذا الطابع طابع العموم والشمول فلن يحظى بالخلود
وفي الثورة الفلسطينية أوتار تتصل بكل قلب عربي ومسلم، فمن استطاع أن يجمع هذه الأوتار في يده، وأن ينشد عليها بإيمان وفن واستغراق، فسيذهب نشيده مردداً في كل يوم وفي كل مكان وبكل لسان. . .
وإذا مرت الثورة الفلسطينية من غير شاعر واحد يرصدها ويغني لها ويندب. . فأخشى أن يحكم المستقبل على شعرائنا أنهم (قليلو الملاحظة: يذهبون إلى الغابة للبحث عن وقود ثم يرجعون فارغي الأيدي!) كما يقول المثل الإنجليزي. . . أو أنهم يجرون وراء السراب ويتركون الأنهار المتفجرة. . .
عبد المنعم خلاف
حاجي بابا في إنجلترا
نشرنا في مجلتنا (الرواية) قصة بهذا العنوان للكاتب الإنجليزي جيمز موير وصف فيها بعض النواحي الاجتماعية في بلاد إيران أوائل القرن التاسع عشر. فخشي بعض إخواننا الإيرانيين أن يخلط القراء بين إيران القديمة وإيران الحديثة، مع أن المؤلف حدد زمن القصة بسنة 1822. والواقع أن حاجي بابا لا يمثل في ذلك العهد إيران وحدها، وإنما يمثل مصر والشام والعراق وتركيا تمثيلا رائعاً لا يناقض الحقيقة. ومن يقرأ هذه القصة ثم يزر هذه البلاد اليوم يدهشه هذا التطور الذي نال العقلية الإسلامية في مدى قرن من الزمان. فإن تفتح الأذهان في تركيا وإيران ومصر للآراء الجديدة والمدنية الحديثة لا يدع مجالا للشك في حيوية الإسلام ومرونة الشرق.
إلى الأستاذ الكبير فليكس فارس
تحية معجب أبعثها في هالة من معاني الشكر التي هي جواب لقرار الوفاء. . . وما الوفاء إلا صدى هديتك التي بعثتها إلينا عن طريق الرسالة
أشرفت من فوق منبرك على عالم زاخر بشتى المعاني زادني يقيناً بأن الشرق هو الشرق وأننا كلنا على تباين أمصارنا أمة واحدة. . . وكأن كتابك هذا قد خلفني خلفة ثانية ذات مناعة لا تقبل مبادئ المترجمين المقلدين في رأيي وإن كانوا في رأي أنفسهم مجددين مبدعين
فشد على يدك فأنت صاحب رسالة ورسول بعث، فألق من فوق منبرك الهدايا، وادحض ببيانك وحججك أباطيل المخدوعين المغرورين. أيدك الله بروح من عنده وجعلك في الأواخر مقام المجاهدين العاملين في الأوائل. . .
(الزقازيق)
محمد جمال الدين درويش

بعثة الأمام محمد عبده
كان الدكتور محمد بهي قرقر والدكتور محمد ماضي عضوا بعثة المرحوم الشيخ محمد عبده قد أتما دراستهما في جامعة هامبرج في ألمانيا ونالا إجازة الدكتوراه منها. ثم رغبا إلى مشيخة الأزهر أن تطيل مدة البعثة لهما سنتين لينالا درجة الأستاذية من هذه الجامعة. وعرض هذا الموضوع على المجلس الأعلى في إحدى جلساته السابقة كما عرض عليه ما أظهرته المشيخة من الرغبة في سرعة الاستفادة من عضوي هذه البعثة وتعيينهما للتدريس في الأزهر فرأى المجلس الأعلى للتوفيق بين رغبة المشيخة في سرعة الاستفادة منهما
وبين رغبتهما في الحصول على درجة علمية كبرى من جامعة هامبرج أن يعود إلى ألمانيا لمدة فصل دراسي واحد ثم يرجعا إلى مصر للعمل في التدريس بالأزهر على أن يصرح لهما بعد ذلك بالسفر لأداء الامتحان لدرجة الأستاذية في الوقت الذي يطلبان من المشيخة السماح لهما بالسفر فيه.
وقد أرسلت مشيخة الأزهر في طلبهما لالحاقهما بوظائف التدريس في بدء السنة الدراسية القادمة على أن يعودا لأداء الامتحان في السنة القادمة.
العريان يؤرخ الرافعي الخالد
نشرت مجلة اللطائف المصورة في عددها الماضي ما يلي:
منذ نحو تسعة شهور والأستاذ محمد سعيد العريان ينشر في (مجلة الرسالة) فصولاً متتابعة في كل أسبوع عن حياة المغفور له السيد مصطفى صادق الرافعي أبي البلاغة والبيان الذي فقده عالم الناطقين بالضاد في العام الماضي. وقد أذيع أنه سيجمع هذه الفصول الثمينة بين دفتي كتاب يصدره قريباً
والأستاذ العريان معروف بأدبه وسعة إطلاعه. وقد لازم الرافعي العظيم ملازمة طويلة، فكان الفقيد يملي عليه كتاباته ويستشيره في معظم أعماله وأسراره، فأحاط علماً بشخصية الرافعي ووفق إلى دراستهما دراسة مستفيضة. . .
فهو بذلك خير من يتحدث عن الرافعي ويؤرخ حياته وأخلاقه وفلسفته والعوامل التي أثرت عليه وكونته، وطريقته في الكتابة وتسجيل خواطره العالية، وما هي المناسبات والظرف التي كانت تدعوه إلى تأليف الكتب والقصص والمقالات. . .
ولا شك في أن هذا العمل من الأستاذ العريان يعد خدمة أدبية كبرى تفيد الأجيال القادمة أكثر من أفادتها للجيل الحاضر، ولو وفق الأستاذ العريان في تاريخ حياة الرافعي فإنه سيخلد مع الرافعي، فإن كثيرين من الأدباء العالميين اشتهروا وخلدوا بوضعهم المؤلفات عن حياة أدباء سبقوهم أو لازموهم. وقد اشتهر الأديب الكبير (بوزوبل) بملازمته للأديب جونسون وكتاباته عنه. وليس الرافعي بأقل قيمة من (جونسون) فهو شخصية أدبية خالدة شهد لها أقطاب الفكر بامتلاكها ناصية البيان، وقل من يستطيع دراستها والإلمام بها وتحليلها، وهي جديرة بأن تكتب حولها الرسالات التي تجيز لصاحبها أرفع الشهادات الأدبية. . .
فنحي في الأستاذ العريان وفاءه للرافعي في عصر يكاد ينعدم فيه الوفاء، ونثني على خدمته الأدبية الكبرى لعالم الأدب، ونشكر مجلة الرسالة الغراء، مجلة الأدب والفكر الرفيع، مجلة الرافعي الخالد، على تسهيلها للأستاذ العريان مهمته وقيامها بتسجيل هذه الفصول الثمينة عن حياة أبي البيان للحقيقة والتاريخ
نشرت الرسالة الغراء بعددها رقم 270 مقالة بعنوان (فلسفة الأسماء) للأستاذ السيد شحاتة. وقد جاء في هذا المقال (ولما ظهر الإسلام تطورت الأسماء عند العرب إذ سمي النبي (محمداً) مع أنه لم يسم أحد من قبل بهذا الاسم) والحقيقة أن هناك من سمى باسم محمد في الجاهلية وهم ثلاثة:
1 - محمد بن سفيان بن مجاشع جد الفرزدق الشاعر المشهور
2 - محمد بن أحيحة بن الجلاح أخو عبد المطلب لأمه
3 - محمد بن حمران بن ربيعة
أما أحمد فلم يسم به أحد في الجاهلية وأن جاء التبشير فيه، قال الله تعالى (وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل أني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة

ومبشراً برسول يأتي من بعدي أسمه أحمد)
محمد عبد الغفار
مجلة الأمالي - بيروت
وصلنا العدد الأول والثاني من مجلة (الأمالي) التي يتعاون على إصدارها في لبنان إخواننا الأساتذة الأدباء: محمد علي الحوماني، والدكتور محمد خيري النويري، وعارف أبو شقرا، والدكتور عمر فروخ. ومجلة الأمالي هي شيء جديد في صحافة لبنان، تنقل عن شرقية أصيلة وثقافة شاملة ومنطق متزن، وتشير إلى نهضة متوثبة في الآداب والفنون، وترمي إلى أهداف نرجو لهم فيها التوفيق والسداد. اشتراكها السنوي 750 مليما وعنوانها:
بيروت - صندوق البريد 941
المسرح والسينما
إلى اللجنة المشتركة لإنهاض السينما
بوزارتي التجارة والمعارف
تألفت بوزارتي التجارة والمعارف لجنة جديدة من بعض كبار رجال الإدارة مهمتها - على ما قيل وقتذاك - إنهاض صناعة السينما في مصر والأخذ بيدها حتى تصير إحدى صناعات الدخل القومي.
ونحب ونحن في بداية الموسم واللجنة لم تجتمع بعد أن نهمس في أذنها بما يتردد في الأندية والمحافل الفنية من نقدات وملاحظات على سياسة اللجنة السابقة المنحلة بتأليف اللجنة الجديدة. وأغلب ظننا أننا بتسجيلنا هذه النقدات والملاحظات إنما نسجل رأي السواد الأعظم من المشتغلين بإنتاج الأفلام في هذه البلاد
وأول هذه الملاحظات هو أن اللجنة ترى أن الشركات المصرية بحاجة إلى مساعدات مالية تقدم لها بين وقت وآخر وفاقاً لما تراه اللجنة عند تقدير جهودها وفحصها بالمنظار الفني. وهذه السياسة في نظرنا ونظر إخواننا المنتجين غير مجدية؛ وهي وإن أدت إلى رفع بعض الخسائر عن عاتق الشركات فلن تفيد في إنهاض الفن السينمائي ذاته.
إن الشركات بحاجة إلى (رؤوس أموال) لا إلى (إعانات نظامية)، لأن أغلب شركاتنا - إذا استثنينا أستوديو مصر - إنما أسس بأموال فردية، والجزء الأكبر من هذه الأموال استنفدته الخسائر التي تعرضت لها الشركات أول إنشائها. والذي يحدث الآن هو أن المنتج يذهب إلى واحد من كبار الماليين كبهلر وغيره فيأخذ ما يراه ضروريا من المال بفائدة مئوية كبيرة ومع اشتراط الحصول على نسبة مئوية أخرى من الإيراد الكلي للفلم، والنتيجة أن هذا المالي يسترد مبلغه مضاعفاً في مدى شهور معدودة أما المنتج فلا يغل له إنتاجه فائدة، أو هو يغل فائدة صغيرة لا تغني ولا تسمن من جوع
فإذا كانت وزارتا المعارف والتجارة جادتين في إنهاض السينما فليكن ذلك بتخصيص المبلغ المراد إعطاؤه للشركات كل عام كمساعدات نظامية، ليكون رأس مال يوزع منه دورياً على المنتجين بنظام الحصص، فيجدون بذلك ما يغنيهم عن الالتجاء إلى كبار المقرضين، وبذلك يتوفر لهم عن طريق اللجنة جانب كبير من أرباحهم ونتاج جهودهم، وذلك كفيل بأن يدر عليهم ربحاً كافياً. ولم يقل أحد إن إخراج الأفلام غير مربح حتى يحتاج إلى مساعدة دائمة. ويبقى بعد ذلك نوع من الإنتاج السينمائي هو الذي نراه ويراه المنتجون بحاجة إلى المساعدة الدائمة، وذلك هو (الجرائد السينمائية) التي تسجل الحوادث الجارية على الشريط إذ أن هذه الجرائد لا تأخذها دور السينما إلا بإيجار زهيد لا يساعد على تغطية حتى نصف مصاريف عملها. فلا بأس من منح منتجي هذه الجرائد السينمائية مساعدات سنوية، ولكن على أساس العدل المطلق وعدم المحاباة لأي دعوى من الدعاوى، فلا نرى اللجنة تمنح إحدى الشركات مبلغاً كبيراً على أساس زعم من المزاعم التي لا علاقة لها بالسينما والفن السينمائي. . .
ثم إن هناك ناحية أخرى على هذه اللجنة أن تنظر فيها وتعمل على التخلص منها ما دامت تريد نهضة جدية للأفلام في مصر، وهذه الناحية هي جمود اللائحة التي تعمل بها وزارة الداخلية الآن في صدد ما يجوز معالجته وما لا يجوز معالجته في الأفلام من الموضوعات. وعندنا أنه ما لم تعدل هذه اللائحة فلن تشاهد مصر أفلاما لها قوة الأفلام الإفرنجية وروعتها وجمالها وإنما تكون أفلامنا جميعاً (نسخ كربون) من الأفلام

التي رأينا حتى الآن، أفلام الغرام الفاشل والزواج غير الموفق، وخيانة الزوجات، وكان الله بالسر عليماً. . .

أخبار سينمائية ومسرحية

الانتهاء من فلم الدكتور

بذل الأستاذ نيازي مصطفى وسائر هيئة أستوديو مصر جهداً في الانتهاء من تصوير فلم الدكتور لمؤلفه وممثله الأستاذ سليمان نجيب بطل رواية الحل الأخير. والمفهوم حتى الآن أن الفلم ينتهي في آخر الشهر الحالي ويكون معداً للعرض في أوائل الموسم القادم في سينما تريومف سابقاً. وكل من شاهد منظراً من مناظر ذلك الفلم تأكد لديه أنه سيكون فلم الموسم دون ريب، وأن نيازي يستحق أن يقيم له الزملاء حفلة تكريم من أجله!

جريدة سالم السينمائية

كانت جريدة سالم السينمائية التي شاهدناها في الأسبوع الماضي خير دعاية لجهود هذا الشاب المقدام، وكل من شاهدوها وشاهدوا الجرائد الأخرى التي عنيت بتسجيل حفلة رفع الستار عن تمثال سعد، قد حكموا للأستاذ سالم بالإجادة والإتقان مما شجعه على أن يستمر في إخراج هذه الجريدة السينمائية مرة في كل شهر وكلما كانت هناك حوادث جارية كبيرة يجب تسجيلها

نساء بلا رجال

انتهى الأستاذ أحمد جلال عضو الثلاثي الفني من كتابة السيناريو الجديد لروايته (نساء بلا رجال) ويبدأ التصوير في أوائل الشهر القادم والمنتظر الانتهاء من إخراجه قبل شهر ديسمبر القادم ليمكن عرضه في النصف الثاني من الموسم الحالي

يوم المنى

تعرض سينما كوزمو ابتداء من يوم الخميس الماضي فلم (يوم المنى) لممثله الأول الأستاذ علي الكسار وهو من أقوى الأفلام الفكاهية الطويلة، فقد استغرق عرضه حوالي مائة دقيقة، وأجاد من الممثلات زوز لبيب وسلوى وعلام وبهيجة المهدي. والفلم من إخراج الفيزي وإنتاج شركة أرابيان سيستمر عرضه أسبوعاً آخر لشدة الإقبال على مشاهدته

الفرقة القومية

بعد أسبوعين نشاهد على مسرح الأزبكية أولى روايات الفرقة القومية للموسم الجديد، وسنتحدث عنها في عدد قادم

الأفلام الأجنبية الحديثة

من أهم الأفلام التي تعرضها سينما ستوديو مصر في الموسم الحالي الفيلم (ماري - انتوانيت) للنجمة الكبيرة (نورما شيرر) ويظهر فيه أمامها (تايرون باور) و (جون باريمور) و (جلاديس جيورجز وانتيا لويس وروبرت مورلي) وهو فلم الموسم للمترو جولدوين ماير دون نزاع

- انتهى (الكسندر كوردا) عاهل السينما الإنكليزي الكبير من إخراج فلمه الهندي الجديد (الطبلة). وقد اختير غلام هندي للقيام بالدور الثاني في هذا الفيلم فوفق فيه إلى حد كبير وأثبت أن إخواننا الهنود لا يقلون نبوغاً في السينما عن غيرهم

- انتهت استيديوات المترو جولدوين ماير في كاليفورنيا من تصوير مناظر فلمها الجديد (غلام من مصحة الدكتور برناردو) وبطل هذا الشريط الكبير هذا الصبي العالمي (فريدي بارثولوميو)

العدد 273 - بتاريخ: 26 - 09 - 1938

بين الديمقراطية والدكتاتورية

أسبوع محموم. . .

لم يَعُد الناس في هذه الأيام ناساً لهم دين ومدنية وفلسفة، وإنما عادوا كما بدأهم الله أصحاب غلبة وأثرة وبغي؛ يتخاطبون بلغة القوة، ويتجادلون بمنطق الذئب، ويتصاولون بعصبية الجاهلية، ويسرف عليهم الطغيان فينزلون عن نفوسهم المريدة ليكونوا قطعاناً من ألبهم تسوقهم عصا واحدة إلى المزرعة أو إلى المجزرة!!

هاهو ذا إنسان القرن العشرين ينسى أنه تقدم حتى جاوز حدود الغيب، وارتقى حتى

بلغ أسباب السماء، وتعلم حتى هتك أسرار الكون، وتهذب حتى تخلق أخلاق الملائكة؛ ينسى ذلك ويعود فيقف على الصخرة الصماء التي هبط عليها أبواه من الجنة، عاري الجسم من زينة المدنية، فارغ النفس من كرم الدين، مجرد العاطفة من جمال الأدب؛ ينظر إلى فريسته الدامية وفوه يتحلب ريقاً، ورمحه يقطر دماً، وأشباهه من حوله بين مطعون يتوجع، وموهون يتضرع، وموتور يتوعد!!

وقف الحاكم بأمره على منصة هائلة يحملها سبعون مليون رأس، ونظر بعين النسر إلى فرائسه السمان وهن آمنات في حمى القوانين، غافلات في ظلال المعاهدات؛ فثارت الشهوة في نفسه، وعصفت القوة في رأسه، وزأر زئير الأسد المسعور، وفغر فاه الجهنمي الأهرت عن وسائل المنايا الحمر والسود تضطرب في لعابه، وتصطخب على أنيابه؛ فجزعت البشرية، وريعت الديمقراطية، وخنست المدنية، وخرست عصبة الأمم، ووقفت حجج تشمبرلن أمام رغبات هتلر موقف المضخة الصغيرة أمام الحريق المهول، وأصبح العالم كله لأول مرة في تاريخ حياته يهذي في جهاته الأربع هذياناً واحداً من حمى واحدة: هي إعلان الحرب، وويلات الحرب، ونتائج الحرب!

إذن لم يبق لعلاج ابن آدم حيلة! فشرائع الله، ومذاهب الحكماء، ومراشد العقول، ومناهج التربية، لا تجد سبيلها إلى قلبه إلا حين تسكن الطبيعة فيه؛ فإذا ثارت به لسبب من الأسباب كان حاله كحال العواصف والزلازل والفيضانات والبراكين لا تعرف الأرصاد ولا المقاييس ولا الحواجز. وحينئذ لا ترى الشطئان الجميلة، ولا الأودية الممرعة، ولا المدن الفخمة، ولا الحضارة الرائعة!

منذ أسبوع تحركت طبيعة الإنسان الأصيلة في الدولتين الدكتاتوريتين على حين غرة، فوقع العالم كله في بحران من القلق على حضارته وسلامته؛ وحاول الكتاب بالبلاغة والحكمة، والساسة بالمنطق والحيلة، أن يدفعوا وقوع الكارثة، أو يؤخروا يوم القيامة، فما رجعوا بطائل. ولم يكن ذلك لأن الخلاف بين برلين وبراغ لا يدخل في نفوذ العقل، وإنما كان لأن الذئب متى صمم على افتراس الحمل بطل كل دليل وأَبْدعت كل حجة. وإذا انفجر البركان ودوَّت حُمَمُه وسال حميمه، فمن ذا الذي يقول للطبيعة: رويدك يا أَمَةَ الله! إن على السفوح وفوق السهول ملايين من عباد الله لهم حق الحياة وليس عليهم أن يموتوا ليتنفس فلكان من ضيقه في السماء، ويشتفي من غليله على الأرض؟

هذه أزهار الشباب الغضة في أوربا الجميلة تُنظم عقوداً وأكاليل لتذويها سَموم الحرب في غير ذِياد عن حرمة حق، ولا جهاد في سبيل مبدأ. فهل درى هتلر وصاحبه أن كل زهرة من هذه الزهرات بهجة بيت وسعادة أسرة؟

إن السلام العالمي يحتضر الآن بين قرع النواقيس وصلاة الرهبان ودعاء الآباء وبكاء الأمهات، والفكر الإنساني ينظر خزيان إلى كبره وهو يتطامن، وإلى جهده وهو ينهار. فهل استطاع حماة السلم وأساته أن يحفظوه ومن ورائهم كل حي يطلب الحياة، وكل ضعيف يرهب الموت، وكل فتاة تنشد الحب، وكل أم تلعن الحرب، وكل رافه يريد الطمأنينة؟ ماذا يصنع الطب إذا انتشر الوباء، وماذا ينفع الكوخ إذا عصفت الأنواء، وماذا تغني المذاهب والقوانين والنظم إذا عارضت هوى الطبيعة؟

لا جرم أن الحرب سلاح من أسلحة الطبيعة تدرأ به عن نفسها الفضول والخمود والوهن؛ فهي نوع من التشذيب والتطهير والتنقية تصلح عليه الدنيا، ويتجدد به الوجود. والديمقراطية نظام من نظم الناس أقاموه على الحرية والمساواة، ودعموه بالفلسفة والقانون، ونشروه بالأدب والفن، وقرنوه بالسلام والأمن؛ وفي كل أولئك كفكفة لسلطان الطبيعة، فهي تحاربه بضده كما تحارب الحياة بالموت، والخير بالشر، والجِدَّة بالبلى، فتسلط عليه الطغيان المطلق في بعض الأمم، فيخضد من شوكته، ويقلل من هيبته، حتى يشك الناس في أثره وغناه. فالدكتاتورية إذن هي نكسة الداء الحيواني في الإنسان المهذب. تعود به إلى حمى الشهوة وكَلَب الوحشية فلا يفهم غير لغة السباع، ولا يخرج من النزاع إلا بالصراع.

فمن زعم أن السلم العالمي تحفظه عصبة الأمم أو تحالف الدول أو تقدم الحضارة، فقد أحسن الظن بالإنسان إلى حد الغفلة، وأساء الفهم للطبيعة إلى حد الجهالة. إنما

يحفظ السلام السلاحُ الإيجابي وهو القوة. وهذا السلام لا يمكن أن يكون إلا نسبياً ووقتياً بالضرورة؛ فإن القوى إذا تكافأت تساقطت، وإذا تفاوتت كان هناك الآكل والمأكول والغانم والغارم. وهكذا قضى الله على الحياة أن تكون دُولة بين الفساد والكون: تبني جانباً بهدم جانب، وتوجد حياً من عدم حي، وترفع دولة على أنقاض دولة. ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض.

أحمد حسن الزيات

في الطريق إلى مؤتمر المستشرقين

من القاهرة إلى بروكسل

للدكتور عبد الوهاب عزام

- 3 -

بنيتي العزيزة ميّة

لم أجد قبل اليوم فراغاً لأحدثك عن مشاهدي في السفر إلى بروكسل، ولولا وعد سبق في رسالتي إلى بثينة لوجدت من مشاغلي عذراً وأخرت الكتابة حيناً.

بلغنا جنوة ظهر الأحد 25 جمادى الآخرة (21 أغسطس) فبدت المدينة مطلة على خليجها بين أمواج البحر وقمة الجبل. وما راقني مرآها ولا راعني، ولكني حينما دخلتها رأيت مدينة نظيفة الأبنية فسيحة الطرق رفيعة الأبنية يلفت الوافد إليها ضخامة البناء ورفعته، لها على البحر شارع طويل تفضي إليه شوارع أخرى ذات بهاء وضخامة ولن أحدثك عن شيء في هذه المدينة إلا شيئاً واحداً لا يخطر ببالك أني أحدثك عنه: سمعنا ونحن على الباخرة أن مقبرة جنوة ومقبرة ميلانو جديرتان بالزيارة، ثم نزلنا إلى المدينة مزمعين أن نبيت بها لنستجمَّ ونستعدَّ للمرحلة الثانية. وغادرنا الفندق في العشيِّ نجول في الأرجاء، وبدا لنا أن نسأل عن طريق المقبرة.

ثم عنَّ لنا أن نركب تراما فنذهب معه إلى منتهى مسيره لنرى بعض جوانب البلد! ركبنا فسألنا العاملُ: إلى أين؟ قلنا: إلى نهاية الطريق. وبلغ الترام أطراف البلد وما زال حافلاً بالراكبين. فقلنا: إن للمكان الذي نسير إليه لشأنا. وإلا فما بال الناس لا ينزلون وقد أوشكنا أن نخرج من عمران المدينة؟ ثم بلغ الترام غايته، فإذا الناس يتجهون وجهة واحدة يؤمون باباً رفيعاً واسعاً. قلنا: أتراها مقبرة المدينة؟ ورأينا على جانبي الطريق باعة الأزهار، وأبصرنا كثيراً من الداخلين يحملون طاقات من الزهر فغلب على ظنّنا أنها المقبرة. ثم ولجنا الباب فإذا هالات من الأزهار مسندة إلى الجدار، ثم ولجنا باباً آخر فإذا مدينة الأموات: ماذا عسى أن أصف من مقبرة جنوة الهائلة؟ أصف لك بعض ما وعيت منها، والذي وعيته بعض ما رأيت. ولم أر المقبرة كلها. .

هناك جبل عال بنيت المقبرة في حضيضه وسفحه؛ في الحضيض ساحتان متصلتان بينهما جدار، يحيط بكل ساحة منهما أروقة عالية سميكة الجدُر رفيعة العمد. فأما الساحة فقد نظمت فيها صفوف كثيرة من القبور تحنو عليها الأشجار وتعطف عليها الرياحين - قبور بيضاء تختلف أشكالها وما عليها من تماثيل وصور، ويجمعها معنى واحد هو الفناء، بل معنيان: الموت الهامد تحتها، والحسرات المرفرفة فوقها.

وأما الأروقة ففي أرضها بلاطات نقشت عليها أسماء وتواريخ دلت على أن تحتها أجساماً وتواريخ، وفي صدرها صفوف من النواويس الحجرية تتخلل الجدران بعضها فوق بعض، قد انطبقت على أسرارها ونطقت بمواعظها وعبرها؛ وبجانب الجدران نواويس أخرى من الرخام والمرمر افتن النحاتون في تشكيلها ونقشها وإقامة التماثيل عليها - تماثيل الموتى والقديسين والملائكة، وتماثيل لآمال الناس وآلامهم على ظهر هذه الأرض بين المولد والممات. وكأنما يمشي الزائر في متحف ازدحمت فيه التماثيل والصور وبدائع الفنون. وإلى هذا وذاك قناديل معلقة تبص فيها الفتائل أو فوانيس صغيرة يخفق فيها الشمع: مناظر إذا تقصَّاها المعتبر أو اللاهي أمضى نهاره دون أن يحصيها.

فإذا صعد الزائر على السفح وجد قبوراً أضخم أو حُجَراً تلوح من أبوابها القبور والتماثيل، أو دهاليز نظمت فيها قبور وهياكل وكنائس في أطراف هذه الصفوف؛ ثم إذا صعد رأى نظاماً آخر من القبور والفنون حتى يملَّ أو يتعب فيهبط وهو يصعَّد الطرف في هذا الجلال والجمال ويرجع أدراجه إلى الحضيض ويعود إلى طريقته في

الساحة أو تحت الأروقة حتى يخرج وهو يتلفت ليتزود من هذا الجمال في الموت والبقاء في الفناء
جُلنا في المقبرة تسير أفكارنا أكثر مما تسير أرجلنا، وتتلفت قلوبنا أكثر مما تتلفت عيوننا. خرجت قائلاً: ليت شعري أهنا موت أم حياة؟
وأصبحنا يوم الاثنين مبكرين إلى المحطة فركبنا القطار إلى ميلانو نجتاز طريقاً أخضر ممرعاً كثير الزرع والشجر والعشب حتى بلغنا المدينة بعد ثلاث ساعات.
نزلنا بميلانو فأمضينا بقية النهار نجول في أرجائها، ولم نر من مشاهدها العظيمة القديمة إلا الكنيسة الكبرى، وهي من عجائب الأبنية تبدو في حلة من الرخام لم تعطل قطعة فيه من نقش أو صورة أو تمثال، وتبدو شرفاتها ومناراتها في صنعة لطيفة دقيقة كأنما يستقبل
رائيها دوحة من الرخام. وليس باطن الكنيسة أقل فخامة ورونقاً من ظاهرها، وهي فيما سمعت من آثار القرن الخامس عشر. برحنا ميلانو صباح الثلاثاء نؤم سويسرة، فلما أجزنا حدودها أحسسنا تغير الأرض شيئاً فشيئاً حتى تغلغلنا في مناظرها الساحرة الرائعة: أودية وبحيرات تطل عليها جبال شاهقة ترقي العين فيها معجبة بالخضرة الناضرة على سفوحها، ثم ترقى فترى الجبل قد انتطق بالسحاب وأوفت قمته عليه، أو ترى القمة قد تغلغلت في السحب فاختفت فيها، وترى زرقة السماء بين السحب وذرى الجبال كزرقة البحيرات في الحضيض فتُسِف العين متمهلة على السفح كأنها تشفق أن تزل إلى الأودية العميقة والبحيرات، حتى تبلغ الماء وكأنما عادت به إلى صفاء السماء وزرقتها. وترين الماء مندفقاً على السفح فإذا حاولتِ أن تعرفي أوله رأيته هابطاً من السحاب كأن السحاب يسيل أنهاراً لا أمطاراً.
وقصارى القول في هذا الجمال الهائل أنه صلة السماء بالأرض، وأنه حيرة الطرف، ومتعة النفس، وروعة القلب، ومسرح الفكر، وتجلى الخالق في جمال خليقته وجلالها في مشاهد لا ينتهي أولها إلى آخر.
ما أعجب هذا مجالاً لشاعر مُلهَم أو كاتب مبين لو اتسع الوقت وأمهل السفر وانفرجت المشاغل عن ساعة يستملي فيها القلم الوجدان والخيال!
بلغنا لوسرن في ثلاث ساعات.
ولعلي أصل الحديث من بعد، وإن لم أجد فراغاً للتفصيل والتطويل لأجعله حديثاً ممتعاً شائقاً.
تحيتي ودعائي لك وللأخوات والأسرة كلها.
(بروكسل 9 سبتمبر سنة 1938)
عبد الوهاب عزام

على هامش أبحاث التيسير

ملاحظات انتقادية على قواعد اللغة العربية

للأستاذ أبى خلدون ساطع الحصري بك

مدير دار الآثار العراقية

- 2 -

أبحاث العلامات

إن سلسلة (قواعد اللغة العربية) تحتوي - في أقسامها الثانوية - على عدة أبحاث في (العلامات)، فتذكر سلسلة طويلة من (العلامات) التي (تميز) كلاً من الاسم والفعل والحرف، كما تشرح العلامات التي تميز كلاً من الماضي والمضارع والأمر.
وتذكر تسع علامات للاسم، وخمس علامات للفعل بوجه عام، وعلامتين لكل من الماضي والمضارع والأمر بوجه خاص؛ وأما فيما يخص (الحرف) فأنها تقول في صدده (ليس للحرف علامات تميزه، فعلامته ألا يقبل شيئاً من علامات الاسم والفعل).
إنها تعتبر - مثلاً - (قبول التنوين من علامات الاسم) (وقبول ضمير الرفع المتصل) من علامات الفعل، (وقبول تاء التأنيث الساكنة) من علامات الفعل الماضي، و (صحة الوقوع بعد لم) من علامات فعل المضارع. .
كل من ينظر في هذه الأبحاث، نظرة فاحصة عارية عن تأثير الألفة المخدرة، يضطر إلى التسليم بأنها خالية من الفائدة، ومخالفة للمنطق في وقت واحد. .
من الأمور البديهية أن مفهوم (ضمير الرفع المتصل) الذي يلحق الفعل - مثلاً - أعقد

بطبيعة الحال من مفهوم (الفعل) نفسه، ومعرفته أصعب من معرفة الفعل بدرجات؛ فلا يجوز أن نعتبره واسطة لتمييز الفعل من غيره من الكلمات بوجه من الوجوه؛ ولا سيما أن (قبول أو عدم قبول ضمير الرفع المتصل) ليس من الأمور التي يمكن معرفتها رأساً واختبارها مباشرة. فاعتبار (القبول أو عدم القبول) علامة للفعلية أو عدم الفعلية يخالف أبسط قواعد المنطق مخالفة كلية. .

كذلك الأمر في سائر العلامات. فأعتقد أنه يتحتم حذف جميع الأبحاث المتعلقة بالعلامات

التي ذكرناها آنفاً، على أن يفرغ البعض منها على (شكل قاعدة) يتعلمها الأطفال: (للعمل) لا (للتمييز):

لا يجوز لنا أن نقول: (دخول قد على الكلمة يدل على أنها فعل)، بل يجب علينا أن نقول: (لفظة قد لا تدخل إلا على الأفعال). .

لا يجوز لنا أن نقول: (صحة وقوع الكلمة بعد لم تدل على أنها فعل مضارع)، بل يجب أن نقول: (إن لفظة لم تدل على النفي؛ غير أنها لا تستعمل إلا في المضارع؛ فيجوز أن يقال لم يكتب، ولا يجوز أن يقال لم كَتب).

وبهذه الصورة تتحول هذه الأبحاث إلى قواعد عملية مفيدة. وأما الاستمرار على استعراض الأمور التي ذكرناها آنفاً كعلامات تساعد على تمييز أنواع الكلمات فهو بمثابة الخروج على المنطق بصورة صريحة. .

أما دخول مثل هذه الأبحاث في كتب القواعد، بالرغم من مخالفتها الصريحة للمنطق، فأعتقد أنه لا يمكن أن يعلل إلا بالرجوع إلى السبب الأصلي الذي ذكرته آنفاً. .

فالأعجمي الذي يتعلم العربية، دون أن ينشأ عليها، والذي يستطيع أن يقرأ الكلمات دون أن يفهم معانيها، قد يستفيد من مثل هذه الأبحاث في تمييز أنواع الكلمات حسب بعض العلامات الظاهرية التي ترافقها؛ فإذا رأى كلمة لا يعرف معناها، ولاحظ أنها منونة استطاع أن يقول إنها (من الأسماء لأنها منونة)، كما أنه إذا رأى كلمة غريبة عنه ولاحظ أنها مسبوقة بلفظة قد، قال (هذه من الأفعال، لأنها قبلت دخول لفظة قد عليها).

فإذا جاز لعلماء اللغة القدماء أن يسلكوا هذا المسلك، متوخين بعض الفوائد العملية التي يستطيع أن يجنيها منها بعض الأعجام. . فلا يجوز لمؤلفي القواعد ومعلمي اللغة في هذا العصر أن يشوشوا الأذهان بمثل هذه الأبحاث الغريبة. .

4 - تصنيف الكلمات والجمل

قبل أن أختم هذه الملاحظات الانتقادية، أرى أن ألفت الأنظار إلى مآخذ الخطة التي اعتادها علماء اللغة العربية في أمر تصنيف الجمل والكلمات:

1 - من المعلوم أن الكلمات تقسم - في قواعد اللغة العربية - إلى ثلاثة أنواع: اسم، وفعل، وحرف؛ في حين أنها تقسم في سائر لغات العالم إلى أنواع كثيرة يبلغ عددها ثلاثة أمثال ذلك.

فيجدر بنا أن نتساءل - تجاه هذا الفرق العظيم - فيما إذا كان هناك مبررات فعلية وأسباب حقيقية تستوجب التباعد إلى هذا الحد بين العربية وبين سائر اللغات من وجهة تصنيف الكلمات.

إذا أنعمنا النظر في المعاني التي يقصدها اللغويون من كلمتي (الاسم والفعل) وجدنا أن علماء العربية يُضيقون (مفهوم الفعل) بعض التضييق، غير أنهم يوسعون (مفهوم الاسم) توسيعاً كبيراً. . .

إنهم يحددون مفهوم الفعل بحدود ضيقة جداً، لأنهم لا يرون (الدلالة على الحدث والعمل) كافية لتعريف الفعل، بل يشترطون فيه (الدلالة على حصول العمل في زمن خاص) ولهذا السبب لا يدخلون المصدر واسم الفاعل واسم المفعول في عداد الأفعال. . .

وأما مفهوم الاسم، فإنهم يوسعونه بدون حساب، ويدخلون فيه كثيراً من الكلمات التي تعتبر في سائر اللغات أنواعاً قائمة بنفسها. ولا نغالي إذا قلنا إنهم يدخلون في مفهوم الاسم كل ما يبقى خارجاً عن نطاق الفعل والحرف. فالاسم الذي يتصورونه يشبه كشكولاً يحتوي على أشياء شتى - من اسم العلم إلى الصفة، ومن اسم الموصول إلى

الضمير، ومن اسم الإشارة إلى المصدر. . فيصبح من المتعذر على المتعلم أن يكوّن في ذهنه مفهوماً واضحاً عن الاسم، كما يتعسر على المؤلفين أنفسهم أن يحددوا مفهومه ويعينوا معناه بالدقة التي تتطلبها التعريفات العلمية. .

فإذا استعرضنا التعريفات المسطورة في (كتب قواعد اللغة العربية) الرسمية عن (الاسم)، وجدناها لم تكن من التعريفات الجامعة المانعة، وأن الغموض والنقص والارتباك تسودها بكل وضوح وجلاء. . .

- :لأننا نجد في الجزء الثاني - الخاص بالدراسة الابتدائية - التعريف التالي من الأمور البديهية أن (ص1) (. . .اسم لإنسان أو حيوان أو نبات أو جماد . . .) التعريف لا يشمل - من الوجهة المنطقية - الصفات والأعداد، ويبقى أضيق من أن يتسع للاسم الموصول ولاسم الإشارة بطبيعة الحال. . .

- :وأما في الجزء الثالث، فنجد تعريفاً يحاول إكمال التعريف الأول وتصحيحه بقيد جديد ص) (. . .الاسم هو الذي يدل على الإنسان أو الجماد أو النبات أو الحيوان وغير ذلك) ولا حاجة للبيان أن تعبير (وغير ذلك) الذي أضيف إلى التعريف بهذه الصورة لا يخلو (1 من الغموض، ولا يحدد الأمر بوجه من الوجوه.

وأما إذا راجعنا كتاب الدراسة الثانوية، فنجد فيه تعريفاً آخر يختلف عن التعريفين السابقين اختلافاً كبيراً:

كما نجد بعد هذا (ص1) (الاسم ما دل بنفسه على معنىً تام ليس الزمن جزءاً منه) التعريف بعض التفاصيل الإيضاحية (ويكون: 1 - لإنسان. . . 2 - ولحيوان. . . 3 - ولنبات 4 - ولجماد. . . 5 - كما يكون لمعنى يفهم ويتصور ولا يحس، مثل الذكاء، الحكمة، الفهم (ص1).

إنني أعتقد أن هذا التعريف أيضاً لا يمكن أن يشمل - منطقياً - الضمائر والأسماء الموصولة بالرغم من كثرة المفاهيم المجردة التي تقيّده وتعقّده. . .

وتأييداً لذلك ألفت الأنظار إلى الأمثلة المذكورة خلال التفاصيل التي تلي هذا التعريف، فإنها لا تحتوي على مثال واحد من نوع الضمير واسم الإشارة والاسم الموصول. . .

هذا ولا يستطيع أحد أن يدعي بأن كلمات (الذي، ذلك، نا، كما. . .) تدل على معنى تام قائم بنفسه. . . كما أنه ليس في وسع أحد أن يسلم بأن الزمان ليس جزءاً من مدلول كلمات (الماضي، الآني، الأمس، السنة، الشتاء، أسرع، أقدم. . .).

يظهر جلياً من جميع هذه الملاحظات أن علماء اللغة لم يوفقوا لإيجاد تعريف يشمل جميع الكلمات التي اعتبروها من أقسام الأسماء. . .

فليس من المعقول إذن أن نبقى متمسكين بهذا التقسيم القديم؛ بل من الأوفق أن نعيد النظر فيه على أساس تكثير أنواع الكلمات، أسوة بما يفعله لغويو العالم. . . ولا شك في أن ذلك يكون أقرب إلى مقتضيات العقل والمنطق، وأضمن لتسهيل التفهيم والتعليم.

أنا لا أحاول وضع خطة تفصيلية لهذا التقسيم الجديد، بل أكتفي ببيان الحاجة إليه، وأذكر بعض الأمثلة لتوضيح رأيي في هذا الأمر وتأييده. .

(أ) أن معنى الاسم - في حد ذاته - يختلف عن معنى الصفة اختلافاً بيناً؛ لأن الاسم يدل عادة على الأشياء نفسها، في حين أن الصفة تدل على أوصاف الأشياء وحالاتها. والصفات تقوم بأدوار مهمة في الحديث والكتابة تختلف عن أدوار الأسماء الاعتيادية اختلافاً كبيراً. فلا مبرر لاعتبار الاسم والصفة من نوع واحد خلافاً للخطة المتبعة في تصنيف الكلمات في سائر اللغات.

ومما يجب أن يلاحظ في هذا الصدد إن الاسم والصفة يختلفان في اللغة العربية من وجهة بعض القواعد أيضاً: فإن الاسم - بالمعنى الخاص الذي أشرنا إليه آنفاً - يكون مذكراً أو مؤنثاً في حد ذاته، وأما الصفة فلا تكون مذكرة أو مؤنثة في ذاتها؛ بل تقبل التذكير والتأنيث بطبيعتها، فتذكر أو تؤنث حسب جنس الأسماء التي تصفها. . .

أعتقد أن هذه الملاحظات كافية لاعتبار (الصفة) قسماً خاصاً من أقسام الكلام مستقلاً عن الاسم؛ ولا شك في أن ذلك يكون أوفق وأقرب لمقتضيات العلم والتعليم في وقت واحد.

(ب) إن مدلول الضمير أيضاً يختلف عن مدلول الاسم الاعتيادي اختلافاً واضحاً، ولا

سيما الضمائر المتصلة، فإنها تتباعد عن مدلول الأسماء تباعدً كلياً
فإذا احتفظنا بمبدأ تقسيم الاسم إلى ثلاثة أقسام، وفكرنا في القسم الذي يجب أن يدخل فيه (المتصل) من الضمائر وجدنا أنه أقرب إلى مدلول الحرف من مدلول الاسم. وما دمنا نعرف الاسم بقولنا (كلمة تدل بنفسها على معنى تام) ونعرّف الحرف بقولنا (كلمة لا يظهر معناها إلا إذا ذكرت مع غيرها. . .) فلا نستطيع أن ندخل الضمير المتصل - دون أن نخرج عن جادة المنطق - في عداد الأسماء، بل نضطر إلى اعتباره من جملة الحروف. . .
ومهما استرسلنا في سلوك طرق التأويل الملتوية، لا نستطيع أن نجد مبرراً منطقياً لاعتبار لفظة (نا) من الأسماء مع اعتبار لفظة (لا) من الحروف، أو (ها) من الأسماء مع اعتبار (ما) من الحروف. . .
وإذا استعرضنا بعض التعبيرات المتداولة مثل (عنه، منك، فينا، بها، لكم. . .) وأنعمنا النظر في مدلول كل جزء من جزئي هذه التعبيرات على ضوء التعريفات الموضوعة لكل من (الاسم والحرف) لا نستطيع أن نجد أدلة منطقية على أن الجزء الأول منها: (عن، من، في، بِ، لَ) يجب أن يعتبر من جملة الحروف، والجزء الثاني منها: (هُ، كَ، نا، ها، كم) يجب أن يعتبر من الأسماء. . .
فمن الأوفق - من جميع الوجوه - أن نعتبر الضمير قسماً مستقلاً من أقسام الكلام، لا نوعاً من أنواع الاسم.
2 - من المعلوم أن علماء اللغة يحصرون الفعل في الماضي والمضارع والأمر، لأنهم يعرّفونه بقولهم: (ما يدل على حصول عمل وحدث في زمن خاص) ويدعون أن اسم الفاعل لا يتضمن (الحدوث في زمن خاص) في حين أن الأمر يعني (طلب العمل بعد زمن التكلم).
إنني أرى في كل ذلك شيئاً من الجبر لطبائع الكلمات، لأن الأمر يدل - في حقيقة الحال - على (طلب العمل) فقط، ولا يدل على زمان العمل مباشرة.
لا شك في أن (الأمر) لا يمكن أن يعود إلى الماضي، والمأمور لا يمكن أن يعمل العمل الذي يؤمر به إلا بعد تلقيه، فيجوز لنا أن نقول بهذا الاعتبار: (إن الأمر يعود إلى المستقبل بطبيعة الحال).
غير أنه يجب أن نلاحظ على الدوام أن المعاني التي يستدل عليها من الكلمات والعبارات بنتيجة المحاكمات الذهنية شيء، والمعاني التي نفهمها منها مباشرة شيء آخر.
وإلا فإذا أردنا أن نسترسل في المحاكمات والتفسيرات استطعنا أن ندعي أن اسم الفاعل أيضاً لا يخلو من فكرة الزمن، كما أن اسم المفعول لا يختلف عنه في هذا الباب. فعندما يقال لنا (الطائر مجروح) نستدل من كلمة مجروح أن الطائر جرح قبلاً، وأن آثار الجرح لا تزال ظاهرة عليه. وعندما يقال لنا: (فلان نائم) نفهم من كلمة نائم أنه نام قبلاً، ولا يزال في حالة النوم. وعندما يقال لنا: (أنا ذاهب) نفهم من كلمة ذهب أن القائل يتأهب للذهاب.
ومن الغريب أن علماء اللغة العربية الذين يتناسون هذه الحقائق الواضحة يسترسلون في تأويلات غريبة لإظهار معاني الأزمنة المندمجة في أسماء الأفعال، فيقولون مثلاً: (آه) اسم فعل مضارع بمعنى (أتألم). و (هيهات) اسم فعل ماض بمعنى (بَعُد). و (هلُمَّ) اسم فعل أمر بمعنى (أقبل). . .
كل من ينعم النظر في هذه التعريفات والتقسيمات والتفسيرات الملتوية دون أن يبقى تحت تأثير الألفة المخدرة، يضطر إلى التسليم بأن كل ذلك يحتاج إلى التبديل والتصحيح، ويتطلب البحث عن تعريفات وتقسيمات جديدة.
3 - من المعلوم أن الجملة تقسم إلى نوعين: فعلية واسمية. ولكنا عندما ننظر إلى الأمور نظرة منطقية، يجب أن نفهم من تعبير (جملة فعلية) الجملة التي تحتوي على فعل، وبتعبير آخر: الجملة التي تعلمنا ما حدث وما يحدث؛ كما يجب أن نفهم من تعبير (جملة اسمية) الجملة التي لا تحتوي على فعل؛ وبتعبير آخر: الجملة التي تخبرنا عن أوصاف اسم من الأسماء وحالاته.
غير أن قواعد اللغة العربية لا تلتزم هذه التعريفات والمفهومات المنطقية بل تخالفها مخالفة كلية:

فإنها تعتبر الجملة (فعلية) عندما تبتدئ بفعل، و (اسمية) عندما تبتدئ باسم. ومعنى ذلك: - أنها لا تصنف الجمل حسب أنواع الكلمات التي تتألف منها، بل تصنفها حسب نوع الكلمة التي تبتدئ بها دون أن تلتفت إلى بقية كلماتها.

ونظراً لهذه القواعد الرسمية فإن عبارة (نام الولد) يجب أن تعتبر جملة فعلية، في حين أن عبارة (الولد نام) يجب أن تعتبر جملة اسمية، مع أن كلتيهما تتألفان من نفس الكلمات، وتؤديان إلى نفس المعنى.

إنني أعتقد أن تقسيم الجملة على هذا النمط الغريب نتيجة خطأ منطقي، وقع فيه علماء اللغة - في عصور التدوين الأولي - بسبب اهتمامهم بالأوصاف الظاهرة أكثر من تفكيرهم في المعاني المفهومة. . كما شرحنا ذلك آنفاً.

وأما استمرار المؤلفين المعاصرين على التزام هذه الخطة العجيبة فلم أجد سبيلاً إلى تعليله إلا بتأثير (الألفة المخدرة) ونزعة التفادي من الخروج على التعاريف والتصانيف القديمة. .

ومما يجب أن نلاحظه في هذا الباب أن هناك أمراً آخر يزيد في غرابة نتائج هذين التعريفين، ويوسع المسافة بين المنطق والقواعد:

لقد عرّف علماء اللغة (الفاعل) - تحت تأثير النزعة التي ذكرناها آنفاً - بقولهم: (اسم مرفوع يتقدمه فعل). . فإذا تقدم الاسم على الفعل لا يترتب على ذلك - في عرفهم - تحول الجملة من فعلية إلى اسمية فحسب، بل يترتب على ذلك خروج الاسم من الفاعلية أيضاً. فعندما يقال (الولد نام) لا يرون مسوغاً لاعتبار كلمة الولد فاعلاً، نظراً لمخالفة ذلك
للتعريفات التي وضعوها. . .

وبما أن هناك (فعلاً) يتطلب فاعلاً، فإنهم يلتجئون إلى طرق التأويل الملتوية، فيقولون إن الفاعل لهذا الفعل ضمير مستتر، وأما الولد فما هو إلا مرجع هذا الضمير المستتر. وبتعبير آخر: يدعون إن الفاعل ليس (الولد) المذكور صراحة، وإنما هو ضمير مستتر يعود إلى الاسم المذكور. .

إنني أعتقد أن الإنسان لو قصد التعقيد والتشويش لغرض من الأغراض، لما استطاع أن يجد طريقة تصنيف وتفسير أكثر اعوجاجاً وأشد غرابة من تلك. . .

أفلم يحن بعد وقت الإقدام على التخلص من هذه المسالك الملتوية والرجوع إلى طرق المنطق والصواب؟

الخلاصة

إن الأمثلة الانتقادية التي استعرضتها في الأبحاث السالفة تبين بكل وضوح وجلاء أن (قواعد اللغة العربية) الرسمية مشوبة بنقائص كثيرة، من حيث الخطط المتبعة في التعريف والتصنيف والتبويب. . .

وأما الأسباب المولدة لهذه النقائص والشوائب، فتتلخص في تأثير نزعة أساسية، هي نزعة الاهتمام بالإعراب أكثر من الالتفات إلى المعنى، والاعتماد على العلامات المحسوسة أكثر من الاستناد إلى المعاني المفهومة.

هذه النزعة نشأت من الظروف الخاصة التي أحاطت بعلوم اللغة العربية في أدوار تكوينها الأولى، واستمرت بتأثير (روح المحافظة) التي سيطرت على أذهان علمائها في أدوارها الأخيرة. وباعدت بين قواعد اللغة وأحكام العقل والمنطق من جهة، وبينها وبين أسس التربية والتعليم من جهة أخرى.

ولذلك يجب علينا في موقفنا هذا أن نخرج على هذه النزعة التقليدية، ونعيد النظر في جميع ما ألفناه من أساليب التعريف والتصنيف والتبويب في قواعد اللغة العربية، فنتأمل فيها بنظرة علمية جديدة، مراعين مقتضيات العقل والمنطق من جهة، ومطالب التربية والتعليم من جهة أخرى. . حتى نتخلص على هذا الوجه من أغلاط الاجتهاد والاستنباط التي وقع فيها اللغويون القدماء. . .

هذا ما أود أن أدعو إليه العلماء والمؤلفين

أدعوهم إلى إعادة النظر في جميع مباحث الصرف والنحو، بنظرة محايدة خالية من تأثير الألفة المخدرة، مستنيرين بالطرق المتبعة في سائر اللغات، ومستندين إلى المعاني المفهومة من الجمل والعبارات. . .

وأعتقد أن الإصلاح على هذا الوجه يجب أن يكون أول خطوة من خطوات التيسير.
أبو خلدون
الدين والأخلاق
بين الجديد والقديم
لأحد أساطين الأدب الحديث
- 6 -
لا يدهش أحد إذا عددنا ما يسمى نزعة التجديد نزعة رجعية في أولها، فقد أوضحت أنها في مبادئها كانت رجوعاً إلى مبادئ الشعر العربي القديم من قلة تكلف الصناعة، ومن نظم الشعر بالعاطفة أو ذكري العاطفة بدل نظمه تعمداً بالصنعة، ومن البحث في خواطر النفس وشجونها وأشجانها والتعبير عنها بدل تنميق المعاني المتفق عليها.
فلا شك أن شعر الجاهليين وشعر شعراء صدر الإسلام كان أكثر نصيباً من هذه المبادئ من شعر الدولة العباسية، وإن كان لشعر الدولة العباسية روعة وفيه قوة، ولكن أروعه وأقواه ما قارب طريقة الأقدمين وكان أقل تعملاً في الصنعة، أو ما كانت صنعته أشبه بالطبيعة.
ولا يدهش أحداً إذا وجدنا أن هذه المبادئ يتفق فيها الشعر العربي القديم والشعر الأوربي الصحيح السليم، وأن الصناعات الغريبة في الشعر الأوربي ما ظهرت إلا في عصرنا هذا؛ ولكن كثيراً من أدبائنا الذين لا يعرفون اللغات يحكمون على الشعر الأوربي بشعر شعراء الرمزية أو شعراء الوعي الباطني وأمثالهم، وهي طوائف حديثة في أوربا كما هي حديثة في مصر، ويغر أدبائنا ما يقع فيه بعض المطلعين على الأدب الأوربي من النقل الحرفي لأساليب الكلام والمصطلحات، ولكل لغة خصائص في المصطلحات وأساليب الكلام إذا نقلت نقلاً حرفياً إلى لغة أخرى عدت معاني سخيفة.
ومن هنا نشأت فكرة من يقول إن معاني وأخيلة الأدب الأوربي لا تتفق والذوق العربي.
ولكن مما لا شك فيه أنه بالرغم من اختلاف خصائص العربية والإفرنجية، فإن الشعر الأوربي قبل أطواره الحديثة كان في مبادئه الأساسية قريباً من الشعر العربي القديم قبل غلبة الصناعة عليه غلبة قضت على تلك المبادئ.
ولا يدهش أحد إذا قلت إن كل نهضة تجديد دخلت الأدب والشعر العربي حديثاً كانت نزعة رجعية؛ فنهضة البارودي وشوقي وحافظ وحفني ناصف ومطران (في شعره الحديث)
كانت أيضاً نهضة رجعية بدأها الساعاتي وقواها البارودي ومن أتى بعده؛ وهي كانت نهضة رجعية لأنهم رجعوا بالشعر عن طريقة البهاء زهير وابن الفارض والبستي وابن نباتة المصري وابن النحاس وخليل الصفدي: طريقة الجناس الغالب والنكات، إلى طريقة الصنعة العالية القوية صنعة مسلم بن الوليد وأبي تمام وإضرابهما. وترى هذه الرجعية ظاهرة في شعر شوقي أعظم ظهور، فقد بدأ بمدح البهاء زهير في مقدمة الطبعة الأولى القديمة من الشوقيات وأسرف في مدحه. وترى شعر شوقي في صباه مما أثبته في الطبعة القديمة بعضه أشبه بشعر المتأخرين، وأظن أنه حذفه ولم يثبته في الطبعة الحديثة؛ ثم صار شعره يقترب من نسق فطاحل الدولة العباسية أمثال مسلم وأبي تمام والبحتري.
وكان منتهى أرب الشاعر قبل نهضة البارودي وشوقي وحافظ أن يكثر من الجناس وأنواع البديع حتى ليقال إن أحدهم أفنى عمره في صنع قصيدة بديعية كبيرة شحنها بما يقرأ طرداً وعكساً، وما يقرأ من أسفل ومن أعلى، وبالجناس وأنواعه، وأشباهه من المحسنات، فاحتال عليه أصدقاؤه وسرقوها منه فمات كمداً وراح ضحية الطرد والعكس وصريع الجناس. وكان الأدباء إذا أرادوا إن يستجيدوا بيتاً أنشدوا بيت ابن نباتة المصري، ولا أذكر كلماته بالضبط، ولكنه يمدح سلطان مدينة حماه في الشام فيقول: إن (حماه) (المدينة) علمتهم نعمى الممدوح حتى غدا كل منهم يحب (حماته) (أي أم زوجه). هذه هي (مفارقات) النكات العامية المصرية التي كانت تطرب الأدباء. أو قول البهاء زهير لمعشوقته إنه دعاها (ست) أي سيدة، لأنها ملكت جهاته (الست).
فرجوع البارودي وشوقي وحافظ إلى عصر أقدم من هذا العصر لا بد أن يسمى رجعية، وليست كل رجعية ذميمة.

والنزعة الحديثة إلى التجديد هي في الحقيقة تكملة النزعة الرجعية التي نشطها البارودي، فكانت نزعة التجديد نزعة تفضيل (مبادئ) الشعر العربي الأقدم من العباسي ومن العباسي ما يقارب ذلك الشعر. وقد شرحنا تلك المبادئ. والذي غطى على هذه الحقيقة أثر الأدب الأوربي، وفتحه أبواباً جديدة من أبواب القول، وشده أزر الخيال والفكر. وغطى على الحقيقة أكثر من كل ذلك تشعب نزعة التجديد إلى فروع جديدة بعيدة كالرمزية وغيرها.

ولكنا إذا نظرنا إلى هذه الفروع وجدنا أن كلاً منها مغالاة في مبدأ من تلك المبادئ كما فصلنا في المقال السابق؛ فالذين يريدون تغليب الوعي الباطن مثلاً إنما تفرعوا من مبدأ جعل الشعر بحثاً في صفات النفس وخواطرها وشجونها وأشجانها بدل ترديد معانٍ متفق ومصطلح عليها. ولا شك أن شعراء الجاهلية وصدر الإسلام كانوا ينظمون بالعاطفة أكثر من شعراء الدولة العباسية. ومعنى النظم بالعاطفة البحث في شجون النفس وأشجانها، فهذه الطائفة في نشأتها كانت رجوعاً إلى طريقة الشعر القديم، وإن كانت قد غالت محاكاة للنزعات الحديثة في الأدب الأوربي العصري. وبهذه الطريقة نستطيع أن نرد كل طائفة من طوائف وفروع نزعة التجديد إلى أصلين: أصل في الأدب العربي القديم غالت فيه، وأصل من محاكاة النزعات الحديثة في الأدب الأوربي العصري. فإذا تتبع الأستاذ الغمراوي الأسباب والعوامل التي أثرت في الأدب العربي الحديث وجد أنه لم تكن هناك مؤامرة على الدين والفضيلة نشأت عنها النزعة إلى التجديد؛ فإن تتبع الحوادث يُظْهِرُ كيف أن بعض أدباء المذهب القديم يقلبون (النتيجة) العارضة الثانوية المحدودة وهي الشذوذ والشطط فيجعلونها (سبب) نهضة التجديد كلها؛ وقد أوضحنا أن الشذوذ والشطط موجودان في كل عصر ومذهب وذكرنا شواهد وأمثلة.

وإذا نظرنا في تاريخ النزعات الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والأدبية وجدنا أنها كانت مصحوبة كلها أو أكثرها بشيء من الشطط؛ وهذا الشطط إما أن يكون متعمداً لمحاربة الجمود أو الوقوف، أو غير متعمد، بل تندفع إليه بعض النفوس قهراً. وقد لا يعرف الشطط ولا يميز من غير الشطط إلا بعد عصور طويلة تمحص فيها الأمور. ولو أن كل نزعة من النزعات البشرية رفضت كلها بسبب ما يصحبها من الشطط ما تغيرت الإنسانية. ومن الحقائق الثابتة أن بعض الخاصة كانوا في كل نزعة تجديد يخلطون بين مبادئ النزعة ومظاهرها؛ وبين ما يصحبها من الشطط، حتى كانوا يحسبون أن الجنس البشري مقضي عليه بسبب تلك النزعة. فالنزعة إلى الديمقراطية في أوربا في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر كانت مصحوبة بالشطط. وحسب بعض الخاصة أنه سيقضى على الإنسانية، وأن القيود والشرائع الاجتماعية مقضي عليها بالاضمحلال، فرفضوا النزعة بأجمعها بدل رفض الشطط وحده. وهذا هو ما حدث في نزعة الإصلاح الديني في أوربا في القرنين السادس عشر والسابع عشر، أو ما حدث في النزعة إلى تحرير الرقيق في أمريكا. ولعل الشطط الذي كان في رفض النزعة كلها كان يغفر الشطط الذي يصحبها ويهون أمره في نفوس أنصارها ويساعد على نجاحها.

ومما يشاهد أيضاً في حياة الأمم أن الفساد الكثير المألوف قد لا يثير من التسخط قدر ما يثيره الفساد القليل غير المألوف، وإن كان الأول أوخم عاقبة وأكثر ضرراً. والنوع الأول من الفساد هو كما في الأدب العربي من مجون وإباحية صقلهما الدهر واعتادهما القراء حتى صارا لا يثيران تسخطاً بل يُنْظَرُ إليهما كما يَنْظُرُ الأب إلى ابنه الكثير الدعابة واللعب فيلومه ولكنه يحن إليه ويعطف عليه وتزيده دعابته ولعبه حباً له.

ومن المشاهد أيضاً أن الأديب أو المفكر قد يدافع عن مذهب وهو يعمل على هدمه من غير عمد، أو يعمل على الأقل لإذاعة نقيضه بمؤلفاته وهو في بعضها يعمل لنقيض هذا النقيض. فشوقي الذي أطرى البهاء زهير في مقدمة الطبعة القديمة من الشوقيات، هو شوقي الذي عمل بشعره المتين الأخير للقضاء على طريقة البهاء زهير وإضرابه. والرافعي الذي يروج أشد مذاهب الأدب الأوربي الحديث تطرفاً وهو مبدأ الرمزية من غير قصد بتأليف (حديث القمر)، هو الرافعي الذي ينتقد الأدب الأوربي أشد انتقاد في مقالاته. وكم من أديب قريب العهد بالأدب لولا بعض كتب الرافعي ما احتذى هذا المذهب فيما كتب.

فالعقل أو الوعي الباطن قد يُمَوِّهُ على العقل الظاهر الناقد. أليس في بعض شعر الصوفيين من شعراء اللغة العربية شهوة مكتومة يبوح بها العقل الباطن بالرغم من صرف العقل الظاهر معناها إلى الذات الإلهية؟ وهذا مع أن أوصاف المحبوب لا تشير إلا إلى إنسان جميل وإن القول شهوة محض.

ولعل الأستاذ قد قرأ وصف النابغة الذبياني للمتجردة زوجة النعمان واطلع على ما فيها من وصف عورة المرأة وما هو أشد من أشد من وصف عورتها في قوله (وإذا. . . وإذا). نعم إن النابغة شاعر جاهلي، ولكن استشهاد الأفاضل الإجلاء من شيوخ الأدب والعلم بهذا الوصف ونشره في الكتب التي يعدونها للقراء ومنهم الفتيان والفتيات، يدل على أن العقل الناقد فيهم قدْسها عن أن هذا الوصف يخالف العرف والتقاليد والآداب الإسلامية.

وهؤلاء الأفاضل هم الذين يسخطون على وصف الغواني في لباس البحر وصفاً لا يبلغ مبلغ وصف العورة والفجر كما فعل النابغة وكما فعل كثير من أدباء العرب في العصور المختلفة احتذاء للنابغة حتى في عبارات وصفه.

على أن رجوع نزعة التجديد إلى طريقة النظم بالعاطفة أو بذكرى العاطفة، ومحاولة الإقلال من المغالاة بالصنعة العباسية ليس من جهل بفضل الأدب العربي في العصر العباسي، ولا من جهل بفطاحل شعرائه وأدبائه، ولكن هؤلاء الشعراء شغلوا بمدح الخلفاء والأمراء ووضعوا لهذا المدح أوضاعاً. وإذا قرأت أجزاء مختارات البارودي هالك نصيب باب المديح من تلك الأجزاء الأربعة، وهالك تردد المعاني في ذلك الباب؛ وهذا معنى ما أشير إليه من جمود المعاني والموضوعات وغلبة الصنعة على العاطفة النفسية، وذلك لا ينفي أن نصيب هذا العصر من التفكير وحرية القول كان عظيماً. ومما يؤسف له أن حرية القول كان أكثرها في المجون إلا عند بعض المفكرين من الشعراء. ولا ينفى أن تلك الصنعة التي ما لبثت أن تحجرت في أوضاع المديح كانت في أول أمرها تجديداً، ولكنها في المتأخرين ضاع التجديد فيها وتدلت إما إلى محاكاة عبارات ومعاني السابقين، وإما إلى ما رأينا من النكات اللفظية والجناس وأشباه من الأمور التي استغنى بها حتى عن روعة الأسلوب وفخامته، إلى أن جاء البارودي وحافظ وشوقي فعادوا إلى محاكاة أفخم أساليب العصر العباسي الأول. ثم جاءت نزعة المذهب الجديد وحاولت إحداث شيء من التجديد في أبواب القول ومعانيه وأخيلته، وفي طريقة بحثه للموضوعات بالرجوع إلى خواطر النفس وأحاسيسها. فإذا كان بعض أدبائها قد وصف في الأحايين خواطر لا يصح وصفها، فإنه أمر عارض لا يصح أن يكون عنواناً للمذهب، أو أن يفسر به المذهب؛ وهو على أي حال أهون مما في كتب الأدب القديم من وصف فُجْرٍ ومن مجون يقرؤه الفتيات والفتيان في مكتبات مدارسهم كل يوم حتى صغارهم الذين يكاد المرء يعدهم من الأطفال. فينشأ هؤلاء الأطفال على النفاق والبجح إذا ما لقنهم الملقنون أن الأدب الأوربي من آداب الرذيلة، وهم منغمسون في حمأة الرذيلة بسبب كتب الأدب العربي القديمة. أما ما يأخذه بعض كتاب المذهب القديم على المذهب الجديد من الولوع بشعر التأمل فهو أعجب العجب. وهم إنما يخلطون بين شعر التأمل وبين شعر متون وحواشي كتب الفلسفة، أو بين شعر التأمل وشعر تعليم الأولاد. فشعر التأمل في الحياة والنفس هو خلاصة النفس؛ وهو لا يختلف عن الشعر الذي يقال في وصف أحاسيس النفس في موضوعه ما دمت تحسُّ فيه العاطفة الشعرية. ولا يجوز الحط منه إلا إذا خلا من كل أثر للعاطفة النفسية؛ فليس شعر التأمل في المرتبة الثانية، وإلا أخرجنا أبا العلاء المعري والمتنبي من عدة الشعراء وأخرجنا أجود ما في شكسبير. وقد فرق الأدب الأوربي بين شعر التأمل وبين شعر متون الفلسفة، كما فرّق بين شعر التأمل والشعر التعليمي في الأسماء؛ فلتراجع هذه الأسماء في مصادرها.

(قارئ)

عود على بدء

بين الغرب والشرق

للدكتور إسماعيل أحمد أدهم

كان يرى الأستاذ فليكس فارس رجحاناً لطابع الشرق الغيبي على قالب ثقافة الغرب الأثباتية. ومرد هذا الرجحان كما ظهر لنا من مناقشة كلامه اعتقاده بقانون الرجعى، وبأن لهذا الشرق من كيانه نافذة يتطلع منها إلى الحياة، هي نافذة فطرته الموروثة، فمنها يستقبل النور، ومنها يستقبل النسمات لأنفاسه. . وفطرة الشرق الموروثة على زعمه قائمة على الإيمان بالغيب. ونحن نرى ما يعبر عنه بالفطرة الموروثة هو التراث الشعبي لهذا الشرق والثقافة التقليدية له. وهو شيء كما قلنا غير فطرة الشرق وروحه، لأن الفطرة شيء مجرد يظهر في تاريخ الشعب وفي ثقافاته المتعاقبة من حيث يحتضن ثقافة الشعب التقليدية. إذاً من الخطأ من الناحية العلمية ما يقوله مناظرنا الفاضل الأستاذ فليكس فارس من أن فطرة شعوب الشرق هي الحالة الغيبية. والصحيح أن يقول إن طابع ثقافة الشرق التقليدية هو غيبي.

ولا شك أن طابع هذه الثقافة التقليدية ممكن تغييره بالطابع اليقيني، ولكن هذا التغيير وقف على العوامل والظروف التي تجد طريقها إلى محيط هذا الشرق. فنحن نعلم بأن كينونة الإنسان وقف كما قلنا في المقال السابق على مجموع الصلات المتبادلة بين المؤثرات المختلفة التي يختص بها المحيط الاجتماعي والبيئة الطبيعية من جهة، والإنسان من جهة أخرى؛ فإذا ما تغايرت المؤثرات في المحيط الاجتماعي فتبعاً لهل يتغاير منتوج الصلات القائمة بينها وبين البيئة الطبيعية حتى تحوز من المكافأة ما يتوافق مع ما أستجد من المؤثرات. ومثل هذا التغاير الخارجي يؤدي إلى تغير في الأفكار والسلوك الاجتماعي والشعور الذاتي في الجماعة البشرية. . .

وأظن أن مناظري مهما حاول أن يتعسف فلا يساعده المنطق والعلم أن ينال من صحة هذه المقررات الأولية.

وإذن يسقط السبب الوحيد الذي يرجع إليه مناظرنا في إيمانه بتفوق ثقافة الشرق الغيبية.

ولنا أن ننظر مع ذلك في حقيقة الاتجاه الغيبي في المجموع البشري كحالة طبيعية تمر بها الجماعات في تطورها التاريخي وارتقائها الطبيعي، مجردة عن تلك الحالات التي تقيمها اليوم في كيان المجتمع العربي على وجه عام، والمصري على وجه خاص. وسنجد أن الحالة الغيبية مبعثها الجهل بأسباب الأشياء الطبيعية وعللها الكونية، فيجنح العقل إلى ما وراء الطبيعة والكون محاولاً أن يستنزل منها تفسيرات وتعليلات للحالات التي يخلص بها من حياته في العالم المنظور. وأظن أن أحسن ما يمكن أن أقدمه لمناظري الفاضل تاريخ النزاع بين اللاهوت والعلم، ففي كل صفحة من صفحات هذا التاريخ يقع على ما يؤيد فكرتنا.

يقول الأستاذ (بيتي كروزيار):

(لقد كف الناس عن القول بأن المذنبات نذر إلهية عندما عرفوا أسباب ظهورها وعللوا وجودها. وكفوا عن القول بأن الصواعق نتيجة غضب إلهي عندما عرفوا حقيقة الكهربائية الجوية، وعندما استكشف (فرنكلين) مانعته المشهورة. ورجعوا عن القول بأن الجنون والمس عائد إلى أعمال السحرة والمشعوذين وأنصار الشياطين عندما دلهم الطب على أسبابها العصبية. ورفضوا الاعتقاد بأن اللغات منشؤها بابل عندما وضعت قواعد مقارنة اللغات).

نعم لقد كف الناس في العالم المتمدن عن كل هذا، وآمنوا بسنة (كُنْت) من أن الحوادث العالمية والظاهرات الطبيعية لا بد أن تعود إلى سبب طبيعي، وأنه من المستطاع تعليلها تعليلاً علمياً مبناه العلم الطبيعي. من ذلك اليوم انهار قائم اليقين بما بعد الطبيعة للإفصاح عن حقيقة الظاهرات الطبيعية، وكان نتيجة ذلك أن خلص العالم المتمدن بعقلية وثقافة جديدتين طابعهما يقيني إثباتي. ونحن أن كنا نقول باستحالة الأخذ بالعلم الأوربي مع الاحتفاظ بالثقافة الشرقية من حيث أن طابعها غيبي، فذلك مرده أن العلم الأوربي قائم على عقيدة أولية في إمكان الكشف عن سبب طبيعي لكل الحوادث العالمية والظاهرات الطبيعية.

6 - يظهر أن المناظر الفاضل حين أراد أن يرد على القول بوجود أصل فرعوني في ثقافة مصر التقليدية، تعسف إلى حد أن خرج على الأوليات المعروفة في حقائق الاجتماع وعلم تكون الشعوب. وإلا فليفسر لنا معنى سخريته من هذه الأوليات؟

يقول المناظر الفاضل:

أما أن يعد المناظر (يعنيني بذلك) طريقة استغلال الأرض فطرة (لم نقل فطرة وإنما) كل ما قلناه ثقافة تقليدية أو تراث للشعب، فإذا صحح الكلام على هذا الوجه يستقيم) فذلك مما لا يوافقه عليه أحد - لماذا؟ - لأن المسألة هنا تتعلق بتطور في أساليب الصناعة. ولو كان الأمر كذلك لكان كل مرتد غير القميص الأزرق، وكل حارث بآلة (حديثة، وكل مستبدل (شادوقاً) (بطلمبة) فاقداً للأصل الفرعوني في ثقافته التقليدية.

وهذه لعمري إحدى أطاريف الكلام في مناظرتنا. ومنحى الطرافة أن يحمل المناظر الحقيقية على وضع يسخر منه!

نعم أيها الصديق، إن ما تظنه موضعاً للسخرية حقيقة واقعة. وإذا أردت السبب فإننا نسوقه بكل بساطة قائلين:

إن منحنى الحياة المعاشية التي يحياها الإنسان لهل أثر في تحديد مشاعره وتوجيه عقليته وتكوين ثقافته، من حيث أن الحياة المعاشية تقيم جواً طبيعياً واجتماعياً يعيش فيه الإنسان، وإلا فما الفرق بين ثقافة إنسان يحيا حياة رعي وصيد، وحياة إنسان يحيا حياة زراعة، وحياة إنسان يحيا حياة صناعية؟

لا أظن أن المناظر الفاضل يتعسف إلى الحد الذي ينكر الفرق الثقافي بين هؤلاء وأثر حياتهم المعاشية في تكوين ثقافاتهم إلا ويخرج عن الأوليات المعروفة في علم الاقتصاد والاجتماع. وهو إن شاء أن ينكر فلسنا نمنعه. ولكن ليبين لنا إلى أي شيء يستند حتى نناقشه على أساسه؟!

كذلك إنكار المناظر أن تكون التقاليد التي احتفظ بها المصريون من العهد الفرعوني دليلاً على ظهور الدين الإسلامي في مصر على الدين الفرعوني فلا أظن أن منطقه أسعفه في إنكاره، لأنه يعترف ضمناً بهذه الحقيقة في اعتراضه بقوله:

على أن ما تبقى من التقاليد يعد بدعاً لا يزال الدين يعمل على اقتلاعها من المجتمع) فكأن هناك تقاليد تبقت من العهد الفرعوني وتسربت إلى الدين (لخيره وسلامة إيمانه الإسلامي

في مصر ولونته بلون محلي. أما أن الدين يعمل على اقتلاعها لخير المجتمع وسلامته فليس ذلك من شأن الباحث المستقري. وله أن ينظر إليها إذا ما نجح الدين في اقتلاعها وأصبحت حقيقة ملموسة.

7 - قلنا إن لمصر ثقافتها التقليدية التي تتميز بها عن جاراتها من بلدان الشرق العربي. غير أن المناظر وإن اعترف معنا بأن للمميزات الإقليمية أثراً على ثقافة الأمم اعتبر أن لكل أمم الشرق العربي ثقافة عامة شاملة، ومن هنا اعترض علينا وقال بوحدة ثقافة أمم الشرق العربي. غير أن هذا الاعتراض في غير محله، لأن اعتباره أن لأمم الشرق العربي ثقافة عامة شاملة إن كانت صحيحة إلى حد ما فهذه الثقافة تتلون وتأخذ طابعاً في كل بلد من بلدان الشرق العربي، فمظهرها في سوريا غير مظهرها في العراق، وهي في العراق غيرها في مصر، وهي في مصر غيرها في الحجاز، وهي في الحجاز غيرها في مراكش أو تونس. وهذه حقيقة قد تظهر أوضح للمراقب الأجنبي من حيث تتميز عنده الفروق الأساسية. ومن مظاهر هذه الفروق اللهجات العربية في مختلف بلدان العالم العربي، ومناحي الحياة المعاشية.

ولقد وهم المناظر الفاضل أننا نهزل حين قلنا إن العامية في مصر هي العربية الآخذة بأسباب الفرعونية، بينما نحن في مجال الجد؛ غير أن ناحية من الهزل بدت من خلال كلامنا حين لم يلاحظ مناظرنا ما قلناه في المقال الأول من أننا نعني بالفرعونية وحدة الحياة - عقلية أو معاشية - متمشية في ثقافة المصريين التقليدية حتى العهد الفرعوني. فإذا قلنا إن العامية هي العربية الآخذة بأسباب الفرعونية فإنما نعني أنها تأخذ طابعاً مصرياً خاصاً بها، هذا الطابع هو الذي يتمشى في ثقافة المصريين التقليدية (حتى العصر الفرعوني، ومن هنا جاءت كلمتنا الآخذة بأسباب الفرعونية.

وأظن أن كلامي قد وضح وبان مفهومه وظهر أنه جد لا هزل. . . وبهذه المناسبة ألفت نظر المناظر إلى مراجع قيمة في اللهجة المصرية تشفي غلته وتؤيد وجهة نظرنا، وأهم هذه المراجع بحث للبروفيسور نلينو عنوانه (كتاب في اللهجة المصرية) وهو مطبوع بميلانو عام 1903، ودروس الأستاذ احمد والي ويوسف المغربي والأستاذ كراتشفوفسكي.

(للمقال بقية)

إسماعيل أحمد أدهم
السلطان الغوري
مكانته في الأدب والعلم وأثره فيهما
للدكتور عبد الوهاب عزام
ظفرنا بهذه الخلاصة الوافية للخطاب القيم الذي ألقاه صديقنا
الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام في مؤتمر المستشرقين
ببركسل؛ فنال إعجاب العلماء المجتمعين بطرافة موضوعه،
ودقة بحثه، وسداد طريقته
(المحرر)
- 1 -
السلطان قانصوه الغوري أحد سلاطين المماليك بمصر. حكم من سنة 906 إلى سنة 922 هـ.
ولست أريد أن أعرض للأحوال السياسية التي تولى فيها، والأحوال التي أزالت ملكه وقضت على دولة المماليك؛ ولكني أريد أن أذكر طرفاً مما عرف من صلته بالأدب والعلم.
كان ذا حظ وافر من العلوم الدينية: التوحيد والتفسير، والفقه؛ وكان ذا نصيب من التاريخ معنياً بقراءة التواريخ والقصص وسماعها، كما كان ذا بصر بالأدب، وله نظم بالعربية والتركية؛ وكانت له مشاركة في الموسيقى والغناء، وله موشحات كان يُتغنى بها.
- 2 -
وتاريخ الغوري مفصل في كتب التاريخ ولا سيما كتاب (بدائع الزهور في وقائع الدهور) لمحمد بن إياس؛ ولكن سيرته في الأدب والعلم تتجلى في ثلاثة كتب لم تنل نصيبها من العناية وفيهما للمؤرخ مجال واسع.
1 - كتاب نفايس المجالس السلطانية، في حقائق الأسرار القرآنية: ألفه حسين بن محمد الحسيني، وهو شريف كما يؤخذ من اسمه ومن عبارات في ثنايا الكتاب، ويظهر أنه تركي
ساح في إيران والبلاد الشرقية، وقد نظم بيتين بالتركية في رثاء ابن السلطان الغوري، وروى من شعر حسين بيقرا. وفد على مصر فأقام عشرة أشهر شهد فيها مجالس السلطان الغوري، وجمع في كتابه هذا بعض المباحث التي كان السلطان والعلماء يتكلمون فيها.
والعجمة ظاهرة في كتابته حتى اسم الكتاب فقد سماه (نفايس مجالس السلطانية في أسرار مجالس القرآنية) فحذف اللام من المجالس والأسرار
والنسخة التي بأيدينا هي النسخة التي كتبت للسلطان وأهديت إليه. وقد كتب عليها الصيغة المعتادة:
(برسم خزانة المقام الشريف ملك البرين والبحرين مولانا السلطان المالك الملك الأشرف قانصوه الغوري خلد الله ملكه)
ويقول المؤلف في مقدمة الكتاب: أما بعد فإني لما تشرفت في خدمة أشرف الملوك وأعظم السلاطين ظل الله في الأرضين، ناظر أربع حُرُم رب العالمين، سلطان العرب والعجم، صاحب البند والعلم، حافظ بلاد الله، ناصر عباد الله، أمير المؤمنين وخليفة المسلمين، ملك الأشرف عزيز مصر أبو النصر قانصوه الغوري، أعز الله أنصاره، وضاعف أقداره - ولازمتُ بابه الشريف عشرة أشهر، وجمعت درر فوائده في سمط العبارة، ونظمت جواهر زواهره في خيط الكتابة. فإن باب الكريم مجمع الأفاضل، وجنابه العظيم بحر الفضائل والفواضل. هذا مع ما خصه الله تعالى من الفضائل النفيسة، والمناقب الشريفة اللطيفة، أعطاه من الفهم أوفره، ومن الذهن أغزره، ومن الحلم أشرفه، ومن العلم ألطفه، ومن الرتب أقواه، ومن الملك أعلاه، ومن الشجاعة أبلغها، ومن السخارة أعظمها، كل هذه الصفات خصه الله تعالى بمجموعها. ولهذا ارتقى إلى الذروة العالي، التي كانت نهاية درجات الأفاضل الأهالي. وفضل هذا السلطان على سلاطين الدنيا كفضل سلاطين الدنيا على الرعايا.
وكل هذه الأوصاف والمناقب بما قرن به من محبة العلم والعلماء والتفتيش عما

وضعته الحكماء في كل نوع من العلوم، لو يقول البشر في وصف هذا المظهر إنه هو سلطان العلماء المحققين ما هو كذب في حقه، أو يقول في مدحه: إنه هو سلطان العارفين ما هو عيب في وصفه)
وجعل كتابه في مقدمة وعشر روضات. والمقدمة قصيرة تتضمن كلام بعض السلاطين ومنهم الغوري. والروضات العشر يذكر في كل واحدة منها مجالس السلطان في شهر. وكانت المجالس تجتمع في كل أسبوع مرة أو اثنتين أو ثلاثاً.
وأولها مجالس رمضان سنة عشر وتسعمائة. وأول مجلس منها يوم الخميس الثالث والعشرون من الشهر، وآخرها مجالس رجب فهي عشر روضات في أحد عشر شهراً لأن السلطان لم يجلس في شهر ذي القعدة، لوفاة ولده محمد.
والمؤلف يصف كل مجلس وتاريخه ومدته، ويذكر الإمام الذي يحضر المجلس وكبار الحاضرين، ثم يذكر المسائل التي طرحت للبحث في المجلس. يقول في المجلس الأول:
طلعت يوم الخميس ثالث وعشرين رمضان المبارك في تاريخ سنة عشر وتسعمائة،) وكان في خدمته ناصح الملوك والسلاطين شيخ حسن جلبي؛ وكان الإمام في تلك الليلة شيخ شمس الدين السمديسي. وقعدوا في الأشرفية ستين درجة. ووقع في تلك الليلة أسولة. السؤال الأول الخ(. .
ويقول في المجلس الثاني من شوال:
طلعت يوم الأحد تاسع شهر شوال، وقعدوا خمسين دقيقة في البيسيرية الأشرفية.) والإمام كان شيخ محب الدين المكي، وشيخ الإسلام كان حاضراً. وخواجه غياث الدين ده دار، وقاضي جمال الدين الخشاب، وكثير من الناس كانوا في الخدمة الشريفية والعتبة العلية(.
يبدأ السلطان أكثر الأحيان بسؤال يجيب عنه أحد الحاضرين فيرتضي السلطان جوابه أو يناقشه، وأحياناً يبدأ أحد الحاضرين الكلام. وأكثر المسائل دينية وبعضها تاريخية، ومنها الغاز في موضوعات شتى، وقصص عن الملوك وغيرهم.
وأحياناً يصف المؤلف مشاهد ويروي أحاديث لها في التاريخ خطر كبير.
مثلاً يصف إحياء السلطان المولد النبوي، ويذكر طوائف الناس الذين اجتمعوا، وما فعلوا في هذا المحفل، ويبين كيف جلس السلطان ليلاً وكيف يتقدم إليه كبار الدولة وينشد كل منهم شعراً في مدحه وكيف يقابلهم السلطان. وقد ذكر أن الخليفة يعقوب المستمسك بالله خليفة مصر تقدم (وباس الأرض، كفرض العين وعين الفرض) وأنشد:
إن الخلافة ثوب قد خُصصت به ... إذا لبست فلم يفضل ولم يعزِ
ما أودع الله في أحداقنا بصراً ... إلا لنفرق بين الدر والخرزِ
وكذلك يمر القارئ بمسائل ذات خطر في التاريخ والسياسة إذ ذاك كقول السلطان: (الجركس من الغساسنة فهم عرب) وكالبحث في شروط الإمامة في مجلس السلطان وقول مؤلف الكتاب: فإن لم يوجد من يستوفى الشروط من ولد إسماعيل جاز أن يُولّى واحد من العجم أو من ولد إسحاق. وقوله بعد هذا:
الحمد لله والمنة، الجركس من ولد إسحاق. وجميع هذه الشرائط موجودة في السلطان الأعظم.
بل نجد في الكتاب بحثاً صريحاً في نيابة الغوري عن الخليفة العباسي وهل هذه النيابة لازمة لصحة أحكامه في الأمور الشرعية. ويشتد الخلاف بين المؤلف وأحد العلماء في هذه المسألة فيحقر المؤلف الخليفة ويعظم السلطان، ثم يذهب يستفتي العلماء ويأخذ خطوطهم بأن نيابة السلطان عن الخليفة غير لازمة.
ويرى القارئ أحياناً اهتمام السلطان بتعليم المماليك وإحضارهم معه من حين إلى آخر إلى مجلسه ليقرءوا أمامه ويمتحنهم
وهكذا يجد القارئ في الكتاب مسائل مهمة لا يظفر بها في كتب التاريخ، ويرى صوراً من آراء السلطان وعلماء عصره، ويتبين مقدار اطلاعهم ودرجة تفكيرهم
2 - الكتاب الثاني: اسمه الكوكب الدري في مسائل الغوري، وهو يحتوي على ألفي مسألة وأجوبتها من المسائل التي وقع البحث فيها في مجالس السلطان الغوري أيضاً. ولدينا الجزء الأول من الكتاب وفيه ألف مسألة في 338 صفحة. والنسخة مكتوبة في

عهد الغوري. . ويظهر أنها نسخة المؤلف. وعليها خطوط ثلاثة من علماء وقته المعروفين يشهدون بأنهم اطلعوا على الكتاب. وبعض هذه الخطوط مؤرخ بالسنة التي تم فيها كتابة هذا الجزء.

ويقول المؤلف في آخر الكتاب: (وكان الفراغ منه في مستهل شهر ربيع الآخر سنة تسع عشر وتسعمائة).

ويقول في المقدمة: وبعد فإني لما رزقني الله سعادة الدارين وتشرفت مدة عشر سنين بخدمة سلطان الحرمين الشريفين خان الأعظم وخاقان المعظم، مولى ملوك الترك والعرب

والعجم، حافظ بلاد الله، ناصر عباد الله، وارث ملك يوسف الصديق، إمام الأعظم بالحق والتحقيق، مظهر الآيات الربانية، مظهر الأسرار الروحانية، أمير المؤمنين وخليفة المسلمين، الملك الأشرف ذو الفيض النوري، أبو النصر قانصوه الغوري الخ. . . قصدت أن أجمع در فوايد مجلسه في سمط العبارة والكتابة، وأنظم جواهر زواهره في سلك الاستعارة والكناية، لأنه ورد في كلام بعض الأنام: كلام الملوك ملوك الكلام، سيما إذا كان المبحوث عنه تفسير كلام رب العالمين، ونكات أحاديث سيد الأنام عليه الصلاة والسلام، ومباحث سلطان الإسلام الخ. . .

إلى أن يقول: وجمعت شيئاً يسيراً وفاتني منه شيء كثير، فجمعت من بحار فوايده قطرة، ومن شموس محاسنه ذرة، لم أقدر أن أجمع إلا واحداً من ألف بل من مائة ألف. . . فجمعت من المسائل المشكلة ألفي مسألة، وسميته بالكوكب الدري في مسائل الغوري. . .

وفي هذه المقدمة شبه بمقدمة الكتاب الأول، وبعض عباراتهما واحدة، وبين تاريخهما زهاء عشر سنين

وهذا الكتاب ليس مقسماً على المجالس كالكتاب السابق، بل المسائل فيه متتابعة بغير فصل. والمطلع على الكتاب يرى صوراً من أفكار علماء مصر وأمرائها في ذلك العصر. يرى إلى المسائل الدينية وهي معظم الكتاب، مسائل تاريخية، وجغرافية، ويرى انتقال الحديث من تفسير آية أو حديث إلى السؤال عمن بنى الأهرام أو عن سبب زرقة السماء أو السؤال عن كيورث أول ملوك الشاهنامة أكان قبل نوح أو بعده، أو عن شهر المحرم لماذا جعل أول التاريخ الهجري، أو هل الأرض أفضل أم السماء. ويجد القارئ في الحين بعد الحين فكاهة من السلطان أو نادرة، ويعرض في المجالس ذكر الملوك المناصرين والأمراء الذين وفدوا على السلطان كابن السلطان سليم. ويرى بعض الأسئلة الدينية التي سألها هؤلاء الأمراء وجواب السلطان أو بعض علمائه لا ريب أن هذا الكتاب على تفاهة معظم المسائل التي يدور عليها البحث، يصور بعض النواحي الفكرية والاجتماعية في مصر والعالم الإسلامي، في ذلك العصر

3 - الغوري والشاهنامة:

- 1 -

كان حسين بن حسن بن محمد الحسيني الآمدي أحد شعراء التركية في أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الهجري وشهد عهد السلطان الغوري في مصر، ولعله فرَّ إليها إذ كان من المقربين إلى الأمير جم بن محمد الفاتح. وتوفى بمصر سنة 920 وقد أمره السلطان الغوري أن يترجم شاهنامة الفردوسي إلى اللغة التركية فترجمها في عشر سنين آخرها سنة ست عشرة وتسعمائة

وقد نظم الشاعر في مقدمة الكتاب فصلاً يبين فيه سبب نظمه. وخلاصته أن السلطان كان ولعاً بقراءة التاريخ والقصص، وكان في خزانته كتاب الشاهنامة، فدعا الشريفيَّ وقال: إني أحب هذا الكتاب وأعرف ما تضمنه من المواعظ والأخبار وأريد أن يترجم إلى اللغة التركية ليسهل علينا إدراك معانيه. وأعرف أن لك مقدرة على نظمه، فترجمه إلى التركية. فقال الشاعر: أيها السلطان المعظم! كيف تريد أن تسهل عليك معانيه بالترجمة وأنت تعرف لسان العجم أحسن من العجم؟ بل هو أسهل عليك من اللغة التركية، وليس بك حاجة إلى ترجمته.

قال السلطان: أريد أن يبقى ذكراً بعدي، فإنما يخلد الإنسان بالذكر الحسن

قال الشاعر: ولكن نظمي ليس من البلاغة والسلاسة بحيث يعجب السلطان؛ وليس يسيراً أن يبلغ الكلام الدرجة التي ترضيك، والشاهنامة كتاب غير الترجمة.

قال: دع الاعتذار ولا تعتل فأنت من آل الرسول. فشمّر للأمر، وإن لم يكن كلامك مزخرفاً مصنفاً فلست أبالي. لست أكلفك كلاماً ملوكياً، ولكن أريد أن تقول باللسان التركي قولا درويشياً.

يقول الشاعر: فلم أجد بداً من امتثال الأمر على ثقل العبء وعلى بعد ما بيني وبين الفردوسي، وشرعت في نظم الكتاب في وزن آخر غير وزنه الفارسي الخ. . .

- 2 -

في مقدمة الكتاب وخاتمته نحو ألف بيت؛ يبدأ الكتاب بالتحميد، ومدح الرسول والخلفاء على سنّة شعراء الفرس والترك، ثم يذكر سيرة مماليك مصر منذ سنة 970هـ، يذكر قايتباي والملوك الذين خلفوه في فترة الاضطراب التي بينه وبين الغوري، ثم يفيض في

مدح السلطان، ثم يبين سبب نظم الكتاب ويشرع في ترجمة الشاهنامة. وفي الخاتمة يمدح السلطان ويبين أنه نظم الكتاب باسمه وأتمه في دولته، ويتكلم عن أخلاق السلطان وسياسته وشغفه بالعلم والأدب، ومعرفته لغات كثيرة، ومشاركته في الإنشاء والشعر ونظمه في توحيد الله ومدح الرسول، وإلمامه بالموسيقى، ونظمه موشحاً للغناء، وولعه بقراءة التواريخ الخ. . . ثم يصف مجلس السلطان واجتماع العلماء فيه لمذاكرة العلم، ويذكر المغنين والموسيقيين الذين يطربون السلطان في مجالسه.

ثم ينتقل إلى وصف عمارات السلطان وصفاً مفصلاً فيعدد تسعاً منها. والخلاصة أن في مقدمة الكتاب وخاتمته ما يكشف بعض تاريخ الغوري ولا سيما الجانب الأدبي منه، ويبين طرفاً من تاريخ مصر - بعد حساب المبالغات الشعرية.

- 3 -

هذا الكتاب له قيمة عظيمة في تاريخ اللغة التركية، فهو سجل جامع لألفاظ اللغة التي كانت مستعملة في القرن العاشر الهجري ولقواعد النحو والصرف التي كانت متبعة إذ ذاك.

وفيه كذلك صورة مفصلة للضرورات الشعرية التي كانت تعانيها اللغة من بعض الشعراء في ذلك العصر، والتي ذكرها ضيا باشا في مقدمة (الخرابات).

- 4 -

ويزيد في قيمة الكتاب وفائدته، أن عندنا منه نسخة الأم أعني النسخة التي كتبها المترجم بخطه، وقدمها إلى السلطان؛

فعلى صفحة العنوان نجد هذه الصيغة:

برسم خزانة مولانا المقام الشريف السلطان مالك رقاب الأمم، السلطان المالك،) الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغوري عز نصره وخلد ملكه.

وفي آخر الجزء الأول:

وقع الفراغ من تحرير المجلد الأول في أول ليلة من شعبان المبارك في محروسة) مصر صانها الله من الآفات، في قبة الحسينية لأمير يشيك، تغمده الله بالرحمة والغفران)، كاتبه ناظمه أضعف عباد الله حسين بن حسن بن محمد الحسيني سنة ثلاث عشر وتسعمائة.

والحمد لله الخ. .

وفي آخر الجزء الثاني:

تم الكتاب بعون الملك الوهاب ضحوة النهار يوم الأحد ثاني شهر ذي الحجة الحرام سنة ست عشر وتسعمائة من هجرة النبوية عليه أفضل الصلوات وأكمل التحيات، كاتبه ناظمه وهو أضعف العباد حسين بن حسن بن محمد الحسيني الحنفي في مدينة مصر حرسها الله من الآفات والبليات في جامع المرحوم المغفور السعيد الشهيد الملك المؤيد شيخ سقى الله عهده بالرحمة والمغفرة.

وبعد هذا سطران بالتركية:

بو كتابك نظمنه مولانا السلطان عز نصره الغوري أول سلطنت يلنده ابتدا إيلدك، أون يلده تمام أولندى، أونك دولتذه إتمامه أرشدي).

حسبنا الله ونعم الوكيل. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

ومعنى العبارة التركية أنه بدأ الكتاب في أول سنة من عهد السلطان وأتمه في عشر)

سنين في دولته)
- 5 -
والنسخة في 1170 ورقة كبيرة أي 2340 صفحة، كل صفحة 25 سطراً، وهي مذهبة، وبها اثنتان وستون صورة ملونة. وإزاء كل صورة في الحاشية عنوانها بخط مذهب. ولهذه الصور قيمتها في الدلالة على التصوير المصري في ذلك العصر.
- 6 -
ثم يزيد هذه النسخة نفاسة وفائدة أنها واضحة الخط تميز فيها الحروف الثلاثة ب، ج، ز، من الحروف العربية ب، ج، ز، بوضع نقطتين تحت الحرف أو ثلاث. وهذا نادر في الكتب القديمة، وهي بعد هذا مشكولة شكلاً تاماً لا يرتاب القارئ في ضبط كلمة منها فبين أيدينا زهاء ستة وخمسين ألف بيت من الشعر التركي في القرن العاشر الهجري مضبوطة ضبطاً تاماً، وقيمة هذا في اللغة والأدب ليست هينة
- 7 -
عرفنا من هذه الكتب أن السلطان كان مولعاً بالأدب وأن له نظماً بالعربية والتركية. ولدينا نماذج من نظم السلطان في موشح في كتاب نفايس المجالس، وقصيدتين وموشحين بالعربية، وموشح بالتركية في كتاب تاريخ حلب للطباخ، وعند بعض أدباء حلب قطع أخرى من شعر السلطان، وفي أستانبول مجموعة من شعره

عبد الوهاب عزام

للتاريخ السياسي

النزاع الروسي الياباني

للدكتور يوسف هيكل

شهد شهر أغسطس (آب) الفائت حوادث دولية متفاقمة الخطورة، إذ طارت شرارة الحرب العالمية في الشرق الأقصى فأشعلت النار بين الروس واليابان، فكادت الحرب تجتاح العالم لولا الجهود الدبلوماسية التي بذلي لإخماد نار الحرب الروسية اليابانية. غير أن شبح الحرب العالمية عاد من الشرق الأقصى إلى أوروبا الوسطى، وأخذ يحوم في جوها مهدداً السلام بشدة.

وحديثنا في هذا المقال مقتصر حول النزاع الروسي الياباني. ولعرض هذا النزاع يحسن بنا التكلم عن أسباب الصدام الذي حدث بين القوى الروسية واليابانية، وعن تطور القتال بينهما، وأخيرا عن المفاوضات الديبلوماسية التي بذلت لعقد الهدنة بين موسكو وطوكيو، وعن شروط هذه الهدنة وأسبابها.

نشأت في اليابان في السنين الأخيرة روح استعمارية جديدة. فبعد أن أغرقت اليابان أسواق الشرق بمنتوجاتها، مما أدى بالدول الأخرى إلى وضع ضرائب فادحة على المنتوجات اليابانية لتحول دون دخولها بلادها، أخذت تتبع سياسة تتعارض وبقاء الأوربيين في الشرق. وكان هدفها الأول إجلاء الأوربيين عن الصين. فعملت، قبل احتلالها منشوريا، على تحقيق هذه الأغراض بالتفاهم مع الصين، ولذلك ساعدت على قيام أحزاب قوية في بلادها مطالبة بأن تكون (آسيا ل الآسيويين كما أن أوربا للأوربيين، وأمريكا للأميركيين). ثم عملت على إنشاء فروع عديدة لهذه الأحزاب في الصين وجاوة والهند.

ولكن الحكومة اليابانية رأت أن الحالة الدولية تتطلب السرعة في العمل، فعدلت عن سياسة التفاهم مع الصين، وعمدت إلى سياسة القوة التي مكنتها من احتلال منشوريا، على رغم تعدد المصالح الغربية فيها. بعد هذا الفتح واجهت اليابان أوربا بقاعدة جديدة هي (ارفعوا أيديكم عن الصين).

لم تتحسن العلاقات بين اليابان والصين بعد استيلاء اليابان على منشوريا، بل عمدت الصين إلى مقاومة النفوذ الياباني، وجدت في المحافظة على كيانها. غير أن اليابان قررت شل الحركة الصينية المعادية لها بالقوة، فكانت الحرب اليابانية الصينية.

واستيلاء اليابان على الصين يهدد وجود الدول الغربية في البلاد الأسيوية، ولا سيما في الشرق الأقصى والأوسط. ويتحقق حينئذ الخطر الأصفر الذي كان الإمبراطور ولهلم أول المنذرين به.

وفي مقدمة الدول التي تخشى اليابان في الصين الحكومة الروسية. لأن الخطر الأصفر لا يحرم هذه الدولة بعض مستعمراتها فقط، بل ربما يسلخ عنها قسماً كبيراً

من بلادها، وهو سيبريا الممتدة في شمالي آسيا من أقصى الشرق حتى الغرب منها. وقد كانت الروسيا في المدة الأخيرة هدف عداء اليابان، إذ أن طوكيو عقدت تحالفاً مع برلين وروما، غايته مكافحة الشيوعية. والشيوعية ما هي إلا رمز يراد به الحكومة الروسية. فهذه المصالح المتضاربة هي السبب الرئيسي لكل حرب تقع بين اليابان والروس، أو بين اليابان وأية دولة غربية أخرى.

أما السبب المباشر للنزاع الأخير الذي حدث بين اليابان والروسيا فهو حادث حدود، وهو أن الجند الروس، حسب قول اليابان، اخترقوا الحدود الفاصلة بين السوفيات (الروسيا) ومنشوكو واحتلوا تشانج كوفنغ ومضيق شانغ كو. ولذلك طلبت طوكيو من موسكو سحب القوات السوفياتية إلى ما وراء الحدود، فرفضت موسكو ذلك أواسط شهر يونيه، مجيبة بأن المنطقة المختلف عليها هي جزء من الأراضي الروسية، وأن طلب اليابان يعد تدخلاً منها في شؤون السوفيات الداخلية

إن تهديد اليابان وجواب روسيا جعلا الدولتين تقفان وجهاً لوجه دون أن تستطيع إحداهما الرجوع عن موقفها من غير أن يكون ذلك تراجعاً منها أمام رغبة الأخرى. وفي أثناء ذلك كانت الجيوش تتجمع، والطائرات تحوم في الجو، فكان التصادم، وكانت حوادث قتال محلية لم تأخذ صبغة حرب بين الدولتين، لأن القوى التي اشتركت في القتال كانت محدودة، ولأن المفاوضات كانت مستمرة لإيقاف القتال وإيجاد حل للخلاف.

أما هدف القتال فكان احتلال قمة (تشانج كوفنغ) وما جاورها. فبعد أن احتلت القوى السوفياتية هذه القمة، أصر الجيش الياباني على إرجاع الروس عنها؛ فدارت معارك عديدة، واشتركت فيها القوى البرية على اختلاف أنواعها والجوية، وأدت إلى استيلاء الجيش الياباني على تلول (تشانج كوفنغ) و (شاتسا) و (بينج) وذلك في 30 يوليه سنة 1938. وقد صرح حينئذ الميجر (اكياما) بلسان الجيش قائلاً (قد عدنا إلى احتلال هذه الأراضي المنشوكية بالقوة، ولا نريد شيئاً أكثر من ذلك. فنحن نجهل النيات السوفياتية. ولكن إذا حاول السوفيات استرداد هذه المواقع وجب أن ينتظروا معاملة أقسى وأشد)

ولكن هذا التهديد لم يثن عزيمة السوفيات بل أثار هياج الرأي العام في روسيا، فقامت الجماهير بمظاهرات عدائية نحو اليابان جاء في قراراتها: (يجب أن لا تنسى قط اليابان وإيطاليا وألمانيا أن الجيش الأحمر لن يتخلى عن متر واحد من الأراضي السوفياتية، كما يجب أن لا يفوتها أن الشعب الروسي بأكمله هو في حالة تجنيد، وأنه يجيب أول نداء تذيعه حكومته وسلاحه بيده) وقد أصدرت الجمعيات العامة المنشأة في جميع أنحاء البلاد قرارات جاء فيها: (إننا لن نتراجع أمام أي تهديد. فحدودنا لا يمكن خرق حرمتها، وستدفع العصابات اليابانية موت جنودنا سيولاً من الدماء).

استعد الروس لاسترجاع منطقة (تشانج كوفنغ)، فظهر الجيش الروسي الأحمر الأول مرة في القتال، فقام في 3 أغسطس بهجوم عنيف على هذه المنطقة، اضطر اليابان إلى دفع عشرين ألف مقاتل لصد هجوم الروس. ولم تكن هذه المعركة حاسمة، ولم يتمكن الروس من استرداد المنطقة التي استولى عليها اليابانيون في 30 يوليه الماضي. على أن القتال لم يقف، بل ازداد حماسة وشدة. فحدثت معارك، أدت إلى تقدم الروس، فأعلنت قيادة الجيش الروسي في 7 أغسطس أن القوى السوفياتية (أجلت بتاتا الجيش الياباني عن الأراضي السوفياتية). ولكن المقامات اليابانية نفت بتاتاً جلاء اليابانيين عن أكمة (تشانج كوفنغ). ويظهر أنه في ذاك التاريخ قد جلا اليابانيون عن قسم من المنطقة المختلف عليها، وظل القسم الآخر تحت سيادتهم واصل الروس القتال، وتسلم المارشال بلوخر القائد العام للقوات السوفياتية في الشرق الأقصى، قيادة الأعمال الحربية، فتقدم الروس وتراجع اليابانيون. وصدر في موسكو بتاريخ 10 أغسطس بلاغ رسمي يقول: (إن تشانج كوفنغ التي وقع الخلاف عليها بين الروس واليابانيين أمست الآن في أيدي الروسيين).

وفي 10 أغسطس أيضاً أعلنت الهدنة بين روسيا واليابان، وأوقف القتال في ساحة (تشانج كوفنغ) عند ظهر اليوم التالي حسب توقيت الشرق الأقصى أي قبيل شروق الشمس في بلادنا.

كانت خسائر الطرفين حسب تقدير اليابان الرسمي 158 قتيلاً و 723 جريحاً من اليابانيين، وما ينيف عن 1700 قتيل وجريح من الروس. غير أن إحصاء الروس

الرسمي ينص على أن عدد قتلى الروس 236، وجرحاهم 611، وعدد قتلى اليابان 600، وجرحاهم 2. 500. ومن الأكيد أن هذه الأرقام غير صحيحة لأن من عادة الدول المتحاربة محاولة إخفاء حقيقة خسائرها، والمبالغة في مقدار خسائر الخصم. والغاية المتوخاة من ذلك بيان تفوقها وتقوية روح جيوشها المعنوية من جهة، وإظهار ضعف الخصم وإضعاف روحه المعنوية من جهة ثانية

لم يكن إعلان الهدنة مفاجئاً لأن المفاوضات لتصفية النزاع الروسي الياباني كانت سائرة منذ ابتداء القتال. وكانت الدوائر السياسية الغربية تتفاءل تارة وتتشاءم تارة أخرى، ولكن التفاؤل غلب التشاؤم بتراجع اليابان عن موقفها

فكيف كانت المفاوضات؟ وما هي شروط الهدنة؟ وما هي الأسباب التي دعت اليابان إلى هذا التراجع؟

على أثر دخول الجند الروسي المقاطعة المختلف عليها قابل البارون سيجيمنسو السفير الياباني في موسكو، الرفيق لتفينوف وزير خارجية روسيا عدة مرات طالباً منه سحب القوى الروسية من مقاطعة (تشانج كوفنغ). وكانت خلاصة الحديث الذي دار بينهما في 20 يوليو (تموز) أن الحكومة اليابانية مقتنعة بأن المنطقة الواقعة غربي بحيرة (كاسان تشانتشي) داخلة في حدود منشوريا، وأنها توافق على تعيين الحدود تعييناً دقيقاً، والدخول في مفاوضة مع حكومة موسكو لهذا الغرض؛ ولكن بعد أن يتم انسحاب القوات السوفياتية من المنطقة التي احتلتها. وقد رد وزير الخارجية الروسية على بيانات السفير الياباني بأن الحكومة السوفياتية قدمت إلى السفارة اليابانية عدة وثائق منها معاهدة (هونتشون) والخرائط الملحقة بها المبينة للحدود بدقة وجلاء تامين. وهذه الخرائط والوثائق التي وقعها ممثلو الحكومة الصينية السابقة تثبت أن المنطقة الواقعة غربي بحيرة كاسان داخلة ضمن

نطاق الحدود الروسية، وأن روسيا كانت ترسل إليها الدوريات العسكرية ولا تزال تفعل ذلك. فأبان السفير الياباني أن حكومته لن تكون مرتاحة إلى هذا الرد، وأنه من الضروري اتخاذ تدابير تعيد الأمن إلى نصابه على الحدود، وإلا اضطرت اليابان أن تستنتج من ذلك وجوب الالتجاء إلى القوة. فرد الرفيق لتفينوف أن مثل هذا التهديد لا يؤثر في روسيا ولا يخيفها. وعلى أثر ذلك قطعت المفاوضات

وبعد احتلال اليابان لتلول (تشانج كوفنغ) في 30 يوليو (تموز) تلقى سفير اليابان في موسكو التعليمات من حكومته بأن يطلب من الرفيق لتفينوف استئناف المفاوضات بشأن (تشانج كوفنغ) التي قطعت في 20 يوليو (تموز) فاجتمع السياسيان في 4 أغسطس وبسط السفير الياباني وجهة نظر حكومته التي ترمي إلى تسوية النزاع بالطرق الودية. فأصر الرفيق لتفينوف على أنه يجب على اليابان قبل بدء المفاوضات أن تسحب جيوشها إلى وراء الخط المعين في الخريطة الملحقة بمعاهدة (هونتشون) المبرمة عام 1886. فأجاب السفير بأن الخريطة المذكورة التي لا يوجد لها صورة رسمية إلا في وزارة الخارجية في موسكو، لا يمكن قطعاً اعتبارها المستند الوحيد الذي يستطاع استخدامه في تعيين الحدود، لأنها لم تنشر قط، ولأن السلطات اليابانية المختصة لم تعلم بها لحد الآن. على أثر ذلك انفض الاجتماع دون أن يصلا إلى نتيجة إيجابية

وفي اليوم التالي قابل السفير الياباني وزير الخارجية الروسية وعرض عليه اقتراح حكومته المشتمل على النقط التالية:

1 - انسحاب القوات اليابانية إلى المنطقة المتنازع عليها حول جبل (تشانج كوفنغ).

2 - تعهد روسيا بألا تحتل هذه المنطقة.

3 - بقاء هذه المنطقة منطقة حياد إلى أن تقوم لجنة بتخطيط الحدود.

فرد الرفيق لتفينوف على هذا الاقتراح بقوله: إن روسيا لا تدخل في أية مفاوضات قبل سحب القوات اليابانية داخل حدودها. وعلى أثر هذه العبارة استأذن السفير الياباني بالانصراف وارفض الاجتماع. وكان القتال في هذه الأوقات شديداً، وهجوم الروس لاسترجاع منطقة (تشانج كوفنغ) قويا

وفي 10 أغسطس اجتمع الرفيق لتفينوف والبارون سيجيمنسو واتفقا على شروط الهدنة

التي تلخص كما يلي:
1 - وقف الحركات العسكرية ظهر يوم 11 أغسطس حسب توقيت الشرق الأقصى أي الساعة الخامسة صباحاً في موسكو.
2 - بقاء قوات الفريقين في المواقع التي كانت فيها في منتصف ليل 11 أغسطس.
3 - تأليف لجنة مختلفة قوامها عضوان روسيان وعضو واحد ياباني، وآخر منشوري لتعيين حدود المنطقة المختلف عليها، فإذا لم تتوصل هذه اللجنة إلى الاتفاق وجب عرض الخلاف على حكم يختاره الفريقان.
4 - تستند هذه اللجنة في أبحاثها إلى الخرائط الملحقة بالمعاهدات المعقودة بين روسيا وحكومة الصين السابقة.

وبرغم الهدنة حدث في 12 أغسطس حادث جديد فحواه، حسب تقرير السوفيت، أن الجيش الياباني أخذ يتقدم، فجابه الجيش الروسي على بعد مائة متر. وبقي الجيشان وجهاً لوجه حتى اتفقا على أن ينسحب كل منهما مسافة ثمانين متراً. وفي 13 أغسطس قدم الرفيق لتفينوف إلى السفير الياباني احتجاجاً على (الاعتداء الجديد على حدود السوفيات) طالباً انسحاب القوى اليابانية، ومهدداً باعتبار حكومة السوفيات الهدنة ملغاة فيما إذا لم تجب الحكومة اليابانية مطالبها. فانسحب الجيش الياباني، في 14 أغسطس، إلى الضفة اليمنى لنهر (تومن) داخل حدود كوريا ولم يبقى جندي واحد في منطقة (تشانج كوفنغ) الواقعة على الضفة اليسرى.

كانت هذه الهدنة فوزاً سياسياً كبيراً للحكومة السوفياتية، عزز نفوذها وهيبتها في الشرق الأقصى، وذلك بإكراهها اليابان على قبول شروطها من سحب الجيش الياباني من المنطقة المختلف عليها، ومن تشكيل لجنة الحدود بحيث يكون فيها أعضاء للروس بقدر ما لليابان وحكومة منشوكو معاً. أما اليابان فكانت تريد أن يكون لكل من روسيا واليابان وحكومة منشوكو عدد متساو من الأعضاء.

وسبب تراجع اليابان هذا أنها يوم أقدمت على إخراج الجنود السوفياتية من هذه المنطقة بقوة السلاح، كانت تظن أن روسيا ليست في حالة تمكنها جدياً من محاربتها، وكانت تعتقد أنها ستلقى من ألمانيا وإيطاليا مساعدة عملية، عملاً بميثاق مكافحة الشيوعية وامتداد محور روما برلين إلى طوكيو.

ولكن الحوادث لم تحقق هذا الظن، لأن حكومة السوفيات أظهرت بطريقة لا شك فيها أنها لا تتردد في خوض غمار الحرب دفاعاً عن كرامتها وسلامة حدودها في الشرق الأقصى. ولأنه ظهر وهن ميثاق مكافحة الشيوعية المراد منه مقاومة نفوذ السوفيت. إذ أنه لما استفسر سفير اليابان في برلين من الهر ريبنتروب وزير خارجية ألمانيا يوم الاثنين الموافق 8 أغسطس، عن مدى المساعدة التي تقدمها ألمانيا لليابان إذا خاضت غمار الحرب ضد روسيا، أجاب الهر ريبنتروب بما معناه: أن ألمانيا مع ميلها إلى اليابان وتمنيها لها الفوز، لا تستطيع في الوقت الحاضر مدها بمساعدة عملية في حالة نشوب حرب يابانية روسية فأبرق السفير الياباني في برلين حينئذ إلى حكومته أن تعمل كل ما في وسعها لعدم تمديد الخلاف مع روسيا

أما روسيا فسوف لا تكتفي بهذا الفوز الأدبي الذي أحرزته على اليابان لأن مسألة (تشانج كوفنغ) لم تكن السبب الحقيقي في النزاع الذي كاد يؤدي بها إلى الحرب (بل هناك سبب أعظم منه هو أن مصالحها الحيوية تقضي عليها بوقف المطامع اليابانية في الصين عند حدودها، فإذا لم تعدل اليابان عن هذه المطامع، وتحل خلافها مع الصين على أساس يكفل للصينيين سيادتهم وسلامة بلادهم، فالحرب واقعة بينها وبين روسيا، وربما تشترك فيها بعض الدول الغربية من أصحاب المصالح في الصين

يوسف هيكل

آراء وتحقيقات

الخير والسعادة

الخلاف عليهما عند أكثر فرق الفلسفة

للأستاذ عباس طه

منذ قرابة عامين عرضنا في بعض المجلات العلمية للبحث عن الفرق بين الخير والسعادة لماما، ثم لمدى الخلاف بين المتقدمين من الفلاسفة وبين المتأخرين منهم

في ماهية السعادة وهل هي سعادة بالإضافة إلى غيرها أم هي سعادة مطلقة بغض النظر عما عداها من الاعتبارات، وهل هي من ملابسات النفس الناطقة وحدها، أو أن البدن أيضاً من مقوماتها.

لكن البحث لم يتسق للكشف عن مبلغ آراء فرق الفلاسفة في السعادة والخير يومئذ في تلك المجلة. من أجل ذلك نحب أن نعرض لقراء الرسالة - بقدر - في هذا البحث الراهن للسعادة في رأي فيثاغورث وأفلاطون وبقراط، وهؤلاء من متقدمي الفلاسفة، ثم نعرض بعد ذلك لرأي ارستطاليس، ثم نقارب بين رأي فيثاغورس ومتابعيه، وبين جمهرة من المشائين حتى يتسق البحث على وتيرة واحدة، ويجري على سنن مستساغ.

في الاتجاهات التي اتجه إليها فيثاغورث وأفلاطون وبقراط ومن إليهم تلقاء النفس الناطقة أن الفضائل الأربع التي هي قوام السعادة وعتادها حاصلة كلها في النفس وحدها فليس لها مرد من الخارج ولا قوة تصدر عنها سوى النفس الناطقة؛ ولذلك حينما عرضوا لتقسيم قوى النفس في كتبهم اعتبروا كل هذه القوى منحصرة في الفضائل الأربع وهي: (الحكمة والشجاعة والعفة والعدالة) على ما سيجيء الكلام عنه في بحوثنا المتلاحقة المتعلقة بالنفس الناطقة، ثم رتبوا على ذلك الاتجاه أن تلك الفضائل الأربع وحدها كافية لتكون قواماً للسعادة في فصولها المختلفة، فلا يحتاج معها إلى غيرها من فضائل البدن ومميزاته ضرورة أن ذا النفس الناطقة إذا حصل تلك الفضائل مجتمعة فلا يغض من سعادته أن يكون سقيماً أو فاقداً لبعض أعضائه أو مبتلى ببعض صنوف العلل والأدوار إلا إذا تأثرت تلك النفس بأوصاب البدن وأسقامه فيما يصدر عنها من أفعال كفساد العقل واضطراب التفكير وضعف الروية والخلط بين الآراء، فإن ارتفعت كل هذه الأعراض على إصابة البدن بعلله وأوصابه فليس بضير النفس الناطقة في شيء أن يعرض لها الفقر والخمول وسقوط الحال وخشونة العيش مثلاً وكل ما هو خارج عنها فليس ما كان خارجاً عن النفس الناطقة بقادح في سعادتها. وبدٌ هي أن فيثاغورث ومن لف لفه يذهب إلى أن السعادة لا تعدو النفس الناطقة فلا تتناول الأبدان ومميزاتها، ويرتبون على ذلك الاتجاه أن السعادة والخير في مختلف مناحيهما ليس لهما إلا مصدر واحد وهو قوى النفس الناطقة وبالتالي الفضائل الأربع، وليس للبدن على هذا الاعتبار إلا مظهر آليته، فالنفس مديرة والبدن لها آلة.

أما جمهرة من الرواقيين فتذهب إلى أن السعادة والخير يصدران عن النفس والبدن معاً. فإذا صدر الخير عن النفس دون تقدير لكفة البدن فإنما يصدر ناقصاً بالقياس إلى ما تتعاون النفس والبدن مجتمعين في صونه وإبرازه.

يأتي بعد ذلك أرستطاليس فينحو نحواً آخر وهو أن السعادة والخير متخالفان، ثم إن السعادة بعد ذلك مقولة بالتشكيك فهي معروضة للمقولات العشر

ومعلوم أن المحققين من الفلاسفة يحقرون شأن البخت والاتفاق وكل ما هو منقطع الصلة بترتيب الفكر وأعمال الروية، ولا يؤهلون أصحاب هذه الاتفاقات وحملة تلك المصادفات لاسم السعادة. فالسعادة في أوضاعها أمر قار غير زائل، بل هم فوق ذلك يعتبرون كل ما يصل الإنسان من غير طريق التدبير والروية ومن غير أن يجري على سنن له مقدماته ونتائجه ضرباً من ضروب البخت فهو قابل عندهم للبقاء والزوال والزيادة والنقص والتعديل والتجريح والصحة والفساد والرفعة والخفض وكل الأشياء ونقائضها؛ وتابعهم في ذلك كثير من متأخري الفلاسفة أخذاً بنظرية صادقة عندهم وهي: من قدمه الاتفاق فقد أخره الاستحقاق. وهنا وقع خلاف ذو شأن بين قدماء الفلاسفة ومتأخريهم فيذهب فيثاغورث وأفلاطون وبقراط إلى أن السعادة العظمى لا تتحقق للإنسان إلا بعد أن تخلع البدن وما يلابسه من غاشيات الطبيعة، تطبيقاً لمذهبهم القائل بأن السعادة لا تحصل إلا في قوى النفس الناطقة. من أجل ذلك أطلقوا على الإنسان أنه جوهر النفس الناطقة دون البدن، فحكموا بأن البدن ما دام سياجاً لها وقفصاً لإيوائها، وما دام يخلع عليها غاشيات الطبيعة وأكدارها ولوثاتها وعلائقها فليست تلك النفس بسعيدة السعادة المطلقة المموقة؛ ومبعث ذلك الرأي عندهم أن النفس الناطقة لا تستوحي الكمال الذاتي والعقل النوراني ما دامت متصلة بتلك الهيولي التي تحجب عنها العلوم والمعارف الكلية، إلا إذا فارقت

ظلمة الهيولي ولوثة تلك الكدورة، وحينئذ تفارق الجهالات المتنوعة فتصفو وتخلص من ربقة البدن فتكتب لها الإضاءة ويواجهها النور الإلهي. ويترتب على رأي هؤلاء بادئ ذي بدء أن الإنسان لا يظفر بالفوز الأكبر والسعادة العليا إلا في حياة الجزاء بعد موته.

لكن تأتي بعد ذلك جماعة أخرى من الفلاسفة المتأخرين وأرستطاليس منهم في الطليعة، فتذهب إلى أن من الشناعة والعبث وتجاهل الواقع أن ينعت الإنسان الذي يعمل الأعمال الصالحة ويعتنق الآراء الصحيحة، ويجد في تحصيل الفضائل لنفسه أولاً ثم لأبناء جنسه ثانياً، فينشئ صروحاً من الخير متنوعة، ويقيم أعماله وما يصدر عنه من الآثار على محبة القلوب وكسب ألسنة الناس في سبيل إعلاء معالم الفضيلة والحق والنصفة وتحقيق معنى العدالة في أنبل مثلها - بأنه شقي في حياته الأولى وأنه لا يعتبر سعيداً إلا إذا فارقها وخرج من طبيعتها وملابساتها.

فالسعادة في رأي أرستطاليس ومتابعيه تتحقق في الحياة الأولى تطبيقاً لنظرية اشتهرت بينهم، وهي: أن الإنسان عندهم مركب من بدن ونفس، ولذلك يحدون الإنسان بالناطق المائت أو بالناطق الضاحك أو ما إلى ذلك، وفرعوا على هذه النظرية أن السعادة تحدث للإنسان إذا جد في طلبها وسلك إليها الوسائل المؤدية إليها. غير أن أرستطاليس حين رأى أن السعادة قد أشكل فهمها على الناس واضطربت فيها آراء العلماء والفلاسفة، عقد لها في كتابه المسمى (بفضائل النفس) فصلا طويل الذيل ضافي التفاريع حافلا بالحجج والآراء، فقال في فاتحة هذا الفصل مع تصرف في المبنى واحتفاظ في المعنى: (من البين أن الفقير في هذه الحياة يرى سعادته في الغنى واليسار، وأن المريض يراها في الصحة والسلامة، وأن الذليل يتمثلها في الجاه والعزة والسلطان، وأن الخليع يلمسها في التمكن من الشهوات المختلفة، وأن النبيل الفاضل الكريم ينشدها في تعميم مناحي الخير وإفاضتها على مستحقيها، والحد من طغيان ذلك الخير حتى لا يشمل غير مستحقيه) ويتحققها الفيلسوف المستقصي لحقائق الأشياء والمستتبع لملابسات القواميس الكونية في أنها إذ تكون مرتبة بحسب تقسيط العقل لها على معنى أن يلحظ فيها وقتها الذي يجب أن تقع فيه وكما يجب أن تكون وعند من تجدر فهي سعادات متنوعة، فما كان منها يراد لشيء يناسبه فذلك الشيء أجدر أن يطلق عليه أسم السعادة.

ثم كشف بعد ذلك أرستطاليس عن رأيه في بسط وإبانة، فقال مع تصرف في مبناه والاحتفاظ في معناه: قلما يتاح للإنسان أن يفعل الأفعال الشريفة المرضية دون مادة تقوم عليها كاتساع اليد وكثرة الأعوان وجودة البخت، ويتضح ذلك جلياً في صناعة المُلْك والرياسات المختلفة حيث لا يواتيهم توطيد لأركان هذه الزعامة إلا مقترناً بالشرائط المبنية على أن هناك نوعاً من الأعطية هي عطية الله تعالى جده، فهي السعادة لأنها عطية منه عز اسمه وموهبة في أشرف منازل الخير وأعلى مراتبه، وتلك الموهبة خاصة من خواص الإنسان الكامل فلا يشاركه فيها من ليست إنسانيته تامة كالصبيان وما يجري مجراه

وتلك النظرية تقوم على نظرية أخرى عند أرستطاليس فهو يرى أن السعادة تعتبر كذلك بالإضافة إلى صاحبها فهي كمال له، فالسعادة على هذا الوضع خير ما، وقد تكون سعادة الإنسان غير سعادة الفرس وما إليه، فسعادة كل شيء في تمامه وكماله الذي يلائمه، وهنا يفرق بين الخير والسعادة فيرى أن الخير من حيث أنه مقصود للناس جميعاً بالشوق إليه والعمل على تحصيله طبيعة تقصد، وله مفهوم عام يدل عليه وهو الخير المطلق للناس من حيث أنهم كذلك. فالناس أجمعون محاصون فيه. لكن السعادة شيء آخر غير الخير عنده، فهي خير ما لواحد من الناس، وهي بالإضافة ليست لها ذات معينة، وهي تختلف بالإضافة إلى قاصديها اختلافاً يرجع إلى مؤهلاتهم وما ركب فيهم من فطر ومعدات، ومن أجل ذلك يكون الخير المطلق غير مختلف فيه. وقد يظن بالسعادة أن تقع لغير الناطقين، لكن ليس على نحو من أنحاء الناطقين فإنها إذا وقعت فإنما هي استعدادات فيها بقبول كمالاتها الملائمة لها من غير روية ولا تدبير، وهي بمنزلة الشوق أو ما يجري مجراه من الناطقين بالإرادة

فما يقع للحيوانات في مآكلها واستجمامها لا يمكن أن يسمى سعادة بل الوضع الصحيح له أن يسمى بختاً أو اتفاقاً، وجلى أن العقل بفطرته قد جعل للسعي والحركة والإرادة المكتسبة للإنسان حداً تنتهي إليه، فذلك كان من المعقول أن يوجد خير

مطلق لا تأباه طبيعة هذا الوجود ولا يوجد بين الناس خلاف عليه، فالهمم والصناعات والتدابير الاختيارية المجدية
مثلاً، كلها يقصد بها خير ما لوجه الإنسانية على الأقل ولا يرتاب أحد في أنها كذلك وأنها تثمر ثمرتها المرجوة لها، فكل تصرف لا يقصد به خير ما كان عبثاً والعقل يحظره ويأباه
فيكون الخير المطلق مقصوداً إليه من الناس أجمعين، لكن بقي بعد ذلك أن يعلم ما هو ذلك الخير المطلق، وما الغاية القصوى منه التي هي غاية أنواعه وأعلى مراتبه؟
وذلك ما سنعالج تبيانه بعد. غير أن أرستطاليس قسم الخير تقسيماً مفصلاً ونوعه تنويعاً يكشف عنه كثيراً من الإبهام الذي وقعت فيه جمهرة من متقدمي الفلاسفة فهي ترى أن الخير أنواع وفصول، فمنه ما هو شريف ومنه ما هو ممدوح ومنه ما هو بالقوة، فالشريف منها ما كان شرفه مشتقاً من ذاته بحيث بقلع الشرف على من قام به وهو الحكمة والعقل، والممدوح منها كالفضائل والأفعال الجميلة الإرادية. أما ما كان بالقوة فكالتهيؤ والاستعداد لقبول الأشياء التي تكون نوعاً من هذه الأنواع، ومن الخير ما هو غاية، ومنه ما ليس كذلك، ومن الغاية ما هو تام، ومنها ما ليس كذلك؛ فما هو تام كالسعادة، لأن من بلغ إليها كان في غناء عن أن يكون له وراءها مطمع في مزيد، وما هو غير تام كالصحة واليسار، فإن من واتته الصحة وواتاه اليسار لم يكن له عن طلب المزيد غناء، بل ربما كانت الصحة أو اليسار من أقوى الحوافز له على طلب المزيد. أما الذي ليس بغاية منه فكالعلاج والتعلم والرياضة والعمارة والزراعة وما إلى ذلك. وجملة القول في الخير على ما حققه أرستطاليس وحكاه عن فرفوريوس أن من أنواع الخير ما هو خير على الإطلاق وما هو خير عند الضرورة. ومنها ما هو خير ولكن ليس من طريق له مقدماته ووسائله كالاتفاقات التي تتفق لبعض المجدودين من الناس، وأيضاً منها ما هو خير لجميع الناس ومن جميع الوجوه وفي جميع الأوقات.
ومنها ما ليس بخير لجميع الناس ولا من جميع الوجوه (وبالتالي) منها ما هو في الجوهر ومنها ما هو في الحكم، ومنها ما هو في الكيف، ومنها ما هو في ألاين، ومنها ما هو في الضاف، ومنها ما هو في الخير. وعلى الجملة فالخير يعرض للمقولات العشر التي يعبر عنها الفلاسفة الأقدمون بأنها الأجناس العالية التي ليس فوقها جنس بل هي أعلى الأجناس جميعاً فهي تحمل عليه حملاً اصطلاحياً إخبارياً. وقد أفاض أرستطاليس إفاضة مبسوطة في تبيان هذه الأجناس العالية، وعروض الخير لها دلالة منه على أن مناحي الخير غير محدودة، وأن نعمة الله التي أسبغها على عباده أوسع من أن تضيق بها تلك الرقعة السوداء بل إن آثار الله وآلاءه مبثوثة في كل جزء من أجزاء الكائنات، حتى يبقى البرهان القاطع قائماً على شيوع الآيات الباهرة في سائر مناحي تلك المجموعة الشمسية
وفي كل شيء له آيه ... تدل على أنه الواحد
وقد سلك أرستطاليس في ذلك مسلكاً يخالف مسلك المتقدمين من الفلاسفة كأفلاطون وبقراط ومن إليهما - فالمفهوم من تفاصيل مذهبه في النفس الناطقة وفي الخير والسعادة التي تنفعل بها قوى النفس جلي، بل إن الخير شيء غير السعادة وإنه شائع بأجزائه في كل مناحي الوجود حتى سرى الخير إلى سائر المقولات سريانه إليها دليلاً على ذيوعه وانتفاع الناس به. فالخير في الجوهر وهو ما ليس بعرض يمثل له أرستطاليس بالحق تعالى جده، فهو الخير الأول على حد تعبيره، فإن جميع الأشياء تتحرق بالشوق إليه ولأنه يفيض السرمدية والبقاء على الخير الذي كتب له الخلود وعلى الآلاء اللانهائية، وعلى كل ما لا يطرأ عليه الفناء من أجزاء العالم الثاني الذي يعبر عنه المتقدمون من المتكلمين بعالم الجزاء. وفي الكم يمثل له بالعدد والمقدار المعتدلين، ويمثل للكيف باللذائذ وألوان المتاع، ويمثل لمقولة الإضافة بالصدقات والرياسات التي تنبعث عنها صلاحية تنطوي على خير الإنسانية في أكمل حدودها، ويمثل لمقولة الأين بالمكان المعتدل في أبعاده وأجوائه ومحيطاته وبالزمان الأنيق البهيج المتفتح الأكمام عن المرح والسرور. ويمثل لمقولة الوضع بالقعود والاضطجاع وسائر المشاهدات المؤثرة، ويمثل للعقل برواج الأمر ونفاذ الكلمة وسعة السلطان. وعلى الجملة فأنواع الخير عنده منها ما هو من قبيل المحسات ومنها ما هو من قبيل المعقولات. ولعل الأستاذ أحمد أمين، وقد أذاع على متن الأثير محاضرتين في السعادة

والشقاء، يعود فيصحح بعض نظرياته التي طالع بها سامعيه. ولعل الأستاذ الشيخ أمين الخولي، وقد أذاع هو الآخر على متن الهواء محاضرتين أو ثلاثاً لا أدري في الحياة المثالية والحياة البدائية وما يتصل بهما من قوى النفس الناطقة، يعود هو الآخر فيصحح بعض نظرياته ليرضي الحق وهيبة العلم في صميمه من جهة، ثم ليرضي في الأقل سامعيه من جهة أخرى، وموعدنا بالكشف عن ذلك كله سوانح مقبلة.

عباس طه

التاريخ في سير أبطاله

ابراهام لنكولن

هدية الأحراج إلى عالم المدنية

للأستاذ محمود الخفيف

يا شباب الوادي! خذوا معاني العظمة في نسقها الأعلى من سيرة هذا العصامي العظيم. . . . . .

- 22 -

جلس أبراهام ينتظر رد سيوارد بصبر فارغ وفؤاد قلق، فإنه ليعجب كيف يقف منه صاحبه مثل هذا الموقف؛ على أنه لن يحجم عن مواجهة العاصفة وحده مهما بلغ من شدتها، وإن كان ليود بينه وبين نفسه أن يكون سيوارد إلى جانبه في تلك الشدة التي تطيش في مثلها أحلام الرجال وإن كانت تزن الجبال. . . يود أن يستعين بصاحبه فهو واثق من كفايته مطمئن إلى إخلاصه

وما بال الرئيس تزداد سحابة الهم كدرة على محياه حتى ليبدو للأعين كمن أخذته غاشية من حزن أليم؟ ما باله طويل الإطراق كثير الصمت، لا يستمع إلى حديث زوجه إلا قليلاً ولا يشاطرها جذلها ومرحها ولا يشاركها ما دب في قلبها من الزهو بما باتا يتقلبان فيه من نعمة ويحظيان به من جاه. . .؟

إنما يكرب الرئيس ما آلت إليه حال بلاده، فما به خوف أو تردد وما هو عن البذل بضنين؛ وإنه ليحزنه أن يكون بنو قومه بعضهم لبعض عدو في غير موجب لذلك وهم عن الحق في عماية من تبليل أفكارهم وتسلط العناد على نفوسهم، وما له إلى هديهم بالتي هي أحسن حيلة.

ورضى سيوارد آخر الأمر أن يعمل مع أبراهام، وكان سيوارد قليل الثقة بكفاية صاحبه الإرادية لأنه لم يسبق له أن شغل منصباً إدارياً قبل هذا المنصب الخطير، ولذلك كان يطمع سيوارد أن تكون في يده السلطة الفعلية وتكون للرئيس الرياسة فحسب؛ وبهذه الروح بدأ العمل مع صاحبه. . .

واختار لنكولن رجالاً للحكومة كون منهم مجلسه ومن أشهر هؤلاء نشيس، وكان من أعظمهم كفاية بعد سيوارد؛ غير أنه لوحظ على الرئيس أن أربعة من رجال مجلسه كانوا منافسين له في الرياسة مما يخشى معه أن ينسوا الصالح العام من أجل العمل على توطيد مراكزهم توطئة للانتخاب القادم، ولكن لنكولن رد على هذه المخاوف بما ارتآه من اعتبارات أملاها عليه بعد نظره، فلكل من هؤلاء شيعة وأعوان، وكل منهم يمثل ولاية من الولايات الشمالية؛ هذا إلى ما يعلمه من كفايتهم، وإنه ليركن إليهم مطمئناً إلى وطنيتهم قائلاً إن الوقت عصيب فما يظن أن أحداً تحدثه نفسه أن يعمل لصالحه الشخصي في ظروف كتلك الظروف. . .

ولما جلس لنكولن معهم حول المنضدة عرف كيف يؤلف بين قلوبهم وكيف يحملهم على احترامه ثم محبته ثم الإذعان له والتسليم بالتفوق. ولقد باتوا جميعاً يعجبون كيف يدير الأمور كما يلمسون رجل لم يعهد إليه مثل هذا العمل من قبل، ولولا أنهم يعرفونه جميعاً لما صدقوا أن هذه هي أول مرة يضطلع فيها بمثل هذا العمل رأوه يخفض لهم جناحه ويبسط لهم مودته ويوسع صدره؛ يستمع لآرائهم جميعاً ولا يتكلم حتى ينتهوا؛ فإذا أعجبه رأي قبله مغتبطاً، وإذا خالف أحداً في رأيه أظهر له في دماثة سبب مخالفته مع شدة الحرص على احترام شخصية من يخالفه وإظهار الاستعداد للاقتناع إذا استطاع محدثه أن يزيده إيضاحاً أو يسوق له الجديد من الحجج وعرفوا من كثب خلاله فأعجبوا بأدبه وعذوبة روحه ونقاء سريرته وطيب قلبه؛ ولمسوا شجاعته في الحق، وأنسوا نكرانه لذاته ونسيانه كل شيء عدا رسالته التي يستمد

منهم العون في أدائها. . . وبلوا بأنفسهم صبره في الشدائد وعزيمته إذا همّ بأمر اقتنع بصوابه؛ وتبينوا حصافته وأناته وبعد نظره، وبهرهم فوق هذا ذهنه المصفى ومنطقه المستقيم وفصاحته وفطنته، تلك الخلال التي جعلته أقدر الناس فيهم على أن يفصح عن آرائه لمن إليه، وأن يتبين ما يأخذ مما يدع في كل ما يعرض له من الأمور مهما تعقدت والتوت على غيره الأمور. . .

ولقد عد كثير من المؤرخين إدارة لنكولن مجلسه على هذه الصورة مظهراً قوياً من مظاهر عظمته، وناحية متينة من نواحي نجاحه، وسلكوه بها في ثبت كبار الساسة في تاريخ الأمم، ولا عجب فإنه ليندر أن نجد في سجل الأيام مجلساً حكومياً شعر أعضائه من معاني الاحترام والمحبة بمثل ما شعر به أعضاء هذا المجلس نحو رئيسهم. . . لا يستثنى منهم أحد، حتى سيوارد الذي كان يدل أول الأمر بتجاريبه ودرايته بأساليب الحكم والسياسة، ما لبث أن اعترف في نبل وكرامة نفس أن رئيسه أقدر منه وأجدر بذلك المنصب. . .

وكان أول ما تلقاه الرئيس من البريد في صباح اليوم الثاني لتسلمه العمل خطاباً من الجنرال أندرسون في حصن سمتر ينبئه فيه أنه ما لم يصل مدد إلى الحصن فإنه لا يقوى على الدفاع عنه أكثر من أسبوع. . . وكان أهل الجنوب وأهل الشمال على اتفاق ألا يهاجم أنصار الانسحاب من الاتحاد الحصن إلا إذا رأوا من أهل الشمال ما يبرر ذلك. . . وماذا عسى أن يفعل الرئيس إذن؟ أيترك حامية الحصن بلا مدد أم يرسل المدد فيتحدى بذلك أهل الجنوب؟ إن عليه أن يختار بين أمرين أحلاهما مرّ.

لذلك أخذ الرئيس يتدبر عله يجد مخرجاً، وهو على عادته طويل الأناة لا يخطو خطوة قبل أن يحسب لكل أمر حسابا، ولكن سيوارد يضيق ذرعاً بهذه الأناة وينصح للرئيس أن يأمر بإخلاء الحصن، وكذلك يشير عليه سكوت رأس جنده؛ وهو لا يرى ما يريان فالمسألة دقيقة شائكة. أو ليس التخلي عن الحصن معناه الاعتراف ضمناً لأهل الجنوب بصواب دعوتهم إلى الانسحاب؟ ثم أليس في ذلك خروج على ما أعلن الرئيس في خطبة الاحتفال؟ وهو أن أرسل المدد إلى الحصن ألا يعتبر عمله هذا تحدياً للثائرين فيكون بذلك هو الذي خطا أول خطوة نحو الحرب، الأمر الذي يحرص أشد الحرص أن يتجنبه؟ . . . إذن فلابد من الروية والتدبر والصبر. . .

وجاء رجلان من الجنوب إلى العاصمة الشمالية كممثلين لدولة أجنبية يطلبان أن يفاوضا لنكولن على هذا الأساس، ولكنه رفض أن يلقاهما ولم يفعل أكثر من أن يرسل إلى كل منهما نسخة من خطبته. وبقي الرجلان في العاصمة يجمعان الأنباء ويرسلانها إلى أهل الجنوب. . .

والصحف تهيب بالرئيس أن يأتي عملاً إيجابياً ولكنه صامت يفكر. . والرأي العام يغلي كالمرجل حتى لقد أطلق الناس ألسنتهم فيه بالسوء من القول، فالرئيس غِرٌ جبان، متورط لا رأي له ولا بصيرة ولا حزم. . . وتفرق الناس في الشمال شيعاً فمنهم من يرى وجوب الحرب، ومنهم من لا يرضى إلا المسالمة والاتفاق، ومنهم من يتذمر ويتبرم ولكنه لا يرى شيئاً ولا يحس غير القلق والخوف، والرئيس لا يجيب إلا بقوله (إذا أخلى أندرسون حصن سمتر فسيكون عليَّ أنا أن أخلي البيت الأبيض). . .

ويهتدي ابن الأحراج بعد طول روية إلى رأي فيه دليل قوي على حنكته السياسية حتى لكأنه مارس السياسة طول حياته، ذلك أنه يزمع أن يرسل القوت ليس غير إلى الحصن، وحجته أن ذلك عمل إنساني لا عدوان فيه، فإذا قبل الثائرون هذا حلت المشكلة؛ أما إذا قابلوا ذلك بالقوة فعليهم إثم ما يفعلون، فهم بذلك يكونون بادئي العدوان ومشعلي نار الحرب. . . ولأهل الشمال بعد ذلك أن يدفعوا عن أنفسهم العدوان إن كانت في نفوسهم حمية وفي رؤوسهم نخوة الرجال. . .

وتسير السفن محملة بالقوت، بعد أن يرسل الرئيس نبأ عنها إلى قائد الثوار حول الحصن، ولكن القائد لا يكاد يبصر السفن من بعد، حتى يطلق النار على الحصن فيسقط علم الاتحاد وتنسحب الحامية بعد دفاع مجيد. . .

ويثب أهل الشمال للنبأ وثبة واحدة فلا خلاف بينهم بعد ذلك ولا تنازع، وما فيهم إلا من يريد الدفاع عن الاتحاد ورد الإهانة التي لحقت بالعلم الذي طالما خفق على رأس

. . .وشنجطون وجنوده البواسل غداة حرب الاستقلال
وما حدث في تاريخ العالم من قبل أن تحمس شعب إلى الدعوة للجهاد كما تحمس أهل الشمال يومئذ؛ فلقد كان الشيوخ قبل الشباب يريدون خوض غمار الحرب، ولم يتخلف النساء ولم يقعدن عن شحذ العزائم واستنهاض الهمم وإن لم تكن هناك حاجة إلى سعيهن. . . أما الشباب البواسل فقد استحبوا الموت على الحياة فساروا مغتبطين . . .يطرحون نفوسهم تحت المنايا كأنما يسيرون إلى نزهة لا إلى مثل عذاب الجحيم
وهكذا تقع الحرب بين نصفي شعب واحد. ولقد كان الرئيس أكثر الناس في الشعب جميعاً تألماً، وكان قلبه الإنساني الكبير يكاد يتفطر، ولكن ما الحيلة وهو يرى بناء الاتحاد أمام عينيه ينهار حجراً بعد حجر؟
وحسبك دليلاً على حماسة أهل الشمال أن الرئيس عندما أهاب بالولايات أن ترسل إليه
خمسة وسبعين ألفاً من المتطوعين، هرع إليه أكثر من تسعين ألفاً، وبعد شهرين وصل العدد إلى أكثر من ثلاثمائة ألف من البواسل الأمجاد.
وكان الموقف قبل وصول المتطوعين إلى العاصمة أشد ما يكون هولاً وخطراً. . . فلم يكن لدى لنكولن سوى ثلاثة آلاف، ولن يستطيع هؤلاء الدفاع عن العاصمة مهما كان من استماتتهم وشجاعتهم؛ لذلك سرى الخوف في المدينة وأيقن أهلوها أنها واقعة في أيدي الأعداء لا محالة
والرئيس ينتظر قدوم المتطوعين لإنقاذ المدينة من الخطر المحدق بها؛ ذلك الخطر الذي تشتد وطأته تبعاً لمسلك الولايات المحايدة وعلى الأخص فرجينيا؛ إذ كانت تلك الولايات تقف من النزاع موقفاً مبهماً ظن من أجلها أنها تلتزم الحيدة وإن كانت في الواقع تنزع إلى أهل الجنوب؛ وكانت فرجينيا أقربها موقعاً من وشنجطون لا يفصلها عنها إلا نهر ضيق. وسرعان ما أعلنت فرجينيا انضمامها إلى الاتحاد الجنوبي فبات العدو بذلك على أبواب عاصمة أهل الشمال، بل لقد كان البيت الأبيض على مرأى من الجند؛ لذلك شاع في الناس أن الجند سيعبرون النهر عما قريب فيستولون على مركز الحكومة ويسوقون لنكولن ومجلسه أسرى بين أيديهم. . .
وتزايد القلق وعظم الهول واشتد بالناس الكرب، والرئيس يسأل عن المتطوعين فلا يجد جواباً شافياً من أحد، حتى يصل إلى العاصمة قطار يهرول الناس على صوت صفيره إلى المحطة فتقع أعينهم على أول فرقة من فرق المتطوعين وهي فرقة نيويورك، وتعظم حماسة الجميع فيتصايحون ويرددون الأناشيد.
ويظل الرئيس يبحث عن القائد الذي يوكل إليه أمر هذه الحرب فلا يجد غير رجل يدعى (لي)، وكان يومئذ غائباً في فرجينيا وهو خير من يضطلع بهذا العبء، ولكن (لي) يرفض أن يأخذ قيادة الجيش، فيجزع لنكولن لهذا الرفض ويكتئب.
وبينما هو يبحث عن قائد غيره ينذره أهل بلتيمون، وهم الذين تآمروا من قبل على قتله، أنهم لا يسمحون بمرور جند في ولايتهم لأنهم محايدون. . . وينقضون بعد ذلك على فرقة قادمة من مساشرست، كانت من أقوى الفرق وأعظمها نظاماً، فيقتلون عدداً منها ويجرحون عدداً، ويحمل الجرحى على محفات إلى وشنجطون، فتلهب جراحهم حماسة القوم وتستثير
. . .حميتهم وتزيد بأسهم
ولم يكتف الثوار في بلتيمور بما فعلوا فحطموا الجسور التي تصلهم بالشمال والغرب، وعطلوا الخطوط الحديدية المؤدية إلى وشنجطون. . . ولكن أحد القواد الشجعان الموالين للرئيس لنكولن خرج من وشنجطون على رأس عدد من المتطوعين وباغت المدينة ليلاً وقبض على كثير من الثوار وقتل نفراً منهم ففت ذلك عضدهم، وأعلنت ولاية ماري لند بعد أن خضعت عاصمتها على هذا النحو انضمامها صراحة إلى الاتحاد، وكانت هذه الخطوة من جانب أهل الشمال أولى خطواتهم الموفقة
وأعلن الرئيس لنكولن الحصار البحري على موانئ الاتحاد الجنوبي ليقطع الصلة بينها وبين العالم، ثم أهاب بالولايات الخاضعة له أن تمده بعدد جديد من المتطوعين، فما لبثت أن أمدته بما طلب، حتى لقد غصت وشنجطون بهؤلاء المستبسلين الذين أراد لنكولن أن يستعيض بحماستهم عما يعوزهم من التدريب والنظام.
وفي تلك الأيام العصيبة نرى دوجلاس خصم لنكولن القديم يسعى إلى البيت الأبيض

ويقابل الرئيس ويفضي إليه بإعجابه بما انتهج من خطة، ويعده أن يظل إلى جانبه خادماً لقضية الاتحاد وتتوثق عرى المودة بين الرجلين، ويستأذن الرئيس صديقه الجديد أن يذيع في الناس هذا النبأ، فيأذن دوجلاس مغتبطاً بعد أن يقرأ ما أعد للنشر؛ ويقابل الديمقراطيون وغيرهم هذا النبأ بالابتهاج، ويشعرون بقوة جديدة يظفر بها أهل الشمال ولا يني دوجلاس يدافع عن الرئيس وسياسته يخطب الناس في المدن يستحثهم إلى البذل والتضحية؛ ولا يفتأ يضع بين يدي الرئيس من نصحه ومشورته ما يحرص الرئيس على الانتفاع به. ولكن يد الموت لا تمهل دوجلاس أكثر من شهرين فيلقى حتفه، ويتلقى لنكولن نبأ الفجيعة فيذرف الدمع السخين ويشتد به الغم حتى يرمض فؤاده. . .

ولقد امتدت يد الموت قبل دوجلاس إلى شاب مجاهد كان أول أمره يعمل في مكتب لنكولن أيام كان يحترف المحاماة؛ ولقد أعجب لنكولن بذكاء هذا الشاب وملك قلبه شدة محبته له، فلما سار إلى العاصمة سار معه؛ ولما تحرجت الأمور، برز هذا الشاب الباسل الذكي يجمع الفرق ويدربها ويعدها للنضال. . . إلى أن كان ذات يوم فأرسله لنكولن إلى ضفة النهر المواجهة للعاصمة ليحتل المرتفعات هناك. . .

ثم إن هذا الشاب الذي يدعى الزورت ذهب على رأس جنده فاحتل الأماكن المعينة؛ وهناك بصر بعلم من أعلام الثوار يخفق على جدار فندق في مدينة صغيرة تسمى الإسكندرية فتسلق الحائط في بسالة عجيبة وانتزع العلم من موضعه، وبينما هو نازل من أعلى الجدار إذ أصابته رصاصة فانكب على وجهه، وتدفق الدم من قلبه على هذا العلم، فكانت ميتته هذه ميتة بطل، تركت في نفوس أصحابه ما لا يتركه النصر في معركة حامية. . . ولا تسل عما أصاب الرئيس يومئذ من هم وحسرة. . . لقد حزن على هذا البطل كما كان يحزن لو أن الميت كان وحيده؛ وجاءت بعده منية دوجلاس فكانت الميتتان فاتحة الكوارث في هذا النضال العظيم. . .

(يتبع)

الخفيف

دمعة

لشاعر الحب والجمال لامرتين

للأديب عارف قياسه

فلنقطف الورد في غدوة حياتنا، ولنجن الرياحين في بكرة أعمارنا، ولننسم على الأقل أريج أزهار الربيع الخاطف، ولنغمس قلبينا في فيض اللذة النقية الطاهرة، وليكن هوانا يا حبيبتاه بحراً مسجوراً لا حد لسعته.

حين يبصر الربان زورقه الهش يتراقص فوق أعراف الموج الثائر، ويرجحن على غارب الآذى الغضبان، يكاد يزدرده اليم الهائج، يرجع ببصره إلى الشطآن التي نأى عنها، ويأسف على ما ذاق فيها من متع، وما رأت عيناه من مباهج وفتون

واحسرتاه! لشد ما يرغب في أن ينفق أيامه الداجية في مثوى آبائه وأجداده - غنياً عن فراق وطنه وآلهته - آمن السرب، ناعم الخاطر، لا يشمخ المجد بأنفه، قرب آثار عزيزة عليه، أثيرة لديه، لا يبارح طيفها خاطره، ولا يفارق خيالها ذهنه ولا مشاعره

كذلك الرجل الذي تقوس ظهره تحت أعباء السنين، وآصار الأعوام، يبكي ربيعه البهيج الزاهي - وقد ذهب إلى غير معاد، مَرِه العين، كليم الفؤاد، ويهتف:

(ردي عليَّ يا آلهتي الرحيمة تلك السويعات المضمخة باللذة والنعيم، فقد أنسيت أن أرشف رحيقها في حينه!)

ولكن المنية وحدها هي التي أجابته، وتلك الآلهة لم تصخ لرجائه، ولم ترق لبكائه، وإنما حدته إلى الرمس حدواً، وزجته في غياهبه زجاً، دون أن تأذن له في أن ينحني فيلتقط تلك الأزاهير التي لم يتح له أن يجنيها، فيستروح عَرفها وشذاها، ويفعم أنفه بعبقها ورياها

فلنتساق يا حبيبتاه أكؤس الهوى مترعة دهاقاً

ولنضحك ملء أفواهنا من الهموم التي تساور نفوس الأحياء، وتخامر قلوب الأشقياء!

ولنرث لأولئك الذين أفنوا شطر أعمارهم، سعياً وراء حطام الدنيا الكاذب، وهبائها الغرور.

لنعزف عن صلف أولئك الفارغ، ولنصدف عن ادعائهم الأجوف، ولندع الأمل العريض

لمعلمي الإنسانية، يتعللون به ويتفكهون، ولنسارع نحن إلى احتساء كأس عمرنا حتى ثمالتها، ما امتطت تلك الكأس أكفنا
وسواء علينا أزانت مفارقنا تيجان الغار، ونقشت أسماؤنا في سجل (بلّون) الصلفة الراعف، على المرمر أو الفلز
أم توج الحب جباهنا المتواضعة بزهرات بسيطة جناها الجمال، فإننا جميعاً في يمْ واحد طاوون، وعلى شاطئ واحد لمتحطمون.
أليس سواء لدى المسافر الفريد، ساعة الغَرَق: أكان راكباً في سفينة شامخة شماء، تشق بحيزومها عباب الماء، تجاهد الزعازع وتصارع الأنواء، أم كان ممتطياً زورقاً خفيفاً تلعب به الأمواج، يلامس الساحل، ولا يجسر أن ينأى عنه؟
حماة (سوريا)
عارف قياسه
حول قصة حاجي بابا في إنكلترا
كما يرانا غيرنا
للأستاذ عبد اللطيف النشار
أشارت الرسالة في عددها الأخير إلى ما يخشاه بعض إخواننا الإيرانيين من اللبس بين إيران كما هي اليوم في مدنيتها الزاهرة وبينها كما وصفها مؤلف قصة حاجي بابا في إنكلترا، تلك القصة التي ترجمتها وتفضلت مجلة الرواية فنشرتها في بعض أعدادها الأخيرة
ولقد ذكر الأستاذ صاحب الرسالة أن مؤلفها نشرها في سنة 1822 ووصف بها إيران كما كانت في عهده غير متجنٍ على الشرق كله، فما كان الوصف إذ ذاك قاصراً على دولة دون دولة من الشرق الإسلامي
وما من شك في أن هذا الجواب السديد جدير بأن يزيل كل لبس من هذه الناحية؛ وقد عنَّ لي أن واجباً عليَّ بيان السبب في ترجمتي هذه الرواية لإزالة لبس آخر أخشاه من ناحية الاختيار، فأتقدم إلى قراء الرسالة وهم ممثلو كل الأمم الشرقية الإسلامية بأن جهدي في الترجمة لم يقتصر على تلك القصة، ولكنني ترجمت نحو الخمسين رواية معظمها عن الشرق وفيها عن مصر وعن العرب، وفيما ترجمته عن مصر وعن العرب نقد أشد مما احتوته قصة حاجي بابا، فاختياري قائم على الرغبة في إطلاع الشرقيين وهم جميعاً إخواني على ما يكتب عنهم بلغة اعتدت القراءة بها ليعرفوا رأي الغير فينا. ولا أراني أقل غيرة على دولة شرقية مني على دولة أخرى، فإن الدم الذي يجري في عروقنا نحن الشرقيين دم مشترك. لا بل أجد الفرصة مناسبة لأطرح على القراء رأياً لي في اختيار الكتب للترجمة:
للمستشرقين جهود غير منكورة ولهم أغلاط شنيعة. وكتبهم مقروءة باللغات الأوربية بين من يثقون بهم ويجلونهم ويمدونهم حجة. وكتب هؤلاء المستشرقين وتلاميذهم تعد بالمئات وكتب الذين ينهجون نهجهم ممن لا يساوونهم في المعرفة أكثر عدداً. ومن بين قرائها شرقيون قد يتأثرون بها ويعجزون عن دفع شرها إن كان - فهل يحسن بهم أن ينقلوها إلى لغاتهم الشرقية ليتولى دفع الشبهات من يستطيع ذلك من أبناء تلك اللغات الذين لا يعرفون
لغة أجنبية، أو الذين يعرفون ولكن لا يقع في متناول اطلاعهم ذلك النوع من الكتب الممزوج خيرها بشرها؟
أقول ذلك وأضرب المثل بنفسي ولديَّ بحمد الله الشجاعة ما يساعدني على الاعتراف بأني لا أملك تصحيح أخطاء شنيعة في كتاب أترجمه الآن عن الإنكليزية وعنوانه (الواثق)
في هذا الكتاب تجن شديد على خليفة من خلفاء المسلمين وافتيات صريح على التاريخ. وقد قرأته في لغته وقرأه من أبنائها عشرات الألوف في مدى مائة عام مضت من عهد تأليفه إلى الآن؛ وقرأه باللغات الأخرى عشرات الألوف من أبناء الأمم الأخرى؛ فهل يرى الأزهري والدرعمي وخريج مدرسة القضاء الشرعي وغيرهم ممن تخصصوا في دراسة التاريخ الإسلامي أن يظل هذا الكتاب مقروءاً ممن يحسنون لغة أجنبية دون أن تصحح أخطاؤه، أم يرون أن يترجم لهم وهم أقدر على التصحيح ممن يقرؤون عادة باللغات الأجنبية؟

أنا لا أقوم بدعاية لكتاب كهذا حين أترجمه ومن السهل عليَّ تمزيق مسوداته. ولكن هل يزول أثر الكتاب إن فعلت ذلك أم يظل منتشراً بين الناس في لغات أخرى يقرؤها الكثير من الشرقيين؟
أما أنا فرأيي أن نعرف رأي الغير فينا فذلك أدنى إلى تصحيحه وما أحوجني إلى معرفة الحجج التي يدلي بها أنصار التجاهل
عبد اللطيف النشار
بين اللغة والأدب والتاريخ
الفالوذج
للأستاذ محمد شوقي أمين
- 3 -
صنفه السوقي، هل وضع له أسم عربي، قول الثعالبي، نقل السيوطي، رأي السكندري، فصيح الألفاظ في معناه
- 4 -
ولما تألق الفالوذج في دنيا المطاعم، وازَّينت به موائد الأثرياء، تسامع به العامة، فتحلبت له شفاههم، وتشوفت إليه شهواتهم، فراح السوقيون من صناع الأطعمة وباعتها يلهوجونه على ما يعرفون من صفته، فيخرجونه مسيخاً مليخاً لا تأنق في طهيه، ولا استجادة لمادته، حتى يتسنى لهم أن يبيعوه بالثمن القليل الذي لا تعجز عنه طاقة العامة من رقاق الحال وذوي العسرة. ولم يكن هذا الصنف المبتذل من الفالوذج إلا بهرجة صبغ، وتضوُّء بريق فافتضح على الأيام زيفه، وثأرت لأذواقها الألسنة بذمة، فقيل في كل من حسنت جهيرته، ولم تطب سريرته: فالوذج السوق وصارت الكلمة مثلاً سائراً يتناقله الأدباء والشعراء، ومن أمثلة استعماله قول ابن حجاج، وهو الشاعر المزاح السليط الذي ترجم له الثعالبي فأوفى:
أعززْ عليَّ بأخلاق وُسِمتَ بها ... عند البرية يا فالوذج السوق!
وقد أثبت الميداني هذا المثل في أمثال المولدين، وأضاف إليه توأماً له، ذلك هو: فالوذج الجسر. ولا بد أن يكون باعة هذا الصنف الملَهْوَج كانوا يجولون به، فيعرضونه للعامة في الطرق الصادرة والواردة. وبَديه أن من أحفلها بالناس: المعْبَر. فهو ملتقى السابلة من الطبقات العاملة، يغدون على الحاجات؛ ويروحون بالسلَع. فيبلون لهواتهم بالفالوذج المسموع به، الشهي مذاقه، الرائع منظره، ومن ثم شاع اسم فالوذج الجسر، إلى جانب فالوذج السوق، وكانا مثلين لذي المظهر بغير مخبر!
- 5 -
أسلفنا القول في صفة الفالوذج، على ما استنبطناه مما أنهته إلينا نقول الأدب والطرائف. وأدرنا الحديث قبل ذلك في لفظه والوجه في تعريبه كما تعرفناه في نصوص المعجمات وما في حكمها. فبان لنا أن اللغويين مجمعون على أنه معرب، فهو في عديد الألفاظ التي اغتنمت العروبة، وارتضى تجنيسها القُوَّام على الفصاحة.
وبقي أن نعرف: هل وضع العرب لهذه الحلواء اسماً فصيحاً غير اسمها الأعجمي، أو اكتفوا باستعمالهم لهذا الاسم بعد تعريبه وإلحاقه ببنات الضاد؟!
ساق الثعالبي جملة أسماء تفردت بها الفرس دون العرب؛ وقال: إن العرب اضطرت إلى تعريبها أو تركها كما هي، وجعل يعد من هذه الأسماء، فإذا من بينها الفالوذج. وقد نقل السيوطي فصل الثعالبي برمته، ما تعقبه بنقد، ولا استدراك عليه من شيء. فهل يريدنا ذلك على أن نعتقد أن العرب اكتفوا بالاسم الأعجمي، ووقفوا عنده، فلم يضعوا لهذه الحلواء لفظاً تقر به عين الزارين على التعريب مهما تمس إليه الحاجة، الضانين بالجنسية العربية على الدخيل، وإن ملك الألسن، وتراوحت عليه الأحقاب؟!
إن قول الثعالبي ونقل السيوطي خليقان أن يهيئا للباحث هذه العقيدة، ويغرياه بها.
ولعل ذلك هو الذي مَهَدَ لعلامة الفقه اللغوي الشيخ أحمد الإسكندري - رضوان الله عليه - أن يقول فيما يستعمل من الألفاظ وما لا يستعمل: (وإذا سبق أن استعمل لفظ أعجمي زمن العرب كالفالوذج الذي عرف من أيام الرشيد، فمثل هذا في الواقع لم يكن من تعريب العرب، بل أطلقه طباخ أعجمي، وسمعه العرب واستعملوه؛ فمثل هذا وفُقِّنا إلى لفظ عربي سهل له، استغنينا عنه، لأن الواضع له في الحقيقة أعجمي لا عربي. . .)

فأما قول العلامة الإسكندري إن الفالوذج ليس من تعريب العرب، فهو قول ينفرد به، ولم أجد من سبقه إليه، بل لقد أصفن اللغويون على أنه معرب، وقد جاء في حديث للنبي صلوات الله عليه، أضف إلى ذلك أن العلماء القدامى ناقشوا في تصريفه، وجادلوا في تعيين حروفه. ولا يأخذ لغوي نفسه بهذا الصنيع، إلا إذا كان اللفظ معرباً أُفسح له في البقاء، فوجب توضيح زيه وشارته التي سيبقى بها في وطنه الجديد. وإن لزاماً علينا أن نشير إلى أن قول الإسكندري إنما جاء في عرض حديث شفوي شأنه الإعجال والإرتجال،

وهو منقول عنه، ومنسوب إليه، لا مكتوب بقلمه، ومثل هذا لا يؤخذ به صاحبه كما يؤخذ الكاتب راجع ما كتب وحققه على نص ما يريد. والرجاء أن نكون بذلك قد أنصفنا ذكرى رجل نعرف له الفضل والبَصارة، وتطوي له النفس على التجلّة والإكبار.

وأما رغبته في البحث عن لفظ عربي، يوضع للفالوذج اليوم جديداً من الوضع، فقد أداه إليها ما علمه وقدمنا بيانه من قول فقهاء اللغة: إن العرب تركوا الفالوذج على ما هو عليه، فأفهم قولهم هذا أنه لم يوضع له في سالف الزمن لفظ فصيح؛ ومن ثم وجب عنده أن نعمد إلى البحث والتفتيش حتى نوفق إلى لفظ عربي سهل، نستغني به عن الاسم الأعجمي، كما توضع اليوم المصطلحات الجديدة للأشياء المستحدثة بالطرق المعروفة من نحو المجاز والنقل والاشتقاق.

- 6 -

ولقد رصدت عيني منذ عهد ممدود لهذا الشأن فيما أرتصدها له من مباحث الفصحى؛ فتتبعت مواقع الفالوذج في أشتات الكتب، وفتشت عن ألفاظه في أجلاد الألفاظ، واستقريت منها ما راج لي أن أستقري، فتحصل لي من صحاح العربية: اثنا عشر لفظاً، وضعها العرب ليقوم كل منها مقام الفالوذج الأعجمي. ولم أر من المتحققين باللغة من أستوعى هذه الألفاظ، فلاءم بينها بعد الشتات والفرقة، وسوى بها فصلاً من فصول الفقه اللغوي، على نحو ما يصنع الأئمة في المعنى يؤدى بغير لفظ فذ، فقد ظلت هذه الألفاظ في المعجمات اللغوية أباديد، فجعلتها في هذا المعرض فصل من نتاج الاستقراء والتلقط جديد، لم يسبق إليه أحد، فيمن أجد، ولا مسه قلم فيما أعلم.

(للبحث صلة)

محمد شوقي أمين

لمناسبة الرحلة الملكية في الصحراء الغربية

لسان الصحراء

في رحلة جلالة الملك

للمرحوم مصطفى صادق الرافعي

(في شهر أكتوبر من سنة 1928 قام المغفور له الملك فؤاد برحلة إلى الصحراء الغربية وواحة سيوة، وكان المرحوم الرافعي يومئذ شاعر جلالته وحادي ركابه؛ فأنشأ هذه القصيدة يتحدث فيها عن الصحراء لمناسبة هذه الرحلة الميمونة واليوم - وبعد عشر سنين كاملة - يقوم جلالة الملك فاروق الأول برحلته إلى الصحراء) ليرود المعالم التي رادها من قبل والده العظيم؛ فلعل في نشر هذه القصيدة لهذه المناسبة ما يقوم بواجب الولاء ويبعث طيب الذكرى)

سعيد العريان

تَسآءلَ القفرُ إذ حلَّ المليكُ به ... أدار بي موضعي أم حان تجديدي؟
أم بعد زرعي دهوراً لا حصيدَ لها ... من التواريخ، آن اليوم محصودي؟
رَمْلي على الأرض كالدينار من ذهب ... مُلْقىً ضَياعاً وموجوداً كمفقود
أم غَيَّرَ اللهُ أيامي فأسعدني ... مليكُ مصرَ بيوم منه مسعود؟
كأن لي زمناً ما كان من زَمَنٍ ... وَلا مَشَى بحسابٍ أو بتعديد
والوقت يخضع للساعات تمسكه ... بكل ثانية من غير تبديد
وساعة القفر قفرٌ، فالثلاثُ بها ... كالخمس، كالتِّسع، لا معنى لتحديد
أَم طُولُ صبري على الفِقدان عوَّضني ... بأن يزور قِفاري خيرُ موجود؟
شمسٌ من الله في صدري وما كملتْ ... إلا بشمس من الإنسان في جيدي
أَم ما لقيتُ من الحرمان كافأني ... بأن يحلَّ بأرضي سيِّدُ الجود؟
مَلْكٌ كأن نباتَ العزِّ في يده ... تجنيه من ذهبٍ أيدي المجاهيد

ويسحر الأرضَ حتى الأرضُ من أُفُق ... ويسحر الوقتَ حتى الوقتُ من عيد
أم ذاك حُلمُ الصحارى بالنعيم سَرَى ... وَمَرَّ منطلقاً في هجعة البيد؟
في القفر دنيا ورا الدنيا نفرُّ لها ... على مطايا الكرى من عيش تنكيد
إني كقطعة وحش صُوِّرَتْ بلداً ... أَرْضِي سواءٌ وإنساني وجُلمودي
وَعوُدُ آدمَ عُريانٌ بلا ثمر ... وزهرُ حواء محطومٌ بلا عود
فلا بَنِيَّ لهم دنيا تَعُدُّهمو ... فيها، ولا أنا في الدنيا بمعدود
لو أنزل الله سقفاً من كواكبه ... لهم لَبَنُوا لما هَمُّوا بتشييد
لو أمسكوا ظلَّ طير الجوِّ في قفص ... ما أمسكوا ظِلَّ عُمْرانٍ بمجهود
وفي عريض فجاجي الشمسُ طالعةٌ ... تزيد في ظلماتي الحيَّةِ السودِ
في الجدب، في الوحش، في الأحياء، في زمني ... وفي طبائع أرضي، في تقاليدي
فاليوم أعرض آمالي على ملكي ... وهو الكفيل بمرجُوِّي ومقصودي
لعلني خطَّ لي منه كتابُ هُدىً ... وما زيارته إلا كتمهيد . . .
لبَيْك يا مُعضِلات القفر قد بَعثتْ ... لك العنايةُ صنديدَ الصناديد
آباؤه الصيدُ هِمَّاتٌ مُجَمَّعَةٌ ... فيه، وزاد على آبائه الصيد
رَحْبُ الأمانيِّ وثاب على فُرصٍ ... ما أطمعتْ غيرَه في غير تزهيد
يرمي بحَبْلَيْهِ: محلولٍ وَمُنعقِدٍ ... فيها على كل محلول ومعقود
سرُّ اللُّيوث بعينيه، فنظرته ... فيها اكتشافُ فريساتِ المواعيد
وتحت راحته سرُّ السيوف، فإن ... أشار راعَ كسيفٍ عند تجريد
وفي أنامله سِرُّ الأعَنَّة: لا ... ينفكُّ يطلب ميداناً لتأييد
مليكُ معجزةٍ في أرض معجزةٍ ... مخلّدُ الحمدِ في تاريخ تخليد
وما يُسَدُّ طريقٌ دون غايته ... طريقُ كلِّ سعيدٍ غيرُ مسدود
ستستفيض على الصحراء همتُه ... ثجَّاجَةً بالمشاريع المحاميد
فَيُولَدُ الزمنُ المشبوبُ من زمن ... فانٍ تَكلَّحَ في تلك التجاعيد
هيهات هيهات ما يبني القفارَ سوى ... صبرٍ كصبر (فؤادٍ) غير محدود
هُمُ الأعاريب في تلهيب جمرتهم ... مثَلُ البراكين لن تحيا بتبريد
يا لَلعزيمةِ لو أخرجْتَهم عربا ... تحت القوانين أحراراً بتقييد
إذن لضاعفَ مِصراً سحرُ ساحرِها ... وَابتزَّ ممدودَها من غير ممدود
النيل كنزٌ من الخضراء منكشفٌ ... في جنب كنز من الصحراء مرصود
عَزَّ الذي جَمَعَ الكنزين في يده ... يَحْمى بكنزِ زئيرٍ كنزَ تغريدِ
مصطفى صادق الرافعي
تسبيح. . .!
للأستاذ سيد قطب
لعينيك تسبيحي وهمس سرائري ... وفي صمتها الموحى مَرادُ خواطري
تطل على الدنيا فتوقظ قلبها ... وتمنح هذا الكون إيمان شاعر
وتسكب في ألحانه عبقرية ... من الفن لم تخطر بآمال ساحر
وتجلو من الدنيا عميق فنونها ... وتكشف في أطوائها كل خاطر
ومن عجب توحي بفتنة ساحر ... وتهمس في صمت بتقديس طاهر
لقد شف هذا الوجه حتى كأنه ... خواطر فنان ندىّ المشاعر
وقد رق هذا الجسم حتى كأنه ... هواتف حلم ناعمات البشائر
وقد رق هذا الصوت حتى كأنه ... أغاريد لحن في السموات عابر
وقد خف هذا الخطو حتى كأنه ... مرور نسيم بالأزاهير عاطر
وخلتك طيفاً هامساً في ضمائري ... وإنك طيف هامس للنواظر!
لأيقظت في نفسي سعادة شاعر ... وراحة موهوب وغبطة ذاخر
وأشعرتني معنى الطلاقة والرضا ... ومعنى الغنى عن كل آت وغابر
مدى فيه من أفق الخلود مدارج ... رقيتُ إليها في سنى منك باهر
سبقتُ به خطو الحياة لنهجها ... وجزتُ به آفاقها في المعابر
فيا لك من هادٍ سَنِيَّ المنائر ... ويا لي من سارٍ وَحِيِّ البصائر
(حلوان)
سيد قطب

أنتِ
للأستاذ عبد الحميد السنوسي
أَنتِ جدَّدت لي شبابي وقد كن ... تُ دفنتُ الشباب من أزمان
أَنتِ جمَّلتِ لي الحياة فأصبح ... ت أراها كما تشاء الأماني
ومحوتِ الظلماء فاختلب النو ... رُ عيوني وانساب في وجداني
أَنتِ صورتِ لي الوجود وما في ... هـ جميعاً بريشة الفنان
وخلقتِ الحياة خلقاً جديداً ... ونفضتِ الترابَ عن أكفاني
أَنتِ زخرفتِ لي معالم دنيا ... ي فأتقنتِ أيما إتقان
ونفيتِ الركود عني فهبَّ ال ... قلب كالبحر صاخب الإرنان
أَنتِ أفهمتني الذي كنت لا أد ... ريه في الكون من خفيِّ المعاني
وجلوتِ الأسى وغالبتِ همي ... وشفيتِ الفؤاد مما يعاني
أَنتِ فجَّرت في الجوانح ينبو ... عاً من الشعر زاخراً كل آن
وأزحتِ الستار عن عالم الصم ... ت فأطلقتِ عقدة من لساني
أَنتِ أنشأتِ في جنانيَ كوناً ... أي كون أنشأتهِ في جناني!
فائض بالنعيم والخير والنو ... ر وبالحسن والهوى والحنان
أَنتِ قرَّبتني إلى الخلد حتى ... أصبح الخلد قطعة من كياني
أَنتِ علمتني الغناء فَغَنَّيْ ... تُ وأشجيتُ كل قلب مُعاني
غَرَّد الحب في فؤادي فردد ... تُ صداه الشجيَّ في ألحاني
البريد الأدبي
إلى وزارة المعارف
في هذا العدد والذي قبله والذي بعده بحث جليل قيم في قواعد اللغة العربية وتيسيرها لعلم من أعلام التربية والتعليم هو الأستاذ ساطع الحصري مدير دار المعلمين في تركيا، ووزير المعارف في الشام، ومؤسس النهضة التعليمية في العراق، ومنشئ أول مجلة تربوية في الشرق، عالج فيه مسائل في تعريف القواعد وتبويبها وترتيبها وتهذيبها لم يفطن إليها من قبله أحد. وهو يقدمها عن طريق الرسالة إلى معالي الوزير وسعادة الوكيل وأعضاء لجنة التيسير عسى أن يجدوا فيها ما يعينهم على ما نهضوا إليه من إصلاح القواعد العربية وتقريبها إلى عقول الطلاب. وفي رأينا أن ملاحظات الأستاذ ساطع جديرة بالاهتمام والنظر لصدورها عن لقانة نادرة وروية صادقة وخبرة طويلة
وزير المعارف يحكم بيننا وبين لجنة إنهاض اللغة العربية
تفضل صاحب المعالي هيكل باشا وزير المعارف فنظر فيما كتبناه ونشرناه عن افتيات لجنة إنهاض اللغة العربية علينا وعلى فريق من الأدباء الفضلاء لا تخشاهم ولا ترجوهم، ثم أمر بتقرير كتابنا (في أصول الأدب) لطائفة من مدارس الوزارة. وصنيع الأستاذ هيكل باشا هو الفرق بين وزير يقرأ ويقضي، وبين وزير آخر يسمع ويُمضي. . .
حول إنهاض اللغة العربية
حضرة الأستاذ الجليل صاحب مجلة الرسالة
لا أحسبكم قد فرغتم من الحديث عن إنهاض اللغة العربية في مدارس الحكومة حين فرغتم من الحديث عن الكتب وطريقة اختيارها، فإن شأن اللغة العربية في وزارة المعارف خليق بأن ينال من عنايتكم أكثر من ذلك. ولقد حمدنا لكم ما نشرتم من الملاحظات على لجنة اختيار الكتب، وإننا ليسرنا بجانب ذلك أن تظل الرسالة حاملة راية الأدب الحر، دائبة على إنارة السبيل أمام القائمين على شؤون اللغة العربية في وزارة المعارف. فلقد مضى الوقت الذي كانت فيه وزارة المعارف تعمل منفردة في الميدان، لا تجد من يشد أزرها أو يناقشها الحساب أو يهديها السبيل. وليس من أحد غير الرسالة يستطيع أن يفرض على نفسه هذا الواجب أو يرى نفسه أهلاً لهذا الحق.
كان مما قررته لجنة إنهاض اللغة العربية أن تزيد درسين في كلتا السنتين الأولى والثانية أحدهما اختياري، ودرساً واحداً في باقي الفرق. فهل يعلم سيدي أن هذه الزيادة قد انتهت نهايتها إلى أن تكون من أسباب ضعف اللغة العربية في مدارس الحكومة بدل أن تكون من وسائل إنهاضها وقوَّتها؟

ذلك أن وزارة المعارف حين زادت هذه الدروس لم تحسب حسابها فتزيد عدد المدرسين ليقوموا بهذه الزيادة؛ والمدرسون القائمون بالعمل الآن في المدارس الثانوية لا يسعهم - على ما هم فيه من رهق ومشقة وزحمة في العمل - أن ينهضوا بهذا العبء الجديد. وقد جاء موسم العمل وليس في المدارس حاجتها من مدرسي اللغة العربية، فلم يجد نظار المدارس أمامهم وسيلة - والحالة هذه - إلا أن يزيدوا العمل على المدرسين الذين يعملون معهم - مدرسي اللغة العربية خاصة -: ثلاثة دروس في الأسبوع على كل مدرس؛ فعليه منذ اليوم واحد وعشرون درساً في الأسبوع، بعد ثمانية عشر درساً كان يشكو كثرتها التي تستنفد الوقت والعافية والطاقة العصبية، فليس له معها فسحة ليستجم لعافيته أو ليجدد مادته أو ليبتكر في وسائله أفتكون هذه وسيلة من وسائل النهوض باللغة العربية أم سبب من أسباب الضعف والخذلان؟

وثمة عبء جديد أضيف هذا العام على كاهل مدرس اللغة العربية، ذلك أن النظام في العام الماضي والأعوام السابقة كان يحدد عدد التلاميذ في دروس اللغات ببضعة وعشرين تلميذاً في كل شعبة فألغي هذا النظام في العام القادم وصار على مدرس اللغة العربية أن يلقي درسه على أكثر من بضعة وثلاثين تلميذاً إلى أربعين؛ فهل تراه مع ذلك يستطيع أن يعمل وأن ينشط وأن ينهض باللغة؟

ثم إن كثيراً من نظار المدارس الثانوية قد تعجلوا الحكم والاختيار فاستغنوا عن درس من الدرسين المزيدين في اللغة العربية لتلاميذ السنتين الأولى والثانية قبل أن يتحققوا الحاجة إلى هذا الدرس، بل قبل أن تبدأ السنة الدراسية وينتظم التلاميذ.

والخلاصة ما يأتي:

أ - أوصت اللجنة بزيادة دروس اللغة العربية فزيدت ولكن على حساب المدرس المرهق بحيث يصير عمله لا خير فيه

ب - أوصت اللجنة بزيادة العناية بدروس اللغات فزيد عدد تلاميذ الفرق بحيث يجتمع على المدرس كثرة لا يستطيع معها أن يعرف تلاميذه

ج - زادت الوزارة بعض دروس اللغة العربية زيادة اختيارية، فألغى نظار المدارس الثانوية بعض هذه الزيادة قبل أن يتحققوا الحاجة إليها رغبة في التخفف من العمل!

وأخيراً ما زالوا يتحدثون عن الوسائل التي قدروها للنهوض باللغة العربية، وما . . . زالوا يكررون الحديث عن تنظيم المكتبات المدرسية، وتوجيه التلاميذ إلى المطالعات الخارجية، وإنشاء المحاضرات، وإقامة المناظرات، وترتيب المباريات بين الطلاب في الكتابة والخطابة والمناظرة والإلقاء. . . ولا عليهم فيما يتحدثون وما يقدرون، وما ننكر أن هذا الذي يتحدثون عنه من أنجح الوسائل في تقويم اللسان وتقوية اللغة، ولكن. . . أين هو المدرس الذي يجد عنده الوقت الذي ينفقه في ذلك؟

نحن موقنون تمام اليقين بصدق نية معالي الدكتور هيكل باشا على النهوض باللغة العربية، موقنون أنه قد أدى واجبه في ذلك على الوجه المستطاع؛ ولكن ما يزال أمام معاليه واجب آخر هو أثقل عبئاً وأكثر نفقة: أمامه أن يباشر تنفيذ الوسائل التي وضعها مستشاروه لينهضوا باللغة العربية؛ فليست تغني النية عن العمل، وليس يكفي وضع البرامج وتمهيد الخطط دون العناية بوسائل التنفيذ. ولربّ عمل صالح أسلمه صاحبه إلى من لا يحسنه أو من لا يخلص له، فأداه غير مؤداه وانتهى به إلى غير غايته

(مدرس)

مجمع المعارف بحيدر آباد (دكن) واجتماعه السنوي الأول

في حيدر آباد (دكن) مجمع علمي أسسه منذ أكثر من نصف قرن المرحوم النواب عماد الدين ورفقاؤه، وغايته الأساسية إحياء الكتب العربية القديمة تعميماً لنشرها وتداولها بين طبقات العلماء. وهذا المجمع يمتاز عن غيره بروحه العلمية وبمطبوعاته الثمينة المتداولة بين أوساط العلم المعتمد عليها من رجال البحث والتحقيق الآن - ومن هذه المطبوعات ما

يتعلق بالحديث والرجال، وما يتعلق بالفلسفة والتاريخ، وما يتعلق بالطبيعيات والطب وغيرها من العلوم والفنون - ويقول العلامة السيد سليمان الندوي: نحن، أهل الهند نفتخر، مع إفلاسنا العلمي في هذه الأيام، بهذه الدرر الثمينة النادرة التي أخرجها مجمع المعارف في (حيدر آباد) إلى طبقات العلماء ونرجو أن يعود إلينا مجدنا العلمي

تحت ظل الدولة الآصفية.
ولقد فكر القائمون بأمره في عقد اجتماع سنوي عام يدعى إليه العلماء الممتازون في العلوم العربية بأنحاء الهند تنشيطاً للحركة العلمية وتمهيداً لتوسيع أعمال المجمع بالاستفادة من مواهب العلماء الأجلاء غير أعضاء المجمع في البحث والتحقيق، فانعقد الاجتماع الأول الذي دام أربعة أيام من 9 إلى 12 يوليه سنة 938م في خمس جلسات أولها في إيوان البلدية الفخم حضرها أركان الدولة الآصفية وأساتذة العربية في جامعات الهند المختلفة وأرباب العلم وجماعة من الطلبة النابهين، وعلى كرسي الصدارة السر أكبر حيدري الوزير الأعظم. ثم التمس من القارئ إبراهيم رشيد أن يتلو ما تيسر من القرآن بصوته الرخيم، ثم ألقى خطبته الافتتاحية وذكر فيها خدمات المجمع في السنين الماضية بعد أن تلا على الحاضرين رسالة ملكية آصفية مفعمة بالعبارات الرقيقة والعواطف السامية.
فقام النواب مهدي يارجنك وزير التعاليم والسياسات ورئيس المجمع فألقى خطبة بلسانه المبين ذكر فيها غرض المجمع وغايته وما تم من الخدمات وما درج في البرنامج من الأعمال التي يرجو أن يتمها المجمع بتوفيق الله ومساعدة العلماء - وبعده ألقى مولانا عبد الله قصيدة عربية تخليداً لهذا الاجتماع العظيم واليوم المبارك
ثم انعقدت الجلسة الثانية في اليوم التالي وكان الشيخ إبراهيم حمدي، شيخ الإسلام بالمدينة المنورة، النزيل بحيدر آباد الآن، حاضراً، فتفضل بتلاوة آيات من القرآن على النغمات الحجازية. ثم اقترع على من يكون أول المتكلمين في الجلسة فاستخرج بطريق القرعة اسم العلامة السيد سليمان الندوي فقام وألقى بحثاً مستفيضاً عن (كتاب المعتبر) وهو كتاب غير مطبوع للفيلسوف أبي البركات البغدادي الذي عاش في القرن السادس الهجري، وألف كتابه هذا في نقد فلسفة أرسطو ومنطقه وهو كتاب وحيد في بابه فريد في فنه، ثم تكلم الأستاذ عبد العزيز الميمني الراجكوتي الذي حضر إلى مصر في السنة الماضية لطبع
سمط اللآلى، ثم سافر إلى دمشق واستنبول باحثاً في دور كتبها ومنقباً في خزاناتها فرجع بكثير من المعلومات عن النسخ والكتب، وكان موضوعه (ما رأيت في دور الكتب بالممالك الإسلامية) وذكر أهمية دار الكتب باستنبول والكتب النادرة فيها. وبعده قام السيد مناظر أحسن الجيلاني رئيس الشعبة الدينية بالجامعة العثمانية، فتكلم عن فلسفة محيي الدين بن عربي وابتدأ بكلام عن تخلص المجتهدين الفقهاء من تصرف الملوك في تدوين الفقه وانتقالهم إلى الأندلس وسبب انتشار المذهب المالكي فيها، ثم شرح فلسفة ابن رشد وأسس بحثه، ثم بيّن كيف خالفه محيي الدين بن عربي في المسائل الفلسفية وحملاته عليه حتى انتهى إلى وحدة الوجود، فإذا هي فلسفته الخاصة
ثم كانت الجلسة الثالثة في قاعة المحاضرات بالجامعة العثمانية وكان أول من تكلم الدكتور داود بوتاء أستاذ العربية بالكلية الإسماعيلية (بومباي) وموضوعه فلسفة ابن خلدون الاجتماعية وكانت المقالة طريفة مصحوبة بالمقارنات والانتقادات، والدكتور المذكور يقوم الآن بترجمة مقدمة ابن خلدون إلى اللغة الانكليزية، وبعده تكلم الشيخ عبد الرحمن عضو مجمع المعارف في علم أسماء الرجال وأهميته، ثم ألقى الدكتور حميد الله أستاذ أصول الفقه والقانون بالجامعة العثمانية، بحثاً مستفيضاً عن (دستور الدولة في العهد النبوي) (هاجر رسول الله إلى المدينة وعقدت معاهدة بين المسلمين واليهود) فجمع الدكتور المذكور أجزاء هذه المعاهدة وشرحها شرحاً وافياً واستنبط منها العناصر الأساسية لدستور الدولة.
ثم تكلم السيد أحمد الله الندوي عضو مجمع المعارف في (علم صناعة الجراحة وشرح آلات الجراحة عند العرب). وفي ختام هذه الجلسة قام الدكتور عبد الحق وألقى كلمة في موضوع (حاجة الهند إلى المجمع العربي)
وفي هذه الجلسة ألقى الدكتور حسين الهمداني أستاذ العربية بكلية استيفن بومباي بحثاً عن (كتاب الرياض لأحمد الكرساتو) وكان أحمد هذا إسماعيليا متكلماً فيلسوفاً عاش في القرن الثالث الهجري وكان معاصراً للفارابي، وأما الدكتور الهمداني فكان أصله من اليمن، ويعتبره علماء الهند أعلم العلماء بالإسماعيليات، وهو أول من عرّف العالَم العلمي بالكتب الإسماعيلية وقد أشار في بداية كلامه إلى تاريخ الأدبيات

الأسماعيلية؛ ومقالته مفعمة بالمعلومات الجديدة التي كانت مجهولة من العلماء. ثم ألقى مولانا عبد الله العمادي بحثاً في
وبعده تكلم العلامة مأمون الأرزنجاني من علماء (علم المرايا والمناظر لأبن الهيثم) دمشق، في مناهج التعليم العربي، مشيراً أثناء كلامه إلى كتب القواعد والمطالعة التي وضعت على قاعدة جديدة للمدارس بالشام.
وبعده قام الفاضل المولوي عبد القدوس الهاشمي المساعد في ترتيب معجم المصنفين وألقى بحثاً في (كتاب المخترع في فنون من الصنع) ومؤلف الكتاب لا يزال مجهولاً، غير إن النسخة التي توجد في دار الكتب الآصفية كتبت في سنة 876هـ في الهند بقلم ضياء ترك القاضي خان الناخوري. وللكتاب أهمية فيما يتعلق بفنون الصناعات الإسلامية العربية ومناهج الصانعين فيها. ثم تكلم الأستاذ امتياز علي، مدير دار الكتب برامبور في (تفسير الإمام سفيان الثوري) ومن هذا الكتاب نسخة بدار الكتب المذكورة وأشار في بحثه إلى أن المسلمين أول ما خدموا من العلوم علم القرآن وأول ما كتبوا من الكتب في فن التفسير.
وفي الجلسة الأخيرة تكلم الشيخ شبير أحمد ناظر دار العلوم الديوبندية ورئيس المدرسين بجامعة دابهيل في موضوع (الوحي معصوم عن الخطأ) واقترح على مجمع المعارف الالتفات إلى علوم القرآن ونشر الكتب في فنونها. ثم ألقى مولانا عبد الرحمن أستاذ العربية بجامعة دهلي بحثاً في (المستشرقين) من حيث التاريخ والخدمات العلمية ومعايبهم. وأخيراً قام الدكتور زبير الصديقي رئيس الشعبة الإسلامية بجامعة كلكته متكلماً في (علم الحديث وخصوصياته) من حيث الإسناد وطرق المحدثين في البحث وعدم خضوعهم لسلاطين الزمان واستقلالهم العلمي واشتراك النساء في الرواية، وهذه هي الخصوصيات التي قد حافظت ولا تزال محافظة على جوهرية الأحاديث من عبث المستشرقين بها كما فعلوا في أكثر الوقائع التاريخية الإسلامية كلما وجدوا إلى ذلك سبيلاً.
واختتم هذا الاجتماع الذي دام أربعة أيام في حيدر آباد وتناول البحث فيه أهم موضوعات العلوم العربية وفنونها، بالسلام لصاحب الجلالة آصف السابع ملك دكن والدعاء لذاته الكريمة
بدر الدين الصيني
تكريم الأستاذ قسطاكي بك الحمصي
أقام أدباء الشهباء حفلة تكريمية للأستاذ قسطاكي بك الحمصي مساء يوم الأحد 4 سبتمبر سنة 1938 بمناسبة بلوغه الثمانين من عمره وتنويهاً بمآثره وخدماته في عالم الأدب. وكانت الحفلة تحت رعاية معالي الأمير مصطفى الشهابي وزير المعارف سابقاً ومحافظ حلب اليوم. وقد تكلم في الحفلة الأساتذة عيسى اسكندر المعلوف، وأمين هلال، والشاعران عادل الغضبان، وحليم دموس وألقى الأستاذ أسعد الكوزاني كلمة عن أسلوب المحتفى به في الكتابة النثرية سننشرها في العدد القادم. وقد ألقى في ختام الحفلة الأمير مصطفى الشهابي كلمة قال فيها إن هذه الحفلة قد ذكرته بأسواق العرب الأدبية، وتكلم عن فضل النصارى على اللغة العربية، ونوه بالخدمات الجليلة التي قاموا بها في هذا السبيل، وأشاد بفضل المحتفى به ومآثره في عالم الأدب والأستاذ قسطاكي بك الحمصي من أوائل الأدباء الذين قاموا بخدمة اللغة والأدب منذ ستين عاماً، ولا يزال حتى اليوم على شيخوخته يقوم بخدمتها بالمقالات والأبحاث التي ينشرها في مختلف المجلات والصحف. وقد أقام بمصر في أوائل هذا القرن مدة طويلة اتصل خلالها بأدبائها ولا سيما الشيخ إبراهيم اليازجي الذي كان له أثر بارز في أدبه وأسلوب كتابته. وله من المؤلفات المطبوعة كتاب (منهل الوارد في علم الانتقاد) وهو يقع في ثلاثة أجزاء طبع الجزء الأول منه في مصر سنة 905، وطبع الجزءان الأخيران في حلب بعد الحرب العظمى. وله كتاب (أدباء حلب ذوو الأثر في القرن التاسع عشر) ترجم فيه للأدباء الحلبيين الذين عاشوا في هذا القرن ولهم أثر من شعر ونثر
الكتب
وحي بغداد
للدكتور زكي مبارك

يظهر في الأسبوع المقبل كتاب جديد للدكتور زكي مبارك أسمه (وحي بغداد) والى القراء فاتحة هذا الكتاب
أما بعد فقد كتب الله تباركت أسماؤه أن يجعلني من الموفين بالعهد: فأخرجت كتاب (ذكريات باريس) تحية لمدينة النور التي اتصلت بها نحو خمس سنين، واليوم أخرج كتاب (وحي بغداد) تحية لمدينة الرشيد التي اتصلت بها نحو تسعة أشهر قضيتها في يقظة عقلية أوحت إلى قلمي ألوف الصفحات
وكنت نظرت فرأيت كتاب (ذكريات باريس) أوحى إلى فريق من الكتاب أن ينشئوا المؤلفات عن العواصم الغربية أمثال باريس ولندن وبرلين، وأنا اليوم أرجو أن يكون كتاب (وحي بغداد) سنّة حسنة لمن يعيشون في العواصم الشرقية عساهم يحببون العرب والمسلمين في بلادهم بما يبتكرون من شائق الوصف ورائع الخيال
وقد عجب ناس من وفائي لأهل العراق واهتمامي بتسجيل ما لهم من محامد ومناقب، وكنت أستطيع أن أقول إني عشت في العراق معلماً، ومن واجب المعلم أن يبرز المحاسن ليقوّي الروح المعنوي في تلاميذه ويسوقهم إلى ميادين الجهاد. كنت أستطيع أن أقول ذلك، ولكني في الواقع لم أر من أهل العراق غير الشهامة والنبل والوفاء؛ ويسرني ويشرح صدري أن أقول كلمة الحق في تحية من يعيشون في أنس بزهرات بغداد ونخلات البصرة وسمكات الفرات
وسيأتي يوم يعذرني فيه من اتهموني بالإسراف في حب البلاد التي عرفت بكاء الحمائم وظلام الليل
سيعرف إخواني في مصر أني بنيت لهم صرحاً من الوداد في وطن نبيل هو العراق
سيعرف إخواني أن غيرتي على سمعة العراق ستضاف إلى المحامد المصرية، وسيقول المنصفون إن المصري حين يغترب لا ترى عينه غير الجميل من شمائل الرجال
وهل كنت أملك أن أذكر العراقيين بغير الثناء؟ لقد نُظِمَتْ في تكريمي هناك قصائد وخطب
ومقالات لو جُمِعتْ لكانت مادة كريمة لكتاب نفيس، فبأي وجه ألقى الله إذا ذكرت العراق بغير الجميل؟
كنت أعرف أن أيامي قصيرة في العراق فتجشمت ما تجشمت لأزور أشهر الحواضر العراقية، فكانت فرصة عرفت فيها كيف يلتاع من يفارق حواضر العراق؟
يا ليت ماء الفرات يخبرنا ... أين استقلت بأهلها السفنُ
ولا يعلم إلا الله كيف رحلت عن البصرة والحلة والنجف والموصل وكركوك وكربلاء
لا يعلم إلا الله كيف أخفيت يوم الفراق عن أصدقائي في بغداد
لا يعلم إلا الله كيف أخفيت نيتي عن تلاميذي فلم أخبرهم أن التسليم عليهم يوم الرحيل هو آخر العهد
لا يعلم إلا الله كيف انخلع قلبي وأنا أنظر إلى دار المعلمين العالية آخر نظرة، وألقي عليها آخر سلام
وإذا كانت شواغلي بمصر قضت بأن أعتذر عن المضيّ في خدمة تلاميذي بالعراق فسأتعزى عن فراقهم كلما تذكرت أني أوقدت في صدورهم جذوة لن تخمد أبداً، وسيصيرون بإذن الله من أشرف خدام العراق
والعهد بيني وبينهم أن نقضي العمر كله أوفياء للحق والواجب، وألا نرى المغانم في غير طهارة الضمائر وسلامة القلوب
هذا كتاب أوحته بغداد، وفيه ما في جوّ بغداد من طغيان الرفق والعنف، وصولة العقل والفتون
هو كتاب سيّرقَم على وجه الدهر وجبين الزمان
هو كتاب سيسعد به قوم ويشقى به آخرون
ولكنه سيظل أثيراً لدى بغداد، لأنه من وحي بغداد
زكي مبارك
المسرح والسينما
ملاحظات وخواطر
حول ترقية الأفلام المصرية

تحدثنا في الأسبوع الماضي عن ضرورة قيام الحكومة بإيجاد رأس مال مناسب يكون في متناول المنتجين المصريين الذين تعوزهم النقود اللازمة لإكثار جهودهم وموالاتها وأكدنا أن هذه هي أفضل الطرق لترقية الأفلام المصرية والأخذ بيد صناعة السينما في مصر. وقلنا كذلك: (إن هناك ناحية أخرى على اللجنة أن تنظر فيها وتعمل على التخلص منها ما دامت تريد نهضة جديدة للأفلام في مصر، وهذه الناحية هي جمود اللائحة التي تعمل بها وزارة الداخلية الآن في صدد ما يجوز معالجته وما لا يجوز معالجته في الأفلام من الموضوعات في مصر)

ونسجل على هذه الصفحة بضعة خواطر وملاحظات لنا على هذه اللائحة فنقول: إن هذه اللائحة تتناقض تناقضاً بيناً مع القانون الأساسي للبلاد وهو الدستور، وإذا كانت الحكومة قد ظلت مشغولة إلى عهد قريب بالقضية الخارجية، فقد آن الأوان لأن تراجع هذه اللائحة وتحذف منها ما لا يتفق مع هذا الدستور. فقد كفل هذا الدستور حرية القول والتأليف والكتابة والاعتقاد في حدود مبادئ القانون العام وهي ألا يكون في ذلك القول أو التأليف ما من شأنه تقويض النظام القائم أو المناداة بمبادئ خطيرة أو ما يمس الآداب العامة أو الشرف الخصوصي للأفراد والعمومي للدولة وتاريخها ورجال تاريخها. ونعتقد نحن أن في استطاعة قانوني كبير كبدوي باشا أن يضع لنا لائحة جديدة على أساس مبادئ دستورنا فيما لا يزيد على يوم وليلة! حتى لا تعارض وزارة الداخلية بعد الآن في فلم وطني أو سياسي أو فلم يدور حول فتاة لقيط مثلا - كما حدث منذ عامين

روزالي. . . فلم الافتتاح لسينما ستوديو مصر

افتتح أستوديو مصر يوم الاثنين الماضي دار العرض الجديدة التي رأى أن تتخصص لعرض منتجاته على أن تعرض أفلام المترو جولدوين بجوار أفلام الأستوديو. ولسنا في حاجة إلى أن نقول إن حفلة الافتتاح كانت فريدة في بابها ونادرة بين حفلات الافتتاح، ويكفي أن نقول إن جميع ذوي وذوات المكانة من أهل الطبقات الراقية والمثقفة وممثلي وممثلات السينما والمسرح وجميع ممثلي الصحف المصرية العربية والإفرنجية كانوا حاضرين في هذه الحفلة احتفالاً بهذه الخطوة الجديدة الموفقة التي يخطوها أستوديو مصر ولمشاهدة أحد أفلام الدرجة الأولى للمترو جولدوين ماير في الموسم الحالي وهي رواية (روزالي) أو الأميرة الراقصة من تمثيل (الينورباول) و (نلسون إدي)، والفلم كوميدي غنائي راقص مليء بالمواقف اللطيفة المسلية

فتهانينا لبنك مصر وأستوديو مصر وقسم الإنتاج في أستوديو مصر، ونأمل أن تتبع هذه الخطوة خطوات نرى بعدها عدداً من دور السينما الكبيرة مصرياً في كل شيء، وليس ذلك كثيراً على بنك مصر ومديريه الأفذاذ وسعادة الدكتور فؤاد سلطان بك مدير شركة مصر للتمثيل والسينما

خبر سابق لأوانه

أكد لنا أحد كبار ممثلي الفرقة القومية أن كل ما ذكرته الصحف عن مسرح حديقة الأزبكية وعمل الفرقة القومية به إنما هو سابق لأوانه. والصحيح أن مفاوضات دارت بين إدارة الفرقة وإدارة ذلك المسرح، ولكن هذه المفاوضات وقفت حتى يعود الأستاذ خليل مطران مدير الفرقة من إجازته بلبنان. ومعنى ذلك أن الدورة الأولى من موسم الفرقة ستكون في دار الأوبرا الملكية كالمواسم السابقة

أخبار مسرحية وسينمائية

مترو جولدوين وتوفيق الحكيم

أبلغنا أحد أصدقائنا المتصلين بالكاتب القصصي الكبير الأستاذ توفيق الحكيم، أن هناك مفاوضات بين شركة المترو جولدوين ماير والأستاذ توفيق الحكيم بخصوص رواية (عودة الروح) إحدى قصصنا الأدبية الكبرى. وأن هذه المفاوضات قد انتهت فعلاً أو أوشكت على الانتهاء وقريباً نرى إحدى معجزات الحكيم الأدبية على الستار الفضي والحق أننا لا ندري هل نهنئ المترو جولدوين ماير أم نهنئ كاتبنا الكبير بهذه الصلة السعيدة التي نأمل ألا تقتصر على (عودة الروح)

فلم جميل للموسم الجديد

ينتظر أن يكون موسم سينما ديانا عظيم هذا العام. وكفى دليلاً ما قدمته لنا في حفلة الافتتاح وهو فلم (فندق هوليوود) الفلم الغنائي الراقص الجميل.

أجنحة الصحراء والرحلة الملكية
علمنا أن (اللقطات) الأخيرة لفلم أجنحة الصحراء، وهو باكورة منتجات سالم تتم في الأيام القليلة الباقية من هذا الشهر. أما موعد عرض الفلم فقد علمنا أنه سيكون في أواخر النصف الأول من نوفمبر
وبمناسبة الحديث عن الأستاذ سالم نسجل له على هذه الصفحة نجاحاً كبيراً في الشريط الناطق الذي أخرجته جريدته السينمائية للرحلة الملكية السعيدة إلى الصحراء الغربية ويكفي أن يكون عرضه على شاشة الرويال بعد يومين اثنين فقط من عودة جلالة الملك إلى الإسكندرية
شيء من لا شيء
عرضت نسخة كاملة من فلم (شيء من لا شيء) على حضرات أعضاء اللجنة الفنية في أستوديو مصر، فوافقت عليه وأبدت إعجابها به، واعترفت له بأنه من أقوى وأكبر الأفلام المصرية التي رآها الأعضاء حتى الآن. وسيعرض هذا الفلم بسينما أستوديو مصر في الشهر القادم.
العدد 274 - بتاريخ: 03 - 10 - 1938
ختام
للأستاذ عباس محمود العقاد
بدأنا بقنطار ثمين فأجملنا ما نراه من مذهب في صفات الجمال، وكانت خلاصته أن الجسم الجميل هو الجسم الذي ليس به فضول، وهو الذي يحمل كل عضو فيه نفسه غير محمول في مشهد العين على سواه، وهو الذي يكون مقياس الفضول فيه أداء الوظيفة، ومقياس الوظيفة بين عضو وعضو وبين حيوان وحيوان قربها من الحرية وبعدها من القيد والضرورة
وهذا مقياس أعضاء وأجسام
ومقياس معان أيضاً وأفكار وأرواح
فأننا بهذا المقياس نعرف الكلمة الجميلة والشعر الجميل والخلق الجميل والفكر الجميل
فلن يكون جميلاً فكر به فضول فهو زائد فضفاض في غير طائل، أو فكر فيه قصور فهو مفتقر إلى غيره وليس بمحمول على نفسه، أو فكر يظهر فيه عجز التقييد وعسف الضرورات
وذلك ما أردناه حين قلنا إن الجمال يخرج الأجسام من عالم الشهوات والنزوات إلى عالم المعاني والأرواح، وأن العين التي تنفذ إلى لبابه تنظر إليه كما تنظر إلى الحقائق العليا، وإلى الأصول الشائعة في نظام الوجود كافة؛ فإذا اتفق أن يعبث العابث بالجمال فكما يتفق أن يسرق السارق جوهرة نفيسة: لا يسرقها لأنها جميلة وهو يحب الجمال، ولكنه يسرقها لأنه يستحضر في ذهنه السوق، والسوء!
ثم رجعنا إلى بقية الذهب، ثم تلاحقت الملحقات من تفريع إلى حاشية إلى تذييل، إلى هذا الختام، وكان به ختام الصيف وختام السفرات في كل أسبوع إلى الإسكندرية أكتبه إلى جوار الصحراء صديقتي القديمة منذ عرفت الأصدقاء في الأماكن والبقاع وأصغي فلا أسمع الأمواج كأنها فوران القدر العظيمة عند ميناء الإسكندرية، ولا أسمع الأمواج كأنها غطيط النائم في اطراد رتيب عند ميناء مرسى مطروح، ولا أسمع الأمواج كأنها المارد الوديع الحالم عند ميناء السلوم، فلا هدير له ولا ضجيج، بل سكون كسكون النيل في ساعة صفاء قرير
لا أسمع الأمواج ولكني أسمع الصحراء، ومن طالت عشرته للصحراء سمعها وهي تسكت، وسمعها وهي تصخب، وسمعها وهي لا تحفل بأسماع، ولخص ذلك كله في كلمة واحدة، وهي القناعة أو الاستخفاف أو القوة التي تغالب الأزمان؟ لأن الأزمان تقوى على التغيير. . . فإذا لم يكن تغيير فماذا يبلغ من قوة زمان واحد أو من قوة جميع الأزمان، وإذا كان التغيير لا يغير منها الحقيقة ولا يمس منها إلا العرض فلماذا تباليه الصحراء؟
ورجعت أعرض صور الإسكندرية فإذا هي كثيرة تتصل بها أجزاء الدنيا وترينا كيف يتشعب العالم وكيف يؤول إلى التماثل والتوحيد
فالعالم اليوم يحكمه زي واحد تبصره في شواطئ القارة الحديثة، وتبصره في

شواطئ الصين، كما تبصره في شواطئ بحر الروم وفي شواطئ بحر الظلمات، الذي ليس فيه اليوم ظلمات
أو هذا كل ما هنالك من تماثل وتوحيد بين أجزاء العالم المتنابذ المستعد في هذه الساعة لأشنع الحروب
كلا. بل هنالك تقارب بين المثل والأوضاع في كثير من الأمور
هنالك العملة التي كانت من قبل أخص الخصائص فيما يسمونه بالسيادة القومية
فأصبحت اليوم موضع التفاهم والاتفاق بين شتى الحكومات
وهنالك المحظورات والتواصي بمنعها بين الدول من الرق إلى المخدرات إلى المهربات
وهنالك الجيوش والمؤتمرات التي تنعقد من حين إلى حين لتقرير عددها وتقرير سلاحها وتقرير نظامها، وإن لم تسفر عن وفاق وإجماع
بل هنالك الحرب التي لا يتأتى أن تنفجر في مكان إلا عمت جوانب الأرض بعد بضعة أسابيع
فالعالم يمضي إلى التماثل والوحدة، ولا ينفي هذه الحقيقة أنه ماض كذلك إلى الوحدة في الشرور والنكبات، بل إن هذا ليؤكدها ويجلوها في جانبها المخيف كما يجلوها في جانبها المأمون، وجانبها المحبوب
أزياء الشاطئ تكشف لنا هذه الحقيقة وتكشف لنا معها حقيقة أخرى يأسى لها كثيرون ويغتبط بها كثيرون
أو لم يكن الراقصون والمغنون وأصحاب الملاهي والملاعب نفاية الجماعة الإنسانية في الأجيال القريبة؟
فأنظر اليوم من ذا الذي يفرض على الناس الأزياء والآداب؟ ومن ذا الذي يملي عليهم ما يشتهون وما ينبذون؟!
إنهم هم نفاية المجتمع بالأمس وسادة المجتمع اليوم!
إنهم فتيان هوليود وفتيات الستار الأبيض فيها وفي كل مكان
فأين هي اليوم تلك السيدة التي تخجل من ظهورها في مظهر الممثلات على ذلك الستار؟
وما معنى ذلك إلا أن المجتمع ينقلب رأساً على عقب ثم لا يستقر على هذا الانقلاب؟
وهل بعيد ما بين هذه الحقيقة وبين حقيقة أخرى في عالم السياسة الدولية نشهدها ونسمعها الآن فيما نشهد ونسمع من نذير وشرر مستطير؟
ما معنى الحرب اليوم إلا أن نفايات المجتمع قد أصبحوا يسوسون الدول ويقودون الشعوب ولا يؤمنون إلا بما يؤمن به النفايات من غلظة وجور وعنت وتحطيم؟
لئن كان الحجر على هذه النفايات فيما مضى ظلماً لقد رأينا الساعة أن سيادتها ليست بأنصاف، بل فيها الظلم والإنصاف مزيج كريه المذاق، ومصفاة الزمن خير كفيل بالتصفية والترويق، ولا خوف على الزمن آخر الأمر من العجلة ولا من الأناة. .
صور كثيرة بقيت في خلدي من الإسكندرية كأنها صفحات مقسمة من معارض الفن والحياة والتاريخ
وستبقى ما قدر لها البقاء، وسيكون من إبقائها وأولاها بالبقاء صورة واحدة لمخلوق ضعيف أليف يعرف الوفاء ويحق له الوفاء، وذلك هو صديقي (بيجو) الذي فقدناه هناك.
وأني لأدعوه صديقي ولا أذكره باسم فصيلته التي ألصق بها الناس ما ألصقوه من مسبة وهوان، فإن الناس قد أثبتوا في تاريخهم أنهم أجهل المخلوقات بصناعة التبجيل وأجهلها كذلك بصناعة التحقير. . . فكم من مبَّجل بينهم ولا حق له في أكثر من العصا!
وكم من محَّقر بينهم ولا ظلم في الدنيا كظلمه بالازدراء والاحتقار!
وكنت أقدر أنني سأخلو من العمل في مجلس النواب ثلاثة أشهر الصيف الشديد، فأخلو بنفسي وبالبحر والصحراء في مرسى مطروح أو في السلوم، وأفرغ هناك لتأليف كتابي
الذي جمعت له ما جمعت من الأخبار والوقائع عن الصحراء وأبنائها الأقدمين والمحدثين
فلما تواصلت الجلسات أزمعت أن أقضي أياماً في القاهرة وأياماً في الإسكندرية من كل أسبوع، ولم أصحب بيجو في الرحلة الأولى ولا في الثانية ولا عزمت على

اصطحابه بقية أشهر الصيف، اكتفاء بأن أراه أيام مقامي في القاهرة وأن أعود إليه كل أسبوع
ولكن المخلوق الأمين الوفي أرغمني على مصاحبته كلما ذهبت إلى الإسكندرية وكلما رجعت منها، لأنه صام عن الطعام صومة واحدة في الرحلة الثانية، وزاده إصراراً على الصيام أننا كنا نتركه في كفالة الشيخ أحمد حمزة طاهينا القديم الذي يعرفه قراء كتابي (في عالم السدود والقيود)
والشيخ أحمد حمزة كما علم أولئك القراء رجل يكثر الصلاة والوضوء ويعتقد نجاسة الكلاب فلا يقربها إلا على مسافة أشبار
وبيجو مخلوق حساس مفرط الإحساس ما هو إلا أن تبين النفور من الشيخ أحمد حتى قابله بنفور مثله أو أشد وأقسى. فكنا إذا تعمدنا تخويفه وزجره نادينا: (يا شيخ أحمد). . . فإذا بيجو تحت أقرب كرسي أو سرير، ثم لا يخرج من مكمنه إلا إذا أيقن أن الشيخ أحمد حمزة بعيد، جد بعيد
فلما استحال التوفيق بينهما واستحال إقناعه بالعدول عن الصيام في غيابنا أصبح بيجو من ركاب السكة الحديد المعروفين بالذهاب والإياب، واصبح يزاملنا من القاهرة إلى الإسكندرية ومن الإسكندرية إلى القاهرة كل أسبوع، وشاعت له نوادر في معاكسته للموظفين ومعاكسة الموظفين له، يتألف منها تاريخ وجيز. . .
ثم أصابه في الإسكندرية ذلك المرض الأليم الذي كان فاشياً فيها واستعصى علاجه على أطباء الحيوان، فلزمته في مرضه مخافة عليه من مشقة السفر، وعلمت أن الأمل في شفائه ضعيف، ولكني لم أجد مكاناً أولى بإيوائه من المكان الذي أراه ويراني فيه
وإني لفي ظهيرة يوم بين اليقظة والتهويم إذا بهمهمة على باب حجرتي وخدش يكاد لا يبين، ففتحت الباب فرأيت المخلوق المسكين قابعاً في ركنه يرفع إلي رأسه بجهد ثقيل، وينظر إلي نظرة قد جمع فيها كل ما تجمعه نظرة عين حيوانية أو إنسانية من معاني الاستعطاف والاستنجاد والاستغفار: أحس المسكين وطأة الموت فتحامل على نفسه، وخطا
من حجرته إلى باب حجرتي، وجلس هناك يخدش الباب حتى سمعته وفتحت له، وهو لا يزيد على النظر والسكوت
كان اليوم يوم أحد، ولكنا بحثنا عن الطبيب في كل مظنة حتى وجدناه، وقد شاءت له مروءته الإنسانية أن يفارق صحبه وآله في ساعة الرياضة ليعمل ما يستطيع من ترفيه وتخفيف عن مريضه الذي تعلق به وعطف عليه، لفرط ما آنسه أثناء علاجه من ذكائه وألاعيبه ومداعباته، ولكنه وصل إلى المنزل وبيجو يفارق هذه الدنيا التي لم يصاحبها أكثر من سنتين
سيبقى من صور الإسكندرية ما يبقى، وسيزول منها ما يزول، ولكني لا احسبني أنسى ما حييت نظرة ذلك المخلوق المتخاذل يقول بها كل ما تقوله عين خلقها الله، ويودعها كل ما ينطق به فم بليغ من استنجاد واستغفار، كأنه يعلم أنه أقلقني ولا يحسب ما كان فيه عذراً كافياً لإقلاق صديق. ومن شهد هذا المنظر مرة في حياته علم أنه لا ينسى، فأن لم يعلم ذلك فهو أقل الناس حظاً من الخلائق الإنسانية، لأن البعد من العطف على الحيوان لا يجعل المرء بعيداً من الحيوان، بل يقربه منه غاية التقريب
عباس محمود العقاد

ملاحظات انتقادية على مقترحات لجنة التيسير
للأستاذ أبي خلدون ساطع الحصري بك
مدير دار الآثار العراقية
- 1 -
إن الملاحظات الانتقادية التي نشرتها في العددين الأخيرين من الرسالة حول كتب (قواعد اللغة العربية) تغني عن شرح طويل لتحديد موقفي وتبين رأيي في المقترحات الواردة في تقرير لجنة التيسير
فبعد تسجيل واجب الشكر لوزارة المعارف في مصر، لإقدامها على تأليف لجنة خاصة لدرس وسائل تيسير قواعد الصرف والنحو، ولفتحها باب الدرس والمناقشة في هذه الوسائل، أرى من واجب الصراحة أن أقول: إني قرأت التقرير الذي وضعته هذه

اللجنة بشيء كثير من خيبة الأمل. . . لأني لاحظت أن المقترحات الواردة فيه ضيقة النطاق جداً، وليس من شأنها أبداً أن تؤدي إلى (تيسير) مهم. . .
فاللجنة المحترمة لم تتطرق في تقريرها إلى شيء من المسائل التي عرضتها في مقالي الانتقادي، ولم تنتبه إلى النقائص المهمة والأغلاط العظيمة المندمجة في خطط التبويب والتعريف، ولم تقدم على إنعام النظر في طرق التقسيم والتصنيف. . .
فأستطيع أن أقول إذاً، إنها لم تتخلص من النزعة العامة التي أشرت إليها وإلى أضرارها، ولم تخرج على المسالك الملتوية التي شرحتها وانتقدتها. . .
فجميع الملاحظات الانتقادية المسرودة في مقالي عن (كتب قواعد اللغة العربية) تنطبق على أبواب (الصرف والنحو) التي اقترحتها اللجنة المحترمة أيضاً. . . وفي الواقع أن اللجنة قد صرحت في تقريرها أنها قدمت اقتراحاتها كخطوة أولى في سبيل التيسير إذ قالت ما يلي: (وقد اتصلت اجتماعات اللجنة للنهوض بهذه المهمة التي وكلت إليها حتى انتهت إلى طائفة من الاقتراحات ترفعها الآن إلى الوزارة، لا على أنها المثل الأعلى لما ينبغي الوصول إليه من تيسير النحو والبلاغة، بل على أنها خطوة معتدلة موفقة في سبيل التيسير قد تتاح بعدها خطوات أدنى إلى التوفيق وأقرب إلى الكمال. . .)
فقد يقال - نظراً إلى هذا التصريح - إن النقوص والأخطاء التي كانت موضوع مقالي السابق، ربما كانت من جملة المسائل التي لاحظتها ودرستها اللجنة وتركتها إلى الخطوات التالية لاعتقادها صعوبة معالجتها في الخطوة الأولى من خطوات التيسير. . .
غير أني اعتقد أن الخطوة الأولى يجب أن ترمي إلى معالجة (أهم المسائل من حيث مقتضيات العلم والتعليم، وأسهل الإصلاحات من حيث العمل والتنفيذ) كما اعتقد أن النقوص والأخطاء التي أشرت إليها أكثر خطورة وأسهل معالجة من الأمور التي اقترحتها اللجنة. فأقول بهذا الاعتبار أن معالجة هذه النقوص وهذه الأخطاء يجب أن تكون أول خطوة من خطوات التيسير والإصلاح
ولهذه الأسباب أتقدم إلى أعضاء اللجنة المحترمين برجاء خاص أن ينعموا النظر في المآخذ التي عرضتها في مقالي السابقين بنظرة متجردة عن تأثير الألفة المخدرة؛ ولا أشك في أنهم عندما يفعلون ذلك يسلمون بأن قواعد اللغة في حاجة إلى معالجة وتيسير وإصلاح من النقائص التي ذكرتها آنفاً قبل سائر النواحي. . .

- 2 -

بعد هذه الملاحظات العامة التي أنتقد بها اللجنة لعدم تطرقها إلى الأبحاث المهمة يجب علي أن أنتقل إلى المسائل التي عالجتها اللجنة المذكورة فأبدي رأيي فيها. . .
إنني أؤيد معظم آراء اللجنة ومقترحاتها، غير أني أرى نقصاً في بعضها وخطأ في البعض الأخر
أولاً - حللت اللجنة أهم أسباب الصعوبة التي اكتنفت قواعد اللغة العربية فقالت:
(وقد لاحظنا أن أهم ما يعسِّر النحو على المعلمين المتعلمين ثلاثة أشياء:
أولاً - فلسفة حملت القدماء على أن يفترضوا ويعللوا ويسرفوا في الافتراض والتعليل
الثاني - إسراف في القواعد نشأ عنها إسراف في الاصطلاحات.
والثالث - إمعان في التعمق العلمي باعد بين النحو وبين الأدب. . .)
وقد حاولنا أن نخلص النحو من هذه العيوب الثلاثة، فبرأناه من الفلسفة ما وسعنا (ذلك. ومحونا منه الافتراض والتعليل اللذين لا حاجة إليهما، وقاربنا بين أصوله وقواعده. فضممنا بعضها إلى بعض، كلما وجدنا إلى ذلك سبيلا)
إنني أشارك اللجنة في هذه الملاحظات، غير أنني أرى من الضروري أن يضاف إلى هذه العوامل الثلاثة عامل آخر، ربما كان أفعل من جميعها في توعير المسالك وتوليد الأخطاء:
هذا العامل هو النزوع إلى اعتبار مسائل الأعراب الغاية القصوى من دراسة اللغة، والاهتمام بالأحكام النحوية وبمواطن الأعراب أكثر من الالتفات إلى المعاني المقصودة ومواطن الاستعمال، كما شرحت ذلك وعللته في مقالي الأخير. إنني اعتقد أن التخلص من هذه النزعة ومن نتائجها، من أهم الأسس التي يجب أن تبنى عليها محاولات التيسير والإصلاح. .

ثانياً - تقترح اللجنة ترك فكرة الجملة الاسمية والجملة الفعلية، وحذف تعبيرات الفاعل ونائب الفاعل والمبتدأ والخبر، واستبدال هذه التعبيرات المختلفة بكلمتي الموضوع والمحمول (حسب اصطلاح المناطقة)
وأنا لا أرى في ذلك وجهاً للتيسير، بل أعتقد أن هذه الخطة تزيد الأمر صعوبة، كما أنها تخالف طبيعة اللغة العربية مخالفة واضحة. . .
وذلك لأن تفهم المبتدأ والخبر، وتمييز الفاعل، أسهل بكثير من تفهم المحمول والموضوع وتصورهما. كما أن تقسيم الجملة إلى اسمية وفعلية أكثر انطباقاً على خصائص اللغة العربية:
إذ من المعلوم أن بعض اللغات محروم مما يشبه الجملة الاسمية، لأن كلمة جملة فيها تحتوي على فعل، ولو كان من النوع الذي يدل على الكينونة والصيرورة؛ غير أن اللغة العربية لا تدخل في عداد تلك اللغات، لأنها تساعد على تكوين جمل بدون أفعال؛ فتمييز الجمل الاسمية من الفعلية، ودرس كل منها على حدة، يكون أقرب إلى طبيعة اللغة العربية، وأوفق لمقتضيات أصول التدريس. . .
ولا أراني في حاجة إلى القول بأن درس كل نوع من هذين النوعين من الجمل على حدة، لا يعني عدم إجراء مقارنة بينهما. . . لأن التمييز بين الجملة الاسمية والجملة الفعلية لا يمنعنا من لفت النظر إلى المشابهة الموجودة بين الفاعل والمبتدأ، من حيث المعنى ومن حيث الأعراب. . . ولا أشك في أن الإقدام على مثل هذه المقارنات مما يضمن لنا الحصول على الفوائد المتوخاة من التقريب، دون أن يعرضنا للمشاكل التي تتولد من المزج والإدماج. . .
ثالثاً - تقترح اللجنة توحيد الاصطلاحات المتعلقة إلى بحركات البناء والأعراب، كما تقترح حذف الأعراب التقديري والمحلي. . .
إنني أحبذ ذلك كل التحبيذ؛ غير أنني أطالب بأكثر من ذلك فأقترح حذف الأبحاث المتعلقة بحركات البناء حذفاً تاماً. لأني لا أرى فائدة عملية أو علمية في البحث عن هذه الحركات.
أن حركة الحرف الأخير من الكلمة تكتسب خطورة كبيرة في المعربات، نظراً لتحولها حسب موقع الكلمة من العبارة وعلاقتها بالكلمات التي تسبقها وتليها؛ وأما حركة الحرف الأخير في الكلمات المبنية، فلا تمتاز عن سائر الحروف امتيازاً يستوجب إنعام النظر فيها بوجه خاص. . فإذا عرف الطالب مثلاً - أن (أجلس) فعل أمر، وكلمة (علم) فعل ماض، وكلمة (منذ) حرف، وعرف في الوقت نفسه أن الحروف وأفعال الأمر والماضي من المبنيات. . . فلا يجني أية فائدة عملية، من ملاحظة حركة الحرف الأخير في هذه الكلمات؛ وربما استفاد من الانتباه إلى حركة الحرف الثاني أكثر من ذلك، لكثرة وقوع الخطأ فيها. . .
فيكفي الطالب أن يعرف الكلمة، ويلاحظ عملها في العبارة دون أن يتوغل في تعيين حركة بنائها. . .
فعندما نسعى إلى تمرين الطلاب على تحليل العبارات، يجب أن نطلب إليهم أن يعينوا نوع كل كلمة من كلماتها. . ويذكروا الوظيفة التي تقوم بها في العبارة كل واحدة منها. وأما إعرابها في المعنى المصطلح والبحث في حركة حرفها الأخير، فيجب أن ينحصر في المعربات منها.
وأعتقد أن هذه الخطة تخلص المعلمين والمتعلمين من أتعاب الذهن وإضاعة الوقت في أمور غير مجدية، وتضع حداً للملل الذي يغشي درس اللغة العربية في أكثر الأحيان.
(بغداد)
أبو خلدون
كتاب المبشرين الطاعن في عربية القرآن
أمسلم مصري أم مبشر برتستنتي؟
- 3 -
- إن المبشرين البروتستنت الذين أضلوا ذلك الكاتب المسلم فضل وروى باطلهم ليستيقنون أن القرآن هو الكتاب العربي العبقري، ويعلمون أن تلكم (الآلات) إنما هي

قواعده قد أخذت منه، وكانت له. فلن يخطئ فيها. . وكيف يخطئ فيها. .؟!
إن القرآن لهو الكلام العربي الصافي الصرف المحقق الصحيح الذي لا ريب فيه. وكل قول غيره يلاقيه الشك شاكي السلاح. فهو حجة الأقوال العربية وظهيرها. وليست الأقوال العربية - وأن كانت من خدمه - بحجة له ولا ظهيراً
ولقد قال العربانيون المنصفون والعبقريون والمفكرون من الغربيين في عربية القرآن الصريحة الخالصة وعبقريته قولهم، وقرأ المبشرون (المظللون) ما كتب المنصف، وقال العبقري. وإن كتموا الحق، وجحدوا بالذي استيقنته أنفسهم - أينكرون قولاً في كتابهم الذي نشروه للإضلال - مبينا؟
قال (سال) في (مقالة في الإسلام): (مما لا خلاف فيه أنه (يعني القرآن) الحجة التي يرجع إليها في العربية، وأنه شمس قلادة الكتب العربية، وواسطة عقدها)
إن هذا في (مطبوع) المبشرين الذين يخطئون (الكتاب) في العربية. وإنه لذم وتقريع للسفسطيين المقبحين لكن صخري الوجه لا يستحي
وإذا لام (المظللين) لائم، وقبح عليهم ما يصنعون قال لسان الحال: أنا ما شرقنا محترفين بحرفة (التظليل) - وما التظليل إلا حرفة من الحرف - وآخذين جعالاننا إلا لنعمل ما يبغيه المجعلون المطعمون، فهي الجعالة، وهو الرغيف. فلا تلومونا ولوموا المعدة. .
أجل إن المظللين ما طرءوا على هذه الأقاليم ليحقوا حقا، ويرهقوا باطلاً، ويهدوا ضالاً، ويرشدوا حائراً، بل جاءوا مغوين متوهين حتى يخرجوا المسلمين من دينهم فيستعبدهم الغربيون المغيرون استعباد الهون. وقد قال (غلادستون): لا راحة لمعالم (يعني قومه) ما كان القرآن. وقال سواس فرنسيون: لن يكون لنا الملك الحق في بلاد المغاربة أو نغرب دين القوم
فالمضللون، مقصدهم أن يصدوا أمة محمد عن كتابها، ويلفتوها عن شريعتها ابتغاء أن تذل للغربي وتستقيد. فليس الشأن إذن في نحلة تبطل أو عقيدة تزول، ولكنه أمر أمم تستخذى وتهون بل تفنى وتبيد. فليدر بهذا السفهاء والبله والأغبياء من المسلمين إما كانوا يجهلون
والمضللون مدفوعون إلى اقتراف ما يقترفون: تدفعهم حرفتهم وجعالتهم والرغيف المأكول، فهم مرغمون أن يسلكوا كل سبيل في التضليل، ويتذرعوا بكل ذريعة غير متذممين من منكر، ولا متصحبين من شيء، وغير حافلين بكل خيبة تجبههم، وبكل خذلان يصعقهم، وبكل لعنة تتبعهم. وطرق الشر عند هذه الإضمامة (الجماعة) كثيرة، وذرائع الفساد مستوفرة. فهناك التنويم المغناطيسي. . وهناك التنويم النسوي. . . وحكايات هذين التنويمين من وسائل التضليل معروفة في القاهرة مشتهرة ومن كفر منوماً وسنان عاد إلى الأيمان سريعاً يقضان. وهناك الجنون المجنون في الإقدام على تغليط القرآن في العربية. . .
ليس في القرآن آية أو كلمة قد عدلت عن سنن العرب، وإن (علم العربية) أو النحو أو القواعد العربية - كما يسميها مسمون - هو حجتها، وهو دليلها، وهو المهيمن عليها، وشواهدها كلماته، وهذا كتاب سيبويه وهذه أبوابه وبيناته
ذلكم القرآن. بيد أن المضللين يقولون: نحن نهذي ونخرفش، وعلى إبليس تتميم العمل. وقد جمعوا في (مكتوبهم) بضع عشرة آية (منها الست التي نقلناها - وزعموا أنها مالت عن نهج العربية، وتلكم الآيات الكريمات كلتهنَّ قواعدهنّ مبينة مفصلة في (علم العربية) تفصيلاً. وهذه أقوال نحوية في الست المنقولة
1 - . . . قرء (والصابرون) وقرء (الموفين والصابرين) والنصب على والصابرين. . التعظيم والمدح كما قال (الكتاب) وفصلت (خزانة البغدادي) والقراءة الناصبة تنصر قول الخِرْنِق (أخت طرفة):
لا يبعدن قومي الذين هم ... سم العداة وآفة الجزر
النازلين بكل معترك ... والطيبون معاقد الأزر
وتؤيد ما أنشد القراء:
إلى الملك القرم وابن الهمام ... وليث الكتيبة في المزدحم
قال (جامع البيان): (أن من شأن العرب إذا تطاولت صفة الواحد الاعتراض في المدح والذم بالنصب أحياناً وبالرفع أحياناً)

وقال أبو علي الفارسي (أستاذ الأئمة وشيخ أبن جني): (إذا ذكرت الصفات الكثيرة في معرض المدح والذم فالأحسن أن تخالف بإعرابها، ولا تُجعل كلها جارية على موصوفها، لأن هذا الموضع من مواضع الإطناب في الوصف والإبلاغ في القول، فإذا خولف بإعراب الأوصاف كان المقصود أكمل، لأن الكلام عند اختلاف الأعراب يكون وجهاً واحداً، وجملة واحدة)

2 - . . . فاصدق وأكن. . . قرء (وأكون) بالنصب على اللفظ، (وأكون) على وأنا أكون، وقرء (وأكن) على محل فأصدق. قال المبرد: (وأكون على ما قبله لأن قوله فأصدق جواب للاستفهام الذي فيه التمني، والجزم على موضع الفاء) قال الرضي: (وكذا ما جاء بعد جواب الشرط المصدر بالفاء نحو قوله تعالى: (من يضلل الله فلا هاديَ له (ويذرهم) قرء رفعاً وجزماً، ولا منع في العربية من النصب، فلما كان فاء السببية بعد الطلب واقعاً موقع المجزوم جاز جزم المعطوف عليه؛ قال تعالى: فأصدق وأكن) قال أبن يعيش: (فإذا عطفت عليه فعلا آخر جاز فيه وجهان النصب بالعطف على ما بعد الفاء، والجزم على موضع الفاء، ونظير ذلك في الاسم: (إن زيداً قائم وعمرو، وعمراً) إن نصبت فبالعطف على ما بعد أن، وإن رفعت فبالعطف على موضع إن قبل دخولها وهو الابتداء) والقراءة الجازمة تنصر صاحب الصمصامة في قوله:

دعني فأذهب جانبً ... يوماً وأكفك جانباً

3 - . . . كن فيكون. . . من كان التامة أي احدثْ فيحدث (والرفع على الاستئناف أي فهو يكون) كما قال العكبري. قال الرضي: (وأما النصب في قراءة أبي عمرو فلتشبيهه بجواب الأمر من حيث مجيئه بعد الأمر، وليس بجواب من حيث المعنى) (وهذا مجاز من الكلام وتمثيل، ولا قول ثم) كما قال (الكشاف) وهو (حكاية حال ماضية) كما في هذا الكتاب

وقد كان (يكون) ولم يكن (كان) إذ لو قال: (كان) ما قلنا: إنه (قرآن)؛ إنه (الكتاب) يتكلم لا مخبر مسكين في (الأهرام) و (المقطم) ومثل هذا في (المعاني) مشروح في المطولات والمقصرات أو المختصرات؛ قال الخطيب في (الإيضاح) (قال: (فاضربُها) ليصور لقومه

الحالة التي تشجع فيها على ضرب الغول، كأنه يبصرهم إياها، ويتطلب منهم مشاهدتها تعجيباً من جرأته على كل شدة، ومنه قوله تعالى: (أنَّ مثل عيسى عند الله كمثل أدم خلقه من تراب ثم قال له: كن فيكون) وكذا قوله تعالى: ومن يشرك بالله فكأنما خرّ (من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق

وعلم (المعاني) نحو من (علم العربية) بل هو علم معاني النحو، وقد (استقل) يوم قطعوا (العربية) ولن يفارق نشء العرب وطلابهم ذاك الهم، وذاك الغم، وذاك الضيم الأوقت (الضم) وحين جمع الاخوة

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما ... يظنان كل الظن أن لا تلاقيا

4 - (وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً، أمماً) قرئ وقطعناهم بالتخفيف. وعشرة بكسر الشين. قال (جامع البيان): (قطعناهم قطعاً اثنتي عشرة ثم ترجم عن القطع بالأسباط) قال العكبري: (اثنتي عشرة: مفعول ثان أو حال أي فرقناهم فرقاً (أسباطا) بدل من اثنتي عشرة (أمما) نعت لأسباط أو بدل بعد البدل) قال الزمخشري: (لو قيل اثني عشر سبطا لم يكن تحقيقا لأن المراد وقطعناهم اثنتي عشرة قبيلة، وكل قبيلة أسباط لا سبط فوضع أسباطا موضع قبيلة، ونظيره: بين رماح مالك ونهشل قال أبن يعيش: (فان قلت عشرون رجالا كنت قد أخبرت أن عندك عشرين، كل واحد منهم جماعة رجال كما قالوا: جمالان وإبلان)

وسنين في الآية الكريمة: (ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا) بدل مثل (الأسباط) كما قال أبن الحاجب والرضي والزمخشري وابن يعيش وغيرهم. قال الزمخشري: (وقُرء ثلاث مائة سنين بالإضافة على وضع الجمع موضع الواحد في التمييز كقوله: قل: هل أنبئكم بالأخسرين أعمالاً) قال الرضي: (الأصل في الجميع الجمع فإذا استعمل المميز جمعاً استعمل على الأصل)

5 - . . . والصابئون والنصارى. . . قرى (والصابئون) بالنصب والرفع وأورد العكبري سبعة أوجه في رفعها. قال (الكتاب): (وأما قوله عز وجل (والصابئون) فعلي التقديم والتأخير كأنه أبتدأ على قوله والصابئون بعدما مضى الخبر) قال القراء: (إن كلمة (إن)

ضعيفة في العمل ههنا) قال خطيب الري: (إذا كان أسم إن بحيث لا يظهر فيه أثر الأعراب - مثل الذي وهذا واللذين وهؤلاء - فالذي يعطف عليه يجوز نصبه على إعمال هذا الحرف والرفع على إسقاط عمله) وقال (فتح القدير): (إن خبر إن مقدر والجملة الآتية خبر (الصابئون والنصارى) كما في قوله:

نحن بما عندنا وأنت بما ... عندك راض والرأي مختلف

والقراءة على ما ذهب إليه الخليل وسيبويه تنصر بشر بن أبي خازم القائل:

وإلا فعلموا أنا وأنتم ... بغاة ما بقينا في شقاق

ونؤيد قول ضابىء البرجمي في رواية:

فمن يك أمسى بالمدينة رحله ... فأني وقيارٌ بها لغريب

6 - . . . والمقيمين الصلاة. . . قُرء والمقيمون والمقيمين والنصب على التعظيم كما

قال (الكتاب) في (باب ما ينتصب في التعظيم والمدح) وذكر العكبري ستة أوجه للنصب. وروي (الكتاب) في ذاك الباب قول ذي الرمة:

لقد حملت قيس بن عيلان حربها ... على مستقل للنوائب والحرب

أخاها إذا كانت غضاباً سما لها ... على كل حال من ذلول ومن صعب

ثم قال: (إن نصب هذا على أنك لم ترد أن تحدث الناس ولا من تخاطب بأمر جهلوه ولكنهم قد علموا من ذلك ما قد علمت فجعلته ثناء وتعظيماً، ونصبه على الفعل كأنه قال: اذكر أهل ذاك، واذكر المقيمين، ولكنه فعل لا يستعمل إظهاره. وليس كل موضع يجوز فيه التعظيم ولا كل صفة يحسن أن يعظم بها، فاستحسن ما استحسنت العرب، وأجره كما أجرته)

قال البصريون: (إذا قلت مررت بزيد الكريم فلك أن تجر الكريم لكونه صفة لزيد، ولك أن تنصبه على تقدير أعني، وإن شئت رفعت على تقدير هو الكريم، وعلى هذا يقال: جاءني قومك المطعمين في المحل، والمغيثون في الشدائد) والعربية تنصب على الشتم والذم كما تنصب على التعظيم والمدح. قال أمية بن أبي عائذ:

ويأوي إلى نسوة عطل ... وشعثاً مراضيع مثل السعالي

وقال أبن خياط العكلي:

وكل قوم أطاعوا أمر مرشدهم ... إلا نميراً أطاعت أمر غاويها

الظاعنين ولما يظعنوا أحداً ... والقائلون لمن دار نخليها؟!

وكتاب (المظللين) هذا معروف، وطبعاته كثيرة، وقد عزي إلى (هاشم العربي) وهو من قبيلة (هيّان بن بيّان أو ضُلّ بن ضلّ) المشهورة. . . وفي (قرار النيابة العامة) الذي أعلنه الأستاذ (محمد نور) رئيس نيابة مصر في شأن أستاذ مسلم - إشارات إلى كتاب المبشرين أرى نقلها في هذا المقام. قال الأستاذ الرئيس (محمد نور):

(. . . على أنه سواء كان هذا الغرض من تخيله كما يقول أو من نقله عن ذلك المبشر الذي يستتر تحت أسم هاشم العربي فأنه كلام لا يستند إلى دليل ولا قيمة له. على أنا نلاحظ أن ذلك المبشر مع ما هو ظاهر من مقاله من غرض الطعن على الإسلام كان. . . كما نلاحظ أيضاً أن ذلك المبشر قد يكون له عذره في سلوك هذا السبيل لأن وظيفة التبشير لدينه غرضه الذي يتكلم فيه، ولكن ما عذر. . . يقول الأستاذ. . . وهاشم العربي يقول في مثل هذا. . فسبحان من أوجد هذا التوافق بين الخواطر!)

ولما ظهر مؤلف المبشرين أشاع مشيعون تكبيراً لحقير، وترويجاً لزائف، وتهويلاً بضئيل شخت - أن هاشماً العربي هو صاحب (مجلة الضياء) ثم نجمت طبعة للكتاب بعد موت اليازجي وفيها: (هاشم العربي الشيخ اليازجي)

(الإسكندرية)

* * *

مؤتمر المستشرقين العشرون

المنعقد في مدينة بروكسل

من 5 إلى 10 سبتمبر سنة 1938

للدكتور مراد كامل

حفلت عاصمة البلجيك بنخبة من علماء المشرقيات في الثلث الأول من شهر سبتمبر. وقد زاد عددهم على عدد الذين اشتركوا في مؤتمر المستشرقين السابق المنعقد في روما سنة 1935

هذا وقد قسمت أعمال المؤتمر ومحاضراته تسعة أقسام:
علوم مصرية قديمة وأفريقية - علوم آشورية - آسيا الوسطى - الهند - الشرق الأقصى - اللغات والشعوب السامية - العهد القديم والعلوم اليهودية - الإسلام - الشرق المسيحي
وإذ بلغت المحاضرات التي ألقيت الثلاثمائة أو زادت (بلغات مختلفة منها العربية والفرنسية والإنجليزية والألمانية والإيطالية) سأقصر بياني على أجلها شأناً تارة بالتفصيل وتارة بالإشارة:
القسم الأول: تقرير عن حفائر مدينة إدفو التي قامت بها جامعة فارسوفيا والمعهد الفرنسي للآثار الشرقية. تكلم فيها المحاضر وهو سانت فارجرنو على آثار الدولة القديمة المكتشفة في الحفريات من الأسرة السادسة ثم على آثار الدولة الوسطى
- ألقى الأستاذ سامي جبره محاضرة بواسطة الفانوس السحري عن حفائر الجامعة المصرية في تونه الجبل (هرموبوليس الغربية) أظهر فيها أهم الآثار المكتشفة وقيمتها التاريخية
- محاضرة عن فكرة النقود والمعاملة بها في مصر القديمة لدِمِل من فينا
- محاضرة عن الضمير في اللغات الكوشية في الحبشة لفراريو الإيطالي
- ألقى الأستاذ مورينو رئيس القسم الشرقي في وزارة المستعمرات الإيطالية محاضرة ذكر فيها النتائج التي وصل إليها العلماء الإيطاليون حديثاً في بحثهم عن لغات السداما الشرقية في الحبشة وعن مركزها بين اللغات الأخرى
القسم الثاني: تكلم الأستاذ كرستيان من فينا عن أول ظهور الشعوب السامية في ما بين النهرين وقال أن التاريخ يحقق وجودهم حوالي سنة 2500ق. م إلا أن هناك دلائل لغوية تثبت لنا وجودهم قبل هذا التاريخ
- أراد هروزني أن يثبت بمقارنة لغوية أثر السومريين والأكاديين في الحضارة المصرية لأربعة آلاف سنة ق. م
القسم الثالث: تكلم الأستاذ عيني التركي على اللغة التركية في بغداد في القرن الحادي عشر الميلادي فذكر قاموس محمود أبن الحسين بن أحمد الكشكري الذي وضعه بأمر الأمير عبد القاسم عبد الله بن الخليفة العباسي المقتدي سنة 466 هـ ثم أشار إلى مخطوط من هذا العصر يحتوي على شعر باللغة التركية والفارسية لعبد القادر الكيلاني
- وقد تكلم الهمداني (لندن) على مخطوط وجده في القسطنطينية فيه قصيدة صوفية فريدة لأوحد الدين الكرماني المتوفى سنة 635 هـ والمسماة (مصباح الأرواح) فنقد القصيدة وترجم للشاعر
القسم الرابع: ألقى شترجي من جامعة كلكتا محاضرة عن مخطوط بالحروف العربية - الفارسية، استخلص منه طريقة نطق اللغة السنسكريتية في شمال الهند في العصور الوسطي
القسم السادس: ألقى الأستاذ بروكلمن المستشرق المعروف محاضرة عنوانها (معضلات الصياغة الشعرية في الأدب العربي الحديث) وقد قصر محاضرته على الشعر المصري الحديث فقال: (إن الشعر العربي بقي موثقاً بالقيود القديمة إلى أواخر القرن التاسع عشر للميلاد، غير أن استعمال الموشح أدخل نغمة جديدة في النظم التقليدي الجاري على وتيرة واحدة، ثم حطمه الشاعر خليل مطران من قيود القديم متأثراً بألفرد دي موسيه الشاعر الفرنسي الابتداعي فأنشأ مدرسة من أفرادها أبو شادي المتأثر بالأدب الإنجليزي، ثم هب الجيل الحديث فذهب في تجديد الصياغة مذهباً يمتاز بالجرأة والاستقلال) وذكر المحاضر شعر الدكتور بشر فارس مثلا لنظم الجيل الحديث
- أفضت السيدة الإنجليزية تومسن بواسطة الفانوس السحري بنتيجة الكشف عن معبد بوادي عمد في حضرموت ثم تلاها الأستاذ روكمن مجملاً شرح النصوص السبأية التي
وجدت بهذا المعبد والتي أنافت على السنتين
- تحدثت الآنسة هوفنر من جامعة جراتز من أعمال النمسا عن نتائج بحثها في المصدر والفعل الماضي في لغات اليمن القديمة القتبانية والسبأية والمعينية

القسم السابع: وجعل الأستاذ بركلند من جامعة أوسلو موضوع محاضرته (كيف نستدل باللغة العبرية على الحالة الاجتماعية لسكان فلسطين في العصور القديمة)
القسم الثامن: وأما القسم الإسلامي فقد كان شاملاً جامعاً كثرت محاضراته وتوافر المستمعون لها. وقد مثل مصر في هذا القسم الدكتور طه حسين بك والأستاذ أحمد أمين والدكتور عبد الوهاب عزام والأستاذ فييت. وكان عدد غير قليل من المصريين يستمعون إلى المحضرات ومعظمهم من الطلبة الذين يدرسون في جامعات أوربا، وسأبسط أهم المحضرات التي ألقيت في هذا القسم بحسب ترتيب إلقائها:
- محاضرة للأستاذ ماسينيون عنوانها (بحث في قيمة الظواهر الفكرية التي نتجت عن سورة أهل الكهف عند المسلمين) ومما ذكر المحاضر أن المتصوفة سلخوا من هذه السورة ميداناً للتأمل (والشطح) فقالوا: (إن الحلاج سر هذه السورة لأنه مات سنة 309 هـ وفي السورة أن الفتية عاشوا في الكهف 309 سنة) وأما الشيعة فقالت: (إنما الكهف هو الزوال الظاهر للحكم) ناظرة بذلك إلى الإمام المختفي. وأما أهل السنة فكانوا أكثر تحفظاً؛ ومما قاله الغزالي: (إن أهل الكهف هم الأقطاب السبعة أو الأوتاد السبعة الذين يحفظون العالم من السقوط لأنهم يمثلون العدل) ثم تكلم المحاضر على تأويل المفسرين لهذه السورة ومذاهبهم فيها وقال إنهم وقفوا عند ألفاظ فيها عدوها (مفاتيح) للولوج إلى كنه أسرارها، ومن هذه الألفاظ: فتية، كهف. فالمحاضرة تدور حول تبيين اعتماد المسلمين على سورة أهل الكهف لشرح أمور إسلامية وقعت بعد نزول القرآن الكريم أو لتعزيزها
- وألقى الدكتور طه حسين بك تقريراً علمياً قسمه قسمين:
الأول في المجهودات التي بذلت في مصر لتيسير قواعد الأعراب وقد أثار هذا الموضوع اهتمام المستشرقين. وأما القسم الثاني فخاص بكتاب الفصول والغايات لأبي العلاء المعري، وفي رأي المحاضر أن كتاب الفصول والغايات هو الخطوة الأولى للزوميات ثم قال: إن أبا العلاء حاول أن يحاكي فيه أسلوب القرآن من الوجهة اللغوية والشكلية
- وتكلم الأستاذ لفجرين من جامعة أبسالا عن شروعه في طبع الجزأين الأول والثاني من كتاب الإكليل للهمداني
- وألقى بيرس من الجزائر محاضرة عنوانها (بدء القصص الأخلاقية والاجتماعية في الشرق العربي في مختتم القرن التاسع عشر وغرة القرن العشرين) وقال: أن السياسة تحكمت في الفكر الأدبي ولا سيما في مصر من سنة 1882 حتى آخر القرن التاسع عشر إلى أن ترجم أحمد فتحي زغلول سنة 1899 (سر تقدم الإنجليز السكسونيين). فتنبه المصريون من رقادهم ورجعوا إلى أنفسهم فألفوا في الاجتماعيات وأهم هذه التآليف كتاب المويلحي (حديث عيسى بن هشام) وهو الذي أنشأ هذا اللون من الأدب في مصر
- تكلم الأستاذ جويدي من جامعة روما على نشر مخطوطات الكندي الصحيحة المعروفة بفضل نسخة أيا صوفيا رقم 4832
- حاضر الدكتور عبد الوهاب عزام في (السلطان الغوري ومركزه في الأدب والعلم). فبعد أن ذكر شغف الغوري بالعلم والأدب ومعرفته بعلوم الدين والتاريخ ذكر أن له شعراً بالعربية والتركية ومقطوعات لحنها للغناء. ثم تكلم المحاضر عن ثلاثة كتب ألفت بأمر السلطان الغوري: الكتاب الأول (نفائس المجالس السلطانية) لحسين بن محمد الحسيني، شرح فيه المؤلف بعض مسائل دارت بين السلطان والعلماء، وجعل الكتاب في عشرة فصول وسم كل فصل (بالروضة) ثم شرح المحاضر موضوع الكتاب وبين نواحيه الخاصة وقيمته التاريخية. والكتاب الثاني عنوانه (الكوكب الدري في مسائل الغوري) وفيه ألفا سؤال دارت حولها مناقشات في مجلس الغوري وكل ألف من هذه المسائل يقع في جزء. ثم بين المحاضر هذا الكتاب كمرآة لآراء علماء وأمراء مصر في ذاك العصر. وأما الكتاب الثالث عن الغوري وشاهنامة الفردوسي، فذكر المحاضر كيف أمر السلطان الغوري الشاعر التركي حسين بن حسن بن محمد الحسيني الآمدي بنقل الشاهنامة من الفارسية إلى التركية. وأضاف أن للترجمة مقدمة وخاتمة. تظم ألف بيت تقريباً
- بحث بلاشير كتاب شرح العكبري على ديوان المتنبي وخرج من بحثه بأن العكبري لم

يؤلف هذا الشرح وإنما ألفه أحد معاصريه
- تكلم الأستاذ أحمد أمين على كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي، فأستهل الكلام بترجمة لأبي حيان، ثم ذكر ما دعا أبا حيان لتأليف كتابه؛ وبيان هذا أن أبا الوفاء المهندس هو الذي قرب أبا حيان من الوزير عبد الله العارض فسامر أبو حيان الوزير ستاً وثلاثين ليلة؛ فسأله أبو الوفاء أن يقص عليه جميع ما دار بينه وبين الوزير فأجاب طلبه بهذا الكتاب. ثم حقق المحاضر شخصية الوزير أبي عبد الله العارض ورجح أنه هو الوزير أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان وزير صمصام الدولة البويهي. ثم ترجم لأبي الوفاء. ثم ذهب المحاضر في وصف الكتاب فبين تنوع موضوعاته وطرافتها وختم محاضراته بأن بشرنا أن الجزء الأول من الكتاب سيكون بأيدي القراء في شهر أكتوبر لهذه السنة وسيلحقه الجزء الثاني
- تكلم الأستاذ كاله على مخطوط لمحمد بن دانيال المتوفى سنة 1311م عن خيال الظل في مصر أعده للنشر
- وألقى الأستاذ شاده محاضرة عنوانها (العمل المشترك بين الشرقيين والمستشرقين لدراسة الأدب العربي)
وألقى الأستاذ جب محاضرة عنوانها (بعض اعتبارات في نظرية أهل السنة عن الخلافة)
- وقال كسكل من دنزخ في محاضرة سماها (مقدمة لتاريخ بلاد العرب): إن تكوين الشعب العربي بدأ في القرن الثاني للمسيح بعد أن أفسح له المجال سقوط دولة النبط. وزاد أن تكوين هذا الشعب ظهر في شمال الجزيرة أولاً واستدل على هذا بوجود اللغة العربية الفصحى على النقوش التي ترجع إلى القرن الثالث للمسيح
- وألقى آبل من بروكسل محاضرة عن (الاتجاهات اللغوية في كتب الشعوبية) وبين أن الشعوبية تأثرت بالفارسية في فارس وباليونانية والسريانية في الشام والعراق. وهذا النوع من البحث يرفع الستار عن اندماج الحضارات المختلفة بالإسلام ويثبت لنا الكثير من تاريخ الفكر العام، ويمكننا من دراسة تطور اللغات ومقارنة اللغات السامية
- وتكلم الأستاذ برتسل من جامعة ميونخ على (طرق الدراسات القرآنية وأغراضها)
- وألقى الدكتور بشر فارس محاضرة بين فيها طريقته في نقد الأدب العربي الحديث، فأبتدأ يعرض مذهبه من الناحية الفلسفية فقال إنه ينظر إلى الأدب الحديث من جانب اجتماعي لكي يلمس ظواهر الأزمة المعنوية والأخلاقية والثقافية التي يعانيها الشرق العربي في هذه الفترة. ثم أخذ يحلل ستة كتب ظهرت سنتنا هذه على سبيل التمثيل. فعرض للأزمة المعنوية بنقد كتاب في (منزل الوحي) لحسين هيكل، و (على هامش السيرة) لطه حسين، ثم للأزمة الأخلاقية بنقد كتاب (سارة) للعقاد، و (في الطريق) للمازني، ثم للأزمة الثقافية بنقد كتاب (عصفور من الشرق) لتوفيق الحكيم، و (سندباد عصري) لحسين فوزي. فخرج من هذا التحليل بتدليل مستقيم على شرح طريقته التي بينها في أول المحاضرة
- وشرح لنا الأستاذ فييت في محاضرة لطيفة اسطرلاباً مربعاً صنع في دمشق برسم أمير دمشق سنة 767 هـ
- وتكلم لبفي بروفنسال على رسالة وجدها في مكتبة لمدينة فاس وعنوان الرسالة (كتاب الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السِّكة) ألفها أبو الحسن علي بن يوسف الكومي المديوني من سنة 767 - 774 هـ
القسم التاسع: ألقى الأستاذ سيمون أستاذ اللغة القبطية والحبشية في المعهد البابوي بروما محاضرة عن المخطوطات القبطية بلهجة الفيوم المكتشفة حديثاً والتي يرجع تاريخها من القرن الرابع إلى الحادي عشر للميلاد وبين قدر هذا الاكتشاف في تاريخ اللهجة القبطية الفيومية
- وألقى هوسهر محاضرة عن جريجوار القبرسي السرياني الذي عاش حوالي سنة 600 م وتكلم على كتبه في التصوف وعلى أثر تاريخ الأدب الصوفي السرياني في الأدب الصوفي البيزنطي والإسلامي
- وبحث بلايل من هيدلبرج عن بدء الكتابة بالحروف القبطية وذكر اكتشافه لورقتين من أوراق البردي يتبين منهما المحاولات الأولى للكتابة بالحروف القبطية ويرجع تاريخ هاتين الورقتين إلى ما قبل أوراق البردي الموجودة بهيدلبرج والتي ترتد إلى القرن

الثالث قبل الميلاد، وأخبر أيضاً باكتشاف ورقة بردي ترجع إلى القرن الثاني بعد الميلاد تبين لنا كيف استعان المصري بالحروف الديموطيقية لخط الحروف القبطية التي أخذت عن اليونانية

هذا وقد قامت مناقشات بعد إلقاء طائفة من المحاضرات، رأيت إهمال ذكرها خشية الإطالة والإثقال، وممن اشترك في المناقشات فجاء بجديد أو دفع وهماً أو حقق مسألة متشابهة

الأستاذ ماسينيون والدكتور طه حسين بك والأستاذ جويدي والأستاذ كولان والأستاذ كابار والدكتور بشر فارس والأستاذ كلنجنهيبن والأستاذ كرنكو

(برلين)

مراد كامل

دكتور في اللغات السامية

عود على بدء

بين الغرب والشرق

للدكتور إسماعيل أحمد أدهم

(بقية المقال الرابع)

8 - يسخر المناظر من قولنا أن هناك صلة اليوم بين الثقافة والعلم على اعتبار أن الثقافة تنبثق من العلم، نظراً لأن الحياة اليوم ينظمها العلم بقواعده المادية - ويقول: أي صلة المبادئ الأدبية التي يقوم المجتمع عليها وبين علم طبقات الأرض. ونحن نقول إن هناك صلة، ومرد هذه الصلة أن العلم بكشفياته يقيم حياة مصبوبة على نمط معين، ويتأثر هذا بهذا النمط الإنسان في شعوره واتجاهاته ومنحاه، بيان ذلك أن علم طبقات الأرض - وهي التي ضرب بها مثل المناظر - بما تنتهي إليه من اكتشافات لها أثر في الحياة الأدبية، ذلك أنه من المعروف الآن أن الكشفيات الأخيرة في الصعيد من جهة أسوان كشفت عن مناجم للحديد يمكن استغلالها لمتوسط نصف مليون طن سنوياً لألفي عام. فهذا الاكتشاف الذي مرده البحوث العلمية في طبقات الأرض لو استغل استغلالاً صناعياً في مصر لأقام صناعة في مصر يشتغل فيها على أقل تقدير ثلاثة ملايين عامل، ومثل هذه الحياة الصناعية تحدث تغيراً في الحياة الأدبية والتصورات الأخلاقية، إذ يحدث تطور من صور حياة أدبية لشعب زراعي إلى حياة تكافئ جماعة أخذت بالصناعة، وعلى هذا الوجه يستبين مفهوم كلامنا ولقد ضربنا مثلاً بمصر وبطبقات الأرض التي شاء مناظرنا أن يسخر اعتماداً عليها من قولنا بانبثاق الثقافة من العلم في مدينتنا الراهنة لتظهر حقيقة غائبة عن العقول في مصر الحديثة في منحى الأخذ بها نحو الحياة الأوربية الصحيحة بإقامة مجتمع صناعي فيها

أما محاولة المناظر التلاعب بكلامنا بإظهاره في صورة يخترمها تناقض، فهذا ما نأخذه ونحاسبه عليه، فلقد قلنا أن الثقافة تنبثق من العلم ومعنى هذا أن الثقافة شيء والعلم وشيء، وأخذنا على اليابان أنها أخذت بنتائج العلم الأوربي ولم تأخذ بالعلم الأوربي نفسه فكان نتيجة ذلك أنها عاشت عالة على أوربا في علمها وحضارتها؛ وأنها احتفظت بثقافتها

التقليدية مع الأخذ بنتائج العلم الأوربي، بمعنى أنها لم تأخذ بعلم أوربا وتقيم لنفسها ثقافة تقليدية جديدة تتكافأ مع العلم الأوربي ومنطقه وتنبثق من أسسه. فأين التناقض في قولنا هذا؟

لا يا صديقي، لا يكون الكلام بإسقاط بعض القول. قلنا أن اليابان أخذت بنتائج العلم الوضعي، فجعلتها يا صديقي أنها أخذت بالعلم الوضعي، وشتان بين الاثنين!

لسنا جوادي رهان نتسابق. ولسنا في مجال نريد أن ننتصر لرأينا حقاً أو باطلاً. إن في أعناقنا مصير قضية ملايين من حيث تعلق مصيرها بقضية الغرب والشرق فيجب أن تكون وجهتنا الحقيقية وعدم تزييف الكلام. . .

9 - يشكرنا المناظر على قولنا بأن المنطق شيء مشاع بين الأمم، ظاناً أننا كنا أنكرنا مشاعيته من قبل، وهذا ظن عريق في الوهم. فنحن لم نغير من موقفنا شيئاً. . . (المنطق مشاع ولكن يجب أن تمرن الأمم عليه قبل أن تصبح متغلغلة في تفكيرها، إذ ليس المنطق أسلوباً في التفكير يتبع وأقيسة يجري عليها، إنما هي قبل كل شيء ميل عقلي واتجاه ذهني يمكن أن يكتسب!

هذا ما قلناه في مقالنا الأول، فنحن عند رأينا بأن للمحيط أثره في المنطق والتفكير المنطقي. للمحيط الطبيعي والمحيط الاجتماعي أو بتعبير أدق لنتوج الصلات والفواعل المتخالطة من المحيط الطبيعي والمحيط الاجتماعي أثر في المنطق من حيث هو ميل عقلي واتجاه ذهني، وفي هذا سر قعود الشرقيين عن مجاراة الغربيين، لأن منطقهم حينما يتكافأ ومجتمعهم ذا الطابع الغبي، وحين يتغلب الطابع اليقيني على هذا الشرق فهذا المنطق الغبي سيقف عقبة كؤودا في طريق رقي العالم الشرقي.

سيأتي ذلك اليوم قريباً وذلك الزمان وشيكاً، وستقوم العقلية اليقينية في الشرق والمنطق الاثباتي في العالم العربي نتيجة لتغلب الاتجاه الغربي على هذا الشرق بحكم كون الغرب مركز الجذب الاجتماعي في عصرنا. إذا فلسنا نحن في حاجة إلى الانتقال إلى الغرب لاكتساب عقلية يقينية كما يقول المناظر، إنما كل ما نحن في حاجة إليه أن يتقوى الاتجاه نحو الغرب فتقوم العقلية اليقينية بين ظهرانينا. ومع هذا فالدلائل قائمة على أن العقلية اليقينية أخذت طريقها إلى هذا الشرق، وهي أوضح ما تكون في المفكر المصر البحاثة

إسماعيل مظهر وفي جماعة يحتذون حذوه اليوم.

أما ما يثيره من اعتراض لتعبيري بالفلسفة الإسلامية عن فلسفة ابن سينا والفارابي وابن رشد بأن فلسفة المفكرين في الإسلام لم تكن تمت إلى الدين بصلة، وليست إسلامية ولا مسيحية فمرد ذلك التباس في فهم مفهوم عبارتي، فاصطلاح الفلسفة الإسلامية يعني فلسفة الفلاسفة الذين ظهروا في الإسلام، أو بتعبير أدق يعني الجانب الفلسفي من المدنية الإسلامية. وإذاً يكون كل ما يبغيه على اعتراض ساقط بسقوط الاعتراض نفسه

10 - يتعجب المناظر الفاضل من تحليلنا الفلسفة الإسلامية إلا أنها تقيد إرادة الله بنظام هذا الكون وسننه. واعتبارنا أنها نتيجة للأثر الإغريقي التي توارثته عن مدارس النساطرة والاسكندريين، والواقع أني حائر صدد هذا التعجب الذي لا أفهم له معنى. ولولا حسن ظني بثقافة مناظري وعلمه لقلت إن مرّده عدم الوقوف كلياً على فلسفة فلاسفة الإسلام خاصة والفلسفة عامة، وإلا فما معنى التعجب من تقييد إرادة الله بنظام هذا الكون وسننه؟

ولولا خشية الإطالة لكنت سمحت لنفسي أن أنقل نتفاً من كتب الفلاسفة أشرح لمناظري الفاضل هذه المسألة، وأظن أن في إمكانه أن يغنيني مشقة هذا النقل بأن يراجع كتب الفلسفة وخصوصاً المطولات منها فيما يتعلق بإرادة الله والخلق والإبداع. .

وهناك أشياء لو ذهبت أعلق عليها وأبين زيفها في ردّ المناظر علينا، لانتهت إلى مقالين آخرين، غير أني اكتفي بما اجتزأته في هذا المقال والمقال الذي سبق ففيه الكفاية لإظهار زيف ما ذهب إليه مناظرنا الفاضل، وإني لأرجو مناظري إن شاء أن يعاود الرد ألا يترك لشاعريته المجال فيصول ويجول ويتدفق على غير أساس علمي أو منهج بيّن، وإلاّ لتعذر النقاش. فها هو لم يخرج في كل رده بما يؤيد وجهة نظره أو يرد على وجهة نظري من الاجتماع والتاريخ

لقد كان المناظر كالشلال الهدّار المتدفق في رده، ولكن كان مردّ هذا طبيعته النفسية، ولهذا كانت تتكسر أمواجه على حقائق الاجتماع والتاريخ فما يفيق من الاصطدام بالواقع الملموس وما تقيمه من حواجز أمامه حتى يعود فيرتد ليتدفق من جديد في اندفاع مردّه كما قلنا طبيعته القوية، ولكن ليصطدم بحقائق الواقع فيرتد لينسبط ويتعرج لآفاق وأودية جديدة، وهكذا. . . ولكن إلى متى أيها الصديق؟

إني أعوذ الصديق من وضعه منطقه الخطابي وأسلوبه الفياض في نصرة قضية زائفة إلى الحد التي لا تجد لنفسها ما يسندها وتقوم. . . وإني وإن كنت قد شددت القول على صديقي المناظر فما بي الحاجة أن أقول له إن مردّ هذا ما يمليه الموقف علي، وصديقي يعرف ماله من الاعتبار عندي، فلعل فيما قدمت ما يعتذر عني عند الصديق الكريم وحسبي في كل ما كتبته الحقيقة، والحقيقة ضالة الإنسان في هذه الحياة، لا يرتاح إلا بأن ينتهي إلى وجه منها.

(أبو قير)

إسماعيل أحمد أدهم

غزل العقاد
للأستاذ سيد قطب
- 19 -
الحب دنيا خاصة طليقة
في الاستعراض السريع الذي قمت به في أوائل الحديث عن (غزل العقاد) عرضت رأيه في (الحب) بالعدد 266 من الرسالة؛ وقلت: إنه يراه (رفعة للنفس ونقلة إلى عالم النجوم، وأنه قدرة قادرة تهب أصحابها مشابه من الألوهة ومقابس من النبوة) فمن كمال هذا الرأي أن أذكر اليوم أن من خصائص غزل العقاد، شعوره بأن الحب يطلقه من قيود الزمان والمكان وضرورات الفناء، ويمنحه دنيا خاصة طليقة من كل قيد معهود.
ولا يكون الشعور بالحب هكذا، حتى يكون صاحبه ذا نفس محقة، وذا طبيعة ناضجة، وذا إحساس مترف. فأما النفس المحقة فهي لازمة له ليتخلص من قيود الزمان والمكان والضرورات عامة؛ وأما الطبيعة الناضجة، فهي ضرورية له ليخلص من اللهفة والوله إلى التأمل والترفع، وأما الإحساس المترف، فليغني به عن المتع الرخيصة إلى الانتقاء والاختيار
وفي هذا المجال أذكر مقطوعتين: الأولى بعنوان (عهد بين عامين) يقول منها:
ويا حسن هذا النداء ... إذا ما وجدتك لي صاغية (سعاد)
نسيت التواريخ إلا التي ... تعود بذكرك لي رواية
فأنت الزمان وأنت المكان ... وأنت غنى النفس يا غانية
ولست أعد حساب السنين ... بالشمس طالعة غافية
ولكن بوجهك لي مقبلاً ... ونظرتك الحلوة الساجية
فيوم الرضا عالم حافل ... من الحب والذكرة الباقية
ويوم النوى عالم مظلم ... تضل الشموس به هاوية
والثانية بعنوان (سنة جديدة) وفيها يقول:
أدركنا موكب السنين ... في موكب الحب سائرين
والحب من يغش ركبه ... يساير النجم كل حين
راجع حساب السنين يا ... نجم، فما نحن حاسبين
أبا لألوف احتسبتها؟ ... أم لم تزل تجمع المئين؟
يا سنة أقبلت لنا ... أقبلت ميمونة الجبين
وداعنا فليكن غداً ... كما التقينا. . . أتسمعين
في موكب الحب نلتقي ... وفيه نمضي مودعين
وفي هذه القطعة يتضح المعنى الذي نحن بصدده، فهو يفرض أن الدنيا كلها تسير في موكب السنين العادية، وهما يسيران في موكب وحدهما، وقد تقابل الموكبان صدفة، ثم يدع للنجم أن يعدّ سنيه ويراجع حسابه لنفسه، فما هما بحاجة لهذا الحساب، ولكنه يطلب فقط من هذه السنة التي صادفتهما سائرين في موكب الحب أن تودعهما وهما في هذا الموكب نفسه، وهي كناية طريفة عن الرغبة في دوام الحب واستمراره وغير هاتين القطعتين كثير متفرق مما يطرق هذا المعنى ويعبر عن هذا الإحساس الذي هو إحدى خصائص غزل العقاد
الحب مطلوب لشوكه كزهره
والحب عند الكثيرين متعة ولذة أو جوى وحرقة، أما هو عند العقاد فقوة من قوى الطبيعة، والشوك فيه كالزهر، والشر كالخير، كلاهما مطلوب لذاته، والألم فيه مقبول لأنه كاللذة عنصر فيه أصيل
ولن ينظر إنسان إلى الحب هذه النظرة حتى يخلص به إلى مرتبة (التجريد) بعد أن يسمو به عن الإحساس القريب المحدود ففي قصيدة (القربان الضائع) يقول:
إله عرش الجمال ما بي ... يقصر عن وصفه خطابي
ما لضحاياي لا أراها ... لديك بالموضع المجاب
ألوم؟ أم لا يلام رب ... يكافئ الحب بالعذاب؟
وكم تجافي إله قوم ... عن سنة العدل في الحساب

يأبى القرابين غاليات ... ويرفع البخس غير آب
فانبذ كثيري فكل حب ... فيه عطاء بلا ثواب
وكن كما كان كل رب ... جلَّ عن الصغو والجواب
إني أشبَّ الهيامَ عمري ... في قبلة القلب كالشهاب
فارمقه أو غض عنه لكن ... دعه على الدهر في التهاب
ولا تخل برده سلاماً ... فالنار خير من التراب
حبك أن أخلو منه يوماً ... خلوت في عالم الخراب

فهنا محب لا تقبل ضحاياه، ولكنه يريد هذا الحب مشبوباً، ولا يريده برداً ولا سلاماً إذا كان هذا السلام يطفئ شعلته ويخبئ أواره فيتركه في عالم الخراب

وهو في قطعة عنوانها (في البعد والقرب) يبدأ بالتشكي من اختلاف حال البعد والقرب من حبيبه، فيريد ألا يكون في البعد ناراً. ثم يستدرك فيطلب إليه أن يكون عذاباً كما كان نعيماً لأن الحب لا يكمل إلا حين يكون هذا وذاك:

لن يطيب البعد يوماً لن يطيبا ... هن عليَّ اليوم إن كنت حبيباً
لا تكن ناراً من الشوق ولا ... دمعة حري ولا قلباً كئيبا
لا تكن صحراء في البعد وقد ... كنت لي في القرب بستاناً رطيبا
إن تغب شمسنا فأوص النوم بي ... قبل أن تعرض عني أو تغيبا
يا حبيبي بل فكن ما كنت لي ... صانك الله بعيداً وقريبا
وأجعل الأنس نصيبي فإذا ... غبت عني فاجعل السهد نصيبا
كن نعيماً وعذاباً، ومنى ... تملا النفس، وحرماناً مذيبا
هكذا الحب دواليك فمن ... لم يكنه لم يكن قط حبيبا

ولن يقول الإنسان هكذا إلا وهو مؤمن بالحب أشد الإيمان متقبل منه كل ما يأتي به كما يتقبل المؤمن الصوفي كل ما يأتي به الإله في خشوع ورضا واطمئنان

ولا يقف هذا الإحساس في العقاد عند هذا الحد، فقد يكون بعض الشعراء جاش في نفسه مثله، فإنما هو في قطعة ثالثة يتلهف على شوك الحب لهفته على زهره، لأن هذا الشوك دليل عنده على قوة الحب ونمائه وفورته، فحبذا هذا الشوك إذن في دلالته، ولا حبذا العشب المريع من عتيد الحب، ولو استنام له الآخرون واستروحوه واستلانوه؛ وذلك في قصيدة فريدة بعنوان (يومنا) وفيها يقول:

سنة كانت ربيعا كلها ... بين روض يتغنى ويضوع
زهر ناهيك من زهر فأن ... أنبت شوكاً يكن شوك ربيع
حبذا الشوك من الحب ولا ... حبذا من غير العشب المريع

فإذا وجدنا من المحبين من يقول: سأقبل الشوك من الحب تضحية واحتمالاً، فلن تجد فيهم من يجد في طلبه ويمدحه لأنه شوك ربيع، فهو دليل حياة ونماء في هذا الحب المطلوب المرقوب وهذه - كتلك - إحدى خصائص غزل العقاد

التمتع الفني بالحب في كل حالة

وإذا كانت هذه نظرة العقاد إلى الحب، فكل حالة من حالاته إذن مقبولة ما دامت حية نامية، وهو إنما يرتقي به عن المتاع الحسي إلى المتاع الفني، في رفاهية وترف وطرافة. . اسمعه يحدثك عن (شوق إلى ظمأ) والعنوان نفسه يوحي بما وراءه:

ضِني بيومك إن بدا لك، واتركي ... لي من رضاك غدا علالة طامع
ليس ابتعادك عن هواي بمبعد ... عني هواك، وليس منعك مانعي
إني لألتذ الصدى وأطيله ... شوقاً إلى برد الشراب الناقع

وقد نعرف شاعراً يصبر على البعد، ويستعيض بالذكرى والحنين، عن اللقاء والاجتماع؛ أما أن يطلب الشاعر أن تضن عليه حبيبته بيومها حين يبدو لها، لأنه يلتذ الصدى ويطيله ليلتذ برد الشراب، فهذا هو الطريف، وهو وليد الطلاقة الفنية، والثقة الهانئة!

وكذلك هو في قطعة (سحر السراب):

هذا سرابك جنة تغري ... يا فاتني بالقرب والذكر
صحراء بعدك ما خلت أبدا ... من كوثر في أفقها يجري
لكنه يغري وليس به ... ري، وعندك لجة النهر
وإذا الشراب خلت كواثره ... من مائها لم تخل من سحر
فافتن بذاك وذاك يصف لنا ... أمن المقيم ولهفة السفر

فهو مستمتع بكل حالة، وإذا فاته ري النهر، فلن يفوته سحر السراب، وهذا إنما هو فتنة الشاعر، إذا كان ذلك فتنة الإنسان، والعقاد إنسان وشاعر وكلاهما فيه متفتح يقظ ممتاز و (قبلة بغير تقبيل) ومن يستطيعها حتى يكون من دقة الحس وقوة التشخيص ما كان العقاد،

وهو يقول:

بعد شهر: أنلتقي بعد شهر ... بين جيش من النواظر مَجْر!

لم يحولوا - وحقهم - بين روحينا ... وأن ألزموهما طول صبر

تمت القبلة التي تشتهيها ... كلها غير ضم ثغر لثغر

ثم منها شوق، ورفٌّ شفاه ... وهوى نية، وخفقة صدر

وهكذا يحلل القبلة الواحدة إلى عناصر وأحاسيس، كل منها وحدة تكون جزءاً، ثم ينظر ما تحقق من (وحدات) القبلة، فإذا هو كل عنصر روحي فيها، فلم يبق إلا مظهرها الحسي وهو (ضم ثغر لثغر) وهذا غير ذي غناء لدى محب فنان!

ومن آثر ما يروى في هذا المجال، أبياته في (عابر سبيل) بعنوان متاع جديد، وهي فن وحدها، ولكنه ذو علاقة بمبحثنا هذا. وإنما هي امرأة في الأربعين في محياها ثنايا وغضون كما يكون في بنت الأربعين، ولكن بث الغرام أحيا قلبها، ففاض بالجمال على وجهها، وسوى غضونه وثناياه، فكانت بذلك خريفاً أحاله الغرام ربيعاً، وكانت بذلك متاعاً طريفاً لما فيه من معنى عودة الماضي، وهو المستحيل في دورة الأيام:

من جديد المتاع خريف ... تحت وهج السماء عاد ربيعا

ومحيًّا في الأربعين وديع ... تحت بث الغرام شب سريعا

نضح القلبُ بالجمال فسوَّي ... من ثنايا الغضون وجهاً بديعا

ذاك أحلى من الشباب شبابا ... ومن النفس ما يعز رجوعا

يعجبني في هذه الأبيات - أولاً - صدق ملاحظة الواقع، فالمرأة في هذه السن أشد ما تكون استجابة لوهج الغرام، وهذا أسرع ما يكون في إفاضة الحيوية عليها، حتى لتصنع المعجزات في سيماها، وكأنما تخلق خلقاً جديداً. و - ثانياً - تعبيره: (نضح القلب بالجمال) فالقلب هنا هو الذي نضح بهذه الحيوية، فتسوي ما شوهته الأيام. و - ثالثاً - استطرافه لهذا الجمال العائد المفلت من قيود الزمان بقدرة الحب الفنان. و - رابعاً - حسن استمتاعه بهذه الحالة، وهو ما سقنا لأجله هنا هذا المثال وهذه الثالثة من خصائص غزل العقاد

نضوج وفهم للأنوثة

ولقد كنت تحدثت عن مظاهر النضوج النفسي والفني في غزل العقاد، وفي (سارة) بوجه خاص. فالآن أكمل هذا الحديث، حينما يطلع الناقد على فهم العقاد الكامل للمرأة، وخبرته بمسارب الأنوثة فيها ومطالبها لديها. وهذه لا تكون إلا حيث يكون نضوج الشخصية، وكمال التجربة، ووفرة الملاحظة

فيبدو لمن يقنعون بظواهر الأشياء أن المرأة حينما تحب تريد أن (تأخذ) من حبيبها، وتنتظر هداياه ومواهبه ومنحه، وإنما هي في الواقع - حينذاك - تتأهب لأن (تعطي) كل شيء، بل هي تتأهب لأن (تؤخذ) أخذ المشتهي المنتهب، فتحس حينذاك أنها ذات قيمة تستحق من أجلها الأخذ والحيازة!

قال الشاعر الفرنسي (دوجيرل) لحبيبته: (لو كنت إلها لأعطيتك الأرض والهواء، وما على الأرض من بحار، ولأعطيتك الملائكة والشياطين الحانية بين يدي قدرتي وقضائي، ولأعطيتك الهيولي وما في أحشائها من رحم خصيب، بل لأعطيتك الأبد والفضاء والسماوات والعالمين - ابتغاء قبلة - واحدة)

وسئل العقاد: (وماذا تعطيني أنت لو كنت إلها؟) فقال:

أعطيك؟! كيف وما العطاء بخير ما ... تبدي القلوب من الغرام الصادق!

بل لو غدوت كما اشتهيت وأشتهي ... ربًّا وأخذتك أنت أخذ الواثق

فترين أنك حين فزت بحظوتي ... أحلى وأكمل من جميع خلائقي

وتسيطرين على الصروف وفوقها ... نبضات قلبي المستهام الوامق

إن كان رب الكون عندك قلبه ... أهون لديك بأنجم وصواعق!

وبكل شمس في السماء وضيئة ... وبكل بحر في البسيطة دافق!

ويبدو هذا الفهم في كل غزل العقاد، ولكن هذه القطعة أوضح مثال على هذا المذهب فيما بين الرجال والنساء، في الحب الناضج الطبيعي الصحيح
عنيت أن اطرق هذه النواحي في غزل العقاد، وأختار هذه الأمثلة بالذات، لأوسع الأفق أمام من يهمهم مذاهب الإحساس والتعبير، ولا سيما في الغزل الذي هو أرحب مجال للأدب النفسي الإنساني، وما من شك أن هذه آفاق جديدة لم يطرقها الشعر العربي إلا لماما، فهي ثروة تضيفها المدرسة الحديثة، لا للأدب العربي وحده، ولكن للأدب الإنساني كله. وما بقليل أن يكون لنا شاعر مصري يضيف إلى آداب الإنسانية نماذج في الذروة من هذه
الآداب
وقد بقيت لي كلمة أخيرة في (غزل العقاد)
فإلى اللقاء
سيد قطب
جورجياس أو البيان
لأفلاطون
للأستاذ محمد حسن ظاظا
- 11 -
تنزل (جورجياس) من آثار (أفلاطون) منزلة الشرف، لأنها
(محاوراته وأكملها وأجدرها جميعاً بأن تكون (إنجيلا) للفلسفة!)
(رينو فييه)
(إنما تحيا الأخلاق الفاضلة دائما وتنتصر لأنها أقوى وأقدر
من جميع الهادمين!)
(جورجياس: أفلاطون)
الأشخاص
1 - سقراط: بطل المحاورة: (ط)
2 - جورجياس: السفسطائي: (ج)
3 - شيريفين: صديق سقراط: (س)
4 - بولوس: تلميذ جورجياس: (ج)
5 - كاليكليس: الأثيني: (ك)
ب - (رداً على سقراط) وإذاً فكل من يقتل (يعدل) يبدو لك شقياً وجديراً بالرحمة والرثاء؟؟
ط - كلا. وإنما هو لا يبدو على الأقل جديراً بأن يُحسد!
ب - ألم تقل تواً إنه شقي وتعس؟؟
ط - لقد قلت ذلك يا رفيقي عمن يقتل ظلماً وعدواناً، وأضفت إليه أنه جدير بالرحمة والرثاء. أما ذلك الذي يقتل بعدل فأقول عنه أنه لا يجب أن يثير حسداً ما!
ب - لا شك أن من يستحق الرحمة والرثاء هو ذلك الشقي الذي يموت ظلماً وعدوناً!
ط - ولكنه - مع ذلك - أقل في شقائه وفي جدارته بالرحمة والرثاء من ذلك الذي قتله ومن ذلك الذي مات موتاً عادلاً
ب - وكيف ذلك يا سقراط؟
ط - ذلك لأن أفدح الشرور هو ارتكاب الظلم!
ب - أيكون ارتكاب الظلم أفدح الشرور ولا يكون تحمله أفدح من ارتكابه وأنكى؟؟
ط - كلا يا بولوس!
ب - وإذاً فأنت تفضل احتمال الظلم على ارتكابه؟!
ط - لست ارغب في هذا ولا ذاك. ولكن إذا وجب عليّ إطلاقاً أن اختار بينهما فأني أفضل احتمال الظلم بدلاً من ارتكابه!
ب - وإذاً فسوف لا تقبل أن تكون طاغياً؟
ط - كلا. إذا كنت تفهم الطغيان كما أفهمه!
ب - إني لأعيد عليك فكرتي عنه وهي أن يفعل المرء ما يشاء في الدولة من قتل ونفي إشباعاً للذاته!
ط - حسن جداً يا بولوس، فاسمح لي إذاً أن أتكلم وأنقدني عندما يحل دورك. هب أني

أخفيت خنجراً تحت إبطي ثم جئتك في الوقت الذي يزدحم فيه الميدان العام بالجمهور وقلت لك:
(إني لأرى نفسي حائزاً لقوة هائلة تعدل قوة الطاغية، فإذا قررت أن الأصلح هو أن يموت أحد هؤلاء الذين تراهم فإنه يموت في الحال، وإذا قررتُ أنه يجب أن تتحطم رأس أحدهم فإنها تتحطم فوراً، وإذا قررت أنه يجب تمزيق ثيابه فإن ثيابه تتمزق ما فإذا رأيت بعد ذلك أنك لم تصدقني أبرزت لك . . .(دامت قدرتي عظيمة في المدينة خنجري! ولكنك قد تقول لي حينئذ: (وإذاً يستطيع كل الناس على هذا الأساس أن يكونوا أقوياء لأنهم يستطيعون بنفس الطريقة أن يحرقوا المنازل التي يريدونها، ومخازن أسلحة الأثينيين وسجونهم، بل وكل السفن التجارية الحكومية والأهلية!)ـ . .
فترى هل تعتقد أن عظمة القوة قائمة في أن نعمل ما يسرنا أن نفعله؟؟
ب - إذا كان الأمر في مثل هذه الظروف فكلا بالتأكيد!
ط - أتستطيع أن تذكر لي ما تأخذه على قوة كهذه القوة؟
ب - بلى!
ط - وما هو إذاً؟؟ تكلم!
ب - إذا فعل الإنسان هكذا فإنه يعاقب بالضرورة!
ط - أو ليس العقاب شرا!
ب - من غير شك!
ط - وإذاً فقد حكمت أيها الشاب العجيب بأن الإنسان يكون (ذا قوة عظيمة) عندما يرى في إشباع رغباته مصلحة له وخيراً، وقلت أن هذا ما يبدو أنه قوة كبيرة، وأن كل ما عداه شر وضعف! ولكن لنختبر ذلك أيضاً: ألا توافق على أنه قد يكون الأفضل أحياناً أن ننفذ ما نتحدث عنه في الحال كقتل المواطنين ونفيهم وسلبهم، وقد يكون الأفضل ألا ننفذه؟
ط - وإذا يبدو أنك متفق معي على هذه النقطة؟
ب - بلى
ط - وإذا ففي أي الأحوال ترى أن الأفضل تنفيذ تلك الأفعال؟ أرجو لو تحدد لي الموضوع!
ب - الأفضل أن تجيب أنت نفسك على سؤالك يا سقراط
ط - حسن يا بولوس.! وما دمت تفضل أن تسمع مني فأني أقول أن الأمر يكون أفضل عندما ننفذ فعلاً منها بعدل، ولا يكون كذلك عندما ننفذه بظلم.!
ب - لعمري إن مناقضتك لصعوبة جميلة يا سقراط! فالطفل نفسه يستطيع أن يبرهن لك على خطئك!
ط - لأكونن مديناً لهذا الطفل ولك بكثير من الشكر إذا ما نقضتماني وتخلصتما من بساطتي وجهلي!، وإذا فلا يضجرك الإحسان إلى من يحبك يا بولوس، وأمض في مناقضتي!
ب - لن احتاج في مناقضتك إلى الرجوع بك إلى الماضي وأمثلته لأن حوادث البارحة واليوم كافية لأن تثبت خطأك، ولأن تريك أن الظلمة من الناس غالباً ما يكونون (سعداء)!
ط - أية حوادث تقصد؟
ب - ألست ترى - من غير شك - (أرشليوس) ابن (بردكاس) الذي يحكم اليوم (ماسيدوينا)
ط - إذا كنت لا أراه فأني سمعت عنه كثيراً.
ب - حسن فهل تراه سعيداً أم شقياً؟
ط - إني لا أعرف عنه شيئاً يا بولوس لأني لم التقي به بعد!
ب - لتدركن سعادته إذا ما التقيت به! والواقع أنك لن تعرف في هذه الناحية غير سعادته فحسب
ط - كلا وحق زيوس يا بولوس!
ب - وإذا فنستطيع أن نؤكد أنك تجهل أيضاً إذا كان أكبر الملوك وأعظمهم، سعيداً أم شقياً؟
ط - ولن أكون مخالفاً للحقيقة في ذلك ما دمت أجهل ما عسى أن تكون عليه نفسه

من (عدالة وعلم)!
ب - كيف؟ وهل تقوم (السعادة) في العدالة والعلم وحدهما؟
ط - نعم، حسبما أرى يا بولوس. فأنا أدعي أن كل أمين عادل - رجلاً كان أو امرأة - يكون سعيداً، وكل شرير ظالم يكون شقياً!
ب - وإذاً فهذا (الأرشليوس) شقي تبعاً لقولك يا سقراط؟!
ط - حقاً يا صديقي إذا كان ظالماً!
ب - وكيف كان يستطيع أن يكون عادلاً؟، إنه لم يكن له أدنى حق في العرش الذي يتربع عليه اليوم لأن أمه كانت جارية (لألكيتيس) شقيق (بردكاس)، وكان هو - تبعاً للعدالة - عبداً لسيد أمه. فلو أراد العمل بالعدالة لخدم سيده وسعد بذلك حسبما تدعي، ولما عرض نفسه للشقاء الهائل بارتكابه أفظع الجرائم وأشنعها. . .

محمد حسن ظاظا

لبنان الشرقي

مصطاف الزبداني

للأستاذ عز الدين التنوخي

أنا اليوم مصطاف من لبنان الشرقي في وادي الزبداني الذي لو نزله من قبل لامرتين لوصفه بما لم يصف به وادي حمانا في لبنان الغربي، ولا سيما بجفاف الهواء، وصحة الماء، واعتلال النسيم، واعتدال الإقليم

أجل، إن لبنان الشرقي ليمتاز بجفاف الهواء لبعده عن رطوبة البحر ولقربه من البيداء، ولذلك وصفه مشاهير الأطباء للمصابين بأمراض الرطوبة كالرثية - الروماتيزم - والسل وعرق النسا، ووصفوه لعين (بُقَّين) التي تكاد تكون منقطعة النظير بين عيون بلاد الشام كلها في صفائها وخفة مائها، وما اشتملت عليه من عناصر تذيب الرمل والحصاة، وتزيد في الهضم ما تشاء فتتعب الطهاة. ولقد أشرت إلى عجيب تأثيرها في السنة الماضية حينما وصفت في هذه الرسالة عين الصحة المنبجسة من جبال حمانا في لبنان الغربي

ليس مجال القول ذا سعة فأسهب في وصف وادي الزبداني الجميل، ولذلك اقتضبت الكلام في تحليته اقتضاباً: بذكر ما فيه من الطرق المعبدة والمغاني والمباني، وبيان ما استوفاه من منافع وروائع تبر المصطافين وتسر الناظرين. . .

يمتد وادي الزبداني الجميل من الجنوب إلى الشمال بين طودين أو سلسلتين من الجبال الشرقية والغربية، وعلى سفوح الطود الشرقي تضطجع قريتا مضايا وبُقَّين وقصر الجرجانية الأندلسي، وقرية بلودان أعلى قرى الوادي وفيها الفندق الفخم الذي يعد من أجمل قصور الفنادق الشامية، وفي الجانب الشمالي من بطن الوادي قامت قرية الزبداني أم القرى، ومهوى قلوب الورى

إن شرايين الحياة في هذا الوادي هي طرقه الكثيرة المعبدة المزفتة، والزفت شاع أنه نعت سوء في كل شيء إلا في الطرق، فإنه وصف خير ونعت يمن فيها يلبد غبارها ويقي السالك عثارها، منها الطريق السلطانية التي تصل دمشق بالزبداني، وطريق مزفتة تصعد من الزبداني إلى بلودان، وأخرى مثلها تربط الزبداني بالجرجانية وبقين ومضايا، وطريق مخضرة أخرى تصل قريتي بقين ومضايا بطريق دمشق على مقربة من مفرق طريق منبع

نهر بردى: نهر دمشق الذي وصفه حسان بأنه (يصفق بالرحيق السلسل) وذكره شوقينا محيياً دمشق بقوله:

سلام من صَبا بردى أرقُّ ... ودمع لا ينهنه يا دمشقُ

أمام أم قرى هذا الوادي البهيج فهي الزبداني مركز القضاء وعامله القائم بشؤونه رجل من أفاضل الرجال غيور على عمرانه، وتوفير أسباب الهناء والبلهنية على نازليه وسكانه؛ وفي الزبداني محكمة يرأسها قاض ماض في أحكامها، ومستوصف طبي للحكومة تام الأدوات يديره طبيب نشيط يداوي الأغنياء من المصطافين والفقراء على السواء. ولا يتقاعس عن تلبية نداء المرضى في مساكنهم، يعودهم ليضعف من الداء الآلام، وليقوي في الشفاء الآمال، ثم هو يعطي الأدوية مجاناً للبائس والمعتر حتى الغني المضطر إن لم يجد علاجه في صيدلية الزبداني العامة.

وفي قرية بلودان صيدلية كبيرة، وفي مضايا أخرى صغيرة، وبذلك يجد المصطاف

الصحيح في وادي الزبداني نعيمه المقيم وهناءه؛ والمريض لا يعدم في مغانيه طبيبه الحاذق وشفاءه
ومما تمتاز به الزبداني على سائر قرى الوادي أنها مركز السيارات، وإن فيها محطة القطارات، فهي ملتقى الحاضر والبادي، ومنتدى الرائح والغادي، كما تمتاز برخص أسعار الثمار وكثرتها، وتنوع الخضراوات الغضة ووفرتها، وبسوقها الكبيرة المشتملة على جميع ما يحتاج إليه الاصطياف والانتجاع، وبمنتزهاتها المستوفية لشرائط الإبداع والإمتاع
بعض مناظرها الساحرة: كل ما في وادي الزبداني بهيج جميل: بهيج لعمري مقهى أبي زاد ومنظره الساحر الجميل، ومقهى بقين وعينها التي يحق أن تسمى السلسبيل، وجميل كل الجمال قصر الجرجانية الأندلسي بشلالاته وفواراته، وفخم كل الفخامة فندق بلودان بمقصوراته وحماماته، ورائعة - شهد الله - قرية مضايا بصفاء سمائها. وصحة هوائها، وماذا عسى أن يقول قائل في محاسن الزبداني ومفاتنها؟ فلعل اصدق ما يقال في جنتها قول الشاعر في وصف دمشق وغوطها:
هذه الغوطة ما أبهجها ... وهي في نيسان قيد المتجلي
قال سبحان الذي دبجها ... من رآها فتنة للمُقّل
إنه قد شاء أن يخرجها ... جنة في الأرض للمستعجل
إن بطن هذا الوادي المبارك ينقسم إلى قسمين شمالي وجنوبي:
أما الشمالي منه فعامر يبدو بلون أشجاره أخضر نظراً؛ وأما الجنوبي منه فجله غير مغروس ومختلف ألوانه: هذه بقعة منه محصورة تبدو صفراء فاقعة، وهذه بقعة محروثة تبدو حمراء قانية، وتلك رقعة بائرة لم تحرث ولم تزرع فهي نارنجية غير قرمزية؛ وهنالك رقعة مزروعة يضرب لون خضرتها القاتمة إلى السواد فتجتلي عين الناظر من هذه البقعة وهاتيك الرقاع مجموعة من الطنافس المحروثة والزرابي المبثوثة تستهوي الأفئدة وتقيد النواظر
إن من ينكر السحر من أهل هذا العصر يؤمن به مثلي بعد أن يرى ما رأيت من جمال إشراق الشمس على سلسلة الجبال الغربية، ثم يزداد استيلاء الضياء حتى يغمر ما تحت الشناخيب والذرى فتزداد بهجة النفس، فإذا ما بلغت الشمس أشجار الروابي المغروسة راعك مشهد سواد الأشجار مع بياض الأنوار فتخيلت النقاء الليل بالنهار عندما يتنفس الصبح في الأسحار.
وإن أنس لا أنس تلك العشية التي ذهبت فيها إلى مغارة (النابوع) تلك العين التي لا يكاد يرتوي واردها لشدة برد مائها وفرط عذوبته، وكان رفيقي الوفيق في ارتياد هذه العين العجيبة الشيخ حسن بو عياد المغربي من زعماء الإصلاح في المغرب الأقصى، وهو على رأيي في إصلاح المرأة بإصلاح تربيتها وبيئتها، ثم خرجنا من المغارة والشمس في صفرة وجه العاشق الوامق فانتقلنا من لذة إلى لذة: من نشوة الارتواء إلى نشوة الإصغاء. ماذا رأينا من مشهد فخم، وماذا وجدنا من نعيم روح، وماذا سمعنا من حسن لحن؟ مشهد لعمر الحق رائع، ونعيم روح غامر، ولحن مزمار ساحر. شهدنا فوق مغارة النابوع على سفح الجبل قطيعاً من المعزي يثير من ورائه عجاجه منتشرة، ومن أمامه هاديه وراعيه يطرب قطيعه بألحان مزماره الجبلية، كما يطرب الجيش بألحان موسيقاه الحربية، وقد امتزج أنين المزمار برنين الأجراس، وكأنما كان الداعي يهنئ بسلامة الوصول قطيعه الطروب، ويودع بلسان المزمار ملكة النهار الجانحة إلى الغروب، ولا يزال القطيع الزاحف في هبوطه حتى يبلغ قرارة الوادي فينقع ببرد الماد غليل الأحشاء، ثم يتابع سيره الهادئ إلى
حظيرته ونحن نتابعه بأبصارنا، ونشيعه وأجراسه وراعيه وأنفاسه، ولا نزال من خلفه مسحورين حتى يتوارى عن العيون بحجاب الليل. . .
وهل أحدث أخي القارئ عن القمر، وكلنا يهوى القمر، وهيهات أن أنسى لياليه القمراء على شاطئ البحر صغيراً، أو لياليه السواحر والفلك يجري بنا في بحر النيل الجميل. لا، ولا أنسى تلك الليالي البهيجة، والقمر يفضض الطبيعة من حولنا ونحن مضطجعون على هضاب المزه الفيحاء. وما لي ولحديث القمر في الدهر الغابر، وأنا أستطيع التحدث عنه في هذا الشهر الحاضر، ذاكراً للقارئ أن أهل دمشق من أعشق خلق الله للقمر، ولو أن الدمشقي كان نباتاً لكان (عَبَّاد القمر) فلقد أخبرني عامل الزبداني

عشية أمس بأن عدد المصطافين في الزبداني وحدها قد بلغ في هذا العام نحو ألف نفس يؤلفون مائتي أسرة، ولكن هذا العدد يبلغ في الليالي القمراء أضعافاً مضاعفة فيعج وادي الزبداني بالمصطافين عجيج الحجيج، ولكنهم من حجيج القمر. وتمتلئ الطريق السلطانية بين دمشق والزبداني بالسيارات الممتلئة بعشاق القمر، وتغص بهم مقصورات القطار، في الليل والنهار، وأقمار النساء تشارك الرجال في عشق قمر السماء، وكأنه لا غنى للجنسين اللطيف والعنيف عن المشاركة التي ازدادت في هذا العصر تشابكاً ووشوجاً. فهنالك التربية المشتركة والسباحة المشتركة، والسباقات المشتركة، وهنا في الوادي النزه المشتركة ليالي القمر على طريق الجرجانية وبقين ومضايا.

إن تطور المرأة من الحجاب إلى السفور فالحسور كان سريعاً جداً في مصر، ولكنه بطئ في ديار الشام، ولا تزال الدمشقية مع تعلمها وولعها بالنهضة الاجتماعية تؤثر التدين الصادق على التمدن الكاذب، والكمال والعفاف، على الابتذال والإسفاف وبعبارة أوجز إنها تفضل السفور الشرعي على الحسور البدعيّ، فلا تخلو المرأة المسلمة ولا تسافر إلا بمحرم يحافظ على عرضها وشرفها ويحول دون ما يؤذيها ويرديها

ويزداد السفور الشرعي في دمشق يوماً بعد يوم، ولا يلبث أن يسود على الحجاب أخيراً. ومن الناس من يقاوم هذا التطور الحيوي الذي لا مناص منه بالسفاه والشتائم لا بالحجة والبرهان، بيد أن من عقلاء رجال الدين من يحب للغانيات سفور الراهبات الذي لا حسور معه، ويسعى لإعادة الحاسرات إلى سفور الشرع المحتشم الذي يكفل للمرأة تعلمها وتقدمها،

والتربية الإسلامية في المنزل إذا كانت صحيحة تعد البنات للسفور الشرعي الشريف الذي تصان به الكرامة، وتوقى به الحسرة والندامة. وليت رجال الدين يتعاونون تعاوناً معقولاً يتمكنون به من المحافظة على اعتدال المرأة المسلمة، ويبرهنون به على إمكان تعلم المرأة وتقدمها مع ذلك الاعتدال، وإلا فإنا لا نأمن جانب الفوضى في السفور الحاضر كما نشاهد من نماذجه المشوهة الفاسدة في وادي الزبداني من برانيط البنات وقمطات الأمهات، وارتياد السينما والقهوات، وغدا البالات والحانات، ومما أوحى إلى بالأبيات التاليات:

يا صبايا

يا صبايا الزبداني رأفة ... بهواة الحسن منا يا صبايا
قنّعوا عّمن يراكم أوجهاً ... صُقِلت حتى حسبناها مَرايا
واستروا عنا عيوناً خُلِقت ... لقلوب المستهامين بلايا
فَوَّقت ألحاظهن أسهماً ... مُصمياتٍ نحن قد كنا الرمايا
لست أدري ما الذي قد فعلت ... أسهاماً رشقتنا أم منايا
قد سرى يغزو الورى من فِتن ال ... عين - ما أكثر صرعاها - سَرايا
يا سقي الله المناديل التي ... صنتمُ الأعراضَ فيها والملاياَ!
ولحي الله البرانيط التي ... أخذت الأحسابَ منكم والسجايا!
كم عرقنا خجلاً من شربكم ... عَرقاً يعرقكم ديناً ورايا
في محار الصَّون كنتم دُرراً ... كن للأزواج لا غير هَدايا
لم نكن نأمن منكم فِتناً ... في الزوايا، كيف من بعد الزوايا؟
والفؤادُ الحيُ منا هدَفٌ ... لعيون وخدودٍ وثنايا
مسرح الألالم قد هجت لنا ... من رسيس الوجد والحب بقايا
أنا إن لم أكُ أنسى زمنا ... من حياتي فهو هاتيك العشايا
يا رعاكَ الله لولا سربة... كنَّ ينثرن على الناس الخطايا
رائحات غاديات ضَلَّةً ... بين (بُقَّين) مساءً و (مضايا)
سافراتٍ حاسراتٍ وغداً ... هنَّ أنصاف عرايا فعَرايا!

الزبداني

عز الدين التنوخي

التاريخ في سير أبطاله

إبراهام لنكولن

وإنه ليحق للمرء أن يتسأل: ألم يكن في طاقة القائمين بالأمر يومئذ تجنب تلك الحرب الضروس؛ تلك الفتنة التي لم تصب أوزارها فريقاً دون فريق؟

إن هناك من يعتقدون أنهم قادرين على تجنب ذلك الصراع العنيف، وهؤلاء ومن يرى رأيهم من المؤرخين يأخذون الساسة باللوم الشديد، لا يعفون منهم أحداً؛ ويجعلون نصيب كل من اللوم على قدر ما تواتي له من الجاه والنفوذ؛ ولذلك فقد كان لنكولن عندهم أول الملومين وكبير المسؤولين عن ويلات تلك الحرب وبلى لنكولن في ذلك جفرسون زعيم الاتحاد الجنوبي

ولكن الذين يتوخون الأنصاف يرون أن الحرب كانت أمراً لا محيص عنه؛ كان مردها إلى حركة ولدتها الأيام فما زالت تنمو حتى اتخذت آخر الأمر سبيلاً لم يكن في الإمكان أن تسلك غيرها، لم تكن تلك السبيل لتؤدي إلى غير ما أدت إليه من نهاية دامية؛ ومن ذا الذي يستطيع أن يلوي الأيام عن وجهها؛ أو أن يتصرف في الحادثات ليجعلها تفضي إلى نتيجة بعينها؟

لقد كان للزمن وللبيئة حكمها الذي لا ينقض وفعلها الذي لا يقف وسنتها التي لا تبديل لها؛ فهؤلاء أهل الشمال كانوا كما ذكرنا أهل صناعة وأهل ثقافة بينما كان إخوانهم في الجنوب أهل زراعة، ولم يك يتوفر لهؤلاء من العلم مثل ما كان يتوفر منه لأولئك الشماليين

وكانت أعمال الزراعة في الجنوب تتطلب الأيدي الكثيرة، وبخاصة حينما بدأت النهضة الصناعية وتزايد طلب القطن، وكانت زراعة القطن أمراً مرهقاً، لم ير الجنوبيون خيراً من إلقائه على كاهل العبيد؛ ولذلك كان نظام العبيد عندهم أمراً يتعلق بكيانهم ومن ثم كانت سياستهم تدور على هذا المحور الاقتصادي، فكانت بذلك مسألة حياة أو موت. . .

أما أهل الشمال فلم تكن بهم حاجة إلى الزنوج، وما كانوا يستخدمون عندهم في أغلب الأحيان إلا خداماً في المنازل؛ وأملت عليهم ثقافتهم فلسفة إنسانية فكرهوا نظام العبيد واشمأزت منه نفوسهم ودارت سياستهم أول الأمر على هذا المحور الإنساني فكانت بذلك في نشأتها مسألة عاطفية

على أنه كان للمسألة وجه أخر فقد اعتبر عدد العبيد من عدد سكان الولايات عند تقدير عددها للتمثيل النيابي في المجلس التشريعي الأدنى كما نص الدستور، وعلى ذلك فقد أشفق أهل الشمال من تزايد عدد العبيد في الولايات، الأمر الذي يتهدد نفوذهم

وتطورت بعد ذلك مسألة العبيد على النحو الذي أسلفناه، فتزايدت كراهية الكثيرين من الشماليين لذلك النظام حتى تحولت إلى مقت، وظهر من بينهم دعاة إلى التحرير؛ وما زال يعظم خطر تلك المسألة حتى باتت كبرى المسائل

وولد الحزب الجمهوري فكانت مبادئه وسطاً بين مبدأ الجامدين ومبدأ أنصار التحرير، فهو يرى ألا تزداد ولايات العبيد حتى ينقرض ذلك النظام على مر الأيام. ولقد كان إبراهام من زعماء ذلك الحزب الوليد، وهو وإن كان من أشد الناس سخطاً على نظام العبيد إلا أنه آثر الحكمة خوفاً على بنيان الاتحاد؛ فبقاء الاتحاد عنده في المحل الأول من اهتمامه

ولكن مسألة الاتحاد ومسألة العبيد ما لبثتا أن تداخلتا حتى أصبحتا في الواقع مسألة واحدة؛ فلقد فكر أهل الجنوب في الانسحاب من الاتحاد حينما اختير إبراهام للرياسة وحينما أيقنوا أن الحوادث مفضية إلى القضاء على العبودية، وما كانوا يريدون من الانسحاب إلا أن يزيدوا عدد العبيد كما يشاءون. . .

وأنكر إبراهام عليهم حقهم في الانسحاب؛ فهو لن يبخل بشيء في سبيل المحافظة على الوحدة؛ ولكنهم مضوا في سبيلهم لا يلوون على شيء ولا يستمعون إلى رأي؛ حتى نفذوا ما اعتزموه ثم عولوا على أن يجمعوا أنفسهم بالقوة إذا أدت الحوادث إلى

ذلك
وكان جيفرسون زعيمهم يقرر حق الولايات في الانسحاب متى أرادت، بينما كان لنكولن
يقول: إن مثل الولاية من الاتحاد كمثل قسم من الولاية من هيكلها، فإذا جاز لهذا القسم أن ينفصل عن جسم الولاية، جاز للولاية أن تنفصل عن الاتحاد
وجاءت بعد ذلك مسألة حصن سمتر فكانت بمثابة الشرارة التي أوقدت نار الحرب. . .
ولقد عدت تلك الحرب من المآسي البشرية، ذلك لأنها كلفت الفريقين كثيراً من الأموال والأنفس؛ فلقد استحرَّت جذوتها لأن الفئتين كانتا كلتاهما ترى الحق في جانبها. . . وكانت الدماء التي تجري دماء شعب واحد فكل قاتل ومقتول إنما هما صورة جديدة لقابيل وأخيه هابيل
وقفت أمة واحة فئتين تقتتلان؛ فهنا الوحدة والحرية، وهناك الفرقة والعبودية، وهنا وهناك الكثير من مواقف الحماسة والتضحية، يضيع في حميتها وضجيجها صوت الحق ويتبدد دعاء الإنسانية. . .
وكانت أولى المعارك الكبيرة معركة نشبت في فرجينيا بعد ثلاثة أشهر من سقوط سمتر عرفت باسم بول رن. . . وبيان خبرها أن جنود الاتحاد التقوا بجموع الثائرين، وكانت الحماسة والاستبسال هي كل ما لدى هؤلاء المتطوعين من عدة، وكان لأهل الجنوب وإن كان معظمهم من المتطوعين أيضاً، قواد مدربون كانوا قبل في الجيش النظامي للبلاد وتسللوا منه إلى الجنوب حين تفرقت الكلمة!
وتبين أول الأمر أن النصر في جانب الشماليين، ولكن ما لبثت موجتهم أن انحسرت، ثم ولوا بعدها هاربين على صورة منكرة، تبعث على الرثاء حتى لقد قيل إن بعض الفارين لم يقفوا عن العدو حتى دخلوا منازلهم في وشنجطن
ودخلت فلول المنهزمين المدينة في حال شديدة من الذعر والهلع وطافت بالناس الشائعات أن المدينة واقعة في أيدي الجنوبيين، فألقي الرعب في قلوب السكان وبخاصة حينما وقعت أعينهم على أكثر من ألف من الجرحى؛ وحينما علموا أنه قد قتل في هذا اللقاء الأول أربعمائة وخمسون. . .
ولو أن أهل الجنوب تقدموا غداة انتصارهم لأخذوا المدينة ما في ذلك شك، ولكنهم نكصوا ورضوا من الغنيمة بفرار خصومهم على هذا النحو، وحسبوا أنهم بعد ذلك أحرار فيما يفعلون فلا خوف عليهم من أهل الشمال؛ ثم أنهم منذ خيل إليهم أن عدد أعدائهم يبلغ
خمسين ألفاً أو يزيدون مع أنهم لم يتجاوزوا ثمانية عشر ألفاً
وكثيراً ما يكون التاريخ في تطوره رهيناً بحادث بسيط، ومن أروع الأمثلة على ذلك وقوف أهل الجنوب عن الزحف على وشنجطون؛ ولو أنهم فعلوا لكان للولايات المتحدة وجود غير هذا الوجود وتاريخ غير هذا التاريخ
وكذلك كان يتغير وجه التاريخ لو أن القنوط يومئذ تمكن من نفوس الناس؛ ولولا أن كان على رأسهم إبراهام لذهبت ريحهم وخارت عزائمهم وتفرقت كلمتهم. فلقد صمد ذلك الصنديد للنبأ شأنه في كل ما مر به من الحادثات، ولئن ابتأس للهزيمة وتحسر على الفشل في أول لقاء علق عليه الكثير من آماله، لقد صبر وصمم ألا غنى عن الجهاد مهما يبلغ من هول الجهاد. . .
وسرعان ما سرت روح أبن الغابة في الناس، فعادت إليهم ثقتهم بأنفسهم، وازدادوا حماسة على حماسة حتى ما يقر لهم قرار بعد اليوم حتى يغسلوا عن أنفسهم هذه الإهانة الجديدة وينصرون حقهم على باطل أعدائهم
ولقد استطاعت قوة الشماليين البحرية بعد ذلك أن تستولي على حصنين على الساحل في موانئ أهل الجنوب، كما استطاع القائد ماكليلان أن يفصل بقوته البرية الجزء الغربي من فرجينيا عن جزئها الشرقي ويضمه إلى الاتحاد، وكان أكثر أهله ممن يرفضون الانسحاب فكان ذلك رداً على الهزيمة في معركة بول زن
وكان لنكولن قد دعا المؤتمر ليشاور ممثلي الأمة في الأمر وليطلعهم على الموقف من جميع نواحيه، ولقد بعث لنكولن إلى المؤتمر برسالة كانت من خير ما كتب من الرسائل، تناول فيها كل ما يهم الناس يومئذ معرفته
بدأ لنكولن يسرد الحوادث حتى انتهى إلى موقف أهل الجنوب فذكر أنهم وضعوا البلاد

بين أمرين فإما الحرب وإما تفكك الاتحاد. . . ثم قال إن الأمر لا يقف عند هذه الولايات المتحدة، بل إنه ليتعداه إلى مبدأ عام هو مبلغ نجاح الحكومات الديمقراطية القائمة على إرادة الشعب

ولقد كان لنكولن جد موفق في إشارته هذه إلى ذلك المبدأ العام، كما كان يصدر في ذلك عن طبع، فهو من أنصار الحرية ومن كبار العاملين على سيادة الشعب

وتكلم الرئيس عن الولايات الوسطى التي تظاهرت بالحياد فقال: (إنها تقيم سداً لا يجوز اختراقه على الحد الفاصل بيننا، ومع ذلك فليس هو بالسد الذي لا يخترق فإنها تحت ستار الحياد تغل أيدي رجال الاتحاد بينما هي تبيح الطريق في غير تحرج للإمداد ترسل من بينهم إلى الثوار، الأمر الذي كانت تستطيع فعله أمام عدو صريح)

ورد الرئيس على دعوى جفرسون دافيز زعيم الولايات الجنوبية الذي يقول إن مبدأ انسحاب الولايات حق يبيح القانون الحرب من أجله. ولقد اعتبر الرئيس هذه الدعوى من لغو الكلام قال: (إن الستار الذي يتسترون وراءه وهو أن ذلك الحق المزعوم لا يستعمل إلا مع وجود مبرر عادل، بلغ من الرقة حداً لا يستحق معه أية ملاحظة، وهم سيكونون الحكم في عدالة ذلك المبرر أو عدم عدالته)

وكان رد الرئيس على جيفرسون من الخطوات التي ارتاح لها أهل الشمال فلقد أشفقوا أن تجد مزاعم جيفرسون سبيلها إلى قلوب الأغرار والإغفال

ثم أهاب الرئيس بالمؤتمر أن يمده بالمال والرجال فهو في حاجة إلى أربعمائة مليون من الدولارات. وأربعمائة ألف من الرجال؛ وسرعان ما أجابه المؤتمر إلى ما طلب في حماسة جعلته يزيد العدد في المال والرجال عما حدده الرئيس. . .

وأيقن الناس في طول البلاد وعرضها، وقد رأوا من صلابة الرئيس وعزمه ما رأوا، أن الحرب سيطول أمدها، فتألفت في البلاد كلها جماعات للنجدة حتى لكأنما نسى الناس أموالهم الخاصة فليس ما يشغل أذهانهم ويستدعي جدهم ونشاطهم إلا هذه الحرب

ولقد تغلغلت تلك الروح في جميع الطبقات: الكوخ والقصر في ذلك سواء، والقرية الحقيرة لا تفترق فيه عن المدينة العظيمة، وأصبح النشيد الذي يتردد على كل لسان ذلك الذي جُعل مطلعه (نحن قادمون إليك يا أبانا إبراهام ستة آلاف من الأشداء. . . نحن قادمون. . .)

والرئيس لا يعرف الراحة ولا يذوق طعمها. يصل إلى مكتبه في الصباح الباكر قبل أن يطرق البيت الأبيض أحد، ويظل هناك حتى يهبط الليل فيقضي طرفاً منه بين أوراقه. . وامرأته تضيق بذلك وتعلن إليه غضبها، ولكنه في شغل عنها بما هو فيه من عظيمات الأمور، وأنى له في مثل ذلك الموقف بلحظة من هدوء البال. . .

(يتبع)

الخفيف

إلى لجنة إنهاض اللغة العربية

الأخلاق والأدب الوجداني الرفيع

للأديب السيد ماجد الأتاسي

منذ أسابيع خلت، عثرت في بريد (الرسالة) الأدبي على كتاب أرسله الأستاذ أحمد أمين إلى صديقه الأستاذ الزيات جواباً عما سأل سائل لجنة إنهاض اللغة العربية عن إغفالها كتب أستاذنا الزيات فيما اصطنعت للطلاب من كتب أعلام الأدب وأمراء البيان ولقد كنت أوثر ألا أكون بين من يتحدثون عن هذا الموضوع المصري المحلي البحت؛ وإن كنت أومن أم وادي الكنانة وسائر ربوع العروبة الزهراء وطن كل عربي الوجه واليد واللسان

ولكن ما جاء في قرار أعضاء اللجنة وفي كتاب الأستاذ أمين من نعيهم جميعاً على (رفائيل وفرتر) انتهاكهما حرمات المثل الأخلاقية العليا، وذهابهم إلى أن من الخير أن يبعد هذان الكتابان العالميان عن أيدي الطلاب وأعينهم، وما يفهم من حكمهم هذا من مذاهب في العلاقة بين الأخلاق وهذا اللون من الأدب الوجداني الرفيع، كل هذا يغريني بأن أكتب غيرة على الأدب ودفاعاً عن الحق

ولست آخذ اليوم نفسي بالدفاع عن الزيات؛ فتحت أجنحة هذا النسر الجبار يستظل الألوف ممن هم أشد مني بأساً وأقوى مراساً. . ولن يضير الزيات أن تزل في تقدير أدبه مقاييس الحكم أو تطيش فيه نزعات الهوى - إن كان هناك هوى - بل ليفخر

الزيات بأن يظلم مع (غوته ولامرتين)
ولئن بغي على النبوغ (قوة السلطان وحكم الأثرة فشهد فيه بالزور وحكم عليه بالباطل) ففي الأجيال القادمة - حين لا أهواء ولا مآرب - سيكون للعبقرية الموتورة نصفة، وللحق المبين رفعة
يقول الأستاذ أحمد أمين: (إن آلام فرتر موضوعه حب هائم ينتهي بانتحار فظيع، وإن روفائيل رسائل غرام بين شاب وامرأة متزوجة. ولم نر من الخير أن توضع أمثال هذه الكتب في أيدي الطلبة لناحيتها الأخلاقية لا ناحيتها البلاغية؛ ولو فعلنا لخالفنا ضمائرنا وهاج علينا أولياء أمور الطلاب بحق)
ويقول هذا العاجز - في هدوء وبعد تفكير وتقدير -: إن من الخير كل الخير أن توضع أمثال هذه الكتب في أيدي الطلبة لناحيتها الأخلاقية، ولو لم نفعل لخالفنا ضمائرنا وهاج علينا الذين يفهمون من أولياء الطلبة بحق
ففي فرتر ورفائيل مثال من الفضيلة تحس كل نفس الميل إليه وتود لو بلغته أو دنت منه، وفيهما أسوة حسنة للناشئة يتعظون بهما في تثقيف عقولهم، وصقل عواطفهم، وارتفاعهم عن الغرائز الدنيا. ولو كنت أستاذاً أو أباً لأغريت تلاميذي وأبنائي بأن يعرفوهما ويحبوهما، ويكلفوا بهما، ويحاولون أن يتدبروا معانيهما ويتفهموا مراميهما
يعيب الأستاذ أحمد أمين رفائيل لأنها رسائل غرام بين شاب وامرأة متزوجة قضت شرائع المجتمع أن تكون - قلبها وجسدها - لزوجها، ولزوجها وحده
ونحن من الحق علينا لنحكم لهذا الغرام أو عليه أن نتناول بالتحليل عوامله، ومثله، وآفاقه
هناك في فندق من فنادق السافوا عرف رفائيل جوليا، فكان بينهما تآلف وتعاطف، وإن امتدت بينهما أسباب هذه الصلات التي فصلت آياتها في القصة
تعارفا. فأما رفائيل فتعلق بها، وأما هي فعطفت عليه ورقت له، ولمحت فيه مواهب النبوغ والعبقرية تومض وميض الفتنة في الزهرة الأرجة في فتوة مشبوبة القلب، بعيدة الأفق، طاهرة الذيل، جذابة الطوابع، فأعجبت به، واطمأنت إليه واستعانت به على الوحدة، والمرض، وآلام النفس
من هنا كان بينهما هذا اللون المعقد من الصلات العاطفية:
لا هو بالحب وحده، ولا هو بالصداقة وحدها، وإنما هو مزيج من هذا وذاك، فيه من الصداقة أكثر مما فيه من الحب، ومن الإعجاب فوق ما فيه من الرغبة
ولم تذهب هذه الصلات النقية بما لزوج جوليا في قلبها من مكان وحرمة. فلقد كانت تحفظ في أعماق نفسها وأحرج مواقفها العرفان الخالص لجميل هذا الزوج الذي يحبها، ويعطف عليها، ويأسى لها
لقد أخطأت في خطوتها الأولى، ولكن أي زهر فوَّح هذا الذي كان يتفتق على آثار الخطوات التالية؟
وأي حب كان حب رفائيل؟ إنه تذوق الذوق الفني الجميل للجمال الفني يتجلى - في أبرع
آياته وروائعه - في قطعة فنية تسمى (المرأة). . . إنه تسبيحة القلوب العلوية الموهوبة ترتفع في هدوء الليل. وابتسام الصبح صلاة حارة ظامئة في الأيمان بالحياة، والشعور بخفقانها
أحب امرأة ممتنعة عليه، وقد هدها السل، فذوت زهرتها ونضب معينها، وتقطعت أسباب رجائها، فهي تنتظر مع الليل هذا الطارق المخيف الذي يروح ويغدو على بابها . . .
الجمال المريض، والأنوثة الوديعة، والشعور الجريح، والقلب الذكي، والأفق البعيد، كل هذا حببها إليه، وأخذ عليه هواه. ولقد دلهه إذ دلهه جاذبية هذا الذبول الذي يبعث فينا العطف والحنان فوق الافتتان حين يمتد إلى زنبقة من زنابق الربيع فإذا الحر يلفحها، وإذا هي تذوي هشيماً وقد كانت من قبل ملء العين نوراً وملء الجو عطراً، وإذا هي في ذبولها أشد ما تكون فتنة وسحراً
ألا فليحلِّل الأستاذ أحمد أمين هذه القبلات الملتهبة التي لم يكن ليطبعها رفائيل إلا على يدي جوليا، وعلى يدها فحسب
أفلا يجد أن فيها - على أنها ذوب القلب، وعصارة الروح - من الإعجاب أكثر ما فيها

من الحب، ومن التحفظ فوق ما فيها من الرغبة، ومن معاني الكبت للنزعات الملحة
ما يعد مثلاً أعلى يضرب في الأخلاق لأبناء الأرض؟ إنها انتصار الخلق في شفتين
ألهبهما الغرام، وأرمضهما الظمأ والسغب. . ليحلل الأستاذ هذه القبلات؛ وليذكر أن هذا
الحب - على عنفه - لم يجر إلى معصيته، وأن هذا المحب - على فتوته - عف ولم
يسف.
. . .وأما فرتر
يأخذ الأستاذ أحمد أمين على فرتر أنها تنتهي بانتحار فظيع. ذلك هو - عنده - موضع
الضعف في القصة لناحيتها الأخلاقية.
وإنني لأربأ بفهم الأستاذ وعلمه أن يجد في موضع القوة ضعفاً وفي محاسن القصة
شر المساوئ
لقد هام فرتر هياماً عنيفاً، ولا نزاع في أن هذا الهيام خطر شديد الخطر - بالقياس إلى
الكثيرين من الشباب العاديين في نفوسهم وأعصابهم وعقليتهم - فهو إذن إسراف
وخطيئة على رغم طهره وصدقه. إذن على هذا النحو يكون الانتحار ثمرة الخطيئة؛
وإذن تكون
الخطيئة في القصة قد عوقبت
وهذا هو يا أستاذي كل ما يريده الأخلاقيون
هناك من يقول: إن القصة تحمل الشباب على الانتحار وترغبهم فيه. ودليلهم على ذلك
أن عدداً وافراً من الشباب انتحروا في الغرب عند قراءته
والواقع أن الذنب ذنب العصر والمكان، وبرهاني على هذا أنه لم نر الآن في الشرق
والغرب من انتحر من الشباب بعد قراءة فرتر، ولقد ترجم إلى العربية كما يقول
الزيات منذ ثمانية عشر عاماً وأعيد طبعه سبع مرات، وقرأه كل مثقف في بلاد
العروبة، ولم نسمع أن حادثة من حوادث الانتحار قد وقعت بسببه
وهاهو ذا اليوم (يقرأ ويدرس ويمثل في الملاعب ويغني في دور الموسيقى دون أن
يحدث من سوء الأثر وقبح العاقبة ما أحدثه في ذلك العصر يوم ظهوره)
يقول الدكتور طه حسين: (لقد أساء بعض الشبان ذوي النفوس المريضة فهمه
والاستفادة منه، لأن ظروف الحياة الاجتماعية كانت من الشدة والضيق في أوربا
بحيث تجعل نفوس كثير من الناس ضعيفة رخوة، وخانعة مستسلمة، لا تستطيع
مقاومة ولا احتمالاً. وأما اليوم فالظروف الاجتماعية التي ملأت نفوس الأوربيين سأماً
ومللاً في أوائل القرن التاسع عشر قد انقضت واستحالت وأصبح الناس وقد ملاهم
الأمل، وملكتهم الرغبة في الحياة وما فيها من لذة ونعيم، لهذا لم يبق من هذا الكتاب
إلا أثره النافع، وهو عظيم جليل الخطر)
ولنفرض أن في رفائيل وفرتر بعض ما لا يرضي الناس، فهل من الأصوب في هذه
الحال أن نبعدهما عن أيدي الناشئة أم نقربهما؟ إن الأستاذ أحمد أمين - كما يفهم من
قوله - يرى أن خير سبيل إلى حفظ الناشئة من الرذيلة أن يخفي عنهم خطيئات
الآخرين، وأن نلقي في روعهم أن ليس في هذا العالم خطايا ولا مخطئون
ليسمح لي الأستاذ أن أقول إنه ليس هناك أخطر على الشباب من هذا الأسلوب من
أساليب التربية
إن الطبيعة هي التي تلقننا أبجدية الخطيئة تلقيناً، والطلاب أخذوا عن الطبيعة تلك
الدروس، درساً درساً، بل فقرة فقرة؛ وهم تدبروها وتفهموها فامتلأت بها نفوسهم،
وصبت إليها قلوبهم، وكلفوا بها كلفاً لا قبل لهم برده. فما الذنب ذنب غوته ولامارتين
وغيرهما من
أعلام الفن الوجداني الرفيع، وإنما هو ذنب الطبيعة نفسها
فإذا كنت تريد لناشئنا فضيلة وتقوى فأطلعهم على خطيئات لامرتين. افتح لهم أبواب
الحياة الواقعية، ولا تخش عليهم بعد هذا بأساً ولا عثاراً؛ فالطبيعة التي أوجدت
الخطيئة، جعلت لكل خطيئة في الحياة الواقعية قصاصها، وحاطتها بالعفن والنتن فهي
مكروهة حتى من الملوثين بها! وهذا وحده كاف لأن يعرفوا الشر ويتجنبوه. قيل لعمر
رضي الله عنه ما معناه: (يا أمير المؤمنين، إن هذا الرجل يقوم ليله، ويتعبد نهاره،
ويتقي الله حق تقاته. حتى لكأنه لا يدري ما هو الشر ولا كيف يكون!. .) فأبتسم
العبقري العليم بحقائق الحياة، وطبائع النفوس وقال: (إذن هو أحرى أن يقع في الشر

لأنه لا يعرفه!)
ورحم الله شاعرنا أبا فراس فقد قال:
عرفت الشر لا للشر ... لكن لتوقيه
فمن لا يعرف الشر ... من الناس يقعْ فيه
فالخير كل الخير يا أستاذ أن تأخذ بأيدي شبابك لتريهم - تحت رقابة ذكية فطنة - بؤر الخطايا حيث ينتشر النتن، ويمتد العفن ببهرجها الزائف، وتهاويلها المغرية، وسيتعلمون -على الأقل - كيف يتقون الأشواك حين يمدون يدهم لقطف وردها.
والمناعة ضد الخطيئة، هي في اطلاعهم على عواقبها وعقابها، كما أن المناعة ضد البرد لا تكون في التدفئة - بل إن التدفئة تهيئ للإصابة به - وإنما هي في التعود على التعرض له
أليس من الخير أن يعلموا كيف يرتفع الشباب عن السفاسف والميول الأرضية، وكيف يطهر نفساً وينبل قلباً
أليس من الخير أن نحمل إليهم بأيدينا هذه الكتب الفنية الرفيعة بدل أن تدفعهم وساوس الشيطان إلى ملء ساعات فراغهم ودرسهم بقراءة المجلات الساقطة والروايات الخليعة التي تتملق الذوق العام، فتوغر الميول، وتثير الأهواء، وتوجهها إلى سبيل محفوف بالمكاره والأخطار؟
إن في رفائيل وفرتر وغيرهما من كتب الأدب العاطفي الرقيق الرفيع ترفيهاً عن نفوسهم وتنفيساً لها؛ ولهم فيها - فوق هذا وذاك - مثل في الأخلاق تحس كل نفس الإعجاب بها،
وهم يجدون في هذا الترفيه وهذا التنفيس متعة القلب وراحة النفس
يقولون إن في الانتحار في الأمم الكاثوليكية هو أقل منه في الأمم الأخرى. وتعليل هذه الظاهرة عند علماء النفس والاجتماع أن في اعتراف الآثم لكاهنه، ترفيهاً عن نفسه، وتنفيساً عنها. وهذا الاعتراف هو أشبه شيء بمفتاح البخار يفتحه سائق القطار إذا ثقل تكاثف البخار ليخفف الضغط، ورفائيل وفرتر وغيرهما اعتراف نابغين إلى القارئ، وقراءتهما هي اعتراف القارئ إلى نابغين ملهمين
أذكر أنني قرأت رفائيل في الخامسة عشرة، وفي السادسة عشرة قرأت فرتر وإنها لسانحة سعيدة تسنح لي الآن. أعترف فيها بكثير من الغبطة ورضى الضمير، أنني مدين بفضيلتي - إن كان فيَّ فضيلة وتقوى - إلى غوته ولامارتين والزيات. نعم يا أستاذ احمد أمين إلى غوته ولامارتين والزيات. أعترف فوق هذا أنها كانت ساعة من ساعات حياتي المشهودة المذكورة لها خطرها في حسن توجيه ميولي ونظري وفكري، تلك التي عثرت فيها - في هذه السن الخطرة - على رفائيل وفرتر
(حمص، سورية)
ماجد الأتاسي
قسطاكي الحمصي
اسلوبه في الكتابة النثرية
للأستاذ أسعد الكوراني
ليس الكلام في أدب الأستاذ فسطاكي بك الحمصي بالأمر السهل ولا هو بالمطلب اليسير، فالخطباء كثيرون والوقت محدود وأدب المحتفى به، أطال الله بقائه، متشعب النواحي فليس في طوق خطيب أن يلم به في دقائق معدودة. لذلك سأقصر كلمتي على أسلوب الأستاذ في الكتابة النثرية.
يقولون أن أسلوب الرجل صورة عن نفسه. وليس أصدق من هذا القول في التعبير عن الأدب الصحيح. فالأدب مظهر لما تختلج به النفس وتشعر به وتدركه عن طريق العاطفة والعقل. والأديب يؤدي رسالته وقد أذاب ما رآه وأحس به في بوتقة نفسه، فلا بد من أن يجئ أسلوبه قطعة من ذاته.
كل من قرأ للأستاذ قسطاكي بك الحمصي ما خطه يراعه منذ ستين عاماً إلى هذا اليوم يرى في كتابته النثرية قوة في اللغة وصحة باللغة في التركيب والتعبير. وهذه صفات تكفي وحدها لتخليد صاحبها، وقلّ أن اجتمعت في فجر نهضتنا الأدبية الحديثة إلا لأفراد معدودين. ولكنه يجد إلى جانب هذه الصفات صفة أخرى ينفرد بها الأستاذ بين أقرانه، ويندر من يشايعه فيها من أترابه وأنداده، وهي التأنق في الأسلوب. فكأني

بالأستاذ لا يرضى من قلمه أن يأتيه بالناصع المشرق من صحيح الكلام وبليغه، بل يريد إلى جانب ذلك أن يكون بيانه عنواناً للروعة والجمال. فهو كالنحات الماهر يستخرج من الصخر الجامد ما يهز الشعور بحسنه وجماله.

ولقد قرأت ما كتبه الأستاذ في شبابه وكهولته وشيخوخته فما شذ أسلوبه عن هذه الصفة في أي دور من أدوار حياته.

نعم قد يختلف أسلوبه قوة وجمالاً في بعض ما كتب عن بعض؛ ولكن طبيعة التأنق كانت بادية على كل آثاره.

ولقد تشرفت يوماً بزيارته ومعي صديقي الأديب جورج اسطنبولية فسمعت من حديثه العذب الفياض، ورأيت من ملبسه وهندامه، وشاهدت في حجرته وعلى منضدته من الأثاث

والكتب ما زادني يقيناً بأن أسلوب الأستاذ كحياته صورة صادقة لسلامة الذوق ورائع الفن.

ولعلي لا أطيل عليكم إذا تلوت على مسامعكم قطعة من بيانه لم أخترها اختياراً بل اطلعت عليها اتفاقاً عندما فتحت كتابه الذي وضعه عن (أدباء حلب ذوي الأثر في القرن التاسع عشر) وهي من محاضرة له في وصف قصور الخليفة المأمون وهذه هي:

وكان يشرف عليها الراكب في دجلة من بعد شاسع، ولا سيما قبابها، فمن مجصص) بالجص الأبيض الناصع كالفضة البارقة، ومن مطلي نصفه السفلي بالأخضر الناظر والنصف العلوي بالذهب النضار، وفوقها جامات الذهب تتلامع كالشهب المتقدة، ثم تبدو للعيون تلك الحدائق الممتدة إلى أقصى مدى البصر، تنسرب فيها جداول الماء من برك عظيمة الأتساع مختلفة الأوضاع، ينصب فيها الماء كالفضة الذائبة من أفواه حيتان أو سباع أو ثيران أو نسور، من مرمر مختلف الألوان بالغ من الصناعة نهاية الإتقان بين جنات قد ازدحمت غياضها واشتبكت أشجارها وتعانقت أغصانها وامتد ظلالها، يسير فيها الداخل تحت أقبية وأطواق من فسيفساء الأوراق، في مماش كأنما أرضها خمائل سندسية، وعلى جانبيها درابزينات لا يدرك الطرف منتهاها، قد اعترش عليها الياسمين، وتعلق بها الورد والنسرين)

فهذه قطعة كتبها الأستاذ منذ عهد بعيد، وهي مشرقة الديباجة ناصعة البيان صحيحة اللغة سليمة التركيب لا تقع كثيراً على أشباها في متخير كلام العرب في الوصف الجميل.

غير أن هذه القطعة لا تمتاز بالكلام البليغ والأسلوب الصحيح فحسب، بل تمتاز أيضاً بما فيها من التأنق والعمل الفني الخالص.

فما هي العوامل التي اجتمعت فأشرق منها هذا الأسلوب الوضاح؟ عندي لهذه العوامل أصلان: الموهبة والمحيط.

فالموهبة هي القدرة الطبيعية التي تتجلى في ذوي الكفايات الممتازة.

والميحط هو الوسط الذي يعيش فيه الإنسان فيتأثر به.

والموهبة لا تثمر ثمرها إذا لم تتعهدها يد التهذيب بالإصلاح. وهي تتكيف بالمحيط ومؤثراته.

ولا خلاف في أن العلامة الحمصي من ذوي المواهب الممتازة النادرة؛ فما هو الوسط الذي

عاش فيه فأخذ عنه وأنطبع بطابعه فصدر عنه هذا الأسلوب المشرق؟

ينتسب الأستاذ إلى أسرتين عريقتين في الوجاهة والحسب والنسب، فأبوه من آل الحمصي وأمه من آل الدلال. والأسرتان مشهورتان بالحياة الرفيعة والعيش الرغيد الوارف. وأسرة الدلال معروفة بالأدب، وقد ظهر منها نوابغ لا تزال آثارهم الأدبية ناطقة بفضلهم ومكانتهم. ولقد كان لأم الأستاذ وقوف على الأدب وخاصة على الشعر.

فنشأ في هذا المحيط العالي تتعهده أمه - بعد أن فقد أباه وهو في الخامسة من عمره - بخير أنواع التربية والتهذيب.

ومن صفات الأسر العريقة في الوجاهة المحافظة على التقاليد والعادات. فمن الطبيعي إذن أن تبدو مظاهر هذه الحياة العالية بنعيمها وأخلاقها وتقاليدها على أدب الأستاذ؛ وهذا في اعتقادي هو السبب المهم في أتسام أسلوبه بسمة التأنق وروعة

البيان.
على أنه يجب ألا تفوتنا ونحن نتكلم عن نثر الأستاذ ظاهرة لها قيمتها في تقدير مكانته الأدبية. وهي أننا لو أخذنا أية قطعة من نثره كتبها قبل أربعين أو خمسين عاماً، ولا سيما ما كان منها دائراً حول الموضوعات الاجتماعية والتاريخية، ثم قارناها بما يكتب اليوم بعد أن أثمرت النهضة الأدبية الحديثة ثمارها لما رأينا بينهما كبير فرق. فكأننا نقرأ بلغة اليوم ما كتبه الأستاذ قبل نصف قرن يوم، كانت أساليب الكتابة ترسف في قيود الركاكة والتقليد والصناعة اللفظية

واسمحوا لي - وإن أطلت الكلام قليلاً - أن أتلو على مسامعكم أسطراً من مقال نشره الأستاذ بعنوان (أهل التقادير وأرباب السعي والتدبير) في الجزء الثالث عشر من مجلة البيان الصادر في أول أيلول سنة 1897 أي قبل إحدى وأربعين سنة وهذه هي:

(قد ألف بعض الناس الاتكال على التقادير أي على ما تولده الليالي من الحوادث التي لم تكن في الحسبان. وخالفهم في ذلك أقوام زعموا أن ذلك مدرجة إلى الكسل، وأنه مما يقف في سبيل التقدم وبلوغ الكمالات الإنسانية. ولكل من الفريقين حجج وبينات يؤيدون بها مدعاهم)

قال الفريق الأول: لو لم تكن التقادير هي الحاكمة في أنصبة البشر، اللاعبة (بحظوظهم، الفاعلة في تغيير أحوالهم وأخلاقهم، لبلغ كل امرئ ما يتمنى على قدر همته وسعيه، وكم من ساع وراء أمر يرومه والتقادير تعانده فلا يبلغ متمناه)

فهذا كلام لو قورن بأسلوب الكتابة في هذه الأيام لما تخلف عنه في كثير ولا قليل، بل ربما فاق أسلوب الكثير من مشهوري الكتاب بصحة اللغة وحسن السبك ومتانة التركيب

وهذه الظاهرة من خير الشواهد على نبوغ الأستاذ، لأن النابغة يتخطى حدود زمانه ويدرك ما لا يدركه معاصروه إلا بعد أمد طويل.

هذه كلمتي في أسلوب أستاذنا قسطاكي بك الحمصي في الكتابة النثرية، وأنا أعلم ما فيها من عجز وقصور عن أدراك شأوه وبلوغ مداه، وإيفاء البحث حقه من الدرس والتمحيص، ولكن أنى لمثلي أن يسابق في هذه الحلبة ويجري في هذا المضمار وقد اجتمع فيه عيون الأدب ومصطفى رجاله لتكريم إمام من أئمة البيان. غير أن لي من حسن نيتي شفيعاً لقصوري، فليتفضل الأستاذ بقبول هذه الكلمات من بهدية مقرونة بالإعجاب بأدبه والدعاء له بطول البقاء

تيسير قواعد الأعراب

لأستاذ فاضل

- 5 -

قرأت ما كتبته الآنسة الفاضلة (أمينة شاكر فهمي) وظنته رداً علي، وهو في الحقيقة تأييد لي. وسأثبت لها ذلك بعد أن آخذ عليها هذا الاستفزاز الذي يحرك النفوس الجاهلة إلى الثورة على كل جديد ولو كان نافعاً، ويجعلها تقف في سبيل الإصلاح ولو كان حقاً

تقول الآنسة الفاضلة: (لقد تتبعت بشغف واهتمام مقالات الأستاذ الفاضل (أزهري) عن تيسير قواعد الأعراب إلى أن تم بحثه في عملية التيسير والتغيير، فدهشت جداً لما جاء في مقاله الأخير من تطبيق، وما كنت أظن أن موجة التبديل والتحوير تطفو يوماً على اللغة وتمسخها بهذا الشكل الذي ينكره كل مخلص للعربية. نعم إننا نعيش في عصر السرعة التي وفدت إلينا من أمريكا، ولكن غريب أن تطغي السرعة على قواعد اللغة والأعراب فتختصره بهذه الصورة المدهشة التي يقدمها الأستاذ (أزهري) في بحثه الأخير، فقد اختصر وحذف منه حتى كدت لا أتعرفه، وخيل إلي أنني أقرأ لغة أجنبية. وغريب أن يتأثر الأزهريون بحياة السرعة الأجنبية فيستعملوها حتى في اللغة وهم حماتها من كل اعتداء!)

فما هذا الاستفزاز من آنستنا الفاضلة وهي لم تنقض حرفاً واحداً مما قلت؟ بل أنها تشهد بأني جئت بدراسة في تيسير قواعد الأعراب تكاد تكون قيمة لو لم أناقض نفسي بنفسي وأزد في تعقيد الأعراب، وكان من السهل عليها لو تأملت قليلاً أن تدرك أنه لا تناقض فيما جئت به من ذلك ولا تعقيد

وستجد الآنسة الفاضلة في عدد الرسالة الذي نشر فيه مقالها رداً قيماً للأستاذ الجليل (ساطع الحصري) على خلطها بين اللغة العربية وقواعد إعرابها، وظنها أن في الاعتداء على قواعد الأعراب اعتداء على اللغة نفسها، فاللغة العربية شيء وقواعد اللغة العربية (الأعراب) شيء أخر، لأن اللغة بوجه عام تتكون تحت تأثير الحياة الاجتماعية. أما قواعد اللغة فتتولد من البحوث التي يقوم بها العلماء، وتتبدل بتبديل النظريات التي يضعونها، فهي من الأمور الاجتهادية التي يجب أن تبقى خاضعة لحكم العقل والمنطق
على الدوام، ولا يجوز لنا أن نتقبلها بدون مناقشة وتفكير، بل يجب علينا أن نعيد النظر فيها، ونطيل التفكير حولها، لنكشف فيها مواطن الخطأ والصواب، ونسعى في إصلاحها وفقاً للطرق المنطقية المتبعة في البحوث العلمية بوجه عام
ومن الواجب على الأزهر أن تكون هذه مهمته في هذا العصر، وأن يتأثر بهذه السرعة التي تقول الآنسة الفاضلة إنها وفدت إلينا من أمريكا مع أنها من أصول ديننا، ومن السنن الصالحة التي سنها أسلافنا، وقد رأت الشفاء بنت عبد الله رضي الله عنها فتياناً يقصدون في المشي، ويتكلمون رويداً، فقالت: ما هذا؟ قالوا: نساك. قالت: كان والله عمر إذا تكلم أسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع، وهو والله ناسك حقاً
وما فعلت بما جئت به من مذاهب جديدة في الأعراب إلا أني قضيت بها على ما فيه من حشو لا داعي إليه، وهذا كما في مسألة الأعراب والبناء، فأن تقسيم الكلام إلى معرب ومبني ومبني حشو في النحو لا يدعو إليه ألا ما ذهبوا إليه في الأعراب من تأثره بالعوامل. ولو جعلنا العمل في ذلك للمتكلم لا لهذه العوامل لم يكن هناك فرق فيه بين ما سموه معرباً وما سموه مبنياً، ولأمكننا أن نجعل كلمات العربية كلها معربة، واستغنينا بذلك عن حشو كثير في الكلام على الأعراب والبناء، وفي تطبيقات الأعراب التي نجريها في الأمثلة والشواهد، وليس في هذا أي اعتداء على اللغة العربية، فقد ذهب القراء إلى القول بأعراب الحروف إعراباً محلياً، ومعنى هذا أنها تتأثر عنده بالعوامل كما يتأثر غيرها، وهذا مذهب غريب جداً في الأعراب، لم أصل فيما ذهبت إليه من إعراب الحروف إلي أنها تتأثر في ذلك بالعوامل كما يتأثر غيرها، فهل تعدى القراء بذلك على اللغة العربية؟ وهل اتهمه أحد بهذه التهمة التي تكال جزافاً في عصرنا؟ اللهم لا
وكذلك مسألة الأعراب المحلي والتقديري، فإنه لا يوجد هناك ما يدعو إلى الفرق بينهما، ولا ما يمنع من إدماج الأعراب المحلي في الأعراب التقديري على النحو الذي ذكرته في مقالاتي السابقة، وقد ذهبوا إلى تقدير بعض الحركات من أجل حركة البناء في مثل (يا سيبويه) فلم أفعل إلا أن طردت ذلك في هذا الباب كله، وجعلت الأعراب المحلي إعراباً تقديرياً، لأن الفرق بينهما من الحشو لا يصح وجوده في هذا العالم، بل لا يصح وجوده في العلوم كلها
والحق أن كل ما ذهبت إليه في إصلاح الأعراب من القوة بحيث لا يكن معارضته، ولولا تعنت هذا العصر وجموده وجحوده لكان له شأن عندنا غير هذا الشأن، ولوجد من أنصاف العلماء ما يؤثره على مذهب القدماء في الأعراب. وإنه لا يهمنا هذا الجحود والجمود، لأنا بما نكتب في الإصلاح إنما نرضي به أنفسنا قبل كل شيء ونقوم بما نعتقده واجباً علينا، ولا يجني هذا الجمود والجحود إلا على الأمة التي ترضى به، ولا تحاول التخلص منه بعد أن صار بها إلى ما صارت إليه
وهاهي ذي آنستنا الفاضلة تشهد بقيمة هذا الإصلاح الذي أتينا به، ولكنها تقع بعد هذا في سهو ظاهر تنقص بهما هذه الشهادة، والذنب في ذلك عليها لا علينا، لأن ما ظنته تناقضاً في كلامنا لا حقيقة له
فقد بنت هذا التناقض على أنا قلنا في مقالنا الرابع إن الحرف لا حظ له من الأعراب أصلاً، ولو رجعت الآنسة الفاضلة إلى هذا المقال لوجدت أن هذا ليس من قولنا، وإنما هو من قول الجمهور في الرد على القراء، إذ يذهب إلى إعراب الحرف إعراباً محلياً، ويتفق مذهبنا مع مذهبه في ذلك إلى حد ما. ولسنا من الغفلة إلى حد أن نذهب في أول مقال لنا إلى أعراب الحروف إعراباً ظاهراً، ثم نعود فنقول في المقال الرابع إن الحروف لا حظ لها من الأعراب أصلاً
وكذلك لم توفق آنستنا الفاضلة حين أنكرت علينا مخالفتنا فيما أتينا به من تطبيقات

للأعراب المعروف في مذهب الجمهور، لأنه لا حرج علينا في ذلك أصلاً، ونحن لم نأت بهذه التطبيقات إلا لنبين للناس مقدار هذه المخالفة، وليس من المعقول أن نخالف الجمهور في قواعد الأعراب ثم نجري تطبيقاتنا على مذهبهم لا على مذهبنا فلا تناقض إذن في كلامنا، ولا شيء يمنع آنستنا الفاضلة من أن تجعل شهادتها لدراستنا خالصة مطلقة

(أزهري)

مائة صورة من الحياة

للأستاذ علي الطنطاوي

سائل - 8

في ميدان (المرجة) أكبر ميادين دمشق وأهمها، وفي محطة (الترام) أظهر بقعة في ذلك الميدان وأحفلها على ضيقها بالناس، سائل طويل بائن الطول، أعمى قبيح العمى، يقوم حيال عمود الكهرباء وكأنما هو لطوله عمود ثانٍ، لا يريم مكانه ولا يتزحزح عنه، ولا يفارقه لحظة من ليل أو نهار، فهو أبداً يزحم الناس بمنكبه الضخم العريض، وثوبه الدنس القذر، ويؤذيهم بصوته الأجش الخشن ونغمته القبيحة المملة، وكلماته التي لا تتبدل ولا تتغير: (من مال الله يا أهل الخير، والله جوعان! الله لا يجوعكم والله كاس العمى صعب. . .) لا يكف لسانه عن ترديدها، كما أن لسان صبيه الذي يحمله دائماً لا يكف عن البكاء والعويل. .

وكنت أمر بالميدان نهاراً، وآتيه نصف الليل، وأجئ تارة عند طلوع الشمس، فأجد ذلك السائل قائماً في الحالات كلها بجانب العمود، وكفه مبسوطة كأنها طبق. . . ولسانه ولسان صبيه عاكفان على السؤال والبكاء، كأنما هما أسطوانة تدور دائماً وأبداً لا كلل ولا ملال. . . فكنت أتألم منه حيناً وأنقم من الشرطة أنها لا تباليه ولا تحفل مكانه، وأشفق عليه حيناً فأعطيه من بعض ما أجد حتى رآني رفيقي فلان، فقال لي:

- ماذا؟ أتعطي مثل هذا؟

قلت: ولم لا أعطيه وهو أعمى مسكين، يسأل الليل والنهار لا يفتر؟ فلو كان سؤاله - تسبيحاً لكان من الملائكة. . .

ويقسم أبداً أنه جائع، وولده على كتفه يبكي من الجوع. . .

أفأضنَّ عليه بقرش واحد يقيم صلبه؟

فضحك رفيقي وقال:

- لا هو بالجائع، ولا الولد ولده، وإنه لأغنى مني ومنك. .

قلت: هذا لا يكون

- قال: فتعال معي. . .

ودنا من السائل، فهمس في أذنه. . .

- يا أبا فلان؟ ألا تؤجرنا دارك التي في (الشاغور)؟

ففتح الأعمى عينيه. . . فنظر في وجهه. فلما عرفه قال:

- بلى، ولكني لا أنزل بها عن عشرين ليرة ذهبية. . .

- قال رفيقي: ألم تؤجر الدار الأخرى بثماني عشرة؟ فهذه مثلها. . .

- فقال: هو ما قلت لك. . .

وعاد يصيح بنغمته القبيحة المملة، وصوته الأجش الخشن:

(من مال الله يا أهل الخير، والله جوعان، الله لا يجوعكم! والله كاس العمى صعب. . .)!!

علي الطنطاوي

وحي الشاعرية

ثورة الخيال

(صحيفة اجتماعية مطوية لم تنشر إلا اليوم. جلوة لعهد بعيد، غير عتيد)

للأستاذ حسن القاياتي

أدلت بي النجوى فأكثرتها رغماً ... وخفت بي الدعوة فأوسعتها عجما

بغيري أبياً يلعب البرق خلبا ... أيقتلني يأساً وقد مدني علما؟

طويت على الشكوى جوانح لم يزل ... يحزُّ الأسى فيها وتكتمه كتما

شجى النفس من ليل الشبيبة أليل ... تألق هذا الشيب في جنحه نجما
أحيدُ بأنفاسي عن الليل رهبة ... كأنيَ أخشى أن تحرِّقه فحما
بنفسي محيا الراح لو أن كأسها ... أطاحت لنا همًّا فلم تولنا هَّما
كريهٌ مذاق الموت في الكوب وحده ... فما بال مفتون تجَّرعَ واشتما؟
يزهدني في مرشف الكأس أنها ... أديرت فما جازت حصيفاً ولا فدما
بكم نالها المتلاف والكأس مغرم ... ليشربها خمراً وقد باعها كرما؟
كأن حميا الكأس أعيت بفاتك ... فصبت على أخلاقه الأفن والوصما
هي الراح ذوب الحسن لا بل ظلاله ... إذا حلَّ في نادٍ فقد طلعت ثمَّا
إلى كم تقاضي المصبيات مكانها ... لديَّ وقد عفت المناغاة والرئما؟
أبيٌ لو أن الماء يسقي بوصمة ... تبدلتُ منه خوفَ وصمته السما
أصد وقد هم الجمالُ ولو قني ... أخي يوسفٌ صبري لصدَّ فما هما
هواناً لغيٍ يهصرَ الحسن وردة ... فهلا يشمون الحياة به شما؟
رويداً بخد الورد شما وزينة ... ورفقاً بورد الخد نذبله لثما
فوا كبدي كم يمنع الحسن شركة ... وما خص بالشجو القلوب كما عما؟
أكل بديع ليس يعدوه حاجب ... يصدُّ قناعاً أو يحيط به كما؟
لثامٌ نهى شطر الجمال فصانه ... فوا لهفتا للبدر لو أنه تما؟
جمال الغواني قاسَم الله خلقه ... فصبَّ عليه من تحجبه رغما
كأنك غضبي حين أبدأك برقع ... لقد رقَّ يا أختي فحلاكِ إذ نما
بعينيك من ردَّ العيون فصاغها ... قسياً ومن أصمي بنظرتها سهما؟
جوانحنا من شبَّ فيهن جذوة ... ومن سهدت فيه العيون ومن أدمى
دعونا نرقِّه عن حشانا بآهةٍ ... تبلُّ الحشى برداً ويندى بها نسما
دموع الأسى تشفي وليست مبينة ... تلهيك بالأطيار إذ هتفت عُجما
بني مصر لولا أعينُ الغيد فتنة ... لما مُلئت حسناً ولا مُلئت ظلما
يذمون من (بنت الهوى) طاعة الهوى ... وهم نظموها في شقيَّاته نَظما
شفاء الفتى من سكرة المال والصبا ... ضمين به الإتلاف يلحقه العدما
لمن شرفٌ ريعت به كلُّ حرَّةٍ ... فلم يبكه جانٍ رأى جرحه يدَمى
ولدتم كهاتيك القلوب نوابضاً ... فخافوا عليهن الجريمة والاثما
لقد طُبعت طبع الحديدة فيتةٌ ... تجافت فلا داءً شفته ولا كلما
أجداً يظن الشحُّ ألا أبوةٌ ... عليهم لمن ذاق الخصاصة واليتما
ألا مصنعٌ مجدٍ ألا ملجأ ندٍ ... يفيض لهم علماً ويندى لهم طُعما
مدارسنا لا النبل فيهن حلية ... ولا العلم خصم الجهل يصرعه خصما
مدارس تجار إذا هي أربحتْ ... خسرنا بها الآداب أجمع والعلما
لقد ساد زيغ الرأي فليشك محسن ... كبارَ المساعي يوم تكسبه ذمَّا
كفى الناس تضليلاً بخدٍ مموَّهٍ ... وبالنابه المكذوب يبنونه ضخما
إذا وصفوا بالعلم والفهم نابهاً ... زهْوهُ ولم يفتنك علماً ولا فَهما
كأن بعيد الصيت يعتزُّ باسمه ... تساقط حتى ما يروعك إلا اسما
كأني بسحَّار النباهة كلما ... تقلب في زعم أجدُّوا له زعما
توحَّدَ مغمورُ القوافي بيانهُ ... كخط الأغاني يبعث الطرب الجما
قل الزور يستاق الجماهير فتنةً ... ورحْ شيخها نُبلاً ولح بدرها تما!
صدى الناس من يحكي وكم فيهم صدىً ... ولكنَّ جزْلَ الرأي من يحسن الحكما
سما النيلُ يستعدي على الجور قومه ... فياربُّ سدِّده لأربحهم سهما
يمينا لقد أزرى بمصر مفاوضٌ ... رقيق كما ناغيتَ إحسان أو نعما
لمن يؤمن الشرقي في الغرب بعدما ... تداولهُ نهباً وفاز قَسما؟
سواءٌ على الشرقي في الكأس شهدة ... أم الموت فيها يلتذها طعما؟
متى يخلُ غرٌ بالقوى وكأسه ... تكسب لبَّ الغرِّ بل شعبه ضما
إن أعتزَّ باغٍ لم نرَ العدل عنده ... سوى فتكتٍ بالكون تدهمه دهما
كثير التمني أطول القوم غِرَّةً ... وإن كثير النوم أكثرهم حلما
كأنك إذ تفني لياليك عاملاً ... ركضت لما تبقى صوافنك الدُّهما
بنى الشرق من قواده كل سادر ... فهل أصبح البناء لا يحسن الهدما؟

يقولون للخوان: تاب ومادهت ... معتقة إلا بما فتكت قِدْماه
يظن فريقٌ يُسلم الحق أنه ... بحيث يرى الغوغاء والحاشد الفخما
!!إذا ضلَّ فردٌ أو بق الفرد أمةً ... أدلت به نجلاً فقتَّلها أمَّا
يريدوننا في موكب الفرد أمة ... عزيزٌ عليهم أن آنفنا أحمى
أرى الجور قتال الشعوب فما لهم ... يريدونه شعباً ويرعونه بهْمَا
أكل الزعيم عندهم عزّ مثله ... كأن بأرض الشرق ويحهم عُقما
إذا ما استقل الشعب ألفى غوَّيه ... ومن هجر الأوثان أوسعها حطماً
تغضّب لا للدين بعض رواته ... تغضب للأجلال أو طلب النعمى
لقد عُبدت في الشرق حيناً عمائم ... لو أن (أبيساً) قد رآهن لا عتما
كأن الأيادي فوقها ثغر لائم ... صحيفة زور كان توقيعها ختما
مضى كل واه ينحل الدين وهنه ... بروح بلا قسم كأن به السُّقما
هو الدين إن شاءوا يكن ضنك حكمه ... فلاة وإن شاءوا يكن رحبه سَمَّا
فتَاوى كزورات البغي مباحةٌ ... تزيد بها غراماً فتأخذها غنمْا
إذا كانت الأديان حرباً على الحجا ... وخاصمها علم فأهْون بها خصما
إلى الصيت يسمو كل من قيل ملحدٌ ... وما قتل الإلحاد علماً ولا وهما
لأية جدوى يغمز الدين مارق ... أباح فلا حِلاًّ يراعي ولا حِرمْا
أقيما على الآداب والنبل مأتماً ... فقد ذهب عيناً وقد محيا رسما
تنكرت الأخلاق حتى لقلما ... صنعت جميلاً لا تجازى به شتما
تهدّ إلى السوءات لا تدعه الهدى ... وغض عن المخزاة لا تدعه الحلما
كفى بتبارينا إلى الشر ضيعة ... وحسبك من تمزيق وحدتنا جرما
عذيري من باك بأجفان عاهر ... على أمة يسعى ليقسمها قَسما
وفاق وأني بالوفاق ودونه ... حسائك صرعى بالتنابذ أو كلمى
تنصح لمن يعصي ودعه فدهره ... سيحسم باللوعات خلفكما حسما
تنزه حب الدار عن صدر جارم ... يضرمها حرباً وقد طبعت سلما
حموا كل حر أن يفدى شعبه ... إلا كذبوا إن العواطف لا تُحمى
هي الدار ليست للمربين طُعمة ... ولكن لنهاض بحجتها شهما
يدسون للمجدي وفي الدوح مثمر ... نعد له فُتْل السواعد والرجما
ألا ليت من يجني لأهليه سوءة ... يبوء بها ذلاً على الأنف أو رغما
نصيبك من حمد فان كنت زاهداً ... فصبرك لا يذهب بصبرك من ذمَّا
غريرٌ لعمري أيها النيلُ ناشئ ... فلا تأمن من الكيد السياسي واللؤما
إذا الشعب أعطى كل غرّ قياده ... فقد حذر الفوضى بما قتل الحزما
بربك سائل مستقلاً قيودُهُ ... مجرّرةٌ هلاَّ أطاق لها فصما؟
سلا نائبينا عن سجين مصفد ... ضعيف متى أهدى لنائبه عزمْا؟
عقيد العلى شعبٌ إذا ما أثرته ... تفَّزع لا يرضى هواناً ولا هضما
كفا أنفاً للحر أن حُقوقهُ ... تردُّ له عدلاً فيأخذها غشما
سموك لا تحسب من الحتم ذلةً ... وأنت مُلاق ما سموت له حَتما
أُحبُّ حياة النشء كالنشء جدة ... ولا يزدهيني محدث يشبه القدما
توثب هذا الشرق يبغي ديونه ... فيارب جنبه الدسائس والشؤما
(السكرية: دار القاياتي)
حسن القاياتي
البريد الأدبي
القصص في الأدب العربي الحديث
لقد سبق لي أن حدثت قراء (الرسالة) عن المستشرق الفرنسي (هنري
بيريس) يوم وصفت كتابه (أسبانية في أعين الرحالين المسلمين).
واليوم أخرج هذا المستشرق المشتغل بالأدب العربي الحديث رسالة
إضافية في القصص عندنا، وقد نشرها في مجلة معهد الدراسات
الشرقية لكلية الآداب في جامعة الجزائر (الجزء الثالث، سنة 1937
ص1 - ص72)
وللرسالة مقدمة حسنة على قصرها عرض فيها المؤلف نشأة القصة في أدبنا الحديث

وارتقائها. فقال فيما قال: إن فن القصة انحدر إلى الشرق العربي من جانب الغرب وإن فارس الشدياق صاحب (الساق على الساق) كان أول من نبذ (المقامة) متأثراً بما وقع إليه من قصص الفرنسيين ولإنجليز. وهنا أشار المؤلف إلى ما صنعه اللبنانيون والسوريون النازحون إلى مصر في سبيل القصة أول أمرها، فذكر سليم الشلفون وأديب اسحق وجرجي زيدان، ولم يفته أن يذكر رفاعة الطهطاوي الذي نقل رواية (تليماك) من الفرنسية إلى العربية فطبعت في بيروت عشرين سنة بعد كتابتها. ثم انتقل إلى عهد المويلحي والمنفلوطي فتكلم على انعطاف القصة نحو الروح المصرية. ثم انتهى عند عهدنا هذا فنوه بخروج القصة من حيز الترجمة والنقل والتقليد إلى حيز الإنشاء والإبداع. ثم أخذ يعدد مجلاتنا الأدبية التي تنشر فيها القصص. ثم رتب أنواع القصص فذكر النوع الابتداعي والواقعي والطبيعي والرمزي والتاريخي والنفساني و (البوليسي)

ومما غاب عن المؤلف فيما أظن أنه أغفل تراثنا القصصي فلم يحاول أن يرد إليه بعض ما يجري في قصصنا (من ذلك (على هامش السيرة) لطه حسين و (شهرزاد) لتوفيق الحكيم فضلاً عن روايات زيدان ومسرحيات شوقي) وأنه أهمل قصصنا الشعبي ففاته أن يتلمسه في طائفة من القصص (من ذلك أقاصيص لجبران خليل جبران وأخرى لميخائيل نعيمة و (يحكى أن) لطاهر لاشين)

ويلي المقدمة ثبت أسماء المؤلفين وعناوين القصص على طريقة علمية قوية. والثبت على أربعة أبواب:

الباب الأول: ما ألف في الأدب العربي الحديث عامة، في العربية واللغات الإفرنجية

الباب الثاني: ما ألف في فن القصة، في العربية واللغات الإفرنجية

الباب الثالث: القصص والأقاصيص المنقولة من اللغة الفرنسية إلى العربية

الباب الرابع: القصص والأقاصيص المؤلفة باللغة العربية في القرن التاسع عشر والعشرين

وجل ما يؤخذ على هذا التثبت الدقيق الجامع أن صاحبه لم يرتب الأسماء حسب حروف المعجم

هذا ولعل الأستاذ (هنري بيرس) يواصل عمله النفيس إذ في نيته أن يثبت المقدمات التي يصنعها القصصيون لقصصهم مع النظر فيها وأن يتعقب ألوان الكتب وأنواع التأليف التي سارت في الشرق العربي سنة 1930

(باريس)

بشر فارس

الحركة النسوية في ألمانيا

تعمد ألمانيا الهتلرية إلى توفير أسباب الحياة والراحة للألمان فكان من أثر ذلك حركتها ضد اليهود، ثم نزعتها الأخيرة إلى إقحام مسائل الجنس في الوطنية، وما تدعيه من تفوق الجنس الآري وتقدمه على بقية الأجناس الأخرى في نواحي الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية، ولما كانت مسألة العطلة من أكبر المسائل التي تواجه الأمم الحديثة، فقد رأت ألمانيا أن تأخذ في الإقلال - جهد الإمكان - من النساء في الصناعات والأعمال التجارية حتى لا يكنّ مزاحماً خطراً للرجال، غير أن الواقع هو أن عددهن يزداد يوماً بعد يوم في دائرة الأعمال، وقد ذكرت ذلك جريدة سويسرية فقالت (إن أهم ما تعنى به ألمانيا الحديثة في تربية نسائها تربية سياسية هو طبع الفتيات بروح الحركة الاشتراكية الوطنية، وعدتها في ذلك الرياضة الذهنية والجسمية، تلك هي أسس جمعية البنات الألمانية ? وتقوم تربيتهن في هذه المؤسسة على أساسين، إحداهما يجعل منها امرأة اشتراكية، تعرف كيف تسوس أمور الدولة إن دعت الحال إلى ذلك، والثاني يعدها لأن تكون أما قوية البنيان، عبلة القوى، لتنتج (الإنسان الكامل) للوطن؛ ويبدأ انخراط الفتيات في هذه الجمعية منذ بلوغهن السادسة عشرة من عمرهن، فمن أظهرت مقدرة وكفاءة في تشرب مبادئ الجمعية منحت شارة فضية، وهي دليل التفوق الفكري والسياسي، ويعقد لهن كل أسبوع اجتماع ليلي يشرح لهن فيه تطور السياسة في الداخل والخارج، ونصيب ألمانيا من ذلك كله. ولقد أعلن أخيراً (الهرفون شبراخ) زعيم شباب الريخ وجوب اشتراك كل فتاة يتراوح سنها بين 17، 21 سنة في جماعة القوة والجمال)

والغرض المنشود منه هو تربيتهن تربية جثمانية قوامها الرياضة والرقص، وتعليمهن أصول الصحة، وقصارى القول إن مرماه إيجاد جيل نسوي جديد، قوي البنيان، جميل المنظر معتد بنفسه واثق بها.

وفي خلال هذه المدة تتلقى الفتاة نوعاً من التعليم الإجباري في المعسكرات التي أوجدت ألمانيا منها أكثر من ستمائة معسكر في ثلاثة عشرة بلدة، يعشن فيها عيشة خشنة، ويمارسن أشق الألعاب.

وعلى الرغم من أن ألمانيا النازية ترى أن مكان المرأة الأول هو البيت، إلا أنهنَّ ينافسن الرجال في كثير من الأعمال، حتى لقد بلغ عددهن اليوم قرابة 25. 5 % فيما يختص بالفتيات الناشئات، أما الأمهات وسيدات الجيل الماضي، فقد أوجدت لهن ألمانيا (اتحاد وهو بجانب تحبيب النازية إليهنَّ، يقوم بتعليمهن الحياكة والحضانة وشؤون المنزل ورعاية الطفل

نور الدين وصلاح الدين في فلسطين

نشرت جريدة (النهار) في بيروت مقالة بعنوان (إلى الأستاذ إسعاف النشاشيبي) أشارت فيها إلى ما نشرته (الرسالة) في عنوان (من أمين الريحاني إلى محمد إسعاف النشاشيبي) وذكرت - مطنبة - تحية الأستاذ الريحاني، وبكاء الأستاذ النشاشيبي واستنجاده بسيد المرسلين، وبكت متأثرة معه، ومما جاء في تلك المقالة: (إنني كل يوم أرى المجاهدين يخطون بدمائهم حطيناً جديدة، وكل ساعة أرى بينهم نور الدين، وصلاح الدين وعماد الدين)

الفلسفة الشرقية

قرأت في العدد 271 من مجلة (الرسالة) الغراء ذلك المقال القيم الذي كتبه حضرة الأديب السيد أحمد صقر عن كتابنا (الفلسفة الشرقية) فسررت من قراءة هذا المقال سروراً عظيماً ولكن، لا لما قد يتبادر إلى ذهن القارئ للوهلة الأولى من أن مبعث هذا السرور هو ثناء مستفيض على الكتاب ومؤلفه وإنما مبعثه هو ما ظهر لي من خلال المقال من أن كاتبه لم يكتبه إلا بعد أن طالع الكتاب في دقة وتمعن غير أن لنا بعد هذا ملاحظة وجيزة على ذلك المقال نحب أن نسجلها هنا وصفاً للحقيقة العلمية في نصابها

قال كاتب المقال: إني ذهبت إلى أني كنت أول من أثبت بالأدلة القاطعة سذاجة (أرسطو) وأذنابه في دعواهم أن الفلسفة نشأت للمرة الأولى في إيونيا في القرن السادس قبل المسيح، وأن أول فيلسوف في الدنيا هو تاليس المليتي ثم علق على هذا بقوله: (والحق أن هذا الإثبات قديم الميلاد وليس أدل على ذلك مما قال الدكتور عن (ديوجين لاإرس) في كتابه (حياة الفلاسفة) وأن الشرق قد سبق الغرب في النظر العقلي، وأنه كان أستاذه وملهمه. .

ويظهر أن حضرة الأديب خيل إليه أن بين العبارتين ومعارضة إذ تدل الأولى على أن مؤلف كتاب (الفلسفة الشرقية) هو الذي أثبت تأثر الفلسفة الإغريقية بالفلسفة الشرقية، بينما تنص الثانية على أن (ديوجين لاإرس) قد سبقه إلى هذا الثبات.

والحق في هذا الموضوع هو غير ذلك تماماً، إذ أن (ديوجين لاإرس) لم يزد في كتابه (حياة الفلاسفة) على أن حدثنا (حديثاً يثبت أن الشرق قد سبق الغرب إلى النظر العقلي وأنه كان أستاذه وملهمه كما هو النص حرفياً. أما نحن فقد أثبتنا هذه الدعوى بالطريقة العلمية الحديثة وهي استعراض نظريات الإغريق ومذاهبهم وإبانة مواضع تأثرها بالفلسفة الشرقية بالأدلة الناصعة التي لم تكن قد وجدت بعد في عصر (ديوجين لاإرس) وفوق ذلك فقد أتينا من نتائج البحث الحديث بطائفة من الأدلة العلمية التي تؤيد هذه الدعوى تأييداً قاطعاً، وذلك مثل اكتشافات الأستاذة المستمصرين (ماسبرو) و (لوريه) و (موريه) و (بريستيد) التي استغللتها في إثبات دعواي استغلالاً لم يتح مثله لديوجين لاإرس، ومثل نتيجة بحوث العلماء الطبعيين الذين أوضحوا الفرق الطبيعي بين الجماجم الشرقية

والجماجم الإغريقية، وأتاحوا لنا الفرصة لاستنباط أن كثيراً من النظريات الإغريقية مبنية على أسس شرقية، ومثل اكتشافاتي الخاصة التي وصلت إليها بعد الموازنة الدقيقة بين كل هذه الفلسفات، إلى غير ذلك مما نستطيع أن نجزم في صراحة أن (ديوجين لاإرس) لم يوفق منه إلى شيء يذكر

وأحسب أن حديث ديوجين لاإرس الذي يستنتج منه استنتاجاً تأثر الفلسفة الإغريقية بالفلسفة الشرقية لا يساوي في نظر العلم إثباتنا هذه الدعوى بالحجج القاطعة التي لا تحتمل الجدل والتي لو وفق (ديوجين) إلى مثلها لما جرؤ (سانت - هلير) على جحود هذه الفكرة بمثل ذلك التثبت الذي ورد في مقدمة ترجمته للكون والفساد ولهذا الفرق الذي يوجد بين طريقتنا في الإثبات وطريقة (ديوجين لاإرس) عبرنا في جانب طريقته بقولنا: (إنه حدثنا حديثاً يثبت إلى آخره) وعبرنا في جانب طريقتنا بقولنا: (إننا أثبتنا بالأدلة القاطعة إلى آخره). ولا شك أن هذا كاف في وجود الفرق بين الطريقتين.

على أن (ديوجين لاإرس) كتب ما كتب في الغرب وقد ظل المتفيهقون في الشرق يدعون عكس ما قرره. أما بعد هذه البراهين التي أدلينا بها، فلا يجادل في هذه الفكرة إلا مكابر أو جحود.

بهذه الإشارة الوجيزة يتبين أن ادعاءنا أننا أول من أثبت هذه الفكرة لا يتنافى مع نصنا على أن (ديوجين لاإرس) حدثنا هذا الحديث منذ زمن بعيد.

وأخيراً أكرر تهنئتي للأديب صقر على روح النقد الحر الذي نحن في أشد الحاجة إليه في نهضتنا الحاضرة.

الدكتور محمد غلاب

الأمالي

قال الأديب الفقيه الأستاذ داود حمدان: ما مفرد الأمالي؟

قلت: الإملاء. وقد رأيت أن أروي في (الرسالة) الغراء كلمة في أمالي السلف الصالح لملا كاتب جلبي وقولاً للشيخ إبراهيم اليازجي في هذه اللفظة ومفردها، فيه فائدة

قال الأول: (هو جمع الإملاء، وهو أن يقعد عالم وحوله تلامذته بالمحابر والقراطيس فيتكلم

العالم بما فتح الله (سبحانه وتعالى) عليه من العلم، ويكتبه التلامذة فيصير كتاباً، ويسمونه الإملاء والأمالي، وكذلك كان السلف من الفقهاء والمحدثين وأهل العربية وغيرها في علومهم فاندرست لذهاب العلم والعلماء؛ وإلى الله المصير، وعلماء الشافعية يسمون مثله التعليق) ثم ذكر في مصنفه (كشف الظنون) (66) كتاباً مسمى بالأمالي، منها: (أمالي ابن الحاجب في النحو وغيره، أمالي أبن دريد في العربية لخصها السيوطي وسماها (قطف الوُرْيد)، أمالي أبن الشجري، أمالي أبي العلاء المعري، أمالي أبي يوسف (صاحب أبي حنيفة)، أمالي بديع الزمان، أمالي جار الله الزمخشري من كل فن، أمالي الشافعي في الفقه، أمالي القالي في اللغة، أمالي الصفوة من أشعار العرب لأبي القاسم فضل بن محمد البصري، أمالي نظام الملك (الوزير العظيم العالم) في الحديث، أمالي المطلقة للسيوطي)

قال الثاني: (هناك ألفاظ لا ندري بم ننعتها. . . وذلك كقول القائل: (آمال فلكية) فجاء أول هذه الكلمة أشبه بوزن أفعال نحو آبال وآرام، وآخرها أشبه بوزن فعال المنقوص كجوارٍ وليالٍ، وهذان الضبطان لا يجتمعان في صيغة عربية. وكأن الكاتب رأى هذه اللفظة في بعض الكتب لكنه لم يعلم ما هي، فمد أولها لأنه وجد هجاءها يشبه هجاء آمال جمع أمل، ورأى آخرها منوناً تنوين الكسر فحكاه فيها، فجاءت على هذه الصورة المنكرة. وإنما هي الأمالي جمع إملاء مصدر أملي، وأصلها أماليُّ بالتشديد بعد قلب همزتها ياء، ثم حذفت إحدى الياءين جوازاً كما هو القياس في مثلها من الجموع فصارت أمالي بتخفيف الياء، وإذ ذاك عوملت معاملة جوارٍ ونحوه)

القارئ

الكتُب

اعترافات فتى العصر

لألفريد دي موسيه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

درة من آداب الغرب جلاها ببيانه العربي الرائع الأستاذ فليكس فارس وقدمها بتمهيد بليغ قال فيه (ليقرأ فتيان عصرنا الحائرون هذه الاعترافات الخالدة التي كتبها دي موسيه بدماء قلبه عبراً لا بد أن يجد فيها كل فتى صورة لحادث من حوادث حياته إن لم يجد فيها صوراً لمعظم حياته)

والأستاذ فليكس فارس شخصيته عميقة الأثر في نهضة الشرق العربي، فلا بدع إذا رأينا يلبس الاعترافات ثوباً قشيباً طرزته يد فنان شاب بارع
لقد انتظرت هذا الكتاب منذ أعلن عن ظهوره، ولو أني قرأته في مجلة الرواية القصصية الراقية شقيقة الرسالة الأدبية العالية؛ غير أنني أردت أن تضم مكتبتي المتواضعة هذه التحفة الأدبية الرفيعة، ولما تفضل وأهداني إياه أقبلت عليه فالتهمته، ولشد ما رغبت صادقاً لو طال حديث الاعترافات ليطول بذلك استمتاعي بتلك اللذة الساحرة التي لا يظفر بها المرء إلا في أمثال هذه الآثار الفنية. . .
وللاعترافات ميزة كبيرة ترتفع بها إلى مصاف القصص الخالدة التي لم تنشأ لمجرد اللهو والتمتع بالجمال الفني، فإنها جمعت إلى روعة الفن فلسفة الحياة ونظرات في إصلاح المجتمع قلما تراها في سواها
ففي ترجمة هذه الاعترافات معنى يرمي إليه المترجم الفاضل، إذ لم يترجمها لمجرد أنها قصة يلهو بها القراء، بل نشرها بين الشبيبة كطبيب اجتماعي عرف مواطن الأدواء في بلاده، وقد وجد أن شبيبة الشرق يراود فكرها وعواطفها الجحود بالأيمان والعبث بالحب، فلم يجد أروع من اعترافات فتى العصر يقدمها صرخة داويه تهيب بالشبيبة التي ترود مزالق الغواية والإلحاد. . .
وإن ما عجبت له حقاً هو التوافق الغريب بين أدواء عصر الفريدي دي موسيه وأدواء عصرنا الحاضر. ولقد كان الأستاذ فليكس فارس موفقاً كل التوفيق في اختيار هذه الاعترافات ليعالج أدواء الشرق بما تحتويه من صور صادقة لحياة الشبيبة فيه
ولقد ختم الأستاذ فليكس تمهيده الموجز البليغ بآيتين لخص فيهما الاعترافات فقال:
إن من جحد إيمانه جحدته حياته
ومن أتخذ الحب ألعوبة طرده الحب من جناته
أما الترجمة فحسبك ما قاله فيها فقيد الأدب العربي مصطفى صادق الرافعي: (أما الاعترافات فهي جيدة جداً؛ ولو كان مؤلفها هو المترجم لما استطاع أكثر مما استطاع الشيخ فليكس فارس)
عطيه محمد السيد
المسرَح والسينما
بوادر الموسم السينمائي الجديد
لا نغالي إذا قلنا إن الموسم الذي بتنا على أبوابه سيكون موسماً هائلاً تعرض فيه بضعة أفلام من ذات الطول الكامل تحوي كل خطى التقدم التي خطتها صناعة السينما في مصر في العام الماضي، وحتى أفلام الدرجة الثانية أو الشركات الأقل استعداداً، ستكون أقوى من أفلام العام الماضي بكثير
أستوديو مصر
وفي مقدمة الشركات المصرية التي خطت بالأفلام المصرية خطوات كثيرة موفقة، شركة مصر للتمثيل والسينما التي يتبعها (أستوديو مصر)، إذ يقدم لنا هذا الأستوديو ثلاثة أفلام كبرى في هذا الموسم هي (لاشين) و (الدكتور) من إخراج نيازي مصطفى و (شيء من لا شيء) من إخراج الأستاذ بدر خان وهو الذي تقرر أن تبدأ به سينما ستوديو مصر (تريومف سابقاً) برنامجها المصري لهذا العام. وقد أعلن عنه في الصحف والمجلات المتصلة بإدارة الأستوديو. . . ويقوم بتمثيل الدورين الأولين في هذا الفلم المطرب المحبوب الأستاذ عبد الغني السيد والمطربة المبدعة الآنسة نجاة علي كما اشترك في تمثيله نفر من خيرة ممثلي المسرح المحترفين نذكرهم ونذكر شيئاً عن الفلم عندما يتحدد موعد عرضه
شركة أفلام أحمد سالم
ومن الشركات القوية الجديدة شركة الأستاذ أحمد سالم مدير أستوديو مصر السابق، وقد انتهت هذه الشركة من إخراج فلمها الأول (أجنحة الصحراء) وهو ذو موضوع وحوادث حربية جوية ولم يسبق إخراج مثله في مصر، من حيث جودة التصوير وإتقان الديكور واختيار الأرتست وتقطيع السيناريو. وستقدم الشركة في هذا الموسم كذلك أول فلم بوليسي يخرج في مصر، هذا علاوة على أعداد (جريدة سالم السينمائية) التي ظهر منها عددان

حتى الآن، أحدهما خاص برفع الستار عن تمثال سعد والآخر خاص برحلة صاحب الجلالة الملك في الصحراء الغربية.

أخبار مسرحية وسينمائية

أفلام الثلاثي السينمائي

وتقدم لنا شركة (لوتس فلم) فلمين في هذا الموسم أتم الثلاثي الفني إحداهما قبل سفره إلى تركيا ولبنان، وانتهى الزميل احمد جلال من كتابة السيناريو للفلم الثاني وقد أسماه (نساء بلا رجال) وقد شرعت الشركة في التقاط مناظره في استديو ناسبيان. وأفلام هذه الشركة معروفة بموضوعاتها المبتكرة وسنياريات المحبوكة ونجومها اللامعة وبخاصة النجمة المحبوبة السيدة آسيا، والنجمة الرشيقة ماري كويني، والممثل الصحفي القصصي أحمد جلال. وإذا كان النقاد والجمهور بصفة عامة قد شهد لفلم (بنت الباشا المدير) بأنه أحد أفلام الدرجة الأولى الثلاثة في الموسم فلا شك في أنه سوف يحكم لفلمي لوتس الجديدين بأنهما جديران بمشاهدة كل هواة السينما

أفلام فنار فلم

وتخرج شركة فنار فلم طبعة عربية جديدة لفيلمها السابق (ليلى بنت الصحراء) وطبعة فرنسية من نفس الفلم يعرضها في باريس والبلاد التي تسودد فيها اللغة الفرنسية. أما باقي أعمال الشركة التي سوف تستغرق جهودها هذا العام فهو عرض الأفلام الفرنسية الكبيرة التي نالت احتكارها وإخراج أفلام لحساب الغير في أستوديو ناسيبيان التي استأجرته الشركة بعقد لمدة طويلة، كما أن فلم السيدة عزيزة أمير القادم سوف تقوم بإخراجه هذه الشركة التي انضمت السيدة عزيزة إلى المساهمين فيها

المسرح الخصوصي للفرقة القومية

قام حضرة صاحب المعالي وزير المعارف العمومية بزيارة لإدارة الفرقة القومية ومخازنها وخطب في الممثلين والممثلات خطبة حماسية مستفيضة لفت أنظارهم فيها برقة ودعابة إلى أن من الواجب مضاعفة الجهد وبذل العناية في الموسم القادم حتى لا يقول البرلمان والنقاد في الفرقة ما قالوه عنها في الموسم الماضي. وتحدث الوزير كذلك عن رغبة

الوزارة في الإسراع بإنشاء مسرح خاص للفرقة تعمل عليه طوال الموسم، وأكد أن (رسومات نموذجية) عن أشهر المسارح العالمية قد أحضرها سعادة حافظ عفيفي باشا معه من أوربا وقدمها للوزارة لدرسها واختيار الشكل الملائم لمصر، وقد شكره الممثلون على عطف معاليه عليهم وتقديره لجهودهم ووعدوه بأن يكونوا عند حسن ظنه!

فرقة الأستاذ علي الكسار

بدأت فرقة الأستاذ علي الكسار موسمها على مسرح برنتانيا برواية جديدة استعراضية تدعى (من أول وجديد) من تأليف الأستاذ أحمد شكري وبرواية قصيرة اسمها (الكابتن هول) من اقتباس الأستاذ علي الكسار، وقد اشترك مع الأستاذ الكسار في تمثيل هاتين الروايتين السيدة عقيلة راتب (بريمادونة) الفرقة المحبوبة والأستاذ حامد مرسي مطربها المعروف، والثنائي الفني (حسين ونعمات المليجي) وسيظل الأستاذ الكسار عاملاً بهذا المسرح حتى أول رمضان.

يقوم (تيرون باور) بالدور الأول في رواية (ماري انتوانيت) أمام نورما شيرر، ويشترك في تمثيل هذا الفلم (جون باريمور) و (أنيتا لويس) ويعرض هذا الفلم في سينما رويال

العدد 275 - بتاريخ: 10 - 10 - 1938

في سبيل فلسطين

المؤتمر البرلماني للأمم العربية الإسلامية

لأول مرة في تاريخ العروبة والحنفية يجتمع وفود الأمم الإسلامية الشرقية والغربية في مكان واحد على شعور متفق وغرض مشترك وسياسة عامة. ولهذا الحادث الفريد المجيد معان من الدعوة النبوية التي قامت على جلجلة الوحي ويقظةالضمير، وانتصرت بقوة الإيمان وعبقرية الجنس، وانتشرت بوحدة العقيدة والفكرة والهوى والألم. فأن السبب الأول في نجاح الدعوة الكبرى إنما يرجع إلى يقظة الحس العربي واستعداده للكمال الروحي والاجتماعي في زمن البعثة، كما

تتيقظ الأرض وتستعد للتجدد والأثمار في زمن الربيع. ومحنة فلسطين على فداحتها لو حدثت في غير هذا الوقت لمرت على مشاعر العالم الإسلامي كما تمر الريح العَصوف بالصخور الصم في الجبل، أو بالجذور الميتة في الغابة. وهل مأساة فلسطين إلا فصل من مأساة الأندلس؟ ومع ذلك حدثت تلك على مسمع الدول العربية والإسلامية فلم تثر لمحنتها أمة، ولم تتفق على نصرتها كلمة؛ وانقطع أنين الأندلس الشهيدة على فنون شتَّى من عذاب الجسم والروح، والمسلمون والعرب غافون من خدَر الذل والاستكانة لا يحفلون بالوجود ولا يشعرون بالزمن. فلو كان الألم وحده مغنياً في أيقاظ الشعور وتأليف القلوب وجمع الأيدي، لكانت هذه النكبة وحدها حرية بتوحيد الأشتات وبعث الأموات وتناصر الأخوة

أريد أن أقول أن هبَّة العرب والمسلمين لنجدة فلسطين إنما انبعثت عن حياة جديدة، كانت فلسطين مظهراً لها لا سبباً فيها؛ وهذا هو الأمر الخطير الذي ينبغي لخصومنا أن يحسبوا حسابه ويتدبروا عواقبه. فأن فلسطين نفسها ما كانت تستطيع بفقرها وقلتها أن تنازل اليهود وهم أغنى الشعوب، وتصاول الإنجليز وهم أقوى الدول، لولا هذه الحياة الجديدة. وصحوة العرب ليست كصحوة غيرهم من الأجناس، فقد صحوا صحوتهم الأولى فملكوا الأرض والسماء، وخلَفوا الرسل والأنبياء، وقادوا العقول والأهواء. ولا يدري إلا الله ماذا يفعلون في هذه الصحوة الأخرى

في الساعة الخامسة من مساء يوم الجمعة الماضي اجتمع في مؤتمر القاهرة البرلماني المغرب ومصر وفلسطين وسورية ولبنان واليمن والعراق وإيران والهند والصين ويوغسلافيا وعرب الهجر للدفاع عن فلسطين، فكان هذا الحشد الحاشد في لغة الحرب تعبئة عامة لقوَى العروبة والإسلام ذياداً عن جزء عزيز من أجزاء وطنهما الأكبر، دهمه المستعمر بالقوة، واقتحمه المستثمر بالحيلة، فوقف يدافعهما عن قُوته وعن سكنه، ولا وزَر إلا الحق، ولا عُدة إلا الصبر، ولا سبيل إلا التضحية. أجل عبأت العروبة قواها بعد أن سألت إنجلترا الحق فلم تعط، وناشدتها العدل فلم تجب، وأهابت بضمير الإنسانية في قاعة العصبة، ودار البرلمان، وإدارات الصحف، فلم تجد إلا طمعاً ختم على الأسماع، وهوى غشَّى على الأفئدة، وسياسة قامت على المقايضة والمقارضة بين القوى والقوى على حساب المخدوع والضعيف

لقد بلغت القضية الفلسطينية اليوم الحد الفصل، فهيهات يغني الجدال والمطال والخديعة. كانت فلسطين قبل هذا المؤتمر تجاهد العدو وحدها بالاستبسال والمصابرة، وأخواتها في الشرق والغرب لا يمدونها إلا بأسلحة العجز من كلام ودموع. فلما رأوا أن حقهم يميته القول، وباطل غيرهم يحيه الفعل، جمعوا أمرهم على الجد، وطووا قلوبهم على العمل، وقالت مصر على لسان نائبها وخطيبها الأستاذ علوبة باشا: (إن الحلال بيَّن والحرام بيَّن، ومن الخير أن تعمل الوزارة الإنجليزية على البت في مأساة طال أمده وتنوعت كوارثها، فإما اعتراف بحق المظلومين، وإما جنوح إلى باطل الصهيونيين). وقالت العراق بلسان نائبها مولود باشا مخلص: (إن السلام لا يمكن استقراره إلا بحل عادل لمشكلة فلسطين، وإن العراق مستعدة لأي عمل لإنقاذ فلسطين). وقالت سورية بلسان ممثلها وخطيبها الأستاذ فارس الخوري بك: (إن قيام دولة أجنبية بين نحر الأمة العربية وقلبها لا يوافق عليه العرب بحال من الأحوال. وفلسطين قلب العروبة حقاً، لأنها تتصل بمصر وشرق الأردن والعراق وشطرها الآخر سورية). وطلبت الهند إلى إنجلترا بلسان رئيس وفدها الأستاذ عبد الرحمن الصديقي أن تختار إما المسلمين وإما أعداء المسلمين. وقال: (إن ثمانين مليوناً من الهند على استعداد لأن يلبوا أول صوت يصدر عن القاهرة). وقالت سائر الأمم على ألسنة وفودها مثل هذا، فلم يبق لإنجلترا حليفةِ العربة والإسلام إلا أن توازن بين ذهب الصهيونيين، وصداقة العرب والمسلمين، وتنظر إليهما في كفة الميزان فتعلم أيهما أرجح وزناً في الحرب العالمية المقبلة، وأغلى قيمة في السوق الاقتصادية العامة، وأقوى أثراً في إقرار السلم في الشرق القريب والبعيد إن حياة إنجلترا في السلم، وشرفها في العدل، وسلطانها في الديمقراطية؛ وفلسطين

كانت منذ أنشأها الله بلاءً على المعتدي وشؤماً على الظالم. وقد التقى عندها الغرب والشرق مرة في عهد عمر، ومرة في عهد صلاح الدين، فكانت العاقبة في كلتا المرتين غروب الغرب وشروق الشرق، فهل يريد تشمبرلن رسول السلام ونصير الإنسانية أن يجمعهما على ثراها مرة ثالثه!

احمد حسن الزيات

فلسطين لا تقهر

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

كنا في حديث فلسطين يوماً، فأخذ بعضنا يصف ما يبدي الثوار من الجرأة، والذكاء، وسعة الحيلة، وحسن التدبير والحكمة، وروي في هذا المعرض قصصاً عجيبة، فهم بالقليل الموجود من السلاح القديم، يقاومون أمضى الأسلحة الحديثة، من طيارات، ودبابات، ومدافع جبلية، ومدافع رشاشة، وليس لهم سيارة واحدة يتنقلون بها، ولكنهم في كل مكان، ويصنعون القنابل بأيدهم، ويتخذون من أنابيب الماء فوهات مدافع، ويتخذون خطة الهجوم في كل حال، ويتولون الحكم بين الناس، ويقضون بالعدل، ويفضون المنازعات، ويطوون صفحات الخلافات والعداوات القديمة، ويدخلون المحاكم، وينحون قضاة الحكومة ويقضون هم فيما هناك، فينفذ أمرهم، ولا ينفذ أمر الحكومة، ويشيرون باتخاذ (العقال) بدلاً من الطربوش أو غيره من ألبسة الرأس، فإذا هو على رأس كل عربي من أبناء البلاد، ولو كان يصطاف في مصر أوسورية. وقد زالت هيبة الحكومة؛ وكفت (محاكم الصلح) عن العمل إلا في مدن أربع ليس إلا، وصارت الحكومة الحقيقة هي حكومة الثوار.

وقال أحد اللذين كانوا في المجلس: (إن هذا العجيب! ولا شك أن بين الثوار كثيرين من المثقفين والمتعلمين؛ ولكن السواد الأعظم أقرب إلى السذاجة والفطرة، فكيف تيسر كل هذا لهم؟)

فلم يسعني إلا أن أقول: (إنهم يعملون بوحي الفطرة المستقيمة. وليس عجيباً أن يحسنوا التدبير، ويحكموا الخطط، ويضبطوا الأمر، ويظهروا ذكاء واقتداراً. وهل كان عمر بن الخطاب، وخالد بين الوليد، وعمر بن العاص، ومعاوية وإضرابهم من خريجي كمبرج، وسان سير، ومن حملة البكالوريوس والماجستير والدكتوراه؟ أريد أن أقول إننا لا نتعجب لما ظهر من مواهب العرب بعد ظهور الإسلام، وما كان من تغلبهم على دولتين كبيرتين في ذلك العهد، وفي آن معاً، فلا محل إذن للتعجب لما قدرت عليه ثورة العرب في فلسطين حيال دولة كبرى شاكية مستعدة)

والواقع أن فلسطين لم يعد في الإمكان قهرها وإرغامها على قبول ما لا تقبل. ولقد أستفزها إلى هذه الثورة المجيدة ظلم أريد بها ولا مثيل له في التاريخ، على الأقل فيما أعرف أنا.

ويجب أن نذكر أن العرب كانوا حلفاء لبريطانيا وزميلاتها في الحرب العظمى، وقد خرجوا على دولة الخلافة يومئذ، وهي دولتهم، وأكثرهم مسلمون، بل كان الثائرون على السلطة العثمانية، الملتحقون بجيش الثورة العربية، من المسلمين.

فعلوا ذلك لأنهم طلبوا الحرية، ونزعوا إلى الاستقلال. وقد عرفت بريطانيا هذا، ورضيت به، وشجعتهم عليه، ووعدتهم بتحقيقه؛ ولو كانوا يعلمون أنهم سيصيبهم ما أصابهم لما ثاروا، إذ لا خير ولا معنى لاستبدال نير بنير

وهذا الجيش العربي هو الذي أعان على فتح فلسطين وسورية، وسلخ البلاد العربية كلها من السلطة العثمانية. وكان جيش بريطانيا يدخل بلداً بعد بلد، فيجد الأمور ممهدة، ويقابل بالترحيب والحفاوة، لأنه حليف العرب. فماذا كان جزاء العرب؟ مزقت بلادهم كل ممزق، وأخلفت الوعود كلها، فلم ينجز الحلفاء للعرب منا واحداً. وما استقلت العراق إلا بثورة، ولا عقدت المحالفة السورية إلا بثورة بل ثورات، ومع ذلك لا تزال معلقة لا يعرف مآلها أحد. أما فلسطين فكان خطبها أدهى، فما أكتف بريطانيا بالأنتداب، بل رمتها بشعب غريب فتحت له الثغور وقالت له أدخل، واستول على البلاد، وأقم لك فيها دولة، واتخذ منها وطناً. وما كانت البلاد بغير أهل حتى تفعل بريطانيا ذلك، ولا هي بالأرض الواسعة الرقعة، العظيمة الخصب، حتى تتحمل هذا السيل من المهاجرين إليها. وإن اليهود لمضطهدون في أنحاء شتى من الأرض، ولكن ما ذنب فلسطين؟ ومن تهكم الحوادث وسخر الأقدار أن ترمي بالهجرة اليهودية

والوطن القومي الصهيوني البلاد العربية التي نعم اليهود في ظل دولتها بالعدل والعطف والحرية كما لم ينعموا في ظل دولة أخرى، فقد كنوا في الأمم الأخرى مضطهدين محقرين، وكان البريطانيون أنفسهم في القرون الوسطى يعدونهم أنجاساً منبوذين. ونحسب أن اليهود يقرءون روايات وولتر سكوت!.

فإذا كان الشعب الفلسطيني قد ثار، فله العذر؛ وإذا كان على قلة عدده وانقطاع المدد عنه، قد راع الدنيا بثورته الجليلة فلا عجب، فأنه يدافع عن حقله وبيته بأدق المعاني العرفية للفظ الدفاع عن الحوزة، فإن بيته ينسف بالديناميت فيتشرد هو وأبناؤه ونسائه في الجبال الجرداء، والسهول الخصبة التي يملكها تقتطع وتوهب للدولة الصهيونية، فماذا يصنع هذا

الشعب غير أن يثور؟ وماذا يسعه، وقد ثار، إلا أن يستبسل ويستميت؟ إنه موت بموت، فالموت مع الشرف وبعد الدفاع الكريم إلى الرمق الأخير، أولى من الموت جوعاً في جبال عارية لا ماء فيها ولا شجر، هي التي يراد طرد العرب إليها لإنشاء الدولة الصهيونية

يضاف إلى هذا أن الغدر الفظيع الذي تنطوي عليه هذه السياسة، بشعب كان من أقوى الأعوان لبريطانيا في الحرب العظمى، وأخلصهم لها، يضاعف عزم الثوار، ويجعلهم أقوى وأجرأ

ومن الجلي أن سياسة الوطن القومي على حساب العرب قد أخفقت، وأن إنشاء دولة صهيونية في فلسطين قد أرتد إلى عالم الخيال الذي لا محل له في عالم الحقائق.

ومن الواضح الآن أن على بريطانيا إذا أرادت إمضاء العزم على تقسيم البلاد وإقامة دولة للصهيونية فيها، أن تجيش الجيوش وتسير الأساطيل لتفتح فلسطين عنوة، فما يكفي كل مالها هناك الآن من قوة وعتاد. وأوضح من ذلك كله وأجلى حقيقتان أخريان، فأما الأولى فتلك أن ثورة فلسطين - وهي أعدل ثورة قامت في الدنيا وأروع ما شهد العالم من مثيلاتها - قد جمعت قلوب العرب في الأقطار جميعاً وألفت بينها، فهم الآن أمة واحدة وإن كانت دولهم كثرا، وعلى بريطانيا أن تختار صداقة هذه الأمة أو عداوتها، وعليها أن تقيس قدرة العرب جميعاً إلى قدرة فلسطين وحدها ونعتقد أنها تؤثر صداقة العرب ولا تجازف بعداوتهم ولا سيما أنه ليس لها باعث من مصالحها الخاصة الحيوية على اختيار خطة العداء. والعرب يقولون الآن لبريطانيا كما قال أبن الرومي

أمامك فأنظر، أي نهجيك تنهج ... طريقان شتى، مستقيم، وأعوج

والمستقيم أولى، وهو الذي سيكون إذا كان علمنا بالإنجليز ليس كله خطأ.

والحقيقة الأخرى أن بريطانيا لا تخدم اليهود بهذه السياسة، وإنما تثير عليهم نقمة العالم العربي والعالم والإسلامي، وهم أمة لا ينقصها أن يزيد كارهوها. ونحسب أن اليهود قد بدءوا يدركون هذا، ويفطنون إلى أن السياسة الصهيونية تورثهم عداء هم في أشد الغنى عنه.

إبراهيم عبد القادر المازني

أشرق الأمل يا فلسطين!

للأستاذ علي حيدر الركابي

لقد قضيت عمري تائهاً في صحراء الحياة، أرى العواصف الهوجاء تهب حولي حتى تكاد تطمرني فأسير وأنا واقف في أرضي، وأرنو إلى الأفق البعيد أنشد فيه خيال واحة أستظل بظلالها وأرتوي بمياهها، فإذا بالأمل قد خاب، وإذا بالسراب قد تلاشى وانكشف عن فقار تمتد إلى اللانهاية لا أدري إلى أين المصير

وقد قضيت عمري غريقاً في بحر الحياة اللجب، تقاذفتني أمواجه الملتجة حتى كادت، تغرقني فكنت لا أتقدم خطوة نحو شاطئ النجاة إلا أبعدتني عنه خطوات؛ وكانت الأمواج ترفعني تارة فيخيل إلي أني قد بلغت مثلي الأسمى؛ ثم تسخر بي وتضحك ملء شدقيها وتفتح فاها المخيف وتجذبني إلى أعماق جوفها وكأنها تريد ابتلاعي، فأشعر أن قد دنا أجلي وأصيح وأستغيث ولكن لا ملبي لندائي ولا مغيث

وقد قضيت عمري هائماً في ليل الحياة المظلم وقد خيم سواده على كل مخلوق فحجب عني الحقيقة، وضللت الطريق ورحت أخترق حجب الظلام ببصري عله يقع على قبس من نور ولو ضئيلاً أهتدي به. ولكن الجهد كاد يفقد عيني بصرها فسرت وأنا

كالأعمى أتخبط في دياجير الظلام بلا هدف ولا أمل
وقد صعدت قمة الهرم الكبير، وأجلت الطرف حولي، ثم انحدرت إلى الوادي السعيد فلم أعثر على منقذي، بل عثرت على نفوس فقيرة حقيرة أضعفتها الجيوب المنتفخة، وضربت حولها أسواراً من الذهب الوهاج، وأقامت لها داخل هذه الأسوار عروشاً من الماس فاستوت عليها قانعة شاكرة، وعثرت إلى جانب هذه النفوس الفقيرة الحقيرة على نفوس غنية كبيرة قد نمتها يد البؤس والشقاء حصرتها في أسوار من الإملاق، فلما عجزت من تحطيمها أو اجتيازها خضعت للأمر الواقع واستسلمت للأوهام تستمد منها حرية تستعيض بها عن حرية الحقيقة. فيئست من النفوس الفقيرة وبكيت على النفوس الغنية وغادرت الوادي السعيد وهرمه العظيم بقلب مفجوع وأمل خائب
وقد تبعت طريق بني إسرائيل لما خرجوا من مصر فقطعت صحراء التيه ثم وقفت على جبل الطور وتوجهت بناظري إلى الشرق فنفذ بي من أعماق الغور الأعظم إلى أفق أسود
قاتم تتدلى في سمائه الغيوم الباكية، ولاح لي شعاع من ذلك الأفق الممتد وراء الأردن فرقصت طرباً وخلت أنه النور الذي سيهديني، ولكني ما لبثت أن أدرك أنه برق بدأ لحظة ثم أختفي وتلته رعود قاصفة تنذر بدنو العاصفة، فحولت بصري عن الشرق وأخذت أجيله في الجهات الأخرى عساي أحظى بضالتي المنشودة. إلا أني ما رأيت سوى القتلى في كل مكان قد صُرع كل واحد منهم بسهام ثلاثة خرجت من أقواس لثلاثة صيادين: أولهم صوبها بنفسه معتمداً على مهارته معتزاً؛ بقوته والثاني ضعيف لم يقو على شد القوس فأستأجر بدراهمه الكثيرة من يقوم مقامه من الرماة الماهرين؛ أما الثالث فقد كان يسعى ويجد حتى لا يخطئ قلب أخيه المغدور، يفعل ذلك طمعاً في اكتساب رضاء الأول والحصول على دراهم الثاني، فعريت صدري للسهام المتناثرة كي يصيبني أحدها فيضع حداً لحياة قد فقدت معناها وضلت هدفها إلا أن السهام أخطأتني ولم تفرج كربتي فغادرت الطور شقياً هائماً على وجهي
وقد انتقلت إلى جنة الله على الأرض وأطلقت روحي في الهواء فصاحت الطير وحلقت معه في الفضاء الواسع بين الجبل الأشم والسهل الخصيب، تغرد معه على الأغصان، وتصغي معه إلى قيثارة الغدير. ولما عادت هذه الروح إلى جسدي أنبأتني بما فهمته من الطير والغصن والغدير؛ فقالت: إن الطير تبكي ولا تغرد، وإن الغصن قد قوسته الأحزان، وأن الغدير يرسل زفرة الكليم، وذلك لأن هذه المخلوقات قد أرسلها خالقها هدية إلى قوم لم يقدروا قيمتها ولم يفهموا معناها، إذ أنهم استعاضوا عن المهدي وهديته بأصنام من صنعهم شيدوا لها الهياكل والمعابد وراحوا يحرقون أمامها البخور ويقدمون لها الضحايا؛ فلو عاد محمد صلى الله عليه وسلم نفسه لتحطيمها للاقى منهم ما لاقاه من قريش. فقلت: يا للمصيبة، وغادرت الديار غير آسف وتوجهت نحو الصحراء الشرقية يدفعني الألم مما خلفت ورائي والأمل بما استقبلت أمامي.
وقد جلست في قارب صغير وهمست في أذن النهر العظيم قائلاً: (أنك تحمل في طياتك تجارب آلاف السنين، وأخبار مئات الأقوام، وقد مَرْ فرعاك بأقصى البلاد وأدناها فبالله حدثني) فلم أحظ منه بجواب لأنه كان نائماً فرفعت صوتي وكررت الطلب ففتح إحدى عينيه ثم الأخرى ثم تثاءب وأعقب ذلك ضحكة أهتز لها صدره حتى كاد قاربي ينقلب ثم
قال: (إني لمرتاح، وإني لمسرور كما ترى. فقد مرت عشرات السنين وأنا أشقُ طريقي إلى البحر بكل حرية فلا يعترضني أحد ولا يُنقص من مادتي شيئاً) فثرت على هذا الكسل وصحت: (ولكن هذه الحرية المزعومة إن أرضتك فقد أشقت التربة الصالحة وقلبتها صحراء قاحلة حتى مدَّ الجوع يده إلى ألف ألف بيت). فضحك مرة أخرى وقال: (رويدك يا صاح! وما شأني أنا؟ ولِمَ تلومني؟ نعم أنا مرتاح إلى هذه النتيجة إلا أني لم أكن سبباً في وقوعها. . .) ثم أغمض عينيه وعاد إلى سباته العميق وتركني وحيداً وسط الخضم أنادي فلا أجد من يلبي وأصيح فلا أسمع سوى صدى صيحتي الضائعة.
ولما خاب كل أمل لي في النجاة وأيقنت أني سأبقى تائهاً في الصحراء بلا دليل، وغارقاً في اللجة بلا منقذ، وضالاً في الظلام بلا نور هادي، ولما تسرب اليأس إلى قلبي فإذا بي أرى العاصفة قد سكنت، وإذا بيد بيضاء تمتد لانتشالي، وإذا بالشمس الضاحكة

تضيء ما حولي، وإذا بحياتي قد ملئ فراغها بالأمل لأن نفسي قد اهتدت أخيراً إلى الطريق الذي يوصلها إلى الغاية. فمن هو هذا المحسن العظيم الذي فعل ما عجز عنه غيره؟ من هو هذا الإنسان الذي استطاع أن ينفخ في قلبي القانط روح الأمل ببني الإنسان؟ وما الذي قام به هذا الشخص حتى أعاد لنفسي شيئاً من ثقتها بالبشر؟ إنه طالب عراقي فقير أصغر مني سناً وأقل علماً، ولكنه مع ذلك قد لقنني - وهو التلميذ وأنا الأستاذ - درساً بليغاً في الخلق السامي والتضحية النادرة.

تعاقب خطباء المدرسة على المنبر فهزوه هزاً وبُحَّت حناجرهم وكلهم ينادي (فلسطين! فلسطين!) واحمرت الأكف من التصفيق وهي تقول بلغتها العجيبة (لبيك! لبيك!) ثم انقضى دور الدعاية والكلام وحل محله دور العمل والإغاثة الفعلية فاشتد الحماس وجاء الطلاب الريفيون الفقراء بالمال إعانة لمنكوبي فلسطين وبذلوا بذلاً وقف دونه من هو أوفر منهم مالاً. وفي وسط هذا الحشد الثائر جلس الطالب حكمة عبد العزيز يفكر؛ فإن قلبه مملوء أيماناً بالله ونبيه أولاً، ثم بلزوم إعانة فلسطين وهو لا يملك فلساً فما العمل؟ ولكنه تردُّدُ لحظة لا أكثر اندفع على أثرها إلى المنبر وأخذ ينزع ملابسه حتى عرى جسده إلا مما يستر عورته وهو يعلن بصوت خرج من أعماق قلبه أنه لا يملك ما يتبرع به غير هذه الملابس (وأنا أعلم - والله يشهد - أنه معوز) فلتبع على قِدَمِها وليخصص ثمنها لإغاثة

سكان الأراضي المقدسة. وما كاد يتم كلامه حتى دوى المكان بالتصفيق واهتزت الجدران بالهتاف العالي المتواصل. وعرضت ملابسة للبيع فتنافس الجميع في شرائها كل يريد أن ينفرد بشرف الحصول عليها حتى بلغت قيمتها حداً عظيماً. وأراد الشاري أن يعيد الملابس إلى صاحبها بعد أن تم المقصد من تقديمها ولكن هذا أبى ذلك بشدة واعتبر هذا العمل إهانة له. وبعد ملابس حكمة أمطر الطلاب المنبر بوابل من أشيائهم الخاصة طالبين بيعها فهذا قدم قلمه السيال وذاك محفظته وثالث ساعته ورابع نظارته وهلم جرا.

هذا ما قام به طالب عراقي فقير من الأرياف، وهو عمل قد يعتبره بعض الناس عادياً، ولكن المتعمق لا يسعه إلا أن يعجب به ويمجده ويبني عليه الآمال العظام لأننا نعيش الآن في عصر شمل فيه الانحلال كل شيء حتى بات العمل الصالح نادراً يجب التمسك به وإعلانه إلى الملأ عند العثور عليه.

فاهنأ بعيشك يا حكمة فأن أمة فيها شاب مثلك لن يكتب لها أن تموت، وإن شعباً فيه روح مثل روحك هو شعب حي سيسود رغم كيد العدوين: الأجنبي المستعمر والوطني الخائن. سر في طريقك على بركات الله ولا تجزع، فأن كنت قليل المال أو معدومة فإنك غني النفس، وقد استطعت بهذا الغنى أن تقدم لفلسطين مساعدة مادية، وأن تضرب للشباب مثلاً سامياً في التضحية، كما أعدت إلى اليائسين أمثالي ثقتهم بشباب هذا الجيل - وكل ذلك وقف دون تحقيقه من هم أغنى منك مالاً لأنهم أصغر منك قلباً وأحقر نفساً، نم مرتاح الفؤاد يا حكمة فأن قصتك ستبقى خالدة على الدهر يستنير بها الشباب ويتخذونها شعاراً حياً يرمز إلى كل ما في كلمة (جهاد) من معنى.

وأنت يا فلسطين، ماذا أقول وكل حرف من أسمك المطهر يفجر قلبي نبعاً جديداً من الأسى؟ أأرثي لحظك المنكود أم أرثي أرضك التي لم تراعَ حرمه لقدسيتها؟ أم أنوح على مئات الضحايا تقدمينها كل فجر على مذبح الشرف والحرية؟ أم هل أشق الفضاء بصيحات أندب فيها قراك الخربة ومنازلك المتهدمة وحقك المسلوب؟ كلا والله ليس البكاء والعويل بمنقذك.

أي أندلسنا الجيدة: إن أبناء الأندلس القديمة لم يبخلوا بالندب والنواح والاستغاثة والصياح، ولكنهم مع ذلك خسروا بلادهم واخرجوا عن دينهم لأنهم اكتفوا بأنات الألم واستسلموا

لليأس وسلموا قيادهم من يجهل معنى الإخلاص. أما أنت فقد خرجت الآن من دور البكاء والاستسلام والتسليم، وما عادت تجوز عليك خدع المتزعمين من أبنائك طلاب السلطة والمال، وقد دخلت أخيراً في دور الجهاد المبارك الذي أعلنه المخلصون من أبنائك البررة - أبناء الشعب السذج ذوي الأيمان القوي والعقيدة الراسخة والأرض المسلوبة.

فجاهدي وناضلي يا فلسطين واعلمي أنك قطعة ثمينة من الوطن الأكبر الذي لا يزال

فيه بقية من الخلق الذي كان يتحلى به فتيان محمد (ص) الأولين. وهذه البقية الباقية إن كانت ضئيلة اليوم فلن تبقى ضئيلة إلى الأبد فإنها والله لكالجمرة التي خلفتها النيران في الرماد وظن الناس أنها منطفئة، حتى إذا ما هبت العاصفة أطارت الرماد وعرّت الجمرة ونفخت فيها الحياة فاحمرت ثم اندلعت منها ألسنة اللهيب واتصلت بما حولها وتوسعت دائرة الاشتعال حتى أصبح إخمادها في حكم المستحيل. وهاهي ذي عواصف الاضطهاد والإرهاق تكتنفنا من كل جانب وهي كفيلة بإذكاء نار الحمية فينا وإعادة ذلك العهد الذي دُكت فيه عروش الأكاسرة والقياصرة على يد فئة قليلة يقوها بدوي أمي خرج من قلب الصحراء المقفرة.

وهذا الأمل الجديد الذي أبشرك به يا فلسطين لقد ولده في قلبي عمل حكمة أحد فتيان محمد (ص). فأرسلي ناظريك إلى ما وراء الصحراء وترقبي - مثلي - خروج القائد المنتظر في بلاد (حكمة) ومن جيل حكمة.

(بغداد - دار المعلمين الريفية)

علي حيدر الركابي

في مصر الإسلامية

تنازع البقاء بين العلوية والعثمانية

للدكتور حسن إبراهيم حسن

الأستاذ بكلية الآداب

كان من العوامل الخارجية التي نازعت سلطان العلويين في مصر وجود حزب الأمويين في الشام، وعلى رأسه معاوية ابن أبي سفيان الذي أخذ يعمل على سلخ مصر من علي بن أبي طالب. وسار معاوية إلى هذه البلاد ونزل بسلْمنْت من كورة عين شمس (في شوال 36 هـ)، فخرج إليه ابن أبي حذيفة وأنصاره ليمنعوه، فبعث إليه معاوية يخبره أنه لا يريد قتالاً وإنما يريد أن يدفع إليه رؤوس قتلة عثمان، فأبى ذلك عليه، فبعث معاوية يطلب إليه تبادل الرهائن والودائع، كي يضمنوا جميعاً أن يكف الفريقان عن الحرب، فقبل ذلك ابن أبي حذيفة.

ولعل ابن أبي حذيفة لم يفطن إلى ما كان يرمي إليه معاوية، وأن هذا الطلب لم يكن في حقيقة الأمر إلا مكيدة حاك شراكها دهاؤه، فاستخلف على مصر رجلا من أنصاره، وهو الحكم بن الصلت، وخرج في الرهن هو وغيره من قتلة عثمان، ثم سجنهم معاوية في (لدّ) من أرض فلسطين، وسار إلى دمشق، فهربوا من سجنهم، إلا واحداً أبى الفرار، فتعقبهم عامل معاوية وقتلهم، وكان من بين القتلى محمد بن أبي حذيفة. (ذو الحجة 36 هـ) وذلك بعد مقتل عثمان بسنة كاملة

ولسنا ندري كيف يعلل خروج أبي حذيفة، وهو رأس شيعة عليّ في مصر وغيره من أنصار العلويين وزجه بنفسه في مغامر هذا الرهن. بيد أن المصدر التاريخي الذي نعوّل عليه في هذه المسألة وهو كتاب (الولاة) للكندي (350 هـ) أقدم مؤرخي مصر بعد ابن عبد الحكم (وعنه أخذ غيره من المؤرخين المتأخرين، وأهمهم ابن دقماق والمقريزي وأبو المحاسن والسيوطي) لم يذكر لنا السبب الذي حدا بابن أبي حذيفة وأنصاره إلى الذهاب في الرهن، بل ولم تذكر المراجع كلمة واحدة عن رجال معاوية الذين دخلوا في هذا الرهن، الذي لم يكن في حقيقة الأمر - إن كان قد وجد فعلاً - على قدم المساواة بين الفريقين المتخاصمين.

وقد يكون معاوية رأى أنه مع استطاعته فتح مصر أن الوقت لم يحن بعد لهذا الأمر، إذ لا بد له من الاحتفاظ بقوة كبيرة لمنع مناوأة العلويين، لأن جميع أهل مصر بايعوا ابن أبي حذيفة إلا نفراً يسيراً انتصروا لعثمان، فعول معاوية على استئصال شافة رءوس قتلة عثمان ليتمكن من حرب علي ثم يستولي على مصر متى تهيأت له الفرصة بعد أن يوقع بجيش علي.

وبعيد جداً أن يكون ابن أبي حذيفة قد اضطر إلى قبول طلب معاوية، لأن الرجل لم يبال بخصمه. يدلل على ذلك أن معاوية لماّ بعث إلى ابن أبي حذيفة يطلب منه أن يدفع إليه عبد الرحمن بن عديس وكنانة بن بشر وهما رأس قتلة عثمان امتنع ابن أبي حذيفة وقال: لو طلبت منا جدياً رطب السرة بعثمان ما دفعناه إليك) وهذا يحملنا على الظن بأن معاوية لجأ إلى هذه الحيلة حين لم تجد جهوده الحربية مع ابن أبي حذيفة

نفعاً.
ولما بلغ علياً قتلُ أبن أبي حذيفة ولى مصر قيس أبن عبادة الأنصاري، فدخلها في ربيع الأول 37 هـ، وكان من أهل الرأي والبأس، واستمال إليه العثمانية المقيمين بخُرْبتا (شرقي الدلتا) وأحسن إليهم، وكان أهل مصر إلا هؤلاء (وعددهم زهاء عشرة آلاف) مع عليّ بن أبي طالب.
وقد حاول معاوية وعمرو بن العاص التغلب على مصر، فأمتنع قيس هذا على معاوية، فلم يكن بدٌ إذاً من إعمال الحيلة لإخراجه، فأذاع معاوية أن قيساً من شيعة عثمان وأن كتبه تأتيه. فلما سمع عليّ بذلك، أمر قيساً بمحاربة العثمانيين بخربنا، فأجابه بأنه أمّنَهم على أنفسهم ليأمن جانبهم، لأن فيهم كثيرين من وجوه أهل مصر وأشرافهم، فعزله عليّ ووليّ مكانه الأشتر بن مالك لأنه ثقل عليه، فأبعده عنه.
على أن والي مصر الجديد لم يكد يصل الفلزم (وهي السويس الحالية) حتى شرب شربة من العسل لا يبعد أن يكون قد دُس له فيها السمْ فمات، فولى مصر بعده محمد بن أبي بكر، فأظهر الخيلاء وأساء إلى العثمانية، وبعث إلى رأسهم معاوية بن حُدَيْج يدعوه إلى بيعة عليّ، فلم يجبه إلى طلبه، فهدم دورهم، ونهب أموالهم، وآذى أولادهم، وحبسهم؛ فعوّلوا على حربه، ولكن أبن أبي بكر رأى أن يتلافى ما قد يجرّه الاشتباك في حرب معهم
فصالحهم، ثم سيرهم إلى معاوية فبقوا هناك إلى أن انتهت موقعة صفين وعقدة التحكيم.
ولم يكن معاوية بالذي يَفْتُر عن استخلاص مصر وانتزاعها من علي. وزحف عمرو بن العاص على رأس جيش من أهل الشام، وحَميَ القتال بين الفريقين، فوقعت الهزيمة على أهل مصر، ودخل عمرو الفسطاط واختفى محمد بن أبي بكر، فبعث معاويةُ بنُ حديج عدوُّه القديم العيون والأرصاد، حتى اهتدوا إلى مكانه، فقتله أبنُ حديج ثم جعله في جيفة حمار، واحرقه بالنار وكان ذلك في صفر سنة 38 هـ.
وبذلك خلصت مصر لمعاوية، فولاها عمرو بن العاص ولاية مطلقة، وجعلها له طعمة بعد النفقة على جندها، وما تحتاج إليه من ضروب الإصلاح. ولما قتل عليّ بن أبي طالب سنة 40 هـ، وتحولت الخلافة إلى بني أمية، أصبحت الأجناد وأهل الشوكة في مصر شيعة عثمان، بيد أن بقية المصريين ظلّوا يشايعون على بن أبي طالب وأهل بيته، فظل العداء قائماً بين الحزبين في هذه البلاد (وفي غيرها) طوال عهد الأمويين، وفي الصدر الأول من أيام العباسيين.
حسن إبراهيم حسن
من مشاكل التاريخ
مكتبة الإسكندرية
تأسيسها ورواية إحراقها
للأستاذ خليل جمعة الطوال
تنزع بعض الأقلام عن جادة الصواب إلى هوة التغرض والتشيع، وتساق إليها بتهور عاطفة أصحابها، وانحيازهم معها إذا يكتبون مائلين إلى الناحية التي تكمن فيها أغراضهم الذاتية، وأهوائهم القومية والعنصرية. والعلم متى اصطبغ بالتشيع، وتلون بالتغرض، ومال حيث تميل العاطفة، فسد وصار باطلاً مفتعلاً، وهراء مبتذلاً. ومن نكبة العلم أن تقوم فئة من المؤرخين المتشيعين، فتعلن عدائها للعرب، وتروح بدافع هذه العداوة تشوه وجه تاريخهم المشرق بشتى الوسائل والسبل؛ آناً بالوضع والاختلاق، وحيناً بسوء التفسير والتأويل، حتى نفثت فيه من سمومها كل ما ينتقص جليل قدرهم، وينال جميل سمعتهم، ويضع من عالي مكانتهم، وذلك شفاء لغيظ نفوسها، وإطفاء لحزازات صدورها. ومن هذه السموم والأباطيل ما يروج له بعضهم من أن الفاروق هو الذي أمر بإحراق خزانة الإسكندرية على حين قد أثبت المنصفون إنها قد أحرقت قبل الفتح الإسلامي
تأسيس هذه المكتبة
لم يكد الإسكندر المقدوني يعبر البحر إلى أسيا، ويمعن في أقطارها فتحاً واستعماراً، ويستولي فيها على إرث ملوك الفراعنة والبابليين والآشوريين والفرس، حتى أخذ يستفيد من حضارات ومدنيات وعلوم وآداب هذه الأمم المغلوبة على أمرها، فسعى

في نقل ما في خزائنها إلى اللسان اليوناني والقبطي وأرسله إلى مصر. فقد ذكر أبن النديم في كتابه الفهرست ص 329 ما نصه: (أن الإسكندر لما فتح عاصمة الفرس (أصطخر) نسخ جميع ما في خزائنها من الكتب إلى اللسان اليوناني والقبطي، وبعث بها وبسائر ما أصاب من العلوم والأموال والخزائن والعلماء إلى مصر)

وفي عام 323 ق. م. توفي الإسكندر فكأنما كان موته ريحاً زعزعاً، بدد شمل تلك الإمبراطورية التي أقام بنيانها، وأسس دعائمها، إذ اقتسمها قواده من بعده، فأختل النظام،

واضطرب حبل الأمور، وعمت الفوضى وكثرت المظالم، فرحل معظم علماء اليونان عن بلادهم إلى مصر والشام والعراق، حاملين معهم نتائج قرائحم، وخصب عقولهم، فأنشئوا المدارس في الإسكندرية وإنطاكية وبيروت، وكانت الإسكندرية إذ ذاك تحت حكم البطالسة، وكان سوتر أول ملوكهم عادلاً محباً للعلم والعلماء، فتوجهت إليها الأنظار، وتوافدت عليها العلماء والأدباء والفلاسفة، أفواجاً أفواجاً، حتى غصت بهم مدارسها ودورها وأنديتها. فتقرب إليهم سوتر، وأدناهم من بلاطه، وأغدق عليهم منحه عطاياه، فكان ذلك مشجعاً لهم على مواصلة البحث والدرس والتأليف، فأصبحت الإسكندرية بفضل سياسته قبلة المتأدبين، ومثابة العلماء يحجون إليها من مختلف الأقطار، ويجدون فيها من أسباب اليسر والرخاء ما ينصرفون معه إلى مواصلة دروسهم والانقطاع إليها

ويروي لنا التاريخ أن خطيباً أثينياً أسمه ديمتريوس فاليروس كان قد أشار على سوتر بإنشاء مكتبة يجمع إليها الكتب من مختلف أنحاء الدنيا، فقبل مشورته، وعهد إليه بذلك، فأخذ فاليروس يجمع الكتب ويبتاعها من تجار بغالي الأثمان، فجمع منها في مدة وجيزة (54 ألف كتاب)، فكون منها مكتبة الإسكندرية الشهيرة التي عبثت بها الأيام فيما عبثت، وقد كانت تحتوي على الكتب التي بعث بها الإسكندر من اصطخر وغيرها إلى مصر، ثم أنشأ سوتر المتحف أو النادي على شكل مدارس أوربا، ويعرف في التاريخ باسم مدرسة الإسكندرية الشهيرة

وفي عام 285 ق. م. تولى عرش البطالسة بطلوماوس فيلاذلفوس، وكان كسلفه محباً للعلم مشجعاً له، فعمل على توسيع هذه المكتبة، وأضاف لها من كتب علوم اليونان وغيرهم ما لم يكن موجوداً فيها، وابتاع لها الكتب التي كانت موجودة عند أرسطو، وكثيراً من مؤلفات اليهود والمصريين القدماء

ومن المؤرخين من ينسب فكرة تأسيس هذه المكتبة إلى بطلوماوس لا إلى سوتر، فقد ذكر أبن النديم في كتابه الفهرست ص 239 رواية عن إنشاء هذه المكتبة لرجل يدعى اسحق الراهب وإليك نصها: (إن بطلوماوس فيلاذلفوس من ملوك الإسكندرية لما ملك فحص عن كتب العلم وولى أمرها رجلاً يدعى بذميرة فجمع من ذلك على ما حكي أربعة وخمسين ألف كتاب ومائة وعشرين كتاباً، وقال له: أيها الملك قد بقي في الدنيا شيء كثير في السند

(والهند وفارس وجرجان والأرمان وبابل والموصل وعند الروم

وفي دار الكتب المصرية نسخة خطية من كتاب تراجم الحكماء لوزير حلب المعروف بالقفطي، وتحتوي على نفس عبارة الفهرست عن تاريخ هذه المكتبة ومؤسسها. على أن الثابت من إجماع آراء المؤرخين والمستشرقين هو أن المؤسس لهذه المكتبة هو سوتر لا بطلوماوس، فقد جاء هذا فعمل على توسيعها، ثم خلفه بطليموس أورجينوس عام 247 ق. م. فأضاف إليها كثيراً من كتب الأدب والشعر والتمثيل مما وجده في خزائن أثينا. ويروى أنه فرض على كل من يقيم في الإسكندرية أو يمر بها من رجال العلم أن يقدم للمكتبة نسخة من كل كتاب يملكه، فزهت الإسكندرية بذلك ونبغ فيها من العلماء عدد كبير

وما زال أمر هذه المكتبة في تقدم مطرد وازدياد عظيم، فقد ذكر بطلر نقلاً عن أميانوس مارسلينوس أنها بلغت سبعمائة ألف مجلد. وذكر العالم أكبر سيم أنها قد قسمت إلى شطرين ووضع الشطر الثاني منها في معبد سيرابيس

وفي عام 47 ق. م. حوصر (يوليوس) قيصر الروم بالإسكندرية فأحرقت جنوده قسماً من هذه المكتبة عن غير قصد

ولما تولى الإمبراطور تودوسيوس أصدر أمراً بتحريض جماعة من المتعصبين

للمسيحية بالقضاء على جميع المعابد الوثنية وجعل عاليها سافلها فنال هذه المكتبة العظيمة من جراء ذلك ضرر جسيم
وفي عهد الإمبراطور طيودوس منعت الآداب والفلسفة اليونانية منعاً تاماً بأمر الأسقف تيوفيل، وبأمره أيضاً دمرت السيرابيوم عام 391 م. وبنى على أنقاضها كنيسة أو جملة كنائس ولم يبق من هذه الدار إلا بعض الجدران، كما ذكر سيديو (ج 1 ص 155)، وذكر أيضاً أن الكتب الوثنية التي كانت بالسيرابيوم قد أحرقت كلها، وأما الكتب العلمية فإنها حملت إلى القسطنطينية ثم تطاولت الأيدي إلى هيكل (سرابيس) فدمرته وأحرقته في الحال هو وجميع محتوياته والكتب التي كانت فيه.
وهكذا تكون هذه المكتبة قد دمرت وأحرقت غير مرة بأمر قياصرة وبطارقة الروم. وقد تلاشت قبل الفتح الإسلامي بمدة طويلة. ومن المؤرخين من يزعم أنها أحرقت دفعة واحدة، فقد ذكر بطلر نقلاً عن (مبالوس مارسلينوس) أن السبعمائة ألف مجلد التي كانت تحتوي
عليها مكتبة الإسكندرية قد أتلفت إتلافاً تاماً حين حوصر يوليوس بالإسكندرية.
ومهما يكن من أمر الخلاف حول عدد مرات حريق هذه المكتبة العظيمة فأن الآراء جميعها متفقة على أنها قد تلاشت قبل الفتح الإسلامي بقرنين، وإنه لم يكن في الإسكندرية حين الفتح العربي ما يحرق من الكتب.
وحوالي عام 414 م. زار أورازيوس الإسكندرية وذكر إنه وجد رفوف هذه المكتبة خالية من الكتب، وفي ذلك أكبر دليل على تبرئة العرب من هذه التهمة الشنيعة التي حملت عليهم زوراً.
شهادات المستشرقين
ونود بعد الذي فصلناه في هذه الكلمة العجلى أن ندلي بشهادات بعض المحققين المستشرقين في الموضوع:
قال مسبرك في كتابه (الادعاءات الكاذبة): (إن الإفرنج هم الذين أحرقوا خزانة الإسكندرية). وقال بونه موري في كتابه الإسلام والنصرانية نقلاً عن فوت واهلويلر في كتابهما (جنايات الأوربيين) إن تيوفيل هو الذي أحرق خزانة الإسكندرية لا المسلمين، لأن الدين الإسلامي لا يبيح إحراق الكتب.
وقال غريفيني من علماء المشرقيات في إيطاليا: بعد أن فتح عمرو بن العاص الإسكندرية مرت ستة قرون كاملة لم يسمع خلالها قول لمؤرخ مسلم أو غير مسلم يتعرض لاتهام عمرو بن العاص بإحراق خزانة الإسكندرية. وينقض هذه التهمة ما اشتهر به عمرو من سياسة اللين والتساهل التي جرى عليها وشهد له بها أشهر المؤرخين النصارى الذين كانوا في عهده، كيوحنا النيقيوسي في كتابه تاريخ مصر الذي وضعه باللغة الحبشية القديمة.
وقال بونه موري أيضاً: يجب أن نصحح خطأ شاع طول القرون الوسطى، وهو أن العرب أحرقوا خزانة الإسكندر بأمر الخليفة عمر، والحال أن العرب في ذلك العصر كانوا أشد إعجاباً بعلوم اليونان وفنونهم من أن يقدموا على عمل كهذا، كما أنه معلوم أن قسماً من تلك الخزانة كان قد احترق في أثناء ثورة الإسكندريين التي باد فيها أسطول قيصر، وأن قسماً آخر أحرقه النصارى في القرن السادس، واختط العرب الفسطاط وتركوا للقبط ممفيس ولم يتعرضوا لهم في دينهم وعاداتهم، وأطلقوا لهم الحرية في انتخاب البطريرك وبناء
الكنائس. وغاية ما أبطل عمرو من العادات القديمة، هو ما كانوا جارين عليه من زمان الوثنيين من رمي فتاة في النيل كل سنة التماسا لفيضانه
وقال أرنست رينان في خطاب له في المجمع العلمي الفرنسي:
لست أعتقد أن عمراً هو الذي أحرق خزانة الإسكندرية لأنها أحرقت قبله بزمن طويل . . .
وذكر أكبرسيم في كتابه لم تحرق مكتبة الإسكندرية التي قال بعضهم إنه كان فيها نحو سبعمائة ألف مجلد على يد الأمام عمر ولا بأمره كما جاء في بعض المصادر. فإن هذه الدعوة من الأغلاط التاريخية العظيمة، إذ لم يكن أثر لهذه الخزانة عندما فتح العرب مدينة الإسكندرية
ومع كل هذه الشهادات، وظهور الحق الجلي في هذه الغلطة التاريخية الكبرى، فهناك

من لا يزالون متمسكين بهذه الأكذوبة المختلقة على العرب، ويستندون في تأييدها إلي أقوال هي في قوتها أوهى من خيوط العنكبوت، وسنورد فيما يلي بعض هذه الأقوال والروايات وندلل على فسادها

يزعم بعض المؤرخين أن من لفق هذه الرواية على العرب هو أبو الفرج بن العبري في كتابه (تاريخ مختصر الدول) وروي ذلك العالم الإنجليزي جبون في تاريخ سقوط دولة الرومان قال: إن هذه الفرية على المسلمين قد لفقها أبو الفرج العبري في تاريخه مختصر الدول، وذلك بعد الإسلام بنحو ستة قرون، ولم يتعرض قبله أحد لذكرها من المؤرخين) وذكر أرفنج أن هذه الفرية لم يكن لها ذكر قبل ترجمة مختصر الدول إلى اللاتينية. على أننا لسنا نعتقد بصحة هذا الزعم، إذ تبين لنا أن أول من نسب هذه التهمة إلى عمرو بن العاص والفاروق هو عبد اللطيف البغدادي إذ ذكرها في كتابه (الإفادة والاعتبار ص 28) وكان قد ألفه قبل ولادة أبي الفرج عام 1266 م.

رواية عبد اللطيف:

ففي أواخر القرن السادس للهجرة زار عبد اللطيف مصر وكتب عن مشاهدها وآثارها وذكر إحراق العرب لهذه المكتبة قبل أن يولد أبو الفرج ببضع وعشرين سنة وإليك نص عبارته: (ورأيت أيضاً حول عمود السواري من هذه الأعمدة بقايا صالحة بعضها صحيح وبعضها مكسور، ويظهر من حالها أنها كانت مسقوفة، والأعمدة تحمل السقف وعمود السواري عليه قبة هو حاملها. وأرى أنه الرواق الذي كان يدرس فيه أرسطو طاليس وشيعته من بعده وأنه دار المعلم التي بناها الإسكندر حين بنى مدينته وفيها كانت خزانة الكتب التي أحرقها عمرو بن العاص بأذن عمر رضيّ الله عنه)

والظاهر أن هذه العبارة قد جاءت في كلام البغدادي عرضاً عن غير قصد، ومما يطعن فيها أن يذكرها بعد ستة قرون ولا يدل على المصدر الذي نقلها عنه، والأغرب ألا يذكرها مؤرخان مسيحيان معاصران من مصر، فقد كتب أفتيكيوس بطريرسك الإسكندرية كلاماً مستفيضاً عن استيلاء المسلمين على ثغر مصر ولم يشر إلى هذه الحادثة قط، وكذلك أوتينموس، فإنه لم يشر إليها أيضاً، ومثله المؤرخ (يوحنا أسقف نيقوس) وتاريخه مصدر يركن إليه.

(البقية في العدد القادم)

خليل جمعه الطوال

للأدب والتاريخ

مصطفى صاق الرافعي

1880 - 1937

للأستاذ محمد سعيد العريان

(طال بي الحديث إلى قراء الرسالة عن الأسباب التي كانت تملى على الرافعي موضوعاته التي كتبها لقراء الرسالة، فسأرجئ ما بقي من هذا الباب إلى موضعه من كتاب (حياة الرافعي) الذي يصدر قريباً؛ ليتسنى لي أن أنشر على القراء ما يتيسر نشره من فصول هذا التاريخ قبل الفراغ من طبع الكتاب)

سعيد العريان

رسائل القراء إليه:

لم يكن بين الرافعي وقرائه صلةٌ ما قبل أن يبدأ عمله في الرسالة، ولم تكن أصوات القراء تصل إليه من قريب أو من بعيد، إلا طائفة تربطه بهم صلات خاصة كان يكتب إليهم ويكتبون إليه؛ فلما اتصلت أسبابه بالرسالة، أخذت رسائل القراء ترد إليه كثيرة متتابعة، حتى بلغ ما يصل إليه في اليوم ثلاثين رسالة أو تزيد. وأستطيع أن أقول غير مبالغ: إن الرافعي قد عرف من هذه الرسائل عالماً لم يكن به عهد، وانتقل بها نقلة اجتماعية كان لها أثر بليغ في حياته وتفكيره وأدبه. وإذا كان مؤرخو الأدب قد اصطلحوا على وجوب دراسة البيئة التي يعيش فيها الأديب والتطورات الاجتماعية التي أثّرت فيه، فأن مما لا شك فيه أن الحقبة التي كان الرافعي يكتب فيها للرسالة - كانت تطوُّراً جديداً في حياته الاجتماعية نقله إلى عالم فيه جديد من الصور وألوان من الفن تبعث على التأمل وتوقظ الفكر وتجدّد الحياة. وقد عاش الرافعي حياته بعيداً عن الناس لا يعرف عنهم ولا يعرفون عنه إلا ما ينشر عليهم من رسائله ومؤلفاته، فكان

منهم كالذي يتكلم في (الراديو) يسمعون عنه ولا يسمع منهم، وليس له مما يستمد منه الوحي والإلهام إلا ما تجيش به نفسه، ويختلج في وجدانه، غير متأثر في عواطفه الإنسانية بمؤثر خارج عن هذه الدائرة المغلقة عليه

وكان هو نفسه يشعر بهذه القطيعة بينه وبين الناس، وكان له من علّته سبب يباعد بينه وبينهم؛ فمن ذلك كان يسره ويرضيه أن يجلس إلى أصحابه القليلين ليستمع إليهم ويفيد من تجاربهم، ويُحصِّل من علم الحياة وشئون الناس ما لم يكن يعلم. . .

ثم بدأ يكتب للرسالة فعرفتْه طائفة لم تكن تعرفه، وتذوّق أدبه من لم يكن يسيغه؛ وكانت الموضوعات التي يتناولها جديدة على قرائها، وجدوا فيها شيئاً يعبر عن شيء في نفوسهم؛ فأخذت رسائل القراء تنثال عليه، فأنفتح له الباب إلى دنيا واسعة، عرف فيها ما لم يكن يعرف، ورأى ما لم يكن يرى، واطلع على خفيات من شئون الناس كان له منها علْم جديد. . . فكان من ذلك كمن عاش حياته بين أربعة جدران لا يسمع إلا صوته، ولا يرى إلا نفسه، ثم انفتح له الباب فخرج إلى زحمة الناس، فأنتقل من جو إلى جو، ومن حياة إلى حياة. . .

هي نقلة اجتماعية لا سبيل إلى إنكار أثرها في الرافعي وأدبه، وإن لم يفارق بيئته ومنزله وأهله

والآن وقد وصلت إلى جلاء هذا المعنى كما شاهدته وعاينت أثره، فأني أتحدث عن ضرب من هذه الرسائل التي كانت ترد إلى الرافعي من قرائه، ليعرف الباحث إلى أي حد تأثر الرافعي بها، وأيَّ المعاني ألهمته وقدحت زناد فكره؛ وإذا كانت بعض (الظروف الخاصة) قد حالت بيني وبين الاطلاع على كل هذه الرسائل التي خلّفها لتتم لي بها دراسة التاريخ، فحسبي ما أقرأني الرافعي منها في أيام صحبته، وما اطلعت عليه بنفسي من بعد. . .

نستطيع أن نردّ الرسائل التي كانت ترد على الرافعي إلى أنواع ثلاثة:

1 - رسائل الإعجاب والثناء

1 - رسائل النقد والملاحظة

3 - رسائل الاقتراح والاستفتاء والشكوى

أما النوعان الأولان فليس يعنينا منهما شيء كثير، وحسبي الإشارة إليهما؛ على أنه ليس يفوتني هنا أن أشير إلى أن أكثر ما ورد إلى الرافعي من رسائل الإعجاب، كان عن مقالاته في الزواج وكان أكثر هذه الرسائل من الشبان والفتيات، وقلما كانت تخلو رسالة من هؤلاء أو هؤلاء، من شكوى صاحبها أو صاحبتها وتفصيل حاله. وأطرف هذه الرسائل

هي رسالة من آنسة أديبة في أسيوط كتبت إلى الرافعي تسأله أن يكتب رسالة خاصة إلى أبيها - وقد سمْته في رسالتها - يعيب عليه أن يعضل ابنته ويردّ الخطّاب عن بابه حرصاً على التقاليد. . .

ثم رسالة من (مأذون شرعي) يحصي فيها للرافعي بعض ما مر عليه من أسباب . . . الطلاق في الأسر المصرية، ويردها كلها إلى سوء فهم الناس لمعنى الزواج وحرصهم على تقاليد بالية ليست من الدين ولا من المدنية، وفي هذه (الإحصائية) الطريفة قصص خلقية بأن تنشر لو وجدت من يحكيها على أسلوب فني يكسبها معنى القصة

واعجب ما قرأت من رسائل النوع الثاني، رسالة جاءته بعقب نشره مقالة (الأجنبية) عليها خاتم بريد (شطانوف) فلما فض غلافها لم يجد فيها إلا صفحات ممزقة من الرسالة التي نشرت فيها القصة ومعها ورقة فيها هذه الأسطر:

سيدي الأستاذ إن كان لا بد من رد فهذا هو خير رد، وإن كان لا بد من كلمة فكلمتنا إليك هي تلك الكلمة التي ختمت بها هذا الكلام المردود إليك

(مصري)

ومن النوع الثالث من هذه الرسائل، كان استمداد الرافعي ووحيه ودنياه الجديدة، وإلى القراء نماذج مختلفة من هذه الرسائل

1 - هذه رسالة فتى في العشرين، يكتب إلى الرافعي من الإسكندرية يقول:

(أستاذي الكبير

ليس لي الآن إلا ربي وأنت يا أستاذي، وإن من حقك عليَّ أن أسألك حقي عليك وقد هداني الله إليك

(. . . قرأت وتدارست ما كتبته عن الانتحار، فماذا تقول في امريء علم عمن الجنة تحت أقدامها أنها فسقت وزلّت. . فهو يتحين الفرصة ليقتلها. إني أبكي يا أستاذي إذ أعيد هذا القول.
أبكي دماً. لي أخوة وأنا أكبرهم، ولا أخاف إلا أن لي أختاً.
وأبي - غفر الله له - ليس له ما يكون للرجل من معاني الرجولة ليضمن ألا يكون في بيته شيء مما قد كان. . .
(. . . الشك يساورني منذ أكثر من عامين. واليوم فار التنور، إذ سمعت إنها حبلى. ووقع في يدي ما ملأني يقيناً بتصديق إثمها؛ ولقد همت أن أفعل ما لا يُفعل، وأنا أخشى ألا يتداركني حكمك.
ماذا تقول يا أستاذي؟ أنا الصابر أبداً كاد الصبر يتلاشى من نفسي، أنا المطمئن أبداً كاد أمري يضيع من يدي. أنا كالمجنون لا يبقني شبه عاقل إلا أنت، فماذا تقول يا أستاذي وبماذا تحكم؟ يكتبها الله لك فتداركني برأيك. . .
(ولك مني شكر من يسأل الله ويسعى إلى أن يكون بنفسه وحياته من حسنات تربيتك، وأن يكون في اليوم الآخر كلمة من سطر من كتابك القيم. . .
(ومعذرة لي من لدنك إن أغفلت الآن اسمي)
في 1451935
2 - وهذه معلمة في إحدى مدارس الحكومة، حامت حولها ريبة فوقفتها وزارة المعارف حتى تحقق أمرها، فكتبت إلى الرافعي تسأله أن يعينها بجاهه حتى تعود إلى عملها الذي تعول منه أبويها؛ فيشفق عليها الرافعي ويسعى سعيه لبراءتها. . . وعادت إلى عملها؛ وحفظت الجميل للرافعي، فكانت تكتب إليه كل أسبوع رسالة تبثه خواطرها، وتصف له من أحوالها وما تعمل؛ وتكثر رسائلها إلى الرافعي حتى يزول الحجاب بينهما، فتصرح له بما لا تصرح فتاة، ويؤول أمرها في النهاية أن تكتب للرافعي بأنها عاشقة. . . وأن معشوقها الصغير - التلميذ في إحدى المدارس الصناعية بالقاهرة - لا يعلم ما تكن له. هي تلقاه، وتماشيه، وتخلو به خلوات (بريئة) ولكنها لم تكشف له عن ذات نفسها، وتأكلها النار في صمت. . .! وتقول في رسالتها إلى الرافعي:
(فدبرني يا سيدي في أمري؛ قلبي يحس أنه يحبني، لقد قالتها لي عيناه، ولكنه لم يتحدث إلي، ولست أجد في نفسي القدرة على التصريح له. . .)
وتتوالى رسائلها إلى الرافعي تصف له ما تلاقي من الوجد بحبيبها الذي تكبره بسنوات، ويقرأ الرافعي رسائلها فيبتسم، ويتناول قلمه الأزرق فيثوِّر فيها علامات يشير بها إلى مواضع وفِقَر تلهمه معاني جديدة وفكراً جديداً؛ ويشتط الحب بالمعلمة العاشقة حتى تنظم الشعر، فتبعث إلى الرافعي بقصائدها ليرى رأيه فيها. . .
بين يديّ الساعة آخر رسالة من رسائلها إلى الرافعي. بعثت بها إليه قبل منعاه بقليل. ليت شعري كيف انتهت قصة هذا الحب؟
3 - وهذه رسالة من (حلب) يدهش كاتبها أن يرى صورة (الشيخ) مصطفى صادق الرافعي مطربشاً حليق اللحية أنيق الثياب، فيكتب إليه:
(. . . لقد رأيت رسمك يا مولاي فتأملته. . فوجدته من أناقة الجلباب ومظهر الشباب على حظ. فهل لك يا مولاي في مجاراة المدنية ومماشاة الحضارة رأى دعاك إلى هذا المظهر الأنيق؟ . . .)
4 - وتلك رسالة من (دمشق) وقع كاتبها في هوى مغنية مشهورة، يحسن الظن بها إحساناً يمثلها لعينيه مَلَكا أنثى؛ لا يترك مجلساً من مجالس غنائها، ولا يفكر في خلوته إلا فيها. .
ثم يأتيه النبأ أنها قد سُمِّيتْ على رجل من ذوي اليسار والنعمة، وأنها موشكة أن تصير له زوجة، فيطير به هذا النبأ ويؤلمه أيَّما أيلام؛ فيكتب إلى الرافعي يقول:
(. . . إن خطيبها على غناه رجل فاسد الخلق، متقلب القلب، دنس الذيل؛ وأنا على يقين أنها ستشقى به وقد خفيت عنها حقيقته. وأنا أحبها وأشفق عليها وأتمنى لها السعادة. . .
(هل يجب عليَّ أن أقف وقفة المحذر بإقناعها بالعدول عن هذا الزواج الذي لا أتوقع له إلا نهاية واحدة قريبة، أو ألزم الصمت وأدع الأمور تجري في مجاريها وأقطع علائقي

معها فأرد لها صورها ورسائلها احتراماً لهذا الزواج من الناحية الشرعية وأدفن ذلك الحب لها في ركن من أركان قلبي؟)

5 - وذلك طالب في الجامعة، له دين وخلق ومروءة، بلغ مبلغ الرجال وفار دم الشباب في عروقه فتسلّطت عليه غرائزه، تغالبه شهواته فلا يكاد يغلبها، ولا يجد له سلطاناً على نفسه أو وسيلة لقمع شهواته إلا أن يحبس نفسه أياماً في غرفته الموحشة، ومع ذلك لا تزال (المرأة) تتخايل له بزينتها في خلوته وفي جماعته، فليس له فكر إلا في المرأة، وأنه ليخشى الله، وما به قدرة على الزواج، ولقد جرب الصوم فما أجدى عليه، وقد أوشك أن يفقد نفسه بين شهوات تتجاذبه ودين يأبى عليه. . . فماذا يفعل؟

6 - وهذه فتاة متعلمة، تعيش بين أبيها وزوج أبيها في هم لا يطاق، كل سلوتها في حياتها أن تقرأ، وهي لا تحسن عملاً ولا تجد لذة في عمل غير القراءة، ولكنها تنكر موضعها بين أبيها وزوجه، إنهما ينكران عليها كل شيء مما تراه هي من زينها بين الفتيات، فعلمها حذلقة، وآراؤها فلسفة فارغة، ومطالعتها عبث ولهو وسوء خلق، وفرارها بنفسها إلى غرفتها كبرياء وأنفة وتمضي السنون وهي في هذا العذاب من دار أبيها، فلا هي تستطيع أن تحمل أباها وزوجه على رأيها في الحياة ولا هي تستطيع أن تنزل إليهما، والمنقذ الذي تنتظر الخلاص على يديه من هذا العذاب لم يطرق بابها بعد، ولو أنه طرق بابها لأشاحت عنه معرضة في وجل، لأنها تسيء الظن بكل الرجال. فماذا تعمل؟

7 - وهذا فتى مثاليٌّ يحسن الظن بالأيام ولكن الأيام تخلفه موعده: أحب فتاة من أهله وأحبته وتواعدا على الزواج، ولكن أهلها زوجوها من غيره والتمس الوظيفة التي يؤمل أن يصل إليها بعد تخرجه، فنالها ولكن وجدها غُلاًّ في عنقه وكمامة على فمه وطلب الزلفى إلى الله بالإحسان إلى الناس فبادلوه إساءة بإحسان وغدراً بوفاء وكلما غرس زهرة هبت عليها أعاصير الحياة فاقتلعتها وألقتها في مواطئ النعال وبرم الحياة وضاقت به الدنيا وما يزال في باكر الشباب. . . فماذا يصنع؟

8 - وهذا شاب يشهد لنفسه بأنه من عباد الله الصالحين يخاف الله ويخشى عذابه: أحب فتاة من جيرته حباً (عُذرياً) وأحبْته، وبرّح بهما الحب حتى ما يطيقا أن يمضي يوم دون أن يلتقيا، ولقيته ذات مساء في خلوة بعيدين عن أعين الرقباء، وما أكثر ما التقيا في خلوة، ولكن الشيطان صحبهما هذه المرة إلى خلوتهما. . . ووقعت الجريمة من غير أن يكون لها إرادة أو يكون له. . .

ولما فاءت إليه نفسه أخذ يكفكف لها دموعها وهو يبكي وكان في نيته أن يتزوجها . . . حين ينتهي من دراسته بعد سنتين أو ثلاث، وكان صادقاً في نيته، وكانت الفتاة مؤمنة بصدقه، ولكنها لم تُطق الانتظار حتى تمضي السنوات الثلاث ولم تطق أن تراه بعد؛ وجاءه النبأ بعد ثلاثة أيام أنها ماتت محترقة. . .

وعرف هو وحده من دون أهلها ومن دون الناس جميعاً كيف ماتت. . . ومنذ ذلك اليوم تلاحقه صورتها في نومه وفي يقظته؛ ومضت سنتان منذ وقعت الفاجعة ولكنه ما يزال يذكرها كأنها كانت بالأمس، وكتب إلى الرافعي يقول في رسالته:

(إنني أنا الذي قتلتها، إن دمها على رأسي؛ لقد ماتت ولم يعلم بسرها أحد غيري . . .) وهذا أشد ما يؤلمني، ولقد احتملت بصبر وثبات كل ما نالني في هاتين السنتين من تأنيب الضمير وعذاب القلب، ولكني اليوم أحس بأن صبري قد انتهى ولم يبق فيّ قوة على الاحتمال أكثر مما احتملت. . . فماذا أفعل، ماذا أفعل. . .؟)

ألوان وصور، وملائكة وشياطين، ونفوس تتعذب، وقلوب تحترق، وأنات وابتسامات، ودنيا لم يكن للرافعي بها عهد، ولم تكن تخطر له على بال.

وفي الأسبوع الآتي بقية الحديث عن رسائل القراء.

(شبرا)

محمد سعيد العريان

جورجياس أو البيان

لأفلاطون

للأستاذ محمد حسن ظاظا

تنزل (جورجياس) من آثار (أفلاطون) منزلة الشرف، لأنها)
أجمل محاوراته وأكملها وأجدرها جميعاً بأن تكون (إنجيلاً)
(للفلسفة!)
(رينوفييه)
(إنما تحيا الأخلاق الفاضلة دائماً وتنتصر لأنها أقوى وأقدر)
(من جميع الهادمين!)
(جورجياس: أفلاطون)
الأشخاص
1 - سقراط: بطل المحاورة: (ط)
2 - جورجياس: الفسفسطائي: (ج)
3 - شيريفين: صديق سقراط: (س)
4 - بولس: تلميذ جورجياس: (ب)
5 - كاليكليس: الأثيني: (ك)
ب - (متابعاً حديثه عن أرشليوس) والواقع أنهُ بُعِثَ أولاً ليبحث فيما يقال عن (الكتِاس) عمه وسيده كيما يرد إليه العرش الذي سلبه منه أخوه (بردكاس) ولكنه ما أن عثر عليه حتى أسكره وأثمله هو وولده (الكسندر) الذي كان يقاربه في السن، ثم وضعهما في عربة وخرج بهما ليلاً إلى العراء حيث ذبحهما وأخفاهما دون أن يتصور أنه قد أصبح بعد جريمته هذه أشقى الناس وأتعسهم، ودون أن يشعر حيالها بأي ندم أو تأنيب!!؛؛ وبعد فترة
قصيرة مضى إلى أخيه ذي الحق الشرعي في العرش - وكان طفلاً لم يبلغ السابعة بعد، وبدلاً من أن يسعد نفسه بالأشراف على تربيته وتعليمه كما كان يجب عليه، وبدلاً من أن يمنحه السلطة المشروعة: رمى به في بئر وقال لأمه (كليوباترا) إنه وقع فيها ومات بينما كان يجري خلف إوزة!!؛؛ وعلى هذا يجب أن يكون أشنع أهل (ماقدونيا) إجراماً، وأكثرهم تعاسة وشقاء بدلاً من أن يكون أوفرهم سعادة وهناء! ولكن ربما يوجد أكثر من أثيني - إذا بدأنا بك - يفضل مركز أي مقدوني آخر على مركز (أرشليوس)!!
ط - لقد هنأتك منذ بدأ الحديث على ما لاح لي من تدفق خطابك. ولكني قلت لك حينذاك إنك أهملت فن الحوار إهمالاً! والآن هل هذا هو التدليل المشهور الذي يستطيع حتى الطفل أن يناقضني به؟ وهل أستطيع أن أقتنع بك وبقولك إني كنت مخطئاً عندما قلتُ إن الرجل الظالم لا يكون سعيداً؟ وكيف أقتنع وأرضى يا عزيزي وأنا لست على وفاق مع أي تأكيد من تأكيداتك؟
ب - ذلك من سوء إرادتك لأنك في صميمك ترى رأيي!!
ط - حسن جداً يا بولوس فأنت تحاول أن تناقضني بأسلوب المحاماة كما يدعي من يفعل ذلك في المحاكم!، إذ هناك يعتقد المحامون أنهم يناقضون خصمهم إذا هم دعموا دفاعهم بشهود عديدين محترمين في الوقت الذي لا يستطيع الخصم فيه إلا أن يحضر شاهداً واحداً أو لا شاهد على الإطلاق!.، ولكن هذه الطريقة عديمة الجدوى لأن الفرد الواحد قد يتعرض لشهادات خاطئة من شهود عديدين ومعروفين بالنزاهة والاستقامة!! وإذا شئت في حالتنا الراهنة، وفيما يتعلق بما تقول، أن تقدم شهوداً يشهدون على خطأي، فسترى أن جميع اليونانيين والأجانب تقريباً يرون رأيك الخاص! وأنت تستطيع إذا شئت أن تجعل (نكياس) ابن (نيسراتوس) يشهد في جانبك ومعه أخوته الذين نرى مواقدهم مصفوفة في محراب (ديونيسس)، كما تستطيع أن تجعل (اريستوقراط) ابن (سكيليوس) صاحب القربان الجميل في (بيثو) أن يشهد بالمثل، لا بل أمامك إذا رغبت كل عائلة (بركليس) أو أية عائلة أثينية يسرك بعد ذلك أن تختارها!!، ولكن سيظل رأيي - ولو أني وحيد - مخالفا لهؤلاء جميعا لأنك لم تقنعني بعد! ذلك أنك لم تفعل سوى التقدم بذلك الجمع من الشهود الزائفين لكيما تنزع مني الحقيقة والخير!، ولكن - على النقيض - إذا لم أظفر بك أنت نفسك، وأنت وحدك كشاهد، وإذا لم أجعلك توافق على قولي، فأني أعد نفسي كأني لم أقدم ما يجرؤ على حل السؤال الذي يشغلنا، كما أعدك لم تفعل شيئاً بالمثل إذا لم أشهد لك

وحدي وبشخصي. وإذا لم ترفض عداي كل الشهود الآخرين! فهناك إذا طريقة للمناقضة هي تلك التي تعرفها ويعرفها معك الكثيرون، ولكن هناك طريقة أخرى أتخيلها من ناحيتي. فلنقارن إذا هاتين الطريقتين، ولنر إذا كانتا تختلفان فيما بينهما، لأن الأشياء التي نتنازع فيها ليست باليسيرة في نتائجها، بل أنه لا يوجد ما هو أجمل في معرفته ولا أشنع في الجهل به منها، لأنها تتعلق إجمالا بمعرفة ما هو جميل وما هو قبيح. .!!.

ومن حيث النقطة التي تشغلنا: أترى إن الإنسان يستطيع أن يكون سعيداً عندما يظلم ويرتكب الشر، لأنك تعتقد أن ذلك هو تدليلك؟

ب - نعم، انه هو إطلاقا!

ط - وأنا أزعم إن ذلك محال!. وتلك هي النقطة الأولى التي نختلف فيها فلنمض إلى الثانية. أيكون الظلم سعيداً إذا تقدم للعقاب؟

ب - كلا على الإطلاق!. إنه يكون تعيساً جداً في هذه الحالة!!

ط - وإذا فأنت تراه سعيداً إذا لم يعاقب؟

ب - بالتأكيد!

ط - وأنا أزعم يا بولوس أن ذلك الذي يرتكب الظلم ويحمله في قلبه يظل شقياً في جميع الأحوال، وأنه يكون أكثر شقاوة إذا لم يعاقب على ظلمه، أما إذا عوقب ولقي جزاءه من الآلهة والناس فانه يكون أقل شقاء!

ب - إنك تروح يا سقراط لمتناقضات عجيبة!!

ط - سأحاول يا رفيقي أن أشركك في عاطفتي لأني أعدك صديقاً. هاك هي النقط التي نختلف عليها فلترها بنفسك. لقد قلتُ من قبل إن ارتكاب الظلم أفدح من احتماله؟

ب - نعم!

ط - وقلتَ أنت إن احتماله أفدح من ارتكابه؟

ب - نعم

ط - وقلتُ أيضاً أن مرتكبي الظلم أشقياء فناقضتني؟!

ب - نعم وحق زيوس!

ط - أذلك هو ما تعتقد - على الأقل - فيه يابولوس؟

ب - ولي الحق في الإيمان به!

ط - ذلك جد ممكن. ولكن أترى من ناحيتك أن أولئك الذين يظلمون يكونون سعداء إذا فروا من العقاب؟

ب - تماما

ط - وأنا أرى أنهم أشقى الأشقياء وأن أولئك الذين يلقون جزاء ظلمهم يكونون أقل منهم شقاء!. أتريد مناقضتي أيضاً في هذه النقطة؟

ب - أواه يا سقراط إنها لأصعب في المناقضة من سابقتها!

ط - لا تقل (أصعب) يا بولوس بل قل (مستحيل) لأنك لن تناقض (الحق أبداً)

ب - أي شيء تقول؟ ذاك هو شقي باغتناه وهو يحاول أن يكون ظالماً طاغياً فأوقفناه، وعذبناه، فسلمنا عينيه وقطعناه بقسوة بمختلف وسائل التعذيب، ثم أنزلنا بامرأته وأولاده نفس العذاب، ثم صلبناه أخيراً وطلينا جسده بالقار وحرقناه حياً!، أترى لا يكون هذا الشخص أسعد لو قد فَرَّ وصار طاغياً فحكم مدينته، واشبع شهواته، وأصبح موضوعاً للإعجاب والحسد من الأجانب والمواطنين؟؟ ذلك ما ترى أن مناقضته مستحيلة يا سقراط!!

ط - إنه لخيال مزعج ذلك الذي تقدمه أيها الشجاع بولوس! ولكنك مع هذا لم تناقضني في شيء لأنك لم تفعل إلا مثلما فعلت عندما كنت تقدم شهودك!! لذلك أرجو أن تذكرني بشيء يسير!. لقد فرضت أن ذلك الشخص كان يطمح (بظلم) إلى الطغيان؟؟

ب - نعم!

(يتبع)

محمد حسن ظاظا

العاطفة

وأثرها في التقدير الأدبي

للأديب محمد فهمي عبد اللطيف

لما وضع أرسطو مذهبه في النقد الأدبي، أقامه على المنطق والفكر، واعتبر العقل وحده كلَّ شيء في أدراك الحقيقة الفنِّية النافعة، يكشف ويوضح، ويقيس ويضبط، ويتلمس ويعلل، وينتهي من وراء ذلك كله إلى جملة من الضوابط والقوانين، يراها صالحة في كل زمان ومكان لقياس الفن، وتقدير الأدب، وفهم الجمال. فكأن النقد عند هذا الفيلسوف الخالد، باب من الفلسفة؛ وبحث في العلم، فهو يعالجه بالقياس الثابت، والعيان المدرك، والخبر المتواتر، والشاهد البينّ، فأما الحس فلا اعتبار له عنده، ولكنه - كما يقول المعري - زجر طير هي خليقة بالكذب، فأن صدقت فباتفاق!!

هذا المذهب الذي وضعه أرسطو كان مثار خلاف بين النقاد من بعده، وخصوصاً النقاد الفرنسيين الذي نهلوا من مراشف الثقافة الغاليَّة، فجماعة من ورائه يقولون العقل فحسب! وجماعة يذهبون إلى أكثر من ذلك فيقولون: العقل والعاطفة. والذين قرءوا تاريخ الآداب الفرنسية يعرفون إلى أي حد كان النقاد في الطور الأول يمجدون العقل ويذعنون لمنطقه، حتى لقد حاول (ماليرب) أن يخضع له قرائح الشعراء وعواطفهم، ثم أتى من بعده (بوالوّ) الذكي الفطن فمنح العقل المرتبة الأولى في عداد الصفات البشرية، واعتبره مصدر كل أثر ذي شأن في النقد والأدب. ولكن لما جاء (شاتوبريان) انتهج في النقد نهجاً أحفل بالفن فقال: إن العقل وحده لا ينتج أعمالاً عظيمة، وإن الناقد الحقيقي من حكّم عقله وقلبه، واستغلَّ منطقه وعواطفه معاً في فهم ما يقرأ.

فلما كان العهد الأخير قامت المناظرة حادة عنيفة بين فردينان برونتيير وأناتول فرانس حول الملكات المعتبرة في النقد فقال برونتيير: العقل. . . ثم العقل. . . ثم العقل. وقال فرانس: كلا!! لا يمكن أن يكون فن الأدب غير عاطفي، وكذلك نقده. لأن الفن ذاته عاطفة، وكاذبون هم أولئك النقاد الذين يزعمون أنهم قادرون على انتقاد الأدب وتقديره دون عواطفهم! وعندي أنه ليس أسخف من ناقد يتخذ مقاييس الألفاظ والأوزان في نقد قطعة فنية نفخ فيها صاحبها من عواطفه، واعتصرها من روحه وإحساسه، فأن المشاكل الخفية في الأدب والنقد لا يحلها علم النحو والصرف، ولا تشرحها المعاجم وأوضاع اللغة، ولكنها في حاجة إلى تلك العاطفة العلوية الفياضة التي لا تقيدها فواصل وحدود، ولا تحدها أبعاد وتخوم!!

والواقع أننا نستبد بعواطفنا كثيراً ونجحد الحق وما هو ثابت من نواميس الحياة إذ نندفع في تيار أولئك الواقعيين فنعتبر العقل كل شيء في تعليل كل ما نرى من المظاهر والظواهر، حتى ما يتصل بميولنا وعواطفنا؛ فأن هناك القلب يجب أن نجعل له اعتباراً كبيراً في شؤون الحياة إلى جانب العقل، ويجب أن نعتقد بأن له منطقاً كمنطق العقل إن لم يكن أرهف وأدق، وهو وحده الذي يشعرنا في رحلة الحياة الشاقة ببرد الراحة، ويقع من نفوسنا اللاغبة موقع الماء العذب من نفس الصادي في اليهماء القاحلة. ولا شك أننا لو طاوعنا هؤلاء الناس وجعلنا العقل كل شيء لصارت الحياة جحيماً لا تطاق، ولفررنا من شقائها كما يفر بعض الناس في هذه الأيام بالموت والانتحار، بل ولتمردنا على كثير من النظم والأوضاع والشرائع الطيبة النافعة التي تكفل السعادة للمجتمع، والتي لا يمكن أن يمجدها أولئك الواقعيون الماديون أنفسهم.

وأنت - أبقاك الله - تأمل في نفسك، وانظر فيما يحف بك من النظم الاجتماعية، والقيود الثقيلة التي تربطك بالمجتمع الذي تعيش فيه، والسلاسل والأغلال التي تثقل جيدك وتنقض ظهرك، من واجبات نحو الأسرة، والأب، والأم، والزوجة، والوطن، والدين، والتقاليد، وفكرات الشرف والعرض، وكل ما إلى ذلك، ثم استسلم إلى العقل وحده وانزل على حكمه في فهم تلك الأمور عامتها، تجده يجيبك جواباً لا يرضاه العقل نفسه، لأن الطبيعة قد خصت الإنسان بشيء يمتلك ناصية عقله ويتحكم فيه التحكم كله، شيء آت من الناحية الروحية القلبية التي هي مصدر العواطف والمشاعر فلإنسان - كما يقول العقاد - لا يحيا بالعقل وحده، ولا يفهم بالعقل وحده، ولكنه يحيا بالحياة التي هي مجموعة من الحس والغريزة والعطف والبداهة والخيال والتفكير. فأنت إذا أردت أن (تفهم) إنساناً فليست كل وسائلك إلى فهمه أن تسلط عليه ملكة التحليل والتعليل، بل أنت مشترك في فهمه بخيالك وحسك وغريزتك وتفكيرك وعطفك وجميع أجزاء حياتك، وشأنك في فهم الكون كشأنك في فهم الإنسان أو فهم أي شيء من الأشياء وخاطرة من الخواطر. فقولك (تفهمها) مرادف لقولك تحسها

وتتخيلها وتشملها بعطفك وبديهتك وتفكيرك. ولأن تحس ما ينبغي لك عمله دون أن تقوى على تعليل ذلك خير لك وألف خير من أن تعلل وتحلل وأنت عاجز عن العمل والإحساس

وإذن فليس من الصواب أن نتخذ العقل وحده طريق إدراك وفهم، وأداة تقدير وحكم، وإنما الواجب أن نستخدم في ذلك جميع حواسنا وعواطفنا وكل ما لدينا من المواهب والملكات.

وإذا كان هذا من اللازم بالنسبة لاعتبارات الحياة ومسائل العلم، فأنه لا شك ألزم بالنسبة لتقدير الأدب الذي هو فيض العواطف، وذوب المشاعر، ورسالة الروح، ومن ثم تعلم سر الفشل الذي يحيق بأناس يحملون أنفسهم على معالجة الأدب، ويبيحون لضمائرهم القضاء في مسائله وهم أجلاف غلاظ قد سلبوا كل إحساس وكل عاطفة.

ولقد حكى العقاد فقال: كنا منذ أيام نتطارح قصيدة أبن الرومي في رثاء ولده (محمد) وهي القصيدة التي يقول فيها:

طواه الردى عني فأضحى مزاره ... بعيداً على قرب قريباً على بعد
لقد أنجزت فيه المنايا وعيدها ... وأخلفت الآمال ما كان من وعد
ألح عليه النزْف حتى أحاله ... إلى صفرة الجادي عن حمرة الورد
وظل على الأيدي تساقط نفسه ... ويذوي كما يذوي القضيب من الرند

إلى أن يقول:

وأولادنا مثل الجوارح أيها ... فقد كان الفاجع البيّن الفقد
لكل مكان لا يسد اختلاله ... مكان أخيه من جزوع ولا جلد
هل العين بعد السمع تكفي مكانه ... أو السمع بعد العين تهدي كما يهدي
ثكلت سروري كله إذ ثكلته ... وأصبحت في لذات عيشي أخا زهد

إلى أن يقول:

محمد! ما شيء توهم سلوه ... لقلبي، إلا زاد قلبي من الوجد
أرى أخويك الباقيين كليهما ... يكونان للأحزان أورى من الزند
إذا لعبا في ملعب لك لذّعا ... فؤادي بمثل النار عن غير ما قصد
فما فيهما لي سلوه بل حزازة ... يهيجانها دوني وأشقى بها وجدي

فكنا نجمع على أنها خير ما قيل في الشعر العربي في رثاء ولد، إلا رجلاً لا بأس باطلاعه كان يقول: ولكن أحسن من هذا قول أبن نباته في رثاء ابنه:

قالوا فلان قد جفت أفكاره ... نظم القريض فما يكاد يجيبه
هيهات نظم الشعر منه بعدما ... سكن التراب وليده وحبيبه

وقوله فيه:

يا راحلاً من بعد ما أقبلت ... مخايل للخير مرجوة!
لم تكتمل حولاً وأورثتني ... ضعفا (فلا حول ولا قوة)

وجعل يعجب من (وليده وحبيبه) التي فيها تورية بالبحتري وأبي تمام! ويستظرف قوله (فلا حول ولا قوة) ويقول: إن في هذا المعنى لحسناً! وقد استغرب العقاد ذلك الاستحسان من ذلك الرجل الذي (لا بأس باطلاعه) وعجب له كيف يرفع أبن نباته في شعوذته وألاعيبه على أبن الرومي في لوعته وأساه؛ وعندي أنه لا وجه للعجب والاستغراب، لأن ذلك الرجل وإن كان (لا بأس باطلاعه) إلا أنه - على ما هو واضح من شأنه - لم يرزق الإحساس الفني، والعاطفة الفياضة التي تفتح له آفاقاً من الفهم، وتهيئ له الإدراك والنظر في الأدب وما هو بسبيل الأدب من مظاهر الفن والجمال، فليس من الغرابة أن يخطئ ذلك الرجل في التقدير الأدبي، وأن يسف هذا الإسفاف البين في الحكم على الشعر، ولكن من الغرابة أن يباح له النظر في الأدب، والحكم على أقدار الأدباء، ووضعهم فيما هو جدير بهم من المكانة الفنية، وما هو من أهل ذلك ولا عنده أداته من الطبع والحس والعاطفة وبشاشة الروح. وكأن الجاحظ كان يقرر هذا المعنى إذ يقول: طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يعرف إلا غريبة، فرجعت إلى الأخفش فألفيته لا يتقن إلا إعرابه، فعطفت على أبي عبيده فرأيته لا ينتقد إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالأيام والأنساب، فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتّاب كالحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك الزيات. وصدق أبو عثمان، لأن أدباء الكتاب أدق إحساساً، وأوفى شعوراً، وأرهف عاطفة، فهم أقدر على اختراق معالم

الوجدان والإحساس بجمال الآثار الفنية، والصور الذهنية المرسومة، فيكون بين الناقد والقائل تجاوب روحي، وامتزاج في الأحاسيس، وهذا هو طريق الإدراك الصحيح، والتقدير الحق، وكأني به الطريق الذي ينشده الفنانون أنفسهم، فقد طلب (بودلير) في الناقد أن يكون مرهف العاطفة، دقيق الإحساس، ينتقد بانفعال، لأن الانفعال يقرب بين الأمزجة ويسمو بالمدارك وكذلك اشترط البحتري في نقد الشعر أن يكون من شاعر مارس الفن، إذ سأله عبيد الله بن طاهر فقال: يا أبا عبادة! مسلم أشعر أم أبو نواس؟ فقال: بل أبو نواس لأنه يتصرف في كل طريق، ويتنوَّع في كل مذهب، أن شاء جد، وأن شاء هزل! ومسلم يلزم طريقاً واحداً لا يتعداه، ويتحقق بمذهب لا يتخطاه. فقال له عبيد الله: إن أحمد بن يحيى ثعلباً لا يوافقك على هذا! فقال: أيها الأمير! ليس هذا من علم ثعلب وإضرابه. . . وإنما يعرف الشعر من دفع إلى مضايقه!! وإنها لنظرة بصيرة اتفق فيها الشاعران الفرنسي والعربي، لأن الناقد فنَّان قبل كل شيء، وإن التقدير الأدبي موهبة لا تتأتى ولا تستقيم كما يظن بعض الناس بدراسة النحو والصرف، واللغة والغريب، والتوفر على البحث في بطون الكتب، فأن هذا كله لا يجدي ولا ينفع إذا لم تكن ثمة فطرة سمحة، ونفس مجلوة وطبيعة مواتية، وعاطفة فياضة فنّانة، وإن العلم مهما بلغ مقداره لا يخدم في الفطن الحماة، ولا يقوّم المشاعر المعوجة. ويا ضيعة الأدب، ويا خسارة الفن إذا ما جمدنا في تقديرهما على أوضاع أهل اللغة، واعتبارات علماء البلاغة. ولعمرك إلى أي حد تفيد هذه الأشياء في التقدير الفني لقول الطغرائي مثلاً يصف شجو حمامة سمعها تنوح وهو غريب بالعراق:

أيكّيه صدحت شجواً على فنن ... فأشعلت ما خبا من نار أشجاني
ناحت وما فقدت إلفاً ولا فَجعت ... فذكرتني أوطاري وأوطاني
طليقة من إسار الهم ناعمة ... أضحت تجدد وجد الموثوق العاني
تشبهت بي في وجدي وفي طربي ... هيهات ما نحن في الحالين سيان
ما في حشاها ولا في جفنها أثر ... من نار قلبي ولا من ماء أجفاني
يا ربّة البانةِ الغناءِ تحضنها ... خضراء تلفت أغصانها بأغصان
إن كان نوحك إسعاداً لمغترب ... ناءٍ عن الأهل ممنوع بهجران
فقارضيني إذا ما اعتادني طرب ... وجداً بوجدٍ وسلواناً بسلوان
أولا فقصرَك حتى أستعين بمن ... يعنيه شأني ويأسو كلم أحزاني
ما أنت مني ولا يعنيك ما أخذت ... مني الهموم ولا تدرين ما شأني
كلي إلى الغيم إسعادي فان له ... دمعاً كدمعي وإرناناً كأرناني

أو كقول أبن الجهم:

وا رحمتا لغريب بالبلد الن ... ازح ماذا بنفسه صنعا؟
فارق أحبابه فما انتفعوا ... بالعيش من بعده ولا انتفعا
يقول في نأيه وفي غربته: ... عدل من الله كل ما صنعا!

أو لهذه القطعة التي نفث بها حافظ وقد عبر بدار كانت مدرجة لهوه، وملعب شبابه، فلما رآها قد غيَّرت معالمها الأيام حتى خفيت عليه جاشت نفسه بالشعر فقال:

كم مر بي فيك عيش لست أذكره ... ومرّ بي فيك عيش لست أنساه
ودّعت فيك بقايا ما علقت به ... من الشباب وما ودعت ذكراه!
أهفو إليك على ما أقرحت كبدي ... من التباريح أولاه وأخراه
لبسته ودموع العين طيعة ... والنفس جياشة والقلب أواه
فكان عوني على وجد أكابده ... ومر عيش على العلات ألقاه
إن خان ودي صديق كنت أصحبه ... أو خان عهدي حبيب كنت أهواه
قد أرخص الدمع ينبوع الفناء يه ... والهفتي ونضوب العيش أغلاه
كم روح الدمع عن قلبي وكم غسلت ... منه السوابق حزناً في حناياه
لم يدر ما يده حتى ترشفه ... فم المشيب على رغم فأفناه
قالوا: تحررت من قيد الملاح فعش ... حراً ففي الأسر ذل كنت تأباه
فقلت: يا ليته دامت صرامته ... ما كان أرفقه عندي وأحناه
بدلت منه بقيد لست أفلته ... وكيف أفلت قيداً صاغه الله؟
أسرى الصبابة أحياء وإن جهدوا ... أما المشيب ففي الأموات أسراه!

فهذا شعر حي نابض، يتفجر بالعواطف، ويفيض بالأحاسيس حتى لتلمس فيه من ذلك

أجساماً حية. . . وإنه لنمط أعلى من الفن الخالد على الأيام، الباقي على الدهر، ولكن ترى ماذا تكون قيمة هذا الشعر إذا ما وقف ناقد في تقديره عند قواعد اللغة والنحو، وتناوله بمقاييس (التورية والجناس) والمقابلة والطباق؟ إنه لا شك ينحط به سافلاً سافلاً حتى الحضيض، وإنه لا شك سيرتفع عليه عالياً عالياً بسفاسف الطبقة النازلة من أمثال أبن النبيه والشاب الظريف كما رفع صاحب العقاد (أبن نباته بشعوذته وألاعيبه على أبن الرومي في لوعته وأساه) ومن هنا تنقلب الأوضاع، ويغدو النقد وهو أداة جمود الأدب، وخذلان للقرائح العبقرية، وعامل تقهقر يرجع بالفن إلى الوراء أضعاف ما يجب أن يندفع
به إلى الأمام!

فالناقد الحقيقي هو من حكم عقله وقلبه كما يقول شاتوبريان واستغل منطقه وعواطفه في تقدير ما يقرأ، حتى يستطيع أن يقدر التقدير الصحيح، وأن يخدم الحقيقة الفنية والجمال البياني وإلا فهو فاشل في مهمته، يجني على الفن، ويبخس النبوغ، ويكشف نفسه ويعرضها للسخرية، وكأن العلماء قد أدركوا تلك الحقيقة إذ أنكروا على (المعلمين) والرواة أن يكون لهم في نقد الشعر والحكم عليه، فكثيراً ما تنادر الجاحظ عليهم من جراء ذلك حتى أتخذهم مادة لعبثه ومضاحيكه؛ وكثيراً أيضاً ما نالهم الشعراء أنفسهم بقوارص الكلم، وأليم الهجاء. ولعل من أفكه ما لهم في ذلك قول عبيد الله بن عبد الرحمن الأهوازي في معلم أزري على شعره:

يعبث الأحمق الممرور شعري ... وهجوي في بلادته يسير!
ويزعم أنه نقاد شعري ... هو الحادي وليس له بعير

وفي هذا النمط ما روي من أن أبا جعفر الخزاز عاب شعراً للبحتري، فكانت كبيرة على نفس البحتري حتى عدها إحدى نوائب الدهر إذ يقول:

الحمد لله على ما أرى ... من قدر الله الذي يجري
ما كان ذا العالم من عالمي ... يوماً ولا ذا الدهر من دهري
يعترض الحرمان في مطلبي ... ويحكم الخزاز في شعري

وقد كان الخزاز كما وصفه ياقوت راوية مكثراً موصوفاً بالثقة أخذ عن أبي الحسن المدائني والعتابي، فما نحسب البحتري أنكر عليه النظر في الأدب والحكم على شعره من جهة اطلاعه وعلمه، ولكنه لا شك أنكره عليه من جهة استعداده الفني، ورحابة عواطفه، وسماحة طبعه. ولست ادري ماذا كان يقول أبو عبادة لو أمتد به الأجل ورأى الأدب يحتمل الرهق كل الرهق من (خزازين) كثيرين يتولون دراسة الأدب في مدارسنا المصرية وهم كجماعة المعلمين في قرطبة الذين تحدث عنهم أبن شهيد في قصة التوابع والزوابع ينحتون عن قلوب غليظة كقلوب البعران إلى فطن حمأة، وأذهان صدئة، لا منفذ لها من الرقة ولا مدب لها في شعاع البيان، وكل بضاعتهم من الأدب كلمات من غريب اللغة، وبعض مسائل من النحو والصرف وعلوم البلاغة لا يفهمون منها إلا ما يفهم القرد اليماني من الرقص
على الإيقاع، والزمر على الإلحان. فهم يتنكبون النواحي العاطفية في الأدب، ويقفون في تقديرهم عند الصور الجافة من الفن البياني يقدمونها لتلاميذهم فيجد التلاميذ في تناولها غضاضة دونها غضاضة المريض من تناول الدواء، الأمر الذي ألقى في روع أولئك المساكين أن الأدب العربي كله نمط واحد من الكزازة والجفوة والتشوفة والغثاثة والثقل، فانصرفوا عنه يطلبون متاعهم العقلي ولذتهم العاطفية في رياض الآداب الغربية، فإذا ما جلست إلى الواحد منهم وجدته من العلم بتلك الآداب بمكان، على حين لا تجده من الأدب العربي على بال، وتلك حال لو دامت فستكون الشر المستطير، والخطر الكبير

محمد فهمي عبد اللطيف

إلى مؤتمر نواب العرب
لبيك! لبيك! فلسطين
للأديب السيد ماجد الأتاسي

إذا كانوا يزعمون أن هذا العصر عصر الديمقراطيات والحريات والمساواة في الحقوق والواجبات، فهو إذن عصر المؤتمرات للأفراد والجماعات والهيئات. ومن الناس يأتمرون من مختلف الأمم، ويريقون على هذه المؤتمرات عواطفهم وميولهم،

وينفضون عليها آمالهم ومثلهم، ويحيطونها بالضجيج وفنون الدعاوى، فإذا الناس يتحدثون عنها إذا أمسوا وإذا اصبحوا، حين يكتبون، وحين يخطبون، وحين يسمرون، وحين يهذون. وقد تصبح هذه المؤتمرات ملء الدنيا وشغل الناس، وقد يكون لها نصيب من حق، وحظ من جمال، ونَسَم من مثل عليا، ولكنها - على هذا كله - تبقى مؤتمرات تضم طائفة من أهل الأرض!

. . .!ولكنها - على هذا كله - تبقى أرضية، أرضية

أما مؤتمر العرب اليوم، دفاعاً عن فلسطين، فهو نوع آخر من المؤتمرات فذ طريف؛ من طراز لا عهد لأبناء الأمم الأخرى به ولا قبل لهم بمثله. . .

هو مؤتمر برئ كرقصة العجوز، صادق كصلاة الطفل، رائع كحلم الحسناء، شريف كأغنية البطل في جوف الليل.

هو، يا أهل المشارق والمغارب، مؤتمر اشتركت فيه الأرض والسماء! وهل اشتركت الأرض والسماء في مؤتمر قبل اليوم؟.!

من يدري، أيها المؤتمرون؟ لعل الأرض لم تتصل مرة بالسماء، اتصالهما بالقاعة التي ضمتكم، تلك القاعة التي هيأتها الأقدار لتكون اليوم مهبط الوحي، ولتكونوا أنتم اليوم رسل هذا الوحي إلى العرب والمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها!. .

من يدري، أيها المؤتمرون؟ لعل مواكب العرائس من الحور العين كانت تمتد على حفافي طريقكم إلى قاعة المؤتمر مزغردات، هازجات، فأثارت على رؤوسكم الفل والياسمين والريحان، نافحاتٍ مواكبكم بأطياب العطور!. .

من يدري، أيها المؤتمرون؟ لعل أجنحة الملائكة كانت تخفق في جو القاعة المباركة، فتنفض عليه النور والقوة، والهناء والثقة؛ ولعل أرواح الأنبياء كانت - إذ وطأت أقدامكم عتبتها - تفوح حمداً ودعاءً، احتفالاً برسل الأخوة، وقيام الدعوة مرة أخرى إلى (حِطِّين) ثانية!. . آيات من وحي السماء كانت

من يدري، أيها المؤتمرون؟ لعل آيات من وحي السماء كانت تتنزل على شفاهكم حين تكلمت قلوبكم من على المنابر الخاشعة، فخنس - إذا تكلمت - الشيطان، وارتعد الأرعن العجلان، وكبَّرت وهللت - إذا تعاهدتم - الأرض والسماء وملائكة الرحمن!. .

اليوم تأتمرون، وتصلون لأجل فلسطين، يا بقايا السيوف، وأحفاد الفاتحين. .

واليوم تتلفت فلسطين المفجوعة، ترسل النظر الحائر الدامع إلى قبلة الهرم، ترتقب من قاعة المؤتمر ومضة النور، ونفحة القوة، ودعوة الجهاد؛ وجبل النار، جبل النار الذي صهرته الشدائد، وهدته النوازل، وطهرته الدماء، واجتاحته النار ليكون روضة من رياض الجنان، يرتقب اليوم من مؤتمركم قطرات الندى لزهره الذي ذوي، وانبعاث الربيع لربعه الذي أقوى، وانتعاش الحياة في هيكله الذي يضوي.

اليوم، تأتمرون، وتصلون لأجل فلسطين، يا بقايا السيوف، وأحفاد الفاتحين!. .

واليوم، ترنو إليكم - في إسارها ومحنتها - بضراعة المهان، وانكسار الذليل، واستغاثة المصاب، ابنة عم قيدوها عند صخرة المسجد الأقصى، ومهد المسيح

اليوم تمد يديها إليكم، وقد بهرتها الشدائد، وفدحتها المصائب، وأجهدها اللغوب؛ وأبناؤها المدافعون بالأيدي عنها، يتساقطون - والهف نفسي عليهم - بالقرب منها عزلاً واحداً بعد واحد، وزمرة بعد زمرة، مشردين في مجاهل المفاوز، وخوادع السبل، بين شاب كزهر الصبح معفر الوجه - واحسرتاه - بالرمال، وشيخ يلفظ النفس في شعاف الجبال، وطفل يتضور جوعاً في الحصار، وفتاة كالبدر تبكي مروعة في الأسحار، وفارس يصبح ويمسي كل يوم في ميدان، لحافة السماء ومهاده صهوة الخيل، وقوته الأعشاب، يذب عن ثاني القبلتين وأيكة الأنبياء والأقطاب، وخميلة الوحي والإيمان، وعروس الأديان في كل زمان، يذب عن عذارى العرب المروعات، يذب عن الأعراض والحرمات، يذب عن الشرف العربي خشية أن يهان، يذب واهباً لله نفسه، والوطن روحه، والعروبة ماله، فاتحاً ذراعيه للقاء العرائس الملوحات له من وراء النظر وقد فتحن له باسمات مزغردات أبواب الجنان، ففاحت عطورها، وتضوعت زهورها، وهبت نسائمها، وصدحت طيورها، وكبرت وهللت

سدنتها يباركون (العريس) الجديد، يباركون الزائر القادم، يباركون هذا الجندي الفارس الملثم من جنود صلاح الدين. . .!

اليوم تأتمرون وتصلون لأجل فلسطين، يا بقايا السيوف، وأحفاد الفاتحين!

واليوم أنتم اليد الملائكية الناعمة، تمتد في هدأة الليل، لتكفكف دموع ذلك اليتيم العربي الهائم على وجهه في فيافي بئر السبع؟ يفتش عن جثة الأب الشهيد!
أنتم اليوم قطرات الندى يتساقط في غلس الفجر على قبور الشهداء فترف على زهرات هذه القبور؛ تلك الزهرات التي رويت من دم قلوبهم فتفتقت - في رواءها ونضرتها - رمزاً حياً لأمانينا ومثلنا، رمزاً لأماني العروبة المجاهدة في فلسطين!
أنتم اليوم زمجرة الثأر تعصف فتهتز لها طرباً عظام الشهداء الهاجعين في سفوح الجبال، وترقص عليها النسوة المروعات في الأسحار!
أنتم اليوم لمعة النور تومض في معامي الأفق الغائم، فتهفو لها قلوب المؤمنين الآمنين المحاصرين في أجواف الدور، وشعاف الجبال، في فلسطين!
أنتم اليوم بسمة الأمل لمن خلف المجاهدون في فلسطين وراءهم من شيوخ وأطفال ونساء!
أنتم اليوم، لحن العزاء لهؤلاء الشيوخ المكابدين لواعج الأحزان على حرمات تنتهك، ونفوس تزهق، ووطن يستباح، وشعب يموت، وحق يهضم، لسواد عيون شعب (مدلل) جميل، لسواد عيون الحسان من بنات صهيون!
أنتم اليوم شبح القصاص يطارد، بعد موهن الليل. بنات صهيون المجررات عند الأقصى أذيال الخطايا والآثام!
أنتم اليوم حلم الخلاص الجميل يداعب جفون العذراء العربية عند مهد المسيح الغارقة في غفوة الأحلام؟
أنتم. . . أنتم. . . وإن لم يكن بيدكم هذا السوط الذي يهزه اليوم هتلر وموسوليني في وجههم. . . فإذا هم كالأنعام. . .
أنتم. . . أنتم. . . وفيكم اليوم ما يخيف: فيكم تاريخ يثور، وماض يبعث، وحاضر يتوثب، ومستقبل يتوعد، وعلى لسانكم - فوق هذا وذاك - حق يتكلم
والمجرم، المجرم، يا قوم؛ هو أجبن خلق الله وإن كان أقوى الأقوياء! هو يحمل اللعنة في ثيابه، وإهابه، ويرن أبداً بين أذنيه صوت القصاص. . .
أنتم. . . أنتم. . . وفيكم اليوم ما يخيف: اليوم يعلمون حق العلم أن هؤلاء الذين أمامهم هم هم الذين عرفوهم، منذ قرون تحت أسوار أورشليم. واليوم يعلمون حق العلم أن أولئك الفرسان الذين يسابقون الريح في خطوط النار، هم هم الفرسان الذي كان يرتفع غبارهم وراء رايات صلاح الدين في حطين. . .
وكل عربي اليوم صلاح الدين. وكل بلد عربي اليوم حطين
أيها المؤتمرون:
أتقولون اليوم: إن فلسطين لأهل فلسطين، وأن ما يقترف في فلسطين اليوم دونه مآسي تيمورلنك، ونيرون، وجنكيز؟ أم تقولون أن العرب لن يرضوا بعد اليوم بعَظْمة يهودي صهيوني واحد ترمى في فلسطين؟! هذه العظمة المنتنة التي عافتها أنوف العالمين، أتقولون هذا؟ حذار! حذار! فالسلم العزيز الرهيف النحيف إذن (يتوعَّك والتوازن الدولي الجليل الحسَّاس يختل ويغضب، والدنيا تصبح في خطر، وأصحاب الضمائر والعهود الصادقة لن يرضوا في حال من الأحوال أن ينكثوا بعهد قطعوه، ووعد منحوه على حساب شعب برئ آمن مطمئن!
السلم، والمدنية، وحق تقرير مصير الشعوب؛ كل هذا هو الحسان اللواتي لسواد عيونهن قاموا وقعدوا، وأرغوا وأزبدوا، يوم حطم موسوليني تحت سنابك خيله أعرق تاج في ربوع الحبشة
واليوم لسواد عيون هذه الحسان نفسها، يجلون في فلسطين شعباً كاملاً عن وطن آبائه وأجداده ليحلوا محله حثالات الشعوب فهم يخربون المدن، ويقطعون السبل، ويحاصرون الآمنين، ويروِّعون النساء، ويقتِّلون الأطفال. كل هذا لأجل السلام! ووفاء بالعهود والوعود!
أفتدرون، يا قوم، ما الفرق؟
الفرق هو أن يد موسوليني يد قاسية تؤلم إذ تضرب وتوجع. . وأما يدهم فناعمة رهفة، فهي - إذ تضرب - كأنها تربت وتلاعب وتغازل. . .
إذن اضربونا، اضربونا ما أجمل هذه الأيادي وما أشد نعومتها!. . وما أحلى ضرباتها، يا

منصفون!
أيها السلم، أيها التوازن الدولي، أيتها المعاهدات والوعود! أيتها الحسان الزرق العيون، يا معبودات تشمبرلن وديلاديه خذوني، وضموني بين ذراعيكم إلى صدركم الجميل!. .
يا لله، ما أعجب شأنكن! أنتن في أحلام الشعراء، وعلى ألسنة الساسة، وفي كتب القانون، تلك (المروحة) أمام وجه الإنسانية الثائرة المحمومة، تخفف عنها وطأة الحر والحمى!. . أنتن عند هؤلاء رسل الحب والقبل بين الناس. . . وأنتن - في الواقع الملموس - ذئاب تعوي، وأرانب تفر، وثعالب تمكر؛ بل أنتن هذا الثوب الفضاض الجميل الذي يحيكونه في لندن وباريس ليحجبوا به عن الأعين الدم القاطر من أيديهم!
أنتن - كما قيل - (القفاز الأبيض في اليد الحمراء)، (أنتن النقاب الخادع يستر الوجه الكاشر، والطرف الغادر)، (أنتن حجة ذئب (لافونتين) يفرضها على الحمل الضعيف)، (أنتن معاني الظلم والعنف واللصوصية والاغتصاب تختبئ في مصطلحات القوانين!. .
أنتن. . أنتن كل ما بلغت الإنسانية، بعد جهاد قرونٍ، من قدرة على الكذب والتمويه!
سمعنا، يا حسان؛ أن أباكن ويلسن، هذا السياسي الطيب القلب سياسي الكتب والأحلام، قد أقام لكن هناك على ضفاف بحيرة (جنيف) الساحرة مقراً منيفاً ترسلون منه إلى العالم أجمع قبلات الحب والأخوة، ورسائل السلام والوئام، وتبعثون منه، وإلى السماء صلوات المثل العليا!. .
أيها الطيب القلب، الغافي في هدوء الضمير،
اسمعنا من هنا، أسمع أنات عانينا، ونشجات باكينا، وضجات جناحنا المهيض.
اسمعنا: أن هذا القصر الذي شدته بيديك الطاهرتين المشبوبتين ليكون هيكلاً مقدساً لصلوات نسَّاك الحب والمساواة والسلام، أصبح اليوم حانة من حانات الليل، تدار فيها خمور الشهوات، وتدفع بالثملين معربدين في أجواء العالم، وبقاع الأرض، عائثين فيها كاشرة أنيابهم، محمارة عيونهم، مفتحة خياشيمهم، معكرين على الإنسانية صفوها، منغصِّين عليها أحلامها!. .
أصبح اليوم داراً من دور الميسر تلهو به الأمم الكبيرة لا الأفراد، و (الروليت) هناك تدور وتدور، و (القبيش) يرتفع ويهبط، وهي في هذا الدوران والارتفاع والهبوط تدور معهما
وترتفع وتهبط لا أموال الأفراد، ولكن - واحر قلباه - مصائر الشعوب، ومقدرات الأمم والضعفاء!. .
أصبح اليوم: سوقاً يأوي إليها تجار الرقيق (بالجملة) (ليتساوموا) فيه، ويتبادلوا، ويتهادوا!. .
أصبح اليوم مأوى للذئاب الخائفين من شرور أنفسهم! والآن، أيها المؤتمرون، إن فلسطين تناديكم.
تنادي المتربعين على عروش الذين كانت تصهل خيولهم، وتلمع أسنتهم، ويرتفع غبارهم، تحت أسوار أورشليم!. .
فمن يكون اليوم منهم صلاح الدين؟
من يكون اليوم منهم (المعتصم) لينقذ اليوم ألف عربية بين أيدي الجنود تنادي من وراء قضبان الحديد، في غلس الليل (وا معتصماه!)؟
أيها المؤتمرون، أيها الملوك، أيها الأطفال، أيها الشيوخ، أيتها العجائز، أيها العرب، أيها المسلمون: صلوا حين تأوون إلى فراشكم وحين تصبحون، لأجل فلسطين!
صلوا حين تجلسون إلى موائدكم لأجل المتضورين جوعاً في فلسطين!
صلوا حين تجلسون إلى أولادكم لأجل اليتامى المشردين في فلسطين!
صلوا حين تجلسون إلى نسائكم لأجل الأرامل المروَّعات في فلسطين!
صلوا: لأجل الشهيد العربي المجهول الهاجع بين وكور النسور في جبل النار.
صلوا لأجله: فهناك من تراب النبي حفنة، ومن البقيع الأطهر قطعة، ومن الفراديس روضة، ومن رضى الله بسمة ومن البركان نفحة.
صلوا، صلُّوا لأجل الشهيد العربي في فلسطين.
(حمص - سوريا)
ماجد الأتاسي

وأنى للرئيس أن يستمرئ الراحة أو يهفو إليها حتى يفرغ من رسالته؟ لذلك فهو يجعل للعمل وقته جميعاً لا يكاد يدعه لحظة وكان له في هذا الجهاد الأكبر خير عون من عافيته وقوة بدنه، فلقد بنته الغابة كما تبني دوحاتها العظيمة، كأنما كانت تهيئه لهذه العظائم. . .

ولم تكن الحرب وحدها هي كل ما يحمل الرئيس من عبء، فلقد كان له ممن يعمل معهم من الرجال، كما كان له من اختلاف الأحزاب وتبلبل الرأي العام أثقال فوق أثقاله.

وهناك عدا ذلك موقف الولايات الوسطى التي عرفت باسم المحايدة فكان يخشى الرئيس أن تنظم إلى الاتحاد الجنوبي فتزيدهم قوة وعزماً ولن تكون تلك القوة في الوقت نفسه إلا خسراناً لأهل الشمال. . .

ثم هناك موقف أوربا من هذا النزاع. . . وهو أمر له خطره يحسب الرئيس له ألف حساب، وإن كان سيوارد لا يرى له أول الأمر ما يراه الرئيس من خطر.

ولم يترك الناس رئيسهم يعمل لقضيتهم الكبرى فحسب، بل راح الكثيرون يطرقون بابه يرجونه ويسألونه إلحافاً، فهذا ممن ساعدوا الحزب الجمهوري يطلب من طريق خفي أن يكافأ على خدماته. . . وذاك يطلب وظيفة يأكل من راتبه فيها. . .

والموظفون في البيت الأبيض يعجبون من هذا الرئيس الذي لا يجعل فرقاً كبيراً بين قاعة الحكم هناك وبين حجرة مكتبه في سبرنجفيلد. .

لقد جعل للناس يومين كل أسبوع يلقاهم فيهما جميعاً لا يوصد بابه في وجهه أحد، وإنه ليستمع إلى كل ذي حاجة، فأن استطاع أن يمد إليه يد المساعدة دون أن يجوز بذلك على القانون لم يتردد أو يتأخر. وكثيراً ما كان يجعل الرحمة فوق العدل، إذا رأى نفسه بين أن يعدل فيقسو أو يرحم فيميل بعض الميل. . . ولكنه في ذلك لا يسئ إلى الخلق أو يتهاون في قاعدة جوهرية وحاشاه أن يفعل هذا أو ما هو دونه. . .

ولن يضيق صدره بذوي الحاجات لديه، مع أنهم كانوا يلقونه على السلم، ويقفون أمام غرفته صفوفاً خلف صفوف، بل كثيراً ما كانوا يستوقفونه على الطريق ويزحمونه. . .

ولكنه من الكاظمين الغيظ. . ولن يستطيع قلبه الكبير أن ينهر السائل فيزيده بؤساً على بؤسه، وهو الذي عرف اليتم منذ حداثته وذاق الشقاء ألواناً. . .

على أنه مهما بلغ من رحمته وبره بالمساكين، يعرف أساليب الماكرين، فلا ينخدع بما يراه من ادعاءاتهم فيصرفهم بالحسنى وإلا فبشيء من الشدة يشبه التأنيب ويراد به الزجر. . . دخل عليه رجل كسرت ساقه يسأله عملاً إذ فقد رجله في الحرب، فسأله الرئيس أيحمل أية شهادة أو دليلاً على صدق دعواه، ولكن الرجل لا يحمل شيئاً، فصاح به الرئيس قائلاً: (ماذا؟ ليس لديك أي أوراق أو أي شهادات أو أي شيء يرينا كيف فقدت رجلك. . . فليت شعري كيف أتبين أنك لم تفدها في فخ وقعت فيه وقد سطوت على بستان غيرك. . .)

ويعجب القائمون على الحكومة كيف يطيق الرئيس وقد ملأت وقته الأحداث الجسام أن يلقى هؤلاء الناس ويستمع إلى مثل هذه الأمور الصغيرة وكان جديراً به أن يكلها إلى غيره. . . ولكن أليس هو من الناس؟ أليس هو خادم الجميع قبل أن يكون رئيس الجميع؟ وهل يغير المنصب ما فطرت عليه الأنفس الكريمة من كريم الخصال؟. . .

هاهو ذا ابراهام النجار تراه في البيت الأبيض ولم يزل هو هو، وداعة في قوة، وتواضع في عزة، ورقة في وقار. . . ومن وراء ذلك قلب تسع رحمته شكوى الناس جميعاً، قلب لا يتهنأ ولا يفرح إلا إذا صنع المعروف وأدلى الجميل فأفرح القلوب وأدخل عليها الهناءة.

وما كان أعظم الرئيس وأجمل خلقه حين يلقى في الطريق إلى غرفته أحد معارفه

ممن لاقاهم قبلُ في مضطرب الحياة، فيقف يضحك وإياه ويده على كتفه ويسأل عن أمره وأمر أسرته. . .
ولقد يأخذه معه إلى قاعة الرياسة فيذكر له الأيام الماضية حتى ما يشعر الرجل أنه بين
يدي رئيس الولايات المتحدة
ثم ما كان أعظم الرئيس حين كان الفقراء يستوقفونه في الطريق فيقف ليستمع إليهم وليكلمهم كأنه أحدهم، فلا ترفع ولا كبرياء. ولن يستنكف الرئيس أن يطيل الحديث أحياناً عله يستطيع أن يكفكف بكلامه شيئاً من دموعهم ويخفف بالعطف عليهم بعض آلامهم. . ولئن كانت هل حيلة إلى أجابتهم إلى ما سألوا فما هو عن ذلك بضنين
ولقد كان ينكر عليه مسلكه هذا بعض موظفي البيت الأبيض. ولكنهم حين كانوا يزعمون أنه لا يليق ذلك بمن كان في مثل مركزه كان يغيب عنهم أنه لا مسلك غيره لمن كان له مثل قلبه. على أنهم لم يلبثوا أن أكبروا الرئيس وأعجبوا بخلاله، وأصبحوا لا يرون أي مأخذ عليه، وأصبح من المناظر المألوفة عندهم أن يدخل أحدهم ببطاقة للرئيس فيراه ينهض بنفسه إلى خارج الحجرة يلقي مرسلها مرحباً ضاحكاً. . . أو أن يروه يأتي بنفسه إلى الحاجب فينهره حين يسمعه يمنع طالبي الدخول عليه. . .
أما الوزراء وكبار الموظفين وقواد الجيش فقد اعتادوا أن يروا الرئيس يسعى إليهم أحياناً بدل أن يدعوهم إليه. . وكثيراً ما كان يلتفت الواحد منهم فإذا حاجبه مقبل يعلن إليه أن الرئيس على السلم أو في طريقه إليه
ويدخل الرئيس فيجلس إلى مرؤوسه يستفهمه عما يريد وينصت إليه؛ فان كلمه مرؤوسه في أمر فني كلام الأخصائي، لا يستنكف الرئيس أن يستوضحه وكأنه منه التلميذ حيال أستاذه؛ ويعجب المرؤوسون من هذا الرجل الذي لا يدعي أبداً العلم في أمر يجهله، والذي يفهم ما يُبَيَّنُ له في فطنة وسرعة
ماجت واشنجطون بالمتطوعين حتى أصبحت المدينة معسكراً عظيماً، ولكن الرئيس يعوزه القواد. . . وإنه ليطيل التفكير فيمن عساهم أن يصلحوا للقيادة في هذا النضال الهائل. . إن على رأس القوات الآن القائد سكوت ولكنه شيخ كبير ناهز الخامسة والسبعين، والموقف يتطلب قائداً فتياً يبث من روحه في قلوب جنده ويمشي بهم إلى النصر. . . ألا ليت القائد لي لم يرفض ما عرض عليه، ولكن بئس ما فعل لي فلقد أنضم إلى الثائرين وأصبح ن أكبر قوادهم
فكر الرئيس وتدبر. وأخذ يقلب الأمر على وجوهه والرأي العام من حوله يزيد موقفه صعوبة، فلكل حزب رأي، ولكل جماعة فكرة، ولحكام الولايات آراؤهم وإلا توقفوا عن إرسال الجنود. . والرئيس يهيئ له الناس بسكوتهم الجو ليختار قواده على أساس الكفاية ولكنهم لا يفعلون، وهو لا يستطيع أن يغضب تلك الجهات في هذه الظروف القاسية، بينما هو فيالوقت نفسه لا يستطيع أن يرضيهم جميعاً
ويستعرض الرئيس الموقف الحربي، فيجد القائد ماكليلان قد وفق في أعماله في فرجينيا الغربية، ويسمع الثناء عليه من جهات كثيرة حتى لقد سماه نابليون الجديد. . . ولذلك يدعوه الرئيس ويعينه قائداً عاماً للقوات في فرجينيا
وتتجه الأنظار كلها إلى القائد ماكليلان فهو شاب في الرابعة والثلاثين؛ وفيه كثير من الصفات التي تحمل الناس على محبته؛ فله حسن السمت وهيبة الطلعة وروح الشباب؛ وله من صغر جرمه ما يشبه به نابليون، وكذلك له من صفات نابليون بريق عينيه ومضاء عزيمته وتوقد حماسته
وسرعان ما تعظم شهرته حتى يجري اسمه على الألسن جميعاً؛ وكم له في الحياة من أشباه ممن قامت شهرتهم على أوهام الجماعات ولكن لعل الأيام تثبت جدارته، فإن الأعين والقلوب متفقة على الإعجاب به
على أن للشباب نزاعاته ونزواته، فهذا القائد يدل بجاهه من أول الأمر، حتى ليعد نفسه الرجل الوحيد الذي يستطيع أن ينقذ البلاد مما هي فيه. . . ولقد شايعه في هذا الزعم كثير من الناس. . . حتى رجال مجلس الوزراء قد عظمت ثقتهم فيه إلى حد إنهم كانوا يميلون إلى جانبه أحياناً إذا هو رأى ما لا يرى الرئيس والرئيس يتذرع بالصبر ويتغاضى عن ذلك في سبيل ما يعقده من الآمال على ما عساه أن يأتي به ذلك

الشاب
وأخذ القائد الشاب يدرب مائتي ألف رجل على حدود فرجينيا، وقام بذلك العمل على خير ما يرجى، ولكنه أطال التدريب وأطاله حتى تسرب الملل إلى الرأي العام فضاق بما يفعل فإن الناس كانوا يستعملون الزحف؛ وكذلك ضاق الرئيس ذرعاً، ولكن ماكليلان يعد الناس أنه ستعد لحركة عظمى سوف تطفئ نار الثورة
وشاع في الناس أسم قائد أخر هو القائد فريمونت، ولقد كانت له مواقف محمودة في الجهات الغربية يومئذ، وكان هذا الرجل من قبل أول مرشحي الحزب الجمهوري للرياسة
فله بذلك في الناس منزلته وخطره، وله في قلوب الساسة وأولي الرأي نفوذ كبير ولن يقل فريمونت عن ماكليلان اعتزازاً وترفعاً، فهو يحيط نفسه بفرقة من الحرس، ويرقي بعض الجند دون أن يرجع إلى الرئيس وهو بحكم مركزه القائد الأعلى لقوات الدولة. . . وكذلك يتباطأ فريمونت في الرد على البريد القادم من العاصمة. . . ولن يقف الأمر عند ذلك، بل تأتى الأنباء أن فريمونت ينوي إقامة اتحاد ثالث في الجهات الشمالية الغربية
ولكن الرئيس لا يصدق هذه الأنباء فهو واثق قبل كل شيء من إخلاص الرجلين لقضية الاتحاد، وإلا فما كان ليضعهما حيث وضع مهما يكن من الأمر
وأحاط فريمونت نفسه أول الأمر بجو من السكوت، ولكنه ما لبث أن أذاع قرارا خطيرا اهتز له الرئيس وتبرم منه وضاق به، وذلك أن القائد أنذر أهل مسوري في أخر شهر أغسطس عام 1861، أي بعد قيام الحرب بنحو أربعة أشهر أنه ينفذ قوانين الحرب في الولاية، ولذلك فهو يحدد منطقة يجعلها محرمة، يعدم كل من يحمل السلاح فيها ضد حكومة الاتحاد وكذلك يعلن القائد أن كل من تحدثه نفسه بالثورة من أهل الولاية جميعاً يكون جزائه مصادرة أملاكه وتحرير عبيده إن كان له عبيد. . .
ارتاع لنكولن للقرار وتربد وجهه وأوشك أن ينفذ صبره، وكان يلاحظ من يرونه غداة هذا القرار علامات الهم الشديد على محياه، ولكنهم كانوا كذلك يلمحون إمارات العزم والصلابة ودلائل الحزم والثبات
انزعج الرئيس لإثارة مسألة العبيد في تلك الآونة، فلقد جعل مبدأ الحرب من أول الأمر المحافظة على الاتحاد، حتى تكون قضية دستورية لا عيب فيها، وبذلك تجد سبيلها إلى القلوب وتستنهض الهمم بما تثيره عدالتها من حماسة ولا تدع سبيلاً لأحد أن يتهم أهل الشمال بأنهم أوقدوا النار ما أجل أغراضهم وعواطفهم في مسألة العبيد. . . وكذلك كان يتحاشى الرئيس إثارة تلك المسألة حتى لا تثور الولايات المحايدة وتنظم إلى أهل الجنوب، ويفقد الرئيس كل أمل في ضمها إلى جانبه، ومن تلك الولايات مسوري نفسها فقد كان فيها كثير ممن يقتنون العبيد، وأهم منها وأعظم خطراً كانت ولاية كنتولي التي ينتمي إليها الرئيس منذ نشأته، فلقد بذل الرئيس كل ما في وسعه للمحافظة على مودة أهلها لتنضم إلى
جانبه أو لتبقى على الأقل محايدة، فلموقعها الجغرافي في الحرب شأن أي شأن ولكن هذه السياسة الرشيدة العاقلة التي جرى عليها الرئيس ما لبثت أن طاح بها ذلك القرار الطائش؛ فسرعان ما هاجت الخواطر في تلك الولايات المحايدة، وسرعان ما جزع كثير ممن يسلمون بنظام العبيد من أهل الولايات الشمالية
وعظم خطر هذا القرار حتى أصبح نقطة تحول جديد في الموقف كله. . . ونظر الرئيس فإذا هو تلقاء عاصفة شديدة من الرأي العام، فأن دعاة التحرير وأعداء نظام العبيد ما لبثوا أن هتفوا بالقائد الجريء الحازم، وراحوا يمتدحون خطته بقدر ما يعيبون على الرئيس تردده وخوره
وانطلقت الصحف تدعوا الرئيس أن يقر فريمونت وأن يحذو حذوه فيعلن قراراً عاماً ينطبق على الولايات الثائرة جميعاً. ولما وجدوا منه الأعراض والغضب، عصفت برؤوسهم النزوات وراح بعضهم يدعوا إلى إرغام الرئيس على الاعتزال ووضع فريمونت في مكانه
ويتطلع الرئيس بعينيه الواسعتين فإذا بوادر الفرقة والتنازع تكاد تقضي على قضية البلاد، إذا العاصفة تشتد وتشتد؛ ولكنه الرجل الذي لم يخلق له الفزع؛ وهل يذكر أنه خاف العاصفة يوماً ما حينما كانت تنطلق عاتية مدوية فتهتز لها أرجاء الغابة، وهو

واقف منها موقف المتفرج؛ ذلك الموقف الذي ما كان يطيقه صبي في مثل سنه إلا إذا كان مثله من بني الأحراج الذين ألفوا ملاقاة العواصف؟ . . .

(يتبع)

الخفيف

خاطر

رفائيل

الدنيا ذات الطهر والسحر

(مهداة إلى لجنة إنهاض اللغة العربية)

للآنسة الفاضلة ف. ن

كنت أود لو أن الصديقة التي قضيت معها ساعات القيلولة من كل يوم طيلة أيام الربيع الماضي، تحكي هذا الذي أريد أن أحكيه عنها وعني، فلقد كانت حافلة بموضوع الحديث، مشوقة للبحث فيه، هيَّابة لذكراه، إذا ما أقدمت على طرقه فكأنها تقدم على طرق حديث من عند الله. . . وما كانت لتنساه، ولم يكن لها مجال لتنساه وأنا معها ليلَ نهار!

- رفائيل أيضاً؟.

- أيضاً رفائيل!.

هكذا كانت تبتدرني كلما لقيتني في فناء المدرسة أو في ناحية من نواحيها، متأبطة كتاب رفائيل، وهكذا كنت أرد عليها وأردف بابتسامة تفهم معناها الذي في قلبي. . ثم أسير عنها، فإذا بها تتبعني. كأني أحمل قوة من السحر تجذبها من غير أن تدري! وأدرك ناحية هادئة اعتدتها فأحتل مكاناً لي فيها كفلته خالياً كثرة جلوسي هناك، فإذا بها قربي. . وأتجاهل ما تريد فأصمت عنها وهي ترتقب حركة مني، حتى إذا وثقت من إصراري على الصمت صاحت بي وقد نفد صبرها (افتحي!) فأبتسم. . وأفتح. . . ونقرأ الكتاب الذي أعجز عن عدّ المرات التي قرأناه فيها وكأننا نقرأ لأول مرة. وتستوقفنا المعاني الرائعة فتفلت من صدرينا آهات خافتة هي التأثر، وهى الإعجاب، وهي صدى الروعة في النفس وفعلها في الشعور! ونغرق في السحر الذي يفيض من قلبينا حتى يغمرنا، ونذهب في سكرة لذيذة لا نصحو منها إلا على صوت الجرس، معلناً انتهاء ساعات الفراغ، فينال من لعناتنا ما ينال ونحن في حنق عليه!

هكذا بدأت أيام إعجابها الأولى بالكتاب، ثم سارت - هذه الأيام - في طليعة أيام بعدها، حفرت لها في قلبينا أثراً بعيداً لن تمحوه الحوادث مهما جارت!. . تلك كانت ساعات القيلولة في الربيع الماضي، عندما تجد أثر النعاس اللذيذ في كل جفن، على الرغم من توسط الشمس قبة السماء بهيجة ساطعة؛ وعندما تلمس روح الهدوء في كل حي، كأن الكل شعراء يحلمون!

هكذا كان حَفَلها بالكتاب عظيماً وأنا أطلعها عليه للمرات الأول. على أنها لا تفهم العربية الفصحى جيداً، فكنت أتناول عميق المعاني بالإفصاح والطلوع بها إلى سطح معرفتها باللغة - وفي هذا ما فيه من تشويه - فلا تتمالك نفسها من أن تقول والدهشة تملأ فاها (أهذا السحر في العربية؟) فأجيب (بل وفي قلم الزيات أيضاً!)

ما كانت تدري أن في العربية سحراً، وقد شبت جاهلة بها. وهي وإن كانت عربية فيها دم فارسي إلا أنها تجيد الفرنسية قبل كل لغة (هكذا شاءت إدارة المدارس الفرنسية، وهكذا خضعت حكومات البلاد العربية لهذه الإرادة القاسية!)

لقد عرفتها قبل أن أعرفها (برفائيل) بثلاثة اعوام، أطلعتها فيها على كثير مما جادت به القرائح والأقلام العربية فأعجبت بالكل وذهلت برفائيل! ولم يكن هذا الإعجاب الطاغي، أو هذا (الذهول) ليغمط حق سائر الكتب التي اطلعت عليها. فلكل طريقته وأسلوبه ورائع معانيه، إنما في (رفائيل) روح لا توجد في سواه، روح عالية سماوية ليس فيها من نزعات الأرض واحدة!

- ماذا؟ أصديق جديد؟

قالت عندما رأت (رفائيل) في يدي لأول مرة. . كلمتان اعتادت أن تقولهما كلما رأت في يدي كتاباً جديداً. .

قلت: لا، بل معلم مجيد، بل عالم سماوي ليس فيه خبث ولا دنس. أنه (رفائيل) روح من السماء كما كانت في السماء. .

كنت أود لو أن الصديقة التي قضيت معها الساعات الغارقة في الإعجاب، المتسامية بروحينا عن عالم وضيع إلى دنيا ليس فيها حياة إلاَّ الطهر والسحر. . كنت أود لو أنها تحكي هذا الذي حكيته، إلاَّ أنها بعيدة. . وإلاَّ أنَّ هذا الخاطر هاج فيّ ولا أظنه هاج فيها، وذلك لنظري إلى الكتاب لا كنظرتها فقط إنما هناك عوامل أخرى، تخلق فيّ نظرةً أخرى، تقيم الخشوع في نفسي كلما ذكرت شيئاً من الكتاب أو قرأت فيه شيئاً. .
أنا عندما أقرأ مأساة رائعة أبكي ويعتصر الألم قلبي فألازمه أياماً. . وعندما أقرأ صفحة في البطولة، تهيج في نفسي عوامل الشعور بالقوة في الروح وفي الجسم وفي الأماني، وفي كياني كله. ولكني عندما أقرأ (رفائيل) أحسُّ عالماً جديداً في داخلي، وعالماً جديداً حوالي!
سواء علي أوثق القراء بما أقول أم لم يثقوا، فحسبي أني أصف خاطراً في نفسي أهاجته خواطر في نفوس الغير. . سواء علي أوثق القراء من أني لم ألقَ تهذيباً في البيت أو في المدرسة من أمي أو من مدرَّساتي، أو من أية ناحية من نواحي الحياة بقدر ما ألقي في صفحة. . بل في بضع جمل من رفائيل!. سواء أوثق القراء أم أبوا فأني أقول هذا للحقيقة لا للدعاية - وهل يحتاج مثل رفائيل للدعائية؟
كل ما في نفسي من غرائزها البشرية الرديئة، كل ما فيّ من أثرة وحسد وبغضاء ونزوات دنيئة، كلها تموت وتتلاشى إذا ما قرأت في رفائيل صفحة. . وأعود لا أرى في الدنيا وفي قلبي إلا المعاني الجميلة، الدنيا الطاهرة التي في رفائيل. . وأعود لا أرى الحبَّ إلا عذرياً نقياً كحب رفائيل. . ولا أرى الصداقة إلا بريئة من كل شائبة كصداقته. ولا أرى العفة في كل عاطفة إلا عفته، ولا الدنيا الصادقة إلا دنياه؛ ولا الحياة الزاخرة بوجدان حي إلا حياته. ولا أرى المثل الصادق للتهذيب الذي يدخل النفس من حيث لا تشعر فينقيها ويجلو محاسن ربها فيها، ويهيئها لعالم كل مادته ومعناه وجدان طاهر وعاطفة بلا شائبة، ذلك التهذيب اللين الجارف في غير قسوة ولا تشديد، إلا في كلمات يلقيها رفائيل في الحس فتمهد الدرب، في غير صعوبة، إلى أعماقه. . وفي جمل رائعة يصف فيها حبه وحياته وآلام قلبه فتحس جلده على تحمل آلام اليأس الذي ما كان ليراه يأساً. . وصبره على حرمانه الذي يجد فيه كل المتع، ويلقى فيه من السعادة ما يحمله على الهزء بأسباب لذاذات الناس أجمعين، لذاذات فانية تشمئز من أصحابها. .
كذا يجب أن يكتب الكاتب، وكذا يجب أن يقولوا للناس كباراً وناشئة. . إذ ذاك يكونون قد عرفوا عظم مسؤولياتهم تجاه الجمهور القارئ. وإذ ذاك يكف النقاد عن صيحتهم: (اتقوا الله فيما تكتبون فان عليكم تبعة الأثر الذي تتركونه في النفوس. .) كذلك فليكتب الكتاب، وإذ ذاك يقال عنهم إنهم مخلصون جد مخلصين، وإذ ذاك يكونون أصحاب رسالات في الإصلاح والتهذيب لكل جيل وكل جنس وكل روح:
هذا كتاب للتهذيب!. لعل صاحبه يوم كتبه لم يقصد به إلى هذا، إنما كذلك كانت نفسه، وقد أراد به التعبير عنها ووصف ما خالجها فجاءت هذه الصفحات الرائعة من حياة الوجدان والقلب. وإنما قصد به إلى هذا مترجم تلك الصفحات وناقلها إلى أمته أصدق نقل في أروع أسلوب وأعف حديث. . وأي بلاغة في القول المهذب أعظم من قول رفائيل في معنى (كان حبنا ينمو كل يوم دون أن تمسسه يد النقصان أو الفناء، لأننا كنا لا نقطف ثماره بل ندعها حية يانعة تنمو وتنمو!.) وأي معنى أروع في تهذيب العاطفة من غضبة الشاعر على حبيبته يوم أظهرت له تحسرها على شبابه وأيامه تنطوي بهذا الحرمان في حبها، تلك الغضبة التي تشتد وتحتد، حتى يترك القارئ وفي نفسه أنه لا يذوق لذة فانية من حب مهما تيسر له ذلك، لأن الحب هو لك الذي في قلب رفائيل وحبيبته ليس إلا.
هذا خاطر في النفس أهاجته خواطر في نفوس الناس. . وأن النفس من رفائيل لعوالم، وأن أثر الصفحة منه في الروح كتب. . وأثر الجملة أحلام، وأثر الكتاب تهذيب وصقل وبلاغة قول، وسلامة منطق!. ولا يفكر في ترجمة رفائيل إلا ذو نفس كنفس رفائيل! فهل يشكرها الجمهور على هذه الخدمة الصادقة، أم يشكر ربها الذي براها؟!
وبعد فأن في صدر الساعات الدافئة من الربيع الذي مات، أثراً من آهات خافتة كانت صدى الروعة في النفس، وعمل (رفائيل) في الحس؛ حملتها نفس (الربيع الذي مات) إلى جنة الخلد. . إلى رفائيل!. .

(البصرة)
الآنسة
ف. ن
بين اللغة والأدب والتاريخ
الفالوذج
للأستاذ محمد شوقي أمين
- 4 -
توجيه الاشتقاق، الصفات فيه، سبيل العرب في الوضع
إني سائق لآن هذه الألفاظ بمرة، فمعيدها لفظاً بعد لفظ لبيان وجه الاشتقاق، وعلة الوضع، وتقدير العلاقة بين اللفظ الموضوع وبين مدلول الاسم الأعجمي
والألفاظ هي: السرطراط، السريط، المرطراط، اللمص، اللواص، الملوَّص، الرعديد. المزعزع، الزليل، اللقاء، المزعفر، الصفرَّق
- 7 -
ا - مادة سرط تصف الابتلاع وسهولته، تقول: سرطه وتسرطه واسترطه: ابتلعه. وانسرط في حلقه سار سيراً سهلاً ثم اشتق منها: المسرَط: للبلعوم، والسرواط: للأكول، والسرطة: السريع الاستراط
وقد صيغ من هذه المادة: اسمان للون من الأطعمة، الأول السريطاء، والآخر السرَّيطي، لنوع من الحساء
فلما تعورف الفالوذج، اشتق العرب من هذه المادة: اسمين له، الأول: السرطراط، بكسر السين والراء، ويفتحان، قال السيد مرتضى: (كررت الراء والطاء تبليغاً في وصفه، واستلذاذ آكله إياه إذا سرطه وأساغه في حلقه) وقد جمعه الإسكافي على سرارط. وثاني الاسمين: السريط، قال الفيروزابادي والشيرازي: هو كزُبَيْر، وقال صاحب التاج: الصواب بتشديد الراء المفتوحة
والاشتقاق كما ترى ملحوظة فيه انسياغ الفالوذج، وسرعة ابتلاعه!
ب - مادة مرط تصف الإسقاط والإسراع والأخذ الخاطف تقول: مرط: أسرع، وأمرطت النخلة: سقطت بسرها، وأمرطت الناقة: أسرعت وتقدمت. وتمرط الشعر: تساقط، وامترطه: اختلسه
وقد اشتق من هذه المادة اسم اللهاة، وهو المريطا، لأن الطعام يسرع فيها، ويتساقط إليها. ثم صاغوا من المادة أسماً للفالوذج وهو: المرطراط بكسر الراء والميم على زنة السرطراط، فوجه الاشتقاق هو: ليان الفالوذج وطواعيته لامتراطه والإسراع فيه
ج - تصف مادة اللمص مما تصف: التناول بالإصبع. تقول لمص الشيء: إذا أخذه بطرف إصبعه. قال أبن دريد: لمصت الشيء: إذا لطعته بإصبعك ولحسته
وقد صيغ من هذه المادة اسم العسل، واسم لشيء كان يأكله الصبيان، ذلك الاسم المشترك هو: اللمص؛ بفتح فاسكان فأخذت هذه الصيغة للفالوذج. وعلة الأخذ واضحة، وهي أن الفالوذج كان يتناول بالأصابع، ففي هذا الوضع روعيت طريقة التناول لهذه الحلواء
د - تدل مادة لوص على الحيدان والحركة، تقول: لاص حاد. ولاوص: نظر نظرة الخاتل يمنه ويسرة، وأليص: أرعش وما به لويص، أي قوة وحركة. وتلوص: تلّوى وتقلب
وقد وضع العرب من هذه المادة اسماً للعسل. فقالوا: اللواص. ثم قالوا لوصّ الرجل: أكل العسل. ثم كان منهم بعد ذلك أن أشركوا في هذا الاسم: الفالوذج. فسموه: اللواص وأضافوا إليه أسماً ثانياً من المادة نفسها، هو الملوص، وهو اسم مفعول من الفعل: لوصّ الذي كان مستعملاً في معنى تناول العسل، فالتلويص في الفالوذج كالتلويص في الشهد
والوضع في هذه المادة ملحوظ فيه هيئة الفالوذج، فهو يتلوى في الصحاف ويتقلب، ويظل في إرعاش وحَيَدان وهذه الصفة أوضح ما يرى من هذه الحلواء، وأبدأ ما يبدهك من سماتها وصفاتها
هـ - مادتا: رعد وزعزع ظاهرتان في دلالتهما على الهيجان والتذبذب تقول من الأولى: ارتعد: أضطرب، وسمى الجبان: رعديداً، لأنه يشتد به الفرق، فتهتز نفسه حذر المخاوف، وتقول من الثانية: تزعزع الشيء، تحرك تحركاً شديداً

وكان بديهياً أن يلحظ العرب في الفلوذج أنه دائب الارتجاف سريع التحرك، يتزعزع ويتمايل، فيرتضوا له الكلمتين: الرعديد والمزعزع. وقد سبق في طلائع هذا البحث ذكر جواب أعرابي سئل في الفالوذج، فوصفه بالارتعاد، وكذلك مضى وصف الخوارزمي له بالترجرج

ويتحير في صيغ مادة زلل معنى الخفة والسرعة والانزلاق، تقول: استزله: زلَّقة، وزلَّ هو: زلَق وسقط.

والرجل الأزل: السريع. ويوصف الماء بأنه زُلال إذا كان عذباً صافيا يمرّ سريعاً في الحلق

فاجتلب العرب من هذه المادة لفظاً للفالوذج. هو الزليل، إذ كان خفيفاً على اليد حمله، سريعاً في الفم انزلاقه. وفي مبادئ اللغة أنه يجمع على: أزلة. ويستفاد من إثبات صاحب المبادئ لهذا الجمع أنه مسموع فوق أنه مقيس

ز - جاءت نوبة كلمة: الُّلقاء، وتلك لم اعثر عليها في معجم ولا أسفرَت لي في أوراق فقه اللغة. وإنما جرت في كلام لأبي العلاء المعري، قال: (العاجلة، كلبيد الراجلة، يُلقي لتقيها لقاء، ويطعم فاجرها مُرّ المقرات. . .) ثم شرح ذلك فقال: (اللبيد: جوالق صغير، أو خرج. والراجلة: الكبش الذي يحمل عليه الراعي خُرجه. واللقاء: الفالوذج)

ولقد فتشت عن هذا اللفظ كل مفتش، فيما بين يدي من المراجع، حتى ضاق به الصدر، فكأن أبا العلاء استخرجه من ملاعب الجن. وما أظن الظنون بشيخ المعرة، فأني لأعلمه: صاحب الغريب، وهدهد الشوارد. فليس لي إلا أن أستريب بحروف هذا اللفظ، وأن أقدِّر أن تحريفاً عدل به عن كنهه. وكان بودي أن أجلو هنا ما دار به الخاطر فيما عساه يكون الأصل، ولكنني أوثر أن أحجم حتى أسمع كلمة الأستاذ الفاضل الذي بعث الفصول والغايات من مرقدها، فلا بد أن يكون عنده من هذا اللفظ علم، ولعله متفضل فمجيب. وسيتبع إحجامي عن الكلام في الأصل، تأخيري النظر في الاشتقاق. إذ كان هذا متعلقاً بذلك تعلق النتائج بالمقدمات

ح - الزعفران نبات أصفر الزهر، أحمر الصبغ، وزعفره: صبغه بالزعفران. ولا أحق: أسموا الفالوذج مزعفراً لأنه مصبوغ به، أم لأنه مجعول فيه، أم لأنه على لونه، فالأمر على التشبيه؛ أم لكل هاته الأشياء؟؟ وإن من سنة العرب في التسمية أن يوصف الشيء بالشيء لشبه اللون، فقد وضعوا للأسد أسم الورد، لأنه ورد اللون. بل إنهم سموه: المزعفر، فقالوا: المزعفر: الأسد الورد لأنه أحمر. وقد أنهينا فيما سبق قول بعضهم (فالوذجة مزعفرة) ورجحنا ثمة أن تكون الزعفرة فيه الصبغ والتطييب، وليس الكلام على التشبيه والمشاكهة

ط - أجمع فقهاء الألفاظ على أن الصُّفرُّق اسم للفالوذج، ومثل به سيبويه في الكتاب ونقله

الصاغاني عن كتاب الأبنية، وقال في اللسان: هو الصُّفروق. ولم يثبت بناء الصفرُّق.

وقد انتقب وجه الاشتقاق لهذه الكلمة، فيما لدى من المظان. فالكلمة في مادتها يتيمة، إن شئت قلت: درة لها من استئحادها عضمة وزهو، وان شئت قلت: شريدة لا يؤاخيها شيء، ولا تجد لها منتمى. وأنا حابس القلم الساعةَ عن اقتحام الكتابة في زائد حروفها، ومرجعها إلى الصفرة في اشتقاقها، والوجه في ذلك كله، فلذلك مجاله أخرى

(للبحث صلة)

محمد شوقي أمين

رسالة الشعر

في سبيل الله والعروبة والوطن

المجاهد

للأديب السيد جورج سلستي

(ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون)

اَلحبُّ والأمَلُ الوضيءُ كلاهما ... صَبَوَا إليه معاً فأعرضَ عنهما

وهَفَتْ لَهُ الدنيا الطروبُ فعافَها ... وتَعَلَّقَتْهُ فَصدَّها متبرّما

وَسَعى الثراءُ إليه يخطبُ ودَّهُ ... فأبى وآثَرَ أنْ يظلَّ المُعْدِمَا

والُحرُّ يَهْزَأُ بالنُضَارِ ويزدري ... متَعَ الحياةِ إذا دعا داعي الحمى!

هَجرَ الأحبّةَ والمنى مُتَحَدِّياً ... جُهْمَ النَوَائبِ ضاحكاً مبتسّماً

بَطَلٌ بدا فيه الوفاءُ ممثّلاً ... وبدا الإباءُ بشخصه متجسّما
بَطَلٌ يَمُورُ العَزْمُ في قَسَماتهِ ... أبداً يُرَى تَيْتِ الْجنانِ غَشَمْشَما
تَتَساءلُ الآجَامُ إمَّا يجتمعْ ... بالليثِ أَيُّهما الغَضَنْفَرُ منهما
بَطَلٌ مَشى مُستَبْسِلاً لِيَذودَ عن ... وَطَنٍ يَعزُّ عليه أَنْ يَتَقَسَّما
إِنّي أَرَاهُ وقد ذكا لَهَبُ الوغى ... وتَسَعَّرَتْ نيرانُهَا متحدّما
مُتَوَثِّباً أبداً على أعدائه ... شأنَ الأتيّ تَدَفّعاً وَتَهَجُّمَا
يُصْلي فوارسَهُمْ وهم يُصْلونَهُ ... ناراً أَشَدَّ من الْجحيم تَضَرُّمَا
فإذا هُمُ أنهزموا فذاكَ، وإن قَضى ... صلّى الإلهُ على ثَرَاهُ وَسلّمَا
يا سائلي عَمَّن قضى مُسْتَشْهِداً ... روحي فداؤك عارفاً مُسْتَعْلِما
أتقولُ مَنْ آلُ الشهيد وكلنا ... عَرَبٌ نَمانا للمعالي مَنْ نَما؟
للعُرْبِ نُنسَبُ حينَ ينتسبُ الورى ... ولسانُنَا العَرَبيُّ أَشْرَفُ منتمى
والعُرْبُ مهما تَخْتَلِفْ أهواؤهم ... أَهْلٌ يؤاخي العيسويُّ المُسْلِما
إِنَّا تُوَحّدْنا العَرُوبةُ أينما ... كنّا وتجمعنا المكارمُ حيثما
والفَذُّ بين القوم ملْكُ بلاده ... إنْ عالماً أو فارساً أو مُلْهَمَا
والرُزْءُ فيه فجيعةٌ وطنيّةٌ ... عظمى تئنُّ لها البلادُ تألُّمَا
يا مَنْ ينامُ الليلَ مِلَء جفونه ... ويعيشُ مَوْفُورَ الرخاءِ مَنعَّما
أَهْلوكَ في مسرى النبيّ تجشّموا ... ما لا يطيقُ الصَخْرُ أَنْ يتجشّما
وتحمَّلُوا ما لو حَمَلْتَ أَقَلّهُ ... لَغَدَوْتَ أَشْبَهَ بالَخيالِ أو الوما
والنومُ أبعدُ ما يكونُ عَنِ العُيُو ... نِ وقلّما تلقى هنالك نُوّما
فكأَنما نسى الكرى أَجْفَانَهم ... مِنْ طوْلِ ما سَهِرُوا الليالي قُوَّما
وَسَلَتْ مضاجعَها الجوانبُ بعد ما ... أمسى الهناءُ على النفوس مُحرَّما
والْحَربُ من حولينِ ما زالتْ مُؤَجْ ... جَجَةً وما زالَ المنايا حُوَّما
فامددْ يداً بيضاءَ تُسْعِفْ عاجزاً ... أو تَأسُ مَكْلوماً وتُنْجِدْ أَيِّما
ولقد عرفتُكِ باذلاً متكرّماً ... فَأَعِنْ بمالكَ مَوْطِناً متردّماً
هو مَوْطنٌ غَمَرَ الأسى باحاتِه ... وغدا الشقاءُ على بَنيهِ مُهَيْمِنما
قد كانَ مِثل العُرْسِ بَّسامَ الرؤى ... طَلْقاً فحوَّله الأجانبُ مَأْتما
قَدْ باتَ يَنْطُفُ عَنْدَما بالأوصيا ... ءِ وكانَ حتى الأَمْس يَنْضَحُ بلسما
قد كانَ مِنْ أَفْضَالِ رَبّكَ جنَّةَ ال ... دنيا فَصَيَّرَهُ الدخيلُ جَهَنَّما
إِن الدخيلَ، وإِنْ تَأَلَّهَ، مُجْرِمُ ... مُتَنكِّرٌ فاحْذَر - فُدِيتَ - المجرما
قالوا التمدُّنُ عَنْ يَدَيْهَ فقلتُ لا ... كانَ التمدُّنُ عَنْ يَدَيْهِ مُتَمَّما
أين التمدُّنُ عند مَنْ يَنْز وهوىً ... ويروعُ ثعلبةً ويسعى أرقما
أَمن التمدُّنِ أَنْ يُبَاعَ الدينُ بال ... دنيا وتُغتَصَبُ الحقوقُ وَتُهْضَما
وَيُحَلَّ قَتْلُ الأبرياءِ وهَدْمُ دو ... رِ المُبْعَدِينَ وَنَفْيُ أحرارِ الحمى؟
أمُعَيَّري بالبَرْبَرِيَّةِ إِنني ... متأخّرٌ فاهنأ وكُنْ متقدّما
إِني لأَهوى البربريةَ إِنْ يَكُ الت ... مدينُ هَضْمَ الحقِّ أو سَفْكَ الدما
ولقد تركتُ لكَ الرقيَّ فَخَلِّنِي ... متسكّعاً بين الجهالة والعمى
فأنا امرؤٌ نزَّهْتُ عن حَمَاءِ الخنا ... نَفْسي وآبى أَنْ أُقارفَ مَأْثما
يا حارسَ الحرمَ الشريفَ وحامياً ... مَهْدَ المسيحِ وأنتَ أَشْأَمُ من حَمَى
المهدُ والْحَرمُ الشريف تملمَلا ... ولو استطاعا من أسىً لتكلّما!
للبُطْلِ صولةُ ساعةٍ فإذا انقضتْ ... وتصرَّمتْ ولّى الطغى وتصرَّما
لا بدَّ إمّا عاجلاً أو آجلاً ... للحقِّ أَنْ يعلو وَأَنْ يتسنمَّا
والظُّلْمُ أَوْخَمُ مَرْتَعٍ فاحذرْ إذا ... كنتَ الحكيمَ المرتع المتوخما
أَأَخي الشهيد لقد قَضَيْتَ مجاهدا ... ليعيشَ مَوْطِنُك الحبيبُ مُكَرَّما
يهنيكَ أَنْ وَفَّيْتَ قسْطَك للعلي ... وَرُزِقْتَ حَيّاً عند ربّك في السما
(بيروت)

جورج سلستي
في السماء
للأستاذ سيد قطب

أيقنت أنبل ما يُجِنُّ ضميري ... وبعثت جوهر عنصري المطمور

فإذا أنا الروح التي تسمو بها ... دنيا الحياة لأوجها المنظور
وإذا أنا النور الذي تجلو به ... تلك الحياة غياهب الديجور
وإذا أنا الشوق الذي يحدو لها ... فتَغِذُّ بين مسالك وصخور
وإذا أنا الشعر الذي تشدو به ... في نشوة وتجيش بالتعبير
وإذا أنا الخير الممحض والهدى ... والحب والنجوى خلال ضمير
فبأي معجزة كشفت ضمائري ... وجلوت كل محجب مستور؟
وغذوت فيَّ فضائلي ورويتها ... حتى أطلت بالجني المذخور؟
وجعلت من زاد الخلود مطامحي ... وجعلت أشواقي صلاة طهور؟
بالحب والحسن الوديع ونظرة ... بيضاء صافية تريح شعوري
وتُحيل أشواقي رضاء مخلّد ... راض بخلد لم يُشَبْ بقصور
وتحيلني روحاً تَرِفّ على الورى ... كالعطف، أو كالحب، أو كالنور
فإليك تسبيحي وهمس سرائري ... وإليك غاية غبطتي وسروري
حلوان
سيد قطب
البريد الأدبي
رأي الأستاذ مارجليوث في تيسير القواعد العربية
أذاع راديو لندن في الأسبوع الماضي الحلقة الثانية من سلسلة محاضرات كبار المستشرقين البريطانيين في موضوع (ما الذي تعلمته من الناطقين بالضاد) وهي محاضرة الأستاذ مارجليوث
وقبل أن يتلو المذيع المحاضرة حيا الأستاذ مارجليوث المستمعين بكلمة قصيرة ألقاها بلغة عربية فصيحة
وقسم الأستاذ مارجليوث محاضرته إلى قسمين الأول ما الذي تعلمه هو شخصيا من الناطقين بالضاد والثاني ما الذي تعلمه غيره من الأوربيين
ثم ذكر ألفاظاً كثيرة من المصطلحات المستعملة في اللغات الأوربية والمشتقة من أصل عربي أو جاءت إلى أوربا عن طريق العرب، وقال إن أوربا مدينة للحضارة العربية بالشيء الكثير
وبحث في أحوال اللغة العربية وقواعدها واتساعها وغناها وأشار إلى اقتراح بعضهم تسهيل قواعدها وانحنى باللائمة عليهم وقال إن ما يقترحونه لا يكون تيسيراً بل تعقيداً ويثقل حافظة الطالب بمجموعة جديدة من القواعد هو في غنى عنها
وخطأ القائلين بأن الألفاظ العربية الشفهية أصح وأوضح من المكتوبة، ثم قال إنه لا تأثير للتعصب الجنسي والديني عند العرب، وأن في عصور الإسلام الزاهرة كثيرين من الحكام والقواد والعلماء وقادة الرأي من غير العرب أو المسلمين. وذكر أن صلاح الدين الأيوبي كان كردياً، وإمام المحدثين البخاري والطبري وأبن رشد وأبن خلدون لم يكونوا عرباً أصليين
واختتم محاضرته قائلاً:
وقبل أن أختتم كلمتي يجب أن أوفي المصريين حقهم من الثناء لما أدوا من الأعمال) في خدمة اللغة العربية، وقد عرفت من هؤلاء كثيرين وتشرفت بصداقتهم في سنة 1904 عندما حللت القاهرة لأمر يتعلق بالجامعة، وكان لي شرف الاتصال بالإمام الكبير المرحوم الشيخ محمد عبده، وعرفت كذلك المرحوم السيد رشيد رضا الذي كتب سيرة الشيخ محمد
عبده وكان صاحب مجلة المنار ذات الفائدة الكبيرة لكل من تصدى لدرس الإسلام، والعالم السيد توفيق البكري صاحب المؤلفات النفيسة، والصحافي الكبير الدكتور يعقوب فارس نمر، وزميله العالم المرحوم الدكتور يعقوب صروف والمرحوم جورج زيدان، وشاعر مصر المرحوم حافظ إبراهيم، وأمير الشعراء أحمد شوقي وقد أسمعني قصيدته عن أثينا، والمرحوم سليمان البستاني مترجم إلياذة هوميروس إلى العربية، وكذلك اتصلت بالشيخ طنطاوي جوهري صاحب تفسير القرآن والذي جاهد كثيراً في التوفيق بين العلم والدين، وعرفت أخيراً البحاثة المرحوم أحمد زكي باشا الذي شغف بجمع الكتب القديمة والمخطوطات، وكان لي شرف الاتصال عن طريق المراسلة بالمرحوم تيمور باشا. ويرجع الفضل في نهضة مصر إلى هؤلاء العلماء

(الإجلاء الذين نهض كل منهم بنصيبه في خدمة اللغة والعلم
مصر المستقلة
تعمل جماعة (الدراسات الإسلامية) بمعهد دراسات السياسة الخارجية في باريس على وضع مجموعة من المؤلفات عن العالم الإسلامي، ولا شك في أن المكانة التي يحتلها وادي النيل في هذا العالم جعلت القائمين بأمر الجماعة المذكورة يوجهون إليه اهتمامهم ويضعون المؤلف الأول من مجموعتهم عن (مصر المستقلة).
وقد قسم الكتاب إلى أربعة أقسام: الأول خاص بالتطور السياسي والاجتماعي في مصر وهو يتناول تكوين الدولة المصرية (1805 - 1918) وحالة الأمة المصرية غداة الحرب وتطورها من 1918 إلى 1936، والأزمة الإنجليزية المصرية السياسية بعد الحرب، وفترة الانتظار من 1925 إلى 1934، وتطور الشبيبة المصرية وتحرير مصر بمعاهدة 26 أغسطس سنة 1936
والقسم الثاني خاص بالأجانب ونظامهم في مصر وهو يبحث نظام الامتيازات قبل مؤتمر مونترو ومصالح الأجانب في مصر، ومؤتمر مونترو ونتائج هذا المؤتمر.
والقسم الثالث خاص بالحالة الاقتصادية الزراعية والصناعية والتجارية في مصر.
والقسم الرابع والأخير يتضمن دراسة خاصة عن تاريخ الصحافة المصرية وتطورها، وفي ختامه كشف بجميع الصحف والمجلات من عربية وإفرنجية التي تصدر في مصر.
ومن يتصفح كتاب (مصر المستقلة) يجد أن هناك مجهوداً كبيراً قد بذل في وضعه لا سيما وأنه يتضمن معلومات وافيه عن التطورات السياسية التي مرت بوادي النيل في الأشهر الأخيرة.
مجمع علمي أدبي في حيدر أباد
جاء من مراسل الشرق العربي في بمباي أن لفيفاً من رجال العلم والأدب في حيدر أباد أسسوا مجمعاً علمياً باسم (مجمع حيدر أباد) لتشجيع التأليف والأدب. وسيعمل هذا المجمع برعاية شخصيات كبيرة بينها أمير بيرار وسراكبر حيدري رئيس مجلس وزراء حيدر أباد والمهراجا كيشن برشاد بهادور. ونواب سالا رجونغ بهادور وغيرهم. وسيصدر المجمع مجلة باللغة الإنجليزية ولغة الأوردو ينشر فيها أبحاث أعضائه ومقتطفات من مؤلفاتهم وترجمة بلغة الأوردو لدائرة المعارف الإسلامية. وستنشر المجلة أيضاً أبحاثاً عن المؤلفات المعروفة في اللغات السنسكريتية والفارسية والعربية والهندية المختلفة، وقد انتخب نواب مهدي ياربهادور مدير جامعة (عثمانية) وعضو مجلس حيدر أباد التنفيذي التهذيب والسياسة رئيساً للمجمع.
كتاب عن فلسطين في ثورتها
لم ير العالم ثورة صادقة الإيمان كتلك التي شب أوارها في فلسطين، والتي يجود فيها العرب بأرواحهم وما ملكت أيمانهم في سبيل الذب عن وطن يحاول اليهود أن يجعلوا منه أرض المعاد، ويتخذوه وطناً قومياً لهم، بعد أن شردوا طول الزمن.
فلا عجب أن لفتت هذه الحركة العربية أنظار الكتاب والسياسيين على السواء فصدرت عنها المؤلفات بأقلام من تعنيهم دراسة هذه الناحية ومن ذلك ألمت فيه مؤلفته بالثورة في فلسطين، وما قدمه العرب من تضحيات عجيبة، ورفضهم أن تكون فلسطين وطنا لليهود تنفيذاً لوعد بلفور، وأبوا أن يجعلوا هذه الأرض المقدسة (عند المسلمين والنصارى على السواء أرضاً للفئة التي لقيت المسيحية منها أشد عدوان في مستهل ظهورها، وناهضت المسيح ما وسعتها الحيل وأسعفتها القوة) وقد زارت السيدة اليزابث مؤلفة هذا السفر فلسطين، وجالت في نواحيها، واتصلت بكثير من رجال العرب والثورة هناك فلم تر
فيهم إلا (توطيد النفس على عدم تقسيم فلسطين العربية) وهي تصف في دقة الشهامة العربية التي مهدت السبيل للعرب في أمسهم الدابر لأن يكونوا سادة أهل العصور الوسطى.
وتقول المؤلفة (أن عجلة الزمن تسير في وناء في هذه البلاد (فلسطين) التي يرجع تاريخها لا إلى عدة قرون فحسب، بل إلى آلاف السنين الغابرة. وإن التلال الخالدة، والصخور الباقية منذ القدم التي شهدت مجيء إبراهيم بعائلته، وأطلت على قطعانه وقومه، لتشهد اليوم أرضاً قد ألقيت البغضاء بين أهلها. وإن العرب واليهود ليقفون اليوم وجهاً إلى وجه متخاصمين متنابذين. لقد كان أحد الخصمين يرتكن من قبل على

ماله وثرائه في نيل مطالبه، أما اليوم فتؤيده القوات، ويشد أزره أعضاء منه في مختلف الحكومات، وأما الخصم الآخر فلا يملك غير إيمانه بحقه، وإنه ليستشهد مقبلاً غير مدبر، باسماً غير عابس، راضياً غير مكره، حتى ينال مطلبه أو يموت دونه شهيداً)

وهكذا نري المسألة الفلسطينية اليوم لم تعد شغل الساسة فحسب، بل كان من آثارها هذه الكتب التي تتناول فلسطين من نواحيها المختلفة، كما استطاع العرب بفضل ثباتهم أن يجتذبوا إلى جانبهم العطف الأدبي عند كثير من رجال الحكومات المختلفة.

من الأستاذ الكرملي إلى المرحوم الرافعي

لما أصدر المرحوم الرافعي كتابه (وحي القلم) في يناير سنة 1937 أهدى نسخة منه) إلى صديقه العلامة الأب أنستاس ماري الكرملي عضو المجمع اللغوي؛ فبعث إليه بالرسالة التالية وفيها مسائل لغوية يطلب حلها، وقد وقعت لي هذه الرسالة بين ما خلف الرافعي من أوراق، ولم أعلم ماذا كان رد الرافعي عليها، فآثرت نقلها إلى قراء الرسالة ليروا رأيهم في هذه المسائل اللغوية التي تناولتها رسالة العلامة الكرملي.

وهذه هي الرسالة:

إلى حضرة فخر بلغاء المصريين الأستاذ الجليل مصطفى صادق الرافعي، رفعه الله إلى أعلى مقام

أبدأ كلمتي هذه بتأدية عبارات الشكر الصادق للهدية التي أطرفتني بها وأنت نابغة بلغاء مصر على ما أعتقده في صميم القلب.

وأحسن دليل لذلك أني اقتنيت جميع مؤلفاتك وزينت بها خزانتي فأرجع إلى مطالعتها الفينة

بعد الفينة كلما أردت أن أنزه نفسي وأطربها وأربحها من متاعب الحياة. إذن حل عندي (وحي القلم) محلاً رفيعاً لما حوى من مختلف الموضوعات التي جاءت بأفصح عبارة وأبلغها، بل تتحدى كل كاتب أن يأتي بضرعها؛ ولا سيما لأن أغلبها لم تمر على خاطر من سبقنا في الكلام؛ ولهذا اعتبرت دائماً الأستاذ الرافعي جاحظ العصر، أو ابن مقفعه، أو بديع زمانه. وقد نصحت لكثيرين من أبناء العراق أن يطالعوا ما كتبه أو يكتبه إذا أرادوا الجري فالسبق في ميدان الفصاحة والبلاغة ورفيع الإنشاء، فأخذوا بكلامي بقي الآن أن أسألك عن أشياء لم أستطع أن أهتدي إليها، فالرجاء منك أن تعينني على تفهمها:

1 - جاء في الجزء الأول في ص6 ذكر (الكهربائية) والذي اعلمه أن الكهرباء قصور لا ممدود. وقد صرح بذلك صاحب تاج العروس؛ وجاء بالقصر أيضاً في جميع أسفار الأقدمين من العصر العباسي، فأن صحت هذه الرواية أفننسب إليها بالهمز أم بحذف الألف فيقال كهربي وكهربية كما يقال مصطفىّ ومصطفية على ما صرح به سيبويه، وإلا فأي فصيح قال كهربائي؟

2 - في ص8 ورد ذكر (المصنع) والعرب لم تنطق به. على أن القياس لا يمنعه، وقد ورد في الصحف والكتب العصرية ولا يزال يرد بهذه الصورة، ولكن ألا يتخذ الكاتب البليغ الكلمة التي جرت على أسلات السلف وهي (الطِراز) فقد قال في القاموس: (الطراز. . . الموضع الذي تنسج فيه الثياب الجديدة)؟

3 - وفي ص10 ذكر (الديناميت) فلو قيل البارود الناسف أو أن نكتفي بقولنا (الناسف) أو (النسَّاف) كما يقول العراقيون، عامتهم وخاصتهم، أما يكون أحسن؟

4 - وفي ص34 جاء ذكر (ملك الزمن الربيعي)، وأنا لم أجد إلى الآن فصيحاً نسب إلى الربيع بإثبات يائه بل قال (الرَّبّعي) فهل عثرت على مثل كلامك في (كتاب بليغ صحيح قديم)؟

5 - وفي تلك الصفحة قيل (يضحك ويستحي) وقد تكررت استحى يستحي وزان افتعل يفتعل مراراً كثيرة وقد أنكرها بعض الفصحاء وقالوا في مكانها استحيا يستحي

6 - وفي تلك الصفحة (تراها - أي الطاقات - عطرة بيضاء) وأنا لم أجد إلى الآن في شعر أو نثر من وصف جمعاً مؤنثاً سالماً لعاقل أو لغير عاقل بوصف مفرد مؤنث وهي من باب أفعل فعلاء الدال على لون أو عيب أو حلية. فهل مرت تحت عينيك هذه الصيغة في كلام قديم بليغ من أهل الجاهلية أو صدر الإسلام؟

7 - وفي ص35 ورد: (تعطي لكل شيء تماماً) وهو تعبير جائز؛ لكن ألا يكون أبلغ لو

قيل: تعطي كل شيء؟
8 - وضبطت (البلُّور) في ص44 وزان تنُّور، كما في القاموس؛ ولكن اللغويين البصراء الحُذَّاق الأئمة أنكروها وفضلوا عليها البِلّوْر وزان سِنَّوْر، كما في اللسان ولم يعرفوا سواها. فما الجواب؟
9 - في ص45 (تحتاجه الحياة) وهذا من باب الحذف والوصل، وهو كثير في كلامهم؛ لكن أليس الأبلغ أن يقال (تحتاج إليه الحياة)؟
10 - كنت أظن أن (البركان) الوارد في ص101 وسواها لفظة لا نعرفها العرب الأقدمون، بل كانوا يعرفون (الأطمة)، أفليس الأحسن لنا أن نقر ألفاظ السلف على ألفاظ الخلف التي لم يعرفها الأوائل وفيها خلف ظاهر؟
11 - ضبطت في تلك الصفحة (وغلظته) بضم الميم وأنا لم أجدها في معجم.
12 - وكثيراً ما جاءت (النواميس) ومفردها (الناموس) في وحي القلم ففي ص102 (إن النواميس الطبيعية) وفي ص9 من الجزء الثاني: (في تحقيق ناموس)؛ وقد تكررت الكلمة مفردة ومجموعة. وكنت أتوهم أن العرب لم تعرف هذه الكلمة بمعنى (السنة) وإنما جاءت بمعان أخر مذكورة في دواوين اللغويين. أما الناموس بهذا المعنى (أي بمعنى السنة) فقد أدخلها (النصارى) المعربون منذ صدر الإسلام لوجودها في التوراة والإنجيل بهذا المعنى. وكذلك تراها مبثوثة في كتب المنطق والفلسفة والطبيعة والطب واللاهوت وما وراء الطبية؛ لكن فصحاء المسلمين لم يحققوها ولم يقروها في أسفارهم ولا في معاجمهم، فهل وجدتها بهذا المعنى في الدواوين القديمة في غير ما أشرت إليه من التصانيف؟

هذه بعض أسئلة - وليس فيها شيء من النقد، معاذ الله - وقد خطرت ببالي وأنا أتلذذ بتصفح هذا السفر الفذ، وأتوقع الجواب عنها. فعسى ألا أحرم أنوارك المبددة للظلمات، وأختم كلمتي هذه بالشكر ثانية لأياديك البيض كما بدأتها به.

(الأب أنستاس ماري الكرملي)

فإلى اللغوي العلامة الأب أنستاس ماري الكرملي، أن يتفضل على قراء الرسالة بنشر ما قد يكون وصله من جواب الرافعي على هذه المسائل

وإلى اللغويين من قراء الرسالة أن ينشروا على القراء رأيهم في جواب هذه الأسئلة، وإلى النقدة من كتَّاب العربية أن يقرءوا هذه الرسالة لعلهم يجدون فيها مثلاً في أدب النقد

وفي صفحات الرسالة متسع إن أذن الأستاذ الزيات.

محمد سعيد العريان

الكتب

الحيوان للجاحظ

تحقيق وشرح الأستاذ عبد السلام محمد هارون

للأستاذ عبد المنعم خلاف

أقدم عملاً عظيماً في لون من ألوان الأدب العصري لم يوجد إلا بعد أن وجدت المطبعة، ووجدت بحوث المستشرقين وفن إخراج الكتب

وهو عمل يتصل بالعلم بما فيه من التحقيق وتحرير النصوص، ويتصل بالأدب بما فيه من ملكة التذوق والترجيح واستفتاء الثقافة الأدبية والاعتماد على المحفوظ المذكور من نصوصها، ويتصل بالفن بما فيه من تنسيق وتبويب وإخراج جميل يروع ويجذب العين واليد إلى الكتاب

وكاد هذه العمل يكون خاصة موقوفة لأقلام علماء المشرقيات الأجانب لولا نفر قليل من المشارقة أنفسهم ساهموا بأقلامهم في هذا العمل النافع القيم الذي هو في الحق ميلاد جديد للكتب القديمة تهتز له عظام مؤلفيها القدامى غبطة بتسهيل الانتفاع بما تركوا من آثار جليلة قد يذهب بما فيها من الفائدة عند شباب هذا الزمان أنها ألفت على غير ما ألفوا من الكتب الحديثة المبوبة التي يعلن فيها كل مبحث عن نفسه في سهولة واقتراب إلى الأذهان التي لم تتعود الصبر والجلد على التعرف إلى الآثار القديمة لانقطاع الأسباب وبعد الزمن وتغير الأساليب وكثرة الملاهي وحب السرعة، ومرض الهمة وكلال العزيمة

وإذ أقدم هذا العمل العظيم أشعر في نفسي بغبطتين: الأولى غبطتي ببعث مكتبة

الجاحظ أديب العربية العباسية الأكبر، ووارث علوم علمائها وأدب أدبائها وخفة ظرفائها، وسجل دنياها الزاخرة، ومصور حياتها المتشبعة، بعث فيه من الجدة والفن والطرافة ما يخيل إلينا أنها انحسرت عنها قريحة معاصرة

والثانية غبطتي بأن هذا البعث كان على يد صديقي الثبت الضليع الأستاذ عبد السلام محمد هارون الذي أعرفه كما اعرف نفسي إذ كان صديقي الأول وصنوي في عهد الدراسة العزيز

وأخشى أن يحسب حاسب أنه قد طغى وثوقي بهذه الشخصية وحبي لها على تقدير عملها في (الحيوان) تقديراً بعيداً عن الغلو، كما أخشى أن يظن ظان أن الأمر في هذا التقديم مرجعه إلى (توريط) الصداقة وتقريظ الأصدقاء بعضهم بعضاً. وحسب ذاك الحاسب وهذا الطغيان أن يرجعا إلى الجزء الذي طبع من الحيوان ليريا المجهود فيعرفا الشخص الذي بذله كما عرفته أنا منذ خمس عشرة سنة أديباً متصلاً بصميم الأدب العربي مقلباً يده وعينه في مراجعه القريبة والبعيدة ممتلئاً من حُر نصوصه.

وإذا كانت الأمور تقاس وتقدر بما يبذل فيها من مجهود له نتيجته النافعة فأظن أن ما في المطبوعة الحديثة من الحيوان من التحقيقات وتحرير النصوص وفهارس المعارف وأجناس الحيوان وأعلامه وأعلام الناس والقبائل والطواف والبلدان والأماكن والأمثال والشعر والأرجاز واللغة والكتب وأيام العرب، أظن هذا كله عملاً أشق وأنفع من كثير من الكتب التي يرسلها مؤلفوها إرسالاً سهلاً. وأظن أنه يستتبع تقدير صاحبه تقديراً ترضى به نفسه. وقد صار العلم الآن بما في الكتب القديمة سهل المورد بأمثال هذه الفهارس التي تنفض ما في الكتب نفضاً، وتعلن عن كل كلمة فيها إعلاناً عريضاً يأخذ بعيون الباحثين إلى ما يلقون من الأشباه والنظائر والمختلفات، مما يوفر عليهم الجهد والوقت والاستذكار، حتى لقد شاعت هذه الكلمة (أن العلم الآن معرفة ما في الفهارس)

وقد ابتدع الأستاذ هارون فهرساً قيماً لما في الحيوان من المعارف التي وضع لها هو أيضاً عنوانات فصلت أثناء الكتاب، وهو لون طريف في التعريف بما ورد في الكتاب حشوا في غيره، مما قد يمر عليه القارئ عفواً بدون ترقب ولا تعقب؛ وهو عمل عظيم في كتب شأن مؤلفيها الاستطراد وإلقاء ما في الذاكرة متى حضر ولو بدون مناسبة قريبة، وإنما هو جود الذاكرة.

والأوائل كانوا على رأي في الأدب هو انه الإلمام من كل شيء بطرف، ولذلك كانوا يخرجون كتبهم الأدبية إخراجاً يرضي هذا التعريف. فكانت كتبهم الغالبة أشبه شيء بحديث المجالس وأماليها. غير أن هذا اللون من التأليف نبأ عنه الذوق العصري الذي لا يرضي من المعارف إلا ما كان فصائل وأجناساً مضموماً بعضها إلى بعض مميزة بعنوانات تضم الشتيت كما يضم اللقب الأسرة، ولا يرضي أن يذهب فكر القارئ شعاعاً وبدداً هنا وهناك وقت القراءة.

وعلى ذلك كل عمل يرشد القارئ الجديد إلى ما يبحث عنه في بطون الأسفار القديمة رأساً بدون اضطراره إلى الخوض في بحر لا ساحل له، وفي مباحث لا حاجة له إليها، فهو عمل من أعظم ما يربط أسباب الجديد بالقديم ويجلو الدرر المدفونة بين طيات الكتب التي فيها كثير من الحصا والتراب.

وقد قدم الأستاذ هارون (مكتبة الجاحظ) التي (سيعمل جهده على إخراج ما يمكن منها بعون الله ما مد له في الحياة) تقديماً بديعاً تحدث فيه عن بيان الجاحظ وعصره والتأليف في عصره ومؤلفات الجاحظ ومنحاه في التأليف وقيمة كتبه في نوادي الأدب وذيوعها ووراقيها. وقد أتى في هذا الحديث بفوائد ممتعة.

وقد قدم كذلك كتاب الحيوان تقديماً خاصاً عرض فيه لمنشأ التأليف في الحيوان عند العرب ولمراجع الجاحظ في تأليف كتابه من القرآن والحديث والشعر العربي وكتاب الحيوان لأرسطو ومحاولات المعتزلة وجدالهم فيما بين أيديهم من ألوان المعارف جليلها ودقيقها؛ ثم المجهود الشخصي للجاحظ وولوعه بمباحث الحيوان ولوعاً حمله على أن يجالس الملاحين وصائدي العصافير والحوائين وغيرهم من القائمين على شؤون الحيوان. وهو لعمر الحق مبحث في غاية النفاسة وفي صميم الأدب الأصيل اهتدى إليه الأستاذ هارون ابتداء، لم يسبقه إليه سابق فيما أعلم. ومن المباحث القيمة

أيضاً في هذا التقديم تحقيق زمن تأليف الجاحظ للحيوان وتبيين قيمة كتاب الحيوان بما فيه من المعارف الطبيعية والمسائل الفلسفية وسياسة الأقوام والأفراد ونزاع الطوائف، والمسائل الجغرافية وخصائص الأجناس وقضايا التاريخ وأحاديث الطب والأمراض والمفردات الطبية، وأحوال العرب وعلومهم ومزاعمهم، ومسائل كثيرة في الفقه والدين، مضافاً إلى ذلك كله فكاهة الجاحظ الساخر، أو فلتير الشرق - كما لقبه الأستاذ الزيات - واختياره للصفوة المختارة من حر الشعر العربي ونادره. . . إلى أخر ما تمتاز به مؤلفات أبي عثمان البحر. . .

فنظرة واحدة إلى صفحة من صفحات الكتاب بصلبها وهامشها تقف القارئ (وبعد) مباشرة على مقدار الجهد العنيف الذي بذله الأستاذ الصبور محقق الكتاب، في ضبط الألفاظ وشرحها وفي مقابلة النسخ القديمة التي اعتراها كثير من التصحيف والتحريف، وفي أمانته

وحرصه على استئذان القارئ فيما أثبت أو نفى من أوضاع الكتاب وكلماته وتوجيهاته.

مع تواضع جميل يعرف في طبعه كما يعرف في قوله من تقديم الكتاب: (وأما أنا فلست بمكان من يدعي العصمة أو يخال السلامة، فليس يكون ذلك إلا لمن ذهب عن نفسه وتعلق بالباطل

ولكنني يعجبني أني بذلت فيه غاية الجهد وأني التزمت جانب الأمانة فلم أسقط حرفاً ولم أزد حرفاً إلا استأذنت القارئ)

ثم نظر أخرى إلى ثبت مراجع تقديم الكتاب وتحقيقه وشرحه ترى القارئ مقدار سعة اطلاع الأستاذ واهتدائه إلى مواطن القوى فيما يشتبه عليه من خبر أو نص أو توجيه وإلى ما يعتمد عليه في إخراج هذا السفر الجليل وما وراءه من مكتبة الجاحظ

فجزاه الله الكريم وأمتع به أصدقائه ونفع بجهوده الموفقة اللغة العربية

والشكر الجزيل لحضرات ناشري الكتاب في ثوبه الأنيق وورقه الفاخر وحروفه الواضحة

عبد المنعم خلاف

المسرح والسينما

أخبار الأسبوع

شيء من لا شيء

يبتدأ اليوم 10 أكتوبر في عرض فلم (شيء من لا شيء) على ستار سينما أستوديو مصر وهو من أفلام أستوديو مصر لهذا الموسم. وبطلاه هما عبد الغني السيد (هلال) ونجاة علي (نجمة) والفلم غنائي كوميدي اشترك فيه جمجوم وشفيق والقصري من كبار ممثلي الكوميدي في عالم المسرح المصري. وهو من إخراج الأستاذ (بدر خان).

والمنتظر أن يمتد عرضه بضعة أسابيع، لأنه يعتبر تحفة الموسم الغنائية بغير منازع

مارجريت لوكووود

اختيرت (مارجريت لوكووود) بين ثلاثة وعشرين نجمة، نموذجاً للفتاة الإنجليزية وذلك للقيام بتمثيل الدور النسائي الأول في فلم (أود بوب) الذي يخرجه الكسندر كودرا. كما اختير النجم الإنكليزي (جون لودر) لتمثيل الدور الأول بعد أن كان ترتيبه الأول في نفس المباراة للرجال ويرى القارئ صورتهما مع هذا الكلام

الدكتور

المنتظر أن يكون الأستاذ نيازي مصطفى في نهاية هذا الأسبوع قد انتهى من تصوير الديكورات المعارة في فلم الدكتور وبذلك لا يبقى غير أجراء المونتاج النهائي وذلك تمهيداً لعرضه قريباً. ومما هو جدير بالذكر أن السيدة دولت أبيض تقوم في هذا الفيلم بدور هام كبير يتفق مع سنها وأدوارها المسرحية. وقد سبق أن ذكرنا أن بطليه هما الأستاذ سليمان نجيب والآنسة أمينة رزق وبهذا الفلم تكون المفاجأة الثانية للأستوديو لهذا الموسم

يوسف وهبي على مسرح ماجستيك

يستعد الأستاذ يوسف وهبي استعداداً كبيراً لافتتاح موسمه الأول لهذا العام على مسرح الماجستيك بشارع عماد الدين، وهو المسرح الذي كان يعمل به على الدوام الأستاذ علي أفندي الكسار. . والمعروف حتى الآن أن الأستاذ وهبي يبدأ بروايات قوية جديدة وأن

الروايات السابق تمثيلها لن تمثل إلا في أيام العيد. ونحن نرجو أن يصادف الأستاذ وهبي في موسمه الشتوي، وخاصة في شهر رمضان المبارك الذي يبدأ فيه عمله، ما صادفه في موسمه الصيفي على مسرح الليدو بالجيزة، فقد ضرب الأستاذ يوسف في هذا الموسم كافة أرقام الدرام القياسية السابقة

في سبيل الحقيقة

قامت جماعة أنصار التمثيل والسينما يوم الخميس الماضي بتمثيل رواية (في سبيل الحقيقة) مسرح الحمراء بالإسكندرية في الحفل السنوي الذي تقيمه جمعية المواساة ويشرفه حضرة صاحب الجلالة الملك. ومن الأقوال المعادة أن نقول إن أفراد الفرقة جميعاً، والممثلات اللوائي استعين بهن من الخارج، قد أجدن أدوارهن إجادة تامة واستحققن من أجلها تهنئة المليك وعطفه السامي، وهو جد غال ولا يكون إلا في موضعه. . وقد ضحك الجمهور كثيراً لدى سماعه شخصية الدكتور الذي كان صورة طبق الأصل من الدكتور محجوب ثابت، بقافاته وشخطاته ونطراته. .؟

لوتس فلم

من الله على السيدة آسيا مديرة شركة فنار فلم بالشفاء، وقد بدأت الشركة في تصوير فلمها الثاني لهذا العام، ونحن نهنئها بالشفاء ونتمنى لها توفيقاً كبيراً

ميرنا لوي

تظهر (ميرنا لوي) في فيلم (جابل) الجديد واسمه (ساخن ولا يمكن لمسه). . . وهو - من إنتاج المترو جولدوين ماير وسيعرض في الرويال بالقاهرة

بيتي ديفيس

تظهر (بيتي ديفيس) في فيلم (جزبيل) مع النجمين الشهيرين (هنري فوندا) و (جورج - برنت) وهو من أقوى أفلام الموسم الحالي للبرامونت

العدد 276 - بتاريخ: 17 - 10 - 1938

الصقر نحن به أولى

للأستاذ عباس محمود العقاد

كتبنا في (الرسالة) قبل عام كامل على التقريب مقالاً عن الحكيم الحاكم (مازاريك) رئيس الجمهورية في بلاد التشك والسلواق ختمناه بما يأتي:

سيرة الرجل عبرة لا تنقضي ودروس لا تنفذ. أولها: أن الفيلسوف لن يسلم من لوثة) الحكم والسياسة ولو أضمر الخير وأسلف الجهاد الطويل في قضايا المظالم والشكايا. وثانيهما: أن الديمقراطية لا تسلم في وطن تختلف أجناسه ولغاته وأديانه وطبقات الحضارة فيه إلا على أساس الولايات المتحدة التي يستقل فيها كل فريق بالحكم والتشريع. وثالثها: أن أوربا الوسطى لا تزال كما كانت قبل الحرب العظمى غيلا تصطرع فيه ضواري الأحقاد ويوشك أن يندفع بالعالم مرة أخرى إلى حرب لا تؤمن لها عاقبة. وإننا على ما انتاب الديمقراطية من خيبة، وما تعاورها من نقص وتقويض لا تزال على إيمان وثيق بأنها هي كهف السلام ومعقل بني الإنسان، ومآل الحكم في المستقبل البعيد إن لم يعجل لها النصر في مستقبل قريب

فالدول الديمقراطية لا تبغي الحرب كما تبغيها الدول الدكتاتورية؛ وبريطانيا العظمى،) وفرنسا، والولايات المتحدة، لا يخشى منها على سلام العالم كما يخشى من إيطاليا، وألمانيا، واليابان والجمهوريات الروسية)

كتبنا هذا المقال على أثر وفاة مازاريك، ودار العام والحوادث تثبت لنا أن كثيراً من المسائل الأوربية خليق أن ننظر إليه كأنها مسائل (محلية) نكترث لها في أوانها وقبل أوانها لنصبح على أهبة دائمة للقائها، ثم نثبت لنا الحوادث أن الجمهورية التشكية لو بادرت إلى تعميم نظام الولايات المتحدة بين شعوبها الصغيرة لكان ذلك خيراً لها، وإن كنا لا نظن أن أسباب الأزمة الدولية الأخيرة تنحصر في هذه الوجهة، لتعدد وجهات المسائل الدولية عامة

ولا أدري لم نشعر بالعطف على بلاد الفيلسوف مازاريك ونود لها الحياة والسلامة؟ فلعل السبب الأول أنها هي بلاد الفيلسوف مازاريك وأنها (تشخصت) في مثال إنساني رفيع محمود العمل والأثر معروف في عالم الأدب والحكمة معرفة الناس به في عالم السياسة

والإدارة والكفاح
ولعل أسباباً أخرى ترفد ذلك السبب الوجيه الراجح، ونعني بها الأسباب التي توجب العطف على كل شعب صغير مجاهد صبور يحمل من الأعباء فوق ما يطيق، ولكنه لا يرزح بتلك الأعباء ولا يعالجها بالحول والحيلة حتى يروضها ويمشي بها إلى غايته القصوى وهي أشرف الغايات، لأنها غاية الحرية والثقافة والجمال
شعب مازاريك مثل جميل من أمثلة الجهاد الحسن في سبيل الحرية والقوة والجمال، سلبته الدولة النمساوية سلطانه فلم يستسلم ولم يركن إلى الخنوع والمهانة، وصنع ما هو أنبل وأكرم من ذلك لأنه جاهد في رفع الضيم فلم يقصر جهاده على المؤامرات والمشاغبات وحوادث الغيلة والانتقام، بل عمد إلى التعليم فأشاعه بين أبنائه حتى محا الأمية محوا قبل أن تفلح الشعوب القوية في محوها من بلادها. ثم لم يكفه ذلك حتى أدرك أن الكتابة والقراءة لا تكفلان وحدهما الغلبة والحرية للشعوب الضعيفة، فأضاف إلى سعيه في نشر التعليم سعياً آخر في نشر الفتوة بمعناها الأصيل، ومعناها الأصيل في عرفنا أن يكون الإنسان شهم النفس شهم الجسم شهم الذوق سريعاً إلى ما يجمل ويحسن بأدب الإنسان وذوقه واستجابته لدواعي الحياة
تلك هي حركة (الصقر) التي شاعت في أوربا باسم (الصكل) وقلنا في عنوان هذا المقال إننا نحن أولى بها من غيرنا، لأننا نرجح أن أصل الكلمة عربي أخذته أمم السلاف من جيرتها الأسيوية إذ تعلموا الصيد والفروسية قديما من سادات العرب يوم غلبة سلطانهم على أواسط آسيا وتخوم بلاد المغول، فأصبح اسم الصقر مصحفا عندهم باسم (الصكل) وهو عنوان الحركة الرياضية الكبرى في أمتي التشك والسلواق
رأس هذه الحركة المباركة هو (تيرش) العظيم أوحاها إليه أنه زار بلاد الإغريق في أواسط القرن الماضي فراعته المثل العليا التي أقامها الإغريق الغابرون لجمال الفتوة وصحة التكوين، وعلم أن نهضة الكتابة والقراءة لا تغني أمته عن نهضة النفس من طريق رياضة البدن وثقافة الذوق ونشاط الشعور، فأجمع النية الصادقة على إنهاض قومه في هذا الطريق، وأعد عدته لتنظيم الفرق الصغيرة فالفرق الكبيرة لتدريب الرجال والنساء من سن الطفولة إلى سن السبعين وما بعد السبعين، وما يعني بذلك التدريب إلا أن يجعل الجسم
على أصح وأصلح مثال يستطاع، فلا يترك لعضو من الأعضاء بقية من كمال يستطيع بلوغها إلا استوفاها على نمط جامع بين الصحة والقوة والنسق والجمال. وأوجز ما نلخص به فلسفته الرياضية أنها رياضة جسدية موسيقية، لا تقصر على سهولة الحركة الجثمانية بل تقرن بها الرشاقة والوزن والتنغيم
وكان (غاريبالدي) الإيطالي يومئذ قدوة المجاهدين في سبيل الأوطان، فلما عبر (تيرش) بالبلاد الإيطالية راقه أن يستعير (القميص الأحمر) للفرق الجديدة وجعل لها قبعة عليها ريشة صقر فمن هنا اسم أو الصكل الذي عرفت به هذه الحركة الرياضية الكبرى، وهو لفظ (الصقر) بلغة التشك والسلواق
قال روبرت يونج في كتابه (شاب ينظر إلى الديار الأوربية) رواية عن رجل في الستين يصف الحركة وهو يشاهدها في ميدانها ببراغ:
معظم الأعضاء يتصرفون لمعاشهم نهارا ويتلقون تدريبهم الرياضي أثناء الليل. . . ولا) حاجة بنا إلى الرياضيين المحترفين لأننا نؤمن بأن الديمقراطية ينبغي أن يكون لهم من العقيدة الديمقراطية أن يبذلوا اختيارا وطواعية جزءا من وقتهم لتجميل أحوالهم الجسدية(
واستطرد الكاتب إلى بيان موارد الإنفاق على الحركة فإذا هي قائمة على جيوب أعضائها والقسط اليسير الذي يؤديه كل منتم إليها، أما معونة الحكومة فهي شيء طارئ وهي مع ذلك تنقص عاما بعد عام تبعا لتفاقم الأزمة المالية واشتدادها على كاهل الحكومة والأمة
وقال ويكهام ستيد الكاتب المشهور يصف عرض (الصكل) في شهر يوليه الماضي، خلاصته: (أي جندي لا يأخذه منظر ثمانية وعشرين ألفاً من الشبان الأصحاء الأشداء يمشون في ميدان مازاريك الذي تبلغ مساحته خمسة وأربعين فداناً فيتفرقون إلى أماكنهم جميعاً لابتداء التدريب الإيقاعي في خلال ربع ساعة، ثم ينتهي التدريب فينصرفون كرة أخرى ثمانين صفاً كل ستين في صف واحد خلال اثنتي عشرة دقيقة.

وإنني لأشك في استطاعة جيش منظم أن يعبر خمسة وأربعين فداناً جيئة وذهوباً وتدريباً في سبع وعشرين دقيقة دون أن يقع فيه شيء من الارتباك والعجلة. أما النساء وقد أدين تدريبهن قبل الرجال وبلغن ستة عشر ألفاً عداً فقد ضارعن الرجال في النشاط والنظام)

حركة الصقر هذه نحن أولى بها وأحوج إليها، وقد رأينا نموذجاً منها في (إصلاحية الأحداث) التي تشرف عليها مصلحة السجون، فرأينا كيف يراض المئات من الأطفال والصبية على الحركة الإيقاعية في وقت واحد بغير قيادة معلم أثناء الأداء، وعلمنا أن تعميم هذه الحركة مستطاع كل الاستطاعة لن يبذل الجهد الذي بذلته مصلحة السجون في تدريب أطفال نسميهم مجرمين

وما حاجتنا إلى حركة الصقر؟ إنها دفاع جنود يحمون الأوطان، بل هي كذلك وهي فوق ذلك عدة حياة لدفاع آفات كثيرة هي أشد خطراً من غارات الأعداء

عباس محمود العقاد

التعليم والعاطلون في مصر

للأستاذ عبد الحميد فهمي مطر

الأستاذ عبد الحميد فهمي مطر أحد رجال التربية المثاليين الذين يسيرون إلى غايتهم من التعليم مستقلين على ضوء الفكرة والخبرة والاطلاع، فهو لا ينفك منذ 24 عاماً معنياً بمسائل التربية في مصر باحثاً في عللها ناقداً لنظمها في صراحة وجرأة. وقد توفر أخيراً لدرس هذا الموضوع الخطير، وهو معضلة الساعة؛ ثم تفصل فوعد بنشره تباعاً في الرسالة.

المحرر

نشأت في قرى الريف بين حقول الطبيعة وإحراجها مغرما بها، في أحضان الحرية وبين ضلوعها هائما بها، ثم دفعت بي الأقدار بعد الدراسة في الكتاب إلى المدرسة الابتدائية التي جذبتني إليها جذباً بطربوشها وملابسها الإفرنجية. ذلك الطربوش الملون بلون الورود، الذي كان لا يزال يتعشقه أبناء الريف منذ ظهر في الوجود، والذي بمجرد أن لبسته أنا وإخواني تأكدنا من المستقبل السعيد، في ساحة الدواوين، بين الموظفين.

فكان ذلك الغرض الذي يملأ نفوسنا حافزاً لكل منا إلى الاجتهاد والجد. وبالرغم مما صدمتنا به المدرسة من ضغطها وشدتها وعصبها وجبروتها وحدتها، مما بغض الجميع فيها فقد كان الغرض السامي يدفعنا أبداً إلى الأمام، إلى العمل المتواصل، إلى المدارس الثانوية من غير أن يتخلف منا إلا القليل. أما من تخلف فقد وجد السبيل إلى العمل أو إلى مدارس أخرى سهلا ميسورا، ثم كان النجاح في البكالوريا فكان الفرح الشامل

وألحقناه بين الحفاوة والتبجيل، وعظيم الدعاء والتهليل، بالمدارس العليا يحدونا الأمل الكبير إلى المستقبل الحافل الذي لا يحلم به أحد من موطنينا الريفيين. فلما حصلنا على

الشهادة العليا تخطفتنا الأيدي إلى العمل الحكومي، فولجناه نشيطين جادين. فكان منا المعلمون والأطباء والمهندسون ورجال القضاء، الذين ملئوا دواوين الحكومة بأعمالهم ولم يجد العمل الحر سبيلاً إليهم، وبالرغم مما لقيناه من تكريم فقد بقيت في نفوسنا للمدرسة مرارتها، ودامت فيها ذكريات ضغطها وشدتها. ولكن ذلك كله هان بجانب ما أوصلتنا إليه من نتيجة طيبة. فتلخص في سهولة الحصول على وظيفة حكومية

عملت بين جدران المدارس بعد ذلك زمناً طويلا كنت أحس فيه أن المدارس التي عملت فيها تلميذاً والتي عملت فيها مدرساً والتي عملت فيها ناظراً لم ينلها شيء محسوس من التغير ولم يتطرق إلى روحها شيء من التجديد أو التبديل، فهي لازالت تسير على نفس الوتيرة القديمة، مليئة بنفس الروح القديمة، يحس تلميذها إذا ما دخلها بانقطاعه عن العالم وما فيه إلى شبه سجن غير محبوب إن لم يوصف بأنه مكروه، ولكن الجميع ظلوا يكبتون عواطفهم إزاءها لما تجلبه من خير الوظيفة إلى طلابها بعد نيل شهادتها، وظلت المغريات القديمة تدفع الناس دفعاً للسعي إليها

وبدأت بعد ذلك تظهر مشكلة المتعطلين من المتعلمين بعد أن امتلأت الدواوين بالموظفين وكنت قد تبينت بالبحث حالة المدارس في البلاد الأخرى، وما تسير عليه من أنماط وأساليب، تغاير ما نسير عليه في مدارسنا فرفعت بعض التقارير إلى وزراء المعارف في نقدها مبيناً عيوبها، واستمر ضغط حملة الشهادات على الدواوين حتى اكتظت بهم، وأصبحت المدرسة لا تجد سبيلاً لتصريف الخريجين من أبنائها، مما اضطربت له أفئدة المسئولين. وأخذ ألم المتعطلين يحز في نفوسهم ونفوس أهلهم، ويثبط من همم الناشئين المتعطلين، ويضغط في الوقت نفسه على الحكومة ورجالها ضغطاً شديداً. ثم أخذ الحال يزداد سوءاً يوماً بعد يوم. أما المدرسة التي كنا نتحمل قديماً شدتها، ونخضع لما فيها من ضغط وإكراه، في سبيل غرضها الأسمى، فقد أصبحت اليوم لا غرض لها إليه إذ أحس كل من فيها بزوال غرضها القديم الذي كانت تتجه بكليتها إليه، هذا فوق شذوذها عن الطريق السوي لبعدها عن الحياة وما يجري فيها. وهكذا ساءت الحالة إلى مدى بعيد بين جدران المدارس نفسها، فأنحط مستوى التعليم كما انحطت الأخلاق فيها؛ ذلك إلى العطل الذي ضرب إطنابه بين خريجيها مما أصبح خطره يهدد المجتمع في نظامه وحياته، ذلك المجتمع الذي لم يضمن بأنفاق الملايين من الجنيهات على مدارسه في سبيل الانتفاع بمجهودات أبنائها

إزاء كل ذلك لم أجد بداً من هذا البحث الذي أنشره في الرسالة تباعاً واضعاً فيه نتائج بحثي وعصارة تجارب حياتي تلميذاً ومدرساً وناظراً بعد جهاد طال أكثر من خمسة عشر عاماً بيني وبين أنصار القديم كنت فيه هدفاً لسهامهم نظراً لما كنت أتمتع به في كتاباتي وأقوالي من حرية الرأي التي نشأت عليها. وهأنذا اليوم أتقدم بالصراحة التي عرفت بها إلى أمتي العزيزة وعلى رأسها عنوان الشباب وقوة العزيمة مليكها المحبوب المتفاني في حبها المتحمس لنفعها وخيرها - بخطط جديدة للإصلاح متمشية مع الروح الجديدة في عالم التربية متضمنة لأحسن الآراء والمذاهب من غير أن أتعرضللتفصيل، ليمحص تلكم الآراء ذوو العقول والأفكار الناضجة في سبيل تنفيذ الصالح منها. ولست أدعي أن الخطط الجديدة التي تضمنها هذا البحث كلها سليمة لا غبار عليها، لأني أعتقد أني لست معصوماً من الزلل، ولكني أقرر أنني بحثتها ومحصتها وأعتقد أن الأخذ بها ينقل عالم التعليم والتربية عندنا من حال إلى حال، لأنه يمنح المدرسة الحياة الحرة المستمدة من حياة مصر الحرة، كما يضع أمامها هدفاً تسعى إليه عن طريق العمل المفيد المثمر. إذ أنها بحالتها الحاضرة تنبو عن أصول التربية والتعليم، كما تتجافى مع الآراء الحديثة فيهما. ولا تتنافى فقط مع ما يجري في مثلها من البلاد الأخرى، بل تتنافى أيضاً مع ما يقع في بلادنا بين سمعنا وبصرنا في المدارس الأجنبية. فلا يليق باستقلالنا ونهضتنا وحريتنا أن تبقى المدرسة أسيرة لروح التمسك بالقديم. تلك الروح التي قد اضطررت للتنديد بها لما رأيته من وقوفها حجر عثرة في طريق الإصلاح حباً في الراحة والاطمئنان، أو احتفاظاً بالنفوذ والسلطان. ولو أن المسألة وقفت عند هذا الحد لهان الأمر، ولكنها تعدت إلى الأضرار بمصالح الملايين من فتيان هذه البلاد وفتياتها، بل إلى المساس بمصالح أمة يخشى على نظامها الاجتماعي من الانهيار. من أجل ذلك تقدمت راضياً بتحمل كل تضحية، راضيا ببذل كل مرتخص وغال في سبيل مصلحة بلادي وإخلاصي لمليكي، بالعمل على إنقاذ هذا الوطن من خطر العطل المحدق به والذي شعر به الجميع، وخشيه الجميع، وأشفق على مصر منه الجميع، راجياً ألا تذهب صرختي هذه أدراج الرياح كما ذهبت صيحاتي السابقة. آملا أن يقرأ المسئولون عن مستقبل هذا البلد هذا البحث برؤية وإخلاص وأن يبحثوه ويمحصوه. فإذا اقتنعوا بكل ما فيه أو ببعضه عملوا على تنفيذه وإلا فأني أكون قد أرضيت ضميري وأديت واجبي. هذا وان كنت قد اضطرني البحث إلى ذكر بعض مساوئنا وأخطائنا، قائما فعلت ذلك ليكون في حاضرنا عبرة لمستقبلنا. وإذا كنت كذلك قد اضطررت إلى التنديد بروح الاحتفاظ بالقديم في ديوان المعارف وفي معاهد التعليم، فأني أرجو ألا يفهم من ذلك إني أوجه النقد إلى أشخاص معينين، لأن البحث العلمي فوق الأشخاص. وما كان نقدي إلا في سبيل الصالح العام وهو موجه إلى سياسة عامة أنتجت نتائج سيئة هامة؛ خصوصاً أننا نعلم أن الأشخاص يذهبون ويزولون،

أما السياسة العامة فبقاؤها أدوم وأثرها أعظم في الأبناء والأحفاد، بل وفي مرافق البلاد.

ويكفيني أن يشاركني في ذلك مندوبو مصر في مؤتمر الاتحاد العالمي لجمعيات التربية في جنيف سنة 1929 في تقريرهم عن هذا المؤتمر الذي طبعته وزارة المعارف سنة 1936 وقد جاء فيه (ص35) في سياق الكلام عن المعرض الذي أقيم في هذا المؤتمر ما يأتي: (وأني أقول آسفاً إننا لم نعان في الحياة أشد من مرارة المقارنة بين ما نحن عليه من تأخير وجمود وما وصلت إليه تلك الأمم المتمدنة الناهضة. وأمر من ذلك أن نعد أجيالا طوالا لابد من أن نمضي قبل أن نلحق بهم ما لم يهم أولياء الأمور فينا بثورة على القديم، ونهضه تحطم الأغلال العتيقة، وتقلب نظام التربية الحديثة عندنا من أساسه فندب الروح الجديدة في التعليم من كل نواحيه) (يتبع)

عبد الحميد فهمي مطر

كما يرانا غيرنا

رجولة باكرة

للأستاذ عبد اللطيف النشار

كان السائح الأمريكي (بايارد تيلور) شاعراً كاتباً ذا ولع بالأسفار وقد ولد في (بسيلفيانيا) عام 1825. وألف كتبا كثيرة في وصف رحلاته منها كتاب يصف فيه رحلة إلى السودان ومصر ومنه نقتطف هذه القطعة

وقد عين سفيراً للولايات المتحدة في برلين وعاش مدة طويلة هناك وتوفي عام 1878 وهو يشغل هذا المنصب الرفيع

قال:

من بين الموظفين المصريين الذين عرفتهم في الخرطوم سيد كان قد نفاه إليها والي مصر. وهذا السيد المنفي هو رفاعة رافع الطهطاوي، وهو من ذوي الثقافة العالية والذكاء المتوقد، وقد أحزنه كل الحزن إبعاده عن وطنه وعن أهله إلى هذا البلد السيئ الجو الذي عانى فيه ألما شديداً بسبب الحمى المنتشرة فيه

وكان لا يعرف إلى أي مدى تطول مدة نفيه. وقد قضى إلى الوقت الذي لقيته فيه عامين في المنفى خاضعاً لرقابة شديدة تَفْرض عليه ألاّ يتسلم خطاباً إلا عن طريق الحكومة التي تفض رسائله لتعرف ما بها. وقد امتنعتْ عليه بهذه الوسيلة صلته بأصدقائه في مصر ممن يخشون عواقب تلك الرقابة. ولم يكن في وسعي أن أعرف السبب الذي نفي من أجله، وقد يكون هو نفسه غير عالم بسبب هذا النفي وليس في البلاد الشرقية انتخابات عامة ولا للشعوب الشرقية رأي في اختيار حكامها، فكل من بها من الحكام يعينهم الولاة وفق أهوائهم ولا يستطيعون الاحتفاظ بمناصبهم إلا كما يريد الولاة. وقد يدفع التنافس أو الحسد واحداً من الباشوات إلى إهلاك خصم له بريء غافل عن سبب الكيد. وربما كان سبب الكيد لا يعدو أن يكون أحدهم طامعاً في منصب الآخر فيوغر عليه صدر الوالي حتى ينفيه

وقد اكتسب هذا السيد محبتي وعطفي العميقين في الليالي التي كان يقضي فيها السهرة معي ومع القنصل الأمريكي. وكان يطمئن إلى مجلسنا فيشكو لنا ما يعانيه من الظلم. أما حين نلتقي به في منزل أي موظف مصري فقد كان يحرص على عدم الخوض في هذا الموضوع خشية أن تُنقل عنه أحاديثه إلى الحكومة

ولما كنت أجنبياً غريباً فإنه لم يخطر ببالي قط أن في وسعي أداء أية خدمة لرفاعه باشا. وكنت مزمعاً العودة إلى بلادي عن طريق مصر. ولكن معرفتي بالغة العربية محدودة وإلمامي قليل بعاداتها ونظمها. وفضلا عن ذلك فقد كنت أرجو ألاّ أطيل بها المكث إلا ريثما أعبر إلى الشاطئ

على أنني كنت أسير وإياه في الطريق في ليلة من لياليَّ الأخيرة في السودان فقال لي همساً إن لديه حديثاً يريد أن يسره إليَّ

ومع أن الليلة كانت مقمرة فقد كان معنا خادم وطني يحمل المشعال، فأمره الباشا بأن ينصرف، فاختفى عن ناظرنا بعد قليل في منعطف ضيق من منعطفات الطريق،

وكان الصمت مخيماً لولا أصوات الرياح إذ تتخلل أطراف النخيل البارزة رؤوسها فوق أسوار الحدائق
وقال الباشا وهو يمسك بيدي: (لنا أن نتحدث الآن بضع دقائق دون أن يسمع أحد حديثنا ولي رجاء لديك)
قلت: (على الرحب إن كان في وسعي)
فقال: (إنك لن تتكلف مشقة ما، ولكنك ستؤدي لي مع ذلك خدمة جليلة. أرجو أن تحمل عني خطابين إلى مصر، أحدهما إلى نجلي في طهطا، والآخر إلى المستر موري القنصل الإنكليزي في القاهرة، ولا أستطيع ائتمان التجار المصريين على هاتين الرسالتين، فلو فضتا وقرأتا لطال أمد نفي في هذه البلاد سنين عدة. أما إذا تفضلت بإيصالهما فإن أصدقائي بمصر سيعرفون السبيل إلى معاونتي وربما تمكنوا من إعادتي إلى وطني
فوعدته بأن أسلم الخطابين إلى صاحبيهما يداً بيد. فبدا الانشراح على وجه الباشا وودعني عند باب القنصل الأمريكي
وبعد أيام قليلة استأنفت رحلتي، وكان من أيسر الأمور أن أتصل برفاعة باشا وأن يسلمني الخطابين دون أن يتنبه أحد إلى ذلك، ووضعتهما في حافظتي مع سائر أوراقي ولم أتحدث في هذا الشأن مع أي إنسان في الخرطوم
وكانت رحلتي إلى مصر طويلة شاقة يستغرق مني وصفها أياماً لو حاولت ذلك، فقد قضيت في السفر شهرين قبل أن أتمكن من تسليم رسالة الباشا إلى أبنه المقيم في طهطا بصعيد مصر على بعد بضعة أميال من مجرى النيل. ويحيط بها سهل جميل يغمره ماء النيل مرة في كل عام
وبعد تحريات قليلة وصلت إلى منزل رفاعة باشا ولكن لم يؤذن لي بالدخول لأن السيدات المصريات لا يسمح لهن باستقبال الأجانب. وكان بالمنزل قاعة واسعة مفتوح بابها على الطريق، فأجلست فيها ريثما تذهب جارية سوداء لتأتي بابن الباشا من المكتب؛ وجلس معي في تلك القاعة خادمي الأمين. وقد تسامع أهل البلد أثناء وجودي في الانتظار أني آت من الخرطوم وأني أعرف الباشا فأتوا من كل حدب ليسألوني عنه، وكانوا جميعاً في نهاية الأدب والود، واغتبطوا لما طمأنتهم عليه كما لو كانوا جميعاً من أفراد أسرته
وبعد ربع ساعة عادت الجارية يتبعها ابن الباشا ومعلمه في المكتب، وكان هذا المعلم قد صرف جميع الطلبة وأغلق المكتب وجاء ليسمع أخبار الباشا.
كان عمر هذا الصبي أحد عشر عاماً ولكنه أطول قامة ممن هم في مثل عمره. وقد ابتسم حين رآني ابتسامة عذبة، ولولا إلمامي بعض الإلمام بعادات هذا الشعب لمددت إليه يدي وأجلسته على ركبتي وطوقت خصره بذراعي وتحدثت إليه بغير تكلف، ولكني رأيت أن أصبر حتى أرى كيف يكون مسلكه نحوي.
حياني في وقار وجلال كما لو كان رجلاً له سمت وأبهة؛ ثم تناول يدي فأدناها من قلبه ثم من شفتيه ثم من جبينه؛ ثم اتخذ مجلسه فوق ديوان عال بجانبي.
وأعاد تحيتي وهو في مجلسه وصفق ثلاثاً، فجاءت جارية أمرها بأن تعد لي القهوة ثم قال: (كيف صحتك يا صاحب السعادة؟) فأجبته: (بخير والحمد لله)
قال: (هل لديكم أوامر لي؟ مروا تطاعوا!)
فقلت: (أشكر لطفك، وليس لي إلا تحيات أحملها إليك من أبيك الباشا، وخطاب منه وعدته
بأن أسلمه إليك يداً بيد)
ثم دفعت إليه بالكتاب فوضعه على قلبه ثم قبله وفض غلافه. وبعد قرأته التفت إليَّ وقد توردت وجنتاه وسطعت عيناه وقال: (أتأذنون لي يا صاحب السعادة بأن أسألكم هل معكم كتاب آخر؟)
قلت: (نعم ولكن سأسلمه لصاحبه كذلك يداً بيد)
قال: (أصبت. ومتى تصلون إلى القاهرة؟) فقلت: (الأمر يتوقف على حالة الرياح ولكني أظن أن المدة لا تتجاوز سبعة أيام)
وأسر الصبي بكلمات إلى معلمه، وبدا على وجهيهما الاغتباط. . ولم يعد كلانا إلى التحدث في هذا الموضوع.

وجيء بشراب لا شيء فيه سوى عصير الليمون المحلى وماء الورد. ثم جيء بالرمان وسألني الصبي أن أشرفه بالبقاء لديه سائر اليوم
ولولا أنني كنت أرى وجهه وهو يحادثني لظننت أني أحادث رجلا، فقد كان هذا الصغير من الجلال وقوة الأسر كعظماء الرجال
وكان الناس حولنا كأنهم معتادون مشاهدة هذا النضوج السابق لأوانه في الأطفال.
وكنت مضطراً إلى أن أتخذ حياله من الاحتشام والكلفة كما لو كان هو حاكم المدينة.
على أن ذلك لم ينقص من محبتي؛ إياه وودت لو عرفت موضوع حديثه مع معلمه.
ولست أشك في أنهما كانا يحاولان تدبيراً لإعادة الباشا من منفاه
.وبعد ساعتين أو ثلاث ساعات عدت إلى السفينة التي جرت بي في بطء إلى الشمال
نهض الصبي عند نهوضي ومشى بجانبي إلى آخر حدود المدينة والناس على أثرنا في نظام وعند وصولي إلى السفينة حياني مودعاً مثل تحيته إياي مسلماً وقال: (اسأل الله أن يجعل رحلتكم سعيدة يا صاحب السعادة)
وقد بدا لي أن منظر استقباله ووداعه والوقت الذي قضيته وإياه - لقد بدا لي أن كل ذلك كان قطعة من ألف ليلة، فإني إن نسيت شيئاً فلا أنسى تلك الذكرى الجميلة البارزة. أما بالنسبة لهذا الشعب فما من شك أن هذه الحالة هي حالتهم العادية التي تتكرر كل يوم

عبد اللطيف النشار

جورجياس أو البيان

لأفلاطون

للأستاذ محمد حسن ظاظا

- 13 -

تنزل (جورجياس) من آثاره (أفلاطون) منزلة الشرف، لأنها أجمل محاوراته وأكملها (وأجدرها جميعاً بأن تكون (إنجيلا) للفلسفة!)

(رينوفييه)

(إنما تحيا الأخلاق الفاضلة دائما وتنتصر لأنها أقوى وأقدر من جميع الهادمين!)

(جورجياس: أفلاطون)

الأشخاص

1 - سقراط: بطل المحاورة: (ط)

2 - جورجياس: السفسطائي: (ج)

3 - شيريفين: صديق سقراط: (س)

4 - بولوس: تلميذ جورجياس: (ب)

5 - كاليكيس: الأثيني: (ك)

ط - (مجيبا بولوس الذي اعترف بأن الطاغي ظالم) وما دام الأمر كذلك فلن يكون أحدهما أسعد من الآخر، لا هذا الذي نجح بظلم وصار طاغياً، ولا ذلك الذي أسلم نفسه للعقاب، لأنه لا يستطيع أحد الشقين أن يكون أسعد من أخيه!! ولكن أشقاهما - مع ذلك - هو من فر من العقاب وصار طاغياً، فترى أي معنى لذلك يا بولوس؟ أتضحك؟ أمن الأساليب الجديدة في المناقضة أن تهزأ وتسخر مما يقال دون أن تقدم أي سبب لهزئك وسخريتك؟

ب - ألا تعتقد أنك تكون قد نُوقِضتَ إطلاقاً يا سقراط عند ما تقول بأشياء لا يقرها إنسان؟ سائل بالأحرى أي مساعد تشاء!

ط - لست من عداد السياسيين يا بولوس، وقد شاء القدر أن أكون في العام الماضي عضواً بمجلس الشيوخ عند ما سادت قبيلتي بدورها في الجمعية العمومية، فلما وجب عليّ أن
أتكلم عن السؤال المعروض ضحكتُ ولم أدر ماذا أفعل، فلا تطلب مني اليوم إذاً أن أعرف رأي المساعدين! وإذا لم يكن لديك شهادة أفضل من شهادتهم فدعني آخذ مكانك كما اقترحت عليك منذ لحظة، ودعني أسائلك كما أفهم المسألة! ذلك أني لا أستطيع أن أدعم تأكيداتي إلا بشاهد واحد هو نفس من أتناقش معه دون أن أعني بالعدد الكبير من الناس! وبعبارة أخرى إنني أعرف أن أحمل شاهدا واحد على الكلام ولا أعني بمناقشة العدد الكبير في شيء!! فلتر إذاً إذا كنت توافق على أن أسألك

فتجيب!ـ لقد أقنعت نفسي بأنك وبأني والجميع نرى ارتكاب الظلم أكثر شراً من احتماله، وأن احتمال العقاب أقل شرا من الفرار منه!
ب - وأرى أني لست في جانب هذا الرأي ولا أي إنسان آخر!. فهل تفضل أنت احتمال الظلم على ارتكابه؟؟
ط - أنا وأنت والجميع يفضلون ذلك!
ب - هيهات، فلا أنا ولا أنت ولا أي إنسان يفضل هذا!
ط - ألا تريد أن تجيب؟
ب - نعم بالتأكيد لأني مشوق جدا إلى ما تستطيع أن تقول!
ط - إذا كنت تريد أن تعرف ما أستطيع قوله فأجبني كما لو كنتُ بدأت في مسألتك: ما هو أفدح الشرور في رأيك يا بولوس؟ أهو ارتكاب الظلم أم هو احتماله؟
ب - إنه احتماله - فيما أرى -!
ط - ولكن أجبني: أيهما (أقبح) ارتكابه أم احتماله؟
ب - ارتكابه
ط - وإذا فالارتكاب أفدح الشرور مادام هو (الأقبح؟)
ب - كلا - على الإطلاق!
ط - ألا تعتقد أني أفهم - فيما أرى - أنه لا خلاف بين الحسن والجميل من ناحية، والرديء والقبيح من ناحية أخرى؟
ب - كلا بالتأكيد!
ط - ولكن ماذا عساك قائل في ذلك؟ أتطلق الجمال على كل الأشياء الجميلة من أجسام وألوان وأشكال وأصوات وأعمال من غير موجب؟ ولنبدأ مثلا بالأجسام، ألا تقول إنها جميلة، بسبب استعمالها نظرا لما نستمده منها من نفع، أو بسبب لذة خاصة يثيرها منظرها في نفوس المشاهدين؟ أم هل لديك أسباب غير هذه تحملك على إطلاق (الجمال) على الأجسام؟
ب - كلا - ليس لدي!
ط - أو ليس الأمر بالمثل في كل الأشياء الجميلة من أشكال وألوان؟ ألسنا نسميها جميلة بسبب لذة خاصة تثيرها، أو بسبب نفع تقدمه، أو بسبب الاثنين معا؟
ب - بلى.
ط - أو ليس الأمر بالمثل في الأصوات وفي كل ما يختص بالموسيقى؟
ب - بلى.
ط - وهو بالمثل أيضاً في القوانين والأعمال، إذ الجميل منها ليس بجميل قط إلا بسبب لذته، أو نفعه، أو هما معا؟
ب - ذلك صحيح فيما يلوح.
ط - أو ليس الأمر بالمثل في جمال العلوم؟
ب - بلى بغير ما تناقض. وإنك لتعرف (الجميل) تعريفا فذا بقولك إنه الحسن واللذيذ.
ط - وإذا فستعرف (القبيح) تعريفاً حسنا بالضدين (الرداءة) و (الألم)؟
ب - حتما.
ط - وإذا فيكون أحد الشيئين الجميلين (أجمل) من الآخر بسبب تفوقه عليه في إحدى الصفتين أو فيهما معا؛: وأعني بهما اللذة، أو المنفعة، أو هما معا!
ب - بالتأكيد.
ط - ويكون أحد الشيئين القبيحين (أقبح) من الآخر بسبب ما يجلبه من ألم أكثر أو شر أفدح. أليست هذه نتيجة محتومة؟
ب - بلى.
ط - فلنر الآن ماذا قلنا توا عن الظلم المرتكب أو المتحمل. ألم تقل أنت أن (الأردأ) هو (احتمال) الظلم، وأن (الأقبح) هو ارتكابه؟
ب - قلت ذلك حقا!
ط - وإذا كان ارتكاب الظلم (أقبح) من احتماله، فأنه لا يكون كذلك إلا لأن أحدهما يزيد على الآخر - أي الارتكاب على الاحتمال - بالألم أو الشر المسببين، أو بهما معاً. أليس ذلك ضرورياً بالمثل؟

ب - بلى، دون تناقض.
ط - وإذاً فلنر أولا إذا كان الظلم المرتكب يسبب من الألم أكثر مما يسبب الظلم المتحمل، وإذا كان من يرتكبونه يتألمون أكثر مما تتألم فرائسهم!
ب - ذلك ما لا أراه يا سقراط
ط - وإذاً فليس الظلم المرتكب يزيد على الظلم المتحمل بالألم؟
ب - كلا بالتأكيد!
ط - وإذا كان لا يزيد عليه (بالألم)، فلن يزيد عليه أيضاً (بالشر والألم) معا؟
ب - واضح أن لا.
ط - فيبقى إذا أنه يزيد عليه بالآخر وحده؟.
ب - نعم!
ط - أعني بالشر!؟
ب - كما يلوح!
ط - وما دام ارتكاب الظلم يزيد على احتماله (بالشر)؛ فإذاً يكون الارتكاب (أردأ) من (الاحتمال).
ب - ذلك واضح.
ط - أو ليس مسلماً به من أغلب الناس، أولم تعترف لي بنفسك سابقاً، أن ارتكاب الظلم (أقبح) من احتماله؟
ب - بلى.
ط - وقد رأينا أيضاً أن الارتكاب هو (الأردأ)؟؟
ب - يلوح ذلك.
ط - والآن أتفضل ما هو أكثر رداءة وقبحاً على ما هو أقل منهما في ذلك أم لا تفضله؟؟
أجب من غير تردد يا بولوس فلن يصيبك أدنى سوء، وأسلم نفسك للحوار بشجاعة كما تسلمها للطبيب، وأجبني بنعم أو لا.!
ب - كلا يا سقراط فأنا لا أفضله
ط - وهل هنالك إنسان يفضله؟
ب - يلوح أن لا، وعلى الأقل بعد ذلك التدليل!
ط - وإذاً فقد كنت محقاً في قولي إنه لا أنا ولا أنت ولا أي إنسان آخر، يفضل ارتكاب الظلم على احتماله، مادام أن ذلك شيء أكثر (رداءة)!
ب - ذلك واضح.
(يتبع)
محمد حسن ظاظا
من مشاكل التاريخ
مكتبة الإسكندرية
تأسيسها ورواية إحراقها
للأستاذ خليل جمعة الطوال
(بقية المنشور في العدد الماضي)
قال الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار: ولكن متى علمنا أن عبد اللطيف البغدادي الذي كان قبل أبي الفرج بزمن قليل قد ذكر أن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الإسكندرية كانت التبعة عليه دون أبي الفرج لاحتمال أن يكون أبو الفرج قد أخذ هذه المقالة عن عبد اللطيف البغدادي الذي رمى بهذه الجملة بغير سلطان أتاه. ولم يقل لنا من أي تاريخ أخذ ولا من أي مصدر استقى. والظاهر أنه حين علم بأنه كان في هذا الكان مكتبة عفى الزمان على أثرها، افترض أن الذي دمرها إنما هو عمرو بن العاص، وربما شجعه على ذلك أقوال العامة أو نحو ذلك فظن الأمر حقيقة واقعة. . .
وقال الدكتور (غوستاف ليبون) نقلا عن (لودفيك لالان) الذي ناقش مسألة إحراق مكتبة الإسكندرية مناقشة علمية مختصرة: إن أول مؤلف ذكر حريق العرب لهذه المكتبة هو عبد اللطيف الطبيب العربي البغدادي الذي توفي سنة1231 م أي بعد 591 سنة من وقوع تلك الحادثة. أما من خصوص حريق مكتبة الإسكندرية المزعوم فإنه همجية وعداوة للمدنية، منافية لأخلاق العرب على خط مستقيم، حتى إنه يمكن

أن يسأل الإنسان نفسه كيف أن قصة كهذه قبلها منذ زمن طويل كثيرون ممن يعتد بعلمهم؟ وقد كذب العلماء هذه القصة في زمننا مرات كثيرة فلا نرى حاجة في العودة إلى تكذيبها، ولا أسهل من الاستشهاد على ذلك بإيراد أقوال كثيرة جلية تثبت أن المسيحيين كانوا أعدموا الكتب الوثنية التي بالإسكندرية، قبل العرب بزمن طويل وكسروا كل التماثيل أيضاً. ويفهم من ذلك أنه لم يكن بالإسكندرية بعد ما يحرق.

وأما أبو الفرج الملطي فقد نقل روايته عن جمال الدين القفطي وكان قد توفى قبله بنحو أربعين سنة تقريباً في حلب أي عام 646 هـ وقد ذكرها هذا في نسخة خطية في دار الكتب المصرية مكتوبة سنة 1197 م من كتاب له أسمه تاريخ الحكماء وإليك نص روايته:

وعاش (يحيى النحوي) إلى أن فتح عمرو بن العاص مصر والإسكندرية، ودخل على) عمرو وقد عرف موضعه من العلم واعتقاده وما جرى له مع النصارى فأكرمه عمرو ورأى له موضعاً وسمع كلامه في أبطال التثليث فأعجبه، وسمع كلامه أيضاً في انقضاء الدهر ففتن به وشاهد من حججه المنطقية وسمع من ألفاظه الفلسفية التي لم يكن العرب بها أنسة ما هاله. وكان عمرو عاقلاً حسن الاستماع صحيح الفكر فلازمه وكاد لا يفارقه، ثم قال له يحيى يوما (إنك قد أحطت بحواصل الإسكندرية وختمت على كل الأجناس الموصوفة الموجودة بها، فأما مالك به انتفاع فلا أعارضك فيه، وأما ما لا ينفع لكم منه فنحن أولى به، فأمر بالإفراج عنه) فقال عمرو: (وما الذي تحتاج إليه؟) قال: كتب الحكمة في الخزائن الملوكية، وقد أوقعت الحوطة عليها، ونحن محتاجون إليها، ولا نفع لكم بها. فقال له: (ومن جميع هذه الكتب وما قصتها؟) فقال له يحيى: (إن بطلوماوس فيلاذلفوس من ملوك الإسكندرية لما ملك حبب إليه العلم والعلماء وفحص عن كتب العلم وأمر بجمعها وأفرد لها خزائن فجمعت وولي أمرها رجلا يدعى بابن مرة (زميرة) وتقدم إليه بالاجتهاد في جمعها وتحصيلها والمبالغة في أثمانها وترغيب تجارها ففعل واجتمع له من ذلك في مدة خمسون ألف كتاب ومائة وعشرون كتاباً ولما علم الملك باجتماعهما وتحقق عدتها قال لزميرة، أترى بقي في الأرض من كتب) العلم ما لم يكن عندنا؟ فقال له زميرة (قد بقي في الدنيا شيء في السند والهند وفارس وجرجان، والأرمان وبابل والموصل وعند الروم. فعجب الملك من ذلك وقال له: دم على التحصيل. فلم يزل على ذلك إلى أن مات، وهذه الكتب لم تزل محروسة محفوظة يراعيها كل من يلبي الأمر من الملوك وأتباعهم إلى وقتنا هذا). فاستكثر عمرو ما ذكره يحيى وعجب منه وقال له (لا يمكنني أن آمر بأمر إلا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب). وكتب إلى عمر وعرفه بقول يحيى الذي ذكر واستأذنه ما الذي يصنعه فيها فورد عليه كتاب عمر يقول فيه (وأما الكتب التي ذكرتها فأن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنه غنى، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله تعالى فلا حاجة إليها فتقدم بإعدامها) فشرع عمرو بن العاص في تفريقها على حمامات الإسكندرية وأحرقها في مواقدها وذكرت عدة الحمامات يومئذ وأنسيتها فذكروا أنها استنفدت في مدة ستة أشهر فاسمع ما جرى (واعجب

هذه هي الرواية التي نقلها أبو الفرج عن القفطي فيما بعد فتداولتها الألسن على علاتها، وروج لها الشعوبيون على أنها حقيقة لا غبار للشك عليها. وقد دحضها كل من جبون، ولوبون، وبطلر، وسيدّيو، وشبلي النعمان

ولقد أعجبنا في دحض هذه الفرية دفاع الدكتور حسن إبراهيم حسن إذ يقول: (ومما يدل على اختلاق رواية أبي الفرج ومن تقدمه ما ذكره بطلر، إذ حلل هذه الرواية تحليلا لا يسع القارئ إلا أن يحكم ببراءة عمرو بن العاص مما نسب إليه، والاعتراف بأن مكتبة الإسكندرية لا بد أن تكون قد فنيت قبل الفتح الإسلامي بمدة طويلة؛ فذكر نقلا عن (اميانوس مارسينوس) أن السبعمائة الألف مجلد التي كانت تحتوي عليها مكتبة الإسكندرية قد أتلفت إتلافا تاماً حين حوصر (يوليوس) قيصر الروم بالإسكندرية كما تقدم، وممن أيَّد هذا الرأي أورازيوس حيث أعتقد أيضاً أن هذه المكتبة قد دمرت في حريق يوليوس المذكور

وأضاف (بطلر): (ومن سوء الحظ أن مثل جواب عمر قد ورد أيضاً بخصوص إحراق

الكتب في فارس). وقد علق الأستاذ (بري) بقوله: (إن شعور المسلمين نحو كتب الوثنين الفرس يختلف اختلافاً تاماً عن شعورهم نحو كتب النصارى إذ كانوا يكرهون أن يتعرضوا لما فيه اسم الله)

وإذا سلمنا جدلا بأن احتراق مكتبة الإسكندرية قد حصل فعلا كما رواه أبو الفرج الذي ذكر أن الكتب قد وضعت في سلات وزعت على الأربعة آلاف حمام، وأنها ظلت تسخن مياهها ستة شهور، فإن هذا الخبر على ما يظهر لنا عبارة عن أكاذيب وأضاليل لا حقيقة لها أصلا، إذ لو قصد تدمير هذه الكتب حقيقة لأمر بإحراقها في الحال، ولم يكن عمرو بالرجل الساذج الذي يضع هذه الكتب تحت رحمة أصحاب الحمامات، فلا يصعب بذلك على (يوحنا) أو أي إنسان سواه أن يستولي على قدر عظيم منها بثمن بخس، ولدى يوحنا وغيره من عشاق الكتب ما يكفي لتحقيق هذه الأمنية وهي انتشال عدد كبير منها من مخالب النيران. على أن ما جاء برواية أبي الفرج من أن هذه الكتب كفت الحمامات ستة

أشهر مما يثير الدهشة والاستغراب في نفوسنا لأنه لو قدر لكل حمام مائة مجلد في اليوم على الأقل (وعددها أربعة آلاف حمام) لبلغ هذا العدد الذي أحرق في ذلك الوقت (72 , 000 , 000) مجلد وهو ضعف عدد مجلدات المكتبة الحقيقي بنحو 103 مرة تقريباً. ويستدل مما ذكر أن السبعمائة الألف مجلد لم تكن لتكفي الأربعة الآلاف حمام ساعة واحدة لا ستة شهور

وزاد على ذلك أستاذنا إسماعيل رأفت بك مؤيداً استبعاد وقوع هذا الأمر بقوله: (إن الكاغد بقطع النظر عن الرق وإن كان يصلح لا يقاد النار، إلا أنه لا يصلح لبقائها متقدة أصلاً)

وقد برهن بطلر على أن يوحنا النحوي الذي ذكره أبو الفرج في روايته لم يكن حياً يرزق وقت فتح الإسكندرية، سنة642 م لأن يوحنا هذا كان قد اشترك مع (ديوسفوروس) و (جايوس) و (ساويرس أسقف إنطاكية) في الكتابة ضد مجمع خلقدونية، ويكون قد عاش في أوائل القرن السابع الميلادي: أي قبل سنة 642 م. ولا بد أن يكون قد مات قبل دخول عمرو الإسكندرية بثلاثين أو أربعين سنة. . . الخ. وختم بطلر كلامه قائلا: لا أزال أقول إن إحراق العرب لتلك المكتبة غير محتمل جداً، لأن العرب لم تدخل الإسكندرية إلا بعد استيلائهم عليها بأحد عشر شهراً. وقد ذكر في عهد الصلح (مادة 4 , 6) أنه يجوز للروم أن يحملوا إلى بلادهم كل أمتعتهم، وفي غضون هذه المدة كان البحر مفتوحاً ولم تكن أمامهم أية صعوبة لحملها إلى بلادهم، وما كان يصعب على يوحنا (بفرض وجوده) وأمثاله أن يقتنوا هذه الكتب قبل أن تقع الإسكندرية نهائياً في أيدي العرب. انتهى كلام الدكتور حسن إبراهيم حسن

هذه هي المصادر والروايات الهامة التي يتعلق بها الشعوبيون في الحط من كرامة الفاروق العاص، وفيما سلف أن فصلناه الكفاية للدلالة على ضعفها وفسادها، وأما بقية الروايات فإنها قد أخذت عنها وتنطوي تحت حكمها

وأما عبارة حاجي خليفة وهي: (ويروي أنهم أحرقوا ما وجدوه من اكتب في فتوحات البلاد) فلا يصح أن تؤخذ حجة على العرب لأنه لم يذكر فيها اسم هذه المكتبة، ولا أشار إليها، ولكنه أراد أن يقول أن المسلمين في أول فتوحهم لم يعتنوا بالعلم لتعلقهم بالوحي وخوفهم من تسلط العلوم الأجنبية عليهم وعلى عقولهم

ولقد اعتاد الناس إذ ذاك أن يقاوموا الأديان الجديدة المخالفة لعقائدهم، فلما جاءت المسيحية قاومتها الوثنية مقاومة عنيفة، وأوقعت بأتباعها مرَّ العذاب، وشديد التنكيل، فلما ظهرت هذه عليها كالت لها الصاع صاعين، وبادلتها الشر بمثله، وكان المسيحيون يعتقدون إذ ذاك أن هدم المعابد والهياكل الوطنية شرط لازم لتأييد المسيحية، ولذلك فإن أباطرة الروم عندما تنصروا كان أول ما أمروا به هدم هياكل الأوثان في مصر وإحراقها بما فيها من الكتب. ولما كانت مكتبة الإسكندرية من آثار الوثنيين ومؤلفاتهم، فليس هنالك ما يبرر حرقهم إياها.

ولم يقتصر هذا الأمر على الكتب الوثنية فقط بل تعداه إلى جميع الكتب غير المسيحية، فقد أحرق الكردينال كسيمنس جميع كتب المسلمين في غرناطة وكانت ثمانين ألف مجلد، وأحرق الأسبانيون غيرها عشرات المكاتب الهامة في القرن السادس عشر كرهاً للعرب، وفي القرن الثاني عشر أتلف الصليبيون معظم مكتبة

طرابلس، وكذلك يوم أمر ضجيل بإحراق كتب دار العلم فيها وكانت تقدر بأكثر من مائة ألف مجلد.

ونحسب بعد هذا أن قد وفينا الموضوع حقه من البحث، في دحض هذه الفرية الشائنة التي لفقها بعض الشعوبيون على العرب تلفيقاً، وأننا قد بلغنا بالقارئ محجة الإقناع.

وسنتقدم في مقال آت لدحض فرية أخرى عن الإسلام لا تقل عن هذه شناعة.

وسنواصل نشر هذه البحوث في الرسالة العزيزة حتى يتم طبع كتابنا في الدفاع عن الإسلام، وبذلك نكون قد وضعنا تحت متناول القارئ ما يساعده على مجابهة الخصوم، ونكون قد أدبنا لهذه الأمة العزيزة بعض ما أخذنا على عاتقنا عبئه، وأنجزنا بعض ما سجلته علينا الرسالة العزيزة من الوعود القاطعة.

خليل جمعة الطوال

على ذكر مؤتمر القاهرة

فلسطين العربية

للدكتور حسن إبراهيم حسن

أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية الآداب

إن أبرز ما يتسم به الإسلام هو التسامح إزاء من يعيشون معه أو في كنفه، وتلك جِبِلّة في العربيّ أنّى كان؛ غير أن خصومه لك يقدروا فيه ذلك التسامح حق قدره، ولم يحملوا للعرب هذه المكرمة التي يظهرونها في كل حين مهما اشتدت بهم الأمور، وحاقت بهم الخطوب

واليهود في ادعائهم فلسطين وطناً قومياً لهم إنما يتنكّبون السبيل السويّ والصراط المستقيم، فما كان لهم في عصر من العصور وطن قومي حتى يجوز لهم اليوم التشبُّث به. وخير لهم أن ينضووا تحت ظلال الشعوب التي هم بينها. وأنى لهم أن يعرفوا (الوطن القومي) وهم لا يعرفون الشعور القومي، ولكنهم قوم غرقوا في العصبية الجنسية تقليداً فحسب، فلا جرم إذا هم سعوا وراء مصالحهم قبل أن يفكروا في مُعَاونة من هم بينهم، ولا غرابة - حين يبدو هذا منهم - أن تقف منهم جميع الدول الغربية موقف المضطهد المستنكر لأعمالهم، ذلك لأنها أحست بوطأتهم وضررهم، ورأت أنهم يتعصَّبون لجنسهم لا لقومية فيهم، فاليهودية اسم للدين لا للوطن، على حين أننا إذا قلنا (العروبة) شخصت الأبصار والأذهان إلى الجزيرة العربية وأطراف العراق وبلاد الشام موطن الغساسنة

لقد كتب الله على اليهود التشتت والتفرقة (ضربت عليهم الذِّلة والمسكنة وباؤا بغضبٍ من الله، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله، ويقتلون النبيين بغير الحق، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) وكيف يريدون أن تكون فلسطين وطناً لهم وفي بلاد العروبة أنفس أبيَّات لا ترضى الذّل وتأبى الصبر على الهوان؟ وكيف يريدون فلسطين وطناً لهم وهي مهبط المسيحية الغراء، والأرض التي درج عليها عيسى عليه السلام، وفيها مناسك النصرانية؛ وهي الأرض المقدسة بعد الحجاز عند المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها؟ قل (سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله). ولو

رجعنا إلى التاريخ نستوحيه الخبر عنهم، لرأيناهم لا يستقيم لهم أمر إذا التأموا، فلقد كانوا حرباً عوناً على المسيح وأنصاره، مؤيدين للظلم ولو عرفوا الحق

أما في الإسلام فقد حاربوه وناجزوه العداء وهو دين الوحدانية، ولم يتورّعوا عن اتخاذ أية وسيلة لمحاربته، وكانوا كثيرين في الجزيرة، ولكن نصر الله نبيّه وأيَّده بروحه، وأمدّه بكل ما حقق به الإسلام والعروبة الفوز المبين والنصر الباهر

نشب النضال بين اليهود والمسلمين منذ رحل النبيّ عليه الصلاة والسلام إلى المدينة المنوّرة، واتخذها مركزاً لبث دعوته، ورأوا في محمد (صلوات الله عليه) وفي دينه منافساً جديداً يوشك أن يقضي على نفوذ كل دينٍ غيره، فأبوا إلاَّ محاربته، مع أنهم كانوا يستنصرون به على العرب في الجاهلية ويقولون (اللهم انصرنا بنبيّ آخر الزمان) فإذا سألهم العرب قالوا (أن نبينا قد قرب زمانه، وسيكون لمن اتّبعه العز والنصر إلى يوم القيامة) ويتوعدون العرب باتباعه والاستنصار به عليهم، ولكن ما كاد محمد عليه السلام يذيع رسالته حتى ناصبوه العداء، بعد أن كانوا يستفتحون به عليهم

وكان اليهود يكرهون محمداً والعرب والمسلمين، وينظرون إليهم والى دعوته بعين

الخوف والفزع من أول يوم طلع عليهم في أفق يثرب، ثم زاد خوفهم منه وظهر حسدهم له عندما رأوا الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، فأخذوا يكيدون للإسلام والمسلمين بالدّس والإرجاف، ثم بالمراء والجدل فيما يعلمون ومالا يعلمون؛ وإذا سئلوا عن شيء مما في كتبهم حرَّفوا الكلم عن مواضعه وألبسوا الحق بالباطل، ليكسِبوا ولاء المشركين.

وقد نعى الله عليهم ذلك فقال (بئس ما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزلَ الله بغياً أن ينزّل الله من فضله على من يشاء من عباده) وكانوا يسعون في دين الله معاجزين لكي يفتنوا المسلمين عن دينهم، ويوهنوا عقائدهم بالشّبه والأباطيل، فقال تعالى (ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبيّن لهم الحق)، كل هذا والنبيّ يصابرهم ويصبر عليهم، ويسوّي بينهم وبين المسلمين في المصالح ويحترم شعائرهم. ولو تركنا ما قاساه النبي والمسلمون من كيد اليهود لهم بكافّة الطرق، بل وانتهازهم الفرص لقتل الرسول وتأليب العرب عليه وتحزيب الأحزاب ضده، ونقضهم عهود المسلمين في أحرج الأوقات، لو تركن ذلك كله، ورجعنا إلى عهد إبراهيم عليه السلام لوجدنا أنه لم تكن فلسطين وطنه الأصلي، ومن هنا تنهار إحدى الدعائم التي يستمسك بها اليهود في أحقيتهم لها؛ فقد ولد عليه السلام بالعراق، ثم أمره الله تعالى بالدعوة إلى التوحيد، ثم سار إبراهيم وزوجته سارة وغيرها ممن آمن بدعوته إلى حران، ثم أتى مصر حيث لحق بهم حنق فرعون الذي أطلقه هو وزوجته بعد أن ظهرت على يد إبراهيم آيات النبوة، ووهب سارة هاجر جارية لها، وسار ثلاثتهم إلى الشام، ثم شخص إبراهيم بهاجر وإسماعيل إلى بلاد الحجاز، فأية دعوة لليهود بملكية فلسطين؟ ولو أجيبوا إلى دعوتهم لحق لأهل بريتاني الفرنسية المطالبة بملكية إنجلترا دون الإنجليز، لأنهم غزوا إنجلترا وسكنوها، حتى نسبت البلاد إليهم كما غزاها الرومان إلى سنة 54ق. م والإنجليز والسكسون والدنيمركيون، وغزاها كذلك وليم الفاتح النرميدي (من مقاطعة نرمنديا بفرنسا) وانتصر سنة 1066م في موقعة هستنجس، فهل يحق لفرنسا وإيطاليا والدانمرك أن يطالبوا بإنجلترا اليوم لأنهم غزوها واستولوا عليها بحد السيف في يوم من الأيام؟ هذا على الرغم من أن اليهود لم يغزوا فلسطين ولم يفتحوها عنوة أو بحد السيف وإنما لجئوا إليها كما لجئوا إلى غيرها من بلاد العالم.

ولقد غلا اليهود في زمن موسى عليه السلام واشتطوا، ورأى فرعون مصر ذلك منهم فطردهم من بلاده، فلاذوا بفلسطين وظلوا بها حتى أخرجهم الإمبراطور الروماني تراجان سنة 105م وكانوا شرذمة عديمة النفع، كبيرة الضر، عاكفة على الشر، مؤيدة للباطل. وإن التاريخ ليأبى إلا أن يعيد نفسه، فقد نكل بهم الروم في مصر فخلصهم العرب المسلمون من نيرهم، واستعملوا سياسة التسامح التي عرف بها الإسلام، كما نكل بهم القوط في الأندلس، وكانت نجاتهم على يد العرب، فظهر منهم الأطباء والفلاسفة ورجال الأعمال وأسندت إليهم مناصب الدولة.

وبعد سبعة عشر قرنا نرى هتلر وموسليني يمثلان معهم نفس هذا الدور الذي مثله معهم من قبل فرعون مصر والروم والقوط وغيرهم. وكأن الصهيونيين لم يشعروا بضرورة وطن قومي لهم إلا بعد عشرات القرون، ولكنهم قابلوا جميل العرب بالخيانة والعدوان عليهم، لقد صدق الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله (اتق شر من أحسنت إليه) فأية جريرة ارتكبها العرب والإسلام حتى يكيد لهم اليهود وينتقموا منهم في عرب فلسطين وهم السواد الأعظم من الآهلين؟

إن فلسطين عربية منذ الجاهلية السحيقة، سكنها الغساسنة وهم عرب، حتى إذا كان الإسلام فتحها المسلمون بحد السيف، فقد أنفذ أبو بكر الجيوش العربية نحو الشمال، وعقد لأبي عبيده (ووجهته حمص) وعمرو بن العاص (ووجهته فلسطين)، ويزيد بن أبي سفيان (ووجهته دمشق) وشرحبيل بن حسنة (ووجهته وادي الأردن).

ثم فتحت هذه البلاد في عهد عمر بن الخطاب، وأبى البطريق سفرونيوس تسليم بيت المقدس إلاّ لعمر نفسه، فأتى الخليفة، وتسلم منه مفاتيحها وأعطى لأهلها الأمان المعروف. وصفوة القول أن العرب فتحوا فلسطين، وأن القتال قام بينهم وبين الروم المسيحيين أصحاب هذه البلاد دون اليهود الذين لم يكن لهم أي أثر في هذه الفتوح.

وفي عهد آخر نرى في فلسطين تلك الحروب الطاحنة، وهي الحروب الصليبية التي قامت بين المسلمين والمسيحيين، وأريقت فيها دماء كثيرة، وأبلى فيها البلاء الحسن أمثال صلاح الدين والظاهر بيبرس والأشرف خليل، فأين كان اليهود في ذلك الزمن المفعم بالخطوب والويلات؟ لعلهم كانوا في غفلة، أو لعلهم لم يكونوا في هذه البلاد، أو لعلهم لم يكونوا قد تعلموا بعد أساليب القومية والوطنية. ولو فكر الصهيونيون لرأوا أن من الخير لهم أن يعقدوا أواصر المودة وحسن التفاهم مع العرب، وفلسطين اليوم تعتبر بحق حلقة من حلقات الاتصال في الثقافة بين الشعوب العربية، هذا إلى أن استقلال الصهيونيين بجزء من فلسطين يهدد مصر نفسها، والعرب رأوا أن لا سبيل لتأمين الشام وفلسطين جنوباً إلا بفتح مصر، كما اتبع هذه السياسة قبلهم الكلدانيون والآشوريون والفرس والروم، كذلك سيهددون مصر إذا هاجر إلى فلسطين يهود ألمانيا وبولندة وغيرهما. ومن ثم نرى أن الواجب يقضي على مصر حكومة وشعباً أن تنظر إلى مغبة الحركة الصهيونية بعين الحذر، وأن تقف منها موقف الصراحة في القول، وأن يعمل الجميع متكاتفين متساندين مع إخوانهم عرب فلسطين وسائر أهالي البلاد العربية. ولا مشاحة في أن وقوف مصر هذا الموقف الحازم سيكون له أثره في موقف العرب إزاء الحركة الصهيونية، وسيعزز مركز مصر عند سائر البلاد العربية خاصة والشرقية عامة.

حسن إبراهيم حسن

متى يوجد منقذ العرب

للآنسة فلك طرزي

يحلو لي أحياناً استجلاء بعض أمور الحياة ومحاولة تحليل بواعثها وأسبابها ساعة أخلو بنفسي في وحدة صامتة لا يكون رفيقي فيها إلاَّ قلبي وضميري، لأن الساعة التي يجالس المرء فيها ضميره وينفرد في ظلال التفكير والتأمل بعد ساعات يقضيها بين الناس تعد من أعظم ساعات الحياة نفعاً وأرفعها شأناً، وأكثرها فائدة. فكم من ضال مخطئ كانت الوحدة سبيل هدايته إلى الحق والصواب! وكم من نفائس علمية وفنية وأدبية لم يتحفنا بها رجال العلم والفن والأدب إلاَّ بعد ساعات بل أيام انفردوا خلالها بأنفسهم وضمائرهم، فإذا ما اطمأنوا إلى صمت هذه الوحدة وسكونها، أرسلوا أنفسهم على سجيتها فانطلقت من عقالها مجتازة الحدود، مخترقة بنفاذ بصيرتها صميم الحياة، تكشف الحجب عن حقائقها وترشدهم إلى كل موضع ومعنى من مواضعها ومعانيها، فيستجلون بدقة خيالهم صورها، ويدركون بقوة عبقريتهم دقائقها، فإذا ما انتهوا إلى الإدراك، عرضوا صور الحياة على اختلاف ألوانها ومعانيها، أمام أبصارنا واضحة صافية، فيها دقة الفن وفيها دقة الأداء، لأنهم حين استخرجوها من مكمنها وأخذوا في توضيحها، مزجوا ألوانها بألوان نفوسهم، وأضافوا إلى معانيها من معاني قلوبهم، وأفرغوا فيها الكثير من إحساسهم وشعورهم

وليس النضال الذي تخرج منه العبقرية إلى النصر بعد عراك طويل مستميت مع مختلف عوامل الحيرة والضعف التي تعتري نفس الفنان أحياناً بأصغر شأناً وأقل خطراً من نضال القائد الجبار الذي يقوم بتدريب فرقة من فرق الجيش في ساحات الحرب.

أجل يحلو لي اللجوء إلى الوحدة في ساعة من الساعات تحن نفسي فيها إلى الصمت وتشتهيه، لكي يتسنى لي عصر قلبي، فأستنزف منه قطرات من دم الصدق والإخلاص

لقد حدثتني نفسي أن تأخر الأمة العربية عامة والسورية خاصة ناتج عن سبب خلوها من النهضة الفكرية أو بالأصح من التفكير الصحيح المستقيم الذي هو بمثابة مشعل ينفذ بحامله إلى خفايا حياة أمته ويتغلغل به في جوانبها وزواياه، ليطلعه على مختلف شؤونها ونقائضها، ثم ليقوده بعد النفاذ والتغلغل إلى تشخيص الداء الأساسي الذي تشكو بسببه علتها ومرضها

خذ دليل ذلك أيها القارئ، وبرهانه الساطع من تاريخ النهضة العربية في غابر العصور، وتأمل ضخامة الدرس الذي ألفته الأمة العربية على الإنسانية جمعاء، ثم تأمل في سرعة الانقلاب الذي حدث في تلك الجزيرة المحاطة بالجدب والقحط من كل نواحيها، فإذا بها تصبح في مدة من الزمن لم تبلغ نصف قرن ينبوعاً صافياً يؤمه كل ظامئ إلى معرفة الحق، ليرتشف من مناهله ماء الثقة والأيمان

أنظر كيف أن قريشاً لم تنهض من الجهل الذي كانت واقعة فيه ولم ترتفع من الدرك

الذي انحطت إليه، إلا حين خرج النبي المفكر البصير، فبدد جهلها بآيات الكتاب المبين الذي حملته يمينه، وأيقظ في قلوبها الحق والأيمان مشعل الحقيقة الذي كان نوره ينبعث من بين جوانحه فإذا به يجري عجباً، وإذا به يغير حالاً بحال، ويبدل أموراً بأمور، فتمسي قريش التي كانت من قبل تغط في غياهب الجهل والشرك، كعبة المدينة والحق، والمنارة التي ترشد الإنسانية إلى سبيلهما

ثم انظر إلينا كيف نسير متلكئين في طريق نهضتنا الفتية ونحن بعد بين هجعة ويقظة. . . بين ظلام الليل ونور النهار، نحاول في سبيل إيجاد الحل الموافق لقضيتنا المعقدة نتبع خطوات الأمم التي أحدثت الحرب العظمى تغيراً في نظمها ومناهجها الدولي، ناسين أو متناسين أن للعوامل الإقليمية والتاريخية والنفسية شأناً كبيراً وأثراً بعيداً في اختيار نوع من أنواع الأنظمة الدولية المختلفة الذي يلائم أمة ولا يلائم غيرها، إذ هي الدعائم الأولى، بل القاعدة الأساسية التي يشيد عليها مؤسسو النهضات القومية بناء هذه القومية.

فلا النظام الشيوعي ولا النازي ولا النظام الفاشستي يلائم الأمة العربية: هي بحاجة إلى نظام خاص يكون مقتبساً من تاريخها، ومستمداً من قوة الحاضر وواقعه.

القضية العربية تشكو خلوها من عالم مدقق حصيف يدرسها على ضوء المنطق، درساً عميقاً مستفيضاً، كما درس موسليني القضية الإيطالية، وهتلر الألمانية، وكما درس من قبلهما الفيلسوف الاجتماعي مونتسكيو القضية الفرنسية فكان كتاب (روح الشرائع) الذي أخرجه بعد درس النظام الدولي الأنكليزي، درساً مشبعاً بروح البحث والتمحيص، ومشعلاً استنار به الفرنسيون واسترشدوا بقوانينه وشرائعه، فجاء مطابقاً لأهوائهم، ملائماً لرغبائهم، محاكياً ميولهم محققاً آمالهم وأمانيهم.

الأمة التي في عبقريتها وجوهر، تخلق ذاتها، وتوجد نهضتها بهذه الذات، وتختار بفضل تفكيرها وجهودها نوع الأنظمة الذي يوافق طبيعة إقليمها ويلائم مستوى شعبها الفكري والعقلي والأخلاقي. فهي إذن في غنى عن تقليد هذا النظام وذاك المنهاج، وهي في غنى - إذا كانت شروط العبقرية متوفرة لديها - عن اتباع النظم الدكتاتورية التي خلقت الحرب الكبرى وجودها في بعض أمم الغرب.

ولست أعتقد أن سمة التقليد هي سمة الأمة العربية التي برهنت وتبرهن الآن في أجل وأقدس بقعة من بقاعها على أنها أمة فيها نبوغ وفيها عبقرية.

أمتنا شبيهة بتلك النفس المضطربة الحيرى التي تحس في أعماقها بحاجتها إلى الصديق العالم المخلص العطوف الذي يحنو عليها برفق ليسير بعقله حقيقتها، ويملك بقوة (سيكولوجيته) كل ناحية من نواحي خلقها ونفسيتها، ويحبها بقلبه وجوارحه حباً عميقاً صادقاً لا يخالطه زيف يحوجه إلى سلوك طرق النفاق والتدجيل.

ويوم يعلن لها ضحاه وجود هذا الصديق تستطيع هذه الأمة التعسة أن تنام قريرة العين، لأنها سوف تستودع آمالها وأمانيها في قلب وفي أمين، تعلو به مشاعره النبيلة عن الخيانة والكذب، ويرتفع عن استعمال أحط الطرق والوسائل في سبيل خدعها والسخر منها

فلك طرزي

بين الشرق والغرب

لباحث فاضل

قرأنا كما قرأ كثيرون غيرنا ما كتب في الرسالة في موضوع الغرب والشرق؛ تتبعنا مناظرات كثيرة لفئة من الكتاب منهم العرب وغير العرب. وهذا الموضوع ليس حديث العهد بالجدل والمناظرة، فلطالما قام التفاضلُ بين الشرق والغرب على أن التفاضل فيما مضى قد قام على أساس جغرافي في تقسيم العالم لأن لكلٍ مِن العالمين عادات وطبائع تباين الآخر ولقد اتسع مدى هذا التباين حتى ألبس العقليةَ في كل منهما مظهراً خاصاً تميزت به عن الآخر، فليس غريباً بعد هذا أن نجدَ مثل هذا الاختلاف ممثلاً في كثير من أوجه الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية. وما مظاهر الحياة وطقوسها في جميع بلدان العالم إلا صورة لشخصيات الشعوب التي نشأت فيها والتي اشتركت البيئة والتراث في تكوينها

على أن هذا الاختلاف وإن شمل مناحي الحياة المتعددة وألبس العقلية مظهراً خاصًّا بها فلا نعتقد بأنه اختلاف أساسي في العقلية؟ إذ من الواضح أن طبيعة العقلية قد

استوت في قدرتها وقابليتها في أصل جميع الشعوب. وذلك الاختلاف الذي نرى أثرَه في منازع التفكير المتعددة يجب أن يرجع إلى بيئات تلك الشعوب والى المؤثرات التي قدِّر لكل شعب أن يتأثر بها. فمن سكن اليمن من العرب غير من سكن الأندلسَ منهم؛ فأوجه الحياة قد اختلفت فيما بينهما من أصلٍ واحد. فمن رجع إلى تراث الأندلسيين ثم نظر إلى تراث اليمنيين تبين له الفرق الشاسع في كلِّ شيء، أفيكون هذا الاختلاف داعيا إلى شطر العقلية إلى شطرين منها للأندلسي والناقصُ لليمني؟ ثم هل يعجز ساكنُ البادية عن مجاراة أعظم الأمم حضارة في كل شيء؟ إن هذا ليحملنا على تقرير الحقيقة وهي أنه ليس فرق أساسي بين طبيعة العقليات جميعاً. وعلى هذا فإن الصور الذهنية لكل شعب يغلب أن تكون مرآة للشكل المتكون من تفاعل خصائص ذلك الشعب التاريخية مع البيئة

أما القابلية العقلية والقدرة الفكرية فلا يحكم على مدى كل منها بمجرد النظر إلى طبيعتها في زمن واحدٍ وعصر منفرد. ذلك لأن العقلية تخضع كغيرها إلى مؤثرات تختلف قوة وضعفاً. ونصيب العقلية من كل ذلك أن تنزع في كثير من الظروف منازع شتى تباين

الأصل والطبيعة، فتراها تتلون بلون المؤثر إن ضعفت بالنسبة له، أو تراها تلون المؤثرَ إن قويت عليه، أو تراها تمتزج معه إن تعادلا منزعاً وقصداً وغاية. وهذه هي الحقيقة الواضحة التي نلمحها في ثقافات الشعوب المتعدَّدة

أتيتُ بهذه المقدمة لا لأبحث في نشوء العقليات وتطوِّرها فهذا أمرٌ لا قدرة عليه إلا لمن أوتي القدرة على تفهم ثقافات الأمم جميعاً وإرجاعها كلها إلى الصور العقلية والذهنية التي صدرت عنها وهذا بعيد على مَن يحاوله. ولكننا رغبنا أن نظهر ببساطة أن منازع التفكير لا تدعو إلى تفاصيل في العقلية، ثم هي بعد هذا لا تبيح للكاتب أن يفاضل بين الشرق والغرب فيقرّر حدوداً قاطعة بينهما لأن العقل لا يعرف الحدود القاطعة الحاسمة

وقد درَج الكتاب على تقرير عقلية للشرق وأخرى للغرب؛ وذهب بعضهم إلى أبعد من هذا فقرروا طبيعة كل من هاتين العقليتين وأن الواحدة منهما لا تقبل إلا المظهر الفلاني ولا تتلون إلا بلون خاص. وهم بقياس المظاهر الفكرية لهذه العقليات قد طبقوا هذا القياس نفسه على الشعوب فتفاضلت بسبب ذلك

هذه ملاحظة أساسية استخلصتها من بحث للدكتور إسماعيل أدهم في موضوع الشرق والغرب المنشور في الرسالة (259، 260) ولست أقصد في هذه الكلمة أن أناظِرَ الكاتب في هذا المبحث فإن الوصول إلى حد حاسم في هذا الشأن بعيد الوقوع. ولكن بعض الحقائق التي تضمنها بحثه المذكور تفتقر إلى تدقيق؛ ثم هو بعد هذا لم يشأ أن يستند في النتيجة التي توصل إليها إلى الحقائق التاريخية فأورد بعضها ونسى أو تناسى الآخر. ولقد أحسن الدكتور صنعاً في أن دعا إلى مناقشة ما أتى به. ولا زلنا نرغب معه في أن تجلو الأقلام كثيراً من الحقائق المتعلقة بهذا الموضوع فننصف الشرقي والغربي وننصف معهما الفكر العربي من كثير مما أصابه وهذا مما لا يرتكز على حقيقة

تحديد لفظي الشرق والغرب، فقد حرنا حقيقة في جلاء ما قصده الكاتب في (أولاً) هذين اللفظين. فهو تارة لا يرجعه إلى أساس جغرافي في تقسيم العالم إلى بلدان في قوله (إن ما نعنيه بإصلاح الشرق والغرب لا يقوم على تقسيم العالم من شرق وغرب في تقويم البلدان) ثم نراه مرة أخرى يقف عند هذا الحد فلا يظهر لنا ما عناه بهذا المصطلح فيقول (إنما ترجع التفرقة عندنا إلى ما نلمسه من طابع ذهني للغرب ومنزع ثقافي للشرق) وبعد هذا

تبقى كلمتا الشرق والغرب مجهولتي المعنى والتحديد. على أننا مع هذا نستطيع أن نبين ما رمى إليه الكاتب من وراء هذا المصطلح وإن جاء ذلك متداخلاً مضطرباً.

فعلى فرض أن (الغرب) مصطلح علمي يدل على شيء أو أشياء معينة فقد أراد أن يثبت بأن ما يدل عليه هذا اللفظ إن هو إلا العقل الحر الذي لا يتقيد بالروحانيات وما إليها، في قوله: (إن في الشرق استسلاماً محضاً للغيب وفي الغرب نضالاً محضاً مع قوى الغيب)

ثم إن الغرب يعني العقل المتفلسف لأنه (يبدأ من عالم الغيب وينتهي للعالم المنظور.

والغرب بعد هذا يعني العقلية العلمية التي (تأخذ بأساليب الاستقراء والمشاهدة إلى جانب أسلوب الاستنتاج والنظر) والغرب يعني أيضاً (تحكم العقل في محاولة تنظيم الصلات بين أفراد المجموع البشري)
وأخيراً فإن الإنسان في نظر الغربي) قادر على تغيير المقدر له عن طريق معرفة (النواميس المحكمة في وجوده
وأما الخالق (الذي خلق هذا الإنسان) فهو مقيد بهذه السنن والنواميس، وإرادته (أي (الخالق) مقيدة بنظام هذا الكون وأفعاله قائمة على عنصر اللزوم والاضطرار
في مطلع الشرق قد أدرج ما يعكس مدلول الغرب؛ فله العقل المقيد بالعقيدة، وله الجمود الفكري (في أن تكون العصور الوسطى صورة من الصور الشرقية). والعصور الوسطى هي عصور مظلمة عمت فيها الفوضى في مهامه الجهل
إلى هنا أحسن الكاتب صنعاً. ولو أنه لم يتعد مدلول هاتين اللفظين كما (تصورناه) لكان بحثه (بحق) أوفي ما يكتب في بحث مظاهر العقليات. ولكنه رغب في قرارة نفسه أن يتعدى هذا المدلول وأن يكشف عن نياته الصادقات عن الشرق والغرب فتراه أكسب العقليات الصفة الشعبية. فاليونان من الغرب؛ وكذا أهل أوربا في عصور النهضة والنشاط الفكري. أما أوربا في غير تلك العصور فليست من الغرب. فهي في عصر النور غربية وفي عصر الظلام شرقية مع أن الشعوب التي سكنتها في كل من العصرين لم تختلف في عنصرها ولا في جنسها.
والعرب كذلك (في رأيه) عقليتهم العلمية ترجع للغرب لأنهم أخذوا أصولها عن فلاسفة اليونان، أما روحانيتهم فهي للشرق لأن الشرق منبع الأديان وكل ما فيها روحاني الطبيعة
والمظهر. وسبب هذا التباين الذي اعتبره أساسياً أن العقلية الشرقية ابتدأت بالاعتقاد إلى خالق ثم انتهت بالطبيعة. والعقلية الغربية بدأت بالطبيعة وانتهت في الخالق، ثم هو لا يوضح متى بدأت كل من العقليتين الأولى في اعتقادها بالخالق، والثانية في بحثها عنه عن طريق الطبيعة. ونحن لا نطالبه بهذا الإيضاح، فالثابت الذي لاشك فيه أن الغرب قد سبق الشرق في كلتا الناحيتين وما كان الغرب إلا مقلداً لها ومتأثراً بسببها.
ولنعد الآن إلى ما جاء في البحث المذكور الذي أوردناه أهم النقط التي تضمنها فيما مضى من السطور لتسهل مناقشتها.
إذا كان الأساس العلمي هو المقياس لتفاضل العقليتين، وإذا كان البحث في (ثانياً) نواميس الطبيعة والكون من المظاهر العلمية للعقل، فهل للفاضل الكاتب أن يقرر لنا متى بدأ يتحسن الخالق في سر مخلوقاته. أهو الشرقي مصرياً كان أو آشورياً أو كلدانياً أو عربياً أم بدأ به اليونانيون والرومان والسكسون؟
إن العقلية اليونانية التي ادعى الكاتب أنها أصل البحث العلمي الذي أخذ عنه فلاسفة الإسلام، هذه العقلية هل انفردت عن غيرها من العقليات المعاصرة أو السابقة في نهج الأسلوب العلمي؟ وهل يعتقد أحد بأن من قيمة العقل العلمي المتفلسف أن يقف عند حد المنطق في وضع أصول الشك ولا يتعدى تطبيق هذه الأصول على حقيقة الوجود كي ينتهي إلى الخالق؟ ثم نواميس الكون وسنن الوجود التي توصل إليها اليونانيون بأي خالق ربطت وعلقت؟ هل الجانب العلمي الذي أخذه العرب عن اليونان انتهى إلى الحد الذي انتهى إليه اليونانيون في تقريرهم بأن عشرات الآلهة تحكم عالمهم، وأن هذه الآلهة تموت وتحيا وتقتل؟ أم أن ذلك الجانب العلمي هو أن تكون الأسطورة ديناً لهم كما كانت إلياذة هوميروس دينا لليونان قروناً طويلة؟
إذا كان الشرقي قد أدخل العنصر الروحي في تقرير المعاملات بين الناس فهل يتنافى هذا مع العقل السليم؟ وهل يتهم بعد ذلك بأنه قاصر ونحن نعلم علم اليقين بأن الشرقي في اعتقاده الروحاني قد اتسع أفق تفكيره فشمل عالمين بينما قصر غيره عن ذلك فانتهوا عند حدود عالم واحد أخطئوا حتى في تحديده؟
لقد نظر إخناتون في مصر إلى العالم الذي أحاط به فرأى أن لا بد لنواميس الكون من
مدبر فنادى بالتوحيد، وكان إيماناً جميلاً أن يبدأ ملك (كان ينتظر أن تسيطر أبهة الملك المادية على قوى تفكيره) بالطبيعة وينتهي للخالق
ونظر إبراهيم إلى الكواكب وكان قومه يعبدونها فرآها تأفل فشك في أن تكون رباً له،

وكان شكه داعياً لإيمانه فقال في ذلك تعالى: (فلما جنَّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين)

ونظر الأعرابي في الصحراء إلى ما أحاط به من شمس وقمر ونجوم فداخله الشك (وهو الساذج) في أن تكون معبوده وإلهه، أو تكون مطلقة التصرف في شئون نفسها. وهذه الشمس، وهذه النجوم تغرب، وها قوم يموتون فلا يعودون. فمن يطلع الشمس ويغربها، ومن يسطع النجوم ويعزبها، ومن يذهب بأولئك فلا يعيدهم؟ أذلك الصنم في معبد الأعرابي؟ أم تلك الأسطورة عن زفس وأبلون في مخيلة اليونان؟

هذا الشك بدأ في الشرق وانتهى أهلوه إلى الخالق عن هذا الطريق. فأصول الشك وجدت في الشرق قبل أن يعلمها الغرب بآلاف السنين. وهذا الشك كان أهم الأسس التي قامت عليها النهضة الأوربية الحديثة. وبعد هذا فما الشرق وما الغرب؟ ومن صاحب الخالق الواحد، ومن صاحب الآلهة التي تقتتل؟ وأين العقلية العلمية بينهما؟

(البقية في العدد القادم)

(* * *)

فردريك نيتشه

للأستاذ فليكس فارس

- 1 -

(ما من مفكر أشد إخلاصا من نيتشه، إذ لم يبلغ أحد قبله ما وصل إليه وهو يسير الأغوار في طلب الحقيقة دون أن يبالي بما يعترض سبيله من مصاعب لأنه ما كان ليرتاع من اصطدامه بالفجائع في قرارتها أو من الانتهاء إلى لا شيء)

(أميل فاكيه)

هذا هو نيتشه كما صوره فاكيه بعد أن درس عديد مؤلفاته واستعرض فلسفته. وقد جاراه بهذا التقدير أنصار نيتشه وخصومه من كل شعوب أوربا؛ فإنك لو استعرضت المؤلفات التي كتبها العباقرة العديدون، ومنهم من يعتقد بتخبطه على غير هدى، ومنهم من يرى وراء كل جملة من أقواله سورة لا تنجلي معانيها إلا للعقل النافذ والحس المرهف، لرأيتهم قد أجمعوا على وصفه بالمفكر الجبار المتجه إلى الحقيقة يطلبها وراء كل شيء حتى وراء المبادئ التي يقول بها

وما أجمع هؤلاء المفكرون إلا على الصواب في هذا الوصف الذي ارتضاه نيتشه لنفسه إذ قال:

(لا يكفي لطالب الحقيقة أن يكون مخلصاً في قصده، بل عليه أن يترصد إخلاصه ويقف موقف المشكك فيه، لأن عاشق الحقيقة إنما يحبها لا لنفسه مجاراة لأهوائه، بل يهيم بها لذاتها ولو كان في ذلك مخالفاً لعقيدته؛ فإذا هو اعترضته فكرة ناقضت مبدأه وجب عليه أن يقف عندها فلا يتردد أن يأخذ بها

إياك أن تقف حائلاً بين فكرتك وبين ما ينافيها، فلا يبلغ أول درجة من الحكمة من لا يعمل بهذه الوصية من المفكرين

عليك أن تصلى نفسك كل يوم حرباً، وليس لك أن تبالي بما تجنيه من نصر أو تجني عليك جهودك من اندحار، فإن ذلك من شأن الحقيقة لا من شأنك)

قال نيتشه بهذا المبدأ، وعمل به وبالرغم مما يتجلّى في تعاليمه من غرور وصَلَف، فإنه كان يسير في أبحاثه ولا هَّم له سوى استكشاف الآفاق فيورد اليوم فكرة يكذِّبها غداً، فكأنه بإنكاره الخير والشر لم يجد بداً من إنكار كل عقيدة ثابتة. فإذا أنت أردت أن تسير وراء هذا الفيلسوف طلباً للعقيدة فلا تتعب نفسك باللحاق به في مراحل يقطعها بخطواته الجبَّارة لأنه هو نفسه قد أصابه الخبل وبصيرته تائهة في استلهام الحقيقة واستقرائها

مَنْ قال لك:

(إنه لا مكتشفَ لحقيقة ذاته إلاَّ من يهتف: هذا هو خيري وهذا هو شرّي فيُخرس الخلد والقزم القائلين بأن الخيرَ خيرٌ للكل والشرَ شرٌّ للجميع)

من قال لك هذا، لا تتوقع منه أن يأتيك بشِرعةٍ تقوم مقام الشرائع التي يثور عليها إن نيتشه المفكر الجبار الذي يفتح أمام الفرد آفاقاً وسيمة في مجال القوة والثقة بالنفس وتحرير الحياة من المسكنة والذل، تائقاً إلى إيجاد إنسان يتفوَّق على إنسانيته

بالمجاهدة والتغلُّب على العناصر والعادات والتقاليد وما توارثته الأجيال من العقائد الموهنة للعزم، يقف وقفة الحائر المتردد عند ما يحاول إقامة مجتمعٍ لأفراده المتفوِّقين، بل هو يضطر إلى نقض أوليَّاته القائمة على احتقار الرحمة والرُّحَماء حتى ينتهي إلى قوله:

(إن العالم الذي يتفوَّق على الإنسانية إنما يعود بها بعد هذا الجنوح إلى بذل حبه للأصاغر والمتضعين)

وهكذا ترى زرادشت الداعي إلى تحطيم ألواح الوصايا جميعها والى إنكار الشريعة الأدبية لإقامة شرعة جديدة ما وراء الخير والشر يعود مفتشاً بين أنقاض الألواح التي حطَّمها على كلمات قديمة يجعلها دستوراً لإنسانيته المتفوِّقة

إن نيتشه الذي ذهب إلى أبعد مدى في تفحُص سرائر الإنسان وأهوائه يضيق به المجال عندما يتجه إلى حلِّ المعضلات الاجتماعية، لأنه إذا أمكن للفرد المنعزل أن يختطَّ لنفسه منهجاً يوافق هواها باعتقاده أنه هو المُبدع لذاته والحركة الأولى لها، فإنه ليمتنع عليه أن يكون عضواً حياً في المجموع إذا هو لم يعترف في علاقته مع إخوانه بأنه ليس مصدراً لذاته ولا مآباً لها

إن مَنْ يطمح إلى مثل ما طمح إيه نيتشه من تكوين مجتمعٍ منظم يسود فيه المتفوِّقون ولكلٍ منهم شرُّه الخاص وخيره الخاص، وخيره لا يوجِدُ في النهاية إلا مجتمعاً يتفاوت التفوُّق فيه بين أفراده فيقضي الأقوى منهم على الأقل قوةً منه حتى يقف آخرُ الظافرين منتحراً بقوته وعنفه كما انتحر إلهُ نيتشه برحمته

غير أنَّ المبدع لزرادشت لم تفته هذه الحقيقة، فعاد إلى الشريعة الأولى يختلس منها آيتها الكبرى ليوردها وصيةً لدنياه فقال:

(حذارِ من الطُّفْرة في مسلك الفضيلة فعلى كل فردٍ أن يسير في طريقه وإن جنح عن مسلك الآخرين، فلا يطمحنَّ إلى بلوغ الذروة وحدَهُ إذ على كل سائر أن يكون جسراً للمتقدمين وقدوة للمتأخرين)

أين هذه الوصية مما دعا إليه زرادشت في مفكراته نفسها إذ قال:

(على أهل السيادة في الإنسانية المتفوِّقة أن يمهِّدوا سُبُلَ السعادة لمن هم دونهم بتضحية ملذَّاتهم وراحتهم، وعليهم أيضاً أن ينقذوا مَنْ لا يصلحون للحياة بالقضاء عليهم دون إمهال)

بل كيف يتفق القسم الأول من هذه الوصية مع قسمها الثاني؟ ومن له أن يضع مقياساً يقضي به على مَنْ لا يصلحون لها إذا اتبع القاضي شرعة زرادشت القائل بأن على اتباعه أن تتجلى القوة فيهم من الرأس حتى أخمص القدم

ولو أن مذهب نيتشه هذا طُبِّقَ قبل ميلاده لكانت السلطة التي يراها مثلاً أعلى قضت على أبيه وأمه دون إمهال فما كان له هو أن يظهر في الوجود بدماغه الجبار وبسُم الدعاء الذي جال من دمهما الملَّوث في دمه. . .

ثم، أليس هنالك غير هذه الأدواء الطارئة والتي يمكن للعالم أن يكافحها، ما يقضي على الإنسان بالرضوخ له من حالة في جسمه لا قبل له بتبديلها أو تعديلها؟ أفما تحقق الطب أن كل مولود يجيء الحياة إنما يدخلها مستصحباً معه إليها من سلالته الضعف الذي سيقضي عليه؟ أفليس في كل دارج على هذه الغبراء علة أو علل كامنة في تكوين أعضائه ستورثه الردى حين تدنو ساعته؟

أي جسم مهما ظهر لك صحيحاً ليس فيه عضو هو أضعف الحلقات في سلسلة أعضائه وفي فراغ مناعته المحدودة انفصام العرى وبداية انحلال العناصر في الهيكل الفاني؟ أين هو الجسم المنيع الذي يتوق نيتشه إلى إيجاده مربعاً من قمة الرأس إلى أخمص القدم؟

لقد عمل العالم المتمدن على إيجاده الرياضة فأوجد الرقاب الغليظة والعضلات المتضخمة مسبباً منها تضخم القلب وجفاء الطبع وبلادة التفكير وانحطام أجنحة الخيال يريد نيتشه خلق الإنسان المتفوق جباراً كشمشون وشاعراً كداود وحكيماً كسليمان.

فهو يكلف الطبيعة ما لا قبل لها به ويطمح إلى إيجاد جبابرة لا يصلحون لشيء في المجتمع لأن الحيوية لا تنصرف من مختلف نوافذها الجسمية في آن واحد دون أن تقبض على صاحبها لتوقفه من سلم الارتقاء على مرتبة معلقة بين الاعتلاء والانحطاط فيكون منه لا الإنسان المتفوق بل الإنسان (التافه) القصير الحياة والقاصر في كل

عمل يباشره
إن المجتمع لا يقوم من الوجهة العلمية على أفراد يحاولون الإحاطة بكل شيء فلا ينالون منها شيئاً
وليس الحال إلا على هذا المنوال من الوجهة الروحية أيضاً، فإن مَنْ تبصر في أحوال الناس وطرائقهم في الحياة، لا بد له أن يسلم أخيراً بأن لكل شخصية حياتها بما كمن في حوافزها، ولكل شخصية ميتتها بما خفي من أدواء جسمها وعلل إرادتها وبما وراءها من مقدمات وحولها من نتائج
إن في الحياة مسالك خطتها الإرادة الكلية وليس للإرادة الجزئية أن تتناولها بتحوير، ومصاعد الرقي للأرواح منتصبة من كل مسلك في عالم الظاهر نحو العالم الخفي، وما خصت العناية أقوياء الجسوم بالارتقاء
ولربَّ صعلوك في نظر نيتشه لا يصلح للحياة ويجب أن يُقضى عليه دون إمهال تتفجر منه قوة لا تراها إلا البصائر النيِّرة
من لنا بسبر الأغوار البعيدة القرار لندرك سرَّ التكامل في الذات والحكمة في حد الأشواط لكل روح لتقوم بقسطها من المقدور؟
ومن لنا بادراك سرَّ الضعف والقوة وقد يكون الضعف في الجسم السليم والقوة في العليل من الأجسام؟
إن لكل مخلوق أن يبلو الحياة بما أُعطى من ظاهر الضعف أو ظاهر القوة، لأن للصحة محنتها كما للمرض محنته، والأنفسُ الطامحة إلى مُثُلها العليا سواء أكانت هذه المُثُلُ في
هذه الحياة أم ما وراء الحياة، إنما تتغذَّى من الجسد ناحلاً عليلاً كما تتغذَّى منه مليئاً بالنضارة والصحة والبهاء
إن للحكمة العليا مقياسها في تقدير الجهاد الأكبر على كل نفس، ومن يدري في أية لحظة وبأي مداد من قوة الجسد أو ضعفه تخطُّ الروحُ الأسيرة آخر سطر من كتابها؟. . .
إنَّ محور الدائرة في فلسفة نيتشه إنما هو إيجاد إنسان يتفوّق على الإنسانية. لذلك تراه يهزأ بكل من عدّه التاريخ عظيماً بين الناس قائلاً: إن الجبل الذي يلد العظماء لم يولد بعد، وأن لا رجل في هذا الزمان يمكنه أن يتفوّق على ذاته، وكل ما بوسع الناس أن يفعلوه في سبيل المثل الأعلى هو أن يتشوّقوا إليه ليخرج من سلاتهم في مستقبل الأزمان
وسوف يرى القارئ في الفصول الأخيرة، ما هو تقدير زرادشت للرجال الراقين في هذه الحقبة الشاملة لعصره ولعصرنا فهو يعتبرهم نماذج فاشلة للإنسان الذي يتوقَّع نشوءه، وغير أن زرادشت وهو يتكلم بلهجة الآمر الناهي ويرسم للحياة طرقها بخطوط متفرقة إن لم تجمعها أنت بقيت حروفاً منتثرة لا معنى لها لا يقول لنا بصراحة ما يجب أن نفعله لنصبح جدوداً لأحفاد تصلح بهم الحياة، ولكن من يعود بصيرته على مجاراة نيتشه في الرؤى التي يهيم فيها يستوقفه قوله:
(إن ما فُطرنا عليه هو أن نخلق كائناً يتفوق علينا، تلك هي غريزة الحركة والعمل)
ثم يستوقفه في موضع آخر قوله:
(إنني لم أجد امرأة تصلح أماً لأبنائي إلا المرأة التي أحبها)
فإذا ما وقف المفكر عند هذا يعرف ما هي تلك الفطرة التي يراها دافعة للإنسان إلى التفوق على ذاته وأنساله
وما تكون تلك الفطرة إن لم تكن حافز الحب الصحيح وفي أعماقه غريزة الانتخاب تجذب الزوجين إلى اتصال يشدد أحدهما فيه ما وهن في بنية الآخر
ولولا أننا درسنا ملياً مسألة اعتلاء الأمم وانحطاطها ببحث صحة النسل واعتلاله في فصل (منابت الأطفال) من كتابنا (رسالة المنبر إلى الشرق العربي) لكنا نثبت هنا أن إيجاد الإنسان الكامل في إنسانيته، لا الإنسان المتفوق على نوعه كما يريد نيتشه، إنما يقوم على مجاراة حوافز الاختيار الطبيعي في الزواج باعتبار كل شهوة جامحة وكل طمع يسكت
هاتف الاختيار سواء في الرجل أو المرأة جناية على الإنسانية
هذا وإننا لا نجد بداً من نقل بعض فقرات من فصل منابت الأطفال تأييداً لهذه الحقيقة

(إن الإنسان لا يريد الانقياد للانتخاب الطبيعي فهو يطمح إلى تحكيم اختياره في حوافز
لا يعلم منشأها، فيعمد الرجل إلى استيلاد المرأة أطفالاً تتجلى فيهم كوامن علله وعلل
المرأة التي يرغمها إرغاماً بدلاً من أن ينقاد إلى الانتخاب الطبيعي الذي تتذرع به
الطبيعة للغلبة على العاهات والأمراض وللقضاء على حوافز الخبل والإجرام
إن الولد المختل العليل إنما هو الضحية البريئة تصفع الطبيعة به أوجه الرجال
الفاحشين والنساء الطامعات المظللات
ومما لا ريب فيه أيضاً أن الطبيعة في حرصها على طابع الأبوين في الأبناء تطمح)
دائماً إلى الجمع بين رجل وامرأة يصلح أحدهما ما أفسدت الحياة في الآخر، ولا يقف
طموح الطبيعة عند حد إصلاح الأعضاء بل هو يتجه خاصة في الإنسان إلى إصلاح ما
تطرق من عيوب إلى صفاته الأدبية العليا، ولعل في هذا بعض التفسير لسيادة الإيقاع
بين رجل وامرأة تخالفت أشكالهما وأوضاعُ أعضائهما ومظاهر قواهما الأدبية والعقلية،
فقد لا تجد مصارعاً قوي العضلات يعشق مصارعة مثله، ولا فيلسوفاً يتوله بفيلسوفة.
ولكم وقف المفكرون مندهشين أمام امرأة فاضلة تحس بانجذاب نحو رجل متلاعب
محتال، أو بارعة في الجمال تندفع إلى الالتصاق برجل قبيح. إن بعض العشق ينشأ من
حنان خفي في الطبيعة يشبه عطف الطبيب المداوي على العليل المستجدي
الشفاء. . .)
إن المفكرين يثورون على الشبان الذين يقدمون على الزواج وفي دمائهم سموم،)
وفي مجاري نطفة الحياة منهم صديد، ومن الأمم من سنت القوانين الصارمة لمنع
زواج المبتلى بالعلل الزهرية وبالجنون محافظة على صحة النسل، ولكنني لم أقرأ
لمفكر رأياً في الحيلولة دون الزواج الآلي المجرد عن كل عاطفة، ويتراءى لي أن
طفلاً يجني أبواه عليه بايراثه دماً أفسدته الأمراض لهو أقل شقاء بنفسه وأقل إضراراً
بالمجتمع يرث من أبويه عهر العاطفة وضلال الفطرة.
لقد تشفى العقاقير أبناء العلل ولكن أي دواء يشفي الطفل الذي زرعه توحش الرجل
المفترس في أحشاء المرأة المنكسرة الذليلة؟ إن مثل هذا الطفل لن يكون إلا وحشاً
كأبيه أو
عبداً ذليلاً كأمه)
(يتبع)
فليكس فارس
غزل العقاد
للأستاذ سيد قطب

كل ما استعرضه حتى الآن من خصائص غزل العقاد، جائز أن يشركه فيه سواه، في
الفكرة الخاصة أو في الاتجاه العام؛ وهي على ندرتها في عالم الشعراء الكبار، وتفرد
العقاد بكثير منها في الشعر العربي كله كما بينت ذلك بوضوح، ليست ملكا خاصا له
بمقدار اختصاصه فيما أفرد له اليوم هذا المقال من (خصوصيات)!
الغزل غرض مباح لجميع الشعراء، ومذاهب الحس والتعبير فيه ملك كذلك للجميع، إلا
أن العقاد وحده هو الذي يقول ما سأعرضه في هذا المقال الأخير، ولن يشركه أحد
في اتجاهه هذا، ولا في فكراته أو تعبيره، لأنه فيه هو (العقاد) بشخصه ولحمه ودمه، لا
سواه من الأناسي - قبل الشعراء - وهو هنا في تقاطيعه وتقاسيمه وسحنته التي يلوح
فيها، ويتميز بها:
غني عنده ما يعطيه
في قصيدة (تبسم) بالجزء الثاني من الديوان صفحة 172 يقول لحبيبه
فلا تبتعد عني فإنك راجع ... متى تبتعد عني بصفقة خاسر
ومن لك بالقلب الذي أنت مبصر ... به كل إعجاز لحسنك باهر
تراه عصيا - إن نأيت - على الرضا ... ولا قلب أرضى منه إن كنت زائري
وفي الناس مطوي الضلوع على الشجا ... ولا مثل شجوى بين باد وحاضر
إذا شاركوني في هواك فما لهم ... سروري بما أصفيتهم وتباشري
وفي هذه الأبيات يشخص العقاد الشاعر بأن عنده ما يعطيه وأن حبيبه سيسخر حين
يفقده؛ الشاعر بتفرده في سروره وشجوه على السواء، وكأنما هو من عنصر غير

عنصر البشر الذين يعج بهم الكون، وتهفو قلوبهم إلى هذا الحبيب، ولو شاركوه في هواه، فمن لهم بقلبه في شجوه ورضاه؟
وغير العقاد يقولون لأحبائهم: إنكم لن تجدوا إخلاصاً كإخلاصنا، ولا تضحية في سبيلكم كتضحيتنا. . . الخ مذاهب القول في هذا الباب، ولكن العقاد لا يعني شيئاً من هذا، إنما يعني أن قلبه فريد في نوعه لا في مظاهر إحساسه كالحب والإخلاص والتضحية وما إليها، وأنه ممتاز حتى في (شجوة) وأن شجوه الممتاز هذا يُغلبه ويرتفع به، كالسرور الممتاز على السواء!
رجولة صارمة
يرضي المحبون ويغضبون، ويقولون في الرضا ما يقولون، ويبقى للعقاد غضبه ورضاه، متميزاً بطابعه الذي لا ينساه. وفيما مضى رأى القارئ كيف يرضى العقاد في كثير من الأمثلة مثل (سنة جديدة) و (عامنا) و (قبلة بغير تقبيل) وسواها. فمن أراد أن يعرف كيف يغضب العقاد وكيف يكون صارماً باتا في هذا الغضب، فليقرأ: (الهجر الصادق):
تجشم فيك القلب ما ليس بعذب ... أما آن لي منك النجاء المحبب؟
فهجراً فهذا القيد قد طال عهده ... أليس لقلبي غير حبك مذهب؟
هجرتك هجر المرء أسود سالخا ... يمج حماما كيفما يتقلب
هوى الموت أحلى من هواك لأنه ... هوى صادق الميعاد لا يتذبذب
وما كنت فتانا ولكن فتنتني ... بما قد صنعت عيني من الحسن أعجب
فلا تغترر مني بما قد عهدته ... لدن كنت أعفو إذ تسيء وتذنب
فما كل حين يغلب الحبُّ ربَّه ... ولا الصبر في كل المواطن يغلب
لتظمأ ليال كان دمعي شرابَها ... فحسب الليالي دمع من لم يجربوا
أنا اليوم في هجري على الكره صادق ... وقد كنت في هجري على الكره أكذب
هكذا في نفس واحد، وفي نفثة واحدة، صرامة قاسية، هي طابع العقاد حين يكره، وحين تسأم نفسه طول الإساءة، وجفاف الصلات، وحين يجنح إلى اختيار الهجر بعد اليقين والاعتزام
وليس هو هكذا في الغزل وحده، فهو بعينه في الصداقة وفي السياسة وفي الآراء والمعتقدات في شتى مناحي الحياة: ضربة قاصمة، لا رجعة بعدها ولا اتصال
اليقظة والوعي الفني والتأمل الفلسفي
ولقد كنت أفردت مقالا للحديث عن هذا العنوان، وضربت من الأمثلة ما فيه الكفاية. ولكنني هنا ماض على نهجي للغرض الذي صدرت به هذه المقالة من استعراض (الخصوصية) المعبرة عن شخص العقاد، لا عن مناحي تفكيره واتجاهاته
فمن اليقضة التي هي جزء من شخصه قوله تحت عنوان (الهزيمة المرغوبة)
أريد التي ألقي سلاحي وجنتي ... إليها وألقاها من البأس أعزلا
وأطرح أعباء الجهاد وهمه ... لدى قدميها مغمض العين مرسلا
وأنت إذا أقبلت جحفلا ... وجردت أسيافا وشيدت معقلا
فإن تهزميني فاهزمي عن بصيرة ... مريداً لأسباب الهزيمة مقبلا
فها هنا رجل يعرف إحساسه، ويدرك قواه وقوى حبيبته، ولكنه يجنح إلى الفطرة، ويريد المرأة ليلقي إليها سلاحه وجنته ويلقاها أعزل من كل قوة، لتحضنه كالأم الرءوم، بعد ما ضاق ذرعاً بالجلاد والكفاح، فآوى إلى الهزيمة المرغوبة وهو قوي عالم بقواه!
ومن التأمل الفلسفي أن ينظر إلى حبيبه الغرير، الذي لا يدرك فتنة سحره فكأنما هو منها محروم، بينما العقاد قد فطن إلى هذه الفتنة وقطف من ثمارها وعرف الدنيا على ضوئها، وتملى الحياة على نورها، فعاد مالكا لها، وصاحبها محروم منها!
يا ساحراً فاتته فتنة سحره ... وتنقبت عن لحظه العسّاف
نجني الثمار من القفار بفنه ... ونَصيبُه منها التراب السافي
نرثي لسحرك أم نجل فعاله؟ ... ما أجدر المحروم بالتعاطف!
سحر خصصت به وأنت حُرمته ... حرمان لا حرج ولا متلاف
لا يقول هذا إلا العقاد، المتأمل في كل لفته ولمحه، الواعي للظواهر والبواطن، المعنيّ بالموافقات والمفارقات في عالم المعاني والإحساس
صوت الفطرة

وصوت الفطرة السليمة مسموع في كل ما يكتب العقاد، ولكنه في الأبيات التي نعنيها هنا مكشوف ناصع، لا يحتاج إلى الكشف والبيان، ولا ينسرب في الرموز والألوان، وهو - مع هذا - صوت فطرة العقاد الخاصة به، وإن كانت قبساً من الفطرة الخالدة يقول بعنوان (عيوب المحب):

لا تعدّي على عيباً فإني ... لك كلي محاسني وعيوبي
وعيوب المحب أولى بعطف ... من كمال فيه وحسن وطيب
هي كالطفلة الشقية تلقي ... من حنان الآباء أوفى نصيب

فليس التأمل وليست الدراسة النفسية وحدهما يوحيان بهذا المقال، إنما هو الشعور الفطري الصادق قبلهما يوجه النفس هذا التوجيه. يعرف ذلك الآباء المشغوفون من لدن الحياة بالأبناء، والبنات الأشقياء والشواذ، لأن هؤلاء أحوج للرعاية في منطق الحياة! ويعرفه كذلك المحبون الذين يزيد شغفهم بحبيباتهم ما ينفر سواهم الخليين من أقوال وتصرفات. ويعرف العقاد هذا فيطل بوجهه من خلاله وكأنه وشاحه الخاص، الذي لم يفطن إليه سواء

الملك بالمعرفة

وبعد فهذا فن وحده، واتجاه في الإحساس غريب: محب ينقضي ما بينه وبين حبيبته من حب ومن لقاء واتصال وأخذ وعطاء، ويفصل بينهما فاصل من هجر مرير بعد شك دام ويقين أليم حدثناك عنهما في كلمة سابقة، ثم يحس في خلال هذا كله أنه ما يزال مالكا لهذه الفتاة، مالكا لها إلى الأبد، لا يملكها سواه أبداً، ولا تفلت من بيده أبداً. . .

لماذا؟ لأنه يعرفها بكل ما فيها، ولأن غيره لن يعرفها مثله، ولن يطلع منها على ما اطلع هو، وهي له وحده، لأن صفحتها مفتوحة أمامه يقرؤها بلا مفسر وبلا منظار، ولأن أحداً لن يحبها حبه أو يكرهها كرهه، بل لأن أحداً لا يزدريها ازدراءه!

ألقاءٌ أم لات حين لقاء ... وسلام أم تلك حرب عداءِ!
وفراق تُجدد العتبَ فيه ... يوم تخلو على مهاد الصفاء!
أم فراق على الحياة طويل ... كفراق الردى بغير انتهاء!
أنا ما بين هاتف ونذير ... ذاهب السمع إثر كل دعاء
هاتف في الضمير أن ليس هذا ... آخر العهد فاعتصم بالرجاء
ونذير بأنها غضبة العمر ... وعقبى مودة الأصفياء
ليت عاماً من الحياة تَقصّى ... لأرى في غد بعيد القضاء
وأرى الخير لا يطول انتظاري ... وأرى الشر لا يطول عنائي
لا لعمري بل يكذب الخير وال ... شر وتعفو معالم الأنبياء

ويقول الزمان قولا فإني ... مرسل قوله مع الأصداء:

أنت لي أنذر الزمان بِشرٍّ ... أم مضى هاتفاً مع البشراء!
أنت لي أضمرت نَياتُك حباً ... أم طوت سرها على البغضاء!
إن لي فيك يا بنية حقاً ... فوق حق الهوى وحق الدماء
مزجت في قرارة الحب نف ... ساناً وسيطت أيامنا في وعاء
وترائيت لي بقلب ولب ... من وراء الحياء والكبرياء
من مِن الناس قد تذوق منك الع ... يش صفواً والعيش جم الشقاء؟
من مِن الناس قد توسم فيك ال ... حسن نوراً والحسن من ظلماء؟
من مِن الناس قد أحبك حبيب ... ك ومن منهم ازدراك ازدرائي
من مِن الناس قد رأى خير ما في ... ك وأخفى ما فيك من أدواء؟
من جمال ومن ذكاء ومن غد ... رٍ ومن صدق شيمة ورياء؟
هذه أنت لا تزالين لي وحد ... يٍ - جميعاً - لا تظهرين لراء
يعرف العارفون منك لماماً ... بعض ما قد عرفت من سيماء
فلهم منك صورة وأحا ... ديث ولي منك لب ذاك الطلاء
هذه أنت لا فؤادك خاف ... عن عيناي ولا ودادك ناء
إن يطل بيننا النوى فالتلاقي ... من ندائي بموقع الإصغاء
ولنا في صحيفة الدهر غيب ... سيعيد انتهاءنا لابتداء

وكنت أود أن أعقب بشيء على هذه القطعة، ولكنها ليست بحاجة إلى الشرح، وإن كانت بحاجة إلى حس غني مرهف يتلهمها بمجرد قراءتها. فمن كان له هذا الحس فما

هو بحاجة إلى بيان، ومن لم يكن له، فما أنا ببالغ شيئاً في إفهامه
وإنني لمفتون بهذه القصيدة، أكاد لفتنتي بها، ولمسي لقلب الشاعر فيها، أفضلها على كل غزل العقاد!
والآن أختم حديثي عن (غزل العقاد) وقد طالت عنايتي بهذا الضرب من شعره لأسباب سأشرحها في الكلمة الختامية بعد الحديث عن (أسلوب العقاد) في مقال تال
(حلوان)
سيد قطب
مائة صورة من الحياة
للأستاذ علي الطنطاوي
قارئ - 9
كنت عند صديق لي يبيع الصحف والمجلات أجوز به كل يوم، فجاءه رجل محترم، عليه سيما الوقار ومعه نسخة من مجلة الرسالة فقال له:
- لقد أخذت هذه المجلة أمس من عندك، وقد بدا لي فيها، أفلا تحب أن تأخذ قرشاً وتعطيني بها الرواية؟ فنظر فيها البائع فإذا هي جديدة سالمة، ولم ير في طلب الرجل شيئاً فقبل وأعطاه الرواية فأخذها شاكراً. فلما كان من الغد عاد والرواية معه فقال:
- هذه هي مجلة الرواية التي أخذتها منك أمس، أفتأخذ قرشاً وتعطيني (الدنيا)؟
- قال: نعم، وأخذ القرش والرواية وأعطاه الدنيا، فمضى شاكراً. فلما كان من الغد عاد فقال له:
- أتحب أن تأخذ هذه المجلة وتعطيني بها (الحرب العظمى) وعدداً من جريدة يومية؟
- قال: نعم وأعطاه. . . فلما كان غد عاد فقال:
- أتشتري مني (الحرب العظمى) بنصف ثمنها؟
- قال: نعم، وأعطاه (نصف فرنك) فأخذه ومضى شاكراً فقلت لصديقي البائع:
- لقد شهدت من صبرك على هذا الرجل عجباً؟ أفلا طردته أو أنبته واسترحت منه؟
- قال: ومن أبيع إذا طردت مثل هذا؟ إن أمثال هذا هم (القراء) في هذا البلد، أفتعجب بعدُ أن كان يباع من مجلة (كذا) مثلا خمسون عدداً في دمشق كلها؟
أمام - 10
رأيت في سينما روكسي، رجلاً بلحية وقفطان، ولكنه حاسر الرأس، غير مرتد رداء، ولا متخذ جبة، فعجبت منه وجعلت ألحظه، وأنكر مكانه من السينما، حتى إذا انقضى التمثيل وخرجنا رأيته يدخل غرفة (المدير) فيلبث فيها دقائق ثم يخرج منها شيخاً بعمة وجبة. . . فسألت رجلاً كان معي:
- ماذا يكون هذا الشيخ؟
فضحك وقال:
- ألا تعرفه؟
- قلت: لا
- قال: هذا من خطيئات النظام الحزبي. . . كان تاجراً، فاشتغل بالسياسة وأقبل عليها حتى أدبرت عنه الدنيا، وخسر رأس ماله كله فابتغوا له عملا يعيش منه، فكان عمله مراقب (الأفلام السينمائية) ولكن وظيفة هذا العمل قليلة، ففتشوا عن وظيفة أخرى ترفدها، فجعلوه إماماً في مسجد (كذا) وعزلوا إمامه الشيخ الصالح، فمن أجل ذلك كان بعمة وجبة وكان في السينما. . .
- قلت: عاش النظام الحزبي. . .
مشعبذ - 11
سمعت الكثير من أحاديثه - وأخبار (علمه اللدني) - وقدرته على استحضار الجنّ، وكشف السرقات واستحضار المغيبات، وبراعته في (عالم الحرف) وأسرار العدد، فأحببت أن أراه. . . كما يحب المرء أن يرى حيواناً عجيباً، أو تحفه نادرة. . . وسألت صديقاً لي أن يجمعني به، فأخذني إلى داره في (برج أبي حيدر) فدخل بي دهليزاً مستطيلاً يفضي إلى غرفة في داخلها غرفة - مفروشة بالطنافس. . . في جوانبها مئات من الكتب الصوفية والروحانية - وفي وسطها مجمرة يحرق فيها البخور فتمتلئ به الدار، والشيخ جالس أمامها وقد وضع في عنقه سبحة طويلة أخبرني صديقي الذي جاء بي، أن فيها ألف حبَّة، في كل حبة منها حرف يدعي به ملك من ملوك الجان فلا

يلبث أن يحضر ملبياً طائعاً، وعلى رأس الشيخ عمة ضخمة أحسبها تزن خمسة أرطال. . . فلم يقم لنا حين دخلنا وإنما مدَّ يده لنقبلها، فعجبت من فعله وتلكأت، فهمس صاحبي في أذني، أن قبلها وإلا رأيت من القوم ما تكره. . . فنظرت في وجوه القوم فإذا هي قد اربدَّت، وإذا عيونهم محمرَّة، فآثرت السلامة وقبلت يده الطاهرة وجلست. . .

وشرع القوم يعرضون على الشيخ قصصهم - كما كانت تعرض القصص والحاجات على الملوك والأمراء، وهو يعد ويؤمل. . . والقصص شتى والحاجات متباينات، فهذا الرجل له قريب أصابته آفة في بطنه أجمع الأطباء على أن شفاءها (عملية) جراحية، فخاف المريض منها وبعثه يرجو الشيخ الخلاص من هذه (العملية) فوعده أنه سيجريها له وهو نائم فلا يفيق من منامه إلا وقد صرف الله عنه ما يحس به، فدعا له الرجل ودس في يده ما تيسر. . . وهذا رجل له امرأة عاقر فهو يسأل الشيخ أن يجعلها ولوداً. . . وهذا آخر سرق ماله كله وعجز الشرط عن معرفة السارق، فهو يطلب من الشيخ كشف السارقين. . . وأمثال ذلك، وهم ينصرفون واحداً إثر واحد، حتى لم يبق أحد. . . فمال علينا يحدثنا. . فكان من حديثه إلينا أنه وقع على النسخة الفريدة من كتاب (أسرار الحرف) تلك التي فتش عنها (العلماء) القرون الطوال فلم يسقطوا لها على أثر. . . فكانت له مفتاحاً لكل باب، فإذا أراد أن يأتي بأموال (بنك فرنسا) مثلا لم يحتج إلا إلى حروف يكتبها في ورقة ويلقيها في البحر، ظهر يوم الاثنين، أو فجر يوم الأربعاء، وإذا شاء أن يصطاد سمكا، كتب حروفاً على الشبكة فأقبلت إليها الأسماك والحيتان حتى لا يبقى في البحر حوت

قلت: فلم يا سيدي لا تأتون بأموال فرنسا وإنكلترا وهم أعداء الله وأعداء رسوله؟

قال: لم يؤذن لنا في ذلك، ولكني سأكون مفتياً للجيش الفرنسي فأجعله كله من جنود الله!

ومرت على هذه المقابلة الطريفة سنون، لقيت بعدها ذلك الصديق، فقلت:

- ما فعل الله بصاحبنا الشيخ؟

- قال: ذهب المسكين يصطاف، فمنوا عليه بدار في (دمر) منفردة. فلم يبت فيها إلا ليالي حتى نزل عليه اللصوص فلم يدعوا له شيئاً. . . وبقى هو وأسرته بلا فراش!

- قلت: أولم يستطع أن يعرفهم؟ أما كان يكشف السرقات ويظهر المخبئات؟

- قال: مسكين، إنه يرتزق. . . أفتريد له الموت جوعاً؟

دمشق

علي الطنطاوي

من أشهر المحاكمات الجنائية

محاكمة فرنسوا داميان

الذي حاول قتل الملك لويس الخامس عشر

- للكاتب كريجيل

بقلم الآنسة مفيدة إسماعيل اللبابيدي

ولد (روبرت فرنسوا داميان) في تيوللوي (شمال فرنسا) سنة 1715 من أسرة خاملة كانت تمتهن التزام المزارع، وقد أراد أن يحمل لويس الخامس عشر على عزل وزرائه لغرض لم يكشفه التحقيق، فذهب يوم 5 يناير 1757 إلى فرساي وطعن الملك في خاصرته اليمنى طعنة غير مميتة ولم يستطع الهرب فقبض عليه وحوكم وعذب ثم أعدم على صورة بشعة جداً

والمهم في هذه المحاكمة أنها تكشف لنا عن طريق التعذيب في القرون الوسطى توصلاً لاستلال الاعتراف بالجريمة من المجرم وما يصاحبها من إجراءات عدت زماناً إحدى طرق التحقيق القانونية فصبغت وجه الإنسانية بحمرة من الخجل لا تمحى

في الخامس من شهر يناير سنة 1757 وفي الساعة الخامسة من مسائه، روع باريس خبر ذعر له أبناء الشعب والأشراف على السواء: ألا وهو جرح الملك المحبوب لويس الخامس عشر في فرساي من يد رجل يدعى داميان حسن الحظ أن قبض عليه في الحال

وعندما انتشر خبر الجريمة توجه الأمراء والضباط والسفراء برغم البرد القارس نحو فرساي، وفي بضع ساعات كان طريق فرساي مغطى بالكراسي والمركبات وجميع

أصناف العجلات على ما يروى أحد مؤرخي هذا العصر
ولفائدة التحقيق أوقفت امرأة داميان وابنته اللتان زجتا في الحال في (الباستيل) لأنه لابد أن تكونا مطلعتين على نية القاتل السيئة
وفي الثامن عشر من ذلك الشهر وحوالي الساعة الثانية صباحاً اقتيد فرنسوا داميان من فرساي إلى باريس مخفوراً بعدد وافر من الجنود
وكان السجين في داخل عربة لا ضوء لها، فأدخلوه من حاجز السيفر ليمنعوا المتفرجين
عنه ثم أودعوه القصر في برج (مونتكوميري) تحت رقابة من الحرس الفرنسي يجري تبديلهم كل أربع وعشرين ساعة
ثم في الصباح ذهب مفوضا الشرطة (سه فرت وباسكيه) والرئيس الأول والرئيس (موله) ليحققوا معه، وقد دام هذا التحقيق من الساعة الحادية عشرة صباحاً إلى الساعة الخامسة بعد الظهر، وكان أحد طهاة الملك مكلفاً بإعداد طعام داميان وكان هذا لا يخرج من البرج مطلقاً
وكان فوبير من كبار الجراحين في ذلك العصر، لا يترك السجين الذي كان يقاسي الآلام الممضة من ساقيه اللتين كويتا فوراً بعد توقيفه بسيخ أحمى حتى احمر
أما الملك الذي شفي سريعاً من جرحه فقد أرسل 300000 ليرة إلى قس باريس لتوزيعها على فقراء رعيتهم فداء عن نفسه
كان سجين داميان مستديراً وقطره لا يزيد على اثنتي عشرة قدما، وكان الهواء لا يدخله إلا من فتحة ضيقة ذات صفين من القضبان الحديدية مفتوحة في حائط سمكه خمس عشرة قدما، وكان الضوء يمر من خلال الأوراق المزيتة
وكان السجين محصوراً في نوع من الصداري التي لا تترك له الحرية في أقل حركة بلغ هذا التضييق الملك فوجده مفرطاً لأنه في الحقيقة لم يؤخذ تدبير ضد متهم أكثر تضييقا وأقل رأفة مما أخذ ضد داميان، فبعث الملك طبيبه الأول الدكتور (سه ناك) فزار داميان ثم أمر أن يترك للسجين بعض الحرية وأن يعامل بشيء من الإنسانية وكانت الدعوى تسير ولكن ببطء، فقد زج في الباستيل ستون أو ثمانون شخصاً اتهموا بأنهم كانوا على علن بنية داميان المجرمة، ثم أطلق سراحهم من السجن تدريجياً.
ولما حضر داميان أمام محكمة تورنل في 17 آذار، دافع بأنه ما كان يرغب إلا في إنذار الملك وحمله على عزل وزرائه
وفي الحادي والعشرين من ذلك الشهر أرسل إليه الكاهن (كه رمت) خوري كنيسة القديس بولص ليعظه حتى يحمله على قول الحقيقة
وفي السادس والعشرين من الشهر المذكور اجتمعت المحكمة الكبرى المؤلفة من أمراء البيت المالك والدوقات والرؤساء والقضاة والمستشارين. وكان المحامون جلوساً في
أمكنتهم، وجيء بالمجرم فأجلسوه في قفص الاتهام ولم يكن يظهر عليه أنه (محروم) ولا ظهر عليه أمام هذا المجلس أقل اضطراب بل كان يتظاهر، بالهدوء وعظمة النفس ثم استعجلوه بتسمية شركائه في الجريمة، فأجاب: إنك تتكلم جيداً يا سيدي باسكيه ولكن هأنذا أمام الصليب ليس لديَّ ما أعترف به
وحينئذ فتحت الجلسة فقرئ تقرير النائب العام الذي يتلخص في طلب إدانة داميان بجريمة محاولة قتل الملك فأحيل للعذاب طبق ما هو مقرر
وفي الساعة السابعة مساء أصدرت المحكمة الحكم الآتي على روبرت فرنسوا داميان:
إن المحكمة بحضور عدد وافر من الأمراء والقضاة نظرت في التهمة الموجهة ضد روبرت فرنسوا داميان، وهي تعلن إليه بناء على اعترافه بأنه مجرم بالاعتداء على صاحب الجلالة الملك بصفته الإلهية البشرية وكونه الرئيس الأول، تلك الجناية الفظيعة الشنعاء الموجهة ضد شخص الملك، وللتكفير عن فعلته يحكم عليه:
1 - بأن يقاد عارياً إلا من قميص، ممسكاً بمشعل من الشمع الملتهب يوزن ليبرتين إلى أمام الباب الرسمي لكنيسة باريس، وهناك يركع ويعترف جهاراً بأنه اقدم على ارتكاب جريمة قتل الملك، تلك الفعلة الشنعاء الممقوتة، وأنه جرح الملك بضربة سكين في خاصرته اليمنى، وأنه قد تاب وأناب فيطلب العفو من الله ومن الملك ومن

العدالة
2 - بأن يساق إلى محل الإعدام ويرفع على صقالة ثم يسحب ثدياه ولحم ذراعيه وفخذيه ورجليه بكلاليب، أما يده اليمنى فيمسك بها السكين التي حاول بها قتل الملك وتحرق بالنار والكبريت، وأما الأقسام التي جز لحمها فيصب عليها الرصاص الذائب والزيت الحامي وصمغ البطم الحار والشمع والكبريت ممزوجة جميعها معاً
3 - بأن يشد بدنه أربعة أحصنة وتقطع أطرافه ثم تحرق بالنار حتى تصير رماد تذرى في الهواء
4 - بأن تصادر جميع أرزاق المحكوم عليه وأملاكه في أي مكان كانت لحساب الملك
5 - تأمر المحكمة بأنه قبل هذه الإجراءات يحال المجرم داميان إلى التحقيق العادي وغير العادي (التعذيب) ليقر بشركائه في الجريمة
6 - وتأمر أيضاً بتدمير البيت الذي ولد فيه المجرم داميان، أما الذي يملك هذا البيت فيعوض عنه، على ألا يحق له في المستقبل أن يقيم مكانه بناء آخر
وبينما كانت المحكمة تقرأ الحكم كانت الاستعدادات لتنفيذ الحكم قائمة في محل الإعدام
وفي الثامن والعشرين من الشهر صباحاً أخرج داميان من سجنه وسيق إلى غرفة في الطبقة السفلى من (الاوتيل ده فيل) محمولا على أيدي الشرطة في نوع من الحقائب اللينة التي تصنع من جلد بعض الحيوانات والتي لا تسمح لغير الرأس بالظهور، ثم أخرج منها وأركع وتلى عليه الحكم، وقد لوحظ أنه كان مصغياً بانتباه إليه، ثم انفرد به خوري كنيسة القديس بولس في وسط المكان بضع دقائق انسحب بعدها الخوري وشرب داميان جرعة من الخمر وضع بعدها في الحقيبة المذكورة مرة أخرى ونقل إلى غرفة التعذيب حيث هناك المحققون مفوضا الشرطة، والرئيسان موله وموبو، والمستشارون رولان وباسكيه وسه فهر، فجرى استنطاقه من جديد.
وحينئذ أحاط به منفذو الحكم وألبسه الجلاد الخف وحين ضغط على الزاوية الأولى أجبرته على الصراخ الشديد، فأقر بأن الموسيو (غوتيه) وكيل عضو في البرلمان والمسيو (له متر) الذي كان يسكن في شارع الماسونيين هما اللذان دفعاه إلى الجريمة. فصدر الأمر في التو بتوقيف هذين الشخصين.
وعندما ضغط على الزاويتين الثانية والثالثة صاح من جديد صيحة ألم، وفي الرابعة طلب العفو. ولما وصل المتهمان الجديدان (غوتيه) و (له متر) واجهوهما بداميان فرجع عن إقراره عنهما. فأعيد إلى العذاب ثانية وضغطوا على الزاوية الخامسة والسادسة والسابعة والثامنة من الخف، وهنا أعلن الأطباء الجراحون بأن المجرم لم يعد في طاقته تحمل تجربة جديدة، وقد دام التعذيب ساعتين وربع الساعة.
ولما دقت ساعة القصر الرابعة تقدم (جيرائيل سانسون) من المسيو (غه ره) والمسيو (مارسيللي) وقال لهما إن ساعة التنفيذ قد حانت. ومع أنه تكلم بصوت خافت فقد سمعه (داميان) الذي دمدم بصوت مخنوق (نعم بعد قليل يخيم الليل) وبعد فترة قال: (أواه، غداً يكون نهاراً لهم).
وحينما وصل (داميان) إلى أسفل الصقالة طلب أن يكلم مفوضي الشرطة فحمل إلى (الأوتيل ده فيل) حيث استدرك من جديد الاتهام ضد (غوتيه) ثم أوصى المسيو (باسكيه)
بزوجته وابنته.
وفي الساعة الخامسة أنزلوه إلى الميدان ورفعوه فوق الصقالة ثم نزلوا وربطوا كل طرف من أطرافه بمجر حصان، وكان لكل حصان مساعد يمسك بلجامه، وآخر وراءه يمسك سوطاً، ووقف الجلاد وأعطى الإشارة، وعندها وثبت الأحصنة الأربعة بقوة شديدة وفي اتجاه مختلف فسقط أحدها، ولكن جسم الشقي لم يتقطع، فأعادت الأحصنة الكرة ثلاث مرات وفي المرات الثلاث كانت تتقهقر أمام صلابة الجسم.
ولهول المنظر أغمي على الخوري، وكان المتفرجين في ذهول وذعر عميقين، ثم تعالت الأصوات من كل جانب بصورة مرعبة.
وعندها صعد الجراح (بوير) إلى (الأوتيل ده فيل) وطلب إلى مفوضي الشرطة أن يضربوا المحكوم عليه بالساطور على مفاصله فصدعوا بالأمر.
وأخيراً فصلت الأطراف وخرجت من جميع الصدور تنهدات عميقة وتنفسات حارة.

ولكن الواقعة لم تنته، فجمعت الأطراف الأربعة والجذع وجمعوا كومة من الحطب، ثم ارتفع اللهيب فيها.

حلب

مفيدة إسماعيل اللبابيدي

رسالة الفن

شيء من فلسفة الموسيقى

للدكتور أحمد موسى

إذا انحصرت فلسفة الموسيقى في تفسير جمالها وإيضاح التأثر بسماعها أمكننا أن نعتبر التمتع النفسي بهذا السماع أهم عنصر مكون لجمالها الذي هو بدون شك جزء من الجمال العام

وإذا كان جمال الفن المكاني منحصراً فيما يمكن رؤيته، أو ما يمكن لمسه، كان جمال الفن الزماني منحصراً فيما يمكن سماعه

وعلى ذلك يكون التأثر بهذا المسموع وقياس القدر الفعال في نفسية المستمع هو موضوع فلسفة الموسيقى

ومعنى هذا أن نقد وتحليل ما نسمعه منها على قاعدة الأسمى والأجمل والأروع هو الغرض الأول من التفلسف الموسيقي

وإذا كان أثر الجمال هو دخول السرور المطلق على النفس نتيجة المشاهدة، كان أثر الموسيقى السامية الجميلة الرائعة نفس السرور المطلق نتيجة هذا السماع

ولا يخرج السرور هنا عن معنى الارتياح والرغبة في الاستزادة دون رد فعل يُشعر بالخيبة أو الضجر، حتى ولو كانت القطعة الموسيقية تمثل الحزن والألم؛ لأن هذا ما تصادفه أحياناً في المشاهد الطبيعية التي تكون ثورة بركانية، أو اصطدام غيوم نشأ عنه برق ورعد، أو مطر غزير لا يبعدها عن الجمال الذي يمكن للفنان أن يتأمله ويتأثر به دون رد فعل

فالألحان الموسيقية تكون تارة ممثلة لحلاوة اللقاء، وأخرى لمرارة الفراق، وغيرها للذة الانتصار، أو لقساوة الانهزام، وما إلى ذلك من مختلف النواحي التي يتصيدها الفنان بفنه

وعلى هذا القياس يمكن اعتبار كل ما يلفت الإرادة الشخصية إلى السماع دون إرغام موضوعاً من موضوعات الموسيقى - على أني لا أقصد بالسماع مجرد الإنصات، بل السماع المشفوع بالتفكير والفهم والتقدير والتأثر؛ إذ عندئذ نجد العقل مفكراً لتكوين حكم معين على ما يسمعه، بعد قياس درجة تناسب الأصوات وانسجام أجزائها المكونة للقطعة،

وأخيراً لاتحاد الهارموني فيها

والموسيقي الفنان الذي يعبر عما يجول بنفسه الثائرة هو ذلك الذي يدرس الطبيعة في مختلف مظاهرها ويتأملها فلا يقنع بما فيها فيشقى؛ ثم يجدُّ في الوصول إلى غايته راغباً التعبير عما يتغلغل في نفسه من جمال كمالي يعتقد بوجوب ظهوره فيعجز، ثم يقنع بتقليد ما فيها إلى حد ما، في أصوات يخرجها للناس، متوخياً الوصول إلى ذلك المثل الأعلى الذي لا يخرج عن كونه الظمأ نحو الخلود.

والمثل الأعلى مما لا يمكن وجوده أو رؤيته أو سماعه، ولهذا فهو غاية نسمو إليها بالخيال الذي يعبر عنه الفنان الموهوب بما نسميه الوحي أو الإلهام وما يسميه الجميع الخلق الفني

والفن روح خفية تسكن نفس الفنان فتبعث فيه عينين قادرتين على النظر لا كما يرى الجميع، بل على ذلك النظر التقديري الذي يتعرف به الجمال أينما كان، وأذنين قادرتين على السمع لا كما يسمع الناس، بل على السمع الدقيق الفائق الذي به يستطيع التفرقة بين ما هو سام وما هو غير سام. لذا وجب أن يكون الموسيقي رجلا تمثلت كل قواه في عينيه وأذنيه، فبالعينين يتلمس الجمال المشاهد، وبالأذنين يتلمس الجمال المسموع، فيخرج للناس ما لا غنى لهم عنه، ألا وهو الخلق الموسيقي السامي

والأصل في الخلق الموسيقي السامي هو حاسة النظر بلا شك لأن بها يتأثر الفنان - موهوباً كان أو ملهماً - بما في الحياة، وتكون نتيجة هذا التأثر القدرة على الخلق الفني، وعلى ذلك نرى الفنان دائم التأمل الذي يعود عليه بالبؤس - غالباً - فهو أشبه

بالفيلسوف الذي لا يقنع بما يراه أو يسمعه؛ فيقضي حياته عاملا مكملا قدر استطاعته، ولكنه يفنى دون أن يصل إلى ما تصبو إليه نفسه، تلك النفس التي تميزت على نفوس المجموع بصفاء النظر ودقة التأمل والدرس والتغلغل في كنه المرئيات والمسموعات وأخيراً بالهيام والمقدرة الهائلة على تفهم الجمال المطلق. كل هذا متجمعاً يكون لك تلك النفسية البريئة الهادئة الوديعة، نفسية الفنان.

يقول أرسطو إنه لا ينبغي أن يقف الغرض من الموسيقى عند حد التلهية والتسلية، لأنها من أهم وسائل التهذيب الأخلاقي ومن خير طرق العلاج الفعال البطيء لتنقية النفس من عيوبها المتأصلة

وقد التفت إلى هذا رجال التعليم في العصر الحاضر فأخذوا ينشرون الموسيقى في دور التهذيب، أما فيما يتعلق بعلاج الأمراض فقد دلت آخر الأبحاث على فائدة الموسيقى إلى حد أدهش العلماء.

وثبت أن الألحان ذات أثر مختلف في مستمعها الفاهم لها، فمنها ما يؤثر تأثيراً هادئاً يعقبه نوم عميق، ومنها ما يوقظ ويبعث نشاطاً عجيباً. ولا أدل على ذلك من تأثير قطعة أيرل كوينج ليبتهوفن على مرضى الميلانخلولي، أو قطعة تانهويزر لفاجنر، أو قطعة الافتتاحية لميستر زنجرن اللتين تلائمان مرضى الغضب السريع

ودلت تجارب عدة على أن الدورة الدموية تتأثر أيضاً بالموسيقى إلى حد أنها تنتظم وتصل إلى المستوى الطبيعي

وجد الدكتور تراخانوف أن الموسيقى السهلة تساعد على تنشيط العضلات الضعيفة، على حين لاحظ أن الموسيقى المدرسية (كلاسيك) لا تؤثر هذا الأثر؛ بل على النقيض تكسب العضلات شيئا من التراخي

والعناية بأمر الموسيقى في علاج الأمراض قائمة على أشدها في ألمانيا - بلاد العلم والفن والمدنية - حتى لنرى أن أعظم جامعة فيها وهي جامعة برلين قد منحت دكتوراه الشرف للموسيقي المغني ماكس ريجر الذي أثبت أن المعالجة بالموسيقى ذات أثر قيم قائم بالدليل في معالجة الأمراض النفسية

من كل هذا نرى أن الموسيقى هي إحدى نعم الله التي منحها خلقه العاقل المعذب، والتي بها يستطيع أن يبعد عمل الشيطان من نفسه، ويلتفت إلى ما في الوجود من جمال يدل على قدرة الخالق وعظمته

ولعل الشاعر شكسبير لن يبالغ بقوله في رواية روميو وجوليا (1593) أن الموسيقى بلسم القلوب الجريحة ونعيم العقول المتعبة، إذ بصوتها الفضي يكتسب القلب بهجته والعقل راحته

وإذا رجعنا إلى كتاب شوبنهاور (الدنيا كإرادة وتصور) نجد فيه الفيلسوف يقول إن أحسن موسيقى وأسماها هي تلك التي لا نستطيع وصف أثرها في نفوسنا عند الاستمتاع بها، حيث تذهب بنا إلى جنة الخيال البعيد عن مرارة الحقيقة الراهنة

أما جوته (1827) فقد وجد أن الموسيقى تعاصر الإنسان منذ خلقه، قديمة بقدمه، تناسبت مع نفسه وروحه وشاعريته ووجدانه، فتطورت بتطوره. ويؤمن بأن الإنسان قد يستمع لموسيقى جديدة فلا يطرب لها لأول وهلة وذلك لعدم تفهمه إياها (قصد موسيقى فاجنر)، أما بعد أن يألفها فإنه يجد استمتاعه بها متناسباً مع تفهمه لها، حتى يحين الوقت الذي يجدها فيه خير معَّبر عن مثله الأعلى في ناحية من نواحي وجدانه، ألا وهي ناحية العاطفة السامية والحس الدقيق

وهذا تفلسف اتفق مع الواقع، ولا سيما أنه اشترط في الموسيقى أن تكون متناسبة مع عقلية الإنسان وتفكيره ودرجة فهمه وتمدنه، فقد ترى السذج يطربون لموسيقى لا انسجام فيها ولا طرب؛ على حين تجد أولئك الذين أنعم الله عليهم بنعمة العقل وسمو المشاعر لا يطربون إلا لما أخرجه الفنان الموهوب الذي أمكنه التعبير عن حب دفين لا نهائي للخالق جلت قدرته في أصوات منسجمة متوفرة الارتباط، تسمو بالمستمع إلى ملكوت مقدس بعيد كل البعد عن الطرب المصطلح عليه في الشرق

أحمد موسى

رسالة الشعر

التمثال الحي

للأستاذ إبراهيم العريض

سكنتْ في الطابقِ المُظ ... لمِ من دارٍ سويَّه
غادةٌ لا تملكُ القُو ... تَ. . . وبالحُسنِ غنيه
هيَ في الأسمالِ لكنَّ ... لها رُوحًا ذكية
سلبتْها كلَّ شيءٍ ... ثَورةٌ إلا التقيه
تَتلوّى كلّما أب ... صرَتِ الدارَ خليه
أينَ عنها أبَواها ... في ظلامِ الأبدية
وأخُوها جَدّلتهُ ... في الوغى كفٌّ شقيه
فثوى والعَلَمُ الخا ... فِقُ يَلوى بالتحيه
كيفَ لا تَبكِي وهل أب ... قَى لها الدهرُ بقيه
خرجتْ تعثر في الذَّيْ ... لِ إلى جارٍ قريبِ
عاشَ بينَ الناسِ في عُز ... لتِه مِثلَ الغريب
وخطَ الشيبُ عَلى جبْ ... هِته شِبهَ النُدوب
أينَ في الدهرِ فؤادٌ ... لم يُرّوع بالخُطوب
وأتتهُ وهْوَ في مع ... مَلِه جِدٌ دَؤوب
ينحتُ الجِسمَ من الصَخْ ... رِ فَيأتي بالعجيب
ورآها وهي في الأسْ ... مالِ تمشي كالمُريب
ومِن الجُوعِ على الخدّ ... يْنِ آثارُ شُحوب
فاثني يرمِقُ ذاكَ ال ... حُسنَ في صمتٍ رهيب
ودَنا من جسمِها المحْ ... مُومِ لكن بفُتُوَّه
ما لَها لم تضطربْ مِن ... هُ ولا خافت دنُوه
إنَّ في عينيهِ. . لا غض ... هُما. . . نورَ النُبوّه
مِن هُواةِ الْحُسنِ للفَنّ ... وإن غالَى غُلوه
وأحسَّتْ كفَّهُ تن ... تزِعُ الثَوبَ بقُوه
فأرادتْ سِترَ نهْدَي ... نِ حياءً ومُروه
(إنّني أُنثى. . . ألا تش ... عُر أنَّى فَوقَ هُوّه)
قالَ (كُفِّي - أنتِ من شَيْ ... بىَ في ظِلِّ الأبوة
(لَو تَجَرّدْتِ سَما الفَنُّ ... بِعطفْيكِ سُمُوّه)
فَرَمتْ ما كانَ لا يَسْ ... ترها إلا قليلا
ثمَّ قالت (ومَتى تُط ... عِمُني). . . قالَ (أصِيلا)
وجثَتْ بينَ يديْهِ ... في تَعرِيِّها طويلا
وهْوَ لا يُنكرُ مِن قا ... مَتِها إلا النحُولا
فانحَنى يمتحِنُ الجِسْ ... مَ فُروعاً وأصُولا
إنّ في إطراقِها مُغمِضةً شَيْئاً مَهُولا
ثمَّ لّما سَمِعتْهُ ... فاهَ بالحُكم جميلا
نهضَتْ تبْسمُ في الدَمْ ... عِ وقدْ سَالَ مسيلا
(هلْ لِهَذا الحُسْنِ أن يخ ... لدَ بي جِيْلا فجِيلا)
وقفت عَارِيةً بَيْ ... نَ التماثِيلِ كَدُرَّه
تحمِلُ النَغْرَ على الضِحْ ... كِ وفي العينَيْنِ عَبره
ومضَى يقدِرُ بالازْ ... مِيلِ في المَرمرِ قَدرَه
لَمْ تُحاوِل قَطّ أنْ تَثْ ... نِيَ جِيداً فتَضُرَّه
لبَثتْ في وَضعِها ذَ ... لِكَ يَوْمًا مُستمِرّه
إنَّهُ يعملُ للفَنِّ ... . . . وهَل فِيهِ معَرّه
هِيَ لوْلا الجُوع لمْ تَر ... ضَ بأن تَصبِرَ صَبرَه
وهْوَ في عالَمِه. . . لَو ... يُدْرِكُ العالَمُ سِرَّه
نظرةً يُلقِي عَلَيْها ... وعَلَى المرمَرِ نَظْره
مالَتِ الشمسُ إلى الغَر ... بِ ومَا زالَ مُجِدّا
واستَحَالَ المرْمرُ المس ... نُونُ حتى صارَ قَدَاً
فانحَنتْ مِن كفّها أن ... مُلةٌ تُسْنِدُ خدا
فانجَلى الصَدرُ وفَوْقَ ال ... صَدرِ شيءٌ يتحَدى

واستدارَ البَطنُ في طَيَّ ... تِه أحسَنَ جِدا
قالَ (لولا الجُوْع لم يَبْ ... لُغْ مِن الغَادةِ حدا)
ثمَّ مَدَّ الراحةَ اليُم ... نَى عَلَى الفَخْذَينِ مدا
فأطالَ الساقَ حتى ... شارفَت في الكَعبِ ضِدا
وبَرَاها قدَماً يَحْ ... لُو لها أن تَسْتَبِدا
ودَجَا الليلُ. . . فلم يُلْ ... قِ إلى الغادَةِ بالا
غايَةُ الفَنَّانِ أن يَب ... لُغَ بالفَنّ كمالا
فطَوَي الشَعْرَ على الرأ ... سِ كمَوْجٍ يتوالى
فجَلا الجَبْهةَ غَرا ... ءَ كمِرآةٍ تَلالا
فأرَى لمحَةَ عينَي ... نِ تُطِيلاَنِ السُؤالا
فلوى في جانِبِ الأذْ ... نِ مِنَ الصُّدغ هِلالا
وَأقامَ الأنفَ كالإبْ ... رَةِ حُسناً واعتِدالا
ثمَّ لما جاَء للثَغْ ... رِ رَأى فيهِ احتِمالا
قالَ (لو يَفترُّ هَ ... ذَا الثَغرُ لازدادَ جمالا)
وإذا بالصوتِ. صوت ال ... دِيكِ صُبحاً يَتَعَالى
تمَّت الدُمْيةُ لا يَن ... قُصها غَيرُ الحِوارِ
فانثَني يضْحَكُ للغا ... دةِ في شِبْهِ اعتِذار
(أنظُري صُنعَ يَدي فَهْ ... وَجدِيرٌ باعِتبار)
(إنّها مُعجِزةٌ خا ... لِدَةٌ مِثلَ النهار)
ورآها لم تُحَرِّك ... شفَةً. . . والجِسم عار
فدَنا منها وفي أَض ... لُعِهِ جَمْرةُ نار
وإذا بالَخْودِ في مَو ... ضِعِها مِثلَ السَوَاري
جسَدُ مِن غَير رُوحٍ ... مُستمِر في انتِظار
إنّمَا الثَغرُ كما يَهْ ... واهُ في حالِ افتِرَار
وانحَنى بَيْنَ يديَهْا ... باكياً سُوَء مآلِهْ
وطَوَى حاشيةَ الثَوْ ... بِ علَيها في اعتِلاله
(أنا أدعُوكِ. وهل يَسْ ... معُ مَيتٌ صَوتَ واله)
(أنا أفديكِ. وهل يُجْ ... دِيكِ شَيْبي في ابتهاله)
ثمَّ ألقى نظْرَة حا ... ئِرَةً نحْوَ مِثاله
فرآهُ يُحدقُ الطِرْ ... فَ ولا يَرثى لحاله
فأتى في اليأسِ أَمْراً ... لم يكُنْ قَطّ بباله
إذ رَمي قِطعَةَ صَلْدٍ ... شَوَّهَتْ بَعضَ جماله
ومضَى يَعثِرُ بالشي ... ءِ ويَهذي في اختِباله
وقفَ العالِمُ ما بَيَ ... نَ الجَماهيرِ خطيبا
قالَ (ترَوى بعثةُ الشَرْ ... قِ لنا أمراً عجيبا
بينَما كانوا يجوبو ... ن الصَحاريَّ جَنُوبا
عثَرُوا فيها بتمثا ... ل سَأَجْلوه قريبا
يَعلمُ اللهُ لئِن أَلْ ... فِيَ في الرَنْدِ مَعيبا
فهْوَ ما زالَ على العَيْ ... بَةِ يستدمِي القلوبا
إنَّهُ أجملُ تمثَا ... ل لحسناءَ أُصيبا
وأزاحَ الِستَرَ عنهُ ... فاستهلَّ الكلُّ طُوبى
خَلَّدَتْ في المْرمَرَ الص ... دِ يدُ الفَنِّ حَبِيباً
(البحرين)
إبراهيم العريض
بمناسبة المؤتمر البرلماني الشرقي
يا لله لفلسطين!
للأستاذ احمد فتحي
مَرْحباً بالنشيدِ بعدَ النَّشيدِ ... يهبطُ الأرضَ مِن سَمَاءِ الْخُلودِ!
مَرْحباً بالبيانِ أسْوانَ جَهْماً ... يبعثُ العَزْمَ في الأباة الصِّيدِ!

!مَرْحباً بالرَّوائع الغُرِّ، تحكي ... وامِضَ البَرْقِ في الليالي السَّودِ
فَتْيَةَ العُرْبِ قد دَعَوْتُمْ فلبَّا ... كُمْ على قَدْرِ ما استطاعَ قصِيدي
غيرَ هذا البيانِ أخطأ جَدِّي ... وكذا الشعرُ، خصْم تُلكَ الجُدودِ
!نحنُ نَشْقَى به وتَسْعَدُ دُنيا ... تَنْتَشِي بالنشيد بعدَ النَّشِيد
!إنَّ لِلْفَنِّ نَشْوَةً لا تُسَامَى ... أَرْهَدَتْ في عُصَارَةِ الْعُنْقُودِ
!كم غَفلْنا بها عن الرَّمَنِ العا ... بثِ بالخَلْقِ في فُنُونِ الوَليدِ
وصَحَوْنا على الأغاريدِ نَشْوَى ... والوَرَى في مناحَةِ التَّنكيدِ
ما انتفاعي بِقَافِياتٍ وِضَاءِ ... تُشْبِهُ الدُّرَّ في نِظامِ العُقودِ؟
!!ليتَ هذا القَريضَ يجري جُيوشاً ... من كِرَامٍ أصائِلٍ وجُنودِ
يَنْصُرُ الواهِنَ الضَّعيف ويُوهِي ... عَزْمَةَ الباطِشِ الغَشُومِ العنيدِ
لَهْفَ نَفْسِي عليكِ يا حَوْزَةَ الْمِقْ ... دِسِ صُبِّغْتِ في البلاءِ الشَّديدِ
ما لأَصْيَافِكِ اللَّئام يَلُوذُو ... نَ بِفَرْطِ الْأَذَى، وفَرْطِ الجُحُود
رَوَّعَ الشَّرْقَ أن دَهَاكِ افْتِسامٌ ... هل يُبَاعُ السَّادَاتُ بَيْعَ الْعَبِيدِ
!لا رعاكَ الرَّمَانُ يا (وَعْدَ بَلْفُو ... ر) ولا فُزْتَ مِنْهُ بِالتَّخْلِيدِ
طُرَدَاءُ الشُّعُوبِ غَالوا بلاداً ... كانَ تاريخُها شبابَ الوُجُودِ
العُلَى تَرَامَى بها الخَطُّ ... بُ ودَوَّى في كُلِّ مَرْمًى بَعِيدِ (أَرْشَلِيمُ)
لَهْفَ نَفْسِي، وشَدَّ مَا حَزَّ في النَّفْ ... سِ اقْتِحَامُ الكلابِ غابَ الأسُودِ
لَهْفَ نَفْسِي على الصِّغَارِ تَرَامَى ... بهم الْيُتْم في زَمَانِ الكُنُودِ
!لَهْفَ نفسي على نُوَاحِي البَوَاكِي ... والخَلِيُّونَ دُونَهُمْ في هُجُودِ
!لَهْفَ نفسي على الشُّيوخِ ضِعَافاً ... بين نارٍ مشبوبةٍ وحَديدِ
!لَهْفَ نَفْسِي عَلَى الملاحِ وَكَمْ فِي ... هِنَّ مِنْ حُلْوَةِ المفاتين رُودِ
لَهْفَ نَفْسِي لِفَاجِعِ الخَطْبِ يَمْتَدْ ... دُ ذُبُولاً إلى وُرُودِ الخُدُودِ
!!لَهْفَ نَفْسِي عَلَى الْمَدَامِعِ تَجْرِي ... فَتُرَوَّى بها ظِماءُ البِيدِ
مَرْحَبَاً بِالْوُفُودِ بعدَ الْوُفُودِ ... والْحَشِيدِ النَّبِيلِ بَعْدَ الحشيدِ
مَرْحَبَاً بالْكِرَامِ مِنْ آلِ عَدْنا ... نَ اطْمَأَنَّتْ جُمُوعُهُمْ في صَعِيدِ
مَرْحَباً بالْخِفافِ نحو المعالي ... والبهاليلِ في سَخَاءٍ وَجُودِ
دونكم مصر فانزلوا من رُباها ... كلَّ رَوْضٍ، وكلَّ ظِلٍ مَديد
وارشفُوا السَّلسَبِيلَ مِنْ نيلها السَّمْ ... حِ خصيب الضِّفَافِ عَذْبَ الورودِ
!وانْعَمُوا بالنَّسيم في ضفَّتَيْهِ ... إذ يُحَيِّيكمو بِثَغْرٍ بَرُودِ
شاوِرُوا فتيةً بمصرَ تَسَامَوْا ... لذُرَى المجد، في كفاحٍ مَجيدِ
عاونُوهُمْ على بَقَاءِ فلسطي ... نَ، بِمَنْجىً مِن فاجع التَّهويدِ
مَهْبِطُ الْوَحْي والنُّبُوَّاتِ أَوْلَى ... مِنْ حُمَاةِ التُّرَاثِ بالتأييدِ
!أجمعِوا أمْرَكم عَلَى نصرَةِ الح ... ق تُعيدوا جَلالَهُ مِنْ جديد
آهِ يا أورشليمُ لو كنتُ أسْطي ... عُ لحطَّمْتُ ما أَرَى مِن قُيودِ
عَلِمَ اللهُ كم أَرِقْتُ الليالي ... لَكِ، بينَ الدُّمُوع والتَّسْهِيدِ
مُستطارَ الْجَنَانِ أَدْعُو لَكِ الله ... بِقُرْبِ الْخَلاَص والتَّسْدِيد
!!وأصوغُ القريضَ فيكِ عقوداً ... مِن بَيانٍ نَدٍ ودُرٍ نَضِيدِ
(القاهرة)
احمد فتحي
البَريدُ الأدَبّي
الدكتور زكي مبارك والشريف الرضي
روى الأديب المشهور الدكتور زكي مبارك في مصنفه (عبقرية الشريف الرضي) هذا البيت للرضي:
والحظوظ البلهاء من ذي الليالي ... أنكحت بنت عامر من ثقيف
ثم قال معلقا: (لما ظهر ديوان زكي مبارك اعترض بعض أدباء العراق على هذا البيت:
لم تنسني فتنة الدنيا وزينتها ... ما في شمائلك الغراء من فتن
وقالوا لا توصف الشمائل بأنها غراء، وإنما توصف بأنها غر، وأطالوا الجدل في مجلة أبوللو، واشترك الأب أنستاس في الجدل، وعارضنا معارضة شديدة في منزل الدكتور بشر فارس، والآن نرى الشريف يصف الحظوظ بأنها بلهاء لأبله، فلينقل العراقيون

(المعركة إلى شاعر العراق
:قلت: ألا يرى الدكتور أن في البيت خطأ ناسخ أو طابع وأن الرواية الحق هي
وحظوظ البلهاء من ذي الليالي ... أنكحت بنت عامر من ثقيفِ
فإذا ثبتت هذه الرواية - وهي عندي ثابتة - فقول حضرة البحاثة (الأب أنستاس ماري الكرملي) في (فعلاء أفعل) صفة لجمع - هو القول. وظهير القسيس الفاضل في مذهبه هذا - كتاب الله وحديث نبيه (صلوات الله وسلامه عليه) والأقوال العربية الموثوق بها قاطبة
والأب أنستاس هو أول من نبه على هذه النكتة اللغوية المهمة في هذا العصر
:في القصيدة التي منها ذلك البيت هذان البيتان المحكمان
أمهل الناقصون واستعجل الده ... ر بسَوقٍ للفاضلين عنيفِ
من يكن فاضلا يعش بين ذا النا ... س بقلبٍ جَوٍ، وبالٍ كسيف
القارئ
مكتبة التلميذ
أخي الأستاذ الزيات
:أقدم إليك والى قراء الرسالة ما يأتي
قد يتفق لبعض مفتشي اللغة العربية أن يلاحظوا أن مكتبات المدارس الابتدائية والثانوية لا يوجد فيها من الكتب العربية غير المراجع أو ما لا ينتفع به في الأغلب غير الأساتذة وكبار الطلاب
وقد فكرت مرات فيما ينتفع به التلاميذ والطلاب من أطايب الأدب الحديث، ولكني خشيت ألا أشير بغير الاعتماد على مؤلفاتي ومؤلفات أصدقائي، فما رأيك إذا استشرنا أفاضل الأدباء من قراء الرسالة في اختيار خمسين كتاباً من الأدب الحديث تزود بها مكتبة التلميذ في المدارس الابتدائية والثانوية؟
أرجو أن يتسع المجال لقراء الرسالة ليجيبوا في نزاهة وإخلاص، فقد يكون في أجوبتهم ما ينتفع به المدرسون في تكوين مكتبة التلميذ
زكي مبارك
حول كلمة اللقاء
:صديقي الأستاذ الجليل صاحب مجلة الرسالة
تحية واحتراماً. وبعد فإني أحسبك لم تنس بعد كما لم ينس الأستاذ الفاضل باحث الفالوذج في الرسالة أنه سألني بحضرتك من شهر مضى تقريباً عن كلمة (الّلقاء) التي جاء بها أبو العلاء في كلام له في كتابه (الفصول والغايات) ثم فسرها بالفالوذج وأنه متشكك فيها، فذكرت له أنها وردت هكذا في نسخة الأصل وهي نسخة جيدة وأني طلبتها في كل مظانها فلم أجدها. وقلت له إن أبا العلاء ربما وجدها فيما وقع له من الكتب التي لم تصل إلينا، ورجحت أنت صحتها للمجانسة اللفظية بين كلمتي (يُلقى) و (لقاء) التي كان أبو العلاء يحرص على أمثالها
هذا ما عندي، وقد كنت أنتظر منه أن يقول (فلست بمنكره في يوم من الأيام) ثم يعقب عليه بما يشاء
محمود حسن زناتي
حول تيسير قواعد الإعراب
حضرة الفاضل الأستاذ (أزهري)
نعم يا سيدي الفاضل، إن من مميزات عصرنا الحاضر هو كما تقول: (التهم التي تكال جزافاً) دون دوية ولا إمعان.
وهذه أيضاً من تأثير السرعة التي اقتبسناها ولم نحسن استعمالها. فإن النفوس التي تتهمها (بالجهل والجمود والجحود) تفهم السرعة في المواصلات والسرعة في الإدراك - - وسرعة الخاطر
ولكنها قاصرة عن فهم السرعة في الحكم والدرس والإصلاح خصوصاً إذا تعلق هذا الإصلاح بمستقبل قواعد لغة عدة شعوب وملايين من الناس.
إن (نفسي الجاهلة) لتأخذ على أستاذها الفاضل سرعة الحكم؛ فقد كان من السهل عليه لو تأمل قليلاً أن يدرك أن ليس في ردي عليه استفزاز ولا خلط. ولكني نسبت ما في القواعد من تعقيد وصعوبة إلى المدرسين القائمين بتلقينها للنشء لا إلى نقص في

القواعد نفسها. ثم أخذت عليه تغيير الإعراب وبقاء القواعد كما هي، وفي هذا من الخلط والتعقيد ما هو بريء من التيسير. فإذا قلنا مثلاً إن حرف الجر مجزوم وجب أن نحذف من كتاب القواعد أن الحروف مبنية. وإذا سلمنا أن الفعل الماضي منصوب وجب حذف باب (بناء الأفعال). وهكذا يجب تغيير وحذف كل القواعد التي لا تتمشى والأعراب الجديد. وإن كان ذكر النون في جمع المذكر السالم (حشواً لا داعي إليه) فلا أرى ما يمنع حذفها. والمعقول أن ما يعتبر حشواً يمكن الاستغناء عنه. وكما قلت سابقاً إن عملية التيسير أخطر من أن تتم بهذه السرعة، وإننا مسئولون عما نأتيه من تغيير في قواعد اللغة التي ثبتت أجيالا مضت ولم نثبت بعد خطأها ولم نأت بأحسن منها.

لقد طالعت أبحاث أستاذنا المحترم بكل تؤدة وإمعان، ثم بينت لكل اعتراض سبباً منطقياً يقره العقل والفهم. فأين إذن الخلط والسهو من كلامي هذا؟؟ ولو تفضل الأستاذ المحترم وراجع مقالي السابق لوجد أنه مختص بالبحث في عملية التيسير من ناحية صلتها بالنشء. ولا يخفى على الأستاذ الفاضل أن فكرة التيسير لم تنشأ إلا لتسهيل درس قواعد اللغة للطلبة بعد أن لوحظ شدة ضعف المتخرجين في الدراسة الثانوية والجامعية.

وأخيراً لا يسعني إلا أن أشكركم لما نسبتموه إليَّ من جهل. فإنه لفخر لي أن يتهمني عالم جليل بالجهل.

أمينة شاكر فهمي

من المرحوم زكي باشا إلى المرحوم الرافعي

كنت رأيت على مكتب المرحوم الرافعي في سنة 1933 طائفة من أوراق مخطوطة حدثني هو عنها أنها معجم يؤلفه زكي باشا وبعث به إليه يستعينه عليه؛ وقد وقعت لي الرسالة الآتية بين ما خلف الرافعي من رسائل أصدقائه، بخط المرحوم أحمد زكي باشا، فرأيت أن أنشرها على قراء الرسالة. وهذه الرسالة مكتوبة على ورقة مستعملة ممزقة الأطراف، يظهر أنها كانت غلاف رسالة إليه عليها خاتم (حلب)، والمعروف عن المرحوم أحمد زكي باشا أنه كان يكتب ما يريد أن يكتب على ما تيسر له من الورق ولو كان ورقة ممزقة من سلة القمامة!

سعيد العريان

عزيزي الأستاذ الرافعي:

كنت كتبت خلاصة وافية عن حرف الألف لوضعها في أول باب الهمزة، ثم عنَّ لي أن أرسلها لرجل في حلب عرفت تعمقه في النحو، وإذا به أعادها إلي مع مقالة أخرى تدل على شدة تقعره، وفاته أن الغرض هو الإلمام بكل أحوال الألف بلا شرح إلماماً قاموسياً

أرجوك نظر المقالين واختار أحدهما مع التنقيح أو التصحيح أو الحذف والزيادة كما تراه، وإبقائه عندك إلى حين رجعتي من الإسكندرية وسلام الله عليك من المخلص

أحمد زكي

تدريس اللغة العربية في فرنسا

جاء في بلاغ من وزارة التربية الوطنية أنه أنشئ فرع لتعليم اللغة العربية في مدرسة (سان لوي لي جران) في باريس ومدرسة (بيريه) في مرسيليا

وجاء في هذا البلاغ: أن اللغة العربية سبق أن قبلت على قدم المساواة مع اللغات الأجنبية لا في امتحانات البكالوريا والليسانس فقط بل في امتحانات المدارس العسكرية كمدرسة سان سير وغيرها

والأهمية المتزايدة لأفريقيا الشمالية في الاقتصاد والدفاع الوطني وحاجة فرنسا لأن تنشئ معها علاقات تزداد وثوقا مع الزمن، كل ذلك يعد من الأسباب التي تبرر التدابير التي اتخذتها وزارة التربية

الكتب

عرض وتحليل

هكذا أغني

للشاعر محمود حسن إسماعيل

بقلم الأستاذ إسماعيل كامل

عندما أخرج الشاعر الأديب محمود حسن إسماعيل ديوانه (أغاني الكوخ) وكان لي حظ الاشتراك في حفلة تكريمه كان أهم ما دارت حوله كلمتي التكريمية أن الشاعر صادق الحس مشبوب العاطفة قوي الإيمان ينتزع الأخيلة من أطواء وجدانه في غير افتعال أو تعمل، وأنه يمثل الريفي المؤمن الصادق الأحاسيس الذي يقبس من جلال المناظر الطبيعية خير ما تختلج به نفسه الجياشة بحب كل ما هو طبيعي لا أثر للصنعة الزائفة فيه

وأخيراً جاء ديوانه الثاني (هكذا أغني) صورة صادقة تؤيد ما ذهبت إليه في كلمتي الأولى وتعزز تلك النظرة الصائبة التي لم تخب فيما خرجت به من دراسة شاعر الشباب النابغة

وأنا في هذا البحث العاجل أحب أن أنتزع من الديوان الأخير صوراً فاتنة تؤيد ما ذهبت إليه يوم قام الأدباء من الشباب يحتفلون بذلك القبس الباهر الذي كشف عن درر الشاعر الفذ

ميزة تفرد بها الشاعر محمود ولم يجر فيها على منوال كثير من شعراء كل مناسبة يأتي من ورائها الغنم والفائدة! تلك ميزة الوفاء لنفسه والإخلاص لمشاعره والاعتداد بشعره؛ فلم يكن يوماً بوقاً للظروف أو أداة للملابسات، بل ظل الشاعر الرفيع الإحساس المترفع بشعره أن يتلمس جوانب النفع ووجوه الاستغلال أينما ساقتهما الأقدار أو دفعت بهما الرياح وفي ذلك يقول الشاعر لمليكه:

للشاعرين بلاغة فضفاضة ... حشدت بلفظ في الحلوق مجلجل

وأنا الذي شعري نفاثة مهجتي ... سكبت جداولها بهمس السنبل

يوم الفخار سنلتقي. . . أنت العلا ... وأنا الصدى في ظل عرشك! فأصغ لي

أنظر إلى محمود الشاعر الريفي الذي يلوذ بأذيال الخمائل يقتطف منها شذا الزهور، ولحون الطير، ونور الصباح، وعبير الضحى، لتعينه على الهتاف للمليك إن عاونته تلك العوامل كلها على أن ينتمي لبلابل الخلد السواجع

وانظر إلى ذلك الشادي من أين يقبس قريضه. . من الطبيعة الوارفة ومن الأيمان الصادق:

شاديك من قصب الفرادس غايةُ ... ومن السنا والطيب عُل عناؤه

ومن الصَّبا نهلتْ حلالَ أراكةٍ ... سجوآء، نافجها غفت أنداؤه

ومن الطفاوة في أصيل خاشع ... سجدت على زهر الربا أضواؤه

ومن المساجد هينمت تحت الدجى ... صوفيُّها سجدت على زهر الربا أضواءه

ومن الشعاع المستهام بقبلة ... في النيل طهرها هوَاه وماؤه

ومن السنا الرقراق في قدح الضحى ... أغرى النديم فولولت صهباؤه

وشاعرنا كثير التبرم بالقلوب الغوادر وما جبل عليه الناس من فضول وتهاتر، ولكنه يرتد ساخراً هازئاً لاعتداده بنفسه، وعرفانه بقيمته وبفيض من حنانه على (الغراب) قسيمه في الحظوظ وصاحبه في الجدود وقرينه في تحامل الناس الظالم دون إثم يبرره:

وأنت - كمثلي - هارب من فضولهم ... جوابك للأكوان: إني ساخر!

فدعهم يلوكون الحديث، وأصغ لي ... فما منهم للسمع إلا التهاتر

سلاماً قسيمي في الحظوظ. . وصاحبي ... وقد أرخصت عهدي القلوب النوادر

عشقتك منذ النخل مد ظلاله ... عليَّ تغاديني وبه وتباكر

ويكاد يتفرد الشاعر محمود بقوته الهادرة وفتوته الفائزة في كل ما يقرض من النظم حتى حين يتحدث إلى موسيقى النقوش

ابعثي اللحن يدَّوي ... كيفما شئت وشاء

لن تريْ في الأرض سمعاً ... يشتهي هذا الفناء

غير سجعي فهو من دن ... ياه في دنيا فناء

لكنه كغيره من الشباب إذا أحب وعف واعترضت العقبات سبيله راح يتفجع ويتوجع وإن كان لا يسف إلى درك التوسل والاستعطاف، بل يهدد ويتوعد. . يهدد بالجنون والانتحار والفناء

وانظري جذوة الهوى في خيالي ... وشحوب الفناء في نظراتي

وتهاويل من بقايا جنون ... خلفتها الأحزان فوق سماتي
وبريقاً من الشباب المولى ... كهشيم الريحان فوق الرفات
منية أزهقت وأخرى تعايا ... والبقايا في الصدر منتحرات
أسرعي قبلما تغيب الأماني ... في دخان الهموم والحسرات
وتصيرين في الهوى قصة الغد ... ر وأسطورة على نغماتي
أسرعي قبل أن تموت الأغاني ... فتناجيك، بعدها مرثياتي!

وما أحسب الشاعر ينتوي ما يهدد به ولكنه يتوعد حبيبه بشر ما ترتاع له النفوس حتى ينطلق من محبسه ويثور على أغلاله وإلا ما قال بعدئذ:

حجبوك عن نظري وخلوا مهجة ... حيرى يجرعها الهوى أتراحه
وأنا الذي سأظل باسمك هاتفاً ... حتى يمد الموت نحويّ راحه!
حجبوك هل حجبوا نفاثة عاشق ... أضرى الغرام جلاده وكفاحه؟
متولع بهواك ما أغرى به ... بينٌ ولا فلَّ الفراق سلاحه

وهو ليس دائم الشكوى والنواح بل طالما ركن إلى الصمت القاتل وكبت مشاعره حتى لا يستذله الضعف وبعد أن صدف الناس عن الشكوى وتغافلوا عن الشاكين:

والناس. . لا ناس إذا خلجت ... عيني. . كأني في الحياة عَمِ
صدفوا عن الشكوى فلا أذن ... تصغي لما رتلت من نغمِ
حسبوا أنين القلب فلسفة ... عبثت بها أنشودة القلم
فتغالوا عني ولو علموا ... شربوا صباب الدمع من ألمي
أنت عاتبت على الصمت. . . فاسمع ... نغمات الجراح تحت الجنوب
أنا همس يموت في قلب ناي ... نبذته الرياح خلف الكثيب
أنا صمت الكهوف يهتز للوحي ... إذا هل في السكون الرهيب

وقصارى ما يقال في شاعرنا الفذ أنه ينتزع مادته في جميع الاتجاهات والأوضاع من الطبيعة الساحرة في صمتها وشجوها وتغريدها لا من التأثر الدراسي أو الاطلاع الفردي وحدهما، بل إنني كنت مع بعض الواهمين قبل أن أعرفه في أنه قد قبس كثيراً من معانيه البكر من شعراء الفرنجة الطبيعيين أمثال وردثورت وشيلي وبيرون.

وشاعرنا قد جمع في وثبته بين القديم والجديد: فهو يمثل جزالة الشعر العربي الرصين وقوة أسلوبه ومتانة بنائه، كما يمثل الجديد في سلاسة معانيه، وطرافة موضوعاته وحداثة مراميه، فكان وسطاً حبيباً بين العهدين، وروحاً فياضة بين الجيلين وعلماً فرداً في توسط الاتجاهين.

وهو نسيج وحده في أغلب الموضوعات التي يطرقها لا يشبه فيها شاعر اللهم إلا في الموضوعات الاجتماعية التي يظهر فيها تأثير البيئة الواحدة في جميع الأقلام، وفي هذا يمثل الشاعر بيته وما يعتمل في أطوائها وما يشيع في أجوائها خير تمثيل.

وقبل أن أختتم كلمتي العاجلة أود أن ألمس المدى الذي بلغه الشاعر في ديوانه الأخير والخطوة الواسعة التي خطاها في أغانيه الأخيرة بعد أن انقضت أعوام ثلاثة على ديوانه الأول (أغاني الكوخ)

إن من قرأ للشاعر في ديوانه الأول حديثه الفطري عن (حاملة الجرة) ثم يقرأ قصيدة الرائعة عن (الغراب) في ديوانه الأخير يلمس عمق التأمل وغور الاستيعاب الوافدين على شعره الجديد وقد أضفيا على قريضه القوة والمضاء. كذلك يلمس القارئ في ديوان الشاعر الأخير مدى توسعه في الموضوعات الاجتماعية وشبوب عاطفته في الناحية الغزلية، وذلك الطهر الذي يهيمن على مشاعره

وليس ثمة ما أعيبه على الشاعر غير تلك الرهبنة وذلك المذهب الكنسي الذي يصبغ أكثر قصائده، ولكن العارف المشرف على حياة الشاعر والدارس لبيئة لا يعجب لتلك القوة المسيطرة عليه فقد أخذت على الشاعر الصديق في حديث لي معه هذا المنحى الغالب على تأملاته؛ ولكنني عرفت أن في بلدته (النخيلة) تنهض الكنيسة على كثب من المسجد ويبعثان في النفس الطاهرة رهبة الإيمان والتقديس

فإذا أضفنا إلى ذلك نشأة الشاعر الريفية الساذجة أدركنا عمق التأثير الشخصي إلى جانب التأثير العام فيما يصدر من القريض

وليس للشاعر محمود نوع خاص من الفلسفة، فهو يرى الفلسفة في ذلك التأمل

العميق في أسرار الحياة أينما وقعت عليها العين الفاحصة والشعور الملهم
بقي أن أقول صراحة إن ديوانه الأول (أغاني الكوخ) كان يمثل الفن الرفيع وحده، فلم يقحم فيه الشاعر تلك المراثي التي حشدها في ديوانه الأخير، أو تلك السياسات التي اندفع فيها نتيجة لشعوره مهما كان صدق هذا الشعور، فما هي بالموضوعات التي تجمع بين دفتي ديوان لتبقى مدى الأحقاب والأيام

إسماعيل كامل

المسرح والسينما

شيء من لا شيء

باكورة الموسم المصري لأستوديو مصر

عرضت سينما أستوديو مصر في الأسبوع الماضي أول أفلامها المصرية للموسم الحالي وهو (شيء من لا شيء) الذي حدثنا عنه قراء الرسالة في مناسبات كثيرة بما جعلهم يوقنون قبل رؤيتهم إياه من أنه سيكون فلماً من الأفلام الممتازة دون ريب. . .

وفي الأسبوع الماضي عرض الفلم فكان ممتازاً رائعاً حلواً فكرة جديدة. . . إخراج جديد. . . ملابس فخمة. . . غناء عذب. ولعمرك ماذا يريد الإنسان في فلم واحد أكثر من اجتماع ذلك كله بعضه ببعض؟ إنه فلم يستحق الأستوديو من أجله تهنئة من أعمق الأعماق

واحمد بدرخان بهذا الفلم - حتى مع انعدام غيره أو انعدام المؤهلات - يدخل في زمرة كبار مخرجينا بحق ما دام قد تسنى له أن يخرج هذا الفلم، وما دام قد تسنى له أن يخرجه بهذه الطريقة الناجحة

خلاصة قصة الفلم

جيشان يلتحمان في عراك، كلاهما من جند المسلمين، يبدأ الفلم بفلول الجيش المنهزم وأحدهما يندب كتفه الكسير وكرشه المبقور وأمعائه الممدودة أمتار على الرمال. . .

ويفتح المنظر التالي على ملك الجيش الغالب وهو يستقبل قواده الظافرين، ويسألهم - بين ما يسألهم - عن الغنائم والأسلاب والأسرى، ويفهم في النهاية أن هنالك أسيرة واحدة، أما الرجال فكثيرون. ويتحدث الملك إلى قادته: ماذا يفعل بهم؟ فبقى الرأي في النهاية على (ترحيلهم) إلى جزيرة المنفى. وفي هذه اللحظة يرى الجمهور المطربة المحبوبة نجاة علي لأول مرة، ويرى بعدها الأستاذ عبد الغني السيد، وهو مضمد الرأس من الجراحات يغني ويغني معه زملائه الأسرى وهم يدخلون المركب التي أقلتهم إلى حيث أريد لهم. . . ويحار الملك في الأسيرة ماذا يفعل بها، والى من يقدمها؟

وإذ ذاك تحدث منافرات ومقارعات بين الحاضرين كلها فكاهات لطيفة، وأسمار لذيذة، وينتهي الأمر بأن يقرر الملك تزويج الأمير عنتر منها، وعنتر هذا هو القائد الجديد للجند، وشخصية عنتر هذه من أهم الشخصيات الفكاهية في الفلم

وينادي الملك الأسيرة وهي ابنة أخيه ويزف لها خبر تقريره تزويجها من الأمير عنتر، فترفض وتثور وتعود إلى منامها والأمير يهدر ويزمجر، ويهدد ويتوعد. . . ويقول لها بأنه إزاء ذلك لا يسعه إلا أن يزوجها من أحقر شخص في المملكة وهو ذلك الأسير الشاب. . .

وتنساق حوادث الرواية أمام المتفرج بعد ذلك وتتعرف الأسيرة إلى الأسير الشاب ذي الصوت الجميل. . وبعد صد وطول عدم اكتراث، تقع في حبه، أو بالأحرى في حب صوته.

ويغتاظ الأمير عنتر، فيقوم بمحاولة أخرى ويهبط على الأسيرة في منامها ويكاد يعتدي عليها هو ومن معه من الجند، لولا أن الأسير الذي هو زوجها يحضر في الوقت المناسب ويعمل في الأمير ورجاله سيفه، فيقتل أحد رجاله ويجرحه هو جراحاً بالغة. . .

ويقدم الأسير للمحاكمة، وهي محكمة من أغرب المحاكم التي سمع بها الناس من قبل. . .

ويرفض المتهم الدفاع عن نفسه ويسكت كل من يحاول الكلام في صالحه، فلا يسع هذه المحكمة إلا إصدار الحكم عليه بما يقتضيه القانون. . .

والجمعية السرية. . لا ننس الجمعية السرية. . ولغتها (المختلطة) ورئاستها البارعة في الخوف والوجل. . فإنها من ألطف وأندر ما ملئت به القصة. .
وعندما تنتهي حوادث تلك القصة التي لم تراع فيها وحدة زمان أو مكان أو نظام ملابس أو لهجة كلام أو خلافه. . .
لما تنتهي هذه الحوادث يشاهد المتفرج رجلا بلدياً يسقط من فوق الفراش هو وزوجته وهي تناديه ليستيقظ ويكون في حلم قد وصل إلى حد قوله (ليسقط. . .)
الناحية الفنية
وبعد هذا هو ملخص القصة. وقد سبق أن قلنا أن الفلم من وجهه العام ناجح ومشرف لأستوديو مصر ولمخرجه الأستاذ بدرخان، ولكن لنا ملاحظات عليه. . على رغم أنه حلم ليلة صيف. . وبرغم أن المفروض فيه هو أنه (تخريف وهلوسه)
من هذه الملاحظات أن دوري نجاة علي وعبد الغني السيد لم يكونا ظاهرين ولا مفهومين في بادئ الأمر. . وكان كلام مقطوعاتهما الغنائية ضعيفاً كما كان التلحين أضعف وأكثر ارتباكا. . . ولسنا ندري هل كان ذلك من الملحن أم من الممثلين. .
ومن هذه الملاحظات أن القصة كلها كانت مسجوعة. . . والسجع عادة كالشعر - يستولي من المشاهد - على جانب كبير من انتباهه. . ومن هنا يخسر الفيلم هذا الجزء من انتباه القارئ دون مبرر. . هذا إلى أن أغلب السجعات كان بارداً وسخيفاً. .
ويدافع بعضهم عن هذا بأن المقصود من هذه السجعات السخيفة هو الإضحاك. . ولكن هذا لا يعد دفاعاً قدر ما يعد اتهاماً. . فإن الفلم لا يصح أن يكون مصدر سرور الناس منه احتواءه على سخافة وحسب. .
ولا تحضرنا الآن بقية الملاحظات فموعدنا بها عدد تال، ونكرر في نهاية هذه الكلمة ما سبق أن ذكرنا أكثر من مرة من أن هذا الفلم - على رغم الأخطاء التي به - يعتبر فتحاً جديداً في عالم الأفلام المصرية، ويستحق أستوديو مصر عليه كل تهنئة
سالم ينتهي من أجنحة الصحراء
انتهى الأستاذ أحمد سالم في الأسبوع الماضي من تصوير آخر (ديكورين) في فلمه الجديد (أجنحة الصحراء) وقد كان أحدهما كبيراً وفخماً بدرجة لم تعرف من قبل في الأستيديوات المصرية. ورآه مخرجون مصريون كثيرون فهنئوا الأستاذ سالم بتوفيقه في بناء هذا المنظر. والصحفيون يعترفون بأن القراء سوف يشاهدون عجباً في فلم سالم هذا عندما يعرض في منتصف الشهر القادم
جلال يعمل. .
أبلغنا زميل أن الأستاذ احمد جلال قد انتهى من كتابة السيناريو الجديد للفيلم الثاني لشركة لوتس في هذا الموسم والحيرة الآن، أو المفاوضات، دائرة بين آسيا وبين الزميل حول اختيار الاسم الصالح. . وقد رددت زميلات أسماء غريبة، نفتها لنا السيدة آسيا بكل شدة.: والمعروف أن تصوير هذا الفيلم الجديد يبدأ في أوائل الشهر القادم. . .
العدد 277 - بتاريخ: 24 - 10 - 1938
العامية والفصحى
للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني
أنا متهم بعدائي للغة العامية، وياما أكثر من في الحبس من مظلومين - كما يقول عامتنا في أمثالهم - ولست أريد الآن أن أدافع عن نفسي وأبرئها من شيء، فان لي الحق في المعاداة والمصافاة كغيري من الناس تبعاً لرائي وهواي، ولكنما أريد الآن أن أضع أموراً في مواضعها على قدر ما يتيسر لي ذلك.
الأمر في اللغة العامية أن نطاق الأداء بها محدود. وهي في هذا النطاق وافية بالحاجة وكافية جداً للأغراض التي تطلب بها ولكنها تخذلك إذا أردت أن تتجاوز هذا النطاق. أي أنها تصلح للحديث العادي والحوار في المسائل اليومية، وللعبارة بها عن الأغراض المألوفة بين الناس عامة، فإذا أردت أن ترتقي بها عن هذه الطبقة وأن تتناول بها حديث العلم أو الأدب أو الفلسفة أو غير ذلك مما يجري هذا المجرى قصرت بك وعجزت عن الوفاء بهذه المطالب فتحتاج إلى لغة أخرى تستطيع أن تواتيك وتساعفك - لغة أخرى تكون أوفى وأزخر وأوفر مادة وأكثر عناصر، ولا لغة هناك لنا غير اللغة

العربية الفصحى التي لا تعد العامية إلا لهجة مشتقة منها. وهذا شأن كل لغة عامية في الدنيا. وكل عامية تعجز عن أداء ما هو أكثر من المطالب العادية. وحدود كل لغة عامية هي حدود العامة أنفسهم، ونطاقها هو نطاقهم، فإذا احتجت إلى ما يجاوز نطاق العامة ويرتفع عن طبقتهم فانه لا يسعك إلا أن تلجأ إلى لغة أوسع من لغتهم وأغنى وأقدر. قد يقال ولكن في الدنيا عاميات ارتقت إلى مصاف اللغات الفصيحة كالإيطالية واليونانية الحديثتين. وهذا صحيح غير منكور. وفي وسع كل عامية أن تصبح هي لغة الكتابة والأدب والعلم والفلسفة وما إلى ذلك إذا وسعتها وضبطتها وأجريت الأمر فيها مجرى اللغات الصحيحة ذات الأحكام والضوابط، وأنجيتها من الفوضى التي تلازم العاميات في العادة. وهذا هو الذي حدث في اللغة الإيطالية الحديثة واللغة اليونانية الحديثة اللتين حلتا محل اللاتينية والإغريقية القديمتين. ومؤدي هذا أن العامية عندنا في صورها الحالية لا تصلح للأداء ولا لأن تتخذ لغة كتابة وأدب وعلم وفلسفة وغير ذلك لأنها فوضى وتحتاج إلى ضبط وإصلاح وتوسيع وإغناء. وقد قلت (في صورها الحالية) ولم أقل (في صورتها الحالية) وأنا أعني ما أقول،

فان عامية مصر غير عامية الحجاز أو العراق أو الشام أو تونس والمغرب على العموم أو السودان، ولكل بلد من هذه البلدان عاميته الخاصة، بل نحن في مصر لنا أكثر من عامية واحدة، فعامية القاهرة غير عامية الصعيد وغير عامية الإسكندرية أو الأقاليم الشمالية، فأي هذه العاميات كلها تريد أن تكون لغتك؟ ولكل منها خصائصها وعناصرها التي اقتضت طبيعة الحياة الخاصة بها أن تتألف منها. فعامية مصر أو عاميات مصر - فأنها كثر - فيها عناصر من العربية والفرعونية وعناصر من اللغات الأوربية بحكم موقع البلاد الجغرافي، وعامية العراق فيها عناصر من العربية والتركية والفارسية والهندية وغير ذلك، وهكذا

والعامية لا ثبات لها ولا استقرار. والملاحظ - والطبيعي أيضاً - أنها ترقى مع انتشار التعليم وتقترب شيئاً فشيئاً من اللغة العربية. يدل على ذلك - إن كان الأمر يحتاج إلى دليل - أن حوار المتعلمين لا يكاد ينقصه من اللغة الفصحى إلا ضبط أواخر الكلمات أي بناء الكلام على معاني النحو؛ والعربية على عكس العامية أداة ثابتة على كثرة ما يطرأ عليها من التطور، وهي تتسع وتلين وتزداد صقلا على الأيام على خلاف العامية التي لا تثبت ولا تستقر بل تندمج في العربية بعد أن اشتقت منها وانفصلت عنها.

وهنا أنتقل إلى نقطة أخرى أود أن تتقرر في الأذهان؛ وتلك أن العامية ليست لغة أجنبية وإنما هي لغة عربية محرفة، فهي بنت العربية وصلتها بها وثيقة كما هو الحال في كل عامية بالقياس إلى اللغة الصحيحة. وكثيرون منا ينظرون إليها غير هذه النظرة، فإذا كتبوا أو خطبوا اتقوها جداً وخافوا منها وتحاموها ونفروا من كل لفظ مستعمل فيها، وبهذا يباعدون مباعدة شديدة غير نافعة بين الكاتب والقارىء، وهذا خطأ فان العامية كما قلت بنت العربية وفرع منها، وإذا ما نظر الإنسان إلى العامية هذه النظرة ألقى فيها كنوزاً ونفائس لا تقوم، وأغناه ما يجد فيها عن كثير مما يلتمسه ولا يهتدي إليه، أو يهتدي إليه ولكنه لا يكون في الأكثر والأعم إلا نابياً ثقيلا مستكرهاً في السماع أو منفراً من العربية نفسها. وقد كنت كغيري أتقي كل لفظ مما يجري على ألسنة العامة لتوهمي أن ما يجري على ألسنتهم لا يمكن أن يكون عربياً صحيحاً، ولكن مطالب التعبير والأداء أحوجتني إلى البحث عن مفردات كثيرة فالتمستها في كتب الأدب ومعاجم اللغة، فأما المعاجم فقليلة الغناء

في هذا الباب وهي تجمع الحي والميت من الألفاظ ولا تفرق بين هذا وذاك. وأما كتب الأدب فإن اللفظ المستعمل فيها يكون لفظاً حياً استطاع أن يبقى ويدور على الألسنة والأقلام، والألفاظ كالناس وككل مخلوق، تحيا وتموت، والصالح منها هو وحده الذي يبقى، أما غير الصالح فينتهي به الأمر إلى أن يهجره الناس ويتركوه مدفوناً. ولا خير في محاولة إحياء لفظ مات ونشره بعد أن طواه الزمن، وإنما الخير أن تتركه حيث هو وأن تلتمس سواه من الألفاظ التي قدرت على البقاء والمكافحة والنضال.

نظرت هذه النظرة إلى لغتنا العامية فعثرت بلا جهد أو مشقة في بحث على مئات من الألفاظ العامية التي نتوهم أنها غير عربية أو لم يستعملها العرب، ونتحاماها لذلك، ولو استعملناها لجاء الكلام أوضح وأبين، ولكان فهمه أسهل ومطلبه أيسر. وبعض هذه الألفاظ عربي أصيل، والبعض مولد أو دخيل ولكنه مما استعمله العرب وأجروه مجرى

ألفاظهم الأصلية. وكل هذه الألفاظ تمتاز بأنها استطاعت أن تعيش وان تجري على ألسنة الأمم والشعوب، آلافاً من السنيين الطويلة، فمادة الحياة فيها قوية ولا معنى لهجرها وإهمالها لا لسبب سوى أن العامة يستعملونها كأن كل ما يستعمله العامة يجب أن يحتقر ويرمى ويطلب غيره، وهي سخافة ظاهرة.

وقد علمت أن الدكتور احمد بك عيسى قدم إلى المجمع اللغوي رسالة في الألفاظ العامية وأصولها تشتمل على ما قيل على ألفي كلمة، ولا اعتقد أن هذا الرقم أدنى مبالغة فأني أنا وحدي بلا بحث يستحق الذكر وبمجرد تقييد ما يعرض لي من ذلك في مناسباته العارضة وقعت على اكثر من ألف كلمة، وقد نشرت في الرسالة طائفة منها، فأحر بالباحث الذي يعنى بدرس الموضوع وتعقب الألفاظ أن يهتدي إلي أضعاف أضعاف ذلك. والذي أرجوه أحد أمرين، أن يطبع المجمع هذه الرسالة النفيسة: أو إذا كان ثم مانع معقول - ولست أرى أي مانع - فليطبعها الدكتور عيسى بك ولينشرها فإن الفائدة منها جزيلة، إذا كانت هذه الألفاظ السهلة المعروفة التي يفهمها كل إنسان متعلماً أو غير متعلم تغنينا عن ألفاظ مهجورة ميتة نضطر إلى الالتجاء إليها والاستعانة بها على التعبير فلا يفهمها أحد إلا بالشرح والتفسير أو الرجوع إلى المعاجم، وهذا كله عناء باطل لا يجوز تكلفه مع وجود الألفاظ المأنوسة.

أن اللغة - كل لغة - ليست أكثر من أداة للإفهام أي لنقل المعنى أو الصورة أو الإحساس أو الخالجة على العموم من ذهن إلى ذهن ونفس إلى نفس. واللغة - كل لغة - بطبيعتها أداة ناقصة ووسيلة غير وافية، وهي في الحقيقة أشبه بإشارات الخرس التي تشير إلى المراد ولا تبين عنه. وكل من عانى الكتابة بأية لغة يعرف ذلك ويحسه ويستطيع أن يشهد به. وما أكثر ما نعجز عن التعبير عنه فنتركه إلى سواه مما يؤاتينا عليه البيان، ومتى كان هذا كذلك فإن من الشطط أن نزيد الأمر صعوبة بالأغراب والحذلقة بترك السهل إلى المهجور، والمأنوس إلى الحوشى، أي بجعل مهمة الإفهام أشق على الكاتب والقارئ معا، وما دامت اللغة العامية مشتقة من العربية وفرعا من أصلها فإن من الحمق أن نترك ما فيها من الصحيح وأن نروح نبحث عن غيره لنعبر به.

وفي العامية فضلا عن ذلك تعابير لا سبيل إليها في اللغة العربية على ما نعلم، مثال ذلك هذا البيت العامي:

يا بت أنا بدي أبوسك ... بس أبوسك)

(واطرب وأحظى بكؤوسك ... رقي شوية

هذان البيتان العاميان كل ألفاظهما عربية صحيحة - البت هي البنت ولو نطقناها بنت لما تغير الوزن. وبدي من قولك لا بد لي أو من قولهم بودي، وأبوسك كلمة عربية صحيحة لا تحريف فيها ولا تصحيف ولا شيء غير ذلك والفعل باس يبوس بوساً وهو عندي خير من قبل يقبل. وأطرب وأضحى والكؤوس ورقي كلها أيضاً صحيحة. بقيت شوية وبس، فأما شوية فتصغير شيء، وأما بس فلا مثيل لها ولا غناء عنها بغيرها في اللغة العربية. وقول الشاعر العامي أو الشعبي (بس أبوسك) تعبير لا يقابله مثله في العربية، وقد حاولت مراراً أن أجد بديلا منه فلم أوفق. فإذا كان غيري يستطيع أن يهتدي إلى بديل منه في اللغة الفصحى فليفعل وليحتقب شكرنا. أمثال هذا التركيب لا أرى أي مانع في إدخاله في لغتنا العربية الفصيحة والانتفاع به فيها وإغنائها بذلك فإنه تعبير ينقصنا فعلاً وإن كنا لا نعدم منه بديلاً غير سائغ أو مقبول. ومن هذا القبيل كلمة (بقي) وكثيرون يظنونها من الفعل العربي (بقي يبقى) والحقيقة أنها فرعونية الأصل ولا معنى لها، وإنما هي كلمة يستعان بها على التمهل للتفكير مثل كلمة (ألور) في الفرنسية.

وألخص موقفي من اللغة العامية ورأيي فيها فأقول إنها فرع من هذه الشجرة العظيمة التي نمت على الأيام وأصابها الركود الشديد عصوراً غير قصيرة وأعنى بها اللغة العربية. ولكنها - أي العامية بحالتها الراهنة لا تصلح أن تكون أداة لأكثر من التخاطب في الشئون العادية فلا يجوز اتخاذها أداة للكتابة وما يطلب بها من الأغراض، وهي فضلاً عن قصورها تختلف باختلاف الأقطار بل الأقاليم المتقاربة، فلهذا لا تصلح أن تكون لغة عامة، ومن السخافة أن نتخذ لغة قاصرة غير وأفيه لا يفهمها إلا عدد محدود وأن نهجر لغة عامة يفهمها كل أحد في كل بلد. ومن السخافة أن نقتل لغتنا العربية التي خلف لنا أصحابها كل هذه الكنوز في الأدب والعلوم والفلسفة والتاريخ

وغير ذلك من أجل لغة لا ماضي لها ولا حاضر أيضاً، لأنها غير ثابتة وتحولها دائم مع ارتقاء التعليم وانتشارة، ولا مستقبل لها كذلك إلا الاندماج في اللغة العربية الفصحى بفضل تقدم التعليم وانتشاره كذلك. ولكن هذه العامية التي لا تصلح أن تتخذ أداة الكتابة عربية الأصل وإن كان فيها كثير من الدخيل من لغات أخرى بحكم اتصال الشعوب بعضها ببعض وأخذ بعضها عن بعض، ولهذا يحسن الانتفاع بما فيها من العربي الصحيح وإن كان محرفاً قليلاً. ويجب لهذا الغرض أن نعنى بإحصاء الألفاظ العربية في العامية وأن نردها إلى أصلها إذا احتاج الأمر إلى ذلك وأن نستعملها ونستغني بذلك عن البحث العقيم عن ألفاظ أخرى بدلاً منها في ما مات من ألفاظ اللغة العربية وعجز عن البقاء. وفي العامية فضلاً عن ذلك تعابير مثلها غير موجود في العربية، أو موجود ولكنه غير سائغ لا يقبله الذوق العام، فهذا يحسن اتخاذها أيضاً وإغناء العربية بها فإنها بذلك تتسع وتلين وتكتسب المرونة اللازمة. فيحس ابن اللغة وهو يستعملها أنها أداة حية نابضة لا جامدة ناشفة.

وأظن أني بعد هذا لا أحتاج أن أقول أني لست عدواً للعامية أو سواها؛ وقد يساعد على نفي هذا الوهم أن أذكر أني استعنت بها في الحوار في بعض ما كتبت من الروايات أو القصص بالقدر اللازم ليس إلا - استعملتها في هذا النطاق المحدود في روايتين على الخصوص رواية إبراهيم الكاتب ورواية تمثلية اسمها (غريزة المرأة أو حكم الطاعة) ولكنى التزمت حدوداً معينة لم أتجاوزها. ولا يحسب أحد أني أريد الإعلان عن هاتين الروايتين فقد نقدتا من زمان طويل.

إبراهيم عبد القادر المازني

في سبيل الإصلاح

المشكلة الكبرى في حياتنا الاجتماعية

للأستاذ علي الطنطاوي

أعد الأستاذ هذا البحث ليحاضر به الناس في ناد من أندية دمشق الأدبية، ولكن مرض الكاتب ولبثه أربعين يوماً في المستشفى، ثم اضطراره إلى السفر العاجل ليتسلم عمله في مدرسة بعقوبة (العراق) حال دون إلقائه).

صورة المشكلة

آلاف مؤلفة من الشبان يبتون مسهدين ينتظرون أزواجهم اللائى خلقهن الّله لهم. وآلاف مؤلفة من الشابات يبتن الليل مؤرقات ينتظرن أزواجهن الذين يراهم الله لهن والذراري تطل من شرفة الغيب ترقب تعارف أبويها، لتأخذ بأذن الله، طريقها إلى عالم الوجود، فيكون منها عباد الله صالحون، وجنود للوطن مخلصون، وأنصار للحق ثابتون.

ثم إذا قدر الله وكان زواج، كان الزواج (أكثر ما يكون) همًّا ونكداً، وخلافاً مستمراً، وآض البيت من بعده جحيماً محرقاً، وسجناً مظلماً، ونشأ الأولاد على غير تهذيب، ومن غير دين ولا أخلاق. . . هذه هي صورة المشكلة: انتظار أليم يسلم إلى الجنون أو إلى الفسوق أو إلى اليأس، ونقص في الأولاد، وضعف في الأمة، وخراب للبيوت، وضياع للأسر، وفقد للسعادة. . .

سبيل العلاج

هذه هي صورة المشكلة، فما هي أسبابها؟ وما نتائجها؟ وما علاجها؟ بل وما نفع الكتابة فيها؟

لقد كُتب فيها وكُتب (حتى لو أن محصياً أحصى المكتوب فيها لجاء معه كتاب ضخم) فلم يُغن المكتوب شيئاً، ذلك أن المشكلة تحتاج إلى حل عملي يقوم به الآباء، لا إلى نظريات وفلسفات يدلي بها الكاتب والأدباء، من اجل ذلك نحوت في هذا البحث نحو العمل فلم أتعمق ولم أتفلسف! ومن اجل ذلك ضربت من الواقع أمثلة، وأخذت من الحياة شواهد وصوراً. . . على أنها لا تغنى المباحث، ولا تجدي الشواهد ولا الصور، ولا المقترحات

ولا الآراء، ما لم يحققها عقلاء الآباء، أو من لهم في الأمة أمر أو نهي، ومن أرباب الحكم وأصحاب السلطان!

موانع الزواج

لو سئلت أكثر العزاب من الشبان: (ما منعكم من الزواج؟) لكان جواب الأكثرين إن لم

أقل جوابهم أجمعين: (المهر، وما يتصل بالمهر من تكاليف وبلايا)، ولست اذهب بالقارئ إلى بعيد، بل أضرب له المثل من نفسي. . .
أنا أريد الزواج، وأنا امرؤ في رأسه أشياء وليس في كيسه شيء. . . أما الذي في رأسي، فقد أفنيت في تحصيله شبابي، وبيضت في طلبه ليالي وسوّدت نُهُرى، وخدعني عن حقيقته معلمي فحسبته أثمن شيء في الوجود، وصدقت أن العلم خير من المال. . . فرأيت من بعد أن المال خير من كل شيء. . . وأما كيسي فما فيه وفر، ولكن فيه مرتباً يكفيني ويكفي بحمد الله أربع زوجات معي، لو أن الزوجة بقيت إلى اليوم شريكة الحياة وربة البيت، وتطلب حياة هنيئة وزوجاً صالحاً، بيد أن هذا كله قد ذهب. . . وصارت الزوجة (يا أسفي!) متاعاً يشرى، ولابد للمتاع من ثمن، فإذا أخذ الأب الثمن لم يبال بعده شيئاً، ومتى كان يبالي التاجر إذا استوفى الثمن بأخلاق الشاري أو سيرته في أهله؟ وثمن الزوجة (أقل ما يكون) خمسون أو مائة (ليرة) ذهبية، فتصور يا صديقي القارئ متى تجتمع لرجل مثلي مكساب متلاف لا يستطيع أن يمسك شيئاً، أو لا يفضل عن نفقته شيء؟ وليست هذه المصيبة كلها. إن بعدها نفقات العقد (الكتاب) وقبل العقد خاتم الخطبة، وما يكون إلا من الذهب، و (الشبكة) وما يصلح لها إلا حلية لها قيمة. . . وبعد العقد الهدايا واللُّطف بحملها إلى دار (الزوجة العتيدة) كلما زارها، ولابد له من أن يزورها؛ ثم تأتي بلايا العرس، وما أدراك ما بلايا العرس: كسوة أهله وأقربائه ممن تجب عليه نفقتهم (وكسوة النساء أقبح التبذير، لأنهن يشرين قماشاً لا يدفئ ولا يستر، ويدفعن ثمنه غالياً، ثم إذا مرت شهور بطل طرازه (مودته) فأصبح لا يصلح لشيء. . . وبعد الكسوة نفقات حفلة الزفاف. ثم إذا دخل على زوجته، وانفرد بها، لا تكلمه حتى يدفع إليها (ثمن شعرها) وهي جملة من المال ولا تقل عن (بعض ليرات ذهبية) ولا حد لزيادتها، وما أدري والله كيف تنزل الفتاة للحلاق عن شعرها يقصه ويلقيه على الأرض، ثم تطلب (ثمنه) من زوجها؟ ثم إذا أصبح أعطاها
عطية أكبر من (ثمن الشعر) هي (الصّبْحة) فإذا زال النهار أهدى إليها هدية، (وجوباً) لابدّ أن يكون فيها إزار للحمام ثمين وقد يكون منسوجاً بخيوط الفضة، ومناديل (مناشف) الخ. . . ثم تأتي نفقات (السبعة الأيام) يقيم فيها الأقارب والأهلون في داره، تولم لهم كل يوم الولائم، وُيطرفون بأنواع الطرف، فإذا انتهت دعوا جميعاً إلى الحمام، وقد قلّ ذلك في هذه الأيام منذ كثرت الحمامات في الدور، وأهملت الحمامات العامة أو كادت، ثم يدعو أهلها (أي أهل الزوجة) جميعاً وأهله إلى وليمة كبيرة تسمى (التعريفة) يعرَّف فيها بعضهم ببعض - وقد يبلغ المدعون إليها المئات في بعض الأسر الكبيرة. . .
فأنى لمثلي الطاقة على هذه المصروفات التي تخرب بيوت الأغنياء؟ وإني لأعرف قاضياً شرعياً زوج ابنه، فتكاثرت عليه النفقات، فلم يقدر عليها حتى باع بيته - لينفق ثمنه في ليالي العرس! هذا أول موانع الزواج وأظهرها. . .
الحجاب
وهب أني قد وقعت على كنز، أو أصبحت إرثاً فأصبحت غنياً توفر لي ما أبتغي من المال فكيف أختار زوجتي؟ أما الحاسرات المتبرجات اللائى يعرف الرجال كلهن: صدورهن ونحورهن وأيديهن وسوقهنَّ، فأنا (بحمد الله) أعقل من أن أتخذ منهن زوجة، ولو كانت ابنة ماء السماء، وأعلم العلماء، وما أحسب ذا دين ومروءة، يرضى أن يتزوج بمن رضيت لنفسها إهمال الدين، وإسقاط المروءة، بتعرّضها في زينتها وفتنتها للرجال، تستهويهم وتأخذ بأيديهم إلى النار. . . بقى عليَّ المتحجبة من بنات الأسر، وهي التي لا سبيل إلى رؤيتها إلا ليلة الزفاف، وبعد أن يكون الغلَّ قد استدار حول عنقي، والقيد قد أحكم أقفاله على يدي ورجلي، ولم يبقى لي إلا أن أقبل بها ولو كانت لها وجه قرد وأخلاق شيطان!
أفهذا من المعقول؟
يريد المرء سفراً، فيتحرى عن أخلاق رفيقه أياماً، ليعلم أيوافقه أم يخالفه؛ ويبتغي أجيراً فيراه ويبحث عن أصله وفصله، ويجرَّبه أياماً؛ ويعزم على أن يتزوج، فلا يرى رفيقة حياته ومهوى قلبه، وموضوع حبه، إلا بعد أن يتم كل شيء؟
مع أن الشرع أباح له أن يراها ويجالسها. . . ومع أنها تخرج إلى السوق فيراها (على

خلاف الشرع) البائع ومن كان عنده، ويقدم إليها القهوة ويحادثها، ويراها عمال السينما، ويراها ويراها، فما الذي حاق بالآباء حتى هان عليهم كل محرّم، وصعب عليهم ما أحلَّ الله؟

هذا هو المانع الثاني من موانع الزواج، بل إن هذا الوضع هو الذي سبب ما نرى من تبرج النساء وحسورهن، وعريهن على السواحل. . . ولا علاج له إلا بحجاب شامل (وذلك ما لا يستطاع) أو بسفور شرعي، كالذي سماه صديقي الأستاذ عز الدين التنوخي بسفور الراهبات، وذكر أن الحشويين الجامدين، يقابلون من يدعو إليه بالسباب والشتائم، وذلك هو الواقع، فإن هؤلاء قائمون بالمرصاد لكل من يعرض رأيا في إصلاح حال المرأة الذي كاد يصل إلى حد العرى المطلق بل لقد بلغه فعلاً. . ولكنهم لا يأتون بأي رأي من عند أنفسهم، ولا يهتمون بما يرون، فهم هادمون ولا يبنون، وهم مفسدون لعمل كل مصلح ولا يصلحون. . . ولله الحمد على أن ضعفت مُنَّتهم، وخفتت أصواتهم، وبادت جماعتهم، ونسأل الله أن يبدلنا بهم علماء يفهمون روح الإسلام ويعرفون حقائقه، ويفهمون روح العصر ويعرفون حاجات أهله

الخلاف العائلي

فإذا يسر الله لامرئ سبيل الزواج، وأنجاه من هذه الموانع، عرضت له مشاكل، ورأى من المتاعب ما يندم معه على ما أتى، ولو ذهبت تتقصى أحوال المتزوجين ودخائلهم في بيوتهم لوجدت أكثرهم متألماً شقياً، ولهذا الألم أسباب يمكن تلافيها لو فكر فيها الزوج، وعزم على التلافي.

أول أسباب الخلاف

أعرف أخوين: أما أحدهما فشيخ محافظ توفي رحمه الله من سنين طويلة، أما الثاني فأديب موسيقي على الطراز الجديد. تزوج الأول، ولبث مع زوجه ستة عشر عاماً حتى توفي عنها ولم يكلمها على مسمع أهله كلمة، وإنما كان يوجه الكلام إلى أخته سائل حاجته، أو يأمر أخته أن تقول لها ما يريد، وألفت ذلك منه ورضيت به أو صبرت عليه. وكانت تخشاه كخشيتها لله أو هي أشر خشية. . وأما الثاني. . لا. بل إن أكثر من عرفنا من

الأزواج (المجددين) تتحكم بهم نساؤهم، فيأمرونهم وينهينهم، ويشتمنهم و. . ويضربنهم! وهم يخافونهن ولا يجرءون عليهن. .

أي أن الأزواج بين رجلين، رجل أعمل سلطته، وأسقط عاطفته فكان في بيته سيداً، ولكنه لم يذق طعم الحب، ولا عرف السعادة الزوجية، ورجل تبع عاطفته فأرضاها، وأهمل سلطته فأضاعها، فعاش في داره عبداً. .، وتفصيل ذلك أن الزوج هو الذي يحكم على نفسه، ويختار طريقه. فإذا دلل زوجه في الأيام الأولى، ومثل لها (دور العاشق في الروايات الخيالية، ومنحها قياده، وأراها أنها حياته، وأنها الآمرة الناهية عليه، وتذلل لها وخضع، (ولذة الحب في التذلل والخضوع) ألفت ذلك منه، تعوده. . فإذا طارت من رأسه سكرة الحب، وأحب أن يحكم في الدار، كما يحكم رب الدار، وجد الأمر قد أفلت من يده، فيبدأ الخلاف، ثم لا ينتهي أبداً. وإذا هو ضبط نفسه في الأيام الأولى، ولم يعط إلا بمقدار واستعمل عقله وسلطانه، ألفت منه الزوجة ذلك، فوجدت كل عطف منه بعد ذلك غماً كبيراً. .

فالزوج العاقل الحازم من لم تلهه حلاوة العسل التي تدوم له شهراً، عن مرارة العلقم التي ستبقى دهراً طويلاً. ومن لم تشغله اللذة الجسمية العاجلة، عن السعادة الزوجية الآجلة، فلينتبه لهذا الأزواج، فمن هنا منشأ الخطر. .

حقوق الزوجين

ومن أسباب النكد البيتي، والشقاء الدائم، الخلاف على حقوق كل واحد من الزوجين، فمن الرجال من يأخذ أكثر من حقه، ومن النساء من تقيم نفسها مقام الرجل، تفرض عليه سلطانها، حتى إن الرعناء لتسأله: أين كنت؟ ومن كلمت؟ بل إن من النساء الحمقاوات المتحذلقات ممن يحسبن أنهن متعلمات، من تحاسب زوجها على زيارته أهله، وصلته رحمه، وتغار عليه إذا كلم عمته أو زارها. . حتى أصبح الأمر فوضى لا نظام له وظلمة لا نور فيها: مع أن الشرع الإسلامي (الذي لم يغادر صغيرة ولا كبيرة، إلا بين وجه الحق فيها) قد حدد حقوق الزوجين، فجعل من حقوق الزوج على زوجته أن تطيعه فيما لا معصية فيه، وأن تصون عفافها، وألا تخرج إلا بأذن منه أو لضرورة،

وأن تحرص على إدخال السرور عليه، وألا تكلفه ما لا يطيق ولا تطالبه بالزائد من حاجة نفسها، وأن تبذل
جهدها في أداء واجباتها الدينية، وأن تعطيه زمام الرياسة المنزلية. ومن حقها عليه أداء مهرها كاملاً إليها - الاتفاق عليها بالمعروف - أن يجتهد في تعليمها واجبائها الدينية - أن يكتم سرها ولا يتحدث به - حسن خلقه معها - احتمال بعض الأذى منها - ممازحتها ومداعبتها - أي أن للرجل على الجملة رياسة المنزل (حين لم يكن بد لكل شركة أو جماعة من رئيس) وله السيادة فيه، وحفظ كرامته، وإدارة شؤونه الخارجية والأشراف على أموره كلها، وله الحكم في كسوة المرأة وخروجها، وله تأديبها بالعدل، ومن غير أن يخرج على ما أحل الله وذكر في كتابه، وللمرأة حق التصرف بأموالها، وإدارة شئون المنزل الداخلية، والنفقة عليها وضمان حاجاتها اللازمة؛ ولها عليه أن يحرص على سعادتها وسرورها، ويعاملها بالخلق الحسن، والقول اللين، ويتغاضى عن خطيئاتها ما أمكن التغاضي، ويعلم أنها شريكة حياته، وأدنى الناس إليه فلا يستأثر دونها بطعام أو شراب، ولا يدعها في المنزل وحيدة متألمة، ويسهر في المقاهي والملاهى، ولا يقدم نفسه عليها في كسوة أو متعة من متع العيش.

المشاكلة بين الزوجين

وإن من أظهر الخلاف بين الزوجين، ألا يكون بينهما مشاكلة ومماثلة، كأن يكون فقيراً وتكون هي غنية، فتعيره بفقره، وتترفع عليه بمالها، أو أن يكون من رجال الأعمال، وتكون متعلمة، على أن المتعلمة العالمة حقاً لا ينتظر منها إلا كل خير، ولكن البلاء في هؤلاء اللائى يحسبن أنفسهن متعلمات، لأنهن كن قبل الزواج معلمات في مدرسة أو مديرات، وإن كن لا يفتحن في السنة كتاباً، ولا يفهمن شيئاً، ولا يعرفن إلا تنكيد حياة الزوج، وإضاعة ماله في الولائم والاستقبالات، والكسوة والزينة، هؤلاء هن البلاء الأزرق، وخير منهن الأمية الجاهلة.

ومن أشنع أشكال الاختلاف بين الزوجين، حال من يتزوجون بالأجنبيات، فيرون منهن (على الغالب) ما يتمنون معه الموت الأحمر. وإني لأعرف من الناس رجلاً درس في فرنسا وجاء معه بفتاة زعم أنها من أكرم الأسر الفرنسية وأعرقها، وتزوج بها، فكان من أيسر ما تصنع أنها تذهب إلى السينما فترى الضباط الفرنسيين فتحن إليهم بصلة الدم، فتكلمهم وتصادقهم ثم تدعوهم إلى دارها فلا يروع صاحبنا إلا الضباط قد ملئوا بيته ثم
انتهى أمرها بالفرار مع واحد منهم!

ومن العجب أن دماغين كبيرين تواردت خواطرهما على مسألة واحدة، وبينهما الدهرالأطول، وبينهما ما بين المشرق والمغرب فوقعا فيها على الصواب الذي نعرفه ولا نريد أن نتبعه. ولما كانت القادسية، ولم يجد الناس نساء مسلمات، تزوجوا نساء أهل الكتاب، فلما كثر المسلمات بعث عمر بن الخطاب إلى حذيفة بن اليمان بعد ما ولاه المدائن: (بلغني أنك تزوجت امرأة من أهل المدائن من أهل الكتاب فطلقها) فكتب إليه: (لا أفعل حتى تخبرني أحلال أم حرام، وما أردت بذلك؟) فكتب إليه عمر: (لا، بل حلال، ولكن في نساء الأعاجم خلابة، وإن أقبلتم عليهن غلبنكم على نسائكم) فقال حذيفة: الآن! وطلقها.

هذا حكم الرجال العظيم، عمر، وقد حكم به في المدينة منذ ألف وثلاثمائة سنة. وأما الثاني فحكم الرجل العظيم موسوليني، حكم به المؤتمر الفاشي في روما، في هذا الأسبوع، حين كان من مقرراته منع الإيطاليين من الزواج بالأجنبيات فمن لم يعظه قول عمر، فليعظه حكم موسوليني!

(البقية في العدد القادم)

دمشق

علي الطنطاوي

كتاب المبشرين الطاعن في عربية القرآن

الشيخ إبراهيم اليازجي

لأستاذ جليل

عمل (المظللون) بالقول الأوربي المشهور الملعون: (المأرب يبرئ الذريعة) فأشاعوا

مشاعهم، وطبعوا في (كتابهم) مكذوبهم: (هاشم العربي الشيخ اليازجي) مسيئين إلى صاحب (الضياء) في حياته ومماته. وقد صدَّق الناس من بعد ما رأوا الكلام فربتهم. وهأنذا أصدع اليوم بالحق معلناً في (رسالة الإسلام والعربية) براءة اليازجي مما قذف به. ومعي برهانان دامغان؛ فقل للضالين المضلين أصحاب الكتاب المزور وذوي الكذب السخت (قل: هاتوا برهانكم أن كنتم صادقين).

البرهان الأول

كانت تلكم الإشاعة، ونشر المضللون قطعة من (مكتوبهم) في مجلتهم التضليلية. فكتب حجة الإسلام الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله في (مناره) عجلان غير مستأن ولا متثبت - هذه الجملة: (نشرت مجلة البروتستنت المصرية نبذة في الطعن في القرآن نقلها عن كتاب لهم يقال: أن للشيخ إبراهيم اليازجي يداً في تصحيحه أو تأليفه أو ترجمته والزيادة فيه) وقد حدا الإمام على التسرع بما كتب غضبه الغضوب للدين، ومزاج كريم يشتعل بأدنى قدح. . .

فلما أطلع صاحب (الضياء) على الذي في (المنار) هاج أيما هيج بل كاد يجن؛ إذ فحواه عنده أنه عسيف من العسفاء عند (المبشرين) و (تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها) وأنه يجهل العربية - وما يعرف منها هو رأس ماله في الحياة - وأنه عدو للمسلمين - وهنا الخطب المهم - فسارع إلى إذاعة كلمة في (ضيائه) قال فيها: (وقفنا نقلب الطرف في هذا الكلام ونحن نستحضر ما كر علينا من سوالف الأيام، ونتمثل ما مر بنا من غرائب الأحلام، لعلنا نتذكر في أي عهد كنا من المناقشين في العقائد الدينية، وفي أي زمن كنا نؤلف الكتب في الطعن على الأسفار السماوية. ومتى كنا نتعاطى حرفة التبشير بالأديان، وأي ثمرة لنا في صرف بعض القوم عما اعتقدوه من الأيمان. أمور يعلم كل من له أدنى معرفة بنا أننا من أبعد الناس عنها) (نحقق لحضرة الرصيف الفاضل أننا براء مما أتهمنا به أو اتهمنا به لديه، وأننا من أبعد خلق الله عن هذه السخافات التي يتاجر بها قوم لاستدرار الرزق من أخبث موارده. وإن لم يكن له بد من ملازمة هذا الموقف والنضال بهذا السلاح فعنده من قسوس الإنكليز والأمريكان ومن ينتمي إليهم من المنقسسين - وكلهم معروفون لديه اسماً وجسماً - ومن يكفيه استنزالنا إلى هذا المجال، وتكليفنا أن نعمل بضد ما طبعنا عليه)

هذا كلام اليازجي، وهو قول جاد لا الهازل، والصادق لا الكاذب، وقد كان الرجل صادقاً، وكان ذا إباء وكبرياء، يعرف ذلك في خلائقه من يعرفه، فلم يخدم المبشرين في حال، ولم يسف إلى تلك (السخافات التي يتاجر بها قوم لاستدرار الرزق من أخبث موارده) ثم إن اليازجي من طائفة (الروم الكاثوليك) والمضللون من البروتستنت، والكاثوليكي حرب البروتستنتي، والبروتستنتي لابن الكنيسة الكاثوليكية عدو مبين فقل لي: (عمرك الله كيف يلتقيان؟)

البرهان الثاني

أغلاط اليازجي في إنشائه وفي تغليطة غيره، فيها البركة. . . لكنه لن يخطئ فيما أثخنه معرفة وفيما خطأ فيه الأدباء. وفي (كتاب التضليل) أغلاط نبه عيها هو نفسه. وكان إعلانه إياها وتلفيق ذاك الكتاب في برهة واحدة، ومستحيل أن يحرم الخطأ عاماً ويحلله عاماً تلبيساً وتدليساً كدأب مضلل أو شعوذي وهذه أقوال (المضللين) وهذه أقوال (الضياء):

1 - قال هاشم العربي الشيخ اليازجي (كتاب المبشرين، الصفحة (69): (يتردد إليها جماعة القسس)

قال الشيخ اليازجي (الضياء، السنة (1) الصفحة (357): (ويقولون جماعة القسس بضمتين، يريدون القسوس فيحذفون الواو، لأن فعْلا الساكن العين لا يجمع على فُعُل) (قلت): في (المصباح): القس جمعه القسوس، وفي (التاج): جمع القس قسوس بالضم. وفي (اللسان): القُسُ العقلاء، والقسس: الساقة الحذاق. . .

2 - قال هاشم العربي الشيخ اليازجي (كتاب المبشرين الصفحة (84): (إنه كان كسائر بني جلدته) (يعني سيد الوجود صلوات الله وسلامه عليه)

قال الشيخ اليازجي (الضياء السنة (1) الصفحة (449): (ويقولون: فعل هذا لمصلحة أهل جلدته يريدون قومه وأهل جيله - الجيل الصنف من الناس كالعرب والترك

والروس - وقد أولع بهذا العبارة، وتناقلها بعضهم عن بعض من غير بحث ولا تنقيب عن أصل مغزاها ومراد قائلها)
(قلت): تجادل الأستاذ قسطاكي الحمصي والأستاذ سليم الجندي في هذه اللفظة فوافق الأول اليازجي على نقده وخالفه الثاني فيه قائلاً: (قال في اللسان وفي الحديث قوم من جلدتنا أي من أنفسنا وعشيرتنا) ولكل مقام مقال، ولكل حال ألفاظ، والقصد من إيرادنا قول المبشر وقول (الضياء) الأعلام بأن اليازجي لا يستعمل شيئاً أنكره هو.
3 - قال هاشم العربي الشيخ اليازجي (كتاب المبشرين الصفحة (321): (ولسنا مكلفين بمعرفة تفسير هذه الآيات وإنما نحن مكلفون بالاعتقاد بأن الله لا شريك له ولا شبيه ومن هؤلاء مالك بن أنس)
قال الشيخ اليازجي (الضياء السنة (7) الصفحة (323): (ويقولون: كلفته بالأمر فيعدون هذا الفعل إلى المفعول الثاني بالباء، والصواب تعديته إليه بنفسه، تقول: كلفته الأمر)
(قلت): الأقوال العربية والمعجمات كلها تساند اليازجي، ولم يعد هذا الفعل بالباء إلا في كلام المتأخرين من المولودين. وفي (الجمهرة): تكلفت الشيء تكلفاً إذا تجشمته، والكلفة من التكلف، والتكلفة تكلفتك الشيء وتحملك إياه.
4 - قال هاشم العربي الشيخ اليازجي (كتاب المبشرين الصفحة (392): (فشرع (أي بحيرا الراهب) يفكر في ما يفعله لردّ أهلها عن الشرك ويتطلب رجلاً منهم يستعين به على غرضه حتى عثر بمحمد)
قال الشيخ اليازجي (الضياء السنة (5) الصفحة (620) في نقده (البؤساء) لحافظ: (وربما وقع له غير ذلك كقوله: (ألم تعثر في طريقك أيها الراهب بغلام) والمنصوص عليه في هذا المعنى عثر عليه لا به)
(قلت): رويت في الجزء (266) من (الرسالة) - الصفحة (1288) ما قاله اللسان والصحاح والأساس في هذا الفعل، ولا ريب في خطأ المبشرين
5 - قال هاشم العربي الشيخ اليازجي (كتاب المبشرين الصفحة (327): (وأنت إذا أمعنت
فيه النظر وجدته)
قال الشيخ اليازجي (الضياء السنة (1) الصفحة (354): (ويقولون أمعن في الأمر وتمعن فيه أي تدبره وتقصى النظر فيه، وربما قالوا تمنعه، وأمعن فيه النظر. وكل ذلك غلط لأن الإمعان بمعنى الإبعاد في المذهب، وهولا يستعمل إلا لازما.
يقال: أمعنت السفينة في البحر، وأمعن الطائر في الطيران إذا تباعد، وقد يستعمل بمعنى المبالغة في الأمر مجازاً، يقال: أمعن في الطعام والشراب، وأمعن في الضحك. وأما تمعن فلم يثبت وروده في شيء من كلام العرب)
(قلت): يقال: أنعم النظر في شيء لا أمعن النظر فيه. قالت (النهاية) ومنه الحديث: أمعنتم في كذا أي بالغتم، وأمعنوا في بلد العدو وفي الطلب، أي جدوا وأبعدوا. وقالت: (وفي حديث صلاة الظهر: فأبرد بالظهر وأنعم أي أطال ألا براد وأخر الصلاة، ومنه قولهم: أنعم النظر في الشيء أي أطال التفكير فيه) وفي اللغة (التمعن) غير أن معناه التصاغر والتذلل انقياداً كما في النهاية واللسان والتاج
6 - قال هاشم العربي الشيخ اليازجي (كتاب المبشرين الصفحة (73): (ولذا كان محمد في بادئ أمره يداريهم)
قال الشيخ اليازجي (الضياء السنة (7) الصفحة 354): (ويقولون فعل كذا في بادئ الأمر أي في أوله وبدئه لا معنى للبادئ هنا لأنه اسم فاعل والمقام يقتضي المصدر أو الظرف) قلت: قالوا: (وافعل هذا بدءاً وبادئ بدء وبادئ بدئ) وفي (التاج) جل الصور لهذا التركيب. وفي (اللسان): (وبادئ الرأي أوله وابتداؤه، وعند أهل التحقيق من الأوائل ما أدرك قبل إنعام النظر، يقال: فعله في بادئ الرأي. وفي التنزيل العزيز: (وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي) قرأ أبو عمرو وحده بادئ الرأي ومعنى قراءته أي أول الرأي أي اتبعوك ابتداء الرأي حين ابتدءوا ينظرون وإذا فكروا لم يتبعوك) قال العبكري: (بادئ هنا ظرف وجاء على فاعل كما جاء على فعيل نحو قريب وبعيد وهو مصدر مثل العافية والعاقبة والعامل فيه أربعة أوجه)

7 - قال هاشم العربي الشيخ اليازجي: (كتاب المبشرين 89): (ويشفع فيمن يعترف من أهلها الأشقياء التعساء بعدل قضاء الله عليه)
قال الشيخ اليازجي (الضياء السنة (1) الصفحة (324): (ويقولون رجل تعيس وقوم تعساء وهو من أهل التعاسة، وكل ذلك خلاف المنقول عن العرب. والمسموع عنهم رجل تاعس وتعس بوزن كتف وقد تعس بفتح العين وكسرها، والمصدر التعس بالفتح والتعس بالتحريك، ويعدى الأول بالهمزة والثاني بالحركة نقول: تعسه بالفتح، وهو متعس ومتعوس لم يحك فيه غير ذلك)
(قلت): كتب اللغة المعروفة المطبوعة - ماعدا الجمهرة - لم تذكر التعيس. ولم أجد هذه اللفظة إلا في كتاب ابن دريد وفي رسالة الغفران في بيت لأحد الجن. . قالت الجمهرة: (ورجل تاعس وتعس وتعيس) وقال الجني (أي أبو العلاء. .)
حتى إذا صارت إلى غيره ... عاد من الوجد بجد تعيسْ
وإذا صحت اللفظة فاليازجي ينكرها لا يقولها ولا يقول جمعها، لا يقول: التعساء.
8 - قال هاشم العربي الشيخ اليازجي (كتاب المبشرين الصفحة (445): (وغير ذلك من معائب الكلام)
قال الشيخ اليازجي (الضياء، السنة (1) الصفحة (452) (ويقولون في جمع المغارة مغائر، وصوابه مغاور بالواو كما يقال في جمع مفازة مفاوز لأن حرف المد إذا كان أصلا لا يهمز ومثله قولهم معائب ومشائخ ومكائد بالهمز أيضاً وصوابهن بالياء)
قلت: قال ابن يعيش: (ألا تري أنك لا تهمز ياء معيشة بل تتركها ياء على حالها في الجمع نحو قولك معايش لكون الياء فيها أصلا، متحركة في الأصل) وقد استعمل كتاب المبشرين في الصفحة (148) لفظة معايش صحيحة لأن مغلط القرآن في العربية وجدها وهو يطالع (الكتاب) ليظهر أغلاطه - كذلك فاستبقاها كما رآها ولما جاء إلى شبيهتها في قاعدتها همز، ويل له ما أجهله!
9 - قال هاشم العربي الشيخ اليازجي (كتاب المبشرين الصفحة (215): (إذا حانت صلاة من هذه الصلوات دعاهم إليها المؤذنون من مآذن مساجدهم إذ لا يجوز عندهم قرع النواقيس كما تفعل النصارى)
قال الشيخ اليازجي (الضياء السنة (7) الصفحة 515): (إنما النواقيس جمع ناقوس وهو كما فسره صاحب القاموس خشبة كبيرة طويلة تقرع بخشبة قصيرة يقال لها الوبيل إيذانا
(بوقت الصلاة، وكل أحد يعلم أن هذا النوع هو لا يعرف له وجود في جميع أوربة
(قلت): لو كان مترجم (مقلة في الإسلام) وذو الذيل هو اليازجي ما قال (النواقيس) لأن اللفظة في الأعجية هو وسأل منشئ (المقالة) يجهل الناقوس في الشرق، ولا يغنى إلا الذي عرفه في بلاده. فلن يستعمل اليازجي ما نقده، ورأى أنه وضع في غير مكانه.
10 - قال هاشم العربي الشيخ اليازجي (كتاب المبشرين الصفحة (30): (فكم من قائد جيش زحف عليهم فعاد عنهم بالفشل)
قال الشيخ اليازجي (الضياء) السنة (5) الصفحة (564): (ومثل هذا لا يتصور من الفشل لأن معناه الجبن والفزع والضعف)
(قلت): يقصد كتاب المبشرين أنه رجع بالخيبة، والفشل في الأقوال العربية والمعجمات كلها: الجبن والضعف والفزع وما أشبه ذلك، وهو الفشل - بكسر السين وسكونها للتخفيف - والجمع إفشال. وفي (الأساس): دعي إلى القتال ففشل أي جبن وذهبت قوته، وعزم على كذا ثم فشل عنه أي نكل عنه ولم يمضه
11 - قال هاشم العربي الشيخ اليازجي (كتاب المبشرين الصفحة 320): (أفتدري بكم من سنة قبل أن أخلق قد كتب التوراة)
قال الشيخ اليازجي في مختصر (كتاب نار القرى في شرح جوف الفرا): (إن كم تخص بجواز جرماً يرمى بعدها بإضمار من وذلك إذا دخل عليها حرف جر نحو بكم درهم تصدقت قاصداً للمشاكلة بينهما. غير أن النصب هو المختار ولا يجوز عند الجمهور إظهار من لأن الحرف الداخل على كم عوض عن التلفظ بها)
قلت: لن يقول اليازجي (ولا يجوز) ثم يجيز، وقد قال سيبويه: (وسألته (يعني الخليل) عن (على كم جذع بيتك مبني) فقال القياس النصب، وهو قوله قول عامة الناس، فما

الذين جروا فإنهم أرادوا معنى (من) ولكنهم حذفوها ههنا تخفيفاً على اللسان، وصارت (على) عوضاً منها. ومثل ذلك: الله - بكسر الهاء وفتحها - لا أفعل، وإذا قلت لاها اللهِ لا أفعل لم يكن إلا الجر، وذلك أنه يريد لا والله ولكنه صار (ها) عوضاً من اللفظ بالحرف الذي يجر وعاقبه ومثل ذلك آلله لتفعلن إذا استفهمت، أضمروا الحرف الذي يجر وحذفوا تخفيفاً على اللسان، وصارت ألف الاستفهام بدلاً منه في اللفظ معاقباً)
وروى ابن يعيش في شرح
قول (الكتاب) مؤيداً (المفصل).
وقال شارح (الكافية): فكأن الجار الداخل على كم داخل على مميزه فالجر عند الزجاج بسبب إضافة كم إلى مميزه كما في الخبرية، والمجوَّز قصدُ تطابق كم ومميزه جراً، وعند النحاة هو مجرور بمن مقدرة) وقال محمد بن مالك:
وأجِزَ أن تجره (من) مضمراً ... إن وليت (كم) حرفَ جر مظهراً
وقد جاء مثل (الصبان) في آخر الزمان يقول: (وقيل يجوز نحوبكم من درهم اشتريت)
وقد قال قبل ذلك: (ظاهره منعُ ظهور من عند دخول حرف الجر على كم وهو المشهور لأن حرف الجر الداخل على كم عوض من اللفظ بمن المضمرة)
الإسكندرية
(* * *)
تسهيل الدراسة الدينية
للأستاذ داود حمدان
بمناسبة ما أثير من جدل حول تيسير قواعد اللغة العربية يصح للإنسان أن يبحث في تسهيل الدراسات الدينية أيضا، فأنها في حالها الحاضر من الصعوبة والعقم بحيث تستدعي البحث وكثرة التفكير، ولعل هذه الكلمة تفتح الباب للباحثين. والله الموفق.
لاشك أن الدراسة الدينية في حالها صعبة، وغير مؤدية إلى فائدة، لاسيما في تعليمها العالي، وبالموازنة بين الماضي والحاضر يظهر الفرق العجيب.
لما كان الرسول عليه الصلاة والسلام يقوم بتبليغ الدين، عملاً بقوله تعالى: (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) كان الرجل يأتي إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو على دين مما يعرف الجاهليون إذ ذاك فيمكث عنده ساعة من زمان يتلو عليه النبي فيها بعض آي القرآن الحكيم، فيقوم الرجل من عنده وهو مسلم حسن الإسلام، مؤمن كامل الأيمان، عالم بما أوجبه الله وما حرمه عليه.
واليوم يذهب المسلم المولود من أبوين مسلمين إلى أعلى معاهد العلم الديني فيشتغل بضع عشرة سنة، ثم يرجع إلى قومه وقد زادت الفوارق بينه وبين الدين كما زادت بينه وبين الناس.
وكان الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، فيتلقفون القرآن ويتدارسونه، فيملئون الأرض علماً وحكمة، كما يملئونها طهراً وعدلاً وصلاحاً.
واليوم يتخصص أوفرهم ذكاء، وأكثرهم اجتهاداً، وأصبرهم على الدرس، سنوات عديدة وقصاراه أن يحصل بعض ما علموه، ويتحلي بحفظ بعض ما قالوه. واليوم يدرس الدارس بضع عشرة سنة ويظل العامي أكثر منه ورعاً وتقوى.
بهذه الموازنة يظهر بكل وضوح أن تعليم الدين في الماضي كان مؤدياً أجل النفع، وأعظم الفائدة، وأنه في الحاضر قليل النفع والفائدة، بل ضار أعظم الضرر.
فالامَ يرجع السبب هذا الاختلاف بين الماضي والحاضر؟ هذا سؤال لم يكن أحد ليعيا بالجواب عنه إذا علم من أين كان يؤخذ الدين بالأمس، ومن أين يؤخذ اليوم.
إن المسلمين كانوا يأخذونه من القرآن، ثم صاروا يأخذونه من غير القرآن، وما القرآن عندهم - والحالة هذه - إلا مادة كمالية. ومهما أنكروا هذا بألسنتهم فهم ملزمون به من عملهم.
ألا ترون أن طالب العلم الديني يدرس كتب الفقه ويعرف أحكام الدين - في زعمهم - ويدرس كتب التوحيد والعقائد قبل أن يدرس القرآن وتفسير القرآن؟ بل ربما لا يحضر دروس التفسير أصلاً، وإن هو حضرها فلا يستطيع أن يأخذ منها حكما واحداً لأن طريقتها لا تعود الاستقلال في الفهم ولأنه نشأ على ذلك.
في صدر الإسلام كان النبي عليه السلام لا مادة عنده للدين غير القرآن، فمنه كان

يعلم الناس، وبتلاوته عليهم كانوا يسلمون لما يأخذهم من روعة وبلاغته، وصدق لهجته، والشعور بإعجازه. وبالقرآن كان الصحابة ومن بعدهم يبلغون الدين. وفي تلك الأوقات كان النابغون في علم الدين أكثر من أن يحصوا، بل تستطيع أن تقول إنه لم يكن أحد حينئذ يقلد أحداً فيه، وإذا جهل أحد شيئاً فإنما كان يرشده به للدليل ولا يلقنه الحكم تلقينا.

ولما فشا التأليف، وأكثر المتعلمون من قراءة الكتب التي ألفها أصحابها فيما استنبطوه من الأحكام الفقهية، والمجادلات الذهبية، نقص معدل النبوغ، ثم صار يزداد نقصاً كلما كثرت المؤلفات الفقهية وأقبل الناس على دراستها. فلما كان العصر الخامس بدت تلك القولة المجرمة الأثيمة، ألا وهي سد باب الاجتهاد، وصرح بعض الفقهاء أن الاجتهاد بعد الأربعمائة منقطع، وذلك لضعف ثقتهم بأنفسهم، وسوء ظنهم بالناس. فضعفت الهمم، ومازالت الأمة إلى الوراء حتى عصرنا هذا. فالمسلمون من العصر الخامس حتى اليوم، بل من العصر الثالث لا يأخذون الدين إلا من كتب الفقه والكلام طبقة عن طبقة؛ فكل طبقة تنظر في كلام سابقتها وتشرح أو تعلق أو تؤول، حتى وصلنا الدين بحالته الحاضرة وبعبارة صريحة: وصلنا وهو بعيد عن القرآن ألفا وأربعمائة سنة. إي والله ألفاً وأربعمائة سنة نحن بعيدون عن القرآن، وإن كنا نتلوه للتبرك، وذلك بسبب الالتواء في الدراسة. وقد وصدق علينا المثل العامي: تمسك من الدين بذيله: نترك رأس النبع وهو القرآن، ونأخذ من ذلك الرشاش المتطاير منه إلى إفهام الناس. أفلا ينظر المسلمون إلى أي هوة وصلوا من جراء هذا؟! كانوا عند ما لحق الرسول بالرفيق الأعلى أمة واحدة، لا يعرفون لهم إماما إلا القرآن. وأصبحوا لا تحصى فرقهم ومذاهبهم وشيعهم. ولكل فرقة أو شيعة إمام غير القرآن.

لا يقولن قائل إن السبب في بعض الاختلافات كان سياسياً. فإن الاختلافات السياسية كان ينبغي أن تموت بموت سببها، ولكن بقاء الكتب وداستها فيما بعد، دون دراسة القرآن الكريم بعقل مجرد عن تأثير تلك الاختلافات، هو الذي أبقاها

وكان المسلمون لا يتركون القرآن إلى سواه، ولا يبحثون عن حديث الرسول في قضية ما إلا إذا لم يجدوا لها نصاً في كتاب الله، كما كان يفعل أبو بكر وعمر وسائر الصحابة. فإذا اضطروا إلى حديث أخذوه بكامل التحري. واصبحوا اليوم (ولديهم مئات الألوف من الأحاديث) يجعلونها في مرتبة القرآن ويختلفون: هل ينسخ الحديث القرآن أو يقيد مطلقه ويفصل إجماله؟! وصاروا يؤولون كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ليوافق كلاماً رووه، ولو حققوا لما رووه. وذهبوا إلى أبعد من هذا فأولوا القرآن ليوافق مذاهبهم ونحلهم، وأقربهم اعتدالاً أول آية التيمم لتوافق المذاهب المعروفة وعدها من المشكلات، ولم يجز لنفسه أن يؤول تلك المذاهب لتوافق القرآن. ولعل أصحاب المذاهب لو انتبهوا لمخالفة القرآن لرجعوا إليه.

وكان الدين سمحاً سهلاً قليل التكاليف، يستوي في فهمه البدو والحضر، والأذكياء والبلداء، والمتعلمون والعوام، لكونه دينا عاماً لا يختص بطبقة دون طبقة، ولا يقبل دون قبيل.

فمن المعقول ألا يختلف في إدراك عقيدته، ومعرفة تكاليفه أقل الناس إدراكاً عن أعلاهم ذكا، ولكن الاختلاف إنما يكون في طرق الاستدلال. فالفيلسوف يستدل على وجود الله بفلسفته، والطبيب بما يرى من دقائق تركيب الجسم، والحراث مثلاً يستدل عليه بما يقع تحت حسه من نبات وحيوان وكيفية نشأته ونظام حياته - أقول كان الدين سهلاً ولكن كتب العقائد هي التي جعلته صعباً عسير الفهم، لأنها من الكبر والاتساع بحيث تحتاج إلى سنين لدراستها، ومن الدقة والعمق بحيث يعيي فهمها الأذكياء والعباقرة. وكذلك الفقهاء الذين فرعوا الفروع، وفرعوا من الفروع فروعاً (وولدوا البنات من الأمهات، كما يقول ضاربو الرمل) حتى فضوا المستحيلات، فهؤلاء قد طمسوا على سماحة الدين، وجعلوه كثير التكاليف، كثير الحشو. وأذكر مما يحضرني الآن مسألتين: قالوا: بعد أن يتوضأ المتوضئ أينشف أعضاءه أم لا؟ وجعلوها مسألة خلافية. ومن العبث والغفلة أن يقال إن هذه المسألة تدخل في حساب الدين، فالمقصد الطهارة وقد حصلت بالوضوء، ولا ينظر الدين إلى ما وراء هذا. والمسألة الثانية أنهم أدخلوا في الدين ما ليس منه كمسألة الأزياء

والملابس، فألف بعضهم كتاباً في سنية العمامة. وما لبس النبي العمامة إلا لأن بيئته كانت هكذا تقتضي، ولو نشأ في بيئة أخرى تلبس غير العمامة كما يلبسون، لأنه عليه السلام ما جاء لتغيير الأزياء، ولكن لتغيير العقائد.

بهذا الحشو وأمثاله امتلأت كتب الفقهاء، وبهذا وأمثاله يضيع الذين يتعلمون العلوم الدينية زهرة شبابهم، وصفوة عمرهم وقوة تفكيرهم، حتى إذا انتهوا منه كانوا بعيدين عن الدين مراحل عديدة، مقدارها ألف وأربعمائة سنة.

لقد جرى إصلاح في منهج دراسة الدين في بعض المعاهد الدينية، وينبغي أن يجري الإصلاح أيضاً في مادة الدراسة الدينية، وذلك يكون بأمرين: الأول: دراسة اللغة العربية بطريقة سهلة غير طريقة الكتب التي تدرس الآن. والثاني: دراسة القران نفسه، وأخذ الأحكام والأخلاق والمعارف الدينية منه بقطع النظر عن المذاهب، وطريقة ذلك كما يلي:

1 - في دور التعليم الابتدائي

من اللغة يعطي التلاميذ جملاً وقطعاً من منثور الكلام البليغ بقدر ما تتسع طاقتهم لحفظه، ومن الغلط أن يختار لهم من أقوال العصور المتأخرة، فإن القصد أن يقروا من لغة القرآن، وتتجنب ألفاظ الغريبة. وكل ما شاكل ألفاظ القرآن فهو مأنوس وليس بغريب. وكلما ارتقى التلاميذ يزداد لهم في المقدار الذي يحفظونه. وعند شرحه بكلمة أو كلمتين؛ ويستطيع المعلم الحاذق أن يبين للتلاميذ موقعاً لكلمة من رفع أو نصب الخ باختلاف الجمل، وبالتكرار تنطبع في ذاكرتهم، فيتعودون النطق الصحيح بسهولة، وبممارستهم الكلام البليغ يتربى فيهم الذوق العربي. وبعد الثالث الابتدائي تشرح لهم الجمل شرحاً نحوياً بسيطاً ويزداد كلما ارتقوا. ومن الرابع فصاعداً تكون اللغة الفصحى لغة الدراسة في جميع المواد ولغة التخاطب، ويستعملون ما حفظوا من الكلام البليغ. وليس هذا غريباً بين العرب، حتى ولا بين غيرهم، فإن الإنكليزية لغة الدراسة والتعليم في جميع مدارس الهند، وليست أسهل من اللغة العربية. هذا من اللغة.

ومن القرآن يحفظ التلاميذ أكبر قسط يمكنهم على الترتيب: من سورة الناس فصاعداً.

وتختار لهم الآيات التي فيها أحكام التكاليف وتشرح لهم بإيجاز. وتختار لهم آيات أخلاقية وتشرح بإيجاز.

2 - في دور التعليم الثانوي

من اللغة يعطى التلاميذ الشيء الكثير من منثور القول ومنظومه على أن يكون من أقوال العصر الأول والثاني، ويشرح لهم شرحاً يشمل النحو والمعاني بتحليل تتحمله عقولهم، ويزداد كلما ارتقوا. ومن القرآن يحفظون قدراً كافياً مرتباً أو مختاراً ويدرسون آيات الأحكام بتوسع، ويقدم الإلزام فالإلزام، وتؤخر مثل أحكام الطلاق واللعان إلى السن المناسبة، ويعودون الاستنباط بأنفسهم، ويدرسون قسطاً وافراً من آيات الآداب والأخلاق والعبر، والآيات الكونية والاجتماعية، ويحفظون شيئاً من الأحاديث المختارة في الأدب والاجتماع، وتكون لغة الدراسة والتخاطب اللغة كما سبق.

3 - في دور التعليم العالي

(العالية) في هذا الدور تدرس آداب اللغة العربية بتوسيع، وأعنى الآداب نفسها، لا تاريخها، فإن دراسة تاريخ الآداب شيء قليل الفائدة، وتشمل دراسة الآداب دراسة الحديث الشريف على أنه نمط من أنماط الكلام البليغ. ويدرس القرآن كله بلا استثناء دراسة وافية تؤخذ منها العلوم والمعارف الإسلامية، والبدائع اللغوية؛ ويراعى في هذا الدور أن يكون التدريس مجرد إرشاد لطريق الاستنباط وتطبيق القواعد. ويطالب الطلبة بالاستنباط بأنفسهم، وبمعرفة الخطأ والصواب بعرضه على مقاييس العلم والأدب. ويدرس الحديث على أنه مادة من مواد الدين تؤخذ منها الأحكام والحكم والمواعظ، ولكن ينبغي أن تكون شروط صحة الحديث غير الشروط الحاضرة فيحذف أولا كل ما نشأ أو يظن أنه نشأ عن أسباب سياسية، أو لتأييد فرقة، أو بقصد الهدم كالأسرائيليات، ثم يجعل للمعنى حظ من الاعتبار كما للرواية، أي ليس كل ما استكمل شروط الرواية كان صحيحاً حتى يستكمل شروط صحة المعنى أيضاً. وفي هذا الدور

يدرس النحو في بعض الكتب المعتبرة المؤلفة قديماً تثبيتاً لما تلقنوه من القواعد أثناء الشرح، وزيادة في البحث، وفي نهاية هذا الدور أو
في دور التخصص تدرس بعض كتب الفقه والأصول والتوحيد للاطلاع والبحث. لا لتأثر خطواتها وتقليدها.
بهذا تسهل دراسة الدين وتؤتى أكلها بأذن ربها، ويلاحظ هنا أن الكلام في دراسة الدين وأنه ليس المقصود أن تقتصر الدراسة في المدارس على مادتي اللغة والقرآن فان مواد العلوم الأخرى لها مكانها من برامج الدراسة.
ليس المجال متسعاً للتفصيل والشرح فهذه اقتراحات يمكن نقدها وتحسينها والزيادة عليها، ولكن لا يمكن قط أن يقال: إن دراسة كتب الفقه أجدى في الدين من دراسة القرآن وأحب أن ألفت النظر إلي أنه ليس بيننا وبين النابغين الأولين في علوم القرآن إلا إتقان اللغة العربية، وأنها ليست صعبة كما يتصورون، وأن ثلاث سنين تكفي لإتقان علومها إذا هذبت طرق تعليمها كما قال الأستاذ الإمام محمد عبده
ولا أحدثكم بعد عن الفوائد التي نجنيها من إتقان اللغة العربية ودراسة القرآن، فإن الهداية والتقوى تكون ملازمة للعلم بأحكام الدين لملازمة ذكرهما في آية واحدة أو آيتين متجاورتين، ولما يغمرنا من الشعور ببلاغة القرآن وسلطانه على النفوس، ثمرة ذوقنا اللغوي الذي نكتسبه من ممارسة اللغة. أما الفوارق المذهبية والشيع المختلفة فإنه يقضي عليها بأذن الله، ويصبح المسلمون - كما كانوا - أمة واحدة يتعاونون على البر والتقوى. والله الموفق
(فلسطين)
داود حمدان
البحث عن غد
للكاتب الإنكليزي روم لاندو
للأستاذ علي حيدر الركابي
- 5 -
الفجر في سوريا
المجاهد
إن للسياسة أثراً بليغاً في تفكير السوريين لا يجاريها فيه شيء، فإن سورية كلها تشكو من مرض واحد هو شدة الحيوية السياسية. وهي الحيوية التي مازالت في الشرق الأدنى مطلقة لا تقيدها عوامل ضبط النفس أو الشعور بالمسئولية المدنية إنه لمن الصعب جداً معرفة الفروق الرئيسية التي تفصل الحزب الحاكم عن المعارضين الذين لا يسمح لهم بأن يمثلوا في مجلس النواب. ومع ذلك فإن الطموح الشخصي وميل البعض إلى الشعوذة حملا كلا الفريقين على الاعتقاد بأن الفوارق بينهما عظيمة كما أن كل جهة راحت تتهم الأخرى بسوء الائتمان وتزعم أنها هي الممثلة الوحيدة للوطنية الحقة - وبهذا تقيم الأحزاب البرهان على أنها تحافظ على التقاليد الشرقية تمام المحافظة.
ومن أعظم ما أدهشني في سورية الرغبة الشديدة عند رجال السياسة في الإعلان عن آرائهم. ومع أن البعض نبهني إلى أني لن أحظى من السوريين إلا بتصريحات عامة وغامضة فقد وجدت السياسيين يندفعون في الحديث بعد مضي خمس دقائق أو عشرة على بدء اجتماعي بهم ويصرحون بما يزيد على مطلوبي، فكان علمهم بأني رجل محايد لا أهتم بالسياسة كثيراً يدفعهم إلى الاعتراف أو الشرح أو الاتهام. وعلى كل حال فقد كان لهذه الاعترافات عندي أهمية كبرى من الناحية النفسية إذ أنها أطلعتني على بعض الأمور التي سيكون لها أثر فعال في حياة العرب السياسية في المستقبل وإن كانت هذه الأمور نفسها غير واضحة تماماً الآن.
وقد وصلت الصراحة ببعض السياسيين إلى حد أنهم بينوا لي الوسائل التي يودون تسخيرها للنيل من سمعة الحزب المستولي على الحكم. وبالرغم من أن تهديداتهم كانت
فارغة وأنها ربما لن تتجاوز حد الكلام إلا أنها كانت دليلاً قاطعاً على فقدان روح المسئولية في الأسلوب السياسي المتبع. فالمعارضون يعتبرون القابضين على زمام الحكم في عداد الخونة، وهؤلاء يعتقدون أن الواجب يدعوهم إلى اتخاذ أي تدبير كان

ماداموا يعتقدون فيه الصلاح. وعلى هذا فإن كلا الفريقين يسير على غير بصيرة في طريق ينهى عنه العقل السليم ويجعل ادعاء كل منهما الإخلاص في العمل على نفع الأمة وزعمه أنه مستعد للموت في سبيلها كلاماً بلا معنى.

لقد ظهر لي أثر العاطفة المتطرفة في السياسة بجلاء لما زرت أحد أعداء الحكومة وكان من قواد الثورة على الفرنسيين عام 1925. ولم يؤكد لي أشخاص مختلفون بأنه كان يقود الحملة تلو الأخرى ضد الفرنسيين لما صدقت قط أن هذا الرجل كان في يوم من الأيام مصدراً عظيماً لقلق القيادة العسكرية الفرنسية فقد استقبلني عندما زرته في ساعة متأخرة من الليل بجلباب من الحرير الأبيض الفاخر الموشي بخيوط حمراء وذهبية وكان يقطن (شقة) حديثة فخمة. وهو خريج جامعة ألمانية مشهورة ولكنه يتكلم الإنكليزية بسهولة وعذوبة تتناسب مع سكناه في منزل جميل وارتدائه الحرير الأبيض لاستقبال الضيوف الأجانب.

ذكرت لمضيفي بعض رجال الحكومة فانفجر واتهمهم بالخيانة وسوء الائتمان، وعندما سألته عن الوسيلة الناجمة لإزالة الفساد المالي من حياة سورية السياسية أجاب على الفور وبلا تردد:

- (يجب أن نقتل هذه الفئة المسيئة أولا)

فأخذتني الدهشة وسألته:

- (ومن تقصد بذلك؟)

- (الذين بيدهم الحكم فهم لا يعلمون إلا لتحقيق مصالحهم الخاصة)

- (ولكن، لي من المعقول أن ترغب في قتلهم لمجرد اعتقادك انهم غير نزيهين)

- (القتل هو الطريقة الوحيدة لتعليمهم النزاهة في الحكم. يجب أن نقتلهم، وسنقتلهم عندما يحل الميعاد)

- (وهل تعتقد حقاً أن القتل مازال في هذا العصر الحديث أحسن وسيلة للتهذيب السياسي)؟

- (نعم، ففي الشرق الأدنى لو يزل القتل أحسن واسطة. إنه ليس من المؤكد أن ننفذ القتل في هذه السنة أو التي تليها ولكنك عند ما تعود إلى سورية بعد بضعة أعوام ستشهد بعض التبدلات الخطيرة، وربما وجدت بعض الأشخاص الذين تعرفت إليهم هذه المرة قد انتقلوا إلى غير هذا العالم)

لقد تفوه بهذه العبارات القاسية بكل هدوء، مثله في ذلك مثل البط البري الذي لا تؤثر المياه في أجنحته عندما يغطس في البحيرة. وقد اتضح لي أنه لا يعترف بأية صلة بين الدعوة التي أخذ يبشر بها وبين ما يترتب على تطبيق وسائلها من عواقب مخيفة، فهما في نظره أمران لا ارتباط بينهما.

مما لاشك فيه أن لشخصية هذا الرجل جاذبية قوية يعترف بها أعداؤه أنفسهم. وكانت حقيقته تخفى عن الناس بفضل الجاذبية ولفضل طريقته في الكلام عن أهم معتقداته بلهجة عادية كأنه يشرح أمراً بسيطاً. لقد وخط المشيب رأسه، ومع ذلك فقد كانت حركاته كحركة الفتيان تدل على قوة العضل ومرونته.

أني صدقت القصص التي رواها لي عن عمله مع لورنس إذ كانا يشتركان في نسف القُطرُ العثمانية والتمتع بنشوة الحرب والقتل يتحلى هذا الرجل بكل الصفات الخيالية التي تجعل في الثائر العربي فتنة للزائر الأجنبي، وخصوصاً إذا كان هذا الزائر جاهلاً بما هو مخبوء وراء ذلك السحر الخارجي. إني لأذكر في هذه المناسبة العبارات التي قالها رجل بريطاني عقب زيارته لمفتى فلسطين: (يالها من عيون بريئة! ياله من وجه صبوح جميل!) لم تكن عيون مضيفي في دمشق بريئة ولكنه كان يتغنى بالآداب الاجتماعية التي لقنته إياها المدينة الغربية، ومع ذلك فان تمدينه الظاهر الذي يتنافى مع ما يخيفه من غرائز أولية ربما كان عائقاً يؤخر إصلاح الشرق أكثر من الوطنية المتطرفة المصحوبة بالنية الحسنة التي يتصف بها فخري البارودي. ومع أن هذا المضيف قد استنشق الهواء في جامعات أوربية مختلفة وكان ينتقل بين أثاثه الضخم بكل ثقة واطمئنان فهو لم يتعلم بعد أن القتل لم يعد الوسيلة الوحيدة لتعليم السياسيين الأخلاق. إن أمثال هذا الرجال ليعرقلون المساعي المخلصة التي يبذلها المستنيرون من العرب

لقد أدركت عند ختام زيارتي دمشق السبب الذي جعل سورية تخرج هذا العدد الكبير قادة السياسة في البلاد العربية، كما أدركت الداعي لاعتبارها ركناً من أركان الحركة العربية الحديثة: إن في العقل السوري لفطنة، وإن في أكثر رجال السياسة في سورية لمضاء في العزيمة لم ألحظه في مصر؛ وخيل إلي في فلسطين أنه موقت يزول بزوال الظروف الحاضرة. إن جميع الصفات التي تميز الخلق العربي بارزة في شخصية السوريين بكل وضوح وجلاء، مما لاشك فيه أنهم سيلعبون دوراً رئيسياً في حياة الشرق الأدنى المستقبلة.

إن طبيعة السوريين والظروف التي أحاطت بهم جعلت منهم شعباً ثائراً، ولهذا كان منتظراً أن يعجز الفرنسيون عن إدارة سورية في جو هادئ. غير انه لا يمكن اعتبار فرنسا وحدها مسؤولة عن تمرد السوريين وما أنتجه من حركات منذ عام 1920، كما أنه ليس من المؤكد أن تنتهي المنازعات الداخلية بعد نيل سورية استقلالها التام عام 1939 إذ أن السوريين في أشد الحاجة إلى كثير من التهذيب السياسي والاعتياد على ضبط النفس ليصونوا البلاد من التفكك الداخلي. إن أمثال الدكتور الكيالي يجب أن يجدوا ويجتهدوا لكي يجعلوا الصداقة الأبدية مع فرنسا التي يدعو إليها المسيو إده في لبنان بأعلى صوته ضرورية لسورية.

علي حيدر الركابي

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

1880 - 1937

للأستاذ محمد سعيد العريان

- 41 -

رسائل القراء إليه:

المحامي الشاعر الأستاذ إبراهيم. . . شاب له خلق ودين، وفيه اعتزاز بالعربية والإسلام؛ فهو من ذلك يحب الرافعي وينتصر له، ويتبع بشوق وشغف كل ما ينشر من كتب ومقالات. ولكنه مع ذلك يحب العقاد وينتصر له، ويراه صاحب مذهب في الشعر ورأي في الأدب، جديراً بأن يتأثر خطاء ويسير على نهجه. وليس عجيبا - فيما أظن - أن يجتمع الرأي لأديب من الأدباء على محبة الرافعي والعقاد في وقت معاً، كما أنه ليس عجيباً أن يتعادى الرافعي والعقاد أو يتصافيا ما دام لكل منهما في الأدب طريق ومذهب؛ ولن يمنع ما بينهما من العداوة أو من الصفاء، أن يكون لكل منهما قراؤه المعجبون به، أو يكون لهما قراء مشتركون يعجبون بما ينشئ كل منهما في فنون الأدب؛ وإنما العجيب أن يبلغ إعجاب القارئ بالكاتب الذي يؤثره إلى درجة التعصب؛ فلا يعتبر سواه، ولا يعترف لغيره أن يكون له مكان بين أهل الأدب. . . على أن شأن صاحبنا المحامي الشاعر الأستاذ إبراهيم مع الرافعي والعقاد يبعث على أشد العجب وأبلغ الدهشة. . . إنه يحب الرافعي ويؤثره، ويعجب به إعجابا يبلغ درجة التعصب؛ وإنه يحب العقاد كذلك ويعجب به ويتعصب له. . . لكل منهما مكانه من نفسه، مكان لا يتسع إلا له، ولا يزاحمه فيه خصمه؛ ولكنه يحبهما معاً، ويعجب بهما معاً، ويتعصب لهما معاً!

رأيان يتواثبان، وشخصيتان تتناحران، وإسراف في التعصب لكل منهما على صاحبه؛ فأين يجد نفسه بن صاحبَيْه اللذين يؤثر كلاًّ منهما بالحب والإعجاب والأستاذية؟ صورة طريفة وقعتُ عليها فيما وقعت بين رسائل الرافع!

هذه رسالة من الأستاذ إبراهيم إلى الرافعي يقول فيها: (سيدي، إنني أحبك، وأعجب بك،

وأتعصب لك؛ ولكن موقفك من العقاد يا سيدي. . . ليت شعري لماذا تتخاصمان؟. . . لقد كنت على حق. . . ولكن العقاد على حق. . . هل تأذن لي أن أكون رسول السلام بينكما؟)

ثم لا تمضي أيام حتى يعود فيكتب إلى الرافعي رسالته الثانية: (معذرة. . . أنك لتتجنى على العقائد تجنيا ظالماً، فما لك وجه من الحق في عدائه والحملة عليه. لقد عقمت العربية فلم تنجب غير العقاد. . . وإنك أنت. . . إنك كبير في نفسي، كبير جداً، وإني لأقلب تاريخ العربية بين يدي فلا أجد غير الرافعي. . . أنت. . . والعقاد. . . أين ترى

يكون اللقاء؟)
وعلى هذا المثال قرأت لصاحبنا المحامي الشاعر بضع رسائل بينما خلف الرافعي من أوراق، تملأ النفس عجباً ودهشة. وآخر مما وصل إلى الرافعي من رسائله، رسالتان، كتب إحداهما في المساء، وكتب الثانية في صباح اليوم التالي؛ ولولا خط الكاتب، ونوع الورق، وخاتم البريد، لما حسبتهما إلا رسالتين من شخصين لو أنهما التقيا في الطريق لتضاربا بالأكف. . .!
على أن الرافعي مع ذلك كان يرد على رسائله! ووددت لو ينشر صاحبنا بعض رسائل الرافعي إليه!
والآنسة الأديبة ف. ز. معلمة في إحدى مدارس الحكومة كان أبوها زميلاً للرافعي في محكمة طنطا، وكان بينهما صلة من الود، فلما مات لم تنس أبنته صديق أبيها، فكانت تستعينه في بعض شؤونها، ومن ثمة نشأت بينهما مودة، فكانت تراسله ويراسلها، ومن رسائلها إليه كان له علم جديد في شئون وشئون.
صحبته إلى زيارتها مرة في ليلة من ليالي الشتاء، مع الصديقين كامل حبيب وسعيد الرافعي؛ فلقيناها مع بعض صديقاتها، وكانت جلسة طالت ساعات، اعتقد أن الرافعي قد أفاد منها بعض معانيه في قصة (القلب المسكين!). . وقد أنشأت هذه الرسائل بين بعض قرائه وبينه صلات عجيبة من الود؛ فهو منهم أب وصديق ومعلم ومشير؛ وجلس على (كرسي الاعتراف) فترة غير قصيرة من حياته، تفتحت فيها عيناه على كثير من حقائق الحياة لا يبلغ أن يصل إليها من رحل وطوف. وكان له في كل دار أذن وعلى كل باب
رقيب عتيد! ولست بمستطيع أن أفسر سّر هذه الثقة العجيبة التي ظفر بها الرافعي من قرائه؛ ولكني أستطيع أن أجزم بأنه كان أهلاً لهذه الثقة؛ فما أعرف أنه باح بسرَّ أحد فسماه أو عرَّف به، وما أطلع على رسائل قرائه أحداً غيري إلا قليلاً من الرسائل كان لا يرى بأساً من إطلاع نفر قليل من أصحابه عليها لغرض مما يستجرَّه إليه بعض الحديث في موضوعها؛ بل إن كثيراً من هذه الرسائل قد أخفاه عني - وما كان بيني وبينه حجاب أو سر - فما عرفت خبرها إلا بعد موته. ويستطيع أصحاب هذه الرسائل أن يطمئنوا إليَّ؛ فستظل أسرارهم - في يدي - مصونة عن عيون الفضولين، فلم أتناول الحديث عنها إلا من حيث يدعوني الواجب لجلاء بعض الحقائق في هذا التاريخ.
وكان له مراسلون دائمون. . يجدون الكتابة إليه جزءاً من نظام حياتهم، فلا تنقطع رسائلهم عنه، ولا يخفي عليه شيء من تطورات حياتهم وقد أكسبهم طول العهد بالكتابة إليه شيء من الأنس والاطمئنان إليه كما يطمئنون إلى صديق عرفوه وجربوه وعايشوه طائفةً من حياتهم؛ وأن القارئ ليلمح في هذا النوع من الرسائل الدورية التي يبعث بها إليه هؤلاء الأصدقاء الغرباء، مقدار ما اثر الرافعي في حياتهم منذ بدأت صلتهم به، فتطورت بهم الحياة تطورات عجيبة؛ وأدى الرافعي إليهم دَينه وأثر فيهم بمقدار ما كان لهم من الأثر في أدبه وفي حياته الاجتماعية. وإني لأضرب مثلا لواحدة من هؤلاء الأصدقاء: فتاة من أسرة كريمة في دمشق، نشأت في بيت عز وغنى وجاه، وهي كبري ثلاث نشأن نشأة يفاخرن بها الأتراب؛ ثم تقلبت بهن الحياة فإذا هن بعد الغني والجاه ناسٌ من ناس. . واضطرت الكبرى أن تخرج إلى الميدان عاملة ناصبة لتعول أسرتها، وكان لها من ثقافتها وتربيتها معين ساعدها دون أختيها في ميدان الجهاد؛ وعلى أنها كانت أجمل الثلاث وأولاهن بالاستقرار في بيت الزوج الكريم فقد سبقتها أختاها إلى الرفاء والبنين والبنات وضلت هي. . وما كان ذلك لعيب فيها ولكنة سرَّ لم يلبث أن أنكشف لعينيها: لقد كانت هي وحدها ومن دون أختيها التي تستطيع أن تعول أسرتها لأنها عاملة. . .
وتألمت حين عرفت السَّر ولكنها كتمت آلامها وظلت (صابرة) ومضت الأيام متتابعة والأماني تخلف موعدها؛ وتحركت فيها غريزة الأمومة ولكنها قمعتها بإرادة وعنف ومضت تصارع الطبيعة وتتحدى القدر بعزيمة لا تلين؛ ولكنها لم تلبث أن أحسَّت بوادر الهزيمة
بعد طول الكفاح فشرعت قلمها العذب وكتبت رسالتها الأولى إلى الرافعي بإمضاء (الصابرة) وقرأ الرافعي رسالتها ثم قص على خبرها وتندت عيناه بالدموع: يالها من فتاة باسلة!

وأجابها الرافعي على رسالتها بتذييل صغير في حاشية إحدى مقالاته في الرسالة. .
وعادت تكتب إليه وعاد يجيبها وتوالت رسائلها ورسائله وقد كتم اسمها وعنوانها عن كل أحد - وكانت كتبته إليه في ورقة منفصلة في إحدى رسائلها ليمزقه وحده إن عناه أن يحتفظ برسائلها - وكان لها الرافعي كما أرادت: أباً وصديقاً ومرشداً ومشيراً؛ ولم يأبَ عليها في بعض رسائله أن يتبسط في الحديث إليها عن قصة (القلب المسكين)
لعلها تجد فيما يكتب إليها من شئونه عزاء وتسلية. . وتعزت المسكينة عن شيء بشيء، وثاب إليها الاطمئنان والشعور بالرضا. وبدا في رسائلها لون جديد لم يكن في رسالتها الأولى. وأخذت تكتب إليه عن كل شيء تحس به أو تراه حولها، وتستشيره فيما جلَّ وما هان من شئونها، في سفرها، وفي إقامتها، وفي رياضتها، وفي عملها، وفي يقظتها، وفي أحلامها. . في كل شيء كانت تكتب إليه، سائلة ومجيبة، ومخبرة ومستشيرة، حتى في صلاتها مع صديقاتها وأصدقائها، وفي الخطاب الذين يطرقون بابها يطلبون يدها. . ولم يكن يضن عليها بشيء من الرأي أو المشورة. .
وكان للصابرة جزاء ما صبرت، وتحققت أمانيها على أكمل ما تتحقق أماني إنسان، وجاءها العروس الذي لم تكن أحلامها تتطاول إليه في منامها، وبرق في إصبعها خاتم الخطبة فانبهرت منه عيون! لا أريد أن أذكر من صفات خطيبها حتى لا أعرف بها وبه، وليس من حقي أن أكشف ما تريد هي أن يظل مستوراً. . . لو قلت أن خطيبها كان وزيراً لما بعدت! واستمرت تكتب للرافعي والرافعي يجيبها. . . حتى رسائل خطيبها إليها كانت تبعث بها إلى الرافعي ليشير عليها كيف تجيب، وحتى برنامجها قبل الزفاف وبعده كان بمشورة الرافعي ورأيه. . .
وجاءته آخر رسالة منها مؤرخة في 341937 (نعى الرافعي في 1051937) تقول فيها:
(الصديق الكريم. . .
ما أحلى دعوتك يا صديقي وما كان أشدها تأثيراً على نفسي! لقد شعرت وأنا أقروها بسرور عميق، وتركز في ذهني أن هذه الدعوة مقبولة. . . ما أسعدني إذا صرت في المستقبل أما (أعتقد أنك تعرف تماماً أن حنيني للزواج في فيما مضى وتمردي وثورتي على هذه الحياة، لم تكن إلا لأني رأيته وسيلة للحصول على الطفل؛ فقد تنبهت في غريزة الأمومة بشكل هائل؛ تصور يا أستاذي، صرت أكره الأطفال لأني ليس لي بينهم ولد؛ وكنت إذ أرى أمًّا تعانق طفلها وتضمه إلى صدرها أحس بألم مرير ويحز بقلبي وكاد يقطعه. وكثيراً ما كنت أتشاغل وأشيح بوجهي حتى لا تقع عيني على هذا المنظر. لست حسودة والله، ولكن شدة إحساسي كانت تجعلني بهذا الوضع. . .
أما الآن فأنا مسرورة لأقصى حدود السرور، وأتمنى لو أنثر الخير والسعادة على الجميع. . . . . .
والله يعلم أن ليس لي أي غاية مادية من وراء هذا الزواج، وليس قصدي منه إلا . . .) الحماية والستر، لأني مللت ومرض قلبي من فضول الناس. . .)
وكانت على نية زيارة مصر لتزور الرافعي مع زوجها، اعترافاً بحقه عليها، ولكن القدر لم يمهله حتى يحين الموعد، وحان أجله قبل أن ينظر بعينيه الفتاة التي تبناها على بعد الدار وشغلته أحزانها بضع سنين، فلما ابتسم لها القدر وتحققت أحلامها ناداه أجله وما شاركها ابتسامة الفرح وتهاني المسرة. . .!
تقول له في رسالتها المؤرخة 1511937: (الصديق الكريم. . .
ولماذا أخشى هذه المقابلة يا أستاذ؟ وهل أنت مخيف لهذه الدرجة. . . على كل . . .) حال إذا وجدت ما يرعبني فسأختبئ وراء (زوجي) ولا بد أنه يحسن الدفاع عني. لا، لا، سألبس درعاً متينة تقيني (شرّ) هذه المغناطيسية القوية، ولكني أخاف يا أستاذي أن يكون الحديد أكثر انجذاباً، وأكون حينئذ أسأت من حيث أردت الإحسان. . . صحيح أنني معجبة، ولا أزال، وسأبقى دائماً، ولكن ألا ترى أن الإعجاب و. . . قد يتفقان أحياناً وقد يختلفان؟ ثم أليس. . . معان كثيرة وأساليب عديدة. . .؟
تريد رأيي في صاحب القلب المسكين؟ أنت تعرفه جيداً فلماذا تريد إحراجي. . .؟) الجمال ليس مدار بحثنا، وليس له أهمية قل أو كثر، ومع ذلك فصاحب القلب المسكين يتمتع بقسط وافر منه. اسمع، سأبدي رأيي. لا لا، ما بدَّي أقول، أستحي. . .!)

وكانت تعرف من أمره مع (فلانة) ما قص عليها في رسائله وفي رسائلها حديث كثير عنها، وقد زارتها مرة عن أمره لتنبئه بخبرها. . .
وأعتقد أن في رسائله إليها ما يكشف بعض الغموض في قصة الرافعي و (فلانة) ويكون فيه برهان إلى براهين لدينا؛ فحبذا أن تتفضل السيدة الكريمة بالنزول عن حقها في هذه الرسائل فتهديها إلينا لتتم لنا بهذه الحلقة المفقودة سلسة التاريخ!
إنها أديبة وعالمة، وإنها بذلك لتعرف حق التاريخ وحق الأدب عليها في هذه الرسائل، ولها علينا ما تشترط فنوفيه، فلعل صوتي أن يبلغ إليها في مأمنها. ضمن الله لها سعادتها وحقق لها ما بقى!
هذه قصة فتاة يجد فيها القارئ بين أولها وآخرها أشتاتاً من تاريخ الرافعي؛ وفيها مثال يبين معنى ما سميته (النقلة الاجتماعية) في حياة الرافعي بما كان بينه وبين قرائه من صلة الرسائل. على أن هذه القصة بخصوصها كان لها من عناية الرافعي حظ أيّ حظ.
وقد كان على أن يكتب - بما اجتمع له من فصول هذه القصة - مقالة بعنوان (الصابرة) جمع لها فيما مع من نثار الأفكار قدراً غير قليل، وما أخره عن كتابتها إلى أن وافاه الأجل إلا انتظار الخاتمة فيما أظن، وإلا شدة احتفاله بهذا الموضوع. وهكذا نجد أن شدة احتفال الرافعي بموضوع مّا يكون سبباً في تعويقه عن كتابته أو عن تمامه: كان يحتفل بكتابة (أسرار الإعجاز) فلم يتمه، وبمقالتي (الزبال الفيلسوف) و (الصابرة) فلم يكتبهما؛ ولكن التاريخ لم ينس له.
شبرا
محمد سعد العريان
ظن بعض أصدقاء الآنسة الأديبة أمينة. ش أننا نعنيها بقولنا في الجزء السابق من هذه المقالات: (إن فتاة أدبية من أسيوط كتبت إلى الرافعي تشكو إليه أن أباها يعضلها ويذود
الخطاب عن بابه حرصاً على بعض التقاليد) فتعذر للآنسة الأديبة من سوء ظن أصدقائها بما كتبنا، ونؤكد لهؤلاء الأصدقاء أنها غير المعنية منا بهذا القول.
إلى شباب القصصيين
كيف احترفت القصة
قصة السير (هيو والبول)
للأستاذ أحمد فتحي
- 1 -
ننقل إلى القراء في هذا المقال وما يعقبه سلسلة فصول تنشرها إحدى الصحف الأدبية الكبرى في لندن، على أسابيع، متضمنة جواب استفتاء وجهته إلى تسعة من كبار القصصيين الإنجليز، راجين أن ينتفع شباباً من عشاق القصة وكتابها بهذه الفصول المترجمة بكل أمانة وإتقان.
في أوائل السنة القادمة: أي بعد بضعة أسابيع، أرجو أن يتاح لي الاحتفال بانقضاء ثلاثين سنة على ظهور قصتي الأولى وإن يكن قد مضى على هذا الحادث الهامّ في تاريخ حياتي كل هذا الزمن الطويل الذي يجعل من العسير أن أستدعي كل ذكرياته على وجه التحقيق، فإنني أستطيع أن أذكر كل شيء بغاية الوضوح!
وحين يسألني الشبان، كما يفعلون كثيراً، عن طريقة لفت الجمهور إلى قصصهم الأولى، وعما صنعت أنا نفسي في مثل ذلك، يعود بي خيلي طائراً إلي الوراء، حتى ليخَيَّلُ إلى أنه الأمس القريب، حين عدت إلي بيتي في (شلسي) ووجدت ما سيجده القراء مفصلاً في هذا المقال. . .
من المحقق أن القصة الأولى التي أخرجتها لي المطبعة لم تكن أول أعمالي القصصية. فلقد بدأت أعالج كتابة القصة منذ طفولتي المبكرة. ولكنني لم أضع قصتي الناضجة الأولى إلا حين كنتُ في (ليفربول)، وبعد أن فرغتُ من دراستي في (كيمبردج)
ولقد كان سفري إلى (ليفربول) بسبب أن أبي كان يحب لي أن أكون قسيساً! وأن أتنكر (لادّعائي) الكتابة! ولهذا التحقتُ بإحدى البعثات الدينية لرجال البحرية، وامتطيتُ ظهر السفن لأداء واجبي كرجل من رجال الدين. واتصلت بكثير من النوتّية المرحين

أمامي الآحاد السعيدة. غير أنني لم أصادف نجاحاً يذكر! وبسبب ما كنت أحسُّ من اندماجي مع
مشاعر فتيان البحار، وبسبب أنني لم أكن سعيداً أبداً لإيماني بأني سأكون (قسّيساً) فاشلاً، مما بعث في نفسي مضاضة وحزناً! ولقد عاونتني الأمسية التي كنت أقضيها في بيتي على كتابة سبعة فصول من قصتي الأولي، وكان اسمها (الدير)، وقد ثبت عندي أنها كانت بشيراً بأخرى كتبتها بعد ذلك بأمد أسمها (الكاتدرائية)، وبعد هذه الفصول السبعة ازدحمت في ذهني شخصيات كثيرة من أبطال قصة (الدير) وأخذت تختلط وتختلط حتى فقدت قيمتها ومميزاتها. ولقد عّلمني ذلك شيئاً. والحق أن الفصل الأول من هذه القصة قد احتفظ به ذهني حتى جعلت منه (الفصل الأول) في قصة أخرى كتبتها بعد ذلك باسم (الفضولي)!

ولما أدرك أبي أنني لا يمكن أن أكون قسيساً، ظن أنني قد أصلح لأكون مدرساً! ومِنْ ثمَ وجهني إلى ألمانيا وفرنسا لأتعلم لغة كِلّ من البلدين العظيمين. ولكنني لم أتعلم لغة هذه ولا تلك، وإنما كتبت قصة طويلة كاملة أسمها (تروىْ هانتون)! ليس في وسع ألفاظ أن تعبر عن كيفية انكبابي على الكتابة. . . وبعد أن فرغت منه هذه القصة كنت شديد الإيمان بأنها من روائع الفن القصصي! وهذا ما لا أعتقد الآن في شيء من كتبي! فأرسلت بها إلى دار (آرثر بنسون) للنشر، فقد كان أحد أصحابها معي في (كيمبردج) ولقد تلقيت منه في (كيمبرلند) كتباً عدة عن هذه القصة، يقول في أحدها: (إني لأخشى أن تكون قصتك رديئة! ولكن هنالك شيء واحداً أعتقده تماماً: ذلك إن ليست لك أية مقدرة على الابتكار. وقد تصبح ناقداً يوماً من الأيام؛ ولكن النقد الأدبي لن يكفل لك أكثر من حياة بئيسة!)

ولقد بلغ من ثقتي بالرجل أنني أحرقت قصتي هذه. على أنني انتفعت كثيراً من صورها فيما بعد - في قصة أخرى سميتها (الصبر) -. . .

والتحقق بعمل جديد، مدرساً في كلية مدينة (ابسم) ولقد توجهت إليها وحيداً، فقد كانت على مقربة من (لندن) وفيها كنت أرجو أن أبدا حياتي الأدبية والحق أني إلى تلك اللحظة لم أتلق كلمة تشجيع واحدة لأعمالي الأدبية من أي إنسان!. وفي (ابسم) كتبت قصتي الأولى التي أخرجتها المطبعة للناس بأسمى. وقد اخترت لها أسم (الحصان الخشبي) وكنت قد أظهرت على نصفها أستاذاً كانت تلوح عليه إمارات الذكاء؛ ولكنه ردَّ عليَّ أوراقها مع قوله: (لست يا (والبول) قصصياً على أي حال. . .!) وبالرغم من هذا فمهما بلغ من قلة ثقة الناس بي؛ فلقد كنت وطيد الثقة بنفسي! ولقد بدا لي عجيباً جدًّا أن يكونوا جميعاً بهذا العمى! ولقد أصبحت الآن، بعد هذه السنين الطويلة، أعجب لما كان لي من ثقة بالنفس لم يكن يشجع عليها شيء! واعترض طريق حياتي رجل بادن يقال له (مأّسي) أبَجَلّ الآن وأحيَّي روحه المرح لأنه كان أول من تفضل عليّ بالتقدير. ومع أن تقديره ذاك بدا لي في ذلك الحين طبيعياً، بل حقا من حقوقي، فإني الآن لأعجب لهذا التقدير من الرجل؛ في أي تربة نبَت؟!

كان (مأَّسي) ضخم الجسم شاحباً غائض دم الوجه. وكان يشرك (كرتسي براون) في وكالة أعمال أدبية. وقد أبدى لي رغبته في استخدامي لعمل خاص بتلك الوكالة الأدبية على أن يوظف لي جنيهات قليلة كلَّ أسبوع. وبهذا الروح المرح قذفت بعمل التدريس الذي كنت أمقته. وا كتريت حجرة أرضية صغيرة في (شلسي) أجرها الأسبوعي ريال واحد! وهكذا بدأت حياتي الأدبية. .

كانت فكرة (مأَّسي) أن أضع كتاباً يبحث قي طرق توجيه الناشئة. غير أنه لم يكن عنده، ولا عندي، رأى ما في الموضوع!. غير أن الرجل ظلَّ يدفع لي المال الذي وعد به عاماً كاملاً. وهو شديد يحقق تلك الثقة بي؛ وأخشى ألا أكون قد صنعت شيئاً يحقق الثقة العمياء!!

أكملت قصة (الحصان الخشبي) وكان على بعد ذلك أن أبحث عن ناشر. . وإني لأذكر كيف كتبت أسماء كافة الناشرين في (بريطانيا العظمى) على رقعة طويلة من الورق. وكنت أظن حينذاك أنني سأبعث بالكتاب إلى كل هؤلاء الناشرين تباعاً، بعد أن أنتزع عنه اسمي واضع مكانه اسماً مستعاراً هو (م. س) لأنني كنت قد قرأت الكثير عن العبقريات المبتدئة، وعلمت أن العبقري الناشئ لابد أن تردَّ عليه قصته التي تحمل

اسمه المستعار - بدلا من اسمه المجهول - مرات كثيرة، قبل أن يحين يوم حظه السعيد! وكان قد أول نشر وقع عليه اختياري هو (سميث إلدر). . لأنه كان قد نشر أعمالاً ناجحة كثيرة. وكان يخيل إلي أن كتابي يجيب أن تظل آمالي فيه معلقة بهذا الناشر بضعة أسابيع .!

ولقد كنت في تلك الأيام سعيداً إلى غير حد، إذ كان يسيراً جداً أن أعيش بمائة وخمسين جنيهاً في العام. كنت طليقاً، وكان لي أصدقاء في لندن؛ وإن لم يكونوا بكثرة أصدقاء واحد من رجال الأدب بعد. وإني لأذكر كيف كان يروقني أن أتروض بالسير في (طريق الملك

في شلسي) وكيف كنت أقول لنفسي حين أبصر السابلة: (سيأتي يوم يقف فيه هؤلاء للناس وسط طريقهم ويشيرون إلى وهم يقولون (هذا هو والبول يمشي هناك!) وكان إلى جانب النهر مطعم كنت استمرئ فيه وجبات طعامي، وكان الفنانون يجيئون فيحتلون منضدة متوسطة، وهم يضجون في مرح. ولقد كنت أشعر بأن جوهم يحتضنني أيضاً. وكثيراً ما كنت أغشى مرقص أو داراً للتمثيل، كلما كان ذلك في طاقة نقودي. ولم يكن لي من الرغبات ولا المخاوف شيء في الحياة!!

وعدت إلى غرفتي يوماً ووجدت خطاباً من الناشر، يقول في بلغة بالغةٍ حَّد العظمة والكبرياء (إنهم سيطبعون كتابي) ولقد قرأت هذا الخطاب مرات ومرات. ثم أصابتني حمى الفرح!. ويستطيع المؤلفون أن يقولوا لك إن سعادة في الدنيا لا يمكن أن تقاس إلى سعادة المؤلف بقبول الناشر إخراج كتابه الأول! وفي الحق، لقد مرت بي إلى ذلك الحين لحظات كثيرة من السعادة، ولكنها جميعاً لم تكن تعدل سعادتي بذلك الخطاب.

ووثبت إلى الطريق والخطاب في يدي، وهرعت إلى المطعم العتيد واندسست بين الفنانين الجالسين؛ وبرغم أنى لم أكن أعرف أحداً منهم فقد حدثهم بما صادفني من حسن الحظ. فشربوا نخبي، وبعد الغداء اصطحبوني إلى (استديو) أحدهم، ومن هذه اللحظة؛ أحسست أن حياتي قد بدأت!

بعد ذلك توجهت لزيارة دار (سميث إلدار) للنشر والتقيت بالمستر (ريجنالد إلدر). وإني لا أتصور الآن أن في دار من دور النشر مثل ما كان في غرفته من الفخامة والعظمة والأبهة! وقد كان رجلاً طويلاً له سالفتان من شعر كثٍ تتدليان إلى جانب صدغيه، كما كانت تبدو عليه الهيبة التي كانت تلازم رجال النشر في تلك الأيام!

ودعا لي الرجل بالتوفيق، وبعد ذلك عرَّج على حديث سوقيّ! قال إن الوقت عصيب بالنسبة للناشرين، ولهذا لم يكن في وسعه أن يدفع لي شيئاً من المال عن النسخ الثمانمائة الأولى من كتابي. وبعد بيع هذا العدد من النسخ يكون لي حق النشر في ثمن ما يباع. ولم يسترع قوله اهتمامي، إذ لم يكن يعنيني شيء سوي أنني لن أدفع شيئاً!.

ولقد كان (ريجنالد سميث) رجلاً طيباً، كما يبدو من اسمه. فأخرج (الحصان الخشبي) في غلاف رائع بالألوان. وبعد شهرين فقط رأيت في محل أحد باعة الكتب النسخة الأولى من

كتابي. وبعد أسبوع من ظهور الكتاب كنت أجلس مع (المستر تشارلس ماريوت) في (الكورنول) وهو مؤلف كثير من أحسن القصص التي كتبت عن (الكورنول) قدمت إليه واحدة من النسخ الست الأصلية من (الحصان الخشبي).

وبعد ستة أشهر أخبرني الناشر بأن ثمانمائة نسخة من كتابي - بالضبط - قد نفذت. وكنت قد اتفقت ثلاثة جنيهات في كتابة النسخ الأصلية على الآلة الكاتبة. ولهذا كنت إلى ذلك الحين محتملاً خسارة هذه الجنيهات الثلاثة. ولكن لو لم يكن من الغرور والفخر لذكرت أن الكتاب كان يباع دائماً. وأنني تلقيتُ بعد وقت قصير حصتي في ثمن النسخ التي بيعت ذلك العام وهنالك شيء أظنه على غير قليل من الطرافة، هو كيف أنني انقلبت من قصصي هاوٍ فاشل إلى مؤلف محترف بكل معنى الاحتراف، وهذا ما لم أفهمه أبدا.

وبالرغم من أن قصتي (ترُوىْ هانتون) لم تكن قصة مؤلف محترف متمكن على ما أذكر، وأني ارتكبت فيها كل الأخطاء الممكنة من حيث الفكرة والأسلوب والبناء، فإن قصتي (الحصان الخشبي) التي كتبتها بعدها مباشرة؛ كانت أحسن ما كتبتُ من قصص

مُجَوَّدة. وقد لا تكون مكتوبة بيدٍ مرنة طويلة الخبرة بدقائق الفن؛ ولهذا السبب فإن قيمتها الأدبية التافهة لم تكن شيئاً يذكر؛ ولكن. . . بعد أن تعلمت هذه الدقائق الفنية لم تعد لي هذه التفاهة في التفكير!

وعلى أي حال فقد مضت سنون سعيدة جداً قبل الحرب، لم يكن التزاحم بين القصصيين قد بلغ من العنف ما بلغه اليوم ولم تكن الصحف الكبرى تعنى بنشر روائع الفن القصصي. ولهذا لم يبرز من القصصيين العباقرة سوى أفراد قلائل جداً، مثل (مردث) و (هاردي) و (هنري جيمس)، في حين كان معظم كتاب القصة مشغولين بقصّ حكايات يستمدون أبطالها من شخصيات الحياة العملية بقدر الإمكان. ولم تكن هنالك اتجاهات نظرية معينة في الفن القصصي إلا بقدر محدود، كما أنه لم يكن هنالك من يعني بشيء من وسائل الدعوة الخاصة على وجه الإطلاق!

ولقد كان للحياة في هذه السنين منظر ساحر خلاب بصفة عامة. فإذا أنت كتبت عن شخصية سعيدة ثم اختتمت قصتك ختاماً سعيداً أيضاً، فأنك تكون بذلك فناناً أميناً على الحق في فنك. وإذا حملت على بعض مظاهر السلوك الخلقي أو السياسي، فانك بذلك لم تكن قد تطورت في موضوع رديء!

تركت (الدر سميث) بعد أن نشرت لي كتابي الثاني، لأني كرهت أن أحرم ثمن النسخ الثمانمائة الأولى من كل كتاب من كتبي: وصادقت (مارتن يكر) ذلك الناشر النبيل الذي كان في ذلك الوقت يدعى (د. هـ. بورنس وكومبتون ماكنزي وفرانك سونيرتوس وفرانسيس برت يونج وجلبرت كانان) وليس في وسع بياني أن يعبر عما ندين به للصديق (مارتن سيكر) فلقد كان صديقاً وفياً. يتولى مهمة الناشر في إخاء ومودَّة، وإنه ليسعدني أن أذكر أنه حينما غامر بنشر قصتي (الصبر)؛ لم يأسف على هذه المغامرة!!

القاهرة

احمد فتحي

بين الشرق والغرب

لباحث فاضل

(بقية ما نشر في العدد الماضي)

(ثالثاً): كذلك لا يعترض علينا بالجانب العلمي من الثقافة الإسلامية لأنها نتيجة الأخذ بأساليب الفكر اليوناني)

انتهى الكاتب إلى أن الجانب العلمي من الثقافة الإسلامية نتيجة الأخذ بأساليب الفكر اليوناني. ولماذا لا يكون هذا الجانب نتيجة للأخذ بأساليب الدين الإسلامي وتعاليمه؟

1 - (. . .الذين يتفكرون في خلق السماوات ولأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا)

2 - (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت، وإلى الجبال كيف نصبت، وإلى الأرض كيف سطحت. . .)

3 - (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون)

4 - (فلينظر الإنسان مم خلق، خلق من ماء دافق، يخلق من بين الصلب والترائب)

هذه آيات بينات اعتقدها المسلم لا بالسيف ولا بغيره، ولم تدخل في معتقده عن طريق العاطفة والمسايرة بل دخلت عن طريق العقل فقط. ألا تري أن في كل حرف فيها دعوة صريحة إلى التفكير في مخلوقات الله؟ ولماذا دعاهم إلى هذا التفكير؟ ليعتقدوا بعظمة الله أم يهتدوا بوجوده؟ لاشك بأن للاهتداء إلى الوجود لأن التعظيم يكون لشيء يعتقد بوجوده وهم لم يعتقدوا بعد ذلك.

سمح لهم بالشك في كل شيء والتفكير في كل شيء ودعاهم إلى تحرير عقولهم من قيود العبودية الزمنية. وبعد ألا تعتبر هذه الدعوة أساساً عملياً، لأن استمال العقل في التفكير في مخلوقات الله وهو الأسلوب العلمي بعينه. أفيكون اليونان أصحاب الفضل في ذلك فيأخذ عنهم فلاسفة المسلمين هذا الجانب العلمي أم يكون الدين الإسلامي هو الأصل الأول؟ لهم لا يكون اليونان وفلاسفتهم أصحاب هذا الفضل إلى إذا أخذ القرآن بأساليب الفكر اليونان أو إلا إذا اعتبر متكلمة المسلمين وفلاسفتهم فلسفة اليونانيين مصدر أوليا في معتقدهم وكان القرآن مصدراً ثانوياً، والحقيقة تكذب هذا

وذاك. وهم ما استعانوا بالفلسفة اليونانية إلا بعد أن تشربت قلوبهم معتقدهم الديني، وما كانت لهم الفلسفة إلا أداة منطقية لا علمية، والمنطق غير العلم إلا إذا امتزجا (قبل أيام)

(رابعاً): (انتهى متكلمة المسلمين إلى أن العالم حادث وانتهى الغربي إلى أنه قديم)، وهذا ما قاله. والمقصود من هذا واضح، وتقرير هذا القول يحمل الناس على تقرير التفاصيل بين العقلية العلمية للغرب وبينهما لمتكلمة المسلمين. هذا صحيح لو كان الكلام صحيحاً، ولو عنى متكلمة المسلمين بكلمة حادث ما عناه حضرة الفاضل. فأنا نعلم وغيرنا يعلم بأن كلمة (حادث) هنا لا تعني ولا تدل على تاريخ زمن معين كأن يقال كذا آلافاً من السنين، وإنما عني متكلمة المسلمين بهذه الكلمة أن العالم حادث بالنسبة للخالق، أي أن الخالق قديم بالنسبة لمخلوقاته، فقرروا القدم الذي لا حد له إلى الله وقرروا الحدثية إلى مخلوقاته

(خامساً): وبعد ذلك فمتكلمة المسلمين (انتهوا إلى أن الخالق مطلق التصرف في الكون منفصل عنه ومدبر له، وأنه السبب لكلّ ما يحدث والعلة الأولى والأخيرة لكل ما يكون وسيكون). هذا ما قاله حضرة الفاضل، فهل نفي بهذا القول طبيعة العقل العلمي لهؤلاء المتكلمة؟ أليس الدين الإسلامي المرجع الأول لهؤلاء المتكلمة؟ فلماذا نأخذ الناحية السلبية من هذا القول ولا نقرر بأن الدين الذي اعتمدوا عليه كأساس أولى في مذاهبهم الكلامية قد دعاهم إلى أن يسعوا في مناكبها ويأكلوا من رزقه وهو الذي دعاهم إلى ألا يلقوا بأنفسهم إلى التهلكة؟ فإذا كانوا قد اعتقدوا تلك الناحية السلبية فقط من قوله تعالى: (والله خلقكم وما تعملون)، فهل يتناسب هذا الاعتقاد مع حقيقة الواقع وهم إنهم جعلوا للعقل حقه في تقرير مصير صاحبه ثم هل يتفق هذا القول مع كثير من أقوال متكلمة المسلمين كالنظّام والجاحظ وغيرهما في الشك وفي تقدير العقل إلى أبعد حدود التقدير؟

ثم نراه منح العقلية الغربية منحة تأباها وقرر لها مذهباً تنفر منه لأن العقل لا يقره فقال: (انتهى الغربي إلى أن إرادة الله مقيدة بنظام الكون وأفعاله قائمة على عنصر اللزوم والاضطرار).

أي كلام هذا؟ وكلام من هو؟ ومن قال بأن الغربي يعتقد هذا إلا إذا فقد الجانب العلمي من قوى تفكيره؟ للكون سنن ولنظامه نواميس فمن أقرها ومن وضعها؟ أليس هو الله؟ ومن يفكر بأن إرادة الله هي التي تسيطر على هذا الكون؟ أفيكون خالق الشيء مقيداً به وتكون إرادته متعلقة به؟

فإذا كان بقاء النظام الكوني دليلاً على شيء فهو أن إرادة الله لم تتغير وأنه أراد الكون على حاله. فإذا تغير هذا النظام الذي أراده الله اعتقدتم بأن هذا النظام مقيَّدٌ بإرادة الله إذا فلتنتظروا.

(سادساً): في نظر الغربي (أن في قدرة الإنسان تغيير القدر له عن طريق معرفة النواميس المحَكمة في وجوده) أهذا كلام يقال؟ فلا هو منطق ولا هو علم، ولا هو حقيقة ولا هو خيال. رجل لا يعلم ما قُدَّر له فكيف يكون قادراً على تغييره؟ ثم هب بأنه علم ما قدر له كأن أوحى الله له بذلك أفيكون قادراً على تغيير ما أراد الله وتكون إرادة الله؟ نحن لا نفهم من هذا القول إلا أنه كفر من ناحية دينية وكفر آخر من ناحية عقلية؟ وكفرُ واحد عظم في حدّ ذاته فكيف بالكفرين؟

إذا كانت علوم الغرب دليلاً على عقليتهم فإلى أي حد انتهوا في علومهم؟ كان يقال قديماً بأن مَن بحث في العلوم الطبيعية ابتعد عن الخالق، واليوم يقال بأن كل من امتهن هذه الصنعة وسلك هذا الطريق فلا شك بأنه يسير بخطى واسعة نحو الخالق إن كان كافراً به.

فهؤلاء علماء مادة الحياة كلما عجزوا عن تفهم سر شيء ازدادوا إيماناً بأن قدرة عليا فوق قدرتهم واتفقوا على غير موعد بأن إرادة الخالق قد أخضعت كل النواميس لها، ونحن ما علمنا ليومنا هذا إلا ما أراد الله لنا أن نعلم. أفيذهب بنا الغرور إلى حد تقييد الله بشيء خلقه؟

(سابعاً): ثم المسيحية هي التي سادت أوربا في العصور الوسطى فنزعت بها منزع الواقع يقرر عكس هذا، إذ ليس في الدين المسيحي ما يقرر ذلك (التفكير المعروف الجمود في القوى الفكرية كالذي ساد في العصور الوسطى.

نحن نعلم بأن المسيحية وجدت في الشرق فكانت سبباً إلى حد كبير في توجيه منازع التفكير المختلفة من روحية واجتماعية وخلقية فقامت بنصيبها من الإصلاح، وسارت المسيحية بتعاليمها إلى الغرب ذاته وكانت حاله أسوأ حال فهذبت من نفوس أقوامه ما ساعدتها طبيعتهم الخشنة وعقليتهم السميكة. وخنقت المسيحية في الدير والكنيسة تراث اليونان والرومان وغيرهم فقدمت للتاريخ العلمي خدمة لا تقدر بقيمة. وبعد هذا لم تكن المسيحية ولم تكن روح النسك الشرقية التي جاءت معها سبباً فيما ساد العصور الوسطى من فوضى واضطراب وقصور في النواحي الثقافية والعلمية. أيتهم الشرق بأنه سبب ذلك ولا يتهم الغرب وأقوامه هم الذين وجهوا تعاليم الديانة المسيحية وجهة مادية؟ ثم ما هي العقلية التي جاءت بصكوك الغفران وما هي الطبيعة التي تقبلت الشرائع القوطية؟ أجاءت مع المسيحية من الشرق أم نبتت في الغرب ومن بنات أفكار أقوامه. وهذا هو الواقع.

فإن شارل مارتل أنقذ العقلية الغربية من العقلية الشرقية حين كانت تغزو) :(ثامناً لو جاء بهذا الكلام أحدُ من الغرب لعذرناه، وطبيعة الإنسان (أوروبا على يد العرب كثيراً ما تغالط نفسها فتنكر الفضل على مستحقه. ولكن أن يأتي هذا الكلام من شرقي عربي فهذا ما لا يصدق.

حقيقة صد شارك مارتن تيار العرب، فترى ماذا صد مارتل وماذا منع عن أوروبا؟ أمنع روح النسك؟ والعرب لم يعرفوا بذلك لا في الشرق ولا في الغرب؟ أم أنه صد عن أوربا سبعة قرون من ينابيع الفكر والعلم والثقافة؟ وهذا ما أقر به علماء الغرب ومؤرخوهم قبل أن ينكره أحد من الشرق والعرب. سلوا مؤرخي النهضة الأوربية واستفتوا كتبهم عن أثر الأندلس في تلك النهضة، ألم تكن جامعاتها وحلقاتها قبلة للطلاب من كل ركن في أوربا؟ فلماذا تأثروا بالعلم ولم يتأثروا بالنسك؟ ألان العلم أسهل اقتباسا من النسك أو لأن العلم كان لديهم ولم يكن النسك؟ أفيكون مارتل بعد هذا قد أنقذ العقلية الجرمانية وهي كما يعلمها طلبة التاريخ من العقلية الشرقية يأتي بها العرب، أم يكون مارتل قد أنقذ الجهل من العلم قروناً؟ وأخيراً، وهذا أبعد ما استبعدنا أن يأتي به الدكتور العالم وهو أن العلم يتلون (تاسعاً بروح الأمة، فكتب الرياضيات والطبيعيات وحقائقها في فرنسا هي غيرها في ألمانية، لأن لكل لوناً خاصاً في الحياة. فالنظرية الآرية تختلف في كل قطر على هذا الأساس الذي أتى به لأن روح الأمتين مختلفة. ولربما كانت نظرية الحمار في بلاد الإنكليز نظرية الدب في روسيا لأن روحيهما مختلفان.

هذا بعض ما لاحظناه على المقال المذكور ولو كان مجرد رأي لما حاولنا الجدل فيه، ولكن الكثير منه يتصل بالأمة العربية والأمم الإسلامية وبعضه يتصل بالحقائق التاريخية.

أما الرأي من حيث هو فيما لا يتصل بهذا أو ذاك فميدان المناظرة فيه واسع فسيح وهذا ما لم أقصده في هذا المقام والسلام.

(* * *)

فردريك نيتشه

للأستاذ فليكس فارس

- 2 -

إن من الحب ما ينشأ عن الحياة الجسدية حاجة ملحة متقلبة كالحياة نفسها، وفي) النسا كما في الرجال أناس حبهم أشبه بالجوع والظمأ يتهافتون على أية مائدة ويرتوون من أي ينبوع. وماذا عساه يفهم من الحب من يرى المحبوب مائدة وينبوعاً؟ قلّ من الناس من يدرك أن من أنكر على المحبوب شخصيته التي لا تستبدل فقد أنكر (هو ذاته شخصيته التي يحس بها

لا صلاح لأمة فسدت منابت أطفالها، وهذه عبر التاريخ مائلة لعيان من يريد أن يرى) أفما كانت كل الأمم التي اندثرت واستبعدت تمر أولا في مرحلة تدني الأخلاق وانطلاق (الشهوات عابثة بأشرف ما خلق الله في الإنسان؟

سوف يأتي يوم، وهو غير بعيد، تتنبه المدينة فيه إلى أن الرجل المتفوق الذي ينشده) العلماء في الغرب لن يخلق لهم من التمرين لقوى العقل وقوى الجسد ولا من فحص

خلايا المتزوجين بالمجهر حتى ولا من تلقيحهم بالمواد الكيماوية أو تطعيمهم بغدد القرود
إن الرجل الكامل أو الأقرب إلى الكمال إنما هو ابن الحب الكامل، فالمحبة وحدها هي السبيل المؤدي إلى إدراك الحق والقوة والجمال لندع العالم المتمدن يفتش في علومه ونهضة مفكريه عن هذا الحب الذي تخيله ماركس متجلياً في الحرية التامة للناس في أهوائهم فجاءت البلشفة تثبت انخداع هذا الفيلسوف في نظرياته، ليفتشوا أنهم لن يتصلوا في تجاربهم إلا إلى العبر الزاجرة المؤلمة.
أما نحن أبناء هذا الشرق الذي انبثق الحق فيه انصباباً من الداخل بالإلهام لا تلمّساً من الخارج، فلنا المسلك المفتوح منفرجاً أمامنا للاعتلاء والخروج إلى النور بعد هذا الليل الطويل إذا نحن أخذنا بروح ما أوحاه الحق إلينا.
لا بترقية الزراعة والصناعة، ولا بنشر التعليم والتهذيب، ولا بجعل البلاد جنة ثراءً وتنظيماً تنشأ الأمة ويخلق الشعب الحر السعيد.
إن الجنين الذي يحمل أسباب شقائه وهو في بطن أمه لا يمكنه أن يصير رجلاً حراً قوياً
يفهم حقيقة الحياة ويتمتّع بالعظمة الكامنة فيها إن الاهتمام بإيجاد الطفل الصالح أولى من العمل لأعداد العلم والتهذيب لطفل نصقل مظاهره صقلاً وتتحطم كل محاولة للنفوذ إلى علته المستقرّة فيه منذ تكوينه)
ليس الفقير المتسول، ولا العليل المتألم، ولا الشيخ الهرم يتمَّشى بلا سند إلى قبره.)
ليست المرأة المستعبدة بلقمة ولا الفتاة المخدوعة المنطرحة على أقذار المواخير، ليس كل هؤلاء الناس الأشقياء في الحياة بأشقى من الأطفال يجور عليهم آباؤهم وأمهاتهم قبل أن يقذفوا بهم إلى الوجود ويرهقوهم بالقطعية والإهمال بعد أن يدرجوا عليها بأقدامهم الناحلة المتعثرة. . . الرجل الذي يمسخ حبه الواحد شهوات متعددة، والمرأة التي تتقصف متهتكة ماسخة هيكل نسمات الله مركعاً لنفايات البشر من عبّاد الخيانة والطيش، إنما هما آدم وحواء مطرودَين من الجنان إلى أرض الجهود المضيعة والآلام المحتّمة، ومن يدري أن حديث معصية الأبوين ليس رمزاً لخيانة الحب، تلك الخيانة التي تنزل اللعنة بمرتكبيها وبأبنائهم من بعدهم. . . ويلُ للرجل الذي يهدم بيديه سعادته وسعادة أبنائه، وويل للمرأة التي تدنس منبت أطفالها)
ليس في تمهيد موجز كهذا مجالُ لبحث فلسفة نيتشه التي شغلت كبار كتاب القرن التاسع عشر ولم يزل الفلاسفة يكتبون عنها إلى اليوم، غير أن ما تناولناه إلماماً من نظريات نيتشه يكفينا لتحديد ما يجب أن نغفله منها دون أن ننتقص من قدر هذا العبقري لأنه اقتحم أسرار الكون معتمداً ذاته فعاد عن هذه الأسرار مدحوراً. وهل من كاتب قبله أو بعده تمكن من حل ألغاز الوجود والوقوف منها عند عقيدة صريحة تستغني عن الإيمان بالقوة الخفية المتعالية عن التعليل والتحليل؟ حَسْبُ نيتشه في موقف حيرته، وما هي بالدرجة الوضعية على سلم التفكير، أن يهتك سريرته أمامك دون أن يلجأ إلى إعمال السفسطة لإيجاد وحدة ظاهرية وتناسبٍ مزّيف في صرح تفكيره، حسب أن أندفع وراء المثل الأعلى الكامن في (إرادة القوة) تبعاً لتعبيره وفي نفس الإنسان الخالدة تبعاً لعقيدة المؤمنين، فبسط أمام المفكرين من مشاهد المجتمع ومن مسالك الأرواح على معابر الأرض ما لم يلمحه سواه من المنشئين.
إن ما ترانا بحاجة إلى الوقوف عنده من فلسفة نيتشه في كتاب زرادشت الذي لم تفته
قضية اجتماعية لم يقل فيها كلمة كان لها دويها في العالم الغربي، إنما هو هذه المبادئ التي تجتث ما غرست قرون العبودية في أوطاننا من استكانة حولت إيمانها إلى استسلام في حين أن روح شرعتها يهيب بالنفس إلى الجهادين في سبيل الوطن والإنسانية جمعاء.
إن الدين الذي يهاجمه نيتشه إنما هو صورة لأصل شوهها الغرب، وما علَّم هذا الدين أن الحياة معبر على المؤمن اجتيازه وهو مُعرِضَ عن كل ما حوله معلق أبصاره على باب قبره. بل علم أن الحياة مرحلة من أشواط الآزال والآباد وما تطهر أنفسَ لم تحترق أجسادَها ولم تَعد صلاحاً لباقياتها بإصلاح زائلاتها.
ليس نيتشه إذا مبدع فكرة التكامل للإنسان على الأرض فإن التكامل مبدأ جعلته

الأديان السماوية أساساً لكل وصية تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر، غير أن الدين قد أراد للإنسان تكاملاً روحياً يهيئه إلى أدراك بارئه وراء المحسوس في حين أن نيتشه، وقد أنكر مالا تقع الحواس عليه، أراد أن يفلت الإنسان من حدود إنسانيته على الأرض فيجعلها جنةَ خلدٍ يستوي عليها بجبروته إلهاً. . .

وقد عزب عن هذا الفيلسوف أن المخلوقات كلها في سلسلة الوجود لا تملك الانعتاق من حدود أنواعها، ومهما كرَّت القرون وتعاقبت الأجيال لا يمكن للجماد أن يفلت من مملكته إلى مملكة النبات، ولا للنبات أن يجتاز حدود مملكة الحيوان، ولا للحيوان أن يجتاح مملكة الإنسانية.

لذلك الذاهب في طلب إنسان يتفوق على الإنسانية كالمحاول استنبات الشجرة حيواناً أو استبدال الحيوان إنساناً. لقد كرت القرون على مبدأ التاريخ الذي نعلم وعلى ما لا نعلم من حقبٍ كرَّت ما ورراه، والإنسان لم يزل هذا المخلوق الدائر أبداً ضمن حلقة إنسانيته.

لقد كان نيتشه من المعتقدين باستحالة الأنواع حين صرخ بلسان زرادشت وهو يخاطب الحشد في الساحة العمومية: (لقد كنتم من جنس القرود فيما مضى. على أن الإنسان لم يفتأ حتى اليوم أعرق من القرود في قرديته)

ولكنه بالرغم من هذا يصرح بأن هذا النوع القردي وهو الإنسان لم ينسلخ عن أصله، فكيف زين له خياله أن في هذا النوع إنساناً فائقاً لا يزال كامناً منذ البدء ينتظر قدوم فيلسوف في أواخر القرن التاسع عشر يستجلي هذا الجبار ويبعثه بإرادة جديدة تتسلط لا على الحاضر والمستقبل فحسب بل على ما مر وتوارى أيضاً في عاصفات الأحقاب؟. .

إن بدعة الإنسان المتفوق إنما هي تقديرنا تشوق نفس شعرت بأنها كانت وستكون، وقد ضرب الإلحاد حولها نطاقاً فتوهمت أنها ستبلغ في هذه الحياة ما ليس من هذه الحياة.

إن نيتشه يعلن إلحاده بكل صراحة ويباهي بكفره؛ غير أننا لا نكتم القارئ الكريم ما قرأناه بين سطوره، وقد مررنا بها كمن عليه أن يتفهم كل معنى ويستجلي كل رمز، يحفزنا إلى القول بأننا لم نر كفراً أقرب إلى الإيمان من كفر هذا المفكر الجبار الثائر الذي ينادى بموت الله ثم يراه متجلياً أمامه في كل نفس تخفق بين جوانح الناس من نسمته الخالدة، فإن هذا الملحد، بالرغم من اعتقاده بأن الجسد هو اصل الذات وان الروح عرض لها وبأن كلا الروح والجسد فانيان، لا يملك نفسه من الهتاف وهو يؤكد عودة كل شيء واستمرار كل شيء فيقول:

- أواه كيف لا أحن إلى الأبدية وأضطرم شوقاً إلى خاتم الزواج، إلى دائرة الدوائر حيث يصبح الانتهاء ابتداءَ. إني لم أجد حتى اليوم امرأة أريدها أماً لأبنائي إلا المرأة التي أحبها لأنني أحبك أيتها الأبدية!

إنني أحبك، أيتها الأبدية

أين هذه الهتفة الرائعة تصدو في أعماق روح تتطَّير من الزوال من ابتسامة الملحد الصفراء وهو لا يرى وراءه وأمامه إلا العدم والزوال، بل يكاد يرى وجوده خدعة وخيالاً كاذباً.

إن فلسفةٌ لا تستنيم لفكرة الفناء ولا ترى في النهاية إلا عودة إلى بداية ليست بالفلسفة الجاحدة، فالمفكر المؤمن بإنسانية عليا تتدرج إلى الكمال حتى ولو قال بألوهية الإنسان على الأرض لا يمكنه أن يؤمن في قرارة نفسه بكمال مطلق تتشوق روحه إلية ما وراء هذا العالم.

ولابد هنا من إيراد تاريخ موجز لحياة الفيلسوف، وليس في حياته القصيرة وهي مليئة بالآلام من الحوادث ما يستحق التدوين غير المراحل التي مر عليها تفكيره فتأثر بها. وهل نيتشه إلاَّ فكرة وهل حياته إلاَّ وقائع ميادينها السطور والصفحات؟

ولد هذا العبقري الثائر سنة 1844 في بلدة روكن من أعمال ألمانيا وكان أبوه واعظاً بروتستانياً من أسرة بولونية هجرت بلادها في القرن التاسع عشر على أثر اضطهاد شرد منها أشياع كنيسة الإصلاح.

وما بلغ فردريك الخامسة من عمره حتى مات أبوه فكلفت أمه تربيته وتربية أخته

فأرسلته إلى مدرسة نومبورغ ثم انتقل منها سنة 1864 إلى كلتيّ بون وليبسيك حتى إذا بلغ الخامسة والعشرين من عمره سنة 1869 تجلّى نبوغه فعين أستاذاً للفلسفة في كلية بال.

بعد سبع سنوات أي سنة 1876 ظهرت عليه أعراض (الزهري الوراثي) فحكمه صداع شديد أضعف بصره فبقي يلقي الدروس حتى سنة 1879 إذ اضطر إلى الاستعفاء ليذهب متنقلاً بين روما وجنوا ونيس وسيل ماريا وهو يعمل الفكر ويكتب مصارعاً علته عشر سنوات، فلا هو يبرأ منها فيحيا، ولا هي تجتاح دماغه الجبار فيموت إلى أن جاءته سنة1889 بالفالج مقدمة للجنون فتوارى سنة 1900 بعد أن سبقته إلى الموت عبقريته العليلة وإرادته الوَّثابة الجبارة

(يتبع)

فليكس فارس

التاريخ في سير أبطاله

ابراهام لنكولن

هدية الأحراج إلى عالم المدنية

للأستاذ محمود الخفيف

يا شباب الوادي خذوا معاني العظمة في نسقها الأعلى من سيرة هذا العصامي العظيم. . . . . .

لم يتردد في العمل على إبطال قرار فريمونت على الرغم مما بدا له من تحمس الرأي العام له ومظاهرته إياه فيه على نحو ما بينا؛ ولقد كان من أبرز خلال أبرا هام أنه كان لا يعرف التردد أو النكول إذا هو عقد النية على أمر اقتنع بصوابه واطمأن إلى نفعه ووثق من مقدرته على الاضطلاع به؛ وما جرب عليه من عملوا معه أنه صمم قط على رأى ثم انصرف عنه، ولذلك كانوا إذا عزم أذعنوا طوعاً أو كرهاً فما لهم من ذلك بد. . .

وتصرف لنكولن تصرف السياسي الحكيم، فكتب إلى فريمونت يسأله أن يعدل قراره وأن يظهر للناس كأنما يفعل ذلك من تلقاء نفسه؛ ولكن فريمونت لم يذعن لذلك وكبر عليه أن يتراجع؛ فلم ير الرئيس بدَّا من أن يعلن قراراً عدل به قرار فريمونت غير عابئ بما كان من مخالفة الرأي العام له ولا وجل من تصايح الصائحين من دعاة التحرير. . . وبذلك العمل الحازم الحكيم قضى الرئيس على نذير من نذر الفرقة والتنابذ، وكسب بذلك وقوف ولاية كنتولي إلى جانبه. . . ولا تتحسبن الرئيس كما تقول عليه خصومه ومخالفوه في الرأي من أنصاره، قد اتخذ بذلك سبيلاً رجعية؛ كلا، إنما هي السياسة الحكيمة تقضى عليه ألا يتنكب الطريق التي رسمها منذ شبت الحرب، ألا وهي جعل المحافظة على الوحدة أساس هذا الصراع القومي؛ أما مسألة العبيد فما هو بغافل عنها وإنما هو يؤثر الأناة حتى تتهيأ الفرصة. . .

هذا ما كان من أمر فريمونت؛ أما ما كليلان فلقد ظل يدرب جيشه على حدود فرجينيا وهو لا يفتأ يرسل إلى الرئيس يطلب فرقاً جديدة، ولا يفتأ يتبرم بأي استفهام يأتيه من قبل الرئيس عما هو عسىٌّ أن يفعله؛ ولقد كان هذا القائد الشاب يكره من الحكومة تدخلها في

شؤونه؛ بل لقد كان يزدري أعضاء مجلس الوزراء ويرميهم بالغبا، أو كما يقول إنه شاهد أكبر نوع من الإوز في ذلك المجلس.

وبلغ به الذهاب بنفسه حدَّا جعل الناس يظنون به الظنون حتى ليحسبونه يتطلع إلى الرياسة، فهو ينتظر لا يعمل عملاً حتى تواتيه الفرصة إلى انقلاب يأتي به على غرة. . . ولكن الرئيس على الرغم من مسلك ما كليلان يعينه قائداً عامَّا للقوات بعد أن يترك سكوت العمل لكبر سنه.

ولا يقف صلف ماكليلان عند حد، فلقد ذهب الرئيس مرة إليه يستنبئه عن أمر، فتركه القائد لحظة ينتظر قبل أن يلقاه؛ وشاع ذلك في الناس، وأشارت إليه الصحف، وانعقدت الآراء على استنكاره، ولكن الرئيس لم يعبأ بما حدث، فما كان هوبالذي تلهيه المسائل الشخصية عما هو فيه، ولقد رد على ذلك بقوله (إني لأمسك لما كليلان زمام جواده إذا هو جاء لنا بانتصارات).

ولكن حدت بعد ذلك أن ذهب الرئيس ومعه كبير وزرائه إلى مكان القائد فلم يجداه،

فجلسا ينتظران حتى رجع؛ وأنبأه بعض الجند بانتظارهما إياه؛ فصعد إلى غرفته وأرسل إليهما رسالة يأسف فيها لعدم استطاعته أن يراهما لأنه متعب! واستشاط سيوارد من ذلك غضباً، ولكن الرئيس راح يهون الأمر عليه. .
على أنه كف بعدها عن زيارة ذلك القائد المدل بنفسه. .
وقدر الرئيس فضلاً عن ذلك أن يلاقي العنت من الرأي العام كما يلاقيه من أكابر قواده، ومن أمثلة ذلك ما كان من موقف الناس إزاء قرار فريمونت فلقد بالغوا يومئذ في إعنات الرئيس وإحراجه. . حتى كان موقف آخر فعادوا إلى غيهم يأخذون على الرئيس مسالك القول والعمل، وكان ذلك الموقف نتيجة لما أدت إليه الحوادث بين حكومة الاتحاد الشمالي وبين الحكومة الإنجليزية. .
كان لنكولن يخشى أن تسوء العلاقات بين حكومته وبين إنجلترا، إذ كانت الأنباء تنذر بذلك؛ فكثير من رجال الحكومة الإنجليزية كانوا يرون أن تعترف حكومتهم بالاتحاد الجنوبي كحكومة مستقلة حتى يتسنى لإنجلترا أن تدخل سفنها الموانئ الجنوبية وعلى الأخص موانئ القطن، دون أن يكون في ذلك تصادم مع الحصار المضروب عليها من الشماليين. . وأخذت الصحف الإنجليزية تدعو إلى ذلك وتلح في الدعوة غير عابئة بما ينطوي عليه ذلك من التحدي لأهل الشمال. واشتد غضب حكومة الاتحاد الشمالي بقدر ما عظم فرح الجنوبيين، إذ كان كل فريق ينظر باهتمام شديد إلى ما عساه أن يحدث من جانب إنجلترا. . وبلغ من استياء سيوارد أنه كتب احتجاجاً إلى الحكومة الإنجليزية، لم يخفف من حدته ما أدخله عليه الرئيس من تعديل، فلقد كان يحرص أشد الحرص أن يفوت على الجنوبيين ما يأملونه من انضمام إنجلترا إليهم.
وفي هذا المأزق الحرج يأتي أحد القواد البحريين عملاً تزداد به الأمور تحرجاً حتى ليحسب الناس أن الحرب واقعة بين إنجلترا والولايات المتحدة ما من ذلك بد. . .
وبيان ذلك أن القائد البحري ولكس داهم سفينة إنجليزية كانت تحمل رسولين من قبل الولايات الثائرة أحدهما إلى إنجلترا والآخر إلى فرنسا أبحرا ليسعيا لدى الحكومتين الإنجليزية والفرنسية أن تأخذا بيد الاتحاد الجنوبي. . . وأرغم ولكس الرسولين على النزول فأسرهما على الرغم من احتجاج قائد السفينة الإنجليزية.
ووصلت الأنباء إلى وشنجطون فراح الناس يعلنون إعجابهم بالقائد ولكس ويثنون على عمله، وما لبث أن انهالت عليه رسائل الإعجاب والثناء؛ ولقد أثنى عليه فيمن اثنوا المجلس التشريعي نفسه، وكثير من الزعماء ورجال الصحافة؛ وهكذا انحاز الرأي العام إلى جانب ولكس كما انحاز إلى جانب فريمونت من قبل لتزداد بذلك الأمور تعقداً وخطراً. . .
أما عن موقع النبأ في إنجلترا فلك أن تتصور مبلغ ما أثار من سخط واستنكار، في ظروف كتلك التي نتحدث عنها، وكذلك كان للنبأ في فرنسا موقعه الشديد وأثره السيئ.
اعتبرت إنجلترا هذا العمل من جانب القائد ولكس إهانة موجهة إلى العلم البريطاني الذي كان يخفق في سارية تلك الجارية التي كانت تحمل الرسولين وقدمت لندن وشنجيوط احتجاجها وأنذرتها أن تقابل العدوان بمثله إلا أن تسرع بتقديم الترضية الكافية، ولن تقنع إنجلترا بأقل من إطلاق الرسولين وعدم التعرض لهما ثم الاعتزاز عما حدث. . .
عندئذ اشتد هياج الولايات ورأت في إنذار إنجلترا إياها معاني الإذلال وسوء النية وقبح استغلال الحوادث؛ وأصر الناس على المقاومة مهما يكن ثمنها. وأمدت إنجلترا حامية كنده
وأخذت الولايات تزيد في قوة ثغورها الشمالية، وفي الجملة لم يبق إلا إعلان الحرب. على أن بعض العقلاء استطاعوا أن يطيلوا الوقت المحدود للإنذار بضعة أيام عل أهل الولايات وخصومهم في إنجلترا يرون حل تحقن به الدماء.
وأخذ الوقت يتصرم ولكن أهل الولايات مصرون على موقفهم لا يثنيهم عنه شيء! ورئيسهم ووزراؤه يفكرون في هذا الخطر الداهم، وكان سيوارد يميل إلى خوض غمار الحرب ضد هؤلاء الإنجليز الذين تنطوي قلوبهم على الحقد والحنق منذ خلعت الولايات الأمريكية نير إنجلترا في عز ة وإباء.
وهكذا يجد لنكولن نفسه في شدة ما مثلها شدة. . . فهو بين أن يجاري الرأي العام

وبذلك يجر على البلاد حرباً خارجية طاحنة تأتي مع الحرب الداخلية القائمة في وقت واحد، أو يطلق الرسولين ويقضي على أسباب الخلاف بينه وبين إنجلترا وبذلك يجنب بلاده خطراً محدقاً، وإن تعرض بعدها للوم اللأمين وسخط الساخطين واتهامات المبطلين. . .

ولكنه لنكولن الذي لا يعرف الخور والذي لا يطيش في الملمات صوابه. . . إنه الرجل الذي تزداد عزيمته مضاء بقدر ما تزداد الحادثات عنفاً وخطراً، والذي تزداد قناته صلابة كلما ازدادت الخطوب فداحة والأعباء ثقلاً واستفحالاً. . .

عقد أبرا هام مجلس وزرائه وأخذ يناقش الأعضاء ويناقشونه وهو من أول الأمر لا يؤمن بعدالة ما فعله ولكس؛ وبعد جهد استطاع أن يحمل المجلس على قبول رأيه ثم أعلن بعدها في شجاعة وحزم إطلاق الرسولين، وأجاب على إنذار الحكومة الإنجليزية برسالة متينة جاءت دليل قوياً على حكمته وبعد نظره، رسالة احتفظ فيها بكرامة بلاده وعزة قومه، وجنبها بها في الوقت نفسه خطراً ما كان أغناها عنه يومئذ.

وارتاحت إنجلترا لما فعل الرئيس وأثنى رجالها على حنكته وشجاعته! ولكنه لاقى في بلاده من السخط والاستياء ما لا يقوي على مواجهته غيره، وأوشكت مكانته في القلوب أن تزعزع، وراح يرتاب فيه المتحمسون ويصفون عمله بالجبن والخور. . . ولكنه فيما بينه وبين نفسه يعتقد أنه أسدى صنيعاً إلى قومه لا يدركه إلا العقلاء، الذين لا يجعلون في كل وقت للعواطف سلطانا على أعمالهم. . . . قال مرة يرد على الساخطين (لقد حاربنا بريطانيا العظمى مرة لأنها فعلت عين ما فعله الكابتن ولكس؛ فإذا ما رأينا إنجلترا تحتج على هذا الفعل وتطلب إخلاء سبيل الرسولين فواجبنا هو ألا نخرج على مبادئنا التي ترجع إلى عام 1812. . . . يجب أن نطلق هذين السجينين وحسبنا حرباً واحدة في وقت. . . .)

ومضى العملاق بعدها في سبيله يؤدي للإنسانية رسالته؛ وإننا لنرى هذا الجبار الذي درج من بين الإحراج والأدغال يحمل العبء وحده في الواقع. . . بل إنه كما ذكرنا ليلاقي مما يفعل كثير من أكابر رجاله أعباء تضاف إلى أعبائه ولكنه معود حمل الأعباء ومواجهة الأنواء.

وإنه ليسأل نفسه: ألم بأن لهؤلاء الرجال أن يعملوا كما تطلب الظروف؛ وماذا على فريمونت لو كان رجع إلى الرئيس، ثم ماذا على ما كليلان لو أنه خفض جناحه وألان جانبه واخذ الأمور بالشورى. .؟ ولكن ها هو ذا قائد آخر يفعل مثل ما فعل فريمونت، وذلك هو هنتر الذي كانت له القيادة في كارولينا الجنوبية؛ وكان هنتر أكثر جرأة من فريونت أو على الأصح أكثر نزقاً فلقد أعلن أن سكان فرجينيا وفلوريدا وكارولينا الجنوبية من العبيد أحرار بعد اليوم إلى الأبد. . . .

ولم يسع الرئيس إلا أن يجعل ينقض هذا القرار في غير مجاملة أو هوادة، فلقد كان هنتر خليقا أن يعتبر بما كان من أمر صاحبه فريمونت مما أعلنه الرئيس قوله: (إن حكومة الولايات المتحدة لم تخول للقائد هنتر ولا لأي قائد أو شخص سواه من السلطان ما يعلن معه تحرير العبيد في أية ولاية من الولايات، وإن هذا الإعلان المزعوم، سواء كان حقيقياً أو زائفاً، هو إعلان باطل)

ولا يكاد الرئيس ينتهي من نزق إلا ليواجه نزقاً غيره، فهاهو ذا وزير الحربية كامرون يرسل رسالة إلى بعض الضباط شبيهة بما أعلنه فريمونت وصاحبه. . ولولا أن تدارك الرئيس الأمر لأحدثت من سوء الأثر ما يصعب بعد علاج؛ ولقد أبرق الرئيس إلى مكاتب البريد لترد نسخ تلك الرسالة المطبوعة وحال بذلك دون وصولها إلى وجهاتها. .

ولما أن يئس الرئيس من ما كليلان وقد مضى عليه أكثر من عام وهو لا يعمل اكثر من تدريب جنده ولا ينفك يطلب فرقاً جديدة؛ رأى أن الموقف، يقضي عليه أن يدرس فنون الحرب والتعبئة! أليس هو بحكم مركزه القائد الأعلى للقوات البرية والبحرية؟ وإذاً فعليه أن يتعلم فن الحرب اليوم كما تعلم مسح الأرض من قبل وتخطيطها وكما تعلم القانون حتى حذقه، بل وكما تعلم القراءة والكتابة قبل ذلك جميعاً وهو بين مطارح الغابة.

شمر الرئيس عن ساعده وراح يدرس ويتعلم لايني ولا يكل ساعات طويلة من النهار

وساعات من الليل؛ الخريطة مبسوطة أمامه، ومعلموه من الحربيين يتناوبون العمل معه واحداً بعد الآخر حتى فهم بعض الفهم وأصبح له شيء من الرأي! يا الله من هذا العبقري الجبار الذي يحمل على كتفيه ما كان ينوء بحمله أطلس أو أخيل!

واستطاع الرئيس بعد مدة أن يدلي للقواد برأي في فهم، ولكنه كان حذراً يعرض الفكرة ويترك القطع بصحتها للقائد المرسلة إليه. ولقد كتب مرة إلى أحدهم برأيه ثم شدد عليه ألا يتقيد به قائلا إنه يلومه أكبر اللوم إن هو تحيز له أو تردد عن العمل تمليه عليه خبرته إذا كان ذلك الرأي لا يتفق وهذه الخبرة. . .

على أنه يكتب إلى ما كليلان نفسه ذات مرة مشيراً عليه بما يجب أن يعمل، في خطة مرسومة على أساس فني، ولما رد ما كليلان عليه يرفض تلك الخطة لم يقره الرئيس، وعاد فكتب إليه يسأله أسئلة تدل على فهم دقيق وإلمام شامل، ويدع له أن يجيب على تلك الأسئلة الفنية إجابة صريحة ونزيهة والرئيس مستعد بعدها أن يقره. . ثم تحاكما إلى أخصائيين، فما زال الرئيس يدلى لهم بحججه ويريهم أن خطته أضمن وأسلم من خطة القائد ما كليلان، ولكنهم، آخر الأمر أقروا خطة ما كليلان، فلم يسع الرئيس إلا أن يذعن وإن كان لا يزال يرى وجاهة آرائه. .

(يتبع)

الخفيف

الكميت بن زيد

شاعر العصر المرواني

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

- 7 -

منزلة الشعرية

كان الكميت شاعرا عالماً جمع من الثقافة العلمية ما لم يجتمع لشاعر في عصره، حتى قال بعضهم: كان في الكميت عشر خصال لم تكن في شاعر: كان خطيب بني أسد، وفقيه الشيعة، وحافظ القرآن، وثبت الجنان، وكان كاتباً حسن الخط، وكان نسابة، وكان جدلياً، وهو أول من ناظر في التشيع مجاهراً بذلك، وكان رامياً لم يكن في بني أسد أرمى منه، وكان فارساً، وكان شجاعاً، وكان سخيا دينا

وقال أبو الفرج الأصبهاني: أخبرني عمي، قال حدثني محمد بن سعد الكراني، قال حدثنا أبو عمر العمري عن لقيط، قال: اجتمع الكميت بن زيد وحماد الرواية في مسجد الكوفة، فتذاكرا أشعار العرب وأيامها، فخالفه حماد في شيء ونازعه، فقال له الكميت: أتظن أنك اعلم مني بأيام العرب وأشعارها؟ قال: وما هو إلا الظن، هذا والله هو اليقين، فغضب الكميت ثم قال له: لكم شاعر بصير يقال له عمرو بن فلان تروي؟ ولكم شاعر أعور أم أعمى اسمه فلان بن عمرو تروي؟ فقال حماد قولاً لم يحفظه، فجعل الكميت يذكر رجلاً رجلاً من صنف صنف ويسأل حماداً هل يعرفه؟ فإذا قال لا، أنشده من شعره جزءاً جزءاً حتى ضجرنا، ثم قال له الكميت: فأني سائلك عن شيء من الشعر، فسأله عن قول الشاعر:

طرحوا أصحابهم في ورطة ... قَذْفَكَ المقلةَ شطر المعترك

فلم يعلم حماد تفسيره، فسأله عن قول الآخر:

تدريننا بالقول حتى كأنما ... يدرين ولداناً تصيد الرهادنا

فأفحم حماد، فقال له: قد أجلتك إلى الجمعة الأخرى، فجاء حماد ولم يأت بتفسيرهما، وسأل الكميت أن يفسرهما له، فقال: المقلة حصاة أو نواة من نوى المقل يحملها القوم معهم إذا سافروا، وتوضع في الإناء ويصب عليها الماء حتى يغمرها، فيكون ذلك علامة يقتسمون

بها الماء، والشطر النصيب، والمعترك الموضع الذي يختصمون فيه الماء، فيلقونها هناك عند الشرب، وقوله (يدريننا) يعني النساء، أي ختلتنا فرميننا، والرهادن طير بمكة كالعصافير.

وذكر ياقوت أن ابن عبدة النساب قال: ما عرف النُّسَّابُ أنساب العرب على حقيقة حتى قال الكميت النزاريات، فأظهر بها علماً كثيراً، ولقد نظرت في شعره فما رأيت أحداً أعلم منه بالعرب وأيامها.

وأخرج ابن عساكر أنه كان يقال: ما جمع أحد من علم العرب ومناقبها ومعرفة أنسابها

ما جمع الكميت، فمن صحح الكميت نسبه صح، ومن طعن فيه وهن.
وقال أبو عكرمة الضبي: لولا شعر الكميت لم يكن للغة ترجمان، ولا للبيان لسان.
وقد عنى ابن الأعرابي بدرس شعر الكميت، ولم يكن يعنى إلا بالشعراء الفحول الذين يعرفون النساب، أو يمتون بعرق إلى الأساليب الجاهلية؛ ولم يعن ابن الأعرابي بدرس شعر الكميت فحسب، بل كان يذكر به من يغفلون عنه حين يعرضون عليه ما عرفوا من معاني الشعراء.
وأخرج أبو عكرمة الضبي عن أبيه قال: أدركت الناس بالكوفة يقولون: من لم يرو:
(طَرِبْتُ وما شوقاً إلى البيض أطْرَبُ)
فليس بهاشمي، ومن لم يرو:
(ذكر القلبُ إلْفَهُ المهجورَا)
فليس بأموي، ومن لم يرو:
(هلاَّ عرفتَ منازلاً بالأبرقِ)
فليس بمهلبي، ومن لم يرو:
(طَرِبْتَ وهاجَكَ الشوقُ الحْثِيثُ)
فليس بثقفي.
فهذا كله إلى ما نقلناه عن معاذ الهراء يظهر لنا كيف كانت طائفة كبيرة من العلماء والأدباء تتعصب للكميت وشعره إلى هذا الحد من التعصب، وما نظن أن نظرهم في هذا كان يجاوز جانب اللفظ والمعنى في شعر الكميت، فلا ينظرون إلى شيء آخر بعدهما يسمو به
الشعر أكثر مما يسمو بهما، ويمتاز به الكميت ابن زيد على شعراء عصره جميعاً.
وكان يوجد إلى جانب هذه الطائفة المتعصبة للكميت طائفة أخرى من الأدباء والشعراء تتعصب عليه وتقدح في شعره، ومن هؤلاء المتعصبين عليه بشار بن برد، وكان يقول: ما كان الكميت شاعراً، فقيل له كيف وهو يقول:
أنصفُ امرئٍ منْ نصف حي يسبني ... لعمري لقد لاقيتُ خطباً من الخطبِ
هنيئاً لكلبٍ أن كلباً تسبني ... وأني لم أردْ جواباً على كلبِ
لقد بلغتْ كلبٌ بسبيَ حظوةً ... كفتها قديماتِ الفضائح والوصبِ
فقال بشار: لا بَلَّ شانئك، أتري رجلاً لو. . . ثلاثين سنة لم يستملح منه شيء؟
وقد كان مذهب بشار من الشعر إيثار اللفظ السهل على العويص، وكان في هذا قدوة من أتى بعده من الشعراء المولودين، والكميت يخالفه في هذا المذهب مخالفة تامة.
قال محمد بن أنس الأسدي، حدثني محمد بن سهل راوية الكميت، قال سمعت الكميت يقول: إذا قلت الشعر فجاءني أمر مستو سهل لم أعبأ به حتى يجئ شيء فيه عويص فأستعمله.
ومن هنا يجئ تحامل بشار على الكميت. وعندي أنه لا يصح أن يقدح في الشعر أن تكون ألفاظه سهلة أو عويصة، فلكل من ذلك مقامة في طباع الشعراء وتمكنهم من اللغة وغريبها، وكذلك ما يحيط بالشاعر من ظروف الزمان والمكان وغيرهما.
وممن كان يتعصب على الكميت أيضاً رؤية بن العجاج، وقد ذكر المبرد عن رؤية أنه قال: قدمت فارس على أبان بن الوليد البجلي منتجعاً له، فأناني رجلان لا اعرفهما فسألاني عن شيء ليس من لغتي فلم أعرفه، فتغامزا بي، فتقبعت عليهما فهمدا. ثم كانا بعد ذلك يختلفان فيسمعان مني الشيء فيكتبانه ويدخلانه في أشعارهما، فعلمت انهما ظريفان، وسألت عنهما فقيل لي: هما الكميت والطرماح
وكان ذو الرمة يرى في الكميت ما يراه فيه رؤية بن العجاج، وقد أتى الكوفة فلقيه الكميت فقال له: إني قد عارضتك بقصيدتك، قال أي القصائد؟ قال: قولك:
ما بالُ عينك منها الماءُ ينسكبُ ... كأنه من كلى مفريةٍ سَرِبُ
قال: فأي شيء قلت؟ قال قلت:
هل أنتَ عن طلب الأيفاعِ منقلبُ ... أم كيف يحسن من ذي الشَّبية اللَّعِب
حتى أتى عليها، فقال له: ما أحسن ما قلت، إلا أنك إذ شبهت الشيء ليس تجئ به جيداً كما ينبغي، ولكنك تقع قريباً، فلا يقدر إنسان أن يقول أخطأت ولا أصبت، تقع بين ذلك ولم تصف كما وصفت أنا ولا كما شبهت. قال: وتدري لم ذاك؟ قال: لا، قال: لأنك تشبه شيئاً قد رأيته بعينك، وأنا أشبه ما وصف لي ولم أره بعيني، قال: صدقت هو ذاك

وليس هذا من رؤية وذي الرمة إلا تعصباً على الكميت من اجل أنه حضرياً، وأنهما كانا بدويين يذهبان في الشعر مذهب أهل البدو. وقد ذكرنا أن الكميت كان يجمع في شعره بين أدب الحاضرة والبادية، فكان من جهة اللفظ والأسلوب كسائر شعراء البادية في الإسلام والجاهلية، وكان من جهة الغرض الذي يرمي إليه في شعره حضرياً يذهب في ذلك مذهباً جديداً يليق بشاعر مثقف بمثل ثقافته، وهو في هذا يخالف شعراء عصره إذ كانوا يذهبون في أغراض الشعر مذهباً بدوياً جاهلياً لا أثر فيه للثقافة الإسلامية، ولا تتفق غايته مع الغاية التي كان يجب أن تكون غاية الشعر في هذا العصر.

والشعر عندنا كما يوزن بألفاظه ومعانيه يوزن بأغراضه ومقاصده، فلا يصح أن يكون الشعر الذي له غاية سامية في الحياة كالشعر الذي لا يراد منه إلا اللهو والعبث، وليس جد الحياة كهزلها، ولا حقها كباطلها، فليكن جد الشعر فوق هزله، وليكن حقه فوق باطله، وليكن الكميت في هاشمياته فوق شعراء عصره جميعاً.

عبد المتعال الصعيدي

من أجل فلسطين

وطن يعذب في الجحيم

للأستاذ أحمد محرم

خُلُقُ (العروبةِ) أن تجدَّ وتدأبا ... وسجيَّةُ (الإسلام) أن يتغلّبا
لا تلكَ تخفض من جَناحَيها، ولا ... هذا يرُيدُ سوى التفوق مطلبا
رَفعَ النّفوسَ عن الصَّغارِ، وصانها ... عن أن تَخافَ عدوَّه أو تَرهبا
دينُ الفتّوةِ والمروءةِ، ما طغت ... لُجَجُ المنايا حّوْلَه فتَهيَّبا
المؤمنونَ على الحوادثِ أخوةٌ ... لا يعرفون سوى (الكتاب) لهم أبا
سَلهْمٌ عَلَى شَرفِ الأُبُوَّةِ هَل رَعوا ... ما سنَّ من أدب الحياة وأوجبا؟
بَيتٌ تَفّرق في البلادِ، وَأُسرةٌ ... صَدعَ الزمانُ كيانَها فتشعَّبا
وَهَنَ البناءُ، فَعَاث في فَجَواتِه ... عادِي الفساد مُدَمَّراً ومُخرّبا
لَبَّيْكَ يَا (وَطنَ الجهاد) ومرحبا ... لَبَّيْكَ من داعٍ أهابَ وَنَوَّبا
لَبَّيْكَ إذ بلَغَ البلاَء، وإذْ أبَى ... جدُّ الزَّمانِ وَصَرفه أن نلعبا
مَنْ ذا يَرى دَمَهُ أعزَّ مكانةً ... من أن يُخضَّبَ من (فلسطين) الرُّبى؟
كَبَّرْتُ حِينَ عَفا الوفاءُ. ومَا عَفا ... في أرضها أثرُ (البُراق) وَلا خَبا
إني أرى (المعراجَ) عند جلالهِ ... وأرى (النبيّ) وصحبَه والموكبا
وَطنٌ يُعَذَّبُ في الجحيم وَأمَّةٌ ... أعزِزْ علينا أن تُصابَ وتَنُكبا
بقُلوبنا اَلْحرَّى، وفي أحشائنا ... ما شَبَّ مِنْ أشجَانها وَتَلهَّبا
وبنَا مِنَ الألمِ المبَرّحِ ما بها ... وأرى الذِّي نَلْقَى أشدَّ وأصعبا
نَتَجَرَّعُ البلوَى، ونَدَّرِعُ الأسى ... نَرْعَى لاخوتنا الذّمامَ الأقربا
إنّا لَنعلمُ أنَّ آكلَ لَحْمهمْ ... سَيَخُوضُ مِنّا في الدّماء ليشربا
جَعلوا الكفاحَ عن العروبةِ حَرثُهُمْ ... وَتَعَهَّدُوهُ، فَكَان حَرْثاً طَيّبّا
يَسْقُونَ مَا زَرَعُوا دماً في مخْصبٍ ... لولا الدِّمُ الجاري لأصبحَ مُجْديا
يَطْرَبُ من أنين جريحهم ... أرأيتَ في الدُّنْيَا أنيناً مطربا؟ (البيتُ)
إنّ الّذِي زَعَمَ السَّلاَمَ مُرَادهُ ... جَعَلَ الدّماَء سَبيلَةُّ والمركبا
إن كان قدَ غَمَرَ الزمانَ وأَهْلَهُ ... كَذباً، فَمِنْ عاداته أن يَكذبا
رَكِبَ الرياحَ إلى القويّ، يَرُوضُهُ ... شَرساً، يُقَلِّبُ نابَهُ وَالمخْلَباَ
طَارَت بِهِ، وَفؤُاَدُه في روعةٍ ... يَتَلمَّسُ الْمَهْوَى ويبغي المهربا
أرأيت إذ سَكَبَ الدُّمُوعَ غَزِيرةً ... يَأبَى الحياءُ لمثلها أن يُسكبا؟
مُتصنَّع، باسم الضَّعيفِ يرُيقهُاَ ... وهو الذي ترَكَ الضَّعيفَ مُعَذبا
مَا كانَ أصدقَ نُسْكهُ لو أنه ... رَحِمَ البرىَء، ولم يُجابِ المذنبا
يَهذي بذكرِ العدلِ في صَلَوَاته ... أرأيتَ عَدْلاً بالدماءِ مُخضَّبا؟
هَلْ سَأَلتم جُرحَهاَ ... مَا بالُهُ اسْتَعْصَى؟ ومَاذا أعقبا؟ (رُسُلَ العروبة)
جُرْحُ تَقَادَم عَهْدُهُ، وتَفتَحَّتْ ... أفْوَاهُه تَدْعُو الأسَاةَ الغُيَّبَا
أنتم أُساةُ الجرحِ، فاتخذوا له ... من طِبّ (شيخ أساتكم) مَا جَرَّبا
وَصَفَ الدّوَاَء لكم، وخَلَّف عِلْمَهُ ... فيكم، فأين يُريدُ منكم من أبى؟

يَا قَوْم لَسْتُم بالضّعافِ فغَامِروا ... وَخُذُوا مَطَالِبَكم سِراعاً وثُبّا؟
أفما كفاكم قُوّةً من دِينكم ... ما جَمَّعّ الإيمانُ فيهِ والّلبا؟
يَا (آلَ يَعْرُبَ) مَنْ يُرِيني (خالداً) ... يُزجى الخميسَ، وَيَسْتَحِثّ المِقنَا؟
مَنْ شاَء منكم فَلَيُكنْهُ، وَلاَ يَقُل ... ذَهَبَ القديُم، فإنهُ لَنْ يَذهبا
السَّر باقٍ والزَّمَان مُجدَّدٌ ... وَالسيفُ مَا فّقّدّ المَضاَء وَلا نَبا
رُدُّوا المظالِمَ عن مَحارم أمَّةٍ ... رَدَّتْ ظُنُونَ ذَوي الجهالة خُيَّبا
لَمْ يُعْطِ أوطانَ حَقَّهَا ... مَنْ كانَ يَطْمَعُ أن تُبَاعُ وتوهبا
أحمد محرم
جحيم
للأستاذ عبد الحميد السنوسي
أتخافين في اقترابك مني ... واقترابي مصارع العشاق؟
أم تخافين أن ترانا عيون ال ... ناس في خلوة وطيب عناق؟
أم تخافين ألسن الناس تمشي ... في هوانا بالسوء عند التلاقي؟
أم تخافين لوم من ليس يرضي ... هـ لقائي واللوم مر المذاق؟
لو سما غيرنا إلى أفق الحب ... ولاقوا في حبهم ما نلاقي
لاستراحوا من التهامز والغمز ... فقرّتْ قلوبهم والمآقي
ضللتهم شكوكهم فاستباحوا ... ما استباحوا من الدم المهراق
وبقينا كما ترانا صديعين ... على الدهر في جحيم باق
لَم مَنَّيْتِنِي إذا كنت تخشين ... لقائي وتنكرين اشتياقي؟
لِمَ جددت باللقاء الأماني ... ثم عذبتني بهذا الفراق
لِم أوريت باللقاء حنيني ... ثم أسلمتني إلى أشواقي؟
لم عجَّلت اللقاء بتوْد ... يعي فودعتني بهذا التلاقي؟
أتسرين بالضرام إذا ما ... شب في أضلعي وفي أحداقي
أتسرين بالمدامع تجري ... إن دمعي دم الفؤاد المراق!
عبثاً أرتجي لقاءك ما دم ... تِ تخافين خلوة المشتاق
عبثاً أرتجي لقاءك ما دم ... تُ على القرب والنوى في احتراق
أين عيناك
للأديب محمد هاشم الموصلي
يا حبيبي تطاول البعد واربدّ ... تْ سمائي بحالكٍ من غمام
أين عيناك تقرأان بعينيّ ... سطور الشقاء والآلام
وأرى فيهما بريق أمانيّ ... فيغفو قلبي على الأحلام
أبداً تعتري فؤاديَ ذكرا ... كَ فاهتزّ من أسى وهيام
كلما أوشكتْ تحور إلي البر ... ء جراحي تجددت بابتسام
يا نجيَّ في وحدتي وسميري ... ورُؤى مقلتي وطيف منامي
طف بقلبي كما تطوف ألامانيّ ... وهدهد جرح الغرام الدامي
ثم كفكف مدامعي فعيوني ... ليس ترقا من لوعة وغرام
وارْو من مورد الحنان بقايا ... مهجة لم تُرَعْ من الأسقام
(حمص)
محمد هاشم الموصلي
كيف يعيشون. . .؟
للأستاذ رفيق فاخوري
من لي بقلب كالصفاة مُفْلق ... غفلان من سجن الهموم مغلق
خال - كجوف العير - مما ينفع ... ليس له وليس فيه مطمع
من العلوم والفنون أصفى ... فما يحير الدهر منه حرفا
لا يعرف الكُتب ولا الدروسا ... أفرغ من فؤاد أم موسى
إمَّا يطف به الغباء يعلق ... وإن يلامسه الذكاء يزلق
من لي بمال تالد ما تعبت ... يدٌ بجمعه ولا رجلٌ سعت
أنفقه في طاعة النفس متى ... شئت ولا أعرف من أين أتى
يسحرني في الكيس حسن شكله ... يعجبني في السوق صدق فعله

أحمد آبائي عليه ألفاً ... أغرف باليدين منه غرفا
ببأسه أطول من يطاول ... بسيفه أصرع من يصاول
أشري به جاهاً وعزاً أغلبا ... وسؤدداً فوق الُّسها مطنَّبا
ونسباً متصلاً بيعرب ... ما خالطته لوثة من أجنبِي
لو أن لي هذا الذي وَصَفتُ ... لعشتُ في قومي كما أردت
سبحان من قد سوَّد البهائما ... وخصَّ بالمكرمة السوائما
رفيق فاخوري
البريد الأدبي
والله لا يستحي من الحق
قرأ ابن كثير في رواية شبل: (لا يستحي) بياء واحدة، وهذه تميمية، كما قال الأخفش، واستحيا حجازية، (ووزنه على هذا (يستفع) إلا أن الياء نقلت حركتها إلى العين وسكنت؟ وقيل المحذوف هي العين وهو بعيد) كما قال العكبري، وفي (الأساس): (واستحييت منه، واستحيت، وأنا أستحي منه) وفي (الصحاح): (يقال: استحيت بياء واحدة، أعلوا الياء الأولى والقوا حركتها على الحاء) قال سيبويه: (وإنما فعلوا ذلك حيث كثر في كلامهم) وفي (القاموس): (واستحى منه) وفي (التاج) كلام مستفيض في هذه الفظة، وفي (اللسان): (واستحيا واستحى حذفوا الأخيرة كراهية التقاء الياءين. الأزهري: للعرب في هذا الحرف (يعنى الكلمة) لغتان) واستحيا هي الفصحى، واستحى فصيحة
(* * *)
جائزة واصف غالي باشا
أرسل واصف بطرس غالي باشا إلى المسيو فرنسوا بياتري رئيس جمعية (فرنسا ومصر) كتاباً قال فيه: - (بمناسبة الذكرى الثالثة لإنشاء هذه الجمعية رأيت تنويها بما تبديه فرنسا من الاهتمام الخاص نحو مصر أن أرسل إليكم تحويلاً بألف جنيه عسى أن يكون في وسع الجمعية أن تنشئ من إيراد هذا المال جائزة لمكافأة الأعمال الفنية والعلمية والأدبية التي تزيد في إنماء العلاقات والروابط العلمية والأدبية والاقتصادية بين البلدين، أو تنشئ نوعاً من المباراة بين الطلبة الفرنسيين والمصريين في موضوعات تتناول عمل فرنسا واشتراكها في أي فرع من فروع الحياة المصرية. وما أوسع مجال هذا العمل منذ الحروب الصليبية إلى الآن. وإني أعرض عليكم هذا الرأي كعضو في الجمعية تاركاً لكم حرية العمل كما تشاءون)
ومن العلوم أن واصف بطرس غالي باشا انتخب منذ حين قريب عضوا في اللجنة الفخرية في هذا الجمعية.
مكتبة الأزهر
تحتوي مكتبة الأزهر على أعظم مجموعة من المؤلفات العلمية القيمة بعد مجموعة دار الكتب المصرية. إذ أن فيها الآن نحو 160 ألف مجلد في مختلف العلوم والفنون قديمها وحديثها، وأكثر هذه المجلدات من تأليف فحول العلماء في مصر والبلاد الإسلامية الأخرى في العصرين القديم والحديث.
ويكاد يزيد المخطوط من المؤلفات في هذه المجموعة النادرة من الكتب على نصفها. فهو لا يقل بحال عن ثمانين ألف مجلد ويستطيع من يرى تلك المخطوطات في المكتبة الأزهرية أن يلمس مالها من قيمة، فهي تعطي صورة كاملة للخطوط في مختلف الأمم والعصور الماضية. فهذا أندلسي، وذاك كوفي، وذلك فارسي، وهذه كتابة على رق غزال، وتلك سطور في رقاع يرجع تاريخها إلى ما قبل قرون وأجيال.
وبين الكتب المخطوطة في مكتبة الأزهر كتاب (غريب الحديث) للأمام أبى عبد الله القاسم بن سلام المتوفى سنة 223 هـ وهو مكتوب بخط أبي الخطاب الحسيني بن عمر ألعابدي؛ وقد فرغ من كتابته سنة 311 هـ أي قبل بناء الجامع الأزهر بثمانية وأربعين عاماً.
وقد تشرف جلالة الملك فأبدي اهتماما خاصاً بهذا الكتاب الذي يكاد يكون أقدم مؤلف مخطوط في بابه، وتكاد النسخة الموجودة منه في الأزهر تكون مقطوعة النظير حتى أن جلالته أوصى بالمحافظة عليه ويلي هذا الكتاب في قدم العهد بكتابته مؤلف مخطوط آخر هو (رسالة في الحاسد والمحسود) ألفها أبو عثمان عمرو بن بحر

الجاحظ، وكتبها بخطه على بن هلال المتوفى سنة 412 هـ. أي أن هذه الرسالة قد مات كاتبها منذ 944 سنة.

وفي المكتبة مجموعة من المصاحف المخطوطة مختلفة الأحجام والخطوط، ومنها مصحف يرجع تاريخ كتابته إلى أوائل القرن الرابع الهجري، وهو مكتوب بالخط الكوفي على رق غزال من القطع الكبير.

ومنها مصحف كتبه علي بن أمير حاجب بخطه سنة 722 هـ وأتم كتابته في ستين يوماً، وهو في مجلدين كبيري الحجم، في كل منهما نصف القرآن. ويمتاز هذا المصحف الخطي النادر بما في أوله من إحصاء دقيق بعدد حروف القرآن، وآياته، وسوره ورموز القراءة، والسجدات والسور التي تشمل على الناسخ والمنسوخ، وكيفية نزول القرآن، وجمعه وبيان بعض القراءات.

حول تيسير قواعد الإعراب

لقد شاءت الآنسة الفاضلة (أمينة شاكر فهمي) أن ترد علي بعد أن نبهتها إلى تلك الأخطاء الظاهرة في ردها الأول، ومنها أنها لا تزال تدعى أنى غيرت الإعراب وأبقيت القواعد على ما هي عليه، مع أني غيرت القواعد أولا، ثم غيرت الإعراب ثانياً، وإني بعد هذا لا يسعني إلا أن اختار السكوت فيما بيني وبينها، والسكوت في بعض الأحيان قد يكون خير من رد.

(أزهري)

دراسة التصوف في أوربا

يحلو لكثير من المشتغلين بدراسة التصوف الإسلامي أن يقارنوا بينه وبين التصوف في العصور الوسطى في أوربا، وبينهما وبين التصوف الهندي، وهى بحوث لا تخلو من لذة، ويزعم بعض المستشرقين أمثال الأستاذ فون كريمر أن التصوف الإسلامي يرجع في بعض نواحيه إلى النرفانا، ويماثلونها (بالفناء) عند الصوفية من أهل الإسلام، وينقض هذا الرأي الأستاذ رينولد بيكلسون - وهو اليوم أعظم المشتغلين بهذه الناحية - ويرى أن الزهد الإسلامي مستقل عن أي تصوف آخر، ويميل لهذا الرأي الأستاذ ماسنييون وهو أيضاً من أقطاب الباحثين فيه.

وعلى الرغم من كثرة الكتب في هذا الباب، فإن هناك عدداً وفيراً لازال رهن المخطوطات، ومبعثراً في دور كتب أوربا؛ ومن المشتغلين اليوم بهذا الفرع من الدراسة الأستاذ آرثر حنا أربري (وكان من قبل أستاذاً بكلية الآداب بالجامعة المصرية) فنشر بضع مخطوطات منها كتاب (المواقف والمخاطبات) لمحمد بن عبد الجبار النَّفري (المتوفى سنة 360 هـ)، وطبعه في سلسلة جب التذكارية، وأرفق النص بترجمة له، ودراسة وافية - بالإنجليزية - عن الألفاظ الصوفية التي استعملها المؤلف، واصطلاحات المتصوفة ومقدمة في حياة النفري.

وأسلوب النفري في غاية العمق، كما أن كثيراً من عباراته تكاد تكون غامضة مهمة تتطلب خبرة غير قليلة ودراسة قوية للتصوف، أما المخاطبات فبينه وبين الحق، كما في قوله

(أوقفني في العلم وقال لي: حجبتك بعلمك في حجاب من علمك فما عرفتني، فإن لم وابن عبد الجبار النفري (تخرج من علمك إلى معرفتك فأنت في حجاب من العلم يتكلم عن ناحية الإلهام وعن الذات الإلهية،، ومواقفه بين يدي الحق مثل موقف العز والانتقام والخوف ثم تعتريه حالات تطرأ على نفسه فيذكرها.

كذلك نشر الأستاذ أربري من قبل في مصر كتاب التوهم للحارث بن أسد المحاسبي (سنة 243هـ) وهو أشبه ما يكون برواية طريفة في ذكر الجنة والنار، وكان ابن أسد المحارثي هذا من معاصري احمد بن حنبل (راجع تاريخ بغداد ج8 ص211 - 126) وأسلوب المحاسبي في هذا الكتاب أميل للناحية الأدبية، والقطعة التالية منه تبين أسلوب الكتاب ومرمى المؤلف، يقول (وتوهم حين وقفت بالاضطراب يرعد قلبك، وتوهم مباشرة أيديهم على عضديك وغلظ أكفهم حين أخذوك، فتوهم نفسك محثوثة في أيديهم وتوهم تخطيك الصفوف، طائر فؤادك، فتوهم نفسك كذلك حتى انتهى بك إلى عرش الرحمن فقذفوا بك من أيديهم، وناداك الله عز ووجل بعظيم كلامه، (أدن منىّ يا ابن آدم) فَغَيَّبَك في نوره) وقوله في موضع آخر حيث الصراط (فتوهم نفسك وقد أنهيت إلى آخره فغلب على قلبك النجاة وعلا عليك الشفق، وقد عانيت نعيم

الجنان وأنت على الصراط). .
ويشتغل الأستاذ أربرى هذه الأيام في إخراج مخطوط آخر للمحاسبي، وهو يجد لذة في إخراج أمثال هذه المخطوطات التي ليس من شك في أنها تلقى ضوءًا جديداً على دراسة التصوف، وتنير السبيل للباحثين فيه.
وهناك من المستشرقين المهتمين بهذه الناحية الأستاذ ميشيل أزين بلاتشيوس الأسباني، وهو يعكف منذ أمد بعيد على دراسة التصوف الإسلامي، والفلسفة الإسلامية وخاصة ما كان منها متعلقاً بمسلمي أسبانيا، وقد نشر منذ أمد بعيد رسالة قيمة عن ابن مرْة (بالأسبانية) عالج فيها مبادئه وآراءه، وأفكاره السياسية، وبسط فيها الفكرة الشيعية التي أثرت عليه فجعلت منه داعياً وفيلسوفاً.
المستشرقون والحياة الشرقية
في الخامس من شهر سبتمبر الماضي انعقد بمدينة بروكسل مؤتمر المستشرقين، حيث ألقى فيه الأستاذ (بروجلهاون) - وهو من علماء الاستشراق المعروفين بحثاً وافياً عن تطوّر
الشعر العربي في نصف القرن الأخير، وألم فيه ببعض شعراء مصر. واهتمام المستشرقين بدراسة الأدب العربي ليس بالشيء الجديد، وإن كان - على أية حال - يشير إلى عناية هؤلاء القوم بدراسة الشرق في نواحي تفكيره المختلفة. وفي عصوره القديمة والحديثة على السواء.
ودراسة المستشرقين لأقطاب الفكر العربي دراسة تحلو من كل مغمز، قوامها تحليل ما يكتبه هؤلاء وعرض آثارهم الفكرية على العالم الغربي والمهتمين بتتبع الأمور في بلاد الشرق. ومنذ أمد قريب نشر الأستاذ كراتشوفسكي المستشرق الروسي مقالاً عن الأدباء المحدثين في مصر وسورية، كما نشر من قبل الأستاذ جب سلسلة من الأبحاث القيمة الدقيقة في مجلة مدرسة اللغات الشرقية بلندن، تناول فيها أدباء مصر ومؤلفاتهم، كذلك نشر الأستاذ كمبفماير عدة بحوث عن شاعر العراق المرحوم جميل صدقي الزهاوي، وترجم إلى الألمانية بعض قصائده.
والمتتبعون لما يكتبه الدكتور بروكلمان يرون أنه في الملاحق التي أضافها لكتابه قد تناول كثيرين من أدبا العربية في مصر والشام والمهجر أمثال العقاد وهيكل والمازني وطه حسين والزيات ومنصور وفهمي وسلامة موسى وجبران خليل جبران وميخائيل نعيمة واليازخي وغيرهم مشيراً خلال ذلك إلى إنتاجهم الفكري في الترجمة والتأليف.
ولما طبع المرحوم شوقي بك روايته (مجنون ليلى) ترجمها بأذن منه الأستاذ أربري وكان إبان ذلك الوقت أستاذاً بكلية الآداب بالجامعة المصرية، ولقد حافظ المترجم في ترجمته هذه على الروح الأصلية فجاءت آية في بابها، ومثالا يحتذي في دقة الترجمة، وإدراك العاني كما تدل على أصالة شعرية وطبع موهوب، ولعل البعض يسأل عن علة اختيار هذه الرواية بالذات؛ والجواب على ذلك أن الأستاذ ممن لهم ولع بدراسة التصوف الإسلامي في رواية مجنون ليلى تتجلى روح قل أن تنبه لها إلا القليلون، تلك هي أن ليلى عاشت عذراء وماتت عذراء طاهرة رغم زواجها وقصارى القول أن عناية المستشرقين روائع الأدب العربي الحديث إلى لغاتهم الأوربية أو الكتابية عن أقطاب الفكر في مصر والشام وغيرهم من المعاصرين لها دلالتها على حيوية الأدب الحديث، كما أن فيها إطلاع الغرب على النهضة الفكرية في الشرق.
ح. ح
المسرح والسينما
شيء من لا شيء أيضاً
مدت سينما ستديو مصر عرض فلمها الأول لهذا الموسم (شيء من لا شيء) أسبوعاً آخر، دالة بذلك على أن الإقبال عليه كان عظيماً في الأسبوع الأول. وهذا صحيح، فقد أقبل المتفرجون والمتفرجات ووحدانا ومن كل فج من فجج القاهرة والضواحي لرؤية باكورة إنتاج ستديو مصر في هذا الموسم، ومصدر ذلك الإقبال الذي شاهدناه بأعيننا هو أن الجمهور اعتاد من هذا الاستديو الكبير أفلاماً ممتازة بين زميلاتها المصرية، قوية بالنسبة لغيرها، في الموضوع والإخراج والتمثيل والمونتاج. وقد يجوز لنا أن نعترف لهذا العلم بأنه حققا الأمل ولكن إلى حد، لأنه وإن كان قوياً في بعض النواحي ضعيف في أكثرها، ولاسيما الفنية منها. وذلك ما نأسف له كثيراً، ونهتم له كثيراً في الوقت

عينه. وما دمنا كذلك فلا يلمنا لائم إذا نحن عرضنا لتعداد بعض ما في هذا الفلم من عيوب، بعضها ظاهر لاحظه الجمهور كما لاحظناه، وسجله نقاد آخرون كما سجلناه، والبعض الآخر تسنى لنا أن ننفرد بتسجيله حتى يتنبه المسؤولون إليه ويعنوا بتلافيه في الأفلام القادمة.

الرواية: خيالية شرقية مقتبسة من ألف ليلة وليلة، وهي في الأصل غنية بالمواقف المؤثرة والمناظر المضحكة والعبارات الرائقة وفي رأينا أنها صالحة لأن يصنع منها سيناريو جيد

السيناريو: كان ضعيفاً مع الأسف، الشديد، فليست له وحدة تجلو الموضوع من جهة، و (التقطيع) فيه مقتضب وغير متمش مع أصول القصة من جهة أخرى، وقد كان ذلك مثار دهشة النفاد جميعاً لأن أفلام الاستديو السابقة كان لها سيناريات أقوى وأمتن وأدق من هذا السيناريو

الإخراج العام: لعله أحسن ما في هذا الفلم. وهذه شهادة طيبة للأستاذ بدر خان مخرجه، فقد راعى فيه الفن كل المراعاة تصميم الديكور: لم يكن به عيب، ولكن اغلبه التقط من زوايا غير مناسبة ومجموعة الديكور في (شيء من لا شيء) خير من سائر مجموعات الأستديو السابقة بلا استثناء.

الملابس: لم نفهم فيها شيئاً، وكانت خليطاً غريباً من ملابس العرب والمسلمين والعرب والروس والأروام في وقت معاً، ولعل مرجع ذلك أن الرواية خيالية، وتنسيق الملابس كان اجتهادياً.

الحوار: كان سخيفاً مع أن واضعه من مشاهير كتاب الحوار. وقد علمناً أنه كلف بكتابته سجعاً، وقد بينا أثر السجع على انتباه الجمهور في العدد الماضي فلا داعي لإعادته. ونحن نرجو بشدة ألا يتكرر مثل هذا.

الأغاني: لم يصادفها التوفيق قط، وكان تلحينها (أوبرا) مزيفة، وفي مناسبة الأوبرا ومناسبة الغناء الارتجالي العادي، وكانت فاترة ولاسيما أغاني بطل الفلم عبد الغني السيد الذي سمعنا له مقطوعات في الإذاعة أقرب إلى طبيعة صوته وأدنى إلى الجودة وبراعة التلحين من مقطوعاته بالفلم.

التمثيل: وفق الأبطال المضحكون الثلاثة كل التوفيق في إضحاك الجماهير. ولكنهم فشلوا كممثلين سينمائيين. فقد كانوا يتبعون طريقة المواقف المسرحية الاستعراضية، وكانوا يكثرون من (القفش والتنكيت) وكان لهم في بعض المواقف (تهريج) غير محمود وإن كنا نظن أنه أعجب كثيراً من الناس. وقد طغى الجانب الفكاهي على الجانب الغنائي، وفشلت نجاة على وزميلها عبد الغني السيد في أداء دوريهما فشلاً ذريعاً، والمسئول عن ذلك هو المخرج دون سواه؛ ويكفي أن نقول إن وجه عبد الغني السيد لم يكن يعبر عن شيء قط، وكانت حركات فمه أثناء الغناء غير متفقة مع مخارج الكلمات التي ينطقها!

المونتاج: أصيب الفيلم من جرائه بتلف كبير واقتضبت لقطات كثيرة دون سبب ظاهر. مثال ذلك عبد الغني السيد حين عاد إلى غرفة حبيبته من الخارج فوجد بها الأمير عنتر يحاول أن يقبلها، فقد رأيناه يدخل الغرفة، ثم رأيناه مباشرة (نازل طحن) في الأمير عنتر ورجاله بسيف من سيوف الشيش لم يعرفه المسلمون دون ريب من قبل هذا الفيلم! ولولا المونتاج لكان الفيلم أقوى كثيراً مما هو الآن.

كلمة أخيرة: ويطول بنا الكلام إذا نحن توسعنا في ذكر سائر العيوب ولذلك نكتفي بما قدمنا، راجين من حضرات الأخوان الذين يخصهم هذا الكلام من رجال الاستديو أن يطالعن بغاية، ويجتهدوا في تلافي هذه العيوب في الأفلام القادمة ولعل ذلك يكون قريباً إن شاء الله، أن نريد إلا الإصلاح ما استطعنا وما توفيقنا إلا بالله.

والت ديزني

وأخيراً!!.

لاشك أن رواد السينما يعرفون رجلاً اسمه (والت ديزني) يقدم لرواد السينما من وقت لآخر قطعا من الرسوم المتحركة الملونة نالت إعجابهم وتقديرهم لأنها في الحق بلغت الذروة في جمال رسومها وألوانها. . . استمر والت ديزني هذا يعمل ثلاث سنوات في الخفاء أنفق خلالها مليونً من الجنيهات المصرية وبمساعدة 500 فنان أنتج (الأميرة

الصغيرة والأقزام السبعة) وهي اعظم فيلم عرفه العالم في هذا النوع.
بهجة الحياة
رأت شركة ر. ك. و. راديو أن تشارك الأمة المصرية أفراحها بمناسبة حلول شهر رمضان المبارك فقررت عرض رواية (بهجة الحياة) أعظم رواية مضحكة أنتجتها شركات السينما للآن تمثيل إيرن دن ودوجلاس فيربنكس الصغير؛ وهذه الرواية عرضت في لندن 4 شهور متوالية، وفي نيويورك 7 شهور وفي باريس 3 شهور، وفي روما 5 شهور!! وقد نالت هذه الرواية نجاحاً لم يسبق له مثيل في العالم، ويكفى أن نقول: إنها أضحكت كل مدينة بأسرها حينما عرضت فيها ونالت إيرن دن بعد تمثيلها هذه الرواية لقب أعظم ممثلة مضحكة! أما دوجلاس فيربنكس الصغير فقد أصبح من كبار ممثلي السينما بعد أن أضحك أوربا وأمريكا!
ومن أظرف ما يروى عن هذا الفلم أنه حين عرض في نيويورك أغمي على 37 شخصاً من شدة الضحك في الحفلة الأولى، وكانت هذه أقوى دعاية عرفتها السينما لفلم ما!
العدد 278 - بتاريخ: 31 - 10 - 1938
إحياء الأدب العربي
للأستاذ عباس محمود العقاد
نشرت الصحف اليومية أن صاحب المعالي محمد حسين هيكل باشا وزير المعارف (يعنى الآن بدراسة طائفة من المشروعات التي ترمي إلى بعث كتب الأدب العربي القديم، وصوغها في أسلوب عصري يقرب من ذوق الطلاب ومريدي الأدب، وإن الوزارة تفكر في نشر المخطوطات المجهولة التي تتصل بالأدب المصري وفيها فائدة للطلاب)
وإن الوزير الأديب ليصنع خير صنيع إذا وجه وزارة المعارف هذه الوجهة النافعة، ولديها ولا ريب وسائلها الوافية. فالآداب العربية مشحونة بالذخائر النفيسة التي عليها طابع الذهن العربي والحياة المشرقية لا يشركها فيها أدب من آداب الأمم الأخرى بمثل هذه الخصائص أو بمثل هذه الوفرة. وعندنا في الكتب المطبوعة والمخطوطة ثروة من أدب النوادر والفكاهات والأمثال والآراء الموجزة والملاحظات النفسية لا تجتمع في أدب أمة أخرى. وأحسب أن الأجوبة العربية التي اشتهرت بالأجوبة المسكتة لو ترجمت كلها إلى اللغات الأوربية لغطت فيها على شهرة الأجوبة اللا كونية المنسوبة إلى إسبرطة والمأثورة بين الأوربيين بالإيجاز والإفحام والمضاء، وتشبه هذه الأجوبة الأمثال والحكم والمشورات والنوادر التي يسوقونها بغير تعقيب ولا تفسير، ولكنها كبيرة المغزى عظيمة الإيحاء عند التأمل فيها والتدبر في أغراضها. ويقترن بما تقدم كله سير (الشخوص) التاريخية التي ظلمناها بإهمالها واستصغارها، وإن في كلمة من بعض كلماتها، وفي حيلة من بعض حيلها، وفي خطة من بعض خططها، ما يسلكها بين أعظم الشخوص العالمية التي تحيا في سجلات التاريخ بكلمة أو بمشورة أو بخليقة من خلائق السيادة والسياسة
هذه ثروة يسرف من ينبذها وهو في حاجة إليها، ويسهل علينا جدًّا أن نضعها بوفرتها بين أيدي الناشئة المصرية فتغنم منها الفوائد الذهنية وتغنم منها الثقة النفسية في زمن كثر فيه المتحدثون بفضائل الأجناس والفصائل والأعراق
وقد نحصر الأسباب التي تحول بين الناشئة وبين هذه الثروة فإذا هي لا تخرج عن سبب من الأسباب الآتية وهي:
1 - التطويل والحشو
2 - التشتت والاختلاط
3 - صعوبة المفردات والمصطلحات
4 - العبارات النابية التي كان المؤلفون في جميع الأمم القديمة يقحمونها بين أخبارهم ولا يتورعون من التصريح بها لأنها من جهة لا تصل إلا إلى أيدي القليلين من نساخ الكتب للتعلم والإستفادة، ولأنهم من جهة أخرى كانوا يعيشون في زمن الفطرة التي لا نتحرج من بعض ما تحضره لباقات الحضارة وكناياتها
وجميع هذه الأسباب علاجها ميسور وعناؤها غير كبير
فالتطويل علاجه الاختصار، ونعني بالاختصار هنا حذف أجزاء وإبقاء الأجزاء الأخرى بنصها العربي القديم، لأن المقصود بالإحياء هو هذا النص لا مجرد الحكاية ولا فحواها.

وقد يجوز أن نختصر حكاية لا تهمنا إذا كانت الحوادث هي المقصودة بالوعي والصيانة.
أما إذا كان المطلوب هو نمط الأداء وأسلوب التعبير والنظر في وضع الجمل
والمفردات فينبغي أن يكون الاختصار بطريقة أخرى غير طريقة التلخيص وتغيير
الكلمات، ليعلم الطالب وهو يقرأ الكتاب أنه يقرأ المؤلف لفظاً ومعنى ولا يقرأ كاتباً
حديثاً ينقل المعاني من ذلك المؤلف القديم
وأما التشتت والاختلاط فليس أيسر من ردهما إلى نسق واحد ونظام متلاحق. ولا ضير
هنا من جمع مؤلفين عدة ومؤلفات شتى في كتاب واحد إذا اتفقت الموضوعات
والمناسبات مع الإشارة إلى أسماء المؤلفين وأسماء الكتب في ذيل كل فقرة، وإلحاق
المنقولات بترجمة وجيزة للمؤلف وبيان وجيز عن الكتاب
أما صعوبة المفردات والمصطلحات فعلاجها الأوفق في رأينا هو التفسير دون التغيير،
وأن يترك ما هو صعب لمن هم أقدر على فهمه من الطلاب، وأن يقصر الناشئة
الصغار على السهل السائغ في المعنى وفي التركيب؛ ولتدرس الكتابات المغلفة على
النحو الذي تدرس به روايات شكسبير اليوم في الجامعات والمدارس الثانوية، أي
مقرونة بالحواشي والهوامش ومقصوداً بها علم اللغة والإحاطة بالفحوى حيناً آخر،
وذلك أفضل من نقلها إلى عبارة أخرى تخرج بها من نطاقها وهو نطاق الأدب القديم
وأسهل الأسباب التي ذكرناها علاجا هو سبب العبارات النابية والأخبار (المكشوفة) كما
نسميها في اصطلاحنا الحديث، فهذه كلها تحذف حذفا من الكتب التي يتداولها الطلاب
ولا يسمح بالاطلاع عليها في المدارس ولا في الأسواق العامة إلا لمن يريدها من
الباحثين والمنقبين عن أطوار الشعوب ودقائق التاريخ
بقى أن نعرف ما هي الكتب التي يشملها الاختيار والإحياء؟ وفي أي عنوان نلتمسها إذا
طلبناها - مثلا - في إحدى المكتبات؟
أفي عنوان الأدب وحده أو في غير ذلك من العناوين والأبواب؟
والرأي، فيما أحسب، أن نوسع الاختيار حتى يشمل جميع الأبواب ولا ينحصر في باب
الأدب وحده بمعناه المشهور
فرب كلمة عارضة في رحلة من الرحلات تصف مدينة أو رجلا أو شعبا من الشعوب
هي أدخل في باب الأدب من رسائل المنشئين البلغاء
ورب قصة في سياق تاريخ هي أدب صميم وخيال محض ليس فيها من التاريخ بقدر ما
فيها من الإبداع والافتنان
ورب شاهد في تفسير آية أو حديث يحتاج إليه الأديب أضعاف حاجة الفقيه
ورب مجاز في استخدام لفظ مهجور تحتويه المعاجم يكون مفتاحا لأسرار التشبيه
والتعبير عند واضعيه الأولين
ورب شتيت متفرق بين كتب الجغرافية والنبات والطب والكيمياء يتألف منه رأي جميع
لا يستغني عنه المقتبس والمستفيد
فالاقتصار على ما اشتهر من كتب الأدب يفوت علينا شوارد هذه الأبواب ويضيق علينا
الأفق الذي نملك توسيعه إلى غاية مداه
فكل ما صلح للاقتباس والاطلاع فليقتبس من أي كتاب ومن أي باب، وإذا كنا لا نأخذ
كل ما في باب الأدب فليس صواباً أن نغلق كل ما عداه من الأبواب
إن المطلب عظيم ومستطاع، وعند وزارة المعارف وسائله من المصادر ومن
العاملين، وكل عناء مبذول فيه هو عناء دون الفائدة المرجوة منه للجيل الحاضر
ولمقبل الأجيال
عباس محمود العقاد

في سبيل الإصلاح
المشكلة الكبرى في حياتنا الاجتماعية

للأستاذ علي الطنطاوي
(تتمة ما نشر في العدد الماضي)
سقت إليك في الفصل الماضي طرفاً من حديث المشكلة، وانتهيت بك إلى الكلام
على المشاكلة بين الزوجين، وأنها ركن كبير من أركان السعادة الزوجية، فإذا لم تكن
مشاكلة، وكان بينهما اختلاف في الغنى أو العلم أو الجاه كانت الحياة الزوجية موتاً
بطيئاً. على أنه لا بأس أن يكون الزوج هو الأعلى في جاهه أو ماله أو علمه، ولكن

البأس كل البأس حين يكون الأدنى، لأن الغنى والعلم والجاه من وسائل السلطان، فإذا كانت للمرأة زاحمت الرجل على سلطانه، ونازعته رياسته ففسد الأمر، واضطرب حبل الودّ. وأحسب أن مبدأ الكفاءة في الزواج (في الفقه الإسلامي) هو الدواء لهذا الداء

وأنا متحدث إليك في هذا الفصل عن سائر أسباب الخلاف بين الزوجين، ولست أزعم أني متقصيها كلها أو محيط بها، فذلك مالا أقدر عليه، ولكني ذاكر منها ما انتهى إليَّ خبره

موقف أهله وأهلها

فمن ذلك موقف أهله وأهلها، فانه من أظهر أسباب الخلاف بين الزوجين، وأكثرها انتشاراً بين ظهرانينا، حتى أنه يبلغ منا العجب حين نسمع أن داراً تجمع بين الكنه والحماة، ولا تجمع إليهما النكد والشقاق والبلاء تصبَّه على الزوج صباً. . . فلا يكاد يروح إلى داره ليجد فيها الراحة بعد تعب النهار، والهدوء بعد الكدح المضني، والكدَّ المميت، حتى تستقبله المعارك والشكايات والدسائس، وما أكثر القراء به عالمون. . . فيحار في أمره: لا يدري أيسوء أمه وهي التي حملته جنيناً، ورَّبته صغيراً، وأحبَّته وجعلته أملها في حياتها، أم يسوء زوجه وهي التي هجرت أهلها وفارقت عشها لتجعله أهلها من دون أهلها وأمنها ومفزعها، ثم إنها قد تكون بريئة لا ذنب لها ويجد أن أمَّه لا ترضى عنه حتى يفارق زوجه - ويتّم أولاده - وزوجه لا ترضى عنه حتى يطرد أمه، ويعصي رَّبه، وهما خُطتان أهونهما أصعب الصعاب، وخيرهما من شرَّ الأمور. . . وليس إلى إقناع إحداهما من سبيل، لأن للمرأة منطقاً خاصاً، يجعل بينها وبين الرجل هوة لا يلتقيان معها أبداً، ويدع الرجل وإقناع ألف رجل أسهل عليه من إقناع امرأة واحدة. . .

والخلاف بينهما أزلي ثابت لا تتغير أسبابه. فالأم ترى أنها هي سيدة الدار لأنها الكبرى، ولأنها الأصل، وأن على الكنه التي أحضرتها بيدها واختارتها برأيها، أن تطيعها، وتعمل بأشارتها؛ والزوجة ترى أن الأم العجوز قد مضى زمانها، وذهبت أيامها، وأصبحت كالموظف المتقاعد، له مرتب وليس له أمر ولا نهي، وأنها هي السيدة في الدار، وأن لها الرأي في إدارتها. ثم إنهما تختلفان على قلب الرجل، فالأم التي عرفته وليداً، وربته طفلا ويافعاً، وكان لها وحدها - لا تطيق أن تراه وقد صار لغيرها، ولا تقدر أن تبصر نفسها فريدة في غرف الدار، كأنما لم يكن لها ولد لأن ولدها خال بزوجته. . . والزوجة التي أعطت زوجها قلبها كله وحبها وحياتها ولم تجعل له شريكاً فيها، لا تستطيع احتمال هذه الشركة بينها وبين هذه العجوز، ولا يقنعها إلا أن يكون الزوج خالصاً لها. . .

وما يقال في الأم يقال مثله في الأخت، بل إن، الأخت إذا كانت عانساً لم تتزوج، وإذا كانت على بقية من شباب، تكون أشد على الرجل من أمه، لأنها أقل منها حباً وحناناً عليه، وأكثر غيرة لمكان الصبوة من نفسها، ولأنها ترى امرأة غريبة تستمع بالزواج الذي حرمت هي منه، ويكون هذا الزوج أخاها، غلبتها هذه الغريبة عليه، وحرمتها عطفه وحبه، فيكون حرمانها مضاعفاً. . .

هذا وليس ينفرد أهل الزوج بإدخال الألم عليه، وتنغيص حياته الزوجية، بل يشارك في ذلك أهل الزوجة، يكرهون فتاتهم على الزواج بمن لا تريده، لعلو سنه عن سنها، أو قبحه وجمالها، فلا يحفلون إرادتها ولا يبالونها لأنهم يرونه غنياً، فهم يبيعونها منه بيعاً، أو صاحب جاه فهم يجعلونها وسيلة إلى الانتفاع بجاهه، بل ربما زوجوا الفتاة بنت خمس عشرة، بالشيخ أبي الستين، ولم يستأ مروها ولم يروا رأيها، وربما زوجوها من الرجل القبيح. ولقد قال عمر (الرجل الملهم) فيما أحتفظ من قوله: (لا تكرهوا فتياتكم على الرجل القبيح فأنهن يحببن ما تحبون). . . فتدخل الزوجة دار زوجها وهي كارهة، فلا يأتي منها إلا مساءته وأتعابه، إن لم يسقها صباها وعجزه إلى أن تتصل بغيره من الفتيان أو تموت سلاً وكمداً

هذا طريق، ولأهل الزوجة طريق آخر إلى إفساد الحياة الزوجية، هو التقصير في تربية فتاتهم أولاً، وعجزهم عن ضبطها وتأديبها ثانياً. فإذا كانت الزوجة سيئة الخلق وعناء، فأنها تدع دار زوجها لأتفه الأسباب، وتذهب مغاضبة تشكو إلى أهلها وتستعديهم، فإذا كان أهلها عقلاء ردوها إليه، وأصلحوا ذات بينهما، ولاموها على خلوة بها، كما يلومونه

على خلوة به، فيؤلف الله بين القلبين، وتعلم الزوجة أنه لا ملجأ لها إلا دار زوجها، ولا منجي لها إلا حسن خلقها فترضى وتستقيم، وأما إذا كان أهلها جاهلين فإنهم يغضبون لها غضبة الجاهلية فيعينوها على طلاقها ويزيدون في عنادها فيخربون بيوتهم بأيديهم، ويسوقون الشقاء إلى فتاتهم، ويكونون شراً عليها وعلى زوجها ووبالاً . . .

ودواء هذا الداء أن يبحث الرجل عن أخلاق الأسرة، وأسلوبها في تربية بناتها، وحال أمها مع زوجها ومبلغ طاعتها له ورضاه عنها، قبل الإقدام على الزواج، فإذا اطمأن إلى ذلك وصاهر عقلا حازما، وكان الزواج برأي الفتاة ورضاها، من غير احتيال عليها ولا إكراه لها، فقد أمن جانب أهلها، وبقى عليه جانب أهله. . . والمصيبة بهم أشد. . .

والعلاج أن يتفرد عنهم بزوجته. فإذا لم يستطيع ذلك، فعليه بالحزم في الأيام الأولى، وأن يعرف لأمه حقها، فان زوجه تطيعه وتتخرج عليه وتتربى على ما يأخذها به، أما أمه فلا سلطان له عليها. . . ولا عليه بعد ذلك أن يرضى زوجته فيما بينه وبينها، ويعوضها بما فقدت من السيطرة في الدار، بما يدخل السرور على قلبها ويملؤه رضى وأملا والسبل إلى ذلك شتى

المشاكل المالية

أولها هذا (الجهاز) فكم ثار من أجله من خلاف، وكم هد من أسر، وكم أصاب من بلايا. . . يتنافس القوم من أجله في إغلاء المهور حتى تبلغ المئات من الجنيهات، فتبور سوق الزواج، وتكسد البنات، ثم إذا كتب الله على الزوج أن يدفع هذا المهر الفاحش، لم يكن دفعه غنما للأب ولا لفتاته، لأن عليه أن يدفع مثل ما دفع الزوج أو قريباً منه، ثم يشتري بذلك كله أثاثا ومتاعا، وما شئت من الخرثى الذي لا ينفع في دنيا ولا آخره، فمن خزانة محفورة منزَّل فيها أدق الأصداف ثمنها سبعون جنيها، ومن مقاعد وأرائك على نحوها ثمنها مائتان لكنها لا تقيم على الاستعمال عاما واحدا، ومن ستائر للنوافذ ثمن إحداهنَّ عشرة جنيهات، ومن أوان فضية وقوارير كولونية تصف على المناضد صفا، كصف الجند

ثم لا تفتح أبدا، والمناضد (نسيت المناضد) وثمن إحداهنَّ عشرات الجنيهات، وغير ذلك مما لا أعرفه ولا أذكر اسمه وان كنت قد رأيته في دور الحمقى والمغفلين . . .

ولقد عرفت شابا مستور الحال أراد الزواج فطلبوا منه أربعمائة دينار ذهبي، فباع داراً كانت لأبيه، وأعدَّ المهر، فسلمه إلى أم الزوجة، وضمت إليه أمها ثلاثمائة من عندها لتشتري بها جميعا (جهازاً) لابنتها، فلما بلغه ذلك طار عقله وذهب يقنع أم الفتاة أن تشتري لها بذلك داراً (عمارة) يكون لها ملكها وريعها وتبقى على الدهر فقبلت ومرت أيام فبلغه أنها قد عدلت عن ذلك وأنفقت المال كله في الجهاز. . . فسألها عن السبب فإذا السبب أن البنت بكت وقالت: هل أنا دون ابنة فلان، وقد جهزوها بكذا. .؟؟ قالت الأم: (فقطع قلبي بكاؤها، فلم يسعني إلا أن أفعل ما تريد. . .)

وتم العقد واستأجر الزوج داراً فخمة (على نسبة الجهاز) فلم تمض إلا شهور حتى ركبه الدين، فاضطر إلى استئجار دار تليق به، ويحتملها مرتبه، فلم يلق فيها مكاناً لهذا (الجهاز) فذهبوا يبيعونه؛ فلم يأتهم بأكثر من مائة وعشرين، وقد كان ثمنه سبعمائة . . .

ومن مشاكل الجهاز أن الزوجة تجده رأس مالها، وقنيتها في حياتها، فتحافظ عليه محافظتها على روحها، وتكره أن يدعى إلى الجلوس على مقاعده ضيوف زوجها، أو أن يدخل غرفته زوار أهله، وقد لا يكون في الدار غرفة للاستقبال سواها، لان الناس يجعلونها أبداً للاستقبال. فتبدأ المشاكل. . . وقد تنتهي بالطلاق. . . رأينا ذلك مراراً

وعندي أن الدواء إبطال الجهاز بالمرة، وأن يفرش الرجل داره كما يريد ويستطيع، ويشتري بالمهر القليل الذي يدفعه الزوج عقار تملكه الزوجة ويسجل باسمها، أو حلية ذهب تبقى لها محتفظة بثمنها

والمشكلة المالية الأخرى نفقات المرأة وكسوتها. وقد قدمت القول بأن كسوة النساء (إلا الضروري منها) تبذير من عمل إخوان الشياطين وإسراف لا جدوى منه، وسبيل إلى كل ما يكره الرجل وتأبى العادات والمروءات وينكر الدين، من أجل ذلك قال عمر الذي ينظر من وراء الغيب بعينين من إلهام وتحديث (استعينوا على النساء بالعرى) وليس يرى العرى المطلق، بل النزاهة عما يضيع المال والعرض معا . . .!

أقص عليك قصة امرأة واحدة، فيها وصف لنساء كثيرات، تلك هي امرأة موظف كبير

مرتبه ثلاثمائة ليرة سورية، وهو مبلغ في دمشق ضخم، تخرج من دارها كل يوم في عربة أو سيارة لا تستطيع لثقلها أن تمشي، فتطوف على بيوت الناس، فأصبحت تعرف عشرات من الأسر الغنية المبذرة. فلا يمر أسبوع لا تدعى فيه إلى عرس أو حفلة إلا كلفت زوجها كسوة جديدة. لأن من العار عليها أن ترى بثياب قد سبق فرئيت فيها من قبل. فتشتري الإزار والرداء (أو ما يقابله في الاصطلاح النسائي فما أعرف ماذا أقول. . .) والحذاء والجوارب، ويتراوح ثمن ذلك (كما حدثني المسكين وحلف لي) ما بين ستين وتسعين ليرة سورية فلا يقوم مرتبه كله بكسوتها. فيستدين ليتم لها ما تريد وينفق على نفسه وأولاده. حتى هذه الدين وأصبح مضطراً إلى بيع أملاكه المرهونة. . .

ومن النساء من لا تبالغ في الإسراف هذا المبلغ، فتكتفي بنصفه أو ثلثه، ولكن مرتب الموظف المتوسط نصف مرتب صاحبنا أو ثلثه، فتبقى النسبة على حالها؛ أما الموظفون الصغار كالمدرسين الذين يأخذون خمسين ورقة في الشهر وأربعين وثلاثين والصناع وصغار التجار، فتصور أنت موقفهم من نسائهم، فما يبلغ القول تقرير الحقيقة ووصف الواقع

ولست أزعم أن النساء كلهن عمياوات لا يبصرن حالة أزواجهن، وأن قلوبهن قد قدت من حجر فلا تشفق ولا تحزن، بل أن في النساء عاطفةً وحسًّا، ولكنهن يألفن حالة، فلا يطقن أن يراهن أحد على حالة دونها، ويستحيين من صاحباتهن ورفيقاتهن. . . ووراء هذه المشكلة الحزم في الأيام الأولى من الزواج (وهو رأس الأدوية كلها) وتقليل الاختلاط، والاقتصاد في زيارة الناس ومصاحبتهم، وليس من بأس بعد ذلك أن يخصص الزوج لزوجته مبلغاً من المال لكسوتها يدفعه إليها مشاهرة، ويدعها تفعل فيه ما تشاء، على أن تقنع به، ولا تسأله من بعده درهماً واحداً لكسوة أو ثياب. ولقد جرب هذه الطريقة كثير من الرجال فوجدوها صالحة مؤدية إلى الراحة والاطمئنان مشاكل أخرى

إن من طبيعة المرحلة التي تجتازها اليوم أمم هذا الشرق الإسلامي: مرحلة الانتقال، أنه يلتقي فيها عصران، ولكنهما لا يأتلفان فيتحدان، ولا يختلفان فيتباينان، فينشأ عن ذلك هذا الازدواج في الحياة، فيعيش قوم في عصر مضى، وقوم في عصر لم يأت، فكيف يلتقي

الزوجان وبينهما عصر مديد. . . هو يعيش محافظاً، وهي تريد التجرد مما يحافظ عليه. هو متدين وهي رقيقة الدين! إن كل شيء يحتمل، ضياع المال والتعب والشقاء، ويجد الإنسان عزاءه عنه في انتظار ثواب الله، في الآخرة، يجد عزاءه في الدين، فإذا ضاع الدين فأين يجد العوض منه والعزاء فيه؟

لذلك كان أول ما يجب على الزوج أن يفكر فيه، هو أن يختار زوجه من طبقته ورأيه، محافظة أو تجديداً، وإلا كان الزواج شراً كله

هذا أصل يتفرع عنه فروع كثيرة، أولها: تأدية حق الله في العبادة، والمحافظة على الصلوات، والرجوع إلى أحكام الدين فيما يختلف فيه من أمور الحياة، إلى غير ذلك مما يراه المسلم رأس الأمر وملاكه ويسميه المجددون (المتجردون) رجعية وجموداً. وثانيها: خروج المرأة من دارها، وحالها عند الخروج وزيها وزينتها، وتبرجها في الأسواق وتيممها السينمات ودور اللهو، وعرض مفاتنها على الرجال، وما إلى ذلك مما يسميه المسلم وقاحة ورذيلة وقلة حياء. . . ويدعوه المتجردون مدنية وتقدماً. . .

وثالثها: الاتصال بالناس، وتخصيص الأيام الكثيرة لاستقبالهم، وإضاعة الأموال في إكرامهم وتعطيل أعمال الدار، وتربية الأولاد في سبيلهم - وما يجره الاختلاط الكثير. . . الذي ينفر منه العقلاء، ويرونه فساداً لا خير فيه، وبابا لا يلج منه إلا كل ضرر، لأن النساء لا يقبسن من النساء إلا السيئ المكروه، ويراه أهل التجديد واجباً لا بد منه، وفرضاً لا تكون المرأة متمدنة محترمة. . . إلا به!

ورابعها: اتباع (المودة) والأيمان بها إيمانا لا شك فيه، والخضوع لها خضوعاً أعمى، والتعامي عما تجر على الأسرة والأمة من ضرر. وهذه ثمرة من ثمرات الاختلاط المرة، يراها العقلاء سخافة وحماقة، ويعدها أهل التجرد والتجدد من فروض العين!

ومن هذه المشاكل الفرعية الخلاف على تربية الأولاد حين يحكم المرأة عاطفتها فتأبى على الأب أن يأدب ابنه أو يأخذه بالحزم، وهذا فضول من المرأة لا معنى له.

على أنها قد تثور الثائرة بين الزوجين لغير ما سبب واضح، كأن يكون الزوج متألما في نهاره أو مصابا بمصيبة لا يحب لأن يسوء بها أهله، فيدخل مقطباً من حيث لا يشعر فتحسب الزوجة أن ذلك موجه إليها، فتغضب وتعرض، فيألم الزوج في نفسه، ويظن أنها
رأته في مصيبة فأعرضت عنه بدلاً من أن تعطف عليه وتواسيه، وينأى كل واحد منهما عن الآخر، ويوسوس له الشيطان حتى يصبحا متنافرين حقاً، وهذا مشهور يتكرر تمثيله دائماً، وداء يعتاد الأزواج في كل حين - ودواؤه الناجع كلمة يقولها أحدهما يشرح بها حاله، وقهر لهذه الكبرياء الخبيثة التي تمنعه من هذه الكلمة
كلمة الختام
وبعد فهذا كله سهل يُتداوى منه بشيء من الحكمة والحزم فما دواء حماقة الآباء في إغلائهم المهور، وتمسكهم بهذه العادات الباطلة، حتى أدى ذلك إلى (أزمة الزواج) التي اشتدت وعمَّت؟
ومتى نجد الأب الذي يملك في نفسه من الجرأة، وفي رأسه من العقل، وفي صدره من الدّين، ما يكسر به هذا السدَّ الذي يمنع عن الأمة كل خير وسعادة، ويعيد لنا سعيد بن المسيب في قصته التي رواها الرافعي (رضى الله عن الاثنين)؟
هل فسد الزمان حتى ما نجد في أربعمائة في أربعمائة مليون مسلم (سعيداً) واحداً؟ (دمشق)
علي الطنطاوي
مصر وعلاقتها بالخلافة
للدكتور حسن إبراهيم حسن
أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية الآداب
خاض الجند العرب غمار الفتن السياسية التي قامت بين الخلفاء الأمويين والخارجين عليهم، وكذا بين العباسيين ومناوئيهم. وكان لتدخلهم أثر ظاهر في هذه الفتن. وسنأتي بوصف موجز لها لنبين ما كان لدخول جند مصر في غمارها من أثر
تألب محمد بن أبي حذيفة على خليفة عبد الله بن سعد بن أبي سرح على مصر وإخراجه إياه من الفسطاط إلى خلع عثمان، وأسعر البلاد بنار الثورة التي انتهت بقتل عثمان وتولية علي بن أبي طالب، وما تلا ذلك أيضاً من الحوادث التي قامت بين حزب علي وحزب معاوية، وقيام الدولة الأموية. ولا غرو فقد كان لجند مصر في هذه الحوادث كلها نصيب وافر، ناهيك بما كان من قتل عثمان الذي تمَّ على أيدي الثوار من مصر دون غيرهم من عرب البصرة والكوفة
وفي عهد يزيد بن معاوية، دعا عبد الله بن الزبير إلى نفسه (سنة 64 هـ) وصادفت دعوته نجاحاً عظيما في بلاد العرب والعراق. إلا أن تنصَّل محمد بن الحنفية بن عليَّ بن أبي طالب عن مبايعة ابن الزبير، ومبايعة يزيد بن معاوية لعدم وثوقه بأهل الكوفة الذين خذلوا أباه وأخويه من قبل، وخروج الكيسانية مع المختار ابن أبي عبيد الثقفي، ودعوتهم لمحمد بن الحنفية؛ كل هذا فتَّ في عضد ابن الزبير، وآذن بانحلال أمره صادفت دعوة ابن الزبير في مصر بعض النجاح، فشد أزره أنصار العلويين اعتقاداً منهم أنه لأهل البيت، ولحق به كثير من المصريين، وسألوه أن يبعث إليهم والياً من قبله، فبعث عبد الرحمن بن جحدم الفهري، فدخل مصر في شعبان سنة 64 هجرية في جمع من الخوارج من أهل مصر وغيرهم الذين انضموا إلى ابن الزبير في مكة. فاضطر عرب مصر من شيعة بني أمية إلى مبايعته على كُرْهٍ
ولما بويع مروان بن الحكم في ذي العقدة سنة 64 هـ كاتبته شيعة الأمويين في مصر سراً، فسار في كثير من الأشراف وبعث ابنه عبد العزيز في جيش إلى أبلة (عند العقبة) ونشط ابن جحدم لحربه، وأشار عليه بعض رجاله بأن يحفر خندقاً (موقعه الآن بجهة القرافة) فتمَّ حفره في شهر واحد، وفي ذلك يقول ابن أبي زمزمة الشاعر:
وما الجِدَّ إلاَّ مثل جدِّ ابنِ جَحْدمٍ ... وما العزْم إلاَّ عزمُه يوم خندقِ
ثلاثون ألفاً قد أثارُوا ترابه ... وخدّوه في شهرٍ حديث مصدَّقَ
وبعث ابن جحدم الجيوش والمراكب لحرب مروان وابنه عبد العزيز، فانهزمت جيوش والي ابن الزبير، ولم ينفعه خندقه، ودخل مروان عينَ شمس ثم الفسطاط في أول

جمادى الأولى سنة 65هـ. وبنى الدار البيضاء لتكون مقرَّاً له، وبايعه الناس إلاَّ نفراً ظلوا على تمسكهم ببيعة ابن الزبير، فضرب أعناقهم وكانوا ثمانين رجلا من المعافر. وقتل أيضاً سيد لخم (الأكدر ابن حمام بن عامر بن مصعب) فأتى زهاء ثلاثين ألفا من لخم، وهم مدججون بالسلاح، ووقفوا بباب مروان ثائرين فتوسط بعضهم في الصلح وانصرف الثائرون. واتفق أن توفي عبد الله بن عمرو ابن العاص في اليوم الذي قتل فيه الأكدر (15 جمادى الآخرة سنة 65هـ). فلم يستطيع القوم أن يخرجوا بجنازته لتألب الجند على مروان، فدفن في داره

لقد كان للجند العرب في مصر أثر ظاهر في الفتن التي انتهت بقتل عثمان وعلى أيديهم وحدهم تمَّ ذلك. ولما انتشر أمر ابن الزبير في الحجاز والعراق وامتدَّت دعوته إلى مصر حيث لاقت قبولا من نفوس العلويين أخِذَت له البيعة على يد واليه عبد الرحمن بن جحدم الفهري، ولما بويع مروان بن الحكم سنة 64 هـ كاتبه أنصار الأمويين فسار إلى مصر وانتصر على أتباع ابن الزبير ثم دخل الفسطاط سنة 65هـ، وبايعه الناس إلا نفراً قليلا أمر بضرب أعناقهم

كذلك كان للجند العرب في مصر نصيب في النزاع الذي قام بين العباسيين والأمويين، ذلك النزاع الذي انتهى بقيام الدولة العباسية. فلما أتى مروان بن محمد مصر فارا من وجه العباسيين لم يستطع أن يصد صالح بن علي الذي تعقبه إلى مصر، ولم يقو على مقاومته العباسيون، لما كان من تألب الجند عليه في هذه البلاد، فقد خرج القبط بسمهود، وخالفه عمرو بن سُهَيل ابن عبد العزيز بن مروان، وتابعه قوم من قيس، ونزلوا في الحوف الشرقي، وأظهروا العصيان. ولما علم جند مصر بمسير مروان إليهم أجمعوا على منعه، فلما قدم (22 شوال سنة 132هـ) ليس أهل الحوف الشرقي السواد لباس العباسيين، وحذا حذوهم أهل الإسكندرية والصعيد

وعلى الرغم من هذا كله فقد استطاع مروان أن يدخل الجيزة، ومن ثم شرع في محاربة الجند العرب في الحوف الشرقي وفي الإسكندرية والصعيد، وفي قمع فتنة القبط في رشيد، ثم قدم صالح بن علي العباسي (10 ذو الحجة 132هـ) في إثر مروان، فسار هذا إلى بوصير، في كورة الأشمونين (من مديرية بني سويف) فوافاه صالح بن عديَّ في جيوشه وقتله (الجمعة 23 ذي الحجة سنة 132هـ) ثم تعقب ذوي قرباه والممالئين له في هذه البلاد، ودخل الفسطاط (23 المحرم سنة 133هـ)، وبذلك زال سلطان بني أمية وتوطدت دعائم الدولة العباسية. ولا شك في أن لقيام جند العرب في مصر في وجه مروان أثرا ظاهرا فيما أحرزه صالح بن علي العباسي من نصر معجل على مروان، مما أدى إلى زوال سلطان بني أمية زوالا لا رجوع بعده

استعمل العباسيون اسم الشيعة أداة لإزالة الخلافة الأموية، فلم يكد يتم تأسيس الدولة العباسية حتى قام النزاع بينهم وبين العلويين الذين أخذوا يكيدون لهم بالسيف حيناً وبالحيلة حيناً آخر. وفي خلافة المنصور (136، 158هـ - 754، 775م) دعا محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي المعروف بالنفس الزكية إلى نفسه سراً، وتلقب بأمير المؤمنين. ثم ظهر في سنة 145هـ بعد أن صادفت دعوته نجاحاً عظيماً في مكة والمدينة، حيث اعترف الناس بإمامته، وأفتى الإمام مالك بأحقيته بالخلافة من أبي جعفر. ومن المدينة أرسل أخاه إبراهيم إلى البصرة لنشر دعوته

ولكن محمداً لم يعش حتى يرى نتيجة دعوته، فقد مات على يد ابن موسى العباسي، فدعا أخوه إبراهيم إلى نفسه، وشد أزره كثير من فقهاء البصرة وغيرهم من ذوي الرأي والجاه، وانضوت المعتزلة والزيدية تحت لوائه وعاونه الإمام أبو حنيفة وراسله سرَّا. وبهذا كله تمكن إبراهيم من الاستيلاء على واسط والأهواز وفارس

بيد أن حياته آلت إلى ما آلت إليه حياة أخيه من قبل. فقد قتله عيسى بن موسى (الاثنين أول ذي الحجة 145 هـ - 682م) في موقعة باخمرا التي بين الكوفة وواسط. ولقد ظهرت دعوة ابن عبد الله في مصر وتابع كثيرون من أهل هذه البلاد ابنه علي بن محمد الذي أنفذه أبوه لنشر الدعوة

غير أن والي المنصور على مصر استطاع أن يحيط أعمال على وأعمال من ناصروه، وظل على ذلك حتى وصل إلى مصر خبر وفاة إبراهيم بن عبد الله فسقط في يد الشيعة، وانطفأت جذوة الثورة. ولا يعلم المؤرخون ما آل إليه علي بن محمد بن عبد

الله
كذلك كان لجند مصر نصيب كبير في الفتنة التي قامت بين الأمين وأخيه المأمون شأنهم في الفتن الخارجية التي كانت تنشب بين الخلفاء والخارجين عليهم أو المنافسين لهم، وغدا اشتراك هؤلاء الجند في الثورات مألوفاً لديهم، حتى في الأحوال التي لم يكن لمصر ثمة ما يدعو إلى الاشتراك فيها
ولسنا ندري ما الباعث الحقيقي الذي كان يدفع هؤلاء القوم إلى الزج بأنفسهم في غمار هذه الثورات. ولا شك في أنه لم يكن لهذه الثورات علاقة ما بالعصبية العربية التي جاء الإسلام ماحيا لها، وإن كانت قد ظهرت في مواطن كثيرة بعد الإسلام. ويظهر أن الجند العرب كانوا لا يزالون مرتبطين بدار الخلافة بروابط الجنسية أكثر من ارتباطهم بمصر نفسها، إذ لم تكن القومية المصرية قد شملت بعد المصريين من القبط والعرب جميعاً. غير أن الأمر الذي يسترعي النظر ما رواه الكندي من أن مصر كانت حين قام النزاع بين الأمين والمأمون في أمن ودعة، وكذا كانت راضية عن واليها جابر بن الأشعث الطائي، وعن حكمه، وأن هذا الوالي كان محبوباً لدى الخاصة والعامة في هذه البلاد
على أنه سرعان ما احتدم النزاع بين الأمين والمأمون بسبب ما كان من خلع الأمين أخاه المأمون وترك الدعاء له على المنابر وتوليته عهده ابنه موسى بدلا منه حتى غضب العرب في مصر وغيرها، وتكلموا في خلع الأمين لنكثه العهد الذي تركه أبوه الرشيد وأودعه الكعبة الشريفة، وهذا كاف وحده لإثارة سخط الناس عليه. وظهر في مصر السري بن الحكم الذي استغل هذا الظرف لنفسه لإعلاء شأنه ورفع ذكره، إذ كان منذ أتى مصر في أيام الرشيد خاملاً لا حيثية له. فدعا إلى المأمون فبايعه نفر يسير. ولكنه ظل على نشاطه في نشر الدعوة حتى دعا المأمون أشراف مصر إلى بيعته فأجابوه سرا. وأتى كتاب هرثمة بن أعين أحد قواد المأمون المعدودين إلى وكيله على ضياعه بمصر وهو عباد بن حيان، فقرأ هذا الكتاب (كتاب هرثمة) على ملأ من الجند في المسجد ودعاهم إلى خلع الأمين فأجابه السواد الأعظم منهم وخلعوه (جمادى الآخرة سنة 196هـ)، ثم بايع الناس
عبادا على ولاية مصر، وأخرجوا والي الأمين من الفسطاط فثبت المأمون عبادا في هذه الولاية.
ولما علم الأمين بما حدث في مصر من خلعه وإخراج عامله كتب إلى ربيعه بن قيس (رئيس قيس بالحوف) بولايته على مصر وكتب إلى اليمانية يطلب إليهم أن يقوموا بمعاونة قيس هذا فأظهروا دعوة الأمين وخلع المأمون، وخرجوا إلى الفسطاط، ودارت بين الفريقين مناوشات وحروب كان النصر فيها في جانب أنصار المأمون. على أنه لما بلغ قيسا قتل الأمين (المحرم سنة 198هـ) وبيعة المأمون تفرقوا - شأنهم في الفتن التي اشتركوا فيها.
هذا ما كان من أمر اشتراك عرب مصر في الفتن الخارجية وهي فتن سياسية في جملتها وإن كانت قد أُلْبِست لباس الدين، ليكون تأثيره في النفوس أقوى وأشدَّ
ولا يعزب عن بالنا ما كان من الانقسامات المذهبية التي شطرت العالم الإسلامي شطرين: سنة وشيعة. ولقد كان لكل من هذين المذهبين في مصر أنصار وأعوان، كما كان بها أيضاً أنصار لمذهب الخوارج الذين اعتزلوا علياً، فضلا عما كان لظهور المذاهب الأربعة من التأثير في مصر حيث ساد مذهب مالك في القرن الثاني للهجرة، وظل على ذلك نحو قرن ثم ساد بعده مذهب الشافعي، وبقى على ذلك إلى اليوم، وإن كان التأثير من هذه الناحية لم يظهر في ثوب عدائي مصحوب بفتن وحروب
وعلى الجملة فقد كان عمل الجند العرب في مصر ينحصر في عدة أمور
1 - القيام بالفتوح الخارجية لتأمين مصر من الغرب والجنوب
2 - الاشتراك في الغزوات البحرية التي قام بها الخلفاء الأمويون والعباسيون ضد الدولة الرومانية الشرقية أو القضاء على المحاولات التي بذلتها هذه الدولة حيناً بعد حين لاسترداد مصر
3 - قمع الثورات الداخلية التي كان بها المصريون في وجه الولاة
4 - الاشتراك في الفتن التي قامت بين الخلفاء والخارجين عليهم أو المنافسين لهم

وطالما انقسم العرب في مصر على أنفسهم إلى فريقين: فريق يناصر الخليفة وفريق يناصر الخارج عليه والمنافس له
هذا إلى ما كان من قيامهم في وجه الولاة والعمال إذا ما اشتطّوا في جمع الخراج ومن انقسامهم على أنفسهم بسبب ما كان من ظهور الاختلافات المذهبية في المدنية وفي دمشق وبغداد
وقد ظل عرب مصر على ذلك إلى أيام الذي غالي في عقوبتهم، وضرب عليهم الذلة والمسكنة فاستكانوا. ناهيك بما كان من إسقاط المعتصم العرب من الديوان، فلم يشتركوا بعد ذلك في فتن سياسية ولم تعد لهم كلمة، واستعاضوا عن الاشتغال بالحروب والسياسية والزراعة وكسب العيش عن طريق غير طريق العطاء، وساروا في مناكب مصر وانتشروا في المدن والقرى، واختلطوا بالسكان الأصليين اختلاطاً تاماً، فانحطت العصبية العربية في مصر وفي غيرها من البلاد، ولم يحكم مصر بعد ذلك والٍ من العرب إلا عنبسة بن اسحق (سنة 238هـ - 242 هـ) اللهم إلا ما كان من دخول هذه البلاد تحت سلطان الخلفاء الفاطميين مدة قرنين وتسع سنين (358 - 567 هـ)
حسن إبراهيم حسن
التعليم والمتعطلون في مصر
للأستاذ عبد الحميد فهمي مطر
الثقة بين رجال التعليم
قبل أن يتناول بحثنا المدرسة المصرية الحالية، وما وقع في تكوينها من أخطاء، وما يجري بين جدرانها من نقائض وعيوب وما نقترحه في سبيل إصلاحها لتفي بالغرض من وجودها من مقترحات - لا بد لنا من التحدث إلى القارئ عن بعض الأمور الأساسية المتصلة بها اتصالا مباشراً لما لها من أثر فعال في تكوينها وتأثير قوي في كيانها. وهي أمور من الأهمية بحيث نرى أن من واجب طالب الإصلاح وضعها دائماً نصب عينيه، فرجال التعليم على اختلاف طبقاتهم يألمون أشد الألم مما يصيبهم من أذى وحرج بسبب ضعف الثقة بهم الذي تظهر آثاره من آن لآن، ويتردد صداه من وقت لآخر في كل مكان، ولكن لعل ذلك كله بدأ منا وانتهى إلينا، فكنا نحن مع الأسف الشديد السبب المباشر في وجوده والعاملين دائماً على استمراره
أن ضعف الثقة بين الرئيس والمرؤوس مسألة قديمة، وهي لم تقتصر على وزارة التعليم فحسب، بل انتشرت في جميع دواوين الحكومة المصرية، فأزعجت الموظفين وجعلتهم جميعاً يفرون من المسئوليات، ويلقون على غيرهم التبعات، وأفقدتهم التعاون والتضامن فتعطلت الأعمال وساءت الأحوال حتى نهض المثل السائر: يوم الحكومة بسنة، وأصبح معروفاً عند الخاص والعام. وكانت وزارة المعارف من أقدم الوزارات التي تمسكت بذلك وحرصت عليه حتى هان أمر كل مرءوس على رئيسه، وأصبح كل منهما يرى في الآخر عدواً يحاول اقتناصه والإيقاع به، وبرزت إلى الوجود بين المتحذلقين منهم مسألة الأوامر الكتابية، فكل كلمة تصدر عن رئيس لا تكون ذات قيمة إلا إذا كانت مكتوبة ممهورة بتوقيعه، وكثيراً ما رأينا أحد المدرسين يتحدى ناظر مدرسته بقوله: (أكتب إليَّ رسميا) فينزعج الناظر من ذلك ويخشى تلك الكتابة التي قد تجر عليه النكبات، إذ كثيراً ما أدت إلى الانقسامات بين صفوف المدرسين، والى الاضطرابات والارتباكات؛ وكثيراً ما قامت الوزارة وقعدت وأرسلت بمفتشيها لإجراء التحقيقات وتحديد المسئوليات كما يقولون، لذا نرى معظم نظار المدارس يعاملون المدرسين عندهم بكل حذر. بينما نرى بعض المدرسين
والمرءوسين يحصون على ناظرهم كل صغيرة وكبيرة، حتى إذا جد الجد وجاء دور التحقيق بينهم أبرزوا ما حوته مذكراتهم من حركات الناظر ومخالفاته شهوراً طويلة. فهل في جو مثل هذا الجو يمكن أن يطمئن والد على تربية ابنه وتثقيفه وتنشئته تنشئة خلقية فاضلة!
ظهر ضعف الثقة بين الرؤساء والمرؤوسين في قانون نظام المدارس العتيق المعمول به من قديم الزمن في مواضع عدة نذكر منها على سبيل المثال تحريمه على ناظر المدرسة أن يكاتب أية مصلحة أخرى إلا عن طريق الوزارة، فكان ناظر المدرسة بالفيوم مثلا الذي يرغب في مكاتبة مجلسها البلدي لزيارة التلاميذ وابور المياه أو وابور

الثلج لا يمكن أن يفعل ذلك رسمياً إلا إذا كتب للوزارة بذلك، وهي في دورها تخاطب بلدية الفيوم. وناظر مدرسة قنا الذي يرغب في زيارة تلاميذه آثار الأقصر لا يستطيع ذلك إلا عن طريق الوزارة وهكذا. كذلك كان يحرم القانون على ناظر المدرسة تناول المدرسة طعام الغداء بين تلاميذه بالمدرسة من نفس الأصناف وبنفس الكميات التي يأكلونها حتى ولو كان ذلك على نفقته الخاصة حسب التعريفة المقررة، وذلك مخافة أن يحابيه طباخ المدرسة فيما يأكله من الطعام. في حين أن القانون إلى جانب ذلك يحرم على الناظر في موضع آخر مغادرة المدرسة أو تركها في أية لحظة من لحظات اليوم المدرسي لأي سبب من الأسباب حتى ولو كان لتناول طعام الغداء

وفي قانون نظام المدارس مادة أخرى تحرم على المدرس أن يعطي درساً خاصاً لتلميذ عنده في الفصل حتى ولو كان هذا التلميذ داخلاً في امتحان عام كامتحان البكالوريا أو الابتدائية بعيداً عن مدرسته وأساتذته. فإذا علمت أن هذا المدرس هو أعرف الناس بمواضع ضعف هذا التلميذ وهو أعلم طبيب بالطرق الناجعة لعلاجه لاتصاله المباشر به وإشرافه اليومي عليه وعلمه بعقليته وتعرفه لأسباب ضعفه تبينت مقدار تعنت المشرع في ذلك ومقدار عدم ثقته بالمدرس. لأن الذين نشأوا على هذا التشريع وقتلوه بحثاً يعللون ذلك بأن المدرس ربما يتأثر بالعلاقة الجديدة التي تنشأ بينه وبين هذا التلميذ إذا سمح بإعطائه درساً خاصاً فيحابيه في أثناء الدرس العام أو يعمل على نجاحه آخر العام الدراسي إن كان ممن يمتحنون بالمدرسة، هذا بالرغم من أن أوراق امتحان النقل جميعها توضع عليها أرقام سرية لا تمكن أي مدرس من أن يعرف أوراق أي تلميذ، فعلام هذا التحوط وعلام كل هذا الخوف؟

أما الأرقام السرية في الامتحانات فحدث عنها وعن أهميتها ولا حرج، فقد كانت في بادئ الأمر توضع على جميع الأوراق التي يدون عليها التلاميذ إجابتهم في الامتحانات العامة كامتحان الشهادة الابتدائية وشهادة الدراسة الثانوية، ثم انتقلت عدواها إلى أوراق امتحان النقل في جميع مدارس التعليم العام في أنحاء المملكة المصرية بناء على قرار وزاري خاص فأصبحت هي السر الهائل من أسرار لجان الامتحان الذي إذا حاول أي إنسان كشفه لأي غرض كان نفسه لأشد العقوبات ولأعظم النكبات، ولا يتولاها من عرف بحفظه للأسرار وكتمانه لها كتماناً تاماً. ولكم وجدت لها ضحايا من رجال التعليم بين آن وآخر من الذين لا يعملون بإحكام على كتم مكنوناتها وصون أسرارها العتيدة. وبالرغم من نظر الرسميات لها هذه النظرة فهي في نظرنا اللطمة التي تصيب سنوياً صميم الثقة العامة برجال التعليم، وهي الصفة القوية المؤلمة التي يصفون بها جميعاً في كل عام مرتين من غير أن يعيروها أدنى اهتمام بعد أن اعتادوها ودرجوا عليها. ولكنهم لو تأملوها لأدركوا أن هذا التحيز الذي يتهمون به، وتلك المحاباة التي يرمون بها، ويخشى من أجلها على تلك الوريقات أو الشهادات التي يتسلمها الطلبة، والتي أصبحت اليوم تافهة القيمة لا تقدم الشخص في حياته ولا تؤخره، وأن تلك الروح المعقوته التي يوصفون بها - ما هي إلا لطخة في جبينهم لا يقرها إنصاف ولا عدل. بل هي نكبة من النكبات التي أصيبت بها الثقة العامة برجال التعليم يندى لها جبينهم وتحترق لها أفئدة المخلصين منهم على مدى الأيام، وسيظل الضمير العام لرجال التعليم متألماً، وسيظلون أبداً وراء صفوف الهيئات والطوائف الأخرى ومحل عدم اكتراثها، وستظل مصر مجافية لروح التجديد والإصلاح في تكوين ناشئتها ما دام هذا النوع من العمل قائماً؛ فهي الامتهان للكرامة بعينها والقضاء على الثقة بكامل معانيها، ولن تقوم لرجال التعليم قائمة إلى أن يتخلصوا من هذه الوصمة التي أصابت ضميرهم وصميم الثقة بهم. وإنها لبدعة دنلوب تحمل بين جنبيها التناقض الصريح في جعل المدرسين أنفسهم يمتحنون الطلبة الامتحان الشفوي في اللغات حيث يكون من السهل معرفة التلميذ للممتحن ومعرفة الممتحن للتلميذ. ومع كل ذلك فقد تمسكنا بها تمسكاً كبيراً وحافظنا عليها ونقلناها من الامتحانات العامة إلى أنواع الامتحانات جميعها؛ وقد غلونا فيها وعمدنا إلى تنظيمها وتعميمها حتى شملت جميع المدارس وبعض كليات الجامعة مع الأسف بعد أن كان الواحد منا قديماً يأخذ معه في منزله أوراق الطلبة فيصححها باطمئنان على مهل ثم يعيدها، كما يفعل القاضي بالقضايا، وكما يفعل

المهندس بالمقايسات والرسوم المختلفة، وكما يفعل سائر الموظفين في باقي الأعمال الهامة التي لها مساس كبير بمصالح الجماهير، والتي بالرغم مما نسمعه كل يوم من ضبط المختلسين والمرتشين لم يفكر أحد قط في جعل البحث فيها سرياً كما يجري عندنا، حتى لقد أصبح المدرس الذي يقوم طول العام على تعرف عقلية تلميذه ومقدرته ليس فقط ممنوعا من إبداء رأيه في نقله من فرقة إلى أخرى، بل هو فوق ذلك متهم في أمانته، متهم في ذمته، متهم في أخلاقه، مصاب في كرامته، فهل يصح بعد انتزاع هذه الثقة الغالية منه أن يؤتمن على تكوين الفضيلة وبث الأخلاق الحسنة في تلاميذه وأبنائه!!. . .

اللهم أنها نقمة حلت بالتعليم وأهله نسألك أن تزيحها عنهم حتى تعود الثقة بالمعلمين الذين يصفهم الناس إلى اليوم بهتاناً وزوراً بأنهم ورثة الأنبياء، مع أنهم جردوهم من أثمن الفضائل وأغلاها ولقد كان لانتزاع الثقة العامة من رجال التعليم الأثر البالغ في رجال السلطة التعليمية العامة الذين ينتخبون من بينهم فضعفت الثقة بين المراقبين والمساعدين، وبين المساعدين والمفتشين، وبين المفتشين والنظار والمدرسين الخ. .

. وأصبح الواحد منهم يخشى الآخر ويحذره ويعمل ما استطاع على الهرب من المسئولية وإلقائها كلما جد الجد على غيره، فأصيب الكثيرون منهم بالضعف والخور وفقدان الشخصية. وصار كل منهم يتلمس حرفية القانون فينفذها فقط مخافة أن يقال له يوماً إنه خالف القانون وصار كل تفكيره منصبا على ما هو مكلف به من غير أن يفكر في إصلاح أو تجديد، لأنه يرى بعيني رأسه أن المتحمسين للتجديد المندفعين في تياره بما جبلوا عليه من حب للعمل والغيرة عليه كثيراً ما ينالهم الأذى من وراء ذلك إذا وقعوا في أتفه مخالفة للقانون حتى ولو كانت تلك المخالفة في صالح العمل وتقتضيها مصلحته. ونتج عن ذلك نتيجتان وخيمتان:

أولاهما: الجمود الفكري الذي استحوذ على المدرس في فصله والناظر في مدرسته. حتى صار الواحد منهم لا يعبأ بمعرفة شيء عن أصول التربية الحديثة ومستلزماتها ولا يهتم بالتمشي مع أصولها خوف ما يقع عليه من المسئولية والأذى إذا حاول الشذوذ عما يرسم له بتطبيق نظرية حديثة أو فكرة جديدة، وأصبح لسان حال كل منهم يقول (لماذا أتعب نفسي وأهتم بأي شيء قد يجر على مالا تحمد عقباه؟ فما علي إلا أن أردد كل عام الدروس التي رددتها من قبل أو أن أعمل العمل الذي كنت أعمله في الأعوام السابقة في سبيل الحياة وأكل العيش)

وثانيتهما: إعدام التعاون بين أعضاء المجموعة الواحدة، كل يفكر في نفسه غير مبال بغيره حتى لقد يمر العام كله على مدرسين في مدرسة واحدة لا يعرف أحدهم اسم الآخر كما قد يمر العام على مدرسين في فصل واحد لا يتذاكرون شيئاً عن أحوال تلاميذهم أو أخلاقهم أو عقلياتهم. وليس هناك أمر من الأمور يعرض عمل أية مجموعة أو طائفة من الناس للخيبة كفقد رابطة التعاون والتضامن بينهم، وخصوصاً إذا كان ذلك بين جدران المدارس التي يجب أن يكون التعاون غرضاً من أغراضها الأساسية. فالمسألة أصبحت قاصرة على أن كل واحد منهم يعمل عمله المتكرر الممل المعاد سنة بعد سنة بدون تأمل في إصلاح ولا تفكير في تجديد وأنى لهؤلاء أن يبعثوا بملكة التأمل والتفكير في تلاميذهم إذا كانوا قد أصبحوا هم أبعد الناس عنها!!

عبد الحميد فهمي مطر

لا كرامة لنبي في وطنه!

ولي الدين يكن يتجاهله المصريون

للأستاذ كرم ملحم كرم

مما يؤلم أن ليس لأديب مصر ولي الدين يكن صدى مسموع في وادي النيل وهو الذي ملأ وادي النيل صيحات وأغاريد، فالمصريون إخوانه لا يحفلون به كما يحفلون بسواه من رجال الأدب والعلم، فكأنه لم يكن، مع أن ولي الدين بلغ مكانة في الأدب والبيان يحن إلى بلوغها عدد وافر من بني قومه. ومعظم هؤلاء الذين يكتبون اليوم في مصر لا يجيدون الكتابة كما أجادها ولي الدين. فان لولي الدين في الإنشاء أسلوباً لم يسبقه إليه منشئ، وما جاراه فيه مقلد، فارتقى إلى ذروة سامية كان فيها نسيج وحده. فنفحنا بلغة القرآن كما نفحنا جبران خليل جبران بلغة التوراة، وظهرت لنا فيه

الفخامة، والتشبيه البكر، والرقة، والبلاغة. وقد يكون في بيانه أقدر كاتب عرفته مصر، فما في أسلوبه تقعر ولا تحذلق ولا ترهل، بل قوة ورسوخ، قوة مصدرها القلب، ورسوخ لحمته الإخلاص؛ فليس يكتب ولي الدين ليملأ فراغاً بل ليجود بما تزخر به نفسه من عواطف وأشجان.

وإن يكن ثمة أديب يدل إنشاؤه عليه فهو ولي الدين، ففيما يكتب تجري نفسه: فيما يكتب الأنفة، وولي الدين أنوف. فيما يكتب الجرأة، وولي الدين جريء؛ فيما يكتب ثورة على الظلم وولي الدين ثائر على الظلم. فيما يكتب عن العظمة، وولي الدين عظيم. في أصله وفي قلمه. فان إنشاءه إنشاء ملوك، وهو من حفدة أصهار الملوك والسلاطين

لقد استعان المنفلوطي بعواطف سواه لما كتب، فزخرف ونمق؛ وذلك حسبه، على حين أن ولي الدين خلق، وهذا هو المنشئ البليغ. كتب ما بحسه بلغة رفيعة وجيزة تنطلق كالسهم فلا انحناء ولا التواء؛ ومع كونها لغة ما قل ودل فأنها لتموج بالزخرف كالعروس

ولولي الدين في الأدب أنداد جروا مجراه في الأنفة والسمو والنبل. ومن هؤلاء أبو فراس الحمداني، والشريف الرضي. أبو فراس طمع في العرش الحمداني والشريف الرضي في الخلافة. وبين ولي الدين وبينهما شبه متعدد الوجوه في عواطفه وشعره ولي الدين عانى وحشة المنفى، وأبو فراس ذاق مرارة الأسر. أبو فراس عاش ومات مقهوراً، وولي الدين عاش ومات مقهوراً. شعر المتنبي طغى على شعر أبي فراس، وشعر

شوقي طغى على شعر ولي الدين. على حين أن قصيدة أبي فراس: (أراك عصي الدمع شيمتك الصبر. . .) تساوي ديواناً. ولا جدال في أن صاحبنا أبا الطيب يتمنى لو تكون له، إلا أن عواطف المتنبي بعيدة كل البعد عن رقة أبي فراس في غزله بعد رقة شوقي عن طبع ولي الدين

فلسنا نحس ونحن نقرأ شوقي قلبه يجول في السطور. فما هناك غير شاعر ينقر العود ليطرب سامعه، وربما ليرفعه إلى أعلى ذروة من عالم الطرب؛ على حين أن ولي الدين في شعره الغزلي يثب وثباً إلى القلب ويتلاعب به ويملكه ويذله ويدعوه إلى الإقرار مكرهاً بأنه فعل فيه فعله، وبأنه تأثر كل التأثر به، وبأن ما في هذا الشعر يحاكي عواطفه وميوله؛ فهذه نفسه مسبوكة في أبيات من الشعر ذوات قواف وأوزان، بينما هو يقف أمام شوقي وقفة الإعجاب، وقفة الاحترام والخشوع، فيتأثر عقله لا قلبه، شأن كل منا أمام الأهرام وقلعة بعلبك وخرائب تدمر، فنعجب بالصانع والمبتكر دون أن يكون لهذا الإعجاب صلة بالقلب. فالقلب يظل مستقراً في زاويته لا تهتز منه الأوتار، على حين أن تغريدة بلبل وزقزقة عصفور تحتلان منه الصميم

وهذا موقف أبي فراس من المتنبي: المتنبي شاعر القوة وأبو فراس شاعر المهجة المقروحة، والاثنان لا يلتقيان. فالمتنبي لما عاد من مصر بالإخفاق، واحتل قلبه اليأس لم يفكر في سوى الهجو، في غير ضرب العصا، فما جرى في منظومة قلبه بل حقده، بل أعصابه الثائرة وحنقه. فأطلقها تغلي كالمرجل الجياش:

عيدٌ بأية حال عدت يا عيدُ ... بما مضى أم لأمر فيك تجديد؟
أما الأحبة فالبيداء دونهم ... يا ليت دونك بيد دونها بيدُ

وهذا شعر، ولكنه شعر حجري مقدود من الجلمود!

وأبو فراس يئس كالمتنبي لدى وقوعه في الأسر، ولا نكير في أنه كان أشد من المتنبي يأساً وقد نزعت منه حريته وبات تحت رحمة ملك الروم. على أن هذا اليائس لا يضرب بالعصا وهو ينظم الشعر، فلا يقول كالمتنبي:

لا تشتر العبد إلا والعصا معه ... إن العبيد لأنجاس مناكيد

بل ينشد:

أقول وقد ناحت بقربي حمامة: ... أيا جارتا هل تشعرين بحالي؟
معاذ الهوى ما ذقت طارقة النوى=ولا خطرت منك الهموم ببال
أيضحك مأسور وتبكي طليقة ... ويسكت محزون ويندب سالي؟
لقد كنت أولى منك بالدمع مقلة ... ولكن دمعي في الحوادث غالي

وهذا الشعر يائس، ولكن القلب يتكلم فيه، لا الحنق ولا العصا، وليس منحوتاً في

صخر!
في طليعة الشعراء العاطفيين في مصر إسماعيل صبري وولي الدين. وما اشتعلت العاطفة إلا في الأيام الأخيرة في صدر شوقي. ولقد اندفع إليها مضطرا. حمله عليها أبطال رواياته. فلا يسعنا القول أن شوقي شاعر عاطفي لكونه أنطق ليلى العامرية ومجنونها بالغزل والنسيب. فالموقف جره إلى ما كلف نفسه إياه. فنطق بيانه لا قلبه. كان مصوراً لا حساساً يعطينا من كبده
وفي هذه الناحية اختلف ولي الدين عن شوقي: ولي الدين كان عبد العاطفة. وكل شعره شذ به عن العاطفة كبا فيه. والدليل شعره السياسي. فأين هذا الشعر من القصائد المصهور فيها قلب ولي الدين؟
فبينا أنت إزاء ولي الدين العاطفي في حضرة شاعر من الطبقة الأولى إذا بك تجاه شعره السياسي أمام شاعر من الطبقة الثانية بل الثالثة، وأين قصيدة:
الله في وجدٍ وفي مأمِلِ ... من لي بعود الزمن الأول
قد كنت أشكو عّذلي في الهوى ... وها أنا أثنى على عّذلي
مللت عذب اللوم جهلاً به ... لو كنت أدري الحب لم أملل
من قصيدته في تهنئة سيد مصر يومذاك عباس حلمي الثاني:
هلموا بنا نحو الأمير نسَّلم ... سلام على عباس مصر المعظم
ألا أن في الأكباد شوقاً مبرحاً ... إليه فقد كادت من الشوق تدَّمى
ففي القصيدة الأولى تكلم قلب ولي الدين فأسمعنا أبرع الشعر، وفي الأخرى تكلم لسانه بما تقضي به المجاملات فعدا سجيته ولم يكن من الظافرين.
وهذه حال ولي الدين في قصائده كافة: يجلي في شعر العاطفة ويكبو فيما جاوز هذا الشعر. ولسنا بحاجة إلى الأمثال وهي موفورة في كل قصيدة من نظم الرجل. وأي جسامة في
الفرق بين قصيدته:
أعلمت الهوى الذي أخفيه ... أي سر في القلب لم تعلميه؟
هو مأواك منذ كان وهل يح ... جب شيء في البيت عن ساكنيه
وقصيدته في رثاء أحمد خيري بك:
يا روح خيري حين جدَّ الرحيلْ ... قفي قليلا وكفانا الدليل
الموت قد بت الذي بيننا ... لم يبق منه غير حزن طويل
فلا صلة بين القصيدتين ولا قرابة: فكأن هذه من نبع وتلك من نبع آخر. وعلى المرء أن يعالج ما خلق له، وولي الدين على سمو منزلته في الأدب، وهو ممن يمشون أبداً في الطلائع والنظائر، لم يدرك الفوز فيما لم ينشأ عليه. لقد تفوق في شعر العاطفة وكان عليه أن يملأ به ديوانه فحسب، لا أن يجري على ما ليس فيه!
ومع أن من حق مصر أن تفاخر برجل موهوب من أبنائها كولي الدين فإنها لتحدق إليه شزراً كأنما يضيمها أن تتعرف إليه على حين تغبطها سائر البلاد العربية على أديب فريد في نثره وفريد في شعره العاطفي في هذا العصر
يقول الناقمون على الرجل إنه ساير الإنكليز فوقف عليهم قلمه، ورحب باحتلالهم وادي النيل، وجوابنا أن الإنكليز ساعدوا على ترقية مصر، فان يدهم في عمرانها غير منكورة عليهم. وفئة محترمة من زعماء مصر، وبينهم من تربعوا في العرش المصري وكانوا منه كالسوار من المعصم، اعترفت للإنكليز باليد البيضاء على وادي النيل. فان يكن ولي الدين جارى هذه الفئة فلا عليه. وقد سمعنا النحاس باشا نفسه، زعيم الوفد المصري، يتدفق بالشكر لإنكلترا على أثر إبرام المعاهدة المصرية الإنكليزية!
وثمة من ينعى على ولي الدين عبثه بالتقاليد، إذ حارب الخليفة، وتزوج مسيحية، وأطلق على أبنائه أسماء غريبة، فأنكره ذووه ومالوا عنه فعرف البؤس المرير:
تعوَّد كلٌّ بؤسها ونعيمها ... وعشنا على بؤسي ولم نتعوَّد
على أنه ما شأن الأدب في حياة الأديب الخاصة؟ هذه في واد وهو في واد. وإذا جئنا ندين الأدباء في حياتهم الخاصة اضطرنا إلى حذف تسعة أعشارهم من السجل. وهو مجهود سخيف!
ولقد بسم الحظ لولى الدين، ولكن ما بسم له حتى مات، وهذا نصيب المنكود من دنياه. كان ولى الدين من مؤيدي السلطان حسين كامل. فلما تولى السلطان حسين

عرش مصر قرَّب إليه الأديب الموهوب؛ غير أن الموت زاحم مولى مصر على ابنها البار فدهمه داء الربو فمات وهو في حلوان، وقيل إنه مات بالسل
ومهما يكن فليس ولي الدين ممن يجب الإغضاء عنهم وله على البيان العربي يدٌ طاهرة. عدا أن محاولة طمسه لن تأتي بفائدة؛ والغد كفيل بأن يحييه. فما أبقى ولي الدين من آثار أدبية يضمن له الخلود. فليس من أديب في مصر يأتي فوراً تلو شوقي سوى ولي الدين، أي إن إنكاره وغمط فضله لا يؤثران فيه، بل يدلان على نية فاسدة.
وإننا لننزه القوم في مصر عن التحزب في الأدب، ويكفيهم أن يعلموا أن التحزب العباسي قضى على تسعة أعشار منظوم بشار بن برد وظل بشار من الخالدين!
(بيروت)
كرم ملحم كرم
مصدر الهتلرية
منذ أعوام أصدر مستشار الريخ كتابه (كفاحي) متضمناً السياسة التي عول على السير بمقتضاها، وهي سياسة صريحة لا مراوغة فيها ولا مداورة. فهل كان هتلر هو خالق هذه المبادئ وواضع تلك السياسة؟
يرى فريق من المتتبعين لتطور السياسة الألمانية في نهاية القرن الماضي أن كل ما جاء به دكتاتور ألمانيا إنما هو مأخوذ عن المبادئ التي وضعها الأستاذ هنريك فن تريتشكي أستاذ التاريخ الحديث في جامعة برلين وبثها في محاضرات ألقاها على القوم في فريبرج ولينرج وبرلين، أيام كانت ألمانيا تحرز النصر تلو النصر على الدانيمرك والنمسا وفرنسا (أعني في المدة ما بين 1866 - 1872) ووقت أن كانت تحتاج ألمانيا إلى روح من (مركب النقص) تدفعها على الدوام لأن تتبوأ القمة بين دول أوربا
يقول الأستاذ همبدن جاكسون في بحث نشره عن نظريات تريتشكي: (يحتمل أن تكون آراء تريتشكي قد استمدت مباشرة من كتاب (كفاحي)، لولا أنها ظهرت قبل أن يعرف الوجود هذا الكتاب بنصف قرن) ولقد كتب تريتشكي يقول: (إن الحكومة هي القوة، ووظيفة الحكومة الجوهرية هي شن الغارات، وبدونها لا تكون هناك حكومة قط، فلولا الحرب ما كانت الدولة. وينبغي أن يجعل المرء شعاره على الدوام: (إن الحروب دواء الأمم المريضة) كما أنه في الساعة التي تقول فيها الحكومة: (إن كياني ووجودي في خطر) ينبغي أن يغفل المرء البحث عن مركزه الاجتماعي، وأن يتناسى كل حزب خصومته، وينكر كل فرد ذاته، وأن يعتقد أن ليست حياته بشيء إن هي قيست بخير المجموع. وفي هذه اللحظة ذاتها تتجلى عظمة الحرب التي تقول بوجوب تلاشي الضعيف، أما المثل الأعلى للسياسة فهو الذي ينشد الحرب بينما تنفر منها المادية. ما أبعد الأخلاق عن الواقع حينما تحقر شأن الغلبة في الكيان الإنساني)
ولقد حذا هتلر حذو تريتشكي فما حاد عن تعاليمه قيد شعرة، فقال عن المعاهدات: (ليس في وسع أية حكومة أن تجعل مستقبلها رهن مستقبل حكومة أخرى، فلكل دولة الحق في أن تعلن الحرب متى شاءت، كما أن لها الحق في أن تنقض أية معاهدة متى رأت فيها غلا لها. إن لكل زمن معاهدة)
لم يقتف هتلر خطى الزعيم المدرس المتوفى عام 1895 في السياسة فحسب، بل اتبعه في
جميع نواحي الحياة السياسة والاجتماعية، فمن قبل أعلن ترتيشكي رأيه في المسألة العنصرية الجنسية فقال (إن كلمة (نبيل) لا تفيد إلا معنى العنصرية، ولا يمكن فهمها إلا على أساس اعتقاد أن المميزات الشخصية إنما يتوارثها الخلف عن السلف، وأفضل ما في الجنس الآري صفة الشجاعة، فرجاله دائما على أهبة امتشاق الحسام للذود عما كسبوه بقرائحهم) كما أن رأي هتلر في النساء قد سبقه إليه ترتيشكي من قبل في قوله: (ليس للمرأة من وظيفة في الحياة غير الزواج وتدبير المنزل. إن الجميع - حتى الذين لا يميلون بطبيعتهم للخير العام - يكرهون استخدام المرأة في المصانع) ويقول ترتيشكي عن الجيش: (ليس له من حق في إبداء الرأي، وإنما هو قوة فعالة تنفذ ما يُلقى إليها. أما إذا خُوِّل الحق في إعلان رأيه اضطراب الأمن، وليس ثمة بلاء أنكى على الدولة من جيش يتناقش، ثم يفترق شيعا وأحزابا) وهذه الكلمات التي ننقلها هنا، جاءت في محاضرة له ألقاها عام 1892م، وفيها ما يميط اللثام عما أحاط مسألة

التطهير التي جرت في يونيه 1934م عندما قتل هتلر الجنرال فون شليخر، وقادة فرق القميص الأسمر الذين حاولوا أن يكون لهم رأي في إدارة دفة الحكم
أخذ ترتيشكي يدعو إلى احتقار الجنس السامي، ويذكى غضب عشرائه ويستغل حماسة طلابه في تهديد اليهود لألمانيا في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر حيث يقول: (والآن حيث أصبح في ميسور الآريين تصريف الشؤون المالية فقد انتهت مهمة اليهود ولم تعد لهم ضرورة. بل لقد أصبح خطرهم شراً جسيما يهدد كيان الدولة بانحلال قواها، ويحمل هذا الأمر في طياته نذير قيام جنسيات مختلفة) غير أن ترتيشكي لم يستطع أن يضع حداً فاصلا (لليهودي الخالص) وبين الذين يمتُّون للجنس الجرماني بنسب فقال: (وأستطيع - إلى مدى بعيد - ألا أجد غير وسيلة واحدة لإنقاذ هذا النشاط، تلك هي تنمية مجهودنا القومي الذي ينبغي أن يكون طبيعة ثانية بجانب طبيعتنا، وأن نلزم أنفسنا برفض كل مالا يحمل الطابع الجرماني، فيعم الخير الجميع؛ في ساحة الملاهي وصالات الموسيقى وفي قراءة الصحف؛ أما حيث يوجد القذى اليهودي فعلينا أن نبتره بتراً، فأن استطاع العيشَ بعد ذلك فتبعة هذا اللوم واقعة على المتساهلين معهم، المترَّفقين في بغضهم للجنس السامي)
ويرى تريتشكي أن حاجة ألمانيا إلى المستعمرات من المسائل التاريخية والسياسية والاقتصادية فيقول: (إن حربنا المقبلة الناجحة، ستنجلي عن الحصول على المستعمرات بأية وسيلة، فحاجتنا تاريخية لأن الألمان قاموا بأكبر مشروع استعماري عرفه التاريخ منذ عهد الرومان، ألا وهو استعمار الوثنية من الألب حتى ثم هي مسألة معنوية لأن الأمم العظيمة في التاريخ ترى واجبها في طبع القبائل البربرية بطابعها، والآن (1892) نرى أن أوربا منهمكة في إيجاد أرستقراطية عامة للجنس الأبيض على سطح الكرة الأرضية. كذلك هي مشكلة سياسية لأن الدولة التي ليست لها مستعمرات ستنتهي إلى مركز حقير، حتى ولو كانت قوية من ناحية أخرى، وخلاصة الموقف الألماني تتمركز في سعيه لأن يتكلم الناس قاطبة لغته حتى تكون لغة المستقبل)
هذه هي آراء تريتشكي، وهي نفسها آراء هتلر
(ح. ح)
أسلوب العقاد
للأستاذ سيد قطب
نصف الحياة اضطرابٌ ... ونصفها أوزانْ
هذا هو مذهب العقاد في الحياة، وهو مذهبه في الفنون، وهو رائده في التعبير. . . الشعر حركة في الضمير، وهزة في الشعور - وهذا هو الاضطراب - وهو بعد ذلك لفظ مقروء وجرس مسموع - وهذه هي الأوزان - فإذا اضطربت العواطف واشتجر الشعور وماجت الأحاسيس، فيجب - لتكون فناً - أن تضبطها الأوزان وتحدها الألفاظ، ويحكمها التعبير
من فهم هذا المذهب على حقيقته، فقد فهم أسلوب العقاد، وتنبه إلى الدقة في ترتيب المعاني وتنسيق العبارات، وفي إيراد الألفاظ المعبرة عن المعنى بلا زيادة ولا نقصان التعبيرات الطائرة، والأساليب المزوقة، والجمل المتراقصة. كل أولئك لا نصيب له في شعر العقاد، لأن الشعر أقدس لديه من أن يكون ثوب مهرج، أو قفزات بهلوان! وهو كذلك مالك لريشته، متنبه لتعبيره، فلا مجال لغير الدقة والقصد والإحكام
هذا كله من جهة، ومن جهة أخرى أن الأحاسيس والمعاني التي يضطلع بها الأسلوب في شعر العقاد ليست رخيصة مبتذلة، ومعظمها ليس متداولا متعارفاً، وهي على العموم ليست (ملقاة على قارعة الطريق). فالأسلوب في شعر العقاد إذن يضطلع بعبء لا يضطلع به عنه سواه، وهو عبء من نتاج الإنسانية الممتاز، ومن ثروة الفن العالي، ومن الخلاصات النفسية، فمن حق هذا الأسلوب أن يتريث ويتأنى، وأن يكون له وقار من وقار المعاني التي يحملها، وجلال من جلال الأحاسيس التي يصورها، وأن ينظر فيه أولا إلى مقدار الذخيرة الفنية التي يفيض بها، وأن تكون الموسيقية الممتازة فيه هي موسيقى المعاني والأفكار والآفاق الجديدة التي يرتادها في هدوء وعمق وسموق، لا الموسيقية اللفظية الرخيصة وحدها، وهي ليست بذات بال
وما أقول هذا لأن شعر العقاد تنقصه هذه الموسيقى اللفظية ففيه الكثير منها، بل في

هذا الشعر مجموعة من القصائد التي تتوفر فيها هذه الخاصة، قلما يوجد نظيرها في دواوين الشعراء الموسيقيين، كما أن الرصانة والجزالة في عامة شعر العقاد ملحوظة واضحة.

وإذا شاء أحد أن يأخذ على بعض من ينتسبون للمدرسة الحديثة من الشبان قصوراً في التعبير، أو عدم عناية بالديباجة العربية السليمة، فما هو واجد من ذلك شيئاً في شعر العقاد بالذات، ودون هؤلاء دواوين العقاد كلها إذا أرادوا

ولكن جماعة ممن يبيحون لأنفسهم أن يقتعدوا مقعد النقاد بلا مؤهلات، يقسمون الإنسانية تقسيما غريباً، ولا يسمحون أن يحتاز إنسان لنفسه موهبتين أو أكثر، كأنما يخشون نفاذ هذه المواهب التي بين أيديهم! فمن كان شاعر معان وأحاسيس، فما هو بشاعر موسيقى وتعبير، والعكس بالعكس، إلا من يشاء لهم (الإنصاف البديع) أن ينالوا أكثر من قسط، وهؤلاء يجب أن يكونوا من خصوم العقاد!

ومن هنا كان العقاد - عند هؤلاء - كاتباً ولم يكن شاعراً، فإذا سمحوا له بقسط من الشاعرية، فليكن هذا القسط في المعاني والأفكار، وليبق الأسلوب والتعبير وقفاً على طائفة خاصة من غير المغضوب عليهم، أو من أولئك الشعراء المريحين الذين لا يتعبون هؤلاء المحترمين في فهمهم وفي التسلق إلى مستواهم الرفيع، ولتختلف المقاييس حسب اختلاف الأهواء، فتارة يكون الأسلوب الجيد هو الجزل الرصين، حين يستعرضون للعقاد بعض القصائد السهلة الرشيقة، وتارة يكون الأسلوب الجيد هو العذب اللذيذ حين يعرضون للعقاد بعض القصائد المتينة الرصينة، ولو أنصفوا أنفسهم وأراحوها لقالوا: إن الأسلوب الجيد هو غير أسلوب العقاد في كل حالة، لأن هذا ما يرضي نقصهم وقصورهم حيناً، وحقدهم وتعنتهم أحياناً!

وهاأنذا أفتح الجزء الأول من ديوان العقاد، وهو الجزء الذي ابتدأ به حياته الشعرية، وانتهى من نظمه وهو في الرابعة والعشرين، وأختار هذا الشعر بالذات، لأن الشاعر في أبانه لم تكن قد استقامت له بعد طريق البيان، ولم يكن مالكا لريشته وألفاظه، وكان خليقاً أن يقصر ويعذر في التقصير

ولكن شيئاً من هذا لا تلمحه في ديوان الشاعر المبتدئ، بل إنني لأريد أن أفهم كيف يكون الأسلوب العربي الرصين المشرق، إذا لم يكن كالقطعة الأولى في الديوان الأول بعنوان (فرضة البحر)، حين يقول

قطبَ السفين وقبلة الربان ... يا ليت نوركِ نافع وجداني
يرجى منارك بالضياء كأنه ... أرَق يقلب مقلتي ولهان
وعلى الخضم مطارح من ومضة ... تسري مدلهة بغير عنان
كمطارح الأفكار في لجج على ... لجج من الشبهات والأشجان
تخفى وتظهر وهي في ظلمائها ... باب النجاة وموئل الحيران
أمسيتِ إحداق السفائن شُرَّع ... صُور إليك من البحار روان
كالبيت يجمع بعد تشتيت النوى ... شمل الأحبة فيه والإخوان
جوديَّ كل سفينة لم يبنها ... نوح ولم تمخر على الطوفان
فيها التقى بر وبحر واستوى ... شرق وغرب ليس يستويان
بسطت ذراعيها تودع راحلا ... عنها وتحفل بالنزيل الداني
زمر توافت للفراق فقاصد ... وطنا ومغترب عن الأوطان
متجاوري الأجساد مفترقي الهوى ... متبايني اللهجات والألوان
فانظر إلى تلك الوجوه فانها ... شتى ديار جمَّعت بمكان
في فرضة متقاصر عن متنها ... موج أشم أحم ليس بوان
موج بطيف بها وقدران الكرى ... فيها طواف الضيغم الغرثان
ألقت مراسيها السفائن عندها ... وتحصنت منها بدار أمان
فكأن ضوء منارها نار القرى ... لو كان يُبعث ميت النيران

بل كيف يكون الأسلوب العربي المشرق إذا لم يكن مثل قصيدة (عزاء) في الصفحة الثانية من الديوان الأول حين يقول

يا شاكيا وصبا أحاط بنفسه ... أربِعْ عليك لكل يوم كوكب
حمّل الفؤاد ما يؤودك حمله ... أني لأجلدُ للهموم وأصلب
أنت النعيم لناظريَّ وخاطري ... عجبا وحقك من نعيم ينحب

يشكو من الدنيا الآلي لولا همو ... ما كانت الدنيا تحب وترغب
إما بكيتَ فلستَ أول شارق ... يجلو العيون وقد حواه الغيهب
قد كنت تبلغ ما تريد وتشتهي ... لو أن للأيام عينا ترقب
لا يذهبن بك القنوط فربما ... عاد الصباح وأنت لاه تطرب
دمع الشبيبة لا حرمتَ ثمارَه ... يروى به اللب الغضيض فيخصب
فأما حين يطلبون الرصانة وقوة الأسر وجزالة الأسلوب وفخامة التعبير، فإن الجزء الأول من ديوان العقاد يجيبهم إلى طلبتهم في عدة قصائد أذكر منها (وقفة في الصحراء) وفيها يقول:
هضابكِ أم هذي أواذيَّ عيلم ... وهل فيك من ورد لغير التوهم
تخايلت كالدنيا وأقفرت مثلها ... فلا تخدعني إنني لست بالظمى
أيا ربة الآل الحلوب وإنما ... إلى الآل ركب الناس جمعاء فاعلمي!
خلوت فلا آثار حيٍّ ثوابتٌ ... عليك ولا آثار ميت معظم
نَبا بِكِ عن حال العمار وضده ... شِماسٌ فلم تبنى ولم تتهدمي
تشابهت الأيام فيك فلم يكن ... إلى السعد يومٌ أو إلى النحس ينتمي
صحارى من الدهر الفسيح جديبة ... كعهدك لم تعبس ولم تبتسم
لَفيكِ وإن طال الزمان غوارب ... على الناس أخفى من غوارب أنجم
أضاءت عليها النيرات ولم تزل ... هنالك في ليل من الغيب أيهم
إلى أي ركن فيك يلجأ هارب ... وفي أي ظل من ظلالك يحتمي
تسدين أرجاء الزمان بحاصب ... من النار موار العجاجة مظلم
تثور كأفواج الدخان تطلعت ... إلى عُلْوٍ من قاصي قرار جهنم
إذا ما رآها الوحش ولى كأنها ... من النقع تجلى عن خميس عرمرم
يلوذ ببطن الأرض والأرض جمرة ... خياشيمه م القيظ يبضضن بالدم
ويذهل حتى يفلت الليث صيده ... ولا تفرق الغزلان من ناب ضيغم
وما سكنتها الوحش إلا لأنها ... أحب إليها من جوار ابن آدم
وقفت عليها والمطايا تقلنا ... مطايا ثمود قبل ذاك وجرهم
ذميلاً وإرقالا وما تستحثها ... سياط سوى الرمضاء أيان ترغى
فقلنا بأوجار الضباع فأكرمت ... على البعد مثوانا ولم تتقدم
كرامة مضطر ويا رب طارئ ... يكرمه من لم يكن بالمكرم
هذه أو قصيدة (ليلة نابغية) حين يقول:
إلى أي قولي قائل أنت أميل؟ ... وعن أي حاليك العشية تسأل؟
عرفت مدى شطر وشطر جهلته ... فحسبك من بلواك ما لست تجهل
تغوص على الأوجاع بُهراً كأنني ... بريء من الأوجاع لا أتململ
فيالك من قلب إذا ما تعللت ... قلوب الورى لم يغن عنك التعلل
تعلق إلا بالمحال رجاؤه ... وأقسم لا يلهو ولا يتأول
ضمنتَ كدُقَّاع الضرام لواعجاً ... أأنت لنيران اللواعج هيكل؟
فيا من يراني والفؤاد كأنه ... إذا الليل أغضى قاتل يتزمل
ويا من يراني والنجوم كأنها ... نواظر من خوف المنية تقفل
كأن الفضاء لم ير الشمس مرة ... ولم يسر فيه بدره المتهلل
أبيت وبي ليلان: ليل صباحه ... يرَّجى وليل مدبر الصبح مقبل
أضمد جرحي باليدين وفيهما ... جراح يغشيها النجيع المسلسل
وأحمل نفسي وهي ولهى طليحة ... إذا التام منها مقتل سال مقتل
إذا أدبر الليل استرحت وإنما ... يوكل بي الليل الذي هو أطول
عفاء على الأضواء ماذا انتساخها الل ... يالي وليلى آخر الدهر مسبل
فيا شهب خطى بالرجوم على الدجى ... وباصبح فاسمعني ويا ناس فانقلوا
ضؤلت سراجا يا شموس إذا خبا ... سراجي وليلي قاتم الجنح أليل
فأما حين يطلبون السلاسة والعذوبة، فما أكثر ما يجيبهم ديوان العقاد الأول وحده إلى ما يطلبون، وأقرب ما تقع عليه العين قصيدة الحب الأول ونقتطف منها قوله:
يهنيك يا زهر أطيار وأفنان ... الطير ينشد والأفنان عيدان
طوباك لست بإنسان فتشبهني ... إني ظمئت وأنت اليوم ريان

هذا الربيع تجلى في مواكبه ... وهكذا الدهر آتا بعده آن
تفتحت عنه أكمام السماء رضىً ... وزفه من نعيم الخلد رضوان
وشائع النور في البستان باسمة ... والأرض حالية والماء جذلان
الشمس تضحك والآفاق صافية ... جلواء والروض بالأثمار فينان
وللنسيم خفوق في جوانبه ... وللطيور ترانيم وألحان
في كل روض قرى للزهر يعمرها ... يا حبذا هي أبيات وسكان
مستأنسات سرى ما بينهما عبق ... كما تراسل بالأشواق حبان
الورد يحمر عجبا في كمائمه ... والياسمين على الأغصان ميسان
وللقرنفل أثواب ينوعها ... عن البلور صناع الكف رقان
وللبنفسج أمساح ممسكة ... كأنه راهب في الدير محزان
وحبذا زهر الليمون يسكرنا ... منهن جام خلا من مثله الحان
والليل يحييه والأطيار هاجعة ... بلابل وشحارير وكِرْوان
مؤذن الطير يدعو فيه محتسبا ... فيستجيب له بر وغيان
والصبح في حلل الأنوار طرزه ... في الشرق والغرب أسحار وأصلان
كأنما الأرض في الفردوس سابحة ... يحدو خطاها من الأملاك ربان
ضاق الفضاء بما يحويه من فرح ... فكل ما في الفضاء الله فرحان
الخ. . . الخ . . .
وعلى قيد صفحات من هذه القصيدة الرائقة الرائعة تجد (ليلة الأربعاء) وفيها يقول:
شف لطفاً عما وراء السماء ... نور بدر مفضض اللألاء
رق سجف السماء حتى كأن ال ... عين تتلو هناك سر الفضاء
وسرى الطرف في الفضاء فما يث ... نيه ثان عن خوض ذاك الفضاء
وربا النور كالعباب فما في ال ... كون غير الظلال من ظلماء
تلك أولى لوائح الصيف والصي ... ف بهيج في الليلة القمراء
يمن الله سعيه من رسول ... يطرق الأرض وافداً من ذكاء
مولد الأرض فهي تلبس فيه ... كل عام مطارف الأضواء
أضرم الجو بالمشاعل كالظا ... فر يعدو في إثر جند الشتاء
إلى أن يقول في عذوبة رقيقة:
ليلة الأربعاء بالله عودي ... وأعيدي يا ليلة الأربعاء
ليلة أرسل الزمان بها عف ... واً فجاءت كحكمة البلهاء
قد نسينا الصباح حتى ذكرنا ... هـ بنور من بدرها الوضاء
فوصلنا مساءها بصباح ... ووصلنا صباحها بمساء
وشربنا ونحن مرضى من الهم ... دواء أنعم به من دواء
ثم يقول من هذه القصيدة:
أين لا أبعد المهيمن داراً ... لك يا من أجله عن ندائي
أذكرتني بك الكواكب والبد ... ر ونفخ الرياض والصهباء
أنت أقصى مني ضمائر لو شئ ... ت لباتت في غبطة وهناء
أنت شمس لهيبها في فؤادي ... أنت نور لظاه في أحشائي
أنت عندي كليلة القدر في الدهـ ... ر ولكن لن تستجيب دعائي
تتجلى في كل حسن فأرعا ... ك وأنسى محاسن الأشياء
الخ . . .
تلك نماذج مختلفة من أسلوب العقاد في أول ديوان يصدره منذ خمسة وعشرين عاما مرن على النظم، واستجابت له التراكيب وسلس له التعبير، وتهيأ له خلالها ما يتهيأ لأي شاعر عادي من المران والدربة والإتقان.
فإذا استغنينا بالجزء الأول وحده، فنحن واجدون للعقاد كثيرا من شعر الأساليب الفخمة الجزلة، والأساليب الرصينة المتينة، والأساليب العذبة السلسة، وكل ما يعنيه الأسلوبيون ببدائع الأسلوب. ودع عنك ما وراء أسلوب العقاد من معان وفكر وأحاسيس وعوالم واسعة من الفن الفريد
فماذا يريد إخواننا الرافعيون؟
إنهم ليستغشون ثيابهم ويضعون أصابعهم في آذانهم، ويذهبون ويتجنون وينكرون، وما

على العقاد ولا على المدرسة الحديثة منهم، بل لا كانت هذه المدرسة إذا كانت تنظر إلى رضاء الرافعي!

(حلوان)

سيد قطب

العزلة

للشاعرة ليلا هويلر ويلكسكس

بقلم السيدة فله فهمي

إضحك، يضحك معك العالم

إبك، تبك وحدك

على الأرض الحزينة الهرمة إن تنشد سرورها،

لكن لديها من الهم الكفاية.

غن، تردد غناؤك التلال،

ولكن تنهداتك تتبخر في الفضاء.

يلتقط الصدى الصوت الطروب

لكنه يحجم عن الصوت الحزين

إن تبتهج، سعى إليك القوم،

وإن تحزن، ولوا عنك.

إنهم ليرغبون في أكبر قسط من لذاتك

بينما هم في غير حاجة إلى هموم نفسك.

كن طروباً، يكثر أصدقاؤك

وكن حزينا، تفقدهم جميعاً.

ليس هناك من يعف عن رحيق خمرك

لكن عليك وحدك أن تكرع علقم الحياة

أوْ لِمْ تزدحم قاعاتك

صُمْ، ينصرف عنك العالم.

انجح وامنح، فذلك يعينك على الحياة

لكن ليس من يستطيع أن يحمل عنك آلامك

هناك مكان في قاعات السرور. . .

لكل من يقطع مرحلة الحياة الشاقة،

لكن علينا أن نجتاز واحداً فواحداً

ممر الألم الضيق. . .

فله فهمي

الفهم

وصلته بالحكم الأدبي

للأديب محمد فهمي عبد اللطيف

قرأت فيما قرأت للمرحوم الرافعي كلاماً يقول فيه: إن الذوق الأدبي في شيء إنما هو فهمه، وإن الحكم على شيء إنما هو أثر الذوق فيه، وإن النقد إنما هو الذوق والفهم جميعا!

وهذا الذي قاله الرافعي كلام يتهالك في أوله، بقدر ما يتماسك من آخره. نعم فقد أخطأ الرافعي إذ حسب أن الذوق الأدبي في شيء إنما هو فهمه، فإن الفهم شيء والذوق شيء آخر، وإذا كان الذوق يستلزم الفهم كما يقولون، فان الفهم كثيرا ما ينفك عنه فلا يستلزمه ولا يقتضيه. ولقد يتأتى للشخص أن يفهم الأثر الأدبي على خير ما يكون الفهم، ومع ذلك لا يقع من ذوقه أدنى موقع، كما هو حال كثير من علماء النحو ورجال اللغة!! ولكن الرافعي مصيب من غير شك إذ يرى (أن النقد إنما هو الذوق والفهم جميعا) فأن الناقد إنما تتم له الأداة، ويصح له أن يحكم على الأثر المنقود، إذا ما فهم ألفاظه ومعانيه، ووقف على إشاراته ومراميه، وتلمس له كلَّ وجهٍ يستقيم عليه منطوقاً ومفهوماً، وكل مدلول يقتضيه صريحاً واستلزاما

تلك حقيقة هي من الوضوح إلى حد البداهة، ولكن الدكتور طه حسين نقل كلاما عن الشاعر الفرنسي بول فاليري زعم فيه: أن موت الأثر الفني إنما يأتي من فهم الناس

له، فأنت إذا ما قرأت كتاباً وفهمته فقد قتلته وقضيت عليه. فهناك إذن جهاد عنيف بين القارئ والمقروء، فإذا فهم القارئ فقد غلب، وإنما الأثر الفني الخليق بهذا الاسم هو الذي يغلب القارئ ويعجزه، ولكن دون أن يضطره إلى اليأس والقنوط، ومن هنا كان النثر بطبيعة تكوينه أقرب إلى الفهم، وأدنى إلى الهضم! والدكتور طه لا يميز الناقد في هذه الغمرة عن أي قارئ آخر، بل ولا يرضى له أيضا بفهم (الأثر الفني الخليق بهذا الاسم) ليتم لذلك الأثر البقاء كما يقول، ومن ثم طار إلى الأوج بقصيدة (المقبرة البحرية) لصاحبه فاليري، وكل دليله في ذلك أنها استغلقت على النقاد فلم ينفتح لهم فيها باب الفهم، على الرغم مما بذلوا في الفهم ووسعوا في التأويل، وكأني بالدكتور الفاضل قد فاته أن اللغة - في أرقى أوضاعها وفي أحط أوضاعها - ليست إلا سبيل الفهم، والفهم إنما هو أساس المعرفة،

والمعرفة إنما هي قوام الحياة، وصلة الإنسان بالعالم. ثم كأني بالدكتور الفاضل قد نسى أنه من قبل ذلك ردَّ كتاب رسائل الأحزان الرافعي، وكانت حجته في ذلك أنه قرأ الكتاب فلم يفهمه وهو لا يستطيع أن يحكم على شيء استغلق عليه فهمه، وتعذر دركه!

ومهما يكن من شيء فإن هذا الذي نقله الدكتور طه على أنه من طريف أوربا له شبيه طريف في تاريخ الأدب العربي، فقد حدَّث ابن سنان الخفاجي قال: جرى بين أصحابنا في بعض الأيام ذكر شيخنا أبي العلاء بن سليمان المعري، فوصفه واصف من الجماعة بالفصاحة، واستدل على ذلك بأن كلامه غير مفهوم لكثير من الأدباء، فعجبنا من دليله وإن كنا لم نخالفه في المذهب وقلت له: إن كانت الفصاحة عندك بالألفاظ التي يتعذر فهمها فقد عدلت عن الأصل في المقصود بالفصاحة التي هي البيان والظهور، ووجب عندك أن يكون الأخرس أفصح من المتكلم، لأن الفهم من إشاراته عسير بعيد، وأنت تقول: كلما كان أغمض وأخفى، كان أبلغ وأفصح. وعارضه أبو العلاء صاعد بن عيسى الكاتب وقال: صدقت. إننا لا نفهم عنه كثيراً مما يقول، إلا أنه على قياس قولك يجب أن يكون ميمون الزنجي الذي نعرفه أفصح من أبي العلاء، لأنه يقول ما لا نفهمه نحن ولا أبو العلاء أيضاً، فأمسك!

وسواء أأمسك الدكتور طه كذلك الرجل أم لم يمسك، فما يعنينا ذلك، وليس من وُكدنا أن نطيل في تفنيد دعوى باطلة لا يمسكها دليل من عقل أو فهم، وما كنا لنعرض لها بذكر لولا أن رأيناها قد جازت عند بعض الناس. وإننا لنمضي فنقرر بأنه إذا كان الحكم فرع التصور كما يقول المناطقة، فان الفهم لا شك دعامة من دعامات الحكم الأدبي، وشرط أساسي لا بد منه في تقدير الكلام والحكم على الأثر المنقود، كما هو شرط في الحكم على أي شيء آخر، وقديما قيل: يكفي من حظ البلاغة ألا يُؤتى السامع من سوء إفهام الناطق، ولا يؤتى الناطق من فهم السامع، ولا جرم أن الناقد إذا لم يفهم، واستباح لنفسه أن يحكم، فهو إما مسيء إلى صاحب الأثر المنقود، فإذا كتب الله له السلامة من الإساءتين فذلك شيء بقضاء وقدر، ولا صلة له بتقدير الفن ومقاييسه، ولا يد فيه ولا عمل لمواهب الناقد وملكاته!

هذا وللجاحظ كلام حلو مستقيم يدخل في هذا الباب، فلا بأس من إيراده وإن كان مرده إلى

جهة القائل لا إلى جهة الناقد. قال أبو عثمان: (قال بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعاني: المعاني القائمة في صدور الناس، المتصورة في أذهانهم، المختلجة في نفوسهم، والمتصلة بخواطرهم، والحادثة عن أفكارهم - مستورة خفية، وبعيدة وحشية، ومحجوبة مكنونة، وموجودة في معنى معدومة، لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه، وحاجة أخيه وخليطه، ولا معنى شريكه والمعاون له على أمور، وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره، وإنما يحيي تلك المعاني ذكرهم لها، وإخبارهم عنها، واستعمالهم إياها، وهذه الخصال هي التي تقربها من الفهم وتجليها للعقل، وتجعل الخفي منها ظاهراً، والغائب شاهداً، والبعيد قريباً؛ وهي التي تخلص الملتبس، وتحل المنعقد، وتجعل المهمل مقيداً، والمقيد مطلقاً، والمجهول معروفاً، والوحشي مألوفاً، وعل قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة، وحسن الاختصار، ودقة المدخل، يكون ظهور المعنى. وكلما كانت الدلالة أوضح وافصح، وكانت الإشارة أبين وأنور، كان أنفع وأنجع في البيان. . . والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعت الله يمدحه، ويدعو إليه،

ويحث عليه. بذلك نطق القرآن، وبذلك تفاخرت العرب، وتفاضلت أصناف العجم. . .
والبيان اسم لكل شيء كشف لك عن قناع المعنى، وهتك لك الحجب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصول، كائناً ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان ذلك الدليل، لأن مدار الأمر، والغاية التي إليها يجري القائل والسامع: إنما هو الفهم والإفهام. . . وقال علي بن الحسين رضي الله عنه: لو كان الناس يعرفون جملة الحال في فضل الإستبانة، وجملة الحال في صواب التبيين لأعربوا عن كل ما تخلج صدورهم ولوجدوا من برد اليقين ما يغنيهم عن المنازعة إلى كل حال سوى حالهم، وعلى أن درك ذلك كان يعدمهم في الأيام القليلة العدة، والفكرة القصيرة المدة)

ولعمري لقد أصاب الجاحظ شاكلة الصواب في قوله: إن الغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هي الفهم والإفهام، فالمسألة قسمة بين القائل والناقد، فإذا كان من الواجب على الأول أن يقول ما يفهم، فأن من الواجب على الثاني أن يفهم ما يقال، ومن ثَمَّ كان طلبهم في الشاعر الحاذق بالصناعة أن يكون شعره مفهوماً واضحاً يسبق معناه ولفظه، وكان شرطهم في الناقد إذ كان يدعي علم الشعر ويتحقق بالأدب، أن يكون يفهم معاني الشعر، وله دربة الغامض والظاهر منها. وهذا رأي قويم تقع به مهمة البيان موقعها من جهة، ومن جهة أخرى يستطيع الناقد أن ينهض بمهمته، وأن يخدم الأدب والفن كما يجب، فيميز بين الخبيث والطيب، ويفصل بين الشريف والأصيل، ثم هو يقضي في ذلك ونفسه مطمئنة، ورأيه عن ثقة وتثبت. وقد أجاد الآمدي وأفاد في هذا المعنى إذ يقول في صدر باب من كتابه الموازنة:

أما بعد: فإني أدلك على ما تنتهي إليه البصيرة، والعلم بأمر نفسك في معرفتك بأمر هذه الصناعة - يريد صناعة النقد - والجهل بها، وهو أن تنظر ما أجمع عليه الأئمة في علم الشعر من تفضيل بعض الشعراء على بعض. . . فأن علمت من ذلك ما علموه، ولاح لك الطريق التي بها قدموا من قدموه، وأخروا من أخروه، فثق حينئذ بنفسك، واحكم يستمع حكمك، وإن لم ينته بك التأمل إلى علم ذلك، فأعلم أنك بمفردك عن الصناعة. . . لأن كل امرئ إنما يتيسر له ما في طبعه قبوله، وما في طاقته تعلمه، فينبغي أصلحك الله أن تقف حيث وقف بك، وتقنع بما قسم لك، ولا تتعدى إلى ما ليس من شأنك ولا من صناعتك!!

على أننا إذ نقول الفهم، فما نعني فهما كالذي يقصد إليه عالم كالعكبري مثلا إذ يقول في مقدمة شرحه للمتنبي:

وأما بعد، فإني لما أتقنت الديوان الذي اشتهر ذكره في سائر البلدان، وقرأته قراءة) فهم وضبط. . . ورأيت الناس قد أعربوا فيه بكل فن وأغربوا، فمنهم من قصد المعاني دون الغريب، ومنهم من قصد الأعراب باللفظ القريب، ومنهم من أطال فيه وأسهب غاية التسهيب، ومنهم من قصد التعصب عليه، ونسبه إلى غير ما كان قصد إليه، فاستخرت الله تعالى وجمعت كتابي هذا. . . وجعلت غرائب إعرابه أولا، وغرائب لغاته ثانياً، ومعانيه ثالثاً. . .) نعم! نحن لا نعني هذا الفن من الفهم وما هو على غراره من الأساليب التي انتهجها القدماء في شرح الآثار الأدبية، لأن فهم الآثار الأدبية ليس هو بتفسير الغريب، وإعراب المشكل من التراكيب، والتنبيه على مذاهب الاستعارات والكنايات وما إلى ذلك من اصطلاحات أهل البيان، فما هذه كلها إلا مجهود ضئيل قد يأتي بشيء ولكنه لا يأتي بكل شيء، وإنما الوضع الصحيح لفهم الآثار الأدبية الذي يولد فينا الذوق الأدبي، ويقوي فينا الشعور بالجمال، ويصل بنا إلى مقصد الشاعر أو الكاتب، هو أن نستنطق الأثر الأدبي في كل ما يلابسه ويحيط به، وأن نتبين ما هناك من ميول وأهواء، ونزوع واتجاه، في كلام المؤلف، وشعر الشاعر، وبيان الخطيب فان من وراء هذا كله أشخاصاً ينطقون ويشعرون، فإذا ما خالطنا هذه الآثار ومازجناها، أحطنا بظواهر أصحابها وبواطنهم، واتصلنا بأسرارهم ودخائلهم، وعرفنا خصائصهم وطبائعهم، واهتدينا إلى أخلاقهم وميولهم، ووقفنا على سلوكهم وأوضاعهم، وفي هذا كله ما فيه من ثقافة للذوق، ومتاع للعقل، ثم فيه ما فيه من إفادة للناقد، وتسهيل عليه في درك الحقيقة التي ينشدها، والصواب الذي يسعى إليه.

وهنا سؤال لا بد منه، وقد يكون القارئ فطن إليه من قول العكبري: (ومنهم من قصد التعصب عليه، ونسبه إلى غير ما كان قد قصد إليه)، فأن القائل قد يقصد في قوله إلى شيء، ولكن الناقد يذهب بفهمه إلى شيء آخر، ما دام اللفظ يتحمله، والتعبير يتسع له، ثم إن الإفهام تختلف، والنقاد يختلفون في استخلاص المعنى من اللفظ، (فمنهم من تكفيه اللمحة الباردة لينتبه إلى النكتة اللطيفة والتلميح البعيد المستظرف في عروض كلام الكاتب فيعدَّ ذلك له من القلائد ويفهمه حسبما أراد به وقصد إليه، ومنهم من يحسبها جملة جرى بها قلم الكاتب عن غير تعمد، إذ أنه يرى فيها شيئاً يشبه وجهاً محجوباً بستر صفيق فلا يدري أحسن هو أم قبيح، ومنهم من يمرَّ بالكلام ولو سألته ماذا أراد به كاتبه لعجب من سؤالك! إذ أنه لم يرَ فيه شيئاً استوقف خواطره، وعلى حسب ذلك الفهم وذلك الشعور ينتقد ويحلل) ويقدَّر ويحكم، وأنت لو نظرت إلى النقاد الذين انتقدوا المتنبي مثلا، لعجبت من مدى خلافهم في تفهم معانيه، والوقوف على أغراضه، وهو نفسه يصوَّر ذلك في أبرز صورة إذ يقول:

أنام ملء جفوني عن شواردها ... ويسهر الخلق جراها ويختصم

إذن فماذا يكون حظ (الحكم الأدبي) من فهم الناقد، وكيف يقع موقعه من الحق والصواب ما دام للناقد أن يذهب بفهمه على ما يرغب، وما دامت إفهام النقاد تختلف في الدرجة والطاقة على حدّ تعبير العلميين!

والجواب على هذا السؤال سهل قريب، والتعليل له أسهل وأقرب، فان الأمر ليس منوطاً برغبة الناقد يذهب فيه مذهبه ولكن هناك قيود والتزامات، فالفهم المعتبر عندهم في تكوين الحكم الأدبي، والذي يجب أن يتوجه إليه الناقد بكل ما عنده من علم وزكانة، إنما هو الوقوف على غرض القائل وما يرمي إليه، والى غير هذا الهدف لا يباح له أن يصوب النظر، إذ المقصود إنما هو الحكم للقائل أو عليه، والوقوف على حظه من العبقرية الفنية، وليس مما يصح في منطق العقل أن نحكم على رجل بغير مقصوده، وأن نؤاخذه بغير ما يريده!

إن من الواجب على القاضي في عرف القانون أن يحاول جهده الكشف عن نية المتهم فيما ارتكبه ليحكم عليه في غير ما حيف ولا جنف، والناقد لا شك له مكانة القاضي ومهمته، فمن الواجب عليه كذلك أن يفهم كلام القائل (حسبما أراد به وقصد إليه)، والسابقون من النقاد قد عبَّدوا السبل إلى ذلك، فاهتموا بالتغلغل في شخصية الشاعر أو الكاتب، والكشف عما أحاط به من العوامل والمؤثرات ليكون ذلك في هداية الناقد ومعونته على فهم القائل حق الفهم، ولذلك يقول (سانت بوف): إن من أراد أن يكتب عن شاعر أو كاتب فليبحث حياته وسيرته بحثاً دقيقاً ليعرف كيف كان يعيش في منزله وفي الخارج حتى يمكن تصويره في جميع صوره، ومن المأثور عن هذا الناقد الكبير أنه كان يهتم بقراءة رسائل الذين كان يرغب في الكتابة عنهم الخصوصية وكذلك مفكراتهم واعترافاتهم لأنهم يظهرون فيها غالبا بمظاهرهم الحقيقية

ثم هناك ناحية هامة لا نحسبها تخفى على القارئ الفطن، وهي أننا إذا تركنا الناقد يفهم في الكلام كما يشاء، ويحكم على الأثر المنقود حسبما يذهب إليه فهمه وتصوره، فان حكمه - والحال هذه - يكون على مواهبه هو، ومدى إدراكه وفهمه، لا على مواهب القائل ومدى ما عنده من الفن والعبقرية. ولا شك أن هذا تعطيل لمهمة النقد، وخروج بالحكم الأدبي عن وضعه، ومن ثمَّ فقد أخذ الوهم بعقول بعض الناس فزعموا أن النقد لا حقيقة له، لأنه ليس إلا فهم الناقد لا فكرة القائل، بمعنى أننا إذ نكشف عن معنى في تعبير أدبي، فلسنا نكشف في الواقع عن معنى قصد إليه الشاعر أو الكاتب، ولكنا نكشف عن معنى انقدح في ذهننا وتمَّثل لفهمنا! وقد يكون هذا المذهب صحيحاً أو غير صحيح، ولكنا لا شك نرده على أصحابه إذ نطلب من الناقد أن يكون فهمه إنما هو لمقصود القائل وما يرمي إليه، وهذا أمر هين على الناقد المستكمل الأداة المتدرب بالمران

محمد فهمي عبد اللطيف

فردريك نيتشه

للأستاذ فليكس فارس

ذلك كان فردريك نيتشه، مجسَّم القوة المفكِّرة التي دارت بها النائبات وحاصرتها الأوجاع وتصادمت مع تيارات الفلسفات التي كانت تهبُّ في ذلك العهد في ألمانيا وفي أوربا بأسرها حاملة للعالم مبادئ تضعضع العقل وتهزُّ المجتمع بتقويضها كل عقيدة تقيم أمام الإنسان غاية لحياته

فقد كانت أفكار فيخته وشللينغ وهيغل وشوبنهور تهب جميعها ناشرة في أوربا مزيجاً من مذاهب القدرية والعدمية ووحدة الوجود والإدارة الحرة، فقال شوبنهور إن روح الوجود قوة طائشة عمياء أدركت نفسها في عقل الإنسان وشعوره فوجم حائراً وفي نفسه ظمأ في صحراء لا ماء فيها غيرُ وهج السراب، ولم يجد هذا الفيلسوف من علاج لهذه العلة غير التمرد على الحياة نفسها بترك ملذاتها والالتجاء إلى الزهد وانتظار الفناء في ما يشبه النيرفانا وهي القوة التي تتلاشى كل شخصية فيها

وكانت الفلسفة الدينية تقاوم هذه التيارات للاحتفاظ بالعقيدة المسيحية بأبحاث لاهوتية ينسجها حول تعاليم عيسى رهطٌ من المفكرين كنويمن وكورليج وكارليل وشلير ماخر وبيالرووجان باينو وشارل سكريتان وإضرابهم فزجُّوا بالإنجيل في مآزق مجادلات ليست منه وليس منها في شيء. وهل خطر لذلك المعلم الإنساني وهو يدعو إلى تطهير النفس ومقاومة الظلم والأخذ بالرحمة وإقامة الإخاء بين بني الإنسان أن ينشئ مدرسة للتعليل عن مظاهر الكون ومنشأ الروح والانعكاسات من الآفاق والانطباعات في السرائر؟ بل هو خطر له أن يبحث علاقته بالله وعلاقته هو وحده أو هو وأبو الخليقة كلها بروح القدس؟

وأخذ نيتشه بهذه التيارات تهبُّ من كل جانب على فكره الوَّقاد تلهمه الآلام وتثير تشوَّقه إلى حال يعلل فيها سبب وجوده وهدف صبره وجهاده

إن الرجل المتمتع بصحة الجسم وبشيء من العزم يكتفي من هذه الحياة بما تعطيه، فإذا آمن بالله واليوم الآخر وقف عند إيمانه هذا مرتاحاً إلى ضميره، وإذا أخذ بفلسفة الجحود رضي بهذه المرحلة من شعوره بذاته وطلب أوفر تمتع بأقل جهد

ولا يسطو القلقُ الفكري بخاصة في حالة الحيرة من أمر هذه الحياة إلا على الإنسان الذي يؤدي ثمناً باهظاً من أوجاعه لكل لذَّة يختلسها كالسارق من قوَّته الأسيرة في ضعفه الجائر

إن مثل هذا الإنسان إذا عززته القوة الخفية بالحس المرهَف، يطالب الدنيا ببدلٍ لما يبذل فيها فيستنطق نفسه والآفاق ليعلم ما إذا كان لهذه الإنسانية المعذَّبة المجاهدة ما يبرر محنتها وجهادها

وفريدريك نيتشه كان ذلك الإنسان فما أَرضته من الفلسفة اللاهوتية تلك الأحاجي التي أحيطت المسيحية بها، وما كان ليرضى من جهة أخرى بهذه القوة الهوجاء التي صوَّرها شوبنهور موجدةً لإنسان لم يُعط له إلا التصور لإقامة أشباحٍ تتراقص حوله وهي غير كائنة إلا في وهمه

ونظر نيتشه إلى الوجود فرأى وراء صوره المتحولة مادة تتعالى عن الاندثار، فنشأت فيه فكرة العودة المستمرة، وبدأت صورة زرادشت ترتسم في ذهنه حتى استكملها فأنشأ كتابه في أوقات متقطعة من سنتي 1883 و1885 في فترات كانت تسكن فيها حِدَّة دائه أو هو يسكنها بما كان يتناوله من جرعات الكلورال المخدر. وهو نفسه يقول:

إنه كتب كلاًّ من الأجزاء الثلاثة الأولى من زرادشت في مدى عشرة أيام كان فيها مأخوذاً بإلهامه خاضعاً لقريحة تحكمت فيه فلم يستطع مقاومتها حتى أرهقته إرهاقاً

إذا نحن عرفنا هذا تجلت لنا العوامل التي ألقت على زرادشت وشاح الأحلام، فان نيتشه يقبض في فصوله على مشاعر قارئه ليمر به على رؤى يتسامى الخيال فيها إلى أوجه مفلتاً من رقابة القوى الواعية فكأنه يسير بمطالعه في عالم أحلام تبعث أشباحها من انطباعات القوى الواعية ولكنها تتبع في مرورها وحركاتها ما نحسبه تضعضعاً في عالم القوى الساهية المجهولة

لقد ماشينا نيتشه في حلمه وهو يستعير لعقله الباطن أو لسريرته أو لفكرته الساهية اسم زرادشت الفارسي الذي قال بالخير والشر كقوتين تتنازعان حياة الإنسان، فرأينا زرادشت المزيف لا يقلد الأصلي باتخاذه أتباعاً له وباقتباسه لهجة حكماء الشرق إلا ليعارض فكرة الخير والشر قائلاً: إنها نشأت دخيلة على الإنسانية، وأن ليس لهذه

الإنسانية أن تتفوق على ذاتها إلا بإنكار الخير والشر وتحطيم ألواح الشرائع المقدرة لقيم الأعمال، لأن كل شعب
أشترع لنفسه ما لا يتوافق واشتراع جاره
ولكن نيتشه المتلبس خيال زرادشت في رؤياه لم ينتبه إلى أنه يرتكب تناقضاً بيناً في دعوته إذ ينكر ما يراه من خير وشر طلباً لحالة جديدة يراها هو خيراً يريد أن يتسلح به للقضاء على شر ينكر وجوده
ولو كانت الحقيقة كامنة وراء الخير والشر كما يدعي زرادشت الجديد، أو بتعبير آخر لو أن هنالك حقيقة مجردة عن الخير فلماذا يطلب زرادشت هذه الحقيقة وهو يعلن أنها الخير كل الخير للإنسانية إذا هي أدركته؟
إن تحديد الخير والشر في الكلمات العشر إنما هو أساس كل شرعة تكفل حق الفرد ونظام المجموع
لقد تتناقض الأحكام التي تسنها الحكومات والجماعات في مجال الأزمان مستوحاة من حالةٍ موقتة تدفع إليها حاجةٌ ملحَّةٍ، فتُكتب ألواحٌ تستبدَلُ بتبدُّل الوضع والملابسات ولكنَّ السننَ التي تسن لهم من الشريعة الموحى بها لا يمكن أن تتعارض إذا هي سلمت من دخيلات الأوضاع الإنسانية. وكلُّ شرعةٍ أصيلة تحتفظ بطابع مصدرها تتوافق حتماً وكلُّ شريعةٍ تحدَّرت مثلها من ذلك الأصل
إن زرادشت الجديد لم يَجُلُ في مسارح حلمه فاتحاً لسريرته مجالات التفكير إلاَّ وهو يحتفظ بانطباعاتٍ من تواريخ الأمم القديمة الوثنية وبصورٍ متناقضة من القوانين التي أبدعتها حكومات الغرب وجماعاته ونقاباته الصناعية والمالية فتمثَّلت هذه السننُ أشباحَ ألواحٍ نتراقص عليها ألوانُ البِدَع، فما وسع زرادشت إلا أن يثور عليها ويدعو اتباعه إلى تحطيمها
أما اللوحان الأوَّلان وكلمة عيسى بأن يعامل الإنسان أخاه بما يريد أن يعامله أخوه والشريعة الأحمدية التي جاءت على أساس هذا المبدأ بخير الكلِّيات تُستنبط منها الأحكام لكل جماعة ولكل زمان، فان زرادشت لم يبحثها، مع أن نفسه كانت تصبو إليها لشعوره بوجودها وراءَ أقنعة النظم التي أسدلها الغرب على مجتمعاته. وإذ كان لم يتميزها فما ذلك إلا لأن دماغه كان يتصدَّع بما حُشر فيه من فلسفة اليونان القديمة ومن مشاحنات أعلام عصره الذين شُغلوا بالجدل والمماحكات المنطقية المجردة حتى أتوا بنظريات تورث الدوار
وتبلبل الفكر فيضطر من أَلمَّ بها إلى نبذها جميعاً لأنها كدود القبور يلتهم بعضها البعض الآخر بعد أن تتغذى من جيفة لا حياة فيها
وفي هذا الحلم يسير زرادشت هادماً كلَّ ناموسٍ ونظامٍ لينبئ الناس بالخلود وبقاء الذات في وجودٍ شبَّهه بالساعة الرملية ينقلب أبداً قسمها المفرغ لاستفراغ قسمها الممتلئ
ولا يطمعنَّ القارئ في الظفر من زرادشت بما يثبت هذه العقيدة الراسية على خلود مبهم وعودة أشد إبهاماً لأنه لن يظفر منه صور يلمحها لمحاً في بيان شعري يتلبس الفلسفة دون أن يكون فيه أثرٌ لأي استقراء أو لأي تعليل فيخرج من استغراقه وهولا يدري أيقصد نيتشه من العودة المستمرة ما يتوهمه الملحدون من خلود الآباء في الأبناء أم هو يرمي إلى عودة الشخصية بالذات ناسيه ماضيها تاركة في كل مرحلة من مراحلها جثة تتلواها جثة على مدى الأحقاب.
لقد تمرد نيتشه أمام العدم كما قلنا وخفيت عنه حقيقة الدين الذي أخذ به الغرب عن عيسى فأحاطه بالمعميات كما خفيت عنه حقيقة ما أنزل على محمد فشوَّهه هذا الغرب بالافتراء والتشنيع تعصباً وجهلاً فوقف مفكراً جباراً لا يستسلم لفكرة العبث في غاية الكون ولا يرضى بالنظم الاجتماعية التي أوجدتها المدنية وأسندتها إلى الدين. وهكذا هبَّ يطلب للإنسانية إلهاً منها يسودها، وللأرض معنى أبدياً يحول كل زوال فيها إلى خلود مستمر التجدد بين الخفاء والظهور في محدود غير محدود . . .
ولو تسنى لنيتشه أن ينفذ حقيقة الإيمان الذي دعا عيسى إليه مكملا ما جاء به موسى لكان تجلى له إيماناً بالقوة ترفع الضعفاء لا بالضعف يسلط عليهم الأقوياء، ولو تسنى له أن يستنير بما جاء به الإسلام من مبادئ اجتماعية عملية عليا تماشي ما جاء به عيسى ولا تنقضه لأدرك أن في الدين الحق دستوراً يهدم كل ما أراد هو هدمه من

صروح الفساد في المجتمع، ويوجد الإنسان المتصف بمكارم الأخلاق محباً للحياة والقوة والجمال والحرية دون أن يكسر حلقة الإنسانية ويحاول الانطلاق منها وهو لا يزال يلبس تراب الأرض ويرسف في أغلالها

ولكن نيتشه باندفاعه إلى معارضة الفلاسفة من معاصريه وبثورته على التفكير الديني والتفكير المطلق في آن واحد رأى أن التكامل النبل عطف الألوهية الراسخة في الأذهان

والتخلص من عقابها الصارم يقتضي الإعراض عن الزائلات والاستكانة إلى السلطة واعتبار العقلية الجنسية ملطخة بأوضار الخطيئة فثار على هذه الألوهية المزيفة التي ما عرفها الشرق في أي دور من أدوار وحيه، وهكذا كفر نيتشه بالله فأعلن موته واختناقه برحمته

هذا هو جحود نيتشه في تعاليم زرادشت وهو في تقديرنا إذا نحن استترنا بالدين الحق كما تدركه ذهنيتنا السامية جحودٌ يتجه إلى غير الإله الواحد الأحد رب الناس أجمعين.

بل أننا إذا ذكرنا القاعدة المثلى التي وردت في حديث للنبي الكريم على قول أو في كلمة لأمير المؤمنين عمر على قول آخر، وهي

(اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً)

إذا ذكرنا ذلك، يتضح لدينا أن نيتشه قد ذهب إلى أبعد مدىً في الامتثال للوصية الأولى وقد فاتته الوصية الثانية وهي وصية راسخة في أرواح أبناء هذه البلاد الشرقية العربية، فليس إذاً في عظات زرادشت ما يزعزع عقائدنا أو ينال من إيماننا، بل إن فيها ما يتمشى والمبادئ العليا التي اتخذها السلف الصالح أساساً لإقامة عظمة الدين على عظمة الحياة

(البقية في العدد القادم)

فليكس فارس

الكميت بن زيد

شاعر العصر المرواني

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

تشيعه

يقوم التشيع على أساس اعتقاد انحصار الخلافة عن النبي صلى الله عليه وسلم في علي وقرابته من بني هاشم، وهو بعد هذا ذو درجات مختلفة في العلو والاعتدال، فيصل في الغلو إلى حد تكفير الصحابة الذين حالوا بين علي والوصول إلى حقه في الخلافة ويصل في الاعتدال إلى حد الرضا عن الشيخين أبي بكر وعمر دون غيرهما ممن حكم بعدهما

وكان الكميت أول من ناظر في التشيع مجاهراً بذلك، وقد قال الجاحظ ما فتح للشيعة الحجاج إلا الكميت بقوله:

فأن هي لم تصلح لحيٍّ سواهمُ ... فأن ذوي القربى أحق وأوجب

يقولون لم يورث ولولا تراثهُ ... لقد شركت فيها بكيل وأرحب

وهو يرد في هذا على من يقول في هذا على من يقول إن النبي صلى الله عليه وسلم لا يورث كما يورث غيره، فيقول إنه لولا تراثه وأن آل بيته أحق بالخلافة لأنهم ورثته لكانت لتينك القبيلتين وغيرهما من القبائل العربية نصيب في الخلافة، وكان الناس كلهم سواء فيها

ولكن الكميت لم يكن يعلو في تشيعه إلى الحد من تكفير أصحاب رسول الله، وكان يتورع في شعره عن لعنهم وإن كانوا مخطئين في نظره، وهو إنصاف من الكميت لم يكن يعميه عنه خصومة الرأي. ويظهر أن الإنصاف كان طبعا له مع كل مخالفيه في الرأي، وقد ذكرنا ما كان بينه وبين الطرماح ابن حكيم من المودة والألفة، وكان الطرماح من شعراء الخوارج. ويجب أن نستثنى بني مروان من هذا الاعتدال في خصومته، لأنه كان يغالي في خصومتهم كغيره من الشيعة، ولعل السبب في ذلك أن خصومتهم كانت هي القائمة في عهد الكميت، أما خصومة غيرهم فكانت خصومة قديمة لا معنى لاحيائها والغلو فيها. وقد أفرط بنو مروان في خصومتهم لبني هاشم، فأفرط الكميت في خصومتهم كما أفرطوا

وغالى فيها كما غالوا.
وقد ذكر الكميت أبا بكر وعمر رضى الله عنهما في بعض هاشمياته فتحرج في أمرهما بعض التحرج، وقال في ذلك:

أهوى عليا أمير المؤمنين ولا ... ألوم أبا بكر ولا عمرا
ولا أقول وإن لم يعطيا فدكا ... بنت النبي ولا ميراثه كفرا
الله يعلم ماذا يأتيان به ... يوم القيامة من عذر إذا اعتذرا

وكانت فدك قد بعث النبي صلى الله عليه وسلم إلى أهلها سنة سبع من الهجرة يدعوهم إلى الإسلام، فصالحوه على نصف الأرض، فقبل منها ذلك وصار نصفها خالصا له، لأنه لم يوجف على ذلك بخيل ولا ركاب، فكان ينفق ما يأتيه منها على أبناء السبيل، وفعل ذلك الخلفاء الراشدون بعده، فلما ولى معاوية أقطعها مروان بن الحكم فوهبها مروان لبنيه، ولما ولى عمر بن عبد العزيز ردها إلى ما كانت عليه في عهد رسول الله والخلفاء الراشدين، فوليها أولاد فاطمة رضى الله عنها، ثم أخذت منهم بعده، ثم ردها المأمون إليهم سنة عشرين ومائتين، وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم تصدق بها على فاطمة رضى الله عنها

وأما منع أبا بكر وعمر وفاطمة ميراثها فقد اعتمد فيه أبو بكر على ما سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم (نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة) برفع صدقة على أنه خبر المبتدأ قبله، والشيعة يروونه بالنصب على أنه حال لا خبر، وتقدير الكلام على هذا - لا نورث ما تركناه حال كونه صدقة - ويفهم من هذا أنهم يورثون غيره

وقال الكميت في ذلك أيضاً:

نفى عن عينك الأرق الهجوعا ... وهمٌّ يمتري منها الدموعا
دخيل في الفؤاد يهيج سقما ... وحزناً كان من جذل منوعا
لفقدان الخضارم من قريش ... وخير الشافعين معاً شفعيا
لدى الرحمن يصدع بالمثاني ... وكان له أبو حسن قريعا
حطوطاً في مسرته ومولى ... إلى مرضاة خالقه سريعا
وأصفاه النبي على اختيار ... بما أعيا الرفوض له المذيعا
ويوم الدوح دوح غدير خم ... أبان له الولاية لو أطيعا
ولكن الرجال تبايعوها ... فلم أر مثلها خطراً مبيعا
فلم أبلغ بها لعناً ولكن ... أساء بذاك أولهم صنيعا
فصار بذاك أقربهم لعدل ... إلى جور وأحفظهم مضيعا
أضاعوا أمر قائدهم فضلوا ... وأقومهم لدى الحدثان ريعا
تناسوا حقه وبغوا عليه ... بلا ترة وكان لهم قريعا

فهو في هذا أيضا يأخذ عليهم ما فعلوه في الخلافة مع علي رضى الله عنه، ولكنه لا يصل في أمره إلى لعنهم، ولا يغمط ما كان لهم من العدل في الحكم كل الغمط، وإن كان يرى أنهم أساءوا في ذلك وضلوا عن الحق، وهذا غاية ما كان يمكن أن يقوله الكميت فيهم لترضى تشيعه، ويلائم بين شعره وعقيدته. وغدير خم موضع بين مكة والمدينة قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم لعلي رضى الله عنه (اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله) وقال أيضا (من كنت مولاه فعلي مولاه) فقال عمر رضى الله عنه: طوبى لك يا علي، أصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنة

هذا ولا يزال المسلمون يتنازعون في كتب الكلام على هذا المنوال الذي لا يفيد شيئا في هذا العصر، وقد خرج الأمر من أيدي بني هاشم وقريش جميعا، ولا معنى لهذا النزاع بعد مضي تلك الأزمنة التي كان له معنى فيها، ولكنه الجمود على تلك الكتب هو الذي يجعلنا نعكف عليها، وإن كانت تزرع بين المسلمين حقد بعضهم على بعض، وتفرقهم أحزابا وشيعا في وقت هم أحوج فيه إلى الاتحاد والتحاب، ولعل الله يرزق المسلمين من المصلحين من يجمع كلمتهم بعد افتراقها، ويربي فيهم خلق الإنصاف والتسامح، حتى تصفو بينهم هذه الحياة، ويسود بينهم الإخلاص والمودة، ولا يحملون من اختلافهم في الرأي سببا في الانقسام والتفرق، لأن هذا الخلاف لا بد منه، وهو إذا خلا من ذلك الغلو توسعة ورحمة

عبد المتعال الصعيدي

إلى شباب القصصيين
كيف احترفت القصة
قصة الآنسة (ج. ب. ستيرن)
للأستاذ احمد فتحي

في تعاون خبيث بين عقلي الواعي والباطن، يبدو لي دائماً أنني كنت - حتى الثامنة عشرة - قد أرصدت عمري كله لإخراج قصتي الأولى. ولكنني حين أرجع البصر في الموضوع؛ أتبين أنني لم أخرج هذه القصة الأولى إلا بعد أن بلغت الحادية والعشرين. وإن أبعث للإنسان على استدعاء صور الماضي أن يكون قد كتب قصته الأولى وهو لم يودع من عمره سوى ثمانية عشر ربيعاً، وأن تكون قصته تلك على جانب من الأمانة الفنية، كما أذكر من أمر قصتي الأولى (يانتومايم)!

وحين أنظر الآن إلى القصص الأولى لكثير من الكتاب المعاصرين، أجدها تتساوى في السطحية والضآلة وإظلام آفاق التفكير. فما أجد بينها واحدة كانت خليقة أن تبشر بخير، غير أنها جميعاً تنطق أفصح النطق بما أحب أن أدعوه (فوضى السخرية!). . . والحقيقة أنني كنت أميل كثيراً إلى القصص الساخر إلى ما قبل ظهور قصتي الأولى بسنوات. وهذا اللون الساخر نفسه من ألوان الفن القصصي، كان صورة من أظهر صور العصر. وكم كنت أرقص طرباً كلما قرأت شيئاً لأحد من أعلامه، ولا سيما كاتب (برونللا) وهو (لورنس هاوسمان) وكاتب (مهرج العصر) وهو (إيرنست داوسن)!

ولقد كانت تلك سني حياة ساخرة عابثة مرتجلة!. . ولربما أسفت عليها الآن وحننت إليها حنيناً. . .

وتأثرت بطراز هذه القصص الساخرة فكتبت على غرارها كثيراً من القصص، أذكر منها واحدة اسمها (بائع الأحلام)

وكان هنالك كاتب اسمه (باري) وآخر اسمه (لوك) وإني لأذكر كيف كان أبي في أحيان كثيرة يقول لي (آه. . . حينما تستطعين أن تكتبي مثلما يكتب (لوك!) ثم يهز رأسه في قنوط؛ دون أن يتم العبارة .!

على أن أعلى مثال للقصة الساخرة كان ولم يزل؛ ماثلاً في (كرنفال كوميتون ماكنزي) وقيمتها الخالة ترتكز على ما فيها من دراسة صادقة حية لشخصية البطل، ولكني لم يكن يعنيني كثيراً منها ومن أمثالها من قصص هذا الطراز الساخر سوى بعض العبارات الملونة التي تتمتع بقسط أوفى من قوة الإفصاح وصرامة التعبير. وإني لأذكر حين كنت في مستقبلي أتحدث إلى إحدى صاحباتي ممتدحةً قصة (الكرنفال) كيف أن صديقتي قالت في أسلوب رائع من النقد الفني (أجل. . . هذا المؤلف يستطيع أن يكسو الصفحة من الورق منظراً طبيعياً ساحراً). . . وقد أعْلَى هذا من طمعي، وحسبتني مستطيعة أن أكسو - أنا الأخرى - صفحتي منظراً طبيعياً ساحراً! جعلت أتخيّله، بألوانه، وظلاله، ومشاهده، ولم تكن هذه المحاكاة يسيرة ولا قريبة المنال، فأن التزامها كان يقتضيني ثلاثة أمثال ما يلزمني من الوقت!

كنتُ إلى أن بلغت الحادية والعشرين، أُعَني بكتابة المسرحيات وحدها. لأنني كنت أودُّ حينذاك أن ألعب أدواراً في مسرحياتي إذا أخرجَتْ! وكذلك كنت أكتب الأشعار، ومن قصائدي واحدة اسمها (هنا مضحكون آخرون) لا أزال أرويها إذا ألحَّ عليها طلب حار؛ ولكنه لا يوجد! كما أنني كتبتُ ثلاث أقاصيص قصيرة حملتها بنفسي إلى محرر (المجلة القصصية) وكان في ذلك الوقت (ر. سكوتلاند ليدل). ولقد كان - على غير متوقَّع مني - إنساناً لطيفاً. انصرفتُ من حضرته بعد أن وعد بنشر أقاصيصي، وبعد أن أمضينا وقتاً طيباً في حديث طيب. وفي بضعة الشهور التالية لم أسمع شيئاً عن هذه الأقاصيص، ثم لقيت الرجل مصادفةً في شارع (أكسفورد) وما كاد يراني حتى أخبرني بأن أقاصيصي جميعها قد ظهرت في مجلته، وأنه كان الأيسر أن أترك له عنواني كي يبعث إلي بثمن ما نُشر لي!

وبعد، فقد أستطيع التحدث عن بدء كتابتي (القصة) بمعناها الصحيح. ولحسن الحظ أن الثامنة والأربعين تنظر إلي الحادية والعشرين بعطف وإشفاق، وفي غير فزع! كان الدافع لي على الكتابة هو تلك الخاتمة الفاجعة الأليمة التي انتهى بها (حُبِّي) الذي حسبت أن لا نهاية تنتظره! والذي كان غراماً شعرياً إلى غير حد!

كان (تشارلس) غضَّ السن، جذاباً ذكيَّ الفؤاد. . . التقينا في بعض حدائق (ميدنهد) ثم

أهدى إلي نسخة من كتاب (لورنس) المسمى (ماكيافيللي الجديد). ذلك الكتاب الذي ترك في نفسي أبعد الأثر بفصوله الرائعة، وبأنه هدية من حبيب القلب!
كان مغرماً بالطائرات، ولقد حملني مرة على متن إحداها في مساء ساحر، وعدنا إلى بيته بعد أن أنتصف الليل بساعتين، ولقد تلقاني قومه في شيء من عدم الارتياح، والشك في مستقبلي ككاتبة! وعلى أي حال فأن والدته من فورها قد أخذت تعلمني كيف ترقع سراويل الرجال!
دامت خطبتنا عاماً. ولم يكن هنالك من المتاعب سوى افتقاري إلى المرانة في البيت. فقد نشأت في بيئة فتيات يهوديات من عائلات طيبة. ولم تكن هذه البيئة دينية على وجه الإطلاق. وإنما كانت تتميز بالزهد وتتشبث بأهداب الطهارة. وإني لأذكر العبارة التي كانت الفتيات يستعملنها دائماً فيما بينهن. . . (إنك لن تظفري بزوج أبداً ما لم تظلي نقية. . . وعذراء!)
وربما لم تكن هذه العبارة تعنيني وحدي، ولكنها كانت تفنى في جوي أنا. . . ربما؛ حقاً . .!إنها لم تزل تفنى في جو حياتي إلى الآن
إن شباب هذه الأيام، على قلة ثرثرتهم، يعرفون جيداً كيف يجيبون على سؤال شاب حار الدم، خطب لنفسه فتاة يحبها، وقد أمضى وقتاً طويلا وهولا يستطيع الاقتران بها لعجزه عن التغلب على بعض العوائق الاقتصادية!. أجل، إن شاب اليوم يستطيع أن يقطع برأي حاسم في مثل هذه المسائل. ولكن، حين عرضت لي نفس الظروف لم أستطع أن أصنع شيئاً، بل لم أعلم ماذا يراد أن يصنع بي. وقد ندر ما كنت أتحدث وخطيبي في هذا الصدد، بصفة غير مباشرة. وهذا من أظهر الفروق الملحوظة بين تلك الأيام، وبين أيامنا هذه!!
واعترف لي الفتى بأنه كانت له عشيقة، امرأة جميلة، ولكنها ليست (خاصة)! وكانت تكبره في السن
هذا ما قلت له، دون أن أعلم أنني كنت (. . .بالتأكيد يا تشارلس، كان هذا قبل الآن) وراء مطلب عسير، هو النقاء التام في الجسد، كما في الروح!!
لم يرض أبي عن هذه الخطبة من أول الأمر، وكثيراً ما كان يقول لي (ليس في خلق هذا الفتى شيء من الثبات، هل هو على شيء من الثبات؟ كلا!. .)
وكنا نلتقي، كعاشقين مضطهدين، في ظل استياء أبي وتجهمه. ومضى عام كامل. . . وكان (تشارلس) مهندساً بارعاً ولكنه كان قليل الصبر على عمله المسئم الذي لم يكن يبشر باتساع في الرزق!
وفي بعض الأماسي، حيث كنت أعيش معه ومع أمه، صحب عشيقته إلى (دروري لين) وكان الصباح التالي مقروراً جهما. وكذلك كنت. وحين أقبل المساء اعترف لي بأنه لا يستطيع أن يحتفظ بأمانته لحبي أكثر من ذلك. وقذفني ببعض الألفاظ المؤلمة!
فأخذتني المفاجأة شر أخذة. ثم افترقنا بوسيلة تمثيلية أكثر مما كان ينبغي!!
كيف أعالج بقية أيام حياتي؟!. هذا هو السؤال الذي ألح على خاطري بعد فشل غرامي العظيم! ولقد وثب إلى ذهني أنني لو استطعت أن أكتب قصة من روائع الفن فسأبعث الحسرة والأسف في نفس من نأى عني بجانبه. . .
وفي مخدع أنيق في (برايتون)، وبغير تحضير تقريباً، بدأت أكتب السطور الأولى من قصتي الأولى.
كان على حوائط المخدع أستار جميلة مسدلة، وكانت نيران الموقد تتلظى في لهب ساطع براق. وإني لأذكر القليل من ظروف كتابة (بانتومايم) وإن طريقتي الآن هي أن أظل أدور حول موضوع قصتي شهوراً؛ قبل أن أبدأ في تسجيل فصولها؛ مع تسطير بعض الخواطر المبعثرة على أوراق منفصلة أجمعها في النهاية فتكونّ هيكل الموضوع الناضج الذي أخرجه للناس. وفي ذلك الحين لا بد أن أكون بدأت تسجيل فصول قصتي مباشرة، لأسري عني الألم، وأزجي الفراغ الذي كان يملأ حياتي، والذي كنت أشعر به دائماً.
وعقدت في تلك الأثناء صداقة وثيقة مع فتاة في مثل سني اسمها (روز آلاتيني) هي اليوم تحترف الكتابة باسم (لوسين ونيرايت) وكانت هي أيضا قد بدأت كتابة قصة. وكثيراً ما كنا نكتب مجتمعتين قلماً إلى قلم! وكثيراً ما كان يحدث في تروضنا بالمشي أن نقف بأسماء الناشرين المعلقة على دورهم؛ نفكر أي دور النشر الكثيرة هذه

. . .يحسن استقبالنا بعد حين؟! ولقد استقر رأينا على دار (بوولى هد) أخيراً
وحدث أن كنا في بعض خلوتنا الفنية نكتب في جو حالم حين طالعنا وجه رجل أبيض الشعر معقود الحاجبين، عرفنا فيه (جون لين) ولم نشأ أن نصدمه بإخباره بأننا نكتب سنعرض عليه أمر نشرهما في القريب (قصتين)!
بعد فراغي من كتابة قصتي الأولى (بانتومايم) بعثت بها إلى والد (مارجريت هالستان) الذي كان قد أرضته مسرحية كتبتها منذ أربعة أعوام تقريباً حينما كنت في (الأكاديمية المسرحية)، واسمها (خادم الأجم) كانت مفزعة حقاً. وكانت له في نشرها وجهة نظر خاصة.
وقرأ المستر (هرتز) قصتي فزعم أنها عمل فني من الطراز الممتاز، وكان في ذلك حسن الظن جداً، ولكنه لم يكن مصيباً. كان في القصة الإجادة ولكنها لم تكن ترتفع إلى الدرجة الأولى. بل إني لأقرر الآن أنها لم تكن أكثر من بشير بالتقدم. ولو أنه أتيح لي - الآن - أن أكتب رأيي في نفسي - حينذاك - لما زدت على قولي: (لهذه الكاتبة استعداد حسن، ولا يبعد أن تنبغ إذا استطاعت أن تقهر أخطاءها الشنعاء!)
على أن الرجل قد كتب إلي يقول إنه قد أظهر على قصتي صديقاً له يدعى المستر (جيمس دوجلاس) وقد تفضل هذا بدوره فكتب إليَّ مطرياً يقول إنه قرأ القصة، ثم دفع بها إلى صديقه (جون لين). وظننت بذلك أنني أصبحت (في عداد المؤلفين) الذي تعتمد عليه دار (بودلي هد) للنشر! ولكن (جون لين) لم يلبث أن أعاد إلي قصتي مصحوبة بقوله (إن هنالك ناشرين يرضون بأن يقبلوا هذا الهواء المزركش - على حد تعبيره - ولكن دارنا لا يمكن أن تفعل ذلك!)
وانزعجت كثيراً. . . فان قرار الرجل كان يبدو نهائياً بقدر ما كان يبدو فيه من تحقير! ولم يكن لي من قوة الروح ما يبرر لي الظن بأن (جون لين) لم يكن يدري عم يتكلم! ولم يكن يتبين العمل الجيد حين يقدم إليه. أو لم ينشر (الكتاب الأصغر)؟؟ أو لم يكشف الستار عن مئات العبقريات المغمورة
وعلى أي حال فإني لا أكاد أذكر من الذي نصح لي بأن أبعث قصتي إلى (كالثروب) وأن أسأله عما إذا كانت رديئة إلى هذا الحد!
ولم أكن لقيت أبداً أكبر الأخوة الذين يحملون اسم (كالثروب) ولكن، عندما كنت في السادسة عشرة كان (دونالد كالثروب) ممثلاً محترفاً، وكان بطلا في نظري، وكان فوق ذلك يهوى واحدة من زميلاتي بالدراسة اسمها (نيللي) وقد رغب وإياها في إخراج إحدى
مسرحياتي، ولكن أخاه الأكبر (ديون) نصح له بالعدول، وإنما وعد بمساعدتي إذا كتبت خيراً منها في المستقبل!!
ولقد تحقق وعده على الأيام. إذ قرأ لي (بانتومايم) وما لبث أن كتب لي في تظرف ورقة يقول إنه أوصى بي وصاة خاصة عند الوكيل الأدبي لأعماله ويدعى (جيمز بنكر) وكلفه أن يرعاني. غير أنني، في قلة صبري وقلة تجاربي. لم يكن يرضيني منه أقل من أن يقول لي (إن الدنيا تحت قدميك جميعاً. تفضلي يا عزيزتي يسي ستيرن)!!
ودعاني المستر (بنكر) للقائه. فلما ذهبت إليه وسألته سبب هذه الدعوة، قال إنهم يريدون أن يكسبوا مالاً عن طريقي! وذكر لي أنهم يتبعون نفس الطريقة مع سواي وعدد لي أسماء اطمأننت إلى سماعها، وتركت له القصة، وجعلت أرتقب المستقبل!
واتفقت نهائياً على نشر القصة في سبتمبر 1913، وظهرت للناس في يناير 1914.
ولم تكن هذه سنة حسنة ليبدأ أي إنسان حياته العملية!
وأنا وإن لم أقرأ القصة قراءة كاملة منذ عام 1914، إلا أنني كثيراً ما أتصفح بعض فصولها بين الفينة والفينة، فأجد فيها كثيراً من الهفوات التي أصبحت أنزه عنها أعمالي الأدبية، غير أنني أجد فيها دائماً أشياء تبعث على الارتياح
وكثيراً ما أصادف من قرائي من يقول بأن (بانتومايم) قصتي الأولى والأخيرة، وأنني لم أكتب مثلها أبداً!
بل قد يسألني بعض القراء (متى أكتب) قصة جيدة مثلها؟ فابتسم، وأقول (أرجو. . . في القريب)
احمد فتحي

رسَالة الشعر
رحلة في الخيال القريب
في الريف
للأستاذ إبراهيم إبراهيم علي
بينما كنتُ ذاهباً في السماءِ ... حائماً كالشعاع فوق الماءِ
هائماً في الوجود أنشُد نفسي ... حيث تصفو، وأنفسَ الأصفياءِ
هارباً من حقيقة الأرض وحدي ... سابحاً في حقائق الأحلامِ
مؤنساً وحشتي ببهجة روحي ... وينبع الجمال والأنغامِ
أتملّى الوجودَ فوق ذراهُ ... وأناغي المال تحت الترابَ
وأراني على جناحَيْ خيالي ... فأرى الأرضَ مثل لمع السرابَ
سارياً في حماية الله ربي ... طائراً في مسارح الملكوتِ
لست أعدو محلقاً أتغنى ... بعلاه في منطقي وسكوتي
بينما ذاك جاذبتني قلبي ... وجناحيَّ نزعةٌ للريفِ
وأنا الريفُ منبتي. وحياتي ... من نسيمَيْ ربيعه والخريفِ
فتهاديتُ أملأ الروحَ من في ... ض الحياةِ التي يُفيضُ الوادي
ساكباً في فؤاده من شجوني ... آخذاً من شجونه في فؤادي
عابَداً في جماله مجدَ ربٍّ ... جعل الريفَ آيةً في الجمالِ
خضرةٌ يغمر الضياء حلاها ... ومروجٌ ملوَّناتُ الظلالَ
ليس أبهى من مشرق الشمس فيها ... تحت غيمٍ وشجوها في الغروب
ولقد يغضب الشتاء قليلاً ... فَيشي الضوءُ بالجبين الغضوبِ
يا لبدع الغمام باللون عند ال ... لون (والطيفُ) ضاربٌ (بالقوس)
فإذا البدر ما جلته الليالي ... أخذت ليلها من الفردوس
جنةٌ غير أنها في هوان ... ضاربٍ ظلّه على أهليها
كل من جاءها غريباً (تمنى) ... وابنها وحده المعذَّبُ فيها
ساد فيها السلامُ - والسلمُ إلا ... في ظلال السيوف - ذلٌ مقيم
تعتدي فوقها الذئابُ. ونرجوا ... ورجاءُ الذئاب رأيٌ عقيم
أمَّنوا في حماكِ يا مصرُ شعباً ... ثم عاشوا عليكِ عيشَ الطريد
ربَّ قوتٍ مرارة الجوع فيه! ... وجياعٍ لم يشبعوا من ثريد
وبيوت كأنهن كهوفٌ ... أو قبورٌ بنين للأحياءِ
أقسم النور لا يَراهُنّ إلا ... من ثقوبٍ كأعين الرقباءِ
أيباع الهواءُ في مصر حتى ... تحرمون الهواَء تلك الدورا؟
ونفوسٌ أم هذه حشراتٌ ... ليت شعري أدخلتموها الجحور!
تلك أنشودة العصور الخوالي ... لو ضميرُ الزمانِ كان سميعاً
عجباً يا حمامة من بعيدٍ ... نسمعُ اللحنَ منكِ يجري دموعاً
بت أصغى إليه من كل قلبي ... آسراً لُبِّيَ الذكاءُ العطوفُ
وعليه من الأنوثة فيضٌ ... وجمالٌ، ونفحةٌ، ورفيفُ
أأحييك في العظائم عوناً! ... أم أحييك باسماً للجروحِ!
فسلامٌ عليك يا ابنةَ مصر ... وسلامٌ إلى صديقةِ روحي
إبراهيم إبراهيم علي
القبلة الأخيرة
للأستاذ إبراهيم العريض
وقَفْنا. . ولما يُشْرِقِ البدْرُ طالعاً ... ولا سبَقْتُه في السماء نجومُها
على جدْوَل قد صقَّلَتْه يدُ الصَبا ... فمالتْ مع الأغصان فيه رسومها
وخرخرةُ الأمواهِ أثناَء جريها ... على حجَر يرفضُّ منه نظيمها
كترنيمة المانِيِّ عند عُكوفه ... على ضوءِ نار في صلاةٍ يقيمها
وكنتُ على ما بي الحُزْن واجماً ... وكانت هي الأخرى كثيراً وجومها
فلما رأيتُ الصمْتَ طال على جَوَى ... تُزكِّيهُ أحدانُ الدموع وتومها
وعهدي بها ما شافهتْني بغُنَّةٍ ... من اللحْن إلا واستباني رخيمها
نطقتُ اسمها همْساً لِترْفعَ رأسها ... إليَّ فلم تفعَل ولستُ ألومها

وأنَّى تناغيني بسابق بِشْرِها ... وأنفاسُها الحرَّى تكادُ تزيمها
فلمْ يَكُ بدٌّ أن أحدِّث بالَذِي ... يَسُرُّ وإنْ غال السعادةَ شُومها
فقلتُ انظُري ياميَّ حولَكِ للصَبا ... تُرَاودُ أزهاراً فيزكو نسيمها
وللطير تشدو في الغُصون صبابة ... إلى إلفِها - لا مسَّها ما يَضيمها
وللموْج يصبو للتعانُقِ بعضُهُ ... إلى بعضِهِ من غير أيْدٍ يُقيمها
وللغيْمِ في حِضْنِ الغمامةِ يرتمي ... كما يرتمي في حِضْنِ خَوْدٍ حميمها
ترَىْ كل شيءٍ في الحياةِ مسخَّراً ... إلى الحبِّ موْقوفاً عليه نعيمها
يُخيَّلُ لي أنَّ الطبيعةَ مِثْلَنا ... تحِسُّ ولولا ذاكِ ما طابَ خِيْمُها
رأتْ ما بنا من لوْعةٍ فتألَّقتْ ... كأحسنِ شيءٍ شُهُبها وسديمها
لِتنجابَ عن نفسي ونفسِكِ ظلمةٌ ... من اليأسِ لا يفضي لصُبح بهيمها
فصعَّدتِ الأنفاسَ من حرَّة الجوى ... وقالت (بودي لو تعفّت رسومُها
وأيُّ عزاءٍ لي إذا شَّطتِ النوى ... بأن خاتلْتني في السماء نجومها
أتعلُم هذا آخِرُ العهد بيننا ... وتبغي سُلوِّى أي حال ترومها
أما ضمَّنا وشكُ الفراقِ هُنيهْةً ... لنبكي حياةً زال عنا نعيمها
وإن كانَ بالحبِّ استتبَّ نظامُ ما ... نراهُ كحَّياتٍ حَلاها نظيمها
فما بألنا نشْقَى كذا بودادِنا ... ونجْرعُ كأساً لا يُطاقُ حميمها
أما نحْن أوْلَى من طُيورٍ خميلةٍ ... بألحانِ حبٍّ في الحياةِ نُديمها
(أيُقضَى لنا من دُونِها بتَشتُّتٍ ... فترْضَى به إلا شتاتاً يَضيمها
فلمْ أتمالكْ دونَ أن مِلتُ نحْوَها ... وبينَ ضُلوعي ما يكادُ يُقيمُها
وقلتُ (ارفقِي يا ميُّ بالنفسِ حِسْبَة ... فدْيتُكِ خوفاً أن تطيشَ حلومها
أأشْفَقْتِ أن تُطوى صحائِفُ حُبِّنا ... وهيْهاتَ في عَيْنيَّ خُطَّ رقيمها
أبَى ليَ قلبٌ طالَ فيكِ وجيبُه ... وعينٌ هواها حيثُ أنتِ يَشيمها
بأن أتملّى جُرْعةً من زُجاجةٍ ... إذا لم يكُنْ ذكراكِ دوْماً نديمها
أأسْلوكِ؟ لا والله حتى يَعودَ لي ... شبابي وأحْلَى الذِكرَياتِ قديمها
ولو عادَ لي حقاً إذاً لقضيْتُهُ ... كعهْدِكِ بي في لوْعةٍ اسْتَديمها
(وهل أشبَهتْ دنيايَ إلا قلادةً ... بديعاً دراريها. . وأنتِ يتيمها
فأدنتْ فماً مثلَ الأقاح مُنوّراً ... تُوَدِّعُ. والأحشاءُ دامٍ كلُومُها
وقد أرْسَلَتْ من شَعْرِها حولَ وجْهها ... ففاحَ كعرْفِ الياسَمينِ شميمها
وضمَّتْ على الصدْرِ اليَدَيْنِ كأنما ... هنالِكَ شيْءٌ بالعذابِ يسومها
فقبَّلتها ما أسْعَفَ النَفَسُ الذّي ... احتسبتُ جنُوناً قُبلة أسْتديمها
وأشرقَ نورُ البدْرِ من خلفِ غيْمةٍ ... فغادرْتُها. . . والنفْسُ ولهى ترومها
(البحرين)

إبراهيم العريض

أسيران

للأستاذ عبد الحميد السنوسي

أيها الطائر الحب ... يس ترنم كما تشاء
أنت في أفقها الند ... ى كما كنت في السماء
حولك السحر دافق ... ما ترنمت، والسناء
أنت في ظلها الظل ... يل كما كنت في الخلاء
حولك الورد باسم ... أبد الدهر في نماء
كلما صحت شادياً ... أقبلت تسمع الغناء
ملء آذانها غنا ... ؤك ما ذاع في الفضاء
لست مثلي تضيع أل ... حانه كلها هباء
وإذا ما ظمئت جا ... ءتك بالماء: أي ماء!
لست مثلي إذا تَغَ ... نَّى بلا رجاء
وتوافيك في الصبا ... ح وتلقاك في المساء
لست مثلي يحن في ... كل يوم إلى اللقاء
حولك الخلد كله ... فلم النوح والبكَاء
ليتني ما حييت في ... أفقها أنهل الضياء

ليتني ما حييت في ... جوها أنشق الهواء
ليتني ما حييت في ... سمعها أسكب الغناء
ليتني ما حييت من ... كفها ألقط الغذاء
ليس من يشتكي الحيا ... ة كمن يشتكي الفناء
فدع النوح لا تخل ... إننا في الأسى سواء
عبد الحميد السنوسي
البريدُ الأدَبي
أحكام الشريعة الإسلامية في تعديل القوانين
قدم نائبان محترمان اقتراحاً هاماً يتضمن (1) مراعاة الشريعة الإسلامية كلما أريد تعديل في القانون القائم (2) رد القوانين القائمة بقدر الإمكان إلى أحكام الشريعة الإسلامية (3) إدخال عنصر يمثل الفقه الإسلامي في لجنة تعديل القوانين. . وقد سبق أن بدأ الدكتور السنهوري النضال من أجل هذه الغاية، وقد وافق مؤتمر القانون الأخير على حسبان الشريعة الإسلامية مصدراً عظيماً من مصادر التشريع العام الذي يحرص كل الحرص على خير الإنسانية وتوزيع العدالة بين أفرادها والذي نرجوه في هذه الحركة أن تقوم كلية الشريعة بنصيبها في العناية بهذا الأمر فتصل أسبابها بأسباب كلية الحقوق وتقرر دراسة القانون المقارن بها وتوسع مدى دراستها الأخرى حتى يتيسر لخريجها مشاركة إخوانهم خريجي الحقوق في دائرة اختصاصهم وبذا يتسع مجال المستقبل لأبنائها وتحيا الشريعة الإسلامية على أيديهم.
كتاب المسيو هريو عن مصر
نشر في الأسبوع الماضي بباريس كتاب المسيو هريو عن سياحته في مصر وفيه مقدمة بإهدائه إلى محمود فخري باشا وزير مصر المفوض عن باريس منوهة (بالشكر والامتنان والصداقة)
وقد قدم المسيو هريو إلى معاليه نسخة ممتازة من هذا الكتاب راجياً أن يتولى رفعها إلى جلالة الملك فاروق
شعر سافو بين أوراق البردي المصرية
ذكرت جريدة (كوردبيري لاسيرا) أن الأستاذ فوليانو اكتشف شعراً من نظم الشاعرة الإغريقية سافو. ويقيم البرفسور فوليانو عادة في برلين ولكنه يدرس آداب اللغة اليونانية في جامعة ميلانو
وكان في المدة بين سنة 1934 و1937 يدير البعثة الأثرية التي اشتغلت في مصر في منطقة تبتوتنس وإحدى المدن بالفيوم وكان من نتائج أعمال هذه البعثة أن حمل الأستاذ.
فوليانو إلى إيطاليا 12 ألف ورقة من أوراق البردي وجدت في أم البريجات.
ويقال أن الجزء الأكبر من هذه الأوراق جاء من محفوظات إحدى الأسر الغنية التي عاشت في العهد الواقع بين الإمبراطورين طيبريوس وكومودس
وكان الأستاذ فوليانو يشتغل منذ ذلك الوقت بدراسة دقائق هذه الأوراق فوجد قطعا هامة من بينها هذه القطعة المجهولة من شعر سافو الذي يوجد نصفه الآن في برلين حيث تنسخ قبل نشرها على العالم
هتلر والسامية
لعوامل اقتصادية وسياسية أخذ الزعيم هتلر ينمي الغرور القومي في نفوس الألمان بترديد ما زعمه (رينان) ومن ذهب مذهبه من تقسيم الناس إلى آريين وساميين، وقولهم إن الآريين يمتازون في أصل الخلقة بالعقل والأصالة والكفاية والسمو.
ويرمي من وراء ذلك إلى تبرير ما يصنع مع اليهود من الاضطهاد والمصادرة والطرد، وتسويغ ما يطمح إليه من سيطرة النازية على شعوب الشرق. وفكرة هذا الامتياز لا تعتمد على أصل من العلم ولا سند من الواقع، على فرض أنك تستطيع وضع الحد الفاصل بين الآري والسامي. أما إذا علمت ما تقتضيه طبيعة الوجود من المزج الدائم بين الأجناس والتداخل المستمر بين الأمم، وعرفت اختلاف العلماء في موطن الآريين: أهو في وسط أسبانيا أم حول بحر البلطيق، فلا يداخلك الشك في أن الفكرة خرافة لا تنبت إلا في رأس مستعمر ماكر أو متعصب حاقد. والذي يعنينا من هذه الفرية أن هتلر جعل المصريين في الجنس الذي حكم عليه هو بالتأخر، ورمانا بالعجز والزماتة

والانحطاط في كتابه (كفاحي) (صفحة 656 من الأصل) ونسى هذا السياسي المتعصب تاريخ المدنية وما قدمه الفراعنة والعرب للعالم من عبقريات الذهن وروائع الخيال وآيات الهداية. ولكن الدكتاتورية طغيان؛ والطغيان يتجاوز الحدود في كل شيء فلا يقف عند علم ولا منطق ولا عدالة

من نثر الأستاذ قسطاكي الحمصي

قرأت في (الرسالة) الغراء خطبة الأستاذ الفاضل السيد اسعد الكوراني في الحفلة التي أقامها الأدباء والكبراء في حلب تكريما لصاحب السعادة الأستاذ (قسطاكي بك الحمصي)

وقد اطلعت على كتاب كريم بليغ كان الأستاذ قسطاكي بك قد بعث به إلى صاحب له أهدى إليه رسالة في مبحث علمي، فرأيت أن أنحف به القراء مضافا إلى ما رواه الأستاذ الكوراني من نثر هذا السريّ العالم الأديب الكبير

يا صديقي

وصلتني كلمتكم. . . فسرحت طرفي منها في روضة بلاغة نقَّطت أزهارها الغمائم، بل في عالم فضل جمع شتيت العوالم. ونقلتني سطورها الموجزة إلى الهند والصين، ورفعتني آياتها المعجزة إلى أعلى علّيين. وأبعدت بي في المكان والزمان، حتى حادثني كهنة مصر وفلاسفة اليونان. بل جاوزت بي عصور الخلق الحيواني وأحقاب ظهور النبات، بل تعدت ما قبلها من الدهور السحيقة لتكوَّن الجمادات. ثم حلقت بي على أجنحة الفكر وأقدام الخيال، فجوَّلت في العوالم الشمسية، ومن لي بشرح ذيالك التجوال. وعاينت بأعين العلم ما تعجز عن إدراكه أعيان الحس من آيات الجمال. ثم حدرتني إلى عالمنا السيّار، وسايرتني إلى آخر الإعصار. وعرَّفتني جماعة من الحكماء الكبار كباكون ونيوتن وسبنسر ودروين وكنت ولامرك وهيكل علم المتأخرين، وكثيراً من إضرابهم من تطأطىء لفضلهم شوامخ الرءوس، ويقال عند ذكر أسمائهم: لا عطر بعد عروس. فيا حبذا كلمتك وما أوجزت، ولله درك ولله أنت. لازلت تدير علينا من صهباء فضلك كؤوسا، وتطلع من سماء معارفك بدورا وشموسا

حلب في 25 شباط سنة 922

قسطاكي الحمصي

ذلك كتاب العلم والفضل والأدب والوجاهة في مدينة سيف الدولة، وعماد الدين وابنه نور الدين، وإبراهيم هنانو، وابن يعيش، واحمد بن الحسين القائل:

نحن أدرى وقد سألنا بنجد ... أقصير طريقنا أم يطول؟

وكثير من السؤال اشتياق ... وكثير من رده تعليل

كلما رحَّبت بنا الروض قلنا: ... (حلب) قصدُنا، وأنت السبيل

القارئ

غاندي وتشكسلوفاكيا

كتب غاندي في جريدته (هاريجان) فصلا مناسبة المشكلة التشكسلوفاكية عاد فيه إلى مثُله العليا يجترها ويبدي فيها ويعيد، ومن رأيه أن أوربا قد باعت روحها من أجل التمتع بهذه الدنيا فترة قصيرة أخرى من الزمان. ومن رأيه أيضاً أن السلم الذي جاء ثمرة لمؤتمر ميونخ هو فوز للقوة كما إنه هزيمة لها في الوقت نفسه. . . ثم استولى على غاندي وسواسه الصوفي فعاب على التشك إذ عانهم للقوة بعد أن تخلت عنهم فرنسا ومن وراءها إنجلترا. وكان من رأيه أن يشهروا في وجه الألمان سلاح المقاومة السلبية دفاعاً عن الشرف الوطني، لأنه إذا كان من الشجاعة أن يقضي المرء في محاربة عدو يفوقه في القوة والعدد، فانه يكون أكثر شجاعة إذا رفض أن يحارب ورفض أيضاً أن يذعن. وما دام الموت هو النتيجة في الحالتين فخير للإنسان أن يكشف صدره للعدو ليقتله، من أن يمد إليه يده ليقتله، أو يملأ جوانحه بالحقد عليه) - وروح العصر الذي نعيش فيه تسمي كلام غاندي تخريفاً يريد أن يرى الناس كلهم فلاسفة. ونحن لا نشك في أن هذه الفلسفة الغاندية هي علة شقاء الهند وسبب فشلها في نضالها ضد الإنجليز. ورحم الله المتنبي حيث يقول:

وإذا لم يكن من الموت بد ... فمن العجز أن تكون جباناً

نادي الشبان الإنجليز

في سبتمبر الماضي فكر رجال التربية الإنجليز في تأسيس ناد للشبان الذين هم دون

العشرين ولا يقلون عن الخمسة عشرة سنة، وقد تأسس هذا النادي العجيب بالفعل وعقدت أولى جلساته في مساء الرابع من أكتوبر الحالي فكانت جلسة غريبة جمعت الأخلاط والأشتات من الشبان والشابات من جميع الطبقات، وستعنى وزارة التربية الإنجليزية بجلسات هذا النادي فتعين لكل منها مرشداً من أبرز رجال الفكر في إنجلترا فيحاضر الأعضاء في موضوع خاص يختاره هو من الموضوعات التي تهم الشباب والتي تؤهلهم دراستها لفهم الحياة الصحيحة والمفروض في المحاضر أنه لا يفرض آراءه على الأعضاء ولذا فهو مستعد لمناقشتهم بعد المحاضرة ولا بأس من النزول على وجهة نظرهم إذا كانوا هم المصيبين. ووزارة التربية تنشد من وراء هذا النادي تنشئة الشباب على حرية الرأي

والاتصال المباشر بزعماء الفكر في البلاد، وبتغير أعضاء النادي في فترات قصيرة، وليس في ذلك تفويت الفرصة على من لا يحضر الجلسة لأن الأحاديث تذاع كلها من محطة الإذاعة البريطانية فيصغي إليها جميع الأعضاء الآخرين

في قول الإمام العكبري

أورد من قول العكبري في الفعل (استحيا) ما فيه الإيضاح الشافي لأن (رسالتنا) الكريمة، لسان حالها يقول مقال صاحب (الكشاف): (أنضج رأيك إنضاجاً، ولا تخدجه إخداجاً)

قال الإمام العكبري: (لا يستحي: وزنه (يستفعل) و (عينه لامه) ياءان، وأصله الحياء، وهمزة الحياء بدل من الياء، وقرء يستحي بياء واحدة، والمحذوفة هي (اللام) كما تحذف في الجزم ووزنه على هذا (يستفع) إلا الياء نقلت حركتها إلى (العين) وسكنت، وقيل المحذوف هي (العين) وهو بعيد)

(* * *)

المؤتمر التمهيدي للشباب العربي

تلبية للنداء الذي وجهه إخواننا العرب في المهجر إلى العالم العربي، أجمع فريق من الشباب - يمثل الهيئات وشتى النزعات - على عقد مؤتمر تمهيدي للشباب العربي يبحث في أهم شؤون القضية العربية من جهة، ويكون بمثابة خطوة أولى لعقد مؤتمر عربي عالمي من جهة أخرى

ولا ريب أن أهم ما يضعف الحركة القومية العربية هو انقسام أبناء الوطن العربي الواحد إلى أحزاب متنابذة متشاكسة وعدم الاهتمام برفع مستوى الشعب الثقافي والاقتصادي، وإنقاذه من الأمية والبؤس، وإيقاظ الوعي القومي الشامل، بوسائل فعالة تتجلى آثارها في ارتباط الأواصر ووثوق الصلات بين منظماته الشعبية المختلفة، فيؤدي اشتراكها في الحركة الوطنية - وهي في هذه الدرجة من الوعي والشعور المشترك - إلى نمو تلك الحركة واتساع أفقها

ولقد درست اللجنة التحضيرية للمؤتمر التمهيدي للشباب العربي هذه القضايا واتفقت بالجماع على برنامج شامل يبحث في أهم عناصر الحركة القومية العربية لتكون أساساً

لأعمال المؤتمر التمهيدي

واللجنة التحضيرية تأمل أن تتلقى جوابكم الكريم على دعوتها لحضور هذا المؤتمر حال وصول هذا البيان إليكم، كما أنها ترجوكم إذا أردتم المساهمة في بحث نقط من نقاط المنهج المرفق بهذه الدعوة أن تبعثوا بكلمتكم إليها قبل موعد انعقاد المؤتمر بعشرة أيام على الأقل ليتسنى لها ترتيب أعماله وتنظيم شؤونه

وسيعقد المؤتمر في مدينة دمشق في الرابع والعشرين من شهر تشرين الثاني سنة 1938 الموافق لعطلة عيد الفطر المبارك

منهج المؤتمر التمهيدي للشباب العربي

أولاً: المؤتمر قومي شعبي عربي

ثانياً: يعتبر المؤتمر أن القومية العربية هي مظهر الشعور الشامل للشعب القاطن في البلاد العربية المرتبط بجامعة اللغة والثقافة والآلام والأماني والبيئة الجغرافية

ثالثاً: يعتبر المؤتمر أن الحركة القومية العربية هي الإفصاح العملي عن شعور التضامن الذي يشمل العرب في شتى أقطارهم، وهو يرى أن من أهم عناصر الحركة القومية ما يلي:

أولاً: التحرر من الاستعمار الأجنبي بالوسائل التالية:
أ - إيقاظ الوعي القومي بين سائر أفراد الشعب ومكافحة الدعايات الأجنبية
ب - تضامن العرب في سائر أقطارهم للحصول على استقلالهم وحرياتهم
ج - تحقيق التنظيم الشعبي الحر ضمن أهداف الحركة القومية العربية
د - تأمين حرية الفكر والكلام والاجتماع وسائر الحريات العامة والفردية للعرب في كل قطر من أقطارهم
أ - نشر الثقافة بين جميع أفراد الشعب
ب - تعميم التعليم الابتدائي الإجباري المجاني، وتوحيد برامج التعليم في الأقطار العربية
ج - إنشاء مؤسسات ثقافية شعبية في كل قطر من الأقطار العربية والسعي للتقرب بينها
د - تحرير المرأة بتعليمها وتثقيفها
ثالثاً: إنقاذ الشعب العربي من الفقر والبؤس بالوسائل التالية:
أ - الانتعاش الاقتصادي العام
ب - تشجيع الإنتاج الوطني الزراعي والصناعي وحفظ ثروة البلاد الطبيعية
ج - توثيق العلاقات الاقتصادية بين الأقطار العربية والعمل على رفع الحواجز الجمركية بينها
د - رفع مستوى حياة الشعب
رابعاً: إيجاد صلة وثيقة بين العرب وإخوانهم في المهاجر ودعوتهم للمساهمة العملية في إنهاض البلاد اقتصاديا وثقافياً واجتماعياً وسياسياً
الكُتبُ
هكذا تكلم زرادشت
ترجمة الأستاذ فليكس فارس
للدكتور إسماعيل أحمد أدهم
صديقي الأديب النابغة فليكس فارس علم من أعلام البيان في الشرق العربي، عرفته العروبة على منابرها في سوريا ولبنان خطيباً مفوهاً يدعو لإحياء الثقافة العربية؛ وعرفته لغة الضاد ذائداً عن حياضها أمام تيار العجمة الدخيل؛ وعرفه الشرق العربي رسولا يرفع رسالة غيبيات الشرق أمام يقينيات أوربا الجارفة
و (رسالة المنبر إلى الشرق العربي) التي أصدرها منذ عامين صرخة مدوية إلى الضمير العربي تظهر لك فليكس فارس على حقيقته. فهو ينظر للعالم من ناحية ارتضاها شعوره فسكن إليها عقله، وقبلها وجدانه فنزل عندها فكره. فهو شاعر في تفكيره وفنان في منطقه وداعية في علمه؛ ولهذا تقع على الشيء الكثير من المفارقات في كتابه، تلك التي أجليناها في نقد مستفيض نشرته لنا مجلة (العصبة) في العدد الثاني والثالث من السنة الرابعة. ذلك أن فليكس فارس رجل يؤمن بخيالات الأمس ويعيش في ذكريات الماضي، فهو يعيش في الحاضر بكيانه المادي، أما عقله وروحه فهماً في الماضي، ينظر إليه بمنظار ناصع مكبر؛ أما الحاضر فمنظاره أسود مصغر، ولهذا تجده يهيب بأهل المشرق أن يخلعوا عنهم رداء مدنية الغرب التي لبسوها في العصور الأخيرة وأن يرجعوا لفطرتهم التي تفجرت منها في الماضي أنوار الموسوية والعيسوية والمحمدية
هذا هو صديقي فليكس فارس كما عرفته من مطالعة كتابه (رسالة المنبر) ولقد ترجم أخيراً أثرين عن اللغة الفرنسية، أولهما قصة لألفريد دي موسيه، وثانيهما كتاب زرادشت لفردريك نيتشه
وترجمة هذين الأثرين من قبل صديقنا فليكس فارس مدعاة لنا للتساؤل عن الأسباب التي دفعته لترجمتها!
يقول أديبنا النابغة في تمهيد لقصيدة (رولا) لألفريد دي موسيه وقد نشرتها له المقتطف في
عدد مايو من هذه السنة: (إن في بذل البيان لتفكير الغير كثيراً من التضحية لكاتب أندغم تفكيره في بيانه، لأن هذا البذل يستلزم إقامة حاجز بين القوة المبدعة مما كمن فيها تذكاراً وتنسيقاً، علماً بالاستقراء وعلماً بالحس الباطني، وبين قوة التعبير تصويراً

وتلويناً وتنغيماً. وفي هذا الفصل من الجهد ما لا يدركه إلا من يعانيه، ولا يعاني هذه المشقة كل من يقتحم الترجمة إطلاقاً؛ فان من الترجمة ما لا تتعدى الاقتدار على النسخ، وليس هذا النوع ما نعني، فالمترجم الذي ينقل كتاباً يبحث في صناعة أو مسألة اقتصادية لا يكون عمله إذا امتلك ناصية اللغتين إلا عبارة عن كتابة ما سطرته الريشة من الشمال إلى اليمين بكلمات يخطها القلم من اليمين إلى الشمال، ولمثل هذا العمل قيمته ولا نكر، غير أنه جد بعيد عن مجال البيان الأدبي، وليس فيه غير أثر الجهد والاطلاع والدقة، إذ لا يمكن أن يتضمن شيئاً من شخصية المترجم الأدبية شتان إذن بين من يترجم ومن يسلخ إنشاءه عن تفكيره ليكون هيكلا سوياً من البيان (تحتله روح مؤلف مبدع فنان

ومهما يكن قيمة هذا الرأي فان عنصراً من الحق في بيان منحى الترجمة عند أديبنا. إذن فلنا أن نتساءل - ويكون لتساؤلنا محله - عن العناصر التي تكافأت بين هذين الأثرين البيانيين وبين نفس المترجم، حتى كبد نفسه جهد إسكات ما فيه من القوة المبدعة، وعمل راضيا على إعارة بيانه بلغته لتفكير غيره؟

إن في الإجابة على هذا السؤال حل مشكلة ترجمة أديبنا لهذين الأثرين دون غيرهما من تراث الأدب والفكر الغربي!

أما (الاعترافات) فهي قصة حب (الفريد دي موسيه) لـ (جورج صاند) وهي تمتاز بعمق الاحساسات وزخور المشاعر، ولكن فكرتها وخيالها ضعيفان. ذلك أن (الفريد دي موسيه) كان (رومانيا) يغلب شعوره عقله واحساساته تفكيره، ومن هنا كان لا يقدر على التحليق في أجواء الخيال. . . وهذا الطابع الذي يسم (الاعترافات) هو الذي تجاوب مع نفس المترجم، ذلك أنه من طراز المؤلف في طابعه الشخصي هذا إلى أن القصة وإن لم يكن لها مقام يذكر في تاريخ الفن القصصي، فان أديبنا المترجم فتن بما فيها من إحساس صادق ووصف جميل، هو كل ما للاعترافات من ميزة. ومن هنا

تجد أن المترجم نزل عن بيانه لموسيه راضياً. ذلك أن الصور والاحساسات التي منها توسيعه في كتابه قريبة من نفس المترجم ليست غريبة عنه، فهذا موسيه يرى مع فليكس فارس أن داء العصر - الذي حاول موسيه أن يصوره في مستهل كتابه فأخفق - نتيجة للمدنية الآلية. وهذا الداء ظاهرة من ظواهر اليوم في جيل شباب هذا الشرق العربي. . . ومن هنا أعتقد أن المترجم رأى في الاعترافات علاجاً أدبياً لداء العصر. ومن هنا نرى أن فليكس فارس لم يترجم كتاباً بترجمة (الاعترافات) إنما وجد في الفريد دي موسيه من يعبر عن احساساته وأفكاره تعبيراً صادقاً في (الاعترافات) فنقلها للعربية وكأنه ينشئها من نفسه

إذن فليس لنا أن نعيب على المترجم نقله كتاب (الاعترافات) إلى العربية، مهما كان رأينا في الاعترافات، ذلك أن الأفكار والاحساسات المبثوثة في (الاعترافات) تنبع من صميم نفس المترجم. فكل اعتراض عليها اعتراض على طبيعة بشرية!

أما كل ما يمكن أن يدار من البحث حول ترجمة الاعترافات فهو مقدار نصيب الترجمة العربية من روح الأصل الفرنسي، ونحن نعتقد اعتقاداً أولياً أن المترجم مهما يكن مقدار تصرفه في الترجمة، فان روح الاعترافات في أصلها الفرنسي لا شك قوية واضحة في الترجمة، ذلك أنها لا تنزل من المقدرة على الترجمة وإنما تنزل من روح المترجم

أما كتاب (زارازوسترا) لفردريك نيتشه، فان بعض الصعوبة يبدو للنظر إذا حاولنا أن نثبت وحدة المزاج بين الفيلسوف الألماني والمترجم العربي، ذلك أن المؤلف مشهور بتجديفه والمترجم مؤمن مشهور بإغراقه في التدين. . . وأين الإلحاد من الإيمان؟ ولكن لو نظرنا للبواطن، فأننا نجد وحدة في المزاج بين المؤلف والمترجم، هذه الوحدة تقوم على الإغداق والطبيعة الفنية، ذلك أن نيتشه فلسفته ليست نتيجة لقريحة فلسفية إنما هي تجربة الدنيا أملت على طبيعته الفنية ما أملت. . . ومن هنا كان نيتشه فناناً أكثر منه فليسوفاً. وروحه الفنية قديمة، وللطابع العبري نتيجة، لتأثره بالآداب العبرية التي تبحر فيها. وهذه الروح السامية هي التي أخذ بها المترجم، بما فيها من الحقائق إزاء الوحدة المتجلية للكون في روح الفيلسوف الفنان. ومن قبل التفت الأديب الناقد عباس محمود العقاد في دراسة سريعة له للمتنبي إلى أوجه

الشبه بين نيتشه والمتنبي، ورأى لهما فلسفة في الحياة واحدة، نتناول سننها وصروفها، ولا تتناول مصادرها ومصائرها. ولقد وقف العقاد وقتئذ حائراً في تفسير أوجه الشبه بين شاعر العرب الكبير ومفكر ألمانيا وفنانها الكبير، وهو لو ذهب من ناحية الطبيعة الفنية يعلل أوجه الشبه بين الرجلين مستعيناً بالعوامل التي تكافأت مع هذه الطبيعة، لكان نجح في بحثه أضعاف ما نجح.

مضى صديقنا فليكس فارس يترجم عن نيتشه كتابه، مأخوذا بهذه الروح، ونحن نظلم أنفسنا ونظلمه ونظلم الحقيقة إذا ذهبنا نقارن بين كتاب زارازوسترا في أصله الألماني وبين ترجمته العربية، لأن أديبنا المترجم رجل أنصب تفكيره في بيانه عن طريق الاشتراك بين العلة والمعلول. . . ومن هنا كانت ترجمته سلخ لتفكيره عن إنشائه - كما يقول هو - ليكون إنشاؤه هيكلا سويا من البيان يحتل روح مؤلف مبدع صاحب بيان وفن كفردريك نيتشه. ولما كان السلخ غير مستطاع في كل الحالات كانت أفكار المترجم تتسرب إلى تفكير نيتشه فتخلتط به أو تجعل مفهوم كلامه ينحرف بعض التحريف حتى يجوز المكافأة لنطق المترجم، وآثار هذا الانحراف جلية في الترجمة، تارة في صورة تصرف، وطورا في صورة تفسير وتأويل. ومن هنا كان لنا أن نعتبر الترجمة تحمل طابعاً شخصياً يتصل بالمترجم، لا عند بيانه فحسب بل يتكافأ ومنطقه إلى حد كبير

ولا أدل على هذا من تصرف المترجم في كلام نيتشه وتأويله وتخريجه عباراته تخريجا يبعدها كل البعد عن مفهوماتها.

يقول نيتشه في فصل (بين غادتين في الصحراء) على لسان (زارازوسترا) نشيداً يستهله بقوله:

إن الصحراء تتسع وتمتد فويل لمن يطمح إلى الاستيلاء عليها!

يا للمهابة!

يا للبداية تليق بمهابة صحراء إفريقيا!

تليق بأسد أو نذير يهيب بالناس إلى مكارم الأخلاق

إنها لروعة لم تسط عليكما يا صديقتي عندما أتيح لي أنا ابن أوربا أن أجلس عند أقدامكما تحت ظلال النخيل.

(!حي على الصلاة

فهنا (أسد الصحراء) رمز (للنبي) رمز (لانبعاث الفضائل العليا وتمردها على الجحود والتضعضع في الحياة!. . . و (سلام) رمز (لحي على الصلاة!).

هذا ما يقرره صديقنا في مستهل الترجمة، ولو ذهب لتدعيم تأويله إلى عالم أخصائي في فلسفة نيتشه هو الدكتور (روبرت رينجر) أستاذ الفلسفة بجامعة فينا - الذي يظهر أنه يوافق صديقنا المترجم بعض الموافقة في تأويله - إن صح ما نقله المترجم عنه . .!

.

ولكنا لو راجعنا الدكتور (رينجر) وخاصة مجلده الضخم عن نيتشه، فإننا لا نجد وجهاً في كتاباته يتفق مع تأويل أديبنا النابغة فليكس فارس.

ومع هذا فرأي الدكتور رينجر (لا يقدم ولا يؤخر في الموضوع، ذلك أننا نجد تفسير هذه الرموز جلية في كتاب (زارازوسترا) من مطالعة النشيد في ضوء روح الكتاب عامة. ونحن نقدر أن (أسد الصحراء) رمز للعقل الإنساني الطموح إلى نيل حريته وبسط سيطرته على حياته؛ أما الصحراء فنفهمها على أنها الحياة المتحررة. أما صرخة الأسد أمام غادات الصحراء فهي صرخة الإرادة في الإنسان الطموح لنيل حريته، وغادتي الصحراء، هنا هما فضائل الحياة، ولكن أي حياة؟. . . نرجع الحياة المستعبدة.

(البقية في العدد القادم)

إسماعيل أحمد أدهم

المسرَح وَالسّينما

رد على رأي

الأستاذ توفيق الحكيم

في إنهاض المسرح المصري

نشرت (الأهرام) الغراء في الأسبوع الماضي خلاصة المذكرة التي قدمها أديبنا الكبير الأستاذ توفيق الحكيم إلى لجنة ترقية التمثيل العربي، فاطلعت عليها اللجنة المذكورة

وأقرتها. وخلاصة هذه المذكرة هي أن الأستاذ يرى أن الملاحظ في حركات ازدهار المسرح في جميع الأزمنة وجميع البلاد أنها كانت نتيجة عوامل ثلاثة:

أولاً - رقي الجمهور الذي يرتاد المسرح

ثانياً - قيمة الكتاب الذين يكتبون للمسرح

ثالثاً - خطر النقاد الذين يذيعون أعمال المسرح

ولا ريب أن (الناقد القديم) يشكر أديبنا الكبير على مساهمته في معالجة هذا الموضوع الدقيق بتحقيق أدبي استنباطي يسرنا أن يكون أكثره متفقاً مع ما نشرته الرسالة في أعدادها الماضية حول هذا الموضوع

ولكنا نخالف الأستاذ الحكيم في قصره إنهاض المسرح على مراعاة العوامل الثلاثة السابقة دون أن يعنى قليلاً أو كثيراً بالعوامل التمثيلية البحث التي هي الأصل - كما هو معروف - في نهضة المسرح وفي تحقيق العوامل التي ذكرها الأستاذ الحكيم وهذه العوامل هي (المسرح) و (الإخراج) و (التمثيل) بمستلزماته المتعددة؛ وهي ما أسميناه في مقالاتنا السابقة (العرض). وقد قلنا في صدده ما نصه: (ولكن قيمة البضاعة هي أهم العوامل في جذب (العميل) بلا مراء. وكلما ازداد احتواؤها على الميزات والخصائص التي يرغبها ويريدها، ازداد إقباله عليها وتشجيعه لها وأنجح الفرق لدينا هي التي تميزت إدارتها بفهم مزاج الجمهور وميوله. ومع ذلك فهناك بدهيات عامة يتفق عليها الجميع دون مراعاتها إنهاض حقيقي للمسرح. . .) الخ

ونخالف الأستاذ كذلك في بعض ما اقترح لإنهاض المسرح من وسائل عملية سريعة فقد قال في صدد (تهذيب النقد الفني): (أما النشر في المجلات فيوزع جزء كبير منه على أصحاب الصحف المجهولة الذين يهددون ويتوعدون ويخشى من لسانهم البذيء. فطريقة الدعاية في الفرقة إذن عتيقة وينبغي أن تستبدل بالنشر في أمهات الصحف اليومية فقط ليلة التمثيل، على أن يعنى بالنقد العالي كوسيلة من وسائل الإعلان. وذلك بأن يتفق مع أربع جرائد يومية كبرى ومجلتين أسبوعيتين أدبيتين كبيرتين على أن يلحق بكل منها أديب كبير معروف يعين بالذات يكتب في كل أسبوع مقالاً أدبياً عن المسرح وتتولى الفرقة دفع أجره من حال الدعاية. بذلك تضمن الفرقة أن ستة كتاب كبار مسموعي الكلمة يكتبون عن أعمالها في ستة صحف كبيرة بمعدل مقدور كل يوم وتلك دعاية واسعة النطاق لا تعدلها دعاية أخرى، دعاية يصل صداها إلى كل الآذان المهذبة. . . الخ)

ونحن لا نحب أن نعلق على هذا الكلام بأكثر من رجائنا الأستاذ الكبير أن يذكر لنا أسماء ستة من كبار الكتاب المعروفين في استطاعتهم التحدث عن المسرح الحديث الذي يسيغه ويسير به جمهور عال ومؤلف نابغة! فإذا فعل كنا لحضرته شاكرين!

(الناقد القديم)

العدد 279 - بتاريخ: 07 - 11 - 1938

من مآسي الحياة

شيطان!

كان الناس منذ عهد قريب يقرءون في القصص الغربية أفانين من فجور النفس وقحة الهوى وبغي الفتنة، فتفيض عيونهم من الدمع رحمة للزوجة التي أعمتها الغواية، وللزوج الذي أشقته الخيانة، وللطفل الذي أيتمه الطلاق؛ ثم يُسَرِّي عنهم أنها فجائع إن تكن في الغرب فنحن في الشرق، وإن تكن من زور الخيال فنحن في حقيقة الواقع.

حتى عشنا معيشة أوربا، وفتحنا دورنا لكل طارق، وصدورنا لكل متودد، فأصبح ما يجري هنا صورة لما يجري هناك، وما كان معدوداً من خداع الفن صار جارياً على نظام الطبيعة!

عرفت زوجين شابين تعارفا بالجمال وتآلفا بالحب، ثم عاشا على اختلاف الدار والجنس معيشة أهل الجنة: صفاء غير مشوب، وولاء غير مكذوب، ورخاء في ظلال النعيم والأمن يبسط المشاعر وينشر الأنس ويجمِّل الحياة

كان الزوج مثلاً في الإخلاص والرعاية لزوجه، فلا يفكر إلا فيها، ولا يسعى إلا لها، ولا يفهم وجوده إلا مضافاً إليها ومتصلاً بها. وكانت الزوجة آية في الوفاء والطاعة لزوجها، تقاسمه هم العمل، وتساهمه دعة المنزل، وتبادله رجاء المستقبل، وتتقلب معه في

الشدة والخفض غير متبرمة ولا متجهمة. وكانا معاً بهجة الأسرة وأنس الأصدقاء، فلا يخلو بيتهما من سمر، ولا ليلهما من زيارة، حتى أصبحا في بيئتهما الخاصة مثلاً مضروباً في الزوجية الموفقة والحياة السعيدة

وكانت حياتهما الأوربية تقضي عليهما أن يكابدا التعرف العارض والخلاط المستمر والعصمة من شرور الأخلاق في مثل هذه الحال لا تجد لها مناطاً إلا ثقة الزوج في الزوج، واطمئنان النفس إلى النفس. وثقة الرجل المثقف في المرأة المثقفة أصبحت في المجتمع الحديث من القضايا المسلّمة والأمور المفروضة. فلا ينبغي أن تحوم حولها شبهة، ولا يقوم عليها جدل

وكان فيمن يختلف إلى بهوهما الأنيس الباش فتى من أهل الرواء، خداع الملامح، خلاب الأحاديث، يعد نفسه في الطراز الأول من ثقافة الفكر والخلق. تقلب طويلاً بحكم منصبه في البيئات الدبلوماسية المختلفة، فحذق الكلام والهندام، ومهرَ الغناء والرقص، وأحكم

النظرة التي تنفذ، والبسمة التي تقول، واللفتة التي تعجب؛ وامتلأ ذهنه من صور الدنيا وحوادث الناس، فكان جميل المحاضرة عذب المفاكهة حتى ليستولي على المجلس فلا يترك فيه مسمعاً إلى أحد. وكان مَذاعاً يتمزى على زملائه، ويتبجح بالحظوة عند رؤسائه، ويلقي في روع السامع أن له المكانة المرفوعة والكلمة المسموعة والغد المضمون. فاستطاع بكل أولئك أن يخدع الزوجين بمظهره عن جوهره، فكبر في نفس السيد، وحلا في عين السيدة

ودخل هذا الفتى جنة الزوجين دخول إبليس، فحرك فيها السَّموم وسَفَى عليها الكدر! فلا الزهر نفاح باسم، ولا النسيم رخيٌّ أرج، ولا الجو بهيج طلق، ولا العش الصادح في أفياء الشجر ناعم آهل! وسوس الشيطان لحواء قال لها: إن السعادة في بيت غير هذا البيت، والثروة عند رجل غير هذا الرجل، والجاه في منصب غير هذا المنصب! وهذه المزايا التي لك على الأتراب في الجسم والفكر والطبع لم يجملك بها الله لتحبسيها في هذا القفص الشعري الذي تهدهده الأحلام على نغمات الحب والأمل. ليست الحياة كلها شعراً يا حواء! وإن بجانب النفس الشاعرة نفوساً أخرى هواها في المال واللهو والسلطان والعظمة. ومن زعم أن نعيم الدنيا في الغزل، وزينتها في الرياض، وبهجتها في المنى، فقد أنكر المعروف وتجاهل الواقع. وكان الشيطان المُغْوِي حِدْثَ نساء، فعرف كيف يندس بالخديعة إلى الزوجة الضعيفة، فأصغت إلى نزغاته بأذنها ثم بقلبها. ثم أصبحت فإذا زوجها مسؤوم، وبيتها موحش، وعيشها تافه؛ وأحست برباط الزوجية يشتد على حناياها اشتداد الوثاق على ضلوع الأسير. لم تعد الجنة في عينها هي الجنة، ولا آدم في قلبها هو آدم! وأوهمها الخيال أو الخبال أن النعيم المقيم هو في أكناف إبليس على متون السحب وربى الجبال وشطئان الأبحر. ولكن عشر سنين قضتها مع الزوج الوفي في نشوة متصلة من الحب المواسي لا يمكن أن تخفت أصداؤها العذبة في لحظة. فكانت كلما تخلصت من فعل الغواية صارحت زوجها بأنها تحب هذا الفتى حباً غطى على بصرها وبصيرتها فهي لا ترى ولا تفهم. وسألته يوماً أن يحتال لبرئها من هذا الخبل، فاتفقا على أن ترحل إلى أوربا تنشد في أجوائها المختلفة السكينة والسلو، حتى إذا أقبل الصيف وتعطل العمل لحق بها زوجها، فربما إنجاب الغشاء عن العين والقلب فأبصر الأعمى ورشُد الغوي! ولكن الفاجر علم

بسفرها المفاجئ فطلب إجازة طويلة من الوزارة التي يعمل فها وتبعها إلى مصيفها وهي وحدها توازن في هدوء العزلة بين ماضي الزوج الواضح ومستقبل الحبيب المبهم، فأسقَط من يدها الميزان، وأيقظ في نفسها الحيوان، وأفسدها على نفسها وعلى زوجها وعلى أهلها فساداً لا يرجى معه صلاح!

ثم امتدت يد القدر تحل عقدة الرواية، فإذا الزوج وحيد يعاني غصص الألم، والزوجة مطلّقة تتجرَّع مرارة الندم، والشيطان الرجيم يقطع البحر عائداً إلى منصبه الكبير في وزارة الخارجية يشارك في أمور الدولة على هذا الخلق، ويتصل بالأسر المخدوعة على هذا الوجه. .!

أحمد حسن الزيات

في رمضان

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

ليقل من شاء ما شاء، فإني أعتقد أن الله تعالى يغفر لي ذنوبي وخطاياي جميعاً جزاء
لي على صبري في رمضان. ومن كان له أولاد كأولادي، وخدم كخدمي، فإن هؤلاء
شفاعة كافية له بلا نزاع، وإذا كان القارئ لا يصدق، ولا يؤمن كأيماني بشفاعة هؤلاء
لي، فلينتظر حتى تقوم الساعة وينصب الميزان
عددت أبواب الغرف وما المسها فإذا هي عشرون، ومنها تتألف جوقة موسيقية لا تفتر
ولا تهدأ في ليل أو نهار، وقد يئست من حمل خادمتنا العجوز التي حملتني طفلاً - على
كتفها أو ذراعها لا في. . . - على تزييت هذه الأبواب، وما أكثر ما قلت لها إني أشفق
على هذه الأصوات الرخيمة أن تبح، فكانت تبتسم - أو تظن أنها تبتسم - وتقول: (الله
يخليك يا سيدي!). فأقول لها: (لا تخافي علي فإن عمر الشقي، باق أي طويل، ولمن
غيري يكون وجع القلب؟ كلا: لا تخافي، وإني لفي أمان من الموت ما بقيت لي، فإذا
ذهبت أنت بعد عمر طويل، فإن هناك الأولاد. . .؛ كلا. لا خطر علي من هذا الردى
العادي الراصد لغيري، المتربص بسواء)
فتدعو لي بطول العمر، ولكنها لا تزيت الأبواب! وقد حاولت أن أنهض أنا عنها بهذا
العبء، فكادت تدق عنقي، فكففت بعد ذلك، ورضت نفسي على السكون إلى هذه
الموسيقى
ومن طرائف هذه الخادمة العجوز أنها لا تكاد تسمع، أو تبصر، فهي لا تكاد تفهم. وأنا
رجل خفيض الصوت جداً، وأحتاج أن أكلمها - فما من هذا مفر في بعض الأحيان -
فأنادي أحد الأبناء الأفاضل وأقول له - وأنا أعلم أن هذا يسره - انقل عني بصوت عال،
فيفعل، ولكن اللعين يصيح في أذني أنا!! ثم يقع على الأرض من الضحك
ويكون الولدان الصغيران في المدرسة، وتكون بي حاجة إلى كلام الخادمة، فماذا
أصنع؟ لقد جربت عبث الصياح، فإن أقول لها (هاتي قهوة). فتغيب شيئاً ثم ترتد إلي،
وتدعوني أن (أتفضل) فأتعجب، وأسأل نفسي: (ماذا يا ترى؟ هل شرب القهوة
يستدعي أن تجرني هذه العجوز إلى غرفة أخرى؟) وأطيع، وأخرج، وأتبعها، فإذا هي قد
أعدت لي طشتاً وإبريقاً وسجادة للصلاة!!
لهذا صرت إذا احتجت أن أطلب منها شيئاً، أكتب لها رقعة بما أريد، تذهب بها إلى
البقال أو النجار، أو الجيران، ليشرحوها ويبينوا لها ما فيها، وما أكثر ما يعابثها البقال!!
ولا أستطيع أن أنهرها، أو حتى أن أظهر لها الغضب أو الأمتعاض، أو الضجر، فقد ربتني
صغيراً، وليس هذا ذنبي، ولكنها تعدني (ملكا) لها، وترى أن هذا يخولها حقوقاً علي،
فالبيت كله بيت (ابنها) بما فيه، ومن فيه، ومن كان لا يعجبه هذا فلينفلق!
على أن مصيبة الأولاد أدهى، تكون الساعة الخامسة صباحاً، فأسمع نقراً على الباب،
فأفتح عيني وأقول (تفضل. . . تفضلا. . تفضلوا. . . أو تفضلن) فيدخل اللعين الصغير
الذي نسميه (ميدو) - وهي عندنا صيغة التصغير لعبد الحميد - فيدور بيننا هذا الحوار
- بابا
- نعم يا سيدي
- صباح الخير أولاً
- صباح الخير يا سيدي. خير إن شاء الله؟
- الساعة كم الآن؟
- الساعة؟ أو ليس عند ماما ساعة؟
- عندها ساعة. ولكنها قالت لي البارحة إنها خربت ووقفت
- هي قالت ذلك؟ وحضرتك صدقتها؟
- وهل ماما تكذب؟
- أعوذ بالله!! مستحيل يا سيدي. وهل يكذب إلا الكذاب؟
وأخبره أن الساعة الخامسة فيقول
- أنا ذاهب إلى المدرسة
فأصيح، واستوي قاعداً، (أي مدرسة يا أخي؟ وهل صارت المدارس في عهد هيكل
باشا تفتح قبل الفجر؟ أما إن هذه لبلية! رح يا أخي، رح نم!)
فيقول (بس اسمع يا بابا)
فأقول وأنا أعيد رأسي إلى المخدة (سامع. فضل)
- بقى الأفندي قال لنا (يجب أن نكون موجودين في منتصف الساعة الثامنة، وأن من

(يتأخر عن هذا الموعد لا يشترك في الرحلة
فأشتهي أن أقول في هذا (الأفندي) أشياء كثيرة. وأقولها فعلاً، ولكن في سري؟ كما كانت تفعل حماتي. أي نعم حماتي، فقد كانت في هذا قدوة، ومثلاً يحتذى. وكانت إذا سخطت على إنسان، توسعه ذماً، وسباً، ولعناً، في سرها! وكانت تجد في هذا شفاء لغليلها، فتتبسم، وتتنهد، وتضع يدها على قلبها وتقول (أيوه كده! الحمد لله! كنت سأطق)
وأقول للغلام (ولكن أين نحن من هذا الموعد؟ أذهب، ونم)
فيقول: (لا يا بابا، لئلا أتأخر!)
فأقول: (يا أخي، وما ذنبي أنا إذا تأخرت حضرتك)
فيقول: (إنما أردت أن أسألك هل أصوم؟ لأني أكلت في السحور مع ماما)
فأهز رأسي، وقد فهمت، ذلك أن ماما لابد أن تكون هي التي أوعزت إليه أن يبكر فيسألني هل يصوم أو لا يصوم وأقول له:
إنك صغير، جداً، والصيام غير مفروض عليك، ثم إنك ذاهب لتلعب، وتنط، فستجوع (بسرعة، فيجب أن تأخذ معك طعاماً وإلا مت من الجوع)
فيسألني (وماذا آخذ معي؟ إنهم لم يُعدوا لي شيئاً)
فأغتنم هذه الفرصة، وأقول له (يا عبيط! كيف تقول أنهم لم يعدو لك شيئاً؟ أو تتهم ماما بمثل هذا الإهمال؟)
فيسألني (هل تعني. . .؟)
فأقاطعه وأقول بصوت كالهمس (أسمع، لقد هيأت لك ماما كل شيء، ولكنها لم تخبرك حتى لا تخرج قبل الأوان، ثم لتفاجئك فتسرك. . . ماما لطيفة، أليست كذلك؟ (فيهز رأسه موافقاً) ولكني صرت أخشى الآن أن تتأخر، وقد قال لك الأفندي إن من يتأخر لا يشترك في الرحلة، فاذهب إلى ماما، وأيقظها بلطف، وصبحها بخير، وارج منها أن تعطيك ما هيأت لك. . . وستنفي لك أنها صنعت شيئاً، لأنها تعتقد أنك بكرت جداً، وساعتها كما تعلم واقفة، فأفهمها أن الوقت قد أزف، وخذ ما تعطيك. . . والآن أذهب، ومع السلامة، وإن شاء الله نراك ونراها بخير)
فيذهب مسروراً، فأنهض خفيفاً، وامشي إلى الباب على أطراف أصابعي، وأوصده بالمفتاح، لأني أعرف ما يحل بي إذا تركته مفتوحاً!!
والمثل يقول (جن الذي نجا من الموت!) فلا تمضي دقائق حتى أشفق أن يتهشم الباب، ويتحطم رأسي، فلا يسعني إلا أن أفتحه، فتدخل ماما، كالإعصار وتصيح بي:
(ما هذا الذي صنعت؟ تغري الولد بي، فيوقظني في هذه الساعة وأنا صائمة!!)
فأقول: (ساعتك واقفة؟ أليست كذلك؟)
فتقول، وهي تغالب الضحك (يعني إيه؟)
فأقول، وأنا أعود إلى السرير (يعني دقة بدقة، والبادي أظلم!)
فتقول: (راجع إلى السرير؟ تقلقلنا وتنام! شيء جميل!)
فأقول: (من الذي أقلق صاحبه؟)
فتقول: (إنك أنت سبب القلق والمتاعب كلها في هذا البيت)
فأقول: (غفر الله لك يا امرأة! أذهبي وتوبي إلى الله واستغفري لذنبك عسى أن يرحمك)
فلا يجدي هذا النصح، وينتهي الأمر بأن أجمع المخدات المبعثرة في الغرفة، وأعيدها إلى حيث كانت، وأنا أنهج من التعب، وأتمثل بقول الشاعر:
(ومن ظن أن سيلاقي الحروب ... وأن لن يصاب، فقد ظن عجزا)
وهكذا، وهكذا، إلى آخره، إن كان له آخر. فالحق أن أجري عظيم في رمضان!

إبراهيم عبد القادر المازني

مصر وعلاقتها بالخلافة

للدكتور حسن إبراهيم حسن

أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية الآداب

من ولاة العصر العباسي الذين عرفوا بالخير والعدل واكتساب محبة الأهلين موسى بن عيسى الذي ولي مصر ثلاث مرات. فقد أشتهر بالعدل في البلاد وتحبب إلى النصارى فأذن لهم ببناء الكنائس التي هدمها سلفه علي بن سليمان وقد أشار عليه بذلك

قاضياه الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة، بحجة أن إرجاع الكنائس المستحدثة في الإسلام من مستلزمات عمارة البلاد. ومما يدل على عناية هذا الوالي بالعمارة ما كان من زيادته في جامع عمرو.

وكان عنبسة بن إسحاق (238 - 242هـ) آخر من ولي مصر من العرب. وكان من أحسن الولاة الذين ولوها في هذا العصر، مما حدا بالمؤرخين إلى القول بأنه أظهر من العدل ما لم يسمع بمثله في زمانه. وقد بلغ من تورعه وبغضه للمظاهر أنه كان يروح من دار الإمارة إلى مسجد العسكر ماشياً. وكان آخر من أموا الناس في السجد. وقد بنى المصلى الجديد سنة 240هـ إذ رأى أن المصلى القديم ضاق بالمصلين. وكذلك حصن دمياط وتنيس بعد أن أغار عليها الروم سنة 238هـ فبقيت دمياط في يد المسلمين إلى أن استولى عليها الصليبيون سنة 616هـ

على أن عدل عنبسة وورعه لم يكسباه حب الناس جميعاً، فقد كان مكروهاً من البعض لاعتقاده بمذهب الخوارج مما دفع بالفضل أبن يحيى إلى أن ينحى فيه بالملائمة على الخليفة لتوليته إياه مصر. وما قاله أيضاً من شعر يتهم فيه هذا الوالي بالتراخي عن طرد الروم من هذه البلاد وقت استيلائهم على دمياط وتنيس كما تقدم

مَن فتى يبلغ الإمام كتاباً ... عربيا ويقتضيه الجوابا
بئس والله ما صنعت إلينا ... حين وليتنا أميراً مصابا
خارجيا يدين بالسيف فينا ... ويرى قتلنا جميعا صوبا
مر يمشي إلى الصلاة نهارا ... وينادي السحور، ضل وخابا

ومن هنا نتبين كيف كان اعتقاد عنبسة بمذهب الخوارج - إن صح أنه كان يعتقد به - سبباً في الحط من شأنه وإظهار ما أتاه في حكمه من عدل وما أظهره من ورع، بمظهر العسف والظلم حتى أدى ذلك بالفضل إلى اتهام هذا الوالي بالقعود عن نصرة المسلمين حين أغار الروم على مصر، فقال الفضل للخليفة المتوكل:

أنرضى بأن يعطى حريمك عنوة ... وأن يستباح المسلمون ويحربوا
حمار أتى تينيس والروم وثب ... بتينيس رأي العين منه وأقرب
مقيمون بالأشتوم يبغون مثلما ... أصابوه من دمياط والحرب ترتب
فما رام من دمياط شبرا ولا درى ... من العجز ما يأتي وما يتجنب
فلا تنسنا إنا بدار مضيعة ... بمصر وإن الدين قد كاد يذهب

لم يل مصر بعد عنبسة وال من العرب كما تقدم، فقد وليها بعده يزيد بن عبد الله (244 - 253هـ) من موالي المنتصر العباسي وكان كغيره من الأتراك من السنيين الغلاة. وكان شديداً صارماً وأتى في عهده بكثير من الإصلاح وقضى على كثير من معايب المجتمع، فمنع النداء على الجنائز وضرب من نادى عليها، وعطل الرهبان وتتبع العلويين فلحقتهم منه شدائد وأهوال

وورد إليه كتاب الخليفة المستعين بالاستسقاء لقحط كان في العراق، فاستسقى الناس في يوم واحد. وفي عهده خرج بالإسكندرية رجل يقال له جابر بن الوليد واجتمع إليه خلق كثير من العرب والقبط والنوبيين فاستولى على الكريون وسنهور وسخا وسمنود، فأنفذ الخليفة مزاحم بن خاقان مدداً لواليه على مصر. وظلت ثورة جابر ابن الوليد على حالها طوال عهد يزيد بن عبد الله الذي صرف في ربيع الأول سنة 253هـ وولي بعده مزاحم بن خاقان فواقع جابر بن الوليد في أرض الجيزة والفيوم حيث أسر في جنْبَويه من كورة البدقون (المكتبة الجغرافية ج6 ص282، 83 - المقريزي خطط1 ص73) وبعث به إلى العراق في رجب 254هـ

هذا وكان عامل مزاحم بن خاقان على الشرطة أزجور التركي فقد منع النساء من دخول الحمامات ومن زيارة المقابر وسجن النوائح ومنع من الجهر بالبسملة وأمر بتمام الصفوف عند الصلاة وعهد إلى رجل من العجم فكان يستعمل السوط في تنفيذ هذا الأمر. ومنع من استعمال المساند والحصر للجلوس في المسجد ومن التثويب ومن أن يؤذن المؤذن يوم الجمعة في مؤخر المسجد. ثم صرف أزجور عن الشرطة في ذي القعدة سنة 253هـ

وولي مصر أحمد بن مزاحم باستخلاف أبيه له فجعل أزجور على الشرطة ثانية ثم وليها أحمد إلى أن مات (1 من ربيع الآخر سنة 254هـ) فولي مصر أزجور وظل على

ولايتها إلى رمضان من هذه السنة فوليها بعده أحمد بن طولون
حسن إبراهيم حسن
مائة صورة من الحياة
للأستاذ علي الطنطاوي
13 - دكتور!
سألني اليوم صديق لي من المدرسين:
- ألا تعرف قصة المسيو تريس؟ إنها إحدى العجائب!
قلت: لا والله، فأي شيء هذا المسيو تريس؟ وما هي قصته؟
قال: رجل فرنسي تخرج في إحدى دور المعلمين الأولية، ولكن الأبواب سدت عليه في بلده، وضاقت به الحيل، فلم ينل وظيفة، ولا استطاع أن يحصل شهادة ثانوية (بكالورية)، فشد رحاله إلى الشام، فكان فيها معلماً. . .
قلت: ليس في هذا عجيب، بل العجيب أن يكون غير هذا!
قال: لم أبلغ بك مستقر العجب بعد. . . لقد درس هذا الرجل سنين، ثم خطر له يوماً خاطر، فقال لي:
- لقد سمعت أن المسلمين يحجون. . .
قلت له: نعم
قال: أفلا تخبرني عن حجهم، كيف يكون، وما هي صفاته، وكيف تكون الرحلة إليه، وما هو خبر المحمل الذي كان يذهب به كل عام؟
في أسئلة أخرى هذا. سبيلها قال صديقي فقلت له: إني لا أعرف إلا طرفاً من هذا ولكني آخذك إذا شئت إلى من يرشدك إليه. وأخذته إلى رجل كان جمالاً يرافق الحج. فأنبأه بما يريد، فلما كان بعد أيام جاءني المسيو تريس، وقد كتب ذلك في كراسة عرضها علي لأنظر فيها. فنظرت فإذا هي أعجوبة الدهر التي يعجز عن مثلها صاحبنا أو العبر حين كان يقف على الجسر في بغداد فيكتب كل ما يسمع، فإذا ملأ الصحيفة قدها قداً فخالف بين أجزائها، ثم قرأ ما يجيء فيها، فيجيء بكلام ليس في الدنيا أحمق منه. . . وإذا هي كراسة مضحكة عجيبة يعد صوابها ولا يحصى خطؤها، على أنها في زعم صاحبها دراسة للحج عند المسلمين، سمي فيها الجمل الذي يحمل (المحمل) باب السلام، وسمي إمام الحرم المكي (أمين الصرّة) وجعل تبوك على أبواب مكة. . . ومثل هذا الهذيان. . .
قال صديقي: فرددتها إليه رداً جميلاً، وتخلصت منها وعاد الرجل إلى بلده، ومرت شهور طويلة، وإذا أنا بالبريد يحمل إليّ الرسالة مطبوعة، مكتوباً عليها:
الأطروحة التي نال بها مؤلفها شهادة الدكتوراه من جامعة باريس!!
علي الطنطاوي
الحقائق العليا في الحياة
للأستاذ عبد المنعم خلاف
الإيمان. الحق. الجمال. الخير. القوة. الحب
(ألفاظ إذا نطقت بها تتحرك لها في نفسي دنيا كاملة!)
تلك أعمدة الكون الخفية، تسكن قممها عقول المتأملين، وتسجد على أقدامها قلوبهم. قد أسبغ خالق الكون وواهب الحياة على العقول والأرواح ظلالاً من تكريمه واحترامه حين أوجد لها هذه الحقائق، وأوحى لها أن تتعرف إليها كما أوحى إلى الأجساد أن تتعرف إلى التراب والماء والغذاء والهواء. . .
وليت شعري! هل تسعفني خواطري الدائمة الدوران حول هذه الحقائق فتحضرني جميعها وأنا أكتب عنها؟
إني أبدأ الكتابة الآن وليس في نفسي إلا صور مبهمة منها. أما تركيز أفكارها وتجميعها وتجنيدها وعرضها، فأمر أسأل (الحق الأول الأكبر!) أن يتولى هو بفنه الخالق (إخراجه) من قلمي العاجز كما يخرج النخلة السحوق من النواة الضئيلة!
وإن تعجبوا فعجب لجماد الأقلام وطين الألسنة حين يتولاهما الجشع فيحاولان أن يمسكا السيالات التي لا تمسك!
وليت شعري! متى يأتي الإنسان الذي يستطيع أن يقول كل ما في رأسه بألفاظ ترضيه وتترجم عن التيارات العميقة المتلاطمة في قرار قلبه؟

إنه لاشك الإنسان الأخير الذي يختتم به وجود الإنسانية هنا على الأرض. . . ولعلها ما تلاحقت أنسالها في الأرض إلا لتقول (الأسماء كلها) التي علمها الخالق أباها آدم. . .
فالإنسان الأخير هو آدم ثان جاء ليختم الدورة التي بدأها آدم الأول. . . هو الإنسان الذي صبت فيه كل جداول البيان وسكنت فيه كل أطياف المعاني، فوعى كل كلمة نفسية ولفظية اختلج بها قلب أو فكر أو لسان. . .
هو الإنسان الذي يأتي بعد أن لم يبق شيء في عالم الآفاق وعالم الأنفس إلا وجد له لفظاً إنسانياً يصوره ويحدده. . .
هو ابن الإنسانية الواحدة الهائلة التي تنقلت في الدهور والأحقاب فوقع عليها كل الضوء وكل الظلام!!
1 - الإيمان:
أنا الآن في (الرستمية) على أديم الأرض مباشرة، وتحت السماء مباشرة. . . حافي القدمين مجرودهما، جاث على الركبتين معقورهما، شاخص العينين محرورهما، مرهف السمعين مشدودهما، صامت الشفتين معقودهما. . . في الظلام الصارم! والريح تصفر في كل ما يحيط بي من مبان ومنافذ وأشجار. . . وبنات آوى تعوي وتعترك على قرب مني. . . وكلاب الرستمية وكلاب تلك القرية الماثلة على رأس تعريجة من تعاريج نهر (ديالى) تتبادلان نباحاً دائماً متشابهاً هو عندي نغم يهيئ في نفسي جواً معنوياً لليالي القرى والخيام. . والنوم ذائع السلطان منشور الأعلام على مباني (دار المعلمين الريفية)، وعلى أجساد ساكنيها من الطلاب والمعلمين. . وكل ما في جسمي ونفسي يقظ: كل خلية وكل شعرة، وكل قوى جاذبة أو دافعة، وكل خاطرة جديدة عابرة أو مخزونة غابرة، مستجمع أرواح آبائي وأرواح أنسالي. . في خيالي، وجميع حياتي الذاهبة في الأزل والآنية في الأبد!
أنا في ساعة خبال أو عقل، وفي جد أو مجانة؟ لا أدري. لا أدري إلا أن الرحى الدموية الحمراء التي في صدري تدور دوراناً لا عهد لي به من قبل. . .
أنا أيتها الأكوان الناطقة والصامتة الموغلة في الصمت، أحاول أن أتكلم عنك بين يدي أبي وأبيك! بالكلمة التي أعياني النطق بها كما أعيا كل كائن يحسها حقيقة شائعة في نفسه ولكن لا يستطيع البيان. . .
أدير فكري وكل حواسي في الدنيا لأجد ابتداء القول، فلا أظفر إلا بالاستغلاق؛ وإن كنت أظفر بامتلاء أوعية أخرى لا سلطان للبيان على نقل ما فيها. .
كل فراغ حياتي مملوء بخواطر مستبدة بي، ألاقي بها الحركة والركود، والنور والظلمة، والبحر والصحراء، والنملة والجمل، والعلم والجهل، والسلامة والسقم، وكل شيء، وكل شيء، وكل شيء. . .
فاعذروني أيها الفارغون!
واطلبوا التوفيق لقلمي المسكين الذي يتصدى للنار ليكتب فيها عنها. . .
ويتصدى للريح العصوف ليحملها قبل أن تحمله وتذروه مع الهشيم. . .
الإيمان؟!
يا لله من ابتذال الألفاظ الكريمة ونزولها من لمعات الفكر العالي وسبحات الروح، إلى رؤوس الأغبياء والجامدين والمحدودين!
ويا لله من جناية التجسيم والتشبيه على المعاني التي حياتها في أن تكون مطلقة متفردة منساحة في محيطات ربها انسياح الكهرباء والجاذبية والإشعاع!
ويا لله لغذاء الملائكة إذا ولغت فيه الكلاب والخنازير والقردة!
وأواه من الذين ينظرون إلى الألفاظ الحية نظرهم إلى الحجارة والصخور!
أخذوا هذه الكلمة التي لا يمكن أن يكون قد نطق بها ناطقها الأول إلا بوحي، وصاروا يلوكونها كما يلوك الملقنون بعض الألفاظ يلقونها على أجساد الموتى. . .
أخذوها من معادنها ومناجمها العميقة في قلوب الأنبياء وخواطر الأصفياء وألقوها في أفواه التماسيح والقردة، فصارت تعض وتقهقه بها ممسوخة في غير موضعها، كموسيقى الجنازات.
أخذوها كما يأخذون الوردة المنضورة الممطورة من غصنها، فلا يزالون يبتذلون شذاها على أنوفهم المزكومة، وحريرها بين أصابعهم القاسية، حتى يمزقوها فلا يبقى منها في أيديهم غير جثة مسحوقة يلقونها في التراب. . .

أخذوها من نصابها في قلوب الأنبياء وخواطر الأصفياء. ووضعوها على قلوبهم الضيقة كما توضع الشموع على القبور. . .
صيروها ملكاً لكل بليد أبله، تموت وتنطفئ على شفتيه الكلمات المنيرة كما تموت العروس في جلوتها. . .
ثم وضعوها في قواميسهم وكتبهم بجانب هذه الجمادات والجيف: تراب. رصاص. ذهب. حديد. معدة!. .
فيا موحي المعاني! حررني من ألفاظهم الميتة الجامدة التافهة، واحلل عقدة من لساني حتى أبين معناك في قلبي. وما أهول معناك فيه!
الطبيعة كلها أوتار مرنة، وكلمات مبينة، وأصابع مشيرة، يسمعها ويقرؤها ويراها ذلك الراهب الذي سجنته بين ضلوعي!
وأناملي الآن تحاول أن تشير إليك بالقلم والمداد في رموز أغني بها وأبكي!
ليس الكلام هنا شيئاً يذكر بجانب الفكر، وليس الفكر شيئاً يذكر بجانب الوجدان. . .
ولكي أكتب عن معناك كتابة عارف. . . لابد لي من جسد آدم الذي لامسته يدك، وعمر نوح الذي طال فيه سرك، وعقل إبراهيم الذي سعى أمامه نورك، وأذن موسى التي رن فيها صوتك، وإنشاد داود الذي ترقرق فيه نغمك، ويد عيسى التي كان معها إذنك، وكمال محمد الذي انطلقت منه إلى الإنسانية كلمتك الخاتمة. . .
أجل! لابد لهذا أن أغتسل بالبحر كله، وأتوضأ بالشعاع كله، وأتوج بالشمس والقمر والنجوم. . ثم أندمج في كل شيء لأتسمع إلى الهمسات والأحاديث الدائمة بين العوالم والأكوان عن الظاهر الباطن، والأول الآخر. . . المتكبر! الذي أذابها وأفناها انتظار لمحة لوجهه ذي الجلال!
ولكن يا طين آدم! مالك ولهذا العلو الشاهق؟
يا خنفساء الغبراء! لا تحلمي بجو النسور. . .
يا جُعَل! إن شذا الورد يخنقك. . . فلا تطلب سكنى الرياض. . .
كيف يقوى على سنا الرب قلب ... ليس يقوى على سنا المربوب!
والكلمات لا تَناهي لدى الله ... فلابد من بقاء الغيوب
أجل يا (باكثير)!
ولكن الذي يتصدى لكبرياء الإلهية، إنما يحاول أن يبلغ أقصى حدوده وأدنى حدودها ليعود فبقول كلمة تربح ذلك الراهب السجين، وتكون مشاركة منه في عزف اللحن الدائم مع أوتار الطبيعة، وفي تسجيل الكلمات المبينة مع أفلام الطبيعة. . . حتى يرى بعد ذلك كلمته هذه طائرة بجوها الموسيقي، تخفق بجناحيها في رئات الناس، وترقص في ضياء عيونهم، وتأكل من حبات قلوبهم، وتغرد في منطقة الصمت من أفئدتهم!
قد لا يدرك الإيمان على حقيقته إلا المؤمن الأخرس الأصم. . . الذي لم يقل ولم يسمع إلا الكلمات النفسية التي لا تصب بقوالب من الألفاظ الضيقة التي قد تكون منحرفة الوضع أو مبهمة الدلالة أو ناقصة الموسيقى. ولكل معنى في النفس جو موسيقي يجب أن يصحبه في
اللفظ
وإني أرثي للذين لم يعرفوا الإلهية إلا من ألفاظ الكتب! ولأن الناس صاروا يأخذون عقيدتهم في الإلهية من الكتب ومن الأفواه، اختلفوا وتفرقوا وتباينت الصور التي في رؤوسهم منها. ولو أنهم أخذوها مباشرة من الطبيعة الواضحة الواحدة، التي ليس في كلماتها انحراف في الوضع، ولا إبهام في الدلالة، ولا نقص في الموسيقى. . . لاتفقوا وتلاقوا على فهم المعنى الواحد الذي يملؤها، كما كانوا أول زمانهم قبل تشعب الكلام بهم، ووجود ميراث من الكلمات المغلوطة التي تمحو طابع الفطرة البسيطة التي لا تعرف الرموز ولا تستغني بها عن النماذج الواضحة التي تملأ الطبيعة
ويا لله من جناية الناس على وسائل إنقاذهم ورفعهم من حضيضهم!
إن الملهمين والعلماء يفتحون لهم أبواب أقفاصهم وسجونهم حتى ينطلقوا ويفروا منها إلى الطبيعة. ومن الطبيعة تفد عقولهم إلى خالقها وصاحب المشيئة الغالبة عليها.
ولكن الأغبياء والمحدودين من الدعاة يعودون بهم ثانياً إلى الأقفاص والسجون ويسدون أبوابها بالأوثان والأنصاب والصور والرموز، ويلهونهم بالخرافات

وعندئذ تموت وتنطمس الكلمات الحية المنيرة، فينطقون بها ويخيل إلى رائيهم من ذوي البصائر أنهم يلفظون حجارة أو جثثاً ميتة للمعاني الكريمة. . .
وإذا انقلب الوضع فصار الراعي يهتدي بالقطيع، فهنالك ضياع الجميع. . .
وهنا أسأل:
لماذا لا تخدمون الإيمان أيها الكتاب الموهوبون فتخدموا بذلك أقلامكم وتخدموا الحياة والفن؟
لماذا تلسعكم النار وتتحول أقلامكم إلى عقارب تلقونها بسرعة من أيديكم إذا ما سجل أحدكم كلمة مؤمنة؟
أنا أعرف السبب. أعرفه وأعزو إليه كل هذا الضعف: هو أنكم تأنفون من أحاديث العوام والعجائز والفقراء الذين جعلوا الإيمان غذاءهم وعزاءهم لأنهم فقدوا كل شيء سواه. فهم يعتزون به ويتزيدون فيه بأحلام المحرومين. فمن هنا تراكمت في نفوسكم (عقد نفسية) خفية في العقل الباطن تعقل أقلامكم عن الخوض في المعاني العامية. . .
ولكني أعيذ فطنتكم أن تجعلوا يد البستاني مرآة للبستان. . .
وإنكم إذ تتحاشون الحديث في الإيمان لمحرومون من منابع الإلهام الدائم، وحياة اللذة بالشعر، وحياة اللذة بالعلم، وحياة اللذة بالقوة، وحياة اللذة بالمجد الشخصي، واحترامكم لأنفسكم!
أتدرون أنكم لا تسبحون إلا في الضحضاح من المعاني المكشوفة الدائرة حول الظاهر من الحياة الدنيا، وأنكم تدورون في هذا الضحضاح دوراناً مضحكاً)؟
أتدرون أنكم بإهمالكم وصف الأفق الذي تلتقي فيه كل الحقائق والجمالات والكمالات والرائعات من عالم الخفاء وعالم الظهور، قد ضيعتم أعلى نغم وعطلتم شعركم من أعذبه؟
هبوا أنكم لم ترضوا بحديث بعض المأثورات من كتب الدين عن الإلهية، فلماذا لا تحدثون أنتم الإنسانية بحديثكم الشخصي عنها وهي تملأ كل نفس عالمة أو شاعرة؟
وهبوا أن بعض الأنجاس ولغوا في هذا النبع، فهل معنى ذلك أنه تنجس عند الذين يعرفون من أين ينبع وإلى أين ينتهي؟
كلا! لن تذهب مسؤولية ذوي الطباع الرحبة في التكلم للحق إذا تكلم فيه الجامدون أو الدجالون، بل إن مسئوليتهم تبدأ من هنا. . .
وإن الذي يخرج من الدنيا كاتباً أو شاعراً أو فناناً أو عالماً أو متأملاً، ثم لا يترك في ميراثه حديثاً عن (ملتقى الأكوان!) لا ريب أن يحكم عليه الحق بأنه أعمى، لأنه مر على حجرات جدرانها كلها مرايا فلم يرها ولم يحدثنا عنها. .
(بغداد - دار المعلمين الريفية)
عبد المنعم خلاف
مقالات في كلمات
للأستاذ محمود غنيم
العدل المطلق
أسرفت القوانين على اختلاف أنواعها في توخي العدالة، ولكن يظهر أن تحقيقها لا يزال يقتضي انتظار زمن طويل، إن لم نقل: إن ذلك مستحيل
أرأيت ذلك الذي يطيح القصاص برأسه جزاء إثم اقترفه؟ لقد حكم القضاء بإدانته مرتاح الضمير، معتقداً أنه أقر الحق في نصابه، وقابلت أنت الحكم بالهتاف للعدالة، ونسيت أن لهذا الحكم العادل ناحية فيها ظلم صارخ. ما ذنب أطفال هذا المجرم الذين أسقطهم القضاء من حسابه، فحرمهم كاسبهم، ورماهم باليتم من غير إثم اقترفوه؟
أغلب الظن أن القصاص العادل مهد لهؤلاء الأطفال البرآء سبيل الأجرام، فكأنه استأصل شراً وأنبت شروراً، وأراح الإنسانية من وجه ثم أتعبها من وجوه
ما ذنب المرأة يلقي زوجها في أعماق السجون باسم القانون، فتتضور تلك الحرة جوعاً، أو تأكل بثدييها؟ وقد تكون حياتها - وهي البريئة الطليقة - أشأم من حياة زوجها - وهو المذنب السجين -؟
وكم تكون دهشتي كلما تذكرت حكم الفقهاء في طلاق السكران المتعدي! إنهم يوقعون طلاقه تغليظاً عليه، كأن مسألة الطلاق لا تعني إلا إياه، وليس الرجل فيها إلا

طرفاً من طرفين، بل من عدة أطراف، إذا لم نسقط من حسابنا شريكته في الحياة وأطفاله الصغار. ألسنا بذلك نكون قد قضينا على زوجة، وشردنا بنين، لأننا أردنا أن نلقي على رجل سكران درساً أشك كل الشك في قسوته؟ أجل، فمن الجلي أن الرجل هنا يرتكب أخف الضررين، ففي استطاعته أن يتزوج لأن أمر زواجه موكول إليه، أما الزوجة المنكودة - التي لم تعاقر الكأس ولم تغش الحان - فعليها أن تنتظر ثم تنتظر، لأن أمر زواجها ليس إليها

كلنا يهتف للمساواة ويعتبرها ضرباً من ضروب الأنصاف، ولكني ألاحظ أن ذنباً واحداً قد يقترفه اثنان، معيشة أحدهما في السجن لا تختلف عنها كثيراً في منزله، بينما يؤثر ثانيهما الانتحار على أن يقضي في السجن سحابة نهار. فهل تعتبر توحيد الحكم عليهما من العدل في شيء؟ ثم ماذا تقول إذا كان أحدهما متعطلاً لا كسب له، وكان للثاني عمل يدر عليه

الربح الوفير؟ لا شك أننا في هذه الحالة نكون قد حكمنا على الثاني بغرامة فادحة، لم يصب الأول منها قليل ولا كثير

ولقد يتخاصم المتخاصمان أحدهما في سعة من الرزق يستطيع أن يستعين بجيش من مهرة المحامين، بينما ثانيهما مقل لا يستجيب له إلا من يقنع بالأجر الطفيف، وهكذا يسوي القانون بينهما في كل شيء، ويغفل هذه الناحية الحساسة، ذات الأثر البالغ في تكييف الحكم، وتكون النتيجة أن ينتصر باطل الأول على حق الثاني باسم العدل والقانون

وبعد فلست أجهل أن القوانين لا تنظر إلى الأفراد بمقدار ما تنظر إلى المجموع، وأنها كثيراً ما تضحي بمصلحة الفرد في سبيل الصالح العام، ولكنني أبحث عن العدل المطلق، العدل الذي لا يشحذ مديته على كبش من كباش الفداء

اللذة السلبية

عرفت بالتجربة أن من أطيب الأوقات التي تمر بالإنسان تلك الأوقات التي ينسى فيها نفسه بسفر طويل وإن كان لغير غرض، أو بإمعان في تفكير وإن لم يكن من ورائه طائل، أو بانهماك في (لعبة) وإن كانت غير ذات جدوى. وجلي أن الإنسان لا يفيد من ذلك فائدة يستطيع أن يرجع إليها ما يشعر به من لذة، فهل مصدر تلك اللذة هو مجرد نسيان الإنسان نفسه حيناً من الدهر؟ إن صح ذلك فأحر بنا أن نطلق على هذه اللذة أسم (اللذة السلبية)

أغلب الظن أن ذلك صحيح، وعليه يكون مجرد الشعور بالحياة عبئا على الأحياء، ويكون الاحتيال على التخلص منه بين فينة وأخرى داعية سرور وارتياح. ومما يدعم هذه النظرية تلك اللذة التي يشعر بها المخمور، وماذا يفيد المخمور من جرعات الراح التي يتجرعها بين تغضن الأسرَّة وتقطيب الوجه، إلا فترات غيبوبة ينسى فيها نفسه، ويعدم شعوره، ويفارق حيويته إلى حين؛ حتى إذا ذهبت نشوته، وتسرب إليه شعور، ودع نعيمه، وعاد إلى دنيا الهموم؟

إذا وافقتني على ذلك استطعنا أن نحل ذلك اللغز الذي حير الأفهام من قديم الزمان، وهو (متى يستشعر النائم لذة النوم) إن قلت: قبله، قلنا: لا يستشعر الإنسان لذة شيء قبل مباشرته، وإن قلت: أثناءه، قلنا: لا شعور للنائم. وإن قلت: بعده، قلنا: ما شعور الإنسان بلذة شيء فات؟ أقول: إذا وافقتني على تلك النظرية استطعنا أن نعتبر لذة النائم من نوع

اللذة السلبية، أعني تلك اللحظات التي غرق فيها في السبات، فغاب عن الوعي، واطرح أعباء الحياة، وتخلص من نير الشعور

ولعل من هذا كان حظ الإنسان من الآلام النفسية يتناسب مع مبلغ حدة شعوره ودقة إحساسه طرداً وعكساً، فإن ذا الحس المرهف أشد حيوية من غيره. والمشاهد أن أشد الناس تمتعاً بالحياة هم أقلهم حظاً من التفكير والإحساس، لأنهم إلى الموت أقرب منهم إلى الحياة. ومن قديم قيل:

والعيش خير في ظلا ... ل النوك ممن عاش كدا

غير أنني أخشى إذا تمشيت مع هذه النظرية أن أنحدر إلى القول بأن الموت هو السعادة الأبدية

اللذة والألم

هل تحسب أن بائع العطور يستشعر ما تستشعر أنت لها من رائحة زكية؟ إن الإنسان ليجلس في بستان برهة من الزمان، فتصاب أعصاب حاسمة شمه بالشلل، حتى ما يفرق بين ورد وريحان، أو فل وياسمين

هذا مثل مادي يبين لنا تصريف اللذة والألم في الحياة، فالمنظر الجميل إذا أدمنت التحديق فيه أصبح مألوفاً عادياً لا يحرك مشاعرك؛ والطعام الشهي إذا أكثرت تناوله فقد جاذبيته، بل قد يصل إلى درجة تعافه معها النفوس. ولقد يظفر الموظف بإجازة يوم فيشعر بغبطة لا حد لها، ثم يسامح بعد ذلك شهورا فتفقد المسامحة سحرها، بل إن الألم الذي يستثقل وطأته الإنسان يتسم به الجسم على مر الأيام، ويخف حمله بطول المران عليه

إذن لابد من ألم الجوع والظمأ حتى يستشعر الإنسان لذة الشبع والري، ولابد من جحيم الفراق حتى يشعر بنعيم الوصال، ولابد من حرارة العمل حتى يحس برد الراحة، بل لابد من المرض حتى يدرك الإنسان أنه صحيح معافى. بعد هذا نستطيع أن نقول بملء الفم: إن الألم شرط في إحداث اللذة، وإن النعيم المحض لم يكتب لمخلوق في هذه الحياة، وإنما تمني به الكتب المقدسة البررة الصالحين في دار الخلود. ومن هنا التمس الناس السعادة من قديم الزمان في كل مكان فأعياهم التماسها، لأنهم يبغونها صرفاً غير مشوبة بشائبة، ولم يفطنوا إلى أن الألم شرط في إحداثها، ومقوم من مقوماتها

اللذة والألم متكافئان، حظ الناس منهما واحد، مهما تفاوتت أقدارهم في الهيئة الاجتماعية، وتفاوت حظهم من الجاه والمال، غاية ما في الأمر أن لكل منهما صوراً وأشكالاً متباينة وإن كان الشعور به في قرارة النفس واحدا

فعزاء للفقراء، وليعلموا أنهم هم وأرباب المال والجاه. على قدم المساواة

(كوم حماده)

محمود غنيم

التعليم والمتعطلون في مصر

المدرسة وتكوين الأخلاق

للأستاذ عبد الحميد فهمي مطر

قيمة الأخلاق وتكوينها

كان خير ما وصف به النبي صلى الله عليه وسلم قول الله تعالى (وأنك لعلى خلق عظيم) وقوله: (ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك) وفي هذا الدليل القاطع والحجة القوية على ما للأخلاق الكريمة من أثر في الحياة. والأخلاق الكريمة لا يحتاج إليها الإنسان في الزعامة أو القيادة أو الرياسة فقط، ولكنه يحتاج إليها في جميع الأعمال والمهن والحرف على اختلاف أنواعها، لما يجري فيها من معاملات بين الناس وأخذ ورد، ومد وجزر، تتطلب جميعها الحكمة وحسن التدبير والحسنى في القول، والصدق والأمانة في العمل. ولا غرو فالأخلاق لكريمة عماد تكوين الأمم وأساس نهضتها ورقيها. وفي ذلك يقول المرحوم شوقي بك:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ويقول المغفور له سعد زغلول باشا: (نحن لسنا محتاجين إلى كثير من العلم، ولكننا محتاجون إلى كثير من الأخلاق الفاضلة)

والأخلاق كما تورث بذورها عن الآباء والأمهات تربى في النشء. وأمتنها وأقواها ما نشأ عليه الطفل منذ نعومة أظفاره، وهي فوق ذلك تربى في الشاب واليافع والكهل، بل وفي الشيخ بالتعود والمرانة ورياضة النفس. وليس شيء أدل على ذلك من آيات التأديب المختلفة التي نزلت في القرآن الكريم حتى قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (أدبني ربي فأحسن تأديبي) فمن تلك الآيات الشريفة قوله تعالى: (يا أيها المدثر قم فأنذر، وربك فكبر، وثيابك فطهر، والرجز فاهجر، ولا تمنن تستكثر، ولربك فاصبر) وقوله تعالى: (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) الخ. وانظر إلى قوله تعالى تعليما وتأديباً للمؤمنين: (وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى، وبعهد الله أوفوا) وإلى قوله: (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين، إن يكن غنياً أو فقيراً فالله

أولى بهما، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعلمون خبيرا)

كل تلك الآيات المحكمات وغيرها تدل دلالة واضحة على أن الآداب تكتسب بالتعليم والمرانة والتعويد. فإذا فاتت الطفل فرصة تأديبه وتعويده الأخلاق الكريمة في منزله فيجب ألا تفوته تلك الفرصة في مدرسته حتى يستقبل الحياة العملية مزوداً بالزاد المثمر المنتج وحتى لا تضيع عليه فرصة ذهبية هي أولى الفرص بالتأديب والتموين. وهي فوق ذلك أحسنها وأثمنها وأغلاها. ولقد أيد ذلك الرأي علماء التربية والباحثون فأقاموا الدليل تلو الدليل على أن الأخلاق تربى في الإنسان وتقوى فيه بالتعويد ورياضة النفس. وقديماً قالوا في الحكم والأمثال (الحلم بالتحلم، والكرم بالتكرم) فلم يبق إذن شك في ذلك وليس فيه ما يدعو إلى البحث والتنقيب إنما الذي يدعو إلى البحث والتنقيب هو:

أولاً - معرفة تلك الأخلاق الكريمة التي يجب أن يتصف بها الإنسان في حياته

ثانياً - طرق غرس تلك الأخلاق وتعهدها وما فعلت المدرسة المصرية في هذا السبيل وما لم تفعل

ثالثاً - معرفة ما يتصف به شبابنا في الوقت الحاضر من صفات لا تناسب نهضتنا ولا تتفق مع ماضينا وقوميتنا بما يقعد بهم عن الإقدام على الأعمال الحرة فيؤثر تأثيراً سيئاً في حياتنا الاجتماعية والاقتصادية ويؤدي إلى عرقلة سير النهضة القومية. وأخيراً بحث الطرق العملية المؤدية إلى استئصال ذلك

الأخلاق المطلوبة

مما لاشك فيه أن الأخلاق القويمة التي نصت عليها الشرائع السماوية كالصدق والأمانة والجد والاستقامة والصبر وفعل الخير وإحقاق الحق والعدل والمساواة في حرية الرأي والشورى. . . الخ هي الأسس التي يجب أن يعنى بها كل مصلح، والتي يجب أن يبثها في ولده كل والد، وفي تلاميذه كل مدرس. على أن هناك أموراً خلقية أخرى قد تؤدي إليها المحافظة على الأمور السابقة وتعودها كما يلزمنا المجتمع الحاضر وأحوال المدنية الحاضرة وأساليب الحياة الحالية بالعمل على خلقها في نفوس أبنائنا فرادى وجماعات حتى

يتمكنوا من الخوض في معترك الحياة والنهوض بهذه الأمة نهضة حقيقية فعالة ويرفعوا رأس بلادهم ويثبتوا أقدامها بين الأمم الراقية.

هناك تكوين الشخصية القوية، وهذا يستلزم تقوية إرادة الفرد بمختلف الوسائل وتنظيم حياته وتوجيه نشاطه، وتوزيع العمل واللهو على أوقاته، ويستلزم تعويد الفرد على أن يكون ذا رأي مستقل يدافع عنه في صراحة وجرأة وقوة، ويستلزم أن يكون الفرد ذا جاذبية خاصة أساسها حسن المعاشرة والمجاملة وعمل الخير مما يحبب فيه معاشريه، ويجذب إليه كل من يحتك به ويعامله، ويستلزم أن يتعود تحكيم عقله في ميوله وأهوائه، فكلما استطاع الإنسان كبح جماح شهواته والتغلب على أهوائهوميوله، ارتفع بنفسه في عالم الفكر وسما بروحه سمواً يجعله قوي الشخصية مؤثراً في غيره تأثير المغناطيس في الحديد

وهناك غرس فكرة النظام واحترام القانون في نفوس الناشئين منذ نعومة أظفارهم حتى يعتاد الفرد ذلك من صغره من غير أن يحتاج إلى رقيب يحاسبه ويتتبعه أو إلى دافع خارجي غير نفساني يدفعه، ويستلزم ذلك تربية الضمير وتقويته حتى يكون كل لإنسان رقيباً على نفسه يحاسبها دائماً على كل صغيرة وكبيرة. حدثني صديق اعتاد أن يسمر بعض الليالي عند أحد الوزراء السابقين الذين تلقوا علومهم العالية في بلاد الإنجليز: أن ذلك الوزير قص عليه قصة صغيرة وقعت له في تلك البلاد في أحد أيام الصيف، وكان قد سافر إليها للنزهة والتروض. وتتلخص تلك القصة في أن أحد أصدقائه الإنجليز دعاه يوماً للصيد فخرج معه إلى مكان ناء بعيد عن أعين الناس، ثم دعتهما ظروف الصيد إلى الافتراق فافترقا كل يطلب صيده، فلما وجد المصري نفسه وحيداً وقد هجمت عليه جموع من الطير التي يعلم أن القانون يحرم صيدها لم يتردد في إعمال بندقيته وخرطوشه فيها حتى صاد منها كمية كبيرة معتقداً أنه فاز برزق عظيم وأنه سيسر صديقه به. ثم ما لبث أن التقى الصديقان، فكانت دهشة الإنجليزي عظيمة لما رآه يحمل الطير المحرم صيده، وأخذ يلومه على ارتكابه مخالفة قانونية،

فأجابه السيد المصري بأن الفرصة كانت سانحة لذلك وأنه لم يره أحد، فما كان جواب صديقه إلا أن قال له: ولكنك يجب أن تكون أميناً على تنفيذ القانون في كل مكان وزمان سواء أكنت وحيداً أو معك غيرك، ثم أعطاه درساً عملياً في احترام القانون، فذهب به إلى أقرب مخفر للشرطة فسلم الطيور كلها هناك ودفع عنه في الحال الغرامة التي يجب دفعها نظير ارتكاب تلك المخالفة

هذا درس عملي عظيم إذا توخت مثله المدرسة في تربية أبنائها على احترام القانون والنظام العام أنتج أحسن الثمرات، وجاد بأطيب الخيرات والبركات. ثم لماذا نذهب بعيداً وعندنا من أمثال ذلك في صدر الإسلام الشيء لكثير؛ فلقد خرج عمر ابن الخطاب ذات ليلة يتفقد أحوال رعيته، فلما تعب اتكأ على جدار في جوف الليل وإذا امرأة تقول لابنتها: يا بنتاه قومي إلى اللبن فامذقيه بالماء. فقالت: يا أماه أو ما عملت بما كان من عزمة أمير المؤمنين؟ فقد أمر مناديه فنادى لا يشاب اللبن بالماء. فقالت: قومي إلى اللبن فامذقيه بالماء فانك بموضع لا يراه عمر ولا منادي عمر. فقالت الابنة: والله ما كنت لأطيعه في الملأ وأعصيه في الخلاء. كل ذلك وعمر يسمع تلك المحاورة فقال لمولاه أسلم: (علم الباب واعرف الموضع). ثم مضى؛ فلما أصبح الصباح قال: (يا أسلم، أمض إلى الموضع فانظر من القائلة ومن المقول لها؟ وهل لهما من بعل؟). فذهب ورجع فأخبر عمر؛ فدعا ولده وقال: (هل فيكم من يحتاج إلى امرأة فأزوجه. ولو كان بأبيكم حركة إلى النساء ما سبقه منكم أحد؟). فقال له عاصم: (أنا يا أبتاه لا زوجة لي فزوجني). فزوجها من عاصم فولدت له بنتاً وولدت البنت عمر بن عبد العزيز رحمه الله، وهو ذلك الخليفة الذي يضرب به المثل في الورع والتقى والزهد وإحقاق الحق وإقامة العدل

عبد الحميد فهمي مطر

العقيدة الشعرية

للأستاذ أحمد خاكي

يفرّق النفسيون في العصر الحديث بين الإيمان العلمي والإيمان الشعري. أما الإيمان العلمي فهو الذي يقوم على قواعد المنطق من فرض واستنباط واستقراء، ومن إثبات القضايا أو نفيها. إنه هو الإيمان الذي يقوم على الواقع قبل كل شيء، فهو يصدر عن الأشياء التي تقع في الحس، وهو الإيمان الذي قام على تثبيته أمثال بيكون، وديكارت وهو الذي أقام العلم والفلسفة بما واتى حياتنا المادية من تقدم. أما الإيمان الشعري فيختلف عن ذلك كل الاختلاف، فهو يقوم على جملة من الآثار النفسية تثبت في نفس الفرد عن طريق العادة أو التخيل أو التصور؛ فهو لا يرتكز على حقيقة محسوسة ملحوظة، بل هو فيض خيالي مما تصوره الغريزة أو الرغبة أو الفطرة. وهو بعد ذلك ضرب من اللعب إذا أحسن التعبير عنه كان فناً له خطره

الإيمان العلمي هو إلي يدفعنا إلى درس النجوم وعلاقات بعضها ببعض؛ ولكن الإيمان الشعري هو الذي يحبب إلينا النظر إلى تلك النجوم. الأول نتيجة لدراسة منطقية خارجة عن نفس الإنسان، أما الثاني فهو نتيجة لآثار العوامل الخارجية في نفس الإنسان. الأول يمدنا بالقيم العلمية التي تكاد تثبت في كل زمان ومكان، والثاني بالقيم الأدبية أو الجمالية التي يختلف تقديرها باختلاف المقدَّر والزمان والمكان

ولقد ازدهرت نظرية اللاشعور أو العقل الباطن في هذا القرن حتى أظهرت لنا نوعاً من العقائد الأدبية يعتنقها الشعراء في قرارة أنفسهم دون أن يحسوا بوجودها. وأظهرت لنا كذلك أن الشاعر أو الأديب أو المتفنن قد يكون صاحب عقيدتين في وقت معاً: أولاهما علمية تتصل بحقائق الحياة، والثانية شعرية تتصل بالخيال. وكان لهذه الفكرة خطر في النقد الحديث، لأنها قلبت أوضاع النقد، وثارت بالتقدير العلمي القديم، ونبهت النقدة إلى أن يتدسسوا في أطواء الشاعر حتى يروا معانيه التي كتبها بوحي من عقله الباطن دون أن يكون عليها سلطان من عقله الواعي. وحسبنا من كل ذلك أن نثبت أن الأدب يقوم على هذه العقائد الشعرية، وأن اكمل الشعر هو الذي يصادف مثل هذه العقيدة الشعرية عند سامعيه أو قارئيه

ويولد الإيمان الشعري مع خيال الطفولة، هو كذلك يميز عقلية الهمج. ذلك بأنه يتصل بغرائز الفطرة الأولى: بالخوف والحب والعداوة والجنس. فإذا تقدمت البيئة الأدبية إلى مرتبة عليا من مراتب المدنية استعلى المتفننون بذلك الإيمان الشعري فمثلوه

تمثيلاً في النحت والتصوير والموسيقى والشعر وأطلق عليه الناس بعد ذلك اسم الفن. وهو لذلك يميز الإنسان في أحط درجاته، ويميزه كذلك في عصور الفن الزاهرة. فالإنسان الأول كان يقيم عفريتاً يعبده ليرضي خياله المفزوع، والإنسان المتمدن ما يزال إلى اليوم يصوغ امرأة من الذهب والعاج ليرضي رغبته الملحة. والعفريت والمرأة كلاهما نتيجة لذلك الإيمان الشعري الذي ينكر الواقع ويعنو للخيال. كلاهما يتفجر من نفس العين، ولو أن هذا قد هذب وذاك ما يزال في حاجة إلى التهذيب. وكلاهما نتيجة غريزة من الغرائز: الأول نتيجة الخوف، والثاني نتيجة الحب الجنسي.

وقد ذهب النقدة لذلك إلى أن الشعر ليس من شأنه حقائق الأشياء، وأن الحدود بين العلم والشعر ينبغي أن تكون ظاهرة لا يعتدي أحدهما على الآخر. وليس عند هؤلاء شعراً ما يعالج قضايا منطقية، بل ليس شعراً ما يعرض لنواحي الخلق العام. فإن آفاق الشعر لا تمتد إلى حيث ينبغي أن يبدأ النثر. بل لقد أمعن الناقد الإنجليزي في ذلك حتى قال إن الكذب آية من آيات الشعر فالشعر من الوجهة النفسية يرتكن على الخيال لا على الواقع، والعقيدة الشعرية هي الحالة النفسية المثلى لعمل الشعر، وهي كذلك الحالة النفسية لاستيعابه.

وإذا نحن حاولنا أن نطبق تلك المعايير النفسية على الشعر العربي وجدنا أنها تستقيم لحد كبير. والأصل في التشبيه والمجاز والاستعارة أن تكون خداعاً نفسياً. وليس الشعر شيئاً إلا إذا كان تشبيهاً ومجازاً واستعارة. على أن شعراء العرب قد علوا عن تلك المرتبة الأولى من مراتب القصيدة الشعرية، وبعضهم قد تخيل فأنطق الجماد، وبعضهم قد تدله فصور المرأة تصويراً نفسياً دقيقاً. وإليك بعد ذلك بعض أبيات لأبن خفاجة الأندلسي يصف فيها جبلاً حتى ترى معي إلى أي حد تنطبق هذه القطعة على الواقع وإلى أي حد تنطبق على الخيال:

وأرعن طماح الذؤابة باذخ ... يطاول أحنان السماء بغارب
يسد مهب الريح عن كل وجهة ... ويزحم ليلاً شهبه بالمناكب
وقور على ظهر الفلاة كأنه ... طوال الليالي مفكر في العواقب
يلوث عليه الغيم سود عمائم ... لها من وميض البرق حمر ذوائب
أصخت إليه وهو أخرس صامت ... فحدثني ليل السرى بالعجائب
وقال إلى كم كنت ملجأ قاتل ... وموطن أواه تبتل تائب
وكم مر بي من مدلج ومؤدب ... وقال بظلي من مطي وراكب
ولاطم من نكب الرياح معاطفي ... وزاحم من خضر البحار غواربي
فما كان إلا أن طوتهم يد الردى ... وطارت بهم ريح النوى والنوائب
فما خفق أيكي غير رجفة أضلع ... ولا نوح ورقي غير صرخة نادب
وما غيض السلوان دمعي وإنما ... نزفت دموعي في فراق الصواحب

وأحسب أن كل بيت من هذه الأبيات جدير بالتقدير. وهي جميعاً تكون وحدة جمالية لها أثر كريم في النفس. على أنها لا تنطبق على الواقع إلا قليلاً. فإذا أنت حاولت أن تتأثر عنصر الحقيقة من هذا الشعر لم تجد من هذا البيت وذاك البيت إلا أنه كان جبلاً عالياً مر كثير من الناس به في أيامه الخوالي. أما الجبل الذي يسد مهب الريح والذي يعتم عمامة سوداء من النسيم لها ذؤابات حمر من البرق؛ هذا الجبل الذي يسكن فيفكر، ويتحدث فيتفلسف، والذي ترجف ضلوعه من الأسى، وتذرف دموعه من الوجد؛ ذلك الجبل ما هو إلا خيال سام يصور الواقع لكنه فوق الواقع؛ وهو هو الذي نسميه شعراً وإنما تمتاز هذه القطعة من الشعر بالجمال لأن فيها وحدة تسوي بين أجزائها جميعاً، وفيها كذلك علو بالخيال من بيت إلى بيت، فهي تبدأ بشيء كالواقع لكنها تنتهي بشيء كالخداع. على أنك تستطيع أن تقدرها إذا كنت في حالة نفسية خاصة، حالة نفسية تعترف بإيمان الشعر أو بالخداع أو بالخيال (سمه ما شئت)

لكنك لا تستطيع أن تقدرها إذا أنت وقفت بين البيت وبين البيت تحاول أن تتشكك في صدق المعاني وتحاول أن تنكر على الجبل أن يتكلم أو على الغيم أن يكون عمامة أو على الأيك أن يكون ضلوعاً

على أن ذلك الإيمان الشعري يمتلك النفس أكثر ما يمتلكها عند قراءة القصة أو عند مشاهدة الرواية المسرحية أو عند قراءة ملحمة طويلة في الشعر. فإذا أنت ذهبت إلى المسرح

لتشهد (هاملت) أو (سان جان داراك) فلست بمدرك ما في كل ذلك من الجمال إلا إذا وهبت نفسك لتلك العقيدة الشعرية. وربما علمت أن (هاملت) لم تحدث في التاريخ، وأن بعض وقائعها قد يكون محالاً، وأن شبح الملك المقتول الذي يظهر فيها إن هو إلا ابتكار أتى به الخيال؛ ربما علمت كل ذلك ولكن أحسبك لا ترضى - وأنت مأخوذ بسورة الجمال - عن إنسان يحاول أن يقول لك إن هاملت لم تحدث وإنها كلها لغو من عمل الخيال. ذلك بأنك تحاول وأنت تشاهدها أن تمارس ذلك الخيال ممارسة شعرية فيحلو لك أن تنسى عقيدتك العلمية، ويحلو لك أن تؤخذ أنت بالعقيدة الشعرية وأن تخدع لأن ذلك الخداع في نفسه جميل. وهذا هو الذي يحدث بين جنوبنا حينما نبكي عند رؤية المأساة، وهو الذي يضحكنا عند مشاهدة المهازل والمباذل على الستار الفضي

يروى عن سيدة أنها كانت تشاهد (عطيل) على المسرح. وحينما مضى الفصل الأول والثاني وجاء دور الوقيعة التي قام بحبكها ياجو تأثرت السيدة تأثراً شديداً لأنها رأت أن ياجو يغرر بعطيل تغريراً. فصاحت بعطيل: (إن هذا الملعون يخدعك أيها الأسود الغبي) وفعل مثل ذلك أحد النظارة حينما رأى القوم يأتمرون بيوليوس قيصر، فقد حاول أن يطلع قيصر نفسه على سر المؤامرة. ومثل السيدة والسيد كثير بيننا. بل في الحق أننا جميعاً مثل ذلك لأننا نكون مأخوذين بنوع من أنواع الخداع حينما نشاهد القصة المسرحية

ومثل ذلك يقال عن القصص الأخرى والروايات وعن الملاحم الشعرية الطويلة، فعلى قارئ هؤلاء أن يكون له من الإيمان الشعري ما يطوع له أن يرى نواحي الجمال فيها وما يستطيع به أن ينكر الواقع وأن يحسب الخيال واقعا. وفي الحق أن هذا أظهر ما يميز البيئات الأدبية التي ازدهرت فيها القصص المسرحية والشعر والروايات الأدبية الأخرى. والقصيدة الشعرية هي التي تفسر لنا كيف كان الناس يؤمنون أيام شيكسبير بتلك القصص التي صاغها للمسرح مع ما في أكثرها من خروج عن جادة المنطق السليم. بل نحن لا نستطيع أن نفهم رجلاً كشيكسبير إلا إذا قدرنا غرام بيئته بالشعر المسرحي وبالقصة المسرحية. ولا يمكننا أن نقدر كل ذلك حتى نزن عقائدهم الشعرية وفي الحق أن شيكسبير قد أفلح في خلق مسرحياته لأن القصيدة الشعرية ملكت نفوس الناس في عهد اليزابيث. كان هؤلاء هم الذين يدفعون المال ليشهدوا المسرحيات، وكان

هؤلاء عاملا هاما من عوامل الإخفاق أو النجاح. ولقد تميز هذا الجيل في تاريخ إنجلترا بأنه كان يؤمن إيماناً شعرياً عميقاً بما يلقى عليه حتى لقد كان يتذوق الشعر ويستوعب قصص المسارح. وكذلك يمتاز رواد السينما في العصر الحاضر بتلك العقيدة الشعرية. والمسرحيات وروايات السينما في نفسها تقوم على خداع العقل وخداع النظر وخداع السمع، لكن شيئاً منها لن يصح في روع الناظر أو السامع حتى يكون له قدرة على الإيمان الشعري.

أحمد خاكي
المدرس بدار العلوم

جورجياس أو البيان
لأفلاطون
للأستاذ محمد حسن ظاظا

(تنزل (جورجياس) من آثار (أفلاطون) منزلة الشرف، لأنها أجمل محاوراته وأكملها وأجدرها جميعاً بأن تكون (إنجيلا للفلسفة!)
(رينوفييه)
(إنما تحيا الأخلاق الفاضلة دائماً وتنتصر لأنها أقوى وأقدر من جميع الهادمين!)
(جورجياس: أفلاطون)

الأشخاص
سقراط: بطل المحاورة: (ط) - 1

جورجياس: السفسطائي: (ج) - 2
شيريفين: صديق سقراط: (س) - 3
بولوس: تلميذ جورجياس: (ب) - 4
كاليكليس: الأثيني: (ك) - 5

ط - وإذاً فقد رأيت بالمقارنة يا بولوس أن طريقة مناقضتك لا تشبه طريقتي في شيء. فأنت تفضل موافقة (الجميع) على موافقتي، وأنا أفضل اقتناعك وحدك وشهادتك وحدها، ولذلك قد عنيت بكلامك وتصويتك ولم أعن بالآخرين؛ فليبق ذلك إذاً معروفاً فيما بيننا، ولنمض الآن إلى اختبار النقطة الثانية التي كانت موضوع نزاعنا. أُترى (العقاب) عند (الأجرام) أفدح الشرور كما ظننتَ، أم ترى (الفرار من العقاب) هو الأفدح كما ظننتُ أنا؟

أو فلنمض هكذا: ألست ترى أن كلاً من (العقاب بعدل) و (لقاء جزاء الخطيئة) واحد؟

ب - بلى

ط - والآن هل تستطيع أن تقول إن كل ما هو عادل ليس (بجميل) بقدر ما هو عادل؟ فكر قبل أن تجيب!

ب - بلى يا سقراط فإني أعتقد أن الأمر كذلك

ط - فلنفحص ذلك أيضاً، إذا فعل (فاعل) شيئاً، إلا يكون ضرورياً أن يكون هناك (منفعل) يتأثر بفعل (الفاعل)؟

ب - بلوح ذلك

ط - وذلك الذي يتحمل ما يفعل الفاعل؛ إلا يجب أن يكون تابعاً له تماماً؟ ولنأخذ مثلاً: إذا طرَق أحدهم؛ إلا يجب أن يكون هناك (شيء) يطرق؟

ب - بالضرورة

ط - وإذا طرق الطارق بشدة أو بسرعة، ألا يكون الطرق على المطروق شديداً بالمثل أو سريعاً؟

ب - بلى

ط - وإذاً فالنتيجة بالنسبة للمطروق كما يريدها الطارق!

ب - نعم

ط - وبالمثل إذا أحرق إنسان، فيجب أن يكون هنالك (شيء) يحرق!

ب - حتما.

ط - وإذا أحرق الحارق بشدة وسبب ألماً شديداً، فإن المحترق يتأثر كما يريد الحارق؟

ب - نعم

ط - وإذا قطع إنسان ألا يكون الأمر بالمثل إذ يكون هنالك (ما يقطع)؟

ب - بلى

ط - وإذا كان القطع واسعاً أو عميقاً أو مؤلماً، أفلا يقاسي (المقطوع) ما يريده القاطع؟

ب - ذلك واضح

ط - فلتر بالأجمال إذا كنت توافقني على ما قلته توا في جميع هذه الحالات: وهو أنه كما
يكون فعل المؤثر تكون النتيجة في المتأثر

ب - إني أوافق

ط - وإذا كان الأمر كذلك فخبرني: أتحمل العقاب فعل وإيلام أم انفعال وتألم) يا سقراط

ط - فهو إذا (ألم) من ناحية شخص (فاعل)؟

ب - بلا شك لأنه (ألم) من ناحية من يعاقِب

ط - ولكن ذلك الذي يعاقِب بعقل وحق، أتراه يعاقب بعدل؟

ب - نعم

ط - وإذا فهل تراه يقوم في عقابه بعمل عادل أو لا يقوم؟

ب - إنه يقوم بعمل عادل!

ط - وذلك الذي يلقى جزاء خطيئة ارتكبها، ألا تراه يُعامَلُ معاملة عادلة؟

ب - ذلك ظاهر

ط - وقد اتفقنا على أن العادل جميل؟
ب - من غير تناقض
ط - وإذا فأمامنا رجلان، أحدهما يفعل فعلاً جميلاً، والآخر - وهو المعاقب - يتحمل ذلك الفعل؟!
ب - نعم
ط - ولكن إذا كان العمل جميلاً فانه يكون حسنا، لأنه إما أن يكون جميلاً أو نافعاً
ب - ذلك محتوم!
ط - وإذا فذلك الذي يتحمله المعاقَب ويقاسيه شيء حسن
ب - يلوح هذا
ط - وهو يخرج منه على ذلك بنفع؟!
ب - نعم
ط - وهل هذا (النفع) هو النفع الذي أتصوره؟ هل تتهذب نفسه إذا عوقب بعدل؟
ب - ذلك محتمل جداً
ط - وإذا فذلك الذي يعاقَب يتخلص من رداءة نفسه وشرها
ب - نعم
ط - أولا تراه يتخلص بذلك من أفدح الشرور؟ لنختبر السؤال على ذلك النحو؛ أذلك الذي يريد أن يجمع ثروة كبيرة، أهناك - فيما تتصور - شر له غير الفقر؟
ب - ليس من شر له غير هذا!
ط - وفي تركيب الجسم: أليس الضرر في رأيك هو الضعف والمرض والتشويه وكل النقائص التي من ذلك النوع؟
ب - بلى
ط - أولا تعتقد أن للنفس هي أيضاً نقائصها؟
ب - بالطبع
ط - أولا تطلق على هذه النقائص الظلم والجهل والجبن وأسماء أخرى مماثلة؟
ب - بالتأكيد!
ط - وإذن فقد عرفت أن لهذه الأشياء الثلاثة: وهي الثروة والجسم والنفس، ثلاثة رذائل وشرور، هي الفقر والمرض والظلم
ب - نعم
ط - والآن أي هذه الرذائل أكثرها (قبحاً)؟ أليست هي الظلم، وأعني به رذيلة النفس؟
ب - من غير جدال
ط - وإذا كانت هذه الرذيلة أكثرها (قبحاً)، فهي بالأحرى أكثرها (رداءة)؟
ب - وكيف تقول بذلك يا سقراط؟
ط - ذاك هو السبب. أليس أقبح الأشياء قبيحاً هكذا لأنه يسبب (ألماً) أكثر، أو (خسراناً) أفدح، أو هما معاً؟ ذلك ما قلناه من قبل!
ب - تماماً
ط - أو لم نعرف منذ هنيهة أن أقبح الأشياء هو (الظلم) أو هو بوجه عام (رداءة النفس)؟
ب - لقد عرفنا ذلك حقاً
ط - أوليس أقبح الأشياء قبيحاً هكذا لأنه أكثره ألماً وإيلاماً، أو أكثرها خسرانً، أو أكثرها جلباً للاثنين معاً؟
ب - بالضرورة
ط - وإذن فالألم الأكثر في أن نكون ظالمين وشرهين وجبناء وجهلاء، وليس في أن نكون فقراء ومرضى؟
ب - يبدو لي أنه كذلك يا سقراط تبعاً لما قلنا.
ط - وإذاً يجب أن تكون (رداءة النفس) أقبح الأشياء، لأنها تفوقها جميعاً بما تسببه من خسران هائل خارق للمعتاد، ومن شر مسرف عجيب، لا من الألم فحسب تبعاً لقولك
ب - ذلك واضح
ط - وذلك الذي يزيد هكذا بالخسران المفرط هو أفدح ما يوجد من الشرور؟
ب - نعم

ط - وإذاً فالظلم والشره (ورداءة النفس) على العموم، هي أفدح شرور العالم؟؟
ب - ذلك ظاهر
ط - والآن ما هو الفن الذي يخلصنا من الفقر؟ أليس هو الاقتصاد؟
ب - بلى
ط - ومن المرض؟ أليس هو الطب؟
ب - بلى، من غير نزاع
ط - ومن رداءة النفس وظلمها؟ إذا كان وضع أسئلتي على ذلك النحو يحيرك فسأجعلها هكذا: إلى من نذهب بأولئك الذين هم مرضى الجسوم؟
ب - إلى الأطباء يا سقراط
ط - وإلى من نذهب بأولئك الذين يتركون نفوسهم فريسة للظلم والشره؟
ب - أتريد أن تقول إننا نذهب بهم إلى القضاة؟
ط - أليس كذلك كيما يلقوا جزاءهم؟
ب - بلى
ط - والآن ألا نعاقب الناس، عندما نعاقبهم، بحق لأنا نطبق (عدلاً) خاصاً؟
ب - ذلك واضح
ط - وهكذا يحررنا الاقتصاد يا بولوس من الفقر، والطب من المرض، والعدالة من الظلم
والشره!
ب - ذلك واضح
(يتبع)
محمد حسن ظاظا
من مشاكل التاريخ
طبيعة الفتح الإسلامي
للأستاذ خليل جمعة الطوال

اعتاد المؤرخون الأقدمون، وجاراهم في ذلك بعض المحدثين أن يسموا وقائع الفتح الإسلامي (غزواً)؛ وفاتهم ما تحمل هذه الكلمة في تضاعيفها من معاني النهب، والسلب، والعبث، والتمثيل، وما هو في أحكام هذه الأمور من أنواع الجرائم والشرور التي نهى عنها الإسلام وتجافاها المسلمون في فتوحهم. ولقد أطلق هؤلاء المؤرخون هذه الكلمة على الفتح الإسلامي سهواً وتساهلاً، وما أحسبهم قصدوا بها هذه المعاني المستنكرة التي تؤدي إليها؛ فأخذها عنهم المتعصبون على الإسلام، والكارهون لهذا الدين الحنيف وفسروها بما أملته عليهم منازعهم وأحقادهم، ثم روجعوا لها في كتاباتهم، حاسبين أنهم بذلك قد قوضوا أركان الإسلام، وصدعوا بنيان حضارته، تلك الحضارة السامية التي مازالت ولن تزال منارة العدل والإنسانية والحرية

وأكثر ما يضحكنا من هذه البدع المضلّلة، والحملات الطائشة، ما جاء في كتاب تاريخ آسيا لهربرت كوفين إذ يقول: (إن الديانة الإسلامية التي يقدسها مائتان وثلاثون مليوناً من الناس تنطوي على آثام اجتماعية تئن منها الإنسانية، وإنها لم تقم إلا على حب الغزو والنهب!)

وما هرف به أيضاً العالم الأثري كلرمون جانو إذ يقول: (إن الحضارة الإسلامية ليست إلا فظائع الغزو العربي)

ولئن كان لهؤلاء عذرهم في جهلهم أساليب اللغة العربية وتجاهلهم حقيقة البلاد العربية وتاريخها، فما بال القارئ بمن يعيش في بيئة هذه الأمة، ويقف على أساليب لغتها، وبدائع حضارتها، ثم لا يرى لها بعد ذلك حسنة إلا مسخها سيئة. . . بل سيئة تكاد ألا تكون في مقدور بشري مهما كانت درجة انحطاطه في سلم المدينة، وحلقة التطور! وأعني بذلك الرجل المتحامل المتغرض الأب لامنس إذ يقول: (إن العربي أثبت في فتوحه أنه جبان ضعيف في الجندية، لا يفكر في غير المغانم، وأن العرب ظهروا كما كانوا على عهد الرسول وسطاً في القتال، وعلى استعداد للنهب، يحجمون أمام الخطر. . .

وأن لا قابلية لهم بشيء من أسباب الحضارة، بل الفضل لأولئك المتفسخين في فارس

والعراق والشام ومصر وغيرها، من الأقطار التي افتتحت، وأن الحروب الصليبية وقائع البسالة، وكان الصليبيون عجباً بأنظمتهم وترتيباتهم، وأن اليهود عوملوا في عهد الحروب الصليبية في الغرب معاملة حسنة)

عجباً! أفنتصم بكل هذه الوحشية ويظل في الدنيا من يذكرنا بخير ويدرس تاريخنا بإعجاب! ويشهد بحضارتنا بفخر وإكبار؟

وإننا إذ نحاول دحض هذه المفتريات، وإزالة هذا الكلف من وجه التاريخ، فلسنا نكيل لها الحق بالصاع الذي كالت لنا به التهم والشتائم، وإنما نستند في تفنيدها إلى استفتاء التاريخ، واستنطاق الحق واستقراء الحوادث، ثم إلى شهادة من لا تجمعهم بالعرب صلات الرحم وعلائق الدم وأواصر القربى، ولا أية صلة تدفعهم إلى التحيز

إن الدعوة الصالحة لدين الله هي الأساس الذي ترتكز عليه دعائم التاريخ الإسلامي، ذلك التاريخ المجيد الذي لم ينصف قط بمنازع الأهواء وأغراض العالم

ومن سمع بقوم يخرجون في سبيل ربهم، يدعون أعداء الله إلى الله، فيلقى هؤلاء في طريقهم القتاد. . والأشواك، ويعفرون وجوههم بالطين والتراب، ويحرضون عليهم سفهاءهم وصبيانهم ينالونهم بمختلف أنواع المهانات والموبقات؛ فيهجرون أوطانهم وأملاكهم وأغنامهم، وإبلهم، ليشتروا بها نفوسهم! ثم يبيعون نفوسهم للموت ليشتروا بها وجه ربهم؟ من سمع بقوم تكون هذه حالهم وتظل نفوسهم مع ذلك متعلقة بأعراض الدنيا الزائلة، بمباهج الحياة الفانية. . .؟

إن الغزو - وما في معناه - لا يكون إلا بين القبائل المتباعدة، والعشائر المتعادية، فيغزو بعضها بعضاً، طلباً لأخذ ثأر، وأملاً بكسب غنيمة، والكل يعلم حق العلم أن المسلمين لم يناهضهم بادئ بدء إلا أهلهم الأقربون، ومنهم لحمهم ودمهم، وعشيرتهم القرشية، وفيها عصبيتهم وفخرهم. ولسنا نعلم قط أن قبيلة كانت إلباً على غيرها فانقلبت فجأة وصارت حرباً على نفر من أفرادها، طمعاً في مغنم. . .! أو حبَّاً في أخذ ثأر. . .!

وأي ثأر يكون لكل من علي، وأبي بكر، وابن الخطاب، ومن إليهم من لمهاجرين عند إخوانهم القرشيين فينضموا إلى جانب محمد (صلى الله عليه وسلم) وهو من علمت بضعف بطانته وقلة عدته وعتاده للأخذ به. . .؟

ألأجل غنيمة يهجر الإنسان بيته ووطنه وماشيته وثروته، ليكافح أهله، ويناوئ عشيرته. . .؟ كلا. . .! ثم كلا. لقد خرج هؤلاء على أهلهم من أجل دعوة سامية، وما قاتلوا وجاهدوا إلا في سبيل الذب عنها (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين)

أرأيت كيف أن الإسلام لا يبيح الاعتداء مطلقاً، ولا يوجب القتال في سبيل الله إلا دفاعاً. . .؟!

لقد هاجر المسلمون عن بلادهم إلى يثرب هرباً بعقيدتهم السامية من أن يئدها الشرك، وهي لما تؤد للعالم رسالة الحق والتوحيد. وهناك في يثرب تعاود النفوس عنجهية القبيلة، وشنشنة الجاهلية؛ ويكاد الشر أن يستفحل بين المهاجرين والأنصار، لو لم يتدارك النبي (ص) الموقف فيقف فيهم منادياً: (يا معشر المسلمين: الله الله. اتقوا الله. أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله إلى الإسلام، وقطع به عنكم أمور الجاهلية، واستنقذ كم به من الكفر وألف بين قلوبكم)

أرأيت نبل هذا الخطاب وسموه؟ لم يقل أيها المهاجرون! ولا أيها الأنصار. . .! فليس في الدين قبائل ولا عشائر، وإنما الجميع إخوة، ففيم إذاً نخوة الجاهلية، وحزازات الصدور، وشنشنة النفوس. . .؟ وفيم القتال في غير سبيل الله؟

ولقد اقترح بعض الصحابة على النبي بعدما استقروا في المدينة أن يأذنوا قريشاً بالحرب، ويقاتلوها ويجزوها شراً بشر فيشفوا صدورهم مما تجد عليها، فدعاهم النبي إلى السكينة، وقال لهم: (لم يؤذن لي بالقتال بعد)

فأي إنسان بشرى تناله قريش بمثل ما نالت به النبي (ص) ويكون في بطانة قوية أطوع له من بنانه، ثم تعرض عليه أخذ الثأر له فيدعوه إلى الهدوء والسكينة، لأنه لا يقاتل طلباً لثأر، ولا شفاء لغيظ، بل استجابة لأمر ربه، وهو لم يأمره بالقتال بعد

وظن بعض الجاهلين أن النبي إنما استمال اليثربيين بما توعدهم به من المغانم المادية، والأسلاب العظيمة، وهم في ظنهم هذا أبعد ما يكونون عن الحق. وحاشا

للنبي أن يشحن النفوس بمثل هذه الأماني الباطلة الفانية (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) وإنما أغراهم بشيء أسمى من المغانم، وأسمى من الذهب
. . .والفضة؛ وذلك العلق النفيس الذي تشوفت إليه النفوس كان. . . الجنة
ألا فانظر إلى هذا الموقف السامي الذي وقفه الرسول (ص) في صفوف اليثربيين عندما حاول أخذ بيعتهم، وقف صلى الله عليه وسلم وقال:
أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم. فمد البراء بن معرور - يده، وكان سيد قومه وكبيرهم، وقال: بايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب، وأهل الحلقة: ورثناها كابراً عن كابر.
وهم القوم بالبيعة فاعترضهم العباس بن عبادة قائلاً: (يا معشر الخزرج! أتعلمون علام تبايعون هذا الرجل؟ إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس. فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة، وأخذ أشرافكم قتل أسلمتموه فمن الآن فدعوه فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة. وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة)
فأجاب القوم: إنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فما لنا يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك؟ . .
وكان المنتظر أن يمنيهم بخير الدنيا وجاهها، وكان المنتظر أن يمنيهم بما تمنى به القادة والساسة المتحمسين إذ يسوقونهم إلى ساحات القتال، ويعدونهم بشتى الوظائف والأموال؛ ولكن شيئاً من ذلك لم يكن، بل سكت هنيهة، ثم رد عليهم مطمئناً وقال:
!. . .الجنة
لقد كان الفتح الإسلامي فتحاً دينياً مبيناً لا شائبة فيه للأهواء المادية، وكانت تسيره عاطفة روحية سامية تمقت الغزو والنهب والسلب. وليس أدل على ذلك من هذه الكلمة السامية التي ترويها لنا كتب السيرة عن النبي (ص) حين كان يطوف بقومه في بدر ويقول: (والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً، مقبلاً غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة. . .). فقال عمير بن الحمام وبيده ثمرات يأكلها: بخ بخ، ما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء!. . . ثم قذف الثمرات من يده، وأخذ سيفه وقاتل حتى قتل
ولقد كتب الله للمسلمين في هذه المعركة النصر على المشركين وأسروا منهم سبعين أسيراً، وكان منطق الغزو يقضي أن يفتك بهم، بل كان منطق الحرب. . . يقضي أن يفعل بهم
ذلك أيضاً لاسيما وقد ناله منهم قبلا الذل والمهانة، ولكن الإسلام لا يقر أخذ الثأر، ويأبى على المسلمين أن يقاتلوا لهوى وحقد في نفوسهم؛ ولهذا فقد قبلوا منهم فدية قانونية عادلة (لا تتجاوز مقدور أضعفهم) بل إن فيهم من أطلق سراحه بتعليم عشرة من أطفال المدينة القراءة والكتابة، وهذه الفدية الجديدة تنافي ما أشيع من عداء الإسلام للعلم وحثه على الغزو
وكان من أسرى بدر سهيل بن عمرو، وكان سهيل قد شنع بخطبه على الرسول، فقال له عمر بن الخطاب: دعني أنزع ثنيتي عمرو فيدلع لسانه، فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً
وكان ذلك أقل ما يجب أن يفعله الرسول (ص) برجل شنع عليه بخطبه، وهو لو فعله لما تجاوز العدل قط، ولكن الرسول (ص) تنزه عن الحسد، والحقد، وتطهر قلبه بالإسلام من جميع أهواء النفوس في الجاهلية، فما كان منه إلا أن قال: (لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبياً)
يا له من إيمان سام! يعلو بالنفس عن أحقاد الدنيا، ويجعلها على اتصال بخالقها، فلا تتدلى لحضيض الأهواء البشرية الفاسدة
فقد أدب الله نبيه فأحسن تأديبه، وليس من الأدب قط أن يمثل الإنسان بأخيه ولو كان نبياً!. . . ولذا أبى الرسول أن يمثل بسهيل بن عمرو، بل رده إلى قومه عزيزاً مكرماً، ليعلم البشرية بذلك درساً سامياً كاد جهلها به أن يرديها في هوة الشقاء.
ولسنا نتبين جلال هذا الموقف، وسمو هذا العفو، إلا بمقارنتهما بتمثيل قريش

وغدرها. . فمن ذلك ما حدث لقتلى المسلمين في واقعة أحد (فقد طافت هند بن عتبة والنسوة اللاتي جئن الميدان معها، تجدع آذان القتلى وأنوفهم؛ ولما وصلت إلى حمزة بن عبد المطلب بقرت بطنه وأخرجت كبده فلاكتها فلم تسغها فلفظتها واتخذن من آذانهم وأنوفهم قلائد عدن بها إلى مكة)

وانظر إلى هذه الحادثة التي يتمثل فيها اللؤم والغدر بأجل مظاهرهما، والتي قابل بها المشركون القرشيون إخوانهم المسلمين بعد أن عفوا عن أسراهم، وكان في قدرتهم أن يمثلوا بهم ويجزوا أعناقهم عن أجسادهم؛ فقد طلب أبو براء عامر بن مالك بن جعفر العامري من النبي (ص) بعْثاً يبشر قومه في نجد، وكان النبي يعرف غدر قريش والمشركين، وكان يقدر سوء مصير هذا البعث الذي سيبعثه إليهم، ولكن عامر بن مالك مازال به حتى حمله على إيفاد هذا البعث، فلقيهم عامر بن الطفيل عند بئر المعونة ففتك بهم جميعاً دون أن يبدؤوه بحرب أو عداء، وهكذا قضوا في سبيل الله . . .!يحملون إليه أرواحهم الطاهرة على أكفهم البريئة وكانوا (75) شهيداً، فتأمل ولقد كانت هذه الحادثة، وما تجلى فيها من ضروب التفظيع كافية لأن تستفز النفوس الغافية، والأحقاد الجاهلية والحزازات الذميمة، ليأخذ المسلمون بثأرهم، ولكن هيهات! !هيهات

فعصر الثأر قد مضى وانقضى، وليس لهم إلا أن يصبروا على هذه الكيد والبلاء وفي غزوة دومة الجندل دعا النبي عبد الرحمن بن عوف وسلمه اللواء وقال له: (خذ يا ابن عوف، سيروا جميعاً في سبيل الله فقاتلوا من كفر بالله، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً فهذا عهد الله وسيرة نبيه فيكم)

فمن هذه الوصية الخالدة، وما فيها من أسمى المبادئ الإنسانية تتبينون حقيقة الإسلام وقاعدة جهاده ضد من كفروا بالله وناوؤا رسوله، وأذلوا المؤمنين. . .

(البقية في العدد القادم)

خليل جمعة الطوال

إلى شباب القصصيين

كيف احترفت القصة

قصة الآنسة (ديلافيلد)

للأستاذ أحمد فتحي

لقد ظلت أول قصة كتبتها حتى اليوم بغير أن تنشر، ومن ودي أن تبقى كذلك أبد الدهر دون أن تخرج للناس

ولقد كتبتها أيام كانت أحلام مثيلاتي من الطالبات منحصرة في أن يتم للواحدة مرح الشابة (الأيرلندية) العابثة!. ومن المحقق أنني كنت متأثرة في قصتي الأولى بهذه الروح. وإني لأذكر عنها القليل جداً، ومن ذلك القليل أن البطلة كانت تسمى (بليس) وأنني جعلتها تموت وهي غضة السن: أعني لم تعدُ السبعين! بينما كنت أنا بين الثانية عشرة والرابعة عشرة. ولم يكن الحب - في تلك الأيام - ليخطر على بال إنسان لم يودع عشرين ربيعاً من عمره

على أن كثيراً من المشاهد التي كنت قد بنيت عليها هيكل تلك القصة ظل عالقاً بذهني مدى عشر سنوات كاملة، تقمص بعدها إهاب قصتي الأولى الجدّية (زيللا) وربما كان من الخير أن أشير هنا إلى أن قصتي الأولى (زيللا) لم تكن أكثر من دراسة (سيكلوجية) لفتاة بين الرابعة عشرة والثامنة عشرة، كان عليها أن تعاني اضطراب وراثة مختلطة تضطرب بين إنجليزية وفرنسية

وحينما فكرت في أمرها أول الأمر وأنا في غرفة دراستي، كنت أوثر أن تكون لها نفس صافية، بينما تفتقر إلى الخلق الشخصي القويم، حتى أنها تخدع نفسها بنفسها، وينتهي بها الحال إلى أن تعود غير خليقة أن تؤمن على أية حقيقة على وجه الإطلاق ولم تكن القصة التحليلية - حينذاك - قد عرفت سبيلها إلى الذيوع؛ ولاسيما في الأوسط المدرسية؛ وبذلك كان اختياري الطبيعي لهذا الطراز محدداً للمنهاج الذي التزمته ودرجت عليه في مستقبل أيامي

ولقد علمت، عامدة أو غير عامدة، أن البطلة الأنموذج فيما كان تتاح لي قراءته من القصص، لم تكن تعني كثيراً بمطابقة الحقيقة ومحاكاتها. حتى أن تلك القصة العظيمة التي

كتبتها (ماري كولمندبلي) باسم (الطعام الأحمر) والتي ضمنتها كثيراً من أروع الشخصيات، لم تخل من هفوة أو شبه هفوة، في تصوير بطلتها (راشيل) فتاة خيرة راجحة العقل. فإن المؤلفة لم تشأ أن تبرز بطلة قصتها في الصورة السمجة التي لابد أن تكون عليها في الحياة الواقعة؛ وهذا سر ضعفها. بل لقد بلغ إبرازها بهذا الوصف الخير من الثقل حد الطغيان على باقي شخصيات هذه القصة التي اختلط فيها الخير والشر مثل اختلاطهما في أفراد الجنس البشري بغير استثناء!

ولقد أوليتُ هذه القصة (الطعام الأحمر) عناية فائقة، لأنها كانت أول قصة عصرية حيوية أذكر أنني قرأتها بعين النقد وأعدت قراءتها مرات ومرات، كما أصنع دائماً بالكتب التي أفضلها، وبذلك استطعت أن أحللها بكل دقة، في حدود طاقة طفلة في مثل سني حينذاك

ولقد وضح لي منذ ذلك الحين أن رغبات الناس وتأثراتهم حيال الظروف المختلفة أمر ليس من السهل أن يُقرأ، أو يُكتبَ عنه، وأن تنزيه المؤلف لبطل قصته عن الأخطاء، من أشنع الأخطاء! وكذلك أنجيت بطلة قصتي (زيللا) من التعرض لمثل هذه المؤاخذة. والحقيقة أنه كان يروق لي أن أبرز نقائصها أكثر مما كان يروقني إبراز ما فيها من فضائل، فلم أكن أرغب مطلقاً أن أسمو بها عن المزالق الطبيعة التي يتورط فيها نظائرها من الشباب!

وبعد بضع سنين، حين كانت القصة بين يدي الناشر، كاشفته برغبتي في تغيير اسمها باسم آخر رمزي هو (الحرباء) ولكنه ردّني عن هذه الرغبة في رفق، زاعماً أن من القسوة على البطلة أن أشبِهها بهذا الحيوان البارد المتلوِّن!

على أنه قد يوجعني أن أضيف إلى ما تقدم أنني حين كتبت (زيللا) لأول مرة؛ وقبل أن أبدل فيها كثيراً أو قليلاً؛ كنت قد ختمت فصولها بمأساة فاجعة. وكذلك كانت تُختَتَمُ غالبية القصص التي قدر لي أن أقرأها إلى ذلك العهد. وعلى أي حال فقد كنت في سن لا يتورع فيها الإنسان من أن يبتسم للفواجع! وإنما كنتُ في الواقع أفوق من عاصروني بجعل الفكرة في قصة (زيللا) تمهد لتصوير البطلة في موقف مفاجأة عنيفة يتلخص في اقتحامها بيتاً وهو يحترق، كي تنقذ طفلاً؛ فإذا بها تجد نفسها طعمة للنيران فتحترق وتموت!

وأظن أني شعرت في غموض بأن وجود هذا الطفل في ذلك البيت المحترق، يعلل اقتحام

الفتاة النيران بدافع غير سيئ! حتى ولو لم يكن الدافع لها على ذلك هو روح بطولة، وأؤكد أنني لم أتصرف تصرفاً كهذا في حياتي، مهما كان الدافع إليه مما يجعله - في نظري - على درجة عظمى من البطولة الحق!!

على أنني قرأت بعد ذلك بأمد، كتاباً للمستر (روبرت هيوبنس) اسمه (الجبان) انتهى أمر بطله إلى نفس تلك النهاية ذاتها، غير أن الصور النفسية فيه كانت أقلَّ رداءةً! كما أني قبل أن أضع لختام قصتي فكرة احتراق البيت، كنت أنوي أن أختتمها بانتحار البطلة! وكانت خاتمة كهذه خليقة بإنجاح القصة في نظري!

وبعد أن لبثت هذه الخواطر الفجة المتداعية متأرجحة في ذهني ست سنين أو سبعاً؛ نتج منها آخر الأمر شيء له هيكل (القصة). . . على أن عملي لم يكن ليتجاوز تصوير بعض الشخصيات التي خالطتها وخبرتها من كثب وتأثرت بها في مدارس الرهبنة وإني لأذكر جيداً أنني لم أنفق أكثر من ستة شهور أو سبعة في تسجيل فصول هذه القصة تسجيلاً نهائياً. على أني لم أكن أكتب إلا في أوقات فراغي؛ وقد أخذت أوقات الفراغ هذه في التضاؤل بعد أن وضعت الحرب أوزارها، واستؤنفت الأعمال بهمة ونشاط

على أن فصول القصة لم تُكتب تباعاً، وإنما كنت أشرع في الكتابة حالماً أحس الرغبة في ذلك، فأثبت الحلقات الضرورية، بحيث أصل بين الصفحات كلما بدا لي أنها قد انفصل بعضها عن بعض. وهذه الطريقة - إذا جازت تسميتها كذلك - كانت كل ما في وسعي، لأنه لم تكن لدي أية فكرة إنشائية عن فن القصة، بل لم يكن وجود مثل هذه الفكرة ليخطر ببالي. وإني لأتصور أن قليلاً من قصص الناشئة قد كتب بمثل ما كتبت به حرارة العاطفة. ولقد استمرأت الكتابة بسرعة وبقلة اكتراث؛ وكان مضحكاً أن أقرأ للفصول الطوال على أصدقائي في صوت مرتفع؛ وكان من هؤلاء الأصدقاء واحدة

!فقط تتنبأ لقصتي بصلاحيتها للنشر، وربما لم يكن بين الباقين من آمن بصحة نبوءتها
وفرغت من الكتابة في (إيستر) عام 1916 حين كنت معتزمة الرحيل، وقد كنت أؤمل
أن أنتهي من أمرها قبل رحيلي، وإني لأذكر جيداً كيف كتبت بعض الصفحات الأخيرة
وأنا جاثية إلى منضدة، بسبب عدم وجود مقاعد ساعتذاك في بيت الغرباء الذي كنت
فيه، وما كدت أنتهي من الكتابة على هذا النحو حتى هرعت فلحقت القطار
وإني الآن لأستدعي ذكريات صفحات هذه القصة بعد فراغي من كتابتها بقليل، وكيف
كنت لا أظن كلمة واحدة منها تحتمل الحذف، فضلاً عن جريان القلم الأحمر على
نصف صفحة كاملة مثلاً. وكذلك كنت شديدة الاعتداد بهذا العمل الأدبي الذي كتبته
بأقصى سرعة تسمح بها حركة القلم على الورق، حتى أنني كنت شديدة الاعتقاد بأن
قصتي فوق التنقيح وفوق التصحيح
على أني لا أزال حتى اليوم، وبعد احتراف الكتابة عشرين عاماً ونيفاً، كما كنت وثيقة
الإيمان بإن إعداد الفصول للنشر أعداداً نهائياً هو أصعب مراحل الإنتاج الأدبي على
وجه الإطلاق
ومن الخير أن أسمي المستعار الذي ظهرت به أعمالي الأولى كان من اقتراح
شقيقتي ولكنه لم يكن من ابتداعها، إذ كان اختراع قصصي معاصر شهير، ولكنني
وفقت إلى توقيع حرفي حسن هو (ا. م) ولم أكن أقصد به أن يخطئ الناس فيظنوني
رجلاً ولكنني استعملته متابعة لكاتب معاصر كنت ولا أزال أقدمه على سواه.
ونصحت لي إحدى الصديقات بالبحث عن ناشر؛ ولم تلبث هي أن قدمت قصتي إلى
(ويليام هاينمان) فوافق على نشرها على الفور. ولا أزال أحتفظ بذلك الخطاب الرقيق
الذي بعث به إلى حينذاك.
ولم يكن لأمي علم بأنني وضعت كتاباً. ولقد كان عندها واحد من الأقرباء لا يفقه الأدب
حين بلغتها برقية مني بأن كتابي قد وافق عليه الناشر! وبعد ساعة واحدة، وصلتها
برقية أخرى علق عليها ذلك القريب الجاهل بقوله لأمي (لعلها تخبرك أن الأكاديمية
الملوكية قد قبلت إحدى لوحاتها الزيتية)؟!
وعلى أي حال، فقد كان أسم (زيللا) من وضع مكتب الناشر (هاينمان) وربما كان على
التحقيق من وضع المستر (ف تومسون) الذي كان يقرأ له كل ما يراد نشره!
وظهر الكتاب في مارس 1917. وصادف ظهوره نجاحاً فائقاً كباكورة أعمالي
القصصية. وقد ظل الناشر نفسه يجهل اسمي الحقيقي حيناً طويلاً بعد ذلك
ومما هو جدير بالإشارة أن المستر (هاينمان) قد تفضل - بعد ظهور الكتاب - فدعاني
إلى الغداء، حيث قدمني إلى ثلاثة من مشاهير الأدباء المعاصرين، وهذا ما لم يكن
يطمع في
مثله ولا بعضه أي قصاص مبتدئ! ولكنني كنت صغيرة السن جداً كما كنت قليلة
الخبرة بأمور الحياة الأدبية، فلم أومن بهذا الفضل! بل إن غداء المستر (هاينمان) قد
ظل أول وآخر عهدي بالمجتمعات الأدبية إلى الآن!
وكلما أعدت قراءة قصتي الأولى (زيللا) بعد الطبع، استرعت نظري فيها جدة خاصة،
أظنها الطابع المميز لمعظم الأعمال القصصية الأولى، كما تسترعي انتباهي أيضاً
طريقة كتابتها التي أصبحت بها بعيدة العهد. والواقع أنها لم تكن قصة بالمعنى الصحيح
بقدر ما كانت تسجيلاً تعقيباً لما تميزت به البطلة من ضعف طبيعي جر على حياتها
أسوأ العواقب. على أني أعتقد بأن استعراض شخصياتها لم يكن رديئاً. وكما أسلفت،
أرى أن ضعف هذه القصة ينحصر في طريقة بنائها، وفي انعدام العقدة الفنية فيها،
بحيث أنها كان من الجائز أن تختتم في منتصف فصولها، دون الاستطراد إلى مئات من
الصفحات الأخرى.
ولكن. . . بعد أن تم كل شيء أحسست بشعور دافق من الارتياح يغمرني. ولست
أنسى أبداً تلك اللحظة السعيدة التي تسلمت فيها النسخ الخمس الأولى من قصتي
هدية من الناشر. . .!!
المترجم
أحمد فتحي
التاريخ في سير أبطاله
إبراهام لنكولن

يا شباب الوادي! خذوا معاني العظمة في نسقها الأعلى من سيرة هذا العصامي العظيم. . . . . .

وتعجب ماكليلان وتعجب الناس معه من هذا المحامي الذي يدلي برأي في الخطط الحربية كأنه من أصحاب الحرب وممن لهم بفنونها خبرة؛ وما عرف عنه أنه شهد حرباً من قبل، اللهم خلا تلك المعركة الضئيلة التي اشترك فيها وهو في صدر شبابه متطوعاً ضد الصقر الأسود. . .

ولكن الذين يؤمنون بسر العبقرية لم يروا في الأمر عجباً؛ وكذلك كان الذين تربطهم بالرئيس صلة من كثب، والذين رأوا رجاحة عقله وسلامة منطقه وقوة لقانته. ومن ذا الذي يقول إن الكتب هي التي أوحت إلى نوابغ العالم في شتى مناحي الحياة ما أتوا به من المعجزات. . .؟ إنما يسير هؤلاء على نهج من فطرتهم وعلى هدى من نور عبقريتهم. . .

وهل التوت الأمور على ذلك الرجل في السياسة ولم تكن له بأسبابها من قبل صلة؟ أو لم يحمل الذين أشفقوا أول الأمر من رياسته على محبته ثم على الإعجاب به؟ وإذا كان هذا هو شأنه في السياسة ولم يتعلمها فلم لا يكون كذلك في أمور الحرب وهو قد استعان بالمعلمين الأخصائيين في تعرف مداخلها بادئ الرأي؟

أخذت الأزمة تشتد في الميادين، وذلك بتوالي الهزائم على أهل الشمال إذ كان هؤلاء ينقصهم القادة القادرون، ولولا أن كان لهم لنكولن في كرسي الرياسة يومئذ لحاق بهم الفناء؛ والذين يتتبعون أدوار الحرب يشهدون أن النصر في النهاية كان مرده إلى شخص الرئيس فلقد كان وحده جيشاً مغالباً، وكان وهو رجل الأمة وحده أمة في رجل. . .

وكان القواد في الميادين يبذلون ما في وسعهم لا يألون جهداً للوصول إلى النصر، ولقد كان لبعضهم خطوات موفقة في هذا السبيل ونذكر من هؤلاء جرانت الذي سوف يعظم شأنه حتى يصبح رجل هذه الحرب

أما ماكليلان فقد ظل على حاله يدرب جنده، ويطلب المزيد من الفرق، والرئيس صابر على ذلك لا ينفد صبره وإن أوشك أن ينفد صبر الناس، فلقد كانوا يستعجلونه الزحف على رتشمند عاصمة الجنوبيين

ومع أن الرئيس قد أمره بالزحف في نهاية يناير عام 1862 أي بعد نحو تسعة أشهر منذ بدأت الحرب، فإنه لبث مكانه حتى شهر مارس ثم أخذ يتحرك ولكن في بطء وحذر مما دعا الرئيس أن يطلب إلى وزير الحربية أن يستحثه ولكن ما كان أعظم دهشتهما حينما كتب إليهما ذلك القائد يطلب المزيد من الرجال، وحجته في ذلك أن العدو متكاثر أمامه

وفي مثل هاتيك الظروف التي كانت تتطلب من الرئيس ما أشرنا إليه من جهد يأبى القدر إلا أن يصوب إليه سهماً يصمي مهجته ويوشك أن يذهب بلبه ويزعزع فؤاده، فلقد غالت المنية أصغر بنيه وهو صبي في العاشرة من عمره. ولقد كان وأخاه يزوران مستشفى من مستشفيات الحرب فسرت إليهما العدوى، ولم يقو الصغير على المرض فذوى كما تذوي الزهرة ولدت مع الصبح ولم يكن لها إلا مثل عمر الندى. . .

لقد ارتاع الرئيس ووهى جلده أمام تلك المصيبة ورأى الناس ذلك الطود الأشم بتمايل ويتخاذل من الوهن وهو لا يستطيع أن يخفي عن الناس جزعه ولوعته؛ وإنه ليجهش بالبكاء كما يجهش الصبي وفي عينيه حزن وحسرة وفي وجهه صفرة كصفرة الموت. .

علم من الممرضة أنها فقدت زوجها وولديها فسألها ذلك العملاق الذي يحمل عبء قومه كيف تحملت تلك المصائب؟ فأجابته أنها تحملت ضربات الدهر ضربة ضربة وأنها تثق في رحمة الله فمنه العزاء والسلوان. . . وهنا يجيبها ذلك الرجل العظيم الشديد البأس أنه سيحاول أن يتعلم الصبر منها وأنه يثق أيضاً في رحمة الله وأن الله سيهبه العزاء ثم يردف قائلاً (أتمنى لو كان لي مثل إيمان الأطفال هذا الذي تتحدثين عنه). . .

ويعبر عن مبلغ حزنه بقوله (إنها أعظم محنة لاقيتها في حياتي. . . لم كان هذا؟ لم

(كان هذا؟.
ولقد كان الرئيس لنكولن في محنة قومه ثبت الجنان حتى لتتزعزع الجبال ولا يتزعزع، ولكنه كان مع ذلك رؤوفاً عطوفاً يكره الحرب ويتألم منه أكثر مما يتألم الناس جميعاً، ويتمنى أكثر مما يتمنى غيره أن تضع أوزارها في أقرب وقت. . . ولذلك كان ينكر على المتشددين تشددهم، ولا يقر أحداً على قسوة أو يطاوعه في صرامة، فإذا أنس الرئيس من محدثه غلظة على العدو تجهم له وأشاح عنه، في حين أنه كان يقبل على من يطلب إليه اللين والمغفرة وهو يقول له وللناس جميعاً أنه يمقت تلك الحرب من أعماق قلبه وإنه ما دخلها إلا وهو موقن أنها شر لابد منه، وما أراد بها إلا أن تكون علاجاً لمعضلة باتت تهدد كيان بلاده. . . أما أن تكون انتقاماً وعلواً في الأرض واستكباراً فليس هو من ذلك في شيء. . .
وكثيراً ما كان يصدر من الأمر ما يتعجب منه القواد ولا يشيعونه الرأي فيه ولأن نفذوا ما أمر به. ساقوا إليه في تلك الأيام شاباً حكم عليه أن يرمى بالرصاص لوجوده نائماً في الخطوط وكانت عليه الحراسة؛ فسأله الرئيس عن سبب نومه فعلم أن ذلك كان بسبب الإجهاد فإنه كان متعباً من قبل وأخذ الحراسة بدل زميل له مريض. وهنا صرفه الرئيس ولم يرض أن يكون جزاء اجتهاده ومروءته الإعدام. . . وما قيمة قوانين الحرب عنده؟ إنما هو يستمد قوانينه من قواعد الإنسانية، ولذلك تراه يصبح بالقواد (إني لا جلد لي أن أفكر أنني ألقى الله ودماء هذا الشاب المسكين على يدي. . .)
أجاب الرئيس ماكليلان إلى ما طلب وأمده بالرجال لكي لا يكون للقائد حجة عليه، فلقد كان يشيع في الناس من أول الأمر أن عدم تحرك القائد إنما يرجع إلى أن الحكومة تضن عليه بالمال والرجال. . . ولقد كتب إليه الرئيس خطاباً كان مما جاء فيه (أحسب أن القوات التي سيرت إليك قد بلغتك؛ وإذا كان الأمر كذلك فإنك الآن في الوقت الذي ينبغي أن تضرب فيه ضربة. . إن العدو بتأخرك يكسب نسبياً)
ولم يسع القائد إلا أن يصرح في رسالة له أنه واثق بعد من النتيجة وأنه أخذ في الزحف، ولكنه في الوقت نفسه أخذ يشكو من المطر الهطال ومن الطرق الوعرة، فكان هذا هو جهد ما فعل. . . وأخيراً لم ير الرئيس بداً من أن يبرق إليه في الخامس والعشرين من مايو يقول: (أظن أنه قد أزف الوقت لكي تهاجم رتشمنذ أو تدع هذا العمل جانباً وتأتي للدفاع عن وشنجطون)
فكأنما أراد ماكليلان في ذلك الوقت أن يكيد للرئيس، أو كأنما أراد أن يخلق مشاكل جديدة يتخذ منها ذريعة لهذا الجمود فلقد كتب إليه ينتقد الموقف الحربي كله في جميع الميادين ولم يقتصر على شؤون الحرب، بل راح ينتقد الحكومة في جميع شؤونها!
وتقدم القائد بعد ذلك نحو رتشمند تقدماً بطيئاً، فأدى ذلك إلى أن أرسل الثوار المدد إلى جيشهم الذي كان في طريقه لتهديد وشنجطون، وهنا لا يتردد ماكليلان في أن يرسل إلى وزير الحربية قائلاً إنه يزمع أن يتراجع. ومما جاء في رسالته قوله: (إذا أنا نجيت هذا الجيش فأني أقول لك في بساطة إني في ذلك لن أدين لك بشكر، لا ولا لأي شخص في وشنجطون، فلقد بذلتم قصارى جهدكم لتحطيم هذا الجيش)
وكان القائد لي في ذلك الوقت يزف على وشنجطون، وكان على حمايتها بوب أحد قواد الشمال ومعه ثمانية وثلاثون ألفا من الرجال ولكن جيش لي كان أكثر عدداً وأشد بأساً؛ وتبين أن خير وسيلة لرد لي عن وجهته أن يبادر ماكيلان بالزحف على رتشمند لا أن يتراجع ويتباطأ كما فعل
ولما يئس الرئيس منه في هذا السبيل أرسل إليه يدعوه لحماية العاصمة، ولكنه أبى أن يطيع حتى هذا الأمر وكتب يقول إنه سيجيبه إلى ذلك (إذا رأى الظروف تسمح به) وكان ذلك في شهر أغسطس، ولقد عاد الرئيس فكتب إليه يطلب إليه القدوم بكل ما في وسعه من سرعة وأبرق إليه القائد هاليك يستحثه ولكنه لم يأبه بذلك كله ولم يصل إلا بعد شهر من هذه الدعوة. . .
وكان أمراً طبيعياً أن تنزل الهزيمة بالقائد بوب وأن تبيت وشنجطون معر ضة للسقوط؛ ولقد عاود الذعر هذه المدينة على نحو ما حدث غداة الهزيمة في معركة بول رن، بل لقد كان الموقف يومئذ أشد هولا؛ إذ اختلفت وجهات النظر في مجلس الوزراء واحتدم الجدل في المجلس التشريعي، وارتفعت الأصوات بطلب عقد الصلح مع الجنوبيين، الأمر الذي خيف منه أن يؤدي إلى انحلال العزائم. . . ولكن لنكولن

وحده بقي على عزمه وثباته يعالج الموقف بالصبر والحزم ويهيب بالرجال ألا يتخاذلوا وينكصوا على أعقابهم. . .

ولقد كان للناس من هذا الصبر والثبات مثل ما يكون من النصر في معركة، وبذلك تضاءل فزعهم وعادت إليهم الثقة ووقفوا إلى جانب رجلهم

ثم إن الرئيس ضم عدداً من الجيوش بعضها إلى بعض وجعل منها جيشاً جديداً وضعه تحت قيادة ماكليلان، وطلب إليه أن يقابل لي بهذا العدد الهائل الذي بلغ مائتي ألف، فلم يفعل ماكليلان كما طلب الرئيس فأصاب أهل الشمال هزيمة أخرى في شهر سبتمبر

وأخيراً التحم جيش ماكليلان وجيش لي في معركة عنيفة هي معكرة انتيتام، فلم ترجح كفة أحدهما، ولكن لي اضطر أن يوقف الزحف، بل اضطر أن يعبر نهر بوتوماك الذي كان على أبواب العاصمة، متراجعاً بذلك عنها، فكان على ماكليلان ألا يضيع هذه الفرصة فيتعقب الجيش المتراجع ويعركه في تراجعه ويوقع به هزيمة تفت في عضده، ولكنه قعد دون ذلك على رغم إلحاح الرئيس عليه أن يفعل، وراح يطلب المدد من جديد. . . وأصدر الرئيس إليه أمراً أن يسير في أثر الجيش المتراجع ولكن دون جدوى

ولقد بلغ من استهتار العدو بقوة الشماليين أن عبر أحد القواد الجنوبيين النهر بجنده وسار حتى اقترب من وشنجطون وألحق بأهل الشمال هزيمة منكرة، وأحاط بجيش ماكليلان، ولولا قلة عدد جنوده لأدى هجومه إلى كارثة ليس بعدها كارثة

على أن ماكليلان قد أساء إلى نفسه قبل كل شيء، فلقد فقد منزلته عند الناس، وبعد أن كان اللوم يوجه أول الأمر إلى الرئيس وحكومته أصبح يوجه إلى هذا القائد الذي أضاع كثيراً من الفرص بجموده. . . وراح الناس يتهمونه بأنه يفعل ذلك لغرض في نفسه، وهكذا أخذ يتضاءل شأنه حتى هان أمره على الناس وتأنى الرئيس أن يعزله ليبحث عن قائد غيره. . .

وربما أُخِذَ على الرئيس طول صبره على ماكليلان ومصانعته زمناً على الرغم من تطاوله في غير مبرر؛ وبذلك يكون الرئيس هو الملوم في ضياع الفرص أو يكون على الأقل شريكاً لماكليلان فيما هو خليق به من اللوم؛ ولكن الرئيس لم يكن غراً، فهو يعلم أن كثيراً من جنود ماكليلان مفتونون به، يخلعون عليه من صفات العبقرية ومن معاني البطولة ما لا يتهيأ لقائد غيره.

وكذلك كان لماكليلان أول الأمر في قلوب الناس من غير الجند مكانة عظيمة، وإذاً فلم يكن من الحكمة في شيء أن يقف الرئيس منه موقف البغض والنفور فيؤدي موقفه هذا إلى فتنة في وقت أن كانت البلاد أحوج ما تكون إلى الاتحاد ولم الشمل على أن لنكولن كان بمصانعته ماكليلان على هذا النحو يظهره على حقيقته ويكشف للناس عن مواطن ضعفه، بينما كان هو يبهرهم بقوة صبره، تلك الخلة التي كان لها أعظم الأثر في إنقاذ البلاد من الخطر في تلك الأيام العصيبة، وأي صبر هو أعظم من هذا الصبر في زمن توالت فيه على الرئيس المهموم والشدائد؟

لقد كان إبراهام يتلقى الأنباء عن عدد القتلى والجرحى وهو أكثر الناس إشفاقاً وجزعاً، ولقد كان يسأل عن العدد من الفريقين المتحاربين لا من فريقه فحسب فيحزن لهؤلاء جميعاً، كأبناء أمة واحدة

ولقد كان الرئيس يذرف الدمع على ما يصيب رجاله في تلك الحرب الهائلة. ذهب ذات مرة إلى مقر أحد الجيوش فلعلم بموت صديق له كان من جلسائه في سبرنجفيلد، فأسرع إلى العودة مضطرباً يداه على صدره كأنما يمسكه أن يتصدع، وعيناه تفيضان، وعلى وجهه شحوب وكدرة، وإنه ليسير بين الجنود لا يلتفت إلى تحياتهم فلا يردها من شدة الغم وتكاد لا تقوى على حمله رجلاه. .

وفي تلك الأيام كان لا يفتأ يقرأ شكسبير، ففي مآسيه صدى لنفسه الحزينة. على أن عينيه تقعان ذات مرة على تسأل أم ولهى تقول: (لقد سمعتك أيها الأب الكاردينال تقول إننا سنرى ونعرف أصدقاءنا في السماء. ولئن كان هذا حقاً فلسوف أرى ابني ثانية). فانظر إلى الرجل يضع الكتاب ويكب بوجهه على كفيه فيملأهما من روافد دمعه. . .

ذلك هو الرجل الذي كان يقوم على شؤون هاتيك الحرب. فلله ما أقسى الأيام! إن فؤاده ليكتوي بنارها كلها؛ وإنه ليحس كل ضربة أو طعنة تصيب كل رجل غيره من

الرجال، ولكن عليه أن يحمل الأهوال، وإلا فمن يحملها كما يحمل من الأبطال؟
(يتبع)
الخفيف
الكميت بن زيد
شاعر العصر المرواني
للأستاذ عبد المتعال الصعيدي
هاشمياته:
تكاد الهاشميات أن تكون كل ما بقي من شعر الكميت. وقد كان للكميت شعر كثير بلغ إلى موته خمسة آلاف ومائتين وتسعة وثمانين بيتاً، ولا أدري كيف ضاع هذا القدر الكثير من شعر الكميت، ولعل شهرة الهاشميات هي التي غطت على غيرها من شعره، فشغل الناس بها عنه.
ومن هاشمياته لاميته التي تبلغ تسعة وثمانين بيتاً، وقد ابتدأها بقوله:
ألاَ هل عَم في رأيه متأمِّلُ ... وهل مُدبْرٌ بعد الإساءة مُقْبلُ
فلفت به أهل عصره من الهزل إلى الجد، وأرسلها صرخة قوية في آذان أولئك الغافلين، ليصحو من غفلتهم، ويتنبهوا إلى الخطر المحدق بهم، وهو في هذا ينسى شخصه ونفسه، ولا يفكر إلا في مصلحة أمته، ولاشك أن من ينظر إلى هذا المطلع وخطره يدرك الفرق الشاسع بينه وبين المطالع العابثة التي اعتاد شعراء العربية أن يفتتحوا بها قصائدهم.
وقد مضى بعد هذا يضرب في هذه اللامية على هذا الوتر فقال:
وهل أمة مستيقظون لرشدهم ... فيكشف عنه النعسةَ المتزملُ
فقد طال هذا النوم واستخرج الكرى ... مساويهم لو كان ذا الميلُ يعدل
وعطلت الأحكام حتى كأننا ... على ملة غير التي نتنحل
كلام النبيين الهداة كلامنا ... وأفعال أهل الجاهلية نفعل
إلى أن قال:
فتلك أمور الناس أضحت كأنها ... أمورُ مَّضِيع آثر النومَ بُهَّل
ثم أخذ يوجه صرخته إلى خاصة الأمة وساستها، بعد أن صرخ بذلك في دهمائها وعامتها، فقال:
فيا ساسة هاتوا لنا من حديثكم ... ففيكم لعمري ذو أفانين مِقول
أأهل كتاب نحن فيه وأنتم ... على الحق نقضي بالكتاب ونعدل
فكيف ومن أنى وإذ نحن خلفة ... فريقان شتى تسمنون ونهزل
بُرينا كبرى الفدح أوهن متنه ... من القوم لا شارٍ ولا متنبل
إلى أن قال:
فتلك ملوك السوء قد طال ملكهم=فحتَّام حتَّام العناء المطول
رضوا بفعال السوء عن أمر دينهم ... فقد أيتموا طوراً عداء وأثكلوا
كما رضيتْ بخلاً وسوء ولاية ... لكلبتها في أول الدهر حومل
نباحاً إذ ما الليل أظلم دونها ... وضرباً وتجويعاً خبال مخبلٌ
وما ضرب الأمثال في الجور قبلنا ... لأِجورَ من حكامنا المتَمثل
تحلُّ دماء المسلمين لديهمُ ... ويحرم طلع النخلة المتهدَّل
وليس لنا في الفيء حظ لديهمُ ... وليس لنا في رحلة الناس أرحل
فيا رب هل إلا بك النصر يُرتجى ... ويا رب هل إلا عليك المُعَوِل
ثم انتقل إلى تذكير الناس بمقتل الحسين رضي الله عنه، فقص من أمر هذه الحادثة الأليمة ما يثير الشجن في النفوس، ويملؤها غيظاً وسخطاً على هؤلاء الملوك، وفي هذا يقول:
ومن عجب لم أقضه أن خيلهم ... لأجرافها تحت العجاجة أزمل
هَماهِمُ بالمستلئمين عوابس ... كحد آن يوم الدَّجن تعلو وتسفل
يحلَّئْن عن ماء الفرات وظله ... وحُسَيْنا ولم يُشهر عليهن مُنصل
كأن حسيناً والبهاليل حوله ... لأسيافهم ما يختلى المتبقل
فلم أر مخذولاً أجل مصيبة ... وأوجب منه نُصرة حين يخذل
يصيب به الرامون عن قوس غيرهم ... فيا آخراً أسدى له الغي أول

إلى أن قال:
فإن يجمع الله القلوب ونلقهم ... لنا عارض من غير مزن مكلل
على الجرد من آل الوجيه ولاحق ... تذكرنا أوتارنا حين تصهل
نكيل لهم بالصاع من ذاك أصوعاً ... ويأتيهم بسجل من ذاك أسجل
ثم انتقل إلى مقصوده من الدعوة إلى بني هاشم بعد أن ألهب النفوس بذلك وحركها للثورة فقال:
ألا يفزع الأقوامُ مما أظلَّهم ... ولمَّا تجبهم ذات ودقين ضئبل
إلى مَفزعَ لن يُنجيَ الناس من عمىً ... ولا فتنة إلا إليه التَّحوُّلُ
إلى الهاشميين البهاليل إنهم ... لخائفنا الراجي ملاذ وموئل
إلى أن قال:
فيا رب عجل ما يؤمل فيهم ... ليدفأ مقرور ويشبع مرمل
وينفذ في راض مقر بحكمه ... وفي ساخط منا الكتاب المعطل
فأنهم للناس فيما ينوبهم ... غيوث حياً ينفى به المحل ممحل
وإنهم للناس فيما ينوبهم ... مصابيح تهدي من ضلال ومنزل
لأهل العمي فيهم شفاء من العمى ... مع النصح لو أن النصيحة تقبل
ثم أخذ يشرح موقفه من هذه الدعوة الهاشمية، ويلائم بين حاله في هذه الدعوة الحارة في شعره، وحاله في إحجامه عما يبذله غيره من نفسه في سبيل تأييدها، ويبين أنه إنما ينتظر بذلك الثورة الكبرى التي تقضي عل دولة بني مروان، فلا يبخل وقتها بشيء من نفسه وماله، ولا يرضي بذلك الأحجام الذي يلجأ إليه، فقال:
لهم من هواي الصفو ما عشت خالصاً ... ومن شعري المخزون والمتنخل
فلا رغبتي فيهم تغيض لرهبة ... ولا عقدتي من حبهم تتحلل
وإني على حبيهم وتطلعي ... إلى نصرهم أمشي الضراء وأختل
تجود لهم نفسي بما دون وثبة ... تظل بها الغربان حولي تحجل
ولكنني من علة برضاهم ... مقاميّ حتى الآن بالنفس أبخل
إذا سُمت نفسي نصرهم وتطلعت ... إلى بعض ما فيه الزعاف الممثل
أتتني بتعليل ومنتني المنى ... وقد يقبل الأمنية المتعلل
وقالت فعد أنت نفسك صابراً ... كما صبروا أي القضاءين يعجل
أمواتاً على حق كمن مات منهم ... أبو جعفر دون الذي كنت تأمل
أم الغاية القصوى التي إن بلغتها ... فأنت إذن ما أنت والصبر أجمل
فإن كان هذا كافياً فهو عندنا ... وإني من غير اكتفاء لأوجل
ولكن لي في آل أحمد أسوة ... وما قد مضى في سالف الدهر أطول
على أنني فيما يريد عدوهم ... من العرض الأدنى أسم وأسمل
وإن أبلغ لقصوى أخض غمراتها ... إذا كره الموت اليراع المهلل
ثم قال في ختامها:
فدونكموها يال أحمد إنها ... مقللة لم يأل فيها المقلل
مهذبة غراء في غب قولها ... غداة غد تفسير ما قال مجمل
أتتكم على هول الجنان ولم تطع ... لنا ناهياً ممن يئن ويرحل
وما ضرها أن كان في الترب ثاوياً ... زهير وأودى ذو القروح وجرول
عبد المتعال الصعيدي

فردريك نيتشه

للأستاذ فليكس فارس

(تتمه)

وفي اعتقادنا أن نيتشه قد فاق كل كاتب في تصويره واجب الإنسان نحو الحياة، الدنيا لأن العلماء الماديين من جهة اعتبروا الحياة زائلة فما اهتموا لرقيّ الإنسان الأدبي فيها قدر اهتمامهم بإطالة حياته وإيلائه التنعم الأوفر بالجهد الأقل، ولأن المفكرين المؤمنين، من جهة أخرى، ما كان بوسعهم أن يفكروا للأرض ويحصروا كل جهد فيها كأنها دارُ قرار لأن العمل للأرض ليس إيمانهم كله بل هو نصف إيمانهم، أما نيتشه فبعد أن أقفل على تفكيره وخياله كل نافذة يمكن للروح أن تتطلع منها إلى السماء، وبعد أن تاقت نفسه إلى الخلود فاستنزله كمعنى لهذه الأرض كما يقول جاعلاً هذا التراب

وطنَ الإنسان الدائم، لم يسعه إلا توجيه كل قواه لتصوّر لإنسانية تتمتع كل ما يمكن اعتصاره من الدنيا وتبلغ عليها من الرقي مرتبة الألوهية

تلك حقائق لم تفت ثلاثة من أعلام الشرق العربي أهابوا بنا إلى ترجمة زرادشت ونشره في هذه البلاد لتسديد عزم الشبيبة في هذه المرحلة التي يتوقف على نهضتنا فيها مستقبلنا واستعادة أمجاد تاريخنا. أولئك الثلاثة هم المغفور له السيد مصطفى صادق الرافعي فقيد الشرق والعروبة والإسلام، والأستاذ حافظ عامر بك قنصل مصر العام في الآستانة مؤلف رسالة الحج التي كان لها دويٌّ في أوساط المفكرين، والأستاذ أحمد حسن الزيات القابض على آداب الغرب باطلاعه وتفكيره والرافع عَلَمَ الآداب الشرقية بقلمه، وقد تفضل الأستاذ المشار إليه فنشر في مجلته الرسالة أكثر من ربع الكتاب في مدى سنة، ولولا تقديرنا أن الزمان سيطول على نشره برّمته لما كنا بادرنا إلى طبعه كاملاً مستقلاً

إن ما دعانا وأصحابنا المشار إليهم إلى تقرير ترجمة زرادشت هو أننا نظرنا إلى فلسفته من الوجهة الملامسة للمبادئ الدينية الاجتماعية التي نتجه إلى أحياء حضارتنا القديمة على أساسها، وقد رأينا أن هذا المؤلف الفريد في نوعه ليس من الكتب التي تنقل إلى بياننا لما لها من قيمة فلسفية وأدبية فحسب، بل هو من الكتب التي يجدر بالناشئة العربية درسها كما يدرسها طلاب الجامعات في كل قطر أوربي، فإن كتاب زرادشت قد أثر التأثير الأكبر في

تطور الحركة الفكرية في أواخر القرن التاسع عشر في عالم الغرب، واشتمل من المبادئ على ما كان ولا يزال محور الخلاف لمستحكم بين ذهنيته وذهنية الشرق العربي بوجه خاص. ولقد مضى على ظهور هذا الكتاب زهاء نصف قرن ولم يكن العالم العربي في ذلك العهد على اتصال وثيق بالحركة الفكرية الغربية، فلم يسمع في هذه البلاد بنيتشه وفلسفته إلا بمقالات موجزة، وكل ما عرف عنه هو أنه يدعو إلى التحرر من ربقة الأوهام واطرح الزهد واليأس والاتجاه إلى إيجاد الإنسان المتفوق.

ولعل المفكرين يسلمون معنا بأن خلوّ المكتبة العربية من هذا المؤلف الفريد الذي ترجم إلى جميع اللغات الحية فاتخذ أنموذجاً بين أبنائها للصراحة والإخلاص في طلب الحقيقة يعد نقصاً في هذه المكتبة ويسجل قصوراً علينا، لذلك اقتحمنا إعارة بياننا لكتاب زرادشت الذي قالت فيه الموسوعة الكبرى إنه لا يعد أروع ما كتب نيتشه فحسب، بل أروع ما كتب في اللغة الألمانية على الإطلاق.

ولابد في ختام تمهيدنا من لفت المفكرين إلى فصل من كتاب زرادشت عنوانه (بين غادتين في الصحراء) وفيه نشيد لخيال زارا (صفحة 254) فإننا وقفنا عنده ملياً لأنه من نوع البيان المستغرق في الرمزية فلا يفهمه القارئ إلا بحسه الكامن وقد لا يتفق اثنان على تأويله تأويلا واضحاً جلياً.

ولو أننا ترجمناه بالحرف لجاء كأحد الرسوم التي ابتدعها أنصار التكعيب يقف المشاهد أمامها فلا يدري أجبلا يرى أم شجرة أم إنساناً.

لذلك اضطررنا إلى ملء بعض الفراغ بين الخطوط، وإلى الالتجاء لكسر النتوءات عند نقل بعض المكعبات المبهمة الصارمة، فجاء هذا النشيد أقرب إلى البيان المألوف دون أن يخرج عن أصله الرمزي الذي يحتاج إلى كثير من الاستغراق في تفهم معانيه وخفنا أن نكون تجاوزنا حد الخطوط الأصلية في النقل فرجعنا إلى عالم معروف من علماء الغرب ممن أحاطوا بفلسفة نيتشه وذهبوا إلى حد بعيد في تحليلها وهو حضرة الدكتور روبرت ربننجر الأستاذ في جامعة فينا نعرض عليه ما رأيناه في رموز نشيد الصحراء، ونسأله إقرارنا على ما أصبنا فيه وتصحيح ما قد نكون ضللنا في تبيانه، فوردنا جوابه مؤرخاً في 19 أبريل من هذه السنة وفيه يقول:

إنني أرى خلاصة معنى النشيد في فقرته الأولى المكررة في آخره وهي: إن الصحراء (تتسع وتمتد) فإن نيتشه قد رمز بالصحراء إلى الوجود القاحل الذي لا غاية له، وقد أتيت على بحث هذا الرمز في كتابي (جهاد نيتشه من أجل معنى الحياة وغايتها)

أما سائر ما في النشيد فأراه يرمي إلى وصف أجواء الصحراء المتمتعة بالحرية وهي) بابتعادها عن المعمور تولى أبناءها الحياة الساذجة الطاهرة على نقيض ما تورثه ثقافة أوربا الشمالية من الخشونة والكثافة

أما كلمة (صلاة) فقد أصبتم في ترجمتكم إياها (حيَّ على الصلاة)
هذا وقد يكون النبي محمد هو المرموز إليه بأسد الصحراء ونذيرها على حسب)
(تأويلكم
لقد سرنا وأيم الله أن يوافقنا هذا العالم على تأويلنا وإن يكن ذهب في تفسير اتساع
الصحراء وامتدادها إلى غير ما ذهبنا إليه، فقد كنا صارحناه بأن ما فهمناه من أتساع
الصحراء وامتدادها وتهديد من يطمح للاستيلاء عليها إنما هو انبعاث الإيمان الحق
بالفضائل العليا وتمردها على الجحود والتضعضع في الحياة
وقد كان دليلنا على صحة مذهبنا ما ورد في النشيد من صراحة تؤيدنا خاصة في
الفقرة الأخيرة وهي:
ارتفع يا مظهر الجلال، ولتهب مرة أخرى نسمة الفضيلة)
ويا ليت أسد الفضائل يزأر أيضاً أمام غادات الصحراء، فإنه أقوى ما ينبه أوروبا)
ويحفزها إلى النهوض
(وهأنذا ابن أوربا لا يسعني إلا الخشوع لدوي هذه الآيات البينات)
للعالم الأوربي تأويله ولنا تأويلنا، وللصحراء في بلاد العرب رموزها فلندع للأزمان
تأويلها ولنكرر ما جاء في نشيد الجاحد الطامح إلى الخلود
(إن الصحراء تتسع وتمتد، فويل لمن يطمح إلى الاستيلاء على الصحراء)
إن عبير الشرق لا يضوع من نشيد الصحراء فحسب - بل هو يفوح من كل حكمة
ينطق بها زرادشت أمام مشاهد التضعضع الأوربي، ولسوف يقف رجال العلم أبناء
الضاد عند كثير من أقواله فيعرفون فيها آية من الآيات التي أوحيت لأنبيائهم أو ألهمت
لحكمائهم أو
حديثاً لذلك الأمي الأعظم الذي تناول أدق القضايا الاجتماعية فردها إلى مكارم الأخلاق
ليحلها جميعاً
إننا ونحن نخط هذه الأسطر نتذكر صديقنا فقيد الشرق المغفور له السيد مصطفى
صادق الرافعي الذي قل من جاراه في تفهم دين الله والشعور بالقومية العربية ووحدة
الإنسانية. إننا لنذكره ونحس بما كان يمكننا أن نستمده من ثقافته العريقة ومعارفه
الواسعة من آيات وأحاديث وحكم يتجلى فيها ما أجمع مفكرو الغرب على الخشوع
أمامه من نظرات زرادشت الصائبات في اتجاهات العالم المتمدن وفي طلب رقي
الإنسان والاهابة به إلى العمل في الأرض كأنه خالد عليها لا يموت
غير أننا إذا كنا حرمنا الآن من هذه النجدة في كتابة تمهيدنا هذا فلن تحرم البلاد أعلاماً
يقومون بهذا الواجب نحو مهبط وحي الله ومنبت العباقرة من السلف والمعاصرين
فليكس فارس

من أصداء البحر

بين عشية وضحاها

للأستاذ إبراهيم العريض

- 1 -

على شاطِئِ البَحرِ - في قريةٍ ... تَلوحُ بعُزلتها الدائِمَهْ
كأنَّ الدُجى لفَّها بالسُّكونِ ... فما بَرِحَت دهرَها نائِمِه
تطلُّ عليْها عَروسُ النهارِ ... فَتلبثُ في جوِّها حالِمِه
وللبدرِ في أفقها قُبلةٌ ... تَطولُ. . . ولكِنَّها ناعِمه
بِناءٌ يَذكرُ سُكانَها ... بِشامخِ أبنيةِ العاصِمه
يقيمُ بهَ نائبٌ - أمْرُهُ ... مُطاعٌ - وسطوتُه غاشِمه
فلوْ أيقظَ البحرُ أمواجَهُ ... لمرَّتْ بأعتابهِ لأثِمه
كذلكَ كانَ شُعورُ السوادِ ... من الذُلِّ نحوَ اليدِ الحاكِمه
وأكواخُهمْ وسطَ هذا الإطارِ ... تموجُ بألوانِها القاتِمَه
وتفتحُ نافِذةَ القصْر خَودٌ ... مساءً وتمعنُ إمْعانَها
فَيحلو لها أن ترى الشمسَ تسجُ - دُ سجدةَ شكرٍ لمنْ زانَها
وهَبها توارتْ وراَء الغُيوم ... فهلْ تُنكرُ الأرضُ إحسانَها
ويعرضُ مِرآته البحرُ حتَّى ... تُجِّملَ - سافِرةً - شانَها
وأموجهُ في هُدُوءٍ أمامَ ال ... نَعيمِ تُلمْلمُ أردانَها

فلا هُوَ يتركُها تستقرُّ ... ولا هي تهجرُ شُطآنَها
وتُبصِرُ في قاربٍ فِتيةً ... تُمدُّ إلى الصَيدِ أشطانَها
فيغمُرها فرَحٌ بالحياةِ ... فتُعلنُ للقصرِ عصيانَها
وتخرجُ نشْوى على رمْلِهِ ... تُرَدِّدُ كالطيرِ ألحانَها
وتركبُ في زورقٍ كالهلالِ ... يعومُ بها نجمةً زاهِرهْ
فتأخذُ في جذفهِ باليدينِ ... وفي صدرِها موجةٌ زاخِره
ويلثمُ فاها نسيمُ الأصيلِ ... فيندَي بأنفاسِها العاطِره
إلى أن تغيبَ وراءَ السديمِ ... بعيداً بأحلامها الطائِره
ويُدرِكُها أولُ الليلِ عندَ ... فَنارٍ يغضُّ لها ناظِرَه
فتشهدُ مركزَها في الظلامِ ... ومن حَولِها الأفقُ كالدائِره
وتلمحُ من بعدٍ قصرَها ... يُدِلُّ بأنوارهِ الباهِره
فتثني أعِنتها للرجوعِ ... . . . ولكنها ترتمي خائِره
ويستيقظُ البحرُ بعدَ الهُجوعِ ... ليُملي إرادتهُ القاهِره
ويشرقُ إحساسُها في الصباحِ ... مَلياً على همساتِ البشَرْ
فتملكُها رعشةٌ للذي ... يمرُّ على ذِهنها من صُوَر
وتذكرُ ما كانَ من حَظِّها ... ومن حَظِّ زورقِها المُنكسِر
وكيفَ تقومُ بها موجةٌ ... وأُخرى على جانِبيها تمُر
فتصرخُ صرخَتَها للحياةِ ... وفي حَلقِها نَفسٌ يُحتضر
فتمتدُّ كفٌ لإنقاذِها ... من الغَيبِ. . . ذلك ما تذَّكر
وتشعرُ بالدفءِ تحتَ اللحافِ ... فتعجَبُ كيفَ احتَوتها السُرُر
وتفتحُ ناظِرهَا بعدَ لأيٍ ... على شبحٍ قائمٍ ينْتظِر
يُناشِدُها وعلى ثغرِهِ ... بنانٌ تُشيرُ بِأنْ تَستقِر
وتستغرِقُ الخوْدُ في نَومِها ... وتأخذُ حظاً من العافِيهْ
ويفترُّ في شَفتيها دمٌ ... كطَلٍ على وردةٍ زاكيه
وتحتَ يدَيها يزِلُّ النصيفُ ... عن بُرْعمي صدرِها ناحِيه
ومِلؤُهما عِزةٌ بالجمالِ ... جمالٍ أنوثتها الغافِيه
فَيحنو عليها الفَتى في خُشوعٍ ... ويسترُ أطرافَها العارِيه
ويعزفُ لحناً على عُودهِ ... يُذَكرُ عهدَ الهوى ناسِيه
وينبعثُ النغمُ العذبُ من ... تململِ أوتارهِ القاسِيه
إلى أن تُفيقَ فتاةُ القُصور ... وتَطرِفَ أهدَابُها ثانِيه
فتبسطُ راحتَها كالغريقِ ... وفي ثغْرِها قُبلةٌ طافِيه
ويَسألُها عن عهود الصِبا ... وأترابِها في القُرى. . مَنْ هُمُ
فتُغضي حياءً. . . وفي رقةٍ ... تبوحُ لهُ بالذي تكتمُ
(يداكَ تجودانِ لي بالحياةِ ... فشكراً على الجُودِ يا مُنعِمِ!
وهبتُكَ قلبي. فخُذني إليكَ ... ومُرْني أُطعكَ بما تحكُم)
وتلبَثُ في صمتها برهةً ... ليفهمَ منها الذي يفهم
ولكنهُ لا يُحيرُ الجوابَ ... كمنْ رَابهُ أمرها المُبهمُ
فتنطقُ باسمِ أبيها لهُ ... وتبسم. . . يا حُسنَ ما تبسم
فينفرُ منها نُفُورَ الظليمِ ... وقد ثارَ في مُقلتَيهِ الدم
(أأنتِ ابنةُ النائبِ المستبدِّ ... وأهاوكِ. . إني إذنْ مجرِمُ)
فترجعُ للقصرِ عندِ الأصيلِ ... طريدةَ آمالِها الخائِبهْ
قضَتْ يومَها حافِلاً بالشعُورِ ... كأحفلِ أيامِها الذاهِبهْ
فتشعُرُ مثلَ شعورِ الغريبِ ... وإن لم يطُلْ عهدُهَا غائِبه
فترْنو إلى البحرِ. . . حتَّى تراهُ ... يسيرُ في موجهِ قاربَه
فتنشِدُهُ حُبَّها لو يُصيخُ ... وتُذرى له دمْعَها عاتِبه
أيا حاسراً زندهُ للبحارِ ... تذوبُ له حسرة كاعِبه
أسأتَ بيَ الظنَّ حتى خَجِلتُ ... ولم تَكُ في نيتي شائِبه
ضربتَ بحبيَ عُرْضَ الجِدارِ ... وأنكرتَ من سؤددِي جانبه
وغاظكَ أنَّ أبي ظالِمٌ ... ألستَ بظلمكَ لي صاحِبَه

وتَخنقُها عبرةٌ في النعي ... مِ تُلهبُ منْ لوْنَها شاحِبهْ
ويَمضي لطيتهِ ضاحكاً ... يُؤدِّي - على بُؤسِهِ - واجِبَه
- 2 -
تَوالتْ على القَصْرِ عشرُونَ عاماً ... أسابِيْعُها مِثلُ أَعيادِهَا
تُوافي الفتاةَ عَروساً، فزَوْجاً، ... فأُمّاً، تَحنُّ لأولادِهَا
وأعقلُهُمْ بحَشَاها ابنْهُ ... فدَتها الأهَالي بأكْبَادِهَا
تغنِّي. . فتُصْغي إلينا الطُيورُ ... وتَطرَبُ مِنْ حُسنِ إنشادِهَا
وتَلمحُ صُورتَها في المياهِ ... فتضْحَكُ من قَولِ حُسادِهَا
ولو أنها نَزَلتْ في الجِنانِ ... لأزرَتْ بأجْمَلِ أورَادِهَا
يخفُّ إليها نسيمُ الربيعِ ... يُذَكرُها يومَ مِيلادِها
ووالدُهَا غائِبٌ في البلادِ ... يقومُ بتنظيم أجْنادِها
فيكتبُ مُسْتملحاً لو تَسيرُ ... إليهِ فَيَحظى بإسعادِها
وتصحبها أمها للسلام ... على زوجها. . وهي لا تبتسمْ
فقد علّمْتها صُروفُ الزمانِ ... بأنَّ الطلاقةَ شيءٌ يُذَم
يذمُ. ولابْنتها نظْرةٌ ... تَبشُّ إلى كلّ وجْهٍ - وفَم
وتجري بها الفُلكُ وسْطَ البِحَارِ ... وأمواجُها دائِماً تلتَطِم
فتُلقي بها تارة كالدلاءِ ... وترفَعُها تارة كالعَلَم
إلى أنْ يَلوحَ لها - حيثُ لاحَ ... قديماً - فنارٌ يُنيرُ الظُلَم
فتَذهَلُ واجِمة. . . كالذي ... يَرى شَبحاً في ثناياهُ دَمْ
وتذكُرُ حُباً خلا في الوُجود ... لشخصٍ طَوى صفحَتيهَ العَدم
فتَبسم. . لكنَّ في نَفْسِها ... مَرَارةَ ذِكرَى تُثيرُ الألمَ
على أن ذاكَ الفَتى لم يَمتْ ... فقَدْ صارَ نابِغة في الفُنُون
تلقَّى من الكَونِ إلهامَهُ ... ومثَّلَ آياتِهِ في اللحونْ
فما هيَ إلا الضُحى في امتِدادٍ ... وما هيَ إلا الدُجى في سُكون
كأنَّ على يدِهِ العُودَ طِفلٌ ... يبُثُّ الوَرَى شجْوَهُ بالأنين
يرِنُّ. . فتَقْطُرُ منهُ القُلوبُ ... وتأخذُ موضِعَها في العُيون
ويصُغي إليهِ المحبُّ الغَيورُ ... ويُدْركُ في الحُبِّ سرَّ الجُنون
وتنْعطِفُ الأمُّ نَحوَ الرَضيعِ ... وفي صدْرِها جدْوَلٌ من حَنين
ويحْلمُ بالمجْدِ طرفُ الجَبانِ ... وإن ذاقَ في المجدِ كأسَ المنون
لأنَّ المعانيَ من كلِّ لَوْنٍ ... تَفوزُ بحلوَتِها في الرَنينْ
ويُبْصرُها وهْوُ في مَحْفِلٍ ... يُوقِّعُ أنغامَهُ في الغَزَلْ
وقدْ حوَّلُ الصمْتُ تلك العُيونَ ... شِفاهاً تدُلُّ على ما تَدُل
فيذكرُ زوْرَقَها في الظلامِ ... ومَشْهَدَها تحتَ نابِ الأجَل
فيشعرُ بالوخزِ - وخْزِ الضمير ... - على قطعِه حبْلهَا المتَّصِل
فيُنشْدُ. . . والعُودُ بينَ يدَيْهِ ... يُرجِّعُ كالطِفْلِ ما يرتجِلُ:
(أمَا كُنتَ حاضِرَنا يا هلالُ ... عِشَّيةَ ضاقتْ علَيْها السُبلُ)
فألقَيتُ نفْسيَ وَسطَ الغِمارِ ... وأدركتُ فيها بقايا الأمَل
كأنِّي - وقد حضَنتها يدايَ ... - أودُّ لها في ضُلوعي مَحَل
(ولو نزلتْ في صَميمِ الفُؤادِ ... لعَزَّ على غُلّتي أن تُبلْ
وتطرَبُ مِنْ لحنهِ البِنتُ حتَّى ... تُنَاشِدهُ أن يُعيدَ الغَزَل
وتسألُ عن شأنِه مَنْ يكونُ ... فتَجذِبُها أمُّها بالعجَل
وتهمسُ في أذْنِها دُونَ أنْ ... يَرَى الحَفْلُ ما مسَّها من خَجَل:
(بُنيّةَ! هذا فتىً مِنْ قُرَاكِ ... تَعرفَ بي في الصِبا المُرْتحل
وخُيِّلَ لي أنهُ مَيتٌ ... ولكنَّ لله شأناً أجَل
أغرَّكِ مِنهُ النسيبُ الجَميلُ ... على ثَغرِهِ يُشتَهى كالقُبَل
دَعْيهِ. فعَهدِي بقلبٍ طَواهُ ... - على فَنِّهِ - مُقْفِراً كالطَلَلْ)
(البحرين)
إبراهيم العريض

البريد الأدبي
العيد الألفي لمدينة القاهرة
قررت الحكومة الاحتفال بانقضاء ألف عام على تأسيس القاهرة كما ذكرنا من قبل، وننشر اليوم أن البيان الرسمي الذي بني عليه هذا القرار يتضمن أنه في العام القادم سينقضي ألف عام هجري على تأسيس مدينة القاهرة. وقد عزمت بعض الهيئات والمعاهد في أنحاء مختلفة على أن تحتفل بهذا الحادث التاريخي الذي يهم العالم الإسلامي أجمع. وقرر معهد المباحث الإسلامية بمدينة بومباي وهو من أهم المعاهد الإسلامية في الهند أن يشترك في الاحتفال بهذا الحادث، وسيضع كتاباً يحتوي على وثائق خاصة بتاريخ القاهرة لم تنشر من قبل، وهي مستقاة من مخطوطات عربية في حوزة المعهد المذكور، على أن تقدم نسخة من الكتاب مجلدة تجليداً فخماً إلى حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك فاروق الأول
ولا حاجة إلى تبيان ما ينتظر أن يكون لمثل الاحتفال الذي نحن بصدده من الشأن في الشرق الإسلامي بوجه خاص. لذلك رأى مجلس الوزراء أن يقرر احتفال الحكومة الملكية بانقضاء ألف عام هجري على تأسيس القاهرة، وأن يعهد إلى لجنة خاصة في اتخاذ الإجراءات اللازمة لوضع برنامج لذلك الاحتفال وجعله خليقاً بمصر في عهد الجديد
بعثة الإمام الشيخ محمد عبده
أصدر صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر قراراً بتعيين الدكتور محمود البهي قرقر والدكتور محمد ماضي خريجي بعثة الشيخ محمد عبده، مدرسين في كلية أصول الدين: أولهما لتدريس الفلسفة، وثانيهما لتدريس التاريخ الإسلامي، وهما حاصلان على درجة الدكتوراه في هذين العلمين من جامعة هامبرج في ألمانيا، وقراء الرسالة يعرفون الأستاذين بأبحاثهما الجليلة في الأدب والاجتماع
مسألة شكسبير وبيكون
من أنباء لندن أن البحث في كنسية وستمنستر مدفن العظماء عن قبر أدموند سبنسر الشاعر الإنكليزي الذي كان معاصراً لشكسبير لم يجد شيئاً، وقد قام بهذا التفتيش جمعية فرنسيس بيكون وغرضها منه أن تبرهن على أن الاسمين هما لمسمى واحد، وأن الذي أشتهر باسم شكسبير هو في الواقع فرنسيس بيكون لا غيره
وكان هذا الحفر بناء على وثيقة مؤرخة سنة 1600 قيل فيها أن أدموند سبنسر دفن في الكنيسة وأن عدداً من معاصريه أبنوه بقصائد دفنت معه. وان خط رثاء شكسبير لسبنسر يثبت أنه خط بيكون. وقد أخرجت بضعة توابيت يظن أن تابوت سبنسر أحدها ولكن أهل الشأن لم يسمحوا بفتحه إذا لم يثبت أنه لسبنسر، وهو مصنوع من الرصاص
شريعة عربية
روي الأديب المهذب (ح، ح) في بحثه (مصدر الهتلربة) في (الرسالة) الغراء قول (تريتشكي): (فلولا الحرب ما كانت الدولة، وينبغي أن يجعل المرء شعاره على الدوام أن الحروب دواء الأمم المريضة) ومقالة (نظرية) الجرماني هذه هي شريعة العربية وقد شرحها الكلحبة العرني في بيته:
إذا المرء لم يغش الكريهة أوشكت ... حبال الهوبني بالفتى أن تقطعها
وفي معاني (الجهاد) ما يزيد هذا البيت إيضاحاً. وقد قال غربي: كان سلطان العرب ما قاتلوا، فلما تركوا الحرب واتدعو ذهبت ريحهم
(* * *)
أمة عربية تزول
أذاعت شركة الأنباء الإيطالية (ستيفاني) في جميع أنحاء العالم هذه البرقية:
روما - تلقى الدوتشي من كبار الشخصيات العربية في ليبيا - كالأمير سليمان القرفيلي، ومفتي ليبيا وقضاة طرابلس ودرنة وطبرق، ورئيس المحكمة الشرعية - برقيات تعرب عن خالص شكرهم وشكر أهالي ليبيا العرب على ما منحت تلك البلاد من شرف اعتبارها جزءاً من إيطاليا، وقد أضافت البرقيات أن عرب ليبيا لن ينسوا الخدمات التي أدها ومازال يؤديها الدوتشي لبلادهم وأنهم على استعداد للعمل معه مخلصين إلى النهاية في جميع الظروف

ومعنى هذه البرقية التي نشرت على العالم العربي فلم يحفل بها أحد ولم تعلق عليها صحيفة - أن السلطات الإيطالية اللوبية أرغمت أولئك العرب المساكين على أن يسدوا الشكر (خالصاً) إلى حكومة روما على تلك المنحة العظيمة التي قدمتها إليهم، وهي خمسة
ملايين من الإيطاليين سيغمرون ليبيا ويحولونها إلى منطقة إيطالية خالصة، ثم لا يكون للعرب بعد أن توزع أملاكهم على المهاجرين المستعمرين، إلا قفار الصحراء الجديبة يعيشون فيها على الضر والفقر دون أن يكون لهم في أمور البلاد السياسية والاقتصادية لسان ولا يد!
هذه فلسطين أخرى ولكن فلسطين تستطيع أن تقول وأن تعمل؛ أما طرابلس فلا تقول ولا تعمل إلا ما يريده الحاكم بأمره
بس. . .
قال الكاتب الكبير الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني في مبحثه في (العامية والفصحى) في (الرسالة الغراء): (وأما بس فلا مثيل لها، ولا غناء عنها بغيرها في اللغة العربية) وهو قول حق كله، واللفظة عربية كل العربية، وإن كان الأصل من فارس. وقد ذكر بهاء الدين العاملي في (كشكوله)، ونقل قوله الزبيدي في (تاجه): (بس كلمة فارسية، وليس للفرس في معناها سواها، وللعرب حسب، وبجل، وقط - مخففة - وأمسك واكفف، وناهيك، ومه، ومهلا، واقطع، واكتفَّ)
أجل، إن في لغة (الجزيرة) كل ذلك لكن لم تظرف واحدة من أليا الآنسات العشر - كما يرى الأستاذ المازني - ظرف تلك الفارسية
ونطق باللفظة (اللسان) غير ذام ولا ناقد: (وبس بمعنى حسب فارسية) والفارسيات المتعربات أمم يا أستاذاً في العربية
وأخبرنا السيوطي في (المزهر) والخفاجي في (شفاء الغليل) أن (الخليل) أودعها (العين) غير منسوبة إلى فرس ولا عرب: (بس بمعنى حسب) ونابغتنا (الخليل بن أحمد) تلاميذ تلاميذه، كلامهم على الرأس والعين
وروي (المزهر) عن كتابه (المشاكهة) لمحمد بن المعلى الأزدي: (تقول لحديث يستطال: بس، وعن أبي مالك: البس القطع، ولو قالوا لمحدث: بسا كان جيدا بالغا بمعنى المصدر أي بس كلامك بسا، أي أقطعه قطعا، وأنشد:
يحدثنا عبيد ما لقينا ... فبسك يا عبيد من الكلام
القارئ
جورج هويتفيلد
مضى قرنان من الزمان على موت جورج هويتفيلد أعظم خطباء الإنجليز ووعاظهم في القرن الثامن عشر. وقد هبت إنجلترا وأمريكا تحتفل بذكرى الرجل العظيم الذي خطب عشرت ملايين منهم فعلمهم جميعاً الرحمة ومحبة الله والتفاني في خدمة البشر والتجرد من زخرف الحياة وباطلها لتكون زخرفاً وجنة للجميع. وكثيرون منا لا يعرفون هذا الرجل الذي شاد بخطبه وعظاته نصف ما في إنجلترا وأمريكا من ملاجئ ومستشفيات ودور للخير. حقا إن شهرة هويتفيلد لم تبلغ في العالم من الذيوع ما بلغته شهرة لوثر أو كلفن أو ويسلي، وهذا لأنه لم ينشئ مذهباً جديداً أو فلسفة جديدة، لكنه في الحقيقة كان أخطب منم وأنفع للخير العام، لأن خطبه الممتلئة بالحرارة والإخلاص لم تقد الناس إلى الحرب وإهراق الدماء والمذابح بل قادتهم إلى البر والمؤاخاة والعطف بينهم، وإن من أظرف ما يروى من أخباره أن الرئيس فرنكلين كان يسمع عنه وكان لا يحبه، فدعاه أحد أصدقائه مرة إلى اجتماع سيخطب فيه هويتفيلد فذهب على كره منه. فلما سمع الشطر الأول من خطبته - وكان موضوع الخطبة الحث على جمع التبرعات لعمل خيري - تحرك شيء من العطف في قلب فرنكلين وعزم على التبرع بقليل من السنتات (السنت: مليمان) فلما بلغ الخطيب نصف خطبته ثار العطف في قلب الرئيس أكثر فعزم على التبرع بدولارات، فلما فرغ هويتفيلد هب فرنكلين فأفرغ في صندوق التبرعات كل ما كان في كيسه من السنتات والدولارات والجنيهات!
فهل من وعاظنا الأفاضل من يبلغ مبلغ جورج هويتفيلد؟
جورنج رجل ألمانيا الحديدي

ظهر هذا الكتاب بالإنجليزية لمؤلفه هـ. و. ريان، وقد تناول فيه المؤلف حياة المارشال جورنج فأرخها تأريخا جميلا من يوم نشأته في المدرسة القروية الحربية البروسية إلى عمله في فرق الطيران الألماني زمن الحرب، إلى هجرته إلى السويد بعد هزيمة ألمانيا، فزواجه هناك من زوجته كارين التي قاسمته شظف العيش وشدة الحياة، التي وضعت في حياته اللبنات الأولى للمجد والمستقبل الحافل. . . ومن أبرع فصول الكتاب تلك التي

تتناول عهد الصداقة بين هتلر وجورنج. فقد عهد هتلر إلى صديقه تشكيل الحزب الوطني الاشتراكي فقام بمهمته على أحسن الوجوه وشكل فرق القمصان البنية، وكان مبدؤه إعادة الثقة إلى الشعب الألماني ثم بناء ألمانيا الجديدة. وقد حدث شغب في ميونخ كاد يؤدي إلى إعدام جورنج لولا أن صدر عفو شامل فأنقذت حياته وفي الحقيقة أنقذت حياة ألمانيا. ثم سلك سبيله إلى الريخستاج فصار أحد أعضائه البارزين. ولما صار هتلر مستشاراً عهد إلى صديقه بتنظيم الطيران في ألمانيا وتدعيم اقتصادها في وقت واحد فقام بالمهمتين أحسن قيام. وكون لألمانيا أسطولا جويا وأهبة واستعدادا، ولولا هذا الأسطول ما جرأت ألمانيا على احتلال الرين غير عابئة بقوات أعدائها الكثيرين. وجورنج مع ذاك رجل مثل عملية وهو صاحب الصيحة الآرية المدوية كما أنه هو الذي طهر ألمانيا من اليهود

سياسة الغد

كتاب جليل الموضوع مستقل الرأي مستقيم التفكير، أخرجه الأستاذ (مريت بيك بطرس غالي) كما تخرج الطبيعة ثمرتها في إبانها: عالج فيه الأستاذ الخطط السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي يجب أن تسير عليها مصر في عهدها الجديد علاجاً بارعاً نزيهاً صريحاً لم يتقيد فيه بمذهب خاص ولا حزب معين. والكتاب لجلالة موضوعه ومكانة مؤلفه يستحق أن نعود إلى الحديث عنه بالتفصيل في العدد القادم

ناد أدبي للطلبة المغاربة بمصر

اجتمع الطلبة المغاربة بمصر بحثوا في تأليف ناد ثقافي تعاوني وكونوا لجنة تحضيرية لوضع مشروع قانوني أساسي له

وفي الساعة التاسعة من يوم الأربعاء 26 أكتوبر تناقشوا في مشروع القانون الذي قدمته اللجنة التحضيرية ثم وافقوا عليه، وانتخبوا لجنة تنفيذية لتدير أعمال النادي وتحقق أغراضه الثقافية والتعاونية من الطلبة

محمد العربي العلمي سكرتير والمهدي بنونه مساعد له وعبد الكريم غلاب أمين الصندوق وأحمد وبن المليح والعربي بناني ومحمد المسقوي وعبد العزيز الوارثي أعضاء

الكتب

هكذا تكلم زرادشت

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

بقلم الدكتور إسماعيل أحمد أدهم

(بقية ما نشر في العدد الماضي)

إن نيتشه نفسه يوافقنا على هذا التفسير، فهو يقول ص17 من الترجمة العربية: وهنالك في الصحراء القاحلة (أعني صحراء الحياة القاحلة) يتم التحول الثاني فينقلب العقل أسداً لأنه يطمح إلى نيل حريته وبسط سيادته على صحرائه . . .!

وفي هذه الصحراء يفتش عن سيد ليناصبه العداء كما ناصب سيده السابق، فهو يستعد لمكافحة التنين (الواجب) والتغلب عليه

ولست أدري كيف غفل صديقنا المترجم عن هذا مع أن قلمه جرى به في الترجمة؟ وكيف تغافله الدكتور (روبرت ربننجر) إن صح ما ينقله صديقنا المترجم عنه

أما الفقرة الأخيرة من النشيد، والتي يجد فيها المترجم سنداً لتأويله على زعمه، فهذه الفقرة لا تؤيده في رأيه بعد أن وضح التفسير الصحيح وإنما هي تؤيدنا في تفسيرنا الذي ذهبنا إليه

أما ترجمة عبارة (سلاه) (حيَّ على الصلاة!) ففيها نظرة؛ ذلك أن نيتشه كان أخصائياً في الآداب العبرية. ومعروف في الأدب العبري أن لفظة (سلاه) ترد في أواخر الأناشيد، والدليل على هذا القائم في سفر الأناشيد في العهد القديم وقد ترجم إلى

(سلاه) عربياً في كلا الترجمتين اليسوعية والأميركية. هذا إلى أن نيتشه نقلها كما هي إلى الألمانية واختتم بها عبارات أناشيده. وظلت على نصها العبري في جميع التراجم مع ظهور مفهومها في اللغة العبرية للجميع، إذاً فليس هنالك وجه لأن يذهب المترجم ليفسرها بأن نيتشه يقصد بها (حيَّ على الصلاة!)

أما تقدير الدكتور (روبرت رينجر) فلا قيمة له، ذلك أنه يعرف عن نيتشه أنه متصل بالآداب السامية، فلما وجد تفسيراً للكلمة في العربية وافق المفسر في رأيه، وهو لو درى

أن نيتشه كان وقوفه مقصوراً على آداب العبريين، لعلم أن مفتاح الكلمة في لغة العبريين وليست في لغة العرب، ومن هنا كان له أن يرفض تفسير المترجم!

وهنالك في التمهيد الذي قدم به صديقنا المترجم مآخذ كثيرة نحصر الكلام هنا على أهمها وأكثرها مجانبة للواقع

يقول المترجم:

(يريد نيتشه خلق الإنسان المتفوق - يعني السبرمان - جباراً كشمشون، وشاعراً كداود، وحكيماً كسليمان. فهو يكلف الطبيعة ما لا قبل لها به ويطمح إلى إيجاد جبابرة لا يصلحون لشيء في المجتمع لأن الحيوية لا تنصرف من مختلف نوافذها الجسمية في آن واحد دون أن تقبض على صاحبها لتوقفه من سلم الارتقاء على مرتبة معلقة بين الاعتلاء والانحطاط فيكون منه لا الإنسان المتفوق بل الإنسان (التافه) القصير الحياة والقاصر في كل عمل يباشره.)

وهذا الرأي يصح ولكن إذا كانت القوة الحيوية في الأحياء لا يمكن زيادتها فيهم حتى يكون من تصرفها من مختلف نوافذ الحياة ما يجعل الحي يقف في مرتبة التفوق من سلم الارتقاء من هنا لا يصح هذا الاعتراض على نيتشه، ذلك أنه يقيم فكرته في مجيء السبرمان من ازدياد القوى الحيوية عن طريق ترك المجال للتنازع للبقاء فيبقى القوي الأصلح. وتعمل سنة الانتخاب على تثبيت صفة القوة في سلالات هذا القوي الذي خرج منتصراً من معمعة التنازع على البقاء.

يقول المترجم:

(من تبصر في أحوال الناس وطرائقهم في الحياة، لابد له أن يسلم أخيراً بأن لكل شخصية حياتها بما كمن في حوافزها ولكل شخصية ميتتها بما خفي من أدواء جسمها وعلل إرادتها وبما وراءها من مقدمات وحولها من نتائج)

وهذا الرأي فكرة أولية يؤمن بها صاحبها فليكس فارس وتدور من حولها آراؤه في الشرق والغرب، وهذه الفكرة فيها عنصر من الخطأ، وموضع الخطأ عدم ملاحظته العوامل والمؤثرات الطبيعية والاجتماعية التي تترك أثراً ثابتاً في فطرة الأحياء يتكافأ مع حوافزهم الطبيعية. وقد جلينا في سلسلة مقالاتنا المدرجة على صفحات (الرسالة) عن الغرب

والشرق كيف تنزل جميع آراء صديقنا من هذه الفكرة الأولية، وشرحنا أوجه الضعف بتفصيل فيها، فلا داعي هنا للإفاضة.

يقول نيتشه:

(إن ما فطرنا عليه هو أن نخلق كائناً يتفوق علينا، تلك هي غريزة الحركة والعمل)

ويعلق على هذا الكلام المترجم بقوله:

(ما هذه الفطرة التي يراها نيتشه رافعة الإنسان إلى التفوق على ذاته وأنساله إلا حافزاً الحب وفي أعماقه غريزة الانتخاب تجتذب الزوجين إلى اتصال يشدد أحدهما فيه ما وهن في بنية الآخر.)

وهو في تفسيره هذا وتعليقه يحمل نيتشه أفكاراً لم تمر بخاطره فضلاً عن أنه يخالف العلم الحديث بمقدراته.

يقول نيتشه إن غريزة الحركة والعمل في الحياة تعمل لخلق كائن يتفوق على أبويه، وهو في هذا يماشي فكرة أن التطور مدفوع للارتقاء، فإذا كانت الحياة هي الحركة والعمل ومجبولة على الأرتقاء، فأذن كل نتاج الحياة يتفوق على أصله. وهذه فكرة مستقلة بذاتها عن فكرة المترجم حين يقول: إن حافزة الحب بما في أعماقها من غريزة الانتخاب الزوجي يجذب الزوجين إلى اتصال يشدد أحدهما فيه ما وهن من بنية الآخر

ومع هذا ففكرة المترجم واهنة لو نظرنا إليه من ناحية العلم البيولوجي، ذلك أننا نعرف من بحوث الأستاذ جوليان هكسلي المعروف أن المظاهر الخارجية في الحياة وخصوصاً الصفات (النفسية) وعلى وجه خاص الحب لا يتعدى أثرها (إحكام الروابط النفسية بين الأحياء بعد أن يهبط الميل الفسيولوجي إلى درجة العدم). من هنا لنا أن نقول إن حافز الحب مهما كان له من الأثر في إحكام الروابط النفسية بين الأحياء فإنه لا يتعدى دائرة المظاهر الخارجية للحياة ولا يصل بتأثيره إلى العالم الداخلي فإذن رأي صديقنا المترجم يخالف مقررات العلم البيولوجي الحديث وأمانة البحث تضطرنا إن نقول إن بعض الباحثين إلى الآن لا يزالون يحملون بعض الظاهرات الطبيعية في التناسل على الصفات (الروحية) ذلك أن هذه الفكرة بقية من آثار الرأي العامي الشائع في أن للمظاهر الروحية أثراً في تكوين الجنين. ويستحسن أن يراجع المترجم بحوث الأستاذ جوليان هكسلي في
هذا الموضوع

ومن هنا نرفض كل ما نقله المؤلف من فصل (منابت الأطفال) من كتابه (رسالة المنبر إلى الشرق العربي) مقدرين أنه لا صلة بينها وبين الأبحاث العلمية الحديثة في البيولوجيا

يقول المترجم:

(إن الدين يهاجمه نيتشه إنما هو صورة لأصل شوهها الغرب)

وهذه الفكرة تدور في كلامه، ذكرها في كتابه (رسالة المنبر) مراراً ورددها في مناظرته معي عام 1937 وجاء يكررها على صفحات (الرسالة) أخيراً، وهاهو ذا اليوم يذكرها في تمهيد يقدم به ترجمته لكتاب زارازوسترا. ومع كل هذا فالفكرة خاطئة فالغرب لم يشوه الدين أخذه من الشرق، وإنما كل ما فعله، أنه جعله يتكافأ مع طبيعته الحيوية الإنسانية فأسبغ عليه صوراً ليست منه، ولكنها من طبيعته، فكان من ذلك صورة للدين تغاير الصورة التي هي عليها في الشرق

إذن فالتعبير بأن الغرب شوه الدين تعبير خاطئ، وصحة التعبير أن يقال إن الدين الذي أخذه الغرب عن الشرق كيفه على حسب طبيعته حتى يقبله، وهذا التكييف إن اعتبر تشويهاً في نظر المترجم هو في الواقع خلع للثوب الغيبي عن الأديان وجعله إنسانياً!

يقول المترجم:

(إن الدين قد أراد للإنسان تكاملاً روحياً يهيئه إلى إدراك باريه وراء المحسوس في حين أن نيتشه، وقد أنكر ما لا تقع الحواس عليه، أراد أن يفلت الإنسان من حدود إنسانيته على هذه الأرض فيجعلها جنة خلد يستوي عليها بجبروته إلهاً. . .)

ونحن نقول:

(إن نيتشه لم يفعل أكثر مما استلزمته عقيلته الآرية وعقله الإنساني المتحرر من تقاليد الماضي، وهو لم يحاول أن يجعل الإنسان يفلت من حدود إنسانيته بل عمل أن يرد الإنسان لحقيقته في عالم الطبيعة بعد أن حاولت الأديان أن تفلته من حدود الطبيعة وتجعله خاضعاً لما وراء الطبيعة، حتى أصبح الإنسان حيواناً ميتاً فيزيقيا)

إن وجهة النظر تفترق من اعتقاد ثابت بالغيب أو بإنكار لها وإيمان باليقين الواقع، ومن هنا فالفرق بيني وبين صديقي المترجم أنه رجل غيبي وأنا رجل ضد الغيبيات على خط مستقيم

والناحية الغيبية عند صديقي هي التي جعلته ينكر التطور كحقيقة بيولوجية إذ قال:

(إن المخلوقات كلها في سلسلة الوجود لا تملك الانعتاق من حدود أنواعها مهما كرت القرون وتعاقبت الأجيال، لا يمكن للجماد أن يفلت من مملكته إلى مملكة النبات، ولا للنبات أن يجتاز حدود مملكة الحيوان ولا الحيوان، أن يجتاز ملكة الإنسان لذلك كان الذاهب في طلب إنسان يتفوق على الإنسانية كالمحاول استنبات الشجرة حيواناً أو استبدال الحيوان إنساناً

لقد كرت القرون على مبدأ التاريخ الذي نعلم وعلى ما لا نعلم من حقب كرت ما وراءه، والإنسان لم يزل هذا المخلوق الدائر أبداً ضمن حلقة إنسانيته)

ويؤسفني أن يرجع صديقي فليكس فارس عن أفكاره عصره القهقري إلى أفكار القرون الوسطى

يقول أمين الريحاني فيلسوف الفريكة في خطاب لصديقه وصديقي فليكس فارس

على صفحات المقتطف:
ألا إن فليكس لصديق عزيز قديم. وقد طالما ترافقنا في جادات العقل والروح) واتفقنا، بل كنا دوماً في طليعة الحملات حملات الحرية والعلم، على معاقل الظلم والظلام
وإني لأرى فليكس اليوم في غير تلك الطلائع والحملات، إني أراه اليوم واقفاً في المؤخرة وهو يتلفت إلى الوراء ويجنح بعض الأحايين إلى جادات لا أثر فيها للعلم الحديث، وللنزعات الفكرية الحرة .!.)
وإني وإن كنت أوافق فيلسوف الفريكة في الشطر الثاني من كلامه عن صديقي فليكس، فأنني لأشك في صدق الشطر الأول منه، في وقوف صديقنا فليكس في طليعة حملات العلم، ذلك أنني لا أتصور إنساناً يقف في طليعة حملات العلم، ولو قبل الحرب العظمى ويكون منكراً للتطور. لقد كان فليكس فارس في طليعة حملات الحرية في سوريا قبل الحرب، ولكن لم يكن في طليعة حملات العلم. هذه حقيقة يجب أن نعرفها. إن كانت للصداقة واجباتها فإن للحقيقة حقوقها. . .
بالأمس كنت أقلب بين يدي كتاباً عن نظرية التطور عند القدماء لأوتو فولنجر الكاتب الألماني المعروف. وقد جمع مؤلفه في القسم الثاني منه كل ما قاله كتاب العرب في موضوع التطور واليوم انتبهت فإذا بصديقي فليكس يرى التطور وبتصوره بالصورة التي جعله عليها إخوان الصفا وابن مسكويه منذ قرون. فيذهب للرد عليهم جانحاً إلى صور من التأمل والتخيل أبعد ما تكون عن أساليب العلم والعلماء
لاشك عندي أن صديقي فليكس يسير في المؤخرة من سير الزمن، يعيش بعقله في عصر سابق لقيام النهضة الحديثة
إن الشخص الذي يتحدث عن المواليد الثلاثة وعوالمها وعن عدم إمكان الجماد أن يفلت من حدود عالمه إلى عالم النبات، وعن عدم إمكان النبات أن يفلت من كونه إلى مملكة الحيوان. . . إنما هو شخص يعيش بأفكاره في العصور الوسطى، ونحن لا نرضى بمثل هذه الحياة لصديقنا، ولكن ليس بيدنا من أمر .!. . .
يقرر الصديق فليكس أن كرّ القرون وتعاقب الأجيال لا يُمَكِّنُ النوع من الانعتاق من حلقة نوعه. . . فكأني بالصديق أولاً: من الذين يتصورون النشوء والتطور يجري لطول الآماد وكرّ القرون وتعاقب الأجيال. ثانياً: أنه من الذين لم يقفوا على المباحث الحديثة في التطور وخصوصاً تجارب (مورغن) و (مللر) و (جوهانسن) حتى أنه يكرر القول بعدم إمكان النوع أن ينعتق من حلقة نوعه
أما عن التصور الأول فقد نبه إلى فساده من قبل (شارلس روبرت دارون) في كتابه أصل الأنواع، إذ قال في الفصل الرابع (ص218 من الترجمة العربية، طبعة أولى وج2 ص40 من الطبعة الثانية - ترجمة صديقنا إسماعيل مظهر) ما نصه:
إن كر الصباح ومر العشي، ومضي الأزمان المتتابعة لا يحدث في الانتخاب الطبيعي) أثراً ما إيجاباً أو سلباً. ولقد اضطررت إلى التكلم في هذا المبحث لأن بعض الطبيعيين أيقن خطأ بأني أعتقد أن لمضي الأزمان وترادف العصور، الأثر الكلي والجولة الواسعة في تغيير صفات الأنواع، على قاعدة أن صور الأحياء عامتها كانت ممعنة في تغاير الصفات بتأثير سنة طبيعية مؤصلة في تضاعيف فطرتها بيد أن مضي العصور وتلاحق الدهور لا يتعدى أثرها تهيئة لظروف ظهور التغايرات المفيدة للكائنات الحية وانتخابها انتخاباً طبيعياً واستجماعها ثم تثبيتها من طبائع الصور العضوية، ولا جرم إن لذلك أثراً بيناً، غير أنه
بعيد عما يتوهمون، كذلك يعد مضي الوقت طبائع الكائنات الحية من حيث تأثيرها الآلي، إلى قبول تأثير الحالات الطبيعية قبولاً مباشراً)
لقد كان صديقي إسماعيل مظهر يرد على جمال الدين الأفغاني مزاعمه في هذا الموضوع بنفس هذا الكلام منذ خمس عشرة سنة. واليوم يدور دولاب الزمن، وأقف أنا من سيره أعيد كلام صديقي في تصحيح مزاعم الصديق فليكس.
أما عن الأمر الثاني فصديقي فليكس يظهر تماماً أنه لم يقف على حقيقة البحوث التطورية الحديثة، وهو قد ظن أن الخلاف الذي نشب في أوائل القرن العشرين بين مدرسة لامارك ومدرسة دارون ومدرسة ويزمان دي فريس حول مجرى التطور إن دل على شيء فإنما على أن نظرية التطور واهنة.

والواقع أن التطور اليوم خرج من حدود النظريات وأصبح حقيقة أولية في علم الأحياء، وإن كان هناك من خلاف فهو حول تفسير التطور والعوامل والمؤثرات التي تدفع إليه.
وليس من شأني هنا أن أنقل للصديق فليكس آخر الآراء الحديثة في تفسير التطور، فليس خلافنا معه على التفسير إنما على التطور نفسه، فإن الصديق فليكس ينكره كحقيقة علمية وهنا موضع الافتراق بيننا.
وإني وإن كنت من غير المشتغلين بمباحث الأحياء فإن وقوفي على مباحثه وقوفاً تاماً يسمح لي أن أقول مع شكسبير إنني مستعد لدفع ألف إسترليني لمن يثبت ولو من وجهة نظرية أن التطور ليس حقيقة علمية!. .
إني مستعد لدفعها وبعد ذلك إعلان إفلاسي وكسر قلمي. . كما قال في مسألة مماثلة من قبل جوجول.
وذهب صديقي فليكس إلى الخلط بين الإلحاد والعدمية بين وفهو يقول: (الملحد هو الذي يرى أمامه ووراءه العدم والزوال) وهو في ذلك يوافق الأديب الناقد الأستاذ عباس محمود العقاد رأيه في أن (الملحد من يجحد الحياة وهو من هنا يريد أن يقول إن نيتشه نظراً لأنه لم يجحد الحياة) فهو مؤمن!
غير أني أرى أن هذا الرأي في الإلحاد توسع في فهم معناه إلى أكثر مما يحتمله معنى الإلحاد، فإن الإلحاد عندنا (الملحدين) حالة سلبية بالغيبيات، وناحيتها الإيجابية اعتبار اليقينيات أساس المعرفة.
وأظن أن هذا الرأي يتسق مع مفهوم الإلحاد أكثر من رأي الصديق فليكس وفكرة العقاد.
وبهذه المناسبة أحب أن ألفت نظر الصديق فليكس إلى ذلك الحديث الذي جرى منذ شهرين تقريباً على المائدة في داره بيني وبين الصديق الدكتور محمود عزمي وأديب حلب سامي الكيالي، وكيف انتهى بنا الحديث إلى أن الإلحاد حالة غير حالي العدمية ومن هنا لا أجد بدًّا لرد فكرة اعتبار الإلحاد والعدمية وجهتين من النظر لا تختلفان العدمي هو الذي جحدته حياته فجحدها، وكثير من الملحدين عدميون، ولكن هذا ليس بدليل على أن الإلحاد والعدمية مظهران من حالة واحدة
هذه ملاحظات سريعة على التمهيد، نوطئ بها الكلام عن نيتشه وفلسفته وقيمة تفكيره في عالم في عالم الفلسفة وأثرها في ألمانيا
(أبو قير)
إسماعيل أحمد أدهم
العدد 280 - بتاريخ: 14 - 11 - 1938
الغازي كمال أتاتورك
ربما كان (كمال أتاتورك) أضعف من (مصطفى كمال) في الدلالة على نشور دولة في قائد، ونبوغ أمة في رجل، وبلوغ حكومة في زعيم، وتاريخ نهضة في حياة فرد! فإن (مصطفى كمال) أسم على كل أولئك نقشته في الآذان والأذهان الأقدار المصرِّفة والعبقرية الخلاقة في مدى عشرين سنة! ولكن (أتاتورك) لَقبٌ أطلقوه على النسر المحلق بعدما قبض مخلبه وطوى جناحه، فلم يطر معه في جو، ولم يقع به على فريسة، ولم يدل إلا دلالة الأبوة على الأسرة الطائعة والألفة الجامعة والرعايا الحنون!
لم يكن مصطفى كمال رحمه الله رجلاً من رجال المصادفة والحظ، يرفعه إلى البطولة خلو الميدان، ويدفعه إلى الزعامة غباء الأمة؛ وإنما كان من الصفوة المختارة الذين يضع الله فيهم الهداية للقطيع الذي يوشك أن يضل، والحيوية للشعب الذي يأبى أن يموت. والغالب في هذا الصنف من الناس أن يكون مستبداً رأيه حاكماً بأمره، لأنه يظهر والقوم في ضلال أو انحلال فيكون تفرده بالأمر تنبيهاً من الله وتوجيهاً من الطبيعة؛ ومن ثَمَّ كان المضاء والفداء والإيثار والعدل من أخص صفاته
جرت الطبيعة في تهيئة مصطفى كمال على منهاجها في تهيئة الأبطال، فولدته في مهد الفقر، وربته في مدارج القرية، وغسلته بأنداء الحقل، وسقته من عرق العمل، ففلح الأرض، ورعى الغنم، وتلقى من الطبيعة الصافية الحرة أخلاق البطل الذي رمى المنجل وأخذ السيف، وأنصرف عن قيادة القطيع إلى قيادة الأمة

تستطيع أن تقول: أن الوراثة المختلطة والنشأة القروية والبيئة المقدونية والأم الصالحة قد فعلت فعلها جميعاً في تكوين مصطفى كمال؛ ولكنك لا تستطيع أن ترد إلى عامل من هذه العوامل ذلك القلق الروحي الذي استولى عليه في جميع أطوار عمره، فتركه ثائراً لا يهدأ، وطامحاً لا يرضى، ودائباً لا يستقر. إنما هو سر الينبوع يذيع، وقبس الإلهام يتقد، وفيض الحيوية يزخر؛ فهو راعاً قلق في المرعى، وطالب ثائر في المدرسة، وقائد متمرد في
الجيش، وزعيم مسيطر في الحكومة

رأى مصطفى طغيان عبد الحميد يخنق الحرية ويزهق النفوس ويرهق الضمائر، فقاومه وهو يافع في جماعة (الوطن)، وهاجموه وهو شاب في جمعية الاتحاد والترقي، وقضى على تراثه كله وهو كهل في المجلس الوطني الكبير. ثم كان في كل عمل تولاه يمضي مضي الأمر المقدور، فلا يتقيد برؤسائه الألمان، ولا بزملائه الترك، إذا رأى الفوز في خطته أو الصواب في رأيه

وعصفت الحرب الكبرى بغليوم وبوحيد الدين، ومزقت معاهدة (سِفر) رقعة الإمبراطورية العثمانية بين الحلفاء، فكان لكل حليف درة من تاج محمد الفاتح، حتى لم يبقى للخلافة إلا موضع العرش. ونزل الخليفة ووزراؤه على حكم القادرين فاعترفوا بالضيم واستكانوا للمذلة. وأعتقد الناس أن (الرجل المريض) قد لفظ نَفْسه فلا حسٌ ولا حركة. ولكن الشعوب الحربية يتنخلها الانتخاب الطبيعي فلا تموت بالصيحة كما تموت الشعوب الوديعة، فبقيت الروح التركية تضطرم وتفور في مصطفى كمال ورفاقه الميامين على شعاف الأناضول، فجمعوا فلول الجيش المحطم وكرّوا به على اليونان فكبكبوهم في البحر، وضعضعوا عزائم الأحلاف فهادنوهم في (مودانيا) مهادنة النصر، وعاهدوهم في (لوزان) معاهدة الاستقلال. وبُعثت تركيا من جديد على صرخة كمال وأنصاره كما يبعث المقبور على نفخة الصور، عارية من دنياها القديمة، منقطعة عن ماضيها الغابر، فاستبدلت الجمهورية بالخلافة، والقبعة بالطربوش، وفصلت بين الدنيا والدين، وكتبت من الشمال إلى اليمين، وأدارت ظهرها للشرق، وساوت بين الرجل والمرأة في الحق، وسجلت نفسها في عصبة الأمم من مواليد هذا القرن!

قالوا: إذا كان محمد من جهة البشرية معنى العرب، فإن مصطفى كمال من هذه الجهة معنى الترك. ووجه الشبه في زعمهم أن أتاتورك أحيا وجاهد واصلح وشرع، وأن مبادئه ستنطبع في العقلية التركية فلا تصدر إلا عنها ولا تسير إلا عليها؛ وقد فاتهم أن نهضة محمد يسددها قرآن ويسندها وحي، وأن نوطتها في القلوب آتية من اقتناع العقل لا من شدة السلطان؛ وقد انتقل العرب على هُدَى قائدهم الأعلى من حال إلى حال لا يقاس ما بينهما من البعد والاختلاف بما بين حالي الترك، ومع ذلك ظلوا في طريقهم الواضح إلى الله ثلاثة

عشر قرناً ونصفاً لا ينكصون ولا يضلون. فليت شعري أيظل الترك في طريقهم إلى الغرب بعد أن همد الصوت المُهيب وسقطت العصا المهددة؟ إن الناس ليختلفون في الجواب عن هذا السؤال. ولعل كثرتهم يعتقدون أن التغلب على العقائد المغروسة والتقاليد الموروثة والآثار الماثلة لا يتيسر في مثل هذه المدة. ولكن المختلفين والمتفقين كلهم لسان واحد في أن كمال أتاتورك أعظم من أنجبت تركيا شجاعة قلب وبراعة ذهن وأصالة رأي وطهارة يد وسلامة ضمير

تغمده الله برحمته، وجعل ثوابه كِفاءً لصدق جهاده وحسن نيته

أحمد حسن الزيات

بقية السحر والمثنوية

للأستاذ عباس محمود العقاد

في كتاب حديث باللغة الإنجليزية عن الآثار الدينية بمصر ذكر المؤلف معاني المعابد القديمة وطواف المسلمين بها في المواسم وفي غير المواسم يلتمسون قضاء الحاجات أو يطلبون وقاية الأبناء والأعزاء، ويعلقون على جدرانها خيوطاً أو خلقاناً تتصل بأصحابها كرامة الصنم أو القديس القديم، وقال المؤلف بعد ذلك ما معناه أن هؤلاء المسلمين ولاشك هم من عنصر الفراعنة الأقدمين، وأن هذه العقائد هي سلسلة الوراثة من الآباء إلى الأبناء والأحفاد

ومثل هذا التفسير يجوز لو كانت العقائد مما يورث في الدماء وراثة تشريحية كما يقولون في مصطلحات العلم الحديث، ولكن العقائد لا تنتقل هذا الانتقال ولا تبقى إلا بآثارها في المجتمع أو بأساسها من النوازع النفسية الخالدة، وليس منها الإيمان يولي مخصوص أو بمكان محدود. بل ذلك هو حكم العرف والتقليد

لقد لاحظنا كثيراً في الصعيد أناساً يذهبون إلى أصنام الفراعنة ولاسيما آلهة النسل - يطلبون الذرية ويفرضون على أنفسهم النذور، ويتلون بعض العزائم والدعوات. ولاحظنا كثيراً أناساً من المسلمين يطوفون بغير المعابد الإسلامية دفعاً لمرض أو اتقاء لبلاء، فلم يخطر لنا أنهم يصنعون ذلك بفعل الوراثة المتغلغل في التركيب على غير علم من ذويه، وإنما خطر لنا أنها بقية من السحر وبقية من الإيمان بعناصر الشر تساور الناس من جميع الأديان

فالمسلمون والنصارى واليهود والمجوس والبوذيون يلجئون إلى السحرة للتعوذ من الشرور، ولا يقول أحد إنهم أبناء أمم قديمة كانت تدين بهذا الدين أو ذاك، ولكنهم في الواقع يؤمنون بالسحر اليوم كما كانت الأمم القديمة تؤمن به على السواء في أفريقيا وأوربا وآسيا والأمريكتين وفي كل صقع من أصقاع العالم. ولو بقي في أستراليا مثلاً رجل واحد يلجأ إلى ساحر ليحميه بالرقي والتعاويذ لما جاز أن يقال إن هذا الرجل من نسل المصريين الأقدمين لأنهم كانوا أمة يسود فيها طائفة من السحرة والكهان. بل كل ما يجوز أن عقيدة السحر لها مرجع واحد من نوازع النفس الإنسانية، وهو خوف المجهول والإيمان بوجود

عناصر شريرة تصيب الناس ويتأتى لهم اتقاؤها بالطلاسم والهدايا والقرابين، على أيدي السحرة من ذوي الصلة بتلك العناصر أو تلك الأرواح

فالمسلم المصري الذي يلجأ إلى صنم فرعوني لا يتوجه إلى ذلك الصنم لأنه يعبده أو يحس في نفسه نوازع الوراثة من قتل الآباء والأجداد، ولكنه يتوجه إليه كما يتوجه إلى ساحر يخدم الشياطين ويصون الناس عن أذاها بجعل معلوم، ومن دأبه أن يتوقع الشرور من جانب الشياطين، فكيف يتفق على مهادنتها ومسالمتها إلا أن يكون الاتفاق على أيدي وسطائها المقبولين وسفرائها المقربين؟ إن الاتفاق مع شيخ من الشيوخ الصالحين قد يطول أمره، وقد يكون إشهاراً للحرب يستميت فيها الشيطان ثم ينهزم آخر الأمر بعد التنكيل بمن أثاروه وناوأوه. ولم هذا التطويل وهذه المجازفة؟ وماذا يجدي المتوسل المسكين أن ينهزم الشيطان في نهاية المعركة على يد الشيخ الصالح؟ أليس أحكم من ذلك وأدنى إلى النجاح أن تهدئ من ثورة الشيطان بالتوسل إلى سفرائه المعروفين؟

تلك هي الحالة العقلية أو الحالة النفسية التي تحفز بعض المسلمين إلى ابتغاء المعونة من الساحر أو من الصنم الفرعوني المهجور

ونقرب هذه الحالة بعض التقريب فنسأل: ماذا يصنع الفلاح المصري اليوم إذا علم أن منسراً من اللصوص هجموا على داره فانتزعوا منه طفله وحيوانه وأنذروه بإحراق زرعه؟

إنه لا يؤمن بحكومة مشروعة لأولئك اللصوص، ولا يحبهم، ولا يرضى عن وجودهم، ويعلم أن الطريق المشروع هو تبليغ الحكومة، وأن الحكومة إذا ما دخلت في حرب سجال مع أولئك اللصوص فالغلبة لها لا محالة، واللصوص من مقبوض عليهم في يوم من الأيام بغير جدال

ولكن ما العمل إذا قتل اللصوص طفله وحيوانه وحرقوا زرعه وداره قبل وصول الحكومة إليهم ونجاحها في القبض عليهم؟ أليس الأجدى من ذلك أداء (الحلاوة) المفروضة والتماس السلامة من هذا الطريق القريب؟ وهل يقدح ذلك في طاعته للحكومة وإخلاصه للقانون وكراهته لمنسر اللصوص؟؟

هذا بعينه هو أسلوب المسلم المصري في التفكير حين يعن له أن يحمي نفسه وأبناءه من

أذى الشياطين أو أرباب الكفر القديم.

إنه يؤمن بالله ويعرف أنه هو الإله الوحيد الحقيق بالطاعة والعبادة، وأنه إذا توسل إلى ولي من أوليائه الصالحين فهو منتصر في نهاية المعركة لا محالة، ومطمئن إلى جانب الله مالك الملك وقامع الأنس والجن والمردة والشياطين.

ولكن ما العمل إذا قتل الشيطان ابنه أو مسه بطائف من الخبل قبل انهزامه في المعركة التي يشنها عليه ولي الله؟ أليس الأجدى من ذلك أداء (الحلاوة) المعلومة وكتابة الحجاب المطلوب وتسليم الإتاوة وكفى الله المؤمنين القتال؟؟
فالسحر هو مهادنة بين المؤمن وعناصر الشر إيثاراً للدعة والإيجاز في علاج الأمور، وليس فيه إيمان بإله قديم ولا تراث من دم موروث في العروق.
ويشبه الإيمان بالسحر الإيمان الخفي بالمثنوية في نفوس الجهلاء وبعض المتعلمين.
لقد كانت مدام دي ستايل تقول إنها ملحدة ولكنها تعتقد وجود الشياطين، أو أنها فقدت رجاءها في الخير ولكنها لم تفقد خشيتها مما في العالم الظاهر والباطن من شرور.
والمسلم اليوم يؤمن بالله، وأن إبليس رسول الشر في هذه الدنيا غير مشلول الحركة ولا مغلول السواعد، فقد يصيب من أراده بالضرر ثم يكون المرجع في دفع ذلك الضرر إلى الله.
ولم يكن هذا اعتقاد الأقدمين من جميع الأمم مصريين وهنديين وفرساً وعرباً وأوربيين وأمريكيين.
بل كان اعتقادهم أن للشر إلهاً مناهضاً لإله الخير يتصاولان ويتصارعان، ولكل منهما معابده وكهانه وشعائره وصلواته، ومنهم من كان يصلي ويتقرب لإله الشر دون إله الخير. لأن إله الشر هو المخيف المؤذي الذي لا يكف عن الإساءة إلا بمهادنة وقربان. . أما إله الخير فلا خوف منه ولا انقطاع لخيره، إذ هو مطبوع عليه انطباع زميله على النكاية والإيذاء.
بطلت هذه العقيدة وخلفتها عقيدة التوحيد، ولكنها ذات رجعات وعقابيل تظهر في المعتقدين والملحدين. فأما المعتقدون فمثالهم أولئك الجهلاء الذين يتوجهون إلى صنم فرعوني قديم، وأما الملحدون فمثالهم مدام دي ستايل التي تخاف العفاريت والشياطين ولا تخاف الله.
وفيما تقدم كله تفسير لما أشكل فهمه على الأستاذ مورتون مؤلف الكتاب الذي أشرنا إليه.
عباس محمود العقاد
الحقائق العليا في الحياة
للأستاذ عبد المنعم خلاف
الإيمان. الحق. الجمال. الخير. القوة. الحب
(بعض الألفاظ إذا نطقت بها تتحرك لها في نفسي دنيا كاملة!)
الإيمان - 1
أعجب لفنان لا يؤمن وهو دائماً يقلب حواسه في الطبيعة!
إلا يحس الربط الجامع بينها وبين قلبه؟
أهو يعجب إن رأى صنعه إنسانية تحاكي نماذج الطبيعة، ولا يعجب من النماذج الحية نفسها، التي تقذفها الأرحام وتنفتح عنها الأكمام، وتنسجها ظلمات الأرض، وتصبغها أضواء السماء؟
ألا يعجب من يقظة القوانين الدائمة الصيانة للذرة والمجرَّة وما بينهما؟
أنا أدعو كل ملحد إلى شيء واحد: أن يعيد النظرة مرة ثانية في أبجدية الحقائق، وأن يستحضر روح طفل يفتح عينه لأول مرة على الحياة فيرى فيها كل شيء جديداً: الحياة الماثلة في الطبيعة المجردة لا في الطبيعة (المحفوظة في علب) كما يعبر الأستاذ توفيق الحكيم
أدعوه أن يترك الألفاظ الاصطلاحية التي ساقها الجدليون وأهل الخلاف، فدخلت إلى فكره واحتلته وخنقت الأصوات الطبيعية التي تنبعث فيه منادية إلى الأوليات والمبادئ الفطرية دائماً. بل إني أدعو كل ذي لب وقلب: أن ابتدئ حياتك! كن طفلاً من جديد. . . أنظر إلى الدنيا بعين ريفي أبله فوجئ بزينة المدينة. . . إنس ألفاظ الناس وتعاليمهم. إن كثيراً من معلوماتك دخلت إليك وأنت قاصر لا تميز الخبيث من الطيب. إنهم خدعوك في الحق وخدعوك في الباطل. فليس كل الحق عندك حقّاً، وليس كل الباطل كذلك. . . وقد بنيت أحكامك بعد أن كبرت واستقللت على أشياء لم تتأكد من صحتها ولم تخبرها بكل عقلك وإلهامك. فأعد النظر في كل شيء تظفر بلذة عظمى:

لذة انكشاف حقيقة نفسك ودنياها لك
لقد أتى (ديكارت) أبو الفلسفة الحديثة بالعجب العجاب حين أعاد النظر في نفسه ودنياها
من جديد. . . إنه جدد حياة الفكر البشري كله حين جدد حياة نفسه فهدم كل ما فيها
. . .ثم أعاد ما يستحق البناء منه وذرى أنقاض الباطل في الريح وفي وجه الشيطان
سترى الناس لا يسيرون على الجادة، ولكن يتفرقون على بنيات الطريق ودروبه
المسدودة أو الموصلة إلى التيه. . . أو أنهم يستديرون وجه الطريق ويستقبلون
. . .قفاه. . . أو أنهم يتخذون قطاع الطريق إدلاء ومرشدين ورواداً
. . .إن الطب يدعو إلى صحة الأجسام بتصفية الفضلات والزوائد والأخلاط المضادة
فلماذا لا تصفي كل ما في نفسك لتذهب فضلاتها وزوائدها وسمومها. . .؟
إن هذا يذكرك نفسك دائماً ولا يدعك تذهل عنها بالاشتغال بقشور حياتها وبالنزاع
الكاذب عليها، ولا يشغلك عن مواكب الحياة التي تمر أمامك في كل لحظة
. . .إنه مسح لزجاجتها حتى تكون شفافة صادقة الوصف والنقل لما وراءها
والذهول عن النفس بالخبز والذهب والحديد، فَقدٌ لها وإهدار لحياتها الحقيقية، وسوء
فهم لطرق أمتعها. وإن طعم الحياة لا يذاق إلا بالتيقظ الدائم لها في كل لمحة ونَفَس
والإنسانية هي هذه النقطة، لأن الحيوان في ذهول دائم يسير مكباً على وجهه لا يتيقظ
إلا إلى مشتهاه. ولذلك غلب الذهول عن الشئون الوضيعة، على عقول الفلاسفة
والفنانين الصادقين، لأنهم دائماً في شغل بصيد الخواطر التي تقفز وتحوم حول حواسهم وأفكارهم
ومتى ابتدأت حياتك شعرت بنفسك ثم شعرت بيد قاهرة خفية تدفعك من غير إرادة
منك ولا استشارة لك إلى هذه الدار العجيبة الكبيرة الهائلة: الدنيا. وتلك اليد هي مناط
.الإيمان. يجن العقل ولا يستطيع أن يتصور أن الطبيعة خالية منها أو خارجة عن طوعها
. .
فالإيمان أن تقذف بنفسك دائماً في أحضان هذه القوة القاهرة الحامية لحقائقها
وقوانينها وأن تكون معها كما يكون الطفل مع أبيه: يلوذ به ويعوذ، ويعتز ويفرح،
.ويفتخر وينتسب
الإيمان هو استمداد القلب قوته وحياته من واهب الحياة وقيوم الدنيا. فالإنسان به
مسندٌ ظهره إلى جدار السموات والأرض، مُحْتم بقوانينها، ومسلط عليهما، سائر دائماً
في صف مجدهما وحقهما: مجد الحياة وميزان العمل فيها، شاعر أنه قوة خادمة
للإلهية عاملة ناصبة للتعمير وإقرار الحياة فيهما، فاهم أنه قيوم صغير نائب عن القيوم
الأكبر، تتجدد فيه الحياة بتجدد خواطره ويتدفق فيه فيض مستمد منها يحيا به كل
. . .الحيوات
ثم هو في مخاطبة دائمة مع المشيئة الغالبة العالمة المبدعة التي تلتقي عندها الخلائق
وإن إدراك معنى من معاني الإلهية في خفقة من خفقات الروح أمر يحطم الحدود
الضيقة التي يعيش فيها الإنسان، ويجعله يتسع للعالم كله، فيرى الخلائق جميعها تلتقي
وتزدحم وتنصب في قلبه. . . فمن من المتأملين لا يريد أن يرى الدنيا جميعها في
لحظة خارجة عن حدود الزمان؟
من منكم يا راصدي الدنيا يأبى لنفسه هذا الأتساع وهذا الإدراك لكل شيء في موضعه
!الحقيقي بين يدي الإله، سواء أكان صغيراً صغيراً كالذرة، أم كبيراً كبيراً كالمجرة؟
!قولوا يا موصدي أبواب العلم في وجوههم وفي جوه الناس
أجيبوا يا مدمري سعادة الإنسان ومهدري معناه ومضيعيه في الأشواك والصخور بين
!السعالي والغيلان
أجيبوا يا مشرديه في أودية التيه، وخاطفيه من أحضان أبيه وقاذفيه إلى قرار اللعنات
!والطرد والحرمان والفقد الذي ليس معه عزاء
أجيبوا فإني لا أفقه ما ترمون إليه إلا أن تكونوا قطاع طرق الرحمة ومطاردي
الإنسانية من فراديس سعادتها. . ولن تكونوا بذلك إلا شياطين ممسوخة لا تظهر في
!أثوابها، أو مأجورين للشياطين تدفع لهم أجورهم من الشهوات
أجيبوا يا باحثين عن فراديسهم وهي في قلوبهم. . . ولكن بينهم وبين أن يعيشوا فيها
شيء واحد: هو أن يؤمنوا أنها في قلوبهم قبل أن يروها وبعد أن يروا الحقيقة الكبرى

. . .التي تملأ الأكوان فلا يجحدوها
أجيبوا يا صانعي الألفاظ ومبلبلي خواطر الناس وجالبي شقائهم الدائم بالعمى عن كل شيء يضيء والصمم عن كل شيء يصيح!
إنهم يبحثون عن سعادتهم فيما وراء قلوبهم، ولذلك يهدمون كل شيء ويقتلعون كل شيء من مكانه ويفتحون كل (قمقم) كما يفعل الذي يبحث عن متاع ضائع ثمين أليم الفقد. . .
كل هذا لأنهم اخترعوا طائرة وسيارة وراديو وتلغراف. . لذلك أغضوا عن البعوضة والبعير، ونسوا خالقهما وما بينهما. . نسوا الذي اخترع الآلة العجيبة التي في رؤوسهم، وهي التي اخترعت هذه الأعاجيب التي بها يفتنون. .
يقول توماس كارليل ما معناه (إن رفع اليد إلى أعلى لا يقل عجباً عن طيران جسم في الجو، وسماع الصوت من قرب لا يقل عجباً عن سماعه من آخر الأرض)
فالمبدأ المعجز موجود منذ الخليقة يراه كل ذي فكر يعبد الحق الأصيل ولا ينساه إذا رأى محاكاة له
والإيمان وصاية واسعة المسئولية على كل شيء: يشمل رعاية النفس والقربى والرحم والوطن والإنسانية والحيوان والجماد. . . نعم الجماد فله على المؤمن أن يضعه موضعه في الفكر وأن يجمله ويسخره ويتأمله ويسبغ عليه من حياته هو. . .
فالمؤمن ليس فردياً أنانياً ضيقاً حياته له وحده. حتى عياله؛ إنه يلدهم لجيش المبدأ الذي يعمل له، هو متجرد من سلطان كل شيء، لأن معه كل شيء؛ إذ كان على موعد مع ما يفنى منه هنا حيث يتلاقيان عند ملتقى كل شيء، عند الله الذي إليه تصير الأمور فله عين ممتدة البصر وراء الفاني تصير معه وتعرف مقره النهائي، فلا يشعر فقده ولا يحرم رفده لأنه معه على اتصال فيما وراء الحجب والكثافات. . . فأيُّما سموٍ وخلود للنفس يشبه هذا فيما بين يدي عشاق الخلود من الفنانين والعلماء؟ فمن يتبع الخلود فليلتمسه عند ملتقى كل شيء وكل ظل وكل ضوء وكل صوت. ما بين المؤمن وبين الإلهية شيء من الحب لا يقاس معه شأن آخر من شئون الحب في قليل ولا كثير. . . لأنه يدري أن أباه الحقيقي هو واهب الحياة وحافظها والقائم عليها والمنظم لآلاتها في جسده. وليس لأبويه من ذلك الحب شيء إلا لأنهما سبيل شعوره بهذه الرحمة والحب من الإلهية التي أوجدته ليتمتع بأفانين الدنيا وأفانين النفس، وإنه ليرجع إليه في كل أمر سار أو ضار بفرح طفل أو حزنه، وإنه ليدري أن لضحكه ودموعه صدى عنده.
وشتان بين معتقد هذا ومحسه وبين من يرى نفسه وحيداً بين معارك الدنيا وحرب الشر والخير، ليس معه عين أبيه ترعاه!
إن الثاني يدخل إلى الدنيا ويراها داراً من غير صاحب يملكها ويتعهدها. فهي عنده شيوع ليس لأحد فيها حرمة إلا بمقدار قوته، فيأخذ منها جهرة إن وسعه الجهر، وخلسة إن أحس القهر. لا حدود أمام أطماعه. وأطماعه غير محدودة، والإنسانية عنده قطعان أبدة متوحشة لا رحمة بينها ولا حب إلا في نطاق الضرورة.
وأي شقاء للنفس إذا لم تعرف أن للدنيا مالكاً! إنه شقاء يوحي بالجريمة في صور فظيعة
فاجعة كجريمة (نيرون) في حرق (روما) بأهلها. وكجرائم (جوف فوشيه) وزير نابليون، الذي استعمل كل ذكائه في التنكيل والتخريب وخدع نفسه إذ كتب على قبره (الموت نوم أبدي)، وكجرائم الفوضويين والمعطلين والدهريين الذي يرتكبون كل شنيعة على حساب العدم
لا يدخل نفس المؤمن شيء إلا بعد استئذان إيمانه. وما عرفت سلطاناً لشيء على النفس مثل سلطان الإيمان كما غرسه وعمقه القرآن. وإن النفس لتلاقي به كل شيء، فان كان من عوامل البطش استمدت من جبار السموات مدداً عليه، وإن كان من عوامل الرحمة استمدت من الرحمن صوراً من رحمته
وإن المؤمنين ليصبرون على غزو الشبهات لعقولهم ولا يدعونها تصل إلى قلوبهم. وهم أكثر الناس انقذافاً بالشبهات لأنهم ليسوا أغبياء ولا عجزة مغفلين عما في الدنيا من الأحاجي والألغاز؛ فعقولهم دائماً في احتكاك مع حقائق الحياة وما فيها من الآراء والمذاهب والأديان وفي تعجب دائم قد يصل بهم إلى درجة الحيرة (ولم تزل الحيرة سمة العارفين)

ولم أر إلا واضعاً كف حيرة ... على ذَقّنٍ أو قارعاً سن نادم
نهاية إدراك العقول عقال ... وغاية سعي العالمين ضلال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
قالوا وقلنا دعاوى ما تفيد لنا ... إلا الأذى واحتجاجاً في المداجاة
وإنهم ليعلمون أن الله راض لهم الفتنة ليصفيهم، ولا يأخذ منهم إلى قدسه وسبحات عرشه إلا من يثبت على اتجاهه إليه برغم حجب الغيب الكثيفة من جهة وبرغم أضاليل الحياة وتناقض بعض صورها في ظاهر بعض العقول القاصرة، وبرغم همزات الشياطين ونزغهم (وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون)
(إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون)
وإنهم ليكتمون ما عساه يصيبهم منها في صدورهم علماً منهم أنها أمراض طارئة في عصر الشك الذي يصيب كل باحث كما أصاب الغزالي أبا الزهد والمعرفة حتى تكسرت عنه العقائد الموروثة) كما يقول في كتابه: (المنقذ من الضلال)، فيرون تحصين الناس منها حتى تبرأ قلوبهم ويهديهم الله إليه بعد جهادهم فيه، فيعرضوها بعد ذلك مع دوائها وبراهين
كذبها وبطلانها وعلما منهم كذلك أنهم ما أوتوا علمهم كل شيء، وأن أساطين العلم المادي لم يعرفوا إلى الآن ما هي المادة التي هي أول ما يدرك. . دع عنك ما خفي في عالم الآفاق وعالم الأنفس، وعلماً منهم كذلك أن أكثر الناس ليسوا مثلهم متفرغين للتفكير في الحقائق ومقابلة بعضها ببعض، وإنما أكثرهم يأخذون الحقيقة أو الشبهة أو الأضلولة فيعيشون بها طول حياتهم، وقد يموتون عليها إلا أن يتداركهم الله بمن يغسل قلوبهم من الشبه والأضاليل
تلك ذخيرة الإيمان في قلب! فأين منها تفريغ الإلحاد للقلوب من كل معاني عزائها وهنائها وقوتها وخلودها؟ أين منها ملؤه لها بكل معنى أثيم أو تافه أو فان؟ يا ويل من أراهم فارغي القلوب وقد صاروا الآن لا عدد لهم!
لقد ضاعوا لأنهم فقدوا ميراث عزائهم ولم ينالوا الدنيا
وعندي أن كل ملحد واجب عليه إخلاصاً لإلحاده أن يكون مجرماً سفاكاً أنانياً وحشياً حتى يحقق مقتضيات إلحاده فلا فائدة من الأخلاق والعلوم والبدوات مادام القلب فارغاً من الله. وقد قلنا في مقال (حرمة البيان) (ما هو الحق؟ ما هو الشرف؟ لولا الله، كل المعايير ساقطة باطلة مبلبلة إذا لم تكن في يده هو. . . كل الصدق كذب. . . وكل الخير شر، إذا لم يقله لنا هو. . .!)
لعمر الحياة لو كان الإيمان كذباً لكان ألد من الصدق! ومادام الإنسان يطلب السعادة والراحة فلماذا لا يطلبهما هنا؟ لماذا يخطئ معنى دوامهما؟ افرضوه كذباً. . . فهل برئت حياتكم من الكذب؟ إنها مجموعة أكاذيب مات منها حكماؤكم غيظاً أيها الناس!
إنه قياس أدركه الأقدمون واختار العقلاء منهم ما عبر عنه شاعرهم بقوله:
إن صح قولكما فلست بخاسر ... أو صح قولي فالخسار عليكما
ومادمتم تقيسون قيمة الشيء بالمنفعة، فأيما شيءٍ أنفع من معنى الإيمان في حياتكم؟ إنه أعظم معنى جلب النفع للبشرية. وقصة تقدم الإنسانية هي قصة المؤمنين منها؛ فإنهم هم الذين تسلموا قيادها مرحلة مرحلة لأنهم أحسوا الإيمان بالقيوم الأكبر فأحسوا الوصاية نيابة عنه على القطيع القاصر، وحملوا أعباءه ونهضوا بها نهوض الجليدين الضليعين الذين لم يستول عليهم ضعف البشر لأنهم أولو العزم الذين في قلوبهم ذلك المعنى الحديدي الذي لا يفلت منه شيء: وهو الصبر! (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم
فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) فكل معاني شرف الإنسانية شعب وفروع من تلك الأرومة
ولذلك لو تغيرت فكرة الإلهية يجب أن تتغير موازين الخير والشر. ولكم في ضمير الإنسانية إيماناً عميقاً بالخير من غير سبب ظاهر، وكفراً عميقاً بالشر من غير سبب ظاهر؛ وقد أدى ذلك الفيلسوف الإنجليزي (باركلي) إلى أن يأخذ من هنا برهانه على أن هناك عقلاً أعظم قد أقر موازين الخير والشر في القلوب كما هما، لأن الخير والشر عنده كذلك

(الرستمية)
عبد المنعم خلاف
التعليم والمتعطلون في مصر
للأستاذ عبد الحميد فهمي مطر
هناك غير ذلك حب التضحية والإيثار، وفي هذا يقول الله في كتابه الكريم: (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) وهذا يستلزم أن يمرن الفتى أو الشاب أو الرجل على عمل الخير والإحسان إلى الغير في القول والعمل وأن يقلل من التفكير في شخصه ومصلحته الخاصة. وأن يتعفف عن العمل لنفسه فقط. وفي هذا يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (أحب لأخيك ما تحب لنفسك) ويقول سنيكا: (لو أعطيت الحكمة كلها لنفسي على أن أستأثر بها وأمنعها عن اخوتي بني الإنسانية لكرهت الحكمة)
ولاشك أن تمرين الإنسان نفسه على حب غيره ومساعدته مع التقليل من حب نفسه يدفعه إلى الإحسان المستمر. وإلى البذل ثم إلى التضحية وإيثار غيره على نفسه. وهو أعلى مراتب السمو الإنساني.
ومن أحسن الأمثال التي يمكن أن تضرب في التضحية والإيثار ما قرأناه عن أمة اليابان الفتية وإقدام أبنائها على بذل المهج والتضحية بالنفوس في سبيلها. من ذلك أن الحكومة أعلنت عن (طوربيد) اخترعه أحد المخترعين يستلزم دخول إنسان فيه يوجه إلى هدفه إذا ما قذف، فإذا اصطدم بالهدف بارجة كان أو نسافة أو غواصة انفجر بمن فيه فقتله في الحال. ولكنه في الوقت نفسه بفتك بهدفه فتكاً ذريعاً ثم أعلنت عن حاجتها إلى أربعمائة شخص لهذا الغرض المهلك. فتقدم إليها سبعة آلاف شاب يطلبون تلك التضحية عن طيب خاطر. وفي تاريخنا الإسلامي أمثلة كثيرة من التضحية والإيثار فلقد ورد عن سيدنا علي بن أبي طالب زوج فاطمة ابنة الرسول أنه قال لها يوماً: جهزي لنا طعاماً. فقالت: والله ليس عندي غير الماء. فقال لها: إذن أمسك اليوم صائماً. ثم قال لها في اليوم التالي: جهزي لنا طعاماً يا فاطمة. فقالت: والله ليس عندي غير الماء. فأمسك صائماً ثم تكرر ذلك في اليوم الثالث. وفي اليوم الرابع خرج إلى السوق فرهن بعض الأشياء عند يهودي واشترى بما أخذه من نقود دقيقاً وسمناً وعسلاً وأحضره إليها. فجهزت الطعام ولما جلسا للأكل دق الباب فقام فوجد رجلاً يبكي فقال له: ما خطبك؟ قال: لي عشرة أيام لم أذق الطعام. فعاد فأخذ إليه ثلث الطعام. ولما جلس مع زوجه إلى الأكل دق الباب ثانية فقام فوجد امرأة ومعها طفل رضيع يبكيان فقال: ما خطبك؟ قالت: لهذا الطفل اليتيم خمسة أيام لم يذق الطعام. فذهب فجاءها بالثلث الثاني من طعامه. ثم عاد فجلس مع زوجته للأكل فدق الباب ثالثة فذهب فوجد رجلاً مسلماً كان قد أسره الكفار ثم هرب منهم ولم يتذوق الطعام منذ خمسة عشر يوماً فجاءه بالثلث الأخير من الطعام، ثم خرج إلى المسجد جائعاً، فوجد رسول الله جالساً فابتسم لما رآه وقال له: لقد أنزل الله فيك قرآناً قال: وما هو يا رسول الله؟ فقرأ (ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً) فسر عليّ بذلك سروراً عظيماً. وكان هذا نعم الغذاء الروحي. بأمثال هذه القصص والحوادث يجب أن يتعلم الناشئة كيف يكون البذل، وكيف يكون الإيثار
ثم هناك بعد ذلك تعويد الناشئ الاعتماد على النفس والتغلب على الصعاب بالمكافحة والمثابرة وهو خلق نجد شباب اليوم أشد ما يكونون حاجة إليه في معارك الحياة ومنافساتها القوية، ويستلزم أن يمرن الفتى على الصبر على المكروه واحتمال المشاق والمثابرة على العمل فلا يتبرم إذا أخفق ولا ييأس إذا فشل. بل يتابع عمله ويستأنف جهوده مستبشراً بالمستقبل مملوءاً أملا وثقة بالنجاح والوصول إلى هدفه عاجلاً أو آجلاً مهما لقي من عنت أو إرهاق جاعلاً نصب عينيه مثله العليا حتى يفوز بما يبغي. فقد قال نابليون بونابرت: (لا مستحيل على قلب الشجاع) وإن أخوف ما أخاف على شبابنا ضعف العزائم وقلة الأقدام وعدم المثابرة. ولو أنهم قرءوا شيئاً من تاريخ المخترعين والمصلحين والمجاهدين. وما لقيه من عنت وإرهاق هؤلاء وأولئك من أمثال نيوتن وجاليليو وباستير وجان دارك ومصطفى كامل وفريد وسعد زغلول؛ بل لو أنهم قرءوا ما لقيه صاحب الرسالة الإسلامية في سبيل دعوته من عنت وإرهاق واضطهاد

وعذاب وتشريد لعرفوا حقاً كيف تكون قوة الإيمان وكيف تنجح المثابرة والمصابرة وتلك صفات إذا غرست في الفتى، وتعهد المشرفون على تكوينه وتربيته تغذيتها وتقويتها بالمثل الصالحة أنتجت الإنتاج المفيد المثمر، وإن في قول العلامة بوفون (ليست العبقرية إلا الصبر الطويل) لدليل آخر على ذلك

وهناك فوق كل ما تقدم خلق آخر جدير بأن يعني به العناية كلها في وقتنا الحاضر وهو خلق غير فردي، بل خلق جمعي يبث بين الجماعات المكونة لطوائف مختلفة في سبيل

مصلحة الجماعة وفائدتها. ذلك هو التضامن وهو الذي يقول فيه الحديث الشريف (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً) ولقد أصبح هذا الخلق ضرورياً لمختلف الطوائف لأنه من الأمور التي يبنى عليها نجاحها في معترك الحياة، وإن طوائف العمال في مختلف الممالك لم تنجح النجاح الباهر الذي أدى بها إلى تسلم مقاليد الحكم كما حصل في إنجلترا إلا بتضامنها وتعاونها وتساندها. وإن في اشتراك جماعات الطلبة في عمل واحد لا يقوى عليه فرد واحد منهم كما هو الحال في معظم أنواع الألعاب الرياضية لطريقة ناجعة تعودهم هذا الخلق المفيد. تلك هي الأخلاق التي يجب على كل والد أن يتولى غرسها في ولده، كما يجب على كل مدرسة أن تتعهدها وتنميها وتشجعها في أبنائها. وإنه لما يؤسف له حقاً أن المدرسة الحالية توجه أشد عنايتها إلى الكتب ودراستها والمناهج واستيعابها وملء عقول التلاميذ بمحتوياتها ليؤدوا فيها الامتحان المطلوب منهم في آخر العام من غير أن تعنى العناية المطلوبة بتكوين النشء التكوين الخلقي الذي تتطلبه الحياة. يقول صميلز في بدء كتابه عن الأخلاق (الأخلاق من أمهات القوى في هذا العالم. وهي في أبهى مظاهرها تمثل الطبيعة البشرية في أرقى أشكالها. لأنها تظهر الإنسان وهو في أرقى خلاله، ثم إن النوع البشري خاضع مسخر للرجال ذوي الكد والاستقامة المتشبعين بالأخلاق الراقية والأغراض الصادقة الخالصة، لأن الاعتقاد في مثل هؤلاء والثقة بهم والتشبه بأعمالهم غرائز في النفس. أولئك هم دعائم ما في هذا العالم من خير، ولولاهم لكان الوجود في هذا العالم عبثاً، ولئن كانت العبقرية تحرك الإعجاب فإن الأخلاق ضامنة التوقير والإجلال. ذلك أن هذه منشؤها قوة العقل، وهذي منشؤها قوة القلب، والقلب عادة صاحب السيطرة في الحياة. فالعبقريون في المجتمع بمنزلة الذهن من الإنسان، وذوو الأخلاق بمنزلة الذمة. وبينا أولئك يعجب بهم إذ هؤلاء يهرع إليهم) وقال أيضاً: (كم من أناس لا يملكون من الدنيا سوى أخلاقهم، وهم بفضلها كصاحب التاج المدل بتاجه، وليست طهارة الأخلاق وحسنها من مستلزمات ذوي العقول المثقفة بالمعارف. فقد يجتمع التفوق العقلي والأخلاق السافلة فيذل المتعلم المثقف لذوي المقامات الرفيعة. ثم يتغطرس على ذوي المنازل الوضيعة) وقال جورج هربرت: (قليل من الحياة الصالحة خير من كثير من العلم والمعرفة) ثم قال صميلز في موضع آخر) ليس الاستعداد العقلي ولا التفوق الذهني بنادرين في العالم، ولكن هل يعتمد على الاستعداد العقلي وحده؟ وهل يؤتمن التفوق الذهني؟ كلا. اللهم إلا إذا رافقهما الحق فهو الخلة التي تضمن لصاحبها التبجيل والتعظيم، وتحمل غيره على الثقة به، وهو أساس كل فضيلة، ويظهر في معاملة المرء وسلوكه، وهو الاستقامة والإخلاص في العمل وله نور يسطع في كل قول وفعل، هو الباعث على ثقة المرء بنفسه والحامل للناس على الثقة به، والمرء ذو المكانة في العالم هو الذي يصح الاعتماد عليه، هو الذي إذا قال إن له علماً بشيء كان عالماً به حقاً، وهو الذي إذا قال إني فاعل شيئاً قبله حقاً، وهكذا يحصل الواثق بنفسه على ثقة الناس به واعترافهم بقيمته) وقال مرتن لوثر: (ليست سعادة الأمم في كثرة أموالها؛ ولا في قوة استحكاماتها، ولا في جمال مبانيها وشاهق قصورها، إنما سعادتها في أبنائها المثقفين ورجالها المهذبين الذين استنارت بصائرهم واستقامت أخلاقهم، فهؤلاء قوتها الأساسية وعظمتها الجوهرية) فهل بعد هذا كله يحق للمدرسة أن توجه كل جهودها إلى الثقافة ودراسة ما في بطون الكتب إعداداً للامتحان من غير أن تكترث بمادة الحياة الأساسية وهي الأخلاق؟ وهل بعد هذا ننتظر من خريجي مدارسنا أن يقوموا على العمل، وأن يسيروا في حياتهم السيرة الحميدة المطلوبة وقد أهملتهم هذا الإهمال

إهمال المدرسة للأخلاق ونتائجه

وإني لا أستطيع أن أفسر إهمال المدرسة في تقوية أخلاق النشء والعمل على تكوينهم تكويناً خلقياً عالياً إلا بأمور ثلاثة:

الأول: اندفاع المدرسة في تيار السياسة التعليمية التي رسمت لها عملياً من قبل وجعل النجاح في الامتحان في نهاية العام الدراسي هو الغاية التي ليس وراءها غاية من غير أن يفكر ولاة الأمور وقادة التعليم فينا تفكيراً جدياً عميقاً فيما يستدعيه الإصلاح الحقيقي للمدرسة وما يتناسب مع نهضتنا الجديدة وقوميتنا

الثاني: صعوبة ما يستدعيه العلاج الخلقي المدرسي من درس وفحص وتمحيص وما يستلزمه من مرونة في العمل وعدم الوقوف عند الخطة الآلية التي تسير عليها المدرسة الحالية من حيث قياس الأعمال بالدرجات في الامتحانات ونتائجها. وما يستدعيه فوق ذلك من السلطة المركزية من الديوان العام إلى أيدي المشرفين الفعليين على المدارس. وهو الأمر الذي لازال يقاوم إلى اليوم

الثالث: عادم ثقة القابضين على زمام الأمر في الوزارة بالمشرفين على المدارس والقائمين بالأمر فيها مما حال بين أولئك وبين ثقة غيرهم بهم. فأدى ذلك إلى انحطاط مستوى رجال التعليم الأدبي ونفوذهم في الهيئة الاجتماعية وفي هذا ما فيه من النزول بالمدرسة إلى مستوى لا يليق بها.

من أجل هذا أهمل تكوين الخلق في المدرسة فانحطت الأخلاق العامة وتدهورت وصرنا اليوم نواجه في شبابنا حالة سيئة لا يرضاها وطني محب لبلاده: نرى شبابنا عاطلاً خلوا من حب المغامرة والإقدام والنزول إلى ميدان العمل والكفاح في الحياة مليئاً بأنواع الخنوثة والطراوة، وعدم القدرة على المثابرة والنضال وأتجه همه إلى العمل ببعض عادات الفرنج التي أصيب كثير من الفرنج يستقبوحنها ويمقتونها كالخلاعة والرقص وحب اللهو والدعارة، وصار أحب شيء إليه التأنق في الملبس وارتياد محال اللهو والفجور والتهتك في الطرقات، وارتكاب المحظورات والمحرمات، والعمل على الحصول على المال اللازم لذلك بالتدليس والغش والنصب والتزوير والاحتيال، مع الخروج على المبادئ العامة المقررة في الأسرة والمدرسة، فالصغير يريد أن يرغم الكبير على الاستماع لأمره وتنفيذ رأيه، والتلميذ يرغب في أن يقلد أستاذه وناظر مدرسته كما يشاء هواه. وقد ساعده على ذلك ما نعرف نحن كما يعرف غيرنا من رجال التعليم من مآسٍ كثيرة وقعت في المدرسة بسبب أخطاء خلقية كبيرة ارتكبها الطلبة وأرادت المدارس أن تقمعها بالعقوبة الرادعة ولكن الوزارة عن طريق الشفعاء السوء كانت تهمل رأي المدارس بل كانت تجبرها أحياناً على القيام بعكس ما تراه بالانتصار للمخطئين والخارجين على حدود الآداب والفضيلة مما أدى في بعض الأحايين إلى نقل ناظر المدرسة أو بعض المدرسين الذين لا يروق لهم ذلك. ولم يقف الأمر عند المدرسة بل انتشرت الفوضى الخلقية انتشاراً مخيفاً يشفق على هذه الأمة منه عقلاؤها. ويكفي أن ندلل على تمسك الكثيرين من المتعلمين بأهداب الفضيلة وكرم الأخلاق مما يقع تحت حسنا ونظرنا في المجتمع المصري في كل يوم وفي كل لحظة: فهلا سمعت برجل الصحافة الذي يهاجم أشراف الناس وأبرياءهم، وهم هادئون آمنون فينهش أعراضهم، ويقذفهم بأشنع التهم وأفحش السباب، حتى إذا ما استدعاه أحدهم ونقده الجنيه أو الجنيهين، انقلب في يوم وليلة مادحاً له معتذراً عما سلف منه بمختلف الأعذار السخيفة، فإذا ما نفحه شيئاً جديداً بعد ذلك كال له من المدائح ما يجعله في مصاف الأبطال والمجاهدين؟ وهلا سمعت بذلك الموظف الذي يدين بمركزه الكبير لوزير من الوزراء فتراه يتردد على منزله كل يوم ليقدم له فروض الطاعة والولاء وليقوم بخدمته في كل ما يطلبه منه مهما جل أو قل، ثم هو فوق ذلك يخضع لهواه في كل صغيرة وكبيرة مهما كلفه ذلك من الشطط والانحراف عن جادة الحق والعدل، فإذا تبين منه قليلاً من الانتقاد أو الامتعاض من موظف آخر صغير لسوء فهم أو التباس في أمر أسرع فأنزل به السخط وألبسه ثوب الذل وصادره في رزقه وكرامته مهما كان ذلك الموظف الصغير مخلصاً في عمله مؤدياً لواجبه مستقيماً في حياته محتفظاً بكرامته. والأدهى من ذلك أننا نجهد ذلك الموظف الكبير الذي ظلم الناس وداس كرامتهم متابعة لهوى سيده ينقلب في طرفة عين عليه إذا ما زحزحت الظروف ذلك الوزير عن مركزه، وحل محله غيره يخالفه في الرأي. فموظفنا العظيم لا ينقطع عن زيارات سيده السابق ولا يقطع علاقته به فحسب، ولكنه فوق ذلك يتحامل عليه وعلى

أعماله أمام سيده الجديد إرضاء له، وهو فوق ذلك يحاربه بكل قوة، وينقلب عدواً لدوداً له. وبذلك يكسب عطف سيده الجديد ويضمن الرقي على يديه. وهل بلغك خبر ذلك المحامي النابه الذي يوكله أحد المتقاضين في قضية له، وينقده نصف الأجر ظاناً أنه سيعمل في صفه بإخلاص، فإذا به يتصل بالخصوم، ويأخذ منهم من المال كل ما تصل إليه يده ليهمل في حقوق موكله فتضيع عليه حقوقه؟ وهلا قرأت في الجرائد اليومية حيل المحتالين والنصابين وحوادث التزوير والتدليس، والاعتداء على العفاف والطهر مما يتزايد ضرره كل يوم وتملأ به الجرائد صفحاتها ومع ذاك فهناك فوق ذلك وا أسفاه كثير مما لا يصل إلى تلك الجرائد! هذه بعض الحال السيئة التي وصلنا إليها، وهي تنخر في عظام الأمة نخراً، بينما قادتنا وساستنا لاهون عنها، مع أن معظمهم قد ذاق الأمرين منها وانكوى بنارها، فجدير بهم أن يعنوا بها قبل عنايتهم بأي أمر آخر مهما كان هاماً. وإني لا أرى محلاً للعناية بها وإصلاحها غير المنزل أولاً، والمدرسة ثانياً، وإذا كان المنزل أساسه وقائده وحاكمه هو المرأة، وتربية المرأة متوقفة كذلك على المدرسة، فقد صارت المدرسة عندنا هي الحجر الأساسي في تكوين الأخلاق وإصلاحها.

يقول صمليز في كتابه الأخلاق: (وهكذا اضمحلت رومة ثم لحقها الدمار لما عم أبناءها فساد الأخلاق، واستولى عليهم حب اللهو والخمول، حتى كانوا في أواخر أيامهم يرون العمل لا يليق إلا بعبيدهم. أمسك أبناؤها عن التحلي بما تحلى به آباؤهم الأولون من فضائل الخصال فسقطت الدولة ولم تكن أهلاً للبقاء. وهكذا تسقط الأمم الخاملة المنهمكة في اللذات، الراتعة في بحبوحة الترف، والتي تستنكف العمل الصالح، تسقط لا محالة ويخلفها في عظمتها الأمم الحية العاملة) ثم يقول في موضوع آخر (ومجمل القول أن سلامة الأمم والحكومات تتوقف على سلامة الأخلاق ولن تكون أمة عظيمة من أفراد فاسدي الأخلاق، مهما لاحت عليهم آثار الحضارة والرقي. ولكنهم لا يلبثون أن يتلاشوا متى صادفتهم عقبة أو غشيتهم شدة. ولن يكونوا ذوي قوة حقة ورابطة متينة وسلامة تامة إلا إذا اتصف كل فرد منهم بالصفات الجميلة والخصال الحميدة والأخلاق الفاضلة).

عبد الحميد فهمي مطر

رد على مقال

ولي الدين يكن وشعره السياسي

للأستاذ محمد مجاهد بلال

قرأت في العدد 278 من الرسالة فصلاً للأستاذ كرم ملحم كرم عن ولي الدين يكن، فسرني أن يتحدث أديب من بيروت عن ولي الدين، فإن ولي الدين لا يذكره المصريون، كأنه لم يعش بينهم ولا يتحدثون عنه، كأنه لم يكن شيئاً ذا بال. ويرحمه الله فهو القائل (. . . وليس رجل ينكره معارفه ويتجافاه أقرب أقاربه إلا الأديب، فهو إذا برّز على أقرانه حسدوه وإن قصر عنهم حقروه)

ومن الحق أن أقول إنني لم أكد أفرغ من قراءة المقال حتى أحببت أن أقول شيئاً في ولي الدين، لا لأن الأستاذ كرم حبّب هذا الشاعر إليّ، فإني أحب ولي الدين من قبل، وقد كتبت عنه أكثر من مرة، وإنما لأن الأستاذ له رأي في شعر ولي الدين السياسي لم أستطع فهمه، فهو يقول:

(ولي الدين كان عبد العاطفة، وكل شعر شذ به عن العاطفة كبا فيه، والدليل شعره السياسي؛ فأين هذا الشعر من القصائد المصهور فيها قلب ولي الدين؟ فبينا أنت إزاء ولي الدين العاطفي في حضرة شاعر من الطبقة الأولى إذا بك تجاه شعره السياسي أمام شاعر من الطبقة الثانية بل الثالثة)

ولقد جرى في أكثر حديث الأستاذ معنى هذا الكلام واتضح أنه حكم على شعر الرجل السياسي حكماً لا أقول قاسياً وإنما هو بعيد عن ولي الدين

والغريب أن الأستاذ حين أراد أن يقيم الحجة على رأيه تجاهل شعر ولي الدين السياسي كله ولم يذكر منه إلا هذين البيتين:

هلمو بنا نحو الأمير نسلم ... سلام على عباس مصر المعظم

ألا إن في الأكباد شوقاً مبرحاً ... إليه فقد كادت من الشوق تدمى

مع أن هذين البيتين لا يدخلان في باب الشعر السياسي بقدر ما يدخلان في باب

التهنئة والمديح!
أحب الآن إذاً أن أعرض لشعر ولي الدين السياسي وأن أعرض له في شيء من الإيجاز،
فإني أعلم أن صفحات الرسالة معدودة ووقت فراغي محدود
شعر ولي الدين السياسي جله عذب وجله قد نطق به (وقلبه مصهور) وأظن أن القلب لا يصهره حب الغواني فقط - كما يفهم من مقال الأستاذ - وإنما تصهره الآلام جميعاً مهما كانت مصادرها. والذي يعرف تاريخ ولي الدين وحياته بين القاهرة والآستانة وسيواس يعرف أن شعره السياسي لم يكن عبثاً وإنما كان ينطق به وعواطفه ملهبة وقلبه ملتاع.
لقد كان ولي الدين أصدر بالقاهرة جريدة سماها (الاستقامة) فمنعت حكومة الآستانة دخولها إلى الممالك العثمانية واضطر أن يوقف صدورها ويودعها بقصيدة جاء فيها:
ولي أمل أودي الزمان بنجحه ... وخيبه سوء الظنون فخابا
ولو شئت وفيت الليالي حسابها ... عليه ولكن لا أشاء حسابا
ومنها:
فمن مبلغ عني الغضاب الألى جنوا ... بأني امرؤ ما إن أخاف غضابا
أذم فلا أخشى عقاباً يصيبني ... وأمدح لا أرجو بذاك ثواباً
علام أحابي معشرا أنا خيرهم ... ومثلي إذا حابى الرجال يحابى
إلى أن قال:
ولما غدا قول الصواب مذمماً ... عزمت على أن لا أقول صوابا
فجافيت أقلامي وعفت (استقامتي) ... ورحت أرجي للسلامة بابا
فهل من الحق أن ننكر في هذه الأبيات قلب ولي الدين وعاطفته وهل من الحق أنه قد كبا فيها؟ لا أظن.
وهذه أبيات من قطعة أخرى قالها ولي الدين في منفاه:
فؤاد دأبه الذكر ... وعين ملؤها عبر
ونفس في شبيبتها ... وجسم مسه الكبر
وآمال مضيعة ... ووقت كله هذر
وعيش عذبه مضض ... وعمر صفوه كدر
أما يا ليل من صبح ... لمن سهروا فينتظر
ومنها:
علام نلوم أعداء ... على شر إذا قدروا
بلونهم لدن شبوا ... أننساهم إذا كبروا
نصحناهم فما انتصحوا ... زجرناهم فما ازدجروا
لقد صلدت قلوبهمُ ... كأن قلوبهم حجر
إذا ائتمروا على كيد ... فإنا سوف نأتمر
فمن نخشى وفوق العر ... ش مهما يغترر بشر
فهل من الحق أن ننكر في هذه الأبيات أيضاً قلب ولي الدين وعاطفته؟ وهل من الحق أنه قد كبا فيها؟
وانظر إلى ولي الدين وهو يصور رجال العصر الحميدي وقادته في أبيات لا تقل جمالاً عن سالفتها:
كفى حزناً أن الرجال كثيرة ... وليس لنا فيما نراه رجال
نحكم قوماً لا يبالون قائلاً ... وإن قام كل العالمين فقالوا
إذا ارتقبوا أمراً فذلك منصب ... أو اطلبوا شيئاً فذلك مال
بغال تسوس الأسد شر سياسة ... وما ساس أسداً قبل ذاك بغال
أما بعد: فالأستاذ كرم موافق على أن ولي الدين يجيد ويسمو ويبرع ويروع حين يصهر قلبه، فهل حالات ولي الدين التي دفعته إلى أن يقول هذا الشعر الذي قدمتُه لا تصهر قلبه؟ وماذا ننتظر من رجل تحولت آماله آلاما سوى أن نسمع منه صدى قلبه المصهور، ومن رجل منفي سوى أن ينطق بما يكابد ويعاني، ومن رجل حرا أبى - يرى حريته مكبوتة ولسانه معقوداً - سوى أن يترجم لواعجه وفواجعه؟
إحدى اثنتين: إما أن يكون ولي الدين يجيد ويروع حين يصهر قلبه - كما يرى الأستاذ -

وإذاً فهذه الأبيات جيدة رائعة، وإما أن هذه الأبيات ليست جيدة ولا رائعة - كما يرى الأستاذ كذلك - وإذا فولي الدين لا يجيد ويروع حين يصهر قلبه فليختر الأستاذ لنفسه إحدى السبيلين

(طهطا)

محمد مجاهد بلال

تفتيش المعارف

كتاب المبشرين

أغلاطه اللغوية

لأستاذ جليل

كتاب (المبشرين) أغلاطه في اللغة وغير اللغة - يا أخا العرب - كثيرة. وهذا نموذج من تخليطه اللغوي:

1 - في الصفحة (471): (أهل المدينة القربى من الفتيل)

قالت: قالت العربية: الأقرب، ولم تقل في مؤنثه القربى كما لم تقل في الأظرف والأكرم والإشراف: الظرفي والكرمي والشرفي، وهذا باب مرجعه السماع. وإذا جاءت في (أفعل التفضيل) أل غابت من. قال المفصل: (وتعتوره حالتان متضادتان لزوم التنكير عند مصاحبة من، ولزوم التعريف عند مفارقتها) وبيت الأعشى:

ولست بالأكثر منهم حصى ... وإنما العزة للكاثر

قال فيه شارح الكافية: (من، فيه ليست تفضيلية بل للتبعيض أي لست من بينهم بالأكثر حصى كما تقول مثلاً: أريد شخصاً من قريش أفضل من عيسى (عليه السلام) فيقال: محمد (عليه السلام) الأفضل من قريش، أي هو أفضل من عيسى من بين قريش) وقال صاحب (الخصائص) وشارح (المفصل) في البيت مثل ذلك

2 - في الصفحة (435): (واستنزلهم على حكم يهودي خائن متمسلم، اسمه سعد بن معاذ) وجاءت (متمسلم) في الصفحة (365) أيضاً

قلت: لا يقال: تمسلم الرجل أي أسلم أو انتحل الإسلام ظاهراً إن كان كتاب المبشرين قصد هذا المعنى. وتمسلم في العربية معناه تسمى بمسلم ففي (القاموس المحيط): (ويقال: كان يسمى محمداً ثم تمسلم أي تسمى بمسلم) وأسلم من هداه الله وتسلّم: دان بدين العدل والمساواة. قال (لسان العرب): (كان فلان كافراً ثم تسلم أي أسلم، وكان كافراً ثم هو اليوم مسلمة يا هذا)

3 - في الصفحة (397): (أشد أذى لهم وأبلغ نكاية عليهم)

قلت: يقال: نكى فيه ونكاه لا نكى عليه، والأقوال العربية وكتب اللغة كلها تخطئ المبشرين. قال (الصحاح): نكيت في العدو نكاية إذا قتلت فيهم وجرحت، قال أبو النجم:

(ننكى العدا ونكرم الأضيافا)

وفي النهاية: أو ينكى لك عدواً، ومثل ذلك في اللسان والتاج والأساس والمصباح، وقد يهمز، لغة فيه

4 - في الصفحة (21): (ثم أبادهم بنو إسرائيل عن بكرة أبيهم) وفي الصفحة (410): (وإهلاك أهل قرية عن بكرة أبيهم)

قلت: ليس لكلام المبشرين معنى وأصل هذا القول: (عن بكرة أبيهم) مثل، والأمثال لا تغير، وقد ذكرته كتب الأدب واللغة وأوضحته، قال (مجمع الأمثال): (جاءوا على بكرة أبيهم، قال أو عبيد: أي جاءوا جميعاً لم يتخلف منهم أحد، وليس هناك بكرة في الحقيقة. وقال غيره: البكرة تأنيث البكر وهو الفتى من الإبل، يصفهم بالقلة أي جاءوا بحيث تحملهم بكرة أبيهم قلة. وقال بعضهم: البكرة ههنا التي يستقى عليها أي جاءوا بعضهم على أثر بعض كدوران البكرة على نسق واحد. وقال قوم: أرادوا بالبكرة الطريقة كأنهم قالوا: جاءوا على طريقة أبيهم أي يتقيلون أثره. وقال ابن الأعرابي: البكرة جماعة الناس يقال جاءوا على بكرتهم وبكرة أبيهم أي بجمعهم. فقلت: فعلى قول ابن الأعرابي يكون علي في المثل بمعنى مع أي جاءوا مع جماعة أبيهم أي مع قبيلته؛ ويجوز أن يكون على من صلة معنى الكلام أي جاءوا مشتملين على قبيلة أبيهم. هذا هو الأصل ثم يستعمل في اجتماع القوم وإن لم يكونوا من نسب واحد. ويجوز أن يراد البكرة التي يستقى عليها وهي إذا كانت لأبيهم اجتمعوا عليها مستقين لا يمنعهم عنها أحد، فشبه اجتماع القوم في المجيء باجتماع أولئك على بكرة أبيهم)

وأورد المثل الصحاح واللسان والأساس والتاج من المعجمات، وكتاب (جمهرة الأمثال) لأبي هلال العسكري، وكتاب غاية الأرب في معاني ما يجري على ألسنة العامة في أمثالهم ومحاوراتهم من كلام العرب للمفضل بن سلمة، وروت هذه المصنفات بعض ما كتبه الميداني في شرح المثل.

5 - في الصفحة (160): (إلى أمر جسداني فقط) وفي الصفحة (203): (بملاذ جسدانية)

قلت: النسبة إلى الجسد جسدي، وإذا كانت العربية لم تجز الجسمانيات - كما قال أبن أبي الحديد في شرح النهج - وفيها الجسمان بمعنى الجسم فيكف يكون حالها مع الجسداني والجسدانية؟ وليس الجسداني نسبة شاذة كما قال صاحب (أقرب الموارد) بل هي خطأ،

وجريدة الشاذ الطويلة في باب النسبة معروفة. . .

6 - في الصفحة (294): (لكثرة ما انتشب بينهم من الحروب مهدوا)

قلت: انتشب مطاوع أنشب أي اعتلق، وأنشبه هو فيه أي أعلقه فأنشب، وأنشب البازي مخاليبه في الأخيذة. وانتشب حطباً جمعه، وانتشب طعاماً لمه، ذلك ما قالته العربية، ولم تقل: أنشبوا فيهم الحرب فانتشبت. . . وقد جاء في اللغة وهو من المجاز - ناشبه الحرب أي نابذه، ونشبت الحرب بينهم نشوباً اشتبكت.

7 - في الصفحة (232): (لا يحل فيه صيد الوحش ولا قنص الطير ولا اختضاد الشجر)

قلت: في اللسان والتاج: (اختضد البعير أخذه من الإبل وهو صعب لم يذلل فحطمه ليذل وركبه، حكاها اللحياني، وقال الفارسي: إنما هو اختصر) وقالت اللغة: خضد الشجر وخضده أي قطع شوكه، وخضد العود أي ثناه فانخضد وتخضد وسدر مخضود ومخضد وخضيد، وفي الحديث في شجر المدينة: حرمتها أن تعضد أو تخضد. ومن حديث الدعاء: تقطع به دابرهم وتخضد به شوكتهم. وهذا مجاز

8 - في الصفحة (358): (تذييل على الثلاثة فصول الأولى من المقالة) ومثل ذلك في الصفحة 476

قلت: أخطأ المبشرون في (الثلاثة فصول) قال شارح المفصل: (فالطريق فيه أن تعرف المضاف إليه بأن تدخل فيه الألف واللام ثم تضيف إليه العدد فيتعرف بالإضافة على قياس غلام الرجل) وفي (أدب الكتاب): (تقول: ما فعلت ثلاثة الأثواب ولا يجوز العشرة أثواب) قال ذو الرمة وروي الشاهد المخصص وشرح المفصل:

أمنزلتي ميَّ سلام عليكما ... هل الأزمن اللاتي مضين رواجع

ولا يرجع التسليم أو يكشف العمى ... ثلاث الأثافي والرسوم البلاقع

وقال الفرزدق وهو في شرح المفصل:

مازال مذ عقدت يداه إزاره ... يسمو فأدرك خمسة الأشبار

وقد قالوا: (الثلاثةُ الكُتب) والكتب وصف كما في أدب الكتاب و (الثلاثة الكتبِ) شبهوا ذلك بالحسن الوجه كما في المخصص، وهذا شاذ، وعند الكوفيين قياس كما قال الرضي. و (الثلاثة كتباً) ناصبين على التمييز كما في شرح الكافية.

9 - في الصفحة (382): (حتى نجعت فيهم هذه الأكذوبة) ومثله في الصفحة (387)

قلت: هذا الكلام خطأ إذ لم يستعمل الفعل (نجع) في العربية لشئون الشر وأمور الضر، وأصل الفعل وحقيقته يوضحان معناه. قالت اللغة: نجع الطعام في الإنسان: هنأ أكله أو تبينت تنميته واستمرأه وصلح عليه. ونجع فيه الدواء: نفعه وعمل فيه. ونجع في الدابة العلف، وماء ناجع ونجيع إذا كان مريئاً، وماء نجوع كما يقال: ماء نمير، والنجعة طلب الكلأ ومساقط الغيث وقال الأعشى:

لو أطعموا المن والسلوى مكانهم ... ما أبصر الناس طعما فيهم نجعا

ومن المجاز: نجع فيه الوعظ والنصح والخطاب وانتجعت فلاناً أي طلبت معروفه. وفي المقامات الحريرية: فناشدناه أن يعود، وأسنينا له الوعود. فلا وأبيك ما رجع، ولا الترغيب له نجع

10 - في الصفحة (126) ما كان يجهل ما لزخرف الخطابة من فعل السحر وسلب (الألباب فلذلك لم يهمل شيئاً من بهرج البيان وزخرف الخطابة فيما ادعاه من الوحي

قلت: أرادوا أن ينجدوا فغاروا، قصدوا ببهرج البيان زينة البيان أو حسنه أو جماله (وهو ما يعنيه الأصل الإنكليزي وما تدل عليه العبارات قبله وبعده) والبهرج في العربية هو

الرديء قال الأساس: كلام بهرج وعمل بهرج وكذلك كل موصوف بالرداءة. وفي اللسان: (واللفظة معربة وقيل: هي كلمة هندية أصلها نبهلة وهو الرديء نقلت إلى الفارسية فقيل: نبهرة ثم عربت فقيل: بهرج، ومكان بهرج غير حمي، وقد بهرج فتبهرج. ومثل ذلك في الجمهرة والنهاية والتاج. وقول (أقرب الموارد): (تبهرجت المرأة تزينت) - خطأ، والأصل الصحيح تبرجت (وتبرجت المرأة تبرجاً أظهرت زينتها ومحاسنها للرجال) كما في التاج. وفي (الكتاب) الذي جاء يهدي الناس ويهذبهم: (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى)

11 - في الصفحة (256): (مدعاة إلى الشك معثرة للضعفاء).

قلت: قول المبشرين معثرة - خطأ، ولهم في العربية المزلة والمضلة والمزلفة، وقد أرادوا أن يقيسوا فوقعوا في العاثور وفي تاريخ بغداد أن بعضهم: (طلب النحو فذهب يقيس فلم يجيء فقال: قلب وقلوب، وكلب وكلوب، فقيل له: كلب وكلاب).

12 - في الصفحة (95) (يؤيد الأحكام الشفاهية)

قلت: في (الكتاب): (اعلم أنك إذا أضفت (نسبت) إلى جمع أبداً فإنك توقع الإضافة على واحده الذي كسر عليه، فإذا لم يكن له واحد لم تجاوزه حتى تعلم) فالنسبة إلى الشفاه شفيّ أو شفهي أو شفوي، وقد أنكر الأخير الجوهري، وأثبتها الأزهري. وتجمع الشفة على شفاه وشفوات وكلمته مشافهة ومشافاة) كما في المصباح

13 - في الصفحة (432): (أو أن يرجع إليها منشد)

قلت: مقصود الكتاب يقتضي الناشد، وفي أكثر كتب الأدب واللغة، الناشد الطالب والمنشد المعرّف. قال التبريزي في شرح المعلقات: (يقال: نشدت الضالة إذا طلبتها وأنشدتها إذا عرفتها) ومثل ذلك في الصحاح والأساس والنهاية، وروي الأساس والجمهرة (والبيت للمثقب العبدي):

يصيخ للنبأة أسماعه ... إصاخة الناشد للمنشد

وفي اللسان: (قال أبو عبيد: المنشد المعرف، والناشد هو الطالب. ومما يبين لك أن الناشد هو الطالب حديث النبي (صلى الله عليه وسلم) حين سمع رجلاً يَنشد ضالة في المسجد فقال: (يا أيها الناشد، غيرك الواجد) معناه لا وجدت. وقال ذلك تأديباً له حيث طلب ضالته في المسجد. وفي (التاج): وقال كراع في المجرد وابن القطاع في الأفعال، وأنشدتها بالألف: عرفتها لا غير

14 - في الصفحة (235): (وكادت مذاهبهم (أي القرامطة الباطنية) تقلب الإسلام ظهراً لبطن)

قلت: شرّقت هذه الجملة وغرّب مقصودهم. قال الميداني في (مجمع الأمثال): قلب الأمر ظهراً لبطن، يضرب في حسن التدبير، واللام في (لبطن) بمعنى على، ونصب ظهراً على البدل أي قلب ظهر الأمر على بطنه حتى علم ما فيه) وفي اللسان والتاج والمصباح: قلب الشيء ظهراً لبطن: اختبره. وفي الأساس: ومن المجاز: قلبت الأمر ظهراً لبطن، وضربوا الحديث ظهراً لبطن، قال عمر بن أبي ربيعة:

وضربنا الحديث ظهراً لبطن ... وأتينا من أمرنا ما اشتهينا

وفي النهاية: وفي حديث معاوية لما احتضر وكان يقلب على فراشه فقال: إنكم لتقلبون حوّلا قلبا إن وَقي كبة النار: أي رجلاً عارفاً بالأمور حتى ركب الصعب والذلول، وقلبها ظهراً لبطن. وكان حسن التقلب. وفي (نجعة الرائد) للشيخ اليازجي في فصل في الفحص والاختبار: واستقصيت في التنقير، وتقصيت في التفتيش، وقلبت الأمر ظهراً لبطن

15 - في الصفحة (25): وجه النجاشي جيشاً إلى اليمن لينقذ من فيه من النصارى من اضطهاد ملكهم الملقب بذي النواس وكان يهودياً)

قلت: الملك المقصود في هذا الخبر يقال له ذو نواس (لا ذو النواس ولا أبو النواس. . .) وقد ذكرت ذلك كتب التفسير والتاريخ والأدب واللغة، قال الكشاف في (قتل أصحاب الأخدود): فسار إليهم ذو نواس اليهودي بجنود من حمير فخيرهم بين النار واليهودية فأبوا فأحرق منهم أثنى عشر ألفاً في الأخاديد. وفي خزانة البغدادي، قيل: إن خلفا الأحمر كان له ولاء في اليمن، وكان أميل الناس إلى أبي نواس فقال له يوماً: أنت من اليمن، فتكنَّ باسم ملك من ملوكهم الإذواء، فاختار ذا نواس، فكناه أبا

نواس بحذف صدره، وغلبت عليه. وفي (الجمهرة) النوس مصدر ناس ينوس نَوسا وهو الاضطراب وبه سمي ذو نواس ملك من ملوك حمير لذؤابتين كانتا تنوسان على ظهره
قلت: قد يكون لكلمة نواس في الحميرية غير هذا المعنى
16 - في الصفحة (37): إذ بين هاتين الأمتين عظيم مشابهة. وفي الصفحة (53): فكان لقريش شديد انصباب عليها
قلت: إضافة الصفة إلى موصوفها خطأ، قال شارح المفصل: الصفة والموصوف شيء واحد لأنهما لعين واحدة، فإن كانت الصفة والموصوف شيئاً واحداً لم يجز إضافة أحدهما إلى الآخر.
وقد ورد عنهم ألفاظ ظاهرها من إضافة الموصوف إلى الصفة والصفة إلى موصوفها والتأويل فيها على غير ذلك. وقال الدماميني: اعلم إن إضافة الموصوف إلى صفته والصفة إلى موصوفها لا تنقاس
وقال الشيخ عبد الله البستاني (رحمه الله): لا يجوز أن يضاف اسم إلى مرادفه ولا موصوف إلى صفته ولا صفة إلى موصوفها لأن الغرض من الإضافة المعنوية التعريف أو التخصيص ولا يتعرف الشيء بنفسه، ولا يتخصص بها، فإن سمع عن العرب الخلص ما
يوهم شيئاً من ذلك أول وقيل: إنه شاذ لا يقاس عليه؛ وإن سمع عن المتأخرين حكم عليه بأنه غلط لا يجوز استعماله
17 - في الصفحة (401): كان قد نفى الأعجاز عن القرآن تضميناً في مواضع متعددة من الكتاب نفسه
قلت: أخطئوا في قولهم (تضميناً) حسب قصدهم المتعسف والحال يقتضي - كما يريدون - لفظة الالماع أو التلميح أو التلويح أو الإيماء وما ضارع ذلك. ففي اللسان ضمَّن الشيء الشيء أودعه إياه كما تودع الوعاء المتاع والميت القبر وقد تضمنه هو. ومثل ذلك في الجمهرة والصحاح والأساس والتاج والمصباح
18 - في الصفحة (91): وحذره ما يحيق به وبقومه من التهالك إذا لم يكف عما هو فيه
قلت: التهالك في الجملة خطأ، وللمبشرين في العربية الهلك والهلاك والتهلكة والمهلكة والإنهاك والإهتلاك. وقد أوضح (الأساس) معاني التهالك: تهالك على الشيء إذا أشتد حرصه وشرهه، وأنا متهالك في مودتك، وتهالكت في هذا الأمر إذا كنت مجداً فيه مستعجلاً، ومر بتهالك في عدْوه: يجد، وتهالك على الفراش تساقط عليه، وتهالكت في مشيتها: تفّيأت وتكسرت. ومثل ذلك مفرَّقا في الصحاح والنهاية ومفردات الراغب والجمهرة واللسان والتاج وشرح المفضليات لأبي القاسم الأنباري
19 - في الصفحة (342): أن الشيعة يجعلون عليا ندا لمحمد، والسنية ينكرون أن علياً أو واحداً من الأنبياء كائنا من كان يمكن أن يكون ندا لمحمد
قلت: الند المثل المخالف، وقد اجتزأ بعض كتب اللغة بقوله: الند المثل وهو في الكتاب الكريم والحديث والأقوال العربية النظير المناوئ. قال الكشاف فلا تجعلوا لله أنداداً: الند المثل ولا يقال إلا للمثل المخالف المناوئ، قال جرير:
أتيماً تجعلون إلى ندا ... وما تيم لدي حسب نديد
ونادت الرجل خالفته ونافرته من ند ندوداً إذا نفر وقال في (الفائق): الند والنديدة مثل الشيء الذي يضاده في أموره ويناده أي يخالفه. وفي الحديث في كتابه لأكيدر: وخلع الأنداد والأصنام، وذكرت النهاية قول الفائق في الند. وقال اللسان والتاج والمصباح مقال الكشاف. وقال لبيد (والبيت في الجمهرة والصحاح واللسان والتاج):
لكيلا يكون السندري نديدتي ... وأجعل أقواماً عموماً عماعما
وأما قول (سال) إن الشيعة يجعلون علياً نظيراً لمحمد فمن خلط العربانيين فالشيعة فِرق لا يعلم عددها إلا الله والإمامية منها ثلاث وسبعون فرقة كما يقول الرازي في رسالته (اعتقادات فرق المسلمين) وإن عني سال بالشيعة إخواننا الإمامية أصحاب الانتظار فقولهم وقول إخواننا الجماعية في سيد الوجود (صلوات الله وسلامة عليه) واحد. وقد أوضح ذلك علامتنا الكبير (الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء) في (مؤلفاته

الإسكندرية
* * *
من مشاكل التاريخ
طبيعة الفتح الإسلامي
للأستاذ خليل جمعة الطوال
(تتمة ما نشر في العدد الماضي)
يقول درمنغهم في كتابه حياة محمد: (. . . . وكان محمد يفضل اهتداء رجل واحد إلى الله على جميع غنائم الدنيا)
وهل في تاريخ الحروب والأديان وصية بلغت من السمو الإنساني مبلغ هذه الوصية التي أوصى بها النبي (صلى الله عليه وسلم) معاذ بن جبل الأنصاري حين سيره على رأس وفد إلى اليمن، وقال له: (يسر ولا تعسر، وبشر ولا تنفر، وإنك ستقدم على قوم من أهل الكتاب يسألونك ما مفتاح الجنة، فقل شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له)
تلكم هي ضالة المسلم المنشودة بعد أن تجرد قلبه من حب المال، ومتاع الدنيا.
وتلكم هي الطريق إلى هذه الضالة: شهادة فلجت الشرك، وإيمان زعزع الأصنام
الجنة هي ضالة المسلم التي أخرجته إلى ربه مجاهداً للحصول عليها. الجنة التي لا تشرى بالصكوك، والتي لا تنفع فيها الأموال. الجنة التي ليس في استطاعة بشر أن يلجها وإن غفر له جميع أهل الأرض، إلاَّ أن يكون مؤمناً بالله، وبرسله والأنبياء، الجنة التي ليس للمرء فيها أن يغفر لأخيه، وأن يحل ذنوبه وخطاياه، إلا أن يغفر له الله وهو خير الغافرين
أسر المسلمون في غزوة بني المصطلق عبد الله بن أبي، وحاول عمر بن الخطاب قتله، فقال له الرسول (ص): فكيف يا عمر إذا تحدث الناس وقالوا إن محمداً يقتل أصحابه. . .
ثم سمع ابنه عبد الله بن عبد الله بن أبي عزم ابن الخطاب، فجاء النبي (ص) وقال له: بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه، فأن كنت فاعلاً فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أثر أبر بوالده مني. وإني لأخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس فأقتله فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر فادخل النار.
فقال له الرسول: إنا لا نقتله بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا
تلكم هي روح الفتح الإسلامي السامية
الله أكبر! رجل يتقدم لقتل أبيه متطوعاً، ليحمل رأسه بيده إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لكيلا لا يكون عليه غضاضة في دينه، إن هو رأى غيره يقتله، فتحمله عزة الجاهلية على الأخذ بثأره، فيقتل مؤمناً بكافر، ويدخل النار!
سبحانك ربي! أية قوة جَعَلْتَ في رسالتك هذه، حتى استطاعت أن تحول النفوس الضارية إلى شعلة روحية سامية أضاءت الكون وقد كان ظلاماً حالكاً!
أَيحسنُ النبي صلى الله عليه وسلم ويترفق برجل طعن فيه، وشنع عليه، ويظل مع ذلك في الدنيا من يتهمه، ويفتري عليه. .
هذه هي روح الفتوح الإسلامية على عهد النبي صلى الله عليه وسلم التي لم يعرف التاريخ قط فتوحاً أرحم وأشرف وأعدل منها. وأما روح الفتوح الإسلامية الأخرى، فحسبكم دليلاً عليها هذه الوصية المثلى السامية التي أوصى بها الصديق قواده حين سيرهم لبث الدعوة إلى الإسلام: (لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا توقدوا نخلاً، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة، ولا بقرة، ولا بعيراً، إلا لمأكلة
وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له:
وسوف تقدمون على قوم: يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا أسم الله عليها
لقد كان الفتح الإسلامي فتحاً روحيَّاً مبيناً، خضعت له الجزيرة بأسرها دون أن تجري الدماء فيها أنهاراً، فتحاً دام تسع سنوات لم يقتل فيها إلا (240) من المشركين و (258) من المسلمين. فلا عجب إذا اتصف بهذه الروحانية السامية، لأن الروحانية كانت

العامل الأكبر فيه. فمن أين جاء الجاحدون بهذه الغزوات الدامية التي امتلأت بها كتبهم، وبحت بها حناجرهم؟
من أين جاءوا بهذه المغانم والأرزاق والأسلاب التي أغرت المسلمين على التمادي في الغزو والنهب والسلب؟!
إنه فتح كان الدين غايته، ولولا الذين لكان له غير هذا الشأن
كتب عدي بن أرطأة عامل العراق إلى عمر بن عبد العزيز يقول: (إن الناس قد كثروا في الإسلام، حتى خفت أن يقل الخراج) فكتب إليه عمر يقول: (والله لوددت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا)
أما والله لو أن حاكماً كتب إلى حكومة بلاده، يصف لها قلة خراج ولايته، لما تحرجت تلك الوزارة عن عزله، ولاجتمعت الأمة بأسرها تعالج تلك الأزمة الاقتصادية المخيفة، ولكن الإسلام إنما جاء ليهدي القلوب، لا ليبتز الجيوب (فإن الله إنما بعث محمداً هادياً لا جابياً)
قال عمر بن عبد العزيز في خطبة له: (وددت أن أغنياء الناس اجتمعوا فردوا على فقرائهم حتى نستوي نحن وهم وأكون أنا أولهم) اهـ. ولسنا بحاجة إلى التعليق على هذه الجملة الموجزة وعلى ما تنطوي عليه من الكره لا للغزو والنهب والسلب فحسب، بل لجميع متاع الدنيا
تلكم هي حجة الخصوم في حب الإسلام للنهب والغزو، قد سقطت بين أيديهم، قصاصة ورق، تتلاعب بها الرياح وأمواج الحقيقة. . .
أما القول بأن العرب كانوا وسطاً في القتال فلا يدل إلا على جهل صاحبه بالفطرة العربية، وبأخلاق سكان الصحارى الموحشة، والبراري المقفرة، التي يقوى فيها الذئب، وتصول السباع. ومن شك في تبريز العرب وبصرهم بأحوال القتال، فليستنطق ربوع الأندلس والهند وفارس وأفريقيا، بل وفرنسا، يوم كانت خيول مصر وقحطان تسرح في شرق البلاد وغربها. وكان مجرد أسم العرب يوقع الرعب في قلوب الأعداء لما كان يبلغهم من أنباء فروستهم وبطولتهم. . .
بقي أمر الحروب الصليبية، وقول من قال إنها كانت حروب البسالة والشهامة وأن الصليبيين كانوا عجباً بأنظمتهم وترتيباتهم. ولسنا نزيد في دفع هذا الكلام الغث على إيراد شهادات وأقوال بعض المستشرقين الكبار، وذلك لنكون بعيدين عما يدفع الغير لاتهامنا بالتعرض والتحيز
يقول ديسون: (آن لنا أن نتناول الحروب الصليبية بالبحث تلك الحروب التي بذرت روح العداء بين الإسلام والمسيحية. . . فلقد مشى فيها أقوام كان همهم السلب والنهب والسرقة والقتل، وزاد في ذلك ما وجدوه في طريقهم إلي القدس من وعثاء السفر والمشقات.
والحقيقة أن الصليبيين - عدا من كان في جيوشهم من اللصوص والمجرمين - قد ظهروا للعالم كبرابرة مخيفين، وقد أظهروا في آسيا صنوفاً من الوحشية والفظائع لم تعهدها قط هذه البلاد التي كان قد مر عليها أربعة قرون آمنة في ظل نظام عربي لم تر له من قبل مثيلاً
وقد اقتحم الصليبيون القدس في 15 يولية 1099 وقتلوا في اليوم نفسه عشرة آلاف من المسلمين التجئوا إلى جامع عمر ظناً منهم أنه يحميهم من وحشية أعدائهم، ولم يكفهم هذا قط، ولا نفع غليل نفوسهم العطشى للدماء بل راحوا في الأسبوع نفسه يقتلون من المسلمين واليهود والمسيحيين (غير الكاثوليك) ما يناهز (60) ألف نسمة وكان خلفاء الصليبيين كأجدادهم فظاعة وعسفاً حتى لقد وصفهم بعض كتاب المسيحية وصفاً مؤلماً، وقال أنهم ليسوا من المسيحية الغراء في شيء. .
وقال الأب ربموتد داجيل: (لقد اشتد القتل في هيكل سليمان، وكثرت فيه الجثث حتى أن الجند الذين قاموا بهذه المذبحة لم يعد بإمكانهم أن يطيقوا الرائحة التي كانت تتصاعد من جثث القتلى).
وقال روبرت ل موان: (لقد بدأت مذبحة الترك في 13 ديسمبر ولم يكف ذلك اليوم لقتل جميع الأسرى فأجهزنا على البقية في اليوم التالي).
وقال ميشو: (تعصب الصليبيون في القدس تعصباً لم يسبق له مثيل حتى شكا منه الكتاب المنصفون من مؤرخيهم، فكانوا يكرهون العرب على إلقاء أنفسهم من أعالي

البروج والبيوت، ويجعلونهم طعاماً للنار، ويخرجونهم من الأقبية، وأعماق الأرض، ويجرونهم في الساحات ويقتلونهم فوق جثث الآدميين. ودام الذبح في المسلمين أسبوعاً حتى قتلوا منهم على ما اتفق على روايته مؤرخو الشرق والغرب سبعين ألف نسمة، ولن ينج اليهود كالعرب من الذبح فوضع الصليبيون النار في المذبح الذي لجئوا إليه، وأهلكوهم كلهم بالنار. . .)

وجاء في تاريخ الأمير حيدر: (. . . أخذ ريشارد قلب الأسد سبعمائة من أسرى المسلمين وقتلهم على رأس تل عكا، بمرأى من عساكر صلاح الدين، وبقر عسكره بطون المقتولين ليروا إن كان فيها شيء من الجواهر والذهب، ظناً منهم أنهم ابتلعوا شيئاً منها، وحباً

(بالانتفاع بمرائرهم يتخذونها دواء يستشفون به

وجاء في التاريخ العام للافيس ورامبو: (. . بلغت دماء المسلمين التي سفكها الصليبيون في المسجد الأقصى حداً فظيعاً بحيث كان الفارس منهم وهو راكب تصل إلى رجليه دماء المسلمين التي سفكت في ذلك الحرم المقدس، وسالت كالسيل المنهمر!!. . .)

وكتب ريكولدوس حوالي 1294 في مدح المسلمين قائلاً: ومن ذا الذي لا يعجب بحماستهم وخشوعهم في صلاتهم، وبرحمتهم الفقير وبتقدسيهم أسم الله والأنبياء والأماكن المقدسة، ويبسن عشرتهم، ولطفهم مع الغريب؟)

ولله در غوستاف لوبون إذ يقول: (كان يشعر ظاهر الصليبين بأنهم يقصدون خدمة دينهم بالاستيلاء على القبر المقدس، ولكن الواقع أنهم كانوا منحلين من جوهر الدين، وأقرب إلى نزع شعاره متى رأوا مغنماً لهم، أو فاحشة يأتونها

- :شهادات في الفتح والحضارة الإسلامية

جاء في مقالة: للعالم الفرنسي ليوتي - نقلاً عن الأهرام - (وإذ كان فريق من ذوي الأغراض الملتوية، يزعم أن الإسلام - بفتوحه - يبعث على التدمير والفوضى والتعصب، فأني بعد أن قضيت بين المسلمين مدة من الزمن في الشرق والغرب ولم أكتف بما قرأته عن الإسلام في الكتب - أقول إن جميع تلك المزاعم لا نصيب لها من الصحة:) . . .

وقال العالم الأمريكي لوثرب ستودارد، في كتابه (حاضر العالم الإسلامي): ما كان العرب قط أمة تحب إراقة الدماء، وترغب في الاستلاب والتدمير، بل كانوا على الضد من ذلك أمة موهوبة جليلة الأخلاق والمزايا، تواقة إلى ارتشاف العلوم، محسنة في اعتبار نعم التهذيب، تلك النعم التي قد انتهت إليها، من الحضارة السالفة، وإذ شاع بين الغالبين والمغلوبين التزاوج ووحدة المعتقد، كان اختلاط بعضهم ببعض سريعاً. وعن هذا الاختلاط نشأت حضارة جديدة، وهي جماع متجدد التهذيب اليوناني والروماني والفارسي. وذلك المجموع هو الذي نفخ فيه العرب روحاً جديداً، فنضر وأزهر، وألفوا بين عناصره ومواده بالعبقرية العربية والروح الإسلامي، فاتحد وتماسك بعضه ببعض. فأشرق وعلا علواً كبيراً، وقد سارت المماليك الإسلامية، في القرون الثلاثة الأولى من تاريخها أحسن سير

فكانت أكثر ممالك الدنيا حضارة ورقياً وتقدماً وعمراناً، مرصعة الأقطار بجواهر المدن الزاهرة، والحواضر العامرة، والمساجد الفخمة، والجامعات العلمية المنظمة، وفيها مجموع حكمة القدماء، ومختزن علومهم، يشعان إشعاعاً باهراً. وظل طيلة: هذه القرون الثلاثة يرسل على الغرب النصراني نوراً. . .)

ويقول هربرت جورج ولز: (ساد الإسلام لأنه كان أفضل نظام اجتماعي وسياسي تمخضت عنه الأعصر، وكان حيثما حل يجد أمماً استولى عليها الذل والكسل، وتفشى فيها الظلم والعسف؛ ويجد حكومات متفسخة غاشمة، مستأثرة مستبدة، لا تربطها برعاياها أية رابطة، فمدَّ إلى البشرية يد المساعدة والإنقاذ. . .)

وقال سيدبو: (إن الإسلام هو الدين السامي الذي استطاع أن يسير في فتوحاته دون أن يترك وراءه أثراً للجور، وكانت ترحب به جميع الأمم المغلوبة على أمرها لحكم الروم والفرس. . .)

أفبعد هذه الشهادات الصريحة تقوم ضد الفتح الإسلامي حجة، وينهض دليل؟

هذه صورة من كتابنا (في الدفاع عن الإسلام) الماثل للطبع، وسنتقدم في الأعداد

المقبلة بكلمة أخرى نصور فيها الحضارة الإسلامية الزاهرة، ومبلغ ما وصلت إليه من التقدم والرقي، وما ذلك إلا نُصرةً للحق، وخدمة للعلم، والله خير الناصرين.

شرق الأردن

خليل جمعة الطوال

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

للأستاذ محمد سعيد العريان

1880 - 1937

- 42 -

مقالات منحولة

كثيراً ما تدعو الدواعي كاتباً من الكتاب إلى إنشاء مقال لا يذيله باسمه؛ ويكاد يكون من الشائع المألوف أن يقرأ القراء مقالاً في صحيفة من الصحف غير معزوّ إلى قائله، أو مرموزاً إليه رمزاً ما! ولكن من غير المألوف أن ينشئ كاتب من الكتاب مقالة أو فصلاً من كتاب، أو كتاباً بتمامه، ثم ينسب ما ينشئه إلى كاتب غيره. وللرافعي في تاريخه الأدبي حوادث من مثل ذلك؛ فثمة مقالات، ورسائل، وكتب متداولة مشهورة، يعرفها القراء لغير الرافعي، وهي هي من إنشائه وكدّ فكره وعصارة قلمه، ولكنه آثر بها غيره زهداً عنها أو التماساً للنفع من ورائها. ولو أني أردت أن أستقصي ما أعرف من ذلك لأغضبت كثيراً من الأحياء أحرص على رضاهم وأخشى غضبهم؛ ولقد كنت على أن أطوي هذا الفصل حرصاً على مودتهم، ولكني وقد وضعت نفسي بهذا الموضع لأكون مؤرخاً بعيداً عن التهمة - لم تطب نفسي بكتمان الشهادة، فإذا لم يكن بوسعي أن أذكر كل ما أعرف، فحسبي اللمحة الدالة والإشارة الموجزة، وللحديث بقية إلى حين، ومعذرة إلى أصدقائي . . .

في سنة 1911 أصدر الرافعي كتاب تاريخ آداب العرب فتقبله الأدباء بقبول حسن، وكتبت عنه المقالات الضافية في كبريات الصحف، ولكن ذلك لم يكف الرافعي؛ ففي ذات يوم قصد إلى جريدة (المؤيد) فلقي هناك صديقه المرحوم أحمد زكي باشا فأهدى إليه كتابه ورجاه أن يكتب فصلاً عنه؛ فقال زكي باشا: (وماذا تريدني أن أكتب؟) قال الرافعي: (تقول وتقول. . .) قال زكي باشا: (فأكتب ما تشاء وهذا إمضائي. . .!) وجلس الرافعي إلى مكتب في دار الجريدة، فكتب ما شاء أن ينسب إلى صديقه في تقريظ كتابه، ثم دفعه إليه فذيله باسمه ودفعه إلى عامل المطبعة . . .

وقرأ الناس في اليوم التالي مقالاً ضافياً بإمضاء (أحمد زكي باشا) في تقريظ (تاريخ آداب العرب) شغل الصفة الأولي كلها من الجريدة. ولكن أحداً من القراء لم يعرف أن كاتب هذا المقال هو الرافعي نفسه، يثني على كتابه ويطري نفسه!

ولهذه الحادثة أخوات مع زكي باشا نفسه؛ فإنه لما أنشأ الرافعي نشيده (اسلمي يا مصر. . .) قرأ القراء مقالاً في الأخبار بإمضاء أحمد زكي باشا، يثني على النشيد ويطري مؤلفه، ولم يكن كاتب هذا المقال أحداً غير الرافعي؛ بل أن أكثر المقالات التي يرها القراء في الكتيب الصغير الذي نشره الرافعي عن نشيده هذا، هو من إنشائه أو من إملائه!

وقد ظل هذا (التعاون) وثيقاً بين المرحومين زكي باشا والرافعي إلى أخريات أيامهما؛ ومنه أن زكي باشا كان على نية إعداد معجم لغوي كبير قبيل وفاته، وكان للرافعي في إنشاء هذا المعجم أثر ذو بال، وفيه فصول كتبها الرافعي بتمامها وأعدها للإمضاء. . . ولكن المنية أعجلت المرحوم أحمد زكي باشا عن إصدار هذا المعجم، وأحسبه ما يزال محفوظاً بين مخلفاته المخطوطة

ويتصل بسبب إلى هذه المقالات التي كان ينحلها الرافعي صديقه زكي باشا، ما نحل أخاه المرحوم محمد كامل الرافعي من شرح ديوانه الذي أصدر منه جزءين 1903 - 1904؛ فإن شارحهما هو الرافعي نفسه، وفيهما عليه ثناء وإطراء

في الحادثتين السابقتين إشارة إلى بعض الأسباب التي كانت تحمل الرافعي على أن ينحل أصدقاءه بعض ما يكتبه؛ وهنالك أسباب أخرى:

في سنة 1917 وقعت في طنطا جريمة قتل مروعّة؛ وكانت القتيل امرأة عجوزاً مسموعة بالغني والشح الكزازة، تزوّجها قبيل مقتلها شاب من الشباب العابثين طمعاً

في مالها، فلم يلبث معها إلا قليلاً ثم وقعت الجريمة!
وتوجهت التهمة أول ما توجهت إلى زوجها الشاب، ثم انصرفت عنه إلى أختها وزوج أختها فسيقا إلى قفص الاتهام، وكانا شيخين عجوزين فيهما بلاهة وغفلة، فلم يستطيعا الدفاع عن نفسيهما، وهيَّأَتْهما بغفلتهما وبلاهتهما الفرصة للمجرم الحقيقي أن يحوك حولهما الشبكة وأن يصوّب عليهما أدلة الاتهام لينجو هو من العقوبة. . .
كان المجرم الحقيقي معروفاً للجميع، ولكن المحكمة بما اجتمع لديها من براهين مصنوعة
لم تجد أمامها غير هذين البريئين المغفّلين فألقت بهما إلى السجن المؤبد؛ وقضيا في السجن بضع سنين!
شيخان على أبواب الأبدية، يساقان إلي ظلام السجن ليس من ورائه إلا ظلام القبر، ولم يقترفا جريمة أو يرتكبا إثماً. . . ولكن القانون قد قال كلمته، والقانون حق واجب الأحترام؛ فلم تبق إلا الرحمة الإنسانية شفيعاً من قسوة القانون. . .
وسعت أسرة السجينين إلى المحامي الأديب الأستاذ حافظ ع تطلب إليه أن يكتب استرحاماً في أمرهما إلى أمير البلاد، لعل في عطفه ما يأسو الجرح ويخفّف وقع المصاب، وجعلت له أجراً على ذلك مائة جنيه!
وما ذل يقول المحامي في قضية فرغت المحكمة من أمرها وقال القضاء كلمته؟
ليس هذا سبيل المحامي الذي يرتَّب القضايا ويستنبط النتائج ويستنطق الصامت ويستوضح الغامض؛ لقد فات أوان ذلك كله فلم تبق إلا كلمة الشاعر الذي يخاطب النفس الإنسانية فيجتلب الرحمة ويستدر العبرة ويحسن الاعتذار عن البشرية من أخطائها فيذكي العاطفة الخابية ويوقظ الإحساس الراقد ويتحدث إلى القلب الإنساني حديث الوجدان والشعر والعاطفة. . .
وقصد الأستاذ حافظ إلى صديقه المرحوم الرافعي، ليضع القضية بين يديه ويسأله أن يكتب الاسترحام إلى أمير البلاد، وسمى له أجرة إن توفق في مسعاه
وقرأ الرافعي القضية وأحاط بها من كافة نواحيها، ثم شرع قلمه وكتب. . . وبلغت صيحته حيث أراد فأفرج عن السجينين في مايو سنة 1921
وتناول الرافعي أجرته على ذلك من المحامي سبعة عشر جنيهاً واستبقى المحامي لنفسه ثلاثة وثمانين. . .
في هذا الاسترحام الذي كتبه الرافعي في بضع وأربعين صفحة ونحله صديقه المحامي ليطبعه باسمه، لون من أدب الرافعي غير معروف لقرائه؛ فيه تحليل نفسي بديع، وفيه شعر إنساني يبلغ الغاية من السموّ؛ وفيه منطق واستنباط وملاحظة دقيقة لا تجد مقلها في أساليب الأدباء
وقد ظل هذا (التعاون) الأدبي متصلاً بين الرافعي وصديقه الأستاذ حافظ إلى ما قبل موت
الرافعي؛ ولكن هذا (التعاون) قد خرج من نطاق القضايا والمحاكمات إلى نطاق أدبي آخر ليس من حقي أن أتحدث عنه اليوم. . . . وعند الأستاذ الزيات بقية الخبر، تحدث به الرافعي إليه في مجلس ضمنا نحن الثلاثة. . . .
وفي شهر ديسمبر من سنة ما، قصد الأستاذ جورج إبراهيم إلى صديقه الرافعي، يطلب إليه أن يعد كلمة عن المسيح لتلقيها فتاة مسيحية في حفلة مدرسية في ليلة عيد الميلاد. . .
وكتب الرافعي المسلم كلمة مسلمة في تمجيد المسيح فدفعها إلى صديقه. . . وألقتها الفتاة في حفل حاشد من المسيحيين المثقفين فخلبت ألبابهم واستحقت منهم أبلغ الإعجاب
وفي الشهر التالي كانت هذه الخطبة المسيحية الرافعية منشورة في (المقتطف) منسوبة إلى الفتاة. وكانت عند أكثر القراء المسيحيين إنجيلاً من الإنجيل
تحت يدي الآن النسخة الأصلية من هذه الخطبة مكتوبة بخط الرافعي، وهي النسخة التي بعث بها إلى صديقه الأستاذ جورج ليدفعها إلى الفتاة؛ وفي صدرها إلى صديقه: (هذا ما تيسر لي على شرط الفتاة، فنقح فيه ما شئت، واضبط لها الكلام. والسلام)
وفي آخرها يتفكه مع صديقه ((وعلى الأرض السلام، وفي الناس المسرة) والمضرة، والمعرة يا عم جورجي)

وكان الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي - صهر الرافعي - من تلاميذ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده المقربين، وكان أدنى منزلة إليه من كثير من تلاميذه، على أن تأثر به كان من الناحية الأدبية وحسب، على حين كان تلميذه المقرب المرحوم السيد رشيد رضا مخصوصاً بالرواية عنه في الناحية الدينية، فكلاهما من تلامذة الأستاذ الإمام ولكن لكل منهما نهجه وشرعته

فلما هم الأستاذ البرقوقي أن يصدر مجلة البيان - وكان السيد رشيد رضا قد سبقه بإصدار مجلة المنار - قصد البرقوقي إلى الرافعي يقول له: (إنني لا أتصوَّر كيف يصدر العدد الأول من (البيان) وليس فيه كلمة أو حديث أو مجلس من مجالس المرحوم الأستاذ الإمام، وأنا كنت أدنى إليه مجلساً من رشيد رضا الذي لا يصدر عدد من مجلته - المنار - إلا وفيه حديث أو خبر أو مجلس من مجالس الشيخ محمد عبده!)

قال الرافعي: (فابدأ العدد الأول بما شئت من حديثه أو مجالس درسه!)

قال البرقوقي: (ولكني لا أجد عندي ما أرويه عن الإمام؛ لقد ترك الشيخ في نفسي أثره ولكنه لم يترك في ذاكرتي من حديثه ومجالسه شيئاً يستحق الرواية!)

قال الرافعي: (. . . . ولابد من ذكر شيء عنه في البيان؟)

قال: (بلى، وإلا غلبني رشيد رضا واستطال عليّ عند قراه بأنه هو وحده تلميذ الإمام وراويه!)

. . .وضحك الرافعي وأطرق هنيهة، ثم تناول قلماً وورقة وكتب

وصدر العد الأول من مجلة البيان، وفيه حديث يرويه البرقوقي عن الشيخ محمد عبده في مجلس من مجالس درسه؛ بأسلوب من أسلوبه وروح من روحه وبيان في مثل بيانه؛ وما قال المرحوم الإمام شيئاً من ذلك ولا تحدث به، ولكنه حديث مصنوع وضعه الرافعي على لسان الأستاذ الإمام ونشره البرقوقي ليقضي لبانة في نفسه . . .

ألقى إليَّ الرافعي هذا الحديث ساخراً، ثم دفع إليّ العدد الأول من مجلة البيان . . . وهو يقول: (أقرأ؛ أترى هذا الحديث من مهارة السبك بحيث يجوز على القراء أنه من حديث الأستاذ الإمام؟)

وضحكْتُ وضحك الرافعي وعاد يقول: (ولكن تمام الفكاهة أن السيد رشيد رضا لما قرأ هذا الحديث المصنوع، التفت إلى جلساته قائلاً: (وأي حديث هذا حتى يبدأ به البرقوقي مجلته؟ لقد كنت حاضراً مجلس الشيخ، وسمعت منه هذا الحديث، ولكني لم أجد له من القيمة الأدبية ما يحملني على روايته. . .!)

واستمرّ هذا (التعاون) أيضاً بين الرافعي والبرقوقي طول المدة التي كنت تصدر . . . . فيها مجلة البيان، فأيّ مقال قرأت من أعداد هذه المجلة فشككت في نسبته إلى . . .مُذَيَّله بأسمه، فاحمله على أنه مما كتب الرافعي من الأدب المنحول

ويدخل في هذا الباب كثير من المقالات كان الرافعي يكتبها بأسماء طائفة من ناشئة المتأدبين؛ ليدفع عن نفسه في معركة، أو يدعو إلى نفسه لمغنم، أو ليعين صاحباً على العيش، أو ليوحي إلى (صاحب الإمضاء) إيحاءً يدفعه إلى الاستمرار في الأدب والأمل في أن يكون غداً من الكتاب المشهورين. . . وليس يعنيني في هذه الناحية أن أسمي أحداً أو أشير إليه، إذ كان الذي كتبه من ذلك ليس له من القيمة الأدبية ما يدعونا إلى الحرص على

تصحيح نسبه، وأكثره لغو مما يُنشر في بعض الصحف لملء الفراغ

محمد سعيد العريان

كلمة أخيرة

بين العقاد والرافعي

وبيني وبين الرافعيين

للأستاذ سيد قطب

من بين الرسائل التي تلقيتها في أثناء كتابة هذه الفصول رسالة يقول فيها كاتبها الأديب (صلاح الدين الصدفي) بعد كلام كثير:

ونحن يا سيدي من سكان الريف الذين كثيراً ما يتأثرون بالآراء المتداولة، . . .) والأشعات المفتعلة، وقد كنا نعتقد أن العقاد كاتب سياسي من الطراز الأول، ولكنا نفضل عليه في الكتابة الأدبية آخرين. أسهل منه في الفهم، وأعرف لدى الجماهير، ثم تابعنا كلماتك فاستطعت أن تشوقنا إلى قراءة مؤلفاته النثرية على ضوء جديد، ولكنا

إلى أمد قريب كنا لا نميل إلى الاعتراف بشاعرية العقاد، فإن كان شاعراً فهو شاعر الفلسفة والتأمل لا شاعر العاطفة، وإذا سلمنا أن له في شعر العواطف شيئاً، فما كنا نصدق أنه شاعر غزل. وأخيراً انكشفت عنا هذه الحجب التي بثتها فينا دعايات مغرضة، وإذا بنا نفهم أن العقاد هو كل أولئك، وأنه ممتاز في جميع مناحي الشعر، متفوق في كل هذه الاحساسات، وأسفنا على ضياع زمن طويل، لم نتنبه فيه إلى خصوبة هذا الإنتاج الوفير. . .)

هذه الرسالة جماع ما ورد إلي في رسائل متفرقة، وفي هذه الفقرات القصيرة ما يبرر البسط والتوسع الذي عالجت به (غزل العقاد) خاصة، وإن كنت أحس أن في القول متسعاً وأن غزل العقاد وشعره عامة، يصلح لدراسات مستفيضة، ولشروح وتآليف تجعل منه - كما يستحق - مذهباً قائماً، معروف المعالم، واضح السمات.

وشعر العقاد فن خصب، صالح للدراسة على أنماط مختلفة من الطرق والأوضاع، فتستطيع أن تدرس فنونه كل فن على حدة كما صنعت في (غزل العقاد) وتستطيع أن تدرس اتجاهاته وتلتمس لها أمثلة من مختلف فنونه، كما صنعت في محاضرتي عام 1934 عن (وحي الأربعين). وحيثما اتجهت في الدراسة وجدت مادة جديدة، وذخيرة فنية،

لأن العقاد صاحب طبيعة وصاحب فلسفة معينة في الحياة.

وقد اخترت أن أعرض (غزل العقاد) لأن الغزل عامة، وعند العقاد خاصة، معرض لجميع القوى النفسية التي تجيش بالشعر، وتحفز للتعبير، وفيه تستطيع أن تدرس نظرة الشاعر للكون والحياة وأغراضهما الأصيلة وآمالهما الخالدة، وتقف على رأيه في المثل العليا والأخلاق والفضائل، وتميز إحساسه بالمرأة والفنون والجمال، على نحو ما رأى القراء في الفصول السابقة.

ثم لقد كان هناك دافع آخر لاختيار الغزل فلقد كان حديثي عن الرافعي في غزله أو ما كتبه هو على أنه غزل، وكان أمامي لإثبات رأيي في كلا الرجلين طريقان: الأول أن أعرض ما قاله الرافعي في هذا الباب وأفنده، وهذا عمل أعتقد أن لا غناء فيه ولا جدوى منه لي ولا للقراء، فقد قرأت كل ما كتبه الرافعي في هذا الباب، فإذا هو خواء مقفر من كل عاطفة وإحساس، فإذا أنا عرضته، فإنما أعرض قطعة من صحاري النفوس ليس فيها ندى ولا حياة، ولن يصبر القراء معي - إذا أنا صبرت على قطع هذا القفار الموحش المتشابه الأرجاء. وبحسبي وحسبهم ما استعرضه من مثل هي نماذج لكل ما هناك

والثاني - وقد اخترته - أن أعرض غزل العقاد، فأكشف عن هذا العالم الحي المائج المضطرب بشتى الانفعالات والاتجاهات ثم يخلص بنا القول فيه إلى أن كل ما تجده هنا لا تجده عند الرافعي، لأن العقاد والرافعي مختلفان متناقضان

ولقد شاءت الظروف أن يكون العنوان: (بين العقاد والرافعي) فتوجد رابطة بين اسمي هذين الرجلين، لا وجود لها في أدبهما ولا اتجاههما ولا في شيء مما يصح فيه التشابه والارتباط

والواقع لقد كان في هذا الجمع بينهما ظلم لكيلهما: فأما العقاد فمظلوم - ولاشك - أن يقرن أسمه إلى أسم الرافعي، وبينهما هذه الهوة السحيقة الفاصلة، الهوة التي تفصل بين الصورة الفنية ترمز إلى معنى وتكاد تجيش بالحياة، وتهمس بالنطق والتعبير والنقوش التي نراها على أبواب المساجد ونوافذها: خطوطاً متعرجة أو مستقيمة ودوائر ومثلثات ومربعات كلها من عمل المسطرة والبركار، ولا شيء وراءها غير المهارة في اللعب والتزويق

فعشاق الصور الفنية محال أن يلتفتوا إلى هذا العبث على أبواب المساجد وأمثالها من شغل المعروف عند النجارين، مهما بلغ التفنن في نقوشه وألوانه، وعشاق (الأربسكة) (الأربسكة) لا يتطلعون إلى فهم الصور الفنية بحال من الأحوال

والرافعي كذلك مظلوم - ولاشك - أن يقرن أسمه إلى أسم العقاد؛ فيطالبه النقاد حينئذ بالحياة والحركة والعمق، أو يطالبونه برأي معين في مسائل الحياة الكبرى وفي نواحي الإحساس والشعور، والرجل في عالم آخر غير هذا كله، عالم الأخشاب المنقوشة والشرفات المزركشة، والأصباغ والألوان. ومازلت كلما عدت إلى قراءة

شيء من كتابة الرافعي، يمتد بي الخيال إلى (البهلوان) الذي (يتقصع) في مشيته ويضع يده في خاصرته، ويأبى أن يسير في الطريق بخطوات سهلة كما خلقه الله!
أما شأن الرافعيين معي، فشأن الرافعي مع العقاد سواء بسواء. كنت أعرض لهم الحياة المائجة الهائجة، فيعرضون لي النصوص والألفاظ؛ وكنت أحاول أن أفتح أبصارهم وأفتق إحساسهم، وأفهمهم أن في الدنيا شيئاً غير التعبير المزوق، وغير اللفتات الذهنية القريبة، والمعاني اللولبية، والجمل المنثنية المترقصة، فيأبوا إلا أن يعودوا إلى هذا العبث العابث في لف ودوران
ولست على استعداد أن استعيد ما قلت وقالوا، فقد أنفقوا - على ما يظهر - كل رصيدهم في هذه الكلمات المكرورة المعادة التي كتبوها، وما هذا بعجيب، فما لهم رصيد سوى بضع جمل وبضعة تعبيرات، وما كان لهذا العالم المصنوع الذي يعيشون فيه، ولا ينفذون منه أبداً إلى ضجة الحياة، أن يكون له رصيد مذخور سوى الخواء والإقفار
ولكنني أريد أن أعرض لبعض ما قاله مندوبهم الأخير، وأعاد به ما قالوه واحداً بعد الآخر في جهد وإعياء شديد
لقد أخذ يردد نغمة العوام في الموتى والأحياء، ويعتمد على شعور هؤلاء العوام في تقدير موقفي وأنا أتحدث عن العقاد الحي، وموقفهم وهم ينافحون عن الرافعي الذي مات
والمسألة - في ظاهرها - كما يقولون، ولكن الواقع غير ذلك، فأنا في دفاعي عن العقاد أمجد وأشرف من دفاعهم عن الرافعي، إذا كان مناط الحكم في هذا ما يناله كلانا من ربح أو خسارة، على النحو الذي يفهمونه هم من الربح والخسارة
فماذا يكلفهم الدفاع عن الرافعي؟ إنه لا يكلفهم شيئاً، بل على العكس يكسبهم حسن الأحدوثة
لدفاعهم عن رجل ميت - عند عوام القراء والأدباء في هذا البلد وهم بحمد الله - كثيرون؛ ويكسبهم - كما يريدون - سمعة الدفاع عن الدين، وأتباعه بالملايين في مصر والبلاد العربية؛ ويكسبهم محبة الأسلوبيين والعاجزين عن التحليق في الأجواء الفنية العالية، وهؤلاء يكونون تسعين في المائة من القراء بل من الأدباء، ولا يتعرضون لخطر واحد مما يتعرض له أنصار العقاد
أما الدفاع عن العقاد فيكلفني التعرض لغضب الكثيرين من ذوي النفوذ في هذه الوزارة وفي كل وزارة، ومن بينهم كثير من رؤسائي في وزارة المعارف نفسها، لأن العقاد رجل لم تبق له قولة الحق صديقاً من السياسيين، وكثير ممن يظهرون صداقته يكنون له غير ذلك لأنهم ينفسون عليه شموخه واعتداده بنفسه وتعاليه على الضرورات
ويكلفني خصومة الأدباء من المدرسة القديمة والحديثة على السواء. فأما أولئك فسبب سخطهم معروف، وأما هؤلاء فلأنهم ينفسون على العقاد أن يعطيه ناقد بعض ما يستحق من تقدير، ومن لا يعرف هذه الحقيقة فأنا - وقد أتاحت لي الظروف الإطلاع على داخلية كثير من الصحف والأدباء - أعرف ذلك وأعرف أن الكلمات التي يقدر فيها العقاد لا تجد طريقها سهلاً للظهور في الصحف على اختلاف أهوائها ونزعاتها السياسية، واختلاف المشرفين عليها من الأدباء وغير الأدباء
ويكلفني خصومة كثير من ناقصي الرجولة - وهم أعداء العقاد الطبيعيون - وكثير من ناقصي الثقافة الذين لا يفهمون العقاد فيحملونه تبعة عدم فهمه ولا يكلفون أنفسهم عناء الدرس والثقافة. وكثير من مغلقي الطباع الذين يستغلقون أمام كل أدب حي. وكثير وكثير ممن يؤلفون أكثرية القراء في هذا البلد المنكوب. . .
وقد يفهم هؤلاء النفعيون أن للعقاد الآن نفوذاً ننتفع به؛ فلهؤلاء أقول: إن للعقاد نفوذاً نعم، ولكنه لا يستخدمه في قضاء المصالح وتنفيذ الأغراض، إنما يحتفظ به لنفسه في إبداء آرائه، واستقلال شخصيته، وتحطيم من يستحق التحطيم وبناء من يستحق البناء وذلك بغض النظر عن طبيعتي الخاصة في الانتفاع بنفوذ الأصدقاء، ذلك الانتفاع الذي يبدو غير مفهوم، حينما كنت أناصر العقاد وهو خصم الوزارات القائمة، وأوقع على ما أكتبه بإمضائي الصريح، في أحرج الأوقات

فخرافة الموتى والأحياء لا يرددها هؤلاء، إلا كما يرددها الأميون والعوام
وقد استكثر مندوبهم الأخير أن أقول: إن العقاد انتصر على الوفد وعنده عدة المال وعدة الحكم وعدة الماضي الوطني وكل عدة تؤهل للنجاح.
والذين يعيشون في ظلام الجحور يحق لهم أن يعجبوا لهذا الكلام. أما الذي وقف على صنوف محاربة الوفد للعقاد وهو في إبان سطوته، وعرفوا أنها لم تقف عند الخصومة الشريفة في سلاح ولا وسيلة، والذي يذكر الظروف التي خرج العقاد فيها على الوفد وما تلاها، فإنما يعلم أنني اقتصدت في هذا المقال!
الذي يعلم أن هذه الخصومة وصلت إلى حد محاربة العقاد في اللقمة، فلم تكتف بمحاربة الصحف التي يعمل فيها حتى يكف عن الكتابة الشهور الطوال، بل كانت تدفع لأصحاب المكتبات مئات الجنيهات حتى لا تبيع كتاباً للعقاد، وأي كتاب؟ إنه كتاب سعد زغلول الزعيم الأول لهؤلاء الخصوم؟
والذي يعلم أن هذه الخصومة هاجت وماجت لأن العقاد ألقى محاضرة من محطة الإذاعة الحكومية - على عهد الوزارة الصديقة - ولأن هناك مبلغاً يدفع قيمة لهذه المحاضرة، فأما أن تكف المحطة عن محاضرات العقاد وإما أن تعاقبها الحكومة بإهمال تحصيل الضريبة!
والذي يعلم أن هذه الخصومة كانت تلجأ إلى أصدقاء العقاد لتتخذ منهم جواسيس عليه وتدفع لهم ثمن هذه الجاسوسية علاوات وترقيات ومكافآت، فلم يسلم من هذا الأغراء إلا القليلون من خواص العقاد!
الذي يعلم هذا وساوه، ويعلم أن العقاد خرج والوفد في عنفوان قوته الأدبية والمادية، وجرؤ على ما لم يجرؤ عليه إنسان قبل، فحطم قداسة الأصنام، ولقح هذا الجسم الضخم بجراثيم الفناء التي ظلت تعمل عملها حتى خرّ بعد ذلك في الميدان
الذي يعلم كل ذلك لا يستكثر ما قلت، إلا أن يكون كصاحبنا يعيش في صومعة لا ينفذ إليها الضياء
وحكاية الدين والأدب، التي لج فيها، وجعلها محور الحديث، وقد تهكمت عليها من قبل، لأنها لا تناقش بغير التهكم، فأريد أن أفهم إذا نحن سرنا على هذه القاعدة العجيبة، وأسقطنا من حسابنا الأدب غير الديني في الأدب العربي كله، ماذا يبقى لنا بعد ذلك من هذا التراث
الضخم؟ اللهم إلا قصيدة البردة وبانت سعاد وبعض الأدعية والأوراد!
وصاحبنا أستاذ الكيمياء في كلية الطب - هكذا كتب أخيراً ليهددنا بعلمه الغزير وينكر علينا علمية التفكير وعلمية الأفكار، ويشرح خواص الذهب الوارد في بيت الرافعي. ومع هذا يطاوعه علمه أن يقول: إن الكيمياويين يصفون الذهب بأنه فلز نبيل، والذي وصل إليه علمي القليل أن هؤلاء الكيمياويين يصفون الذهب بأنه فلز بليد لأنه لا يتفاعل مع الأكسجين ولا مع كثير من الأحماض، ويصفون معدنا كالحديد مثلاً بأنه فلز نشيط لسرعة تفاعله، لأن مدار وصفهم للفلزات قائم على أساس التفاعل لا الثمن، ولا ادري من أين أتى صاحبنا بهذا القول الفريد!
ولست أعني بهذا أن أناقش الكلام الطويل العريض الذي فسر به أبيات الرافعي، فسواء كان الذهب نبيلاً أو خسيساً، فسيبقى شعر الرافعي وأدبه كله يدور حول الصور الذهنية الكابية ويتيه في القفر الجامد اليباب
وبعد فقد رأى الناس مما كتبه هؤلاء وما كتبه الرافعي قبلهم، أنه ليس من اليسير عليهم فهم العقاد، وأنه ليس من مصلحة العقاد أن يفهموه، فما هم بمستطيعين فهمه حتى يسف هو ويقفر ويمسخ خلقاً غير هذا الخلق الباسق الجبار.
ولقد اطمأن العقاد إلى مكانه من الشهرة ومقامه من الخلود، فما يعنيه أن يثلبه ألف رافعي، وما ينقصه أن يقول فيه هؤلاء الرافعيون.
وفي نهاية هذا البحث أجد لزاماً على أن أشكر للرسالة وصاحبها إفساح هذا المجال، وأرجو أن أكون قد أفدت القراء بقدر ما استغرقت من فراغ. والسلام.
حلوان
سيد قطب
جورجياس أو البيان
لافلاطون

تنزل (جورجياس) من آثار (أفلاطون) منزلة الشرف، لأنها
أجمل محاوراته وأكملها وأجدرها جميعاً بأن تكون (إنجيلا
للفلسفة!)
(رينوفييه)
إنما تحيا الأخلاق الفاضلة دائماً وتنتصر لأنها أقوى وأقدر
من جميع الهادمين!)
(جورجياس: أفلاطون)
الأشخاص
1 - سقراط: بطل المحاورة: (ط)
2 - جورجياس: السفسطائي: (ج)
3 - شيريفين: صديق سقراط: (س)
4 - بولوس: تلميذ جورجياس: (ب)
5 - كاليكليس: الأثيني: (ك)
ط - وأي هذه الأشياء التي تتكلم عنها تعتبر أجملها؟؟
ب - أية أشياء؟
ط - الاقتصاد والطب والعدالة؟
ب - أعتبر العدالة أجمل الثلاثة يا سقراط.
ط - ومادامت هي أجملها، فهي إذاً تلك التي تنتج أعمق اللذات أو أعظم المكاسب أو هما
معاً.
ب - نعم.
ط - وإذاً فلذيذ أن نكون بين أيدي الأطباء، وأن نترك نفوسنا لعلاجهم!
ب - لست أعتقد في هذا!
ط - ولكن الإنسان يربح من العلاج، أليس كذلك؟
ب - بلى
ط - ذلك لتخلصه من شر كبير، فهو يفضل أن يتحمل الألم وان يستعيد الصحة!
ب - من غير شك.
ط - وفي هذه الظروف، متى نكون في أفضل حالات الصحة؟ أعندما نكون بين أيدي الأطباء، أم عندما لا يكون بنا مرض قط؟
ب - ظاهر أن ذلك يكون عندما لا يكون بنا أي مرض.
ط - ذلك لأن السعادة لا تقوم في الواقع - كما يلوح - في أن نتخلص من الشر، بل في ألا يكون لدينا شر قط.
ب - ذلك صحيح.
ط - وأي الرجلين يكون جسمه أو نفسه مصابة بالشر؟ وأيهما يكون أشقى من الآخر؟ أذلك الذي نعالجه ونخلصه من شره، أم ذلك الذي لا يعالج ويبقى بشره؟
ب - يبدو أنه ذلك الذي لا يعالج
ط - أو لم نقل إن من يلقى جزاء خطيئته يتخلص من أفدح الشرور وهو رداءة النفس؟
ب - قلنا ذلك حقاً
ط - وقلنا لأن العقاب يجعلنا حكماء، ويضطرنا لأن نكون أكثر عدلاً، مادامت العدالة طباً لرداءة النفس
ب - نعم
ط - وإذا فأشقى الناس هو ذلك الذي لا رذيلة أو رداءة في نفسه، لأنا قد رأينا أن (رداءة النفس) أفدح الشرور
ب - من غير أدنى شك
ط - ويأتي بعده من نخلصه من (رداءته)!
ب - يلوح هذا!

ط - وذلك الذي نخلصه هو الشخص الذي ننبهه ونعلمه، ونوبخه ونعنفه، ونقدمه ليقلى جزاء فعلته!
ب - نعم
ط - وذلك الذي يعيش كأشقى ما يعيش الناس، هو ذلك الذي يحتفظ بظلمه بدلاً من أن يتخلص منه
ب - نعم
ط - أو ليست هذه تماماً حالة الشخص الذي يرتكب أفظع الجرائم، وينهج أظلم المناهج، ثم ينجح في وضع نفسه فوق الإنذار والعقاب والتأديب، كما فعل - تبعاً لقولك - (أرشليوس) وكما يفعل الطغاة الآخرون من خطباء وسلاطين؟
ب - يلوح ذلك.
ط - إن هؤلاء يا عزيزي بولوس قد سلكوا تقريباً نفس السبيل الذي يسلكه من يصاب بأخطر الأمراض، ولكنه يعمل على إهمال سؤال الأطباء عن أمراضه الجسمية، وعلى الفرار من علاجهم، لأنه يخشى - كما يفعل الأطباء - من أنهم إذا عالجوه بالنار والحديد فإنهم يسببون له شراً.! ألست تتصور حالتهم على ذلك النحو؟
ب - بلى.
ط - والسبب فيما يلوح جهلهم ثمن الصحة وحالة الجسم السليم. وإذا شئنا أن نحكم تبعاً للأصول التي اتفقنا الآن عليها فإنا نقول إن من يسعون لنجنب العقاب يعتزمون تماماً أن ينهجوا نفس هذا السبيل يا بولوس! ذلك أنهم ينظرون للألم ويغمضون أعينهم عما فيه نفع لهم ولا يعرفون كم يجب أن يشكو المرء من السكنى مع نفس مؤذية فاسدة ظالمة كافرة، أكثر من شكواه من السكنى مع جسم مريض معتل.!، ومن هنا تراهم يعملون كل ما يمكنهم عمله لكي لا يكفروا عن خطيئتهم ولا يتخلصوا من أفدح شرورهم، فيحصلون لأنفسهم الثروة والأصدقاء والمهارة التي تمكنهم من إقناع الناس بالكلام! ولكن إذا كانت مبادئنا صحيحة فانظر أنت ماذا ينتج عن ذلك البحث، أم تريد أن نخرج منه نحن بالنتائج؟
ب - نعم، إذا سمحت!
ط - ألا ينتج عنها أن أفدح الشرور هو أن نكون ظالمين وأن نعيش في الظلم؟
ب - بلى، كما يتضح
ط - أو لم نعرف من الناحية الأخرى أن الإنسان يخلص نفسه من ذلك الشر إذا لقي جزاء خطيئته؟
ب - ذلك ممكن!
ط - وأن عدم العقاب لا يفعل أكثر من الإبقاء على ذلك الشر؟
ب - بلى!
ط - وإذاً لا يكون ارتكاب الظلم من حيث فداحة الشر إلا في المنزلة الثانية، ولكن الظلم الذي لم يلق جزاءه هو أول الشرور وأفدحها؟
ب - يلوح هذا
ط - أو لم نك يا صديقي العزيز في نزاع بشأن هذه النقطة؟ لقد كنت تقول إن (أرشليوس) سعيد لأنه ارتكب أفظع الجرائم وفر من كل عقاب، وكنت أزعم - على النقيض - أن (أرشليوس) وكل من لا يعاقب على خطيئته يكون بالطبع أشقى الناس وأتعسهم، وأن من يرتكب ظلماً يبقى دائماً أكثر شقاء وتعاسة من ذلك الذي يتحمله، وأن من لا يقلى جزاء خطيئته يظل أشقى من ذلك الذي يكفر عنها أليست هذه هي النقطة التي تحدث عنها؟
ب - بلى
ط - ألم يتضح أن الحق في جانبي؟
ب - يلوح هذا!
ب - بالتأكيد!
ط - ذلك هو المعقول، فإذا كان هو الحق يا بولوس فما عسى أن تكون فائدة البيان؟ إنه يجب في الحق - وتبعاً للمبادئ التي اتفقنا الآن عليها - أن نتجنب قبل كل شيء ارتكاب الظلم نظراً لأن ذلك يكون في نفسه شراً كافياً. ألست ترى ذلك صحيحاً؟

ب - بالتأكيد!
ط - وإذا ما ارتكب أحد ظلماً، وكان هو المرتكب له بنفسه أو شخص آخر ممن يهمهم أمره، فيجب أن يذهب عن طيبة خاطر إلى القاضي حيث يكفر عنه بأسرع ما يمكن كما نذهب إلى الطبيب، ويجب أن يعجل بالذهاب خوفاً من أن يزمن معه مرض الظلم ولا ينتج إلا قرحة لا تشفى، وإلا فماذا نستطيع أن نقول خلاف ذلك يا بولوس إذا ظلت مقدماتنا صحيحة ثابتة؟
أليست هذه هي الحالة الوحيدة التي تتفق فيها نتائجها معها؟
ب - وماذا نستطيع أن نقول خلاف ذلك يا سقراط؟
ط - وإذن لكيما ندفع عن أنفسنا اتهام الظلم عندما نكون قد ارتكبنا خطيئة، أو ارتكبها والدانا أو أبناؤنا أو أصدقاؤنا أو وطننا فإن البيان لا يكون له عندنا أي استعمال يا بولوس إذا لم نقبل على النقيض وجوب اتهام أنفسنا أولاً، ثم والدينا وأصدقائنا في كل مرة يرتكبون فيها ظلماً! وإذا لم نوافق على وجوب عدم إخفاء خطايانا على الإطلاق، وعلى ضرورة إظهارها في وضح النهار كيما نكفر عنها ونستعيد بذلك صحتنا!، ثم إذا لم نقبل تقوية أنفسنا وغيرنا حتى لا نتراجع، وحتى نتقدم بشجاعة وبعين مفتوحة كما نتقدم أمام الطبيب ليبتر أعضاءنا أو ليكويها بالنار! وإذا لم نسلم بوجوب اتباع الحسن والجميل دون النظر إلى الألم، وإذا لم نرض بأنه إذا كانت الخطيئة التي ارتكبناها تستحق الضرب فلنتقدم إليه، أو السجن فلنمد أيدينا للقيد، أو التعويض فلندفعه، أو النفي فلننف، أو الموت فلنتحمله، وإذا لم نك أول من يقف في وجه أنفسنا وأقاربنا ونستعمل البيان فقد لتخليصنا من أفدح الشرور - وأعني به الظلم، وذلك بالكشف عن أخطائنا! فترى هل يجب أن نقول هنا نعم أو لا يا بولوس
ب - يبدو لي أن ذلك غريب يا سقراط ولكنه ربما كان نتيجة لما قلناه من قبل!
ط - وإذا فيجب إما أن ننكر ما قلناه، وإما أن نسلم بهذه النتائج!
ب - نعم، إنه لكذلك
(يتبع)
محمد حسن ظاظا
الكميت بن زيد
شاعر العصر المرواني
للأستاذ عبد المتعال الصعيدي
وللكميت أربع هاشميات أخرى غير هذه الهاشمية اللامية السابقة، وقد اتجه في مطالعها اتجاهاً جديداً ينكر فيه الاتجاهات العابثة التي اعتادها الشعراء في مطلع قصائدهم، وهي هاشمية الميمية التي تبلغ (102) من الأبيات، وثلاث هاشميات بائية تبلغ الأولى منها (138) من الأبيات، وتبلغ الثانية (67) بيتاً وتبلغ الثالثة (28) بيتاً
وقد قال في مطلع هاشميته الميمية:
من لقلبٍ متيمَّ مستهام ... غير ما صبوةٍ ولا أحلامِ
طارقات ولا ادكارَ غوَاني ... واضحات الخدود كالآرامِ
بل هواي الذي أجن وأبدي ... لبني هاشم فرُوعِ الأنام
وقال في بائيته الأولى، وهي التي ذكرنا أنه عرضها على الفرزدق فأعجب بها، وفضله على الشعراء جميعهم، من بقي منهم ومن مضى:
طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب ... ولا لِعباً مني وذو الشوق يلعبُ
ولم يُلهني دارٌ ولا رسمُ منزل ... ولم يَتطرَّيْنِي بنانٌ مخضبُ
ولا أنا ممن يزجرِ الطير همه ... أصاح غراب أم تعرض ثعلب
ولا السائحات البارحات عشية ... أمرّ سليمُ القرن أم مرَّ أعضب
ولكن إلى أهل الفضائل والتقى ... وخير بني حواء والخير يطلب
وقال في مطلع بائيته الثانية:
أني ومن أين آبك الطرب ... من حيث لا صبوة ولا ريّب
لا من طلاب المحجبات إذا ... ألقى دون المعاصر الحجب
ولا حمول غدت ولا دمل ... مر لها بعد حقبة حقب
ولم تهجني الظؤار والمنزل ال ... قفر بروكاً ومالها ركب

جرد جلال معطفات على ال ... أورق لا رجعة ولا جلب
ولا مخاض ولا عشار مطا ... قيل ولا قرح ولا سلب
ما لي في الدار بعد ساكنها ... ولو تذكرت أهلها أرب
لا الدار ردت جواب سائلها ... ولا بكت أهلها إذ اغتربوا
يا باكي التلعة القفار ولم ... تبك عليه التلاع والرحب
أبرح بمن كلف الديار وما ... تزعج فيه الشواحب النعب
هذا ثناء على الديارِ وقد ... تأخذ مني الديار والنسب
وأطلب الشأو من نوازع ال ... هو وألقي الصبا فتصطحب
وأشغل الفارغات من أعين ال ... بيض ويسلبن وأستلب
إذ لمتني جَثْلة أكَفِّها ... تضحك مني الغواني العجب
وضِرت عَمَّ الفتاة تثئب ال ... كاعب من رؤيتي وأثئب
فاعتتب الشوق عن فؤادي والش ... عر إلى من إليه معتتب
إلى السراج المنير أحمد لا ... يعدلني رغبة ولا رهب
وقال في مطلع البائية الثالثة:
طربت وهل بك من مطرب ... ولم تتصاب ولم تلعب
صبابة شوق تهيج الحليم ... ولا عار فيها على الأشيب
وما أنت إلا رسوم الديار ... ولو كن كالخلل المذهب
ولا ظعن الحي إذ أدلجت ... بواكر كالأجل والربرب
ولست تصب إلى الظاعنين ... إذا ما خليلك لم يصبب
فدع ذكر من لست من شأنه ... ولا هو من شأنك المنصب
وهات الثناء لأهل الثناء ... بأصوب قولك فالأصوب
بني هاشم فهم الأكرمون ... بنو الباذخ الأفضل الأطيب
فالكميت في كل هذه المطالع ثائر على شعراء العربية الذين اتخذوا افتتاح القصائد بالنسيب عادة لهم، ولا يعبأ بما يتكلف لهم في ذلك الاتجاه الذي جمد عليه أولهم وآخرهم، بل يهزأ بسؤالهم الديار ووقوفهم على الأطلال وبكائهم التلاع القفار، لأنه لا فائدة في سؤال من لا يجيب، ولا معنى لبكاء الديار وهي لا تبكي أهلها إذا اغتربوا عنها.
والحق أنه لم يكن هناك معنى في قصائد المدح لافتتاحها بإظهار الهوى إلي غير الممدوح،
لأن هذا من الفضول الذي يجب أن يقلع عنه كغيره من كل فضول، والواجب أن يذهب في هذا إلى مثل ما ذهب إليه الكميت من حصر قصده في الممدوح وحده، وعدم لعناية في شعره بغيره، والاتجاهات في ذلك كثيرة لا تقف عند هذا الاتجاه الذي وقف عنده الكميت في شعره، وإن كان قد افتن بعض الأفتنان فيه
وقد جاء أبو نواس بعد الكميت فقلده في هذه الثورة على ذلك التقليد الشعري، وعابه في بعض مطالع شعره كما عابه الكميت في مطالعه، ومن ذلك قوله:
صفة الطلول بلاغة القدم ... فاجعل صفاتك لابنة الكرم
لا تخدعن عن التي جعلت ... سقم الصحيح وصحة السقم
تصف الطلول على السماع بها ... أفذو العيان كانت في الحكم
وإذا وصفت الشيء متبعاً=لم تخل من غلط ومن وهم
ولكن التجديد فيما فعله الكميت لا فيما فعله أبو نواس، لأن أبا نواس لم يزد على أن استبدل بالنسيب في المطالع وصف الخمر، ولا فرق عندي بين افتتاح القصائد بهذا أو ذاك، لأن كلاً منهما أجنبي عن القصيدة ودخيل فيها، وما وصف الخمر إلا نسيب فيها كالنسيب في النساء سواء بسواء.
عبد المتعال الصعيدي
الطفل
لشاعر الهند رابندرانات طاغور
بقلم السيدة الفاضلة (الزهرة)
النعاس الذي يهوم على عيني الطفل. . . هل يدري أحد مأتاه؟
أجل. فقد زعموا أنه هناك في تلك الغيمة البديعة الفاتنة، الراقدة في ظلال الغاب الذي تضيئه الحباحب بأنوارها الخافتة. . . حيث برضت برعمتان دقيقتان، يخيم بين

. .تلافيف أوراقهما الناعمة، مرود عجيب صيغ من سحر حلال ليكحل طرف الطفل
من هناك يجيء النعاس، ويداعب أجفان الطفل وهو راقد في مهده
الابتسامة التي ترف على ثغر الطفل وتطوف حول شفتيه وهو راقد في مهده. . . هل يعلم أحد من أين تجيء؟
أجل. فقد زعموا أن موجة ذهبية من موجات نور الهلال عند أفوله مست حافة إحدى
سحب الخريف المتبددة، فولدت هناك أول ابتسامة، وكان مولدها في حلم الصباح
المغتسل بالانداء. . . من هناك تجيء الابتسامة التي ترف على ثغر الطفل وهو نعسان.
النضارة الرقيقة الناعمة التي توقر أعضاء الطفل بأثمارها، وتزين ملامحه بأزهارها،
فتضحك عن الأقحوان، وتتنفس عن الريحان. . . هل يدري أحد أين كانت مخبوءة من قبل؟
أجل. فإنها حين كانت الأم عذراء فتية قد انطوت في حنايا قلبها بعناية تجسمت فيها
أبلغ أسرار الحب وأجمل خفايا الحنان. . . هنا كانت النضارة الرقيقة الناعمة التي
تتفتح أكمامها في صباح وجه الطفل ويترقرق ماؤها على ديباجة خده (الزهرة)

اللقاء الأول

للأستاذ عبد الحميد السنوسي

هل تذكرين لقاءنا لما التقى ... طرفي وطرفك فالتقى القلبان
في ليلة صخابة وضَّاءة ... من كل مبتهج بها زوجان
أقبلتِ مثل الفجر يفترس الدجى ... فإذا العيون جميعهن روان
تمشين مشرقة الجبين محاطة ... بالسحر في جمع من الخلان
فتلفتتْ عيناي نحوك وانثنى ... قلبي وأفلت من يديَّ عناني
ومشيتُ نحوك واجفاً متردداً ... فكأنني أمشي إلى بركان
متثاقلاً في خطوتي متعثراً ... متهيباً مستهتراً في آن
ثم اتجهتُ إلى الرفاق محيياً ... وجلست منك على شفير دان
وطفقت أهذي في الحديث لعلني ... أخفي الجوى وأصد من هيماني
فسألتِهم عمَّنْ أكون ورنَّ في ... أذني سؤالك كالحيا الهتان
ورنوت في خفر إليَّ ورقة ... لما علمت من الصحاب مكاني
وأتى الشراب مصفقاً فدعوتِني ... للشرب خجلى فالتقى الكاسان
وشربت من فمكِ الجميل المشتهى ... راحاً فهيّج صبوتي الراحان
وتجاوبت في النفس أصداء المنى ... وسرت حمياً الخمر في جثماني
وخشيت أن تطغى عليَّ لواعجي ... فمضيت في هذري وفي هذياني
أنا من تسامى للكمال فلم أجد ... إلاَّك في هذا الوجود الفاني
أنا من تدلَه في هواك وإن أكن ... لم أقض في دنياك غير ثوان
أنا من بعثتِ الروح فيه فجاءة ... ودعوتِه فسعى من الأكفان
أنا من علمتِ ومن جهلت حنينه ... فتركتِه في ملتقى الوديان
يشدو فيذهب شدوه في عاصف ... داوي الصدى طاغ على الآذان
أبداً ينوح ولو سمعت نواحه ... لشجاك ما يلقى من الأشجان
فلكم بكيتُ فما وجدتُ مشاركاً ... لي في الأسى يبكي لما أبكاني
ولَكَمْ ضحكت وما ضحكت وإنما ... أخفيت في الضحك ما أشجاني
وا ضيعة الألحان إن لم تسمعي ... حتى الصدى وا ضيعة - الألحان

عبد الحميد السنوسي

الوداع

للأستاذ أمجد الطرابلسي

.. .إلى دمشق وأحبابي فيها أهدي آخر ما نظمته تحت سمائها
!ماذا أقول لإخواني وأصحاب؟ ... لعلَّ صمتي قبلَ البَيْنِ أحرى بي
يا لوعةَ الوجد في داري ومرتبعي! ... ماذا. . . إذا احتجبتْ داري وأحبابي؟
!يا قلبُ ويحك! هذا البين قد تعبت ... غربانُه. . . قُتلت من شرِّ نَعّاب
ألم يكن عهدُنا - والدهر ذو ترةٍ - ... هزءاً بهزءٍ، وألعاباً بألعاب؟

أيْامَ دأبُ الزمانِ الغرّ مظلمتي ... لهواً، وسُخريتي من ظلمه دابي!
أيّامَ يُدْهق لي الأكوابَ مترعة ... سُمَّا، فأجرع كالصّهباء أكوابي
فما لحصنك قد خارتْ جوانِبُهُ؟ ... كالبيت في القفر لم يُشْدَدْ بأطناب
يَظَلُّ في عَصَفَات الرَيح مُصطفقاً ... يئن أنَّ الثكالى إثرَ تنحاب
بميل والعاصفَ المجنونَ مُرتنحاً ... كالراقصات تهادى بينَ شُرّابِ!
قلبي، رشادَكَ! لا يفزعْكَ أن صهلت ... خيلُ النّوى تستحثُّ الركبَ في بابي
أهلي حَوالَيَّ. . . . ماذا أنت قائله ... لهمْ قبَيلَ نوىً كالليل في الغاب؟
قلبي! أعِندكَ أن تشكو لهم حُرقاً ... تشويك من لاعج في الصدر ملهابِ
فما فغرت - على ما طال من وجعي - ... فماً بشكوى لصحب أو لأغرابِ!
ولا سجدتُ لغيرِ الله في زَمَني ... ولا وَقَعتُ على أيدٍ وأعتابِ
ولا بسطت يدي للذلّ أقبله ... ولو علمت لديه كل آرابي
هُوَ الشَباب! فلا كان الشبابُ إذا ... لم يستسغ رشفاتِ العزّ في الصَاب!
لا عاشَ إمَّا حنا للبغي هامَتَهُ ... أو ضمَّ برديهِ في الدنيا على عاب!
دمشقُ يا فرحة الدنيا وبسمتها ... ويا مراتعَ تهيامي وتلعابي!
يا ممرحَ الغيدِ كالأحلامِ حائمة ... ومسرحَ الصيد من صحبي وأترابي
ما لي عدوتُ إذا ما سرت منفرداً ... لم ألقَ غيرَ جميل فيكِ جذاب؟
كأن عينيَّ قبل اليوم ما وقعت ... على جمالك هذا الرائع السابي!
كلُّ طريف تروع القلبَ جدتُهُ ... يا طولَ شغل فؤادِ الهائم الصابي
يا منبعَ الحسن والإحسانِ! كم سكرت ... من راحِ دَلِّك أحنائي وأهدابي
مازلتُ أعشق فيك الحسن في دَعَةٍ ... حتى عشقتُ جراحاتي وأوصابي!
أمَّ الميامين! قد غَنَّت ملاحمَها ... فيك البطولات في شجو وإطراب
وجَرّرت من ذيولِ المجد سابغة ... على بطاحِك في تيهٍ وإعجاب!
دمشق أنتِ التي فَجَّرتِ من كبدي ... يُنبوعَ شِعْريَ يجري. . . أيَّ سَكّاب
كما جرى (بَرَدَاك) العذبُ منفجراً ... ما عاقه طولُ أزمانٍ وأحقاب
مازال فوقَ مشيبِ الدهر منسرباً ... يجري كطفل على الآلام وثّاب
أدرت لي من كؤوس الحسن ألعبَها ... بأنفس وخيالاتٍ وألباب
أرضٌ سماءٌ رياضٌ أنهُرٌ أُفقٌ ... حُسْنٌ أفانينُ. ما عَدّي وتحسابي!
شدَوتُ فيك لحوناً كلَّهَا عَجبٌ ... رَتَّلْتها بين أفراحي وأتعابي
ما كانَ أضيعَ ألحاني يُرَدِّدها ... بعدي صَداها كأن الريح تهزا بي
غداً. . . سأمضي ولكن أينَ مُنْصَرفي ... لا الدار داري ولا الأحباب أحبابي!
لا (نَيْرَبٌ) تَتَصَبّاني خمائِلهُ ... أو (غُوطة) تتلقاني بترحاب!
غداً سَأَلْفِتُ جيدي لا أرى أحداً ... حولي يشاطرني هَمْي وتطرابي
إلاّ خواطِرَ من وَجدٍ يعذبني ... صَبْراً، ويلهب صدري أي إلهاب
وذكرياتٍ عن الأحباب ماثلة ... من واضح خَضِلِ الألوان أو كابي
غداً. سأركبُ بنت اليم راقصة ... على مُتون دَفوع الموج عَبّاب
تَشقُّ بي مسبح الحيتان مائسة ... كأفعوان على البطحاء مُنساب
في ليلةٍ كطيوفِ الجنّ راعبة ... مجنونةِ الموج والإعصار مغضاب
خلفَ الغيومِ ظلامٌ خلفه أَمَدٌ ... من خِلِفهِ الغيبُ في صمت وإضباب
من خلِفِهِ القَدرُ الفجّاع ملتئما ... عن العيون، كميناً خلف حُجّاب
غداً. . . إذا هبَّ طامي اليم يقذفنا ... غَيظاً بموج له كالهُضْب غَلاّب!
وحارَ في أمرِهِ الملاّح وانبعثت ... حَوليَّ أصوات نُوَّاحٍ ونُدّاب
وحَوَّمَ الموتُ، في كفّيْهِ منجلُهُ ... وَرفَّ فوق ضحاياه على قاب
أقول للوكب: ما شغلي بهولِكمُ ... وفي فؤادي أعاصيري وتصخابي؟
أينَ السبيلُ؟ وهذا الليلُ معتكرٌ ... لا كوكبٌ فيه لمَاعٌ ولا خابي!
أمضي غداً نحو آفاقٍ تمجّ دمّا ... وجاحِمٍ بيني الإنسانِ لهّابِ!
حيثُ الرّعاة على القطعانِ جائرةٌ ... تسوقها خَلفَ أطماع وأسلاب
تُلقي بها للرّدى المنهومِ هَيِّنةً ... سِرباً يموتُ على أشلاءِ أسراب!
تذيقها الجوعَ ألواناً مُلوَّنةً ... كيما تُسَلّمها بالظفر والنابِ
كيما تقيمَ على أشلائها نُصُبا ... من مفخرٍ كدَويّ الطبل كذّاب!

زعامةٌ أبدعوها فتنةً عَجَباً ... على ظهورِ صعاليك وأوشاب
تستعبدُ الناس، إذ تعمي بصائرَهم ... في عصر نورٍ وعرفانٍ وآدابِ!
دعوا الشعوبَ تَآخَي قبلَ مَصرِعها ... لا تلعبوا بقلوبٍ أو بأعصاب!
لا تستفزّوا بها الأحقادَ نائمةً ... أو ترفد واللّهَبَ الخَابي بأحطابِ
لا تهدموا الكون كي تبنوا تعاظَمكم ... وتستطيلوا بشاراتٍ وألقابِ
لولاكم كان هذا الخلقُ في دّعةٍ ... يستمرئُّ السلم في أمنٍ وإخصاب
إيهٍ دمشقُ! أرى الأيّامَ مُثقَلَةً ... تحبوا إليكِ بإطماعٍ وإرهاب
برغميَ اليومَ أمضي عنك مُغترباً ... والليلُ حولكِ داجٍ غيرُ مُنجاب
ماذا تجيءُّ به الأيامُ؟ لا بصري ... يجلو الغُيوبَ، ولا وهمي بنَقَاب
أراكِ في ظلمة الأحداث واقفةً ... على رَوابيك منها شرُّ جلباب
تَسْتَنْبِئِينَ الليالي وهي صامتةٌ ... صمتَ الرّدى فوق أرماسٍ وأنصابِ!
ليلٌ ثقيلٌ تَهادَى شهبُهُ فزعاً ... من حادثٍ مُسْتَكِنٍ فيه رَيّاب
لؤمُ السياسة قد جَرَّبتهِ زَمَناً ... كم بارقٍ فيه للأبصارِ خلاّب
إن السياسَةَ في تدجيلها سُبَحٌ ... للذكر في كفِّ فتّاكٍ وسلاّب!
وأختك القدس م زالت جراحَتها ... تنصب منها دماها أيّ تَصباب!
لم يرحم البغي في أكواخها ولداً ... في حجرِ أمٍ. ولا شيخاً بمحراب!
ويلَ اللئيم! أما راضت شكيمتَه ... بالأمسِ صفعةُ صَدقِ العزمِ غَضّابِ
ذئبٌ على الحَمْل السَّاجي فإن زأرت ... أسدُ العراك تولّى أيَّ هَرّاب!
أمسى يوارى عن الأبصارِ خزيته ... ببرقع السلم خوفَ الهزءِ والعاب
هذا السلام ذبيحاً فوق مَدرجه ... فكيف أنقذته يا شرَّ كذّاب!
عفواً بلادي! سأمضي عنك، لا كبدي ... حَرَّى، ولا مضجعي بالمُقْلَقِ النابي
ماذا أخافُ وأنتِ الخلدُ أجمعُهُ؟ ... هل في خلودِكِ من حظٍ لمرتاب؟
أَلسْتِ مِن حَطَّمَ الأجيالَ صَعْدَتَهُ ... وصارعَ الدهرَ فرداً غير هيَّاب
يأتي الخطوبُ وتمضي عنك مُتْعَبَةً ... وأنتِ في عزمة الرئبالِ في الغابِ!
كم فيكِ للفاتح المأفونِ من حُفَرٍ ... غطّيتها برياحينٍ وأعشاب
ثوى بها فتناسى الدهر سيرَتَه ... وأنتِ باسمة من غير إجلاب
يا أهلُ، عُذْركم! ماذا أقول لكم ... في موقف بفؤاد الصخرِ لعَاب!
أرى القوافي تُعاصيني وأعهدها ... كأخضر زاخر الأمواج صَخّاب!
تنهلّ من خافقِي كالوبلِ مندفقاً ... من مُزنة في أكفّ الريح مسكاب
خلف الجفون دموعٌ جد حائرةٍ ... لولا الحياءُ لقد أوحتْ لكم ما بي
مثل السجين على القضبان منعكفاً ... يفري الحديد بأظفارٍ وأنياب
تجري دماه عليها وهو يقضمها ... هيهات يظفر! ما للسجن من باب!

(باريس)

أمجد الطرابلسي

البريد الأدبي

معرض (بونابرت في مصر)

أقيم في متحف (الأورانجري) بحديقة (التويلري) في باريس معرض يحتوي على أهم ما له علاقة بالجنرال بونابرت قائد الحملة الفرنسية في مصر. وقد كثر إقبال زائري هذا المعرض لمشاهدة الصور والتماثيل ورسائل قائد الحملة، وقد خطها بيده، ورسوم الضباط والعلماء والفنيين الذين رافقوا الحملة. ويرى زائر المعرض أيضاً رسوم المماليك وملابسهم وسروج خيولهم وسلاحهم الثمين، كالطبنجات، والغدارات التي يضعونها في مناطقهم أو على جوانب سروج خيلهم، واليطقان، والسيف المدلى من السرج. وكان نصل السيف ماضياً يؤثر تأثيراً شديداً في المضروب به، وقد قال (لاري) كبير أطباء الحملة إنه رأى للمرة الأولى في حياته، في موقعة الصالحية، تأثير سيوف المماليك: فكثيرون من الجرحى كانوا قد فقدوا أعضاءهم كلها أو جانباً كبيراً منها بضربة سيف

وكان للماليك أربعة وعشرون قائداً يحمل كل منهم (بيرقاً) كان الصدر الأعظم التركي أو حاكم مصر يسلمه إليه حينما ينعم عليه بلقب (بك)

وفي المعرض نماذج من تلك (البيارق) ويعلو كل بيرق كرة مذهبة أو صفيحة معدنية

عليها كتابة. ويعلق في عصا البيرق الطويلة أذناب الخيل. وكان عدد تلك الأذناب يدل على أهمية المنصب عند الأتراك في ذلك العهد
وفي المعرض صورة كبيرة تمثل معركة الأهرام ويرى الناظر فيها السيوف المصلتة وغلافاتها والغدارات والخيول وسروجها والبيارق وغير ذلك تغطي وجه الأرض، وقد كانت تلك المعركة قاضية على سلطة المماليك في مصر والنظام الذي وضعه فيها السلطان سليم الأول العثماني من نحو ثلاثمائة سنة
كتابة التوراة والإنجيل وأوراق البردي المصرية
ألقى السير فريدريك كنيون محاضرة ألقت ضوءاً جديداً على تاريخ كتابة التوراة وذلك بفضل اكتشاف أوراق البردي في مصر. ومصر هي الدولة الوحيدة التي أمكنها الاحتفاظ بهذه الأوراق السريعة التلف
وقال المحاضر إن الآثار المهمة التي يرجع إليها في تحديد تاريخ كتابة التوراة اكتشفت سنة 1881. ولكن منذ ثلاثة أعوام كان شاب من طلبة العلم يبحث في مكتبة رايلندز في مدينة منشستر فعثر على مجموعة أوراق من البردي تركت في مكانها نحو ثلاثين أو أربعين عاماً. ودقق فيها فوجد بينها قطعة صغيرة تحتوي على بضع آيات من إنجيل القديس يوحنا مكتوبة في النصف الأول من القرن الثاني للميلاد
ولو أن هذه الورقة الصغيرة وجدت قبل خمسين عاماً لوضعت وقتئذ حدا لخلاف شديد كان ناشباً في شأن التاريخ الذي كتب هذا الإنجيل فيه. فهي تدل على أن هذا الإنجيل كان منتشراً في قرية ريفية صغيرة من قرى مصر سنة 140
وعثر الطالب نفسه سنة 1936 على أقدم قطعة معروفة من التوراة ممزقة من السفر الخامس من أسفار موسى كتبت في القرن الثاني قبل المسيح
فهذه الاكتشافات وأمثالها قربت إلى حد محسوس الشقة بين التواريخ التي كتبت فيها أسفار التوراة وتواريخ أقدم المخطوطات الموجودة منها
أسبوع الكتاب الألماني
خطب الدكتور غوبلز وزير الدعاية في فيمار بمناسبة (أسبوع الكتاب الألماني) ومما قاله إن مبيعات دور الطباعة والنشر في ألمانيا في خلال السنة الماضية زادت مرة أخرى وبلغت هذه الزيادة 11. 2 في الكتب العلمية و 4 للكتب الأدبية. صدر في الأشهر الستة الأولى من هذه السنة 3852 كتاباً (في سنة 1937، 2327 كتاباً) فتكون الزيادة 65 , 8 في المائة ويوجد في ألمانيا الآن نحو 4 آلاف مكتبة في المعامل. ثم أعلن الدكتور غوبلز إنشاء صندوق معاشات للمؤلفين الألمان وقال إنه سينظم معرض عظيم للكتب بعد وقت قصير
بين الرافعي والكرملي
جاء في كتاب الأستاذ الكرملي إلى المرحوم الرافعي الذي نشره الأستاذ العريان في الرسالة مسائل يستفتيه فيها وطلب إلى القراء أن ينشروا ما يرون من رأي فيها ولعله يأذن لي أن أقول شيئاً في بعضها. . . قال الأستاذ الكرملي: في صفحة 8 ورد ذكر (المصنع) والعرب لم تنطق به، على أن القياس لا يمنعه ألا يتخذ الكاتب البليغ الكلمة التي جرت على أسلات
السلف وهي (الطراز)؟
والذي أرى أن الكلمة التي هي أولى أن يتخذها الكاتب البليغ وجرت أيضاً على أسلات السلف هي كلمة (المعتمل) فقد جاء في فتح الباري على البخاري للعلامة ابن حجر في الجزء الثاني ص10. . . أنه سمع أبا سعيد الخدري يحدث أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: أرأيت لو أن رجلاً كان له معتمل وبين منزله ومعتمله خمسة أنهار فإذا انطلق إلى معتمله عمل ما شاء الله فأصابه وسخ أو عرق فكلما مر بنهر اغتسل منه الحديث. . . فالمصنع لم تنطق به العرب والطراز لا يدل إلا على الموضع الذي تنسج فيه الثياب الجديدة ليس غير، أما المواضع التي تصنع فيها أشياء أخرى غير الثياب فلا يطلق عليها الطراز إلا على سبيل التوسع والتجوز.
أما (المعتمل) فهو يشمل كل المواضع التي يعمل فيها (العامل).
وقال الأستاذ الكرملي أيضاً: وفي تلك الصفحة: (تراها - أي الطاقات - عطرة بيضاء) وأنا لم أجد إلى الآن في شعر أو نثر من وصف جمعاً مؤنثاً سالماً لعاقل أو لغير عاقل بوصف مفرد مؤنث. . الخ. أقول إن هذا السؤال قد أجاب عنه الرافعي قبل أن طبع

كتابه وحي القلم فقد جاء في مقالته لحوم البحر. . وترد الأمواج نقية بيضاء كأنها عمائم العلماء) علق على هذه الجملة في الهامش قال: يرى بعضهم أن مثل هذا الوصف خطأ، وأن الصواب أن يقال (بيض)، ولسنا من هذا الرأي وقد غلط فيه المبرد ومن تابعوه لغفلتهم عن السر في بلاغة الاستعمال مرة في الوصف بالمفرد ومرة في الوصف بالجمع أنظر (الرسالة سنة ثانية ص1487)

(الرشيدي)

برنردشو والمدارس والتعليم

وجهت مجلة عالم المدرسين الإنجليزية استفتاء عاماً إلى عظماء رجال الفكر في إنجلترا عن المدارس والتعليم وما إليها من شئون وحصرت الاستفتاء في تسعة أسئلة تسلمت إجابة (شو) عنها فكانت إجابة عجيبة صريحة لا تصدر إلا عن شيخ الأدباء الفتيّ الجبار الذي يزدري كل شيء في العالم ولا يعجب بأي شيء. سئل شو عما يقدر اليوم أكثر من حياته

المدرسية أو الجامعية الماضية فأجاب في بساطة وسخرية: لا شيء. فقيل له: وماذا تأسف عليه من هذه الحياة؟ فقال إنه لا يأسف إلا على ذهابه إلى المدرسة أو الكلية!

وسئل عما إذا كان أحد من مدرسيه قد أثر فيه فوجهه إلى الخير أو الشر؟ فنفى أن يكون أحد منهم قد ترك أثره فيه وأنهم لم يكونوا يحبونه مطلقاً ولم يكونوا يفقهون من وسائل التربية السيكلوجية كثيراً ولا قليلاً

وسئل عن الكتب التي تركت طابعها في نفسه أكثر من غيرها في طور طفولته، فذكر أنه قرأ كل ما تيسر له من الكتب إلا كتب الأطفال التي كان يمقتها، ثم أورد الكتب التي ما يزال صداها يملأ ذاكرته فكانت ثلاثة هي رحلة الحاج لجون بنيان وألف ليلة وليلة وروبنسون كروزو

ونفى في سؤال رابع أن يكون لفئة المدرسين في هذا العصر طابع خاص يلفت إليهم النظر، ويميزهم من سواهم من سائر الناس. ثم أجاب عن شطر آخر من السؤال، فقال إن المدرس سجان برغمه للأطفال الشياطين يحبسهم سحابة النهار حتى لا يصيبوا أمهاتهم بالجنون.

وسئل عن الجمع بين الجنسين في التعليم إلى سن الرابعة عشرة ثم ما بين الرابعة عشرة والثامنة عشرة، هل هو مع الجمع أو هو ضده؟ فقال إنه لا يصلح للحكم في هذه المسألة على أنه لا يرى في الجمع أي بأس لاسيما للأبناء الذين ليس لهم أخوات والبنات اللاتي ليس لهن اخوة

وسئل عما يلاحظ في شباب هذا الجيل من الفظاظة والكسل وانعدام روح المجازفة، فاعترف بكل ذلك، لكنه فضل شباب هذا الجيل من هذه الوجهات على شباب عصره، بل فضلهم على نفسه هو حينما كان طفلاً وشاباً

وسئل عن هذه الفروع المملة من التعليم والتي لا تسيغها نفوس التلاميذ: هل ينبغي مع ذاك أن تكون جزءاً مما يفرض عليهم تعلمه؟ فقال: (حسن! وهل يسيغ أحد من التلاميذ جدول الضرب مع شدة لزومه؟). ثم أوصى بوجوب إثارة الرغبة في نفس التلميذ ليحفظ الجدول وما شابهه وإفهامه أنه بدون هذا الجدول لا يستطيع أن يتصرف في النقود التي يعطيها له أبوه لينفقها وإلا يبعثرها هباء؛ وبهذا يقبل الطفل على كل صعب مملول فيحفظه بدافع

الرغبة لا بدافع الرهبة والخوف من العقاب

وسئل عما عسى أن تكسبه الأمة أو تخسره في حالتي تعميم المدرسة الابتدائية أو المدرسة الأولية كخطوة أولى لتعليم الطفل. ويظهر أن (شو) أميل إلى تعميم المدرسة الابتدائية لأن هناك (نهاية صغرى) من المعلومات التي يجب تلقينها للأطفال لا يمكن ولا يصح بأي حال أن ينقص منها شيء ماداموا سيحيون في جماعة إنسانية متمدينة

وبقي السؤال الرابع. . . وهو أعجب الأسئلة كلها لأنه يتعلق بالخط! وهل من المهم أن يكون فرعاً من فروع التعليم المدرسي قائماً بذاته؟ وقد حتم (شو) أن يكون الخط كذلك. غير أنه رأى أن تزود المدارس بصور من خط ميكائيل أنجلو ليضاهي التلاميذ خطوطهم بها. . . وهذا ما لم نفهمه من (شو) فخط أنجلو لا يصلح مطلقاً أن يكون

خطا لأبناء هذا الجيل من الكاتبين بالحروف اللاتينية، وكان الأجدر به أن يحتم تدريس الخط كفرع من فروع التعليم المدرسي وحسب

الكتب

1 - سياسة الغد

للأستاذ مريت بك بطرس غالي

2 - التصوف الإسلامي

للدكتور زكي مبارك

كتابان قيمان لأستاذين جليلين أولهما ابتكار في السياسة والآخر ابتكار في الأدب. ومن يمن الطالع وحسن التوفيق أن (مطبعة الرسالة) قد افتتحت جهادها في خدمة الثقافة بطبع هذين الكتابين. وقد تلقت الأندية السياسية والصحافة اليومية كتاب الأستاذ مريت بك بما هو أهله من التنويه والتقدير والبحث، وستجد الصحف الأدبية والمقامات العلمية في كتاب الدكتور مبارك كشفاً جديداً لناحية مجهولة من أدبنا العربي يستوجب التسجيل والشكر. وإنا نكتفي اليوم بنشر مقدمتي الكتابين بياناً لغرض الكاتبين وتمهيداً لما سنكتبه عنهما في عدد قادم.

- 1 -

قال الأستاذ مريت بك:

من عادة الكتاب في الشئون العامة أن يستهلوا حديثهم بأن يصبغوا أحوال بلادهم بألوان سوداء قاتمة، كي يتخذوا من ذلك وسيلة لإقدامهم على معالجتها؛ وما كنت لأعدل عن هذه العادة لولا أن أحوالنا الحاضرة أضحت تنطق بنفسها عما نحن عليه، وقد شُغل فكرنا جميعاً بعلامات الضعف في النظام السياسي والقومي، ومظاهر التفكك الاقتصادي والاجتماعي. وشاهدنا في السنتين الأخيرتين على الأخص اهتماماً عظيماً بمشاكلنا الداخلية في جرائدنا ومجلاتنا ومحاضراتنا وفي حديث الناس عامة؛ وترجع هذه الظاهرة الجديدة في حياتنا القومية، على ما أظن، إلى أنّا على أثر اكتساب حريتنا الوطنية انتقلنا إلى عصر جديد في تاريخنا، حتى بدأنا نشعر بأن مستقبلنا القومي أصبح الآن في أيدينا، وليس لأحد سوانا أن ينظّمه ويكوّنه. وقد غطت قضية الاستقلال خلال العشرين عاماً الماضية على شئوننا الداخلية إلى حد ما، وصرفتنا عنها بحيث خيل إلينا أنها على درجة من الرقي مقبولة. وكم كانت خيبتنا عظيمة حين عدنا من الشئون الخارجية إلى الشئون الداخلية، فوجدناها في منتهى الضعف والتقهقر

وحالة مصر في الحقيقة لا تدعو إلى الاطمئنان: فأمامنا اضطراب مستمر في الحياة القومية، وأزمة محقّقة في الآداب العامة، ومشاكل اقتصادية واجتماعية قد تصل في القريب العاجل إلى الحد الأقصى من الخطورة. وليست تلك العوامل بخافية على أحد. وقد أوجدت عند بعضنا شيئاً من التشاؤم في المستقبل، وانتشر القلق في صفوف الشعب، من فلاحين يشعرون به ولا يفهمون أسبابه، إلى مثقّفين ومتعلّمين يرون الأخطار في جلاء ويتوقعون تضخّمها في السنوات القادمة. غير أن علامات الضعف والتفكك لا تظهر على صورة واحدة لكل منا، ولم نبحث وراء تلك الدلائل الخطيرة والعديدة عن الأسباب الأصلية التي عملت على تكوينها وظهورها. وكان لعدم تعوّدنا مواجهة تلك الشئون المعقّدة أن أخذنا ندرسها ونتناقش فيها منفصلاً بعضها عن بعض، ولم نفطن إلى وحدة الحياة القومية وإن بدت مختلفة المظاهر سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً

زد على ذلك أن عدم الاستقرار السياسي والإداري يجعل الوزارات التي تتوالى على كراسي الحكم غير قادرة على أن تعد برنامجاً للإصلاح والتقدم، وتواصل تنفيذه منسِّقة بين مختلف التدابير الحكومية وغير الحكومية. حتى أن سرعة التقلب السياسي وكثرة المشاكل الوطنية وتعقّدها تبعد برجال السياسة والإدارة عن الأغراض البعيدة التي كان يجب عليهم ألا يفارقوها أبداً، وتجرهم نحو المجالات الحزبية والمسائل الوقتية أو الثانوية؛ فتظهر تلك المجادلات وهذه المسائل بمظهر هام جداً كلما قربت وضاق الوقت عن حلها، مما يؤدي إلى قرارات غير محكمة وحلول غير كاملة، فتبقى سياسة الدولة عديمة التواصل كثيرة التردد والتقلب

وليس الغرض من هذا البحث أن ندرس جميع المسائل التي تواجه الدولة المصرية في

الوقت الحاضر، ولا أن نستعرضها واحدة بعد أخرى ونقترح حلاً وتدبيراً لكل منها؛ بل الغرض أن نلقي نظرة إجمالية على كافة مظاهر النشاط القومي مع التدقيق في العوامل الأساسية التي أدّت إلى تضخم مشاكلنا ومصاعبنا ثم نرسم بعض الخطط العامة التي يحسن العمل على مقتضاها لمعالجة هذه الأخطار. وإلى جانب ذلك نبيّن حاجتنا الحيوية إلى الوحدة والتناسق والتواصل في سياسة الحكومة لتكفل تقدّم الأمة سياسيًّاً وقومياً، وتضمن
علاج ما يمكن علاجه من أحوالنا الاقتصادية والاجتماعية
وإذا كانت سماء مصر ملبّدة بغيوم الأخطار الخارجية والمصاعب الداخلية، فجدير بنا ألا نرهب هذا أو نخشاه، ولنطمئن على كل حال إلى ما في قلوب المصرين من عزم وشهامة وإخلاص في خدمة الوطن. ولقد اتفق أول عهد مليكنا المحبوب مع شروق شمس الاستقلال الوطني الذي قضى الشعب المصري قروناً يتطلع إليه، فأصبح عهد (فاروق الأول) حلقة اتصال بين مفاخر مصر القديمة وآمال مصر الحديثة، والله نسأل أن يهدينا سبيل التقدم والفلاح.

- 2 -

وقال الدكتور زكي مبارك:

الحمد لله الذي هدانا لها، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

أما بعد فهذا كتاب التصوف الإسلامي، وهو كتاب شغلت به نفسي نحو تسع سنين، وأنفقت في تأليفه من الجهد والعافية ما أنفقت، في أعوام لو ابتلي بمثلها أصبر الصابرين وأشجع الشجعان لألقى السيف وطوى اللواء، فقد كنت في حرب مع الناس ومع الزمان، ويا ويح من ابتلته المقادير بإفك الناس وغدر الزمان!

ولكن الله عز شأنه لم يخلق الشر إلا لحكمة عالية، فقد قويت عزيمتي بفضل ما عانيت في حياتي من ضروب الاضطهاد، واستطعت أن أقيم الدليل على أن الظلم قد يعجز عن تقويض عزائم الرجال.

وهل كان من هواي أن أسرف على نفسي مثل الذي أسرفت فأقضي عشرين سنة في الحياة الجامعية بين القاهرة وباريس كانت كلها نضالاً في نضال؟

هل كان من هواي أن تخلو حياتي من الهدوء والطمأنينة فلا أصبح ولا أمسي إلا في عراك وكفاح؟

هل كان من هواي أن انتهي إلى ما انتهيت إليه فلا يكون لي من نعيم الحياة إلا ما أصوره بقلمي من حين إلى حين لأوهم نفسي أني أعايش الأحياء؟

تباركت يا ربي وتعاليت! فلولا لطفك وتوفيقك لما استطعت بفضل الجد أن ألقي أهل زماني بالاستطالة والكبرياء.

ومن هم أهل زماني؟

هم الكسالى الظرفاء الذين حرمهم الله نعمة البلاه بأقذاء العيون تحت أضواء المصابيح.

ينقسم هذا الكتاب إلى قسمين: التصوف في الأدب، والتصوف في الأخلاق.

وقد كان هذا الموضوع فيما يظهر غامضاً أشد الغُموض، فقد طلب مجلس الأساتذة بكلية الآداب أن نقدم له مذكرة نشرح بها الغرض من هذا الكتاب ليقبل أو يرفض جعله موضوع رسالة لامتحان الدكتوراه. وقد أجبنا يومئذ بأننا نريد أن نبين كيف استطاع التصوف أن يخلق فنّاً في الأدب ومذهباً في الأخلاق، وهو موضوع يستحق الدرس بلا جدال.

وكان مجلس الأساتذة على حق، فقد كنا في حيرة مظلمة الأرجاء، وكنا لا ندري كيف نتوجه، وكل ما كنا نملك حينذاك هو الإطلاع على العناصر وتصور ما لها من أهمية لو وضعت في نظام واضح مقبول.

ولكن السبيل إلى ذلك كان في غاية من العسر والصعوبة، فقد كنا جمعنا ألوفاً من الجذاذات لا ندري كيف نربط بعضها ببعض، وكيف نسوي منها رسالة للدكتوراه في الفلسفة تستوفي الشرائط الجامعية.

وتجسم الخطر حين نظر المؤلف فرآه يخترق المصاعب وحده بلا هادٍ ولا معين، فقد كان ظفر بإجازة الدكتوراه قبل ذلك مرتين، مرة من الجامعة المصرية ومرة من جامعة باريس، وكان ذلك كافياً لأن ينصرف عنه الأساتذة ويتركوه يكتب ما يشاء كيف

شاء.
ولكن أولئك الأساتذة الذين اعتمدوا على كفايته العلمية لم يتركوه بلا حساب، فقد تدخلوا في تصميم الرسالة وخرّبوها بأيديهم مرتين، فخرج منها كتاب نشر منذ سنين هو كتاب (المدائح النبوية في الأدب العربي)
والشر قد يكون باباً من الخير في بعض الأحيان.
نوقش هذا الكتاب بجلسة علنية في مساء اليوم الرابع من أبريل سنة 1937
ناقشته لجنة عنيفة قهرت المؤلف على التواضع، وهو خلقٌ لم يعرفه من قبل، واقترحت أن يحذف أشياء وأن يضيف أشياء.
وقد رجع المؤلف إلى الكتاب فنظر فيه من جديد وأضاف إليه طائفة من الفصول في الأدب والأخلاق، وحرر بعض الهوامش التي تحدد ما كان يحتاج إلى تحديد في بعض المواطن،
وانتفع بإقامته في العراق فتعقب الصلات بين التصوف والتشييع، وقد أعانه ذلك على إمداد كتابه بحيوية جديدة سيرى القارئ شواهدها وهو ينتقل من بحث إلى بحث.
هذا، وقد يجد القارئ ما يثيره في مواضع كثيرة من هذا الكتاب، فإن وجد ما يشوكه ويؤذيه فليرجع إلى ما شاكه وآذاه بالدرس والتأمل مرة أو مرتين أو مرات ليوافق أو يعترض على هدىً وبصيرة. وليتذكر أن الدراسات الفلسفية لا تقوى ولا تجود إلا أن سلمتْ سلامةً تامةً من الرياء وتخوف العواقب
والمؤلف يرجو أن يتذكر القارئ أيضاً أن الصوفية كانوا من أقطاب الحرية الفِكريةُ، فمحاربة هذه الحرية باسم الغيرة عليهم خطأ لا يقع فيه رجلٌ حصيف
وفي ختام هذه الكلمة الوجيزة أدعو الله تباركت أسماؤه أن يُسْبِغ على هذا العمل الخالص لوجهه الكريم حُلة القبول، إنه قريب مجيبٌ.
زكي مبارك
العدد 281 - بتاريخ: 21 - 11 - 1938
من مآسي الأخلاق
بعد عشرين عاماً في الجهاد
في اليوم الثالث عشر من شهر نوفمبر 1918 بُعث نبي الوطنية سعد زغلول، وأوحى إليه أن يذهب هو واخوته إلى جون بول يدعونه إلى الحق، كما أوحى إلى موسى أن يذهب هو وأخوه إلى فرعون يدعوانه إلى الإيمان. وجون بول كان يزعم كما يزعم فرعون أن له ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحته. فقال له سعد قوله اللين لعله يخشى أو يتذكر، فأبى واستكبر، ثم طغى وتجبر، فهدَّد وشرَّد، ثم قتَّل ونكل؛ فسلط الله عليه وحدة الأمة النبيلة فرمته بأُسُودها وأشبالها، بنسائها ورجالها، بصليبها وهلالها؛ فلم يجد بدّاً من التسليم لقوة الروح وسطوة الإيمان وغلبة الحق، فنزل عن الحماية، وساوم على الأستقلال؛ فما زالت الأمة تداوره وتصابره حتى استردت حقها المسفوه بفضل الزعامة الرشيدة والرأي الجميع والقلوب المؤتلفة والفرص المواتية
وولي الأمر بعد الرسول الوطني خلفاؤه الأربعة الراشدون، فأحسنوا الولاية ووصلوا الجهاد وصدقوا العهد، حتى بغي مروان، وقُتل عثمان، فشتَّتِ الوحدة، وتشعث الرأي، وتصدعت القيادة، وذاق الناس بعضهم بأس بعض، وحمل كل فرق على كل فريق بالأذى والهُجر، يرميه بالفسوق والمروق، وينبزه بالجبانة والخيانة، حتى أصيب الرأي العام بنوع من الأفَن لا يستقيم معه منطق ولا يبلغ عليه جهاد!
هذان سرادقان نصبا في مكانين متقاربين في ساعة واحدة لغاية واحدة، فماذا رأى الرائي وسمع السامع في حفلين أقيما لتمجيد الجهاد والتضحية، وتجديد الاتحاد والألفة؟ رأى فريقين كانا في حومة الشرف وميدان الشهادة إخوان سلاح في معسكر واحد، يتحملون مكاره الرسالة كالأنبياء، ويهشون للقاء الموت كالشهداء، ويجهلون أن لهم أنفساً بشرية تبغي المتاع وتطلب السلطان. فأصبحا بعد النصرِ فرَقاً في يد الهوى، يعادي بينهم الحق كما يعادي بينهم الباطل، ويجري عليهم من أنفسهم أضعاف ما كان يجري عليهم من العدو
رأى ذلك وسمع خطيبين يعبر كل منهما عن رأي فريقه، فلم يدعا في مفردات اللغة كلمة تدل على الفشل والغلول إلا تراشقا بها على تصفيق الأيدي وتصديق الألسن من

كل جانب. فإذا أخذت بشهادة كل فريق على صاحبه - ولا يخلو الفريقان من شهود - عدول
حكمت ولابد بأن الأمة إنما كانت تسير إلى غايتها من الحرية والاستقلال على هدى سليقتها الموروثة، تدعوها الإنسانية الطموحة، وتحثها الرغبة الملحة، وتساعدها المشاكل الدولية
أنا القادة والإدلاء فقد وقفوا على جانبي الجيش يتنافسون في الرياسة، ويتحاسدون على الجاه، فتتعارض المطامع، وتتناقض الخطط، ولا يكون من وراء ذلك لمجاهدين إلا الضلال أو التقهقر
ذلك حكم الواقع إذا صدقت شهادة كلا الحزبين على أخيه؛ وإلا فهو عَكَرُ الأخلاق المشوبة رسب بإذن الله إلى حين؛ فلما انقضي جهاد العدو واطمأنت النفوس إلى وساوسها وأهوائها، ثار ما في القاع، من الأكدار والأطماع، فأنقلب الأمر نزاعاً على ولاية الحكم، وصراعاً على قسمة الغنيمة!
قالوا إننا أمة تبدأ وحدة وتنتهي آحاداً، وتفشل جماعة وتنجح أفراداً، وتضعف قادة وتقوى أجناداً؛ فليت شعري حتَّام يصدق هذا القول في أمة تزعم أن لها قومية متميزة، ومدنية مستقلة، وعقلية متجانسة، وثقافة متحدة؟؟ . .
أحمد حسن الزيات
تحية المهد الملكي المبارك
على حواشي الفردوس من دار المَلِكِ السعيدة
تطُوف أمانيُّ شُعوب، وتهفو عواطف قلوب، وتلهج ألسنةٌ صادقةٌ بالدعاء، وتفيض جوانح زاخرة بالولاء، وتتنزَّل الدعوات والتهنئات على مطلع البدر، كما تتنزَّل الملائكة والرُّوح في ليلة القَدْر!
وعلى كِلَلِ الورد من مَهْدِ الأميرة الوليدة
تَشِع هالاتٌ من نور الحب، وتَشِيعُ نفحاتٌ من سرور الشَّعب، وتتلاقى بسمات المِلكين العظيمين، لأولى ثمرات القلبين الكريمين، وتَرِفُّ نسمات الرضا الجميل، من عِطاف الوادي وضفاف النيل!
فرِيْالُ يا حلية العرش ودرَّة التاج الفريدة!
إنك وحدة الحب الملكي الصادق والحب الشعبي المكين، وإن مولدك مظاهرة سماوية من أعياد الدنيا والدين: عيدِ نزول القرآن، وعيد الجمعة الأخيرة من رمضان، وعيد افتتاح البرلمان، وعيد الفطر والإحسان!
كذلك عهد أبيك العظيم يا فريال: جمالٌ وجلال، ويمن وإقبال، وشباب وآمال، وقلب كله لله، ورأس كله للوطن!
أتاتورك
للأستاذ محمود غنيم
طاف الحمام بعاهل الأتراك ... صبراً (فروق) قد احتسبت فتاك
ما مات فرد ووری بل هوى ... من أفقه فلك من الأفلاك
صاد القضاء النسر وهو محلق ... واها لنسر عالق بشراك
مات مصطفى كمال، وليس عجباً أن يموت في هذه السن الباكرة، إنما العجيب أن يمتد به الأجل فوق ذلك! إن ثمانية وخمسين ربيعاً عمر قصير إذا أضيفت إلى رجل من عامة الرجال، أما إذا أضيفت إلى عاهل الترك فإنها بمثابة قرون وأجيال. لو كان هذا الرأس من ماس لذاب؛ ولو أن تلك الأعصاب من حديد لاعتراها البلى؛ ولو أن هذا الجسم قلة من قلل الجبال، لأسلمه العمل المضني إلى الانحلال.
مات مصطفى، وأسدل الستار على ذلك الوجه الذي قدت عضلاته من الجرانيت، وانطفأت هاتان العينان بل الكوتان اللتان تشعان السحر والمغناطيس، وتنفذان إلى أعماق القلوب، وتنمان عن إرادة من فولاذ.
مات الرجل الذي كان معبود قوم، وقذى في عيون آخرين. مات الثائر الذي حكم القضاء الجائر بإعدامه، فلم يصبه سهم من سهامه. مات الذي طالما نصبت المؤتمرات شركاً لاغتياله، فلم يقع في حباله. مات الذي ناهض السلطان، ودوخ اليونان، وحارب الحلفاء في صف الألمان، فلم يجد الموت إليه سبيلا، كأنما هو في جفن الموت والموت وسنان.

مات مصطفى ميتة ابن الوليد على فراشه، لم يقطع شلو من أشلائه، ولم تسل قطرة من دمائه، فلا نامت أعين الجبناء!

كانت أمة محلولة العرى، مفككة الأوصال، أنهكها من الداخل استبداد الخلفاء، ومن الخارج انتصار الخلفاء؛ غريبة في أوربة بدينها وعاداتها، لا هي من الشرق ولا هي من الغرب، فجمع مصطفى تلك الأشلاء المتناثرة، وواءم بين هذه الأطراف المتنافرة، حتى استقام له شبه هيكل من العظام، كساه لحماً، وركب له أعصاباً، وشق فيه حواس، ثم نفخ فيه من روحه، فإذا هو بشر سوى، مقطوع الماضي عن الحاضر، لا يمت أوله إلى آخره بآصرة من الأواصر، فلا غرو إذا قلنا: إن مصطفى كمال، طراز وحده في الرجال. وإننا لنجور

عليه وعلى الحق معه إذا قارناه بموسو ليني في الجنوب أو بهتلر في الشمال، فان المعجزة إنما هي في إحياء الميت، أما إحياء الحي فليس من المعجزات في شيء. فان كان هناك فقيد يستحق التخليد، تضاف إلى اسمه البلدان، وتقام له التماثيل في كل مكان، فهذا هو مصطفى كمال، لا غيره من أشباه الرجال الذين تنحت لهم التماثيل من الصخر، وكان جديراً بها أن تصاغ من الشمع، ثم تسلط عليها أشعة الشمس

لم يكن الأثر الذي أحدثه مصطفى كمال قاصراً على رقعة من الأرض، ولكنه غير اتجاهات الأفكار، وامتد إلى النظم التي تواضع عليها البشر، فقلبها رأساً على عقب. إنه لم يؤمن بسنة التطور في إنهاض الأمم، ولم يعترف للزمان بعمل في تكوين الشعوب، بل قال بالطفرة، ثم شفع القول بالعمل، فدفع بأمته من خلف، في قسوة وعنف، ثم سار وأوغل في سيره، والناس في شك من أمره. ولشد ما شده العالم حين رآه يجتاز السبيل، ويتخطى العقابيل، بالغاً بأمته حيث يريد في سلام واطمئنان، والزمان ينظر إليه في خجل، لأنه أسقطه من حسابه ولم يعترف له بعمل

كان مصطفى مثالاً حياً للرجل الثائر، أظلته الثورة من مهده إلى لحده، ما حمل على رأي إلا جرّحه، ولا سيم خطة إلا فندها، ولا حارب تحت لواء قائد من القواد، إلا وجه إليه مرير الانتقاد. ثار في طفولته على فلح الأرض ورعى الأغنام، وثار في شبابه على عبد الحميد ثم على وحيد، وثار في كهولته على العادات والتقاليد. وليست عظمة الرجل في أن يثور، فان الثائرين في الرجال كثير، وما أيسر الانتقاد، وأسهل الهدم على من أراد! ولكن مصطفى لم يكن هادماً فحسب، بل كان هادماً بانياً، يبني الجديد على أطلال القديم، ولا يعمل المعول حتى يضع التصميم

أراد مصطفى استغلال بلاده فلم يلجأ إلى الكلام، إلا بمقدار ما يمهد الكلام للحسام، ولم يلجأ إلى الاستجداء، لعلمه أن الاستقلال أخذ لإعطاء، ولكنه أسمع الغاصب المحتل صوت احتجاجه عن طريق المدافع الدوية، والسيوف المقعقعة، فكان صوتاً يخترق حجاب السمع، وكان أذاناً يطرق الصم من الآذان. وما كان لمصطفى بفلول جيوشه الحديثة العهد بالانهزام أن يطرد المحتلين، وأن يكبح جماح الجيران الطامعين، ولكنها العقيدة المتغلغلة في الصميم، إذا اقترنت بالحق الصراح، والرغبة المدججة بالسلاح، لم يقف في طريقها شيء،

بل اجتاحت هي كل شيء، ولم تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم

وهكذا استطاع مصطفى أن يخلص الأوطان، من احتلال الغاصب وجشع اليونان؛ ولكن ماذا يفيد جلا الغاصبين، والبلاد واقعة تحت نير السلاطين باسم الدين؟

على رسلك يا مصطفى، إن طريق الدين شائك وعر المسالك فلا تجرح فيه عواطف الأتراك، بل عواطف المسلمين أجمعين. إياك والتعرض للخلفاء، فان للخليفة قوة أربعين من الأولياء. إن المسلمين لابد لهم من إمام، وإن الخلافة ركن من أركان الإسلام. بمثل هذا تعالت الأصوات، من مختلف الجهات، ولكن لمصطفى أذناً صماء، لا تصيخ إلي النداء. هو لا يريد الخلافة، فليكن ما يريد، ثم يضرب الضربة القاصمة، فيطوح بالخليفة في مجاهل الأرض، وتتطاير شظايا عرشه في الفضاء. أما الفقهاء فلهم أن يبدوا ما يحلو لهم من الآراء. وأما الصحف والكتاب، فلهم أن يحكموا هل أخطأ أو أصاب

ترى ماذا كان يكون من أمر الخلافة لو طرحها كمال على بساط البحث، وانتظر فيها قرار المتضلعين من رجال الدين؟ أغلب الظن أنها كانت تسلك الأدوار التي سلكتها من قبل مسألة خلق القرآن في عهد بني العباس، تتناطح حولها الحجج، وتتقارع البراهين،

ثم ينتقل التناطح من الحجج إلى الرءوس، والتقارع من البراهين إلى السيوف والتروس، ثم لا ينتهي الأمر، أو ينتهي إلى لا شيء؛ ولكن مصطفى يعرف ذلك، ويعرف بجانب ذلك أن منطق الواقع يغير وجوه الرأي، ويحول اتجاهات الأذهان، ويحمل على التسليم والإذعان. وكأني به جالساً على أحر من الجمر، وأعضاء المجلس الوطني يتداولون الآراء في مسألة الخلافة، حتى إذا نشب الجدل وطال النقاش ساعة من نهار، لوح لهم بحبل المشنقة فصدر القرار

ليت شعري ماذا فعل مصطفى؟ أتراه على عروش الخلفاء، أم أجهز على جريح لا يرجى له الشفاء؟ أهي نزعة من نزعات الألحاد، أم التخلص من عضو دب إليه الفساد؟ للتاريخ وحده أن يحكم؛ غير أني أبرئ من الإلحاد مترجم القرآن، ومعز دين الإسلام، ومرغم الأجانب على احترام الجمعات، وإنما هو النفوذ الديني أسيء استعماله، فوجب استئصاله؛ ذلك النفوذ الذي تغلغل في كل مصلحة، واعترض طريق كل إصلاح، والذي لم يوسم به عصر دون عصر، أو يسلم من شره مصر دون مصر. ذلك الذي جعل مصطفى برماً

برجال الدين لا بالدين، حتى إنه ليقول في فورة من فوراته النفسية: (لوددت لو أستطيع أن أقذف بالأديان جملة في أعماق البحار)

وما كان لمصطفى ليضطغن على الإسلام لذاته، ولو لم يحترمه ديناً لاحترمه مقوماً من مقومات القومية التركية، تلك القومية التي كانت هدفه الوحيد بعد أن أغمد سيفه وعاد من الميدان

على أن مصطفى بشر يخطئ ويصيب، وقد يكون جار ليعدل، وانحرف عن الجادة ليصل إلى الطريق القويم. وإنك لن تخيط الثوب حتى تحدث الإبر فيه ثقوباً. ورحم الله القائل (إنا لن نصل إلى الحق حتى نخوض الباطل خوضاً)

ليس الرجل العظيم جديراً بهذا اللقب حتى يكون عظيماً في كل شيء، وقد برهن مصطفى على أنه رجل سلم كما أنه رجل حرب. ما كاد يخلص من قيود وطنه بالتحطيم، حتى تناول داخليته بالتنظيم، فأظهر في ذلك ما لم يكن ينتظر من رجل تخرج في الميدان، لم يعتد إلا حمل السلاح وإطلاق النيران. أنظر إليه يقوم (بتتريك) كل شيء، ويتعصب لقوميته حتى إنه ليحظر التعليم بغير اللغة التركية، ويقصي في سبيل ذلك كثيراً من معاهد الجاليات الأجنبية. ثم أنظر إليه لا يمنعه تعصبه الأعمى لقوميته أن يستعير من الغرب الحروف اللاتينية، فيفرضها فرضاً، ويطوف حاملاً سبورته مبشراً بها في الأندية والمسارح. ثم أنظر إليه يفرض القبعة على الرءوس، ويقذف بالقلبق والطربوش وغير هذين من الأغطية المختلفة الأشكال، التي كانت تجعل من الأتراك شبه (كرنفال). إن مصطفى القائد خبير بعلم النفس، مدرك تمام الإدراك الارتباط الذي بين النفوس، وبين أغطية الرءوس، فعل مصطفى ذلك كله في ثوان، وإن قوماً لا يزالون إلى الآن ينتظرون حكم الفقهاء في ترجمة القرآن، وهم كلما هموا باستبدال لباس بلباس، انتظروا حتى يحكموا الدليل والقياس

إن سر عظمة مصطفى هو في أنه رجل عملي، لا يعرف المناقشات البيزنطية. ما يحتاج إلى قرون، ينفذه في لحظة بقوة القانون. وإنه ليؤثر الأقدام على الخطأ على التردد في الصواب، بل إنه ليحيل الخطأ صواباً بشدة اقتناعه وسرعة اندفاعه. بذلك استطاع أن ينفذ برنامجاً واسعاً من الإصلاحات، وأن يعلن الجمهورية، وأن يلغي الألقاب، وأن يقضي على

نفوس كرادلة الإسلام، وأن يحقق غير ذلك من الأغراض التي لم تحققها الثورة الفرنسية إلا بعد عشرات من السنين، أروت فيها خشب المفصلة بدماء الملايين.

وبعد، فهل لنا أن نضيف مصطفى كمال إلى نابليون بونابرت وإلى محمد علي باشا ثم نعتبر هؤلاء دليلاً على أن رجال الميدان بما تعودوا من سرعة البت وصرامة الأحكام - أصلح لحكم الشعوب من رجال القانون الذين يتحرون المنطق في الأحكام، ويطيلون البحث في فقه الألفاظ ومدلول الكلام؟

وهل لنا أن نعتبر هؤلاء دليلاً على أن الحكم الدكتاتوري العادل هو أصلح أنواع الحكم التي تساس بها الدول؟ إنني لأميل إلى ذلك كل الميل. بيد أنهم يقولون: إن الدكتاتور يبني نفسه على أنقاض غيره، ويقوي شخصيته على حساب إضعاف شخصيات الآخرين. ولئن صح ذلك فأنني لأشفق على تركيا الفتاة ألا تجد خلفاً لمصطفى، أو تجد

خلفاً يشغل زاوية من زوايا كرسيه العريض ويترك سائرة شاغراً
(كوم حماده)
محمود غنيم
من ذكريات لبنان
راهب الوادي
للأستاذ علي الطنطاوي
كنت في بيروت فمللت صخبها وضوضاءها وأحسست أن قلبي جائع لا يشبعه إلا الجمال، ونفسي عطشى لا يرويها إلا الحب، وتمنيت أن أعيش يوماً في الجنة. . . وما أقرب الجنة من ساكني بيروت تلوح لهم من شرف السماء كما تلوح الفراديس لعيني العابد المتبتل. . . وتبدو لهم بذراها المكللة أبداً بالثلج رمزاً للصفاء والطهر، وهاماتها المرفوعة المشمخرة صورة للعظمة والمجد، وصخورها الهائلة التي تتلو على الدنيا سورة الخلود، وسفوحها الحالية بأشجار الصنوبر والسرو التي تصف الحياة الباسمة، والجمال الباقي، وقراها الضائعة في الضباب العطِر، وغاباتها السكرى بالنشيد الحلو، وشعابها ومساربها التي يمرح فيها الحور العين، والولدان المخلدون، آمنين في مثابة العشاق، وحمي المحبين، وأوديتها العميقة عمق السر في نفس الصب المدله بحب أن يذيعه ثم يضنَّ به فيختزنه في صدره، الرهيبة رهبة الأزلية عند أبناء هذا الوجود الفاني. . . الساحرة سحر المجهول الذي يحبه الناس بمقدار ما يخافونه!
وكانت الدنيا تخطر في حلل الربيع، وكانت الطبيعة في عرس، فخرجت مع فئة من تلاميذي نؤم دنيا الأحلام، وجنة المستعجل، وذهبنا نصعد في الجبل على غير ما طريق، بل لقد تنكبنا الطرق عمداً ونأينا عن السبل المسلوكة، والقرى العامرة، لنرى الطبيعة العذراء، ونبصر الجمال البكر، لا الذي ازدحم عليه الواردون، فلم نكن نبلغ الذروة بعد طول الجهد، ونحسب أننا قد وصلنا حتى تظهر لنا من ورائها ذرى وضهور فنعود إلى التسلق ظربين، والطبيعةُ، ويح الطبيعة، تعرض علينا من فتونها ألواناً، وتغرينا بالحب ما وسعها الأغراء، فلم تلبث أن أيقظت في نفوسنا بنات الهوى، وشياطين الغرام، فإذا نحن نفتش في أثناء نفوسنا عن ذكرى حب قديم، أو أمل بحب جديد. . . وإذا نحن نحس بهذه العاطفة المبهمة التي يبعثها الجمال في النفوس الشاعرة، فنزهد في المال والجاه والمجد، ولا نطلب من الحياة إلا خلوة هادئة على صخرة من هذه الصخور. نقضي فيها العمر كله مع من نحب في قبلة واحدة. . . وهل يتسع عمر الإنسان (ليت شعري) لأكثر من قبلة
واحدة؟
لبثنا صاعدين ساعات طوالاً، والطريق تتسع بنا أو تضيق، والقرى تبدو لنا خيالاتها كأنها الأمل الباسم يومض نوره من خلال الأمل الطاغي، وهي متكئة على أكتاف الصخور، أو نائمة في حجر الجبل نومة الطفل المدلل في حضن أمه الرؤوم، والمشاهد تتبدل لنواظرنا أبداً، فلا تترك جميلاً إلا إلى ما هو أجمل، فلا ندري فيم نتأمل، وأين ننظر، كالذي يشهد معارض الفن الجميل فيحار أين يقف، وعلى أي لوحة يلقي البصر. . .
إن لبنان معرض الفن العلوي الذي أبدعته يد الله، فمن لم ير لبنان (لبناننا الشرقي النقي الطاهر، ولبنان القوم المرح الشاعر) لم ير من دنياه شيئاً!
بلغنا من الصعود ما لا نطيق أكثر منه، فنظرنا إلى أقدامنا، فإذا تحتنا أودية وأودية لا ينال البصر أدانيها، وإذا هي غارقة في الضباب، ومحجوبة بالسحاب الذي علونا عليه فصار جريه من تحتنا، وإذا هي مهولة مخيفة، ولكنها سبيلنا ما لنا من الهبوط إليها يد، بعد أن أضعنا الطريق وبلغنا هذه الذرى الخالية، فتوكلنا على الله وأخذنا نهبط في فزعين، ولم يكن ثمة من طريق فكنا نثب من الصخرة، وننحدر في المسيل، ونتزحلق على الحصى، والوادي العميق لا يزال كما كان غارقاً في الضباب، كأنه صورة مبهمة لاحت لشاعر، أو فكرة غامضة أو مضت في رأس عالم، وكنا كلما هبطنا درجة فتحت لنا صفحة جديدة من كتاب الجمال السرمدي، فلا نكاد نقرأ منها حرفاً، لأن لنا من حيرتنا وتعبنا وفزعنا ما يشغلنا عن تلاوة آيات الجمال. . .
حتى إذا مضت ساعات وآذن النهار بالرحيل، بلغنا قرارة الوادي، فإذا هو خال موحش يبدو لنا كأنه قبر، وإذا الأشواك والأزهار والأوراد قد حفت به متشابكة مؤتلفة حتى لا سبيل إلى بلوغه، ولم تكن قد مستها يد بشرية مدمرة، فبقيت على طبيعتها متعانقة

لم يفسد ألفتها شيء، ولم يعبث بجمالها عابث، فدرنا حولها نفتش عن مجاز نجوز منه، فوجدنا بعد لأي طريقاً ضيقاً ملتوياً، فسرنا فيه نلتوي معه حتى بلغنا الأعماق. . .
كان الوادي ضيقاً عميقاً كأنه فجوة صغيرة، فنظرنا في جوانبه فلم نلق أثراً لإنسان فرفعنا رؤوسنا فإذا نحن نبصر على الجانبين جداراً هائلاً من الصخر، لا يبلغ البصر أعاليه، وإذا نحن في بئر عميقة نائية عن الدنيا، لم تبلغها الحضارة بخياراتها ولا بشرورها بعيدة عن
البشر لم يصلوا إليها، ولم يعلموا بها فأيقنا أنا قد كشفنا سراً من أسرار الطبيعة في هذا الجبل. وكم للطبيعة فيه من أسرار لم يكشفها إلى اليوم أحد!. . . وملكتنا رهبة المكان فسرنا صامتين، وابتعدت عنهم أنقب في جوانب الوادي، فإذا أنا بسلسال ماء يهبط من الذرى العالية يقطع مئات الصخور والحدور، حتى يستقر في هذا الوادي، كأنه رسالة الحياة وهديتها إليه فذهبت أتبع مجراه، وأتقصى أصله، فإذا أنا ألمح داراً متوارية وراء صخرة من الصخور الضخمة، وإذا أنا أسمع صوتاً يختلط بخرير الينبوع، ويرن صداه الخافت الفاتن في سكون الوادي الضيق، فيهز من القلوب حباتها، فأعجب من هذا الصوت وأقبل عليه على حذر فإذا أنا أتبين فيه هذه الأغنية اللبنانية الخالدة، التي تحمل عبقرية الأجداد، وصورة آلامهم ومسراتهم، وخوالجهم وهواجسهم، فيتلقاها الأحفاد ويزيدون عليها آلامهم وآمالهم فلا تنتهي أبداً، بل تبقى دائماً نشيد الشعب، بل أغنية القلب. . .
عَ اليادل يادل يادل. . . . . .
لَطْلعْ عَ راس الجبل ... وَشْرِفْ على الوادي
وقول يا مرحباً ... نَسَّم هوا بلادي
يا رب يطوف النهر ... ويمتلي الوادي
لَعْمِل زنودي جسر ... ومَرِّيء البنية
يا رايحين على حلب ... حبي معاكم راح
يا مشيلين العنب ... فوق العنب تفاح
كل مين حبيبه معو ... ونا حبيبي راح
يا رب نسمة هوا ... ترد الحبيب ليا
فهزني الغناء، قبلت على الرجل يدفعني الاستطلاع والفضول ويردني الفزع وخشية المجهول، وأثبته نظراً فإذا شيخ همٌّ أبيض اللمة واللحية بأسمال بالية، فلما رآني وثب مرتاعاً فِعْل من لم ير إنساناً قط وقذف في وجهي بصرخة هي إلى صراخ الوحش النافر أدنى منها إلي صياح الناس، وولى هارباً، فخفته، ولكني تجلدت، وتبعته فمررت بأرض مزروعة ورأيت عدداً من الشاء نفرن مني لما أبصرنتي، فأدركته عند باب الدار، فجعلت ألطف به وأكلمه، وهو ينظر إليّ وقد امحت وحشيته الأولى وصار وجهه كوجه طفل
بريء، وجعل يصغي إلى كلامي، شارد البصر يحاول أن يتفهم معناه ويردد بعض الكلمات بصوت خافت رهيب، فوقع في نفسي أنه مجنون، أو أنه قد نسى الكلام وكان الليل قد بسط على الدنيا جناحيه ولم يبق لنا بد من المبيت في هذا الوادي، فعدت ألطف بالشيخ وأكلمه حتى أنطلق لسانه فتكلم. . .
قال:
نعم خالفت إرادة السلطان، وفررت بها إلى هذا الوادي. أليست ابنة عمي؟ أليس الحب يؤلف بين قلبينا؟ . . .
فهممت أن أسأله عنها، ولكني وجدته لا يعي الكلام وخفت إن أنا سألته أن يفوتني حديث قد لا أسمع مثله أبداً فسكت وعاد هو يقول:
لقد عشنا سعيدين لا نرى أحداً ولا يرانا، نزرع هذه الأرض فنأكل من ثمرها، ونسوق هذه الماشية فننال من ألبانها ولحومها، وكنا أسعد الناس، ولكنها ماتت، ماتت منذ أربعين سنة فماتت معها نفسي. وهذا هو قبرها. . .
وبكى الشيخ فأبكانا ثم قال:
إن أعيش من بعدها بلا حياة، أنا ميت، فاقض في ما أنت قاض. خذني إلى السلطان عبد الحميد ليقطع رأسي، لم يبق لي من الدنيا أرب بعد أن ماتت. . . لقد عشت بحبها، وأموت على حبها وهذا يكفيني. . .

ثم قام مشرعاً فاختفى بين أدغال الوادي، وترك لنا بيته وطعامه وشرابه فلبثنا فيه ننتظر الصباح

(بغداد)

علي الطنطاوي

التعلم والمتعطلون في مصر

للأستاذ عبد الحميد فهمي مطر

خطة الإصلاح الخلقي

والآن وقد كشفنا عن الضعف الخلقي الذي تفشي في شبابنا بسبب إهمال المدرسة للناحية الخلقية نرى لزاماً علينا أن نرسم للمدرسة خطتها التي نعتقد أنها إذا سارت عليها أمكنها أن تصلح من شأن أبنائها. ولسنا ندعي العصمة من الخطأ في ذلك ولكن هذه الخطة هي التي هدانا إليها اجتهادنا وتفكيرنا.

فعلى المدرسة أن تخصص مدرساً لكل عدد من التلاميذ لا يزيدون على العشرين يراقبهم ويدرس أحوالهم، ويكون لكل واحد منهم سجل خاص يدون فيه جميع المعلومات الصحية والخلقية والعلمية المتعلقة به وتحتفظ المدرسة بهذا السجل منذ بداية التحاق التلميذ بها. وعلى هذا المدرس أن يكون مركز الاتصال بين مدرسي هذا التلميذ الآخرين وإدارة المدرسة من جهة، وبين ذويه وأهله من جهة أخرى ليتعرف كل شيء عنه، وليباحثهم جميعاً في أمره وفي تنظيم حياته وفي ترقية حاله وفي إصلاح معوجه كلما لوحظ فيه انحراف عن الصراط المستقيم. وإنا نرى أن التعاون في ذلك بين المدرسة والمنزل من المسائل الجوهرية التي تقس التلميذ شر الشطط والانحراف عن جادة الحق بما يفرض عليه من رقابة شديدة ساهرة تقدم له المساعدة التي يتطلبها، وتبذل لذويه الإرشاد اللازم لصون صحته وأخلاقه، وتشرف على تنظيم أوقات فراغه وسيره في سبيل التقدم المطرد والنجاح المضمون، فيسير نحو الرجولة المنشودة. وهو فوق ذلك أمر يلزم ذويه بالعناية به والاهتمام الدائم بأمره وملاحظته والسهر على تقويمه. وبالرغم مما يلقيه هذا الواجب الجديد الثقيل على المدرس من عبء ومجهود متعب فانه يخفف عن المدرسة كثيراً من أعبائها وإجراءاتها الصورية المتعبة غير المثمرة التي تقوم بها مثلاً في حالة تغيب التلميذ أو مرضه أو تأخره أو تأديبه الخ. .

وفوق هذا فأننا نعلم أن كثيراً من التلاميذ الذين يتعلمون بالمدارس الابتدائية والثانوية يضطرون بحكم بعد المدرسة عن منازلهم أن يقطنوا وحدهم في مساكن كثيراً ما تكون قذرة وغير لائقة لعدم وجود من يعني بأمرهم. وليس هناك من يشرف على أحوالهم المعيشية،

أو يرقب عن كثب أحوالهم الخلفية فيرشدهم إذا أخطئوا، ويردهم عن غيهم إذا حادوا عن الصراط المستقيم؛ وفي هذا إفساد لكثير من الشبان من الوجهتين الصحية والخلقية. وإن في وجود هذا المدرس المشرف لضماناً كبيراً يحول دون ذلك لأن في إمكانه أن يفحص أحوال تلاميذه خصوصاً منهم من لا يعيشون تحت رقابة أهليهم.

ويصح أن يجمع عدداً من المتقاربين في أحوالهم المالية والمعيشية فيساعدهم على سكنى منزل واحد وعلى إيجاد خادم يقوم بخدمتهم فينظم بذلك حالتهم المعيشية، ويشرف إشرافاً تاماً على تكوينهم الخلقي. فلو أن المدرسة عنيت بهذا الأمر حق العناية وحققت هذه الرقابة الدائمة على تلاميذها لخدمت الأخلاق والفضيلة والقومية المصرية خدمة كبرى، ولأدى هذا العمل إلى رفع المستوى الخلقي والقومي إلى حد كبير، ينهض بمصر نهضة قوية، ويضعها في مصاف البلاد العظيمة. وللنجاح في ذلك شرط أساسي يتلخص في أن يعمل المدرسون هذا العمل الجليل عن طيب خاطر وأن يعتبروه خدمة وطنية عظيمة تقدرها البلاد قدرها. ولابد لهؤلاء المشرفين من أن يخفف عنهم عبء العمل المضني في نوح أخرى

ثم إن على المدرسة فوق ذلك أن تعني عناية تامة بالرياضة البدنية المصحوبة بأجراء تدريبات عسكرية نظامية مستمرة. وعليها أن تدرب أبناءها جميعاً على المخاطرات واقتحام العوائق وتذليل الصعاب كالفروسية وغيرها كالسباحة والتجديف وركوب الخيل وأنواع المهارة الرياضية. وعليها أن تشعر الطالب بأن الألعاب الرياضية والتدريب العسكري وأعمال الفروسية من ضروريات الحياة التي يجب على كل واحد أن يأخذها

منها بقسط وليست زينة تبرزها المدرسة في حفلاتها الرياضية السنوية فحسب لتباهي بها أترابها ولتظهر بها على غيرها، فإذا انتهت أيامها ماتت الرياضة بالمدرسة حتى تبعثها بعد عام أو عامين فكرة إقامة حفلة أخرى كما هو واقع اليوم، فكل تلميذ يجب أن يقدم على الألعاب الرياضية ويمارسها كل يوم ممارسته لغيرها من الأعمال المدرسية الأخرى. والواجب أن تخصص المدرسة نصف ساعة على الأقل يومياً للتدريب والتمرين الشخصي وأن تكون صفاً عسكرياً نظامياً عاماً يومياً، ويجب أن يخصص للتدريب العسكري فوق ذلك جزء من العام في شهر يناير كأسبوعين أو ثلاثة بصفة خاصة.

وليس الغرض من ذلك تقوية الجسم واعتدال الصحة فحسب، بل هناك فوق ذلك غاية أخرى لا تقل أهمية عن هذه وهي تكوين الخلق القويم بتعويد الطالب مغالبة الصعاب والاحتمال والصبر وحب النظام واحترامه وإطاعته وحب التضامن والتعاون مع غيره من أترابه وإخوانه. وهذه كلها أمور تتطلبها الحياة الاجتماعية اليوم وتدعو إليها النهضة القومية. ويعقب ذلك مباشرة الاهتمام بمسائل الرحلات والإكثار منها فلا يصح أن ينقضي أسبوع من غير أن تقوم المدرسة برحلة رياضية في الهواء أو في الصحراء أو في النهر أو البحر أو في الحقول الخضراء اليانعة، حيث يدرس التلاميذ بطريق غير مباشر طرق المواصلات وطبيعة الجهة صحراوية أو إقليمية أو بحرية وما يجري فوق سطح البحر أو تحته مما ينتفع به الناس. هذا إلى الرحلات العلمية التي يجب أن يقوموا بها لدراسة طبيعة البيئة المحيطة بهم، وما يجري فيها من صناعات وتجارات وزراعات. فالواجب على المدرسة أن تجعل من نفسها قطعة من الحياة الاجتماعية العامة المحيطة بها، وعلى المدرسة كذلك أن توجه عنايتها إلى خلق المشروعات الاقتصادية والخيرية بين جدرانها. وإن في قيام التلاميذ بحركة مقصف داخلي بها حيث يقوم بعضهم بشراء مستلزماته ويبعها وإيجاد سجلات لذلك وتدوينها، كما أن في قيامهم بصنع بعض الأدوات المنزلية البسيطة من الخيزران والجلد والقش الخ وبيعها في أسواق خيرية يقيمونها - لعملاً نافعاً يستحق الاهتمام والتشجيع.

وناهيك بما يمكن أن يقوموا به فوق ذلك من أعمال البر والإحسان إلى اليتامى والفقراء والمساكين مما يبعث في نفوسهم الشفقة والرحمة. وهو أمر نادر الوجود بالمدرسة المصرية اليوم بينما نجده عملاً ضرورياً في كل مدرسة أجنبية. وعلى الأخص في مدراس البنات إذ يغرسون في قلب البنت العواطف الكريمة: عواطف الرحمة بالضعيف والشفقة على المسكين، والبر بالعاجز واليتيم. وإن من وجب الواجبات إدخال هذا النظام سريعاً والعمل به لما يخلفه من جو كريم ملؤه العطف والحنان ولما يربيه في الصغار من حب البذل والجود في سبيل الخير. وكثيراً ما سمعنا عن مدارس أجنبية بين ظهرانينا تقوم بعمل الكسى وتوزيعها هي والحلوى في أيام الأعياد على الفقراء والمساكين. وإذا كانت المدرسة المصرية قد استحدثت في سنيها الأخيرة نظام توزيع الجوائز على المتفوقين علمياً من أبنائها فجدير بها أن تخص المبرزين من تلاميذها في كرم الخلق والحدب على الضعيف والعطف على البائس المسكين.

وأن تخص أقوم التلاميذ أخلاقاً وأكثرهم رجولة. جدير بها أن تخص هؤلاء أيضاً بالتشجيع وأن تمنحهم الجوائز والمنح تشجيعاً لذوي الأخلاق الفاضلة وتنبيهاً لغيرهم إلى ما تستحقه تلك الأخلاق من تكريم وتقدير. وليكن لنا في قرين الملكة فكتوريا أسوة حسنة. فلقد كان رجلاً طيب القلب، طاهر الفؤاد، يقدر الأخلاق الكريمة حق قدرها فكلن كلما قرر مكافأة سنوية لمعهد من المعاهد جعلها لأرقى الطلبة خلقاً، ولمن يؤمل فيه أن يكون رجلاً كبير القلب طاهر الفؤاد عظيم الشمائل، ولم يكن يجعلها لأذكى الطلبة أو أنبههم أو أكثرهم مدارسة للكتب، أو أنبغهم في العلوم

ثم إن على المدرسة بعد هذا وذاك أن تحبب أبناءها في القراءة ومدارسة الكتب وتذوق ما في بطونها. وعليها أن تتخير لهم الكتب المناسبة لعقولهم فتكثر للأطفال من القصص الصغيرة المليئة بحوادث التضحية والبطولة وأبطال الرجال وقادتهم، وأن تضمنها ما كان لعظيم أخلاقهم من سر في بطولتهم. فلكم يحلو للطفل أن يحدثه أستاذه أو كتيبه عن بعض المواقف العظيمة في حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أو عمر بن الخطاب، أو عمر بن عبد العزيز. وكم يحلو له أن يقرأ شيئاً عن مصطفى

كامل أو سعد زغلول، أو جان دارك، أو غاندي، أو غيرهم من الأبطال المليئة حياتهم بالنوادر والقصص اللطيفة التي تحفز الطفل إلى التقليد والنسج على ذلك المنوال فيشب معجباً بأعمال البطولة النادرة ويتمنى في نفسه دائماً لو أتيح له أن يكون كواحد من هؤلاء الأبطال. ولا شك أن هذا يدفعه في شبابه بل طول حياته إلى الأعمال العظيمة، كما أنه يحول بينه وبين كل رذيلة أو عمل حقير. وفي المدرسة الثانوية يجب أن يكون في صلب جدولها درسان على الأقل أسبوعياً للمكتبة لكل طالب يكلف فيها بحث إشراف مدرسه بدراسة تاريخ حياة بطل من الأبطال ليكتب عنه ويحاضر فيه إخوانه ويسمر معهم متحدثاً عن سيرة بطله وأعماله ونوادره وأحواله. وفي بطون التاريخ كثير من الأبطال السياسيين وغير السياسيين من المستكشفين والمخترعين وجبابرة العقول والفلاسفة. ولا شك في أن متابعة سير هؤلاء ومدارسة أحوالهم من أشهى وألذ ما يخاطب به عقل فتى تستهويه البطولة والعبقرية، كما أني لا أشك في أمنية كل شاب أن يصير بطلاً كأولئك الأبطال مما يحفزه في أن يسير سيرتهم وينهج نهجهم. بهذا العمل لا نكون قد حققنا غرضاً واحداً، بل عدة أغراض، إذ نعود الطالب الاعتماد على نفسه في البحث والدرس كما نعوده تذوق الفقراء والمطالعة واعتيادها، وحصر أوقات فراغه فيها، ونغرس فيه فوق ذلك حب البطولة وتقديرها والسعي المتواصل إليها. ويا حبذا لو عملت المدرسة من ناحية أخرى على تحبيب تلاميذها في الفنون الجميلة من موسيقى وتصوير وشعر، وذلك بأن يدرس المشرف صاحب سجل التلميذ ميول التلميذ منذ بدء اتصاله بالمدرسة واتجاهه، ثم يحاول أن يقوي فيه تلك الميول حتى يتجه به إلى أحد هذه الفنون فيسير في تعلمها لأنها لا تربي في الإنسان الذوق السليم فحسب، ولكنها تصرف الشاب عن الاتجاهات الفاسدة وتجعله يعرف كيف يقضي أوقات فراغه في هويته التي جذبته إليها من غير أن يتأثر بقرناء السوء أو يفكر في غير اللهو البريء لا اللهو الفاسد الذي يجر كثيراً من الشبان إلى الدمار والهلاك

إذا قامت المدرسة بكل ذلك، ولن تقوم به إلا إذا تخلصت من قيودها الحالية، فإنها تكون قد حققت الغرض الأسمى من وجودها لأنها أحاطت أبناءها بسياج متين من الأخلاق الفاضلة وأعدتهم إعداداً حسناً للكفاح الدائم، والنضال المستمر المنتج في الحياة، ذلكم الكفاح والنضال اللذين يكونان الرجال ذوي العقول المثقفة والضمائر الحية، والأخلاق الطاهرة القويمة، ما يكفل لهم النجاح في أعمالهم والنهوض بأمتهم.

وليس للأمة عدة تتكئ عليها في هذا السبيل غير المعلمين الأكفاء الأمناء الذين يقدرون واجبهم تمام التقدير ويسهرون على أدائه خير أداء تعاونهم في ذلك الأمهات المثقفات العارفات بطرق تنشئة الأطفال على الفضيلة وقيادتهم قيادة صحية إلى الحياة الفاضلة السامية. ولن يتوج هذا النجاح إلا بسهر الحكومة سهراً فعالاً على حماية أبناء البلاد وعنايتها بناشئتها ومعونتها المنزل والمدرسة معاونة صادقة في سبيل الطهر والفضيلة وواجبها المحتوم في ذلك يقضي عليها بأن تسن تشريعاً خاصاً يحرم على الأطفال والشبان قبل سن محدودة ارتياد محال اللهو والمقاهي العامة ومحال القمار وغيرها مما يفسد الأخلاق ويقضي عليها إذا كانت لا تستطيع أن تقضي على المحال المفسدة وتحمي جمهور الشعب من مفاسدها. وواجبها المحتوم يقضي عليها أن تنشئ مراكز متعددة للألعاب الرياضية في مختلف جهات المملكة يلتحق بها الشبان بعد انتهائهم من المدرسة فيقضون فيها أوقات فراغهم وتكون مكاناً لتسليتهم وسمرهم وتقوية أجسامهم بدلاً من تلك المقاهي العامة التي انتشرت في كل مكان وأقل ما يقال فيها أنها تعلم الكسل وتعود الإهمال وتباعد بين الرجل المتزوج وأولاده مما له أثر أسيء جداً في حياتنا الاجتماعية والمنزلية

وإني أسأل الله أن يوفق العاملين إلى استئصال تلك الآفات الاجتماعية حتى تصبح أمتنا خير أمة أخرجت للناس

عبد الحميد فهمي مطر

الفن

للفيلسوف الفرنسي هنري برجسون

ما هو الغرض من الفن؟ لو قدر للحقيقة أن تصطدم بحواسنا وضميرنا، ولو كان في مكنتنا لأن نتصل اتصالاً مباشراً بالأشياء وبأنفسنا، إذن لكنت أعتقد بأن الفن شيء غير

ضروري. أو بعبارة أوضح لكنا نصبح جميعاً فنانين، لأن أوتار نفوسنا ستهتز حتماً بالاتحاد مع الطبيعة؛ ولكانت عيونا تؤازرها ذواكرنا، تتقطع من الفضاء آيات من روائع الفن لنثبتها على صفحة الزمن؛ ولكان نظرنا يلتقط في طريقه أجزاء من التماثيل منحوتة في رخام الجسم البشري الحي لا تقل روعة عن التماثيل الأثرية القديمة؛ ولكنا نسمع نفحات حياتنا الباطنة تتردد في أعماق نفوسنا كأنها ألحان موسيقية، تارة مرحة وأطواراً مشجية، وفي الغالب غريبة غير مألوفة. كل ذلك يوجَد حولنا، كل ذلك يوجد فينا، ومع ذلك فإننا لا نميز بجلاء شيئاً من ذلك كله. إنه يوجد بين الطبيعة وبيننا، أو بالأحرى يوجد بيننا وبين ضميرنا الذاتي وشاح مسدول، وهذا الوشاح يراه العامة من الرجال كثيفاً ولكنه في نظر الفنان والشاعر خفيفاً حتى ليكاد يكون شفافاً عارياً. فأية حورية من الجن قد حاكت خيوطه الناعمة؟ وهل نسجته خبثاً ودهاء أو مودة وتحبباً؟ إن الحياة فرض واجب لابد منه. والحياة تحتم علينا أن نتناول من الأشياء التي تكتنفنا ما نحن في حاجة إليه في علاقاتنا بها.

إن الحياة موقوفة على العمل والمثابرة. والحياة هي ألا يقبل المرء من مؤثرات الأشياء المرئية إلا ما كان نافعاً ملائماً لطبيعته بحيث يتسنى له أن يجيب على اختلاجات هذه الأشياء برجعة متناسبة. وأما ما عداها من المؤثرات فيجب أن تضمحل وتتلاشى أو لا تصل إلينا إلا مضطربة مشوشة. . . إنني أنظر وأعتقد بأنني أرى، وأصغي وأعتقد بأنني أسمع، وأدرس نفسي وأعتقد بأنني أقرأ في أعماق فؤادي. بيد أن ما أراه وما أسمعه في العالم الخارجي ليس إلا ما تستخلصه حواسي لإنارة طريق عملي. إن ما أعرفه من نفسي ليس إلا ما يتجلى للنظر، أي ما يشترك في العمل. وإذن فان حواسي وضميري لا تكشف لي إلا عن ناحية موجزة من نواحي الحقيقة العملية. ففي الرؤيا التي تمثلها لي حواسي وضميري من الأشياء ومن نفسي، تتلاشى الفروق التي لا ينتفع منها الرجل، وتتضاعف المشابهات التي يستفيد منها الرجل، وتتجلى أمامي السبل التي سيطرقها عملي وهي السبل التي سلكتها الإنسانية بأسرها وقطعتها من قبلي. إن الأشياء رتبت طبقاً للفوائد التي يمكنني أن أستخلصها منها، وهذا الترتيب هو الذي أشاهده أكثر مما أشاهد لون الأشياء وشكلها. لاشك في أن الرجل أرفع مكانة وقدراً من الحيوان من تلك الناحية، وإنه لقليل الاحتمال أن تفرق عين الذئب بين الجدي والحمل؛ فكلاهما في نظر الذئب فريسة مستساغة، وكلاهما سهل المنال، وكلاهما صالح للالتهام. أما نحن فإننا نفرق بين العنزة والخروف، ولكن هل ترانا نميز بين عنزة وعنزة وبين خروف وخروف؟ إن فردية الأشياء والكائنات تغيب عنا كلما تبين لنا أن في جلائها نفعاً مادياً، بل في الأحوال التي نتبين فيها تلك الفردية (كما في الظروف التي نتبين فيها الفرق بين رجل ورجل آخر) فان أعيننا لا تلتقط تلك الفردية بالذات أي بعض التآلف الغريب الذي يوجد بين الأشكال كما يوجد بين الألوان، ولكنها تلتقط لمحة أو لمحتين تسهيلاً للتحقق العملي من وجود الشبه بينهما

ومجمل القول أننا لا نرى الأشياء في ذاتها وإنما تقتصر في أغلب الأحيان على قراءة ما هو مكتوب على البطاقات الملتصقة بها. وهذا الميل الناشئ عن الحاجة يزداد كذلك تحت تأثير الكلام والنطق، لأن الألفاظ (فيما عدا أسماء الأعلام) تعبر كلها عن الأنواع. إن الكلمة التي لا تعبر إلا عن ماهية الشيء المألوفة العادية ولا تدل إلا على مظهره المبتذل تنساب بين الشيء وبيننا فتحجبه عنا وتخفي شكله عن أعيننا إن لم يكن هذا الشكل قد توارى خلف الضروريات التي كانت السبب في خلق تلك الكلمة. ولا يقتصر الأمر على الأشياء الظاهرة وإنما يتعداه كذلك إلى حالاتنا النفسية التي تتواري عنا وتختفي وراء جوهرها الذاتي. عندما نشعر بالحب أو بالحقد، وعندما نشعر بالسرور أو بالكآبة، فهل شعورنا بالذات هو الذي يصل إلى ضميرنا بآلاف التموجات الشاردة وآلاف الأصداء العميقة التي تجعل منه شيئاً من خصائصنا الذاتية المطلقة؟ إذن لكنا نصبح كلنا روائيين، وكلنا شعراء، وكلنا موسيقيين. ولكننا في أغلب الأحيان، لا نرى من حالتنا النفسية إلا نبسطها الظاهر. إننا لا ندرك من مشاعرنا إلا مظهرها الغريب عنا، والذي حدد اللفظ معناه كلية لأنه يكاد يكون متشابهاً دائماً، وظروفه تكاد تكون واحدة عند جميع الرجال. وهكذا فان الفردية تغيب عنا حتى في شخصنا. إننا نتحرك في وسط محيط من الاعتبارات والرموز كأننا بداخل

دائرة محاطة بسياج تتبارى فيه قوتنا مع سواها من القوات؛ فإذا ما سحرنا العمل وجذبنا إلى المجال الذي اختاره، في سبيل مصلحتنا، أخذنا نعيش في منطقة متوسطة بين الأشياء وبيننا، خارجة عن الأشياء وخارجة عنا كذلك. بيد أن الطبيعة توجد، على سبيل اللهو، نفوساً أكثر انفصالاً عن الحياة. إنني لا أتكلم عن ذلك الانفصال المقصود الثابت بالبرهان والناتج عن التفكير والفلسفة، وإنما أتكلم عن انفصال طبيعي يعد غريزياً في تقويم الحس والضمير، ويتجلى في الحال بطريقة بريئة للنظر والسمع والتفكير. فإذا كان هذا الانفصال تاماً، وإذا كانت النفس تكف عن الاشتراك في العمل بواسطة حاسة من حواسها، أصبحت تلك النفس نفس فنان لم ير العالم مثلها منذ الأزل. وإنها لتسمو في جميع الفنون معاً، أو بمعنى أصح تصهر جميع الفنون في بوتقة لتخلق منها فناً واحداً؛ وننظر إلى الأشياء في سذاجتها وطُهره الأول. وكذلك تكون الحال في الأشكال والأوان وأصوات العالم المادي وأدق حركات الحياة الداخلية. بيد أننا لو فرضنا ذلك لكنا نحمل الطبيعة فوق طاقتها. ثم إذا نحن دققنا النظر في الذين اختارتهم الطبيعة من بيننا لتجعل منهم فنانين فإننا لا نلبث أن نتأكد من أنها لم تأت ذلك إلا عفواً عن غير عمد، وأنها لم ترفع الوشاح الذي يسترها إلا من جانب واحد، ونسيت أن تقيد الشعور بالحاجة في اتجاه واحد. ولما كان كل اتجاه يقابله ما نسميه حاسة، فان الفنان ينقطع عادة للفن بواسطة إحدى تلك الحواس وبتلك الحاسة فقط. من هنا نشأ تنوع الفنون. ومن هنا أيضاً نشأ تخصص الميول. فمن الناس من يتعلق بالألوان والأشكال؛ ونظراً لأنه يحب الألوان لمجرد الألوان، والأشكال لمجرد الأشكال؛ ويميز كلا منها لذاتها لا لذاته، فان الحياة الداخلية لتلك الأشياء هي التي تتجلى أمام النظارة خلال أشكالها وألوانها فيدخلها رويداً رويداً في إحساسنا المضطرب القلق من تلك المفاجأة. إنه ينزع عنا، ولو لفترة قصيرة، تلك القيود التي تربطنا بأوهام الشكل واللون التي ما فتئت تعترض أعيننا وتحول بينها وبين الحقيقة. وإنه ليستطيع بذلك تحقيق أكبر مطمع للفن وهو - بالنسبة لموضوعنا - إزاحة الستر الذي يخفي الطبيعة عنا. ومنهم من ينطوون على أنفسهم ويقفون جهودهم على البحث عن الشعور وعن حالة النفس على ما هي عليه من سذاجة وطهر، خلال آلاف الأعمال المتولدة التي تعبر عن الشعور، أو من الكلمة التافهة الاجتماعية التي تعبر عن حالة نفسية فردية وتستكملها. وإنهم - لكي يستحثونا على محاولة مثل هذا المجهود في أنفسنا - يجتهدون في إطلاعنا على شيء مما وقعت عليه أعينهم وبعبارات منتظمة موزونة يقولون لنا - أو بالأحرى - يوحون إلينا بأشياء لم توضع الألفاظ للتعبير عنها. وسواهم يبالغون في تعمقهم ويمعنون فيه؛ فتراهم تحت ستار هذه الأفراح وتلك الأحزان التي يمكن التعبير عنها بالألفاظ، يتمسكون بأشياء لا علاقة لها ألبتة بالكلام، أو ببعض نغمات من نغمات الحياة والتنفس هي أعمق في صدور الرجال من أدق مشاعرهم لأنها تمثل الناموس الحي الذي يختلف باختلاف الأشخاص، ويعبر عن كبتها ووجدها، وعن حسراتها وآمالها. فإذا استخلصوا تلك النغمات وضاعفوها فانهم يفرضونها علينا ويلفتوننا إليها، ويعملون على الاندماج فيها عفواً وبغير ما دافع منا كما يندمج المتفرج في حلبة الرقص دون أن يشعر، ويحملوننا بذلك على أن نهز في خبيئة نفسنا أوتاراً متحفزة ترقب من يلمسها لتصدح وترتفع نغماتها

فسواء أكان الفن رسماً أو تصويراً أو شعراً أو موسيقى فلا غرض له إلا أن يُبعد الرموز النافعة والاصطلاحات المشروعة المسلم بها في المجتمع وكل ما يستر الحقيقة عنا ليقف بنا إزاء الحقيقة بالذات وجهاً لوجه. إن الجدل بين المذهب الوجودي والمذهب المثالي في الفن نشأ من نزاع على تلك النقطة. فلا شك في أن الفن ليس إلا مظهراً جلياً مباشراً للحقيقة، بيد أن هذا السمو في الإدراك يستلزم القطيعة مع العرف المصطلح، ونزاهة غريزية محصورة في الحس أو الضمير، كما يستلزم كذلك شيئاً من اللامادية في الحياة وهي ما اصطلحوا على تسميته دائماً بالمذهب المثالي، بحيث يمكن القول، بغير ما تورية أو مجاز، بأن المذهب الوجودي هو في العمل بالذات، بينما المذهب المثالي هو في النفس، وأنه لا يمكن العودة إلى تلمس الحقيقة إلا بقوة الخيالية دون سواها

هنري برجسون
ترجمة سليم سعدة
فن القراءة
للأديب نصري عطا الله سوس
القراءة فن له قواعد وأصول. ومهما جد القارئ واجتهد فلن يحصل على ثمرة مجهوده إلا إذ اتبع تلك القواعد والأصول اتباعاً دقيقاً. وكلامنا هذا لا ينصب على كل ما يقرأ، بل على الأدب وحده باعتباره أثمن وأرفع أنواع القراءة؛ ولا على كل من يقرأ، بل على من يعتبر الكتاب صديقاً ومرشداً ومعلماً، ومن تضطرم في قلبه جذوة الشوق إلى المعرفة وفهم الحياة والتمتع بها إلى أقصى حد ممكن واكتناه أسرارها
ينبع الأدب من قدس أقداس النفس، يضمنه الأديب زبدة حياته، وصفوة اختباراته، وما يضطرم في قلبه من آلام وآمال وما يصطرع في ذهنه من آراء عن حقيقة الحياة والموت والقدر واللذة والألم والطبيعة والخالق وغيرها من مشكلات الحياة التي لن تحل أبداً. والأديب هو ذلك الشخص الدقيق الإحساس الرقيق الشعور الذي يتأثر بكل عوامل الحياة أتم التأثير وأقواه، والذي منحته الطبيعة القدرة على التعبير عن آرائه واحساساته التي دفعت به إلى الكتابة. والكتاب الجيد من أثمن النعم التي تتيحها الحياة لمن حبته الذوق الفهم، لأنه خلاصة حياة عظيمة غنية واسعة الأفاق بعيدة الغور؛ وهو ينبوع عذب، فيه ري وفيه حياة لأثمن وأرفع ناحية من نواحي الطبيعة الإنسانية. فالكتاب الجيد يعمق ويهذب شعورنا ويوسع آفاق نفوسنا ويقوي قدرتنا على التفكير ويفتح أعيننا على أنواع من الجمال لم نكن نعرفها أو نحس بها. والإنسان مفهوم يحب الحياة، ودّ لو عاش أعماراً مضاعفة وتذوق كل ما تفيض به الحياة من لذات وآلام، ولكن العمر شحيح. ومن جهة أخرى فالحياة بخيلة لا تتيح أو تسمح لكل إنسان أن يقلب أبصاره بين آفاقها ويخوض بحارها باحثاً عن دررها. لم تتح الطبيعة هذا إلا لأشخاص معدودين جعلت كل واحد منهم أشبه بقيثارة تستنطقها كل أنغامها، وهم الأدباء والشعراء. وبقراءة ما خلف هؤلاء نشبع حب الحياة في نفوسنا. فالكتب تضيف أعماراً إلى أعمارنا، وهي سياحة في المكان والزمان. فالقارئ الجالس على كرسيه في غرفة ضيقة يطوف بذهنه في فجاج الأرض كلها، بل يرقى إلى السماء ويتملى أنوارها، ويرتد إلى الماضي السحيق يحدق في كهوفه وظلماته، ويتقدم إلى المستقبل البعيد يتملى بهاءه وجلاله. فإذا كان الأدب على هذه القيمة والأهمية فكيف نقرأه؟
1 - أول شروط القراءة هو حسن اختيار الكتاب، فالعمر لا يتسع لقراءة كل ما كتب في لغة واحدة - ناهيك بأدب أمتين أو ثلاث - ولا كل ما كتب يستحق القراءة. والملاحظ أن الأدباء - وهم أحسن من يجيدون القراءة - لا يعيرون أهمية كبيرة لما يكتب في عصرهم، بل يوجهون كل اهتمامهم إلى الكتب التي أثبت الزمن قوتها وحيويتها وقدرتها على البقاء. والزمن وحده هو الذي يحكم للكتاب أو عليه؛ والزمن وحده هو الذي حفظ لنا هوميروس وأفلاطون وشكسبير وإضرابهم، لأن أدبهم يشتمل على عناصر الحياة الجوهرية التي لا حياة بدونها. وكم من أديب عاش ومات في غمرة النسيان! وكم من أديب تألق ثم خبا! وكم من أديب يعيش على فضول الكتاب والقراء. علينا أن نهمل كل هؤلاء وأمثالهم وأن ننتخب ما نقرأ من بين أحسن ما كتب. هذا إذا أردنا أن نحيا حياة ذات قيمة.
2 - العامل الثاني هو إجادة القراءة. فهناك قراء يوجهون كل همهم إلى الإحاطة وينسون الإجادة والعنصران قلما يجتمعان إلا في القليل النادر. وقراءة كتاب واحد قراءة تفهم وإمعان أجدى من قراءة عشرة كتب قراءة سطحية. إن الكتاب - كما قلنا - هو زبدة حياة المؤلف، والقارئ النابه لا يتجه إلى مجرد القراءة العابرة، بل إلى تكوين صلات وعلاقات مع المؤلف. فلنجعل نصب أعيننا صداقة المؤلف يجب أن نفهم الكاتب كما نفهم صديقاً: نحيط بظروف حياته: آماله وآلامه، أحلامه وهمومه، فكهاً أو وقوراً، متفائلاً أو متشائماً، وهكذا. . . والخلاصة أنه يجب أن نفتح قلوبنا ليصب الكاتب فيها دمه ونترك ذلك الدم يجري حاراً في عروقنا
3 - العامل الثالث هو نظام القراءة، فكثير من القراء يتبعون في مطالعاتهم سبيلاً ملتوية: كتاب من الشرق وآخر من الغرب؛ كتاب حديث وآخر قديم؛ وهكذا دون ضابط

ولا نظام. وهذا المسلك قلما يثمر بل الواجب أن نختار كاتباً معيناً ونقرأ كل ما كتب، لأن كتب الكاتب ما هي إلا جوانب متعددة لشخصية واحدة، ولا حق لنا أن نتحدث عن كاتب أو نصدر عنه حكماً إلا إذا درسنا أدبه دراسة وافية كاملة. ويجب أن نتبع في هذه الدراسة نظاماً خاصاً، فيجب أن ندرس كتبه حسب ترتيب كتابتها، فلا نتناول إنتاجه في أوان شيخوخته، ثم في أوان شبابه الأول، ثم في أوان نضجه، بل يجب أن نبدأه بقراءة باكورة
إنتاجه، ثم ما تبعه، ثم ثالث كتاب أخرجه، وهكذا. . . وبهذا فقط يتاح لنا أن نعرف تأثير الحياة والتجارب في تطور شخصية الكاتب: كيف شق لنفسه طريقاً إلى فلسفته؟ وكيف خلص إلى آرائه عن مشكلات الكون؟ هل ابتلته الحياة بالفتور واليأس؟ هل شك في عدالة الكون وعاف الحياة؟ أم هل انجلت عن ناظريه عمايات الصبا وغواياته ودعا إلى الحياة الفاضلة مؤمناً بالله مبرراً سلوكه مع الإنسان؟ هل بقي ساخراً لا يعرف لنفسه فلسفة ولا يخلص إلى عقيدة حتى ذهب في طريق من ذهب؟ وما أثر ظروف حياته من فقر وغنى وصحة ومرض في نفسه؟ هل تغلب عليها واحتفظ بنضارة قلبه وسلامة روحه؟ أم تركها تتسرب إلى أدبه وتكسبه لونها الخاص؟ هل تأثر بروح عصره وجارى سلفه ومعاصريه أم أثر هو في روح العصر ووجه الأدب في طرق جديدة وتناول بالنقد والتفنيد ما استهجنه ودعا إلى مثل جديدة؟ وما أسباب كل هذه المسائل ودواعيها. . .؟ هذه كلها موضوعات يهتم بها القارئ الحصيف، ولكن لا يمكنه أن يكون رأياً عادلاً عنها إلا إذا قرأ بنظام. بهذا فقط يتأتى لنا دراسة الحياة نفسها دراسة شاملة تفهمنا روحها وطبيعتها وفلسفتها. إن التفكير المجرد قلما يخلص بالمرء إلى نتائج سليمة، وعلماء النفس في الوقت الحاضر يدرسون مخلفات الأدباء بهذه الطريقة التي أسلفنا ويكونون نظرياتهم على هدى تلك الكتب، ذلك لأنها تنبع من صميم الحياة الواقعية، والحياة أعمق وأشمل من أن يحكم المرء عليها وليس وراءه إلا تجاربه؛ والفلسفة قلما تسعف الإنسان بعقيدة تغير حياته وتجملها، بل هي غالباً تبتليه بضروب الشك في قيمة الحياة والحيرة في معناها. ولكن الأدب وحده ينبع من أعماق الحياة ويصور ما نعانيه ونحسه من آلام وآمال، وهو الصورة الحقيقة الصادقة للحياة كما هي. بعكس الفلسفة فهي سياحات (فكرية) في عالم المجهول، وما من مذهب فلسفي إلا ومذهب آخر يناقضه، وكل له دعائمه وبراهينه؛ فلا عجب إذاً أن يترك علماء النفس كتب الفلسفة إلى الأدب يهتدون بهديه في تكوين نظرياتهم

4 - العامل الرابع هو المقارنة: كيف يمكننا بعد ذلك أن نقدر الأديب تقديراً صادقاً ونصدر حكمنا له أو عليه؟ لا يمكننا أن نفعل ذلك إلا إذا درسنا معاصريه وتبيننا أين يتفق معهم وأين يختلف عنهم، لأن ظروف الحياة التي أثرت فيهم واحدة لأنهم أبناء عصر واحد، ولكنها أثرت فيهم تأثيراً مختلفاً، وسبب هذا الاختلاف هو تباين طبائعهم ومشاربهم،

وبالمقارنة والموازنة بين المعاصرين يتسنى لنا أن نميز الأديب الكبير من غيره. فدراسة معاصري شكسبير مثل بن جونسون ومارلو وبومنت وفلنشر، توضح لنا عظمته وجلاله. وإذا درسنا بوروبيدس وسوفوكلس ألقى كل منهما نوراً ساطعاً على شخصية الآخر. وكذلك إذا درسنا شارلس دكنز مع وليم ثاكري، وتنسون مع بروننج، والأخطل وجرير والفرزدق، وبشار وأبو نواس، وأبو تمام والبحتري، وهكذا. . .

5 - بقي أن نشير إلى عنصر هام من أهم العناصر التي تمكن القارئ من الاستفادة التامة مما يقرأ وهو الصبر والتجاوب مع الكاتب. وكم من قارئ يترك الكتاب بعد قراءة صفحة أو اثنتين لأن الكاتب يختلف عنه ميولاً ومشرباً، وليس أخطر على القارئ من اقتصاره على قراءة ما يتفق ونظرته إلى الحياة. ومن ملاحظات الكاتب الألماني أميل لدفيج أن القراء في العصر الحاضر يطالعون الكثير من القصص لا لغاية إلا تبرير آثامهم وزلاتهم بحجة أن أبطال القصة سلكوا نفس المسلك، وهذا جبن وخور. والواقع أن الكتاب الذي يهاجم أفكارنا وعقائدنا يفيدنا أكثر من غيره. والمعركة بين الكتاب والقارئ ليست بأقل متعة أو جدوى من معركة شريفة بين شخصين إذ يجتهد كل في تبرير رأيه بإظهار براهينه وأدلته ويحاول إفحام خصمه بتفنيد مستنداته، وفي ذلك ما فيه من إذكاء الفكر وشحذ الذهن ومعاودة النظر في الآراء والأفكار والمعتقدات وتبديلها أو تعديلها على هدى نتيجة المعركة. فلم لا نسلك المسلك نفسه مع الكتب؟

ولعل هذا يجدي مع الكتب أكثر مما يجدي مع الأشخاص، لأن النفس الإنسانية مزيج من الخير والشر، وقد يعمد الإنسان إلى هزيمة خصمه بأي ثمن - حتى التضحية بالحق - مدفوعاً بالأثرة وحب النصر والفخر، ولكنه لا يسلك هذا السبيل مع الكتب خصوصاً إذا كان أصحابها قد ماتوا من زمن

يقول الفيلسوف الإنكليزي (باكون):

(لا تقرأ كي تناقض أو تفند، ولا كي تؤمن وتسلم جزافاً، ولا كي تجد موضوعاً للحديث والمناقشة، بل كي تتبصر وتتأمل)

والتأمل ضرب من الصلاة. . . والصلاة جنة الروح!

نصري عطا الله سوس

الأحلام

هل في حقائق الحياة الثابتة ما يفوق الحقيقة التي تؤكد لنا أن الأحلام تصح؟!

إن هذا العالم المدهش العجيب الذي يتجدد كل يوم أمام أنظارنا الحائرة؛ بل إن هذا العالم المفعم بالروائع والآيات الفائقة حد التصديق في الأمس القريب، يجيش بربوات الأحلام التي لا تلبث أن تتحقق اليوم، ويتوج تحققها هامة التفكير الطويل، والانتظار المنقب المستطلع، والكفاح الوجيع الصبور، والفشل الذي يعقب الفشل، ثم الفوز بين المبين أخيراً!

وما من معجزة تحيط بنا - فان الطائرات وآلات الصور المتحركة وأجهزة المجهر (المكرفون) والأسلاك البرقية واللاسلكية والقطارات والسفن - قد كانت في أحد الأيام حلماً تحركت به بعض الخواطر، وهمس في طائفة من الضمائر الإنسانية

ولقد كان العالم يهزأ بالحالم ويسخر ويشك في أمره أعواماً مديدة؛ إلا أن الحالم لابد أن يبوء بالفوز

وقلّ مَن جدّ في أمر يطالبه ... واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

وقد يرى الحالم أن الناس سينظرون من خلال الحجر، أو يتكلمون عبر البحر، أو يحلقون فوق السحاب، أو يبصرون شيئاً على بعد عشرة آلاف ميل، فيتم ذلك جميعه.

وقد يحلم أنه يتناول قطعة من الرخام ويصوغها في قالب يأسر الألباب على مر الأحقاب، أو أنه برسم صورة سيدة ذات ابتسامة رصينة مفكرة ويجعل الناس يتأملون هذا الابتسام بخشوع لا يبليه تقادم العهد وكر الأزمان

وقد يحلم أنه يكتب شيئاً يستنزف الدموع من مآقي الذين لم يولدوا بعد؛ أو أنه يؤلف قطعة من الموسيقى تدوي في أروقة الدهور. . . فيتم له ذلك كله. . .

إن المجاهد في سبيل فكرة عظيمة أو مقصد نبيل؛ والمخترع الذي يكد في معتمله والعالم الأديب الذي يستخرج ودائع الغيوب ويحل دقائق الأشكال ويزيل معترض الأشكال؛ والشعب الذي يكافح لنيل الحرية؛ إن كلا من هؤلاء لا يحلم عبثاً، كما أن الجنس البشري الذي يحن إلى الأصلح والأبقى، ويتوق في قرارة النفس الإنساني إلى حياة وادعة تفيض بالأمن والسعادة لا يحلم سدى، لأن الأحلام تصح وتتحقق

ترجمة: (الزهرة)

ولي الدين يكن

للأستاذ كامل يوسف

اطلعت على مقال الأستاذ كرم ملحم كرم عن المرحوم ولي الدين بك يكن. وبما أنني اتصلت بأسرة الشاعرة اتصالاً كلياً أثناء إقامتي بحلوان فاسمحوا لي أن أصلح ما قيل من أنه مات مسلولاً. والحقيقة أنه كما ذكر الكاتب كان يشكو الربو، وكان يلجأ إلى تخفيف وطأته عليه بحقن المورفين، وقد أدمن على تعاطيه حتى ضعفت صحته فمات من الانفزيما، وورث ابنه الشاعر الكبير فولاد يكن هذا الداء وأدمن عليه حتى قضي على صيته الأدبي الذي كان يبشر بمستقبل باهر

كان المرحوم ولي الدين بك يكن ثائراً على القديم في كل شيء، وكتاباته التي كان ينشرها في المقطم تحت اسم (زهير) وجمعت فيما بعد في مجلدين شاهد على ذلك. وتجديده في الشعر والنثر لا ينكره أحد. وله مؤلفات عدة كلها تدور كفاحه في سبيل الحرية ومناهضته الظلم. وكان أبي النفس فكان يرفض أن يبيع ضميره؛ وطالما حاول أصحاب النفوذ إغراءه بالمناصب العالية والخير الوفير نظير إيقاف حملاته عليهم، ولكنه أبى أن يبيع ضميره ورضي بحية البؤس، ولا يصدق إنسان أن أثاث منزل ولي

الدين بك يكن كان كأحقر منزل رجل عادي وهو سليل أصهار العظماء، وذلك كله في سبيل تحقيق غايته من نصرة الحرية والمظلوم ومحاربة القوة الغاشمة
ولولي الدين يكن مؤلفات كثيرة طبعت، ونشرت وله مؤلفات لم تنشر، وقد جمعت السيدة زوجته (وهي أرمنية) بعض أشعاره ونشرتها على أمل أن تحصل منها على شيء يقوم بحاجة الأسرة الفقيرة، ومن مؤلفاته رواية تمثيلية تدور وقائعها في تركيا على تحرر تركيا الحديثة وإعلان الدستور وعن الدسائس والمظالم في عهد السلاطين، وهي الأشياء التي خبرها ولي الدين بك بنفسه وأجاد الكتابة فيها. وكنت اتفقت مع أسرة الشاعر على تنقيحها لتمثيلها على المسارح المصرية لولا ما حاق بالأسرة من نكبات، منها خيبة كريمته الوحيدة (وكانت تسمى فكتوريا أحياناً وزينب في أحيان أخرى) في زواجها على الدوام، ومنها النكبة التي حلت بابنه الشاعر فولاد إذ انحدر إلى هوة إدمان المخدرات
وكان مما لاشك فيه أن ولي الدين بك يكن سيخلد ذكره في شخص ابنه فولاد يكن، وهو من الشعراء المصريين الأفذاذ الذين كتبوا بالفرنسية، وقد أعجبت بنبوغه الكونتس فالنتين دي سان بوا حفيدة لامارتين (وهي من كبيرات الكاتبات والشاعرات بفرنسا) فاحتضنته، وقدمته لدور النشر في باريس فنشروا له ديوانه البديع (أغاريد شاب شرقي) وهو ديوان شعر يفيض بالعاطفة والجلال والجمال، تقرأه فتجد فيه روح أهازيج شكسبير، وقد نقده كبار الكتاب في فرنسا وأعجبوا به، وقال عنه الكاتب الفرنسي المشهور (بول ريبو) إنه يفيض بالروح البيرونية نسبة إلى بيرون، ونعتَ الشاعر بأنه همزة الوصل بين مصر وفرنسا. وكان فولاد قوة هائلة في العمل الأدبي، فقد كتب تاريخ (سعد زغلول أب الشعب) في أسبوع ونشر في فرنسا. وله ديوان كبير أسمه (أغنية الأرض) وهو ملحمة كبيرة مكونة من عشرين ألف بيت عن الحياة وتطوراتها وتاريخ البشرية حتى اليوم. وقد أرسل هذا الديوان لفرنسا لنشره، ولكن منع ظهوره تخلى الكونتس دي سان بواعنه لما ساء صيته الأدبي من إدمانه على المخدرات وتركه الأدب والالتجاء إلى النسول مما أحزن قلوب جميع من لمسوا في هذا الشاب النبوغ المبكر
ومن الظريف أن يقارن الإنسان بين الشاعر الوالد والشاعر الابن، فقد نظم ولي الدين بك قصيدة عن كليوبترا، كما نظم ابنه فولاد قصيدة عنها في ديوانه (أغاريد شاب شرقي) ولا أنكر أنني أعجبتُ بخيال صديقي فولاد ومعانيه وحسن أسلوبه، ويمكنني أن أقول إن الولد بز أباه في هذا المضمار
وقد اشتغل فولاد في الصحف الفرنسية مدة طويلة، ولكنه أعلن عليها الحرب وناهض أصحابها في اعتقاداتهم الفكرية، وكانت نتيجة ذلك أن منع من التحرير في الصحف الفرنسية، وأنشأ له جريدة أسبوعية لم تعمر طويلاً. وكان له قدرة هائلة في الأدب. وكان يترجم شعر العقاد وشوقي شعراً بكل سهولة؛ وكان إذا نظم لا يترك مكانه قبل أن يكتب نحو مائتي بيت، ولكن الداء قضي على كل هذه المواهب. عزى الله الأدب عنه وعوضنا منه خيرا

كامل يوسف
عضو بالمعهد الفلسفي البريطاني

من روائع أدب الغرب
الإنسان
'
لشاعر الحب والجمال لامرتين
للأديب حسين تفكجى

- 1 -

أرسل إليك يا صاحبة السمو، قبل أن أضع رأسي على الوسادة، الكتاب الصغير الذي) تفضلت بإعارتي إياه البارحة، ويكفيك أن تعرفي أنني لم أنم وبقيت ساهراً، حتى لاحت تباشير الصباح، وخرجت طيور الفجر من أعشاشها، لأتمم قراءته ولأطلع على ما احتواه بين جلدتيه، من روائع المعاني، وجميل القول. سوف لا أتنبأ لك بشدة تأثيره في أذواق الجمهور من القراء إذ يكفي أن أجعل من نفسي ذلك الشعب الذي سيطلع

(على هذا الكتاب لأقول: إن هناك رجلاً، وسيشغل الكثير من صفحاتنا
(من كتاب تاليران إلى الأميرة تالمون)
- 2 -
وعقب مدة قليلة أثار هذا الكتاب فضول الطبقات الراقية في الروسية. فان النبيلات)
تجادلن وتسابقن لاقتناء نسخة منه؛ فالتي خانها الحظ ولم تحظ باقتناء هذه النسخة،
كانت تكتب في دفترها مقاطع من أجمل الأشعار التي قالها لامرتين، وتجبر نفسها
على حفظ أشياء منها. فالسعيد من اقتنى كتاباً من (التأملات) إذ كان يحرص عليه
كمن يحرص على مفتاح النجاح وطريق السعادة
(من مذكرات أتون شي)
- 3 -
يا لجريمة لامرتين الفظيعة! فهو سبب نصف جنوننا، فنساؤنا يردن أن يكن أمثال إلفير
فكم أصابنا البرد وألزمنا الفراش أياماً طويلة، لأننا أردنا أن نتمثل شعره، فسرنا على)
شاطئ البحيرة الزرقاء، نتأمل جمال القمر في السماء، وبدائع أمواج الماء، وروائع
الطبيعة على الغبراء، في الليالي الباردة التي كانت تحمل إلينا معها نسيم الليالي
(الغابرة التي قطعها لامرتين، بينا عوامل الأمراض تنازعنا قوانا وتسلط على أجسامنا
إن لامرتين واللورد بيرون، أدارا رؤوس نساء الجيل الحاضر، ولفتا أنظارهن إلي)
عظمة الوجود والحب)
(الكونتس داش)
- 4 -
أيها الشاعر الباكي، أيها الناظم الشاكي، أيها المؤلف الغائب عن عيني، إنك رمز الجبن والخوف
فما أشبهك بورقة خريف جففت يد القدر خضرتها، وجردتها من رائع نضرتها، تناقلها)
نسمات النهار الباردة بين وديان غير معروف مداها، وجبال غير مفهوم منتهاها، تحط
دون أن تعرف أين، وترقب النسيم ليرفعها من مكانها إلى حيث لا تعرف إلى أين!
ماذا يحوي شعرك من جمال؟
ما الذي يضم بين أبياته من نضرة؟
لا شيء!
ما معنى الشاعر المحتضر؟
قصيدة يأس من الحياة وخوف من النضال من أجل الوجود. أيها الحيوان الباغم، لست
أول نائح على أريكة خضراء، فقد سبقك كثيرون، ولكنك كنت موفقاً في التعبير عما
تكنه جوارحك
(موريس ألبر)
آراء متناقضة، سطرتها أقلام كتاب متباينين، لتقدير مزايا ومساوئ شاعر، فمنهم من
تأمل في قطعة الخلود، وعرف في شعره معنى الحياة، وفهم بين أبياته مفهوم
الحقيقة؛ ومنهم من حمل على هذا الشاعر الباكي الذي لا يرى فجر الحياة إلا من وراء منظار أسود، ولا يتأمل
وجه البسيطة إلا بالنشيج والبكاء. فكل ما يقع تحت عينيه يرمز إلى ذلك الحب الذي
قضي وحل اليأس مكانه في سويداء الفؤاد
نحن لم نأت بهذه الآراء لنوازن بينها، ولنميز بين حسنها وقبيحها، بل أتينا بها لأنها تعبر
عن موجة الأفكار التي اجتاحت عصره، وعن الأثر الذي أحدثه كتابه الصغير (التأملات)
الذي أصدره الشاعر، فترجم قطعة من شعره سماها (الإنسان) وأهداها إلى اللورد
بيرون الشاعر الإنكليزي الذي قتل في حرب استقلال اليونان، والذي كان لامرتين
معجباً بشعره، مأخوذاً بروعة ألفاظه إذ قال اللورد بيرون في نظري هو أكبر شاعر
عرف الطبيعة في زمننا الحاضر. إن من شعره ما يسرني، وإن من بيانه ما يسحرني،
(إذ وجدت في أقواله خيوط أمل تربط أصواتاً تجيش في صدري، وتفور في سويدائي
ولكن بالرغم من أن تفاؤل لامرتين يقابله شك بيرون، فان الشاعر لم يجد مانعاً من
أن يرسل هديته إلى نقيضه في أقواله لأنه أراد أن يجره إلى أفكار أقل شيطانية من أفكاره الأولى
فهل أصاب أو أخطأ؟ لا نعرف! بل نحكم عليه بعد قراءة الشعر الذي أرسله إلى

الشاعر الشاك
الإنسان
- 1 -
أنت الذي يجهل العالم أسمك الحقيقي، أيها الروح الخفي الشاك. مهما كنت يا بيرون شيطاناً أو ملاكاً، عبقرية ميمونة أو مشؤومة، فإن أغانيك تصوب إلى نفسي بريق الأمل، وتحمل إلى روحي دعة الحمل
أعشق في أشعارك الخالدة أنغامها الغريبة كما أعشق ضوضاء العاصفة المحتدمة، الذي يمتزج بهدير الصاعقة ويعلوا مع أصوات الشلالات المنحدرة
إلى الليل تأوي، وإلى الرعب تلجأ
ما أشبهك بجبار الفضاء، وملك الصحاري! بالنسر الذي يكره السهول ولا يهوي سوى الصخور الوعرة، التي ألبستها يد الشتاء ثوبها الناصع، والتي تفتت تحت ضربات الصواعق المتوالية. يجد لذته على شواطئ غطيت بحطام البواخر الغارقة، وملئت بأشلاء السفن المحطمة. ويذهب عنه حزنه مرأى الحقول المخضبة بدماء المعكرة. بينها البلبل الغريد، ينشد أسقامه، ويغني آلامه، وهو يبني عشه على شواطئ السواقي الجاريات، بين الحقول الزاهرات
يجد النسر لذته فوق قمم الأنوس، التي تخترقها الذرى الحادة كأسنة الرماح، فيشق فضاءها بجناحيه، تاركاً ظله يرتسم فوق الهوات الفاغرة فاها. وهناك وحيداً يصيخ لصيحات الفريسة المتعالية التي تحيط به أعضاؤها المختلجة، فوق صخور تقطر زواياها دماً. وعندما تحتدم رياح العاصفة ينام مسروراً فوق بقاياها
- 2 -
ما أشبهك بنسر السماء هذا يا بيرون!
فن أصوات اليأس أجمل أغانيك
الألم هدفك، والرجل ضحيتك
سبرت بعينك كالشيطان غور الهوة طياتها نفسك، غمرتْ بعيداً عن الإله والأضواء بعد أن ودعت أملاً راحلاً. فأنت مثله اليوم تسيطر على الأرجاء المظلمة، والأصقاع المعتمة. فاجعل عبقريتك التي لا تقهر تعلو بلحن جهنمي، وتنشد أنشودة الظفر تحت ظلال عرش إله الشر
- 3 -
ولكن أية فائدة تجنى من نضال النهاية المحتمة؟
بأي شيء يدفع العقل العنيد القدر؟
ليس له كالعين، إلا أفق محدود!
فلا تسدد جميل أنظارك إلى أبعد من هذا المدى، ولا تقدح زناد فكرك دون نفع وسدى، فنجد كل شيء منا يفر. الكل ينطفئ كالشمع. الكل يمحى من الوجود. ولكن كيف ولم؟ من يعرف؟ فان يديه القادرتين قبضتا على الوجود والبشرية، ونشرتا في حقولنا الغبار، وجعلتا الأهواء والظلام والأنوار. فهو يعرف ما يعمل. وهذا يكفي فالكون تحت إمرته ويده، وليس
لنا سوى اليوم الذي نعيش فيه
إن جريمتنا هي أننا بشر، فينا فضول المعرفة.
ولكن الجهل والخضوع هما قانونا هذا الوجود.
بيرون! إن هذه الكلمات قاسية عليك.
ولكن لم التراجع أمام الحقيقة؟
إن شرفك أمام الإله هو أنك صوغ يديه، فاشعر واخضع في سجنك المقدس
أنت ذرة محمولة، تموج في هذا النظام العالمي، فتمم إرادته بطاعتك، لأنك مخلوق بارادته، وحياتك تمجد هذا الوجود الذي تموت فيه، حيث مصيرك.
أواه بعيداً عن الاتهام. قبل ذلك الرسف الذي تحاول تحطيمه، واهبط من صفوف الآلهة التي تذهب جرأتك، فالكل جيد، والكل جميل، والكل عظيم في مكانه. ففي ناظر خالق الوجود نحوي الحشرة عالماً بنفسها
- 4 -
ولكنك تقول إن هذا القانون يثير عداءك، ولا يعدو في نظرك عن هوى غريب، وشرك

نصب ليكبو العقل في كل خطوة يخطوها.
لنعترف بذلك يا بيرون دون أن نحاكمه.
ما أشبهني بك. فعقلي انغمر في الظلمات، ولكن ليس علي أن أشرح لك حقيقة العالم، فالذي أبدع الوجود يلقنك الدرس الوافي.
كنت كلما سبرت عمق الهوة ضعت في فيافيها.
وفي هذه الدنيا لم أر سوى الألم يرتبط بالألم، والنهار يتبع سير النهار، والشقاء يلازم ظل الشقاء، والإنسان السخيف بطبيعته، اللامتناهي بنذوره، إله زل من عليائه، يفكر في سمائه.
حرم مجده القديم، فاحتفظ من مقدراته الضائعة بالذكرى
وغور ميوله السحيق يتنبأ عن عظمته المقبلة.
إذا علا أو سفل، فالإنسان سر عميق.
مقيد في سجن الحواس، على هذه الأرض. أسير يشعر بان له قلباً ولد يتنشق نسيم الحرية.
فياله تعساً يتعلل بالأماني.
ويريد سبر غور العالم، بناظريه الضعيفين
ويود أن يعشق دائماً لولا أن ما يحب سريع الفناء.
كل فان يشبه طريد جنة دعن، عندما طرده الإله من الجنة السماوية، فلمح بنظره الحدود المشؤومة التي تحيط به، فجلس باكياً على الأبواب المغلقة دونه. سمع من بعيد، من المسكن الإلهي زفرة الحب الخالدة، ونغمات السعادة، وأغاني الملائكة المقدسة، تصل إلى أحضان الإله لتمجد فضائله، فهبط من السماء، ثم أطلق نظراته من عنانها، فوقعت على مصيره المؤلم. . .
- 5 -
يا لبؤس من يسمع أناشيد عالم يهواه وهو ناء في منفى الحياة السحيق!
يرى الطبيعة تناضل خمر الخلود التي ارتشفها
يتأرجح كالحلم، عندما يرى الحقيقة ضيقة في مكانها، والمستحيل واسعاً في فضائه، والروح مثقلاً بالميول لا يجد مأوى يغرف منه حباً وعلوماً أبداً. والرجل في محيط الجبال والنور، ظمآن، لا يروي غله، فيكسر بالأحلام، كي تعذب رقدته، ويعود إلى نفسه إذا ما فاجأته يقظته
- 6 -
وا أسفاه! ما كانت أخرتك؟ وما هي مقدراتي؟
فقد شربت مثلك، كأس الشك مترعة
وعيناي كعينيك، فتحتا الأجفان دون أن تنظرا!
فعبثاً فتشت عن كلمة الوجود. طلبت أسبابه من الطبيعة. سألت أخرته من كل مخلوق. واستفهمت من القلم حتى ألم. فرجع طرفي كليلاً، ونظري حسيراً، قبل رؤية قرار هوة العالم
كشفت غطاء الأزمان التي هرعت، وأرجعت الأجيال التي مرت، ماراً بالبحار، مردداً أقوال الفلاسفة، ولكن العالم بقى أمامي، كما هو أمام علماء اللاهوت (كتاباً مغلقاً) ولأتبين كنه الطبيعة كنت أفر بروحي إلى أحضانها
وخيل إلي أني أجد معنى لهه اللغة الغامضة، فدرست القوانين التي تدور حبها، أجرام السموات، فان نيوتن يعتمد عيني في سهولها المنيرة. تأملت بقايا رفات العواهل، ورأيت رومة متدثرة في ظلمات قبورها المقدسة، والقديسين وقد أقضت مضاجعهم. وزنت بيدي رفات الأبطال، وطلبت منه معنى الخلود الذي يأمله كل البشر، ولكن لم أجد في هذا الغبار الفاني معنى الخلود
ماذا أقول؟
لازمت سرير الموتى، لتفتش نظراتي عن معناه في العيون المحتضرة
وعلى هذه الذرى التي توجتها الثلوج مدى الدهر
وفوق هذه الأمواج التي خططتها عواصف الرياح
ناديت دون مجيب
اقتحمت عثار الأحجار وظننت كالعرافة أن الطبيعة بمشاهدها النادرة سترمي إلينا

بإحدى عجائبها، فأحببت أن أغمر نفسي في هذه الرغبات الصامتة التي تتوالى ولكني، في سكوتي وهياجي، فتشت عبثاً عن كنه هذا السر العظيم، فرأيت في كل مكان إلهاً لا أفقهه. رأيت الشر أثر الخير دون خبرة، ودون هدف يسيران كالصدفة، رأيت في كل مكان الشر يختار، فجدفت بحق السماء دون معرفة، فرن صوتي ولاحق السماء كالصدى المدوي، ولكنه لم يرهب القدر، ولم يغضب المصير

(البقية في العدد القادم)

حسين تفكجي

مقدمة المنهج الجديد

لتدريس الدين في مدارس الشام

للأستاذ الشيخ بهجة البيطار

(في مصر اليوم ميل قوي إلى الاقتراب من سائر البلدان العربية، وتوحيد برامج التعليم فيها جميعاً. كما أن في مصر نهضة إسلامية قوية، امتدت إلى ديار الشام فحفزت وزير معارفها الجليل إلى إجابة طلب الأمة وتلبية نداء مؤتمر العلماء، فزاد ساعات الدروس الدينية في الدارس الابتدائية والثانوية، وأصلح مناهجها، وهذه هي المقدمة التي كتبها عالم الشام (كما كان يسميه الإمام السيد رشيد رضا) الأستاذ الشيخ بهجة البيطار بتكليف من الوزارة لمنهج الدين في المدارس الثانوية، اقترحت عليه نشرها في الرسالة لأن فيها دليلاً على حركة فكرية جديدة في بلاد الشام ومن مبدأ الرسالة تسجيل الحركات الفكرية ولأن فيها عوناً على ما نريد من توجيه برامج التعليم في الأقطار العربية، ولأنها بعد هذا كله فصل علمي قيم)

علي الطنطاوي

الإسلام دين عام لجميع الشعوب والأقوام (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) والقرآن هو الذي هدَىَ من دانوا به من الأمم إلى جميع ما تمتعوا به من صنوف النعم، وهو الذي أظهر على أيديهم تلك المدنية الزاهرة، التي جددت ما اندرس من المدنيات الغابرة، وأوجدت أصول مخترعات الأمم المعاصرة. وبناءً على هذا الأساس، توجه أنظار الأساتذة الكرام وأفكارهم إلى ما يأتي: -

1 - بيان أن القرآن الحكيم هو الذي هدى السلف إلى الجمع بين مصالح الروح والجسد، فهم بعد أن سمت عقولهم بالتوحيد، وزكت نفوسهم بضروب الأخلاق والعبادات، عُنوا أشد العناية بالعلوم والفنون النافعة التي عدَّها الإسلام من الفروض، وأوجبها على الأمة إيجاباً لا هوادة فيه. قال تعالى: (قل انظروا ماذا في السموات والأرض) وهذا النظر علمي عملي ينتج أفضل النتائج والثمار، وقال: (وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه) وهذا التسخير تسخير تمكين وانتفاع، واكتشاف واختراع، وقال: (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً) وهذا خطاب عام لهذه الأمة يدعوهم ويوجه نظرهم إلى ما خلق تعالى في جوف هذه الأرض من الكنوز والمعادن، ويرشدهم إلى الاستفادة منها، ويثبت أن جميع ما استحدثته أمم الغرب في هذا العصر من القُوى البرية والبحرية والجوية، ومن قوى الكهرباء، وسائر ما ظهر في الوجود من المخترعات والمكتشفات، هو ما أرشد إليه الإسلام، فردُّه ردّ لنصوص القرآن، وتعطيل لأحكامه، وتجريد لهذه الأمة من كل ما يعزز قوتها وينمي ثروتها ويحمي حوزتها ويدفع عوادي الشر عنها. وأي جناية على الإسلام وأهله أشد من هذه الجناية؟

2 - بيان موافقة تعاليم القرآن وهدايته، لمصالح البشر في كل زمان ومكان، وأن مثل هذه الآيات الكريمة السابقة هي التي أرشدت سلفنا الصالح إلى ما في السموات من أسرار ومنافع، وما في الأرض من كنوز وذخائر، فارتقت عقولهم وأفكارهم بالعلوم الآلهية، والفنون الصناعية، ارتقاء سادوا به الأرض، وساسوا به العالم سياسة هي في نظر المطلعين على تاريخ الأمم القديمة والحديثة أفضل مثال للعدل والرحمة، ثم بيان أن شقاء البشر الحاضر العام لأمم الحضارة وما فيها من فوضى الآداب والاجتماع، لا يزول إلا باتباع هداية الدين

3 - تطبيق ما في القرآن الحكيم من المواعظ والعبر، على حال أهل هذا العصر والإتيان بالشواهد والأمثال على ذلك، وبيان الفرق بين ماضي المسلمين وحاضرهم، وحجة القرآن الكريم عليهم

وهذا كله من موضوع علم التفسير: تذكر هذه الآيات الكريمة بمناسباتها وتفسر بالظاهر المتبادر منها، بأسلوب ينطبق على أذواق الطلاب وإفهامهم ويحملهم على العمل بها في أنفسهم وفي أمتهم

4 - مما يجب بيانه في دروس التوحيد قولُ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه (إنما تُنقض عُرى الإسلام عروة عروة، إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية)

وهنا يبين أن العرب كانوا في جاهليتهم مؤمنين بوجود الله تعالى، موحدين له في أفعاله من خلق ورزق وإحياء وأمانة، وتصريف لجميع الأمور. وهذا هو المسمي (توحيد الربوبية) ويستشهد لذلك بالآيات الكريمة كقوله تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولُن الله) وكقوله: (قل من يرزقكم من السماء والأرض. . . الآية) وكقوله: (قل لمن

(الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون؟ سيقولون لله. . . الآيات

وإنما كان شركهم في توحيد الألوهية، أي في توحيد العبادة، وهو أنهم لم يقصروا عباداتهم بأنواعها على مستحقها وهو الله وحده كالدعاء والخوف والرجاء، والاستعانة والاستغاثة، والذبح والنذر ليقربوهم إلى الله على عزمهم، قال تعالى: (ألا لله الدين الخالص، والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى. . . الآية) وقال تعالى: (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله. . . الآية) فردّ الله عليهم هذا الزعم الباطل بهذه الآيات نفسها، وبالآيات السابقة في توحيد الربوبية (ولئن سألتهم) (قل من يرزقكم) وأقام عليهم الحجة بما أقروه من انفراده تعالى بأفعال الربوبية، على ما أنكروه من وجوب إفراده تعالى بالعبادة

ومن صنيعهم أنهم كانوا في الشدائد يخلصون لله في الدعاء كما قصّ علينا من شأنهم بقوله: (فإذا ركبوا في الفلك دَعَوا الله مخلصين له الدين، فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون)

5 - من المهم بيان أن الخوف نوعان: خوف عادة كالخوف من عدوّ أو سبع مثلاً، وهذا خوف طبيعي لا محذور فيه، وخوف عبادة، كالخوف من تصرف غائب أو ميت، بعباد الله، كتصرف الله بمخلوقاته. وهذا فيه كل المحذور لأنه يتضمن اعتقاد أن لبعض المخلوقات قدرة على التصرف بأنفس الأحياء وأموالهم، كقدرة الله تعالى، وهذا يخالف الحس والواقع، ويناقض عقيدة التوحيد بأفعال الله تعالى. وهكذا سائر الصفات منها طبيعي ومنها غير طبيعي؛ فمن الطبيعي مثلاً خوف موسى عليه السلام من عصاه لما انقلبت حيّة (قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى) ومن غير الطبيعي حب بعض المخلوقات حب عبادة، كما يحب المؤمن ربه، قال تعالى (ومن الناس من يتخذ من دون أنداداً يحبونهم كحب الله، والذين آمنوا أشد حبا لله) أو خشيتُه كما يخش المؤمن ربه، ومن شواهده قوله تعالى (إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية) ومن الأول أيضاً (أي الطبيعي): (أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله) ومن الثاني (أي دعاء العبادة): (وان المساجد لله، فلا تدعو مع الله أحداً) وهكذا الاستعانة والاستغاثة، منها ما هو عادي طبيعي كاستعانة الناس بعضهم ببعض فيما يقدرون عليه، ومنه قوله تعالى: (فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه)، فهذا داخل في دائرة الأسباب والمسببات، ومنها ما هو فوق

قدرة البشر، كشفاء المرضى في الدنيا وإدخال الجنة في الآخرة، فهو خاص بمن هو على كل شيء قدير؛ ومنه قوله تعالى: (إياك نعبد وإياك نستعين)؛ فيجب التمييز بين الأمور الكسبية والأمور الغيبية. فالأولى يمكن طلبها بأسبابها ومن القادرين عليها، والثانية عبادة، وهي لا تكون إلا لله وحده، فيُلجأ إليه في طلبها ويُتوكل عليه في تحصيلها. وليُنتبه لهذا الفرق فانه عظيم

6 - بيان أن عرب الجاهلية كانوا أربع فرق: فرقة كانت تدعو الجن، والثانية الملائكة، والثالثة تعبد الرسل والصالحين، والرابعة وهي أحط الفرق الأربع كانت تعبد الأوثان التي نحتتها على مثال الصالحين. وهذا البيان، من افتراق المشركين إلى أربع فرق قد بينه القرآن، وكلّم كل فرقة بحسب ما تعتقد وردّ عليها، وإليك الآيات التي تدل على ذلك:

الأولى: الفرقة التي كانت تدعو الجن (ويوم يحشرهم جميعاً، ثم يقول للملائكة أهؤلاء

إياكم كانوا يعبدون؟ قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم، بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون، فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعاً ولا ضرا)؛ وقال تعالى في شأن هذه الفرقة أيضاً: (وجعلوا لله شركاء الجن وخلفهم وخرقوا له (اخترعوا) بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون)؛ وقال تعالى في شأن دعاة الملائكة والرسل والصالحين وهما الفرقتان الثانية والثالثة: (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً، أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه، إن عذاب ربك كان محذوراً) ولا يمكن لعاقل أن يزعم أن الأصنام كانت ترجو رحمة أو تخشى عذاباً

وقال تعالى في شأن الفرقة الرابعة وهم عبدة الأوثان الذين نحتوها على مثال الصالحين: (إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين، ألهم أرجل يمشون بها. . . الآيات) وجميع هذه الفرق كانوا يعتقدون أن الخالق لكل شيء هو الله تعالى، وأن دعاءهم لمن يدعون ليقربوهم إلى الله زلفى، كما حكى الله تعالى ذلك عنهم جميعاً بقوله: (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) وقد تقدم ذلك. ومن هنا يتبين خطأ من يظن أن الآيات نزلت فيمن كانوا يعبدون الأصنام وحدهم، وقد علمت أن القرآن لكريم تكلم مع كل الفرق

7 - يراجع تفسير هذه الآيات الكريمة قبل إلقائها على الطلاب في كتب التفاسير المعتمدة، ليعلم سياقها وسباقها، والأسباب التي نزلت فيها وما فسرها به من لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وسلم أو الصحابة أو التابعون لهم بإحسان كتفسيري إمام المفسرين أبن جرير، والحافظ المحدث بن كثير. ثم تفسر بأسلوب سهل خال من المصطلحات، فيكون الأستاذ قد جمع في تفسيرها بين القديم والحديث على أصح الوجوه وأحسنها.

أما الآيات الكونية فيرجع فيها أيضاً إلى ما فسرها به العلماء من محققي هذا العصر.

8 - تشرح في دروس الفقه أركان الإسلام الخمسة التي وردت في حديث (بنى الإسلام على خمس) ويبين معنى كلمة التوحيد التي هي ركن الدين وأساسه الأعظم، وأنها (أي لا إله إلا الله) مسقطة لجميع آلهتهم (أي العرب قبل الإسلام) هادمة لأنواع عبادتهم، ومثبتة لعبادة الله وحده الذي وحدوه بربوبيته (أي بأفعاله) ولم يوحدوه بألوهيته (أي بعبادتهم له كما تقدم) فمعنى (لا إله) هو نفي لكل معبود في الوجود وإبطال لعبادته، وكلمة (إلا الله) إثبات لعبادة المعبود بحق وحده وهو الله تعالى، ولو كان معناها (لا خالق إلا الله) أو ما هو في معنى ذلك من أفعال الربوبية كالرزق والإحياء والأمانة لما استكبروا عن النطق بها، لأن هذه الأفعال لم يدعوها لآلهتهم، وتقدم بيان هذا في توجيهات التوحيد، فيجب على الأساتذة أن يشرحوا هذه الحقيقة لأنها أصل الأصول وحقيقة الحقائق.

9 - بيان المقاصد الدينة والحكم الاجتماعية للصلاة والزكاة والحج والصيام، وتبين أيضاً فوائد العبادات في معترك الحياة العملي والجهاد القومي. (فالصلاة) الروحية البدنية التي هي فرض عام على كل مكلف، تنهي عن الفحشاء؛ وأشد الفواحش والمنكرات فتكاً وهتكاً هي تلك الجيوش المعنوية التي فتحت بلاد الشرق لها عقولها وجسومها وجيوبها كالخمر والميسر والزنا والربا والأنتحار، فكثير ممن أضاع الصلاة واتبع الشهوات وقع في هذا التيار الذي أسلمه إلى الجنون أو المنون، فكان ذلك من أشد المصائب على الوطن. (والصيام) الذي يدعو إلى إمساك المعدة عن الطعام، وسائر الأعضاء عن الآثام، وصرف جميع القوى والمواهب فيما خلقت له، يعلم الثبات على خلق (أي مبدأ) قويم لا محيد عنه. فالصائم الذي يغلب عقله شهوته ولا يخون دينه بالأكل نهاراً - سراً وعلانية - لا يمكن أن يخون وطنه أو يخدع في أمره فيبيعه بثمن بخس من غير أهله. (والزكاة) إعطاء نصيب

معلوم من المال للفقراء والمساكين الذين أقعدهم العجز عن العمل، دون الكسالى المتسولين القادرين على الأكل من كسب أيديهم (وبقية الأصناف الثمانية في آية: إنما الصدقات للفقراء والمساكين. . .) فإذا حفظت الزكوات والوصايا لمستحقيها ووزعتها عليهم جمعيات التعاون على البر والتقوى، ذوات الاختصاص بتمييز المستحقين من غيرهم، كانت هذه أفضل طريقة تجمع بها الأموال من المحسنين لإطعامهم وإيوائهم وتعليم أبنائهم. (والحج) أعظم مؤتمر إسلامي حر، وأكبر نقابة في الدنيا تبحث في

شؤون المسلمين ومصالحهم، وتوازن بين ماضيهم وحاضرهم، وتدافع عن حقوقهم وحرياتهم، وتؤلف بين شعوبهم وقبائلهم. ثم هو فريضة الإسلام والركن الاجتماعي للعام الذي يربط أفراد الأمة الإسلامية بعضهم ببعض، ويشد أواصر التآخي والتراحم بينهم، وينزع الضغن والحقد من بينهم فيصبحون بنعمة الله إخواناً.

10 - المعلمون ورثة الأنبياء في تعليمهم وأخلاقهم، ومن شأن أساتذة الدين أن يكونوا من أكمل البشر وأفضلهم في آدابهم وأعمالهم ومعاملاتهم، ويجب أن تتجلى فيهم مزايا العبادات المذكورة في هذه المقدمة وفوائدها، وأن يكونوا هم صورة كاملة لها، فهم القدوة الصالحة التي ينشدها الطلاب والمدارس، والمثل العليا تستملي من صفاتهم وأعمالهم، لا من الكتب التي بين أيديهم فحسب. والرجاء في أساتذة الدين أن يصبحوا طلابهم في المصلى والمسجد (لا في المقهى والملهى) ويكونوا أئمة لهم في بعض الصلوات، ومؤتمين بهم في البعض الآخر، ولا يرى الطلاب من عملهم مأخذاً لهم يتمسكون به (كعادة التدخين الضارة مثلاً) بل يجب أن يلاحظ رؤساء المعارف كافة والمعلمون منهم خاصة، وأساتذة الدين على الأخص، أنهم ليسوا أشخاصاً عاديين لأنهم يربون أرواحاً ويصلحون إصلاحاً، فيهم يقتدي، وبهديهم ويهتدي، وليذكروا قول المصلح الأعظم صلى الله عليه وسلم (من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة.)

محمد بهجة البيطار
عضو المجمع العلمي العربي بدمشق
وأحد أعضاء لجنة (تنقيح المنهج)

من الأدب المنحول
في عيد ميلاد المسيح
للمرحوم مصطفى صادق الرافعي

قلت في العدد الماضي إن صديقاً من أصدقاء الرافعي طلب إليه مرة أن يعد كلمة) . . .عن المسيح لتلقيها فتاة مسيحية في حفلة مدرسة أجنبية في ليلة عيد الميلاد وكتب الرافعي كلمة في تمجيد المسيح فدفعها إلى صديقه. وألفتها الفتاة في حفل) . . .حاشد من المسيحيين، فكانت عند أكثرهم إنجيلا من الإنجيل (فهذه هي الكلمة التي عنيت)

سعيد العريان

أيها السادة:

ملك من ملائكة الرحمة، يهبط من سماء الله آتياً من حدود الأبد، ولجناحيه حفيف طالما أنست به نسمات الجنة، وتعلقت بأطرافه أرواح أزهارها الخالدة، كأنها معاني الورد في لفظ عطر الورد. .

صفَّ جناحيه العظيمين ثم خفق بهما خفقة، فانزوت له سماء وسماء، وأسلمه فضاء إلى فضاء؛ فإذا هو في ذؤابة هذا الكوكب الأرضي؛ فوقف هناك عند الحد الذي أقامه الله بين المعنى الخالد والمعنى الفاني، الحد الذي يبتدئ منه ضوء الشمس رقيقاً مستشعراً من رحمة الله، فيكون للمخلوقات الأرضية نوراً وحياة معاً، وهو في أصله لهب ما حق لو ألقيت فيه كرة الأرض لاستحالت في لحظة واحدة شعلة واحدة هناك حيث تزدحم الأقدار، على مداري الليل والنهار، وقف الملك الكريم ولا تزال على قوادم جناحيه مسحة زاهية من نعيم الخلد، ولا يزال فيها روح من ريحان الجنة. . .

وقف ينظر فإذا الأرواح الإنسانية صاعدة من الأرض في زحام، منهزمة من شرور الناس أيَّ انهزام، متقهقرة إلى ربها بعد المعركة بلا نظام.

فصرف وجهة ناحية ثانية، فإذا دعوات المظلومين، وأنات المحزونين، وتأوهات المساكين، وزفرات الوالدات والوالدين

فانفتل إلى ناحية غير الناحيتين، فإذا الحياة الأرضية كأنها خيط وضع من مقراض الفناء بين شفتين، أو غريق يخبط في لجة بين ساحلين، ولا يدري قبره في أي الساحلين، أو المحكوم عليه بالموت أوقف بين سيفين، ولكن الموت واحد في السيفين.

فلم يبق من الجهات الأربع إلا جهة واحدة فتحول إليها الملك، فإذا هناك في أقصى الأفق معنى الرحمة الإنسانية وقد أنكمش وتضاءل واخذ منه الهزال كأنه مريض، أو كأن الحزن على الناس قد أذابه فقطع الرجاء منهم وانزوى في ناحية ينتظر نهاية هذا

القدر المنصب من السماء على الأرض.
جزع الملك من ذلك وكاد، وهو قطعة من الخلد، يداخله الخوف ويخالجه الشك وتمسه بعض آثار الحياة الفانية، فقال ما بالى قد تبللت أجنحتي من رشاش هذه الدموع وهذه الدماء، وما بال هذا لعالم الآخر ليس فيه إلا متألم لميت أو متألم لحي أو متألم لنفسه، وما بال الحياة قد أمست من شدة بؤسها وكدرها وهمومها تطحن أكثر مما يطحن الموت؟ هل بقي شيء إلا النفخة في الصور، وبعثرة من في القبور، ووقوف الفلك الدَّوار فلا يدور، وانطفاء نور الأرض فلا ظلوم ولا نور؟
وقف الملك الكريم أربع سنوات وأشهرا وهو ينتظر يوماً يرى فيه السماء مسفرة الوجه برضا الله ونعمته، بعد غضبه ونقمته، فلما سطع ذلك اليوم المضيء وأبرقت بفجره أسارير السماء هز الملك جناحيه على المشرق والمغرب وانتفض في جو الأرض انتفاضة ملائكية أطفأ بردها غيظ القلوب المتأجج الذي تشاتمت به أفواه المدافع زمناً طويلاً، وهب نسيمها الآتي من الجنة فدافع إلى ناحية الجحيم كل روائح البارود ودخان القنابل ولهب النار
ثم ضحك الملك مسروراً فانتثر من ضحكة الابتسام على كل الشفاه، وأصبح جو الأرض من مطلع الشمس إلى مغربها وهو يتلألأ كأنه ثغر طفل يضحك في وجه أمه.
وسمع الملك حمد الناس وشكرهم وتهنئة بعضهم بعضاً، ورأى الأرض وقد سكنت بعد غليانها وأقبل أهلها يصلحون ما فسد، ويبنون ما تهدم، ويديرون في الأرض حركة جديدة ويسخرون العناصر لبناء الطبيعة الاجتماعية أو لهدمها كما كانوا يفعلون
فقال: الآن أصلحت بين الناس وأصلحت الناس للناس، ثم رمى بطرفه إلى الجهات الأربع فإذا معنى الرحمة قد ملأها واستفاض عليها، فهز جناحيه صاعداً في فلك النور، وفي أذنيه تهليل الناس وصلواتهم، حتى إذا انتهى إلى أفقه الأعلى كانت الكلمة الأخيرة التي دخلت
معه إلى سماء الله هي نفس الكلمة الأولى التي خرجت من سماء الله
(وعلى الأرض السلام وفي الناس المسرة)

نظرة خاطفة

تطورات الأدب الحديث

للأستاذ فؤاد الطوخي

لو بعث أعرابي في الجاهلية وقرأ ما تفيض به أقلام الكتاب في هذا العصر لأعجزه فهم المعاني والمرامي، بل لأعجزه فهم التراكيب والأساليب، ولخرج من مطالعته وكأنه لم يقرأ ولم يفقه شيئاً. ذلك لأننا نكتب بلغة الغرب وندرك الأشياء بعقول هي أقرب ما نكون إلى عقول الغربيين، ونستمد منهم العلم ونستوحيه، ونرتوي من مناهلهم ونعترف، ولا يزال العالم العربي كله يترسم خطاهم ويلف لفهم، ويعاونه على ذلك مرونة اللغة، فهي تتسع لمختلف الأساليب وشتى التراكيب، ولا تنقصها الإبانة عن معاني الغرب كما أبانت عن معاني الشرق.
وهذا التطور الناشئ من طغيان أدب الغرب على اللغة قد ثقلت موازينه على التطورات الطبيعية التي تصيب اللغات من توالي الأجيال وما يلابسها من اختلافات في عالم الفكر وأساليب الحكم وصعود في المشاعر الإنسانية وهبوط. وما الأدب الرفيع إلا دعامة من مقومات الأمة، ومظهر من مظاهر حياتها ونزعاتها؛ بل ترجمان نهضتها يكشف عن أسرارها ويظهر ما كمن في نفسيتها وما استتر. فلما تهيأت أسبابه إبان النهضة المصرية الحديثة في عهد الخديو إسماعيل لم يكن بين المصريين من يعرف الصحافة أو يستسيغها، فنشطت جماعة من أدباء سوريا وممن كان الاستبداد التركي قد أرغمهم على الهجرة إلى أرض الفراعنة - إلى غرس بذور الأدب، فرحب بهم إسماعيل باشا وشجعهم على إصدار الصحف والمجلات وإنشاء فرق التمثيل وقرض الشعر وتأليف الكتب الأدبية. واتصلت مصر بسوريا اتصالاً أدبياً وثيقاً، ولسنا نقول إنهم أجادوا فيما أخرجوه للناس بادئ ذي بدء، ولكن معظم تلك الأقلام على اختلاف ألوانها لا يروقك منها اليوم إلا النذر اليسير. ولم ينزل المصريون إلى هذا الميدان إلا بعد فترة من الزمان. وكان الأزهر الشريف يومئذ يغط في الجمود غطيطاً حتى جاءه جمال الدين فأحيا مواته ونفخ فيه من روحه، وغادر مصر بعد قليل وقد أسلم راية النهضة

إلى الأستاذ الإمام العظيم الشيخ محمد عبده، فعمل مع من التف حوله من تلاميذه الأخيار على إعلاء كلمة الأدب، وأرسل من صحن الأزهر الشريف شعاعاً من النور لم يلبث أن بسط رواقه على بعض الأرجاء. ومنيت هذه النهضة بصدمات عنيفة يوم أرغم نصيرها ومحييها الخديو إسماعيل على اعتزال الحكم، وعاد الجمود ولكن لا يمكث طويلاً، وإنما يمكث إلى أن تدور دورة الأيام وتهدأ الأعصاب ويستجم الأدب قوته ويستعيد سيرته، إذ هيهات أن يحول حائل دون نمو شجرة أحكم زرعها وقوى أصلها. وما هي إلا عاصفة أثارها العرابيون حتى نفض الأدب عنه غبار الهدأة وخرج يتلمس مكانه تحت الشمس، وكان الشيخ محمد عبده فارس هذا الميدان أيضاً فجال بقلمه وصال، بل كان رئيس الوزارة نفسه البارودي شاعراً وكاتباً، وملأ عبد الله نديم الميادين والطرقات بخطبه وقصائده وأزجاله، وعالج آل المويلحي فنوناً من الأدب لا تزال بلاغتها تهز القلوب وتثير الشجون. وجاء الاحتلال فجاء معه الجمود للمرة الثالثة، ولكن لا ليستقر أيضاً وإنما يهدأ قليلاً ريثما يعود الأدب من جديد ملكاً ذا سطوة وبأس منادياً بالحرية مصوراً شعور الأمة بمقت الحكم الأجنبي.

وفي ذلك الحين بدأ نجم شوقي يعلو ويلمع، وتلاه حافظ، وتربع على دست الصحافة الشيخ علي يوسف في دار (المؤيد) ثم تلاه الأستاذ الإمام أحمد لطفي السيد في دار (الجريدة) وكانت لا تزال الصحافة السورية راجحة الكفة قوية الشكيمة. وأناخت على الأدب الحرب العظمى بكلكلها ولكن ما جاءت سنة 1919 حتى وصل الأدب ما انقطع، ولا حق ما سابق، وهب أقوى سلطاناً وأكبر نفوذا. فازدادت المجلات والجرائد المصرية دون السورية زهوراً وانتشاراً، واتسع مجال التأليف، وتعددت نواحي التفكير.

وأبرز ما يبدو في الأدب العربي الحديث هو الحيرة وعدم الاستقرار والخلو من الوحدة والتجانس والتماثل؛ فهو لم يعد بعد طور التكوين ولم تقم له شخصية جلية فهو في ذلك إنما يتمشى مع روح الأمة ومشاغلها وأمانيها، ففي مصر مثلاً كان أكبر ما يشغل الأذهان ويتغلغل في النفس هو السعي في سبيل الحرية، فانطبع الأدب بهذا الطابع وظهر أثره في الصحف والمجلات والخطب والتقارير وما إلى ذلك، فتغنى الشعراء بأناشيد وطنية تمس نواحي الأمل تارة، ونواحي الألم تارة أخرى، وكلما تطورت المواقف تطور معها الأدب وجرت بها أقلام الكتاب من حيث يشعرون أو لا يشعرون ومن العجب العجاب أن الأدب الرفيع قد لاقي من صنوف التنكيل والمقاومة من جبروت الحكومات المستبدة، ومن استهتار الجمهورية ومن إغضاء أغنيائنا عن تعضيده ما لو حدث في غير مصر لتحطمت الأقلام ونضبت الإفهام، وساد الظلام، ولكن كتابنا استبسلوا واحتملوا الفواجع في سبيل الأعراب عن آرائهم الحرة، فنالوا تقدير العارفين وخلدوا في تاريخ مصر المجاهدة صحائف من نور. على أنه لن يمر زمن طويل، ما لم تتأثر مصر بمؤثرات دولية ليست في الحسبان، حتى تهب من أقصاها إلى أقصاها إلى الأخذ بأسباب الإصلاح ويتبع ذلك تطور وتجديد في عالم الفكر وعالم القلم، وتدور رحى المعارك الصحفية على الأعمال لا على الأشخاص، وعندئذ تبرز الشخصية المعنوية للأمة وتبرز معها شخصية الكتابة والكتاب فتستقر في قرار مكين وتصبح في مأمن من زعازع السياسة ومنازع الأغراض فلا يعصف بها استبداد، ولا يلويها عن قصدها حب في سيطرة أو استبعاد

على أنه رغم تلك الاضطرابات العامة والقلائل الجمة، فان مصر بحمد الله قد ظفرت بطائفة من الكتاب لا تقل علماً وأدباً وقوة ومغامرة عن أمثالهم في أعظم الأمم المتحضرة المجاهدة، وما ذك إلا لما هم عليه من ذكاء نادر وعلم وافر ومضاء في العزيمة وقوة في الشكيمة. وإذا حق لمصر أن تفخر بأبناء الجيل الحاضر فمن الأنصاف أن تضع في مقدمتهم الأساتذة الكرام (العقاد، والزيات، وهيكل، وطه حسين، والمازني، وزكي مبارك، وسلامة موسى) وغيرهم

والظاهر أن الحكومة قد فطنت إلى ضرورة تشجيع الأدب فقررت منذ عام وبعض عام منحهم جوائز على موضوعات يتبارون فيها، فكانت فكرة موفقة، ولا نعلم لماذا لم تستمر في ذلك! ولعلها تذكر أن من أكبر الأسباب التي دعت إلى ظهور طائفة كبيرة من الأدباء والشعراء الخالدين في العالم العربي، الصلات القيمة والمنح الكريمة التي

وهبها إياهم الخلفاء تقديراً لنبوغهم وتشجيعاً لغيرهم. ولسنا بملتمسين غير العدالة - إن لم يكن الحق - إذا نحن وجهنا نظر حكومتنا إلى ضرورة منح المجلات الراقية في مصر إعانات كفيلة بتوطيد دعائمها حثاً لها على الاستزادة من خدمة قرائها تعميماً للثقافة وتعضيداً للعلم، ولها في ذلك أسوة بالمدارس الحرة ودور المسارح والملاهي

فؤاد الطوخي

بين الفن والنقد

للأديب محمد فهمي عبد اللطيف

تدرج الطبيعة بالإنسانية في مدارج الرقي والكمال، وتنهج بها مناهج السمو والتطور، فتحرص على النافع وتختار الأصلح، وتجدد دائماً! فتنقل الناس من حال إلى حال، ونخرج بهم من وضع إلى وضع، وما أداتها في هذا إلا الشخصيات العظيمة، والنفوس الكبيرة، والإرادات القوية الوثابة، التي تحمل في أطوائها عظمة الطبيعة نفسها، فإذا هي في أعمالها وحياتها ومواهبها برامج سامية للجنس، وشرائع عالية للنوع، وعوامل ناهضة بدهماء الناس من ظلمة الخمول، وحمأة الانحطاط، ومُثل رفيعة تنير بروعتها في النفوس أعمق الخواطر، وتلهمها الإنشاء والخلق والإبداع!

وما الأدب في وضعه الشامل، ومادته المتصلة بكل شيء إلا دنيا حافلة، وإنسانية كاملة، فهو - كما يقول مكسيم غوركي - مرآة الحياة تنعكس على زجاجته المصقولة، في هدأة الحزن أو ثورة الغضب، سائر مشاكل الحياة وشعابها المترامية، وخيوطها المشتبكة، ومناحيها المتنائية، كما تنعكس كذلك على أديمه الشفاف كافة رغباتنا وشهواتنا ومشاعرنا وآمالنا، والجداول العميقة الراكدة لحماقتنا وطيشنا، وسعادتنا وشقائنا، وشجاعتنا وفرقنا، أمام الغد المجهول، والمصير المحتوم، ومعاني الحب والبغض لدينا، وسائر معايب نفاقنا وعار أكاذيبنا، ومهانة خداعنا، وركود أذهاننا، وآلامنا التي لا تنتهي منها ولا تنتهي منا، وجملة آمالنا الخفاقة الملهبة لشعورنا، المتنزية في خواطرنا. . . وبالاختصار هو كل ما يحيا به العالم وسائر ما يعتمل وينبض في قلوب البشر. . .

فدنيا الأدب هي دنيا الناس تامة كاملة، يصورها لنا الأسلوب المهذب، ويرسمها التعبير الفني الجميل، وإن النهج الذي تسلكه الطبيعة في دنيا الناس للسموّ بالإنسانية، والترقي بالعالم، هو هو بعينه النهج الذي يحتذيه النقد في دنيا الأدب لخدمته وصقله وتهذيبه واختبار الأصلح منه. . . كما تفعل الطبيعة تماماً في دنيا الناس المادية المحسوسة، وما النقد إلا رسالة من رسالات الطبيعة وعمل من أعمالها، فمن المعقول أن يحتذيها في مهمته، وأن يكون على غرارها في وضعه، فهو - على ما يجب أن يكون - إرادة قوية تكشف وتوضح، وتختار وتميز، وتنفي وتثبت، وتزجر وترشد، قد تبتر الضعيف، وقد تحابي القوي، وما قصدها في ذلك إلى البطش والانتقام، ولا إلى المداهنة والمحاباة، ولكنها تقصد إلى صقل الخواطر، وتهذيب المشاعر، وتطهير الأفكار من مظاهر البساطة الأولى التي تكون للماس إذ يخرج من أحافير الأرض، فما تزال تتعهدها بذلك حتى تقيمها على الوجه الصحيح النافع، فإذا هي سمو بالإنسانية، وصلة بالحياة، ومادة للخلود، ومبعث الروعة والجلال على مدى الدهر وطول الأيام. . .

والأدب والنقد يهدفان إلى غاية واحدة، ويتعاونان في مهمة متفقة، فالأدب - كما يقول الرافعي - يقدّر لهذا العالم قيمته الإنسانية بإضافة الصور الفكرية الجميلة إليه، ومحاولة إظهار النظام المجهول في متناقضات النفس البشرية، والارتفاع بهذه النفس عن الواقع المنحط المجتمع من غشاوة الفطرة، وصولة الغريزة، وغرارة الطبع الحيواني؛ والنقد من وراء الأدب في هذا كله، يصح له هذا (التقدير) من جميع جهاته، ويسدده على طريقه القويم، ويدله على الصور الرائعة التي يصح أن تكون مثلاً أعلى لما نطلبه من جمال الحياة وجمال العواطف، ومن ثم كان النقد - كما يقل شوقي - حارس الأدب، ومكمل الكتاب والكتب، ومن ثم أيضاً كان النقد أساساً لكل نهوض أدبي مثمر، فإذا ما رأيت أدباً مهذباً يغمر أصحابه بالحياة، ويؤدي لهم غذاء العواطف والعقول، ويملأ نفوسهم باليقظة والحكمة والإحساس، ويرفعهم عالياً إلى الكمال الإنساني، ثم رحت تتلمس السبب في ذلك فلن تجده إلا النقد، ثم النقد، ولا شيء غير النقد. . .

قال لي أديب كنت أبسط له هذا الرأي: ولكنك تعلم يا صاحبي أن أهل الفن قوم خلقهم الله أحرار المواهب، فهم يطلبون حرية الفكر، وذلك عندهم كل شيء، ولعلك تذكر في ذلك قول ملتون الخالد (أعطني حرية القول، وحرية الفكر، وحرية الضمير، ولا تعطني شيئاً غير ذلك) والنقد إنما هو ضرب من ضروب الحجر على هذه الحرية وحبسها عن التحليق في سماء الفن وجو الحياة الفسيح، ولاشك أن الفنان إذا ما فقد حريته فقد فقدَ عبقريته، وتلاشت شخصيته. . . ثم أنت تعلم أن حياة الفن إعجاب وتقدير، وأن الفنان في حاجة كبيرة إلى العطف والثناء والمدد والبخور، ولكن النقد كثيراً ما يرهق أعصاب الفنانين - وهي الدقيقة المرهفة - بصلف الأستاذية، وعنت الحزازة وعبث التطفل، وكثيراً ما هوي فنانون صرعى هذا الطغيان أو قل هذا اللؤم، وكثيراً ما أحجم كرام فضلاء عن الظهور في الميدان ضناً بأعراضهم أن ترتع فيها الألسنة المضراة، وصوتاً لآثارهم أن تبتلى بلئيم لا ينصف، أو جاهل يتعسف. وقديماً قيل: أحق الناس بالرحمة عالم يجري عليه حكم جاهل! وهذا ما يجعلني أعتقد أن النقد عداوة للأدب، وتهجم على كرامة الفن، وأنه طاغية مستبد، يهدم ويثبط، ويندفع في جبروته واستبداده لا يلوي على شيء ولا يحفل بشيء ولا يفيد في شيء. . . وهذا ما جعلني أيضاً أرتاح لصنيع ألمانيا يوم حرمت النقد الأدبي، ووقفت به عند عرض الموضوعات وبسطها دون التعليق عليها أو إبداء أي رأي. ولقد كان وزير الدعاية الألمانية على حق إذ يقل في بيانه الذي أصدره في ذلك الصدد: إن الفن لا يفقد شيئاً إذا ما بعد أولئك النقدة الأغرار من الميدان، إذ العظمة الزائفة تسقط من غير أن يسقطها النقد، أما أصحاب العظمة الحقيقية فيجب أن يسمح لهم بحرية الابتكار، والاحتفاظ بكرامتهم الفنية، ويجب أن تصان العبقرية الصحيحة من كل ما يؤذيها ويمهد لسقوطها!

ولقد يبدو هذا الكلام طريفاً لبعض الناس، وأذكر أني سمعت صداه في ندوة أدبية، وقرأت كلاماً بمعناه في إحدى الصحف، ولكنه في الواقع أفن من الرأي لا يصح في عقل، ولا يستقيم في منطق، فان النقد ليس مصادمة لحرية الفنان في شيء ولكنه نهوض بهذه الحرية إلى الأوج، وارتفاع بها عن العبث، وتقويم لها على المبادئ القويمة، والرغبات النافعة، وإذا كان له أن يقف بالفنان عند حدود، أو يلزمه بقيود، فليست هي إلا الحدود الفنية، والقيود التي هي معالم الفن نفسه ودعائم كيانه، وبالتزامها يسمو وينهض، وبمراعاتها ينمو ويفرع. فإذا ما أباح لنفسه أن يتعداها وأن يستهين بها، هان أمره، وهاض شأنه وذهبت شخصيته، وانتهت رسالته، كتلك القيود التي يتملص منها بعض الناس، من تفريط في حق اللغة، عدم العناية بالأسلوب، والاستهانة بأوضاع العرف والأخلاق، والتقاليد والدين!

ثم لماذا يناهض النقد الأدب؟ والنقد والأدب صنوان يجمعهما الفن إلى أصل واحد، ويربطها برباط العصبية والقرابة، أو على الأقل برباط الود والصداقة، فإذا ما نظر النقد إلى الأدب وهو ينصح له، أو يسخر منه، أو ينكر عليه، أو يعجب به، فما هو في هذا كله إلا الصديق الحدب، والرفيق المخلص، من واجبه أن يصور الأدب أمام نفسه بأغلاطه ومساوئه، وصوابه ومحاسنه، وأن يرى في ذلك الرأي الصريح المخلص، كما يفعل الأدب تماماً إذ يصور الحياة أمام نفسها بأغلاطها ومساوئها، وصوابها ومحاسنها، وأن يحكم في ذلك برأيه وتقديره، ولا عيب على النقد في صنيعه هذا، كما لا عيب على القاضي إذا ما أعلن كلمة الحق، والواصف إذا ما قرر حقيقة الموصوف، والصديق إذا ما صارح صديقه بالذي فيه، ولكن العيب ألا يؤدي ذلك جهده، ويعمل له وسعه؛ وإن من خطأ الرأي أن نحسب النقد عداوة للأدب، وتهجماً على كرامة الفن، وأنه طاغية مستبد لا يحفل بشيء ولا يفيد في شيء. . . فأن الطبيعة ليست بقاسية من ذهابها بالزبد ليبقي ما ينفع الناس، والطبيب ليس بمتجبر ولا بمستبد إذا ما بتر العضو الفاسد لينجو المريض. والصائغ لا يقصد الشر إذا ما تناول حجر الماس بالإحراق والصهر والصقل ليخلص جوهره وتنجلي لمعته، وكذلك قل في النقد إذا ما وضع الحق في نصابه، ودافع عن الفن في نسقه الأعلى، وعمل على تخليصه من شوائب الفضول والدعوى المزورة والمآرب المتهمة، وإن من انقلاب الأوضاع والاستهانة بالحقائق أن نحسب التهذيب عداوة، والصراحة تهجماً، والتطهير هدماً وتثبيطاً، وإذا كان بعض الأدباء لا

يفيدون من النقد صقلاً وسمواً وتهذيباً وإرشاداً فليس الذنب ذنب النقد، ولكنه التفريط منهم في الانتفاع بالرشد والإصاخة إلى النصيحة، وما هم إلا كالمريض، يصف الطبيب له الدواء، ويقدر عليه الغذاء، ويقر له ما يأتي وما يدع، ولكنه يستهين بهذا كله، وما يزال حتى ينوء بعلته، ويتلف بدائه، ثم يتبجح فيلحى الطبيب!!

على أننا إذ نقول النقد، فإنما نعني ذلك الفن الجليل بقواعده المقررة، وأصوله المحررة، وغايته الشريفة، وهو شيء أسمى من التقييم والتقريظ والاستجداء، وأنبل من العبث والغرور والتفيهق، وأرفع من الشتم والحسد والحزازة وكل اعتبار شخصي، وإن من اختلاط الأمر أن نحسب كل هذه من باب النقد ونعتبرها منه، وما هي إلا اعتبارات رخيصة، وسفاسف تافهة، وشرور وآثام شأنها من النقد شأن الأعشاب الضارة في الروضة المعطار. والنقد بريء منها، بل إنه ليناهضها كما يناهض كل أذى وشر. ولقد صدق شوقي إذ يقول: (من نقد على غضب أسخط الحق، ومن نقد على حقد احترق وإن ظن أنه حرق، ومن نقد على حسد لم يخف بغيه على أحد، ومن نقد على حب حابى وجمح به التشيع، وإنما النقد فن كريم، وهو آلة إنشاء، وعدة بناء، وليس كما يزعمه الزاعمون معول هدم ولا أداة تحطيم. . .)

ثم إننا إذ نقول الناقد فلسنا نريده من أولئك المزورين الأدعياء الذين ليس لهم أداة النقد، ولا عندهم وسائله، ولكنا نعنيه من أهل النظر المميز، والمتأمل الفاحص، أولئك الذين لهم قدرة الحكم، وفيهم قوة الصواب، وعندهم وسائل الترجيح، وغايتهم الأنصاف، وشأنهم خدمة الفن، وهم من ضميرهم في يقظة تلقى في روعهم دائماً أن الناقد مستهدف يعرض عقله وثقافته وحكمه على الناس، فإذا لم يخلص للحقيقة، ولم يفطن إلى مواقع الصواب في كل هذا عرّض نفسه للزراية والسخرية، وتدلى بعقله وفنه إلى أسفل. . .

والقوم في أوربا يفهمون النقد بهذا المعنى، ويجرون فيه على هذا الأعتبار، والناقد لا يقوم فيهم إلا بهذه القوة وعلى هذا الشرط، ولذا نجد النقد عندهم قد أزهر وأثمر، وأفاد ونفع، فهو مجلي العبقريات ودعائم النبوغ وظل التأليف، وعضد الفن، يدعن له الأدباء في ارتياح واطمئنان، ويرمقونه بالإجلال والإكبار ويصيخون لكلمته بالوعي والأنتفاع، وبهه الروح الطبية استطاع (تين) أن يخلق (ستاندال) ويرفع من (كانت)، ويدين تسعة أعشار الطبقة الراقية من الفرنسيين في القرن التاسع كما يقول بعض المؤرخين!

أما عندنا، فموعدنا بذلك بقية المقال.

محمد فهمي عبد اللطيف

الكميت بن زيد

شاعر العصر المرواني

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

وقد سلك الكميت مسلكاً متقارباً في قصائده الأربع، فهو في ميميته يتخلص من مطلعها إلى ذكر بني هاشم فيقول فيهم:

بل هوايَ الذي أجنُّ وأُبدى ... لبني هاشم فروع الأنامِ

للقريبين من ندىً والبعيدي ... ن من الجور في عُري الأحكامَ

والمصيبين باب ما أخطأ النا ... سُ ومرسى قواعدِ الإسلام

إلى أن يقول فيهم وفي خصومهم من بني مروان:

ساسةٌ لا كمن يرعى (؟) النا ... سَ سواءً ورعيةَ الأنعام

لا كعبد المليكِ أو كوليدٍ ... أو سليمان بعدُ أو كهشام

رأيهُ فيهمُ كرأي ذوي الثُّلَّ ... ةِ في الثائجاتِ جُنحَ الظلام

جزُّ ذي الصوف وانتقاءٌ لذي المخ ... ة نعقاً ودَعدعاً بالبهام

من يمت لا يمت فقيداً ومن يح ... ى فلا ذو إلٍ ولا ذو زمام

فهمُ الأقربون من كلِّ خيرٍ ... وهم الأبعدون من كل ذام

ثم يتخلص من ذكرهم إلى ذكر جدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيمضي في مدحه وذكر مناقبه الشريفة:

أُسرة الصادق الحديث أبي القا ... سمِ فرع القُدامس القدَّام

خيرُ حي وميتٍ من بني آ ... دمَ طرَّاً مأمومهم والإمام

إلى أن يقول فيه:
أبطحي بمكة استثقب الل ... هـ ضياء العمى به والظلام
وإلى يثرب النحول عنها ... لمقام من غير دار مقام
هجرة حولت إلى الأوس والخز ... رج أهل الفسيل والآطام
غير دنيا محالفاً وأسم صدق ... باقياً مجده بقاء السلام
ثم يأخذ بعد هذا في ذكر باقي أصولهم فيقول:
ذو الجناحين وابن هالة منهم ... أسد الله والكمى المحامي
لا ابن عم يرى كهذا ولا ع ... م كهذاك سيد الأعمام
والوصي الذي أمال التجوب ... به عرش أمة لانهدام
كان أهل العفاف والمجد والخي ... ر ونقض الأمور والإبرام
نالنا فقده ونال سوانا ... باجتداع من الأنوف اصطلام
وأشتت بنا مصادر شتى ... بعد نهج السبيل ذي الآرام
إلى أن يقول:
وأبو لفضل إن ذكرهم الحل ... وبقيَّ الشفاء للأسقام
صدق الناس في حنين بضرب ... شاب منه مفارق القمقام
وأبو الفضل هو العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم، وقد كانت الشيعة إلى عهد الكميت يداً واحدة إلى أن تفرقوا في عهد العباسيين إلى علويين وعباسيين، فعادى بعضهم بعضاً بعد أن آل الملك إليهم، واستأثر به بنو العباس كما استأثر به بنو مروان قبلهم. وقد أخذ بعد هذا كله في الحديث عن نفسه في هذا الأمر الذي أخذها به، واستسهل صنوف البلاء في سبيله، فقال:
فبهم كنت للبعيدين عما ... واتهمت القريب أي اتهام
وتناولت من تناول بالغي ... بة أعراضهم وقل اكتتامي
إلى أن يقول:
ولهت نفسي الطروب إليهم ... ولهاً حال دون طعم الطعام
ليت شعري هل ثم هل آتيتهم ... أم يحولن دون ذاك حمامي
وقد أراد أن ينتقل من ذلك إلى ذكر ناقته ووصفها على عادة الشعراء قبله، ولكنه يجعل ذلك في ختام قصيدته ولا يبدأ به في أولها كما كانوا يبدؤون به، فلا يؤثره بهذا على مقصوده الذي ملك عليه مشاعره، وفي هذا يقول:
إن تشبع بي المذكرة الوجنا ... ء تنفى لغامها بلغام
عنتريس شملة ذات لوث ... هوجل ميلع كتوم البغام
إلى أن يقول في الختام:
ما أبالي إذا تحن إليهم ... نقب الخف واعتراق السنام
يقض زور هناك حق مزوري ... ن ويحيي السلام أهل السلام
وكذلك يسلك الكميت ما يقرب من هذا المسلك في بائيته الأولى، فقد تخلص من مطلعها إلى ذكر حال نفسه وما يلاقيه في سبيل رأيه فقال:
بني هاشم رهط النبي فإنني ... بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب
خفضت لهم مني جناحي مودة ... إلى كنف عطفاه أهل ومرحب
وكنت لهم من هؤلاء وهؤلاء ... مجنا على أني أذم وأقصب
إلى أن قال:
يعيبوني من خبهم وضلالهم ... على حبكم بل يسخرون وأعجب
وقالوا ترابي هواه ورأيه ... بذلك أدعى فيهم وألقب
على ذاك إجرياي وهي ضربتي ... ولو جمعوا طرا على وأجلبوا
وأحمل أحقاد الأقارب فيكم ... وينصب لي في الأبعدين فأنصب
ثم أخذ في ذلك الحجاج الذي جمع فيه بين الشعر والعلم، ولعله هذا كان أول عهد العرب بذلك الأسلوب في الشعر:
بخاتمكم غصباً تجور أمورهم ... فلم أر غصباً مثله يتغصب
وجدنا لكم في آل حاميم آية ... تأولها منا تقى ومعرب
وفي غيرها آياً وآياً تتابعت ... لكم نصب فيها الذي الشك منصب
بحقكم أمست قريش تقودنا ... وبالفذ منها والرديفين نركب

وقالوا ورثناها أبانا وأمنا ... وما ورثتهم ذاك أم ولا أب
ولكن مواريث ابن آمنة الذي ... به دان شرقي لكم ومغرب
يقولون لم يورث ولولا تراثه ... لقد شكرت فيه بكيل وأرحب
ولا كانت الأنصار فيها أدلة ... ولا غيباً عنها إذا الناس غيبوا
فان هي لم تصلح لقوم سواهم ... فإن ذوي القربى أحق وأقرب
إلى أن قال:
فيا لك أمراً قد أشتت أموره ... ودنيا أرى أسبابها تتقضب
يروضون دين الحق صعباً مخرماً ... بأفواههم والرائض الدين أصعب
وقد درسوا القرآن وافتلجوا به ... فكلهم راض به متحزب
فمن أين أو أني وكيف ضلالهم ... هدى والهوى شتى بهم متشعب
ثم اخذ في مدح بني هاشم فقال:
فيا موقداً ناراً لغيرك ضوؤها ... ويا حاطباً في غير حبلك تحطب
ألم ترني من حب آل محمد ... أروح وأغدو خائفاً أترقب
أناس بهم عزة قريش فأصبحوا ... وفيهم خباء المكرمات المطنب
خضمون أشراف لها ميم سادة ... مطاعيم أيسار إذا الناس أجدبوا
إلى أن قال:
وقد غادروا فينا مصابيح أنجما ... لنا ثقة أيان نخشى ونرهب
أولئك إن شطت بهم غربة النوى ... أماني نفسي والهوى حيث يسقب
ثم ختم ذلك كله بوصف ناقته كما فعل في ميميته فقال:
فهل تبلغنيهم على بعد دراهم ... نعم ببلاغ الله وجناء ذغلب
مذكرة لا يحمل السوط ربها ... ولأياً من الإشفاق ما يتعصب
إلى أن قال:
كأن حصى المعزاء بين فروجها ... نوى الرضخ يلقي المصعد المتصوب
إذا ما قضت من أهل يثرب موعداً ... فمكة من أوطانها والمحصب
عبد المتعال الصعيدي
إلى شباب القصصين
كيف احترقت القصة
قصة المستر فرانك سونيرتن
للأستاذ أحمد فتحي
إن ثلاثين عاماً قد تصرمت بعد إخراج قصتي الأولى سنة 1909. ولذلك فإني أعتذر من عدم تذكري سوى القليل من محتوياتها
كنت في ذلك الحين أعمل في بعض مكاتب النشر، أراجع (البروفات)، وأحرر بعض الرسائل إلى المؤلفين ورجال الطباعة لقاء خمسة وثلاثين شلناً في الأسبوع وكان من عادتي أن أتناول وجبات طعامي في بعض مشارب الشاي، أو في مطعم رخيص في (سانت مارتن لين) يقال له مطعم (سانت جورج). وبعد أن أفرغ من عشائي تتشعب بي المسالك، فأما أن أذهب إلى ملهى للتمثيل! أو أمضي إلى حيث أسمع محاضرة واحد من الأعلام، وأتوجه إلى بيتي لأكتب بعض الخواطر على منضدة تخيط عليها أمي الثياب، ويرسم عليها أخي بعض الصور لبعض المجلات التي تصدر من أجل الناشئة!
ولم تكن آمالي معلقة باحتراف القلم بل كان من ودي لو أغدو صحافياً لا قصصياً. غير أني كتبت قصة طويلة كاملة وأنا في الثامنة عشرة، ثم أحرقتها! وأتبعتها بأخرى وأنا أبن عشرين ولكنها كانت قصيرة جداً، وكان أسمها (الطريق الحق) عرضتها على ستة من رجال النشر قبل إحراقها. غير أن واحداً من هؤلاء الناشرين جميعاً لم يرفضها بطريقة تبعث على اليأس، بل أعادوها إليّ مصحوبة بكلمات التشجيع، وبعد تجربة أخرى، كتبت قصتي الأولى الناجحة (القلب السعيد)!
وكانت قصة (القلب السعيد) على ما أذكر تنتظم طائفة من الشخصيات، منها البطل، وهو شاب مرح موفق في مثل سني وشقيقته، وصديق له، وحبيبته، وأمه، وأبوه الذي كان يغشى حقيقة حاله غموض كثير. . . كما كان من الشخصيات الملحوظة كذلك فتاة خادم في مشرب، ورجل آخر غير موفق إلى خير

لم تكن لي شقيقة، ولا أب، ولم أكن أعرف - في ذلك الحين - مثل تلك الفتاة الخادم في
مشرب الشاي، ولا مثل ذلك الرجل الذي يخطئه التوفيق على الدوام، وأما الأم فقد
كانت تختلف تماماً عن أمي، التي كانت أقل النساء إيثاراً لنفسها، وأملهن خطوة
بالسعادة! وهكذا لم يكن في القصة من شيء قد استوحيته الحقيقة الماثلة سوى
البطل الشاب المرح الموفق. وكذلك لا تعدم الحياة وجود أمثاله على الدوام!
كان هذا الشاب أجنبياً عن البلاد، يشتغل في وكالة لبعض الأعمال الخارجية، وقد
عرفته عن طريق أخي الذي كان صديقاً له، وكان يعول أخته، ويجهد أن يعين حبيبته
على أمور حياتها. وقد حدث أن خرج وإياها في نزهة، وانتهى بهما المطاف إلى
مشرب الشاي، حيث اتفق أن رأته يقبل الفتاة خادم المشرب. ولقد جرت على هذه
الأزمة الأخيرة - في القصة - تعنيف صديقه كانت على وشك الزواج، إذ ساءها أن بطل
قصتي لم يكن على شيء من متانة الخلق ولا الثبات على حب واحد!
ولست أدري ماذا حدث لقصتي بعد ذلك من حيث تسجيل الحوادث، ولا أظنها كانت
متأثرة بواحد من كتاب السلف، عدا (لويزا آلكوت) التي كنت قد قرأت له أقاصيص
متتابعة منذ عام 1894
وحين التفت إلى الوراء ثلاثين عاماً، يبدو لي أن مؤلف (القلب السعيد) رجل آخر لا
يحمل اسمي ولا يمت إليّ بسبب. وإن صورته الشمسية لتنطق بأنه كان ذا رأس
مستطيل، غزير الشعر، وأنه كان بارز عظمتي الوجنة، قصير النظر برغم بريق عينيه،
كما أنه لم يكن من النوع الذي تسهل قراءة عواطفه وخلقه من صورته ومظهره
الخارجي، سوى ما كان يبدو عليه من إمارات الجد والوقار؛ التي يتميز بها علماء
الشباب، ولكنه - إذا صدقت ذاكرتي - لم يكن على شيء من الجد ولا الوقار! كما أنه
لم يكن من العلماء بحال!
كتبت (القلب السعيد) في الأمسية وأيام العطلات الأسبوعية، خلال أربعة شهور أو
خمسة، وكما صنع (شكسبير) في قصته (بن جونسون) لم أكن أعمد إلى تجفيف سطر
واحد!
وكما أن فرصة النشر لم تكن حينذاك أكثر من وهم يتأرجح ويضطرب في ذهني؛ كذلك
كانت هذه الفترة من الزمن أهنأ أيام حياتي. . . فقد كان من الفكاهة المستملحة أن
أخترع أناساً لا أعرفهم، وأروي عنهم قصة فضفاضة الفصول، ثم أعمد إلى تسجيل
الاختراع والحديث في سطور! ولقد سمعت بعد ذلك أنني طالما ضحكت في كتاباتي
ضحكاً طليقاً؛
ولكني كنت أضحك من غير أن أعني. . . ومن المحقق على أي حال أن كتابتي على
تلك الحال لم تكن منجاة لي من الجمود أو الاستخذاء! لأن الكاتب كلما كان مرحاً،
وكلما كان له أصدقاؤه وملاهي حياته، وكلما كان مستمتعاً بمحاسن أيامه إلى غير حد -
كان غير ذي حاجة إلى إجهاد خياله لافتعال المفاجآت والحوادث. على أن تفكيري كان
حاداً بالتأكيد، ولكنه لم يكن علمياً منظماً. وكان تكوين جسدي متيناً. غير أن سلسلة
من الأمراض الموهنة قد تركتني سقيم الجسد هزيلاً، غير قادر على مباشرة الألعاب
الرياضية، وكل حظي منها لم يكن - فيما سلف - أكثر من العبث بكرة صغيرة في
شوارع (لندن) الخلفية! غير أني كنت كثيراً ما أتروض بالسير على القدمين، كما كنت
أطلع في سعة، وأفكر في إتقان، وأغشى مدينة (لندن) وريفها بين رفقة يفوقونني
خبرة بالحياة، كما كنت قليل الحفل بالمستقبل!
أستطيع أن أقرر أني لم أتوخ في كتابة (القلب السعيد) نهجاً خاصاً أدين به في الحياة
الواقعة نفسها. كانت تروق لي نظرية (الاشتراكية) بيد أنني لم أكن أتحمس لها تحمساً
فعلياً ولقد كنت في تلك الأيام، حين كان رزقي خمسة وثلاثين شلناً في الأسبوع، كما
أنا اليوم. . . بعد أن أتسع رزقي كثيراً. . . شديد الإيمان بأن كل إنسان إنما هو الذي
يصنع دنياه الخاصة! بغض النظر عن موارد رزقه. كما كنت ولم أزل شديد الإيمان بأن
السعادة إنما هي ذخيرة شخصية، تصونها الطبيعة المرحة السامية أكثر مما تصونها
الاعتبارات الاقتصادية! وهذه الطبيعة المرحة هي التي جلوتها في شخص بطل (القلب
السعيد) فلقد شرق في الأرض وغرب في غير كبير اهتمام وفي غير ما صرع أو جهاد!
ولكنه كان يتعقب الحب الذي يجده القارئ في آخر القصة، ومثله الأعلى لم يكن يعدو

الزواج السعيد، وبيت الأسرة، والأطفال، في قناعة بالقليل ورضي بالواقع!
وحدث في عام 1908 أن المستر (فيشر آنون) الناشر المعروف، أعلن مسابقة قصصية عامة، أرصد للفائز الأول فيها جائزة قدرها مائة كاملة من الجنيهات. وكان هذا القدر من المال خليقاً أن يسيل له لعاب مثلي. . . ولذلك أنجزت كتابة قصتي (القلب السعيد) وتقدمت بها بين المتسابقين. وأعقبت ذلك نتيجة محتومة مرتقبة، ولقد كان يرضيني أن أكون عاشر الفائزين إلا أنني لم أربح. . وكان صدمة لي، ولكنها لم تكن شديدة القسوة، وبعد ذلك أتيح
. . .لي حظ نادر
كنت - كما قدمت - أعمل في ذلك الحين ببعض مكاتب النشر: أقرأ (البروفات) وأحرر بعض الرسائل، وكان رئيسي في ذلك العمل رجل أسمه (فيليب لي وارنر) كان يعمل معي قبل ذلك في مكان آخر، وكان قد قرأ لي من قبل قصتي القصيرة (الطريق الحق). وقد اتفق أن سألني بعد فشلي في المسابقة ماذا أكتب، فلما رويت له خبر المسابقة ودخولي بالقصة الأخيرة وفشلي، طلب أن أطلعه على تلك القصة، فأجبت رغبته. وبعد أن قرأها دفع بها إلى ثلاثة من أصدقائه الذين يعتد برأيهم. وإني أقرر هذا حتى لا يتوهم بعض البعيدين عن محيط النشر أن فيه سبيلاً إلى التحايل. . . وبعد أن تلقى الرجل آراء أصدقائه هؤلاء طلب إلى إحداث بعض التحوير في القصة، وأعداً بنشرها بعد ذلك. ومن عجائب المصادفات أنه كاشفني بذلك في نفس اليوم الذي كنت أحي فيه عيد ميلادي الرابع والعشرين!
تحدث كل الأصدقاء بحسن حظي، وكانوا جميعاً يشكون في نجاح قصة أنا كاتبها. وقد جاء نجاحها منافحاً عن كفايتي! والحق أنه كان لي على الدوام أصدقاء يقفون في صفي لموجهة ما يكتنفني من أخطار الغرور في النفس! ولم أكن أغضب لهذا أبداً. بل على العكس من ذلك، كنت دائماً أعترف بما كانوا يغمرونني به من صفوة المودة.
ولم يكن الكتاب (القصة) عملاً جيداً تماماً. فلقد كان مكتوباً في سرعة فائقة وفي قلة اكتراث. وكان بذلك أبعد ما يكون من صفات العمل الأدبي الجدي، وأبعد ما يكون من الجدارة بالكتابة عنه، أو مديحه، ولكنه على أي حال كانت تميزه ظاهرتان ينبغي أن يعني بهما كل شاب يريد أن يكتب قصة؛ فقد كانت فيه جدة أصيلة ملحوظة، فضلاً عن اندماج المؤلف في الشخصيات التي خلق منها أبطال قصته!
وبعد ظهور الكتاب، بهرني ما استقبلته به الصحف التي تحفل بفن القصة، والحق أنها كانت رفيقة به كريمة عليه. فقد امتدحه كأنما يتفرد كاتبه بعبقرية من طراز خاص! وقارنته بأعمال (ديكنز) الخالد! وأسرفت في التنويه بما فيه من أصالة وطرافة. بل لقد بلغ من كرم محرر (المانشستر جارديان) أنه قال: (. . . لقد بدأ المستر فرانك سونيرتن - أنا - أعماله الأدبية بإحدى الروائع. فقد جعل أبطال قصته في ارتباط وثيق، كما أفاض عليهم
حيوية ملحوظة؛ وكل ما في كتابه يعتبر هدية ممتازة إلى الفن القصصي من الشخصيات، والطبيعة، والحوار. وليس بعد ذلك من شيء يجعل القصة جديرة بالنشر، خليقة بالإقبال!
ونفذت سبعمائة نسخة من الكتاب في موسمه الأول ولم يكن هذا أمراً مرضياً تماماً. ولكنه لم يكن في تلك الأيام نتيجة سيئة. فقد بلغ نصيب الناشر من ثمن هذه النسخ ثلاثين جنيهاً. بينما أخرج (أرنولد بينت) كتابه الأول فلم يكسب أكثر من جنيه واحد بعد أجر من وقع فصوله على (الآلة الكاتبة)!
واستأنفت الكتابة بعد ذلك، لأن الناشر تلقى تشجيعاً كافياً لأن يتفق معي على نشر قصة أخرى. وهذه أيضاً حقيقة لها حظ من الأهمية. فان القصة الأولى للكاتب إن لم تكن أكثر من محاولة غير ناجحة، فان قصته الثانية خليقة أن تكون بداية طيبة لاحترافه هذا الفن!
وأنا الآن لا أكتب قصصي بالسهولة التي كنت أكتب بها منذ ثلاثين سنة. والواقع أن الإنسان كلما تقدمت به السن تزايد شعوره بصعوبة التمشي مع كل الأساليب! وشعوره بتضاؤل استقلاله وحقوقه كمؤلف. ولكن، حينما كنت أكتب قصتي (موسم الفكاهة)، وأنا ابن ثلاث وخمسين سنة كنت أحس بذلك النشاط الذي كان لي حين كنت أكتب (القلب السعيد) قبل ذلك بثلاثين عاماً كاملة.

وحين شرعت في كتابة هذا المقال لم أكن قد تصفحت كتابي الأول منذ ظهوره، ولكني وجدتني مضطراً إلى ذلك حين هممت بتدوين هذا الفصل، لأكتشف ذلك الموضوع الذي دارت عليه فصول كتابي الأول الذي أشعر بأني مدين له، إذ مهد لي السبيل إلى فن من الحياة لقيت فيه ألواناً من السعادة.

فرانك سونيرتن

جنون الأقوياء

للأستاذ عبد الرحمن شكري

ملكوا الأرض واستباحوا حَماها ... واستطالوا بِجِنَّةِ الأقوياء
وسعوا ينشرون في الأرض سرا ... مُنْكَراً في شريعة الأتقياء
تارة في الخفاء بالمكر يَعْدُو ... ن وطوراً في جهرة العظماء
أَهْوَنُ الْوِزْرِ مَا أَتَوْنْ جهاراً ... من صيال وقسوة وبلاء
والذي في الخفاء أقتل للنف ... س وأقسى لصوله في الخفاء
إن رأوا نقص أنفسٍ في خصوم ... استزادوه بالأذى والدهاء
أفسدوا أمرهم ودسوا دُعَاةً ... كي يَهيجُوا تشاحن الأشقياء
واستمالوا سمع اللئيم بلؤْم ... زاده خِسة على الأدنياء
كصيال الشعوب بالمكر والكي ... د وإنْ أحرزت صفاتِ العلاء
حَلَّلُوا للوشاة أن تشتفي من ... لاعِج الحقد بالأذى والعداء
خدعتهم أرصادهم أم رأوا أنَّ ... سماحا بشرهم كالجزاء
مَكَّنُوهُمْ مما ارادوا من الش ... ر جزاءً لَخوْنِهِمْ والرياء
ذاك أنَّ العدوّ أرخصُ شأناً ... مِنْ تَحَامِي الإجحاف في الإيذاء
قَرَّظُوا العلم والحضارة جهراً ... وتقَاةً لله أو للقضاء
ثم ساسو بالختل في السر ما شا ... ءوا وشاءت جوامح الأهواء
لا رقيبٌ على الخفاء ولا الصو ... لةِ فيه ولا عديمِ الحياء
عدموه للكفر بالله والنا ... س سوى ما رجوا من الآلاء
عَلْمَ العِلْمُ إنما النا ... س كَنَمْلٍ سَوَاؤُهمْ كَسَواءِ
زعموا زعمهم وسموه علماً ... واستطالوا بلؤْم ذاك الذكاء
وأباحوا لِحِقْدِ كل وَلِيّ ... مُثْلِجاً نار إحنة الأحشاء
ثم قالوا وسَطَّرُو في ضمير ... إنه من ضرورة الأشياء
قِسْ على ما بدا من الشر جهراً ... في حروب ونزوة وعداء
ما أَجَنُّوهُ وهو أبلغ في الكِذْ ... ب وفي كل قسوة واعتداء
وقديماً جُنَّ القَوِيُّ بما طا ... ع له من تزلف الضعفاء
وضعوه في منزل الله كُفْراً ... فطغى واستباح سفك الدماء
ورأي الخير والفضيلة ما شا ... ء وإنْ كان من أذى الأدتياء
ورأى الشر والكبائر ما عا ... ف وإنْ كان سيرة الأبرياء
وكذا المرء وهو ليس وَلِي ال ... حُكْم يطغى بنصرة اللؤماء
وسواءٌ شعب وفردٌ وذو السل ... طان أو سادر من الدهماء
صنعوا الشر حِسْبَةً ولوجه ال ... له، شاهت وجوههم من رياء
أو لحقدٍ قد مَوَّهُوهُ بخير ... وتباهوا بحسن ذاك لطلاء
أو برأي الأحرارِ صاغوا قيوداً ... واستباحوا في الناس سفك الدماء
وجنون القَويِّ أقبح من قو ... ة وحش يقوى بغير ذكاء
إيهِ لغز الحياة هل دورة لل ... شر والخير غير ذات انتهاء
لعبة ما أراه أم خَبَلُ الأن ... فس أم نزوة من الحَمْقَاءِ
إحَنٌ في الحياة مثل خطوط ... نسجوها في البُرْدَةِ السِّيرَاء
فغدت نُهْزَة الفنون هو الفَنُّ ... كَنَحْلٍ يشتار أَرْيَ الشقاء
هل لِسِحْرِ الفنون أنْ دَلَفَ الده ... رِ وساغ الأنامُ لُؤْمَ البقاء
سحرها يترك اليَبَابَ عماراً ... حافلاً بالنعيم والآلاء
ويُحِيلُ الخسيسَ من معدن العي ... ش شريفاً بصنعة الكيمياء

عبد الرحمن شكري

فلسطين
للأستاذ عبد اللطيف النشار
أتلك فلسطينية الكرْم فاسقني ... سلافاً غذاها بطن واد مطهر
سقاني نجيب جرعة فتمثلت ... مناظر من شتى عصور وأدهر
كأني أماشي الناصريَّ وصحبه ... إلى هيكل نائي الجوانب نير
فحطم ما استعلى بها من زخارف ... وهوَّن أمر التائه المتجبر
تضاءلت الأحبار في ذرواته ... أمام عزيز ليس بالمتكبر
وذلت أنوف شامخات إلى الذرى ... وضاق الثرى منه بكنز مبعثر
فلسطين هذي لا يتيه بها الغنى ... فبشر بذل كل خد مصعر
ومستضعف فيها قليل نصيره ... يعود على الدنيا بنصر مؤزر
فلسطين هذي تنكر اليأس أرضها ... وما هو في أرض سواها بمنكر
رأيت بها الأموات تحيا فجاءة ... أأرض فناء تلك أم أرض محشر
وعينين عمياوين دنياهما الدجا ... تبلجتا مثل الصباح المنور
وأبرص تؤدي العين رؤية جسمة ... فقرت به العينان من حسن منظر
وما كان عهد الله فيها لينقضي ... ولا كان عهد الله بالمتغير
عبد اللطيف النشار
!. .مناجاة صورة
للأديب رفيق فاخوري
إليك أبثُّ رسيس الهوى ... وأكشف عن جرحه فَأذن
لديك الضماد فَدَاوِ الجريح ... ومُدَّ يد الراحم المحسن
تعهَّدْ جراحي ونحِّ الطبيب ... فإن البلاسم لم تغنني
لحاظك منها تشعّ الحياة ... فيا عجباً كيف لم تحيني
وهذا المحَّيا الحبيب الرواء ... أثار شجوني فأشقينني
وثغرك وهو معين الظماء ... أجدَّ غليلي ولم يسقني
جلالك المصوّر لي آية ... حجبت سناها عن الأعين
وقلت: ألا فاسرحي في الخيال ... وهبّي على قلبي المدجن
هبوب الحياة على الهامدين ... وعرف الورود على المجتني
وصوني بهاءك عن لامس ... وحسنك عن ناظر ممعن
نفارك أحلى فلا تركننّ ... إلى الناس يوماً ولا تسكن
فإني أخشى عليك الغرام ... وأشفق من دائه المزمن
على ناظريك دلال الصبا ... ووجهك روض النعيم الجني
وأنت - على قدرة في الجنون - ... أرقُّ وأندى من السوسن
ومثلك يغوي الخليّ البريء ... ومثلي عن صبوة لا يني
تمتع بحسنك يا فاتني ... فعود صبائك قد ينحني
وقد يخلق العمر هذا الجمال ... وتذهبه غولة الأزمن
وتسري الكهولة في مائس ... يطير له القلب إذ ينثني
(حمص)
رفيق فاخوري
البريد الأدبي
عصمت ابنونو
انتخب المجلس الوطني في أنقرة القائد (عصمت إبنونو) رئيساً للجمهورية التركية، وهو من نوابغ الترك، وقد قالت الصحف الغربية والشرقية إنه أعظم رجل عند القوم اليوم. ومما يعرف عنه أنه ذو أخلاق عالية، منها التواضع والحياء، وهو من بيت تقوى ودين، وأبوه ورع صالح، وقد ورث عنه شيئاً كثيراً، وبينه وبين أسرة عربية في فلسطين قرابة. وأذنه عن لغو الناس صماء. ومن قول الأمير شكيب أرسلان فيه - وقد لاقاه في لوزان حين ذهب إليها رئيساً للوفد التركي بعد الانتصار وذاك الصيت الحربي وكانت له في المؤتمر تلك الشهرة السياسية: (وجدت أعضاء الوفد التركي جميعهم يحملون حقداً على العرب حاشا عصمت باشا)
فهل تتلاقى في عهد هذا الرئيس قلوب ألف بينها الإسلام وكادت تفرقها حوادث الأيام؟

ماذا يرى ج. ب. بريستلي؟

لخصنا للقارئ في الأسبوع الماضي رأي برنرد شو في شباب هذا العصر ووسائل التعليم فيه. وكان أهم ما عرض له شو أنه لا يعترف لأحد من معلميه في شرخ شبابه بفضل عليه، وأنهم كانوا آلات شيطانية لكبت غرائز التلاميذ وكف أذاهم عن أمهاتهم لا غير، وأنه لا يذكر مدرسته الأولى بخير سواء أكانت مدرسة أو جامعة، وهو يفضل تعميم المدرسة الابتدائية كمرحلة أولى لتثقيف النشء ولا يرى مانعاً من تدريس المواد الجافة لأنها تنفع في المستقبل وضرب لذلك مثلاً بجدول الضرب وأوصى بضرورة لباقة المدرس في تدريس هذه المواد، ثم تكلم عن الجمع بين الجنسين في غرفة الدرس فلم ينكره بل حتمه، وذكر الكتب التي كان لها أكبر الأثر في توجيهه الأدبي فخصص ألف ليلة وليلة الكتاب العربي الخالد ورحلة الحاج لجون بنيان وروبنصون كروزوليفو وختم حديثه بضرورة تعليم الخلط على أن يكون مادة مستقلة

وقد اطلعنا بعد ذلك على رأي ج. ب. بريستلي فرأيناه يعتذر عن الإجابة عن هذه الأسئلة (بالقطاعي!) لأن الأسئلة (القطاعي) أو التي لا رابط بينها تربكه، ثم هو لا يستطيع أن يبدي رأيه بصراحة في مدرسي المدارس إطلاقاً لأن أباه الذي ما يزال حيَّاً يرزق ما يزال

مدرساً في مدرسة أولية كذلك. . . وفي قوله هذا جزء من رأيه. . . وقد ذكر أن أبناءه تلاميذ في مدرسة داخلية وقد أختارها لهم لا عن تفكر وتفضيل، بل مدفوعاً بتيار العصر والعرف! أما أحسن ما يجب أن يتحلى به المدرس فهو أن يكون ذا حماسة لفنه ومقدرة طبيعية على النقد بحيث يؤثر في تلاميذه وينمي فيهم غرائز النقد والذكاء والبصر بالأشياء. ثم نعى على المدرس أن يكون متحذلقاً موحشاً. . . ولا جرم فهذا المدرس يكون قليل الثقافة قليل الخبرة، وعلى ذلك يكون أخيب المدرسين!

وبريستلي يحبذ الجمع بين الجنسين في التعليم على شريطة أن يفصل بينهما بعد الرابعة عشرة. أما ما يؤخذ على شباب هذا الجيل من الكسل والفظاظة وانعدام روح المجازفة، فهو لا يرى ذلك ولا يوافق عليه ويعزو القليل منه الملاحظ فيهم، إلى روح العصر نفسه، لأن روح العصر حببت إلى الناس الترف والعيش على هامش الحياة دون التوغل في أعماقها، ولذا لا يلومهم على أنهم قُنَّع. . . لأنهم إذا عدوا طور الشباب إلى طور الرجولة أقبلوا على مصاعب الحياة وتمرسوا بها، فلو علمناهم قليلاً من النظام لظفروا بكل ما واجههم فيها

13 نوفمبر والأدب

مما يؤسف له أن تصدر مجلاتنا الأدبية وليس في واحدة منها إشارة إلى 13 نوفمبر. ولسنا نستثنى الرسالة من تلك الملاحظة بل نحن نكاد نحصها بها لأن 13 نوفمبر هو يوم فاصل بين حياتنا ومع ذاك فقد صدرت الرسالة مساء ذلك اليوم وليس فيها إشارة إليه. . . والمجلات الأدبية تعد ثبتا للحوادث وسجلاً لتوقيعات الأمة، ولم يكن أولى من الرسالة بأن تكون كذلك. ثم نحن نبحث عن صوت الأدباء في ذلك اليوم فلا نكاد نسمع لهم ركزاً، مع أن اليوم هو يومهم قبل أن يكون يوم الساسة الذين أقاموا السرادقات ليطعن بعضهم بعضاً وليوجه بعضهم إلى بعض أقذع ألوان السباب والتشهير والشتم، وهم في ذلك ينسون أنهم قادة أمة وزعماء شعب وكان أليق بهم ألا يظهروا بهذا المظهر الزري. ولكن المسئول عن هذا هم الأدباء لأنهم سمحوا للسياسة بأن تطغى على الأدب في هذا اليوم المقدس الرهيب الذي يحمل للأمة ذكرى جهادها. . وتلك ملاحظة عسى أن تنفع في السنة الآتية

د. خ

دار العلوم وكلية اللغة العربية

الذي ينكر فضل دار العلوم في نهضة اللغة العربية في الشرق الحديث هو ضال جاحد قلبه، ولكن الذي ينكر أن كلية اللغة العربية هي شيء عظيم جداً في حياة الأزهر الحديث هو رجل لا يتصل بنهضة هذا البلد ولا يدري عن أطيب ثمارها شيئاً. . . فكلية اللغة العربية التي لا يدخلها إلا حامل ثانوية الأزهر والتي يدرس الطالب فيها لباب هذه اللغة وآدابها ثم يعود فيتخصص في التربية أو علم النفي أو أدب اللغة أو التاريخ على نخبة من جهابذة للعلماء المصريين من رجال الجامعتين ودار العلوم. . . هذه الكلية هي منشأة جديرة بالاحترام والفخر والعطف. . . ومصر مع ذاك في حاجة إلى

المعهدين معاً، وكنا نطمع في أن تشتد أواصر المحبة والعلم بينهما بجامع الثقافة ووحدة الغرض، لا أن تدب عقارب الغيرة بينهما فينتقص أحدهما الآخر من أجل مناصب التدريس في معاهد الحكومة. . ونحن نرى أن تتدارك الحكومة هذه الحالة فتجعل مناصب التدريس الخالية في معاهدها قسمة عادلة بين المعهدين. . على أن لنا رأياً في ضم المعهدين سنبديه في حينه

عناية وزارة المعارف العراقية بحركة الترجمة والتأليف

- :قالت جريدة الأخبار البغدادية

وجهت مديرية التربية والتدريس العامة بوزارة المعارف في بغداد كتاباً إلى كل خريج مدرسة عليا من الشباب الدارس في خارج العراق يتضمن تنبيه معالي الأستاذ رضا الشبيبي وزير المعارف في تنشيط حركة الترجمة والتأليف، وقد رجت من هؤلاء الشبان المتعلمين أن يقوم كل منهم بتعريب الكتاب الذي يختاره في موضوع اختصاصه على أن يكون في نشره فائدة علمية في خدمة الثقافة في العراق والبلاد العربية عامة. على أن يقوم المترجم بأعلام مديرية التربية والتدريس بالكتاب الذي وقع عليه اختياره قبل الشروع في الترجمة.

وفيما يلي نص كتاب وزير المعارف في هذا الصدد:

لوحظ أن حركة الترجمة والتأليف العامة في البلاد ضئيلة الإنتاج، ولما كانت هذه الوزارة حريصة جداً على تشجيع الإنتاج العلمي وعضد حركة الترجمة والتأليف بجميع الوسائل

المستطاعة نرى أن تذيعوا على كافة خريجي الجامعات والمعاهد العلمية العالية سواء كانوا موظفين في هذه الوزارة أو غيرها أن هذه الوزارة على استعداد أن تعاضدهم في نشر ما يقومون بترجمته من الكتب القيمة كل في موضوع اختصاصه إما بشراء حق الترجمة إن قبل تقرير الكتاب في المدارس أو بغير هذه الطريقة. هذا على شرط أن تقتنع هذه الوزارة بأن العمل يؤدي إلى خدمة نهضتنا العلمية أو الفنية في العراق.

أمة عربية تزول!

كان للكلمة الموجزة التي كتبناها عن مصير طرابلس الغرب تحت حكم الدوتشي (حامي الإسلام!) صدى قوي في البلاد العربية فثارت النفوس بالاستنكار، وتحركت الألسن بالاحتجاج، وتردد ذلك كله في الصحف الحرة اليقظى، وسنقتطف منها نبذاً تدل على قوة الوحدة الشعورية في الأقطار العربية:

قالت جريدة (الرأي العام) العراقية تحت عنوان (طرابلس - برقة ضحية الاستعمار الإيطالي) بعد أن نشرت قرار المجلس الفاشستي بضم طرابلس الغرب إلى إيطاليا:

إننا نقف موقف المتفرج على ما يراد بقوم هم من العروبة في الصميم، وقد كتبوا) صفحات نضالهم ضد القوة الاستعمارية الغاشمة بدمائهم الكريمة، فأية غضبة أعلناها في سبيل طرابلس الغرب العربية وهي تتمزق إرباً؟ وأية مظاهرة قمنا بها لنعلن سخطنا ولو بالمظاهرات على هذه الهمجية التي تفرضها دولة مستعمرة هي من ألد أعداء العرب على قطر عربي استنجد بنا ألف مرة ومرة وناشدنا النجدة والمعونة؟ لحد هذا اليوم نخلع على بعض رجالات العرب صفات البطولة لمواقف مجيدة كانت لهم ضد الاستعمار الإيطالي أيام الدولة العثمانية غير العربية، أفلا يكون شيء من ذلك أثناء وجود دول عربية ذات مركز قوي إن لم تتمكن من حشد الجيوش وجمع الجموع فهي غير عاجزة عن رفع صوتها وإعلان احتجاجها على الأقل؟ أو يعيش رجال من العرب على حساب البطولة (العربية) في أيام العهد (العثماني) غير العربي وهم أتباع، بينما لا تكون لهم تلك البطولة عينها أو بعضها وهم سادة وزعماء في بلدان عربية منبعثة من جديد؟ وما معنى هذا؟ وأية قومية عربية هذه؟

لا مفهوم للوحدة العربية التي نتغنى بها إذا كانت طرابلس الغرب أول ضحايا الاستعمار

الوحشي من البلدان العربية لا مدلول لها في منطق (الوحدة) ولا يعنينا أمرها بشيء، ولا تهزنا مأساتها الدامية. لا مفهوم للوحدة العربية ما دمنا لا نهاجم المستعمرين والمفترسين البلدان العربية على حد سواء. إن هذا الأمر بعيد جداً عن الوحدة بل عن الوطنية (ما دمنا نقول بوطن واحد عربي) بل بعيد عن صفات العروبة ومزاياها.

وقالت في موضع آخر:

في جزء غال من أجزاء الوطن العربي المقدس يعيش شعب عربي أبي في بحران من الظلم الفادح والاستبداد العنيف.
شعب أعزل من كل شيء غير قوة الإيمان، شعب فقد كل شيء غير الشرف، لا يزال يقاوم الخطر الذي يكتسحه، ويرد عن العروبة الداهية التي تدهمها، شعب من هذا الطراز يعتقد أن على العرب واجباً نحوه يجب أن يؤدوه، وفرضاً له يجب أن يقضوه
إن تأييد الشعب العربي الطرابلسي البرقوي في نضاله ضد الاستعمار الإيطالي الفاشستي أمر محتم على كل عربي يتألم لألم إخوانه العرب ويخشى المصير الذي صاروا إليه، لأن عطف العالم العربي على المناضلين الطرابلسيين وتأييده لهم يزيدهم قوة فوق قوتهم وإيماناً على إيمانهم
ويفهم في الوقت نفسه المستعمرين أن قضية الطرابلسيين هي قضية العرب أجمعين، وأن على الذي يريد صداقة العرب أن يصادق إخوانهم الطرابلسيين لا أن يتزلف إليهم بيد ويبطش بالأخرى بإخوانهم. . .
حول مقال
سيدي الأستاذ الزيات
تحية وسلام وبعد فقد قرأت يا سيدي ضمن ما أقرأ لك ما كتبته تحت عنوان (شيطان) في عدد الرسالة الغراء رقم 279. والحقيقة أنك قد أتيت على وصف هذه المأساة أدق وصف وحللت شخصياتها أوضح تحليل. واغلب الظن بل ومما لا أشك فيه أن هذه الصورة ليست من نسج الخيال إنما هي بنت الحقيقة، وليس من الغريب أن تقع أمثال هذه المآسي في بلدنا هذا بل إنها واقعة فعلاً في معظم البيوتات المصرية سواء منها الكبيرة أو دونها كل على قدر ما نال. وقد اصبح هذا الداء هو (داء العصر) ولابد أنك يا سيدي الفاضل ترى
معي أنه داء عضال لا يرجى برؤه إلا إذا لحظته العناية وقيض الله له نطاسياً بارعاً يستخرج المصل الكافي لقتله - وهذا حسبنا - أو على الأقل يكون واقياً لبقى المجتمع شره الوبيل
وإني لأضع هذه الرسالة في عنقك فأنت خير من يرسل لرفع لوائها وينفث في الأمة روح المعرفة والتوازن بين عادات الغرب الضارة وبين عاداتنا الشرقية الكريمة كي تصلح الشئون ويسعد القوم
والسلام عليم ورحمة الله
قارئ
توحيد برامج التعليم في الشرق الإسلامي
نشرت الصحف مقالاً للأستاذ الجليل محمد العشماوي بك عن توحيد برامج التعليم في الشرق العربي تناول فيه تاريخ الثقافة العربية بعد الإسلام مشيراً إلى الوحدة في الأصل والطريقة والتفكير والغاية التي كان يسير عليها التعليم في مدارس بغداد والبصرة ودمشق والقاهرة وتونس، ثم ذكر نهضة العلوم الحديثة وتبدل روح العصر وما ينبغي لمصر أن تقوم به لتضطلع بحق بالزعامة التعليمية في الشرق العربي فاقترح أن أن تعي المدارس المصرية بدراسة أحوال هذا الشرق وعاداته وتاريخه ودعوة بعض أفراده من شعوبه المختلفة للدراسة في مصر على نفقة المعاهد المصرية وغير ذلك من الوسائل التي تسهل توحيد البرامج في بلدان الشرق فيما بعد، والتي لا يمكن تنفيذ المشروع بدونها. والمشروع بعد هذا جميل وليس خالياً كما يظن دعاة استقلال القومية المصرية أو المعارضون لفكرة اتحاد الشرق العربي لأنه لا يضر وطنيتنا في شيء، بل هو يقويها ويزيد في مقوماتها ويفتح أمام شبابنا ميادين فسيحة لخدمة إخواننا وبني عمومتنا في الممالك الشرقية. ونحن لا نشك في نجاح هذا المشروع ما دام قد نال عناية الرجال المسؤولين
الكتب
أفاعي الفردوس
ديوان الأستاذ الياس أبو شبكة
بقلم الأستاذ فليكس فارس
ديوان يحوي ثلاث عشرة قصيدة من شعر الأستاذ إلياس أو شبكة نشرته جريدة المكشوف البيروتية فاسترعت نبراته الأسماع، واستوقفت معانيه تفكير المتأملين

إلياس أبو شبكة نسيج وحده بين شعراء العرب اليوم. ولا أقصد بهذا الوصف أن أرفعه فوق أترابه، فهو وإن كان في الطليعة من نسور الخيال، لا يسبقهم تحليقاً، ولكنه يند عن سربهم نافراً من خطوط الأنوار في أجوائهم إلى مسارح الغيوم السوداء فلا يدور إلا في مقاصف الرعود، ولا يطوي جناحيه إلا ليحط قوادمه على أدواح الغابات الموحشة أو على فوهات البراكين

أو شبكة نسر ثائر مروع لا تستهويه سقسقة الجداول ولا عيون الأزهار ولا ناهدات الأثمار على الأماليد، وليس في إنشاده تغريد بلبل أو غناء شحرور. إن للنسر صرخات مدويات لا يأنس لها إلا من يتعشق ولولة الرياح على القمم، وهدير الأنهار في الأغوار

سمعت أبا شبكة يرسل أوائل صرخاته في القريض وأنا أحول أنين بلادي الخافت إرعاداً أطلقه من قمم المنابر، فكأنني سمعت جباراً إنشاده قرقعة سلاح، وأشعاره خطب قيودها دروع لازرد أغلال

ولو أن أبا شبكة لم يمد جناحيه إلى أفاق الدنيا ولم يطلق نظراته على مجالات الشعر في المجتمع الإنساني، لو أنه حصر تشاؤمه وثورته في حدود بلاده ولم يصطدم بالعواثر من آمال متقدميه، وقد ملأت منعطفات المصاعد كأنها أشلاء، لكان هذا الشاعر يتيه اليوم على أرض الناس لا أرض أجداده، لكان أختار له منفى أو اختير له منفى

من أوائل قصائد هذا الشاعر أبيات وجهها إلى منذ أربع عشرة سنة يشكو بها الحياة وهو لما يزل على عتبة الشباب وقد نشرتها جريدة الشعب، ويلذ لي بل أرى من دعائم بحثي أن أقتطف منها بعض أبيات:

قال مفتتحاً:

أشكو إلي قلبك يا سيدي ... قلباً ثوى في حظي الأسود
أطلقته طفلاً ولما نما ... أصبح محتاجاً إلى مرشد

وقال:

فارس، ما للحر من راحة ... في وطن يرتاح للأعبد
ويل الشباب الغض من قلبه ... إذا أضلوه ولم يهتد
يا شاعر الآلام هذا دمي ... ذويته شمعاً على معبدي
هذي شكاتي يا خطيب العلى ... أرفعها للرجل الأوحد
وجدت في نفسك ما لم أجد ... في أنفس مخمدة هجد
لامست في أناتها ثورة ... أخمدت النار ولم تخمد

هذه الأبيات يزفر بها صدر فتى لم يبلغ العشرين، فيها شرارات من اللهيب المندلع اليوم من كل بيت يرسله أو شبكة، وإنني لأغتفر له الآن إغراقه في وصفي بالرجل الأوحد لأنه كان وهو يتلفت إلي في ثورته يناجي ما كمن في نفسه من مُثل يهفو إليها وقبل أن أعرض لديوان (أفاعي الفردوس) أرى أن أقف عند قصيدة الحجر الحي التي أنشدها صاحب هذا الديوان أمام تمثال المغفور له (فوزي المعلوف) في حفلة إزاحة الستار عنه في السنة الماضية، فأقتطف منها نماذج لاستقرار الإلهام وتطور البيان

أطبق جناحيك معقوداً لك الظفر ... فقد وصلت وشوط المجد مختصر
ما ضر وكرك أن تأتيه منطفئاً ... ما دام قلبك في جنبيه يستعر
عيناك في الحجر المصبوب ساهرة ... يقظانة فيهما أحلامك الغرر
تواجه الليل هول الريح صاخبة ... ما ضرك الذئب جوعاناً ولا النمر
نيران عبقر في عينك إن مردت ... هوج الدجى فعلى عينيك تنصهر
مهما طغى الليل لا تشقيك زوبعة ... إلا على جانبي وقبيك تنصهر
يقظان والناس عمى في مراقدهم ... سيان ناموا على ذل أم احتضروا
عار علينا تنام الليل هانئة ... عيوننا وعباب الليل معتكر
لم يبق من رومة إلا صغائرها ... ومن قياصرها إلا دمي كسر
رفعت عنك ستار الناس منتفضاً ... أيحجب الخلد من يفني ويندثر
هذي الستارة كانت في تشددها ... عليك آخر قيد شده البشر
كأنها وهي تنضى خلعة كذبت ... من الفناء لحاء عنك يقتشر
منذ ابن مريم والأكفان هاوية ... عن النبوغ وصخر القبر منحدر
كم في بلادك من نفس تود على ... وقاح عورتها أن تسدل الستر

وبيت الختام هو هذا:
لرب حيّ غدا في قومه حجراً ... ورب ميت غدا حياً به الحجر
هذا أنموذج من شعر أبي شبكة أخذناه من الأماليد ومن الجذوع وكلاهما صلب كالأرز ينقصف عوده ولا يلتوي
وإلى الشعراء الآن مقتطفات من ديوان أفاعي الفردوس، الديوان الحامل أسلوباً لا يمكن لأحد أن ينكر جدته وروعته.
وقد جاء أبو شبكة بطابع مستحدث في الشعر العربي سيبقي هو عميده الأول حتى في الزمن لذي سيكثر فيه أشياعه ويفوقون فاتح وهاتك أستاره
لم يشأ شاعرنا أن يتقدم بديوانه دون تمهيد نثري بسط فيه رأيه في الشعر فجاء بنظرات صائبات تسلسلت في درس عميق يطل فيه من شخصية شاعر حكيم له ثقافته واطلاعه الواسع وأحكامه كشرقي مستقل في مبادئه لا يؤخذ بالتيار الغربي الذي يجتاح إلهام عدد وفير من الشعراء في هذا العهد
اسمع أبا شبكة كيف يواجه مسألة الاستلهام في أوطانه:
وإنني لأسأل ماذا ترانا نستطيع بهذا القاموس الضيق، هذا القاموس المتورد، نتشبث) به للتعبير عن أعمق حقائق النفس فترفع الكلفة بيننا وبين اللغة ولا نتورع عن سلوك مهامه غائمة كأننا في حلم؛ وقد يخيل إلينا ونحن نسلك هذه المهامه أننا نسير في الطريق الشعري السوي بينما نحن في الحقيقة لا نحاول إلا الخروج عن أنفسنا (مستعبدين لنظريات خاطئة بل مضرة تحرر منها حتى مبدعوها أنفسهم
إلى أن قال مستنتجاً:
فالمدارس الشعرية سجون، ونظرياتها قيود، والشاعر لا يعيش في جو العبودية هذا؛) فالطبيعة هي جوه الفسيح فكيف احساساته بتكيف المظاهر المتقلبة فيه، وإذا خرج الشاعر عن هذا الجو خرج عن نفسه وكذب على نفسه(
هذا ما يقوله أو شبكة عن المدارس الشعرية التي حسن لدى الغربيين أن يدعوها مدارس. وإنا لنرى الفرصة سانحة في معرض هذا البحث لنقول كلمة موجزة عنها وعن الخطأ في تصورها وتسميتها
إذا صح أن نطلق مدارس على المذاهب العلمية والفلسفية فهل يصح أن نطلق هذه التسمية على أساليب الشعراء في بيانهم وعلى ما تستلهمه الأنفس من سرائرها ومما حولها من المشاهد؟
إن أتباع المدارس العلمية والفلسفية ينقسمون أرهاطاً على عقائد معينة تختلف إحداها عن سائر اختلافا بيناً، فهنالك طرائق وأوليات يسلم بها أشياع كل مدرسة كأنها قانون إيمان إن جنح عنه واحد منهم خرج حتما من رهطه ليدخل في رهط مدرسة أخرى. وأين في الشعر مثل هذا الإجماع ما دامت السليقة وحدها هي المتحكمة في خواطر الشاعر وإحساسه ولهجته وطريقة بيانه؟
لذلك يقول لك أبو شبكة:
إن بول فاليري الذي جاءنا بنظريات خلقت في الأدب الغربي جيلاً مضعضعاً لم يحد) عن صراط (ماليرب) ولم يتمرد على القاعدة الكلاسيكية في النظم؛ وإني لأجد في شعر فاليري أبياتاً يستطاع دسها في شعر لامارتين(
إن التضعضع الذي يشير أبو شبكة إليه إنما تشاهده بين فئة المتأدبين والمتشاعرين في كل أمة، لأن المشتهرين في كل نوع من أنواع الفنون ينتصبون في خيال محاولي الإبداع مثلاً عليا يطالبونها بخلع العبقرية عليهم كمكافأة لتقليدهم وتصنعهم
أما الفنان الحقيقي فان طابع شخصيته يتغلب على جميع المؤثرات التي تدور به والخاطرات التي تتسرب إلى سريرته من مطالعاته، فهو يريك أبداً سماءه في إنشائه، ويسمعك نبراته في موسيقى بيانه، حتى ولو تجلت في أقوال من تقدموا وعاصروه من أهل فنه
إذن ليس في الفن - وأخص منه البيان على الإطلاق - ما يصح أن يدعى مدرسة؛ وإن كان هنالك من هم بحق أساتذة فليس لهؤلاء الأساتذة تلامذة بمعنى التلمذة الصحيح، إذ ما يمكن لطالب الأدب أن يستفيد من أدب معلمه سوى تقليده والسير في ركابه إذا لم يكن لهذا الطالب شخصيته المستقلة التي تجري في مسالكها مقتبسة من كل ما يدوي في أجواء الأدب من نبرات العبقرية دون أن تجاري أحداً وأن تقلد أحداً

من الذين تستمر أذواق الشعر في النهضة الحديثة شعراء تغنى الإشارة إليهم عن ذكرهم، وقد كان لكل منهم طابعه الخاص، فما كان أسلوب حافظ ليشبه أسلوب شوقي مثلاً، غير أنك تجد عشرات من الشعراء قلدوا الأول وعشرات قلدوا الثاني فنظموا على وتيرة كل منهما دون أن يبلغ واحد منهم مرتبة أمير الشعراء أو مرتبة شاعر النيل.

وإنني لا أزال أذكر ما شاهدته من ظاهرة التقليد هذه أيام إعلان الدستور حين تسنم المنابر عدد قليل ممن استوحوا الساعة فأهملوا البيان إلهاماً، إذ لم تمض أسابيع حتى غصت المنابر بالمتتلمذين فكنت تسمع أصوات أمراء المنبر وتشهد حركاتهم تقليداً، فمنهم من هو صورة مشوهة للريحاني، ومنهم من تلبس خيال الغلابيني أو مجاعص أو. . ولكنني لم أر واحداً من هؤلاء المقلدين الذين استنامت شخصيتهم الباهتة للاستهواء بلغ مقاماً له شأنه في مراتب الخطابة

وهنالك ظاهرة أخرى في الفن الغنائي قد تدهشك إذا أنت انتبهت لما يسمعك إياه المذياع كل يوم من أصوات عديدة لأم كلثوم تخرج من حناجر عشرات المغنيات، ومن أصوات عديدة لعبد الوهاب يسمعك إياها عدد من المغنين يتزايد يوماً فيوما.

هذه هي المدارس في الفن، وما هي إلا عبارة عن تجمع كتل من المقلدين حول الأفذاذ النابغين، فما أقل عدد الهاتفين بأصوات تعلق دماء القلوب في نبراتها، وما أكثر الصخور الصماء تدوي في فراغها الأصوات تقذف بنبرة لتخنق نبرات.

هذه كلمة أؤيد بها نظرية صاحب ديوان (أفاعي الفردوس) في إنكار المدارس في الفن، أو بالأحرى في إظهار هذه المدارس على حقيقتها. وما كان أبو شبكة إلا من الثائرين على التقليد والحدود، وهو في شعره أصل مستقل لا يعرف لشعوره حداً إلا ما ينشأ من شعور نفسه

(البقية في العدد القادم)

فليكس فارس

المسرح والسينما

كلمتان في الفرقة القومية

وفي رواية كرنفال الحب

ليس في الأدباء، ولا بين أكثرهم تشاؤماً من الفرقة القومية وأشدهم يأساً من استصلاحها - من يتمنى لها الراحة الأبدية، بل بالعكس كلهم يرجو أن تعصف بها عاصفة خريف تهيئ قابليتها لحياة جديدة في ربيع مقبل

لتشاؤم الأدباء ويأسهم أسباب وجيهة أوضحوها في شتى المناسبات، ولكن القائمين بأمر الفرقة كانوا يختلفون الأعذار لهؤلاء (المتذمرين المستاءين) يعزونها في الغالب إلى أغراض ذاتية، في حين أن ليس هناك متذمر أو مستاء، كما طاب لمدير الفرقة أن يحرف الوصف تخفيفاً لوقع التشاؤم واليأس في النفس، أو أغراض ذاتية، بل هناك كثرة من الأدباء يائسة كل اليأس من استصلاح هذه الفرقة القومية

ليس بمستغرب أن يفيض مدير الفرقة بالأحاديث ينشرها في الصحف محشوة بالوعود الحلوة والأماني الزاهرة، بل المستغرب أن يكرر هذه الوعود على نسق واحد في مطلع كل موسم للفرقة وعند اختتامه ذاهلا عن أدباء غيورين على هذه المؤسسة الأدبية يراقبون سير أعمالها حباً لها، لا سعياً وراء غرض كما يتوهم حضرة مديرها الهمام

أما سمعته يقول في جريدة البلاغ: (يمكنني أن أؤكد أن الفرقة القومية سائرة في طريقها، ونحن نعمل لاستكمال كل نقص لاحظناه فيها؛ ونحن نعلم الآن العيوب التي فينا وسنعمل على علاجها بالقدر المستطاع حتى تصبح الفرقة قادرة على تأدية الرسالة التي تأسست من أجلها) وأنت لو ناقشته الحساب على هذه الأقوال لسمعت منه قولا في المخرجين والممثلين والمؤلفين والمعربين أشد مما قاله مالك في الخمر بأسلوب شعري يلف به اللعنات بلفائف من حرير، ويتعمد تحاشي ذكر لجنة القراءة صاحبة الرأي في إقرار الرواية قبل تمثيلها كما يتحاشى ذكر أعماله وهو المسؤول الأول والأخير عن تقديم الرواية وعن إعطاء الحساب عن وقعها في نفوس الناس ومبلغ أثرها فيهم

أكتفي الآن بهذه الكلمة لأقف عند الرواية التي اختارتها الفرقة لحفلة الموسم، الموسم الذي قال فيه مدير الفرقة قبل أزوفه (إننا ننظر للمستقبل أكثر ما ننظر إلى الحاضر)

الرواية واسمها (كرنفال الحب) تأليف شارل ميريه وتعريب الأستاذ محمد خالد (كذا) تدور حول فتاة ربتها في الدير أمها الممثلة رامية من وراء ذلك إلى جعلها صالحة للزوجية فالأمومة كيلا تذوق طعم الحياة التي ذاقتها هي. فلما شبت الفتاة وزايلت الدير تعرفت في بيت أمها بشاب علقت به وذهبت معه إلى أقصى حدود اندفاعات الشباب

يتقدم كهل غني في طلب يد الفتاة من أمها، فتفرح لهذه السعادة، فتستدعي ابنتها لتزف إليها بشرى الحظ السعيد فتجيبها الفتاة بأنها تحب شاباً وهو يحبها وأنه سيتزوج بها، ولكنها عندما تفاتح الحبيب بالزواج يداور ويتهرب من المسؤولية فتثور ثائرتها ثم تطرده من بيتها وقتما تصادم عن سماع اعترافها له بأنها ستصبح أمًّا وأن ابنه ينبض في أحشائها، وتعود إلى أمها تعلن لها رغبتها في الزواج من الكهل الغني مشترطة أن يتم الزواج في أسبوعين

ترقد الزوجة على جرح الحب، وتوهم الزوج أن ولدها من صلبه. وفي حفلة رقص تنكرية يظهر الحبيب فجاءة لحبيبته وهو متذرع بذرائع إذكاء العاطفة النسائية وغيرتها الدائمة الاضطرام، فتلهب فيها شعلة الحب القديم وتتخاذل فيها فروض الزوجية أمام دواعي الحب

تثور الظنون في صدر الزوج وهو كهل، وعاقل، وحكيم، وإذ يتأكد أن زوجته ما برحت تكتم الحب الأول وتحن إلى حبيب الشباب، وهي تفتديه بكل ما تملك، يعمل على استصلاح سيرة حبيبها الأفاق فينجيه من ورطة مالية كادت تؤدي به إلى السجن، ويجمع بينهما في بيت واحد، ثم يعلن إخلاء السبيل لهما يتمتعان بثمرة الحياة لأنهما شابان متحابان.

هذه خلاصة لموضوع الرواية الذي أتجنب التعليق عليه لأنه يمثل ناحية من صور الحياة الباريسية طاب للفرقة عرضها في مستهل موسمها. فاختيار الرواية منوط بمدير الفرقة، والمدير يقول إن للفرقة رسالة وإنه عامل على تحقيق الرسالة. فهل رأى ووجد في هذه الرواية (الكرنفال) جميع المزايا التي تحقق رسالة الفرقة وتوائم المزاج المصري؟ وهل هو الذي فرض ترجمتها تحقيقاً للخطة التي اختطها وأعلنها في أحد أحاديثه في جريدة

البلاغ إذ قال ما نصه (إن عمل الفرقة الآن يمكننا من توزيع العمل بانتظام، وترجمة الروايات بناء على طلبنا، وذلك بأن نعهد إلى شخص معين بترجمة إحدى الروايات التي نراها صالحة لأن تمثل على المسرح) أو أنها فرضت عليه فتقبلها طائعاً راضياً ليقول كعادته (والله يا سيدي هذا اختيار لجنة القراءة وليس اختياري أنا) ليتنصل من كل تبعة ومسؤولية؟؟ أرجو أن يجيب حضرة المدير على هذه الأسئلة لينير لنا السبيل.

أما المسرح فقد ظهر فيه روح جديد، وإن سرنا أنه شمل الإخراج والإضاءة وحركات الممثلات والممثلين إلا أنه ساءنا بطغيانه على طبيعة التحدث فجعلها تفتعل النسق الباريسي في كر الكلام ولفه وإطلاقه بسرعة إلى حد أنني كنت أفقد جملاً بأكملها تضيع المعاني معها.

أريد ألا أنسى أن المخرج فرنسي، والرواية فرنسية، ومزاج المدير مزاج فرنسي، فلا بدع أن تعلو السحب الفرنسية جو مسرحنا المصري. وهذا يفسر لنا معنى اقتصار الفرقة على تمثيل أربع روايات في هذا الموسم، منها اثنتان معربتان، وواحدة مقتبسة في وسع المخرج الفرنسوي استيعابها وإخراجها على وجه صحيح ووضع فني مستحب.

ابن عساكر

العدد 282 - بتاريخ: 28 - 11 - 1938

إصلاح الصحافة

للأستاذ عباس محمود العقاد

من وعود خطاب العرش الأخير أن (تعني الحكومة بما يرفع مستوى الصحافة ويحفظ كرامتها، ويكفل في حدود القانون حريتها، وأن تعرض على البرلمان مشروعاً لهيئة الصحافة ينظم ما لها ولرجالها من حقوق وامتياز، وما عليهم من تكاليف وواجبات)

وهذا عمل واجب، ولكن كيف يكون؟
إصلاح الصحافة والصحفيين أمر محمود مطلوب، ولكن من هم الصحفيون قبل كل شيء؟
هذه أول صعوبة في المسألة، لأن إنشاء هيئة للصحفيين ليس كإنشاء هيئة للمحامين أو للأطباء أو للمهندسين؛ إذ كل طائفة من هذه الطوائف لها شروط محدودة ومؤهلات معلومة لا يقع الخلاف عليها. أما الصحفيون فليس من السهل تعريف الصحفي الذي يجب أن يحسب منهم على وجه يبطل فيه الخلاف
فهل الصحفي هو مالك الصحيفة؟ أو هو المحرر في مكتبها؟ أو هو المراسل لها من الخارج، أو هو مدير أعمالها؟ أو هو الكاتب أو المحصل أو الوكيل أو متعهد البيع الذي يتصل بها؟
كل أولئك يعملون في الصحافة وينتظمون تحت عنوانها، وليست مصالحهم مع ذلك متفقات في جميع الأحوال؛ فما هو من مصلحة مالك الصحيفة قد يكون إجحافاً بمحرريها وموظفيها، وما هو من مصلحة المحررين قد يكون إجحافاً بمالكها أو متعهد بيعها، وقد تتسع المشكلة بين الفريقين حتى تتناول المشكلة (الأبدية) القائمة بين العمال وأصحاب الأموال
فأما إذا قلنا إن الصحفي هو الكاتب أو المشرف على مادة الكتابة فما هو شرط الكاتب في صحيفة يومية؟ وما هو شرط الكاتب في مجلة من المجلات على اختلاف أغراض هذه المجلات؟
قد تكون الصحيفة قانونية فهي في حاجة إلى كفاءة محام، أو طبية فهي في حاجة إلى كفاءة طبيب، أو مدرسية فهي في حاجة إلى كفاءة معلم. وقس على ذلك سائر الصناعات والموضوعات
بل ربما كانت كفاءة الطبيب حين يكتب في صحيفة طبية ألزم من كفاءة الطبيب حين يعالج المرض في مستشفاه، لأن الكفاءة في الرجل الذي ينشر علمه على الألوف ألزم منها في الرجل الذي يقصد أفراد مسؤولون عن الثقة به والذهاب إليه. وإذا سهل الاتفاق على صفة المحرر الذي يتصدى للكتابة الطبية أو الفقهية، فما هي الصفة التي تشترط في السياسي وفي الأديب؟
لا نقول إن حصر المرشحين للكتابة في الموضوعات الفقهية أمر ميسور مأمون العواقب، فان المتفق عليه أن طائفة من رؤساء المذاهب القانونية لم يكونوا من أهل القانون في التربية والنشأة، وإن كان هذا الحكم لا يسري على كبار الشراح والمفسرين
ولكننا نريد أن نقول إن الاتفاق ميسور على الصفة الواجبة في الفقيه، غير ميسور على الصفة الواجبة في السياسي والأديب
فثلاثة من كبار ساسة العالم الآن كان أحدهم نقاشاً والثاني حداداً والثالث ابن أسكاف أخفق في صناعة أبيه
وغير هؤلاء وزراء ورؤساء وزارات كان منهم الاقتصادي والمحامي والمعلم والصانع الصغير
فإذا كانت هذه شروط قادة الأمم فما هي شروط الكاتب في صحيفة سياسية؟ وما هي شروط الكاتب في صحيفة أدبية؟
على أننا ندع الكفاءة للمادة التي يكتبها الصحفي، وننظر إلى الكفاءة التي لا غني عنها لمن يمارس الصناعة الصحفية
فليس كل قانون ضليع بقادر على ترويج صحيفة قانونية ولو كان أقدر الباحثين في مذاهب التشريع، لأن صناعة الصحافة غير صناعة الفقه القانوني، وغير وضع الشرائع وتطبيق الأحكام، فإذا اكتفيت بالصنعة العلمية فقد تستثنى بذلك صنعة الصحفي التي لابد منها لترويج الصحيفة ولفت الأنظار إليها وتنظيم إدارتها وبيعها، وقد تقضى على الصحافة وأنت تريد لها الكرامة والارتقاء
ونحن هنا في مصر لم نعرف بعد مدارس الصحافة، ولم نبلغ بعد ما بلغته الأمم الأوربية من شيوع التعليم وذيوع الثقافة العامة، فكيف تكون الصعوبة عندنا إذا كانت صعوبة

الاهتداء إلى (الصحفي المطبوع) لا تزال قائمة في أمة كالأمة الإنجليزية؟ وأين تذهب صحافتنا إلى جانب الصحف الإنجليزية التي تطبع الملايين وتجمع من الموارد ما يضارع موارد بعض الدول الصغار ويقرأها أناس كلهم أو جلهم متعلمون مثقفون؟

قال ويكهام ستيد الصحفي الذي زاول الكتابة في أكبر صحف العالم: (لن تخرج صحيفة من الصحف بغير مجهود مكتب التحرير أي مجهود الصحفيين الخبيرين فمن هم الصحفيون الخبيرون؟ لقد بذلت شتى المساعي لتدريب الصحفي على صناعته، وقامت مدارس للصحافة، ثم لا يزال مشهوراً مقرراً بين الكثيرين أن الناجح في الصحافة لا يجوز امتحان نجاح ولا يحصل على درجة مدرسية ولا على رخصة من رخص الحرف والصناعات، ولعله هو يشتغل بجلب الأخبار وبيع الأخبار لا يبدو في مرتبة أرفع من مرتبة البائع الجوال الذي يجمع الدريهمات في الطرقات بالنداء والصياح، إلا أن (الوظيفة) التي يؤديها الصحفيون تخولهم مكانة اجتماعية فوق مكانة أناس ينحصر همهم كله في اصطياد العيون والأسماع. فمن أين لهم هذه المكانة؟. . . أحسب أن مرجعها الأخير إلى إدراك الجمهرة العامة بالبداهة الفطرية أن عمل الصحافة الحق إن هو إلا رسالة أو مهمة، وأنها شيء فوق الحرف وغير الصناعة، وسط بين الفن وبين دعوة التبشير، وأن الصحفي الحق موظف غير رسمي وظيفته أن يخدم مصالح الجماعة الإنسانية، فهو بهذه المثابة يولد ولا يصنع، وقد يفتقر إلى التدريب والاختبار ولكنه لا يوجد في الدنيا تدريب أو اختبار يجعله صحفياً صالحاً ما لم تكن في نفسه تلك الشرارة الحية التي تميز بين الصحفي الحق والآلة الصحفية. . . وليس أحمق بل ليس أفجع في بعض الحالات من تخيل بعض الناشئين أنهم متى أفلحوا في المدرسة أو الجامعة وأنسوا من نفسهم قدرة على صوغ الكلمات فهم خلقاء أن يفلحوا في الصحافة إذا ظفروا بعمل من أعمالها، ولعلهم يضيعون سنوات من أعمارهم قبل أن يعلموا أنهم أخطئوا الطريق ولم يدركوا (المهمة التي بغيرها لا يكون العمل في الصحيفة إلا مذلة خاوية من السلوى القلبية)

هذا ما يقوله خبير من أكبر خبراء الصحافة الإنجليزية عن مؤهلات الصحفي بين أناس فيهم من أبناء الجامعات والمدارس العامة والفنية عداد من عندنا من عارفي الحروف الأبجدية، فكيف يكون الحال بيننا يوم نأخذ في انتقاء الأعضاء الصالحين (لهيئة) الصحافة؟

وما هي شروط العلم والاختبار التي تفصل بين الأصلاء والأدعياء؟ وما هو ضمان البقاء في تلك الهيئة مع ضمان حرية الآراء، وحرية الإغضاب والإرضاء؟

في البلاد (الفاشية) قانون صريح يجيز للوزير المختص أن يصدر قراراً حكومياً بفصل الصحفي فإذا هو مطرود من جميع صحف البلاد، محرم عليه استئناف ذلك القرار إلى مراجع القضاء

وفي البلاد الديمقراطية يباح لمن يشاء أن يكتب وان ينشئ الصحف وأن يشتغل بأعمال الصحافة دون احتياج إلى إذن من الحكومة أو رخصة بإصدار الصحيفة فأين نقع نحن بين الطرفين النقيضين؟! أصحفيون موظفون في دواوين الحكومة؟ أم صحفيون لا يحسبون حساباً لغير قانون الأخلاق الذي يدين به جمهرة القراء؟

لسنا فاشيين ولسنا بالغين من الحرية الديمقراطية مبلغ الولايات المتحدة وبلاد الإنجليز، فلنكن وسطاً بين هؤلاء وهؤلاء، ولنترك بقية من درجات الارتقاء يرتقيها الصحفيون مع ارتقاء القراء أجمعين، حتى يكون القراء هم الحكم الفاصل في آداب الكتابة الصحفية فلا نحتاج في كل شيء إلى نصوص القانون وزواجر المحاكم، إذ ليس من الأنصاف أن تطلب من الصحفي أدباً فوق أدب قرائه مجتمعين، فإذا كان أدبهم كافياً ففيه الغني عن الزواجر الحكومية، وإذا كان به نقص أو تخلف فالأولى علاج هذا النقص والتخلف قبل كل شيء، لأن علاج الصحافة وحدها ليس باليسير وليس بالمفيد

عباس محمود العقاد

انحني

للشاعرة أيلا هويلر ولككس

بقلم الآنسة الفاضلة (الزهرة)

انحني وتسامي بي عن هذا المربأ يا جوزفين

انحني وأشرفي من المرتفعات الدهرية، والهضاب السرمدية. أو لست ترين كيف

أجاهد لأدراك القمم السنية، ولكن لافتقاري إلى الأجنحة أراني عاجزاً عن بلوغ تلك الانجد التي أتوق إلى الجري في غلاء أمجادها بكل قوى نفسي
إني ألتمس طريقي، دون أن استشعر الحزن والوحشة. لأن عوامل الشباب والأمل والصحة تجعلني أظل سعيداً. ولكن وهج الأشعة الساطعة كثيراً ما يبتلى أعيننا بالجهَر والبهَر فلا ننظر، وإذا نظرنا كنا عميان لا نبصر. وأنا أتعسعس التلاع والروابي، محاولاً تصور يفاع رفيعة، لا أستطيع الاهتداء إليها، ولذا أود أن تعلمي أن حاجتي القصوى تهيب بك أن. . . تنحني وتتسامي بي عن هذا المربأ
لم يمض وقت بعيد مذ كنا نطأ معاً يفاع هذه الطريق عينها. وأنت تعلمين كيف كانت تلك الصغائر المغوية تنفه نفسينا بل كيف كانت تلك المنحدرات التي حسبناها سهلة قريبة تعقل أقدامنا بالتعب المعيي والمزاولة المؤجلة، وتصدف بنا عن الجادة. فأنحني وتسامي بي عن هذا المربأ.
أما أنت فلم يعوقك احتفال تشمير، ولم يلبثك تأهب معاد، بل واصلت سيرك إلى الأمام في رصانة، وصعدت إلى فروع العلى في هدوء وأمن، وتركتني هنا - غير مختارة - يا حبيبتي جوزفين وسأقنع إلى النهاية باللبث في هذا المكان لأن الحياة تفيض بالوعود. . ولكن يا صديقتي، ألا تحققين غايتي القصوى فتنحني وتتسامى بي عن هذا المربأ؟ لقد غدوت قوية حكيمة مع أنك كنت ضعيفة ساذجة وقد أوتيت دقة في الحس، وصرت تدركين كل مطالب النفس، وتشعرين بأدق خوالجها وحاجاتها.
وأعرف أن العام الذي قضيته في جوار خالقك، قد جعلك خطيرة النفس، رفيعة الأهواء، مبرورة المقاصد، شريفة المساعي؛ وأوقن أنك تشهدين كفاحي، وتبصرين ما يصهر نفسي من حنين وتوق إلى تفرع ذرى المعالي وتوقل معارج المكارم.
فانحني وارفعيني إلى القمم السرمدية
(الزهرة)
الحقائق العليا في الحياة
الإيمان. الحق. الجمال. الخير. القوة. الحب
(ألفاظ إذا نطقتها تتحرك لها في نفسي دنيا كاملة!)
للأستاذ عبد المنعم خلاف
الإيمان - 3
الإيمان والفلسفة:
قالت عقلية القرن التاسع عشر المزهوة بالكشوف العلمية والناقمة على قضايا بعض الأديان وقيودها وخرافاتها التي تراكمت عليها بتوالي العصور: إن العلم والإيمان لا يجتمعان. وقد سارت في تفسير كل شيء خارج عن حدود المادة والمخابير والمعامل، بتأويل مادي وآلي، وطغت الفلسفة المادية على الفلسفات التجريدية، وأفرغت الطبيعة من (الإرادة، والعقل) وجعلتها رهينة بالصدفة وأعطت للزمن حكم التصفية والتوجيه، وأعطت القوى العمياء قوة الاختيار حتى قالت (إن الوظيفة تخلق العضو!) وكفرت بحقيقة (السببية) والارتباط بينها وبين (المسببية). . . إلى آخر ما زخرت به كتب هذه الفلسفات مما يصل في بعض الأحيان إلى درجة الهذيان.
وقد كان يجوز أن نقبل هذه الفلسفات التي تسند إلى القوى العمياء بعض (الفاعلية) لو أنها جعلت وراء هذه القوى إرادة واحدة منظمة مختارة موجهة. ولكنا لا نقبل بحال أن تكون هذه القوى فاعلة بذاتها مستقلة عن ذلك النظام العام الموضوع بتدبير محكم، وإلا رجعنا بعقولنا إلى درجة أشبه بطور الوثنيات القديمة التي كانت تعبد بعض القوى قصوراً من عقولها عن إدراك قوة كلية عامة تدبرها جميعها)
وإن أول سؤال يرد على عقل متوسط هو: ما هو العامل الموفق بين فاعليات هذه القوى المتضادة العمياء هذا التوفيق الدائم المطرد البديع لو أن الأمر كان كما يزعمون من تسلط تلك القوى العمياء على الكون؟
والغلط الفاحش المغرور الذي لا يقبله العقل العام المتزن، أن تتخذ حياة الأرض، وهي ما هي من الصغر والضآلة، مقياساً للحكم على العالم كله فرشه وحشوه وعرشه!
وقد وصل هذيان هذه البلبلة إلى حد فظيع من الرجم بالغيب باتخاذ الفروق التي تساق في الأصل لملء بعض الفجوات التي بين حقائق العلوم كأساس مسلم للحكم عليه، مثلما اتخذوا الأثير، وليس هو أكثر من فرض فرضه بعض العلماء ليحل به بعض

مشاكل الطبيعة، ولا يزال هذا الفرض بين رفض وإثبات إلى اليوم.
ويتعجب العقل البسيط السائر مع أبجديات الطبيعة من أن يصل تفكير بعض الناس - بله كبار الفلاسفة - إلى مثل ما وصل إليه من هدم الحقائق بالفروض!
ليس المقصود من الحياة الفكرة ألا يرضي العقل بالأوليات الظاهرة المسلمة وأن يمعن في الغوص والتعقيد ليخرج بفروض غريبة شخصية ليحل بها ما لا يفهمه من قضايا الكون كما هو الطابع الغالب على الفلسفات، وإنما المقصود من الحياة الفكرية أن يكون التأمل فيها ممهداً للإثبات والعلم اليقيني. فلا يفلت الخيال في حالة الصحو كما يفلت في حالة النوم أو التخدير. . وما من شك في أن عصور الفلسفة كلها لم تفد الإنسانية بمقدار ما أفادتها الطريقة التجريبية التي دعا إليها فرنسيس بيكون فإنها الطريقة التي قفزت بالإنسانية إلى أسباب رقيها السريع في القرنين الأخيرين، لأنها تركت عالم الأحلام والبدوات والفروض الشخصية التي قد لا تفهم إلا في رءوس القائلين به وقد لا تكون ناضجة الفهم في رءوسهم أيضاً. . . واتخذت البديهيات البسيطة والمركبة أساساً بنت عليه صرح العلم الحديث
ولقد كان جزاء هؤلاء الذين يسرفون في اتباع الظنون والفروض ويتركون البسائط المعقولة بالبديهية إلى الأوهام، أن يعيشوا منكدين أشقياء متشائمين مرضى مضروبين بالشك والألم والبلبلة والشذوذ منفيين من الحياة! وهاهم أولاء أبو العلاء وشوبنهاور ونيتشه أمثلة تضرب في ذلك. . .
إن شوبنهاور قد كذب كذبة بلقاء، وخرف خرفاً عبقرياً! حين زعم أن العالم معدوم لا وجود له إلا في تصورات الإنسان. وحين أسند العمى والهوج إلى (روح الوجود) وحين زعم أنها لم تدرك نفسها إلا في عقل الإنسان وشعوره، ولذلك أراد أن يغيظها بتمرده عليها وترك ملذاته التي هي ملذاتها في واقع فلسفته. . وكان الأولى بشجاعته هذه أن يقضي على جسمه جملة واحدة حتى يغلق باب المتاع الذي فيه أمام روح الوجود المتعطشة إلى إدراك
نفسها فيه وتمتعها بذلك الإدراك. . .
إن أقل ما يجب عقلياً (لروح الوجود) وخالق هذا الكون العجيب أن يتصف بصفات الإنسان العادي المتوسط المحترم بين الناس - بله السوبرمان - فكيف يسلبون المشيئة الغالبة على الكون الصفات الضرورية لبعض ما أوجدته؟! كيف يعطى الخالق ما لا يملك هو من صفات التدبير؟
مهما فلسف الإنسان فلن يستطيع أن يهدم الإيمان العام بحقيقة (السببية) البديهة المستقرة في كل نفس إنسانية أو حيوانية استقرار وجود تلك النفس.
ومنذ عهد (طاليس) إلى الآن ما استطاع فيلسوف أن يغزو فطرة الإنسانية في إيمانها بهذه الحقيقة وينتزعها من إلهامها؟ ولئن كان بعض الشذوذ والانحراف يحمل بعض المتأملين على الاعتقاد بأنه هدمها في نفسه هو، فلن يحكم العقل العام عليه إلا بالجنون!
إن الطفل حين يلتقم ثدي أمه لأول مرة بعد ولادته ليحس الشبع لأعظم مفحم لأكبر فيلسوف يهدم تلك الحقيقة. . . بل إن إدراك البذرة للإنبات في الظلام والثرى المبلل لأدعى إلى اعتبار تلك الحقيقة من الإلهامات الفطرية في كل الكائنات الحية.
والذي يزعم نفسه عاقلاً قادراً على أن يحكم على (روح الوجود) بما يريد ثم في الوقت نفسه يسلبه - عز وتعالى عمال يصفون! - قوة الحكم والتدبير والإدراك فجزاؤه. . ما جزاؤه؟ إن اللغة تضيق عن نعت له يرضي غيظ السموات والأرض من دعواه! جزاؤه أنه قال ما قال وذلك حسبه لعنة. . .
ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان) (سحيق
من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم) (ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ
فما بالك بمن ينكره بتاتاً أو يرميه بالطيش والهوج!
وما يجب أن يلتفت إليه أن أجرأ الناس على الشك في الخالق أو الإلحاد في ذاته وصفاته كان مبعث جرائتهم السكر والتخدير. والسكر نوعان كما بينا في مقالنا (حنظل وتفاح): سكر باللذة وسكر بالألم. وجرأة السكارى باللذة جرأة سطحية، جرأة

طيش وسخرية واندفاع كجرأة الخيام والنواسي. ولكن جرأة السكارى بالألم جرأة غيظ وحقد وعناد وتمرد وقنوط
وتحد. وهؤلاء هم أثقل شراً وأكبر لعنة
فالمعري وشوبنهاور ونيتشه غضبوا على الحياة ونظامها وأدمنوا الآلام، وصاروا يناقشون الخالق مناقشة الند للند. . . فلا الخير خيره ولا الشر شره كما رسمهما هو في الطبيعة والشريعة وإنما الخير والشر شر ما يرسمون هم وإضرابهم
وقد أطفأ الأولان شعلة الحياة في جسديهما، ودعوا إلى إطفائها في أجساد الناس جميعاً، حتى تخرب الأرض وتفنى إنسانيتها
وماذا كانت تكون النتيجة لو أن الناس كلهم كانوا رهبان تمرد وعصيان كالمعري وشوبنهاور؟ وكاني بالإنسانية وقفت موقفهما قائلة للخالق: هاك الحياة التي أحييتنا مردودة عليك منطفئة الشعلة! دونك الأرض بحيوانها وشجرها ومرافقها لا نريد. لا نريد! وهانحن أولا رهبان شر أيها الآله إلى أن تموت!
ولكن الإنسانية التي فطرتها وإلهامها الإيمان والطاعة والعبادة لا تنفك تطرد من حياتها هذه الدعايات الشاذة السامة كما يطرد أفرداها عن أجسادهم البثور والقروح والدمامل، ولا تزال سامعة مصغية واعية لذلك الصوت الذي يدوي بهذه الكلمة: (يا معشر الجن والأنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا!).
ولا تزال سائرة مأخوذة إلى غايتها في سلاسل من الضروات والرغائب. بل لا تزال جنّانُ الحياة وأناسيّتها تنشد قائلة وهي سائرة على الطريق:
(وأن ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هرباً)
(وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به؛ فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً)
(ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا)
ما هي حدود الإيمان فلسفياً؟ إنها في رأيي هذه:
أنا إنسان صحا من غيبوبة عدم لا يعرف مبتداها، فأدرك نفسه وفتح حواسه على ذلك البيت الهائل البديع: الدنيا، فتساءل بما فيه من إيهام السببية البديهية: من خلفني هكذا بديعاً كامل الأدوات لحياتي في هذا البيت؟
ثم تساءل: ومن خلق هذا البيت العجيب الهائل بأرضه وسمائه وهوائه ومائه وإنسانه وحيوانه وقواه وقوانينه الدائمة الصيانة له؟
ثم تساءل: ومن أدخلني في هذا البيت من غير أن يستشيرني؟
ثم تساءل: ومن سيخرجني من هذا البلد من غير إرادة مني كذلك؟
تلك الأسئلة الأربعة هي أبواب الإيمان بخالق. ومن بين الأجوبة عرف الإنسان صفات هذا الخالق من وحدة وعلم وحكمة وقدرة وقهر وقدم وبقاء وإرادة وغيرها من الصفات، ثم أحس الإعجاب بذلك الخالق المبدع، ثم أحس الحب كل الحب له، لأنه أكرمه ونعمه حين أخرجه من العدم وأسبغ عليه الحياة مع أدوات الإطلاع عليها، ثم أدام الفكر فيه. ومن الحب والفكر نشأت العبادة. . .
أما كنه ذات الخالق وزمانه ومكانه وشئونه وغاياته وأسرار صنعته، فأولئك أمور يستطيع الإنسان أن يدركها حين تستطيع النملة الصغيرة أن تدرك المحيط الهادي! ولله المثل الأعلى. .
تلك هي حدود الإيمان بخالق، في تفكير بسيط متزن لا لجوء فيه إلى غيبيات وسمعيات، وإنما إلى مقدمات عقلية هي (قدر مشترك) في عقل الفيلسوف وعقل الفلاح، والمتمدن والمتوحش وهي ما يمكن سلوكه من الطرق إلى تبيين جذور الإيمان، بالتفكير. ولا داعي بعد ذلك إلى ما لا يفهمه العقل العام المشترك بين زنوج أفريقية وأقزام الإسكيمو وفلاسفة الشرق والغرب. ولكن ما هو مصير الإنسان؟
ذاك سؤال يكاد يكون له قيمة الأسئلة الأولى عند كثير من الناس غير أن هناك فارقاً كبيراً بين قيمة الجواب عليه وقيم الأجوبة على الأسئلة الأربعة. ذلك لأن الجواب عليه متفرع من الأجوبة السابقة ولا يصح إلا إذا صحت هي. بل قد يكفي بعض العقول ويريحها من حيرتها أن تؤمن بالخالق وبالحياة الدنيا فقط ولم يكن هناك مصير آخر يحيا فيه الإنسان. لأننا لا نستطيع أن نبحث في غايات الخالق لعجزنا عن ذلك البحث (وإنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً) (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون)

وتكفي الحياة والأنعام بها على من خرج إليها وأحسها، سواء كان على نعمى أو بؤسي، وازعاً للإيمان وحبه والتقرب إليه. أما الحساب على الخير والشر، فالخير جزاؤه فيه والشر جزاؤه فيه.

وهذه نزعة صوفية متطرفة تشذ عن العقل العام، والقدر المشترك ولا تتحاكم إلى سنن الخالق وقوانينه في الفطرة ولا تطلب منه أن ينفذ ما كتبه على نفسه وقد كتب ربكم (على نفسه الرحمة: ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه)

ذلك استطراد لجأنا فيه إلى الاستشهاد بالقرآن مخالفين ما اتبعناه في بحثنا تسليم وخير مطلق عن تلك النفوس التي ترى أن تفنى في إرادة الخالق (إيما إلى جنة إيما إلى نار)

ونعبده من غير شيء من الهوى ... ولا للنجا من ناره وعذابه

(واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه)

ونعود فنقول: إن كل ما في الأرض من قرائن يدل على أن الإنسان هو المقصود بالخلقة فيها، وما عداه فمخلوق له لينتفع به. وله من حياته الفكرية والنفسية ما يشعره بها القصد. فأنها حياة سامية غاية السمو معقدة غاية التعقيد فيها جانب عظيم غير خاضع للحياة الحسية الأرضية، ويكفي في سموها أنها حياة متيقظة لنفسها ومتيقظة للدنيا كلها باحثة عن أسرارها المخبوءة فيها وراء الأجرام والكثافات، حالمة بصورة علوية لكمالها هي وكمال الدنيا، تزعم أنها قادرة على تنقيح الطبيعة، وإعادة الخلقة كلها على وجه آخر أكمل! وقد وصلت بالفعل إلى بعض مفاتيح الطبيعة عن طريق العلم وهي تفكر الآن بجد للوصول إلى المفاتيح الأخرى، وستصل والقرآن يقول: (سنريهم آياتنا في الآفاق. في أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) وقد ابتدأت الآيات في عالم الآفاق وعالم الأنفس بأعاجيب، فما بالك بما تنتهي إليه؟

ويقول: (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها صيداً) وتأمل في قوله (وظن أهلها أنهم قادرون عليها) فإذا عرفت أن (الظن) هو الأفق الذي تحت العلم والجزم مباشرة تبين لك مقدار ما ستصل إليه قدرة الإنسان في الآباد الآتية حتى يتوهم أنه قادر على الأرض. فهل من المعقول بعد تلك القيمة العظيمة للإنسانية أن تمضي من الحياة كما تمضي الحشرات والبذور من غير مصير علوي يتحقق فيه القصد من حياتها الأرضية التي خلق فيها كل ما في الأرض؟ إن سنة التطور والترقي التي يقول بها العالم الحالي تأبى التسليم بهذه الخاتمة الأليمة لتلك الحياة الإنسانية الرفيعة. . .

تقول بعض الفلسفات: إن الحل لهذه المشكلة هو في القول بالرجعة المستمرة إلى الأرض بالحياة في الأفراد الآتين من النوع. فالكمال الذي ينشده الأفراد ويحملون به سيتحقق في النوع. وكان الإنسانية في خيال هؤلاء هي المعنى الواحد في الأفراد. أما أجسام الأفراد فهي أثواب تنضوها الإنسانية في الأجيال المتعاقبة وتلقيها جثثاً ميتة على طريقها إلى غايتها. . .

ولكن في هذه الفلسفة إهداراً تاماً للفرد وارتداداً بالإنسانية إلى أفق واطئ جداً هو أفق النبات والبذور، دع عنك أفق الحيوان. ونظرة واحدة إلى إخراج الأفراد من الأرحام بصور متعددة الوجوه وشكول مختلفة في العقول والنفوس - وهذا في الإنسان فقط - تحملك على الجزم والاعتقاد بأن القصد في الطبيعة متوجه إلى خلق الفرد بالذات وإحساسه على انفراد بالحياة التي فيه هو، وأنه مخاطب وحده من (إرادة الحياة)

وإن هذه الفلسفة لتبعث القنوط في الفرد لأنه يشعر معها كأنه مسمار في نعل الإنسانية! وإنها لتبعث فيه الشرود والجموح في الحياة لأنه لا غاية فردية له من حياته، ولا هو يدري الغاية من وجه الإنسانية كلها. . .

وإذا كانت الشيوعية لم ترضها الإنسانية في الغايات الاقتصادية فتنفي فيها جهود الأفراد للمجموع فناء مطلقاً فكيف ترضاها في غايات الحياة؟

وفي قنوط الأفراد وفي جموعهم دواع إلى خسة النفس ودناءتها وثورتها على الحياة بحيث لا يرجى للإنسانية بعدها ترق ولإصلاح للحياة الجمعية.

الحق أن الفرد مقصود بالخلق، مخاطب من واهب الحياة رأساً بما فيه من الإدراك مراعي فيه تمييزه بصورته ونفسيته ليشعر بفرديته وغايته الأنانية أولاً. والقدر المشترك الذي بينه وبين الإنسانية لا يحمله مطلقاً على الاعتقاد بأنه فيها كبذرة في نوع من الشجر، ولا كمسمار في نعل، ولا هو يشبه أخاه كما يشبه الغراب الغراب، والنملة النملة. . . فالفروق بين أفراد الأنواع الأخرى فروق ضئيلة لا تكاد تميز في الصورة ولا في الإدراك بخلاف الإنسان فان تنوع صوره الظاهرة والباطنة أمر محير!

فإني لأتساءل دائماً: ما الذي أوجد في نفوس الإنسانية ذلك الشعور الثابت بأنها (وبعد) لا تفني ولا تنتهي حياتها بدخولها المقبرة؟ ولماذا لم تحملها إرادة الحياة، على غير هذا الشعور لو أن الأمر كان غير ذلك؟

ثم لماذا نجد في خيالنا صورة لحياة كاملة لا قيود فيها للجسم ولا للروح؟ من أين لنا هذه

الصورة؟ إن كل شيء قد حظي بكماله في دنياه بغير نزوع منه إلى حياة أكمل. مما يدل على أنه قد خلق للحياة هنا فقط، بخلاف الإنسان فأنه يشعر كأنه طير مقصوص الجناحين لا يزال يحلم بالجو الذي خلق ليعيش فيه.

وكيف يؤمن مثل (أديسون) أو (ماركوني) بأنه يفني فناء لا رجعة بعده بينما الأرض مملوءة بآثاره في الكشف والاختراع؟

إن العلم يقول إن الأرض ستفنى بفناء الشمس أو انطفائها فأين يصير ما هنا من الفكر والعلم؟ وماذا يفيد كمال النوع الإنساني لو أن الحياة كانت للنوع لا للأفراد كما يقول نيتشه وأصحاب مذهب (الرجعة)؟

ألا إن الموت (ولادة ثانية) كما يعبر الإنجيل

هذا ولا يزال الحديث الآخرة بقية نرجئها الآن بعد ما طال الحديث. . .

(الرستمية)

عبد المنعم خلاف

في غار حراء

للدكتور عبد الوهاب عزام

هذا يوم الأحد رابع عشر ذي الحجة سنة ست وخمسين وثلاثمائة وألف، ونحن في البلد الأمين مكة وقد قضينا مناسك الحج. . .

قلت لبعض الرفقاء: هلم إلى غار حراء. فأخذنا سمتنا صوب الشمال ضحوة النهار، منا الراكب ومنا الراجل، وملء القلوب اشتياق وسرور، وعلى الوجوه التهلل والبشر بلغنا جبل النور - جبل حراء - بعد أربعين دقيقة. وملنا مع الدليل ذات الشمال فإذا امرأة تنحدر من السفح مسرعة تصيح: (أنتم غادين؟) فقلنا: ما تبغين؟ قالت: هنا الطريق. فاتفقنا على أن تهدينا السبيل إلى الغار. ونظرنا إلى الجبل فإذا السفح ينتهي إلى قمة شاهقة ملساء، قطعة واحدة من الصخر قاتمة

سارت فاطمة أمامنا مصعدة خفيفة سريعة لا تبالي الشوك والحصى وأطراف الصخور الحديدية كأنها أروى ترتع على السفح

سارت في طريق معلمة يبين فيها بين الحين والحين تمهيد الإنسان؛ هنا حجارة مرصوصة يرتقي عليها الصاعد، وهناك جدار صغير من حجارة مركومة أو مبنية تعصم المرتقى أن يزل عن الطريق

تتابعنا صاعدين جاهدين منحنيين على المرتقى الصعب، وما في النفوس من رفعة الذكرى أجل وأرفع، وما يبهر النفس من رهبة المكان أبهر وأروع، مما يثقل الجسم في توقل هذا الطود العظيم. وكأنما نرتقي في التاريخ وعبرته، ونصعد في جلال الحق وعظمته، ونطمح إلى السماء، لا إلى قنة حراء. ألسنا مقدمين على مشرق النور، ومطلع الحق، ومهبط الوحي، وملتقى السماء والأرض؟ لكأن هذه الأشعة المرتدة عن هذه القمة الملساء العالية بقية من نور الحق تتألق في حراء، أو آي من القرآن لا تزال ترددها الأصداء

صعدنا ثم صعدنا حتى انتهينا إلى صخرة مُظلة، فأوينا إليها قليلاً نستجم ونمسح العرق.

ثم رقينا تتلوى بنا الطريق ذات اليمين وذات الشمال حتى بلغنا مستوى فيه حوض كبير طوله ثمانية أمتار وعرضه ستة وعمقه أربعة، بعض جوانبه الصخور، وبعضها جدار

من الحجر، تجتمع فيه مياه المطر. وقد صادفنا فيه ماء صافياً بارداً فشرب من شرب وتوضأ
من شاء، وجلسنا هناك جلسة شربنا فيها الشاي واسترحنا، وجمعنا قوانا لبلوغ القمة على ذروة الجبل بقية جدار تحيط بمستوى ضيق في وسطه صدع في الصخر. يزعم العامة أن عند هذا الصدع شُقَّ صدر الرسول. وللعامة في الأمكنة المقدسة أوهام يصلونها بمواضع من الأرض والجبال والأبنية والأشجار. وكأن السلطان عبد العزيز رحمه الله صدَّق هذا الزور فأمر أن تبنى على المكان قبة عالية كان ارتفاعها ثمانية أمتار. فلما جاء الوهابيون هدموا القبة والجدار إلا بقية
وقفنا على الذروة نسرح العيون حولنا بين جبال وأودية ونرى مكة وجبالها وقلاعها ودورها
هذه قمة حراء فأين الغار؟ جنوبي هذه القمة درجات هابطة على السفح منحوتة ومبنية، هبطنا زهاء ثلاثين درجة ثم سرنا فملنا نحو اليمين إلى صخرة هائلة مائلة على الجبل، وتخللنا مسلكاً ضيقاً قصيراً بينها وبين السفح إلى مستوى صغير، فإذا أمامنا سفح منقطع ينحدر إلى أرض سحيقة، وعلى يميننا قمة حراء التي كنا فوقها، وعلى يسارنا الغار: غار حراء العظيم! فجوة ضيقة تميل على مدخلها صخور تدعم بعضها حجارة مبنية. فأما سعة الغار فمرقد ثلاثة متجاورين، وأما علوه فقامة رجل، وفي نهايته صدع ترى منه الأرض والجبال إلى مكة.
هنا فر محمد بن عبد الله بنفسه - فر إلى ربه من ضوضاء الحياة وأكاذيبها، من مظالم الناس ومفاسدهم، من باطل العقائد وزورها - أوى إلى هذا الجبل، إلى هذا الغار، إلى قلب الخليقة! هنا طود أشم يطل على أودية ألحت عليها الشمس المحرقة ليس بها من معنى الحياة إلا نبت ضئيل، وليس بها من ذكرى الحياة إلا أثر السيل بعد المطر.
ووراء الأودية جبال شامخة تتداول عين الرائي؛ وعلى بعد مكة، بين هذه الأودية والجبال وتحت هذه السماء الصاحية حقائق لا يشوبها تمويه ولا تزوير، ولا يلحقها تبديل ولا تغيير، ولا يمسها رياء ولا نفاق.
فرّ محمد إلى هذه الحقائق لا فرار الراهب يترك الناس لينجو بنفسه، ولكن كما يلجأ إلى الشاطئ من يحاول إنقاذ إخوانه الغرقى. هنا جمع محمد نفسه وفتح قلبه وناجى ربه، وهنا تجلى الله لهذه النفس الزكية، وأضاء على هذا القلب الطاهر، هنا جاء الوحي ونزلت الآية:
اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم. الذي علم) وهي فاتحة القرآن، وغرة الإسلام، ومسجلة سعادة (بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم الإنسان. لله ما وعى هذا الغار من آيات! ويا عجباً كيف ثبت على هذه الرجفات، و (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله!). قلت من قبل في شعر الصبا:
لعل جبال مكة لا يزال ... يجلجل فوقها هذا المقال
ويخفض رأسها ذاك الجلال ... وما نسيت بغار حراء ذكرى
والآن أقول: ألا يسمع هنا ذلك الصوت مدوياً مردّداً؟ ألا يرى هنا هذا النور طائفاً بحراء متلألئاً؟ ألا يجد الواقف هنا روحا من الإيمان، ويسمع وحياً من القرآن؟
خرج محمد صلوات الله عليه من هذا الغار، من حضن هذه الخليقة وهو أشبه شيء بها؛ خرج حقيقة من حقائق الله نقيّة جليّة صريحة، لا تبديل ولا تزوير، ولا لبس ولا تغرير، ولا خفاء ولا اضطراب. خرج قانوناً من قوانين الله التي تسّير الشمس والقمر والنجوم، وتمسك السماء والأرض، يمضي قُدماً إلى الغاية المقدورة مضى النجوم في حبكها، والشمس في فلكها
تمثل الرسول هابطاً من حراء وقد حمل عبء النبوة واضطلع بأمانة الرسالة، وأفضى الله إليه بوحيه وكلفه هداية خلقه
ليت شعري أهبط ونفسه قريرة هادئة كما ينزل النور من الشمس والقمر، أم نزل ونفسه جائشة مجلجلة كما ينزل الغيث بين الرعد والبرق؟ لست أدري، ولكنه نزل ديناً جديداً، وعصراً وليداً، وتاريخاً مديداً، وإصلاحاً شاملاً، وهدى كاملاً، ورحمة للعالمين
أيها الغار! يا مولد الحق، ومطلع النبوة، ومأوى محمد! لولا أن محمداً الكريم نهانا لقبلت أحجارك واكتحلت بترابك

!أيها الغار! من لي فيك بخلوة، من لي بخلوة فيك
ناداني صحبي: هلم فقد حان الرجوع، فعدنا إلى مكة
عبد الوهاب عزام
على الخبير سقطت
للأستاذ قسطاكي بك الحمصي
أطلعني بعض الأصحاب الأفاضل على العدد 277 من مجلة الرسالة الوضيئة، وقد رأوا فيها اسم هذا العاجز مذكوراً في مقالة على كتاب المبشرين جاء في حاشية منها استشهادي بأخلاق ونزائع الأخ الحبيب بل أستاذي الجليل الشيخ إبراهيم اليازجي رحمه الله فلم أر بداً من إجابة طلب الأستاذ العلامة صاحب المقالة، وقد دلني قوله على يقين حضرته بما كان بين الإمام وبيني من متين الود والإخلاص ومستسر الأحاديث واتصال المكاتبة مدة ربع قرن أو تزيد
ولقد أورد حضرة الصديق الفاضل صاحب الرد على المفترين ما نشره في الضياء الإمام اليازجي رداً على صديقه وصديقي الإمام صاحب المنار - طاب ذكرهما - ما فيه بلاغ
على أني وفاء بعهدي عند الوداع الأخير لذلك الإمام الجليل بترديدي قول الشريف:
لا دَرَّ دَرِّى إن مطلتك ذمة ... في باطن متغيب أو بادي
وكرامة لتحقيق بغية هذا الأستاذ الجليل أشفع الحجة بالحجة فأقول:
إن الشيخ اليازجي لفرط شغفه بلغته العربية كان منصرفاً عن جميع الملاذ الدنيوية لا يطرب لشيء كطربه لأحاديث اللغة والفنون، وقد جذبه ذلك الشغف إلى إجلال القرآن واحترامه إجلالاً واحتراماً لا يفوقه فيهما أكابر أئمة المسلمين، لأنه هو عماد اللغة العربية وركنها الشديد، وهي التي أفنى أيام حياته كلها في حبها. وكان رحمه الله يقول: لولا القرآن لماتت اللغة العربية، وبموتها تنقرض الأمة العربية وتتداخل في أصول جيرانها الأقوياء والعياذ بالله. وقال لي يوماً في عرض الحديث عن الطاعنين في لغة القرآن كلاماً أذكر معناه وإن تبدلت الألفاظ:
من المعلوم أن القرآن أنزل لدعوة قوم إلى عبادة الله والإيمان برسالة محمد، وكانوا هم وكثير غيرهم من قبائل العرب عباد أصنام، وهم أهل لغاتها، ولم يكن لهم يومئذ كتب لغة وقواعد نحو وصرف، ولا يعرفون من ذلك سوى أشعارهم وأحاديثهم وما يرونه من أقوال خطابائهم وفصحائهم، فلو رأوا في لغة القرآن عوجاً أو أمتاً ومحمد يتحداهم بفصاحة لغة كتابه وفيه: (قل لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله
ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) وكثير من أمثال هذه الآية. أقول لو رأوا فيها أغلاطاً تخالف متداول لغاتهم لأنكروها عليه وهم لم يقفوا في معاداته وإنكار رسالته عند حد، فقد قالوا عنه أوله؛ إنه شاعر مفتون وساحر ومجنون، وأمثال هذا من القحة والشتم فما الذي صدهم عن المجاهرة في الطعن على لغة الكتاب بعد كل التحدي المؤلم الذي كان يتكرر في آياته؟ فان زعم الطاعنون اليوم أن أولئك قد طعنوا ولم يصل إلينا كلامهم أجبناهم أن الكتاب ذكر قولهم فيه إنه مجنون، وهل هناك نعت يعد أشد إيلاماً من هذا النعت؟
وجملة القول أن الإمام الشيخ إبراهيم اليازجي كان يرى في المطاعن المذكورة نقص اطلاع أصحابها على علوم اللغة وقواعدها وتشعبها في القبائل الكثيرة من العرب. والكتاب كما هو معلوم لم ينزل لأهل قبيلة أو قبيلتين من أفصح القبائل العربية بل لجميع العرب، كما أن واضعي القواعد العربية وجامعي لغاتها لم يحيطوا في كتبهم بكل ما تداولته جميع تلك القبائل، بل اقتصروا على الأفصح تارة وحيناً على الأشهر والأعم لتكون اللغة في ميسور المتعلمين، وهم مع كل احتياطهم وأخذهم بالأحزم لم يجمعوا إلا نحو الثلث من ألفاظ اللغة كما روي كثير من أكابر العلماء كأبي عمرو بن العلاء وابن سيرين وغيرهما. وقل مثل ذلك في قواعدها. قال ابن جني: أخبرني فلان عن فلان عن أبي حاتم سهل بن محمد السجستاني في كتابه الكبير في القراءات قال: قرأ علي أعرابي بالحرم (طيبي لهم وحسن مآب) فقلت له طوبى، فقال طيبي، فأعدت فقلت طوبى فقال طيبي، فلما طال علي قلت طوطو قال طي طي. أفلا ترى إلى هذا الأعرابي كيف نبا طبعه عن ثقل الواو إلى الياء ولم يؤثر فيه التلقين؟

وقال: سألت يوماً محمد بن العساف كيف تقول ضربت أخوك. فقال أقول ضربت أخاك. فأدرته على الرفع فأبى وقال لا أقول ضربت أخوك أبداً
وحكى الكسائي أن قضاعة تقول مررت بّهْ والمالُ لِهْ وأنه فاش في لغتها
ونحن نعلم أن بعض العرب قالوا مررتُ بأخواك وضربت أخواك، وكل هذه وغيرها لغات كثيرة موثوق بها وردت عن العرب. والقرآن ورد على سبع لغات منها، فالطعن في لغته أو لغاته ضعف وقوف على لغات العرب وأقوال العلماء والشراح وهو أمر مفروغ منه
وقال أبن جني: قلت مرة لأبي بكر أحمد بن علي الرازي رحمه الله وقد أفضنا في ذكر أبي
علي ونبل قدره ونباوة محله: أحسب أن أباً عليّ قد خطر له وانتزع من علل هذا العلم ثلث ما وقع لجميع أصحابنا. فأصغى أبو بكر إليه ولم يتبشع هذا القول
فإذا كان ابن جني وهو الإمام الجليل بين العلماء المتقدمين والمتأخرين يقول عن أستاذه أبي علي الفارسي وما أدراك من هو؟ إنه انتزع من علل العلم ثلث ما وقع لجميع العلماء إلى عهده وهو يخشى أن يكون قد اشتط في هذا الحكم، فما عسى أن يبلغ علم هؤلاء الطاعنين في لغة القرآن من علم أبي علي الفارسي وابن جني وأمثالهما من المتقدمين وفلاسفة الإسلام وشراح القرآن؟
هذا الكلام وأمثاله دار كثيراً بيني وبين الشيخ إبراهيم اليازجي، وكل من نقل عنه وأذاع حرفاً مخالفاً لما رويته من مذهبه أعلاه أعده كاذباً مختلقاً مفترياً يستوجب اللعنة من الله والناس
وفي الختام أكرر الشكر لحضرة الأستاذ العالم الأجل الذي استشهدني فوفقني لنفي الافتراء البحت وأشكر لصاحب الرسالة الأديب الفاضل إفساحه صفحة منها لكلامي. لا برح خير معوان لنشر الفضائل، ولا زالت رسالته لأفصح اللغات أم الرسائل
(حلب)
قسطاكي الحمصي
ليلى المريضة في الزمالك
للدكتور زكي مبارك
صديقي. . .
سألتني أن أكتب كلمة عن ليلى المريضة في الزمالك، فأثرت في صدري لوعة محرقة
كنت أرجو أن تصير بفضل الكتمان والتناسي إلى الخمود
وماذا يهمني من أمر تلك الإنسانة الظلوم؟
إن الدنيا كلها سخفٌ في سخف، والحب كله بلاء في بلاء فلتمض تلك الذكريات إلى جحيم النسيان والجحود
وقد تعلمت في حياتي أشياء، وكان أثمن ما تعلمت هو اليأس من وفاء القلوب
وأقسم بالله وبالحب ما خططت هذه العبارة إلا وأنا أقاوم طغيان المدامع، فمن الحسرة واللوعة أن أنْفُضَ يدي من العواطف بعد أن جعلت الكتابة في العواطف مذهباً أدبياً أنصار وأشياع في سائر الأقطار العربية
ولكن خيبتي في الحب لها أسباب
وآه ثم آه، من الاعتراف بالخيبة!
ليت ضلالي في هواي كان دام حتى أخرج من دنياي وأنا موصول العطف على الملاح!
فان سألتَ عن أسباب القطيعة بيني وبين ليلى المريضة في الزمالك فإني أحدثك بأن تلك الأسباب ترجع في جملتها إلى سبب واحد هو العظمة الحقيقية التي فطر الله عليها قلبي
ومعاذ الأدب أن أكون من المفتونين أو المخدوعين، فلي قلب ما عرف الناس مثل جوهره النفيس في قديم أو حديث
هو قلب فطر على الحب والعطف والوفاء
وقد شاء هذا القلب أن يبسط حنانه على ليلى المريضة في الزمالك.
فماذا صنعت تلك الحمقاء؟
لا تسأل كيف كنا إلى خريف سنة 1937

كنا عاشقين
وما أسعد العشاق!
كنا نعرف أطايب الخلوات على شواطئ النيل
وما أسعد من يستصبحون بظلام الليل على شواطئ النيل!
كان قلب ليلى أصغر من قلبي
ولكنها مع ذلك كانت تملأ قلبي، وهو قلبٌ يرضى بالقليل في بعض الأحيان
وكنت أتلقى القليل من عطف ليلى بالحمد والثناء
والذوق كل الذوق أن تفرح بالقليل من الملاح
كانت ليلى تَعِد وتخلف وكنت أرى إخلافها من الدلال
وكنت أروضها بنفسي على الإخلاف، لأني كنت أحب أن أخلق منها دُمْيَةً روحانيةً أعاقر في محياها كؤوس النبل والصفاء
وكان ما أردت وأراد الحب العذريُّ حيناً من الزمان
أردنا مرة أن نؤلف رواية. . .
فهل ألفنا الرواية؟
ليتنا ألفنا الرواية!
آه من ليلى ومن زماني!
ودامت دنيانا في قَبض وبَسط وبُؤس ونعيم، إلى مساء اليوم الثامن عشر من الشهر التاسع سنة 1937
ففي ذلك المساء تفضلتْ ليلى فدعتني إلى تناول العشاء لتمنحني القبلة الموعودة قبل رحيلي إلى العراق
وكانت لحظة من الحياة لن أنساها ما حييت، وإن كدَّرتها ليلى بعد ذلك
أحبك يا ليلى، أحبك لتلك اللحظة التي بلبت نجوم المساء
أحبك يا ليلى وأن صيَّرتِ حياتي بؤساً في بؤس، وشقاءً في شقاء
أحبك يا صغيرة القلب، ويا ضعيفة العقل، ويا قليلة الوفاء
أحبك يا مثال النزق والطيش والجنون
أحبك لتلك اللحظة القصيرة التي بددت أضواؤها ظُلمات قلبي
وفي اليوم التالي رحلتُ إلى بغداد وأطياف الزمالك تؤنس روحي
ثم سمعتْ ليلاي في الزمالك أني تعرفت إلى ليلى المريضة في العراق
فماذا صنعت الحمقاء؟
أرادت أن تنتقم مني ففتحت أبواب قصرها للواغلين من أدعياء الأدب والبيان
ولم تكتف بذلك، بل أعلنت غضبها عليّ في رسائل نشرتها في مجلة الصباح
وأسرفت الشقية في الحمق فنشرت في مجلة المصور أخبار سهرة تناول فيها السامرون عندها أكواب الصهباء
وكانت الشقية تعلم أن ذلك سهمٌ سيصيب صدر حبيبها في العراق
ولكني تجلدت وتماست، وكتبت إليها أعتب في رفق ولطف فأجابت الحمقاء:
(هل كنت تنتظر أن أضع يدي على خدي إلى أن ترجع من بغداد؟)
خبر أسود!
خبر أسود!
خبر أسود!
كذلك هتفتُ كما يهتف الفلاح المصري حين ينزعج، وعبارات الفلاحين تسبق إلى لساني حين يثور غضبي
إن ليلى المريضة بالزمالك لا تريد أن تضع يدها على خدها حتى أرجع من بغداد، وهي تعرف أني هاجرت إلى العراق لغرض نبيل هو توثيق علائق المودة بين مصر والعراق
وهل تفهم المرأة هذه المعاني؟
آمنتُ بالله، وكفرتُ بالحب!
أما بعد فقد انتهى ما بيني وبين ليلى المريضة في الزمالك، وقد حرمتُ على نفسي رؤية الزمالك إلى أن أموت، فحدثوني يا رفاقي عن أضواء الزمالك وأيام الزمالك وليالي الزمالك، حدثوني كيف يغني الكروان في الزمالك. حدثوني كيف تكون أشجار الزمالك في الليل. حدثوني كيف يثب النيل ليقبل أقدام الزمالك، حدثوني كيف تصبر

عني ليلاي في الزمالك. حدثوني كيف تغيب الشمس عن الزمالك. وكيف يطلع القمر على الزمالك. وكيف تثور عواصف الحب والبغض في الزمالك
حدثوني، حدثوني، حدثوني
انتهى حُلم الحب، وانتهت أيام الزمالك، وانقضت ليالي الزمالك
تلك الزمالك لم تكن إلا قطعة من وطني، ولو شئتُ لقلت إنها قطعة من كبدي
في الزمالك تعلمت طب الأرواح والقلوب
وبالزمالك شقيّ روحي ومرض قلبي
فأين السبيل إلى الرجاء؟ بل أين السبيل إلى اليأس؟
أحبك يا غادة الزمالك، أحبك يا غادرة، وأعشق ضلالي في هواك النبيل وهواك الأثيم ليلاي، ليلاي
ما زال روحي الظامئ يحوم على وَرْدك النمير، فارحمي الطائر الذي يرفرف حول حماك في السَّحر والضحى والأصيل، ويخفق بقلبه وجناحيه كلما لذَعه الشوق إلى صهباء الرضاب
أنا مشتاق إلى الكوثر الممنوع الذي كانت قطراته تُسكر روحي وتعقر فؤادي
أنا مشتاقٌ إلى النار التي كوتْ كبدي، فمتى أواجه تلك النار العَصُوف؟
سأقبِّل قدميك حين أراك يا شقية، ولكن متى أراك؟ متى أراك؟
أفي الحق أننا تخاصمنا إلى آخر الزمان؟
أفي الحق أن عربدة الهوى لن تعود؟
لقد شمت فينا الشامتون، فمتى يندحر الشامتون؟
إنني واثق بطهارة قلبك يا شقية، ولولا ذلك لأصليتك نار العقوق.
فحدثيني متى ترجعين إليّ؟ متى ترجعين؟ متى ترجعين؟
ليلى، ليلاي التي خرجت من حماها كما خرج آدم من الفردوس، ليلاي أجيبي
مضت أعوام وأنا أتلقى منك تحية رمضان، فأين تحية رمضان؟
إن الناس يذكرون موتاهم في هذه الأيام يا معبودتي، وأنا قتيل الهوى، فمن يذكرني إذا اصدفت عني؟
لا تؤاخذيني بما جنيت في حب ليلى المريضة في العراق، فما كانت ليلاي هناك إلا صورة من صور الطهر والنبل والعفاف
أحب ليلاي في العراق، وإن تأذيت بذلك فاصنعي ما تشائين
أيتها الحمقاء في الزمالك
لا أحب أن أراك إلا يوم تعرفين أني صاحب الفضل على الجميع الملاح، فلولا قلمي ولولا بياني لصارت الصبابة ألعوبة من الألاعيب
أنا أنتظر الجزاء الحق على وفائي وإخلاصي
أنتظر أن تكون دنيا الصباحة والملاحة طوع يدي
فان لم تفعلي - وستفعلين - فودعي دنيا الرفق والحنان
ليلى، ليلاي
إلى صدري يا عروس الزمالك
إلى صدري يا جارة النيل
إلى صدري العاشق الوفي الأمين
زكي مبارك
من دموع القلب!
(مهداة إلى الأستاذ أنور العطار)
للأستاذ علي الطنطاوي
هل تذكر يا أنور، يوم جزنا بمقربة الدحداح ونحن طفلان يتيمان في طريقنا إلى) المنزلين الصغيرين المتجاورين في (السمانة) فوقفنا ساعة على القبرين المتدانيين نزور أبوينا . . ثم ذهبنا مسرعين لنودع آلامنا صدر الأم؟
أتذكر ما قلت لي يومئذ عن حبك أمك وتعلقك بها، وما قلت لك؟ أتذكر أننا اتفقنا على أن الحياة مستحيلة علينا بعد الأمهات وأننا سنبقى معهن أبداً وشملنا جميع وعقدنا متصل؟
لقد كان ما ظنناه مستحيلاً يا أنور. . لقد ماتت أمي وأمك واحتواهما ذلك القبر الذي

حوى أبوينا من قبل وعشنا بعدهما. . . لم نعد نملك منهما يا أنور إلا دموعاً حرى في العين وحسرات لاذعات في القلب. . . لقد غابتا إلى الأبد!)

(علي)

لست أدري ما الذي يحملني على ذكر الماضي ونبش عظامه النخرة؟ وما الذي يغريني بأن أتلمس مكان أحلامي من الواقع. . . وأنا أعلم أن الماضي قد ذهب بمسراته وأحزانه ولم يبق في يدي منه إلا هذه الذكريات التي طالما حاولت أن ألقي بها في الزاوية المظلمة من نفسي لتنام فيها إلى الأبد، فكانت تستفيق كلما أردت نسيانها فتسود صفحة الحياة في ناظري حتى لا أرى فيها جميلاً ولا بهيَّاً. . . وأنا أعلم أن أحلامي التي بنيتها بقطع قلبي، وأنقاض أيامي، ورويت رياضها بدمع عيني، قد جف زهرها، وصوح نبتها، وانهارت أمام عيني دفعة واحدة، كما ينهار بيت من ورق اللعب ضربته كف إنسان. . . فأيست منها وذهبت أعيش بقلب محطوم وكبد مكاومة، فأضحك وأمزح حتى ليظنني الناس أسعد الناس وأنا أشقاهم وأخيبهم أملاً، وأشدهم ألماً. . .

فلماذا أعود الليلة إلى الماضي التي ماتت أيامه، وماتت أحلامه ومات ناسه؟

كنت أطل من شرفتي في الفندق على شارع الرشيد في بغداد الذي يمثل الحياة ويفسرها ويصور حقيقتها أكثر من تصوير الأدباء وتفسير الفلاسفة، بل إن ساعة واحدة تشرف فيها على شارع الرشيد أجدى عليك في فهم الحياة من دراسة عشر سنين في هذه الكتب. . .

وماذا في الكتب إلا الحيرة والضلال؟ ومنذا الذي تبلغ به الحماقة وتفيض على نفسه حتى يدعى أنه فهم الحياة من الكتب؟ أنا أحد صرعى هذه الكتب وضحاياها فسلوني عن خيبتي وخساري؟

قالت الكتب: إن المستقيم أقصر الخطوط فأسلكه تصل، واستقم تبلغ غايتك، فسرت قدماً فاصطدمت بأول جدار لقيته فشج رأسي وقعدت مكاني، واستدار غيري والتوى كما تستدير طرق الحياة وتلتوي فوصل

قالت الكتب: كن فاضلاً واحرص على مكارم الأخلاق فهي السبيل، فوجدت أهل الرذيلة هم الذين يصلون، ورأيت أسفل الناس أخلاقاً صار أستاذاً للأخلاق في أكبر مدرسة، فعجبت من سخر الحياة!

وقالت الكتب: الحق، وقالت الحياة: القوة. . . وقالت الكتب: الفضائل. وقالت الحياة: الشهوات. وقالت الكتب. . . ولكن لم يكن إلا ما قالت الحياة!

ونظرت إلى شارع الرشيد، فإذا السيارات من كل جنس ولون، والعربات من كل شكل ونوع، والدراجات والعجلات، كلها يعدو يريد أن يصل أولاً، وكلها يزاحم، وكلها يزأر ويصيح ويهدد، ولكنها إذا بلغت الغاية رأت أنها لم تصل إلى شيء فعادت أدراجها تزاحم وتعدو وتصيح. . .

فقلت: كذلك الحياة. . . سباق وتزاحم، ولن ما هي الغاية؟ لا شيء!. . .

ودخلت الغرفة وأغلقت عليَّ بابي، وأردت أن أفيء إلى عزلة أسكن فيها نفسي، وأجد فيها راحتي، ولكن الباب قرع، وجاء السيد حيدر الجوادي، الرجل الذي ملك على الدكتور زكي مبارك أمره، وأطربه وأعجبه حتى غدا لا يصبر عن سماعه حيثما رآه، وحتى اضطره إلى الغناء في المكتبة العامة، وقال له: غنّ هاهنا فوالله لتحدثن بها الناس وليقولن إن زكي مبارك ابتدع الغناء في المكتبات. . . جاءني فغناني (أبوذية) من (أبوذيات العراق) التي ما أظن أن إنسياً أو جنياً عرف نغمة أشجى منها وأسرع إلى القلب وصولاً، وأشد للألم تصويراً. هي قطرات من الدمع صورت نغماً. هي خفقات القلب صيغت نشيداً. هي. . . هي خلاصة الفن العبقري الذي يصور الألم العبقري. . . فهز نفسي هزاً عنيفاً، فتح صفحاتها جميعاً ووصل ماضيها بحاضرها، وأسلمها إلى ذهلة عميقة - لذة ممتعة - ولكنها أليمة موجعة، ذكرت (العتابا) تلك الأغنية التي ترن بها أبداً أودية لبنان، وتنحدر أصداؤها على سفوحه وحدوره، ولا يدري أحد من هو الذي وضعها ونظم مطلعها وألف لحنها، (العتابا) الخالدة التي يشترك في تأليفها العصر الجديد والعصر الغابر، ويزيد فيها كل جيل أدواراً فيكون منها الصورة الصادقة لعواطف الشعب وهواجسه وأمانيه وذكرياته، تلك التي تعيش في ترنيمة السواقي المتكسرة على الشعاف والصخور لتبلغ قرارة

الوادي، وفي نشيد الرياح في الأودية البعيدة، وفي همس الأوراق في غابات الصنوبر الضاحكة، وفي عطر كل زهرة، وصمت كل صخرة، وأشعة الشمس المطلة من وراء الذرى للسلام، والمشرفة من آخر الأفق للوداع، وفي نور القمر الذي يغمر لبنان بفيض من الشعر والحب والسحر، وتعيش في كل ذروة من لبنان!

رجعتني هذه (الأبوذية) إلى سالفات أيامي، فذهبت أعرض صور حياتي فيها وهي تمر بي متتالية متعاقبة كمناظر السينما ملتفة بضباب الماضي، فأرى مآسيها المغسولة بالدموع وفواجعها الدامية ولكني لا أرى منظر بهجة ولا سرور. . . فهل أرى البهجة والسرور بعد أن أشرفت على الثلاثين؟

كنت أفكر دائباً في المستقبل، وأنتظر المستقبل، فها هو ذا المستقبل قد صار حاضراً، فهل وجدت فيه إلا الخيبة والألم؟

لقد جربت الصناعات والفنون وطوفت في البلدان، فما أفدت من ذلك كله إلا أني تركت في كل بلد قبراً لأمل من آمالي. لقد أضعت الحب والمال، وأضعت المجد الأدبي، حتى هذه الألحان التي تدور في نفسي ضاعت مني. . . فلم أستطع أن أسمعها الناس أغاني وأصواتاً، ما سمع الناس إلا أقصر أغاني وأقبحها، وتلك هي مقالاتي التي نشرتها، فمتى يسمعون أجمل ألحاني وأطولها؟

في المستقبل!

يا ويح نفسي! هل بقي لي مستقبل إلا الموت الذي غدوت أحبه وأناديه لو كان يسمع النداء؟

لقد وجدت المستقبل عدماً فهل عليَّ من لوم إذا عدت إلى ماضي أعيش فيه؟ في هذا الماضي دفنت أمي، وفيه دفنت أبي، وفيه دفنت أحلامي. . . لقد أحببت كثيراً وتألمت أكثر مما أحببت، ولكن الحب الحقيقي الواحد الذي انطوى عليه قلبي، والألم الفرد الصادق الذي عرفه، هو حبي أمي، وألمي لموتها، وكل ما عداهما حب كاذب، وألم عارض

إني لأنسى البلاد كلها حتى منازل حبي، وربوع هواي، ولكني لا أنسى أبداً ذلك الزقاق الضيق الذي يمتد من العقيبة في دمشق إلى رحبة الدحداح، لأن سعادتي ولدت في أول هذا الزقاق، وماتت في آخره حين مات أبي وأمي. . .

فيا رب ارحمني بالنسيان، وأين مني النسيان؟

إني لأنظر إليها الآن وهي مريضة على فراشها، كأنما كان ذلك منذ ساعة، فيبكي قلبي ولا أستطيع أن أكتب عنها حرفاً. لا أحب أن أنشر أحزاني حتى لا تلوكها ألسنة الناس، فليبق الألم في صدري أحمله وحدي. . . أنا لا أصدق أن هذه السنين السبع قد مرت على ذلك الحادث. . . أأنا أعيش سبع سنين لا أرى فيها أمي، وقد كنت آلم إن غبت عنها يوماً؟ أأعيش وهي نازحة لا تعود بعد عام ولا عشرة، لا تعود قبل يوم القيامة؟

اللهم صبراً فإني والله ما أطيق الصبر!

يقولون إن المصيبة تبدأ صغيرة ثم تكبر، ولكن مصيبتي بأمي تنمو في نفسي كل يوم!

لم أعد أجد في الحياة ما يغريني بها، ويرغبني فيها؟ وماذا في الحياة؟ كل لذة فيها مغشاة بألم، فيها الربيع الجميل، ولكن فيه بذور الصيف المحرق، والشتاء القاسي. وفيها الحب، ولكن لذة الوصال مشوبة بمخافة الهجر. وفيها الصحة والشباب، ولكنهما يحملان الهرم والمرض. فيها الغنى، ولكني ما عرفته وما احسبني سأعرفه أبداً.

لقد كرهت الحياة، وزادها كراهة إلي هؤلاء الناس، فلم يفهمني أحد ولم افهم أحداً. إن حزنت فأعرضت عنهم مشتغلاً بأحزاني قالوا، متكبر، وإن غضبت للحق فنازعت فيه قالوا، شرس، وإن وصفت الحب الذي أشعر به كما يشعرون قالوا، فاسق، وإن قلت كلمة الدين قالوا، جامد، وإن نطقت بمنطق العقل قالوا، زنديق، فما العمل؟ إليك يا رب المشتكي فما لي في الدنيا بعد أمي صديق!

تلك هي التي كانت تقبلني على علاتي، والناس لا يقبلون إلا محاسني. تلك التي كانت تحبني أنا، والناس يحبون أنفسهم فيّ. تلك هي الحبيبة الوفية التي لا تهجر ولا تخون، تلك

هي دنياي، فو أسفي، إن دنياي قد احتواها التراب!

لم يبق من آثار هذا العالم الحافل بالإخلاص والحب إلا قبر منعزل وساقية صغيرة، تميل عليها شجرة صفصاف، وهذا كل شيء. . .

إني لأقدس ذكرى هذه الشجرة، وأخشع لها. إن حركات غصونها لتحرك في نفسي عالماً كاملاً، ولكنها لا تبالي ذكرياتي ولا تحفلها. إنه قائمة تحنو على اللص الفاتك، كما تحنو على المحب الثاكل، وتؤوي المجرم الهارب، كما تؤوي الشاعر المتغزل، فما أضيع ذكريات المحبين عند الطبيعة، وما أضيعها عند الناس!

لقد انصرف عني السيد حيدر الجوادي، ونام عني أصحابي، وتركوني أتجرع غصص آلامي وحيداً، فمن هو الذي يعطف علي، ويشاركني حمل الآلام؟ لقد أيست من الطبيعة ومن الأصحاب، فهل تسعدني أنت يا أيها المحسن المجهول الذي لا أعرفه أبداً؟ أنت يا من يحوز مع الشمس بمقبرة الدحداح يزور حبيباً له طواه الرمس، هل تمن على غريب متألم فتحيي عنه هذه البقعة وتعطف على ذكريات له فيها، هي أعز عليه من الحياة، لأنها كانت جمال الحياة؟ هل تترفق في سيرك وتتئد وتعلم أن في هذه الرمال التي تطؤها أطلال قلب كان من قبل عامراً سليماً. . . ترفق فانك لو ملكت حاسة تدرك بها الذكريات لرأيت في هذه البقعة ما بين رمالها وترابها، بقايا قلب محطوم، بقايا دامية حزينة شاكية، ولسمعت نشيجها

ما تصدع هذا القلب من هجر الحبيب، ولا هدته أحداث الغرام، ولكن عصفت به عاصفة من موت الأم فهدت أركانه، فأسكب على بقاياه قطرة من الدمع تحيها بها ساعة، أو قل كلمة تسعد بها روحه الحزينة، ثم توجه إلى القبر المحبوب، إلى قبر أمي وأبي أيها الصديق المجهول، فاسأل الله لساكنيه الرحمة والغفران، فما بقي لي بعدهم أحباء، ولا بعده دنيا. . .

لقد تركت تحت أقدامك قلبي وحبي يا أيها المحسن المجهول، فارفق بهما. اسعد هذا اليتيم الضعيف، وإن كان الناس يدعونه شيخاً، وإن كان في الثلاثين من عمره!

رب، رحمة لهذا اليتيم الضعيف، ابن الثلاثين!

(رب أغفر لي ولوالدي؛ رب أرحمهما كما ربياني صغيرا)

(بغداد - المدرسة الغربية)

علي الطنطاوي

غريب اللغة في الميزان

للأستاذ عبد القادر المغربي

من مشاكل الحياة ما لا يمكن حله، أو لا يرضي الناس أن يتلقوا حلّه من شخص واحد مهما علت منزلته في العلم والفضل لما يصادم ذلك من التحزب للرأي، والمنافسات بين المتنازعين، حتى ينزلوا أخيراً على حكم الجماعات التي لا تجد النفوس (غالباً) حرجاً من التسليم لها والرضى بحكمها

ومن هذا القبيل مشكلة إيجاد كلمات جديدة نحتاج إليها في نهضتنا الحديثة، سواء أكانت تلك الكلمات أعجمية الأصل، أو عربية لكنها غير مأنوسة الاستعمال، فإن ضجيج النزاع يشتد حول تلك الكلمات ويَرى كل من المتنازعين أن يُحَكّم ذوقه غالباً، وعلمه أحياناً، في قبول هذه الكلمة، وعدم قبول تلك. والتشاؤم بكلمات اللغة يرجع في الأعم الأغلب إلى أمور أربعة:

1 - كون الكلمة من أصل أعجمي أو عامي

2 - كون الكلمة غريبة غير مأنوسة الاستعمال

3 - كون الكلمة مأنوسة المعنى مكروهة اللفظ ككلمة (ضيزي)

4 - كون الكلمة على العكس مأنوسة اللفظ لكنها مكروهة المعنى كالكلمات الدالة على ما يستحي من ذكره

ويهمنا من هذه الأقسام القسم الثاني: وهو كون الكلمة غريبة لا يُعنى بها إلا المتخصصون في اللغة لكن استجدَّ في لغة حياتنا اليومية فراغ لا يسده إلا بعض تلك الكلمات الغريبة، فكيف نصنع؟ هل نستعملها غير مبالين أذواق القراء؟ أو نهجرها غير مبالين إهمال مصدر من مصادر تنمية اللغة، ولا تعطيل معدن تستخرج من شذراته مادة لتلك اللغة التي يخشى أن تقضي عليها الألفاظ الأعجمية

وعندي أن ليس كل غريب اللغة مما يحسن هجرانه وترك الانتفاع به، بل إن من كلماته ما استجمع شروط الفصاحة وإنما يعوزه الاستعمال فيُصقل ويصبح مأنوساً مألوفاً

ومرادي بالغريب هنا ما يجهله عامة متأدبي هذه الأيام. فهذا ما نريد أن نردد القول فيه، ونميز بين ما نحن في حاجة إليه وما نحن في غنية عنه

هذه كلمة (سياسة) لا نستعمل معها مرادفها وهي كلمة (إيلة) فان إيالة الرعية وسياسة الرعية شيء واحد؛ بل ربما كانت (الإيلة) أشهر من (السياسة) في استعمال أهل اللسان الأولين: آل البلاد والرعية أولاً وإيالةً، وتأول البلاد (من التفعل)؛ ويقلبونها أحياناً فيقولون (تألّي) ومنه قول الشنفري في بيتيه المشهورين (وأمّ عيالٍ قد شهدت تقوتهم الخ)

وقد عني بأم العيال رفيقه في اللصوصية (تأبط شرا) إلى أن قال (أيَّ أول تألت) أي أية سياسة مشؤومة ساستنا بها تلك الأم في توزيع الزاد علينا

وقد يقال أيضاً إن فعل آل إيالةً أعرق نسباً وأشد أصالة في المعنى المراد من فعل ساس سياسة

ذلك أن السياسة تستعمل حقيقة في سياسة الدواب، ومن سياسة الدواب نقلت إلى معنى سياسة الرعية، بينا كلمة (إيالة) خاصة بسياسة الرعية وإدارة مصالح البشر،

ولكن هل يشفع كل هذا بها، فترزق الحظ وتحيا بالاستعمال، أو يتشاءمون بها ويهملونها إلى حين؟

بكسر الباء وبزايين معجمتين أولاهما مشددة بينهما ياء ثم ألف مقصورة، (بِزِّيزَي)

تقول العرب: (رجعت الإمارة أو الرياسة بزيزي) أي ما عادت تؤخذ بالاستحقاق والكفاية بل بالقوة فمن عز وقوى عليها بزها وسلبها مستحقها. فكلمة (بزيزي) من فعل (بز) المأنوس والمشهور لاستعماله في المثل السائر (من عز بز) أي من قوي سلب. فما أحوجنا إلى أحياء هذه الكلمة ما أكثر المقامات التي تعرض للكاتب أو الصحفي ويتفقد كلمة (بزيزي) فلا تخطر له

ولا أرى كلمة (فوضى) تسد مسد (بزيزي) إذ أن بينهما فرقاً لا يخفى على البصير فهل يرضى كتابنا عنها ويفسحون لها المجال على أسلات أقلامهم؟ أم يتأففون بها كما تأففوا بالإيالة:

وكلمة (أبهل) ما الرأي في إحيائها من رمسها؟ يقال: أبهل الوالي رعيته إذا تركهم يفعلون ما شاءوا. وكثيراً ما أصبح الأمر فوضى في أطراف المملكة أو في بعض بواديها بسبب عجز الحاكم أو بسبب سوء إيالته (أي إدارته) فهذه الحال هي الأبهال تبهل الحكومة بلداً وتعجز عن ضبطه فتعم الفوضى فيه، ففعل (أبهل) من أجدر كلمات اللغة بالحياة وأولدها بالاستعمال

يقول قائل إننا نشعر بالاستغناء عن كلمة الأبهال وتصاريفها ما دام لدينا تعابير أو جمل مركبة نستعملها مكانها

نعم ولكن إذا تداولت واستعملت استجد في نفوسنا شعور وألفة لها: مثل كلمة (هيأة) في قولنا (هيأة المحكمة) و (هيأة كبار العلماء)، فان كلمة رجال القضاء والقانون كادت تجمع على أنه لا تقوم مقامها كلمة سواها مع أن الحاكم والحكام كانوا في غنية عنها أكثر من ألف ومائتي سنة. وهذا كالسيارات والتليفونات في بلاد كمصر مثلاً كانوا يعيشون من دونها، أما اليوم فلم تعد تستتب للناس حياة ولا يطيب لهم عيش إذا حصل إضراب وعطلت السيارات والتليفونات عن العمل

زارني بالأمس زائر كريم من كتاب الصحف وجرى بيننا ذكر الحاجة إلى أوضاع جديدة تقوم مقام تلك الأعجمية. فأجبته ما الفائدة من إجهاد أنفسنا في وضع كلمات عربية جديدة إذا كنتم تأنفون منها بسبب شيء من الغرابة أو الثقل تجدونه فيها فما أسهل إيجاد الأوضاع علينا. ولكن ما أصعب قبولها عليكم

قال: وما مثال ذلك؟ قلت: قد يكون للدولة جيش مختلط من وطنيين وغير وطنيين فهل تقبلون أن نطلق عليه اسماً كانت تعرفه العرب وهو (البريم)؟ وأصل معنى البريم خيط ثخين يفتل من عدة خيوط مختلفة اللون. فالعرب منذ القدم سموا الجيش المتعدد الأجناس (بريماً) تشبيهاً له بالبريم أعني الخيط المذكور.

فقال: ينبغي قبول كلمة البريم لخفتها وإحكام وضعها. أما (البزيزي) و (الأبهال) فلا. ثم اخذ يجادل ويحتج بنفسه بقول الأستاذ (أحمد أمين) وهو:

(إن علينا اليوم أن نختار الألفاظ التي تناسب العصر ويرضاها ذوق الجيل الحاضر)

قلت: وقال الأستاذ (عزام) ما ملخصه:

إن علينا اليوم ألا نجعل الذوق حكماً في اللغة لأنه يقتصر على المألوف من الكلمات)
وبعد ما دعاه ثقيلاً نابياً. وعلى الكاتب ألا يجعل نفسه أسيراً تتصرف به الأذواق
الخاصة، بل يستملي فطرته فتملي عليه من الكلمات ما يلائم الذوق العام. الألفاظ
أجل من أن يتحكم فيها الذوق وحده. الحاجة الملحة خلاَّقة الألفاظ. وهذه الحاجة لا
تبالي بالأذواق؛ فكم من كلمة أجنبية ثقيلة استعملها كتاب العرب وألفتها أذواقهم:
كالبروبوغندا والأرستقراطية
والميتافيزيقية الخ. وما دام هناك معان شديدة وجب أن يكون إزاءها ألفاظ شديدة، ولا
مندوحة لنا عن استعمال تلك الألفاظ لمعانيها كما نستعمل الألفاظ اللينة لمعانيها
أيضاً. ونكون في عملنا هذا أحراراً دون أن تأخذنا رحمة بالأذواق، وكما يعالج لين
الحضارة بالرياضيات الخشنة القاسية ينبغي أن يعالج لين اللغات بالألفاظ الخشنة
القاسية أحياناً. وإن حاجتنا اليوم إلى الإبداع تسوغ لنا أن نتخير من الألفاظ ما نشاء ثم
نطبع ذوق الأمة على مشيئتنا هذه. وما أشد حاجتنا إلى كثير من الألفاظ الجديدة التي
إذا استعملناها أعانتنا في الإفصاح والإبداع. نعم إذا كان للمعنى الواحد عدة ألفاظ حق
للذوق أن يختار منها أحلاها، وأرشقها لا أن يعمد إلى أسمجها وأثقلها فيؤثره على
المألوف إغراباً وتنطعاً) اهـ
وقول الأستاذ عزام هذه يشبه ما قلته مراراً: من أن كلمات اللغة في المعاجم تحكي
الأدوات المنزلية في المنازل: منها اللطيف المرهف الذي يُصفف في محاريب الدار
(صالونها)، ومنها الضخم الجافي الذي يخبأ في أقبيتها وسراديبها، ولكل أداة وظيفة لا
تستعمل فيها الأداة الأخرى؛ فللصديق الزائر متكأ الحرير ومروحة الريش وأكواب
السكر؛ وللص الدار الهراوة ويد المهراس ومشحوذ الخنجر
وشتان بين خشونة هذه ونعومة تلك، كما أنه شتان بين كلمات (الجَعْظَرِيّ) و
(الجَوْاظَ) اللذين استعملها النبي (صلى الله عليه وسلم) في قوله (أهل النار كل
جَعْظَرِيّ جَوّاظ) وبين كلمات (كَيِّس فَطِن حَّذِر) التي استعملها (صلى الله عليه وسلم)
في حديث (المؤمن كيس فطن حذر)
وكلمة (ضوطار) من كلمات أو أدوات المعاجم القديمة، فهل نستثقلها ونهجرها
لثقالتها؟ أم ندَّخرها كما تدَّخر الهراوة للصّ فنخبأ (الضوطار) للرجل الذي ينزل ميدان
السياسة ولا سلاح له يضمن له الفوز إلا الجهل والمخرقة فنلقّبه بضوطار السياسة
كما لقبه بذلك الشيخ جمال الدين أو الشيخ محمد عبده في جريدتهما (العروة الوثقى)
جاء في صحف الأخبار أن الطيار (فلان) حاول أن يبلغ بطيارته أعلى قمم جبل هملايا
وهي قمة (أفرست) وبعد قيامه بما أخذه على نفسه ذكر أنه علا بطيارته في الهواء
الملاقي والمحاذي لسفح الجبل عدة مئات من الأميال صعداً قبل أن يبلغ القمة
المذكورة وقبل أن يبلغ الفضاء الذي فوقها. فالهواء المحاذي للجبل ماذا يسمى؟
يسمى (نفنفاً). فهذه الكلمة
نحتاج إليها للتعبير عن الهواء الذي لا يكون مطلقاً فوق الجبال وإنما يكون محصوراً
بينها ومحاذياً لسفوحها، فلا مندوحة للطيارين عن استعمال كلمة (النفنف) في لغة
الطيران ومن استثقلها كان أثقل منها لعمري.
يقول الطيار: ثم جاوزت النفنف وأصبحت في الهواء الطلق فوق قمة (أفرست) فبماذا
نسمي هذا الهواء أو هذا الفضاء الذي طرت فيه؟ نسميه (اللوح) ونقول له إن
طيارتكم بلغت اللوح أو أخذت تسبح في اللوح. و (اللوح) بضم اللام الهواء بين السماء
والأرض.
يقول المتشائم بغريب اللغة: إن اللوح فيها غرابة فهل من كلمة غيرها تؤدي معناها؟
نعم كلمة (سُمَّهى) بضم السين وتشديد الميم وألف مقصورة في الآخر.
فيقول: هذه أشد غرابة من تلك وفيها ثقل ليس مثله في كلمة (اللوح) فلنوطن أنفسنا
إذن على قبول (اللوح) وصقلها بالاستعمال.
يقول الطيار إنه عاد فارتفع بطيارته إلى أقصى مناطق الهواء بحيث أصبح التنفس
عسيراً عليه. فماذا نسمي الهواء ثمة؟
نسميه (الُسكاك) بضم أوله، وفسره علماء اللغة بالهواء الذي يلاقي عَنان السماء،
وفسروا (العنان) بالذي يبدو لك من السماء إذا نظرتها، والذي نراه منها هو زرقتها،
والزرقة أقصى طبقات الهواء أو مناطق الهواء، في بادئ النظر، فالسكاك إذن هو

الذي يكون في أعلى أو أقصى طبقة في اللوح
فيحسن أن ندخل في لغة الطيران هذه الكلمات الثلاثة
هو ما بين الجبال (النفْنَف)
هواء الفضاء بين السماء والأرض (الوح)
هواء أعلى طبقات اللوح (السكاك)
ونكون أهملنا كلمة (السُمّهى) مستغنين عنها باللوح لثقالتها التي ينفر منها
المتشائمون. ويطرب لها اللغويون المخصصون.
وحاصل القول أن كلمات المعاجم أدوات كأدوات المنازل:
منها الضخم الثقيل، ومنها المرهف الخفيف. فعلى الكاتب اللبق أن يستعمل كلاً في
محله اللائق به. وسلام
(دمشق - الشام)
المغربي
بيت المغرب في مصر
للأستاذ سيد قطب
هيأ عقد المعاهدة بين مصر وإنجلترا الدولة المصرية الحديثة، أن تنتهج سياسة شرقية
عربية كانت تطمح إليها من قبل، فيحول دون انتهابها أولاً مشاغل الوطنية باستكمال
الاستقلال، وثانياً تيارات السياسة الاستعمارية المضادة للوحدة العربية الشرقية
وتطرق مظاهر هذه السياسة الجديدة في التفكير المصري الآن، وتتحقق بوسائل
عملية لم تكن بارزة من قبل
فالأزهر اليوم يرحب بالبعثات الشرقية عامة، وهو وإن كان من قبل مثابة طلاب هذه
البلاد، إلا أنه في هذه الأيام يشملهم برعاية خاصة، تتوجها رعاية الفاروق العظيم لهذه
البعوث التي تفضل جلالته فجعل الأنفاق على الكثير منهما من جيبه الخاص
والجامعة تزخر بالكثيرين من أبناء البلاد الشقيقة، وتسهل لهم الطرق لاستكمال
دراستهم بها
ودار العلوم تهم بإنشاء قسم داخلي للإخوان الشرقيين بها، مبالغة في توفير أسباب
الراحة والدراسة المنظمة لهم
وفي الوقت ذاته تتجه مصر إلى جاراتها العربية للنظر في توحيد البرامج أو تقريبها
على الأقل، ويعقد مؤتمر في تونس للثقافة العربية قوامه الأساتذة المصريون
وكلك تمد مصر يدها بخيرة أبنائها لهؤلاء الجيران الكرام، يحملون إليهم العلم والنور
والخبرة في شتى الشئون
هذا كله في عالم الثقافة، فأما في عالم السياسة فأن قضية فلسطين كانت محكا
لتوثق الروابط بين مصر والبلاد العربية كلها؛ وقد نالت هذه القضية عطف كل مصري
واهتمامه، وآخر مظاهر الاهتمام كانت في المؤتمر البرلماني ومؤتمر الجامعة. كما
أنني أعلم من مصادر وثيقة أن الحكومة المصرية قدمت لحكومة لندن مذكرة خاصة
بهذا الموضوع، ضمنتها رأيها قوياً حازماً صريحاً، وإذا كانت لم تشأ نشر هذه المذكرة،
فقد اختارت بهذا أن تتبع الطرق الدبلوماسية المناسبة للمعاهدة
في خلال هذه اليقظة التي تعمر الضمير المصري تجاه البلاد العربية، افتتح (بيت
المغرب
في مصر) فكان افتتاحه في هذا الأوان علامة من علامات التوفيق، ومظهراً من
مظاهر الحيوية العربية الكامنة التي تنبثق في أفضل المناسبات
وهو دليل جديد على الثقة بمصر، والتوجه إليها من أطراف المشرق العربي والمغرب
العربي، هذه الثقة التي يحق للمصريين أن يفخروا بها، وأن يعنوا باستدامة أسبابها،
وتمكين روابطها
وقد أحسنت مصر استقبال (بيت المغرب) واشتركت الحكومة والشعب بالحفاوة به
وبسكانه، لتفتح قلبها اليوم لمثل هذه الصلات، بعد ما خلصت من قيود الاستعمار
ولقد كان لي من قبل حظ معرفة الرجل الوطني العامل الذي يشرف اليوم على بيت
المغرب بأقسامه الثلاثة (مقر البعثة، ومكتب التبادل الثقافي، ومعرض الفن المغربي)
إذ كان يدرس بمصر عام 1929 وكانت وجهتنا إذ ذاك مع نخبة من أكرم الأخوان
المصريين والشرقيين أن نؤلف جمعية للطلبة من هؤلاء وهؤلاء، تمكن من الروابط بين

الجميع، وتعمل للمستقبل في توثيق العلاقات وتسهل للطلبة الشرقيين وسائل العلم والراحة في مصر
وكان الأستاذ المكي الناصري أشد المتحمسين للفكرة، وكنا نجتمع - غالباً - في داره بمصر للمباحثات في تحقيق هذا الأمل الكريم
فمن حسن الحظ أن يكون هذا الرجل هو الذي يتولى الآن تنفيذ فكرة (بيت المغرب) إذ هو أصلح رجل مغربي - فيما أعتقد - لتنفيذها، لسابق معرفته بالأوساط المصرية وسابق تفكيره في مثل هذه المشروعات
ورؤيتنا لبيت المغرب حقيقة ملموسة، تثير في نفوسنا التساؤل: متى يكون لكل أمة عربية بيت في مصر على مثال هذا البيت الوطيد؟
إن اليوم الذي تكون فيه لكل بلد شرقي بعثة دائمة في مصر على هذا المثال لهو اليوم الذي يتم فيه توحيد الثقافة والاتجاه بين هذه الأمم، فتتم لها العزة العربية التي - تحلم بها في المستقبل القريب - إن شاء الله
(حلوان)
سيد قطب
التاريخ في سير أبطاله
إبراهام لنكولن
هدية الأحراج إلى عالم المدنية
للأستاذ محمود الخفيف
يا شباب الوادي! خذوا معاني العظمة في نسقها الأعلى من
سيرة هذا العصامي العظيم. . . . . .
- 27 -
ولقد كانت هذه السنة الثانية للحرب أسوأ الأيام التي مرت بالرئيس طيلة حياته. وأي شيء أشد سوءاً من الهزيمة والخذلان؟ وإن الرئيس ليخشى أن تنحل العزائم وتخور القوى وبخاصة حين أحس الناس أن الحرب لابد أن يطول أمدها ويشتد سعيرها.
وهاهو ذا تهامس الأمهات بدأ يصل إلى مسمعيه. وليته كان تهامس الأمهات فحسب، فان كثيراً من الرجال قد أخذوا يبدون تململهم وتذمرهم ويعلنون عن رغبتهم في وضع حد لهذه المحنة القومية. . .
وكان مما يكرب الرئيس ويوجع نفسه أن كثيراً من الناس كانوا يلومونه ويرجعون سبب الهزائم إليه؛ ويغفلون في ذلك عما كان يفعل قواده وعلى الأخص ماكليلان، ذلك الذي كانت محبته والثقة به إحدى خطايا الجماعات
ورجحت كفة الجنوبيين في البر ولكنهم في البحر كانوا أذلة؛ ذلك أنهم لم يكن لهم مثل ما كان لأعدائهم من الجاريات المواخر فيه؛ ولقد استطاع أحد القواد البحريين وهو فَرَّاجُت أن يسير في تلك السنة بسفنه إلى نيوأورليانز فيصليها من ناره ويأخذها عنوة، وكان انتصاره هذا وإذلاله أهل الجنوب على هذا النحو مما خفف على الشماليين بعض ما كانوا يلاقونه في البر من هوان وذلة. . . ولسوف تكون تلك القوة البحرية في النهاية عاملاً من أهم عوامل النصر، الأمر الذي لم يفطن إليه أهل الجنوب إلا بعد فوات الفرصة. . .
وبينما كانت الحرب تتأجج نارها ويتفجر بركانها، وتتواثب في البر والبحر شياطينها، كان الرئيس يفكر في أمر هو أعظم ما فكر فيه من الأمر. . . ولقد كان من أجل مواهبه أنه كان يتبين الأمور على حقيقتها مهما التوت عليه سبلها واختلطت وشائجها، وهو في ذلك يلقي بنظره فيتبين حقيقة موقفه وموقف أعدائه ثم يسدد خطاه على هدى مما رأى دون أن تفوته صغيرة أو كبيرة مما تقع عليه عيناه. . .
وتبين الرئيس موقفه فأخذ يتحفز ويستجمع قواه ليقدم، ثم عزم وصمم فليس من الأقدام بد؛ وليس لما عسى أن يلقي من المعارضة أي وزن عنده. . . ومتى عقد إبراهام النية على أمر ثم تخاذل عنه أو تهاون في العمل على إنفاذه. .؟
صمم الرئيس أن يضرب الضربة التي طالما انتظر أن تواتيه لها الفرصة. . . أجل، أراد الرئيس اليوم أن يضمن تاريخ البلاد، بل وتاريخ الإنسانية، أجل عمل قام به ألا وهو تحرير العبيد! وإنه لن يحجم اليوم أن يعلن رسمياً وفي مجال واسع ما سبقه إليه فريمونت وهنتر، ولن يتردد أن يأخذ بما رفض من قبل مهما يكن من الغرابة في

موقفه، ولكن أية غرابة وهو كفيل أن يوضح للناس قضيته وأن يحملهم على قبول حجته؟

الحق أن الرئيس لم يغفل يوماً عن مسألة العبيد، ولم ينس ذلك النظام المنكر البغيض الذي نشأ على مقته وازدرائه والذي طالما تمنى أن تنجو البلاد من آثامه. . . ولكنه كان يحرص ألا تفسد مسألة العبيد عليه قضية الحرب، ولقد كان محور تلك القضية كما مر بنا المحافظة على الوحدة؛ فلما رأى تحرير العبيد قد أصبح عاملاً من عوامل نصرة تلك القضية وعنصراً من عناصر نجاحها، لم يتردد ولم يخف ومضى قدماً إلى غايته. . .

وكان الرئيس قد خطا خطوة في هذه المسألة في أوائل السنة الثانية من سني رياسته (6 مارس سنة 1862) وذلك أنه أرسل إلى المجلس التشريعي مقترحاً أن يصدر المجلس قراراً به تعوض الولايات التي تقضي على نظام العبيد فيها تدريجياً تعويضاً مادياً عادلاً، وأصدر المجلس ذلك القرار ولكن الولايات المحايدة عارضته ورفضته وهي المقصودة قبل غيرها به. . . ودعا الرئيس ممثليها وحاول إقناعهم ولكنهم لم يقتنعوا فمنيت الفكرة بالفشل ولم يفد الرئيس منها إلا أنه تعرض لنقد هذه الولايات ولومها ثم للوم دعاة التحرير من جهة أخرى لأنهم رأوا في الفكرة تردداً وتقاعداً وهم يريدون التحرير العاجل في غير تحفظ أو تراجع

وكان الرئيس لا يزال يقلب الأمر على وجوهه، فهو يخشى من التحرير العاجل الشامل أن يغضب الولايات المحايدة فتنضم إلى الاتحاد الجنوبي، وكان يعد ذلك، والحرب قائمة، كارثة؛ ثم هو يخاف أن يتهم أنه ما أثار هذه الحرب الضروس إلا من أجل نظام العبيد مع أن الدستور يقر ذلك النظام.

وهو في الوقت نفسه يرى أن تحرير العبيد سوف يدعوهم إلى التمرد على ساداتهم في الجنوب فتضعف شوكتهم، هذا إلى رفضهم العمل في فلاحة الأرض بعد ذلك فيضطر البيض إلى العمل مكانهم فتتضاءل جيوشهم وتضعف مواردهم، فضلاً عن أن التحرير من شانه أن يكسب الرئيس وحكومته عطف الدول المتمدنة في أوروبا فلا تناوئه وهو فوق ذلك جميعاً يقضي على ذلك النظام البغيض الذي تنفر منه الإنسانية وتستخذي له، والذي ما فتئ الرئيس ينتظر يوم الخلاص منه. . .

ولكن يبقى بعد ذلك حكم الدستور في الأمر، فالدستور يقر امتلاك العبيد، وإذا أقدم الرئيس على التحرير خرج بذلك على الدستور وهو الحريص على مبادئه العامل منذ اشتغاله بالسياسة على المحافظة عليه وتقدسيه. . . على أنه يجد مخرجاً من ذلك فالمسألة تدعو إليها ضرورة حربية وهو مستطيع أن يحمل الممثلين بسهولة على تعديل الدستور في هذه النقطة. . .

بذلك لا يعوز الرئيس إلا الفرصة المناسبة وقد لبث يترقبها. . ولهذا كان يرفض أن يشايع دعاة التحرير قبل أن تحين الساعة فلا عجب أن يرفض في مايو من تلك السنة ما فعله القائد هنتر ولكن ليفعله هو بعد حين. . .

لبث الرئيس يترقب الفرصة، وكانت البلاد يتزايد فيها الشعور بضرورة القضاء على العبودية، ويتجلى ذلك الشعور في تلك العبارة التي كتبها قبل ذلك بنحو ثمانية شهور أحد الكتاب المؤرخين والتي جاء فيها (إن هذه الحرب الأهلية هي الأداة التي سخرها الله لاقتلاع جذور العبودية، وإن أعقابنا سوف لا يرضون بنتيجتها إلا إذا كان مما تحدثه الحرب ازدياد عدد الولايات الحرة هذا هو ما يتوقعه الجميع وهذا هو الأمل الذي ينشده جميع الأحزاب)

وكانت أولى الخطوات العملية التي جاءت مظهراً لهذا الشعور أن أصدر المجلس في أبريل قراراً بالتحرير العاجل في العاصمة وما حولها؛ ولما وقع لنكولن على هذا القرار قال: (عندما تقدمت باقتراح إلى المجلس عام 1849 للقضاء على العبودية في هذه العاصمة ولم أكد أجد من يستمع إلى ذلك الاقتراح، لم أكن أحلم أنه سوف يتحقق بمثل هذه السرعة)

ولقد كان هذا القرار بمثابة مقدمة لما سيتلوه في القريب من تحرير شامل عاجل للعبيد في الولايات جميعاً، ذلك العمل الذي سوف يضاف إلى تراث الإنسانية ويعد من مآثر البشرية في هذا الوجود

وكان على ممثلي الولايات المحايدة، تلك الولايات الوسطى أن تعتبر بما جاء في هذا

القرار، لكنهم ظلوا على عنادهم على الرغم من أن الرئيس قد دعاهم إلى مؤتمر آخر في يوليو سرد لهم فيه وجهة نظره وأطلعهم على حججه
أخذ الرئيس يتحين الفرصة ولكن الموقف الحربي في صيف ذلك العام كان على ما بينا من حرج وشدة، فالقائد ماكليلان في زحفه على رتشموند متلكئ متردد، ولقد تراجع في يوليو تراجعاً مهيناً مخجلاً وإنه ليرفع عقيرته بالسخط على رجال الحكومة في العاصمة كما أسلفنا، الأمر الذي تألم له الرئيس أشد الألم ووقع منه في غمة شديدة وحيرة
وأراد الرئيس أن يفرج عن نفسه فيعلن التحرير في تلك الآونة، ولكن سيوارد أشار عليه أن يتريث ويرجئ المسألة إلى حين، فانه إن فعل اليوم وأعلن التحرير عد ذلك منه ضرباً من اليأس وهو مهزوم مستضعف. . . ورأى الرئيس وجاهة رأي صاحبه فآثر التريث والصبر قائلاً: إن التحرير معناه يومئذ (آخر صرخة في الهروب)
وأخذت الأصوات ترتفع من كل جانب بمطالبة الرئيس بإعلان قرار التحرير، ومن ذلك ما جاء في جريدة نيويورك تربيون على لسان محررها جربلي وهو ذلك الصحافي العظيم الذي كانت تربطه بالرئيس صلة منذ بدأ يعظم شأنه في الحزب الجمهوري.
كتب جربلي في عبارة صارمة يأخذ على الرئيس تردده ويطلب إليه في لهجة أقرب إلى الأمر منها إلى الرجاء أن يعلن تحرير العبيد. ولقد عجب الناس حين رأوا الرئيس يرد بنفسه في الصحيفة على محررها ومما جاء في رده قوله (أذا كان هناك من لا يحافظون على الوحدة إلا أن يحافظوا على نظام العبيد فإني لست معهم، وإذا كان هناك من لا يحافظون على الوحدة إلا أن يقضوا على نظام العبيد فأني لست معهم! إن غرضي الأسمى
هو أن احفظ الاتحاد وليس هو أن أحفظ أو أقضي على العبودية. فإذا تسنى لي أن أنقذ الاتحاد دون أن أحرر عبداً واحداً فعلت ذلك، وإذا كان في وسعي أن أنقذه بتحرير جميع العبيد فعلت ذلك. . . وإذا استطعت أن أحافظ عليه بتحرير بعض العبيد وترك البعض فعلت ذلك أيضاً. . .)
وكان جيش الجنوبيين يزحف على وشنجطون بقيادة لي وقد عبر نهر بوتوماك ونزل في ولاية ماري لند، وأسقط في يد الشماليين وباتت عاصمتهم في ذعر وهلع. . . وحزن الرئيس وضاق صدره بماكليلان وأقسم لئن ارتد العدو ولحقت به الهزيمة ليعلنن قرار التحرير إثر ذلك
وأخيراً التحم الجيشان في سبتمبر: جيش لي وجيش ماكليلان وارتد الجنوبيون عقب معركة أنتيتام التي أشرنا إليها وكان تراجعهم في اليوم السابع عشر من الشهر وفي اليوم الثاني والعشرين من هذا الشهر دعا الرئيس مجلس الوزراء إلى الاجتماع عنده، ولم يكن أحد من الوزراء يعلم الغرض من هذا الاجتماع، ولما أكتمل جمعهم فتح الرئيس كتاباً كان يقرأ فيه، وأخذ يقرأ في صوت جهوري قصة فيه أعجبته وهو يضحك والوزراء يضحكون ويعجبون إلا أحدهم وهو ستانتون فكان يضيق بكثير مما يفعل الرئيس وبما يأتيه من ضروب المزاح، وهو لا يدري أن مثل هذا الرجل في تلك الشدائد أحوج ما يكون إلى أن يرفه عن نفسه ويخفف عنها بعض ما بها. . . وإلا فكيف يستطيع أن ينهض بذلك الحمل الذي تنوء به الجبال؟ وكثيراً ما يكون ضحك بني الإنسان مغالبة منهم لما يجيش في نفوسهم مما يصبه الدهر عليهم من آلام وخداعاً منهم لأنفسهم عما بها ولو ساعة أو بعض ساعة
ولما فرغ الرئيس من تلاوة القصة غامت أسارير وجهه وبدت عليه إمارات الجد ودلائل الاهتمام والحزم، فأخرج من جيبه ورقاً طويلاً كتبه بخط يده وتلاه على الأعضاء فإذا هو قرار التحرير
أعلن الرئيس أن العبيد في جميع الولايات بعد اليوم الأول من السنة الجديدة أحرار وأن الحكومة ستعترف بحريتهم وتساعدهم على بلوغها وأنها ستقوم بتعويض الولايات الموالية عما تطلقهم من العبيد. . . وبهذا الإعلان ضرب نظام العبودية ضربة سوف تكون القاضية
عليه، وبه تحقق حلم طالما منى الرئيس به نفسه، ورأى ذلك النجار - الذي وقف في صدر شبابه مرة في مدينة أورليانز يشهد سوق العبيد - نفسه يقضي على ذلك النظام فيعلن باسم حكومة هو رئيسها أن عبودية بعد اليوم المحدد وأن الشعب الأمريكي

جميعه شعب حر، وأن أمريكا دولة حرة وأمة حرة
أعلن الرئيس كلمته وأدى رسالته، وشهد ابن الغابة اليوم الذي يقف فيه موقف الآمر الذي ينطق باسم شعب في أمر طالما شغل باله وبال الأحرار في ذلك الشعب، ورأى العالم نوعاً جديداً من الحركات الكبرى تؤثر في تاريخه وتضاف إلى سجله، حركة من تلك الحركات التي تنقل تاريخ الشعوب من فصل إلى فصل
وهزت البلاد من أعماقها فرحة عظيمة، وراح الناس يعلنون عن ابتهاجهم بالزينات ينصبونها والليالي يقيمونها ويملئونها بأفراحهم واحتفالاتهم ومظاهر حبورهم
وانهالت على الرئيس رسائل التهنئة والإعجاب يحملها البرق والبريد من أمريكا ومن خارج أمريكا. . . فلقد تلفتت أوربا تنظر ما تفعله الدنيا الجديدة للمرة الثانية من أجل الحرية، فهذه الدنيا التي ولدت الديمقراطية في القرن الماضي تئد العبودية في هذا القرن وتضع أسم رجلها وهدية إحراجها لنكولن إلى جانب أسم بطلها ومحررها
وشنجطون الذي انتزع لها استقلالها بحد السيف من الغاصبين من أعدائها
والرئيس صامت لا يعرف البطر كما لا يعرف الخور؛ يتلقى تهاني المهنئين وكلمات المعجبين بحزمه في سكون وتواضع، وإنه ليحس ألا يزال بينه وبين يوم الراحة جهاد وجلاد يرى مظهرهما تلك الحرب التي ما فتئ يتزايد سعيرها. . .
يتبع
الخفيف
للأدب والتاريخ
مصطفى صادق الرافعي
1880 - 1937
للأستاذ محمد سعيد العريان
- 43 -
من شئونه الاجتماعية
لم يكن الرافعي عضواً في جماعة من الجماعات، ولا منتسباً إلى حزب من الأحزاب أو طائفة من الطوائف؛ إذ كان يؤثر الوحدة والاستقلال في الرأي. وكان من التعصب لرأيه والاعتداد بنفسه بحيث يأبى أن ينزل عن رأي يراه مجاملة لصديق أو خضوعاً لرأي جماعة ينتسب إليها؛ وكان له من علته سبب آخر نّبهتُ إليه عند الحديث عن نشأته. ثم إن الرافعي لم يكن رجلاً اجتماعياً يلتزم ما تفرض عليه الجماعة من تقاليد ويتخذ أسلوبَ الناس فيما يليق وما لا يليق؛ فهو لا يعتبر إلا رأيَه أو حاجتَه أو مصلحتَه فيما يكون بينه وبين الناس من صِلات، ولم يكن يعرف هذا (النفاق الاجتماعي) الذي يسميه الناس: التقاليدَ، أو الأدب اللائق!. . . فهو بذلك كان عالماً منفرداً يسير في نهجه إلى الهدف المؤمَّل على وحي الفطرة أو هَدْى الإيمان. سمَّ هذا شذوذاً في الخُلق، أو سمَّه استقلالاً في الرأي وأسلوباً من التعبير عن الشخصية المتميزة بخصائصها؛ فما يعنيني هنا إلا إثبات هذه الحقيقة في التاريخ كما شهدتها في معاملاته وفي صِلاته بالناس، وكما لمحتها في جملة من أحاديثه. . .
هذه الأسباب هي أهمّ ما كان يباعد بين الرافعي والاشتراك في الجماعات، أو يباعد بينها وبينه. . .
على أن ذلك لم يكن يمنعه أن يكون هواه مع جماعة من الجماعات أو حزب من الأحزاب في وقت ما لسبب ما، ولم يمنعه ذلك أن يكون عضواً في بعض الجماعات
وأول أمره في ذلك - على ما أعرف - أنه شرع وهو شاب لم يجاوز العشرين في تأليف جماعة من الشباب تدعو إلى نوع من الإصلاح الديني؛ وكان معه على هذا الرأي صديقان
من أترابه، أذكر منهما الأستاذ عبد الفتاح المرقي المحامي؛ وقد اتخذوا (مسجد البهي) في طنطا مكاناً لاجتماعهم وتبليغ دعوتهم، وطنطا، كما قد يعرف كثير من القراء، مركز هام من مراكز الثقافة في مصر، وفي أهلها حفاظ وتحرج، ولها صبغة دينية نشأت من أن فيها معهداً دينياً كبيراً في (الجامع الأحمدي) كان في وقت ما يشتد عدْواً في مسابقة الجامع الأزهر بالقاهرة. والأزهريون في طنطا، كالأزهريين في القاهرة إلى عهد قريب: أكثر أهل العلم في مصر حفاظاً على القديم، وأسرعهم إلى سوء الظن بكل إصلاح جديد، من ذلك لقي الرافعي وصاحباه في دعوتهم ما لقوا من عِداء

طلبة الجامع الأحمدي وعلمائه، حتى هم الطلبة مرة أن ينالوهم بالأذى في أبدانهم. . .
فلم يجد الرافعي وصاحباه في النهاية بداً من التسليم، وانحلت الجمعية الرافعية الصغيرة. . .
حدثني الرافعي حديث هذه الجمعية في خريف سنة 1932 بعد ثلث قرن مما كان؛ وكنت ذهبت إليه يومئذ في وفدٍ ثلاثة ندعوه إلى الاشتراك معنا في جماعة أنشأناها بطنطا في ذلك الوقت باسم (جماعة الثقافة الإسلامية) تدعو فيما تدعو إلى العمل على إحياء الشعور بمعنى القومية الإسلامية العربية، واتخذت لذلك وسائل وشرعت نهجاً؛ وكانت تضم فيمن تضم طائفة ممتازة من أهل الرأي والعلم والأدب، لكل منهم صوت ورأي وجاه في قومه. . .
ولبى الرافعي دعوتنا بعد تمنع، وانتظمت الجماعة على رأي واحد إلى هدف واحد، فلما استكملنا الأهبة، دعونا الشباب المثقفين في طنطا إلى اجتماع عام في ناد كبير، وكان الرافعي من خطباء الاجتماع. . .
صعد الرافعي إلى المنصة، فوقف برهة يجيل نظره في ذلك الجمع الحاشد، ثم انطلق في خطبته. . .
وعلى أن الدعوة إلى الاجتماع كانت عامة، وكان موضوعه هو الثقافة الإسلامية؛ فإنه لم يشهد هذا الاجتماع من شيوخ (الجامع الأحمدي) ومدرسيه غير ثلاثة من الشيوخ، وطائفة غير قليلة من المدرسين غير الشيوخ؛ ولم يفت الرافعي أن يلاحظ ذلك؛ فمال في خطبته إلى هذه الناحية، ينعى على شيوخ الأزهر أن يتجاهلوا واجبهم في مثل هذه الدعوة، وأن يؤثروا القعود على الجهاد لله! وكان فيما قاله: (. . . إن أديباً كبيراً من وزراء الدولة قد قالها مرة منذ ثلاثين سنة: لو قعد حماري في الأزهر خمس عشرة سنة لخرج عالماً. وما نحب أن يقولها اليوم أحد ليلحد في كفاية طائفة من أهل العلم والدين هم أكرم علينا. . .!)
قالها الرافعي في حماسة وانفعال وفي لهجة خطابية صارمة، فسمع المجتمعون همهمة عن يمينه وشماله، أما عن يمينه فكان للشيوخ الثلاثة قد آذاهم ما قال الرافعي، وأما عن الشمال فكان طائفة من المدرسين غير الشيوخ في الأزهر قد خافوا أن تؤول كلمة الرافعي تأويلاً ينالهم بالشر من إخوانهم الأزهريين. . .
وعلى أن الرافعي كان بريء الصدر فيما قال، ويعلم الأزهريون قبل غيرهم أن هواه معهم، وعلى أن صدر كلامه وخاتمته لم يكن فيه ما ينبئ عن قصد الإساءة، فان هذه الكلمة التي قالها قد أحدثت دوياً بين الأزهريين تهدد الجماعة في نشأتها
وسعى ساع إلى شيخ الجامع الأحمدي (المرحوم الأستاذ محمود الديناري) فأنباه أن الرافعي قد قال في خطبته: (لو قعد حماري في الأزهر بضع سنين لخرج أعلم من شيخ الأزهر. .!)
وكتبها كاتب في رسالة خاصة إلى الأستاذ الجليل الشيخ محمد الأحمدي الظواهري شيخ الجامع الأزهر. . .!)
وتسامع بها الشيوخ على ما حكاها الراوي فراحوا يتناولون الرافعي وجماعته بما وسعهم من التجريح في أعراضهم ودينهم ومقاصدهم، وقال قائل منهم: (وما حاجتنا إلى هذه الجماعة فيما تدعو إليه؟ لقد انتشر الإسلام ومد ظلاله في العالم على حد السيف فما يغنى غناءه في هذه الدعوة كاتب يكتب أو خطيب يخطب!) وامتدت هذه المقالة الطائشة على لسان طائفة. . .
وعرف الطلاب من الأمر ما عرفوا فأعلنت طائفة منهم الحرب، وسعت طائفة في وفد إلى مدير المديرية تطلب إليه أن يقمع هذه الفتنة بسلطانه، واصطبغت المشكلة صبغة سياسية
كان للأزهريين يومئذ في السياسة دولة وسلطان. . .
وإذا اتصل الأمر بالسياسة فقد فزع طائفة من الموظفين المنتسبين إلى الجماعة فآثروا البراءة منها على الدفاع عنها، وأشفقت طائفة على مصير الجماعة فأوفدت وفداً إلى الأستاذ الديناري شيخ الجامع يحقق له الرواية ويبدد سوء الظن ويعتذر. . .
ولكن شيخ الجامع رد الوفد رداً غير جميل وقال عن الرافعي ما قال. . .

وجاء الخبر إلى الرافعي بما أحدثت كلمته، فما أفزعه من ذلك إلا أن يصدق شيخ الأزهر ما نقل إليه منسوباً إلى الرافعي وإنهما لصديقان من زمان. . . فكتب إليه:
(وإن شيخاً من علماء الجامع الأحمدي يزعم أن الإسلام قد انتشر على حد السيف، وهذا كلام، وسيبقى كلاماً ما دمت ساكتاً عنه، فإذا عرضتُ له بالمناقشة فقد تغير وجهه، لو كان وجه النهار لأسودّ!)
وعلم شيخ الأزهر حقيقة الدعوى التي ادعاها خصوم الرافعي عليه وما زادوا فيها ونقصوا، فكتب يعتذر إليه، وكتب إلى شيخ الجامع الأحمدي. . .
وكان الرافعي جالساً إلى مكتبه في المحكمة حين جاءه الرسول يدعوه إلى مقابلة شيخ الجامع الأحمدي فرده، وعاد يدعوه ثانية ويلح في الرجاء فحدد الرافعي موعداً. . .
وذهب إلى لقاء الشيخ فاستقبله العلماء بالباب في حفاوة بليغة، وسعوا بين يديه مهرولين إلى مكتب الشيخ؛ قال الرافعي: (ووجدت الشيخ في انتظاري وبين يديه (إعجاز القرآن)؛ فما لقيني حتى قال: (أتعرف يا سيدي أنني مدين لك؟ هذا كتابك لا أجد لي رفيقاً خيراً منه؛ إنه زادي وعمادي. ثم عبث في درج مكتبه قليلا فأخرج ورقة فيها شعر مكتوب، فدفعها إليّ وهو يقول: وهذه قصيدة أعددتها لأنشدها بين يدي المليك في طريق عودته إلى القاهرة من مصيفه؛ لا أجد من يصلحها خيراً منك، فأنت أنت للشعر وللبيان!)
قال الرافعي: (وبدون هذا كانت تقنع نفسي وترضى، ولكنها كانت وسيلة الشيخ إلى استرضائي بعد الذي قال عني منذ أيام؛ طاعة لأمر شيخ الأزهر. . . . . !)
تم الصلح بين الرافعي والأزهر، ولكن الأزمة التي كانت، لم تبق على الجماعة فانحلت بعد ما طار منها أكثر أعضائها من الموظفين خشية التهمة بالسياسة، وكان للسياسية يومئذ حديث طويل. . .
ولم يشترك الرافعي على ما أعلم في غير هاتين الجماعتين
ولم تتهيأ للرافعي رحلة من الرحلات يفيد منها علماً أو تجربة طول حياته، غير رحلة أو رحلتين - لا أذكر - إلى الشام، لم يفارق مصر إلى غير الشام من بلاد الله؛ فزار طرابلس حيث ما تزال أسرة الرافعي لها ذكر وجاه، وزار لبنان حيث عرف صاحبة حديث القمر في سنة 1912
على أن الرافعي كان يحب الرحلة ويطرب لها ويتمنى لو أتيحت له ولكن موارده المحدودة كانت تقعد به؛ ولما كان في بطانة المغفور له الملك فؤاد، كان له جواز سفر مجاني في الدرجة الأولى على خطوط سكة الحديد المصرية؛ فكان يعد حصوله على هذا الجواز ظفراً بأمنية عزيزة، لأنه أتاح له أن ينتقل ما شاء بين البلاد من غير غرم، فلا يكاد يستقر في بلد، فيوماً في القاهرة، ويوماً في الإسكندرية، ويوماً في بور سعيد؛ يفيد من هذه الرحلات ما يفيد لأدبه أو لبدنه وأعصابه. حدثني مرة أنه كان ينظم قصيدة من مدائحه الملكية فأحس شيئاً من التعب والملال، فقصد إلى المحطة فاتخذ مقعده في قطار كان على أهبة السفر إلى بور سعيد، فأتم قصيدته هناك ثم عاد. .
وقد كان هذا الجواز هو سبب ما بينه وبين الأبراشي باشا مما فصلت مجمله في فصل سابق، حين امتنع الابراشي باشا مد أجل هذا الجواز بعد انتهائه!
وكان يغبط الذين يجدون في طاقتهم أن يقضوا الصيف من كل عام في أوربا ويتمنى لو أتيح له، ليفيد من ذلك شيئاً يجدي على أدبه. على أنه مع ذلك كان يرحل إلى أوربا أيان يريد، ولكن في السيما. . .
كان يسمى السيما: خارج القطر! ويزعم أن في ذهابه لمشاهدتها كلما سنحت له الفرصة غناء عن السفر، فسواء عنده أن يرحل إلى أوربا في قطار أو باخرة، وأن ترحل إليه أوربا بحالها في رواية يشاهدها على ستار السيما؛ فلكيهما أثر متشابه في نفسه؛ وذلك بعض مذهبه في فلسفة الرضا والسعادة!
وكم كان ظريفاً أن تسمعه يتحدث إلى صديق من أصدقائه قائلاً: (هل لك أن تصحبني الليلة إلى خارج القطر؟) يلقي هذا السؤال بلا تكلف ولا قصد إلى الفكاهة، لأن كلمة (خارج القطر) كانت عنده علماً عرفياً على السيما لا يحتاج إلى تعليق!
وكان عجيبا في إيمانه بالغيب، وتناجي الأرواح، وتنادي الموتى والأحياء؛ وكان يؤمن بالسحر والعرافة؛ وكثيراً ما كنت تسمع منه: (حدثتني نفسي. . . أُلْقِي إلي. . . هتف

بي هاتف) وكان يعني ما يقول على حقيقته. جلست إليه مرة في منزله، فأخذنا في حديث طويل. . . وعلى حين غفلة سكت، ثم قال: (وكيف صديقنا مخلوف؟) قلت: (لم أره من زمان!) قال: (إنه قادم الساعة. . لقد أُلْقِي إلي. . . أحسبه الآن يصعد في السلم. . .!) فما
كاد يتم حتى دق الجرس. وكان الأستاذ حسنين مخلوف هو القادم، وسألت الأستاذ مخلوفا: أكان على موعد مع الرافعي؟ فنفى لي كل ظنة!
وسألني مرة أخرى: (ماذا تعرف عن صديقنا م؟) قلت: (لا جديد من أخباره!) قال: يهتف بي الساعة هاتف أنه في شر!) وفي صباح اليوم التالي كان نبأ شروعه في الانتحار منشوراً في الصحف!. . . وفي الرسائل التي تبادلاها بعد هذه الحادثة ما يبعد الظن بأن الرافعي كان يعلم شيئاً!
وكان بينه وبين رجل قضية، فغاظه، وجاءني الرافعي يوماً محنقاً وهو يقول: (سينتقم الله منه! سينتقم الله منه! قلبي يحدثني بأن القصاص قريب!) وفي الغد جاءنا نعى الرجل، وكنت مع الرافعي وقتئذ، فتندت عيناه بالدمع، وتناول سبحته وأخذ يتمتم في صوت خافت وشفته تختلج من شدة الانفعال!
هذه حوادث ثلاث رايتها بعيني، ولعلها من عجائب الأخبار عند بعض القراء، واحسبني قد رأيت له غير ذلك، ولكني لا أتذكره الآن. . .
وحدثني أن أباه كان مسافراً مرة إلى بلد ما، وكان عليه صلاة، فافترش مصلى وأخذ يصلي على رصيف المحطة، وإنه لكذلك إذ جاء القطار، قال: وكان أبي حريصاً على ميعاد هذه السفرة، يخشى شيئاً لو تأخر عن موعدها، وما كان بين موعد قدوم القطار وسفره ما يتسع لصلاة الشيخ؛ ولكن الشيخ استمر في صلاته على وِّئَى واطمئنان؛ وما تحرك القطار إلا بعد أن فرغ الشيخ من صلاته، واطمأن في كرسيه، وحيَّا مودِّعيه ووصّي؛ وكان سبب تأخير القطار شيئاً غير مألوف يتصل بشأن من شئون المحطة!
وأحسبه ذكر مرة في بعض ما كتب كيف ثقل نعش أمه على كتفه ثم خف!
واخبرني أنه لما مات أخوه المرحوم محمد كامل الرافعي استحضر روحه فلبت نداءه، وكان بينهما حديث لا أذكره؛ وحاول مرة أن يعلمني وسيلة لتحضير الأرواح ولكني لم أتعلم!
وكان يحفظ كثيراً من الأدعية والدعوات لأسبابها!
ولما وقع في حب (فلانة) ونال منه الوجد بها، لجأ إلى العرافين في أمل يأمله، فكتب تميمة فعلقها في خيط فربطها في سارية بأعلى الدار تتلاعب بها الريح. . . قال: ولكن أمورا
عجيبة مفزعة وقعت لي ولأهلي ولسكان الدار جميعاً في خلال اليومين اللذين كانت التميمة معلقة فيهما؛ فأيقنت أن ذلك من ذلك؛ فان لكل تميمة غايتين: أحدهما ما تأمل وثانيتهما مما تخاف، وكان ما وقع لي وما يتهددني من شر أكبر عندي من الأمل الذي أرجو؛ فندمت على ما كان، وتسللت إلى السطح فحللت رباط التميمة وفضضت خاتمها. . قال: فما فعلت ذلك عادت الأمور تسير على عادتها في رفق وأناة، وزال ما كنت أحذر وهدأتْ نفسي من ناحيته؛ فما كان شأني في الحالتين إلا كراكب سفينة هبتْ عليها عاصفة ثم قرت!. . . قال: وما كان الذي وقع لي في هذين اليومين مما يقع في العادة، ولا كانت نهايته، وقد فضضت خاتم التميمة، بالنهاية التي تنتظر!. . .
وكان يؤمن إيماناً لا شك فيه بأن يوماً ما سيأتي فيرتد إليه سمعه بلا علاج ولا معاناة، لأن بشيراً من الغيب هتف بهذه البشرى في نفسه وهي لابد واقعة! وقد مات وعلى مكتبه رسالة من صديقه الأستاذ فليكس فارس يشير عليه بتجربة لترد عليه سمعه الذي فقده منذ ثلاثين سنة أو يزيد، ورسالة أخرى من صديقه الأستاذ حافظ عامر فيها شيء يشبه ذلك!
وأحسبه قال لي مرة أو مرات وكنت جالساً أتحدث إليه: (ارفع صوتك بالحديث لعل الساعة الموعودة قد حانت فأسمع ما تقول!)
ولو أنني ذهبت أستقصي ما أعرف من مثل هذه الأخبار ما وسعني الوقت، وفي بعض ما قدمت الكفاية لمن يلتمس أسباب العلم
وكان الرافعي ولوعاً بالرياضة البدنية من لدن نشأته، يعالج أسبابها في أوقات رتيبة، وكان المشي الطويل أحبَّ رياضة إليه

خرجت مرة في جماعة من صحبي يوم شم النسيم للرياضة بُعيد الفجر، وكان معنا ماؤنا وطعامنا وقد عزمنا أن نقضي اليوم كله في الخلاء، فلما صرنا على بعد ميل من المدينة والشمس لم تشرق، لمحت الرافعي على بعد يخب في مشيته على حافة قناة بين زرعين؛ فلما دنوت منه رأيته يميل فيبلّل كفيه بأنداء الفجر على أوراق البرسيم فيمسح بها وجهه وهو مغتبط مبسوط؛ وأقبلت عليه أسأله، قال: هذه رياضة تحلو لي كثيراً، فما أتركها إلا لعارض، بل إني ليطيب لي أحياناً أن أخرج من البيت قبل الفطور لأجول هذه الجولة، ثم أعود لأفطر وأخرج إلى الديوان. . قلت: وهذا الندى الذي تغسل به وجهك؟ قال: إنه

ينِّضر الوجه ويردَ الشباب! ثم سأل: وأنتم أين تقصدون؟ قلت: هذه رياضة لا نقوم بها في العام إلا مرة، وأن معنا لطعاماً وماءً وحلوى؛ فهل تصحبنا؟

قال: وددت ولكن في غير هذا اليوم. . . أسأل الله لكم العافية! ونالنا في هذا اليوم شر لم نتوقعه، فعدنا قبل أن ينتصف النهار محزونين .!. . .

وسمع الرافعي بما نالنا فقال: (هو ذلك! إن الشر ليتربص بالمسلم الذي يحتفل لهذا اليوم أكثر مما يحتفل لمطلع المحرم! هذه وصية أب!)

وكان يعالج كثيراً من وسائل الرياضة غير المشي، وقد أتقن أكثر تمرينات . . . (صاندو) الرياضي الفرنسي المشهور. وقد اجتمعت على مكتبه مرة صورتا الشيخ محمد عبده وصاندو؛ فاسترعى اجتماعهما ملاحظتي، فقال: (هذان قوتان تعمل في نفسي: قوة في روحي وقوة في جسدي!)

وكان سباحاً ماهراً، وكانت له جولات في السباحة يشهدها شاطئ سيدي بشر في الصيف، وكان يقصد هو وأسرته للاستحمام هناك جانباً من الشاطئ غير مطروق لعنفوانه وشدة موجه وكان يمزح ويسميه (بلاج الرافعي) إذ قل أن يقصد إليه للاستحمام أحد من المصطافين في سيدي بشر غير الرافعي وأسرته

ولا يطعن في قدرة الرافعي على السباحة أنه أوشك أن يغرق مرة؛ كان ذلك قبل منعاه بأشهر، وكاد يغرق معه طائفة من أولاده، لولا أن أسرع حارس الشط لنجدتهم وللرافعي صورة طريفة تصورها منذ بضع عشرة سنة، وتمثله في زي أبطال الرياضة المشهورين: عاري الجسد بارز العضلات؛ وددت لو حصلت على هذه الصورة!

وله مقالات مشهورة عن الرياضة البدنية، نشرها مسلسلة في مجلة (المضمار) الرياضية التي كانت تصدر في القاهرة منذ بضع عشرة سنة

وكانت عنايته بالرياضة من أسباب قوته البدنية، ومن أسباب قوته العصبية أيضاً، ومن هاتين كان اصطبار الرافعي على العمل الشاق فيما يعالج من شئون الأدب

ولكنه وا أسفا. . . قد مات بغير علة، لأن القدر أقوى من احتيال البشر!

(شبرا)

محمد سعيد العريان

من رحلة الشتاء

في مضارب عجيل الياور

شيخ مشايخ شمر

للآنسة زينب الحكيم

تركت بغداد في مساء الاثنين 14 من مارس سنة 1938 مستقلة القطار إلى كركوك والساعة التاسعة مساء، فوصلتها في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي، ذلك لأن المسافة من بغداد إلى كركوك زهاء 326 كيلو متراً، وخط سكة الحديد هذه يمتد على ضفة نهر ديالة اليمنى ثم اليسرى، وعرضه متر واحد، ولا تتجاوز سرعة القطار عليه 25 كيلو متراً في الساعة. لأنه بنى على أسس واهية، كالجسور الخشبية والقواعد الترابية. ولأن الأدوات التي استعملت في إنشاء السكك الحديدية هناك لم تغير منذ ذلك الوقت، فقد بليت.

وإدارة سكة الحديد هي التي تقوم برعاية هذه السكك في العراق، ولولا العناية التي تبذلها لكان سير القطر من أخطر الأمور؛ ولأصبح السفر من جهات العراق النائية إلى بعضها عسيراً.

من كركوك أخذت سيارة إلى الموصل، فقطعت 160 كيلو متراً في جادات ولو أنها معبدة إلا أن المطر الغزير قد أتلف أجزاء كبيرة منها، فكاد السير عليها يكون

مستحيلاً.
بعد أن قضيت بضعة أيام في الموصل رأيت فيها معالمها التاريخية، والإنشائية، وجزءاً كبيراً من أطرافها (كبلدة تلكيف، والشيخ عدي، والعمادية وغيرها)، وبعد أن فرجني على بساتينها الغناء، ومبانيها الجديدة المشيدة، وشوارعها المرصوفة الواسعة، السيد خير الدين بك العمري رئيس بلدية الموصل، أخذت السيارة منها إلى معاقل قبائل شمر العتيدة.
كنت قد أرسلت خبراً للشيخ عجيلي الياور برغبتي في زيارتي معاقله، فلما بلغني خبر ترحيبه واستعداده لإرسال سيارة من سياراته الخاصة الفخمة تحملني من الموصل إلى خيامه، شكرت له ترحيبه، واعتذرت من قبول الذهاب في سيارته، لأن سيارتي كانت حاضرة. فقبل العذر عن هذه، ولكنه حتم أن يستقبلني رجاله في مناطق معينة من الطريق، وأن يصطحبنا دليل منهم إلى الخيام، خشية أن نضل.
قمنا بالسيارة صبيحة يوم الثلاثاء 22 من مارس 1938 من الموصل ووجهتنا (تل أعفر) - وتل أعفر هذه قرية في وسط الطريق الذي طوله خمسون ومائة كيلو متر بين الموصل ومضارب قبائل شمر بالشلقاط.
تقع هذه القرية على نهر دجلة الذي رأيت النساء يغسلن الأواني والثياب على ضفتيه، وأدهشتني طريقة غسل النسوة للملابس، إذ تمسك كل امرأة مطرقة خشبية لدق الثياب.
ولست أفهم الصلة بين إزالة الأوساخ من الثياب وبين دقها بذاك المضرب الخشبي وهي موضوعة على صخرة سوى تمزيقها، ما لم يكن لديهن سر لا نفهمه!!
في تل أعفر أبى مستقبلونا من رجال الشيخ عجيل الياور إلا أن نشرب الشاي فأجلسونا في شيخانة (مشرب الشاي) بسيطة، أحسن الموجود في القرية، وغير مزدحمة بالناس. بعد دقائق قدم لنا الشاي الأسود في كوبات صغيرة، وكان طعمه مثل الماء المذاب فيه (الشبة) الثقيلة جداً
ثم واصلنا المسير، ومعنا دليل الشيخ. أما عن رداءة الطريق فحدث ولا حرج، المطر المنهمر يكاد يغرق السيارة بمن فيها، أما العشب الأخضر النضر على جانبي الطريق، والأزهار البديعة الألوان، المختلفة الأنواع، فتسبح كلها في لجج متموجة. وظهر الجو كأنما خيم عليه ضباب متكلم، إذ يسمع تساقط المطر ولا ترى وحداته لغزارته وسرعته
منظر من مناظر الطبيعة العظيمة الهائلة، فضاء في فضاء لا يحجب النظر فيه إلا الأفق، ويجري الإنسان فيه بقوة العلم والاختراع. فلا ماء المطر على غزارته بمستطيع إطفاء نار السيارة، ولا السيارة تكل عن مسابقة العواصف والمطر، ولا إرادة الإنسان بمستضعفة حتى تبلغ المرمى
الطبيعة عاصفة ثائرة. والإنسان جبار لا ينثني عزمه متى عزم
هانحن أولاء نترك الطريق الطيني المبلل بعد أن سرنا عليه ساعات، ويشير الدليل بالسير على مروج خضراء غارقة في الماء، وبدأ الخفاق يدق بقوة وسرعة، فالعشب مرتفع، ولا يؤمن معه العثار، ولكن من ذا الذي يجرؤ أن يزيد من مخاوف السائق الكردي التعب، الذي هدته وعورة الطريق ورداءة الجو؟!
سيري على بركة الله أيتها الجارية، وأي بركة تحدث لها، إذا كان عليها أن تصطدم فجأة
بسيل جارف كون نهراً عالياً؟! إن للبادية لمخاطر ومفارقات، وإن لرجل البادية لنظرا
أشار الدليل على السائق بتحويل اتجاهه، وبشق الأنفس خرجنا من المأزق سالمين
هاهي ذي النفس تنتعش، والصدر ينشرح، فقد ظهرت بعض بيوت الشعر، وفي مقدمتها الخيام البيضاء - خيام العلم والنور، والكرم والضيافة - التابعة لشيخ المشايخ
وهاهي ذي عيون البدو ترمقنا من بعيد، وسيارة الشيخ تسرع في استقبالنا، ونصل إلى المضارب أخيراً، فيزيل عناءنا بشر الشيخ وسجاياه العربية البدوية الكريمة: أهلاً ومرحباً، هاهو ذا المطر قد كف، والسماء بدأت تتكشف، والعاصفة أخذت تهدأ. إن في مقدمكم الخير بنزول الغيث فما أكرمه من مقدم. فسلمنا عليه وجلسنا خارج الخيام، على مقاعد من قماش ذات مسندين وظهر من الخشب (مثل ما نستعمله على ظهر الباخرة أو في الحديقة) فقلت في نفسي: غريب هذا في هذه البيئة! وما أسمع إلا والشيخ صفوك بن الشيخ عجيل الياور وولي عهد ملك البادية يقول: -

(مرحباً بكم. إننا سعداء جداً برؤيتكم هنا)
قال ذلك في نطق صحيح ولهجة إنجليزية أمريكية. فذهلت! شيخ بدوي قح، يرتدي الملابس البدوية والعقال، وبينه وبين الحضر أميال وأميال، أو إن شئت فقل بينه وبين العالم والحياة أجيال، يكون هو هذا المتكلم المداعب في لباقة ولياقة!؟ يا ما في الدنيا عجايب!
وقلت: إنها مفاجأة ظريفة من رجل الصحراء، فاستدرك مسرعاً وقال: بل من رجل البادية
قلت: وما الفرق بين الصحراء والبادية أيها المعلم اليقظ؟
قال: إن الصحراء مجدبة ورمالها أخشن وتراكمها أسمك. أما الأرض هنا (أي بين النهرين دجلة والفرات - موزوبيتميا فمن أخصب بقاع العالم
حقاً لقد رأيتها كلها مغطاة بالعشب المترعرع بقوة، ونبات القمح والشعير حسن النماء، وشجر الزيتون مورق مورف. . انصرفت إلى تفكيري الخاص برهة، أعلل سبب تحول هذه الصحراء إلى بادية ممرعة. وأسعفتني معلوماتي الجغرافية، فتبينت أنه الرافدان بما امتازا به من روافد طميية سميكة إبان الفيضان، ولعدم تنظيم تصريف مياههما لقلة مشاريع
الري، تفيض هذه المياه المتدفقة عاماً بعد عام على المساحات الشاسعة جداً فيما بين النهرين وعلى جوانبهما الأخرى. فتتشبع الأرض سنوياً بالمياه ويمتزج رملها بالطمى، فأصبحت بقاعاً من أخصب واصلح البقاع الزراعية في العالم
ولذلك لون التربة أغبر بين الصفرة والحمرة والسمرة، فلونها مخالف لما نراه في صحراء ليبيا أو قرب غزة والعريش مثلاً
هذا تصحيح من رجل البادية عرفه بالتجربة العملية وليس من الكتب، ورجل البادية ولو أنه محدود التفكير إلى حد كبير لبيئته وظروفه، إلا أنه كما لحظت حاد البصر نافذ البصيرة متوقد الذكاء كريم، له استعداد قوي للتقدم، ولكنه شديد الرضى سريع التسليم
ومن أهم ما لفت انتباهي اعتماده على القدرة الإلهية، أو على من يتوسم فيه رعاية مصالحه؛ وكل البدو في هذه المناطق خاضعون للنظام العشائري البحت، ويأبون تدخل الحكومة في فض مشكلاتهم من أي نوع، ولو فرض وكان لبعضهم مشكلات تصل إلى المحاكم في بغداد أو غيرها مثلاً، فشيخ مشايخ شمر أو ابنه، هو الذي يمثل هؤلاء أمام الجهات المختصة ويدفع عنهم ويفض هذه القضايا. ولهذه الاعتبارات وأشباهها تخضع القبائل لرئيسهم خضوعاً تاماً، وهو يسهر على مصالحهم. ويسرني أن أذكر بعض المشروعات الإصلاحية التي بدأت فعلاً بين هذه القبائل البدوية في المقال التالي
زينب الحكيم
من روائع أدب الغرب
الإنسان
?
لشاعر الحب والجمال لامرتين
للأديب حسين تفكجي
(تتمة ما نشر في العدد الماضي)
- 7 -
ولكن ذات يوم وقد غرقت في خضم السعادة، وأتعبت السماء بشكواي المرة، غمرني نور سماوي يبارك ما شتمت، فخضعت دون مقاومة إلى صوت أوحى إلى نشيد الحق الذي تفجر من قيثارتي:
المجد لك في الأزمان والخلود
أيها العقل الخالد والإرادة العليا
أنت الذي يعرفك الوجود
وتذكر كل صباح أسماؤك الحسنى
فنفختك للبدعة انحدرت نحوي
وظهر من كان طيات العدم لعيني!
عرفت صوتك قبل أن أعرف نفسي

فرميت بروحي حتى أبواب الوجود
هأنذا العدم يحييك قبل أن يولد
هأنذا! ولكن من أنا؟ ذرة مفكرة
من يستطيع قياس المسافة بيننا؟
أنا الذي أستوحي منك خلقه السريع
دون علم من نفسي، أدار حسب هواك
ماذا يجب على نحوك؟ أيها الخالق العالي؟
المجد للانهائي العظيم
الذي أبدع الكل من نفسه
لتسر أيها الخالق العظيم، لما خلقته يداك
فأنا أتيت لأتمم أوامرك العليا
ضع؛ أطلب، أفعل، في الأزمان والمكان
وسخرني لأسبح بعظمتك في يومي ومكاني
فذاتي، دون شكوى، دون أن تسألك
بسكون، تسرع لتمجد عظمتك
وكهذه الأجرام المذهبية التي في حقول الفراغ
أتبع بكل هوى ظلك الذي ينير لي الطريق
غارقاً في النور أو ضائعاً في الظلام
سأمشي حيث تدلني
مختاراً منك لأهدي العالم
وعاكساً عليهم نوراً غمرتني به
فأرتمي محاطاً بأسرى النجوم
وأقتحم بخطوة جبارة هوة السموات
أو معتزلاً وحيداً مهملاً من نظراتك
لا تبدع مني أنا المخلوق المجهول
إلا ذرة منسية على شاطئ العدم
أو نقطة من الغبار تحملها الرياح
فافخر بمصيري لأنه صنع يديك
وأذهب إلى كل مكان لأرد إليك واجباً
وبقلب مفعم بحبك أخضع لقانونك
حتى انتهي إلى درك القبر هاتفاً:
(المجد لك)

- 8 -

يا ابن الأرض البسيط، مصيري ونهايتي لغز
ما أشبهني بقمر الليالي، أيها السيد العالي، ينير الطرقات المظلمة، حيث تقوده يداك،
يعكس من جهة أنواراً خالدة، ومن جهة أخرى، يغمر في الظلمات القاتلة
الرجل هو نقطة مشؤومة جمعت بقدرة إلهية نهايتين
كلما تقدمت خف شقائي فأعبد دون أن أراك حكمتك البالغة
المجد لك يا من خلقتني وأبدعت أجمل الوجود
وفي هذه الأثناء، رازح تحت أثقال سلاسل الجسد، من المهد إلى اللحد تقودني الخصومة.
أسير يغمرني ظلام حالك في طريق صعبة المسالك. غير عارف أيان أحمل أثقالي، وجاهلاً أيان أحط رحالي. أردد أنشودة الطفولة التي انحدرت كمياه شلال تجتمع لتتعكر.
فقد اختارني الشقاء حين قذفت على هذه الغبراء وأمسكتني يمينك، (المجد لك)
تتقاذفني
كألعوبة حية
أطعمتني مجبولاً بالدموع، خبز التعاسة وأسقيتني مزن غضبك
هتفت: (المجد لك)، ولكنك لم تنصت إلى ندائي، فأرسلت إلى الأرض نظرة حيرى،

وانتظرت في السماء يوم عدلك ولكنه قام أيها السيد العالي، ليزيد آلامي
البراءة مجرمة في ناظريك ،(المجد لك)
شيء وحيد بقي لي تحت هذه السموات، مزجت بنفسك أيامنا والشجون. حياتها
حياتي.
وروحها روحي، وكثمرة ما زالت ناعمة على غصنها، تأملها ناظري ترفع من حضني قبل
أن تينع.
أردت أن تكون الضربة هائلة. ولكنك سددتها بهدوء، لتجعل الفؤاد مني حساساً
فكنت أقرأ في أساريرها، المتمثل فيها جلال الموت مصيري
وأرى في نظراتها، نبراس الحياة، الذي بعد عني
فكانت يد الحمام تتقاذف منها الزفرات
ولكنها أبداً، كانت تردد همسة الهيام
فكنت أهتف لشروق الغزالة، أيتها الشمس أمهلي يوماً
كمجرم يطلب رحمة، تحت ظلمات متكاثفة
هبط حياً، دركات اللحد
ورأى شعلة براقة تتنازعها أيدي الحياة والموت، فينحني نحوها، ليحفظها فيراها تخبو
ثم
تلفظ الأنفاس
فكنت أود أن أحفظ الروح قبل أن نسير في طريق السموات
كنت أفتش عن كنهه في ناظريها المحدقين بالفضاء
هذه الزفرة، سيد الوجود، نشرت شذاها في أحضانها
وبعيداً عن هذا العالم المترع بالضوضاء رحلت قافلة آلامي
فأعف عن يائس جذف بحقك في ساعة غضب
فإني أجرؤ وأطلب الغفران
المجد للسيد العالي
من خلق الماء للخرير، والنسيم للسريان
والشمس للنور، والإنسان للألم
- 9 -
لقد كملتْ حكمتك بحقي
فالطبيعة العديمة الشعور تخضع دون إدراك
اكتشفتك وحدي عندما مستني الحاجة
فأنا أقدم لك نفسي ضحية بكل خضوع وإرادة حرة
فوحدي أطعتك بذكاء
وحدي أتممت نفسي في هذه الإطاعة
ومررت أنفذ في كل مكان، وتحت كل سماء
قانون طبيعتي وأمر إلهي
فأنا أعبد في مقدراتي، حكمتك العالية
وأخضع لأرادتك في آلام تجيش في صدري
المجد لك. المجد لك
صيرني إلى الذل، أو اقذفني إلى العدم
فسوف لا تسمع مني سوى كلمة:
(المجد لك أبداً)
- 10 -
وهكذا ارتفع صوتي نحو القبة الزرقاء، فقدمت المجد إلي السماء، والسماء تفي ما
بقي
- 11 -
اصمتي يا قيثارتي
وأنت الذي تمسك بيديك قلب البشرية الخفاق (بيرون) تقدم وخذ منها شلالات أنغام
منسجمة فقد خلق الله العبقرية لنمجد الحقيقة
صعد نحو السماء نغماتك، يا مرتل الجحيم

فالسماء نفسها، ترسل للمعذبين، هذه النغمات
فيمكن أن تضيء من صوتك شعلة حية، تنزل حتى قرارة نفسك
ويمكن أن قلبك الحساس، تحت تنقلات مقدسة، سيسر من هذه النغمات
فيخترق ظلام الليل، برق وضاء
فتفيض علينا، من نور يغمرك
- 12 -
أواه! إذا كانت قيثارتك مجبولة بالدموع، تزفر تحت أصابعك رنات الألم، فمن أعماق الظلال الخالدة، كالملاك الهابط من عليائه، يطوي الجناح، ويرتفع نحو نور النهار، لينصت إلى نغمات مقدسة أصداء هذه القبة الزرقاء، أصوات أوتار نار مذهبة ينصت إليها الآله، وهي ترتفع من سارافان
تشجع أيها الطفل الهابط من صفوف الآلهة
فانك تحمل على جبهتك الطابع العالي
وكل رجل ينظر إليك، يرى في عينيك الشعاع الخابي لنور السموات
ملك الأناشيد الخالدة، أعرف نفسك بنفسك
واترك (لولد الليل) الشك والتجديف
وابغض كلمات يغشونك بها. فلا مجد حيث لا فضيلة
تعال وخذ مكانك في مجلسك الأول، بين أطفال أتقياء، من المجد والنور، الذي أراد الله
تصويرهم بزفرة مختارة
. . .لقد أبدعهم
للفناء، والدعاء، والرضاء
حسين تفكجي
يا فلسطين
للأستاذ محمد بهجة الأثري
إلى شهداء الحرية من أحفاد صلاح الدين، إلى أشبال أسود حطين، إلى المجاهدين المرابطين في سبيل الله
الأثري
اصبِري في الحادث المستفحلِ ... إنما العزّةُ أَنْ تَسْتَقْتِلِي
واسألي (نيرونَ) يُذْكِي نارَهُ ... في سواد البأسِ نُورُ الأَمَل
وانْهَدِي ما قارعِ الحقُّ هوًى ... باطلاً يوماً ولم ينْخَذِلِ
لا تُراعِي من كَمِيّ مُبْطِلٍ ... قوّةُ الحقِّ سلاحُ الأَعْزَلِ
أو تُمدِّي من يدٍ ضارعةٍ ... تسألينَ العدلَ من لم يَعْدِلِ
عَزَّ هذا الحقُّ إلا بدمٍ ... جامحِ النَّزْوَةِ حُرٍ يَغْتَلي
فَأَريقيهِ رخيصاً هَيِّناً ... يا فِلَسْطِين وإلاَّ تُؤكَلي
أحرزَ الغايةَ مَنْ حاوَلَهَا ... وحوى النصرَ الذي لا يَأتَلِي
!ليس ما دوّى حديثاً أولاً ... عنكِ. كم مَرَّ له من مَثَل
أيقظ الشجوَ: فمن قلبٍ هفا ... واهنَ العزم، وجَفْنٍ مُسْبِلِ
غير أنّي - والهوى مختلفٌ - ... سرَّني من حيث أحيَا مأملي
كنتُ أخشى، والقُرى أضحتْ قِرى ... أنْ تكوني من كريم المأكَل
فإذا الدم أَبِيًّا يغتلي ... وإذا الروحُ عزيزاً يعتلي
وإذا القومُ الذي أيأسني ... جامحُ الثورة ماضي المُنْصُلِ
من شبابٍ كشراراتِ الغَضا ... وشُيُوخٍ كصَياصِي الْجَبَلِ
وعَقيلاتٍ كأمثالِ الدُّمى ... هِجْنَ أمثَالَ الأُسُودِ الْجُفَّلِ
سِرْنَ صدرَ الصفِّ سرباً باسِلاً ... يتحدَّيْنَ حِرابَ الْجَحْفَلِ
أيُّ معنى عبقريّ لاَح في ... خوضِهنَّ النارَ خوضَ البَطَلِ
!يا وقاها اللهُ أنفاسَ الصَّبا ... كيف قاسَيْنَ سَمُومَ الْجُهَّلِ
أيها الجيشُ الذي ناضَلَها ... قد عرفناك منيع المَعْقِلِ
فَتَرَنحْ نَشْوَةً أنْ رُعْتَهَا ... وهي عَزْلا من ظُبيً أو أَسَلِ
واسترِ الوجهَ أو أكشِفْهُ فلا ... تَخْشَ أَنْ يغشاه عارُ الْخَجَلِ

معشرٌ مستوحشٌ ما هذَّبتْ ... من حواشيهِ وصايا الرسُل
إِيه (جُونْ بولُ). وما شئتَ فخُذْ ... فيهِ من مكر عَويصِ الْحِيَلِ
قد كشفنا كلَّ كيدٍ مُخْتَفٍ ... وحللنا كلَّ عَقْدٍ مُعْضِلِ
ألصَّهايين؟ فَمنْ هُمْ في الملأ؟ ... أَوَ ليسُوا خَوَلاً من خَوَلِ؟
إنما أنت الذي ينصُرُهُمْ ... يا عدوّاً جاء في زِيّ وَلِيّ
لن تكونَ الدهرَ من أكفائِنا ... أَبَداً في هَيِّنٍ أو جَلَلِ
أبشري إنَّ الصباحَ المُرْتجى ... يا فِلَسْطِينُ أراه يَنْجَلي
كيف لم ترتقبي من فَرَجٍ ... وَبنُوكِ الصِيدُ حرزُ المَوْئل؟
أنا لم أحسَبُ، وهذا روحُهُمْ ... أنْ تَظَلِّي تحت حكم السفَلِ
سنةُ الكونِ التي نعهَدُها ... أن يكون النُّجْحُ حظّ الأمثل
ساعِفي (بغدادُ) أنصاء الوغى ... من بني العمّ وراء (الكرمل)
رَحِمٌ مَوْصُولة أوشاجُها ... لم يُقَطِّعُها نَكالُ الدُّوَلِ
طالما رامُوا تفاريقَ العصا ... والعصا تلقَفُ كيد الدجَل
حَيِّهَا جامِعةً مَرْجُوَّةً ... من تُخُوم (الريف) حتى (المَوْصِل)
إنّي أَلْمَحُهَا ظافرةً ... تستقلُّ التاجَ مَنْضُور الْحُلِيّ
لِلعدا اليوم، وهُمْ ينضُونَهُ ... لا تَظَلُّ الشمسُ فوق الْحَمَلِ
وأرى في مَطْلَعِ الآتي لنا ... منزلَ البدرِ ومَرْقَى زُحَلِ
خَلِّ عنكَ اليأسَ يَنْأى جانباً ... يا كليلَ العزمِ وأصحَبْ أَمَلي
انطوى الماضي فلا تنشُرْ له ... صُحُفاً نَضَّاحَةً بالعِلَلِ
وأتى يومُكَ يسعى دائباً ... فارتقِبْ شارقةَ المستقبل
(بغداد)

محمد بهجة الأثري

إلى الدكتور زكي مبارك

رداً على قصيدته (وحي بغداد) التي نشرت بالرسالة

للأستاذ إبراهيم أدهم الزهاوي

ما كنت أعلم أن ثغر المغرم ... يفتر عن أمل الوجود الأعظم
حتى وجدتك في (الرسالة) منشداً ... ولرب إنشاد بغير تكلم
حببت لي طعم الغرام وإنه ... مرّ بثغري مثل طعم العلقم
إن التي أحببتها بسقامها ... (حب) لكل مهذب لم يسقم
ما زلت أنشد في هواها شرداً ... يقطرن في وجه الصحائف من دمي
ما ضر (ليلى) أن تكون سقيمة ... إن كان ذاك السقم غير ميتم
فلسوف نبرئ داءها بدوائها ... ونعيدها لجلالها المتقدم
ومملك يحدو بها أمثالكم ... تطأ السماء بخفها والمنسم
أقلامكم متيقظات للعلى ... تلقي السهاد على عيون النوَّم
يهوي أبو الحسن الرضي يراعه ... فيزوره بتلطف وتبسم
نزلت حكومتك التي أصدرتها ... في قلبه برءاً بقلب المسقم
لم ترض دون العبقرية للذي ... هتك الحجاب على بنات الأدهم
إن (الشريف) لشاكر لك خدمة ... وأبو الشريف ومن إليه ينتمي
خلدته وخلدت في تخليده ... ولو أنه من همِّ كل مترجم
قد سار في الدنيا (الزكي) مباركا ... وحباله عن مصر لم تتصرم
صيت كأن الشمس قد نفخت به ... من روحها فسما سمو الأنجم
العقل تنهضه العقول فيستوي ... كالزرع تنبته غيوث الموسم
لله در يراعة في كفه ... شماء مثل شعوره المتضرم
إن العراق ترنحت أعطافه ... لما لهجت بحمده المتحتم
وطن الجدود ومنتهى أمجادهم ... وقصيدة الدنيا التي لم تختم
دار الخلافة كل قلب نحوها ... من منجد في سيره أو متهم
وكأنما أطلالها في عينه ... آماله الكبرى التي لم تنجم
فخراً لدجلة أن تكون مقيمة ... أبداً على العهد الذي لم يخرم
وقف الزكي بيانه العالي على ... إنشاء جيل بالعلاء متيّم

وكساه بالحلل الوضاء كأنما ... بالنور يكتب لا بحبر أسحم
يا أيها الوادي السعيد أعدته ... فأعدت خير مهذب ومعلم
كانت نوادينا تنير بنوره ... تفتر عن مثل الصباح المقدم
تلك الدعابات التي يأتي بها ... تشفي القلوب ولو جرت في مأتم
يدري اللبيب بأنها الجد الذي ... يأبى على الدنيا أداء المغرم
شافي جراحات المآسي لم يجد ... لجراحه بين الورى من مرهم
وكذلك القلب الكبير فإنه ... وجدان قلب في القلوب مقسم
ولدته مصر وكم حسام قاطع ... ولدته مصر وكم سنان لهذم
بلد إذا ما أفلست أيامنا ... جادت سحائبه بدرّ مغنم
طلعت شموس بيانه فتكشفت ... ظلماء عاشت ضعف عمر القشعم
سل ميت الآثار من أومي له ... فأتى يحدثنا بغير تلعثم
الله سدد للكنانة سهمها ... فتصيب مقتل كل خطب مرزم
بلد إذا ذكرته ألسننا صغت ... كل القلوب لذكره المتبسم
للرافدين صبابة في نيله ... ولنيله ضعف الشعور المضرم
قطران قد طبع الزمان هواهما ... من دون أقطار الأنام بميسم
عاشا لمجد العرب إن لمجدهم ... نبأ ستعلمه إذا لم تعلم
(بغداد)
إبراهيم أدهم الزهاوي
البريد الأدبي
آراء طريفة في التربية والتعليم
تواصل مجلة (دنيا المعلمين) الإنجليزية نشر إجابات زعماء الفكر على أسئلتها التسعة التي لخصنا للقراء إجابات برنردشو وبريستلي عنها، وقد أجابت مس دافني دي موريير، وهي من كبيرات الأديبات هناك ومؤلفة ريبكا، ولن أكون صغيرة مرة أخرى، وفندق جاميكا، ورحلة بوليوس. . . الخ فكانت إجاباتها متزنة وأكثر اعتدلاً من إجابات شو. . . وقد ذكرت مس دي موريير أنها لم تذهب إلى مدرسة ما، بل تعلمت في منزلها على أيدي مدرسين خصوصيين وأنها لما بلغت الخامسة عشرة كانت تقرأ أمهات الكتب الأدبية والتاريخية وتدرسها بنفسها. . . ولما سئلت عما تأسف لأنها لم تحصله ذكرت الأعمال المنزلية التي لم تخلق المرأة إلا لتتعلمها، وخصصت من ذلك الطبخ وأشغال الإبرة والخياطة ولم تجحد أثر معلمها كما فعل شو. . . وذكرت أنها قرأت أول ما شغفت بالقراءة كتب الأدب الكلاسيكي ثم شدت القصص فقرأت أحسن ما كتب أدباء قومها. . . واستنكرت عادة منح التلاميذ مكافآت اعترافاً بتفوقهم، لأن هذه المكافآت تولد في نفوس أصحابها الغرور والزهو كما تولد في نفوس الآخرين الحسد والحقد أو تجعلهم يعتقدون أنهم أقل من زملائهم ذكاء وأحط مرتبة. . . ولم تستنكر مس دي موريه الجمع بين الجنسين في فصل واحد إلى سن الرابعة عشرة، لكنها صرحت أن الجمع بينهما بعد هذا هو منكر يؤدي إلى آفات الغريزة الجنسية ومهاترات الغزل السمج بين الجنسين. . . واستنكرت دراسة بعض المواد الجافة كاللاتينية والرياضيات المعقدة غير العملية وتعميمها في المدارس. . ثم رفضت الإجابة عن بعض الأسئلة الأخرى
المسرح الأوربي
صدر أخيراً في أمريكا كتاب ضخم عن المسرح الأوربي لمصنفه الأستاذ توماس. هـ. دكنسون تناول فيه تاريخ المسرح في أكثر الممالك الأوربية - ما عدا إنجلترا - منذ نهاية الحرب الكبرى إلى اليوم وما جد فيه من صنوف التجديد والتيارات الحديثة. ولم يكتب المصنف كل فصول الكتاب، بل قام بذلك أخصائيون ممن لهم اتصال بالحركات المسرحية في كل من الممالك الأوربية، ومن هنا قيمة الكتاب. . . ونستطيع أن نقول: إن المستر
دكنسون لم يكتب إلا مقدمة الكتاب التي تناول فيها شرح الاتجاهات الحديثة في المسرح الأوربي عامة والعوامل الاجتماعية التي خلقت هذه الاتجاهات. . . وقد كتب عن المسرح الروسي الأديبان يوسف جريجور وهـ. و. ل. دانا، وعن المسرح الألماني الأديب المؤرخ يوليوس باب، وعن المسرح الفرنسي العلامة أدموندسي، وعن

المسرح الإيطالي سيلفيو داميكو، وكتب عن المسرح الأسباني الأديبان ديي كاندو وجون جارن. . . وفي الكتاب فصول ممتعة عن المسرح في كل من تشكوسلوفاكيا وبولندة وبوغوسلافيا والمجر ورومانيا وبلغاريا والسويد ودنمركة. . . أما لماذا لم يعقد فصل عن المسرح الإنجليزي فذلك - في رأي المصنف - أن هذا المسرح لم يجار نهضة التجديد التي عمت المسارح الأوربية وأن المقصود من الكتاب أن يكون دراسة لمسارح القارة تنفع المسرح الإنجليزي - والكتاب جليل الفائدة فعسى أن يعني به ممثلونا أو أن ينقله أحدنا إلى العربية

أين كان يكتب تشيكوف قصصه

كان تشيكوف الأديب الروسي الكبير طبيباً ولم يكن أديبا ثم نسى الطب واحترف الأدب، فنبغ فيه ولم ينبغ في الطب، وهو في ذلك مثل ولز الذي درس الكيمياء والصيدلة فجذبته صناعة القلم وآثر أن يفرغ لها، ومثل هذا يقال عن مؤسس المسرح الجديد الأديب النرويجي العظيم إبسن الذي درس الكيمياء ثم نزع إلى الأدب وتفرغ له، ويكاد يكون زعماء الأدب في العصر الحديث من العلماء وليسوا من الأدباء

هذه ملاحظة عارضة بدت لنا خلال دراساتنا لحياة تشيكوف تلك الحياة الحافلة الأرستقراطية التي تختلف عما عرفناه من حياة زملائه وأنداده الأدباء الروس الذين ذاقوا من شظف العيش وهوان الأيام ما جعل آدابهم عصارة من البؤس وترجماناً للبائسين وأروع ما يلفت النظر من حياة تشيكوف هذا المنزل الريفي - أو الكوخ الهادئ المكون من غرفتين اثنتين - والمنعزل عن قرية فيسكينو - التي كان منزله الفخم بالقرب منها. . . لقد بنى تشيكوف هذا الكوخ وسط حديقة من أشجار التفاح لتكون مهبط وحيه، ومرتع خياله الخصب، الذي أنتج للعالم تلك الثروة الهائلة من القصص والدرامات

حول كلمة (أنوثة)

حضرة الأستاذ الكبير صاحب الرسالة الغراء

تحيات طيبات، وبعد فقد قرأنا في العدد 279 من مجلتكم الزاهرة قصيدة الأستاذ إبراهيم العريض (بين عشية وضحاها) الرائعة. ولقد لفت نظرنا كلمة (الأنوثة) في قوله

وتحت يديها يزل النصيف ... عن برعمي صدرها ناحية

وملؤهما عزة بالجمال ... جمال أنوثتها لغافية

وشككنا في وجود هذه الكلمة. ثم جاء (اللسان) يؤيد ما ذهبنا إليه. قال في مادة (أنث)

(ويقال تأنث الرجل في أمره وتخنث، والأنيث من الرجال، المخنث.

والتأنيث خلاف التذكير وهي الأناثة)

أما كلمة (ذكورة) التي تقابل كلمة (أنوثة) فلم يذكر صاحب اللسان إلا في موضعين لا يقابلان في معناهما (الأنوثة) قال في مادة (ذكر):

(. . .التذكير خلاف التأنيث، والذكر خلاف الأنثى والجمع ذكور وذكورة وذكار)

وجاءت في مادة أنث أيضاً

(روي إبراهيم النخعي أنه قال (وكانوا - أي العرب - يكرهون المؤنث من الطيب ولا يرون بذكورته بأساً.

(. .وأما ذكورة الطيب فما لا لون له، مثل الغالية، والكافور والمسك، والعنبر والعود) هـ.

ومعنى ذكورة الطيب، أي ما كان منه مذكراً، ولا يوجد إذن كلمة (أنوثة) وإنما (أناثة) وهي كلمة لا باس بها، حبذا لو تقوم مقام تلك التي شاعت كثيراً، وحسب كثير من الناس أنها صحيحة.

(دمشق)

صلاح الدين المنجد

بين السيكلوجية والطب

أخذت بعض كليات الطب في أوربا تدخل دراسة السيكلوجية في برامجها بما لها من الفائدة في تشخيص بعض الأمراض إن لم يكن في كل الأمراض. ويجمل بكلية الطب المصرية أن تحذو حذو هذه الكليات فقد انتشر السل في مصر كما انتشرت أمراض أخرى كالجنون

والصرع وضعف الأعصاب، والطبيب الذي لم يدرس السيكلوجية الحديثة يعجز في اكثر الأحيان عن تشخيص هذه الأمراض، وقد أصدرت الدكتورة العالمة إليانور. ا. مونتجومري كتاباً جليل الفائدة في هذا الباب بحثت فيه عن العلاقة بين السيكلوجية والطب وهل يستطيع الطب أن يصف للعل الأخلاقية كالجبن واللؤم وتعشق الإجرام من أجل الإجرام دواء مادياً غير العلاج الذاتي الذي تصفه السيكلوجية. . . وقد تناولت المؤلفة وظائف الغدد التي تتحكم في أخلاق الشخص وتقررها وذكرت أن الطب وحده هو الذي يستطيع أن يتحكم بدوره في هذا الغدد، ومن هنا العلاقة الكبيرة بين السيكلوجية والطب

تزوير أدبي

عمد بعض المرتزقة من الناشرين إلى طبع قصة تافهة بعنوان (قتيلة الجوع) نسب تأليفها إلى الأستاذ توفيق الحكيم وكتب اسمه على غلافها، وذلك لكي يضمن رواجها بين العامة من القراء

وقراء الرسالة عامة يعرفون الأستاذ توفيق الحكيم بفنه وأدبه، ويعرفون مؤلفاته وقصصه جميعاً، فما كان بنا من حاجة إلى نص هذا الخبر لولا رغبتنا في أن يلتفت إلى مغزاه القائمون على شئوننا لعلهم يجدون في مثله ما يحفزهم للتفكير في حماية الأدباء والمؤلفين من شتى الآفات التي تنوشهم في كل جانب!

العصور

صدر العدد الأول من مجلة العصور مصدقاً لما قدرناه لها في أنفسنا من قوة التحرير وصدق الأسلوب وشرف المنزع. وقراء الرسالة يعرفون صاحبها الأستاذ محمود محمد شاكر بقوة الأدب وقوة الدين وقوة الخلق، فهيهات أن يجدوا في العصور إلا أثر هذه القوى مجتمعة في قلمه الرصين واختياره الموفق. وإنا لنرجو للأستاذ الصديق أن يوفقه الله فيما نصب نفسه له من الجهاد الصادق في خدمة الدين واللغة والثقافة

لماذا أنا مسلم؟

أخرج الأستاذ الشيخ عبد المتعال الصعيدي الطبعة الثانية من كتبه (لماذا أنا مسام؟) ممتازة بكثير من الزيادات والتنقيحات. وقد وضع المؤلف هذا الكتاب على هيأة مناظرة بين قس

من علماء المسيحية المبشرين، وبين شاب مسلم يفهم حقائق دينه فهماً صحيحاً: يوجه القس إلى الشاب المسلم الاعتراضات والشبه التي يتصيدها المبشرون لمحاولة تشكيك المسلمين في دينهم، فيرد عليه الشاب في أدب ولباقة، ومفنداً تلك الشبهات والاعتراضات بمنطق سليم وعبارة فصيحة وحجج دامغة. وقد تناولت المناظرة أهم المسائل التي يتوهم فيها خصوم الإسلام مآخذ يأخذونها عليه

ويمتاز هذا الكتاب بحسن معالجة الموضوعات التي تناولها بأسلوب متسق وعبارة جلية وتدليل قويم

وهو يقع في (88) صفحة من الحجم المتوسط ويطلب من مكتبة الشرق الإسلامية ومطبعتها بشارع محمد علي أمام دار الكتب المصرية

الكتب

أفاعي الفردوس

ديوان الأستاذ الياس أبو شبكة

بقلم الأستاذ فليكس فارس

(تتمة ما نشر في العدد الماضي)

وإلى الشعراء الآن نماذج من قصائد الديوان الذي أردنا أن نرسم مصغراً عنه ببعض خطوطه:

شمشون:

هي قصيدة رمز فيها الكاتب إلى كل جبار في الحياة تصرعه خدعة الضعفاء، وإلى كل شاعر تلعب الغواية بحياته دون أن تضلل قوة إلهامه فينتقم بهذا الإلهام من نفسه ومن أعدائها.

أسمع الشاعر يخاطب دليلة ليصورها بقوله الرائع:

ملقَّيه ففي أشعة عيني ... ك صباحُ الهدى وليل القبور

وعلى ثغرك الجميل ثمارٌ ... حجبت شهوة الردى في العصير

ملقَّيه فبين نهديك غامت ... هوة الموت في الفراش الوثير
هوة أطلعت جهنمُ منها ... شهواتٍ تفجرت في الصدور
ملقَّيه ففي ملاغمك الحمر ... مساحيق معدن مصهور
يسرب السم من شفافتها الح ... رى إلى ملبس الردى في الثغور
ثم عد فاسمع كيف يصف دليلة عندما جاءت ترقص أمام شمشون وهو مربوط إلى عمد الهيكل وقد دار به عداته الساخرون.
وإذا قينةٌ يخالجها السكر ... على مشهد من الجمهور
فتثنت تضاجع الجوَّ نشوى ... من تلوى قوامها المحرور
رقصةُ الموت يا دليلة هذى ... أم تُراها اختلاجة في الخمور
ثم اسمعه يتكلم بلسان شمشون:
بددي يا زوابع النار أعدا ... ء إلهي ويا جهنم ثوري
وتنفس يا موقد الثأر في صد ... ري وأغرق نسلي الربا في سعيري
وامصصي يا دليلة الخبث من قل ... بي فكم مرة مصصت قشوري
في هيكل الشهوات
في أحد الأبيات الأولى من هذه القصيدة ينجلي للقارئ معنى أفاعي الفردوس وهو العنوان الذي اختاره الشاعر لديوانه، قال عن النساء:
فهن من حية الفردوس أمزجة ... يثور فيهن من أعقابها عصبُ
ثم يعود فيخاطب إحدى أخوات الشقاء قائلاً:
أخاف في الليل من طيف يسيل على ... موجات عينيك حيناً ثم يغترب
طيف من الشهوة الحمراء تغزله ... خمرُ الليالي وفي أعماقه العطبُ
ووجهك الشاحب الجذَّاب ترهبني ... ألوانه يتشهى فوقها اللهب
ما زلت تغتصبين الليل في جَهَد ... حتى تجمد في أجفانك التعب
وما السواد الذي في محجريك بدا ... إلا بقايا من الأحشاء تغتصب
سدوم
قصيدة تعد بحق من أروع منظوم أبي شبكة وكنت ترجمتها كلها إلى اللغة الفرنسية فنشرتها مجلة (لاسيمين) فقدرها كثيرون من الأجانب قدرها فقالوا لي: إن لهذا الشعر طابعاً مستقلاً فهو وإن ضاهى شعر (بودلير) فإنه لا يمت إليه بسبب. وقلما يشهد الأجانب بروعة لنا دون أن يرجعوها إلى أسلوب من أساليب إلهامهم:
في صدرك المحموم كبريت إذا ... لعبت به الشهوات فجر أضلعه
في صدرك الدامي مناجم للخنى ... أورثتها نارَ الزراري المزمعه
فبكل صقع من ضلوعك قسمة ... خُلَع على لهب الشباب موزعه
ثم يتحول الشاعر بعد وصف رائع لسدوم القديمة مخاطباً مدينة هذا الزمان قائلاً:
اسدوم هذا العصر لن تتحجى ... فبوجه أمك ما برحت مقنعه
كانت منكرة كوجهك عندما ... هبت عليها من جهنم زوبعه
قذفتك صحراءُ الزنى بحضارة ... ثكلى مشوهة الوجوه مفجعه
بؤرٌ مسترة الفساد بخدعة ... نكراء بالخز الشهي مرقعه
ويغير الشاعر في القصيدة نفسها الوزن والقافية مخاطباً هذه المدنية:
أسليلة الفحشاء نارك في دمي ... فتضرمي ما شئت أن تنضرمي
أنا لست أخشى من جهنم جذوة ... ما دام جسمي يا سدوم جهنمي
طوفت بي ميتاً بأروقة اللظى ... فحملت تابوتي وسرت بمأتمي
وعصبتُ بالشبق المجمَّر جبهتي ... فرفعتها في عصري المتهكمِ
علمتني لغةَ النبوة عندما ... فجَّرت ألغام السموم بمنجمي
مهلاً كلانا يا سدومُ مسلحٌ ... فلظاك في جسمي وثأري في فمي
الشهوة الحمراء
أنا اتحدنا ليوم واحد وغدا ... يأتي فيخلفني قوم بحبهم
سيعشقونك يوماً يغنمون به ... ما غدرت منك ساعاتي لليلهم
وسوف تنسين (يا أخت الدما) فمهم ... كما نسيتِ على رَغم الدماء فمي
عشرون قلبا شربت الحب من دمها ... وما شبعت ولم يشبعك شربُ دمي
إذن فسوف تظلُّ النفس جائعةَ ... حتى يجف دم في غفلها النهم

حديث في الكوخ
أيها الفجر يا حبيب الشقيين ... ويا مشعل الهوى والشباب
أيها الكوخ والعيون سكارى ... بخمور لم تمتزج بعذاب
لا تجسي قلبي فلم يبق فيه ... من بناء الماضي سوى أخشاب
وانصرفنا وقبل أن أتواري ... عن جمال الشاطئ وعن ساكنيه
قلت للمرأة التي آلمتني ... حين قالت الله ما يُشقيه
لي قلب أفرغته فاتركيه ... في الهوى فارغاً ولا تملإيه
الطرح
وهي آخر قصائد الديوان
أسمع الشاعر يقول بلسان والد الجنين الساقط ثمرة متهرئة عن شجرة الحب:
حملت أملك القنوط إلى وجهي ... وكنت الرجاء في أعماقي
جئت في سحنة المسوخ فلمْ ... حطمت حلماً نما على أحداقي
ألأني بذلت حتى ولم أطعمك ... منه سوت الفتات الباقي؟
ثم يهتف بلسان الحياة قائلاً:
أهلك المائتون في رحمي الحب ... وسمّوا الزلال في ترياقي
فطرحت الأقزام في أسواقي ... عِبَراً للدمار في العشاق
ورأيت الفردوس لفت أفاعيه ... غصوني وكمشت أوراقي
وتراءت لي الطبيعة دنيا ... من كمال نسيقة الأذواق
فرأيت الجماد شبعان حباً ... كل صدر عليه ثدي ساقي
إن في الحب صورة الله لكن ... أين في الخلق صورة الخلاق؟
هذا هو الشعر يتغلغل في تفكيرك وشعورك وذوقك في آن واحد إلى أعماقها جميعاً؛ وكل شعر لا يتحد ثالوث الحكمة والشعور والموسيقى فيه إنما هو محاولة فاشلة غير أن الشاعر الذي يريد أن يحكم موسيقى بيانه في الدماغ المفكر والحس المرهف تحكماً يتوازى سلطانه فيهما لا يوفق إلى إيجاد الوحدة في كل بيت من أبياته. إن هذه الوحدة وهذا الاتساق والتشابه من حيث الصياغة في كل أجزاء القصيدة إنما يوفق إليها من نظم الحكمة آيات لها ترتيبها وتسلسلها أو من نظم دموعاً وابتسامات وحقداً ونزوات لأنه لا ينقر قيثارته إلا بمضراب واحد، أما من يستنطق أوتاره بهدوء التفكير وثورة العواطف في آن واحد فليس لك أن تطالبه إلا بالاتساق في الصورة الكلمة التي يقدمها لك لأنه يجمع على لوحته بين المتنافرات من الخطوط والألوان
إن شعر أبو شبكة يوقفك منه تجاه فيلسوف ومتشرع ومؤمن وكافر وطاهر وعاهر، ويوفقك من قصائده تجاه عراك بين الفكر والشعور والبيان، فإذا ما شهدت هذه العناصر الثلاثة تتماشى على وتيرة واحدة في كثير من أجزاء قصائده فانك لترى أحدها يسطو في أماكن كثيرة على رفيقته فيخضعهما لسلطانه
إن (أبو شبكة) لا يهمه في فنه إلا أن يصور لك منعكسات الكون على نفسه، ونفسه تتنازعها خلجات قلبه وخاطرات دماغه، فهو يحس بأن الحياة المضللة قد أفسدت الإنسان، ويشعر أن في الإنسان نسمة تتململ بين ما حبكت الأجيال حولها من قيود فيصور لك هذا العراك العنيف بين ما هو كائن وما يجب أن يكون. وفي لوحات أبو شبكة من دقة التصوير ما لا تراه إلا نادراً في لوحات الأقدمين والمعاصرين من شعرائنا، لأن ريشته تجود على القبح من ألوانها بقدر ما تجود على الجمال، فهو لا ينزلق بها على الشر انزلاقاً بل يثبتها في مجالها حتى ينشبها في أقصر الحقيقة فيأتيك بأروع ما يصور القبح ويصف الشرور والضلال
فليكس فارس
المسرح والسينما
الفرقة القومية ومديرها
(إذا وجد من هو أصلح مني لإدارة الفرقة فأني على استعداد
للنزول له عن وظيفتي مع معاونته بكل ما في طاقتي)
هو ذا لب الحديث الذي نشره حضرة مدير الفرقة في جريدة البلاغ دحضاً لإشاعة استقالته من وظيفته
فإشاعة الاستقالة هذه ليس مصدرها (أشخاصاً يلذ لهم أن يذيعوا هذه الإشاعة لأنهم

يريدون فيها شفاء لمرض نفوسهم الثائرة على كل ما هو كائن في الوجود) بل مصدرها مدير الفرقة نفسه، فقد سمعتها منه في مرتين، وقد قالها لي في مناسبتين، وقد تحققت بطلانها في ساعتها كما تحققت غرضه من ترويجها وهو النيل ممن يتوهم أنهم يعملون على الحلول محله في وظيفته

لا شأن لي في الانحياز إلى هؤلاء المرضى في نفوسهم الثائرة على كل ما هو كائن في الوجود، والإشادة بكفاءتهم وجدارتهم في فهم فن المسرح وفيما يصلح لمزاج الشعب ويناسب ثقافته. ولا غرض لي في التحزب لمدير الفرقة الصحيح المعافى، المتواضع كثيراً في كل شيء، والمتواضع كثيراً جداً في فهم أبسط فنون المسرح، وإني ما أوردت هذه الحقيقة إلا لأسفر عن طرف من وجه واحد من وجوه تصريف الأمور الخاصة بمدير الفرقة أو بالفرقة نفسها، وعن الجو القاتم الذي استكثفه واستلبده هو بغيوم وسحب من أوهام وظنون صرفته عن غرض الفرقة الثقافي وجعلته يترقب برعشة الوجِل المنخلع اللب هبوب العاصفة وانقضاض الصاعقة يخلق بي أن أعرب عن شعوري أن استقالة مدير الفرقة تعد خسارة فادحة، وأزعم أنه قد يشترك معي كثير ممن قد يعتقدون اعتقادي، إذ لابد لكل عمل مستحدث من ضحية، فالمدير الحالي خير كبش يقرب على مذبح المسرح، غير أن الأوان لم يأن بعد، ولا عيد الأضحى بقريب

قد كان يتمنى مدير الفرقة أن يكون ضحية مقدسة فعلاً للمسرح، كما هو مقدر لكل صاحب

رسالة، ولكن أين رسالة الفرقة القومية غير المكتوبة على الورق؟ أين رسالة مديرها وهل ظهرت براعيمها أو نبتت قرونها بعد؟

بدأت الفرقة أعمالها بلهيب حزمة القش خبا وهجها، وبردت حرارتها، وبقي من رمادها لموسمها الرابع ثلاث روايات، اثنتان معربتان وواحدة مقتبسة! ومن يدري فقد نحمد في العام القادم للفرقة القومية عملها المريض في هذا العام لأنها قد تمن علينا بإعادة تمثيل روايات مثلتها في عامها الأول، أو يطيب لها أن تتبنى الروايات التي مثلتها الفرق الأهلية كما تبنت في هذا العام رواية (مجنون ليلى) وتهمل الروايات الجديدة الموضوعة كما أهملت الكثير من الروايات التي دفعت أثمانها لمؤلفيها وقبرتها في مدافن الفرقة لعدم صلاحها فنياً أو إسكاناً لمؤلفيها الأفاضل

كل شيء ممكن الوقوع، وكل فرض في هذه الفرقة جائز، والذي يهمنا هو معرفة تشخيص العلة ثم العمل على مداواتها؛ ولذلك نسأل أين علة الفساد، أين عوامل الانحطاط؟

أهي الجهل بأصول الفن أم الغربة عن روح المسرح؟

أهي في الأمة التي لا تتذوق الآداب والفنون الرفيعة؟

أهي مرض الصحافة التي أفسدتها الفرقة بمال الإعلانات فصدت أقلام الأدباء والنقاد عن خط كلمة في غير امتداح مدير الفرقة والثناء عليه

أهي في المؤلفين الذي انصرفوا عن الفرقة أو انكمشوا وتباعدوا عنها ضناً منهم بكرامتهم الأدبية أن تكون عرضة لممثلين أعلمهم أجهل من كرّ - مع استثناء واحد أو اثنين منهم - لهم الكلمة الأولى والأخيرة في الحكم على صلاح الرواية للتمثيل أو عدم صلاحها؟

أهي في الأدباء الذين انصرفوا عن الفرقة لأنهم لا موائد لديهم كموائد هذا البربري وذاك الحبشي طافحة بكل ما يطيب للعين والفم؟

أم هي الأطماع بربح المال وجمعه من إعادة تمثيل روايات الفاكهة المحرمة، والحب والدسيسة، والمرأة المسترجلة الرائجة لفكاهتها وفهاهتها، وادخار هذا المال لبناء مسرح خاص من مال الفرقة القومية الخاص، لا من مال الأمة، كأن مسألة الفرقة مسألة تجارية أو عزبة زراعية طاب لناظرها الأمين أن يظهر لسيده ومولاه مقدار ما أدخر من ربح مدة نظارته؟!

قد تكون هذه العلل متجمعة هي بعض أسباب تدهور الفرقة، ولكن العلة الدفينة في نفس المدير دون سواه. هي في نفسه وحده - وإني أتعمد مؤقتاً تجاهل العلة المستوطنة في لجنة القراءة وسأعود إلى شرحها قريبا - لأن حضرة المدير يعتقد اعتقاداً راسخاً أنه لا يوجد بين الستة عشر مليوناً من الأنفس من هو أصلح منه لإدارة

الفرقة، وأنه إذا فرض المستحيل ووجد هذا الذي لم تلده أمه بعد، فان حضرة المدير - حفظه الله - (على أتم استعداد للنزول له عن وظيفته) على شرط أن يبقى معه (يعاونه بكل ما في طاقته)

لست أحاول تقصي عوامل هذا الوهم الراسخ والاستمساك الأخطبوطي وتحليلها خشية أن تتفكك أو تنحل عناصر قدسية حضرة المدير المنهادية المتساندة، ولا الإيغال في استكناه بواعث الوهم واستنتاج النتائج، بل أقول: إن رجلاً كائناً من كان يقوم في ذهنه مثل هذا الوهم الباطل القائم على الإيمان المحدود لا يرجى صلاح للمسرح على يديه البتة. إن رجلاً يؤمن إيماناً محدوداً أن كل ما يقدمه للناس هو أكثر مما يتذوقون، وأدسم مما يفهمون، وكفاية على ثقافتهم التي لا تستوعب، ومداركهم التي لا تفقه سوى رواية اليتيمة، وبناتنا سنة 1937 وإضرابهما. إن رجلاً كهذا، لا حيلة معه لمائة ناقد وألف ناصح ومشفق على النهضة الأدبية، إذ ليس في وسعهم أن يجعلوا ثقباً في الماء كما يقول الفرنسيون في أمثالهم، ولا أن ينهضوا المقعد الذي قال له المسيح (قم أحمل سريرك وامش) فقام ومشى.

لسنا والحمد لله في زمن العجائب الخارقة، بل نحن في زمن لا نقبل فيه التدجيل والخرافات، ولا عبادة الأصنام، ننظر إلى الماضي لماماً، بيد أن طموحنا إلى المستقبل عظيم نستمده في طموح مليكنا الشاب الجميل، ومن روح الأدب الجميل الذي لا يقر غير الروح الشاب.

هل مدير الفرقة يعوزه الشباب؟ هل لجنة القراءة فتية ينبض دم الشباب في عروقها؟ أو هو وهي شن وطبقة رضى الله عنهما؟؟ سوف نرى.

ابن عساكر

العدد 283 - بتاريخ: 05 - 12 - 1938

من مآسي الحياة

ليت للأوقاف عينا!

ليت للأوقاف عيناً تخترق الجُدُرَ وتشق الأستار فترى ماذا يصنع البؤس بأهله!! إنها وا أسفا تسمع ولا تبصر: تسمع ذلك البؤس الملحَّ الوقح الذي يغضب ويصخب ويثور، ثم يقتحم عليها الحجَّاب والأبواب ومعه فوق لسانه الملحف بطاقة من كبير أو وساطة من موظف. وهذا البؤس الذي يدع لأهله قوة السعي وبراعة الحيلة لا يكون في أكثر حالاته إلا طمعاً أو حرفة. أما ذلك البؤس الدفين الصامت الذي يستعين على ضحاياه بكبرياء نفوسهم فيسلبهم الحس والحركة، ويمنعهم الأنين والشكوى، فلا يراه إلا الله الذي فرض الزكاة، وأوجب الرحمة، وجعل على عباده خليفة منهم ينطق بلسانه، ويرى بعينه، ويحكم بأمره

إن في بعض الدور ومن وراء الستور ظلالاً من الحياة الغاربة على أمثال الخيال من بني آدم؛ تنسم أنفاسهم الضعيفة بما بقي من أرواحهم الخافتة في إسلام مؤمن واستسلام صابر. فإذا كشفتهم الحاجة للعيون حسبهم الجاهل أقوياء من الصبر، أغنياء من التجمل، حتى يستوفوا أجلهم المكتوب وتذهب بهم المنون وهم في وحدة الفقر، كما تذهب شمس الصحارى بأنداء الفجر

كان لنا جار مدرس في مدرسة شبرا الثانوية يجثم تحت جناحيه أربع بنات وثلاثة بنين وزوجة وأم، يقلبهم على ما يشتهون من لذاذات العيش الغرير، فيأكلون أكل السرف، ويلبسون لباس الترف، ويلهون لهو المجانة؛ حتى كانت غُرّف البيت من فيض النعيم ومرح العافية كأعشاش البلابل سالمتها الأحداث في جنة من الحُبّ والماء والشجر. ثم لحظتهم عين الدهر فأصيب الأب بمرض السكر؛ وعقر إصبعه الحذاء ذات يوم فأصابته قرحة ساعية. نقلوه إلى المستشفى القبطي فبتر الجراح رجله. وسعت عليه زوجه بالمال والأمل فلم تستطع أن ترد قضاء الله ولا أن تدفع عادى الموت. . . وانقلب المنزل الفرح المرح النشوان قبراً رهيباً يغشاه الحزن، ويجلله السواد، وتخيم عليه الوحشة. فلا زوار يقَدْمون الهدايا، ولا سمار يفدون بالأنس، ولا ولائم تشرق فيها النفوس والكؤوس كل جمعة

وبحثت الزوجة عما خلَّف الزوج الراحل فلم تجد غير ذلك المال الذي كان تحت يدها وقد أنفقته كله في العلاج والجنازة. ونجمت حول بيتها الحزين رموس الدائنين تندلع ألسنتها

بالمطالبة الفاضحة. ففزعت إلى وزارة المعارف تسألها أن تسرع في أداء ما لدى زوجها من الحق؛ فأعطتها بعد لأي مكافئتها على السنين السبع التي قضاها في مدارسها. فقد كان من قبل مدرساً بأحد مجالس المديريات، فلم يجتمع له الزمن القانوني لاستحقاق ورثته جزءاً من المال على سبيل المعاش. وذهب الغرماء بالمكافأة، وبقيت الزوجة وحماتها وبنوها السبعة في غشية الهم وصدمة الواقع، يتلمسون نفساً من الكرب أو شعاعاً من الرجاء يطالعهم من قريب أو صديق فلم ينالوا. وتذكرت الأيم المسكينة أن زوجها كان يعلّم ابن وزير الزراعة فلاذت به تسأله أن يساعدها بجاهه على تربية أولادها في مدارس الوزارة، فتخلص منها بخمسة جنيهات ثم أغلق من دونها بابه

كان بين الزوجين ماتة قرابة؛ وكانت أسرتهما من الأسر الريفية التي ألوى بها الدهر المديل، فلم يبقى منها إلا عجائز وأيامى يعشن على معونة الأستاذ الفقيد، ثم موظف صعلوك في شركة سنجر لم تره الأرملة إلا يوم الجنازة. وقد حملها بغروره على أن تنفق خمسين جنيهاً على ليلة المأتم، لأن أقطاب التعليم وأعيان الأدب لا يمشون إلا على الطنافس الفارسية، ولا يجلسون إلا على الكراسي الذهبية!

وكان للفتاة الكبرى خاطب غني من أصحاب أبيها، فلما وقف على حال الأسرة بعد كاسبها أنقطع خبره فكأنما غابا معاً في قبر واحد! وعجزت الأم عن دفع المصروفات المدرسية لبنيها وبناتها، فظلوا حولها في البيت يندبون الميت، ويبكون الحي، ويسدلون على مأساتهم الفاجعة ستاراً من الصمت والعزلة حذر الشامث. فما كان بابهم ينفتح إلا لتجار الأثاث القديم يخرجون منه بصفقة بعد صفقة من الفرش أو المتاع

ولبثوا على هذه الحال ستة أشهر لم يدفعوا عنها شيئاً من كراء المسكن للحاج محمود، حتى أدركته عليهم شفقة المؤمن، فنزل لهم عن الدَّين ونقلهم إلى غرفتين على سطح من سطوح منازله الكُثْر يسكنونها من غير أجرة

وتركنا حي شبرا منذ خمس سنين فلم نعد نعلم من حال هذه الأسرة المنكوبة شيئاً وفي صباح أمس الأول كنت في ميدان باب الحديد، فتقدم إليّ صبي من باعة الصحف يحييني وهو يبتسم. فتفرسته فإذا هو إبراهيم أوسط الأخوة الثلاثة! فصحت به مستطار القلب من دهشة المفاجأة:

- ماذا فعل الله بكم يا مسكين؟

- مرضت أمي بالروماتزم فلا تنهض، وعميت جدتي من الحزن فلا تسعى، وتزوجت أختي الكبرى من أحد السعاة فلم تصبر على عشرته غير ثمانية شهور. فهي تخيط بالأجرة، وأختي الوسطى تدبر المنزل، وأختاي فلانة وفلانة تخدمان، وأخواي فلان وفلان يعملان، أحدهما صبي كواء، والآخر خادم بقال، وأنا كما ترى. وكل ما نكسبه في اليوم لا يتجاوز ثمن الخبز!

ألا ليت شعري هل تقيم الحكومة في عهد الفاروق الصالح المصلح. الركن الخامس من الدين وهو الزكاة، فتتحقق به أخوة الاسلام، وتنجلي عن الناس هذه الآثام والآلام؟

أحمد حسن الزيات

القاهرة في العيد

للدكتور زكي مبارك

لم يبقى شك في أن القاهرة أجمل مدينة في الشرق، وقد تكون فيها خصائص لا تعرفها باريس ولا برلين. وترجع تلك الخصائص التي تفردت بها القاهرة إلى ما فيها من اختلاف الألوان والأذواق؛ فهي ملتقّى للحضارات الشرقية والغربية، ومجتمعٌ للصحيح والعليل من العقائد والمذاهب. فالمسلمون ألوان، والنصارى أشكال، واليهود أخياف.

وفيها مع ذلك ناس لا يدينون بغير التهالك على مطالب الشهوات والحواس والمدنيّة العنيفة هي ذلك. هي اصطراع الشك واليقين، والغيّ والرشد، والهدى والضلال: وليست المدنيّة أن يهتدي الناس جميعاً أو أن يضلوا جميعاً؛ وإنما المدنية في تعقيد المذاهب، واشتباك العقائد، وتناحر الأجناس. هي تلك الصورة التي توجب أن تقوم الحانة بجوار المسجد، وأن تدق أجراس الكنيسة بين المواخير، وأن تكون في الجامعات أركان يخلو فيها المقامرون، كالذي كنا نراه في أروقة السوربون

تلك هي المدنيّة. فلا تعجبوا إن رأيتم من رجال الدين من يلطخها بالسواد في الخطب والعظات، لأن رجال الدين لا يتمثلون سيادة الفضيلة إلا في مكانين: الجنة والصحراء

وإنما كانت الجنة مجالاً لسيادة الفضيلة لأن أهل الجنة أعفتهم المقادير من النضال في سبيل الأرزاق. والنضال في سبيل الأرزاق هو الأصل في خلق الضغائن والأحقاد وهو الذي بلبل أهواء العالمين فأغراهم بالقتال حول المذاهب الاقتصادية، والمسالك المعاشية.

ومن فضائل الجنة أنها ستبيح الناس جميع ما يشتهون من رغائب الحواس، وبذلك ينعدم القلق الذي يساور أصحاب القلوب والأذواق. ولعل هذا هو السر في خُلوِّ الجنة من الشعراء والكتاب والمفكرين، فما سمعنا أن الجنة ستكون فيها خطب أو قصائد أو مقالات أو مؤلفات، لأن هذه الفنون الأدبية ليست في الواقع إلا صورة من ثورة العواطف والأذواق والأحاسيس، وأهل الجنة أراحهم الله من هذا الجهاد

والبادية مجال لسيادة الفضيلة في رأي أهل الدين لأنها توحي إلى القلوب معاني الزهد والتصوف فينعدم الطمع أو يكاد، وبانعدام الطمع تزول أسباب الدس والكيد والزور والبهتان

هنا القاهرة

أليس كذلك؟

بلى، وأنتم جميعاً تعرفون!

كنا نسمع في عهد الطفولة أن الشياطين تقَّيد في رمضان، ثم يحل وثاقها بعد ذلك ولكن وزارة الأوقاف أو مشيخة الأزهر في مصر تعرف أن الشياطين تنجو من الأصفاد والأغلال في مكان واحد: هو القاهرة، ومن أجل ذلك يترك الوعاظ أعمالهم في الأقاليم التي قيدت فيها الشياطين ويفدون للوعظ في مساجد القاهرة التي لم تقيد فيها الشياطين

وإنما كان الأمر كذلك لأن القاهرة مدينة عظيمة جداً من الوجهة الاقتصادية. والعظمة الاقتصادية هي الأساس لجميع المشكلات، وهي مصدر الحروب، وهي مثابة الشياطين وعند النظر في هذه الدقائق نعرف كيف فطنت وزارة الأوقاف إلى سَوق الوعاظ إلى القاهرة في أيام رمضان

ولكن هل شعرت الجمارك بأقوال الوعاظ في رمضان؟

وهل يسر الحكومة أن تشعر الجمارك بأقوال الوعاظ في رمضان؟

ليتني أملك حرية التعبير عما أريد أن أقول!

لو كنت أملك حرية التعبير لقلت: إن في مقدور الحكومة أن تراقب الجمارك في شهر رمضان، ولو فعلت لاستراح الوعاظ من محاربة الشياطين في رمضان

ولكن الحكومة لن تفعل، لأن هناك شيطاناً يصدها عن ذلك هو شيطان المدنية الذي يجعل حرية التجارة من الشرائع. وهذا الشيطان الأعظم هو الذي جعلنا نُزهَى ونختال كلما تذكرنا أن القاهرة أعظم مدينة في الشرق

أترك هذه الفلسفة وأشرع في كلام آخر قد ينفع بعض النفع

أنا أقضي العيد في القاهرة، وهي أول مرة أعرف فيها ملاعب القاهرة في العيد فقد كنت في الأعوام السوالف أقضي العيد في سنتريس قبل أن يرزأني الدهر بموت أبي، ثم شاءت المقادير ألا أعرف العيد فيما عدا ذلك إلا في باريس وبغداد، فقد دخلت باريس أول مرة في يوم عيد، ثم خرجت منها بعد أداء امتحان الدكتوراه في يوم عيد، وأنا أواجه العيد في القاهرة بعد عيدين قضيتهما في بغداد. . .

فهل يكون عجيباً - وهذا حالي - أن أفرح بالقاهرة في العيد؟

أنا في عيد أيها الناس، فدعوني ألهو وألعب يوماً أو يومين!

هذا هو العيد، وتلك هي القاهرة

فاعذروني إن جننت وفتنت بالقاهرة في يوم عيد

لن أذهب إلى نادي المعارف في بغداد لأسأل عن رؤية الهلال، ولن أقضي مساء الشك بمنزلي في شارع الرشيد

وما الموجب لذلك؟ لقد صمنا رمضان ثلاثين يوماً ولم يبق إلا أن نواجه الباسمين والباسمات في شارع فؤاد

إي والله، هذا شارع فؤاد في ليلة عيد!

وهل ينتظر شارع فؤاد ليلة العيد؟

وهل رأى الناس في مشرق أو مغرب شارعاً مثل هذا الشارع في الحيوية والابتهاج

والانشراح؟
إن شارع فؤاد لا ينتظر ليلة العيد، فجميع أيامه ولياليه مواسم وأعياد
وما ظن القارئ بشارع يشهد بأن القاهرة أجمل بقعة في الأرض وأنها طليعة الفردوس؟
ما ظن القارئ بشارع يتموَّج فيه الحُسن ويصطخب فيه الفُتُون؟
ما ظن القارئ بشارع يراه أصحاب الأذواق من المعارض الدولية للصباحة والملاحة والجمال؟
ما ظن القارئ بشارع هو الشاهد على أن القاهرة أصبحت أعظم مرجع من مراجع الشعر والخيال؟
وما عسى أن أقول في شارع كان ولا يزال أعظم مصدر من مصادر الوحي لشعراء وادي النيل؟
نحن في شارع فؤاد، وهذا مشربٌ كُتِب على بابه بأحرف من النور الوهاج:
رمضان ولّى هاتها يا ساقي ... مشتاقةً تسعى إلى مشتاق
رمضانُ ولّى؟ رمضانُ ولّى؟
وهو كذلك!
هاتها يا غلام!
وما أكاد أنطق بهذا اللحن الطرُوب حتى يدخل شيخ من أعلام رجال الدين فيقول: ما أتى بك ههنا يا دكتور!
فأجيب: أنا في ضيافة أبي حنيفة النعمان!
ويسارع الشيخ فيطلب كأساً من قهوة أبي الفضل لا قهوة أبي نؤاس
ويغلبني التجمل والتوقر فأطلب كأساً من قهوة أبي الفضل وأصدف عن قهوة أبي نؤاس
وما هي إلا لحظة حتى نشتبك في جدال مزعج، ثم يتوافد أمثاله وأمثالي، فتتحول الحانة إلى حلقة من حلقات الأزهر الشريف، وينظر إلينا غلمان الحانة مبهوتين مذعورين
كيف تنقلب الحانة إلى مثل ما انقلبت إليه في ليلة العيد؟
وكيف أعود شيخاً متعجرفاً متغطرساً لا يعرف غير جدال الفقهاء؟
أيها الشيخ
صددت نفسي، صدَّ الله نفسك!
ولكن لا بأس، فتلك هي القاهرة التي يصطرع فيها الهدى والضلال؟
خرجت من الحانة مصدوع الرأس من قهوة أبي الفضل ومن الجدال حول الحرام والحلال، فأين أذهب؟
أين أذهب؟ أين أذهب؟
هذا صديق خفيف الروح، ولكنه أيضاً معمَّم وإن كان يحمل الطربوش، ذلك بأنه يحمل فوق قلبه عمامة أضخم من عمامة الشيخ الفَصّالي، وما رأيت الشيخ الفَصّالي ولكن عمامته سارت مسير الأمثال. وكان هذا الصديق معمَّم القلب لأنه يعايش رجال الدين بالأزهر الشريف
وأين أذهب في ليلة العيد مع هذا الصديق المطربش الرأس المعمم القلب؟
هل أردّه إلى مشارب القهوة والشاي في حي سيدنا الحسين؟
أغلب الظن أنه يتشهى السهر بسقط اللوى بين شارع الألفي وشارع إبراهيم!
رباه ما هذا الذي أسمع؟
لقد سمعت أشياء لم تكن تخطر في البال. فهل أستطيع أن أصرح؟
هل أستطيع أن أقول إن حي الأزهر صار قطعة من القاهرة تشتبك فيه نوازع الرشد والغي، والهدى والضلال؟
أنا أعرف أن الأماكن التي تصطبغ بالصيغة الدينية تنتفع من الاتسام بسمة الدين.
ولكني أنكر أن يصل الجشع ببعض الناس إلى الوقوع في مهالك الانتفاع.
يجيء جماعة من جاوة أو من الهند أو من الصين للاستصباح بنور الأزهر الشريف
فيحيط بهم ناس لا يؤذيهم أن يستغلوا سمعة الأزهر أسوأ استغلال
ولو كان هؤلاء المستغلون تجاراً لخف الأمر وهان. ولكنهم يتصلون بناس لهم في

المعاهد الدينية مكان، ولهم مع رجال الدين صلات.
فهل يعرف هؤلاء الغافلون خطر ما يجنون على الأدب والوطنية حين يستبيحون
(استغفال) بعض الوافدين على الأزهر من أهل جاوة والهند والصين؟
إن من حق الحي الأزهري أن ينتفع من صفته الدينية. ولكن من واجبه أن يراعي أصول
الأدب والذوق فلا يفارقه زائر إلا وهو معمور القلب بأطيب الذكريات، فمن العيب أن
نشوه سمعة الأزهر وسمعة مصر لنحصل على منافع خسيسة لا ينصب لها ميزان.
وقد آن لشيخ الأزهر أن يعرف أنه مسئول عن كرامة ذلك الحي، آن له أن يفكر في
تنظيم هيئة خالية من المطامع تشرف على الجوانب الاجتماعية والاقتصادية في الحي
الأزهري، فأن لم يفعل فسيجني عواقب الإهمال بعد حين.
أيتها القاهرة
ماذا تُظهرينَ وماذا تُضمرين؟
اكشفي القناع قبل أن يمزقه القلم أقبح تمزيق
مضت ليلة العيد وجاء يوم العيد
الدنيا تموج بالمحاسن والمفاتن في كل أرجاء القاهرة، وكل مكان في القاهرة مباح إلا الحدائق
ولماذا؟ لأن النعيم بحدائق القاهرة مقصور على أطفال الملاجئ في يوم العيد
الحمد لله
(لا يزال في القاهرة مجال للطيبات)
أما بعد فقد انقضت أيام العيد، وبقيتَ يا قلبي بلا عيد
أين أيامك يا قلبي وأين لياليك؟
وما حظك من هذه المدينة التي تموج بالسْحر والفتون؟
أكل حظك أن يطوف بك العقل حول هذه الأشواك؟
ليت عهدك بالغواية كان طال، وليت الأقدار رحمتك من ثورة العقل في هذه الأيام!
كتب عليك يا قلبي أن تعيش بين أدغال المدنية، حيث لا يحنو قلب على قلب، ولا
يأنس روح بروح، ولا تأتلف نفس مع نفس، إلا بروابط وثيقة من أصول المنافع، وآه ثم
آه من عصف المنافع بأهواء القلوب!
أتراني غدرت بك، أيها القلب؟
أحذر أن يمرّ هذا في وهمك، فما كنت إلا أكرم صاحب وأشرف صديق
وهل غدرتُ بأحد حتى أغدر بك؟
لقد عانيتُ في سبيلك ما عانيتُ فطوَّفتُ بالمهالك والمعاطب لأروى ظمأك المشبوب،
ولأريك مطالع الأهلة في القاهرة والإسكندرية وباريس وبغداد
وما زلتُ أتلطف بك يا قلبي وأترفق، وهل صادقتُ من صادقت من كبار الكتاب
والشعراء إلا لأزفَّ إلى حِماك كرائم المعاني؟
ولكنك - مع فضلي عليك - تلقاني باللؤم في بعض الأحيان
وإلا فما هي حجتك في الهيام بعروس الزمالك؟
عرفتُ حجتك يا قلبي، أنت تريد أن تصدني عن الحتف الذي ينتظرني في البلد الذي
أعرف وتعرف
أنت تريد أن تصدني عن (الحبيبة الوفية) التي ترسل بعض جدائلها المعطرة في كل
خطاب ولم تظفر مني بجواب، شكر الله فضلها الجميل وعفا عني
عرفت حجتك يا قلبي، فأنت تريد أن تقول:
ويحسبُ نسوانٌ من الجهل أنني ... إذا جئتُ إياهن كنتُ أريدُ
فأقسم طرفي بينهن سَوَّيةً ... وفي الصدر بونٌ بينهن بعيدُ
أتريد أن تقول ذلك؟ وكيف وأنا أحب معك عروس الزمالك؟
أحبها من أجلك يا قلبي، وأحبها لأنها سمية الاسم الذي تعرف وأعرف
أحب التي هنا والتي هناك، وأطلع كما يطلع القمر بكل سماء، وأهيم هيام النسيم
بجميع الحدائق والبساتين
ولكن متى نجيب صاحبة الجدائل المعطرة يا قلبي؟
حدثني متى نجيب، فقد يحملها اليأس على الصدود
أيها الجمال

تحدث ولا تقل غير الحق
هل عرفت قلباً أشرف من قلبي، وضميراً أطهر من ضميري؟
وأنت أيها الليل
هل عرف المحبون من أسرارك ما عرفتُ؟ وهل استصبحوا بظلامك كما استصبحت؟
(مصر الجديدة)
زكي مبارك
مقالات في كلمات
للأستاذ محمود غنيم
الحياة والأمل
قالوا: إن فرعون حينما أراد أن يبلغ الأسباب، أسباب السموات فيطلع إلى إله موسى، هيئ له تابوت ذو أربعة أعمدة، ثم علق في أسافل تلك الأعمدة أربعة نسور خماص، وفي أعاليها أربعة حملان مسلوخة الجلود، ثم استقل فرعون التابوت فانطلقت النسور تشق أجواز الفضاء، تمني نفسها عبثاً بذلك اللحم الغريض، ثم كان من أمرها ما كان
وما أظن أننا في هذه الحياة إلا أشبه بتلك النسور، وما أظن الغاية التي نسعى إليها أقرب من تلك الحملان، مع تعديل طفيف في طرفي التشبيه، فنسور فرعون تسعى وراء أمنية لا يتسنى تحقيقها، ونحن كلما تحققت لأحدنا أمنية أسلمته إلى أخرى، وهكذا يقضي الإنسان عمره وراء سلسلة من الآمال متصلة الحلقات غير متناهية، حتى يخر صريعاً وأمانيه حوله، وقد حال بينهما من الموت سد منيع
هذا طالب ينشد شهادة، وهذا حامل شهادة ينشد راتباً، وهذا ذو راتب يريد أن يتضاعف، إلى آخر تلك السلسلة التي لا تنتهي حلقاتها
ثم هذا شاب يريد أن يتزوج، وهذا زوج يريد أن ينجل، وهذا ناجل يريد أن يرى أنجاله رجالاً، إلى آخر تلك السلسلة التي لا تنتهي حلقاتها
ثم هذا قائد يريد أن يكون وزيراً، وهذا وزير يريد أن يكون أميراً، وهذا أمير يريد أن يوطد نفوذه أو يوسع رقعة ملكه
قالوا لنابليون ذات عشية ... إذ كان يرصد في السماء الأنجما
بعد افتتاح الأرض ماذا تبتغي؟ ... فأجاب أنظر كيف أفتتح السما؟
الحياة نار مشبوبة وقودها الأمل؛ وهي قطار، وهو بمنزلة البخار، وإن للطبيعة في خداع الناس عن هذا الطريق أفانين، فهي تزين للإنسان الغاية من الغايات، فيدمى أخمصيه سعياً وراء تحقيقها، حتى إذا جاءهم لم يجدها شيئاً، فتلوح له بأخرى، وهكذا يقضي الإنسان حياته في سعي متواصل، وهي لا تتورع في هذا السبيل عن خداع الناس بالحق وبالباطل، وعندها لكل صنف من الناس صنف من الآمال يخلب لبه ويغريه ببريقه. أرأيت ذلك
الشيخ المحطم الذي يقف بإحدى قدميه على حافة القبر، والذي لا زوجة له ولا عقب يرث ماله من مال أو لقب؟ لقد اخترعت الطبيعة له شيئاً يقال له طيب الأحدوثة، وخلود الأسماء بعد الفناء، فأجهدته في شيخوخته المحطمة ولم تدعه يقضي أيامه المعدودة في أمان واطمئنان
قرأت في بعض المجلات أن الإمبراطور غليوم لا يزال يمني نفسه بالعودة إلى عرش ألمانيا، وأنه لا يزال يترقب اليوم الذي يثوب فيه الشعب الألماني إلى رشده، فيستدنيه من منفاه، ويسلم إليه مقاليد الأمور. ولعلك لا تعلم أن المحكوم عليهم بالإعدام لا ييئسون من الخلاص حتى ساعة التنفيذ، ولهم فروض لا تخطر بالبال، تنتهي كلها إلى غاية واحدة هي النجاة
إنها الطبيعة، الطبيعة التي سلحت النساء بالنعومة والجمال لإغراء الرجال، والتي سلحت الزهر بطيب العرف وألوان الطيف ليجذب الطيور فيشاطر الريح حمل حبوب التلقيح. هي هي التي حاكت لنا خيوط الآمال، لنتعلق بها فيعمر الكون، ويسير نحو الكمال
فليت شعري، ماذا يدعوها إلى ذلك كله؟ أهو شيء لا نعلمه؟ أم لا شيء؟
الأيمان بالحظ
قال صديقي في تهكم: ألم يبلغك نبأ التعينات الجديدة؟

قلت: لا، وماذا يعنيك من أمرها؟
قال: إن بين المعينين مدرساً جديداً، كان بالأمس لي من الأولاد، فأصبح الآن من الأنداد
قلت: وماذا في هذا؟
قال: فيه شيء كثير، فقد كان صاحبنا هذا هدفاً لسهام المعلمين - وأنا من بينهم - وكان المثل في كساد الذهن، وقلما وقعت عيني عليه إلا نائماً أو متثائباً. وكنت أعتبره (ترمومتر) الفصل، ما فهم أمراً إلا اعتبرته مفروغاً منه مفهوماً من الجميع
قلت: هون عليك يا صديق، وماذا أنت فاعل إذا جاءك هذا المتثائب النؤوم غداً يفحص أعمالك، ويقفك منه موقف المسؤول من السائل، تتلقى إرشاداته، وتتقبل نصحه بقبول حسن؟
إنك يا صديقي لا تؤمن بالحظ، أما أنا فإنني مؤمن قوي الأيمان به. أعتقد أن للجد (بفتح الجيم)، المرتبة الأولى في تصريف الأمور، وللجد (بكسر الجيم) المرتبة الثانية، فلو شبهنا العالم بفلك لكان الأول بمنزلة الربان، والثاني بمنزلة السكان
لعل التربة التي أنبتت نابليون - أنبتت من أمثاله عشرات لهم مواهبه ومقدرته على تعبئة الجيوش، وتسلق الجبال، واختراق البحار، ولكن أحدا منهم لم يمهد له الحظ ما مهد لبونابرت من الأسباب. ولو أتيح له ذلك لكان نابليونا ثانيا يصرف ملوك أوربة تصريف قطع الشطرنج، ويلعب بعجينتها كما يلعب الأطفال بالصلصال
إن الحظوظ والمصادفات تلعب دوراً هاما في تاريخ الجماعات بله الأفراد. ومن يدري ماذا يكون مصير مصر لو لم يقع مارك أنطوان في حب كليوباطرة؟ وماذا يكون مصير الإسلام لو لم يتح للمسلمين التغلب في بدر؟ بل ماذا كان يكون مصير البشرية جمعاء لو لم تهف نفس حواء إلى شجرة الحنطة أو التفاح؟
إذا قلت يا صديقي: إن الرجال يسعدون أو يشقون بما يقدمون من أعمال، فما بال الأطفال، يولد أحدهم في الغربال، وتدق لثانيهم البشائر قبل مولده فإذا استهل وجد عرشا يمهد له، وأمة تراض على طاعته، وتهافتت عليه المراضع، وترامت على أقدامه الحواضن؟
إن الإنسان يا صديقي ليقضى زهرة شبابه في كد وتحصيل، ثم يسعى حتى ينتعل الدم في سبيل الوصول إلى منصب يدر عليه في عام ما يتقاضاه بعض المطربين في يوم من الأيام، فهل كون المطرب صوته، وخلق لهاته بيديه؟
وماذا عملت الفتاة تخلع عليها الطبيعة مسحة من جمال، فيتهافت على بابها من الخطاب وفود، بينما لا تجد أختها زوجا من عود؟
وبعد، فإذا قلنا: إن الملوك قادوا الجيوش فتبوؤا العروش، فعلى أي أساس شرف الله - جلت حكمته - برسالته أناسا من الدهماء، فجعلهم أنبياء، وبشر بهم قبل ميلادهم بمئات من السنوات؟
قال صديقي: الآن آمنت
قلت: إذن استرحت
الذوق والشعر
تتناول قطعة من التفاح فتحس لها طعماً لذيذاً، ثم لا يطالبك إنسان أن تقدم على لذتها دليلا،
ولو حاولت ما استطعت إلى ذلك سبيلا. وتشم عبير الزهر، فتقول: إنه طيب، ولو سئلت: لماذا هو طيب؟ لم تحر جواباً. وتسمع عزف الموسيقى أو خرير الغدير أو سجع الطيور، فتقول: صوت شجي، ولكن لماذا هو شجي؟ لست تدري ولا المنجم يدري. وتستطيع أن تقول مثل ذلك في كل منظر جميل يقع طرفك عليه، فلا يطالبك إنسان بتعليل جماله، ولو فعلت لطال بك البحث والتدليل، دون أن تنتهي إلى تعليل ولكنك حين تستطيب قطعة من النظم طالبك النقاد بإيراد العلل والأسباب، كأن طيب الشعر في الذوق غير طيب التفاح في الفم، والزهر في الشم، والموسيقى في السمع، والحسن في العين
إنه الذوق، ثم الذوق وحده، الذوق الذي يجعلك تتشهى طعاماً وتعاف آخر، هو الذي يجعلك تسيغ شعراً وتغص بشعر؛ وهو الذي يقسم القافية إلى قافيتين، إحداهما تشج

الجبين، والثانية أندى على الأكباد من العذب البراد؛ وهو الذي يقسم دواوين الشعراء إلى قسمين، أحدهما للخلود، والثاني للوقود
لا يخضع الشعر لمنطق النقاد، فاعتبر كل ما صح من أقيستهم في ذلك سفسطة لا طائل تحتها. وكم من شعر هوجم واستعملت في مهاجمته أسلحة الأقيسة والبراهين، وآخر ناصرته تلك الأسلحة فمات الثاني في مهده، وبقى الأول خالداً، تتداوله الرواة، وتتناوله الشفاه. . .
أرأيت لو قال لك قائل: أن صوت الحمل أشجى من صوت العصفور لأن الأول ألذ طعما وأكبر حجما، وأوفر شحما ولحماً، أو قال لك: أن ريح البصل أطيب من ريح الزهر لأن الثاني مرير الطعم، سريع الذبول، لا يصلح الطعام بخلاف الأول. أرأيت لو قال لك قائل ذلك هل تصيخ إليه؟ إنه لم يكذب ولكنه لن يجد له سميعاً
من هذا القبيل قولهم: إن هذا الشعر حافل بالمعاني الفلسفية، والنظريات الكونية و. . و. . . ثم هو مع ذلك لا يحرك مشعراً من مشاعرك، ولا يمس وتراً من أوتار قلبك، بل يسمعه النائم فلا يستيقظ، والصاحي فينام، وهبه نافعاً كما يقولون، فما مثله مع ذلك إلا كمثل (زيت الخروع) يستعيذ من شره الإنسان، وإن صحت به الأبدان
حاول ما استطعت أن تعلل سر الجاذبية في الشعر، فسوف يعييك البحث. لن تستطيع رجعها إلى لفظ ولا إلى معنى، فرب لفظين مترافدين أحدهما يقيم البيت، وثانيهما ينقضه من أساسه، ورب معنى واحد في بيتين؛ أحدهما يثير الإعجاب، والثاني يثير السخرية والاستهزاء
أيها القارئ، إذا تلاءم الشعر وذوقك فخذه، وإلا فدعه، فأن قبح الأول لك مقبح، أو حسن الثاني لك محسن، فاهزأ بقوله، واضحك منه ملء شدقيك، ثم استفت قلبك إنني أومن بالذوق، ولكنني بجانب ذلك لا أجحد أن الأذواق تختلف، وأن منها الفاسد الذي لا يصلح للحكم، بيد أن الذوق على ما به من هنات لا يزال في نظري أصلح المعايير التي يقاس بها الشعر، فينبغي أن نعول عليه، وعليه وحده، حتى نهتدي إلى مقياس محسوس تقاس به المعنويات، كما تقاس الحبوب بالقدح والصاع، والأطوال بالباع والذراع
(كوم حماده)
محمود غنيم
في سبيل الإصلاح
داء الشباب!
(الخوف من الكلام في هذا الداء هو الذي أوقعنا فيه)
للأستاذ علي الطنطاوي
وهل داء الشباب إلا الميل الجنسي الذي يملأ نفوسهم، ويسيطر على أرواحهم، . . . ويتراءى لهم في كل جميل في الكون، شيطاناً لعيناً يقود إلى الهاوية وإبليساً من أبالسة الرذيلة، يدعوا إلى دين الهوى، وشرع الشهوات، ويحدر عقل من يستجيب له فينزل من مكانه في الرأس إلى غير مكانه، ويجعل صاحبه عبداً للجسم، مؤتماً بالشيطان؟
وهل يأتي ممن كان إمامه إبليس، وشرعه هواه، إلا قطٌ في شهر شباط. بل ما يبلغ والله أن يكونه، فان القط تشعله الشهوة شهراً في العام، وسائر أيامه للصيد والوثب والسعي للرزق وما خلق الله له القطط، وعبد الشهوة من الناس تتعبده الشهوة في كل حين. . . وللقط طريق واحد إلى بلوغ شهوته هو (الطريق) الذي (شقه) الله لبقاء الجنس، تبعاً للسنة التي سنها، أما عبيد الشهوة من البشر فلهم مائة طريق. تسعة وتسعون منها تخالف سنة الله، وقوانين الحياة، وتأباها العجماوات، ويترفع عنها الحمير، ولا يرتضيها لنفسه (صاحب اللعنات) إبليس. . . والقط في شهر الشهوة، لا ينسى قِطيته ولا يدع صيد الفار، ولا السعي للعيش، والرجل إذا تعبدته الشهوة ينسى إنسانيته، ويهمل الواجب عليه، ويقعد عن المشي في مناكب الأرض في طلب الرزق، بل لقد تبلغ به السفاهة والجهالة أن يفرَّ من الحياة منتحراً جباناً ذليلاً، لأن. . . لأن امرأة لم تعطه من نفسها الذي يريد، ولو عقل عقل القط لتركها إلى غيرها، وليس يبالي القط مادام قد قام بقسطه من حفظ النسل، أكانت صاحبته بيضاء مبرقشة أو سوداء حالكة، ولم نعهد قطاً قطع نفسه بأسنانه، أو ألقى بها في البركة، حزناً على

حبيبته القطة. . . والقط (بعد ذلك) يبقى عزيزاً، يطارد القطة مرفوع الرأس، مشدود العضل، بادي القوة، والرجل إذا استعبدته الشهوة يصبح ذليلاً حقيراً، كافراً بالرجولة، فيهمل دروسه إذا كان طالباً لأن صاحبته (أو شيطانته) لم تدع له وقتاً ولا عقلاً للدرس؛ وإذا كان موظفاً أنسته عيناه أمانة العمل، وحرمة المصلحة، وواجب الشرف، وقدسية العدل؛ وإذا كانت صاحبة سره في تجارته نسى تجارته، وأضاع الأمانة والربح، وأهمل السعي والعمل. . . فلا يكون من وراء الشهوة إلا ذل النفس، وموت الشرف، والضعة والتسفل: المعلم سيد تلميذته، والمدير أمير سكرتيرته، والطالب عزيز حيال رفيقته، فإذا جاءت الشهوة، ذل المعلم فكان هو التلميذ وهي السيدة، وذل المدير فكان هو الأجير وهي الآمرة، وذل الطالب فكان من رفيقته بمثابة كليها. . . يتبعها ويبصبص لها!

أو ليس من الذل أن تكون حياتك معلقة بغيرك، وسعادتك بيد سواك، فأنت مضطر إليه، وأنت لعبة في يديه، إن أقبل عليك سعدت، وأن أعرض شقيت، وان مال إلى غيرك اسودت أيامك، وتمنيت الموت؟

هذا والله الذل الذي لا ينفع معه المال الكثير، ولا الجاه العريض، ولا. . . (ملك إنكلترا وتوابعها. . .) وهذه هي حقيقة الحب، الحب الذي ألهه الشعراء!

على أن الحب في الأصل جميل مقدس، وعلى الحب قام الوجود كله وائتلف وسار إلى غايته، والشهوة نافعة لازمة لم تخلق عبثاً، ولا أداة للشر، بل خلقت حياة للجنس وعصمة من أن يمحى أو ينقرض، ولسنا نحقر الحب ولا نذم الشهوة، وإنما نذم الغلو فيهما، وولوجهما من غير بابهما، وأخذهما على غير الوجه الذي خلق الله لهما. . . نذم منطق الشهوة، وللشهوة منطقها الذي يسلب الدين دينه والحكيم لبَّه، ويريه أن له الحق في كل النساء، وانه لم تخلق امرأة إلا للذته (هو) ومتعته، ويصنع له إبليس أدلة هذه الدعوى فيقبلها بعقله الذي انحدر من رأسه، ويتلقاها بأعصابه الهائجة المجنونة، ثم يدله إبليس على سبل تحقيقها، فيسلكها لا يبالي الدين ولا العرف ولا المروءة ولا شيئاً مما تواضع على إجلاله الناس ويتم إبليس عمله، فيدخل في رءوس نفر من الأدباء، ثم ينطق بلسانهم، ويخط بأقلامهم، هذا الأدب الوقح البذيء، أدب أبي نواس من الأولين، وآباء نواس من العصريين، الأدب الذي يستقر في أدمغة الشباب استقرار صناديق البارود في أصول البيوت، فلا يلبث أن يتفجر عند الشرارة الأولى، تخرج من عين امرأة، فينسف عقل صاحبه ودينه، وأخلاق الأمة وصيانتها، ويقطع نسلها ويؤلف (المشكلة الكبرى) التي عرضنا من أسابيع إلى وصفها. . . ولا نعدم مع ذلك من الناس من يعجب بهذا الأدب ويكبره ويسمي صاحبه بأسماء الجهابذة الأعلام من أرباب البيان وحملة الأقلام. . .

وهل في الأدب المكشوف، إلا كشف سوأة من سوءات الفكر، وعورة من عورات الضمائر، يحرص العقلاء على سترها كما يسترون عورات الجسم؟

أستغفر الله ماذا أقول إن الناس قد كشفوا عورات الجسم على السواحل وفي المصايف، وأبدوا كل سوأة، وافتخروا بها، وسموها جمالاً وكمالا، وصوروها وملئوا بها جرائدهم ومجلاتهم، أفيلام الشباب إن جن جنونه، واشتعلت في أعصابه النيران؟

اخطبوا أيها المدرسون ما وسعكم الجهد، واهرئوا ما انفسح لكم سبيل الهراء، وقولوا للشاب كن صيناً وعفيفاً. إنها لن تجدي عليه خطبكم، ولا يستقر في نفسه هراؤكم؛ إنه يخرج فيسمع إبليس يخطب بلغة الطبيعة الثائرة في السوق على لسان (حال) المرأة المتبرجة، وفي الساحل على لسان الأجساد العارية المغرية، وفي السينما على لسان المناظر المتهتكة المثيرة، وفي المكتبة على لسان الجرائد المصورة والروايات الخليعة الماجنة، وفي المدرسة على لسان أصحابه الفساق المستهترين. . . ولسان المدرسين حين يدرسون شعر أبي نواس المقرر رسمياً في المنهج!

إن الشاب تتعبده الشهوة فيخضع لها، لأن سهامها تنصب عليه من كل جانب، فلا يطيق أن يتقيها، فيصورها له خياله عالماً مسحوراً عجيباً، وجنة فينانة غريبة، فيتمنى دخولها، فلا يجد من دونها حجاباً، بل يجد من يسوقه إليها، ويحفزه عليها، فلا يخرج منها أبداً، ولا عليه إن ماتت الأمة أو عاشت، فهل فكر أحد من أطباء الأخلاق في هذا الداء؟

بناء الأخلاق ينهار، وسوق الزواج يبور، ونسل الأمة ينقطع، والمخازي والرذائل تعم وتنتشر، والقادة والمصلحون وأرباب الأمر يرون ذلك كله، فلا يبالونه ولا يفكرون فيه،

ولا يفتشون له عن علاج. . . مع أن العلاج هين ميسور والعقاقير دانية قريبة، لا ينقصها إلا يد تمتد إليها فتأخذها لتجرعها المريض وأين تلك اليد؟

إن الله الذي وضع الشهوة في النفوس جعل دواءها الزواج، فإذا تعذر الزواج فهنالك طرق للوقاية من الفاحشة، وهنالك السدود دونها والحجب: هنالك الدين، فإذا علمتم الشاب دينه، وعرفتموه بربه، ونشأتموه على التوحيد الخالص، والإيمان الصحيح حتى يعلم أن الله مطلع عليه، لاستحيا من الله أن يأتي الفاحشة بسمعه وبصره، كما يستحي أن يأتيها على مشهد من أبيه الذي يجله، أو أستاذه الذي يحترمه، ويعلم أن من حق الله عليه، وقد أعطاه هذه الأعضاء وأنعم بها عليه ألا يستعملها إلا في طاعته. . . هذا أول سلاح تدرأ به المعصية،

وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن) أي لا يستطيع أن يزني وهو مؤمن أن الله مطلع عليه، ناظر إليه، ولمنعه الحياء من الله أن لم يمنعه الخوف من العقاب

وهنالك الشرف، فإذا ربيتم الشاب عليه، وجعلتموه يحس به ويقدره قدره، وأفهمتموه معنى المروءة وقيمة العرض، لمنعه من الفاحشة ما كان يمنع الجاهلي الشريف، من أن ينظر إلى جارته حتى يوارى جارته مأواها

وهنالك الصحة، فلو عودتموه الرياضة، وعرفتموه قيمتها، وأنبأتموه أن الله جعل مع العفاف الصحة والسلامة، ومع الفاحشة الضعف والمرض والمصائب السود لاقتصد في اتباع الشهوة، إن لم يكف عنها، ولم ينظر إليها إلا من سبيلها، وسبيلها الزواج

وهنالك طيب السمعة، وحسن الذكر في الناس، وهنالك الكثير من الأسلحة والحجبَ والعلاج كله في يد وزارة المعارف وآباء الفتيات

أما وزارة المعارف، فتستطيع أن تعني بالأخلاق العامة، فتبذل جهدها في مراقبة الجرائد والمجلات والروايات، وتبث الوعاظ ينشرون في الناس الفضيلة ويرغبونهم عن التهتك والعري

وتستطيع قبل ذلك كله أن تهتم بأخلاق التلاميذ، فتوكل بهم من يفهمهم (قبل سن البلوغ) حقائق الحياة الجنسية بأسلوب علمي يضرب فيه المدرس المثل بتلاقح الأزهار، واجتماع الحشرات والطيور، ويبين لهم بشاعة الفاحشة على مقدار ما يتسع له القول وأضرار (العادات السرية السيئة) ويكون حكيما في بيانه، فلرب بيان مثل هذا، يخلو من الحكمة، فيقود إلى الرذيلة بدلا من أن ينصرف عنها

وتستطيع وزارة المعارف أن تعلي من شأن درس الدين، وتختار له من المدرسين من يكون قدوة في سمته وخلقه وسيرته، فان المدرس يفعل بسيرته في نفوس الطلاب ما لا يفعل بمحاضراته وتدخل هذا الدرس في الفحوص والامتحانات العامة، وتجعل الطلاب (يرسبون) إذا قصروا فيه، لأن الطلاب لا يمكن أن يعنوا بدرس لا (يرسبون) إن قصروا فيه

وتستطيع وزارة المعارف أن تلزم المدرسين بأن يكونوا مثالاً كاملاً للاستقامة والعفة والمروءة، وأن يكونوا قدوة للطلاب صالحة، فأنا قد رأينا من ليس كذلك، رأينا من يصحب طلابه إلى دور الفحشاء!

وتستطيع وزارة المعارف أن تضع القوانين الصارمة لحماية عفاف الطلاب من أنفسهم ومن غيرهم. . .

أما آباء الفتيات الذين لا يزوجوهن إلا بيعاً، فهم رأس البلاء، ولكنه لا ينفع معهم الكلام

أما أنتم يا اخوتي الذين يقرئون هذا الفصل من الشباب، فإني أنصح لكم (وأنا شاب مثلكم)، بأن تصرفوا ميولكم إلى جهة علوية، فان الميل كالبخار المتصعَّد من القدر قد يجد سبيله فيدير الآلة، ويسير القاطرة، وقد يحتبس فتنفجر به القدر، وقد يسيل على الأرض هدراً، فأنا لا أحب أن تسيل ميولكم هدراً، ولا أن تضيق بها نفوسكم حتى تنفجر، بل أحب أن تتساموا بها فتسوقوها في طريق الفن والإبداع

إن من يفكر في المرأة، ويزداد به الشوق إليها، ولا يجدها زوجة لأن الآباء يضنون ببناتهم حليلات ويبذلونهن للناس خليلات، يستطيع أن يصب شوقه في القطعة من الشعر أو القصة من القصص، أو أن يصور شوقه نغمة جديدة، أو صورة بارعة يشعر إذا صنعها بمثل ما يشعر به من بلغ - ما كان يريد - ويجد الاطمئنان، ويمشي في طريق النبوغ

وإن الشباب إذا دأب على المطالعة والبحث، ورغب في التفوق على رفاقه في المدرسة، أو الفوز على خصومه في الجري أو الملاكمة، أو استغرق في تجارة فشغلته، أو صناعة فملأت حياته لا يجد في نفسه بقية للشهوة، إنما تستبعد الشهوة من كان فارغ الرأس واليد والوقت
إن الشباب والفراغ والجدة ... مفسدة للمرء أي مفسدة!
وبعد فهذا داء عضال فتاك، فأين أطباؤه، وأين من ينتبه إليه؟ أين الكتاب الباحثون فيه؟ أين أولو الأمر المعنيون به؟ أين الغُيُر على الدين والأخلاق؟ ألم يبقى منهم أحد؟!
(بغداد - المدرسة الغربية)
علي الطنطاوي
كتاب المبشرين
من أغلاطه في العربية
لأستاذ جليل
- 6 -
20 - في الصفحة (70): أما الكنيسة الغربية فقد كان فيها من تهالك داماسوس وأورسكينوس في المشاحة على منصب الأسقفية ما أفضى إلى . . .
قلت: في القول: (من تهالكهما في المشاحة على منصب كذا) - حذلفة بل عسلطة؛ ولو قيل: كان فيها من تهالكهما على منصب كذا لاستقام الكلام؛ فتهالك على كذا اشتد حرصه عليه، والمشاحة التي أقحمت هذا الاقحام، معناها الضنة، والإحكام يقتضي في هذا المقام (التشاح) - إن أريد ذلك - لا المشاحة، ففي الصحاح: فلان يشاح على فلان أي يظن به.
وفي اللسان والتاج: تشاحا على الأمر تنازعاه لا يريد كل واحد منهما أن يفوته وتشاح القوم في الأمر؛ وعليه شح به بعضهم على بعض وتبادروا إليه حذر فوته وتشاح الخصمان في الجدل كذلك
21 - في الصفحة (70): أسقفية رومة
قلت: في كتب التاريخ والأدب واللغة وغيرها (رومية) لا رومة، وهما روميتان إحداهما - كما قال ياقوت - بالروم، والثانية بالمدائن. وفي معجم البلدان: (ورومية من عجائب الدنيا بناء وعظما وكثرة خلق، وهي اليوم بيد الإفرنج وملكها يقال له: ملك ألمان، وبها يسكن البابا التي تطيعه الفرنجية، وهو لهم بمنزلة الإمام متى خالفه أحد منهم كان عندهم عاصياً يستحق النفي والقتل، يحرم عليهم نساءهم وغسلهم وأكلهم وشربهم فلا يمكن أحد منهم مخالفته) وفي شعر القيسراني في نور الدين (رضي الله عنه): (فؤاد رومية الكبرى لها يجب) وأما رومة فقرية بطبرية كما في القاموس وفي اللسان موضع بالسريانية. ورومة أرض بالمدينة وفيها بئر رومة كما قال ياقوت وفي كتابه: (وفي الحديث: لما قدم المهاجرون المدينة استنكروا الماء، وكان لرجل من بني غفار بئر يقال له بئر رومة، وكان يبيع منها القربة بمُدّ، فقال له رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بِعنيها بعين في الجنة،
فقال: يا رسول الله، ليس لي ولعيالي غيرها لا أستطيع ذلك. فبلغ ذلك عثمان (رضوان الله عليه) فاشتراها بخمسة وثلاثين ألف درهم)
22 - في الصفحة (70): فيخرج (يعني أسقف رومية) في المواكب والأبهة بالمركبات والمحفات مسرفا في ترك العيش ولا إسراف الملوك
قلت: أرادوا أن إسراف الأسقف يزيد على إسراف الملوك فجاء مقصودهم معكوسا. وكان ابن الحريري قد قال في (الدمياطية) غدوت قبل استقلال الركاب، ولا اغتداء الغراب. فقال احمد الشريشي أي ولا مثل اغتدائه، فحذف مثل المنصوبة بلا وأقام اغتداء مقامها لأن (لا) لا تنصب المعارف، أراد أن اغتدائي قبل أن يغتدي الغراب، والغراب أكثر الطيور بكورا، وهذه إذا طلبت حقيقة معناه صار المشبه أقوى من المشبه به، تقول العرب: فتى ولا كمالك، يريدون أن مالكا أفضل من الفتى، ومثله مرعى ولا كالسعدان وماء ولا كصداء، فهذا مذهب العرب في ذكر (ولا) بين المشبهين، وكلام العرب فلان أبكر من الغراب لا الغراب أبكر من فلان ولا فائدة في ذلك فإذا حققت لفظة (ولا) في تشبيه الحريري على ما يجب لها في كلام العرب انقلب المعنى. ويستعمل أهل فاس في مغربنا لفظة (ولا) في تشبيهاتهم على حد استعمال

الحريري، ولا يستعملها أهل الأندلس
23 - في الصفحة (323) يحترزون عن التشبيه غاية الاحتراز فقلت: احترز وتحرز إنما يعديان بمن لا بعن، ففي أقوال العرب وكتب اللغة: احترز منه وتحرز أي تحفظ وتوقى كأنه جعل نفسه في حرز منه. ولم يجيء في كلام عربي مثل هذا القول: احترز غاية الاحتراز بنيابة غاية عن المصدر، ولم يذكره نحويون متقدمون ولا زاد هذا النائب أو النائبة. . . متأخرون
24 - في الصفحة (246): فالنصارى قد حرم عليهم دينهم السكر والزنى وفيهم مع ذلك من يباهي بارتكاب الفاحشة ومن يفتخر بإدمان المسكر
قلت: لم يقصد كتابهم بقوله يباهي. . . المفاخرة بل قصد الافتخار كما قال من بعد: ومن يفتخر. . . بالصواب يتباهى بكذا أو يبتهي به؛ ففي الأساس: وأنا أتباهى به، ولي به افتخار وابتهاء قال أبو النجم:
ليس المحاذر أن يعد قديمه ... والمبتهى بقديمه - بسواء
وفي اللسان والتاج: العرب تقول: إن هذا لبهياى أي مما أتباهى به
25 - في الصفحة (386): وتمرن سائرهم في حمل السلاح
قلت: في اللغة مرَن وتمرن على الشيء لا تمرن فيه. قال الإمام الجاحظ: أية جارحة منعتها الحركة ولم تمرنها على الأعمال أصابها من التعقد على حسب ذلك المنع. وفي الصحاح: مرن على الشيء مروناً ومَرانة تعوده واستمر عليه، وفي الأساس: من المجاز مرنت يده على العمل، ومُرِّن وجهه على الخصام والسؤال
وفي المخصص: مرنت فلاناً على الأمر. ومثل ذلك في الجمهرة واللسان والمصباح والقاموس وشرحه، وأقوال العرب
26 - في الصفحة (128): كان الله يستأنف بلطفه إعلانه للناس على لسان أنبياء متعددين
قلت: لا يعد من الكلام (على لسان أنبياء متعددين) قال الأساس: بنو فلان يتعددون على بني فلان أي يزيدون عليهم، وفي اللسان، قيل: يتعدون عليه يزيدون عليه في العدد ويتعادون إذا اشتركوا فيما يعاد به بعضهم بعضاً من المكارم، وفي الصحاح: وإنهم ليعادون ويتعددون على عشرة آلاف أي يزيدون على ذلك في العدد
27 - في الصفحة (385): وهم عدد قليل في قبائل العرب العديدة
قلت: العديدة الحصة - كما في اللسان - والعديد الكثرة، والعديد العدد، والعديد الند والقرن، والعديد الرجل يدخل نفسه في قبيلة ليعد منها وليس له فيها عشيرة، وهو في عديد بني فلان أي يعد فيهم
. . .فعديدة القوم مثل متعدديهم
28 - في الصفحة (91): وأفرغ جهده في كف محمد عن التمادي بالأمر
قلت: تمادى هو في الأمر، وتمادى به الأمر، قال المتنبي:
إلى كم ذا التخلف والتواني ... وكم هذا التمادي في التمادي
وشغْل النفس عن طلب المعالي ... ببيع الشعر في سوق الكساد
وفي اللسان: وتمادي فلان في غيه إذا لج فيه وأطال مدى غيه أي غايته. وفي النهاية: ومنه حديث كعب بن مالك فلم يزل ذلك يتمادى بي أي يتطاول ويتأخر
29 - في الصفحة (216): لم يكن للقبلة من الأهمية عندهم ما صار لها بعد ذلك. وجاءت
الأهمية في الصفحة (280)
قلت: أرادوا أن يقولوا: من المنزلة أو القدر أو الخطر أو الشأن فقالوا (الأهمية) وهي لفظة منكرة عامية أو جردية لم تعرفها العربية في وقت وهي منسوبة إلى الأهم، وهو أسم تفضيل من هم، وهو في الحقيقة للفعل (أهم) إذ ليس في اللغة همه الأمر بالمعنى الذي يعرف لأهمه وإن قالت كتب فيها وهمّ كأهم، وفي كلامهم الأمر المهم، ولم يقل جاهلي أو مخضرم أو إسلامي أو مولد متقدم أو مولد متأخر: الأمر الهام كما تقول العوام وفي مفردات الراغب: وأهمني كذا حملني على أن أهتم به قال الله تعالى: وطائفة قد أهمتهم أنفسهم.
وفي الأغاني في سيرة أعشى همدان: فلم يبقى أحد في المجلس إلا أهمته نفسه وارتعدت فرائصه. وفي الصحاح: الأمر المهم الشديد. وفي الأساس: ونزل به مهم

ومهمات. وقال عبيد الله ابن عبد الله بن طاهر لعبد الله بن سليمان بن وهب حين وزر للمعتضد:

أبى دهرنا اسعافنا في نفوسنا ... وأسعفنا فيمن نحب ونكرم

فقلت له: نعماك فيهم أتمها ... ودع أمرنا، إن المهم المقدم

فقولهم: فلان ذو أهمية، وكان لزيد عند قومه أهمية، ولم تكن لكذا أهمية - من الكلام المعتل

30 - في الصفحة (69). يتعنت بها كل من المتناظرين على الآخر

فقلت: في اللغة تعنته أي طلب زلته لا تعنت عليه. قال الأساس: وتعنتني: سألني عن شيء أراد به اللبس على والمشقة. وفي النهاية في حديث عمر: أردت أن تعنتني أي تطلب عنتي وتسقطني. وقالوا: أعنت عليه أمره أدخل الضرر عليه فيه. وفي النهاية: فيعنتوا عليكم دينكم أي يدخلوا الضرر عليكم في دينكم. وقد قالت معجمات عصرية: وربما عدى تعنت بعلى، وهذه التعدية غير محققة.

ومن أقوالهم في النهي عن تعنت العلماء - والقول في العقد - إذا جلست إلى العالم فسل تفقها ولا تسل تعنتا

31 - في الصفحة (438): فاضطرت هذه الشريفة أن تتزوج بالغلام ريثما يتهيأ للمولى أن ينكحها، فلما تهيأ له ذلك أظهر

قلت: ريثما في هذا الكلام للحين الطويل كما تدل القصة في كتابهم على ذلك، وهو في

العربية للمدة القصيرة، وأصله مصدر أجرى ظرفا، وأكثر ما يستعمل مستثنى في قول منفى.

ومن الأدلة على قصر المدة لهذا الحرف قول الشنفري (أو خلف الأحمر) في لامية العرب:

ولكن نفسا مرة لا تقيم بي ... على الذأم إلا ريثما أتحول

وقول أعشى باهلة في رثاء المنتشر:

لا يُصعب الأمرَ إلا ريث يركبه ... وكل أمر سوى الفحشاء يأتمر

وقول بعضهم:

ولي نفس حر لا تقيم منزل ... على الضيم إلا ريثما أتحول

وفي النهاية: فلم يلبث إلا ريثما قلت أي إلا قدر ذلك. وفي اللسان: عن الكسائي والأصمعي: ما قعدت عنده إلا ريث أعقد شسعي، ويقال: ما قعد فلان عندنا إلا ريث أن حدثنا بحديث، ثم مر أي ما قعد إلا قدر ذلك، ومثله في التاج وفي المصباح: ووقف ريثما صلينا أي قدر ما. وفي المقامات الحريرية في الصنعانية: فأمهلته ريثما خلع نعليه وغسل رجليه. وفي النجرانية: فأمسك ريثما يعقد شسع، أو يشد نسع

للكلام بقية - الإسكندرية

(* * *)

من رحلة الشتاء

في مضارب شمر

المشاريع الإصلاحية في البادية

للآنسة زينب الحكيم

1 - بدأ الشيخ عجيل الياور شيخ مشايخ شمر منذ سنة 1930 يستعمل نفوذه ليوطن البدو التابعين له في قرى، يطالب بأرضها لهم من الحكومة العراقية بحيث تكون وجهتهم احتراف الفلاحة؛ وقد تمت هذه الصفقات لبعضهم فعلا، وشجعهم الشيخ الياور بشراء بعض الآلات الزراعية من ماله الخاص، مثل المحاريث التي استجلبها من ألمانيا عندما زارها في أثناء زيارته الأخيرة لأوربا

كذلك ساعدهم بشراء بعض المواشي، وبذور النبات، وغرضه من هذا كله أن يسهل لهم احتراف الفلاحة وتحبيبها إليهم. على أني علمت أن هذه التجربة لم تسفر عن نجاح يوازي ما بذل من مساعدات وتشجيع. إذ وجد الشيخ أنه من العسير جداً استقرار البدو - ومن يستطيع أن يحد من حريتهم؟! - ومع هذا استقر كثير من رؤساء العشائر في بعض القرى التي كونوها

ولعله لا يخفى على فطنة القارئ أنه وإن كان ملك البادية يعطف على البدو من

رعاياه، ويعطى لهم باليمين، فأنه يأخذ منهم باليسار أتاوات وجعولا على محاصيلهم وأغنامهم وجمالهم وغيرها. وهذا السبب عينه مما ينفر البدو في الاستيطان لكراهيتهم الخضوع للضرائب والتجنيد وما شابه ذلك

مدرسة ابتدائية - 2

مما أثلج صدري حقيقة، وجود مدرسة ابتدائية في وسط البادية. تأسست هذه المدرسة سنة 1932، وبدأت أهلية حيث أنشأها الشيخ عجيل الياور على نفقته، وبدأت بعدد قليل من الأولاد، ولكنه عظيم بالنسبة لعوامل البيئة هناك. فافتتحت لخمسة وعشرين إلى ثلاثين ولداً من أبناء البدو، ومن بينهم أولاد المشايخ بالضرورة، يذهبون جميعاً لتلقي الدروس بالأمر المشدد من الشيخ وأمره مطاع، وإن خالف ذلك ميولهم الخاصة. وشجع الشيخ هؤلاء بمنحهم السكن والملابس

سارت المدرسة في سبيل التقدم، وسعى الشيخ لأن تدخل تحت إشراف الحكومة العراقية حتى تفوز بمنهج منظم، وأساتذة فنيين، وفعلا في سنة 1934 أي بعد سنتين من إنشائها، صارت مدرسة حكومية تمدها وزارة المعارف العراقية بالمعلمين والأدوات المدرسية من حيث الأثاث (وهو عبارة عن خيام بيضاء كبيرة، ومناضد ومقاعد لجلوس الأولاد، وسبورات مع حواملها). أما أدوات الطلاب فلا تزال على نفقة الشيخ

وصار عدد تلامذتها الآن من 50 - 80 تلميذاً يتناقص أو يتزايد العدد بين هذين الرقمين بالنسبة لتنقل العشائر للرعي

ويوجد بين الأولاد بعض البنات، وبالمدرسة ستة صفوف (أو فصول) وتتراوح أعمار التلاميذ بين ست، وست عشرة. (وقيل لي: أحياناً يأتي إلى المدرسة أطفال في سن الرابعة أو الخامسة)

ويدرس بها على منهاج المدارس الابتدائية العراقية، واللغة الإنكليزية هي اللغة الأجنبية التي يتعلمها التلاميذ ابتداء من الصف الخامس، ويستمر تعليمها في السادس

زرت هذه المدرسة في خيامها البديعة، وكان حادثاً في حياة الأولاد وتجاربهم أن يروا سائحة مصرية، فلحظت أنه بقدر سرورهم بهذه المفاجأة، كانت دهشتهم من سفر سيدة تلك المسافات البعيدة حتى وصلت إليهم. وكان شغفهم زائداً لسؤالهم إياي أسئلة شتى، كما بدا لي على وجوههم، ولكن كيف يجرءون على مخاطبة سيدة!

كانت الدروس التي حضرتها في مختلف الفرق متنوعة، وكان أول درس حضرته: درس حساب، فبعد أن انتهى الأولاد من حل تمرين أعطي لهم في دفاترهم، وبعد (أ) تصحيحه أيضاً، حبب أليّ أن أعطيهم بعض التمارين العقلية، فأدهشني توقد ذكائهم ونشاطهم العجيب. وفي أثناء ذلك فاجأت التلاميذ باختبار ذكاء بسيط، فقلت: تعلمون شيئاً عن الموازين مثل الرطل والأقة مثلاً؟ فقالوا: نعم. قلت: وأيهما أكثر ربحاً للشاري، أرطل من البندق مقشور أم رطل بدون قشرة؟ فرفعوا أيديهم. وسألت أحدهم واتفق أنه خلط في الاجابة، فلم يرض باقي التلاميذ عن هذه الاجابة؛ ولكنهم نظاميون جداً فلا يجاوبون بدون إذن. وفاجأني تلميذ صغير من بينهم قبل أن أسأل غيره، بالسؤال الآتي:

من فضلك، أيهما أكثر عدداً 2 + 2 أو2 2؟ قلت: لعلي لا أعرف ذلك، فلنسأل باقي التلاميذ، فقال: لا، هذه بتلك. فضحكت وسررت من جرأة البدوي النجيب، ولمست سمات الانتصار على محيا زملائه

وهل يرضى البدوي بالهزيمة ولو كان في ذلك حتفه؟!

هنا أريد أن أوجه نظر القارئ الكريم إلى أن مشروع اختبار الذكاء أو غيره من الحركات الحديثة في التربية، ليست مقصورة على عقل واحد أو جماعة واحدة، وليست من اختصاص أمة دون أخرى

إن لكل أمة مقاييسها، ولو لم يكن لدى هؤلاء البدو مقاييس ذكاء خاصة يعرفونها ويفهمونها فيما بينهم لما عاملني هذا البدوي وزملاؤه من نوع عملي وجعلوها (دقة بدقة)

كان ثاني درس رأيته درس جغرافيا. دخلت الفصل وحييت التلاميذ، وكانوا أكبر (ب) سناً من الفرقة التي رأيتها

وجدت خريطة كبيرة للقطر المصري معلقة على السبورة، وبدأ الأستاذ يناقش تلاميذه في معلوماتهم عن بلادي، فكان حسن ذوق ومجاملة لطيفة، وانتهزت الفرصة وقلت:
ربما لم يسبق لكم يا تلاميذ رؤية مصرية قبلي؟! فقالوا: لا، ونحن سعداء برؤيتك. فشكرتهم، وقلت: أو كنتم تتخيلون المرأة المصرية كما رأيتم الآن؟ قالوا: لا، كنا ننتظر رؤيتها في ثياب سوداء، فإن من العيب أن تلبس المرأة الثياب الملونة، ولا سيما ما كان منها أبيض. قلت: لماذا؟ فقالوا: إن اللون الأبيض من سمات الرجل، أما المرأة فلها الثياب السود. (لم أستطع الوصول إلى التعليل المنطقي منهم لهذا التخصيص، ولعلها مجرد عادة نشأت من الاقتصاد في الغسيل لقلة الماء والصابون في الصحراء)
قلت: وهل تريدون أن تسألوني شيئاً عن مصر؟ قالوا بشوق: نعم. كيف حال فاروق الملك الشاب؟ وهل هو تقي؟ وهل هو يشبه سيدنا غازي الأول؟ وهل فرح بالزفاف الملكي؟ (قد وصلتهم أخبار الزفاف كلها وسمعوا حفلاته بالمذياع ملك شيخهم)
أجبتهم عن كل أسئلتهم، وقد أصغوا إليها في شوق زائد وسرور وغبطة
زرت التلاميذ في أثناء درس في اللغة العربية، وكان مطالعة مع شرح بعض (ج) المعاني والإعراب. فسألت تلميذاً أن يُعرب (جلس التلاميذ بنظام) وحقا كانوا قد فعلوا ذلك وأردت
أن أمتدحهم إذا ما فرغوا من إعراب الجملة، فكان أول ما وجه المعلم أنظارهم إليه نطقي الجيم في جلس غير معطشة فقال: هل لحظتم يا تلاميذي كيف تنطق السيدة المصرية الجيم في جلس؟ إنها خففتها وفق ما اتبعوه في بلادهم
طلبت إلى الأستاذ أن يسمعني التلاميذ بعض قطع شعرية مما يحفظون وبعض أناشيد، وقد فعلوا، أما الأناشيد فتلحينها ضعيف
ولما جاء دور المحفوظات استأذنت المدرس في أن أختار أنا التلميذ، وكان من بين التلاميذ شبيه لعنترة صغير، فبتوارد الخواطر، اخترت هذا الأسود ليسمعنا قطعة من محفوظاته. ولكن التلاميذ ضحكوا وتغامزوا فيما بينهم على هذا الأسود، وعلى غرابة اختياري، واتهموا ذوقي. فقلت: أيها التلاميذ النجباء لماذا تضحكون؟ ألا يذكر أحد منكم الفارس العربي المقدام الشاعر الهمام، عنترة العبسي الذي كان يقول:
(لئن أك أسوداً فالمسك لوني)؟
ويقول:
لئن يعيبوا سوادي فهو لي نسب ... يوم النزال إذا ما فاتني النسب؟
ما أسرع البدوي إلى النخوة والشهامة! لقد اعترف الأولاد بخطئهم حالا، وقالوا في نفس واحد: قم يا عنتر ونحن نتبعك. وقام هذا الأسود الصغير، وألقى قطعة حماسية بالغة. ووالله لا أنسى أبداً منظر التلاميذ من خلفه ومن حوله، وهم يشتركون معه في الإلقاء الحماسي، وكأنما تتحرك القناة في أيديهم، والأصائل تكر بهم وتفر لهزم العدو، ولكسب شرف العرب. بارك الله في أبناء البدو الناهضين وقواك الله يا قبائل شمر
بعد هذه المعركة الحماسية قلت لتلميذ في طرف الخيمة، وقد شهدت على وجهه انفعالا: ماذا تريد أن تنال لو خيرت في نيل أمنية؟ قال في غير توان: فرس أصيلة، لأريك أني أبز عنترة العبسي وأباه
فتوجهت إلى الشيخ وسألته: كم ثمن الفرس الأصيلة؟ وعزمت أكيدا أن أترك للتلميذ ثمن الفرس لينال رغبته، ولكن الشيخ لم يقبل، ووعد أن يعطيه فرسا من عنده
حضرت درساً إنجليزياً (مطالعة، ومحفوظات، وتركيب جمل) والتقدم الذي لحظته (د) على التلاميذ كبير، ولفت نظري توقد ذكاء تلميذ من بينهم، وشدة لمعان عينيه، فسألت: من
يكون هذا التلميذ؟ فقيل لي: أنه أبن الشيخ عجيل الياور الذي ساح في أوربا كلها مع والده بعد حضور حفلات تتويج ملك الإنجليز
فسألته عما أعجبه أكثر غيره من البلاد الأوربية؟ فقال في إيجاز وتأكيد أعجبت بسويسرا لجمالها، وإنجلترا لتقاليدها ونظامها، وألمانيا لاختراعاتها ونظامها ونظافتها،
وهذا التلميذ موجود الآن بكلية فكتوريا بالإسكندرية هو وأخوه، حيث أحضرهما إلى مصر، أخوهما الأكبر الشيخ صفوك الياور، وألحقا بهذه الكلية من بدء العام الدراسي.
وكانت مفاجأته لنا بالزيارة حلماً تحقق. هذا ويجلس تلاميذ مدرسة البدو هذه لتأدية الامتحان النهائي لمرحلة التعليم الابتدائي، في الأماكن التي تخصصها الحكومة

العراقية، فيرحل التلاميذ عادة إما إلى لجنة الموصل أو سنجار
وقد وجد أن أولاد البدو في مستوى أولاد الحضر، بل يفوقونهم في نسبة النجاح في الامتحانات العامة
ما دخل العلم بيئة طيبة إلا أثمر فيها وأنتج نتاجاً حسناً. وإني أعلق أهمية كبرى على هذه المدرسة في إيقاظ البدو، وأعدها أول نواة صالحة للأخذ بيدهم في مدارج الحياة الإنسانية الحقيقية
(للحديث بقية)
زينب الحكيم
للتاريخ السياسي
المفاوضات وتأثير ألمانيا فيها
للدكتور يوسف هيكل
تعقدت المشكلة التشيكوسلوفاكية في شهر أغسطس (آب) سنة 1938 وأخذ تعقدها يزداد حتى كادت تفجر قنبلة الحرب العالمية. غير أنه لا يزال هناك أمل في إيجاد حل لهذه المشكلة عن طريق المفاوضات بين الحكومة التشيكوسلوفاكية وممثلي حزب السوديت. وبعرضنا لها نتكلم عن المناورات الحربية الألمانية ومهمة اللورد رنسيمان، ونبين تطورات المفاوضات، ونذكر تأثير خطاب الهر هتلر على مسيرها.)
غادر اللورد رنسيمان لندن إلى براغ في أغسطس (آب)، موفداً من الحكومة البريطانية بالاتفاق مع الحكومة الفرنسية، ليكون وسيطاً بين حكومة براغ وحزب السوديت. وكانت مهمته بذل الجهود لمنع فشل المفاوضات السائرة بين الدكتور هودزا رئيس حكومة تشيكوسلوفاكيا، وممثلي الهر هنلاين رئيس حزب السوديت. وفي حالة فشل هذه المفاوضات أعد اللورد رنسيمان مشروعاً من عنده، يوفق به بين وجهتي نظر الفريقين المتنازعين، ليضمن السلام ويبعد شبح الحرب العامة، الذي كان يحوم في جو أوربا الوسطى.
ولما أخذ اللورد رنسيمان يدرس الوضعية في تشيكوسلوفاكيا، جابهت ألمانيا العالم باستعداداتها الحربية الهائلة التي دعتها مناورات اعتيادية تاريخ ابتدائها 15 أغسطس (آب).
وفي الواقع كانت التعبئة، أي التجنيد، لهذه المناورات تعبئة عامة أقلقت الدوائر السياسية واضطرب منها الرأي العام. إذ صدرت الأوامر بتعبئة جميع الأطباء والممرضات. وتلقى الرجال القادرون على حمل السلاح والذين لم يدعوا إلى الخدمة حتى ذلك الوقت، الأمر بأن يكونوا في كل وقت مستعدين لتلبية أوامر السلطات، وحظر على كل ألماني دون الخامسة والستين من العمر مغادرة ألمانيا إلى بلد آخر. وألغيت جميع إجازات العمال في السكك الحديدية، وأبطلت معظم قطارات السفر لإفساح المجال للقطارات العسكرية، وصادرت السلطة معظم سيارات (الباصات) (أتوبوس). وأخذت إنشاءات الطرق نحو الحدود التشيكوسلوفاكية تسير بسرعة عظيمة، وإقامة القلاع على ضفاف الرين وإتمام خط (سيكفريد) المواجه لخط (ماجينو) تجري بسرعة لم يسبق لها مثيل. ثم أرسلت الجيوش إلى حدود تشيكوسلوفاكيا، واحتلت القوى العسكرية قلاع الرين والثكنات المواجهة للحدود الفرنسية.
وكان الغرض من هذه الاستعدادات الحربية الهائلة، غرضاً سياسياً هو التأثير على سير المفاوضات بين حكومة تشيكوسلوفاكيا وممثلي حزب السوديت، والتهويل على حكومتي لندن وباريس، لتفسحا المجال لتحقيق المطالب الألمانية.
في هذا الجو الصاخب سارت المفاوضات بين الدكتور هودزا، والهر هنلاين. وكان الأول، أي رئيس الوزارة التشيكوسلوفاكية يستند في موقفه إلى تحالفه مع باريس وموسكو، وإلى التحالف العملي بين لندن وباريس. وكان الثاني أي رئيس حزب السوديت يستند إلى الهر هتلر. وكل منهما كان يعتقد أنه الأقوى، وكل منها كان يريد من الآخر أن يتراجع عن موقفه. ولهذه انقطعت المفاوضات مراراً، ولم تستأنف إلا بفضل جهود اللورد رنسيمان وتسامح الحكومة التشيكوسلوفاكية. ورغم ذلك كانت نهايتها فشلا تاما. وإننا لذاكرون أهم تطوراتها:
قدم حزب السوديت الألماني مذكرة إلى حكومة براغ، في 7يوليو (تموز) الفائت،

وعرض فيها الدخول في مفاوضات على أساس تحقيق المطالب التي جاء ذكرها في المذكرة وهي لا تختلف عن المطالب الثمانية التي أعلنها الهر هنلاين في خطابه الذي ألقاه في كارلسباد في 23 ابريل (نيسان) سنة 1938. وكانت الحكومة حينئذ آخذة في وضع نظام الأقليات، وفي 9 يوليو (تموز) اجتمع الدكتور هودزا مع مندوبي الهر هنلاين وباشروا المفاوضات. وفي 15 منه صدر بلاغ رسمي مشترك يشير إلى أن الاتفاق تم على أن تكون مذكرة السوديت ونظام الحكومة بشأن الأقليات بمثابة أساس مفاوضات بين الحكومة والسوديت.

سارت المفاوضات، وكان يحضرها مندوبو الأحزاب البرلمانية في تشيكوسلوفاكيا، فظن الرأي العام أن الطرفين واصلان إلى نتيجة إيجابية تؤدي إلى الوفاق بينهما وزوال خطر الحرب العالمية.

ولكن بينما كانت المناورات الحربية الألمانية على أشدها، والرأي العام متجه نحوها، أعلن مندوب السوديت، في 17 أغسطس (آب)، عدم قبولهم النظام الجديد الذي وضعته الحكومة لتحسين حالة الأقليات. وأبلغوا اللورد رنسيمان بأنهم لا يرون فائدة من مواصلة المفاوضات مع الحكومة.

اهتم اللورد رنسيمان للموضوع، وبذل جهودا في إقناع مندوبي السوديت بضرورة العدول عن رأيهم هذا، فطلب وفد السوديت مواصلة المفاوضات مع الوزارة فقط، مفاوضة الند للند في جلسات لا يحضرها مندوبو الأحزاب البرلمانية. فقبلت الحكومة طلب السوديت، بعد تدخل الدكتور رئيس الجمهورية التشيكوسلوفاكية واللورد رنسيمان في الموضوع على أثر ذلك وافق مندوبو السوديت على مواصلة المفاوضات مع الوزارة ولكنهم أصروا على رفض الاقتراحات التي عرضت عليهم.

عمدت الحكومة إلى منح السوديت الألمان امتيازات جديدة كتعيين عدد كبير من رجالهم في وظائف كبيرة مختلفة. غير أن حزب السوديت قابل هذه الامتيازات بالاستخفاف والامتعاض. وللوصول إلى اتفاق حاولت الوزارة التشيكوسلوفاكية في 25 أغسطس (آب) إيجاد قاعدة جديدة للمفاوضات، غير أنه ظهر في اليوم التالي أن الأزمة التشيكوسلوفاكية بلغت حد الخطر، إذ شقة الخلاف واسعة بين الطرفين يتعذر سدها، لوقوف حزب السوديت موقف المتصلب والمتشبث بمطالبه كاملة غير منقوصة. وكانت ألمانيا تشجعه على هذا الموقف وتحثه على عدم التساهل. وأخذت الصحف الألمانية حينئذ تحمل حملة شعواء على تشيكوسلوفاكيا من أجل حوادث تافهة لا قيمة لها ولا أهمية. وكان ذلك دليلاً على أن ألمانيا لا تريد حل مسالة السوديت بمفاوضات حرة

وبسبب خطورة الحالة الدولية ضاعف اللورد رنسيمان نشاطه بإيعاز من لندن، وبذل جهوداً لمتابعة المفاوضات، فاجتمع في 28 أغسطس (آب) بالهر هنلاين، وقصد مساء 29 أغسطس (آب) قصر الرياسة وقابل المسيو بنيش ومهد الاجتماع الهر هنلاين بالرئيس وشاع حينئذ أن ذلك الاجتماع يأخذ مكانه بعد ظهر 30 أغسطس (آب). غير أن هذا الاجتماع لم يتم، وبدلاً منه اجتمع الرئيس بنيش بالدكتورين كورندت وسبدوسكي من زعماء السوديت. وعرض عليهما اقتراحات جديدة للحكومة التي وضعت على أساس تقسيم البلاد إلى مناطق ذات حكومات مستقلة لها سلطات واسعة على مثال سويسرا. وقد أكدت

المقامات المتصلة ببعثة اللورد رنسيمان أن السوديت الألمان لا يرفضونها إذا تركوا وشأنهم. ولم يقع عليهم ضغط من جهة الألمان. وفي 2 سبتمبر (أيلول) اجتمع الدكتوران كوندت وسبيدسكي برئيس الجمهورية من جديد، وبسطا له آراء السوديت في الاقتراحات الجديدة، التي قدمها إليهم في 3 أغسطس (آب)، وهي تدل على أن حزب السوديت لم يقرر رفض اقتراحات الحكومة بل أبدى في صددها تحفظات كثيرة يتطلب الاتفاق عليها مفاوضات شاقة طويلة

وفي هذه الأثناء أي في أول سبتمبر (أيلول) كان الهر هنلاين قد ذهب إلى (برخستكادن) لمقابلة الهر هتلر بإيعاز من اللورد رنسيمان. ولدى عودته ذهب المستر جوانكين، مساعد اللورد رنسيمان إلى بلدة آش في 4 سبتمبر (أيلول) وقابل الهر هنلاين واطلع منه على ما دار بينه وبين الهر هتلر من حديث، ثم عاد وأطلع اللورد

رنسيمان على ما سمع من الهر هنلاين
وبعد عودة الهر هنلاين من ألمانيا اجتمع بمندوبي السوديت الذين كانوا يفاوضون الحكومة، وعلى أثر ذلك نشر حزب السوديت في 5 سبتمبر (أيلول) بلاغاً له مغزاه، طلب فيه تحقيق مطالبه الثمانية التي أعلنت في كارلسباد، حالاً وغير ناقصة
جدت حكومة براغ في 5 سبتمبر (أيلول) في وضع اقتراحات جديدة لحل مشكلة السوديت، راعت فيها تحقيق مطالب الهر هنلاين الثمانية، حسما للنزاع، وتحقيقاً للوصول إلى اتفاق سلمي.
وفي اليوم التالي قابل الدكتور بنيش زعماء السوديت وأسلمهم الاقتراحات الجديدة، أو ما سمي (المنهاج الرابع). وهذا المنهاج محتو على تسع مواد توجز كما يلي:
1 - تمثيل الجنسيات والعناصر بالوظائف الحالية والمستقبلية نسبة لعددها
2 - تعيين الموظفين في الأقاليم من جنس أكثرية السكان
3 - تجديد نظام الأمن بتقسيمه إلى بوليس الدولة وبوليس الأقاليم، ويعين للأقاليم بوليس من جنس سكانها
4 - مساواة لغات الأقليات باللغة التشيكية
5 - القيام بعمل واسع النطاق في سبيل إنماء الحركة الاقتصادية في المناطق الألمانية التي
أصيبت بأشد أضرار الأزمة. منها منح هذه المناطق قرضاً تبلغ قيمته خمسة ملايين جنيه بشروط متهاودة
6 - تقسيم البلاد مقاطعات مستقلة استقلالا ذاتياً ومتساوية في الحقوق على أساس عنصرية السكان
7 - إنشاء إدارة خاصة للأقاليم في جميع الإدارات المركزية يديرها وطنيون، لمعالجة المسائل المتعلقة بجنسياتهم
8 - المحافظة على حقوق المواطنين القومية بقوانين خاصة، ويكون للهيئات التمثيلية المختلفة حق الاعتراض على أي تدخل في حقوق أو مصالح الجنسيات التي تمثلها. وستكون سجلات خاصة لكل جنسية
9 - اتخاذ احتياطات حالية للوصول إلى اتفاق على هذه النقاط التي لا تتطلب احتياطات تشريعية. أما فيما يتعلق بوضع قوانين جديدة، فإن الحكومة ستحضرها بالاشتراك مع حزب السوديت الألماني. وستعرض المشروعات على البرلمان وتنفذ بأسرع وقت ممكن
قابل الألمان السوديت اقتراحات الحكومة هذه بارتياح، وقبلوها في 7 سبتمبر (أيلول) أساساً للمفاوضات، لأنهم رأوا فيها تحقيقا يكاد يكون تاما لنقاط كارلسباد الثمانية، فساد التفاؤل وعظم الأمل بالوصول إلى حل ودي. غير أنه في اليوم نفسه وصلت براغ أنباء حادث (ماهريش استراو) فأثارت غضب الألمان السوديت فقرروا قطع المفاوضات. أما حادث ماهريش استراو فيوجز فيما يلي:
وصل في 6 سبتمبر (أيلول) كثيرون من ممثلي حزب السوديت الألمان إلى ماهريش استراو لمطالبة السلطة بالتحقيق في بعض الأخبار التي يؤخذ منها أن الألمان السوديت الذين كانوا قد اعتقلوا عوملوا في السجن معاملة سيئة. ولما دخلوا دار المحافظة تجمع الأهالي الألمان خارج الدار. فأعمل البوليس الركبان فيهم الضرب بالعصي والسياط لتفريقهم. ويقال أن البوليس ضرب اثنين من نواب السوديت على الرغم من تلويحهما بشهادتيهما القانونية
اهتمت حكومة براغ لهذا الحادث، واتخذت التدابير لعدم تكرره، ولتحسين معاملة المساجين الألمان. وطلب رئيس وزارة براغ مقابلة النائبين كوندت وروش، فاجتمع بهما يوم 7
سبتمبر (أيلول) ودارت محادثة سوي على أثرها حادث مهريش استراو وانتهت بالاتفاق على استئناف المفاوضات
وبينما كانت حكومة براغ جادة في حل المشكلة التشيكوسلوفاكية بالاتفاق مع السوديت الألمان بمنحهم مطالب زعيمهم الثمانية، فاجأت جريدة التيمس، المعروفة بعلاقتها الوثيقة مع حكومة لندن، العالم في 7 سبتمبر (أيلول) مقترحة في مقال رئيسي، حل المشكلة التشيكوسلوفاكية عن طريق فصل الأقاليم السوديتية وضمها

إلى ألمانيا. ومصرحة ((بأن إرادة الأهالي الذين يعنيهم الأمر ستكون عاملا له أهمية فاصلة في أية تسوية يرضى أن تكون دائمة) وهذا الحل غاية ما يصبو إليه السوديت الألمان، وما يرمي إليه الهر هتلر. غير أن السوديت الألمان لم يجرءوا حتى ذلك التاريخ على طالبه، ولم يأملوا تحقيقه

وبينما كانت المفاوضات تسير في براغ بصعوبة ومشقة، ومن غير أن توصل إلى نتيجة إيجابية، قرب يوم الاثنين الموافق 12سبتمبر (أيلول) وهو تاريخ إلقاء الهر هتلر خطابه التاريخي، الذي كان ينتظره الناس في جهات الدنيا الأربع. فأحالوا نظرهم عن تشيكوسلوفاكيا، واتجهوا نحو نورمبرغ، حيث أنتقل إليها مركز النظر في المشكلة التشيكوسلوفاكية، وحيث يلقي زعيم ألمانيا كلمته الخطيرة

كان خطاب الهر هتلر شديد اللهجة عنيفاً، ولم يكن في الإمكان في أحوال دولية عصيبة كأحوال شهر سبتمبر (أيلول) الفائت، أن يلقي زعيم ألمانيا خطبة أشد لهجة من الخطاب الذي ألقاه في مؤتمر نورمبرك وكان (ضربة أصابت أساس سياسة التوفيق التي سار عليها المستر نيفل تشمبرلين)، كما قالت النيويورك تايمس في 13سبتمبر

فقد حمل فيه على الحكومات الديمقراطية حملة شعواء، ملؤها السخرية والازدراء، وهاجم حكومة براغ هجوماً عنيفاً بعبارات ملؤها الإهانة والتحقير. ومما قاله بصدد المشكلة التشيكوسلوفاكية:

إني أعلن أن هذه المخلوقات المضطهدة (أي السوديت الألمان) إذا لم تحصل . . .) على حقها وعلى المساعدة التي تستطيع المطالبة بها فإنها ستنال هذا الحق وهذه المساعدة منا. . لقد سبق لي أن أعلنت أني لا أتحمل بعد الآن أن يظل هؤلاء الملايين الثلاثة مضطهدين، وأرجو من رجال سياسة الدول الأجنبية أن يعلموا أن هذا ليس كلاماً بلا

معنى). وبعد أن ذكر الفوهور أن ألمانيا ضحت كثيراً في سبيل السلم قال (إن الشعب الألماني ليس مستعداً لأن يقبل آلام ثلاثة ملايين ونصف مليون أو يشترك في تحملها. أني أستطيع أن أؤكد لساسة لندن وباريس أننا عازمون على الدفاع عن مصالحنا في جميع الظروف. وأني أفضل أن أتحمل الضيق والخطر والاضطهاد على أن أعدل عن تحقيق هذا الواجب)

وبعد أن أبان الأعمال التي قام بها منذ 28 مايو (مايس) الأخير لتعزيز قوى ألمانيا الحربية قال: (لقد بذلت هذا الجهد لأضمن السلم، ولست على استعداد لأن أشاهد اضطهاد الشعب الألماني في تشيكوسلوفاكيا بهدوء لا حد له. إنهم يريدون الشروع في مفاوضات وتسويف الأمور ولكن ذلك لا يمكن أن يدوم)

إن ما يريده الألمان هو حق تقرير مصيرهم بأنفسهم، وهذا ما يتمتع به كل شعب) بدون شك. إني أريد أن ينتهي اضطهاد ثلاثة ملايين ونصف مليون من الألمان في تشيكوسلوفاكيا، فان المسألة مسألة مواطنين ألمان، ولا أرغب في أن تنشأ على الحدود الألمانية فلسطين أخرى، فألمان تشيكوسلوفاكيا لن يظلوا بدون دفاع ولن يتركوا لأنفسهم. . .)

وقد ختم الهر هتلر خطبته بقوله: (إننا لن نذعن بعد الآن لإرادة أجنبية، وإنني أقسم على ذلك وليساعدني الله)

أصر الهر هتلر في خطابه على وجوب إعطاء السوديت الألمان (حق تقرير مصيرهم) ولم يطلب صراحة فصلهم عن حكومة براغ وضمهم إلى ألمانيا، لعلمه حق العلم بأن الألمان السوديت إذا أعطوا حق تقرير مصيرهم يقررون الانضمام إلى الريخ الألماني، وليظهر للعالم بأن ألمانيا لا تريد التوسع في أوربا وإنما البلاد المأهولة بالألمان، خارج حدود الريخ، تريد الانضمام إليه

كان لخطاب الهر هتلر تأثير عظيم على نفسية الألمان السوديت وأنتج تغييرا أساسيا في مطالبهم القومية، إذ أعلنوا أن مطالبهم الثمانية المعلنة في كارلسباد لم تعد أساسا صالحا للمفاوضات. وطافت جموعهم في الشوارع طالبة الاستفتاء، وقامت مظاهرات نادى القائمون بها بالانضمام إلى ألمانيا، هاتفين: (شعب واحد ريخ واحد، زعيم واحد).

أدى هذا الهياج إلى حدوث اضطرابات ومصادمات اضطرت الحكومة إلى إعلان الأحكام العرفية. غير أن ذلك لم يرق حزب السوديت فأنذر الحكومة في 13 أيلول وقدم إليها مطالب منها إزالة هذه الأحكام. وأمهلها ست ساعات، مهددا بعدم استئناف المفاوضات. وردت الحكومة على هذا الإنذار بأنها لا ترى مانعا من قبول مطالب الحزب إذا وجه الزعماء إلى الشعب نداء يناشدونه فيه احترام القانون والنظام، وجاء وفد منهم إلى براغ للمفاوضة في هذا الشأن.

لم يأبه حزب السوديت لرد الحكومة، بل أصدر بلاغا جاء فيه (أنه لم يعد من الممكن مواصلة المفاوضات على الأسس التي اتبعت حتى الآن. ولذلك أعفى الهر هنلاين الوفد من مهمته وشكره على جهوده). وفي اليوم التالي طلب حزب السوديت رسميا من حكومة براغ أن يكون للألمان السوديت حق تقرير مصيرهم. ونقل الحزب مركزه من براغ إلى اشن ليكون قريباً من الحدود الألمانية.

وفي 16 أصدر الهر هنلاين بيانا قال فيه (إننا نريد أن نعيش عيشة الألمان الأحرار، إننا نريد أن نعود إلى الريخ). وأخذت صحف الألمان تحمل حملة عنيفة على تشيكوسلوفاكيا، ومما قالته جريدة (فولكشر بيوساختر) صباح 17 سبتمبر (أيلول)، أن الوقت قد حان لا بعاد المسيو بنيش عن مسرح السياسة الدولية الأوربية وإزالة دولة من خريطة أوربا.

إن انقطاع المفاوضات أضاع الأمل في الوصول إلى حل سلمي دون تدخل الدول الأخرى)، وقال اللورد رنسيمان في الكتاب الذي أرسله إلى المستر تشمبرلن في 21 سبتمبر (أيلول) إن مسئولية قطع المفاوضات النهائية في رأيي، تقع على الهر هنلاين والهر فوتك، وعلى هؤلاء من مؤيديهم، داخل البلاد وخارجها، الذين كانوا يحضون على (أعمال العنف وعلى الأعمال غير الدستورية

أقلق خطاب الهر هتلر وما تبعه من اضطرابات وقطع المفاوضات في تشيكوسلوفاكيا، الرأي العالمي وبالأخص في لندن وباريس، ودعاهما إلى بذل آخر ما لديهما من جهود في سبيل حفظ السلام. فما هي هذه الجهود؟ وماذا كانت ثمرتها؟ هذا ما سنعرضه في مقال آخر.

يوسف هيكل

المستشرقون الإيطاليون

في مؤتمر بروكسل الدولي

للدكتور أومبرتو ريتزيتانو

نشرت (الرسالة) الغراء في عددها (274) مقالا بسطت فيه أعمال مؤتمر المستشرقين الدولي العشرين المنعقد بمدينة بروكسل في الثلث الأول من سبتمبر الماضي بدار الأكاديمية البلجيكية. وقد لاحظت أن الدكتور مراد صاحب المقالة لم يذكر في حديثه عن المؤتمر إلا ثلاثاً من المحاضرات التي ألقاها المستشرقون الإيطاليون، بينما كانت لمستشرقي إيطاليا في المؤتمر المذكور بحوث قيمة في موضوعات طريفة، ولذلك أرى أن أتلافى هذا السهو على صفحات هذه المجلة المجيدة. ففي القسم الأول الخاص بالعلوم المصرية والأفريقية القديمة مثل إيطاليا الأستاذ بيننيو فراريو مدرس علم الآثار واللغات السامية والحامية في جامعة مونتيفديو عاصمة الأورجواي بأمريكا الجنوبية، وكان موضوع محاضرته (الضمير في اللغات الكوشية) المنتشرة في بلاد الحبشة. وأعقبه في هذا القسم نفسه المدير العام للشئون السياسية في وزارة أفريقيا الإيطالية بروما (وهو اسم أطلق حديثاً على وزارة المستعمرات) الذي أسهب في الكلام عن الأبحاث الإيطالية في لغات السدامة الشرقية ومركزها بين اللغات الأخرى، ولخص في نهاية خطابه النتائج التي وصل إليها الإيطاليون في هذا الميدان العلمي

أما في القسم الرابع الخاص بالهند فقد مثل إيطاليا فيه الأستاذ أمبردجيو باليني من جامعة ميلانو، والأستاذ فيتوري بيزاني مدرس تاريخ اللغات الكلاسيكية المقارن بجامعة كاليري بجزيرة سردينيا، فقرأ أولهما بحثاً من أبحاثه الطريفة استرعى الأنظار، وألقى الثاني محاضرة عن (المهابهاراتا) وهو الكتاب المشهور عند الهنود - وعن تكوينه الأول

أما القسم الثامن الخاص بالعلوم الاسلامية، فقد اشترك في الكلام فيه جم غفير من المستشرقين الإيطاليين. ومن المعروف أن إيطاليا تهتم اهتماماً متواصلا بعلوم الشرق

الأدنى نظراً لما لها من المصالح السياسية والتجارية والثقافية في هذه الأصقاع. وهذا هو بلا شك السبب الأساس الذي يدفع الإيطاليين إلى الاسترسال في دراسة هذا القسط من أقساط علم الاستشراق. فتكلم الأستاذ جويدي مدرس اللغة العربية وآدابها في جامعة روما
عن نشرته الحديثة عن مخطوطات الكندي المنقولة من نسخة أيا صوفيا رقم 4832، كما ألقت السيدة الدكتورة لاورا فيتشيا فالييري المدرسة بجامعة نابولي بحثاً عارضت فيه مشروع تيسير قواعد اللغة العربية وذكرت آراءها بصراحة في هذا الموضوع الخطير الذي تعني به وزارة المعارف المصرية في وقتنا هذا - كما قام الأستاذ (بوسي) القانوني الإيطالي من جامعة ميلانو، بذكر بعض الملاحظات الانتقادية في مقارنته بين الكتابين المعروفين (المجلة) (وبمرشد الحيران إلى معرفة أحوال الإنسان) للمرحوم محمد قدوري باشا
أما في الأدب العربي الأموي فقد تكلم من المستشرقين الإيطاليين الأستاذ جابربيلي من معهد نابولي الشرقي، والدكتور ريتزيتالو كاتب هذا المقال، فتكلم أولهما في خطبة فصيحة عن الشاعر الأموي (كثير عزة) وراويه جميل، والعلاقات الودية التي كانت بينهما. أما الثاني فقد تكلم عن الشاعر الأموي (أبو محجن نصيب بن رباح) وعن الضرورة القاضية بدراسة وافية لشعراء العصر الأموي العقليين لمعرفة شتى الأخبار الموجودة في شذور إنتاجهم الشعري المتفرقة في مختلف كتب الأدب والتاريخ، كما اقترحت السيدة الفاضلة (أولجابينتو) نشر دراسات عن الرحالة الإيطاليين ورحلاتهم في الشرق الأدنى. ولعمري إن هذا المشروع ليستحق كل الاهتمام لأنه سيقدم مساعدة مهمة لعلم الخرائط الجغرافية ونقدها.
كذلك عرفنا الأستاذ بومباتشي من جامعة نابولي بكتاب قد سكنت ريحه عن النحو التركي ألفه راهب يسوعي في القانون السادس عشر
ومما لا شك فيه أن علم الاستشراق في أوربا وبصفة خاصة في إيطاليا قد ازدهر ازدهار عظيما في الفترة الواقعة بين القرنين الثاني عشر والسادس عشر. وإن اهتمام بلدنا بالعلوم الشرقية يرجع إلى عناصر مختلفة من بينها الروح التجارية المتواصلة، والتبشير المذهبي الديني في بلاد الشرق؛ وعلى العموم الرغبة العلمية المستمرة. ولقد التفتت النهضة الإيطالية نحو الشرق - الأدنى منه والأقصى - في دائرة الإنتاج الأدبي حوالي منتصف القرن الماضي حين ثبت أن الحاجة ماسة فعلا إلى ضرورة الاستمرار في هذه الناحية من نواحي العلم والأبحاث، وإني لا أتردد في القول بأن كل الفضل يرجع إلى المستشرقين الثلاثة ميكبلي آمارى وجرارنا ديواسكولي وانيازيو جويدي في كثير مما شرع فيه ومما تم
من التقدم وإيقاظ الهمم في هذه الفترة. كما أنه كان من أسباب إنجاح هذه الحركة العلمية الجديدة المساعي القيمة التي قام بها هؤلاء الأنصار الثلاثة الذين استوفت أبحاثهم ودراساتهم وانتشرت في العالم أجمع
دكتور أومبرتو ريتزيتانو
الكونتس فالنتين دي سان بوا
للأستاذ كامل يوسف
جرى قلمي في كلمتي عن المرحوم ولي الدين بك يكن بذكر الكونتس فالنتين دي سان بوا، وبما أنها من الدوحة الشاعرة التي أنجبت لامرتين شاعر الجمال والحب، ومؤلف عشرات الكتب التي تفيض بالشاعرية والخيال الخصيب، أحببت أن أكتب كلمة عنها لتعريف المصريين بها
فهي حفيدة لامارتين، أو على الأصح ابنة ابنة أخته، ورثت عن خال أمها الروح الشاعرية وسمو الخيال، فكانت شاعرة من الطبقة الأولى لا يشق لها غبار. ويمتاز شعرها بالروح الصوفية. وهو ككل شعر صوفي مبهم يحتاج للشرح والتعليق حتى يدرك القارئ كنهه. وقد بدت هذه النزعة في ديوانها الشعري الذي اشتهرت به؛ ويكاد يلمس القارئ لهذا الديوان روح نيتشه في كتابه (هكذا قال زرادشت)، بل إنه يسير على نمطه في الأسلوب. وقد أبديت رأيي هذا في عام سنة 1928 للأدباء الذين كانوا يحيطون بها فلقي منهم التأييد، لأن الكونتس كانت تعجب بنيتشه كشاعر فذ، خصوصاً في سفره (هكذا قال زرادشت) وكانت لا ترى فيه فيلسوفاً له مدرسة فلسفية خاصة

وهذه الروح الصوفية هي التي حدت بها إلى الإقامة بمصر، فهي زوجة وزير من وزراء فرنسا وزارت أسبانيا، وشاهدت هناك جامع قرطبة، فأعجبت بالفن العربي، واتخذ هذا الإعجاب صورة ملية فأرادت أن تلمس حياة الشمس وتختبر روحه، فتركت فرنسا بما فيها من مدنية وجاءت إلى مصر باعتبارها المركز الروحي للبلاد الشرقية، وكان هذا الولع بروح الشرق المتصوفة دافعاً لها على إصدار مجلتها الشهرية (فينكس) للدفاع عن أمم الشرق قاطبة. وقد أنفقت على هذه المجلة مالاً وفيراً، وظلت أكثر من عامين وهي تسخر قلمها البديع لهذه الغاية السامية ولكنها لم تستطع الاستمرار في إصدار مجلتها لنضوب مواردها من أملاكها بمقاطعة سان بوا بفرنسا ومن ربح مؤلفاتها الكثيرة، وذلك عند هبوط سعر الفرنك في سنة 1928

وقد بدت الروح الصوفية عند الكونتس دي سان بوا في أجلى صورها عندما لجأت إلى أسلوب مبتكر للتعبير عن المعاني الباطنية للحقائق الظاهرة، وقد أطلقت على هذا الأسلوب لفظ (الميتاكوري) وقد جاهدت كثيراً في نشره في فرنسا وأمريكا وأنفقت المال في سبيل تقريبه للأذهان، ولكن غموضه كان عقبة كأداء في سبيل ذيوعه. وقد نشرت كثيراً من الرسوم بريشتها لإيضاح غاياتها، ولكن العالم الأدبي لم يفهم ما تريده الشاعرة من هذه الحركة الصوفية. وقد حاولت أنا وصديقي الشاعر فولاد يكن أثناء اتصالنا بها بحلوان أن نفهم هذه الحركة كما يجب، فلم نخرج منها بأكثر من أنها نوع من الرمزية في الشعر والرسم ترمى إلى إبراز المعاني الباطنة لمظاهر الأشياء. ولما رأت عدم استعداد العقول لفهم نظريتها - التي تقول إن فناني الإغريق كانوا يعملون بها - اتجهت للدفاع عن بلاد الشرق المهضومة الحق . . .

وقد أقامت الكونتس دي سان بوا بحلوان بقصر محمد بك أنسي بشارع سيد أحمد باشا. وكانت دارها ندوة للأدباء زارها فيها الدكتور ماردريس المستشرق الفرنسي المعروف وقدم لها ترجمته الفرنسية لكتاب (ألف ليلة وليلة) وكتب الإهداء بالعربية: (هدية من الشيخ الماردريسي). وكان أول من أتصل بها من المصريين الشاعر الكبير فولاد يكن، وحدث ذلك على أثر زواجه من مدام (س) الفرنسية (وهي زوجة أحد كبار كتاب فرنسا) التي استقدمتها وزارة المعارف لتتولى نظارة مدرسة بنات الأسر الراقية. ومع أن هذا الزواج لم يطل فقد كان سبباً في تعرف الأستاذ فولاد يكن بالكونتس؛ وقد رأت فيه الشاعرة مواهب شعرية تنبئ عن مستقبل زاهر في عالم الشعر فاحتضنته، وجعلته كابنها، وأقام بمنزلها بحلوان يأكل ويشرب ويتريض معها كأنه فرد من أسرتها. وقد أنتجت هذه الصداقة ثمارها إذ قدمته لدور النشر الفرنسية فنشرت له بعض مؤلفاته الشعرية والنثرية مقدمة بقلمها البليغ

وكان يجتمع في دارها الأدباء. وقد قدمني فولاد يكن إليها كأديب ناشئ مهتم بالأدب السكسوني وخصوصاً فن برناردشو الذي كنت أؤلف فيه في ذلك الوقت كتاباً عن آرائه في الحياة والأدب والفن والسياسة. وكانت تعرف عني هذا الاهتمام فكانت تدعوني (برناردشو الصغير). وقد قدمتني في إحدى حفلاتها الماسونية لإحدى زوجات سلطان تركيا المخلوع التي قدمت إلى مصر وألقت بنفسها في النيل عند قصر النيل. وكانت هذه الأميرة على غاية من جمال الخلق والخلق، تركت في نفسي أثراً لا يمحى، إذ تمثل لدي في هذه اللحظة

عظمة الملك ممثلة في شخص هذه السيدة الكريمة؛ وهي في رزانتها وصمتها أبلغ منها وهي في أبهة العرش. وقد حدث أن ثارت بين أديبين مناقشة عن أدب هوجو، وكان أحدهما يرى أنه فن مزخرف أجوف، وكان يعارضه الآخر بأنه أدب حي، وأبديت رأيي في هذه المناقشة بأسلوبي الفرنسي العاجز، وكنت وقتئذ لم ينضج علمي بالفرنسية لانصرافي للأدب الإنجليزي، فسخر من أسلوبي صديقي فولاد يكن، ونعته بأنه فرنسي صيني، ولم ينجني من حملته عليّ إلا السلطانة، فقد عطفت عليّ بأن قالت: إن أسلوبي كإنسان لم يدرس الفرنسية بالمدارس لا بأس به. وقد حمدت لها هذا الموقف الذي خلصني من المأزق الذي تورطت فيه

وتشاء الصدفة أن أقرأ إبان تعرفي بالشاعرة الكبيرة قصة (روفائيل) ترجمة الأستاذ الكبير احمد حسن الزيات، وأردت أن أذكر لها اهتمامنا بأدب جدها لامرتين. فذكرت لها أنني أقرأ ترجمة عربية لرفائيل تكاد في بلاغتها أن تكون صورة ثانية للأصل الفرنسي؛

وذكر الأستاذ فولاد يكن تمكن الأستاذ الزيات من لغة العرب والفرنسيين مما جعل الترجمة تحفة من التحف في أدبنا المصري الحديث، وقد أعجبت الكونتس بذلك كثيراً. ولكنها كانت لا ترى في (رفائيل) العمل الفني الذي يجب أن يخلد به أسم جدها بمصر، وقالت في ذلك إنه مؤلف يسوده الإغراق في المبالغات مما جعله في مرتبة أقل من غيره من المؤلفات الأخرى، وقد ذكر الدكتور منصور بك فهمي في مقدمته لترجمة الأستاذ الزيات مثل هذا الرأي، وأن ذلك قد دعا لامرتين نفسه إلى إعادة النظر في مؤلفه هذا في الطبعات التالية فأبعد عنه بعض المبالغات العاطفية التي أخذها عليه النقاد

والكونتس دي سان بوا رسامة ماهرة ترسم بالزيت وتحفر على الخشب ويشوب رسومها الروح الصوفية، وهي تزين دارها بهذه الرسوم. وقد بلغت براعتها في الرسم أنها كانت تحفر صورتها على الخشب فكانت ملامحها تنطق كأنها رسم فوتوغرافي. وقد انصرفت في السنين الأخيرة إلى التحرير الصحفي وتولت رياسة تحرير أمهات الصحف الفرنسية بمصر. ويمتاز أسلوبها الفرنسي بالجزالة الكلاسيكية، وقد اكتسبت أثناء إقامتها بمصر صداقة الشخصيات البارزة في المجتمع المصري

واختم كلمتي عنها بما تبديه من عطف على الشرقيين، فقد كانت تغشى حفلات العرب

الذين يعيشون في الخيام بقرية حلوان البلد الواقعة على النيل في الليالي القمرية؛ وكانت تعجب بسمرهم؛ وكانت تنثر على أطفالهم النقود، لذلك كانوا يحفظون لها هذا الجميل. وقد أعربوا عن عرفانهم لهذا الجميل فأهدوا إليها كلبا من كلابهم الضخمة، أطلقت عليه اسم (بطل) وكان هذا الكلب موضع عنايتها، وكانت توكل إليه حراسة دارها، وعندما تركت حلوان وأقامت في إحدى فنادق القاهرة الفخمة أخذته معها، وكانت تفخر به على الدوام لأنه (عربون) مودة لا يصح التفريط فيه

كامل يوسف

عضو بالمعهد الفلسفي البريطاني

الحالمون

ترجمة السيدة الفاضلة (الزهرة)

الحالمون هم الذين أقطعونا في الدنيا جوانب العيش الخصب العريض، والخير الجم المستفيض، وأرشدونا إلى مبادرة السوانح، وفتحوا لنا أمصار الفرص البيض. ولعله لم يخطر لك ببال مطلقاً أن ما تردد فيه طرفك، وتعدّه من خاص ملكك في هذا الكون الوسيع، منتسب إلى عطاء حلم رائع تحقق، ورؤيا مجيدة صدقت. . .

أدر الطرف حولك واسأل: مَنْ ذا الذي منحنا النعم المألوفة لدينا، والصنائع الشائعة بيننا؟ ومَنْ ذا الذي أسبغ علينا النور ليلاً، وحبانا بالمقدرة على الطواف حول العالم؟ ومَنْ ذا الذي أباد الوباء ومحق الطاعون، وأعاننا على قهر جميع العلل والأدواء؟

لقد ملأت جميع هذه المواهب الكبيرة صدر العالم، وتتابعت علينا تتابع القطر على القفر، فورثناها مع الهواء الذي نستنشقه، وتلك الصيحة الظافرة تنبعث إلينا من أروقة الزمن قائلة: (وجدتها! وجدتها!)

إن أرخميدس لم يقم بمظاهر هائلة حين باح للعالم بسر الثقل النوعيً، ولكنه قفز من حمامه فجأة، وراح يركض في طرقات المدينة متهللاً، ويهيب بالناس قائلاً: (وجدتها! وجدتها!)

وكذلك كانت تلك الروح الزخارة، التي أنعشت دنيا العلم قاطبة، دون أن تضطرب بحب الكسب والمنفعة الشخصية، في كيان أي رجل ممن أثقلوا الكواهل بأياديهم التي يفرض لها الشكر ويتحتم، لأنهم بذلوها في سبيل المصلحة العامة، وأضافوها إلى حصائل العمران من فيض سجاياهم البارة، بسخاء نفوسهم الأمارة بالخير، المطبوعة على المعروف كأنه غريزة فيها تشبه غريزة التغريد في الطير، وعنصراً من عناصرها يحاكي الجمال والشذى في الزهر. . . وكانوا جميعهم سعداء مغتبطين إذ مكنوا الإنسان من حكومة نفسه، وضاعفوا قدرته على تصريف أموره والأخذ بناصيتها، وقد حملوا ألوية جهادهم، وبنود كفاحهم، وكلمات كبار (المجالدين) المستميتين من معشر الرومان، تتدفق من شفاههم، ولكن بروح من النبل الذي يبز كل ما اختلج من معانيه

في حياة أولئك الرومان الغرّ الميامين وكأنهم كانوا يخاطبون الإنسانية بلسانهم قائلين: (نحن الذين نوشك أن نموت موت الإيثار والمفاداة نحييك يا قيصر!)
حقا إن انتصاراتنا الباهرة على ويلات الحياة مسجلة في سير كثير من أولئك المجالدين البررة. ولئن لم يكن الموت في سبيل العرفان وآيات الجهاد من نصيبهم على الدوام، فان مثابرتهم الصامتة كثيراً ما كانت محفوفة بمرائر جسيمة تتحيف الصبر وتهد الأركان وتجعل الموت عذباً مستساغاً؟
وإننا لنعلم أن (وليم هارفي) حين أعلن في محاضراته المتواضعة سير الدورة الدموية في الجسم الإنساني، وفتح الأذهان لأول مرة لتفهم سر من أسرار الوجود العظيمة لم يكن يطمع في منحة أعظم من إقبال الناس على أبحاثه وقبولها بروح العطف، بيد أن العالم أبى عليه هذه المنحة. وغاليلو لم يتطلب منفعة من اكتشافاته التي جلّت للإفهام حقائق كثيرة في الفلسفة الطبيعية، بل كان جزاءه التهديد بالتعذيب، ووجد غنمه الأكبر في نجاته من هول الخازوق والعذراء: آلة التعذيب بمطّ الجسم!
ولقد مات (تيخوبراه) في أحضان الفاقة والشقاء لأنه قشع عن العقول البشرية غيوم الترهات والخزعبلات التي كانت تدفعها إلى الفزع من الأجرام السماوية والكواكب السيارة. وقد أحدث (دارون) وهو في مرتقاه الرفيع، فوق ذروة تلال (كنت) ثورة عظيمة في العقول لم يسبق لها مثيل في كل ما أحدثه عالم من علماء الطبيعة. بل إن الراهب (مِندل) في حديقة صومعته المشمسة، وبنحله وببازلته قد بلغ حيث لم تبلغ جهود دارون في كل ما توصل إليه لاكتشاف ناموس الوراثة. ومع ذلك فقد لاقى هذان الرجلان المناجزة والعداء (مع أن راهب برن الشيخ) قد أسبغ مناً عظيمة كفلت الغذاء الصالح للإنسان والحيوان، وأدخل على نتاج العالم الحيواني والنباتي تقدماً لم يسبقه إليه أي إنسان بل أي جيل من الناس. وكل من يبغي أن يجئ اليوم بسلالة جديدة من الماشية والأغنام، أو نوعاً جديداً من الزهر والثمر والبر والحنطة، لا بد له أن يتبع النواميس التي اكتشفها وفسرها الراهب الشيخ في حديقته ببلدة (برن) وكل ديون العالم تقصر عن الوفاء بحقوقه التي لم يتقاض لأجلها شيئاً من العالم، أو يفرض عليه أجراً لها، بل إنه لم يؤثر نفسه بامتياز من امتيازاتها أو يحتكر حقاً من حقوق اكتشافها، وذلك لأنه كان رجلاً من الرجال الذين يغتذون بالأحلام.
وكذلك كان الحال في الثروة المادية التي تنشط اليوم مئات الصناعات والحرف، وتوطد دعائم حضارتنا، ونحن لا نستطيع بحال من الأحوال أن نحصي أياديها لأنها لا تعد، ولا تقف عند حد. على أن الاستفادة بها والتغني بذكرها هما جل ما يبغيه أولئك الأعلام الذين جدوا وسعوا دون أن يتطلبوا جزاء ولا شكورا في سبيل الإنارة والنهوض بالإنسانية.
ولقد انتقل العالم من عصر الحديد إلى عصر الفولاذ فعصر الكهرباء واللاسلكي، وجميع هذه الاكتشافات الأساسية التي غيرت وجه الوجوه من عصر إلى عصر قد أغدقها علينا رجال أفاضوا شعاب برهم وسحب معلوماتهم وذكائهم كعطايا سمحة لأهل جيلهم. فنحن نشيد عمراننا على أسس وضعها أولئكم المجاهدون الصناديد الذي اتخذوا من ميادين النزال ومعامع الكفاح مدارس للبحث والتفكير والاستقراء ومعتملات للاختبارات والتجارب العلمية. ولقد قدم نيوتن ونابير لعصرهما آلتين من افضل ما جاءت به مستحدثات العلوم الرياضية فزودوا العلم بقوة عقلية تفوق كل وصف. وقد اثبت الطبيب دالتون تلك الصورة النهائية القطعية لنظريته العجيبة - نظرية تركيب الجوهر الذريري. كما وضع العالم الإنجليزي جول الأساس الراسخ لجميع الأعمال الباهرة التي تجري الآن في دائرة (استحالة الاقتدار) وقد ورث العلامة العظيم جيمس كلارك مكسويل ثروة طائلة من أمالي الفلسفة الطبيعية فاستغلها في التمهيد لاكتشاف التموجات الأثيرية بعد أن تمكن من إدراك أبعادها وتقدير مساحاتها ومقاييسها. وتناول هتريك هرتز الألماني أعمال ذلك العلامة الإنجليزي فتمكن من إشعاع أمواج اليكترماجنتيكيه (المغناطيسية الكهربية) بواسطة جهاز كهربائي للذبذبة وجعل العامل الأساسي لإنتاج هذه الأمواج الشرر الصغير الذي كان يظهر من ثغرة صغيرة في أداة معدنية فيعبر الغرفة دون أن تكون هناك أية حلقة للاتصال غير الهواء.
ولقد انسحق قلب دافيد ادوارد هو، من جراء الفشل الذي صادفه في تجاربه

اللاسلكية، ولكن جيلاً من الناس الباحثين المستطلعين أفلحوا في تحقيق أحلامهم التجريبية حتى ظهر أخيراً المخترع الإيطالي العظيم جوليلمو ماركوني وتناول أبحاث أسلافه ولم يزل بها حتى تمكن من زيادة الإشعاع وتحسينه وتنميته وضبطه، وتوصل إلى إتمام اختراعه فلم يكد يشارف السابعة والعشرين من سني حياته حتى برهن على مخترعه عملياً وأذاع إشارته اللاسلكية الأولى عبر المحيط الأطلنطيقي، وبذلك أكمل اللاسلكي أهم رحلة في حياته مثبتاً للملأ أنه كان سائراً به في الطريق الموصل إلى ذروة النجاح النهائي بعد
أن تجشم صعوبات هائلة وذلل عقبات كبيرة.

ولا شك في أن أغلبنا يعرف عظم ما ندين به لصمام الحرارة (الثرمونيكي) الذي اخترعه الأستاذ (فلمنج) ولا يخفى علينا أن ذلك الصمام ينبعث من كوكبة (هي المصباح الكهربائي) ولكن كم منا يذكر أن هذه الكوكبة لم تكن لتوجد لولا تلك الأنبوبة المفرغة التي ابتكرها سير وليام كروكس؟ على أن هذه الأنبوبة التي كانت فكرة تتردد في مخيلة ذلك الرجل المستطلع، صارت فيما بعد مهداً للخوارق التي بذت جميع ما سبقها من أعمال قوى الطبيعة الغامضة، فقد اكتشف فيها وبوساطتها أشعة (إكس)، وإن من العسير أن نذكر نصف المدهشات التي تأتت من هذه الأنبوبة العجيبة. . .

إننا نعيش كل يوم على المواهب الباهرة التي قدمها لنا (هنري كافنديش) الذي اكتشف غاز الأيدروجين، وجوزيف بريستلي الذي اكتشف الأكسجين، والكمياوي الفرنسي لفوازييه الذي علمنا وظيفة التنفس. . . ولكننا قلما نفكر في الأحلام الطويلة التي استرسل فيها جميع أولئك الفطاحل، ولعلنا ننسى أن بريستلي فر إلى أمريكا قانعاً من الغنيمة بالسلامة في سبيل كرازته عن الأكسجين، وأن الفرنسيين قضوا على حياة لفوازييه بحد المقصلة الجهنمية مجاهرين بأن الجمهورية ليست في حاجة إلى جمهرة الكيميائيين، وأن العدل يجب أن يأخذ مجراه

إن هذه الفيافي التي نجوس خلالها مترامية الأطراف وعرة المسالك ولكنها عظيمة حقاً لأن رجالاً مجدودين عظماء قد عبدوها وأخضعوها لسلطاننا حباً في العلم والعرفان، لا طمعاً في الربح والكسب:

مقاديم وصالون في الروع خطوهم ... بكل رقيق الشفرتين يماني
إذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهم ... لأية حال أم بأي مكان

على أن هذا لم يكن قصارى جهدهم فان أولئك الناس الذين كانوا ينهضون للعمل مبكرين ويهجعون متأخرين ليكتسبوا من الطبيعة أدق أسرارها وغوامضها ويستغلون أعظم قوى اقتدارها من أصغر الذريرات الكائنة، قد رصدوا ساعاتهم للكد دون أن يعرفوا طعماً للراحة؛ وكانوا إذا تمت المعجزة على أيديهم وتمكنوا من استخدام الجوهر الفرد في هد الرواسي وزلزلة الجبال وفي إفادة العالم - الذي يكونون جزءاً غير منظور منه - يقدمون

هذه المعجزة دون قيد ولا شرط، ويطلعونها عليه طلوع الشمس التي تحفظ الحياة على الأرض. ونحن جميعاً نجني ثمراته ونتقاسمها دون أن نبذل في سبيل الحصول عليها فلساً واحداً. وهكذا تتتابع فصول تلك القصة العجيبة التي بدأت مذ شرقت أول شعاعة من شعاعات العلم والمحبة تبدد الظلمات الداجية والأطماع الأشعبية من العقل الهمجي والفكر المتوحش القاسي. وإننا لن نجد ما يتلو علينا فصول تلك القصة مراراً وتكراراً، بل إن أفصح من ذلك الذي تحدثنا به تواريخ الطب والجراحة الفائقة عطفاً وحباً ورحمة. فما من مصل مما يستعمل لشفاء الأمراض إلا وينتمي إلى ذلك المصل الواقي الذي منحه للعالم بسخاء دكتور جنر لحمايتنا من تبريح الجدري. ولا تجرى عملية عظيمة على يد أحد الجراحين اليوم إلا ونجد الجراح والمريض يلهجان بحمد العزة الإلهية من أجل جيمس سميسون الذي جعل القيام بالعمليات الجراحية الخطيرة ممكناً ميسوراً بفضل اكتشافه جواهر المخدرات التي تفقد الإحساس بالألم.

أما لويس باستور الذي علم الناس التحرز من المرض بالتطعيم وحفظ الأغذية والسوائل العضوية بالتعقيم فلم يتقاضى على جهوده غير الثناء والشكران. وجاء جوزيف لستر واتبع أفكار باستور واستخدمها في محو الألم ودرء السموم عن الأجسام فكان عدد الذين أنقذهم من الموت أكثر من الذين أبادهم نابليون، وضفر للسلم من أكاليل المجد فوق ما ضفرته الحرب لا عظم أبطالها الظافرين. وقضي حياته وهو يكدّ

ويحلم ويحقق حلمه، وبفضله أصبح ميسوراً للجراحة اليوم القيام بكافة صنوف العمليات واصبح الطبيب القادر على أداء تلك العمليات يفاخر بما أسدته إليه طريقة لستر من تفادي التسمم بل أصبح ينشرها للملأ فيكبر لها مشاهير الجراحين وينهل من فيضها جماعة الطلاب المتعطشين ويجعلونها قبلة أنظارهم

وأحسن وجه في الورى وجه محسن ... وأيمن كف فيهم كف منعم

ولقد كان لستر يتقاضى مبلغ خمسمائة جنيه من موسر يجري له إحدى عملياته، أما الأجر الذي كان يتقاضاه من فقير لاجئ إلى أحد المستشفيات الخيرية فلم يكن يتعدى عبارة (أشكرك يا سيدي) تتدحرج على شفتي ذلك البائس بصوت مختنق متهدج؛ وكان الرجل العظيم يعود إلى بيته بقلب يطفح شكراً لله تعالى الذي آتاه القدرة على تخفيف بلاء المفلوكين

وإذا الرجال تصرفت أهواؤها ... فهواه لحظة سائل أو آمل

ويكاد من فرط السخاء بنانه ... حب العطاء يقول هل من سائل

بيد أن ظواهر هذا البذل الإنساني العظيم لا تقف عند هذا الحد لأن أولئك الرجال الذين يمسحون عنا أمراضنا لا يترددون في الخطار بحياتهم دون ريث ولا إمهال مسترسلين إلى الحتوف كأنما ... بين الحتوف وبينهم أرحام

آساد موت مخدرات مالها ... بين الصوارم والقنا آجام

ولا يوجد علاج أو وقاية من أمراض المنطقة الحارة إلا وقد ابتاعوه لنا بأعمارهم الغالية وأنفاسهم الثمينة، فكان الواحد منهم يجرب علاجه في جسمه قبل أن يجربه في مريض. وتاريخ الطب حافل بآيات الشجاعة والولاء والبطولة التي لا تقل عما تفيض به أخبار أعظم الفاتحين

بل إننا حين نذهب بحديثنا إلى عصرنا الحالي العظيم - عصر الهندسة العملية وإقامة الجسور والقناطر العجيبة، وحفر الترع والقنوات المدهشة نجد الحالم من ورائها جميعاً، ونجد السفن تجري من محيط إلى محيط وادعة مطمئنة في قناة باناما حين كانت الحياة الإنسانية لا تساوي قيمة ربع عشرة أيام لعامل عادي، ولولا أن رجلاً اسمه رولاند روس جلس يحلم ليلة بعد ليلة من خلال منظاره المكبرّ ثم عثر على البعوضة التي تحمل جراثيم الموت وأخبر العالم أننا نستطيع أن نهزأ بالحمى الصفراء وبالحمى النافضة (الملاريا) لو فعلنا بهذه البعوضة ما فعله باستور بالطعام وليستر بالجراح لما حفرت ترعة بناما. وقد جنى مهندسوها وبناتها أرباحاً طائلة من ورائها، ولكن الرجال الذين ابتدعوها في أحلامهم ورسموا فكرتها وسعوا لتحقيقها لم يأخذوا لأنفسهم شيئاً لأنهم كانوا من ذوي الأحلام وكأن الشريف الرضي كان يعنيهم حين قال

وركب سروا والليل ملق رواقه ... على كل مغبر المطالع قاتم

حدوا عزمات ضاعت الأرض بينها ... فصار سراهم في ظهور العزائم

ترينهم نجوم الليل ما يبتغونه ... على عاتق الشعري وهام النعائم

وغطى على الأرض الدجى فكأننا ... نفتش عن أعلامها بالمناسم

وهكذا كان الناس يحملون ويحققون أحلامهم فصيروا عالمنا أجمل وأعظم من عالمهم،

ومنحوا العالم قوة ليس وراءها مطلع لحالم؛ ولا فوقها منزع لأمنية ولا مرتقى لهمة، وأصبح من الميسور للإنسان الآن أن يجعل من هذه الحياة الدنيا فردوساً ينقش فيه صورة جنة الخلد ويفرش عليه محاسن النعيم الأبدي

(الزهرة)

إلى شباب القصصين

كيف احترفت القصة

قصة السيدة ستورم جيمس

للأستاذ أحمد فتحي

حين كنت في جامعة (كترنج) عام 1914، تقدمت بأطروحة عن (القصة الحديثة في أوربا) علمت أنهم سيكافئونني عليها بدرجة جامعية أخرى فوق الدرجة التي أنا متقدمة لإحرازها، وكان ذلك مدعاة لسروري بعض السرور في ذلك الحين!

وكنت طوال سني دراستي أعلق آمالي باحترافي في التدريس، وكان الأساتذة يعلمون هذه الآمال ويرعونها. ولست أدري ماذا حدث بعد فراغي من الدراسة ووداعي

للجامعة؟ فقد تنكر عقلي لكل تلك الآمال العريقة! وانقلب كالوحش وقع وشيكا في الشرك! وتملكته قوة جامحة غضبي. . . وحين ألتفت إلى الوراء أراني وقد كنت بلهاء صغيرة غير مؤذية، لا تدري ماذا عساها أن تصنع، ولا تكاد تتبين سبيلها السوي في الحياة!

وتحت تأثير ظنوني الكبار بضرورات حياة يكفلها رزق ضيق لا يزيد على خمسين شلناً في الأسبوع، التحقت بنادي القراء، وكانت لي في تلك الأيام الطويلة فسحة من الوقت أنفقها في القراءة. ولأول مرة كنت أقرأ وأقرأ غير مدفوعة بإعداد أطروحة للجامعة! ولقد كان كل شيء أقرأه يتيح لي اجترار بعض ما تخزنه حافظتي. على أن القصص قلما كانت تشبع نوازع نفسي. ولقد تناولت أجزاء كتاب (تاريخ النهضة الإيطالية) واحداً فواحداً، وعشتُ بينها في تأثر وحبور لا يوصف. وعلى الرغم من جهلي بالقيمة العلمية التي يمتاز بها ذلك الكتاب، فإني مدينة له بدين لن أقوم بوفائه ما حييت!

وبعد تلك القراءات الكثيرة، وفي تلك الأيام التي لم أكن أجد فيها الراحة الكافية لاستئناف القراءة، كنت أكتب وحدي. . . وكذلك بدأت تسجيل فصول قصتي في بطء. وإني لأود الآن أن استدعي ذكريات حالتي النفسية والعقلية حين بدأت كتابة القصة، فلست أدري ماذا كان يروق لي أن اصنع! ومن المحقق أنني لم أكن أتوق إلى تأليف قصة، ولا ابتكار شخصيات؛ وفي الكناشة الضخمة - التي أحتفظ بها وحدها - صفحتان أو ثلاث تحوى

مذكرات مبعثرة متناثرة كنت قد وضعتها نواة لقصتي الأولى؛ وإن معظمها ليبدو لي الآن بلا معنى كما تحوي كذلك مذكرات قصيرة جداً عن شخصيات القصة؛ التي ألاحظ فيها شيئاً واحداً فريداً، هو أنني لم أكن قد وضعت لها فكرة تامة شاملة. . . على أن بعض هذه المذكرات كان ينتظم النظريات الحيوية التي كنت أومن بها في ذلك العهد لا شيء يبعثني على تصفح هذه القصة الأولى لأرى كيف ائتلفت من تلك المذكرات المتناثرة فصول كتاب كامل ومن الواضح أن رغبة الطبيعة في أن تجعل مني كاتبة قصصية، لم تكن أعظم من رغبة الجامعة في أن تجعل مني مدرسة فيها! فليس في تلك القصة الأولى ثمة فكرة ناضجة؛ بل بضعة مناظر مترابطة. وليس فيها شخصيات؛ بل عظام جافة في وادي عقلي لأفكار مجتمعة لي من سني قراءتي السقيمة، مقتبسة من (العصر الحديث) متذاكرة من أحاديث التلاميذ. ولا أستثني من ذلك سوى نسمات سرت إلى قصتي من سماء الوحي. . .! إذ حدث أن تحرر ذهني مرة من صلته بأفكار الناس، متخذاً سبيله بين آمال الحرية الطليقة، مما سأذكره مفصلاً فيما بعد!

وشبت الحرب فرحت إلى (ليفربول) وكان أن أحكم على الشرك الذي ظننتني قد نجوت من أسره! إذ تزوجت وغدوت ربة بيت لم أكن أرجع عن بعض أعماله إلا وقد أنجزت كل أجزائه؛ وبقدر بغضي للخدمة أصبحت أكثر أمانة من أية سيدة يمكن كراؤها لذلك. وما كان في وسعي أن أقرأ أو أكتب في غرفة غير وثيرة إلي أبعد حد. . .! وقد كتبت النصف الباقي من قصتي في فترات الراحة التي كنت أخلو فيها من عناء الأعمال المنزلية كالطبخ والغسل وتنظيف الأثاث وغير ذلك. ولم أكن قد أنجزت هذا النصف الباقي حين وضعت طفلي في منتصف عام 1915 في (هويتبي). وبعد ذلك أهملت القصة على ركن من رف ظلت به خمسة شهور في برد من الغبار!

وفي ديسمبر عدت ثانية إلى (هويتبي) ومعي طفلي وقصتي التي أقحمتها حقيبة ثيابي في الدقيقة الأخيرة ساعة الرحيل. إذ خطر لي أنني سأكون في سعة من الوقت تهيئ لي فرصة الكتابة. وكانت الحرب حينذاك مستأثرة بأصدقائي. . . محيطة كل شيء بالمظان من كل جانب. غير أن ذهني كان صغيراً جداً وكذلك كانت سني، فلم أكن أتطلع إلى المستقبل بغير آمالي وحدها. . .

سرت عدوى (السعال) من شقيقتي إلى طفلي وهو في شهره السادس. غير أن إصابته لم تكن حادة عنيفة. على أنه كان يستيقظ مرات في الليل ليسعل. وذات ليلة كنت راكعة إلى جوار مهده أعني به وهو نائم، وأتلهى بإضافة شيء إلى قصتي. وكنت ساعتئذ أكثر ما أكون تشتت بال ورهافة سمع. فحدث أن تمثل لي شاب سميته من فوري (بوسكت)؛ بلغ من شدة تصوري وجوده أن حسبته حقيقة ماثلة لا خيالاً طارقاً؛ بل لقد خفت أن يكون من لصوص الليل، غير أني ما لبثت أن هدأت إلى هدوئه، فقد

بدا لي - هو نفسه - خائفاً! بوجهه المستدير، وقسماته الغامضة المعقدة. كما تبينت للوهلة الأولى نواحي ضعفه، وغير ذلك من طباعه وعاداته! واتفق أن استيقظ الطفل ليسعل فجاءة؛ فأقبلت عليه وما زلت به أطيب خاطره حتى عاوده النوم، ثم رجعت إلى رجل خيالي (بوسكت) الذي لم يكن فارق ذهني بعد. . .! وظللت أستوحيه ما أكتب حتى صرخ الألم في ركبتي وأنا راكعة عليهما؛ وحتى تقلصت عضلات معصمي، وسرى البرد إلى جسدي فاقتادني راغمة إلى الفراش!

ولم أنجز الكتاب كله في ذلك الحين أيضاً. . . ولكني أضفت إليه بعض العبارات في أيامي الأخيرة في (هويتبي). وحدث ذات مساء أن أطفأت الأنوار الكهربائية إيذاناً بغارة جوية من مناطيد (زبلن). فالتمست في الظلام ورقة صغيرة جعلت أكتب عليها قطعة شعرية من القصة - إلى جانب أمي - على ضوء شمعة؛ وحين فرغت من نظمها كانت الأنوار قد عادت. فأخذت أقرأ الشعر لأمي، وأنا شديدة الأيمان بأنه شعر رائع، وهي تزعم كذلك أنني شاعرة مطبوعة!.

وفرغت من الكتاب عام 1916 في (كترنج) ولا أستطيع الآن أن أستدعي الكثير من الذكريات عن ذلك العهد. غير أني كنت ولم أزل قليلة الفراغ كثيرة المتاعب. وعلى أي حال فقد انتهيت من كتابة القصة، ثم وقعتها على آلة كتابية عتيقة بالية، فاستغرق ذلك حيناً. . .

وحين رحلت عن (ليفربول) في ربيع 1917، كان معي الكتاب مكتوباً بأحرف الآلة الكاتبة، بعد أن رفضه أحد الناشرين لعله (دكورث) وقد أرسلته من (ريدنج) إلى ناشر آخر. ومع أن الكتابة القصصية لم تكن تروق لي كثيراً، فقد لبثت أرتقب ماذا يقدر لكتابي الأول، الذي هو محاولتي القصصية الأولى!

وجه إلى المستر (فيشر آنون) الناشر المعروف - الدعوة للقائه، والحق أنني اضطربت لتلك الدعوة، وتهيبت ذلك اللقاء. وقبل أن تتم المقابلة آثرت أن أمر بالرجل الذي يقرأ للمستر (آنون) ما يراد نشره، وقد تلطف الرجل معي ورق حديثه، ولا أحسبه قد أشار علي بإحراق قصتي! ثم لقيت المستر (آنون) نفسه في غرفة مكتبه الأنيقة. وبعد حديث قصير اقترح علي أن اقدم إليه أعمالي القصصية (الستة) التالية! وما كان لي غير إقرار هذه الصفقة المقترحة من جانب واحد! غير أن فكرة كتابة قصة بعد أخرى - بدأت تفزعني. وحين هممت بالانصراف من حضرته شيعني إلى الباب، كأي جنتلمان مهذب رقيق الحاشية، وفي اللحظة الأخيرة قدم إلي نسخة من قصة (طريق النسر) مصحوبة بقوله (إني أعطيك هذا الكتاب لتقرئيه، ولترى كيف ينبغي أن تكتب القصة) ومضى هذا الحادث عنيفاً. وتركت القصة في مكان لا أذكره، وافتقدتها فلم أعثر عليها إلا بعد حين، فأرسلتها إلى دار (كونستيبل) للنشر، وكنت في بعض ريف (هامشتر) حينذاك.

وتلقيت من (كونستبل) أنهم راضون عن القصة، راغبون في لقاء المؤلفة، بيد أني كنت قد زهدت في هذا اللقاء، بعد ما حدث في لقائي للناشر السابق الذي أراد أن يعطيني درساً في الفن على يدي بعض كتبه! ومن الجهة الأخرى - لم أكن أود إنفاق أجر السكة الحديدية في سفرات لا أريدها! وكذلك كتبت إلى (كونستبل) أستفهم عما إذا كانوا جادين في رغبتهم نشر قصتي؟

وأعتقد أنني سررت حين علمت أن كتابي سيطبع وينشر حقاً! والواقع أني لا أكاد أذكر شيئاً عن ذلك، ولكني أرجح أني تلقيت الأمر في قلة اكتراث. وإن ذاكرتي لتختزن القليل من مشهد جلوسي في غرفة بمنزل (ميخائيل سادلر) في لندن، وأني لأتصور الغرفة الآن وطولها ميل أو أكثر، كما أتصورني وأنا أعبر طولها ذاك حابية على كفي وركبتيّ!. وبعد أن تناولنا الطعام تناولت قلمي فأجريته فوق بعض عبارات من القصة زعم صاحبنا أنها غير ملائمة. ولقد ساعد على اقتناعي برأيه السيئ فيها زهدي في احتراف القصة. كما أنني تركته يستبعد كلمات من العنوان نفسه

وبعد أن تم التعاقد بيني وبين دار (كونستيبل) للنشر بأسابيع فجأتني حاجة عنيفة إلى المال، فكتبت إليهم أطلب نقوداً. في حين أنني لم أكن أعلم ماذا صنعوا بعد إتمام التعاقد؟

غير أنني كنت متأثرة بإحساس باطني جديد يخيل إلي أن تصرفي ذاك لم يكن أكثر من مشاكسة لا بأس بها! ثم إني قلت لنفسي إنهم قاموا بنشر كتابي. . . ولا بد أن

يكون شيئاً ما؟. ولم يكن يتطرق إلى ذهني أن قبول نشر هذا الكتاب لم يكن أكثر من رغبة من الناشر في مساعدتي!. . .
وإن أي إنسان يتوهم أن الناشرين - عدا واحد أو اثنين - قوم غلاظ القلوب - لخليق أن ينكس رأسه خجلاً، فقد تلقيت بعد خطابي عشرة جنيهات، ومعنى ذلك أن دار (كونستيبل) للنشر قد زادت خسارتها مقدار هذه الجنيهات العشرة!!
وظهرت القصة في أوائل عام 1919، وعبثاً أحاول تذكر شعوري في ذلك الحين، وأنا شابة صغيرة السن خاملة الذكر. وكل ما أذكره أنني لم أصادف في الأيام الأولى بعد ظهورها أحداً من الأصدقاء أستطيع التحدث إليه في شأنها. ولعل هذا لم يكن يعنيني كثيراً. . .
ولم يسرني كثيراً - في جهالتي - أن الصحافة قد احتفت بقصتي الأولى. وهي على أي حال لم تظفر بإطراء مسرف. ولكنها لقيت اهتماماً ملحوظاً. ولقد احتفظت حيناً طويلاً بما كتب بين المدح والقدح؛ احتفظت بهذه الكتابات أربع سنين أو خمساً، في حين أنني كنت أحرق كل شيء من الخطابات والصحف وسواها، وكذلك أصنع الآن، غير أنه يندر أن أحفل بما تكتبه الصحف عني وعن كتبي. ولن أترك بعد موتي قدراً كبيراً من الأوراق، فإني أمزق خطاباتي بعد تحرير جوابها إلى أصحابها، كما أمزق المذكرات التي أصنعها لموضوعات كتبي، وكذلك اصنع بمفكراتي الخاصة. كما أني أميط كل أثر لي عن وجه هذه الأرض التي سوف أرحل عنها جِدَّ آسفة!!. . .
ومن المحقق أنه يكون من بواعث ارتياحي أن أحرق كل نسخة أعثر بها من قصتي الأولى هذه، وقد نسيت أن أذكر أن اسمها كان (الوعاء يغلي). . . ومن دواعي اغتباطي أنني موقنة من أنها لم تكن عملاً أدبياً يستحق أن يباع للقراء! ومن حسن الحظ أن حقوق الطبع بيدي، فلن يتاح لهذه القصة أن يعاد طبعها أبداً. . . إلا إذا عقدت مسابقة في أردأ القصص! والحق أنها كانت رديئة إلى حد لا يصدقه إنسان. ولكنها قد لا تكون أردأ ما كتبت أنا! وإن رداءتها المنقطعة النظير لتثبت أني لم أكن أبداً قصصية موهوبة. ولكن فيها
درساً لا ينساه كاتب مبتدئ لم ينشأ في أسرة يتكنفها جو أدبي. فلم يكن بجواري حين كنت أكتب قصتي الأولى إنسان واحد يحبوني بنصح أو تحذير. كذلك لم يكن لي من ذوق طبيعي في الأدب، غير أنه كان بي جوع شديد إلى المعرفة، شجع في أشنع أغلاطي كمؤلفة!. . .
كان رأسي بمثابة (الخلية) تضم (عسل) الرجال الآخرين وكانت العلة في ذلك هي تلك البرامج الجامعية التي تنتهي بمثلي إلى نيل درجة علمية في اللغة وآدابها. فلقد لبثت ثلاث سنوات أقرأ وأقرأ وأقرأ. . . من غير تمييز! ومن غير أن أجد جواً صالحاً لكي أنضج بما استوعبت في قراءاتي المتعاقبة. وخلفت الجامعة بذهن تعصف به الأصداء! من غير أن تتهذب ملكة النقد الطبيعية في ذهني. والحقيقة أن كاتباً موهوباً لم يكن ليستطيع أن ينتج بمثل ما قدر لي من سهولة الإنتاج! فإن لي لمقدرة على التفكير المنظم والصبر؛ ولكنها مقدرة قصيرة النظر! تذكرني دائماً بحصان ركبته مرة واحدة في حياتي، إحدى عينيه تالفة، ويتوهم أنه يستطيع اجتياز أي حاجز!!
وبالرغم من نسياني كل شيء عن قصتي الأولى يخيل إلي أنه كانت تبدو فيها مهارة فنية خشنة غير صقيلة؛ كانت لي في تلك الأيام ولم يتناولها أحد من الناشرين أو الصحافيين بحسبان أنها كتاب (شاب) ناشئ، مما يجعلني أعتقد أنها كانت عملا ضئيلا جدا، لا يمكن أن يجد مثله اليوم سبيلاً إلى النشر. ولو أن ناشراً أخرجه للناس لما لقي شيئاً من عناية النقد ولا التفات الصحافة
على أن الكاتب المبتدئ الآن قد اصبح عليه أن يقتحم ميداناً شديد الزحام؛ يكون حسن الحظ لو لم يختنق فيه بعد بضع دقائق!. فإذا وفق إلى استرعاء الأنظار كان خليقاً أن يأمل في نقد ينتفع ببعضه. وهذا الزحام الشديد لا يمكن أن ينكره كاتب ناشئ قليل الأنصار. وإن خير آماله ليجب أن يعقد بعقد صداقات نافعة في الجو الأدبي بأسرع ما يستطيع. فمثل هذه الصداقات خليق أن ينقذه من إضاعة وقته سدى مشتغلا بكتابة قصة لا يبلغ من أمرها أكثر من أن يسمع لأجلها بضع كلمات تافهة تلقى بعدها وهي ترسب آخر الأمر. ومتى علم ذلك الكاتب الناشئ كان جديراً ألا يرفض المشورة بعقد

مثل هذه الصداقات محتجاً أن فيها تجنياً على روحه الفني ووقته. وعليه أن يذكر دائماً أنه ينبغي له اختيار أضأل الضررين. . .!

ولقد أصبح رزق مثله في ذلك الميدان وكثير غيره، أعسر مما أتيح لي منذ عشرين سنة. فان كسب المال غداً أقل يسراً مما كان عليه في ذلك الحين. ومع هذا فماذا ربحت؟ عشرة جنيهات في مقابل عمل ثلاث سنين!

. . .بل إن هذا المبلغ لم أكسبه بالطريق العادي في الواقع

وإن لآسفة حتى الآن على أني لم أحترف التدريس!

ستورم جيمس

شجرة الذكرى

للأستاذ محمود الخفيف

وَيْحَ مَن شَجَّت يداه الشجَرَه ... وطوت أغْصَانَها المزدَهِرَه

ويح من أهْوَى بفَأسٍ لا تني ... تَركتْ أشلاَءها منتثِرَه

قَطعَتْهَا سَرْحةً طَيِّبَةً ... تَبْسُطُ الظلَّ وتؤتي الثَّمَرَه

جِئتُ والصَّيفُ على أهبته ... ويَدُ الدُّنيا تُعَفّى أثَرَه

والخريفُ السَّمْحُ في أعقابه ... يَتَقَصَّى في هُدُوءٍ خَبَرَه

يَسْأَلُ القَرْيَةَ عما أدَّخَرَت ... لليالي المُرَّةِ المُعْتَكِرَه

لا يَرَى غَيْرَ فُتورٍ سَايِغٍ ... في نواحيها وصَمْتٍ حَيَّرَه

أتُراها لَمَحَتْ في بُرْدِهِ ... شَبَحًا لِلْكُدْرَةِ المُنتظَرَه؟

أم تُرَى أذْهَلَهَا ما مَسَّها ... من لظًى كانَتْ بها مُسْتعِرَه؟

جِئتُ كالحاجِّ وفي مُهْجَتِهِ ... فَرْحَةُ الناسِكِ يقضى وَطرَه

طفْتُ بالقرية من أركانها ... كل حُسْنٍ أتَمَلَّى صُوَرَه

أتَقَرَّى أينما سِرْتُ يَدَ الدَّهْ ... رِ وأحصى من قَريبٍ غِيَرَه

كُلّمَا أبْصَرَ طَرْفِى لِلْبلَى ... أثَرًا دبَّ إلَيْهَا كَدَّرَه

وإذا أبْصَرَ فِيهَا طَارِفاً ... زادهُ العَيْشُ عليها أنْكَرَه

كَلّ مَا غَيَّرَ من صُورَتِهَا ... كَمْ تَمَنَّى عِنْدَهُ لو لم يَرَه!

مِلْتُ لِلْبسُتْانِ في أطرافها ... مَلْعَبٌ ما كان أحلى مَنْظَرَه

فَتَوَقَّفْتُ لدى مَدْخَلِهِ ... وتَلَفَّتُّ أريدُ الشَّجَرَه

لم أجِدْ غيْرَ فَضَاءٍ بَلْقَعٍ ... وَبَقَايَا أغْصُنٍ مُنْتَشِرَه

شَدَّ ما أوْجَعَ نَفْسِي أن أرى ... ذلك المنظَرَ أو أن أذْكُرَه

مَنْظَرٌ ما يَبْعَثُهُ ... من أسًى كُلُّ فؤادٍ خَبَرَه

طاف بالبستان مِنهُ وَحْشَةٌ ... فتَرَى الدَّوْحَ عَلَيها غَبَرَه

وترى الأطْيَارَ في أنحائه ... سَاهِماَتٍ ساءها ما غَيَّرَه!

سَرْحَةٌ كُنَّا نرى أيَّامَنَا ... من جديدٍ عندها مُخْضَوْضِرَه

ولقد كنتُ إذا ما جِئْتُهَا ... عَادَ مِن عُمْرِيَ سِنُّ العَشرَه

رُحْتُ ألْقَانِي لديها نَاشِئاً ... لا يرى في العيشِ إلا زَهَرَه

يَعْشِقُ الرَّيفَ ويهوى شَمْسَه ... ويُنَاجِي في اللّيَالِي قَمَرَه

إبن عشر تضحك الدنيا له ... ليته لم يتجاوَز صِغَرَه

هذه الدوحة كانت مُلتَقًى ... ومِقيلاً للصحاب البَرَرَه

كم جَعَلْنَا عندما موعِدَنا ... وزمَانُ اللهو يُزْجى زُمَرَه

فَنَهَلْنا الوُدَّ عَذْبًا صافيًا ... لم يَشُبْهُ عَنَتٌ أو أثَرَه

زَمَنٌ قد أدْبَرَت أنْعُمُهُ ... هذه السَّرْحَةُ كانت مَظْهَرَه

لمسَتْ كَفِّى جناني عندها ... وتَبَدَّت مُقْلَتي مُسْتَعْبِرَه

وَلَحَانِي صَاحِبِي مُسْتَنْكِراً ... وفؤادي مُنْكِرٌ أن يَزْجُرَه!

كُلُّ مَوْتٍ يترَاءى لبني المو ... ت ترى الأعْيُنُ فِيهِ نُذُرَه

تَلْمَحُ الأنْفُسُ في غُمَّتِهِ ... يَدَهُ العَابثَةَ المُقْتَدِرَه

والذي تَأْلَفُهُ نَفْسُ ... يَحْسَبُ النَّاقِصَ فِيهِ عُمُرَه

محمود الخفيف

من وحي العيد

آخر الأناشيد

للأستاذ أحمد فتحي

طابَ لِي الزُّهْدُ فاْبخَلِي أو فَجُودِي ... لا أُبالِي بالوَصْلِ أو بالصُّدودِ
قد تَبَرَّأْتُ مِن حَمَاقَةِ عُمْرٍ. . . ... ضاعَ بينَ السَّقَامِ والتَّسْهيدِ
وأَسَتْ جُرْحِيَ الليالِي وأَضحَيْ ... تُ - كما تُبْصِرِينَ - جِدَّ سَعِيدِ
ضَاحِكاً للحياةِ، أَهْزَأُ بالأحْ ... زانِ، في عَزْمَةٍ، وبَأْسٍ شَدِيدِ
نَاعِمَ البالِ، راضياً بِخَلاَصِي ... مِنْ فُتُونِ الهوَى وأَسْرِ القُيُودِ
أَتَغَنَّى كالطَّيْرِ، أَمْلأُ دُنْياَ ... يَ. بألحانِ صَادِحٍ غِرِّيدِ!
ليسَ بالطَّارِقِي خَيَالُكِ إنْ أَعْ ... فَيْتَ يُقْصِى عن ناظِرَيَّ هُجُودِي
لا، ولا عائِدِي من الشَّوْقِ طيفٌ ... يُلْهِبُ الحُبَّ في فؤادي العَمِيدِ!
قد مَضَى الحبُّ؛ وانْطَلَقْتُ مِن الأسْ ... رِ لِظِلِّ الطَّلاقَةِ المَمْدُودِ!
دُونَي الرَّاحَةُ التي كنتُ أَرْجُو ... نِعْمَ مِن رَاحَةٍ؛ وَعَيْشٍ رَغِيدِ
يا فَتاَتِي: لَقَدْ صَحَا بَعْدَ ما أَسْ ... قَيْتِهِ مِنْ سُلاَفَةِ العُنْقُودِ
ذَلكَ القَلْبُ؛ لم يَعُدْ لَكِ سُلْطاَ ... نٌ عليهِ، فَلْتَبْخَلي، أو فَجُودِي!
أَنْصِتِي، لو وَعَيْتِ رَجْعَ نَشِيدِي ... أنا شَادِيكِ في غَدَاةِ العِيدِ
لا تُشَيِحِي عَنِّي بِوَجْهِكِ حَتَّى ... تَأْخُذِي من فَمِي حَدِيثَ الخلُودِ
الأَمَانِي. . . أَحَبُّها في بَيانِي ... والتَّحايا أَرَقُّها تَغْرِيدِي!
وأنا الكافِلُ الخُلودَ لِحُسْنٍ ... عَبْقَرِيّ مِن مُقْلَتَيْنِ وَجِيدِ
رُبَّما رَجَّعَ الزَّمَانُ قَوَافِيَّ م ... وأَصْغَتْ آذَانُهُ لِنَشِيدِي!
أنا شادِيكِ في غَدَاةِ العِيدِ ... فاْسَمعِي حِكْمَةَ الْجَوَى واسْتَعِيدِي
أَنْتِ أَطْفَأْتِ جِذْوَةَ الحُبِّ إذْ أَحْ ... بَبْتِ تذْكِينَ نَارَها بالصُّدُودِ
لا يَرُوعَنَّكِ التَّجَنُّبُ مِنِّى. . . ... والْقِلَى بعد فَرْطِ شَوْقٍ أكيدِ
غَايَةُ الشَّوْقِ سُلْوَةٌ واصطبارٌ ... وكذا النارُ أَمْرُهَا للخُمودِ
وكأيَّامِنا. . . تَحُولُ وَشيكاً. . . ... بِيضُ هاتِيكِ بَعدَ تلكِ السُّودِ
حِكْمَةُ الله لا دَوَامَ لِحالٍ. . . ... من نُحوسٍ في الحظِّ، أو مِن سُعُودِ
ولكِ الصَّبْرُ يا فتاتِي، ولي مِنْ ... هُ كفاءُ المُؤَمِّلِ المُسْتَزِيدِ
جَانِبي الوَجْدَ، وأمرَحِي من جَدِيدِ ... وإلي البِشْرِ والتَّفاَؤُلِ عُودِي
وابْسِمِي يَبْتَسِمْ لَكِ الزَّمَنُ الجَهْ ... مُ، ويَغْشَى الخُبورُ وَجْهَ الوُجودِ
واغْنَمِي صَفْوَهُ وقد جَاء يَسعْىَ ... عِيدُ آمالِكِ الحِسانِ، وَعِيدِي
وانْشُدِي في الأَنامِ (قيساً) جديداً ... علَّ أنُ تَبْعَثي الهوَى مِن جَديدِ
ما تزالِينَ مِن شبابِكِ في غَضٍّ م ... رَبيعٍ، يَحْكِيهِ عُمْرُ الورودِ
لا تُضِيعيهِ في ابْتِئاَسٍ وَوَجْدٍ ... آفَةُ الحُسْنِ لَوْعَةُ التِّنكيدِ
أو تُبالِي هواىَ حينَ تَقَضَّي ... فهواكِ الخليقُ بالتَّجديدِ!
يا ليالي غَرَامِها: لا تَعُودِي! ... قَدْ حَنَى الدَّهْرُ بالتَّجاريبِ عُودِي
لا رَعَى اللهُ من زَمَانٍ تَقَضَّي ... في كِذابِ المُنَى وخُلْفِ الوُعودِ
قد أَقَرَّ السُّلُوُّ عَيْنَيَّ وارْتا ... حَ فُؤَادُ المُعذَّبِ المعْمُودِ
فِيمَ أَذْوِي الشبابَ بالدَّمْع والسُّهْ ... دِ وَأَرْضَى في الحُبِّ طوالَ الجُحودِ؟
إنّما الحُسْنُ فِتْنَةٌ تَتَبَدَّى ... تَجْلِسُ اللُّبَّ من حَكيمٍ رَشيدِ
وضَلالُ الهوَى اضطرابٌ من الفِطْ ... نَةِ بينَ التَّرْغِيب والتزهِيدِ
وسُمُوُّ الأَرْوَاحِ فَضْلٌ من الِله م ... وَوَحْيٌ من العزيزِ الحميدِ!
حَبَّذا العُمرُ في زَهَادَةِ نَفْسٍ ... عَزَفَتْ بي عن كُلِّ حسناَء رُودِ!

أحمد فتحي

!. . .مصرع قصيدة

للأستاذ سيد قطب

أحسست مصرعها بنفسي ... بين التأوه والتأسي
وسمعت حشرجة الجريح ... تئن في أطواء حسي
هي من بنات الشعر لم ... تولد، ولم توأد لوكس!
جاشت لفاتنة على الشطآ ... ن ذات رضا وأنس
نضجت محاسنها كما ... نضجت قطوفُ جَنًي بغرس
وحسبتها صينت على الْ ... أنظار من قطف ومس

فهممت أدعوها دعا ... ء الفن في خطرات همس
شعراً يسجل حسنها ... للكون في أحناء طرس
وإذا الأيادي القاطفا ... ت تجول في عبث وبخس!
يا ويل قطاف الجما ... ل بغير ما ورع ونطس
بيننا نحوم عليه في ... تقوى كما نرنو لقدس!
وإذا التي جاشت بنفسي ... تثوى مضرجة بحسى!
(حلوان)
سيد قطب
البريد الأدبي
المركزية في التأليف
في الجامعة وفي وزارة المعارف (شركات) للتأليف، تفرض مؤلفاتها فرضاً على الوزارة وعلى المدارس وعلى التلاميذ. وهذه الشركات قد بلغت من السلطان والثقة بالنفس والحرص على الغلبة بحيث صارت مناهج التعليم مناهج التعليم موكولة إليها تغير فيها وتبدل، وتمحو وتثبت، وتنقض وتبرم، وبحيث قد أغراها ما أغرى على أن تتعارك وتتصارع وتتوسل بوسائلها لتضمن كل (شركة) لنفسها الغلبة على ما دونها من شركات التأليف والاحتكار؟
وأولى هذه الشركات هي شركة الجامعة؛ وثمة شركتان أخريان في مكتب تفتيش اللغة العربية في وزارة المعارف. وقد بلغ من تنافس هذه الشركات في التأليف ما نسجل مظاهره فيما يأتي:
1 - وضعت لجنة تيسير قواعد اللغة العربية - وأعضاؤها من شركة الجامعة للنشر والتأليف، منهجاً جديداً للبلاغة في السنة التوجيهية، يقوم على أسس وأصول لا نعرفها من قواعد البلاغة. وإذا كان هذا المنهج جديداً في موضوعه على التلاميذ وعلى المعلمين جميعاً، كان لا بد من كتاب ولا بد من مؤلِّف. . . ونشطت (شركة الجامعة) لمهمتها؛ ولكن نبأ جاءها أن إحدى الشركتين في مكتب التفتيش تعمل ناشطة لإخراج الكتاب المرجو في وقت قريب لا تستطيع لجنة الجامعة أن تسبق إليه؛ ولكن حرص الجامعة على أن يكون كتابها أسبق ظهوراً، قد ألهم أساتذة الجامعة خطة، فأصدروا قرارهم بوقف العمل بهذا المنهج حتى تفرغ الجامعة من إصدار كتابها. ومضى شهران من السنة الدراسية قبل أن يعلم التلاميذ والمعلمون في السنة التوجيهية أن المنهج الذي أعدوا له ودرسوا منه قدراً ما قد وقف العمل به. . .
2 - وللسنة التوجيهية منهج في الأدب وضعته كلية الآداب، وألف له فيمن ألف اثنان من خيرة المعلمين في وزارة المعارف. وراج كتابهما منذ العام الماضي رواجاً أغرى إحدى الشركتين في مكتب التفتيش على مشاركتهما في ثمراته؛ فصدرت منه الطبعة الثانية منذ قريب وعلى غلافها اسم صاحب العزة المفتش الأول إلى أسماء كثيرة منها المؤلف ومنها
صاحب التوقيع. . .
وكانت شركة الجامعة تعمل عملها لإصدار كتاب في الأدب التوجيهي حين جاءها النبأ بصدد كتاب المفتش الأول وزملائه، فسعى ساعيها إلى وزارة المعارف يستعديها على (شركة مكتب التفتيش). وفي اليوم التالي كان كتاب سري من وزارة المعارف على مكاتب نظار المدارس جميعاً يمنعهم استعمال كتاب المفتش الأول ويتوعدهم بأقصى العقاب!
واحتج التلاميذ، واحتج المعلمون؛ وحق لهم أن يحتجوا ما داموا لا يجدون أمامهم كتاباً في منهج الأدب التوجيهي غير الكتاب الذي يحمل اسم المفتش الأول. ولكن شركة الجامعة التي تحرص على الغلبة في هذا التنافس العجيب قد التمست لذلك وسيلة قريبة، فأشارت بأن يوزع كل ما طبع من كتابها على التلاميذ قبل تمامه ملزمة ملزمة، وحسب المطبعة أن تسبق التلاميذ بدرس واحد ما دام هذا يحقق الغاية ويفوت على شركة مكتب التفتيش حق الانتفاع بالكتاب الذي ظنت بإصداره أنها ستستأثر بالسوق. .
هذان مثلان حسبنا أن نذكرهما باختصار وبلا تعليق؛ ولا نظن الفضوليين بعد ذلك يلحون في السؤال: لماذا تتغير مناهج التعليم بين عام وعام قبل أن تظهر ثمرة التجربة في

منهج من هذه المناهج؟ فعل لهم في هذين المثالين جواباً لما يسألون!
(م. أ)

اللغة العربية في مدارس إيطاليا

أبدت الحكومة الإيطالية أخيراً رغبتها في إدخال اللغة العربية بين برامج التدريس في معاهدها بإيطاليا، فاتصلت ببعض الجهات الرسمية في مصر وطلبت إليها إمدادها بالمدرسين الفنيين وموافاتها بالمنهج الذي تقترحه. وقد أيدت هذه الجهات رغبتها في إجابة هذا الطلب، غير أنها ترى إرجاء ذلك إلى العام المقبل، نظرا إلى ابتداء العام الدراسي الحالي في مصر

ويؤخذ من البيانات الخاصة بهذا الموضوع أن الحكومة الإيطالية شرعت في تدريس اللغة العربية في مدارسها تحت إشراف بعض المستشرقين الإيطاليين. وقد طلبت إلى الحكومة المصرية، في الوقت نفسه، تقوية التعاون الثقافي بين البلدين واقترحت لذلك أن توفد أستاذا

ليقوم بتدريس اللغة الإيطالية في كلية الآداب المصرية على أن يتقاضى مرتبه من حكومة بلاده، غير أن جامعة فؤاد الأول أبدت للحكومة الإيطالية شكرها على ذلك، معتذرة من عدم إمكانها إجابة هذه الرغبة، في الوقت الحاضر، لأن اللغة الإيطالية غير مقررة في مناهج الدراسة بكلية الآداب، ولأن أمر تقرير دراستها يرجع إلى مجلس الكلية والجامعة. ثم ذكرت أنها ستعرض الموضوع على هذين المجلسين لاتخاذ قرار فيه.

الثقافة في خدمة السياسة

نشرت الصحف خبراً قد يبدو بريئاً في مظهره، ولكنه يحمل بين سطوره نتائج سياسية خطيرة. ذاك هو الخبر الخاص بالجهود التي أخذت تبذلها إيطاليا في سبيل توثيق العلاقات الثقافية بين مصر وإيطاليا خصوصاً في ميدان التعليم. . . وبديهي أننا نتمنى مخلصين إيجاد تعاون فكري وثيق بين جميع بلاد العالم. فمثل هذا العمل إذا تم بين الأمم، سيساعد بلا شك على إزالة أسباب الخلاف وسوء التفاهم التي أحدثت وهناً ظاهرا في الروابط التي تربط بلاد العالم بعضها ببعض. ولكن فيما يختص بايطاليا، لا يسعنا إلا أن نحترس ونتحفظ. ومما يبرر موقف التحفظ الذي نقفه أن كل ما يحدث في إيطاليا من الأمور خاضع للسياسة، حتى العلم والأدب. والمعروف أن السياسة الإيطالية ترمي إلى غزو الشرق وإعادة الإمبراطورية الرومانية، بعد إخضاع الشعوب الشرقية واستعبادها. وما اقتراح إيطاليا إرسال مدرسين لتعليم اللغة الإيطالية في المدارس المصرية على حسابها الخاص، إلا مظهر من مظاهر هذه السياسة ووسيلة من شتى الوسائل التي تستخدمها الدعاية الإيطالية لتمهيد الطريق أمام السياسة الفاشية.

لقد ازدادت الأمور تحرجاً منذ قررت الحكومة الإيطالية تحويل لوبيا إلى ولاية إيطالية بحتة، وطرد أهلها العرب إلى قفار الصحراء، ليحل محلهم خمسة ملايين من الإيطاليين. وما هذه الاقتراحات الإيطالية الخاصة بالثقافة. إلا وسيلة لتخفيف وطأة الأثر السيئ الذي أحدثته في نفوسنا مطامع إيطاليا في الشرق

مبادلات ثقافية! فليكن. ولكننا لا نسمح بحال أن تكون تلك المبادلات الثقافية شركاً للمطامع السياسية

(ح. هـ)

دار العلوم وكلية اللغة العربية

نشرت الرسالة (العدد 281) في البريد الأدبي كلمة بهذا العنوان تضمنت استنكار الخصومة بين المعهدين من أجل مناصب التدريس في المدارس، والإشارة بأن تسوي الحكومة بين خريجي المعهدين في هذه الوظائف. والواقع أن دار العلوم في مستقرها الطبيعي، ومحاولة المنافسة آتية من جهة الأزهر، فليس من الحق أن يطالب الأزهريون بالتدريس في المدارس، في حين لم يطلب أبناء دار العلوم بوظائف التدريس في الأزهر. وليس من المساواة الحقيقية أن يعين الأزهريون في وظائف التدريس بالمدارس دون أن يعين أبناء العلوم في وظائف التدريس بالأزهر. هذا إلى أن الأزهر يولي بعض المدرسين من غير علمائه مهمة تدريس العلوم الحديثة بمعاهده ويهمل أبناء دار العلوم وهم أجدر بها

على أن دار العلوم في عهدها الجديد تتفرد من بين جميع معاهد التعليم بدراسة اللغات الأجنبية والسامية وآدابها، إلى جانب الدراسة المستفيضة للغة العربية وأدبها، وهذه الدراسة لها أثرها في خدمة العربية وإسباغ الجدة عليها وتجلية آدابها وتبرئتها من الجمود

وعلى أن دار العلوم أحد معهدي التربية الذين تنظمهما وزارة المعارف لإعداد المعلم الفني وتبذل الأموال والجهود لتوفير أساليب التربية الحديثة فيهما، وجعلهما البيئة الصالحة لإعداد المعلم الذي تتطلبه حاجة الأمة في نهضتها التربوية. فأن تجاوز الوزارة المعلم الذي تنشئه على عينها وتعده لمهمة خاصة إلى غيره ليس من حسن تصريف الأمور وإقرارها في قرارها. ووزارة المعارف اليوم جادة في وضع الأسس الثابتة للتعليم، وقد بدأت هذه الأسس بتنظيم دار العلوم ومعهد التربية. إذ عليهما يقوم كل بناء في التعليم

(ع. ح. خ)

البحوث العلمية في البحر الأبيض المتوسط

عقدت اللجنة الدولية للبحوث العلمية في البحر الأبيض المتوسط اجتماعها السنوي في باريس ثم أنجزت أعمالها في اجتماع ثان عقدته في موناكو برياسة الدكتور جول ريشار مدير متحف الأبحاث المائية في موناكو

وبعد أن تناول الأعضاء بعض المسائل الإدارية انتقلوا إلى البحث العلمي فعالجوا مسألة

بعض أنواع السمك وتوحيد المناهج لتحليل مياه البحر الأبيض المتوسط والقواعد العلمية لصناعة المأكولات المحفوظة في ذلك البحر

وقدم رئيس كل وفد بياناً عن الأعمال التي تمت في بلاده فتكلم الدكتور حسين فوزي مندوب مصر فقال إن المصلحة التي يديرها والتي تبحث في هذا العلم في مصر قد أطلق عليها بأمر جلالة الملك فاروق الأول اسم (معهد فؤاد الأول للأحياء المائية وصيد الأسماك) تخليداً لذكرى الراحل العظيم مؤسسها. وقد بسط الدكتور فوزي ما كان من تشجيع جلالة خليفته لهذا المعهد

واقترح الدكتور فوزي وضع الباخرة (مباحث) تحت تصرف البعثة التي ستوفدها اللجنة للقيام ببعض الأبحاث في شرف حوض البحر الأبيض المتوسط وذلك بجميع ضباطها وبحارتها مع اثنين من الاختصاصيين المصريين، وقد تقرر أن تتولى مصر مفاوضة الدول الأخرى التي تريد الاشتراك في هذه البعثة وذلك قبل الانعقاد القادم للجمعية العمومية للجنة في مدينة البندقية

مسابقة التأليف

كانت وزارة المعارف قد أعلنت عن مسابقات في مختلف العلوم والفنون والآداب، ابتغاء حث رجال التعليم على البحث والدرس والتأليف

وقد بدأت الوزارة تتلقى رسالات في هذا المضمار

وستبدأ الوزارة في الشهر القادم في تأليف لجان التحكيم لفحص هذه الرسائل توطئة لإعلان النتيجة

جيروم تارو في الأكاديمية الفرنسية

انتخب المسيو جيروم تارو عضواً في الأكاديمية الفرنسية في الدور الأول بأكثرية 19 صوتاً ضد 11 صوتاً نالها المسيو فرنان جريج. وكانت إحدى أوراق الاقتراع بيضاء

وقد ولد جيروم تارو في 11 مايو 1874 في سان جونيان بمقاطعة (فسيين العليا). وقد كان مديراً لجامعة بودابست ثم انقطع إلى الكتابة والتأليف بالاشتراك مع شقيقه جان تارو. ونال الشقيقان جائزة جونكور سنة 1906 لكتابهما (دنجلاي كاتب شهير). وقاما برحلات

كثيرة خصصا لها كثيراً من مؤلفاتهما ومنها: (في بريطانيا)، (في فلسطين)، (مراكش أو سادة الأطلس)، رباط أو الساعات المراكشية). وقد نال جيروم وجان تارو سنة 1919 الجائزة الكبرى للآداب

الكتب

عبقرية الشريف الرضي

تأليف الدكتور زكي مبارك

بقلم الأديب حسن حبشي
الدكتور مبارك من أكثر أدبائنا إنتاجا. لا يكاد يضع القلم من كتاب حتى يتهيأ لتأليف آخر.
وهذه ناحية من النشاط محمودة. وإنه ليخيل لقارئ كتب الدكتور زكي أنه يضن بما يضطرم في نفسه من خواطر، وما يجول في ذهنه من أفكار وآراء ألاّ يسجلها في مؤلفات يطالعها الناس، ومن هنا كانت كثرة ما كتب، وقد اعترف هو نفسه بذلك في مؤلفه هذا (ج2 ص197) في الفصل الذي عقده عن حجازيات الشريف
وكتاب (عبقرية الشريف الرضي) والتصوف الإسلامي آخر مطبوعات الدكتور وليسا آخر مؤلفاته، وأحسب أن لن يكون ثم كتاب أخير له حتى لا يكون في الوجود زكي مبارك
والمترجم له من فطاحل شعراء العربية، وهو مغمور إن قيس بأنداده الذين ذهبوا بالذكر والشهرة، أما الرضيَّ فلم يظفر إلا ببضعه أسطر أو صفحات مبعثرة في ثنايا الكتب الأدبية، وببعض مقالات نشرت هنا وهناك، وذلك على الرغم من الدور العظيم الذي مثله على مسرح السياسة والأدب في عصره
تناول الدكتور زكي في هذا السفر صاحبه الرضي من نواح عدة، إلا في السياسة فقد مرَّ عليها سريعاً، كما ألم ببعض مواقف الشريف وحوادثه، غير أنه كان يعرض أحياناً للرواية دون بحث أو نقد، وقد يكون ظاهرا فيها الوضع. أوَ ما ترى ذلك فيما نقله عن صاحب التبيان (ج1 ص278) من أن المرتضى نظم ذات يوم أبياتا فوقف به بحر الشعر، فأشار على من يحملها إلى الرضي ليتمها فأتمها بقوله:
فردَّتْ جوابا والدموع بوادِرٌ ... وقد آن للشْمل المشتِّ ورودُ
فهيهات من ذكرى حبيب تعرَّضت ... لنا دون لقْياهُ مَهامِهُ بيدُ
قال أبو الحسن النحوي: (فأتيت بها المرتضي، فلما قرأها ضرب بعمامته الأرض وبكى وقال: يعزَّ عليَّ أخي يقتله الفهم بعد أسبوع) فما جاء الأسبوع إلا وجاء نعي الرضي. هذا
ما نقله صاحب التبيان، وجاء به صاحب العبقرية، فانظر ماذا كان تعليقه ونقده عليها. قال: (. . . وهذه نادرة يستبعدها الناس، ولكنها طريفة، إذ تجعل موت الشريف بالشعر شبيها بحال من يخنقه أرج الأزهار فيموت) أما كاتب هذا المقال فلا يرى فيما نقله الدكتور عن صاحب التبيان إلا قصة ظاهراً فيها الوضع، وأية دلالة على موت الشريف قد اضطم عليها البيتان السابقان؟ ثم أين نقد الدكتور لهذا الوضع الظاهر؟ أشهد لقد غلب خيال الشاعر على موقف الناقد في تعقيب المؤلف. فان في تعليق الأستاذ مبارك بهذه العبارة السابقة روحا من الشعر، وعبيقا من الفن الأدبي
ألمَّ الدكتور زكي بنواح عدة من الشريف الشاعر، وأحسب أن مقاله عن الجندي المجهول الذي أستهل به كتابه، إنما هو من المقالات التي تظهر فيها شخصية الرجل الذي يقدر كل التقدير منزلة الشريف، فهي رثاء للعبقرية الموءودة في كل زمان، ونفحة من نفحات الإجلال للنبوغ المقتول، وللذكاء المحكوم عليه بالإهمال في الشرق.
أفراد المؤلف فصلا عن (أسرار العلائق بين الرضي والصابي) مع ما بين الاثنين من اختلاف في العقيدة، وقد صور المؤلف في مستهله قوة الصلة التي كانت تجمع بين أبي اسحق الصابي وأبي أحمد الموسوي والد الشريف، ويعرض لأثر الكتاب في هذا العصر (ص49 ج2)، وإلى الألفة والتوافق في المذاهب الأدبية، وهذا من الفصول القوية التحرير، القوية العرض، الدقيقة البحث في هذا الكتاب، وحجة الدكتور في هذه الصداقة التي تجمع بين الاثنين أن الصابي كان يحبب للشريف أن يطلب الخلافة الإسلامية لنفسه، وكان الشريف شاباً والشبان (يحبون أن يصلوا إلى قمم المجد في يوم وليلة، ويبحثون عمن يزكيهم ويؤيدهم ويدعى لهم التفوق، وقد تلفت الشريف وهو طفل فرأى شيخاً جليلاً يتنبأ له بمستقبل جليل فأحبه كل الحب) وفي هذا الفصل بالذات إيماءات خفيفة للنوازع والحوافز السياسية التي كانت سائدة في ذلك العصر.
ولكم كنت أحب أن يعقد المؤلف فصلا أو فصلين يتناول فيهما الشريف الشيعي، وما هما بالكثير على شاعر اختلف المؤرخون - العرب والأوربيون على السواء - في مسألة تشيعه، ثم هي تتصل اتصالا وثيقاً بالحركة السياسية في عصره، وتصور ميل الشريف للفاطميين في مصر بقولة:
أحمل الضيم في بلادي الأعادي ... وبمصر الخليفة العلوي

من أبوه أبي، ومولاه مولا ... ي إذا ضامني البعيد القصي
لف عرقي بعرقه سيدا النا ... س جميعاً محمدٌ وعليٌّ
لقد جاءت هذه الأبيات عفواً في كتاب (عبقرية الشريف) وكان الأمثل أن يتناول المؤلف مسألة تشيع الرضي، وقد عدها الكثيرون) ومنهم ابن الأثير في الكامل (ص8 ج8)، والمقريزي في اتعاظ الحنفا (ص15) اعترافاً صريحاً من الشريف الرضي بصحة نسب الفاطميين إلى علي بن أبي طالب.
وفي كتاب الشريف مقدمة، وللمقدمات عندي أهمية قصوى فهي عرض موجز للكتاب، ولربما كانت المقدمات في بعض الكتب كتباً بذاتها لها قيمتها الأدبية والفنية والنقدية، كهذه التي يكتبها برناردشو وألدوس هكسلي وغيرهما. أما مقدمة كتاب اليوم فهي إشادة بالكتاب والكاتب، وإن كانا في غير حاجة إلى ذلك، إذ أن المؤلف عد الرضي أعظم شاعر عرفته العربية لأنه كتب عنه، ولا يدانيه في مرتبته المتنبي الذي يرى الدكتور زكي أنه سيكون أعظم شاعر - هو الآخر - يوم أن يكتب هو عنه وإني لأسأل الدكتور ماذا يكون موقفه إن هو أبصر هذه المقدمة في كتاب لشاب؟ أكبر الظن أنه كان يتناوله بسيف المحارب ومبضع الجراح
هذه أوجه النقد في كتاب (الشريف الرضي) الذي ألفه الدكتور وطلع به على أهل العراق في محاضرات سمعوها ثم قرأها من بعدهم الناطقون بالضاد في كل صقع وناد وأسلوب صديقنا الدكتور أسلوب عربي قوي، لا عوج فيه ولا التواء، ينساب في كثير من المواضع كالجدول الصافي، كما أن مطالع جزئيه هذين يندر ألا يقع على تعابير ذاتية مبتكرة، فليقرأ الأدباء كتابه أنه سفر بحث ونقد وأدب

حسن حبشي

المسرح والسينما

الفرقة القومية

المدير ولجنة القراءة (مجنون ليلى)

لا مرية في أن لعزة النفس، وحب المجد، والأطماع الذاتية أثرا جميلا في حياة الرجل؛ ولا ريب في أن نصف العبقرية، هو الصبر يكال هامة الرجل العامل الدءوب بإكليل الظفر. فنحن إن كنا لا نغالط ولا نتهاون في تسمية أعمال مدير الفرقة بأسماء لا تقبل أكثر من معنى واحد، فلأننا نرمى إلى دغدغة عزة نفسه وتشبثه بالمجد الذي يطمع أن يختتم فيه سفر حياته في الفرقة القومية، وإلى مداعبة صبره الدال على نصف عبقرية - كما يقولون - لم نر بعضها في أعماله بهذه المؤسسة الأدبية، نفعل ذلك لنستثير كوامن النخوة فيه فتدفعه - برغم شيخوخته إلى العمل الكامل الذي يرضي النفس الأدبية ويغذي الروح الأدبي - العام. ولهذا نعد اختيار رواية (مجنون ليلى) وتمثيلها على مسرح الأوبرا مأثرة طيبة نذكرها لحضرة المدير بالخير الكثير، على رغم أن له في هذه الرواية رأياً خاصاً كان ينفثه في المجتمعات الأدبية والأرستقراطية، فيقول فيها إنها مجموعة أناشيد تختلف بالأوزان والقوافي، وإن الحوار فيها هزيل سقيم، وإن الباعث على تأليفها نزوة قامت في رأس شوقي بك في أيامه الأخيرة لتأليف الروايات الشعرية البعيدة عن بساطة الطبيعة أو شيء من هذا المعنى. فإغضاء المدير عن رأيه وتنازله عن النقد الفني لروح الروايات ومبناها، وسعيه إلى إبرازها على المسرح بعد إدخال بعض محسنات زخرفية عليها بالإنشاد، وإظهار جهود الفرقة بالإخراج البديع والأضواء المتناسقة، قد أفاء على الرواية ظلا فنياً بارعاً لا أحسبه خالصاً لوجه الفن والأدب؛ وأكاد أسمع وسوسة شيطاني تقرر أسباباً نفسية خاصة بحضرة المدير وهي:
أولاً: الإفلاس الأدبي. وثانياً: الكسل العبقري. وثالثاً: حب الوقوع تحت تأثير أدبي ومعنوي إرضاء لطبيعة الشعراء في الوحي والإلهام؟!
ولما كان تبيان ذلك قد يستغرق منا صفحة قد يكون في كتابتها الآن ما يقطع سلسة الكلام عن إظهار علل انحطاط الفرقة وتدهورها، فإنا نرجئ هذا الإيضاح إلى ما بعد.

أما الآن فلا ينبغي أن يفوتنا أن نهنئ الممثل أحمد علام الذي استطاع بلباقة وكياسة أن يبعث هذه الرواية من مرقدها، وأن يجيد إجادة موفقة تقمص روح المجنون إلى حد حسبناه قد مسَّه طيفُ جنةٍ مثله، كما نمتدح اقتدار الممثل الألمعي عباس فارس على إيفاء كل دور يمثله حقه الأكمل، وأن نطمئن حضرة مدير الفرقة بأن رواية المجنون خير رواية تدر الجنيهات لا القروش تترع خزانة الفرقة وتغمرها بالربح

حصرت، في مقال سابق، علة انحطاط الفرقة وتدهورها في مديرها الفاضل نفسه لاعتقاده أن ليس في الأمة المصرية من هو أصلح منه لادارتها، واستنتجت من هذا الزعم أن لا وسيلة في صلاح يرجى من رجل محدود العقيدة، وتعمدت تجاهل علة مستوطنة مستعصية في لجنة القراءة إلى حين. وهأنذا أقول إن علة هذه اللجنة هي من ذات نوع علة المدير، أو هي جرثومة واحدة تقسمها قسمة عادلة خمسة أشياخ اكليريكيين ذهناً وعقلا، لم يدخل (بعضهمْ) مسرحاً ولم ير تمثيلا أو داراً للسينما إلا في القليل النادر

أردت استطلاع آراء هؤلاء السادة الإجلاء واحداً بعد واحد فأجاب الأول على سؤالي قائلاً ما نصه: (مهمة اللجنة تنحصر في قراءة الروايات التي تقدمها الفرقة، وإصدار الحكم عليها إما بالقبول كما هي، وأما بالقبول بعد التعديل، وإما بالرفض)

قلت: هل تنظرون إلى الرواية إذا كانت مستكملة الخصائص الفنية المعروفة أم تستمعون إلى رأي مدير الفرقة؟ فقال:

(قد جرت العادة بأن مدير الفرقة هو الذي يتولى تقديم الروايات مشفوعة بتقارير عنها، وهو على جلالة علمه، وضافي أدبه ونفوذ نقده يأخذ نفسه في هذا الباب بالتحفظ التام)

سألت: هل لرأي النقاد المسرحيين قيمة في نظر اللجنة؟ فأجاب:

(الواقع أن النقاد المسرحيين إنما يبدون آراءهم بعد تمثيل الرواية حيث يكون الأمر قد انتهى وخرج عن يد اللجنة، على أنه قد يحدث أحياناً أن نرجع بواسطة مدير الفرقة بالضرورة إلى رأي كبار المخرجين (؟) وكبار الممثلين (كذا) فيما إذا كان يمكن تمثيل الرواية على الصورة التي قدمت بها أو لا)

قلت: إذا أجمع النقاد على القول بعدم صلاح رواية مثلتها الفرقة فهل من الحق الأدبي والفني تحدي النقاد وتخطي أقوالهم وإعادة تمثيل الرواية؟ فقال:

(قلت إنه بمجرد إجازة رواية يخرج الأمر من يد اللجنة بتاتاً ولا تستطيع أن تعمل شيئاً)

قلت: من يكون المسؤول عن هذا إذا وقع، وقد وقع فعلا، فإعادة تمثيل روايات تزري بسمعة فرقة أهلية متواضعة فضلا عن الفرقة القومية، منها رواية اليتيمة وغيرها. . فقال:

(أرجو إعفائي من هذا السؤال)

قلت: ألا تريد أن تقول كلمة في الدفاع عن لجنة القراءة وقد قبلت هذه الروايات المشلولة، وفي الدفاع أيضاً عن مدير الفرقة وقد مثلها ثم أعاد تمثيلها؟ فكرر الرجاء بأن أعفيه من الرد ومن الخوض في هذا الموضوع، وقد تفضل فحدثني حديثاً ودياً خاصاً تناول فيه ناحية من (الأخلاق الحكومية) كما سماها لا أسمح لنفسي بنشره الآن

قلت: هل خطر للجنة أن توازن بين الروايات التي مثلتها الفرقة وبين الروايات التي تمثلها الفرق الأهلية وفرق الهواة لتعرف مبلغ تقدم الفرقة القومية على الفرق الأهلية؟ فقال:

(إننا لا نقارن بين الروايات التي تقدم للفرقة وبين غيرها، لأن المقارنة تقتضي فحص الروايات الأخرى وهي لم تقدم إلينا)

قلت: أليس من واجب مدير الفرقة أن يفعل ذلك ليقدم للناس، على الأقل، أحسن ما تمثله الفرق الأخرى. فأجاب بعد هنيهة من تفكير:

(ليس لأحد سبيل على أحد، والفرقة القومية إنما نختار من بين الروايات التي تقدم لها هي، وليس لها سلطان على من لا يقدم إليها روايته)

قلت: هل لاحظتم تقدماً في تأليف الروايات خلال السنوات الثلاث، لأني أزعم أن الروايات التي مثلتها الفرقة في عامها الثالث أحط منزلة من الروايات التي مثلت في

العامين الثاني والأول؟
اعترض محدثي الفاضل على الشطر الثاني من السؤال قائلاً (إني أجيبكم عن الشطر الأول فقط: على العموم يمكنني أن أؤكد لكم أنني شخصياً كنت من بضع سنوات في شبه يأس من نجاح التأليف التمثيلي في مصر. على أنني لم يرعني، وخصوصاً في أثناء قراءة الروايات التي قدمت للمباراة في هذا العالم، لم يرعني إلا أن أرى شبه طفرة في الروايات المؤلفة مما يدل على أخذ الفكر الروائي في نضوج بل في نضوج سريع. حقيقة أننا لم نبلغ الكمال ولم نقترب منه بعد، ولكن يمكنني أن أقول إننا نمضي سراعاً إلى الكمال. ويحسن في هذا المقام أن أقول إن الجودة النسبية لم تقتصر على الروايات الست التي أجيزت، بل إن هناك روايات أيضاً، وإن لم تصل في نظرنا إلى مدى هذه، فان مؤلفيها ولا شك يستحقون الإعجاب والتقدير)
انتقلنا إلى الكلام عن أسباب صدوف كبار الأدباء من مؤلفين ونقاد عن الفرقة القومية، وعبرتُ عن هذا الرأي بصراحة تؤلم اعتداد أعضاء لجنة القراءة بأنفسهم. فقال محدثي الفاضل بشيء من الحماس المتزن:
(لاشيء يبعد المؤلفين عن الفرقة القومية سوى تهيبهم كتابة الرواية المسرحية ووقوفهم في صف واحد مع الكتاب الناشئين)
اكتفي بهذا القدر من الحديث لضيق المجال، تاركا التعليق عليه إلى المقال التالي، وبذلك يكون قد تيسر لي حضور تمثيل إحدى الروايات التي فازت بجائزة المباراة التي قال عنها وعن أخواتها حضرة محدثي الفاضل إنه رأى فيها شبه طفرة تدل على نضوج الفكر الروائي ومضيه سراعاً إلى الكمال
أبن عساكر
العدد 284 - بتاريخ: 12 - 12 - 1938
من مآسي الحياة
بل ليت للأوقاف قلباً!
ذلك ما ابتدرني به رجل يهدف للخمسين أشمط الرأس أصهب الشارب جركسي البشرة، يترجم كلامه عن العزة، وينم هندامه على الفاقة، ويشير سَمْتُه إلى مسحة من الأرستقراطية تتراءى ضئيلة على معارف وجهه وحركات يده
دخل عليَّ المكتب أول أمس في أدب كأدب البيوتات الكريمة الدارسة: سلام تحس فيه تواضع المملوك وكبرياء الملك؛ وبسمة متملقة تجري على شفتيه الرقيقتين كأنها من طبَعيَّتها خِلْقة؛ وأسلوب هذبته (الإتيكيت) فهو مختار اللفظ موزون الإشارة؛ ثم شكر لي المقال الذي افتتحت به عدد الرسالة الماضي وقال:
إذا كان طلاب الأوقاف الخيرية يتمنون أن تكون للوزارة عين، فإن طلاب الأوقاف الأهلية يتمنون أن يكون لها قلب. أولئك يشكون أنهم ييأسون من وراء عينيها فلا ترى، وهؤلاء يشكون أنهم يشقون بين يديها ولا ترحم! وما دام المستحقون لا ينالون نصيبهم من الحق، فكيف تزجو أن ينال المعتَفون نصيبهم من الخير؟
كان الرجل يتكلم كلام الشاكي الكظيم يهمه أن يقول ولا يهمه أن يسمع. فتركته يستريح إليّ بما في نفسه، لا أعترض عليه ولا أصح له، فإن عليَّ أن ابلغ أولي مسامع الأمر زفرات الصدور المكروبة، وعليهم هم أن ينظروا إن كان مبعثها خطأ النفس على النفس، أو خطأ الناس على الناس.
قال محدثي وهو يضع سيجارته الملفوفة باليد في مبسم طويل من الآبُنُوس:
- إذا عذرنا وزارة الأوقاف على أنها لا تسعف أولئك المنكوبين الذين انفرد بهم البؤس في ظلام الدور، ومنعتهم الأنفة عن الخروج إلى النور، فكيف نعذرها على أنها تدُخل البوس بيدها على قوم جعلهم أهلوهم في ذمتها وأمانها، تحفظ لهم الملك وتثمرِّه، وتبسط عليهم الرزق وتوفره؟ أنا ضحية من ضحايا الأوقاف الأهلية، اعتمدتُ منها على جُرُف منهار فهويت إلى قرارة الفاقة. لم أتهيأ للعمل الحكومي بشهادة، ولا للعمل الحر بصنعة؛ وإنما نشأت في بيت جدي فلان باشا نشأة المترفين المدللين، أجيد ركوب الخيل، وأحذق أنواع الصيد، وأساهم في تجميل حياة القاهرة بالسرف في الملاهي، والقصف في البيوت،
والمقامرة في السباق، والافتنان في المظهر. وكان أبي رحمه الله ناظراً على ما وقف جدي على أسرتنا الكبيرة المتشعبة من الضياع والرباع، فكان يغرق رغباتي في

فيض من المال لا يغيض ولا يخُلْف. فلما توفاه الله آلت النظارة من بعده إلى أرشد أعمامي، فانقبض عني شيء من بسطة العيش. وكان لي بنون وبنات نشئوا في نعمة أبي. كما ينشأ النبات الربَّعي في خصيب الأرض، فلم أرد أن يمس نضرتهم ذلك الضيق الذي جره علينا طمع الناظر، فبعت ما ورثت عن أبي، وعشت سنين على الخفض والسعة. حتى إذا لم يبق إلا الوقف أخذت أرُوض نفسي وأهلي على التدبير، فاختصرت المسكن، واختزلت الأثاث، وضيقت المطبخ، ورضيت أن أركب (التاكسي) وأن أجلس في (النيوبار). . . وليت ذلك يا سيدي دام! فإن كبار المستحقين شغبوا على الناظر فعزلوه، وتألبوا على خلفه فشلوه، وأستحكم بينها الشقاق فلم يتفقوا على ناظر منهم. ثم لم تَنقطع أسباب هذا الخلاف، إلا (بتنظير) وزارة الأوقاف!

كان لجوء المستحقين إلى تنظير الوزارة، كلجوء القطين المتنازعين على قطعة الجبن إلى تحكيم القرد. فلم يبق لهم على الأعيان الموقوفة عين ولا يد. وأدارتها الوزارة على المنهج الحكومي فأرهقتها بالكتاب والنظار والمفتشين والمراقبين والخبراء؛ ولكل واحد من هؤلاء طريقة في العمل ورأي في الإصلاح يتغيران بتغييره. فالبناء الذي أقيم يُهدم، والمصرف الذي حُفر يرُدم؛ ثم يسُتأنف البناء والحفر في مكانين آخرين! وهكذا دواليك: يتعاورُ البناء والتخريب، ويتعاقب الاقتراح والتجريب، حتى تذهب غلة الأرض بين نفقة الإدارة وحصة الوزارة! وأما الدور فهي قصور فسيحة ذات أسوار وحدائق رغب الناس عن سكناها لمخالفة طرازها لمقتضيات المدنية الحديثة. وأغفلتها الوزارة فلم تفكر في تجديدها واستغلالها ولا في بيعها واستبدالها، وإنما تركتها لمعول الزمان فلا تؤجرها إلا مخازن للتجارة وزرائب للحيوان ومساكن للفعلة!

كان دخلي على عهد الناظر الطماع ستمائة جنيه في العام، فأصبح على عهد الوزارة شيئاً لا أسميه! فهو سنة يكون ستين، وسنة يكون ستة، وسنة يكون مطلاً، وسنة يكون دَيناً! وأنا وزوجتي وأولادي نكابد غصص الحرمان في ركن رطيب من إحدى دورنا الخربة؛ فالبنون لا يجدون عملاً لمكانهم من الجهل، والبنات لا يجدن أزواجاً لمكاني من الفقر، ولا نقضي أيامنا السود إلا على اقتراض من الجزار والبدّال والعياش والقماش، حتى ضاق بنا العيش، وعاقنا الوجود، وأصبحنا إذا دخلنا أقضنا الهم، وإذا خرجنا أمَضَّنا الخجل. . .

يا سيدي! إن الوقف إن حفظ العين فقد أضاع الرَّيع. وليس لهذه الغاية الحمقاء وقف الواقفون. فسبيل الإصلاح في عهد الصلاح أن يُحَل؛ فإن المرء أدرى بشأنه وأعلم بخيره، وليس من يعمل لنفسه كمن يعمل لغيره. . .

احمد حسن الزيات

تحية الشتاء

للأستاذ عباس محمود العقاد

الحرية والأمان هما قصارى أمل الإنسان

وكون الإنسان آمناً في سربه حراً في عمله ورأيه هو المطلب الذي لا يتخطاه إلا وهو ظالم نفسه وظالم غيره، إلا أن تكون سيادة على الآخرين برضى منهم وشهادة له بالاستحقاق، وتلك غاية لا يطمح إليها كل إنسان

وللحرية من الطبيعة موسم، هو الصيف

وللأمان من الطبيعة موسم، هو الشتاء

فبركة الصيف هي الطلاقة، وبركة الشتاء هي الطمأنينة، وهذا إذا صلحت الأحوال. . . فأما إذا فسدت فلا بركة في صيف ولا شتاء

إذا لاح الصيف خرج الناس إلى المنازه، وكرهوا الحدود والقيود، فلا سقوف ولا أسوار، ولا غطاء ولا دثار، وإنما الحرية كأنما الإنسان نفس من الهواء، لا يريد إلا نفساً من الهواء

وإذا لاح الشتاء فالرياح تزمجر، والسماء تمطر، ومن فوقنا حجاب ومن ورائنا حجاب، ولا سرور إلا أن تسكن إلى الدفء الوثير بين الجدران

وهكذا تتمثل في الطبيعة غاية مطالب الإنسان: الحرية والأمان والناس يزعمون أن البركة كلها في الربيع، وأنه موسم الزهر والفاكهة، ومشهد الحب والجمال، ومعرض المدينة والريف. فهل بقيت للشتاء بقية بعد هذه المحاسن والخيرات، وبعد يقظة النفس ويقظة الدنيا؟

والناس لا ينصفون، أو لعلهم ينصفون وينسون. فبعد الربيع يبقى الشعور بالربيع، ومن أوفى نصيباً من هذا الشعور؟ أهل الربيع أو أهل الشتاء؟ الذين يجدون الربيع سهلاً غير مرقوب، أو الذين يجدونه عسيراً بعد ارتقاب واشتياق؟

ما عرف الربيع أناس كالذين اختبروا قسوة الشتاء، فالشمس ضيف ثقيل في بلاد الصيف القائظ، وطلعة جميلة في بلاد الشتاء القارس؛ والزهرة فتاة مبتذلة من فتيات الطريق عند من يشهدونها في كل يوم وفي كل مكان، وهي عروس خفرة و (رسولة) مبشرة عند من

يشهدونها آونة بعد آونة، ومقبلة مع الخير والحرية ومحاسن الأرض والسماء

أهكذا وحسب؟

كلا. بل للشتاء أثر في تقويم الجمال غير هذا الأثر في تعريفنا بقيمة الربيع

للشتاء أثر في أمم الشمال نلمسه فيما رزقته من حصافة وخيال، فهو الذي علمها الشعر والفن، وهو الذي علمها العمل والصناعة، وهو الذي علم أقوامها أن يطلبوا شيئاً فوق الأمان والحرية، ونعني به سيادتهم على الأمم التي جاءتها حرية الطبيعة بغير عناء

تخيل رجل الشمال المثلج والريح تعصف، والبرق يخطف، والرعد يقصف، والسماء لا شمس فيها ولا قمر، والأرض لا زهر فيها ولا ثمر، والنفس لا ترى لها مدى تمتد فيه إلا أن تثوب إلى سريرتها وتتغلغل في طويتها، وتخلق الصور وتناجي الأحلام وتأنس بالخواطر والأشجان

وتخيل هذا الرجل منفرداً في كوخ منفرد، ولا بد من انفراد في ساعة من الساعات وفي أمد من الآماد

ألا ترى أنه خليق أن يعمر عالم السريرة بخلائق الخيال، وأحلام الشوق والجمال؟

ثم تخيل قوم هذا الرجل سنة بعد سنة وجيلا بعد جيل، وكل سنة تضيف إلى قدرتهم على كفاح الشتاء قدرة جديدة، وإلى حيلتهم في دفاع البرد حيلة مفيدة، وإلى عزيمتهم في درء السيول والأمطار عزيمة رشيدة. فكيف تراهم يكونون بعد مائة شتاء وبعد ألف عام، وبعد ما لا عداد له من أجيال وسلالات؟

ثم تعلم أن الأعصاب هي خزانة الأخلاق الموروثة والقوة النفسية المذخورة، فماذا تكون الأعصاب التي تفتلت على هذا الجلد وهذا الجليد؟ وماذا تكون الطاقة فيها على استيعاب الشعور واختزان الأحاسيس وتصوير الأخيلة والأشكال؟

ففي الشتاء تربية للخيال، وتربية لوعي السريرة، وتربية للأعصاب وتربية للأخلاق، وفي كل أولئك استزادة من نصيب الشعور، ونصيب الفهم، ونصيب العزيمة، ونصيب الخلق والإبداع

ومن ثم يأخذ القوم من الربيع فوق ما يعطيه أهله المعرضين عنه الجاهلين بقدره، الناظرين إليه عن عرض كأنه زينة نظر في ساعة صفو أو ليلة سمر، فلا أعماق له وراء

ذلك ولا أسرار

على أن الشتاء قد يفرط في قوته وقسوته حتى لتبطل فيه كل حيلة الإنسان فلا يبقى له غير حيلة الحيوان: جلد دب مسلوخ، وإيواء إلى كوخ، كأنه كهف، أو كهف كأنه كوخ، وهكذا شتاء القبائل الحافين بقطب الشمال

وإن الصيف ليفرط في طلاقته حتى تنقلب إلى مطاردة كأنها الملاحقة بالسياط الكاوية، فتبطل فيه كل حيلة الإنسان، ولا يبقى له غير حيلة الحيوان: بركة ماء، أو ظلال غابة غبياء، وكذلك صيف خط الاستواء

ولا بركة في هذا ولا في ذاك، وإنما البركة فيما لم يجاوز الحدين من هذين الموسمين وبعد فنحن نذكر بركات البرد والحر، فهلا ذكرنا أناساً لا يجدون البركة في أوان، ولا في مكان؟

يقول حكيمنا:

لقد جاءنا هذا الشتاء وتحته ... فقير معرى أو أمير مدوج

وقد يرزق المجدود أقوات أمة ... ويحوم قوتا واحد وهو أحوج

هذا الواحد أولى بذكر الألوف، لأنه واحد تجتمع منه ألوف، ولن ينساه في مستهل الشتاء إلا مخلوق يستحق النسيان، بل يستحق الذكر بالمسبة إن كانت قوانين أبناء آدم لا تذكره بالزجر والعقاب

ما تمنيت لمصر عملا من أعمال الأمم التي هدمت الديمقراطية إلا إعانة الشتاء التي يخرج كبراء الألمان لجمعها من الخاصة والعامة في الطرقات والأسواق: ذلك عمل مجيد نحن به أولى، ونحن إليه أحوج، ونحن عليه أقدر، فيما يبدو لنا من تفاوت بين رخاء بلادنا وضنك البلاد الأخرى

فإذا ألهمنا أن نعين المحتاجين منا إلى معونة الشتاء فقد حق لنا أن نسبغ على شتائنا صفة الأمان الشامل، وأن يشتمل علينا جميعاً راضين آمنين. . ونرجو أن نلهم هذه المبرة فما فيها مشقة على قادرين ولا أشباه قادرين

وكل شيء تقال فيه كلمة ثناء، حتى الشتاء

عباس محمود العقاد

رجال التربية والتعليم

في وزارة المعارف

للدكتور زكي مبارك

الذي يقرأ الجرائد المصرية يتوهم أن وزارة المعارف عبارة عن بناية فسيحة الأرجاء، يجلس فيها الموظفون هادئين وادعين يتبادلون التحيات والسجائر والشاي والزنجبيل وإنما يكثر اللغط حول وزارة المعارف لأن موقعها بين سائر الوزارات، يشبه موقع كلية الآداب بين سائر الكليات. فوزارة المعارف تهتم بتعويد الناس على فصاحة الكلام فيكثر حولها الكلام الفصيح، بالنقد والتجريح؛ وكلية الآداب تحرص على أن تتفلسف فيكثر في نقدها المتفلسفون، ولا يظلمك من يرد إليك بعض ما تنفق!

والحق أن وزارة المعارف في هذه الأعوام لا تعرف الهدوء، فهي نار تستعر في الصباح والمساء

ومن كان في ريب من ذلك فليزر مكاتب الوكلاء والمراقبين والمفتشين، فان فعل فسيعرف أن في القاهرة مكاناً يشبه برج بابل في أساطير الأولين

يستطيع من يهمه الوقوف على مصادر الحيوية في وزارة المعارف أن يزور أي مكتب من تلك المكاتب ليوقن بأن الجد الصريح هو أساس العمل في تلك الدار الفيحاء

احضر إن شئت إلى تلك الوزارة وفي يدك قلم وقرطاس لتدون ما تسمع من الجدل حول المذاهب التعليمية، ولتدون ملاحظاتك الخاصة على مذاهب أولئك القوم في الحياة، وإني لموقن بأنك ستخرج من ذلك بمحصول نفيس

ويحسن ألا تمر على مكتب وكيل الوزارة أو مكتب الوكيل المساعد، فان الاستفادة من هذين المكتبين لا تضمن إلا لمن عرف سرعة الكهرباء في إنجاز الأعمال

ويغلب علي الظن أن الرجل الذي اسمه محمد العشماوي يملك شيئاً من مواهب الشعراء، فسرعته في تسوية المشكلات ليست إلا ضرباً من أعمال الشياطين

أما عوض إبراهيم فتظهر قدرته السحرية حين تصبح الأعمال كلها فوق كاهله حين يغيب الوكيل. وهذا الرجل من كبار الأكفاء ومن أعمدة وزارة المعارف، وإن كان يتعرض لطغيان الألسنة من حين إلى حين

وفي برج بابل هذا ناس لا يتكلمون إلا قليلاً، أمثال حسن فائق ومحمد حسين وصادق جوهر وأحمد عاصم والعجاتي ومحمد الدمرداش، ولكن في هؤلاء الرجال الصامتين خصوصية عجيبة، فهم يعتقدون أن وزارة المعارف دارهم، ولا يخطر في بالهم أنهم موظفون، وإنما يكافحون ويجاهدون وكأنهم يدبرون ملكهم الخاص، وما وقع بصري على هؤلاء الرجال إلا أحسست الغيرة تلذغ قلبي، فأنا أتمنى أن أملك بعض ما يملكون من قوة وإخلاص ويؤذيني أن يكونوا أصدق مني في خدمة الواجب

ولكن برج بابل لن يكون كله صمتاً في صمت، وهل يصمت برج بابل؟ هيهات!

هناك محمد فهيم الرجل البسام الضحوك الذي تلقاه فيقلب مشكلات التعليم كلها فوق رأسك، ويفرض عليك ألا تغادر مكتبة إلا بعد ساعة أو ساعتين. وهذا الرجل متعب جداً، لأنه ينتقل بك من موضوع إلى موضوع، ويبلبل رأسك ولسانك بلا ترفق، فمن الحزم ألا تمر عليه حين تزور وزارة المعارف

وهناك نجيب حتاته، وهو رجل لا تعرف أين يذهب. فهو يلطف حين يشاء، ويثقل حين يشاء، فان لطف - وهو الأغلب - طاف بك حول مشكلات كثيرة تمس التعليم وتمسّ المجتمع. وإن ثقل - وهذا قليل - سلم عليك بأطراف أصابعه كما يصنع مدير الجامعة المصرية

وهناك علي الجارم - جعل الله كلامي خفيفاً عليه - وهو رجل كثير المزاح، ولكن إقباله على الواجب يبهرك ويرضيك
وهناك محمد جاد المولى، وهو في مظهره ومخبره صورة صحيحة من الطيبات في أدب القول وشرف النفس
وعندنا طموم مراقب المستخدمين، ومكانه في وزارة المعارف يشبه مكان محمد الهراوي في دار الكتب المصرية، كلاهما يسأل عن الحساب، مع أن الأدب عندهما فوق الحساب
وعندنا توفيق الحكيم الذي حوسب أمام مجلس التأديب منذ أيام، وهو في رأيي (أعقل) رجل في وزارة المعارف بعد طبيب ليلي المريضة في الزمالك
ولتوفيق الحكيم قصة وقضية، وكيف لا تكون له قصة وقضية وهو صديق طه حسين؟
هذا الرجل أعلن عداوته للمرأة بضع سنين، ولم تعد عليه تلك العداوة بسوء، فظن لغفلته
أن العداوات كلها سواء فأعلن أنه يعادي المرأة ويعادي النظام البرلماني، ولكن النظام البرلماني غير المرأة، لأنه محروس برجال أشداء يقابلون الجميل بالجميل!
أترك هذا وأنتقل إلى أحاديثي مع عمدة برج بابل حفظه الله فهل تعرفون من هو عمدة برج بابل؟
هو المحدث البارع الذي لا يسكت أبداً والذي قضى الله أن ألقاه من يوم إلى يوم؟
من هو عمدة برج بابل؟ من هو؟ من هو؟ ألا تعرفون؟
هو محمد رخا الذي يقيم بمصر الجديدة ويطرب لسماع القرآن بالألحان
ابتليت من هذا الرجل بداهية، وابتلى مني بداهية:
ابتليت منه بداهية لأن لقاءه يوجب أن أكون صافي الذهن حاضر البديهة، ومن المزعج أن أطالب بصفاء الذهن وحضور البديهة، لأني لا أذهب إلى وزارة المعارف إلا بعد أن تكون أعمالي أخمدت ذهني وأذوت نشاطي
وابتلى مني بداهية لأني سأسجل عليه كل شيء، وسأصنع معه ما صنعت مع الرجال الذين عرفتهم بوزارة المعارف العراقية، وأنا رجل رمته الأقدار في ذاكرته بشذوذ عجيب، فأنا أنسى الأعلام والأرقام بصورة مزعجة مخيفة، وما قدمت كتاباً إلى رجل من أقطاب وزارة المعارف إلا سألت كاتبه الخاص عن أسمه بالضبط لأقيده في ورقة قبل أن أخط اسمه على الكتاب، ولكن ذاكرتي في الحوادث والمعاني قوية إلى حد الشذوذ، فأنا أستطيع اليوم أن أدون أول محاضرة سمعتها بالجامعة المصرية سنة 1913. وأستطيع اليوم أن أدون جميع المحاضرات التي سمعتها في جامعة باريس وأستطيع أيضاً أن أسجل الكلمات التي سمعتها من الدكتور هيكل باشا، الكلمات التي تشهد بأنه يشجع التأليف بالقول لا بالفعل.
محمد رخا يتكلم في كل وقت كما يتكلم الفرنسيون في كل وقت
فهل أستطيع أن أعطيه درساً عساه يقتصد في الكلام بعض الاقتصاد؟
إليكم ما دار بيني وبينه منذ أيام:
دخلت عليه وفي مجلسه رجلان نسيت اسمهما مع الأسف، ولعل أولهما يسمى رفعت وابتدأ فسألني عن الليسيه الفرنسية المصرية بمصر الجديدة، فقلت إن مديرها هو المسيو
دي كومنين، أعظم أصدقائي في دنياي، فاستطرد وقال: وما رأيك في ذلك المعهد بعد أن زرته مرتين؟ فقلت: إن الغاية نبيلة ولكن تحقيقها صعب، لأن هذا الرجل، يريد أن يصل تلاميذه إلى البكالوريا المصرية والبكالوريا الفرنسية في وقت واحد
ثم انتقلنا بسرعة إلى الأصول التي يجب أن يراعيها أساتذة اللغة العربية في المدارس الأجنبية. فقلت إن الخطر كل الخطر أن يفهم تلاميذ تلك المدارس أن عندنا لغتين، الفصيحة والعامية، فهذا الفهم الخاطئ يشعر التلاميذ بأن اللغة الفصيحة لغة ميتة وأن مكانها يشبه مكان اللاتينية بالنسبة إلى الفرنسية والإيطالية
وهنا يحسن أن نسجل ما اتفقنا عليه في ذلك الحوار الطريف
اتفقنا على أن التلميذ إذا كتب (محطة باب الحديد) فليس من واجب المدرس أن يشطب كلمة (محطة) ويضع مكانها كلمة (محط) بحجة أن هذا هو اللفظ المختار في كتب المطالعة المدرسية

وإذا كتب التلميذ (بائع متجول) فليس من حق المصحح أن يشطب كلمة (متجول) ويضع مكانها كلمة (جائل)
والتلاميذ جميعاً يقولون (قط) بضم القاف كما يقع على ألسنة الناس في أكثر البلاد العربية، فليس من الحتم أن نصحح هذه الكلمة كل يوم وأن ننص على أنها بالكسر، لأن سيرورتها مضمونة تشهد بأن الضم لغة من اللغات وإن لم تنص المعاجم على ذلك
وإذا قال التلميذ (فرشة) فليس من الواجب أن نفرض عليه أن يقول (فرجون) لأن الفرشة ذاتها مخففة من الفرجون
وإذا قال التلميذ (أجفف وجهي بالفوطة) فلا تفرض عليه أن يقول (القطيلة) لأن الكلمة الأخيرة مهجورة ومنسية وثقيلة، ولا كذلك للكلمة الأولى فهي مأنوسة ومألوفة لجميع الناس.
وإذا قال التلميذ جلست على (السفرة) فلا تحتم عليه أن يقول (المائدة) لأن السفرة كلمة فصيحة وإن كان العرف نقلها من وضع إلى وضع.
وإذا قال التلميذ (الليالي القمراء) فلا تلزمه بأن يقول (الليالي القُمر) لأن الكتاب في العصر الحديث تسامحوا في هذه القضية، ولأن أسئلة الامتحان بوزارة المعارف جاء فيها مرة كلمة (الليالي القمراء) ولأن للشيخ النجار كتاباً اسمه (الأيام الحمراء) ولأننا نستثقل عبارة
ونستخف عبارة (الحدائق الغناء) (الحدائق الغنّ)
وإذا قال التلميذ (خَطوة) بالفتح فلا توجب عليه أن ينطقها بالضم، لأن الفتح لغيَّة وهو اليوم أسهل وأفصح
وإذا سكن التلميذ بعض أواخر الكلمات فلا تفرض عليه أن يراعي التحريك في كل وقت، إلا إذا كان يهمك أن تختبره في الإعراب، لأن من المستبعد جداً أن يكون العرب التزموا الإعراب في جميع المواطن، وهم قد نصوا على أنه يجوز نصب الفاعل ورفع المفعول عند أمن اللبس، ومعنى ذلك أن الإعراب لا يطلب إلا لتحديد المعاني.
وأغلبُ الظن أن العرب لم يلتزموا الإعراب إلا في موطنين اثنين: الشعر والقرآن.
وإنما التزموا الإعراب في الشعر لمراعاة الوزن، والتزموه في القرآن لأن القرآن نظم نظماً غنائياً فهو في أغلب أحواله كلام موزون روعي في وزنه أن يصلح للترنم والترتيل
واتفقنا على أن اللغة العربية ليست بدعاً بين اللغات، فالتعبير بها يختلف باختلاف أقدار المخاطبين؛ والمدرس الحق هو الذي يفرق بين ما يعبر به وهو يلقي درساً في مدرسة أولية، وما يعبر به وهو يلقي درساً في مدرسة ثانوية؛ والمدرس الغافل هو الذي يتكلم بطريقة واحدة في جميع الفصول
واتفقنا على أن أساليب التعليم لا يجب أن تكون واحدة في جميع المدارس، وإنما يجب أن نراعي مقتضيات الأحوال فنسلك في المدارس الأجنبية غير ما نسلك في المدارس المصرية
وأصول التربية نفسها توجب ذلك. إنها توجب أن تخاطب كل تلميذ بأسلوب خاص بعد أن تدرس نفسه حق الدرس، لأن الناس يختلفون في العقول كما يختلفون في الوجوه. وهذا لا يمنع من أن تكون هناك سياسة عامة يعامل بها جميع التلاميذ
واتفقنا على أن مدرس اللغة العربية يحق له أن يكون أقرب الأساتذة إلى قلوب الطلاب، لأن عنده فرصاً لا تتاح لسواه، إذ كان يقدر بلباقته أن يجد في دروس المطالعة والمحفوظات والأدب مجالاً لمحادثة الطلبة في معان كثيرة تتصل بالعقل والقلب والوجدان
ومدرس اللغة العربية يستطيع إذا كان من أصحاب المواهب أن يضع في صدور تلاميذه بذور الشوق إلى المشاركة الجدية في الحياة الأدبية والفنية والاجتماعية. وفي مقدوره إن
أخلص لواجبه أن يدفع تلاميذه دفعاً إلى رحاب الواجب في خدمة الوطن الغالي. وهو يستطيع أن يخلق منهم رجالاً يفرقون بين المعاني الوطنية والمعاني الإنسانية بحيث يصبحون فيما بعد من دعائم الحياة القومية
مدرس اللغة العربية مسئول قبل سواه عن خلق الروح المعنوي في المدارس لأنه يملك التعبير الجميل، ولأنه ارتاض على سياسة القول، ولأن لديه فرصاً كثيرة يستطيع

بها توجيه التلاميذ إلى شريف الأغراض وكريم المعاني
ثم انتقلنا إلى موضوع شائك هو تحديد الفروق بين المدارس المصرية والمدارس الأجنبية
والظاهر أني أحب المدارس الأجنبية حبا يجعل ذنوبها حسنات، وقد فصلت رأيي في حضرة رخا بك وارتضاه، فما هو ذلك الرأي؟
من بين أبنائي ثلاثة يتعلمون بمعهد الليسيه في مصر الجديدة. وهؤلاء الأبناء الثلاثة يختلفون عن أخيهم الأكبر الذي يتعلم في مدرسة مصرية. فأخوهم الأكبر يأخذ مصروفه على أسلوب رتيب لا يتغير ولا يتبدل؟ أما أولئك الثلاثة فيزعجون المنزل بالمطالب المتنوعة في كل يوم، وقد قاست أمهم ما قاست حين كنت بالعراق، فلما اختبرت الأمر بنفسي ضِقْتُ به ذرعاً لأول وهلة؛ ثم تبينت أن تلك المطالب المتنوعة هي شواهد الحيوية في الحياة المدرسية، فالتلميذ لا يجد الفرصة ليهدأ ويسكن، وإنما يشعر بالمسئولية تتجدد أمامه في كل لحظة، فهو اليوم في حاجة إلى كتاب، وكان بالأمس في حاجة إلى كراس، وهو غداً في حاجة إلى ثوب جديد للحفلات، وهو بعد شهر سيقدم إلى المدرسة ديناراً للاشتراك في رحلة مدرسية، إلى آخر مالا آخر له من موجبات اليقظة في المدارس الأجنبية
أقول إن هذه المطالب راعتني لأول وهلة، ثم رأيت أن هؤلاء الأبناء حالهم أحسن من حال أبيهم، الأب المسكين الذي يخترق شوارع القاهرة في كل يوم ولا يراها، لأنه لا يمتطي تراماً أو سيارة إلا وهو مشغول بمطالعة الجرائد والمجلات أو مراجعة بعض الأوراق
أترونني على حق في استحسان هذا المذهب في التثقيف؟
إن كنت مخطئاً فاعذروني لأن اتصالي بالأجانب حبَّب إلي الحركة وزهدني في السكون!
هل تصدقون أنني لا أستريح إلى الدعوة التي تكررها الجرائد في الصبح والظهر والمساء،
الدعوة إلى الوفاق والاتحاد والائتلاف؟
هل تصدقون أني أعتقد أننا نختلف أقل مما يجب، وأنه ينبغي ألا نعرف غير النضال والصيال؟
هل تصدقون أن التجارب علمتني أن الراحة نذير الموت؟
هل تصدقون أني نفرت من منزل جميل في باريس لأن أصحابه كتبوا على بابه عبارة تشير إلى أنه معروف بالهدوء؟
هل تصدقون أني لم استرح في بغداد إلا حين اهتديت إلى منزل تحيط به الضوضاء؟
الحق أن مزاجي أفسدته المدنية الحديثة فساداً لا يرجى له صلاح
ولكن هذه هي المدينة، وهذا هو عقل العصر الحديث، وأنتم تطلبون أن نروضكم على التخلق بأخلاق العصر الحديث
ثم ماذا؟ ثم ماذا؟
ثم انتقلنا إلى تعليم البنات فعرفنا بعد الأخذ والرد أن البنت في المدرسة المصرية تقتل قتلا بالدروس، فلا تستطيع أن تكون بهجة البيت في المساء
والواقع أننا كنا أخطأنا في تقدير مناهج التعلم بمدارس البنات، فقد كانت البكالوريا واحدة للبنات والبنين مع أن المزاج يختلف بين النوعين أشد الاختلاف
وقد لوحظ أن البنات في المدارس الأجنبية يعاملن معاملة تقوم على أساس العطف والرفق، والمفهوم عند الأجانب أن البنت إنما تتعلم لتصلح تمام الصلاحية لتكون ربة بيت.
ولوحظ أيضاً أن مديرات المدارس الأجنبية يحاولن أن يعرفن كيف تعيش العائلات التي تجيء منها التلميذات ليستطعن تلوين الحياة المدرسية بألوان مختلفات
وهذا شيء قد لا تعرفه المدارس المصرية لأن الصلات قد تكون مقطوعة بين المدرسة والبيت
والظاهر أني لا أزال استجيد الوصف الذي أطلقته على مدارسنا منذ أكثر من عشر سنين حين سميتها (مجازر بشرية) فنظام هذه المدارس لا يتيح فرصة للتعمق، وإنما يلهي الطلبة بالقشور لكثرة ما يعرض عليهم من العلوم والفنون

وسيجيء يوم يعرف فيه الناس أن أسلافنا كانوا أبصر منا بالمذاهب التعليمية لأنهم كانوا
يعرضون على الطالب علوما قليلة ثم يفرضون عليه أن يتعمق
ولو شئت لقلت إن المدارس الفرنسية تريح التلاميذ من الدروس يومين كاملين، ومع ذلك لم يقل أحد بأن الفرنسيين تخلفوا في الميادين العلمية
ولو شئت لقلت إن الامتحانات عندنا لا تزال جائرة الميزان، فليس من المعقول أن يكون تلاميذنا من الضعف والجهل بالمنزلة التي توجب ألا ينجح من كل مئة غير عشرين أو ثلاثين
وهناك مجموعة يعرفها جميع المعلمين، وهي مجموعة الأسئلة الخاصة بالامتحانات العمومية، ونظرة واحدة إلى تلك المجموعة تشعر المنصف بأن الممتحنين لا يرون التيسير من الأمور ذوات البال، والأساتذة أنفسهم يحتاجون إلى تأمل يسير حين ينظرون إلى الأسئلة المسطورة في تلك المجموعة، فكيف يصنع التلاميذ وبينهم وبين أساتذتهم من الفروق ما تعرفون؟
ولو شئت لقلت إن أسئلة الامتحانات العمومية يضعها رجال مكدودون من بين المفتشين والمراقبين، والعقل يفرض أن يتفرغ لوضعها جماعة من الأساتذة ينقطعون إليها أسبوعاً أو أسبوعين حتى تسلم من العنت والإرهاق
أحب أن يشعر التلميذ المتوسط بأن من حقه أن ينجح. أحب أن يشعر التلميذ الضعيف بأنه قد ينجح إذا ضاعف من نشاطه وبذل ما يملك من العافية في الاستعداد للامتحان ولكن هذه آمال لا تتحقق إلا إذا غير الممتحنون ما بأنفسهم فعرفوا أن الشهرة بالشدة والعنف مطلب سخيف
ثم ماذا؟
ثم تحدثنا عن الصلة بين المدرسة والبيت، واتفقنا على أن الواقع أننا نتكلم ولا نفعل
وأين المدرس الذي يجد من الوقت ما يزور فيه بيوت التلاميذ؟
وأين الناظر الذي يجد في جيبه ما يسعفه بأن يقيم للتلميذ وآبائهم حفلة أو حفلتين؟
لقد حاولت ذلك بنفسي ثم عجزت، لأني كنت أخرج من المدرسة مكدوداً لا أصلح لشيء
ولو شئت لصرحت بأن المدرسين يعجزون عن متابعة النشاط المدرسي، لأن المناهج لا تقيم له أي ميزان، وهو سخرة يقوم بها المدرسون بلا جزاء
أما بعد فهذه صورة لساعة لطيفة قضيتها مع الأستاذ رخا بك. فان أعجبته هذه الصورة فذلك ما أرجوه، وإن رآني أذعت ما لا ينبغي أن يذاع فليعرف أن هذا مذهبي، وعليه أن يعقل لسانه حين يراني
يا مصر
إنك تستعدين لأخطار عظيمة في بناء الجيل الجديد، فاعرفي ما تأخذين وما تدعين، واحذري أن يعتقد أبناؤك الأوفياء، أنهم لا يلقون منك حسن الجزاء
وأنتم أيها المدرسون
ثقوا بأن واجبكم الأول هو التغلب على المصاعب، المصاعب التي تواجهكم في الحياة المعاشية والحياة المدرسية، واعرفوا أن الاخلاص للواجب هو الكفيل بأن يرفع عن كواهلكم أثقال العيش وأعباء التعليم
إن التدريس مهنة لا يعرف فيها الراحة إلا من يتعب نفسه في تأدية الواجب، ولا يشقى في هذه المهنة إلا من يؤديها بتهاون واستخفاف
إن العناية التي تبذلونها في إلقاء الدروس تعدي تلاميذكم بالجد والنشاط، وتروضهم على النظام، وتغريهم بحب التفهم لما يسمعون وما يقرءون
وأنتم القدوة الصحيحة للتلاميذ، فاحذروا أن تعدوهم بالضجر واليأس. وتذكروا دائماً أن المدرس المنشرح الصدر، المبتهج النفس، هو وحده الذي يقدر على جعل المدرسة أحب إلى التلميذ من كل مكان
إن في الدنيا متاعب كثيرة تنتظر رجال الغد من تلاميذكم، فأعطوهم من ذخائر الأمل والبهجة ما يدفعون به متاعب الحياة في الأيام المقبلات. والله بالتوفيق كفيل.
مصر الجديدة
زكي مبارك

كتاب المبشرين
من أغلاطه في العربية
لأستاذ جليل
(بقية المقال السادس)
32 - مضطر على أفعاله (330) في الصفحة
قلت: اضطر على كذا خطأ والصواب اضطر إلى كذا (ومن كفر فأمتعه قليلا ثم اضطره إلى عذاب النار) (وقد فصل لكم ما حرَّم عليكم إلا ما اضطررتم إليه) وفي الجمهرة: وللضرورة والضارورة واحد وهو الاضطرار إلى الشيء، ومثل هذه التعدية في كلامهم وفي كتب اللغة. وفي كتاب الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري هذه الفائدة: ولهذا المعنى قال المحققون من أهل العربية إن حروف الجر لا تتعاقب حتى قال ابن درستويه: (في جواز تعاقبها إبطال حقيقة اللغة، وإفساد الحكمة فيها، والقول بخلاف ما يوجبه العقل والقياس) وذلك أنها إذا تعاقبت خرجت عن حقائقها، ووقع كل واحد منهما بمعنى الآخر فأوجب ذلك أن يكون لفظان مختلفان لهما معنى واحد، فأبى المحققون أن يقولوا بذلك وقال به من لا يتحقق المعاني. ولعل قائلا يقول: إن امتناعك من أن يكون للفظين المختلفين معنى واحد - ردٌّ على جميع أهل اللغة لأنهم إذا أرادوا أن يفسروا اللب قالوا: هو العقل، أو الجرح قالوا: هو الكسب، أو السكب قالوا: هو الصب، وهذا يدل على أن اللب والعقل عندهم سواء، وكذلك الجرح والكسب، والسكب والصب، وما أشبه ذلك. قلنا ونحن أيضاً كذلك نقول، إلا أنا نذهب إلى قولنا اللب وإن كان هو العقل فأنه يفيد خلاف ما يفيد قولنا العقل. ومثل ذلك القول وإن كان هو الكلام والكلام هو القول فان كل واحد منهما يفيد بخلاف ما يفيد الآخر، وكذلك جميع ما في هذا الباب
33 - في كل محرس من الليل (329) في الصفحة
قلت: إن كان المراد الحرس فالحرس الدهر أو وقت من الدهر دون الحقب. والذي يقال في هذا المقام هو الجرس أو الجرش، ففي تهذيب الألفاظ لابن السكيت: مضى جرس وجرس من الليل، وفي الصحاح: أي طائفة منه، وفي المخصص مضى جرش من الليل والجمع
جروش وأجراش، وقد يقال بالسين وفي اللسان: وقد يقال بالشين، وفي التاج: أتيته بعد جرش من الليل - مثلثة - ما بين أوله إلى ثلثه وقيل هو ساعة منه، والسين لغة، قال أبو زيد: مضى جرش من الليل أي هَوِيّ (أي هزيع من الليل أي طائفة منه. . .)
34 - في الصفحة (80): ثم حسن لخديجة وهي أرملة ذات شرف ونسب أن تتخذه فيخرج في تجارتها
قلت: في كلام العرب وأكثر كتب اللغة: الأرملة التي مات زوجها وهي فقيرة. قال المصباح قال الأزهري: لا يقال لها أرملة إلا إذا كانت فقيرة فإذا كانت موسرة فليست بأرملة. وفي الأساس: وأرملت ورملت من زوجها ولا يكون إلا مع الحاجة. وفي اللسان والتاج، قال ابن الأنباري: سميت أرملة لذهاب زادها وفقدها كاسبها ومن كان عيشها صالحاً به، ولا يقال إذا ماتت امرأته أرمل إلا في شذوذ لأن الرجل لا يذهب زاده بموت امرأته إذا لم تكن قيمة عليه. . . والرجل قيم عليها، وتلزمه مؤنتها ولا يلزمه شيء من ذلك. وفي القصيدة الطويلة - كما يسميها أديبنا الكبير الأستاذ المردمي - المنسوبة إلى أبي طالب في مدح سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم):
وأبيض يستسقي الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى، عصمة للأرامل
وأنشد ابن بري:
لبيك على ملحان ضيف مدقّع ... وأرملة تزجى مع الليل أرملا
35 - في الصفحة (132): وقد تكرم عليه في آخر سنة من عمره بأن متعه بالنظر إليه
قلت: تكرم عليه خطأ، والتكرم تكلف الكرم، وتكرم تكلف الكرم قال المتلمس:
تكرم لتعتاد الجميل ولن ترى ... أخا كرم إلا بأن يتكرما
وتكرم عن كذا أي تنزه عنه وترفع. قال أبو حية:
ألم تعلمي أني إذا النفس أشرفت ... على طمع لم أنس أن أتكرما
ولم يجئ في كلام العرب ولا في معجمات الألفاظ ولا في معجمات المعاني تكرم عليه بمعنى أفضل عليه، تفضل عليه، أجدى عليه، من عليه، تطول عليه، تندى عليه،

تسخى عليه، أسدى إليه؛ يدي عليه، أيدي عليه، أنعم عليه
36 - في الصفحة (396): أما الوعد فانه عرف من شدة انهماكهم على الملاذ الشهوانية
قلت: لا يقال في العربية انهمك على الشيء بل أنهمك فيه. ففي حديث خالد بن الوليد (رضي الله عنه) أن الناس انهمكوا في الخمر. وفي الصحاح: انهمك الرجل في الأمر أي جد ولج، وكذلك تهمك في الأمر. وفي الأساس: انهمك في الباطل وفلان منهمك في الغي. مثل هذه التعدية في الجمهرة والنهاية واللسان والمصباح والتاج والمعجمات العصرية. والملاذ في اللغة جمع ملذ وهو موضع اللذة. وفي الفائق: النبي صلى الله عليه وسلم: إذا ركب أحدكم الدابة فليحملها على ملاذها: أي ليسرها في المواضع التي تستلذ السير فيها من المواطيء السهلة غير الحزنة والمستوية غير المتعادية والشهوانية نسبة إلى الشهوان أو الشهواني وهو شديد الشهوة ومنه قول رابعة: يا شهواني. والشهوة اشتياق النفس إلى شيء كما في المصباح، أو نزوع النفس إلى ما تريده كما في مفردات الراغب. فماذا يعني كتاب المبشرين بكلامه الطمطماني؟
37 - في الصفحة (340): قال الغزالي قد انتهى قوم في الشطح (لعله يريد الشطط) والدعاوى العريضة إلى دعوى الاتحاد بالله وارتفاع الحجاب.
قلت: لا يريد الشطط بل يريد الشطح، وإن من يجهل هذا المصطلح المشهور عند المتصوفة لجاهل. وهذه اللفظة إن لم تضعها العربية من قبل فهي كلمة اصطلاحية. ولم يكتب في التصوف كاتب، ولم يؤلف في طريقة القوم مؤلف، إلا ذكرا هذا الشطح كثيراً. ولن يسد شطط الشاطين ولا طائفة كبيرة من خلط المبشرين مسد الشطح. . . جاء في التاج: اشتهر بين المتصوفة الشطحات وهي في اصطلاحهم عبارة عن كلمات تصدر منهم في حال الغيبوبة وغلبة شهود الحق عليهم بحيث لا يشعرون حينئذ بغير الحق كقول بعضهم أنا الحق، وليس في الجبة إلا الله، ونحو ذلك. وفي التعريفات: الشطح عبارة عن كلمة عليها رائحة رعونة ودعوى، وهو من زلات المحققين، فانه دعوى بحق يفصح بها العارف من غير إذن إلهي بطريق يشعر بالنباهة. . .
38 - في الصفحة (437) فهذا الكلام يستلفت نظرنا من جهتين
قلت: استلفت خطأ، وإن قبل: قال سيبوبه في (هذا باب استفعلت): (وتقول استعطيت أي طلبت العطية، واستعتبته أي طلبت إليه العتبى، ومثل ذلك استفهمت واستخبرت أي طلبت إليه أن يخبرني). قلنا: جاء ما ذكره سيبوبه ولكنهم لم يقولوا استلفته أي طلب لفته؛ ثم
اللفت في اللغة ليّ الشيء عن الطريقة المستقيمة، ولفته لواه على غير جهته - كما في اللسان - فيكون معنى الجملة حسب بناء هذا الفعل؛ (وهذا الكلام يطلب ليّ نظرنا على غير جهته من جهتين. .) وهناك نظران: نظر البصر ونظر البصيرة فأيهما المقصود؟
39 - في الصفحة (153) ويعتقد المسلمون بعصمة الأنبياء
قلت: قالوا: اعتقد كذا بقلبه - كما في الصحاح - ولم يقولوا اعتقد بكذا. وفي المصباح: اعتقدت كذا: عقدت عليه القلب والضمير
40 - في الصفحة (59): على أنها أيضاً تعلق في الكعبة بأمر الأمة مكتوبة في ثوب قبطي بماء الذهب
قلت: اضطر (سال) أن يقول في (ثوب قبطي) حتى يوضح في لغته اللفظة. ولو كان مترجم (المقالة) وذو الذيل ممن شدا من العربية شيئاً لجلب الكلمة التي وضعها اللغة أو التي أوردتها كتب الأدب في خير المعلقات والتعليق وهي القباطي ومفردها القبطية. قال أبن رشيق في العمدة: (وكانت المعلقات تسمى المذهبات، وذلك لأنها اختيرت من سائر الشعر فكتبت في القباطي بماء الذهب وعلقت على الكعبة. وقال صاحب العقد: (فكتبتها بماء الذهب في القباطي المدرجة وعلقتها في أستار الكعبة) والقبطية في الشعر القديم وفي الحديث. جاء في الفائق: كسا (صلى الله عليه وسلم) امرأة، قبطية فقال مرها فلتتخذ تحتها غلالة لا تصف حجم عظامها. ومن حديث عمر (رضي الله عنه) لا تلبسوا نساءكم القباطي فانه إلا يشفّ، فانه يصف

أجتزئ بما أوردت من أغلاطهم وسائرها سيظهر في وقت، في كتاب (الإسكندرية)

* * *

سر العالم

لشاعر الهند رابندرانات طاغور

ترجمة الأديب عبد الوهاب مصطفى بحلاق

عندما مرت الدهور، وتردد النحل على حدائق الصيف، وابتسم القمر لزنبقة المساء، وبعث البرق قبلاته النورانية للسحب، وسرح ضحكاته في الفضاء. . وقف الشاعر في ركن مشحون بالأشجار مكلل بالسحب، وظل قلبه صامتا كالزهرة. . . يستطلع خلال أحلامه كما يفعل الهلال، ويهيم كما يفعل نسيم الصيف لغير ما غرض .!.

وفي إحدى ليالي إبريل عندما بزغ القمر كفقاعة ماء من أعماق الغرب. . . وكانت إحدى الفتيات مشتغلة بري النبات وأخرى تطعم غزالها، وثالثة ترقص لطاووسها بدأ الشاعر يغني:

(آه. . . أنصتوا لأسرار العالم. . . إني أرى أن الزنبقة شاحبة مصفرة لأنها تحب القمر. . . وزهرة اللوتس تسحب قناعها أمام شمس الصباح، والسبب جلي لو أنعمتم التفكير. ومعنى طنين النحل في إذن الياسمين الصبوح قد غرب عن خاطر العلماء ولكن الشاعر يعلم. . .!)

وذهبت الشمس في تورد الحياء، وصعد القمر متمهلاً خلف الأشجار، وهمست ريح الجنوب لزهرة اللوتس أن الشاعر ليس بساذج كما يظهر منه. فشبك الفتيات والشبان أيديهم وصاحوا:

(لقد انكشف سر العالم. .!)

ثم نظر بعضهم في عين بعض وأنشدوا:

(ليطر سرنا أيضاً على أجنحة الريح. .!)

عبد الوهاب مصطفى بحلاق

رسالة من باريس

بعض الدكاترة الفخريين

الذين منحوا الدكتوراه في فرنسا هذا العام

للباحث الأديب مصطفى زيور

- 1 -

سيدي رئيس تحرير الرسالة وأستاذي العزيز

ولا يغضبك من تلميذك أن يذكرك بعهد كرت عليه الأيام، وطواه الدهر في صفحات بدأ يعلوها الاصفرار. فكم في مثل هذه الذكريات من العذوبة ما ترق له النفس، وتذوب حنانا، يرسل في قسوة الحاضر سحر الماضي، فنرضى ونبتسم. . . ثم ينسينا التلهفَ على الماضي حسنُ الظن بالمستقبل. وهكذا تدفعنا دائماً مناعة النفس ضد التبرم بحقائق الحاضر أن نلوذ بما نتصوره سحر الماضي، حتى ترهقنا الحقيقة ونرى قلم الزمان يجر رقما جديدا في حساب الأعمار، فندير إليه ظهورنا ونتعلق بآمال المستقبل

فإذا أنكرت من تلميذك حديث الحنان ومنطق العاطفة، وإذا اتهمته بسوء النية في إثارة حديث الأعمار، فهو يدفع عن نفسه بأن التلميذ غير مسئول إذا اصطنع حديث العاطفة - ولو لم يكن هذا في فطرته - إذا كان أستاذه هو صاحب ذلك الأسلوب الموسيقي في ترجمة (آلام فرتر) و (رفائيل)؛ وهو متأهب بعد ذلك أن يسل حسام المنطق الجاف، منطق العقل الخالص، يعالج به مشكلة الأعمار ويقيم الدليل على أنه لم يكن ماكراً خبيثاً في إثارتها، وهو الذي لا يقنع بتلك الحجة البائسة تساق للسلوة عما مضى من الشباب، في قولهم إن مع المشيب نضوجا وحكمة، فما كانت هذه الحكمة في الغالب إلا خمودا في جذوة الحياة، وفرقا من اعتناق ثائر الأنظار تضطرب من تحتها الأرض. لا يقنع تلميذك بهذا بل هو مصطنع لسان الطب يعالج به مشكلة الأعمار فيقول: إن ما يختلج أعضاء المرء من الحيوية لا يقاس بما مر من السنين على بزوغ هذه الحيوية، وقديما قال الفرنسيون: وما عمر المرء إلا عمر عروقه ' وهو ما يعبر عنه بلغة البيولوجيا الحديثة (أو قل علم الحياة حتى يرضى عني أنصار ترجمة المصطلحات العلمية) بأن مبلغ الطاقة الحيوية في المرء

موقوف بما عليه إفراز غدده الصماء كما وكيفاً، وبما تطبقه مجموعته الاشتراكية بالفعل وبالقوة. فإذا كانت المقاييس الحديثة لنشاط هاتين المجموعتين قد أدت إلى تقرير مبادئ جديدة في حساب الأعمار يستند إليها علم حديث يدعونه بيوتبيولوجي يرمي إلى تمييز الشخصية الحيوية للأفراد لتوجيههم في معترك الحياة، بأن يدلهم على ما يصلحون له وما يطيقونه؛ وإذا كنا نرى هذا البحث الجديد قد جعل من بعض الشيوخ شبابا ومن بعض الشباب شيوخا، أفلا يرى معي أستاذي أن لا بأس على الشيوخ إذا كان نشاطهم شابا، وأن يخفف الشباب من غلوائه إذا كان نشاطه متقاعدا هرما؟

فإذا لم يرضك مني حديث المنطق بعد حديث العاطفة، وهممت أن تجري قلمك الأحمر على هذا اللغو تحذفه من كلمتي كما تعودت أن تفعل معي قديما في (كراسة الإنشاء) فإني أهيب بك أن تسمح لي بالاستئناف أمام أستاذي أحمد أمين، فلعله يكون أقل صرامة في الحكم، وقد سمعته يشير إلى تلك الظاهرة النفسية التي تدفع بالكاتب إلى الحرص على آثار قلمه والاعتزاز بها الغث منها والسمين، كما تحرص الأم وتحب فلذات كبدها، الدميم منهم والجميل

وبعد فهأنذا أفي بوعد قديم فأكتب (للرسالة) صفحات أردت أن أشير فيها إلى بعض تيارات الفكر العلمي الحديث في الغرب، التي تعنيها تلك المظاهر الدولية تعلن لحاملي لوائها تقدير الأوساط العلمية، فتجيزهم جوائز فخرية مثل جائزة نوبل أو الدكتوراه الفخرية تمنحها لهم الجامعات

وقد كان منح الدكتوراه الفخرية هذا العام في الجامعات الفرنسية حادثاً جللا بالنسبة لمصر، فقد رأينا لأول مرة أديباً مصرياً ينال هذا الشرف هو الدكتور طه حسين بك. ولست أشك أن غيري كتب في الجرائد المصرية يبين خطر هذه المنحة. وحسبي أن أشير إلى أن الجامعات الفرنسية ضنينة بإجازاتها فلا تمنحها لغير العلماء الذين ثبت فضلهم على العلم؛ فلم نر إينشتين يمنح الدكتوراه الفخرية من باريس إلا سنة 1929 بعد أن نال جائزة نوبل مرتين. وها نحن أولاء نرى بين العلماء الذين فازوا بهذا الشرف هذا العام اثنين من العلماء هما (تزنت جيورجي) و (كارر) قد سبق أن فازا بجائزة نوبل الأول للطب والثاني للكيمياء لقيامهما - منفردين - بأبحاث خطيرة في مسألة الفيتامين كما سأبين بعد

وليس في عزمي أن أقدم إلى قراء الرسالة الدكتور طه حسين بك كما سأقدم إليهم العلماء سورنسن، وتزنت جيورجي، وكارر من بين العلماء الذين فازوا بالدكتوراه الفخرية من فرنسا هذا العام، فإن عميد كلية الآداب ليس في حاجة إلى أن يقدم إلى صحف الأدب العربي، كما أنه ليس في عزمي أن أتناول بهذه المناسبة مؤلفاته الأدبية بنقد أو تحليل، فلم يكن الأدب من عملي ولم أكن يوماً من الأدباء

وحسبي أن أردد ما قاله ممثل الجامعة الفرنسية في عميد كلية الآداب من المقابلة بينه وبين أديبهم الفرنسي رينان، فقد قال: إن رينان كان أديباً فذاً ولكنه كان إلى ذلك مؤمناً قوي الإيمان بمستقبل العلم نصيراً له؛ وكذلك الدكتور طه في مصر فهو إلى صفاته الفنية في الأدب قد بعث فيمن حوله روحاً علمية صحيحة وأنفق من الجهد في نصرة الروح للعلمية والأخذ بمنهجها ما يجعله حقيقاً أن يحتفل به العلماء قبل الأدباء.

ومن أجل هذا فإني أسجل له تحيتي هنا

العلامة سورنسن ?

يمتاز هذا الكيميائي الدانمركي بعبقرية مبتدعة في طرائق البحث التجريبي واختراع الوسائل الفنية التي يدعونها بتلك الكلمة اليونانية الأصل (تكنيك)؛ ولعل العلماء المبرزين في هذا النوع من النشاط العلمي أقل حظاً من غيرهم في ذيوع الشهرة وجريان أسمائهم على أفواه المتعلمين؛ ذلك لأن هذه الوسائل وما يتصل بها من الأجهزة تبقى في العادة داخل المعامل يستغلها الباحثون في الكشف وتحقيق الفروض، فإذا ما انتهى إلى جمهور المتعلمين شيء منها فهي نتائج هذه البحوث: قانون طبيعي، أو نظرية جديدة في تفسير طائفة من الظواهر تحمل اسم قائلها ولكنها غفل من اسم مخترع الوسائل التي أدت إلى هذا الكسب الجديد في ميدان المعرفة. ومع ذلك فان هذه الوسائل كثيراً ما كانت تكأة لفتوح خطيرة في العلم بل تكأة لعلم بأسره؛ فكثير منا يعلم مثلاً أن جاليليه هو أول من أقام الدليل على صحة نظرية كوبرنيك في دوران الأرض حول الشمس وحول نفسها، ولكن كم منا يعلم أن

هذا الجهاز البسيط المقرب للأبعاد المدعو تلسكوب، والذي خرج من خلاله كل محصولنا الحالي في علم الفلك بل كل هذه الثورة على جدل القرون الوسطى النظري وتوجيه العلم نحو الملاحظة والتجريب، كم منا يعلم أن المنظار المقرب يحمل اسم جاليليه؟

ثم كم من الأطباء في العالم الذين يستعملون كل يوم منذ أكثر من قرن ذلك الجهاز المدعو (سنتوسكوب) أي السماعة الطبية ويقيمون تشخيصهم على ما يسمعونه خلالها، كم منهم يعلم أنها تحمل اسم الطيب الفرنسي الكبير (لَيْنِك) مؤسس فن التشخيص السمعي؟

اتجه نشاط سورنسن بعد بحوث في الكيمياء المعدنية نحو دراسة المكون الرئيس للمادة الحية: المواد الزلالية المسماة في الاصطلاح الدولي بروتيد؛ بدأ باستخلاصها في حالة النقاء أي خالصة من المواد الأخرى العالقة بها مما مكنه ومكن غيره من الباحثين من دراسة خصائصها الكيميائية والفيزيقية؛ أجرى عليها تجربة التحليل الغشائي، أي النفاذ خلال الأغشية وهي أجسام من أصل نباتي أو حيواني ذات ثقوب دقيقة (مثل جلود الحيوانات) لا تسمح لغير الجزئيات الدقيقة مثل جزئيات الملح الذائبة في الماء باختراقها، بينما الجزئيات الزلالية لا تنفذ منها. ونتيجة هذه التحليل الغشائي أن الجزئيات الغريبة العالقة بالجزئيات الزلالية تنفذ خلال هذه الأغشية تاركة الجزئيات الزلالية في حالة النقاء. وهكذا تبدو لنا المحلولات المحتوية على مواد زلالية كأنها تسلك مسلك المحلولات الغروية (نسبة إلى الغراء) أي تلك المحلولات التي تختلف عن المحلولات العادية - المسماة بالمحلولات البلورية مثل محلول الملح - بكبر حجم جزيئاتها مما يمنعها من اختراق تلك الأغشية، والتي تختلف عنها أيضاً بأنها لا تترك بعد تبخير السائل الذائبة فيه دقائق متبلورة بل تترك جسماً يشبه الغراء

ولكن هذه الحقيقة، حقيقة وجود المواد الزلالية وبالتالي المادة الحية على الحالة الغروية تحمل نتائج غاية في الخطورة؛ ذلك أننا نعلم أن المحلولات الغروية تنفرد بصفات خاصة يرجع إليها السبب في ثبا بهذه المحلولات أي بقاء الجزئيات منتشرة في السائل لا تسقط، فإذا ما حدث اضطراب في هذه الصفات فان جزيئات المحلول الغروي تتهالك بعضها على بعض أي تفقد ثباتها فينهار المحلول الغروي. ولما كانت المادة الحية توجد على الحالة الغروية فان بقاء الحياة واستمرارها يترجم عنه من الناحية الفيزيقية بثبات الحالة الغروية، وفناء الحياة أو اضطرابها يترجم عنه من الناحية الفيزيقية بانهيار الحالة الغروية

أما أهم هذه الصفات التي يرجع إليها ثبات الحالة الغروية فهو وجود شحنة كهربائية من نوع بعينه تحملها الجزئيات المنتشرة فتدفعها إلى التباعد بعضها عن بعض فتمنعها من

التهالك. فإذا ما أُدخل على المحلول الغروي جسم يحمل شحنة كهربائية مضادة لشحنته لا تلبث جزئيات المحلول الغروي أن تتجاذب مع هذا الجسم الغريب وفقاً للقانون الطبيعي الذي يقرر التجاذب بين جسم موجب وآخر سالب، وبالتالي ينهار المحلول الغروي؛ وهذا ما يحدث بين السموم المفرزة من الجراثيم وبين الجزئيات الزلالية في الأنسجة الحية. ومما يجدر ذكره أن تقدم الكائن الحي في السن وانحداره نحو الهرم يقابله تغير في الصفات الغروية الخاصة بأنسجته ينتج عنه تباطؤ في نشاطها؛ وهكذا يمكننا أن نقرر دون خشية الخطأ أنه في اليوم الذي تتم لنا فيه معرفة جميع الصفات الغروية نكون قد كشفنا الغطاء عن جميع معميات المظاهر الفسيولوجية في الصحة والمرض

ومن المسائل التي استرعت اهتمام سورنسن مسألة الوزن الجزيئي للزلاليات، أي وزن أصغر جزء له نفس صفات الجسم الذي يتركب من عدد كبير من هذه الجزئيات؛ فاستعان بالضغط (الأسموزي) أي الضغط الذي يحدثه دفع محلول على جدار غشاء إذا وجد من الناحية الأخرى من هذا الغشاء محلول ذو تركيز يختلف عن تركيز المحلول الأول. وبواسطة قانون (فان تهوف) الذي يعين العلاقة بين الضغط ودرجة الحرارة المطلقة والتركيز الجزيئي يصبح من السهل استنتاج الوزن الجزيئي. أدت هذه الطريقة سورنسن ثم (أدير) إلى تقدير الوزن الجزيئي لزلال البيض ب 34. 000 وبضعف هذا العدد لزلال الدم. وقد حققت التجارب التي أجريت بواسطة طرق

فيزيقية أخرى هذا العدد كما حققت أن المواد الزلالية المختلفة لا تختلف في وزنها الجزيئي إلا بأنها حاصل ضرب هذا العدد في أعداد صحيحة. وليس في ذلك غرابة، فنحن نعلم أن المواد الغروية تتكون من وسط منتشرة فيه دقائق مؤلف كل منها من عدد معين من الجزئيات قد يختلف من مادة غروية إلى أخرى. ومهما يكن من أمر هذا الاختلاف في الوزن الجزيئي فان ما يسترعي النظر حقاً هو ضخامة حتى أصغر قيمة وجدت للوزن الجزيئي في الزلاليات وهي 17. 000 (يلاحظ أن نصفها 34. 000)؛ ذلك لأننا لا نعرف جسماً يقترب وزنه الجزيئي من هذه القيمة مما يدل على شدة التعقيد في تركيب المواد الزلالية؛ ومع ذلك فان تحليل هذه المواد إلى عناصرها الأولية لا يؤدي إلا إلى أربعة عناصر بسيطة هي الكربون والهيدروجين والأكسجين والأزوت، ثم في معظم الحالات أيضاً للكبريت. إذن فالتعقيد لا يأتي من ازدحام عدد كبير من العناصر الأولية، بل من النظام الداخلي في ارتباط هذه العناصر. كيف تتركب إذن هذه المواد؟ إذا أجرينا على المواد الزلالية تحليلا خميريا أي بواسطة الخمائر مثل خمائر الأمعاء فإنها تنحل في النهاية إلى عدة أجسام بسيطة التركيب إلى حد ما، يدعونها الأحماض الأمينية أي أجسام يعينها وجود وظيفة حمضية بجانب وظيفة أمينية (وهي وظيفة قلوية تحتوي على الأزوت منتشرة في المواد العضوية)؛ وعلى ذلك كان من السهل أن يتحد حامض أميني مع حامض أميني آخر بأن ترتبط الوظيفة الحمضية لأحدهما مع الوظيفة الأمينية للآخر، كما أنه يمكن أن يتحد هذا الجسم المزدوج الجديد مع حامض أميني ثالث بنفس الطريقة وهكذا. وقد تمكن فيشر من تركيب نحو ثمانية عشر حمضاً أمينياً بعضها مع بعض فنتج لديه أجسام لها كثير من خصائص المواد الزلالية. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فان الأحماض الأمينية نفسها يمكن تركيبها من أجسام بسيطة. وقد كان لسورنسن الفضل في دراسة وتركيب أحد الأحماض الأمينية الهامة وهي الأرجينين، كما كان له فضل ابتداع طريقة للتقدير الكمي للأحماض الأمينية في محلول يحتوي عليها

للبحث بقية

مصطفى زيور

للتاريخ السياسي

جهود المستر تشمبرلين

وما أدت إليه

للدكتور يوسف هيكل

علمتني التجارب أن الضعف في القوة العسكرية يعني (الضعف في السياسة)

تشمبرلين - 6 أكتوبر

إن خطاب الهر هتلر في نورمبرك وما تبعه من اضطرابات في تشيكوسلوفاكيا، وقطع المفاوضات بين حكومتها وحزب السوديت الألمان، أقلق الرأي الدولي ولا سيما في لندن وباريس. فقام المستر تشميرلين، رئيس الحكومة البريطانية، بالاتفاق مع المسيو دلادييه رئيس الحكومة الفرنسية، ببذل جهود شخصية لم يكن أحد يتوقعها منه، لإبعاد شبح الحرب العالمية وتثبيت السلام. وإننا في عرضنا لهذه الجهود نتكلم عن مباحثات برختسكادن ومشروع لندن، ونذكر مطالب الهر هتلر الجديدة، ونبدي ما تلاها من الذعر الدولي، وما تم في مؤتمر مونيخ

مباحثات برختسكادن ومشروع لندن

اشتدت خطورة الحالة في تشيكوسلوفاكيا في 13 سبتمبر (أيلول) وخشي حدوث حرب أهلية بين التشيك والألمان السوديت على أثر انتشار الاضطرابات بين العنصرين في كثير من المقاطعات السوديتية، وذلك مما كاد يؤدي إلى تدخل الجيوش الألمانية، وبالتالي إلى مساعدة الجيش الفرنسي لحكومة براغ. وهذه الأعمال الحربية إن وقعت، لا تلبث أن تصبح حربا عالمية بتدخل الدول الأخرى عملا بالمحالفات تربطها مع براغ وباريس من جهة، ومع برلين من جهة ثانية

وبما أن النظام الدكتاتوري الذي يضع مصير البلاد في قبضة رجل واحد قلل الانتفاع من النظام الدبلوماسي الاعتيادي ولا سيما في ساعات الأزمات، لذلك قرر المستر تشمبرلين،

بالاتفاق مع حكومة باريس، الذهاب إلى ألمانيا، ومقابلة الهر هتلر، ليتحقق ما إذا كان لا يزال باقيا أي أمل في حفظ السلام. فأرسل إليه في 14 سبتمبر (أيلول) برقية قال فيها:

(نظرا لازدياد تحرج الحالة أرى أن آتي لمقابلتكم بقصد السعي لإيجاد حل سلمي. وفي عزمي أن آتي بطريق الجو، وإني مستعد للسفر غدا. فأرجو أن تخبرني عن أقرب وقت تستطيع فيه مقابلتي، وعن المكان الذي نجتمع فيه).

فرد الهر هتلر على هذه البرقية بقوله إنه مستعد لمقابلة رئيس الوزارة البريطانية غداً في برختسكادن

طار المستر تشمبرلين إلى ألمانيا صباح 15 سبتمبر (أيلول) فوصل برختسكادن الساعة الرابعة. وبعد تناول الشاي مع زعيم ألمانيا أخذ رجلا الدولة يتباحثان. ولم يحضر مباحثاتهما هذه التي دامت ثلاث ساعات غير المترجم

خلال هذه المحادثات أبان الهر هتلر بوضوح وتأكيد، وجوب إعطاء السوديت الألمان حق تقرير مصيرهم، والعودة إلى الريخ إذا كانوا يريدون ذلك. وإذا لم يعطوا ذلك الحق فان ألمانيا تأخذه لهم بالقوة.

وقد تذمر الهر هتلر من تهديدات بريطانيا له فأجاب المستر تشمبرلين على ذلك أنه يجب التفريق بين التهديد والإنذار. وقد يكون للهر هتلر سبب معقول من التذمر لو أن المستر تشمبرلين مكنه من التفكير في أن بريطانيا لا تدخل ضده في حرب مهما كانت الظروف، ولكن عملياً توجد حالات إن وقعت تضطر بريطانيا إلى دخول الحرب ضد ألمانيا.

ظهر للمستر تشمبرلين أن الهر هتلر كان يتأهب إلى اكتساح تشيكوسلوفاكيا مما جعله يسأله لماذا مكنه من السفر إليه مسافة طويلة، ما دامت نتيجة ذلك ضياع وقته فقط. فأجاب الهر هتلر على ذلك أنه لو أن المستر تشمبرلين يؤكد له هناك (أي في ألمانيا) وفي ذلك الوقت - أن الحكومة البريطانية تقبل مبدأ حتى تقرير المصير، لكان (أي الهر هتلر) مستعداً لبحث الطرق والوسائل لتنفيذ ذلك. ولكن إذا كانت الحكومة البريطانية لا تعتبر هذا المبدأ، فان من الحق ألا تكون هناك فائدة من متابعة المحادثات. غير أن المستر تشمبرلين لم يكن حينئذ وفي ذلك المكان في حالة تمكنه من إعطاء مثل ذلك التأكيد، فأعلم محادثه أنه يريد العودة للمشاورة مع زملائه في هذا الشأن، إذا امتنع الهر هتلر عن القيام بأعمال عدائية ريثما يتمكن من معرفة جوابهم. فوعده الهر هتلر بذلك

عاد المستر تشمبرلين إلى لندن صباح 16 سبتمبر (أيلول)، معتقداً أن لا شيء يحول دون احتلال الجيوش الألمانية تشيكوسلوفاكيا إلا منح الألمان السوديت حق تقرير مصيرهم في وقت قريب. وكان ذلك في رأيه، الأمل الوحيد في الوصول إلى حل سلمي.

وفي اليوم نفسه، وبطلب من المستر تشمبرلين عاد اللورد رنسيمان من براغ إلى لندن. ولما سأله الصحفيون عن رأيه في الموقف أجاب: (كنت أود لو أني أعرف عن الموقف ما تعرفون، وأخشى ألا يكون عندي من المعلومات ما أفضي إليكم به غير القول بأن الحالة دقيقة جداً وأنها بين يدي الله).

وفي مساء ذلك اليوم عقد مجلس الوزراء البريطاني جلسة، حضرها اللورد رنسيمان. وفي هذه الجلسة عرض رئيس وزارة بريطانيا لزملائه ما سمع من الهر هتلر، وما حمل من فكرة عن موقف الجيش الألماني إزاء المشكلة التشيكوسلوفاكية. وفي هذه الجلسة أيضاً أوقف اللورد رنسيمان الحكومة على الحالة في تشيكوسلوفاكيا وأبدى لها ما يعتقده من حل حاسم لمشكلتها.

بعد أن عرض اللورد رنسيمان سير المفاوضات ووضع مسؤولية فشلها على الهر هتلاين ومعاضديه داخل البلاد وخارجها قال: (مع ذلك فإنني أعطف على قضية السوديت. إنه من المؤلم جداً أن يخضع الشعب لحكم شعب غريب) ثم أبان أنه حين وصوله كان زعماء السوديت المعتدلون لا يزالون يرغبون في حل يبقيهم داخل حدود الدولة التشيكوسلوفاكية، لتأكدهم أن الحرب ستقضي على بلادهم لأنها ستكون ساحتها. وقد حاول اللورد الوصول إلى مثل هذا الحل ولكنه لم ينجح، لتصلب اتباع الهر هتلاين وإيجادهم العراقيل أمام تحقيق الحلول المعروضة. لهذا أخذ اللورد رنسيمان يدين بأن المقاطعات المأهولة بأكثرية كبيرة ألمانية يجب أن تعطى حالاً حق تقرير

مصيرها، وأنه إذا كان لا بد من إلحاق بعض الأقاليم بألمانيا، وهو يعتقد بضرورة ذلك، فانه يجب أن يكون حالا ومن غير تأخر. لأنه يوجد - حسب رأيه في ترك الحالة غير جلية - خطر حقيقي: خطر حرب أهلية. ولذلك يرى وجوب اتباع سياسة سريعة حاسمة. أما إجراء الاستفتاء في المقاطعات التي تكون أكثريتهم الساحقة ألمانية، فما هو ألا عمل شكلي إذ الأكثرية من سكان هذه المقاطعات تحبذ الانضمام إلى ألمانيا. والاستفتاء لا يؤدي في هذه الحالة إلا إلى تهيج شعور الجمهور، وبالتالي إلى نتائج سيئة. لهذا فان اللورد رنسيمان يوصي بضم هذه الأقليم التشيكوسلوفاكية إلى ألمانيا

أما الأقاليم التي فيها النسبة الألمانية قليلة فانه يوصي بإعطائها الاستقلال الذاتي ضمن حدود الجمهورية التشيكوسلوفاكية

وبعد أن عرض اللورد رنسيمان مسألة الحدود، تناول الأوجه السياسية التي تتعلق بسلامة الجمهورية التشيكوسلوفاكية وبتحسين علاقتها مع مجاوريها الملاصقين، ولتحقيق ذلك يوصي:

1 - منع الأحزاب والأشخاص في تشيكوسلوفاكية الذين يشجعون اتباع سياسة الخصومة لمجاوريها، من متابعة تحريضهم حتى ولو باتخاذ وسائل قضائية ضدهم

2 - تغير حكومة براغ علاقاتها السياسية الدولية كما تعطي تأكيداً لمجاوريها بأنها لا تريد مهاجمتهم في أي ظرف من الظروف، أو بالاشتراك في أي اعتداء عليهم تنفيذاً لمعاهدات مع دول أخرى. ومعنى ذلك إلغاء حكومة براغ لمحالفاتها الدفاعية مع فرنسا والروسيا

3 - ضمان الدولة الرئيسية - الذين يهمهم السلام في أوربا - حدود تشيكوسلوفاكيا في حالة التعدي عليها، غير المحرض عليه

4 - عقد معاهدة تجارية بين تشيكوسلوفاكيا وألمانيا إن كان ذلك مفيداً لاقتصاديات البلدين

كان لتقرير اللورد رنسيمان تأثير عظيم على الحكومة البريطانية. وقبل أن تضع خطتها النهائية، رأت من الضروري استشارة الحكومة الفرنسية، فدعا المستر تشمبرلين المسيو دلادييه رئيس وزارتها، والمسيو بونيه وزير خارجيتها إلى لندن للتشاور مع الوزراء البريطانيين في 18 سبتمبر (أيلول)

اجتمع الوفد الفرنسي بالوزراء البريطانيين، وأبان له المستر تشمبرلين مطالب الهر هتلر ورأي الحكومة البريطانية فيها، وأوقفه على ما وصل إليه اللورد رنسيمان وقد تم الاتفاق بينهم على مشروع لحل النزاع الألماني التشيكوسلوفاكي ضمن تحقيق مطالب زعيم ألمانيا ويحتوي على النقط التالية:

1 - فصل المناطق المأهولة بأكثرية ألمانية عن تشيكوسلوفاكيا وضمها إلى الريخ.

2 - عدم إجراء الاستفتاء، للصعوبات التي تنجم عنه، والاستعاضة عنه بالتنازل عن المقاطعات التي كان يجب إجراء الاستفتاء فيها.

3 - تأليف لجنة دولية، تكون تشكوسلوفاكيا أحد أعضائها، لتعيين الحدود التشيكية الجديدة والأشراف على تبادل السكان.

4 - تعهد حكومة بريطانيا بالاشتراك بضمان دولي للحدود التشيكية الجديدة بدلا من معاهدات الدفاع الحالية.

وافقت الوزارة البريطانية بالإجماع على هذا المشروع، أما في فرنسا فاعترض عليه أربعة من الوزراء. وفي 20 سبتمبر (أيلول) أرسلت حكومة براغ ردها على مشروع لندن إلى الحكومة البريطانية، أبانت فيه الأسباب التي تدعوها إلى عدم قبول التنازل عن الأرض السوديتية. وأشارت إلى أنها لا يمكنها فقط قبول الاقتراحات الإنكليزية الفرنسية التي وضعت دون موافقتها، وطلبت أن يكون الخلاف بين تشيكوسلوفاكيا وألمانيا موضع التحكيم، وفقا لمعاهدة عام 1926 المعقودة بين هذين البلدين، وأن تعيد حكومتا لندن وباريس النظر في المسألة؛ غير أن سفيري بريطانيا وفرنسا زار الرئيس بنيش في الساعة الواحدة والربع من صباح 21 سبتمبر (أيلول) وألحا عليه بضرورة قبول مشروع لندن، وقد أفهماه أن الحالة في بريطانيا لا تمكنها من دخول حرب دفاعاً عن تشيكوسلوفاكيا، وبالتالي فان الحكومة الفرنسية لا تستطيع نجدة حليفتها. فقضت حكومة براغ ما بقي من الليل في درس الحالة. وفي الصباح أصدرت

بياناً ذكرت فيه الأسباب التي اضطرتها إلى قبول مشروع لندن. ومما جاء فيه، أنه (لم يسع رئيس الجمهورية والحكومة إلا قبول اقتراحات الدولة الكبرى لأننا وجدنا أنفسنا بلا معين).

على أثر ذلك اضطرب الرأي العام في تشيكوسلوفاكيا، وقامت في البلاد مظاهرات وطنية، واحتشدت الجماهير أمام قصر الرياسة صارخة (فليحي سيروفي، وليحي الجيش). فأطل الجنرال سيروفي مفتش الجيش العام من شرفة قصر الرياسة وألقى خطاباً قال فيه: (إنكم لا تعلمون الأسباب التي حملت الحكومة على اتخاذ القرارات الأخيرة. إني أحب الجمهورية بقدر ما تحبونها. إننا لا نستطيع أن ندفع بالشعب إلى الانتحار). فأجابت الجماهير (إننا نفضل الانتحار ولا نريد أن يمس شرفنا. نريد الكفاح). . . وكانت النساء على الأرصفة يشهقن بالبكاء، والدموع تتساقط من أعين رجال البوليس.

وفي صباح 22 سبتمبر (أيلول) استقالت وزارة الدكتور هودزا وأعلن تأليف وزارة قومية برياسة الجنرال سيروفي، رجل تشيكوسلوفاكيا القوي.

وبرغم مطالب بولندا وهنغاريا التي زادت تعقيد المشكلة التشيكوسلوفاكية فان الدوائر السياسية ظنت أن الأزمة الدولية قد انفرجت بقبول تشيكوسلوفاكيا مشروع لندن الذي هو عبارة عن تحقيق مطالب الهر هتلر. واعتقدت أن طيران مستر تشمبرلين إلى ألمانيا للمرة الثانية في 22 سبتمبر (أيلول) مكلل بالنجاح. فهل تحقق ظن هذه الدوائر؟ هذا ما سنعرفه في المقال المقبل

يوسف هيكل

في اللغة

المؤنث والمذكر في اللغات السامية

للأستاذ عمر الدسوقي

نقدم إلى قراء الرسالة كاتبا جديداً من نوابغ الشبان الذين جمعوا بين الثقافتين الشرقية والغربية وهو الأستاذ (عمر الدسوقي). فقد تخرج في دار العلوم سنة 1932 ثم أرسل إلى إنجلترا للتخصص في اللغات السامية، فدرس منها الحبشية والحميرية والآرامية والعبرية، ودرس إلى جانب ذلك اللغات الفرنسية في إنجلترا وجرنوبل بفرنسا، والألمانية بإنجلترا وجامعة (بن)، ودرس أيضاً الفلسفة في جامعة لندن، وحاز على بكالوريوس الشرف في اللغات السامية من معهد اللغات الشرقية بلندن. وقد وعد الأستاذ أن يخص الرسالة ببحوثه القيمة في المواد التي تخصص فيها)

ما الفكرة التي حدث بالساميين إلى تأنيث بعض الأسماء وتذكير بعضها الآخر؟ وهل كان هذا التقسيم معتمداً على فكرة تشبعت بها أذهانهم وتصوراتهم أم كان ذلك عفواً ومن غير قصد؟ لماذا كان الذهب مذكراً والفضة مؤنثة، والكرسي مذكراً والمائدة مؤنثة، والبيت مذكراً والدار مؤنثة، والقمر مذكراً والشمس مؤنثة؟ تسأل علماء اللغة وكتب اللغة فلا تجد جواباً شافياً، اللهم إلا هذا التقسيم القديم، وهو انقسام الاسم إلى مذكر ومؤنث، والمؤنث إلى حقيقي وغير حقيقي ومعنوي ومجازي ولفظي؛ ولكن لماذا لحقت تاء التأنيث وأخواتها المؤنث غير الحقيقي؟ أو لماذا اعتبروا بعض الأسماء مؤنثاً ولو لم تكن بها إحدى علامات التأنيث؟ هذا ما سيدور عليه البحث الآتي: -

نجد في اللغات الأوربية الهندية مذكراً ومؤنثاً، وألفاظاً لا هي بالمذكرة ولا هي بالمؤنثة، وهي ما تسمى بالإنجليزية وأن بعض اللغات الأوربية قد اقتصر على المذكر والمؤنث كالألمانية والفرنسية ونجد بعض كلمات في الإنجليزية مؤنثة أو بعبارة اصح تعتبر مؤنثة، مع أنها بعيدة عن فكرة التأنيث حيث (الجنس) أي فمثلاً كلمة سفينة مؤنثة، وكلمة أي قمر مؤنثة، وكلمة أي آلة مؤنثة، ولكنها كلمات قليلة لعلها أثر من آثار الماضي. أما اللغات السامية فقد اتحدت على تقسيم الاسم إلى مذكر ومؤنث، واتحدت في الأسماء التي تؤنث، وهذا ما جعل المستشرقين - ما عدا نولدكه وفنسنج - يقولون إن الساميين قد قاموا

بهذا التقسيم حينما كانت لغتهم لا تزال لغة واحدة - وإن نظريتهم إلى الأشياء كانت نظرة عميقة جعلتهم يتخيلون فيها المذكر والمؤنث.

اعتبر العرب بعض الأسماء مؤنثة وإن لم تكن بها علامة تأنيث، ولا تدل على مؤنث من

حيث الجنس كالدار والنار، والذراع والإصبع، والسوق واليمين، والأرض والأذن والعين والسن والشمس والحرب، وهذا ما يسمى مؤنثاً مجازياً؛ وتجد من هذا النوع خمسة عشر اسماً في جسم الإنسان، وأحد عشر اسماً من أسماء الآلات، وأحد عشر اسما لأجزاء السماء والأرض، واسمين للأمكنة، وخمسة للحيوانات. ويلاحظ أن هذا المؤنث المجازي يخرج تدريجيا في بعض اللغات السامية من المؤنث إلى المذكر؛ فمثلاً كلمة (رحى) وكلمة (كأس) نجد كلاً منهما في العربية والسريانية مؤنثة وفي الآرامية مذكرة، ومؤنثة تارة ومذكرة أخرى في اللغة العبرية. وخذ مثلاً كلمة (شمس) تجدها مؤنثة دائماً في اللغة العربية، ومذكرة دائماً في الآشورية، ومؤنثة تارة ومذكرة أخرى في الآرامية والعبرية.

أما في الحبشية فقد تطورت هذه الكلمات تطوراً آخر، فحينما نسي الناس الفكرة الأصلية للمؤنث والمذكر حدث خلط حتى في الكلمات المنتهية بإحدى علامات التأنيث ويظهر أن هذا الانتقال من المؤنث للمذكر لم يتبع في كل حال انتقال الكلمة من معناها الأصلي إلى معنى جديد كما حدث في كلمة (دار) حين أصبحت في العبرية (دور) بمعنى الجيل، وانتقلت بذلك من المؤنث إلى المذكر، بل ربما كان هذا الانتقال لضعف فكرة التأنيث كما في (رحى، وكأس).

وقد أسترعي نظر بعض العلماء وجود علامات التأنيث لا في الاسم الدال على مؤنث حقيقي فحسب، ولا في الاسم التي اعتبرها الساميون مؤنثة لفظاً، بل في بعض المصادر وبعض الجموع، وكثير من الكلمات التي تدل على الكثرة والقوة. فنجد الألف المقصورة علامة من علامات التأنيث. كما في سلمى وحبلى، وليلى؛ ونجدها في جمع فعيل، كصريع وصرعى وجريح وجرحى، وقتيل وقتلى، وميت وموتى. . . الخ. ومعنى هذا أنه لا فرق في العلامة بين صيغة المؤنث وصيغة الجمع.

ونجد الألف الممدودة علامة من علامات التأنيث كما في شقراء وزرقاء وصحراء، وورقاء، ونجدها في جمع فعيل بمعنى فاعل إذا كان وصفاً لعاقل معتل اللام أو مضعفاً مثل

أغنياء وأشداء وأقوياء؛ ونجدها كذلك في جمع فعيل بمعنى فاعل وصفاً لعاقل غير معتل اللام ولا مضعفاً مثل كرماء وجبناء، وبخلاء وسعداء وعظماء؛ وهذان الجمعان من جموع الكثرة.

ونجد أيضاً التاء علامة من علامات التأنيث كما في فاطمة وسكينة؛ ونجدها كذلك في بعض أوصاف الذكور للمبالغة كعلاقة وفهامة وبحاثة، ورواية ونابغة، وداهية وقعدة، وجثمنه، وضجعة ونؤمة، وفي العبرية (قُوحِلة) وهو الذي يؤم الناس في الصلاة. ونجد أيضاً هذه التاء تلحق الجموع لفاعل وفَعلة، وخائن وخونة، وعامل وعملة، وكاتب وكتبة، وكامل وكملة، وطعام وأطعمة، وغلام وغلمة، وصبي وصبية، وجهبذ وجهابذة؛ وفي العبرية (أو رحاه) جماعة المسافرين.

وتأتي هذه التاء في المصدر كتجارة وزارعة وصباغة، وحمرة وزرقة ودكنة وعذوبة ونباهة، ومجادلة ومسابقة ومخاصمة، ودحرجة ووسوسة وبعثرة وزمجرة، وتلبية وسيطرة

والتاء في السريانية كعلامة للمبالغة والكثرة والمصدر والمؤنث ليست نادرة ولكنها تأتي مع (آن) وذلك موجودة بالعربية أيضاً؛ فعندنا في المصدر غليان وفيضان وخفقان، وفي الوصف عطشان وظمآن، وفي الجموع إخوان وفرسان وشجعان وفتيان وغلمان وولدان وسودان وحمران، وهي الصيغة المألوفة في الحبشية لجمع العقلاء ونعوتهم؛ ونجدها في العبرية بأسماء التفضيل دلالة على بلوغ النهاية (ريشون) الأول، و (آمرون) الآخر و (حيصون) الخارج، و (حيخون) الداخل و (عليون) الأعلى. . . الخ

وتأتي في الآرامية علامة لجمع المؤنث. ويقول الأستاذ مولر إنها كانت أول الأمر (آت) كما في مسلمات وفاضلات، وأصبحت (آن) قياساً على جمع المذكر في الآرامية وعلامته الياء والنون

وليست هذه العلامات قاصرة على المؤنث والجمع والمصدر، ولكنها تلحق الكلمات الدالة على أمور معنوية: مثل رحمة، ورأفة، وشفقة، وقسوة، وغلظة، وكرة، وحياة، وشقاوة، وسعادة وبلواء وبأساء وبغضاء، والعلامة هنا تدل على (شدة) ومتانة في المعنى كما يقول العلامة فنسنج ويقول أيضاً إنها تلحق المصغر لتفخيمه وتعظيمه مثل

حديا وعجيلي وحميا
يدلنا كل هذا على ما يأتي: -
أولاً: ليس للمؤنث علامة خاصة به من حيث كونه مؤنثاً باعتبار الجنس.
ثانياً: وجود صلة وثيقة بين المؤنث والجمع والمصدر والأسماء، الدالة على الكثرة والقوة والأمور المعنوية
ثالثاً: هذه الصلة هي دلالة الجمع على بلوغ النهاية وتركز الفكرة ومتانتها
رابعاً: وعلى هذا فالفكرة التي حدت بالساميين إلى تأنيث بعض الأسماء تأنيثاً حقيقياً أو غير حقيقي هي دلالة هذه الأسماء على بلوغ النهاية في بابها أو لعظمتها وما عليك إلا أن تقرأ صفحة من أحد معاجم اللغة في باب الهاء لترى ذلك واضحاً جلياً: فالقهقهة شدة الضحك، والكمه العمى يولد به الإنسان، والكنه جوهر الشيء وغايته، والكهة الناقة الضخمة المسنة العجوز. . . الخ
وسأبين في المقال الآتي إن شاء الله لماذا نظر الساميون هذه النظرة المملوءة إكباراً وتعظيماً للمؤنث.

عمر الدسوقي
بكالاريوس الشرف في الآداب من جامعة لندن
ومدرس بحلوان الثانوية

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي
1880 - 1937

للأستاذ محمد سعيد العريان

- 44 -

الخاتمة

مات الرافعي فانطوت صفحة من تاريخ الأدب في مصر وانقرض جيل من أدباء العربية كان له مذهب ومنهاج؛ ولكن الرافعي الذي مات وغيَّبْته الصفائح قد خلّف وراءه تراثاً من الذكريات والآثار الفنية ستتعاقب أجيال قبل أن يفرغ الأدباء من دراستها والحديث عنها؛ وإنها لذكريات تثير في كل نفس ما تثير من عوامل الكره أو المحبة، وإنها لآثار . .

أما هذه الذكريات، على ما تبعث في نفوس طائفة من الأدباء من معاني الغضب أو معاني الرضا، فقد أثبتّ منها في هذه الفصول ما قدرت عليه؛ وليس يعنيني ما تترك من أثر في نفس قارئها، إذ كانت غايتي التي أحرص عليها هي جلاء هذا التاريخ لقراء العربية كما أجد صورته في نفسي وأثره في وجداني، متجرداً ما استطعت من غلبة الهوى وسلطان العاطفة وتحكم الرأي؛ لأضع بين يدي كل قارئ - اليوم أو غداً - المادة التي تعينه على الدرس والحكم والموازنة
وأما آثاره الأدبية فقد فصَّلت الحديث عن بعضها في بعض ما سبق من هذه الفصول، وإلى القارئ جملتها مرتبةً على التاريخ الزمني:

1 - ديوان الرافعي: ثلاثة أجزاء، صدرت بين سنتي 1903 و 1906، وقدم لكل جزء منها بمقدمة في معاني الشعر تدل على مذهبه ونهجه، وهي مذيلة بشرح يُنسب إلى أخيه المرحوم محمد كامل الرافعي وهو من إنشاء المترجم نفسه
2 - ديوان النظرات: جزءان، صدر بين سنتي 1906 و 1908
3 - ملكة الإنشاء: كتاب مدرسي يحتوي على نماذج أدبية من إنشائه، أعدّ أكثر موضوعاته وتهيأ لإصداره في سنة 1907، ونشر منه بعض نماذج في ديوان النظرات، ثم صرفَته شئون ما عن تنفيذ فكرته فأغفله، وقد ضاعت (أصوله) فلم يبق منه إلا النماذج المطبوعة في ديوان النظرات
4 - تاريخ آداب العرب: صدر في سنة 1911 بسبب من إنشاء الجامعة المصرية، ويراه أكثر الأدباء كتابَ الرافعي الذي لا يعرفونه إلا به
5 - إعجاز القرآن: وهو الجزء الثاني من تاريخ آداب العرب، طُبع ثلاث مرات، آخراها في سنة 1926 على نفقة المغفور له الملك فؤاد
6 - حديث القمر: أول ما أصدر الرافعي في أدب الإنشاء، وهو أسلوب رمزي في

الحب تغلب عليه الصنعة، أنشأه بعد رحلته إلى لبنان في سنة 1912، حيث التقى لأول مرة بالآنسة الأديبة (م. ي) فكان بينهما ما كان مما أجملت الحديث عنه في بعض الفصول من قصة حبه

7 - المساكين: فصول في بعض المعاني الإنسانية ألهمه إياه بعض ما كان في مصر من أثر الحرب العامة أنشأه في سنة 1917

8 - نشيد سعد باشا زغلول: كتّيب صغير عن نشيده: (اسلمي يا مصر!) الذي أهداه إلى المرحوم سعد زغلول في سنة 1923، طبع المطبعة السلفية بالقاهرة؛ وأكثر ما في الكتاب من المقالات هو من إنشاء الرافعي أو إملائه

9 - النشيد الوطني المصري: (إلى العلا. . .) ضبط ألحانه الموسيقية، الموسيقار المشهور منصور عوض

10 - رسائل الأحزان: كتاب أنشأه في سنة 1924 يتحدث فيه عن شيء مما كان بينه وبين فلانة، على شكل رسائل يزعم أنها من صديق ببثّه ذات صدره

11 - السحاب الأحمر: هو الجزء الثاني من قصة حب فلانة، أو الطور الثاني من أطواره بعد القطيعة، صدر بعد رسائل الأحزان بأشهر

12 - المعركة تحت راية القرآن: هو كتاب (الجديد والقيم) وفيه قصة ما كان بينه وبين الدكتور طه حسين بمناسبة كتابه (في الشعر الجاهلي)، صدر في سنة 1926

13 - على السفود: قصة الرافعي والعقاد، نشرته مجلة العصور في عهد منشئها الأول الأستاذ إسماعيل مظهر، ولم تذكر اسم مؤلفه ورمزت إليه بكلمة (إمام من أئمة الأدب
العربي)

14 - أوراق الورد: الجزء الأخير من قصة حبه، يقوم على رسائل في فلسفة الجمال والحب أنشأها ليصور حالا من حاله فيما كان بينه وبين فلانة، ومما كان بينه وبين صديقته الأولى صاحبة حديث القمر

- وتعتبر كتبه الأربعة: حديث القمر، ورسائل الأحزان، والسحاب الأحمر، وأوراق الورد وحدة يتمم بعضها بعضاً، لأنها جميعاً تنبع من معين واحد وترمي إلى هدف واحد وإن اختلفت أساليبها ومذاهبها

15 - ؟؟؟: كتاب لا أسميه، أنشأه في صيف سنة 1935، استجابة لرأي صديقه فلان وإليه ينسب!

16 - وحي القلم: مجموع مقالاته في الرسالة بين سنتي 1934 و1936 إلى مقالات أخرى، طُبع منه جزءان

وله عدا ذلك كتب لم تطبع أهمها ما يأتي:

1 - الجزء الثالث من تاريخ آداب العرب: تام التأليف والتصنيف تقريباً

2 - أسرار الإعجاز: فيه فصول تامة التأليف، وفصول أخرى أجمل فكرتها في كلمات على ورق أو أشار إلى مصادرها، وكان الرافعي يعتدّ بهذا الكتاب اعتداداً كبيراً، وهو جدير بذلك حقاً؛ وقد أطلعني - رحمه الله - على فصول منه، كما تحدث إليّ من نهجه في تأليفه، وأذكر أن نهجه فيه كما يأتي:

أ - يتحدث في صدر الكتاب عن البلاغة العربية، فيردها إلى أصول غير الأصول التي اصطلح عليها علماؤها منذ كانت، ويضع لها قواعد جديدة وأصولاً أخرى

ب - ويتحدث في الفصل الثاني عن بلاغة القرآن وأسرار إعجازه، مسترشداً في ذلك بما قدم في الفصل السابق من قواعد

ج - ويتناول في الفصل الأخير من الكتاب، آيات من القرآن على أسلوب من التفسير يبين سر إعجازها في اللفظ والمعنى والفكرة العامة؛ ويعتبر هذا الفصل الأخير هو صلب الكتاب وأساسه؛ وقد أتم الكتابة - إلى آخر يوم كنت معه - عن بضع وثمانين آية على هذا النسق؛ وقد نشر منها في الرسالة بضع آيات مفسرة على ذلك النهج، جعلها في بعض
أقاصيصه

3 - ديوان أغاني الشعب: وهو ديوان من الشعر جعل فيه لكل جماعة أو طائفة من طوائف الشعب نشيداً أو أغنية عربية تنطق بخواطرها وتعبر عن أمانيها؛ وقد أنجز الرافعي طائفة كبيرة من هذه الأغاني نشر بعضها وما يزال سائرها بين أوراقه الخاصة

ومؤلفاته التي لم تنشر. وأكثر الأغاني في هذا الديوان مأنوس اللفظ رشيق المعنى مما يجعل وقعه في النفس ويخف جرسه على الأذن.

4 - الجزء الثالث من وحي القلم؛ وفيه سائر المقالات التي كتبها، سواء منها ما نشر في الرسالة وغيرها من المجلات والصحف، وما لم ينشر من قبل

5 - الجزء الأخير من الديوان: وهو مجموعة كبيرة من شعره بين سنتي 1908 و 1937، بما فيه من شعر الحب، والمدائح الملكية التي أنشأها للمغفور له الملك فؤاد هذا إلى شتيت من المقالات والرسائل الأدبية أنشأها لمناسباتها ومنها كثيرة من مقدمات الكتب المطبوعة، بعضها منسوب إليه وبعضها منحول مجهول النسب!

وعلى كثرة ما ألف الرافعي وأنشأ من الكتب والرسائل والمقالات والشعر، فانك لا تكاد تجد كتاباً من كتب الرافعي في دكان من دكادين الوراقين، اللهم إلا نسخاً من كتاب وحي القلم في مكتبة لجنة التأليف والترجمة والنشر، التي طبعته قبل نعي مؤلفه بأشهر

أما المطبوع من سائر الكتب فقد نفذ من السوق، وأما غير المطبوع منها فما يزال ورقات وقصاصات على مكتبه، وإني لأخشى أن يمضى وقت طويل قبل أن نتنبه إلى ضرورة العناية بهذه المؤلفات التي خلفها الرافعي ورقات مخطوطة يكاد يبليها الإهمال والنسيان أو يسبق إليها العث والقوارض

ولدى الدكتور محمد الرافعي مشروع لأحياء تراث أبيه، لست أدري أيجد الوسائل لتنفيذه أم تحول دونه الحوائل وتمنع منه الضرورات!

على أني أكاد أومن بأن هذه ليست هي الوسيلة للمحافظة على تراث الرافعي؛ فليس من الوفاء للرافعي وحسن الرعية لأولاده أن نحمل عليهم هذا العبء وما انتفعوا من أبيهم بأكثر مما انتفع كل أديب وكل مسلم وكل عربي في مصر وغيرها من بلاد العربية

هل عرفت الحكومة المصرية أو عرف الأدباء في مصر ما عليهم لأسرة الرافعي من حق

قبل أن نحمل عليها هذا العبء إلى ما تنوء به من أعباء؟ إنه عقوق وكفر وإنكار للجميل!

(شبرا)

محمد سعيد العريان

من رحلة الشتاء

في مضارب شمر

أكبر بيت من الشعر في الجزيرة (موزوبتيميا)

للآنسة زينب الحكيم

زرت جملة من بيوت البدو عاليها ومتوسطها وفقيرها. فوجدتها كلها تتحد في نوعية النسيج التي صنعت منه، وفي النظم التي اتبعت في إقامتها منذ القدم

أما الفروق التي بينها، فمن حيث الحجم وازدياد الأثاث، وإن محتويات تلك الديار بسيطة ساذجة بوجه عام، ولا تشمل إلا أهم الأدوات الضرورية للحياة المتقشفة. على أن من أكبرها وأعمرها وأكثرها تحضراً، دار ملك البادية شيخ مشايخ شمر

زرت هذه الدار، فإذا بها دار طويلة عريضة، متينة الأوتاد قوية الحبال، مهفهفة الجوانب. كلها من نسيج صوف الأغنام والجمال، على شكل دهليز طويل مقسم إلى حجر، وهذا التقسيم إما بالنسيج أو بالحصير (السمار)، وأرضها مفروشة بالأكلمة أو بالسجاد العجمي الجميل أو بالحصير؛ ويتبع هذه الدار على مسافة قريبة جدا منها دور أخرى، منها ما يختص بالمطبخ أو بالمخازن الخ

وصف الحجرة التي استقبلتني السيدات فيها

خباء من الشعر في أحد أطراف الدار عن يمين الداخل إليها طالما تخيلناه وتمنينا رؤيته، وضع في الجهة اليسرى منه نوع من السرير العريض، عليه فراش وثير مغطى بغطاء من الحرير الخالص الملون. وإلى جانبه (شلت) زرابي مبثوثة على الأرض المغطاة بالسجاد العجمي، وتحت السرير حقائب وصناديق، تبنت فيما بعد أن بها ملابس وحليا، وحلوى تقدم للزائرات

كانت السيدة الأولى التي استقبلتني ابنة الشيخ عجيل الياور، وهي فتاة رائعة الحسن:

لون خمري جميل، وخد أسيل، ولحظ كحيل، ووجه مستدير عليه وشم قليل. إذا تكلمت فكأنما صوتها موسيقى الجنة العذبة قد انبعثت إلى عالمنا، دلال في وقار كالنسيم إذا سرى، وكالزهر إذا تمايل

اسمها ملك وهي ملك حقا، تفيض رقة إذا حودثت، وتذوب عاطفة إذا استلهمت، حياء في غير تعمل، وشمم في غير تكبر. عرفتني بعدد من زوجات أبيها وأخيها، كلهن كحيلات الطرف أو متكحلات، يغطي الوشم الأخضر أجزاء من وجوهم وأجسامهن، فمنهن من غطى كل ذقنها برسومه، أو زججت حاجبيها به، ومنهن من وشمت شفتها بحيث لا تظهر حمرتهما، وإنما اندمج لون الوشم مع لون الشفاه فصار اللون أخضر داكنا. وبعضهن طرزن قبب أعينهن برسوم غريبة، هذا والحناء تخضب أناملهن وأكفهن وكعوبهن

أما (ملك) فكانت في زينتها وأناقتها تفوقهن جميعاً رقة ودقة وملاحة

سألتها كيف تمضي أوقاتها، فقالت إنها لا تعمل شيئاً (هذا لأنها ابنة ملك البادية بالضرورة) قلت: ولكن ألا تضجرين؟ قالت: بلى، ولكن هنا ماكينة خياطة أخيط عليها أحياناً. قلت: وهل تقرئين وتكتبين؟ قالت في غضاضة وألم: لا، إنهم لم يعلموني. قلت: وهل لك شقيقات؟ قالت: لا، أنا وحيدة. قلت: إذن تفضلي معي إلى مصر وأكون أختا لك والدار دارك أنت. توهجت وجنتاها بالدم العربي النقي ولمعت عيناها، وانحبست أنفاسها، ثم قالت في حرارة: لا يسمحون (تعني أباها وأخاها) قلت: قد يسمحان، قالت: قولي لهما

وفعلاً سألت أخاها (لأن والدها كان قد سافر إلى بغداد) إذا كان مما يتمشى وتقاليدهم أن تسافر البنت إلى بغداد أو إلى مصر مثلاً، فقال: هذا ضد نظام العشائر. فسألته لماذا لا تتزوج (ملك) فقال: هي لا تريد، ومن جهة أخرى حتى يتيسر من يناسب مقامها (فهمت من سياق الحديث أن الزواج هناك يجري على أساس سياسي بحيث تصير بعده مصاهرات صداقة واكتساب قوة للعشيرة)

الملابس

أعجبت بثياب تلك البدوية، فعزمت على أن أرتدي زياً كاملا منها حتى أصوَّر به. وأسرعت فأخرجت من صندوق تحت السرير، ثوبين من الحرير أحدهما أحمر والآخر أخضر، باردان طويلة واسعة. فارتديت هذين الواحد فوق الآخر

ثم ارتديت معطفاً من الجوخ الثمين يقارب طول الثوبين، وردنه طويل واسع مفتوح إلى نصف الذراع، ثم ارتديت معطفاً ثانياً من الجوخ أيضاً أقصر من الأول وعلى نظامه فيما عدا ذلك، وهما مزركشان بتطريز جميل. ووضعت على رأسي نوعين من الغطاء، أحدهما

رفيع والآخر سميك، وحليت معصمي بجملة من الأساور الذهبية، ووضعت على رأسي حليات ذهبية، وعلق في شعري قرب أذني مثلثين من الذهب الخالص المطعم بالأحجار الكريمة، لا يقل الواحد منهما عن نصف رطل

وطوقت جيدي بطوق من الذهب في إحدى أطرافه حلية ذهبية دقيقة الصنع جميلة المنظر جداً. وفوق هذا كله ارتديت العباءة الصوفية الشفافة، ثم العباءة الصوفية الثقيلة التي تستعمل في الشتاء

شعرت أني مشلولة الحركة، ثقيلة الخطى، لا أستطيع التنفس، عكس ما تتمتع به صديقتي (ملك) البدوية التي تمتاز بخفة الحركة ورقتها. والإنسان ابن العادة

الطعام الذي تناولته في مضارب شمر

من أهم ما كنت أرقب مشاهدته، تناول الطعام على الطريقة البدوية في البادية، ولما كان وصولي إلى مضارب الشيخ عجيل الياور بعد الظهر، فانهم بالضرورة لم يعزموا عليّ بتقديم الغداء، ولا ينبغي أن نتصور أن أهل البادية يستطيعون إعداد طعام بالسرعة التي يؤدي بها هذا العمل في الحضر

ويصعب جداً على نفس البدوي أن يظهر بغير المظهر اللائق به، لا سيما أمام الزوار الأجانب، أو أبناء العشائر الأخرى

وقد قدّم لنا الشيخ الشاي الحار اللذيذ مع اللبن على طريقتنا نحن، فكان أول فنجان من الشاي استسغت طعمه من مدة طويلة، وقدم معه أنواعاً من البسكوت الجاف الأفرنجي

العشاء
وفي المساء حوالي الثامنة، دعينا إلى تناول العشاء في خيمة بيضاء كبيرة أقيمت في وسطها مائدة أنيقة الترتيب إفرنجية. وكان الندل من العرب النجدين السود البشرة، يقدم ألوان الطعام على أحدث نظام، قلت: يا حضرة الشيخ، ما لهذه النظم والقيود أتينا. قال: في الصباح تأكلون على الطريقة البدوية. قلت: ولكننا نسافر في الصباح الباكر، قال: لا، بل تبقون ثلاثة أيام على الأقل، قلت: شكراً، ولكن وقتنا محدود، فقال: إذا يكون الرحيل بعد الظهر
وجاء الصباح، وجلسنا حول مائدة الإفطار، وكانت أيضاً على أحدث نظام أوربي أنيق؛ فقلت: حقاً لقد خسرنا القضية في هذه الرحلة يا حضرة الشيخ، قال: لا، الغداء سيكون بدوياً فلا تخافي، وحقاً لقد كان
الغداء البدوي
انتشرنا بعد تناول طعام الفطور في البادية نستجلي مباهجها، ونستكشف أزهارها، ونجمع أنواعها الغريبة، ونبحث عن الكمأة (الكمه) - وهي نوع من الفطر يوجد تحت الأرض، يشبه البطاطس، ولا ورق له ولا فروع - يستعملها البدو كنوع من الخضار يطهى مثل البطاطس. وتجفف منه كميات كبيرة لفصل الصيف المجدب
عند الساعة الثانية عشرة ظهراً دعينا لركوب السيارات، وإذا بها تسير بنا من حيث خيام الشيخ إلى قلب البادية، فقطعنا نحو عشرة أميال على بساط سندسي جميل على أرض مستوية ثابتة، حتى وصلنا مجرى ماء بجري في مساحة طويلة وسط البادية (كونته سيول الأمطار الغزيرة) وهناك وجدنا عبيد الشيخ، قد فرشوا سجادة عجمية نفيسة حمراء اللون، قرب مجرى الماء. ووضعت صينية كبيرة فضية وعليها حَمَل محمر، ومعه أرز الزعفران المزخرف بالكشمش (أي الزبيب)
قال الشيخ: هكذا يكون أكل البدو، وضرب بيمناه في الأرز المحشى به الحمل، وأخذ منه كمية طيبة إلى فمه، ثم بدأ يوزع علينا من اللحم الشهي. فكانت أكله بدوية بحته، بين مظاهر الطبيعة الخلابا، والنفوس العربية الكريمة والأيدي السخية
تفضل الشيخ فسمح لي باستخدام صحن خاص أضع فيه الكمية التي أستطيع أكلها، وما كدت انتهى منها حتى أمر الندل أن يضع لي كمية أخرى، وما أرى وقد حمل المغرفة وملأها بالأرز وفتات اللحم، وينوي وضعها في صحن، فقلت له: لا أريد مزيداً، أشكرك، فظل ممسكا المغرفة بيده الممدودة نحوي وقال: ولكنه أمرني (يعنى أن سيده قال له ضع طعاماً للسيدة) ومن سلوكه وتوخيه تنفيذ أمر شيخه المطاع، شعرت ضمناً أنه يقول (من لم يمت بالسيف مات بغيره)، وكبشة الندل كانت (غيره) على التحقيق ما أشد إصرار البدوي، وما أقوى عزمه فقلت: حسن أطع أمر الشيخ بارك الله فيك. فوضع ما بالمغرفة في صحن وصار جذلاً
بعد أن تناولنا الفاكهة، وغسلنا أيدينا بالماء الدافئ والصابون، انطلقنا للصيد. وكانت محاولات الرماة كلها غير صائبة، ما عدا الشيخ صفوك الياور، فقد رأى ثلاثة من طير الحباري الكبيرة، فقال: لأرمينها ونحن في السيارة، أسرع يا سائق ولا تتوقف أبداً أو تبطئ. وهاهو ذا يصيب طائرين من الثلاثة، حملنا واحداً منها معنا هدية لأصدقائنا في أربل، فإن هذا الطير لذيذ الطعم بعد الطهي
وبذلك انتهت زيارتنا للبادية مع شديد الأسف
(للحديث بقية)
زينب الحكيم
طاقة أفكار
للأديب محمد فهمي
إن أبطال التاريخ هم أفرادٌ متحمسون للمُثُل العليا إلى درجة الجنون. ومجنونٌ واحد من هذا النوع في مصر يغير مجرى تاريخها. . .
الثقة الهائلة بالنفس والإيمان بها إلى غير حدهما مفتاح العظمة.
ثلاثة لا يصح أن يطلبها في الحياة عاقل: الراحة السعادة. الوفاء.
لقد عاد الغرب إلى الوثنية، ومعبودة تمثال من الذهب على صورة المرأة.
يُخَيَّل إلي أن كل ما يقوله الفلاسفة والحكماء عن الحقيقة كذب صراح ليس بينه وبين الحقيقة أية صلة، والدليل على ذلك أنهم منذ آلاف السنين للآن لم يتفقوا على رأي

في تعريفها، وحتى آراء الشخص الواحد وحكمته تتغير وتتبدل حسب حالاته النفسية وانفعاله بالبيئة ثم هي لا تثبت كلما تمادت به السن. أما الحقيقة (إذ كانت حقا هناك) فما زالت بِكراً محجبة ما دَخل خدرها مغرم!

لو فهم الفنان الحياة لما صار فنانا.

ينظر الفنان إلى الناس وكأنهم أشباح تعيش في عالم الوهم والخيال وينظر الناس إلى الفنان كأنه طيف بشر يعيش في عالم أوهامه وخيالاته. . .

لولا نصفنا الأسفل لصرنا ملائكة.

ابحثوا عن النفوس الشريفة بين المغمورين.

يصعد البارزون في الحياة والمجتمع عندنا على جثث صرعى المثل العليا.

إذا عشقت الحياة وضحيت في سبيلها بكل شيء غمرتك بالرضا وهناء العاشقين. وأما إذا ازدريتها ومضيت صاعداً نحو (المثل الأعلى) عدوها اللدود جردت خنجرها وطعنتك من الخلف. فإذا أصابتك قتلتك وإذا أخطأتك صرت معبود الملايين. فإذا بها تسعى إليك ذليلة خاضعة تتمرغ عند قدمي معبودها الجبار ولكن حذار أن تصغي لتوسلاتها، إنها تضمر لك الانتقام الهائل المروع. فإذا انخدعت هوت بك من حالق فإذا أنت سخرية الملايين!

الطمع رأس الفضائل كلها، والنفوس الشريفة تحققه بالوسائل الشريفة فيكون طموحاً والنفوس الدنيئة تسعى إليه بدنيء الوسائل.

الطمع هو الذي يقود الإنسانية إلى الأمام. فالطموح إلى السيطرة والطمع في امتلاك الشرق والغرب هو الذي قاد الاسكندر من مقدونيا إلى الهند - فامتزجت ثقافات وولدت ثقافات. وهو الذي قاد قيصر إلى أوربا حتى بريطانيا (إنجلترا) فنشر لواء الحضارة الرومانية بين البرابرة. وهو الذي قاد ويقود الأوربيين في مشارق الأرض ومغاربها ومسيرَّ ويسير الحضارة والإنسانية إلى الأمام

القناعة داء الشرق العضال فمن لي بطبيب يداوي هذا العليل؟!

لأن تكون كل فضائل القناعة والزهد في الحياة فأنت أبعد الناس عن الفضيلة؛ فان المشهورين بالقناعة والزهد من السلف الصالح وأبطال الإسلام كانوا على قناعتهم أكبر الطامعين في ثواب الله ورضائه، ومن أجل هذا قاموا بأعمال جليلة من الفتوحات والغزوات. وهم في هذا يتفقون ورجال الغرب الذين قادهم طمعهم في السيطرة والجاه إلى التحكم في أمم الشرق ولا فرق غير أن طمع الأولين كان في نعيم آجل، وطمع الأوربيين في نعيم عاجل

ما يتعلمه الشيخ من الشاب هو تجاهل الأمر الواقع في طلب المثل الأعلى وازدرائه المستحيل

أقارن بين الشباب والشيوخ فأرى كفة الأولين أرجح، فالشباب يفتقرون إلى الحنكة وخبرة الحياة وهذا ما سَيُكْتَسب بطول العمر. أما الشيوخ فينقصهم الحماس والثقة التي لا حد لها وهذا ما فقدوه إلى الأبد

الحياة كالمرأة، لكي تنال رضاها يجب أن تفعل من أجلها كل شيء

الكبر في الرجل زراية وفي المرأة وقاية

إذا رأى الثور مظاهرة من الجماهير تهتف بطلب الحرية والاستقلال - ظن أنهم جائعون يطلبون العلف والشعير وهكذا لا يعرف الجاهل من الحياة إلا أنها أكل وشرب:

آه. ما اسهل أن ينصح الإنسان غيره ولكن ما اصعب أن يعمل هو بهذه النصائح:

الوفاء. والشرف. الأمانة. فضائل يكثر التحدث بشأنها والتحسر عليها والنعي على المجتمع لإغفاله أمرها، وما ذلك إلا لأن هؤلاء الذين يتحسرون عليها لا يذكرونها إلا إذا كانوا هم في حاجة لأن يعاملهم بها الآخرون، أما عندما تطالبهم هذه الفضائل بالعمل بها فانهم

يشيحون عنها بوجوههم ثم ينسون أن غيرهم لا يفعلون إلا مثل ما فعلوا

الحب شيطان جميل

قل لمن يطلبون الراحة في الحياة. مهلاً فإنها تنتظركم ولسوف تملونها. . . هناك في القبر

(القاهرة)

محمد فهمي

رد على باحث فاضل
بين الغرب والشرق
للدكتور إسماعيل أحمد أدهم

تتبعت في شيء غير قليل من الإمعان والتدبر ما كتبه (باحث فاضل) على صفحات (الرسالة) أخيراً تحت عنوان (بين الشرق والغرب) تعليقاً على ما جاء في المقالين الأول والثاني من مقالاتي في الردّ على ما أثاره صديقنا الأديب النابغة (فليكس فارس) من اعتراضات استمدها مما قاله في مناظرة جرت له معنا منذ عام أو أكثر، وذلك في صلب مقال نشرته له (الرسالة) وجهها لفنان مصر (توفيق الحكيم) بمناسبة ما كتبه عن الشرق والغرب في قصته (عصفور من الشرق).

وقد راعني من كتابة باحثنا الفاضل تخبطه في أمور لا أعتقد أن لها سبباً غير ضعف كفاية التأمل والقياس العلمي عند الجيل الحاضر من كتابه العربية، فقد انساق باحثنا إلى مواقف ما كان ليقفها لو كان التأمل والقياس عنده اكتملت أسسهما من المنطق العلمي. والمسألة بعد لم تخرج بيني وبين باحثنا المفضال عما كان بيني وبين الصديق (فليكس فارس)، خصوصاً وأن الكثير من أجزاء مقال الباحث مقتعلة من المادة التي جابهنا بها مناظرنا (فليكس فارس)، والتي كانت مقالاتنا في (الرسالة) بياناً مفصلاً لزيفها، وأنها لا تثبت لكي تقف على قدميها لترجح رأياً. لأنها تحمل في طياتها أدلة ضعفها. وبعد فباحثنا الفاضل حاول أن يكون في كتابته منطقياً على قدر الإمكان، فجاء في الشطر الأول من تعليقه بكلام يرد فيها كلامنا إلى أصولها الأولى وخطوطها الأساسية، ويفصل فيها برأي عنده، هو الحد الفاصل على ما يرى بين اعتقاد له في الشرق واعتقاد لنا في الغرب.

والمسألة لم تخرج عن كونها قضية إن احتلت الجدل من ناحية المنطق الشكلي من حيث هو إدارة الكلام في صور من الأقيسة لإثبات وجهة من النظر معينة، إلا أنها من ناحية الواقع لا تحتمل الجدل؛ ذلك أنها أولية من الأوليات التي تنزل من مواضعات فكرنا الحديث من حيث لقح بالمنطق العلمي. ونحن في ردنا على ما أثاره باحثنا الفاضل من اعتراضات ظنها تقوِّمُ وجهة نظر في تفاضل الشرق على الغرب، فإننا نرجو أن نفصل الكلام بعد في موضوع الغرب والشرق موجهين البحث إلى وجهه الصحيح بعد أن تشعب
وطال باعتراضات استلزمت ردوداً منا وكلاماً.

وأول شيء ننظر فيه مع باحثنا المفضال في أساس المفاضلة وهل تقوم على أس من شطر العالم إلى شرق وغرب كما هو في تقويم البلدان. أما باحثنا فهو يرى هذا، فلكل من الشرق والغرب عنده عادات وطبائع تباين الأخر، ولقد اتسع مدى هذا التباين حتى ألبس العقلية في كل منها مظهراً خاصاً تميزت به عن الآخر.) ونحن من جهتنا نتفق إلى حد ما مع مفهوم هذا الكلام، ولكن نقطة الافتراق أننا نرى طابع العقلية الإنسانية كان يتأثر في كل من الغرب والشرق في عصور التاريخ بمد وجزر العقليتين الشرقية والغربية في حالة جزر، ويقابل ذلك مد من جهة العقلية الشرقية فان عوالم من الغرب كانت تدخل في منطقة المد الشرقي تتأثر بطابع العقلية الشرقية، وأحياناً كان يحدث العكس. إذا فيجب أن نكون محتاطين في قبول الأساس الجغرافي تقسيم العالم إلى شرق وغرب. لأن الشرق كان يمتد في بعض عصور التاريخ فيشمل بقاعاً من العالم الغربي، كان يصل إلى سفوح جبال البرانس بأسبانيا وسلسلة جبال الكرابات والطونة في البلقان ولمبارديا في إيطاليا، كما أنه كان يتقلص في بعض العصور فينسحب إلى الصحراء العربية في الشرق الأدنى والصحراء الكبرى في أفريقيا. وهذه مسائل ملحوظة من التاريخ لا تحتاج إلى بيان، فمن هنا يتضح أن كلامنا عن التفرقة بين الشرق والغرب إلى ما يمكن له من طابع للغرب وطابع للشرق أدق ما يمكن أساساً لبحث الفروق الكائنة بين طبيعة العقل الشرقي وطبيعة العقل الغربي. والموضوع بعد ذلك راجع لمفهوم الشرق والغرب من علم تقويم البلدان، ولكن بالصورة القاطعة التي تستخلص من التحديد الجغرافي الصرف، وإنما على وجه مرن يتفق والواقع الملموس.

وبعد فيتبين أن ما حار فيه باحثنا الفاضل في تحديد لفظي الشرق والغرب من كلامنا واضح ليس فيه موضع للبس أو غموض أو إبهام. أما أنه يرى بعد هذا كله كلمتي

الشرق والغرب مجهولتا المعنى والتحديد في كلامنا، فلسنا نرى لكلامه هذا وجهاً. وهو الذي بعد أن انتهى من تلخيص رأينا في طبيعة العقلية الغربية وطبيعة الذهنية الشرقية ذهب يقول: (إلى هنا أحسن الكاتب صنعاً - يعني بذلك دراستنا لطبيعة العقلين الشرقي والغربي - ولو أنه لم يتعد مدلول هذا، يعني بذلك أننا لو وقفنا عند هذا الحد ولم نعمل على كسب تحليلاتنا العقلية صفة الشعبيات لكان بحثه (بحق) أوفى ما يكتب في بحث مظاهر العقليات) ولسنا نعرف كيف يتفق رأيه في اعتبار بحثنا أو فيما يكتب بحق في بحث مظاهر العقليات من حيث تتناول الفروق الكائنة بين طبيعة العقل الشرقي والعقل الغربي مع قوله إن مفهومي الشرق والغرب بقيا مجهولي المعنى في كلامنا. . .

إذن لنا أن نصرف النظر عن هذا الكلام الذي يخترمه التناقض والاضطراب، ولننظر فيما يعيبه علينا من إكسابنا العقليات مظهر الصفات الشعبية، فهو يرى أن ليس ثمة فرق أساسي بين طبيعة العقليات جميعها. وعلى هذا فالصور الذهنية لكل شعب - عنده - قد يغلب أن تكون مرآة للشكل المتكون من تفاعل خصائص ذلك الشعب التاريخية مع البيئة. وباحثنا المفضال في رأيه هذا يفترق عنا عند نقطة أساسية، ذلك أننا نرى أن هنالك فروقاً بين عقليات الشعوب، فطبيعة العقل الألماني غير طبيعة العقل الفرنسي، وطبيعة العقلين الألماني والفرنسي غيرها بالنسبة لطبيعة العقل الإنجليزي. ذلك أن طبيعة عقل شعب ما ليست سوى خصائص ذلك الشعب منعكسة من مرآة نفسه. . .، وطبيعة عقل الشعب يتلون بها العلم تلونا كبيراً ذلك بحكم أن العلم نتاج ذو شكل خاص للعقل الإنساني، وهذه حقيقة تنكشف لمن يتعمق في المسائل العلمية الصرفة. وأنا شخصيا بحكم اختصاصي في العلم الرياضي لي أن أتكلم عن هذه الفروق في مادة تخصصي، وكل ما لي الآن أن أفعله هو أن أنقل لباحثنا المفضال بعض السطور من كتابنا (الفيزيقا والرياضة والمنطق) الذي نشره غوستاف م. فيشر عام 1930 بالألمانية عن ليزيغ ويتا، وذلك عن الصفحة 218 فقد جاء هنالك ما ترجمته:

(إن التمايلين اللذين نلمسهما في علم الرياضة، من حيث رجوع أحدهما بوتيرة سير الاستدلال الرياضي للحدس والآخر للمنطق - مرده ما هنالك من فروق بين طبيعة الذهن الألماني من الجهة الأولى والذهن الفرنسي من الجهة الأخرى.)

وقد جاء في هامش كتابنا هذا تعليق على هذه الفقرة ننقله كما هو مترجماً للعربية:

(أما قطب أن التمايلين الأساسين في علم الرياضة راجع لطبيعة العقلين الألماني والفرنسي وما بينها من فروق فذلك حقيقة أولية لا يتنازع عليها، غير أنه يجب أن نلاحظ أن هنالك من الرياضيين في ألمانيا من تأثر بالعقلية الفرنسية وطابعها الخاص، أذكر من هؤلاء شيخ المدرسة التحليلية في الرياضة جوتفريد ويلهلم لينبتز، فقد كان المذكور تلميذاً لديكارت، وكانت عقليته عقلية فرنسية صرفة. أما في فرنسا فهناك قد تأثروا بطرائق العقلية الألمانية نذكر منهم البروفسور شارل هيرميت من دهاقنه العلم الرياضي البحت في القرن التاسع عشر، والمسألة بعد ذلك راجعة في العموم إلى طبيعة العقلين وخصائصهما.)

وإني لأذكر أنني منذ مدة لا تتجاوز ربيعاً واحداً من عامنا هذا كنت في زيارة الصديق حسين فوزي في مكتبه بإدارة الأبحاث الألمانية، وكان على مكتبه بضعة أعداد من مجلة (نيتشز) الجديدة وفي أحدها وقفت على مقال لعالم ألماني كبير على ما أذكر هو رئيس لمعهد ويلهلم للبحث العلمي يقرر فيه أثر الدم السامي في العلوم الوضعية، وأنه يجنح إلى صور يمليها من الخيال على العلم فتعرقل سير العلم الصحيح. وهذا كلام إن لم نتفق مع صاحبنا عليه في تفاصيله فلا يمكننا أن ننكر أن فيه من وجهة عامة عنصراً من الحق، أتى من جهة التجريد الذي هو طبيعة الذهن السامي.

إذا صح هذا، من أن العقليات تكتسب الصفة الشعبية كثيراً على عكس ما ذهب إليه باحثنا الفاضل في تعقيبه على ما كتبناه سقط كل ما أقامه على هذا الوجه من آراء وبعد فللباحث المفضال سقطات استوجبها عدم تعمقه في مدلول عباراتنا والنظر إلى ما وراء ألفاظها الظاهرة، فهو يتساءل قائلاً: متى بدأ الإنسان يتحسس الخالق في شر مخلوقاته، أهو الشرقي مصريا كان أو آشوريا أو كلدانيا أو عربيا أم بدأ به اليونان

والرومان والسكسون؟ والسؤال على هذا الوجه لا معنى له بالنسبة لنا، لأن الأصل فيه تحسس الخالق بآثاره في مخلوقاته، فالخالق هنا أصل والمخلوقات أو الطبيعة فرع. ونحن نقدر أن مثل هذا النظر كان من خصائص العقل الشرقي!. . وليتأمل بعد موضع كلامه باحثنا المفضال!. . .

غير أن السؤال لو وضع في صيغة أخرى تتفق مع نظرة العقلية الغربية للأشياء لكانت إفادته: متى بدأ الإنسان النظر في الطبيعة؟ ومتى انتهى من نظرته هذه إلى الخالق؟ أهو الغربي أم الشرقي نظر على الوجه؟ فان السؤال يستقيم له إجابته من أن مثل هذه النظرة من خصائص العقلية الغربية

والواقع أن باحثنا الفاضل يلزمنا عسيراً مثل هذه الاعتراضات ووجه العسر أنها تضطرنا

أن نعيد القول ونكرره ونتكلم في الأوليات

ووجه آخر من أوجه اعتراضات الكاتب، ذلك قوله: إذا كان الشرقي قد أدخل العنصر الروحي في تقدير المعاملات بين الناس فهل يتنافى ذلك مع العقل السليم؟ وهل يتهم بعد ذلك بأنه قاصر؟

لا. . . أيها الباحث! ولكن قبل كل شيء يجب أن تنتبه إلى هذه الحقيقة وهو أننا لم نقل إن الشرقي يدخل عنصراً روحيا بين الأشياء حتى تنحلنا هذا الرأي، وكل ما قلناه إن الشرقي يدخل العنصر الغيبي في الأشياء لأن نظرته غيبية فجعلتها أنت العنصر الروحي. . .! وشتان بين العنصرين، وأين كلامك من كلامي هذا. . .

ثم مسألة أخرى. . . قلنا إن الغرب اتجاهه في النظر للأشياء البدء من العالم المنظور، أعني عالم الطبيعة، وهو ينتهي منه إلى العالم غير المنظور إن كان هنالك ثمة وجه لمثل هذا الانتهاء. ولكن باحثنا الفاضل يتساءل متى بدأت هذه العقلية في الغرب بحثها عن الخالق عن طريق الطبيعة، وهو يجيب أن الشرق هو الذي سبق الغرب بمثل هذا الاتجاه، وما كان الغرب إلا مقلداً لها ومتأثراً بها وبأسبابها. وهذا وهم عريق في الخطأ، وناحية الخطأ أن الباحث الفاضل توهم أن معنى النظر في العالم المنظور والبدء منه أن ينتهي منه الإنسان للعالم غير المنظور. والمسألة لم تخرج عن أن صاحبنا ينظر لكلامي من ناحية عقليته الشرقية وهنا موضع الداء في كلامه

(البقية في العدد القادم)

إسماعيل أحمد أدهم

التاريخ في سير أبطاله

ابراهام لنكولن

هدية الأحراج إلى عالم المدنية

للأستاذ محمود الخفيف

يا شباب الوادي! خذوا معاني العظمة في نسقها الأعلى من سيرة هذا العصامي العظيم. . . . . .

وكان على الرئيس ورجال حكومته بعد قرار التحرير أن يبذلوا غاية جهدهم ليضعوا حداً لتلك الحرب، فان انتصار أهل الجنوب معناه القضاء على كل شيء، فبه تصبح الحرية مجرد أمنية وتصير الوحدة ضرباً من الوهم. . .

ولقد انقضت تلك السنة الثانية للحرب والجنوبيون أرجح كفه، ففيها أرغم ماكليلان كما رأينا على التراجع وكان من رتشمند عاصمة الجنوب على بضعه أميال، وفيها حلت الهزيمة بالقائد بوب وهو يدافع عن طريق العاصمة الشمالية، وكذلك انتصر الجنوبيون في الميادين الغربية؛ ولقد كان مرد تلك الانتصارات إلى كفاية قوادهم وحسن نظام جنودهم. . .

وفي نهاية تلك السنة حل محل ماكليلان في قيادة الجيش المرابط على نهر بوتوماك، في طريق العاصمة، قائد آخر هو بيرنشيد؛ ولقد برهن هذا القائد الجديد على كفايته في بعض الأعمال الحربية من قبل، ولذلك اتجهت الأنظار إليه في مركزه الجديد، وراح أهل الشمال يعلقون الآمال على تغيير القيادة، أن كان قد ألقى في روعهم أن ما حل بهم من الهزائم فيما سلف إنما يرجع إلى سوء تدبير ماكليلان. . .

ولكن في الجيش عدد كبير من الجند قد آلمهم أن يفارقهم قائدهم أو أن يحال بينهم

وبينه على هذا النحو، لذلك لم يحسنوا لقاء القائد الجديد أو لم يشعروا تحت رايته بما كانوا يشعرون تحت راية ماكليلان من حماسة

وزحف القائد الجديد على رأس جيش ليحتل فردريك سبرج على الضفة الأخرى للنهر، حيث كان يرابط لي قائد الجنوب العظيم؛ ووقف القائد الشمالي تجاه خصمه يفصل بينهما نهر يوتوماك، وقف ينتظر أن توافيه هناك تلك المعابر المتنقلة التي لا بد له منها ليعبر النهر ولكن المعابر وصلته متأخرة فاستطاع خصمه القوي أن يحصن المرتفعات حول المكان، فلما أخذ يعبر النهر هو وجنوده انصبت عليهم النيران الحامية من كل صوب، ونظر القائد فإذا كثير من جنده حوله صرعى لا يقل قتلاهم عن الجرحى، فكان لا بد أن يتراجع وكانت هزيمة جديدة تضاف إلى سلسلة الهزائم في ذلك العام المشئوم. . .

وحمل الجرحى إلى وشنجطون فضاقت بهم المستشفيات حتى لقد حول عدد كبير من الكنائس وغيرها من الأبنية إلى أمكنة للجرحى، وطافت النذر بالمدينة، وانعقدت في جوها سحب الغم مركومة سوداء، وأخذت الناس غاشية من الحزن ورجفة من الذعر زاغت لهما الأبصار وبلغت القلوب الحناجر. . .

وأخذت الأنظار تتجه إلى البيت الأبيض وليس فيها من معاني الأمل بقدر ما فيها من معاني اللوم والغيظ، وكأنما كانت ترف من حوله أرواح القتلى فتلبسه كآبه وتشيع فيه ما يكرب النفوس ويؤلم الصدر. . .

وأخذ يظهر في العاصمة حزب جديد ترمي أغراضه إلى وضع حد لهذه الحرب بأية وسيلة، وألفى الرئيس نفسه بين تيارين، فهنا من ينادون بوضع حد لتلك المحنة، وهنا من يطلبون إعادة ماكليلان إلى القيادة والسير في الحرب ولكن في سرعة وحمية وإقدام، وغير هؤلاء وهؤلاء قوم يطالبون بتغير القواد والبحث عن وسائل جديدة تكفل النجاح، وقوم آخرون خيل إليهم أن الفرصة قد سنحت لهم لإعلان رأيهم في مسألة تحرير العبيد وكان رأيهم ألا يمس ذلك النظام بما يغير من أصوله. . .

وترامى إلى الناس فضلا عن مزعجات الحرب وشائعاتها أن المجلس التشريعي منقسم بعضه على بعض، وأن مجلس الوزراء نفسه قد شاع الخلاف بين أعضائه، ورأى الناس مما يشاع ويذاع أنهم على حافة الكارثة. . .

ولكن السنديانة ثابتة على رغم العاصفة لا تنال الريح العاتية شيئاً من ثبوت أصلها وسموق فرعها. أو لم يك في الغابة منبتها وكان فيها غذاؤها وريها؟. . . أجل، إن رجلا واحدا هو

الذي بقي أمام هذه الشدة رابط الجأش صارم العزم قوي الإيمان، وذلك هو الرجل الذي ألقت عليه الأقدار عبء قومه دون غيره من الرجال فكانت كأنما اختارته عن بينة مما تبيت وتدبر!

وقف ابراهام عزيزاً لا يهون، صلبا لا يلين، بصيرا لا يطيش حلمه، أميناً لا يخون العهد الذي قطعه على نفسه، مؤمنا لن يقعد حتى يتم رسالته أو يموت. . . وكان موقف الرئيس هذا هو كل ما بقي للقضية من عناصر القوة. . . ولكن أية قوة لعمري هي أعظم وأبقى من تلك القوة؟ ألا أن الظروف التي بالغت في قسوتها على الاتحاد وأنصاره قد عوضتهم من جهة أخرى خير العوض بأن جعلت على رأسهم ذلك الرجل العظيم. . .

وليت شعري ماذا كان عسيا أن يحدث من أول الأمر لو لم يكن على رأس البلاد هذا الذي درج من بين أدغالها؟ بل ماذا كان عسيا أن يحدث في هذه الآونة الدقيقة التي لم يكن للبلاد فيها من عاصم إلا الصبر كأعظم ما يكون الصبر؟ وأي صبر هو أشد وأبلغ من صبر ذلك الطود الراسخ الأشم؟

وكان من قواد الحرب يومئذ قائد يدعى هوكر وهو في المرتبة الثانية من بعد بيرتسيد، راح في ذلك الوقت يذيع في الجند أن البلاد أشد ما تكون حاجة إلى ديكتاتور يقضي على المنازعات ويرغم الأحزاب أن تحبس هذرها وتدفن خلافها، وأن الجيش لن يقوده إلى النصر إلا مثل ذلك الرجل الذي يقبض بيد قوية على أزمة الأمور في الدولة وفي الميادين جميعاً!. . . ولقد ذاعت أفكار هوكر حتى لقد اجترأ ضابط كبير أن يعلن (أن الجيش وعلى رأسه ماك الصغير يستطيع أن يطهر المجلس التشريعي والبيت الأبيض). . . قالها من غير تحرج وإن كان قد ألقي القبض عليه من أجلها. . .

وكتب لنكولن إلى هوكر يعاتبه على ما يذيع من أفكار ويحذره العاقبة ويعينه قائداً لجيش بوتوماك، ومما جاء في خطابه قوله: (إنك لن تستطيع أنت ولا نابليون - إذا قدر له أن يبعث - أن ترجع بخير من جيش هذه هي روحه. . . ألا حذار من التعجل، حذار من التعجل، ولكن أقدم في نشاط وحمية لا تخبو واكسب لنا النصر)

انتهى العام الثاني بهذه الحرب الهائلة، وقد لاقى الشماليون ما لاقوا من الهزائم، ولقي الرئيس من عنت الظروف والرجال ما لاقى، وحل العام الثالث فلقي الرئيس في مستهله

وفود المهنئين بالعام الجديد وباليوم الذي يحل فيه موعد التحرير، والرئيس مشغول بالحرب وما تتطلب من الرجال والمال. . . وهاهو ذا يعلق الآمال على ما عسى أن يفعل هوكر ويسأل ترى ماذا سيكون نصيب القضية في هذا العام

وزار الرئيس ميدان القتال على نهر بوتوماك وقضى هناك أسبوعاً يشرف بنفسه على الجيش ثم عاد إلى العاصمة يمني نفسه بالعوز الذي يضع حداً لهذا القلق الذي تزايد حتى عم الرجال جميعاً

وتحرك جيش بوتوماك في إبريل من تلك السنة ولكنه ما لبث أن هزم هزيمة منكرة في شانزلورزفيل، بعد أن أبلى في المعركة بلاء حسناً أول الأمر. . . ثم انقطعت أخبار الجيش عن العاصمة بعد الهزيمة حتى بات الناس في حيرة شديدة. . . ورضي لنكولن من الغنيمة بالإياب، فكان يمني نفسه أن يعود الجيش إلى موقفه الأول فيمنع الطريق إلى العاصمة. . . وأخيراً وصلته رسالة من القيادة أن الجيش قد عاد إلى موضعه، ولقد تسلمها الرئيس وقرأها فتندت جفونه، وهو يقول لمن حوله من أصحابه: ماذا عسى أن يقول الشعب؟ ماذا عسى أن يقول الشعب؟ واشتد به الغم حتى ما يفلح كلام في الترفيه عنه. . .

وركب الرئيس وجماعة من صحبه زورقاً بخارياً إلى حيث يرابط الجيش، فاستطلع واستفهم القائد عن سبب الهزيمة ثم رجع إلى المدينة وقد عقد النية على أمر. . . أعلن الرئيس ما يشبه الأحكام العرفية، فحد من حرية الصحافة ومن حرية القول، وأنذر من يعمل على عرقلة قضية الاتحاد أنه سوف يقدم إلى المحاكم العسكرية لتنظر في أمره، ولم يعبأ الرئيس فيما فعل بالنقد الشديد يوجه إليه من كل جانب، فلقد كان مستنداً إلى أحكام الدستور الذي يخول له أن يتخذ عند الخطر ما تتطلبه مصالح البلاد من الأحكام

وحل الورق محل الذهب والفضة في المعاملة إذ كانت الحكومة في حاجة إلى المال لتنفق منه على هذه الحرب الضروس، ولقد التجأت من أجلها إلى القرض. . . وعمت الضائقة حتى شملت الناس جميعاً وهكذا ظهر للناس أن هذا العام الجديد أشد هلعاً مما سبقه

ولكن هذه الشدة لم تأت بالغرض منها، لقد وجد أعداء الحرب وأعداء القضية فيها فرصة لنشر آرائهم، وسرعان ما تألفت في نواح كثيرة من البلاد جمعيات سرية تعمل على مقاومة الرئيس وحكومته بكل ما يمكن من الوسائل

وجهر فريق من ذوي الرأي والمكانة بمقاومتهم هذه السياسة ومن هؤلاء وَلندنجهام وهو نائب عن أهايو في المجلس التشريعي. . ولقد أخذ هذا الرجل يعمل في نشاط وقوة على معارضة كل مشروع في المجلس يراد به نصرة قضية الحرب، وفي خارج المجلس راح يطلق لسانه في الرئيس بكل فاحش من القول فتارة يسميه (الملك لنكولن) وتارة يسخر من ذلك الرجل الذي يريد (أن يخلق الحب بالقوة، وأن ينمي شعور الإخاء بالحرب) وتطرف ذات مرة فهتف بسقوطه في مجتمع احتشد فيه عدد من الديمقراطيين الذين أعجبوا به

وكان برنسيد يقود الجيش في الجهات التي تقع فيها أهايو مدينة ذلك النائب، ولقد أعلن القائد أن كل شخص يعمل ضد الحرب وقضية الاتحاد جزاؤه أن يقدم إلى محكمة عسكرية لينال عقابه على يديها. . . ورد وَلندجهام على هذا بخطاب حماسي احتشد الناس في تلك الولاية لسماعه ودعا الناس إلى رفض هذا القرار وعصيانه؛ ولم يسع القائد إلا أن يقبض عليه ويسوقه إلى المحكمة العسكرية فقضت بحبسه في أحد الحصون هناك. . .

وارتفعت الأصوات بالاحتجاج على هذا الفعل الذي يتجلى فيه خنق الحرية، فغير

لنكولن حكم الحبس بالنفي إلى خارج مناطق النفوذ الشمالي، وأرسل ذلك النائب المتمرد إلى الولايات الجنوبية في حراسة نفر من الجند
تكاثفت السحب واكفهر الجو، ولم يعد يرى الناس بصيصاً من نور الأمل، فيئسوا من النصر، وتحرجت الأمور حتى ما يعرف لنكولن نفسه ماذا يفعل!. . . ألا هل من قائد يكسب معركة واحدة فيعيد الرجاء إلى النفوس، والأمن إلى الخواطر، والعزم إلى القلوب؟
إن هزيمة الشماليين في شانسلو رزفيل كانت أقسى ما لاقوا من المحن، حتى لقد عد مايو وهو الشهر الذي وقعت فيه الهزيمة شر الأيام هولا في تاريخ تلك الحرب الأهلية الكبيرة. . . ولقد كانت خسائر الشماليين في تلك المعركة بعد ما ذاقوا من الهزائم من قبل، مما يثبط الهمم ويحل العزائم بينما خرج منها الجنوبيون ولم يخسروا كثيراً اللهم إلا إذا ذكرنا خسارتهم الفادحة بموت قائدهم جاكسون الذي خر صريعاً من رصاصة طائشة أصابته من يد أحد جنوده. . .
هاهو ذا الرئيس يفكر ويدور بعينه يتلمس القائد الذي يفلح مسعاه بعد أن خابت مساعي القواد. . . ألا من له بهذا القائد؟ من له بهذا القائد؟. . . ولكن أين جرانت؟ أنه هو الرجل،
وإن قلب الرئيس ليلتفت إليه في هذه المحنة كأنما يلتفت من إلهام. لقد برهن جرانت على كفايته في بعض المواقع وإن لم تكن بذات بال، وحسبه النصر فيها على أي حال، ولعله لا يتخلف عنه النصر إذا ألقيت على عاتقه القيادة في غيرها من المعارك الكبيرة. . . لقد استطاع أن يستولي على حصني هنري ودونلسن على نهر المسيسبي في فبراير من عام 1862 سنة الكروب والهزائم واستطاع كذلك أن يحمل الجنوبيين في أبريل على التراجع في معركة حامية حدثت في أبريل من تلك السنة
وكان الرئيس لا يعرف جرانت معرفة شخصية، ولكن هاتيك الانتصارات في أوقات عز فيها النصر تنم عن كفاية، وتدل على بطولة، وإن عين الرئيس البصيرة لتستشف من وراء تلك الأخبار الرجل المرجو. . . وإذا فليرسل الرئيس إليه وليعطه الراية ولينتظر النصر على يديه
ولكن بعض الرجال يلقى إلى الرئيس من أنباء ذلك الرجل أنه بابنة العنقود مولع حتى ما يفيق منها إلا قليلا، فاستمع إلى الرئيس وقد هداه قلبه الذي لا يكذبه ودلته بصيرته التي لا تخطئه، استمع إليه يقول لهؤلاء الناس (أرجو أن تدلوني: أي نوع من أنواع الويسكي يشرب ذلك الرجل لأرسل منه دنا لكل قائد من قوادي الآخرين)!
أيقن الرئيس أن سوف تنقشع السحب ويتنفس الناس الصعداء، فلئن لم يكن لهم إلا ثقتهم في رجلهم، لقد امتدت عيناه البصيرتان إلى القائد الذي يكون في ميادين القتال مثل ابراهام في البيت الأبيض، رشيدا لا يزوغ بصره، قويا لا يكل عزمه، ثابتا لا يخف حلمه، حكيما يعرف ما يأخذ مما يدع، جريئا مؤمنا يرى الحياة الحقيقية في أن يموت في سبيل مبدئه. . .
(يتبع)
الخفيف
خطوات في الحياة والموت
عند رؤية جمجمة
للأستاذ عبد الرحمن شكري
رحيقك يا كأسَ النهى والمشاعر ... ومهبط سر الله بين السرائر
أكأس الحجا أين الرحيقُ تَرَشفتْ ... علالاته نَشْوَى النهى والبصائر
أجُرِّعَةُ ثغر من الموت ظامئ ... طوى ما طوى من فطنة وخواطر
حوتها عوادي الدهر إلا أقلها ... إذا خُطَّ لفظ في بطون الدفاتر
بدا الناس جيلاً بعد جيل كأنهم ... تَهَاوِيلُ سِحْرٍ أو سمادير ناظر
وما تُدْرِكُ الألباب منهم عديدهم ... إذا استجمعتهم بين ماضٍ وحاضر
كأنْ لم يَلُحْ منهم إذا الموت غالهم ... ومَيض الثنايا أو بكاءُ المحاجر
ولم يعرفوا الآلام تُحْسَبُ أنها ... ستَخْلدُ في جسم إلى الموت صائر
فأين مضت أحقاد قوم كأنها ... لهيب جَحِيمٍ خَالِدٍ في السرائر
وأين ولوع بالجمال كأنه ... زعيم بتخليد الوجوه النواضر

وأين فِعَالٌ يحسب الناس أنها ... على جبهة الأيام من وشم قادر
وأين جيوشٌ دَكَّتِ الأرضَ خَيْلهَا ... مضت حيث لا تمضى خواطر شاعر
وأين الغزاة الفاتحون وقد بدوا ... كما تبعث الأشْبَاحَ نفثةُ ساحر
فهل أنتِ ممن قد جنته سيوفهم ... وداسته خيل تحتها بالحوافر
أم ازدان تاج قد لبست بحكمة ... بها اسْطَعْتِ تصريف الصروف الدوائر
وهل أنتِ مِمَّنْ دَبَّرَ الشرَّ لبُّهُ ... وأحكم زَهْوُ النفس جَرَّ الجرائر
أم الخير ما حنت إليه نوازع ... لديك وإن لم تحتقب خير غادر
لقد كنتِ وكر اللب لو أن عادياً ... من الموت لم يهبط عليك بكاسر
بِكِ ارتاع مسعود إذا ارتاح يائس ... بذكرى الردى يرجو عُلاَلَةَ صابر
قد اختلف الأقوام في العيش والردى ... فَمِنْ ظافر يهوى الحياة وخاسر
هنيئاً لكل ما يرى من عُلاَلَةِ ... بحسن حياةٍ أو بنجوى المقابر
وما عَلَّلَتْ نفسُ الفتى بِمنَيَّة ... ستطوى هموم العيش طي الدساكر
سوى رغبة في العيش يرهب صرفه ... فيعدو على البُؤْسَى بذكرى الغوابر
بذكرى الحتوف الجاليات على الورى ... من الراحة الكبرى أجَلَّ البشائر
عبد الرحمن شكري

الليل

للأديب حسن حبشي

أيُّها الَّليْلُ: أيُّها الكاهِنُ الصَّا ... مِتُ من فَجْرِ عُمْركَ الوَسْنَانِ
نَشَأتْ في ضِلال صَمْتِك أحْلاَ ... مي فكانَتْ كالزَّنبَقِ الغَيْسَانِ
وَاكتَسَتْ مِنْ جَلاَلِ رَوْعَتكَ الكُبرى ... تَهَاويل حُسْنِهَا الفَتَّانِ
وَتَبَدَّتْ كغَادَةٍ نَسَجَ الحُسْ ... نُ لَها تَاجَ رِقَّةٍ وَحَنَانِ
شاَعَ في النَّفْس نورُها، وَمَحَا لاَ ... لاَؤُهَا ظُلمَةَ الفؤادِ العَاني
أتُرُاهَا يَدُ المَسيحِ أزَالَتْ ... كلَّ يأسٍ مِنْ خاطِري المدْجَانِ؟
كم سُكُونٍ يَفُوحُ بالعطرِ رَفْافاً ... وبالشَّرْ والهوَى الرَّيَّانِ
ولكَمْ فِيكَ نَغْمة رَقَصَ القَلْبُ ... لها هَاتِفاً بشَتَّى المعَاني
أتُرَى هَذِهِ النّجُومُ نوافيسٌ ... بمِحْرَابِ أفْقِكَ الفتَّانِ
من بنَاهُ وَشَعْشَعَ النُّوُرَ فيه ... سَاحِرَ الحُسنِ فِتْنَةَ الأذْهَانِ
أيَّهذا الظَّلاَمُ يا أفُقُ العُمْ ... رِ، وَيا مَعْبَدَ الأمَاني الحِسَانِ
إنمَّاَ أنْتَ هَيْكَلٌ جَثَمَ الظَّنَّ ... عَلَى بَابِهِ جَهُول البيَانِ
لم تَطَأى قدْس أرضهِ أو تَجُبْهُ ... غَيْرُ أوْهَام شاعِرٍ فَتَّانِ
نَظَمَ الحُبْ والجَمال نِشيداً ... وَقَّعَتْهُ يَدُ الهَوَى في الأغَاني
وتغَنَّى يا لَيْلُ في صَمْتِكَ المُشْ ... جِي طَروباً بمِسْكرِ الألْحانِ
بَعْدَ مَا حَطَّمَتْ هَوَاهُ المَنَايا ... وَرَمَتْهُ بكالحِاتِ الأماني
وِطَوِى صَفْحَة الشَّبابِ على كُرْ ... هٍ، وأغْضَى على شَبَاةِ السَّنانِ
حسن حبشي

إلى صاحبة السمو الأميرة فريال

بسمة المنى

للأستاذ إبراهيم مأمون

يا ابنةَ التاج مِنْ أبيك مثالٌ ... هو في الصَّيد مَضربُ الأمثال
هو وحيُ السماء في نهضة الدي ... ن نمتهْ جلائلُ الأعمال
عصم الشعبَ من نيوب العوادي ... وأعزَّ الحمى بالاستقلال
ولدى مَهْدك الطهورِ رَءُومٌ ... هي غرس الندى ونَبْتُ الكمال
أنجبتك العُلا وظلَّك الطه ... رُ وما زلتِ في أعف ظلال
وغدت مصرفي رحابكِ فِرْدَوْ ... ساً لولدانها، وللأطفال
انظروا ضافيَ المبرَّة يمتدُّ ... فيكسو طفولةَ الأقلال!
فاض نور المِهاد حتى كساهم ... نضرةَ النور ضافي الأذيال
بين أيديهم الأمانيَّ تسعى ... في ثغور المنى وحسن المآل
خطروا أمس بالبلاد يطوفو ... ن ومن نورهم سنا الإجلال
فإذا مصرُ من سناهم نعيمٌ ... وإذا هم مطالعُ الإقبال

لو رأيت الجنانَ قلتَ هم الول ... دان، أو هم فرائدٌ وغوالِ
هبة الله للمليكْين (فريا ... لُ) فأنعمْ بما حَبَا ذو الجلال
يا ابنة التاج: خلف ركبك ركبٌ ... حوله الدهرُ والملوكُ مَوالي
فاملئي المُلْك مِنْ أريج المعالي ... واجعلي المهدَ غابةَ الأشبال
كتب الله أن يعزَّ بك الطه ... ر وتعتز صاحبات الحجال
نهض الدين بالفتاة قديماً ... وسقى الوائدينَ كاس النكال
فاحشري الدينَ في ظلالك يصط ... فِ وفي الدين أعظم استقبال
ربَّما كنتِ كالبتول مكاناً ... تضربينَ الأبطال بالأبطال
ربَّما كنتِ مريمَ ابنة عِمْرا ... ن تَحُلَّين فوق كل منال
حفصة الأمس سايرتْ أبويها ... ومشى الدين خلفها في احتفال
حفظتْ غرةَ الكتاب من الده ... ر وصانتْهُ من يَد الأهوال
والحميراء فيأتْنا نُهاها ... وأشاحتْ عن شِرعة الجهَّال
نِصْف دين السماء يُؤخذ عنها ... ومِن الله والنبيَّ أمالي!
أنتِ في الدين بينهن وفي الحر ... ب كجنْدرك في صفوف القِتال
قد حشدْنا لدى الزفاف الفراع ... ين وركب الملوك والأقيال
وسألتُ البيان ترديد ما قل ... ت فأغضى وما استجاب سؤالي
وإذا بي أجيل في مولد الطه ... ر قصيداً في غرة وتعالي
سوف ألقاه بالقصيدة حَفيا ... فوق ما تعهدُ اللّغى من الأقوال
والبيان الموهوب لا يعرف العو ... نَ، ولا ملجأ إلى التسآل
أنا لا أعرف الخواطر تنسا ... ب سواء ولا اتفاق المقال
ربَّما تجمع السباقَ المذاكي ... ولكلٍّ ميزاته في المجال!
ربما يعرض الأديب أديباً ... فتراه كناحت التمثال
والدراري وإن نظُمْنَ عقود ... مَيزَتهنَّ قدرة اللآل
والقوافي إذا اتحدن بحوراً ... ضل فيهن سابح الأوشال
فتياتِ البلاد قد بسم الده ... ر وزالت فوادح الأغلال
هذه مصر ترتجيكنّ للمج ... د وحمل اللواء غير أوال
إيه تَبَّتْن للحنيف لواءً ... وأنِرْنَ الطريق بالأعمال
واستَعِدْن التاريخ في صحف الغي ... ب كما كان في السنين الخوالي
تلك (فريال) في التقى فتمشي ... ن إليها عليَّ تُقىً واعتدال
واتخذْن الكتاب في نهضة الشر ... ق دليلاً تُزِلْنَ كل اعتدال
يا مَليكَيْ كنانة الله في الكو ... ن رسا الملك في أصول الجبال
فاهنآ تهنأ البلاد بفريا ... ل مدى العمر في السنين الطوال
طلعتْ مطلع الجلال على الشر ... ق فكانت لمصر أيمنَ فَال

إبراهيم مأمون
البريد الأدبي

أحمد زكي باشا والرافعي

في المقال رقم 42 من مؤلف الأستاذ محمد سعيد العريان في (مصطفى صادق الرافعي) أن (زكي باشا (شيخ العروبة) كان على نية إعداد معجم لغوي كبير قبيل وفاته، وكان للرافعي في إنشاء هذا المعجم أثر ذو بال، وفيه فصول كتبها الرافعي بتمامها وأعدها للإمضاء)

والذي أعرفه حق المعرفة، للصلة التي كانت بيني وبين احمد زكي رحمه الله، أن ذلك المعجم كان مجموعة من الجزازات على الطريقة الإفرنجية، وهي الطريقة التي حذقها احمد زكي دون غيره من أهل اللغة عندنا فيما أعلم. وقد اتفق لي غير مرة أن أنظر في هذه الجزازات فكانت من خط أحمد زكي أو من خط كاتبه الخاص. هذا وقد وقع لي أن أطلع على مسودات القليل المدون من هذا المعجم، فإذا الخط خط احمد زكي. ذلك ما اعرفه وربما غابت عني أشياء، أو ربما كان احمد زكي يستشير الرافعي كما كان يستشير غيره من المشتغلين باللغة، وليس في ذلك مغمز.

أما حديث المقالات التي كان يكتبها الرافعي يمدح فيها نفسه ثم يستدرج احمد زكي إلى توقيعها فمن الغريب أن يعدها الأستاذ العريان مما انتحله احمد زكي وهو تأليف

الرافعي.
والحقيقة أن هذه المقالات مما أراد الرافعي، لسبب في نفسه، أن ينسبه إلى احمد زكي.
ب. ف
الأستاذ محمد محمود باشا
قال صاحب المقام الرفيع الأستاذ محمد محمود باشا رئيس الوزراء في خطبته الغراء في الإسكندرية: (نحن الآن نجتاز (أوقاتٍ) ملأى بالأحداث والعبر). وصاحب المقامات المشهورة أبو محمد الحريري في (ملحمة الأعراب) يقول:
وكل ما كثر في الجموع ... كالأسْد والأبيات والربوع
فهْو نظير الفرد في الأعراب ... فاسمع مقالي، واتبع صوابي
وقال الناظم في الشرح: (وفي جمع التكسير ما يوجد في آخره ألف وتاء فيتوهم المبتدئ أنه من قبيل جمع المؤنث السالم الذي لا تفتح تاؤه في النصب، وذلك مثل أبيات وأقوات
(وأموات فهذه الجموع الثلاثة من نوع جمع التكسير ويدخل تاءها النصب
الأستاذ محمد محمود باشا من الفصحاء المعربين إذا خطب. وكان الشاعر العظيم (أحمد شوقي) يقول لي: (إنه من المشغوفين بالعربية) لغة آبائه الكرام العرب، وقد صادق الأستاذ الرئيس - ولم يعاد كدأب كثير من عمال السلطان - كتب اللغة والأدب.
والكبير المشهور تقلده الناس مخطئاً ومصيباً؛ ومن أجل ذلك كتبنا هذه الأسطر القارئ
دار العلوم وكلية اللغة العربية
حضرة الأستاذ الكبير صاحب الرسالة الكريمة.
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.
قرأت - بإعجاب يمازجه الشكر - ما كتب تحت العنوان الآنف، في عدد الرسالة رقم 281، وشاركني في عرفان هذا الجميل كل أزهري.
وقد أتاح لي إعلانَ هذا الشكر ما كتبه حضرة (ع. ح. خ) في العدد (283) رداً على الكلمة السالفة، إذ أورد حضرته شبهات ليس من الخير أن تمضي بلا جواب.
يرى حضرته أن محاولة المنافسة بين المعهدين آتية من جهة الأزهر؛ وأنه ليس من المساواة الحقيقية أن يعين الأزهريون في وظائف التدريس بالمدارس، دون أن يعين أبناء دار العلوم في وظائف التدريس بالأزهر؛ وأن أبناء دار العلوم أجدر بتدريس العلوم الحديثة، والأزهر يوليها سواهم؛ وأن دار العلوم في عهدها الجديد تنفرد من بين جميع معاهد التعليم بدراسة اللغات الأجنبية والسامية وآدابها، إلى جانب الدراسة المستفيضة للغة العربية وأدبها، دراسة تبرئها من الجمود؛ وأن دار العلوم تنشأ في كنف الوزارة وعلى عينها. الخ.
وأكبر الظن أن حضرة (ع. ح. خ) هذا لا يمت إلى دار العلوم بنسب قريب؛ إذ لو كان من صميم أبناء الدار الكريمة لعرف أن في مختلف المعاهد الدينية: الابتدائية والثانوية، عدداً ليس بالقليل من أبناءها، يعرفون من حسن زمالة إخوانهم الأزهريين ما ينكره حضرته، ويشاركونهم فيما لهم وما عليهم، إلا في الرواتب، فان حظ أبناء الدار منها أسعد. وإذا كان
حضرة الكاتب يريد بالعلوم الحديثة التي ذكر الجدارة بدراستها: العلوم والآداب، فجوابه عند حضرة صاحب العزة خالد بك حسنين ورجاله، لا عند الأزهريين الشيوخ.
فأما كلية اللغة العربية، فالدراسة فيها إلى رجال من الأزهر يتولون دراسة العلوم الأزهرية في كتبها القديمة، يزاملهم صفوة من خير رجال الدار، على رأسهم أستاذ الأساتيذ: أحمد بحاتي؛ ويتولون دراسة الإنشاء، وفقه اللغة، وأدب اللغة، للفرق العالية، ويشاركهم بعض من لا يذمون مشاركته من الأزهريين في الفرق الأخرى.
ويستأثر بالدراسة في تخصص التدريس رجال من أعضاء البعوث: أبناء دار العلوم وأبناء الجامعة، لا يشاركهم فيه أزهري واحد في كلتا سنتيه؛ وهم أنفسهم الذين يقومون على تمرين طلابه، وامتحانهم، وتخريجهم. فان لم يكن في كل أولئك ضمان لتبرئة الأدب من الجمود، فلا أبرأه الله إلى يوم القيامة. . . ولئن نامت عين الوزارة عن هذه الجهود المشتركة، إنها لنؤوم. . .

ولقد تجنى الكاتب على الأزهريين في رميهم بالتعدي ومحاولة المنافسة، كما بالغ في الآمال التي يبنيها على العهد الجديد لدار العلوم. ولو راجع ذاكرته، لذكر أن الاتفاق بين الأزهر والوزارة على حلول كلية اللغة محل دار العلوم بالتدريج، حديث مفروغ منه.
كما أنه لو رمى بنظره بعيداً للمح أن دار العلوم الحق تنقرض؛ وأن العهد الجديد سيميل بها عن مقامها الكريم إلى التعاليم الغربية الجامحة التي تباعد بين القديم الخالد، وبين ناشئة الأمة ورجال مستقبلها. ومن لنا بدار العلوم؟!!
عذيرك من خليلك من مراد ... أريد حياته، ويريد قتلي
وأما بعد، فان بين الأزهريين وبين الخلص من أبناء دار العلوم من الروابط والصلات ما لا يدفعه تهافت الواغلين، ونزوات الطائشين، من أبناء المعهدين: كلية اللغة العربية، ودار العلوم.
أزهري
حول المركزية في التأليف
قرأت في الرسالة بتوقيع (م. ا) نقداً لمناهج الأدب وتأليف الكتب للمدارس، فلا يسعني إلا
أن أصحح ما تورط فيه الكاتب من خطأ قد يكون تلقفه من أفواه الناس من غير أن يراجع الكتب قبل أن يخط حرفا.
ونحمد الله أن الحملة ليست موجهة إلى المادة العلمية في الكتب، وإنما هي راجعة إلى اشتراك المفتشين والمدرسين، ولكن ما ذكره الكاتب من أن بعض المفتشين اشترك باسمه في كتبنا فهو تجن وتحكم. ولو كان في الواسع أن أقول: كتب فلان وأرشده فلان، وحقق معه المراجع العلمية فلان، لندم كاتب الرسالة فيما خاض مع الخائضين
وأما كتاب السنة التوجيهية الذي ألفه اثنان من زملائنا في العام الماضي فهو واحد من الكتب التي اشتركنا فيها، وما دام الكاتب المقنع قد جار على الحقيقة وظلم الناس، فأنا مستعد أن أضع أمام عينيه في إدارة الرسالة نسخة قديمة ونسخة جديدة من التي اشتركنا فيها، وعليه أن يراجع الموضوعات موضوعا موضوعا القديم منها والحديث، وأنا واثق نه سيعود إلى ما كتب بالتصحيح إن كان يقصد وجه المصلحة العامة.
حسنين حسن مخلوف
المعاهد العلمية الإسلامية في الهند
جاء من عليكرة أن اللجنة العامة للمعارف في الهند اجتمعت في جامعة عليكرة الإسلامية للنظر في تنظيم التعليم في الهند. وقد بسط الدكتور راكز حسين للجمعية برنامجه الخاص بالتعليم وهو يلخص في أن تجعل الحكومة التعليم مجانياً وإجباريا في المدارس الابتدائية للأولاد لمدة ثمانية أعوام وللبنات لمدة ستة أعوام، وأن يفرق بين البنين والبنات في المدارس المشار إليها، وأن تكون لغة التدريس في كل مدرسة لغة المقاطعة التي تقع فيها المدرسة، وأن يتعلم التلميذ صنعه يدوية أو فنية، وأن ينشأ فرع لإخراج المعلمين من الطلبة المسلمين، وأن تساعد الحكومة المدارس الأهلية، وأن يكون التعليم الديني إجبارياً في المدارس
ومن أنباء كلكوتا أن رئيس وزراء البنغال السيد فضل الحق رأس حفلة افتتاح المدرسة الإسلامية العليا في كلكوتا، وقد ألقيت خطب ترحيب عديدة من مندوبي المدارس الإسلامية فرد رئيس الوزراء وقال: إن الضرورة كانت تقضي بفتح مدرسة لتعليم لغة الأوردو وأثنى
على الثقافة والأدب البنغالي. وتألف بعد ذلك موكب سار مع الوزير إلى باب المدرسة ففتحه السيد فضل الحق بمفتاح من الفضة
بين مصر ولبنان
حضر الأستاذ محمد عمر منيمنه مدير الكلية الشرعية على رأس بعثة الكلية لمصر؛ وقد وفق لأخذ قرار مجلس الأزهر الأعلى بمعادلة شهادة الكلية الشرعية الثانوية الأزهر، وأدخل خمسة طلاب في كليات التخصص في الأزهر، وثلاثة في دار العلوم العليا، وواحدا في جامعة فؤاد بكلية الآداب.
والأستاذ محمد عمر منيمنه مدير الكليات الشرعية يسعى لدى المراجع الرسمية لتكون الكلية الشرعية في بيروت مشمولة بالرعاية الملكية والمعاضدة السامية

. . .الخاصة فندعو له بالتوفيق

الإذاعة المدرسية وتفاهة المكافآت

أشرنا مراراً إلى الجهود الجبارة التي تبذل في جميع الممالك الغربية ولا سيما إنجلترا من أجل الإذاعة المدرسية؛ وأشرنا مراراً إلى الميزانية الضخمة التي تعدها إنجلترا سنويا لهذه الإذاعة ونحن هنا في حاجة إلى ستين إذاعة - لا غير - ثلاثون منها للمدارس الابتدائية والثلاثون الأخرى للمدارس الثانوية، وكلا الإذاعتين صالحتان لجميع السكان غير التلاميذ - فلو أن الوزارة جعلت مكافأة الإذاعة الواحدة جنيهين لكان المبلغ المطلوب لهذه الإذاعات الستين مائة وعشرين جنيها. . . ولكن وزارة المعارف تقول: لا لا! هذا المبلغ يرهقني! اجعلوا مكافأة الإذاعة الواحدة خمسين قرشاً فأدفع لكم عن الإذاعات الستين ثلاثين جنيها، وأنا لا يهمني أن تنفق إنجلترا على إذاعتها المدرسية تسعين ألف جنيه فإنها دولة غنية وهي تعني بالتربية الصحيحة أكثر مني! ومع ذلك فالوزارة تطمع في اشتراك كبار رجال التربية في الإذاعة المدرسية ولو بالمجان

بين الإسلام واليهودية

كتب إلينا الدكتور م. هـ. يقول: إن ما يبديه العالم الإسلامي اليوم من روح العداء لليهود يخالف تقاليد الإسلام. فقد ظل اليهود خلال القرون العصيبة آمنين في حمى المسلمين بالأندلس وتركية ومصر وسورية، وذلك لقوة الرابطة بين العرب واليهود في أصل الجنس وأصل الدين وأصل اللغة وأصل الموطن. وكان الأحرى بأبناء العم أن يعطفوا على السامية المضطهدة في بلاد الدكتاتوريات القائمة على عصبية الجنس واللون ومجافاة الإنسانية والدين. . .

ونحن نؤكد للدكتور م. هـ. أن ليس بين المسلمين واليهود إلا فلسطين. ونقصد باليهود هنا الصهيونيين الذين يريدون أن يجعلوا من فلسطين وطناً قومياً لهم على حساب العرب. أما اليهود المصريون والعراقيون وغيرهم ممن لا يدين بالصهيونية، ولا يساعد على هذه اللعبة الإنجليزية، فانهم يعيشون مع المسلمين في كل مكان على وفاق تام وأخوة شاملة

اللغة الأجنبية ومعلمو اللغة العربية

جاء في الأهرام بتاريخ 4 ديسمبر سنة 1938 تحت عنوان (تنفيذ خطة الإصلاح في معهد دار العلوم) أنه قد (استقر الرأي على إنشاء قسم لتعليم اللغات الأجنبية وآدابها لخريجي دار العلوم على أن تكون الدارسة ليلية. وسيذاع في الأيام القادمة بيان بأغراض هذا القسم ونظام الدراسة فيه، على أن يبدأ العمل فيه من منتصف الشهر الحاضر)

وهذا إصلاح جدير بالثناء يتقبله خريجو الدار بنفوس راضية مطمئنة متشوقة إلى الكمال، راغبة في الاستزادة من العلم. فاللغات الأجنبية الآن من أعظم مناهل الثقافة في العلوم والآداب؛ وهم شديدو الرغبة في ورود مناهلها، ولديهم الاستعداد للاستفادة منها، حتى تجدي عليهم في أدبهم ورسالتهم التي يودون أداءها على أحسن الوجوه وأكملها

ولكن ليس كافياً أن تفتتح الوزارة قسما لتعلم اللغات الأجنبية وآدابها، وتنادي المعلمين: هلموا إلى هذا القسم، فإذا هم إليه يوفضون، ومنه يستفيدون مادة جديدة؛ ثم إذا هم يصدرون عنه وقد حمدوا الورد والصدر، وروّوْا نفوسهم من معينه، وتحببوا رِيّا من نميره؛ وإذا هو اصبح طيب الأثر لديهم عظيم الجدوى على علمهم وأدبهم وصناعتهم

لا. ليس هذا كافياً، بل لا بد أن تنظر الوزارة إلى الموضوع من ناحية أخرى: تلك هي أنهم ينوءون الآن بعملهم، فلا يتوقع لهم أن يصلوا إلى الفائدة المرجوّة ما لم يجدوا الوقت فسيحاً يمكن لهم من إتقان عملهم الأصلي أولاً ومن التحصيل المثمر ثانياً إن المعلم الابتدائي مثلا يقوم بتدريس 24 حصة في الأسبوع؛ وقد يكون لديه عمل إضافي كمكتبة المدرسة، فيشغل نفسه بالتحضير والتدريس والتصحيح وغير ذلك من الأعمال الإضافية؛ ثم لا يجد وقتا للاستجمام وتجديد المعلومات والاطلاع على ما يجد من

البحوث؛ مع أنه كان أولى من غيره بالبحث والاطلاع والإنتاج؛ ولكن عمله الأصلي يأكل وقته ويلهيه عن العناية بشأن نفسه، بل يورثه الكلال والأسقام

كنا في لجنة امتحان لا نزيد على عشرة معلمين من خريجي دار العلوم؛ ولعل القارئ يأخذه العجب إذا علم أن ستة من هؤلاء كانوا على الطعام يتناولون أدوية تساعد على الهضم وتنظيم عمل المعدة وهم في سن تعد عند غيرهم سن الشباب؛ ولكن الذي خبر المهنة وأحس متاعبها يعجب كيف لا يصطحب العشرة جميعهم قارورات الدواء إلى مقر الامتحان!

إني لأعرف كثيراً من معلمي اللغة العربية أقبلوا على تعلم اللغة الإنجليزية حتى نالوا منها قسطا كبيرا جديرا بأن يفيدهم لو بقي في نفوسهم، وهيهات أن يبقى مع تتابع أعمالهم المرهقة

وهذا واحد منهم تعلم ستة اشهر بمدرسة أجنبية، وحصل من اللغة الإنجليزية في هذه المدة القصيرة ما لم يحصله التلميذ في ثلاث سنوات. أتدري ماذا من أمره بعد ذلك؟ لقد قضى سنة يتردد على أطباء العيون والمعدة والأسنان والمفاصل والأعصاب. أما ما عرفه فما لبث أن استحال ضبابا غائماً، ثم تصاعد بخاراً دائبا

إذا كانت الوزارة تعتزم الإصلاح حقا، فلتتخذ الوسيلة لذلك بتخفيف العبء عن معلمي اللغة العربية؛ ولتجعل أقسام اللغة الأجنبية في المدن الكبرى متعددة ليسهل على كل معلم أن يرد القسم القريب من مسكنه؛ حتى يحفظ وقته، ويحصل أكثر ما يستطاع ولا يجولّن بخاطر أحد أن المعلمين يرجون التخفيف بطرا وتجنبا. لا بل إن كل نقص في الكم يقابله تحسين وتجويد في الكيف. فلتسلك الوزارة السبيل القاصدة تحمد غبها وتجد خير النتائج إن شاء الله

مدرس

حول بيت للكميت بن زيد

قرأت في العدد 281 من مجلة (الرسالة) الكريمة ما كتبه الأستاذ البحاثة الشيخ عبد المتعال الصعيدي عن (الكميت بن زيد، شاعر العصر المرواني) وقد ورد في هذا الفصل بيت من هاشمية الكميت الميمية ذكر الأستاذ أن الشاعر قاله في بني هاشم وفي خصومهم بني مروان، ورواه على الوجه التالي:

ساسة لا كمن يرعى رعيةالنا ... س سواء ورعية الأنعام

وإذا ما رجع حضرته إلى هاشميات الكميت بتفسير أبي رياش أحمد بن إبراهيم القيسي المطبوعة في ليدن عام 1904م بعناية المستشرق جوزيف هوروفتس، رأى هذا البيت على وجهه الأصلي الصحيح كما نذكره:

ساسه لا كمن يرى رعية النا ... س سواء ورعية الأنعام

هذا ما أردت تبيانه وعرضه على الأستاذ الصعيدي عن طريق (الرسالة) الغراء والسلام. . .

(الأعظمية - بغداد)

(ص)

موقف مصر تجاه فكرة العروبة

تلقينا بعد الفراغ من طبع هذا العدد مقالا لصديقنا الأستاذ الجليل ساطع بك الحصري وجهه إلى الدكتور طه حسين بك رداً على ما جاء في الحديث المنسوب إليه في جريدة المكشوف البيروتية حول موقف مصر من فكره العروبة، فأرجأناه مضطرين إلى العدد المقبل

فرنسس برت بنج والحياة المدرسية

لخصنا للقراء آراء برنردشو وبريسنلي ومس دي موربير في المشاكل المدرسية التي استفتّهم فيها مجلة عالم المدرسين الإنجليزية، وقد نشرت المجلة في عددها الأخير رأي الأديب الكبير فرنسس برت بنج، وأهم ما ذكره الأستاذ هو أسفه على أنه بدأ تحصيله كبيراً وشكاً من ضعف حافظته، واعترف بما كان لترجمة الإنجيل الإنجليزية من الأثر العظيم في توجيهه الأدبي. . . ثم أنكر أثر مدرسية فيه. . . وإلى هنا يتفق أولئك الأدباء الأربعة في هذه النقطة. . . ولم يخصص كتاباً كان له فيه أثر يذكر، بل كانت كل الكتب لديه سواء، وذلك أنه كان يقرأ منهوماً لا يبقي على شيء ولا يفضل شيئاً على

شيء. . . ونحن نعلل ذلك بمزاجه الديني الفج، وإن يكن اليوم من أكبر الأدباء الإنجليز. . . وقد أوصى المدرسين أن ينموا قوة الملاحظة في تلاميذهم وأن يحببوا إليهم الحياة بكل ما فيها على أن يعرفوا حقائقها. . . ولم ينكر الجمع بين الجنسين في المدرسة إلى الرابعة عشر واستحسن التفريق بعد ذلك، فيكون برنردشو هو وحده لم ينكر الجمع بعد هذه السن مع أنه أكبر أدباء العالم الأحياء سنا. ونفي بنج ما يتهم به تلاميذ هذا العصر من الفظاظة والغرور ومحبة العيش على هامش الحياة. واستحسن أن يعمم التعليم الابتدائي لكل التلاميذ على أن يكون مرحلة أولى في تثقيفهم؛ وحبذ تعليم الخط على أن يكون مادة مستقلة؛ ثم أنكر أن يعلم التلاميذ المواد الجافة التي لا تصلها بالحياة العملية صلة المنفعة.

المسرح والسينما

الفرقة القومية

مديرها ولجنة القراءة

كلمة عن رواية طبيب المعجزات

أرجو ألا يداخل مدير الفرقة شك في تجنينا الشخصيات فيما نكتب، سواء أكان أصحابها من رجال الإدارة أو لجنة القراءة أو اللجنة العليا أو طائفة الممثلات والممثلين أو غيرهم، لأن لكل شخصية في نظرنا حرمة وكرامة، ولأننا جميعاً سنزول، أما الفرقة القومية للتمثيل فستبقى، لأنها في نظر الحكومة التي أنشأتها، وفي نظر النواب والشيوخ الذين يعتمدون ميزانيتها، وفي نظر الأدباء الذين يغارون عليها، مؤسسة أدبية لها خطرها في الثقافة العامة. فإذا كنا أهملنا اسم الأستاذ عضو لجنة القراءة الذي تحدث إلينا حديثه الشائق (؟) ونهمل أيضاً ذكر اسم حضرات الأساتذة الذين أدلوا إلينا بآرائهم؛ وإذا كنت تعمدت إخفاء أسمي الصريح عن القراء والاستعاضة عنه (بابن عساكر) فلكي أستبعد كل مظنة، وأنفي كل شبهة أو تأويل، ولأبرز قدر المستطاع رغبات الغيورين على الفرقة، الراغبين في حياتها حياة تتواءم ونهضتنا الأدبية، الوجلين أن يدب إليها سوس الهرم وهي في المهد، فتنالها الشيخوخة بعدوى من روح شيوخها القائمين عليها

هو ذا غرضنا بأوضح تعبير. فإذا طاب لمدير الفرقة - وهو وحده المسؤول عنها - ألا يحمل دعوتنا إياه رؤية خلايا الفساد تنتشر في جسم الفرقة، على محملها الصحيح، أو إذا أحب أن يغضب فيعمد إلى استدعاء محرر بإحدى المجلات كما فعل فيقول له في سياق الحديث: (لقد يصل بي الأمر إلى أن أعطل الفرقة وأقفل أبوابها وأقدم تقريراً إلى وزارة المعارف أقول فيه أن التجربة قد فشلت)

إذا طاب له ذلك فهو وشأنه، ولكننا نستبعد إقدامه على تنفيذ تلك الفكرة، فهي فضلاً عن أنها تثير الضحك، تهدم جميع ما بناه في سني حياته الأدبية. ثم هو يعلم جيداً أن وزارة المعارف لن توافقه على إلغاء الفرقة القومية بجرة قلم استرضاء لخاطر مديرها الموتور من تألب أدباء البلد وفنانيها عليه، وتفكههم في مجالسهم بتصرفاته الدالة على بُعده عن فن

الرواية والمسرح، وأنه أقحم على هذا الفن إقحاماً لا مبرر له

نعود الآن إلى أحاديث أعضاء لجنة القراءة فأقول: لقد تفضل حضرة الأستاذ. . فأجاب على سؤالي بقوله: (مهمة لجنة القراءة هي قراءة الروايات التي تقدم إليها وفحصها من جميع النواحي، أعني النواحي الفنية، والخلقية، والاجتماعية، واللغوية؛ فإذا أجازتها فذاك وإلا رفضتها. على أنه قد يكون في بعض الروايات عيوب من ناحية من هذه النواحي ممكن علاجها. وحينئذ ترد إلى المؤلف أو المترجم ليعالجها طوعاً للملاحظات التي تبديها اللجنة، ثم ترد إليها لترى إذا كانت صالحة بالعلاج أم لا)

سألت: هل لرأي النقاد المسرحيين قيمة في نظر اللجنة؟ فأجاب (ليس للنقاد المسرحيين رأي في النواحي التي ذكرناها (كذا) وإنما لهم رأي من ناحية الإخراج، كمعدات الإخراج، وطول الروايات وقصرها عن الوقت المناسب، ونحو ذلك مما يتعلق بعملهم الفني البحت (؟؟!!) أما أن الروايات قيّمة أو ليست قيمة، أو مناسبة أو غير مناسبة، فمن عمل اللجنة وحدها) ثم أردف قائلاً (لم أر إلى الآن في مصر نقداً فنياً قوياً يستطيع أن يسقط الروايات أو يعليها، وكل الذي رأيت محاولات أولية من هذا القبيل. وَهب أنه كان هناك نقد قوي فأعضاء اللجنة نقاد أيضاً (كذا) فلنا رأينا كما لهم

رأيهم
هذا من جهة النقاد الفنيين، أما من جهة جمهور النظارة فقد يخالف حكمه حكم اللجنة
فيقدر تقديراً عالياً رواية حكمت اللجنة أنها متوسطة، أو يحكم بأنها متوسطة وقد
حكمت اللجنة عليها أنها راقية. وسبب ذلك أن الجمهور قد يقدر الروايات من نواح غير
فنية ككثرة ما فيها من فكاهات، أو لأن مغزاها قريب المتناول، وهذا لا يظهر إلا بعد أن
تكون اللجنة قد أصدرت حكمها من قبل. ومع هذا فاللجنة تستفيد من رأي الجمهور
فيما لا يعجبهم وما لا يعجبهم، وكل هذا يؤثر عند نظر اللجنة في الروايات المقبلة لا
في الروايات التي أصدرت حكمها عليها
قلت: هل معنى كلامكم أن اللجنة تؤثر حكم الجمهور وتستفيد من رأي الجمهور ولا
تأبه لرأي النقاد؟
فأجاب: (لا، من غير شك. يجب أن يكون رأي النقاد الفنيين في المقام الأول لأن
منزلتهم منزلة الخبراء، ولكن قلت لك إنني فيما قرأت لم أر نقداً قوياً إلا في القليل
النادر، وما عدا
ذلك فمدح مفرط من غير أسباب فنية، أو ذم مفرط لأسباب شخصية غير فنية. والرأي
الواجب الاحترام هو ما يصدر من فنيين راقين ينقدون الفن للفن. وإذا حدث ذلك،
وقليلا ما يحدث، أحللناه المحل الأول من الاعتبار وقدرناه أكثر من تقدير الجمهور)
قلت: هل لاحظتم تقدماً في تأليف الروايات خلال السنوات الثلاث، لأني أزعم أن
الروايات التي مثلها الفرقة في عامها الثالث أحط منزلة من الروايات التي مثلت في
السنين الثانية والأولى؟ فقال:
من غير شك لاحظت هذا التقدم خصوصاً عندما قرأنا الروايات التي قدمت للمسابقة)
الأخيرة. نعم إننا لم نجد روايات حازت المكافأة الأولى، ولكننا رأينا روايات ظهرت فيها
القدرة الفنية، وظهر فيها حسن السبك، وحسن الحوار، وإذا قارناها بالروايات التي
قدمت في ظروف أخرى قبلها رأينا هذا التقدم محسوساً)
قلت: ما رأيكم في رواية ردتها لجنة القراءة إلى مؤلفها غير مرفقة بأسباب الرفض
رأفة به، ثم أعيد تقديم تلك الرواية المرفوضة بعينها إلى اللجنة مع ما تقدم إليها من
روايات للمباراة ففازت وأعلن فوزها مع أنه لم يتغير فيها سوى اسم مؤلفها الشاب
باسم فتاة، فهل المسؤول عن هذه (اللعبة) مدير الفرقة أم لجنة القراءة؟
حدجني محدثي الفاضل بنظرة الدهشة والاستغراب، وبعد صمت هنيهة قال: (أحب أن
أعرف رأي مدير الفرقة في هذا الواقعة) فأجبته بأن مهمتي هي استطلاع رأيه هو لا
نقل آراء زملائه إليه
لم أحاول الاتصال بالشيخ الثالث من أعضاء لجنة القراءة لأن مهام الحكم أبعدته عنها،
فلم يبقى أمامي سوى رابع الشيوخ الإجلاء وقد كنت أؤمل أن يكون بعيداً عن تخبطات
زميليه الفاضلين فيما قالاه عن النقد والنقاد وفيما زعماه من نضوج الفكر الروائي
السريع ومن تقدم المسرح نحو الكمال؛ غير أن حضرته أعز الله به دولة الأدب قال
لي ما نصه: (يمكنك أن تقول لقراء الرسالة أو من شئت من الناس إن فلاناً، وذكر
اسمه مجرداً من اللقبين العلمي والحكومي، لا يريد أن يقول كلمة في الفرقة
القومية) وأرى أن في إصراره على عدم الكلام هو التهرب، وهو يتهرب من الكلام عن
المسرح الذي طالما تكلم عنه قبل أن يكون لنا فرقة قومية
بقي مدير الفرقة وهو الشيخ الخامس المتمم لأعضاء لجنة القراءة، وهو ما فتئ يقول
للمجلات الأسبوعية إن فرقته ستصل إلى مستوى الكمال بعد حين، وأنه سيبني لها
مسرحاً من المال المدخر، وأن الأدباء لا يوالونه بالتعضيد لأغراض ذاتية، وأن الصحافة
لا تأخذ بناصره قبل أخذ ما بخزانته
لم يتيسر لي حضور تمثيل رواية (طبيب المعجزات) والذي أعرفه عنها، وقد قرأتها
قبل عرضها على لجنة القراءة، أنها تدور حول شاب طبيب انقطع إلى البحوث العلمية
فهداه علمه وتجاريبه إلى استنباط إكسير يطيل الحياة ويقضي على الموت. تفرح
الأمة والحكومة، وتفرح حماته أيضاً بهذا الاختراع الذي أنقذ البشرية من الموت
المكروه، ورفع مقام صهرها إلى مصاف الخالدين بتخليده الحياة
تجمع الأمة والحكومة على تكريمه، ثم لا يلبث الحال أن ينقلب عليه لفساد جميع
النظم الاجتماعية وتغير الأوضاع وتساوي الحياة فيثور الناس على المخترع المسكين

فيعمد إلى قواريره فيكسرها وإلى عقاقيره فيفسدها ليعيد العالم سيرته الطبيعية وبهذه المناسبة أقول لحضرات أعضاء لجنة القراءة: إن قراءة الرواية شيء يختلف جد الاختلاف عن مشاهدتها تلبس ثياب الحياة على المسرح، وأن لا محيد للقارئ عن خصائص فنية مكتسبة وموهوبة تجعل حكمه غير مقتصر على الخلق والاجتماع واللغة فقط

ابن عساكر

العدد 285 - بتاريخ: 19 - 12 - 1938

من مآسي الحياة

يا إنسان! أين الإحسان؟

!ما أطول أحاديث البؤس وأكثر حوادِثَ أهله

كان للمقالين الذين كتبناهما في غفوة الإحسان عن مرتجيه، وقسوة الوقوف على مستحقيه، رجْعٌ شديد في أكثر النفوس. فقد غدا علينا البريد بعشرات من الرسائل الباكية كأنما كتبت بدموع العين ودماء القلوب فلا تدري أهي كلمات أم أنَّات! ولو شئت أن أنقل إليك بعض ما فيها لدهشت أن يكون في مصر - وهي البلد الذي يجري نيله بماء الحياة، ويفيض ثراه بطيبات الرزق - خَلْق من بني آدم يدمنون الصيام من الجوع، !!ويلبسون الظلام من العُرْى، وتصبح أمانيُّهم على الله أن ينقذهم من الحياة بالموت

هاك حالة واحدة من ألوف: روى الشيخ عبد الغني في رسالته الضافية ما ألخصه لك في هذه الأسطر:

طرابيشي في حي (السيدة زينب) كان يعيش من فضل الله وربح الحرفة في نعمة سابغة. كان رحْب الدكان والصدر، يجلس عنده سراة الحي فيتحادثون ويتنادرون ويفضي بعضهم إلى بعض بأسرار البيوت وأخبار الصحف، والمكاوي لا تنقطع عن الكي، والعمال لا يفتُرون عن البيع. وكان رخي البيت والأسرة، يغشى فناءه السهلَ ذوو القربى وأولو الحاجة، يتقلبون في أعطافه، وينالون من ألطافه، ويستريحون إلى ظله. فلما تعود الناس قلة النفقات من كثرة الأزمات، ووفدت على مصر من وراء البحر بدعة العُرى، فتعرّت أرجل النساء من الجوارب، ورؤوس الرجال من الطرابيش، أخذت نار الطرابيشي تنطفئ وحركته تسكن ومورده يغيض، وأخذ الغرماء مجالس العملاء، وزاد عدد المحضرين على عدد المشترين؛ فكان الرجل يفتح دكانه يوماً ويغلقه أسبوعاً، حتى فتحه الدَّين وأعيته الحيلة فباع الملك، وركبه الهم والمرض فلزم البيت، وتفجَّرت عليه المصائب من كل جانب، فمات ولده الوحيد وكان في السنة الثالثة من كلية الطب، وتوفى أخوه البارُّ وكان موظفاً في إدارة القرعة، وتأيمت أخته الفقيرة الولود فلاذت بحماه، ووجد الداء في جسمه الواهم المنحلّ مجالاً فاستشرى، ورأف الله به أن يعاني الألم في نفسه وفي أهله طويلاً فتوفاه. وبقيت بعده زوجته المقطوعة، وأخته الأرملة، وابنتاه العانستان، يعشن على خمسين قرشاً في الشهر! أتدري من أين تأتيهن هذه الخمسون قرشاً؟ تأتي من أجرة الدكان. فقد استأجر الصانع الذي كان يعمل فيه آلاته وأدواته وأثاثه بمائة قرش، فكن يعطين وزارة الأوقاف منها ثمانين كراء المحل، حتى سعى لهن أهل الخير لديها فجعلته خمسين.

ويتساءل الناس بعد ذلك كيف يعيش هؤلاء النساء الأربع على هذا النزر اليسير من الرزق فلا يستطيع أحد أن يجيب، لأنهن أغلقن على أنفسهن وعلى بؤسهن غرفة من غرف الغسيل في بيت متهدم من بيوت (زين العابدين) فلا يدخل عليهن إلا جارة برغيف، أو خادمة بصحن. . .!

فليت شعري أتقنع الفتاتان كما قنعت المرأتان بهذا العيش، أم تُحملان آخر الأمر على ركوب الغواية والطيش؟

ذلك سؤال كان ينبغي أن يوجه إلى وزارة الأوقاف وأغنياء الأمة؛ ولكن وزارة الأوقاف ليست بيت المال الذي كان يقوم عليه عمر، والأغنياء في مصر كلما أفعم الله جيوبهم بالمال، أفرغ جنوبهم من الرحمة. فأموالهم للأحزاب والانتخاب، وعواطفهم للخيل والكلاب، ودنياهم للغرور والأبَهة. فلم يبق لطرائد الشقاء وفرائس الفاقة غير الله. ولله في أموال هؤلاء القساة حق معلوم هو الزكاة. والزكاة ركن من أركان الإسلام كالشهادتين والصلاة. والإسلام يعيد اليوم في عهد الفاروق زمانه وسلطانه، فالأمراء والوزراء يصلون، والمترفون والمثقفون يحجون، والدين والمدنية يتعاونان على تنزيه

النفس وترفيه العيش وتأمين الحياة. فلماذا يظل هذا الركن مهدوماً وهو وحده العماد القوي لبناء الأمة، والطِّباب الناجع لأدواء المجتمع؟ لقد فرضت الحكومة على الأموال الثابتة والمنقولة ضرائب العمارة والدفاع والأمن، وجبَتها على الطوع والكَره؛ فما بالها وهي الحكومة الإسلامية القوية لا تجمع بوسائلها الإدارية ما جعل الله للفقراء، في أموال الأغنياء، ثم تقسمها على من سماهم الله في كتابه، فتأمن بذلك ثورة النفوس واضطراب الأمن وسخط العدالة؟

إنها إن تفعل ذلك تُرض نفوس العامة. وفي رضا هؤلاء تكثير النسل وتوفير الإنتاج وتيسير المعيشة. ولن تجد في جباية الزكاة ما تجد في جباية الخراج من امتعاض أو اعتراض أو مشقة، فإن البذل في سبيل الله ربا المؤمن. ومليونا جنيه من الصدقات يدخلان بيت المال في كل سنة مع الأمانة والعدل، لا يتركان في الأمة سائلاً في شارع، ولا جائعاً

في بيت، ولا جاهلاً في عمل. وكلما استبحر العمران، واستذأب الناس، واستشرت المطامع، تبين أقطاب الرأي وأصحاب الأمر أن الله الذي جعل الفساد في الدنيا، جعل الصلاح في الدين؛ فما من علة في الفرد، ولا آفة في الجماعة، إلا نبَّه إليها بنوره، وطبَّ لها في شرعه، وخفف منها بلطفه.

فهل تفكر حكومة الفاروق خليفة الله على وحيه، في إقامة الدين على وجهه، فتهدأ ضلوع، وتجف دموع، ويتذوق الناس في ظلال الإخاء، سعادة الأرض ونعيم السماء؟

أحمد حسن الزيات

مصر والعروبة

إلى الدكتور طه حسين

من الأستاذ ساطع الحصري بك

أيها الأستاذ:

نشرت مجلة المكشوف البيروتية حديثاً جرى بينكم وبين جماعة من شبان العرب، على ظهر باخرة تمخر عباب البحر الأبيض المتوسط، قلتم في خلال ذلك الحديث إنكم تنادون (بتوحيد برامج التعليم في جميع الأقطار العربية وتسهيل التبادل الثقافي بينها)، وترون (من المفيد أن يكون تعاوناً اقتصادياً، وحتى تحالفاً عسكرياً) بين تلك الأقطار؛ غير أنكم لا ترضون وحدة سياسية، سواء أكانت (بشكل إمبراطورية جامعة) أم على طراز (اتحاد مشابه للاتحاد الأمريكي أو السويسري). وعللتم آراءكم هذه بقولكم (إن الفرعونية متأصلة في نفوس المصريين؛ وإنها ستبقى كذلك، بل يجب أن تبقى وتقوى).

قرأت هذه الآراء بدهشة غريبة، لأنني استبعدت صدورها منكم كل الاستبعاد، وقلت في نفسي: (لعل الكاتب نقلها على غير حقيقتها)، وأعدت قراءتها بإمعان، ولكني لمحت في عدة نقاط منها أسلوبكم المعروف، فقلت لعل الدكتور أراد أن يمتحن هؤلاء الشبان، ويتأكد من مبلغ إيمانهم بالقضية، ويسبر غور درسهم لوجوهها المختلفة: فالآراء التي أدلى بها ربما كانت من نوع الآراء الجدلية التي ترمي إلى حمل المخاطب على التعمق في التفكير. فوجدت نفسي تجاه هذه الملاحظات بين عاملين مختلفين: عامل يدفعني إلى الإسراع في مناقشة هذه الآراء لكي لا أترك مجالاً لزعزعة إيمان بعض الشبان بتأثير سلطتكم الأدبية السامية، وأسلوبكم الأخاذ. . . وعمل يدفعني إلى التريث في الأمر لكي أتأكد من صحة الحديث المعزو إليكم. تريثت لذلك مدة من الزمن. . ولما لم أطلع على تصحيح أو توضيح صدر منكم، رأيت من الواجب علي أن أقدم على المناقشة بدون أن أنتظر مدة أطول. . .

فإذا كان في الحديث الذي نسب إليكم شيء من البعد عن الواقع، فأرجو أن تعتبروا كلمتي هذه بمثابة رد على الآراء المسرودة في ذلك الحديث، بقطع النظر عن قائلها؛ وإذا كان فيه شيء من قصد المناقشة الجدلية - كما أسلفت - فأرجو أن تعتبروا هذه الأسطر بمثابة صفحة من صفحات تلك المناقشة الجدلية. . .

قلتم للشبان الذين تحدثتم إليهم: (إن المصري مصري قبل كل شيء، فهو لن يتنازل عن مصريته مهما تقلبت الظروف. . .)

فاسمحوا لي أن أسألكم: هل الوحدة العربية تتطلب من المصريين التنازل عن المصرية؟ أنا لا أتردد في الإجابة على هذا السؤال بالنفي، لأني أعتقد بأن دعوة

المصريين إلى الاتحاد مع سائر الأقطار العربية لا تتضمن بوجه من الوجوه حثهم على التنازل عن (المصرية). إن دعاة الوحدة العربية لم يطلبوا ولن يطلبوا من المصريين - لا ضمناً ولا صراحةً - أن يتنازلوا عن مصريتهم، بل إنهم يطلبون إليهم أن يضيفوا إلى شعورهم المصري الخاص شعوراً عربياً عاماً، وأن يعملوا للعروبة بجانب ما يعملونه للمصرية. فهل لديكم ما يبرهن على أن ذلك من نوع (طلب المحال)؟ وهل لديكم ما يدل عل أن العروبة والمصرية ضدان لا يجتمعان، وعنصران لا يمتزجان؟

وقد قلتم لمخاطبكم: (ولا تصدق ما يقوله بعض المصريين من أنهم يعملون للعروبة. . . فالفرعونية متأصلة في نفوسهم) ثم أضفتم إلى ذلك حكماً قاطعاً، فقلتم: (وستبقى كذلك. . .)

فهل تسمحون لي أن أستوضحكم ما تقصدونه من كلمة (الفرعونية)؟ هل تقصدون منها الأخذ بحضارة الفراعنة، أم الاعتزاز بثقافة الفراعنة، أم تقصدون منها بعث اللغة الفرعونية أو الآداب الفرعونية، أو الديانة الفرعونية، أو السياسة الفرعونية؟

أنا لا أستطيع أن أشك في أنكم لم تقصدوا منها الحضارة أبداً؛ لأنكم لستم - بدون ريب - ممن يقبلون لمصر ولغير مصر - حضارة في هذا العصر غير الحضارة العلمية الحالية. . . كما لا أستطيع أن أشك في أنكم لم تقصدوا من هذه الكلمة (الديانة الفرعونية) أيضاً. . .

هذا ومن جهة أخرى فإنني أجد في مناداتكم (بتوحيد برامج التعليم في جميع الأقطار العربية وتسهيل التبادل الثقافي بينها) دليلاً قاطعاً على أنكم لم تقصدوا منها الثقافة الفرعونية أو اللغة الفرعونية أيضاً.

فماذا تقصدون منها إذاً؟ السياسة؟ فهل تعتقدون بأن (السياسة الفرعونية) تتطلب (الاكتفاء بحدود مصر الحالية) فترفض (التوسع) بكل أنواعه، حتى ولو كان عن طريق (قبول انضمام) الأقطار العربية؟

إنكم أشرتم في حديثكم إلى الآثار الباقية من عهد الفراعنة بشكل يستوقف الأنظار، وأردتم أن تدعموا آرائكم بجلال تلك الآثار إذ قلتم:

(لا تطلبوا من مصر أن تتخلى عن مصريتها، وإلا كان معنى طلبكم: اهدمي يا مصر أبا الهول والأهرام، وتغاضي عن جميع الآثار التي تزين متاحفك ومتاحف العالم، وإنسي نفسك واتبعينا. . .)

يظهر من هذه التأويلات أنكم تودون أن تخلقوا للفكرة العربية خصوماً من الآثار القديمة، وأن تضعوا في سبيل تيار هذه الفكرة سدوداً من الرموس والأطلال. فهل فاتكم أن التعارض والتصادم لا يحدثان إلا بين الأشياء التي تسير على مستوى واحد، في عالم واحد؟ وأن الفكرة العربية التي تعمل في القرن العشرين - للأجيال القادمة - لا يمكن أن تتعارض مع آثار بقيت ميراثاً من ماض سحيق، يرجع إلى أكثر من خمسة آلاف من السنين؟

إن مصر قد تباعدت عن ديانة الفراعنة دون أن تهدم أبا الهول؛ وتخلت عن لغتها القديمة دون أن تقوض الأهرام؛ وجميع آثار الفراعنة التي زينت بها متاحف مصر ومتاحف العالم لم تُولَد نزوعاً للعودة إلى الديانة التي أوجدت تلك المآثر الخالدة، ولا حركة ترمي إلى بعث اللغة التي رافقتها خلال قرون طويلة، فهل من موجب لطلب هدم الأهرام وتناسي الآثار لأجل الوحدة العربية؟

إن الأهرام - مع جميع الآثار الفرعونية - لم تمنع مصر من الاتحاد مع سائر الأقطار العربية اتحاداً تاماً - في ميدان اللغة - فهل يمكن أن تحول دون اتحادها مع تلك الأقطار في ميدان السياسة أيضاً؟

كلا أيها الأستاذ، إن التيارات القوية العميقة التي جرفت حياة مصر إلى اتجاهات جديدة منذ عشرات القرون، والتي أخرجتها من ديانتها القديمة وأنستها لغتها الأصلية - بالرغم من وجود الأهرام وقيام أبي الهول - سوف لا تحتاج إلى هدم شيء من آثارها القديمة، لتجرفها نحو السياسة التي يؤمن بها دعاة الوحدة العربية، ولا سيما أن هذه السياسة ليست إلا نتيجة طبيعية للغة مصر الحالية ووضعها العام.

إن دعاة الوحدة العربية لم يقولوا ولن يقولوا لمصر: (إنسي نفسك) بل يقولون

وسيقولون لها: (استزيدي من ثروة نفسك) بالعمل على توحيد أبناء لغتك. (إنهم لم يقولوا ولن يقولوا
لها: (اتبعينا)، بل يقولون وسيقولون لها: سيري إلى الأمام، ونحن نتبعك على الدوام.
سألتم خلال الحديث: (أتريدون أن تتحقق الوحدة العربية؟ فعلى أي أساس علمي تنادون بها؟) ثم قلتم: (تعالوا معي نستعرض الروابط التي تصل مصر بالأقطار العربية الأخرى) فاسمحوا لي أن أشترك معكم في الإستعراض، لاناقشكم في أهم المواقف التي وقفتموها خلاله:
لقد وقفتم أولاً أمام قضية (الأصل والدم) وقلتم: (إن الأكثرية الساحقة من المصريين لا تمت بصلة إلى الدم العربي، بل تتصل مباشرة بالمصريين القدماء)
وأنا لا أود أن أتطرق - في هذا المقام - إلى مسألة أصل المصريين القدماء، ولا أن أبحث عن علاقتهم أو عدم علاقتهم بالساميين عامة وبالعرب خاصة. . . سأسلم - جدلاً - بما تقولونه في هذا الباب، مع هذا سأسألكم بدوري: هل علمتم بوجود أمة على الأرض انحدرت من أصل واحد تماماً؟ وهل تستطيعون أن تذكروا لي أمة واحدة ترتبط بروابط الدم فعلاً وحقيقة؟
إن جميع الأبحاث العلمية تدل على عكس ذلك تماماً. إنها تدل على أنه لا توجد على وجه البسيطة أمة خالصة الدم. . . حتى الأمة الفرنسية التي سبقت جميع الأمم الأوربية في طريق الوحدة والاستقرار، لا تدعي وحدة الأصل والدم. وعلماؤها يعترفون بأن الأجناس التي دخلت في تركيبها تعد بالعشرات، كما يعترفون مثلاً بأن أهالي جنوب فرنسا يختلفون عن سكان شمالها - من حيث الأصل والدم - اختلافا كبيراً. أيمكنكم أن تدعوا - والحالة هذه - أن عدم وحدة الأصل والدم، يجب أن يحول دون انضمام مصر إلى حركة الوحدة العربية؟
ثم وقفتم أمام مسألة التاريخ، وادعيتم أن (تاريخ مصر مستقل تمام الاستقلال عن تاريخ أي بلد آخر)
فاسمحوا لي أن أقول بأن هذا الادعاء افتئات صارخ على الحقائق الواقعة. . . فإن تاريخ مصر اختلط اختلاطاً عميقاً بتاريخ سائر البلاد العربية وتشابكت أوشاجه معها، خلال القرون الثلاث عشرة الأخيرة على الأقل. . . فكيف يحق لكم أن تحذفوا هذه القرون من تاريخ مصر؟. . . أنا لا أنكر أن تاريخ مصر لم يبق متصلاً بتاريخ سائر الأقطار العربية
على الدوام، غير أنني أدعي أن ذلك شأن تواريخ الأمم الأخرى بدون استثناء. فإن تواريخ الأمم تشبه الأنهر الكبيرة التي تتكون من روافد عديدة بوجه عام
إن من يلقي نظرة عامة على تواريخ الأمم المعاصرة لنا كأن يستعرض تفاصيل تاريخ الأمة الفرنسية التي سبقت جميع الأمم في طريق الوحدة القومية - كما ذكرت آنفاً - يضطر إلى التسليم بأن العلاقات التاريخية التي تربط مصر بسائر الأقطار العربية، أقوى وأعمق وأطول من العلاقات التاريخية التي تربط الأقاليم الفرنسية بعضها ببعض. . .
وإذا أظهرتم شيئاً من الريب في هذا الباب فإنني مستعد لذكر التفاصيل والأسانيد التي تبرهن على صحة دعواي برهنة قطعية.
والآن انتقل معكم إلى آخر المواقف التي وقفتموها خلال استعراض الصلات. . . لقد أنكرتم (تأثير اللغة) في تكوين (الوحدة العربية) وقلتم: (لا تنخدعوا، لو كان للغة وزن في تقرير مصير الأمم لما كانت بلجيكا وسويسرا، ولا أمريكا ولا البرازيل ولا البرتغال. . .)
فاسمحوا لي أن أناقشكم في هذا الموضوع المهم مناقشة طويلة:
لو كنتم أقدمتم أيها الأستاذ على كتابة بحث مثل هذا البحث للبرهنة على نظرية مثل هذه النظرية - قبل ربع قرن - لاستطعتم أن تضيفوا إلى هذه الأمثلة مثالين آخرين. . . لقلتم عندئذ: (لا تنخدعوا، لو كان للغة وزن في تقرير مصير الأمم لما كانت الإمبراطورية النمسوية، ولا السلطنة العثمانية. . .)
ولو كنتم ممن عاشوا وكتبوا قبل ذلك بنصف قرن. . . لاستطعتم أن تضيفوا إلى أمثلتكم عشرات الأمثلة الأخرى، ولأرخيتم العنان لقلمكم الجواب لينتقل من جنوب إيطاليا إلى شمال ألمانيا. . ولقلتم: (لو كان للغة وزن في تقرير مصير الأمم. . . لما

كانت ساردونيا وساكسونيا، ولا بيه ده مونته وباديرا. . .)
غير أن تقلبات الزمان، أزالت من عالم الوجود جميع تلك الأمثلة والشواهد الكثيرة، وحرمت النظرية التي تقولون بها إمكان الاستناد إليها، فحصرت الأمثلة في الأسماء التي ذكرتموها. . . أفلا ترون إليها الأستاذ إن هذه الملاحظة وحدها كافية للبرهنة على أن مثل هذه البراهين لا تخلو من مزالق كثيرة، فلا يجوز الاعتماد عليها في حل القضايا الاجتماعية؟.
أفتلومونني إذا قلت إن هذه المحاكمة لا تخلو من الشبه بمحاكمة من يقول: (لو كان لجاذبية الأرض وزن في تقرير مواضع الأجساد لما بقيت القناديل معلقة في السقوف، ولما صعدت الأدخنة إلى السماء، ولما طارت الطيور وارتفعت المناطيد.)
اسمحوا لي أن استعرض الظروف الخاصة التي تلازم كل واحد من الأمثلة التي ذكرتموها، لكي أبرهن على صحة تشبيهي هذا.
إن أول الأمثلة التي ذكرتموها للتدليل على عدم (وزن اللغة في تقرير مصير الأمم) هو وجود بلجيكا. وهل فاتكم أن بلجيكا ليست متجانسة من حيث اللغة، بل هي من المناطق التي تتلاقى وتتشابك فيها اللغات؟ ولا شك في أنكم تعلمون أن النصف من سكانها يتكلم الفرنسية، في حين أن النصف الآخر منها يتكلم الفلامندية. . . فاتحاد كل فريق من هؤلاء مع سائر أبناء لغتهم يتوقف على (تجزئة وتقسيم بلجيكا) في حين إن ذلك يصطدم بمشاكل عظيمة وموانع جسيمة من الوجهة الجغرافية والاقتصادية والسياسية.)
أولاً - إن حدود الألسن في بلجيكا لا تخلو من تشابك وتعقيد؛ فعاصمتها بروكسل - مثلاً - تقع في منطقة فلامندية مع أنها من أهم المراكز الفرنسية، يتكلم سكانها اللغة الفرنسية في حين إن سكان القرى والقصبات المحيطة بها يتكلمون الفلامندية؛ ولا شك في أن هذا التشابك يجعل أمر تجزئة هذه المملكة من المشاكل العويصة من الوجهة المادية والجغرافية.
ثانياً - إن حدود المناطق اللغوية في بلجيكا لا تتفق مع حدود المناطق الاقتصادية، مما يجعل أمر التقسيم عسيراً جداً من الوجهة الاقتصادية أيضاً. . .
ثالثاً - تشغل بلجيكا موقعاً هاماً بين ثلاث من اعظم الدول الأوربية وهي ألمانيا وفرنسا وإنكلترا. ولا حاجة لإيضاح أن تعارض منافع هذه الدول المنظمة الثلاث (جعل أمر إبقاء المملكة البلجيكية على حالتها وعلى حيادها (من لوازم التوازن الدولي العام، ومن مستلزمات (السياسة العالية الهامة، فكيف يجوز لكم أن تعتبروا (وجود بلجيكا) دليلاً على عدم (وزن اللغة) في تقرير مصير الأمم؟ أفلم أكن محقاً فيما قلت: - إن ذلك يشبه اعتبار توازن بعض الأجسام دليلاً على عدم تأثير الجاذبية الأرضية عليها؟. . .
هذا، ومن جهة أخرى أود أن أسألكم: هل من وجه لتشبيه قضية (بلجيكا والأمم المجاورة لها) بقضية مصر والبلاد العربية المتصلة بها؟ وهل من مجال لاعتبار مصر أو الأقطار
العربية المتصلة بها من مناطق تشابك اللغات وتعقدها؟ وهل يتوقف اتحاد مصر مع سائر الأقطار العربية على تجزئتها أو تجزئة غيرها؟
ترون أيها الأستاذ أنه لا يوجد في مثال بلجيكا ما يؤيد دعواكم بوجه من الوجوه.
أما قيمة المثال الثاني الذي ذكرتموه، فلا تختلف عن ذلك كثيراً. فإن سويسرا أيضاً من مناطق تلاقي وتشابك اللغات، تتلاقى فيها اللغات الفرنسية والألمانية والإيطالية، كما تتلاقى فيه أهم سلاسل الجبال الأوربية. . . فلا يجوز اتخاذها دليلاً على عدم وزن اللغة في تقرير مصير الأمم بوجه من الوجوه. .
وأما المثال الثالث الذي ذكرتموه، فهو أيضاً لا يؤيد دعواكم في هذا الباب: أنا لا أرى لزوماً - في هذا المقام - إلى شرح خصائص أمريكا، ولا إلى البحث في قضية العناصر بها. . . بل سأكتفي بالإشارة إلى عظمة المحيط الاطلنتيكي الذي يفصلها عن القارة الأوربية. . . واعتقد أن هذه الإشارة وحدها تكفي للبرهنة على أن قضيتها لا تشبه قضية البلاد العربية بوجه من الوجوه. . . فإن الأقطار العربية متصل بعضها ببعض اتصالاً جغرافياً تاماً. . . والقطر المصري يشغل بين هذه الأقطار مركزاً هاماً. وأما الحدود التي تفصلها عن سائر الأقطار العربية، فتنحصر - في بعض الجهات - بخطوط وهمية تمتد فوق رمال الصحراء. . . فهل تعتقدون أن هذه الخطوط الوهمية التي

تفصل مصر عن سائر الأقطار العربية بصورة اعتبارية واصطناعية، تستطيع أن تعمل عملاً مماثلاً لعمل المحيط الذي يفصل أمريكا من أوربا بصورة حقيقية وطبيعية؟ . . .
بعد أن شرحتم، أيها الأستاذ، وجهة نظركم في الوحدة العربية، رأيتم أن تقدموا نصيحة إلى محدثيكم الشبان، فقلتم:
إن كان لي نصيحة أسديها إليكم فأن تتمسكوا بالواقع العلمي وتهملوا سواه، مهما كانت قوته العاطفية والخيالية. افهموا أن المنفعة تسير الشعوب. فإن لم تفهموا هذا اليوم فسترغمون على فهمه غداً. . .
أنا أضم صوتي إلى صوتكم في هذه النصيحة، من حيث الأساس؛ غير أنني أنكر عليكم النتائج التي وددتم أن تصلوا إليها تحت حماية هذه النصيحة. . .
تقولون إن المنفعة تسيّر الشعوب؛ فهل تعتقدون أن (اتحاد الأقطار العربية) مخالف لمنافعها
أو خال منها؟ وهل تدعون أن منافع كل واحد من الأقطار العربية ستحول دون اتحادها؟
أما أنا فأعتقد عكس ذلك تماماً. أعتقد أن فكرة الوحدة العربية لا تستند إلى العاطفة وحدها، بل تستند إلى المنفعة أيضاً. أعتقد أن منفعة مصر نفسها تتطلب منها الاتحاد مع سائر البلاد العربية، كما اعتقد أن منفعة مصر في هذه القضية ليست من المنافع البسيطة الطفيفة، بل هي من المنافع الهامة الحيوية. وإذا كان الذين يقدرون أهمية هذه المنافع لا يزالون قليلين اليوم، فلا شك في أنهم سيكثرون يوماً بعد يوم.
وعلى كل حال أؤكد لكم أنني من الذين يؤمنون بالوحدة العربية ويدعون إليها، لا بتأثير العواطف فحسب، بل بملاحظة المنافع أيضاً. ولهذا السبب عندما قرأت قولكم: (إن المنفعة تسيّر الشعوب) قلت في نفسي حالاً: (وهذه المنفعة هي التي ستسيّر المصريين نحو الوحدة العربية، عاجلاً أو آجلاً)
هذا، وأرى ألا أختم اعتراضاتي دون أن أتوجه إليكم بكلمة شكر، فإني أشكركم من صميم فؤادي على مناداتكم بتوحيد الثقافة بين البلاد العربية، لأنني أعتقد أن توحيد الثقافة من أهم العوامل التي تهيئ سائر أنواع التوحيد. . . فأقول بلا تردد: اضمنوا لي وحدة الثقافة، وأنا أضمن لكم كل ما بقي من ضروب الوحدة.
(بغداد)
أبو خلدون ساطع الحصري
مقياس الثقافة
للأستاذ عبد الرحمن شكري
يرى أكثر الناس أن الحق جوهر لا يتجزأ، وانه إذا كان عند إنسان أو طائفة من الناس لم يكن عند خصومه أو خصومهم شيء منه. ومن ير هذا الرأي تضؤل ثقافته ويضؤل فكره. وهؤلاء المؤمنون بالحق قد يرون من المنكر الشنيع أن يجزئوه بين خصمين أو أكثر. وفي الناس طائفة أخرى على شيء من الثقافة تستطيع أن ترى ما للأضداد من الحق، ولكنها من أجل ذلك لا تؤمن بالحق لزعمها أن الحق لا يتجزأ، فإن تجزأ انعدم؛ وإنكارها الحق بسبب تجزئه نقص في ثقافتها ينشأ من قليل من الثقافة، فإن بعض الثقافة عن يعوِّق عن بعض. والدهماء وأشباه المتعلمين يغرون بمحاكاة هذه الطائفة في إنكار الحق، والتشبه بها في الزراية عليه من غير بصيرة ولا فهم، ويتشبهون بها في الزراية على كل ذي حق من فضل في العلم أو العمل أو الخلق، ويتشبهون بها في إظهاره بمظهر المزيف المخادع. وإذا كثر أمثال هؤلاء وأشباههم في أمة ماتت روحها وأصابها الركود وإن كانت حية ترزق. والرجل من هؤلاء إذا وجد لإنسان حقاً أنكره، وإذا وجد له نصف حق أنكره، وإذا وجد له ثلث حق أو ربع حق أنكره، لأنه في سريرة نفسه لا يرى لنفسه ذرة صغيرة من الحق تعدل اعترافه بجزء غيره من الحق أو كله. وكلما عظمت الثقافة عرف كل خصم جانب الحق الذي لخصمه، بقدر عرفانه جانب الحق الذي في ناحيته؛ وهم إذا عرفوه حقيقون أن تقل الخصومة بينهم، ولكن ربما لا تنعدم، لان كل إنسان يرى لنفسه من الحق نصيباً أكثر من نصيب غيره، فيتقاتلون على تعيين حدود أجزاء الحق إن لم يتقاتلوا على تعيين حدود الحق كله. على أن الثقافة كفيلة بأن تلطف تلك الخصومة، لأن المثقف الباحث في نفسه المفكر فيها كثيراً ما يراجعها، فإذا عادى عادى وهو يحسب في خصومته حساباً لما قد يكون من

خطأ النفس الذي لم يفطن له بعد في تقدير حقها، ويحسب أنه ربما يفطن له في مستقبل أمره. أما غير المثقف فإنه لا يستطيع أن يحسب حساباً لما قد يكون من خطأ النفس الذي لم يفطن له. ولعل ألصق خصائص الثقافة وألزمها لها عرفان أوجه الحق عرفاناً ملحاً يدعو إلى الاعتراف بها ويدعو إلى حسبان سقطات الفكر من غير قصد والى إسقاط المرء الشيء ولو القليل من الثقة بالفكر كي يعدل به ما قد يكون من خطأ لم يفطن له.

وقد ولع بعض الكتاب بالزراية على الحق زراية ليست زراية من يريد أن يقلقل المتنطسين في التشيع لجانب منه عن تنطسهم كي يدركوا الجوانب الاخرى، وإنما هي زراية الجاهل الذي يريد أن تعم الفوضى كي يكتسب فيها ومنها من غير حق، كاللص الذي ينتهز فرصة فوضى العراك كي يسرق دراهم الناس. وأمثال هؤلاء الكتاب يجدون رواجاً في أوساط التدهور حيث يصير السخر بالحق وأوجهه خطة عامة لا يستثنى منها فضل أو علم أو عمل أو خلق. فلا غرابة إذا ماتت روح أمة هذا شأنها وإن كانت حية ترزق. والحق عند الجاهل كالدنيا عند الأبله الساذج بقعة حول نفسه أو داره أو قريته. وكلما زاد المرء علماً كبرت الدنيا في نظره حتى يعرف أنها عوالم ونظم شمسية عديدة لم تحص بعد. وكلما ازداد المرء فطنة وثقافة عظم الحق في ذهنه كعظم الدنيا في رأي علماء الجغرافية والفلك. على إن عظم الحق في نظر المفكر قد يعدم الحق كما رأينا، فيقول المرء لا حقيقة في الحياة، بل كل أقوال الناس دعاوى باطلة، وإنما مَثَلُ نظر هذا المفكر إلى الحق مَثَلُ نظر المُطِلِّ في الماء وقد قذف فيه بحجر، فهو ينظر إلى دائرة موقع الحجر في الماء تتسع حتى تفنى. ولكن هناك حالة من حالات الثقافة يطمئن فيها المرء إلى أن تباين أوجه الحق لا ينفي الحق. ألم تر أن الدواء يشمل الأضداد ويشمل حتى السم، فلا ينفي ذلك أنه دواء. وحبذا لو فطن إلى ذلك أصحاب الأوهام الغريبة الذين لا يرون الخير إلا الخير المطلق الذي ليس متصلا بالشر، والحقيقة المطلقة التي لا تتصل بباطل ولا تتجزأ، فإذا وجدوا أن الخير في الحياة ممتزج بالشر قالوا أن لا خير ولا شر؛ وإذا وجدوا أن الحق ممزوج بالباطل قالوا أن لا باطل ولا حق، وإنما هي كلمات واصطلاحات، وإن كل إنسان يعد الحق والخير ما في ناحيته وما فيه نفعه، ولكن لو أن أحد الناس نظر في وجوه الناس ثم في وجوه الحيوانات والطيور ثم قال: إن اختلافها يدل على أن ليس في الكون ما يسمى وجهاً أكان يكون مصيبا في مقاله؟ وكذلك من نظر إلى الدنيا نظرة الراهب الزاهد فيها ونظرة المقبل على مباهجها وأطايبها ونظر إليها نظرة القوي ثم نظرة الضعيف وجد أن أوجه الحق مختلفة، أكان يكون مصيبا لو قال إن اختلاف أوجه الحق ينفي الحق؟ أليس قوله مثل قول من يعرف أن النور إنما يتكون من ألوان عدة، ويقول إن اختلاف مظاهر الألوان التي يتكون منها شعاع النور ينفي وجود النور. وإنما دفعه إلى إنكار الحق أن تغاير وجوه الحق قد يجعله عند الناس كمقياس من الجلد القابل للتمدد يتخذونه لقياس الأقمشة وهم تارة يمطونه إلى نصف مط، وتارة يمطونه إلى آخر ما يستطاع فيه من المط حسب أهوائهم. وكذلك يطيلون الحق ويقصرونه حسب أهوائهم فيصير الحق مقياس محتال وآلة خداع فتقل حماسة المرء في سبيل الحق، ويحتقر الجهاد في الحياة لنصرة الحق، ويدفعه اختلاف أوجه الحق إلى إنكار الحق، ويهيئ له العذر في نصرة الباطل لأنه يرى أن الإحساس بالحق والباطل يختلف كاختلاف الإحساس بالحر والبرد حسب الأمزجة والطبائع. وإذا نظرنا إلى اكثر الممتعضين من الحياة الراجين إصلاحها وجدناهم من أصحاب المزاج الشاذ أو من ذوي الفشل أو الفقر؛ وبالرغم من أن أساس هذا الامتعاض فردي، وأنه شعور خاص، فإنه من وسائل الرقي والإصلاح، ويؤدي إلى كثير من الخير والحق. وكذلك إذا نظرت إلى أصحاب المزاج المعتاد وأهل النجاح والسعادة وجدتهم يكرهون كل تغير، ويرون صلاح الحياة في بقاء كل قديم على حاله؛ وبالرغم من أن أساس رأيهم شعور خاص بما فيه النفع لهم فإنهم يدافعون عن الحق الكائن والخير القديم ويفطنون إلى ما في رأي الممتعضين من الحياة الراغبين في إصلاحها من وهم وباطل وشر وإن لم يفطنوا إلى ما في رأي هؤلاء من حق وخير. والرجل المثقف هو الذي يستطيع أن يجمع بين النظرتين من غير

أن ينعدم الحق في نظره، والذي يعد فريضة التشبث بالقديم ليست من الباطل بل هي الحجر الذي يحتك به زناد المتطلعين إلى منازل الرقي الراغبين في إصلاح الحياة فيوري هذا الاحتكاك نور الحق ونار الحياة. وإنما ضربنا مثل هاتين الطائفتين كي نوضح أن اختلاف منازل الحق لا ينفي الحق. وليس من الصعب تطبيق هذه الفكرة بالرجوع إلى كل أمر من أمور الحياة، والى كل فريق من طوائف الفكر والعمل، والى كل مذهب من مذاهبهما. ومن أجلها كانت كل حقيقة متممة لأختها؛ ولا يتم الحق في رأي إلا بما في نقيضه من حق، كما لا يتم الباطل في رأي إلا بما في نقيضه من باطل متصل به أو قد يتصل به. والذي يحير المفكر الذي لا يجد في الثقافة عزاء ولا هو ممن يتغلب على نزعات الفكر الحر بالتعصب لجانب منه أنه يريد حياة بسيطة ولكنها ليست بسيطة، بل إنها كالخيط المعقد تلوى بعضه في بعض. فإذا استراح المرء إلى الثقافة وجد فيها عزاء، ورحب صدره ولبه بقدر اتساع الحق في نظره، ولم يحزنه اختلاف أوجه الحق، ولم يضله إلا في ساعات كلل الذهن أو ساعات الخوف أو التعب أو السقم والتشاؤم الذي يتهيأ في هذه الحالات أو في مثلها. على أن مذهب من ينكر الحق بسبب اختلاف مظاهره هو أيضاً من الوسائل التي تستقيم بها الحياة وتستفيد منها، فالحياة تتخذ من كل مذهب وسيلة وتقبل نفعه وتدفع ضره، وبمذهب من ينكر الحق لاختلاف مظاهره تستطيع الحياة أن تداوي نقيضه وهو مذهب المتعصب لجانب واحد من جوانب الحق. وإن المفكر ليرى في العقل البشري على العموم خصيصة تمكنه في بعض حالاته من قبول أي رأي أو معتقد سواء أكان قريباً أم بعيداً، متزناً أم غير متزن، جليلاً أم غير جليل. وهذه الخصيصة قد تدعو إلى الباطل، ولكن من الثقافة ألا ييأس المفكر من أجلها لأنها دليل على أن العقل البشري قادر على أن يرى كل جانب من جوانب الحق في الأمور في أثناء التخبط في جوانب الباطل منها. وما دام الرأي لا يصير عادة أو قيداً وسجناً أو ألفاظاً ميتة مستحبة أو شيئاً لا يصح الرجوع عنه بطريق الثقافة، فالأمل معقود في التخبط والتهدي حتى ولو قبل العقل البشري من الآراء في بعض الأماكن والأزمنة والحالات ما قبلته عقول زنوج الغابات ونفوسها وما قبلته عقول القبائل البشرية من آراء رهيبة يصف أمثالها السير جيمس فريزر وسجموند فرويد. وأشد منها رهبة وخطراً على العقول البشرية أن يحرم محرم في أرقى الدول الحديثة حضارة وفكراً على العقل البشري أن يفكر إلا فيما تسمح بالتفكير في تلك الدول، لان الأمل معقود بتخبط الفكر البشري وتهديه ما دامت الثقافة رائدة، وما دام الرجل المثقف يفسح صدره لرأي خصومه، لان كل جانب من جوانب الحق قد يتصل بجانب من جوانب الباطل، إذ بينهما تقارب وتناسب؛ فالرغبة في بلوغ الكمال وولوع الفكر به وبتحقيقه مما يوطد سبل التقدم، ولكنها أمور قد تدفع إما إلى اليأس إذا فشلت، وإما إلى الإجرام في أثناء محاولة تنفيذ أغراضها، فتكون داعية إلى الحق من ناحية. وإلى الباطل من ناحية أخرى، وكذلك الرأي القائل بإنكار استطاعة رقي الإنسانية وكما لها قد يؤدي إلى الحق الذي في جانب الاتزان والتؤدة والمحافظة على الحق المستطاع بدل لفظه في سبيل الحق المنشود. ولكنه قد يؤدي من ناحية أخرى إلى الأثرة وتبرير الفساد الموجود لأنه موجود في وجود أنكر هذا الرأي
إمكان إصلاحه. والرأي القائل بالإيثار له جانب حق كما أن للأثرة جانباً آخر يُنشد في تهيئة الآحاد والأفراد بالقوة والإقدام، وفي قوتهم وإقدامهم قوة للمجتمع الإنساني وإقدام له.

وعمل الثقافة في الحياة هي أن تؤسس الحياة على أساس صالح يوفق بين جوانب الحق في الأضداد، وأن تفصل بين كل جانب من جوانب الحق وما يلائمه من جوانب الباطل.

عبد الرحمن شكري

صور من الحياة في بغداد

للدكتور زكي مبارك

يظن فريق من الناس أن الحياة متشابهة الألوان، وإن اختلفت البلاد. وحجة هذا الفريق أن الناس متقاربون أشد التقارب في الغرائز والميول. ويشهد بصحة هذه الحجة أن مذاهب الناس في ملاعبهم وملاهيهم قد تقترب في هذه الأيام مما كانت

عليه قبل آلاف السنين. وكذلك تقترب مذاهبهم في فهم الحقائق الأخلاقية والاجتماعية، بحيث يمكن القول بأن حكماء مصر وبابل والهند والصين في العصر القديم عبروا عن آراء وأفكار ليست بعيدة كل البعد عما نعرف في العصر الحديث.

وقد دهشتُ حين زرت مدينة رُوَان في سنة 1927 فقد رأيت بعض الأحياء القديمة هناك تشبه بعض الأحياء القديمة في القاهرة من حيث تخطيط الشوارع وهندسة البيوت.

وكذلك دهشت حين زرت بغداد في السنة الماضية، فقد رأيت فيها أحياء تشبه بعض الشبه حيّ الداوودية بالقاهرة، من حيث إقامة الرواشن وزخرفة الأبواب.

والحق أن هناك موجات مدنية تغمر العالم من حين إلى حين فتوحد مذاهبه في العيش بعض التوحيد. ويوضح ذلك ما نراه من طغيان المدنية الأوربية في هذا العصر: فهي تكاد تحوّل العالم إلى شكل واحد في الملابس والعادات والمذاهب المعاشية، وكذلك كان الحال يوم سادت المدنية المصرية والمدنية الرومانية والمدنية العربية.

ولكن تشابه الناس في بعض مناحي التفكير وخضوعهم لطغيان بعض المدنيات لا يمنع من وجود خصائص أصيلة يمتاز بها بلد عن بلد، وشعب عن شعب.

وهل يمكن القول بأن الوحدة السياسية في قطر من الأقطار تفرض أن يتْسم بوحدة اجتماعية؟

إننا نعرف أن أهل مصر يختلفون في كثير من العادات والتقاليد باختلاف المناطق، ولو شئت لقلت أن عندنا مِصرَين: مصر الشمالية، ومصر الجنوبية؛ ولكل ناحية من هاتين الناحيتين خصائص ومميزات تتمثل في أشياء كثيرة منها طرائق التعبير وأساليب الغناء.

ونعرف أيضاً أن فرنسا تنقسم إلى أمم وشعوب بالرغم من وحدتها السياسية، ولكل أمة من تلك الأمم مذاهب في العيش والتعبير، ولها كذلك أذواق خاصة في الطعام والشراب.

فإذا انتقلنا إلى العراق الذي نخصه بهذا الحديث لم نجده بدعاً بين الأمم والشعوب، وإنما نجده يتأثر في عاداته وتقاليده بما يخضع له من تيارات جوية واجتماعية واقتصادية.

وهل يمكن أن يتم التشابه بين أهل البصرة وأهل الموصل في كل شيء؟

إن الذي يطلب ذلك يصح في ذهنه أن يتشابه (الصعايدة) و (البحاروة) في كل شيء، وذلك غير معقول.

تقدَم الموصل فتروعك سنابل الحِنطة وهي تتموج في واسعات الحقول، وتقدَم البصرة فيروعك النخيل الذي يعد بألوف الألوف.

وتدخل بغداد فترى فيها سماتٍ من الشَّمال وسمات من الجنوب.

فهل نستطيع بعد هذا التمهيد أن نجد صوراً خاصة من صور الحياة في بغداد؟

إن الصور التي تنفرد بها بغداد كثيرة جداً، ولكن كيف نبرز الملامح من تلك الصور الخصوصية؟

هنا أشعر بأن الوصف أصعب ضروب البيان، ولكني سأحاول رسم ما رأت عيناي من الصور البغدادية.

وأبدأ بالحديث عن أذواق أهل بغداد في تنظيم السهرات.

وكلامي في هذه القضية يحتاج إلى سناد مما قرأتم في كتب الأدب والتاريخ، وأنتم قد قرأتم أن البغداديين كانوا مولعين بالموسيقى والغناء. فاعرفوا اليوم أن هذه النزعة لا تزال حية في بغداد، ومن النادر أن تقوم سهرة بلا غناء.

ويظهر جمال هذه العادة اللطيفة إذا تصورتم ما يقع في دجلة أيام الصيف. ولدجلة من هذه الناحية منظر أخاذ حين تمسي ملعباً للسفائن الخفيفة الروح التي تحمل أفواج اللاهين واللاعبين وبأيديهم آلات الطرب وفي قلوبهم مشاعل الوجد المشبوب.

وأنتم تذكرون أن الجاحظ نص على استكراه المغنّي الوَسط فاعرفوا اليوم أن لذلك صلة بالحياة العراقية. فكل إنسان في العراق يرى من حقه أن يغني، وكان الأمر كذلك لان جو العراق يهيج الشجون. وقد حدثتكم مرة بأن العراق هو البلد الوحيد الذي لا تنقطع فيه الحمائم عن النواح.

ومن أجل هذا أيضاً نص أدباؤهم وفقهاؤهم على آداب الوجد والسماع والشراب، لأن

السهرات الوجدانية لها في ماضيهم وحاضرهم مكان ملحوظ؛ وهم يشدون إليها الرحال من أرض إلى أرض، وقد يتحملون في سبيلها ما لا يطاق.
ولكن ما هو الغناء الذي يميل إليه البغداديون في هذه الأيام؟
عندهم فن من الغناء يسمى الأبوذية، وهو في أغلب أحواله غناء حزين، ولكنهم مع ذلك يصطنعونه في الأفراح، والحجاز بين الفرح والحزن حجاز دقيق عند من يعرف أن العراقي حين يطرب قد تجود عيناه بالدمع السخين.
وقد كلفوا في الأعوام الأخيرة بأغاني أم كلثوم، كلفوا بها كلفاً شديداً جداً، وهم يعلنون عن سهراتها في جرائدهم بالمجان. ولشعرائهم في الهيام بأغاني أم كلثوم قصائد جياد.
ولا يبعد عندي أن يدّعوا نسبتها إلى العراق بعد حين، فأم كلثوم فيما يظهر سرقت حنجرتها من الحمائم الموصلية. والله أعلم!
ولم يكن أهل بغداد يطربون لاغاني عبد الوهاب. ولذلك سبب تحسن روايته في هذا الحديث.
كان عبد الوهاب زار بغداد في عهد الملك فيصل، طيب الله ثراه، وكان وقع في غلطة ذوقية ثار لها البغداديون، كان لقيهم بمظهر من الأرستقراطية لا يرتاحون إليه فانصرفوا عن أغانيه كل الانصراف.
ولكن تغير الحال حين رأوا فلم (يحيا الحب) فأحبوه إلى حد الجنون.
ويظهر إن السيدة التي غنت أنشودة البرتقال هي السبب في انجذاب البغداديين إلى عبد الوهاب، فتلك السيدة عراقية الملامح وهي تشبه ليلى في تقاسيم الوجه ورخامة الصوت.
أترك هذا وأنتقل إلى صورة ثانية
قلت مرة إن أنهار العراق مسمكة جداً، فاعرفوا اليوم أن عندهم لوناً من الطعام هو السمك المسقوف.
والسمك المسقوف مشهور جداً في بغداد، وينص عليه في الدعوات كأنه من غرائب الأشياء.
ولكن السمك المسقوف له تقاليد يعرفها أهل بغداد، فهو لا يؤكل في كل وقت وفي كل
مكان، وإنما يؤكل بالليل وفي الفضاء.
وإنما سمي مسقوفاً لأنه يوضع فوق قضبان من الحديد ثم تشب من حوله النار فينضج بالحرارة، كما يصنع من يشوون اللحم في محل (الدهان) إن كنتم رأيتموه.
وفي دجلة جزيرة صغيرة ينحسر عنها الماء بعد الفيضان، وهم يسمونها جزرة، وأهل بغداد يختارون هذا المكان لأكل السمك المسقوف في ليالي الصيف، ويظهر أنه كان مجال اللهو والطرب منذ أجيال طوال، فهو يواجه الكرادة، والكرادة فيما يظن كثير من البغداديين محرفة عن كلْواذ التي قال فيها أبو نواس:
قالوا تنسك بعد الحج قلت لهم ... أرجو الإله وأخشى طير ناباذا
أخشى قُضيِّب كرم أن ينازعني ... رأس الخطام إذا أسرعت إغذاذا
فإن سلمتُ وما نفسي على ثقة ... من السلامة لم أسلم ببغداذا
ما أبعد الرشد ممن قد تضمنه ... قطرُّ بلٌ فقرى بنَّا فكلواذا
والتي دعا عليها مطيع بن إياس فقال:
حبذا عيشنا الذي زال عنا ... حبذا ذاك حين لا حبذا ذا
زاد هذا الزمان شرا وعسراً ... عندنا إذ أحلنا بغداذا
بلدة تمطر الثراب على النا ... س كما تمطر السماء الرذاذا
خُرِّبت عاجلاً وخرَّب ذو الع ... رش بأعمال أهلها كلواذا
وقد دعيت ليلة لأكل السمك المسقوف في تلك الجزرة، وكانت سهرة لطيفة في ليلة قمراء، ويظهر أن النسيم أراح أعصابي فغلبني النوم ونحن عائدون في السفينة، ثم استيقظت مذعوراً على صراخ النساء فظننت أن السفينة أشرفت على الغرق، ثم ظهر أنها اصطدمت بالارض، فضحكت وحمدت الله على النجاة!
وإنما نصصت على هذه الصورة لتعريفكم بأن لأهل بغداد ألواناً من الطعام تغاير الألوان المصرية، والفرق بعيد جداً بين ألوان الطعام في القاهرة وألوان الطعام في

بغداد. والظاهر أن المائدة المصرية الحديثة منقولة عن المائدة التركية، ولا كذلك المائدة العراقية فلها مذاق خاص بأهل العراق، وربما كان لها اتصال بما يتذوق الفرس والهنود.

قد تقولون: ولكن أكل ما تختص به بغداد هو الطعام والشراب والغناء؟

إن قلتم ذلك فإني أجيب بأن لبغداد خصائص غير هذه الخصائص، منها الجد الرصين الذي يتمثل في تناول الحياة من نواحيها العنيفة في الكفاح والجهاد.

وأؤكد لكم أن البغداديين صبروا على ما لم يصبر عليه أصدق الرجال.

صبر البغداديين على بلايا كثيرة أخفها الأوبئة والطواعين، وصبروا على مكاره الدهر وتصاريف الزمان.

والبغدادي له لحظات بؤس يواجه فيها نفسه وهمومه ورزاياه، والشعور بالكرب هو أخص ما يلازم البغدادي حين يجلس وحده في المقهى أو في البيت، وهذا الحزن القاتل الذي يساور أهل بغداد من حين إلى حين هو الذي يجعلهم أقرب الناس إلى الغريزة الإنسانية، وهل يسيطر الحزن إلا على كبار القلوب؟

وأعيذكم أن تظنوا ذلك الحزن علامة من علامات اليأس. لا فالبغدادي يأنس بحزنه ليتخذ منه ذخيرة لمواجهة الخطوب. وما عرف البغداديون مواقع النصر في التاريخ إلا في أعقاب الأحزان.

وتفسير ذلك سهل: فالحزن الموجع هو الذي يحمل الرجل على أن يستيئس فيستقتل ويستميت.

والحق أن البغدادي يسرف في الفرح ويسرف في الحزن، ومن هذه الطبيعة المزدوجة استطاع البغداديون أن يكونوا من أسمح الناس وأشجع الناس.

وما وقع بصري على رجل من أهل بغداد إلا تألمت وحزنت، لأني أرى الدهر طبع على وجوههم سمات الحزن الدفين، ثم يخف ألمي وحزني حين أتذكر أن تلك الوجوه الشواحب تعرف كيف تصبر على مواجهة الخطوب.

وما كانوا جميعاً مكروبين ولا محزونين، ولكن الأقدار أبت أن تسبغ عليهم ثوب الصفاء، ليكونوا كأشجار البادية التي تقاوم العواصف وتصبر على الضمأ والقيظ بلا توجع ولا أنين.

ولكن ما هي الصور التي يدفع بها العراقيون تلك الموجعات؟

للعراقيين أساليب كثيرة في جلب المسرات إلى قلوبهم، منها الاشتغال بالفروسية والتأهب للحرب، فمن أعظم الملاهي عند الشبان العراقيين في هذه الأيام أن يكونوا طيارين وجنوداً

وضباطاً في الجيش، ويظهر هذا اللون من اللهو في أجمل مظاهره حين يُستعرَض الجيش أو حين يقوم سباق الطيران.

وما أقول إن هذا النوع من أنس النفس بمظاهر القوة خاص بالعراق، لا، فهو موجود في كل أرض، ولكن إقبال العراقيين عليه يتْسِم بسمات من الروعة توحي إلى من يراه أنه من خصائص أهل العراق.

ومن كان في ريب من صدق هذه الحقيقة فليتصل بالراديو العراقي مرة ليسمع بعض الأناشيد الوطنية أو العسكرية، فإن فعل فسيعرف أن الحماسة في صدور الشبان العراقيين حماسة رائعة جداً، وأنها صادقة كل الصدق لا تكلف فيها ولا افتعال.

ومن هذه النزعة نشأ عند العراقيين عيب جميل هو الغرور القومي، فالعراقيون يعتقدون اليوم أن جيشهم أقوى جيش في الشرق، ويندهشون حين يسمعون أن مدرسة الحربية في القاهرة أعظم من المدرسة العسكرية في بغداد. وقد نشرت إحدى جرائدهم مرة أن مصر أوفدت أربعة شبان ليتعلموا في المدرسة العسكرية عندهم، فصدقوا الخبر وعلقوا عليه في المجالس والأندية والجرائد.

وترجع هذه السذاجة الطريفة عند الجمهور العراقي إلى منزع جميل هو قوة الروح المعنوي هناك.

وهذا الروح تمده روافد كثيرة في العراق يصدر بعضها عن المدارس وبعضها عن الجمعيات والأحزاب.

ويجب أن أنص في هذا الحديث على ظاهرة نفسية كاد ينفرد بها العراق، وهي إلحاحه على وجوب الإسراع في تكوين الوحدة العربية، فهم يتكلمون ويخطبون ويكتبون كل

وقت في تأييد هذه القضية، ويتمنون على أسلوبهم في السرعة أن يتم ذلك بعد يوم أو يومين.
وهذه الظاهرة تفسر ظاهرة أخرى لا يفطن إليها كثير من الناس.
وبيان ذلك أن الصحافة العراقية لا تملك حرية التعبير في كثير من الأحيان.
والذي تصل إلى أذنه أخبار القيود التي تعانيها الصحافة العراقية يتوهم أن العراق يعيش في ظل الجور والاستبداد.
والواقع غير ذلك. الواقع أن الحكومة العراقية تعرف الفورات التي تصطرع في أنفس الشبان، وتعرف أنهم يتسامون إلى أغراض لا تتحقق في عام أو عامين، فترى من الواجب أن تحمي أولئك الشبان من النزعات المتطرفة التي يخرج لهيبها من الجرائد والمجلات.
والواقع أيضاً أن حرية الصحافة في مصر تؤذي كثيراً من أهل الشرق، فهم يتوهمون أننا صرنا أعظم منهم لأننا نملك من الحرية الصحفية ما لا يملكون، ولو أنهم تدبروا لعرفوا أن حرية الصحافة في مصر لا تؤذي أهل مصر إلا قليلاً، لأن المصريين عرفوا مصايرهم السياسية والاجتماعية منذ أعوام، وهم لا يستوحون الجرائد في كل وقت، ولا ينزعجون حين يقرءون غرائب الاتهامات في الجرائد والمجلات بفضل ما درجوا عليه من نقد الأخبار والأحاديث.
وهذا الذي أقوله يفسر الخبر الذي قرأته في جرائد العراق منذ أسابيع، فقد أصدرت وزارة المعارف العراقية منشوراً يحرم على المدرسين أن يتعرضوا لغير الشؤون العلمية في ساعات الدروس.
وليس في هذا المنشور شيء من الغرابة، لأن المدرسين ممنوعون من الخوض في السياسة في جميع البلاد، ولكن تأكيد هذا المعنى من وقت إلى وقت شيء يحتاج إليه المدرسون في العراق.
قد سمعتم أشياء كثيرة عن العراق في هذا الحديث، منها الجِد الصارم ومنها المزاح المقبول، فاسمحوا لي أن أضيف إلى الصور السوالف صورة أجمل وأروع، وهي اهتمام أهل العراق بأخبار أهل مصر وشغفهم بأن يسمعوا ما يسرهم عن هذه البلاد.
فمن تقاليد الشبان والكهول في العراق أن يقرءوا المجلات المصرية وأن يستمعوا ما يلقى في الإذاعة المصرية، ومنهم من يعرف تخطيط القاهرة وإن لم يرها مرسومة في خريطة لكثرة ما يتأثر بالأوصاف المبثوثة في الجرائد والمجلات.
إن الشبان في العراق يتأثرون خطوات إخوانهم في مصر ويتمنون لهم المزيد من نعمة الصحة والعافية.
فيا أبناءنا في المدارس المصرية، تذكروا، ثم تذكروا
تذكروا أن لكم إخواناً في الأقطار العربية والإسلامية، وهؤلاء الإخوان يسألون عنكم في كل وقت، ويتمنون أن تتسع آفاق أذهانكم فتعرفوا أنكم لستم غرباء في الشرق، وأن الفتى
منكم إذا شرَّق وجد أهلاً بأهل وإخواناً بإخوان.
إن الشرق يدعوكم إلى أن تتعرفوا إليه كما يتعرف اليكم، فليكن من أمانيكم أن تزوروا الحواظر العربية والإسلامية وأن تعقدوا صلات المودة والإخاء مع إخوانكم في الشرق.
تذكروا يا أبناءنا في المدارس المصرية أن الوطنيَّ الصادق هو الذي يخلق لوطنه صداقات ومودَّات، فكونوا أوفياء لهذه المعاني في خدمة الوطن الغالي.
والله يتولاكم برعايته، ويسبغ عليكم ثوب العافية في العزائم والضمائر والعقول.
(مصر الجديدة)
زكي مبارك
-
الحقائق العليا في الحياة
الإيمان. الحق. الجمال. الخير. القوة. الحب
للأستاذ عبد المنعم خلاف
الإيمان
بقية الحديث في مصير الإنسانية

إن مصير الإنسانية ليس بالأمر الذي يمر عليه القلم بدون إلحاح في تركيزه في العقول وتبيين آثاره في الحياة وفي النفس. إنه الحياة كلها في رأي الدين، والعدم كله في رأي الإلحاد. وشتان بين الحياة كل الحياة، والعدم كل العدم فيما وراءهما من آثار! شتان بين أن يعتقد الإنسان أنه جنين في بطن الدنيا سيولد منها ولادة ثانية، وبين أن يعتقد أنه سيخرج منها سقْطاً مَسْبُوتاً هالكاً إلى غير رجعة! إنها مسألة عظمى في قيمة الإنسان وفي سكينته واطمئنانه إلى مركزه في الحياة.

إن الإنسان العادي غير الصوفي لا يحتمل أن يتلقى القول بأنه مخلوق للحياة هنا فقط، دون أن يثور على الحياة أو يقنط قنوطاً قاتلاً لحيويته.

لقد وصل القول عند بعض الفلسفات إلى اعتبار الإنسان مظهر الإلهية أو شرارة من روحها! فكيف إذاً ينطمس هذا المظهر، أو تنطفئ تلك الشرارة؟

ثم لنرجع إلى ما يثبته العقل للخالق من حكمة وعدل تقتضيهما ضرورة الكمال الإلهي الذي لا يستطيع العقل أن يستغني عنه كصفة ثابتة للإله، فنتساءل: هل في الدنيا مع آلامها وشرورها عدل مطلق؟ يجيب المؤمن والملحد عن ذلك جواباً واحداً: كلا! ثم يفترقان، فيذهب المؤمن إلى أن كمال العدل المطلق وراء هذه الحياة، في تلك الحياة المثالية التي فيها كل خيالات الكمال وأطياف السعادة التي طافت بأحلام كل الناس وسكنت رؤوس الفلاسفة والحكماء، أوجدها في نفس الإنسان إلهام عميق خفي لتتم الصورة العقلية للكمال الإلهي. وفي هذه المقدمات وفي نتائجها المستمدة من منطق الطبع ومنطق التجريد راحة النفس المؤمنة وسكونها وطمأنينتها.

أما النفس الملحدة فماذا عساها أن تصنع غير طيران خواطرها في فراغ لا قرار له؟ إنها لا تملك أن تسقط على قرار حتى تتحطم فتستريح! ومِلاكُ ما تنتهي إليه إن حياتها كحياة تلك الحشرات والديدان التي (تعيش) على الروث والعفونة في الظلمات ثم تموت عليها وتدفن فيها! ولْتَحْيَ بعد ذلك السموات أو فلتسقط! ولتكن هذه العوالم الزاخرة بالعلوم والجمال والعجب العجاب لتراها فقط أشباح تلك الحشرات الصغيرة والكبيرة من بُعْدٍ فتقتل غيظاً كل يوم ألف مرة ثم تذهب إلى غيبوبتها الكبرى مع الجمادات كما كانت! والحياة إذاً بلا قصد أو غاية، والرؤوس الإنسانية إذاً تفرز التفكير كما تفرز الكبد الصفراء، أو كما يفرز ذيل العقرب السم!

سلام لك أيتها النفوس المعذبة مما أنت فيه وإنه لعذاب غليظ!

إن الإلهام الذي فيك من الخالق يناديك: أنت المقصودة بالخلق في الأرض. . . أنت خالدة. . .

يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي)

وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين. لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين. بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق. ولكم الويل مما تصفون)

ثم مادام كل ما في الفلسفة فروضاً لا تدخل في قليل أو كثير إلى العلم اليقيني، فما بالنا نترك الإيمان بوجود مصير رفيع للإنسانية على أنه فرض فلسفي؟ إنه أصح الفروض وأصلحها للحياة الدنيا وادعاها إلى الإصلاح المستمر المخلص.

وهنا دليل ينبع ويستنبطه العقل من بين ما أقول: ذلك أن أقرب الفروض إلى الحق في الدنيا هو ما يدعو إلى صلاحية النفس للحياة وإصلاحها لها، وما يحل به أكبر مقدار ممكن من المشكلات، وما صح تطبيقه على وجه الشمول بين الناس في كل مكان وزمان. ذلك مبدأ تسلم به الفلسفة والعلم ومذاهب الأخلاق.

ومصير الإنسانية إلى حياة أخرى أسمى من هذه الحياة هو ذلك الفرض الذي ينطبق عليه ذلك التعريف السابق، هو لا غيره.

وقد عودتنا الحياة المدنية أنها لا تحترم ولا تبقى إلا ما يتفق مع حفظ قوانينها ويضمن اطراد تقدمها. فمتى خلينا الدنيا من هذا الفرض أمام الإنسان فهنالك تكون الحالفة: حالفة العمران. وإذا كانت معرفة مثل الزهاوي أن الإنسان لا يأتي إلى هذه الدنيا مرتين قد حملته على أن يطلق لنفسه العنان في اقتراف اللذات ويدعو إلى ذلك فيقول:

لا تقف في وجه لذا ... تك مكتوف اليدين
أنت لا تأتي إلى دني ... اك هذى مرتين
فما بالنا لو عرف الناس أنهم لا يأتون إلى دنياهم ولا يذهبون إلى مصير آخر؟ إنهم يفعلون كل جريمة للذة وانتهاز فرصة الوجود الواحد في هذه الحياة التي ليست حينذاك إلا وليمة أدبها لنا القدر لنتلذذ ونتشهى فيها كما قال الأول:
تمتع من شميم عرار نجد ... فما بعد العشية من عرار
وحق لهم أن يفعلوا ذلك!
ينبغي أن تعلم وتتذكر دائماً أن (إرادة الحياة) إنما تحفل غاية الاحتفال بعقليات أكثرية الإنسانية لا بعقليات هؤلاء الفلاسفة المسرفين، وقطيع الإنسانية يسير بإلهام مركب كما تسير قطعان الحيوانات الأخرى بالهام بسيط، وإذا كانت قطعان الحيوان لا تحتاج في حياتها إلى فلسفة لأنها تسير بنظام أشبه بالنظام الآلي فإن الإنسانية تحتاج في سيرها في الحياة إلى الفلسفة ولكن من غير إسراف. فلا يفرض حكيم أو فيلسوف شذت فيه شعلة الخيال والذكاء وقوة الافتراض عقله وطريقة إدراكه للأشياء على جميع عقليات الإنسانية المرهونة بالبسائط والسجينة في أقفاص فولاذية من الضرورات الجسدية. وقد دلت الإنسانية بتاريخها العتيد أنها لا تستجيب لخيال الفلاسفة المسرفين إلى درجة الهذيان أحياناً. ومن مصيبة بعض الفلسفات أنها تتخذ الشك ديناً؛ والشك حسن على أنه باب إلى اليقين عند من في عقولهم محطات ورباطات تقفهم عند البديهي، لا على أنه حالة استقرار فإنه حينئذ يُجِنُّ ويشقى ويشرد العقل الإنساني وينفيه من حياة الإلهام البسيط والمركب، وكل شيء في الحياة لغز وأُحْجِية من ذرة المادة وصورها وتكوينها وطاقتها وقواها إلى الروح وأسرارها وخفاياها. كل شيء يحمل كل عقل بصير يقظ على أن يقف أمامه دائراً بأسئلة عنه لا عدد لها، وقد نقلنا في مقال (النار المقدسة) المنشور في عدد سابق من الرسالة عن (ملكن) العالم الكهربائي الكبير قوله: (خبروني ما هي المادة؟ أخبركم ما هي الروح. . .)
وقد خابت الفلسفة اليونانية في أن تخرج ديناً عاماً يتبعه جميع اليونان، دع عنك أكثر الناس. وكانت كل مدرسة من مدارسها لا تظفر إلا بعدد محدود من التلاميذ لا يلبثون أن يتفرقوا بعد موت أستاذهم أو في حياته، من غير أن تقدم إحدى تلك المدارس إلى الناس وازعاً يقوم مقام وازع الوثنية التي كانت تضج بها معابدهم. ولا يزال (العقليون) خائبين في إيجاد ذلك الوازع الأدبي الذي يحكم الجماعة من الداخل كما تحكمها القوانين من الخارج. ذلك لأن الإنسانية ممدودة بالإلهام الذي يربطها بما وراء الطبيعة. ولن تستغني عن وازعه بما تقدمه لها العقول؛ إذ هي من جهة حائرة في أي العقول تتبع، ومن جهة أخرى هي لا تؤمن بما تصنعه هي، ولا تعتمد عليه في رغبتها ورهبتها. وما تقدمه إليها العقول مصنوع مخلوق أمامها فهو أرضى ضعيف غير ممدود بما وراء الطبيعة، فلا يعزى ولا يخيف ولا يرغب.
وهذا هو ما يسلمنا إلى الحديث عن (النبوة والرسالة) ووجوبهما. والعمدة فيهما على معرفة (الوحي) وقد خرج الحديث عن الوحي من منطقة الفلسفة إلى منطقة العلم بالبحوث العلمية الأخيرة في النفس الإنسانية وقواها وأسرارها. وهي بحوث مبنية على التجارب التي هي أداة (العلم) بمعناه الاصطلاحي الآن.
الرستمية
عبد المنعم خلاف
أمر؟!!
من زينب الحكيم إلى توفيق الحكيم
هناك في حلوان على يسار الداخل إلى الجهة اليمنى (الشرقية) من الحديقة (اليابانية) يرى الزائر: جانباً من الحديقة منسقاً بفكرة خاصة؛ حيث هيئت بركة مائية على شكل حدوة الحصان من قاعها، وينتهي وسطها بزاوية حادة من أعلى حواشيها.
وأقيم كشك على شكل مظلة، على الأرض التي تتوسط البركة من الطرف المفتوح من الحدوة، وقد زين هامشها بالزهور وسياج من السلك الشائك. ووضع تحت المظلة مقاعد خشبية، جلست على مقعد منها، بحيث أتمكن من رؤية البركة كلها وما يحيط بها.
نسق هذا الجزء من أرض الحديقة، على شكل سهل يرتفع بالتدريج، إلى ربوة منحدرة

خضراء، شيدت على قمتها مظلة مثل التي أجلس تحتها. أما حواشي البركة فترتفع من الجهة اليمنى، وتنخفض من الجهة اليسرى تبعاً لطبيعة ذلك الجزء من الأرض. وأقيم على حافتها من الجهة الشمالية الشرقية، عدة تماثيل طوبية اللون (أي أشبه بلون طوب البناء الأحمر الضارب إلى الصفرة).

والذي استرعى انتباهي هو اتحاد جميع التماثيل في الشكل والنوعية والفن. ولم يشذ منها إلا تمثال واحد، تبينت أنه لسيدة، وهو أكبر حجماً.

أحصيت تمثال الرجل الواحد فوجدتها ثمانية وأربعين تمثالاً، صُف ستة عشر منها على حافة البركة اليمنى، ثم يأتي تمثال السيدة، ويتبعه على الجهة ذاتها اثنا عشر تمثالاً يقع موضع آخر واحد منها في وسط هامش البركة. ثم يتبعه في اتجاه مقابل من الجهة اليسرى عشرون تمثالاً.

ما عسى أن يكون المعنى الذي يشير إليه هذا الوضع؟ إنه يشبه مجلساً ملكياً ترأسه ملكة وهؤلاء مستشاروها. لكن الغريب في هؤلاء المستشارين أنهم جميعاً سواسية في الجلسة والهيئة والسحنة والرداء وكل شيء، حتى تلك الدائرة الصغيرة البارزة الموضوعة على جباهها. ورءوسها كلها عارية خالية من الشعر، أما رأس الملكة فتغطيه جدائل سميكة من الشعر، مصففة بشكل يحيط الرأس ويغطي الجبهة حتى تلك الدائرة الصغيرة البارزة في وسطها.

عجيب هذا - وما معناه -؟ الكل يرتدي ثوباً منسدلا منسجما عليه بنظام واحد كون شبه قلادة حول العنق تتدلى إلى الجزء الأعلى من البطن، أما عند السيدة فتنحدر قليلاً إلى أسفل. ووضعت اليدان متقابلتين على الحجر فوق الركبتين، والراحتان منقبضتان في يسر، والإبهامان ملتصقين، وشكلها كما لو كان الإنسان يفكر في شيء مهم يشغل كل انتباهه وجميع حواسه. فالتماثيل كلها مسبلة الجفنين، مطبقة الشفتين، تومئ قليلاً إلى أسفل، وتتجه جميع الوجوه إلى الأمام.

عجيب هذا الأمر الذي جعل من تسع وأربعين شخصية مختلفة شخصية واحدة، كأنما تنازلت عن ذواتها في سبيل هذا الأمر الواحد، فظهرت كلها متحدة متشابهة! أو لعلها شخصية واحدة نحت لها ثمانية وأربعون تمثالا وراءها تمثال لسيدة لا يختلف عنها كثيراً!

وأنت أيتها السيدة، منصرفة إلى تفكير عميق مثلهم، لا تمتازين إلا بشيء آخر غير الشعر، وهو أن يديك وإن كانتا تشابهان باقي الأيدي في وضعها إلا أنهما شاذتان عنها في نوع القبضة وتقابل الإبهامين، حيث يدل منظرها على تمسك برأي أو بمبدأ. وكأنما تعرضين هذا الأمر على مجلسك فيقبله مستشاروك بروح سلام وإعمال فكر، بدت آثاره على محياهم، وانصرف جميعهم إلى التفكير العميق فيه بلا انقطاع؛ ويلوح أن الكل مشبع بروح الود والإخلاص والتضحية. والرأي لم يبرز نتاجه بعد، ولم يتم حكمه.

ترى ما هذا الأمر الذي لا يترك أثراً للتأفف على الوجوه، ولا على السلوك؟!

هاهي ذي الشمس تشع، ويسطع نورها على التماثيل التسعة والأربعين فيعمل اختلاف مسقط الظل عمله، فتظهر التماثيل المتحدة، بأشكال وسمات مختلفة؛ وبذلك تنعكس طبائع النفوس على حقيقتها وإن اتسمت كلها بسمة واحدة ووضع واحد ونوعية واحدة في ظاهرها. إن فن المنظور يحتم تضاؤل أو تعاظم هذه التماثيل بالنسبة لارتفاع المواضع أو انخفاضها، وبالنسبة لبعدها أو قربها. وهاهي ذي عين الإنسان، تتغير نظرتها وتتبدل، بالنسبة لهذه التماثيل مرات في وقت قصير.

الشمس تحجبها السحب، فيظهر المنظر كله من نوع آخر ومعنى آخر. وإذا ماء البركة الذي كان يتماوج ويوحي الفلسفة، ويدعو إلى التفكير ويستلهم منه مجلس التماثيل الاستشاري الصامت إلهامه من لحظات مضت - قد تسرب، وظهر قاع البركة جافاً، إلا من بضع نقر بها أوشال من الماء هنا وهنا. ولكن التماثيل لا تزال هي هي، في وضعها وسماتها، تومئ إلى تلك البركة في رخائها وجدبها، وارتفاعها وانخفاضها، وطهرها وأسنها.

وعقلية تلك التماثيل ومنطق وضعها الدال على فكرة خاصة ومقصد مبهم، لا تزال جادة في تفكيرها وتدبيرها لذلك الأمر الواحد.

ترى ما هو؟!

الطبيعة الصامتة تكوّن بيئة فخمة لذلك المجلس الصامت. العشب الزبرجدي يكسو

الربوة العظيمة التي خلف الملكة وحاشيتها من الناحية اليمنى، والشجيرات الأرجوانية الزهر، نامية رابية وراء الصف المقابل من التماثيل في الناحية اليسرى، ويهتز مع النسيم ورق وغصون الأشجار العالية خلفها جميعاً، والشجيرات الخضراء التي بين كل تمثال وآخر، تحمل قليلاً من الزهر الأبيض النقي، يضع أوسمة على صدور بعض التماثيل، وتمسح غصون لطيفة خضراء على رؤوس البعض الآخر أو تظللها.
ويحجب بعض التماثيل كلها أو أجزاء منها عن ناظري الأشجار المشذبة المتناثرة هنا وهنا؛ والطيور تحلق وتغرد، وتهبط وتصمد، والزوار يغدون ويروحون منهم المفكر واللاهي، والمستشفي والساعي، ومنهم الطفل ومنهم الكهل.
كلها مناظر وأوضاع تستدعي الانتباه واليقظة، ولكن يخرجني من هذا كله صوت ذلك الناقوس البعيد، فأنظر إلى السماء فإذا بها السماء بزرقتها وسحبها وطيورها، وانظر إلى الأرض، فإذا بها الأرض بترابها وأحجارها، ومائها ودوابها وأشجارها.
وأنظر إلى ما حولي، فإذا بي أرى المجلس الصامت بين الطبيعة الصامتة، والكل وراء أمر غامض.
ترى ما هو؟!
وأنظر أخيراً إلى ساعتي، فإذا بها الواحدة، ووقت الغداء في الفندق قد حان، فأنصرف مسرعة إلى الحياة العملية التي لا نصيب منها إلا كسرة بها نقتات، وخرقة بها نحتمي.
أما التفكير، وأما الفلسفة، وأما التصوير - فليغير هذا العالم.
زينب الحكيم
جورجياس أو البيان
لأفلاطون
للأستاذ محمد حسن ظاظا
- 16 -
تنزل (جورجياس) من آثار (أفلاطون) منزلة الشرف، لأنها أجمل محاوراته وأكملها (وأجدرها جميعاً بأن تكون (إنجيلا) للفلسفة!)
(رينوفييه)
(إنما تحيا الأخلاق الفاضلة دائما وتنتصر لأنها أقوى وأقدر من جميع الهادمين!)
(جورجياس: أفلاطون)
الأشخاص
1 - سقراط: بطل المحاورة: (ط)
2 - جورجياس: السفسطائي: (ج)
3 - شيريفين: صديق سقراط: (س)
4 - بولوس: تلميذ جورجياس: (ب)
5 - كاليكليس: الأثيني: (ك)
ط - (رداً على بولوس الذي سلم بقول سقراط) ولنأخذ الآن الحالة المضادة، ولنفرض أنه يجب أن ننزل شراً بأحد من الناس عدواً كان أم غير عدو، وإنما على شريطة ألا نكون قد أُصبنا منه بسوء - إذ يجب أن نحذر من ذلك تماماً - فإذا كان إذاً غيرنا هو الذي أُصيب منه، فيجب أن نبذل كل الجهود الممكنة من أعمال وأقوال حتى لا يعاقب ولا يمثل أمام القاضي، وإذا هو قُدِّم إلى المحكمة فيجب أن يعد السبيل لفراره وعدم عقابه، بحيث لو كان قد سرق كمية كبيرة من الذهب فإنه لا يعيدها إلى صاحبها بل يبقيها وينفقها على نفسه وأتباعه بطريقة ظالمة جاحدة، وبحيث لو كان قد استحق الموت بجرائمه فإنه ينجو منه، بل إذا أمكن ألا يموت أبداً وان يخلد برداءته وشره، أو إذا أمكن على الأقل أن يعيش إلى أطول حد مستطاع بحالته تلك - فليكن له ذلك . . .!
تلك يا بولوس هي الغايات التي يلوح لي أن البيان يستطيع أن يخدمها لأني لا أراه يقدم فائدة كبيرة لذلك الذي لا يستطيع أبداً أن يرتكب ظلامة ما، إذا صح أن يقدم له أية فائدة! وقد رأينا في مناقشتنا السابقة أنه (أي البيان) لا يصلح لشيء.
ك - أخبرني يا شيريفين! أترى سقراط جاداً فيما يقول أم هو يهذر؟
ش - يلوح لي يا كاليكليس أنه جاد كل الجد، ولكن ليس أفضل من أن توجه إليه سؤالك.
ك - وأنا أرغب في ذلك كل الرغبة وحق الآلهة! أخبرني يا سقراط: أيجب أن نعتقد أنك

كنت جاداً طوال هذه اللحظة أم كنت تهذر؟ ذلك أنه إذا كان كلامك مقصوداً، وإذا كان قولك حقاً، فإن حياتنا الاجتماعية لا شك معكوسة، وإنا لنفعل - فيما يلوح - نقيض ما يجب أن يفعل!

ط - إذا لم يكن الناس يا كاليكليس خاضعين لأهواء واحدة وكان لهؤلاء اتجاه ولأولئك اتجاه آخر، بل وكان لكل منا هواه الخاص الذي لا يتصل بأهواء الغير، فإنه لا يكون سهلاً ولا ميسوراً أن نجعل الغير يدرك ويفهم ما نشعر به، وإذا كنت أقول ذلك فإنما أقوله لأني قد لاحظت أننا الآن - أنت وأنا - في نفس الحالة، فنحن الاثنين عاشقان لموضوعين اثنين، أنا (لألسبيادبن كلينياس) والفلسفة؛ وأنت (لديموس) الأثيني (ولديموس بن فيريلامب) ولذلك أتخيل دائماً أنه بالرغم من فصاحتك الخاصة، فإن كل ما يقوله موضوع غرامك وهواك وأي نحو يري به الأشياء، لن يجد منك القدرة على مناقضته! بل إنك سوف تترك نفسك كالريشة في مهب أفكاره، بحيث لو قد بسطتَ في الجمعية العمومية فكرة ما، وقام (ديموس) الأثيني يعارضها، فإنك ستتركه يفعل ما يشاء، وستعدل من لهجتك تبعاً لأهوائه؛ كما إنك قمين بأن تفعل مثل ذلك إزاء هذا الفتى الجميل ابن (فيريلامب)! ذلك لأنك يا كاليكليس في حالة لا تسمح لك بمعارضة رغبات وأقوال محور عشقك وهواك، بحيث إذا دُهِشَ بعضهم وبُهت في كل مرة تتكلم فيها، وساير أقوالك فوجدها سخيفة معتلة فإنك ستستطيع أن تجيبه - إذا أردت أن تقول الحق - بأنه إذا لم يمنع أحد (غرامك) من أن يتكلم كما يتكلم، فإنك لن تستطيع أن تمنع نفسك من أن تقول ما تقول! فقل لنفسك إذاً إنها يجب أن تنتظر نفس الإجابة من ناحيتي. ولا تعجب من الأقوال التي سأقولها، ولكن أرغم - (إذا استطعت) - موضوع حبي - (وهو الفلسفة) - على أن يكفَّ عن قول ما يقول! إنه هو في الحقيقة يا صديقي العزيز الذي يقول من غير توقف ما تسمعني أردده في هذه اللحظة، وإنه لأقل تغيراً بكثير من موضوعات غرامي الأخرى؛ لأن (ابن كلينياس) يتكلم أحيانا بطريقة أخرى، بينما لا تتخذ الفلسفة دائماً إلا قولاً واحداً؛ إنها هي التي نطقت بالأقوال التي أدهشتك، والتي ساعدت بنفسك في مناقشتها؛ وأكرر أنها بالتالي هي التي عليك أن تناقضها، فبرهن إذاً على أن ارتكاب الظلم والعيش بعد ارتكابه دون عقاب ليس بأفدح الشرور؛ وإلا فإذا تركت ذلك القول دون أن تنقضه، فإني أقسم لك (بالكلب) إله المصريين يا (كاليكليس) أنك لا تتفق مع نفسك، وأنك تعيش معها في اضطراب دائم؛ وأنا أفضل من ناحيتي يا صديقي الحاذق أن تكون لي ربابة غير متوافقة الأوتار وكلها نشوز، أو أن أكون رئيساً لفرقة مغنين مضطربة الأصوات، أو أن أجد نفسي معارضاً ومناقضاً لأغلب الناس، على أن أكون مختلفاً فقط مع نفسي ومناقضاً لها.

ك - يبدو لي يا سقراط أنك تبدع في كلامك كما يبدع الخطيب الشعبي؛ وإنك لتخطب هكذا لان بولوس قد أصيب بنفس الغيبوبة التي قد اتهم جورجياس بإصابته بها حيال أقوالك. والحق أن بولوس كان محقاً في قوله إن اعتراف جورجياس - عندما سألته أنت هل سيعلم (العدالة) لذلك الذي سيقصد إلى مدرسته راغباً في تعلم البيان دون أن يعرف شيئاً عنها، وأجابك هو بأنه سيعلمه إياها جرياً وراء خجله الكاذب، وخوفاً من أن يصدم آراء أتباعه السابقة الذين كانت ستغضبهم أية إجابة غير هذه - أقول الحق بأن بولوس كان محقاً في قوله. إن هذا الاعتراف جعل الرجل يتناقض مع نفسه ويحقق ما كنت تبغيه منه تماماً؛ ولكن هاهو ذا بولوس قد أصبح بحق (أيضاً) موضع سخريتك فيما يلوح لي، وذاك هو السبب الذي جعله يضع نفسه موضع جورجياس: فإني لم أرض من ناحيتي عن موافقته لك على أن (الأقبح) هو ارتكاب الظلم لا احتماله: لأنك استطعت بعد ذلك التنازل منه عن رأيه أن تعرقل مناقشته بتدليلك، وأن تقفل فمه فلم يجرؤ على الكلام متابعاً رأيه، والواقع أنك في الوقت الذي تزعم فيه وتؤكد أنك تبحث عن الحقيقة وحدها نراك تسلك مسلك الخطيب الشعبي المهرج وتوجه الكلام نحو (الجميل) لا تبعاً لأحكام الطبيعة، بل تبعاً لأحكام القانون، ولكن الحق أن الطبيعة والقانون يتناقضان في أغلب الأحيان، فإذا حدث وغلب الحياء على المتكلم فمنعه من التصريح بما يراه فإنه يضطره إلى مناقضة نفسه؟

وذاك هو السر الذي اكتشفته يا سقراط لتستعمله في نصب اشراكك وفخاخك في المحاورة، حتى إذا تكلم أحدنا مشيراً إلى القانون، سألته أنت بالإشارة إلى الطبيعة،

وإذا تحدث عما هو كائن في نظام الطبيعة سألته مشيراً إلى القانون، وهكذا فعلت مثلاً في الظلم المرتكب والمتحمل، إذ بينما كان بولوس يتكلم عن الأقبح تبعاً للقانون، كنت أنت تتابع المناقشة مشيراً إلى الطبيعة، لأن كل ما هو (أردأ) في نظرها هو أيضاً (الأقبح) مثل احتمال الظلم، بينما (الأقبح) تبعاً للقانون هو (الارتكاب) لا الاحتمال، والواقع أنه ليس من طبيعة الإنسان الحر أن يحتمل الظلم، وإنما ذلك من طبع العبد الذي يرى أن الموت أفضل من الحياة، والذي يؤثر ألا يدافع عن نفسه وهو محتقر مكلوم، وألا يدافع أيضاً عمن يهمه أمرهم؛ ولكني أرى أن الضعفاء والسواد الأعظم هم الذين سنوا القوانين! وهم لذلك قد جعلوها لأنفسهم ولمصالحهم! لهذا تراهم لا يوزعون ثناءهم ومديحهم، أو لومهم وعتابهم، إلا من أجل ذلك الصالح الخاص ولكيما يخيفوا الأقوياء - وهم أولئك الذين يستطيعون أن يعلوا عليهم - ولكيما يحولوا بينهم وبين ذلك العلو، تراهم يقولون أن الظلم والعار في الطمع فيما هو أكثر من نصيبك، وإن الظلم إنما يقوم في الرغبة في امتلاك شيء أكثر مما يمتلك الآخرون؛ وإني لأتخيلهم يرضون ويقنعون بأن يكونوا على قدم المساواة مع من هم أفضل منهم! وذلك هو السبب في أنهم يقررون في عالم القانون أن الطمع في إحراز ما هو أكثر من النصيب العام للأفراد ظلم وقبح! بل ذلك هو ما يسمونه (بالظلم)! ولكني أرى أن الطبيعة نفسها تعلن أن العدل إنما يقوم في أن ينال الأحسن أكثر من الأسوأ، والقوي أكثر من الضعيف، وإنها لتقدم لنا ألف مثال لتثبت أن الأمر كذلك، لا في عالم الحيوان فحسب، بل في النوع الإنساني أيضاً بين المدن والأجناس جميعاً، حيث نستطيع أن نتبين أن العدالة تبغي أن يسود (الأقوى) على (الأقل قوة) وأن ينال نصيباً أوفر من نصيبه. فمثلاً بأي حق في الواقع قام بالحرب في بلاد الإغريق؟ وبأي حق قام بها أبوه في هذا إذا تركنا الأمثلة اللانهائية التي نستطيع أن نذكرها من ذلك النوع. إنهم يعملون فيما أرى تبعاً لطبيعة (الحق)! وقسما بزيوس، تبعاً (لقانون الطبيعة) الذي ربما خالف قانون الناس!

(يتبع)

محمد حسن ظاظا

التعليم والمتعطلون في مصر

عيوب التعليم الحاضر وطرق إصلاحها

للأستاذ عبد الحميد فهمي مطر

العيوب العامة

وجهنا عنايتنا في الماضي إلى نشر التعليم فقط بدليل البيان البليغ الذي نشره معالي هيكل باشا وزير المعارف الحالي في أول عهده بهذه الوزارة في مايو سنة 1938. ولقد قمنا بما قمنا به من نشر على أساس النظم القديمة من غير أن نعمل عملاً جدياً في سبيل إقامة التعليم على أساس جديد وطيد سداه المبادئ التعليمية الحديثة ولحمته القومية المصرية والطابع القومي، فالرجل المتخرج في إحدى المدارس القائمة منذ نصف قرن من الزمان إذا دخلها اليوم يرى الطابع القديم بارزاً بها، والروح القديمة متأصلة فيها، والنظام القديم قائماً بين جدرانها؛ ولا يرى التغيير إلا في إحلال مدرسين وتلاميذ حديثين بدلاً من غيرهم من القدامى. وليس معنى ذلك الثبات على تقاليد قديمة مألوفة، ولكن معناه مع الأسف الجمود على نظم بالية معروفة؛ ومعناه كذلك أن كل مدرسة مصرية سواء أكانت في قنا أو الإسكندرية تسير على وتيرة أختها في كل شيء بدون تبديل ولا تحوير مهما بعدت الشقة بينهما ومهما اختلفت ظروفهما ومهما تفاوتت بيئتهما، مما دعا المستر مان إلى القول في تقريره: (قد سبق توجيه النظر في الفصل الثاني المختص بإدارة التعليم العامة في مصر إلى خلو نظام التعليم العام من المرونة والتنوع. رأينا بعض ما ينجم من هذا الجمود من النتائج السيئة الأثر في التربية القومية، بيد أنه يستحسن أن نعيد القول هنا بأن كل مدرسة مصرية تماثل في الوقت الحاضر كل مدرسة أخرى من درجتها كل المماثلة التي يستطاع إيجادها بواسطة اللوائح والقوانين، وبأن نظار المدارس ومدرسيها يكادون يعدون بمثابة آلات لإنفاذ ما تفرضه الإدارة الرئيسية من خطط دراسية لم يشتركوا في وضعها، ولم يؤخذ رأيهم فيه إلا في حالات لا تكاد تذكر، وهذه الخطط تطبق تطبيقاً عاماً من الشلال إلى الإسكندرية على نمط واحد بدون أية مراعاة لمصالح التلاميذ وحاجاتهم المتنوعة

وبغض النظر بتاتاً عما إذا كانوا من سكان الريف أو المدن وعما إذا كانوا سيحترفون في
المستقبل الزراعة أو سيزاولون التجارة أو الصناعة في المدن. ويجب أن نؤكد مرة أخرى أن مثل هذا النظام لا يحول فقط دون الانتفاع بخبرة النظار والمدرسين الفنية ومعرفتهم للشؤون المحلية في أغراض التعليم العامة، بل يمنعهم فعلاً من استخدام مواهبهم وكفايتهم استخداماً تاماً في إدارة مدارسهم بحسب ما تقتضيه أحوال البيئة ومرامي التعليم، لأنهم مهما رأوا في المنهج العام وخطة الدراسة وعدم الملاءمة لحاجات تلاميذهم الخاصة فإن واجبهم يحتم عليهم أن يتبعوها اتباعاً دقيقاً. أعود فأذكر أن ليس معنى ذلك الثبات على تقاليد معينة، إذ ليس لإحدى مدارسنا القديمة تقليد معين كتلك التقاليد المرعية التي يعرفها خريجو المدارس في إنجلترا مثلاً، ويفخرون بها، ويحافظون عليها. هذا والمعلم القديم الذي باشر العمل في المدارس المصرية منذ عشرين سنة ولا يزال يباشره إلى اليوم يشعر بالأسف العميق يملأ جوانح قلبه مما يراه اليوم من الانحطاط العام الذي أصاب حالة التعليم فيها ومن روح التواكل والتكاسل التي عمت أرجاءها؛ وهو لا شك يشعر بالأسف العميق أيضاً إذ يحس أن روح الجد والعمل من ناحية التلاميذ قد انقلبت إلى روح استهتار وقلة اكتراث وكسل يصحبها ميل شديد إلى الأخذ بأكبر نصيب من المتعة واللذة وحياة الطراوة والهزل حتى حار فيهم المربون وضاقوا بهم ذرعاً، واستولى اليأس من إصلاحهم على قلوب الكثيرين؛ وأصبحت الحالة لا تطاق بين جدران المدارس بسبب ما يوجد من الاستهتار والرعونة والخروج على المبادئ الأساسية المرعية بين التلميذ ومعلمه. وإن الفوضى التي تنتاب المدارس أحياناً وبخاصة في الأسبوع الأخير من العام الدراسي من خروج على النظام والآداب وإتلاف لبعض أثاث المدرسة مما يتناول كرامتها وكرامة أساتذتها، ولما تحزن له النفس ويهلع له القلب. وهذه حال ستؤدي حتماً إلى تدهور خلقي أشنع مما تقاسيه البلاد الآن إذا لم تجد اليد القوية الحازمة الرادعة التي تضع الأمور في نصابها فتعيد إلى المدرسة كرامتها، وتجعل أساس المعاملة بين التلميذ وأستاذه ومدرسته الاحترام الحقيقي المشوب بالعطف الأبوي يقابله في الوقت نفسه حب بنوي. وفي هذا يقول سعادة حافظ عفيفي باشا في كتابه على هامش السياسة (إما أسباب هذه الفوضى فهي ترجع إلى عدم تنفيذ القوانين المتعلقة بنظام المدارس تنفيذاً لا استثناء فيه. والى تركيز كل السلطة في وزير المعارف نفسه والى أخذ التلاميذ بسياسة مضطربة، فهي الشدة المتناهية أحياناً واللين المتناهي أحياناً أخرى والذبذبة بين الشدة واللين في أكثر الأحيان. الخ) وبعد كلام طويل عن تعديل القوانين بما يضمن للطالب الحرية في حدودها المعقولة، وللناظر والمعلم التمتع بالاحترام الواجب قال (. . . أما أن يشير ناظر المدرسة على وزارة المعارف بأن تتخذ نحو تلميذ بالذات قراراً معيناً فترفضه الوزارة أو تعدله فهذا هو الوسيلة لإضاعة نفوذ ناظر المدرسة. وبالتالي هو السبب لإفساد النظام نهائياً فيها. . .)

فإذا كانت المدرسة قد جمدت في نظامها فإن التلميذ قد اندفع في حريته إلى الفوضى التي لا يقرها عدل ولا نظام. وخير علاج للحالة الأخيرة هو طريق الإقناع الفردي الودي المشوب بالعطف؛ فإذا لم يجد ذلك كانت الشدة واجبة كل الوجوب. ولا بأس من استعمال العصى أحياناً بيد عاقلة حازمة كما يجري في كلية فكتوريا وفي المدارس الإنجليزية البحتة وقت اللزوم اتقاءً للخروج على الآداب ودرءاً للخطر في المستقبل، متمثلين بقول الشاعر:

فقسا ليزدجروا ومن يك حازماً ... فليقس أحياناً على من يرحم

أما العيوب الفنية العامة الأخرى بالمدارس المصرية فتتلخص فيما يأتي:

أولاً: خلق الطبقات

الطفل المصري الراغب في التعليم الآن يجد أمامه من المدارس المختلفة المراتب والأوضاع والمزايا روضة الأطفال، والمدرسة الالزامية، والمدرسة الأولية، وفرقة تحفيظ القرآن الكريم، والمدرسة الابتدائية، والمعهد الديني، والملجأ، والمدرسة الأجنبية، والشارع وهو أهمها الآن، إذ تجد به من الأطفال حوالي مليون ونصف المليون، بينما جميع المدارس السابقة الذكر لا يبلغ عدد من يؤمها اليوم المليون عدا.

فهذه المدارس الشعبية الأولى المتعددة تخلق أول تصدع في بناء الأمة الواحدة لأنها تخلق نظام الطبقات المختلفة في جسم هذه الأمة ذات الدين الواحد والعادات المتحدة، واللغة الواحدة. وخلق الطبقات بين أمة هذا حالها لا يقره دين ولا نظام، فالديمقراطية تنفر منه كل النفور لأنه لا يمكن أن يؤدي إلى الاشتراك في الميول والرغبات، ولا يمكن أن يؤدي إلى الاتحاد في الفهم العام، وهو أساس التفاهم بين الأفراد، فهو إذن ينزع إلى التفرقة الشاملة بين أفراد الأمة الواحدة، ولعل قيامه بهذا الشكل السر الأول في هذه الفرقة التي نحسها في ديارنا في كل شيء، وما دام قائماً في هذه المدارس المتباينة التي نرى في كل منها اختلافاً في الطرائق والأساليب والمذاهب وطرق التفكير فلن تكون لنا وحدة متماسكة ولن نستطيع أن نخلق من أبناء النيل أمة متحدة في الفهم والقصد ترمي إلى غرض واحد وتتعاون في طريق واحد! فإلى متى يا ترى يستمر تعليمنا عاملاً جوهرياً من عوامل التفرقة، وخلق الطبقات المختلفة المتباعدة في الفهم، المتنافرة في التفكير، مما يؤدي إلى النزاع الدائم المستمر الذي ينهى الله عنه بقوله (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) ولقد كانت هذه النقطة هي الأولى التي لفت إليها نظر معالي وزير المعارف في تقريري الذي رفعته إليه من مدرسة الفيوم الابتدائية في 16 مارس سنة 1936 لأنها من الأهمية بحيث تحتل المكان الأول من الإصلاح المطلوب، فلا سبيل إلى محو تلك الفروق والتقليل من تلك النزعات المختلفة بين أفراد الشعب الواحد والتقريب بين إفهامهم إلا بجعل أساس التعليم واحداً، ألا ترى كيف تعمل الدول المختلفة على نشر ثقافتها بين الشرقيين، وكيف تجهد نفسها، وتنفق الطائل من أموالها في سبيل جعل لغتها وطرق تعليمها هي السائدة حتى تتمكن من التفاهم مع تلك الشعوب. وتفوز بكسب عطفها وتقديرها.

فالتعليم هو الطريق الفعال المؤدي إلى التفاهم والتعاون، لذلك أرى أن أساس الإصلاح هو في التوحيد بحيث لا يوجد بيننا غير نوع واحد من المدارس يبنى على أساس واحد يسمى بالمدارس الشعبية، تندمج في تكوينه كل أنواع المدارس السالفة الذكر، ويتعلم فيها أبناء النيل على السواء لا فرق في ذلك بين غني وفقير، أو عظيم وحقير، تتلوه بعد ذلك مراحل التعليم الأخرى المختلفة فيشعر أطفالنا في تلك المدارس الشعبية العامة بأنهم جميعاً أبناء شعب واحد تسري عليهم حالة واحدة كما هو الحال في سائر البلاد الأخرى، ولا تفضيل لأحدهم على الآخر إلا بالجد والعمل والأخلاق الكريمة الفاضلة، كما نشعر جميعاً ونحن في المساجد متراصين متوجهين إلى الله أن لا فرق بين صعلوك وأمير وكبير، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (الناس سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى). هذه الوحدة الشاملة والألفة العامة، هي التي يجب أن تكون الغرض الأساسي من التعليم، والتي يجب أن تكون المدرسة أول عامل على خلقها. قال ديوي: (ومن مفسدات الديمقراطية أن يسمح بإنشاء طبقات مستقلة في الأمة، فإن التباين في الثروة، ووجود عدد وافر من جهلة أرباب الصناعة، واحتقار العمل اليدوي والعجز عن إدارة التربية التي تمكن

من التقدم في سبيل الحياة، كل ذلك يتضافر على إحداث طبقات مستقلة متفرقة وتوسيع شقة الخلاف والتفريق. على أن في إمكان أرباب السياسة والتشريع أن يدفعوا شيئاً من هذه الغوائل، كما أن على أهل المساعي الخيرية القيام بشيء من هذا الغرض النبيل. إلا أن العامل الأكبر الأصيل في هذا السبيل هو النظام المدرسي الشامل للامة جمعاء) ثم يقول: (لا يجوز أن تكون تفرقة بين أنظمة المدارس، فلا ينبغي وجود نظام لأبناء الموسرين، وآخر لأولاد العاملين بالأجور، فإن الفصل المادي بين الفريقين بسبب هذا التنظيم لا يتفق مع ترقية روح الإخاء المتبادل)

ثانياً: عزلة المدرسة

المدرسة المصرية معزولة عن بيئتها عزلاً تماماً، فترى التلاميذ يدخلونها فينقطعون عن كل ما يحيط بهم من الأعمال، كما نرى المدرس أو ناظر المدرسة خصوصاً في الأقاليم يترفع عن الشعب الذي يزود المدرسة بأبنائه، ويحاول الابتعاد عن أولئك الفلاحين كأنهم من طينة أخرى غير طينته، لانه يعتبر نفسه موظف حكومة كمأمور المركز، عليه أن يحتفظ بينهم بمكانته وعلو مركزه كما يتوهم، وبذلك لا يختلط بهم،

ولا يمكنه أن يعرف الأحوال الحقيقية لأبنائهم الذين بالمدرسة، ولا يستطيع أن يتعاون معهم التعاون الفعال على إصلاحهم بمعرفة نقط الضعف المختلفة في تكوينهم. ثم إن التلميذ يرسخ في ذهنه الاعتقاد بأن المدرسة لا صلة لها بالحياة وما يجري فيها من زراعة أو صناعة أو تجارة أو أعمال، وبأنه إنما يجيء إليها ليقضي جزءاً من وقته فيها لغير ما غرض واضح في ذهنه، اللهم إلا إعداده لأن يكون موظفاً حكومياً ولذلك يندفع في الابتعاد عن كل ما يمت إلى الحياة العلمية بسبب، حتى إن بعض التلاميذ يتعجب عندما يعلم إن المياه التي يشربها والتي تصل إلى منزله عن طريق الأنابيب أو عن طريق الترع والقنوات، ما هي إلا من مياه نهر النيل الذي يرسمه في علم الجغرافيا، فما بالك بعد هذا إذا خرج يسعى إلى الكسب في الحياة العامة؟ إنه لا شك يكون كالأعمى أو كالذي يذهب إلى ديار مجهولة لا يعلم عن أهلها وعن أعمالهم شيئاً، فيحار في أمره ويرتبك في حياته ولا يدري ما يعمل ليكسب قوته. وهذا في الحقيقة هو السبب الأساسي في خلق المتعطلين وقعودهم عن العمل لجهلهم بأحوال بيئتهم وما يحيط بهم من ظروف وأعمال. ولو أن المدرسة لم تفصلهم انفصالاً تاماً عن المزارع والمتاجر والمصانع المحيطة بهم وجعلت بينهم وبينها صلة قوية وجعلت من نفسها وحدة تشابه بيئتها لما كان ذلك العجز عن مواجهة الحياة. فهي إذن بعزلتها هذه تقصر في تربية التلميذ وتكوينه من الوجهتين الفعالتين القويتين: وجهة الاتصال المباشر بالمنزل، إذ الواجب يقضي بتعاونهم تعاوناً عملياً على النهوض بالتلميذ وتحسين حاله الصحي والثقافي والخلقي، ووجهة فصل التلميذ عن بيئته، وما يجري فيها من أعمال يحتاج إلى مزاولتها وممارستها في مستقبل حياته. ولقد أصبح لزاماً على المدرسة المصرية كغيرها من سائر المدارس أن توجه أكبر عنايتها إلى ذلك.

عبد الحميد فهمي مطر

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

1880 - 1937

للأستاذ محمد سعيد العريان

- 45 -

ليس الغرور لميت بمتاع؛ وما يجدي شيئاً على الرافعي أن يكون كل وفاء العربية له أن نقول: كان وكان يرحمه الله!

لقد كان الرافعي صاحبَ دعوة في العربية وفي الإسلام يدعو اليها؛ فحقُّه على العربية، وحقُّ العربية على أدبائها، وحق الإسلام على أهله، أن نجدِّد دعوته، وأن نبقي ذكره، وأن ننشر رسالته، وأن نُعنى بآثاره؛ فإذا نحن قد وُفِّقنا إلى كل أولئك فقد وفَينا له بعض الوفاء!

والآن فلننظر لنرى مقدار ما يمكن أن تصل إليه هذه الدعوة من النجاح؛ وأمامنا إلى ذلك وسيلتان:

أولاهما أن نعرف مدى تأثير الناشئة من المتأدبين اليوم بأدب الرافعي ومذهبه؛ والثانية هي البحث عن آثار الرافعي ومنشآته الأدبية وتراثه الفكري لنحرص عليه من الضياع.

فأما الأولى فإن بين الرافعي والأكثرين من ناشئة المتأدبين في هذا الجيل حجاباً كثيفاً يمنعهم أن ينفذوا إليه أو يتأثروا به لعوامل عدة:

فالرافعي أديب الخاصة، كان ينشئ إنشاءه في أي فروع الأدب ليضيف ثروة جديدة إلى اللغة تعلو بها وتَعِز مكاناً بين اللغات؛ ثم ليبدع أدباً يسمو بضمير الأمة ويشرع لها طريقاً تسير فيه إلى عظمة الخلد ومجد التاريخ.

وشبابنا أصلحهم الله لا يعرفون الأدب إلا ملهاة وتسلية، لا ينشدونه للذة العقلية وسموِّ النفس ولكن ينشدونه لمقاومة الملل وإزجاء الفراغ.

فهذا سبب

والثاني أن الرافعي - رحمه الله - لم يكن يكتب الكتابة الصحافية التي ينشئها أكثر كتابنا ليتملقوا غرائز القراء بالعبارة المتهافتة والقول المكشوف. وعند المتأدبين من ناشئة اليوم

أن قيمة الأدب هي بمقدار انطباقه على أهواء النفس وارتياحها إليه وقدرتها على أن تسيغه بلا تكلف ولا عناء.

وثمة سبب آخر، هو طغيان السياسة على الأدب في هذا الجيل طغياناً أقحم على الأدب ما ليس فيه وعلى الأدباء من ليس منهم؛ بحيث يتحرج أكثر الأدباء أن يقولوا قلة أو رأياً أدبياً في أديب أو شاعر إلا متأثرين بما كان له من مذهب سياسي أو رأي في السياسة المصرية.

والرافعي رجل - كان - لا يعرف السياسة ولا يخضع لمؤثراتها، ولم يكن يعتبر له مذهباً في النقد إلا المذهب الأدبي الذي لزمه منذ نشأ في الأدب؛ فمن ذلك كانت خصوماته الأدبية تنتهي نهايتها إلى اتهامه في وطنيته وفي مذهبه السياسي؛ ورآها أكثر خصومه من كتاب الشعر فرصة سانحة لينالوا منه عند القراء، فانتهزوها، وبالغوا في اتهامه، وأغرقوا في الطعن على وطنيته وتأولوا مذهبه، حتى عاد عند أكثر القراء رجلاً لا وطنية له ولا إنسانية فيه ولا إخلاص في عقيدته. وما تزال السياسة عند أكثر شباننا ذات سلطان، وما زال الأدب يجري في غبار السياسة وهو أعلى مكاناً وأرفع منزلة. . .

ولقد يضاف إلى كل أولئك سبب أخير، هو أن أكثر ما كان يتناوله الرافعي من شؤون الأدب هو ما يتصل بحقيقة الإسلام أو معنى من معانيه. على أن الكثرة من ناشئة المتأدبين يريدون أن يفرقوا بين الأدب والدين، فلا يرون ما ينشأ في هذا الغرض لوناً من ألوان الأدب أو مذهباً من مذاهبه.

تلك جملة الاسباب، أو مجمل الأسباب، التي باعدت بين أدب الرافعي وبين الجمهور من ناشئة المتأدبين، ما بد من النظر فيها والبحث عن علاجها حين نهم بأن نجدد دعوة الرافعي وننشر رسالته، إن كان ثمة يقين بأن أدب الرافعي حقيق بالخلود؛ وإن اليقين به ليعمر قلب كل أديب يؤمن بأن الدين واللغة هما أول المقومات لقوميتنا العربية المسلمة.

ذلك شيء.

أما آثار الرافعي فلها حديث طويل.

هذه دكاكين الوراقين ليست فيها كتاب من كتب الرافعي،

وهذا مكتب الفقيد عليه كتب من كتبه لم تطبع ولا يعرفها أحد من الأدباء.

كل ما في يد العربية من منشآت الرافعي هو صدى كلمات وعنوانات كتب، أما حقيقتها ومعناها فقد انفرط الجيل الذي درسها أو كاد فلم يبق للجيل الناشئ منها غير عنوان:

ديوان الرفعي، ديوان النظرات، تاريخ آداب العرب، إعجاز القرآن، حديث القمر، المساكين، رسائل الأحزان، السحاب الأحمر، أوراق الورد، تحت راية القرآن، على السفود، وحي القلم

هذا كل ما طبع من مؤلفات الرافعي؛ فليسأل كل أديب نفسه: ماذا قرأ من هذه الكتب وماذا حصَّل وماذا أفاد؟

إنها لمكتبة حافلةٌ جديرة بأن تنشئ مدرسة جامعة لمن يريد أن يتزوَّد من العربية أمرأ زاد وأشهى غذاء، ليكون أديباً له لسان وله بيان وله منزلته الأدبية في غد

إني لأكاد أوقن أن تسعين من كل مائة من القراء لا يعرفون من هذه الكتب إلا أسماءها، وإن منهم لَمن يتوهم أن من حقه أن يتحدث عن الأدب ويؤرخ لأدباء الجيل.

وما عيبٌ على مَن لم يقرأها أنه لم يقرأها؛ ولكن العيبَ كلَّ العيب علينا عامة نحن المشتغلين بالأدب أن يكون كل وفائنا لمن يموت من أدباء العربية أن نقول كان وكان ويرحمه الله ولا نعمل على تخليد أدبه بما ننشر من آثاره

لقد أدى الرجل واجبه ما استطاع وبقي علينا فرضٌ واجب الوفاء

على أن ما سبق طبعه من كتب الرافعي هينٌ خطبه؛ فسيأتي جيل يكون أكثر تقديراً لأدب الرافعي من هذا الجيل وسيُعيد سيرته وينشر أدبه

ولكن كتباً هناك ما تزال قصاصات من ورق على مكتب الفقيد تنتظر من يخرجها للناس قبل أن يسبق إليها العث والفيران.

فهل في أدبائنا وفي حكومتنا من العزم وحسن التقدير ما يحملهما على معرفة واجب العربية وواجب هذا الراحل؟

كم نبكي وكم نعول على ما ضاع من تراثنا الأدبي وما فقدته المكتبة العربية من منتوج أدبائها الفحول في عصر الجهل والانحطاط، وهذا تراث بين أيدينا يوشك أن يتبدد ويذروه الهواء!

لقد أورثني الرافعي بعض تبعاته، وإني لأحس بثقلها على عاتقي أكثر مما أحس بحاجتي
إلى التحدث عن ماضيه
لقد عاش الرافعي حياته يجاهد لامته ما لم يجاهده أديب في العربية منذ قرون، وقضى حياته يلقى من العقوق ونكران الجميل ما لم يلق أديب في العربية منذ كانت العربية؛ ومات فما كان حظه منا في أخراه أحسن منه في دنياه. فهل لي أن أؤمل أن تتنبه الأمة والحكومة إلى ما ينبغي أن يكون، وفاءً لهذا الراحل الكريم؟
ليس يكفي أن يكون كل وفائنا للرافعي، حفلة لتأبينه وبضع كلمات في الصحف لرثائه، ولكن الوفاء حق الوفاء أن نعمل على تخليد ذكراه بتخليد أدبه، وتجديد دعوته، وإبقاء ذكره، ونشر رسالته، فليكن هذا الكتاب الذي أنشأته عن (حياة الرافعي) أولاً له ما بعده، لنفكر في الوسائل النافعة التي تجدي على الأدب والعربية أكثر مما تجدي رسائل التائبين وكلمات الترحم والاسترجاع!
أما هو فقد انطوى تاريخه على هذه الأرض، فلن يجدي عليه شيئاً ما نفعل وما نقول؛ ولكن ما نفعله وما نفكر فيه إنما هو لخيرنا وجدواه علينا، فلنفكر في أنفسنا وفي ذواتنا وفيما يعود علينا وعلى العربية في تجديد ذكر الرافعي، إن كان يعز علينا أن نعمل أو أن نفكر إلا فيما تكون منفعته إلينا ولنا من ثمراته نصيب!
(شبرا)
محمد سعيد العريان
في اللغة
المؤنث والمذكر في اللغات السامية
للأستاذ عمر الدسوقي
(تتمة)
ذكرت في المقال السابق أن المؤنث ليست له علاقة خاصة به من حيث كونه مؤنثاً باعتبار الجنس، وأن بعض الجموع والمصادر والصفات الدالة على المبالغة، والأمور المعنوية، تلحقها نفس العلامات التي تلحقه. وقلت أن الصلة بينها جميعاً هي الدلالة على القوة وبلوغ النهاية؛ ووعدت أن أوضح سبب نظرة الساميين إلى هذه الأشياء نظرة الإكبار والتعظيم.
أتى على الإنسان عصر كان يقدس فيه القوى الطبيعية، المنتج منها والمدمر، يتملقها بالعبادة والقرابين استرضاءً لها واتقاءً لشرها
كان يقدس الريح، لأنها إذا سخطت أتت صرصراً عاتية، تعبث به وبكوخه ومتاعه، وتزأر زئيراً يقشعر له بدنه، وترتجف منه أوصاله؛ وإذا رضيت أتت رخاءً لينة، تخفف حدة القيظ، وقر الشتاء
كان يقدس الشمس، لأنها تبعث في الحيوان والنبات الحياة والقوة، وتجلب الضوء فتمكنه من السعي في مناكب الأرض والخروج للصيد، وتجعل من رمال الصحراء ناراً متقدة، ومن حرم ضوءها ذوى وذبل.
وكان ينظر إلى السماء وما حوت نظرة تقديس وإجلال، فيراها موطن الأجسام المتلألئة اللماعة، تهديه في شراه، وتمن عليه بالضوء ليلاً ونهاراً، ويتطلع إليها كأنها مصدر القوى المسيطرة على العالم.
وكان يرى في الأرض أماً يسكن إليها إذا ريع، ويعتمد عليها في طعامه، وشرابه، وحياته. درج عليها صغيراً، وجاب نواحيها كبيراً. زرع فيها الحب فآتى أكله، وغرس فيها الشجر فأثمر.
وكان يرى في السحب إله الرحمة، تنقع غلته من حياها، وتنمي زرعه من غيثها، وتدر الماء فتربو الأرض وتنتج من كل زوج بهيج.
وكان يرى النار مصدراً للخير والشر، تنضج له طعامه، وتضيء له كوخه، وتلتهم كل ما يملك.
اعتبر كل هذه القوى أشياء طبيعية، خفية، غامضة، ذات قدرة سحرية، قادرة على النفع والضر، فأشار إليها بضمير خاص مميزاً لها عن بقية الأشياء التي تقع تحت سمعه وبصره، ذلك الضمير الذي يشير به إلى الانثى، وكانت في نظره قوة منتجة ذات تأثير بين في حفظ النسل وإخراجه إلى الحياة وتعهده بالرضاعة والنمو، ولأنها لغز لم

يستطع إدراكه، فهو لا يستطيع الحياة بدونها، ويجدها مصدر العطف والرحمة، واللذة والألم، والقسوة والصبر

وكان الآشوريون وهم أقدم الأمم السامية وأقربهم إلى الأمة الأصلية، يعتقدون أن المرأة وحدها هي التي تستطيع أن تفهم السحر وتقوم بالأعمال السحرية، وأنها تعرف أسرار الغيب، والتكهن بالمستقبل

وكان عند العرب من العرافات والكواهن في الجاهلية عدد لا بأس به كطرْيفة الخير، وسلمى الهمدانية

وكان العرب يسمون كثيراً من آلهتهم بأسماء الإناث، ولا سيما أقدمها وأعظمها، فكانت (مناة) أعظم أصنام الأوس والخزرج، وكانوا يجلونها وتعتبر أقدم أصنامهم. وكانت (اللات) أكبر أصنام ثقيف. وكانت (العُزَّى) أعظم أصنام قريش، يزورونها، ويهدون لها، ويتقربون إليها. وقد قيل أن الرسول عليه الصلاة والسلام ذكرها مرة فقال: (لقد أهديت للعزى شاة عفراء وأنا على دين قومي). وهذه الأصنام الثلاثة هي التي خصها القرآن الكريم بالذكر

تلك كانت نظرة الساميين القدماء للأنثى: اعتبروها قوة من القوى المنتجة، ونسبوا إليها القدرة على القيام بالأعمال السحرية والكهانة والعرافة.

ولذلك أنثوا كل الكلمات الدالة على القوة، والتي ترمز إلى أمر خطير ذي أثر بين في حياتهم: أنثوا الخمر لأنها تجلب إليهم المرح والسرور، وتنسيهم أحزانهم وآلامهم؛ وأنثوا الروح والنفس، لأنهما من القوى الخفية التي بها يحيا الإنسان وبدونها يصير جثة هامدة، لم يقفوا على سرهما وكنههما: (ويسألونكَ عن الرُّوحِ قل الرُّوحُ من أمر ربي). والنفس عندهم

تعني الدم والنَّفَس، ولا زال النَّفَس يعد قوة سحرية، يسلطه السحرة على الأفاعي لتسكن إليهم وتطيع أوامرهم ولا تؤذيهم. وكانوا ينفخون على الجروح لتبرأ، ولا زال هذا معمولاً به إلى اليوم

وأنثوا الحرب، لان فيها ضراً وفيها نفعاً؛ يتخذونها مورداً لأرزاقهم، فيسبون ويغنمون، وإن كانوا يعرضون أنفسهم للتهلكة؛ وتاريخ العرب في الجاهلية على ذلك شهيد

وأنثوا من أعضاء جسم الإنسان أحد عشر عضواً، كاليد والأذن والعين، لأنها أوعية القوى التي يكون بها الإنسان إنساناً؛ وكانت اليد عندهم آلة البطش والقدرة والتأثير: (يدُ الله فوقَ أيديهم)، (بيده المُلك).

وأنثوا من الآلات أحد عشر اسماً، كالفأس والرحى والدرع، لأنها تعنيهم على الإنتاج والدفاع والقوة.

وربما قال قائل: إن كل الأسماء التي ذكرتها خالية من علامات التأنيث، وقد اعتبرها العرب مؤنثاً مجازياً. وأقول: هو ذاك؛ هي مؤنثة باعتبار الفكرة التي كانت تدور في أذهانهم، ومع ذلك فالعلامة ليست شرطاً في التفرقة بين المؤنث الحقيقي والمذكر. خذ مثلاً: الأب، ألام. والحصان والفرس، والحمار والأتان. وتجد أن الصفات التي أختص بها المؤنث لا تحتاج إلى علامة مثل: مرضع وحامل وحائض وعاقر، وثيب وعانس. وذلك لأن فكرة التأنيث عند ذكر هذه الصفات والأسماء كانت حاضرة في مخيلتهم. ويذهب العلامة برو كلمان إلى أبعد من ذلك فيقول: لم تكن الحاجة ماسة في أول الأمر للتمييز بين المؤنث والمذكر بعلامة، إذ كانت الطبيعة قد وضحت بينهما. وهذه الكلمات التي ذكرت آنفاً تعتبر من أقدم الكلمات في اللغات السامية. ووضعت علامة التأنيث فيما بعد لما أعتبره الساميون مؤنثاً لتقوية الكلمة وتشديدها وزيادة تمييزها عن غيرها

أما الأمور المعنوية، كالرحمة والقسوة، والشفقة والبغضاء، والبلواء، والسعادة والبأساء، فلأنها أمور دقيقة لم يستطع ذلك الإنسان الفطري إدراك كنهها، وإنما عرفها بآثارها الظاهرة المحسوسة، فألحقها بالمؤنث، ووضع لها العلامة لان فكرة التأنيث بها ربما كانت غامضة، أو ضعيفة فقواها

أما الجموع فأمرها هين ولا سيما جموع العقلاء، مثل عامل وعملة، وكاتب وكتبة، وصبي

وصبية، وكرماء وأشداء وعظماء وأقوياء، إذ أن الجموع قوة تستطيع أن تفعل ما لا يفعله الفرد.

أما المصدر ففكرة مجردة، ويقول العلامة (دلمان) إن الفكرة المجردة يتصورها الإنسان كقوى منتجة خالقة، ولذلك جاء الكثير منها مؤنثاً.
ويمكنك أن تدرك الفكرة التي حدت بالساميين إلى تأنيث بعض الأسماء والصفات في تلك النعوت التي تدل على المبالغة وبلوغ النهاية مثل: راوية ونابغة، وداهية. . . الخ.
أما أمكنة الإقامة، كالمدينة، والقبة، والدار، فلاتصالها بالأرض، وقد بينت في أول المقال كيف نظر الساميون إلى الأرض. وتسألني ما بال البيت مذكراً؟. نعم إن البيت مذكر، ولكن أثراً من آثار صيغته الأصلية المؤنثة لا يزال موجوداً في اللغة الآشورية، حيث يستعمل مذكراً تارة ومؤنثاً أخرى، كأجزاء الأرض مثل الطريق، والسبيل. ولعلك تتذكر أني بينت في المقال الأول كيف تخرج هذه الكلمات من المؤنث تدريجياً لضعف فكرة التأنيث فيها.
ولعلي أكون قد وفقت في توضيح هذه الفكرة التي حدت بالساميين لتأنيث بعض الأسماء وتذكير بعضها الآخر، فالغرض من علامات التأنيث هو تقوية الكلمة، والضغط عليها، وإظهارها بمظهر الشدة، لما ترمز إليه من المعنى القوي، والأمر الخفي ذي الأثر والنفوذ والقدرة السحرية.
عمر الدسوقي
رسالة من باريس
بعض الدكاترة الفخريين
الذين منحوا الدكتوراه الفخرية في فرنسا هذا العام
للباحث الأديب مصطفى زيور
- 2 -
إذا أضفنا إلى هذه المحاولات لتركيب المواد الزلالية وبالتالي المادة الحية من المواد اللاعضوية البسيطة، إذا أضفنا إلى ذلك نتائج بحوث الكيميائي الكبير (لوب) التي أثبتت بطريقة لا تحتمل الشك العلمي أن المواد الزلالية لا تختلف في قوانين تفاعلاتها الكيميائية عن قوانين تفاعلات المواد اللاعضوية، وبعبارة أخرى أن المادة الزلالية لا تنفرد بكيمياء خاصة، فإنه يبدو لنا أن هؤلاء العلماء المنكبين على دراسة المادة الحية يتخذون فرضاً لعلمهم وبحوثهم أن هذه المادة تخضع لنفس القوانين التي تخضع لها المواد الأخرى. وليس في ذلك غرابة فإن أي تقدير من جانبهم يختلف عن ذلك كأن تعتبر المادة الحية خاضعة لسلطان ميتافيزيقي يجعل موقفهم متناقضاً، لان البحث التجريبي لا يمكن أن يتناول إلا ما يقبل التجريب وبالتالي ما يخضع لقانون طبيعي ولكن المسألة التي استرعت اهتمام سورنس بنوع خاص هي من غير شك مسألة (مبلغ تركيز ذرات الهيدروجين المكهربة) في سائل بعينه، وأهمية ذلك بالنسبة للمظاهر الحية. ويجدر بي قبل أن أبين خطر هذه البحوث أن أقدم لها بكلمة قصيرة أبين فيها ما الذي يعنونه بمبلغ تركيز ذرات الهيدروجين المكهربة أو جهد الهيدروجين المكهرب
لاحظ فراداي، ذلك العبقري الإنجليزي أحد مؤسسي المغناطيسية الكهربائية في أوائل القرن التاسع عشر، أننا إذا أحدثنا فرقاً في الجهد الكهربائي بين قطبين منغمسين في محلول ملح ما فإننا نرى تياراً كهربائياً يمر يصحبه انحلال الملح إلى أجزاء تحمل شحنة كهربائية بعضها موجب يوجهها إلى السير نحو القطب السالب، وبعضها سالب يوجهها نحو القطب الموجب، وهكذا يتكون لدينا تيار من هذه الأجزاء ناقل للشحنات الكهربائية أي لكمية الكهرباء. هذه الأجزاء المكهربة هي التي يسمونها منذ فراداي باللفظة اليونانية (أيون) أي
سائرة ومتجهة. على أن (أرينبوس) بيَّن فيما بعد أن انحلال الجسم الذائب في سائل ما إلى أيون لا يحدث تحت تأثير مرور تيار كهربائي. بل إن هذا الانحلال يحدث لمجرد ذوبان الجسم في السائل؛ ذلك لأن ذرة كل جسم تتكون من نواة ذات شحنة موجبة يحيط بها كهيربات ذات شحنات سالبة يدعونها (إلكترون) تعادل الشحنة الموجبة فتصبح الذرة متعادلة لا هي موجبة ولا هي سالبة؛ فإذا ما أذيب جسم في سائل يضطرب هذا التعادل بأن تفقد الذرة كهيربا سالباً فتصبح موجبة أو تكسب كهيرباً سالباً فتصبح سالبة.
فإذا أذبنا حامضا في سائل ما، وليكن حامض الكلوريدريك المكون جزآه من ذرة من

الكلور وذرة من الهيدروجين فإن بعض هذا الحامض ينحل إلى ذرات كلور ذات شحنة سالبة، وذرات هيدروجين ذات شحنة موجبة. ولكن ذرات الهيدروجين المكهربة هي التي تعين الحموضة، فكلما كانت قابلية الحامض إلى الانحلال كبيرة، وبالتالي عدد أيون الهيدروجين المنتشرة في السائل كبير، كانت درجة الحموضة كبيرة، بصرف النظر عن كمية القلوي الذي يمكن أن يعادلها ذلك الحامض، والتي تعين قوته الحامضية الكاملة. وكذلك الحال في جسم قلوي مثل الصودا الكاوية المكون جزآها من ذرة صوديوم متحدة مع مركب يدعونه هيدروكسيل يتألف من ذرة هيدروجين وذرة أوكسجين، فإذا أذيبت الصودا الكاوية في سائل فإن جزءاً منها ينحل إلى ذرات صوديوم تحمل شحنة موجبة، والى عدد من الهيدروكسيل المذكور يحمل شحنة سالبة. وكما أن عدد ذرات الهيدروجين المكهربة هو الذي يعين درجة الحموضة الحالية، فإن عدد الهيدروكسيل المنتشر هو الذي يعين درجة القلوية الحالية

ولكن ظاهرة الانحلال هذه تحدث حتى بالنسبة للماء النقي؛ فنحن نعلم أن جزئي الماء يتكون من ذرة أوكسجين يرمز لها بالحرف (أ)، (أي الحرف الأول من أوكسجين) وذرتين هيدروجين يرمز لكل منهما في العربية بذلك الرمز العجيب (يد)، (الحرفان الثاني والثالث من هيدروجين). وهنا أحب أن يسمح لي القارئ أن أترك موضوعنا لحظة لكي أعلق على هذا الرمز الغريب، فلست أشك أن المترجم المصري عندما أراد ترجمة الرمز الدولي بدء النهضة العلمية الحديثة في مصر منذ نحو ربع قرن، ظن أن الكلمة هي إيدروجين بإبدال الهاء همزة كما يحصل في النطق الفرنسي، ويدل على ذلك ما جري عليه الكيميائيون في مصر من كتابة هذا العنصر على هذا النحو الأخير أي إيدروجين. ولما كان الحرف (أ)

سبق أن اختاره المترجم المصري رمزاً للعنصر أوكسجين فلم يكن بد من اختيار الحرفين الثاني والثالث من إيدروجين بجعلهما رمزاً لهذا العنصر. ولكن الواقع أن الكلمة هي هيدروجين بصرف النظر عن نطقها في بعض اللغات. والواجب إذاً أن يتخذ الحرف (هـ) الذي يقابل رمزاً لهذا العنصر إذا كان لا بد لنا من الاستمرار فيما درجنا عليه منذ نحو ربع قرن من نقل الرموز الدولية إلى رموز عربية. فماذا يرى عالمنا الكبير الدكتور أحمد زكي؟

رأينا أن جزيئات الماء التي تتكون من ذرة من الأوكسجين وذرتين من الهيدروجين ومن ثم يرمزون لها يد 2 أينحل بعضها إلى ذرات هيدروجين موجبة يرمز لها هكذا يد + وهيدروكسيل سالبة يرمز لها هكذا أيد -؛ ولكنه من الواضح أن أيون الهيدروجين الذي يحمل شحنة موجبة لابد أن يتحد من جديد مع أيون الهيدروكسيل الذي يحمل شحنة سالبة فتتكون جزيئات مائية من جديد، بينما تنحل جزيئات مائية أخرى إلى أيون هيدروجين وهيدروكسيل، وهكذا حتى تصبح سرعة التفاعل في الناحيتين متعادلة، فينتج لدينا حالة استقرار في مبلغ تركيز الأيونات يمكن التعبير عنها بأن حاصل ضرب عدد الأيونات مقسوم على عدد الجزيئات الغير منحلة ينتج عدداً ثابتاً:

(- أيد) (+ يد)

ـــــــــ=ث (عدد ثابت يدل على حالة الانحلال وبالتالي يدل في حالة حمض أو قاعدة على قوة الحمض

(يد 2 أ)

أو القاعدة).

ولكن في حالة الماء فإن الجزيئات الغير منحلة قليلة التغير وبالتالي فإن حاصل ضرب (يد +) (أيد -) يكون ثابتاً، وتقدر قيمته في لتر من الماء بكسر اعتيادي مقامه الوحدة يتبعها أربعة عشر صفراً 11014 فإذا تصورنا الماء في حالة التعادل التام أي أن أيون الهيدروجين يساوي عدد أيون الهيدروكسيل فإن الرقم الذي يدل على تركيز أيون الهيدروجين يكون في هذه الحالة 1107

ولتسهيل الإشارة إلى الحموضة الحالية أي لمبلغ تركيز اليون يد + أو جهد الهيدروجين اقترح سورنسن أن يعبر عنه بمقلوب اللوغاريتم العشري أي بعدد الأصفار الذي يتبع الوحدة في مقام الكسر الاعتيادي الدال على مبلغ التركيز أي بالعدد 7 في حالة

التعادل، وأن يرمز له بالحروف الدولية ما يمكن ترجمته بالحروف العربية ج يد حيث أن الحرف الأول من جهد (وليس القوة كما أشار بذلك البعض لأن لفظة القوة ترجمة فلسفية قديمة وتدل عند المشتغلين بالعلم في مصر على محدث العمل). كما كان لسورنسن الفضل في استنباط طريقة لقياس درجة الحموضة هذه بواسطة تفاعلات ملونة

أهمية مبلغ تركيز ذرات الهيدروجين المكهربة أو جهد الهيدروجين ج يد في المظاهر الحية

قد لا يكون من المبالغة أن نقرر أنه ما من ظاهرة من ظواهر الحياة لا تخضع لهذا العامل الأساسي: مقدار الحموضة الحالية أي جـ يد؛ فقد تبين أن الكائنات الحية حتى الدنيئة منها مثل الجراثيم لا يمكن أن تعيش إلا في وسط له درجة حموضة معينة خاصة بكل نوع من أنواع الكائنات لا يجب أن تتغير وإلا فقدت الحياة. ويكفي أن أشير إلى أن درجة الحموضة في دم الإنسان ثابتة ثباتاً يسترعي النظر حقاً، وتعمل على هذا الثبات وظائف لها من الدقة والانتظام ما يدل على خطورة مقدار الحموضة الحالية في بقاء الحياة. وتبدو هذه الخطورة بوضوح إذا علمنا أن تلك الصدمات العنيفة المصحوبة بهبوط شديد في ضغط الدم والحرارة وضربات القلب بحيث يصبح الموت قاب قوسين أو أدنى، والتي تحدث من إدخال بعض المواد الغريبة في الدم أو نتيجة لبعض الأمراض، هذه الصدمات يصحبها تغير في درجة الحموضة المذكورة.

وهنا يجب أن أشير إلى ما يدعونه نقطة التساوي الكهربائي في الزلاليات حتى يتم لنا هذا العرض السريع لمسألة الحموضة وأهميتها البيولوجية

سبق أن ذكرت أن المواد الزلالية تتركب من أحماض أمينية تحتوي جنباً إلى جنب على وظيفة حمضية ووظيفة قلوية؛ وعلى ذلك من السهل أن نفهم أن المواد الزلالية تنحل فتترك ذرات هيدروجين موجبة من جهة كما يحدث في الأحماض، وهيدروكسيل سالبة من جهة أخرى كما يحدث في القلويات.

فإذا ما كانت درجة الحموضة الحالية ج يد في الوسط الموجودة فيه هذه المواد الزلالية كبيرة فإن هذه المواد تسلك كما لو كانت قلوية فقط فلا تنحل إلا إلى أيونات هيدروكسيل (أو على الأقل فإن النتيجة العملية هي كذلك)، وبالعكس فيما لو كانت درجة حموضة الوسط قليلة أي قلوية؛ وبين هذين الطرفين توجد نقطة في درجة الحموضة تنحل عندها الزلاليات إلى مقدار متساو من أيون الهيدروجين وأيون الهيدروكسيل، فيحدث نوع من التساوي الكهربائي يمكن أن نرمز له هكذا ج يد س (س=الحرف الأول من الفعل الماضي أصل الاشتقاق ساوي)

والآن من السهل أن نفهم أهمية نقطة التساوي هذه إذا تذكرنا أن العامل الرئيسي في ثبات المحلولات الغروية هو وجود شحنة كهربائية تمنع الجزيئات من التهالك، ولما كانت هذه الشحنات الكهربائية تنحط إلى مقدار ضعيف عند نقطة التساوي ونتيجة لهذا التساوي، فيمكننا أن نتنبأ بقلة ثبات المحلولات الغروية وبالتالي المادة الحية وميلها إلى الانهيار عند هذه النقطة. وهذا ما يحدث بالفعل ويوضح لنا أهمية درجة الحموضة ج يد والخطر الذي ينتج من تغيرها على مظاهر الحياة.

وأخيراً فإن الفضل يرجع إلى سورنسن في بيان أهمية درجة الحموضة بالنسبة للتفاعلات الخميرية، فقد بين كيف أن الخمائر - وهي تلك المواد الخاصة بالكائنات الحية تساعدها على تحقيق التفاعلات الكيميائية - لا تقوم بعملها إلا في درجة حموضة معينة خاصة بكل خميرة؛ فنحن نعلم مثلاً أن خمائر المعدة لا تقوم بعملها في الهضم إلا في درجة حموضة معينة مرتفعة بالنسبة لدرجة الحموضة اللازمة لخمائر الأمعاء.

وفي النهاية لست أحب أن أترك القارئ يفهم أن جميع المسائل التي ذكرتها ومحصولنا العلمي فيها يرجع إلى أبحاث سورنسن وحده، فإني أكون إذن تعديت الأمانة التاريخية؛ ولكنه لم يكن في استطاعتي أن أبين قيمة أبحاثه دون أن أذكر بجانبها الأبحاث التي أثارها، ثم الأبحاث التي سبقته حتى نقدر مجهود هذا الكيميائي الكبير. وبعد كل شيء فإني لم أقصد إلى تحقيق تاريخي فليس هنا مقام ذلك، ولكني قصدت إلى اتخاذ بحوث هذا العالم مناسبة للإشارة إلى بعض التيارات العلمية السائدة.

للكلام بقية

مصطفى زيور

أتوق
لشاعر الهند رابندرانات طاغور
بقلم الآنسة الفاضلة (الزهرة)
أتوق إلى مخاطبتك بأدق الكلمات وأملأها بالمعاني العميقة التي تجيش في حنايا قلبي،
ولكني لا أجرؤ خشاة أن تضحكي مني
لذلك أضحك من نفسي، وأشجب سري الخفيِّ بالهز والتنادر، وأذيعه في شظايا النكات
والإشارات
وأستخف بألمي لكيلا تستهيني أنت به
أتوق إلى مصارحتك بأصدق الكلمات، ولكني لا أجر خشاة ألا تصدقيها. . .
لذلك أطويها في رداء التمويه، وأضفي عليها أبراد الكذب وأقول عكس ما أبطن، وأجعل
ألمي يبدو بلا سبب ولا علة لكيلا تري أنت فيه هذا الرأي
أتوق إلى صوغ أثمن الكلمات التي أدخرها لأجلك، ولكني لا أجرؤ خشاة أن تبخسيها حقها وتصفقيني صفقة الغبن والخسران
لذلك أنتحل لك صفات فظة، وأطلق عليك أسماء غليظة وأتبجح بقسوتي وصلابتي،
وأباهي بقوتي وأيدي، وأنالك بالأذى خشاة ألا تفقهي للألم معنى أو تذوقي لمرارته طعماً
أتوق إلى الجلوس قربك صامتاً، ولكني لا أجرؤ لئلا يقفز قلبي من بين شفتي ويترامى تحت قدميك
لذلك أثرثر وأهذر وأتنادر لكي أخفي سر قلبي وراء ألفاظي وأتلاعب بألمي في عنف دون هوادة ولا رفق خشاة أن تتلاعبي أنت به. . .
أتوق إلى الابتعاد عنك، ولكني لا أستطيع أن أجد إلى الفرار منك سبيلا، لئلا ينكشف أمامك جبني، ويستعلن لك خوفي ووجلي. . .
لذلك أرفع رأسي بافتخار، وأشمخ أنفي في شمم، وأمثل أمامك غير حافل ولا مبال. مع
أن السهام المنطلقة من عينيك على الولاء تجدد ألمي باستمرار. .
(الزهرة)
التاريخ في سير أبطاله
ابراهام لنكولن
هدية الأحراج إلى عالم المدنية
للأستاذ محمود الخفيف
يا شباب الوادي! خذوا معاني العظمة في نسقها الأعلى من
سيرة هذا العصامي العظيم. . . . . .
- 29 -
وكان لهذا القائد الذي بزغ نجمه شبه كبير بالرئيس في نشأته وفي كثير من طباعه، كلاهما واجه الحياة وهو في سن اللهو واللعب، وكلاهما شق طريقه فيها بنفسه فكان كالنبتة القوية المستقيمة التي تفلق التربة وهي بعد صغيرة، لا كتلك الألفاف الملتوية التي لا تعرف من معنى النماء إلا أن تتسلق على غيرها وهي في ذاتها هزيلة نحيلة. . .
كان جرانت كأبراهام قوة إرادة ومضاء عزيمة، وكان مثله يلم بما حوله من المشكلات إلماماً تاماً ويستوعب أجزاءها لا تفوته منها صغيرة ولا تستعصي عليه كبيرة، كما كان يعرف في كل موقف قدر نفسه لا يغتر ولا يزهى ولا يتضاءل ولا ينكص. . وهو إن لم تكن له سماحة الرئيس وعذوبة روحه، فقد توفر له الكثير من بساطته ووداعته. . .
كان جندياً في سني يفاعته، ثم انصرف عن الجندية إلى الزراعة حيناً ثم إلى التجارة بعد ذلك، وظل بضع سنين حائراً يضرب في الأرض في طلب الرزق. ولو لم تقم تلك الحرب الأهلية لما وعى التاريخ عنه إلا بقدر ما يعي عن الآلاف غيره من البشر اللذين يعبرون هذا الوجود وكأن لم يخلقوا!
وأحس لنكولن أن في هذا الرجل من الصفات ما يعد متمماً لصفاته، فهو متحمس سريع المضي إلى غايته إذا اتجه همه إلى أمر؛ وهذه الحمية يقابلها عند الرئيس الروية

. . .قبل البدء، والتمهل إذا مضى في سيره
هذا هو القائد الذي أحس أبراهام أن سوف يكون على يديه النصر بعد تلك الهزائم الشائنة،
. .وبعد أن خذلته الظروف، وتنكر له الرجال وضايقوه على صورة لم يكن يطيقها غيره
.
أراد الجنوبيون أن يقوموا بهجوم قوي على العاصمة الشمالية فيضربوا الاتحاد الضربة الحاسمة، فزحف قائدهم الكبير لي بجيشه فعبر نهر بوتوماك وسار حتى أصبح على بعد خمسين ميلاً أو نحوها من وشنجطون في مكان يدعى جتسبرج، وهناك التقى به جيش الشماليين بقيادة ميد وهو قائد جديد جعله لنكولن على رأس جيش البوتوماك بعد أن ضاق بتلكؤ سلفه.
ودارت في هذا المكان معركة عنيفة دامت ثلاثة أيام، وقد استبسل الفريقان فيها واستقتلوا وتوالى بينهما الجزر والمد، وكأنما طاب لهم الموت فتسابقوا إليه جماعات، وانتهى الصراع بانسحاب لي ولكن في ثبات واطمئنان. فكانت هذه المعركة التي سقط فيها أكثر من عشرين ألفاً من الضحايا فاتحة الانتصارات الكبيرة لأهل الشمال.
وما أن وصلت أنباؤها إلى العاصمة حتى تدفق الناس إلى حيث يجلس الرئيس وهم من فرط ما قد سرهم من النبأ لا يدرون ماذا يفعلون للتعبير عما في نفوسهم نحو رجلهم، نحو هذا الحصن الحصين وهذا العتاد المتين.
وكان هذا النصر الباهر في اليوم الثالث من يوليو عام 1863 ولقد نام الرئيس ليلته ملء جفونه لأول مرة منذ قامت الحرب، وفي اليوم التالي حمل إليه البرق رسالة من القائد جرانت، وكانت له القيادة في الغرب على ضفاف المسيسبي. . . وفض الرئيس الرسالة فإذا جرانت ينبئه أن قد سقطت في يده فِكِسبرج. . . وكانت هذه المدينة تسمى (جبل طارق) المغرب، إذ كانت مفتاح النهر إلى الجنوب. ولقد جمع فيها أهل الجنوب ما استطاعوا من قوة وعدة؛ وكان جرانت قد اتجه إليها منذ فاتحة ذلك العام، وكان هو وجنوده يلقون النار الحامية من المدافعين عنها، ولكنه لم يعبأ بما كان يلقى، ولبث يعمل في صمت وهدوء حتى أحكم الخطة فأحاط بالمدينة، وأتى حاميتها من فوقهم ومن أسفل منهم وما زال بهم حتى أجبروا على التسليم تاركين في يده ثلاثين ألفاً من الأسرى وعدداً هائلاً من البنادق والأسلحة ومقداراً كبيراً من المؤونة والزاد. . .
ولا تسل عما فاض في العاصمة الشمالية من مظاهر الجذل والحبور؛ فلقد شعر الناس بقرب انكشاف الغمة والتمعت في سمائهم بوارق الأمل في النصر النهائي بعد هذا العذاب
. . .الشديد
واشتدت العزائم ورأى المستضعفون واللذين استكبروا ما كانوا قبل في عمى عنه؛ رأوا فضل رئيسهم وعاقبة ثباته وصبره، فراحوا يتوبون إليه ويهنئونه بما صبر. . .
والرئيس يشارك القوم جذلهم، ولكن نشوة النصر لا تصرف عينيه عما هو فيه، كالربان الماهر الحاذق، لن يدير عينيه عن البحر إذا هو اجتاز مكاناً تتجمع فيه الصخور، ولن يزال محدقاً متيقظاً حتى تلقى السفينة مراسيها. . .
وكان في نفس الرئيس شيء يكاد يكربه فينسيه فرحة النصر، وذلك أن ميد قد وقف فلم يتعقب لي ويجهز على جيشه لدى انسحابه، فلقد كان عليه أن يعبر النهر ليعود إلى ولاية فرجينيا، وعبور النهر ليس بالأمر الهين على جيش ينسحب؛ ولكن ميد كان يرى الجيش في حالة من الإعياء لا يستطيع معها أن يقوده إلى أي زحف مهما هان أمره، فلقد جاء نصره بشق الأنفس. . . وأحس القائد المنتصر الحرج من وقوف الرئيس حياله فطلب إليه أن يعفيه من القيادة، فرد عليه الرئيس ملاطفاً في صفح يشبه الاعتذار
وكأنما جاء انتصار الشماليين في المعركتين في تلك الأيام على قدر من الظروف، فلقد كانت تأتي الأنباء من خارج أمريكا بسوء موقف الحكومة الإنجليزية من قضية أهل الشمال! تلك الحكومة التي كان يعتقد لنكولن أنها سوف تحمد له قضاءه على العبودية فأعلن قرار التحرير وفي نفسه هذا الرجاء؛ ولشد ما آلمه بعدها أن يرى الحكومة تتذبذب وتلتوي ولا تخطو إلا على هدى من مصالحها المادية.
وكان مما يخفف وقع هذا الجحود على نفس الرئيس ما كانت تأتي به الأنباء من موقف

أحرار الشمائل من الشعب الإنجليزي حياله، فلقد علم أن اجتماعات عقدت في مانشستر ولندن هتف فيها باسم الرئيس هتافاً عالياً حتى لقد وقف الناس في أحدها دقائق يلوحون بقبعاتهم في الهواء عند ذكر اسمه؛ وظل هذا موقف الأحرار في الشعب الإنجليزي حتى وصلت إليهم الأنباء بالانتصار السالف الذكر فاستخذى الطامعون وذوو الأغراض من رجال الحكومة والبرلمان، هؤلاء الذين كانوا يريدون أن يتخذوا من انتصار الجنوبيين ذريعة لإعلان اعترافهم بهم كأمة مستقلة، والذين بلغ بهم الحقد على لنكولن وحكومته أن جهزوا سفناً لمناوأة تجارة الشماليين في المحيط وأرسلوا بعضها فعلاً لهذا الغرض.

تلك هي نتائج الانتصار في المعركتين وأثره في الداخل والخارج. . قال لنكولن عندما قرأ رسالة جرانت: (الآن يستطيع أبو المياه أن يذهب من جديد إلى البحر وليس في سبيله عائق). . واجتمع الناس في حفل كبير في مكان معركة جتسبرج ليمجدوا ذكرى ضحاياها وطلبوا إلى الرئيس أن يخطبهم في هذا الحفل المشهود فكان مما قاله: (منذ سبعة وثمانين عاماً أقام آباؤنا في هذه القارة أمة جديدة، نشأت على الحرية وعلى ما نودى به من أن الناس خلقوا جميعاً على سواء، ونحن الآن في حرب أهلية هي بمثابة اختبار لنرى هل تستطيع هذه الأمة أو أية أمة نشأت نشأتها أن تعيش طويلاً. . . ونحن نجتمع هنا لنخلد موضعاً منها نجعله مقراً نهائياً لهؤلاء الذين بذلوا أرواحهم كي تستطيع أمتهم أن تعيش؛ وهذا عمل مناسب ولائق بنا، ولكنا لن نستطيع في معنى أوسع أن نخلد أو نقدس هذه البقعة. . . إن البواسل من الرجال سواء في ذلك الأحياء والأموات الذين ناضلوا هنا قد خلدوها أكثر مما تستطيع قوتنا أن تزيد عليها أو تنقص منها وإن العالم سوف لا يهتم كثيراً وسوف لا يتذكر طويلاً ما نقول هنا ولكنه لا يستطيع أن ينسى ما فعل هؤلاء). . . ثم زاد على ذلك فقال (يجب أن نصمم على ألا ندع موت هؤلاء يذهب عبثاً وعلى أن تعطى هذه الأمة في عناية الله مولداً جديداً هو مولد الحرية، وعلى أن تكون حكومة الشعب التي قامت بالشعب وللشعب، بحيث لا تزول أبداً من فوق الأرض)

هذا هو خطاب الرئيس الذي سمعه الناس في تلك البقعة التي صبغتها دماء المجاهدين. ولقد وصلت كلماتها إلى أعماق نفوسهم فهزتها هزاً لم يتمالك معه الكثيرون أن يحبسوا دموعهم من فرط ما أحسوا من المعاني. . .

وآمن كثير من دعاة الهزيمة والتردد بما كان لثبات الرئيس من فضل، وأيقنوا أن سوف يكون مرد انتصارهم في النهاية إلى هذا الذي يحمل أثقال قومه فلا ينوء بها ولا يزداد على المحن إلا صلابة واعتزاما.

ولاحظ عليه المتصلون به أن تلك الشدائد وإن لم تنل من عزمه، قد نالت من جسده، ورأوا السنديانة يمشي إليها الذبول شيئاً فشيئاً حتى ليخافوا أن تذوى فتسقط - أجل فزع الناس أن يروا إبراهام تتجمع وتتزايد في وجهه التجاعيد وهو من صدر شبابه لم يك خلوا منها، وأن يلمحوا في صفحة هذا الوجه المحبوب إمارات الجهد، وفي نظرات تلك العينين الواسعتين

أثر السهد وطول العناء. . .

ولكن روحه أقوى واعظم من أن يتطرق إليها الوهن، أو أن تتأثر بشيء مما يصيب جسده. . . أليسوا إذا جلسوا إليه لا يزالون يستمتعون بأحاديثه العذبة ونكاته المطربة الظريفة؟ أو ليسوا يسمعون حتى في تلك الأيام ضحكاته التي قد يطلقها أحياناً فتذهب في أرجاء الحجرة مجلجلة مدوية؟ ذهب إليه أحد الرجال في أمر من الأمور الهامة فأخذ الرئيس يقص عليه من قصصه حتى لم يطق الرجل صبراً فقال وفي لهجته حدة وفي عبارته شدة: (أيها الزعيم إني ما جئت هنا هذا الصباح لأسمع قصصاً. . . إن الوقت عصيب). فاستمع إلى الرئيس يقول له في رزانة وأدب (اجلس يا أشلى، إني احترمك كرجل مخلص ذي حمية، وإنك لم يبلغ اهتمامك أكثر مما بلغ اهتمامي هذا الذي ما فارقني منذ أن بدأت تلك الحرب، وإني أقول لك الآن إنه لولا هذا الذي نفس به أحياناً عن نفسي لحاق بي الموت).

ومن أولى من هذا الرجل وأحق أن ينفس عن صدره في هذه الشدائد المتلاحقة؟ هذا إلى أنه فيما يفعل إنما يصدر عن طبيعة لا قبل له بالتخلص منها. ولقد كان مما يستعين به في ضيقه أن يقرأ، وكانت مآسي شكسبير وفي طليعتها ماكبث ما يتناوله

من الكتب. وأنه يفرح ويهش لمن يشاركه عواطفه وميوله كما أنه كان يضيق بالمتزمتين اللذين يزيدون الحياة بتبرمهم وسخطهم أثقالاً فوق أثقالهم. .
وسار العام الثالث إلى نهايته والبلاد يتزايد أملها في النجاح بعد أن كاد يعصف اليأس بالقضية كلها فيأتي عليها، فلقد رأينا ما كان من دعاة أعداء الحرب وعملهم على عرقلة مساعي الرئيس ومن هؤلاء ولدنجهام الذي مر بنا ذكره. . . وهنا نشير إلى رجل آخر هو حاكم ولاية نيويورك، فلقد كان هذا الرجل من أكبر المنادين بضرورة وضع حد لهذه الحرب أن كان لا يصيب الشماليين منها إلا الهزائم. . . ولقد أدت سياسته إلى قيام ثورة عنيفة في مدينة نيويورك قام فيها المشاغبون ودعاة الفوضى بأعمال عنيفة، وبالغوا في تمردهم وعصيانهم، حتى اضطرت الحكومة أن ترسل عليهم فريقاً من الجند يقضون على الفتنة. ومن غريب أمر هؤلاء المتمردين أن قامت حركتهم التي دبروها من قبل عقب الانتصار في جتسبرج وفكسبرج، وسبب عصيانهم يرجع إلى قرار أصدره المجلس
التشريعي في مستهل ذلك العام بناء على اقتراح الرئيس يحتم على كل رجل صحيح البدن بين العشرين والخامسة والأربعين أن يحمل السلاح في سبيل قضية الاتحاد. . . ولقد كانت حركة نيويورك هذه من مآسي ذلك العام، ولولا أن جاء النصر وأشرق نور الأمل في ظلام اليأس لكان من الجائز أن تمتد الفتنة فتأتى على كل شيء.
وافتتح العام الرابع والأحزاب تتأهب للانتخاب، فلقد قرب موعد الانتخاب للرياسة، ورأى المخالفون الفرصة تواتيهم ليعلنوا ما في نفوسهم نحو الرئيس لنكولن وسياسة حكومته.
وظهرت في الصحف وتواترت على الألسن أسماء مرشحين جدد لينافسوا الرئيس؛ فإن الديمقراطيين كانوا يقدمون ماكليلان، ذلك الذي انسحب من الحرب على نحو ما رأينا؛ وكان بعض الجمهوريين، وعلى رأسهم جريلي، ذلك الذي ما فتئ ينتقد الرئيس ويسدي له النصح، يرشحون جرانت وتشيس وزير المالية، وفريق منهم رشحوا فريمونت لهذا المركز السامي.
ولبث الرئيس مطمئناً ساكناً إن خاف على شيء فليس خوفه على كرسي الرياسة، ومتى ذاق طعم الراحة في ذلك الكرسي؟ وإنما كان يخشى أن يترك قيادة السفينة لربان غيره وهي لما تزل في طريقها، ولو أنه كان موقناً أنه يوجد غيره يقودها كما يقود هو لما تردد أن يعطيها له، فحسبه أن تصل إلى المرفأ. . . وكثيراً ما كان يقول: إنه لو وجد في الرجال من يحسن إدارة الأمور خيراً منه لتنازل له عن طيب خاطر بل لقبل ذلك مبتهجاً إذ يرى فيه وسيلة من وسائل النجاح.
على أنه يترك الأمر للبلاد فهي صاحبة القول الفصل، قال في تلك الأيام لبعض جلسائه: (إن انتخابي للرياسة مرة ثانية إنما هو شرف عظيم كما أنه عبء عظيم، وإني لن أجفل منهما إذا قدر لي ذلك. . .
ولكن البلاد لم تبغ من رجلها بديلاً، وما لبث أن أدرك مخالفوه أنهم كانوا واهمين، وكيف تتخلى البلاد عن ذلك الذي تدين بنجاحها له؟ ولماذا ينصرف عنه الناس ومكانته عندهم في صميم قلوبهم؟ لأنه أبلى فاحسن البلاء، وصبر فاجتنى من الصبر الظفر، وسهر فلم يشك يوماً من السهر؟. . . لقد كان الناس يدعونه في تلك الأيام بقولهم: (أبونا إبراهام) وكانوا يخاطبونه فيقولون: يا أبانا ماذا ترى في كيت وكيت، وما كان أحلى هذا اللقب يضاف إلى
ألقابه. . .
ألا إن الناس ليحرصون على (أبيهم) لا تدور أعينهم إلى غيره ولا تتسع قلوبهم لسواه؛ فها هي ذي العرائض بترشيحه تترى على الحزب من أنحاء البلاد ومن ميادين القتال في كثرة عظيمة تليق بجلال قدره وخطورة شأنه وجليل ما قدمت يداه. . .
وندع الآن ذلك لنعود إلى الحرب وشؤونها؛ وأول ما نذكره أن الرئيس قد أتفق مع المجلس التشريعي على إسناد القيادة العليا للجيوش جميعاً إلى القائد جرانت. . ثم كتب إلى جرانت يدعوه إلى العاصمة فحضر اليها، وذهب إلى البيت الأبيض فلقى الرئيس وسمع منه عبارات الإطراء والثناء ثم تلقى منه نبأ تعيينه في منصبه الخطير.
ولقد تزاحم الناس وتدافعوا بالمناكب حول البيت الأبيض وفي قاعاته ليروا هذا القائد الذي تعلق عليه بعد زعيمهم الآمال. . . ولقد علق جرانت على هذا اللقاء العظيم

بقوله (هذه معركة أشد حراً مما شهدت في الميادين من المعارك. .)
وبعد أن درس القائد خططه المقبلة مع الزعيم ورجاله، استأذن في الرحيل فطلب إليه الرئيس أن يبقى قليلاً ليحضر وليمة أعدتها زوجه تكريماً للقائد ولم يكن يعلم بها من قبل ليدعوه إليها فاعتذر شاكراً من عدم قبوله بقوله (حسبي ما لاقيته من تلك المظاهر أيها الزعيم. . .) وفرح الزعيم أن يسمع ذلك من القائد وهل يهدم الرجال إلا الغرور وحب المظاهر الفارغة؟
ورحل جرانت إلى الميدان وقد زوده الرئيس بقوله (أنت رجل همة وعزيمة، وأنا لا أريد وقد سرني ذلك أن أضع في طريقك ما عساه أن يعوقك، وإذا كان في طاقتي أي شيء يمكن أن أمدك به فدعني أعرف ذلك. . . والآن سر في عون الله على رأس جيش باسل وفي سبيل قضية عادلة).
(التتمة في العدد القادم)
الخفيف
في الأدب العراقي
ديوان الشبيبي العتيد
للأستاذ الحوماني
في الكرادة من ضواحي بغداد وعلى شاطئ دجلة بيت متواضع يسكنه الشاعر العراقي الكبير الشيخ (محمد رضا الشبيبي) وزير معارف العراق.
هو في منتهى دور الكهولة ويوشك أن ينهد إلى الخمسين، يعمل عقله فيما يجيب أو يقترح، تتخلل جمله في القول فترات تنم على ذلك، رزين كل الرزانة وهو يحدث، ويميل في شعره إلى الإصلاح الأخلاقي في المجتمع. لا يحب أن يجامل ولا أن يظهر أمام زائره بمظهر العز المكسوب، يزيد التألم خديه وما أحدق بعينيه - وهو يتكلم - تجعداً يبدو لك من وراءه ومن خلال ابتساماته الضئيلة سر عميق في نفسه يبعثه البؤس والشقاء مما يكابد في قومه. وإذا لم يرقه حديث جلسائه ولم يستطع مغادرة المجلس تشاغل بمطالعة الصحف، وقد يشيح بوجهه وهو يتكلم كأنما قد ذكر أمراً قد أنسيه، ثم يمعن في التشاغل عنك حتى إذا لفته إليك أدب المجالسة عاد مقبلاً عليك تقرأ في وجهه الاعتذار لك. لا يستقر به المجلس أكثر من بضع دقائق، وإذا لفته الزهر المحدق بالمجلس رأيته على ما فيه من رزانة يستخفه النظر فيهيم في الروض مع نسيم دجلة البليل.
الروح الشاعرة إما أن يربيها الألم فينشأ صاحبها متشائماً قليل الحظ من متع الحياة، فلا تراه في شعره غير شاك أو متألم؛ وإما أن تربيها اللذة فينشأ صاحبها متفائلاً لا يعرف وجهاً للألم في الحياة.
وقد تربى الروح الأولى في النفس نقمة على المجتمع واستعداداً للانتقام منه، كما قد تربى الروح الثانية في نفس الشاعر النكتة في الأدب والاستسلام للشهوات.
وقد يتعزى الشاعر المتألم بملهى أو مقهى كما قد يثوب أخوه الغاوي ويرعوي عن غيه فيلهمانه معاً جمال الشعر النفسي في معرض الآلام، على أن الأول أكثر تألماً لما يستقبل، والثاني أمضى ألماً على ما خلف
يعجبني من النوع الأول شعر العلامة الشبيبي يقول:
هي السائل والأشعار والخطب ... هَمٌّ عليَّ ثقيل هذه الكتب
إحدى العجائب عداً أن يثقفنا ... قوم ثقافتهم في أرضنا عجب
من معدن الشر ما سنوا وما شرعوا ... ومن معانيه ما خطوا وما كتبوا
في كلماته هذه صورة بالغة في الألم النفسي. وأمض ما يؤلم الشاعر الحر أن يرى الحق مهجوراً والباطل يعمل به، وآلم لديه من ذلك أن يرى ذا الباطل يتولى الحكم في الناس على أنه محق ثم يعاقب المحق على أنه مبطل.
يرى الشاعر الحر كل ذلك ثم يرى بعده أن المجتمع راض عن هذه الحكومة، أو يتجرعها على مضض وهو يستطيع أن يلفظها، فلا يلبث شاعر الإنسانية أن يقذف بركانه حجراً تفيض به نفسه شعراً.
شر العصور وفي العصور تفاوتٌ ... عصر به تتقدم الأوغاد
أنظر إلى الأعجاز كيف تصدرت ... وعمائم السادات كيف تُساد
ثم هو يقول وقد غادر وطنه العراق إلى دمشق فحن إلى الكرخ أحد أحياء بغداد:

ببغداد أشتاق الشام وها أنا ... إلى الكرخ من بغداد جم التشوق
هما وطن فرد وقد فرقوهما ... رمى الله بالتشتيت شمل المفرق
ويقول في التمدن العنصري مشيراً إلى الغرب:
يعيش سعيد مفرد بين معشر ... شقي وحيٌّ واحد بين أموات
وكم جسد فوق الأخادع شاخص ... إلى جثة تحت الاخامص ملقاة
وما الزمن الماضي بأعظم محنة ... من الحاضر الموصول بالزمن الآني
يظنون هذا العصر عصر هداية ... وأجدر أن ندعوه عصر ضلالات
فإن خرافات مضت قد تبدلت ... حقائق إلا أنها كالخرافات
تلك هي نفثات شاعر المجتمع ينظر إلى أمة بعين ملؤها الحنان وقد ضغطها ظلم القوى فأهابت بشاعرها وهو مغلول اليد فأطلق فكرة من عقال الوهم والخيال، ثم أجالها فيما يقمع الظلم ويتمشى معه إلى إصلاح شعبه. ألم تره وقد لاح له بارق أمل يتلمس في أمته روح النهضة من وراءه، يثير الهمم ويشحذ العزائم حيث يقول:
نفذ الصبر فهبت فزعاً ... وأبى السيف لها أن تضرعا
أمة خرساء كم واش وشى ... بنواديها وكم ساع سعى
أزمعت ألا يراها حملا ... غاصب صال عليها سبعا
إلى أن قال:
صلة الشرقي بالماضي ارجعي ... لا تعودي سنداً متقطعا
جددي عهد على غازياً ... وأعيدي مالكا والنخعا
ربما وقفت من الشاعر على بيت واحد علمك أنه شاعر، فلا أريد أن أشير لك إلى هذه القطع وما فيها من روح فياضة بالألم الممض مما يسمع ويرى، ولا أن أقول لك إن الروح الفياضة بالحزن أدق شعوراً بالحياة من الروح الفياضة بالسرور، وقد عرضت لإثبات ذلك مراراً مرت بك. أجل، ولا أريد أن أرجع بك في إثبات الشاعرية لهذا المصلح العراقي الكبير، إلى ما في هذه الأبيات من دقائق وقفت بالشعور الحي أن يتجاوزها إلى ما تسمع كثيراً وتقرأ كثيراً من شعرائنا الخنع في عصر النهضة.
وإنما أريد أن تعود معي إلى تصفح هذه القطع مرة ثانية لأسألك عما تشعر وأنت تقرأ عجز المطلع الأول: همٌّ عليَّ ثقيل هذه الكتب. وعما يخلقه في نفسك حنينه وهو في الشام إلى الكرخ من بغداد؟ ثم إلى ماذا يصل بك عبث الخيال وما يأتيه من فن؟ وقد يحسب العقل الواهم أن الشاعر قلما يعمل الخيال فيما تثور معه العاطفة من شعر، وكثيراً ما يقولون: إذا ثارت العاطفة كان الشعر، غالباً، خلواً من الإبداع في الفن.
أما إن عنوا بذلك خلوه من الفن اللفظي فأنا معهم، لان توجيه الفكر إلى صناعة اللفظ يحول دون فيضان الروح بما تتأثر به من مشهد يثير فيه عاطفة ما، وإذا تأثرت الروح فليس للعاطفة أن تمهل الفكر في أعمال الخيال، ضرورة أن الإبداع فعل، وثورة النفس انفعال يجيش بركانه في الصدر فيقذف حممه.
وأما أن يريدوا خلوه من الإبداع في الفن من حيث تناوله اللفظ والمعنى معاً أو المعنى فقط فلا أراني على وفاق تام معهم لما سمعت من قوله (شر العصور الخ) إلى ما جاء في القطعتين الأخيرتين فقد يبرهن لك عن اجتماع الخيال مع العاطفة فيخرج الشعر خالد الفن بين خيال يبدع وعاطفة تثور.
هذه كلمة نسوقها تمهيداً لهذا الشعر الخالد من الشعر العبقري قبل أن يخرج ولما يزل تحت الطابع؛ وسوف نعززها بكلمات بعد خروجه تكشف عن كثير من أسرار هذا الشاعر
العبقري المعجز في عالم الفن.
الحوماني
نزيل بغداد
النارنجة الذابلة في الربيع
لفقيد الشباب والأدب
المرحوم محمد الهمشري
كانت لنا عند السياج شجيرة ... ألف الغناء بظلها الزرزور
طفق الربيعُ يزورها متخفياً ... فيفيض منها في الحديقة نور

حتى إذا حل الصباح تنفست ... فيها الزهور وزقزق العصفور
وسرى إلى أرض الحديقة كلها ... نبأ الربيع وركبه المسحور
كانت لنا. . . يا ليتها دامت لنا! ... أو دام يهتف فوقها الزرزور
قد كنت أجلس صوبها في شرفتي ... أو كنت أجلس تحتها في ظلتي
أو كنت أرقب في الضحى زرزورها ... متهللا يغشى نوافذ حجرتي
طوراً ينقِّر في الزجاج وتارة ... يسمو يزرزر في وكار سقيفتي
فإذا رآني طار في أغرودة ... بيضاء واستوفى غصون شجيرتي
فمتى يؤوب هتافه؟ ومتى أرى ... نوَّارك الثلجي يا نارنجتي؟!
ومتى أطير إليك. . . ترقص مهجتي ... فرحاً. . . وآخذ مجلسي من شرفتي؟!
هيهات لن أنسى بظلك مجلسي ... وأنا أراعى الأفق نصف مغمض
خنقت جفوني ذكريات حلوة ... من عطرك القمري والنغم الوضي
فانساب منك على كليل مشاعري ... ينبوع لحن في الخيال مفضض
وهفت عليك الروح من وادي الأسى ... لتعبَّ من خمر الأريج الأبيض
هيهات. . . لن أنسى ضحى (سبتمبر) ... والنحل يغشى نورك المتلالي
ومساء مارس كيف يهبط تلة ... شفقية. . . ممدودة الأظلال
نزل الحديقة تحت أرهام الندى ... وضفا عليك معطر الأذيال
فهناك كم ذهبية شغفت بها ... روحي فتاهت في مروج خيال
وهنا تحركت الشجيرة في أسى ... وبكى الربيعَ خيالها المهجور
وتذكرت عهد الصبى فتأوهت ... وكأنها بيد الأسى طنبور
وتذكرت أيام يرشف نورها ... ريق الضحى ويزرزر الزرزور
وعرائس النارنج تحلم في الندى ... فيرف فيها طيفه المسحور
وتذكرت عند (السياج) أزاهراً ... صفراء رفت في ظلال العوسج
كيف خان عهودها ... نسى الهوى من عطرها المنبلج (زهر القطيفة)
وتذكرت. . في رعشة لما سبا ... زرزورها منها ولم يتحرج
وهنا نشبت في الشجيرة خلجة ... وبكت حنيناً للشذا المتأرج
وتذكرت شفقاً توهج حمرة ... خلل الغيوم على ربا الآصال
وبدت غصون الجزورين كأنها ... قلع ترفرف في بحار خيال!
وهنا تحركت الشجيرة في أسى ... وبكى الربيع خيالها المهجور
وتذكرت عهد الصبا فتنهدت ... وكأنها بيد الأسى طنبور
وتذكرت شجر النخيل وهدهداً ... قد كان يقصدها صباح مساء
وتذكرت في اليوسفي يمامة ... كانت تنوح الليلة القمراء
وضفت على كل الغصون سحابة ... وزكا الغصين وفتَّح النوار
وتهلل الزرزور في أوراقها ... وزها السياج وفاحت الأعطار
حلمت بأرض في الخيال سحيقة ... في ذلك الأفق القصى النائي
خلدت إلى صمت هناك مخيم ... تسجوا عليه خوافق الافياء
هي جنة الأشجار والاظلال وال ... أعطار والأنغام والأنداء
يتزاهر البشنين فوق شطوطها ... ويغازل الدفلى زهر اللوتس
وعرائس النارنج فاح عبيرها ... بالنخل تحلم في السكون المشمس
وهناك زرزور يغرد دائماً ... ويقص أحلام الزهور النعس
يروى لها أسطورة سحرية ... مما يفوح به خيال النرجس
نارنجتي! والله مذ فارقتني ... وأنا حليف كآبة خرساء
أصبحت بعدك في انقباض موحش ... وكأنني منه مساء شتاء
تستشرف الأعطار في آفاقها ... روحي إليك وراء كل فضاء
وترف في دهليز كل أشعة ... قمراء أو ترنيمة بيضاء
قد كنت أرجو أن تكون نهايتي ... في ظل هذا السور حيث أراك
ويكون آخر ما يخدر مسمعي ... زرزورك الهتاف فوق ذراك
ويطوف في غيبوبتي فيفيقني ... فجر قصير البعث من رياك
والآن إذ عجل القضاء فإنما ... سيقوم في الذكرى خيال شذاك
وسرى إلى أرض الحديقة كلها ... نبأ الربيع وركبه المسحور

كانت لنا. . . يا ليتها دامت لنا ... أو دام يهتف فوقها الزرزور
محمد الهمشري
البريد الأدبي
كتاب جديد في التصوف الإسلامي
محيي الدين بن العربي من كبار متصوفة الإسلام وأقطاب فلاسفته الذين تركوا ذخيرة فكرية غير ضئيلة، ولم يتعرض لدرسها غير نفر قليل من أعلام المستشرقين، فقد تناولوا بعض نواحيها بما هي جديرة به من البحث والتنقيب. وتقوم اليوم جامعة كمبردج بطبع رسالة لأستاذ مصري هو الدكتور أبو العلا عفيفي قدمها منذ بضع سنوات لنيل إجازة الدكتوراه منها وهي
وقد تناول المؤلف في هذا البحث القيم عدة نواحي جديدة في فلسفة ابن العربي، ودرسها دراسة عميقة، محللاً ومفسراً وناقداً فقسمها إلى أربعة أقسام.
تناول في القسم الأول (النظرية الوجودية) عند هذا الفيلسوف المسلم، وهي تتعلق بنظرته للوجود الإلهي وبوجود العالم؛ ثم خصص القسم الثاني منها لنظريته (المعرفة) وبحث فيه عن أنواع المعارف الإنسانية عامة والمعرفة الصوفية خاصة وكيف يتوصل إليها، والذين درسوا التصوف الإسلامي لا بد قد أدركوا (غموض المعرفة) وما يحتاج إليه دارسها من صبر طويل في تقصيها من نواحيها المختلفة.
وتناول الدكتور أبو العلا عفيفي في القسم الثالث منها (علم النفس كما يفهمه ابن عربي) وهو باب جديد في دراسة ابن العربي استطاع المؤلف فيه أن ينفذ إلى آفاق جديدة وأن يخرج منها بآراء مستجدة في هذه الناحية المجهولة.
وتناول في القسم الرابع والأخير منها آراءه في الأخلاق والجمال وفي مصير الإنسان وفي معنى الجزاء بصورتيه (الثواب والعقاب) وفي الدار الآخرة. ولا مشاحة في أن قيام جامعة كمبردج بطبع هذا السفر للمؤلف المصري دليل على أهمية الكتاب من حيث التحليل والبحث لشخصية تعد في طليعة الشخصيات التي تركت أثراً عظيماً في الفلسفة الإسلامية وفي التفكير الإسلامي ونحت به منحى خاصاً فيه كثير من العمق.
(ح. ح)
النظام والخليل في ضحى الإسلام
روى الأستاذ أحمد أمين في كتابه ضحى الإسلام (3: 106) في سياق ترجمته للنظام - عن صاحب كتاب سرح العيون - أن النظام دخل على الخليل بن أحمد وهو صغير، ثم ساق محاورة جرت بينهما لا يعنينا أمرها، وإنما يعنينا أن هذه الرواية مدخولة ظاهرة الدخل من حيث إمكان التلاقي بين الخليل والنظام. فأما النظام فقد ذكر الأستاذ في الصفحة نفسها أنه مات سنة 221 في نحو السادسة والثلاثين من عمره. ومعنى هذا أنه ولد في نحو سنة 185 وأما الخليل فقد ذكر الأستاذ أيضاً في ضحى الإسلام (2: 184) أنه مات سنة 175، كما ذكر ابن النديم أنه مات سنة 170، يعني أن بين موته وبين ميلاد النظام عشر سنوات على الأقل.
فرواية سرح العيون لم يكن من اللائق علمياً أن يعتمد عليها وخصوصاً إذا كانت هذه الرواية قد أوردها الجاحظ في الحيوان (3: 146) بصورة أخرى لم يذكر فيها اسم الخليل.
لعل الذي حمل الأستاذ على الاحتفاء برواية سرح العيون، وإغفال رواية الحيوان، هو أن الأولى مفصلة والأخرى مجملة، وليس هذا بمرجح في التحقيق العلمي، فلعل ذلك التفصيل هو من قبيل الحمل والتزيد. إن مما يحمل على العجب أن تفضل رواية ابن نباتة في القرن الثامن عن النظام على رواية معاصره الجاحظ فما بال الأستاذ إذا كانت رواية ابن نباتة على ما رأينا من فساد ظاهر؟
أبو حيان
رابطة التربية الحديثة
تنوي رابطة التربية الحديثة أن تدعو الأستاذ ادولف فربير وهو من أعلام التربية الحديثة لإلقاء بضع محاضرات عامة في هذا الشتاء.
وقد تلقت الرابطة من مركزها الرئيسي بلندن قائمة تنظيم الموضوعات التي تشغل بال رجال التربية في الوقت الحاضر وهي: -
التنافس والتعاون. المقصود من الحرية في التربية. النظام. المسؤولية والحكم الذاتي.

المدرسة كمجتمع. الطرق الفردية في الفصل. علم النفس الحديث والطفل. الدين والتعليم الديني. تشغيل الأحداث وبطالتهم. آثام الأحداث. التعبير الذاتي الابتكاري. إعداد المعلم.

وستعمل الرابطة على دراسة تلك الموضوعات دراسة علمية فنية. أما أعضاء الرابطة المصريون فقد قام لفيف منهم بدراسة بعض الموضوعات في إجازة الصيف. ونذكر رؤوس تلك الموضوعات فيما يلي:

التربية الجنسية. مشروع لمدارس الحضانة. تقريرا مان وكلاباريد وما استفادته مصر وما يمكن أن تستفيده منهما. البحث العلمي في التربية. سجل التلميذ. التفرقة أو التوحيد بين الولد والبنت في التعليم. مشكلة تعليم اللغات الأجنبية في مصر. وسائل النهوض بالحياة الريفية. اتجاه جديد في دراسة الأدب العربي. حاجة مصر للتوجيه المهني. هل يقوم التعليم الصناعي على أسس صحيحة. التوفيق بين طريقة المشروع والبرامج الحالية في مصر والخارج. سياسة التعليم بمصر. الروح المدرسية.

دار العلوم وكلية اللغة العربية

كتبت في الرسالة (العدد 283) كلمة عرضت فيها بعض الحجج التي تدفع محاولة الأزهر منافسة دار العلوم في تدريس اللغة العربية بالمدارس، وتبين تفرد دار العلوم من حيث ثقافتها الشاملة ومن حيث إنها البيئة التي تعد فيها وزارة المعارف المعلم على الغرار الذي تتطلبه لمدارسها. فتعرض (أزهري) في العدد (284) لما سقته في الكلمة السابقة وناقش المسائل الآتية:

قلت: ليس من المساواة الحقيقية أن يعين الأزهريون في وظائف التدريس بالمدارس دون أن يعين أبناء دار العلوم في وظائف التدريس بالأزهر. فرد (أزهري) على هذا بأن في المعاهد الأزهرية مدرسين من أبناء الدار كثيرين. فهو يحتج بوجود كبار الأساتذة من أبناء دار العلوم الذين انتدبهم الأزهر أو عينهم حين بدء في إدخال عناصر ثقافية جديدة فيه. وأنا لم أقصد هؤلاء لان الأزهر استدعاهم لحاجته الطارئة، وإنما أعني اللذين يتخرجون في دار العلوم في الحال: هل يأخذ الأزهر منهم للتدريس في معاهده كما يأخذ من المتخرجين في كلياته؟ أم هل يجري بين هؤلاء وهؤلاء مسابقة لذلك، كما يريد الأزهريون أن يشغلوا وزارة المعارف بإجراء مسابقة - لا مقتضى لها - بينهم وبين أبناء دار العلوم للتدريس في المدارس؟

وقلت إن دار العلوم في عهدها الجديد تتفرد من بين جميع معاهد التعليم بالجمع بين الدراسة العربية المستفيضة ودراسة اللغات الأجنبية والسامية وآدابها. فقال (أزهري) إن العهد الجديد يميل بدار العلوم إلى التعاليم الغربية الجامحة التي تباعد بين القديم الخالد وبين ناشئة الأمة. وهذه فلتة من فلتات ما وراء الشعور، فالأزهر يحرص في هذه الأيام على الدعوي بأنه يعمل على مسايرة روح العصر. وليعلم (أزهري) أن النهضة الفكرية والأدبية خاصة قامت على الجمع بين الثقافتين العربية والغربية وإنكار ذلك من قبيل إنكار البدهيات؛ وهذا ما عنيت بالتبرئة من الجمود، أبرأ الله (أزهرينا) منه.

وقال (أزهري): لو راجع الكاتب ذاكرته لذكر أن الاتفاق على حلول كلية اللغة العربية محل دار العلوم، حديث مفروغ منه. فمتى كان هذا الاتفاق؟ ولم؟ وفي أي ذاكرة يوجد غير ذاكرة الأحلام؟! والغريب أن يتمثل بعد ذلك بالبيت الذي أصلحت (الرسالة) روايته:

أريد حياته ويريد قتلي ... عذيرك من خليلك من مراد

وهو يريد تنفيذ ذلك الاتفاق الموهوم بإلغاء دار العلوم، فكيف يريد حياتها؟!

وبعد فإن إخواننا الأزهريين في مطلبهم ذلك إما أنهم يريدون أن ينفعوا بعلمهم، وإما أنهم طلاب وظائف فحسب. أما الأولى فإن أبناء دار العلوم يقومون بالمهمة خير قيام، ولا نحسب خريجي كلية اللغة العربية أكثر كفاية من اللذين ينتدب الأساتذة من بينهم لتعليمهم، فيبقى الأمر الثاني وهو أنهم يطلبون الوظائف فحسب، وهذا ما لا حق لهم فيه، فإن في ميدان الوظائف الأزهرية ما يكفهم عن ترزيء أبناء دار العلوم فيما يضيق بهم، وما خلقوا من أجله.

(ع. ح. خ)

وفاة شاعر شاب

فجع الشباب والأدب في ليلة الأربعاء الماضي بوفاة الشاعر الوجداني الرقيق محمد

الهمشري محررمجلة التعاون بوزارة الزراعة، فكان لنعيه الفاجيء وجوم شديد في أندية الأدب والصحافة، لأنه كان أملاً من آمال الشعر الحديث، ومثلاً من الأمثال الطيبة للخلق وللصداقة. وقد نشر الفقيد ملحمة بعنوان (شاطئ الأعراف) واشتهر بقصيدته (جيث الفاتنة) وكان بصدد أن يجمع من شعره ما نشر وما لم ينشر في ديوان. رحمه الله رحمة واسعة
وألهم أهله وصحبه جميل الصبر.
رواية جان دارك
الموضوع: جان دارك، والمؤلف: برناردشو، والمترجم: الدكتور أحمد زكي بك ناقل ذات الكمليا وقصة الميكروب! فالقارئ لا يدري من أية جهة يأخذه البيان والفن والسمو! أخرجتها لجنة التأليف والترجمة والنشر فيما أخرجت من عيون الأدب الغربي فكانت واسطة القلادة. نبادر اليوم بإعلان ظهورها إلى قراء الرسالة، وسنعود إلى الحديث عنها في العدد القادم.
رواية بيت
حضرة الأستاذ الأديب الكبير صاحب الرسالة الكريمة
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته
عذيرك من خليلك من مراد ... أريد حياته، ويريد قتلي
أوردت البيت على هذه الصورة في كلمتي التي تفضلت الرسالة بنشرها في العدد (284) دار العلوم والأزهر - فعلقتم عليه بما نصه: الرسالة: (روي الأستاذ الكاتب هذا البيت على هذا النحو، وهو لدريد بن الصمة، وصوابه:
أريد حياته، ويريد قتلي ... عذيرك من خليلك من مراد
وفي الأغاني ج14 ص32 طبعة الساسي المغربي، في أخبار عمرو بن معد يكرب ما نصه: (وكان عمرو غزا هو وأبيَّ المرادي، فأصابوا غنائم، فادعى أبيَّ انه قد كان مساندا، فأبى عمرو أن يعطيه شيئاً، وكره أبيَّ أن يكون بينهما شر. . . فأمسك عنه. وبلغ عمراً أنه توعده، فقال عمرو في ذلك قصيدة له، أولها:
أعاذل، شكتي بدني ورمحي ... وكل مقلص سلس القياد
إلى أن قال فيها:
ولو لاقيتني ومعي سلاحي ... تكشف شحم قلبك عن سواد
أريد حِباءه ويريد قتلي ... عذيرك من خليلك من مراد
وفي أخبار دريد بن الصمة ج9 ص12 من الكتاب نفسه ما نصه:
عن أبي عبيدة قال: قالت امرأة دريد له: قد أسننت، وضعف جسمك، وقتل أهلك، وفنى شبابك، ولا مال لك ولا عدة، فعلى أي شيء تعول إن طال بك العمر؟ أو على أي شيء تخلف أهلك إن قتلت؟ فقال دريد:
أعاذل، إنما أفني شبابي ... ركوبي في الصريخ إلى المنادي
وبعد أن روى أبياتاً من هذه القصيدة قال:
هذا الشعر رواه أبو عبيدة لدريد، وغيره يرويه لعمرو بن معد يكرب، وقول أبي عبيدة أصح. إلى أن قال: (وخلط المغنون بهذا الشعر قول عمرو بن معد يكرب في هذين اللحنين:
أريد حِبَآءه ويريد قتلي ... عذيرك من خليلك من مراد
ولو لاقيتني، ومعي سلاحي ... تكشف لحم قلبك عن سواد اهـ
ومثل ذلك في معاهد التنصيص ص225 ج1، الطبعة البهية المصرية.
فالبيت على رواية سيدي الأستاذ - مع استبدال حباءه بحياته - لعمرو بن معد يكرب، لا لدريد بن الصمة، كما قال حضرته، وقد كنت أجزم بذلك من قبل، بيد أن شاعراً (أنسيته) أورده على سبيل التضمين، مقلوباً في قصيدة لامية، فكانت صورته في نفسي أنسب بمضمون كلمتي، ولذلك لم أنسبه والأمر سهل، والعصمة لله وحده.
أزهري
مكتب البعث العربي
إن البسالة العربية التي أعرب عنها المجاهدون العرب في فلسطين، في مواقفهم الدامية وجهادهم الدائب لهي من الأمور التاريخية التي ترفع جبين القومية العربية عالياً وتوقظ في الشعب أحلام الوطنية الصحيحة والتفاني المجيد. ولا شك أن ثورة

فلسطين التي هي ثورة الحق على الباطل، وثورة العدل على الظلم، هيأت الأسباب التحريرية الباعثة على النهوض في قابلية العرب الطبيعية اللذين منهم الأفراد المهاجرة في الأمريكتين الجنوبية والشمالية، وأفريقيا الفرنسية والإنكليزية وسائر المقاطعات الأخرى، وهؤلاء الأفراد الذين نزحوا بأجسامهم إلى ما وراء المحيطات الهائجة الصاخبة، وتركوا قلوبهم ثائرة في أقاليمهم
وطافحة بذكر الله وذكر الوطن؟!
ولذلك فإن مكتب البعث العربي - تقديراً لهذا الجهاد المشترك - يضع أمام شعراء العرب هدية نفيسة تقدر قيمتها بخمسين دولاراً أمريكياً لأحسن نشيد ينظم للمجاهدين والمهاجرين. وتفسير ذلك أن توضع قطعة نشيد للمجاهد وأخرى للمهاجر يدور محورها على استعراض ما يقوم به هؤلاء من تضحيات هائلة لم يشهدها التاريخ، على أن ترسل جميع الأناشيد بالعنوان المرقوم أسفل حيث تنظر اللجنة فيها وتقوم بإعلان النتيجة في العاشر من شهر أيار - شهر الزهر سنة 1939.
عبد الله بري
مدير مكتب الشعب العربي العام
1732
المسرح والسينما
الفرقة القومية
مديرها وسكرتيرها الفني
رواية شمشون لا رواية طبيب المعجزات
يرى المقبل على دار الأوبرا رقعة عريضة طويلة مكتوباً عليها بخط يقرؤه الأعشى عن بُعد أمتار (طبيب المعجزات) ويقرأ الناس في الإعلانات الملصقة على جدران الأوبرا وفي الشوارع وعلى مدخل غرفة بيع التذاكر ما يفيد أن هذه الرواية تمثل ابتداء من 9 لغاية 13 من الشهر الحالي.
أخذت تذكرتي على هذا الاعتبار وجلست في مكاني أنتظر مشاهدة تمثيل رواية طبيب المعجزات - درة الموسم - حائزة الجائزة في المباراة.
رفع الستار وإذا بالممثلين يمثلون رواية (شمشون). دهشت لهذه الصدمة الباردة، ثم عدت فافترضت أيسر الفروض المبررة لهذه الفعلة وأبعدها عن التعسف، افترضت مرض ممثلين هما بطلا الرواية وقلت: هل يعيق الفرقة مرض ممثلين اثنين عن تمثيل رواية ملأت الإعلانات عنها الشوارع والمنازل ومركبات الترام وصحف القاهرة؟
وسألت: أين الممثلون الاحتياطيون للطوارئ؟
قيل لي إن علاماً الممثل مريض فعلاً، فقلت: أما كان الأخلق بمدير الفرقة الفني أن يمثل رواية من روايات الموسم، أي يقدم رواية متأخرة بدلاً من تمثيل هذه الرواية التي جمع مؤلفها الفاضل جميع ألفاظ السباب والشتم المعروفة لغة وعرفاً وحشرها في هذه الرواية الفاضلة؟ يقول شمشون لخليلته دليلة: (إني أفرغ فيك شهوتي كأني أفرغها في جميع بنات قومك)، ويقول مصراييم لكهنة اليهود: (تتوهم دليلة أني خصي في حين أني. . أموت وجداً بها) ولقد سمعنا مئات من كلمات الفحش والفاسقة والمومس، والوحش والشهواني وما إليها من ألفاظ تتناثر من أحاديث شمشون ودليلة. ولعل أغرب من كل ما حوته هذه الرواية الفاضلة من تعابير لا أسمح لقلمي بتدوينها هي أن يجر شمشون خليلته دليلة إلى خبائها فنسمع من وراء الستار زمجرة الشهوة شهوة شمشون، وأنين اللذة أو آلام لذة دليلة، ثم تخرج هي شعثاء الشعر وهو محلول الإزار. وهنا يصح أن نسأل حضرات الشيوخ الأفاضل أعضاء لجنة القراءة هل نظروا (النواحي الفنية والخلقية والاجتماعية واللغوية) في هذه الرواية الفاضلة؟
أرى الحديث يجذبني للسؤال (عن المدير الفني) وذلك بمناسبة الحديث الممتع الذي أفضى به حضرة مدير الفرقة إلى محرر مجلة الصباح بمناسبة استقالة سكرتير الفرقة والاستعاضة عنه بالقائم بأعماله الآن ما نصه: (كان بودي أن تتحقق أمنيتي، أن أخلق من الفرقة ومن بين أفرادها مديراً فنياً يتولى جميع أعمالها الفنية ويدير شؤونها من هذه الناحية وتكون له السلطة النافذة. . إلى آخره) فهل تحققت أمنيته يا ترى في إيجاد (السكرتير) الحالي القائم فعلاً بالإدارة الفنية وغير الفنية، فارتأى هذا بثاقب فنه

إرجاء تمثيل رواية طبيب المعجزات لأن بطلها الممثل علام مريض والاستعاضة عنها بتمثيل رواية (شمشون) ثم روايتي فتياتنا سنة 1937 ومجنون ليلى وبطلها الممثل علام المريض! أم أن هناك باعثاً فنياً قاهراً أوجب تأجيل عرض رواية طبيب المعجزات استيفاء لأغراض فنية، أو أن هناك أسباباً غير ما ذكرنا يجهلها مدير الفرقة غير الفني ويتحدث بها الأدباء والممثلون في مجالسهم؟

السكرتير الحالي رجل فاضل يضرع رواية شمشون بالفن والفضل، ودليل ذلك أنه كان قبل أن يرقى إلى (مقامه) الحالي، يشرف على نشر الإعلانات وإلصاقها في الشوارع، وهو هو صاحب الإعلان المشهور عن رواية (الفاكهة المحرمة) فقد طبعه لوحده - على ما نقل إلي - ووزعه وألصقه على الجدران ولم ينتبه للغلطة العربية الفاضحة (تأليف الأستاذان) إلا بعد أن ضج الناس وهرعوا إلى التلفون ينبهون مدير الفرقة إلى هذه الغلطة الشائعة.

ما كنت أقصد ذكر هذه الحادثة الفردية التي تدل على مدى فضل (السكرتير الفني) الذي اصطفاه مدير الفرقة لولا اتصالها بلب موضوعي وهو الفوضى المطلقة من الجهل المطلق للفن المسرحي

عرف مدير الفرقة غلطة من اختاره ليكون خير خلف لخير سلف فهل غضب لها؟ كلا لم يغضب، بل أمر - أدام الله دولته - بطبع الإعلان صحيحاً من الغلط وأن يلصق فوق الإعلان الأول ليستر فضيحة الجهل بأبسط قواعد اللغة.

ولم الغضب، وأجرة استعادة طبع الإعلان وتوزيعه وإلصاقه لا تقل كثيراً ولا قليلاً من مبلغ الخمسة عشر ألفاً من الجنيهات المنتزعة من الأمة، المرصدة على (تكية) التمثيل وإعاشة المرتزقة. إن أجرة الإعلان المغلوط لا تساوي عشر ثمن رواية واحدة من الروايات التي فرضتها لجنة القراءة على مدير الفرقة كما يقول هو، أو التي قبلها هو ودفع ثمنها ليدفنها في أدراج مكتبه.

أعرف عشرات من هذه الروايات المدفونة، أذكر منها الأجنبية لمعربها جورج سمان، والصدر الأعظم لمصنفها شوكت التوني المحامي، ووحيد لمؤلفها حسين عفيف المحامي وغيرها لمحمود كامل المحامي صاحب مجلة الجامعة وسواه من أنداده. فما قيمة أجرة إعلان ضاعت سدى إزاء أثمان هذه الروايات التي لا تقل أدناها عن خمسين جنيهاً؟!

لست أحاول النيل من أدب الأدباء الذين أهملت رواياتهم ولا القول البات بأن مدير الفرقة دفن هذه الروايات دفناً أبدياً، بل أشعر بالواجب الأدبي يدعوني إلى السؤال عن معنى الرجوع إلى الروايات القديمة وعند مدير الفرقة عشرات من الروايات التي لم تمثل بعد. فهل في ذلك سر غير سر الوحي الذي يطيب للمدير أن يتلقاه من موح جديد يرتاح إليه كما يرتاح الشعراء إلى وحي شيطانهم؟

هل لاحظت لجنة التحقيق بوزارة المعارف هذا الضرب من الإسراف والتبذير، أو الإعانة الفردية على حساب الأمة؟ هل فكرت في حصر المبالغ التي دفعتها الفرقة ثمناً للروايات فعرفت ما مثل وما دفن منها؟

ابن عساكر

العدد 286 - بتاريخ: 26 - 12 - 1938

تنظيم الإحسان

الإحسان في مصر - وإن شئت قلت في بلاد الإسلام - فوضى. وإذا كان للفوضى نظام فهو أن ينال المستطيع ويدرك السريع ويظفر المُلِح. والبؤس يسلب المنة ويعقل القدم؛ فلا يغشى مساقط الندى ومهابط الرحمة إلا من اتخذ الفقر تجارة والتكفف حرفة. أما الذين واراهم التعفف وأقعدهم العجز، فهم يتضاغون من السغوب وراء الحجب، فلا تبصرهم عين، ولا تسمعهم أذن. والناس من هؤلاء العاجزين المتعففين، وأولئك القادرين المتكففين في مأساة تبكي وملهاة تضحك!

دخل علينا القهوة ذات مساء فتى ريان الجسم بالشباب والصحة؛ على رأسه طربوش، وحول عنقه كوفية، وفي يده خيزرانة؛ فحيى بأدب وضراعة، ثم أخذ يسترحم القلوب ويستندي الأكف بأسلوب يخبل العقل النير ويختل الطبع الحريص. وكان خطابه التمثيلي المؤثر يدور على عزته التي لا تألف الهون، وأسرته التي لا تصيب الدُّون، وكفايته التي لا تجد العمل. . . فأعطاه بعض من في المجلس، ثم استدناه صديق من

أهل السراء وأرباب الضياع وقال له:
- لِمِلا تطلب العيش من طريق أخلق بالرجولة وأليق بالكرامة؟
- طلبت العمل يا سيدي في كل مكان فلم أجده
- أتقبل العمل عندي في المزرعة؟
فبدا على الفتى شيء من التردد والحرج لأنه أحس الجد في لهجة الرجل، ولكنه سأل:
- وماذا يعطيني ألبك إذا قبلت؟
- ثلاثة جنيهات غير طعامك وكسوتك
فابتسم الفتى ابتسامة فيها معان شتى من الدهش والعجب والتهكم، وقال وهو يدني فمه من أذنه كأنما يريد أن يسارّه:
يا سيدي، إني أسأل في اليوم الواحد ألفاً على الأقل ممن أتوسم فيهم رقة القلب وكرم المهزَّة؛ فإذا أعطاني مائة وردني تسعمائة تجمَّع لي من ذلك في الشهر خمسة عشر جنيها، أصيبها وأنا في القاهرة أتقلب بين مطاعمها ومقاهيها، وأتمتع بمناعمها وملاهيها. فكيف تريدني على أن أقبل ثلاثة جنيهات في الريف على عمل قذر متعب بين الأجلاف والبهائم؟
أرأيت خمسة عشر جنيها يجبيها من الأغرار هذا المتبطل المتعطل وينفقها في الخمر والقمر والحشيش، ومئات من الأسر الكريمة تكابد عبث الأقدار أو خطأ الأغيار فلا تجد مواسيا في معروف الأحياء ولا في موقوف الموتى! وخمسة عشر ألف فدان يقتنيها ذلك الغنى الشره ينفق ريعها الفياض على وساوس غيه وهواجس أحلامه، ومن حوله ألوف وألوف لا يدرون من طول الحرمان لماذا شق الله لهم الأفواه وجوّف فيهم الأبطن!
هذا البليد الملحف، وذلك الجمَّاع الطماع هما اللذان أكلا نصيب العاجز من رزق الله! فلو أن السائل المحترف ترك نفحات الأيدي للفقير، والغني المنهوم عف عن فضول الرزق للعاجز، لما رأيت عليها رجلاً يشرق بالدموع بجانب آخر يشرق بالشمبانيا! ولكن النفس البشرية تؤثر الجانب الأيسر من العيش، وتطلب النصيب الأوفر من المتاع، فلابد من سلطان يقيم المعدلة بين الساعي بقوته والقاعد لضعفه. ومن ثَمَّ جعل الإسلام تنظيم العلاقة بين الغني والفقير ركناً من أركانه الخمسة، يصلح به وبالحج أمر الجماعة، كما يصلح بالصلاة والصيام أمر الفرد وكان هذا الركن الإسلامي الركين عسيّاً بعناية أولي الأمر يجعلون له (مصلحة) أو (وزارة)، تأخذ من أموال الناس صدقة تزكي النفوس من حقد الفاقد على الواجد، وتطهر المجتمع من بغي طبقة على طبقة. ولكن الأمم الإسلامية الحديثة توزعتها الجهالة والمذلة، فحسبت أن دستور القرآن لا يأتلف مع المدنية الغالبة؛ فتركت شريعة الله إلى شريعة نابليون، وهجرت سياسة الرسول إلى سياسة كارل مَرْكس، فلم يكن بد من قسوة الأكباد لجفاف القانون، وثورة الأطماع من شدة التنافس. وليست الرهبانية من نظم الإسلام حتى تقوم الراهبات. بما لم تقم به الحكومات من جمع الزكوات وتوزيعها على صرعى الفاقة وأسرى المرض، فكان ما لا حيلة في اتقائه من فوضى الإحسان، فحبس عن غير أهله، وحل في غير محله، وذهب كله للمتشردين في الطرق، والمحتالين في البيوت، والمتبطلين في المساجد
إن فريضة الزكاة في الإسلام هي الفرق بين الدين والقانون، وبين الشرق والغرب، وبين الإنسان الذي يعيش بالروح والإنسان الذي يعيش بالآلة. فمن المحتوم على دولة تطمح الى الخلافة أن تُلزم بها الناس لتكون حكومتها للشعب كله. وإلا فما جَداي أن أقول إن لي دولة دستورها المساواة وقانونها العدل، ووطناً ثراه الذهب وماؤه الكوثر، وأنا محروم لا أنتفع بخير الحياة، ومهضوم لا أتمتع بحقوق الحي؟
إما أن تقولوا إن من عجز عن واجب السعي نزل عن حق الوجود، وإما أن تنصفوا بعض الناس من بعض فيشعروا أنهم عباد لإله واحد ورعايا لملك واحد. أما أن تتعدد الآلهة فيكون لكل أرض إله وهو المالك، وتتنوع الملوك فيكون لكل عمل ملك وهو المموَّل، فذلك مالا يطيب به عيش ولا يصلح عليه أمر
افرضوا الإحسان كما فرضه الله، ونظموه كما نظمته الشريعة، واجبوه كما جباه الراشدون، ووزعوه كما وزعه القرآن، تضمنوا للفقير سكون الجوف، وللغني زوال

الخوف، وللأمة بأسرها السلام والوئام والمحبة
أحمد حسن الزيات
المذياع الآدمي
للأستاذ عباس محمود العقاد
حالة نفسية غير نادرة، ولاسيما في الأيام الغائمة أو الماطرة.
على الأفق البعيد رباب مسف جاثم، وفي الجو شوب من ضباب كالغبار يحجب صفاء السماء، والأشجار هنا وهنالك كأنما تتوارى من الناس، وعلى النفس سآمة قائمة لا تتحرك كأنها فرغت من النقاش والسؤال عن الأسباب، وخلصت إلى اليقين والقرار، وكل شيء عبث. . . وكل عمل عقيم. . . وما هذه الدنيا القاتمة بالباطل، وما هذا العناء في غير طائل؟ باطل الأباطيل. . . قبض الريح. . . متاع الغرور!
حالة غير نادرة
لكنها لو كانت الحالة الأولى من نوعها لجعلتها فلسفة حياة وصبغت بها وجه الكون، وبسطتها على الدنيا، أو قبضت الدنيا حتى انطوت فيها، وكنت من المتشائمين لم تكن الحالة الأولى من نوعها، فلهذا لم تكن فلسفة باقية، بل كانت حالة عابرة غير نادرة، واستطاعت النفس أن تنتزع منها زاوية صغيرة يهمس فيها هامس مسموع مستجاب: كلا! ليست الدنيا كذلك. ليست الدنيا كذلك. . . إنما هي نوبة تزول، وركود راحة بعد جهاد، أو ركود استجمام قبل وثوب
وحالة أخرى غير نادرة، ولاسيما في أيام الإشراق والنضرة والإقبال، صيفا كانت أو شتاء، وربيعا كانت أو خريفا. فهي شائعة موزعة بين جميع المواسم والفصول لمعة الشعاع على الصخرة الملقاة تبعث الفرح من أعماق السريرة، ورجفة الورقة على الغصن رقص وانتشاء، ومشية المسرع استطارة سرور، ويمشي المتأني فكأنه يتملى متعة المشي ويستوفي نعمة الرياضة، ومنظر الشجرة كأنها باثقة تنطلق في السماء، وليست بالجاثمة المقيدة بالغبراء، وكل شيء حسن كما هو في غير حاجة إلى تفسير أو عافية منظورة، وليس في الإمكان أبدع مما كان
حالة غير نادرة
لكنها لو كانت الحالة الأولى من نوعها لجعلتها كذلك فلسفة حياة ونفثتها في ضمائر الكون، ورأيت الدنيا معها فردوسا سماويا لا حدود فيه ولا انتهاء لمشاهده ومعانيه، وكنت في
عليين ولا يغنيني أن أقول: كنت من المتفائلين
ولم تكن الحالة الأولى من نوعها فلهذا لم تكن فلسفة باقية بل كانت حالة عابرة غير نادرة، واستطاعت النفس أن تملك زمامها وهي إلى جوارها فلا يزال فيها هامس مسموع مستجاب يردد في غير إلحاح ولا إعنات: كلا. لست في عليين، لست في عليين!
أإذا عرفنا أسباب الحالة الأولى جاز لنا أن نقول: إنما هي ضلالة في الحس من أثر الغيم أو من أثر السوداء أو من أثر المعدة الشاكية؟
كلا. لأن معرفة السبب الذي يريك الشيء لن تنفي وجوده، كما أن شعورك بألم الآخرين من أجل القرابة بينك وبينهم لا ينفي أنهم متألمون وأن الألم موجود هناك. ثم نقترب من المحسوسات فنقول إن رؤيتك الجراثيم بالمجهر وعلمك بأن المجهر هو سبب الرؤية لا ينفي الجراثيم ولا ينقض صحة ما تراه
وكذلك الحالة الثانية لا يدحضها أن تعلم أسبابها، وهي الإشراق والصحة وامتناع الأكدار والأحزان، فإن العلم بأسباب إحساس من الأحاسيس لا يقدح في حقيقته ولا في صواب الشعور به حيث كان.
لذلك أقول إن السريرة الآدمية كالمذياع، وإن الدنيا المحزنة والدنيا المفرحة ودنيا القنوط ودنيا الرجاء موجودة لا تظهر للنفس إلا حين يصل المفتاح الى وجهته المرسومة، وإلا فهي صمت وخفاء
في النفس الإنسانية متسع لجميع العوالم، ولكنها تتهيأ لكل عالم من هذه العوالم بحالة من الحالات، أو بمفتاح من المفاتيح، فإذا هو موجود مسموع منظور محسوس، وإذا أنت لا تسمع غيره ولا تعيش في غيره، لأن إدارة المفاتيح كلها هي الفوضى التي يبطل فيها الإحساس، ويفسد فيها التعبير المفهوم، فهو إذن لغط وأصداء

إن كنت تسمع حديث القاهرة فليس معنى هذا أن حديث باريس باطل، وإنما معناه أن المفتاح في هذا الاتجاه وليس في اتجاه غيره، وحديث باريس بعد ذلك صادق عند أناس آخرين صدق حديث القاهرة، وغيره من الأحاديث

وإن كنت في دنيا من دنياوات الإقبال والتفاؤل فليس معنى ذلك أن دنيا السآمة والقنوط عدم وضلال، وإنما معناه أن المفتاح هنا، وأنه لو تحول قليلاً لأصبح هناك!! امتناع الحس لا يدل على امتناع المحسوس

وبهذا نفسر العبقرية التي ترى الأخيلة والشكول والمعاني والتوفيقات حيث لا يبصرها أحد ولا يسمعها أحد ولا يدري بها أحد، ولكنها تظل في صمتها وخفائها حتى تصادف من يدري بها ويستمع إليها، فهي موجودة له معدومة لسواه

وبهذا نفسر الصوفية التي تلمح من الخفايا ما ليس يلمحه المصاقبون والجيران، وتقترب من الآمال والمخاوف قبل أن يقترب منها المزاملون والرفقاء، وتبصر بعيني (حزام) والناس من حولها ضاحكون لا يصدقون، وإن قال لهم ألف قائل:

إذا قالت حزام فصدقوها ... فإن القول ما قالت حزام

لأن ما يرى بالعين على مسيرة يوم سوف يرى بالعين على مسيرة ساعة. أما ما يرى بالسريرة فقد تكثر فيه المغالطة والمكابرة كلما اقترب واقترب حتى تتناوله جميع السرائر: أهذا الذي أنبأتنا به؟؟ لا. إنك أنبأتنا بغير هذا، ولن تزال في ضلالك القديم!! ولنهبط من العبقرية والصوفية إلى المشاهد الملموسة في حياة الحيوان.

فأين من الناس من يشعر بأن ملامسة اليد للمنديل تترك فيه أثراً من الرائحة المحسوسة يشمها الأنف بعد أيام؟ وأين من يثبت لهم ذلك لولا أن شاهدوه وكرروا شهوده من بعض الحيوان؟؟

أفينقض (وجود) تلك الرائحة أن يقول قائل: بل ما أدركها ذلك الحيوان إلا لأنه كلب يشم بحاسة الكلاب؟

أفينقض (وجود) تلك المعاني والتوفيقات أن يقول قائل: بل ما أدركها ذلك الناظم أو ذلك الموسيقي إلا لأنه مجنون مخبول؟

فلم لا يكون الخبل المزعوم هو المفتاح الذي يوجه السريرة إلى وجهة تلك المعاني والتوفيقات؟؟ ولم ننكر (المحطة) لأننا لا نملك المفتاح وإن رأينا من يسمعها ويروي لنا ألحانها وأناشيدها في تناسق وانتظام؟

فالعالم حافل بما يحس ويشعر

حافل بالمنظورات وإن لم يشهدها كل نظر، وحافل بالمسموعات وإن لم تسمعها كل أذن، وحافل بالطعوم وإن لم يذقها كل لسان، وحافل بالحياة وإن لم تتصل بها اتصال التعاطف

والتفاهم كل حياة

فلم لا نقول على هذا القياس إنه حافل بالمعاني، وحافل بالمدركات، وحافل بالوحي والتعبير، وإن العبقري له حاسة في الروح تلتقط هاتيك المعاني والمدركات من حيث لا يحلم أحد بموقعها هناك؟؟

لم لا نفهم أن المحسوسات الذهنية التي تتناولها العبقرية لن تنفد بالتقاط الأذهان منها لأنها ليست بأجسام، وأن الشيء الذي ليست له مادة تنفد لن يرى على وضع واحد بل يرى على ألوف الألوف من الأوضاع حسب من ينظرون إليه وينفذون فيه؟

لم لا تكون الدنيا مفرحة محزنة، عادلة ظالمة، منظومة مشتتة، لأن هذه المعاني لا تتناقض في عالم الإلهام كما تتناقض السوداء والبيضاء في عالم العيان، وإنما يصعب التوفيق بينهما في إلهام واحد كما يصعب التوفيق بين مفاتيح المذياع، فنخرج إذا أدرناه جميعا من الفهم والنظام، إلى أصداء لا تقبل الفهم ولا النظام؟

إذا مرت بي حالة عابرة إلي جانب الحزن والقنوط قلت هي حالة صادقة في مفتاحها وإذا مرت بي حالة عابرة إلى جانب الفرح والرجاء قلت هي أيضاً حالة صادقة في مفتاحها

ولم أقل إن العالم السرمدي ينحصر في هذه أو في تلك، ولكني أتلقى درساً من المذياع وأومن بأن السريرة الإنسانية أكبر - على الأقل - من صندوق الكهرباء، وإن عالم الإدراك أكبر - على الأقل - من مراكز الإذاعة، وأن الوصلة بين الطرفين أكثر

على الأقل من الموجات القصار والوسطى والطوال
عباس محمود العقاد
مصر والعروبة
للدكتور طه حسين بك
أخي العزيز)
قرأت مقال الأستاذ ساطع الحصري بك في رسالة الاثنين الماضي، وأظن أن من حقي عليك أن تنشر ردي على هذا المقال، وما أرى أنك تبخل علي بهذا الحق
وهذا الرد فصل من كتاب (مستقبل الثقافة) الذي سيظهر بعد أيام، فهو إذن قد كتب (وطبع قبل مقال الأستاذ الحصري. . . ولك أصدق المودة وأخلص الإخاء
طه حسين
قد أشرت منذ حين إلى أن من الحق على الدولة المصرية للثقافة أن تذيعها في طبقات الشعب المصري من جهة، وأن تتجاوز بها الحدود المصرية إلى الأقطار التي تستطيع أن تسيغها وأن تنتفع بها من جهة أخرى
ولأمر ما قالت بعض الأقطار الشرقية لمصر إنها زعيمة الشرق العربي، ولأمر ما صَّدقت مصر ما قيل لها. فإن كان هذا حقاً فإن له نتائج يجب أن تنشأ عنه وتبعات يجب أن تترتب عليه. وإن لم يكن هذا حقاً فإن من الواجب علينا أن نحققه لأن فيه تحقيقاً لكرامتنا من ناحية، ولأن فيه ارتفاعاً عن الأثرة التي تليق بشعب كريم. والشيء الذي لا شك فيه هو أن الله قد هيأ لمصر من أسباب القدرة على إحياء الثقافة ونشرها ما لم يهيئ لغيرها بعد من الأمم العربية. فمما لا يليق بالمصريين وقد تسامع الناس بأنهم كرام، وزعموا هم لأنفسهم أنهم كرام أيضاً، مما لا يليق بهم أن يؤثروا أنفسهم بما أتيح لهم من الخير ويختصوها بما أتيح لها من النعمة، وإنما الذي يلائم كرمها وكرامتها وما تطمح إليه من المثل الأعلى أن يكون حديثها ملائماً لقديمها، وأن تكون مشرق النور لما حولها من الأقطار، وأن تكون البلد الذي تهوي إليه أفئدة الراغبين للعلم والراغبين فيه
وقد يظن المصريون أنهم يبلون في سبيل ذلك بلاء حسناً. فأحب أن أصارحهم بأنهم لم يفعلوا في سبيل ذلك شيئاً
إن الأقطار العربية تقرأ ما ينشر في مصر من الصحف والكتب والمجلات، ولكن مصر لم تصنع إلى الآن شيئاً لتيسر لهذه الأقطار قراءة كتبها وصحفها ومجلاتها. ولعل من هذه
الأقطار ما يلقى كثيراً من الجهد في الظفر بحاجته من هذه الكتب والصحف والمجلات. ولقد يسرت مصر للأقطار العربية قراءة آثارها المطبوعة لما بلغت من خدمة الثقافة إلا أيسرها وأهونها، على أن ذلك يعود عليها بالمنفعة المادية والمعنوية جميعاً
نعم، إن مصر تيسر لبعض البلاد العربية استدعاء بعض المعلمين، ولعلها تنفق في ذلك شيئاً من المال، ولعلها تجد في ذلك شيئاً من الجهد، ولكن هذا من أيسر الأمر أيضاً. وتبعات المركز الممتاز الذي أتيح لها بين الأقطار العربية تفرض عليها أكثر من ذلك. ولست أذكر إلا أمرين اثنين، أحدهما قد أخذت مصر بأسبابه ولكن في بطء وتردد، وهو فتح أبواب مدارسنا ومعاهدنا للطلاب الشرقيين والعناية بهم إذا وفدوا على بلادنا، لا بأن نيسر لهم طلب العلم فحسب بل بأن نيسر لهم حياتهم في مصر أيضاً. وإني لأوازن بين ما تصنعه البلاد الأوربية لتحقيق العناية بالطلاب الأجانب وما نصنعه نحن فأوازن بين الوجود والعدم. ومع ذلك فأوربا حين تعنى بالطلاب الأجانب إنما تنشر الدعوة لنفسها وتستقدم الأجانب لينفقوا فيها أموالهم وليعودوا منها وقد تأثروا بها وأصبحوا لها رسلاً في بلادهم. فأما نحن فلسنا في حاجة إلى نشر الدعوة لأننا لا نطمع في شيء، ولأن الدعوة المصرية تنشر نفسها في الأقطار العربية لما تقوم عليه من الحب والمودة والإخاء. وإنما يجب علينا أن نيسر لطلاب الأقطار العربية الدرس والإقامة في مصر أداء للحق ونهوضاً بالواجب ووفاء للأصدقاء وصرفاً لهؤلاء الأصدقاء عن الرحلة إلى أقطار الغرب إن وجدوا في هذه الرحلة مشقة أو عناء.
والأمر الثاني دعوت إليه سراً منذ أكثر من عشرة أعوام حين تولى حضرة صاحب المقام الرفيع علي ماهر باشا وزارة المعارف للمرة الأولى. فقد شهدت مؤتمراً للآثار

عقد في سوريا ولبنان وفلسطين. فلما عدت رفعت إلى الوزير تقريراً خاصاً طلبت فيه أن تنشئ مصر مدارس مصرية للتعليم الابتدائي والثانوي في هذه الأقطار. وكان الذي أثار في نفسي هذا الاقتراح ما رأيته من السلطان العقلي للمدارس الأجنبية على هذه الأقطار. وكنت أرى أن العقل المصري أقرب إلى العقل السوري والفلسطيني وأحرى أن يتصل به ويؤثر فيه تأثيراً حسناً من العقل الأمريكي أو الفرنسي. ولكن وزير المعارف حينئذ نبهني باسماً إلى أن ذلك ليس ميسوراً، فقد تريده مصر ولكن السياسة الأجنبية ستأباه من غير شك. وكان

هذا حقاً حينئذ، فأما الآن وقد عقد بيننا وبين أوربا اتفاق مونترو، وقد ظفرت سوريا ولبنان ببعض الحرية، واستقلت العراق، فما أرى أن مصاعب سياسية تقوم دون هذا النوع من التعاون الثقافي بين الأقطار العربية التي تجمعها وحدة اللغة والدين والمثل الأعلى، والتي تشترك في منافع اقتصادية عظيمة الخطر.

ما أظن أن السياسة الوطنية لهذه الأقطار تكره أن تنشأ فيها مدارس مصرية تحمل إلى أبنائها ثقافة عربية شرقية، ويحملها إليهم معلمون شرقيون مثلهم وعرب مثلهم يتحدثون إليهم بلغتهم ويشاركونهم في الذوق والميل والشعور. وما أظن أن السياسة الأوربية تمانع في ذلك وقد تم الاتفاق بيننا وبين أوربا على أن تستقر في بلادنا مدارس أوربية وتستمتع بكل ما يمكنها من النهوض بمهمتها في حدود القوانين المصرية، وعلى أن يكون التبادل أساساً لهذا الاتفاق

وواضح أننا لا نريد أن ننشئ مدارسنا المصرية في فرنسا أو إنجلترا أو إيطاليا؛ ولكن من حقنا أن ننشئ المدارس المصرية في البلاد العربية التي تتأثر بسلطان هذه البلاد ونفوذها تأثراً قليلاً أو كثيراً

ومن المحقق أننا إذا أنشأنا المدارس المصرية في الأقطار العربية فسننشئها وسنسَّيرها على النحو الذي نحب أن تنشأ عليه المدارس الأجنبية في بلادنا وأن تسير عليه أيضاً. سننشئها على أنها معاهد للتعاون الثقافي بيننا وبين أهل هذه البلاد، لا يستأثر المصريون وحدهم بالعمل فيها، بل يستعينون بمن يقدرون على معونتهم من الوطنيين. ولا نفرض فيها الجغرافيا المصرية والتاريخ المصري دون الجغرافيا الوطنية والتاريخ الوطني، وإنما تكون معاهد ينشأ فيها الوطنيون لأوطانهم لا لمصر، وحسب مصر أنها تعين على ذلك وتشارك فيه وتؤدي ما عليها من الحق لجيرانها وشركائها في اللغة والدين والاقتصاد، وحسبها أن تظفر منهم بالحب والمودة والإخاء

وقد يقال إن أعباء الدولة المصرية أثقل من أن تسمح لها بمثل هذا التوسع في إذاعة الثقافة خارج حدودها على حين أنها في أشد الحاجة إلى إذاعة الثقافة داخل هذه الحدود. وقد يكون هذا حقاً من بعض الوجوه، ولكن من الحق أيضاً أن لحياتنا المستقلة تبعاتها، وأن التقصير في النهوض بهذه التبعات لا يلائم ما نزعمه لأنفسنا من الكرامة والزعامة

ومما لا شك فيه أن هذه المدارس إن أنشأناها ستكون أنفع لمصر وللبلاد التي تنشأ فيها من كثير من القنصليات والمفوضيات التي نبثها في أقطار الأرض ولا نكاد نجني منها، ولا تكاد البلاد التي نبثها فيها تجني منها نفعا

ومما لا شك فيه أيضاً أن العبء المالي الذي يتبعه إنشاء هذه المدارس لا ينبغي أن يقع كله على الدولة وإنما ينبغي أن يشارك فيه القادرون على هذه المشاركة من المصريين أولاً ومن الوطنيين ثانياً. وحسب الدولة أن تعينها معونة قيمة بالمال والرجال

على هذا النحو تحمل مصر تبعاتها وتنهض بواجباتها الثقافية، وتلائم بين حديثها وقديمها، فقد كانت مصر فيما مضى من العهود الإسلامية مصدر الثقافة والعلم للأقطار العربية في الشرق القريب. لم تقصر في ذلك إلا حين اضطرها السلطان العثماني إلى التقصير فيه. فأما الآن وقد استردت استقلالها فيجب أن تسترد مكانتها الثقافية في الشرق القريب. وهناك بلاد عربية لم ينشئ فيها الأجانب ولا يستطيعون أن ينشئوا فيها المدارس والمعاهد، ولا يجد أهلها فضلا من المال ينفقونه في تنمية الثقافة كما ينبغي.

فالحق على مصر أن تسرع إلى معونة هذه البلاد وألا تدخر جهداً إلا بذلته في هذه السبيل، وهذه البلاد هي الحجاز وبلاد الدولة العربية السعودية بوجه عام. وما أشك في أن المصريين يرضون كل الرضى عن إنشاء مدرستين على اقل تقدير، إحداهما في

مكة والأخرى في المدينة، بل ما أشك في أنهم يتجاوزون الرضى إلى البذل والإنفاق. وقد علمت أن أهل الحجاز أنفسهم يتمنون ذلك ويلحون فيه

وليس هذا كل ما ينبغي أن تنهض به مصر لنشر الثقافة في الأقطار العربية، بل هناك شيء آخر قد عم الشعور به واشتدت الحاجة إليه حتى أخذت وزارة المعارف تفكر فيه وتستعد له وهو: التعاون على تنظيم الثقافة وتوحيد برامجها بالقياس إلى الأقطار العربية كافة. يدعو إلى ذلك حاجة هذه البلاد إلى توحيد الجهود مادام مثلها الثقافي الأعلى واحداً؛ ويدعو إلى ذلك أن التعليم الحالي في مصر قد بلغ من الرقي درجة تدعوا إليه طلاب العلم في الأقطار العربية، وللتعليم العالي في مصر نظم دقيقة وشاقة قد تحول بين هؤلاء الطلاب وبين الانتفاع والظفر بإجازاته ودرجاته، فلابد من أن يهيأ هؤلاء الطلاب لهذا التعليم تهيئة حسنة تلائم تهيئة المصريين له. وقد اجتمع فريق من قادة الرأي الشرقي

العربي منذ أكثر من عام لجنة التأليف والترجمة والنشر وتشاوروا في ذلك كما تشاوروا في غيره من ألوان التعاون الثقافي، ورسموا لذلك خطة وشرعوا له نظاماً. ثم أخذت وزارة المعارف تفكر فيه وتستعد للدعوة إلى مؤتمر عربي شرقي. والذي أرجوه أن يكون انعقاد هذا المؤتمر دورياً وأن يكون هذا المؤتمر متنقلاً في الأقطار العربية على نحو ما يسير عليه المؤتمر الطبي الذي أنشئ منذ حين.

وقد شهدت في العام الماضي - ممثلاً لوزارة المعارف - مؤتمر اللجان الوطنية للتعاون الفكري، فتحدثت فيه إلى المؤتمرين بأن مصر تستطيع أن تكون مركزاً من أهم المراكز لهذا التعاون الفكري إذا نهضت بتبعاتها الثقافية نحو الأقطار العربية. ذلك لأنها بحكم مركزها الجغرافي وبحكم نهضتها الحديثة أصدق صورة لما تطمح إليه عصبة الأمم من هذا التعاون الفكري الخالص الذي يقارب بين الأمم ويلغي ما بينها من الفروق ويرتفع بحياتها العقلية عن ألوان الخصومة وضروب النزاع. فالجامعة المصرية مثلا بيئة تلتقي فيها الثقافات الإنسانية كلها تقريباً، يحملها إليها أساتذة ممتازون من المصريين ومن الأوربيين على اختلاف أوطانهم ومذاهبهم في السياسة والدين والاقتصاد. وهذه الثقافات كلها تلتقي وتمتزج وتصهر في العقل المصري الذي يسيغها ويتمثلها ويطبعها بعد ذلك شيئاً ما بطابعه المصري الخاص. وهو قادر بعد هذا على أن يذيعها في بلاد الشرق شرقية غربية عربية أوربية بريئة مما يفسد الثقافة عادة من التعصب والهوى.

وقد وقع هذا الحديث من المؤتمرين موقعاً حسناً. فهل يقع هذا الحديث من المصريين أنفسهم موقعاً حسناً، وهل يشعر المصريون بأن فرصة ذهبية كما يقال تتاح لهم الآن؟، فلكل شر أثر حسن، والشر أن حاجتنا إلى الأوربيين لا تزال شديدة في التعليم، والأثر الحسن لهذا الشر أننا نستطيع أن نكون رسل العلم والثقافة والأمن والسلم والتوفيق بين الشرق والغرب جميعاً.

فإذا أرادت مصر أن تنتهز هذه الفرصة فذلك يسير عليها لا يحتاج إلا إلى أن تعنى بتقوية الصلة بينها وبين لجنة التعاون الفكري في جنيف ومعهد التعاون الفكري في باريس من جهة، وبينها وبين البيئات والمعاهد العلمية في الشرق العربي، بل في الشرق الإسلامي من جهة أخرى.

طه حسين

الحج

للدكتور عبد الوهاب عزام

كان سلفنا إذا أرادوا الحج تأهبوا لسفر شاق، وغاية بعيدة وتزودوا لشهور عدة، ووطنوا أنفسهم على ما يلقون من المشقات والشدائد والأخطار. كان المصريون يذهبون بالبر من طريق سيناء فالعقبة لا يركبون البحر، أو يسيرون إلى القصير فيجتازون البحر إلى الحجاز. ثم جاء عصر البواخر فتيسرت الغاية وقصرت المدة، ولكن بقي بعد هذا قطع المسافة بين مكة والمدينة على ظهور الإبل، وبقي سوء الأحوال الصحية في مجامع الحج، والتعرض للصوص وقطاع الطريق في كل مرحلة وكل حين. بل كان المحمل المصري وهو في حراسة الجند والمدافع لا يجتاز المسافة بين مكة والمدينة إلا بعد إرضاء القبائل الضاربة على الطريق. وكان هؤلاء يتحكمون ويشتدون في مطالبهم، فإذا لم تجب مطالبهم باغتوا الحجيج بالغارة. بل قال المرحوم إبراهيم رفعت باشا

الذي تولى إمارة المحمل سنين إنه زار غار حراء سنة 1318 ومعه مائة جندي وقال (ومما ينبغي لزائري هذا الجبل أن يحملوا معهم الماء الكافي وأن يكونوا جماعاً يحملون السلاح حتى يدفعوا عن أنفسهم شر اللصوص من العربان الذين يتربصون الفرص لسلب الحجاج أمتعتهم ونقودهم خصوصاً في مكان منقطع كهذا لا يقصده إلا بعض الحجاج. وقد بلغني أن أعرابياً قتل حاجاً فلم يجد معه غير ريال واحد فقيل له: تقتله من أجل ريال؟ فقال وهو فرح: الريال أحسن منه)

ذلكم الحج قبل سنين، وأما الحج في هذا العصر فقد تهيأت وسائله وتيسرت مسافاته وأمنت سبله. تنقل الحجاج بواخر كبيرة. وحسبك ببواخر شركة مصر التي أعدت لراحة الحجاج وتمكينهم من أداء فرائض الدين في يسر وطمأنينة. في كل باخرة مصلى تقام فيه الصلوات الخمس ويؤذّن لكل وقت. فإذا بلغ الحاج جدة وجد المطوفين في انتظاره يتكفل المطوف الذي يختاره براحته وإعداد السيارات له في كل طريق. ويجدون في مكة العناية براحة الحجيج وصحته. فالحكومة تتخذ الوسائل التي تمنع الزحام، وتراقب مساكن الحجاج وتلزم أصحابها أن يطهروها وينظفوها فإذا حان وقت الخروج إلى منى وعرفات، احتاطت الحكومة فمنعت التزاحم في الطريق وعنيت براحة الحجاج على قدر استطاعتها. وإذا قضى الناس مناسكهم وأرادوا السفر إلى المدينة رُخِّص لهم في السفر على ترتيب قدومهم مكة الأسبق فالأسبق حتى لا يختل النظام، ويشتد الزحام، وحتى لا تضيق بهم المدينة. وكذلك يلزم زائرو المدينة. الخروج بعد ثمانية أيام ليفسحوا لغيرهم فلا يجتمع فيها إلا وفود ثمانية أيام طول الموسم والناس في إقامتهم بمكة، وسيرهم إلى منى وعرفات، وسفرهم إلى جدة والمدينة يرتحلون بالليل والنهار آمنين مطمئنين لا يخافون على نفس ولا مال. ويظفرون بطمأنينة لا يظفرون بمثلها في البلاد الأخرى، ولا يغلو في الحق من يقول إن الأمن في بلاد الحجاز اليوم لا يظفر به إنسان في غيره من بلاد العالم. فإذا خرج الرجل الفرد يملأ جيوبه الذهب يقطع الطريق بين مكة والمدينة نهاراً وليلاً ليس معه رفيق ولا حارس لم يخش على نفسه ولا ماله، وأحاط به الأمن في يقظته ونومه وليله ونهاره. أمر لم نسمع به ولا نسمع به اليوم في قطر من أقطار العالم المتمدن أو المتوحش وقد حدثني أحد الحجاج ونحن بمكة أنه ذهب إلى المدينة في رفقة فوقعت منهم حقيبة في الطريق ولم يشعروا بها وتعطلت السيارة في الطريق يوماً أو يومين. فلما بلغوا المدينة افتقدوا الحقيبة فأخبروا الشرطة فردتها إليهم بعد قليل. وأخبرت أن حاجاً آخر كان يطوف بالكعبة فسقطت منه ساعة فذهب إلى الشرطة فردوها إليه. وأعرف أن طالباً من طلبة الجامعة سقطت منه ورقة بنك قيمتها جنيه في سوق مكة ولم يفتقدها إلا بعد أن رجع إلى المدرسة السعودية التي كنا ننزل بها. فلما رجع إلى السوق وجدها حيث سقطت أمام الدكان الذي كان يشتري منه. وقد تواترت الأقوال في أمثال هذه الحوادث حتى لم يبق مكان للشك فيها، وحتى اطمأن الناس فتركوا أمتعتهم الثقيلة في مساكنهم ليرجعوا إليها بعد قضاء مناسكهم ولم يجدوا حاجة إلى أخذها معهم. فنحن تركنا بعض متاعنا في جدة أمام الفندق المصري فأرسل إلينا في أيام مختلفة لم نفقد منه شيئاً وقد تأخر متاع بعض الطلبة كثيراً فقلق؛ فقلت له: ستأتي حقائبك لا محالة فإن شيئاً لا يضيع في هذه البلاد. وكان يسكن إلى قولي حيناً ثم يعتاده القلق حتى جاءت أمتعته كاملة. وأخبرني مخبر عن رجل من الذين ذهبوا إلى الحجاز أنه كان في سيارة ضاقت بأمتعة الراكبين فأخذوا حقيبة عليها اسم صاحبها وتركوها في الطريق عمداً ليتحققوا ثم طلبوها حينما بلغوا غايتهم فردت إليهم والمسافة بين مكة والمدينة زهاء 500 كيلو كانت تقطع في أربعة عشر يوماً وقد قطعها ركب المحمل المصري سنة 1318 من الهجرة في 125 ساعة وخمسين دقيقة في أربعة عشر يوماً. وتقطعها السيارات الكبيرة اليوم في أربعة عشرة ساعة، ولكن المسافرين يحتاجون إلى الراحة مرات على الطريق فيبيتون ليلة في بعض المراحل، والطريق كله غير معبّد، وفيه مسافة قصيرة رملية تسوخ فيها السيارات إن لم يحذر السائق

وقد خرجنا من جدة إلى المدينة بعد المغرب فبلغنا رابغاً بعد سبع ساعات، وبتنا بها ثم استأنفنا السير ضحى آملين أن نبلغ المدينة في نهارنا ولكن ساخت بعض السيارات

في الطريق فآثرنا أن نبيت في مكان اسمه أبيار بني حصان. وخرجنا منها ضحى فبلغنا المدينة بعد العصر. ولكنا في رجوعنا إلى جدة خرجنا من المدينة ضحى فبلغنا رابغاً وقت العشاء بعد أن استرحنا في الطريق ساعتين ونصفاً في ثلاثة مواضع. وبتنا في رابغ وتركناها ضحى فبلغنا جدة ظهراً بعد سير خمس ساعات. فكان سيرنا من المدينة إلى جدة ثلاث عشرة ساعة ونصفاً. وإذا أصلح الطريق سهل أن تقطع المسافة كلها في عشر ساعات. وأمكن الراكب المتعجل أن يقطعها في ثماني ساعات أو سبع. وما أقرب هذا سفراً وأيسره

ولست أقول إن وسائل الحج بلغت من اليسر والنظام الغاية التي نرجوها؛ ولا أزعم أن الحرمين الشريفين والحجاز، في الحال التي يتمناها مفكرو المسلمين؛ فلا يزال المسلمون يرجون للحجاز نظاماً وعمراناً لا يذكر معه ما يسره الله في السنين الأخيرة من الإصلاح والتنظيم ولا يزال مفكرو المسلمين يطمعون في أن يروا في الحجاز آثار التعاون الإسلامي، وبذل المال في سبيل الله حتى تكون أحوال الحجاز مكافئة لمكانته عند المسلمين ومصورة عناية المسلمين به وتقديسهم إياه

لا يزال المسلمين يتمنون أن يروا الحجاز آخذاً من ثروة المسلمين وعلومهم وفنونهم ما تأخذه الأماكن المقدسة الأخرى من الذين يقدسونها

وما أسعد المسلم الغيور على دينه المعنيّ بإقامة شعائره يوم يذهب الى الحجاز فيرى الطرق ممهدة بين جدة ومكة فمنى فعرفات وبين جدة فالمدينة، ويرى في طريق المدينة فنادق يأوي إليها فيجد راحته وطعامه وشرابه كما يشتهي، ويجد مواضع للوضوء والصلاة

تمكنه من إقامة الشعيرة على خير الوجوه

ما أسعده يوم يجد في منى وعرفات مواضع للطهارة والصلاة ميسرة على وجه يليق بهذه البقاع المطهرة. إن المسلمين يضربون اليوم خيامهم في منى وعرفات في أمن وسلام ونظام، ولكن هذه الخيام المتفرقة تقسمهم فلا يجتمعون إلا قليلاً. فما أجمل أن يهيأ في منى وفي عرفات مكان واسع جامع يسع الناس جميعاً في صعيد واحد يرى بعضهم بعضاً فيشعر المسلم بالجماعة الإسلامية ممثلة والأخوة الإسلامية مصورة. فإذا استمع هؤلاء جميعاً إلى خطيب أو واعظ أو داع يتكلم في مجهر فيسمعهم معاً ويعظهم معاً ويدعو فيؤمنون بصوت واحد ويرفعون أيديهم جملة واحدة كان في هذا من الجمال والروعة ما لا ينساه المسلم على مر الزمان وبقيت هذه الصورة في نفسه حيثما سار تذكره بالأخوة الإسلامية

وهل أغلو إذا قلت إن من المسلمين من يرجو أن يكون في منى مدرج ينحت في الجبل يسع مئات الآلاف من الحجاج يجتمعون إذا شاءوا ويتفرقون في سكون وطمأنينة وسلام في وقت قليل وحركة يسيرة كما تفعل الأمم الأخرى في مجامعها التي تضم آلافاً كثيرة؟ ولماذا لا يكون للأمم الإسلامية بيت في مكة أو المدينة يجتمع فيه بعد موسم الحج مثلا ممثلو هذه الأمم ليتشاوروا فيما بينهم ويداولوا الآراء فيما يصلح المسلمين ويرفع أخلاقهم ويسعدهم بين الأمم؟. لماذا لا يبذل المسلمون من أموالهم وأفكارهم لإنشاء المدارس والملاجئ والمستشفيات في الحجاز، وفي إنشاء المكاتب ونشر الكتب الإسلامية والمجلات تبحث الأمور الإسلامية المشتركة وتقصد الى التقريب بين التربية الإسلامية والثقافة الإسلامية في العالم الإسلامي جهد الطاقة.

إن الحجاز ينبغي أن يكون ملتقى الثقافات الإسلامية

ثم يرجو كل مسلم أن يصلح المسعى بين الصفا والمروة ليفصل من السوق والطريق ويجعل على شاكلة تشعر الساعي أنه في عبادة ينبغي أن تفرغ لها نفسه، ويتم لها توجهه. وما أحوج الحرمين في مكة والمدينة إلى أن تزحزح عنهما الأبنية المجاورة ويدور بهما مهيع واسع يظلله الشجر. وهناك بعد هذا إصلاح مذبح منى وحفظ لحوم الأضاحي وجلودها لينتفع بها أو بأثمانها الفقراء طول العام. ثم تعبئة ماء زمزم في أوان ترسل إلى الأقطار الإسلامية، وقد أثبت البحث أنه ماء نافع مريء فضلاً عما له في نفوس المسلمين

من حرمة. ثم إضاءة مكة والمدينة وسوق الماء إلى دورهما ومساجدهما، وأمور غير هذه كثيرة

هذا كله جدير بعناية المسلمين وتعاونهم وبذلهم من أموالهم وأفكارهم وأعمالهم. ولن يؤدوا واجبهم ويعربوا عن اهتمامهم بدينهم ويبرءوا من التقصير حتى يحققوا هذا كله بل أكثر منه

وقد تحقق الشرط الأول لكل إصلاح وهو الأمن الشامل والطمأنينة العامة يسرهما الله للحكومة السعودية واستحقت بهما مثوبة الله وشكر المسلمين كافة. فعلى المسلمين جميعاً أن يتقدموا فيتعاونوا جميعاً على خطة معينة خالصة لوجه الله يعالجون بها من أمور الحجاز ما يجعله صورة لحضارة المسلمين وتآلفهم وتعاونهم. ومن أولى من المسلمين بالتعاون والتآخي ودينهم دين الأخوة العامة والتعاون على البر والتقوى. والله يهيئ للمسلمين من أمرهم رشداً ويوفق للخير حكومات الإسلام عامة والحكومة المصرية خاصة وهي التي حملت النصيب الأوفر في أمور الحجاز منذ قرون كثيرة والتي يؤمل المسلمون فيها خيراً كثيراً في رعاية جلالة الملك الصالح (فاروق الأول) حفظه الله

فبلغنا رابغا بعد ثلاث عشرة ساعة، وقد استرحنا على الطريق ثلاث ساعات وعشرين دقيقة في ثلاثة منازل. فكان مسيرنا بين المدينة ورابغ زهاء عشر ساعات واستأنفنا السير ضحوة الغد فبلغنا جدة بعد خمس عشرة ساعة وكان توقفنا على الطريق ساعة في منزلين، فكان مسيرنا من طيبة إلى جدة أربع عشر ساعة. والمسافة بينهما نحو خمسمائة كيلو تقطعها السيارات بالسير الوسط في عشر ساعات ويستطيع المتعجل أن يطويها في ثماني ساعات أو سبع. فماذا يشكو المسافر من سفر يقدره بالساعات لا الأيام والشهور ثم لا يمسه فيه ظمأ ولا جوع ولا حر ولا قر ولا خوف؟

عبد الوهاب عزام

الحقائق العليا في الحياة

الإيمان. الحق. الجمال. الخير. القوة. الحب

للأستاذ عبد المنعم خلاف

الإيمان والعلم:

لا حاجة بنا إلى إفاضة القول في أن العلم بمعناه الحالي - وهو اليقين والإثبات المبني على التجربة والمشاهدة الحسية - إنما هو من أدوات الإيمان بالخالق المدبر. فلو فرضنا وقالت كل الفلسفات والجدليات إنه ليس هناك خالق للكون لظل العلم وحده يقول بوجود ذلك الخالق. لأن كل ما في الطبيعة يشير ويصيح بأن له خالقاً عالماً يقف أمامه العقل العلمي حائراً دهشاً من سر صنعته وتركيبه وإعداده الأشياء للحياة!

واعتقادي أن أكبر خادم للإيمان هو العلم الكوني، وأن المختبرات والمعامل لو أنصف الناس لعدوها من أقدس المحاريب التي يعبد فيها الإله وينعت بما يليق بكماله وجلاله.

والإلحاد بين علماء الطبيعة أقل منه في أي طائفة من طوائف علماء العلوم أو الفنون الأخرى. ولذلك قال القرآن (إنما يخشى الله من عباده العلماء) وصدر الآية يدل على أن العلماء هنا مقصود بهم علماء الطبيعة والمتأملون فيها إذ يقول (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك. إنما يخشى الله من عباده العلماء)

ولو أن علماء الطبيعة يدخلون معاملهم ومختبراتهم مستحضرين روح العبادة كما يفعلون إذ دخلوا إلى المعابد إذاً لتنزل عليهم إلهام وتوفيق ولذات لا تفنى.

العلم لا سلطان له على البحث في ذات الخالق لأنه ليس من مجاله فمجاله ما يقع تحت الحواس، وإنما يستطيع أن يستنتج صفات الخالق. وهو في هذا الاستنتاج يلتقي مع الفلسفة، فأرسطو الفيلسوف وأرسطو العالم الطبيعي التقيا في إثبات (السبب الأول) وكذلك اسحق نيوتن الفيلسوف والعالم التقيا في قوله (إن خالق هذا الكون على علم تام بعلم الميكانيكا!) وقل مثل ذلك في بقية العلماء الإلهيين كباستور وغيره من العلماء الذين إن ألحدوا في إله الكنيسة فلن يلحدوا في إله الطبيعة الذي هم أقرب الناس إلى معرفته وتقدير صفاته.

ومن المؤسف أن إله الكنيسة في أغلب الأديان غير الإله كما يدركه العلماء في

الطبيعة- هو إله بشري يتشكل في أجساد البشر في بعض الأديان، خاص بقبيل من الناس في بعضها الآخر، محب للدماء في البعض الثالث، محب لعذاب الناس وفناء أجسادهم في البعض الرابع، معقد فيه ناسوت ولاهوت وأقانيم متعددة في البعض الخامس. وهكذا وهكذا مما يعذر العلماء السائرون مع الفطرة البسيطة إذا كفروا به وآمنوا بمن يجدون يده في الطبيعة

وهنا يمتاز الإسلام امتيازا رائعاً في تقديم صورة للإله هي أسمى ما يمكن أن يدركه عقل علمي عن الكمال الإلهي مع بساطة واستيعاب هما سر الفطرة وطابعها الذي يأخذ بنواصي جميع الناس علمائهم المنتهين وجهالهم المبتدئين ومن بينهما في آفاق المعرفة والإدراك في القطبين وفي خط الاستواء وفي الشرق والغرب.

والواقع أن كل الأديان الإلهية قدمت هذه الصورة التي يدرسها العقل. ولكن يد التحريف وحب التأويل وتزيدات الكهان وعوامل الفناء التي لحقت الأديان وتقلبات الحوادث بنصوصها الأصلية هي التي مسخت الصورة الرائعة الكاملة التي قدمها الرسل عن الإله كما أوحى إليهم.

لقد وصف الإسلام الإله بما يرضي جميع الناس، فوصفه بأنه جبار قهار، ورحيم لطيف، ومنتقم ورؤوف، إلى آخر الأسماء الحسنى حتى يرضي أمثال زنوج أفريقيا وبرابرة التبت الذين لا يعبدون الإله إلا إذا كان جباراً، ولذلك يصورون آلهتهم كالفيلة بصور هائلة ذات عدة رؤوس وأيد وأرجل، وليرضي أمثال اليونانيين الذين كانوا يتخيلون آلهة متعددة للرحمة والجمال والتناسق والقوة والحب والحرب وغيرها.

وكأن الإسلام يقول لهؤلاء وهؤلاء: ربكم واحد فيه جميع ما تتصورون جميعا من الصفات الحسنى، فالتقوا جميعاً في رحابه بعبادة واحدة وأسلموا وجوهكم وقلوبكم إليه. (ولله المشرقُ والمغربُ فأينما تُولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم) (وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله) (هو الله الذي لا إله إلا هو الملكُ القدوسُ السلامُ المؤمنُ المهيمنُ العزيزُ الجبارُ المتكبرُ. سبحانَ الله عمَّا يشركون، هو اللهُ الخالقُ البارئُ المصوّر له الأسماءُ الحسنى)

ولذلك حينما وصف الإسلام لنيتشه أو شوبنهاور - لا أذكر - قال لمحدثه (إذا كان الإسلام كما وصفت فنحن كلنا مسلمون!) مع أنه كان ملحداً منكراً لعقيدة الجماهير

وبساطة العقيدة الإسلامية ووضوحها وقوتها وتمشيها مع الفطرة لم يجد الإلحاد طريقاً إلى الذين اشتغلوا قديماً بالفلسفة والعلم من المسلمين؛ لأنهم كانوا مزودين بتلك الصور الواضحة البسيطة من قضايا الدين. وكانت الفروض التي قرءوها في الفلسفة اليونانية والهندية والفارسية فروضاً ناقصة أو معقدة أو مختلة لا تنهض أمام ذلك اليقين الفطري الذي يستطيع الفلاح والفيلسوف أن يفهماه ويعتقداه بكل راحة وطمأنينة في الإسلام

وعلى العكس عند غير المسلمين، فقد كان كل فيلسوف لابد أن يكون (هرطيقا) ولذلك كان كل من يدرس الفلسفة مطارداً من السلطة الدينية لأنها تعلم أن العقيدة الموروثة ستهزم أمام التفكير؛ ولما خابت المطاردة، نظرا إلى نزوع الناس وتطور الزمان وهجوم العلوم، زعموا أن الدين قلبي وجداني فقط لا أثر فيه للتفكير، وإنما يستند إلى ذلك الشعور، ليقولوا بعد ذلك إن الإنسان يستطيع أن يجمع بين متناقضين أحدهما يسكن فكره والآخر يسكن قلبه! مع أن أساس الدين قائم على التفكير وإلا ما لزمت حجة الله أحداً من خلقه مادام فكره لم يعقل ولم يفهم وهو منصف، بل مادام فكره ينقض ما يأتي به الدين في بعض الأحيان

ومن المؤسف أن المسلمين ورثوا هذه الفكرة الباطلة مؤخراً من أرباب الأديان الأخرى، مع أن الإسلام قائم على التفكير، وحجته العقل، ومعجزته عقلية دائمة تسير مع رشد الإنسان وتقول له (لا تقْفُ ما ليس لك به علم) (والذين إذا ذُكروا بآيات ربهمْ لم يخرُّوا عليها صمّاً وعُمياناً!)

وآفة الإسلام هي جهل أكثر المسلمين بأصوله وتفاصيله، واتباعهم القضايا التي لم تمحص وتنطبق على بيئتهم وما فيها، وتسليمهم بالنظريات الغربية كما يسلمون بالمسائل العلمية المادية

وأحسب أن أكثر قادة الفكرة والمصلحين الغربيين لو أتيح لهم أن يطلعوا على الإسلام

الصحيح لتغيرت أحكامهم التي أرسلوها في مسائل الخلاف بين الدين والعلم. ويكفي دليلاً
على ذلك مقال فلتير في مارتن لوثر: (إنه لا يصلح أن يحل نعل محمد. . .) مع أن فلتير لم ينصف محمداً للسيرة المشوهة التي لم يتهيأ له أن يعرف عن محمد سواها
ومن قرأ كتاب (الزنجية تبحث عن الله) لبرناردشو يدرك أن (شو) ارتفع بمحمد والإسلام إلى قمة الأنبياء والنبوة. وسيرة (جوته) تدل على أنه افتتن بالإسلام، ولذلك
شرع في تعلم العربية وفي تأليف (رواية) عن محمد. وقد مدح أسلوب القرآن وطريقته ككتاب دين. وكلمة شوبنهاور أو نيتشه التي أشرنا إليها سابقا تدل على أن
أي عقل متمرد قد يجد سلامه وطمأنينته في الإسلام. ومقال كارليل عن رسول الإسلام لا يغيب عن بال أحد
وهكذا وهكذا مما لا مجال لذكره الآن، ومما يبين قوة غزو الإسلام للعقول المتمردة والآراء الفلسفية، ومما لا يصح معه إدخاله مع غيره في مسائل الخلاف بين العلم والدين
واعتقادي أن الإسلام هو الذي يستطيع وحده أن يحمي الإيمان من أن تجرفه تيارات المادية والإلحاد، وهو الذي يستطيع أن يقره في كل نفس كما هو في الطبيعة البشرية
بجانب (نزعة الإثبات) التي أنتجت العلم و (نزعة التأمل) التي أنتجت الفلسفة بحيث يعود الإيمان باعث فخار بين الناس كما كان وكما يفتخرون الآن بالعلم والفلسفة، لا
كما يغضي بعضهم منه حياء إذا قيل عنه إنه مؤمن، وترجمة هذا القول عند الجهال بالعلم والدين معا: إنه مخرف.
وقد تراكمت عقد خفية في نفوس إنسانية هذا العصر حول الدين لأن كثيراً من الذين
ينتسبون إليه حملوا عليه ميراثاً كبيراً من الخرافات ومن تضييق الواسع ومن غباوة
بعض رجاله الذين لا يعرفون المهمة الأصلية فيه، ومن تحويل التدين الى نوع من الهستريا المنفعلة المغفلة عن حكمة الله في اختلاف الإنسانية في الآراء والمعتقدات.
وكم هي كبيرة جناية الرموز والطقوس وثياب رجال الدين وشاراتهم وسماتهم التي
تميزوا بها من غيرهم! إنها جناية تحويل الملكية العامة إلى احتكار. . . وجناية إقامة
السدود والقيود على الطريق الواسع الذي يوصل كل شخص إلى الله. . وجناية إقامة
السدود والقيود على الطريق الواسع الذي يوصل كل شخص إلى الله. . . وجناية
تحديد أبواب معينة لا يحل لأحد أن يجتاز إليه من غيرها، وجناية إقامة حراسة وخفارة
عليها من فئة معينة ربيت تربية خاصة منفصلة عن تربية بقية الناس لا يدخل أحد إليه إلا
بإذنها. . . وجناية تحديد بقع ضيقة من الأرض لا يحل التعبد له إلا فيها، بعد بخور
وعطور وطبول وزمور. كأنهم يستحضرون عفريتاً من الجن إلى حفلة زار!)
وقد أطلق الإسلام الدين من كل هذا الذي ألصقه به الأطفال والمجسمة والمشبهة،
وجرد محيط العبادة من التماثيل، والصور والرموز، وجعل الأرض كلها مكان عبادة
فأعاد الى الطبيعة قيمتها كمحراب دائم للصلاة. وجعل روح الدين في الشارع والسوق
كروحه في المسجد: ففي السوق والشارع عبادة عملية، وفي المسجد عبادة نظرية
هي موقف تصفية وجرد لشؤون الحياة كلها!
ولم يجعل طبقة معينة تحتكر شؤون الدين وتلبس زيا خاصا بها بل حتم على جميع
معتنقيه أن يكونوا علماء به ما أمكنهم العلم، ورأى لأئمته ألا يتزيوا بزي خاص حتى لا
يشعر الناس بانفصال حياة الدين عن حياة الدنيا.
ولو فهم الناس أن الدين في الشارع والسوق أهم منه في المعبد لتغير وجه الحياة
وسير التاريخ، ولحت المشكلة التقليدية الموروثة المعنونة (الدين والدنيا)
من هنا يتبين لنا أن عبء المسلمين فادح وحسابهم عسير أمام الله والحق والبر
بالإنسانية، لأن إهمالهم إصلاح نفوسهم وتثقيفها وإعدادها بما في الإسلام لأداء رسالته
العالمية هو الذي يجر على الناس كل المشقات والمصائب والحيرة والضياع، وهو الذي
يخرج من حظيرة الإيمان كل عقل غربي كبير بما يقرؤه من الفروض الفلسفية وبما
يلمسه من وجوه الخلاف بين قضايا العلم وبعض نصوص دينه تهافته التي تدل أول
نظرة صحيحة إليها أنها من غير المنبع الإلهي.
ومن الغريب المؤسف أن القائمين على الشيوعية أو الفوضوية مثلاً يجاهدون في

سبيلها جهاداً مستميتاً لينشروها ويجعلوها دين الناس ويحسبون أنفسهم أصحاب رسالة يجب أن تتم وتشمل الأرض جميعها. . . بينما المسلمون الذين عندهم علاج كل نكبة في العقل أو في النفس أو في المال يجهلون مهمتهم ولا يؤدون رسالتهم كما كان أجدادهم الأقدمون يؤدونها ويموتون في سبيلها على ضفاف الكنج وأسوار الصين وشواطئ بحر الظلمات، وهم معتقدون أنهم يؤدون إلى الناس أعظم خدمة وأكبر منة تطيب بها نفوسهم عن اقتحام ديارهم وثل عروشهم وهدم أصنامهم الحسية والمعنوية!

إن إنسانية الشرق والغرب لا تزال حائرة ترسل روادها وأرصادها (للبحث عن غد) يشرق عليها ضحاه وهي في واحة السلام والطمأنينة. . . لا تزال (زنجية تبحث عن الله)! والمسلمون الذين أسعدهم الله بمعرفته وبالطمأنينة والهدى لا يشعرون بتبعاتهم الثقيلة نحوها، ولا يزالون يعيشون لأجسادهم وأنفسهم فقط. . . بل إن الثقة بما عندهم قد ذهبت عنهم. وقاتل الله الجهل وحياة الفسولة!

(الرستمية)

عبد المنعم خلاف

للتاريخ السياسي

جهود المستر تشمبرلين وما أدت إليه

للدكتور يوسف هيكل

من الممراندوم إلى مؤتمر مونيخ

ظنت الدوائر السياسية أن الأزمة الدولية قد انفرجت بقبول تشيكوسلوفاكيا مشروع لندن، وهو عبارة عن تحقيق مطالب الهر هتلر. وغادر صباح 22 سبتمبر (أيلول) المستر تشمبرلين لندن إلى ألمانيا مرتاح النفس مطمئنها. وقبل صعوده إلى الطائرة قال: (إن تسوية المشكلة التشيكوسلوفاكية تسوية سلمية تعد شرطاً أساسياً لتفاهم الشعبين الإنكليزي والألماني. وقد كان هذا الشرط أيضاً أساساً ضرورياً للسلم الأوربي الذي ترمي إليه جهودنا، وإني أرجو أن تفتح زيارتي الطريق التي تؤدي إليه)

وبعد ظهر يوم وصوله إلى (كودسبرغ) اجتمع بالمستشار الألماني، وعرض عليه ما اتفقت عليه حكومتا لندن وباريس، من التنازل عن الأقاليم السوديتية لألمانيا، وتعيين حدود جديدة لتشيكوسلوفاكيا، وضمانها ضد الاعتداء غير المحرض عليه

لم يعترض الهر هتلر على فكرة الضمان، غير أنه أبان لا يضمن الحدود الجديدة إلا إذا كانت الدول الأخرى، ومن بينها إيطاليا، ضامنة لها أيضاً؛ وأنه لا يشترك في الضمان الدولي لتشيكوسلوفاكيا إلا بعد أن تنال الأقليات الأخرى فيها مطالبها. أما الاقتراحات الثانية التي وضحها له المستر تشمبرلين، فلم يقبلها الهر هتلر، بحجة أنها لا تحقق حلاً سريعاً، وتعطي فرصاً عديدة للتشيك للتهرب منها. وقد أصر على ضرورة حل سريع للمشكلة التشيكوسلوفاكية، وأخذ يوضح للمستر تشمبرلين نوع هذا الحل الذي وضعه فيما بعد بمذكرة (ممراندوم)

كم كانت دهشة المستر تشمبرلين عظيمة عند ما وجد نفسه في وضعية لم تكن منتظرة قط. إنه كان يعتقد اعتقاد اليقين، أن ما عليه عندما يذهب إلى كودسبرغ إلا أن يبحث مع الهر هتلر الاقتراحات التي قدمها إليه، بحثا هادئاً يؤدي إلى الاتفاق السريع عليها. لأن الهر هتلر أعلم المستر تشمبرلين في برختسكادن أنه إذا قبل مبدأ حق تقرير المصير، فإنه

مستعد ليبحث معه الطرق والوسائل لتنفيذها. ولما قبل المستر تشمبرلين هذا المبدأ، وقدم مشروع لندن المبني عليه، رفضها الهر هتلر رفضاً باتاً حين ابتداء المحادثات.

كان ذلك صدمة عنيفة للمستر تشمبرلين، وخيبة لآماله التي كان يعلل النفس بها.

ولكي يهون عليه الهر هتلر ذلك، ويجد لموقفه المناقض مع قوله عذراً، قال لرئيس وزارة إنجلترا إنه لم يخطر على باله أنه (أي المستر تشمبرلين) يتمكن من العودة إلى ألمانيا حاملا قبول مبدأ حق تقرير المصير

كانت الصدمة عنيفة حتى أن المستر تشمبرلين شعر أنه في حاجة إلى الوقت ليفكر فيما يجب عليه عمله، فانسحب، وقبل انسحابه طلب من الهر هتلر أن يعيد له التأكيد بعدم الزحف على تشيكوسلوفاكيا أثناء المحادثات، فأكد له الهر هتلر ذلك

وكان موعد متابعة المحادثات الساعة الحادية عشرة والنصف من اليوم التالي؛ وكان

المستر تشمبرلين يتأكد من أن الهر هتلر لم يفهم حق الفهم ما كان يقول له عن طريق المترجم، لهذا فكر أم من الحكمة أن يرسل إليه قبل الشروع في المحادثات، ملاحظته كتابة على مطالب الهر هتلر الجديدة. ومما قال في ملاحظاته أنه سيرسل المطالب إلى الحكومة التشيكوسلافية، وأبان الصعوبات العظيمة التي تحول دون قبولها. ولما تسلم المستشار الكتاب، أظهر رغبته في الجواب عليه كتابة. ولذلك ألغى الاجتماع لمتابعة المحادثات وأرسل الجواب بعد الظهر.

ظن المستر تشمبرلين أن التأخير في إرسال الجواب ناجم عن إجراء بعض تعديلات في مطالب الهر هتلر. وعندما تسلم الكتاب خاب ظنه، إذ وجده يحتوي على توضيحات للمطالب ولا يعدل فيها شيئاً. فطلب المستر تشمبرلين نص المطالب، وصورة من الخريطة المرفقة بها، لإرسالها إلى براغ، وعزم على العودة إلى لندن. فقدم إليه ذلك خلال اجتماعه بالهر هتلر الذي ابتدأ الساعة العاشرة والنصف من مساء 23 سبتمبر (أيلول) واستمر حتى الصباح الباكر.

وقبل أن يودع المستر تشمبرلين الهر هتلر، قال له زعيم ألمانيا إن بلاد السوديت آخر الأراضي التي يطمع فيها بأوربا، وإنه لا يرغب في أن يضم إلى الريخ شعوباً غير ألمانية. وقال أيضاً إنه يرغب في أن يكون صديقاً لإنكلترا. ثم أردف قائلاً: صحيح أن هناك مسألة المستعمرات، ولكنها لا تولد حرباً، ولا تنتج تعبئة عامة

عاد المستر تشمبرلين إلى لندن في 24 سبتمبر (أيلول)، حاملا مذكرة الهر هتلر بدلا من الموافقة على اقتراحات لندن. وهذه المذكرة تحتوي على النقاط التالية

1 - سحب جميع القوى التشيكية من جند وشرطة وبوليس جمارك وحراس حدود من المقاطعات التشيكوسلوفاكية المعنية في الخريطة المرفقة، والتي يجب أن تسلم إلى ألمانيا في 1 أكتوبر

وتحتل الجيوش الألمانية هذه المقاطعات دون اعتبار وجود الأكثرية التشيكية في بعض أجزاء هذه الأقاليم. وتسليم هذه الأقاليم يكون بحالتها الراهنة، أي من غير تخريب وإتلاف أي شيء من الأملاك والأموال، حتى إنه لا يجوز سحب المواد الغذائية والبضائع، والحيوانات، والمواد الخام.

2 - إجراء استفتاء في المقاطعات التي فيما وراء المقاطعات التي ستحتل، والمبينة في الخريطة، قبل 25 نوفمبر تحت إشراف لجنة دولية. ويحق الانتخاب للأشخاص الذين كانوا يقطنون هذه المقاطعات في 28 أكتوبر سنة 1938، وكذلك للأشخاص الذين ولدوا.

3 - تعيين لجنة ألمانية تشيكية، ولجنة دولية، للحدود الجديدة الناجمة عن الاستفتاء. . .

4 - تشكيل لجنة ألمانية تشيكية لتسوية التفاصيل الأخرى. وعلى الحكومة التشيكية أن تسرح حالاً جميع الألمان السوديت الذين يخدمون في الجيش والبوليس، وأن تخلي جميع المسجونين من السياسيين الألمانيين.

أرسل المستر تشمبرلين المذكرة إلى حكومة براغ لدى وصوله لندن في 24 أكتوبر فوصلها مساء ذلك اليوم. وفي اليوم التالي تسلمت حكومة المستر تشمبرلين جواب حكومة الجنرال سيروفي، الذي أكدت فيه أن مطالب الهر هتلر، بصفتها الحالية، غير مقبولة بلا قيد ولا شرط، لأسباب ذكرتها، ومنها أن هذا الممراندوم يحرم تشيكوسلوفاكيا، من بلادها الصناعية، ومن تحصيناتها، ومن أموالها المنقولة، من قطارات وعربات، بل يحرم المزارعين الذين يريدون الرحيل عن وطنهم من أخذ مواشيهم وحيواناتهم وهو يدخل 836000 تشيكي تحت السيادة الألمانية. أما المقاطعات التي تريد ألمانيا إجراء الاستفتاء فيها فتحتوي على 1. 116. 000 تشيكي و 144. 000 ألماني! وهو يقصي الدول

الغربية، (أي فرنسا وإنكلترا) عن تصفية بقية المسائل ويضع تشيكوسلوفاكيا تحت رحمة ألمانيا. والممراندوم لا يذكر شيئاً عن ضمان الحدود الجديدة

ذعر الرأي العام، واضطربت الدوائر السياسية من ممراندم الهر هتلر. وأصبح الكل يعتقد أن الحرب واقعة لا محالة. وتواردت ألوف الرسائل على المستر تشمبرلين وعلى زوجته، شكر مرسلوها فيها مساعيه للسلم، وابدوا في منع الحرب وأظهروا كرههم لها. وذهب المسيو دلادييه والمسيو بونيه مساء 25 سبتمبر (أيلول) إلى لندن، لتداول الأمر، فوقفا فيها على جواب حكومة براغ. وفي اليوم التالي تابع ممثلو

الحكومتين درس الموقف، فأكد مسيو دلاديه لزملائه البريطانيين أنه إذا هوجمت تشيكوسلوفاكيا فإن فرنسا تقوم بواجباتها نحوها. فأجاب المستر تشمبرلين، أنه إذا كانت نتيجة هذه الواجبات اشتباك الجيوش الفرنسية مع القوى الألمانية، فإن الحكومة الإنكليزية تشعر بأنها مجبرة على معاضدتها. وقد صدر في اليوم نفسه بيان بهذا المعنى. وفي 26 سبتمبر (أيلول) أعلنت تشيكوسلوفاكيا التعبئة العامة، واتخذت فرنسا إجراءات حربية واسعة، وأمر وزير البحرية البريطاني، دوف كوبر، الأسطول بأن يكون على استعداد. فأصبح الرأي العام ينتظر انفجار قنبلة الحرب العامة من ساعة إلى أخرى.

(للمقال بقية)

يوسف هيكل

من رحلة الشتاء

في مضارب شمر

البادية

للآنسة زينب الحكيم

إن للبادية طابعاً خاصاً، فهي في النهار غيرها في الليل، وهي في شقشقة الفجر غيرها في غلس المساء. في الصباح الباكر تبدو الطبيعة هواؤها وماؤها، نباتها وطيورها، حيوانها وإنسانها متمالكاً قواه، على أتم استعداد للنشاط والإنتاج، يبدو الزهد على كل شيء والتضحية بكل شيء، ويظهر محيط موحد بضم هذه العناصر جميعها.

يبقى هذا المنظر لحظات سريعة المرور خطيرة الأثر. وتبكر لشمس فتمتد خيوطها الجميلة فتحيي الزهر، وتنعش العشب، وتنشط الهواء، وتداعب الندى.

وتسرع القطعان ورعاتها للسعي والتنقيب، فينكسر سكون الصباح، وتسمع هنا مواء، وهنا نباحاً، وهناك صياحاً وغناء.

ويدور الأحياء دورتهم، في شؤون الحياة العملية الصرفة، صابرين على هجير البادية وقارس بردها، وعلى جدبها وخصبها، راضين بسكونها وثورتها.

هاهو ذا المساء يتقدم، وذكاء على وشك الغروب وراء الأفق، وكذلك تسرع القطعان ورعاتها إلى حظائرها، ويدور الفلك دورته العكسية الأبدية. يا لله من أضداد الطبيعة، وهي هي بعناصرها ومحتوياتها، سكون شامل رهيب، يتلاشى فيه ثغاء الأغنام وهدير الإبل، ويرتفع فيه نباح الكلاب - ترهف فيه الأسماع وكل الحواس- قبة زرقاء صافية في الصباح الباكر، يزينها الضوء الهادئ البديع، والضباب الخفيف والنسيم العليل؛ وقبة زرقاء، قاتمة في المساء، تتلألأ فيها نجوم زاهرة، وتتماوج نسائم بليلة حائرة، وتشمل الكون بمن فيه رهبة قاهرة.

ليلة؟؟

أذهب مسرعة إلى الخيمة التي أعدت لنومي وسط هذه الطبيعة الغريبة، والبادية البعيدة، فيدخل معي الشيخ ليدلني على نظمهم، ومعه خادمان، يحمل أحدهما مصباحاً، والثاني طستاً

وإبريقاً به ماء دافئ؛ وأشكر الشيخ على شدة عنايته باستكمال وسائل راحتي، فيقول عمي مساء، وينصرف في رداء العربي الشريف، ونظرة البدوي الشجاع.

ويحملق العبد في وجهي يسألني إذا كنت أريد شيئاً قبل أن ينصرف فأشكره وآمره أن يترك المصباح عندي على المنضدة. وسألته إذا كان لديه شمعة وعلبة ثقاب. فناولني علبة الثقاب أما الشمعة فلا توجد. وضعت الكبريت على الكرسي القريب من السرير؛ وقلت للعبد: من فضلك اخرج وأقفل باب الخيمة. فبدأ يضع الحبل في الثقوب المعدة لذلك بشكل فني، وكنت واقفة أرقب ما يعمل (وهنا تذكرت خيام الكشافة، وكل ما تعلمته من حركاتها النافعة، وأوصي كل فتاة وكل فتى أن يندمج في سلكها وقتاً ما، فإنها للحياة العملية وحياة السياحة والمخاطرات من الدرجة الأولى في الأهمية)

أوشك العبد أن يتم عمله، ولم يبق إلا ثقبان بدون توثيق، فنظر إلي من بين طرفي الباب والخيمة، بحيث لم يظهر منه إلا وجهه الأسود، بأنفه الكبير المفرطح، وعينيه اللامعتين المخيفتين، وشاربه الطويل الغزير، وظهرت أسنانه الكبيرة البيضاء ولسانه الأحمر العريض عند ما قال: عمي مساء سيدتي. قلت: عم مساء وأشكرك. وفي سري قلت: (أبغض منظرك المخيف الهائل في هذه الظلمة الحالكة، والسكون

الرهيب)
وأردت أن أستوثق من أن جوانب الخيمة محبوكة، فأطمئن إلى أن كائناً ما لا يمكنه دخولها، فجلست القرفصاء أختبر ذلك. وما كان أشد جزعي، وأبعد تخيلي عما توهمت!
لقد وجدت طرف الخيمة يصل إلى حافة السجاد المغطي أرض الخيمة فحسب، والهواء البارد يمر من جميع نواحيها، ويستطيع أي حيوان أليف أو متوحش، الدخول بلا أدنى عائق. فاستولى علي جزع لم أعهده في حياتي، وعبثاً أحاول إقناع نفسي بالتذرع بالشجاعة، أو باستعادة الماضي. فكم من ليال نمتها في أشباه هذه الخيمة في إنجلترا، في أجواء أردأ وأشد صقيعاً ومطراً بل وثلجا.
وإن تمح من ذاكرتي أهم الحوادث الغريبة، التي حدثت لي في بعض هذه المخاطرات، فلن تمحى الحادثة الآتية التي حدثت لي مرة ونحن نخيم في البرية في جهة من جهات إنجلترا:
اتخذنا مخيمنا وسط أرض جيدة، توسمنا أنها خير ما ظهر لناظرنا صالحا لهذا الغرض. وكنا بعيدين جداً عن السكان، وكنا كلنا طالبات فتيات، متخذات من شبابنا قوة على أعمال
الكشف والتقشف. وبعد جهاد يوم شاق من الصباح الباكر إلى المساء المتأخر، أخذنا عدتنا للنوم، فدخلت كل منا في كيس نومها الذي يغطي جميع أجزاء جسمها، وتربط طرفه الأعلى حول عنقها، فلا يكون غير الوجه ظاهراً، ويغطي بغطاء خفيف يمنع الحشرات ويسمح للتنفس.
على بركة الله افترشنا الأرض والتحفنا الخيمة؛ وما كدت أسلم جفني للكرى حتى شعرت بحركة غريبة تحت جنبي، فقلت لعلني أنام على جنبي الأيسر، مما سبب للقلب قلقاً، فانقلبت على الجانب الأيمن، ولكن الحركة استمرت، بل زادت شدة، فجمد الدم في عروقي، وهدأت حركتي قسراً، إذ تصورت أن عفريتاً تحت الأرض، كأنما يقصد أن يشق بطن الأرض فيخرج منها، ويتخذ جسمي بديلا. وخطرت ببالي جميع خرافات الجن والشياطين والأرواح، وعقد الخوف لساني، فلم أستطع الاستغاثة بصديقاتي، ولا أملك تحريك أطرافي فأدفع عن نفسي ذلك العفريت الأرضي.
ولما اشتدت حركات العفريت وعنفت صرخت مستغيثة كمن أصابه مس مؤكد.
فهرعت إليّ الطالبات، يستفسرن الخبر فأخبرتهن، فقالت واحدة: أسرعي (درثي) أحضري الكيس، وصاحت أخرى: (نللي) أحضري حبلا، وأسرعت ثالثة ورابعة بأيديهما سكين ومسدس، وتصورت أن الجني قد أتت ساعته، وحان حينه، وأني كنت على حق فيما أحسست، وحمدت الله على أني لم أكن مدعية، وبدأت أنشط مع الجماعة لأنتقم لنفسي من ذلك الشرير الذي طالما اختفى، وها قد حان الوقت لرؤيته وكشف سر العفريت كلها بعد كشف حاله.
وضعت الفتيات الكيس مقلوباً على المكان الذي تصورنا أن العفريت سيخرج منه، بحيث انسجمت فتحة الكيس على الموضع تماماً، واجتمعت الأيدي على تثبيتها بحيث لا يستطيع فكاكا.
وتوجهت همة الفتيات كلها إلى القبض عليه في الكيس حتما.
وأخيراً وبعد جهد شاق، قفزت عفاريت ثلاثة من باطن الأرض إلى داخل الكيس المتين، ثم انتهت الحركة في باطن الأرض، فقبضت الطالبات على فتحته، وبدأن يذبحن الشياطين الكفرة! قاتل الله الأرانب البرية! لقد كان شكلها جميلاً وطعمها لذيذاً، ولكن فعلتها كانت
شنيعة بالنسبة لي وحدي، لأنه لم تكن لي هذه التجربة من قبل، مثل باقي زميلاتي، اللاتي اعتبرن حدوثها لي حسن حظ وتوفيق أتى للجماعة الكشفية، عن طريق الساحرة المصرية، التي تعرف سر الكشف عن الكنوز في زعمهن.
هذه هي قصة الحادثة الغريبة التي سبق أن حدثت لي، وكان يجب أن أكون أكثر شجاعة مما كنت تلك الليلة في مضارب شمر. ولكن ليذكر القارئ أن شعور الأمان والنظام الذي يحسه الإنسان في بلاد الإنجليز، غير الشعور الذي يحسه في أي بلد آخر. فما بالنا بما يشعر الإنسان به بين اشد القبائل البدوية مراسا وقوة! إن تلك الحادثة على فظاعتها وما سببته لي من رعب لم تكن أشد تأثيراً في نفسي من تلك الليلة في خيمة البادية.

لم أذق للنوم طعماً طول تلك الليلة، لا خوفاً من البدو والعرب أنفسهم، ولا من عبيد الشيخ كما توهمت، بل بالتحليل النفسي الذي شغلت نفسي به، توصلت إلى التعليل الآتي، وأظنه معقولاً تماماً:

1 - كان الطريق وعراً جداً وطويلاً متعباً إلى أقصى حد احتملته، فضعفت عندي قوة المقاومة والتعليل الوقتي المتزن.

2 - هذا بالإضافة إلى حياة مباينة كل التباين لما سبق أن أعتدته زمناً طويلاً من النوم داخل مبان، مما جعلني أشعر أني أنام في العراء، وسبب هذا لي وحشة شديدة لم تتحملها أعصابي وجسمي المتعبان، فحدث لي الأرق والرعب.

ومع كل هذا أشهد أني قمت في الصباح، تاركة فراشي على أحسن ما يمكن من الصحة والنشاط، كما لو كنت نمت الليل كله ملء جفني، فإن الهواء هناك صحي منعش، وبذلك قد عوضني بدل النوم، ولعل هذا سبب ثالث لعدم نومي، ولعله من الأسباب المهمة أيضا في قوة بنية البدو أنفسهم.

الحياة الاجتماعية عند البدو (قبائل شمر)

لهم مجالس محادثات في الأمور المعاشية، ثم لهم مجالس الشعر والرواية. وتستعمل الربابة قليلا، والموسيقى كانت من أهم الأشياء التي افتقدتها في العراق وكردستان، وفي الجزيرة.

أما الراديو، فيعوض الآن جانبا كبيراً من هذا النقص، و (يتونس) به البدو على حد تعبيرهم بدرجة محسة كلما أداره الشيخ

وألعابهم كثيرة منها نوع يشبه الهوكي، ومطاردات الخيل (الفروسية) أما المبارزة فانقرضت الآن.

يلعبون ألعاب الورق (الكوتشينة) قليلا للتسلية فقط.

أما في أيام رمضان فيلعبون (الورسان) وهو نوع من أزلام الميسر؛ ويلعبون الضامة.

شخصية الشيخ عجيل الياور

لا يمكن وصفها أو تصويرها تماماً لعظمتها، ويكفي أن يقال فيه: إنه خبير وداهية البادية، ولو أنه أمي، إلا أنه يبز كثيرين جداً من المتعلمين.

ابنه الشيخ صفوك الياور:

ثقافته حديثة، فقد درس في الكلية الأمريكية ببيروت، ثم عاد إلى البادية لمساعدة والده في سياسة العشائر.

وسياسة رؤساء العشائر عربية كانت أو كردية، في تربية أبنائهم، هي أن يعلموهم الآن في المعاهد الحديثة لينوروهم، ويقووا عقلياتهم، لا على أن يهجروا البادية، بل ليزدادوا حبًّا لها، وعناية بمصالح البدو. وهم لذلك يحرصون الحرص كله على إبعاد كل فكرة من شأنها إفساد أبنائهم عليهم أو تنفيرهم من الحياة التي شب آباؤهم وأجدادهم عليها.

وأهم الصعوبات في سياسة العشائر هي المخاصمات بينهم، ثم الذود عن مصالحهم عند الحكومة، لأنهم جهلة، لا يستطيعون قضاء مصالحهم، أو حل مشكلاتهم بأنفسهم لقلة خبرتهم. والذي يقوم بأداء هذا كله الشيخ وابنه.

معلومات عن قبائل شمر وعددها

وهي مستقاة من ابن شيخ المشايخ:

قبائل شمر مكونة من مجموع قبائل: (1) زوبع (2) السناعيس (3) أهل الحية (4) أولاد علي.

وكل ما يعلم عن قبائل شمر أنها متنوعة ومتفرقة جداً، ولا يكاد المرء يحيط بها لكثرتها. والقبائل المذكورة اختلطت فروعها بعضها ببعض

نبذة عن قبائل شمر - من اطلاعي الخاص

تنقسم قبائل شمر إلى قسمين، قسم منها يقطن جنوبي العراق ويسمى (شمر الطوقة) وقد صاروا من القبائل المتحضرة.

ويسمى القسم الآخر (شمر الجربة) وهو يتألف من القبائل الساكنة في شمالي العراق في الجزيرة بين دجلة والفرات. وقد هاجرت هذه القبائل من جبل حائل في منتصف القرن السابع عشر.

أما الأرض التي تقطنها شمر الجربة في الجزيرة، فتمتد من شرقي دير الزور شمالاً إلى هور (عقرقوف) جنوباً، ومن الفرات غرباً إلى الموصل شرقاً، وتراها قد احتفظت

بالبقعة الخصبة الواقعة في شمال شرقي الخابور، ولاسيما حوض وادي جنجغ الفياض. وتعيش شمر على حالة البداوة، وتسكن بيوت الشعر، وتنزل أحياناً، بين شهري أبريل ومايو في شمال جبل سنجار، وتنتشر إلى جوار نصيبين ووادي السويدية.
أما في الأشهر الأخرى فتنزح إلى الجنوب، وتتحول في المنطقة الواقعة في جنوبي جبل سنجار.
وهي من أقوى العشائر مشاجرة، ولا تزال في خصام مستمر مع قبائل دليم وبقارة، وعشائر علي الكردية.
والعداء القديم متمكن بينها وبين قبائل عنزة، وهذه تملك أحسن الجياد وأكثر الجمال.
ويبلغ عدد نفوس قبائل شمر من 50 إلى 65 ألف نفس.

زينب الحكيم

إلى شباب القصصيين

كيف احترفت القصة

قصة المستر كومبتون ماكينزي

للأستاذ أحمد فتحي

من المحقق أنني تبيَّت ميولي الأدبية وأنا لا أزال في دراستي الجامعية، إذ كنت أصدر مجلة خاصة في أكسفورد كانت تظهر لي فيها بعض الأشعار، كما أنني كتبت في عام 1900 أقصوصة صغيرة تافهة، ثم أتبعتها بأخرى بعد عامين. وكان أهلي على قلة تفاؤلهم يتوقعون لي شيئا من الحظ في احتراف الأدب، وتجلى ذلك في أن أبي قد اتفق معي على أن يظل خمسة أعوام يوظف لي مائة وخمسين جنيهاً في السنة. غير أن الاتفاق أوشك أن ينقض حين أقدمت على الزواج؛ فرأى أبي أن هذا الزواج أمر خارج على حدود الاتفاق. ولكنني عالجت الموضوع من ناحية أخرى، إذ جهدت غاية الجهد حتى كتبت مسرحية كاملة في أسبوعين فقط سميتها (ذو الرداء الداكن) وقدمتها إلى أبي وقام بإخراجها على المسرح الملكي في (إدنبره) في فبراير 1907 واحتجزها مدى خمسة أعوام أكبر الظن أنها مثلت خلالها مرات ومرات. وبعد ذلك انصرفت إلى الريف حيث دفعت إلى المطبعة بمجموعة من شعري قام بنشرها (بلاكويل). وفي خريف ذلك العام مضيت إلى حيث لأقضي الشتاء عند صديق قديم كان حينذاك قَسًّا في (كورنوول)، آملاً أن أوفق في وضع مسرحيات جديدة. . .
ولعل سروري بظهور هذه المجموعة الشعرية قد ترك أثره في نفسي، إذ فضلت الاشتغال بوضع الكتب على كتابة القصص للمسرح. ويخيل إلي أن الكتاب المبتدئين يؤثرون مشاهدة قصصهم تمثل وراء ستار المسرح على أن يظلوا يقلبون صفحات كتبهم بعد طبعها؛ بيد أني آثرت تأليف الكتب على أي حال. ولعل مبعث ذلك إنما هو عدم رضاي عن قيام الممثلين بأدوارهم، إذ كنت شديد الثقة بأنني أستطيع أن أقوم بتمثيل الأدوار خيراً مما يصنعون جميعاً! والعجيب أن هذا الاعتقاد نفسه قد عزف بي عن احتراف التمثيل! والحق أنني كنت أضيق بطريقة أداء الممثلين لأدوارهم، فقد كنت أتبين أن الشخصيات
التي وضعتها في مسرحيتي لم تكن تخرج على المسرح ولها الخواص والمميزات التي كنت حريصاً عليها حين وضعت أشخاص مسرحيتي قبل التمثيل.
واتفق بعد ذلك أن نضجت في ذهني فكرة قصتي الأولى (الزواج السري). وظلت صورة بطلتها تتمثل لي مع كل صباح؛ حتى كان نوفمبر سنة 1907، إذ جلست إلى منضدتي أسجل بقلم الرصاص فصول هذه القصة التي تولى نشرها (مارتن سيكر) في صيف عام 1910
مضيت في كتابة هذه القصة ببطء شديد. ولم تكن لي مرانة قصصية تذكر، غير أني مضيت في تسجيل فصولها على غرار الأساليب المعروفة في القرن الثامن عشر، وكذلك كانت هذه الفصول تدور حول حياة أشخاص عاشوا في ذلك القرن نفسه. وإني لأذكر أنني فرغت من كتابتها في عام 1909، ثم آثرت أن أبعث بها الى صديقي (جون موراي) الذي كانت لأبيه دار للنشر. على أني كنت ضعيف الأمل في أنه مستطيع أن يحمل والده على قبول نشر قصتي. ولم ألبث بعد إرسالها إليه سوى أسبوعين، كتب إليّ بعدهما يقول إن ممن يقرأون لهم اثنين نصحا لهم بعدم نشر هذه القصة، وإنه لا يستطيع أن يصنع من أجلي شيئاً!! وقد عجبت لذلك كثيراً. . .

وبعد ذلك تلقى أبي من صديقه (هنري جيمس) كتاباً يقول فيه إنه بعث بقصتي إلى الناشر (هانيمان) وطلب إليه أن يعيرها عناية خاصة. وقد كان أبي حينذاك ينظر إلى كتابتي القصصية على أنها ليست فقط مضيعة لوقتي، بل هي فوق ذلك مضيعة لنقوده أيضاً!

كان (هنري جيمس) رجلاً طيب القلب إلى أبعد حد. غير أنه لم يكن ذا ولع بأن يقرأ قصة من طراز القرن الثامن عشر؛ وقد بدا ذلك جلياً في خطابه ذاك. وإني لأقرر في هذا الصدد أنني أستطيع أن أعد على أصابع اليد الواحدة أولئك الناشرين الذين يحكمون على ما ينشرونه بمحض آرائهم الخاصة. ولعل ذلك من أشنع العيوب التي يمكن اجتلاؤها في ميدان النشر

وأكبر الظن أن القصة لم تصل إلى يدي (هانيمان) إذ بعث بها (هنري جيمس) إليه. فقد عاد بها البريد إليّ بعد ثلاثة أيام مع أن (هانيمان) كان وقتها مسافراً في مكان بعيد، كما علمت بعد ذلك. وقد أرسلت بها مرة أخرى إلى ناشر آخر لم يوافق على طبعها إلا إذا قمت بنفقات الطباعة! فقصدت إلى ناشر غيره رفض أيضاً، ثم إلى ناشر ثالث حجزها بضعة شهور قبل أن يرفضها هو أيضاً. وهكذا تعدد عرضي إياها على الناشرين، كما تعدد إصرارهم على الرفض. وكان أبسط نتائج هذه الحالة أنني يئست من مستقبلي ككاتب قصصي، فعدت أحاول أن أعالج المسرحية من جديد، فكتبت قصة تمثيلية جديدة وقدمتها إلى والدي ولكنه رفض إخراجها! فعزف بي ذلك عن كل رغبة في احتراف القلم؛ وبدا لي أن من الأوفق أن أجرب حظي في الاشتغال بتربية الأزهار واستنباتها، وقد أصبت في هذا العمل حظاً من التوفيق فأصررت على ألا أخط بقلمي حرفاً واحداً من قصة جديدة؛ إلا إذا طبعت قصتي الأولى (الزواج السري) ورأيتها منشورة في كتاب يجثم على مائدتي!!.

وحدث بعد ذلك أن أنذرني أبي بأنه قد بر بوعده وأمضى خمس سنين وهو يعطيني مائة وخمسين جنيهاً في العام - غير أنه لا ينوي استئناف تأدية هذا المال معاونة لي على استنبات الأزهار أو كتابة القصص! وهكذا وجدتني مرغماً على احتراف التمثيل مثله. وكان هو في ذلك الحين قد أرصد قدراً من المال لإخراج مسرحية جديدة للكاتب العظيم (هول كين) في سنة 1910 وكان في هذه المسرحية الجديدة دور يلائمني، ولم تكن أمامي عقبة سوى موافقة المؤلف (هول كين) نفسه لأقوم بأداء هذا الدور في نظير أجر أسبوعي قدره عشرة جنيهات

وأخرجت المسرحية، ولعبت دوري فيها؛ وظللنا نخرجها أسبوعاً واحداً. غير أنها جلبت عليّ بعض الحظ. فإن بعض أصدقائي الفنانين قد أخبرني بأن الموسيقي (بليسييه) كان يبحث عن شاعر يضع لفرقته بعض الأناشيد، غير أني لم ألبث أن مرضت بالتهاب في الحلق، ولكن مرضي لم يحل دون قيامي بنظم ما يريده من شعر غنائي ومن حوار موسيقي. وهكذا وجدت لدى الرجل عملاً موافقاً لمدة عام واحد كتبت خلاله قصتي الثانية الشهيرة (كارنيفال)

وفي تلك الأثناء أخبرني بعض الأصدقاء بأن (مارتن سيكر) يلح في طلب قصتي الأولى (الزواج السري)، التي كان قد قرأها قبل أن يحترف النشر وأنه يحب أن يجعلها أحد كتابين يريد أن يبدأ بطبعهما حياته العلمية كناشر. فتواعدنا على اللقاء في مشرب للشاي. وفي هذا اللقاء اتفقنا على كل ما يعنيني ويعنيه من أمر النشر، بعد أن غيرت اسم القصة

فصار (الزواج السري) بعد أن كان اسمها إلى ذلك الحين (موارد الستار)، وقد سر المستر (سيكر) بهذا التغيير أيما سرور

كنت أختلس الفراغ بين مشاغلي لأقوم بمراجعة (بروفات) الكتاب حال طبعه، إذ كنت أعمل مع الموسيقي (بليسييه) كما قدمت، ولن يكن عملي معه يقتصر على تأليف الأغاني بل كان يتعداه إلى كثير من المهام الفنية المتصلة بطبيعة عمله. بل إني لم أكن أفرغ لمراجعة هذه (البروفات) إلا وقد نال مني الجهد وكدت أسقط من الإعياء، وقد سبب ذلك وقوع كثير من الأخطاء المطبعية المضحكة في الطبعة الأولى من الكتاب.

ولم يكن الناس يعتبرون (يناير) من شهور موسم النشر، ولكن بدا لي أن ظهور كتاب

جديد لمؤلف مغمور في مثل هذا الوقت الخارج عن موسم النشر قد يكون تنبيهاً خاصاً إلى ظهوره. وقد أسفرت التجربة عن صحة حدسي. وكانت الصحف كريمة في استقبال كتابي غاية الكرم. وأفاد الكتاب من هذا كثيراً، إذ بيع منه خمسة آلاف نسخة قيمة كل منها ستة شلنات، وكان هذا العدد يعتبر ضخماً في ذلك العهد.

وينبغي أن أذكر هنا أنني أشرت على الناشر بأن يبذل غاية الجهد في سبيل الإعلان عن الكتاب في كل مكان. وقد أثر الإعلان كما كنت أرجو، إذ استلفت أنظار القراء إلى كتابي الأول.

كومبتون ماكينزي

مدام كوري

للدكتور محمد محمود غالي

مدام كوري مكتشفة الراديوم التي ارتفعت إلى مقام نيوتن

ودريكات وباستور، أستاذة السوربون وحائزة جائزة نوبل

للطبيعة سنة 1903 وجائزة نوبل للكيمياء سنة 1911

إن الذين يعجبون في قرارة نفوسهم إعجاباً علمياً بالراديو والتليفزيون وغيرهما ويشعرون بالدور الذي ينبغي أن تلعبه مصر والبلاد الشرقية لاستكمال الانتصارات العلمية لتقدم الإنسان يهتمون ولاشك بمعرفة أخبار المعامل العلمية، فتلك الهياكل المقدسة كما يسميها باستور، هي التي يجب أن نحميها أكثر من حمايتنا لأنفسنا، إذ فيها تنمو الإنسانية وتقوى ويزدهر التنسيق العالمي، بينما الإنسان في خارجها ينساق أحياناً لأعمال بربرية وتحمس أحمق لتحطيم نفسه وتحطيم البشر

وإنه ليحلو لي في هذه الأيام التي يهتم العالم فيها بالتسلح والتسابق للتهلكة، في هذا العهد الذي يقف فيه كل عمل إيجابي لننساق إلى ما هو سلبي، يحلو لي أن أحدث القراء في أحب سير المعامل العلمية، فأحدثكم عن مدام كيري واكتشافها للراديوم: قصة وإن لم تكن قصة اليوم، وعمل وإن لم يكن وليد هذه الساعة، إلا أنها ليست بالقصة التي ننساها مع الزمن، ولا بالعمل العادي الذي يمر ككل عمل

إن عمل كيري للنجاح لا يقف عند حد، فقد كنا أمام مادة جديدة في طبيعتها وخواصها، بل كنا أمام نشاط إشعاعي حراري كهربائي، بل كنا أمام تكوين جديد للهيليوم وتحول للعناصر وتغيير فجائي في المادة، فلا عنصر بالمعني الذي كنا نفهمه، ولا ذرة غير قابلة للتجزئة، إذ في كل ثانية تمر تطرد جسيمات الراديوم ملايين من ذرات الهيليوم بقوة كبيرة. على أن بقايا هذا الانفجار هي ذرات غازية تتحول هي أيضاً إلى جسم إشعاعي آخر، ثم يتحول هذا من جديد، وهكذا سلسلة من الأعضاء كل عضو في أسرة سلالة آبائه الذين تحولوا إليه. فالبولونيوم من سلالة الراديوم، والراديوم من سلالة الأيرانيوم، وهذه الأجسام التي تتكون في كل لحظة تنعدم من جديد وفق قانون أزلي، وهكذا في المادة الصماء التي كنا

نعتقد جمودها نجد عالماً حافلاً بالمواليد والوفيات والحوادث والاصطدامات. فيه صورة للحياة وفيه طريق للموت

هذه الحقائق الأولى التي كانت نتيجة لاكتشاف الراديوم عظيمة إلى أقصى درجات العظم، فهي تظم فلسفة جديدة وتفكيراً جديداً وعلماً يختلف عن كل ما تقدمه، ونتائج تقلب ما ألفناه، حتى كان على الفلاسفة أن يبدءوا فلسفتهم من جديد، وعلى الطبيعيين أن يعيدوا في ضوء هذه الحقائق بناء العلم الحديث

ولا يمكن في مقال واحد أن نستعرض الانقلاب الذي حدث من جراء اكتشاف الراديوم في التفكير الطبيعي أو في الناحية الرياضية أو الجيولوجية. لقد كان له في هذه العلوم أثر كبير، وكان له في الناحية الطبية معجزة أخيرة فإن الراديوم يلعب دوراً في سعادة الإنسان. وعلى حد تعبير أيف كتابها عن والدتها: (قد تحالف الراديوم مع البشر ضد المرض خبيث هو السرطان)

وقد ذكرت في المحاضرة التي ألقيتها في كلية العلوم مساء الأربعاء 30 نوفمبر بمناسبة الذكرى الأربعينية لاكتشاف النشاط الإشعاعي النتائج الأولى لاكتشاف الراديوم وهي المحاضرة التي بسطتها في حديث في نفس المساء من محطة الإذاعة اللاسلكية، كما ذكرت في المحاضرة التي ألقيتها في يوم الأحد 27 نوفمبر سنة 1938 في كلية الطب وهي المحاضرة الرابعة في أسبوع السرطان النتائج الأولى لفالكوف

وجيزل اللذين بينا ما للراديوم من التأثير الفسيولوجي. كما ذكرت علاقة هذه النتائج بالأبحاث التي قام بها بيير كيري الذي عرض ذراعه لفعل الراديوم، وذكرت دراسته الخاصة بأثر الراديوم في الحيوان واشتراك أطباء من أعلام الطب مثل بوشار وبالتازار اللذين اقتنعا من اللحظة الأولى في (تيرابي) جديدة سموها كيري تيرابي من اسم مدام كيري، كما نوهت بأعمال دولوس ودجريه وفيكام وغيرهم، وهم الذين كانوا أسبق (الأطباء إلى استعمال الراديوم بنجاح في الأغراض الطبية

وهكذا لم يصبح الراديوم موضوعاً خاصاً بالعلوم البحتة والعلوم التجريبية فقط بل أصبح مادة لازمة ونافعة، وهكذا لم ينشأ علم جديد فحسب بل نشأت صناعة جديدة أيضاً

ولنبدأ الآن في سرد الوقائع التي أدت إلى اكتشاف الراديوم والنشاط الإشعاعي بعد أن

اكتشف رنتجن أشعة عرض هنري بوانكاريه الرياضي الفرنسي المعروف بتكهناته العديدة في جلسة بالمجمع العلمي الفرنسي أول لوح فوتوغرافي أخذ بهذه الأشعة وفكر مع بكارل فيما إذا كانت هناك أشعة أخرى غير الأشعة السينية من نوعها يكون مصدرها الأجسام الفلورية أي الـ عند تعرضها للضوء

فامتحن هنري بكارل أملاح بعض المعادن النادرة (الايران) وبدل أن يقع على الظاهرة التي يتوقعها مع زميله بوانكاريه وجد ظاهرة أخرى تختلف عن الأولى كل الاختلاف. ذلك أن ملح الايرانيوم تنبعث منه دون تأثير سابق للضوء أشعة طبيعتها غير معروفة.

ومما يجدر بالذكر أن تجارب بكارل كانت تنحصر في أن يعرض الايرانيوم لضوء الشمس ثم يضعه على اللوح الفوتغرافي ليرى أثر الإشعاع الذي اكتسبه من الشمس، وقد حدث أن الجو ظل قاتماً في باريز بطريق الصدفة ثلاثة أيام متتالية (يقول سودي في كتابه ثلاثة أسابيع) في وقت كان قد نسي فيه بكارل قطعة من الايرانيوم على لوح فوتوغرافي مغطي بورقة سوداء رغم عدم تعرض هذه القطعة لضوء الشمس. وقد تأكد بكارل أن هذه الخواص لا تتعلق بتعرض سابق للشمس، بل إن هذه الإشعاع يستمر مهما طالت المدة التي تحجز فيها قطعة من الايرانيوم في الظلام. وهكذا اكتشف بكارل في الواقع الظاهرة التي أسمتها مدام كيري فيما بعد بالنشاط الإشعاعي

وكانت ماري سكلودوفسكا (مدام كيري فيما بعد) قد انتهت من حصولها على ليسانس العلوم في السوربون بباريز وشرعت تبحث عن مكان للبحث في المعامل التي يريدها في ذلك الوقت الأستاذ لبمان والتي يديرها اليوم أستاذي الكبير كوتون رئيس المجمع العلمي الفرنسي، وكانت تتجه في ذلك الوقت إلى بحث الأمواج اللاسلكية، فلم تجد مكاناً لها بالعمل وكانت تطالع النشرات الأخيرة للمجمع العلمي الفرنسي علها تجد مبحثاً آخر لا يحتاج للأدوات العديدة التي يحتاجها الموضوع الأول (الذي كما ذكر (سودي) حضرت فيه درجة أستاذ في العلوم) وإنه ليسرني أن أسرد هذه الوقائع في مصر لأول مرة هذا الشهر وهي التي استقيتها من الأستاذ الكبير جييه أثناء إقامتي الطويلة بالسوربون. وما كان أسعد حظ العالم عندما طالعت مدام كيري نشرة بكارل الخاصة بإشعاع الأيرانيوم

لفليب فرانك أستاذ جامعة براج دراسة فلسفية في مناقشة الأسباب والمسببات وكتاب لاقينا

صعوبة في دراسته، ولأميل بورل الوزير السابق وأستاذ السوربون دراسة هامة في موضوع الصدفة والاحتمالات. ولو أنهما في دراستهما للأسباب والمصادفات أرادا أن يجدا مثلاً أعلى يضربانه لحدوث المصادفة والمصادفة السعيدة للعالم، لاعتبرا الساعة التي طالعت فيها مدام كيري نشرة بكارل من الساعات السعيدة للعالم! ومن يدري فإن مركزنا العلمي اليوم وطريقة فهمنا للأشياء في العلوم الطبيعية، في نظرية الكم وغيرها، كان يتغير تغييراً كلياً، لو أن كيري لم تطالع هذه النشرة من نشرات المجمع العلمي

لقد شغلت أشعة بكارل ذهن مدام كيري: من أين هذا النشاط؟ وما هي طبيعته؟ هذا موضوع شائق للبحث. هذه تصلح رسالة تحضرها بعد أستاذية العلوم للحصول على دكتوراه الدولة في العلوم. هذه أرض عذراء للعمل والإنتاج، فأعمال بكارل حديثة لم

يتعمق أحد في كل المعامل البحث في أوربا فيها، فلا كتب ولا نشرات علمية ولا مقدمات غير هذه النشرة الخالدة لبكارل التي تحمل سنة 1896 مولد الكثير من الأحياء منا

وهكذا احتوت مدام كيري حجرة خالية من وسائل التدفئة ليست بالسوربون بل بفناء مدرسة الطبيعة بشارع لوموند، ولا يهم المشتغل بالأبحاث العلمية في جامعة كبيرة كالسوربون سوى السماح له بمكان يعمل فيه، وعلى الذين يقصرون عنايتهم على المباني فينفقون عليها الأموال الطائلة أن يتذكروا أن المباني ليست كل شيء، فالجامعات لم تكن يوماً أعمدة وصالات ونواقيس وأبراج، إذ من تلك الحجرة المتواضعة خرجت أبحاث الراديوم للعالم منتصرة مؤذنة بعصر جديد، تلك الأبحاث التي استحقت عليها مدام كيري جائزة نوبل مرتين

وقد بدأت أعمالها بأن تقيس قوة إشعاع الأيرانيوم وتوصلت في المبدأ لقواعد عامة غاية في الأهمية، منها أن قوة الإشعاع تتناسب مع كمية الأيرانيوم وأن الإشعاع لا يتأثر بالتفاعل الكيميائي للأيرانيوم ولا بالعوامل الخارجية كالحرارة والضوء

يحدث كثيراً في العلوم التجريبية أن ظواهر لا تجد تفسيراً في المبدأ ويحار الباحث في تعليلها، ولكنه لا يلبث أن يجد التفسير في قوانين معروفة وسابقة فيقف التجديد في هذه الناحية عند هذا الحد. أما هذه الملاحظات الأولى وغيرها لمدام كيري فقد كانت على عكس ذلك، إذ ظهر لها أنها أمام ظواهر جديدة وأن أصل الإشعاع لابد وأن يكون خواص

جوهرية للذرة نفسها

وقد تساءلت فيما إذا كان هناك أجسام أخرى لها هذه الخاصية من الإشعاع، فتركت مؤقتاً دراسة الأيرانيوم إلى دراسة كل الأجسام الكيميائية المعروفة، فوجدت أن لمركبات مادة أخرى اسمها (التوريوم) إشعاعاً له نفس القوة

وهكذا وجدت أن ظاهرة الإشعاع لم تكن خاصة بمادة دون الأخرى، لذلك سمتها النشاط الإشعاعي وسمت الأجسام التي لها هذه الخواص عناصر مشعة

ولقد كانت مدام كيري متعطشة للمعرفة لأقصى حد، وهي صفة من صفات العلماء، فبدل أن تحصر دراستها في المركبات البسيطة بدأت تفحص جميع العينات التي كان يختارها معها بيير كيري والموجودة بطريق الصدفة في مدرسة الطبيعة فتضعها الواحدة بعد الأخرى أمام الألكتروسكوب. وقد حصرت مجهودها في جميع العينات التي تحوي فقط الأيرانيوم أو التوريوم، وهنا كانت المفاجأة الكبرى والنتيجة غير المتوقعة فقد وجدت أن الإشعاع هذه المرة أقوى بكثير جداً من الإشعاع الذي تسببه نفس الكمية الموجودة من الأيرانيوم أو التوريوم في هذه العينات

وقد اعتقدت مدام كيري أن هذه المفاجأة قد تكون وليدة خطأ في سير التجارب نفسها، ومن عادة الباحثين أن يجعلوا الشك في العمل أولى دائماً من الاعتقاد بالوصول إلى شيء جديد، ولكن كيري أعادت هذه التجارب عشرات المرات دون أن يتغير الموقف، ولم يكن للعالمة سوى مخرج واحد وتفسير واحد هو ضرورة احتواء هذه المعادن على مادة أكثر إشعاعاً من الأيرانيوم والتوريوم. ولكن ما هي هذه المادة

يا ترى، ونحن نعلم أن مدام كيري كانت قد قامت بتحليل كل العناصر الكيميائية؟ لقد أجابت مدام كيري على هذا السؤال بشيء من الثقة بالنفس، إجابة هي طابع كبار العلماء، فوضعت فرضاً جديداً ورأياً جريئاً، هو أن هذه المادة عنصر جديد غير العناصر التي نعرفها ورجحت وجود عنصرين لا عنصر واحد

هكذا اكتشفت مدام كيري وقرينها عنصري البولونيوم، نسبة إلى بولونيا موطنها الأصلي، ثم الراديوم الذي يزيد إشعاعه على مليون مرة بالنسبة لإشعاع الايرانيوم الذي اكشفه بكارل، وهكذا تمت الخطوات الخمس من اكتشاف الراديوم والنشاط الإشعاعي

الخطوة الأولى: اكتشاف أشعة وملاحظة بونكاريه وبكارل

الخطوة الثانية: النشرة التي وقعها بكارل سنة 1896 عن اكتشاف خواص الايرانيوم

الخطوة الثالثة: النشرة التي وقعتها كيري بمفردها عن اكتشاف خواص التوريوم

الخطوة الرابعة: اكتشافها مع قرينها البولونيوم، على أثر ملاحظتها الشخصية عن زيادة الإشعاع في مركبات تحوي مواد مشعة إشعاعاً ضعيفاً

الخطوة الخامسة: اكتشافها مع بيير كيري وبمون الراديوم
وإذا ألقينا نظرة على ما نشر بعد اكتشاف بكارل ثبت لنا بلا جدال أن الدور الهام بين الثلاثة الذين تكاتفوا في الأيام الأولى لاكتشاف الراديوم كان لمدام كيري (ماري سكلودوفسكا في ذلك الوقت)، ولعل أعظم هذه الأيام ذلك اليوم التاريخي الذي دخلت فيه ماري معمل لبمان بالسوربون لتكتب نشرتها الخالدة للمجمع العلمي الفرنسي المؤرخة 12 أبريل سنة 1898، والتي بينت فيها زيادة الإشعاع في مادة بها ايرانيوم عن الأيرانيوم نفسه والتي استنتجت فيها العناصر الجديدة
ولقد انحصرت المسألة بعد ذلك في عمل مضن طويل لعزل هذين العنصرين البولونيوم والراديوم، حيث تطالع في النشرات الخاصة بوجودهما أسماء مدام كيري وبيير كيري وبيمون، وحيث نرى كلمة راديوم لأول مرة في نشرة وقعها الثلاثة معاً في 26 ديسمبر سنة 1898، وحيث نعلم أنه لتحضير أول ديسجرام من الراديوم قضت مدام كيري وقرينها أربعة أعوام في هذه الحجرة الخالية من وسائل التدفئة بل في هذه السقيفة المجهولة، وهي الكمية الأولى التي كانت لازمة لتواجه بها علماء الطبيعة والكيمياء والتي استطاعت أن تحسب بواسطتها الوزن الذري للمادة الجديدة التي وضعتها في جدول العناصر
ومما يجدر بالذكر أنه عندما قرر المجمع العلمي باستوكهولم إعطاء جائزة نوبل للطبيعة في نوفمبر سنة 1903 قرر منحها لبكارل ومدام كيري وبيير كيري
(للكلام بقية)
محمد محمود غالي
دكتوراه الدولة في العلوم الطبيعية من السوربون
رسالة من باريس
بعض الدكاترة الفخريين
الذين منحوا الدكتوراه الفخرية في فرنسا هذا العام
للباحث الأديب مصطفى زيور
- 3 -
العلامة تزنت جيورجي
لا يمكن أن تذكر مسألة الفيتامين دون أن يذكر اسم العلم البيولوجي والطبيب المجري تزنت جيورجي؛ فإذا علمنا أن مسألة الفيتامين كسبت في ثلاثة السنوات الأخيرة أهمية جديدة بما أحرزته البحوث فيها من تقدم كبير، وبما ألقته هذه البحوث من ضوء جديد على طائفة من أهم مسائل علم الحياة، فإننا نفهم كيف أن جائزتين من جوائز نوبل تمنحان هذا العام للعالمين هما تزنت جيورجي و (كارر) اللذان وقفا مجهوديهما على البحث في هذه المسألة، وكيف أنهما يفوزان في نفس العام بالدكتوراه الفخرية من باريس، بحيث يمكننا أن نقول إن عام 1938 هو عام الفيتامين.
ولكي نقدر مجهود هذين العالمين ونفهم خطورة أبحاثهما، أرى من الواجب أن أقدم لذلك بكلمة تاريخية قصيرة في مسألة الفيتامين، حتى يتبين كيف أن هذه المواد التي كانوا يصفونها منذ بضعة سنوات بأنها (غامضة) أو (خفية) أصبحت من الأشياء التي يحضرها الكيميائي في معمله بل يركبها تركيباً صناعياً من مواد بسيطة محاكياً في ذلك الوظائف الحية، ويضعها في أوعية يأخذها إلى الطبيب ليعالج بها مرضاه.
نشأت فكرة الفيتامين حوالي سنة 1912 على اثر ملاحظات وتجارب عديدة قام بها الأطباء من ناحية وعلماء وظائف الأعضاء من ناحية أخرى، أدت إلى فكرة وجود مواد طبيعية في الأغذية وظيفتها حفظ التوازن الحيوي ودرء أمراض معينة.
أما ملاحظات الأطباء فقد كانت في الأمراض الآتية:
(1) - مرض البري بري: (لفظ من أصل سنغالي معناه الضعف) وهو مرض منتشر في شرق آسيا ويظهر على أحد شكلين: شكل يتميز بالشلل وضمور العضلات، وشكل يتميز
برشح المصل الدموي في الأنسجة فيحدث أوراماً مائية مصحوبة بأعراض خطيرة مختلفة لا تلبث أن تؤدي بالمريض إلى الموت.
(2) - مرض الاسخربوط (سكوربيك): كما سماه الهولنديون (لعلها من الألمانية القديمة ويسميه الفرنسيون والإنجليز ينتاب هذا المرض المعروف منذ أبقراط سكان

المدن الواقعة تحت الحصار والنوتية الذين يقلعون في أسفار طويلة، أي كلما اقتصر غذاء الإنسان على الأطعمة المحفوظة لمدة طويلة. وتبدأ أعراضه بأورام وأوجاع في المفاصل ونزيف في اللثة لا يلبث أن يشمل باقي الأعضاء فيهزل الجسم ويدنو المريض شيئاً فشيئاً من نهاية محزنة.

(3) - مرض البلاجدا: مرض معروف في بعض أرياف مصر وفي جنوب أمريكا وبعض بقاع جنوب أوربا، يتميز بطفح جلدي خاص (ومن هنا جاء اسمه: من اللاتينية أي جلدو أي خشن) ثم باضطرابات في القناة الهضمية مصحوبة بالإسهال، وأخيراً بهزال شديد ثم باضطراب عصبياً وعقلية مصحوبة بالهذيان فالموت.

(4) - الكساح: وهو مرض ينتاب الأطفال فيضطرب نمو عظامهم وينتج عن ذلك اعوجاج في العمود الفقري والأطراف.

(5) - كرتومالاسي: وهو مرض في قرنية العين لدى الأطفال فلا تلبث أن يصيبها العطب وتصحبه قابلية شديدة للعدوى بالأمراض العفنة.

لم يغب عن الأطباء طويلاً أمر هذه الأمراض، فقد تبينوا منذ القرن السابع عشر أن مرض الاسخربوط يصيب من امتنع عن الخضروات والفواكه الطازجة، كما لاحظوا فيما بعد أن مرض البري بري يحل في الشعوب التي يتألف غذاؤها الرئيسي من الأرز المقشور (كما في الصين وفي اليابان)، وأن البلاجرا تنال من الجماعات التي تقتصر في غالب الأمر على الذرة (كما في بعض أرياف مصر ورومانيا وأسبانيا. الخ)، وأن الكساح يصيب من الأطفال من ساءت تغذيته وحرم ضوء الشمس. أما كرتومالاسي فينتاب من الأطفال من بودر بتغذيته غذاء قوامه دقيق الحبوب. وهكذا تبين لهم أن السبب في جميع هذه الأمراض يرجع إلى تغذية سيئة تقوم على نوع بعينه من الطعام، أو على طعام أحاله القشر وما إليه من العمليات الصناعية إلى غذاء ناقص، ومن ثم لم يكن من الصعب أن يجدوا العلاج لهذه

الأمراض: أرز كامل بدلاً من الأرز المقشور ضد البري بري، والفواكه والخضروات الطازجة ضد الاسخربوط، وغذاء متنوع ضد البلاجرا، وضوء الشمس ضد الكساح، وأخيراً زيت سمك الحوت ضد هذا المرض وضد كرتومالاسي. ويلاحظ أن الأطباء كانوا يصفون زيت السمك دون أن يعرفوا فائدته في شفاء الكساح، كما يلاحظ أن بعض وسائل العلاج لهذه الأمراض، وقعت عليها الجماعات من تلقاء نفسها بمجرد التجربة اليومية، فقد كان سكان النرويج يعالجون من أصابه مرض الاسخربوط بشيء من عصير البرتقال. ومما يلفت النظر أن مقداراً تافهاً من هذا العصير - وهذه نقطة رئيسية في فهم طبيعة عمل الفيتامين - يكفي للوقاية من هذا المرض الخطر.

أما بحوث علماء وظائف الأعضاء التي قاموا بها مستقلين عن الأطباء وأدت إلى نفس النتيجة التي وصل إليها الأطباء، فقد كانت ترمي إلي دراسة غذاء الإنسان ودراسة كميتة وكيفيته لمعرفة المواد الغذائية اللازمة وحفظ توازنه الحيوي، وتحديد المقادير والصفات الكيميائية التي لا مندوحة عنها حتى يكون الغذاء كاملاً.

كان محصولنا في الكيمياء البيولوجية عند بدء هذه البحوث بحيث لم يلبث علماء وظائف الأعضاء أن تبينوا ضرورة ثلاث مواد عضوية رئيسية هي: البروتيد أي المواد الزلالية، والليبيد أي المواد الدهنية، والجلوسيد أي المواد النشوية السكرية، ثم بعض الأملاح المعدنية مثل كلورور الصوديوم أي ملح الطعام وأملاح الحديد والكلسيوم، وأخيراً مقدار من مواد غير قابلة للهضم مثل السليلوز لتنبيه الأمعاء على القيام بوظيفتها في الطرد. هذه هي المواد التي رأى علماء وظائف الأعضاء في بادئ الأمر ضرورة وجودها بمقادير خاصة في غذائنا حتى نحصل على حاجتنا من الطاقة من جهة وعلى المواد اللازمة لبناء أنسجتنا وإصلاح ما تفقده منها من جهة أخرى.

وطبقاً لمبدأ التحقيق التجريبي في البحث العلمي بادر علماء وظائف الأعضاء بتغذية بعض الحيوانات المستعملة في المعامل لهذا الغرض (مثل الفيران والأرانب وغيرها) بمقادير معينة من هذه المواد للتحقيق من قيمة النتائج التي أوصلتهم إليها البحوث الكيميائية السابقة. وإليك مثلين تاريخيين لهذه التجارب:

في سنة 1881 عمد (لونين) السويسري إلى فيران يغذيها باللبن فبقيت عدة أشهر في

صحة جيدة، حتى إذا بدأ يغذيها بالمواد العضوية الرئيسية التي يتركب منها اللبن أي الكازيين وهو زلال اللبن ثم الزبد وهو مادته الدهنية ثم اللكتوز وهو سكر اللبن وأضاف إليها المواد المعدنية التي يحتوي عليها اللبن - رأى لونين هذا الغذاء لا يلبث أن يورث الفيران انحرافاً فتضطرب صحتها وتموت، والنتيجة المنطقية من هذه التجربة أن اللبن يحتوي على مواد لازمة للحياة غير المواد المعروفة إلى ذلك الوقت.

وهاهو ذا (هبكنز) الكيميائي الإنكليزي الكبير يقوم حوالي 1906 بتجربة مشابهة فيعمد إلى فيران يطعمها غذاء مكونا من المواد الآتية: زلال اللبن والسكر والنشا وشيء من دهن الخنزير وبعض المواد المعدنية، فلا تلبث هذه الفيران أن يقف نموها وتهزل، حتى إذا أضاف إلى غذائها ثلاثة سنتيمترات مكعبة من اللبن يومياً أي ما يساوي نصف ملعقة صغيرة تقريباً، فإنها تبل مما أصابها وتتقدم صحتها. ولكن هذا المقدار من اللبن لا يمكن أن يعتبر غذاء في ذاته لقلته؛ إذن النتيجة المنطقية من هذه التجربة أن الأغذية الطبيعية تحتوي زيادة على المواد الأربعة الرئيسية المعروفة (الزلاليات والدهنيات والنشويات والمعدنيات) على مقادير صغيرة من مادة طبيعية أخرى لازمة للحياة تقوم بوظيفة (العامل المساعد) في التغذية كما يقول هبكنز، أي كما يحدث في التفاعلات الكيميائية العادية كأن يضاف قليل من ثاني أكسيد المنجنيز إلى كلورات البوتاس حتى يساعدها على التفاعل واستخلاص الأكسجين الذي تحتوي عليه.

والآن يمكننا أن نتبين كيف نشأت فكرة الفيتامين على أثر ملاحظات الأطباء وتجارب علماء وظائف الأعضاء التي لم يكن بينها علاقة في بادئ الأمر. لاحظ طبيب هولندي كان يعمل في مستشفى الحكومة في جاوة حيث كان ينتشر مرض البري بري بين الأهالي، أن الفراخ الموجودة في فناء المستشفى والتي كانت تتغذى بالأرز المقشور - وهو الغذاء الرئيسي للأهالي - كان يبدو عليها أعراض مرض يشبه مرض البري بري. فما لبث أن نشأت لديه فكرة وجود علاقة بين الغذاء المكون من الأرز المقشور وبين ظهور أعراض هذا المرض، ومن ثم بادر بإعطاء هذه الفراخ (ردة) فشفيت مما أصابها. على أثر هذه التجربة عمد كيميائي بولوني يدعى فونك حوالي سنة 1912 إلى قشر الأرز يستخلص منه (العنصر) الفعال في شفاء البري بري، فنجح في استخلاص مادة فعالة، ولو أعطيت

بمقادير صغيرة، ولما كانت هذه المادة تحتوي على وظيفة أمينية (وظيفة قلوية تحتوي على الآزوت ومنتشرة في المواد العضوية)، ثم لما كانت وظيفة هذه المادة حفظ التوازن الحيوي فقد دعاها فيتامين (فيتا اللاتينية أي حياة وأمين الخاصة الكيميائية) وهكذا وجدت كلمة جديدة في لغة العلم بل فكرة عامة جديدة لأن هذه الكلمة لم تلبث أن عمت وأطلقت على مختلف المواد العضوية الغذائية اللازمة بمقادير صغيرة لحفظ توازن الحياة.

ولكن العلم لا يدين للكيميائي فونك باكتشافه الكيميائي فحسب، بل إن هذا الاكتشاف على خطورته لم يكن نهائياً من الناحية الكيميائية، لأن المادة التي استخلصها لم تكن (العنصر) الفعال في شفاء البري بري ولكنها مادة تحتوي على ذلك العنصر كما تحتوي على عناصر أخرى استخلصت في حالة النقاء فيما بعد، ومن ثم لم يمكنه تحديد تركيبها الكيميائي. يدين العلم لفونك قبل كل شيء بإدراكه العلاقة بين ملاحظات الأطباء المبعثرة من جهة وتجارب علماء وظائف الأعضاء من جهة أخرى، كما يدين له بإدراكه خطورة اكتشافه وتعميم فكرته على مواد لم تكن بينها رابطة واضحة في بادئ الأمر.

ويمكننا الآن بعد هذه المقدمة أن نعرف الفيتامين: (بأنها مواد عضوية لازمة بمقادير صغيرة لنمو الجسم وحفظ توازنه الحيوي وقدرته على التناسل، مواد يجب أن يحتويها غذاؤنا (أو على الأقل يحتوي على المواد التي يمكن للجسم أن يؤلف منها حاجته) وإلا انحرفت الصحة ولحق الجسم أمراض معينة)

وهاهي ذي أنواع الفيتامين المختلفة التي استخلصت في حالة النقاء وتمت دراسة تكوينها الكيميائي بل ركبت تركيباً صناعياً من مواد بسيطة.

(1) فيتامين ا: (أو: أكسروفرول) وهو مادة لا تذوب إلا في المواد الدهنية مثل زيت السمك والزبد، وتوجد فوق ذلك في كثير من النباتات على شكل مادة يدعونها (كاروتين) نسبة إلى كاروت أي الجزر لأنها المادة الملونة للجزر) يحولها الجسم إلى

فيتامين ا، وأهم هذه النباتات هي الجزر ثم السبانخ والطماطم والخس والذرة ثم كثير من النباتات الخضراء ذات الكلوروفيل (أي مادة النبات الخضراء) لأن الكاروتين يوجد عادة بجانبها وإن غلب لون الكلوروفيل لون الكاروتين. يقوم هذا الفيتامين بوظيفة العامل المساعد في النمو والوقاية من الأمراض العفنة ومن مرض يصيب قرنية العين يدعى كسروفتالمي (ومنه اسم
(الفيتامين ا: أكسيرفرول

(2) فيتامين د: (أو: كالسفيرول) وهو مادة لا تذوب كالمادة السابقة إلا في المواد الدهنية، توجد في زيت السمك واللبن وصفار البيض ولا تكاد توجد في غير ذلك من الأطعمة، وظيفتها مساعدة عنصر الكلسيوم اللازم لبناء العظام على الاندماج في هذا البناء، فإذا ما خلا الغذاء من الفيتامين د وخاصة لدى الأطفال بقي الكالسيوم الذي نحصل عليه من المواد الغذائية دون أن يدخل في بناء العظام وطرد من الجسم في النهاية مع الإفرازات وتكون النتيجة أن يصيب الأطفال اضطراب في نمو عظامهم يورثهم الكساح.

(3) فيتامين هـ: (أو: توكوفيرول) وهو مادة لا تذوب كالمواد السابقة إلا في المواد الدهنية، توجد في بذور الحبوب وخاصة القمح ثم في الخس. ووظيفتها مساعدة القدرة على التناسل ويحدث عدمها عقماً في الذكر وفي الأنثى.

(4) فيتامين ج: (أو: حامض آسكوربيك) وهو مادة تذوب في الماء منتشرة في النباتات وعلى الأخص في الفواكه الطازجة مثل البرتقال والليمون والعنب والموز، وفي الخضروات مثل الطماطم والخس والإسباناخ والكرنب والفاصوليا الخضراء الخ ووظيفتها كما سأبين ذلك بالتفصيل مساعدة تفاعلات الاحتراق والاختزال في الأنسجة وينتج من عدمها مرض الاسخربوط. ويتميز هذا الفيتامين بشدة حساسيته للحرارة والتأكسد بأكسجين الهواء.

(5) فيتامين ب1: (أو: أنورين) وهو مادة تذوب في الماء لا توجد إلا بمقادير تافهة في بعض المواد الغذائية مثل بذور الحبوب وخميرة البيرة وبعض البقول وصفار البيض واللبن بعض الخضروات. وظيفتها مساعدة الأحماض الناتجة من اختمار النشويات أن يكتمل تحللها.

وينتج من عدم الفيتامين ب1 نقص في هذا التحلل فيصيب الأعصاب تسمم من هذه الأحماض يورث مرض البري بري.

(6) فيتامين ب2: (أو: لاكتوفلافين) وهو مادة ملونة تذوب في الماء منتشرة في الفصيلتين النباتية والحيوانية، وتوجد على الأخص في اللبن ومصل اللبن (السائل الذي ينفصل عن اللبن إذا تخثر) وظيفتها مساعدة تمثيل المواد النشوية، وتدخل هذه المادة في تكوين خميرة

بيولوجية هامة تدعى الخميرة الصفراء أو خميرة التنفس وظيفتها مساعدة تفاعلات الاحتراق والاختزال في الأنسجة أي التنفس داخل الأنسجة كما يفعل فيتامين ج؛ وينتج من عدم فيتامين ب2 اضطراب في تمثيل المواد النشوية ولذلك يصفونها دواء في بعض حالات مرض السكر.

وهناك عدة أنواع أخرى من الفيتامين لم يعرف بعد تركيبها الكيميائي بالدقة وأهمها الفيتامين الواقي من البلاجرا ثم الفيتامين المدر للبن ثم الفيتامين الواقي من عطب يصيب جدار قنوات الدم الشعرية.

والآن بعد هذه المقدمة يمكننا أن نتناول بحوث تزنت جيورجي
(للكلام صلة)

مصطفى زيور

رد على باحث فاضل

بين الغرب والشرق

للدكتور إسماعيل أحمد أدهم

(بقية ما نشر في العدد 284)

أن معنى النظر في العالم المنظور هو النظر الحر من أوجه العالم المشهودة بدون أن يشوب هذا النظر اتجاهات مستنزلة من النظر الغيبي، والبحث عن الخالق عن طريق الطبيعة نظرة للطبيعة ولكن مشوبة بالنظر الغيبي. إذن فمتى سبق الشرق الغرب

بمثل هذه النظرة الحرة للأشياء من أوجهها المشهودة؟ أليس اليونان أول من أطلقوا العقل من عقاله وحرروه من الخضوع في اتجاهاته للنظر الغيبي، وأعادوا العقل إلى مكانه الصحيح في عالم الشهادة؟

وبعد فيظهر أن باحثنا المفضال، متأثراً بعقليته الشرقية من جهة وبعدم تفهمه ما وراء عباراتنا من معان من جهة أخرى، انساق لاعتراضات ومواقف ليست من الحقيقة في شيء. ولا أدل على ذلك من تعليقه على رأينا (من أن الجانب العلمي والفلسفي من الثقافة الإسلامية نتيجة للأخذ بأساليب الفكر اليوناني) بقوله: (ولماذا لا يكون هذا الجانب نتيجة للأخذ بأساليب الدين الإسلامي وتعاليمه؟) ونحن إزاء هذا التساؤل لا نملك أنفسنا من السخط لا على أن باحثنا أتى بشيء ليس لنا قبل برده؛ ولكن لاعتراضه على حقيقة معروفة للجميع بمثل هذا التساؤل الذي لا يعني شيئاً غير قصور صاحبه عن الوقوف على تأثير الفكر اليوناني في نشأة الثقافة الإسلامية. يقول البروفسور نيلينو المستشرق الإيطالي المعروف في كتابة تاريخ علم الفلك عند العرب ص 141 ما نصه:

(في أواخر مدة الدولة الأموية، ثبتت سلطة الإسلام على جميع الأمصار والأقطار التي دخلتها ألويته عنوة أو صلحاً أثناء المغازي المتواصلة والفتوح من أقصى بلاد ما وراء النهرين في تركستان إلى منتهى المغرب والأندلس. فعمت اللغة العربية الشريفة أهل تلك الولايات والبلدان وغلبت على ألسنتهم الأصلية فأخذ المسلمون كلهم من أي جنس أو ملة لا يستخدمون في الإنشاء أو التأليف إلا لغة العرب. فابتدأت وحدة الدين تستوجب وحدة

اللسان والحضارة والعمران، فصار الفرس وأهل العراق والشام ومصر يدخلون علومهم القديمة في التمدن الإسلامي الجديد)

وقد قلنا في نفس هذا المعنى شيئاً في كتابنا (الرسالة الأولى من مصادر التاريخ الإسلامي) ص 37 - 83 (طبع 1936 - الإسكندرية)

(لقد فتح العرب البلاد وملكوا الأمصار عن طريق الحرب وقد نجحوا في نشر الإسلام في الأمم المغلوبة. ودخول هذه الأمم الإسلام جعلهم يخضعون لروح الإسلام الديني والاجتماعي إلى حد. إذ لم يكن هؤلاء إلا أبناء تواريخ مجيدة وحضارات تليدة فسرعان ما رأيناهم قادة المدنية الإسلامية في ساحات التفكير والحضارة. . . دخل أبناء هذه الأمم الإسلام وهم يحملون في تضاعيف عقولهم مرونة فكرية، وبين ظهرانيهم كانت مذاهب دينية متعددة في انتشارها من الوثنية إلى المسيحية في صورتيها النسطورية واليعقوبية، وكانت عقولهم تحمل في طياتها بذور المدنية اليونانية كما نقلها لهم اليعاقبة، ولم تخل أذهانهم من منازعات ستة قرون في المسائل الدينية

دخلوا الإسلام فمحا كل هذه المظاهر من عالم الشعور، ولكنه لم يمحها من طيات النفس وعالم اللاشعور، فأثرت هذه العوامل على مر الزمن عن طريق غير شعوري في تعاليم الإسلام فظهر علم الكلام

فإذا كان علم الكلام وهو من أخص العلوم الإسلامية، ظهر تحت تأثير الامتزاج الغريب بين العناصر الثقافية المختلفة في كيان الشرق العربي مع غلبة للعنصر الثقافي اليوناني في هذا الامتزاج، فلا شك أن مثل الدعوى التي يقدمها باحثنا الفاضل بأن العلم والفلسفة في تاريخ المدنية الإسلامية يرجعان إلى أصل من الإسلام في القرآن، دعوى لا تجد لها ما يسندها من حقائق التاريخ الإسلامي وفلسفة هذا التاريخ

ونقطة أخرى من نقط اعتراضات كاتبنا (باحث فاضل) فهو يعلق على قولنا (انتهى متكلمة المسلمين إلى أن العالم حادث وانتهى الغربي إلى أنه قديم) بأن معنى حادث عند متكلمة المسلمين لا تدل على تاريخ معين، وإنما أراد بها المتكلمة أن العالم حادث بالنسبة للخالق، ونحن نقول: من ذا الذي أنبأ صاحبنا بأننا لا نعني من كلمة حادث ما يعنيه المتكلمون، ونحن ننسبها لأصحاب الكلام من المسلمين. والمسألة عندي أن الشرقي يعتقد أن العالم

حادث على الوجه الذي تكلم به الإمام الغزالي، والغربي يعتقد أن العالم قديم على الوجه الذي تكلم به ابن رشد فيلسوف قرطبة، و (تهافت الفلاسفة) و (تهافت التهافت) هو الحد الفاصل بين هذين الاعتقادين: اعتقاد في حدوث العالم من جهة المتكلمين، واعتقاد في مقدمه من جهة الغربيين انتهت إلى صورة في الفكر الإسلامي

على أنها من آراء الفلاسفة الواجب تكفيرهم من أجلها. وبعد فهذه المسألة معروفة لطالب الثانوي من طلبة المعاهد الدينية في مصر، وهم يدرسونها في علم التوحيد (الكلام) فكيف بعد ذلك يسمح كاتبنا المفضال لنفسه أن يتخذ من هذه الأولية مثاراً للاعتراض؟!. . .

هذا وقد وقف الفاضل في القسم الثاني من تعليقه في الرسالة يغمز غمزات ويدير الكلام على وجه لا يتفق مع الحقيقة، من ذلك أنه علق على قولنا (انتهى الغربي إلى أن إرادة الله مقيدة بنظام الكون وأفعاله قائمة على عنصر اللزوم والاضطرار بعبارة من عنده قائلاً: كلام من؟ وأي كلام هذا؟. . .

أما كلام من؟ فالإجابة هينة: هو رأي الفكر الغربي إذا ما آمن بالله! وإذا أراد باحثنا الفاضل أكثر من ذلك قلنا له إنه رأي الفلاسفة من المسلمين ذلك أن هذا الرأي قائم على الاعتقاد بأن وجود العالم صادر عن الله بطريق التعليل. أما استنكار الكاتب هذا الكلام فليس لنا في هذا الكلام شيء فنحن نقرر الواقع، ولكن لنا أن نتساءل: لم هذا الاستنكار؟

أليس هذا رأيا يدرسون في كلية (أصول الدين) بالأزهر دلائله ويناقشونها مناقشة جدلية صرفة؟ أليست كتب الكلام فيها عشرات الصفحات في مناقشة هذا الرأي؟ أليس تكفير الغزالي لابن سينا والفارابي كان من أجل هذا؟ ألم يرد ابن رشد على الغزالي في تكفيره ابن سينا والفارابي من أجل هذا الموضوع في كتابه (تهافت التهافت)؟

وبعد فيظهر أن باحثنا الفاضل نسي أو تناسى كل هذا فوقف يصرخ قائلاً: من قال بأن الغربي يعتقد هذا إلا إذا نقد الجانب العلمي من قوى تكفيره؟ أما هذا القائل فهو أنا. . . ذلك أن الغربي حين نظر للأشياء نظر إليها من ناحيتها المشهودة الواقعة في العالم المنظور، فانتهى عن طريق النظر فيها إلى أن العالم مسوق في سيره بسنن وقوانين ونواميس، وهذا جعله ينتهي بتفكيره إلى اكتشاف الأسلوب العلمي

وقد جاء لنا في ذلك من بحث منشور بالمقتطف م93 ج4 (نوفمبر 1938) ما نصه:

لقد كان الإنسان من عهد سقراط الحكيم (469 - 399 ق م) يرى غاية التفكير في إدراك الماهية، وذلك بمعنى تكوين معاني تامة الحد. وكان معين التفكير طيلة هذا المهد منحصراً في الاستقراء حيث يتدرج العقل من الجزئيات إلى الماهية المشتركة بينها راداً كل جدل إلى الحد والماهية

وفي أوائل القرن السادس عشر أخذت جماعات قليلة من مفكري الغرب يشكون في قدرة الأسلوب التجديدي وإمكان الوصول به إلى نتائج عملية تطبيقية. وأخذت هذه الجماعات تعمل على إدماج النتائج التي تسفر عنها المشاهدات والتجارب في نظام مادِّي على قاعدة الوحدة والعلاقة. . . وكان يحدوهم في تفكيرهم هذا إيمان ثابت بنظام العالم الخارجي وتجانسه ووحدته

إذن يتبين أن التفكير العلمي قام على أساس أولي هو الإيمان بنظام العالم الخارجي وثبات هذا النظام. وهذا يعني أن العالم بقوانينه ونواميسه خالد (أبدي)، فإذا انتهى رجل العلم اليوم إلى الخالق قيده بنظام هذا الكون، على اعتبار أن العالم صادر عنه بطريق التعليل

وصرخة أخرى. . . ذلك أننا قلنا: (إن في قدرة الإنسان تغيير المقدر له عن طريق معرفة النواميس المتحكمة في وجوده) وهنا أولاً: نسبة هذه الوجهة من النظر إلى الغربي. ثانياً: ورود لفظ النواميس تجعل معنى المقدر للإنسان ما قدر له حسب نواميس الطبيعة. وهذا المقدور بطبيعة الحال يفترق عن مفهوم المقدر للإنسان في علم الله عند الشرقي. فإذا كان الأول من الممكن تغييره، وحياة الإنسان منذ بدء وجوده على الأرض تغيير للمقدرات الطبيعية له، فإن الثاني ليس في الإمكان تغييره. . .. وكأني بصرخة باحثنا الفاضل قد انبعثت من عدم تفهمه كلامنا على وجهه الصحيح

وبعد فننهي ردنا هذا بكلمة هادئة لباحثنا الفاضل، فقد وهم حين ظننا من العرب أولا ومن الشرقيين ثانياً، فلسنا من أصل عربي ولسنا شرقيين، وهذا نسبنا وتاريخ حياتنا مبسوط في شيء من الإسهاب في مقدمة دراستنا التحليلية (طه حسين) التي صدرت ربيع هذا العام. وعلى فرض أننا شرقيون ومن أرومة عربية فهل كوننا شرقيين أو عرباً يمنعنا عن قول الحقيقة إذا كانت ضدنا؟

أما ما أثاره الباحث الفاضل من اشكالات في نهاية مقاله فموعدنا بالرد عليه مقال تال،
نضمنه رداً لنا على ما أثاره من اشكالات واهية ذلك الأديب الكبير الذي حاول أن يتعرض لإحدى فكراتنا بالمناقشة بين سطور مقال كتبه في مناقشة لكتاب للبروفسور مارتن الإنجليزي.
إسماعيل أحمد أدهم
التاريخ في سير أبطاله
إبراهام لنكولن
هدية الأحراج إلى عالم المدنية
للأستاذ محمود الخفيف
يا شباب الوادي! خذوا معاني العظمة في نسقها الأعلى من سيرة هذا العصامي العظيم. . . . . .
(تتمة)
برز جرانت إلى الميدان وفي نفسه من العزم بقدر ما في فؤاده من الأمل، وكأنما سرت عزمته إلى قواده وجنوده فما منهم إلا من وطد النفس على أن يخوض أهوال القتال إلى النصر، ونبغ من هؤلاء البواسل قائدان صار لهما في تلك الحرب خطر عظيم هما شيرمان وشريدان
وزحف جرانت بجيشه في مايو عام 1864 وكانت خطته أن يواصل الزحف ما وسعه القتال حتى يأتي رتشمند عاصمة الجنوبيين فيحصرها. ولقد لازمه النصر في هذا الهجوم على الرغم من مقاومة أعدائه، ومازال يدفعهم أمامه حتى أصبح على مقربة من عاصمتهم؛ وكانت تصل أنباء انتصاره إلى العاصمة فتهزها هزاً وكان الناس يجتمعون حول البيت الأبيض فيطل الرئيس عليهم ويخطبهم وقد سره أن ذهب عنهم الروع
وكذلك سار شيرمان مبتدئاً من الغرب، وراح يدفع أعداءه أمامه، وإنهم لينازعونه الأرض شبراً شبراً ويعركون جيشه عركاً شديداً حتى واتاه النصر عليهم في اليوم الثاني والعشرين من شهر يوليو، فسقطت في يده مدينة أتلنتا بعد أيام، وهي موقع حصين ومركز حربي خطير، وكان على رأس الجنوبيين في تلك الجهة قائدهم هود، وهو من ذوي البأس ولقد لم شمل جيشه وخاض الحرب مرة أخرى ولكنه ما لبث أن عاودته الهزيمة، وسر الرئيس وأصحابه بانهزام هود وجنوده فلقد كانوا يوجسون منه شراً
ونشط الشماليون في البحر وضيقوا الخناق على أعدائهم فأذاقوهم لباس الجوع والخوف،
وكانت سيطرة فراجت على البحر وثيقة، فكان بذلك موقفه عاملاً من أكبر عوامل النصر
وراح جرانت يبذل كل ما في وسعه ليحيط بالقائد الكبير (لي) قائد الجنوبيين، فإنه يدرك أن تطويقه خير وسيلة لهزيمته وإجباره على التسليم؛ وكان جرانت يدرك أن عدته وجنده أوفر مما هو لدى عدوه منها، ولذلك عول أن يشد عليه الوثاق
وكان لنكولن وأصحابه يتلقون هاتيك الأنباء الطيبة فتطمئن نفوسهم، ولكن الرئيس كان لا يفتأ مهموماً ضائق الصدر؛ وكيف يطبق قلبه الكبير أن يعلم نبأ هاتيك الضحايا دون أن يتحرك؟ لقد كان يجزع أشد الجزع لمرأى الأمهات والزوجات يقفن في طريقه أو يجتمعن حول البيت الأبيض متسائلات وإنه ليسأل الله أن يجعل للناس من هذا البلاء مخرجاً. . .
وبينما كان جرانت وشيرمان يروعان بجيشيهما أهل الجنوب على هذه الصورة، زحف أحد قواد الجنوب ويدعى إيرلي زحفاً باغت به وشنجطون إذ صار منها على سبعة أميال. . . ولقد كان عمله هذا من أسوأ ما لاقته تلك المدينة في هذه الحرب، فما أقبح الخوف بعد الأمن وما أوجع الكربة بعد الفرح. ولكن جرانت لم يلبث أن أرسل شريدان فأقصى هذا العدو ورماه بالهزيمة وكان ذلك في أوائل سبتمبر عقب سقوط أتلنتا بيوم واحد. . .
وكان انتصار الجيوش على هذا النحو مما قضى على كيد الكائدين من خصوم الرئيس

إذ كانت البلاد تتأهب للانتخاب؛ وكان الديمقراطيون يذيعون في الناس إن من مصالحهم أن يختاروا رئيساً غير هذا الرئيس، وراحوا تارة يقولون إن الحكومة من الوجهة الحربية قد منيت بالفشل منذ قامت الحرب ولا محيص من أن تتبع في الحرب سياسة أقوى وأسرع من سياستها، وتارة أخذوا يطالبون بمصالحة أهل الجنوب ووضع حد لهذا البلاء، وهم في ذلك يرشحون ما كليلان للرياسة ضد إبراهام، ولقد اختاره لذلك مؤتمرهم الذي انعقد في شيكاغو في أغسطس من ذلك العام

وكان بعض الجمهوريين من حزب لنكولن يدعون إلى انتخاب غيره إذ كانوا ينقمون عليه كما يزعمون ابتعاده عن مبادئ الحزب وروحه، فهم يخالفونه فيما أعلن غداة تحرير العبيد من أن ذلك كان من أجل ضرورة حربية وهم يعيبون عليه مسلكه تجاه الولايات الوسطى وتجاه أهل الجنوب، كما أنهم يقولون إن الحرب لا تسير على خير ما يرجى

وكان هؤلاء الجمهوريون يرشحون جرانت تارة، وفريمونت تارة، ولكن معظمهم كان يميل

إلى تشيس وزير المالية، وكان تشيس هذا من أكفأ الرجال، وكان الرئيس يحترم آراءه ويحرص على أن ينتفع بها كما كان يشهد له بالذكاء ويقر بفضله. . . ولكنه كان دائم الشكاوى من الرئيس وكثيراً ما ضايقه بتقديم استقالته من الحكم، وكانت أخرى تلك الاستقالات في صيف هذا العام، ولشد ما أدهش الوزير أن قبلها الرئيس في غير تردد. وكان تشيس ينفس الرئيس مركزه ويعتقد أنه أحق به منه وأجدر

وما كان الرئيس كما أسلفنا يحرص على الحكم إلا أن يكون وسيلة لتحقيق غرضه، قال ذات مرة يرد على الداعين إلى ترشيح جرانت: (إذا كان الناس يعتقدون أن القائد جرانت يكون أسرع في القضاء على الثورة إذا كان في مركزي فإني أتخلى عنه له) وعلى الرغم من ذلك كان خصومه يدعون أنه حريص على الحكم مولع بالرياسة، وكان من أقدر هؤلاء الخصوم وأنشطهم الصحفي جريلي، ذلك الذي طالما حرص الرئيس على مودته وعمل على إرضائه. . . على أن الرئيس كان على علم بهذا كله فلم يعبأ به وذلك لأنه كان يجعل اعتماده على عامة الناس، وهل اعتمد على غيرهم منذ كان يلوح بين الإحراج؟ وجاءت بعد ذلك أنباء انتصار جنده فكان ذلك أبلغ رد على ما يزعم المخالفون والخوارج

ولقد كان مؤيدو الرئيس من الجمهوريين أعز نفراً وأعلى في البلاد صوتاً، وهؤلاء أجمعوا أمرهم على ترشيحه في مؤتمرهم الذي عقدوه في الثامن من يونيو عام 1864، وكانت حماستهم له جديرة به شديدة على خصومه وكارهيه. . . وحمل إليه نبأ ذلك فتلقاه على عادته في دعة، قال: (إنهم رشحوني لا لأنهم رأوني اعظم وأفضل رجل في أمريكا، وإنما كان ذلك لأنهم لم يروا من الحكمة أن يستبدلوا الخيل أثناء عبورهم الماء، ولأنهم رأوا بعد ذلك أني لست فرساً بلغ من السوء مبلغاً لا يمكن معه استخدامه ولو في مشقة أثناء محاولة ذلك العبور) . . .

وكان المؤتمر قد عبر عن رغبته في تعديل الدستور بحيث لا يكون من مواده ما يتضمن الاعتراف بنظام العبيد حتى لا يتعارض قرار التحرير مع نصوص الدستور. ولقد وافق الرئيس على ذلك قائلا: (إن مثل هذا التعديل المقترح يجيء خاتمة مناسبة ضرورية للنجاح النهائي لقضية الاتحاد، وهذا وحده يقف رداً على كل تجن. . . وإن الذين يوافقون

على الوحدة بلا شرط من الشماليين والجنوبيين يدركون خطورته ويتعللون به، فباسم الحرية والوحدة مجتمعين دعونا نعمل على أن نكسبه صفة شرعية وأثراً عملياً). وسمع أن ولاية ماريلند قد عدلت دستورها على هذا الأساس فعلاً فاغتبط قائلاً (إن ذلك عندي يساوي انتصارات كثيرة في الميدان)

وحسب جريلي أنه واجد غميزة أخرى في سياسة الحرب فراح يندد بها ويتطاولها ويدعوا إلى الصلح قائلاً إن البلاد قد باتت على شفا جرف هار وإن السلم على شروط معقولة خير من هذه الحرب التي ضجت البلاد منها ورزحت تحت أعبائها. ومما ساقه في هذا المجال انه على صلة بقوم من الجنوب يقبلون الصلح على أساس الوحدة والقضاء على العبودية، وهنا لم يتردد الرئيس أن يرسل إليه يقول إنه على استعداد أن يلقى أي رجل أو جماعة من الجنوب يفاوضونه على هذا الأساس على شرط أن يكونوا

مسؤولين وليكن جريلي شاهداً على ذلك؛ وعاد جريلي مستخذياً وقد رأى أن الذين دعوه إلى السلم من الجنوبيين قوم لا أهمية لهم. . .

وتطلبت الحرب عدداً جديداً من الرجال وأشفق أنصار لنكولن أن يدعوا البلاد إلى رجال في مثل هاتيك الظروف، ولكن هل كان مثله يحجم عن أمر يعتقد صوابه وعلى الأخص إذا كان هذا الأمر يتعلق بالحرب بله الحرب تحت قيادة جرانت؟. لم يحجم الرئيس ولم يتردد وأصدر أمره في ثبات وجرأة. . .

وجاء يوم الانتخاب فكان فوز الرئيس عظيماً كما كان تواضعه غداة فوزه عظيماً. قال وما أجمل ما قال: (إني أعرف قلبي وأرى غبطتي لا يشوبها شائبة من الفوز الشخصي، وإني لا أعترض على بواعث أيشخص ضدي. وليس مما يسرني أن أظفر على أحد ولكني أشكر الله على هذا البرهان الشاهد على اعتزام الناس أن يؤيدوا الحكومة الحرة وحقوق الإنسانية)

وكان الداعون إلى السلم ينشرون مبدأهم في العاصمة الشمالية ولم يكفوا عن ذلك منذ الصيف. وفي الشتاء وجدت دعوتهم قبولاً لدى الكثيرين في العاصمة الشمالية حتى لقد أخذوا على الرئيس أنه يصم إذنه عن هذه الدعوة. . . وحدث أن أرسل جفرسون دافز رسولاً إلى لنكولن يدعوه إلى السلم ويقترح عقد مؤتمر لتقرير ذلك. وكتب الرئيس لنكولن

رداً حمله ذلك الرسول إلى جفرسون وفيه يوافق الرئيس على عقد المؤتمر؛ واجتمع في مركز قيادة القائد جرانت ثلاثة من قبل أهل الجنوب وناب عن الشماليين سيوارد ثم لحق به الرئيس، وعرض الشماليون شروطهم فلم تحز قبولاً لدى خصومهم. ورأى الرئيس أن في الأمر خداعاً وأنهم لا يريدون سوى أن يكسبوا الوقت بالمفاوضة ريثما يعدون ما يستطيعون من قوة. . . ولذلك نراه ينصح إلى جرانت ألا يتهاون أو يخفف من وطأته وانفض المؤتمر ولم يصل إلى رأي. . .

وأوضح الرئيس سياسته في خطابه الرسمي الذي ألقاه غداة تسلمه أزمة الأمور للمرة الثانية. وإنك لتجدها واضحة في تلك العبارة الجميلة التي اختتم بها ذلك الخطاب قال: (والآن فمن غير موجدة على أحد، بل مع الإحسان للجميع، والثبات على الحق كما يطلب الله أن نرى الحق، دعونا نجهد لنفرغ من هذا العمل الذي نحن بصدده، وأن نضمد جراحات الأمة، وأن نعنى بهؤلاء الذين قاموا بالجهاد وبأراملهم وأيتامهم. وأن نبذل كل ما في وسعنا لنصل إلى السلام الدائم ونعزه بين أنفسنا وبين جميع الأمم)

وجعل الرئيس ينتظر أخبار الميادين. وكثيراً ما كان يقضي وقتاً طويلاً في غرف البرق يترقب ويتوقع. . . وكثيراً ما كان الرئيس يشخص بنفسه إلى مراكز الجنود فيزورها واحداً بعد الآخر! وجاءت البشائر بالنصر يتلو النصر. ففي الحادي والعشرين من ديسمبر أخذ شيرمان مدينة سفانا عنوة فأبرق إلى الرئيس يقول: (أرجو أن تسمح لي أن أقدم إليك مدينة سفانا كهدية في عيد الميلاد) واستمر شيرمان في زحفه فاستولى على كولومبيا وشارلستون، وما زال حتى دخل ولاية كارولينا الشمالية وأصبح على اتصال بجنود جرانت وبذلك أوشكت جنودهما أن تحيط بجيش الشماليين

وكان جرانت يثخن في أرض الجنوبيين لا يألوهم نزالاً كأهول ما يكون النزال، وكانت ضحاياه كثيرة يدمي لها قلب الرئيس، ولكنه كان لا يلين وما لبث هو وأعوانه أن يهزموا الجنوبيين في كل مكان حتى لم يبق في الميدان غير لي. . .

وحاصر جرانت مدينة رتشمند ودام حصاره لها طوال أشهر الصيف من عام 1864 واشهر الشتاء من عام 1865، وفي السابع والعشرين من مارس التقى لنكولن وجرانت وشيرمان على ظهر زورق تجاري في نهر جيمس بالقرب من مركز القيادة وتداول ثلاثتهم

في الأمر. ولشد ما تألم الرئيس أن علم أنه لا يزال دون النصر معركة حامية، وراح يتساءل في جزع: (ألا يمكن تجنب تلك المعركة؟ ألا يمكن تجنب تلك المعركة؟) وأمكن تجنب تلك المعركة الحامية فلقد تمكن شيريدان وكان إلى يسار جرانت أن يقطع على (لي) آخر منفذ للهرب فتم لهما تطويقه، وأصبح تسليمه أمراً لابد منه. وفي اليوم الثالث من أبريل سقطت رتشمند التي كانت طروادة هذا الصراع العنيف وأنى للكلام أن يصف مبلغ ما كان بالعاصمة من شعور الفرح والحبور. . . لقد بات الناس وأفاقوا على مثل مظاهر العيد. وأي عيد أجمل من هذا الذي يبشر الناس فيه

بانفراج الغمة واتحاد الأمة؟
وكان الرئيس في المعسكر منذ شهر مارس يبيت مع الجند ويستطلع الأنباء كل يوم ولقد نال الجهد والإعياء من جسده حتى ليبدو كالمريض وهو الرجل الذي عرف فيما سلف بقوة بدنه ووفرة حيويته. . ولما بلغه سقوط رتشمند وصل إليها في بساطة وهدوء، وليس معه إلا بحارة قارب حربي كان يرسو على مقربة منها فلا خيل من حوله ولا جند يفسحون له الطريق. ودخل الرئيس العظيم المدينة يمسك بيده يد ابنه الصغير تاد وهو يمشي على الأرض هوناً وليس في وجهه زهو ولا تطاول
وهرع الناس من كل فج يشهدون الرجل الذي دوت البلاد باسمه، فلما رأوه شعروا جميعاً نحوه بمثل ما يشعر الأبناء نحو أبيهم، وهو بين الجموع رابط الجأش يظهر قوامه الطويل للأعين. وتلفت الرئيس فإذا جموع السود تتقاطر من كل صوب وهم يملئون الجو بهتافاتهم باسم مخلصهم ومحطم أغلالهم، وكانوا من حوله يرقصون ويقفزون في الهواء لا يدرون ماذا يفعلون للتعبير عما في نفوسهم نحو هذا المحرر الأعظم. . . ثم تقدموا متزاحمين فتلاقوا على الأرض أمامه يقبلون قدميه وهو يرفعهم بيديه ويمسح بهما على جباههم وأكتافهم والدموع تتسايل كبيرة ساخنة من عينيه الواسعتين فتجري على محياه الكريم
وحار الرئيس برهة ماذا يقول وهو الذي لم يعرف قبل عياً ولا حصراً، ثم ناداهم قائلاً (أي أصدقائي المساكين أنتم أحرار، أحرار كالهواء. إنكم تستطيعون أن تطرحوا اسم العبودية وتطأوه بأقدامكم؛ فأنكم لن تسمعوه بعد اليوم. . . إن الحرية حقكم الذي منحكم الله كما منح غيركم) وتألم الرئيس من أن يخروا سجداً على قدميه فقال: (لا تسجدوا لي، هذا ليس
بالصواب، يجب أن تسجدوا لله وحده وأن تشكروه على الحرية التي سوف تتمتعون بها منذ اليوم. . .)
وعاد الرئيس إلى وشنجطون وفي وجهه مثل ما يكون في وجوه الأبرار الصالحين، والناس حول ركابه يهتفون باسم (أبيهم أبراهام) بطل الحرية ومحطم الأصفاد ومعيد الوحدة إلى البلاد وحامي دستورها ورسول حاضرها إلى غدها. . .
وفي اليوم التاسع من هذا الشهر المشهود سلم لي جيشه للقائد جرانت وتلقت العاصمة النبأ وتلقاه الرئيس، وتنفس الناس الصعداء. وأحس ابن الإحراج بعد هذا الكفاح الطويل الشاق أن قد آن له أن يستريح ولو بضعة أيام. . . وتزاحم الناس حول البيت الأبيض وهم من فرط سرورهم يبدون كأنما طاف بهم طائف من الجنون، وأطل الرئيس عليهم وهم يتصايحون ويتواثبون ويقذفون بقبعاتهم في الهواء، فلم يدر ماذا يقول. ثم مسح بيده الدموع المنحدرة من عينيه وطلب إليهم أن يهتفوا ثلاثاً بحياة القائد جرانت ورجاله، وحياة القواد البحريين ورجالهم، وعاد إلى داخل حجرته. . .
وفي اليوم الرابع عشر كان على مجلس الوزراء أن يجتمع ظهراً، وكان جرانت ممن سوف يشهدون الاجتماع. وكان يبدو على محيا الرئيس قبل الاجتماع شيء من الهم، قال لبعض أصحابه: إني رأيت حلماً كريهاً لا أرى مثله إلا قبيل حادث عظيم. . واجتمع المجلس ليرى ماذا تفعل الحكومة لإصلاح ما أفسدته الحرب. وفي هذا الاجتماع عارض الرئيس القائلين بالانتقام من أهل الجنوب وصاح بهم (كفانا ما ضحينا من الأنفس. يجب أن نطفئ في قلوبنا السخائم إذا أردنا أن نقيم الوحدة والوفاق) ألا ليت أعداءه سمعوه وهو يقول ذلك، ألا ليتهم سمعوه. . .
وركب الرئيس وزوجه في نزهة عصر ذلك اليوم. وفي المساء ذهب ليشهد رواية تمثيلية في المسرح، وكانت الصحف قد نشرت اعتزامه الحضور ومعه القائد جرانت، وتخلف القائد لأمر ما، وذهب الرئيس وجلس في مقصورة هو وزوجه وقائد من القواد.
وفي الساعة العاشرة والنصف تسلل إلى باب مقصورته رجل فاقتحمه وفي يده مسدس أطلقه على رأس الرئيس. . . وكانت في يده الأخرى مدية طعن بها القائد، وقفز إلى خارج المسرح وكان هو وشركاؤه قد أعدوا حصاناً ليهرب به عدوا. . .
وروعت العاصمة بالنبأ الفاجع، وتلاقت أمة تحمل شهيدها الأكبر ومحررها العظيم إلى مقره ليستريح الراحة الأبدية، وذهبوا بجثمان البطل إلى سبرنجفيلد في نفس الطريق الذي جاء منه إلى العاصمة قبل ذلك بأربع سنوات، والناس على جانبيه يشهقون اليوم ويجهشون ولا يملكون غير الدمع في هذا الخطب الفادح. ودفن الرئيس إلى جانب ابنه

الصغير. . . ألا ليتهم حملوه إلى الغابة ليدفن حيث نشأ وحيث شب
(تم)
الخفيف
يوم مطير
للأستاذ عبد الرحمن شكري
نهار تَدَانَى الدَّجْنُ في عُلوِ أُفِقِه ... مُبَلَّلَةٌ أرجاؤه ومَنَاكِبُهْ
خَبَتْ شمسه كالجمر يخبو لهيبه ... وعاد رمادا حسنُهُ وعجائِبُهْ
دجا مثل وجه الهمِّ إلاَّ جلاله ... فللدَجْن سحر يَحْزِنُ النفسَ خالِبُهْ
ثقيلٌ على القلب البَهيج عُبُوُسُهُ ... ولكنه قد يَسْحِرُ القلب كَارِبُهْ
كما كان بعضُ الحزنِ للنفسِ شائقا ... تُعَاقِرُهُ في نشوة وتُقَارِبُهْ
ترى قطراتِ الغيث كالخيلِ أطْلَقَتْ ... لِكَسْبِ رهانٍ أحرز السبقَ كاسبه
وتحسبها كالطير تهفو تَنَزِّياً ... تَنَزِّي الدَّبَي إن أهرقَ الغيثَ ساكبه
كأن الصِّلال الزاحفات على الثرى ... تجوس إذا ما الغيث جاست سواربه
كما عاج حيران يمينا ويسرة ... من الذعر، شر الذعر ما عاج صاحبه
على الأرض والجدران والدوح قطرُهُ ... ويَدْفَعُ في وجه المُشَرَّدِ حَاصِبُهْ
أيسطوا عليه الغيث يغسل نحسه ... أم الغيث من لَهْوٍ تراه يداعبه
كَلَهْوِ غلام مُلَّكَ القَسْوُ قَلْبَهُ ... إذا حيوانٌ هَابَهُ فَهْوَ ضاربه
سجيةُ كل الناس من هاب شَرَّهُمْ ... رَمَوْهُ بِبَأسِ اللؤم والخوفُ شائبه
ويعزو خيالُ المرء للكون روحَهُ ... مناقبهُ تُجْلى به ومثالبه
إذا رَنَّقَ التربُ الهواء انبرى له ... من الوَدْقِ طُهْرٌ يغسل الجو صائبه
ترى البرقَ فيه مُصْلِتاً سيف نقمة ... لها الرعد صوت يذهل اللبَّ راعُبهْ
إذا خف كان الغيث لهواً ونعمة ... وإن لج لاحت للعيون خرائبه
ويطغى على الوادي بجيشٍ عَرَمْرَمٍ ... مسالكه مذمومة وعواقبه
يخف على لوح الزجاج فصوته ... طنين فَرَاشٍ مَرَّ باللوح حاصبه
وطوراً يُلِحُّ الودق منه فصوته ... خريرٌ كما يَسْتَحْلِبُ الدَّرَّ حالبه
ويرنو إليه المرءُ من ثقب بيته ... كَأَنَّ غريباً يَتَّقِي منه هائبه
وطوراً ترى الغلمان تلقط طَلَّهُ ... يداعب صِنْوَ صِنْوَهُ ويلاعبه
ترى كل لَوْنٍ بعده قد زْها به ... كأن طِلاَءً فوقه لَجَّ خاضبه
يُعَلِّقُ قُرْطاً في ذرى الدوح قطره ... فتحسبه قد نَظمَ الدُّرَّ ثاقبه
عبد الرحمن شكري
البريد الأدبي
موعد العيد الألفي للقاهرة
سئلت كلية الآداب بالجامعة عن اليوم الذي يحسن أن يجرى فيه الاحتفال بالعيد الألفي لمدينة القاهرة. وقد أحالت الكلية هذا السؤال على أساتذة التاريخ بها. فدرسوه وأصدروا قراراً قدموه إلى مجلس جامعة فؤاد الأول في اجتماع يوم الأحد الماضي فأقره ورفعه إلى مجلس الوزراء مقدماً إليه بهذا البيان:
دخل جوهر مدينة الفسطاط في 17 من شعبان سنة 358هـ (17يولية سنة 969م) ووضع في تلك الليلة نفسها أساس المدينة التي عزم على إنشائها لتكون حاضرة الدولة الفاطمية. وفي ليلة الأربعاء 18 من شعبان سنة 358 هـ وضع جوهر أساس القصر الذي بناه لمولاه المعز
ولما فرغ جوهر من بناء قصر الخليفة وأقام حوله السور سمى المدينة كلها بالمنصورية نسبة إلى الخليفة المنصور أبي المعز. وظلت هذه التسمية حتى قدم الخليفة المعز، فسماها القاهرة
وكانت القاهرة في عهد ولاية جوهر صغيرة ليس بها سوى قصر الخليفة والجامع الأزهر وثكنات الجنود ورجال الحاشية ودور المغاربة الذين استعان بهم الخليفة المعز في فتح مصر - ثم ظلت تتدرج في العمران حتى بلغت في نهاية عصر الفاطميين درجة كبيرة من التقدم
وفي يوم الجمعة 24 من شعبان سنة 362هـ و30 مايو سنة 973م دخل المعز الإسكندرية وسافر منها في أواخر الشهر المذكور فوصل إلى الجيزة في 2 من

رمضان - وأقام فيها أياماً - ثم عبر النيل ووصل إلى القاهرة في يوم الثلاثاء 7 من رمضان سنة 362هـ. (الأربعاء 11 يونية سنة 973م) ودخل القصر الذي بناه له جوهر.
وفي اليوم التالي لوصول المعز خرج أشراف مصر وقضاتها ووجهائها ورجال العلم فيها لتهنئته والاحتفاء به. وفي يوم 15 من شهر رمضان سنة 362هـ جلس المعز في الديوان الكبير من قصره على السرير الذي أعده له جوهر، واستأثر الخليفة الفاطمي بكل ما كان يتمتع به جوهر في مصر من نفوذ. وأصبحت مصر منذ ذلك الحين دار خلافة بعد أن كانت دار
إمارة تابعة للخلفاء الفاطميين ببلاد المغرب. وغدت القاهرة - بدل المنصورية مركز الدولة الفاطمية الشاسعة الأرجاء
والأزهر أول مسجد بني في القاهرة، شرع جوهر في بنائه يوم 4 من شهر رمضان سنة 359هـ (11 يولية سنة 970م) وتم بناؤه في سنتين تقريباً. وأقيمت الصلاة فيه لأول مرة في 7 من رمضان سنة 361هـ (22 يونيو سنة 972م)
ونرى أن يقع الاحتفال الألفي بمدينة القاهرة في يوم 7 من رمضان سنة 1362هـ (7 سبتمبر سنة 1943م) أي بعد مرور ألف عام على دخول الخليفة المعز لدين الله الفاطمي مدينة القاهرة واتخاذها حاضرة للخلافة الفاطمية)
وقد علمنا أن الكلية ستساهم في هذا الاحتفال التاريخي بطائفة من الأعمال، منها إنشاء متحف تاريخي يمثل القاهرة في مختلف عصورها، وإصدار كتاب جامع عن القاهرة، وإخراج بعض النصوص التي تتصل بهذا التاريخ
افتتاح الدورة السادسة للمجمع اللغوي
افتتحت في الأسبوع الماضي الدورة السادسة لمجمع فؤاد الأول للغة العربية، فوفد على داره أعضاؤه ماعدا الأستاذ هيتمن الذي سيحضر إلى مصر في أوائل شهر يناير القادم، والأستاذ حسن حسني عبد الوهاب باشا العضو التونسي الذي اعتذر من عدم حضور هذه الدورة لأعمال اضطرته للتخلف في تونس
وقد حضر جلسة الافتتاح كثير من الكبراء يتقدمهم أصحاب المعالي والسعادة وزير الأوقاف وعبد الرحمن رضا باشا ومحمد قاسم بك عميد دار العلوم وجاد المولى بك مفتش اللغة العربية وحسن فايق بك مراقب التعليم الثانوي وغيرهم
وحضر معالي الدكتور هيكل باشا وافتتح الجلسة بخطاب قيم
ثم وقف على أثره الدكتور محمد توفيق رفعت باشا رئيس المجمع فألقى كلمة الافتتاح. ثم وقف الأستاذ الشيخ محمد الخضر حسين الأستاذ بكلية أصول الدين وعضو المجمع فألقى قصيدة. ووقف الدكتور فيشر فألقى كلمة في الموازنة بين المجامع الغربية وهذا المجمع، وقد ألمع فيها إلى ما سبق في عصور التاريخ العربي من مجامع عربية كان لها الأثر المشكور في إحياء اللغة العربية ونموها
ثم ألقى الأستاذ الشيخ عبد القادر المغربي عضو المجمع خطبة ضمنها الرد على ملاحظات الجمهور على أعمال المجمع وذكر الخطة التي يجب أن تتبع لإبلاغ الجمهور حاجته التي يرجوها من المجمع
وبذلك أعلن انتهاء الاحتفال ونزل معالي وزير المعارف وكبار الزوار إلى حجرة رئيس المجمع ودعي حضرات الأعضاء إلى الاجتماع في حجرة أخرى حيث عينت مواعيد الجلسات اليومية وهي الساعة الخامسة من مساء أيام السبت والأحد والاثنين والساعة العاشرة من صباح الثلاثاء والأربعاء والخميس
وذهب بعد ذلك حضرات الأعضاء وفي مقدمتهم معالي وزير المعارف إلى القصر الملكي لتسجيل أسمائهم في سجل التشريفات
المجمع اللغوي يتجه إلى الاتصال بالشعب
ظهرت أخيراً في أفق المجمع اللغوي ظاهرة طيبة وهي محاولة الاتصال بالمصالح الشعبية لتبادل الرأي معها. وقد تألفت لهذا الغرض لجنة من حضرات الأعضاء الأساتذة عبد القادر المغربي وعلي بك الجارم وماسينيون المستشرق الفرنسي. ومهمة هذه اللجنة بحث خير الطرق للاتصال بالمصالح الشعبية، تمهيداً للتعاون معها ومعرفة دوران الأساليب والمفردات الشعبية، للاهتداء بها فيما يقر المجمع من مصطلحات أو يضع من مفردات
ولكننا علمنا أن هذه اللجنة اصطدمت بقرار سابق للمجمع حظر فيه التعريب على غير

العرب الأولين. وهو قرار يعرقل العمل الجدي للمجمع، ويقوم سداً بينه وبين التجديد المفيد فيحسن به أن يعيد النظر فيه

الثقافة العربية وترجمة آدابها إلى اللغة الفرنسية

تقوم الآن الجمعية الفرنسية المعروفة باسم (جيوم بادوا) بنشر الآثار العلمية والأدبية والفلسفية لليونان والرومان، ونشر ما يتصل بحضارة البحر الأبيض المتوسط من الأدب القديم والمتوسط والحديث

ولما كانت مصر تعتبر في مقدمة الدول التي أثرت منذ فجر التاريخ في حضارة العالم وهي تقع في مركز ممتاز بين دول الأبيض المتوسط رأت الجمعية أن تعنى عناية خاصة،

إلى جانب عملها عل نشر آداب اليونان والرومان، بنشر المشهور من الأدب العربي وترجمته إلى اللغة الفرنسية، ورغبت لتحقيق هذه الغاية في أن يكون لها في مصر فرع يشترك في أعمالها

وقد عرضت هذه الفكرة على صاحب المعالي وزير المعارف فأبدى ارتياحه لها. وستؤلف لهذا الغرض لجنة يكون معاليه رئيس الشرف لها وصاحب العزة وكيل الوزراء رئيسها العامل

أما أعضاء اللجنة فسيختارون من بين أساتذة الجامعة المصرية وبعض المستشرقين، على أن يشترك معهم من الموظفين الأجانب في مصر مسيو فييت مدير الآثار العربية، والمسيو دربوتون مدير المتحف المصري

مجلس الأبحاث الأهلي

كان البرلمان قد أبدى لمناسبة التفكير في تخليد ذكرى الملك فؤاد الأول رغبته في أن ينشأ لهذا الغرض معهد للأبحاث العلمية؛ وكان صاحب المعالي وزير التجارة والصناعة قد قدم إلى مجلس الوزراء مذكرة بسط فيها قيمة البحث العلمي وأثره في ترقية الصناعة. واقترح أن يؤلف المجلس المصري على غرار مجلس الأبحاث الأهلية في إيطاليا.

وقد تم إعداد المشروع الخاص بهذا المجلس. وينص في أول مواده على اعتبار هيئة مستقلة تتألف من كبار العلماء والعاملين في الصناعة والمشتغلين بالبحث العلمي من الجامعيين.

ونص المشروع على ضرورة رجوع الحكومة إلى المجلس قبل إقرار التشريعات الخاصة بالإنتاج الصناعي والزراعي وغيرها من التشريعات التي يمكن أن تفيد في البحث العلمي.

ويتجه المشروع إلى تركيز البحث العلمي في الهيئة التي يتألف منها المجلس بحيث يكون كالرأس المدبرة التي تشرف على شتى مناحي التفكير والتجارب العلمية، فهو ليس معهداً نظرياً ولكنه، إلى جانب فكرة التركيز المشار إليها، يتجه في عمله إلى الإفادة من العلم وتطبيقه لما فيه مصلحة البلاد

والمجلس المقترح لا يمس الوظائف الجامعية، ولا يغض من نشاطها فالجامعة تختص بالبحث النظري الخالص. أما هذا المجلس فسيعني بالبحث العلمي الصناعي، والتطبيقات

العلمية للاستنباطات النظرية والاستفادة منها اقتصادياً.

وسيعرض المشروع على اللجنة الوزارية المؤلفة برياسة وزير المعارف وعضوية وزير الأشغال ووزير التجارة ومدير الجامعة وعميد كلية الطب ومدير مصلحة المعامل، وعمداء كليات العلوم والزراعة والهندسة.

ومتى أتمت هذه اللجنة بحث المشروع اتخذ المشروع مراحله التشريعية المعتادة.

تخليد ذكرى شاعر الهند محمد إقبال

من أنباء بمباي أن الجمعيات الأدبية والعلمية في الهند قررت تخليد ذكرى الشاعر الهندي الكبير المرحوم السير محمد إقبال فأنشأت في جايبور بولاية راجبوتانا مؤسسة باسم (مؤسسة إقبال) وانتخبت السيد جويال مديراً لها. وأصدرت المؤسسة مجلتين باسم (إقبال) الأولى باللغة الإنكليزية والثانية باللغة الأوردية.

وصدر من المجلة عددان في شهر أكتوبر الماضي. وكان العدد الأول يحتوي على مباحث باللغتين الإنكليزية والأوردية في تمجيد أعمال الشاعر الراحل وشرح مؤلفاته.

وقد أعطيت جوائز للكتاب والرسامين الذين ساهموا في إصدار هذا العدد الممتاز
وقد عقد السيد رشيد أحمد مقالاً مسهباً عن الشاعر إقبال في إحدى صحف لاهور قال فيه: إن الفقيد العظيم قد أعطى الشعر الهندي أجنحة للتحليق في أسمى ارتفاع بلغه الشعر إلى الآن. وتمتاز فلسفة محمد إقبال في نظرياته الخاصة بالله عز وجل وما ينال الإنسان من نعم الخالق القدير. وقد مات محمد إقبال تاركاً للهند وللمسلمين على الخصوص أثراً قيماً بمؤلفاته التي تعد مفخرة من مفاخر الهند. وفيها عالج إقبال جميع الموضوعات من أصغرها إلى أكبرها بمقدرة لم يبلغها سواه من قبل. فهو جدير باللقب الذي أقر له به الأجانب قبل أبناء الهند وهو لقب شكسبير الهند

افتتاح المعرض السادس لفن التصوير الشمسي

افتتح الأسبوع الماضي حضرة صاحب المعالي وزير المعارف المعرض السادس لفن التصوير الشمسي

وقد أشرفت على إقامة المعرض جمعية محبي الفنون الجميلة التي يرأسها حضرة صاحب السعادة محمد محمود خليل بك رئيس مجلس الشيوخ

وعلى الرغم من أن غالبية العارضين كانت من الأجانب فإن معروضات الفنانين المصريين كانت موضع إعجاب الزائرين من أجانب ومصريين، وعلى الأخص معروضات الدكتور أحمد موسى محرر الرسالة الفني؛ ومن بين لوحاته لوحة سماها (في رحاب الفضاء) بلغ من روعتها أن الكثيرين حسبوها خدعة لا صورة من الطبيعة، لأنها صورة فلكية أخذها الدكتور في الاتجاه الجنوبي الغربي للقبة السماوية فبدت الكواكب فيها نقطاً لامعة في السماء أخذت اتجاهين مختلفين أبدعت عدسة الفوتوغرافية في التقاطها

ولوحات الدكتور موسى الأخرى مثل عال في التصوير الفوتوغرافي وخاصة لوحاته في الطبيعة، ومنها: (الأنساق) و (أحزان الغسق)

وتبلغ لوحات المعرض حوالي 350 لوحة يلمس المشاهد فيها كثيراً من روائع الفن الفوتوغرافي في مختلف البيئات المصرية والأجنبية وفي مختلف الدراسات والاتجاهات الفنية

الخطأ في طبعات المعجمات

في البقية من نقدي (كتاب المبشرين المزور) في الجزء السابق من (الرسالة) الغراء في كلام ابن الأنباري المروي عن اللسان والتاج -: (لأن الرجل لا يذهب زاده بموت امرأته إذا لم تكن قيمة عليه) (ولا يلزمه شيء من ذلك) والصواب (إذ) (ولا يلزمها) وإذ للتعليل. وليست زيادة الألف تطبيعا بل هي خطأ في طبعتي اللسان والتاج. والتطبيع في هذين المصنفين - يا طالب العلم - كثير، وهما المرجعان العظيمان في اللغة. وما أقول ما أقول لكي أنجي سرعة قد أخطأت - مما لا نجاة منه. إنها لملومة وربها ملوم

الإسكندرية

* * *

مخطوط ثمين نادر

أضافت الجمعية الملكية الآسيوية في البنغال إلى مجموعتها الثمينة مخطوطاً فريداً. وكان هذا المخطوط الى الآن ملكا لسلطان ميسور ومحفوظاً في مكتبته. وقد اشتراه الدكتور هداية حسين من أعضاء الجمعية الملكية الآسيوية. وعنوان المخطوط (جلزار اي ابراي) أي ورود الأبرار؛ وهو مكتوب بالفارسية ويحوي سيرة حياة الأولياء الصوفيين في الهند من القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر؛ وفيه 575 سيرة كاملة. ولا يوجد في العالم غير نسخة واحدة كاملة من هذا المخطوط الثمين. وفي المتحف البريطاني في لندن جزء يسير منه. فالنسخة التي حصلت عليها الجمعية الآسيوية فريدة في العالم

الكتب

جان درك

تأليف برناردشو

وتعريب الدكتور أحمد زكي بك

الحقيقة بطبيعتها جافة ثقيلة على النفس، ولكنها إذ تمتزج بالفن يتجلى فيها الجلال والجمال، والقوة والأناقة، والبهاء والرواء، والصفاء والوضوح، فتهش لها النفس، وتهفو نحوها الروح، وينطلق العقل في رحابها الفسيح نشوان متيقظاً كالنحل يرف على رحيق الزهر

ولا غرابة إذ لم يكن للحقيقة من نفسها بعض هذا، وكان لها من الفن كل هذا، فإن مهمة الفن أن يجمل الأشياء، ويقرب الأوضاع، ويزين الواقع، ويصل الحقائق المجردة بالعواطف والأحاسيس، وغاية الرضا عند الإنسان أن يشبع ما فيه من العواطف والأحاسيس

لهذا نجدنا نجفو كثيراً من الحقائق إذ يسردها التاريخ، ولكنا نهش إليها إذ يرويها الفن، وأنا لنرددها كثيراً فلا تزيدنا إلا متاعا ولذة، ونكررها مراراً فلا تغمرنا إلا بالراحة والاطمئنان. وهانحن أولاء نحب أن نتغنى كثيراً بحروب طروادة، ونشغف بأخبارها وملامحها غاية الشغف ولكن لا كما رواها الرواة ودونها المؤرخون، بل كما أنشدها في القديم الغابر شاعر ضرير اسمه (هوميروس)

وهذه القصة التي نقدمها للقراء اليوم إنما هي حقيقة من تلك الحقائق التاريخية خرجت في إطار من الفن المهذب، فموضوعها (حياة جان درك) وهي أشهر مجاهدة قديسة في تاريخ النصرانية، وأغرب شخصية بين الكفايات الممتازة الشاذة الأطوار في القرون الوسطى، جاهدت أن تفرض نفسها ودعاواها على الناس فرضاً، فشاع اسمها وذاع في غرب أوربا، ولم تكن بلغت العشرين بعد، وقد نهضت من الحضيض إلى العلاء نهضة باغتة، فلم يكن للناس فيها إلا رأيان: رأي يقول: إنها آية من آيات الله، ورأي يقول: إنها امرأة ثقيلة الظل لا يطيقها إنسان

أما واضع القصة ومؤلفها فهو (جورج برناردشو) وهو في الأدب الإنجليزي من أكبر شخصياته إن لم نقل أكبرها في القرن العشرين، وفي أحقاب خلت. . . والقوم هناك يقدسونه إلى حد كبير، فلن تجد بينهم اسماً في عالم الأدب والسياسة ترهف له الآذان كاسمه، ولا جدلاً يهرع الناس لحضوره كجدله، ولا لساناً أقذع في النقاش وألذع في الجواب كلسانه، ولا فكاهة تنم عن صاحبها كفكاهته، فهو شخصية قوية، وعبقرية متميزة بكثير من المواهب، وإن له في فن القصة آيات بينات.

وأما المترجم فهو رجل درس العلم، واتصل بالأدب، وعالج الترجمة، فأكسبه العلم الدقة في الأسلوب، والتعقل في الاختيار، وأفاده الأدب السلامة في التعبير، والأناقة في اللفظ، وكان له من علاج الترجمة خير مران مكنه في هذه الناحية وثبت قدمه، فهو أمين في نقل غرض المؤلف، فطن في فهم إشاراته ومراميه، واضح في التعبير عن ذلك كل الوضوح. وتلك درجة قل في المترجمين من يبلغها، وهي الفرق بين ترجمة وترجمة. . . وهي التي تثبت شخصية المترجم فيما ينقل، وأنا إذ أقول سلامة التعبير، فأنا أشهد بأن المترجم قد بلغ في ذلك الغاية، فقد قرأت الرواية وأنا أراقب الرجل في أسلوبه، وحاولت جاهداً أن أحصي عليه، فلم أقع إلا على (أصواتها الداوية ص71)، (كلما داهمهم ص234) (نقص نضوجها ص268). على أن تلك من الأخطاء الشائعة في الألسن والأقلام، فقليل في الأدباء من يفطن إلى الصواب في ذلك فيقول: (مدوية. ودهمهم. والنضج). على أن الأخيرة مما يصح في القياس وإن تثبت في السماع.

ولقد كثرت الترجمة في هذه الأيام، وملأت فجاج الأرض وزادت على حاجة القراء خصوصاً في الأدب الروائي، ولكنها في الواقع ترجمة مبتذلة، لا تتصل بفن، ولا تقوم على وضع ولا تزيد في الثروة الأدبية ولكنها نقص وتدهور، فهي لا تعنى إلا بالقصص الداعر، والغراميات الحيوانية، وحوادث الإجرام واللصوصية، والسفك والانتحار، وكل ما هو على الأخلاق وقلب للأوضاع، واستهانة بالتقاليد. أما الترجمة القويمة التي نحن في أشد الحاجة إليها لتنهض بنا في مناحي العقل والتفكير والشعور والإحساس والحب والعطف والخير والكمال فذلك عندنا شيء قليل نادر كالكبريت الأحمر، وما ترجمة (جان درك) إلا من هذا الشيء القليل النادر، المفيد النافع، فهي ليست من القصص الفارغ الذي يطلبه

القارئ لقتل الوقت وتزجية الفراغ، ولكنها أثر أدبي جليل حي بموضوعه وبفنه، فترجمتها إلى العربية يد جليلة وفكرة رشيدة قد أسداها الدكتور الفاضل إلى اللغة

العربية والفكرة العربية
وقد تقول: إن قصة (جان) أليمة في وقائعها قاسية على العواطف بفجائعها، وأنا أقول: أجل ولكنها مع ذلك سائغة محتملة بالفكاهة الطريفة والنكتة المستملحة، والنادرة الساخرة، والبادرة البارعة، يحرص (شو) على ذلك في كل مواقف الرواية وحوادثها، وناهيك بفكاهة (شو) وبراعته في ذلك، ولقد زاد في قوة الرواية الفنية تلك الحياة التي خلقها (شو) في كل أشخاصها فكل منهم متحرك في عمله، وكل منهم ظاهر بنفسه في تأدية دوره، فلا ظهور لشخص على حساب شخص معطل كما يفعل ذلك كثير من القصصيين، ولا نبو ولا شذوذ ولا إغراق كما صنع مارك توين في قصته عن (جان) ولكنها الحوادث تجري على الوضع الطبيعي، وتستقر على النهج المألوف
ومما يزيد في قيمة الرواية ويرفعها تلك المقدمة الحافلة التي تناول فيها المؤلف شخصية (جان درك) الغريبة، فنظر إليها من جميع جهاتها، وأبدى رأيه صريحاً في كل مظهر من مظاهرها وقارن بينها وبين الأشخاص الذين هم على شاكلتها، وأنت تعلم أن جان فرنسية، وشو إنجليزي، وجان كاثوليكية، وشو نشأ في بيئة بروتستنتية، وجان روحانية في تفكيرها وفي آرائها، وشو رجل يحترم عقله ويقدس العلم والفكر الحديث، ولكنه فيما كتبه عن جان وضع الحق فوق كل اعتبار فكان حراً صريحاً، وكان باحثا مخلصاً ينظر إلى الواقع بعقله وقلبه وروحه وشعوره وعلمه وخبرته، وقد استعرض (شو) أقوال الكتاب والروائيين الذين كتبوا عن (جان) من قلبه، فانتقد ما فيها من التهافت والإغراق، وحاول أن يظهر جان في شخصيتها الطبيعية مرتفعاً بها عن المبالغات قوم قدسوها فطاروا بها إلى مسبح الأفلاك، وتحامل قوم حقروها فانحطوا بها إلى مجرى الأسماك، وعندما يقف عقل (شو) فلا يجد له منفذاً للتأويل والتخريج تجد الرجل لا يواري ولا يداري ولكنه يصارحك بالحقيقة التي في نفسه كما يقول وهو يتحدث عن أصوات جان وأطيافها: إن العقيدة تتحصل للإنسان فيما تتحصل من أنماط عيشه وعادات بيته، فأما أنماط عيشي ففكتورية، وأما عادات بيتي فبروتستنتية، فمن أجل عاداتي وأنماطي هذه أجدني عاجزاً عن التملص من نفسي لأحكم (حكماً مجرداً بأن أطياف جان كانت أطيافاً حقة
ففي قصة جان وفي مقدمتها اجتمع فن (شو) وعقله، وتجلت عبقريته وبراعته، وإن الدكتور أحمد زكي بك خير من يؤدي ذلك بدقته وأناقته، فلا غرابة إذا قلنا إن القصة قد جاءت في موضوعها وفي تأليفها وفي ترجمتها آية القوة والبراعة والدقة
محمد فهمي عبد اللطيف
المسرح والسِّينما
آراء أعضاء لجنة القراءة
في الفرقة القومية
نعود الآن إلى الآراء التي أبداها أعضاء لجنة القراءة لنتبيّن منها مدى معرفتهم فن الرواية، وروح المسرح، وخاصية الناقد، إذ على الإدراك الصحيح يقوم البناء الصحيح للمسرح، فأعضاء اللجنة يرى - من تكلم منهم ومن آثر الصمت - (1) شبه طفرة في الرواية المؤلفة مما يدل على أخذ الفكر الروائي في نضوج سريع (2) وأن الفرقة لم تبلغ الكمال ولم تقترب منه بعد إنما هي تمضي سراعاً إلى الكمال (3) وأن رأي النقاد المسرحيين يجب ألا يدنو من النواحي الفنية والخلقية والاجتماعية واللغوية، لأنها من اختصاص أعضاء لجنة القراءة وحدهم (4) وأن اختصاص النقاد يجب ألا يتعدى ناحية إخراج الرواية ومعدات الإخراج وطول الرواية وقصرها عن الوقت المناسب (5) وأن حكم النقاد على أن الرواية قيمة أو ليست قيمة، أو مناسبة أو غير مناسبة، فمن عمل اللجنة وحدها (6) وأن ليس في مصر الآن نقد فني قوي يستطيع أن يسقط الروايات أو يعليها (7) وأن النقد الحالي محاولات أولية قائمة على مدح مفرط من غير أسباب فنية، أو ذم مفرط لأسباب شخصية (8) وأنه أن كان هناك نقد قوي فأعضاء اللجنة نقاد أيضاً (9) وأن النقاد يبدون آرائهم في الرواية حيث يكون الأمر قد انتهى وخرج من يد اللجنة، وأن الكرامة تأبى على مدير الفرقة سحب رواية وضح فشلها (10) وأنه قد يحدث أحياناً أن ترجع اللجنة بواسطة مدير الفرقة بالضرورة إلى رأي كبار المخرجين وكبار الممثلين لترى إذا كان يمكن تمثيل الرواية على الصورة التي قدمت بها (11) وأن كبار المؤلفين لا شيء يبعدهم عن الفرقة سوى تهيبهم كتابة الرواية المسرحية

ووقوفهم في صف واحد مع الكتاب الناشئين
هذه خلاصة لما يراه أعضاء لجنة القراءة وهم عمد المسرح الحقيقيون ودعامته القوية، ولكن ما قول هؤلاء الأعضاء الأجلاء إذا كان فن الرواية، وروح المسرح، والواقع المنظور المحسوس الملموس تنكر عليهم دعاواهم؟ ما قولهم إذا لم يكن في البلد أديب واحد يقرهم على أقوالهم وهي التخبط بعينه؟ ما قولهم وقد دلت أقوالهم على أنهم في درك الوادي
وأن فن المسرح والرواية في القمة الشاهقة؟ ما قولهم وقد كاد الأدباء يجمعون رأيهم يأساً وقنوطاً على ضرورة إهمال الروايات المؤلفة والالتفات إلى الترجمة فهي أقل أذى للنفوس من الروايات الموضوعة؟ ما قولهم في أن الروايات التي قبلتها الفرقة وبذلت الحكومة من أجلها من أموال الأمة مبلغ ستين ألفاً من الجنيهات هي أقل قيمة وأحط معنى ومبنى من الروايات التي كانت تمثلها فرقة السيدة فاطمة رشدي وفرقة رمسيس في بداية أعمالهما؟ ما قولهم في أن الأدب والأدباء والفن والفنانين، وكل من يشيع فيه روح الغيرة على الأدب والفن يصرخون في خمسة شيوخ جامدين، جامدين، جامدين، وغرباء جد الغربة عن روح العصر ووحي البيئة والجيل؟
أيريد هؤلاء السادة الأجلاء المعترف لهم بعلمهم وأدبهم وفضلهم وغيرتهم على الثقافة العامة أن نقول لهم: اعتزلوا أيها السادة أماكنكم قبل أن يقبض أعضاء البرلمان أيديهم عن الفرقة وهي جد عزيزة علينا؟
أيريد هؤلاء السادة الأجلاء المعترف لهم - مرة ثانية - بعلمهم وأدبهم وفضلهم وغيرتهم على الثقافة العامة أن نقول لهم بصراحة أن ليس فيهم من يعرف حدود المطلوب منه، أو المطالب به فينتحل كل واحد لنفسه السلطة التي يشتهيها، والأستاذية التي يفرضها على الناس، والحق في الطعن في ذوق الأمة وفي كفاية المثقفين
أيريدون الاطلاع على بواعث ما انتابهم أحرج الصدور وأرهف الأقلام لنقد أعمالهم؟
الباعث الأول - في اعتقادي - هو الإدارة الفوضى التي يتولها ذهن هو مثال لعداوة النظام وحب الاستئثار
فالنظام يقضي أن يتولى مدير الفرقة بذاته وبمؤازرة سكرتيره الفني فحص الروايات التي تقدم إليه والتي يكلف تراجمة أكفاء بترجمتها فيختار ما يصلح منها، أي ما يوائم (رسالة) الفرقة الثقافية
والنظام يقضي بأن يستعين مدير الفرقة بأعضاء لجنة القراءة على فحص الروايات التي تقدم إليه، لا أن يتخذ منهم أساتذة أو مستشارين أو غلالة يستر ضعفه ورائهم.
والنظام يقضي أن تؤلف لجنة من الممثلين والمخرجين تكون مسؤولة عن فشل الرواية أو سقوطها لأن لهؤلاء دراية فنية تكتسب بالمران ليس للمدير نظيرها
ولكن الفوضى، بله الضعف الإداري بأوسع معانيه، وافتقار مدير الفرقة إلى معرفة فن المسرح وفن الرواية، وهو الذي جعل لأعضاء لجنة القراءة قوة غير قوتهم وسلطاناً غير سلطانهم، وسول لبعضهم أن يفضح ذاته ويعرض أقرانه للفضيحة، فاضطرنا ذلك إلى نقل مركز الثقل من على كتف المدير المسؤول لنضعه على أكتاف من تطوعوا لتحمل المسؤولية لوجه شيطان الكبر والإدعاء
يحسن الوقوف قليلا عند رواية طبيب المعجزات، أولا لأنها الرواية المصطفاة من بين الروايات التي حازت جائزة المباراة؛ ثانيا لأنها توضح بأجلى بيان مبلغ فهم القائمين على شئون الفرقة للفن المسرحي والتأليف الروائي. ورواية طبيب المعجزات هذه كما لخصتها في مقال سابق معتمداً على قراءتها قبل تمثيلها وقد استبدلت خاتمتها بسواها، تدور حول طبيب استغرقه البحث العلمي فتوصل بعد جهد ومثابرة إلى إكسير يطيل الحياة مئات من السنين؛ وإذ يبلغ الأمة خبر هذا الاختراع العجيب من الصحافة التي رصدت له أوجه صفحاتها تهلل وتكبر وتفرح بطول الحياة، ثم تشارك الحكومة الأمة في تقدير العالم الجليل فتمنحه رتبة الباشوية وألزمت الناس بالتطعم بهذا الطعم.
ينام الطبيب فتتجلى له في الحلم مضار اختراعه. فيرى الحكومة تكلفه رسميا إلقاء محاضرة يوضح فيها خواص الإكسير، ويسمع أسئلة الناس تنهال عليه.
ونسمع الطبيب يوضح خواص اختراعه فيقول إن الرضيع تدوم مدة رضاعته خمس عشرة سنة، ويبلغ سن الرشد في سن المائتين والخمسين، وهكذا تتراكم على

الطبيب الخيالات في الحلم فتهدم ما بناه في اليقظة.
هذه هي، رواية الموسم، هل تجد فيها (الفكر الروائي الناضج) أم هي (كوميديا) من النوع الذي يسر بعض أوساط من الناس عائشين على هوامش الحياة؟ هل يمكن أن تكون هذه الرواية أنموذجاً للكمال الذي قال فيه أحد أعضاء لجنة القراءة (إن الفرقة تمضي سراعاً إلى الكمال)؟
ابن عساكر
العدد 287 - بتاريخ: 02 - 01 - 1939
الرسالة في عامها السابع
بلغت الرسالة - والحمد لله على تأييده وتسديده - سنتها السابعة. والسبعة في عقيدة الشرقيين عدد يدل على الكمال واليمن والكثرة. وله في الفلك والرياضة والأساطير والدين مزايا وخواص. وهو في عمر الإنسان سن التمييز وأول الفتوة. فإذا بدت على الرسالة اليوم مظاهر النشاط ودلائل الاغتباط ومصاديق التجدد، كان ذلك جارياً على سنن الطبيعة. فان الحي ينمو، والنامي يتطوّر، والمتطوِّر يخضع لضرورة الوجود وحاجة الموجود، فلا يكون إلا ما ترضاه الحياة وتريده الخليقة. والرسالة وليدة الفكر المستقل في نهضتنا الحديثة؛ تخلَّقت من أمشاجه، وتغذت على إنتاجه، ورقَتْ على أسباب رقيه. فلو أنها كانت للعامة لقتلها مللها، أو كانت للسياسة لأصابها فشلها؛ ولكنها كانت للفكرة الحرة التي تَرُود ثم تقود ثم تهيمن؛ فإن شئت قلت هي الروحية في هيكل الوطن، وإن شئت قلت هي الإنسانية في معنى الأمة.
من أجل ذلك عاشت الرسالة. ولكنها تعيش كما يعيش الجِد، وتمشي كما يمشي الحق. والجد يعيش متزايلاً ولكنه ينال؛ والحق يمشي متثاقلاً ولكنه يصل.
لقد أصبحت الرسالة بفضل ما مكن الله لها في النفوس القريبة والبعيدة
عنواناً من عناوين المجد القومي الخالد، وفصلاً من فصول الأدب
العربي الحديث. فإذا وجدت على جنبات النيل مصر العاملة المدبرة،
وجدت على صفحات الرسالة مصر الشاعرة المفكرة. وشتان بين يد
تعمل في التراب، وفكر يجول مع السحاب، فيومض في كل نفس،
ويمطر في كل بلد! وإذا فني أثر اليد مع الإنسان، بقي أثر الروح
سرمداً مع الله. فمن ذا الذي يستكثر على الرسالة منا أن نُسهر لها
العيون حتى تَعشى، ونُرهف لها العزم حتى يكل، ونحبس عليها القلب
حتى يقف؟؟ أليست هي كما ذكرنا وكررنا ديوان العرب المشترك،
جَمعت فيه الأشتات إلى الأشتات، ووفَّقت بين الأصوات والأصوات، ثم
ألفَّت من هذه الآلات المنفردة جوقة موسيقية متحدة تسكب في مسامع
الوجود أناشيد الخلود؟
يتساءل الذين اكتنهوا حرفة الأدب وكابدوا بلاء النفس فيها: كيف تسنى للرسالة أن تعيش على خفض الاشتراك ونقص المورد من الإعلان؟ ونحن نقول عن عقيدة وخبرة: إن وفرة المال لا تضمن النجاح، كما أن كثرة الجيوش لا تكفل النصر. إنما القوة الروحية هي المدد الإلهي الذي يهبه الله للمجاهدين متى شاء أن تدول دولة، أو تعلو كلمة، أو تبلغ رسالة. وتبليغ الرسالة جهاد. والمجاهد عتاده الإيمان وزاده الصبر؛ ومن وجد في العمل منجاه من الهم وملاذه من الناس فقد وجد الثواب عليه فيه.
على أن الرسالة مع ذلك شيدت داراً وأنشأت مطبعة. وهي ترجو في عامها الجديد أن يظاهر الله عليها المعونة حتى تقوم بإنجاز ما وعدت من توسيع الخطو وتنويع العرض وتوفير العُدة
نعم وعدت الرسالة! وكان من طبعها ألا تمالق الرغبات بالتمنية، وألا تستميل الشهوات بالوعد؛ كما كان من عقيدتها أن العمل الصامت أنطق الأدلة على توخي الحق، والماضي الواضح أضمن الوثائق للمستقبل المبهم؛ ولكنها في ميعة النشاط ونشوة الأمل تطبع سورة الشباب، فتطمح إلى الكمال مغضية عن العجز، وتثب إلى الغاية مستخفة بالعوائق. وما وعْدُها اليوم إلا فيض من الرجاء طفح مما تسر على ما (تعلن)!
شكونا من الحكومة أنها تهمل الأدب، وعتبنا على القراء أنهم يعزفون عن الجد، فما نفعت الشكوى ولا أجدى العتاب. ذلك لأن الحال التي نحن عليها اليوم من اضطراب

الحكم بين رغبات الأمة وحملات المعارضة، وتوزّع الرأي المثقف بين الأهواء المتعارضة في السياسة، لا تزال تبعدنا عن حياة الأمن والاستقرار التي تعود إلى الناس فيها لذة التفكير وشهوة القراءة. فليس لنا من سبيل إلا أن نؤدي واجبنا ونسكت، أو نقول كلمتنا على رأي المسيح ونمضي. والأديب مكتوب عليه أن يجاهد ويضحي، لا يستمد العون إلا من ربه، ولا يلتمس العزاء إلا من قلبه، ولا يبتغي الثواب إلا من سلطان ضميره.

وقد ظهر في العالم الأدبي مع هذا العام الجديد مجلتان محترمتان هما (العصور) و (الثقافة)، وسيكون لصوتهما مع صوت الرسالة دوي شديد يفتح العيون الوسْنى على الصحائف المكتوبة بعصارة الأذهان ومهج القلوب، فيهتز الأدب الذاوي، وتنشط العقول الفاترة.

اللهم إن كنا أسرفنا في الرجاء فذلك لحسن الظن بك وقوة الأمل فيك؛ فهب لنا من لدنك ولياً يكفكف نزوات النفس، ونصيراً يكفينا عوادي القدر، ومرشداً يجنبنا مزالق الرأي، ولا تكلنا إلى أنفسنا ولا إلى الناس.

أحمد حسن الزيات

سبيل الصحافة

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

فرغت من عملي، فوضعت القلم، ونهضت عن الكتب ورحت أتمشى، فلقيني زميل فسألني:

(كيف ترى الخبر الفلاني؟)

قلت: (عظيم. وقد جعلته موضوع مقالي اليوم)

قال: (أنا جئت به)

قلت: (أهنئك. فمن أعطاكه؟)

قال: (قد والله سرقته!)

فضحكت وقلت: (اللص الشريف!)

وهممت بالانصراف عنه، بعد أن أثنيت عليه بالذي هو أهله. فقال: (بودي أن أعرف رأي الوزير فيما صنعتُ. وما أظن إلا أنه مغيظ محنق)

فقلت: (إن الخبر للنشر على كل حال، والخلاف بينك وبين الوزير على موعد النشر، وليس هذا الخلاف بالذي يثير الغضب)

وأقبل في هذه اللحظة زميل آخر فألقيت إليه خلاصة الحديث وقلت:

إن الجريمة ليست في ارتكابها، بل في افتضاحها. ونحن اليوم نحرم السرقة، وتقول قوانينها إنها محظورة، وإن عقابها كيت وكيت، ولكن (ليكرغ) في إسبارطة القديمة كان يذهب مذهباً آخر فيقول بأن لك أن تسرق على ألا ينكشف أمرك، فإذا انكشف كان عقابك صارماً. والنتيجة واحدة، فان السارق الذي يستطيع أن يستر فعلته لا يصيبه شيء، وما يعاقب إلا الذي يعجز عن إخفاء ما صنع، ويثبت عليه ارتكاب الفعل

ووجه آخر للمسألة: زميلنا هذا قد سرق شيئاً - لم يسرق خبزاً ليأكل، ولا مالاً لينفق على نفسه وعلى عياله، أو ليوسع رزقه، ولكنه مع ذلك سرق شيئاً في سبيل رزقه، فإن رزقه يتطلب منه أن يوافي الجريدة بطائفة صالحة من الأخبار التي تعني القراء، وصاحب الجريدة لا يكلفه السرقة، ولو فعل لكان هذا منه شططاً غير مقبول، وأمراً لا يطاع، ولكن الزميل مع ذلك رأى أن قيامه بواجبه يبيح له استقاء الأخبار بهذه الطريقة العوجاء، وهو -

كما تعلم - سنيٌّ متدين، غير أن كونه سنيّاً ومتديناً لم يمنعه أن يقدم على سرقة صريحة لا سبيل إلى المكابرة فيها، من أجل الرزق. ولو أنه كان قد سرق رغيفاً أو بيضة لكان جزاؤه ما يبينه قانون العقوبات. وعذر الذي يسرق الرغيف ليسكت (معدة ثعلبها لاحسٌ، وتارة أرنبها ضاغبُ) كما يقول ابن الرومي في قصيدته المشهورة لابن الحاجب، أوضح ممن يسرق ولا جوع به ولا خلة، وإنما يريد أن يستديم الرضى من صاحبُ عمله. ولو جئت بسارق الرغيف، وسارق المذكرة من الوزير أو أعوانه وسقتهما إلى القضاء، لكان المحقق أن يحكم على سارق الرغيف، وأن يبرئ سارق المذكرة. وقد يرى القاضي أن الفاقة (ظرف مخفف) - كما يقول رجال القانون - ولكن لن يكون عنده (ظرفاً مبرئاً)

وسارق المذكرة يستطيع وهو آمن أن يباهي بعمله، وأن يتخذ من قدرته على مثله شهادة مزكية له، ووسيلة للرفع من شأنه. وكل صاحب جريدة يسمع بجريمته يتمنى لو أن أخانا المجرم كان يعمل له، بل يتمنى لو كان كل من يعمل في جريدته على مثاله.

ولكن سارق الرغيف بماذا يباهي؟ أبفقره؟ أم بعجزه عن الكسب؟ أم بما وصمه به القانون؟ أم بما نزل به من السجن؟ وكل صاحب عمل يزهد فيه ويخاف منه وينفي أن يكون عنده مثله؛ وقد يدركه عليه العطف، ولكنه لا يطمئن إليه. وإنه ليعلم انه ما أغراه بالسرقة إلا الجوع وقلة الحيلة وانقطاع الوسيلة؛ وإنه ما كان ليفعل ما فعل لولا ذاك؛ ولكن الشكوك مع ذلك تظل تساوره وتقاوم شعور العطف وتغالب رحمة القلب، بل منطلق العقل

وأحسب أن الصحافة مدرسة لتعليم هذا الضرب من السرقة ولست أعرف صحفيًّاً واحداً أتيحت له فرصة سرقة وأحجم عنها أو تردد. وما أبرئ نفسي ولا أنا أستثنيها. هذا وليس عملي في الصحافة - ولا كان قط - أن أستقي الأخبار، ولكن كل عمل في الصحافة رهن بالأخبار، فصلته به أوثق مما يبدو للمرء، وإن خيلت غير ذلك. وإنك لترى الصحفي (حنبليًّاً) في كل شيء إلا حين يحتاج إلى الوقوف على خبر، وإذا بالذمة تتسع، وإذا كل شيء جائز في سبيل الوصول إلى هذا المستور أو المكتوم؛ ثم لا أسف ولا ندم ولا توبة. وأكبر الظن أن تسقط الأخبار في الطباع، وأن الإنسان فضولي بفطرته. فإذا كان هذا هكذا فإن الصحافة لا تصنع أكثر من تنظيم الأمر وتوجيهه وجهة المصلحة العامة لخير الجماعة. والصحافة من ثمرات الحضارة، فهي تصنع كالحضارة - أعني أنها تعمد إلى

الغرائز والفطر الساذجة فتصقلها وتهذبها وتنظمها وتجريها في مجار معينة، فيصلح أمر الجماعة ويستقيم حالها، مثال ذلك أن الرجل كان يخطف المرأة التي تروقه أو يسبيها، ثم يحتازها ما دام راغباً فيها ويحارب دونها؛ وهو الآن يتزوجها، ولا يحتاج إلى الخطف أو الحرب دونها، وإن كان ربما احتاج أن يعاني متاعب المنافسة من الخاطبيها، أو الراغبين فيها غيره ومثاله أيضاً أن الأثرة والأنانية قد اتخذا مظهر الوطنية أو القومية، ولم تذهب الأثرة ولم يبرأ منها الفرد، ولكن المدنية استطاعت أن تنتفع بروحها في الفرد وتسخرها لخير الجماعة

كذلك تفعل الصحافة. حين تستغل فضول الإنسان فتتولى جمع ما يعنيه وتنشره على الناس. وقد خرج الأمر عن أصله، حتى لصار يبدو كأنه منقطع الصلة به. ومن الذي يجرؤ أن يقول: إن الصحافة لا هم لها إلا إرضاء فضول الإنسان بعد أن أصبحت تسمى (السلطة الرابعة؟). ومن ذا الذي يذمها من أجل أنها تصل إلى أخبارها بما يسع رجالها من حيل، ويدخل في طوقهم من وسائل وإن كان بينها السرقة. بل شراء الذمم بكل ما تشتري به من طيب وذميم - أي بالخداع، والملق، والمدح، والصداقة، وتبادل المنافع، لا بالمال وحده كما قد يتوهم البغض، فإن الرشوة الصريحة وسيلة يندر الالتجاء إليها. . .

وهكذا جعلت الصحافة من السرقة عملاً محموداً، ومن مرتكبها لصًّاً شريفاً! ولا عجب فإن خدمة الأمة تكلف أبنائها تعاطي ما يعده العرف رذائل وآثاماً، وتحمد منهم ذلك، وتجزيهم عليه أحسن الجزاء

إبراهيم عبد القادر المازني

من برجنا العاجي

هاأنذا أهبط إلى برجي العاجي مع الشتاء، في الوقت الذي يهبط فيه (الأب نويل) مع عيد الميلاد. إني أرى لحيته الطويلة البيضاء تمتد لتلتف حول الكوكب الأرضي. لقد كان طرفها بالأمس في بلاد الجليد، فإذا هي اليوم في بلاد الشمس والهلال. لقد طفت بالمدينة فرأيت عجباً. لقد انقلبت القاهرة رأساً على عقب. أنوار وأعلام، وزينات وأفراح، والناس جميعاً مشغولون بإعداد سهرات العيد. الشرقيون قبل الغربيين يتسابقون إلى الاحتفال بعيد ليس عيدهم، ولكنهم يريدون تقليد الأجانب. بل إني لأعرف بيوتاً وأسراً شرقية مسلمة تقيم في منازلها (شجرة الميلاد) أسوة بالأوربيين.

نعم. لقد ذهبت أعياد الشرق فلم يعد أحد يأبه لعيد الأضحى أو الهجرة أو ليالي رمضان. إن أعيادنا تقبل علينا فلا نبسم لها ولا نخرج لاستقبالها. إنما نحبس أنفسنا في بيوتنا كأننا نخجل منها ومن أنفسنا. فإذا جاءت أعياد الأجانب أسرعنا فخرجنا لها باشين

مهللين. نحن في بلادنا نشارك الأجنبي في أعياده، وهو على أرضنا لا يشاركنا في أعيادنا. وبذلك أفهمناه وعلمنا آلنا وأطفالنا منذ الصغر ازدراء ما هو شرقي واحترام ما هو غربي. وهكذا أثبتنا للعالم أن مجرد وطء أقدام الأوربي أرضنا كاف أن يزلزل حصوننا المعنوية. نعم ما كان الغربي يتصوَّر أن الشرقي ينبذ من أجله حتى أفراحه التاريخية العريقة بألوانها الزاهية وطابعها الأصيل. إني ليخيل إلي أن الغربي ذاته، ذلك الضنين بتقاليده، الحريص على تجميل خرافاته، يدهش لرؤيته وجه الشرقي قد انطمست ملاحمه بهذه السهولة، وضاعت معالمه من الرؤوس والنفوس، وزال رسمه الحقيقي إلا من تلك الصفحات الرائعات التي سطرها أمثال بييرلوتي وجيراردي نرفال من الأوربيين أنفسهم الذين أعجبوا بالشرق يوم كان الشرق يحتفظ برداء شخصيته فلا يخلعه ليجري عارياً كالشحاذ خلف الغرب. إني لم أر قط باعتنا المتجولين يصيحون (بعرائس مولد النبي) في الطرقات ولكنهم صاحوا البارحة بنداء شق الفضاء: (الأب نويل بقرش أبيض! الأب نويل بقرش أبيض!). وبهذا تم لذي اللحية البيضاء غزو الشرق

توفيق الحكيم

الشريف الرضي وخصائص شعره

للأستاذ عبد الرحمن شكري

الشريف الرضي لا يضارع ابن الرومي في تحليله المعنى وتقصيه إياه، ذلك التقصي الذي ساعد ابن الرومي على إجادة الوصف سواء أكان وصفاً لهمسات النفس وخطراتها أو لأوجه الطبيعة والمرئيات. ولا يضارع الشريف أبا تمام فيما يتقنه من فلتات الصنعة النادرة التي تأتي بالأبيات الفذة الخالبة الآخذة بمجامع القلوب والتي تستهوي القلوب وتشعل الخيال. ولا يضارع الشريف المتنبي وأبا العلاء المعري، ولا سيما المعري في التفكير في النفس والحياة، وأخلاق الناس. ولكن للشريف نصيباً لا يستهان به من هذه المميزات؛ وهو مع ذلك قد اختص بالشعر الوجداني. ولهؤلاء الشعراء جميعاً ولغيرهم شعر وجداني، ولكني أحسب أن الشريف بزهم جميعاً في هذا الضرب من الشعر. وهو قد أمن ما يعتور ابن الرومي في بعض الأحايين من الفتور بسبب ما قد يبدر منه من الإفراط في التقصي والتحليل وتتبع الجزئيات؛ وأمن الشريف زلل المبالغة في الصنعة الذي قد يقع فيه أبو تمام إذا أفرط في حبه للاختراع والتوليد وإتيان ما لم يأت به أحد من التشبيه أو غيره من صيغ الصنعة؛ وأمن الشريف المبالغة غير المقبولة والمعاظلة كما في بعض شعر المتنبي؛ وأمن أيضاً ما قد ترى في ديوان سقط الزند للمعري من مبالغات المتأخرين التي لا تعبر عن وجدان صادق. ولو قارنت بين شعر الشريف وشعر معاصريه لوجدت فرقاً كبيراً في الأسلوب والذوق، فإن الصنعة كانت قد انتشرت في عصره وغالى الشعراء فيها من إبعاد في التشبيه ومغالاة في المعنى من غير سيل دافق من العاطفة والوجدان يلبسها لباس صدق الإحساس، ومن ألاعيب لفظية ومعنوية. وحسبك أن حكيم الشعر العربي المعري التزم ما لا يلزم في لزومياته مجاراة لصنعة عصره، ويولع أحياناً بالجناس وغيره من المحسنات اللفظية التي لا تناسب ما هو فيه من التفكير والحكمة والجد. ولا عبرة بما يقوله بعض المطلعين على الشعر الأوربي من أن الشاعر العالمي الإنجليزي شكسبير يفعل ذلك ويغري أحياناً بتلك الألاعيب اللفظية، فإن شكسبير يفعل ذلك في غير موضع الجد المؤثر، وعلى لسان أناس من طوائف خاصة، أو لهم صفات خاصة. والشريف يترفع عن أساليب هذا التلاعب بالألفاظ. ولعل هذا هو ما ينبغي أن يكون، لأن الشريف شاعر الوجدان، والتلاعب بالألفاظ يتلف أثر الشعر الوجداني في النفس إذ لا يستقيم معه. وإن أطرب التلاعب باللفظ بعض الناس طرباً سطحياً إلا أنه ليس طرب الوجدان والعاطفة.

وهذه الألاعيب اللفظية هي نزهة ولعب يلهو به الذكاء في استنباطها واختراعها ومقارنة معانيها؛ والذكاء من العقل، فلا غرو إذا قبله المعري شاعر العقل لأنه كان سائداً في عصره، وإن كان هذا الهزل ضد جده. ولا عبرة بما يقول القائل من أنه أراد أن يلفت بعبثه هذا الناس عن حرية القول والفكر والعقيدة في بعض شعره كما فعل رابليه الكاتب الفرنسي في تغطيته نقده لعقائد رجال الدين في قصصه بالعبث الصاخب، وإن كان عبث رابليه مجوناً لا يطيقه المعري. ولا عبرة بقول من يقول إن المعري أحس من مرارة نفسه أن الحياة والخليقة وإن كانت مقدسة تدعو من أجل

قداستها إلى مرارة النقد، إلا أنها مهزلة أيضاً؛ فهي مهزلة مقدسة كما سماها دانتي الشاعر الإيطالي، ومن أجل أنها مهزلة أباح هزل الألاعيب اللفظية في أثناء جد الفكر ومن أجل أن الشريف شاعر الوجدان كان أقرب شعراء عصره إلى الأقدمين، وكان بدوي النزعة وإن كان قد أخذ بنصيب من الصنعة العباسية لإعظام أثر المناجاة أو النداء أو الاستفهام أو النفي الوجداني في شعره، فإنه يستخدم هذه الصيغ البيانية ويتعرف وسائل الصنعة في تكرارها وموقعها. ولكنها صنعة طبيعية لا تحسُّ أنها صنعة. وهي لا تنافس الوجدان بل تقوي أثره. وإذا قرأ القارئ له غزله أو رثاءه أو إخوانياته أو تحسره على انحسار الشباب أو مناجاته الديار ظهرت للقارئ آثار هذه الصيغ في إشباع الوجدان وإقناعه، فإن الشريف الرضي يشبع الوجدان ويقنعه ويطربه ويستميله بالنداء الوجداني، أو الاستفهام والسؤال، أو النفي أو الإخبار بصيغة التحقيق والتأكيد، أو الأمر أو المناجاة بأساليب أخرى. . ويفعل الشريف كل ذلك حتى ليخيل إلى القارئ أن لأدوات هذه الصيغ في شعره معنى ليس لها في شعر غيره؛ وهو إذا رأى تلك الأدوات والحروف مثل (يا) أو (الهمزة) للاستفهام أو النداء أو (أين) أو (كيف) أو (لن) أو (قد) عرف أنه يجيد استخدامها لأغراض الشعر الوجداني أكثر من إجادة غيره استخدامها، ففي رثاء أحبابه وأودائه ينادي الدهر فيقول:

دهر رَشْقاً بكل نائبةٍ ... (قد) انتهى العتب وانقضى العجب (يا)
يدي ما استطعت عَن أَرَبي ... (لَمْ) يبق لي بعد موتهم أرب (رُدَّ)

ففي هذين البيتين استخدام النداء والإخبار بالتحقيق والأمر والنفي كلها بصيغة وجدانية تؤثر في النفس. فهذه هي الصنعة اللفظية المحمودة لا الجناس والألاعيب اللفظية التي أولع بها معاصروه.

ويخاطب وينادي النظرة ويسأل مع النفي في قوله:

ذكرتكمُ ذكر الصبا بعد عهده ... قضى وطراً منه وليس بعائد
نظرة لا تملك العين أختها ... إلى الدار مِنْ رمل اللوى المتقاود (فيا)
فارق الأحباب قبلي مفارق ... ولا شيَّع الأظعان مثليَ واجد؟ (أمَا)

ففي هذه الأبيات استخدم الإخبار ثم النداء ثم الاستفهام المنفي، وهذه صيغ لفظية وصنعة لفظية لا يحسُّ القارئ أنها صنعة؛ وهي صنعة الطبع التي تُقْنع الوجدان، ويتفنن الشريف ويفتن في مناجاته ومناداته الوجدانية فينادي وقفة الأحباب فيقول: (يا وقفة بوراء الليل أعهدها الخ) وينادي بؤس القرب القصير من الأحباب الذي يعقبه الفراق الطويل فيقول:

فيا بؤس للقرب الذي لا نذوقه ... سوى ساعة ثم الفراق مدى الدهر

وينادي نفسه ويشجعها على تحمل آلام الحياة ومتاعبها فيقول:

يا نفس لا تهلكي يأساً ولا تدعي ... لَوْكَ الشكائم حتى ينقضي العُمُرُ

وينادي الشباب فيقول:

فمن يك ناسياً عهداً فإني ... لِعَهدِكَ يا شبابيَ غير ناسي
فإن العيش بعدك غير عيش ... وإن الناس بينك غير ناس

وينادي بؤس نفسه في الغزل فيقول:

يا بؤس مقتنص الغزال طماعة ... ذهب الغزال بلب ذاك القانص
كالدرة البيضاء حان ضياعها ... مِنْ بَعْدِ ما ملأت يمين الغائص
ما كان قربك غير برق لامع ... وَلَّى الغمام به وظل قالص
أغدو على أمل كحبك زائد ... وأروح عن حظ كوصلك ناقص

وينادي الحبيب صاحب القلب الصحيح الخالي من الهوى فيقول:

يا صاحب القلب الصحيح أما اشتفى ... ألم الجوى من قلبيَ المصدوع

ولاحظ أنه لم يكتف بصيغة النداء في (يا) بل قرن إليها صيغة الاستفهام المنفي في قوله (أمَا). وهي ألفاظ إذا جاءت في كتب النحو كانت ميتة، ولكنها هنا تثبت حياة كالسمك عند إخراجه من الماء. ويخاطب الشريف السرحة ويرمز بها إلى من يحب فيقول:

إسْلمي يا سرحة الحي وإن كنت سحيقَهْ
أتمنَّى لك أن تبقَيْ على النأي وريقَهْ
ثَمرٌ حَرَّمَ واشيكِ علينا أن نذوقَهْ

وينادي بالهمزة في قصيدته المطربة فيقول:
أمعيني على بلوغ الأماني ... وشفائي من غلتي واشتياقي
وينادي طائر البان في قصيدته المشهورة فيقول:
يا طائر البان غِرِّيداً على فننٍ ... ما هاج نوحك لي يا طائر البان!
(هل أنت مُبْلغُ من هام الفؤاد به. . . الخ)
فانظر إلى أثر (يا) و (ما) و (هل)، وإلى تلك الصنعة اللفظية التي تقنع الوجدان كل الإقناع. وقد يُقْنع الوجدان أيضاً بالمناجاة من غير أدوات النداء فيناجي الموطن والدار فيقول:
سكَنتُكِ والأيام بيضٌ كأنها ... من الطيب في أثوابنا تتقلَّبُ
ويُعجبُنِي منك النسيمُ إذا سَرَى ... ألا كلُّ ما سَرَّى عن القلبِ مُعْجِبُ
ويقول:
كأنك قدمةَ الأمل المرَّجى ... علَيَّ وطلعة الفرج القريب
ويقول:
وأهجركم هجر الخليِّ وأنتمُ ... أعزُّ على عينيَّ من طارق الكرى
ويقول:
وإني لأقوى ما أكون طماعةً ... إذا كذبت فيك المنى والمطامع
ويقول في قصيدة مطربة:
فإنْ لم تكن عندي كسمعي وناظري ... فلا نظرت عيني ولا سمعت أذني
وإنك أحلى في فؤادي من الكرى ... وأعذب طعماً في فؤادي من الأمن
ويناجي أيضاً مناجاة وجدانية فيقول:
أنت الكرى مؤنساً طرفي وبعضهم ... مثل القذى مانعاً عيني من الوسن
ويقول:
فقلت نعم لم تسمع الأذن دعوة ... بَلَى إن قلبي سامع وجناني
وتراه يستخدم الاستفهام استخداماً وجدانياً مطرباً كإطراب ندائه الوجداني فيقول:
هل تذكر الزمنَ الأنيقَ وعيشنا ... يحلو على مُتَأَمِّل ومذاقِ؟
وليالِيَ الصبوات وهي قصائر ... خطف الوميض بعارضِ مبراقِ؟
ويستفهم بأين ويناجي في قصيدته في ديار الحيرة، وهي من الوصف الوجداني المؤثر، ومن الشعر الذي ينبغي أن يختار له كلما اختير له شعر وجداني ويقول في مطلعها:
أين بانوك أيها الحيرة البي ... ضاء والموطئون منك الديارا؟
(للمقال بقية)
عبد الرحمن شكري
لم الفرار إلى هنالك؟
للدكتور بشر فارس
لست بسليم أية سلامة حتى إني أُعرض عن الاستشفاء، ولكني لا أرحل صيف كل سنةٍ إلى أوربة رغبة في معالجة كبد أو مراقبة قلب. ولست ممن يهوى الحر والسَّموم، ولكني لا أرحل طرباً إلى (النسيم العليل) (متى يموت هذا التعبير وأخواته، يا أيها الناس؟!). ولست من يحب أن يقال فيه: (هذا رجل يعود من أوربة) ولكني أرحل إليها. . . بل أفر إليها.
مما وممن؟
أتصافيني فأصارحك؟
أفر من مصر ثم مني. . . ومنك.
أفر من مصر لأنَّ لها من نفسي موضعاً عزيزاً. ألم يتفق لك (أعانك الله على مصاحبة النساء!) أن تمل صحبة المرأة التي تخصها بوثبات ودك، وترعاها بلفتات طرفك، وتحيطها بنبضات قلبك (ولعله باقٍ على خفقانه)؟ نهاية الحب بغض أو عراك. ولا بدَّ من القطيعة لصيانة الشوق؛ والشوق نشاط، والنشاط حياة
بيني وبين مصر مغاضبة. أريدها أن تقدم رِجلاً عازمة إذا مضت قُدُماً وهي تأبى إلا أن ترتاب في قدر الخطوة التي جرؤت عليها، كأن الموضع الذي تخطته فردوس (مِلتن). وكثيراً ما تنتقم من الرِجل التي تقدمت بالاستواء في وقفتها أو (معاذ الله!) بالإدبار: نُصب ماثل في عرض الطريق والخلق من خلفه يتأملون وأعينهم يُدَعْدِغها النعاس!

لا نزال نحن المصريين نركب قطاراً يذهب بنا ويجئ من موضع منظور إلى آخر معلوم، فتارة يمهل في محطة قائمة في أول (الخط) وأخرى في محطة في آخره أو منتصفه. وأما الذي يلي الموضعين شمالاً وجنوباً فغير واقع بعد في دليل (السكة الحديدية).

هذا الصداع الذي بين التوثب والتقبض يفتح باباً عريضاً لأسباب المناقضة والتمزق، وألوان المناوأة والتشيع، ثم يروِّج البضاعة الخفيفة على صنوفها ويُدخل الغرور في أنفس أصحابها. فتضيع الموازين وتفتر العزائم الصادقة ويزيغ حكم الجمهور وحبي الثقافة مثل على ذلك.

الثقافة هنالك (إلا في البلدان التي يسوسها حاكم بأمره متحمس) واحدة، لأن برنامج التعليم مجرىً على منهاج واحد. فلا فرق بين قس وزنديق من حيث القابلية الذهنية، أعني من حيث إدراك الأمور. أما تأويل الأمور وحكاية رفضها وقبولها فمما يرجع إلى وجهة النظر وميل النفس. ثم لا فرق بين صانع لم يأخذ من العلم إلا طرفاً، وكاتب كشفت له الثقافة عن أدق أسرارها، سوى أن هذا ذهب في التحصيل أبعد من ذاك. ثقافة معينة أسبابها، واضحة معالمها، تتسع الحين بعد الحين باتساع مجال العلم، ثم مرسومة على قدّ أذهان أهلها.

ومن نتائج هذه الثقافة أن الفكر يظفر بحرية لا تعرف القيد وأن القلم يجري على هواه. فإذا أصاب المنشئ عيباً عالن به، وإذا رأى رأياً بثه غير هياب. فلا تراه يداور في الكتابة أو يتنصل مما كتب. وإذا انتهى العالم ببحثه إلى حقيقة تصرع القضايا المألوفة جهر بها مطمئن الجانب. وإذا بدا لناقد أن يقول قولاً في كتاب أو عمل متصل بشئون التهذيب دونه من دون أن يرقب الرضى أو يخشى السخط.

وتعليل ذلك أن الثقافة هناك منفصلة من الدين ومنزهة عن السياسة. الثقافة مدارها العقل، أما الدين فأمر إيمان، وأما السياسة فمسألة هوى. وكلما بطشت السياسة بالثقافة ألجمتها؛ وكلما مشى إليها الدين حوّلها إلى مجراه وأرساها عند شطئه.

ومن نتائج هذه الثقافة أن برنامج التعليم يقصد إلى تهذيب ملكة التفكير لا إلى حشو خلايا الذهن. فالمتأدب هنالك يطلب القراءة المفيدة لا القراءة المسلية؛ والمنجذب إلى المسرح حقاً يرغب في المسرحيات التي تقوم عنده مقام غذاء لا تلك التي تهز أعصابه كأنها صورة من الصور المتحركة؛ والدائب على قراءة النقد ينتظر حكماً معتدلاً يبذل له شيئاً من الأمر حتى يستوي له رأي لا إطراءً مفرطاً أو ذماً مقيماً؛ وطالب العلم إنما يأخذ أساليب التحصيل والاجتهاد رجاء أن يكب على البحث فيما يأتي من الزمان وهو جد عارف أن (مائدة الثقافة لا تقبل طفيلياً).

ومن خصائص هذه الثقافة أن كل فرد من أهل الأدب يعرف ما له وما عليه. فلا ترى المطلع يهيم على الإنشاء والنقد، ولا القصصي يقبل على كتابة الرسائل الفلسفية، ولا الصحافي يتعرض لنقد المسارح ومعارض الصور، ولا الدعي يغير على مؤلفات غيره فينتحلها أو يسلخها أو يمسخها؛ ثم لا ترى الناقد المعتز بصناعته الوفي لها يُهمل الكتب الخارجية من المطابع لأن أصحابها من المحدثين، أو لأنهم غير متعصبين له، أو لأنهم أتوا بشيء لم يتوقعه.

ومن خصائص هذه الثقافة أنها تنشئ مُثلاً عليا، فالشاعر - مثلاً - يُكرم قريحته أن تفيض بما قاله غيره سواء من باب السطو أو من باب التقليد؛ ثم إنه - إلا في النادر النادر - يعف عن النظم لرغبة أو رهبة؛ ثم إنه يحاول ما استطاع أن يميز شعره من شعر أصحابه، ولا يبلغ ذلك إلا إذا استخرج من وليجة نفسه كنوزها فلا تهويل ولا جلجلة!

تلك أمثال من صدق الثقافة هنالك. وإنما صدقها يرجع إلى وحدتها واستقرارها وسهر أصحاب الأمر عليها. ومن الأمثلة على سهر القوم عليها أن الجوائز والمكافآت الموقوفة عليها إنما تجري على طريقة مرضية. وقصة ذلك أنها مبذولة للمنشئين الحق ولا سيما المحدثين منهم على أن يؤلفوا كتباً لها شأنها لا لموظفين بينهم وبين الأدب المحض شقاق على الغالب، ولا لأصدقاء وأعوان، وأنها بين أيدي حكام لهم - على الأقل! - دراية بما يفصلون فيه.

وإليك مثلاً آخر: إن شؤون الثقافة العامة لا تُقضى بين جدران وزارة المعارف وفي بهو الجامعة فقط (كأنما الفطنة حصرت في عقول فئة من الموظفين، والعلم جُمع في

صدور نفر من الأساتذة). إن حق الأدباء والمنشئين وأصحاب المجلات الرفيعة في معالجة شؤون الثقافة العامة ليس دون حق أولئك الأساتذة والموظفين.
بقي أن القوم يضعون صاحب الشأن في موضعه، ويستثمرون ما يجب استثماره، ثم ينبذون من يتوسل بغير الكفاية ويستهزئون بورم الألقاب وطنين الأسماء.
تلك صبغة الثقافة هنالك. وليس معنى هذا أنها صافية كل الصفاء، فالخلق هنالك بشر. إلا أن مبادئها سليمة ومجدية.
بشر فارس

أغرب ما رأيت في حياتي

للدكتور زكي مبارك

أنا متهمٌ بالعقل ومتهمٌ بالجنون. فمن وصفني بالعقل فهو متلطف، ومن وصفني بالجنون فهو مسرف. لأني في حقيقة أمري إنسان يعيش بثورة العواطف فوق ما يعيش بقوة العقل، وهي حالة تجعل أمري وسطاً بين العقل والجنون.
والتوفيق الذي ظفرت به في حياتي العلمية مدينٌ لحياتي الوجدانية؛ فقوة الوجدان هي التي حملتني على أن أستقتل في الدراسات الأدبية والفلسفية. وقد يأتي يوم أعترف فيه بالأسباب الوجدانية التي جعلت عقلي يتفوق إلى أبعد حدود التفوق في مثل كتاب النثر الفني أو كتاب التصوف الإسلامي.
وهذه الغرابة في تكوين عقلي وقلبي هي التي تحملني على الجرأة في تدوين هذا الحديث، وهو حديث كنت أفتضح به أشنع افتضاح لو نشرتُه قبل سنتين أو ثلاث، يوم كان لي خصوم يسرهم أن تحاط حياتي بالأقاويل والأراجيف.
أما اليوم وقد قل خصومي بحيث لا يزيدون عن ألف أو ألفين، فأنا أنشر هذا الحديث بلا تهيب ولا تخوف، وليقل من شاء ما شاء.
كنت حين انتسبت إلى جامعة باريس أقضي أربعة أشهر من كل سنة في مدينة النور، ثم أعود إلى وطني لأجمع من الصحافة والتدريس ما أستطيع به الرجوع إلى باريس من جديد. ودام ذلك بضع سنين، ثم عرفت إني لن أصل إلى غرضي إلا إذا قررت بطريقة حاسمة ألا أفارق باريس إلا في أحد حالين: النصر أو الموت.
وكانت الإقامة الدائمة في باريس تبدو من المستحيلات، لأن أبي رحمه الله لم يكن يقدر على إمدادي بكل ما أحتاج إليه. وكان ما ورثته عن أمي طيب الله ثراها لا يزيد عن بضعة قراريط. وكانت زوجتي أفقر مني؛ ولم يكن لي في الحكومة المصرية عمٌّ ولا خال.
وفي تلك الظلمات استطعت أن أتفق مع الأستاذ عبد القادر حمزة على مراسلة البلاغ من باريس بمرتب قدره خمسة عشر جنيهاً، فتوكلت على الله وقررت الاعتكاف بالقبلة القديمة في السوربون.
ولكن مراسلة البلاغ من باريس لم تكن عملاً ينفع إلا في حال واحد: هو أن يشعر صاحب
البلاغ بأني أقدم إليه محصولاً أدبياً ينقل القراء من حال إلى أحوال، فقد كان الأستاذ عبد القادر حمزة اشتهر بين أصحاب الجرائد بأنه يحسن الاعتذار إلى من يريد الاستغناء عنهم من المحررين والمخبرين والمراسلين؛ وكنت جربت اعتذاراته الرقيقة قبل ذلك حين كنت أحرر في البلاغ الأسبوعي سنة 1926. ولكن اعتذاراته في ذلك الوقت لم تكن تؤذيني لأني كنت مدرساً في الجامعة المصرية، وكنت بفضل تلك الوظيفة من المياسير.
ماذا أصنع في مراسلة البلاغ من باريس؟
كنت أستطيع أن أرسل إليه مقالات في الأدب العربي، وأنا من أقطابه بلا جدال، ولكن إرسال مقالات عن الأدب العربي من باريس كان ضرباً من السخف يقترفه من يراسل البلاغ من باريس. وهل يعيش الأديب في باريس ليحدث الناس عن ابن المقفع وابن العميد؟!.
ماذا أصنع؟ ماذا أصنع لأنجو من تسلُّم خطاب رقيق من خطابات الاعتذار التي يجيدها صاحب البلاغ؟ ماذا أصنع لأظفر بخمسة عشر جنيهاً أضيفها إلى المبالغ الضئيلة التي أكسبها من الدروس الخصوصية التي أعطيها للطلبة الضعاف في اللغة الفرنسية من أعضاء البعثات، والنقود التافهة التي آخذها في مقابل المساعدة التي أؤديها لبعض

المستشرقين الذين يهمهم أن ينقلوا النصوص العربية إلى اللغة الفرنسية؟
ماذا أصنع؟ ماذا أصنع؟
لم يكن أمامي إلا مسلكٌ واحد: هو الاندماج المطلق في باريس لأحدث قراء البلاغ بأحاديث منتزعة من الحياة الواقعية في باريس.
وما هي إلا أسابيع حتى عرف صاحب البلاغ أنه لن إلى رجل مثلي خطاب اعتذار، وحتى عرف قراء البلاغ أني أحدثهم بما لم يألفوه، وأن البلاغ لن يستغني أبداً عن صاحب (الحديث ذو شجون).
ولكن الانتصار في هذا الميدان له تكاليف
كان لا بد من الاتصال الدائم بأساتذة السوربون ومدرسة اللغات الشرقية لأظفر بما تساميت إليه من الألقاب العلمية
وكان لا بد من معاقرة الحياة في باريس لأنجح في مراسلة البلاغ
أما الأساتذة فالظفر بثقتهم سهل، لأني في الواقع من أصلح الناس لفهم ما أسمع من الخطب والمحاضرات، ولأني كنت بالفعل شاباً ناضجاً له في الأدب والفلسفة مذاهب وآراء
الصعوبة كل الصعوبة، والعسر كل العسر، هو في افتراع باريس لأصل إلى أوهام وحقائق أقيّد بها أذواق قراء البلاغ
وكيف أصل إلى هذا الغرض الجليل؟
هدتني الفطرة إلى قضاء أوقات الفراغ في الملاهي والملاعب والمراقص والقهوات، فكنت أقضي في هذه النزهة الطريفة ساعات من النهار وساعات من الليل
كنتُ شاباً، ورحمة الله على شبابي، الشباب الذي بددتُه في طلب الحب والمجد
كنت أذرع باريس بقدمي لأخلق لمقالاتي جوًّا من الحقيقة لا من الخيال
وأعانني على ما أسمو إليه لسانٌ مرن في اللغة الفرنسية مرونة عجيبة تقدر على جذب من أحاور من أسراب الظباء
والفرنسيون يغفرون للرجل جميع الذنوب إذا أمدته العناية الإلهية بلسان فصيح
وكان لي في باريس ثلاث قهوات: قهوة صغيرة جدّاً في بولميش بجوار (قهوة الرحيل) التي كان يجلس فيها الدكتور طه حسين يوم كان طالباً في جامعة باريس
وكانت هذه القهوة الصغيرة مخصصة للمواعيد الغرامية، والتأملات الفلسفية، فكيف صارت اليوم؟ ليتني أعرف!
أما القهوتان الأخريان فهما الروتوند والدُّوم في حي مونبارناس
كيف كنتُ أصطبح وأغتبق بهاتين القهوتين؟
كان مفهوم عندي أن لا سبيل إلى معاقرة الحياة إلا في مونبارناس
وإنما كان ذلك لأني كنت أتهيب مونمارتر تهيباً يصل إلى الفزع والرعب، فقد تشاجرت فيها مع أحد الشبان الفجار في سنة 1927 وكاد اسمي يقيد في سجلات البوليس لولا لطف الله. وكانت هذه التجربة القاسية كافيةً لأن أقنع بالضلال في حي مونبارناس
وفي قهوة الدوم وقعت المأساة أو الملهاة التي أدونها في هذا الحديث:
دخلت ذات صباح فوجدت سيدة تطالع سِفر الوجود بعينين زرقاوين يندر أن يكون لهما شبيه أو مثيل
وجلستُ بالقرب من تلك السيدة عساني أنهب منها نظرة أو نظرتين أستعين بهما على إتمام بعض الفصول من كتاب (سحر العيون) الذي أرجو أن يظهر بعد قليل
وما هي إلا دقائق حتى تلاحظنا برفق وعطف
ثم أشارت بأن أقترب فاقتربت
رباه! متى تعود أيامي؟
وبعد أن دار كأس الحديث نحو عشرين دقيقة عرفت أنها من البغايا
أعوذ بالله؛ أعوذ بالله، أعوذ بالله!!!
أمثل هذا لحسن يكون من نصيب الفَجَرة الأوباش؟
أتكون هذه الحسناء الفتانةُ شبيهةً بالشمس ينعم بضوئها من يشاء ولو كان من الخفافيش؟
أتكون هذه التحفة الفنية شبيهةً بكرائم الأنهار يشرب منها البهائم والدواب؟
أتكون هذه العيون السواحر من نصيب من يساعده القدر المخبول فيملأ جيبه بالدراهم

ولو كان من الأغبياء؟
أتكون هذه الدُّمية شبيهةً بالحجر الأصم الذي تسجل عليه حوادث الأفّاقين؟
ليتني مت قبل أن أشهد ذلك المنظر الأليم!
ليتني مت قبل أن أعرف أن مثل ذلك الحسن يباع!
ألك يا رباه حكمة في إذلال هذه الروائع الفنية التي زينت بها الوجود؟
ارفع الحجاب مرة واحدة، يا رباه، لأعرف أسرار السياسة العالية التي تسوس بها مخلوقاتك!
وهجمتُ على تلك السيدة الجميلة بعنف فقالت:
اسمع أيها السيد، ليست الغواية من همي ولا من مناي. أنا امرأة شقية خدعها شاب مثلك باسم الحب، وكانت ثمرة الحب طفلاً هو اليوم تلميذ بمدرسة (. . .) وقد هجرني الحبيبُ والدُ الطفل وتركني وحدي أربيه وأرعاه، فأنا أتسول باسم الحب لأنفق على ذلك الطفل المسكين، إلى أن يظهر أبوه، إلى أن يظهر ذلك الوغد الذي هجر معشوقته وطفله منذ سبع سنين. فإن كنت تدعي الرجولة الصحيحة فتقدم لحمايتي ورعاية طفلي، وسترى كيف أجزيك عطفاً بعطف وإخلاصاً بإخلاص
وما كدت أسمع هذا القول حتى دارت الأرض تحت قدمي
ومن أين أنفق على هذه السيدة وعلى طفلها وليس لي من جريدة البلاغ ومن الدروس الخصوصية إلا مبلغ ضئيل من المال لا يزيد على ثلاثة آلاف من الفرنكات، والحياة قاسية أشد القسوة على الغرباء في باريس؟
ثم نظرت فرأيت هذه المرأة تعرض مشروعاً نبيلاً قد يرفع روحي بعد إسفاف.
فصوبت بصري إليها وقلت: وكيف أضمن أن تتوبي عن حياة الرجس؟
فقالت في استحياء: إن لغرفتي مفتاحين!
فقلت: وما معنى ذلك؟
فقالت: لك مفتاح ولي مفتاح، فخذني لنفسك وراقبني كيف تشاء، فإن استطعت أن تشهد عليَّ ما يريب بعد اليوم فاقتلني. والمهم أيها السيد أن ينجو طفلي من الجهل ومن الجوع
وفي تلك اللحظة تذكرت عبد المجيد فغلبني الدمع
تذكرت أني تركت في مصر الجديدة أطفالاً منهم عبد المجيد الذي كان يزعزع كياني حين يقول (بابا)
- وما اسم ابنك يا سيدة؟
- اسمه موريس
- هلم بنا إلى التسليم على موريس!
قد أنسى كل شيء، ولكني لن أنسى طلعة موريس
قد ينسيني الموت جميع ما حفظت من اللغة الفرنسية، ولكني سأذكر في قبري عبارة باقية في اللغة الفرنسية حين طلع موريس فقالت له أمه:
وتوهم الطفل أني أبوه فقبلني بحرارة والدموع في عينيه
-
-
واستأذنا مدير المدرسة فسلم إلينا الطفل ليقضي معنا ليلة في مباهج باريس
وسألني الطفل: أين كنت؟ فأخبرته أني توجهت إلى الشرق لزيارة القاهرة وبغداد وبيروت، واخترعت له أقاصيص تعجبه وتلهيه، ولم يفتني أن أحدثه عن أخبار الجن والعفاريت.
وفي تلك الليلة هجر الطفل صدر أمه وسكن إلى صدري لينام نوم السعداء
وفي تلك الليلة شعرت أن روحي ارتفع إلى أجواز السماء
كان موريس ورث عن أمه الفرنسية صفرة الشعر وزرقة العينين، وكان ورث عن أبيه الهولندي شمائل من السجاحة واللطف، وكان في جملته وتفصيله تحفة من تحف الوجود.
وقد وجد من عطفي وحناني كل ما يتمناه ويشتهيه، فانطلق يحدث أترابه في المدرسة بالنعيم الذي يلقاه في يومي الأحد والخميس
وفرحت مرجريت بما صارت إليه من راحة البال وصفاء النفس بعد الهيام الأثيم بأحياء

باريس
ومضت تقترح ما تشاء من المغامرات فعلمتني الرقص وطوفت بي على المكنونات من صناديق الليل
وبفضل مرجريت عرفت من خبايا باريس ما لا يعرف الشياطين ولم نكتف بذلك، بل نقلتني إلى رُوَان والهافر وأطلعتني على المستور من شواطئ المانش، وأقامت معي في الضواحي النائية أسابيع
والله وحده يعلم كيف عاشرتُ تلك الحسناء، فلو أني قلت إني كنت في حبها من الأطهار لما صدقني مخلوق، لأن سمعتي تعرضتْ لأخطار كثيرة بسبب التهالك على أخبار الملاح، ولكن الواقع أني كنت في صحبة تلك السيدة رجلاً نبيلاً. وأجمل ما نلتُ منها لم يزد عن قُبلة شهية طبعْتها على جبيني حين أخبرتها أني متأهل ولي أبناء. وقد قهرتني على قبول هدية من العطر و (الكريم) لأرسلها إلى ابنتي أو زوجتي، وقد قبلت الهدية ثم ألقيتها خِفيةً في نهر السين
كانت مرجريت متعِبةً إلى أبعد الحدود
قالت ذات يوم: أنت يا دكتور معرض للسمنة لكثرة ما تشرب من البيرة
فقلت: هذا حق!
فقالت: ما رأيك في سياحة على الأقدام إلى ليون؟
فقلت: وفي كم يوم نصل على الأقدام إلى ليون؟
فقالت: في نحو أسبوع
فحملنا أثقالنا واتجهنا نحو ليون ماشيَيْن
وبعد يوم واحد تعبتُ، فحملتها على الرجوع بالقطار إلى باريس
ليتني أطعت مرجريت وذهبت ماشياً إلى ليون لأعرف كيف يعيش الناس في الأقاليم الفرنسية، ولأجدد الأنس بصحبة مرجريت يوم همنا على وجوهنا في الحقول النورمندية!
كانت مرجريت ضجرت من حياة الفتون
وكنتُ ضجرتُ من حياة الفتون
وكنا نتشهي أن نعرف معنى التصوف في الحب، وكيف لا نتصوف في الحب وقلوبنا معمورة بحب الطفل العزيز موريس؟
وبعد أن دام هذا النعيم النبيل خمسة عشر شهراً وصلتُ إلى ما أريد في امتحانات مدرسة اللغات الشرقية وامتحانات السوربون، وصممت على الرجوع إلى أهلي وأبنائي، ولم يكن بدٌّ من توديع مرجريت وموريس
وأي توديع؟!
كان من الواجب أن أردَّ المفتاح إلى مرجريت، فرفضتْ والدمع في عينيها الزرقاوين، وقالت: احفظ هذا المفتاح فقد تصل على حين غفلة إلى باريس
وكانت مرجريت لا تزال معرَّضة للفقر والبؤس فوعدتها بإرسال سبعمائة فرنك في كل شهر لتستطيع الإنفاق على نفسها وعلى ابنها الغالي، وأنا أفِي إذا وعدتُ
كانت الدنيا في ذلك العهد لا تخيفني، وهل يخاف من يرجع مزوَّداً بأعظم الألقاب من باريس؟
ولكني لم أكد أصل إلى مصر حتى عُطلت جريدة البلاغ
فأرسلت إلى مرجريت أستعفيها مما وعدتُ، فكتبت تصفح عني وتسأل الله أن يفتح لي أبواب الرزق
وما هي إلا مدة قصيرة حتى استجاب الله لدعوة مرجريت فكنت آخذ من الجامعة الأمريكية ثمانية وعشرين جنيهاً، ومن الليسيه اثنين وعشرين جنيهاً، ومن البلاغ خمسة عشر جنيهاً بغض المطر عما كنت آخذه من المكتبة التجارية ومن مجلة الهلال
ورأيت أن أزيد مرتب مرجريت فكنت أرسل إليها في كل شهر ألف فرنك
وعرف موريس فضل (أبيه) فكان يرسل إليَّ في كل أسبوع خطابين
حرسك الله يا موريس وكتب لك التوفيق!
وفي سنة 1933 ذهبت إلى باريس لأحضر مؤتمر (الميسيون لاييك) نائباً عن أساتذة اللغة العربية بمعهد الليسيه. ذهبت ومعي المفتاح لأزور مرجريت ولكني استكبرت عن زيارة مرجريت، وهل يفكر الأساتذة الكبار في العطف على امرأة نكبتْها المقادير؟

ولما رجعتُ من المؤتمر نقصتُ مرتب مرجريت من ألف فرنك إلى سبعمائة فرنك، واعتذرت بأن مواردي نقصتْ وأني لم أعد أملك غير التدريس بالليسيه والتحرير في البلاغ
فكتبتْ مرجريت تقول إنها ترضى مني بأن أعترف أنها استطاعت مرةً واحدة أن تدخل النور إلى حياتي
أعترف يا مرجريت بأنك بددت الظلمات في حياتي
طال العهد على لقاء مرجريت، وطال العهد على لقاء موريس وحملني لؤم الطبع على التخلص من مرجريت وموريس، وهل كانت مرجريت زوجتي؟ وهل كان موريس ابني؟ وهل كنتُ أول شاب أطاع الغواية في باريس؟ يجب أن أقطع المرتب الذي خصصتهُ لمرجريت وموريس، ولكن كيف؟
لذلك تاريخ سنراه في الأسبوع المقبل
(مصر الجديدة)
زكي مبارك
ورد الصباح
للدكتور عبد الوهاب عزام
تنفّس الصبح في غسق الليل، ولاحت غرته في جنح السَّحَر، والنور يسيل من ربى المشرق قليلاً قليلاً، ويولد اليوم الجديد
رب فأضئ عقلي بالهدى، ورغّب نفسي في الحق والخير، واملأ قلبي بالأمل، وقوّ يدي على العمل. واشرح صدري. واشدد أزري، واشحذ عزمي لليوم الجديد
ربّ! قد طُويت من عمري صفحات ونشرت اليوم صفحة، فاجعل صفحتي هذه أوعى للخير وأخلى من الشر، وزيّنها بالحق، وبرئها من الباطل، واجعل فاتحتها وخاتمتها الإخلاص لك، والعمل لوجهك
ربّ! إن عقلي يُخدع بالوهم، ويقنع بالظن، ويلبس الحق بالباطل. اللهم فاهدني وثبتني، واجعل البرهان الواضح حجتي، والحق المبين عقيدتي. سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت علام الغيوب
ربّ! إن قلبي يشوبه الهوى، ويستهويه الباطل. فخلص اللهم قلبي من الأهواء، واملأه بحب الحق إنك أنت الحق المبين
ربّ! إن نفسي تنزع إلى أن تتزيّد فيما لها، وتبخس ما لغيرها، وتُحمد بما لم تفعل، وتغمط غيرها ما فعل. اللهم فاجعل حق غيري أحبّ إليّ من باطلي، ورضاك آثر عندي من كل شيء
رب، إن الناس يركنون إلى الدعة، ويُعذّرون في الواجب، فاجعلني دائباً على العمل لا أملّ، قوّاماً بالواجب لا أعتلّ
رب، إن الناس ينزعون إلى الظلم، ويجنحون إلى المحاباة، ويرضون أنفسهم بباطل يزينونه وحق ينكرونه. اللهم فبغض إليّ الظلم والمحاباة، واجعل العدل والحق ملء نفسي وقلبي وقولي وفعلي
رب، إن نفسي تنزع إلى إرضاء الأقوياء والاستهانة بالضعفاء. اللهم فاجعل الناس سواسية عندي، واجعلني حرباً على الأقوياء المبطلين، نصيراً للضعفاء المحقين، لا تطبَّبني في الحق رغبة ولا رهبة، ولا يأخذني في الصدق خوف ولا رجاء
اللهم إن الناس استهوتهم الشهوات وعبّدتهم المطامع؛ تُضلهم الكبرياء فيصدفون عن الحق، وتضرعهم الذّلة فيخنعون للباطل. فاجعلني اللهم متواضعاً لا تزهوني نخوة، وقوياً لا تأسرني شهوة، وحراً لا يعبِّدني مطمع. واملأ قلبي كبراً على السفاسف، وأنفة من الدنايا
اللهم وقد اشتعلت القلوب أحقاداً، وامتلأت النفوس ضغائن، وتقطعت بين الناس الأواصر، وفرّق بينهم الحسد، فاملأ قلبي محبة ومودة، وبرئني من الحسد والحقد، واجعلني أطهر من أن أحقد وأكرم من أن أحسد
اللهم إن القلوب قست، والنفوس أجدبت، والوجوه وقحت، فاملأ قلبي رحمة لكل إنسان، ونفسي شفقة على كل حيوان، وأدبني بأدبك، واجعل فكري وقولي وفعلي براً ورحمة وإحساناً
اللهم واجعلني طماحاً هماماً لا تحد طموحي في الحق غاية، ولا ينوء بهمتي في الخير

مطلب
اللهم واجعلني في الحق جريئاً لا أخاف، ومقداماً لا أحجم، ومحارباً لا أجبن، واجعلني عدواً للباطل جريئاً عليه، محباً للحق خاضعاً له
اللهم اجعل لي من ذكرك قرباً وأنساً ورجاءً وثباتاً. اللهم إني أستقبل يومي مؤمناً بك متوكلاً عليك، مخلصاً لك، مجاهداً فيك، راغباً إليك مستمداً منك
فأضئ عقلي بالهدى، واملأ قلبي بالأمل، ورغّب نفسي في الحق والخير، واشرح صدري، واشدد أزري واشحذ عزمي لليوم الجديد
سبحانك لا إله إلا أنت الحق المبين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم
عبد الوهاب عزام
تحية الرسالة في عامها السابع
للأستاذ محمود الخفيف
أَشْهى مِنَ الوَرْدِ ومن نشْرِهِ ... ولَمحَةِ الفرْدَوْسِ من سِحْرِهِ
ومن رُوَاءِ الكونِ مُسْتَشرِفاً ... للرَّائعِ المنهَلِّ من فَجْرِهِ
وَمِن جبينِ الصُّبح في مَهْدِهِ ... وذَائِبُ الطَّلِّ على ثَغْرِه
تُجَاوِبُ الأَنْفُسُ مَسْحُورَةً ... سوَاجِعَ الأبكار من طَيْرِهِ
ومن رُؤَى الحُلْمِ وأَطْيَافِهِ ... وَيقْظَةِ الرُّوحِ على ذِكْرِهِ
ومن سِمَاتِ العيد في ضَحْوَةٍ ... تَزِيدُهُ بشْراً على بشرِهِ
صَحِيفَةُ المشْرق في جَلْوَةٍ ... تُرِيك معنى البَهْرِ من سِرِّهِ
رِسَالةُ الجيلِ على وَمْضِها ... يَسْتَقْبِلُ النَّابهَ من عَصرِهِ
صَبَاحُهَا اللَّمَّاحُ يُوحي لَهُ ... فَيَنْشَقُ الآمالَ في عِطْرِهِ
يَلْتَفِتُ الشرقُ إلى عيدِها ... فيَسْتَثِيرُ العيدُ من فخره
تهزُّه من أَمْسِهِ لَمْحَةٌ ... تَبْتَعِثُ الذَّاهِبَ من كِبْرِهِ
ويزْدَهيهِ الْجِدُّ في يومِهِ ... وَوَثْبَةُ الْمُقْلِت من أَسْرِهِ
يسابقُ العصرَ إلى غاية ... تُنْسِيهِ ما يلْقَاهُ في سيره
سِيري عروسَ الشرق مَوْمُوقة ... على هُدى السَّالِفِ من دهرِهِ
ثوري على الجهْلِ وأسبَابه ... وحَرِّرِي الأعناق من نِيرِه
وَجَنِّبي المشرِقَ ما غرَّهُ ... من زُخْرُفَ العَصْرِ ومن زُوره
ومن سَرَابٍ ظَنَّهُ كَوْثراً ... لو لم يكُنْ صَدْيَانَ لم يُغْرِه
ومَزِّقِي الوَهْمَ فكَمْ مَسَّهُ ... فبَاتَ مَغْلُوباً على أَمْرِهِ
ما كانَ لَوْلا الذُّلُّ يرضى بما ... أَسْدَلَهُ البَاطِلُ من سِتْرِهِ
هاتي من الشرقِ أحادِيثَهُ ... وأَيْقِظِي الذَّاهلَ من سُكْره
قُصِّي عليه الحقَ كيفَ انجَلَتْ ... آيَتُهُ الكبرى لَدَى بَدْرِه
وَحَدِّثِي الغَافِلَ عن مجده ... عن (خالِد) الشرق وعن (عَمْرِه)
ويُمْنِ (هارونَ) وإقبَالِهِ ... ومُلْكِ هارون على بُتَرِه
مِئْذَنَةُ الحق على صَوْتِها ... لم يبْقِ ذو وَقْر على وَقْرِه
تَرن في المشرق أَصْدَاؤُها ... من أَرْبُعِ الهند إلى مِصْرِه
بغدادُ لا تنفكُّ تَهْفُو لها ... كما هفَا الرَّوضُ إلى قَطْرِهِ
كمْ أطْلَعَتْ آفَاقُهَا أنجُماً ... هُمْ في سمَاء الشرق من زُهْرِهِ
وجَارَةُ الوَادِي تَصُوغُ الهوى ... عِقداً يغَارُ الزهْرِ من طُهْرِه
شبابُهَا الأحرارُ كم بينهم ... من عُدَّةِ الجيل ومن ذُخْرِه
صحيفةُ المشرق قد أَلَّفَتْ ... أشبَالَه الغُرَّ على نَصرِه
دِعامَةُ الفُصْحى وبُرهَانُها ... تَدْعو إلى اللهِ على أمرِه
ما نَسِيَ الشرقُ لها عَزْمَهَا ... في حُلْوِ ما تَلْقى وفي مُرِّهِ
ما حفِلَتْ يوماً بغير العلى ... ولم تُجب غِراً على هُجْره
كمْ نابه مدَّ لها كفهُ ... بالرائق السلسال من فكره
وناهض لولا أياد لها ... مَرَّ به العَصرُ ولم يدْرِه
وَسَاجِعٍ في ظِلِّهَا رَفْرَفَتْ ... روائع الآياتِ من شِعْره
وناثِرٌ بنَانُهُ سَاحِرُ ... تَرَى بديعَ الوشْى في نَثْرِه
ومُبْدِعٍ في الفن هَشَّتْ له ... فجاء بالمُعْجِب من بِكْره

ومُلْهَم يحكي عهود الهوى ... فَتَسْكَرِ الألبابُ من خَمْرِه
صحيفةٌ يَبْسُطُهَا أرْوَعُ ... في سِرِّهِ الصدقُ وفي جَهْرِهِ
ألقت له الفصحى مقالِيدَهَا ... فجاءَ بالمُعْجِزِ من دُرِّهِ
كم غايَةٍ في الفن دانَتْ له ... طوعاً وقَدْ عَزَّتْ عَلَى غيره
لا تَبلُغُ الأحْقادُ من نَفْسهِ ... ولا ينالُ الغَدْرُ مِنْ صَبْرِهِ
لا عُسْرُهُ يثنيهِ عَنِ قَصدِهِ ... ولا يُسيغُ الزَّهْوَ في يُسْرِهِ
حَيَاؤه أَجْمَلُ أوْصَافِهِ ... ولا يَدِقُّ المكْرُ عنْ مَكْرِهِ
بيانُهُ سَمْحٌ إذا ساقه ... لا يَنْفُذُ الغِلُّ إلى صَدْرِه
يَبْنِي عَلَى الأخْلاْقِ من مَجْدِهِ ... ما تَعْجِزُ الأحداثُ عن قَهْرِهِ
لا زال يُولِيه الهُدى نورَه ... وَتَرْفَعُ الأيَّامُ من قَدْرِه
الخفيف

وحي العام الجديد

إلى أين نسير

بين التفاؤل والتشاؤم

للأستاذ محمد حسن ظاظا

أم ترى نحن هنا، كما يقول غرورنا لنلعب على مسرح الحياة (دورنا الخالد؟)

جوفروي

انتهى عام وبدأ عام جديد، وانتهت من قبل أعوام وبدأت أعوام جديدة، وستنتهي غداً أعوام لتبدأ من بعدها أعوام جديدة؛ فإلى أين نسير وإلى أي مصير؟ أتُرى ندور في حلقة مفرغة يتصل أولها بآخرها وآخرها بأولها، فلا يمضي عام إلا ويتلوه عام آخر، ولا ينقضي خلق إلا ويخلفه خلق آخر؟

لشد ما يحار الإنسان عندما يسأل نفسه هذا السؤال في مطلع كل عام ولشد ما يجد الحياة حوله لغزاً معضلاً يستعصي على الحل، ولا ينفرج في ناحية إلا ليتعقد ويضيق في النواحي الأخرى

ولقد وقف هذا الموقف بالأمس الأستاذ فراج يتساءل أمام تلاميذه (بالسربون) عن الغرض في حياتنا تحت الشمس، وعن معنى الدور الذي نلعبه على مسرح العالم. وراح يعدد الظروف التي تستثير في نفوسنا هذا الموضوع، والنظرات التي تلقيه على مسامعنا؛ ونحن نورد لك اليوم موجزاً لأقواله، ثم نعقب عليه بما نريد

يقول: (لا يكاد يصل الإنسان إلى هذا السؤال إلا أخيراً، ولكن مشاغل الحياة لا تلبث مع ذلك أن تصرفه عن التفكير فيه؛ والناس حياله سواء، عالمهم وجاهلهم، وغنيهم وفقيرهم، وسعيدهم وشقيهم؛ فليس من واحد منهم يصدمه حادث أليم إلا ويغيم على ذهنه ذلك السؤال المحزن (لماذا نحن هنا؟ وما معنى هذا الدور الذي نلعبه؟)

ثم نحن ندخل الدنيا ونفوسنا مليئة بالآمال والشهوات والرغبات، وتدفعنا هذه النفوس النهمة الجائعة إلى تحقيق إرادتها وسعادتها، فيقف العالم أمامنا ليحارب تلك الإرادة بكل ما يستطيع ومن هنا نقاسي ألم الحرمان ونسخط على حياة وجدنا فيها نهمين نريد أن نشبع وتريد الأقدار أن نجوع!! ولكنا نميل مع ذلك إلى اتهام أنفسنا فنتحلى ونتخلق بالصبر والقناعة والرضى إلى أن تنحط علينا كارثة هائلة، فنفتح أعيننا من جديد لنرى آمالنا المتلاشية، ولنصرخ من أعماق قلوبنا المجروحة، وعقولنا المتزلزلة، ولنتساءل في لوعة وأنين: (ترى لِمَ نحن هنا على ظهر الأرض؟)

وليس لمآسي الحياة وحدها الإصبع الأكبر في ذلك السؤال، فإن لسعادتها أيضاً إصبعاً بل أصابع كثيرة. ذلك أنا نسعد في المبدأ عندما نحقق رغبة من رغباتنا، ولكن إذا ظلت سعادتنا وقتاً طويلاً - وقلما يحدث هذا - فسرعان ما تخبو نارها، وتنمحي روعتها، فيقل شعورنا بها شيئاً فشيئاً، وينقلب على مر الأيام إلى كره فثورة وسخط لأنا لا نجدها حينذاك كافية لمطامعنا ومحققة لجميع آمالنا، من ثَمَّ نرى الحياة عاجزة عن إشباع رغبة السعادة فينا، فنشعر بأن نشعر مسراتنا أوهام، ورغباتنا فخاخ نحن أول من يقع فيها. ولا نستطيع أن نتهم أنفسنا هنا كأن نتهمها أمام المآسي لأن السعادة بين أيدينا؟!

ثم نحن نبدو في المدن كأعظم المخلوقات فنمتلئ شجاعة وثقة وغروراً، ولكن عندما

نخرج إلى الطبيعة المكشوفة، ونجد أنفسنا وحيدين أمام سماء لا نهاية، وأفق تتلوه آفاق، وجبال شامخة هائلة، ونجوم عديدة لا تحصى، وقرى تخفى في غابات، وغابات تختفي في فضاء الطبيعة، بل وعندما نرى أن هذه الدنيا تسبح في عوالم الكون مع عوالم أخرى كثيرة ونحن حيالها لا شيء، ألا ننسى حينذاك سعادتنا وشقاءنا، ونروح متسائلين: (أين نحن من العالم وما دورنا فيه؟)

وحينما ننظر في تاريخ البشرية، ونعرف أنها جاءت عارية أو شبه عارية، ثم قامت منها شعوب، وقام بين هذه الشعوب نزاع فساد الفرس أولاً ثم الإغريق، ثم الرومان، ثم البرابرة؛ بل وحينما نذهب إلى الأصقاع المجهولة في شمال آسيا وأواسط أفريقيا وأمريكا، وجزر المحيط، لنجد فيها قوماً يختلفون في اللغة والفكر ولا يعرفون مثلنا لماذا خلقوا ولا من أين أتوا؛ عندما ننظر في ذلك التاريخ البشري بليله البهيم، وفي الأجناس كفاحها وصراعها، ألا نشعر بغموض هائل يكتنفنا من كل ناحية؟ أما هذه الإنسانية التي نحن جزء منها؟ من أين أتت؟ وأيان تذهب؟ أترى هي كأعشاب الأرض وأشجار الغابات تخرج من

التراب وإليه تعود؟ أم ترى هي هنا - كما يقول غرورها - لنلعب على مسرح الحياة دورها الخالد المحتوم؟ وأي دور ذاك وما عسى أن يكون؟ لقد سقطت المدنية الشرقية تحت أقدام المدنية اليونانية، كما سقطت المدنية اليونانية تحت أقدام المدنية الرومانية، وكما سقطت هذه الأخيرة تحت أقدام المدنية الجرمانية، فترى أي مصير سيكون لهذه الأخيرة؟ أهو الانتصار المحتوم ثم السقوط كما حدث لسابقتها؟ وماذا يكون دور الإنسانية إذاً؟ أهو الدوران في حلقة مفرغة؟ أم هو الترقي والتقدم؟ وأين الترقي والتقدم من وحشية الحروب وفظاعتها؟ وهكذا يحار الإنسان كثيراً وسط هذه الغيوم فيتساءل عبثاً عن القانون الذي يسوق قطيع البشرية بهراوته من أصل مجهول إلى مصير مجهول!

ثم (العلم) بماذا يحدثنا؟ إنه يقول إننا مجرد حلقة في سلسلة المخلوقات!؛ فالأرض قد استُعمرت في المبدأ بالنباتات الضخمة التي لا تقارن بها نباتاتنا، والتي لم تكن لتظل بأوراقها الواسعة العريضة كائناً ما! ثم جاءت ثورة جارفة هدمت تلك الخليقة الأولى كما لو كان خلقها عبثاً، وأحلت محلها خليقة أخرى هي الزواحف والأسماك!! ثم جاءت من بعد هذه خليقة ذوات الأربع الهائلة فمهدت الطريق للإنسان الذي طفا أخيراً على السطح كحلقة في سلسلة سابقة! وقد عاشت كل خليقة من هذه الخلائق السابقة على الأرض كما نعيش الآن، فلم لا يأتي يوم ننقرض فيه وتصبح عظامنا أمام الخلائق الجديدة مجرد حفريات ضخمة شائهة تحويها المتاحف وتعجب منها العقول؟؟ إننا حلقة بين حلقات مجهولة ناقصة، وقد خرجت هذه الحلقة لتتحطم بدورها كما تحطمت أخوات لها من قبل، فمن نحن إذاً؟ وأي حق لنا في الأمل والغرور؟؟

في كل مكان إذاً حدود، وفي كل مكان ظلام وعجز وألغاز تتلو ألغازاً! ونحن نجد أنفسنا متسائلين وحائرين كلما وقعنا تحت تأثير هذه الظروف، وكم منا قد انتحر إزاء هذا المشكل الكبير!، وكم منا قد لجأ للعقائد التقليدية ليقنع بما فيها من أقوال ووعود، ولكن خيط حياتنا لا يفتأ يهتز ويتذبذب كلما تساءلنا في حزن وأسى عن أصلنا ودورنا ومصيرنا المحتوم!!

ولكن الأمر يبدو بالرغم من ذلك كله أهون مما نظن! وذلك لأن الحياة والموت، والسعادة والشقاء، وعِظم الخليقة وظلام التاريخ؛ كل ذلك وإن أحزن القلب والعقل والضمير فهو يتحدث إلينا بألف لسان ليثير ثورة جارفة تصد اليأس. وتذود النوم، وتدفع الإنسانية إلى

البحث الشاق الطويل!!.

إلى البحث الشاق الطويل؟ أجل إلى البحث الشاق الطويل! وإذا كانت الأديان قد وفرت علينا مشقة الحل فما ينبغي لعقولنا النورانية أن تقف عند حد أو أن تقنع بالقليل. ولن يضيرنا أن نكون حلقة في سلسلة مجهولة الأطراف، فحسبنا أننا نعيش لنلعب دورنا المحتوم في الحلقة التي نعيش فيها، ولن يضيرنا أن نتعرض في حياتنا للكوارث والآلام، فحسبنا أن نعلم أن قانون الحياة صارم على الجميع وأن مجدنا وعظمتنا في التحمل والكفاح والصراع أكثر مما هما في الدعة والسرور واللين. ومهما يكن شأننا ضئيلاً في الكون الهائل المخيف فلا شك أننا نستطيع أن نسمو بعقولنا

وقلوبنا إلى عليين، وأن ندرك كل عام من أسرار الحياة والوجود ما يقيم لنا وزناً في العالم المجهول. وإذا كان العلم يشير إلى سلسلة متدرجة مترقية في المخلوقات فلنسأل أين كمالنا نحن البشر وما عسى أن يكون دورنا الحق في الوجود؟ وإذا كانت ميزتنا الكبرى قائمة في (العقل) كما يقول أرسطو فلا مندوحة لنا من جعله يمتد بأشعته إلى سر الحياة والكون ليأتينا منه كل عام بجديد في نواحي ذلك الثالوث المقدس، ثالوث الحق والخير والجمال. ومهما يكن من شأن النكوص العارض في خط السير فلا شك أننا نقدر جميعا تلك الخطوات الهائلة التي قطعتها الإنسانية منذ فجر التاريخ إلى اليوم نحو التقدم والمدنية والنور. فاليوم علم بعد جهل، وديموقراطية بعد عبودية واستبداد، وسلام بعد حروب وغارات! أقول (سلام) وأعلم تماماً ما سوف تقول! وأين السلام من تلك الشعوب المتناصرة المتنابذة التي يحفر كل منها للآخر هوة سحيقة للموت الداهم الفظيع؟ ولكن رويدك فالفكرة موجودة، وتزداد بحرارة الخطر اختماراً، حتى إذا انفجر البركان وأصاب الإنسانية منه أقصى سعير استوت على عرشها وسادت سيادة أنجح وأضمن كما سادت بالأمس القريب فكرة تحرير الرقيق بعد قرون الذل والعبودية والانحطاط!

إلى الكمال إذاً نحن نسير! إلى كمال الحق والخير والجمال؛ ولا نفاضل بين الأجيال إلا على ذاك الأساس. ولا ينبغي أن تكون لنا غاية غير هذه الغاية! ولا يجوز أن نقيس حياتنا أفراداً وجماعات إلا بهذا المقياس. ولئن كان مقدراً للأجيال ألا تبلغ ذلك الكمال المثلث فإنما شاء الله ذلك لكيما تبقى للإنسانية غاية تعيش من أجلها وفي سبيلها تموت. فلننظر إذاً أي قدر من ذلك الكمال قد تركته لنا الخلائق والأجيال الماضية تراثاً ثميناً مجيداً، ولنعرف كيف نصونه ونحافظ عليه ونسلمه لأبنائنا وديعة كريمة جميلة؛ ثم نفكر في ماذا عسانا نستطيع أن نزيد عليه من الحق والخير والجمال كما فعلت الأجيال السابقة ليبقى ما نزيده ناطقاً باسمه على مر الدهور والأجيال

أجل يجب أن نفكر في ذلك ونسعى في تحقيقه ونحاسب أنفسنا بصدده عند مطلع كل عام جديد

ويجب على هذا الأساس أن نرحب بالعام وان نتفاءل بمقدمه، وأن نرجو الله داعين منيبين أن يكشف فيه للإنسانية عن درجات أخرى من سلم ذلك الكمال المنشود.

محمد حسن ظاظا

مدرس الفلسفة بمدرسة الخديو إسماعيل الثانوية الأميرية

. . .قلت لنفسي

إن مبدأ الإسلام، إقرارَ السلام؛ ومع ذلك لجأ إلى القوة وأخذ بنظام التسلح، فشرع القتال ثم قال: (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم. . .) ومن قبلُ جاءت المسيحية عزوفة النفس زهيدة العين تسبل العفو عن الجارم، وتبيح الخدين للّاطم، وتترك ما لقيصر لقيصر وما لله لله؛ ومع ذلك قال المسيح: (ما جئت لألقي سلاماً بل حرباً)

فهل معنى ذلك إلا أن القوة هي شريعة الله يحفظ بها سلام العالم، ويقر عليها نظام الحياة، ويدفع بها بعض الناس عن بعض حتى لا تفسد الأرض؟

لقد جأرت أوربا كلها ليلة عيد الميلاد بنشيد المسيحية الشرقية: (وعلى الأرض السلام) حتى جفَّت الشفاه، وبُحت الحناجر، ثم أصبح الناس

فإذا إيطاليا بلد البابا تحشد الجيوش إلى حدود الصومال، وفرنسا تجيب

على التحدي بجنود السنغال، وهتلر وجون بول يقفان متحفزين

!!متلاحظين: هذا من وراء الديمقراطية، وذاك من وراء الدكتاتورية

فهل يحسب الذين يثبطون مصر عن إرصاد الأهْبة وإعداد القوة بحجة ما نكلف من المال، ونجشم من الأعمال، إنهم يطيعون الله ويخدمون الوطن؟.

ابن عبد الملك

للتاريخ السياسي

نتائج اتفاق مونيخ

للدكتور يوسف هيكل

كان يوم الجمعة 30 سبتمبر (أيلول) سنة 1938 يوماً تاريخياً هاماً مغيراً تغييراً رئيسياً

لوضعية أوربا الدولية، ولاتجاه السياسة الغربية، إذ به تم اتفاق الدول الأربع (في مونيخ) على حل المشكلة التشيكوسلوفاكية حلاً لم يتوقعه أحد قبل أيام من ذلك التاريخ، فجزأ هذا الحل التشيكوسلوفاكيا وأثر تأثيراً عظيماً وسيئاً على حياتها الاقتصادية والسياسية. وأهم من ذلك أنه أدى إلى نتائج دولية خطيرة، تتصل بعلاقات ألمانيا مع دول جنوب شرقي أوربا والشرق الأدنى من جهة، وبوضعية دول أوربا الكبرى من جهة ثانية.

انتصرت فرنسا عام 1918، فعمل ساستها ورجالاتها على تأمين سلامتها، وإبعاد خطر الغزو الجرماني عنها. إذ ذاقت فرنسا مرارته مرتين في مدة أقل من نصف قرن. واستخدموا لذلك وسائل تأمين السلامة المعهودة قبل الحرب العالمية: المعاهدات والمبادئ التي تولدت عن الحرب الكبرى، والضمان المشترك ضمن نطاق عصبة الأمم عملت فرنسا عام 1918 على تطويق ألمانيا من الجهة الشرقية بدول معادية فأوجدت بولندا وتشيكوسلوفاكيا، وربطتهما بباريس بمعاهدات دفاعية. ولتقوية مركز تشيكوسلوفاكيا الدولي، وإيجاد كتلة قوية أمام ألمانيا في جنوب شرقي أوربا، ساعدت فرنسا في تكوين التحالف الصغير بين تشيكوسلوفاكيا، ورومانيا، ويوغسلافيا، وربطت هذا التحالف بنفسها بروابط ودية متينة. وفي عام 1935 وقعت فرنسا على معاهدة دفاع متبادل بينها وبين الروسيا، وتوسطت إلى إيجاد مثل هذه المعاهدة بين صديقتها تشيكوسلوفاكيا وبلاد السوفيت. ظنت الدوائر السياسية أن هذه الروابط الدولية جعلت مكان تشيكوسلوفاكيا الدولي متيناً لا يتزعزع، ويحول دون أي تفكير في الاعتداء على جمهورية مزاريك، واعتقدت هذه الدوائر أيضاً أن القوى المناهضة لألمانيا في أوربا الوسطى والشرقية قوية إلى درجة لا تجعل حكومة برلين تفكر في اختراق النطاق الذي يحيط بها في تلك الجهة.

لم تكتف فرنسا بإيجاد ربيبتها تشيكوسلوفاكيا وتقوية مركزها الدولي، بل عملت على تحصين الحدود التشيكوسلوفاكية الألمانية، وتنظيم الجيش التشيكوسلوفاكي وتقويته، لتتمكن من صد أي هجوم حربي ألماني عنها. لهذا أقرضت باريس براغ المليارات من الفرنكات وأرسلت لها المهندسين الحربيين الأخصائيين لإنشاء حصون هائلة على الحدود الألمانية، فأنشئ (خط ماجينو التشيكوسلوفاكي) وصرف عليه ثمانون مليوناً من الجنيهات. ثم أرسلت فرنسا البعثات الحربية لتدريب الجيش التشيكوسلوفاكي وتنظيمه، فأصبح من أنظم الجيوش الأوروبية وأهمها. وزيادة على ذلك، فإن دخول تشيكوسلوفاكيا الجغرافي في قلب ألمانيا يساعد على جعل هذه البلاد مركزاً لقوة طيران عظيمة تستطيع هدم كبريات المدن الألمانية الواقعة في الجهات المختلفة. وقد ساهمت فرنسا في تقوية قوى الطيران التشيكوسلوفاكي، واعتمدت كثيراً على موقع تشيكوسلوفاكيا الجغرافي، لهذه الغاية، فكان بإمكان القوى الجوية المتجمعة في تشيكوسلوفاكيا، تهديد المدن الألمانية بسهولة وفي وقت قصير. فظنت الدوائر السياسية، بعد هذا التحصين وإيجاد هذه القوى، أن لا فائدة لألمانيا من محاولة الهجوم على ربيبة فرنسا. كما أنها ظنت أن لا أمل يرجى لألمانيا من مهاجمة فرنسا لوجود (خط ماجينو) الذي تتحصن فيه عند الحاجة الجيوش الفرنسية، وجيوش دول معاهدة لوكارنو، ولوجود القوى الهائلة المحالفة لفرنسا في أوربا الوسطى والشرقية، التي في إمكانها الانقضاض على ألمانيا من الجهة الشرقية بسرعة وسهولة

خلافاً لهذه القوى التي هي في حد ذاتها قوى فعالة لا يستهان بها إن عرف استخدامها، فإن فرنسا استعملت في تأمين سلامتها من الخط الجرماني، مبدأ (الضمان المشترك) ضمن نطاق عصبة الأمم. فكان من أقوى أنصار عصبة الأمم ومن العاملين على تنظيم الضمان المشترك وتنفيذه ومن أشد الغيورين عليه والراجين منه سلاماً. فهل منعت المعاهدات والضمان المشترك ألمانيا عن اجتياز السور الذي أقيم حولها؟ وبعبارة أخرى، هل أوصلت السياسة التي تبعتها فرنسا خلال العشرين سنة الماضية الشعب الفرنسي إلى ما يبغيه من سلام وطمأنينة؟

لم تنفذ المعاهدات، ولم يعمل بموجب الضمان المشترك. وتمكنت ألمانيا من رفض القيام بما قبلت من واجبات ومن السير بخطى واسعات للوصول إلى ما تبغي وتطمح وكان أول ما قامت به ألمانيا امتناعها عن دفع التعويض للحلفاء، فلم ترغم على دفعه،

ثم قرارها بإلغاء القيود العسكرية في معاهدة فرساي وإعادتها التجنيد الإجباري، وتجديد معامل
الأسلحة والذخيرة في بلادها، وبناؤها أسطولاً جوياً هائلاً، فلم يردها الحلفاء السابقون والحاليون عن هذه الأعمال، ثم احتلالها لمنطقة الرين التي تقضي معاهدة فرساي ببقائها مجردة من كل صبغة عسكرية. فلم تتخذ الدول المتعاقدة في لوكارنو الإجراءات العسكرية التي تقضي بها معاهدة لوكارنو لإعادة منطقة الرين إلى حالتها السابقة، ثم ضمت ألمانيا دولة قديمة برمتها إليها، فلم تحرك الدول ساكناً أما عصبة الأمم فلم تأت بعمل فعال ضد الإجراءات الألمانية، كما أنها لم تنفذ قانونها حين احتلال منشوريا، والحرب الحبشية، والحرب الأسبانية، والحرب الصينية. تلك الحروب التي هي وليدة أنانية الدول الكبرى، وضعف عصبة الأمم المستعمرة ووجود الضمان المشترك بين طيات الأوراق فقط.

وتلا هذه الأزمات والحروب الأزمة التشيكوسلوفاكية. وبعد محادثات اتفقت فرنسا وبريطانيا العظمى على حل النزاع الألماني التشيكوسلوفاكي عن طريق سلمي، فعقد مؤتمر مونيخ وسلمت بريطانيا وفرنسا فيه بمطالب الهر هتلر، وخرج زعيم ألمانيا منه منتصراً من غير حرب.

في مونيخ تم هدم ما بنت السياسة الفرنسية خلال العشرين سنة الفائتة. واتفاق مونيخ كان (ضربة الرحمة) (أي الضربة القاضية) لعصبة الأمم ولمبدأ الضمان المشترك. إذ في مونيخ مزقت تشيكوسلوفاكيا دون أن تعلم عصبة الأمم بذلك، ودون أن يأتي أحد من حلفائها لنجدتها، حتى أن والدتها وافقت على هذا التمزيق.

وتمزيق تشيكوسلوفاكيا أزال قوتها العسكرية والدولية. إذ خسرت تشيكوسلوفاكيا ما يزيد على أربعة ملايين من سكانها وفقدت حصونها وقلاعها التي وضعت فيها قوتها وأموالها كما أنها فقدت أيضاً كثيراً من مواردها الاقتصادية، وأصبحت تحت رحمة جارتها القوية.

أما نفوذها الدولي فقد زال، لزوال مصادره، إذ كانت تشيكوسلوفاكيا تستمد قوتها الدولية من تحالفها مع فرنسا والروسيا ودول التحالف الصغير. فجاء اتفاق مونيخ فألغى تحالفها مع فرنسا والروسيا، وأبطل عملياً وجود التحالف الصغير. لأن دول هذا التحالف لم تأت بحركة قبل مؤتمر مونيخ للدلالة على وجود التحالف. وهي بالطبع لا تستطيع وضع تحالفها موضع العمل بعد اتفاق مونيخ الذي سلمت فيه الدول الكبرى لمشيئة الهر هتلر.

فتحالفها هذا زالت أهميته عملياً، ولم يبق له وجود في السياسة الدولية.

(للمقال بقية)

يوسف هيكل

من الأدب الإنجليزي

دفاع الشيخ عن عرضه

للكاتب الإنكليزي سيرجون وارد

للأستاذ محمد لطفي جمعة

جلس لورد آشلي أوف بلاكبوري كاسل وهيلدا بريكفيلد وارثة بارون أوف كليرمونت، ينظران إلى الشفق، وقد توارت الشمس بالحجاب، وقد هبط عليهما وحي الحب، وسرت فيهما نشوة الغرام، إذ رآهما الشفق ضجيعي لذة وصبوة، وكان لكل منهما ما ذكره بماضي مباهج الحياة. وكانا مجتمعين خلسة في غيبة والدها بارون أوف كليرمونت الذي كان يعارض في زواجها من حبيبها لورد آشلي، الشاب الذي قضى معظم شبابه في المغامرات والفروسية، ومناصرة الملك شارل على ويليام أوف أورانج، الذي غزا البلاد، واغتصب العرش والتاج. وإذ كانت الفتاة والفتى يرتشفان كأس السعادة في تلك الخلوة التي كانت حلماً من الأحلام، فزعت واستيقظت من غفوة الهناء، على غير انتظار. وماذا رأت؟ ويا هول ما رأت! أي عينين هاتان البراقتان؟ هما حقاً عينا أبيها البارون الشيخ نصير ويليام أوف أورانج، وأحد أبطال الموقعة الحاسمة التي خضبت دماء هاستنجز بالدماء، وأقصت الملك الشرعي عن البلاد. . . ثم صرخت اللادي الشابة ناهضة وخرَّت صارخة وقد تنازعها الحزن والفرح، وتوزعها الخوف والرجاء؛ وإنها على فرط حبها أباها لم تملك أن شعرت عند رؤيته بفزع ورعب

منه وهو يراها بين ذراعي حبيبها الذي يبغضه ويمقته ويتربص به الدوائر، بعد أن أقصاها عنه وحرم عليها اللقاء، فثار لورد آشلي لصيحة حبيبته وأمسكها ساقطة ثم عمد إلى الجدار، فتناول حسامه بأسرع من اللمح ليحمل على الذي سبب كل ذلك الرعب. وكان البارون المسنُّ والشيخ الهم لا يزال صامتاً، فلما رأى الفتى يجرد حسامه ويستعد لنزاله ابتسم هازئاً وقال:

(إن بأدْنى مسمع مني ألوفاً يحملون البيض المشرفية، والسمر السمهرية، فضع سيفك يا فتى، ولا تكن غراً أحمق!)

وتشبثت اللادي هيلدا بآشلي وصاحت: (إنه أبي. . . فاركع له معي، لعله يغفر لنا ويصفح عنا - وكانت هذه علة رجائها - نعم! ما أراه إلا فاعلاً ذلك. . . نعم سيغفر لنا ويصفح عنا. . .) ثم استدارت نحو الشيخ النبيل وقالت له:

(أبتاه! أخليق بك أن تجعل للخوف والشك في صدر ابنتك موضعاً ومجالاً؟ أخليق بك أن تدعَ الرعب يلاطم الأمل في فؤادي، وتترك الريب يزاحم الثقة في قلبي؟ أبتاه! اصنع بابنتك ما تشاء واعف عن هذا الغلام، فأنا التي أمَّنته وشجعته على هذا اللقاء!)

ولكن البارون الشيخ وقف ثابت الركن شامخ الأنف، أصيد مهيباً، وقور الجانب، محصن النفس من كل ما عساه يهجم على القلب من دواعي الحنان وعوامل الرحمة. وكان عدا ذلك المظهر قوي الصوت، سديد النظر، ساكن الأوصال - وهي علائم ضمير ليس بالساكن ولا الهادئ - وكذلك جعل يرنو إلى ابنته ولا يجيبها، ثم التفت إلى آشلي وكان الدم في وجنة الفتى يذهب ويجيء، وقد قام متأهباً للحملة على من عسى يلي دعوة الشيخ من خوله وجنوده وعسسه وأحراسه. وكانوا جميعاً أشداء ذوي بأس وأسر متين

وقال البارون كرة أخرى: ضع سيفك يا غلام، فقال الفتى: لا! مادام هذا الساعد مطلقاً! فابيضت وجنة الشيخ، لا رهبة ولا فزعاً، ثم استخرج من نطاقه مسدساً فقال: (على رأسك إذن دمك!) ثم أقبل يتأمل الزناد فألفاه صالحاً حديث العهد بالقدح. . .

وبعد ذلك أقبل يُهيئه للرمية القاضية. . . وكان لتلك التهيئة صليل يخشى وقعه في الأذن وهو نذير الردى. تهيأ الشيخ للإطلاق، ولو أطلق لوقف شيئين معاً: حياة اللورد الشاب عاشق كريمته، وبراعة المؤرخ، كاتب هذه الأسطر، ولختم شيئين معاً: عمر الفتى وقصتنا التاريخية، ولكن هيلدا وهي أشد من أبيها عناداً وأنفذ صرامةً وأصعب شكيمة، ألقت بنفسها دون الغلام وصاحت:

(لا تطلقن خطيئتي فإنها خطيئتي وحدي، وما كان مجيئه هذا القصر عمداً، وإنما طوح به إليه القدر، بعد المعركة التي خرجت منها ظافراً، وأوردته صروف الزمان. وقد أعطيته ذمتي وعهدي، وما كنت قط للعهد بخافرة ولا للوعد بمخلفة. وإني لأحبه فوق ذلك، وأفديه بنفسي وأقيه بمهجتي. . . إنني يا والدي أعرف صرامتك، وأردت أن أعرفك صرامة ابنتك، وإن وراثتنا لا تكذب، والدم الذي يجري في عروقك وعروقي لا يخون!)

لقد كانت الفتاة منذ لحظة كلها رحمة ورقة ولين وطفولة بريئة ونعومة طاهرة، ساجية الطرف، خافقة الأحشاء، فإذا هي كلها جرأة وإقدام، راسخة الوطأة، سامية النظر، كأنها قدت من الصخر الأصم أو هي الطود الأشم!

وكانت هيلدا بريكفيلد بارونس أوف كليرمونت مديدة القامة، فأتلعت وتطاولت تعالياً وخيلاء. . . وصادمت لحاظ أبيها من لحظاتها بما هو أشد وأقسى، ولكنها لم تمد يداً لمنع الشيخ مما ظل يحاول، لأنها لم تخف عادية الردى، كأنها ترتاح لطارق الموت وتهش للأجل المتاح، وجعل الوالد ومن ولد يتبادلان النظر. فما كان أعجب قرب الشبه بينهما، يا لهما من أسد وفلذة كبده!

وتوقف البارون برهة، ثم رد سلاحه إلى نطاقه، ولكنه وقف يقذفها بنظراته كأنما يريد أن يفضي ببصره إلى مخبآت ضميرها ثم قال:

ما أنا من أراد بهذا الغلام سوءاً، وما أنا من جلب ما قد ترينه الآن من الشر والأذى، وقد يندر من يصاب بمثل ما نالني من انتهاك الحرمة والغدر فلا يسفك دماً ولا يزهق نفساً

بيد أني سأفعل الواجب وإن أخللت أنت به وأشأت أداءه. فليلقين حسامه وإلا ورأس أمك لأدعن رأسه على هذه الأرض تثب وتتدحرج وتصبغ الصخر باللون القرمزي

ثم رفع البارون بوقه إلى فمه فنفخ فيه، وإذا ببوق يجيبه من خارج القصر ودخل عشرون رجلاً مدججاً يعدون مسرعين على رأسهم قائد وصاح البارون (اقبضوا على الغلام أو اذبحوه. واجتذب الشيخ الفتاة إليه بأسرع من لمح البصر وحال الجند بينها وبين حبيبها فجاهدت عبثاً أن تتملص من قبضة أبيها. وكيف وقد كان التفاف ذراعيه حولها كالتفافة الأفعوان؟ وشد الجند على لورد آشلي شدة فارس واحد. ولكن آشلي حمل بالسيف على أولهم فشق كتفه وألقاه يتخبط في دمه، وعلى الثاني فشج وجنته. أما الثالث وكان سيافاً حاذقاً فقد جعل يروغ من ضربات قرنه اللورد الشاب حتى أصاب غرة منه فضربه فجندله صريعاً ينضح دماء من طعنتين إحداهما في الذراع والثانية في الرأس، ثم غَلُّوه حيث خَرَّ وأخذوه من الحجرة وأومأ لهم البارون الموتور أن امضوا به إلى الساحل حيث كانت سفن ترحل وتبحر فأودعوه زورقاً وأعملوا المجاديف حتى بلغوا السفن، وكانت منضودة صفاً فوضعوه في إحداها. أما الفتاة بعد أن رأت حبيبها جريحاً أسيراً، فقد غشي عليها، وما زالت في ذبول ونحول اثنتي عشرة ليلة ثم أسلمت الروح بلا أنَّة ولا زفرة.

محمد لطفي جمعة

في الأقصر

للآنسة الفاضلة (الزهرة)

لا أظنني أسترسل في عزّة تأخذني بالباطل إذا قلت: إن الأقصر يجب أن تعد بحق في طليعة المشاتي العالمية العظمى، فسماؤها دائمة الزرقة، وشمسها الساطعة التي تضفي على الأجسام أبراد الصحة والحياة، ونسماتها المنعشة المحيية، وزروعها الخضراء التي لا يكفي الخريف نضرتها بصفرته الذابلة، ونيلها السعيد المنساب في أحشائها يوزع عليها هدايا الخصب والبركة، وواديها الحافل بمقابر الملوك والملكات والأمراء والنبلاء، ومقابرها التذكارية التي تجلي الإنسانية في مثلها العليا ومبادئها السامية، وأطلال هياكلها الأثرية، بل قصورها الخالدة التي تقوم إلى اليوم وسط مبانيها الفخمة والمتواضعة، وتتيح لها اتخاذ اسمها الحاضر الأقصر (القصور) - كل هذا أو بعض هذا يجعلها محط رجال أهل الفضل والثقافة والنبل، يسعون إليها من مختلف الأقطار على أخفّ من جناح الطير. ولقد تسنى لي في الأسبوع الماضي أن أتعرف إلى نخبة من هؤلاء الأعلام، وأن أضع جانباً من وقتي واهتمامي بين يدي فتاة غريبة نابهة تعنى بدراسة أحوال هذه البلاد وتتغنى بأمجاد تاريخها وبدائعها. . . على أن أروع الصور وأوقعها في النفوس لا تكاد تستغني في استتمام جلالها عن الظلال القاتمة والألوان الغدافية، التي تمسّ أوتار الألم المتنبهة أبداً فينا، فقد عرض لي أثناء تجوالي مع هذه الرفيقة الفضلى ما ضاقت له نفسي، من شؤون دعتني إلى تحريك قلمي اليوم للفت نظر من بيدهم الأمر رجاء معالجتها استكمالاً لأسباب المجد الجدير بهذا المشتى عرض الأثري الخالد كيلا يشيح عنه قاصدوه، ويروا أن ما عانوه في سبيل الوصول إليه كان ضرباً من العبث المبين والجهد المستطير، وتنزيهاً لنا عن الانحطاط الذي رسختْ نسبته إلينا في أذهان أهل الغرب ولا يصح أن نبقى فيه متورطين، ولا سيما بعد أن أبدتْ صاحبتي إعجابها بمظاهرنا كلها التي تشهد بأننا قوم غمسنا في الترف، وحظينا بالنعم، ونهجنا الصراط السوي في التضامن والتكافل والكرم، بفضل ما تدره علينا بلادنا الخصبة. وقد سألتني يوماً عن أحياء الرعاع عندنا: هل فيها من مظاهر العوز ما تطير لمرآه القلوب، ويرسل في نواحي النفس جميعها لدغاً مؤلماً مسرفاً في الإيلام؛ فلم أخفِ عنها أن بالأقصر أحياء فقيرة كغيرها من بلاد الله؛ وإن كنت قد ذكرت لها أنها لا

تخلو من جماعات أهلية وحكومية، تنظم الخير، وترعى المعوزين، وتعلم صغارهم تعليماً إلزامياً وصناعياً بالمجان؛ وذكرت لها في غير تبجح، أن قلوب أهل هذه الربوع الوادعة لا تزال محتفظة بغرارة الفطرة السمحة المتآخية هي منازل للرحمة ومواطن للسخاء. ثم سألتني عن التسول وعما إذا كان مباحاً، فَوجْمتُ وقد أسرع إلينا أصحاب الأجسام المشوهة، والعيون الذابلة القذرة، والثياب الرثة المهلهلة. وأشهد الحق أني ما كدت أراهم حتى ذبت خجلاً، إذ كانت العربة قد وقفت بنا في تلك اللحظة أمام معبد الأقصر الأزليّ، القائم على شاطئ النيل في أجمل أحياء المدينة وأغناها؛ وغضضت بصري وخشيت أن أرفعه نحو صاحبتي وهي لا ترى تجاه العظمة الماثلة أمام أعيننا،

سوى تلك الأيدي الممتدة بذل السؤال لتنقض ما شاهده القوم من مكرمات. ولو كنتُ من أرباب السيادة والسلطان لاتخذتُ كل الطرق الفعالة للقضاء على التكفف، ولكن قلة عدتي تضيق على دائرة نفوذي، وإن كانت لا تمنعني التوجه إلى أولي الشأن بإلحاحي أن تعزز القوات لمعاونة أولئك الشحاذين المساكين، فإنا لو ذكرنا أن رقيّ المجموع إنما يحسب بقدر تعدد مطالب الفرد، لرأينا أننا أبعد الأمم عن الرقي الصحيح. ولا ينتشر التسول في محيط إلا كان دليلاً على أثرة الأقوياء الأثرياء، ومقياساً لخسة مطالب الفقراء التي لا تتعدى ما تجدّ العجماوات في طلابه لسدّ الرمَق. وإنها لإحدى الكبر أن يسجل أهل بلدي العطوفون الأسخياء على ذواتهم ما تستتبعه غفلة إهمالهم، وهذه طلائعه تظهر في الجهة الواحدة بؤساً وفناء وتقلصاً وتهديماً، وفي الجهة الأخرى نمواً وازدهاراً وانبساطاً في رحاب النعم، فلا يَكْمل سناء هذا إلا باستكمال تضاؤل تلك

ثراء وبؤس كيف يلتقيان؟ ... مقيلاهما في القلب مختلفان

فليسمحوا لي أن أنبههم إلى تدارك هذا الأمر الخطير، وليعلموا أني بإلحاحي في وجوب السهر على منع الشحاذين من الانتشار في أحياء المدينة لا أبغي أن يحرموا عطفاً يخولهم إياه بؤسهم. وبأي حق يحرمونه والأزمة عضود، والأيام جديبة، وأولئك المفلوكون أحوج للعون وأجدر بالمساعدة؟ ولكني أرجو أن يتوسلوا إلى ذلك برشاد الرأي واستخدامه لوضع كل شيء في موضعه. وليعلموا أن خير وجوه الإحسان زيادة البذل من المال في سبيل تخفيف الألم العام وتنمية روح الحق والصلاح والتهذيب، وتوجيه النفوس إلى حياة العزة

والكرامة، فلا تعيش للكسل والخمول اتكالاً على كرم المحسنين

هذا ولا بدَّ لي هنا من الإشارة إلى ما حدث في اليوم التالي حين رافقت صاحبتي إلى (وادي الملوك) فقد تجمهر حولنا صغار السائلين المعتفين وتتبعوا خطواتنا، وكادوا يلزموننا أن نعطيهم شيئاً من النقود. ولعمر الحق أن دموعي تنهمر غزيرة إذ أذكر أولئك الأطفال المحرومين متاع الطفولة المقيمين في منازل الشقاء حيث تقيم الحاجة بجانب الجهل، ويقطن الذل في جوار القنوط، الذين يعيشون على الجانب الأيسر من النيل، في تلك الأكواخ الحقيرة، المنثورة حول مدافن الملوك الغر الميامين، كجراح عميقة في جسم كياننا الاقتصادي والعمراني، ويموتون مهملين. لهف قلبي على تلك الزهرات الأنيسة التي تذبل في ظلام الحاجة والجوع والإهمال! ونحن نمرُّ بها على الجانب الأيمن، الجانب المعمور بمدارسه دون أن نعيرهم التفاتاً. ومَنْ ذا الذي يستطيع يَسْتطيع أن يدرك كنه القوى الكامنة فيهم، التي لا تدركها النجدة والثقافة لتبرزها إلى الوجود عظمة ومجداً وفضلاً ونبلاً

إن أيديهم التي تبسط اليوم في ذل السؤال، ستبسط في الغد للسطو والنهب، إذا لم يسعفها التهذيب الصحيح، ويجعلها أمينة للغد، نشيطة عاملة لرقي البلاد. ولقد جابهتني صاحبتي ببؤس هؤلاء الصغار، وتدفقت في الدفاع عن حقوقهم، ودهشت كيف تتقاعد الحكومة عن رعايتهم اللازمة، وقالت: إن الأطفال في جميع بلاد الله يقطعون مرحلة التعليم الأولى مجاناً، ولو ذهبت تلك البلاد في أحضان العزلة والريف. وإني وإن كنت أضم صوتي إلى صوتها في وضع احتياج أولئك الصغار أمام من بيدهم الأمر، لا أقصد رجال الحكومة فقط. ومن السفه أن نوجه نظرنا إلى الحكومة في كل شيء، ونطلب منها أن تخلق خلقاً جديداً. وليس من شأن الحكومات أن تفسح للناس القادرين سبل العمل، فيسعون بكل وسيلة صحيحة لرفع الصغار الفقراء، إلى مستوى يتعاضد فيه الجميع ويتناشدون، متعاونين على حب الحياة، ومراعاة المنفعة العامة.

بقي أني لا أستطيع أن أختم كلمتي اليوم قبل أن أضمنها أمرين تفزعت لهما صاحبتي. أولهما الصياح الذي اختص به باعة التحف الحديثة التي يصوغونها على طراز العاديات الأثرية، وإلحاحهم في عرضها علينا، وإمعانهم في إظهار ما كانوا يظنونه في أنفسهم من المقدرة على أن يبتزوا منا ثمنها . . .

أما الأمر الثاني فالقسوة التي يبديها بعض حوذية المركبات في إعنات خيلهم وإنهيالهم عليها بسياطهم، حتى لقد حسبت أن بلدنا ينقصها فرع لجمعية الرفق بالحيوان، وسألتني إن كانت الحكومة تشرف على أعمال هذه الجمعية، فأجبتها بالإيجاب، ودللتها على المكان الذي تدار فيه شؤونها، وعلى مناهل الماء التي أعدتها لتخفيف وطأة

الظمأ على السائمة وتكليف رجال البوليس بحمايتها من القساة الذين لا يكثر وجودهم بين الزارعين المرابعين المشهورين بعطفهم على ماشيتهم، وتعلقهم بها تعلق الوالد بأولاده المحبوبين.

فسرى عنها وقالت وفي عينيها بريق اللجاجة والحنان: (ولكن رجائي إليك أن تحمسي رجال البوليس للتشديد على الحوذية الذين يضربون خيولهم العزيزة المسكينة بغير مسوغ).

وإني لعلى ثقة بأن الخير الذي وعدتها به ستحققه همة أولي الشأن من الحازمين.

الزهرة

رسالة العلم

العالم اليوم

للدكتور محمد محمود غالي

تقدم الرسالة إلى قرائها الدكتور محمد محمود غالي محررها العلمي، وهو يحمل ألقاباً شتى في الطبيعة والرياضة، أهمها دكتوراه الدولة في العلوم الطبيعية بأعلى درجات الشرف من السوربون، وهي أسمى ألقاب الامتياز العلمية التي تمنحها جامعة باريس. وهذه الدرجة لكلية العلوم كالاجريجاسيون لكلية الحقوق؛ والدكتور غالي أول مصري نال هذه الدرجة. وله أبحاث قيمة أنفقت عليها السوربون ومعهد باستور مبالغ طائلة، ولعلنا نعود إلى شرحها في فرصة أخرى. وهو يرسم إلى قرائه في مقال هذا العدد المنهاج الذي سيسير عليه في عرض الحقائق العلمية والتطورات الفكرية. والرسالة وقراؤها يغتبطون كل الاغتباط بانضمام هذه الثروة العلمية العظيمة إلى ثرواتها الأخرى التي تنتجها العقول الجبارة في كل باب

(المحرر)

يا ترى هل نستطيع أن نرجع بخيالنا إلى أول عهود الإنسان لنتصوره في حالته الفطرية وحياته البدائية؟ - إن القردة اليوم لا تحاول في غاباتها أن توقد ناراً، وهي مع ذلك تتناسل وتستنشق الهواء الصافي وتمرح بين الغدران والجداول تطفئ ظمأها، وتختار من صنوف الطعام ما يشبع جوعها، ومع ذلك فإن لنا أن نتصور أننا كنا مخلوقات لا تفوقها في الإدراك ولا تزيد عليها في المعرفة. ومهما رجعنا إلى التاريخ المنقوش على الحجر الصلد أو المسطور على أوراق البردي، فمن البديهي أننا لا نصل إلى تحديد الزمن أو الحالة التي كان عليها هذا الإنسان البعيد، بل نصل إلى تاريخ قريب لا يتجاوز مائة من القرون، فنرى إنساناً قديماً في مداركه عريقاً في معارفه، وأن الطوبة وقد اخترعها أمحوتب مهندس زوسر باني هرم سقارة (إذا كان هو مخترعها حقاً) تدعو للإعجاب. وكيف لا نعجب له حين عرف أن يشيد من اللَّبن أو الحجارة أشكالاً منتظمة وأشكالاً ذات طول وعرض وارتفاع فيها كل هندسة أقليدس؛ أشكالاً استعملها في بناء سقيفة من الطوب أو حجرة تقيه الشمس إذا اشتدت، والبرد إذا قرس، والمطر إذا انهمر

إذا رجعنا بالخيال إلى هذا الحد، ووصلنا بالتفكير في هذا النوع من الإنسان مهما بعد في الزمن، نستطيع أن نعتبر أن اكتشافه للنار واستعماله إياها كان خطوة واسعة في سبيل تغيره وتقدمه ككائن بات يختلف يوماً بعد يوم عن الحيوان؛ فهو إن شابهه في أنه مخلوق له جسم يقاربه وحواس تشبهه، يولد ويعيش ويموت، ولكنه يمتاز عنه بشيء كثير من الروية والاستفادة بتفكره

إذا رجعنا بخيالنا إلى هذا المدى علمنا أن اكتشافه هذا كان خطوة هامة في سبيل المدنية ومقدمة لسلسة من الاكتشافات التي نعتبرها ميراثنا العلمي، هذا الميراث الذي ساعد اختراع المصريين للكتابة على الإفادة منه على ممر السنين، والذي تضخم باختراع الأوروبيين للطباعة حديثاً والصينيين قديماً حتى بلغ العلم من الاتساع والتقدم حداً أصبح من الصعب معه على كائن أن يستوعب ناحية واحدة منه، هذا الميراث العلمي عظيم إلى درجة يبعد معها أن تقضي عليه الحروب بين البشر.

لقد حاولنا في السنين الأخيرة أن نستعرض هذا الميراث العلمي وندرس نواحيه ونقف على ما حدث فيه من تطورات لنعرف مداها ونستخلص المهم فيها ونستنتج من تتبع هذه النواحي شيئاً عن آمالنا في المستقبل، ولعل هناك أمراً واضحاً نتفق عليه وهو الدور الخطير الذي لعبته العلوم الطبيعية في التطور نحو النور والمعرفة؛ فبينما

سارت العلوم الزراعية والجيولوجية والطبية والبيولوجية وغيرها بخطوات متزنة معقولة، إذ بالعلوم الطبيعية قد طفرت في نصف القرن الأخير طفرات جديرة بالإعجاب. ولو أن أحد أسلافنا دبت فيه الحياة مرة أخرى فدخل أحد منازلنا فربما لا يبلغ تعجبه من تنسيق حديقة المنزل أو ما به من أثاث كما لا يعجب مثلاً بنوع الفاكهة التي تقدم إليه، بقدر تعجبه من الراديو أو التليفزيون لأن تميل الزهرة إلى الحمرة أو الخضرة، وأن يكون لها العبير الذي نعرفه أو لا يكون، فلا يخرجها كثيراً عن عهده بها.

ولأن يكون المقعد من الخشب أو معدن الكروم أو من الحجارة أو من المواد الجديدة في الصناعة التي تشبه الزجاج وتفوقه بقابليتها للانحناء والالتواء لا يخرج لنا في النهاية سوى مقعد للجلوس قد لا يفوق مقعد توت عنخ أمون الذي يشعر نفوسنا حين نراه الآن في المتحف المصري بما كان يشعر به النفوس منذ آلاف السنين من التنسيق والجمال والجلال.

أما أن ننتقل من مصابيح النفط والشمع إلى الكهرباء، ومن الخيل والحمير إلى القطار، ومن القطار إلى السيارة - أما أن تعلونا طائرة ونسمع في مصر أوبرا من فينا وموسيقى من باريس، أما أن نرى قريباً ونحن في القاهرة شقيقاً بالإسكندرية أو بأقاصي الصعيد فإن هذا يدعو إلى الدهشة ويدفع بنا للتأمل

هذه الخطوات وغيرها نتيجة للعلوم الطبيعية التي بدأت في الماضي عهداً مجيداً باكتشاف النار، وفي الحاضر عهداً جديداً باكتشاف تهدم المادة وتحولها إلى طاقة أو إشعاع

وإنما نوهت بهذين الأمرين: اكتشاف النار قديماً، وتهدم المادة وتحول العناصر بعضها إلى بعض حديثاً، لأني أريد أن ألفت النظر إلى أن اكتشاف بكارل في سنة 1896 لخواص الإيرانيوم الإشعاعية، واكتشاف مدام كوري وقرينها بيير كيري في سنة 1898 لخواص الراديوم، يعدان اليوم في التفكير الحديث خطوة لها من الأهمية بالنسبة للإنسان القادم ما لاكتشاف النار للإنسان الأول ومعرفته لاستعمالها.

وعندما يتاح للبشر الانتفاع أكثر مما ينتفع اليوم بالظواهر الجديدة الخاصة بتهدم المادة يتغير استعمالنا للأشياء، فلا يقتصر استعمالنا للخشب أو الحديد على صنع المقاعد أو بناء القناطر بل يتعدى ذلك بكثير، وعندئذ يظل اسما بكارل وكوري على رأس العهد الجديد مثلاً أعلى في أقصى ما وصل إليه الإنسان في المعرفة.

هذه المقدمة تبين للقارئ شيئاً عن اتجاه الكلمات التي تتفضل الرسالة بنشرها لي في هذا العام، فهي ستتناول ناحية العلوم الطبيعية واتصالها بالتفكير والتقدم. وقد وقعت أول الأمر في نوع من الحيرة، بخصوص اختيار الطريق الذي أسلكه لأجتذب عدداً كبيراً من أهل الشرق إلى تتبع هذه الكلمات، عسى أن يجدوا فيها شيئاً من الفائدة والتجديد، وللقيام بهذه المهمة طريقان. أما أن نتكلم عن الاتجاهات العلمية الحديثة التي سيكون لها أثر في أعمال الإنسان، وأعني بها الاتجاهات الطبيعية والفلسفية؛ وإما أن نتكلم عن النتائج الفعلية والعملية التي كانت نتيجة للاتجاهات العلمية الجديدة. ولا شك أنه حسب اختيار إحدى الطريقتين يتغير كلية نوع الأحاديث.

ولقد انتهيت إلى ضرورة التحدث في الأمرين معاً،

فتراني في الوقت الذي أصبحت النظريات الطبيعية الحديثة تمشي بخطوات سريعة، وتسيطر على شتى العلوم والمعارف، أصور في هذه الكلمات الموجزة أهم هذه الحوادث، وأصف - حسب فهمي - الكون الذي نعيش فيه، وأقدم لمتناول قراء العربية تقريراً عن المهم من الوقائع العلمية الحديثة، مستعرضاً الحقائق الرئيسية في العلوم الطبيعية وما يتصل بها من الانتصارات التي قبلت اليوم أوضاع العلم والمعرفة.

وفي الوقت الذي أطمع فيه أن أستعرض من صورة العالم معالمه الرئيسية أرجو أن يسمح لي بذكر كلمة عن غرضي، وعن الفكرة التي أوحت إلي بهذه المقالات، وعن الخطة التي سأتبعها لكي نتصل معاً بأهم ما يشغل العلماء اليوم.

إن الأبحاث العلمية وما يتم فيها كل يوم لا يمكن أن تكون موضع عناية الناس عامة كما يعني بها العلماء الذين يهبون أوقاتهم للبحث العلمي. فالعالم يعنيه ما يستجد كل يوم من إضافة، إذ أن هذه الإضافة يتوقف عليها توجيه الأعمال التي يرجو الوصول إلى

نتائج جديدة فيها. أما الآخرون فإن أوقاتهم مقسمة طول اليوم بين عملهم البعيد جداً عن المسائل العلمية، وبين فترات من الراحة لتجديد نشاطهم في المنزل بين ذويهم أو في الخارج بين إخوانهم. فالطالب في كليته، والمدرس في مدرسته، والعامل بين الدينامو والموتور في مصنعه، والمحامي بين المحكمة ومكتبه، وساعي البريد انتهى من عمله وخلع محفظته والموظف والتاجر والضابط والقاضي وكل أصحاب الأعمال والمهن يصعب عليهم أن يجدوا متسعاً من الوقت لتتبع الحوادث العلمية وما يجد في طياتها من تغييرات.

ماذا يقدم العلم لهؤلاء الذين تمتصهم الأعمال المادية حتى يصبحوا جزءاً منها، والذين لم تواتهم الفرصة للتعود على التفكير العلمي الحديث وتنسم أخباره؟

في كل هؤلاء فكرت وتساءلت: هل نستطيع أن نُعبِّد لهم سبيل الارتياح لهذه العلوم؟ وهل من الممكن أن نشرح نظاماً مثل الذي أصبحت عليه العلوم الطبيعية الحديثة؟ هذه العلوم الغارقة في الرموز الرياضية التي بلغ التوسع والتسلسل فيها مبلغاً أصبح معه تتبعها عسيراً حتى على الأخصائيين؟ هل من السهل تبسيط العلوم الطبيعية التي أصبحت اليوم المفتاح لمعظم التطورات العلمية وما يتصل بها من توجيه جديد لفكر البشر؟ هل من الجائز أن نشرح هذا لإخواننا الشرقيين في سلسلة مقالات بالرسالة فنشترك معاً في أعظم

ما وصل إليه الإنسان؟ إني لأرجو أن يكون النجاح حليفي في ذلك؛ وإني لأشعر بشيء من السعادة والحماسة في القيام به.

أولاً: لأنني أميل لهذا النوع من الدراسة الخاصة بالعلوم فمن الطبيعي أن أستطيع أن أحمل فريقاً كبيراً من القراء ليتتبعوها ويميلوا إليها.

ثانياً: إنني سعيد أن أوفر على القارئ عناء كبيراً في مطالعة موضوع بات من أصعب الموضوعات العلمية وباتت رموزه للشخص غير المشتغل بهذه العلوم كالحروف الهيروغليفية لمن لا يعرفها.

ثالثاً: إن تمرين الفكر على مسائل صعبة وتتبع هذا النوع من التبسيط له أثر آخر في تكييف حياة الإنسان وتفكيره في المسائل الأخرى التي لا تتصل بالعلم وتتصل بحياة الفردية.

رابعاً: إنني بذكر بعض التطبيقات العلمية للعلوم الطبيعية قد أفيد الكثير ممن يلجئون لهذه التطبيقات لمنفعتهم الشخصية. خذ مثلاً ما يمكن أن تحدثه العين الكهربائية اليوم من التَّفَنُّن في وسائل الإعلانات التجارية مما لم يُطبق لهذه الأغراض في مصر ولا يعرفه أصحاب المحلات التجارية حتى الآن في الشرق عامة. . .

خامساً: إنني قد أصل إلى حمل بعض المشتغلين بالعلوم القديمة وبالطرق العتيقة على العدول عن طرائقهم؛ مثال ذلك أولئك الذين يضيعون أوقاتهم سدى في طلب تحويل الرصاص إلى ذهب والذين يؤملون مثلاً إيجاد نوع من الحركة الدائمة.

أما غايتي الأساسية فهي الثقافة العامة. غايتي أن أجعل من التفكير في ناحية الفلسفة الطبيعية تأثيراً في حياة الناس الخاصة، أجعلك تقف على علوم أنت لا تعرفها وليس من السهل بمفردك أن تعرفها، ولا تكفيك السنون الطويلة الباقية من العمر لتستوعبها، أجعلك تتعلق بمسائل غريبة عنك فلا تجدها صعبة عليك كما تجدها اليوم؛ أوفر عليك الوقت في أمور أصبحت أهم أمور العالم العلمي فأصبحت بهذا لازمة لك؛ أزيد في ثقافتك وذهنك وقدرتك على فهم العالم الذي يحيط بك.

محمد محمود غالي

جاء مقال الدكتور الأول في ست صفحات (الرسالة)

فاضطررنا إلى تأجيل نصفه إلى العدد القادم

رسالة الفن

تاريخ الفن

للدكتور أحمد موسى

- 1 -

لم يقتصر مجهود الجامعات والعلماء على تسجيل الحضارات عن طريق كتب التاريخ القديمة والحديثة بل وجدوا أنه لا بد لهم من الاستعانة بالإنتاج الفني في مختلف العصور، إذ أنه المرآة الصادقة التي بها يمكن الوصول إلى نتائج حاسمة في تاريخ

الحضارات والمدنيات.
ولذلك كانت مهمة تاريخ الفن هي الاستعراض العلمي لتطوره على أساس التاريخ العام مع مراعاة أصول علوم أخرى أهمها علم الآثار وعلم قراءة المخطوطات والنقوش القديمة وفن الدراهم والمسكوكات وعلم وصف التماثيل والأيقونات القديمة وفن علامات وإشارات الأنساب القديمة وغير ذلك مما لا يسند فقط إلى السرد أو التاريخ الذي قد يكون متحيزاً أحياناً إلى مبادئ معينة أو غايات مقصودة حيث تدعو الحاجة إلى صبغه بصبغة قومية أو سياسية بذاتها، مما لا يفطن إليه إلا العارف الباحث في أصوله.
وإذا كان المسلك العلمي في التاريخ العام هو تقسيمه إلى قديم ومتوسط وحديث؛ فإن تأريخ الفن يرجع إلى نفس القاعدة رجوعاً كاملاً، لما لها من فائدة التبسيط وإيجاد الرابطة بين التاريخ العام وتاريخ الفن.
ويتناول تاريخ الفن القديم استعراض فن البناء (العمارة) وفن التمثيل (النحت) وفن الصناعات الدقيقة (الحلي وأدوات الزينة الرفيعة) استعراضاً يرجع في أساسه إلى التقسيم الجغرافي فيأخذ فن كل قطر على حدة ويتبع في ذلك أقدمية الحضارة. وعليه فأول الفنون جميعاً الفن المصري ويليه البابلي الآشوري والفارسي والهندي والصيني. هذا في الشرق الأدنى والأقصى. ثم يأتي بعد ذلك الفن الإغريقي الهائل ثم الفن الأتروسكي والفن الروماني والفن الإسكندري.
أما تاريخ الفن المتوسط فيتناول الفن المسيحي القديم والفن البيزنطي الذي كان له أثر
ملحوظ في كل البلاد الأوربية المتمدينة التي وجد فيها أثر للفن الروماني والقوطي. هذا إلى جانب ناحية هامة في تاريخ الفن المتوسط وهي ناحية الفن الإسلامي الذي ظهر في أقطار متباينة وكان ولا يزال محافظاً على طابعه المميز.
أما تاريخ الفن الحديث فهو كثير التشعب صعب التقسيم لتقارب الشعوب واتصالها الذي ترتب عليه انتقال الثقافة من أمة إلى أخرى وتأثير مدنية في غيرها، ولا سيما في الفن الألماني في عهد النهضة من أوله إلى آخره (القرن الرابع عشر (إيطاليا) والخامس عشر والسادس عشر) وما كان للفن في تلك المرحلة من طرز مختلفة الوضع متشابهة الروح كما أن انقسام الفن إلى باروك وإلى روكوك كان له أثره الهام في الفن الحديث.
والإنتاج الفني بعدئذ هو ما يمكن تسميته بالفن المعاصر أو إن شئت فقل هو الفن الذي أدى إلى ما نلمسه الآن من الفنون المعاصرة، سواء ما كان منها مدرسياً أو سائراً على الأسس المدرسية، وسواء ما كان منها متجهاً إلى ما يسمونه الفن الرمزي والفن الوصفي والطابعي والاقتباسي.
وكان التقسيم المتبع في الفن الفرنسي والفن الإنجليزي هو أن ينظر إليهما تبعاً للمراحل التي مرا بها، ومميزات كل مرحلة منذ القرن السادس عشر؛ ولا سيما أن هذه المراحل كانت تسمى بأسماء الملوك والحاكمين، وهذه ظاهرة اختص بها هذان الفنان دون غيرهما.
وإلى جانب هذه الفنون الحديثة فنون شرقية حديثة أيضاً سارت في طريقها بعض الشيء وتطورت تطوراً مخالفاً لسابق فنونها، ولكنها مع هذا ظلت محافظة على طابعها الشرقي المميز. هذه الفنون هي الفن الهندي والفن الياباني والفن الصيني، التي لم يكن المؤرخ الفني يُعنى بدراستها دراسة علمية إلا في العصر الحالي.
أما مهمة تأريخ الفن نحو هذه الفنون جميعاً فهي تكاد تكون نفس الدراسة المرتكزة على قواعد مشابهة لتلك التي اتبعت في تأريخ الأدب في العصر الأخير. وبذلك أصبح التأريخ الفني والنقد الفني والتسجيل الفني علوماً قائمة بذاتها لها أصولها وقواعدها.
ولتأريخ الفن قصته ككل علم آخر. فقد شملت كتب القدماء ما يهم المؤرخ الفني إلى حد كبير، فكتاب التأريخ الطبيعي لبلينيوس وكتاب الرحلة لبوزانياس اشتملا على بيانات وإيضاحات كثيرة وأوصاف مسهبة عن الفن في العصر القديم، ولكنها كانت أقرب إلى مجرد الرد مع اشتمالها على أسماء الفنانين ووصف ما تم عمله على أيديهم دون نقد فني أو دراسة ذات غاية، كما خلت من بيان شاف لتطور الفن في أية مدرسة أو مرحلة زمنية معينة.

ولوحظ أن هذا المسلك في التأليف كان الغالب أيضاً في العصر المتوسط، فكل ما كتب في شأن الفن وتأريخه لم يخرج عن وصف عام للمباني الرائعة وما استنفده في تشييدها من مجهود.

أما التأريخ الفني بمعناه الحديث فلم يكن ميسوراً لأولئك ولا لهؤلاء بحال. ومنذ ذلك الحين بدأت الجهود الفردية تظهر في الأفق رويداً رويداً، ولا سيما بعد ما التفت المسافرون الراغبون في المشاهدة والمعرفة، وكذلك غيرهم ممن اشتغل بدرس اللغات القديمة، إلى وجوب معرفة آثار الأقدمين والغاية من إقامتها وما تدل عليه وعلاقتها بالحضارة، واتخاذها وسائل قيمة للتدليل على اتجاه معين في الدرس والفحص.

هنا بدأ تأريخ الفن في الظهور والتطور العلمي. وكان أول أثر لذلك هو إيضاح ما كتبه الأقدمون وما تدل عليه كتابتهم عن الآثار التي لم يكن الكثير منها موجوداً حيث كان القدم والإهمال وعدم الرعاية والتغيرات الجوية والمدنية قد طغى كل هذا على معظمها فكانت أثراً بعد عين.

فاشتغل فريق من علماء تاريخ الفن بتفسير ما كتبه فيتروفيوس على حين اشتغل فريق آخر بنبش القديم وتفسير الكتابات والنقوش التي وجدت على كثير من الآثار. هذا من ناحية، أما من الناحية الأخرى فقد قام فريق آخر بمعاينة آثار روما وبعمل رسومات هندسية ومساحية دقيقة عنها.

ومهما يكن نوع هذه المجهودات والكيفية التي سار عليها أصحابها، فإنه لا يمكننا أن نرجع المحاولات الصائبة في مضمار تأريخ الفن إلى أبعد من القرن السادس عشر. ولعل أول من نعتبره في مرتبة مؤرخي الفن هو فاساري بكتابه القيم الشامل لتراجم هامة لرجال الفن في إيطاليا ,

وجاء بعده كارل فان ماندر بكتابه المدهش (المشاهدات) المطبوع في هارلم سنة 1604 وفي أمستردام سنة 1618، وكان أقل أثر يذكر له الدعاية للفن ولتاريخه ولتعريف الراغبين بعض الشيء عنه.

وجاء هولندي آخر هو آرنولد هوبراكن بكتابه (الواصف الكبير) في ثلاثة أجزاء، طبعت في أمستردام أيضاً سنة 1728، والتي كانت أساس دراسة الفن في هولندا كلها.

أما في ألمانيا فقد ألف المؤرخ يواخيم فون ساندرت كتابه الباهر (أكاديمية العمارة والنحت والتصوير) المطبوع في لومبرج سنة 1675 - 1679 للمرة الأولى، والذي كتب عنه كل المشتغلين بالفن من معاصريه كتابة ذات صفة علمية.

على أنه من الضروري أن نقول بأن الاشتغال بالتأريخ الفني كان خلال القرن السابع عشر قاصراً في الغالب على دراسة الفن القديم. هذا إلى جانب وجوب التنويه بأن بعض المشتغلين بتأريخ الفن وجهوا اهتمامهم إلى ناحية الفنون الصغرى الدقيقة كأشغال المعادن وما إليها من أدوات التحلية؛ وقد ظهر في هذا المجال كتاب قيم لبرناردي مونفاكو، وهو مكون من خمسة عشر جزءاً طبع في باريس سنة 1719 - 1724 ' طبعاً رائعاً وشمل الكثير من الصور الجيدة، ومن دون نزاع أول مؤلف أوضح في جلاء كل المخلفات في العصر القديم، والتي كانت ظاهرة للعيان في تلك الأيام.

وكان الفضل في انتشار هذا المؤلف ورواجه راجعاً إلى كتاب آخر ألفه النبيل كالوس وفيه أشاد بذكر هذا المؤلف في كتابه ' (سبعة أجزاء طبع باريس 1752 - 1767).

وظل الحال في ألمانيا على ما هو عليه منذ ساندرت إلى القرن الثامن عشر عندما أخرج يوهان فردرش كرست وزميله جينزر مؤلفهما العلمي عن الفن القديم. هنا انضم إليهما أهل العلم والفضل من مدينة درسدن الذين كانوا عاكفين على كتب الفرنسيين لأنها كانت الكتب التي يمكن الرجوع إليها في ذلك الحين لعدم وجود غيرها.

له بقية

أحمد موسى

رسالة المرأة

المرأة اليونانية

للآنسة زينب الحكيم

عندما تفضل الأستاذ صاحب الرسالة الغراء بفتح (باب للمرأة) في الرسالة، حمدت

لحضرته هذا الصنيع الجميل، واعتبرت بدء الرسالة عامها السابع المبارك إن شاء الله - فألاً حسنا بالنسبة لعالم المرأة - الشرقية عامة والمصرية خاصة

وسيكون ما يكتب في هذا الباب، رسالة عالية تمس حياة المرأة من شتى نواحيها، وفق ما تقدره وتفهمه من الحياة المرأة المثقفة التي نالت قسطاً عظيماً من التعليم العالي، وتلك التي تؤهلها مواهبها الطبيعية، واستعدادها الفطري للمبدأ ذاته. كما تجد فيه ما قد تتوق إلى قراءته في سرعة: من أدب رفيع، وعلم مستساغ، وشئون تمس حياتها، بحيث لا يشغل كل هذا إلا جزءاً وجيزاً من وقتها الثمين.

هذا ونرجو ألاّ يحرم ميدان المرأة هذا في مجلة الرسالة التي امتازت من يوم أن أنشئت، بالأسلوب الراقي، والأدب الرفيع، من جولات سيدات مصر المثقفات، حتى يبرهن أن في مصر كاتبات عالمات مثقفات.

المحررة

كان من بين البلاد التي زرتها في رحلتي هذا العام: بلاد اليونان. فإذا تحدثت عنها اليوم، فإنما أتحدث عن بعض ما شهدته وخبرته بنفسي.

فأول ما لفت انتباهي عندما وصلت أتينا الشوارع الفسيحة المنظمة، والأوتوبيس الكبير الطويل الأصفر اللون، وكثرة الحركة في هدوء، فترى الترام وأنواع المركبات القديمة والحديثة، والسيارات ذات الأجرة أو الخاصة، والناس - كل يتخذ اتجاهه في يقظة وهدوء، ولا تزعجك أصوات السيارات، ولا أصوات الباعة المتجولين، ولا مشاغبات أولاد الشارع.

وباعة الجرائد والمجلات، والحلي الزائفة ونظارات التراب الخ لهم أكشاك خشبية نظيفة لطيفة؛ موضوعة على مسافات متباعدة على الأفاريز.

ومن أهم ما أعجبت به رجال البوليس باليونان، ولا سيما الموجودون منهم في مدينة أتينا:

هندام مرتب (بذلة رصاصية اللون، وتزلك من الجلد الأسود حول الساقين) يعنون أشد العناية بالقيام بواجباتهم، ويلحظون الزوار الأجانب باهتمام ورفق.

استفسرت عن السر في هذا من وزارة السياحة، فأخبرت أن رجال البوليس الذين في العاصمة، والذين هم في أماكن الاصطياف منتقون من أحسن الرجال وأحسن العائلات، وهم متعلمون، وأغلبهم يتكلمون لغات أجنبية (كالإنجليزية والفرنسية والطليانية) لقنوا كثيراً من الآداب العامة، ويحسنون تطبيقها عملياً في معاملة السياح والناس عموماً. تصدر إليهم أوامر وتعليمات مشددة من رئيس البوليس، وهو رجل مشهود له بالكفاية متمرن على هذا العمل من زمن طويل، واشتغل في سراي جلالة الملك مدة.

استطلعت رأي بعض السيدات في مقدار إقبال الأم اليونانية على إرسال أولادها إلى مدارس البوليس والتجنيد، فعلمت أنهن يفخرن أن يقوم أولادهن بهذا العمل الشريف. والإقبال على الكشافة عظيم؛ ولقد يسر المرأة المصرية أن تعلم أن ليس باليونان أولاد متسكعون في الشوارع، فإن المسيو متكساس رئيس الحكومة اليونانية أمر بانضمام جميع الأولاد المتعطلين والمتشردين إلى فرق الكشافة، وهم يتعلمون بذلك النظافة والنظام، وقضاء مصالحهم بأنفسهم، وفي الوقت نفسه يكوّنون جيشاً يسير في سبيل النظام وحماية وطنه.

الفتيات اليونانيات والكشافة

للفتيات فرق منظمة، وزيهن هو الزي الكحلي اللون مع حزام أبيض رفيع وأربطة رقبة بيضاء، وأغطية الرأس نوع يشبه الفيصلية العراقية كحلية اللون عليها دبوس ذهبي من الأمام.

أما الأحذية فكانت صيفية منوعة. وحركات الفتيات والفتيان ليست على جانب كبير من الخفة والأناقة، عكس ما اتصف به رياضيو اليونان القدماء

لا يمكن لزائر بلاد اليونان التغاضي عما يلحظه من سمات الجد على وجوه الناس هناك، وتقدير الوقت، حتى لقد يظهر على أجسامهم نوع من الإجهاد البدني والفكري في سبيل العيش. . .

إذا سار الرجل في الشارع لا يحمل عصا من أي نوع في يده وإنما يحمل بعضهم السبح،

ولم يقع نظري لا في الصباح ولا في المساء على سيدة يونانية تسير وتصحب كلباً أو يتبعها كلب، وإنما يذهبن مجدات إلى محال أعمالهن، ويعدن نشيطات إلى بيوتهن. قلما رأيت واحدة تلبس حذاء بكعب مرتفع في الطريق، أو تتساهل في ارتداء ملابس لا تتناسب وكل وقت من اليوم؛ ولم يقع نظري على واحدة منهن تساهلت في طلاء وجهها بإسراف، وكثرة النساء اليونانيات ضنينات على العموم بأن يظهرن بمظهر الدمى أو الخلاعة.

والمجتمع اليوناني المشترك هادئ ولا (يلعبون) النرد ولا غيره من ألعاب التسلية المزعجة في الأماكن العامة. وطريقة تحدثهم لطيفة، يستخدمون أيديهم للتعبير أحياناً، ولكن بخفة وهدوء، وقلما يخلو الحديث أو النقاش من نكتة مستحبة مضحكة، ويقرئون الجرائد الخاصة وهم جلوس على المقاهي أو المطاعم أو في الحدائق العامة، ولا يتطفل أحد منهم على جرائد الغير أو ممتلكاته.

المرأة في حدائق زابيون

حدائق زابيون عبارة عن بساتين فسيحة تقسمها شوارع مرصوفة نظيفة، وبها مطاعم ومقاه كبيرة، وتحتوي على (سراي زابيو) نسبة إلى الأخوين زاباس اللذين وهباها للشعب بعد تأسيسها من خمس وخمسين سنة مضت. وبهذه السراي معرض دائم للصناعات اليونانية، من صناعات خزفية وزجاجية منقوشة وملونة باليد، وأقمشة حريرية وصوفية، وأحذية وصور زيتية وخرائط بارزة وغيرها. وبالجملة يعطي هذا المعرض فكرة تامة عن صناعات اليونان الداخلية. وتقوم بالشرح فيه سيدة يونانية.

لحظت أن رواد هذه الحدائق، والذين يجلسون على مطاعمها ومقاهيها لاستماع الموسيقى من طبقة أرقى، فالجمهور المشترك مرتب الهيئة، مهذب العادات إلى حد كبير، تجلس السيدات إلى جانب الرجال من أسرهن في وقار، ويلفت أنظارهن جميعاً مرور الزوار الأجانب ولكن نظرتهم إليهم نظرة صداقة وارتياح.

والمجتمع كله هادئ لطيف المعاملة جداً، يشوش الوجه، قوي النكتة، يغلب على أفراده اللون القمحي، وتختلف الأنوف عن طراز الأنف اليوناني القديم، بينما الذقن والفم، والمنظر الجانبي للوجه لا تزال كلها تحتفظ بالطابع اليوناني الأصيل.

وحركات هاته الفئة من السيدات وملابسهن أنيقة للغاية، والملابس غالية الثمن جداً على

بساطة نسيجها وزيها، وكذلك القبعات والأحذية مرتفعة الثمن؛ وبالاستفسار علمت أن سبب ذلك هو استيراد هذه الضروريات من الخارج ولا سيما من ألمانيا، لأن المعامل الأهلية قليلة، والصناعات الوطنية لا تزال بدائية في الوقت الحاضر.

وصف هندام سيدة جلست أمامي

تلبس قبعة حمراء اللون من القش الدنتلا، على شكل هالة من الأمام، في أذنيها قرط مستدير أحمر كلون القبعة، وفي يدها اليسرى سوار ذهبي عريض به فصوص حمراء كبيرة أقتم قليلاً من لون القرط والقبعة.

ثيابها من الحرير الجرْسيه الأبيض السكري، متقن الصنع جداً. وحلى صدره زران، أحدهما مستدير كالقرط، والذي تحته لونه كحلي قاتم، ويحلي أحد أصابع يدها اليمنى خاتم من لون الزرّ؛ وحزام الفستان أحمر من لون فصوص السوار. وحذاؤها أبيض مخرم، وقفازها من الدنتلة البيضاء، وشعرها كستنائي يصل إلى خلف أذنيها.

زينة وجهها بسيطة ومعتدلة للغاية، فلا تعدو قليلاً من الصباغ الأحمر على شفتيها (يضاهي لون القرط) وقليلاً من البودرة على وجهها. وهي ربة منزل من أسرة كريمة، يجلس تجاهها زوجها، وهو أيضاً أنيق الهندام، يلبس بذلة سكرية اللون (يشبه السكروته الفاتحة) وحذاؤه أبيض مع بني، ورباط رقبته أزرق سماوي فاتح جداً وبه نقوش بسيطة من الأحمر الفاتح والبني الفاتح.

أسود الشعر عريض الحاجبين، صغير الشارب حليق اللحية. يكون منظرهما حول المنضدة صورة متناسقة مهذبة.

فإذا صح أن هذا النموذج للأسرة اليونانية الموفقة فمما لا ريب فيه أنهما يتعاونان على الحياة المشتركة في سلام واطمئنان دل عليهما ما دار بينهما من محادثات خاصة وعامة، أثناء تناولهما القهوة، والإصغاء إلى الموسيقى.

(للحديث بقية)
زينب الحكيم
القصص
مهداه إلى الأستاذ توفيق الحكيم
الجائزة
للأستاذ محمد سعيد العريان
القرن الثالث الميلادي، في عصر الملك (دقيانوس) الوثني الطاغية، خرج من مدينة) (طرسوس) في بلاد الروم، بضعة نفر من المسيحيين المؤمنين، فراراً إلى الله بدينهم من بطش الملك، ثم لم يظهروا ولم يعلم عنهم شيء. . . وكان منهم وزير الملك. . .!)
(أهل الكهف)
ومضت ثلاثمائة سنة، ومات دقيانوس، وقامت دولة على أنقاض دولة، ورفرف . . . السلام على المدينة التي تخضب ثراها بدماء الشهداء في عصر الطاغية دقيانوس، وعاد الناس أحراراً في دينهم وفي شعائرهم؛ وعاش المسيحي إلى جانب اليهودي إلى جانب الوثني في طرسوس، إخواناً متحابين، لا يسأل أحدٌ أحداً عن دينه ولا يجادله في مذهبه؛ وانصرف كل لشأنه وحاجته.
وجلس (صهيون بن يهوذا) إلى مكتبه ذات صباح بجانب النافذة من غرفته الواسعة المشرفة على الطريق وبين جنبيه همٌّ يعالجه. . .
لقد كان صهيون كاهن اليهودية الأعظم في طرسوس، ولكن شئون طائفته لم تكن تشغله يوماً عن شئون نفسه؛ وكان مؤمناً مسموعاً بالتقوى والفضيلة، عالماً مشهوراً بالاطلاع وسعة المعرفة، مؤرخاً يروي عن السلف ويحفظ أيام الأمم ويقص ماضي التاريخ؛ ولكنه كان إلى كل أولئك يهودياً من بني إسرائيل، يحب المال ويحسن تثميره وتربيته. . . ومن ذلك كان أكثر همه حين يخلو إلى نفسه!
وطال به الوقت وهو جالس إلى مكتبه يحسب ويعدّ، ويقبض أصابعه ويبسطها في . . . حسبة لا تنتهي، ويحصي ما معه من الدراهم وما سوف يأتيه؛ ثم ابتسم راضياً، ونهض عن كرسيه لحظة، ثم عاد بكتاب مخطوط فبسطه تحت عينيه وجلس يقرأ. . .
ذلك كتاب قديم لم يقرأه أحد قبل صهيون إلا كاتبه نفسه؛ وقد عثر به منذ أيام عند يهوديّ هرم من سدنة المعبد فاشتراه بنصف درهم. . .
وأخذ يقلِّب الكتاب صفحة صفحة وهو يقرأ عجلان غير متريث؛ ثم وقع فجأة على خبر استرعى انتباهه، وأيقظ شيئاً في نفسه، وأخذ يقرأ:
وكان (مشلينيا) وزير الملك الوثني الطاغية (دقيانوس) مسيحياً مؤمناً، ولكنه كان . . .) لا يجهر بدينه عند مولاه، وقد اتخذ في داره معبداً لا يعرف الطريق إليه إلا صديقه (مرنوش) حيث يلتقيان كل مساء لعبادة الرب الأعظم!)
وهز صهيون رأسه مبتسماً وهو يقول: (ما أبدع هذا!) ثم عاد يقرأ:
(:. . .ووقف دقيانوس على سر ميشلينيا وصاحبه، فثارت ثائرته . . .)
وخفق قلب صهيون بعنف، إشفاقاً على الفتيين من ثورة الملك الذي لا يرحم، واستمر يقرأ:
وتوعد الملك وزيره بأقصى العقاب، وضرب له أجلاً يفئ فيه إلى نفسه قبل أن . . .) يمضي فيه أمر الملك ويحل عقابه. . .!)
وازدادت خفقات قلب الكاهن عنفاً وشدة، وحضره ما يذكر من سيرة هذا الملك المتأله الذي خضب أرض طرسوس بدماء المؤمنين من رعيته كبرياء على الله، في غير رحمة ولا إحسان.
ثم عاد الكاهن يقرأ:
ولكن يد دقيانوس لم تنل ميشيلينيا وصحبه، فقد استطاعوا الفرار من بطش . . .) الملك الجبار إلى مكان لا يعلمه أحد. . . كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة. . .)
وشاع السرور في نفس صهيون حين بلغ هذا الموضع من قصة أهل الكهف، وتمتم صلاة خافتة يشكر الله؛ ولكنه استمر يقرأ:
وبلغ دقيانوس نبأ فرار ميشلينيا وصحبه فغلى غليانه، وسمى جائزة: مائة ألف . . .)

(!. . .درهم لمن يأتيه بميشلينيا حياً
وبلع صهيون ريقه وأفلت الكتاب من يده؛ مائة ألف درهم! يالها من ثروة! ليته كان في عهد دقيانوس، إذن لفعل كل ما يقدر عليه ليظفر بالجائزة. . . الوثنية اليهودية، المسيحية: ما كل أولئك بازاء مائة ألف درهم؟. . . الله، المسيح، دقيانوس، ميشلينيا؛ . . .ماذا يعنيه كل هؤلاء لو كان يملك مائة ألف درهم؟
وسبح صهيون في أحلامه؛ وهو يقبض أصابعه ويبسطها، بحسب ما يمكن أن تغل عليه !. . .مائة ألف درهم، لو. . . لو أنه كان في عهد دقيانوس
وسمع في الشارع زياطاً وضجة فأطلّ من النافذة ينظر. . . ثم لم يلبث أن هبط . . .مسرعاً إلى الشارع ليرى ويسمع
. . .!يا لله! ما أسرع ما وقعت المعجزة
ولم يصدق أذنيه أول ما سمع. . . وعاد يسأل عن سر هذا الزحام والضوضاء؛ وأجابه محدّثه: (يا مولاي، إنهم ثلاثة رابعهم كلبهم، ويقولون خمسة. . . لقد عثر بهم رجل في كهف على حدود الصحراء. . . إنهم الفتية المؤمنون الذين يتحدث التاريخ أنهم. . . منذ ثلاثمائة سنة. . .)
ولم يصبر صهيون حتى يستمع إلى بقية النبأ، لقد كان يعرف ما سيقول محدثه قبل أن ينطق؛ إنهم آية البعث لمن لا يؤمن؛ لقد ضرب الله على آذانهم في الكهف سنين عدداً، ثم بعثهم آية. . .، ولكن ماذا يعني صهيون من ذلك؟. . . لقد كان الأمر يعنيه لو أن الله الذي بعث أهل الكهف قد بعث معهم دقيانوس، ليسعى إليه في طلب الجائزة التي سمَّاها منذ ثلاثمائة سنة لمن يأتيه بميشلينيا حياً؛ فها هو ميشلينيا، ولكن أين هو دقيانوس؟
وبرقت له بارقة: وماذا يمنعه أن يطلب الجائزة اليوم من ملك طرسوس؟ لقد مات دقيانوس، ولكن حقه في الجائزة لا يضيّعه موت دقيانوس! ومن قال إن الملوك الذين خلفوا دقيانوس قد أبطلوا الجائزة التي سماها دقيانوس لمن يدل على ميشلينيا حياً؟ إنها ما تزال حقًّا شرعياً لمن يسبق إلى بلاغ النبأ، لا يبطله أن دقيانوس قد مات ومضى على موته قرون!
ولم يتلبث صهيون كاهن اليهودية الأعظم في مدينة طرسوس، فخلّف الزحام وراءه ومضى مسرعاً إلى قصر الملك. . .
(!مولاي)
وكان وزراء الملك من حوله، فنظروا إلى صهيون يستمعون لما يقول؛ واستمر الكاهن في حديثه:
سأدلك يا مولاي على ميشلينيا، ميشلينيا وزير الملك دقيانوس الذي فر من طرسوس . . .)
(!. . .منذ ثلاثمائة سنة، سآتيك به حياً، والجائزة لي
ونظر الملك إلى وزرائه، ونظر الوزراء بعضهم إلى بعض، ثم توجهوا جميعاً بأنظارهم إلى الكاهن يسألونه بيان أمره؛ ومضى الكاهن في حديثه. . . . . .
وقال وزير من وزراء الملك: (يا مولاي، إنه أمر ذو بال؛ لا أعني حديثه عن الجائزة التي يطلب، ولكن حديث الفتية الذين ناموا ثلاثمائة سنين ثم عادوا إلى الحياة؛ إنها عظة الأجيال، وآية البعث، ويقظة التاريخ الذي طوته القرون. والرأي عندي أن يطلب مولاي إلى الكاهن صهيون أن يدعو هؤلاء الفتية لنراهم رأي العين أحياء يتنفسون، ونستمع إلى حديثهم وما كان من أمرهم. . .)
قال صهيون: (والجائزة!)
قال الملك: (وتكون الجائزة لك!)
وخرج الكاهن اليهودي مسرعاً إلى الطريق يسعى إلى أمل لا يرى بينه وبين أن يبلغه غير خطوات معدودة، ولا يشغله من أمر شيء إلا الثروة التي يمني نفسه بأن تكون بين يديه بعد قليل. ومضى في طريقه لا يحيي أحداً ولا ينظر إلى أحد؛ فلما بلغ حيث كان الزحام، وجد الطريق خالية ليس فيها سائل ولا مجيب؛ وأغذ السير يتبع آثار الجماعة إلى خارج المدينة وهم يثيرون الغبار وراءهم على مبعدة؛ فأدركهم بعد عناء . .
.
وبدا له على مرمى قريب جبل قائم يشتد الزحام عند سفحه، ومن كثرةٍ يموج بعضهم

في بعض، ويتطاولون بأعناقهم ليروا شيئاً لا يتبينه حيث يقف؛ فاستجمع عزمه وراح يشقّ الزحام بكتفي جبار، وفي نفسه شعور غامض يوحي بالحيرة والقلق. . .
وبلغ سفح الجبل، فرأى وسمع وعرف؛ هذا كهف الرقيم حيث يرقد ميشلينيا وصحبه، وحيث كانوا يرقدون منذ ثلاثمائة وتسع سنين قمرية؛ ضرب الله على آذانهم فناموا ما ناموا، حتى إذا أراد الله أن يظهر آيته أيقظهم فترة من الزمن ليكونوا رسالة من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، وحقيقة من التاريخ تنطق بالعبرة، وموعظة ناطقة تتحدث بما كان وبما يكون. فلما بلغ الله بهم ما أراد من بيان قدرته، ردَّهم إلى التاريخ ليكونوا خبراً من خبره تتحدث به الأجيال.
وأطرق صهيون بن يهوذا لحظة يتفكر؛ ثم لوى عنانه عائداً يشق الزحام وفي نفسه حسرة
وألم. . .
وعاد الناس جميعاً مطرقين برءوسهم يتفكرون؛ ولكن الخواطر التي كانت تصطرع في رأس صهيون، كانت تعدل ما يصطرع في رءوس الناس جميعاً أو تزيد. كانوا جميعاً يفكرون في البعث والنشور والآخرة، وكان هو وحده من دونهم يفكر في الجائزة التي لا يجد سبيلاً إليها وكانت على مدِّ يمينه، لأنه لا يجد سبيلاً بعد إلى أن يصحب ميشلينيا حياً إلى قصر الملك!
(شبرا)
محمد سعيد العريان
البريد الأدبي
دراسة عن شوقي بالفرنسية
في القاهرة تصدر مجلة رفيعة باللغة الفرنسية يديرها محمد ذو الفقار بك ويشترك في تحريرها نخبة من الكتاب المصريين والفرنسيين، وهي في سنتها الأولى، واسمها (مجلة القاهرة) وفي عدد ديسمبر من هذه المجلة مقالة نفيسة للأستاذ إدجار جلاّد صاحب (الجورنال ديجبت)، تناول فيها شاعرية أحمد شوقي، فذكر طرفاً من تاريخه وبسط أسلوبه الاتباعي وأشار إلى جزالة لفظه، ثم نقل إلى الفرنسية قصيدة من غزليّاته. وخاصيّة المقالة ما جاء فيها من الكلام على استلهام شوقي لجهاد مصر الوطني ونهضة فكرة الإسلام والاضطرابِ العمرانيّ في الشرق.
اتصال المصريين لهذا العهد بأجدادهم
نشر المستشرق الألماني الأستاذ (رودي بَرِت في (مجلة العلوم الدينية) (عدد 35ج 1و 2) البارزة باللغة الألمانية في مدينة لَيْبتسِج مقالاً لطيفاً يبحث في استمرار الحضارة المصرية، ولا سيما في مصر العليا على تعاقب العصور، في الناحية المادية (مثل أدوات المأكل والمشرب والغزل والحرث) واللغوية (مثل إخراج حرف القاف) والدينية (نحو إقامة الأعياد) والاجتماعية (كالعادات والعقائد الخاصة بالمولد والموت والزواج والدفن). وذلك بالرغم من هجوم الحضارات الأجنبية كالإغريقية والرومانية والعربية والنوبية والسودانية. واعتماد صاحب المقال على كتابين: الأول بالإنجليزية وعنوانه (فلاَّحو مصر العليا) من تأليف فنفرد بلاكمان، والثاني بالألمانية وعنوانه (التراث الشعبي في مصر) لصاحبه فنكلر.
حديث عن المسرح الباريسي
أفضى الدكتور بشر فارس إلى صحيفة (الجورنال ديجبت) الصادرة في القاهرة باللغة الفرنسية عند وصوله إلى ميناء الإسكندرية عائداً من باريس بحديث عن المسرح الباريسي في هذا الخريف. ويستخلص من هذا الحديث أن التأليف المسرحي هنالك آخذ في التأخر لتغلب فن الإخراج على إبراز النص، ولانجذاب المؤلفين إلى الموضوعات الفاسقة مثل
حب أم لابنها، وغرام رجل بآخر. ولشغلهم بالمشكلات السياسية فيستهزئون بالحكم المطلق وينادون بحقوق المرأة، ويندون بالضرائب، ويقاومون الميل إلى الحرب والفتك، ثم لانصراف عامة الجمهور عن المسرحيات الناهضة على التفكير والتأثر الدفين والإيحاء إلى المسرحيات السهلة التناول، الزاخرة بالعواطف المفرطة، الفياضة بالجمل (الظريفة) أو الألفاظ الساقطة والمبتذلة.
الأسس التجريبية للنظريات الكهربائية الحديثة

ألقى الأستاذ ألبير دره عضو المعهد الأمريكي للمهندسين الكهربائيين محاضرة في 27 ديسمبر الماضي في قاعة معهد أنشئ حديثاً في القاهرة للدراسات الرياضية والطبيعية، استعرض فيها أهم الخواص الكهربائية والمغناطيسية للمادة التي كانت أساس النظريات المعروفة في أواخر القرن الماضي، وذكر ما طرأ عليها من اكتشافات حديثة تطورت بسببها أغلب النظريات الخاصة بتكوين المادة.

وكانت هذه المحاضرة تمهيداً لتوزيع العمل بين أعضاء اللجنة التي أنشئت في هذا المعهد لدراسة تطورات هذه النظريات وما بنيت عليه من وقائع تجريبية.

فابتدأ المحاضر كلامه عن ظاهرة الكهرباء التي كان القدماء يعلمون بعض خواصها البسيطة والتي تقدمت العلوم المتعلقة بها تقدماً سريعاً في خلال القرن الثامن عشر بعد أن برهن العالم الفرنسي كولومب بواسطة تجارب دقيقة أن القانون الذي تخضع له القوات بين الجسيمات المكهربة هو نفس قانون نيوتن للجاذبية بين المادة. ثم استنتج من هذا القانون أهم خواص الأجسام المكهربة وبين ما هو الفرق بين الأجسام الموصلة والأجسام العازلة.

ثم تناول المحاضر بعد ذلك ظاهرة المغناطيس التي كانت أيضاً معروفة للعلماء منذ قديم الزمن، والتي تخضع لقانون كولومب غير أنها رغم وجود نوعين من الكتل المغناطيسية لا يمكن الفصل بينهما مهما جزئ الجسم الممغطس، بخلاف الكهرباء التي يمكن عزل أحد نوعيها عن الآخر بسهولة؛ وهذا الفرق في الخواص جوهري بعث العلماء على الأخذ بنظرية أمبير التي تعتبر أن المغناطيس لا يظهر في المادة إلا بسبب حركة الجسيمات الكهربائية في باطنها.

وأخذ المحاضر يشرح خواص الكهرباء إذا تحركت وأنتجت تياراً يترتب على مروره في الأجسام الموصلة ظواهر حرارية وكيميائية ومغناطيسية وتدرج من ذلك إلى ذكر قوانين فاراداي وأمبير المشهورة وقانون لنز الذي يلخص جميع قوانين التأثير المغناطيسي بأنها ظاهرة من ظواهر مقاومة المادة لتغير حالتها الكهربائية أو المغناطيسية. وإذا عممت هذه القوانين على المادة العازلة يمكن كما وضح ذلك مكسويل في معادلاته المشهورة البرهان على أن هناك تموجات كهربائية تنتشر في المادة وفي الفضاء بسرعة الضوء، بل على أن الضوء نفسه ما هو إلا نوع خاص من هذه التموجات، وقد شرح المحاضر الحسابات الرياضية الخاصة بذلك. ولقد كان العلم هرتز أول من اكتشف هذه التموجات في تجاربه المعروفة، فانتشر استعمالها في الوقت الحاضر بسبب التقدم المدهش الذي تم في فن الراديو منذ أوائل القرن الحالي.

وختمت المحاضرة بذكر الاكتشافات المدنية التي تمت منذ أواخر القرن الماضي، والتي مكنت الطبيعيين من أن يستخرجوا من المادة جسيمات مكهربة وأخرى خالية من الكهرباء، وتموجات مختلفة دلت على أنها مركبة من عناصر غاية في الصغر لا يمكن إدراك طبيعتها وتفسير تأثير بعضها على بعض إلا إذا أخذ المرء بترك ما عودته حواسه على تصوره عن العالم حوله وتبع فطاحل علماء الطبيعة الحاليين مثل إينشتين وبلانك وبوهر ودي بروجلي وهينزنبرج وشرودينجر وديراك في عالم تفكيرهم الجديد.

م م غ

الحلقة المفقودة

تلك هي حلقة العلماء الذين عرفوا الإسلام وأصوله، وعرفوا روح العصر وعلومه. ولقد كتبت مرة في افتقارنا إليها، وفقداننا إياها، فلما رأيت (الكلية الشرعية في بيروت) ودرَّست فيها قوى في نفسي الأمل بوجود هذه الحلقة المفقودة. فلما قرأت ما تفضل صاحب الرسالة فكتب عن الكلية ورحلة مديرها الفاضل صديقي الأستاذ محمد عمر منيمنة أحببت أن أطمئن إخواننا بأن ظهور هذه الحلقة المفقودة لم يبق أملاً وإنما صار حقيقة تلمس باليد. وأدلة تحقق الأمل هذه (الكلية الشرعية في بيروت) التي أقامها من العدم سماحة الأستاذ

التقي المخلص مفتي الجمهورية اللبنانية محمد توفيق خالد، والتي يديرها وينهض بها الأستاذ منيمنة والأستاذ العامل الشيخ صلاح الدين الزعيم، ويدرس فيها جماعة من الفحول كالمحدث الجليل الشيخ محمد العربي، والأديب الكبير الشاعر الشيخ عبد الرحمن سلام. ومن الأدلة (المدرسة الشرعية) في دمشق التي أنشأها من ماله

الأستاذ الزعيم المعروف الشيخ محمد كامل القصاب رئيس جماعة العلماء، والتي يدرس فيها طائفة من أكابر علماء دمشق، كالعلامة الشيخ محمد بهجة البيطار، والأستاذ دهمان، وآخر الأدلة وأظهرها (دار العلوم الشرعية في بغداد) التي أعاد سعادة الأستاذ الكبير حسن رضا بك مدير الأوقاف العام تأسيسها، وجعلها مدرسة عالية كالحقوق؛ والتي يديرها الأستاذ العلامة الحاج حمدي الأعظمي، ويدرس فيها الأستاذ الشيخ قاسم القيسي، والأستاذ الأديب الشيخ محمد بهجة الأثري وأضرابهم. وهذه المدارس كلها تجمع بين الثقافة الإسلامية، وبين علوم العصر وثقافته، وذلك ما نحتاج إليه ونتمناه. فجزى الله القائمين عليها، والساعين إليها، وإلى أمثالها أحسن الجزاء، وحقق الله بها الأمل.

(بغداد)

ع ط

حول مقال

أستاذنا الكبير صاحب الرسالة الكريمة

في المقال الأخير من (الحقائق العليا في الحياة) للأستاذ النابغ المحقق عبد المنعم خلاف وردت تلك الجملة: (ولذلك حينما وصف الإسلام لنيتشه أو شوبنهاور - لا أذكر - قال لمحدثه: (إذا كان الإسلام كما وصفت فنحن كلنا مسلمون!) مع أنه كان ملحداً منكراً لعقيدة الجماهير)

والصحيح يا سيدي أن تلك الكلمة التي أوردها الأستاذ في معرض الكلام عن الإيمان والعلم لم يقلها هذا ولا ذاك، وإنما الذي قالها هو (جوته) الفيلسوف الألماني بعد أن أوقفه محدثه على حقيقة الإسلام.

وتفضلوا بقبول وافر الاحترام

عبد العليم عيسى

كلية اللغة

مشروع لإحياء أدب الرافعي

إلى الأستاذ محمد سعيد العريان.

لقد كان في تقريرك أن بين أدب الرافعي (وبين الأكثرين من ناشئة المتأدبين حجاباً كثيفاً يمنعهم أن ينفذوا إليه أو يتأثروا به) للأسباب التي ذكرتها في عدد الرسالة 285، تعميم قد يكون فيه تجن على الحقيقة، وقد يصدق على القليلين الذين لا ذنب للرافعي - رضوان الله عليه - في أن تكون على بصائرهم غشاوة فلا يفقهون. والذي أعرفه - ويعرفه كل أديب ومتأدب في الأقطار الشقيقة - أن الكثرة المطلقة من هؤلاء مدينة لأدب الرافعي في توجيهها إلى طريق الأدب الصحيح، وأن الناس هنا لينزلون الرافعي من نفوسهم منزلة الأولياء والصالحين. وليس أدب الرافعي من السهولة بالمقدار الذي توهمه بعض المدرسين عندكم، فظنوا أن في إمكانهم هدمه بوسائلهم البسيطة التي تقدموا بها، بل هو أدب خالد سيكون له شأن عظيم عند الأجيال المقبلة في التاريخ.

وإن كل عربي وكل مسلم في الأقطار الشقيقة ووراء بحر الظلمات في الأمريكتين، ليحس بأثقل من التبعات التي تحس بثقلها على عاتقك، ويود من أعماق شعوره أن يجد وسيلة عملية يعبر بها عن وفائه للرافعي رضوان الله عليه؛ وإنني لأشعر بأنني أعبر عن آراء الجماهير المتأدبة في الأقطار الشقيقة، حينما أقترح عليك أن تتفق مع إحدى دور النشر الكبرى في عاصمة الفاروق على إعادة طبع جميع مؤلفات الرافعي التي نفدت طبعاتها الأولى من دكاكين الوراقين، وأن تحضر للطبع أيضاً المؤلفات الأخرى التي لما تطبع، وأن تبادر إلى الإعلان عن ذلك لتسديد نفقات الطبع عن طريق الاشتراك، بعد أن يذكر اسم كل كتاب ومقدار الاشتراك فيه، في مجلة الرسالة التي لا أشك في أن الأستاذ الزيات سوف لا يضن بفراغ في بعض صفحاتها لذلك الإعلان مدة طويلة، وأنا كفيل أنك ستجد الوفاء عملياً كيف يكون. وانتظاراً لما ستقوم به في هذه الناحية العملية، أسأل الله أن تكلأك

عنايته وأن يمدك بروح من عنده.

(فلسطين)

سعيد عودة

دراسة المخطوطات العربية في جامعة برنستون بأمريكا

تعنى جامعة برنستون عناية خاصة بدراسة اللغات السامية وآدابها وتاريخها وبنوع أخص اللغة العربية وأدبها وتاريخها. ولقد بذلت الجامعة في هذه الدراسة مجهوداً عظيماً، فقد قام الدكتور فيليب حتى أستاذ الآداب السامية فيها ومن معه من الأساتذة بنشر دراسات قيمة لنواح متعددة من تاريخ العرب وثقافتهم. وقد نالت هذه الدراسات شهرة عالمية لأنها تعتبر في المرتبة الأولى من المراجع الممتازة.

وقد درس الدكتور فيليب حتى والدكتور نبيه أمين فارس والدكتور بطرس عبد الملك مجموعة المخطوطات العربية التي يملكها المستر روبرت جَرِت من بلتيمور وهي المحفوظة في خزانة مكتبة جامعة برنستون دراسة نقدية دقيقة. وهاهم أولاء ينشرون هذه الدراسة باللغة الإنكليزية لتكون في متناول العلماء والطلاب وجميع من يهتمون بهذه الدراسات.

وقد اطلعنا على مقدمة هذا الكتاب فوجدناه على جانب كبير من الأهمية لمن يدرسون آداب العرب وعلومهم. ولعلنا نترجم هذه المقدمة في عدد قادم زيادة في التعريف بهذا الكتاب.

وهو يطلب من المطبعة الأمريكية ببيروت.

المسابقة الأدبية والرسائل التي قدمت

تقرر تأليف لجنة من حضرات الأساتذة محمد صادق جوهر بك مراقب الامتحانات، والدكتور علي مصطفى مشرفة بك عميد كلية العلوم، ومحمد شفيق غربال بك وكيل كلية الآداب، وأحمد أمين أستاذ الأدب العربي، وإسماعيل القباني بمعهد التربية للبنين يعهد إليها فحص الرسائل التي قدمت للوزارة في مباراة الإنتاج الفكري بين رجال التعليم وأساتذة المدارس. وقد جعل من حقها أن تستعين بمن ترى الاستعانة بهم من الأخصائيين في المواد المختلفة.

وقد تقدمت الرسائل التالية:

في الأدب: رسالة الأدب المصري في عهد الأسرة المحمدية العلوية لسيد نور الدين هلال. والبارودي لفخري أبو السعود.

وفي التربية وعلم النفس: رسالة في الشباب والمراهقة لرياض محمد عسكر. وتحليل النفس لمحمود محمد محمود. والتربية في طرق القصص لإيزيس حبيب. ورياضة النفس لفهمي إسحاق.

وفي التاريخ: رسالة في (تاريخ الثورة الفرنسية) لعباس الخردلي. ومصير الحضارة في ضوء تفسير التاريخ وتطبيقه لإبراهيم مسلم والخلافة والسياسة لفخري أبو السعود. وجامعة الإسكندرية لإبراهيم إبراهيم جمعة.

وفي الطبيعة والكيمياء: رسالة في قصص العلماء والمخترعين في الكهرباء واللاسلكي لعاطف البرقوقي، وعجائب الفيزيقيا لأحمد فهمي أبو الخير، والكيمياء ومسائل الحياة اليومية لحسن عبد السلام، والحسن ابن الهيثم وجهوده في علم الضوء لعبد الحميد حمدي مرسي، وحياة النبات ومبدأ التناظر لعبد الحليم منتصر.

وفي الرياضة: رسالة في التحويلات الهندسية لحسن رضوان.

وفي الجغرافيا: رسالة موضوعها مصر بين الزراعة والصناعة للويس اسكندر.

وفي الفلسفة: رسالة عن أحلام الفلاسفة في المدينة الفاضلة لزكي نجيب محمود، وما كان وما يكون لإبراهيم السيد إسماعيل.

وفي الاجتماع: رسالة في روح القومية مقدمة الإصلاح الاجتماعي لأحمد خاكي، وسر النجاح في العصر الحاضر لأحمد حمدي.

الأمير شكيب أرسلان في دمشق

كانت وزارة المعارف السورية قد أصدرت مرسوماً بتعيين الأمير شكيب أرسلان المقيم في سويسرا رئيساً للمجمع العلمي العربي في دمشق، وقد قبل الأمير هذا التعيين، وتقول صحف دمشق إنه ينتظر وصوله إلى سوريا في الأسبوع القادم لتسلم منصبه العلمي.

تنظيم مجمع اللغة

انتهى معالي الدكتور محمد حسين هيكل باشا وزير المعارف من دراسة المشروع الجديد لتنظيم مجمع (فؤاد الأول) للغة العربية، وهو الذي وضع بعد سحب المشروع القديم من مجلس الشيوخ.

وقد أرسل المشروع الجديد إلى قلم قضايا الحكومة لوضعه في الصيغة القانونية توطئة لعرضه على مجلس الوزراء فالبرلمان.

أستاذ في جامعة فينا يزور مصر في مهمة علمية

وصل إلى القاهرة أول من أمس البارون فون فرش أستاذ أمراض الرئة في جامعة فينا، تلبية للدعوة التي وجهت إليه، لإلقاء ثلاث محاضرات في (أمراض الرئة) في الجمعية الطبية المصرية، وذلك في أيام 2 و4 و7 يناير.

الثقافة

غداً يصدر العدد الأول من مجلة الثقافة؛ والثقافة مجلة أسبوعية تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر؛ ولجنة التأليف والترجمة والنشر تاريخها معروف في نشر المعرفة لدى القراء والأدباء منذ ربع قرن، فلا يمكن أن يصدر عنها إلا كل جليل ونبيل. والرسالة ترحب بالثقافة ترحيب الشقيقة بالشقيقة، لأن بينهما من صلة الروح والدم والفكر والغاية ما لا يؤثر فيه اختلاف الدار ولا تباين المظهر. وهي ترجو الله مخلصة أن يوفق الثقافة بمقدار نيتها في صدق الجهاد وإخلاص العمل وتوخي الحق.

عالم سويسري يزور مصر

اعتزم العالم الكبير فريير أستاذ علم التربية بجامعة سويسرا زيارة البلاد المصرية في شتاء هذا العام. وقد انتهزت وزارة المعارف هذه الفرصة ودعته لإلقاء محاضرات في علم التربية الحديثة.

استدراك

فاتنا أن نقول إن الصورتين المنشورتين في صفحة 31 وهما معركة النور والظلام، والاتساق هما من تصوير الدكتور أحمد موسى، وقد تكلمنا عنهما في العدد الماضي في باب

البريد الأدبي.

الكتب

التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق

تأليف الدكتور زكي مبارك

أمامك صورة الدكتور زكي مبارك فتفرس فيها ثم قل لي ماذا وقع في حسبانك منها. إن كنت قرأت له ما ألف وما كتب في النقد والمناظرة فستظنه خارجاً من معركة بولاقية كان فيها شدُّ الشعور، ولكم الصدور، ونطح الرءوس، وتمزيق الملابس. وما هذا الرواء البادي على وجهه وهندامه إلا خداع النظر أو فن المصور.

وإن كنت قرأت له التصوف الإسلامي فستتخيله لا يزال في سنتريس (مريداً) للشيخ الطماوي الشاذلي يعكف على الأوراد ويشارك في الإنشاد، ويحمل الإبريق، وينقر الدف؛ فهو أشعث أغبر ضاوٍ من أثر الذكر والصوم والعبادة.

وإن كنت قرأت له هذا وذاك غلب على ظنك أن الرجل قامت به حال نفسية جديدة دل عليها هذا المظهر الجديد؛ فإن إرسال الشعر وتشعثه من سمات الفلسفة والتصوف والفن. وأنت واجد في كتاب التصوف الإسلامي صفات وخطرات من كل أولئك جميعاً. وفي رأينا أن هذا الكتاب يؤرخ طوراً جديداً من حياة صديقنا الدكتور، هو طور التأمل والتعمق والنفوذ إلى صميم الجد في الموضوع. وهو خليق بأن يسبل على ما تقدمه من مغامراته الجريئة في الرأي والفعل ستاراً من الصفح الجميل. وإذا كان الله قد عود الشعراء والأدباء أنه يغفر لهم من ذنوبهم ما تقدم وما تأخر ببيت من الشعر أو خاطرة من الرأي فما أحرى زكي مبارك أن يدخل معه الجنة على حساب كتابه ألفاً من الأدباء المحرومين!

الحق أن كتاب التصوف الإسلامي بناء شامخ الذرى في تاريخ الأدب. وأقوى ما يروعك منه الجهد والاطلاع والفهم. وهذه الخصائص الثلاث هي ميزة الكتاب الجليل والبحث الجامع. وإذا كان المؤلف قد نجح في (إبراز الملامح الأدبية والخلقية للنزعة الصوفية) فانه نجح كذلك في كشف ناحية من الأدب العربي والفكر الإسلامي كان الأدباء المؤرخون يمرون عليها معرضين، كما يمر السائح الغفلان على منجم الذهب فلا يرى إلا صخوراً وحجارة. والصوفية هي النزعة الوجدانية الصافية في الفطر السليمة، ولها في الأدب والخلق والفلسفة والحياة إشعاع هادٍ كإشعاع الحق، وكان لابد لهذا العنصر الباهر المجهول

من (مدام كوري) في زِيّ زكي مبارك تنهك الجسم والعِصب، وتنفق الوقت والذهب، في سبيل كشفه.

لا أريد أن أعرض لك الكتاب ولا أطيق الآن أن أحلله وأنقده، فهو يقع في نحو ثمانمائة صفحة من القطع الكبير؛ وعرضه وتحليله لا يغنيانك عن مطالعته شيئاً. وكل ما أقوله لك إنك ستجد زكي مبارك فيه رجلاً آخر غير الشاب الذي عرفته في سائر كتبه.

وزكي مبارك - إن أردت فيه كلمة الحق - مجاهد باسل من المجاهدين القلال الذين شقوا طريقهم في الحياة بالقوة، وأخذوا نصيبهم من المعرفة بالكد، وأحلوا أنفسهم محلهم اللائق بالصراع. وهو أحد الأدباء الذين لم يقم مجدهم الأدبي على الظروف والحظ. وإذا كان الحظ قد وقع في حياته فهو الحظ المنكود لأنه تعلم بكدح قلمه، وتقدم بفضل جهاده، ثم كانت الظروف التي تساعد غيره تلح عليه بالنكران والحرمان من غير هوادة.

ومن أثر ذلك كان هذا الإعلان المستمر عن نفسه وعن عمله. وهي صفة لا تتفق كثيراً مع وقار العلم وجلال الخلق. ولكنها آتية إليه من وراء الوعي على ظن أن الناس ينكرون عليه فضله وينفسون عليه مكانه.

ولو استطاع زكي مبارك أن يتملق الظروف ويصانع السلطان ويحذق شيئاً من فن الحياة - لاتقى كثيراً مما جرته عليه بداوة الطبع وجفاوة الصراحة. ولكن هذه الأعراض النفسية ستفنى فيه وفي الناس، ويبقى ذلك المجهود العلمي الضخم الذي قدمه إلى الأدب العربي في شتى مناحيه شاهداً على صدق خدمته للأدب ورفيع مكانته في النهضة.

الزيات

فيض الخاطر

مجموع مقالات أدبية واجتماعية للأستاذ أحمد أمين

للدكتور إسماعيل أحمد أدهم

وهذه مقالات بعضها نشر في مجلة (الرسالة) وبعضها نشر في مجلة (الهلال)، والبعض الأخير لم ينشر في هذه ولا تلك؛ جمعها كاتبها أحمد أمين الأستاذ بكلية الآداب بالجامعة المصرية، في كتاب إجابة لدافع غريزة حب البقاء، لأنها - مجموعة - أدل منها متفرقة، وفي كتاب أبين منها في أعداد.

والأستاذ أحمد أمين من كبار المؤرخين المعاصرين في العربية، يدين له تاريخ الحياة العقلية في القرنين الأول والثاني للهجرة بأحسن ما كتب في دراسته من سبل التحقيق في التاريخ. غير أن كتابة الرجل وإن ظهرت عليها مسحة من التدبر العلمي في استقصاء الأسباب وربط النتائج لها كمظهر تحليلي، فان التقرير دون التحليل هو طابع دراساته. ولكن تقرير الحوادث والوقائع عنده خاضع لمحكمة النقد العليا التي تستنزل أولياتها من المنطق التاريخي، ومن هنا جاء ما لدراسات الرجل من قيمة.

والرجل يمتاز بكل سمات العالم في بحثه، من سلامة النظر وسعة الاطلاع والنزاهة وهدوء الطبع. غير أنه ينقصه التحليل في عمقه. وطابع التقرير يوقفه كثيراً عند ظواهر الأشياء دون أن يستجلي بواطنها. ولا أدل على ذلك من نظرة سريعة لموضوعات مقالاته التي نشرها بعنوان (فيض الخاطر)؛ فهو في المقال الأول يتكلم عن (الرأي والعقيدة)، ويرى الرأي شيئاً والعقيدة شيئاً آخر، وهو يذهب في كلامه مولياً وجهة من النظر تذكرنا بوجهة الفنان توفيق الحكيم في المقال الأول من كتابه (تحت شمس الفكر).

يرى الأستاذ أحمد أمين مكان الرأي الدماغ؛ أما العقيدة فمكانها القلب. والواقع أن هذه التفرقة اعتبارية محض، فضلاً عن أن القسمة غامضة، فنحن لا نعرف من القلب معنى غير الشعور والإحساس الباطني، ومثل هذا الشعور والإحساس الباطني ليس الرأي ببعيد عنه. وكم من رأي هو وليد الشعور الباطن والإحساس الداخلي.

وفي هذا المقال يرى الكاتب أن الإيمان بالشيء يستتبع العمل على وفقه لا محالة؛ غير أننا نلاحظ أن الإيمان شيء والعمل شيء آخر، وليس الإيمان بالشجاعة أو الكرم من الأسباب

التي تجعل المرء كريماً أو شجاعاً؛ فالكرم عادة وخلة تغلب على الطبع، والشجاعة قوة للتغلب على المكاره مردّها النفس، وليس للعقيدة دخل فيها، وإن كانت العقيدة

تتلون بها.
وفي المقال الثاني يتكلم الكاتب عن (الكيف والكم) ويقدر أن تقدير الأشياء بالكم شيء يرتبط بالطفل في نشأته والأمة في طفولتها. ولما كان كل إنسان مر في طور الطفولة، والأمم جميعها مرت بهذا الطور، لهذا علق بالذهن الإنساني تقدير الأشياء بكمِّها. وهذا كلام صحيح ولكن يغلب عليه التقرير دون التحليل، لأن التحليل يستلزم النظر في أسباب ارتباط تقدير الأشياء بكمها بطور الطفولة عند الإنسان.
وفي المقال الثالث عن (صديق) تجد الكاتب يولي وجهة من التقرير للأمور، فيبدع في عرضه وتصويره، ولكنه لا يتناول ببحثه وجه تحطم صديقه من التناقض الذي في نفسه. هذا. . . وهل يمكن أن يوجد إنسان ليس له وحدته النفسية إلاّ ويكون منحلاً شخصية إلى شخصيات، وإذن كان الوجه التحليلي في هذا الموضوع أن يتناول الكاتب ببحثه تداخل الشخصيات التي انحل إليها شخص صديقه، ويبين أثر هذا التدخل في إيجاد الاضطراب في نفسه حتى انتهى إلى تحطيمه.
وفي المقال الرابع كلام عن (أدب القوة وأدب الضعف) ظاهره جميل، ولكن أدب الضعف الذي يلمسه الكاتب في الأدب العربي أليس صورة صادقة من الحياة العربية؟ إذن ماذا يطلب الكاتب؟ أيريد من الخراف أن تلبس جلد الأسود؟ هذا يخرج بالمسألة عن الصدق، والصدق أساس الأدب عند الكاتب. . .
أظن هذه أمثلة وإن كانت سريعة موجزة خطوطها إلا أنها كافية لتثبت أن الكاتب يقف عند حدّ التقرير فيما يكتب. لكن سلامة النظر وسعة الاطلاع وهدوء الطبع تجعل التقريرات التي يقررها الكاتب تتسم بميسم الصدق والواقع في العموم. وهذا لا يمنع أن يتسرب في بعض الأحيان بعض الخطأ إلى تقريرات الكاتب، غير أنها قليلة في المجموعة، نذكر منها قوله إن العالم خاضع للمنطق، وأن له غرضاً يسير إليه وليس يسير حسبما اتفق، وأنه محكوم بقوانين ثابتة لا تتغير.
أما كون العالم محكوماً بقوانين لا تتغير فهذا صحيح، وكونه خاضعاً للمنطق صحيح؛ أما أن يستخلص من ذلك أن العالم له غرض يسير إليه وليس يسير حسبما اتفق فهذا مما لا
نوافق الكاتب عليه. فيصح أن يكون العالم سائراً حسبما اتفق وليس له غرض، ومع ذلك تراه خاضعاً للمنطق محكوماً بقوانين ثابتة لا تتغير.
أما بيان ذلك فقد استوفيناه من بحث سابق منشور بعدد أغسطس سنة 1937 من مجلة (الإمام) وفي مقال كتبناه بعدد مارس سنة 1938 من مجلة (المقتطف).
والكاتب يمتاز أسلوبه بإشراق الديباجة ودقة التعبير، غير أن أسلوبه ينقصه السرعة والهزة التي تجذب النفس، فمن هنا لا يمكن اعتباره أسلوباً أدبياً
وللكاتب في المجموع دراسات قيمة تمتاز بوجه عرضها للموضوع الذي يبلغ به الكاتب أحياناً منزلة الجودة الفنيَّة، نذكر من هذه الموضوعات (سلطة الآباء) و (من غير عنوان) و (منطق اللغة).

أبو قير

إسماعيل أحمد أدهم

المسرح والسينما

شارع عماد الدين والمسرح

كانوا قديماً يسمون شارع عماد الدين شارع الفن، وكان البعيد عنه يحسب أن فيه الفن حقاً، وما زالت تلك الصفة ملقاة عليه معروفة عنه حتى لأهله الذين يعرفون كل ما فيه. وقد كان جائزاً فيما قبل أن يسمى شارع الفن لأنه كان يضم بين جنبيه فرقتين أو أكثر تعملان وتجاهدان.
أما اليوم فماذا في شارع عماد الدين؟ فيه أربعة مراقص تلبس الإنسانية فيها أقبح الأردية. إي والله لم يعد فيه إلا المراقص تنمو وتتكاثر ويرتادها الناس وعلى المسرح السلام. .
الجمهور المثقف الذي يفهم أهمية المسرح ويقدرها قد جرى مع غيره في مجرى واحد من حيث جحود التمثيل وعدم المبالاة باحتضاره؛ وأصبح يجد في (الصالات) ما يكفل له تمضية السهرات دون حنين إلى المسرح المقهور أو شفقة عليه؛ حتى أصبح شارع عماد الدين وما حوله بقعة مجردة من الحياء، بعيدة عن روحانية الفن بعد الأرض عن

السماء. . .
فهل انتهى بذلك تاريخ المسرح المصري؟ وهل انصرف أبطاله كل الانصراف إلى السينما حيث المجال المادي المربح؟. نرى هذا، ولكننا نأمل ألا يستمر؛ لأن للمسرح الحقيقي المثقَّف تأثيره في النفوس، والسينما قد تستطيع أن تحل محله، ولكنها لا تستطيع أن تكفي عنه كل الكفاية. فهو إذن ضروري، وهو لو نهض نهضة حقه سيقف إلى جانب السينما وتخلعها، وسيعيش وسيكون له شأن.
وأبطال المسرح المصري لا يزالون أحياء ولا تزال في نفوسهم الرغبة إلى محاولة الجهاد في سبيل النهوض به، ولكن يعجزهم المال، فيظلون فرادى لا جامع لكلمتهم ولا مستغل لمواهبهم. وحسب وزارة المعارف أن تهيئ (تكية) وتقيمها في دار (الأوبرا) شهراً أو شهرين من العام، وهذا عندها هو تشجيع التمثيل.
اجمعوا الجهود وقسموها إلى وحدات، فهذه للدراما وهذه للكوميدي وهذه للتراجيدي، تخلقوا جواً شريفاً للمنافسة وتروا نهضة جديدة للمسرح. . . وإلا فقد انتهى أمر التمثيل المسرحي حقاً، وأصبح (شارع الفن) بقعة موبوءة تظل تنحط وتنحط حتى لا يكون فيها موطئ لقدم شريف.
أخيراً تزوجت
ولعل الأمل الباقي في حياة المسرح المصري منوط بعنق جمعية أنصار التمثيل والسينما، وهي وإن كانت مقلة في إنتاجها ما تزال تحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه من بناء المسرح المنهار. وكان آخر ما قدمته الجمعية بدقة بلغت حد الإعجاب رواية (أخيراً تزوجت) في حفلة الجمعية الخيرية الإسلامية بدار الأوبرا في الأسبوع الماضي. وإنا لنتمنى لهذه الجمعية أن تواصل نشاطها حتى تكون هي الرمق الحي الذي نرتجي من ورائه للمسرح المصري بعض الخير.
وهاهي ذي الفرقة القومية لا تكاد تقضي شهراً في عمل، حتى تقضي مثله أو أمثاله في كسل. هاهي ذي تنهي دورتها الأولى بعد فترة لم تنتج فيها جديداً يذكر لتعود إلى نومها المعتاد. وهنيئاً لأفرادها هذا الجو الناعم!
فارس الميدان
فرقة الريحاني هي الفرقة التمثيلية الدائمة التي تبرهن على أن التمثيل الكوميدي لما ينعدم بعد. والريحاني يشكر هذه المثابرة. غير أننا نأخذ عليه اعتقاده بأنه هو وحده الآن فارس الميدان، وذلك ما جعله يسير الهوينا حتى لا يخرج طوال الموسم كله أكثر من أربع روايات. وذلك إنتاج لا يفي بالحاجة.
التأليف هو علة انهيار المسرح المصري وسقوط الفيلم المصري
ينادي المهتمون بشئون السينما والمسرح في مصر بأن المسرح هنا قد اندثر أو كاد، وأن الفيلم المصري لم يظهر بعد في الثوب الفاتن الذي يجب أن يظهر فيه حتى يستطيع أن يقف إلى جانب الأفلام الأجنبية ولو في السوق المصري وحده، ويؤولون لذلك أسباباً كثيرة مبنية تارة على أساس وتارة على غير أساس، وتفكر وزارة المعارف وهي القائمة على أمر التمثيل كأداة من أدوات التثقيف تفكر في مصيره المظلم، وتجتمع اللجان وتقرِّر القرارات وترصد الإعانات وتبذل النفقات في سخاء ويؤتى بالأجانب لإنقاذ ما يمكن إنقاذه!!
ولكن أحداً من هؤلاء لم يفكر في العلة الحقيقية لانهيار المسرح المصري وسقوط الفيلم المصري. . . العلة هي التأليف ولا شيء غيره. فالممثلون الناجحون موجودون في مصر والمخرجون البارعون موجودون في مصر، وجمهور المتفرجين موجود في مصر ولكن هناك عنصراً واحداً يكمل هذه العناصر بل يوجهها غير موجود. . . هو التأليف.
وليس معنى هذا أن مصر بلد لا ينجب المؤلفين، فالمؤلفون موجودون ولكن كأن لا وجود لهم. . . لدينا مؤلفون موهوبون في طوقهم أن يسدوا حاجة المسرح وزيادة، وهم مع الأسف يجافون التأليف وينصرفون إلى غيره من شئون القلم لأن التأليف فن ظلمه المتصرفون في أمره ولم يقدروه قدره أو بعض قدره فأصبح كالصناعة الآلية

التي لا يقودها الإبداع الفني.
أصحاب الشركات السينمائية المصرية ومديروها يريدون من المؤلف أن يكتب الرواية الكاملة دون أن يأخذ ثمناً وحسبه أن يظهر أسمه على الشاشة ففي ذلك ما يكفل له الطعام وكل لوازم الحياة. . . وإلا فليأخذ بضعة جنيهات ولا لزوم لاسمه ولينسب تأليف الرواية إلى مدير الشركة أو مخرجها. . .
وأصحاب الفرق المسرحية يدعون لأنفسهم القدرة على التأليف فإذا ما قدم مؤلف رواية إلى أحدهم ردها إليه بعد أن يلمَّ بأطراف فكرتها ليكتبها بعد ذلك كيفما اتفق. . .
فلماذا إذن يؤلف المؤلف الموهوب؟ وأين ما يغريه ويشجعه على التأليف؟ إن اعتزازه بفنه يأبى عليه أن يؤلف ليكون هذا مصير ما يؤلفه، ومن هنا تتحطم الأقلام وتنزوي المواهب تاركة الميدان - إذا كان هناك ثمة ميدان - لقوم صناعيين لا يكلفهم التأليف عناء الموهبة وشقاء الفن، فهم يكتبون ويبيعون غير آسفين على بضاعتهم لأنهم كتبوا بعقولهم لا بأرواحهم.
أولئك هم الذين يسمّون اليوم بالمؤلفين وبكبار المؤلفين ولا أقصد بالمؤلفين هؤلاء النفر الذين يؤلفون (للصالات) فليس هذا تأليفاً وإنما هو هراء قوامه النكتة البذيئة والكلمة الجارحة والوضع المقلوب. اللهم إلا القليل منه. . .
وبين هؤلاء الذين يكتبون للمراقص كتابة صبيانية، وأولئك الذين يكتبون للسينما والمسرح
كتابة تجارية، يضيع المؤلف الموهوب الفنان الذي يكتب للفن. . . فالأولى إذن أن يعيش بعيداً عن التأليف.
هذا ما كان حتى اليوم وهذا ما سيكون ونظل نراه ما دام التقدير الحق معدوماً وما دامت الشركات السينمائية والفرق المسرحية تقدر التأليف آخر ما تقدر وتعتبره عنصراً هيناً قليل الخطر بينما هو أحق من كل شيء بالعناية والاهتمام والبذل.
لذلك ترى الفرقة القومية وهي تسمى (قومية) تلجأ إلى الروايات المترجمة وفوق، ما في ذلك من معرة قومية فإنه يصرف الجمهور عنها لأن الجمهور مصري ويريد أن يرى شيئاً مصرياً.
وقد تحتج تلك الفرقة القومية أو تلك المهزلة القومية بأن هذا هو ما يقدم لها وصلح أما غيره فقد كان هزيلاً. . . ولكن هل بحثت الفرقة - وهذا من شأنها - بين الموهوبين حقاً من غير أصحاب الأسماء؟ لا. . . وهل تركت الغايات والميول جانباً وراعت الحق في الاختيار؟. . . لا. . . إذن فمن أين يأتيها المؤلف الفنان المغمور الذي لا عم ولا خال. . .
أما مسألة المباراة فإنها لمهزلة تتكرر وما من ورائها فائدة حتى لو روعي فيها جانب الحياد والحق. . . وهيهات. . .
أما الطريقة العملية لتشجيع التأليف بل لخلق التأليف وإيجاد المؤلفين فهي أن تقدر وزارة المعارف ثمناً معيناً للرواية السينمائية وثمناً للقصة المسرحية وتشرف هيئة محترمة لا تعرف غير الحق إشرافاً فعلياً على طريقة اختيار الشركات لرواياتها وطريقة دفع الثمن، أو تقوم هي معملية الأخذ والاختيار والإعطاء بين المؤلفين والشركات أو المسارح. ثم تقدر من عندها فوق ذلك مكافأة مالية لكل رواية تظهر على الشاشة أو على المسرح وبذلك تكون هي المشرف النزيه فتضمن للمؤلف حقه وفوقه مكافأة فينتج ويبدع ويكون في مصر تأليف ومؤلفون

(ز)

العدد 288 - بتاريخ: 09 - 01 - 1939

من مآسي الحياة

فتون وجنون. . .

إلى الآنسة (أ. ش. ف)

نعم يا آنستي العزيزة! لَشدَّ ما لاع القلبَ وراع الضميرَ ما قصصتُ من مآسي الحياة! ولا يزال في خبايا الغيوب وطوايا الحجب ما هو أمضُّ لوعة وأشد روعة.
وعدتِني أن تقصي عليّ أنباء من تعرفين من طرائد البؤس وأنضاء الهم، وأنا أقص عليك هذه القصة ريثما تنجزين هذا الوعد:
في المنصورة بلد المال والجمال والشعر كانت تعيش أسرة من أسَرِ الريف الغنية

السريّة عيش اللهو والزهو والمرح. وكانت قبل ذلك تعيش في مزارعها الواسعة في قرى مركز (شربين) تستغل أراضيها الخصبة استغلال الدَّءوب اليقظ؛ حتى أبطرها الغنى، فرأت طرق الحقول التَّرِبة لا تلائم المركبة الفخمة، والبيت القروي العتيق لا يوائم الأثاث الأنيق، والقريةَ كلها لا تصلح مجالاً للعظمة ولا مجتلى للشهرة؛ فتركت ضياعها وزروعها في ذمة النُّظار والخَوَل، وأسلمت قيادها للبذَخ والسرف: ترتبع بالمنصورة، وتصطاف بالإسكندرية، وتُشتي بالقاهرة. وتظاهر على رب هذه الأسرة الجهلُ والطيش والفراغ والغنى والعُجب، فقلبته بين الحانات والمواخير قَفاً لوجه، حتى ركبه الدين والمرض، فباع الأرض لبنك (خوريمي)، والصحة لبار (أنسطاسي). وكبر عليه أن يعود إلى قريته ذليلاً بعد العز، فقيراً بعد الغنى، فظل في المدينة ولكن في بيت غير البيت، ومظهر غير المظهر. . .

تتألف هذه الأسرة من الوالدين ومن ست بنات وابن واحد. وفي هذا الصبي الواحد انحصر مستقبلها وأملها، فأرصدت ما بقي للأم من موروث الرزق على تربيته وتعليمه. فلعله يكون كابن فلان باشا: ينال (الليسانس)، ويعين وكيلاً للنيابة فقاضياً فمستشاراً فوكيلاً للوزارة. ويومئذ يرجع المال الذاهب، ويعود المجد المضاع، وتندم الشماتة الحاقدة. وكان الفتى نحيل البدن ولكنه ذكي مجد، فلم يتخلف في سنة، ولم يرسب في شهادة، حتى نال إجازة الحقوق. وكان في مدة دراسته الطويلة شغل الأسرة الشاغل: فالوالدان همهما تدبير المال له وتوفير الصحة عليه؛ والبنات الست عملهن غسل ثيابه وكي بِذَله وتصفيف شعره وتهيئة أكله وتهدئة نومه. وإذا فاتهن اليومَ أن يأكلن الهنيء، ويلبسن الناعم، ويجلون حسنهن للأتراب والخطاب في شارع البحر بالمنصورة، فسيعوضهن الله غداً بفضل أخيهن الموظف خيراً من كل أولئك في القاهرة.

وكانت الأم تبيع في كل سنة من سِنِي دراسة ولدها فداناً من أرضها، تنفق نصفه على المدرسة ونصفه على البيت حتى خرج هو من كلية (حقوقه)، وخرجت هي من كل حقوقها.

أصبحت الأسرة الفقيرة مُعدمة: فلا في الأرض ولا في البيت ولا في اليد. فهي تعيش على ما يبقى من مرتب أملها وكاسبها (فؤاد)، فقد وظف بأحد مراكز طنطا وعاش وحده. وظل الأبوان الشيخان والبنات النواهد في المنصورة على ضيق وقلق ينتظرون اتساع الرزق وامتداد الجاه فيجتمع الشمل ويرفُه العيش.

أتدرين يا آنستي بماذا أجاب القدر دعاء هذه الأسرة، وعمَّ أسفر الأمل في هذا الولد؟ كان فؤاد رقيق البدن والشعور والعقل، فأغرم بالأدب، وفُتن بالجمال، وكلِف بالرُّواء. وحياة الأقاليم لا تقضي حاجة النفس النزاعة الرغيبة من كل ذلك. فكان في مكان عمله بالنهار، وفي مجالي القاهرة بالليل، حتى افتتن بمطربة معروفة، فاضطرب أمره وانتكس حاله.

كان فؤاد عُذْري الهوى، لأن حياءه أقوى من طموحه، وشاعريته اشد من شهوته. وهو إلى ذلك فقير، ومعبودته من ذوات الثراء والمجد، فلا يدخل قصرها إلا غني أو فنان أو مهرِّج. فكان يقنع بالجلوس أمام تختها إذا غنت، وبالطواف حول بيتها إذا استراحت، حتى خبَله العشق وأضناه السهر. وبان أثر ذلك في عمله، فغاب طويلاً عن مكتبه، وأخطأ كثيراً في تصرفه، واختلف دائماً مع رئيسه؛ فانتهى الأمر وهو لا يزال في عهد التجربة بفصله!

لم يشعر فؤاد بهذه الصدمة الصاعقة كما شعر بها أهله؛ فإن حياته كانت في الحب، وحياة أهله كانت في الوظيفة. فلما انجلت غشاوة الهوى قليلاً عن عينيه رأى نفسه خالياً من العمل والأمل، يُزجي فراغه الثقيل الذليل بالهيام في الطرقات، والنظر في (الفترينات)، والاختلاف إلى (الصالونات)، والوقوف بباب المطربة أكثر النهار والليل، يحادث الخدم، ويرقب الزوَّار، ويرصد السيارة الحبيبة حين تذهب وحين تؤوب.

وأسرع إليه أبوه على كبره ووهنه يستكشف سر النكبة ويعالج مقطوع الرجاء، فوجده نفساً يتهافت في جسد ضارع وهيئة زرية؛ فما زال يتلطف به ويهاويه حتى كشفه عن أمره، وعاد به إلى الأسرة المفجوعة في ولدها الوحيد، وأملها الفرد، وملجئها الأخير، وشرفها الباقي. . .

ليس في طاقتي يا آنستي أن أقص عليك خاتمة هذه المأساة. ولو كان وصفها في إمكاني، لما كان استماعه في إمكانك. فإني أعرف رقة قلبك ووهن جَلدك في مثل هذه الحال. . . وليس من العسير على فطنتك استنتاج ما حدث. فالفتى من تباريح الجوى أصيب بالسل فمزَّق رئتيه وشفَّ جسمه، فهو في السرير عظم هامد ينتظر النهاية المحتومة. والأم من هول النكبة أخذها الفالج؛ فهي سطيحة على الفراش لا تُمر ولا تُحلى. والأب من فقد الرجاء اعتراه الخبال فمات قتيلاً في حادث محزن. والبنات؟ البنات بقين بعد المخبول والمسلول مع الأم الكسيحة لا كاسبٌ ولا خاطب. فتصوري يا آنستي كيف يعشن! لو كان للإسلام أديرة صوفية لدخلن في حمى الدين؛ ولو كان للحكومة مدارس خيرية لاعتصمن بقوة العلم؛ ولو كان للأوقاف ملاجئ نسوية لعشن في ظلال الخير. ولكنهن يا آنستي يعشن العيش الكريه الضنك على فضلات الأقارب الأباعد. ومثل هذا العيش لا يثبت عليه إيمان ولا أمان. والبيت البائس إذا لم يدخله المَلَك دخله الشيطان. . .

أحمد حسن الزيات

الفكاهة والطغيان

للأستاذ عباس محمود العقاد

ملَكة الفكاهة نعمة من نعم الحياة، وخاصة من خواص الإنسان، وعلامة من علامات الارتقاء. ولكنها خليقة أن تعدَّ في النقم إذا هي سوغت ما لا يساغ وأباحت ما لا يباح، كالإذعان لحكم طغيان، والاجتراء على حقوق أو حرمات.

سمعت من سعد زغلول رحمه الله أن (أحمد زيور) في الوزارة أخطر من عبد الخالق ثروت ومَن على طرازه، لأن أحمد زيور لا يثير الغضب في المصريين بل يحفز فيهم ملكة الفكاهة ويقلب الأمر من جد إلى مزاح؛ وهم لا يكرهون ذلك، وقد يستمرئونه ويمضون فيه، فيقبلون على يديه ما لم يقبلوه على أيدي الآخرين، ويأتي الخطر من هذا الباب.

وذكرت هذا وأنا أقرأ الفكاهات التي يرويها الرحالون والناقدون الاجتماعيون عن الألمان والروس والطليان وسائر الأمم التي يحكمها أصحاب السلطان المطلق في هذه الأيام.

فينبغي أن نعلم أن هذه الأمم تصنع ما يصنعه المصريون أحياناً من مقابلة الطغيان بالفكاهة، ومن مجازاة السطوة بالنكتة، فيصول عليها الحاكم وهي تضحك منه، وتتفكه بالأحاديث عنه، وتظن أنها أخذت منه بمقدار ما أخذ منها، فتستريح إلى هذا القصاص!

قيل أن القائد جورنج يحب النكتة البارعة، ويطرب للفكاهة الجيدة، ويود لو يسمع ما يتداوله الناس من أقاويل السخر والمزاح عن الحكومة الحاضرة في البلاد الألمانية، ولكنه لا يصل إليها لخوف الناس من كتابتها أو الجهر بها، فاتفق وسائق سيارته على أن ينقلها إليه كلما سمع شيئاً منها، وله خمسة قروش على كل نكتة مقبولة.

قال الراوي: فطاب المورد للسائق المحروم وحرص على احتكار البضاعة كلها في هذه السوق. ثم جاء إلى القائد يوماً بحفنة صالحة من النوادر اللاذعة، فداخل القائد شيء من الغيظ وأشفق من ذيوع هذا الضرب الأليم من التنكيت، وقال كأنما يحدث نفسه: (ليضحكوا ما شاءوا. . . إنهم لا ينسون على كل حال أنهم أعطونا تسعة وتسعين في المائة من أصواتهم في الانتخابات الأخيرة. . .!)

فصاح به السائق وقد خاف على مورده المحتكر:

سيدي القائد! من الذي باعك هذه النكتة؟!

وروى الراوون أيضاً أن زوجة شابة انتظم زوجها في إحدى الفرق العسكرية الحديثة فطال غيابه عن المنزل وامتدت ساعات التدريب إلى ما بعد الهزيع الأول من الليل، حتى تعودت أن تنام ولا تنتظر أوبته حين يؤوب. وتمادى على ذلك فترة طويلة، فأحبت أن تنبهه بعض التنبيه عسى أن يحتال للخلاص من هذا التدريب أو من تلك المواعيد، فتركت على الموضع الخالي من السرير ورقة كبيرة أشبه شيء باللوحة التي تكتب للتذكار، على بعض الأنصاب والآثار، وكتبت عليها: (هنا!. . . حيث كان يرقد زوجي قبل التحاقه بالفرقة العسكرية). . . فضحك حين رآها. وسمع الجيران بالخبر فضحكوا وتناقلوا الورقة بينهم بضعة أيام. . . وسرى الخبر إلى مكتب الاستطلاع فضحك أيضاً (ولكنه اعتقل الزوجة أياماً في معتقل التأديب أو العقاب).

أما في الروسيا فالفكاهات التي يخترعها الظرفاء للضحك من النظام القائم فيها لا تحصى، ولا تقل في الرواج عن الفكاهات الألمانية.

قيل إن مندوباً من مندوبي الحكومة أراد أن يستطلع طِلْع الفلاحين الذين يطوفون أو يساقون إلى الطواف بضريح لينين وهو معروض فيه مكشوفاً للأنظار.

فسأل واحداً منهم: ما رأيك فيه. .؟ أي في الزعيم لينين.

فأجاب على البديهة: حاله مثل حالنا. . . ميت ولكنه لا يدفن!

ووقف فلاح على مقربة من آلة المذياع وهم يركبونها، فسمع المهندس يقول: إن كل كلمة تلفظ هنا تدوي في جوانب العالم كله. فهل منكم من يريد أن يقول (كلمة واحدة) باسم الروسيين؟ فأومأ الفلاح أن نعم. . . وتقدم إلى بوق المذياع فصاح: (النجدة!)

وقفزت جماعة من الأرانب من الحدود الروسية إلى الحدود البولونية، فدهش الحراس البولونيون لكثرتها وسألوها: ما الخبر؟ فقال واحد منها: إن مكتب الاستطلاع قد أصدر أمراً بالقبض على جميع الزرافي التي في الأقطار الروسية. . . قال الحارس: وما شأنكم أنتم وأنتم أرانب ولستم بزرافي؟! فقال الأرنب: (صحيح! ولكن هل لك أن تثبت ذلك لمكتب الاستطلاع؟!)

وعمت الشكوى من مكتب الاستطلاع هذا فأشاع الظرفاء الروسيون أن الزعيم ستالين قد أمر بتسريحه وشدد على رجاله أن يتلطفوا إلى الناس غاية التلطف لينسوهم فظاعة ماضيه.

إلا أن الفلاحين المساكين لم يسمعوا بهذا الذي أشاعه الظرفاء البلديون، فبينما كانت طائفة منهم في مركبة كبيرة إذ عطس أحدهم عطسة عنيفة سمعها من في الطريق، فأطل واحد من رجال مكتب الاستطلاع في المركبة وسأل: من الذي عطس هذه العطسة؟

فاضطرب الركب وسرى فيهم الرعب وطفقوا يلكزون العاطس المتواري أن يبرز نفسه ويحمل وحده وزر عمله ولا يجور على أصحابه جميعاً بجريرة عطاسه، فلم يسع الرجل إلا أن يعترف بالحقيقة ويقول في كثير من الوجل والتلعثم: أنا. . .!

قال الراوي: فانحنى مندوب مكتب الاستطلاع تنفيذا لأمر الزعيم ستالين وقال: يرحمك الله!

ويروي الظرفاء الروسيون أن طوفاناً من السباب والتبكيت والتعزير سمع ذات يوم في الحجرة المجاورة لمكتب الرفيق ستالين. فانتظر الحجاب حتى يفرغ الزعيم من حديثه، ثم فتحوا الباب ليسحبوا منه الرجل المنكود الذي وقعت على رأسه كل هذه الشتائم والمقذعات، فما راعهم إلا أن يبصروا المكتب خالياً وليس فيه أحد غير الزعيم.

- أين الرجل المنكود الذي كنت تشتمه؟

- فأجاب الزعيم: أنا هو. . . وقد فرغت الساعة من حصة المناجاة!

عرضت هذه النوادر و (القفشات) وعرضت معها نوادر المصريين وقفشاتهم للرومان والترك وقره قوش وسائر الحاكمين الذين نالوا من المصريين بالقسوة، ونال منهم المصريون بالنكتة، فورد على خاطري هذا السؤال العجيب: لو كنت حاكماً طاغياً ماذا أصنع لهؤلاء الساخرين؟ هل أطلق لهم العنان يرسلون النكات والقفشات حيث يشاءون؟ أو أحسب حساباً لعواقب هذه النكات والقفشات فاحجر على أصحابها ومذيعيها وأتعقبهم بالمصادرة والجزاء؟

إن النكتة تلطف وطأة الظلم وتوهم المظلوم أنه ينتقم لنفسه بعض الانتقام فتهوّن عليه الشدائد وتروضه على الصبر والانتظار، فهي من ثم معين للحكام على المحكومين.

إلا أن النكتة قد تزري بالمهابة وتعصف بالرهبة وتجعل الحاكم المخيف أضحوكة في الأفواه ومهزلة للسامرين؛ فهي من ثم مضعف لسلطانه ومجرئ على مقامة ومحرض على الثورة والانتقاض.

هي بلسم للمظلومين فهي مقبولة

وهي سلاح للمظلومين فهي مرهوبة

فماذا يحسن بالحاكم المستبد أن يصنع مع هؤلاء المازحين؟
ليس لهذا السؤال جواب فاصل فيما أحسب، ولكني أقرر الحقيقة إذا قلت إن المحكومين لا يحاربون الظلم بالفكاهات والنكات إلا إذا كان للصبر بقية، وفي قوس الاحتمال منزع كما يقولون، وإن الحاكمين لا يتسمحون في قبول الفكاهات والنكات إلا إذا كان للقوة بقية وللثقة بدوام السلطان مجال فسيح.
أما إذا ضاقت الصدور ونفذت الحيل فالمحكومون لا يعتصمون بالفكاهة والتنكيت بل يغضبون ويثورون.
وكذاك إذا ضاعت ثقة الحاكم بدوام سلطانه لم يصبر على السخرية والمزاح، وعالج الحجر عليها عسى أن يستعيد شيئاً من المهابة والامتناع.
وبعد هذا وذاك يجب علينا أن نفرق بين الفكاهات، وأن نفرق كذلك بين الطبائع التي تتخذها وسيلة لحرب الحكومات.
فالفكاهة التي قوامها تلفيق الجناسات اللفظية والملاحظات الشكلية لا تخيف أحداً من العقلاء. أما الفكاهة المخيفة حقاً فهي تلك التي تنفذ إلى العظم وتسري إلى قرارة الأمور، ولا ينطبع على هذه الفكاهة إلا أناس يعملون حين يتفكهون، ويجترئون حين يسخرون.
عباس محمود العقاد
الشريف الرضي وخصائص شعره
للأستاذ عبد الرحمن شكري
(تتمة ما نشر في العدد الماضي)
على أن الوجدان يفيض في شعر الشريف حتى من غير الاستعانة بهذه الصيغ البيانية. أنظر إلى وصفه حبيبته في قوله:
تُحَبِّبُ أيامَ الحياةِ وإنها ... لأعذبُ من طعم الخلود لطاعم
وتراه يستجمع أساليبه البيانية كلها في قصائدهِ الطويلة المشهورة كرثائه للصابي وللصاحب في قصيدتيه التي يقول في مطلع واحدة:
أعلمت مَنْ حملوا على الأعواد ... أرأيت كيف خبا ضياء النادي؟
وفي مطلع الأخرى:
أكذا المنون تُقَطِّرُ الأبطالا ... أكذا الزمان يضعضع الأجْبالاَ؟
وهاتان القصيدتان من أفخم قصائده في الرثاء وإن كان الحنين فيهما أقل منه في قصائده في رثاء أهل بيته. وله في رثاء الصابي قصائد أقل فخامة وإن كانت أكثر حرقة. ومن أكثر قصائد الشريف في الرثاء وجداناً قصيدته العينية المشهورة التي يقول فيها:
لله نفرة وجد لست أملكها ... إلاّ تذكرتُ إخوان الصفاء معي
وفيها يقول:
الآن نعلم أن العيش مُخْتَلَسٌ ... وأننا نقطع الأيام بالخُدَعِ
أُحَيَّ لا رغبت عيني ولا أذني ... من بعد يومك في مَرْأى ومُستَمَعِ
وقصيدته التي يقول في مطلعها:
قف موقف الشك لا يأس ولا طمع ... وغالط العيش لا صبر ولا جزع
وهي في نظري من أكثر قصائده في الرثاء وجداناً. ومن قصائده الوجدانية في الرثاء في آل المسيّب العينية التي يقول فيها:
وفارقني مثل النعيم مفارقاً ... ووَدَّعَني مثل الشباب موَدِّعا
ومن قصائده الحبيبة في الرثاء قصيدته في رثاء أمه وهي أكثر وجداناً من قصيدة المتنبي في رثاء جدته التي يقول فيها:
وإنْ لم تكوني بنت أكرم والد ... لكان أباك الضخم كونك لي أمَّا
وللمعري قصيدته الطويلة الفخمة في سقط الزند في رثاء أمه التي يقول فيها:
مضتْ وقد اكْتهلت فخُلتُ أني ... رضيع ما بلغتُ مدى الفِطام
ويقول:
سألتُ متى اللقاء فقيل حتى ... يقوم الهامدون من الرجام
فليتَ أُذِينَ يوم الحشر نادى ... فأجهشت الرمام إلى الرمام
ولكن قصيدة الشريف أسهل وأسلس وأكثر وجداناً وهي التي مطلعها:

أبكيك لو نقع الغليل بكائي ... وأقول لو ذهب المقال بدائي
وهي كلها ألصق بالموضوع من بعض أجزاء قصيدة المعري. ولابن نباتة السعدي قصيدة تستجاد في رثاء أمه يقول فيها:
فَقدْتُ كبيراً بِرَّ أم حَفِيَّة ... كما فقد الثَّدْيَ المعلَّل مُرضِعُ
تُبادرُ نحوي تبتغي أن تسرني ... ولم تدْرِ أني بالسرور أُرَوَّعُ
إلى أن قال:
إلى أي تعليل وأي مَبَرَّةٍ ... وود نصيح بعد ودك أرجع
ولأَمْرٍ ما تذكرني قصيدة الشريف بقصيدة كوبر الشاعر الإنجليزي في رثاء أمه؛ ولعل الذكرى لأثرهما في الوجدان فحسب لا لشبه كبير.
وللشريف قصيدة في التعزية تستحب للتلطف في التعزية تلطفاً يجيده الشاعر الوجداني وهي التي مطلعها: (لو رأيت الغرام يبلغ عذراً).
وقصائد الشريف في رثاء جده الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه مشهورة جيدة فخمة، ولكنها في نظري من حيث هي شعر وجداني أقل مما ذكرت من القصائد.
وربما أكون مخطئاً، وهي لا ينقصها التحرق والتأسف ولكن قيمة الشعر الوجداني ليست بالتحرق والتلدد فحسب، ولا بالفخامة ولا بدقة المنطق ولا بعكسه، وقد يكون الشعر الوجداني عكس المنطق إذا كان العكس يعبر عن صدق العاطفة، فقول الشريف في تشتت قومه وآله:
ما كان ضر الليالي لو نفَسْنَ بهِم ... على النوائب واستثناهُمُ القَدَرُ
ليس من منطق العقل ولا هو عكس المنطق الناشئ من مبالغات أهل الصنعة المزيفة بل هو منطق الوجدان الذي يعبر عن النفس؛ فإن كل نفس في الحياة تطلب أن تُسْتَثنَى من آلام الحياة وصروفها ومنطق عقل صاحبها يعلم أن هذا طلب محال.
فالشعر الوجداني توفيق ويصادف هوى النفس ومنطقها حتى لكأنه يخلق لها سمعاً يصغي إليه وقلباً يطرب له. وقد يكون البيت الواحد منه ألصق بالنفس وأثمن من قصيدة فخمة سواء أكانت من شعر التلدد، أو من الشعر التعليمي المحض المستقل عن العاطفة، أو من شعر الزخارف وألاعيب الذكاء في تبذله ولهوه. أنظر مثلاً إلى أبيات الشريف التي يذكر فيها كيف أنه يدافع الهموم بذكرى النعيم الزائل بينما غيره يدفعها بالخمر أو سماع الأغاني ولكنه يفيق من نشوة الذكرى كما يفيق غيره من نشوة الخمر؛ وهي الأبيات التي أولها:
إذا ضافني هم أمَلُّ طروقه ... ببعض الليالي أو أضيق به صبرا
إلى أن يقول بعد صحوه من الذكرى:
فما كان إلا خلسة ثم أنني ... رأيت يدي مما علقت به صفرا
وهي أبيات ليس فيها خيال غريب ولكن قيمتها في صدق وصف حالة للنفس ووسائلها في تعللها. وللشريف قصائد شهيرة في الإخوانيات قلما تتفق لشاعر آخر في صدق قولها وبساطتها وقربها من النفس وفي مظاهر الوجدان فيها مثل قصيدته في مودة الحب، وهو موضوع قلما يطرقه شعراء العربية عند وصف الحب في أشعارهم، أنظر إلى قوله فيها:
أينعت بيننا المودة حتى ... جَلَّلَتنا والدَّهرَ بالأوراق
أو قوله فيها:
في جبين الزمان منك ومني ... غُرَّةٌ كوكبية الائتلاق
ومن قصائده المشهورة قصيدته التي يقول فيها لصديقه:
كأنكَ قدمة الأمل المرجى ... عليَّ وطلعة الفرج القريب
والقصيدة التي يقول فيها:
وكم صاحبٍ كالرمح زاغت كعوبه ... أبى بعد طول الغمز أن يتقوما
وهي من قصائده التي ترد كثيراً في كتب المختارات، وحق لها أن تختار. والشريف إذا جُوفِيَ عبر عن شعوره بقوله:
ويُظهِرُ لي قوم بعاداً وجفوة ... وما علموا أني بذلك أفرح
فيكون هو المعزز المكرم بقوله هذا. وأنظر إلى الوجدان في قوله:
تُحَبِّبُ أيام الحياة وإنها ... لأعذب من طعم الخلود لطاعم
وهو لا يفحش في هجائه كما يفعل الشعراء ولكنه مع ذلك يدمغ خصومه، أنظر إلى

قوله:
من كل وجه نقاب العار نقبته ... كالعر مر عليه القار والقطر
يَصْدَى من اللؤم حتى لو تعاوده ... أيدي القيون زماناً لا نجلي الأثر
وهي مبالغة ضرورية لأنها نكتة يراد بها السخر. وانظر إلى قوله:
تمسكوا بوصايا اللؤم تحسبهم ... تتلى عليهم بها الآيات والسور
وقوله:
لو عِيْدَ من داء الفهاهة واحد ... عادوه من عي إذا حضر الندى
وأشعاره في الشيب كأشعار أخيه المرتضى مشهورة، وقد عنى بشعرهما في الشيب صاحب كتاب (الشهاب في الشيب والشباب) وهو باب من الشعر الوجداني أيضاً. وهذه النظرة في ديوان الشريف تثبت ما قدمناه في أول المقال من أنه أكثر نصيباً من شعر الوجدان ولكن ليس له في وصف الطبيعة كقصيدة أبي تمام التي أولها (رقت حواشي الدهر فهي تمرمر) أو كقصيدة البحتري التي يقول فيها (وجاء الربيع الطلق يختال ضاحكاً) أو (شقائق يحملن الندى فكأنه) أو وصف بركة المتوكل أو وصفه آثار الفرس وغيرها من شعر الوصف التصويري. وليس له كوصف ابن الرومي غروب الشمس في قوله (وقد رنقت شمس الأصيل الخ) ولم يسر شعره في الأمثال كما سار بعض شعر المتنبي، ولم يولع بالبحث في الحياة والكون كما يفعل المعري، ولكنه مع ذلك قد أمن زلل المبالغات والتشبيهات البعيدة المرفوضة، وأمن الفتور وأمن المعاظلة والتواء القول وأمن الألاعيب اللفظية. وشعر الوجدان ليس بأقل منزلة ولا أقل أثراً في النفس من أبواب القول الأخرى التي برز فيها منافسوه، فهو إذاً أقل منهم منزلة وله مع ذلك نظرات صائبة تدل على عقل وذكاء وذوق في اختيار ما يقول ورفض ما لا يجمل به أن يقول. أنظر إلى قوله في وصف لذة القسوة المركبة في بعض الطبائع:
يهش للمرء تغريه أظافره ... كما تهش سباع الطير للجيف
إذا نجا من يديه غير منعقر ... أفنى أنامله عضاً من الأسف
وقوله:
يصل الذليل إلى العزيز بكيده ... والشمس تُظلِمُ من دخان الموقد
وقوله في أثر الأفذاذ في حياة الناس وتاريخهم:
ولولا نفوس في الأقل عزيزة ... لَغَطَّى جميع العالمين خمول
وقوله:
رب نعيم زال ريعانه ... بلسعة من عقرب الحاسد
وقوله:
كفى بقومٍ هجاءً أن مادحهم ... يهدي الثناء إلى أعراضهم فَرَقاً
وكل هذه نظرات صائبة في النفس، وله أشياء كثيرة من أمثالها، ولا غرابة أن تكون للشاعر الوجداني نظرات صائبة في النفوس. وله أيضاً وصف بديع كما قال في وصف الفرس:
إذا تَوَجَّسَ كان القلبُ ناظرَهُ ... والقلب ينظر ما لا ينظر البصر
وقال في وصف تردد الجميل في النعيم وتشبيهه بتردد القُرْط الجميل في اهتزازه على جانب الوجه الجميل بعد تشبيه تردد الحبيب في النعيم بتردد النسيم ولعبه بالأغصان:
ينأى ويدنو على خضراء مورقة ... لعب النُّعامَى بأوراق وأغصان
كالقُرْطِ عُلِّقَ في ذِفْرَى مُبَتَّلَةٍ ... بين العقائل قُرْطَاهَا قليقان
وهذا الوصف إذا تُؤُمِّل وجد وصفاً مطرباً

عبد الرحمن شكري

من برجنا العاجي

أمس خرجت من برجي العاجي إلى البرج الدائر. والبرج الدائر هو مرصد حلوان. دعاني إلى زيارته مديره الأستاذ مدور. وهيأ لي المنظار الكبير مسدداً إلى القمر. فذهبت يدفعني الشوق إلى استجلاء سر هذا الكوكب الجميل، الذي نظم فيه شعراء الأرض نصف شعرهم، ودان له عشاق الأرض بنصف هنائهم. ورفعت عيني إلى تلك العين الذهبية التي طالما رعت بنورها نصف حياتنا، وسهرت على مسراتنا، وسكنت

من أحزاننا. نظرت، وإذا أنا أتراجع أسفاً وألماً. لا أحب أن أصف ما رأيت. ولكني أحب أن أسجد لله شكراً إذ جعل لنا عيوناً لا تبصر إلا بمقدار. إن كل الجمال المحيط بنا إنما هو من صنع عيوننا القاصرة. والويل لنا إذا أبصرت أعيننا الآدمية أكثر مما ينبغي لها أن تبصر.

ذلك شأن القمر باعث الجمال على الأرض. وكذلك شأن الشمس باعثة الحياة على الأرض. إنها تشرف علينا من مكان معين بمقدار. فإذا اقتربت منا أنملة هلكنا حرقاً، وإذا ابتعدت عنا أنملة متنا برداً. إن يد الحكمة الأزلية قد وضعتها في الموضع الذي لابد لها فيه من أن ترسل إلينا الدفء والخير والسلام.

ما أدق هندسة الكون! اللهم إني أعود إلى برجي وأنا شديد الإيمان بك، قريب الفهم لك، مدرك بعض الإدراك لمشيئتك في خلق الإنسان، مطمئن كل الاطمئنان إلى مراميك في إنشاء حواسنا الآدمية على هذا الضعف. إن ما اعتدنا أن نسميه ضعفاً وقصوراً في إدراكنا حقيقة الأشياء ليس إلا السياج الذي يحمي سعادتنا البشرية فإذا خرجنا عن نطاق هذا السياج فقد انقلبنا مخلوقات أخرى لا تتصل بالأرض ولا بجمالها ولا عواطفها. مخلوقات ليست آدمية، فقد ترى غير ما يرى الآدميون. وقد ترى أبعد مما يرون. ولكنها لن تكون من أجل ذلك أسعد ولا أسمى ولا أنبل.

اللهم إنك مع قصورنا قد صنعتنا على خير حال، ومع جهلنا قد هيأت لنا أحسن مآل.

توفيق الحكيم

أغرب ما رأيت في حياتي

للدكتور زكي مبارك

(بقية ما نشر في العدد الماضي)

كيف أقطع مرتب مرجريت؟

وكيف أدخل البؤس إلى صدر موريس؟

كيف؟ كيف؟

المسألة في ذاتها هينة، ولكنها مع ذلك بدت لي في غاية من التعقيد، لأن اتصالي بمرجريت كان أثار حول اسمي شبهات أذاعها فريق من أهل الفضول في باريس، وأظن - وبعض الظن إثم وبعضه غير إثم - أن ابنة صاحب البيت الذي كنت أقيم فيه كان لها دخلٌ في إذاعة الشبهات التي آلمتني في باريس.

كان ناس من المصريين يسألون عني من حين إلى حين فكانت تلك البنت تلقاهم بابتسامة خبيثة، ثم تقول: المسيو مبارك رجل لطيف، فهو لا يُلزم الخدم بترتيب غرفته غير مرة أو مرتين في الأسبوع!

ومعنى ذلك إني أبيت ليالي كثيرة في مكان مجهول.

وكان لي مع هذه البنت تاريخ جميل يغريها بأن تُلقي عليّ حقودها حين أغيب.

وكان المصريون في باريس يتعنّبون ويتلومون كلما رأوني، ويحبون أن يعرفوا أين أقضي أوقات الفراغ.

وكانت حجتي حاضرة، ولكنها لم تكن تُقنع إلا من يريد أن يقتنع. كنت أقول إني تركت في مصر خمسة عشر مليوناً وما يهمني أن أراهم مرة ثانية في باريس.

والواقع أني أحسنت كل الإحسان في هذا المسلك، فلم يكن لي أيّ نفع من تزجية أوقات الفراغ مع المصريين المقيمين في باريس، فأكثر كلامنا حين كنا نلتقي لم يكن إلا ثرثرة سخيفة باللغة العربية حول السياسة المصرية، وربما كنت المصري الوحيد الذي عاش في باريس ولم يعرف مكان السفارة المصرية في باريس.

والواقع أيضاً أن صلتي بمرجريت لم يعرفها أحد قبل اليوم غير شخص واحد هو الدكتور أمين بقطر الذي كلفتُه في إحدى السنين أن يمر على مرجريت ليحدثها عن أشياء لا يمكن

أن تكتب في خطاب، ومع خطورة هذه المهمة فرَّط الدكتور بقطر في زيارة مرجريت. . .

وهكذا يكون الإخوان في هذا الزمان!

والحاصل - كما يعبر أهل بغداد - أني كنت أحب أن أتخلص بصفة نهائية من مرجريت، لأني كنت أخشى أن أفتضح في الأندية المصرية، وتحقّ عليّ لعنة خصومي، الخصوم الذين كانوا يعرفون كيف يلطخون سمعتي بالسواد بلا تعفف ولا استحياء.

كان يجب أن أقطع صلتي بمرجريت، وهل بقيت بيننا صلة غير مئات الفرنكات التي أجود بها في كل شهر لأنقذ موريس من الجهل ومن الجوع؟
كان هذا المرتب ثقيلاً جداً، وكان إرساله يضيع علي في كل شهر يوماً أو بعض يوم، وقد اضطرني مرة إلى أن أصرخ بالفرنسية! '
وكنت في كل مرة أتعرض لمكاره كثيرة من التحليلات النفسية، كنت أقول إن لي قرابات كثيرة تعاني الضر والبؤس. وهي أولى بكرمي إن كنت من الكرماء.
وكنت أقول إن مرجريت آوتْ روحي وقلبي خمسة عشر شهراً، ومكنتني من أن أصير أباً كريماً لطفل جميل.
وكنت أقول إن لمرجريت فضلاً عظيماً في مرونة لساني باللغة الفرنسية، المرونة التي مكنتني من أن أحاور هيئة الامتحان في مدرسة اللغات الشرقية خمس ساعات، والتي مكنتني من أن أصاول هيئة الامتحان بالسوربون ثلاث ساعات، وذلك مغنمٌ ليس بالقليل.
كنت أقول إن مرجريت هي التي عرّفتني بدقائق الحياة في باريس.
كنت أقول إني لم أحسن الأكل بالشوكة والسكين إلا بفضل مرجريت
كنت أقول إن مرجريت بكت مرة وأبكتني يوم زرنا معاً مصانع ستروين، حين وقفنا ننظر إلى فتاة تطرق الحديد وهي أرق من الزهر وأكثر إشراقاً من الصباح.
قالت مرجريت: ما رأيك يا محبوبي في هذه الفتاة؟
فتلعثمت
فقالت: قل الحق، ماذا تدفع من الأموال لحديث ليلة مع هذه الحسناء التي تطرق الحديد؟
فقلت: وهل هي أجمل من مرجريت؟
فقالت: دع هذا الأدب المصقول وأجبني
فقلت: أقدم حياتي ثمناً للسمر ليلة مع هذه الفتاة
فقالت: وهل تعرف كيف زهدت هذه الفتاة في فتنة باريس لتلهو بطرق الحديد؟
فقلت: أحب أن أعرف
فقالت: هذه فتاة تستعد لتكون ربة بيت، فهي تطرق الحديد لتجمع من الأموال ما يمكنها من أن تكون زوجةً لرجل شريف مثل المسيو مبارك
ثم استغرقتْ في البكاء والنشيج
بكيتُ يومئذ لبكاء مرجريت بكيتُ بكاء لو شهدته الملائكة لأضافت اسمي إلى أسماء الشهداء والصِّديقين
وفي تلك اللحظة جذبتُ يد مرجريت بعنف وقلت: لن نفترق يا مرجريت
فقالت: وكيف؟
فقلت: سأنقلك إلى مصر، إن كان لي إلى مصر مَعاد
فقالت: وماذا أصنع في مصر؟ هل تراني أصلحُ لمعاونة مَدام مبارك على ترقيع الجوارب؟
فقلت: إن مَدام مبارك لا ترقِّع الجوارب
فقالت: كيف تقول هذا وأنت أبخل من اليهود؟!
وضحكنا ضحكاً صنع بالدموع ما تصنع الشمس بآثار الغيث
ذكريات مرجريت كلها لطيفة، ولكن يظهر حقاً أن فيّ شيئاً من أخلاق اليهود، لأني عانيت في حياتي ما يعاني اليهود، وهل يبخل اليهود بالطبع ولهم جدٌّ اسمه السموأل؟ إنما يبخل اليهود بسبب الاضطهاد، وأنا أبخل بسبب الاضطهاد
كان أجدادي من أغنى أهل المنوفية فحملتهم النخوة العربية على التبذير والإسراف إلى أن صافحوا الإفلاس
فأنا أجمع القرش إلى القرش لأصير من الأغنياء
وهل يتفق هذا مع الإنفاق على امرأة جميلة في باريس؟
يجب أن أقطع مرتب مرجريت
ولكن كيف؟
أحب أن أعرف كيف أتخلص من مرجريت

كانت مرجريت تكتب إليّ في كل أسبوع خطابين، وكانت تخاطبني بالكاف، وكنت أبخل عليها بالمخاطبة بالكاف، لأني كنت أخشى أن يكون في المخاطبة بالكاف ما يشهد بأني كنت مع تلك المرأة على صلات غرامية

وكانت مرجريت تتألم من ألا أخاطبها بالكاف وتقول: إن بخلك عليّ بالمخاطبة بالكاف يوجب أن أخفي رسائلك عن موريس، وهي كل ما في حياة هذا الطفل المسكين من عزاء.

حرسك الله يا موريس وبارك في حياتك الغالية!

وكانت مرجريت تتحدث في رسائلها عن أشياء دقيقة لا تذكر إلا في رسائل العشاق وكنت أتغافل عن تلك الأشياء حين أكتب الجواب

وكان هذا يؤذيها أبلغ إيذاء، فكانت تتهمني بالقسوة والعنف

والله وحده يعلم كيف كنت أسيء الأدب في مراسلة مرجريت، فأنا أعيش في القاهرة وهي تعيش في باريس، أنا أحترس تخوفاً من بطش خصومي، وهي تترسل بلا تخوف لأنها تعيش بين قوم يرون صيانة الحب من الشرائع

وهل تعلم مرجريت أن محبوبها الغالي يحيا في القاهرة بلا ناصر ولا معين؟

هل تعلم مرجريت أن محبوبها يشتغل بالتدريس وهو عمل تكدره الشبهات؟

هل تعلم مرجريت أني لا أصلح أبداً لما صلح له فيكتور كوزان الذي كان أعظم أستاذ للفلسفة في باريس ولم يكن له زوجة وإنما كانت له خليلة تحرسه وترعاه؟

إن مرجريت لا تفهم أني مصريٌ يعيش في مدينة لها تقاليد غير تقاليد باريس يجب أن أقطع مرتب مرجريت وأن أتخلص من مرجريت

وفي أثناء تلك الأزمة النفسية وقع حادث عجيب لم يهتزَّ له في القاهرة قلب غير قلبي، وقع حادثٌ لا يصدقه أحدٌ في الشرق ولكنه زعزع كياني

وقع حادث لم يعلق عليه كاتب مثل المازني أو العقاد أو الزيات، ولم يلتفت إليه مصطفى عبد الرازق ولا منصور فهمي ولا طه حسين

ولكنه زلزل قدميَّ وهدَّ بنياني

وهل يقع في الدنيا حادث أغرب وأعجب من أن يجيء المسيو ميللران رئيس الجمهورية الفرنسية الأسبق ليطالب في المحكمة المختلطة بالقاهرة عن حق إحدى الغواني بالميراث

في تركة أحد الأمراء؟

قد أنسى كل شيء، ولكني لا أنسى أني اعتذرت عن دروسي بالجامعة المصرية لأشهد دفاع المسيو ميللران

وماذا قال المسيو ميللران في ذلك اليوم؟

قال إن موكلته امرأة شريفة

وما كاد ينطق بهذه الكلمة حتى صُعِقتُ، فقد فهمتُ أن المرأة من حقها أن تحب، وقد أحبتني مرجريت فمن حقها أن تطالبني بالنفقة الشرعية حين تشاء

وماذا أملك حتى تطالبني مرجريت؟

أملك سمعتي، وهي كل شيء، وبفضل تلك السمعة أتسامى لمنصب الأستاذية في الجامعة المصرية

وقد آن أن أعترف بالخطر الذي كان يهددني في جميع أطوار حياتي، فأنا رجل من كبار العلماء، وستمرّ أجيال وأجيال قبل أن يوجد لي في البحث والاطلاع شبيه أو مثيل

ولكني وا أسفاه مولعٌ بدرس سرائر النفس الإنسانية. وأغراني بذلك أني كنت أول دكتور في الفلسفة من الجامعة المصرية، وهذا المعنى هو الذي حملني على الصراحة فيما أسجّل وأقيّد من الأفكار والمعاني، وأغلب الظن أني سأكون أشرف ضحية للدراسات الفلسفية، ولا يغريني إلا شيء واحد هو الشعور بأني أنقذ الأدب العربي من كابوس الرياء والنفاق، ولكن الأدب العربي يحيا لأموت

والحاصل - مرة ثانية - أني عرفتُ وتيقنتُ أني لا أملك قطع مرتب مرجريت

وهل أستطيع الوقوف بالمحكمة المختلطة بالقاهرة أمام محام ذلق اللسان يطالبني بحقوق مرجريت؟

وما هو مبلغ السبعمائة فرنك حتى أهرب من وجه مرجريت؟

إن أصغر مبلغ أتقاضاه على المقالة الواحدة لا يقل عن جنيهين، فما الذي يمنع من أن

أنفق على مرجريت مما أتقاضاه من مقالاتي في مثل مجلة الرسالة أو مجلة الهلال؟
وما الذي يمنع من أن أنقذ سمعتي بمبلغ ضئيل هو مئات من الفرنكات؟
ولي مع ذلك تعزية صغيرة هي شعور موريس بأن له أباً هو المسيو مبارك الذي استأنف
سياحاته في مصر والشام والعراق
ولي تعزية ثانية هي رسائل مرجريت التي تحدثني عن غرائب الأشياء في باريس
ولي تعزية ثالثة هي الشعور بأن لي غرفة في باريس أدخلها على غير موعد حين أشاء
ولكني مع الأسف الموجع كنت أشعر بأني قد نزلت إلى أسفل دركات الانحطاط، لأني كنت أقدم المرتب إلى مرجريت بفضل الخوف لا بفضل الوفاء
وفي صيف سنة 1937 كانت لي فرصة لزيارة باريس بمناسبة المعرض، وكانت مرجريت تلح في أن أزور ذلك المعرض لأراها وتراني، وقد شجعني سعادة محمد العشماوي بك على زيارة المعرض لأكتب عنه مقالة أو مقالتين، ولكني رفضت رفضت فراراً من مرجريت
فماذا صنعت مرجريت؟
ماذا صنعتْ مرجريت؟
كتبت خطاباً تقول فيه:
(عزيزي مبارك
يسرني أن أخبرك أن موريس نال إجازة الدراسة الثانوية وقد وجد عملاً بمكتبة. . . بمرتب قدره ثمانمائة فرنك. وبعد أيام سأقف مع المسيو. . . بكنيسة المادلين لأداء مراسيم الزواج. فأرجوك أن تبقي المبلغ الذي تتفضل به شهرياً، فقد ينفعك في تربية أبنائك، ويهمني أن تعرف أنك أشرف رجل عرفته في حياتي، وأن تثق بأن خطيبي لا يغار منك، فقد صارحته بكل شيء، وهو في غاية الدهشة من أدبك العالي، وكل ما نرجوه أن ترسل عبد المجيد لنتولى تثقيفه في باريس)
صديقتك العزيزة جداً
مرجريت
حاشية:
(أنا أقرأ خطاباتك مع زوجي. فهل تقرأ خطاباتي مع زوجتك؟)
آمنت بالله والحب!
لقد أنقذتني مرجريت من العذاب الأليم
وفرتُ سبعمائة فرنك قبل رحيلي إلى العراق، وفرتُها وأنا لئيمٌ بخيل
وفرتُ سبعمائة فرنك لأحرم نفسي وقلبي من أبوّة موريس
وفرت سبعمائة فرنك لأرجع إنساناً سخيفاً لا يعرف الهيام بأودية المعاني
مرجريت! مرجريت!
اذكريني بالشعر يوم أموت
هل الله عاف عن ذنوبٍ تسلَّفتْ ... أَم الله إن لم يعفُ عنها يعيدها
(مصر الجديدة)
زكي مبارك
من رحلة الحجاز
حديث الحج في المدينة المنورة
للدكتور عبد الوهاب عزام
فصلنا من جُدَّة مغرب الثلاثاء خامس عشر ذي الحجة، متوجهين تلقاء المدينة، وهي مسافة تقطعها قوافل الإبل في 14 يوماً. وبعد مسير سبع ساعات في طريق سهلة على مقربة من البحر بلغنا رابغاً. وهي قرية ذات نخل على مسير ساعة من البحر للراجل، تجتمع فيها طرق بين جدة ومكة والمدينة، وإذا حاذاها الحجاج القادمون من الشمال في البحر الأحمر أحرموا للحج، وليست هي ميقات للإحرام ولكن الميقات الجحفة على عشرة أميال إلى الجنوب منها
واستأنفنا المسير ضحى الخميس آملين أن نبلغ طيبة عشية اليوم ولكن الرمال عوّقت بعض السيارات فبتنا في أبيار بن حصان. ثم غدونا سائرين ونزلنا بالمسيجيد بعد ثلاث ساعات. واستأنفنا السير حتى العصر فلاح لنا النخل أخضر يانعاً يبشر باقتراب الغاية؛

ونزلنا آبار علي وهي ذو الحليفة ميقات أهل المدينة. ومنه أحرم النبي صلى الله عليه وسلم لحجة الوداع. ثم سرنا فلاحت لنا بعد قليل المدينة المنورة تتوجها القبة الخضراء، كأنما تباهي على صغرها السماء. . . أهذه نضرة الإيمان في هذه البقعة، أم ازدهار الآمال في هذه الساحة؛ أم كما قال عاكف بك: واحة نزلت من السماء لتأوي إليها الأرواح المتحرقة في البيداء؟

ودخلنا المدينة من الباب الشاميّ حيث محطة سكة الحديد الحجازية. وحططنا رحالنا في المدرسة السعودية وقد أعدّت لنزولنا. ثم سارعنا نتأهب للموقف الجليل، للساعة التي تعرج فيها الروح من الأرض إلى السماء. ذلكم المسجد النبوي في بهجة النور والإيمان، يدوّي بالمصلين والداعين والقارئين؛ ولكن الواقف إزاء الحجرة النبوية لا يرى من هذا الجمع أحداً ولا يحس من هذا الدويّ همساً. لا يرى إلا هذا الجلال ولا يسمع إلا هذا الوحي. وإنما هي وقفة يمّحي فيها الزمان والمكان فيتصل الأزل بالأبد والسماء بالأرض

يا لك بقعة صغيرة لا يدرك العقل مداها، ولا يبلغ الفكر منتهاها! يا لك حجرة يظل الفكر مسافراً في أرجائها، محلِّقاً في أجوائها، فيتطوّف في أرجاء التاريخ، ويحلق في أقطار

السماء والأرض؛ وكأنما طوى الزمان، وزُويت الأرض، واجتمعت الإنسانية، وحشر البرّ والحق وكل خلق طيب في هذا الضريح. يا لك بقعة كالكوكب المضيء تناله الأعين في لمحة وتحيط أشعته بالعوالم العظيمة! يا لك بقعة كمنبع النهر العظيم، متدفق بالحياة فياض بالبركة مدّاد بالخير يحيي الأجيال بعد الأجيال.

يا حيرة الوصف، وعجمة البيان! أهي عنوان كتاب انطوى على الحق والصدق، والخير والبرّ، والإحسان والمرحمة، يقرؤه القارئ جملة ثم لا يزال تروعه منه الصفحة بعد الصفحة؟ أم هي تاريخ لا يزال الدهر يكتب صفحاته وإنما أوله وحي الله وآخره غيب الله؟

أترى هؤلاء المصلين لا يفترون، وهؤلاء المرتلين القرآن لا يصمتون، وهؤلاء الداعين لا ينقطعون، أتسمع هذا الآذان وهذا السلام وما يحدث به المسلم أخاه، وما يفضي به في علانيته ونجواه؟ ليس فيما ترى إلا أناسيّ هداهم محمد، وأفعال علّمها محمد، وكلمات أملاها محمد، بل كل صوت يرتفع إلى الله في أقطار الإسلام، وكل عبارة في وضح النهار أو جنح الظلام، وكل لسان يدعو إلى الخير وكل يد تمتد بالبر، وكل كلمة حق ودعوة صدق، وكل نية محمودة وسعي مشكور، فهنا منبعه، ومن هذه البقعة وحيه؛ بل كل نزعة في المسلمين إلى سؤدد، وكل طموح إلى علاء وكل سلطان فيهم قائم بالحق، وكل شرع نافذ بالعدل، وكل دعوة إلى حرية وثورة على ظلم، وانتصار للحق، وتمرد على الباطل - كل أولئك شعاع من هذا النور، أو قطرة من هذا الينبوع ولست تتمثل هنا مجداً ولا سلطاناً ولا سؤدداً ولا علواً إلا تمثلته تواضعاً للحق، وبراً بالخلق، ورأيته سؤدد المساكين وسلطان المستضعفين. السلطان الذي يجمع الناس على شريعة من العدل والمرحمة والمودة والسلام.

موقف يتضاءل في جلاله كل جلال، ويصفو في جماله كل جمال. لمحات تطهر فيها النفس من أرجاسها، وتبرأ من أهوائها، وتسمو على شهواتها، وتخلص من أغلالها، فتستمد الخير والحق والعلاء والتقوى والحب والسلام وتَسَع السماء والأرض وكأنما تخلق خلقاً جديداً وتفتح في أعمالها صفحات جديدة. خسر من لم يطهره هذا الموقف، وخاب من لم ترفع نفسه هذه الساعة. هنا النفس المطهرة. هنا محمد بن عبد الله. هنا رسول الله. هنا خاتم النبيين. ثم هنا اثنان من صحبه وخلفائه: أبو بكر وعمر.

المسجد النبوي في شكله الحاضر بناه السلطان عبد المجيد العثماني، استغرقت عمارته 12 سنة بين سنة 1265 وسنة 1277 ولم تُبق من الأبنية القديمة إلا قليلاً؛ وهو جميل المنظر حسن الهندسة في سقفه قباب صغيرة منيرة مزينة تحملها عمد متقاربة صبغت لوناً أحمر وزينت بالتذهيب.

كان المسجد حين بناه الرسول سبعين ذراعاً في ستين وجدرانه من اللبن وسقفه من الجريد وعمده جذوع النخل، ثم وسّعه الرسول فجعله مائة ذراع في مثلها ثم توالى التوسيع والتعمير في أيام الخلفاء الراشدين فمن بعدهم حتى انتهى إلى شكله الحاضر. ولكن حدود المسجد القديمة معّلمة بالعمد كما حددت الروضة النبوية بين

القبر والمنبر.
ولا ينظر الإنسان نظرة في هذا المسجد المبارك إلا وقعت على ذكرى كريمة من رسول الله وأصحابه. فهناك سارية عائشة، وسارية أبي لبابة الصحابي التي ربط نفسه بها، وآلى ألا يبرح حتى يتوب الله عليه، وخوخة أبي بكر.
وحول المسجد مواقع الدور التاريخية: دار أبي بكر، ودار عثمان وغيرهما.
وفي المدينة مشاهد كثيرة عظيمة لا يتسع المقام لتعدادها. وحسبي أن أذكر ما شهدت في يوم واحد يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من ذي الحجة: خرجنا إلى جبل أحد وهو شمالي المدينة قريب منها فمررنا بجبل سلع وسرنا حتى شهدنا مكان موقعة أحد ورأينا قبر حمزة أسد الله رابضاً في العراء وعلى مقربة منه جدار يحيط بمدفن شهداء أحد رضي الله عنهم.
وفي اليوم نفسه توجهنا شطر الجنوب إلى مسجد قُباء وهو أول مسجد أسس في الإسلام بناه الرسول صلى الله عليه وسلم حينما هاجر من مكة فنزل في قباء على مقربة من المدينة في بني عمرو ابن عوف. وهو المسجد الذي ذكر في القرآن: (لمسجد أسّس على التقوى من أول يوم أحقُّ أن تقوم فيه. فيه رجال يحبّون أن يتطهروا. والله يحب المتطهرين) والمسجد كما يرى اليوم حسن المنظر عالي الجدران تتجلى فيه البساطة والنظافة وقد توالى عليه التعمير حتى انتهى إلى بنائه الحاضر. وفي صحن المسجد مكان يقال إنه مبرك ناقة الرسول صلوات الله عليه، وقد قرأت عليه بيتين باللغة التركية
وعلى مقربة من المسجد بئر أريس. وهي بئر عميقة ماؤها عذب غزير صاف وهي التي سقط فيها خاتم النبي من يد عثمان بن عفان أيام خلافته. ويستخرج الماء منها ومن آبار
المدينة كلها بالسواني. ترى بكرات على البئر معلقة بها غروب كبيرة وتجر حبالها الدواب من الإبل أو البقر أو الحمير. وقد تجتمع الثلاثة معاً، تسير الدابة نحو البئر فيتدلى الغرب حتى يمتلئ ثم ترجع البئر حتى يرتفع الغرب. فإذا علا الحوض جذبته الحبال فينصب ماؤه في الحوض، فمسير الدابة أو السانية في طريق مستقيمة ذهاباً وجيئة.
والمدينة جيدة الهواء في الصيف معتدلة في الشتاء، وأرضها خصبة وآبارها غزيرة وبساتينها كثيرة، وفيها النخل والكرم والرمان والبرتقال والخوخ والموز والبطيخ وفواكه أخرى. وثمرها جيد جداً وأصنافه لا تعد.
ولكن الأرض في وقتنا هذا ليست مستغلة كل الاستغلال، ولا تفي بحاجات أهلها، ويعيش كثير منهم على التجارة، ويعوِّل فقراؤهم على جدوى المسلمين ويظهر على دور المدينة وساحاتها الفقر. وفي ذمة المسلمين أن يبروا جيران رسول الله وأن يعمروا دار رسول الله. عليهم أن يغدقوا الخيرات، ويمدوا أيديهم للأعمال الدائمة المنظمة من بناء المستشفيات والملاجئ والمصانع والمدارس. وظني إذا استثمرت أموال المسلمين في أرض المدينة وغلاتها، زادت خيراتها أضعافاً مضاعفة ووفت بحاجات سكانها أو كادت.
إن الحرم المدني والمدينة كلها أهلها ودورها ومساجدها وطرقها وساحاتها، كل أولئك يدعو المسلمين إلى التعاون على الخير والاجتماع على العمل الصالح الذي يجعل طيبة بلداً معموراً آهلاً، منسّق الدور والطرق، ميسّر الطعام والشراب، موفور وسائل الصحة والعمل الصالح الذي يجعلها مباءة علم يؤمها بعض الطلاب من أرجاء الأقطار الإسلامية لتؤلف بينهم الثقافة الإسلامية المشتركة، أو تحفزهم إلى خير الإسلام والمسلمين الآراء المتداولة، ويدرسوا تاريخ الإسلام في مواقعه. وليت المدينة تصير مقصد المسلمين من أقطار الأرض يفرون إليها في الحين بعد الحين ليجدوا سلام أنفسهم وطمأنينة قلوبهم وصحة أبدانهم. فيذهب إليها أغنياؤهم وأمراؤهم كلما ملكوا الفرصة للاستراحة قليلاً من ضوضاء الحياة ومفاسدها
لن يبر المسلمون دينهم ورسولهم وأنفسهم حتى تسخو أيديهم بالمال وتجتمع عقولهم وأعمالهم على الإصلاح. والله يهيئ لهم من أمرهم رشداً ويديهم للتي هي أقوم.
عبد الوهاب عزام

. . .قلت لنفسي
حضر الأصمعي يوماً مجلس الفضل بن الربيع وقبالته فرس مطهم. فقال الوزير لصاحب كتاب الخيل: قم يا أصمعي وأمسك كل عضو من أعضاء هذا الفرس وسمّه، فإذا سميتها أخذته. فقام وأمسك بناصية الفرس وجعل يسميه عضواً عضواً وينشد ما قالت العرب فيه إلى أن فرغ منه فأعطاه إياه. فهي يا نفس أن الجود والرق لم يُرفعا من الأرض، وأني دخلت يوماً على أمير من الأمراء البهاليل وبين يديه جارية من الغيد الحسان، ترفل في دِمَقس شِكوريل وسمعان، وقال لي هذا الأمير الأديب: إذا سميت ما على هذه الجارية من اللباس، ووصفت ما في هذه الدار من الأثاث، نزلت لك عن الجارية والدار، وزدتك عليهما ألف دينار! فماذا. تريننيِ يا نفس فاعلاً، وأنا الذي لا تعزب عنه مادة في اللغة، ولا قاعدة في النحو، ولا نكتة في البلاغة؟ ماذا أسمي هذا 4 المائل على القَوْد الأيسر، أو هذا الماثل على الجبين الأزهر؟ وماذا أقول المزرّر على الصدر المشرق، وهذا المُدَار تحت الثدي الناتئ، وهذا المرسل على الكشح الهضيم، وهذا المفصّل على القدم اللطيفة؟ أنا لا أعرف من غطاء الرأس إلا القناع والخمار، ولا من لباس الجسم غير الملاءة والإزار، ولا من وقاء الرجل غير الحذاء والنعل! فهل تنطبق هذه الأسماء، على هذه الأشياء. أم تكون دلالتها عليها كدلالة الأثاث والرياش على كل (موبليات) البيت، والورد والريحان على جميع أزهار الحديقة، والجهل والعُجمة على كل أدوات السيارة؟!
لا جرم أني سأعجز على أي حال، وسأطلب من رفعت باشا الجارية والدار والمال!
ابن عبد الملك
في مطلع العام الجديد
بين يدي الله!
للأستاذ علي الطنطاوي
الآن استهل العام الجديد
لقد أوشك فجره الأول أن يطلّ على الدنيا، وأنا حانٍ على مكتبي - أفكر منذ ساعات في أشياء لا أستطيع أن أصفها أو أعبر عنها أو أحصيها - والليل ساكن تتردد بين جوانحه أنفاس السحر وأنا أنظر من غرفتي إلى صحن المسجد (مسجد أبي حنيفة في الأعظمية) فأراه مشرقاً بالنور، مترعاً بالجلال، ولكنه خال من الناس. وأنظر إلى صحن المدرسة (دار العلوم الشرعية) وحديقتها الخالية، الحالية بأشجار الموز والنخل والورد والغرفة بينهما لها إلى كل من الصحنين باب. . . أريد أن أكتب (مقالة العام الجديد) فلا تواتيني الأفكار، ولا تتوارد عليَ الكلم، وصدري أغنى بالمعاني منه في الأوقات كلها، ولكن ازدحام المعاني على الفكر، وتكاثر الصور في الصدر، يعيق المرء عن الكتابة كما تعيقه قلّتها، كالذي يريد أن يملأ الكأس من (السبيل) إن كان جافاً أو نزراً قليلاً لم تمتلئ الكأس؛ وإن كان الماء يهدر وينحدر بقوة ويتدفق من فم الأنبوب مندفعاً، تطاير الماء إلى كل جانب، ولكنه لا يستقر في الكأس منه شئ - لأن كل قطرة تطرد أختها - كما تزيح كل فكرة في رأسي الفكرة التي قبلها لتحلّ في مكانها. . .
ولقد طالما وقفت هذا الموقف، ففكرت في الزمان وتفلسفت، وعدت إلى ماضيّ فحزنت، وفكرت في المستقبل فأيست، ثم رأيت ذلك باطلاً كلّه، كله باطل! لا الماضي يعود ولا الحاضر يدوم، ولا المستقبل يأتي. تفنى اللذاذات وتذهب الأحزان، وتمرّ الأيام بنا في طريق القبر حتى نبلغه، فتكون خاتمة المطاف هذه الآلام التي نودّع بها الدنيا، والتي تنسينا كل لذة، وكل متعة استمتعنا بها. . .
ويا ليت الموت هو الغاية!!
إن الموت بداية لذة لا آخر لها، أو ألم ماله من نهاية. . .
فأين نحن؛ وفي أي وادٍ من أودية الضلال نتخبط؟
اللهم إني أتوجه إليك في هذه الساعة لتصلني بك، وتدلني على الطريق إليك، حتى أعرفك فلقد عرفت أن كل شيء سواك باطل!
ما الحياة، ما هذه الفترة القصيرة من الزمان السرمدي؟ وما الزمان في جنب الله الباقي؟ وما الجمال الدنيوي، وما الحب الأرضي؟ وما العلم؟ أليس العلم كلّه إدراك

سطر واحد من سفر الوجود؟ وكشف حفنة واحدة من رمال الصحراء؟ فما أجهل العلم إذن بالوجود! وما
أحمق العلم حين يرفع رأسه ليتكلم في الموجد وقد خرس عما أوجد، ولينظر إلى الخالق الباقي، وقد عمى عن المخلوقات الفانية!
وهل عرف العلم من نحن؟ ومن أين جئنا؟ وإلى أين نسير؟
وفكرت في نفسي، وقديماً قال سقراط، وكتبت مقولته على باب المعبد في أثينا: (أيها الإنسان اعرف نفسك) وجاء في الأثر: (من عرف نفسه فقد عرف ربه) وقال الله جلّ من قائل: (وفي أنفسكم، أفلا تبصرون؟) نظرت في نفسي، فإذا هي قد كانت
قبل أن أكون أنا، فلم أعرف أولها؛ وكل ما أعلم عنها أني أفقت يوماً من النوم فوجدت طفلاً - أبصرته في المرآة - فإذا أنا أحبه أكثر من أبي وأمي، وإذا أنا لا أفارقه أبداً، فسألت: من هذا؟ فضحكوا وقالوا، هذا أنت، هل أنت مجنون!
وكبر هذا الطفل، أو هذا الذي سمّوه (أنا)، ونظرت فإذا أنا لا أدري من أين جاء، فقلت لعلّي صنعته أنا وأنا لا أعلم، ولكن هذا (الأنا) ليس كما أريد أن يكون، لو صنعته لجعلته أبرع جمالاً، وأشد قوة، وأحدّ ذكاء، وأوسع عقلاً؛ ثم إنه قد وجد قبل أن أكون أنا، وقبل أن أعرفه، وعاش مرحلة في حياته في بقعة لا أعلم شيئاً عنها، ولا أصدق أني كنت فيها، أأنا عشت تسعة أشهر في بطن أمي؟ مستحيل!
فمن أين جاء إذن؟ هل خلق من غير شيء؟
ونظرت حولي أفتش عن هذا الخالق، فرأيت ناساً مثلي، وما هؤلاء بخالقين لأنهم يحتاجون إلى من يخلقهم، وحالهم كحالي، ورأيت جبالاً وبحاراً وكواكب، ولكن ذلك كله جامد لا حياة فيه. فهل يمنحني الحياة وهو لا يملكها؟ هذه هي الطبيعة فهل تخلق الطبيعة شيئاً؟ ثم إن معنى (الطبيعة) - كما تعلمت بعد - أنها (مطبوعة) فأين الطابع؟
فتشت عنه فإذا الإيمان به في أعماق نفسي، لا أدري من أين دخل إليها، ولعلّه من وضع الخالق الذي وضع السمع والبصر في الوجه، والقلب في الصدر، والعقل في الرأس؟ ووجدتني أعود في ساعات الشدة إلى الخالق - الذي يَرى ولا يُرى - أرجوه وأخافه، وأسأله وأعوذ به، ووجدتني أنه لا يشبه شيئاً مما أرى، ولا يحدّه مكان ولا زمان، لأن الزمان والمكان مخلوقات هو خالقها، وأنه قديم باق متصف بكل كمال مطلق، منزه عن النقائض كلها
فآمنت به إيماناً لا يزعزعه (بحمد الله) شك!
ولكني لبثت أسأل نفسي:
لماذا خلقت؟ وهل الحياة (تكليف) عليّ أن أحمله، أو أن لي الحق بالتخلي عنها وطرحها؟ فقالت النفس: بل عليك أن تحملها. إنك لست مالك نفسك ولا أنت موجدها، وإنما هي وديعة في يدك، يكافئك صاحبها إن استعملتها في الذي خلقها له، ويعاقبك إن اتخذتها وسيلة إلى لذتك، وأطعت فيها هواك، وحدت بها عن سبيلها
قلت: فما هي الغاية من الحياة، أهي الأكل والشرب واللذة؟
قالت النفس: كلا. هذه أسباب الحياة بها تقوم وتبقى، وليست هي الغاية منها
قلت: أفخدمة الناس ونفع البشر، وأن أتخذ فيهم حسناً، وأبقى فيهم ذكراً، هي غاية الحياة؟
قالت: كلا. إن الناس لا يمكن أن يحيوا للناس، وما خدمة البشر إلا عرضٌ من أعراض الحياة وليست بجوهرها. إن المسافر يحرص على راحته في سفره، فيتخذ خير المركبات، ويبتغي أطايب الزاد، ويصحب خير الرفاق، ولكن للمسافر وراء ذلك كله غاية من سفره، والحياة سفر فإلى أين المسير؟
قلت: لا أدري!
قالت: أعوذ بالله! وهل يتميز الإنسان عن الحيوان إلا بأنه يدرك غاية الحياة؟ أما من يأكل كما تأكل الأنعام، ويشرب كما تشرب، ويلد كما تلد، فهو مثلها أو أضل منها سبيلاً، وإن عاش في باريز أو نيويورك!
قلت: فخبريني أنت ما هي الغاية؟
قالت: لو سألت الجنين في بطن أمه وكان قادراً على الفهم والإجابة: ما هي دنياك، وما هي حياتك، وما غاية الحياة، لقال لك أن دنياه هذه الأحشاء الضيقة، وهذه الظلمة المستمرة، وإن حياته هذه الجلسة المتعبة، وهذا السكون الدائم، وإن غايته. . . . ليس

يدري ما غايته!
ولو أفهمت هذه الجنين أن هنا دنيا واسعة، فيها شمس وقمر، وفضاء رحب، وبحر وسماء، وأن غايته أن يبلغها، وأنه سيعرفها ويراها حقاً. . .
لو أفهمته هذا لكذبك وأعرض عنك، لأنه لا يستطيع أن يتخيل إلا ما هو فيه، ولا يقدر أن يتصور ماذا يكون البحر والشمس والقمر؟
فإذا جاء إلى الدنيا وصار رجلاً، نسي حياته الأولى وكذب بها وقال: إن هي إلا دنيا فيها نموت ونحيا. . . فإذا خبره الرسل أن هناك حياة أخرى: حياة ثالثة، وأنها هي دار البقاء، وأن فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وأن غايته بلوغ تلك الحياة في طاعة الله وعبادته. . .
إذا خبر بها كذب به كذب ذلك الجنين. . .
أفتكذب أنت بذلك؟
قلت: لا
قالت: (فتلك إذن غاية الحياة) أن تتصل بالله وتعبده، وإن تعد نفسك لحياة الخلود
وعادت النفس تقول:
أن غاية الحياة تتحقق كلها في الصلاة. فالصلاة اتصال بالله، واستعداد لحياة الخلود. ثم إنها لذة لا تعدلها إذا أقيمت على وجهها لذة من لذائذ الدنيا، ولذلك عدّها النبي صلى الله عليه وسلم حين عدد اللذائذ: الطيب والنساء والصلاة، ليدل الناس على أنها من جنسها، وأنها راحة للنفس ومتعة، وليست تكليفاً شاقاً، ولا (مهمة) صعبة، وليست الصلاة ركوعاً وسجوداً، ورياضة فان ذلك جسمها، والجسم لا يقوم إلا بالروح، فإذا خلت منها الصلاة كانت صلاة ميتة، لا تنهي عن فحشاء ولا منكر، ولا تشعر بلذة. أما روح الصلاة فهي أنك إذا طهرت أعضاءك بالماء، طهرت نفسك بالتوبة، وذلك هو الوضوء الحق؛ وإذا قمت إلى الصلاة وقلت: الله أكبر، خرجت من دنياك، وارتفعت عنها كمن يرتفع في طيارة، حتى تراها - كما هي في الحقيقة - ذرة صغيرة تافهة. . . ولم تخش عدواً، ولا شغلك حب حبيب ولا ملأ نفسك هم ولا غم، ولا لذة ولا متعة، لأنك تتوجه إلى الله، والله أكبر من ذلك كله، وبيده كل شيء، فأنت كمن يتصل بالوزير أو الحاكم المطلق، (ولله المثل الأعلى) فهل يفكر بين يديه بحاجة له عند موظف صغير، ويشتغل بذلك عن حديث الحاكم أو الوزير؟
فالصلاة تحقيق لغاية الحياة، والحياة لحظات في (الحياة الأخرى)، ولكن هي اللذة التي لا يقدر لغات البشر على وصفها، ولكن الناس يرون منها بروقاً خاطفة في ساعة من ساعات السحر، ولحظة من لحظات العبادة، أو. . . أو سكرة من سكرات الحب، أو عندما يسمعون نغمة، أو يقرءون شعراً. هذه اللحظات هي التي تدلنا على ذلك العالم. هي أشعة ضئيلة من
ذلك النور الباهر، تذيق النفس حلاوة الآخرة في الدنيا لتسعى لها، وترغب فيها.
قابل بين هذه اللذائذ الروحية وبين اللذات المادية. . . الطعام والشراب. . . إنك لتشبع فتصير لذة الطعام في نظرك صفراً، والنساء. . . إنك لتتصل بهن حتى تأتي عليك ساعات، ولهن أبغض إليك من كل شيء. على أن هذه الصلة لا تروي غليلاً، ولا تشبع للنفس جوعاً. إن المحبّ ليحس وهو يعانق من يحب ويشد عليها بذراعيه أن بينه وبينها بعد المشرقين، وأنه ليس في الدنيا صلة مادية تطفئ غليل المحب. فيا بؤس من قنع بالحياة المادية، وحرم من لذائذ الروح!
ويا ويح من يفكر بما وراء المادة، وما بعد الحس، يا ويحه! أليس في أثناء نفسه ذكرى؟ أما فيها أمل؟ أليس بين جنبيه روح؟ فكيف ينكر روحه وأمله وذكراه؟ أيجحد ما دليله في نفسه (أفلا تبصرون؟)
وكان الفجر يؤذن، فخرجت إلى المسجد، وللمسجد في ساعة الفجر روعة وجلال وأثر في النفس لا يدركه البيان. ولمسجد أبي حنيفة أوفر نصيب من ذلك، وأشهد أني لم أجد في بغداد كلها مكاناً أحس فيه الاطمئنان وأشعر فيه بالخشوع والتجلي كهذا المسجد، لا لمكان أبي حنيفة منه، فان أبا حنيفة لا يضر ولا ينفع، ولا يكون مؤمناً من يرى فيه ذلك، أو يتخذ من قبره صنماً يعبده ويتمسح به، ولكن الله قد خصّ هذا المسجد بهذه الروح لإخلاص أبي حنيفة الإمام الأعظم، وعلمه وأثره في الفقه الإسلامي، وإجماع المسلمين على محبته وإجلاله!

هنالك عرفت الحقيقة الكبرى في الحياة، فلن أسأل بعد اليوم: لماذا خلقت؟ ولن أعيش في حيرة، فيا رب لا تنسني هذه الحقيقة بترهات العيش، وأحلام الأدب، وضلالات العلم. إن هذه الحقيقة شمس ساطعة، ولكن سحابة صغيرة قد تحجب الشمس عن عيني الضعيفتين. اللهم إني قد فرغت (أو كدت) من شهوة الغنى، وتلك الشهوة الأخرى، فهب لي الخلاص من شهوة الأدب، وحب الشهرة، وغرور الفكر فان ذلك أشد علي. . .

!اللهم لك الحمد، وإليك المآب، وأنت الحي الباقي، فصلنا بك، ودلنا على الطريق إليك

بغداد (الأعظمية)

علي الطنطاوي

قصة الرافعي العاشق

تعقيب

للأستاذ محمد سعيد العريان

هذه قصة الرافعي وفلانة، كما رواها لي، وكما يعرفها كثير من خاصته. وإني لأعلم . . . أن كثيراً ممن يعرفونها ويعرفونه سيدهشون إذ يقرءون قصة هذا الحب، وسيتناولونها بالريبة والشك. وسيقول قائل، وسيدعى مدع، وسيحاول محاول أن يفلسف ويعلل؛ ولا عليَّ من كل أولئك ما دمت أروي القصة التي أعرفها، والتي كان لها في حياة الرافعي الأدبية تأثير أيُّ تأثير يُرَدُّ إليه أكثر أدبه من بعد. وحسبه أنه كان الوحي الذي استمد منه الرافعي فلسفة الحب والجمال في كتبه الثلاثة: رسائل الأحزان. والسحاب الأحمر، وأوراق الورد. وحسبي أنني قدمت الوسيلة لمن يريد أن يدرس هذه الكتب الثلاثة على أسلوب من العلم جديد!

على أني مسئول أن أبرئ نفسي أمام قدس الحق؛ فأعترف هنا بأن ما رويت من هذه القصة كان مصدره الرافعي نفسه؛ مما حدثني به وحدّث أصحابه، أو مما جاء في رسائل أصحابه إليه ممن كانوا يعرفون قصته؛ وما بي شك فيما روى من هذا الحديث؛ فما جربت عليه الكذب، ولا كان هناك ما يدعوه إلى الاختراع والتزيد كما يزعم من يزعم؛ ولكنها حقيقة أثبتها للتاريخ، لعل باحثاً مدققاً يوفَّق في غد إلى إثبات ما أعجز اليوم عن التعليل له.

على أن الرافعي قد أقرأني رسالة أو رسالتين بخط (فلانة) إليه؛ وهما وإن لم تدلا دلالة صريحة على حقيقة ما رويت من قصة هذا الحب. لا تنفيانها كذلك، بل لعلهما أقرب إلى الإثبات منهما إلى النفي؛ والحذر طبيعة المرأة.

ثم إن الرافعي لم يخصّني وحدي برواية هذه الحادثة؛ فإن عشرات من الأدباء في مصر قد سمعوها منه؛ ومنهم من يعرف (فلانة) معرفة الرأي والنظر، ومنهم من كان يغشى مجلسها لا يتخلف عنه مرة؛ ومنهم من كان الرافعي يقصد بالحديث إليه أن يكون بريداً بينهما ينقل إليها حديثة شفةً إلى شفة. وفي الناس بُرُدٌ إن لم تزُد على ما سمعتْ من حديث الحب لم تنقص منه شيئاً! فلو أن الرافعي كان يتزيّد فيما روى لي ولأصحابي من حديث هذا الحب لخشي مغبّة أمره؛ وإن (فلانة) يومئذ ذات جاه وسلطان!

وثمة برهان آخر لا يتناوله الشك؛ هو رسالة من رسائلها نقلها الرافعي من كتاب من كتبها المعروفة لا أسميه، إلى كتابه أوراق الورد؛ يزعم أنها رسالة منها إليه في كتاب، جواباً على رسالة بعث بها إليها - وكانت هذه بعضَ وسائلهما في المراسلة كما رويتُ من قبل - وأوراق الورد معروف مشهور، وكتابها معروف مشهور كذلك. ومما لا يحتمل الشك أن تكون (فلانة) لم تقرأ هذه الرسالة في كتاب الرافعي ولم ينبهها أحد إليها. وأبعد من الشك أن تكون قد قرأت هذه الرسالة المنشورة قبل ذلك في كتاب يحمل اسمها ثم لم تفهم ما يعنيه الرافعي؛ ولا شيء وراء ذلك إلا أن تكون قرأتْ، وفهمتْ، وسكتتْ؛ ولا شيء بعدُ إلا أن يكون بينهما شيء يؤيد ما رواه الرافعي من قصة هذا الحب. . .!

على أن اعتراضات ثلاثة توجَّهتْ إلي ما رويت من هذه القصة لا بد من التنبيه إليها: أما أحدها فمن الأستاذ الأديب جورج إبراهيم؛ فهو ينكر عليّ أن أستند إلى هذه الرواية، ويروي لي أنه صحب الرافعي في أولى زياراته لفلانة، وشهد ما كان من تأثر الرافعي وانفعاله وجذْبته؛ ولكنه إلى ذلك ينكر أن يكون بين الرافعي وفلانة صلة بعد هذه

الزَّورة، ويصحح ما رويته عن الرافعي - وكان من سامعيه - بأنه حبٌّ من طَرَف واحد، اختلطت فيه مذاهب الفكر ومذاهب النظر فشُبِّه للرافعي ما شُبِّه؛ فما يحكيه هو صورة ما في نفسه لا صورة ما كان في الحقيقة!

فالرافعي عند الأستاذ جورج إبراهيم لم يكذب ولكنه أخطأ التقدير والنظر. وعندنا أن عدم علم الأستاذ جورج بأن صلةً ما كانت بين الرافعي وفلانة بعد الزَّورة الأولى، لا ينفي أن هذه الصلة كانت حقيقةً ولم يعلم بها؛ فحديثه من ثَمّ لا ينفي شيئاً ولا يثبته، ويبقى بعد ذلك ما يستنبط من الرأي على هامش القصة.

وقريب مما يرويه الأستاذ جورج، ما تستنبطه جريدة المكشوف في بيروت، في حديث تناولت به بعض ما نشرنا من قصة حب الرافعي.

وتعقيب ثان توجه به صديقنا فؤاد صروف - محرر المقتطف - على ما رويناه، قال:

لقد سمعت هذه القصة من الرافعي كما رويتَها؛ فما أشك في صحة ما تكتب، ولكني أسأل: هل كانت (فلانة) تبادل الرافعي الحب؟ . . .

(هاك خبراً يدعوك معي إلى هذا السؤال:

في يناير من سنة 1934 (أو سنة 1935) دعتني فلانة إلى مقابلتها؛ فلما شخصتُ إليها رأيت في وجهها لوناً من الغضب فدفعتْ إليّ رسالتين من رسائل الحب بعث بهما الرافعي إليها لأرى رأيي فيهما؛ ثم قالت: ماذا تراني أفعل لأذود عن نفسي؟ أتراني أتقدم في ذلك إلى القضاء؟

قال الأستاذ صروف: (فاعتصمت بالصمت من لا ونعم، وتركت لها أن تستشير غيري؛ ولست أدري ما كان بعد ذلك!)

قلت: وهذه رواية جديرة بأن تذكر - ومعذرة من ذكرها إلى الأستاذ صروف - على أنها لا تدل على شيء في هذا المقام أكثر من أن فلانة لم يكن يروقها في سنة 1934 أن يتحبّب إليها الرافعي؛ فماذا كان أمره وأمرها معه قبل ذلك بعشر سنين؟

أيكون لهاتين الرسالتين اللتين يتحدث عنهما الأستاذ صروف - صلة بما كان في نفس الرافعي من يقين بأنه سوف يلقى فلانة ليصل ما انقطع من حبال الود بعد عشر سنين (من يوم القطيعة

أعني: هل حاول الرافعي - بعد عشر سنين من القطيعة - أن يعيد ما كان بهاتين الرسالتين فلم يصادف قلباً يستجيب لدعائه؟

على أن هذا الخبر - أيضاً - لا ينفي شيئاً ولا يثبته؛ ولكنه يفتح باباً إلى الاستنباط والرأي ولكنه مما لا شك فيه أن الرافعي لم يكن يعلم شيئاً عن وقع هاتين الرسالتين في نفس صاحبته؛ ولا أحسبها صنعت شيئاً يدل الرافعي على مبلغ استيائها من هاتين الرسالتين، وإلا لما ظل يتعلق بالأمل في لقائها إلى شتاء سنة 1935، وكنت معه لما همّ بزيارتها.

وثمة اعتراض ثالث يعترضه الدكتور زكي مبارك؛ وما كان لي أن أثبته هنا لولا أن أثبته هو في كتاب من كتبه نشره على الناس منذ قريب، ولولا أن أشار إليه في مقالات نشرها في مصر وفي العراق وفي بيروت!

والدكتور زكي مبارك أديب مشهور، ولكن آفته - ولكل أديب آفة - أنه يدسّ أنفه فيما يعنيه وما لا يعنيه؛ وهو قد شاء أن يحشر نفسه في هذه القصة التي لا يهمه منها إلا أن يعلن للناس - والإعلان عن نفسه بعض خصائصه الأدبية - أنه كان يجلس إلى (فلانة) جنباً لجنب في الجامعة المصرية بضع سنين!

وليس يهمنا أن يجلس الدكتور زكي مبارك جنباً لجنب إلى فلانة أو إلى نساء الأرض جميعاً - كما يريد أن يتعالم عنه الناس في أكثر ما يكتب - ولكنه يزعم أن ما كتبنا عما كان بين الرافعي وفلانة ليس من الحقيقة في شيء، لأنه كان يجلس مع فلانة جنباً إلى جنب في الجامعة بضع سنين فلم تحدثه يوماً أن حباً كان بينها وبين الرافعي. . . . . !!

فمن شاء أن يقرأ مثلاً للحجة الواضحة في أدب الدكتور زكي مبارك، فليقرأ هذه الحجة البالغة؛ على شرط أن يكون مؤمناً بأن الدكتور زكي مبارك لا يجلس إلى (فلاناتٍ) ولا يجلس إليه (فلاناتٌ) إلا ليحدثنه عما كان لهن من جولات في ميادين الحب ويسألنه عن الرأي والمعونة!

وليدع القارئ بعد ذلك حديث الدكتور عن العري والعراة، وعن (الأديب العريان. . .)

الذي روى هذه القصة
وعفا الله عن أهل الأدب!
هذا كل ما تلقيت من اعتراض المعترضين، من أهل الأدب أو من أهل الدعوى؛ وعلى أي الوجوه انتهى رأي الأدباء في تحقيق هذه القصة، فإنه مما لا شك فيه أن الرافعي كان يحب (فلانة)؛ وهذا حسبي؛ فما يعنيني من هذا التاريخ إلا إثبات المؤثرات التي كانت تعمل في نفس الرافعي فتلهمه الشعر والبيان؛ أما هي وما كان منها وحقيقة عواطفها، فشيء يتصل بتاريخها هي بعد عمر مديد!
محمد سعيد العريان
للتاريخ السياسي
نتائج اتفاق مونيخ
للدكتور يوسف هيكل
رأت دول وسط وشرقي أوربا، بعد أن زالت السياسة التي بنيت عليها العلاقات الدولية، أن تبني علاقاتها الدولية على أسس جديدة. فأخذت تلتف حول الريخ طلباً لوده واتقاء لنقمته. لأنه ظهر لها أن لا وجود مطلقاً للضمان المشترك. ولا فائدة ترجى من التحالف مع الدول المقاومة للهر هتلر. لأن هذه الدول لا تقوى على مد يد المساعدة لحليفتها. والدول القائلة بهذا القول تضرب مثل تشيكوسلوفاكيا لإثبات صحته.
وفي الواقع أن تشيكوسلوفاكيا نفسها قد غيرت سياستها الخارجية وأخذت تقترب من ألمانيا. فأدلى الجنرال سيروفي رئيس حكومة براغ تصريحاً قال فيه: (إن مبادئ سياستنا الخارجية واضحة جلية، وهي أن تكون علاقاتنا ودية مع جميع العالم لا سيما مع جيراننا. ويجب علينا التعاون معهم إذا أردنا أن نعيش بسلام وطمأنينة). وقد ذهبت إحدى الجرائد التشيكية إلى أبعد من ذلك قائلة: (إن أوربا الوسطى أزيلت من الوجود، وإنه يجب علينا حتى في علاقاتنا التجارية نفسها ألا نعمل مع أية كتلة تضعنا ضد ألمانيا، أو أن ندرك أن الهر هتلر والسنيور موسوليني أقوى من فرنسا وبريطانيا، فالهر هتلر يكسب المعارك معركة بعد معركة طبقاً للنظرية الواردة في كتابه كفاحي).
ولتحقيق سياسة التقرب مع ألمانيا، وتنفيذاً لرغبة الهر هتلر، استقال الدكتور بنيش من رياسة الجمهورية التشيكوسلوفاكية في أكتوبر (تشرين الأول)؛ وألغى تدريس اللغة الفرنسية في مدارسها كلغة إجبارية، واستعيض عنها باللغة الألمانية. فرحبت ألمانيا بذلك، وأخذت تساعد على إيجاد علاقات ودية بين الحكومتين
وانتشار نفوذ ألمانيا في تشيكوسلوفاكيا يضع في يدها مفتاح باب الدانوب، ويفتح أمامها باب أوربا الشرقية والشرق الأدنى. وقد قال في 4 أكتوبر (تشرين أول) إرشيبالد سنكلر زعيم الأحرار المعارضين (إننا سنعيش حتى نبكي اليوم الذي باعت بريطانيا فيه الحرية في أوربا الوسطى، وفتحت طريق توغل ألمانيا في أوروبا الشرقية)
وعملياً أخذت ألمانيا تنشر نفوذها في أوربا الشرقية وفي الشرق الأدنى، فزار الدكتور فونك وزير الشؤون الاقتصادية الألمانية بلغراد وأنقرة وسوفيا. فعقد مع حكومة يوغوسلافيا اتفاقية تجارية جديدة، وقال بصددها إن ألمانيا في وضعية تمكنها من شراء نصف منتوج يوغوسلافيا، ومن مساعدتها على إكثار منتوجها بتقديم الآلات والمال لاستثمار المعادن. وبالإضافة إلى ذلك فإن في إمكان ألمانيا دفع أسعار مرتفعة لما تبتاعه، والمحافظة على مستوى هذه الأسعار، لأن نظامها الاقتصادي أقيم بصورة لا تؤثر عليه الأزمات. وقد أكد الدكتور فونك أن ألمانيا الآن أعظم بلاد العالم إنتاجاً بفضل نظامها السياسي. وأضاف قائلاً أن ليس في الإمكان تفريق السياسة الاقتصادية عن العامة.
وقد لقي الدكتور فونك استقبالاً حاراً في أنقرة، ونجح فيها نجاحاً باهراً، إذ عقد اتفاقاً مع الحكومة التركية أقرضتها ألمانيا بمقتضاه 150 مليون مارك (ما يقرب 13 مليون جنيه إنجليزي) لشراء الآلات الصناعية والأدوات الحربية، على أن تسدد بعد عشر سنوات. وقد أدهش ذلك الاتفاق الدوائر الدبلوماسية، لأنه في مايو السابق فقط اقترضت الحكومة التركية ستة عشر مليوناً من الجنيهات من الحكومة البريطانية.
وبعد تركيا زار الدكتور فونك بلغاريا وتباحث مع حكومتها للوصول إلى تحسين العلاقات

الألمانية البلغارية التجارية. وقد قبل دعوة رومانيا واليونان لزيارة بلادهما، وفي نيته زيارة إيران وأفغانستان، غير أنه أرجأ ذلك إلى وقت آخر. ودول البلقان ترحب بتحسين علاقاتها التجارية مع الريخ، لأنها تعتقد أن تجزئة تشيكوسلوفاكيا أزالت كل مقاومة للمصالح الألمانية في أوربا الشرقية. والعلاقات التجارية المنيعة تولد الصداقة السياسية، والنفوذ الاقتصادي يوجد النفوذ السياسي.

وقد صرح الهر فونك في حديث له مع مندوب جريدة (برلين تسيتونغ) (أن في جنوب أوربا الشرقي وآسيا الصغرى كل شيء تحتاج إليه ألمانيا تقريباً. ولهذا لا يمكن أن توجد دولة أخرى قادرة على أن تشتري منها ما تشتريه ألمانيا. ونظراً لأهمية نهر الدواب لجنوب أوربا الشرقي، يجعل من هذه البلاد منطقة اقتصادية ممتدة من بحر الشمال إلى البحر الأسود، والدول القائمة فيها تستطيع أن تكون متممة إحداها للأخرى). وهذا التصريح يرمي إلى تحقيق الحلم الألماني السابق للحرب العالمية؛ حلم (همبرك - بغداد).

وتقول جريدة (آسن ناشونال زيتيغ) في عددها الصادر في 12 أكتوبر (تشرين أول) إنه إذا أصرت إنكلترا وفرنسا على مواصلة جهودهما للاستيلاء على جانب من التجارة) تعده ألمانيا بحق أنه من نصيبها فإنها ستكون بعد عام أو عامين، أي بعد أن تتم تحصيناتها على الحدود الغربية، في مركز يساعدها على أن تعلن أنها وحدها صاحبة (النفوذ الاقتصادي في جنوب شرقي أوربا

هذا، ولا تنحصر نتائج اتفاق مونيخ في علاقة ألمانيا مع دول جنوب شرقي أوربا، بل تتعداها إلى وضعية الدول الكبرى ومجرى سياستها.

وفي مونيخ تلاشت عصبة الأمم، وذهبت البقية الباقية مما كان لها من تدخل في الأزمات الدولية؛ وتحققت فكرة السنيور موسوليني من حل المشاكل الدولية بواسطة (مؤتمر رباعي)؛ تلك الفكرة التي توافق عليها بريطانيا وفرنسا عام 1933، بل أصرتا حينئذ على وجوب حل الخلافات الدولية ضمن دائرة عصبة الأمم. وفي مونيخ عقد المؤتمر الرباعي لحل المشكلة التشيكوسلوفاكية، دون إعلام عصبة الأمم به، ودون اشتراك الروسيا فيه، فكان ذلك نصراً أدبياً سياسياً للسنيور موسوليني اتخذ منه دليل كبير على بعد نظر زعيم إيطاليا وعلى قدرته السياسية في إيجاد الأسس لتسوية المشاكل الأوربية.

وفي ذلك المؤتمر تحققت رغبة هتلر وموسوليني في عزل الروسيا عن شؤون أوربا فأصبحت الروسيا في عزلة سياسية لها نتائجها السيئة في أوربا. لأن من شأن هذه العزلة إضعاف موقف فرنسا الدولي، وبالتالي إضعاف موقف فرنسا الدولي، وبالتالي إضعاف مركز بريطانيا العظمى، مما يشجع الهر هتلر على السير في تحقيق مطامعه الواسعة

وفي مونيخ انهارت سياسة سلامة فرنسا. فزالت قوتها في تشيكوسلوفاكيا وخسرت حلفاءها وأصدقاءها في بلاد البلقان وشرقي أوربا. فكانت فرنسا الدولة الأولى التي تكبدت أكبر الخسائر ولحق بها أعظم الأضرار من جراء اتفاق مونيخ. وكأن هذا الاتفاق كان موجهاً ضدها. وزيادة على ذلك فقد حاول الهر هتلر في مونيخ تحقيق أعز آماله عليه، وهو إبعاد بريطانيا عن فرنسا لتتم عزلتها ويزول سلطانها الدولي. وهو لم يواجه هذه المسألة وجهاً لوجه، بل أتاها من طريق غير مباشر، فوقع المستر تشمبرلين تصريحاً مفاده: (إنهما ينظران إلى اتفاق مونيخ وإلى الاتفاق الإنكليزي الألماني البحري، كرمز إلى رغبة شعبيهما بألا يحارب قط الواحد الآخر. وإنهما متأكدان على أن التشاور سيكون الطريقة

المتبعة في حل المسائل الأخرى التي تتعلق ببلادهما) وتقوية لهذه السياسة ألقى السير توماس أنسكيب، وزير الدفاع الوطني خطبة في 12 أكتوبر (تشرين أول) قال فيها: (إنني أعتقد أننا سائرون في الطريق المؤدية إلى إنشاء علاقات ودية مع الشعب الألماني العظيم في وسط أوربا. وأثمن هدية نستطيع تقديمها إلى عالم متزعزع أهوج هو السلام بيننا وبين ألمانيا). ومن شأن هذه السياسة تمكين الهر هتلر من تحقيق مطامعه. لأن القوة الوحيدة في أوربا التي تجعل الهر هتلر يفكر قبل العمل على تحقيق مطامعه الواسعة هي جيش فرنسا العظيم تسنده القوى البريطانية، وتفريق هاتين القوتين بعضهما عن بعض يعوق الجيش الفرنسي عن العمل، ويمكن الهر هتلر

من تحقيق ما يريد
وما يريده الهر هتلر أمر عظيم خطير، يشرحه (كتاب النازي المقدس) وتجمله جملة منه إذ يقول زعيم ألمانيا (إنه ليس من الضروري، مهما كانت النتائج، اللجوء إلى الحرب، إذا أريد حقاً الوصول إلى السلام. وفي الحقيقة أن الفكرة الإنسانية والإنشائية ربما تكون جيدة في اليوم الذي يقهر فيه الرجل المتفوق على الجميع، العالم ويسود ويصبح وحده سيد الدنيا. الحرب أولا وربما بعدها السلام).
وهذه الجملة واضحة جليلة، ترى أن الهر هتلر يطمح إلى سيادة العالم سيادة أوربا فقط. وقد مكن اتفاق مونيخ الذي كان أعظم نصر حازه الهر هتلر زعيم ألمانيا من أن يكون الرجل الأول في أوربا والمتفوق على جميع ساستها؛ ومن أن يبدأ في نشر نفوذه عليها وسيادته لها.
يستغرب المرء تسليم فرنسا وبريطانيا العظمى في مونيخ، ويجعله يتساءل كيف سلمت فرنسا بمعقلها في وسط أوربا، ولنفوذها السياسي في جنوبي أوربا وشرقيها؟ فهدمت بذلك ما بنت خلال العشرين سنة الماضية، وخسرت حلفاء وأصدقاء، وسهلت وضعهم تحت النفوذ الألماني! وكيف قبلت بريطانيا اختلال التوازن الدولي؟ ذلك التوازن الذي كانت دائماً وأبداً تبذل الجهود وتدخل الحروب في سبيل المحافظة عليه. هذا ما نبينه في المقال المقبل.
يوسف هيكل
من صاحب العصور إلى صاحب الرسالة
أخي الأستاذ الزيات:
السلام عليك ورحمة الله، وبعد فإني أحمد الله إليك وأستعينه وأسأله لك التوفيق والسَّداد. أبيت أيها الرجل إلاّ كرماً من جميع نواحيك، فما كدت تستقبل العام السابع من عمر (الرسالة) حتى عُدْتَ عليّ بفضل من ثنائك وحسن ظنك، فذكرت (العصور) ثم أثنيت فأغنيت.
لقد وافتني كلمتك، وأنا بعد أنفض عن يديّ غبار (العصور) وأتخفف من أثقالها التي حملتها راضياً غير كاره، لأنقلب إلى هذه الغرف العزيزة التي نشأت في حجور الشيوخ من سكانها أستخبرهم علم ما أجهل، وأستنبئهم أخبار ما مضى، لأستوحِيَ الظن فيما يستقبل، وأجدد بعاديِّ قوتهم قوة النفس التي لا تهدأ ولا تنام.
لا بد من كلمة - أيها الشيخ الجليل - وقد كان الصمت أولى بي وأحبّ إليّ. لا بدّ من كلمة أعتذر بها للذين استقبلوني بفرحة المحبّ أمتع باللقاء على غير ميعاد. فأنت تعلم أني اليوم عزمت على إصدار (العصور) لم أكن قد أعددت لها من مال إلا ما ادخرته في نفسي من جهد أعوام طالت في معاناة العلم والأدب، وبقية من خلق ضننت بها أن تذيع في أطرافها ونواحيها مهزعات العصر الحديث التي صرّفت الأخلاق في وجوه الغي والضلال، وأطلقت دنيات الغرائز من عقال الشرائع، وأرسلتها ترعى حمى أبى الله ورسوله أن يكون مرعى لمن آمن بالله واليوم الآخر.
ولكن لا بد من مال مسكوك معترف به، مصدّق على الاعتراف به من (محافظ البنك الأهلي)، وإن قليل ما عندي من هذا المال لا يغني غناءه في عمل أوله استهلاك بغير نتاج وأنت أخبر بهذا الأمر. فلم يبق إلا الصديق الذي يعين على نوائب الحق. . . فبدأنا إصدار (العصور) يعولها الجد من قبلي، والعون من قبل الأصدقاء الكتاب من أصحاب مذهبنا، والمدد من (جيب) الصديق الذي أبدى بشاشته، واستظهرها بعاجل البر، وسرنا على اسم الله. فما كان إلا كلا ولا حتى قلت كما قال الأول:
سعتْ نُوَب الأيام بيني وبينهُ ... فأقلعن مِنَّا عن ظلوم وصارخ
فإني وإعدادي لدهري (محمداً) ... كملتمس إطفاء نار بنافخ
وأبيتْ أن أخفض عن نفسي أو أرُدّ غلواءَها، فرددتُ المالَ إلى صاحبه غير منقوص ولا مهتضم. وقلتُ إن أمراً قضاهُ الله لا بُدّ له من تمامٍ وأجلٍ، وما شاءَ الله كان وما لم يشأ لم يكنْ. وخيرُ الأمر أن ألجأ إلى الله ثم أستعين بما عندي على قضاء الحق الذي يقتضيه ما أقررت به على نفسي، وما أقررتها عليه في كلمة العدد الأول من (العصور). فلم أبخل ولم أتراجع، وأقدمتُ على إصدار العدد الثاني مستبشراً مؤملاً راجياً معتمداً على ثقتي بالله، ثم ثقتي بحسن التقدير الذي لقيته. فلم يلبث أن لقيَ

العدد الثاني من (العصور) حفاوة الناس في كثير من بلاد العربية؛ ولكن هذه الحفاوة المستبينة في بيع مجلة - تكاليفها أكثر من دخلها بهذا البيع - لا يمكن أن تكونَ هي الرُّقية التي تجذب إلى رقاب المال من كهوف (البنك) فأجويها وأروضها وأتصرَّف فيها تصرُّف الناس فيما هُمْ به (ناس)!!

وقلت: عسى أن يقضي الله لأمر ضاق بالفرج، وتوجهت بقلبي إلى الله، وبوجهي إلى من أتوسم فيه سمة (الخزانة) المعدة لاحتجان المال. ولكني وجدت القفل بعد القفل على الخزانة، وافتقدت المفتاح الذي يتسنى له كل مغلق. إن هذا المفتاح ليس عندي، ولستُ أملكه، وما احسبني أرتضي - بعد أن جرَّبتُ - أن أملكه أو أحوزه. إنه لا يملكه إلا من قدّم رهينةً، والخُلُق لا يُعترف به في باب الرَّهائن، ولستُ أملكُ غيره؛ فلا رهينةَ، أي لا قَرْضَ ولا معونة. وإنه لا يملك المفتاح بعدُ إلا اللصُّ الذي يلين له ما أعضل من قُفْل غُلِق وأنا بحمد الله لم أَخْلَق على طبيعة السارق بل سُوِّيتُ على هيأة المسروق، كلّ من شاء أن يأكلني أكلني؛ قد رضيتُ أن أحوطَ جوهري بالعَرَض المُضيَّع.

ومع ذلك فقد أعددت العدد الثالث للطَّبْع، وتصرَّفتُ في وجوه التدبير، ثم وُفِّقت إلى من أرضى عنه ويرضى عني. . . ولكن أبى خُلُق الدُّنيا معي أن يتم جميل تستودعينه، أو معروف ترّببه عندي. فرجعت عَودي على بدئي راضياً عن الله شاكراً لله واثقاً بالله، أستعينه وأستحفظه، واشكره ولا أكفره.

لا أقول الله يظلمني ... كيف أشكو غير مُتَّهم

وأنا لا أزال أقول: يَصنَعُ الله، يَصنَعُ الله، إن لله تدبيراً يصرّفنا به كيف شاء إلى مواقع علمه ومنازل حكمته. وأنا مذ كنت، كنت مطية القدر حيثما وجّهني استقبلت المضيقَ والطريقَ بنَفس مسلمةٍ وجهَها لله، بأن الزمّامَ في يد الله

فإن تسأليني، كيف أنتَ! فإنني ... صبورٌ على ريبِ الزمانِ صليبُ

يعزُّ عليَّ أن تُرى بي كآبةٌ ... فيشمتَ عادٍ أو يُساءَ حبيبُ

وعلى ذلك فأنا منتظرٌ، و (العصور) إلى جانبي تنتظِر! وشكر الله لك، وجزاكَ خَيْراً من صديق.

محمود محمد شاكر

تألم الرسالة أشد الألم أن يثبط هذا القلم البارع وهذا الفكر الرشيد (الرسالة) مثبطات المادة، وتدعوا الله مخلصة أن يلهم أهل المال معونة أهل العلم حتى لا تتخلف (العصور) عن صفها في الجهاد إلا ريثما تواتيها العدة. وعسى أن يضن القراء بهذه الثروة الأدبية على الضياع فيعينوها على الصدور بأسلاف الاشتراك.

كلمات لهوجو

للأستاذ عبد الكريم الناصري

- 1 -

* البراءةُ أعلى من الفضيلة. البراءة جَهْلٌ مقدَّس

* في استطاعة الأسنان أن تُبصر، كاستطاعة العيون أن تَعَض

* للطيش حقوقه، ولكنه له حدوده أيضاً

* قد تدلّ الابتسامة على الموافقة. . . ولكنّ الضحكةَ - في الغالب - رَفض

* في بعض الأحايين تكون الثانوية أصعب من الأولية. وهي حينئذ تقتضي عبقرية أقل وشجاعةً أكثر. فالأول قد تُسكره الجِدَّة غير المنتظرة، وتبلبل فكره وتهيج حماسته، فيجتاز الهوَّة وهو جاهل بالخطر؛ ولكن الثاني يرى الهوة ويندفع نحوها.

* ما التاريخ؟ صدىً من الماضي في المستقبل؛ انعكاسٌ من المستقبل على الماضي.

* البخيل أعمى، فهو يرى الذهب ولا يرى الثروة. المتلاف أعمى، فهو يرى البداية ولا يرى النهاية. المستهترة في الحب عمياء، فهي لا ترى الخطوط والغضون. العالِمُ أعمى، فهو لا يرى جهله. الشريف أعمى، فهو لا يرى اللص. اللص أعمى، فهو لا يرى الله.

* ما البتولة إلا الأملُ في الأمومة

* للخوف درجةٍ ينقلب فيها الإنسان رهيباً يملأ القلوب رعباً. إن الذي يخاف كل شيء لا يخاف شيئاً. مثلهُ حقيقٌ بأن يضرب (الاسفنكس) حقيقٌ بأن يتهددّ (المجهول) ويتحدّاه.

* الحسد مادّة صالحة لصنع الجواسيس. فإن بين تلك العاطفة الطبيعية - الحسد - وبين تلك الوظيفة الاجتماعية - الجاسوسية - لشَبهاً عظيماً. غير أن الجاسوس يصطاد

لغيره، كالكلب. أما الحسود فيصطاد لنفسه، كالقط.
- 2 -
* إن للدور لأرواحاً
* الفنُّ هو فرع الطبيعة الثاني
* الفنُّ طبيعيٌّ كالطبيعة
* الطبيعة، منفاضةً إليها الإنسانية، مرفوعةً إلى القوة الثانية، تنتج الفن.
* الجلال هو المساواة. الفكر الإنساني هو الممكن الذي لا حد له.
* للفكر الإنساني ذروة. هذه الذروة هي المثل الأعلى. اللهُ يهبط إليها، والإنسان يرتفع. . .
* الإنسان الواحد أوسعُ وأعمقُ من (أنا) شَعْبٍ بأسره (أنا).
* المثل الأعلى - مطبقاً على الحقائق الواقعة - هو المدنية
* من ميزات العبقرية اتحاد الملكات المتباعدة أشد التباعد فيها
* في الدنيا شيء يُقال له: غَضَبُ الوضاعة.
- 3 -
* الموت من شأن الله وحده. فبأيّ حق يَمَسُّ الناسُ ذلك الشيء المجهول؟
* المجتمعُ يغلق بابه - في غير رحمة - دون طبقتين من الناس: الطبقة التي تهاجمه، والطبقة التي تدافع عنه.
* ليس الموت بشيء. إنما المخيفُ ألاّ نعيش.
* إذن فلنهجمْ.
لنهجم، ولكن لنميز أولاً. إن صفةَ الحقيقة المميزة أنها لا نعرفُ الإسراف أبداً. وما حاجتها إلى الغلو والإسراف؟ هنالك أمورٌ يجب هدْمها، وأمورٌ أخرى يجب تبيُّنها وفحصها فحسب، فما ينبغي لنا - إذن - أن نحمل اللهب حيث يكفي الضوء وحده.
* ليس أخرقَ من طلاب النصر والغلبة؛ إنما المجد الحق في الإقناع.
* كل شيء قابل للنجاح، حتى النحو والصرف!
* الفرح انعكاس الرُّعب.
- 4 -
* لا بد لكل فكرة من غطاء منظور. لا بد لكل مبدأ من سكن ومأوى؛ فالكنيسة هي الله بين أربعة جدران؛ لا بد لكل مذهب من معبد.
* أنا كالأقيانوس؛ لي مدي وجزري؛ ففي الجزر تبين مواضعي الضحلة، وفي المد ترى أواذي وأثباجي.
* المجتمع هو الطبيعة في حلة من الجلال.
* حرية الفرد تنتهي حيث تبدأ حرية فرد آخر، وفي هذا السطر ينطوي قانون المجتمع البشري كله.
* التفريق بين الهياج المنبعث عن الطمع، وبين الهياج المنبعث عن المبادئ، ومحاربة الأول ومساعدة الثاني: في ذلك تستقر عبقرية كبار القادة الثوريين، وقوتهم وسلطانهم.
* إن للنفس عقيدة في النور.
* أريد الحرية في الفكر، والمساواة في القلب، والأخوة في الروح. كفى! كفانا عبودية ورقاً! ما خلق الإنسان ليجرر السلاسل، وإنما خلق لينشر أجنحته. . .

(بغداد)
عبد الكريم الناصري
استخبار صحفي (ريبورتاج)
أبو الهول يتكلم!
اكتشافات أثرية هامة
(لمخبر الرسالة)

للأستاذ الأثري سليم بك حسن وكيل مصلحة الآثار اكتشافات كبيرة القيمة من الناحية الفنية والتاريخية فهو الذي أماط اللثام عن سر أبي الهول كما كشف كثيراً من الآثار التي وضحت لنا النواحي الاجتماعية في عصر الأسرتين الرابعة والخامسة. وقد زرناه في بيته الصحراوي بجوار أهرام الجيزة فوجدناه منهمكا في إعداد كتاب قد تزيد

صفحاته على خمسمائة صفحة عن حصر الفرعونية.
وقد سمح لنا أن نشاهد حفرياته الحديثة، ونقدم إلى قراء الرسالة أخبار هذه المكتشفات التي غيرت كثيراً من النظريات التاريخية.
خرافة الكتابة.
كانت هناك خرافة تقول بأن أهرام ملوك الأسرة الرابعة خالية من النقوش والكتابات،) وقد ظلت هذه الخرافة قائمة إلى سنة 1938 إذ ثبت خطأها في 28 نوفمبر الماضي فقد وجدنا صورة الملك خوفو باني الهرم الأكبر منقوشة بالحفر البارز على أحد أحجار معبد الهرم الجنائزي كما وجدنا رسوماً ونقوشاً أخرى).
بهذه العبارة أعلن سليم بك حسن وكيل مصلحة الآثار عن اكتشافاته العظيمة القيمة التاريخية والفنية.
وبهذه العبارة وهذا الاكتشاف هدم كثيراً من النظريات، كما قضى على كثير من المؤلفات التي تناولت هذا الموضوع بالبحث والتحليل. فقد لاحظ علماء الآثار خلو أهرام ملوك الأسرة الرابعة من النقوش والكتابات، مخالفة بذلك مقابر أشراف الأسرة وكهنتها الذين ذكروا كثيراً من حوادث عصرهم وعادات قومهم. فاستنتجوا أن ملوك هذه الأسرة توخوا في مقابرهم أن تكون من العظمة والضخامة بحيث تنطق بجلائل أعمالهم وتتحدث عن حالة الرخاء في عهودهم. ولذلك ظهرت الأهرام بضخامتها التي ما زالت حديث العالم دون
أن يظهر على جدرانها نقش واحد يدل على أسماء أصحابها.
الحلقة المفقودة.
ولكن هذا المنطق لم يرق لسليم بك، إذ كيف يذكر اسم الملك في مقابر الحاشية ولا يذكر في مقبرته هو؟ أضف إلى ذلك ما ذكره المؤرخ اليوناني هيرودوت، فقد قال إنه زار الأهرام ورأى نقوشاً على مبانيها؛ وبذلك تأكد لعالمنا المصري أن حلقة أثرية ما زالت مفقودة، وأن كثيراً من أسرار الهرم في الرمال مطمورة. . .
وبحث ونقب فوجد أن كل هرم له معبدان أحدهما جنائزي وهو إلى جوار الهرم من الناحية الشرقية، والثاني معبد الوادي وهو يبعد عادة عن المعبد الجنائزي بطريق. وعلى هذا الأساس بدأ أبحاثه فتوصل إلى الدليل القاطع بعد أن نقل رمال الصحراء من منطقة تزيد مساحتها على مائتي فدان. ففي الجانب الشرقي للهرم الأكبر وجد في معبده الجنائزي في 28 نوفمبر قطعة من الحجر الجيري الأبيض نقش عليها رسم الملك خوفو وهو يلبس تاج الوجه البحري، كما عثر على قطعة أخرى عليها رسم الملك وهو جالس على عرشه يحتفل بمرور ثلاثين عاماً على توليه العرش. وبهذه الأدلة القاطعة هدم النظرية القائلة بعدم وجود نقوش.
ويتكون المعبد الجنائزي من مساحة واسعة تقع شرق الهرم الأكبر وأرضها من حجر التولوريت الأسود الذي أحضره الملك من الفيوم. وقد نحت إلى جوار المعبد ثلاثة مراكب رمزية يستعملها الملك بعد عودته عندما يتمثل إله الشمس في طوافه حول الأرض. واثنتان منها توازيان الهرم وطول إحداهما 55 متراً وطول الثانية 50 متراً، ويختلف المركب الثالث عن سابقيه وهو فريد في نوعه. لأن الوصول إلى قاعه يكون بدرجات كثيرة مما لم يشاهد في المراكب الأخرى. وقد كانت جدران هذه المراكب مغطاة بالحجر الجيري الأبيض الذي وجدت آثاره في المنطقة. وينتظر أن يكشف رفع الرمال التي تغطي تلك المنطقة عن كثير من المعلومات والآثار. ويطمع علماء الآثار أن يجدوا تمثالاً للملك خوفو الذي لا يوجد له تمثال في كل متاحف العالم غير التمثال الصغير الذي وجد في العرابة؛ وقد وجدت تماثيل ولكنها محطمة.
كيف رفعوا أحجار الهرم.
وهناك اكتشاف آخر يكشف عن كثير من مقدرة قدماء المصريين، فإن كثيرين يظنون أنهم كانوا يرفعون الأحجار الضخمة إلى مواضعها بجرها على مستويات مائلة. وكلما تم بناء طبقة رفع المستوى المائل إلى أن يتم البناء كله فيزال ما حوله من مستويات.
وقد عثر سليم بك على بكر ضخم مصنوع من الجرانيت الغرض منه رفع الأثقال ونقلها، وهذا يدل على انهم كانوا يستعملون الآلة الرافعة كما نفعل الآن.
سر أبي الهول.
وأدت الحفريات الحديثة شرق الهرم الثاني إلى كشف كثير من غموض أبي الهول

حتى أصبح في حكم المقرر أن الملك خفرع باني الهرم الثاني هو الذي أمر بنحته في الصخر. وذلك لما يشاهد من اتفاق فن البناء في معبد أبي الهول والهرم. وقد وجدت حول أبي الهول أكثر من 200 لوحة أهداها إليه كبار الزوار عندما كانوا يحجون إليه مما يدل على ما كان له من مكانة مقدسة.

وكلمة (أبو الهول) محرفة عن كلمة (بوحول) وهي لفظة إسرائيلية معناها (مكان حول) و (حول) إله محلي في فلسطين. فلما نزل الإسرائيليون بأرض مصر أقاموا في جوار أبي الهول وعبدوه بدلاً من أحد آلهتهم لما بينهما من تشابه. وبمضي الأعوام صحف لفظ (بوحول) فأصبح (أبو الهول). أما اسمه الفرعوني تبعاً لنصوص أقدمها يرجع إلى الأسرة الثامنة عشرة فهو (حر أم آخت) ومعناها (هوراس الذي في الأفق).

وحرفه اليونان إلى حرماخيس. ويقول سليم بك (إن الإسرائيليين أقاموا في تلك المنطقة مدة طويلة، وإنهم تركوا مصر إلى الشام من طريق بجوار الأهرام، وما زالت قرية الحرونية تحتفظ باسم الهرم إلى الآن).

فن القدماء.

وبكشف مقابر كبار موظفي الأسرتين: الرابعة والخامسة. أميط اللثام عن كثير من غوامض التاريخ، فمن مقبرة (نتربو) يمكننا أن نعرف ترتيب ملوك الأسرة الرابعة. كما بينت المقابر الأخرى أن أولاد خفرع ليسوا أربعة فقط بل هم خمسة عشر ولداً وبنتاً.

أما من جهة الفن فقد وجدت في هذه المنطقة تماثيل كثيرة حافظ فيها الفنان على تصوير

وجه صاحبه بكل ما فيه من عيوب، لأن المصريين اعتقدوا بخلود الروح والحياة الأخرى، كما اعتقدوا أن الروح تزور جثتها. ولذلك وجب حفظها بالتحنيط، وزيادة في الاحتياط رأى المصري القديم أن يلجأ إلى مادة أصلب وأقوى على مقاومة الدهر وعبث الأيدي بدلاً من جثته الهشة فنحت التماثيل لتزورها الروح إذا فقدت الجثة أو تلفت. ولذلك وجب أن تكون الصورة صورة أصلية من صاحبها حتى لا تضل الروح عنها إذا أرادت زيارتها.

وكثرة هذه التماثيل أو قلتها ترجع لسطوة الميت وغناه؛ ففي مقبرة (رع ور) مثلاً وجدت بقايا 120 تمثالاً. ويلاحظ أن تماثيل الأغنياء كانت دائماً تمثل الترف بأجلى صوره، فإذا كانت لصانع دقق الفنان في إبراز التفاصيل فيبدو كل شيء على طبيعته. فترى آثار الجهد على وجه الخباز أو العجان حتى أصبحت تلك التماثيل قطعاً حية تقود الفنان الحديث.

زيارة الأحياء للموتى

وليست زيارة الأحياء للموتى بنت اليوم، ففي مقبرة الكاهن (فيفي) سرداب به حجرة لها نافذة صغيرة أعدت ليطل منها الناس فيرون تمثال الكاهن وإلى جانبيه زوجته وابنه وابنته فترى في عينيه نظرة الاطمئنان وكأنه ينظر إليك. كما ترى جلد الذكور ملوناً بلون أحمر بينما جلد الإناث أبيض. وحتى الملابس والعقود لم ينس المثال أن يصبغها بألوانها الطبيعية التي مازالت ثابتة حتى الآن. فإذا زرت التمثال فقد زرت أصحابه. وليست هذه المقبرة هي الفريدة في نوعها بل إن الحفريات كشفت عن ثلاث مقابر بها هذه الظاهرة

ومن كشف مقابر الأشراف في تلك المنطقة عرفنا كثيراً من عادات القدماء وحياتهم الاجتماعية من سمر وغناء ورقص، ففي مقبرة (كاجوا) كاهن الملك خفرع نجد (أوركسترا) كاملاً مكوناً من ستة أزواج من الموسيقيين، ويتكون كل زوج من شخص يلعب على آلة موسيقية كالمزمار أو الناي أو القيثار وشخص آخر يصفق له تلك التصفيقة التي مازلنا حتى الآن نصفقها إذا حركت إحساسنا أوتار الموسيقى البلدية ولأول مرة نجد فوجين من الراقصين والراقصات تتوسطهم راقصة عارية، وهي ظاهرة لم تعرف من قبل النقوش الفرعونية. وهكذا لم يترك الفراعنة شيئاً إلا وضعوا هم بذوره ليتبعهم العالم الحديث في جده ولهوه.

ولم يكن كشف هذه الآثار والوصول إلى هذه الحقائق من الأمور الهينة فقد احتاج إلى عزيمة قوية وصبر طويل ومجهود جبار. فقد استمرت الحفريات برياسة سليم بك عدة سنوات نقلوا خلالها مقادير كبيرة من الرمال، ففي كل يوم كانت العمال تنقل ألف متر مكعب أو أكثر من الرمال، فإذا عرفنا أن العمل كان يستمر ثمانية أشهر في كل

سنة قدرنا كم من المجهود احتاج إخراج هذه الآثار إلى عالم المرئيات
وإنه لمن شقاء مصر أن تطغى الأعمال المكتبية على كل شيء وتفسد على العلم كثيراً من الجهود الناجحة حتى يقول سليم بك حسن: (إن أكبر خطأ ارتكبته في حياتي هو أني قبلت منصب وكيل مصلحة الآثار)
(الشتوي)
رسالة العلم
لماذا أحاول تصوير العالم وفق الآراء الحديثة
للدكتور محمد محمود غالي
صحيح أن كل أفعالنا وحركاتنا الخاصة بحياتنا اليومية أو اتجاهاتنا الشخصية متعلقة بأحكام لا يمكن للعلم أن يكون الأساس المباشر للتصرف فيها. فإن العلوم كما يقول ريشنباخ لا تجيب أبداً على السؤال الآتي: (ماذا يجب أن أفعل؟) ومع ذلك فإن هناك اتصالاً بسيكولوجية بين درجة معرفة الرجل للعلوم وموقفه إزاء المشاكل التي تعترضه في الحياة وتقديره لبعض المسائل، وإننا نلاحظ أن كل المذاهب الفلسفية أو علم الأخلاق تبدأ بنظريات في العلوم ذاتها، نظريات تتعلق في العادة بصورة من صور العالم، والمتأمل يجد علاقة بين الاكتشافات العلمية الكبرى وأعمالنا أو نوع تفكيرنا. خذ مثلاً انقلابنا في التفكير الفلسفي من جراء اكتشاف كوبرنيك لدورة الأرض حول الشمس، هذا الاكتشاف الذي يذكر الأستاذ محمد مختار عبد الله في إحدى مقالاته الممتعة بجريدة الأهرام في العام المنصرم أنها اكتشافات بدأت من أيام العرب. ولست بصدد أن أناقش أصل الاكتشاف ونصيب كل عهد فيه ولا التحديد من موجة الرجوع عندنا بكل شيء لعهد العرب، وإنما أذكر أن الفكرة في ذاتها خارجة وغريبة عن أعمالنا اليومية - عن علاقتنا سواء بالأشياء أو الرجال أو مظاهر الحياة.
أن تدور الأرض حول الشمس، أو تدور الشمس حول الأرض، فإن هذا قد يُظن من موضوعات الفلك أو من موضوعات الترف في المعرفة. ولكن لنا أن نتأمل الناحية الفلسفية ونتأمل النتائج المترتبة عليها؛ وأولى هذه النتائج أن الأرض ليست هي جوهر العالم وما هي إلا سيار صغير جداً بين كثير من السيارات تدور كغيرها حول الشمس، وهذه الأخيرة أي الشمس ما هي إحدى إلا إحدى ملايين الشموس المماثلة وليست من أكبرها؛ وهذه الملايين تكون عالماً، وهنالك الملايين من ملايين العوالم المماثلة يتكون منها الكون. هنا وقف المرء مخذولاً في تفوقه أمام الظواهر الطبيعية؛ وهنا يتضح له شيء من العلاقة الدقيقة بين الإنسان وبين الأرض التي تحويه وبين الوجود، فالمعرفة العلمية لها أثرها على مشاعرنا وتصرفاتنا، وهذا هو الذي يحدو بالقارئ إلى تتبع مثل هذه المقالات.
إن التفصيلات العلمية بعيدة عن حياتنا اليومية ولكن لمعرفة النتائج والإلمام بالصعوبات التي اعترضت العلماء - أثرها في حياتنا الشخصية.
لذلك لم يتأخر علماء أعلام مثل فابري أستاذ الطبيعة بالسوربون وعضو المجمع العلمي الفرنسي وريشنباخ وغيرهما أن يكتبوا سلسلة من المقالات في المجلات الأسبوعية أو الشهرية أو في الكتب المبسطة. والأخير من كبار الأساتذة السابقين في ألمانيا الذين تنتفع الآن بمعلوماتهم جامعة (استنبول) وتحويهم تركيا الجديدة التي اقتنعت أن بين الذين شتتهم الظروف السياسية في العالم اليوم مواهب يمكن الاستفادة منها.
صحيح أن الشخص العادي لا يعنيه معرفة الظروف التي حدث بباستير إلى اكتشاف ميكروبات الأمراض المختلفة مثل الكلب والحمى الفحمية بقدر ما يعنيه المصل أو الطريقة المعدة للعلاج؛ وقصة اكتشاف كالمت لعلاج الدفتيريا لا تهم الجمهور بقدر ثقتهم اليوم بأن للدفتيريا مصلاً للوقاية منها، بل إن الشخص العادي لا يهمه دوران الإلكترون حول نفسه وحول مركز الذرة بقدر ما يهمه النتائج والانتصارات الفعلية للكهرباء.
ولو أن العالم صورة صادقة لما نراه في حياتنا اليومية. ولو أن مجموعة المعارف التي نُطبقها تمثل لنا صورة صحيحة لهذا العالم لما كان إلا شيئاً كالأشياء المادية التي تحيط بنا، أشياء تتأثر بالقوانين الطبيعية البسيطة التي درسها معظمنا في المدارس الثانوية أو العالية كانتشار الضوء في خط مستقيم وغير ذلك. فالمواد في هذا العالم البسيط

حديد وخشب وحجارة نستخدمها لعمل الأدوات والآلات، وتجد أن المادة في هذا العالم البسيط تكون صلبة أو سائلة أو غازية كما أننا نجد فيه الحرارة والبرودة والصوت، بل تجد أيضاً الكهرباء التي لا نراها ولكنها تدخل في كثير من حاجاتنا. هذه الظاهرة ينسى الكثيرون أن يحاولوا تصورها، وكل ما نعلمه أنها تتولد من آلات خاصة وأنه من الممكن نقلها بالأسلاك. وفي هذا العالم البسيط يجري ترام وأمنيبوس، ويقهر الأرض فيه قاطرة وتحلق طائرة وتتعالى أصوات الآلات في المصانع، وتتدافع الأشخاص بالمناكب في مدن مكتظة، وتزدهر الحقول بفعل الفلاح وفعل الجو والماء، وتجري الأنهار وتقام عليها الجسور، وغير هذا على هذه الأرض السيارة والتي نشعر بما فيها وعليها بحواسنا الخمس: السمع والبصر واللمس والذوق والشم ويهيمن عليها وعي وتدبير يطلقون عليهما العقل، وفي هذا

العالم البسيط تعلونا سماء زرقاء في مصر ملبدة بالغيوم في غيرها، حيث تجري الكواكب في مجراها، وكل هذا العالم غارق في بحرين كبيرين: الزمن والحيز، هذان البحران أصبحا موضع عناية الباحثين والعلماء المدققين. الزمن والحيز، عاملان نعتقد أننا جميعاً نعرفهما أو هما في غير حاجة لدراسة معينة فقد ألم بأمرهما كل من أتيحت له الفرصة أن يجلس على مقعد بالمدرسة.

هذه الصورة البسيطة للعالم والتي عللها العلماء لنا بقوانين بسيطة سواء في الميكانيكا أو الطبيعة أو الكيمياء لم تعد بسيطة كما عهدناها.

ففي جو التفكير العلمي انقلاب شديد لم يشعر به الرجل البعيد عن الجامعات ومعامل البحث. وشعر به العلماء والجامعيون المشتغلون، والواقع أننا لو انحرفنا قليلاً عن الأوضاع البسيطة التي ذكرناها والأوصاف التي قدمناها وأردنا أن نعرف للعالم صورة أدق من الأولى صورة تنطبق على الآراء العلمية الحديثة، فلا مادة حسب التفكير الأول البسيط، بل إن المادة جسيمات صغيرة جداً في حركة دائمة، وهذه الكوبة المملوءة بعصير البرتقال مثلاً أو الماء الصافي تمثل مجموعة من ملايين الأجسام المتحركة، فهي شبه مجموعة من النحل حول خليتها في حركة دائمة، فكما أنه ليس هناك سطح معين لمجموعات النحل حول الخلية، فإنه لا سطح معيناً للماء في الكوبة بل مجموعات من الجسيمات هنا وهناك تعد بالملايين.

وفي هذا العالم الذي نعيش فيه والمملوء من هذه الجسيمات المتحركة لا ضوء هناك ولا لون ولا صوت، فكل هذه مظاهر لا تختلف إلا بعدد في الذبذبات والتردد؛ فالذي نسميه مادة أو ضوء ما هو إلا كهرباء، بل لا فارق بين الطاقة والمادة، ويمكن القول اليوم أن الاثنين شيء واحد، بل المادة نفسها كهرباء والكهرباء مادة

على أن قوانين هذا العالم المضطرب تختلف حسب صورته الجديدة اختلافاً كبيراً عن الأشياء التي تعودناها في حياتنا اليومية والتي لم تظهر القوانين التي نعدهما صحيحة لنا إلا لأنها متوسطات للقوانين الحقيقية للعالم على صورته الجديدة.

هذا الاختلاف في صورة العالم ومظاهره قد تعدى كل شيء حتى إن القوانين العادية الخاصة بالزمن والمسافة التي تحكم هذا العالم تختلف اختلافاً مبيناً عن التي تعلمناها في

المدارس، فالحيز الذي اعتدنا أن نتصور فيه طوبة أمحوتب، هذه الطوبة التي نستعملها اليوم لبناء منازلنا، هذه الطوبة ذات الطول والعرض والارتفاع، هو حيز معوج؛ والمثلث الذي اعتدنا أن نعتبر مجموع زواياه تساوي قائمتين، هو في الواقع ليس كذلك؛ والخط الذي اعتدناه مستقيماً يلتف في النهاية حول نفسه، بل إن الزمن ذاته يحمل في طياته أغرب القضايا بعدم التعيين أو المعرفة، ويتبين لنا ذلك إذا حاولنا أن نحدد زمنيّاً حادثين بعيدين الواحد عن الآخر.

فتبيان هذه الموضوعات وسرد قصة العالم بالتقرب ما أمكن من حقيقته تكون اليوم مجموعة من المعلومات الثقافية ذات الأثر في تكوين الفرد وتفكيره وحكمه على الأشياء.

هذه المجموعة الجديدة تختلف كل الاختلاف عن الصورة التي عهدها القارئ لهذا العالم التي ترتسم في ذهننا بما نراه وما اعتدناه وتعلمناه. على أن المهم في ذلك أن هذه التطورات العلمية الأخيرة التي تلزمنا كما سنرى أن نعامل الأشياء بقوانين مختلفة، كان لها تأثير في عالم الاكتشاف والاختراع مما سيكون له أثر على الجيل

القادم.
ليس من السهل أن نطالب كل امرئ بتصديق كل هذه التطورات العلمية الجديدة دفعة واحدة وبدون سابق شرح، لهذا عمدت إلى هذه المقدمة التي نوهت فيها على قدر الإمكان ببعض الموضوعات التي سأتناولها
وكأني أشعر بالقارئ يسائل نفسه كيف وصل العلم لمثل هذه القضايا والتفسيرات الجديدة التي تجعله يتشكك في أبسط الأشياء، في الخط المستقيم الذي اعتاد اعتباره كذلك، في فضاء أقليدس ومحاوره الثلاثة، الذي كان نتيجة طبيعية لتصوره. كيف وصل العلم لهذه التفسيرات الجديدة التي ظاهرها غريب شاذ ولا تدل عليه أعمالنا اليومية؟ ألا تكون ضرباً من التخمين والاجتهاد العلمي الذي يراد به تفسير بعض الظواهر ولن يلبث العلماء حتى يعودوا إلى النظريات القديمة؟ ألا تكون الحال كالصور الحديثة عندما زهد الفنانون في إخراج صورة خالدة مثل (الجيوكوندا) من عمل (ليورناد دي فنسي) فمثلوا لنا وجه المرأة بدائرة داخلها نقطتان، والشجرة بخط أو خطين
ولكني أجيب القارئ أن الأمر ليس كذلك، فليس الذي يدفع بالعلماء لهذه النظريات الجديدة هو حبهم للتخمين، رغبة في جديد وهجر لقديم؛ وبينما يعرف الفنان أن الإقبال على فنه
موقوف إلى حد ما على التغيير وترك القديم للحديث، فليس هذا شأن العالم، غذ أنه مثل الرجل العادي على حد سواء يسعى دائماً لتبسيط المسائل وليس له مصلحة في التعقيد. والواقع أنه إذا كان قد وصل الآن إلى مثل هذه الصورة المقعدة للعالم فان ذلك لأنه أراد أن يعرف للعالم حقيقته ويتوغل نحو المعرفة لأقصى الحدود.
على أنه في هذا المجهود الذي يقترب فيه رويداً رويداً من حقيقة الكون وسر الوجود والذي يرسم لنا فيه صورة للعالم أكثر انسجاماً من صورته الأولى، يعمل لتقدمنا إلى الأمام كجنس سوف يختلف فيه الإنسان القادم عن الحالي، كما اختلف الإنسان الحالي عن القردة.
ألم نكشف النار وظلت تجهلها القردة؟ ألن نصنع لأنفسنا طوبة أمحوتب وظلت في الكهوف؟ ألم نكشف أخيراً الكهرباء وإشعاع المادة وتهدم الذرة؟ ألم نعرف القاطرة والطائرة، والتلفون والتلغراف، والمصباح وأنبوبة النيون، والراديو والتلفزيون؟
لقد كلفتني هذه المقدمة والتفكير في المقالات التي تليها قراءة عشرات الكتب وحضور الكثير من المحاضرات فطالعت دي بروي وبران وفابري ومليكان وسودي وإدنجتون وجن ومارسل بول وريشنباخ وغيرهم ممن حاولوا بجانب أعمالهم العلمية أن يقوموا بدور تبسيط العلوم. وقد اعتزمت أن تكون مقالاتي أكثر في التبسيط من هؤلاء، ولكني أرجو ألا أذهب في التبسيط إلى الحد الذي تُقتل فيه الموضوعات وتتهدم فيه فائدة القراء. ولا أدري ماذا كان وقع هذه الكلمات على القراء، فهم أدرى بها مني، وهم الذين يقدرون إن كان هذا التبسيط كافياً. ولا تظن بعد ذلك أنني سأتحدث في المقال القادم في أول درس في الزمن حسب ما يراه إينشتاين، أو الحيز حسب ما يفهمه ريمان، أو أحدثك عن كون يتمدد وفق آراء (دي ستير) وملاحظات هبل أو أدخل بك في الذرة وتهدمها اليوم تحت معاول العلماء مما سيكون موضوع أحاديثي القادمة، ولكني أرجو أن تسمح لي أن أتمم هذه المقدمة التي آمل أن يكون منها فائدة، فأتحدث أولاً عن الطريقة التي يشتغل بها العلماء. ما هي منابعهم؟ ما هي طرائق العلم الحديث؟ فأفرق بين العلم النظري والعلم التجريبي.
وفي هذا سأنتزع كل ما أمامي من الكتب والمؤلفات فأدعها جانباً لأني وقد قضيت زهرة العمر في المعامل، وفي معامل البحث يصح أن أتحدث عن الوسائل الحديثة التجريبية، وأفرق بين عالم التخمين وعالم الحقيقة، وأدل القارئ - كيف يسيطر العلماء اليوم على
حالة التقدم.
فإذا انتهيت من هذا في المرة القادمة يصح أن نجول معاً بعد ذلك في الكلام عن الحيز ثم الكلام عن الزمن فنكون قد اشتركنا معاً في أول درس حقيقي من دروس الفلسفة الطبيعية.
محمد محمود غالي
دكتوراه الدولة في العلوم الطبيعية من السوربون

هجرة الأسماك

بقلم رضوان محمد رضوان

الهجرة ظاهرة غريبة تشاهد في المملكة الحيوانية على وجه العموم، وهي ترى بوضوح في الأسماك، وكذلك في الطيور.

وتهاجر الأسماك لغرض التناسل، فمنها ما يهاجر من النهر إلى المحيط للبحث عن مكان تبيض فيه، والمثل المعروف لهذا النوع من المهاجرة هو ثعبان السمك.

فمن المشاهدات العديدة، وجد أن ثعابين السمك لا تتكاثر أصلاً في الأنهار التي تعيش فيها كبقية الأسماك النهرية، إلا أنه بالرغم من ذلك توجد منها كميات كبيرة لا تقل في سنة عن أخرى، وكذلك توجد منها أفراد كبيرة وأخرى صغيرة؛ وشوهد في نفس الوقت أن الثعابين الصغيرة تصعد من المحيط إلى النهر. أما الكبيرة فترحل من النهر إلى المحيط.

وعلى ذلك اتجه الرأي إلى أن الثعابين ترحل من النهر إلى المحيط للتناسل، وفعلاً أثبتت المشاهدات أنه لا يتم نمو الثعابين - ويكون ذلك في سن الخامسة أو السادسة - حتى تتحين وقت الخريف، وتترك النهر في جماعات هائلة متجهة إلى مصبه، فإذا أمسى الليل، وكان البحر هائجاً، تنزل إليه وتعوم بنشاط عجيب، وتبتدئ بذلك رحلتها القريبة، فتمر من بوغاز جبل طارق إلى المحيط الأطلنطي، وتعبره إلى جزائر برمود شمالي بحر السرجاس والتي تبعد عن شواطئ الولايات المتحدة الأمريكية بنحو ألف كيلومتر.

وقد اصطيدت حيوانات مختلفة في مناطق متعددة أثناء هذه الرحلة الطويلة، فوجد أن الغدد التناسلية تكون أقرب إلى البلوغ والنضج كلما قربت الحيوانات من بحر السرجاس مما يدل على نموها طول فترة السياحة.

تقطع إذاً الثعابين آلاف الكيلومترات لكي تصل إلى جزائر البرمود بسرعة 20 - 30 كيلومتراً في اليوم، فإذا ما انتهت إلى مكانها المقصود، تبيض الأنثى كمية كبيرة من البيض تبلغ المليون، وقد تزيد على ذلك، ثم تفرغ الذكور الحيوانات المنوية في الماء، وبهذه الطريقة يتم إخصاب البيض.

وحين يفقس البيض وتخرج منه اليرقات، تبدأ سياحتها راجعة في نفس الطريق الذي سلكه أبواها من قبل، وتتغذى في طريقها بالحيوانات المائية الدقيقة

أما مصير الأبوين بعد وضع البيض وتلقيحه فأمر مجهول تماماً إلا أن بعض العلماء يرجح موتها كما هي العادة عند بعض الحيوانات.

وعندما تعبر اليرقات المحيط إلى النهر تصل إليه في أوائل الشتاء ويعيش جزء منها بقرب مصبه، وهذه تكون في غالب الأحايين ذكور المستقبل والتي تعيش في أعالي النهر تكون الإناث. وتستغرق الثعابين في رحلتها هذه حوالي العامين.

وهناك نوع من الأسماك يهاجر من البحر إلى النهر مثل السمك الأوربي المعروف باسم (حوت سليمان) فهو يهاجر في جماعات كثيرة العدد فينزل البحر الذي يعيش فيه في أواخر الخريف وأوائل الشتاء ويتجه نحو النهر مفترساً ما يصادفه من الأسماك الأخرى، وله مقدرة غريبة على السباحة في النهر ضد التيار، كما أن لديه القدرة على القفز متخطياً بذلك أي انحدار يصادفه في مجرى الماء، وقد وصلت إحدى قفزاته إلى ارتفاع ثلاثة أمتار فوق الماء

وفي الأنهار التي بها سدود تعترض طريقه، والتي يتعذر عليه أن يقفز من أسفلها إلى أعلاها، فكر كثير من العلماء في إنشاء بناء مائل على هيئة السلم بجانب السد ينحدر عليه الماء من أعلى السد إلى أسفله، وبذلك يتاح لحوت سليمان أن يتابع سيره بدون أدنى صعوبة

فإذا ما وصل إلى مصب النهر يصوم عن غذائه وحينئذ تبتدئ الغدد التناسلية في التضخم والنضج

ولقد شوهد أن الحيوان يختار في رحلته هذه الأنهر السريعة الجريان المتدفقة المياه، ولذلك فهو يفضل دائماً أن يرحل إلى الأنهر الأوربية في أوائل الشتاء حيث تهطل الأمطار بشدة وتزداد سرعة المياه في الأنهار لدرجة كبيرة

وتبين أن الحكمة من هذا الاختيار هو أن ماء الأنهر السريعة الجريان يحتوي على كمية كبيرة من غاز الأكسجين المذاب، فإذا ما احتوى اللتر من ماء المحيط على 6 س و3

م من الأكسجين المذاب نجد أنه دائماً يتجه إلى الأنهار التي يحتوي اللتر من مائها على 8 س و3 م أو أكثر من غاز الأكسجين، كما أنه في أثناء صعوده إلى النهر يتخير دائماً الأفرع الغنية بالأكسجين إذ أنه شديد الحساسية لهذا الغاز
فإذا ما وصل إلى منبع النهر تكون الغدد التناسلية قد تم نضجها فتبيض الأنثى عدداً عظيماً من البيض ثم يلقح الذكر البيض وبذا يتم إخصابه.
وبعد ثلاثة أشهر يفقس البيض يرقات تتطور وتنمو كل واحدة منها إلى سمكة صغيرة تعيش في مكان أبويها مدة تقرب من السنتين ثم تهاجر من مكانها من النهر إلى المحيط حيث كان مقر أبويها من قبل وهي تسلك في ذلك نفس الطريق الذي سلكه الأبوان في رحلتهما الأولى
تلك كلمة موجزة عن رحلة بعض أنواع السمك، يتساءل الإنسان بعدها ما الحكمة أو ما الدافع الذي يحدو هذه الحيوانات أن تترك موطنها وتهاجر في رحلة شاقة معرضة لأشد الأخطار وكان الأحرى بها أن تبقى حيث نشأت فتتناسل وتتكاثر في أمان.
لم يعثر العلم بعد على تفسيرات شافية لهذه التنقلات العجيبة، وكل فرض قيل في هذا الباب هو من قبيل التخمين ليس إلا؛ فلا زال الإنسان يعترف بجهله أمام هذه الظاهرة الغريبة، إلا أن العلم قد أثبت بصفة لا تحتمل الشك أن هذه الهجرة صفة وراثية يكتسبها الأبناء عن الآباء، يدل على ذلك أنه عند قيام الثعابين السمك الأمريكية التامة النمو بسياحتها من الأنهار إلى المحيط فإن يرقاتها لا ترجع إلا إلى الأنهار الأمريكية التي تربى فيها أبواها فلا يوجد ثعبان السمك الأمريكي في أنهار أوربا ولا في أنهار أفريقيا؛ وكذلك الحال مع الثعبان الأوربي والأفريقي، كل يسلك سبيلاً مرسوماً لا يحيد عنه قيد أنملة، هو السبيل الذي سلكه أبواه من قبل.
رضوان محمد رضوان
بكالوريوس في العلوم الزراعية
رسالة الفن
تأريخ الفن
للدكتور أحمد موسى
2
وعندما ظهر مؤلف فردرش كرِسْت وزميله جيزنر عن الفن القديم، كان مكان اجتماعهما أشبه شيء بأكاديمية للفن التقى فيها الكثيرون من أهل العلم والفضل من أولئك الذين كانوا يقرؤون كتب الفرنسيين منذ ساندِرت لعدم وجود غيرها من المؤلفات القيمة (والحديثة نسبياً) بغير اللغة الفرنسية.
وعلى رأس هؤلاء الأفاضل يوهان يواخيم فنكلمان الذي إليه يرجع الفضل الأكبر في توجيه العقل الألماني إلى وجوب معرفة الحضارات القديمة ودراستها، إذ بها وحدها يمكن إيجاد أسس النهوض ووسائل التوجيه المنتج وتحسين الموجود وإمكان الابتكار، كما كان له فضل عظيم في إيجاد الدراسات الجامعية المنظمة لعلم الآثار وتاريخ الفن.
وإلى جانب هذا الرجل يجب التنويه برجلين هما هيني وليبرت كما نذكر فون هاجدورن وهاينكن وفون شتوخ، الذين عملوا جميعاً على ازدهار هذا العلم بدافع من أنفسهم في كل إخلاص وصدق.
ومن أهم ما نذكره في مضمار تاريخ الفن القديم على وجه الخصوص تلك الحفريات الموفقة التي أجريت في بومبي بالقرب من نابولي في أواخر القرن الثامن عشر وفي هركولانوم وكذلك الأعمال الأثرية المساحية التي قامت بها البعثة الإنجليزية في أثينا برياسة ستيوارت وريويت والتي ترتب على النتائج الباهرة التي وصلت إليها وما أوجدته من روائع الفن خلال الحفر أن تحول الميل من البحث في روما إلى البحث في بلاد الإغريق عن كل ما تحويه أرضها من كنوز يزداد الإعجاب بها والولوع بدرسها كلما ازداد العثور على شيء من محيطها الهائل. فأصبح ميل العلماء شديداً، كل في مادة تخصصه، إلى الهيلينزم أو الثروة الإغريقية في منطقة هيللاز.
عندئذ ولكثرة ما عثر عليه بدأ الأفراد العارفون يجمعون التحف، وبدأت الحكومات تشجع

على أعمال الحفر وتشرف عليها وتأخذ نصيبها مما وجد، وكان ذلك النواة الأولى لإيجاد المتاحف العامة.

ونحن وإن كنا نعلم تمام العلم أن باريس كانت القلب النابض للآثار وتجارة العاديات بالنظر إلى ما جلبه نابليون؛ إلا أن ظهور نتائج الحفريات في روما وفي بلاد الإغريق ووصول أهم ما وجد في أثينا على مرتفع أكر وبوليس من أعظم ما رأت العين من نحت الرخام وأعمال التصوير والحفر التي جمعها البارون إلجين والمجموعة الرائعة التي تمثل الفن الأجيني إلى مونيخ، ومجموعة منحوتات أفاريز معبد برجامون التي تمثل الفن البرجاموني أحسن تمثيل إلى برلين كل هذا قاسم عظمة باريس وجعل من هذه المدن مدارس للفن ولدراسته العليا.

وبتأسيس المعهد الأركيولوجي في روما (1829)، وما قام على تأسيسه من إنتاج هائل ونشاط بديع، وبإيجاد معاهد أركيولوجية لبلدان أخرى - إلى جانب الأكاديمية الفرنسية منذ سنة 1666 - فإن هذا مما ساعد كثيراً على إيجاد المواد العلمية لتاريخ الفن الذي لا يقتصر على ما هو قديم؛ بل يتناول كل إنتاج ففي أياً كان عصره، إلا أن الطريقة التي يسلكها في التسجيل والنقد والتقدير والتأريخ للقديم لا يمكن أن تكون مشابهة لتلك التي يستخدمها للفن المعاصر الذي شوهه ذوو الأغراض والعجزة المدعون ممن يعتمدون على تشجيع غير الدارسين، وعلى دعاية الصحافة التي تدعي حرية الفكر والعمل، لأسباب جوهرية سنذكرها في مقال خاص بفلسفة الفن الحديث

ولقد ظهر بعض الصور المحفور أصلها على لوحات من النحاس - مثّلت روائع العمارة، وأول هذه على ما نذكر، ما أخرجه جون فيليبيا في كتابه 1687. وكذلك أندريه فيليبيا في كتابه: 4 1705. اللذان سلكا فيهما مسلكاً نقديّاً علميّاً للإنتاج الفني الحديث، وكان للكتاب الأول صدى مهد السبيل لترجمته إلى اللغة الألمانية (طبع بهامبورج سنة 1711).

أما تأريخ الفن المتوسط، ولا سيما فن البناء، فقد ظهر الاهتمام به في إنجلترا أولاً وكان هذا في أواخر القرن الثامن عشر.

وفي ألمانيا اشتغل فريق من العلماء بتأريخ فن التصوير الألماني القديم (نسبيّاً) على رأسهم

فواسيريه وفون كوانت وفرانس كوجلر وهيدلوف؛ وكان لإنتاجهم ونقدهم صوت مسموع، جعل من الفنانين تلامذة يقدرون الفن القديم (نسبيّاً) ويقتبسون منه ويسيرون على ضوئه ويعملون على إحياء ما بلى منه؛ فظهر أثر الفن المتوسط لا سيما الفن الرومانتيكي.

وظهر في فرنسا مثل هذا الاتجاه على أيد فاضلة نسجل بعضها كفواليه لي دوك ولابورد وشابوي ودوسوميرار ودالي وبالوستر، وظهر في أسبانيا كافيدا، وفي إنجلترا ستريت، وبوجين وجوتر وفرجسون. وكانت النتيجة لهذا المجهود الشامل أن تأرّيخ الفن الوسيط تأريخاً جامعاً كاملاً. وهنا استطاع المؤرخ الفني المستقل أن يربط بين هذه التآريخ بعد التمهيد وتم الأمر في النهاية بوضع تاريخ الفن المتوسط على الأسس الحديثة.

ولتأريخ الفن الإيطالي في عصر النهضة قصة، فجو إيطاليا حبب الرحيل إليها، وجمال الفن الإيطالي لفت النظر إليه، هذا إلى جانب قيمة استقلال البلاد مما يبعد عنها الدهماء من الأجانب فلا يلتقي فيها سوى أهل العلم والفضل من مختلف الأمم؛ فاهتم فريق منهم بتأريخ فن عصر النهضة الإيطالي، ولا نزال نذكر جوتييه وبرسييه وفونتان وليتاروبلي. وكتاب (أبحاث إيطالية) لمؤلفه رومور (طبع برلين في ثلاثة أجزاء 1827 - 31) من خير ما أُلّف لهذا العصر، ففيه تناول المؤلف طريقة النقد الفلسفي للفن.

وعلى منواله نسج كل من بورشاردت الألماني ولانسي وكفالكاسيل وموريللي الإيطاليين وكروا الإنجليزي، وهؤلاء جميعاً ولا شك أئمة مؤرخي الفن المحدثين.

وفي نفس المرحلة الزمنية كان قد بدأ فريق من علماء هولندا بالاشتغال بتأريخ الفن أمثال شابس وإيمرتسيل وغيرهما؛ على حين اشتغل باسافان وفاجين بمشاهدة التراث الفني وتأريخه على أساس النقد المقارن، واجتهدا في إيجاد صلات وروابط فنية بين إنتاج الأمم المختلفة وطناً المتشابهة إنتاجاً، نتيجة لتشابه الموقع الجغرافي العام وتشابه الوسط الأوربي والعقلية والثقافة التي كانت تحيط بها العقيدة الدينية إحاطة

كاملة
إلى هذه اللحظة لم تكن المؤلفات الحديثة عن تأريخ الفن العام قد ظهرت بعد، ولم يكن بد من العمل على إيجادها، فتكاتف لحسن الحظ فريق من علماء الألمان - كسابق تكاتفهم في مضمار تأريخ الفلسفة - على إخراج مؤلف شامل؛ فظهر في الأفق كتاب (شنازة) وبعده بقليل كتاب (لوبكه) وبعده الكتاب القيم (لأنطون شبرنجر) وقسمت الكتب إلى عصور
والعصور إلى مراحل والمراحل إلى شعوب فكان منها تاريخ الفن القديم بما فيه تاريخ فن ما قبل التاريخ، وتاريخ الفن المتوسط وتاريخ الفن الحديث، هذا فضلاً عن تقسيم الإنتاج الفني نفسه إلى عمارة ونحت وتصوير وفنون رفيعة وموسيقى وغيرها
وكان للتصوير الفوتوغرافي قيمة في المساعدة على إخراج الكتب مزوّدة بصور الإيضاح التي يعتمد عليها تاريخ الفن كل الاعتماد والتي بدونها يفقد المؤرخ الفني أهم مادة من مواد درسه، حتى لترى بعض الجامعات تشترط على طالب تاريخ الفن والآثار الدراية التامة بالتصوير الفوتوغرافي الذي بدونه لا يتم له العمل.
وظهرت معاجم ودوائر معارف للدراسات الفنية والآثار ننعم بها، فضلاً عن المجلات الخاصة وعن تقارير أعمال الحفر والاستكشاف الخ.
وكان للتقدم الباهر في علم الجيولوجيا قيمته وأثره في تاريخ الفن وعلم الآثار كما كان لتقدم دراسة الأنثروبولوجيا أكبر الأثر في تحديد الإنتاج الفني لكل شعب.
من كل هذا نرى أن تأريخ الفن والكتابة فيه وتناوله بالنقد ليس بالأمر اليسير وليس مما يباح في البلاد المحترمة لغير المتخصصين.
أحمد موسى
رسالة المرأة
المرأة اليونانية
للآنسة زينب الحكيم
المرأة اليونانية الحديثة المتعلمة
زرت إحدى دور الآثار يوم الجمعة 5 من أغسطس سنة 1938. والدخول إليها بأجور مرتفعة للأجانب وزهيدة جداً للأهالي
بناء الدار فخم، أمامه حديقة كبيرة منسقة. رتبت محتوياتها وجلها من التماثيل الكبيرة والصغيرة، والآنية الخزفية، والغازات المنوعة الأشكال والمادة، وكذلك الحلي، رتب كل هذا بنظام علمي تاريخي وفني ملحوظ، مما يجعل الزائر يشعر بعد تركه الدار أنه استفاد شيئاً قيماً. فإن بساطة مظاهر الحجرات إنما يرفع القيمة العلمية التي امتازت بها درجات.
لا يوجد بالدار عمال كثيرون، ولا موظفون؛ والذين يتولون الشرح للزوار علماء وعالمات بالعاديات.
وكان يلتف حول كل شارح وشارحة جماعة يفهمون اللغة التي يشرح بها، فرأيت جماعة من الألمان، وجماعة من الإنجليز انضممت إليهم، وجماعة أخرى يشرح لها بالفرنسية، وجماعة رابعة تشرح لهم سيدة يونانية باللغة اليونانية.
كان صوت هذه السيدة مرتفعاً إلى حد مزعج، شوش على جميع المتفرجين، كما ظهرت عليها سمات الغرور، وعدم المبالاة مع أنها فتاة في ريعان الشباب أنيقة الهندام جميلة الوجه، عالمة بدليل أنها تتولى الشرح لعاديات بلادها. إذن كان من أول واجباتها أن تكون أيضاً مثقفة مهذبة بمعنى أن تتذكر تطبيق ما تعلمته من آداب الحديث والاجتماع عملياً وهي في طور اليقظة وإلاّ فمن شب على شيء شاب عليه.
على أن هذه الناحية من النقص قد لحظتها بين كثيرات من السيدات اليونانيات المتعلمات.
المرأة اليونانية في بيتها
زرت بعض الأسرات اليونانية الكريمة في بيوتها، وكان من بين هذه الأسر، أسرة كاتب شهير، وكذلك زوجه كاتبة ذائعة الصيت.
زرتها أول مرة، فلم تكن السيدة موجودة لارتباطها بموعد سابق، فقابلني زوجها في حجرة مكتبه - وقد تبينت أنه رجل مهذب، يمتاز بسجايا الرجل الجنتلمان. أطنب كثيراً في مدح زوجته؛ مما دل على حسن تقديره لها واعتماده عليها، إذ قال: إنها ذراعه

اليمنى في إخراج المراجع التي يحتاجها من المكتبة
قدم لي تحية الزيارة. . . قهوة، ولكن وضع معها على الصينية صحناً به مربى، وحوله ثلاثة أكواب بها ماء مثلج، ووضعت على كل كوب ملعقة صغيرة. استفسرت منه عن كيفية السلوك الذي يجب أن أسلكه؟!
قال: هذه عادة يونانية. يؤكل جزء من المربى ويشرب بعض الماء البارد ثم تشرب القهوة. بعد قليل ودعت الرجل وانصرفت على أن أحظى برؤية زوجه في الزيارة الثانية.
وفي اليوم الذي سبق تحديده ذهبت لزيارة هذه الأسرة ثانية، وجلسنا هذه المرة في حجرة مكتب السيدة الزوجة، وبعد التعارف وحضور حمى الزوج أيضاً، قالت الزوجة: تريدين معرفة شيء عن الحركة الاجتماعية في اليونان؟ قلت: نعم، وأريد أن أعرف كذلك شيئاً عن الحركة التعليمية بالنسبة للمرأة اليونانية، ويهمني كثيراً أن أصل إلى معلومات صحيحة. فقاطعتها أمها قائلة: إن نسبة المتعلمات من السيدات 60 %، والرجال بين 70، 80 %.
وعادت الزوجة وأخبرتني بنتف غير واضحة عن جملة أشياء مما أردت، وقاطعتها أمها مرات، وقاطعتها هي بدورها مرات، ونسيتا نفسيهما فارتفع صوتهما، وكثرت حركات أيديهما.
وسألت عن اسم سيدة أخرى من شهيرات نساء اليونان، فذكر الزوج اسم سيدة، فقلت تفضل بكتابته لي بغير الأحرف اليونانية حتى تسهل عليّ قراءته ونطقه صحيحاً.
قام الرجل وبحث عن قصاصة من الورق على مكتب زوجته، وما كاد يرفعها ويأتي بها إلى مقعده حتى انقضت عليه الزوجة معنفة بحالة شرسة، وأعصاب ثائرة، وغضب شديد، لجرأته على التعدي على منضدة كتابتها، وأخذ تلك القصاصة المشئومة. قابلها الرجل بابتسام ورحابة صدر، وسلك سلوك الرجل السميدع الذي صمم على ستر الموقف مهما كلفه ذلك. لكن الحقيقة التي لا يمكن الهروب من ذكرها، هو أن سلوك الزوجة ذاك، إن دل
على شيء فلا يدل على أكثر من التربية الناقصة، والغرور الفاضح بمعلومات واهية لا تثمن ولا تغني إذا كان هذا هو تأثيرها في نفس تلك السيدة الجميلة الوجه الأنيقة الهندام الشرسة الطباع المغالية في تشويه جمالها الطبيعي بإسرافها في استعمال الأصباغ.
على أني أهيب بالقارئة الكريمة ألا تستخلص من هذا أن جميع سيدات اليونان المتعلمات كهذه الأمثلة التي اتفق أن رأيتها. إن من بينهن مثقفات أنيقات بحق عالمات بصدق. ولعل ذلك يتجلى في الشقيقات الثلاث الموجودة صورتهن بين هذه الصفحات.
وإن أنس لا أنس أبداً مناظر السيدات اليونانيات اللاتي اشتركن في الاحتفال بعيد الإنقاذ القومي في 4 من أغسطس 1938
لقد أتت من أجله السيدات اليونانيات من جميع أطراف بلادهن من الجزائر ومن القرى، كل فريق له طابع خاص وشخصية مميزة، ويتفق الجميع في الحسن والرقة، وحسن ذوق الأزياء التي ارتداها ممثلو وممثلات نحو مائة مكان باليونان.
وكلها يقصر دونها الوصف ويعجز عن شمولها الخيال، منها ما مثل اليونان القديمة، ومنها ما يزال يستعمل إلى الآن من تلك الأجيال السحيقة. فدعاني هذا إلى التفتيش في التاريخ اليوناني القديم، ليتسنى للقارئات استخلاص موازنة لأنفسهن بين المرأة اليونانية الحديثة والمرأة اليونانية القديمة. وموعدنا الأسبوع القادم إن شاء الله.
زينب الحكيم
رسالة الشعر
من جراح الذكرى
فاتنتي مع النهر. . .؟
للأستاذ محمود حسن إسماعيل
مَرَّتْ عَلَى النَّهْرِ . فَقَالَتْ لَهُ ... وَمَوْجُهُ في خَشْعَةِ السَّاجِدِ:
يا نَهْرُ قاسِمْنِي الأَسَى مَرَّةً ... وهاتِ أَخْبَارَكَ عَنْ عَابِدِي!
نَبِيُّ أَحْلامي، وشَادِي الهَوَى ... بِمُعْجِزَاتِ النَّغَمِ الْخَالِدِ

طالَ عَلَيَّ الشَّجْوُ مِنْ بُعْدِهِ ... والصَّمْتُ مِنْ قيثارِهِ الزَّاهِدِ
أَضاقَتِ الدُنْيَا بِتَغْرِيدِهِ ... فَطَارَ عَنْ مَوْطِنِهِ الجَاحِدِ؟
أَمْ رَاحَ يُلْقِيهِ، فَيَمْضِي كما ... مَرَّ الصَّدَى بِالكَفَنِ الهَامِدِ؟
. .يَا نَهْرُ أَسْمِعْنِي حَدِيثَ الهَوَى ... وَهَاتِ عَنْ بُلْبُلِيَ الشَّارِدِ
فَغَمْغَمَ النَّهْرُ. . وَقَامَتْ لها ... أَمْوَاجُهُ تُلْقِي صَلاَةَ الحَنِينْ
وَالشَّمْسُ فَوْقَ الشَّطِّ غَرْبِيَّةٌ ... صَفْرَاءُ كَالشَّكِّ بِوَادِي الْيَقِينْ
!وَقَالَ: يا عَذْرَاءُ عِنْدِي لَهُ ... أَسْمَارُ دَمْعٍ، وَمَغَانِي أَنِينْ
كَمْ مَرَّ بي، تَحْمِلُ أَقْدَامَهُ ... شُجونُ أَزْمَانٍ، وَبَلْوَى سِنِينْ
أَنْغَامُهُ مُرْتَعِشَاتُ الصَّدَى ... وَالنَّايُ مَفْجُوعُ التَّغَنِّي حَزِينْ
لَمْ تَتْرُكِ الدُّنْيَا لَهُ فَرْحَةً ... يَنْقِلُهَا مَوْجِيَ لِلعَاشقينْ
كَأَنَّمَا دَوَّبَ أَيَّامَهُ ... وَعَبَّ مِنْهَا سَكَرَاتِ الجُنُونْ
!سَأَلْتُهُ: يا ابْنَ الأسَى رَحْمَةً ... فَالنَّوْحُ لا يُطْرِبُ سَمْعَ الصَّبَاحْ
فَجْرُكَ رَفْرَافُ السَّنَا، والمُنَى ... فَوْقَكَ طَيْرٌ عَبْقَرِيُّ الجَنَاحْ
!مَالَكَ لا تَلْهَمُ غَيْرَ الأَسَى ... وَلاَ تُغَنِّي غَيْرَ نَارِ الجِرَاحْ
فَقَالَ: يَوْماً سَتُلاَقِي هُنَا ... بَيْضَاءَ مِنْ حُورِ السَّماءِ المِلاَحْ
تَبْحَثُ عَنِّي. . فَأَجِبْهَا: مَضَى ... صَبُّكِ فِي الدُّنْيَا شَرِيدَ النَّوَاحْ
أَنْتِ الَّتِي أَسْلَمْتِهِ زَوْرَقًا ... فِي لُجَّةِ الدُّنْيَا لِهَوُجِ الرِّياحْ
!فَمَرَّ كَالنِّسْيَانِ بي. . وَانْطَوَى ... صَبَاحُهُ عَنِّي شَقِيّاً. . وَرَاحْ
!فَاتِنَتِي! سِرُّ الْهَوَى سَابِحٌ ... فِي نُورِ عَيْنَيْكِ. . فَلاَ تَسْأَلِي
. . .فِي زَهْرَةِ المَرْجِ شَذىً نَائِمٌ ... أَخْشَى عَلَيْهِ يقْظَةَ المِنْجَلِ
محمود حسن إسماعيل

في شتاء النفس

للأستاذ عبد الحميد السنوسي

لم يعُدْ من بعد ما ضيعتني ... مؤنسٌ لي غير شعري ودموعي
كلما هاج الجوي واشتعلتْ ... لوعةٌ هوجاءُ بين الضلوع
صحتُ: يا قلبي المعنَّى غنني ... واشفِ ما بي من جوى مُرٍّ وجيع
في شتاء النفس غني مثلما ... كنتَ يا قلبي تغني في الربيع
غنني: واغسلْ جراحي بالدموع ... واسكبْ السلوى على العاني الصديع
غنني: وارقص على وقع الأسى ... كلما حَطَّمَ درعاً من دروعي
غنني: ما طال ليلي: غنني ... وادعُ فجري - أين فجري؟ - للطلوع
غنني: جَفَّتْ أزاهيرُ المنى ... فادعُ صيفي - أين صيفي؟ - للرجوع
!غنني: حتى هجوعي ربما ... برئت نفسيَ من بعد الهجوع
!!غنني: بل لا تغني، زدتني ... حسرةً. واهتجتَ يا قلبي ولوعي
عبد الحميد السنوسي

شهيد الزنبقة

للأستاذ ناجي القشطيني

نفحات زبنقة أنيقة ... هبَّت عليَّ من الحديقة
ولفيحها مال الفؤا ... د كأنها جذبت عروقه
فوقفت أرمقها بعي ... ني عاشق لاقى عشيقه
وأردت أهصرها بعط ... ف من معاطفها الرشيقة
فسمعت نغمة بلبل ... يدعو لزنبقتي رفيقه
خليتها وخبأت نف ... سي بين أغصان وريقة
وبقيت أنظره وأع ... جب من شمائله الرقيقة
فهوى يقبلها وأط ... فأ في رحيقتها حريقه
ودعا إليه صديقه ... والحر لا ينسى صديقه
بينا يُغَني وهو نش ... وان بخمرته العتيقة
إذ فاجأته يد المنو ... ن فيبست في الحال ريقه
وغدا صريعاً حيث نا ... م ونومة الموتى عميقة
فوثبت مرتاعاً وكا ... ن رفيقه أبدى شهيقه

ملأ الحديقة بالنوا ... ح وكيف لا يبكي شقيقه
ابن الطبيعة ما دها ... ك وأمّك الأم الشفيقة
ماذا تحاول من حيا ... ة كنت تحسها دقيقة
عبثاً يحاول من يفت ... ش في الحياة عن الحقيقة
(بغداد)
ناجي القشطيني
القصص
في نهاية الطريق
مترجمة عن الإنكليزية
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار
أخرج الساعة من جيبه، ونظر إليها للمرة العشرين في مدة لا تتجاوز بضع دقائق، ثم أعادها إلى جيبه وأوثق عرى سترته بأنامل تدل حركاتها على الغضب. ثم مشى في الطريق الحالي المؤدي إلى البراح الريفي، وقال في نفسه وهو حانق:
(إن هذا لا يطاق! إنها وعدت بالمجيء في الساعة الحادية عشرة والنصف، والآن مضت سبع دقائق بعد الثانية عشرة ولم يبد منها أثر!)
ثم دار بلحظه في الفضاء، وكانت الريح تعصف باردة، فالتف بمعطفه وقال: (إذا لم تأت بعد خمس دقائق فإني سأعود)
ونظر في ساعته فوجد عقربها لم يتقدم غير دقيقتين، فقال: ها قد مضت أربعون دقيقة ولم تأت لوسي)
وترك الساعة في يده وأخذ يمشي ذهاباً وجيئة، وهو يخال أن دقات الساعة ضحكات سخرية واستهزاء به؛ ثم مضت المدة التي عينها للانتظار، فوضع الساعة في جيبه وعقد عرى المعطف وأصر على أن يعود، فسمع صوت طائر يغني فقال: (أزعجتني بصوتك يا طائر الجحيم)
ثم مشى مغضباً إلى منزله.
بعد يومين من هذا المساء تلقى هذا الخطاب:
(عزيزي هيوبرت. لا بد أن يكون عذرك قوياً في إخلاف موعدي مساء الثلاثاء. ولكن بما أنك وجدتني لا أستحق أن تكتب إليَّ على أثر ذلك فإني أبعث إليك بهذه طالبة إليك أن توضح لي أسباب غيابك وعدم كتابتك مشفوعة بالاعتذار. وإلا فإني أعتبر خطبتنا مفسوخة وأنا أعني ذلك وأصر عليه)
(لوسي)
غضب هيوبرت أشد الغضب عندما قرأ هذه الرسالة ولم يعرف كيف يمكن أن يطالب بالاعتذار مع قضائه ساعة ينتظر في البرد القارس.
وفي الصباح التالي كان يفكر فيما إذا كان يكتب أو لا يكتب، فوصل إليه غلاف مسجل من البريد وبه خاتم الخطبة.
وكان هيوبرت رجلاً كثير الفضائل، ولكن المرونة لم تكن من بين فضائله؛ فقال في نفسه عندما تسلم الخاتم: (هذا حسن جداً! إذا لم تبدأ لوسي بالكتابة وبالاعتذار فإني لن أكلمها بعد: نعم لن أكلمها)
مضى على هذا اليوم ثلاثون عاماً. وكان هيوبرت يمشي في حديقة جميلة في حي مونتفورد. وكان اليوم صائفاً من أيام شهر أغسطس، فالتقى فجأة بسيدة في منتصف العمر. وكان هو أيضاً قد قارب الشيخوخة، فوقف الرجل الأشيب أمام السيدة وقال: (لماذا لم تأت في موعدك؟)
فقالت: (لقد مضت أعوم كثيرة أظنها ثلاثين، ولكن لماذا لم تأت أنت يا مستر هيوبرت؟)
قال: (يظهر أنك نسيت الموعد فأرسلت إلي خطابك الذي ادعيت فيه أنك جئت، وهل تذكرين؟)
فقالت: (نعم أذكر وكنت في الساعة الحادية عشرة والنصف في المكان ولكنك لم تأت)
قال هيوبرت: (إنك لم تكوني هناك) فتحرجت لوسي وقالت: (لقد كنت تحت شجرة السرو)

قال: (ليس في هذا المكان شجرة سرو)
فاستدركت لوسي وقالت: (يظهر أنك كنت في الطرف الآخر من الطريق) وأدرك هيوبرت خطأه فقال: (ولكن الخطأ كان منك، لأن المكان الذي وقفت فيه هو الذي اتفقنا عليه)
ثم ابتسم كلاهما، وقال هيوبرت: (هل تأذنين أن أقدمك إلى زوجتي فهي معي الآن في الحديقة؟) فقالت: (نعم وسأقدمك إلى زوجي فهو هنا أيضاً)
ومشيا معاً في الحديقة فتعرفت لوسي بزوجة هيوبرت وتعرف الأخير بزوج الأولى. ثم أشار هيوبرت إلى شاب يلعب (التنيس) مع فتاة وقال: (هذا ابني جون)
فابتسمت لوسي ابتسامة سرور وقالت: (وهذه الفتاة التي تلعب معه هي بنتي نانسي)
- صحيح؟
- نعم
فتبادلا الابتسامات، ثم قالت لوسي: (أرى بينهما مودة وأظن. . .)
قال مقاطعاً: (وأظن ذلك أيضاً)
قالت: (إني سأوعز إليها. . . ولكني سأنصح لهما بأنهما إذا اتفقا على مكان يلتقيان فيه فيجب أن يعينا بالدقة في أي طرف من الطريق يلتقيان)
ثم ابتسمت، فابتسم هيوبرت.
عبد اللطيف النشار
البريد الأدبي
مقدمة ابن خلدون
صدر الجزء الثالث والأخير من مقدمة ابن خلدون باللغة الفرنسية عند الناشر الباريسي (جوتنر) ,
وكان قد نقل المقدمة إلى اللغة الفرنسية المستشرق (دي سلان) ونشرها في باريس سنة 1862 - 1868. فوقعت موقعاً حسناً عند أهل العلم والاستشراق حتى إن نسخها نفدت. فأخرجها مرة ثانية ذلك الناشر الباريسي من طريق التصوير الآلي للطبعة الأولى، وكلف المستشرق (جاستون بوتول) بالوقوف على الإخراج وبكتابة مقدمة لها، وبالتعليق عليها وشرح طائفة من الألفاظ الفنية، وتدوين فهرس شامل للفصول والموضوعات، وأسماء الأعلام والبلدان.
ومثل هذا العمل يدل على مكانة ابن خلدون وقدر مقدمته. وهل يغيب عن أحد من المشتغلين بالعلوم الاجتماعية أن ابن خلدون سبق نفراً من فلاسفة الغرب إلى آراء سديدة أو طريفة أو قلابة للمألوف؟ ومن ذلك حديثه قبل (مكيافللي) عن سياسة الملك، وقبل (فيكو) عن فلسفة التاريخ، وقبل (أوجست كونت) عن البحث في الظواهر الاجتماعية، وقبل (دروين) عن مسألة تأثير البيئة. وكل هذا مسلم به متعارف.
وعندي أنه - فوق هذا - سبق (بيكون) حيث قال: بنبذ (التشيعات) للآراء و (روسو) إذ فضل أهل البدو على أهل الحضر أي أهل الفطرة والخشونة على أهل المدنية والرفاهية، وسبق الفلاسفة (الدهريين) للقرن التاسع عشر أمثال (كارل ماركس) و (سبنسر) و (جوبينو) و (تارد) و (دركايم) حين قال (إن الخلق تابع بالطبع لمزاج الحال الذي هو فيه) (ص175، طبعة بيروت سنة 1900). أما (كارل ماركس) منشئ مذهب الاشتراكية المعروف - فقد سبقه ابن خلدون حيث قال (إنما اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحلتهم في المعاش) (ص120). وأما (سبنسر) فقد سبقه ابن خلدون في إثبات مبدأين، أولهما: أن العصبية ثم التعاون على المعاش من الأسباب الأولى للاجتماع البشري؛ والثاني: أن هرم الدولة من الدعة والترف.
وأما (جوبينو) فقد سبقه ابن خلدون حيث أشار إلى تأثير خصائص أجيال الخلق في الحروب والفتوحات. وأما (تارد) - الفيلسوف الفرنسي - فقد سبقه ابن خلدون إذ أعلن (أن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده) (ص147). وأما (دركايم) - مؤسس (مدرسة) علم الاجتماع لهذا العهد في فرنسا - فقد سبقه ابن خلدون حين عد وجود الجماعات أمراً واقعاً ملموساً وبصر بالصلة التي بين عدد الجماعة وغنى القطر، وحين ضخم تأثير التعاون والتماسك (ارجع لهذه اللفظة إلى مقالي في مجلة مجمع اللغة العربية الملكي. ج2) وتقسيم العمل ورأي أن البحث الاجتماعي تنبسط أطرافه - من ناحية التاريخ - على جميع أحوال الأمة

(مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعته من الأحوال) (ص35). ثم إن بين ابن خلدون و (دركايم) وجهاً آخر من الشبه لا يستخف به، ذلك أن (دركايم) نزه مذهب (أوجست كونت) عن التشيعات للآراء وخلصه من وجوه الاستنباط المحض، وكلنا يعلم أن ابن خلدون عالم موضوعي كما يقولون أي عالم يتدرج من المحسات إلى النظر، ومن الخارجيات إلى الرأي.

بشر فارس

مكتب النشر العربي بدمشق

إلى جانب الجماعات التي تعنى في دمشق بالشؤون الاجتماعية والعلمية، عصبة من الشباب قامت منذ أعوام خمسة بتأسيس مكتب لنشر الثقافة والعلم أسمته (مكتب النشر العربي)؛ وتأسيس مكتب ليس له من غاية إلاّ خدمة الثقافة والعلم، ونشرهما بين الأوساط بأقوم الطرق وأكثرها فائدة ومنفعة، عمل شاق وعسير، في بلد، الثقافة فيه ضائعة حقوقها بين الذين يدعونها والذين يهملون شأنها، ويتجاهلون وجودها.

ولقد قام المكتب منذ تأسيسه إلى الآن، بنشر آثار ودراسات مختلفة لطائفة من المفكرين والأدباء سواء المتقدمون منهم والمعاصرون، فنشط بعمله هذا الحركة الفكرية في المدينة، وبرهن على أن الثقافة قيمتها عالية لا تبخس، وقدرها محفوظ لا يذل، مهما بلغ من إهمال الناس شأنها، وجور الظروف عليها.

لست أريد إسرافاً في المديح خشية الوقوع في غلو أو مبالغة، ولا أريد أيضاً الاقتصادية خوفاً من هضم بعض ما لهذا المكتب من حقوق علينا، ولكن ما أريد هو إيفائه حقه كاملاً غير منقوص، ورفعه إلى المرتبة التي تستحقها جهود مؤسسيه ومساعيهم، فإن عملاً كعملهم لا يكافأ بجزاء غير راحة الضمير، ولا يقابل بتشجيع غير تشجيع الخلق القوي الرصين، ثم لا تستفزه حوافز غير حافز النفس ورغبتها في خدمة العلم لتعزيز شأنه ورفع مستواه، لعمل جدير حقاً بالإعجاب وأهل للتقدير.

ومن الآثار الفلسفية والعلمية التي قام المكتب بطبعها ونشرها، هذه الآتية: المنقذ من الضلال للغزالي، حي بن يقظان لابن طفيل، وقد قدم لهذين الكتابين بمقدمة ضافية مع شرح لآرائهما الدكتوران جميل صليبا وكامل عياد. ثم مجموعة من المحاضرات كان قد أذاعها في الراديو الدكتور طه حسين بمصر، فجمعها المكتب وطبعها تحت اسم: الحياة الأدبية في جزيرة العرب. ثم من أفلاطون إلى ابن سينا، ودرس وتحليل ابن سينا مع منتخبات من فلسفته للدكتور صليبا أنيتا، وقواعد التحديث لجمال الدين القاسمي، ثم أصول المحاكمات وعلم المالية للعلامة فارس الخوري، وغير هذه كثير منه ما هو مطبوع ومنه ما هو قيد الطبع.

فلك طرزي

توثيق الصلات الثقافية بين مصر وأمم الشرق

اجتمعت في الأسبوع الماضي لجنة توثيق الصلات الثقافية بين مصر وأمم الشرق برياسة صاحب العزة وكيل وزارة المعارف، وقد عرض على اللجنة خلاصة آراء الحكومات التي قبلت الفكرة، عدا السودان وتونس والجزائر، فلم تصل منها ردود بعد، وأشار إلى أن بعض الحكومات تساءلت عن معنى توحيد الثقافة، وهل يقصد منه فرض ثقافة معينة على بقية الأمم، وما هي المسائل التي تبحث في المؤتمر المزمع عقده.

وبعد أن درست اللجنة الفكرة العامة، قررت تأليف لجنة فرعية قوامها: محمد فهيم بك مراقب التعليم الثانوي المساعد، ومحمد قاسم بك عميد دار العلوم، والأستاذ علي الجارم بك

المفتش الأول للغة العربية، والأستاذ نجيب حتاتة مراقب التعليم الأولي المساعد، والدكتور أحمد عبد السلام الكرداني بك ناظر معهد التربية.

وعهد إلى تلك اللجنة فحص ردود الحكومات والإحاطة بمشاكل التعليم العامة في مصر وفي البلدان الشرقية، وأن تعد برنامجاً لهذه الدراسات يقوم على تفصيل أغراض المؤتمر، واقتراح بإنشاء مكتب دائم على غرار مكاتب المؤتمرات الدولية.

ويظهر أن الفكرة الغالبة هي عقد المؤتمر في فترات متباعدة إلا إذا دعت الظروف

والمشاكل التعليمية فيعقد سنوياً.
وقد استقر الرأي على أن يطلق على اللجنة اسم (لجنة بحث وسائل توثيق الصلات الثقافية بين البلاد الشرقية ودراسة أهم مشكلات التعليم فيها).
ولعل في هذه التسمية ما يوضح الغرض الذي يرمي إليه المشروع.

تأبين الأستاذين السكندري ونللينو في مجمع اللغة

يقيم مجمع فؤاد الأول للغة العربية حفلة تأبين للأستاذين المرحومين الشيخ أحمد السكندري والسنيور نللينو، في الساعة الخامسة والنصف من مساء يوم الجمعة 13 من الشهر الحاضر بدار الأوبرا الملكية.
وسيشهد الحفل مندوب من قبل صاحب الجلالة الملك ويخطب فيها الدكتور هيكل باشا وزير المعارف ورئيس المجمع الأعلى والدكتور توفيق رفعت باشا رئيس المجمع والدكتور منصور فهمي بك، والأستاذ ليتمان ثم ينشد الأستاذ علي الجارم بك قصيدة.
ويرد عليهم الأستاذ عمر الإسكندري بكلمة شكر، ويعقبه وزير إيطاليا المفوض وتنتهي الحفلة في الساعة السابعة مساء.

إنشاء أكاديمية علمية في كابل

من أنباء كابل أن المعارف العامة في أفغانستان أخذت تخطو خطوات واسعة بفضل الجهود التي تبذلها حكومتها وبحسن الإرشادات التي يقدمها الملك محمد ظاهر شاه الذي يبذل كثيراً من الجهود لنشر الثقافة الإسلامية والعلوم العصرية في البلاد، وبفضل أعمال السردار محمد نعيم خان وزير المعارف الذي عرف بجده ونشاطه.
ولقد فكرت وزارة المعارف في تخريج جيل صحيح ينهض بمهام البلاد السياسية والاقتصادية المقبلة، وذلك بتعليمهم وتثقيفهم وفق برنامج خاص في أكاديمية خاصة.
وهاهي ذي الأكاديمية قد افتتحت باسم (أكاديمية العلوم السياسية) وحضر حفلة الافتتاح الوزراء وكبار الموظفين وعلى رأسهم صاحب المعالي الفيلد مارشال السردار شاه محمود خان وزير الحربية.
وأعضاء الأكاديمية هم من المتطوعين من طبقة الشباب المثقفين، والأمل وطيد في نجاح هذه الأكاديمية في إعداد شبان أكفاء لإدارة شئون البلاد السياسية والاقتصادية في المستقبل.

تمثال للنبي موسى

من أخبار لندن أن الأستاذ فرويد اليهودي النمساوي الذي أخرج من ألمانيا والموجود الآن في لندن، طلب النحات اليهودي الهنجاري لمبادا لمهمة هي صنع تمثال نصفي للنبي موسى الذي قام الأستاذ فرويد كما يقال بدرس شخصيته درساً دقيقاً على قواعده السيكولوجية. وقد وصل هذا الأستاذ بعلمه أن شكل موسى عليه السلام يجب أن يكون مصرياً، وعلى هذا الشكل سيعمل لمبادا التمثال.
ونحن وإن كنا نعلم أن هذه ليست أول مرة يعمل فيها تمثال للنبي موسى، إلا أننا نعجب للاتجاه الجديد الذي نحاه الأستاذ فرويد من وجوب تمصير هذا التمثال.
والمعروف أن موسى كليم الله ولد في مصر وكانت مهمته منذ ولادته تحرير قومه الذين أذلهم المصريون وعلموا على تشتيتهم.
وما كان أجدر بالأستاذ فرويد من أن يواصل أبحاثه في علم النفس ليصلح ما أثبتت التجاريب خطأ الكثير منها ولا سيما فيما يتعلق بنظرية الفضيلة والرذيلة.

الذهب من رمال البحر.

غادر سويسرا نهائيّاً الكيماوي المعروف الأستاذ دونيكوفسكي الذي يدعي انه اخترع طريقة لاستخراج الذهب من رمال البحر. ويتجه بنظره الآن إلى جزر الفيليبين حيث يؤسس شركة رأس مالها أربعون ألف فرنك لاستخراج الذهب من رمال البحر بالرغم مما صادفه من الحظ العاثر في فرنسا وبلجيكا قبل سويسرا.
والمعروف أن العرب اشتغلوا كثيراً بالكيمياء وحاولوا مراراً تحويل المعادن، ومع كونهم فشلوا في هذا المضمار فإن آخر التجارب الكيميائية أثبتت صدق نظريتهم في إمكان تحويل المعادن بصرف النظر عما يتكلفه هذا العمل من التكاليف.
أما استخراج الذهب من رمال البحر فهذه مسألة أشبه بحلم قد يشابه حلم العرب وقد لا يشابهه، لأن الذهب إذا وجد بشكل عروق في الصخر والحجر في مناطق دون أخرى فإن العثور عليه كذرات رفيعة في الرمال لا يحتاج إلى المصاعب الهائلة التي يصادفها

الباحثون عن الذهب في باطن الأرض.
ومن الغريب أن المصريين الأقدمين عرفوا كيف يبحثون عنه وكيف يستخرجونه، ولا تزال مناجمهم القديمة موضع إعجاب الجيولوجيين من أبناء هذا الجيل.
ولعلنا نسمع من الأستاذ الدكتور حسن صادق بك المدير العام لمصلحة المساحة كلمة في هذا الموضوع.
اكتشاف مدافن أثرية مهمة.
اكتشفت أخيراً مدافن واقعة على طول الطريق بين روما والمعرض الدولي الذي سيقام في وبكاستلفوزانو بالقرب من أوسينا حيث توجد آثار كركالا.
ويعود تاريخ هذه المدافن إلى القرن الأول بعد المسيح، وقد وجدت فيه جملة زهريات من الصفرة وجانب كبير من العملة الفضية وعقود ودبابيس وأدوات للزينة من بينها عقد ثمين من الزبرجد واللؤلؤ والذهب.
ووجود مثل هذه المجموعة القيمة يساعد كثيراً على تاريخ العصر الذي وجدت فيه فضلاً عن قيمتها الأثرية.
جماعة الفقيرية ويوغا بالهند.
وصل في أواخر ديسمبر الماضي إلى بمباي الضابط الفرنسي الدكتور بينيه موفداً من الحكومة الفرنسية للقيام بتحقيق علمي في الأسس والأصول التي قامت عليها أعمال جماعة الفقيرية ويوغا.
والأمل معقود على أن هذا التحقيق العلمي سيكون أوفى ما تم أجراؤه حتى الآن فتنكشف
لنا الأسرار العجيبة التي يجريها (الفقراء) كالسير على اللهب، وأنواع الرقص والرياضة البدنية الخارقة التي تقوم بها جماعة يوغا والتي يقال إنهم يتعلمونها في معبد خاص في بمباي لا يسمح بالدخول إليه إلا لأفراد هذه الجماعة.
في أكاديمية الفنون والآداب الأمريكية.
انتخب الكاتب الألماني توماس فان عضواً فخرياً في أكاديمية الفنون والآداب في أمريكا.
وقد قال فان ديك بروكسس المؤلف المعروف الذي اقترح هذا الانتخاب (إن توماس فان ربما كان أكبر مدافع في الوقت الحاضر عن الأفكار التي تقوم عليها أسس حضارتنا).
في كلية الآداب بالإسكندرية
تألفت في كلية الآداب فرع الإسكندرية جماعة أدبية بإشراف الأستاذ أحمد الشايب أستاذ الأدب العربي بالكلية، ونظمي لوقا أفندي وكيلاً، وحنفي محمود أفندي سكرتيراً، ومحمد أحمد الطويل أفندي أميناً للصندوق، وعبد العليم ناصر أفندي، والآنسة سميرة ياقوت والسيد يعقوب بكر أفندي أعضاء. وهم يكونون اللجنة الإدارية.
والغرض من هذه الجماعة العناية بالثقافة الأدبية بطرق الخطابة والمحاضرات والمناظرة والمسابقات الأدبية والتمثيل والموسيقى الخ.
والمحاضرة الأولى ألقيت أمس، في منتصف الساعة الخامسة بعد الظهر بدار الكلية باستانلي. وكان موضوعها: (بين دانت وملتون وأبي العلاء) لنظمي لوقا جرجس أفندي وكيل الجماعة.
التاريخ في سير أبطاله
ننشر ابتداء من العدد القادم للأستاذ محمود الخفيف طائفة من التراجم لعظماء التاريخ قديمة وحديثة في الشرق والغرب؛ وسيتوخى في هذه التراجم أن تلم بالتاريخ وتعنى بإبراز حوادثه، جرياً على المذهب الحديث مذهب دراسة التاريخ في سير أبطاله، كما ستكون تلك التراجم بحيث لا تعدو الواحدة ثلاث مقالات أو أربعاً. . .
وسنبدأ بتقديم ترجمة محمد شريف باشا بطل الحركة القومية والدستورية في مصر الحديثة.
وفاة عالم طبيب
من أخبار لندن أن الدكتور باردسول الذي اشتغل بمرض التدرن الرئوي ومن الذين مهدوا السبيل إلى مكافحته مات في أواخر ديسمبر الفائت.
يوم طرابلس في العراق

بناء على عزم إيطاليا على إسكان الإيطاليين في طرابلس الغرب وبناء على ما يعانيه السكان العرب هناك من ظلم الاستعمار وقسوته قرر نادي المثنى في العاصمة إقامة حفلة كبرى يوم الجمعة القادم الموافق 30 الجاري في الساعة السابعة مساء يخصها بنصرة طرابلس الغرب.

إلى العالم الإسلامي كافة وإلى المصريين خاصة

لا تزال دول الاستعمار مسترسلة في سياستها الظالمة نحو البلاد العربية والإسلامية، مستخفة بشعور المسلمين غير حاسبة لهم حساباً، فتعتدي على حقوقهم، وتغتصب ديارهم، وتهين شعائرهم.

ولا يكاد ينقضي وقت دون أن نسمع بنكبة نزلت ببلد إسلامي، فبينما نحن نعالج قضية فلسطين المقدسة التي طغى فيها الاستعمار إذا بنكبة أخرى قد انقضت على طرابلس الغرب، إذ يريد الطليان بعد أن حرقوا الأخضر واليابس فيها، ودوّخوا أهلها وأفقروهم واستعبدوهم وأذلوهم، يريدون أن يجهزوا عليهم فيجعلوا من بلادهم جزءاً من الوطن الطلياني، ولا يزال يطن بآذاننا ما نشروه على العالم في خطب ساستهم، وبكل الطرق من أن إيطاليا أصبحت صديقة المسلمين والعرب وأنها تحميهم وتحمي ديارهم ومقدساتهم.

ولقد كانت مصر ولا تزال تبني سياسة دفاعها القومي عن حدودها الغربية على اعتبار أن ما وراء هذه الحدود مسكون بقبائل عربية لها في داخل حدودنا المصرية بنو عمومة وخئولة من نفس هذه القبائل أو من عصباتها، وأن الإسلام يوثق أواصر السكان بين البلدين وإن اختلفت تبعيتهما. فالدفاع الذي ترى كل أمة من أول واجباتها الاستعداد له في زمن السلم من جميع الوجوه، وعلى كل ما يتوقع من الاحتمالات، إنما كان ينظر إليه في مصر من جهة حدودها الغربية من الجهة العسكرية فقط. أما وقد صدر أخيراً القانون الإيطالي بجعل ولايات لوبيا الأربع جزءاً لا يتجزأ من مملكة إيطاليا، فقد أصبح واجباً علينا أن ننظر إلى ذلك من الوجهة الجغرافية والجنسية أيضاً، ولاسيما أن الإيطاليين قد وجهوا عنايتهم إلى إنشاء مستعمرات لهم - حتى في الأجزاء الفقيرة التربة من لوبيا - فلم يبق عند أحد شك في أن هنالك برنامجاً عسكرياً له علاقة كبيرة بما وراء طرابلس وبرقة شرقاً وغرباً.

إن البواخر الإيطالية حملت إلى القطر الطرابلسي الشقيق في أواخر أكتوبر الماضي ألفاً وثمانمائة أسرة إيطالية تقدر نفوسها بعشرين ألفاً. فأسكنت الحكومة منهم ألفاً ومائتي عائلة في جهة طرابلس وستمائة عائلة في جهة برقة. وهذه أول دفعة من خمسة ملايين نسمة إيطالية تقرر نقلها إلى طرابلس الغرب. وقد خصصت حكومة روما لهذه الهجرة في ميزانية وزارة أفريقية مائة مليون فرنك في كل سنة لبناء القرى واستنباط المياه وإصلاح الأراضي للإيطاليين. وكان في طرابلس قبل مجيء هؤلاء نحو مائة ألف عائلة إيطالية غير الجنود ومن ينظم إلى سلك الحكومة، وهؤلاء وأولئك تحميهم الحكومة بقوتها. وقد أخذت لهم 147 ألف فدان من أفضل أراضي لوبيا دون ثمن، وأجلت العرب عن أراضيهم الخصبة في برقة الحمراء، ونقلتهم إلى الأراضي المجدبة الممتدة إلى الوادي الفارغ جنوباً وإلى المرج شرقاً وإلى شاطئ البحر شمالاً وهي أرض قليلة الآبار تزرع على المطر. أما برقة الحمراء التي تمتد من شطوط مدينة بني غازي إلى ما وراء المرج في الجنوب وتشمل الجبل الأخضر كله إلى ما وراء مدينة درنة في الجهة الشرقية، فانتزعت من أيدي أصحابها الشرعيين وهم العرب وأعطيت للمغتصبين من المستعمرين الذين جيء بهم من إيطاليا ليكونوا جيران مصر إلى الأبد، وليتاخموها في السلم والحرب، وأصبح الجبل الأخضر والأراضي الخصبة جميعاً محرَّماً دخولها على أبناء العرب.

وقد أصبح المصريون متاخمين لجهات ليست من أوطان إخوانهم عرب برقة الذين يشتركون معهم في اللغة والدين، بل لجهات ستكون عما قريب مسكونة كلها بإيطاليين، وعليهم من الآن أن ينظروا إليها كما ينظر الفرنسي إلى حدوده الألمانية والألماني إلى حدوده الفرنسية.

وإذا كانت إيطاليا لا تتورع عن إزعاج العالم الإسلامي بهذه المظالم وهي تمد عينيها إلى تونس، فماذا يكون حالها مع المسلمين إذا جاء وقت لا يهمها فيه أن تنشر دعايتها

الاستعمارية بينهم عن طريق محطات إذاعاتها اللاسلكية وما إلى ذلك.
لذلك نهيب بالمصريين وحكومتهم خاصة وبالعالم الإسلامي كافة أن يفكروا في مصير طرابلس الغرب التي يوشك أن يجلى عنها جميع أهلها العرب إلى أراضي الجنوب المحرقة حيث يقضى عليهم فيها كما قضي على ستين ألفاً من سكان الجبل الأخضر لاقوا حتفهم في الصحراء قبل بضع سنوات، هذا فضلاً عما يلحق كرامة الإسلام بسلب هذا الوطن من حظيرته وتحويله إلى بقعة إيطالية.

الرئيس العام لجمعيات الشبان المسلمين
الدكتور عبد الحميد سعيد

الكتب

ديوان صبري باشا
تحقيق الأستاذ أحمد الزين
للأديب محمد فهمي عبد اللطيف

في الشعر العربي كثير من الشعراء الذين استبدت بشعرهم عوادي الزمن ومحن الأيام، فضاعت آثارهم في أجواء العصور الحالية، وذهبت دواوينهم بين سمع الأرض وبصرها. ولعل الذي ضاع من الشعر العربي أكثر من الذي بقي. ولعل الأيام لو أسعدتنا ببقاء هذه الثروة كاملة لكان للأدب العربي وجهة غير وجهته، ووضع غير الوضع الذي هو عليه اليوم. وإذا كان للقدماء العذر في ذلك من صعوبة التدوين، وندرة الكتابة، ومشقة الرحلة، فما عذرنا نحن إذا ما فرطنا في آثارنا الطيبة وتركنا نتاج أدبائنا البارزين نهب الضياع، على حين قد أصبح التدوين سهلاً ميسوراً تؤديه الآلات، ويتم بأيسر النفقات! إننا لا شك أمة جاحدة لا تقدر أدبائها، جامدة لا تحترم فنها، قاصرة إذ تفرط في الجميل النافع، بينما يذيع فيها القبيح التافه!

هذا ما كنت أقوله لنفسي إذ يجري على لساني بيت من أبيات صبري باشا السائرة؛ أو أستمع إلى مغن يغرد بأغرودة من أغاريده الخالدة، أو يرتفع صوت في الندى بأسماء الشعراء الذين نهضوا بنا في الأدب، وحفظوا علينا في الشعر كرامة النسب إلى العرب. ولقد كان الأسى يتملكني إذ أرى شعر ذلك الشاعر الممتاز في شاعريته وفي مصريته مشتتاً لا يجمعه ديوان، مهملاً لا يفي بطبعه صديق، مفقوداً لا يهزج به الأبناء ولا يدريه إلا الخاصة من المعمرين. وأخيراً وبعد خمسة عشر عاماً مضت على وفاة الشاعر سمحت الأقدار، ففزع لجمع ديوانه صهره الكريم صاحب العزة حسن رفعت بك، ونهض لتصحيحه وضبطه وشرحه وترتيبه صديقه وملازمه الشاعر الراوية الأستاذ أحمد الزين، فكان في ذلك وفاء للشاعر، وتقدير للأدب، وإنصاف للتاريخ، ودفع للعار الذي حق علينا بتفريطنا في حق ذلك الشاعر، وفي حق الأجيال المقبلة!

لقد كان صبري رحمه الله بين معاصريه (أستاذ الشعراء وشيخهم) في الصناعة ومراعاة الدقة في الربط بين المعنى وبين لبوسه من اللفظ، ولكنه كان أنيقاً مترفاً لا يقول إلا بدافع النفس ورغبة القول؛ ثم لم يكن يعنى بتدوين كل ما يقول. ومن ثم لم يبلغ ديوانه في الحجم مبلغ دواوين رصفائه مثل البارودي وشوقي وحافظ ومطران وعبد المطلب. على أنه قد راد كل أبواب الشعر التي كانت مطروقة في أيامه، فقال في المديح والتهاني والتقاريظ وهي أكثر من ثلث الديوان، وقال في الهجاء وهو لا يتجاوز الصفحتين، وقال في الفكاهات وفي الغزل والذكرى والتشوق وفي ذلك كل عبقرية صبري وشاعريته، وقال في الوصف والاجتماعيات والسياسيات والإلهيات والمراثي والأناشيد، وعلى هذا الوضع جرى الأستاذ الزين في تبويب الديوان. وقد عني بترتيب القصائد في كل باب ترتيباً تاريخياً مع بيان المناسبات والدواعي التي قيلت فيها كل مقطوعة، وهذا في الواقع ترتيب جميل، إذ به نستطيع - كما يقول الدكتور طه - أن نتتبع النشأة الفنية لهذا الشاعر، وأن نتبين ما اختلف على شعره من الأطوار في غير مشقة ولا عناء، وهو من هذه الناحية درس قيّم لنشأة الفن الشعري عند شاعر ممتاز، ومن الخير أن يعرض هذا الدرس على الشباب.

ولا شك أن الأستاذ الزين قد وفّق كل التوفيق في إخراج هذا الديوان الجميل، فضبطه وشرحه على أتم وجه وأكمله. ولقد جهدت أن أحصي شيئاً على صديقنا الزين أغيظه به، فغاظني هو ببراعته وقدرته، وإني لأقر بذلك في غبطة وسرور. وإنما وفق الزين

إلى هذا الحد، لأنه - كما يقول الأستاذ أحمد أمين - قد عاشر الشاعر وصادقه سنين طويلة، فسمع منه، وحقق الطريقة القديمة القويمة في الرواية عنه والمشافهة له، فمكنه ذلك من إيضاح ما غمض، ومعرفته الصحيحة بجوّ القصائد وأسبابها وبواعثها. ثم كان من مخالطته للشاعر ووقوفه على دقائق نفسه وما يوائمها وما لا يوائمها، ما ألهمه الصواب في الشرح، والتوفيق في الترجيح، إذا تعددت المسالك وكثرت الاحتمالات. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الأمر كما يقولون: لا يفهم الشاعر إلا شاعر، والزين شاعر من طراز صبري ومن مدرسته كما يعبرون، فكان بهذا خير من يفهم صاحبه وقريعه، وخير من يرعى شعره هذه الرعاية الحميدة، ويشرحه هذا الشرح الدقيق الموفق.

قد تقول: وماذا يكون في شرح شعر صبري من العناء، وشعره ليس بغريب اللفظ، ولا بعيد المعنى كما هو شعر حبيب وأبي الطيب والمعري وأضرابهم، بل الرجل ظاهر في ألفاظه، واضح في معانيه، ففي مكنة كل إنسان أن يتولى بسطه، وأن يؤدي شرحه. والواقع أن العناء ليس في الشرح والبسط، وإنما العناء في النهج الذي نهجه الزين. ذلك لأن شعر صبري دقيق اللفظ، مستفيض المعنى، كثير الإشارات، بعيد المرامي، فكان لابد في شرحه من طول اللفظ واتساع التعبير حتى يمكن أن يستوفي ما فيه، ولكن الزين وقف عند قولهم (البلاغة الإيجاز) فهو يؤدي ما في البيت من معنى كبير بلفظ موجز مونق، قد لا يتجاوز به ألفاظ البيت في كثير من الأحيان، ومن هنا كان العناء الذي لا يضطلع بعبئه إلا الزين، لأنه كما قلنا يفهم صبري حق الفهم، ولأنه قد حذق ذلك بالتدريب والمران.

والديوان مصدر بمقدمات: الأولى للدكتور طه حسين وقد ضمنها رأيه في شعر صبري ومميزاته؛ والثانية للأستاذ أحمد أمين وصف فيها (شعوره بشعر الشاعر وتذوقه لأدبه)؛ والثالثة للأستاذ أنطون الجميل عن (العوامل الشعرية في نظم إسماعيل صبري)؛ والرابعة للأستاذ الزين نفسه، وقد تكلم فيها عن أخلاق الشاعر ووطنيته وشاعريته وما اتبعه في تصحيح ديوانه. وإنما جمع الأستاذ بين كل هذه المقدمات لأنه - كما يقول - أراد أن يجمع للقارئ بين الاستفادة من شعره، وتلك الدراسة الواسعة المستوعبة لكثير من نواحيه. وأنا شخصيّاً لا يهمني كثيراً ما كتبه أولئك الأساتذة عن صبري الشاعر، فإن شعر الرجل خير من يفصح عنه ويدل عليه، وإن ميزات الرجل في شعره لواضحة جلية لا يختلف في تقديرها أحد، كما لم يختلف في تقديرها الأساتذة الفضلاء، ولكني لا شك معجب بما كتبه الزين عن صبري الرجل، وما ذكره من أخلاقه ووطنيته، ويا حبذا لو مدّ القول في ذلك فرسم لنا صورة كاملة لشخصية صبري تقوم إلى جانب شاعريته الكاملة، فإن فهم شخصية الشاعر أساس لفهم شاعريته، وعلى هذا تقوم الدراسات الحديثة، والمناهج الرشيدة عند علماء النقد.

وأما بعد، فإذا كان شعر صبري آية الجمال في تصوير الجمال، فإن ديوانه قد خرج للناس آية الكمال في تقدير الكمال، فهو كالروض الأنف جمع أطيب الزهر، وتم له جمال الموقع وبهاء التنسيق، وما أحسبه يقل في تنسيقه وترتيبه عن ديوان حافظ الذي تولته وزارة المعارف، ولا عن ديوان شوقي الذي خرج برعايته، بل إني لأراه يفوقهما روعة ودقة. وإنه لجهد مشكور ذلك الذي أداه الأستاذ الزين في خدمة هذا الديوان، ولو قدر لصبري أن يرى ديوانه لاغتبط بهذا الصنيع، ولشكر لصديقه وفاءه، وحمد له عناءه، وإنه لمشكور من الأدباء في جميع الأمصار، محمود من أبناء العربية في سائر الأقطار.

محمد فهمي عبد اللطيف.

المسرح والسينما

في الفرقة القومية

دكتاتورية المدير

اسأل من شئت من الناس من هو مدير الفرقة القومية، فيجيبك على التو بأنه مثال حيّ للقداسة وطيب السريرة، ويشيد الثاني بأريحيته ونخوته، ويثني الأكثرون على أدبه وطول باعه في ميدان الشعر الذي لا يجلي فيه سوى إنسان عرف الحياة وأدرك كوامن أسرارها.

ويقيني أن هذه الخصال والسجايا هي بعض نحيزته الموهوبة المكتسبة؛ فلو سوّلت

البداوات لأديب أن يترجم لحياة مدير الفرقة فهو لابد مأخوذ بتلك السجايا، لا محيد له عن التقيد بها لأنها لازمته طوال حياته، ولكنها عافته منذ تولي زمام الإدارة، وزايلته يوم توهم أنه صار من أخدان الموظفين البيرقراطيين وأقران الحاكمين، ويوم تخيل فخال أنها فرقة حكومية لها نفوذ البوليس، وسلطان مأمور القسم!

ليس في تصدينا لبحث الناحية التي طرأت على حياة مدير الفرقة مما يبعدنا عن صميم موضوع حياة الفرقة، لاعتقادنا أنها مرتبطة بحياته السابقة، تلك الحياة التي كانت متوشحة بوشاح القداسة قد أخذت الآن تنزع عنها رمز قدسيتها، لا للظهور بفطرتها، بل لإظهار الناحية الأخرى لتلك القداسة.

كان لمدير الفرقة أصدقاء عديدون بحكم ما له على بعضهم من أياد بيضاء، أو شفاعة لا تنسى، أو سعي مشكور، أو بحكم راحة النفس على آدابه الرفيعة، وفنه الشعري السامي.

تقدم هؤلاء الأصدقاء يمدون أيديهم تساند الأديب الكبير، مدير الفرقة القومية للتمثيل العربي، رمز النهضة، وعنوان الثقافة، وتنير له السبيل الوعر الذي سلكه للفني المسرحي، وهو ما كاد يصافحهم ويحتضنهم بعض الوقت حتى أقصاهم عنه إقصاء لا عودة بعده.

ثم تلفت المدير يمنة ويسرة، فإذا به يرى شرذمة من ممثلات وممثلين، وطغمة من عاملات وعاملين، وفلولاً من فساكل الصحافيين والمتأدبين، تحيط به إحاطة ممثل أدوار الكوميديا بموضوعه، فيهم (السادي) وفيهن (الميسودية) وبالعكس، ولكنهم جميعاً يعرفون التملق بمعناه ومبناه، لا يصدهم عن الارتماء على أقدام (سعادة المدير) سوى اكتفائه بمد راحته للتقبيل.

أوعز سعادة المدير إلى ناقد معروف أن يحمل على أعضاء لجنة القراءة، وحدث أن لقي ذلك الناقد صدفة في مجتمع كان فيه أحد الحكوميين المشرفين إشرافاً أدبياً على أعمال الفرقة، فوجه إليه عتاباً هو مزيج من الحلاوة والطعم المز على حملته على أعضاء لجنة القراءة الذين هم (الصفوة المختارة من رجالات الأدب) وسواهم نوافل!! وقال: هل في وسعك أن تدلني على خمسة أدباء يفضلونهم أو يضارعونهم والبلد على ما هو عليه من قحط في الرجال؟

قال الناقد: أعرف خمسة بل عشرة من الرجال لهم أوفر اطلاع على فن المسرح وأدب الرواية لا يجاريهم في ذلك أحد من الأدباء الذي أعرفهم، وإذ ذكرت اسم الأول منهم قال:

أعوذ بالله من هذا الذي لا يرضيه إلا أن يكون مديراً للفرقة بدلاً مني، وهو على كل حال مغضوب عليه من الحكومة التي تمثل أكثرية الأمة.

قال الناقد: الأدب لا يعرف الحزبية يا أستاذ.

فأجابه: الأدب الذي تعنيه لا وجود له في مصر.

حول الناقد دفة الحديث قائلاً: هل ثمة من اعتراض على فلان؟ وذكر اسمه فأجاب: هذا شاعر لا شأن له بغير الشعر. قال: أنت شاعر أيضاً، قال: أنسيت أن لي مؤلفات روائية؟ قال الناقد: لسنا الآن في موقف مقارنة وموازنة ومفاضلة، أنا أعرف أن لهذا الشاعر معرفة واسعة بفن الرواية كما أعرف له اطلاعه الكبير على تطورها وتحولها منذ أقدم العصور حتى عصرنا الحالي، وعلى أحدث ما ظهر من روايات وعلى أقوال النقاد فيها.

قال مدير الفرقة: أنا أعرفه أكثر منك. إنه كسول خواف لا يصلح أن يكون عضواً في لجنة القراءة.

قال الناقد: ألا تعرف. . . فلاناً وهو مؤلف روائي غذى المسرح أكثر من ربع قرن؟ فأجاب:

اسمع يا صديقي: أوثر أن تذكر لي أسماء كبار موظفين في الحكومة تكون لهم مهابة الحاكمين وعلم وأدب العلماء والأدباء.

ابتسم الناقد وقال: إن من ذكرتهم هم موظفون حكوميون وفي وسعي أن أذكر عشرة أسماء من الموظفين الأكفاء إذا كان لا يرضيك من الأدباء غير الموظفين الحكوميين.

وقبل ارفضاض هذه الجلسة المرتجلة التي تكلم فيها الناقد كعادته في وصف الأدباء ونقد أعمالهم قال له (سعادة المدير): أنت شاب يا بني، فلا بد لحياة الفرقة القومية،

وهي مصلحة حكومية، من تؤدة الشيوخ وحكمتهم. فأجابه الناقد على نصيحته الغالية هذه قائلاً: (أطال الله عمر السلحفاة وعوضنا عن نشاط الشباب عوض الصالحين).
رميت من وراء هذا التصوير لحالة مدير الفرقة إلى التدليل على نفسيته التي انتقلت من البوهيمية المرحة الجوالة في آفاق الحياة إلى قيود الوظيفة التي أحاط نفسه بأغلالها ليكون له روح طاغية، وشهوة دكتاتور، وأي دكتاتور في الأدب والفن؟
ابن عساكر.

أخبار سينمائية

بولو

عرضت سينما رويال في الأسبوع الماضي فيلم (بولو) الذي تدور حوادثه في الأدغال والأحراج وهو من إنتاج شركة برامونت.

الآنسة مانتون المجنونة.

هذا اسم فيلم عرض في الأسبوع الماضي على ستار سينما ديانا ولقي نجاحاً كبيراً وهو من إنتاج شركة متروجلدوين ماير.

أجازة.

فيلم كوميدي من نوع طريف لشركة راديو وقد عرض ونجح على ستار سينما متروبول.

* تمثل نورماشيرر مع كلارك جيبل في فيلم (مرحٌ أبله) الذي يظهر في الموسم القادم.

* يلاقي فيلم (فتش عن المرأة) للسيدة آسيا نجاحاً لا بأس به على ستار سينما كوزمو.

* انتهى أخوان لاما من تصوير فيلم (ليالي القاهرة) الذي وضع قصته وأغانيه السيد زياده وسيعرض في عيد الأضحى.

* أعد استديو مصر فيلم (الدكتور) للعرض بعد أيام قليلة.

العدد 289 - بتاريخ: 16 - 01 - 1939

بين الفقير والغني

(يا صاحب السعادة، لِمَ ترضى أن أكون صاحب الشقاء؟ أنا وأنت نبعتان من دوحة آدم نَمَتا في ثَرى النيل؛ ولكن مغرسك لحسن حظك كان أقرب إلى الماء، ومغرسي لسوء حظي كان أقرب إلى الصحراء، فشبعت أنت وارتويت، على قدر ما هزلت أنا وذوَيت؛ لأن الماء والغذاء يطلبانك وأنت ضاجع وادع، وأنا أطلبهما بالكدح والمتح فما أنال غير الجفاف أو النّطاف!

فماذا يضير المجدودَ أن ينضح المكدود برَش مما يسبح فيه من فيض هذا الوادي، وهو لهما كلبن الأم للتوأمين، لكل منهما شطره بحكم الحياة والأمومة والطبيعة؟

لقد ضمن الله لك حق الملك لصلاح الدنيا، ولكنه فرض عليك بازاء ذلك الزكاة تحقيقاً لهذا الصلاح. فإذا خشيت أن تمتد عيني إلى مالك بالحسد والشهوة، ويدي إلى نفسك بالعنف والقسوة، فاكسر نظرتي وحدَّتي عنك بأداء ما جعل الله لي عندك؛ وإلا كان من الإنصاف في رأيي على الأقل أن يكون اعترافي بالحق لك، معادلاً لاعترافك بالواجب عليك)

ذلك ما يقوله في مصر كل فلاح لكل باشا. ولكن أغنياءنا غلاظ الأجساد والأكباد فلا يصيخون لمثل هذا العتاب الهامس! وهم إلى ذلك يعلمون أن الله الذي أعان الفقراء بالزكاة على الفقر، أعانهم عليه أيضاً بالقناعة والصبر. فهم يثقون بالله، ويؤمنون بالقدر، ويعتقدون أن نصيبهم المقسوم في السماء سيهبط عليهم في الأرض، أو يصعدون إليه في الجنة. وفي ضمان هذه الأخلاق السمحة والنفوس المطمئنة، مشى الغني متأبِّهاً متألِّهاً يحاول أن يخرق الأرض ويطول الجبل ويملك على عباد الله حق الحياة والموت. ثم ينظر إليه الكادح المحروم وهو يخور من السِّمن، ويختال من البطر، ويغوص في الحرير، ويخوض في الذهب، فيقول بلهجة المؤمن الراضي: (آمنت بالله! لو لم يستحق ما هو فيه، لما كان الله يعطيه!)

وأقسم ما أعطاه الله، ولكنه هو الذي أخذ. وما كان ليستقيم في ميزان العدل أن يُعطي إنسان

حتى يطفح، ويمنع إنسان حتى يجف!

أعرف في مركز (ط) عشرين بلدة يملكها من الشرق أمير ومن الغرب باشا، فليس لأحد من الأهلين فيها شبر أرض ولا جذع شجرة. إنما هم أجراء أو مستأجرون سخرتهم الغفلة والاستكانة لرجلين كسائر الرجال، ليس لبطنيهما سعة البحر، ولا لعزميهما قوة الدهر، ولا لنفسيهما عظمة الله. إنما هما فمان تملأهما المضغة، ومعدتان تكظهما الوجبة؛ ولكن لهما عينين كعين الجحيم لا تمتلئ، ونفسين كجوف الرمل لا يرتوي؛ فهما يعصران من أجساد هذه الألوف الجاهدة ذهباً يكتنز، وقصوراً تشاد، وسلطاناً يُرهب، وقطعاناً تسعى، ومراكب تطير، ورغائب تبتغى، ولذائذ تنال، وأوسمة تناط، وألقاباً تكتسب. ثم لا تدركهما بهؤلاء العبيد رحمة الخالق بالخلق ولا عناية الصانع بالآلة. فصاحب الآلة يوفر لها الشحم والوقود، ومالك البقرة يهيئ لها الحظيرة والعلف، وهما لا يتركان لفلاحيهما المساكين ما يمسك الروح ويستر البدن، ثم يلزمانهم أن يؤدوا أجرة الأرض ونفقة الإدارة قبل أن يأكلوا. فإذا أوف الزرع أو رخص السعر وعجزوا عن الوفاء، سلطا عليهم النظار والمحضِرين فأخذوا الدور التي يأوون إليها، والبهائم التي يزرعون عليها، وخلفوهم فرائس للمرض والفاقة، لا يجدون وسيلة للطب ولا حيلة للجوع. فإذا فزعوا إلى فضل الأمير أو الباشا زَمَّ بأنفه واستكبر أن يفتح عينيه على هذا الهوان والقذر، ولعله ساعتئذٍ كان يمسح خرطوم كلبه أو يرجِّل عُرْف جواده!

سكان هذه القرى العشرين يعيشون هم وماشيتهم في أكواخ من اللَّبِن لا تدخلها بهجة الطبيعة ولا تعودها رحمة الله. تقوم على أقذار البرك وفوق سباخ الأرض وعلى ظهورها المراحيض وفي بطونها المزابل. والمالكان المدللان يَغُطَّان بين الحرير والذهب، في قصور تطاول السماء، ورياض تنافس الجنة، ثم لا يتفضل أحدهما فيحمل الحكومة بجاهه ونفوذه على أن تجفف لهؤلاء البائسين بركة، أو تنشئ لأطفالهم الضاوين مدرسة. وعلة حب الباشا للمستنقعات أن نفقة ردمها على حسابه، وحجة بغضه للمدارس أنها تصرف الأطفال عن العمل في أرضه

ارجعوا يا قوم إلى الله فقد طبَّ لهذه الأدواء واحتاط لهذه الفواجع. إن هذا الأمير وذلك الباشا يملك كل منهما مليوناً من المال الذي تحول عليه الأحوال فيزيد ولا ينقص. فلو أنهما

يؤديان زكاته كما فرض الله لكان ما يدفعانه خمسين ألف جنيه في كل سنة. ولو حبسنا هذا المال الوفر على هذه القرى العشرين لما بقي فيها فقير ولا مريض ولا جاهل. وإذن تشفى الصدور من الغل، وتبرأ النفوس من الوهن، فتكثر الأيدي، وتشتد السواعد، ويزيد الإنتاج، ويزكو الريع، ويردُّ عليه ما أقرض الله أضعافاً مضاعفة. ولكن أغنياءنا أبطرتهم نعمة الله فاستغنوا بجبروتهم عن رحمته، وبملكوتهم عن جنته، وبعبادهم عن عباده؛ وكأنهم أصبحوا يرون سعادتهم في شقاء الوطن، وعزتهم في مذلة الناس!

أحمد حسن الزيات

عجوة بيض

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

- بابا. هات خمسة قروش!

- يا أخي، قل صباح الخير أولاً

- آه، صحيح، طيب صباح الخير، هات بقى!

- سبحان الله العظيم! ألا تنتظر حتى أرد عليك هذا التصبيح بالخير؟

- طيب، ردّ

فأتلكأ - أهز رأسي أسفاً، وأمصمص بشفتي معجباً، وأقلب كفي، ولكن هذا كله له آخر فيعود اللعين إلى المطالبة بالقروش الخمسة، فأسأله: (هل يليق أن تصبح أباك - على الريق - بطلب فلوس؟)

فيتعجب لي كيف أقول إن هذا غير لائق، ولا يستطيع أن يفهم أن ابتداء يوم جديد بإنفاق من المرجح أنه في غير محله، صعب على النفس جداً، فأقول له: (انتظر، حتى تكبر وتعرف بالتجربة)

فيصيح: (يا خبر أبيض! أنتظر حتى أكبر؟ لا يا بابا، أنا مستعجل، وقد وبخني المعلم أمس)

فأسأله السؤال الذي كان ينبغي أن ألقيه عليه في بداية الحوار:
- لماذا تريد خمسة قروش؟ ماذا يمكن أن يصنع طفل مثلك بخمسة قروش؟
فيقول: (أشتري بها كتاب المطالعة الإنجليزية)
فأسأله مرة أخرى: (أولم تعطك المدرسة كتاباً؟)
فيقول: (تقطع ولم يبق صالحاً للاستعمال)
- ولماذا تقطعه؟
- لست أقطعه، هو تقطع!
- تكلم بعقل، كيف يقطع الكتاب نفسه؟
- لم يقطع نفسه، ولكن المعلم يأمرنا أن نطويه، فيبلى، ويتخرق، ويتمزق
- هل تعلم أني كنت تلميذاً مثلك؟
- لا. . .
- لا؟ كيف تقول لا؟
- طيب أعلم - إنما عنيت أني لم أرك ولم أكن معك - هات بقي ثمن الكتاب
- وأنا إنما أعني أني لم أحتج في حياتي المدرسية كلها أن أشتري كتاباً مدرسياً لأن كتبي لم تكن تتقطع وكانت لا تبلى أبداً
فيضحك الخنزير ويقول: (لا مؤاخذة يا بابا، ولكن يظهر أنك كنت تلميذاً كسلان)
فأضحك مثله وأزعم أنها نكتة، ولكن الواقع أنها أصابت المحزّ، ووقعت على المفصل، فما أعرف من زملائي في عهد الدرس والتحصيل من كان أبلد مني أو أشد كسلاً. ولا أدري كيف كنت أنتقل من فرقة إلى فرقة، وأحسبهم كانوا يؤثرون أن يجبروا خاطري ويترفقوا بضعفي. ولما أتممت التعليم - أي فرغت من المدارس - وجدت عندي صفوفاً من كتب الدراسة نسجت عليها العناكب بيوتاً وقصوراً، وقد أخذها مني صديق، وأعطاني بدلاً منها كتاب (الشعر والشعراء) أو (طبقات الشعراء) لابن قتيبة، طبعة ليدن. وقد بعت هذه أيضاً بثمن غير بخس في جملة ما بعت من الكتب
ويدخل اللعين الثاني أو الأكبر فيقول بلا تمهيد، ولا تصبيح (اكتب هذه البيانات المطلوبة هنا على هذه الورقة، وسآخذ من جيبك ستة قروش، ثلاثة لرحلة إلى الهرم، وواحداً يبقى معي، ونصف قرش هو مصروفي، وقرشاً ونصف قرش ثمن برجل وعلبة ألوان)
فأصيح به (تأخذ من جيبي؟ من أدبك هذا الأدب؟ ماما؟)
فيقول (لا، إنما أريد ألا أحوجك إلى النهوض من السرير فإن الجو بارد)
فأقول (متشكر، يا سيدي، ولكن ما هذه البيانات الجديدة التي يطلبونها؟ شيء بارد!)
وتدخل (ماما) في هذه اللحظة، فتسأل عن هذا الشيء البارد ماذا عسى أن يكون؟
فأقول
(صباح الخير أولاً يا ماما، يا نور العين، ثم أني أرى كل شيء بارداً في هذا اليوم المبارك إن شاء الله - لا أحد يصبحني بالخير، وكل من يدخل علي يقول هات، ولم يكن ناقصاً إلا أن تسألني المدرسة عن عمري، كأني تلميذ فيها، ولست أستغرب أن تسألك غداً عن سنك يا امرأة، فانتظري، وأعدي الجواب من الآن، وقد أعذر من أنذر!)
وأرفض أن أعطي الولد نفقات الرحلة قبل أوانها بثلاثة أيام، وأرفض أن أذكر للمدرسة عمري - لا حرصاً مني على كتمان ذلك - بل لسببين أولهما أني لست تلميذاً بها، فلا شأن لها بي وبعمري؛ وثانيهما أني لا أحب أن أشجعها على هذا الفضول مخافة أن تسأل بعد ذلك كم سن امرأتي! وأحدث نفسي وأنا أنطق بعبارات الرفض أن من الواجب أن يكون المرء حازماً في بيت كهذا
فتقول امرأتي (ولكني أعتقد أنك لن ترفض أن تعطيني مائة وعشرين قرشاً؟)
فأثب من السرير إلى الأرض وثبة ليت مصوراً كان حاضراً فيرسمها فأنها حركة رياضية بديعة، يُرمى فيها اللحاف، وتطوى الساقان، ثم تدفعان في الهواء وسائر الجسم وراءهما، ثم إذا أنا واقف على الأرض، لم يتحطم رأسي، ولم يصبني سوء. ولم أكن أعهد في نفسي هذه القدرة، ولكن الوقت ليس وقت الإعجاب بالذات
وأصيح (مائة وعشرين قرشاً؟ أتقولين مائة. . .)
فتشير إلي أن مهلاً، مهلاً، وتسألني (ما لك تصيح هكذا؟ ماذا يقول الجيران إذا سمعوك؟)
فلا أكف عن الصياح وأنا أقول (الجيران؛ ليقولوا ما شاءوا ولكن اعلمي - أنت وهم

أيضاً - أني مستعف. . . مستقيل. . .)
فتضحك. . . أي والله تضحك. . . وتسألني (من قال لك افتح بيتاً؟)
فأرد عليها بقوة (ومن قال لك أن البيت بالوعة؟ لا يا ستي أنا مستعف. . . مائة وعشرين قرشاً؟ يا خبر أسود!)
فتلاطفني وتقول (اسمع، أسمع، وكن حليماً. . .)
فأسألها مقاطعاً (خبريني أولاً من الذي قال لك أني أنفق مما أجد تحت السجادة؟ أو إني من أهل الولاية وأصحاب الكرامات الذين يمد الواحد منهم يده من النافذة فإذا فيها إصبع من الموز! أو أن عندي آلات لتزييف النقود، أو إني ابن روكفلر، وبيير بونت مورجان وروتشلد معاً؟ هه؟ أجيبي أولاً؟)
فلا تجيب، لأنها تضحك مستخفة بأن أجد نفسي كل صباح - على ريق النفس - مطالباً بخمسات القروش للخنزير الصغير، وستاتها للخنزير الأوسط، ومئاتها. . .
وتقول (ألا تسمع؟ لماذا تأبى أن تسمع؟)
فأقول (لأني مستعف. . . هذا هو السبب. . . وسألبس ثيابي وأخرج ولا أرجع)
فتقول وهي تغالب الضحك (ألا تفطر أولاً؟ لقد أوصيت لك ببيض مقلي بالعجوة، وعصرت لك - الآن، بيدي هاتين - أربع ليمونات حلوة،. تعال افطر أولاً. . . ونتكلم على الطعام)
ترى ماذا أغرى آدم بمطاوعة حواء؟ كيف وسعها أن تجره من أنفه وتدس في فمه الواسع - لابد أنه كان واسعا - التفاحة المحرمة؟ أتراني ورثت عنه هذا الحب للبيض المقلي بالعجوة، وعصير الليمون الحلو؟
لا أدري؛ ولكني أردت أن أشيح بوجهي عنها، لأقاوم إغراء ما تصف، وأغالب سحره، فطالعني وجهي في المرآة، فإذا هو يبتسم، وما كان يسعني بعد أن عرفت أني أبتسم، أن أظل متجهما.
وجلسنا إلى السفرة وشربت عصير الليمون، فشاع الاغتباط في كياني؛ وجاء الطبق وفيه البيض والعجوة، ففركت يدي، ودفعت طبقي إلى امرأتي وقلت: (الله يرضى عنك يا امرأة! هاتي! هاتي! وليسخط علي الأطباء ما شاءوا وما وسعهم السخط؛ وليزعموا أني أزيد معدتي تلفاً، فما أباليهم، أو أحفل مشوراتهم. هاتي، هاتي. . . ترى ماذا أذكرك العجوة والبيض. . لا، لا، لا. . هذا لا يكفي. . . إني أتضور جوعا. . . أكثري، أكثري)
فتقول (معدتك تتلف. . . يكفي هذا المقدار)
فأصيح: (لا لا. . . على رأي العامة (هم، وقلة مم!) هاتي، ولا تخافي)
فتقول: (هل معنى هذا أنك ستعطيني ما طلبت؟)
فأصيح (يا ستي خذي ما شئت. . . كلّي لك. . . ولكن هاتي من هذا واكثري)
فتنهض وهي تقول (ومعدتك؟)
فأقول (سننظر في أمرها فيما بعد. وأحسب أني لن أعدم طبيباً يستطيع أن يسكن آلامها. أتعرفين أنه يخطر لي أن الطب قد أخفق لأنه لم يستطع إلى الآن أن يغنينا عن المعدة؟ فليت هناك دكانا تباع فيه أعضاء جديدة من الجسم تركب له وتتخذ بدلا من التي تتلف، على نحو ما تباع قطع السيارات! إذن لوسعني أن ألتهم كل ما في هذا الطبق الشهي. ولكن آخ!)
وأجدني أكلم نفسي، فأتلفت مستغربا، وإذا بها تعود ويدها مبسوطة بمائة وعشرين قرشا
فأهز رأسي وأسألها
(ما حاجتك إلى كل هذا؟)
فتخبرني أنها دعت (أم أحمد) وأنها تنوي أن تكلفها شراء ثياب لكسوة الخدم، فقد آن ذلك جداً، وقد اختارت أم أحمد لأنها ممن أخنى عليهن الذي أخنى على من نسيت اسمه - آه لبد، يا له من اسم! - فهي تحب أن تكل إليها أمر الشراء لتكسب قرشين، فإنها تأبى الصدقة.
فأهز رأسي موافقاً، ثم أنهض عن المائدة راضيا وأقول لها بابتسامة عريضة: (مائة وعشرون قرشا ثمناً لأكلة عجوة بالبيض! لست أراه باهظاً جداً. . . لا بأس! لا بأس!

سيرزقنا الله من حيث لا نعلم، فلا تخافي، وانفقي ما في الجيب يأت ما في الغيب
إبراهيم عبد القادر المازني
من برجنا العاجي
نفسي بطبيعتها لا تنزع إلى ترف الحياة. ولقد عشت إلى وقت قريب ضالاً. ليس لي بيت مستقر ولا راحة موفورة. ولا حتى مكتبة خاصة تعينني على عملي الأدبي. إلى إن اوهمني بعض الناس أن مكانتي كأديب تقتضي أن أغير هذه الحياة. فأصغيت إلى هذا الكلام واتخذت لي مسكناً أنيقاً في أجمل بقاع القاهرة يشرف على النيل. واقتنيت سيارة جميلة، وجعلت لي مكتبة تزينها التحف والتماثيل. وأكثرت من حولي الخدم يعنون بأمري. وأعجبني قليلاً مظهري هذا الذي يماثل مظهر أدباء أوروبا المشاهير. وغرني الحال. وحسبت أننا نتمتع في الشرق بمثل ما يتمتعون من قوة وحرية ومنعة. فانطلق قلمي مرة يبدي رأياً صريحاً في مسألة قيل أنها تمس السياسة. وإذا أنا أقع فريسة لإجراءات مهينة، فألتفت يميناً وشمالاً أبحث عن عالم الأدب يتولى الدفاع، لا عني بل عن حرية الفكر المهدرة. فلم أجد أحداً من الأدباء قد تحرك. ولم أر صحيفة قد همها الأمر. وخرست كل تلك الجرائد التي طالما رفعت صوتي على صفحاتها، واتفق الكل اتفاقاً طبيعياً على إهمال الموضوع. ولم يحفل أصدقائي ولا زملائي ولا قرائي بما حدث لي. ولم يدركوا الخطر الذي يهدد الأدب والأدباء إذا هم شعروا يوماً أنهم لا يستطيعون أن يخرجوا ما في نفوسهم. (أديب واحد كبر عليه الأمر وأدرك الخطر ونهض في قلق يحادث المسؤولين ويناقشهم، هو كاتب عظيم يعد فخر أدباء الشرق في العصر الحاضر. وصداقته لي معروفة من زمان، وأن كنت مع الأسف لم أقدرها قدرها في كل الأحيان)
على أن الحادث في جملته قد هز عقيدتي في منزلة الأدب وفجعني لا في شخصي، ولاكن في مركز الأديب في الشرق، فقد أيقنت أن ما يسمونه (المكانة الأدبية) إنما هي وهم من الأوهام. وأن الأدباء أنفسهم هم المسئولون في أكثر الأحوال عن انخفاض شأنهم في المجتمع لخذل بعضهم بعضا
وأحسست من نفسي الذلة، فتركت سكني وسيارتي وخدمي، وعدت من جديد أعيش شريداً، كما يستحق أديب في الشرق أن يعيش.
توفيق الحكيم
شعر مهيار
للأستاذ عبد الرحمن شكري
قال أبن خلكان في كتاب وفيات الأعيان (هو أبو الحسن مهيار بن مرزويه الكاتب الفارسي الديلمي الشاعر المشهور؛ وكان مجوسياً فأسلم. ويقال أن إسلامه كان على يد الشريف الرضي أبي الحسن محمد الموسوي وهو شيخه وعليه تخرج في نظم الشعر، وقد وازن كثيراً من قصائده). نعم أخذ مهيار عن الشريف الرضي وسلك مسلكه في فخامة اللفظ وقرب التشبيه والاستعارة ونغمة الوزن وتحكيم الوجدان والتباعد عن المعاني التي يمجها الذوق والوجدان إلا في القليل مثل قوله في الغزل:
غار المحبون من أبصار غيرهم ... ضَنّاً وغرت على لمياء من بصري
إذ أن هذا معنى غير مستقيم ولا يقبله الذوق وإن كان للشعراء مثله. ولا أذكر الآن هل للشريف مثله أم ليس له. ومن دلائل التكلف أحياناً في شعر مهيار أن له قصيدة في الرثاء بها يرثي أهل البيت رضي الله عنهم ومطلعها غزل وهو: (في الظباء الغادين أمس غزال) وجاء في غزلها ذكر الملال والدلال وما إلى ذلك. وهذه أقوال لا تستقيم مع الرثاء عموماً ورثاء أهل البيت خصوصاً. وعلى أي حال فإن أستاذه الشريف أكثر طبعاً؛ وإن كان الشريف أحياناً يقبل معاني الغزل المعتاد الشائع في عصره، ولكن نصيبه من عبث الحضارة أقل من نصيب مهيار، وأقل من نصيب غيره من شعراء الدولة العباسية. ومن أجل متابعة مهيار له سلم في أكثر شعره من هجنة الذوق الحضري العابث، ولكنه من أجل هذه المتابعة لم يُدخِلْ في العربية أثراً من الثقافة والنزعة الأدبية الفارسية. وكنا نأمل أن نجد لمهيار ابتكاراً بسبب جمعه بين الحضارتين الفارسية والعربية، ولكن طريقة الشريف كانت عربية بدوية أكثر منها حَضَرِيَّةً، فنزع مهيار هذا المنزع؛ ولم يكتف بذلك بل إنه بَرَّزَ في أبواب القول التي بَرَّزَ فيها الشريف مثل الغزل الوجداني الرقيق، والرثاء والإخوانيات والعتاب وشكوى الزمان وأهله؛ وبَرَّزَ

أيضاً في المديح بحكم مهنته. وهو أحياناً يحتذي طريقة الشريف في المديح بوصف عادات البدو في معيشتهم فيقول:

ضربوا بمدرجة السبيل قبابهم ... يتقارعون بها على الضِيفان

ويقول:

كأنَّ حديث من يُثْنِى عليه ... حديث القين عن نصل يماني

والمديح هو الباب الذي كان فيه مهيار أكثر استرسالاً من أستاذه بحكم منزلته وبحكم ترفع الشريف الذي يخاطب الخليفة فيقول له إنه لا فرق بينهما:

إلا الخلافة ميزتك فإنني ... أنا عاطل منها وأنت مطوق

ويقل تبريز مهيار في أبواب الشعر التي يقل فيها تبريز الشريف، فلا ينتشي مهيار بما يصف كما ينتشي أبو تمام في وصف الطبيعة، وكما ينتشي البحتري وابن الرومي. ولكن وصف الشريف أقوى وأعرق في الشعر من وصف مهيار. أنظر إلى قول الشريف في وصف القلم:

وينطق بالأسرار حتى تظنه ... حواها وصفر من ضمير أضالعُه

أو قوله في وصف الذئب:

إذا فات شيءٌ سمعَهُ دل أَنْفُه ... وإن فات عينيه رأى بالمسامع

وهذه القصيدة تذكرني قصيدة البحتري التي مطلعها (سلام عليكم لا وفاء ولا عهد) وفيها وصف للذئب منه قوله:

كلانا بها ذئب يُحدِّث نَفسه ... بصاحبه والجد يُتْعِسُه الجد

وتُذْكِر أيضاً والشيء يذكر بالشيء أبيات الفرزدق في وصف الذئب الذي قراه وأطعمه بعكس ما فعل الشريف والبحتري، وهي التي مطلعها (وأطلس عسال وما كان صاحباً).

أما مهيار فله شعر كثير في الوصف أكثره في وصف الشمع أو السمك أو الطبل أو الإسطرلاب الخ. وهو ليس من الطراز الأول. وله أبيات في وصف السماء وهو موضوع كبير يشمل حسنها في مظاهرها المختلفة، ولكنه لم يوفه حقه. وله قصيدة في وصف آلات زينة صناعية في بركة، ولكنها على شهرتها لا تدل على أن الشاعر قد انتشى بموضوعه، فمهيار إذاً لا يُبْرِزُ في الوصف كما يبرز في الموضوعات الأخرى التي ذكرناها وبَرَّزَ فيها أستاذه

والذي جعلنا نأمل أن يبتكر مهيار وأن يدخل شيئاً من أثر الثقافة الفارسية هو ما رأيناه من ابتكار أبن الرومي وما لعله من أثر نسبه الدخيل، وإن كان ابن الرومي قد غلبت عليه النزعة العربية أكثر مما غلبته النزعة الرومية. ومهيار يفتخر بسؤدد الفرس فيقول: إنه

جمع المجد من أطرافه (سؤدد الفرس ودين العرب) ويفتخر بفصاحتهم فيقول: (وفيهمُ أَلْسُنُ البيان) ويقول:

إنْ تُنْكِرِي قومي فعن ... دك من بقيتهم بيانْ

وقد نظرنا في شعر هذا الفارسي فوجدناه أكثر عروبة من شعر بعض الشعراء العرب من سكان العراق وفارس، وكان هؤلاء يتملحون ويتجملون بألفاظ فارسية في بعض الأحايين. ونحن لم نطلع على شعر لشعراء دولة الفرس قبل الإسلام، ولا نعرف إن كان شعرهم قد بقي، ولكنا أطلعنا على منتخبات لشعراء الفرس بعد الإسلام عندما استقلت فارس بسبب ضعف الدولة العباسية وسقوطها، وبعضهم أيضاً كان يكتب أيام حكم التتر، وهذه المنتخبات لعمر الخيام وحافظ الشيرازي والسعدي والفيروزي والجامي والنظامي وأنوري وفريد الدين العطار وجلال الدين الرومي وابن جمين لا تختلف كثيراً عن شعر شعراء الدولة العباسية من العرب إذا استثنينا ما في بعضها من قصص تاريخ الفرس القديم التي صارت في هذا الشعر أشبه بالأساطير الإغريقية في شعر هومير وغيره؛ وإذا استثنينا أيضاً الأساطير التي حاكها بعض هؤلاء الشعراء في موضوع حياة الطيور والحيوانات الخ على طريقة الخيال الآري. ولم أجد في شعر مهيار أثراً لذلك وإن كان يقرب من الحضارة الفارسية في وصفه بعض مظاهر الترف، لأن الحضارة العباسية العربية كانت شبه فارسية، إذ قد أخذ العرب في العراق وفارس من مذاهب الإحساس والفكر والحضارة الفارسية، حتى أن بعض المؤرخين سمى الدولة العباسية، بالدولة الفارسية العربية. وقد رد العرب هذه المذاهب المستعارة من

مذاهب القول والإحساس والفكر إلى شعراء الفرس المسلمين الذين ظهروا عندما استقلت فارس عن الدولة العباسية؛ وهذه هي أسباب أوجه التشابه بين هؤلاء الشعراء وبين شعراء الدولة العباسية العربية. فمهيار لا يقترب في قوله من الثقافة الفارسية والحضارة الفارسية إلا من حيث اقترابه من نزعة شعراء العربية في الدولة العباسية.

وهو كما أوضحنا غير مندفع فيها كل الاندفاع ولا منغمر فيها بسبب احتذائه طريقة الشريف في محاكاة النزعة البدوية؛ وهو مع ذلك له شعر في مظاهر من تلك الحضارة لم يطرقها الشريف كوصفه للخمر كما في الأبيات التي يقول فيها:

من فم إبريقها إلى شفة الكأ ... س عمود الصباح ممدود

وقد أغرق في تحسين السكر في قصيدته التي يصف فيها آلات الزينة في البركة ومطلعها:

نديمي وما الناس إلا السكارى ... أدرها ودعني غداً والخمارا

وَعطِّلْ كؤوسك إلا الكبير ... تجِدْ للصغير أناساً صغارا

وقد أنقذته محاكاته للشريف من أن يكون أكثر شعره على هذه الوتيرة. وقد ذكرنا أن الوصف في هذه القصيدة لا يُحدث للقارئ نشوة شعرية، وإنما النشوة فيها نشوة مادية للشاعر بالخمر كما ترى. وعندي أن بيتاً واحداً في الوصف للمعري، وهو ليس من شعراء الوصف، قد يُحدث نشوة شعرية للقارئ أكثر مما تحدثه قصيدة في الوصف لمهيار. أنظر إلى قول المعري:

ليلتي هذه عروس من الزن ... ج عليها قلائد من جمان

وكلمة (هذه) في البيت لها أثر كبير في الوصف. وبعض وصف مهيار على سبيل الأحاجي والمعميات وهذا ليس من الوصف العالي

ويجوز لنا أن نقول أن منزلة مهيار من الشريف كانت كمنزلة البحتري من أبي تمام من حيث احتذاء الطريقة. وقد هجا ابن الرومي البحتري فقال:

والفتى البحتريُّ يسرق ما قا ... ل حبيب في المدح والتشبيب

كل بيتٍ له يُجَوِّدُ معنا ... هـ فمعناه لابن أوس حبيب

وهذه مبالغة المنافس القادح الزاري. إلا أنه مما لا شك فيه أن البحتري على عظم منزلته كان محاكياً أكثر من ابن الرومي. وقد وجدنا أن مهيار يعزب عن نهج الشريف في بعض قوله وروحه. ولا غرو فأن النبات إذا نقل من مكان إلى مكان كانت ثمراته شبيهة بثمرات نوعه من نبات المكان الثاني، وكذلك طريقة الشعر إذا نقلت من شاعر إلى شاعر، فهي يصدق فيها قول الشريف في الآمال:

وتختلف الآمال في ثمراتها ... إذا شرقت بالري والماء واحد

ولمهيار قصائد عديدة ذات نغمة موسيقية عذبة كنغمة قصائد الشريف العذبة، وهو لا يقل عن الشريف في هذه الموسيقية بل قد يزيد أحياناً، ولكن الوجدان الشعري في ثنايا موسيقية الشريف أكثر طبعاً وغزارة؛ وقد يقل الوجدان وتقل الموسيقية في قصائد مهيار المطولة في المدح على أناقتها، ولكن القارئ يشعر في بعضها إطالة الناثر القدير وتوقف الكاتب في

تدبيج المديح أكثر مما يشعر من اندفاع السيل الشعري الأتيّ؛ ولكن أسباب هذا الشعور أن مهيار كان كاتباً قديراً وأنه أوتَيَ سهولة كبيرة في النظم ونفساً طويلاً جداً. وفي بعض مدائحه يحس القارئ سرعة اندفاع الوزن ولكنه يحس أيضاً أن سهولة النظم وطول النفس قد سبقا شاعرية الشاعر. وهذه هي جناية المدح على الشاعر وجناية نظم الشاعر بالأمر أو الطلب أو للحاجة واكتساب الرزق، وهذا أمر يشترك فيه كثير من شعراء الصنعة مع مهيار، إلا أن ما أضر الشعر من ناحية قد أفاده من ناحية أخرى، فقد أصبحت قصائد الصنعة التي ليس فيها اندفاع سيل العاطفة الشعرية نماذج تحتذى في المدارس وفي غير المدارس لتقويم لسان الناشئين المبتدئين؛ ولكن الخطر قديماً وحديثاً هو إما أن يمل الناشئ اللغة بالرغم من طلاوة النماذج وأناقتها لافتقاده سيل العاطفة، وإما أن يظل طول عمره على النماذج الإنشائية لا يطلب وراءها روحاً أو معنى أو وجداناً. ولقد نجى الشريف من أن يكون بعض شعر المدح من شعره نماذج إنشاء فحسب أنه كان يترفع عن التكسب بالشعر أو كانت له عنه مندوحة. والشريف لم يكثر إكثار مهيار وإن كان الشريف مكثراً جداً إذا قيس بالمتنبي أو أبي تمام

وبالرغم من إطالة مهيار في القصيدة الواحدة إطالة كبيرة في المدح، وبالرغم من مؤاتاة سهولة الوزن له فقد كان يهذب ويشذب ويتأنق ويسيء بالإحسان فيها ظنا حتى يقتنع ذوقه بدليل قوله: -

وأُسيءُ ظنا وهي مُحسِنةٌ ... لا كالمسيء ويحسن الظنا

ولعل هذا سبب ولوعه بإطراء شعره في شعره فقد قال في قصائده:

لكنها من معدن لم يكن ... بِسرِّهِ ينبع إلا لِيا

وزاد على هذا فجاء بقول يشبه أقوال المتنبي فقد قال مهيار:

ظهرت بآيتي في غير قومي ... ولم أنظر بمعجزها أواني

أي ظهر قبل ظهور الجيل الذي يستطيع أن يقدره

ولقد قالوا أن الشريف قد اشترك في كتابة بعض ما ينسب إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه في كتاب (نهج البلاغة) وهذا شيء لا يصدق لبعد التزوير من أخلاق الشريف الرضي. وعلى أي حال فليس في شعر الشريف ما يذكرنا بأنه كاتب ناثر، وإن كان له في

النثر فضل كبير. وأحسب أن ابن الرومي لو شاء أن ينبغ في النثر نبوغه في الشعر لاستطاع لتقصيه الأجزاء وتتبعه، واتساق كلامه وربط بعضه ببعضه واستطراده وضربه الأمثال وإشاعته المعنى في أكثر من بيت، وما إلى هذه الصفات من صفات؛ ولكن الشعر ملك عليه وقته ونفسه وحاجات لبه وغلبت عليه سهولة النظم. ولم يصل إلينا شئ من نثر مهيار وإن كانت الكتابة هي الصفة المقدمة في كلمة ابن خلكان عنه. ولعل شعره في المدح وغيره من أغراض الأمراء والحكام يغني عن نثره لفظاً ومعنى. ولأناقة مهيار في أسلوبه سببان: الأول محاكاته طريقة الشريف الرضي، والثاني هو أن الدخيل إذا اعتنق لغة حتى تصير لغته واحتاج إلى النبوغ فيها والتكسب بها اضطر إلى التأنق أكثر من اضطرار الأصيل الذي يعتز بأصالته فلا يتعمد المغالاة في التأنق. ومن أجل ذلك كان مهيار أكثر أناقة في الأسلوب من كثير من شعراء العرب في الدولة العباسية ولاسيما شعراء عصره. وليست أناقته بمستحيلة إذ أن عمدة النحو العربي رجل فارسي مثله وهو سيبويه، وهو مثل آخر من أمثال هذه الظاهرة، وهي أن الدخيل قد ينبغ أكثر من الأصيل في لغة بسبب اضطراره إلى استبطان دخائلها، وهي ليست قاعدة عامة بل هي من الأمور الغريبة كغرابة إتقان الكاتب البولوني جوزيف كونراد للغة الإنجليزية وكتابة قصصه بها حتى صارت كتبه تعد من ذخائر الأدب الإنجليزي وحتى صار يعد أديباً إنجليزياً لا بولونياً

وقد أخذ مهيار عن الشريف سر الموسيقى الشعرية وهي لا تتوقف على الوزن وحده بل على الوزن وعلى أسلوب الشاعر في الإفصاح عن إحساسه. ومن قرأ قصيدة الشريف التي مطلعها: (ضَرَبنَ إلينا خدودا وِساما) أو التي مطلعها (أَرَاكَ ستحدثُ للقلب وجدا) أو التي مطلعها (اسلمي يا سرحة الحي) أو التي نطلعها (يا ظبية البان) وغيرها من أشعار الشريف ثم يقرأ شعر مهيار الموسيقي يحس كيف أتقن التلميذ سر تلك الموسيقى كما في قول مهيار:

أتراها يوم صدت أن أراها ... علمتْ أني منْ قتلى هواها

إلى أن يقول:

أُعْطِيَتْ من كل شيء ما اشتهت ... فرآها كل طرف فاشتهاها

أو قصيدته التي يقول في مطلعها:

لواعج الشوق والغليلْ ... عَلَيَّ أحنى من العذول

أو التي يقول فيها:

آه على الرقة في خدودها ... لو أنها تسري إلى فؤادها

أو التي يقول فيها:

واذكرونا مثل ذكرانا لكم ... رُبَّ ذَكرَى قَرَّبَتْ من نزحا

أو التي يقول فيها:

أأنتِ أمرتِ البدر أن يصدع الدجا ... وعَلَّمْتِ غصن البان أن يتميّلا

أو التي يقول فيها:

وهَبْكُم منعتم أن يراها بعينه ... فهل تمنعون القلب أن يتمناها

ولو أن أساتذة فن الغناء في عصرنا هذا شاءوا لوجدوا في شعر مهيار نبعاً لا ينضب

معينه من الموسيقى والغناء. فيا حبذا لو لحنوا الكثير من قصائده الموسيقية. وقد نبغ مهيار أيضاً في الرثاء كما نبغ الشريف؛ ومن أكثر قصائده في الرثاء وجداناً قصيدة قالها في فتى كان قد تبناه ورباه وهي التي يقول فيها:

فُجِعْتُ به غض الشمائل والهوى ... مُسِنَّ الحِجَا والفضل مقتبل السن
على حين قامت للمنى فيه سوقها ... وحقت شهادات المخايل والظن

ومن قصائده البارزة في لرثاء القصيدة التي مطلعها (مَنْ حاكم وخصوميَ الأقدار) والتي مطلعها (نعم هذه يا دهر أم المصائب) ويقول فيها:

سلامٌ على الأفراح بعدك إنها ... وإن عِشت ليست إربة من مآربي

ومنها قصيدته في رثاء عبد العزيز بن نباتة السعدي اللامية التي يقول فيها:

أَفَلَم يَرُعها منك نَفس حُرَّة ... كنتَ الوحيد بها وأنت قبيل

وقصيدتاه في رثاء الشريف الرضي مشهورتان ولاسيما الدالية التي مطلعها (أقريش لا لفم أراك ولا يد). وقد نبغ مهيار أيضاً في شكوى الزمان والإخوان، وله في هذا الباب أشعار كثيرة مثل قوله:

وأخ مع السراء من عُدَدِي ... وعليَّ في الضراء والشر
مولاي والأحداث مُعْمَدَةٌ ... فإذا انتُضِين فَرَى كما تَفرِي
تَعِبٌ بحفظ هَنَاتِ ميسرتي ... كيما يُعَدِّدَها على العسر

ومن شعره في هذا الباب قوله من قصيدة رائعة:

وقلوب أعدائي الذين أخافهم ... مغلولة لي في جسوم أحبتي

ولمهيار قصيدة في العتاب بلغت منزلة عالية وهي التي يقول في أول العتاب منها:

يا أهل ودي وما أهلا دعوتكم ... بالحق لكنها العادات والدرب

وفي اللغة العربية قصائد بارزة في العتاب يصح أن تكون في باب وحدها وإن تفاوتت مراتبها ومنها هذه القصيدة لمهيار وقصيدة البحتري التي أولها (يهون عليها أن أبيت متيماً) والتي مبدأ العتاب قوله (عذيري من الأيام رَنَّقْنَ مشربي) وقصيدة ابن الرومي التي مطلعها (يا أخي أين ربع ذاك اللقاء) وقصيدة سعيد بن حميد التي مطلعها (أَقلِلْ عتابك فالبقاء قليل) وقصيدة المتنبي التي مطلعها (وا حرّ قلباه ممن قلبه شَبِمُ) وقصيدة الطغرائي التي مطلعها (على أثلاث الوادِيَيْنِ سلَامُ).

وفي الهجاء يحتذي مهيار الشريف أيضاً. قارن بين قول الشريف الرضي (من كل وجه نقاب العار نقبته) وقوله (يَصْدَى من اللؤم حتى لو تُعَاوِدُهُ) وبين قول مهيار: -

وملثمين على النفاق بأوجه ... صم يصيح اللؤم من قسماتها

ولمهيار أبيات كثيرة ضائعة في ثنايا مطولاته وهي أبيات يصح أن تشتهر وأن يتمثل بها. مثل قوله:

والشامة البيضاء تنعت نفسها ... لوضوحها في الجلدة السوداء

وقوله:

يقول المرء ما يهوى ويرجو ... ويفعل فعله الفلك المدار

وقوله:

يسمون عيشاً في الخمول سلامة ... وصحة أيام الخمول سقام

وقوله:

ونشتكي دهرنا والذنب ليس له ... والدهر مذ كان مظلوم ومتهم

وقوله:

تقام على الفقير وما جناها ... إذا وجبت على المثري الحدود

وقوله وهو ليس من الهجاء بقدر ما هو حقيقة عامة في كل النفوس: -

يجهلني بديهة وإنه ... يزداد جهلاً بيَ كلما امْتَحَنْ

عبد الرحمن شكري

المجمع اللغوي

وإصلاح لغة الحياة اليومية

للأستاذ عبد القادر المغربي

عضو المجمع

ذكرنا من قبل أن المجمع اللغوي قد اتجه إلى الاتصال بالمصالح الشعبية لتناول الرأي معها في المصطلحات. وقد

سألنا صديقنا الأستاذ المغربي عن الطريقة التي بسط فيها رأيه في وجوب عناية المجمع بكلمات الحياة اليومية والحاجة الداعية إلى هذه العناية فأرسل إلينا هذا المقال.

أمهات الأعمال التي قام بها المجمع في دوراته الماضية خمس:

1 - أوضاع في العلوم والفنون لطلاب المدارس

2 - كلمات في الشئون العامة لجمهور المتكلمين باللغة العربية

3 - تسهيل قواعد اللغة

4 - كتابة الأعلام الأجنبية بوضع علامات اصطلاحية على الحروف العربية

5 - الاهتمام بوضع معجمين: أحدهما علمي للطلاب والآخر لغوي لجمهرة المثقفين

وقد بذل المجمع همة عالية في مباشرة أعماله هذه وكان سعيه موفقاً فيها. اللهم إلا ناحية واحدة من هذه الأعمال مازالت محتاجة إلى عناية وتخير أقرب الطرق لحسن الإنتاج فيها

وأريد بتلك الناحية إصلاح لغة الحياة اليومية التي ترجم لها المجمع بقوله (كلمات الشئون العامة) - كأدوات المنازل وما تتناقله الألسنة والأقلام في الدواوين والأندية والمدارس والمتاجر مما يعبر عنه بألفاظ دخيلة أو عامية: فقد وضع المجمع لهذه الشئون أكثر من مائتي كلمة. ومن مواضع العجب أن هذه الكلمات تكاد تكون وحدها مثار اللغط في نقد المجمع والغض من قيمة إنتاجه

وهذا يدل على أن (كلمات الحياة العامة) هي أول ما يتشوّف إليه الجمهور من نتائج أعمال المجمع. لأن اللغة اليومية أصبحت قطعةً من حياته وجزءاً من عقليته. فلا جرم أن يكون إصلاحُ هذه اللغة وتقويمُ اعوجاجها مثَلَه الأعلى وموضع رغبته المُلحَّة على اختلاف الطبقات:

من طلاب المدارس الذين أضربوا منذ أشهر وكان من جملة شروط الرجوع عن إضرابهم أن تدخل اللغة العربية في البنوك الأجنبية كما أشار إلى ذلك بعض الصحف اليومية

- إلى رجال الصحافة الذين قال أحدهم في (رسالته): (تريد اللغة العربية من أولياء العهد الجديد أن تأخذ مكانها الشرعي في المحاكم المختلطة، وأن تُطَهَّر من شوائب العُجمة في الدواوين والقوانين والجيش)

- إلى طبقة التجار والمستبضعين الذين كان تَعَرَّض لي أحدهم في الشارع وسألني أن أتوسط المجمع في وضع كلمة عربية تقوم مقام كلمة (مانيكور الفرنسية ويراد بها علبة تتضمن مجموعة أدوات تُسَوَّى بها الأظفار وتجمَّل. فلم أوفق إلى إجابة سؤله واستمهلته ريثما يأتي دور هذه الكلمة في (كلمات الشئون العامة) التي يضعها المجمع. أجبته بهذا وأنا خجِلٌ وكأنني أسمعه يقول لي: إلى أن يأتي دور هذه الكلمة تكون تغلغلت في لغتنا، ومَرِنت عليها ألسنةُ زبائننا والمستَخْدمين في مخازننا، فيصعب إذ ذاك تطهير اللغة منها. هكذا تخيَّلته يقول لي. ومازلت أتحين الفرص للعود إلى الحديث مع المجمع في هذا الموضوع حتى كلَّفتني إدارته أخيراً تهيئة اقتراح أقدمه إليه في جملة الاقتراحات التي طلبت من الأعضاء

فقلت: ها قد سنحت الفرصة لاستمالة نظر الإخوان إلى هذه المسألة التي إذا قضوا فيها أمراً كان قضاؤهم مؤدياً إلى إصلاح اللغة اليومية. وهو ما يرغب فيه الجمهور بأشد من رغبته في أعمال المجمع الأخرى: فإن المصطلحات الفنية التدريسية، وتسهيل قواعد اللغة، وكتابة الأعلام الجغرافية، ووضع المعاجم، وتحقيق ألفاظها التاريخية - كل ذلك على ضرورته، إنما تلمس فائدته بعد سنين. ولا يلمسها ويستفيد منها إلا طبقة المثقفين. فتبقى الحاجة ماسة والنقص ظاهراً في نتائج أعمال المجمع في نظر الجمهور كما يبقى المجال واسعاً أمام الناقدين.

والحق يقال إن اكتفاء المجمع في أن يضع من نفسه لنفسه كلمات يسميها كلمات الشئون العامة ومعظمها من غريب اللغة ثم يودعها معجمه أو مجلته - محاولة قليلة الفائدة لا تحقق الجانب الأعظم من المثل الأعلى الذي أنشئ المجمع لأجله، ولا تشفي غلة جمهور الراغبين في تعميم الإصلاح لكل ناحية من نواحي الثقافة اللغوية.

ولا يخفى أن حكم الجمهور - في عرض المعلومات اللغوية عليه - ليس كحكم تلاميذ المدارس الذين تملى عليهم إرادة أساتذتهم فيتلقَّوْنها من دون تذمر ولا مناقشة، وإنما

الجمهور كالمستهلك أمام مخزن التاجر وبضاعته. فإن وافقت ذوقه وإلا هجرها وبحث عن أخرى غيرها.

وفي المادة الثانية من مرسوم إنشاء المجمع الملكي إشارة إلى أن هنالك طرقاً يمكن سلوكها في جعل اللغة العربية وافيةً بحاجات الحياة في العصر الحاضر. وذلك (بأن يُحدد في معاجم أو تفاسير خاصة أو بغير ذلك من الطرق ما ينبغي استعماله أو تجنبه من الألفاظ والتراكيب)

فأنا أرى أن يستفيد المجمع من هذه الطُرُق التي أشار إليها المرسوم (في جعل اللغة وافيةً بحاجات الحياة في العصر الحاضر) فتتألف لجنة من أعضائه تسمى (لجنة لغة الحياة العامة) أو (لجنة اللغة اليومية) ويكون لها فوق ذلك وظيفة الدعاية والنشر والاتصال بجمهور المتكلمين اليوميين على اختلاف أعمالهم ومصالحهم. فتتلقى من إدارات الصحف والدواوين والمحاكم والجمارك والبنوك والمعامل والمتاجر بل من كل سائل الإشكالَ الذي يعرِض له في شأن وضع كلمة عربية مكان كلمة أعجمية، أو استعمال تعبير فصيح مكان تعبير دخيل، أو غير ذلك من الأسئلة المتعلقة باللغة اليومية مفرداتها وتراكيبها. .

وتعلن اللجنة اشتراطها على السائلين ألا تتجاوز أسئلتهم الاثنين أو الثلاثة لتتمكن من موافاة رغبتهم بالسرعة المطلوبة فتقرُّ بعض الكلمات أو التراكيب المختلف في صحتها أو تضع مكانها كلمات أو تراكيب عربية ثم تأخذ رأي المجمع فيما فعلت، ثم تنشره في الصحف اليومية تحت عنوان (أوضاع لغوية مؤقتة) فتسمع رأي الفضلاء في هذه الأوضاع وتعّدل فيه وتحوّر حتى تنتهي إلى نتيجة يطمئن إليها القلب ويُرضى أكثرية السائلين، والصحف اليومية ومحرروها هم لعمري أول من يحسن أن تعتمد عليهم اللجنة

في مؤازرتها وترويج عملها

نعم إن في هذا العمل كلفة وفيه مشقة، ولكن فيه فائدة عاجلة، وإجابة رغبة مُلحة، وإصلاحاً مباشراً محسوساً

هذا هو الاقتراح الذي قدمته إلى المجمع ويكفيني منه أن يقبله مبدئياً ثم هو ينظر في تنظيمه وتهيئة الوسائل التي تجعله منتجاً مثمراً

على أن اقتراحي هذا له التفات إلى اقتراح آخر علاقته به علاقة البناء بالأساس. ذلك أن قرار (التعريب) الذي وضعه المجمع في دورته الأولى كان مضيقاً جداً مذ جُعل التعريب فيه من حق عرب الصدر الأول بحيث لا يجوز لنا نحن أن نقدم عليه ونقتحم حرمه إلا عند تحقق الضرورة القصوى. وتحديد هذه (الضرورة) من أصعب الأمور. كما أن إبهامها وشمول لفظها يؤدي بطبيعة الحال إلى جدل واختلاف كبير

ولعل المجامع اللغوية التي كانت تقوم في القاهرة لم تخفق في عملها إلا لاصطدامها بصخرة التعريب وتضييق الخناق فيه

فاللجنة التي اقترحت تأليفها وسميتها (لجنة لغة الحياة العامة) لا أراها تبلغ غرضها وتؤتي أكلها ما لم يعدِّل المجمع قرار التعريب المذكور، فيجيز التعريب لنفسه بشروط أرفه وأوسع مما فصله في توجيه قراره الذي نشره في الجزء الأول من مجلته

فإن قدرت اللجنة على إقناع المجمع بذلك وإلا فلتقنعه على الأقل بلزوم قبول الكلمات الدخيلة اليومية المتفشية في لغتنا، والتي أصبح من المتعذر تطهيرها منها بالرغم من وضعنا لكثير منها مرادفات عربية فصيحة فماتت الفصحى وبقيت هي، أو بقيت الفصحى حية بجانبها: مثلما بقيت كلمة (بريد) حية بجانب كلمة (بوسطة)، و (حوذي) بجانب كلمة (عربجي)، و (ردهة) بجانب (صالون)، و (مضخّة) بجانب (طلمبة)، و (فندق) بجانب (أوتيل)

ولم تقو هذه الكلمات العربية على إماتة الأعجميات، كما لم تقو كلمات (المغْد. والكهكَب. والأَنَب. والحَيْصل. والحدَق) العربية على إماتة أختهن الأعجمية. أعني كلمة (الباذنجان)

وهأنذا أذكر طائفة من الكلمات المعربة الفاشية إلى أقصى حد في لغتنا اليومية لتكون نموذجاً لما أريده بالكلمات العصرية التي لا تمكن إماتتها وينبغي الترخص في استعمالها:

سينما. صالون. عَرَبة. عربجي. كلسون. جرنال. دستة. غاز. سراي. بلكون. شاويش. طاولة. سَبَت. شوال. بنك. بوسطة. فُرْشة. شنطة. فِلْم. كادر. أوتيل. كُبْري. بُرْنيطة. طلمبة. بوفيه

ولماذا لا يكون لهذه الكلمات التي وُلدت تحت مواقع أبصارنا حق في الحياة أسوة بكلمات أعجمية أخرى توارثنا استعمالها من دون نكير ولا يعرفها سلفنا الأول مثل كلمة: بقجة. بُودَقة. بركار. تخت. درابزين. دربس. دَرْفة. ماهيّة. طربوش. فوطة. الخ

ويمكن تلخيص اقتراحي في هاتين الجملتين:

1 - وجوب الاتصال بالجمهور للاستعانة به في إصلاح لغته

2 - تعديل قرار التعريب: إما بتجويزه للمجمع، بمقياس أوسع، وإما باستثناء المعربات الحديثة التي تحجرت في لغتنا اليومية وأصبح من المستعسر تجنب استعمالها.

المغربي

الحرب

تصوير السير ا. لاندسير من مجموعة (الدكتور أحمد موسى)

يا صُورَة ترنو إليها العيون ... واجِمَةً كاسِفَةْ
تُوحي إلى الأنْفُسِ هَوْلَ المنون ... في اللَّمْحَةِ الخاطِفه
يَضِجُّ بالويْلاتِ هذا السُّكونْ ... كأنما الأرضُ به راجِفَةْ
لا يَمَّحِي الويلُ بها والشُّجُونْ ... ولا تنِي رَعْدَتُهَا القاصِفَةْ
أرَى على الأرضِ طيوفَ الجحيمْ ... في هذه الغاشِيَةْ
يَطُوفُ بالنَّاسِ عذابٌ أليمْ ... منْ نارِهَا الحامِيه
نارٌ تَلَظى في الورى من قديم ... وأنْهُرٌ مِنْ من دَمِهِ جَارِيَةْ
تَرُوعُني كَبْوَةُ هذا الجوادْ ... يَسْقُطُ لاَ مِنْ وَهَنْ
الذُّعرُ في عينيه هِزَّ الفؤادْ ... وزاد فيه الشَّجَنْ
كم صَوَّرَ الرُّعْبَ بهذا الطِّراد ... وما دهى النَّاسَ به مِنْ مِحَنْ
ماذا رَمَى الفارِسَ من صَهْوَتِهْ ... يا عَيْنُ ماذا رَمَاهْ؟
كَمْ كُرْبَةٍ للنَّفْسِ في ضَجْعَتِهْ ... وَكَانَ غَصًّا صباهْ
الموتُ لا يَنْقُصُ من رهْبَتِهْ ... ما ذاعَ من أسْبَابِهِ في الحياهْ
مازالَ مِنْ (هَابيلَ) في رَقْدَتِهْ ... ما طَافَ مِنْ رُعْبٍ فأصْمَى أخاهْ!
يا سَاحِراً لو أنَّ لي قُوَّةُ ... لزدتُ في رَسْمِه
أخُطُّ طِفْلا مُرْهِفاً أذْنَهُ ... يُصْغِي إلى أمِّهِ
يَسْتَوْحِشُ اللَّيلَ إذا جَنَّهُ ... وما رَأى أنْساً مَدَى يومِه
يَلتَغُ يا أُمَّاهُ طَالَ الغيابْ ... أيْنَ تَولَّى أبي؟
يا وَيْلَهَا! كَمْ لَقَّقَتْ مِنْ جَوَابْ ... لطِفْلِها الصَّاخِبِ!
ماذا جنت؟ طَالَ عَلَيْهَا العذابْ ... أفٍّ لهذا الوالِدِ الغائب!
في سَاحَةِ الموْتِ خَيَالُ السَّلامْ ... يزيدُ في كرْبِهِ
تطوف رؤيا بيته إذ ينام ... وملتقى صحبه
لكنه يَفْزَعُ قَبْلَ القِيَامْ ... مِنْ يقظة الأوهام في قلبه!
يَا وَيْحَ للإنسان من نَفْسِهِ ... وَطَبْعِهِ الغَالِبِ
يُسَابِقُ الموتَ إلي رَمْسِهِ! ... أَلَيْسَ بالذَّاهِبِ؟
وغايَةُ المِسْكِينِ من بأسِهِ ... الويل للمغلوبِ والغَالِبِ!

الخفيف

السلام

تصوير السير ا. لاندسير من مجموعة (الدكتور أحمد موسى)

سبحانك يا سلام!!

لقد بسطت على الأرض المحروبة جناحك الرفيق المشْبِل، فإذا الدار أمان والفزع واطمئنان والقلوب مؤتلفة والشمل جميع!

هذه ساحة الحرب أصبحت مرعىً للقطيع الراتع؛ وهذه آلة الموت غَدتِ كنًّا للحَمل الوادع؛ وهذا الوعْل النطَّاح في أمسه لا يدري ماذا يصنع بقرنيه في يومه؛ وهذا الكلب الحارس نسى اللص والذئب فاستغرق في نومه؛ وهذه الأسرة الجميلة تنعم بعيشها الغرير تحت سماء الأمن، فلا هَمٌّ على والد ولا حزن على ولد!

تباركت يا سلام!!
لقد مددت على الدنيا المكروبة ظلك الرخِيَّ الوارف، فإذا الزرع جميم والخير عميم والحال متسقة والدهر مطيع!
هذه الغنم ترعى أثيث العشب هانئة فلا قنابِلُ ولا نيران؛ وهذه الطير تسبح في صفاء الجو هادئة فلا صواعق ولا دخان؛ وهذه السفينة تمخر في عباب البحر مطمئنة فلا طرابيدُ ولا قرصان؛ وهذه الطبيعة تغرق في فيض النعيم ووضاءة الفردوس مسترخية فلا خصام ولا عدوان!
حنانيك يا فاطر السموات والأرض!
لقد سميت نفسك السلام، وسميت ذاتك المؤمن: فلماذا جعلت للإيمان شيطاناً واحداً لا أكثر، وجعلت للسلام شيطانين اثنين هما الّدُنْشي وهتلر؟!
اللهم إن في السلام نعمة، وإن في الحرب حكمة؛ وبين نعمتك وحكمتك ضلت عقول الناس!
ابن عبد الملك

تطورات العصر الحديث في الخلق السياسي

للأستاذ محمد لطفي جمعة

نشرت مجلة أوربا التي يشرف على تحريرها الأستاذ رومان رولان أشهر كتاب فرنسا المقيم في بلدة نيوفيل على شاطئ بحيرة ليمان بسويسرا، دراسة مستوفاة عن حوادث السياسة التي استجدت في أوربا بعد ظهور الفاشية والنازية، وألم فيها ببحث جليل عن حياة هتلر وموسوليني بقلم كاتبة أسراره سنيورينا ليندا رينا لدي وهي التي خدمته بضع سنين، فآثرنا تلخيصها لمجلة الرسالة التي يعد دخولها في عامها السابع فتحاً جديداً في العلم والأدب والثقافة العصرية

(ل. ج)

في تاريخ الأمم وأخلاقها ساعات حاسمة ومواقع فاصلة فتتميز عن الأخرى وتفضلها بالطريقة التي تقابل بها صروف الدهر في تلك الساعات وهاتيك المواقع. ومثلها في ذلك مثل الأفراد لدى الملمات والشدائد، فترى أمة يهولها الاعتداء الأجنبي عليها ويفت في عضدها ويضعف من نخوتها وينهك من إرادتها، وما تزال تنحط وتتهالك وتنحل عناصرها حتى تتوارى وتهلك. وهذه عاجزة عن الكفاح في سبيل الوجود وهي أمة كتب عليها الفناء. ولا فرق في ذلك بين أمة قديمة أو أخرى حديثة، عريقة أو طارئة، متدينة بدين منزل أو وثنية، شرقية كانت أو غربية. وهناك أمة تزداد قوة كلما تعرضت للآلام، وتنمو فيها الفضائل الدفاعية والهجومية كلما اعتدى عليها الأغيار أو قبض على خناقها الغرباء والغرماء. تتيقظ فيها فكرة المجد كلما حاقت بها الأخطار، وتدب فيها حيوية جديدة كلما حاول عدوها إدناءها من الموت، وتسري في أعضائها دماء جديدة وتجري في أعوادها أمواه الحياة

لا نريد أن نعرض للنظامين النازي والفاشي بخير أو بشر، لأننا لا نريد أن ننزل بهذا البحث إلى مستوى الجدل، فإننا نحب أبداً أن نحلق فوق الحوادث الراهنة وإن كنا نحترم السياسة ونقدرها. ولكننا نعلم أنها كثيرة المزالق، ومواطن التحليل فيها تدني من الخطأ الذي قد لا يغتفر. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن النظام الفاشي الذي ابتكره السنيور

بنيتو موسوليني المعروف في العالم باسم دوتشي أي الزعيم، وتبع آثاره هيرادولف هيتلر المعروف في العالم باسم فوهرر أي الزعيم أيضاً، قد أثبت وجوده وقدرته على الحياة فقدم بذلك البرهان التاريخي الذي لا بقاء لنظام اجتماعي أو سياسي بدونه، كما قدمت حكومة السوفيت برهانها منذ سنة 1917 إلى يومنا هذا. وفوق هذا قد أثبت هذا النظام والقائمون به أنه أدى لوطنهم خدمة جلّى وقضى على شرور كثيرة وجلب خيراً وفيراً ودلَّ بذلك على أنه النظام الصالح للوطن الإيطالي، نظام المستبد المحب للخير وقد أثنى عليه كل من شهده وجنى شيئاً من ثماره داخل إيطاليا. وقد قلب إيطاليا رأساً على عقب، وقال بعض محبذيه إنه جعل من بلادهم جنة على الأرض، وإن الذين زاروا إيطاليا قبل تفشيه يكادون لا يتعرفونها بعد انتشاره وقيامه وتسلطه، لأنه صبغ كل شيء بصبغته التي أساسها النظام المطلق والآمن المطلق والأمانة المطلقة،

ولكن هذا النظام العجيب الذي وحد كلمة الأمة وجعلها كرجل واحد وأخضعها لرجل واحد وعلق سائر آمالها برجل واحد، قد حكم عليه ذووه بأنه نظام قومي، حتى خطب الدوتشي نفسه فقال (إن الفاشية بضاعة لا تصلح للتصدير، ولا تضمن أرباحها خارج حدود إيطاليا) ولا نعلم إن كان قال هذا القول تواضعاً أو حثاً للأمم على الاقتداء به، ولكن وجب علينا أن نصدقه لأن رب الدار أدرى بما فيها. وإن كان هذا النظام قد انتحله هيتلر بتحوير كبير وطبقه في بلاده حتى بذ التلميذ أستاذه. ولم نسمع بصاحب مذهب سياسي أو اجتماعي قبل الدوتشي يحجر على مذهبه ويحرم عليه الخروج من كسر بيته، بل تعود أصحاب المذاهب أن ينسبوا إليها الصلاحية المطلقة والقدرة والنجاح في كل زمان ومكان؛ وإذن لابد أن يكون سنيور موسوليني قد ذكر هذا الرأي عن مذهبه لحكمة خفيت عن سامعيها في حينه. وإلا فكيف كان اغتباطه بالنازية واتحادهما وابتكارهما محور برلين وروما، ثم تشجيع فرانكو في وطنه حتى ذاق الأسبان بأس بعض وخربت بلادهم حتى صارت يبابا باسم مناصرة الفكرة الفاشية النازية. وأظن بعض الناقدين ألمعوا في كتبهم فقالوا أنه نظام يعلق الأمة بأهداب رجل بعينه، فإن شاخ أو مرض أو مات تعطلت الإدارة الحكومية وتلكأت في انتظار ظهور خير خلف لخير سلف، في حين أن الواجب يقضي بأن تكون القوانين العامة والخاصة هي الأداة الصالحة للحكم بدون اعتبار الأشخاص. ومهما يكن حكم المستقبل على الفاشية فإن الكثرة من الكتاب

الموالين لها أجمعت على نفعها في مسقط رأسها وخالفتها القلة المدركة من خصومها. ومنهم من أوذي وهاجر باختياره أو نُفِي مرغماً؛ ومنهم من ألف كتباً صوب فيها سهام نقده إلى الفاشية. وإن يكن في المظاهر ما يوهم بأن النازية الألمانية تقليد للفاشية الإيطالية، فلا يصح القول بأن الهتلرية نوع من الفاشية أو تقليد لها، وإن كانت تشبهها في تفرد رجل واحد بالسلطة. ولكن الذي يفرق بينهما هو أن الأولى قامت باسم الإصلاح الداخلي ونصرة ذوي رؤوس الأموال ومقاومة الاشتراكية ومطاردة العمال الذين احتلوا المصانع الإيطالية في سنة 1922 وقدم زعيمها فروض طاعته للملك وجامل الكنيسة الكاثوليكية وانضوى تحت لوائهما. أما النازية الهتلرية فاشتراكية وطنية دينها عظمة دوتيشلاند ومجدها في غلبة الرايخ الثالث، وقامت باسم حماية الوطن من الاعتداء الأجنبي والخلاص من قيود معاهدة فرساي وتنفيذ خطط بسمارك القديمة، من التوسع في أوربا والشرق وتحطيم الشيوعية. وإذن قامت الهتلرية لتكون وسيلة لها غاية تخالف غاية الفاشية. دع عنك الاختلاف في أخلاق الأمتين وتاريخهما وعناصر حياتهما. وكلتاهما قد هضمت حقوق الفرد وجعلت الدولة هدفاً أسمى وإن كان في ذلك تأخير (المواطن) والتضحية به، مما يختلف عن المدى الذي وصلت إليه الحضارة الحديثة في تفكيرها وسياستها ومجموع مبادئها، ولاسيما عند الشعوب الإنجلوسكسونية والتيوتونية

وإذن لا تكون الهتلرية وليدة الفاشية ولا شقيقتها الصغرى، لأن الهتلرية ثمرة التاريخ الحربي والسياسي في ألمانيا، وخلاصة نوع من الفلسفة الروحية أو التصوف السياسي منشأه مجامع ميونيخ السرية التي بدأت أثناء الحرب. أما الفاشية ففكرة مبتكرة قامت في ذهن رجل واحد نتيجة لإدمانه قراءة كتابين: (وعود الزواج) لماتزوني وكتاب الأمير لنيكولا ماكيافيلي. وقد صدق حسبانه أنه يصلح شعبه بتنفيذها ووجد معونة كبرى من الأسرة المالكة ومن أصحاب المصانع والكنيسة، وتشجيعاً من الشبان الطامحين إلى الحلول محل كهول السواس وشيوخها، وكانوا إذ ذاك متلهفين على القوت والمجد، وكان بعضهم يرقبون المنقذ المنتظر يظهر فجأة في أفق الوطن وكان إذ ذاك خالياً في تلك الفترة من العظماء القادرين على حمل أعباء الزعامة. فوقع اختيار الحظ على موسوليني. كان بنيتو موسوليني في أول أمره صحفياً اشتراكيا متطرفاً، يحرر في مجلة (أنانتي) إلى الأمام،

لسان حال الحزب الاشتراكي وزعيمه فيرو أحد أساتذة الجامعة. ولما أعلنت الحرب ساهم في أوائلها، ثم لم ترقه فهاجر إلى سويسرا حيث ذاق مرارة الفاقة والتسكع، وعاد إلى وطنه يجرر أذيال الخيبة فحدث له ما حدث لاسكند كيرنسكي في بطرسبرج سنة 1917. غير أن الفرق بينهما أنه استمر ونجح حيث تردد كيرنسكي فخاب. فهو ابن ثورة اقتصادية قلب ظهر المجن لحزبه في اللحظة الأخيرة.

ولا يفوتنا أن أوربا أصبحت بعد الحرب مباشرة نهباً بين الدكتاتوريين فظهر من طرازهم بريمودي رفيرا في أسبانيا، وبانجالوس في اليونان، وبلودوسكي في بولونيا، وتحدثوا عن دكتاتورية مزمعة في فرنسا ورشحوا لها أندريه تارديو الذي كان رئيس وزارتها. ففي ظلال هذه الدكتاتوريات وفي مثار النقع الذي طاف بالأجواء قامت الفاشية وأضافت إلى قميصها الأسود درع الدكتاتورية الفولاذي.

وتضافرت بعض الظروف التي لم تكن في الحسبان وهي نتيجة الحالة السياسية العامة في أوربا فجعلت لإيطاليا وألمانيا مكانة توشك أن تضع في يدها ميزان السياسة الدولية، ولاسيما بعد فوزهما الأخير. وتراخت إنجلترا وفرنسا في تأييد نفوذهما لانشغالهما بالمسائل الداخلية. وجدت في الشرق حرب الصين وتفوق اليابان فانضمت إليها ألمانيا نكاية في روسيا. ورجعت أوربا في غير وعي إلى سياسة الاتفاقات السرية. ولعل التناطح بين الشعوب ليس إلا تطاولاً بين الزعماء ومظهراً لقوة إرادتهم ودليلاً على رغبتهم في الفوز والانتصار على مزاحميهم في ميادين المجد وعلو الصيت وضخامة الشهرة. ولدى كل أمة من الأمم مؤثرات وعوامل فكرية تؤثر في نفوس بنيها ولا تكون الزعامة الصحيحة إلا لمن يعرف استعمال هذه المؤثرات والعوامل التي تتحكم في النفوس؛ فإذا ما اهتدى الزعيم أو المرشح للزعامة إلى تلك العوامل تمكن بسهولة من جمع الأفكار وتوحيد الإرادات الفردية حول فكرته الخاصة وإرادته. وهيهات أن ينجح الزعيم ما لم يكن مفتوناً بالفكرة التي صار داعياً إليها حتى تستولي عليه استيلاء لا يرى معه إلا الفكرة التي ينادي بها؛ وبدون هذا الإيحاء الذاتي لا يمكنه أن ينجح في التأثير في أذهان الجماهير، لأنه لا شيء يحرك همتها مثل مظهر الأيمان الذي يبدو على شخص الزعيم. وإن يكن بعض الزعماء أو قادة الفكر ليسوا من النوابغ في صدق الآراء وصحة النظر، إلا أنهم من أهل الهمة وذوي الإقدام. والفرق بين الفيلسوف والزعيم أن الفيلسوف كثير التأمل، والتأمل يؤدي إلى الشك، والشك ينتهي بصاحبه إلى السكون دون الحركة، لأن الحركة لا تصدر إلا عن تصميم الإرادة وهو ثمرة اليقين؛ أما الزعيم فلا يتأمل لأنه لا يشك، وحينئذ لا يركن إلى السكون؛ وإذن تكون قوة الإرادة للزعيم أنفع من سلامة الرأي وصدق النظر وحسن التبصر في العواقب، ولكن الذي يفقده الزعماء من تلك الناحية تعوضه عليهم قوة اعتقادهم في سلطانهم على الجموع وتلك الجموع لا تصغي إلا لذوي الإرادة النافذة الذين يتسلط عليهم العقل الباطن ويملك زمامهم. فإذا ما أصبح صوت الزعيم مسموعاً من جماعة، اندمجت إرادتها في إرادة الزعيم وتناست شخصيتها والتفت حول الزعيم ذي الإرادة المتحدة. يسألون عن الطغيان والجبروت والاستبداد كيف نمت في البيئات الدكتاتورية والزعامة في أول أمرها لا تحتاج إلى الاستبداد أو الطغيان، والمشاهد أن الذين قاموا بأدوار الطغاة أفراد من المؤمنين الضعفاء الذين ليس لهم حول ولا طول سوى العقيدة والإيمان. فإذا ما وصل الزعيم إلى غايته احتاج حتماً إلى الاستبداد ليستبقيها.

ويعتمد الزعماء من هذا الطراز في تبليغ دعوتهم على الكلام والخطابة والكتابة، وزعماء العالم اشتهروا بالفصاحة وقوة التأثير في الجماهير. وعمدتهم على تكرار جوامع الكلم لترسخ في أذهان سامعيها. وإذا رجعنا إلى خطب زعماء الفاشية والنازية فلا نجد إلا نفس المعاني أفرغت في قوالب شتى لعلمهم بغريزتهم وإدراكهم الباطني أن التكرار يترك أثراً عميقاً في أذهان الخاصة والعامة على السواء. فالزعيم حاذق في حفر فكرته في أذهان أتباعه. وتبدأ الأفكار في الطبقات النازلة ثم ترتقي إلى الطبقات الوسطى فالعليا مثل انتشار أفكار الثورة الفرنسية وارتقائها من طبقات الشعب إلى الوزراء والعلماء. وكذلك الأديان فإنها تنتشر أولاً عند المظلومين والمحاويج والمحرومين والمعوزين إلى استعادة الكرامة والحقوق، وهذا سر انتشار النصرانية والبوذية بين الضعفاء والفقراء. وقد سادت الاشتراكية أولاً طبقات العمال حتى وصلت إلى العظماء فصار منهم اشتراكيون متطرفون. وكان عدد الذين دخلوا في زمرة الإسلام من الأغنياء والكبراء محدوداً ثم أقبل عليه كل فقراء الجزيرة العربية وعاصمتها الوثنية (مكة) لأنه كان في أول أمره دين مساواة فاستظلوا بسلطانه. وقد أدت الأحوال الطارئة في أوربا، وضعف الحكومات في بعض

الممالك بعد الحرب وسقوط العروش وتزعزع الثقة في الآراء القديمة، إلى حلول بعض الزعماء محل السلطات الحاكمة ومحو تلك السلطات وتلاشيها في أشخاصهم

محمد لطفي جمعة

على هامش الفلسفة

للأستاذ محمد يوسف موسى
مدرس الأخلاق بكلية أصول الدين

هذه أولى كلمات اعتزمت بمعونة الله وتوفيقه موافاة مجلة الرسالة الغراء بها إن تفضلت وفسحت لها مكانا متواضعا بينها رأيت في نشرها خيراً لطلبة الأخلاق في الأزهر وفي غير الأزهر لأنها تتناول بحوثاً لا يستغني عنها دارس الأخلاق

دعاني إلى التفكير في نشرها، بعد أن تعبت كثيراً في تحقيقها، الرغبة الخالصة في المساهمة في إقامة الأخلاق ودراستها على دعائم علمية صحيحة ثابتة، وما أعلمه من أن أحداً لم يتوفر على بحثها مع مسيس الحاجة إليها. وهل يليق بدارس الأخلاق أن يذكر مثلاً (أنها علم من العلوم) دون أن يكلف نفسه عناء البحث في صحة هذا الإطلاق أو عدم صحته؟ ثم أليس من الضروريان يتعرف الباحث بعد ذلك المعين الذي ترجع إليه الأخلاق، والطريق القويم إلى تحديد القانون الأخلاقي؟

هذه المسائل التي تحتاج إلى صبر وطول أناة في بحثها، ونحوها من موضوعات الفلسفة الأخلاقية وما يتصل بها، هي بعض ما عنيت وأعني بدراسته، وما أرجو أن أوفق فيه إلى الصواب غن شاء الله تعالى

الأخلاق والعلم

العلم اليقين، أو المعرفة العامة المضبوطة الصادرة عن نظر وتمحيص. أو المعرفة العامة التي تتجه في جهودها نحو العموم للوصول إلى الحقيقة، هذه التعاريف كلها بمعنى تقريباً. فهل الأخلاق وهي تبحث في الخير والشر والحق والواجب وتعنى بتحديد القانون الأخلاقي وتعرف المثل الأعلى وما شابه ذلك من المعاني الكلية والبحوث النظرية - هل الأخلاق، وهذا أهم مباحثها، يصح أن توصف بأنها علم من العلوم؟ وبعبارة أخرى هل وصلت أو تصل الأخلاق إلى آراء وأحكام تبلغ من العموم وقبول الناس لها حداً يجيز لنا وصفها بأنها حقائق علمية، فيكون هذا الفرع من الدراسات الفلسفية علماً من العلوم التي تقرر حقائق وقوانين عامة؟ هل هي دراسة علمية، أي عمل من أعمال العقل، أو دراسة مرجعها التقاليد التي سيطرت على الأمم في مختلف الأزمان والبيئات؟

نترك الإجابة مؤقتاً عن هذا التساؤل لنتعجل القول بأنه يعرض بادئ الأمر لمن يتساءل هذا التساؤل حقيقة واقعية تفرض نفسها فرضاً، هي إن العلم على اختلاف أنواعه كعلوم الطبيعة والرياضة والمنطق والنفس والاجتماع والحياة والتاريخ، لا يعارض الأخلاق ولا يحل محلها بل يتطلبها

العلم لا يعارض الأخلاق، لأن العقل العلمي يدفعنا إلى معرفة الحقائق على ما هي عليه وفهمها دون أن نعتمد في بحثنا على أية فكرة أو نظرية لم تمحص بعد تمحيصاً كافياً. لكنه لا يمنع أن نقابل بين الواقع وبين ما يجب أن يكون، معرفة الواقع والحقائق العلمية لا تحول بيننا وبين أن يكون لنا مثل أعلى أخلاقي يسمو على ما تعارفه الناس جميعاً

كذلك العلم لا يحل محل الأخلاق ولا يغني عنها. العلم يعرفنا الواقع فحسب في مختلف مناحي الكون ومظاهره، ولا يُعنى البتة بما كان يجب أو بما يجب أن يكون. هو يتحقق لكن لا يحكم. كل العلوم التي أشرنا إليها وأمثالها - ومنها علوم النفس والتاريخ والاجتماع - لا تمدنا بمبادئ للسير والسلوك، ولا بقاعدة نهتدي في أعمالنا بهديها. لكنها في الوقت نفسه لا تريدنا على أن نمتنع عن طلب هذه المبادئ خارجاً عنها

علم الحياة مثلاً يرينا أن الأنواع الحيوانية في تقاتل مستمر، وأن الحرب بينها سجال، وويل للمغلوب فيها لأنها حرب الحياة أو الموت. القوي يفترس الضعيف، والغلب والبقاء للقادر على تعديل نفسه حسب البيئة التي يعيش فيها. هذا هو قانون الحياة بين أنواع الحيوان؛ فهل لنا أن نتخذ ذلك مبدأ لنا في أعمالنا؟ هل مما يتفق مع الأخلاق النبيلة أن نقرر أن الناس - كسائر الحيوان - يجب أن يصدروا في أعمالهم عن مبدأ تنازع البقاء، وبقاء الأقوى؟ أو الخير في أن نحكم أنهم على العكس من هذا يجب أن

يتساعدوا، وأن يحترم الأقوياء حقوق الضعفاء؟
وهاهو ذا علم النفس يكشف لنا عما يتركز في طبائعنا من ميول وشهوات وعواطف مختلفة، منها عاطفة الأثرة وعاطفة الإيثار. أليس لنا أن نعطي لكل من هذه الميول والعواطف قيمته الأخلاقية؟ كذلك علم الاجتماع، وقفنا على ما كان من حرب وتطاحن بين العالم في العصور المختلفة القديم منها والحديث. هل هذا التحقق العلمي يكفينا للبت في
اختيار أي المبدأين: مبدأ الاحتفاظ بروح العداء بين الأمم والشعوب، ومبدأ العمل على استئصال العداوة وبذر عواطف العدالة والمحبة العالمية التي تسمح لنا يوماً ما أن نصل إلى سلم عام نهائي وأخوة إنسانية متبادلة
الروح العلمي لا يتطلب منا أن نأخذ العلوم كدليل أخلاقي وحيد، وإن شئت التعبير على نحو آخر لا يتطلب منا أن نأخذ مما تكشفه لنا العلوم من حقائق وقوانين مثلاً أعلى نتجه إليه في أعمالنا ونسير على ضوءه وسناه
إن العلم لا يعارض الأخلاق ولا يغني عنها قط، بل هو يقرر ضرورة وجودها ولا يستغني عنها، وبدونها يكون إثمه أكبر من نفعه. ولنا في تحليل نفسيات العلماء وكشف العواطف التي كانت تسودهم في حياتهم وبحوثهم العلمية ألف دليل ودليل إن صح هذا التعبير. ففي هذه الجهود المضنية التي قام بها العلماء لفهم الطبيعة وأسرارها وللوقوف على النظم التي تسير عليها، وفي تلك المشاق التي عاناها قادة الأمم وهداتها والمحسنون إلى الإنسانية، نجد عاطفة أخلاقية كانت تملك على هؤلاء الأبطال ألبابهم ومشاعرهم وتسوقهم إلى أداء رسالاتهم متحملين في سبيل ذلك ما تهددون بعضه عزائم صغار النفوس؛ تلك العاطفة هي الرغبة في خدمة الإنسانية وتحسين حالتها المادية والعقلية. وأيضاً القيمة العالية التي يراها العلماء للعلم، تفرض أن الأعمال الإنسانية ذات قيم مختلفة: منها العالي ومنها الدون؛ فالعلم مثلاً أفضل من الجهل، والهدى خير من الضلال، والسعي لمعرفة الحقيقة خير من مقاومتها. إذن واجب البحث عن المعرفة وإعلانها يفرض الواجب بصفة عامة، والمثل الأعلى العلمي يفرض أن هناك مثلاً أعلى عاماً يجب أن ننشده جميعاً
كذلك حب الحقيقة، وعدم التحيز للهوى، والإخلاص، والصبر، والحمية في العمل؛ هذه صفات أخلاقية بدونها لا يتحقق عمل طيب علمي بل ولا علم أيضاً. العالم كالرجل الفاضل يستشعر سروراً عالياً روحياً؛ هو الرضاء بالواجب المؤدى بنبل، والحياة تقضى في شرف وأمانة. يقول الفيلسوف الفرنسي (إرنست رينان) في كتابه مستقبل العلم: (المعرفة بين جميع الإنسانية أسماها قدراً، لأنها أكثر بعداً عن الهوى، واستقلالاً عن المسرات) ثم يضيف: (وإنه لمن العناء الذاهب سدى أن يدلل المرء على قداستها وسموها، أنه لا ينكر ذلك إلا من لا يعترف لشيء بالسمو والقداسة)
والمؤرخ الفرنسي العلامة (أوجستين تييرِّي) الذي عمي لإفراطه في أبحاثه الدقيقة التفصيلية يذكر في مقدمة كتابه: (عشر سنوات في دراسات تفصيلية) أنه لو خُيِّرَ في اختيار حياة له ثانية لما اختار إلا أن يكون أيضاً عالماً مؤرخاً؛ لأن الدراسة الجادة الهادئة مأمن وأمل وحرفة يبلي المرء فيها حياته بشرف. . . أعمى ومتألم بدون رجاء وبدون راحة، يمكنني أن أتقدم بهذه الشهادة التي أعتقد أنها لن تكون موضع شك بحال؛ هي أنه يوجد شيء في العالم خير من الثروة وسائر المسرات المادية ومن (الصحة أيضاً: هو الإخلاص للعلم
هكذا الدراسة العلمية وتحليل نفسيات العلماء، يكفيان لبيان أن الخير والشر، وهما موضوع الأخلاق، يلاحظان دائماً في كل البحوث والدراسات العلمية على اختلافها.
والآن نعود إلى التساؤل الذي صدرنا به هذا البحث؛ وهو إذا كان العلم - كما تبين - لا يعارض الأخلاق ولا يغني غناءها، بل يسير معها جنباً لجنب، هل لنا أن نسير في البحث خطوة أخرى لنعلم ما إذا كانت الآراء والحقائق الأخلاقية تبلغ من العموم حداً يجعلها حقائق علمية، فتكون الأخلاق علماً من العلوم؟ الأخلاق علم إذا كان هناك حقائق أخلاقية عامة؛ ولكن هل البحث الأخلاقي يكشف لنا حقائق أخلاقية عامة للجميع؟ جواب ذلك فيما يتبع هذا من بحوث إن شاء الله تعالى.

محمد يوسف موسى
مدرس الأخلاق بكلية أصول الدين

من ذكريات لندن
غريب
للأستاذ عمر الدسوقي
ولت شهور الصيف مسرعة وأذن مؤذن الواجب والدرس فلبيت كما لبى رجال يرجون حسن الثواب، وغادرت فرنسا والجسم هزيل، والفؤاد عليل، والذاكرة تغص بصور من الحياة ذات ألوان. طفقت الباخرة تسير باسم الله مجريها ومرساها صوب (نيوهيفن) وما كادت تغادر المرفأ حتى هبت العاصفة، ففتحت أبواب السماء بماء منهمر، وأعتم الجو، وزأرت الريح وزمجرت، وعبثت بالسفينة كما يعبث الوليد بخذروفه، وعادت لا تستقر على حال من القلق، يجور بها الملاح طوراً ويهتدي؛ تعلو فكأنها على قمة جبل، وتهبط فكأنها بين طيات الأخاديد، والأمواج تلطمها من غير شفقة ولا رحمة، وتدفعها بعنف ذات اليمين وذات اليسار وكأنها جبار يصب جام غضبه على صبي لا يملك لنفسه حولاً ولا طولاً، اللهم إلا البكاء والعويل؛ فكنت ترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكنهم من دوار البحر في ألم مرير؛ وصراخ النساء يشق عنان السماء، ونحيب الأطفال يصدع الصخور الصماء؛ ولو كان للطبيعة الصاخبة قلب لرق ولان؛ وأنى لها وقد أطلقت لشياطينها العنان فأذاقونا العذاب الهون، أربع ساعات وكأنها أربعة قرون وبعد لأي رست السفينة على الشاطئ الشمالي من بحر (المانش) وتنفست كما تنفس الناس الصعداء، ووطئت قدماي الأرض، وأخذت أتلمسها بيدي لأرى أثابتة هي أم متحركة؛ ونجوت بعدما يئست من النجاة، نجوت بعد أن كنت أصارع الداء والقيء، والدوار والإعصار. نجوت بعد أن هتفت باسم أهلي فرداً فرداً، والشقة بعيدة بيننا، وليث المنية فاغر فاه، والناس من حولي في شغل لكل منهم شأن يغنيه تحرك القطار صوب لندن، فأوجست منه في بادئ الأمر خيفة، إذ كنت لا أزال حديث عهد بالسفينة القلقة، بيد أن الطمأنينة أخذت تتسرب إلى الفؤاد شيئاً فشيئاً حتى برحته الهواجس، وغادره الوجل
ها. . . قد وصلنا إلى لندن!
لست غريباً عنك أيتها المدينة العظيمة! كنت آتيك من قبل زائراً، وهأنذا آتيك مستقيماً مستوطناً، فرحبي بالمهاجر الغريب، وابتسمي له، لعله ينسى عذاب الغربة، وقسوة البحر، وألم المرض. لن تضيقي به ذرعاً وهو فرد من تسعة ملايين، فأكرمي وفادته، واطردي وحشته، لعله يذكرك يوماً بالثناء، ويعرف لك هذه اليد البيضاء، وهو بين أهله وذويه
كنت أحدث نفسي بهذا، والسيارة تقلني إلى بيت كنت أعرج إليه كلما مررت بلندن؛ ووقفت السيارة، وطرقت الباب فخرجت ربة البيت، ونظرت إلي فأنكرتني. رأت جسماً هزيلاً قد أنهكته العلل، ووجهاً شاحباً قد لفحته الشمس فعادت سمرته مخيفة رهيبة، وسمعت لساناً متلعثماً ينبئ عن نفس مضطربة وفكر تعب، فحملقت وترددت في الكلام ثم قالت:
- آسفة يا سيدي فكل غرف المنزل مشغولة
- ألا تعرفين بيتاً آخر أقضي فيه الليل، فأنا على ما ترين، أحوج ما أكون إلى الراحة
فأشارت إلى بيت جارتها، فحييتها وانصرفت شاكراً. ثم طرقت باب الجارة وسألتها في أدب ولطف، فاعتذرت
وأخذت السيارة مرة ثانية تعدو بي في شوارع لندن، وكلما رأيت فندقاً استوقفت السائق، وذهبت أقدم رجلاً وأؤخر أخرى وأسأل في تردد وهيبة عن غرفة شاغرة أقضي بها سواد الليل، وأريح جسمي المتهدم وعقلي المنهوك، وفي كل مرة أجاب بأن الفندق غاص بالزوار، وأعود أدراجي إلى السيارة لأواصل البحث ولسان حالي يقول: وافق حظاً من سعى بجد. بيد أن لندن لاحت حينذاك وكأنها صحراء مقفرة، أخب فيها بين رمال ونجاد وصخور ووهاد، أو كأني بمدينة قد عفت وأتت عليها يد البلى والحدثان، أو كأني لا أزال على ظهر السفينة أطلب النجاة بين الماء والسماء
آه يا لندن. . .! ما هكذا حسبتك، أحقاً لا يوجد فيك سرير لغريب يشكو المرض ويطلب الراحة، وأنت عروس الإمبراطورية العظيمة وأكبر مدن العالم؟
ليت شعري ما للقوم كلما رأوني ازوروا عني ورفضوا سؤلي، بعضهم في أدب وبعضهم في قحة؟ وهل أقضي الليل هكذا أجوب الشوارع والطرقات؟

أين مصر؟ أين مصر؟
وأخيراً تشجعت وطرقت باب أحد الفنادق، فخرجت سيدة عوان، ينم وجهها عن شيء من
كرم النفس والأريحية، فسألتها: أعندك غرفة شاغرة يا سيدتي؟
- آسفة
- أنا كما ترين مريض متعب من سفر مضن شاق، وقد قضيت وقتاً غير قصير أبحث عن غرفة فلم أوفق، فإذا كان عندك مكان آوي إليه كنتِ أهلاً لشكر عميم، وأجر مضاعف
- آسفة يا سيدي
- لابد من المبيت هنا مهما يكن الأمر
وأخرجت متاعي من السيارة، ونقدت السائق أجره وقد أربى على الجنيه، والسيدة تتعجب من تصرفي
- اسمحي لي يا سيدتي فلم أعد أقوى على مواصلة البحث
- ولكن. . .
- ولكن ماذا؟
- الفندق خاص بالإنجليز ولا نقبل فيه أجنبياً ولا سيما إذا كان أسمر البشرة
وهنا ثارت ثائرتي، وللمصري نفس عزيزة تأبى أن تهان، وبه كبرياء تلهب نار غضبه إذا مست كرامته، ولاسيما إذا كان ببلد غريب، وقد سمعت مراراً بمعاملة الإنجليز لسمر الوجوه، ولكني لم أجرب هذه القسوة من قبل، وكنت حين يجليني أصحاب الفنادق ألتمس العلل والمعاذير، ولم يخطر ببالي قط أنهم يرفضون لأني (رجل ملون). أما وقد سمعت هذه الكلمات، فلم يعد هناك ريب في اكتناه السر الذي تحيرت في كشف طلاسمه منذ ساعة، وخاطبتها بصوت تنم نبراته عن ثورة نفسية عنيفة وكرامة مهانة
- إنك لاشك مخطئة يا سيدتي، فأنا لست زنجياً ولا هندياً، ولا نوبياً ولا حبشياً، بل إني مصري، تجري في عروقي أنبل الدماء، وحسبك أن تعرفي أننا من أرقى الشعوب مدنية وحضارة قديماً وحديثاً، ولن أقبل من مخلوق مهما تكن سطوته ومكانته، أن يلحقني بهؤلاء الذين ينظر إليهم بعين الازدراء والامتهان، ويعدهم دونه في الذكاء والمدنية. على أنني لست في مقام جدال، فسأقضي هنا ليلتي، ولك أن تخبري رجال الشرطة إذا شئت، ولاسيما إذا كان عذرك هو ما سمعت
ولجت الباب دون أن ألتفت إليها، وطلبت من الخادم أن تدخل متاعي، ولحقتني السيدة
دهشة حيرى وقالت:
- مهلاً حتى أريك غرفتك، وحذار أن تظن بي شراً، فأنا براء من هذه العقيدة، ولكني أحرص على راحة عملائي، ومنهم من يعارض أشد المعارضة لوجود رجل ملون في الفندق، ويهدد بالرحيل، وتشويه سمعة المنزل، وأكثرهم في ذلك لجاجاً وغلواً ضابط متقاعد، رأى الشرق عن كثب، ودأب على ذكر نقائصه، وعورات أهله، وأنهم ليسوا إلا همجاً لم يشرق عليهم نور المدينة بعد، وأن سكناهم معنا مدعاة لتعكير صفو حياتنا وهنائها إذ لكل إنسان عادة لا يستريح إلا لها. أما أنا فمن أصل فرنسي، وفي ديارنا لا يعيرون هذه الفروق الجنسية اهتماماً، بيد أني مضطرة لمجاراتهم، مادمت قد اخترت هذه البلاد موطناً لي، واخترتهم عملاء لفندقي، فلعلك مقتنع بفكرتي. وحين أسمح لك بالمبيت هاهنا لا أرجو إلا شيئاً واحداً، هو أن تتحاشى رؤية هذا الضابط، وسأرسل طعام الفطور بغرفتك.
- شكراً لك يا سيدتي، غير أنك أثرت في نفسي شعوراً ليس من السهل علي إهماله، ألا وهو محادثة هذا الضابط.
- ليس إلى ذلك من سبيل.
- سنرى.
وانطلقت إلى غرفتي أشد ما أكون تعباً وإعياءً، ولم أكد أنتهي من خلع ثيابي، والاستلقاء على السرير حتى أتت السيدة بكوب من اللبن، وقالت في رفق:
- إنك مريض، ولعلك بحاجة إلى دواء، فهل لي أن أقوم بأية خدمة؟
- شكراً يا سيدتي، فالدواء عندي، وسأتناوله بعد هنيهة، عمي مساءً، وسأراك غداً.

فكرت ملياً فيما رأيت وسمعت، ثم غلبني الإعياء فنمت، وما إن لاحت تباشير الصباح حتى نهضت، وأنا أحسن من البارحة حالاً، وأهدأ بالاً، غير أن النعرة القومية عاودتني، فأذكرتني مأساة أمس، وأن واجبي هو تبديد هذه الأوهام والأباطيل من عقول هؤلاء المرضى بحمى الغطرسة والكبرياء، وإقامة الدليل لهم على أن المصري، وإن تكن السياسة قد جارت في حكمها عليه، إلا أنه أبي ذكيٌ ليس من اليسير أن يسكت عن ثأر في ميدان الكرامة، أو يصمت عيا في ميدان الدفاع عن القومية. فلبيت نداء حسي وشعوري، وارتديت ثيابي على عجل وأسرعت إلى غرفة الطعام، والقوم لا يزالون نياماً، وأخذت
ألهو بقراءة جريدة حتى مضى بعض الوقت، فأخذوا يغدون ويحيون، دهشين، متعجبين، وأنا أرد تحيتهم في برود مصطنع يخفي تحته نفساً ثائرة على هذا الجهل بمنازل الناس وقيمهم، وعلى هذا النفاق والرياء.
وأخيراً دخل الضابط ورد تحية الجلوس، وأجال في الغرفة نظره فلمحني، وظننت بادئ ذي بدء أن وجهه سيتجهم وأنه سيتمتم ويدمدم، ويثور ويفور، ولكنه حيا ببرود وجلس، فجلست تجاهه على الخوان، وأخذنا نتناول طعام الفطور في صمت، وكأننا في مأتم، وهممت بالحديث مراراً غير أن الرهبة عقدت لساني فلم أنبس ببنت شفة. وبعد لأي سنحت الفرصة، فقدمت ربة الدار، ووزعت على الجميع تحاياها وابتساماتها، ولم تظهر امتعاضاً لوجودي بل سألتني كيف قضيت ليلي؟
- على خير يا سيدتي، شكراً. إني ليسرني أن أتعرف بجندينا الذي ذكرته أمس، فهل تتكرمين بتقديمي له؟
- بكباشي سمث. صديقنا هذا من مصر، وقد حدثته عنك أمس، وأنك زرت بلاده، وعرفت أهلها وحدثتنا طويلاً عنهم.
فأجاب الضابط في فتور.
- هذا حسن، وأومأ إليَّ برأسه، فقلت:
- إني ليسرني أن أتشرف بمعرفتك يا سيدي، ولقد أنبئت أن لك رأياً خاصاً في الشرق والشرقيين، يحملك على الأنفة والترفع عن مخالطتهم، ولو سمحت وبينت لي هذا الرأي لكنت لك من الشاكرين.
فألقى على ربة المنزل نظرة كلها تعنيف وتأنيب، ولاح عليه بعض التردد، غير أن بقية الزوار حثوه على الكلام قائلين: دعنا نسمع رأيك، والرد عليه، فطالما حدثتنا عن الشرق أحاديث تقشعر منها جلودنا، ولم تجد بيننا من يدحض رأيك أو يعترضك، وها قد سنحت الفرصة لمعرفة الحق.
فكرر ما قالته ربة البيت ليلة أمس، وزاد أن الشرق لا يصلح إلا وعنانه بيد الغرب، وأن الشرقيين لم يخلقوا للمدينة الأوربية، والأولى بهم الاستمساك بعاداتهم الهمجية، وترك التقليد الأعمى، وأما مسألة الترفع فذلك أن لكل قوم عادة، وليس توافق العادات بالأمر الهين؛ ثم
إن مركزنا الأدبي في العالم يقتضي أن نترفع عن الشعوب الملونة، ونشعرهم بمكانتنا التي لا تسامى حتى ندخل في قلوبهم الروع والرهبة، وحتى نعودهم الصغار والذلة. وتلك سياسة رجال الجيش البريطاني في المستعمرات، وإن لم نفعل ذلك تجرأ علينا الأهالي؛ وذهب سلطان الحكم وجلاله.
- آه! الآن عرفت الحقيقة، إذاً لا يوجد هناك تفوق في الذكاء كما لا يوجد تفوق في ميدان الحضارة والاستعداد لتقبلها، ولكن المسألة استعمارية بحتة. إن كان الأمر كذلك، فإني أتنبأ لإمبراطوريتكم بالزوال العاجل. إن هذا الترفع، وهذه الكبرياء تبعد بينكم وبين تفهم نفسيات الشعوب المحكومة، وتجعلها دائماً تشعر بأنكم أجانب، وتملأ قلوبهم قيحاً، وتشحنها غيظاً، وتحرك في نفوسهم نار الثورة الهامدة، فيهبون لطردكم والتنكيل بكم. لم لا تحتذون حذو العرب، وقد أسسوا بنيان ملكهم على قواعد من المساواة والمحبة والإخاء، ولذا تشرب المحكومون تعاليم دينهم ومدينتهم وتعلموا لغتهم، واندمجوا فيهم. لست هنا لأعطيك والحكومة البريطانية درساً في فن الاستعمار، ولكن الاستعمار في رأيي ورأي العقلاء، ليس استعباداً، اللهم إلا في رأيكم أنتم.
- مرحى، مرحى!! هكذا هتف بقية الزوار، ماعدا الضابط الذي وجد فيَّ مجادلاً يكيل له

صاعاً بصاع ويقرع الحجة بالحجة. ثم استأنفت الحديث منتهزاً فرصة صمته:
- يخيل إلي أنك لم تعرف المصريين حق المعرفة، وإلا كان حكمك عليهم غير ما سمعت، ليست القضية يا صديقي، قضية تفرقة في الألوان، فهاهي ذي اليابان قد بزتكم في ميدان الصناعة وغزت دياركم بمنتجاتها ومخترعاتها، ولولا عهد الأتراك بمصر، ولولا تدخلكم في شئوننا، لكنا اليوم أمة لها في ميدان العلم والنور شأن رفيع. على أننا لم نيأس بعد، وسوف تسمع اسم مصر يكتب في سجل الخلود بماء من ذهب ونور. ثق تماماً أن المصري يفوقك في الذكاء، وتفوقه في القوة المادية، أما (اللون) فكلنا من آدم، وآدم من تراب، وكتبكم المقدسة على ما أقول شهيد. لست أريد إقناعك، ولكني أرضي كرامتي، وعزة نفسي، وأعطيك درساً في احترام غيرك مهما يكن جنسه ولونه، حتى تخبره، وتعرف خلاله وتفكيره، والآن اسمحوا لي سادتي بالانصراف وأشكركم على كرم وفادتكم

غادرت المنزل واستوقفت سيارة ووضعت بها متاعي، وأخذت أبحث مرة أخرى عن مسكن أقيم فيه وأتفرغ للجهاد في سبيل العلم

آه يا لندن. . . لقد جرعتني نُغَب التهمام أنفاساً، وأريتني ليلة أمس وجهاً عبوساً متجهماً، وأعطيتني درساً لا ينسى. أهكذا يفعل أهلك بالغريب؟

سلوا قراه وهرَّته وكلابه ... وجرَّحوه بأنيابٍ وأضراس

عمر الدسوقي

ورد المساء

مهداة إلى أستاذي الدكتور عبد الوهاب عزام

للأديب محمد أحمد البنا

انطوت صحيفة النهار، وآب العالم من رحلته في اليوم الجديد، ورست السفينة على شاطئ بحر الحياة، ولم يبق من الأصيل إلا العسجد المنثور على أطراف النخيل وعلى أمواج النيل

وعاد العاملون إلى مساكنهم، والطيور إلى وكناتها. وسبح لله ما في السموات والأرض ثم استقرت الأكوان. وخشعت الأصوات للرحمن، وكأنها تتناجى في حمد خالقها وشكر بارئها ببلاغة الصمت في لسان الحال. بعد بلاغة الإفصاح بلسان المقال

إلهي: سبحانك يا من جعلت الليل سكناً، والمساء وطناً لترد إلى المتفرقين ألفتهم، وإلى المتعبين المكدودين راحتهم، ليهنئوا بالمنام، ويأنسوا في دولة الأحلام

إلهي: سبحانك يا من جعلت الليل لباساً والنهار معاشاً. كما خلقت الأرض مهاداً رحيباً والسماء سقفاً مرفوعاً

ربنا: عليك توكلنا، وإليك أنبنا، وإليك المصير

إلهي: لقد بكرنا إلى الكفاح مع الصباح المقبل في نور رحمتك، ثم عدنا في ظل سكينتك مترنمين بشكرك، ونحن بنعماك آمنون، وعلى جانبك القوي متوكلون

أسلمنا الجنوب إلى المضاجع، والجفون إلى وساد الكرى على أمانٍ من عينك الساهرة، واطمئنان من رعايتك الوافرة

إلهي: لئن أثقلتنا الأوزار، وأنقضت ظهورنا الخطايا، وتنازعت قلوبنا المعارك الدامية من حرب الحياة القائمة، وصراعها الدائم، فإن لنا من برّك مرجعاً، ومن الرجاء فيك موئلاً، ومن رضوانك مستقراً مقاماً

إلهي: إن لك علينا من الآلاء ما لو كان كل نفس من أنفاسنا كلمة حمد وآية شكر لك على عظيم آلائك وجزيل عطائك ما كنا نوفيك بذلك كله حقك فتقبل من إنك أنت الوهاب

إلهي: وآمن روعنا وأمِّن سربنا وارزقنا في الضعف قوة، وفي الخوف أمناً، وامنحنا من لدنك نوراً يهدي ضمائرنا، ويرشد حائرنا، ويؤلف على الحق مشاعرنا

لك يا إلهي أولنا وآخرنا، وباطننا وظاهرنا، لا تخفى عليك خافية من أمرنا، فمنك خلقنا وإمدادنا، وإليك مرّدنا ومآبنا. فامنحنا القوة لليوم الجديد، واحينا فيه على خير ما تحب لنا وترضاه منا، وهب لنا من لدنك رحمة، وهيئ لنا من أمرنا رشداً

محمد أحمد البنا

بكلية الآداب

التاريخ في سير أبطاله
محمد شريف باشا
للأستاذ محمود الخفيف
كان شريف في عصره رجلاً اجتمعت فيه الرجال وكانت
مواقفه توحي البطولة وتخلق الأبطال. . .
- 1 -
تحت هذا العنوان نضع أسم شريف، وفي هذا المجال نأتي بقبس من سيرته؛ ومن أولى من شريف أن يتبوأ بين الأبطال مكاناً عليًّا، إذ نحن ذكرنا رجال حركتنا القومية؟ ولئن كانت جهود شريف لم يفد منها غير وطنه، ولئن لم يدو اسمه في آفاق العالم كما دوت أسماء غيره من الأبطال، فكثير سواه كانوا في ذلك مثله، خطورتهم في أوطانهم فحسب، ومع ذلك فلم ينكر عليهم بطولتهم إلا ظالم أو ذو غرض. . . وما البطولة في جوهرها إلا أن يسمو الرجل على الحوادث ويقهرها إن غالبته، وأن يسخرها ويوجهها إن سالمته، فإن لم يتسن له هذا ولا ذاك كان في كفاحه ومقاومته وتعاليه عن أن يذل أو يذعن دليل رجولته ومقياس بطولته. وما كانت الشهرة من دلائل العظمة أو من بواعثها؛ فلكم تشهد الحياة من رجال يحسبهم الغافل من أوزاع الناس وإن لهم لنفوساً تنطوي على عناصر البطولة كأكمل ما تكون البطولة. . .
ولقد كان شريف عظيماً بنفسه قبل أن يكون عظيماً بمنصبه. كان رجلاً في عصر عزت فيه الرجولة وتطامنت فيه أقدار الرجال إما من شر يتقونه أو خير يرجونه. . . ولذا يعتبر شريف بحق خالق جيل وباعث نهضة، فهو في عصره كان الرجل الذي اجتمعت فيه الرجال، وكانت مواقفه توحي البطولة وتخلق الأبطال. . .
وكان شريف تركي العنصر ما في ذلك شك، ولكنه لم يعرف له وطناً غير مصر ولا قوماً غير بني مصر. ولما بلغ أشده كان من رجال هذا الوادي في طليعة العاملين منهم والمجاهدين؛ يتلفت الرجال إذا حز بهم أمر أو أخذتهم حيرة فلا تستقر أعينهم إلا على شريف ولن يتقدم لنصرتهم في مواطن الخطر والشدة غيره
تم الأمر في مصر لمحمد علي، ذلك العصامي الفذ، وأثخنت جنوده في صحارى العرب وفي مطارح السودان، وتهيأت مصر لأن تستقبل على يد هذا البطل عصرً من عصور يقظتها كان الجيش فيه المحور الذي تدور عليه نهضتها. وفي صدر هذا العصر الفتي ولد محمد شريف، فكان مولده بالقاهرة في شهر نوفمبر من سنة 1826
وحمله أبوه، وقد انقضت مدة خدمته بمصر معه إلى الآستانة. وكان هذا الأب في مصر قاضي قضاتها، ولكنه لم يلبث في الآستانة إلا بضع سنين ثم اختير للحجاز، فمر بمصر ومعه ابنه؛ ووقعت عينا واليها على الغلام، وكانت عينا الوالي تلمحان النجابة في سرعة عجيبة، ولذلك طلب إلى أبيه أن يبقيه عنده ليقوم على تربيته. وكان محمد علي ويومئذ في ذروة مجده تهدد جيوشه عرش الخلافة وتحمل على الإعجاب به فرنسا، وعلى الحنق عليه إنجلترا؛ وكان همه منصرفاً إلى الجيش، فإذا بنى الرجال وأعدهم، فإنما يكون ذلك ليتخذ منهم دعائم جيشه
وبقي الغلام في القاهرة وأدخل المدرسة العسكرية التي أنشأها الوالي بالخانكة، فيمن أدخل من أبناء الأمراء ووجوه القوم؛ ومن ذلك الحين صارت مصر وطن شريف الذي لا يعرف له وطناً سواه
وهكذا نشأ شريف نشأة عسكرية؛ ولكن جيش مصر ما فتئت إنجلترا تعمل على القضاء عليه حتى تم لها ما أرادت، ولما يزل شريف في سن اليفاعة؛ واستطاع بالمرستون أكبر الكائدين لمحمد علي أن يرغم الباشا عام 1841 على (أن ينكمش في قوقعته الأصلية في مصر). وجاء في فرمان السلطان في تلك السنة للباشا المغلوب على أمره أنه (يكفي أن يكون لمصر ثمانية عشر ألف نفر من الجند للمحافظة في داخلية مصر ولا يجوز أن تتعدوا هذا العدد لأي سبب ما. . .) وأذعن الباشا ولم تغنه صلته بفرنسا ومظاهرتها إياه؛ فما كانت إنجلترا لتسمح بظهور مثل قوته في مصر وهي التي جعلت أساس سياستها منذ الحملة الفرنسية ألا يقوم في وادي النيل نابليون آخر
وكان الأجدر بالشباب بعد هذا أن يتجهوا وجهة غير وجهتهم العسكرية. لقد أوفدت

الحكومة فريقاً منهم إلى فرنسا في عام 1844، وكان من هذا الفريق محمد شريف، فاختار أن يدخل مدرسة سان سير الحربية
كانت هذه المدرسة التي التحق بها شريف من أشهر المدارس يومئذ؛ وإن في اختياره المدرسة الحربية في تلك الظروف لدليلاً على أن الجندية كانت توائم طبعه، ففي الجندية الصحيحة حياة الإقدام والهمة والنظام والطاعة، وتلك صفات امتاز بها شريف رجل السياسة فيما ظهر من أعماله بعد
قضى شريف في تلك المدرسة عامين تجلى فيهما ذكاؤه وطموحه، ثم انتقل بعد ذلك إلى مدرسة تطبيق العلوم العسكرية، فلبث بها عامين آخرين انتظم بعدهما في سلك الجيش الفرنسي كما تقضي قوانين تلك المدرسة ليأخذ قسطه من المران العملي؛ ثم تخرج شريف ونال رتبة يوزباشي أركان حرب في ذلك الجيش
ولم تله شريفاً شؤون فنه عن غيره من الفنون، فراح يقرأ التاريخ والسياسة، ولا يفتأ يستزيد من المعرفة، مستعيناً في ذلك ببصيرة نيرة كانت من أظهر مواهبه، وعزيمة صادقة كانت في مقدمة خلاله؛ وأتقن شريف الفرنسية وحذقها حتى لقد كان يعجل بها لسانه كأنه أحد أبنائها، كما درس شريف طباع الفرنسيين ووعى قلبه ظرفهم وأناقتهم، حتى صار بينهم وهو ذلك الفتى الشرقي وكأنه منهم، ولذلك لقب (بالفرنساوي) وصار يجري لقبه هذا على ألسنة معاصريه. . وليس معنى ذلك أن شريفاً قد جعل بينه وبين قومه سداً بما تعود من عادات الفرنسيين، فما كان مثله بالمتكلف، ولقد كان له من أصالته واعتداده بنفسه ما يربأ به عن ذلك العيب، وإلا فكيف أصبح حين عاد إلى وطنه أشد الرجال مقاومة للنفوذ الأجنبي؟
وولي أمر مصر عباس باشا الأول فأعاد أعضاء البعثات العلمية من الخارج، فعاد شريف فيمن عادوا عام 1849م. ولقد نستطيع أن نتصور ما تركته حال مصر يومئذ من أثر في نفس هذا الفتى الطموح، فلقد تعلم وتأهب ليعود فيجد المدارس تغلق أبوابها، والجيش يهلك عنه سلطانه بعد أن انهدت أركانه؛ ويجد مصر وقد ذلت بعد عزة، يبدو عليها مثل ما يبدو على ذوي القوة والبأس وقد جرد من حسامه، وعاهلها ناقم على العصر ومظاهر العصر ونافر من الأجانب وما يأتون به مما كان يعده من أنواع الغرور والبهتان
ضاقت مصر عن همة شريف وعن علم شريف ولكن أين يذهب وليس له غير مصر؟ وإذاً فليرض بأن يأخذ في الجيش المصري نفس الرتبة التي أخذها في الجيش الفرنسي
فليس من هذا الرضاء بد. ولئن كان جيش مصر لا يعمل فربما أتت الأيام بما ليس يجري في بال أحد، فينصرف شريف من ميدان إلى ميدان إلا يكن فيه قتال فليس يخلو من نضال. . .
وفي مصر اتصل شريف بسليمان باشا الفرنساوي، وأعجب به القائد الكبير وأخلص له الود والمحبة. . ألا ليت هذا اللقاء كان أيام نصيبين وكوتاهية، وإذاً لرأى التاريخ ماذا كان عسيا أن يأتيه شريف الجندي في ميادين البطولة والتضحية، ولكنه كان في تلك الأيام لا يزال طالباً يتطلع ويأمل
ولن يزال سليمان يوليه من عطفه وتأييده، ثم يلحقه بحاشيته الحربية في منصب (الياوران)؛ ويظل هذا عمله فلا يخوض معركة ولا يرسم خطة؛ وعباس في شغل عن الجيش لأنه في غنى عنه، ولكنه يضيق بما هو فيه ولا يطيق صبراً على إغفال عباس له وإن لم يقصد عباس هذا الإغفال، فيعتزل الجندية التي لم يكن له منها غير اسمها، ويكون هذا الاعتزال من جانب شريف أولى خطواته في الدفاع عن كرامته، ولسوف تكون له بعدها خطوات لن يخطوها إلا ذو عزة وذو نخوة. . .
ويلتحق شريف بدائرة الأمير عبد الحليم ردحاً من الزمن يشرف على أعمالها بما اشتهر به من فطنة وبعد همة. ولقد كان الأمير وهو نجل محمد علي من أقرانه في البعثة، فألان له جانبه وزاد في إكرامه وإعزازه. . . وشريف يقبل حياة الدعة على رغمه، ففي طبعه ميل إلى النضال والكفاح، وفي خلقه اعتداد يشبه الزهو، بل لقد كان يبلغ به الذهاب بنفسه أحياناً حد الصلف، وتلك خلة لا يسعنا إلا أن نعدها على شريف مهما تكن بواعثها
وأخذ سعيد الولاية بعد موت عباس، وكان لسعيد ولع بالجيش، وإن لم تكن به حاجة

إليه، وحمله حبه للجيش على أن يشهد تدريبه بنفسه ثم بسط له يده كل البسط، فألبسه أحسن اللباس وأطعمه أجود الطعام، ومد له أسباب الترف والنعيم، حتى لقد كانت تقاس كفاية ذلك الجيش عنده بحسن مظهره ووجاهة رجاله. . . وكان شريف وجيه الطلعة جم الأناقة فضلاً عما كان يتحلى به من صفات الجندية؛ لذلك جعله سعيد من المقربين، ورقاه إلى رتبة (أميرألاي)، ثم ما لبث أن رفعه إلى رتبة (لواء) ووضعه على رأس الحرس الخصوصي؛ وهكذا يعود شريف إلى الحياة العسكرية وإن جاز لنا أن نسمي حياة كهذه حياة عسكرية. .

وازدادت عرى المودة توثقاً بينه وبين سليمان باشا فزوجه من ابنته، وفرح شريف بما ساقه القدر إليه من حظ عظيم، وكان اسمه قد أخذ ينتشر بين معاصريه من البعداء عن الحاشية ووجوه القوم، وعرف الناس يومئذ عن النزاهة والاستقامة، وأعجب من تسنى لهم رؤيته بما كان يبعثه مرآه في القلوب من هيبة وبما كان يشيعه في النفوس من حب. . . والحق لقد كان شريف على جانب عظيم من قوة الشخصية، شهد له بذلك الأجانب والوطنيون على السواء

وبدا لسعيد فمال به من الجندية إلى السياسة بعد أن وصل في الجندية إلى رتبة الفريق، وكان هذا التحول بدء مرحلة جديدة في تاريخ حياته، مرحلة حافلة بجلائل الأعمال سلكت شريفا في عداد الأبطال؛ بل لقد كان هذا التحول بدء مرحلة جديدة في تاريخ مصر؛ ولا غرو، فلقد عظم فيها خطر شريف حتى صار تاريخه تاريخ مصر في طور من أطوارها، وتلك منزلة لم يبلغها إلا أفذاذ الرجال، أولئك النفر الذين يتوقف مصير عصرهم على ما يعملون، أو الذين تجد فيهم الحوادث أدواتها الحية إذا ما تمخضت تلك الحوادث عن ثورات وراحت كل ثورة تبحث عن رجلها حتى تهتدي إليه فتستقر في رأسه وفي جنانه. . وأي دليل على العظمة أقوى من أن يكون تاريخ الرجل هو تاريخ عصر من عصور وطنه؟ على هذا الأساس قامت عظمة سعد في مصر الحديثة، وعظمة لنكولن في أمريكا، وبسمارك في ألمانيا، وفردريك الأكبر في بروسيا، وبطرس في الروسيا، وغير هؤلاء من الرجال فيما سلف من العصور وفيما اختلف من الأمم. . .

اختار سعيد شريفا ناظرا للخارجية، وهنا أخذت مواهب ذلك الجندي تظهر في السياسة فتبهر، وما لبث أن وجد شريف سبيله إلى قلوب من اتصلوا به فحمل أنصاره على محبته، وحمل خصومه وحاسديه على إكباره وإن لم يريدوا، وتهيأ لمصر في شخصه الرجل الذي لم تكن لها مندوحة عنه فيما هي مقبلة عليه من عظائم الأمور. . .

(يتبع)

الخفيف

استطلاع صحفي (ريبورتاج)

سنة في مكافحة البلهارسيا 20

مرض تضخم الطحال

في مصر علماء وأطباء يقفون جهودهم سنين طويلة على تحقيق نظرية أو اكتشاف ظاهرة. وهذه قصة طبيب سلخ عشرين عاماً من حياته ليخفف عن الفلاح آلام المرض ويقي الأمة عوامل الضعف والانحلال

وهم يعيشون للناس أكثر مما يعيشون لأنفسهم حتى ليفضلون ملازمة مريض أو الاشتغال في معمل على الظهور في المجتمعات. ولذلك رأينا أن نتصل بهذه الفئة من الباحثين فنكشف عن جهودهم ونطلع الناس على أخبارهم لعلنا نوفي العاملين قدرهم.

في الوجه البحري حيث تكثر المستنقعات، وحيث وسائل صرف المياه مازالت على أسوأ طرقها تنتشر البلهارسيا بين الفلاحين فتنزف دماءهم، ولا تقف عند هذا الحد بل تسبب لهم مرض تضخم الطحال فتكبر بطون الرجال والسيدات وما هم بحبالى، إذ يحمل مرضهم طحالاً متضخما يزيد وزنه على وزن طفل في ستة أشهر. فيبلغ وزن الطحال خمسة كيلو جرامات مع أن وزنه العادي يتراوح بين 170 و 200 جرام تقريباً أي أن المريض يحمل ما زنته خمسة وعشرون طحالا

ظل هذا المرض معضلة الطب المصري حتى سنة 1929 إذ تمكن الدكتور أنيس أنسي بك مدير معامل الصحة من اكتشاف سببه، ثم قدم بحثه للهيئات الطبية العالمية

فنال موافقتها، وأخيراً سجله في (بورصة الأبحاث الطبية) الجمعية الملكية البريطانية لطب المناطق الحارة في 25 أبريل الماضي
ويتضخم الطحال لأسباب عدة، منها الإصابة بحمى الملاريا أو بالتغيرات اللمفاوية العامة؛ وفي هذه الحالات يسهل تشخيص الداء بالطرق الفنية والميكروسكوبية كفحص الدم مثلاً، إلا أنه في حالة الإصابة بالبلهارسيا تضيع كل الدلائل ولا يظهر بالطحال أي خلل أو عيب، فيرى الطبيب أن مريضه سليم الجسم، وأن كل عضو يؤدي وظيفته بانتظام إذا استثنينا كبر الطحال مما يضني الجسم ويرهق العضلات فلا يجد الطبيب مفراً من استئصاله ليخلص المريض المسكين من حمله الثقيل، ولا يخفى ما يتعرض له المريض
من المضاعفات الخطيرة أثناء إجراء عملية كبيرة كهذه. أضف إلى ما يصيب الجسم من عوارض سيئة تنتاب الحيوان والإنسان بعد مضي وقت من استئصال مثل هذا العضو المهم
أهمية الطحال
والطحال هو (بوليس) الجسم لأنه ينقي الدم من الأجسام الغريبة ويقتل الميكروبات الضارة، فهو مخزن كرات الدم البيضاء والخلايا الأكولة، وهو يمد الجسم بالعناصر الدفاعية العديدة التي مازال منشؤها غامضاً على الطب. فاستئصال الطحال إذن يعرض حياة الشخص للأمراض المختلفة، ويجعل حياته قصيرة الأجل إذ يفقد الجسم القدرة على مقاومة الأمراض
وعز على الأطباء أن يقفوا حيارى أمام تلك المعضلة التي اختصت بها مصر من دون بلاد العالم. وأثار فضولهم أن يروا مرضاً خطيراً لا يدركون من أمره شيئاً، بل إن كل ظواهره هي ظواهر الحالة العادية للطحال فلا يوجد به علامات تسبب ذلك التضخم تضاربت الظنون والفروض، وقدر الأطباء ما شاءت لهم نظرياتهم ثم أخرجوا فروضهم إلى حيز العمل ولكن المرض ظل على حاله. وزاد حيرة الباحثين كثرة المرض وظهوره الفجائي، ففي كل عشر إصابات بالتضخم أمكن الطبيب أن يعرف سبب ثلاث حالات أو أربع ويعزوها إلى حمى الملاريا أو الكلازار أو الأورام وفي باقي الحالات كان يقف أمام سر مغلق
وازدادت حيرة الأطباء عندما لاحظوا ظهور التضخم فجأة، إذ كان المرضى يؤكدون أنهم كانوا بصحة جيدة منذ شهور قليلة مع أن حالات التضخم التي يعرفها الطب تحتاج إلى سنوات. وكذلك لاحظ الأطباء أن أكثر حالات التضخم المجهولة كانت كثيرة في الوجه البحري فتبلغ نسبتها 30 إلى 1 في الوجه القبلي. وعندئذ جزم الدكتور أنيس بأن (هناك حالة مرض مصري عضال غير معروف سببها، كثيرة الانتشار في مصر السفلى)
الحلقة المفقودة
بدأ الدكتور أبحاثه في سنة 1908 وكان وقتئذ مساعد أستاذ في القصر العيني حيث راقب
حالات التضخم وحاول أن يعالجها. ولكنه لاحظ أن كل الحالات التي ترد إلى المستشفى حالات مزمنة وصل فيها تضخم الطحال إلى حد أرغم المريض على الرقاد فأيقن أن إحدى حلقات المرض مفقودة ولم يطلع عليها الطب. وبعد تفكير طويل تيقن بأن هذه الحلقة المفقودة هي بدء المرض أو حالاته الحادة
فإن فلاحينا من الفقر لا يستسلمون للمرض إلا إذا ثقلت وطأته على أجسامهم فلم تحتمل شدته. فإذا أضفنا إلى هذا أن وظيفة الطحال هي الفتك بالميكروبات والأجسام الغريبة ثم التهامها سهل على الطبيب أن يستنتج أن ميكروب المرض من الضعف بحيث يفتك به الطحال أولاً بأول. واحتاج هذا الفرض العلمي إلى تحقيق يتناول المرض في حالاته الحادة أو الحديثة التي لا يهتم بأمرها الفلاح. وعندئذ ظهرت مهمة الطبيب شاقة، لأن هذه الحالات ليست في المستشفى ولا عند الأطباء، بل هي هناك في القرى وداخل الأكواخ
وذهب الدكتور أنيس في طلب الفلاحين، فزار مرضاهم في بيوتهم وما كاد يبدأ بحثه حتى اشتد عجبه إذ وجد 80 في المائة من شبان الفلاحين وأطفالهم مصابين بهذا المرض العجيب ولكن تباشير النجاح أيضاً بدت. فهاهي ذي ظواهر ديدان البلهارسيا.

وهاهو ذا أثر الصراع بين محتويات الطحال وبين تلك البويضات. فهل ديدان البلهارسيا هي السبب؟
لنجيب على هذا السؤال بنعم يجب أن نجد بويضة البلهارسيا نفسها. وهذه إن وجدت فلن يسهل العثور عليها إلا في طحال الأطفال أو في حالات المرض الأولى أو الحادة.
فإن طحال الطفل أضعف من أن يهضم هذه الدودة الخطيرة وبويضتها؛ وبهذا وضع الدكتور يده على مفتاح المرض وبقي عليه أن يكشفه فيصور البويضة في الطحال كما يجب عليه أن يلقح الطحال بديدان البلهارسيا ويرى النتيجة
واستحضر لذلك قردة خاصة عرفت بإصابتها بهذا النوع من المرض وهي تجلب من جزر الهند الغربية. وأجرى تجاربه مدة طويلة احتاج أثناءها إلى أكثر من 200 قرد. واستعان بالأرانب فكان له منها ضحايا في كل يوم
معركة حربية
ونجحت التجارب فثبت الغرض. ويقول الدكتور في تعليل تضخم الطحال (إنه عندما تغزو بويضات البلهارسيا لب الطحال تحدث به التهابا حادا سريعا تعقبه على عجل استعدادات
وترتيبات لازمة تبتدئ بعمليات التجاذب بين مواد الطحال والجسم الغريب ثم بتعادل وتخفيف المواد السامة القابلة للذوبان. وتعقب ذلك عملية الهضم التي تقوم بها الخلايا الأكولة المتحركة التي تقطن اللب الأحمر)
وتتحفز تلك الخلايا للقيام بعمل سريع؛ فتتجمع حول البويضات النازحة في صفوف متراصة مكونة بذلك خطوط الدفاع التي تعقبها على عجل عملية الخمائر لتوقف فعل المواد الغريبة السامة التي تفرزها البويضات في تلك الدائرة الضيقة. ثم تهجم الخلايا الأكولة على غلاف البويضات فتذيبه إلى مادتها فتلتهمها وإلى ما تخلف بعد ذلك فتبتلعه فتقي الجسم شر تلك السموم)
فإذا تمت هذه العملية التصقت كل خلية بجارتها مكونة سدا منيعا يحول دون تسرب أية مادة سامة إلى النسيج السليم ثم تبتدئ (الخلايا) في توالدها وتكاثرها فتتحول إلى خلايا ذات نواة وهكذا يكبر الطحال تبعا لتوالد الخلايا وتكاثرها أثناء صراعها مع ديدان البلهارسيا وبويضاتها)
مرض متوطن
وأيد الطبيب في إثبات رأيه ما رآه من انتشار قواقع البلهارسيا في الوجه البحري، فإن انخفاض ذلك الإقليم ورداءة طرق الصرف فيه جعلته موطن المياه الراكدة وبالتالي معمل تفريغ الميكروبات والديدان وأهمها البلهارسيا والإنكلستوما.
ويعتبر مرض تضخم الطحال متوطناً في كل بقاع مصر، وينتشر بكثرة كما تشتد)
عوارضه وتكثر مضاعفاته بالمناطق المنخفضة بشمال الدلتا حيث تكثر المصارف
والترع ويكثر تبعا لها توالد القواقع طول فصول السنة بخلاف ما نشاهده في الوجه القبلي حيث ري الحياض مازال باقياً فتقل بذلك نسبة العدوى قليلا. وبالرغم من وفرة وجود القواقع أثناء الفيضان فأنها لا تلبث أن تموت متى جفت الأرض وانخفض مستوى الماء)
وتظهر الأعراض المبدئية للمرض عقب العدوى بالسركاريا وتظهر مصحوبة بتوعك المزاج وباضطرابات في الجهاز البولي والجهاز المعوي وتظهر البويضات في البول والبراز ويصل تضخم الطحال في هذا الدور إلى أسفل الضلوع بنحو قيراطين. وينشأ نتيجة تفاعلات بلب الطحال أحدثتها إصابته حديثاً ببويضات البلهارسيا
فإذا كانت البويضات قليلة وأتيح للمريض فرصة العلاج تمكن نسيج الطحال الزاخر بخلاياه الأكولة من هضمها وإزالتها فتزول عوارض المرض. أما إذا استمر تعرض الإنسان للعدوى فإن الطحال يتضخم بتكاثر خلاياه بجميع أنواعها حتى تصل إلى سرة البطن، أو يمتد إلى حافة الحوض، ويستمر على هذه الزيادة حتى تتاح للمريض فرصة العلاج أو ينتقل إلى مكان لا توجد به قواقع. فيضمر الطحال ويصاب بتليف عام، وتضخم في محفظته وعوارضه، وتتحول الألياف المرنة إلى نسيج ضام، لكن الخلايا السليمة منه تستمر على أداء عملها بالدفاع عن الجسم من غزو الأمراض والحميات وغيرها
ويحافظ الطحال على هذا الحجم رغم انتهاء دورة الإصابة، وخلو البول والبراز من

بويضات البلهارسيا، وفي هذه الحالة يلقب بالطحال المتوطن، ومن هذا يتبين أن تضخم الطحال يمكن أن يزول في حالات المرض الأولى. أما إذا أزمن وطالت مدته ونشأ التليف بين أنسجته وخلاياه فإن تضخمه يلازم المريض، وقد ينقص حجمه قليلا بالعلاج أو بالانتقال من مراكز العدوى ولكنه لا يعود إلى حجمه الطبيعي

فوزي جيد الشتوي

رسالة العلم

أهمية نظرية التطور

نظرية التطور وقصة الخليقة

للأستاذ عصام الدين حفني ناصف

كان الناس فيما مضى يجهلون معظم القوانين الطبيعية التي تسود الكون وتحكمه، فكان المفكرون منهم يتساءلون: لم هذا اللباس من الشعر غير الكثيف يغطي جسمنا؟ لم يشبه القط النمر؟ لم كان الزنجي أسود اللون والصيني أصفره؟ لم كان الأوربي متحضراً والإفريقي غير متحضر؟ لم كان عدد صنوف الحيوانات عديداً بهذا القدر؟ لم نعثر في أعماق الأرض على عظام أسماك متحجرة؟ ولم يكن هناك من يستطيع الإجابة على هذه الأسئلة وأمثالها، وذلك لأن فكرة واحدة لم تكن قد نفذت إلى رؤوسهم، وهي: أن الأرض قد نمت هي وما عليها في مدى مئات الملايين من السنين حتى بلغت ما تبلغه الآن، وقد وصلت الكائنات إلى أشكالها الحالية ببطء شديد وبالتدريج، ومرت خلال ذاك على أشكال عديدة سابقة لهذه، فهي قد (تطورت) تقول نظرية التطور: إن جميع الكائنات الحية الباقية والمنقرضة قد تطورت إلى أشكالها الأخيرة من أصل واحد أو بضعة أصول، فهي أذن يتصل كل منها بالآخر برباط القرابة

وقد كثرت الأدلة العلمية على صحة هذه النظرية حتى (انتقلت) كما يقول أوسبورن (من نطاق الفروض والنظريات إلى نطاق القوانين الطبيعية) ولذلك فإن (خصومها) كما يقول بلاته (مضطرون إلى مكافحتها ببراهين وحجج من غير التاريخ الطبيعي) وليست أهمية هذه النظرية بقاصرة على كونها ضرباً من العلم والفلسفة فقد أثرت تأثيراً كبيراً على علوم مختلفة كعلم الحفريات والتشريح المقارن والأجنة والاستيطان ووظائف الأعضاء وعلم الأمراض وتاريخ الإنسان والاجتماع والنفس والفلسفة.

وللنظرية عدا ما تقدم أهمية بالغة من الناحية العلمية، ذلك أنه إذا كان التطور إلى أرقى ليس هو المصير المحتوم دائماً بل يشترط لحدوثه ظروف وشروط خاصة، فما يستحق الجهد ولاشك أن يفكر المرء ويعمل على توفير هذه الظروف والشروط، وبذلك لا يكون

الإنسان سلبياً يحمله تيار الحوادث إلى حيث يساق، بل يكون سائراً بمشيئته في طريق الرقي وهو يعلم أين يسير. وهذا يجعل من السهل علينا أن نجيب على السؤال الذي كانوا يلقونه قديماً عن معنى الحياة والغرض منها، فليس الغرض منها إلا السير بالبشرية في سبيل الرقي وتوفير أسباب البهجة والتمتع لكل فرد منها

وقد طبَّق سبنسر نظرية التطور على الشئون الاجتماعية، وشرح رأيه في نشوء الضمير الخلقي عند الإنسان بما يتلخص فيما يأتي: كان الناس في أول أمرهم يرون أن الحسن هو المفيد إفادة عاجلة، ثم أظهرت التجارب أن هنالك أحياناً فائدة كبيرة آجلة تَفضُل الفائدة الصغيرة العاجلة. وقد اختُزنت هذه التجارب في مشاعر أسلافنا وذلك ما أحدث أثره في مجموعهم العصبي، وتوارثنا نحن عنهم هذه التأثيرات، فترانا نعتبر بعض التصرفات حسناً دون أن نجربه ونتثبت بأنفسنا من نفعه، وإنما أسلافنا هم الذين جربوا ذلك لهم ولنا من بعدهم، وهذه الحكمة الموروثة هي ما نسميه بالضمير، وبه نجد من دخيلة نفوسنا ما يرشدنا إلى الخير والشر. وعلى ذلك فإن حياة الفرد ونصيبه الذي قسم له في الحياة لا يبدوان عند ولادته، بل هما يرجعان إلى الماضي الذي لا نستطيع تقدير توغله في القدم

نشوء الكون

كانت هنالك مادة أولى تملأ الوجود، ومن هذه المادة نشأت السدم، وهي سُحُب من ذرات معدنية صلبة مختلفة الحجم والمعدن، ثم تطورت السدم بعد ذلك فأخذت الذرات الصغيرة فيها أو القليلة الكثافة تنجذب إلى الكبيرة أو الأكثر تركزاً، إلى أن

تكونت كرات كبيرة يفصل بين كل منها والأخرى حيز فارغ واسع المدى. واتجهت الذرات الأكثر ثقلاً في كل كرة نحو مركزها، وولّد ضغط الذرات في هذه الكتل التي يزن كل منها تريليونات الأطنان، حرارة هائلة جعلها تتقد وتتحول إلى كوكب. أما الذرات الخفيفة أي الغازات، فقد بقيت في الحافة مكونة جواً غازياً حول الكوكب. وقد حدثنا الفلكيون أن الكون الذي نعيش فيه يحوي نحو 2 , 000 , 000 , 000 من الشموس التي تشبه شمسنا، والكثير منها كواكب مثل كوكبنا الأرضي، من الجائز أن تكون مأهولة بكائنات حية، فليس ثمة ما يدعو إلى افتراض أن الأرض أنشئت على نمط خاص

أخذت الكواكب تفقد حرارتها شيئاً فشيئاً، وكان أسرعها في ذلك أصغرها حجماً، وبردت الأرض بالتدريج واتحد ما يكتنفها من أوكسجين وأيدروجين فتكون منهما الماء العذب، ثم اكتسب الماء ملوحته من إذابته لبعض أملاح الأرض وبعض أحماض أنزلها معه من الجو. واستمرت الأرض تبرد وتكونت القشرة الأرضية في النهاية ويبلغ سمكها في الوقت الحالي 80 إلى 100 كيلو متر، وقد كانت في أول أمرها متشابهة السُمك، وكان المحيط المائي موزعاً حولها بتساو، ولكن برود القشرة الأرضية أدى إلى تقلصها، فارتفعت سلاسل الجبال ونشأت تبعاً لذلك الوديان والمنخفضات، ثم استقر الماء في المنخفضات وبدأ الانقسام إلى أرض (يابسة) ومياه

نشوء الحياة والأحياء

نشأت الحياة بعد ذلك على وجه الأرض في زمن مضى عليه - في رأي بعض الجيولوجيين - 50 إلى 100 مليون سنة، وكانت الأحوال الطبيعية تختلف عما هي عليه الآن، فمياه المحيطات مرتفعة الحرارة، والعناصر المتشععة عظيمة النشاط، والمركبات الكيميائية ليست كلها على النمط الذي نعرفه، فدبت الحياة في المادة الحية الأولى (بروتو بلاسم)، ثم نشأت منها الوحدات المحدودة التي نسميها خلايا لم تكن الكائنات الحية الأولى نباتات صرفة ولا حيوانات خالصة، ولكن البعض منها أصبح نباتا لاقتصاره على التغذي بالمواد غير العضوية التي في الأرض، وجرى البعض الآخر على افتراس ما يجاوره من الأحياء، وذلك منشأ تكون الحيوان، وقد اقتضت عملية الاقتناص أن يتزود الحيوان بأعضاء خاصة بالحركة والحس وبفم ومعدة وأسلحة ودروع فنشأت عنده هذه الأعضاء. ثم نشأت الحيوانات والنباتات العديدة والخلايا بعدم انفصال الخلايا الناتجة من انقسام خلية واحدة

ولما غاضت معظم المياه الضحلة وانسابت الأنهار السريعة الجريان هلكت الحيوانات التي لم تستطع التخلص من بطء حركتها، وتطورت أعضاء الحركة في الحيوانات الباقية فظهر السمك كالقارب الطويل مجهزاً بزعانف قوية ثم تكونت فيه السلسلة الفقرية. واكتظت الأنهار الضيقة السريعة الجريان بالأحياء فقام بينها الكفاح من أجل الأوكسجين والغذاء فذهب البعض إلى البحار العميقة وبدأ البعض سباقه صوب البر ونباتاته يقتات بما فيها من حشرات ثم يعود إلى الماء وأخذت المثانة الهوائية تتطور إلى رئتين والزعانف تتطور إلى

أطراف، ونشأت الأمفيبيا كالسمندر والضفدع وهي الحيوانات التي تقطن الماء في صغرها ثم تنتقل في كبرها إلى حياة البر

واستمرت المياه في بعض الجهات تغيض شيئاً فشيئاً وأخذت الحيوانات الأمفيبية في تلك الجهات تتحول تبعاً لذلك إلى حيوانات برية ففقدت خياشيمها وقويت أرجلها ونشأت منها الزواحف كالورل والتمساح والثعبان

العصر الجليدي

وانقضى الصيف الدائم من على وجه الأرض وكسا الجليد نحو 4 ملايين ميل مربع من سطحها، تمتد من الهند إلى أوستراليا وإلى أفريقيا. وقضت هذه المذبحة الهائلة على نحو 97 في المائة من الأنواع النباتية والحيوانية فتحولت النباتات إلى طبقات من الفحم ولم يبق من الحيوانات إلا نماذج قليلة في الأقاليم الحارة هي التي نسلت ما احتواه العصر الحديث من الأمفيبيا والحشرات وغيرها. فلما ذابت طبقة الجليد بعد ربع مليون سنة بسبب انخفاض سطح الأرض في الجنوب عادت الزواحف إلى الانتشار، وكانت أوربا في ذلك الوقت غاطسة تحت الماء لا يطفو منها سوى قنن الجبال وأجزاء

قليلة أخرى تبدو كمجموعة من الجزائر محاطة بحواجز من المرجان ما تزال آثارها تشاهد إلى الآن فوق الجبال. وكانت هناك قارة ملأى بالبطاح والغياض ممتدة من أسكوتلاندة إلى أمريكا (تسمى في عالم القصص بالاطلانطيس) فساعدت على انتقال الزواحف الجبارة بين القارتين

كانت إناث الحيوانات قبل العصر الجليدي تضع البيض وتتركه على سطح الأرض أو الماء فينقف من تلقاء نفسه بتأثير الحرارة، وبذلك كانت الطبيعة تتولى عمل الأم. فلما حلت البرودة أصبح الرقاد على البيض وتعهد الصغار بالعناية أمراً لا غنى عنه. ونشأ للزواحف رداء حرشفي رفيع، وأصبح جلد الأمفيبيا لزجاً كما نشاهد الآن في الضفادع، ونشأت الطيور والثدييات مزودة بقلب ذي أربع غرف يساعد في إمداد الدم بقدر وافر من الأوكسجين ليحرق وقوده فيحتفظ الحيوان بالدفء ولا تنحط حرارته مع حرارة الجو كما هي الحال في ذوات الدم البارد وهي الأسماك والأمفيبيا والزواحف. وساعد الدم النقي في الطيور والثدييات على زيادة حجم المخ وارتقائه وتمت لها السيادة في العصر الجديد. أما الزواحف الضخمة المدرعة بدروع ثقيلة فقد قُضي عليها عندما حل البرد الشديد بعد ذلك

في نصف الكرة الشمالي لزوال الحرارة التي كانت تجعل بعضها ينقف دون أن ترقد هي عليه

وكان للعصر الجليدي أثره العظيم في عالم النبات أيضاً فقد انتزع سيادة النباتات الجرثومية المنحطة على المملكة النباتية، وأفسح مجال الانتشار والازدهار أمام النباتات المخروطية والنباتات المزدهرة، ولما حل الشتاء في نصف الكرة الشمالي أخلت معظم الأشجار الدائمة الاخضرار مكانها لنماذج تسقط أوراقها في الشتاء بصفة دورية فلا تفقد ما تحتويه من الماء وهي لا تستطيع تعويضه من الأرض في الشتاء

تطور الطيور والثدييات

تسلسلت الطيور من الزواحف بفضل ما حدث لها من التغايرات الملائمة ولاسيما فيما يختص بجهاز توليد الحرارة. وقد عثروا في صخور بافاريا على متحجر طائر في حجم الغراب كان يقطن أوربا قبل ملايين السنين، وهو يجمع بين خصائص الزواحف وخصائص الطير، وهذا (الطائر القديم) هو الحلقة (غير المفقودة) بين الزواحف والطيور

وحل عصر جليدي في شمال أوربا وأمريكا غطى نحو 7 ملايين ميل من سطحهما، فأرغمت الحيوانات والنباتات المحبة للحرارة على الزحف صوب الجنوب. وقد يكون البرد القارس في ذلك العصر هو منشأ هجرة الطيور المهاجرة كالسمان والعنز وعصفور الجنة كل شتاء من الشمال إلى الجنوب، كل عائلة منها إلى مكان معين تسلك إليه طريقاً ربما كانت هي الطريق الوحيدة التي عرفها أسلافها في ذلك الوقت، وعلى ذلك فليست (الغريزة) سوى العادات التي اكتسبتها الحيوانات تحت ضغط ظروف خارجية عنها

نشأت الثدييات الأولى الصغيرة الحجم في أواخر العصر الجليدي، وقد يكون منشأها في قارة تمتد حيث يوجد الآن المحيط الهندي وما حواليه، أو لعلها عبرت تلك القارة الضائعة من أفريقيا إلى أوستراليا، ثم غاصت تلك القارة تحت سطح الماء فأصبحت أوستراليا جزيرة منعزلة لا تستطيع أن تصل إليها الحيوانات المفترسة التي تطورت في باقي أنحاء العالم، وبقيت الحيوانات الثديية البدائية فيها متخلفة عن زميلاتها في الخارج مثل الكنجرو، وهو لا يبقى جنيناً في رحم أمه إلا زمناً قليلاً فأنها ليس لها من الأوعية الدموية ما تنقل به دمها إلى الجنين لتغذيته، لذلك تلده سريعاً وتلتقطه بفمها فتضعه في كيسها حيث يكون ثديها

المنخفض في متناول فمه

بقيت الحيوانات الثديية في أوستراليا على ما هي عليه تقريباً ولكنها في أفريقيا صعدت درج الرقي وانتشرت انتشاراً عظيما متجهة في انتشارها صوب الشمال. فلما كثر عددها ساد بينها كفاح هائل من أجل الحياة وأخذت ذراريها تتطور في شتى الاتجاهات، فمنها ما أكل اللحم ومنها ما عمد إلى الهرب من الحيوانات المفترسة فاتخذ له ملجأ تحت سطح الأرض كالخلد والأرنب، ومنها ما أخذت أشواكه تنمو وتصلب كالقنفذ، ومنها ما بقي يعيش فوق الأشجار كالسنجاب، ومنها ما هبط إلى البحر

كالحوت، ومنها ما اتخذ الليل معاشاً كالخفاش. وانتشرت فصيلة الحيوانات الحافرية في القارات الأربع مستعينة بقوتها وضخامتها أو بدروعها وأنيابها وقرونها أو بسرعة عَدْوِها وحدة حاسة الشم عندها

تطور الإنسان

تسلسل الإنسان من ذرية حيوان شبيه بالقرد، ولكن ليس من ذرية أحد القردة الموجودة في العصر الحاضر، وإنما تتصل القردة الحالية بالإنسان في أسلاف مشتركة وجدت من 3 أو 4 ملايين من السنين

أخذت الحيوانات الثديية البدائية ترتقي وتتطور في اتجاه القردة، وانتشرت القردة في القارات الأربع (أي في مختلف أنحاء الأرض باستثناء أوستراليا)، وذلك من نحو 10 ملايين من السنين، ثم تطور قسم منها إلى القردة الشبيهة بالإنسان، وهي أربعة فروع هبط ثلاثة منها إلى الأرض عندما بادت الغابات في بقعة من آسيا بسبب ارتفاع الأرض وجفاف الهواء على الأرجح. ومن المقرر أن ترك الأشجار والإقامة على ظهر الأرض مما يساعد كثيراً على الترقي والتقدم؛ فإن هذه المعيشة تقتضي الملاحظة الدائمة لاتقاء الأعداء واقتناص الغذاء، وقد أصبحت الساقان الخلفيتان تقومان أكثر فأكثر بحمل الجسم، وأصبحت اليدان تستعملان في إمساك الأشياء، وأثرت كل هذه التطورات على نمو المخ مدة 4 ملايين سنة

وقد عثروا في إنجلترا على جمجمة يرجع عصرها إلى 400 , 000 سنة. كما يدل على ذلك عمر الطبقة الأرضية التي وجدت مطمورة فيها، وقد قدر الثقات أنها جمجمة إنسان منحط جداً من حيث الذكاء

وقد استطاع العلماء بما عثروا عليه من الهياكل البشرية التي ترجع إلى عهد قديم جداً والأدوات الحجرية المتدرجة الرقي التي وجدوها إلى جوار تلك الهياكل - أن يكتبوا قصة الإنسان. وتتلخص في أن فرعا من متسلقات الأشجار بارح الأشجار وهبط إلى الأرض فارتقى فيها وأصبح يتخذ العصا سلاحا، ثم ارتقى وبدأ فيه العنصر الإنساني حين بدأ يقرع صوانة بأخرى ليكسب إحداهما سناً حاداً مشحوذاً

كان الإنسان في أقدم عهوده يعيش في جو دافئ بغير نار وملبس ومنزل، ثم حلت خمسة عصور جليدية تتخللها فترات دافئة، واضطر سكان أوربة قبل التاريخ في المرة الرابعة إلى سكنى الكهوف، ثم شرعوا يرتدون الجلود وتعلموا أن يشعلوا النار بالصوان. وعندما انقضى ذلك العصر الجليدي كانت قد ظهرت في أوربا بشرية من طراز جديد، فبدأ التطور الاجتماعي واضطرت الأسر إلى المعيشة معا، وسرت في الكهوف لغة غير ناضجة.

وعادت طبقة الجليد تكسو أوربا فعبر القوم الجسور الأرضية إلى شمال إفريقيا وآسيا الصغرى، وكان السكان أكثف ما يكونون بين الخليج الفارسي ومصر، وكانت وديان النيل والدجلة والفرات قد تكونت حديثاً بفضل هذه الأنهار، واحتدم الكفاح بين القبائل والعشائر من أجل هذه الوديان وطلعت من هذا الكفاح أولى المدنيات.

عصام الدين حفني ناصف

رسالة الفن

الفن الإسكندري

للدكتور أحمد موسى

لا نقصد بعنوان المقال تحديد الفن بعصر الإسكندر كما لا نقصد تحديده بمدينة الإسكندرية وحدها، وإنما المقصود بالفن الإسكندري أنه الإنتاج الفني في البلاد المصرية منذ تأسيس الإسكندرية سنة 332 ق. م إلى نهاية حكم البطالسة، ذلك الفن الذي عرف أمره وتأثر به فن العالم القديم

وبالنظر إلى قلة ما تبقى من هذا الإنتاج وإلى ضآلة المواد العلمية التي يمكن الاستناد إليها، وإلى ما بين أيدينا من الآثار البطليموسية فإن تاريخ الفن الإسكندري بمعناه الشامل من الموضوعات العسيرة التي تجعل البحث ناقصاً قابلاً للنقص في بعض نواحيه؛ إذا ما ظهر من نتائج الحفر وما قد يعثر عليه من النصوص ما يميط اللثام عن بيانات واستنتاجات تغير ما تقرر حتى الآن

على أنه يمكن القول بأن ما بقي من التماثيل وبعض الآثار يعطي ما يفيد في هذا المجال، ويمهد السبيل إلى معرفة المدى الذي وصل إليه أثر الفن الإسكندري في

الفن الإغريقي أو الهيليني
ومما لا يقبل الشك أن مدينة الإسكندرية كعاصمة للبلاد أنشئت وشيدت على نمط رائع من حيث التخطيط العام للمدينة ومن حيث تنظيم شوارعها ومبانيها التي عملت لأول مرة في هذا القطر من الطوب بطريقة هندسية جديدة في نسقها جميلة في مظهرها، ولاسيما أن حوائط المباني كانت مغطاة من الداخل بلوحات من المرمر زخرفت بنقوش من المعدن. وهذا كله نتيجة للرغبة في التمدين والعطش نحو الأبهة وكان شغف الأمراء من أبناء البطالسة وتقديس الناس للآلهة خير دافع إلى إقامة المعابد الهائلة بحوائطها المزخرفة بالنقوش والكتابات، كما كان سبباً في إحياء فن النحت والتصوير، إلى حد أن كانت بعض التماثيل تعمل من الذهب والعاج في غاية من الدقة والجمال.
وبطبيعة جو الإسكندرية الأقرب إلى الجو الأوربي والخليط الذي كان يعيش في تلك المدينة من البطالسة والمصريين وغيرهما، كذلك وجود الفلاسفة المشتغلين ضمنا بالطب والجراحة فضلاً عما بعثوه في العقول بتعاليمهم التي تحض على النظر والدرس والتأمل إلى جانب مجموعة الكتب العظيمة بالمكتبة الخالد ة - في هذا المحيط وهذه البيئة نشأ الفنان الإسكندري محاطاً بما يوقظ فيه روح العمل والابتكار ولعل خير مثل لذلك بقايا التماثيل ومنها رأس من البرونز يمثل امرأة مصرية تجلت على ملامحها مصريتها وحيويتها.
وكان للإنتاج الفني غير العمارة والزخرفة والنحت الواقعي اتجاهاً مثلياً رائعاً تراه في تمثال (النيل) المحفوظ بالفاتيكان في روما، والذي وصل منه أنموذج إلى هذه البلاد منذ أعوام. فإذا نظرت إلى صورته رأيت إلى أي مدى استطاع الفنان الوصول إلى ذروة الفن المعاصر لتلك الأيام، فإلى جانبه تتضاءل التماثيل التي عملت للأمراء ولهوميروس، والتي لا يمكن أن توصف إلا بكونها من أحسن ما أخرجه الفنانون أنظر إلى صورة الإله (النيل) ولاحظ ما بدا على وجهه من عوامل التأمل والتفكير في مصير أولاده الستة عشرة (فروع النيل الكبرى والصغرى) وشاهد كيف يتكئ بكتفه على (أبي الهول) الرابض بجانبه، وقد اختار الفنان (لأولاد النيل) أوضاعاً شتى فظهر كل منهم مخالفاً لغيره، وفي هذا ما فيه من الغنى الفني
كذلك اتجه التصوير اتجاهاً جديداً فخرج من تمثيله لصور الأمراء والعظماء إلى تمثيل الحياة العامة والعادات الاجتماعية فرسمت على الحوائط مناظر صادقة في التعبير عن العصر الذي عملت فيه، وغير ذلك للمناظر الطبيعية كتلك التي صورت لنا أجزاء من المدينة محاطة بالغابات ذات الأشجار العالية، والتي نصبت بينها تماثيل بأوضاع دلت على حسن التنسيق والوصول إلى درجة فائقة في فن تخطيط المدن وهندستها، وهذا الوضع يذكرنا بالحالة التي كان الفن البومبياني (نسبة إلى بومبي) يسير عليها على أن الفن الإسكندري، أو إن شئت فقل الفن المصري في عهد البطالسة، كان قصير العمر بالقياس إلى الفن المصري في العصور أخرى أو إلى الفنون الأجنبية، فعندما وصل الفن البرجاموني والفن في رودس إلى أوج عظمتهما حوالي منتصف القرن الثاني قبل المسيح، كان الفن الإسكندري سائراً نحو الهبوط؛ فانتقل إلى إيطاليا. وخير برهان على
ذلك أنه في أوائل القرن الثاني قبل الميلاد شيدت في بمبي عمائر على نمط لا يختلف في الجوهر والمجموع الإنشائي عن ذلك الذي بني للمرة الأولى في الإسكندرية، حتى الزخارف التي عملت على حوائط هذه العمائر فإنها شملت ذلك الطابع الإسكندري المميز، والذي يقرر تأثرها بها أفصح تقرير
هذا فضلاً عن أن العارف بتاريخ الفن الدارس لأصوله يذكر جيداً أن المشيدات التي أنشئت في منتصف القرن الأول قبل الميلاد، سواء أكان ذلك في منطقة كمبانيا أم في روما، وسواء فيما يتجلى على البناء المقدس للآلهة (بانتيون أجريبا) أو بناء مسرح بومبيوس أو قصر نيرون الذهبي كلها تدل على أنه لا مفر من الاعتراف بوجود أثر الفن الإسكندري فيها.
ظهرت بعد هذه المرحلة صور رائعة هي تلك التي رسمت على أغطية توابيت الموتى، والتي قصد بها الاستعاضة عن الأقنعة الذهبية التي كان المصريون الأقدمون يعملونها على الأغطية لتمثيل وجه الميت.

وكان ظهور هذه الصور تدريجياً ونادراً ومرتبطاً بنتائج الحفريات التي عملت في الفيوم منذ سنة 1888 ولكنه على جانب من الكثرة التي تسمح بالدرس والتأريخ.
وقد اخترنا ثلاثاً منها تعطي فكرة صحيحة عن قوة التصوير ودرجة إتقانه، فبالنظر إليها نلاحظ جمال الملامح وحسن التعبير ونبل الإخراج، إلى جانب ما يبدو على الوجه ويشع من العينين من تأثر نفساني عجيب.
وكان تصويرها بالألوان على خشب الجميز أو اللبخ على ما نظن وكذلك على قماش التيل - وكانت توضع على التابوت أو تثبت في غطائه مكان الرأس
وكانت الألوان معدنية مخلوطة بالشمع أو بصفار البيض أو بالغراء وأحياناً بهما معاً، يرسم بها (ماعدا ما كانت بالشمع) على سطح مدهون بالجبس أو الطباشير.
ويتضح من الكتابات التي نقشت على لوحات صغيرة ووضعت مع التوابيت أو في داخلها أو التي كتبت على بطاقات صغيرة من الخشب وثبتت إلى جانب العنق - أن أصحاب هذه الصور كانوا من الإغريق، وبالرغم من هذا فإنه لا يمكننا الارتكان إلى ذلك لمجرد علمنا بأنه حتى لو كان الإغريق قد تعودوا عادات المصريين في طريقة التحنيط والدفن
الخ، في القرن الثاني قبل الميلاد، فإنه يبعد كثيراً أن يكون أصحاب هذه الصور من الإغريق لاختلاف ملامحهم ولون شعرهم وتجعده ولون العيون فضلاً عن المجموع التكويني للرأس. وقد تكون هذه الصور بالرغم مما كتب عليها غير معاصرة للبطالسة.
ومهما يكن من شيء فإن عصر الفن الإسكندري مع قصره كان شاملاً لمدينة الإسكندرية بمكتبتها ومنارتها، وشاملاً لآيات من الفن لم يبق منها إلا القليل الذي مع قلته دل دلالة صريحة على أن الفن المصري في تلك المرحلة، وإن كان قد سار في اتجاه يلائم العصر الذي وجد فيه؛ إلا أنه أثر في غيره أكثر مما تأثر هو بالغير.
أحمد موسى
رسالة المرأة
المرأة اليونانية القديمة والتعليم العالي
للآنسة زينب الحكيم
التاريخ سجل يطوي فيه أسرار الأجيال. قلبت بين صفحاته عن بعض حالات المرأة اليونانية الغابرة، فوجدت كل معجب مدهش. . .
وفي الحق ليس من المستغرب أبداً أن وجدت سيدات من الدرجة الأولى في المواهب العقلية بين ناس امتازوا بالثقافة العالية كاليونانيين
وسافو الشاعرة اليونانية مثال من الأمثلة الخالدة لهؤلاء السيدات. لقد كانت ذات سطوة قوية على بنات جيلها، وظهر نتائج مجهوداتها الموفقة بين تلميذاتها الكثيرات، واشتركت السيدات برغبة في درس الشعر ونظمه. وشجعهن على الاستزادة من ذلك مناصرة عدد كبير لهن من مشاهير الرجال الغيورين على ترقية المرأة، فاستحسنوا أن تتعلم تعليماً عالياً وساعدوها على المطالبة بذلك بكل ما أوتوا من قوة
من هذا نرى أنه منذ العصور المبكرة نودي بتعليم المرأة وبالمساواة بينها وبين الرجل في اليونان
ففي القرن السابع قبل الميلاد، تشبث كليوبليس - وكان أحد حكماء اليونان السبعة - بأن ينال النساء التمرين العقلي الذي يناله الرجل، وأوضح مبدأه بتعليم ابنته كليوبلين التي صارت شاعرة ذات شهرة واسعة فيما بعد
وبيثجوراس الذي احتفل بإعلان مذهبه الفلسفي في القرن السادس بجنوب إيطاليا، أشار بوضوح إلى ضرورة المساواة بين الجنسين، واخترع خطة لتعليم النساء، كان من شأنها أن جعلتهن منتجات فيما يتصل بتدبير المنزل، كما جعلتهن ممتازات في الثقافة الفلسفية والأدبية
وأشار أفلاطون بضرورة تعليم المرأة على قدم المساواة مع الرجل، وسمح بقبول النساء لسماع المحاضرات الجامعية
وفي أيام الإسكندر شجع تحرير المرأة بشكل قوي، ومن ذلك الحين نرى أن النساء اشتركن في دراسة جميع الفروع العلمية دراسة عملية
وفي الإسكندرية خاصة، تعلمت بنات الأساتذة العلماء، تعليمً عالياً، فواصلن دراسة الفلسفة واللغة، وعلم الآثار القديمة، وقد اشتهر منهن كثيرات

وفي الفترة اليونانية الرومانية، نادى بلوتارخ بتعليم النساء، وقد انتشر التعليم بينهن في أيامه إلى حد بعيد محمود
وأسباسيا وضعت (موضعة) تعلم عن البيان والفلسفة، كعمل تظهر به المرأة في المجتمع الأثيني، وأصبح الانتماء إلى جماعة نصيرات التعليم العالي بدعة سارية، حتى أن كثيرات من نساء الطبقات الراقية (الشريفة) شغلن أوقات فراغهن بقراءة الفلسفة والشعر، وحصلن على نوع من التعليم، وإن لم يكن شعبياً؛ فقد كان خوصياً من محاضرين فنيين
ميول النساء في ذلك العهد
ظل الكثيرون يعتقدون أن الشعر كان المجال الطبيعي للمرأة؛ يضاف إلى ذلك الفلسفة في الدرجة الثانية، إذ صارت الفلسفة الحرفة العامة التي أجدن تعلمها حينئذ. ولكن لعله لا يغيب عن ذهن القارئ والقارئة، وصف مدرسة سافو الشاعرة في التي أوى إليها الهيلينيات لدراسة الشعر والفن
إن جمال جزائر لسبوني الطبيعي، وحياة الطبقة الأرستقراطية المترفة، وتوقد ذكاء وحذق سافو نفسها، وحبها الخالص لصديقاتها الفتيات من بنات جيلها، كانت كلها مؤثرات قوية محبوبة فعالة لأهل زمانها
ليس من المستغرب إذن أن اكتسبت النساء حب الشعر وأولعن به، كما طبعن على الجاذبية لكل شيء جميل في الطبيعة في تلك البيئة؛ كما اكتسبن من مخالطتهن لفنانة مطبوعة، ومعلمة ماهرة مثل سافو أعلى الصفات
حتى لقد قيل: إنه وجدت ست وسبعين شاعرة من بين نساء اليونان القديمة، غير أنه لسوء الحظ لم يحتفظ لنا سجل التاريخ إلا بأسماء قليلات منهن، بلغ عددهن تسع شاعرات؛ لقبن بآلهة الشعر الأرضيات
عندما اتسع المجال أكثر أمام المرأة في عهد البطولة مهرت النساء في استعمال النباتات في فنون السحر، وفي تطبيب الجروح. وعندما أصبح الطب علماً، اشتغلت النساء بفنون منه. وظهر اختلاف أمزجتهن واستعداداتهن وميولهن الطبيعية، فمنهن من اشتغلت بالعلوم
الطبيعية، وعلم البيان والتاريخ واللغة، وأحبت كثيرات علم النقد، وانتشر بين بنات العلماء
ومن هذا يتضح فساد زعم من ظنوا أن مجال المرأة الطبيعي كان الشعر فحسب. ولعلنا نطمئن إلى هذا الحكم الذي يؤيده علم النفس المقنن في القرن العشرين
بنات الشاعرات
شاعرات اليونان اللائي سبقت الإشارة إليهن وشبيهاتهن، كوّن نهضة مباركة من بناتهن اللاتي ورّثنهن الميول القوية للفنون والآداب؛ فكان منهن الموسيقيات، والمصورات، والشاعرات، والفيلسوفات
والتاريخ وإن لم يدلنا على أنه وجد من بينهن ناحتات للتماثيل أو مكوّنات لها، يذكر الفضل في اختراع هذا الفن إلى فتاة من كرنثيا
والأثر إن صح يروي الآتي: كانت الفتاة كورا ابنة بوتادس على وشك أن تودع حبيبها، وربما كان الوداع الأخير، لأنه كان معتزماً القيام برحلة طويلة. واتفق أن خياله انعكس على الحائط، إذ كان الوقت ليلاً ويضيء المكان مصباح. فخطر للفتاة أن تحتفظ ولو بهذه الذكرى من حبيبها، فرسمت محيط خياله في حياء. فلما رأى والدها ذلك العمل، دفعته غريزته الفنية إلى أن يملأه لها بالصلصال؛ فكون تمثالاً لحبيبها، كان ناجحاً بعد حرقه في النار
المصورات
كانت لالاَّ من نساء مدينة سيزكس من أقد المصورات بالألوان، وكان من أخص صفاتها السرعة في العمل (مثل الملكة فكتوريا)، ومع ذلك لم يُنقص ذلك شيئاً من مزايا نتاجها، واعتبرت أول مصورة في وقتها حذقت الرسم بالألوان وعلى العاج. وكل ما لونته من الرسوم كان صوراً للسيدات
وأخبرنا بليني أنها صورت نفسها في المرآة وهي عجوز، وقد عرضت هذه الصورة في معرض نابلي

وعثر على صورة أخرى لها في بمباي، وتمثل فتاة تجلس على مقعد يقرب من الأرض وتنظر إلى تمثال، وفي يدها اليمنى ريشتها ممتدة إلى صندوق ألوانها وفي يسراها لوح للتصوير. وثيابها منسدلة بأناقة حولها. ويحيط شعرها المتموج رباط لطيف يتدلى حول رقبتها وأكتافها، ويظهر على محياها مسحة تفكير وعلم تضيء أسارير وجهها الرقيق.
فإذا صح أن هذه تمثل صورة (لالاّ) فإنها لابد كانت جميلة فاضلة
الفيلسوفات
نبغت كثيرات من بنات اليونان في الفلسفة والحرف العقلية في مدارس بيثجوراس جاء في الأثر أن تأثير بيثجوراس في كارتون كان عظيماً جداً، حتى أن نساء المدينة أحضرن ملابسهن الثمينة وحليهن من عقود وأساور، إلى هيكل هيرا وأودعنها كمنحة للفضيلة العائلية. وآلين على أنفسهن منذ تلك الساعة أن يكون الحزم والحشمة رائديهن، ولن تكون الثياب الثمينة بعد الآن ما يتحلى به جنسهن، مستعيضات عن ذلك بالعلوم العالية والثقافة.
لعمري لقد كان قسما شريفا ومقصدا ساميا صنعت به المرأة اللبنة الأولى في بناء الإنسانية الحق. وهل من شك في أن العامل الأول في أي نهضة يتوقف على المرأة؟ إذن عليها أن تبادر بوضع بذور كل نهضة لتأخذ بيد الإنسانية مسرعة.
إن آثار النساء اللاتي تشربن مبادئ بيثجوراس تمت عن بسمعة يغبطن عليها في العالم اليوناني كله، حيث كانت نتائج تعاليمه بالنسبة لهن، مبادئ سامية لأخلاق المرأة، وعناية تامة بواجبات الأسرة، والنهوض بوسائل المعيشة الصحيحة في الحياة ولاسيما تربية الأطفال، مما لا يزال بعض آثاره باقياً إلى الآن.
وقد كان شعارهن وهو تعبير يعني الاعتدال والاعتداد بالنفس والحياء، والفضيلة الزوجية، وبالاختصار: كل ما هو جدير بأن تكون عليه المرأة. وفيما يلي مثال مما يشير إليه ما ذكر:
زوج بيثجوراس
النساء اللاتي نشأن على مبادئ بيثجوراس على ما امتزن به من تلك الصفات العالية والقوى الإنسانية التي هيأن بها حياة ناجحة، لم تضارع إحداهن ثيانو ذات العقل الراجح زوج بيثجوراس فلقد مزجت الفضيلة بالحكمة مزجاً متناسقاً، بحيث مثلتها الآثار لها لا كأول امرأة ممتازة فحسب، بل مثلتها كالنموذج الأول لنشأة المرأة الذكية الصحيحة أيضاً
نعرف عن حياة (ثيانو) بعض حوادث أخلاقية فقط، وهذا يجعلنا ننفذ إلى حقيقة أخلاقها. وأهمها الأقوال المأثورة التي قالتها في مناسبات خاصة:
سئلت مرة عما تتمنى أن تتميز به؟ أجابت ببيت من شعر هومر تمثلت به: (اكتراثي بالمغزل، واعتنائي بفراش زواجي)
وسئلت مرة أخرى: ما الذي تسأل عنه الزوجة؟
أجابت: أن تعيش خالصة لزوجها
وسئلت أيضاً: ما هو الحب؟ قالت: الحب هو غرام النفس الوالهة
حدث مرة أنها ألقت ردائها وظهرت ذراعها، فرآها رجل ودهش من جمال تكوينها، فقال: ما أجملها من ذراع! فقالت: ليس لنظرات العامة، وأسرعت بتغطيتها.
وقد استعار هذه الملاحظة بلوتارخ، وغيره من رجال الدين من بينهم كليمنت بالإسكندرية، كما استعارته المؤلفة البيزنطية أنّا وقد كننت ثيانو شاعرة وكاتبة ناثرة، وقد عثر على قليل من أعمالها الفلسفية والدينية يستدل منها على مقدار نمو مواهبها في التعليل، وفي مناقشة مسائل تربية الأطفال، ومعاملة الخدم، وكبت الحسد والعواطف الجامحة، كل ذلك بأسلوب مؤثر حساس لطيف
ولقد كانت أمينة إلى أقصى حد، في نشر مبادئ وتعاليم زوجها كمعلمة وكاتبة، أما موتها وظروفه فغير معروف
هذه صفحة من صفحات المرأة اليونانية الغابرة، فلعمري هل يكون نتاج أختها اليونانية الحديثة، يونانية عصر النور والراديو والحديد والنار، أشبه بنتاجها أو أرقى منه؟ هذا ما نرجوه
زينب الحكيم

رسالة الشعر
من جحيم التقاليد
التي في الأصفاد!. . .
للأستاذ محمود حسن إسماعيل
إلى ملهمتي. . في قيود الرجعية الغاشمة التي لا تدين)
بشرعة الحب العليا وتنكر على الهوى أزلية أنواره في قلوب
العشاق!)
يا قُدْسَهَا! هَلَّتْ كَوَحي الإلهْ ... عَلَى نَبِيٍّ أَسْكَرَتهُ الصَّلاَهْ!
عَلَى جَناني وهْوَ غِرُّ الصِّبَا ... أَذْهَلَ دُنْياهُ ضَبابُ الحَيْاهْ
على صَباحي وهْوَ طِفْلُ السَّنا ... مِنْ وَحْشة الأيام يَبْكي ضُحاه
حَيْرَانُ. لا أيْكٌ، ولا زَهْرَةٌ ... ولا خَمِيلٌ يَتَحَسَّى شَذاهْ
ولا مُنَى تُشْرِقُ فيهِ، ولا ... شعاعُ أَحْلاَمٍ يُنَاجي سَناهْ
حَفيفُ قُبلاتِ الْهَوَى عِنْدَهُ ... لَمْ يَدْرِ حتَّى في اللّيالي رُؤَاه
ولذَّةُ الْجَوَى وَأَسْمَارُها ... لَغْوُ الأَحَاديثِ، ولَهْوُ الشِّفاه
كنْتُ فَناَء في دِيارِ الْبلَى ... خاصَمَهُ الْبَعْثُ فألْقَى عَصاه
كنْتُ بُكاَء سَرْمَدِيَّ الأَسَى ... أجْفَانُهُ لَمْ تَدْرِ ماذا شَجاه
كنْتُ أنيناً في حَشا طائرٍ ... شَلتْ أغانِيهِ أَكُفُّ الرُّماهْ
كُنْتُ حَنيناً غَامِضًا، في دَمِي ... شِعْرٌ. وَلكنْ أَيْنَ منِّي لُغَاه؟
كُنْتُ وما كنْتُ ولكِن هوًى ... ظَمْآنُ، لم تَرْو اللّيالي صَداه
ظَمْآنُ! لا خِلٌ، ولا صاحِبٌ ... إلاَّ شَقاءٌ سابَقَتْني خُطاه
حَتَّى أهَلَّتْ فِتْنَتي، مِثلَما ... حَيّا النَّدى زَنْبقةً في فَلاهْ
أَلْقَتْ عَلَى رُوحي شعاعَ المُنى ... والسَّحْرَ، والشَّعْرَ، وخَمْرَ الْحَياه
عَذْراءُ لا مِنْ أيِّما آدَمٍ. . ... نِسْبَتُها في الكَوْنِ فَنُّ الإلهْ!
وَجْهٌ. . حَرَامٌ يا فَمِي وَصْفُهُ! ... ما كانَ خَلْفَ السِّترِ إلاَّ صَلاه
صَوَامِعُ الرُّهْبانِ أَلْقَتْ لهُ ... سِرَّ الْقَرَابين، وَتَابَ الْعُصاه
لَهُ هُدُوءُ النَّبعْ في وَاحَةٍ ... سَجْوَاَء لَفّ الطَّيْرَ فيها كَرَاه
ما نَوْرَة الْفُولِ؟ وما طِيُها ... إنْ شَعْشعَتْ عِطرَ الْهَوَى صَفْحَتَاه
وَما لَها (بابِلُ) مَشْدُوهَةٌ ... (هارُوتُ) يَنْعَاهَا لنار الرُّقَاهْ؟
حُوريَّتِي مَرَّتْ بها أَمْ رَنَتْ ... مِنْهَا إلَى السِّحْرِ عُيونٌ سَواهْ؟
اللهَ لي. . . يا ثَغْرَها رَحْمَةً ... فَالْكَرْمَ أَطْيافٌ لِتِلْكَ الشِّفَاهْ
صَوْتُكَ لَحْنٌ عَبْقَرِيُ الصَّدَى ... أَفْنَى ولا يَفنَى بِسَمعِي صَداهْ
إنِّي مِنَ الطِّين. . . فَطَهِّرْ فَمِي ... كَيْمَا يُنَاغِيكَ بِدُنْيا هَواهْ
وَيَنْقُلُ التَّسْبِيحَ عَنْ خَافِقٍ ... أَلْحانُهُ تُعْجِزُ جِنَّ الرُّوَاهْ!
مَنْ لَفَّ هَذا الحُسْنَ عَنْ عَبْدِهْ؟ ... وَمَنْ بِهذِي الأرْضِ عَنِّي زَوَاهْ؟
قَوْمُكِ يا آسِرَتي! مَا زَكا ... عَنِّي لَدَيْهِمْ فِي العُلاَ أيُ جَاهْ
جَدِّيَ (فِرْعَوْنُ) لَدَى كِبْرِهِ ... كَمْ أَطْرَقَتْ دُنْيا وَخَرَّتْ جِبَاهْ!
وَالْفَنُّ زَادِي وَعَفَافُ الهَوَى ... أَقْدَسُ مَا حُمِّلَ يَوْمًا سُرَاهْ
هذا الرَّخيمُ الشَّدْوِ فِي أَنْمُلِي ... نَايٌ يَرُوعُ الدَّهْرَ صافي صِبَاهْ
مَا لِي يَدٌ فِي سِحْرِهِ. . فَاسْأَلِي ... فسِرُهُ الْعَالِي بَعِيدٌ مَدَاهْ
مِنْ وَحْيِكِ انْهَلَّتْ أَسَاكِيبُهُ ... وَمِنْ هَوَاكِ الْعَذْبِ أشجَى بُكاهْ
إمَّا تَرَنّحَتْ بِإعْجازِهِ ... آلِهَةُ (الأوُلُمْبِ) خَرُّوا جُثَاهْ
مَاذَا؟! وَأَهْلُوكِ عَلَى غَفْلَةٍ ... مَرُّوا بِوَادِي الحُبِّ صُمًا قُسَاهْ
لَمْ يَسْمَعُوا النَّجْوَى. . وَلَمْ يَرْحَمُوا ... فِي حُشْنِكِ المَعْبُود نَارَ الشَّكاهْ
غَنَّتْ لَكِ الأَصْفَادُ شِعْرَ الأَسَى ... وَالْعَابِدُ النَّائي يُغَنِّي لَظَاهْ!
محمود حسن إسماعيل
فلسطين
للأستاذ محمد الأسمر
سلوا الأرض ما تلكَ القنا والقنابلُ ... وما (خط ماجينو)، وتلك المعاقل
أَرى عصرَنا عصرَ المجرّدِ سيفه ... فسلْ بالطُبي عن كل ما أنت سائل

تبينتُ أنَّ الحق إن لم تُتح لهُ ... بواسلُ يخشى ظلمها فهو باطل
لعمرك لو أغني عن الحق أنه ... هو الحقُ ما قام الرسول يقاتل
ولم يلق عيسى وهو يدعو لربه ... من الناس ما ساقت إليه الأراذل
فلا تحسبنَّ الحق ينهض وحده ... إذا مِلتَ عنهُ فهو لاشك مائل
أقمهُ، وأسنده، ودعِّم بناءه ... وذُدْ عنه ذود الليث والليث صائل
ولا تُسندنَّ الحقَّ بالقول وحدَه ... فإنَّ عمادَ الحق ما أنت فاعل
من العقل ألا يطلبَ الحقَّ عاجزٌ ... فليس على وجه البسيطة عادل
ولكن قويٌّ يشربُ الدم سائغاً ... إذا نضبت يومَ الورود المناهل
أسودَ (فلسطينٍ) تحيةَ شاعرٍ ... وكلُّ (فلسطين) أسودٌ بواسل
حللتمْ على الواديِ المبارك، أهلَّه ... فأنىّ نزلتم، فالقلوب منازل
ذهبتمْ إلى المنفى كواكب أمةٍ ... وعدتمْ كما عادتْ بدور كوامل
همُ أغمدوكم في السجون مناصلاً ... فها أنتمُ عدتمْ وأنتم مناصِل
خرجتم يواقيت السجون وعدتمُ ... يواقيت هولٍ بأسُه متواصل
وما أنتمُ إلا سيوفُ ملاحمٍ ... وما حادثاتُ الدهر إلا صياقل
لقد جادلوكم بالسيوف لياليا ... طوالاً، وكان القولُ بالسيف قائل
وعادوا فقالوا فاوضونا، ففاوضوا ... على حذر، لا يختلِ الحقَّ خاتِلُ
دَعوْكم لميدانٍ جديدٍ، جيوشُه ... كلامٌ، وفيه اللفظُ للفظ قاتلُ
وكلكم، والحمد لله، فارسٌ ... يدافع عن أوطانه، أو يجادلُ
أسودَ (فلسطين) ذياداً عن الحمى ... وعن غابكم، لا يدخل الغاب داخل
فما عاش حرًّا من مشى في بلاده ... وأمته قد طوقتها السلاسل
وما (سيشلُ) عندي التي كنتم بها ... ولكنّما دارُ الأذلاء (سيشل)
محمد الأسمر
قصائد في أبيات
للأستاذ محمود غنيم
ديك الصباح
قلت للديك ساعة صاحا ... هل تغني لنا نشيد الصباح
قال: لا، بل نعيتُ يوماً راح ... ومحاه من صفحة العمر ماح
الذئب
قلت للذئب أنت وحش ضَارِ ... قال أظفاركم شأت أظفاري
أفعار أن يقتنص الذئب سخلا ... واقتناص البعير ليس بعار
أفزع المرء كلَّ شاءِ وأبْلٍ ... وأخاف الطيور في الأوكار
استغاث العقاب في الجو منه ... واتقى النون شره في البحار
ولخير للشاة ناب وظفر ... من شفار المدى وشيِّ النار
(مدرسة الأورمان)
محمود غنيم
دوحة الفرصاد
للأستاذ عبد الحميد السنوسي
ولقد مررتُ بدوحة الفرصادِ ... فشهدتُ ما فعل الزمان العادي
جفت نضارتُها. وصُوح نبتها ... وتناثرت أوراقها في الوادي
فبكيتها، لا بل بكيتُ صبابتي ... ورثيتها، لا بل رثيتُ فؤادي
يا دوحةَ الفرصاد غيرك البلى ... وجرت عليك روائح وغوادي
أشبهتِ أعوادي التي نثر الأسى ... أوراقها، واهاً على أعوادي
قد كنتِ مثلي في الربيع غضيرةً ... أيامَ أوراق المنى أبرادي
فغدوتِ عارية فلا ثمرٌ ولا ... ورق عليكِ ولا حَمَام شادي
أشبهتني حتى بكيتُ وإنما ... يدري جوى الصديان قلب الصادي
يا قلب ليتك في النعيم وفي الأسى ... أبدَ الزمان كدوحة الفرصاد
فقد يعود مع الربيع شبابها ... لكنْ شبابُ العمر غير معاد
عبد الحميد السنوسي

القصص
راهب إيلياء
للأستاذ محمد سعيد العريان
على حدود الصحراء صوامع وبَيع، وكنائس وأديار؛ فيها قساوسة ورهبان نذروا أنفسهم لله أو نصبوا حبائلهم للمال؛ منهم برٌّ وفاجر، وناسك وداعر؛ وحواريٌّ من بقية السلف المؤمنين خاشع في محرابه، عاكفٌ على أسفاره، يترقب مَشرق الصبح بنفس راضية وقلب عامر؛ وآخرُ شيطانٌ في مسوح راهب، قد استمرأ المرعى في ظل البطالة، واستوطأ المقام في كنف الراحة، واستلذّ الحياة في الدَّير بين خمرٍ عتيق وقدٍّ رشيق وعودٍ وندامى!
وعلى ساحل البحر قلاع وحصون، وصياص ومعاقل، وجند من جند الروم قد رابطتْ على أهبة واستكملت السلاح والعدة!
وبين الصحراء والبحر من بلاد الشام يعيش شعب مرزوء، سلبه غزاةُ الروم وطنَه ومالَه، وسلبه الرهبان والقساوسة الدينَ والخلقَ وحرية الفكر والضمير!
وكانت قوافل التجار لا تنقطع بين الحجاز والشام
وكان يوماً قائظاً حين وفدت على الشام قافلة من التجار العرب، فأناخت جمالها على حدود الصحراء في ظل جدار قائم، تستجمّ لما بقي من الرحلة، وتنفض عن كواهلها غبار السفر الطويل في صحراء ليس فيها ظلٌّ ولا مأوى! وكان بينهم عمر!
فتًى آدَمُ طَوَال أصلعُ أقنى الأنف قويُّ الساعد بعيدُ ما بين المنكبين؛ في عينيه بريق ينبئ عن عزم وفتوة، وله نظرةُ الآمِر المطاع بين رفاقه وإن لم يبلغ العشرين بعدُ، وفيهم الكهول والأشياخ!
وبلغت القافلة حظها من الراحة فنهضت تستأنف المسير، فما كادت تمضي في طريقها خطوات حتى اعترضها واحد من الرهبان!
ووقف الراهب يتفرس في وجوه القوم برهة قبل أن يخطو إلى عمر فيضع يده على كاهله يختاره لما يريد من أمر!
وأيقن الركب أن لا قدرة لهم على عصيان الراهب فيما يريد، فخلفوا الفتى بين يديه ومضوا على وجوههم. . .
ولم يستطع عمر خلاصاً من يد الراهب، ولم يعرف لأي أمر يريده، فانقاد له. وبلغا الدير فدخل الراهب ودخل عمر. . .
وكان في الحوش كومة من تراب، وإلى جانبها مجرفة ومكتل؛ فتقدم الراهب إلى عمر يأمره: (يا فتى! هذا التراب تحمله من هنا إلى هناك. . . يجب أن تفرغ منه قبل أن أعود إليك. . .!)
ثكلتْك أمك يا عمر! ألهذا كانت رحلتك الطويلة في البادية الظمآنة من الحجاز إلى حدود الشام أياماً وأسابيع؟
وجلس الفتى يتحدث إلى نفسه مغيظاً محنقاً، لا يجد من كبريائه سبيلاً إلى الطاعة ولا طريقاً إلى الخلاص. ومضت ساعة وعاد الراهب مخموراً يتهالك من نشوته، وإن عليه لثوباً رقيقاً من حرير يشفّ ويَصف، ويفوح من أردانه عطر مُسكر!
ونظر الراهب إلى كومة التراب ما تزال في موضعها حيث كانت، وإلى جانبها المكتل والمجرفة، وإلى عمر ما يزال في موضعه واقفاً يتفكر. . .
ودنا منه الراهب وفي عينيه الغضب، فلطمه لطمة أليمة وهو يسبّ ويتوعَّد. . .!
هواناً لك يا عمر إن لم تأخذ بحقك ثائراً كما يثأر البدويُّ لعرضه المنتهك!
وهاجت كبرياء عمر فتناول المجرفة من قريب فأهوى بها على رأس الراهب فخرّ صريعاً لوقته ولم ينبس بكلمة!
(لك ما أردتَ لنفسك. . .!):
قالها الفتى العربي وهو يجمع عزيمته في رجليه فيقفز على سور الدير إلى الطريق لا يعرف أين ينتهي ولا أين يدركه الطلب!
ومضى على وجهه في المفازة الشاسعة عدْواً كالظليم لا يقف في طريقه شيءٌ من حفرة أو صخرة أو تلّ معترض، حتى انتهى إلى جدار قائم فأوى إلى ظله حتى تفئ إليه نفسه. . .
وأطلّ رأسٌ من نافذة ينظر. . . ثم انفتح باب الدير الذي أوى إلى جداره عمر؛ وخرج

. . .إليه راهب يسأله عن خبره!
(من تكون يا فتى؟ وما جاء بك؟)
واستمع عمر إلى الصوت الذي يناديه فرفع رأسه ينظر؛ فإذا قسٌّ ناحل سقيم الجسد غارق
في مسح أسود، وعلى جبينه إشراق ونور وفي عينيه تواضع ورحمة.
أجابه عمر في صوت يختلج: (سيدي! عابر سبيل أضلَّ أصحابه فأوى إلى ظلك ساعة يستريح!)
سمع الراهب لحديث عمر ثم قال مبتسماً: (أحسبك لم تصدقني يا فتى؛ فإن في عينيك بريقاً ينبئ أنك هارب مذعور!)
ازدرد الفتى ريقه، واستطرد الراهب: (لا عليك؛ إن عندي مأوى صالحاً وطعاماً!)
وقاده من يده إلى الدير وأغلق الباب وراءه. . . . . .!
جلس عمر إلى مائدة شهية فأكل وشرب؛ والراهب بازائه يحدق فيه لا يكاد يطرف جفنه، وبينه وبين نفسه حديث طويل.
فلما فرغ من طعامه جلس إليه يتبادلان الحديث، حتى أنس عمر وثابت نفسه، وصمت الراهب برهة ثم عاد ينظر في وجه الفتى وهو يقول: (أئنك لأنت. . .؟)
وطارت نفس عمر، وتوزّعتْه الظنون، واستمر الراهب في حديثه: (. . . ألا إنه ليس في هذا البلد من هو أعلم مني بعلم أهل الكتاب؛ فإني لأكاد أوقن أنك الشخص الذي أعني: ستدول دولة الروم في الشام على يدي فتى مثلك؛ ويخفق عليها لواء دين جديد!)
لم يفهم عمر كلمة مما قال الراهب، ولكنه استمر يستمع له مدهوشاً ذاهلاً، وفجأة سأله الراهب: (ما اسمك يا فتى؟)
قال: (. . . عمر بن الخطاب، من بني عديّ!)
وهب الراهب واقفاً وهو يقول: (والله ما خدعتني فراستي. إنك لأنت هو؛ فهل تعاهدني. . .؟)
ثم أتى بقرطاس وقلم فدفعهما إلى عمر قائلاً: (اكتب. . . اكتب أنني جارٌ لك، لا عدوان عليّ في مالي ولا في نفسي يوم يئول أمرها إليك. . .!)
وفغر الفتى فاه دهشة لما يرى وما يسمع؛ ثم توجه إلى الراهب يقول: (سيدي، لقد أكرمتني وألطفتني ما لا مزيد عليه، فلا تسخر مني بعد!)
قال الراهب: (أظننت؟ لعمر الحق ما عنيتها، ولا عليك من شيء أن تكتب؛ فإن كان الذي أتوقع فقد فعلت، وإلا فلن يضيرك مما تكتب شيء!)
وتناول عمر القلم فكتب ما أملى عليه الراهب ثم دفع إليه الكتاب. . .
وعاد الفتى إلى أهله، يعيش عيش المترفين من فتيان العرب، لا يعنيه من أمر شيء، إلا ما يعني غيره من شباب مكة من المنافرة والمفاخرة وانتهاز سوانح اللذات!
ومضت سنوات، ونسي الفتى ما كان من أمره في الشام!
وبعث الله محمداً نبياً يدعو إلى الحق وإلى سبيل الرشاد؛ فآمن من آمن، وأنكر دعوته من أنكر؛ وكان عمر أشد أعداء محمد حرباً عليه وعلى صحابته، فما أمكنته الفرصة مرة برجل من أصحاب محمد إلا ناله بما يكره من الأذى والمهانة!
ومضت ست سنين منذ بعث الله محمداً بالحق قبل أن يسلم عمر بن الخطاب!
وراحت جنود الإسلام تغزو الشرك في دياره، فما وطئت بلداً إلا أعلت كلمة الله ورفعت راية الإسلام. ومضى المسلمون في جهادهم يفتحون الأمصار ونورهم يسعى بين أيديهم؛ فما انتقل محمد إلى ربه حتى دانت الجزيرة العربية كلها وغمرها نور الإسلام
وتولى عمر إمارة المسلمين وجنودُ الإسلام يومئذ على حدود الشام؛ فمضى قُوّادُه إلى غايتهم ويبشرون بالدين، حتى تم فتح الشام على أيدي أبطاله: خالد، وأبي عبيدة، وعمرو، ويزيد بن أبي سفيان. وخلصت بلاد العرب من أبناء غسان - من عسف الروم وبطش الرَّهَابين، لتعود جزءاً من الدولة العربية المسلمة التي يقوم على شئونها عمر!
وتخفف أهل الشام من أثقال الحكم الغابر ليعودوا إخواناً متحابين ليس لأحد على أحد يد ولا منة؛ وانزوى الرهبان في أديارهم لا يربطهم بالجماعة رابطة إلا ما يدفعون للأمير العربي من الجزية تأميناً لأنفسهم ولما يملكون من مال اجتمع لهم على الأيام

مما اغتصبوا من أفواه الجياع باسم الدين! فأيُّما رجلٍ منهم حدّثتْه نفسه بالعصيان والتمرُّد، ردُّوه بأسيافهم إلى الطاعة وأجلَوْه عن صومعته ليجعلوها مسجداً من مساجد المسلمين؛ فلهم حرية العبادة وحرية المقام ما التزموا حدودهم التي ضربها الإسلام عليهم. . .

وتم الأمر للعرب في بلاد الشام، فكتب أمير الجند أبو عبيدة إلى عمر يدعوه ليعقد العهد بين أهل الشام والعرب الفاتحين ويكتب لهم به. وقدم الركب الحجازي يقدمه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب؛ حتى أناخ رواحله في بيت المقدس. . . وجلس عمر ذات يوم بين أصحابه وقادة جنده يشرع لهم ويبادلهم الرأي والمشورة؛ فإذا راهب مقبلٌ من بعيد إلى

حيث يجلس هو وصحابته؛ فما إن تبينه عمر مقبلاً عليه حتى عرف؛ فارتد بفكره إلى الماضي يذكر تاريخاً بعيدا وذكرى مضى دونها بضع وعشرون سنة؛ فأطرق برأسه متأثراً وهو يقول في همس: (جاء ما لا طاقة عليه لعمر!) ثم رفع رأسه وفي عينيه بريق عجيب، وقد تغشَّته الذكرى وعادت به إلى ماضيه تنشره أمامه صفحة صفحة منذ كان، وكان، وكان. . .

ودنا الراهب الشيخ من مجلس الأمير فحيا ووقف وفي يده صحيفة مبسوطة، فتناولها الأمير وجعل يقرأ:

(هذا عهد من عمر بن الخطاب إلى راهب إيلياء؛ له ما لأصحابنا وعليه ما عليهم، لا نظلمه ولا نخذله، ولا نفرض عليه ما لا طاقة له به، وله ديره وما ملك .. !)

وهم الراهب ليتحدث ويشرح أمره فابتدره عمر: (حسبك حسبك؛ إن لك ذمة في عنق كل مسلم وكل عربي، إن لم يؤكدها هذا الصك المكتوب أكدها شرف العربي وخلق المسلم!)

ثم التفت إلى عامله أبي عبيدة قائلاً: (ذلك جاري، فله عليك الأمان والذمة، لا يعرض له أحد بسوء ولا يناله بما يكره!)

وتلاشت آخر كلماته في بحة راعشة، وغامت عيناه بدموع التأثر. ثم نهض رافعاً رأسه وهو يقول في كلمات عميقة النبر بليغة الأثر:

(حيثما يرفرف لواء الإسلام فليس ثمة إلا العدل والوفاء والرحمة. لا يعرف الفاتح العربي غطرسة الحاكم ولا جبروت المنتصر؛ ولاشيء بين الحاكم والمحكوم إلا دين الله ووشائج الإنسانية!)

(شبرا)

محمد سعيد العريان

البريد الأدبي

الفنانون المصريون

لما كنت في جبال الدولوميث صيف السنة الماضية لقيت نفراً من مهرة الفنانين الإيطاليين. فحدثوني عن القسم المصري لمعرض البندقية الواحد والعشرين وكان حديثهم من أعذب ما سمعت إذ أقروا أن دلائل الفن المصري الحديث من الطراز الأول. ولما انحدرت من جبال الدولوميث إلى سهول إيطالية لم أر بداً من الذهاب إلى البندقية فوصلتها في يوم يكاد فيه الهواء يصل إلى الرئة: حرّ أسواني وثقل في الجو ثم بعوض فتّاك

إن القسم المصري في معرض البندقية كان شيئاً عظيماً حقاً. فلم أفرغ من تأمله حتى بعثت إلى (الرسالة) بمقالة مسهبة وصفت فيها المعروضات وعللت تقدم الفنانين المصريين. وإذا المقالة لا تنتهي إلى (الرسالة) عفا الله عن البريد وليعزّ عليّ أن أهمل ذلك القسم المصري، إلا أني أصبحت أرى معروضاته على ضوء ضئيل أو كما يقول المصورون أنفسهم في ضياء مظلم ومما يزيد في أسفي أن هذا القسم عُرض ثانية في فندق الكونتيننتال في القاهرة وأنا لم أحضرها بعد فهل يؤذن لي أن أكتب من الذاكرة؟

أذكر من الصور تلك التي عرضها محمود سعيد وهو مصور يحقُ له أن ينافس كبار زملائه من الفرنجة. ويمتاز سعيد ببثّ الحياة الزاخرة في نواحي صوره وبالإتقان من غير تكلف وبالتأليف الجامع المدفون في اللمحات والإشارات كأنه نغمات تنسجم على

وزن لا يبلغ الأذن. ثم إنه أخذ يفلت من تأثير روبرندت وروبنس وحول أنظاره إلى الفطريين أمثال فان إيك إلا أنه يصب في ألواحه ما يحس به خاصة وما يضطرب في الطبيعة المصرية. وله أداء تعبيري يدعوك إلى الروية وطلب المزيد. وإنك لتلمس هذا أمام صورتين له على وجه التخصيص هما: فتيات بحري والجزيرة السعيدة.

وأذكر من المنحوتات تمثالاً لأحمد عثمان يبرز فتاتين خارجتين إلى النزهة فيما أظن. والتمثال إلى الطريقة الوصفية الدقيقة. إلا أن الدقة فيه غير مباشرة، ومعنى هذا أن التفاصيل لا تؤدى على حالها المنظور بل على حالها المتخيّل. وهذا أسلوب في الأداء عرفه قدماء المصريين. وجمال هذا التمثال من جانب الصدق الذي يفيض من نواحيه ثم من جانب قوته التزيينية

وهنا أحب أن أعلن أن الفن في مصر الحديثة سبق الموسيقى والرقص والشعر حتى النثر لأنه بنجوة من الرأي العام لانصراف الجمهور عن مظاهره، والرأي العام عندنا يكره الوثبات، ولأنه غير خاضع لسلطان التقاليد والمنقولات إذ التصوير في الإسلام لا يعدو جانب التزويق، ولأنه نهض أول ما نهض على قواعد الفن الأوربي وحده فلا نزاع ولا شقاق ولا تقديم رجل وتأخير أخرى. أضف إلى كل هذا أن أصحابه أدركوا أن غاية الفن الصحيح طلب الطرافة من ناحيتين: الأولى بالانطواء على النفس والثانية باستلهام ما يحيط بك. فهذه تخرج لكل بلدٍ فنه الموقوف عليها لأنه مستمد من سمائها وأرضها سليقة أهليها، وأما تلك فترسل في ألواح كل فنان معنىً وتنفث سراً.

بشر فارس

من مآسي الحياة

سيدي الأستاذ الزيات

لقد وعدت أن أقص عليك ما أعلم من مآسي الحياة، ولكني رأيت ألاّ أفي بوعدي رحمة بالرسالة وقراء الرسالة

إن حبي للرسالة يمنعني أن أحملها من المآسي ما تخر تحته الجبال.

مآس سحقت قلوباً كانت قوية، وأذلّت نفوساً كانت عزيزة أبيّة، وهدمت حياة كانت حافلة بالآمال والأعمال.

فهل في استطاعة الرسالة احتمال كل هذا؟

أما كفاها ما حمّلها صاحبها من مآس وهي لا زالت طفلة في السابعة من عمرها؟ لقد رأيت الدموع تجري بين سطورها، وسمعت أنّات القلوب المحطمة بين صفحاتها، فهل أزيدها

ألماً وأحمّلها عصارة القلوب المنسحقة؟.

رحمة بالرسالة يا سيدي فهي - على الرغم ما تحمل من علوم وآداب عالية - لا زالت رقيقة صغيرة نضرة. وأني لأشفق عليها من وصف ما وصل إليه الإنسان من وحشية وقسوة!!

نعم يا سيدي الفاضل (إنه لا يزال في خبايا الغيوب وطوايا الحجب ما هو أمضّ لوعة وأشد روعة من (فتون وجنون)

لا يزال في خبايا الغيوب وطوايا الحجب مآس هي أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة.

وفي خبايا الغيوب آلام تضعف عندها الألفاظ وتمتنع عنها أقوى المعاني

وفي طوايا الحجب ضحايا. . .

ليت رحمة الله تدركهم فيذوقوا نعمة الموت! حتى الموت امتنع عنهم

وهل هناك أشد بؤساً من قوم كل أملهم انتظار الموت؟

لا تشك الدهر فيما يأتي به من شقاء، ولا تلم القدر بما يجيب من دعاء، فإن قلب الإنسان أشد قسوة وأمر تعذيباً من كل هؤلاء. بين الناس من يحملون قلوباً كالرحى.

ولقد فكرت مراراً كيف يقدر الإنسان أن يتفنن في تعذيب إنسان آخر وخصوصاً إن كان أقرب الناس إليه!! ولكني عجزت عن الجواب.

أراني يا سيدي الفاضل تماديت في الحديث أكثر مما كنت أود

وأخشى إن أنا استرسلت في الكتابة أن أكشف عن خبايا مآس ربما كان سترها أفضل، وأعيد ذكرى آلام ربما كان نسيانها أوفق، فعفواً سيدي ومعذرة إن أنا لم أنجز وعدي. فليس في استطاعتي أن أقص عليك. فربما كان الصمت أبلغ من القصص.

ا. ش. ف

هل عبد الإسرائيليون أبا الهول؟

جاء في العدد (288) من مجلة الرسالة الغراء أن كلمة (أبو الهول) محرفة عن كلمة (بوحول)، وهي لفظة إسرائيلية معناها (مكان حول) و (حول) إله محلي في فلسطين، فلما نزل الإسرائيليون أرض مصر أقاموا بجوار أبي الهول، وعبدوه بدلاً من أحد آلهتهم، لما بينهما من تشابه

ولاشك أن هذا ينافي ما هو معلوم من تاريخ الإسرائيليين، لأنهم لم يكن لهم إله بفلسطين قبل هجرتهم إلى مصر يسمى (حول). فإن الذين هاجروا منهم إلى بلاد هم: يعقوب وأولاده، ويعقوب هو إسرائيل، وإليه ينسب الإسرائيليون. وقد كان هو وأولاده يعبدون الله تعالى قبل هجرتهم إلى مصر، وبعد هجرتهم إليها كما هو معلوم من إجماع الكتب المقدسة وغيرها. ولا يصح أن يعدل عن تواتر التاريخ بهذه المناسبات اللفظية التي ترجع إلى توافق اللغات وتشابهها، ولا يمكن أن يؤخذ منها تلك الأمور إلى تنافي الحقائق التاريخية

والمعروف أيضاً أن الإسرائيليين لما هاجروا إلى مصر نزلوا بأرض جاسان، وهي في مديرية الشرقية الآن، وقد أقاموا بها إلى أن أخرجهم فرعون موسى منها

فإذا صح أن قوماً من فلسطين نزلوا بجوار (أبو الهول) وعبدوه. فإنهم يكونون من الفلسطينيين الوثنيين لا من الإسرائيليين الموحدين، وقد كانت فلسطين جامعة للفريقين

وإذا صح أن اسم (أبو الهول) في الهيروغليفية هو: (حرأم آخت)؛ ومعناها: (هوراس الذي في الأفق). فإن الأقرب أن يكون تحريف ذلك الاسم عن (هور). لا عن (بوحول)، وإضافة لفظ الأب إلى أسماء: (الأعلام) شائعة في العامية المصرية إلى الآن، وهذه التسمية من وضعها، وقد ذلك الضم في كتب مؤرخي العرب باسم (بلهيت) أو (بلهوية)

عبد المتعال الصعيدي

تمثال مصري قديم يخرج عن مصر

نشرت بعض الصحف نبأ عن تمثال مصري معروض على متحف متروبوليتان في الولايات المتحدة لشرائه، وقالت إنه أخرج من مصر خلسة. وقد قالت مصلحة الآثار المصرية أنه لأمير مصري استخرج من حفائر دهشور حول هرم الملك بيبي من الأسرة السادسة، وكان يقوم بالحفائر في تلك المنطقة مسيو جيكييه رئيس البعثة الفرنسية. والمفهوم أن هذا التمثال أرسل من مصر قطعاً صغيرة ثم أعيد تركيبه في أمريكا وعرض للبيع فقدر له مبلغ 1500 جنيه مصري ثمناً وقد أرسل متحف المتروبوليتان الأمريكي إلى مصلحة الآثار المصرية خطاباً يعرض عليها فيه شراء التمثال بهذا المبلغ فطلبت إرسال صورة له للاطلاع عليها

وتبحث مصلحة الآثار باهتمام في هذه الأيام الطريقة العلمية لمنع تسرب الآثار المصرية إلى الخارج، وقد اشترطت أخيراً على هذه البعثات وجوب وضع فني مصري في كل بعثة لمنع أمثال هذه الحوادث

أعظم مجهر في العالم

حضر ولي عهد بلاد السويد في 7 يناير تجربة الميكروسكوب الكهربائي الذي يكبر حجم الأجسام الدقيقة والذرات مائة ألف مرة

وإذا تصورنا أن الميكروسكوب العادي قد لا يتجاوز في تكبيره خمسة آلاف ضعف، أمكننا أن نتصور عظمة هذا المجهر الذي سيكون له أعظم شأن في الكشف الطبي والعلمي والفني

والمخترع لهذا الميكروسكوب العجيب العلامة سيجباهو المعروف في جامعة أويسالا والذي منح جائزة نوبل للعلوم الطبيعية

ويقال أن البروفسور سيجباهو استعمل مجهره العجيب على أساس الأشعة الكاتوديكية بدلاً من الأشعة الكهربائية العادية

ونحن إذ نسجل هذا الخبر ندعو الله أن السبيل لأحد المصريين أو أبناء الشرق أن يخترع اختراعاً أو يكشف اكتشافاً يكون له دوي عالمي حتى يلتفت العالم العلمي إلى بلاد تكثر من ذكر العبقرية وذكر النبوغ دون أن يكون من بين أبنائها من يمكن إطلاق

إحدى الصفتين عليه بجدارة واستحقاق
مصلحة للآثار العربية
كانت النية معقودة في وزارة المعارف المصرية على ضم دار الآثار العربية إلى إدارة الآثار الإسلامية وإنشاء مصلحة بهما معاً
وقد رفعت مذكرة إلى مجلس الوزراء بهذا الشأن، والمأمول بعد هذا الضم أن يتم العمل في ترميم الآثار والمساجد الإسلامية التي لا يزال بعضها مهملاً مع كونه هاماً أو على جانب من الجمال الفني
وقد قامت إدارة الآثار الإسلامية بمجهود جبار مع كونها كانت إدارة؛ فلا يبعد أن يتضاعف مجهودها إذا ما أصبحت مصلحة مستقلة ذات ميزانية كبرى
توليد السماد من الهواء
من المسائل التي تهتم بها الآن مصلحة التجارة والصناعة بحث كشف علمي جديد كشفه أحد الأمريكيين وسجله لدى حكومته
وخلاصة الكشف أنه يمكن توليد السماد من الهواء بطريقة خاصة تجمع بين غاز الأكسجين وغاز الأزوت بعد تسليط أشعة خاصة هي وسط بين أشعة أكس وأشعة الألترا فيوليت. وقد أوضح المكتشف في تقريره إلى مصلحة التجارة والصناعة المصرية بأن طريقته أقل نفقة من غيرها، ولذا أرسلت الوزارة المصرية إلى مفوضيتها في واشنطون طالبة زيادة الإيضاح والبيانات عن هذا الكشف العلمي الذي قد تستفيد منه مصر إذا ما اتضح نفعه
الحالة الاقتصادية في تونس
كثر الحديث عن تونس منذ أسابيع بالنظر إلى الاقتراحات الإيطالية التي ستتقدم بها الحكومة إلى الجمهورية الفرنسية كما كثر اهتمام الشرقيين بهذا القطر الشقيق.
ولعل في ما نذكره عن حالة تونس من الناحية الاقتصادية ما يجعلنا نفهم بعض الشيء الدافع لإيطاليا إلى الاتجاه لهذه المنطقة الخصبة
مساحة الأراضي المزروعة قمحاً 1 , 100 , 000 فدان
مساحة الأراضي المزروعة المغروسة عنباً 31 , 100 فدان
محصول القمح في السنة 3 , 000 , 000 قنطار
محصول الشعير في السنة 3 , 000 , 000 قنطار
محصول الشوفان في السنة 500 , 000 قنطار
محصول النبيذ المتحصل من الكرم 70 , 000 , 000 لتراً
عدد أشجار الزيتون 16 , 000 , 000 شجرة
ينتج منها زيت قدره 500 , 000 لتر
وفيها يبلغ طول الطرقات المعبدة 6000 كيلومتر
وطول السكك الحديدية 3000 كيلومتر
وعدد موانيها يبلغ 21 مرفأ
منها من الدرجة الأولى 4 مرافئ
تبلغ حركة التجارة في أولها وهي صفاقس 3 , 000 , 000 طن
وفي الثانية وهي تونس 1 , 000 , 000 طن
وفي الثالثة وهي بنزرت 450 , 000 طن
وفي الرابعة وهي سوس 420 , 000 طن
وقاية آثار المتحف المصري من الغارات الجوية
المعروف أن المتحف المصري يشمل أغنى مجموعة أثرية مصرية في العالم أجمع، ولذلك كان من ضمن الأعمال الهامة التي درستها الحكومة المصرية النظر في أمر وقاية الآثار في المتحف المصري عند حصول غازات جوية
وقد ذهب الخبير البريطاني في مصلحة الوقاية من الغارات الجوية إلى مصلحة الآثار لمعاينة الأماكن والمخازن ذات القبو التي يمكن اعتبارها صالحة لهذا الغرض واطلع الخبير على رسوم خاصة بإنشاء مبان أخرى
ويهمنا من نشر هذا الخبر أن نوجه عناية الحكومة إلى التفكير أيضاً في وقاية الآثار العربية لأنها إذ لم تكن قديمة قِدم الآثار المصرية فإنها لا تقل عنها شأناً
مستقبل الثقافة في مصر

أخرج صديقنا الدكتور طه حسين بك كتاباً قيماً في جزءين عالج فيه مستقبل الثقافة في مصر بمعاهدها المختلفة. وقد أرسل إلينا الدكتور زكي مبارك بحثاً ضافياً عنه سننشره في العدد القادم

بين القديم والجديد

أرسل إلينا الأستاذ محمد أحمد الغمراوي مقاله الثاني في الرد على (قارئ) في مسألة الأدب بين القديم والجديد فاضطررنا لضيق الوقت أن نؤجله إلى العدد المقبل

جمعية علمية تعمل على نشر الأدب العربي

علمنا أن الجمعية العلمية الفرنسية التي وجهت عنايتها منذ إنشائها إلى نشر الآداب القديمة والحديثة، قد اتجه تفكيرها إلى إحياء ما تركه العرب من تراث أدبي، مع توجيه نصيب من الجهود إلى الأدب العربي الحديث لإعطائه حقه من العناية والدراسة

ومما وقفنا عليه في هذا الصدد أن فريقاً من علماء تلك الجمعية اعتزموا زيارة مصر في الأيام القريبة المقبلة للاتصال بكبار رجال الأدب فيها، تمهيداً لترجمة بعض المؤلفات الأدبية القديمة والحديثة ونشرها في فرنسا

ومما يجدر بالذكر أن هذه الجمعية قد نشأت بعد الحرب الكبرى، وبدأت جهودها التي لا دخل للهيئات الرسمية فيها، بنشر الآداب اللاتينية بعد ترجمتها ترجمة جديدة، فأحدثت بذلك ثورة فكرية في البيئات الأدبية والعلمية، لم تتأثر بها فرنسا وحدها وإنما تعدت حدودها إلى الممالك الأخرى

مشروع جامعة السودان

من أنباء الخرطوم أنه منذ صدور التقرير الضافي الذي وضعه اللورد دي لاوار عن التعليم في السودان، ومصلحة المعارف السودانية تبذل جهدا لتحقيق أمل السودانيين في إنشاء جامعة للسودان على نحو الجامعة المصرية

وقد كتبت بعض الصحف تشك في إمكان قيام مثل هذه الجامعة لعظم ما تحتاج إليه من تكاليف لا تتحملها الميزانية السودانية. ولكن المتصلين برجال المعارف في القطر الشقيق يقولون إنهم جادون كل الجد، في العمل على تنفيذ مشروع الجامعة السودانية

ويظهر أن الجامعة الجديدة سوف لا تستند في مواردها إلى المالية السودانية فقط، لأنها في الحقيقة ليست تنفيذاً للأمل السوداني المتواضع، بل تنفيذاً لسياسة عليا، يرجى من ورائها أن ينشأ هناك مركز علمي كبير يحمل الثقافة إلى الجزء الأفريقي من مستعمرات التاج البريطاني، وقد أشير إلى هذا الغرض صراحة عند إرسال بعثة دي لاوار

العدد 290 - بتاريخ: 23 - 01 - 1939

من مآسي الحياة

ضحية مَن هذا؟

الأباء يأكلون الحصرم، والأبناء يضرسون!

كنت في مكتبي مساء الأمس أتحدث إلى قصصية شاعرة جاءت تهدي إليَّ قصة للتقريظ، وقصصي كاتب جاء يقدم إلي أقصوصة للنشر. وكان من مطارحات الحديث أن تكلمنا في نصيب الخيال والواقع من قصة الأديبة وأقصوصة الأديب؛ وجرى على الألسنة الثلاثة كلام في روعة الواقع المحض، وزخرفة الفن البارع، وجاذبية الخيال الممكن. وكأنما كان يدافع عن الحقيقة مدافع من وراء الغيب فأدخل علينا فتى ذاوي الفتوة ضارع الجسم، ألف القَدر من شقائه مأساة لا يحتاج الكاتب في سردها إلى تلفيق خياله أو تزويق فنه

قرأ هذا الشاب ما كتبناه عن بعض من عرفنا من فرائس البؤس، فظن لبراءة فكره وسلامة صدره أن ما نكتبه عن هذه المآسي الأليمة يصادف من أولي الأمر استماعاً واقتناعاً ورحمة، فأراد آخر الرأي أن يسمعهم أنينه الموجع من هذا المكان القريب. ولو علم فتانا أن القدرة صفة من لا يرحم، وأن الرأفة خُلق من لا يستطيع، لأدرك أن كبراءنا وأغنياءنا يقرءون مآسينا للتلهي والفن، كما نقرأ نحن ملاهيهم للتسلي والعَجب. فإذا كانت لهم عيون فعيونهم من غير دموع، وإذا كانت لهم قلوب فقلوبهم من غير شفقة. ولكنه أخذ يستريح إلينا بما كابد من باطن الهم ومكنون الأسى، فأخذت الكاتبة تنهنه عبرة سالت على الخد، وأخذ الكاتب يعجب أن يبلغ البؤس بالناس إلى هذا الحد،

وتركا لي أن أقص عليك فصلا من هذه الرواية:
في المنصورة أيضاً بلد المال والجمال والشعر، سطر الدهر المصرِّف في سجل الألم الإنساني هذه المأساة. كان أبوه من كبار التجار في هذه المدينة؛ وكانت يداه كيدي الخازن الماهر في المصرف العظيم تسيلان في الأخذ والعطاء ورقاً وفضة. وكان معدوداً في سراة القوم، يعيش عيش المترفين المسرفين، يطلق نفسه في العز، ويقلب أهله في النعيم، وينشِّئ أطفاله السبعة على كبر النفس ورفعة الهوى وبُعد الأمل. واتسق له الحال وواتاه الحظ الناهض فظن أمره قد عظم على الأيام واعتصم من الطوارق، فأغفل المواظبة والمراقبة، وأهمل المراجعة والمحاسبة، فصار الداخل لا يسجَّل، والخارج لا يحصَّل؛ واجتمع عليه
العدوان السخيان: التاجر المصدِّر الذي يعطي ولا يأخذ اعتماداً على الضمان، والشاري المستهلك الذي يأخذ ولا يعطي اتكالاً على الأمانة. وظلت الأمور تجري في مجاريها اليومية، تُفرغ صناديق البضاعة ليلاً في المخازن، ثم توزع على الناس نهاراً في الحوانيت؛ ولا يعلم إلا الله والتاجر ما في هذا الرواج العظيم من البوار، وما يبطنه هذا الربح الموهوم من الخسارة
وكان هذا الفتى وهو بكر أبيه قد نجح في امتحان البكالوريا بقسمها العلمي حين نزلت بهذا التاجر المغرور علة فادحة. وأعان المريضُ العلة على نفسه بما انكشف له من سوء الحال وظلام المستقبل فقضت عليه
جلس الفتى في المتجر مكان أبيه الراحل وهو يكفكف عبرات العين بالصبر، ويخفف حسرات القلب بالرجاء، وفي اعتقاده أنه سيبني على أساس مكين ويصعد على رأس مال ضخم. فلما خطا الخطوة الأولى تفتحت أمامه الهُوَى، وتفجَّرت حواليه النوازل؛ فعاد ينظر في المخازن ويبحث في الدفاتر فوجد الخطر الذي لا يدفع، والقضاء الذي لا يُرد. وحاول أن يتفق مع الغرماء والحرفاء فلم تساعده فداحة دَينه، وطرءاة سنه على هذا الاتفاق، فاستغرق بعض الدين كل التركة، وأعلنت المحكمة إفلاس المتجر. . .
وفي عشية وضحاها فقدت الأسرة المدلَّلة وسيلتها للعيش ومكانتها في المجتمع، فلم يعدْ لها بعد الله عائل ولا وائل غير هذا الشاب وشهادة يحملها عليها طابع الحكومة وخاتم وزير المعارف بأنه تربى وتعلم، فمن حقه أن يمارس شؤون الناس ويلي أمور الدولة. فانتقل بأسرته إلى القاهرة، ثم أخذ يقطع السبل المؤدية إلى الوزارات كل صباح وهو فخور بشهادته، مدل بكفايته، فلم يدع باباً من أبواب الدواوين إلا طرقه. ثم ألح في الطرق رجاة أن يصيخ إليه سمع فلم يشعر بوجوده غير السعاة والحجاب، فاتسعوا له حينا ثم برموا به فنهروه وطردوه. وأدرك المسكين بعد لأي أن الشهادة من غير مدد ورقةٌ عليها مداد. فأخذ يلتمس الشفاعة عند أرباب السراوة والجاه. ولكن الشفاعة في أيامنا أصبحت حرفة لا يبذلها الشفيع إلا لمن يبذل فيها المال أو العرض.
فكان الفتى كلما سمع برجل من رجال النفوذ قصده وقص عليه قَصصه، فلا يكاد الرجل العظيم يعلم أن له أخوات في غَيسان الشباب، وأمَّا لا تزال في ربيع العمر، حتى تحوم نفسهُ على الخِدْر الذليل، فتثور الحمية بالفتى فلا يجد لها متنفسا إلا البكاء والاختفاء
والتمس البائس السبيل إلى العمل بالفكر وباليد فلم يوفق. وأوشك أن ينفذ ثمن الحلية الأخيرة من حلي أمه؛ وخشي أن يختم الموت على الأفواه الثمانية الذابلة، فتقدم إلى العمل (فاعلاً) في عمارة تبنى، فرده (المقاول) لرقة جسمه ودقة عظمه! فانكفأ الطريد بالفشل والخجل إلى أسرته اليائسة الولهى؛ وباتوا جميعاً على الطوى والجوى يخلطون البكاء بالبكاء، ويَصِلون الدعاء بالدعاء، حتى سمعوا أن كلية الطب تطلب فراشين، فتقدم صاحب الشهادة مع صاحب المكنسة، وأمله كله ألا يُذاد عن هذا الملجأ الأخير!
وهاهو ذا الآن في قسم الكيمياء ينظف لرفاقه في الدراسة المقاعد والمناضد بأجرة في الشهر مقدارها مائة وأربعون قرشاً يحفظ بها أربعة أعراض وثمانية أرواح! ولعله بفضل ما تعلّم من المعادلات واللوغاريتمات لا يتعب كثيراً في حساب هذا الدخل!
أحمد حسَن الزيات
الأم. . . أو التاريخ الحي
للأستاذ عباس محمود العقاد

كثر الحديث في الأسبوع الماضي عن (ماري أنطوانيت) والثورة الفرنسية، لأن داراً من دور الصور المتحركة عرضت حياة هذه الملكة المنكوبة في صورة قريبة إلى التاريخ ولكنها أقرب إلى الفن والتصرف الذي يقتضيه في بعض المناظر. وشهدت هذه الرواية التاريخية فأيقنت من براعة تمثيلها وعرضها أنها قد جعلت الثورة الفرنسية ذكرى حياة لمن شهدوها كأنهم قد عاشوا في أيامها وتقلبوا بين تقلباتها وطبعوا في إخلادهم بعض حوادثها. وأعانهم على ذلك أن حقائق التاريخ ملتزمة في مسائلها الجوهرية أحسن التزام مستطاع، وأنها معروضة على مثال نفسي لا على مثال اجتماعي أو علمي يقصر الأمر على التأمل والتدبر ولا ينفذ به إلى معترك العاطفة والإحساس

قال (ستيفان زفيج) أكبر كتاب السير المعاصرين فيما مهد به لسيرة (ماري أنطوانيت) إن: (الفاجعة التاريخية) تقوم على البطولة أو على أناس من جبابرة النفوس والعقول. فإن لم تكن كذلك فهي تقوم على (إنسان عادي) يتعرض للأحداث الجسام التي تفوقه في الكبر والضخامة وتجعله عظيما بما يحيط به من أقدار عظيمة وإحن لا طاقة له باتقائها ولا بالخلاص منها بعد وقوعها

ولم تكن ماري أنطوانيت من معدن البطولة والجبروت، ولكنها كانت امرأة من الطراز الوسط في الذكاء والمزاج والأخلاق، تحب سهولة الحياة ولا تشغل بالها بالفوادح والمشكلات. فلما أحاطت بها الفوادح والمشكلات على الرغم منها ظهرت (الفاجعة التاريخية) على نمط يشبه فواجع الأبطال والجبابرة، من غير بطولة ولا جبروت والرأي عندنا أن (الفاجعة الكبرى) تهز النفس هزاً عنيفاً في حالتين اثنتين: إحداهما حالة البطولة والجبروت التي أشار إليها ستيفان زفيج، والثانية حالة الإنسان العادي الذي تمتحنه الأحداث في كل جانب من جوانب نفسه فلا تدع له حاسبة بعيدة من سلطانها غير مجروفة في دوافق تيارها. وكذلك كانت فاجعة التاريخ التي أحاطت بماري أنطوانيت

كانت ملكة وزوجة وأما ومحبة وامرأة من بنات آدم وحواء كسائر النساء. فما تركت لها الأحداث جانباً من هذه الجوانب إلا استغرقته وطغت عليه: امتحنت منها الملكة في دولتها

ونظام حكمها وعلاقتها بسياسة بلادها التي حكمتها وسياسة بلادها التي ولدت فيها؛ وامتحنت منها الزوجة في قرينها الذي حالت بينها وبينه علة العجز الصحي سبع سنوات، حتى إذا شفي من عجزه أصابتها فيه خطوب الثورة ودسائس البلاط؛ وامتحنت منها الأم فطعنها الثوار وطعنها وليدها نفسه في أمومتها، بل في شرف الأمومة فضلاً عن حنانها؛ وامتحنت منها المحبة فكانت قصتها مع السويدي فرزن كأقسى ما تكون قصص الفراق أو قصص الغرام المكبوت؛ وامتحنتها في أنوثتها فوقفت بينها امرأة عزلاء بادية المقاتل لكل سهم مسموم

لذلك كانت فاجعة (ماري أنطوانيت) من أكبر فواجع التاريخ وإن كانت هي وكان لويس السادس عشر زوجها المظلوم من معدن غير معدن البطولة والجبروت، لأن النفس الآدمية تقابل هذه الفاجعة من نواحي شتى وصلت كلها إلى غاية المدى وقصارى الاستقصاء. ولا ريب أن الفجيعة الكبرى بين هذه الفجائع المتفرقة التي التقت في شخص واحد كانت هي فجيعة الأم أو فجيعة الأمومة البالغة في القسوة والإيلام شهد القاهريون (نور ماشيرر) وهي تمثل فجيعة ماري أنطوانيت يوم جاءها وكلاء الثورة يأخذون منها طفلها الصغير وسلوتها العظمى في بلاء السجن وبلاء الضنك والحرمان

فأما (ماري أنطوانيت) فالتاريخ لا يروي لنا أنها قد فعلت في ساعة توديع ابنها ما فعلته نور ماشيرر على اللوحة البيضاء، ولا أنها قد مانعت هذه الممانعة وتخبطت هذا التخبط وبكت هذا البكاء، ولكن الممثلة أرادت أن تجمع في هذا الموقف ما تفرق في أعوام من الحنان المفجوع والعطف المطعون، فبالغت هذه المبالغة التي صدقت بها الفن وإن لم تصدق التاريخ

فقد ثبت في الأسانيد الصحيحة أن هذه الأم الوفية ضيعت نفسها مرات وأعرضت عن كثير من وسائل النجاة في سبيل الطمأنينة على وليدها الصغير

فلما فشلت خطة الهرب إلى (فارين) وأصبح استئناف السير في المركبة المقفلة

ضربا من المستحيل عرض عليها بعض الأنصار المخلصين ركوب الجياد في المسافة القصيرة الباقية بينهم وبين الحدود قبل إطباق الثوار والجنود، فأبت هذا الاقتراح مخافة على ابنها أن تصيبه رصاصة من بعض الجند، لا يأمن التعرض لها على ظهر جواد كما يأمنها في
المركبة المقفلة أو الركب المجهول
ولما دبر الملكيون إخراجها من السجن وإخراج ابنها وبنتها معها في أسمال العامل الذي يوقد المصابيح مع أولاده الصغار فشلت هذه الخطة في اللحظة الأخيرة، ثم قيل للملكة إنها تستطيع الهرب وحدها على أن تترك ابنها وابنتها ولا خوف عليهما كما يخاف عليها هي من جراء المحاكمة والاضطهاد. فأبت كل الإباء وآثرت البقاء مع ولديها على النجاة وحدها وهي لا تعلم مصير هذين الطفلين
ولما ألح عليها المحامي أن تسأل المحكمة الثورية تأجيل يوم المحاكمة ريثما يستعد للدفاع ويفرغ من مراجعة الأوراق رفضت إلحاحه وأصرت على رفضها مخافة أن يكون اعترافها بحكومة الثورة بمثابة النزول عن حق ولدها في وراثة التاج. فعاد المحامي يحتال عليها من ناحية حنان الأمومة، ويذكرها أن حياتها مطلوبة لولدها لا لنفسها، واسترسل في هذا الإغراء فلم يتحدث طويلاً على هذه النغمة حتى أقلعت عن عنادها وثابت إلى القبول وكتبت خطابها المحفوظ الذي جمعت فيه بين الحيطة والإصغاء إلى رجاء المحامي، فأفرغته في قالب الإخبار والعمل بنصيحة المحامي كأنما هو مكتوب على لسانه لا على لسانها حتى يتحقق به الإبلاغ ولا يتحقق به الاعتراف
والكارثة الكبرى يوم ضبط ابنها الصغير بعد فصله منها وهو يعبث العبث الذي لا يعرف في مثل سنه الباكرة، فلما روّع بالسؤال عمن علمه هذا أجاب على عادة الأطفال: إنها هي أمه وعمته. . .! ثم حرضه المحرضون على الشهادة بما قال وبما أضافوه إليه من هراء لا يقبله العقل ولا يحتمله التصديق، فأنفت أن تجيب عن هذه التهمة وتجاهلتها حتى نبه بعض المحلفين رئيس المحكمة إلى هذا التجاهل فأعاد سؤالها فلم تزد على أن تقول: (إذا كنت لم أجب فإنما أبيت الجواب، لأن الطبيعة تأبى أن تجاب تهمة كهذه توجه إلى أم. وإني لأحيل الأمر في هذه المسألة إلى جميع الأمهات الحاضرات في هذا المكان)
فشعر أعضاء المحكمة وشعر دعاة الاتهام معهم أن الضربة فائلة، وأنهم ما صنعوا بها إلا أن قربوا بين هذه الأم وبين جميع الأمهات والآباء، فسرى في الحاضرات والحاضرين شعور العطف عليها والرثاء لما أصابها، وما كانوا حاضرين إلا للشماتة والازدراء
وقد كان آخر ما صنعته بعد صدور الحكم بموتها ويقينها أن وليدها لم يبق له بعدها من يشرف على أمره غير عمته المسجونة، أنها كتبت إلى تلك العمة ترجوها الصفح عن الغلام وتعتذر له بصغر سنه وسهولة إغرائه، وتوصيها به خير الوصاة
لقد كانت مصيبة الأم في حياة ماري أنطوانيت أظلم المصائب وأشدها حلكة وسواداً، ولكنها كانت أنصع الصفحات في سيرة هذه الملكة المنكودة والمرأة المبتلاة، وإن تلك الصفحة وحدها لكفيلة بخلق (الفاجعة الكبرى) في هذه السيرة النادرة بين سير النساء
عباس محمود العقاد
إلى الدكتور طه حسين
للدكتور زكي مبارك
أيها الأستاذ الجليل:
تفضلت فأهديت إليّ نسخة من كتابك الجديد (مستقبل الثقافة في مصر) وكان من واجبي أن أشكر لك هذه الهدية بخطاب أسجل فيه هذا التلطف. ولعلني لو حاولت ذلك لاهتديت إلى أن من الخير أن أنتهز الفرصة وأشرب معك كأساً من الشاي في بيتك لنجدد العهد؛ ولكني آثرت أن أشكر لك هذه الهدية بأسلوب آخر هو الهجوم عليك وما كان ذلك حبّاً في المشاغبة كما يتوهم بعض من لا يفقهون، وإنما كان ذلك لأني أشعر أننا أسرفنا في حب السلام، والسلام ضرب من الموت، وأعتقد أننا في هذه الأيام نختلف أقل مما يجب ويا ويلنا إذا لم نختلف!
ويسرني أن أعرف فيما بيني وبين نفسي أني لم أقصّر في محاربتك، ولم يفتني أن أنذر رجال التعليم بخطرك، وقد قلت لهم بصوت يسمع أهل القبور: (إن هذه الرجل

سينتزع من أيديكم كل شيء) فما استمع مستمع ولا استجاب مجيب
وكما قلت للغافلين: إن طه حسين ليس أعلم العلماء، ولا أحكم الحكماء، وإنما هو رجل (متحرك) كما يعبر أهل بغداد، فتحركوا يا جامدين لتسدوا عليه الطريق
كم قلت: إن من الغفلة أن يسكت رجال التعليم إلى أن يسمعوا صوت الناقوس من طه حسين! وما قلته لرجال التعليم قلت بعضه لنفسي، ففي كتابك الجديد آراء أذعتها من قبلك في الجرائد والمجلات، ولكني لم أحتفل بها كما احتفلت فأذيعها في كتاب خاص، ولو أني فعلت لأضعت عليك فضل السبق. ولكن ما فات فات
ما كان يسرني أن تنتصر، وإن كنت أقسمت يمين الوفاء لكلية الآداب؛ ولكن ماذا أصنع وأنا مضطر لكلمة الحق في إنصافك بحكم الضمير والواجب؟ ماذا أصنع وأنا أرى أنصاري في مخاصمتك لا يملكون غير مضغ الأحاديث؟ ماذا أصنع وأنا لا أدري بين رجال التعليم من يبدي رأياً صحيحاً أو سخيفاً في مستقبل الحياة الأدبية والعلمية؟
كنت أتمنى أن يشغل بمستقبل الثقافة في مصر عشرات من الباحثين منهم شيخ كلية اللغة العربية وعميد دار العلوم ورئيس المجمع اللغوي ومدير دار الكتب المصرية؛ ولكنك
تفردت بذلك الإحساس الدقيق الذي يظهر في اختيار الظرف المناسب لما تذيع من مذاهب وآراء؛ فإن بدا لبعض الناس أن يحسدك على هذا السبق فليسأل نفسه ماذا صنع بالإجازات الصيفية، كما صنعت أنت بالإجازات الصيفية
أتريد الحق يا دكتور؟
أنت رجل مقتحم، وما حق المقتحم أن ينتصر كما انتصرت
ولكن ماذا في كتابك الجديد؟
هو في جملته وتفصيله شاهد على أنك تقدر المسئولية الملقاة على عاتق عميد كلية الآداب. وأنت في كتابك هذا قد فصلت ما يعترض مصر من المعضلات التعليمية أجمل تفصيل. وليس لكتابك الجديد بريق الكتب الأدبية، ولكن له جلال الكتب التعليمية، فتقبل مني ومن جميع المنصفين أصدق آيات الثناء
ثم ماذا؟ - في كتابك الجديد كثير من البديهيات، فهل ترى من الحق أن نحاسبك على التطويل في شرح البديهيات؟
من الذي حدثك أن المصريين يحتاجون إلى من يدلهم على أنهم في تصورهم وعقليتهم يقتربون من إيطاليا وفرنسا أكثر مما يقتربون من الصين واليابان؟ من الذي حدثك أن المصريين يحتاجون إلى من يذكرهم بأنهم قوم لهم عقول تدرك ما يدرك الأوربيون في ميادين العلوم والآداب والفنون؟
في كتابك بديهيات كثيرة من هذا النوع، فاستغن عنها إن شئت في الطبعة التالية لئلا تسجل على وطنك جهل البديهيات
ثم ماذا؟ - قلت إن عقلية مصر عقلية يونانية، وصرحت بأن الإسلام لم يغير تلك العقلية. فاسمح لي أن أشكوك إلى عميد كلية الآداب، فعميد كلية الآداب وهو أستاذي وأستاذك، واسمه طه حسين إن لم تخني الذاكرة، يعرف أن مصر ظلت ثلاثة عشر قرناً وهي مؤمنة بالعقيدة الإسلامية، والأمة التي تقضي ثلاثة عشر قرناً في ظل دين واحد لا تستطيع أن تفر من سيطرة ذلك الدين
عميد كلية الآداب الذي أعرفه أنا، وإن تجاهلته أنت، يعترف بأن الإسلام رجّ الشرق رجّةً أقوى وأعنف من الرجَة التي أثارتها الفلسفة اليونانية.
عميد كلية الآداب يثق بأن في مصر شمائل من العقلية اليونانية التي تلقت الدروس عن مصر الفرعونية. ولكنه مع ذلك يؤمن بأن لمصر عقلية إسلامية، وهذه العقلية الإسلامية لها خصائص يدركها أصغر مدرس في كلية الآداب. وأرجو إلا يضيق صدرك بهذه الحقيقة فقد نلتقي بعد أيام أو أسابيع وأشرح لك ما لا يحتاج إلى شرح، كما تشغل نفسك بشرح ما لا يحتاج إلى شرح
من المؤكد عندي أنك لم تستشر عميد كلية الآداب قبل أن تصرح بأن الإسلام لم يغير العقلية المصرية، وذنبك في هذا التهاون عظيم لأنك قريب منه، واتصالك به لا يجشمك أي عناء.
عميد كلية الآداب يعرف، كما أعرف أنا وتعرف أنت، أن الديانات تفترق ثم تجتمع، وهي في روحها تحدث الناس بأسلوب واحد في أوقات الضعف، ولكن هذا لا يمنع من

أن هناك خصائص للعقلية الإسلامية والعقلية المسيحية، وهذه الخصائص تخفى على العوام ويدركها الخواص.

وكيف لا توجد هذه الخصائص بين دينين مختلفين، مع أننا نعرف أن هناك خصائص عديدة في الدين الواحد حين يختلف أهله بعض الاختلاف؟

إننا نعرف أن للكاثوليكية خصائص وللبروتستانتية خصائص، لأننا نعرف أن للعقلية السنية خصائص وللعقلية الشيعية خصائص

فكيف جاز عندك يا سيدي الدكتور أن تتوهم أن الإسلام لم يغز العقلية المصرية بتغيير ولا تبديل؟

أنا لا أنكر أن مصر ورثت ما ورثت من علوم اليونان، ولكني أنكر أن تكون مصر عاشت بعقلية واحدة منذ آلاف السنين إلى اليوم. هل تصدق حقاً يا دكتور أن المصريين أحسوا العقلية اليونانية بعد الإسلام إحساساً واضحاً صريحاً؟

في الحق أن المصريين في حياتهم الإسلامية شغلوا أنفسهم بعلوم اليونان أكثر من عشرة قرون، ولكنك وقد جلست على حصير الأزهر كما جلستُ تعرف أن المصريين لم يتذوقوا تلك العلوم؛ والأزهر لا يزال باقياً فتعال معي نسأل أهله ماذا فقهوا من علوم اليونان؟ تعال معي يا دكتور لنقضي بين علماء الأزهر ساعة أو ساعتين فستراهم جميعاً يعتقدون بأن

العقلية اليونانية هي التي قضت على اليونان بأن يكونوا باعة الفاصوليا والسردين!

أنا لا أنكر قيمة التراث الذي خلّفه اليونان القدماء، ولكني أرتاب في أنه وصل إلى ألفاف العقلية المصرية.

وأنت تعرف من نفسك ما أعرفه من نفسي، أنت تعرف أننا لم نفقه الفلسفة اليونانية إلا بعد أن ارتضنا رياضةً عنيفة جداً. فإن ادعيت أنك فقهت فلسفة اليونان وأنت طالب في الأزهر فأنا أقول إني لم أفقه تلك الفلسفة حق الفقه إلا بعد أن تلقيتها على أساتذة أوربيين في الجامعة المصرية. وما أظنك تتهمني بقلة الذكاء

والعلوم التي لا تهضم إلا بعد جهد ومشقة لا تغير عقليات الشعوب وإن غيرت عقليات الأفراد

أنت تعرف فيما تعرف أن الفقه الإسلامي نفسه كان يتغير بالانتقال من أرض إلى أرض، فكان للشافعي مذهب في مصر ومذهب في العراق. ومعنى ذلك أيها الأستاذ الجليل أن العقليات تتغير من وقت إلى وقت باختلاف ظرف الزمان، وظرف المكان والموجة الإسلامية التي طغت على مصر فنقلتها من لغة إلى لغة ومن دين إلى دين، والتي قضت بأن تتفرد مصر بحراسة العروبة والإسلام بعد سقوط بغداد؛ هذه الموجة العاتية لا يمكن أن يقال إنها لم تنقل مصر من العقلية اليونانية إلى العقلية الإسلامية ولكن ما هي تلك العقلية الإسلامية؟ هي لونٌ آخر غير العقلية اليونانية بلا جدال، وهي لا تُشرح في مقال واحد، وإنما يشرحها كتاب ينفق فيه رجل مثلك عدداً من السنين الطوال

وأنا مع هذا لا أنكر أن الإسلام في مصر له خصائص غير الخصائص التي يجدها الباحث حين يدرس الإسلام في الحجاز أو في الشام أو في المغرب أو في العراق

وقد تعرضتُ لشرح بعض هذه الخصائص حين تكلمت عن صور المجتمع الإسلامي في كتب صوفية، ولكنها ما تزال في حاجة إلى درس أوفى من الدرس الذي يقع في فصل من كتاب

أقول هذا وأنا أشعر بأني لم أزحزحك تماماً عن موقفك، ولكني موقن بأني عرضت صدرك لشبهات ستوجب عليك الحذر حين تتكلم في هذا الموضوع مرة ثانية؛ وأنت تعرف ما أعني

ثم ماذا؟ ثم ماذا؟ ثم عرضت بالتفصيل لمشكلة اليوم وهي: النزاع بين الأزهر ودار العلوم

ويجب أن يكون مفهوماً أنك ألَّفت كتابك لغاية بريئة من الهوى لأنك عميد كلية الآداب، وعميد كلية الآداب يشرع للناس مذاهب الحق. وقد تأملت كلامك فوجدته يحتاج إلى تصحيح

ولعلك تعرف أن هواي ليس مع الأزهر ولا مع دار العلوم، وإنما هواي مع الجامعة المصرية، والفرق بيني وبينك أني لا أكتم هواي كما تكتم هواك. وما أعارضك في هذه

القضية إلا لأنك سلكت فيها مسلكاً يخالف العقلية التي صبغتنا بها الجامعة المصرية، وهي التعمق في درس الأغراض والمعاني
أنت وازنت بين الأزهر ودار العلوم والمعاهد المدنية، وقام عندك الدليل على أفضلية الأزهر، لأنه أخرج للناس: محمد عبده وسعد زغلول ومصطفى عبد الرزاق؛ وأفضلية المعاهد المدنية لأنها أخرجت للناس: إبراهيم عبد القادر المازني، وأحمد لطفي السيد، ومحمد حسين هيكل؛ وسقطت عندك دار العلوم لأنها لم تخرج أمثال هؤلاء
صدقت يا دكتور بعض الصدق، فدار العلوم لم يكن لأبنائها ماض في السيطرة على الحياة الأدبية على نحو ما يسيطر: هيكل، والمازني، والعقاد، وطه حسين، والزيات ولكن كلامك على صدقه أحزنني، وليتك استشرت عميد كلية الآداب قبل أن تنشر هذا الكلام المحزن الموجع
أحزنني كلامك لأنه أصطبغ بالمغالطة والإسراف
أنت رجل معلم يا دكتور، ومن العيب عليك أن تؤذي إخوانك المعلمين: أتراك تؤمن في سريرة نفسك بأنك لم تحكم في هذه القضية بغير العدل؟
تعال أناقشك الحساب
إن رجال دار العلوم قد اشتغلوا جميعاً بالتعليم، ومهنة التعليم تقتل الأديب أبشع القتل. وأين المعلم الذي تسمح له وزارة المعارف بأن يستوحي الحياة كما يستوحيها الأدباء الذين سيطروا على هذا الجيل؟
أين المعلم الذي تسمح له وزارة المعارف بأن يصف جمال السابحين والسابحات في شواطئ الإسكندرية وبور سعيد، كما صنع الشاعر فلان؟
أين المعلم الذي يستطيع وصف الصراع بين الهدى والضلال بدون أن يخاطر بمركزه في الحياة التعليمية كما وقع ذلك للدكتور فلان؟
أنت تعرف أني جاهدت أعنف الجهاد لأخلق لنفسي شخصيتين: شخصية المدرس وشخصية الأديب، ومع ذلك لم أسلم من عدوان السفهاء
ومتى سيطر لطفي على الحياة الأدبية؟
كان ذلك يوم كانت حياته خالية من قيود التعليم، فلما صار مديراً للجامعة المصرية توقّر وتزمت حفظاً لحرمة التعليم
ومتى سيطر المازني على الحياة الأدبية؟
كان ذلك بعد أن ترك مهنة التدريس وتفرغ لاستيحاء الحياة، ولو بقي المازني معلماً لكان مصيره مثل مصير زميله عبد الرحمن شكري الذي كان يحس مثل لسع العقرب كلما أشار كاتب في جريدة إلى أن له أشعاراً في الغزل والتشبيب
ومتى سيطر مصطفى عبد الرازق على الحياة الأدبية؟
هل يعرف الجمهور شيئاً من تلك السيطرة؟ وهل يجرؤ مصطفى عبد الرازق على إعلان ما كتب من الوجدانيات؟
إن مصطفى عبد الرازق كتب أجمل ما كتب بإمضاء مستعار لا يعرفه غير الخواص، وكان ذلك لأن حياته في التعليم الديني والمدني قضت بأن ينسحب جهرةً من الحياة الأدبية
الحق يا دكتور أن رجال دار العلوم لا يطلب منهم إلا أن يكونوا معلمين صالحين، وقد كانوا بالفعل
وهنا أوجه إليك كلمة مرة ستؤذيك أشد الإيذاء: من الذي زين لك أن تعتدي على الجنود المجهولين؟ أنت تعرف أن الفرنسيين يسمون التعليم
وما أشقى من يعاني مهنةً بلا مجد!
لك يا دكتور زميل فاضل اسمه إبراهيم مصطفى، وهو كالفراء سيموت وفي نفسه شيءٌ من حتى
فهل يرضيك أن تتجاهل مثل هذا الرجل لأنه لم يسيطر على الحياة الأدبية ولم يشترك في تكوين الجيل الجديد؟
ومن الذي يسمع اليوم باسم أستاذي وأستاذك سيد بن علي المرصفي وله عليّ وعليك فضل لا ينساه إلا الجاحدون؟
أكتب هذا وأنا متألم متوجع لأني أرى عميد كلية الآداب يتجاهل تضحيات المدرسين، ولأني أشعر بأن هذه الأحكام الجائرة ستسقط من ميزان الحسنات أعمالي في

التدريس. ولن يعرف الجمهور غير أعمالي في التأليف وهي لم تكن إلا ثمرات ما انتزعت من أوقات الفراغ
وما أخافه على نفسي أخافه عليك يا دكتور، فأنت هدف لحملات المتعسفين الذين شرعوا يقولون إن إنتاجك الأدبي قلّ وضعف، وهؤلاء الذين لا يذكرونك إلا يوم تخرج كتاباً جديداً ينسون كل النسيان أن لك شواغل تعليمية تفلّ نشاطك وتقل إنتاجك
وأين المنصف الذي يذكر أننا نحدث تلاميذنا بأشياء لو دوّنت لخرج منها محصول أدبي نفيس يغمر المكاتب ويشغل الأندية والمعاهد؟ أين المنصف الذي يذكر أن من يسيطرون على الحياة الأدبية مدينون أثقل الدَّين للمدرسين المجهولين الذين لا يعرف التاريخ أقدارهم إلا إن صاروا مؤلفين مشهورين؟
لك يا دكتور زميل فاضل يعيش في زاوية مجهولة من زوايا الخمول هو الدكتور أحمد ضيف، وأنا أؤكد لك أن هذا الرجل يعدي صدور تلاميذه بالفكر والعقل، وقد نفعتني صحبته أجزل النفع، ولكنه لا يستطيع أن يزاحمك لأنه لم يخرج من المؤلفات مثل الذي أخرجت. فمن واجبك وأنت عميد كلية الآداب أن تضع للتقدير الأدبي ميزاناً غير ذلك الميزان، من واجبك أن تذكر أن الجمهور الفرنسي لا يعرف شيئاً عن المسيو تونلا أو المسيو مورنيه، ولكن أمثال هذين الأستاذين لهم تأثير عظيم في تكوين الأذواق الأدبية وإن جهلهم سواد الناس.
وسيأتي يوم ينعزل فيه الدكتور طه انعزالاً تاماً عن الجمهور ويعتكف فيما يسميه الفرنسيون ليحقق مع تلاميذه بعض الدقائق الأدبية والفلسفية. ويومئذ يحتاج الدكتور طه إلى من يعتذر عنه أمام الجمهور فيقول إنه يحيا حياة العلماء لا حياة الأدباء. وهل يجهل رجل مثلك أن هناك فرقاً عظيماً بين أستاذ الأدب وبين الأديب؟
إن أستاذ الأدب تفسده الشهرة لأنها تشغله عن طول الأنس بالتعرف إلى الألفاظ والمعاني
والأساليب. أما الأديب فيفسده الخمول لأنه يصدّه عن درس أسرار النفوس وسرائر القلوب، ويعوقه عن معاقرة صهباء الوجود
وأنت بحكمك الجائر تنسى أساتذة الأدب ولا تذكر غير الأدباء، لأنهم على حدّ قولك استطاعوا أن يسيطروا على الجيل الجديد. . . أتراني أفلحت في إقناعك بخطأ رأيك؟ قل الحق مرة واحدة يا سعادة العميد!
أترك هذه الخواطر، ثم أرجع إلى محاسبتك بصورة غير تلك الصورة
أنت قلت إن الأزهر يخرّج فيه محمد عبده وسعد زغلول فهل تعتقد حقاً أن من طبيعة الأزهر أن يخرج رجالاً مثل محمد عبده وسعد زغلول؟
إن كان ذلك صحيحاً فأين الأزهري الذي خلف محمد عبده؟ وأين الأزهري الذي خلف سعد زغلول؟
وما أقول به عن الأزهر أقول به عن المعاهد المدنية، فابحث عن المنطق الذي يزكي حجتك إن استطعت، وما أحسبك تستطيع
وقد وقفت في كلامك عند الماضي وبعض الحاضر
فهل يحق لي أن أسألك كيف تجاهلت أقدار من أخرجت دار العلوم من الرجال الذين سيطروا على الحياة الأدبية؟
أما يمكن أن يقال إن دار العلوم تخرج فيها عبد العزيز جاويش وحنفي ناصف ومحمد المهدي ومحمد الخضري وعبد المطلب وعبد الوهاب النجار واحمد السكندري؟ أتظن أن هؤلاء لم يسيطروا على الحياة الأدبية حيناً من الزمان؟
وقلت إن دار العلوم لم تغير نحو البصرة والكوفة، فهل غيرت أنت نحو البصرة والكوفة وأنت أستاذ بالجامعة المصرية منذ عشرين سنة؟
أنت رجل مقتحم يا دكتور، وهذا أجمل ما فيك من شمائل وخصال، فامض في اقتحامك إلى غير نهاية، فمصر لا ينجح فيها غير المقتحمين!
من حقك أن تدوس دار العلوم لأنك مقتحم، وسيكون من واجبي أن أفرحك بانتصارك، لأني متخرج في الجامعة المصرية وسأقاسمك الغنائم والأسلاب، فآخر شهادة ظفرت بها من الجامعة المصرية مذيلة بإمضاءات أحمد لطفي السيد ومحمد حسين هيكل وطه حسين.

ولكن يعزّ عليّ وعليك أن تنهزم دار العلوم بعد أن صنعت في التاريخ الحديث ما لم يصنع الأزهر ولا الجامعة المصرية، مع الاعتراف بفضل هاتين الجامعتين العظيمتين يعزّ عليّ وعليك يا دكتور أن ينهزم معهد كان من رجاله أساتذتي وأساتذتك. أنت تعرف يا دكتور أن كلية الآداب انتفعت بأساتذة دار العلوم
وتعرف يا دكتور أن كلية اللغة العربية انتفعت بأساتذة دار العلوم. فأرجوك باسم الأدب العالي أن تذكر ذلك المعهد بكلمة رثاء يوم يموت!
أيها الأستاذ الجليل
في كتابك كثير من مواطن القوة، ولكن يعوزه المنطق أنت تتحسر أشد التحسر على الفرصة التي ضاعت على دار العلوم في الانضمام إلى الأسرة الجامعية
ولكنك نسيت أن سلامة دار العلوم هي في البعد عن تلك الأسرة الجامعية. وأنت نفسك تذكر أنك قلت غير مرة إنك لا تفهم أن يكون في الجامعة باب يُغلق بعد ابتداء الدرس
فما رأيك إذا حدثتك بأن دار العلوم معهد لا يقل خطراً عن المدرسة الحربية، وأن من الواجب أن يراعى فيه نظام المواظبة بالثواني لا بالدقائق؟
ما رأيك إذا حدثتك بأن طلبة دار العلوم يجب أن يُراضوا على الأنظمة العسكرية فلا يعرفوا من الحرية الشخصية ما يعرف أمثالهم في كلية الآداب؟ يجب أن يكون مفهوماً بيني وبينك أننا لا نفكر في منافعنا الذاتية، فأنا أدفع ما يتهمك به خصومك من حب السيطرة على أكبر عدد ممكن من المعاهد
وإذاً يكون من المنفعة الوطنية أن نفكر جميعاً في إعداد معلم اللغة العربية إعداداً فنياً، لا جامعياً، فإن لم تكتف بذلك فلا بأس من أن تقترح أن يظفر مدرس اللغة العربية بدرجة جامعية بعد التخرج في دار العلوم على الأساليب التعليمية
وتجاريبي في التفتيش أقنعتني بصحة ما أقول، فقد لاحظت أن المدرسين المتخرجين في كلية الآداب يتفوقون في أشياء ويقصرون في أشياء، كما لاحظت أن المتخرجين في دار العلوم يتفوقون في أشياء ويقصرون في أشياء، ولذلك تفصيل يضيق عنه هذا الحديث، فإن أمكن أن يجمع مدرس اللغة العربية بين المزيتين كان لذلك أثر بالغ في تكوين الجيل الجديد
وهذا الذي أقول به لا يوجب إلغاء دار العلوم ولا تغيير نظام كلية الآداب، وإنما يوجب أن يتعرف هذان الجيلان بعضهم إلى بعض بلا بغي ولا عدوان
ويظهر من كلامك أنك راض كل الرضا عن الجامعة المصرية، ولكنك نسيت أن هذه الجامعة لم تصنع شيئاً في إصلاح ما سيطرت عليه من المعاهد العالية
هل تعرف يا سعادة العميد أن لغة التدريس في كلية الطب هي اللغة الإنجليزية؟
وهل تعرف أن لغة التدريس في كلية العلوم هي اللغة الإنجليزية؟
لقد نشرتُ أكثر من سبعين مقالة في دعوتكم إلى جعل اللغة العربية لغة التدريس في جميع المعاهد العالية فلم تقابلوني بغير الصمت البليغ. وكانت النتيجة أن تسبقكم الجامعة الأمريكية في بيروت إلى تحقيق هذا الغرض النبيل
وتكلمت يا سعادة العميد عن وجوب الإكثار من الترجمة، وكان الظن أن تذكر أني استطعت مرة أن أقنع وزارة المعارف بوضع نظام لخريجي البعثات يوجب ألا يظفر المتخرج في البعثات بأية ترقية إلا بعد أن يترجم كتابين من غرر المؤلفات الأجنبية في العلم الذي تخصص فيه. وقد أقرت وزارة المعارف ذلك النظام وأعلنته إلى مبعوثيها في المعاهد الأوربية والأمريكية، ويقول المرجفون إنك ساعدت على تقويض ذلك النظام بمعونة رجل من أصدقائك تولى وزارة المعارف، وكان ذلك فيما يقال لأنه نظام اقترحه رجل اسمه زكي مبارك وأقره وزير اسمه حلمي عيسى باشا
فهل يكون معنى ذلك أن الخير لا يكون خيراً إلا حين تقترحه أنت ويقره وزير من أصدقائك؟
ونسيت يا سعادة العميد أن كلية الآداب تقول أكثر مما تفعل، فإن لم يكن ذلك صحيحاً فحدثني أين مجلة كلية الآداب التي لم نر منها غير ومضات؟
ونسيت أيضاً أنك تقول أكثر مما تفعل، فأنت تدعو الدولة إلى إعفاء الأدباء من أعمالهم الرسمية ليتفرغوا للبحث والدرس، ثم ننظر فنراك تساعد الدولة والدهر على ظلم الأدباء

فإن لم يكن ذلك صحيحاً فحدثني كيف اتفق ألا تتحدث في الإذاعة اللاسلكية ولا تكتب في الجرائد إلا عن مؤلفات من تصطفيهم من الباحثين، مع أنك مسئول بحكم منصبك العالي عن الخلوص من شوائب الأهواء؟

كان الظن أن تذكر أن من واجب الجامعة المصرية أن تحاسب نفسها قبل أن تحاسب الناس، ولكنك على كل حال مغفور الذنوب لأنك تتكلم في أوقات يراها غيرك أوقات صمت وجمود

أما بعد فإني أعتقد أني نوهت بكتابك وبأعمالك أعظم تنويه، فإن رأيت في كلامي بعض ما لا يروقك فاعذرني، فقد أُخذ علينا العهد ألا نقول غير الحق. وهل علمتنا الجامعة المصرية أن نصانع من يظنون أنهم يملكون من السيطرة الأدبية أكثر مما نملك؟ سترى كيف نروضك على الاقتناع بأن القول المعسول لا يغني عن الصُّنع الجميل

(مصر الجديدة)

زكي مبارك

من برجنا العاجي

هذا السؤال (هل كانت علومك المدرسية ذات أثر فعال في إظهار مواهبك الأدبية) ألقته مجلة أدبية فرنسية على الروائي دورجليس فأجاب: (إن الرجل الذي يهجم على الأدب وهو مزود بتكوينه المدرسي وحده لا يمكن أن يكون غير كاتب ضعيف). وقال الشاعر بول فاليري في مثل هذا المقام: (إن أساتذتي في المدرسة كانت لهم على الأدب فكرة تدعو إلى الرثاء. يخيل إليَّ أن الغباء وفقر الذهن وبلادة الشعور وضعف التصور وانعدام الخيال مواد مقررة رسمياً في المناهج الدراسية)!

لو سئلت أنا أيضاً لما خرجت إجابتي عن هذا المعنى. فلقد فعلت المدرسة كل شيء لتنفرني من الأدب وتخيفني من اللغة فوضعت بين يدي أسمج الكتب العربية معنى وفكراً وأعسرها لغة وأسلوباً وأبعدها عن مخاطبة النفس المتفتحة لجمال الخليقة. لقد علمتني المدرسة كراهية الشعر العربي.

وقد لبثت زمناً لا أطيق الإصغاء إلى بيت واحد من ذلك الشعر السخيف الذي أرغمنا على حفظه إرغاماً. شعر ليس فيه قطرة من ماء الشاعرية. إنما هو ضرب من تلك الحكم والمواعظ المنظومة التي لاكتها الألسن ومضغتها الأفواه حتى أصبحت (تفلاً) جافاً لا نفع فيه. تلك هي مادة غذائها الذهني. أما إذا اجتهدنا فقرأنا كلاماً جميلاً خارج المدرسة فإنا لن نلقي من المعلم غير التجهم والاستنكار.

وأذكر أن الأدب الإنجليزي أوحى إليَّ كتاب قصة تمثلية صغيرة وأنا في المدرسة الثانوية فرفعتها فخوراً إلى مدرس الأدب العربي فكان جزائي الإهمال المهين. على أن من الإنصاف أن أذكر أن معلماً شجاعاً تجرأ يوماً فأطلعنا على أبيات عذبة رائعة للعباس بن الأحنف، فأشرقت وجوهنا وانطلقت من قلوبنا آهة العصفور الذي أفلت من قفص وحلق في فضاء الطبيعة الباسمة الجميلة فارتعد المدرس المسكين والتفت إلى باب القاعة خائفاً كأنه اقترف جرماً هائلاً. منذ ذلك اليوم أدركت أن هنالك كنوزاً في عالم الأدب والشعر يخفونها عن عيوننا المتطلعة.

توفيق الحكيم

دعه كله يذهب

للشاعرة ايلا هويلر ولككس

دعِ الحلم يذهب. اطمئن ولا تتزايل أعضاؤك من الفَرَق. أفليس في طيّات السُحُب المتلبدة من الأحلام الأخرى المستوردة عن ناظريك ما تستطيع أن تكسوه بعد، بشعاعات نورانية، وتذهّب أطرافه بومضات وهاجة تخترق بلألائها حجب الغمام الكثيف وتطرد جهامه القاتم، وتمحو ركامه الداكن؟

فما قيمة حلم يفوتك، من أضغاث الليل الضائعة؟

ألاَ دع ذلك الحلم الزائل يذهب

دع الأمل يغرب. تشجع. لا تجبنن ولا تتقاعس. أفلا يدّخر لك الغيب في أطوائه آمالاً أخرى لا تلبث أن تطفو في بحر الدجى كالكواكب الزاهية، وتذكي مصابيحها في آفاق سمائك!

إن النفس المستبشرة المؤملة لن تعيّث طويلاً في بيداء الدياجير المهددة العابثة، بل لا بدّ أن تضفي عليها العلياء نوراً جديداً. فما أشدها جهالة أن تحسب أن سعادتك قد تولّتْ، لأنك عدت قانطاً من رجاء واحد؟

ألا دَعْ ذلك الأمل الضائع يغرب

دع الفرح يذبل ويذوي: لا تحزن ولا ترتمِض. أفلم تبقَ أفراح أخرى تشبه البصيلات التي يعتقلها الصقيع حيناً، ثم يأمر ربّك أن تنطلق من إسارها، وتخرج شطأها وتنوّر؟ أو ليس من شأن الشتاء العاصف الصارم أن يرسو على الجذور القوية بكلاكله القاسية، فيتلفها ويواريها في غيابات أرماسه الصامتة، وأجداثه المظلمة الخفية؟ وهل تعّنى الأرض تلك الفترة الوجيزة التي تتجرّد فيها من وشّيها ومطارفها!

ألا دع ذلك الفرح المدبر يذوي ويذبل

دع الحب يقضي أجله ويمضي لسبيله. كن قويّ الأيمان ولا تيئس، بل سرّ عنك. أفلا توجد محبّات أخرى بعد تحاكيه في جماله، وفيما تزخر به من صنوف العذاب العذّب؟ ألا توجد محبّات أخرى ترفرف في الفضاء كالحمائم البيضاء، ولا تلبث أن تحوم حولك، وتجسم في صدرك وتعشش!

فتقول في كلّ منها: (إن هذه لخير من تلك)

ألا دع ذلك الحبّ الراحل يمضي لسبيله

(الزهرة)

المتنبي وسر عظمته

للأستاذ عبد الرحمن شكري

بلغ المتنبي ما لم يبلغه شاعر آخر من الشهرة. وقد اهتم له النقاد الأدباء قديماً وحديثاً، وكتب عنه كثيرون من أفاضل الأدباء وأكابرهم في عصرنا هذا. وقد عني بعضهم باستنباط أخلاقه من شعره، وبعضهم أغرى بتتبع نسبه وتاريخ حياته وأسرارها وأسباب حوادثها، وبعضهم نظر إليه من حيث هو الشاعر الذي يمثل العرب خير تمثيل وينوب عنهم في الإبانة عن خصائص نفوسهم ونزعاتهم، وبعضهم عُني بحكمته ونظراته في النفس والحياة، ومنهم من راقته مبالغته التي اشتهر بها في المدح أو الفخر، ومنهم من راقته أساليب التشبيه التي أغري بها أهل زمنه، وقدموه من أجلها في ظاهر ما يحسبون ويحسون. وإذا تأملت سبب إعجاب المعجبين به، وجدته يختلف باختلاف أذواق المعجبين به واختلاف نظرهم إلى الشعر كما تختلف أسباب المهتمين بدراسة سيرته، وإذا نظرت في شعر المتنبي وشعر غيره من كبار الشعراء وجدت شاعراً قد يماثله أو يبزه في صفة، ويماثله أو يبزه شاعر آخر في صفة أخرى من صفات الجودة، وهو بالرغم من ذلك أوفر نصيباً من الشهرة. وترى لغيره من الشعراء أبيات كثيرة في الحكم والأمثال والأقوال المأثورة، تدل على فطنة بالنفس، وخبرة بالحياة، وتوفيق في الصنعة؛ ولكنها لم تسرْ كما سيَّرَ المتنبي شعره في هذه المعاني. فالبحتري أكثر منه نصيباً من طلاوة الصنعة، وأبو تمام من أساليب البيان، والشريف من الوجدان وسلامة الفطرة، وابن الرومي من الأوصاف، والمعري من النظرات في الأخلاق والحياة، ولكن ما من دَويٍّ أثاره هؤلاء إلا ويخفت بجانب ما أثار المتنبي حتى ليصدق فيه قوله:

وتركك في الدنيا دَوياً كأنما ... تداول سمعَ المرء أنمله العشر

وقد تتبع النقاد قوله أحياناً بالتزييف، وإظهار السيئات من معاظلة والتواء في بعض قوله، وبالتقصي للسرقات والمآخذ، أو ما ظنوا أنه سرقات ومآخذ. حتى حاول بعضهم رد كل معنى من معانيه إلى شاعر سابق. وبعض النقاد أولع بإظهار ما في مغالاة مدحه من التهكم المقصود أو فساد الذوق غير المقصود. وبعضهم أظهر ما في مغالاة المدح من إلحاد أو شبه إلحاد، وما في استطالته بالفخر من كفر أو شبه كفر، واستشهدوا بقوله:

وكل ما قد خلق الل ... هـ وما لم يخلق

مُحتقرٌ في هِمَّتي ... كشعرة في مفرقي

وقالوا إنه كان يظهر الشك بالبعث والحياة الأخرى كما في قوله:

فقيل تخلص نفس المرء سالمة ... وقيل تشرك جسم المرء في العطب

ومن تفكَّرَ في الدنيا ومهجته ... أقامه الفكر بين العجز والتعب

وقالوا إنه تعدى منزلة الشك في هذه الأبيات الذي يشبه الإنكار المُقنَّع إلى منزلة

إثبات النفي المُقنَّع في قوله:

تَمتَّعْ من سهادٍ أو رقادٍ ... ولا تأملْ كرى تحت الرجام

فإنَّ لثالث الحالين معنى ... سوى معنى انتباهك والمنام

وثالث المعاني التي يدركها العقل بعد معنى الانتباه ومعنى المنام هو معنى الفناء والعدَم. والمتنبي يلجأ إلى عقل القارئ في تأمله فهو إذا يريد المعنى ولا معنى غيره.

وبعض النقاد أشار إلى شدة حقده على الناس وقسوته في قوله:

وكُنْ كالموت لا يرثي لِباكٍ ... بكى منه ويروي وهو صادي

وقوله:

ومن عرف الأيام معرفتي بها ... وبالناس رَوَّى رمحه غير راحم

فليس بمرحوُم إذا ظفروا به ... ولا في الردى الجاري عليهم بآثم

ولكن كل هذا النقد لم يسقط الرجل من منزلته، فلأي أمر تبوأ هذه المنزلة؟ إنه لا شك في مقدرته في الشعر وإن له من صفاته باعا فيه، فهو بالرغم من معاظلته أحياناً يجيد أساليب البيان كأحسن ما يجئ به أبو تمام وأحياناً. يأتي بالأساليب الحلوة كأحلى ما يجئ به البحتري، وإن كان إتيانه بها عفواً من غير تعمد وتكلف، ولكن كل هذه القدرة في القريض وما عنده فيه من صفات الجودة جماعها أمر واحد وهو الروح الخاصة التي تظهر فيما له صلة من شعره بآماله وخيبتها وتفيض على ما ليس له صلة مباشرة بتلك الآمال، فتعم إذا هذه الروح كل شعره وتكسبه (جاذبية الشخصية) وجاذبية الاعتداد بالنفس والاعتزاز بها وجاذبية لذة البيان المُعبَّر عنها. ولأكثر الشعراء نصيب منها، ولكن نصيب المتنبي أو فر نصيب. وهي أيضاً التي بصرته بدخائل النفس الإنسانية وأسرارها وعيوبها كي يتخذ من تلك البصيرة بالنفس الإنسانية عامة سلاحا يساعده في الاعتزاز، والاعتداد بنفسه فاعتداد المتنبي بنفسه إذا سبب طلاوة شعره وسبب حكمه وأمثاله وسبب ما يشعر القارئ في شعره من القوة. وقد تكون روح الاعتداد بالنفس مصحوبة بالتقحم والإقدام والفخر والادعاء كما كانت في حياة بِنْفِنوتو سِلَّيْني المثَّال الإيطالي الذي كتب تاريخ حياته وهو مملوء بالمغامرة والمخاطرة والإجرام وبالفخر العريض والادعاء، ولكنه كتاب يستهوي القارئ بسبب ما أكسبه اعتداد صاحبه بنفسه من جاذبية وطلاوة وقوة في الكتابة. وقد تكون هذه الصفة عند رجل مفكر في نفسه غير مقتحم ولا مستطيل ولا مُدّع فتكسبه أيضاً صفات الكاتب الذي يستهوي قلمه القارئ، فإن اعتزاز مونتاني الكاتب الفرنسي بخواطر نفسه وحوادث حياته اليومية واللذة التي وجدها في قيدها ووصفها تستهوي القارئ بعدوى الشخصية ومغنطيسها. فعدوى الشخصية في نظري هي الصفة الغالبة التي ميزت شعر المتنبي، وهي التي ميزت ترجمة بِنْفِنوتو سِلَّيني لحياته وميزت مقالات مونتاني الفرنسي. ويشترط في وجود هذه العدوى أن تكون شخصية صاحبها ذات هبات عقلية ونفسية طبيعية، والعدوى قد تظهر بين الناس قي مقدار أقل حتى ولو كانت الشخصية المعتد بها المعتز صاحبها قليلة الهبات العقلية؛ وهذا أمر مشاهد في حياة الناس اليومية وتأثير بعضهم في بعض في أعمالهم وأخلاقهم وأفكارهم ومذاهبهم وصدقاتهم وعدواتهم، فالناس إذن خليقون أن يهتموا للشاعر أو الكاتب الشديد الاعتزاز والاعتداد بنفسه. وقد يهتمون له أكثر من اهتمامهم لشاعر أو كاتب آخر أقل اعتداد بالنفس وأكثر هبات عقلية ونفسية، فليس اهتمام الناس للشاعر أو الكاتب إذاً على قدر هباته العقلية وحدها كما يظن المعجبون به الذين يستهويهم اعتداده بنفسه، وللشاعر هيني الألماني كلمة حكيمة في هذا الموضوع وهي كلمة مأثورة في هذا المعنى فقد قال: (إن الإنسانية كالشجرة، فالشجرة لا تحفظ ذكرى الأيدي التي تعهدتها بالري والعناية وإصلاح التربة والصيانة من العواصف والأضرار والرياح، ولكنها تحفظ ذكرى اليد المعتدية التي تأخذ خنجراً وتحفر اسم صاحبها على ساقها بالنحت والتكسير من غلافها والسطو عليها، وكذلك الإنسانية قلما تحفظ ذكرى الذين ضحوا في خمول وسكوت لأجل رعايتها والعناية بها، ولكن الإنسانية تحفظ ذكرى الغزاة المدمرين الذين نقشوا أسماءهم على جبهة ذاكرتها بأحرف من نار وبالسطو عليها وبالإهلاك والتدمير وإراقة الدماء. وهذه شواهد متطرفة تدل على اهتمام الناس بالمعتد بنفسه. ولا نريد أن نقول إن الشعراء والكتاب الذين يبالغون في إظهار الاعتداد بالنفس هم مثل هؤلاء الغزاة المدمرين في

شرهم، وإنما نعني أن ظاهرة الاعتداد بالنفس تستدعي اهتمام الناس في الحالتين. ومع ذلك فإن رجلاً كالمتنبي ما كان يتأخر عن إراقة الدماء والتدمير في سبيل تحقيق آماله كما يشهد الكثير من شعره. وقد صرح بذلك في أكثر من قصيدة كما قي قوله:

بكلِّ مُنْصلِت ما زال مُنْتظِري ... حتى أَدَلْتُ له من دولة الخَدَم
شيخ يرى الصلواتِ الخمسَ نافلةً ... ويستحل دم الحجاج في الحَرمَ
تُنْسي البلادَ بُرُوُقَ الجوِّ بارقتي ... وتكتفي بالدم الجاري عن الدَيمِ

وهنا تصريح ليس بعده تصريح. والحقيقة أن تقديس الإنسانية للاعتداد بالنفس حتى ولو بلغ الإجرام لا يقل في كثير من الأحايين عن تقديس الإنسانية للفضائل، بل قد يكون أعظم من تقديسها للفضائل، إذ أن تقديسها للفضائل كثيراً ما يكون نفاقاً ورياءً أو رغبة في الانتفاع من وداعة الفاضل واستكانتِهِ وترفعه عن الدنايا بينما يكون تقديس الإنسانية للاعتداد بالنفس ومظهره في غيرها عذراً لها في تقديس مظهره في نفسها وتقديس أثرتها، فتجمع بين لؤم الأثرة وقداسة العبادة بتقديس مظهر الاعتداد بالنفس في غيرها. وقد تحتال للجمع بين هذين المتناقضين بأن تنسب إلى المُعْتَدِّ بنفسه النبل والجلال وكرم الشمائل والمروءة، وهو قد يكون خلواً من هذه الصفات أو على الأقل يكون خلواً من مقاديرها التي تنسبها إليه كي تجمع بين لؤم الغريزة وتقديس الفضائل.

وهذا أمر يشاهد كثيراً بين الناس، ولعل هذا الشرح يفسر كيف أن الناس كثيراً ما يحاربون الفضلاء وينتقصونهم مع معرفة فضيلتهم وهم يقدسون الفضائل في كلامهم، وكيف أن الناس كثيراً ما يجلون صاحب الرذيلة إذا لم يضطروا إلى مؤاخذته اضطراراً، وإذا كان معتداً بنفسه وكانت في لسانه خلابة أو له قدرة وسلطان. فإذا كان هذا شأن الناس مع من قلت فضيلته من المعتدين بالنفس، فكيف لا يكون إعجابهم أعظم بمن جمع إلى الاعتداد بالنفس فضائل وبياناً وفصاحة تستهوي القارئ؟ وكثيراً ما يضع القارئ نفسه في منزلة نفس القائل المعتد بشخصه ويشاركه في آماله وأطماعه وإحساسه واعتزازه بنفسه، ويشاركه في خواطر نفسه وحالاتها كما يفعل القارئ أيضاً عندما يقرأ قصة لكاتب فيضع نفسه في مكان بطل القصة الموصوف الذي يعجب به القارئ. وقد يفعل بعض القراء ذلك حتى في قراءة قصص مشاهير المجرمين الذين يعتدون ويعتزون بأنفسهم إلى حد الإجرام. وهذه شواهد متطرفة لهذه الظاهرة النفسية وجاذبية الاعتداد بالنفس تختلف باختلاف الكاتب وباختلاف نفوس القراء المتأثرين بها. وهذه الجاذبية كالمعدن السائل الذي يسيل بمقادير متفاوتة مع ماء الينابيع التي لا تتفاوت في مقادير مياهها السائلة؛ فالشعراء والأدباء لا يختلف مقدار نتاجهم مع اختلاف فيض ينبوع معدن الجاذبية في قولهم، وعلى قدر ما في قولهم من جاذبية وبيان الاعتداد بالنفس يكون قدر تأثر القراء بهم فإذا قرأ قارئ قول المتنبي:

أبدو فيسجد من بالسوء يذكرني ... فلا أعاتبه صفحاً وإهوانا
وهكذا كنتُ في أهلي وفي وطني ... إن النفيسَ غريبٌ حيثما كانا

تلمس تلك النفس واكتسب شيئاً من إحساسها بالنفاسة والقدرة على الاعتزاز بنفاستها وأحس ما رأته النفس الموصوفة في حياتها من صفح وإهوان؛ وهو قد يكتسب كل هذا الشعور أثناء قراءته قول الشاعر من غير فطنة له، فهو في رحلة نفسية، إما مسالك العقل الظاهر وإما في مجاهل العقل الباطن. وكذلك إذا قرأ قول المتنبي:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى ... عدواً له ما مِنْ صداقِتهِ بُدُّ
خليلاي دون الناس حزن وعبرة ... على فقد من أحببت مالهما فقد
وأكْبِرُ نفسي عن جزاءٍ بغيبة ... وكل اغتياب جهد من لا له جهد
وأرحم أقواماً من العي والغبي ... وأعذر في بغضي لأنهم ضد

سافر سفرة في عالم التجارب النفسية وبين الأحياء ولو لم يكن على صفات الشاعر النفسية ويلتذ التجارب الخلقية بالتذاذ ما يعبر عنها من البيان. وكذلك إذا قرأ قول المتنبي:

إذا غامرتَ في شرف مَروُم ... فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت في أمر حقير ... كطعم الموت في أمر عظيم
يرى الجبناء أن العجز عقل ... وتلك خديعة الطبع اللئيم

وكل شجاعة في المرء تُغْني ... ولا مثل الشجاعة في الحكيم
وكم من عائب قولاً صحيحاً ... وآفته من الفهم السقيم
ولكن تأخذ الآذان منه ... على قدر القرائح والعلوم
أحس أن حكمة الشاعر في التمييز بين عقل العجز والجبن وبين عقل الفطنة المقرونة بالشجاعة والطموح ليست حكمة الشعر التعليمي أو الوعظي، وإنما هي حكمة الخبرة والتجارب والفطنة المقرونة بالطموح إلى الآمال السامية، وهو ذلك الطموح الذي كان من مظاهر الاعتداد بالنفس عند المتنبي، وهذا ما يلمسه القارئ في باقي حكمة المتنبي فيسلم نفسه للشاعر يتصرف بها أثناء قراءة شعره حسب بيان خبرته وحكمته وآماله وآلامه، وإذا قرأ قول المتنبي:
وخِلة في جَلِيسٍ ألتقيه بها ... كيما يرى أننا مثلان في الوَهنِ
وكلمةٍ في طريقٍ خفتُ أعربها ... فيهتَديَ لي فلم أقدر على اللحن
كم مخلص وعُلَيٍّ في خوض مهلكة ... وقتلة قُرِنَتْ بالذم في الجبن
لا يُعْجبَنَّ مضيما حسن بزته ... وهل تروق دفيناً جودة الكفن
(البقية في العدد القادم)
عبد الرحمن شكري
مولد الليل
للأستاذ محمود الخفيف
شَرِبَتْ كَدْرتُهُ لَوْنَ الشّفَقْ
فَامّحَي إلاَّ بَقايَا في انْطِفاَءْ
اكْتَسَى الماء بِأَمْوَاجِ الْغَسَقْ
وَمَضَتْ تَمْسَحُ كَفَّ الدُّجَى
من حَوَاشِي الأفْقِ مَا أبقَى المَسَاءْ
تحِسرُ الأحْداَقَ في هذا الغروبْ
رَوْعَةٌ للْقَلْبِ فِيهِ والْبَصَرْ
يا لِبِشْرٍ فيهِ يَمْحُوهُ القُطُوبْ
يا لأطْيافٍ بهِ حَائِرةٍ
وَصَفَاَءٍ مَا صَفَى حَتَّى اعْتَكَرْ!
مُجْتَلَي بَالِغَةٌ رَوْعَتُهُ
لاَ تَملُّ الْعَيْنُ في الأفْقِ رُؤَاهْ
مَلأَتْ نْفسِي بِهِ فِتْنَته
لْحَظَةً، ثم انْطَوَتْ أطْرَافُهُ،
وَمَشَى اللّيْلُ عليه فَمحَاه
رَاقَ هَذَا الْغَرْبُ حَتَّى خِلْتهُ
مَشْرِقَ الصُّبْح اجْلَى للنَّاظرين
في جَنَابِي بَعْضُ مَا ألِهْمتُهُ،
خاطِرٌ طَافَ بِرُوحي سِحْرُهُ
لَيْتَ شِعْرِي مُفْصِحٌ عنه مُبِين
يَتَنَاهَى أبدًا سِحْرُ الْجمالْ
ويروعُ الطَّرْفَ والقَلْبَ مَعاً
مَا تَغَشّتْهُ من المَوْتِ الظِّلاَلْ
فَمضَى يَقْرُبُ من غَايَتِهِ
فَتَهَاوَى فَتَبَدَّى أرْوَعَا!
هكذا اللّحْنُ انْقَضَي أوْ أوْشكَا
وجبينُ النَّجْم يغَشاَهُ الأفولْ
هكذا الزْهرُ إذا الزْهرُ زكا
وتمشّي السُّقْمُ في نُضْرَتِهِ
فَبَدَى بَيْنَ نماَءٍ وذبُولْ
هكذا المِصْبَاحُ عِنْدَ الْغَاَبِش
رَاحَ يَطْوِي نُورَهُ طُولُ السُّهاَدْ

وَبَقَايَا خِلْسَةِ المخَتلِسِ
تَرَكَتْ نَشْوَتُهاَ نَارَ الَجْوَى
في الحشاَ بَيْنَ خُمُودٍ وَاتّقاَدْ
هكذا الشَّمْسُ تَغَشّاهاَ الطّفَلْ
فَتَرَاءتْ كَنُضَارٍ في عَقِيقْ
وتَعُبُّ الرُّوحُ من هذا البَرِيقْ
ياَ جَمَالاً هَاجَ لِلقَلْبِ الشَّجَنْ
أَبْهَجَ النَّفسَ سناهُ وَشَجَاهَا!
صَوَّرَتْ كَدْرَتُهُ معنى الْحزَنْ
كيف مَسَّتْ مُهْجَتِي ظُلْمَتُهُ
فَمحَتْ في النفس أَحْلاَمَ مُنَاهَا
وَمَضَتْ تَرفُلُ في أَبهْىَ الحُلْلْ
تَنْهَلُ الألَحْاظُ مِنْ رَوْنَقِهاَ
هَذِهِ الشمْسُ إذا ما غَرُبَتْ ... فورَاَء اللّيْلِ إصْبَاحٌ يَروُقْ
وإذا شَمْسُ حَيَاتي ذهبتْ ... وَدَجَا (اللّيْلُ) فلا نجم ولا
مَوْضِعٌ فيه لِفَجْرٍ أو شُرُوقْ
ظُلْمَةُ اللَّيْلِ بهَذا العَالَمِ ... تَسْبَحُ الأحْلاَمُ فِيهاَ وَتُطِيفْ
أَتُرَى لِي مِثلُ حُلْمِ النائِمِ ... إن دَجَا فَوْقِي لَيْلُ الرَّدَى،
أَمْ تُرَى لَيْسَ سِوَى الصَّمْتِ المخيفْ؟
إيهِ يا لَيْلُ تَجَمَّعْ وَانْزِلِ ... فِيكَ لليَائِسِ أَحْلاَمٌ تُتَاحْ
إيه ياليل، بقلبي الذَّابِلِ ... سَكَرَات من مُنىً حائِرَةٍ
تَتَلاَشى عِنْدَ إِقْبَالِ الصَّبَاحْ
الخفيف
صحائف من تاريخنا القومي
الغرب يتجنى
للأستاذ أحمد خاكي
حينما يستشرف المؤرخ القومي لأخريات القرن التاسع عشر، ومبدأ القرن العشرين، يرى في مصر مدرسة من مدارس الفكر والسياسة جديرة بأن تذكر بين الأفراد القلائل الذين قادونا في تاريخنا القومي. وكانت هذه الفترة في تاريخنا هي الفاصلة بين حياة من الاستعباد المقيم، وبين حياة أخرى من الحرية والمجد. وقد استطاعت القومية المصرية أن تحيا خلال تلك السنين السود على الرغم مما اعتورها من أطماع الإمبراطوريات المستعمرة، وعلى الرغم من فترة الركود التي تثاقلت على أفئدة المصريين بعد الفشل الذي أصاب الثورة العرابية. وإذا انتزع المؤرخ نفسه من غمار الحوادث التي قامت في مصر منذ مبدأ القرن التاسع عشر حتى اليوم، استطاع أن يشهد للقومية المصرية وحدة خاصة تبدأ منذ اليوم الأول الذي خطا فيه نابليون في بلادنا المقدسة، وتظل مجدة جاهدة تصيب النجاح في أحيان، ويصيبها العثار في أحيان أخرى

على أن في دراسة القومية المصرية في الفترة التي تلت الثورة العرابية كثيراً من العظات والعبر التي ينبغي أن ننعم النظر فيها. ذلك بأن حياتنا الاجتماعية والسياسية تقوم على الأسس التي بناها سلفاؤنا في أعقاب القرن التاسع عشر؛ بل كثير من النقائص التي ما زالت تميز كياننا الاجتماعي ترجع إلى تطورنا أثناء ذلك القرن. وهذه الفترة الخطرة هي التي التقى فيها الغرب والشرق على أساس من سوء الظن والاستغلال، وهي كانت الفترة التي بلغت فيها الفكرة الإمبراطورية عند إنجلترا وفرنسا أكثر ما بلغت، فكان ضحاياها بلاد الشرق الأدنى، وبلاد المغرب الأقصى، وغير أولئك وهؤلاء من سكان أفريقية وآسيا. وإذا كانت مصر قد استطاعت أن تتخفف من تلك القيود التي ضربت عليها في سنة 1882 فإنما ذلك لأن القومية المصرية كانت شديدة المراس شديدة البأس

وقد بدأت الحركة القومية في مصر في زمن نابليون، وأنتجت تولية محمد على في

سنة 1805. على أن القومية لم تصبح أملاً من آمال الشعب إلا في سنة 1882، حين قام عرابي وصاحباه يحتجون على تفوق العنصر الجركسي والتركي في الجيش، وسوء المعاملة التي يلقاها المصريون. كان هذا سبباً من أسباب الثورة، إلا أن الثورة الفكرية كانت عنيفة في نفس كثير من المصريين. فإن البلاد كانت أوتيت قليلاً من العلم، وكانت تعاليم جمال الدين الأفغاني الذي نزل مصر سنة 1871 قد بدأت تزدهر. وظهرت الجرائد وكونت رأياً بين الخاصة، وكان الجيش وعلماء الأزهر أقوى هؤلاء. فكانت الثورة التي حمل لواءها عرابي باشا، وقد اقترنت الثورة بخليط معقد من العناصر. فقد كانت مسلمة، وقد كانت دستورية، وقد كانت تنفس على الأجانب ما حازوه من سطوة، وما ينعمون به من متاع الوظائف وبسطة النفوذ

على أن الثورة العرابية لم تكن مستنيرة شُجاعة على الرغم مما انطوت عليه من عناصر. ذلك بأن العسكريين الذين ملكوا أزمتها لم يدركوا الخطر المحقق الذي تنطوي عليه خطة العداء للخديو؛ ثم إنهم لم يكونوا عسكريين بالمعنى الذي نفهمه الآن من تلك الكلمة، فلم يكن لهم قوة التنظيم ولا المصابرة على أنواع الجهاد. حتى عرابي نفسه لم يستطع أن يتصرف في موقفه تصرف الجندي المغامر. ولو أنه أراد النجاح بأي ثمن لما تردد لحظة واحدة في القبض على الذين اشتبه في خيانتهم، ولا تردد في سد قناة السويس حتى يقطع السبيل على الإنجليز. ثم إن الجيش الذي كان يأتمر عليه عرابي لم يكن إلا فلول الجيش الآخر الذي انتصر أيام محمد علي وإسماعيل لأنه الوسيلة التي كانت تتبع في جمعه كانت وسيلة منفرة شائنة، ويكفي أن الجنود كانت تؤخذ قسراً من القرى والدساكر تحت لهيب السياط

لكن العنصر القومي الذي بدأ بالسيد عمر مكرم أيام محمد علي ما زال يدب في أوصال البلاد دبيباً خفيّاً لا يكاد يسمع له ركز حتى تمثل في حركة الإصلاح التي قامت بعد أن هدأت الثورة العرابية وبعد أن استقرت الأمور. ذلك العنصر هو الذي تمثله المدرسة الفكرية التي بدأها جمال الدين، وكانت قد وقفت تلك المدرسة تنتظر حينما فشل عرابي وتشتت ما أعضائها أفراد كثيرون. لكنها أقبلت على الحياة بعد استقرار الثورة وهي مؤمنة بحق مصر في الحياة العامة على الرغم الاحتلال البريطاني الذي ابتليت به البلاد وعلى الرغم مما أصاب الحزب العسكري من وهن. وقد احتكت هذه الفئة الجديدة بالتفكير الأوربي فاستوعبت كثيراً من الأفكار الغربية من مصادرها الأولى، وازدهرت هذه الفئة في أخريات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وبلغ من تقدير اللورد كرومر لهم

أن قال: إنهم كانوا يشبهون الجيروند في فرنسا. والحق أن كثرتهم كانت تشبه الجيروند في تعلقهم بالمثل الأعلى وفي إيمانهم بسمو الفكرة وفي الثقافة والشجاعة والإخلاص

كان بين هؤلاء الشيخ محمد عبده وجمال الدين الأفغاني وانضم إليهم قاسم أمين وسعد زغلول. وقد اجتمع هؤلاء لا على أن يكونوا حزباً سياسياً ولا ليدافعوا عن فكرة خاصة عينوها، وإنما هي الحوادث والميول ربطت بين قلوبهم. وكانت الوطنية المصرية قد فقدت قليلاً من الثقة حين ضعضعها الفشل بعد الثورة لكنها بدأت تلتئم رويداً رويداً فابتنيت على أسس أخرى غير التي قوضتها الثورة. ونمت في أعقاب القرن الماضي تلك الفئة المثقفة التي مثلت في مصر نفس الدور الذي قامت به الطبقة الوسطى المستنيرة في إنجلترا وفرنسا. فكانوا هم رسل الحياة الأوربية في مصر. درس الكثير منهم القانون في جامعة ليون بفرنسا، وتأثر الكثير بالدراسات التي زخرت بها كتب الفلسفة والقانون. فكان من هؤلاء زعماء الفكر في مصر، بل لقد كان منهم الزعيم السياسي مصطفى كامل

لم يكن بين هذه المدرسة الحديثة التي قامت في سنة 1890 وما بعدها علاقات وثيقة بالثورة العرابية، وقد كانت الثورة العرابية مادية طغت فيها المصلحة على الوطنية الخالصة، ولم تكن هذه الثورة مستنيرة لأن الكثرة من زعمائنا كانوا جنودا غير مستنيرين، بل ولم تكن شُجاعة لأن عرابي نفسه لم يكن شجاعا. أما جمال الدين ومحمد عبده وقاسم أمين ومن جرى في أثرهم فقد جمعوا بين الوطنية والتنور والشجاعة. ولم يربطوا غرضهم القومي بترقيات لفئات خاصة، وكانت ثقافتهم أصيلة لأنهم درسوا أصول الثقافة عند الغرب وعند الشرق وحاولوا أن يؤلفوا بين الثقافتين.

تلك هي الفئة التي حملت الثقافة القومية الأولى في هذه الفترة الدقيقة من تاريخنا الحديث. ولقد أدت رسالتها على خير وجوهها وكان عصرها غنيا بمختلف أنواع النشاط. وحينما ألقى العرابيون سيوفهم شرع هؤلاء أقلامهم يكتبون، وحينما خَفَت زئير المدافع اعتلوا المنابر يخطبون. ولقد كان الشرق والغرب خلال تلك الفترة في كفاح ظاهره العلم والدين والثقافة وباطنه الاستغلال والسيطرة والاستعباد. وكان هانوتو ورينان ودوق داركور يكتبون من ناحية الغرب، وكان جمال الدين ومحمد عبده وقاسم أمين يردون من ناحية الشرق.

والحق لقد كانت ظاهرة نفسية غريبة تلك التي تنظرت بها كتابات هانوتو ورينان وداركور وقد نقد هؤلاء وكثير غيرهم من الكتاب والمؤرخين والفلاسفة أصول الإسلام، ولعل هؤلاء كانوا يؤيدون في ذلك الاتجاهات الاستعمارية الخاصة التي توجهت بها فرنسا من غير أن يكونوا يشعرون بذلك. ولأمر ما قام هؤلاء قومة رجل واحد يحاولون أن يتحيفوا من الجماعة المصرية وأن يتنقصوا من الدين الإسلامي جميعه. لكنهم وجدوا تلك المدرسة العصرية المثقفة. وكان على هؤلاء أن يثبتوا أن الإسلام الحقيقي غير العادات العتيقة والتقاليد البالية التي حسب الفرنسيون أنها الدين.

حينما بحث هانوتو قواعد الإسلام كان يحاول أن يختط خطة لمعاملة المستضعفين من أبناء المستعمرات التي انتقلت تحت الحكم الفرنسي. وكان جديراً بمثل بحثه أن يكون متحيزاً لأنه كان في مكان الحاكم الذي يملي على المحكوم. وقد وجد هانوتو في كتابات محمد عبده صدى لما كان يجول في صدور هذه المدرسة الكريمة التي ذكرت. وكذلك قل عن الدوق داركور فإن هذا الكاتب مكث في مصر بضعة شهور كان يحسب أنه قد أوتي خلالها العلم جميعاً بأحوال المصريين. وقد حاول أن يرجع كل نقص رآه إلى طبيعة الدين نفسه، فكان على قاسم أمين أن يقرع الحجة بالحجة ويرد البرهان بالبرهان. وما فرغ دوق داركور من كتابه عن (مصر والمصريين) حتى كان قاسم أمين يهيئ كتاباً في الرد عليه سماه (المصريون).

والحق أن هذا الكفاح الذي قام بين الشرق والغرب كان مفيداً للحياة المصرية بوجه عام. ذلك أن قوماً مثل محمد عبده وقاسم أمين قد أدركوا في دفاعهم عن مبادئ الإسلام أن في المجتمع المصري كثيراً من المثالب التي ينبغي إصلاحها. ونحن نرى أن في الوقت الذي كان الأستاذ الإمام وقاسم أمين يردان فيه على كتاب الفرنسيين - في نفس الوقت كانوا يهيئون أنفسهم للكتابة عن مصر، وكان محمد عبده يمثل الناحية الدينية فحاول أن يضع أصول الدين في موضعها الأول وحاول أن ينشر ثقافة دينية في مصر لم تزل إلى اليوم مجدة قوية جاهدة، وما كان ذلك الاتجاه الجديد إلا لأنه وجد نفسه في موقف المدافع فعرف القضية من جميع وجوهها وحاول أن يقيم ما اعوج وأن يحفظ على مصر والمصريين كرامتهم.

ولقاسم أمين بعد ذلك وجه آخر من وجوه الإصلاح. فقد كتب كتابه رداً على دوق داركور في سنة 1894 إلا أنه لم يلبث بضع سنوات حتى وجد أن دوق داركور نفسه قد تكلم عن مفاسد حقيقية بالبحث والتفطن فكتب كتابيه (تحرير المرأة) و (المرأة الجديدة) ينقد فيهما نظمنا الاجتماعية الفاسدة والمبدأ الذي دارت عليه بحوثه في المرأة وتحريرها هو مبدأ القدرة على استكمال النقص الذي يتبعه كثير من أنصار التقدم، وقد حاول على هذا الأساس أن ينقد التقاليد والعادات التي جدّت من حرية المرأة وجعلتها في الموضع الأدنى من تقدير الرجال. على أن قاسماً من وجه آخر كان يرى أن إصلاح المرأة بدء الإصلاح العام كانت المدرسة المثقفة التي قامت في نهاية القرن التاسع عشر وأول القرن العشرين هي المدرسة القومية التي استنارت بنور العلم والتي أقبلت على الإصلاح بلهفة المؤمنين بالمثل الأعلى، وهي المدرسة التي تخرج فيها مصطفى كامل وسعد زغلول، وهي الأصل في نهضتنا القومية التي بدأت بعد الحرب الكبرى والتي لما تنته بعد من وضع منهاجها القومي الذي يجب أن نعمل له وكانت هذه المدرسة مؤمنة للمثل العليا في الدين والخلق النصيب الأوفى من تقديرها، بل كان لها من المعايير الدينية والخلقية ما لا نزال نحن في حاجة إلى أحيائه في العصر الحاضر.

دفعها هذا إلى الإيمان بأن وحدة الإسلام ينبغي أن تقوم ضد الغرب وقد أراد أن يعصف بذلك الأيمان العميق الذي حل في أغوار النفس عند الشرقيين عامة والمصريين بوجه

خاص. وذلك نفسه تفسير لتلك الوحدة الإسلامية التي دعا إليها الداعون في ذلك الزمن. كان لا يزال هؤلاء وكثير غيرهم يحسنون الظن بدولة الخلافة. لكنهم في نفس الوقت الذي كانوا يحتفظون فيه بعلائق المودة والرحمة بالدولة التي كان عليها أن تحفظ تراث المسلمين - في نفس ذلك الوقت كانت آثار أقلامهم تحيي الشعور القومي عند المصريين. وما تجيّل هذا الجيل حتى نبتت فكرة أساسها الدفاع عن الوطنية المصرية أمام الأتراك والمتتركين. فدعا الجيل الذي عاش قبل الحرب الكبرى إلى أن تكون مصر للمصريين. وأنت تلمح هذين الوجهين من وجوه القومية المصرية في حياة مصطفى كامل وأنت تلمح الوجه الأخير ظاهراً جلياً في حياة سعد زغلول، ولو أن مصطفى كامل عاش إلى ما بعد الحرب العظمى لدعا إلى ما دعا إليه سعد

أحمد خاكي

التاريخ السياسي

أسباب التسليم

للدكتور يوسف هيكل

في ميونخ هزمت الديمقراطية آلم انهزام، وانتصرت الدكتاتورية أعظم انتصار. فخسرت فرنسا وبريطانيا نفوذهما السياسي، وتضعضع مركزهما الدولي، وانتقلت السيادة الأوربية، في هذه الأيام على الأقل، من يدهما إلى يدي الهر هتلر والسنيور موسوليني. لذلك نعت اتفاق ميونيخ بأنه (اتفاق الذل والهزيمة) ووصف بأنه (الحد الفاصل بين عالمين). فما هي العوامل التي أرغمت فرنسا على قبول هذا الانهزام؟ وما هي الأسباب التي دعت المستر تشمبرلن إلى التسليم لمشيئة الهر هتلر؟.

على أثر اتفاق مونيخ ثار الرأي العام في تشيكوسلوفاكيا ساخطاً على فرنسا، ومتهماً إياها بالخيانة، وملقياً عليها مسؤولية ما أصابه من انهزام وذل وفقر، وما أصاب بلاده من تمزيق وضعف. وأصبح الشعب التشيكوسلوفاكي يبغض الحكومة الفرنسية، صديقته الحميمة، بغضاً لا مزيد عليه. حتى أن الظواهر الفرنسية، من مؤسسات علمية وطائرات وسيارات، في تشيكوسلوفاكيا، التي كانت قبل اتفاق مونيخ تثير احترام الشعب التشيكوسلوفاكي لفرنسا وإعجابه بها، أضحت بعد اتفاق (الذل والهزيمة) تثير البغض لحكومة باريس والحقد عليها. وعمل الشعب التشيكوسلوفاكي وحكومته على الابتعاد عن فرنسا، وقطع الصلة بها، وطمس آثارها في بلاده. ولتحقيق ذلك أبدلت البلديات أسماء الشوارع الفرنسية بأسماء تشيكية وألمانية، وألغت حكومة براغ تدريس اللغة الفرنسية في مدارسها كلغة إجبارية، واستعاضت عنها باللغة الألمانية، وقطعت عن المعاهد العلمية الفرنسية في بلادها ما كانت تقدمه لها من مساعدات مالية. واستبدلت دور السينما التشيكوسلوفاكية بالأفلام الفرنسية أفلاما ألمانية. . .

فهل كان الرأي العام التشيكوسلوفاكي مصيباً في اعتقاده خيانة فرنسا له؟

منذ اشتداد المشكلة التشيكوسلوفاكية ورجال الحكم في باريس يعلنون أن فرنسا ستقف بجانب حليفتها. ولتأكيد ذلك اتخذت الحكومة الفرنسية، حين اشتداد الأزمة السياسية بين برلين وبراغ، إجراءات حربية واسعة المدى. وكان كل شيء، النية والعزم والعمل، يدل على أن الحكومة الفرنسية جادة في قولها، لا تود ترك حليفتها تذهب ضحية اعتداء ألماني. وكان ذلك رأي الجيش في فرنسا أيضاً، إذ أن رئيس أركان حرب الجيش الفرنسي ختم التقرير الذي قدمه لحكومته بقوله: (إن الصعوبات كثيرة ولكن يجب أن نمشي)

وبينما كانت فرنسا جادة في استعداداتها الحربية للدفاع عن تشيكوسلوفاكيا، أعلمتها وزارة خارجية إنكلترا أن آلاف الرسائل التي تلقاها المستر تشمبرلن من سائر أنحاء الممالك المتحدة، تحتم عليه إنقاذ السلم على أي حال، وأنه يعتبر ذلك دليلاً على أن الرأي العام البريطاني غير مستعد لخوض غمار الحرب من أجل تشيكوسلوفاكيا. فأدركت الحكومة الفرنسية أنها لن تستطيع الاعتماد على الحكومة الإنكليزية، وأن ثباتها قد يكون مقامرة خاسرة. ووجدت نفسها في آخر الساعة في ظروف لا تمكنها من الإصغاء إلى رأي الجنرال كاملان، فاضطرت إلى التسليم، وإلى أن تسير مع إنكلترا موافقة على ما عزم عليه المستر تشمبرلين. لأن القوى الفرنسية وحدها، مع

عظم أهميتها، لا تستطيع مقاومة القوى الهائلة المتأهبة للحرب في بلاد الدكتاتورية وأما سياسة حكومة لندن، وتصريحات رجالها فكانت تدل على أن الحكومة البريطانية لا تريد الوقوف بجانب حكومة براغ، مدافعة عن حقوقها، وصادة التوسع الألماني في أوربا الوسطى.

بل كانت هذه السياسة، وهذه التصريحات دالة على أن حكومة لندن عازمة على عدم خوض غمار الحرب، وعلى تسوية النزاع الألماني التشيكوسلوفاكي بأي ثمن كان، تلافياً للحرب، على رغم ما في ذلك من انهزام شنيع وأخطار فادحة لها ولحليفتها فرنسا

لم يضحَّ المستر تشمبرلين في مونيخ بما أوجدت السياسة الفرنسية خلال عشرين عاماً من قوى دفاعية فعالة ضد الاعتداء الألماني، ولم يُمكن رئيس وزارة إنكلترا، الهر هتلر من السيطرة على أوروبا بتسليمه بمطالبه في تشيكوسلوفاكيا، حباً في السلام فقط، بل هناك أسباب قاهرة دعته إلى هذا التسليم. وهذه الأسباب تنقسم إلى قسمين: الأول منهما يتعلق بمسائل حربية، والثاني يتصل بعوامل نفسية نفعية

إن الدولة الكبرى الوحيدة التي نزعت فعلاً سلاحها فيما بعد الحرب العظمى هي بريطانيا العظمى. ويرجع ذلك إلى سياسة حزب العمال، الذي كان يرأسه المستر رمسي مكدونالد.

وكان المستر مكدونالد يأمل أن تحذو الدول الكبرى حذو بلاده فتنزع سلاحها غير أن أمله لم يتحقق، ففرنسا لم توافق على نزع سلاحها لأنها كانت واثقة أن في نزعه خطراً على سلامتها وخطراً على أوربا أيضاً، لأن الدول الأخرى لن تنزع سلاحها. وبالفعل فإن إيطاليا الموسولينية أخذت تبذل كل قواها في التسلح على أنواعه، وتبعتها هذه الخطة ألمانيا الهتلرية. فأصبحتا أعظم الدول الأوربية تسلحاً. فسياسة نزع السلاح العملي التي سار عليها المستر رمسي مكدونالد في إنكلترا أدت إلى إضعاف بريطانيا العظمى حربيا، وإلى تشجيع الدول الدكتاتورية على التسلح العظيم

وبرغم أن بريطانيا العظمى قد ابتدأت في التسلح منذ أن تسلمت الحكومة القومية إدارة سياسة البلاد فأصبح لا يستهان بقوى سلاحها، فإنها لا تزال غير متسلحة التسلح الكافي الذي يمكنها من خوض غمار الحرب

وزيادة على ذلك فإن مدنها وسواحلها خالية من التحصين ضد الغارات الجوية. فهذه المدن وهذه السواحل تكون هدفاً لغارات الطائرات الألمانية، فيما لو نشبت الحرب العالمية من جراء المشكلة التشيكوسلوفاكية، وتوقع العدو فيها أضراراً فادحة. . .

ثم إن الحالة في المستعمرات الإنكليزية غير هادئة؛ وكانت حكومة لندن تخشى أن تحدث اضطرابات في بعضها، وتشب نار الثورة في الآخر، إن هي اشتبكت في حرب أوربية فتصبح هذه المستعمرات سبب ضعف لها، بدلاً من أن تكون عامل قوة

وبينما كانت الوزارة البريطانية في وسط معمعة الأزمة التشيكوسلوفاكية، أبلغت دائرة استخباراتها المستر تشمبرلن سرا أن الحكومة اليابانية متأهبة لاجتياح الأملاك الإنكليزية في الشرق الأقصى حال اشتباك القوى الإنكليزية والفرنسية في حرب مع ألمانيا. ولهذه الغاية كانت اليابان قد أبقت القسم الأعظم من أسطولها بمعزل عن الحرب الصينية. وهو، في تلك المياه، يضارع في القوة أسطول إنكلترا أو الولايات المتحدة. وكانت اليابان تفكر في إيقاف حربها الصينية، حين وقوف حرب أوربية تشترك فيها بريطانيا، وإبقاء أقل من نصف مليون من الجند في القسم الذي افتتحه من الصين للمحافظة عليه، والزحف بجيش عظيم مدرب نحو الجنوب، والانقضاض على هنغ كنغ وسنغافورة ومقاطعات مالاي والهند واستراليا، وضربها ضربة قاسمة بسرعة لا تدع مجالا للدفاع عنها.

وقد أدرك المستر تشمبرلن أن الوسيلة الوحيدة للخروج من هذا المأزق، وإبطال الخطة اليابانية، فيما لو وقعت الحرب، هو إقناع الولايات المتحدة بإرسال أسطولها إلى المحيط الباسيفيكي ليكون رادعا لليابان عما تبغي الإقدام عليه. غير أن الولايات المتحدة أظهرت حينئذ أنها لا تريد العدول عن خطة الحياد، والابتعاد عن المشاكل الأوربية.

ويريد بعض الكتاب السياسيين تعليل تسليم بريطانيا وفرنسا في مونيخ، إلى اعتقادهما أن روسيا لم تكن عازمة على دخول الحرب بجانبهما، بل إن غرضها كان إيقاد نار

الحرب دون أن تصطلي بلظاها، رغبة منها في إشعال لهب الثورة. وهذا القول خال من الصحة، لأنه إذا غضضنا النظر عن تصريحات المسؤولين في موسكو بعزمهم على تنفيذ واجباتهم نحو تشيكوسلوفاكيا إذا قامت فرنسا بواجباتها نحوها، نرى أن مصلحة الروسيا كانت تقضي عليها بدخول الحرب بجانب بريطانيا وفرنسا ضد ألمانيا، لضمان انتصار الدول الديمقراطية ضد الدول الدكتاتورية. أما تمكين الدول الدكتاتورية من الانتصار على بريطانيا وفرنسا فمعناه هيمنة ألمانيا التامة على أوربا. ومعناه أيضاً فسح المجال للجيوش الألمانية للهجوم على بلاد الروس وتمزيقها، وتحقيق منهاج الهر هتلر من نزع أوكرانيا وغيرها من المقاطعات الروسية وضمها إلى الريخ

أما العوامل النفسية النفعية التي ساعدت على التسليم في مؤتمر مونيخ، فمنها أن الرأي العام البريطاني في الممالك المتحدة وفي الممتلكات البريطانية كان ضد الحرب، لا حباً في السلم فحسب، بل اعتقاداً منه أن الخلاف بين ألمانيا وتشيكوسلوفاكيا لا يمس بريطانيا وممتلكاتها ولا يؤثر على مصالحها. . . ومنها أن رئيس وزارة إنكلترا المستر تشمبرلن، شيخ جليل، يعتقد إمكان التفاهم مع الدول الدكتاتورية، ويحب السلام الأوربي، ويرغب في تحقيقه بأي ثمن كان. . .

أمام هذه الوضعية الحربية التي تحذر من خوض غمار حرب أوربية، وإزاء هذه النفسية التي ترغب في اجتنابها، اضطرت الحكومة الإنكليزية إلى عدم المغامرة في حرب أوربية. وقام رئيس وزارتها بإقناع فرنسا بضرورة التريث وبذل الجهود في حل الخلاف الألماني التشيكوسلوفاكي بالطرق السلمية. ولأجل ذلك قرر المستر تشمبرلين حين اشتداد زيارة الهر هتلر طائراً وبذل الجهود التي عرضناها في مقالات سابقة، لإقناع زعيم ألمانيا بحل

قضية ٱلسوديت سلمياً. وللوصول إلى هذا الحل تساهل المستر تشمبرلين مع الهر هتلر إلى حد التسليم بكل ما طلب وفرض

وقد ظن المستر تشمبرلين أن إرضاء زعيم ألمانيا في مونيخ يزيل أسباب الحرب ويوجد السلام المنشود، وأنه باتباع سياسة (تهدئة الخواطر) يسود التفاهم وتعم الطمأنينة. فهل نجح المستر تشمبرلين في سياسته أم أن هذه السياسة أكثرت المشاكل الأوربية وعقدتها وجعلت وقوع الحرب أمراً لا بد منه؟ هذا ما سنبحثه في مقال آخر

يوسف هيكل

مؤلف ثائر وموسيقار نابغ

مكسيم جوركي

يهدم الحكم القيصري

مبلغ تأثير أديب شعبي في حياة أمته

للأستاذ محمد لطفي جمعة

منذ بضعة أشهر، قضى في الستين من عمره شاليابين الممثل الروسي الأشهر، وكان أخلص أصدقاء جوركي، وقسيمَ حياته في شبابه وكهولته، ولجوركي فضل تحويله من نزعته الأرستقراطية إلى المذهب الاشتراكي. وخلف شاليابين فيما خلف ذكريات مخطوطة ورسائل منثورة تولى بعض أصدقائه نشرها في مجلة (العهد الجديد). ويمكن لمن يطالع هذه المذكرات والمقولات والقصاصات التي نشرت بعد طيها، أن يجدَ في أدب جوركي وفن شاليابين أدلة قوية على تأثير الأدب في حياة الأمم، وعلى تدخل الفنون والمواهب العقلية في كل ثورة طارئة على المجتمع. وهذا يذكرنا بما كان لسقراط وأفلاطون وسوفوكليس وأوريبيديس في اليونان، ولفيرجيل وإيبكتيت وسنيكا في الرومان، وفولتير وروسو في فرنسا، وإديسون وديفو وهيوم وبوكل وبنتام وكارليل في إنجلترا، وتورجنيف وجوجول ودوستيوفسكي وتولستوي وجوركي في روسيا

زعم بعض الدعاة أن جوركي نقم على صديقه القديم لينين بعض طرائق تفكيره ووسائل حكمه، وأنه غادر روسيا غاضباً ولم يعد إليها إلا بعد موت لينين؛ ولكن هذا النبأ كاذب، فإنهما عاشا وتعاشرا وافترقا على أصفى الود؛ وإنما أراد لينين بسفر جوركي إلى الخارج أن يكون بمثابة السفير العقلي ليفيد الروس من مجده الثابت في أذهان غرب أوربا، بينا هو كاتب عالمي يقوي جانب لينين بانضمامه ويعتز به. وقد ثبت من الوثائق التي أظهرها شاليابين أن كتب جوركي كانت تطبع وتنشر بالملايين في حقول

روسيا وسهولها وبيوتها ومدارسها ومصانعها ومعاهدها أثناء غيبته في أوربا الغربية، تلك الغيبة التي عللوها بالجفوة بينه وبين لينين. ولو كان جوركي غاضباً أو مغضوباً عليه لم يكن ليستمتع بهذه الشهرة النادرة فقد أخرجت مطابع لينيجراد وموسكو وساراتوف ونيجسي نوفجورود في

سنتي 1924 و 1925 أكثر من أربعة ملايين نسخة من كتبه (المتشردون وكونولو وماريا المجدلية وتوماس جودوريف). وقد حبب جوركي إلى قلوب قرائه استقلاله في الأدب وغيرته على تكوينه الذاتي فقد أدب نفسه وربى عقله ولم يكن له أستاذ غير نفسه. لم يكن أناتول فرانس أول كاتب عظيم طلق اسمه، وخلعه وقذف به وتبرأ منه لثقله وعدم انسجامه وهو (تيبو) اسم سيئ الرنين في الأذن الفرنسية المرهفة الحس، وكذلك كان اسم جوركي مكسيموفتش بنشكوف، فاختصر الاسم ودفن اللقب وأحل محله جوركي ومعناه (ذو الغضاضة أو المرارة) وقد روى جوركي تاريخ أهله وترجمة حاله في طفولته وشبابه في رواية توماس جورديف. وإنه لشبيه بكل العظماء في اليتم، فكان يتيماً لطيماً، لفظه بيت الأسرة وتلقفته حوانيت المعلمين، وأركان الشوارع وسفائن الملاحة على نهر فولجا السحري الذي كرر ذكره في كتبه وخلَّد صور الحياة على ضفافه في قصصه الأولى، ومعظم أشخاصها من المفاليك والصعاليك والمنبوذين والمحاويج الذين علقوا بالنهر من قريب أو من بعيد. وتمتاز تلك القصص بالصدق لأنها مغمورة بالبؤس والضراء وخشونة الحياة وشظف العيش والإرغام على الصبر وتحمل المكاره التي حفت بها الدنيا. وتلقي التعليم الأول على يَد طاهٍ كان في بداية أمره من رجال الحرب، ثم وقف أمام الكانون يعد الطعام.

وطلب جوركي العلم في قازان والتمس العيش في مخبز وباع الفاكهة الفجة والناضجة في الأسواق. ويرجع إلى هذا العهد تلقين جوركي مبادئ الثورة الاجتماعية عن رجال ونساء كانوا يتخذون أزياء غير أزيائهم ويندسون في ثنايا المجتمع ليدعوا إلى الإصلاح. فيكون أحدهم أستاذاً في الجامعة أو طبيباً أو مهندساً ولا يأنف أن يستخفي في مباذل خباز أو عَجَّان أو خزاف. وقد عرض لجوركي أثناء تلك الفترة ألوان من المِحَن كاحتقار المثل العليا التي يخلقها الخيال - قصة (عشرون رجلاً وامرأة) - وسهولة الاتصال بالنساء واقتراف الجرائم في سبيل سد الرمق ومقاومة الجوع ولو بالقوت الضروري، وامتزاج الميول الجنسية بالحاجة المادية، وعجز الفاقة والشهوة عن خنق المواهب الكامنة في نفوس النوابغ والتي تظهر لأسباب طارئة تفِهة. فإن جوركي وهو في أشد حالات الضنك وأحط درك الاجتماع، كان مشتغلاً بحاضر العالم ومستقبله ومنابع الخير والشر في المجتمع

ووجوب خدمة الإنسانية بأسرع ما يستطيع وبكل ما يملك من عقل وخلق وإرادة. كان جائعاً طريداً معدماً مدقعاً، ولكنه كان مفكراً وثائراً وحائراً، فلم يقف جوعه في طريق عقله، لأنه كان يشعر بامتلائه بما قرأ وما رأي وما سمع، وكان يبغض من أعماق قلبه منظر الآلام وأخبار الشقاء وترديد أنَّات التوجع، لأن حسه المرهف لم يطق تحملها، فما باله بالسخرية تصدر عن القوي من الضعيف والحاكم من المحكوم، والغني من الفقير، وبالاعتداء والتعذيب وإهراق الدماء. كان إذا قضت عليه الأحوال برؤية لون ما ألوان الأسى يحزن ثم يغضب ثم يثور، فإذا لم يجد من يشفي غليله انهال على نفسه ضرباً كنا يضرب الفلاح حماره. وقد أضرت به الفاقة فتعلق بأهداب الموت، ولكنه اتصل بتولستوي عن طريق كتبه وتلاميذه. وأخذ يكتب في نصف العقد الثالث حوالي سنة 1893 فاكتشفه كورلنكو فتبناه وأعانه. وكورلنكور من أكبر كتاب روسيا، غير أنه راح فريسة قسيس روسي خبيث حبب إليه الآخرة وقبح له الأدب والفن فأحرق مخطوطاته في باريس إرضاء لرجل الدين الذي تكشف عن جاسوس قيصري دسته عليه الحكومة لتسلب شعوره وتتركه لعبة في أيدي رجال الخفية. بيد أن جوركي أدرك كورلنكو قبل أن يصيبه الخبال فجنى من ثمار نبوغه وترسم خطاه في التحرر من قيود البيان وتبع المدرسة الجديدة التي تجعل للمعاني المكان الأول من ذهن الكاتب. وفتح له كورلنكو مغاليق الصحافة الأدبية. فأشتهر كتابه الأول في ختام الثلاثين من عمره ولم يكف عن التأليف والنشر بعد ذلك ثلاثين عاماً. ولم يخلع مكسيم جوركي ثياب الفلاحين ولم يبدل من طريقة عيشتهم. وكان وجهه بتقاطيعه وتقاسيمه الموجيكية يسحبه إلى الفطرة الروسية سحباً. ولا عجب ولا غرابة فقد كان جزءاً من تلك الخليقة

الموسكوفية والسليقة السلافية أشبه الرجال بليو تولستوي. يقول شاليابين: (إلى تلك الفترة ترجع تلك اللوحة الزيتية العجيبة التي أنتجتها مواهب صديقه ريبين، فقد صور جوركي في بذلة فلاح مديد القامة بارز الوجنتين صغير الذقن قصير الأنف غزير الشعر أشعث المظهر. . . تمثالاً حياً وصورة ناطقة لفتى الريف الروسي في أذكى هيأته وأنبلها. فلله در ريبين الذي خلد ببراعته صورة صاحبه. وكان تسلق جوركي سلم الصيت سريعاً. وقد بَذَّ في صعوده الأمجاد من أمثال تولستوي وجوجول وتورغنيف. وتعليل ذلك أنه نال من نفوس الشعب، فأحبه وعطف عليه، ووثق من مقاصده، وكأنه رآه يخلق

ويصنع على عين أمته فلم يكن شيء من حياته خافياً. وكانت الأفئدة مستعدة لتسلم هذا الأثر، ولا سيما أفئدة العمال والصناع الذين ما زجهم جوركي وخالطهم واتصل بهم وعمل على تحريرهم من قيود الفقر والظلم القيصري، ولم يخجل من ذكر حوادث ماضيه واختلاطه أحياناً بالنساء البائسات في حوانيت أو مخازن أو خرائب مهجورة أو على شواطئ البحر وضفاف الأنهار. لأن هذا الذي سمَّاه (الفريسيون) وصغار البورجوازين سقوطا، لم يكن إلا تسامياً عن طريق الألم فكان أحياناً يفكر في حظ الإنسان ومستقبل الحضارة ويحدث نفسه بإحداث أعظم أثر في المجتمع، وهو لاصق إلى فتاة مسكينة تُعد منبوذة في حكم النظام الاجتماعي. وكان شاليابين ولينين من الأصدقاء الذين اتصلوا به في أوربا الغربية حين نزْح إليها منذ ثلاثين عاماً. وعندما حكمت محكمة بطرسبرج على جوركي بالسجن لاشتراكه في مظاهرة البوب جابون احتج تولستوي بخطاب مفتوح إلى القيصر وانضم إليه مفكرون فرنسيون وإنجليز. ونشر في ضحى هذا القرن ذكريات طفولته تقليداً لتولستوي الذي فعل ذلك وكان كلاهما مخلصاً في وصف هذه الفترة من حياته. وكان صدر جوركي ضعيفاً فألزمه الأطباء جزيرة كابري فقصد إليها ولم يكن له زوج وأولاد يرعونه، فإن حياته الأولى في ظلال الشقوة والقلق والفلاكة عدلت به عن اتباع طريق العادة. ولعل تعففه عن النساء في أواسط عمره مكّن له من مقاومة داء الصدر الوبيل الذي أصيب به في أوائل شبابه، فنفض عن كاهليه غبار المرض في جو تلك الجزيرة الصاحية الضاحكة ذات الألوان البهيجة والظلال الوارفة والأشجار الملتفة والأشعة البنفسجية. وفي كابري زاره الأدباء والعلماء والزعماء ولا سيما لينين الذي كان يهرع إلى تلك الجزيرة ليتخذ منها مغنى وملهى وموضعاً للتفكير والتدبير. ولم يكن جوركي خصم الشيوعية من اللحظة الأولى، ولكنه لم يكن لها باختياره، لأن الشعب تعلق بكتبه، وأعجب بأدبه، فطلب إليه لينين أن يرأس تحرير جريدته فأجاب سؤلهَ. ففاز به لينين ولشد ما كان إعجابه بهذا الفوز، لأن جوركي كان الكاتب الكبير المخضرم، وهو الوحيد بين من عطفوا على الثورة. وكانت تعوقه عن التمادي في نصرتها عقبة عقلية ونفسانية، وهي أنه بنشأته وغريزته يعين الفرد، ويعززه ويعمل على تنميته وتعظيمه والإعجاب به، والثورة الشيوعية تود لو تمحو شخصية الفرد ليندمج في المجموع ويسخر له. وفي هذا المذهب

ابتلاع لمبادئ الفلسفة الاجتماعية التي سرت إلى سريرة جوركي وسرائر أساتذته وأصدقائه. ولكن الشيوعيين اعتقدوا أنهم في حاجة إلى كاتب فحل واسم ضخم وثائر عنيف، يقف كالطود وينصب كالعلم ليلتف حوله أولاده وتلاميذه، فلم يبخل جوركي على وطنه بهذه النعمة، وقد روى لي (شليابين هو المتكلم): أن ستالين قال له يوماً في موسكو:

- ما عليك يا ابن مكسيموفتش العزيز!

أليس هذا النظام الذي يحارب الفقر والجهل والمرض وينتزع الشعب المقهور من براثن الفاقة، ويعد مستقبلاً سعيداً لملايين المساكين الذين طال تعذيبهم، وكتبك كلها ناطقة بالحنان عليهم

أترانا نبالغ أحياناً ونطلب المزيد؟ فأعرض عنا قليلاً قليلاً، ولكن لا تتخل عنا. نحن أقرب الناس إليك في سوق هذه الحياة الدنيا (كذا)، ولا أهل لك غيرنا لو تأملت. أما أنا فستجدني أطوع لك من لينين، أي من بنانك. فأنا أعلم أنه كان يحبك حباً جماً، ولا يخيب لك رجاء، وحسنا فعل. . .

فقلت له: ولكنني في حاجة إلى الراحة. فقد بقيت أكتب وأكتب منذ ثلاثين عاماً وأكثر.

أما آن لي أن أستريح؟
قال لي: لكن قلمك اخترق قلوب الشعب، فلا يحلو لهم غير الذي تصوغ من درر الفن الرفيع. إن تعلق الشعب بك بعد أن مات تولستوي وتشيكوف، وبعد أن فرأندرييف أشد من تعلقك بشليابين لحبك موسيقاه وتفانيك في أنغامه
وسألت جوركي في هذا فقال لي: أنا أحبك لذاتك. أنت شيطان الموسيقى الأكبر، ولكن الموسيقى التي تجذبني هي التي سمعتها على ضفاف نهر الفولجا أو في سفائن تمخر أمواهه
محمد لطفي جمعة
الشتاء
الشتاء! الشتاء! وماذا تفهم من الشتاء يا ابن مصر الضاحية الضحوك؟ هل تفهم منه إلا أنه أسابيع من عمر العام لا تدري أهي أواخر خريفه أم أوائل ربيعه؟ هل تجد في جسمك غير دفء النعمة، وفي نفسك غير بهجة الأنس، وفي عينيك غير إشراق الجمال؟ أنظر أمامك تر الشتاء الغربي الذي جعله الله شيخوخة الطبيعة، يسلبها الرواء فلا تُعجب، ويحرمها النماء فلا تخصب، ويلقي عليها الهمود فهي سكون خافت وصمت ثقيل، ويلفّها في كفن الثلج نسجته ريح بليل؛ ثم تقشعر الأرض، وتكفهر السماء، وتقع الحياة بين القحط والموت، فتئن بالرعود، وتتأوه بالأعاصير، وتتساقط على الشجر السليب والثرى الكئيب والقرى الموحشة، همّاً في الصدور، وبؤسا في الأكواخ، ورهقاً في العزائم.
إن الشتاء في غير مصر زمهرير جهنم، تتنفسه كما تقول الأساطير فلا يذر من شيء يهبُّ عليه إلا أحرقه بالقُر وأغرقه في الصقيع. أما في مصر فالشتاء في الناس لا في الطبيعة. والشتاء في الناس برد في الدماء، وخمود في العواطف، وقحط في الأنفس.
فلو كان كل من على النيل صافي القلب كسمائه، عذب الخلق كمائه، طلق اليد كفيضه، ضافي المعروف كأرضه، لكان هذا الوادي الحبيب جنة الله في الدنيا، أزلفها لجنس من خير الأجناس، خلقه وسطاً بين الملائكة والناس! ولكن. . . وما أسخف الحياة ما دامت فيها لكِن!
ابن عبد الملك
رد على نقد
القديم والجديد
للأستاذ محمد أحمد الغمراوي
إذا كانت الأشياء تتبين بأضدادها فقد تبين معنى القديم الذي أردناه لما بينا في المقال الماضي مرادنا بالجديد
إن قديم الإسلام الذي ذكرناه في أولى الكلمتين اللتين نقدهما الأستاذ قارئ هو القديم الذي نحفل ونفخر به والذي لا نرى سواه جديراً بالاستمساك به والذود عنه. لكن قديم الإسلام ليس مرادفاً من كل الوجوه لقديم المسلمين. فقديم المسلمين هو كل ما شمله تاريخهم مما يسر ويسوء، ومما يطابق أو يخالف الإسلام. لو كان المسلمون معصومين من الخطأ ومتابعة الهوى، أولو كانوا مع عدم عصمتهم لم يخطئوا إلا خطأ المجتهد، لكان قديم المسلمين هو وقديم الإسلام سواء، ولكان حال المسلمين اليوم شيئاً آخر غير ما هم فيه. لكن المسلمين بعد أن فتح الله البلاد على سلفهم الصالح وخلفوه فيها فتنتهم الدنيا كما فتنت من قبلهم، وحاولوا أن يتحللوا من قيود دينهم، وتهاون أولو الأمر في إقامة حدوده فزلت الأقدام بعد ثبوتها، وتداولتهم الأيام حتى صاروا إلى ما هم عليه ومن الإفك العظيم الذي يأفكه الغرب أن ينسب ما هم فيه إلى دينهم الذي إليه ينتسبون. لو كان ما هم فيه نتيجة العمل بالإسلام ما كان هناك مفر من اتخاذهم حجة عليه. لكنهم صاروا إلى حاضرهم المخزي بتركهم العمل بالإسلام، فهم حجة له سلبية كما أن سلفهم الصالح حجة له إيجابية، وتمت بذلك حجة الله على الناس. سلفهم الذي نزل فيه الدين استمسك بالدين فدانت له الأرض فلم تطغه ولم تبطره، وضرب للتاريخ المثل العملي الفرد لحكومة الله في الأرض كيف تكون. فكانت تجربة أجراها الله في الأرض لا يقدر على إجرائها غيره، تحققت بها دعوى الإسلام أنه دين الفطرة التي فطر الله عليها الناس، لا يتحقق لهم كمال ولا سعادة إلا به، أفراداً كانوا أو

جماعات. وحسبك من كمال الفرد به. تطور النفس الجاهلية إلى مثل نفس عمر وأبي بكر وعلي وعثمان، ومن إليهم من السابقين الأولين، وحسبك من كمال البيئة الإنسانية وسعادتها تطور البيئة الجاهلية به إلى البيئة الإسلامية أيام الرسول الكريم صلوات الله عليه وفترة مذكورة بعد أيام الرسول

ثم أجرى المسلمون أنفسهم لسوء حظهم التجربة الأخرى التي يتم بها إثبات أن ذلك التطور المعجز الذي تطورته النفس البشرية لما خالطها الإسلام، كان حقا نتيجة للإسلام لا لغيره. وآية ذلك أن نزول الأثر إذا زال المؤثر، كما يجري في أي تجربة علمية. وقد كان، فزال عن النفس كمالها ومن البيئة عزها لما انخدعت عن دينها، وتعطل أثر الإسلام فيها

فتاريخ المسلمين إذن فيه الخير وفيه الشر، فيه تحقيق الإسلام عمليا وفيه تعطيله. وإذا كان قديم المسلمين يشمل الاثنين بالطبع لأنه عين تاريخهم فإن قديم الدين لا يمكن أن يشترك مع قديم أهله إلا في ذلك الجزء الذي حققوا الإسلام فيه. فقديم الإسلام الذي نقصده والذي قصدناه بما كتبنا من قبل هو أولا كتاب الله وسنة رسوله، وهو ثانيا ما طابق الكتاب

والسنة من تاريخ المسلمين

وإذا فهمنا قديم الإسلام هذا الفهم وتم لنا تحديده هذا التحديد وجدنا أنفسنا أمام شيء يزول معه كل معنى للتفرقة الزمنية بين الأمور، فلا يكون هناك محل في الإسلام لفكرة القديم والجديد كما تفهم الآن. إن الإسلام دين الفطرة، والفطرة عند التحقيق لا يتفاوت فيها في دائرة الحق قديم ولا جديد. إنما يكون التفاوت والتناقض بين الحق والباطل. فكل جديد يخالف قديم الإسلام بالمعنى الذي حددناه هو جديد باطل، نصيبه من البطلان بقدر ما بينه وبين الإسلام من خلاف. وكل ما جدّ للإنسان من حق وقف عليه بعد جهل به والحق الذي عرفه الإنسان من قبل سواء، تشملهما الفطرة، ويشملهما الإسلام الذي يشمل بتشريعه وروحه وكنفه جميع صور الحق وسننه في جميع مدارج الحياة، في جميع مظاهر الكون، ما عرف الإنسان منها وما سيعرف، ما قدر له علمه في هذه الدار وما قدر له بعد هذه الدار.

وليس في الوجودين دين ولا نظام جمع للإنسان الخير كله والحق كله وحذره من الباطل كله إلا الإسلام. والإنسان يستطيع إلى حد كبير تمييز الحق من الباطل في دائرة المحسوس الذي يستطيع إخضاعه لتجاربه العلمية، أما ما لا يستطيع إخضاعه لتجاربه مما يتعلق بحياة الإنسان الروحية فلا سبيل للوصول إلى الحق والخير فيه إلا بإرشاد الله فاطر الفطرة وبهدايته. وقد فعل سبحانه، فضلاً منه على عباده ورحمة بهم أن يهلكوا إذا تركوا وشأنهم فيما يتعلق بحياة الروح، فإن للروح سننها التي سنها الله كما لغير الروح سننه، ولا مناص للإنسان من اتباع سنن الله وإلا كان من الهالكين. فكان من رحمة الله بالإنسان أن مهد الله له سبيل النجاة والفلاح واطراد الرقي الروحي بالأديان التي أرسل بها رسله تتري حتى ختمها سبحانه وأتمها للإنسانية في الإسلام

والعجيب الغريب من أمر الإنسان في عصرنا هذا أنه يحرص على اتباع سنن الله في عالم المادة ولا يحرص على سننه في عالم الروح. هذا عجيب لأن الذي يقدر سنن الفطرة ويبحث عنها ليستمسك بها في ميدان ينتظر منه أن يقدرها ويبحث عنها ليس ليستمسك بها في غيره من الميادين. فإذا كان فاطر الفطرة سبحانه قد أنزل للإنسان هداية مبينة على سننه في الميدان الذي لا يملك الإنسان إجراء التجارب العلمية فيه كان ذلك أدعى لاغتباط

الإنسان بتلك الهداية من باب أولى. وكان الأقرب إلى العقل أن يحرص الإنسان عليها إن كان مؤمناً بها عن يقين، فإن لم يكن كان الأولى والأقرب إلى العقل أن يسارع الإنسان إلى بحثها وفحص منعاتها الدالة عليها ليصل فيها إلى حكم صحيح وقرار صريح. لكن الإنسان لا يفعل شيئاً من هذا. فلا المؤمن يحرص على الدين كما ينبغي ويدعو إليه كما ينبغي، ولا الشاك يسرع إلى فحص الدين كما ينبغي ليصل فيه إلى قرار صحيح. وأغرب من هذا أن يسمح المؤمنون وهم كثير للشاكين وهم قليل في البيئة الإسلامية أن يبذروا شكهم وينشروه عن شمال ويمين، في نفوس النشء من بنات وبنين

إن البيئة الإسلامية تحسن الدفاع عن نفسها إذا هوجمت في دينها صراحة ومواجهة من أمام، لكنها لا تفقه أن الأمر يحتاج إلى دفاع حين يأتيها الخصم مداورة ويهاجمها في الإسلام بحركة التفاف: لقد تركت لدعاة الغرب الحبل على الغارب يقولون ما يشاءون ويبثون في نفوس صغارها وناشئيها ما يشاءون ما داموا يسلكون إلى ذلك طريق التلميح والإيحاء أو ما داموا لا يهاجمون التوحيد صراحة والقرآن. فلما غر كبيراً فيهم الغرور وظن أن الأوان آن لمهاجمة الدين مواجهة لا مداورة هبت الأمة كلها تذود حتى كادت تبطش به، فلما انزوى عادت إلى نومتها الأولى كأن لم يبق هناك من حاجة إلى اليقظة والانتباه

وكان سلاح دعاة الغرب في مهاجمة الإسلام في صميم بلاده ونفوس أهله هو هذا الأدب الذي يسمونه بالجديد.

والأستاذ (قارئ) يحدثنا أن الذين يسمون الآن بأصحاب المذهب الجديد كانوا في أول الحركة أو منذ ثلاثين سنة رجعيين يدعون إلى الرجوع في النمط الأدبي إلى عصر الجاهلي أيام كانت اللغة خالصة، وكان أدبها خالياً من التكلف في الغزل والمحسنات اللفظية. لئن كان ذلك كذلك فما أظن حركتهم تلك في الأدب كان لها داع ما، لأن كل ما وصفها الأستاذ به وقال إنها تطلبه كان متحققاً بالفعل على يد حافظ وغيره إن لم يكن قبله

ويقول الأستاذ إن أنصارها قرءوا الشعر الأوربي اتفاقاً (فرأوا أن مبادئ رجعيتهم هي مبادئ الأدب الأوربي الصحيح السليم، وأن الأدب الأوربي يعينهم على تحقيق تلك الرجعية) ولسنا ندري كيف يمكن أن يعين الأدب الأوربي على تحقيق تلك الرجعية التي وصفت. وإذا صح أن بعضهم كان كما قال، فأكثرهم لم يكن كذلك أي لم يقرأ الشعر الأوربي اتفاقاً ولم ينصره لأنه يؤيد مبادئه الرجعية، ولكنهم كانوا ممن درسوا الأدبين، وأوحى إليهم الأدب الأوربي مبادئهم التي دعوا إليها خصوصاً ما سماه: (الرجوع إلى طريقة المتقدمين في إظهار كل شاعر خصائص نفسه وفكره، وأن يباح له القول أكثر مما كان يباح للمتأخرين). ولست أدري ماذا كان محرماً على المتأخرين، وأردا أصحاب الجديد في أول الأمر أن يباح لهم، وإنما الذي أدريه أن مبدأهم ذلك قد خرج بهم عن الحد، وأدى إلى هذا الأدب الفاجر الذي يستطيع الأستاذ أن يضع يده فيه على ما شاء، والذي يعتذر عنه بأن هناك أفجر منه في القديم

إن في القديم أفجر منه من غير شك وأكثر منه أضعافاً كثيرة؛ لكن التفاوت في فحش القول، أظن الفضل فيه يرجع إلى القانون، والكثرة راجعة من غير شك إلى تراكم القرون وتعدد الأمم وكثرة الناس وعظم نسبة قائلي الشعر فيهم ممن يحسنه ومن لا يحسنه. فليت شعري إذا حسب أثر ذلك كله ماذا تكون النتيجة وماذا يبقى من دفاع الأستاذ؟ إنها نقطة طريفة، لكن مهما تكن نتيجتها فإنها لا قيمة لها في الموضوع. فالقديم الذي ندافع عنه والذي إليه قصدنا من قبل ليس هو القديم الزمني الذي ذهب إليه الأستاذ. ليس هو قديم المسلمين برهم وفاجرهم كما توهم الأستاذ خطأ، ولكنه قديم الإسلام بالمعنى الذي فصلناه. وإذن فنقده الذي وجهه إلينا وبناه على المعنى الزمني للجدة القدم نقد ذاهب لا يتوجه إلينا منه شيء

إن التفريق بين المذاهب والأعمال بحدوثها وقدمها كما يفعل كثيرون هو غير معقول، إنه تفريق تافه لأنه مبني على شيء عارض هو الزمن يأتي ويمر من غير أن تكون له صله بحقائق الأمور. إن قديم اليوم بمعناه الزمني هو جديد أمس قد مضى، وجديد اليوم هو قديم غد سيكون. فالجدة والقدم شيء عارض متغير لا وزن له في قياس قيم الأشياء اللهم إلا المادي منها، وليس في كلها يطرد معناه. أما الأمور المعنوية التي تتصل بحياة الإنسان الروحية وصميم إنسانيته فلا بد لقياسها والمفاضلة بينها من معيار آخر ثابت على الزمان هو معيار الحق والصدق والخير. وقد أنزل الله الدين ليهدي الإنسان إلى ما لا يستطيع الاهتداء إليه من هذا ما دامت حياته ونجاته وإنسانيته متوقفة عليه. من أجل ذلك تركنا

المعيار الزمني الذي لا يغني من الحق شيئاً، وقررنا ما كنا نظن أنه بديهي واضح من أن المعيار الثابت للحق والخير يجب أن يلتمس لا في جديد الغرب ولكن في قديم الإسلام أي في الإسلام كما أنزله فاطر الفطرة على الإنسان الكامل والرسول الخاتم محمد بن عبد الله صلوات الله عليه

لقد قررنا هذا الأصل من قبل ولا نزال نقرره. قررناه حين كتبنا نقدنا التحليلي لكتاب الأدب الجاهلي وأخذنا على صاحبه فيما أخذنا نشره مجون الأدب الغربي فيما كان يلخص للهلال من روايات فاجرة كرواية الزنبقة الحمراء، ونشره مجون الأدب العَربي فيما كتب عن أبي نواس ووالبة ومن إليهما في حديث الأربعاء. وهاهو ذا صاحبه يدعوا في أحدث كتاب له إلى الأخذ بحضارة الغرب كلها خيرها وشرها وحلوها ومرحها كأنما أراد أن يصدق ما قلنا في كلمتنا الأولى التي انتقد الأستاذ (قارئ) من أن (الذين يسمون أنفسهم أنصار التجدد يؤمنون بالغرب كله ويريدون أن يحملوا الناس على دينهم هذا ولو خالف الإسلام في أكثره). فنحن حين صورنا الخلاف بين أنصار قديم الإسلام وجديد الغرب كما صورنا إنما كنا نصف واقعاً مشهوداً، والأستاذ (قارئ) يصف من حركة الجديد تاريخاً غير مشهود مر، على قصر الفترة التي كانت منذ بدأ، وصار إلى هذا الجديد الذي يغلب على الحركة الآن وغلب عليها من زمان - بالنسبة إلى عمرها - طويل

والأستاذ (قارئ) يجعل للأسلوب والطريقة واللغة مكاناً كبيراً في حركته التي وصف، وإني أعرف أن الأسلوب واللغة والطريقة هي مدار الخلاف بين من يعرفون بأنصار الجديد وأنصار القديم كما أعرف للأسلوب والطريقة واللغة مكانها في الأدب. لكني لا أحلها مع ذلك المحل الأول، وإنما أجعل لروح الأدب المقام الأول في الحكم عليه. وأنا في ذلك تابع غير مبتدع، تابع للقرآن مهتد بما سنه للناس

فلحكمة كبرى جعل الله معجزة دينه معجزة أدبية باقية على الدهر وجعل رسوله أفصح الناس. وليس أصغر ما في تلك الحكمة التنويه بالأدب والتنبيه إلى أن قوته الهائلة ينبغي أن تكون عوناً للحق والخير على الشر والباطل في حياة الإنسان، فهذا تشريع منه سبحانه وهدى للناس في الأدب كان ينبغي عليهم أن يتبعوه. ولقد اتبعوه بالفعل في عهد الرسول وفي أكثر عهد الخلفاء الراشدين، ثم جاء عمر بن أبي ربيعة الذي لو أدرك عهد عمر بن

الخطاب لجلده ونفاه ولكف من غرب مجونه الذي فتح في الأدب باب الشر والمجون على الناس. وصلوات الله على رسول الله لقد نبه الناس لو كانوا ينتبهون: نبههم إلى أن الشيطان يئس أن يعبد في أرضهم ورضي أن يطاع فيما يحقرون من أعمالهم. وكان مما حقروا القول الماجن ما داموا لا يرتكبون بالفعل ما يفترون فيه. وظن ابن أبي ربيعة أنه إذا قال ولم يأت شيئاً مما قال فليس عليه عند الله وزر، ونسي حديث الرسول الذي أنبأ فيه الناس أن الله قد تجاوز لهم عن حديث النفس ما لم تعمل أو تكلم، والحديث الذي نبه فيه صلوات الله عليه الناس أن من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة. ووقع ابن أبي ربيعة في الحرجين واحتمل الوزرين كليهما فوصف حديث نفسه كلاماً تبعه فيه العرجي ومن لف لفه فانحرفوا بالأدب العربي عن الطريق الذي أختطه له القرآن إلى الطريق الذي تمناه الشيطان لينفذ منه إلى النفس المسلمة يفسدها قليلاً بعد قليل وجيلاً بعد جيل

فلأدب العربي ككل أدب إنساني يجب أن يحكم عليه أول ما يحكم لا بأسلوبه ولا بطريقته ولا بلغته. ولكن قبل كل شيء بأثره في النفس أي بأثره في حياة الفرد وفي حياة المجموع. فإن كان أثره صالحاً يعين النفس على رقيها ويهديها إلى ربها فهو أدب صالح كريم، وعندئذ تكون بلاغته وما يمكن أن يتصف به من مميزات أخرى حسنات له توضع في ميزانه. أما إذا كان سيئ الأثر يثير في النفس شهواتها ويصرفها عن هداها فهو أدب فاسد غير كريم مهما ملك صاحبة من عنان اللغة ومهما امتاز في الأسلوب، بل مميزاته في اللغة وفي الأسلوب تكون عندئذ من سيئاته لأنها تجعله أقدر على إفساد نفس الإنسان. من أجل ذلك جعلنا الأدب فيما كتبنا قسمين: قرآنياً وغير قرآني، أو أخلاقياً وغير أخلاقي، حسب أثره في النفوس لا فرق في ذلك بين القديم منه والجديد

والأدب الجديد كان له أسوأ الأثر في النفس المسلمة خصوصاً النفس التي لا تعرف من دينها ما تستطيع أن تدفع به عادية ذلك الأدب على مكان الدين منها ليفتنها بجديد الغرب عن قديم الإسلام.

ولقد قلنا من أجل ذلك إن المسألة بين القديم والجديد هي في صميمها مسألة اختيار

بين دين ودين، فظن الأستاذ أننا نريد أن الجديد يريد أن يحل المسيحية محل الإسلام، وليس كذلك.

إن المهم ليس هو ذات ما يتخذ بدلاً من الإسلام، ولكن هو مجرد الانصراف عن الإسلام. وماذا يهم إذا انصرف المسلم عن الإسلام أي شيء اتخذ أو على ماذا أقبل؟ إنه إذا استدبر الإسلام لا بد مستقبل غيره؛ وإذا أحله من نفسه المحل الثاني فهو لابد محل غيره المحل الأول؛ وإذا عصاه فهو لا بد مطيع سواه. هذا الذي يستقبل ويكبر ويطيع بدلاً من الإسلام هو الدين الذي أتخذه أو يتخذه المسلم المفتون بالغرب بدلا من دينه. وليس يهم أدين هو معروف في الأديان أم هوى هو بين الأهواء أم وهم من الأوهام

واستعمالنا لفظ دين بهذا المعنى استعمال عربي صحيح. فالدين في الأصل معناه الخضوع ومن أخص خصائصه العبادة، وقد جعل الله سبحانه طاعة الناس للشيطان عبادة منهم للشيطان في قوله (ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين، وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم، ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون). وأوضح أن الناس لم يعبدوا الشيطان عبادة سجود ولكن يكفي من عبادتهم إياه أنهم أطاعوه فأضلهم عن سبيل الله. كذلك قد جعل الله اتباع الإنسان هوى نفسه عبادة للهوى واتخاذاً إياه إلهاً من دون الله (أرأيت من أتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً) (أفرأيت من أتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون). فأساس التدين إتباع الدين والخضوع لله طوعاً ما للإنسان خيار فيه. فإذا غلَّب الإنسان على دينه شيئاً آخر يدين له بالطاعة من قلبه فذلك الشيء هو في الواقع دين له بدلاً من دينه الذي ينتسب بالاسم إليه؛ وإذن فنحن لم نُغْرب ولم نخرج عن حدود اللغة ولا عن الاستعمال القرآني حين أطلقنا لفظ الدين على كل ما يحل في قلب المسلم محل دينه. ونحن لم نظلم دعاة جديد الغرب حين قلنا إن جديدهم في الأدب ليس مقصوراً على الأسلوب والطريقة ولكنه في صميمه إحلال دين مكان دين ما دام منحى ذلك الأدب التماس المثل العليا واقتباسها من الغرب لا من الإسلام ولا من القرآن

محمد أحمد الغمراوي

استطلاع صحفي (ريبورتاج)

الأندية الأدبية في مصر

(لمندوب الرسالة)

- سأكتب عن الأندية الأدبية في مصر. . .

وأين هي يا أخي تلك الأندية الأدبية التي في مصر؟!

ذلك ما قلته لصديقي الشاعر (الخفيف) وكنا في ندوة الرسالة، وهذا ما أجابني به في لهجة قاسية منكراً أن تكون في مصر أندية للأدب. وهذا أيضاً ما سيقوله جل قراء الرسالة - إن لم يكن كلهم - وسينكرون أن تكون في مصر أندية للأدب. وربما يسألون: ما شأن هذه الأندية؟ ومتى وجدت؟ وأين توجد؟ وما بالنا لا نعرف عنها أي شيء؟. . وهذا هو الذي حفزني للكتابة عن هذه الأندية، وحملني على أن أكشف للناس - بل ولكثير ما الأدباء أنفسهم - عن ناحية مستورة في حياتنا الأدبية، ومؤثر له شأنه وخطره في وجهتنا الثقافية

نعم ليس في مصر أندية للأدب بالمعنى الضخم الذي يوحيه إليك هذا التعبير الضخم، فتتخيل العمائر الشاهقة التي شيدتها الحكومة أو شيدتها الجمعيات الأدبية المنظمة وجعلتها في تأسيسها وفي أثاثها بهجة الناظر ومتعة الخاطر، لتكون مجمعاً لأهل الأدب ومسرحاً لأرباب القلم، كما هو الشأن في الأمم الراقية التي تحترم الفن، وتقدر نتاج الفكر، وإنما الأندية الأدبية في مصر إما مقاهٍ عامة تتسع لغمار الناس وجميع الطبقات، وربما تكون ضَئيلة الرواء تافهة الموقع، وإنما ينزع إليها الأدباء لود قديم، أو لمعنى يتصل بحياتهم المادية والروحية، وإما بيوت لها مجد تالد، وتاريخ حديث يتصل بتاريخ غابر، فأصحابها يقربون أهل الأدب ويفسحون لهم في صدور بيوتهم ويسمرون ويتندرون، ويمتدحون بل ويذمون، ويتوثبون من حديث إلى حديث بين أكواب الشاي وأقداح القهوة

وهذه الأندية على بساطتها لها أثر كبير في حياتنا الأدبية، وإن ما يجري فيها لصُورة

صحيحة لثقافتنا ووجهتنا في الأدب والشعر والنقد وكل ضروب المعارف التي نحذقها، والتي لا نحذقها. وأنت لا شك تجهل كثيراً من نواحينا الفكرية وسياستنا الأدبية، ومدى الصلة بين ثقافتنا وأخلاقنا. وأنت لا شك تخطئ كل الخطأ إذا كنت تحسب أنك قادر على فهم أدبائنا حق الفهم من كتاباتهم التي يزورونها للناس، من غير أن تنتقل إلى هذه الأندية،

تجول بين جنباتها، وتندمج في جماعاتها، فتحاور وتداور، وتقول وتسمع، وتُرضي وتغضب، وتنفلت معهم من كل قيد، وتخرج على كل وضع، وتكون حاضراً بعقلك وقلبك وعواطفك، حتى تنبسط أمامك النفوس، وتنكشف لك السرائر، ويُعلن كل مخفيّ ومطويّ، فيتبين لك القوم بعقلهم الواعي، وما يسمونه بالعقل الباطن

لقد خرجت منذ عامين برفقة صديق عزيز إلى بساتين القناطر الخيرية في يوم عيد الربيع، فرأينا الناس قد احتشدت هناك على اختلاف ألسنتهم وألوانهم، وتباين طبقاتهم ومراتبهم، ورأيناهم قد خرجوا من وقارهم، واستهانوا بكل ما اصطلح الناس عليه من الأخلاق والتقاليد، واندفعوا في يقظة العواطف، ورغبات القلوب، وشهوات الجسد، ما وسعهم الجهد في ذلك، فكنت أنظر إليهم في فزع وجزع، فمال عليّ صاحبي وهو يقول: لا تفزع ولا تجزع، فإن هذه - لو علمت - هي حال الناس بين الجدران، وتلك طبيعتهم من وراء الحيطان، وثق أن ما يظهر به الناس في الخارج من سمات الوقار ومظاهر الاحتشام إنما هو شيء متكلف مزّور، وإنه ليغطي وجه الحق على كثير من الناظرين. ولو قدر للشمس أن تشرق على جميع الناس، وأذن للحجب أن تنتهك عما وراءها لرأيت الناس في طبيعتهم الصريحة وحقيقتهم الصحيحة، وما حقيقتهم إلا ما ترى يا صاحبي.

وهذا الذي قاله صاحبي في الناس بالأمس، هو ما أقوله في أصحابي الأدباء اليوم، فهم في كتاباتهم قد يحجبون حقيقتهم ويزوّرون في طبيعتهم، ويظهرون في غير لباسهم، توخيا لمصلحة يرجونها أو رهبة لسيطرة القوانين والتقاليد، أو رعاية لروابط الصداقة وصلات المودة بينهم وبين الناس، فتراهم يبدون الرأي في احتراس ويحكمون على الأشياء بقدر، ويخدعون ضمائرهم فيحضون ما ليس بالحسن، وهم على عكس هذا كله في أنديتهم الأدبية، ومواطن سمرهم وصفوهم، صرحاء وضحاء، لا يقتصدون في شيء ولا يبقون على شيء، فتسمع منهم الرأي الصحيح والتقدير الصريح والنقد العنيف، والأحكام القاسية التي تتصل بالآثار وبالشخصيات وتتناول الأفراد والجماعات، وربما يفزعك هذا النقد بأسلوبه، وربما تنكره على أصحابه، ولكنك لا شك ستجد فيه كثيراً من الصراحة المحمودة، والتقدير الحق. وأذكر أن أديباً كبيراً أعرفه كتب مقالا في تقريظ صاحب له في إحدى الصحف، فهول وبالغ ومجد وقدّس حتى طار بصاحبه إلى السماء، فلما قابلته في المساء

حيث يجلس مع إخوانه للمسامرة، ذكر لي أن ما كتبه إنما هو تمويه في الحق، وتدليس على الناس، وأن صاحبه ليس في قليل ولا كثير فيما كتب عنه، ولكنها الضرورة قاتلها الله، وللضرورة حكم أقل ما يقال فيه أنه يفصل بين المرء وبين ضميره. ولقد ذكر الدكتور زكي مبارك في مقال نشره منذ أعوام، أن الدكتور طه حسين أسر إليه في مجلس من المجالس أن (شوقي) في رأيه أكبر شاعر في العربية، وأنه كان يود أن يقدم ديوانه للقراء، على حين كان الدكتور طه في ذلك الوقت يذيع في الناس أن (شوقي) لا يد له في الشعر ولا رجل، وأنه شاعر يغني على أطلال القديم، فيغني عنه أضأل شاعر في القديم!!

. . .ومن ثمَّ تعلم أن أدباءنا في مجالسهم شيء، وهم في كتاباتهم شيء آخر

وإلى جانب هذا نجد في أنديتنا الأدبية ناحية مشرقة، فهي مجلس الدعابة البارعة، والروح المصرية المرحة، ولعلك تعلم أن الدعابة إنما هي الجانب المشرق من الحياة، وهي عنوان ما في السرائر المكتومة، ومظهر من مظاهر الأخلاق والثقافة، وعنصر يهتم به الدارسون لنفسيات الأمم وطبائع الشعوب. وليس من شك في أن شخصية الأديب قد تتجلى واضحة مكشوفة في نكتة يلقيها على بساط الشراب، وربما لا يظهر لها ظل في جميع مؤلفاته ولو بلغت ألف كتاب. ولأدبائنا في مناحي الدعابة ذراع رحب، ولسان طويل. . . ولكنهم لا يهتمون أو قل يتحرجون من تسجيل ذلك وإذاعته في الناس، ولا شك أننا فرطنا في كثير إذ أهملنا ما كان يجري في مجالس البابلي

وحافظ وإمام العبد وأندادهم، فلم نسجل شيئاً من أحاديثهم. ولم نحفل بنوادرهم وقفشاتهم، على أنها كانت ثروة طيّبة، وناحية حافلة بالأنس والسمر، ومن العجيب أن القدماء كانوا أجدى من في ذلك وأحفل به، ولعل مرجع هذا إلى أنهم كانوا يكتبون للخاصة فكانوا ينطلقون على طبيعتهم فلا يتأثمون من تعبير، ولا يتزمتون من لفظ، ولكنا نكتب لجميع الناس، وكتاباتنا تتصل بمختلف الأوساط، فكان لابد أن نعف عن كل ما يخدش الحياء، ويؤذي الأذن كما يزعمون!

ومن بعد هذا ومن قبله، نجد تلك الأندية تعمل كثيراً في نهضتنا الأدبية، وفي وجهتنا الثقافية، فكثيراً ما تتشاجر الآراء، وتقوم المجادلات بين القوم حول المعركة بين القديم والجديد، أو في المقارنة بين شوقي وحافظ، أو المفاضلة بين طه والعقاد، وقد يخرجون من القول في الأدب إلى الكلام في السياسة وما يجري من التطاحن بين الأحزاب. وفي هذه الأحاديث وأفعالها يفضي كل بما عنده، فتكون الإفادة والاستفادة.

فنحن إذ نكتب عن الأندية الأدبية في مصر، إنما نكشف - كما قلنا - عن ناحية مستورة في حياتنا الأدبية. ومؤثر له شأنه وخطره في وجهتنا الثقافية، ونصور للناس صورة مشرقة بالمرح والصفو يطل منها أدباؤنا بطبيعتهم الصحيحة، وحقيقتهم الصريحة. وموعدنا المقال القادم لنقف عند أول ناد هبطت عليه يوم هبطت على القاهرة، وسأعرف كيف أقنع صاحبي الشاعر (الخفيف) الظريف.

(م. ف. ع)

رسالة المرأة

بين المرأة والرجل

هل الشرق شرق والغرب غرب في كل شيء؟

للآنسة زينب الحكيم

كان من بين البلاد التي زرتها أثناء رحلتي الطويلة بلاد كردستان. ولقد كانت من أعظم المخاطرات وأكثرها فائدة، ذلك لأني اكتشفت عالماً مجهولاً للكثيرين. أما ما قمت به من مخاطرات، وما وصلت إليه من دراسات متنوعة فسأكتب عنه في غير هذه المناسبة. وأخص هذه الرسالة بشيء من الأدب الكردي الذي حُبِّبَت إلى دراسته وتقصيه، لأثبت أنه على قدر ما وجدت تبايناً كثيراً بين الشرق والغرب في كثير من الموازنات التي عملتها، وجدت تشابهاً عظيما بينهما بحيث نستطيع معه تحديد تباين الشرق عن الغرب، أو توافقهما في وجهات لا تحتمل الجدل مثل النواحي العاطفية، والروحانيات، وتصرف المرأة هنا وهناك وإني لذاكرة فيما يلي قصة أدبية، وهي عبارة عن قطعة تمثيلية غنائية عنوانها (الوردة الدامية) من نظم الشاعر الكردي الشاب عبد الله سليمان (كوران) من أهالي السليمانية عاصمة كردستان وقد ترجمتها نثراً إلى اللغة العربية

الوردة الدامية

حوار بين فتى وفتاة:

الفتى - هناك يا فتاتي في ذلك البيت حفلة زفاف ورقص وفرح

ألا تسمعين أنغام الناي، ودقات الطبول المرقصة؟

إلا ترين الزحام الباهر من الرجال والنساء يغنون ويرقصون؟

كم أود أن أسمع هناك رنَّات حليتك الفضية وأنت ترقصين!

هيا. . . بربك، هيّا. . . نلحق بهم إذن

. . .ونرقص ونرقص إلى أن يشبع فؤادي

الفتاة - كلا أيها الفتى، لن أذهب ولن أرقص معك

ما دامت لا تزين رأسي وردة حمراء ووردة صفراء

الفتى - يا فتاتي أستحلفك بجمالك ودلالك ولحاظك الساحرة في طريقك إلى عين الماء

. .انظري إلى الأوراق المتساقطة. انظري إلى الأغصان العارية. إننا في فصل الخريف.

أين نحن من الورود؟ ثم لماذا الورود؟

أليست شفتاك المتفتحتان بالبسمة الجميلة أجمل من كل شيء. . . ومن الورود؟

الفتاة - لا يا فتى، لن أذهب ولن أرقص معك،
ما دامت لا تزين رأسي وردة حمراء، ووردة صفراء!
لو كنتَ مانحاً قلبك لي بكليته حقيقة
لاستطعت إحضارهما من حديقة الأمير
وكل ما أطلب وردتان فقط!
يذهب فتى ويغني متمتماً
الفتى - حديقة الأمير. . . بيني وبينها نهر يفيض ويثور، وتحيط به قبائل معادية لا ترحم
إذا ذهبتُ: فالطريق وعر ولا أمل لي بالرجوع
وإذا لم أذهب:
آه!! لن ترقص معي فتاتي، ذات العيون الساحرة
(يبتعد عن القرية شيئاً فشيئاً)
- 2 -
الفتى - توغلت في حديقة الأمير، من أقصاها إلى أقصاها
أما الوردة الصفراء فهاكها. أما الحمراء فلم أجدها وا أسفاه.
لست أدري أترضين الآن أن تراقصيني؟
الفتاة - لا. . . لن أراقصك. . لن أراقصك. . . من غير الوردة الحمراء الجميلة
الفتى - (يفك ياقة قميصه مشيراً إلى الصدر في محل القلب) ألا تقبلين هذا الجرح الدامي، بدلاً عن وردتك يا فتاتي؟
الفتاة - والهفي. . . أأصابك رصاص العدو؟
أتسقط هكذا من شدة الألم؟
إذن ضع رأسك على صدري وأنت تحتضر،
ولأبك على قلب افتقدته من أجل وردة
هذه القصة التي تعبر بروعة خيالها عن حقيقة عقلية الرجل الكردي، إنما تعبر ضمناً عن ناحية من نواحي نفسية المرأة الكردية المعروفة بقوة الإرادة والشجاعة والحسن الفائق، والنفسية المرحة السامية، والعقلية الخصبة على جدب معينها العلمي، وقسوة بيئتها وإن عوضها جمال مناظر جبالها، وجودة هوائها، وكثرة ثمارها كثيراً مما تفقده من أسباب الحياة الرغيدة، ونور العلم وميزات المدينة. والمرأة الكردية على غمرة عواطفها أمينة في الحب، قاسية فيه، مضحية إلى الموت، ولكنها صلبة الرأي إلى درجة شاذة انتصاراً لمبدأ أو إخلاصاً لحبيب أو صديق، كما أنها على لطافة خلقها شرسة منتقمة إذا أرادت
هذه القصة من الأدب الكردي أذكرتني بحادثتين وقعتا لرجلين من مشاهير الرجال أذكرهما فيما يلي، حتى نرى أن ليس الشرق شرقاً والغرب غرباً في كل شيء
قفاز (1)
سمعت قصة هذا القفاز زمناً طويلاً من الجدات والكهول، عن سيدة كان مغرماً بها دي لورج الضابط النابه الذي كان في صغره من أشجع وأشهر قواد اللواء المشاة في أيام فرنسوا الأول ملك فرنسا (1515 - 1547).
وكان الملك فرنسوا هذا مغرماً باقتناء الوحوش الضارية ومشاهدة صراعها في حديقة الوحوش التي أقامها لها خاصة.
ففي ذات مرة، بينما الملك يشاهد الشجار مع حاشية من عظماء مملكته، ومن بينهم سيدات يجلسن في مقاصير أنيقة، إذا بواحدة منهم تلقي بقفازها بين الأسود، وهي في أشد حالات الغضب والشراسة، وتوجهت إلى عاشقها دي لورج الفارس النبيل طالبة إليه باستخفاف أن يعيد إليها قفازها ليؤكد أن حبه لها عظيم كما يقول، ولكي تحقق من ناحية أخرى صدق شهرته أمام الجمهور الذي طالما تحدث عن شجاعته.
فانبرى الفارس مسرعاً دون أن تبدو عليه دهشة أو تردد، وأخذ عباءته في إحدى يديه، وسيفه في اليد الأخرى، ثم دخل بجسارة نادرة في ساحة مساجلة الأسود، وحالفه الحظ في التقاط القفاز من بينها، وعاد به إلى سيدته بين إعجاب الحضور وهتافهم. وتبسمت له الحسناء ابتسامة الرضى والسرور
ولكن الضابط الهمام لم يأبه لإعجابها، واعتبر سلوكها معه ضغينة مبيتة، ولهذا رمى القفاز في وجهها معرضاً عن أي شكر ومتحرراً من غرامه. وبذلك أقصاها إلى الأبد

(منديل)
كان للقائد العظيم دي جينليز الذي مات في ألمانيا وهو يقود فرق الهوجينوت في الحرب الدينية الثالثة حسناء أغرم بها جداً فمرة كان يعبر وإياها النهر من أمام اللوفر، فأسقطت منديلها الفاخر في الماء عمداً، وطلبت إليه أن يغوص في النهر ليعيد إليها منديلها. ولكنه لجهله بالسباحة اتخذ من ذلك مبرراً حسناً للاعتذار إليها ولكنها لم تقنع - ولامته - بل اتهمته بأنه عاشق خائن جبان. فما كان من القائد الشجاع إلا أن ألقى بنفسه في النهر دون أن ينبس ببنت شفة، وحاول البحث عن المنديل عبثاً، مضحياً بحياته لو لم يدركه قارب النجاة على الفور
نختتم بقصة شرقية مشابهة فيما يلي:
قصة إيرانية
الشاعر نظامي الإيراني أشهر من نار على علم، يرى في مخطوط من كتابه (هفت بيكر) المحفوظ في نيويورك، صورة ترجع إلى القرن الخامس عشر الميلادي، توضح أيضاً تشابه تصرف المرأة الشرقية وتصرف الغربية في نفس الحقبة من الزمن ذلك أن الصورة تمثل (بهرام جور) ملك إيران يثبت لحبيبته فروسيته ومهارته في الرماية، بإجابتها إلى ما طلبته منه وهو أن يلصق السهم وحافر حمار الوحش بأذنه. وقد توصل إلى ذلك بأن ضرب حمار الوحش في أذنه بقطعة من الطين الجاف، فلما رفع الحمار حافره ليحك أذنه من أثر الضربة، رماه بهرام جور بسهم ثّبت به حافره بأذنه
هذه قصص أربع أود لو تتفضل القارئات ومن يرغب من حضرات القراء بإبداء رأي فيها، نصل من ورائه إلى مبدأ نؤسس عليه معاملة المرأة للرجل وبالعكس، ولا سيما في طور الخطبة
زينب الحكيم
رسالة العلم
قصة العلم التجريبي
الذروة التي بلغها البحث العلمي
للدكتور محمد محمود غالي
يعتمد العلماء اليوم على منابع أربعة للتجديد العلمي: الميراث العلمي، والبحث النظري، والبحث التجريبي، والتعمق العقلي في حقائق الأشياء ووضعها في قوانين لا تتعارض مع النتائج النظرية والتجريبية
ولن أتناول بالبحث في هذه المقدمة الميراث العملي فقد أشرنا إلى الدرجة التي وصل إليها من العظم حتى أصبح غير ميسور لباحث أن يتعرف في فرع واحد من العلوم كل ما ينشر فيه. أما البحث النظري فقد أصبح من القوة بحيث لا يستطيع المشتغلون بالعلوم التجريبية والذين تستنزف التجارب بين جدران المعامل كل أوقاتهم، الاستغناء عن تتبع التطورات التي تحدث في كل عام من الناحية النظرية، وإن أعمال إينشتاين وبلانك ودي بروي وشرودنجر ما يدل على ما للطبيعة النظرية من القوة اليوم
أذكر أني طالعت منذ عشرة سنوات إحدى صحف الصباح بباريس أن لويس دي بروي وكان عمره في ذلك الوقت حوالي خمسة وثلاثين عاماً حاز جائزة نوبل في الطبيعة وكان كل ما بلغه من منصب علمي وظيفة محاضر في السوربورن وفي مساء نفس اليوم حضر كعادته للمعمل الذي كنت أعمل فيه بالسوربورن الأستاذ موتون، وهو عريق في منصب الأستاذية فأردت أن ألمَّ بشيء عن دي بروي فقال لي: (لا تظن أني أعرف عنه أكثر مما تعرف)، وبعد سبع سنوات من هذا التاريخ، وقُبيل وفاة الأستاذ موتون ذكر لي وهو طريح الفراش من مستشفى معهد باستير، وكنت أطالع له عملي: (لم يصبح لدينا من الوقت ما يكفي لتتبع دي بروي وفرانسيس بران ولا أنصحك أن تنفق وقتاً كبيراً لتتبعهم، ولكن يظهر لي أن عالم التخمين لم يصبح أقل أهمية من عالم التجارب)
أما البحث التجريبي في العلوم الطبيعية فقد بلغ ذروة تدل عليها التطبيقات التي تمت داخل معامل الأبحاث وخارجها مثل الاختراعات العديدة التي أصبحت تتداخل في جزء من

حياتنا اليومية
ولنضرب الآن أمثلة من التقدم في دائرة معامل البحث ونشير إلى شيء من المقدرة التي أبداها العلماء في القيام بالتجارب العلمية. ولعل في إشارتنا ما يجعل جماعة ممتهني العلوم الكيميائية والطبيعية الذين يشبهون في حياتهم كيميائي القرون الوسطى - وهم كثيرون بيننا يستفيدون من الرجوع لهذه المقالات. ويقيننا أنهم إذا طالعوا بإمعان ما تتضمنه مقالاتنا سيطفئون مشاعلهم التي أفسدت الجو بدخانها ويفارقون بوادق صهرت الكثير من نقود أصحابها ويوقنون أن قصة المعامل اليوم تخالف قصتهم وأن العلماء اليوم متجهون اتجاها آخر في مباحث بلغت من القوة شأوا حمل الناس على الإيمان بها والتسليم بسموها وعظمتها.
خذ مثلاً من العلم التجريبي كان النجاح فيه لأستاذين لازمناهما وجاورناهما في معاملهما طويلاً هما كوتون وموتون، ففي سنة 1906 استطاعا بإنارة معينة للجسيمات الميكروسكوبية أن يكتشفا ما نسميه اليوم الألتراميكروسكوب وهو ميكروسكوب عادي إلا أن الجسيمات المراد فحصها تضاء بطريقة تسمح برؤية الجسيمات المتناهية في الصغر والتي لا يكشفها الميكروسكوب أو على الأقل تسمح برؤية مواضع هذه الجسيمات، خذ النتائج السريعة لمثل هذا الاكتشاف العلمي فقد استطاع جان بران في سنة 1908 أن يتتبع حركة جسيمات صغيرة جداً كالجسيمات المعلقة مثلاً في نقطة من الحبر وهي حركة مبنية على قوانين الصدفة إلا أنها نوع من الصدفة المنظمة - أما سبب حركة هذه الجسيمات فهو حركة دائمة في جزيئات الماء نفسه التي تتصادم مع هذه الكرات المعلقة في السائل فتحركها معها، وهذه الحركة الدائمة في كل سائل هي التي تسبب ضغط السائل على جدران الإناء. وقد استطاع بيران (بإدخال حسابات قام بها العالم المعروف أينشتاين) أن يدرس نظام توزيع هذه الجسيمات الصلبة داخل السائل واستنتج من ذلك نتائج علمية عظيمة الأثر منها تحديده لعدد جزيئات الغازات في حجم محدود ومنها معرفته لشحنة أصغر جسيم كهربائي أو وحدة الكهرباء (الإلكترون
وللإلكترون أهمية كبرى ويكفي أن يعرف القارئ أن العلماء يتجهون الآن إلى تحديد كل ما نراه وحصر كل ما يكون العالم في أربعة أنواع من الجسيمات المتناهية في الصغر هي
الإلكترون والبوزتون والنيترون والفوتون. وسنأتي في مقالاتنا القادمة على شرح كل واحد من هذه الجسيمات الأولى الأربعة المكونة للخليقة وعلى الظروف التي أدت إلى اكتشاف كل منها، وإنما أردنا أن ندل القارئ على أن اكتشاف الألتراميكرسكوب واكتشاف الإلكترون كانا عملين أحدهما مساعد للآخر. ومما يجدر بالذكر أن الالتراميكروسكوب لعب دوراً كبيراً في تجارب مليكان الخالدة التي فصل فيها جسيما واحداً يحمل إلكترونا حرا واحداً، هذه التجارب التي آمل أن أفصلها يوماً لقراء الرسالة ولكن لا أترك الإلكترون دون أن أعطي القارئ فكرة عن حجمه أو كتلته تصور أنك تدخن سيجارة وأنت جالس في الشمس وتصور أن تركت أطراف السيجارة على إصبعك بعض آثار الورق المذهب بحيث أن أشعة الشمس تساعدك عند النظر لإصبعك أن تكشف بالعين أحد هذه الجسيمات البراقة المتناهية في الصغر والتي تركتها السيجارة. إذا تصورت هذا وأردت أن تتصور الإلكترون فاعلم أن حجم هذا الجسيم الصغير يحوي ملايين المرات حجم الإلكترون الواحد، فإن نسبته لهذا الجسيم البراق الصغير جداً كالنسبة بين الأخير وبين المكتب الذي أكتب عليه الآن هذا المقال يمكنك أن تتصور أيضاً أنك تأكل تيناً وأنه قد أصاب إصبعك إحدى أشواكه الصغيرة - إنه يلزمك في العادة ملقاط لإخراج هذه الشوكة التي إذا خرجت تراها بصعوبة بالعين المجردة، إن هذه الشوكة ربما تحوي من الإلكترونات قدر ما تحوي شجرة التين من الشوك. هذا هو الإلكترون الذي استطاع مليكان أن يفصل جسيما واحداً يحمل إلكترونا حرا واحداً ويرى موضع هذا الجسيم بل ويرفعه ويخفضه كما يشاء
إلى هذا الحد وصل العلم التجريبي في سنة 1909 أيام تجارب بيران ومليكان. أما اليوم وقد مضى ثلاثون عاماً على هذه التجارب فماذا أقصه عليك في هذه المقدمة التي أرجو من ورائها للقارئ إيماناً علمياً يشبه إيمان العوام. ولهذا أكتفي بالتنويه بثلاثة موضوعات كأمثلة جديدة في العلم التجريبي الحديث

الموضوع الأول:
تصل إلينا أشعة يسمونها اليوم الأشعة الكونية سأجعلها موضوع مقال خالص في أعداد الرسالة القادمة.
تخترق هذه الأشعة سقوف منازلنا كما تخترق أجسامنا وهي مكونة من الإلكترونات السابقة الذكر وبوزيتونات سريعة، وليست الشمس هي مصدر هذه الأشعة كما يتبادر للذهن وذلك لأسباب سنذكرها عندما نتكلم عليها بالتفصيل
لقد أمكن اليوم بما يسمونه أنبوبة ولسون عد هذه الإلكترونات في اتجاه معين بل وسماعها كما تسمع صديقاً لك ورسمها على اللوح الفوتوغرافي كما ترسم طفلك يوم عيد ميلاده وذلك بعد أن تخترق هذه الجسيمات ما سمكه حوالي خمسة أمتار من مادة الرصاص
الموضوع الثاني:
إنه من الممكن اليوم أن نطلق بالوناً صغيراً يحمل ترومومتراً لقياس الحرارة وبارومتراً لتسجيل الارتفاع والضغط الجوي وهيجرومتراً لتسجيل درجة الرطوبة، وأن يكون بهذا البالون محطة لا سلكية ولا يزن بمحطته وبكل هذه الأجهزة سوى كيلو جرام واحد، وهذا البالون يسجل بمفرده درجات الحرارة والضغط الجوي والرطوبة ويرسل هذه النتائج مسجلة متعاقبة على ورقة موجودة بمكتب رئيسي على الأرض دون أن يكون داخل البالون شخص لهذه العمليات؛ هذا البالون كان نتيجة للبحث التجريبي الذي قام به هيدراك وروبير بيروه في سنة 1927 - ويطلقون في فرنسا في كل يوم حوالي ثمانية من هذه البالونات كما أنهم يطلقون عدداً آخر من الباخرة المعروفة باسم الكاري ماريه الفرنسية المستعملة للأرصاد الجوية في المحيط الأطلانطيقي
الموضوع الثالث:

استطعت في سنة 1931 لأسباب خاصة بدراسة توزيع جسيمات من طمي النيل داخل الماء أن أضع طريقة لتسجيل فترات سقوط كرة أو كرات داخل الماء أو غيوم من الطمي لأقرب 10001 من الثانية بتحويل حركة الكرات أو الحالة الطميية إلى حالة كهربائية باستعمال العين الكهربائية؛ وقد أمكنني أن أسجل فعلاً هذه الحوادث وأمثالها على ورق حساس
وفي العام الماضي توصلت لوضع طريقة لمعرفة وتسجيل منسوب النيل وعمق النيل وكمية الطمي المحمولة بمياهه مهما كان بعد المنطقة المراد دراستها عن مكتب رئيسي بالقاهرة مثلاً، وقد اشترك معي في هذا البحث العام الماضي روبير بيروه مخترع البالون المتقدم الذكر
هذه أمثلة مما بلغه اليوم العلم التجريبي وما أصبح عليه من قوة
ولا يقتصر العلم التجريبي اليوم على دراسة المظاهر الطبيعية أو على اختراع الأجهزة.
بل يضع هذه المظاهر تحت عوامل وظروف جديدة. مثلاً نسلط على الماء تياراً كهربائياً فنحلله إلى عنصريه الأوكسجين والأيدروجين فنخلع عن الماء برقعه، وبعد أن كان يظهر للعين كأنه مادة واحدة يتضح أنه مركب من غازين، ونستقصي طبيعة الكهرباء وحقيقتها بأن نجعلها تخترق أنبوبة مفرغة من الهواء، ونضع سماداً في الأرض أو طبقة جديدة من طمي النيل ونرى أي العاملين أكبر أثراً على نبات الموسم القادم.
ونُغير ري الأرض، وكمية الماء ونرى تأثر ذلك على محصول الفاكهة
وهكذا بتعديل متعمد للظروف الطبيعية وتغيير في العوامل المؤثرة على الظاهرة التي يراد دراستها تزيد معرفتنا لحقائق الأشياء بدرجة عظيمة ونتعلم نتائج جديدة لا سبيل لمعرفتها بانتظار الأيام والظروف. وهذا ما نسميه في العلم التجريبي الدراسة النوعية على أن أهم ما في العلم التجريبي هو الدراسة المقياسية كلنا يعلم أنه لتقليل حجم غاز مثلاً يجب أن نضغطه ولكن الباحث يريد أن يعرف القانون الكمي الخاص بهذا التغيير وتراه عندما ينتهي من وضع هذا القانون الذي يربط الحجم بالضغط يعتبر الحرارة كعامل ثالث فيضع قانوناً أعمم للثلاثة عوامل الحجم والضغط والحرارة -

كذلك يدرسون عدديا العلاقة بين التيار الكهربائي والضغط الكهربائي في الأنابيب المضخمة في محطات الاستقبال المستعملة في الراديو وهكذا أمثلة عديدة لدراسة الكميات
وإنما نذكر ذلك لما للدراسة الكمية والعددية من أثر في الاكتشاف فإنها لا تؤدي في بعض الأحيان لدراسة الظاهرة التي يراد دراستها فقط بل تؤدي إلى اكتشاف ظواهر جديدة كان لا يقصد الباحث اكتشافها. وطبيعي أني سألجأ في كتاباتي لسرد أمثلة من هذه الاكتشافات التي كان بعضها وليد الصدفة والتي قدمت معارفنا لحد كبير
أما المنبع الرابع للعلماء المشتغلين فهو التعمق العقلي في حقائق الأشياء تعمقا زاد لدرجة قصوى في العلوم الحديثة، وقد أصبحنا لا نكتفي اليوم بأن نكتشف القوانين وندعها منفردة بل نجمعها في قوانين قليلة بحيث أنه بأقل الفروض نحاول أن نفهم عددا كبيرا من الحقائق. ولعل القانون النيوتني للجاذبية خير مثل أقدمه، فهو قانون يجمع في معادلة واحدة قوانين كوبرنيك وجاليليو وكبلير وهو الذي تناوله أخيراً إينشتاين باعتبارات جديدة وجديرة أن نتحدث عنها في المقالات القادمة.
ومن السهل أن ندرك الآن أنه بمثل هذه المنابع الأربعة يصل العلماء إلى نتائج تختلف عن النتائج التي نصل لها بتجاربنا اليومية ومن هنا اختلفت صورة العالم عن الصورة التي رسمتها لنا حياتنا العادية.
فإذا ذكرنا الحركة البرونية ذكرنا بران ونجد اسم أنيشتاين بجانب النسبية والكتلة، ولا يمكن أن نذكر الإلكترون دون أن نقرنه بأسماء ولسون والدوق موريس دي بروي ومليكان واستون دمبلر وأخيراً شيخ العلماء تومسون وإذا ذكرنا البلورات ذكرنا دباي وبراج وشيرر ولوي وإذا وصلنا للنشاط الإشعاعي وجهنا التحية لبكارل ومدام كيري ورثرفورد، جيجر وسودي، وفي الأتوم يذكرنا دواماً وثرفورد وبوهر وسمرفيلد الكبير وستارك وزيمان وبولي، وفي الحرارة النوعية نكرر أسماء إينشتاين ودباي ولندمان، وفي التبادل الضوئي الكهربائي نحيي مرة أخرى العالم إينشتاين ومليكان وموريس دي بروي وهنت
وفي علاقة المغناطيس ونظرية الكم تكاتف الكثيرون مما لا يسع المجال ذكر أسمائهم جميعا، وأخيراً تم بناء آخر مرحلة نعرفها للهيكل الطبيعي بل تم آخر طلاء للصورة الجديدة بعملين كبيرين.
الأول الميكانيكا الموجبة وما توحي به من فكرة جديدة لمؤسسها لويس بروي ثم شرودنجر
وهايزنبرج وبورن وجاردان وديراك. الثاني الإحصاء الجديد لواضعيه بوز وفرمي، والأخير حاز جائزة نوبل في ديسمبر الماضي
هؤلاء هم بناؤا الهيكل الجديد للعالم الذي سأستعرضه للقارئ ما استطعت بالرجوع لأصول الاكتشافات نفسها وتبسيط الموضوع ما أمكن، وسأبذل كل ما أستطيعه من مجهود لنتجول معا في العالم الجديد ولنفهم الصورة الجديدة، وكل رجائي أن يكون فيما أذكره فائدة لعدد كبير من قراء العربية.
محمد محمود غالي
دكتواره الدولة في العلوم الطبيعية من السوربون
رسالة الفن
الجمال المصري القديم في النحت
للدكتور أحمد موسى
(سل من شئت من المصريين عن تاريخ مصر الفني، وعما في تراث الأجداد من مميزات، وعن الناحية الجميلة الممتعة فيه؛ بل سل أغلبية الناس في مصر ممن زار أهرام سقارة، وممن تطرف في حب مشاهدة الآثار المصرية وسافر إلى الأقصر، وشاهد معبد الكرنك وطيبة ووادي الملوك والملكات، وتمثال ممنون. . . سل كل هؤلاء عما شاهدوه وعما استفادوه، وعن ناحية الجمال فيما عاينوه، فلا تسمع إلاّ تخبطاً يكاد لا يختلف عما تسمعه من أمي يعيش بجوار هذه الآثار
ثم شاهد مدينة القاهرة - على اعتبارها عاصمة القطر وأهم مدينة فيه - وما فيها من ضروب الخروج على أبسط مبادئ الذوق العام واخطر في أحسن شوارعها يستوقفك شذوذ الانسجام في مبانيها، وظاهرة انحطاط الذوق في كل ما فيها. ثم تفلسف قليلاً

لمعرفة السبب في ذلك تجده ولا شك ينحصر في جهل الناس معنى الجمال، ومعنى الذوق، ومعنى الفن. وهم في ذلك سواء، يستوي الجاهل مع العالم، والفقير مع الغني بيوت عالية شاهقة، وأخرى واطئة حقيرة، كلها متجاورة. وإذا صادفت عشر عمارات كبار الواحدة ملتصقة بالأخرى، ترى لكل منها شكلاً ولكن منها منهجاً؛ كل هذا بجانب دكاكين كتب على أعلى مداخلها باللغة الفرنسية مرة وبالإيطالية أخرى وبالأرمنية ثالثة، دكاكين كتب في أعلى مداخلها بالعبرية حيناً وبالإغريقية حيناً آخر، كما تصادفك أخرى كتب عليها بالعربية لغة الوطن، لغة البلاد!

تأمل كل هذا. وتأمل بعض الناس وهم يتهافتون على شراء تماثيل من الجص الرخيص، تماثيل لا تمت للفن بصلة وتسجل على مشتريها قلة الذوق وعدم الفهم والجهل بأبسط مظاهر الجمال تأمل كل هذا ثم عرج على آثار الأقدمين ترها منسجمة كلها من طراز واحد سمي الطراز المصري القديم، له طابع وله انسجام وله أثره في فنون الغير، يعطيك صفته دون حاجة إلى دقة الفحص ودون حاجة إلى سابق الدرس.

كل هذا لأن الذين قاموا بالعمل الفني كانوا من المصريين الصميمين لم يكن لهم وسيلة
للتهريج أو الدجل، كما أن الذين أشرفوا عليهم وعملوا على تشجيعهم كانوا من أبناء البلاد

بهذا التمهيد بدأنا مقالنا الأول عن الفن المصري على صفحات (الرسالة) ومنه نرى أن تاريخ الفن قد سجل للمصريين الأقدمين ذوقاً عظيماً ووحدة فنية ظاهرة لكل متأمل.

وإذا كنا اليوم نكتب عن الجمال المصري القديم، فإننا نريد بذلك الكتابة في الفن البحت، وليس في تاريخ الفن، بالقسط الذي اعتدنا أن نتناول به سابق الأبحاث.

ولا يكاد يختلف اثنان في تقدير الفن المصري القديم وخلود عظمته بل والتأكد من أنه أصل الفنون جميعاً، أثر فيها إلى حد بعيد جعل من علماء الفن والآثار من يشتغل بتحديد الصلة بين الفن المصري وبين ما جاء بعده من فنون الإغريق وغير الإغريق؛ فأخذوا يقولون بأن الإغريق هم أول من اقتبس من المصريين، كما أخذوا يدللون على ذلك بمقارنات قياسية بين تصميم المعابد المصرية ونظيرها عند الإغريق، كما أنهم قارنوا بين منحوتات المصريين ومنحوتات الإغريق في أول عهدهم، ثم تراهم يعرجون بعدئذ على قواعد غاية في الدقة تؤكد صدق قولهم، منها تناسب الأعضاء وتشابه المجموع الكلي وتناظر الإنشاء الشكلي.

وكل هذا قد يكون صحيحاً غاية الصحة، ولكن الذي يجب علينا أن نعلمه هو أن الفن المصري فن مبتكر، بدأ ونما وازدهر ثم انحط واندثر دون أن يصل في مرحلة من مراحله إلى المثل الأعلى بمعناه الغني؛ لأنه لم يمثل الحقيقة تمثيلاً يدل على التقليد البحت ولا جعل من الحقيقة ملهماً للخيال السامي، ولا اتخذ منها ما يرتفع بالتصوير الفني إلى درجة الروعة.

كان هذا ولا يزال معدوداً من القصور الحتمي الذي لم يكن للتخلص منه بد، لأنه نجم عن طبيعة البلاد المصرية ونفسية الشعب، إلى جانب بساطة الطبيعة وصفو السماء وسهولة العيش. لذلك ومع أن الفن المصري قطع مرحلة تبلغ ثمانية أضعاف المرحلة الزمنية التي استغرقها الفن الإغريقي؛ فإنه للأسباب الطبيعية المذكورة لم يصل إلى ما وصل إليه الإغريق.

وإذا كنا لا نزال نذكر ما قلناه عن بعض منحوتات أكروبوليس أثينا ومعبد بارتنون وما كانت عليه تلك القطع الخالدة التي مثلت الحياة أروع تمثيل، لأنها وصلت إلى أقصى ما
يمكن أن يصل إليه الفن إطلاقاً، أمكننا أن نعرف بالمقارنة مدى ما وصل إليه المصريون في هذا المضمار معرفة تقرب إلى الحقيقة العلمية.

ولعله جدير بالذكر أن نوضح شيئاً عن الكيفية التي سار عليها المصريون في تلوين منحوتاتهم، بل وكل ما تركوه بمقابرهم وأهرامهم ومعابدهم من غير المنحوتات بألوان معدنية وصناعية اتخذوا بعضها من الأرض.

حصل هذا التلوين عندما كانت منحوتاتهم من الحجر الجيري أو الرملي؛ أما عندما كانت من حجر الجرانيت الوردي أو الأسمر أو حجر البازلت أو السربنتين فقد تركت بدون تكوين اكتفاء باللون الطبيعي.

على أنه قد وجدت تماثيل خشبية أو حجرية قابلة لامتصاص الألوان ولكنها تبدو كما لو كانت غير ملونة، وهذا في غالب الأحيان لزوال اللون منها أو لأنها تركت قبل تلوينها لظروف طارئة.

هذا بيان لابد من إيضاحه قبل تأمل النحت المصري الذي يمثل جمال المرأة المصرية على اعتبارها ممثل الجمال الإنساني غالباً. وإذا كان الجمال في جوهره متلخصا في تناسب التكوين وانسجام المظهر، فإن قياس الجمال رهين بالزمان والمكان، كما أنه راجع إلى نفسية الحاكم وبيئته وثقافته ومدى تأثره.

ولذلك فلا يهمنا في القرن العشرين أن نقارن بين جمال المرأة المصرية وجمال غيرها، وإنما يهمنا أن نتخذ من آثار الأقدمين وسيلة لفهم الجمال المصري القديم وفيم كان منحصراً وكيف كان تعبير الفنان المصري عنه.

وبالنظر إلى أن تاريخ الفن المصري قد استغرق قروناً، فإنا سنحاول تأمل الإنتاج الفني في هذا المجال تأملاً تاريخيا إلى جانب التأمل الفني الذي يمهد لنا سبيل التقدير الإستيتيكي.

فإذا تأملنا رأس (نفريت) التي يرجع تاريخ صنع التمثال الخاص بها إلى أقدم الأسرات، رأينا أن ملامح الوجه تدل على النعمة والبعد عن الكفاح مع توافر النبل، لا سيما إذا راعينا أن هذا من أقدم التماثيل المصرية التي تمثل جمال المرأة. أنظر إلى العينين والحاجبين وإلى الطريقة التي اتبعها المثال في التأنق لإخراجها بغاية النظام والعناية. ثم تأمل الطريقة التي اتبعت في تصفيف الشعر وقصه عند الكتفين وتثبيته من أعلى بطوق

من الذهب محلى بنقوش له الطابع المصري. كما تغطي العنق بحلية زادته جمالاً وزانت الصدر بما فيها من ألوان وزخارف. أما المميز الخاص الذي انطبع على الوجه فهو أميل إلى الصمت والسكون من إلى الحياة والحركة. ولا نزال نرى الكثيرات من المصريات على جانب مماثل لهذا الجمال. وربما أضيف هنا أني أردت منذ حين التوفيق بين الجمال المصري القديم والجمال المصري المعاصر، وحاولت عمل المقارنات الدقيقة، إلا أني للأسف صادفت مصاعب، منها عدم إمكان تصوير السيدات اللواتي جمعن إلى جمالهن طابع الجمال القديم

أما تمثال (حرم العمدة) وهو مصنوع من الخشب فقد أعطانا فكرة صحيحة عن قوام المرأة في تلك الحقبة إلى الوقت الذي فيه نستطيع بمقارنة الوجه من جانبه ومن أمامه أن نعرف شكل الأنف المصري وطريقة تكوينه واستقامته. أنظر إلى الفم وقارنه بفم (نفريت) تر أن هذا الأخير اكتسب شيئاً من الحياة بالنظر إلى تلك الابتسامة الهادئة التي ارتسمت عليه. والغريب في الشعر هنا أنه ليس مجدولاً كشعر نفريت كما أنه تميز بتدرج نهايته السفلى، فكان أشبه بثلاث طبقات تعلو الواحدة مها الأخرى، فزادته رونقاً. نعم كان التمثال الأول ملوناً فظهر الكحل في العينين على حين كان الثاني من الخشب دون ألوان ظاهرة. أما التشابه بين السيدتين فظاهر من حيث امتلاء الوجه واستدارته.

أما والدة إخناتون فهي على هيئة عجيبة لها طابع مميز على غاية القوة، كما يبدو لأول وهلة أن لونها كان أسمر مما يؤيد أنها كانت من مصر العليا. وعلى ما يظهر كان الفنان حريصاً على إخراج الوجه مليئاً بالحياة، فتكاد العينان تنطقان. وقد بدا الفم غريباً في تكوينه وفيما يدل عليه. أنظر إلى استدارة الخط الفاصل بين الشفتين واتجاهه إلى أسفل تر أن هذا الوجه لم يكن فقط ليعطي الناظر هيئة صاحبة التمثال؛ وإنما عبر خير تعبير عن النفسية وما هو دفين فيها. ولعل غطاء الرأس بالسهم المثبت في وسطه يذكرنا جيداً بالخوذات الحربية الألمانية قبل الحرب

وتمثال موتنوزميت أم حورمحب (ش 4) يعطي مثلاً سليما لنفس الجمال، مع ملاحظة أن الرأس أصبح مزيناً بغطاء ذي نقوش رفيعة توسطتها أعلى الجبين الأفعى المصرية.

وإذا تأملنا بشيء من الدقة التمثالين (5، 6) وجدنا فيهما تشابهاً شديداً من حيث التكوين

المجموعي إلى جانب التفاصيل الإنشائية؛ فأنت ترى أن القوام متشابه وأن وضع اليد اليسرى كان على الصدر بفارق بسيط، كما أن اليد اليمنى ممتدة في كليهما إلى أسفل، وتقدمت الساق اليسرى في كليهما إلى الأمام. نعم نجد الشعر مجدولاً بشكل

مخالف في كليهما، كما أنه مختلف من حيث التصفيف وطريقة القص. أما القوام فهو المثل الأعلى لوقتنا الحاضر، كله رشاقة وكله جمال. ومن الغريب أن نرى أن أحدث طريقة لصف الشعر هي إظهار الأذنين، ونجد أن المرأة المصرية قد اتبعت هذه الطريقة منذ خمسة وعشرين قرناً.

أما تمثال أوابرا (ش 7) فهو يمثل امرأة جلست وقد سرت جسمها بملابسها الرقيقة بطريقة استطاع الفنان أن يظهرها في أجمل وأروع هيئة. تأمل الذراعين واتكاءهما على الركبتين ثم لاحظ النبل الذي ارتسم على الوجه، وانظر إلي خط التحديد للتمثال كله، وفكر ولو قليلاً في الكيفية التي استطاع بها الفنان المصري التعبير عن الجمال.

نلاحظ طبعاً كبر الأذن، كما نلاحظ صمت التمثال وركونه إلى السكون؛ ولكن هذا لا يمنع مطلقاً من الإعجاب في أجلى مظاهره بالكيفية التي سار عليها الفن في عصر يبعد عن عصرنا بألفين وخمسمائة سنة.

والخلاصة أننا نرى أن الجمال المصري القديم كان نبيلاً عريقاً خالياً من الدخيل، صافياً نقيّاً، غير ممتزج بغيره، جمع بين الصفة المميزة وبين الطبيعة البريئة الوديعة.

والسلوة الوحيدة التي نتعزى بها، هي أننا نرجو أن نحسن الفهم على الأقل لفن تركه الأجداد ولم نعن بدراسته والعمل على نشره حتى بين أبناء البلاد.

وإذا كنا ندين بنتائج الحفريات ومعرفة اللغة الهيروغليفية لعلماء الأجانب، فإننا على الأقل يجب أن نعني بفهم الفن المصري ودراسته، حتى نستطيع أن نخرج عن المباهاة بما في بلادنا من آثار وندخل دور الاستمتاع بها، فتكون لنا روح وطنية صرفة لها أثرها قفي توجيهنا لمجاراة الشعوب الناهضة.

هذا مقال لا يخرج عن كونه احتيالا على القارئ لتفهيمه صفحة رائعة من صفحات آثار أجداده بطريقة التكلم عن الجمال في أسلوب بسيط بعيد عن الجفاف العلمي.

احمد موسى

القصص

قصة سورية

الضَّرَّتان

للسيدة وداد سكاكيني

قالت أَمُّونة لصديقتها هدى: أرأيت حسد الناس لصداقتنا، ولغطهم في تأويلها وإحاطتها بالأقاويل؟ إنهم لا يودون أن يرونا كالأختين فيغيظهم أن يشهدوا صديقتين ألفت بينهما براءة المودة وطول المصاحبة وتقارب السن وحسن الجوار، وإن شاؤا فبيننا وشائج القربى تحكم الصلة وتهون اللقاء. أليس زوجك ابن خالتي؟ أمي اليوم مكان أمه، ولئن غاب عنه وجه الوالدة فإنه يراه في الخالة

لقد بت البارحة قلقة عليك متألمة لألمك، إذ تركتك تشكين صداعاً أليماً فأصبحت أسأل الله لك الشفاء.

كان الصداع الذي ألم بهدى نذير حمى طرحتها في السرير شهراً، وكانت أمونة لرفيقتها خلال المرض مواسية وممرضة، فلازمتها برضى أمها وبقيت عندها حتى دخلت دور النقاهة فعظمت يدها عند هدى وأكبرت صداقتها ومروءتها، وخلطت حياتها بحياة أَمُّونة حتى كانتا لا تأكلان أكلة شهية إلا معاً ولا تفترقان إلا غراراً. كل هذا والزوج يسبغ النعمة على زوجته هدى، ويغمرها بالخير إذ مده الله بتجارة رابحة وبركة راجحة.

وقد أكرم أمونة ابنة خالته وقدم لها بعض الهدايا جزاء معروفها وإخلاصها

كان طاهر زوج هدى كهلاً وقوراً، أعز شيء لديه في حياته الدين، وألذ عمل عنده القيام بواجباته وتوفير السعادة لبيته. وقد عرف فيه الناس التعفف والاستقامة والبعد عن الغبن والغش فعجبوا كلهم من اسمه الصادق، فكانوا يقولون عنه: طاهر الاسم، وطاهر الذمة والضمير؛ ولكن الله لم يتم نعمته على الزوجين، فقد مر على قرانهما خمس سنوات ولم يرزقا ولداً، يوثق ما بينهما برباط أكيد، ويملأ منزلهما أنساً ومرحاً، فكانت هدى تحس الأمومة صارخة في غريزتها، فتشم عبقها من أطفال الناس حتى تهتاج طبيعتها وتشتد حيرتها. بيد أنها ترتد إلى عقلها بعد قليل فتكبت شعورها وتكفكف حدتها خشية أن يلحظها

زوجها إذ تحسب في سرها أنها عقيم. وكثيراً ما أفضت بدخيلتها لصديقتها أمونة، وشكت إليها لهفتها على الولد وأنها تتمنى أن تشتريه بعينيها، وتفتديه بروحها، فكانت

تجيبها: لا تيئسي يا صديقتي. إن الله هو الرزاق الكريم. ولما رأتها ملحفةً في طلبها غدت بها على الأولياء تستجير بهم وتعدهم بالنذور إذا رزقت ولداً. وقد استغاثت بالمشايخ الصالحين فقرءوا لها العزائم والتعاويذ، وحرقوا أمامها البخور، وحملوها الحُجُب والآيات فما أجدت عليها شيئاً لأن الله لم يشأ أن يجعلها ولوداً

كل هذا جرى دون أن يدري زوجها به، فلقد كان متزمتاً متديناً لا يسمح لها بمغادرة البيت إلا قليلاً أو مع ابنة خالته التي ألفها واطمأن إلى أخلاقها من طول مقامها عنده وغشيانها داره وصحبتها لزوجه. وقد حلف بأن تكون طالقاً إن ذهبت تطب للنسل. فما خالفت له أمراً لأنها كانت تطيعه وتحبه برغم تفاوت السن بينهما، فأحست الأمان على حياتها الزوجية منذ صدف بها عن المعالجة واستسلمت للقدر لعل الله يرزقها ولداً

كان طاهر تاجراً غنياً جمع ثروته بعد الحرب الكبرى، واستطاع بما له الضئيل يومئذ وبماله من معاذير أن ينجو من الجندية؛ فلما توفر على تجارته وربحت أرادته أمه على الزواج، فقد كاد ينهد للكهولة ولم تفرح بزواجه. فأطاع وفرحت، ثم ماتت أمه فبقي وحيداً مع زوجته الحسناء. ومن ذلك الحين توثقت عرى الصداقة بينها وبين ابنه خالته أمونة التي كانت مخطوبة لموظف كبير، ولكنها مترددة بين قبوله ورفضه

مضى على زواج طاهر خمس سنين، بدأ في آخرها يمل حياته الرتيبة مع هدى ويميل إلى تركها يوماً بعد يوم مع ابنة خالته أمونة، إذ دب في نفسه الخوف من الفناء قبل أن تظهر فيه عواطف الأبوة وطمع في خلود الذكر من بعد موته بالولد الذي يدل عليه وضنت به هدى، فصار يرى بيته صامتاً جامداً لا يُهز فيه سرير ولا يناغم طفل، ولا تردد في حجراته لفظة (بابا) فضاق عليه البيت بما رحب وكره الحياة من أجل ذلك، فأخذ يشنأ زوجته ويحتويها ويتبرم بحديثها ويتلكأ في طلباتها. وقد خيل إليه الوهم والهم أنها عاقر وأن حياته معها جديبة، مع أنه يعرف في نفسه وفي ضميره أنه هو العقيم، فتذكر شبابه الطائش وتعرضه باستهتاره لمرض شائن، تاب بعد شفائه منه توبة نصوحاً ولكنه أورثه داء عقاماً حرمه النسل

كان يثور على زوجه هدى في سره لعقمها الموهوم، ثم يعود في نفسه إلى الهمود والجمود حين يرى هذه النفس الباغية هدفاً لتلك الثورة

وبينا هو مطرق ليلة تلقاء الموقد اللاهب والوقت شتاء، تعصف فيه الرياح العاتية التي صدته عن السمر في دار صديقه مرت أمامه قطته (فلة) التي يعطف عليها ويختصها بطيب الآكال، فلما حاذته تمطت ونفشت شعرها، فأخذ يعبث به ويربت بكفه على ظهرها، فلمعت إذ ذاك في خاطره صور وأفكار، ورأى القطة في نظره الحانق خيراً من زوجته العقيم، هذه شجرة بلا ثمر، وتلك ولود تملأ البيت كل عام بأولادها. وفيما كان يقلب الخواطر في ذهنه تلفت إلى بيته فرآه ساكتاً ساكناً إلا من صوت زوجته هدى وابنة خالته أُمُّونه وهما في فورة اللعب بالبرجيس وغمرة الحماسة للغلاب، ومن مواء القطة بين الفترة والفترة، فطغت عليه الهواجس وشعر بكرهٍ لامرأته، ونفرة منها، فأخذ يميل بوجهه عنها ويوجهه إلى أمونة فيقارن بينها وبين زوجته التي غاض منها معين الجمال في تلك الليلة في نظره فتتخالس عيناه نظرات الإعجاب بابنة خالته، ثم جال طرفه الرغيب في جسمها الريان ووجهها الأبيض الجاذب وشعرها الفاحم المتدلي على كتفيها اللتين انحدرت منهما يدان كأنهما ركبتا في دمية من المرمر، فانشرح صدره وتمدد على أريكة بإزاء المدفأة ثم لوى ذراعه تحت رأسه فأسند فوده عليه وأخذ يتأمل في ساقي أمونة الممدودتين إلى الأرض وقد امتلأتا صقالاً وانسجاماً وأحيطتا بظلال من النعومة والجمال. ولما أطال التحديق فيها وهي جالسة تجاه زوجه لاهية بلعبة البرجيس رأى نفسه وجهاً لوجه أمام المرأة التي يتمناها له زوجه ثانية، فارتد ببصره عنه بعد فترة من اللعب لكيلا تلمح نظراته الخاطفة الماكرة؛ أما قلبه فبقي يرنو ويشتهي فقال في ضميره: تُرى أي بأس على إن تزوجت أمونة، وقد رفضت خطيبها السكير المقامر فيكون لي زوجان وأكون كجاري أبي عادل الذي تزوج اثنتين وهو معتزم هذه الأيام أن يبني بالثالثة. وكثيراً ما حدثني من باب دكانه عن حياته الزوجية فقال: ما أحلى الزوجتين يا طاهر! هما ريحانتان للشميم، لكل ليلة ريحانة

فكر في هذا طاهر. ولعب ذلك الريحان على انفه في وهمه كأنه يد الشيطان، ورده

في نفسه صوت أمونة، وهي تضحك وتصفق بيديها، وتضع حجراً من حجارة البرجيس على
الآخر وترفع صوتها قائلة لهدى:
- مغلوبة. مغلوبة. خذي فنجان القهوة. . .
فتنبه طاهر فور انتهاء (الدست) بين اللاعبتين وجمع أشتات فكره من دكانه، وهو يحاور جاره، ومن ملاحة أمونة، ومن الأولاد الذين كان يحلم في خياله أن يأتوه منها فقال:
- يا هُدُو! وكان يناديها بهذا اللفظ الموجز كلما أراد العبث والدعابة - ماذا ترين وأنا كهل غني ولا وارث لي منك؟ فهل عليك من حرج إذا تزوجت امرأة ولوداً وأنت تبقين سيدة البيت كلنا نأتمر بأمرك ونهتدي بهداك؟
فما سمعت هدى كلامه حتى فغرت فاها وانتفضت كأنها صعقت، فامتقع لونها وطغى عليها دمع غزير صور على خديها معاني كثيرة من الذلة والخيبة والبغتة والفشل. وكان بعض الدمع يساقط على خدها وبعضه تتلقاه بمنديل في كفها أو تمسحه بكمها دون وعي حتى نشجت أعصابها وكاد يصيبها الغشيان فارتمت بوجهها على صدر صديقتها أمونة التي وجمت وبهتت. وانتابها عي وجمود فلم تنطق بذات شفة وإنما غلب عليها التأثر والبكاء مشاركة لرفيقتها
لقد كانت أمونة ذات قلب سليم حيال ابن خالتها فلم تعلم أنها ستكون الضرة المرة، وما عرفت أنها ستنزل على صديقتها كالنقمة والبلوى، بل لم تشعر في يوم من الأيام أن فلكها يدور هذه الدورة فيبدل الصداقة عداوة والمرفقة الرفيقة إلى مفارقة قاهرة.
لقد حمل طاهر إلى ابنة خالته مهراً غالياً، وهدايا كثيرة ثمينة، وحمل خالته على قبوله صهراً فما صدت ولا ردت، وإنما وجدت في إقدامه على الزواج مرة ثانية عقلاً وحكمة وصوناً لثروته من الضياع، وعرفت ن ابنتها أمونة ستكون ولوداً مثلها فلقد أنجبت هي ثلاثة من البنين والبنات وهي جدة لأولاد أحدهم. فأبت بنتها هذا الزواج وحاولت التمرد والعصيان إذ استحمقت نفسها واحتقرت أن تكون ضرة لرفيقتها فماذا يقال عنها؟ أية سمعة ستكون لها؟ وأية مضغة ستكون في أفواه الناس؟ ولكنها برغم كل مقاومة ومعاندة أفلحت أمها في إكراهها على الزواج فقد سوست في عقلها كالشيطان، وزينت لها حياة الثراء والرخاء عند ابن خالتها. وأنذرتها بالبوار والكساد إن أصرت على رفضه وآثرت العناس. فتنازعها عاملان: نزوعها إلى الزواج كيف اتفق شأنه بعد إخفاقها في خطبتها للموظف،
وحرصها على مودة صديقتها والوفاء لها. فغلبها على أمرها ما خلقت له وهو الزواج وفي النفس ما فيها من خوف وعذاب، فأطاعت أمها على مضض وعقد لها على ابن خالتها وزفت إليه.
ومضى زمن قصير فإذا هدى تنقلب إلى امرأة شرسة طاغية. كلما لسعتها الغيرة ثارت بأوعية البيت وآنية الطعام فهشمتها وداستها بقدميها، ولعنت الرجال، ونقمت على الصداقة التي طعنتها في الصميم. وإذا جاء طاهر ليبيت عندها ليلتها الخاصة تنكرت له وتجهَّمت وانكفأت إلى عزلتها الأليمة، ولا زال قطعاً من الليل يتملقها ويترضاها وهي تتميز من الغيظ، وتتمزق من القهر، حتى تنفجر باكية فيتركها ريثما تهدأ ثم ينام، وبقي على هذه الحال بضعة أشهر حتى قطع عنها ليلتها وجعلها كل أسبوع مرة. وبعد سنة صار لا يزورها إلا لماماً. وكم كانت الغيرة تنغص عيشها كلما فكرت في ضرتها وخيانتها وزهادة زوجها فيها وعزوفه عنها
تصرمت خمسة أعوام على زواجه الجديد، فلم تلد له أمونة ولداً، فثار عليها في نفسه ثورته على هدى. ثم فكر كثيراً، وتذكر ملياً فرد إلى نفسه وأدرك إخفاقه في النسل، فاستقر في ظنه أنه هو العقيم، لا هاتان المرأتان المظلومتان. غير أن خوفه على اتهام نفسه وامتهانها جعل في فكره منطقاً فاسداً صور له براءتها فأحدث له شكا خرج منه إلى أن زوجته الثانية عاقر كالأولى، فقص هذا على جاره الأدنى في السوق وكان يستخلصه لنفسه، ويستشيره في شؤونه. فقال له: لقد تزوجت الثانية حسبما أشرت فلم تلد، وأنا رجل غني، كما تعلم، فماذا أفعل؟ فأشار عليه بالزوجة الثالثة وتطليق الأولى
في مساء ذلك اليوم عاد إلى بيته الثاني، وقال لابنة خالته فيما قال من حديث السمر

أمام المدفأ في الشتاء: أترين يا أمُو - وصار يخاطبها بهذا اللفظ المقتضب كما كان ينادي زوجه الأولى - كيف أنك لم تحملي بولد يرثني، وقد صرت إلى حال من القنوط تمنيت معها الموت. وقد أشاروا عليّ بالزواج لعل حظي من الولد يوافيني من الثالثة، على أن أطلق لك الضرة الكريهة التي تبغضك وتطعن فيك وتدعو عليك بالموت.

فما سمعت أمونة هذا الكلام حتى مرت في طور صديقتها تلك الليلة الماطرة قبل خمس سنين، فاصفرت وبكت وانقضت على ابن خالتها كالمجنونة وصاحت به:

- ياخائن، ياعبد الشهوات! أنت العاقر الذي كنت في شبابك فاسقاً فأصبت بالعقم ولم تنسل فما ذنبنا نحن؟ وهمت بضربه بقطعة من الحطب كانت في جانب الموقد

جُنَّ جنون طاهر من هول الفضيحة، وفحش الشتيمة، واجتراء زوجته وابنة خالته على إهانته وضربه فقال لها بمكر وخبث:

- لا تصدقي يا أَمُّونة إنن أمزح لأرى إن كنت تحبينني أم لا؟

أما أمونة فقد شعرت بنيته السيئة، وأدركت ما يضمر في طويته لها فهاترته وقامت عليه ناقمة ثائرة، والله يعلم كيف مضت عليها تلك الليلة المشئومة. فلما طلع النهار دلفت أمونة إلى بيت صديقتها القديمة وضرتها المهجورة، وهي على استحياء من نفسها تتقدم رجلاً وتؤخر أخرى حتى كادت تتراجع القهقري وتتردد في مواجه رفيقتها بالأمس، لولا أن عادت إليها بجرأة، وثارت فيها الغيرة الجديدة والنقمة على زوجها، فتنهدت وتشجعت وطرقت باب هدى طرقات خفيفة فردت عليها بفتحه. وما إن كشفت أمونة عن وجهها المحجوب حتى وقفت الأولى جامدةً كالصنم، وشررت ضرتها بعينين كالحربتين، فارتمت أمونة على قدمي هدى وحاولت تقبيلها، ثم قامت إليها بالعناق والتقبيل وبالبكاء والنحيب، فلم يكن من هدى إلا أن أبدت عجبها من مظهر ضرتها الكئيب، وسألتها على كره منها:

- هل من بلية حلت بطاهر؟

- لعنة الله عليه! إنه يجني عليَّ وعليك. ليت عزرائيل ينقذنا منه قبل أن ينفذ إرادته الجديدة.

- وماذا يريد؟

- فاهتزت أمونة وارتجفت يداها وتلعثمت وكاد يغمى عليها لولا أن تداركتها هدى واستدرجتها إلى الجواب. فعلمت منها أن طاهراً يريد الزواج، وشاعت حينئذ الشماتة على وجهها ووضحت السخرية في لفتاتها وحركاتها، فسلقت أمونة بلسان حاد أصاب منها مقتلاً كأنه الرصاص. وضحكت أمامها لتزيد في نكايتها وإهانتها فشعرت أمونة بكبريائها المحطمة، وضعضعتها الشماتة ولكنها صمدت للنهاية وتجالدت فبلعت ريقها وبلت حلقها الجاف من طول الكلام والبكاء، ثم أخذت تستعطف هدى بصوت ذليل خفيض والتمست صفحها. فلما رقت ولانت أفضت إليها بنيات زوجهما، وطفقت تستعديها عليه وتستفزها

للثأر منه بحرارة الموتور، وجلستا تفكران مطرقتين كأنهما في بُحران، وتقدران ما ينبغي لهما من الحيطة والحذر من وقوع الكارثة. وسرعان ما زال من هدى حقدها على أمونة، فتصافتا وحلفتا بالله جهد الإيمان لتعودان كما كانتا أختين صديقتين. وافترقتا على أمر واحد، وهو السعي لدى المشايخ والسحرة لعلهما تجدان الدريئة والدواء، وقادهما البحث إلى مغربي ساحر أعطاهما شيئاً كالملح الناعم يذر على الأكل فيحدث لذائقه الخبل والشرود فاقتسمتا الثمن الباهظ ودفعتاه راضيتين

ولما جلس طاهر إلى الطعام ذرَّت له التي هو عندها ذرور الساحر، فلما أكل انقلب كالذي خامره امتعاض، وظل أياماً كلما أكل عند واحدة منهما ذرت له قليلاً من الذرور فلم يمض شهران حتى غدا كالمخبول الممرور لا يدري ما يفعل. فقال الناس: قد أصابته عتاهة وبلاهة. وقالت نساء من أهله: لعل زوجتيه سحرتاه فصار إلى حاله الوجيع. ومرَّ به زمن أغلق معه دكانه وباع ما فيها بثمن بخس، ولزم بيته لا يبرحه إلا للصلاة في الجامع. فلما ازداد به الخبال والذهول أقامت عليه زوجتاه الحجر وتسلمتا الإنفاق عليه وعادتا أختين محبتين كما كانتا، تسكنا في بيت واحد، وتسخران من ذلك الزوج الذي تراخت أوصاله، ووهنت عظامه، ودب فيه المرض والهرم، فأمنتا جانبه، واكتسبتا ثروته. ثم عاودتهما بعد حين التوبة والندامة، فأدركتهما الرحمة له والشفقة عليه واستغفرتا الله من ذنبهما. ولما قضى الزوج نحبه أدت الضرتان أو الصديقتان

فريضة الحج معاً وابتهلتا إلى الله في أشرف بقعة أن يعفو عن إساءتهما وهو العفو الغفور.

وداد سكاكيني

البَريدُ الأدبيّ

في الشعر العربي

ليس بيني وبين الأستاذ علي الجارم بك إلا محض صفاء، بل له عندي مكانة. فإذا أنا أقبلت على شعره أنظر إليه بمؤخّر العين فإنما شعره وحده يشغل نظري. وللأستاذ علي الجارم بك أن يعتدّ بالمعجبين بشعره - وهم غير قليل على ما ينتهي إلى آذاننا - فيهما ما يقوله في طريقة نظمه من يجب أن يدون تاريخ الشعر العربي تدويناً لا يعرف الغرض

عندي أنَّ الشعر العربي المسجون في القصر الذي بناه به أمثال المتنبي والبحتري في معالجة النزع، لأن أمثال المتنبي والبحتري تركوا نوافذ القصر مغلقة يوم ماتوا. ثم جاء خلفاؤهم وأتباعهم فسمّروا خُشُب النوافذ، ففسد الهواء وضوي الشعر المسجون. إلا أنه اتفق لهذا الشعر أن تُثقب له كُوَّتان في الحائط، إحداهما على يد رجل يدعى أحمد شوقي، والأخرى على يد رجل اسمه خليل مطران. أما هذه فقد أقيم بينها وبين القصر حاجز فوُقفت على حجرة ضيقة سرعان ما أضحكت أرجاءها نسمات مقدمها من هناك في مصر ثم من أمريكة الشمالية والجنوبية. وأما تلك فقد سُدَّت فجأة ولم يبسط أحد إليها يداً، فعاد الهواء إلى فساده

ومن هذا الشعر الشاحب قصيدة ألقاها الأستاذ على الجارم بك في (حفلة تأبين المرحومين السكندري ونالينو في دار الأوبرا الملكية) يوم الجمعة الماضي (انظر الأهرام 14 - 1 - 1939) وإليك المطلع، وفيه ما فيه من (براعة الاستهلال) (حسب الدستور الأكبر المسمى بعلم البديع):

غداً في سماء العبقرية نلتقي ... وتجتمع الأنداد بعد التفرق

أما المصراع الأول ففيه (فخر) لطيف مع شيء من (المبالغة) وأما المصراع الثاني ففيه (تأكيد) و (طباق)

وفي القصيدة ما تشاء من (محسنات معنوية ولفظية) لا يقوم مثل هذا الشعر إلا بها، لأن

لبابه يتفتت إذا خطر لك أن تقبض عليه فَمَثله مَثل الفتاة المصدورة تحمِّل وجهها ما لا يطيق من ألوان الطلاء المعروضة في جميع الحوانيت

وحسبي أن أقتطف بعض الأبيات، فليس بقارئ (الرسالة) حاجة إلى التلقين:

وأبعث في الصحراء أنّات شيّق ... وهل تسمع الصحراء أنّات شيّق

وأعجبني رأي سليم ومنطق ... يصول على رأي سليم ومنطق

تتقاسَمَه غرب وشرق فألّفت ... مناقبه ما بين غرب ومشرق

ينسَّق علم الأولين مجاهداً ... ولا خير في علمٍ إذا لم ينسَّق

تلك أمثلة على ما يسمونه (رد العجز على الصدر)، ولكن أين الفائدة من هذا الترديد؟. ثم:

ويمضي الحجا ما بين يومٍ وليلةٍ ... كلمحة طرف أو كومضة مبرق

ذلك مثل على استعمال التراكيب المطروقة أي المبتذلات (لمحة طرف) و (ومضة مبرق). ثم:

يضيق فناء الأرض عن همة الفتى ... ويجمع في لحد من الأرض ضيّق

انظر إلى (الطباق): (فضاء وضيق). ثم:

كأني أراك اليوم تخطب صائلاً ... وتهدر تهدار البعير المشقشق

الشيخ الإسكندري - رحمه الله - كان (يهدر تهدار البعير المشقشق). انظر كيف استدرجت القافيةُ الشاعر إلى صورة أقل ما يقال فيها أنها مستكرهة. ثم:

فقل للذي يسمو لذيل غباره ... ظلمت العتاق الشيظميات فارفق!

نعود إلى الإبل كأن الشاعر يكره أن يسلم بأنه يعيش في القرن العشرين. أما لفظة (الشيظميات) فاطلبها في المطوّلات من المعجمات و (الغريب) في ذلك الشعر مستحسن. ثم:

فقلت أرى ليثاً وليثاً تجمعا ... وأشدق ملء العين يمشي لأشدق
وهو بيت بعض ألفاظه مأخوذة من بيت مشهور لبشر بن عوانة وهذا مستحسن أيضاً لأمهل هنا، فإنما أرغب في أن أدلك على تداعي هذا الصنف من القريض، لأنه مختلق اختلاقاً بكدّ الذهن وقوة الذاكرة واختيار اللفظ المدوّي (والغريب أحياناً) واستعمال المحسنات اللفظية والمعنوية إلى كل ما يتصل ولأساليب المصطلح عليها للصناعة الموقوفة. ومعنى هذا أنه بعيد عن لفظ يحصر فيه معنى الشعر كله، وهو: الإلهام وليعذرني الأستاذ علي الجارم بك! فإنه اختار هذا الضرب من النظم وما هو بمسئول عنه. وأملي أن يأذن لي أن يجذبني ضرب آخر يكون من ذلك الضرب مكان من الضد.
بشر فارس
الأستاذ طنطاوي جوهري يتقدم إلى جائزة نوبل للسلام
عن سنة 1939
كان الأستاذ طنطاوي جوهري قد تقدم إلى أولي الأمر في مصر ليرشحوه إلى جائزة نوبل للسلام، فلم يلق أحد باله إليه. فاضطر إلى أن يتقدم بنفسه إلى لجنة هذه الجائزة بالبرلمان النرويجي، فسألت عنه وزارة الخارجية المصرية، وهذه سألت عنه وزارة المعارف العمومية. فلم تر الوزارة بداً من النظر في طلب الأستاذ وإحالة كتبه إلى عميد كلية العلوم لفحصها وإبداء رأيه فيها. والكتب المقدمة هي: (1) أحلام السياسة وكيف يتحقق السلام العام. (2) أين الإنسان، وقد تقدم به إلى مؤتمر الأجناس العام سنة 1911. (3) صورة ما كتبه بعض عظماء ملوك الشرق وجمعيات أوربا وعلمائها في هذين الكتابين. (4) أساس النظام الدولي، والموازنة بين آراء حكماء الشرق والغرب، وبين الرأي المصري الحديث. (5) نسخة منقولة من المجلة الشرقية برومة بتاريخ سنة 1911 للأستاذ سانتلانة: الدكتور في الفلسفة. (6) نسخة مما أرسله الأستاذ كرستيان جوب من لوكسنبرج مكتوباً باللغة الفرنسية إلى المؤلف، وقال إنه ملخص من كتاب (أحلام السياسة)
وهذه الكتب والرسائل تتجه كلها اتجاهاً عالياً في الدعوة إلى السلام، ونصيب الإنسانية من السعادة إذا ما رفرف عليها علمه، وسار فيها نظامه
وآخر موعد للتقدم إلى جائزة نوبل للسلام ينتهي قبل أول فبراير القادم فلا بد من البت في طلب الأستاذ قبل ذلك
جائزة نوبل للسلم
تلقينا من لجنة (نوبل) في البرلمان النرويجي بيان الشروط التي يجب توفرها للحصول على (جائزة نوبل للسلم). وقد جاء في البيان ألا تقبل الترشيحات لهذه الجائزة - التي
ستمنح في 10 ديسمبر سنة 1939 - إلا إذا قدمت إلى (لجنة نوبل للبرلمان النرويجي) من شخص له حق الترشيح قبل أول فبراير سنة 1939
والأشخاص الذين لهم حق الترشيح هم:
الأعضاء الحاليون والسابقون للجنة البرلمان النرويجي لجائزة نوبل والمستشارون الملحقون بمعهد نوبل النرويجي
أعضاء الهيئات التشريعية وأعضاء الحكومات في مختلف الدول وكذلك أعضاء الاتحاد البرلماني الدولي
أعضاء محكمة التحكيم الدائمة في لاهاي
أعضاء مكتب مجلس السلم الدولي
أعضاء معهد القانون الدولي والمشتركون فيه
أساتذة الحقوق والعلوم السياسية والتاريخ والفلسفة في الجامعات
الأشخاص الذين نالوا جائزة نوبل للسلم فيما قبل
وقد تمنح جائزة (نوبل للسلم) للمعاهد والجماعات
وطبقاً لأحكام المادة الثامنة من القانون الأساسي لهبة نوبل، يجب أن يكون الطلب مسبباً وأن يشفع بالمؤلفات والمستندات الأخرى المؤيدة له.
وتقضي المادة الثالثة من القانون بأنه لا يقبل أي مؤلف في المباراة يسبق نشره في الصحف
ولاستيفاء البيانات، يمكن من لهم الحق الترشيح أن يتصلوا في هذا الشأن بلجنة نوبل

بالبرلمان النرويجي، وعنوانها هو:
(درا منسفاي - أسلو 19)
) (
19 ,
المجمع العلمي المصري - ملخص جلسة 9 يناير
الوشم في مصر القديمة - للمسيو كيمر
ليس لدينا براهين مطلقة عن استعمال الوشم في مصر قبل الأسرة الحادية عشرة على الرغم من كون هذا الأمر محتملاً. والمعروف هو أنه يوجد ثلاث موميات ظاهر عليها الوشم، وعدة رسوم لنساء (موشومات) يرتقين إلى عهد الإمبراطورية المتوسطة وقد عثروا على المومياوات في طيبة فإحداها كشفت في سنة 1891 والأخريان في سنة 1922 ومن عهد الإمبراطورية الجديدة فما بعد عثروا على رسوم نسوية كثيرة يظهر الوشم على الأفخاذ فيها، وهو يمثل الإله باين. وكانت النساء (الموشومات) في مصر القديمة ينتسبن كلهن، على ما يظهر إلى طبقة الحظايا والراقصات والمغنيات، وفي جملة أشكال الوشم التي ترى على أبدان الأسرى الليبيين التي تشاهد في الهياكل والمدافن في عهد الإمبراطورية الجديدة، رموز تدل على الإلهة (نيت) وهي إحدى الإلاهات الليبيات، ولا يزالون يرون مثل تلك الرموز في أيامنا هذه عند بعض المصريين وسكان شمال أفريقية، فهم يغطون بالوشم أذرعهم وأيديهم وعقب ذلك بحث لحضرة الدكتور مونرو دومين عن بعض الأمراض المصرية وعن المساعي المبذولة للوصول إلى معرفة كنهها
وبعد الجلسة العلنية عقدت اللجنة جلسة سرية لانتخاب هيئة المكتب لدورة سنة 1939 - 1940 فأسفرت النتيجة عما يلي:
الرئيس: الدكتور حسن صادق بك المدير العام للمساحة والمناجم
نائبه: الرئيس المستر لتل مدير المتحف الجيولوجي
السكرتير العام: المسيو فيات مدير متحف الآثار العربية
أمين الصندوق: المسيو كنز معاون مدير المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بمصر
لجنة النشر: معالي الشيخ مصطفى عبد الرازق بك والمسيو لوكاس والأستاذ ساماركو والدكتور رمايرهوف
برنامج المؤتمر الطبي العربي
يوم الأحد 29 يناير - (وقفة عيد الأضحى المبارك) - الساعة العاشرة صباحاً تقام حفلة افتتاح المؤتمر بصالة الاحتفالات بالجامعة، وتؤخذ للأعضاء صورة فوتوغرافية أمام الجامعة، ثم يقصدون إلى كلية الطب حيث يفتح معرض المؤتمر
وفي الساعة الرابعة بعد الظهر يقيم سعادة عبد السلام الشاذلي باشا محافظ القاهرة حفلة شاي لأعضاء المؤتمر بحدائق الحيوانات بالجيزة
وفي المساء يقيم رفعة محمد محمود باشا رئيس الوزراء مأدبة عشاء احتفاء بأعضاء المؤتمر
يوم الاثنين 30 يناير قبل الظهر تعطل أعمال المؤتمر للمعايدة، وفي الساعة الثانية بعد الظهر يقوم الأعضاء بزيارة معالم الآثار بالقاهرة، ثم يزورون مستشفى الهلال الأحمر حيث تقام لهم حفلة شاي
يوم الثلاثاء 31 يناير، الساعة الثامنة والنصف صباحاً تبحث الموضوعات الآتية بقاعة محاضرات كلية الطب وهي:
1 - الصحة الدولية في مصر والشرق الأدنى.
2 - جراحة الأكياس الديدانية ومضاعفات البول السكري.
3 - التغذية والأمراض الناشئة عن سوء تدبير الغذاء.
4 - الأمراض الزهرية.
وبعد الظهر يقوم الأعضاء بزيارة أهرام الجيزة وحفريات الجامعة، حيث يقيم لهم معالي وزير المعارف حفلة شاي في سفح الأهرام
وفي المساء تقام حفلة غنائية موسيقية ساهرة
يوم الأربعاء أول فبراير - في الصباح يستأنف بحث مسألتي جراحة الأكياس والتغذية، ثم تبحث مسائل طبية متنوعة باطنية وجراحية، وبعد ذلك تبحث مسألة توحيد

المصطلحات الطبية في اللغة العربية
وفي الساعة الثانية بعد الظهر يقوم الأعضاء بنزهة نيلية إلى القناطر الخيرية، وتقيم الجامعة حفلة شاي لهم في حدائق القناطر الخيرية.
وفي المساء تقام حفلة تمثيلية في دار الأوبرا الملكية.
يوم الخميس 2 فبراير - في الصباح تبحث الموضوعات الآتية:
أمراض النساء وأمراض الأسنان، ثم المتنوعات، وتوحيد المصطلحات الطبية.
وفي الساعة الرابعة بعد الظهر يقوم الأعضاء بزيارة مصلحة الطب الشرعي حيث تقام حفلة شاي.
وفي المساء تقام حفلة العشاء السنوية للجمعية الطبية المصرية.
وقد تقرر وضع شعار للمؤتمر يضم رسم عظيمين من عظماء الطب عند الفراعنة والعرب، وهما أمنحوتب وأبن سينا، وقد وقفا وجهاً لوجه: أحدهما في ظل الأهرام والآخر في ظل أحد المساجد الشهيرة
حفلة تأبين الأستاذين السكندري ونلينو
كانت الحفلة التي أقامها مجمع فؤاد الأول للغة العربية في دار الأوبرا لتأبين عضوية المرحومين الشيخ أحمد علي السكندري والسنيور نلينو كاملة، حضرها صاحب العزة إسماعيل تيمور بك مندوباً من جلالة الملك وحضرات أصحاب المعالي الدكتور محمد حسين هيكل باشا وزير المعارف والأستاذ مصطفى عبد الرازق بك وزير الأوقاف وسابا حبشي بك وزير التجارة والصناعة ونخبة مختارة من كبار الأدباء والموظفين وحضرات الشيوخ والنواب
وقد ألقى صاحب المعالي الدكتور محمد حسين هيكل باشا وزير المعارف كلمة الافتتاحية فأشار إلى سمو المعنى الذي يستخرج من تأبين رجلين كبيرين من أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية أحدهما مصري هو المرحوم الأستاذ أحمد السكندري والآخر إيطالي هو المرحوم الأستاذ نللينو، ونوه بجهودهما في المجتمع واشتراكهما في سعيه الجليل لمسايرة لغتنا حياة العالم والفن وفي جميع مظاهر الحياة النظرية والعملية وقال: إن اختلاف الوطن والدين لا يحولان دون الاشتراك الوثيق في العمل لخير الإنسانية كما تجلى في عمل هذين الرجلين اللذين يسرهما القدر لغاية واحدة وجمع بينهما في الحياة والممات. ثم وجه إلي سعادة ممثل إيطاليا وإلى أسرة السكندري كلمات التعزية على فقدهما
وتلاه صاحب المعالي الدكتور محمد توفيق رفعت باشا رئيس المجمع فقال: إننا حين يسلمنا إلى الجزع تعاظم الخطب فيمن فقدنا من رجال أكفاء يحملنا على الصبر كريم العزاء وصادق الوفاء الذي نلقاه من رجال الحكومة وعظماء الدولة وجمهرة أهل العلم والفضل الذين حضروا هذا الاجتماع
ثم ألقى الدكتور منصور فهمي بك خطبة ضافية استهلها بشرح البواعث على رثاء الجماعات لمن تفقد من أعزائها، وأفاض في تأبين المرحوم السكندري ووصف سجاياه وأعماله وجهوده في المجمع وعظم الفجيعة فيه، ثم قال: إن المجمع حين ابتلي بفقد السكندري ما كان يعلم أن القدر يتربص له بخسارة أخرى في فقد المرحوم الأستاذ نللينو وأطب في امتداح مناقب الأستاذ نللينو
ثم نهض الأستاذ ليتمان فنوه بمآثر الأستاذ السكندري وزميله المرحوم الشيخ حسين والي ثم تكلم عما كان للمرحوم الأستاذ نللينو من كفاية عظيمة في علم المشرقيات والعلوم الإسلامية
وأنشد صاحب العزة الأستاذ على الجارم بك قصيدة رائعة البيان، وفي النهاية ألقى كل من الأستاذ عمر السكندري وسعادة الكونت ماتزوليني وزير إيطاليا المفوض كلمة شكر للمحتفلين الكرام وقد بدأ كل منهما كلمته برفع آيات الحمد إلى مقام جلالة الملك المعظم على تفضله بإيفاد مندوب عن جلالته.
العدد 291 - بتاريخ: 30 - 01 - 1939
عيد الفقير. . .
عيد الفقير! وهل للفقير عيد؟
نعم للفقير عيد إذا أردنا به الشعائر الدينية والقومية؛ فهو يصلي العيد، ويزور المقبرة، ويعيِّد على آله وصحبه، ويُكرِه السرور النافر على الإلمام ببيته وقلبه، ويجعل من

المساجد والحدائق والميادين مظاهر إخلاص وشكر لوطنه وربه
فإذا أردنا بالعيد التقلب في وثير الفراش من غير صلاة، والتنافس في ذبح الكباش من غير تضحية، والتأنق في الزينة والثياب، والتفنن في الطعام والشراب، والتبسط في اللذة واللهو، والتهادي بين التيه والزهو، فذلك عيد الباشا والأمير، لا عيد المسكين والفقير
وا رحمتا للفقير قبيل العيد! يرى متاجر الملابس واللُّعب والحلوى قد ازَّينت واجهاتها البلورية بالعُروض الجذابة والنماذج المغرية، فينظر إليها نظر الراغب المحروم، ويذكر أطفاله الغارَّين في حنانه وهم يحلمون بالثوب الجديد واللعبة المسلية والأكلة الشهية والنزهة الممتعة، ويعتقدون أن أباهم قادر على أن يجعل عيدهم سعيداً وحلمهم يقظة، فيكرُبه الأسى وتصيح الحسرة في نفسه:
- حنانيك يا رباه! هذه نعمك واسعة سابغة، ولكن القدر لحكمة لا يدركها البصر المحدود جعلها لغيري لذة بالقدرة. ولنفسي ألماً بالعجز، ولأولادي شقاء بالحرمان. فليت القدرة تعرف الرحمة، وليت العجز يدرك المعونة، وليت الحرمان يخطئ الطفولة، وليت الأيام تمضي إلى غايتها من غير عيد ولا موسم!!
إن الأعياد مذلة للوالد الفقير وفضيحة للبيت البائس! ففي الأيام الأُخَر يستطيع العائل المسكين أن يغلق بابه على بؤسه، ويرَوُض أهله على مكروهه؛ ولكنه في العيد لا يستطيع أن يضرب على الآذان، ولا أن يختم على العيون، فإن المدافع تقصف في القلاع، والمزامير تعزف في الشوارع، والناس يزيطون في الملاهي، والأطفال في المراكب والمواكب يرفلون في الوشي ويلهون باللُّعب، فأولاده لابد سائلون:
يا أبانا، أين الثوب الذي نلبس، واللحم الذي نأكل، والقرش الذي ننفق؟ أهذا العيد لناس دون ناس، أم هو ذو وجوه شتى منها العابس والباسم، ومنها الدميم والحسن؟ ولِم آثرَنا نحن يا أبانا بهذا الوجه الشتيم الكالح؟
لو كان هذا الرجل في أمة مؤمنة محسنة لأجاب بنيه بقوله:
صبراً يا بني، فعمَّا قليل يدخل عليكم باباكم (بيرم) أو عمكم (نويل) بالألطاف والحلوى والحلل من وقفية الباشا فلان، أو من جمعية كذا للإحسان؛ ولكنه يجيبهم بالدمعة البادرة، والزفرة المحرقة، والنظرة الحزينة، فلا يفهمون إلا أنهم أحقر من هؤلاء الأطفال، وأن أباهم أفقر من هؤلاء الرجال. أما علة هذا التفاوت وإلهنا واحد، وأبونا واحد، وملكنا واحد، ووطننا واحد، فعلْمها سيأتيهم مع الأيام إذا ما خرجوا بأنفسهم إلى الحياة فرأوا المكظوظ الذي غصب رغيف الجائع، والملفَّف الذي نهب كساء العاري، والمموَّل الذي سرق نصيب المحروم
حدثني رجل من ذوي هذه الحال أنه كان يشتغل مياومة في مصلحة من مصالح الحكومة؛ فلما قل عليه العمل استغنوا عنه؛ ولكنه لسوء حظه لم يستطع أن يستغني عن الأكل، ولا أن يقنع أولاده بالصوم، فراح يطلب العمل في كل مكان والمعونة من كل إنسان فلم يجد. ودخل عليه عيد الفطر من هذا العام وليس في يده ما يشتري به الكُسي لبنيه والسمك لزوجه وكان قبل نكبته بأسبوع قد وعد الكبار بالبِذَل والصغار بالهدايا، فسبحت أخيلة الأطفال في جو من الأحلام عجيب الألوان عبقري الصور؛ وأسرعت ألسنتهم الثرثارة إلى إشاعة ذلك في الرفاق والجيرة. فغُمَّ على الرجل الحال، واعتلج في صدره الهم، وأصبح حيران لا يدري ما يقول ولا ما يفعل. تمنى الخروج من هذا المأزق بالمرض أو الموت؛ ولكن المرض أو الموت إذا أصبح أمنيَّة الفقير امتنع كالخير وعزَّ كالسعادة. فاحتال على العلة بالجوع، فصام النهار والليل حتى هجمت عيناه وانسرقت قواه وبانت عليه نهكة المرض
ودخل العيد بضوضائه وخيلائه على هذه الأسرة البائسة فوجدها عاكفة على سرير مريضها الموجَع، مضرَّمة الأنفاس، لهيفة القلب، لا أمل لها إلا أن يعافى عميدها ويحيا. فانكفأ العيد النشوان المرِح خجلان عن هذا المنظر الأليم إلى مجالي البهجة والنعيم في قصور الكبراء والأغنياء والسادة. ولولا هذه الحيلة التي أنقذت هذا التعِس بالمرض من غير موت، لأشفى به الخجل والهم على الموت من غير مرض
تباركت يا الله! لقد جعلت في عيد الفطر زكاة، وفي عيد النحر تضحية. فهل فهم ذوو القلوب الغُلف والبصائر العُمْي من شرعك العادل أن الفقير يزكي بقوَّته حتى يعجز،

والمسكين يضحي بصحته حتى يموت؟؟
احمد حسَن الزيات
الأدب والمدرسة
للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني
(هل كانت علومك المدرسية ذات أثر فعال في إظهار مواهبك الأدبية؟)
سؤال انتقل به صديقنا الأستاذ توفيق الحكيم إلى (برجه العاجي) من مجلة أدبية فرنسية ألقته على طائفة من أدباء بلادها فكان جواب أحدهم: (يخيل إلى أن الغباء وفقر الذهن وبلادة الشعور وضعف التصور وانعدام الخيال مواد مقررة رسمياً في المناهج المدرسية)
ويقول الصديق فيما عقب على هذا الجواب (ولو سئلت لما خرجت إجابتي عن هذا المعنى)
وكنا نتحدث في هذا قبل أن أقرأه في البرج العاجي من الرسالة، قصصت على الصديق بعض ما أذكر من عهد المدرسة ووصفت له أساتذتي في اللغتين العربية والإنجليزية وتوخيت الإنصاف وتحريت الحق، فسألني إن أكتب هذا وأنشره، فوعدت أن أفعل. وقد بدأت أكتب وفي نيتي أن أبر بالوعد، ولكني بعد أن بلغت هذا الموضع أراني أميل إلى الإخلاف فما أحب أن أسيء إلى أحد بلا موجب وبغير حق، أو أن أرمى بالجحود والكفران.
وأكبر الظن أن الذين علموني نسوا - أو هم لا يدرون - أني كنت من تلاميذهم؛ فلو قلت فيهم ما قال مالك في الخمر ما عرفوا أنهم هم المعنيون؛ ولو أثنيتُ عليهم لتعجبوا وراحوا يتساءلون (ترى من كانوا معلميه؟) ولعل أكثرهم قد عاد إلى التراب الذي جبل منه ولكني مع ذلك لا أراني أقدر أن أضعهم في الميزان إلا إذا وضعت نفسي معهم
أنا أيضاً كنت تلميذاً ثم مدرساً لسوء الحظ. وكانت ميزتي المحتمة في أيام التلمذة (الغباء وفقر الذهن وضعف التصور) يضاف إليها الفقر. وكان يبلغ من فاقتي في ذلك الزمان أن كنت أحتاج إلى القميص الأبيض لألبسه مع البذلة فلا نجد ثمنه، فتعمد أمي المسكينة إلى ما خلف أبي من قمصان فتصلحها فتضيق من هنا وتقصر من هناك، ولكن الياقة أو البنيقة كانت تعيبها فتلبسنيها كما هي؛ ولو جعلت لي منها حزاماً لكان هذا أصلح. فتصور هذا الطوق العظيم على عنقي. وكنت إذ أمشي بها لا أدري ماذا أصنع وكيف أبلغ المدرسة، لأني كنت أحتاج إلى كلتا يدي لأهوى بجانبي الطوق عن أذني، ولكني محتاج أيضاً إلى
حمل الكتب والكراسات فكيف أصنع وليس لي غير يدين اثنتين. ولا أدري كيف نجوت من العمى فقد كانت عيناي ترمدان فلا تعبأ بي المدرسة. نعم كان لها طبيب يحضر كل يوم لعيادة المرضى منا فكنا إذا سمعنا ناقوسه نجري إليه فيصفنا أمامه ولا يجشم نفسه عناء السؤال أو الفحص، بل يقول وهو يشير إلى كل واحد منا على الترتيب: (شربة، لبخة قطرة) فيتفق أن يكون من حظك (القطرة) وشكواك أن رجلك مهيضة، أو اللبخة وبك زكام. وكنت أذهب إليه لعلاج عيني ولكني كنت أخرج مأموراً بالشربة أو اللبخة ولا أخرج قط بالقطرة. أما في البيت فكان كل ما أتداوى به من الرمد الماء البارد.
وآية غبائي وبلادتي أني كنت في كل فرقة الأخير، - حتى مقعدي كان الأخير في الحجرة - وكنت لصغر جسمي وقماءتي لا أكاد أبدو للمدرس، فهو لا يراني ولا يحس بوجودي ولا يعني بي، وأنا أغتنم هذه الفرصة فأتشاغل عن درسه بما يخطر لي من العبث. وكان جاري في بعض الفرق ضخم الجسم كأنه الفيل الصغير، وكان لجسامته يحتاج حين يقعد أن يتكئ على الدرج بكلتا يديه، وكانت عادته أن يمسح وجهه بكفيه بعد ذلك ويتمتم بقوله: (خيبة الله عليكم) - يعني زملاءه التلاميذ لأنهم كانوا لا يكفون عن ركوبه بالعبث، فاشتريت مرة قليلاً مما يسمى (بودرة العفريت) ونثرتها على الدرج فاتكأ عليه ومسح وجهه ثم ذهب يحك كفيه وخديه حتى دمى وجهه وانقطع عن المدرسة أياماً حتى شفي. ففطن المدرسون إلى وجودي بعد ذلك وصرت أتهم بكل ما يحدث في المدرسة ولو وقع في فرقة غير فرقتي، فأنا عندهم المحرض أو الموسوس بالعبث إذا لم أكن أنا الفاعل

أما الدروس فما كنت أفهم منها شيئاً؛ ولم يكن هذا ذنب المعلمين فما كانوا يقصرون في الشرح والبيان، ولكني أنا كنت لا أستطيع أن أنتفع بذلك لأني أكون قاعداً على ركبتي - فوق البلاط - عقاباً لي على ما لم أصنع في الغالب - أو واقفاً ووجهي إلى الحائط أو مطروداً من الحجرة كلها. وكيف يمكن بالله أن يفهم شيئاً من لا يزال هكذا . . .- ركبتاه على الأرض أو أنفه على الجدار أو هو يتمشى في الفناء أو الدهليز

وكان أرق المدرسين معي وأظرفهم وألطفهم على العموم إنجليزي أنيق كان إذا رآني - وما أكثر ما كان يغضي - أخرج على النظام يدعوني أن أقف ويطلب مني أن أتهجى كلمة (مجنون) أو (شقي) وغير ذلك مما يجري هذا المجرى. ويكتفي من العقاب بهذا

وكان لنا معلم للغة العربية غريب الأمر - كانت حجرتنا مجاورة لحجرة الناظر الإنكليزي، فكان هذا المعلم يفرغ من إلقاء الدرس وشرحه ومن التطبيق أيضاً في خمس دقائق على الأكثر ثم يقول: (أغلقوا النوافذ كلها) فنفعل ثم يأخذ في حديث سياسي يذم فيه عهد إسماعيل ويلعن فيه أيام توفيق ويثني على الإنكليز أطيب الثناء. ولم يكن أعجب من صنيعه هذا إلا إغلاقه النوافذ ليوهمنا أن الناظر الإنجليزي يسوؤه أن يعلم أنه يثني على قومه . . .

وكنا نناقشه ونجادله ونخالفه فيوسع صدره ويروح يحاورنا ويداورنا ليقنعنا بأن ما خرب من نفسه عامر. وكانت تلك أيام مصطفى كامل وكنا نقرأ (لواءه) ونسمع خطبه.

وأحسب أني لا أبالغ إذا قلت أني تلقيت دروسي الأولى في اللغة العربية من اللواء والمؤيد لا من معلمي في المدارس، وتصور أن منهم معلماً كان يكلفنا أن نحفظ كتاب النحو عن ظهر قلب. . . بل تصور أنه كان يثني على التلميذ الذي يقول له في جواب سؤاله عن الفعل اللازم (ما هو) - (هو ما ليس كذلك) - كما في الكتاب بالحرف الواحد. ولم أستطع قط في حياتي أن أحفظ شيئاً عن ظهر قلب إلى إذا جاء هذا عفواً وعن غير قصد، فكانت درجتي في اللغة العربية هي الصفر دائماً

وكل ما حفظته من الشعر العربي في المدرسة قصائد قليلة مثل:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه ... فكل رداء يرتديه جميل

وما إليها - وحتى هذه يخيل إلي أني ما حفظتها إلا فيما بعد - لما كبرت، ولكني أذكر على كل حال أن المدرس الذي كان يغلق النوافذ ويهجو المصريين ويمدح الإنكليز هو الذي كان يتقاضانا أن نحفظ: (إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه، فكل رداء يرتديه جميل) وقد يكون هذا اتفاقاً محضاً

وكان أساتذتنا في اللغة الإنجليزية على عكس ذلك، فكانوا يرشدوننا ويساعدوننا ويقرضوننا الكتب إذا أنسوا منا ميلاً إلى القراءة، ويصحبوننا إلى مكتبة المدرسة، ويتخيرون لنا ما يوافقنا وما يسعنا أن نفهمه، ولا يبخلون علينا بالتفهيم والشرح حتى في أوقات الفراغ إذا طلبنا منهم ذلك؛ ولكن بعضهم كان عجيب الشذوذ. أذكر منهم واحداً كان يعلمنا الجغرافيا الاقتصادية فكان يكتب على السبورة رقماً يبلغ من طوله أن بقيته تجيء على الجدار؟

وكان هذا مبلغ علمه بهذه الجغرافيا. ومنهم من كان يعطينا الدرجات على الخط وجودته ولا يبالي أصبنا أم أخطأنا في الموضوع، فأجودنا خطاً أعلانا درجة ولو كان أجهل مني

أظن أن المدرسة لا تستطيع أن تعلم الأدب، وكل ما يسعها ويجوز أن يطلب منها هو الترغيب والتوجيه والتسديد، وحسبها أن توفق في هذا، وأكاد أقول حسبها ألا تنفر من الأدب وتزهد فيه

إبراهيم عبد القادر المازني

المتنبي وسر عظمته

للأستاذ عبد الرحمن شكري

(تتمة ما نشر في العدد الماضي)

إذا قرأ القارئ قول المتنبي:

وخِلة في جَلِيسٍ ألتقيه بها ... كيما يرى أننا مثلان في الوَهنِ
وكِلمةٍ في طريقٍ خفتُ أعرابها ... فيهتَديَ لي فلم أقدر على اللحن
كم مخلص وعُلَيٍّ في خوض مهلكة ... وقتلة قُرِنَتْ بالذم في الجبن
لا يُعْجَبَنَّ مضيما حسن بزته ... وهل تروق دفيناً جودة الكفن

أحس بما تدعو الحياة إليه من تقيد النفس بقيود التجانس حتى ولو كان فيها قهر أنبل عواطفها ونوازعها، وأحس بالمعركة التي تدور في النفس بين نزعاتها من رضاء وإباءٍ وتسليم وثورة، والتذ مشاركته الشاعر في تلك المعركة النفسية حتى ولو كانت المشاركة بالعقل الباطن والقراءة بالعقل الظاهر. وهو يحس هذا الإحساس إذا قرأ قوله:

واحتمال الأذى ورؤية جاني ... هـ غذاء تضوي به الأجسام
ذل من يغبط الذليل بعيش ... رب عيش أخف منه الحمام
كل حلم أتى بغير اقتدار ... حجةٌ لا جئ إليها اللئام
من يهن يسهل الهوان عليه ... ما لجرح بميِّتٍ إيلام

وهو أيضاً يضع نفسه موضع نفس الشاعر في تلك الرحلة النفسية التي يلتذها بالقراءة إذا قرأ قوله:

وما أنا منهمُ بالعيش فيهمْ... ولكنْ معدن الذهب الرغام
خليلك أنت لا مَن قلت خِلِّي ... وإن كثر التجمُّل والكلام

ويزداد اعتداد المتنبي بنفسه، فلا يزداد القارئ إلا لذة ببيانه عندما يقرأ قوله:

ما مقامي بأرض نخلة إلا ... كمقام المسيح بين اليهود
عِشْ عزيزاً أو متْ وأنت كريم ... بين طعن القنا وخفق البنود
واطلب العز في لظى ودع الذ ... ل ولو كان في جنان الخلود
أنا في أمة تداركها الل ... هـ غريب كصالح في ثمود

وكذلك عندما يقرأ قوله:

ومن جاهل بي وهو يجهل جهله ... ويجهل علمي أنه بِيَ جاهل
ويجهل أني مالك الأرض مُعسرٌ ... وأني على ظهر السماكين راجل
تحقر عندي همتي كلَّ مطلب ... ويقصر في عيني المدى المتطاول
غثاثة عيشي أن تغث كرامتي ... وليس بغث أن تغث المآكل

والبيت الأول يدل على تفكير طويل في أنواع جهل النفوس بالنفوس، وهو موضوع عميق كعمق الحياة، ومجاهل أعماق النفس والحياة كمجاهل أعماق المحيط. وكذلك إذا قرأ أبيات المتنبي التي يخاطب بها أسد الفراديس ويدعوها فيها إلى محالفته، سار القارئ في رحلة نفسية خيالية في عالم البيان الشعري، حيث يود الشاعر أن يؤلف الوحش وأن تألفه، كما حدثوا عن الشنفري الشاعر. وإذا قرأ القارئ قول المتنبي:

عدُوِّي كل شيء فيكِ حتى ... لخلت الأُكم موغورة الصدور
فلو أني حُسدْتُ على نفيسٍ ... لجدْتُ به لذي الجد العثُورِ
ولكني حُسِدْتُ على حياتي ... وما خير الحياة بلا سرور

كان قد بلغ من تلك الرحلة النفسية قفراً موحشاً تختلط فيه الحقيقة بالخيال في نفس بلغت من النفرة من الناس والشك فيهم مبلغاً يجعلها تشك في الجماد، وتخاله موغر الصدر كالناس، وهذه حالة حقيقية في النفس، وإن اختلطت فيها الحقيقة بالخيال، وهي من الحالات النفسية التي يجيد المتنبي وصفها كما قال:

ومن صحب الدنيا طويلاً تقلبت ... على عينيه حتى يرى صدقها كذباً
أرى كلنا يبغي الحياة لنفسه ... حريصاً عليها مستهاماً بها صباً
ويختلف الرزقان والفعل واحد ... إلى أن ترى إحسان هذا لذا ذنباً

ويتبع القارئ الشاعر في رحلة التجارب النفسية حيث يقول:

فلا تَلْكَ الليالي إن أبِدِيَها ... إذا ضربن كسرْنَ النبع بالغرَب
ولا يُعنَّ عدواً أنت قاهره ... فإنهن يصدن الصقر بالخرب
وإن سررْن بمحبوب فجعن به ... وقد أتينك في الحالين بالعجب
وربما احتسب الإنسان غايتها ... وفاجأته بأمر غير محتسبِ
وما قضى أحد منها لبانته ... ولا انتهى أَرَبٌ إلا إلى أَرَبِ

والبيت الأخير يعبر عن سر التعلق بالحياة؛ فليس سر التعلق بها لسعادتها وكمال مسراتها، بل قد يتعلق بها أشد التعلق من قلت مسراته فيها، وإنما يكون الحرص عليها كلما وجد المرء سبيلاً لنشدان المطالب والمآرب حتى ولو لم يسعد بها. فالحرص على الحياة موجود ما دام المرء ينتشي فيها بالسعي والطلب، وإن لم يُؤَدِّ السعي إلى فوز وسعادة. ويستمر القارئ متابعاً للمتنبي في رحلته النفسية في عالم التجارب وآلامها

كما في القصيدة التي يقول في مطلعها: (كفى بك داءً أن ترى الموت شافياً). ويعاود وصفها في القصيدة التي مطلعها: (أود من الأيام ما لا توده) وفي القصيدة التي مطلعها: (فراق ومن فارقت غير مذمم) والتي يقول فيها:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه ... وصدَّقَ ما يعتاده من توهم
وعادي مُحبِّيهِ بقول عداته ... وأصبح في ليل من الشك مظلم

ويعاود وصف آلامه وآماله وخيبته وتجاربه في قصيدة: (بما التعلل لا أهل ولا وطن). وفي قصيدة: (أغالب فيك الشوق والشوق أغلب). وفي قصيدة: (صحب الناس قبلنا ذا الزمانا). وهو يحس فيها بضآلة مطالب الحياة بالرغم من إقبال نفسه عليها فيقول:

ومراد النفوس أصغر من أن ... تتَعادَى فيه وأنْ تَتفانى
كل ما لم يكن من الصعب في الأن ... فس سهل فيها إذا هو كانا
وإذا لم يكن من الموت بدٌّ ... فمن العجز أن تكون جبانا

وتراه يصف كيف أن نفسه قد تُقهرُ على التخلق بصفات الحياة من مداهنة وشك، فيقول:

ولما صار ود الناس خبا ... جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت أشك فيمن أصطفيه ... لعلمي أنه بعض الأنام

إلى أن يقول:

ولم أَرَ في عيوب الناس شيئاً ... كنقص القادرين على التمام

ويعود إلى وصف ما علمته الحياة من سوء الظن فيقول:

توهم القومُ أن العجز قرّبنا ... وفي التوهم ما يدعو إلى التهم
ولم تزل قلة الإنصاف قاطعة ... بين الرجال وإن كانوا ذوي رحم
هوَّن على بصر ما شق منظرهُ ... فإنما يقظات العين كالحلم
ولا تشك إلى خلق فتُشمته ... شكوى الجريح إلى الغربان والرخم

ثم هو بالرغم من شكواه يعرف أنَّ للمعالي التي ينشدها ثمناً لا بد أن يؤديه فيقول:

تريدين لقيان المعالي رخيصة ... ولا بد دون الشهد من إبر النحل

ويعلم أنه من العبث أن يُعَنِّي المرء نفسه وأن تُعَنِّيه إذا لم تدرك ما تَمَنَّتْ فيسلى نفسه ويسلي القارئ معه بقوله:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه ... تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

ويعلم أن الظلم في النفوس صفة عامة إذا خفيت فإنما تخفى لسبب فيقول:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ... ذا عفة فلعلة لا يظلم
والذل يظهر في الذليل مودة ... وأود منه لمن يود الأرقم
ومن العداوة ما ينالك نفعه ... ومن الصداقة ما يضر ويؤلم

وهذه الحكم العديدة وأمثالها في شعر المتنبي ليست من الشعر التعليمي أو الوعظي الذي يصنعه المرء وهو ناعم البال قرير العين بارد العاطفة وهو جالس إلى مكتبه يتأمل فيما تصف به الكتب والدفاتر أوجه الحياة وأخلاق النفوس فيها، ولكنه تأمل المختبر المجرب، فهو شعر التأمل الذي تغري به العاطفة لا شعر التأمل الذي يغري به العقل في دعته أو مباذله أو عند مباهاته بالعلم ومفاخرته بالعرفان، فهو شعر حكمة يُبصِّرُ الشاعر فيها نفسه ويذكِّرها كي تتحمل الحياة بمعرفتها الحياة، وتتحمل الناس بمعرفتها أخلاق الناس. ومن كان شديد الاعتداد بالنفس والاعتزاز بها كالمتنبي كان في حاجة إلى هذه التبصرة والتذكرة بسبب ما يجشم الشاعر نفسه من معاناة الحياة والناس معاناة فوق معاناة القنوع التي لابد منها. فهذا الاعتداد بالنفس بما يفيض به من حنكة وخبرة وأنغام وبيان وآلام وآمال، هو سر نبوغ المتنبي وسر شهرته وتعلق الناس بشعره كما ذكرنا، وهو سر قوة شعره. وهذه القوة هي فيض يغمر كل باب من أبواب شعره من مدح أو وصف أو عتاب أو رثاء. ومن أجل ذلك تبدو حكمة الحنكة في شعره مختلطة بالمدح أو العتاب أو الوصف أو الذم، ففي قصيدته التي يصف فيها الأسد ويقول:

في وحدة الرهبان إلا أنه ... لا يعرف التحريم والتحليلا

ويستجمع كل معاني الوصف الرائعة، إذ تراه يورد الحكمة كما في قوله:

أنفُ الكريم من الدنيئة تارك ... في عينه العدد الكثير قليلا

وفي قصيدة أخرى بينما هو يمدح الممدوح إذ تراه يقول:

إلْفُ هذا الهواء أوقع في الأن ... فسِ إن الحِمَام مُرُّ المذاق
وفي قصيدة أخرى يقول:
لعل عتبك محمود عواقبه ... فربما صحت الأجسام بالعِلَلِ
وفي قصيدة أخرى من قصائد المدح يقول:
إنا لَفي زمن ترك القبيح به ... من أكثر الناس إحسان وإجمال
فأصبح منتهى ما يطمع فيه الطامع في خير الناس أن يحصل على خيرهم السلبي، أي امتناعهم عن الشر كأنما الامتناع عن العمل عمل يشكرون عليه. وكذلك يورد الحكمة في قصائد المدح الأخرى مثل قصيدة (لكل امرئ من دهره ما تعودا) التي يقول فيها:
إذا أنت أكرمت الكريم ملكته ... وأن أنت أكرمت اللئيم تمردا
وكذلك يصنع في قصيدة (على قدر أهل العزم تأتي العزائم) وقصيدة (الرأي قبل شجاعة الشجعان). فقيمة مدحه ليست في المغالاة المرذولة كما في بعض قوله وإن اشتهر بها، ولكن قيمته فيما يخالطه من حنكة وخبرة إما بالأخلاق والحياة عامة، وإما بالصفات المرغوب فيها التي يود كل ممدوح أن تنسب إليه. وكذلك يورد الحكمة في قصائد الاستعطاف أو التوفيق أو العتاب كقصيدة (إن يكن صبر ذي الرزيئة فضلاً) وقصيدة (حسم الصلح ما اشتهته الأعادي) وقصيدة العتاب الرائعة الفخمة التي يعنف فيها في عتاب سيف الدولة تارة وتارة يبلغ غاية الرقة كما في قوله فيها:
إن كان سَرَّ كمُ ما قال حاسدنا ... فما لجرح إذا أرضاكمُ ألمُ
ويورد الحكمة أيضاً في قصيدة (بغيرك راعياً عبث الذئاب) فيمدح ويستعطف ويورد الحكمة، وفيها يقول:
وجرم جره سفهاء قوم ... وحل بغير جارمِهِ العقابُ
وكم ذنب مُوَلَّدُهُ دلال ... وكم بُعْدٍ مُوَلَّدُهُ اقترابُ
ويورد الحكمة أيضاً في قصائد الرثاء والتعزية وله فيها قصائد شائعة مثل رثائه لعمة عضد الدولة ورثائه سيف الدولة وأخته ومملوكه يماك ورثاء المتنبي لجدته ورثائه لأبي شجاع فاتك، وفي رثاء عمه عضد الدولة يقول:
يموت راعي الضأنِ في جهله ... ميتة جالينوس في طبه
وربما زاد على عمرهِ ... وزاد في ألأمن على سربه
وفي رثاء أم سيف الدولة يقول:
وصرتُ إذا أصابتني سهام ... تكسرت النصال على النصال
وفي رثاء مملوك سيف الدولة يقول:
وأوفى حياة الغابرين لصاحب ... حياة امرئ خانته بعد مشيبِ
إذا استقبلتْ نفسُ الكريمِ مصابَهُ ... بخبث تَنَتْ فاستدبرتْهُ بطيبِ
وفي رثاء جدته الرائع يصف ما لاقاه في سبيل تجشيم نفسه عظام المساعي فتزداد لذة القارئ في قراءته. والمتنبي إذا أراد الوصف أجاد كما في وصف الأسد وكما في وصف شِعب بوان ونباتة الذي يقول فيه وهو من أبدع الوصف:
مغاني الشِعب طيباً في المغاني ... بمنزلة الربيع من الزمان
ويصف الخيل كما في قوله (وما الخيل إلا كالصديق قليلة. الخ) ويصف الحروب. وليس إقلاله من وصف مظاهر الكون والطبيعة من عجز، بل لأن بصر بصيرته كان موجهاً إلى دخائل نفسه ونفوس الناس وأخلاقهم في الحياة أكثر مما كان موجهاً إلى مظاهر المرئيات وله في الغزل بالرغم من ذلك أشياء تستجاد وتستحب مثل قوله:
زَوِّدِينا مِنْ حْسنِ وجهك مادا ... م فحسن الوجوه حالٌ تحول
وصلينا نَصِلْكِ في هذه الدن ... يا فان المقام فيها قليل
وقوله:
إذا كان شم الروح أدنى إليكمُ ... فلا برحتني روضةٌ وقبولُ
ألم ير هذا الليل عينيك رؤيتي ... فتظهر فيه رقة ونحول
فسحر شعر المتنبي هو سحر جاذبية الشخصية المعتدة بنفسها وسحر ما تختبره من الحياة.
ولا نعني بسحر الاعتداد بالنفس أن الناس لا يقاومونه. هم يقومونه بكل وسيلة في أول الأمر، وبعضهم يظل يقاومه حتى مع التأثر به. بل إن بعضهم تدل شدة مقاومتهم له على

شدة التأثر به. ففي بعض سجايا النفوس قد يظهر التأثر بالإنسان، أو بالشيء بمظهر المقاومة. ولعل أظهر هذه الظاهرة في العلاقات الزوجية، ولكنها موجودة في جميع علاقات الناس بعضهم ببعض، وقد لا تكون المقاومة دليلاً على التأثر. بل قد تكون دليلاً على قلة التأثر أو انتفائه. ولعل الظاهرة أساسها واحد في الحالتين، وأساسها هو: دفاع كل نفس في الحياة عن كيانها ومميزاتها وخصائصها؛ وكلما كان تأثرها بخصائص غيرها وكيانه أعظم، كانت المقاومة ألزم في بعض الحالات وفي بعض النفوس، إما صيانة للبقية من استقلالها، وإما لكي تعذر نفسها لدى نفسها في استسلامها لسحر الاعتداد بالنفس سراً بمقاومة جهراً فترتاح إلى هذا العذر وتحسب أنها قد صانت به كرامة استقلالها. ولكن إذا كان الاعتداد بالنفس عظيماً، وكان مقروناً بقوة العبقرية أو البيان والفصاحة أو الخلابة أو العصبية المناصرة له تمكن على الزمن من تحويل الشيء الكثير من المقاومة إلى إعجاب، كالإعجاب الذي ناله من النفوس التي ناصرته من أول الأمر بسبب لذتها في الاستسلام أو لذتها في رؤية اعتدادها بنفسها مقدساً في شخص عظيم. وتغلب الاعتداد بالنفس على المقاومة يكون شبيهاً بتغلب النعاس على اليقظة. وقد لاقى المتنبي أشد المقاومة، ولكن شدة اعتداده بنفسه تمكنت من تحويل المقاومة على مر الزمن إلى إعجاب كثير

لقد كنا في عهد الصغر إذا قرأنا للمتنبي قوله:

من لو رآني ماءً مات من ظمأ ... ولو عرضتُ له في النوم لم ينم

تخيلناه مخلوقاً من مخلوقات الخيال في القصص الخرافية. وفخره العريض في هذا البيت وفي أمثاله كان من خواطر العظمة التي رآها لنفسه، ولكنا لم نشأ أن نعد كل أقواله في القتال وإراقة الدماء من قبيل خواطر السوء التي تمر بخاطر كل إنسان، لأن الرجل كان محارباً فعَّالاً كما كان متخيلاً قوَّالاً. وإذا صدقت قصة مقتله التي قيل فيها إنه فر طالباً النجاة ممن أغاروا عليه حتى ذكرَهُ مذكرٌ بقوله:

الخيل والليل والبيداء تعرفني ... والسيف والرمح والقرطاس والقلم

وذكره بأن من يقول هذا القول لا بد أن يكون فعله كقوله، فعاد للقتال حتى قُتلَ أقول إذا صدقت هذه القصة: كان الاعتداد بالنفس الذي قتل، هو الاعتداد بالنفس الذي خلدَ عظمته وزادها. وهو أيضاً كذلك وإن لم تصدق هذه القصة

عبد الرحمن شكري

من برجنا العاجي

إني أتجنب دائماً رؤية خروف العيد حياً قبل العيد، وأتحاشى أن أدنو منه أو ألاطفه أو أعقد بيني وبينه أواصر صحبه أو مودة، خشية أن تمضي ساعات فإذا هو أمامي مشوياً في طبق، ينظر إليّ بعينين يسيل منهما الدهن والزبد، نظرات كلها ازدراء لما تكشف له من خلقنا الإنساني المنطوي على الخيانة والغدر! إني أتخيل دائماً معاني هذه النظرات الهادئة العميقة التي تنبعث من عيون هذه الحيوانات الوادعة الأليفة. إنها لأبلغ في إنسانيتها أحياناً من بعض نظراتنا الآدمية التي يشع منها بريق جشع حيواني ونهم مفترس قد لا تعرفه غير الضواري والكواسر!

إني لأتخيل الحديث الذي يمكن أن يدور بيني وبين هذا الخروف لو أنه منح القدرة على الكلام:

- لماذا صنعتم بي هذا؟

- لمجدك الأدبي

- مجدي الأدبي! هذا الذبح والسلخ والحرق مرة في كل عام على مدى الدهور والأيام!

- نعم، هو مجدك الذي ينبغي أن تتيه به وتفخر وتزهى على غيرك من الحيوان! إن دمك يراق من أجل فكرة، وحياتك تضحي في سبيل عقيدة!

- آه للإنسان ما أبرعه في إلباس صغير الفعال رائع الثياب!

- نعم، هنا مفتاح سمونا وسر عظمتنا!

- هنا الفرق بيننا وبينكم

- نعم، كل الفرق

- أن الغرائز السفلى ما زالت هي الناموس الأعظم لنا ولكم. ولم تستطيعوا مع قدرتكم وقوتكم أن تخرجوا عن نطاقاها قيد أنملة. . .

- ولن نخرج

- إنما كل عملكم أن تضعوا على حقائقها العارية رداء، كما وضعتم على أجسامكم العارية لباساً. نحن العارون جسداً وروحاً، وأنتم الكاسون جسداً وروحاً. أما بعد ذلك فلا اختلاف بيننا وبينكم.
- هذا صحيح يا سيدي الخروف!
توفيق الحكيم
دراسات في الأدب
للدكتور عبد الوهاب عزام
تاريخ كلمة أدب
لا نجد (كلمة أدب) فيما بين أيدينا من الكلام المأثور عن الجاهليين؛ ولكن ورودها فيما أُثِر عن الرسول (صلوات الله عليه) وعن الصحابة يرجح أنها كانت مستعملة قبل الإسلام في المعاني التي دلت عليها في عهد الرسالة أو في معاني قريبة منها ولدينا روايات من صدر الإسلام منها:
1 - أن علياً رضي الله عنه قال للرسول: يا رسول الله:
نحن بنو أب واحد، ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره فقال: (أدبني ربي فأحسن تأديبي، ورُبيت في بني سعد) والتأديب هنا معناه التعليم
2 - ورد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال:
(إن هذا القرآن مأدبة الله في الأرض فتعلموا من مأدبته)، والمأدبة هنا موضع الأدب أي الكتاب الجامع ما يؤدب به الله الناس من أوامر ونواه ومواعظ وحكم
3 - وروي عن عبد الله بن عباس أنه قال في تفسير الآية:
(يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً): وقال مُقاتل أحد التابعين في تفسير الآية نفسها: أن يؤدب المرء نفسه وأهله فيأمرهم بالخير وينهاهم عن الشر) والأدب في هاتين الروايتين يراد به التهذيب الذي يقرب من الخير ويبعد عن الشر وفي العصر الأموي نجد الكلمة مستعملة في المعاني المتقدمة أو ما يقرب منها:
جاء في شعر مُزاَحم العُقيلي وصفُ الجمل المذلَّلُ بالأديب قال:
فهن يَصرفنَ النوى بين عالج ... ونجران تصريف الأديب المذلل
وجاء في خطبة زياد البتراء:
(فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم فإنهم ساستكم المؤدَبون لكم. أما والله لأؤدِّبنكم غير هذا الأدب أو لتستقيمُنَّ)
وقال بعض الفزارين من شعراء الحماسة:
أكْنيه حين أناديه لأكرمه ... ولا ألقّبْه والسوأة اللقبا
كذاك أُدِّبت حتى صار من خلقي ... أني وجدت ملاك الشيمة الأدبا
واتخذ الخلفاء والكبراء في العصر الأموي فما بعده معلمين يؤدبون أولادهم فكانوا يسموْن (المؤدِّبين) وكانوا يؤدبون برواية الكلام البليغ الداعي إلى المكارم، الحافز إلى العظائم. وقد روى عن عبد الملك بن مروان أنه قال لمؤدِّب ولده: وعلمهم الشعر يمجدوا وينجدوا
وفي عيون الأخبار أن عمر بن عبد العزيز قال لمؤدبه: كيف كانت طاعتي إياك وأنت تؤدبني؟ قال: أحسن طاعة؛ قال: فأطعني الآن كما كنت أطيعك
وكان المؤدبون، حين يروون القصائد والخطب والأمثال، يذكرون طرفاً من أخبار أصحابها ونُبذاً من الواقعات التي قيلت فيها فاستعمل الأدب في الشعر والنثر وما يتصل به من أخبار ونوادر، وفشا هذا العرف على مر العصور، وسُمِّي من يروي الأدب وأخباره ويعلمه أديباً
وامتاز الأديب من الشاعر والكاتب. فإذا غلب على الرجل درس الأدب وتعليمه فهو أديب، وإذا غلب عليه إنشاء الشعر فهو شاعر، وإذا غلب عليه إنشاء النثر فهو كاتب. وربما جمع الرجل هذه الألقاب الثلاثة أو اثنين منها
وأطلقت كلمة (الأدب) منذ تلك العصور على المعنيين: المعنى الخلقي والمعنى الكلامي؛ أعني حسن الخلق والمعاملة والكلام البليغ وما يتصل به من أخبار. وقد ذكر هذين المعنيين ابن قتيبة في مقدمة كتابه (أدب الكاتب) إذ قال: (نحن نستحب لمن قبل عنا أو ائتم بكتبنا أن يؤدّب نفسه قبل أن يؤدّب لسانه ويهذب أخلاقه قبل أن يهذب ألفاظه)، وقيل لهذين المعنيين من بعد (أدب النفس وأدب الدرس)

فأما أدب النفس فقد توسعوا فيه حتى شمل كل طريقة مستحسنة في علم أو عمل، وألّفت كتب باسم أدب القاضي وأدب المفتي، وأدب القراءة، وأدب المحدث، وأدب البحث، وأدب المتعلم، وأدب المريد، وأدب النديم، وأدب الدنيا والدين ونحو ذلك
وأما أدب الدرس فقد وسعوه كذلك حتى شمل علوماً عُدّة سميت علوم الأدب أو علم الأدب، وأحياناً يسمونها الأدب اختصاراً
علم الأدب
لم يكن بد لدراسي الشعر والنثر من معرفة قوانين العربية التي تعصم ألسنتهم من الخطأ؛
فكان كل متأدب يتعلم النحو وكل مؤدب يعلّمه إلى ما يعلّم من الأدب. فغدا النحو من وسائل الأدب، واختلط به. وكذلك علوم العربية الأخرى كلما وضع علم جعل من وسائل الأدب ووصل به. فاتصل بالأدب الصرف والنحو والعروض وفنون البلاغة وعلوم أخرى، وسميت كلها علوم الأدب أو علم الأدب أو الأدب
وأراد الباحثون في الأدب بهذا المعنى أن يحدوه حدّاً واضحاً بين ما يدخل فيه وما يخرج عنه فعرفوه تعريفات متقاربة؛ منها:
1 - علم يُحترز به عن الخطأ في كلام العرب لفظاً وخطّاً
2 - علم يتعرف منه التفاهم عما في الضمائر بأدلة الألفاظ والكتابة
3 - حفظ أشعار العرب وأخبارهم والأخذ من كل علم بطرف وحصروا العلوم التي تدخل في هذه التعريفات فجعلوا علوم الأدب ثمانية، ثم زادوها إلى أثني عشر، عدّها ابن الأنباري في طبقات الأدباء ثمانية: اللغة، والنحو، والتصريف، والعروض والقوافي، وصنعة الشعر، وأخبار العرب، وأنسابهم. ثم قال:
وألحقنا بالعلوم الثمانية علمين وضعناهما وهما علم الجدل في النحو وعلم أصول (النحو الخ)
وقسمها الشريف الجرجاني تقسيماً منطقيّاً إلى اثني عشر:
قال في مقدمة شرح المفتاح: (إن علم العربية المسمى بعلم الأدب علم يحترز به عن الخلل في كلام العرب لفظاً أو كتابة.
وينقسم - على ما صرحوا به - اثني عشر قسماً؛ منها أصول هي العمدة في ذلك (الاحتراز ومنها فروع
ثم بين أن الأصول هي: اللغة والصرف والاشتقاق والنحو والمعاني والبيان (والبديع تابع لها) والعروض والقافية
وأن الفروع هي: الخط، وقرض الشعر، وإنشاء النثر، والمحاضرات (ومنه التاريخ)
وقال ابن خلدون في فصل علم الأدب من المقدمة:
وكان الغناء في الصدر الأول من أجزاء هذا الفن لما هو تابع للشعر إذ الغناء إنما هو تلحينه. وكان الكتاب والفضلاء من الخواص في الدولة العباسية يأخذون أنفسهم به حرصاً
على تحصيل أساليب الشعر وفنونه وقد أُثِرَ تعميم (الآداب) وإطلاقها على معارف أخرى في قول الحسن ابن سهل:
الآداب عشرة: فثلاثة شهرجانية، وثلاثة أنوشروانية، وثلاثة عربية، وواحدة أربت) عليهن. فأما الشهرجانية فضرب العود ولعب الشطرنج ولعب الصوالج. وأما الأنوشروانية فالطب والهندسة والفروسية. وأما العربية فالشعر والنسب وأيام الناس. وأما الواحدة التي أربت عليهن فمقطعات الحديث والسمر وما يتلقاه الناس بينهم في (المجالس
وجاء في إحدى سائل الجاحظ: (إنا وجدنا الفلاسفة المتقدمين في الحكمة ذكروا أن أصول الآداب التي يتفرع منها العلم لذوي الألباب أربعة: فمنها النجوم وأبراجها وحسابها، ومنها الهندسة وما اتصل بها من المساحة والوزن والتقدير، ومنها الكيمياء والطب وما يتشعب من ذلك، ومنها اللحون ومعرفة أجزائها ومخارجها وأوزانها)
وجاء في رسالة إخوان الصفاء:
اعلم يا أخي أن العلوم التي يتعاطاها البشر ثلاثة أجناس منها الرياضة ومنها الشرعية) الوضعية ومنها الفلسفة الحقيقية.
فالرياضة هي علم الآداب التي وضع أكثرها بطلب المعاش وصلاح أمر الحياة الدنيا،

وهي تسعة أنواع: أولها علم الكتابة والقراءة؛ ومنها علم اللغة والنحو، ومنها علم الحساب والمعاملات ومنها علم الشعر والعروض؛ ومنها علم الزجر والفأل وما يشاكله؛ ومنها علم السحر والعزائم والكيمياء والحيل وما يشاكلها؛ ومنها علم الحرف والصنائع؛ ومنها علم البيع والشراء والتجارات والحرث والنسل؛ ومنها علم السير والأخبار) ففي كلام ابن سهل والجاحظ وإخوان الصفاء علوم سميت آداباً وليست من علوم الأدب المصطلح عليها.

ويشعر بهذا التعميم قول الجرجاني في كتاب التعريفات:

(الأدب عبارة عن معرفة ما يحترز به عن جميع أنواع الخطأ)

وقد يسر هذا التعميم حاجة الأديب إلى سعة المعارف والأخذ من كل فن بطرف (كما قالوا) وكذلك أدّى إلى هذا التعميم تولي الكتاب من الأدباء الوزارة ودواوين الدولة وحاجتهم إلى معرفة كل ما تصرفه الدول من السياسات وما يتصل بأعمالها من المعارف.

ومن شواهد هذا أن كتاب (صبح الأعشى في صناعة الإنشا) ضمن خلاصة المعارف التي كانت في عصره.

ومؤلفو الأدب في عصرنا يقسمون الأدب قسمين: الأدب بالمعنى الخاص وهو الشعر والنثر، والأدب بالمعنى العام وهو كل ما أدركته أمة من المعارف. فيقال مثلاً أدب العرب لما أثر عنهم من نظم ونثر. ويقال أدب العرب أو آداب العرب لكل ما أثر عن الأمة العربية من آداب وعلوم.

وإنما دعا مؤلفينا إلى هذا أنهم قابلوا بكلمة أدب الكلمة الإفرنجية وهي تدل على كل ما تسجله لغة في عصورها كلها أو بعضها وتخص أحياناً بما يسمى عندهم أي الكتابة الجميلة وهي الكلام البليغ من الشعر والنثر. فلما ترجم كُتَّابنا في معناها الخاص بكلمة أدب، وهي ترجمة صحيحة، ترجموها في معناها العام بكلمة أدب، وهي ترجمة تحمل الكلمة العربية أكثر مما شاع استعمالها فيه على مر العصور.

ولو استعملت كلمة (معارف) في هذا المعنى العام لكان أقرب إلى الوضع اللغوي وأبعد عن اللّبس.

وكان من الترجمة عن اللغات الأوربية أيضاً أن سمينا (كلية الآداب) ترجمة للتسمية ويقابلها بالإنكليزية فأطلقنا الآداب على اللغات وآدابها والفلسفة والجغرافية والتاريخ وجعلنا كلمة (آداب) مقابلة لكلمة علوم التي ترجمتا بها كلمة

عبد الوهاب عزام

على الشاطئ الحبيب

(مهداة إلى الصديق الدكتور أحمد موسى)

للأستاذ محمود الخفيف

كَمْ تَوَقَّفْتُ عِنْدَ شَطِّكَ حِيناً
فَمَلأَتَ الفُؤادَ شِعرْاً وَسَحْراً
تَتَمَلّى العُيونُ مِنْكَ جبيناً
من جبين الصباح أسْطَعُ فَجْرَا
أنتَ أشَهى طَلاَقَةً وسُكُوناً
وانهلالاً وأنتَ أجْمَلُ بِشرا
إنّ هذا السكونَ يَغْمُرُ نَفْسي
من لِقْلبِي بِرُقْيةٍ من سُكَونِكْ
من لروحي بِحُسْوَةِ المُتَحَسَّي
مَنْ صَفَاءٍ تذيعُهُ في فُنُونِكْ
ما لهذا الصَّفاءِ يُغْرِقُ حِسَّي
ما أراه إلا أرَقَّ لحُونِكْ!
يَا شِرَاعاً لا تَنْثَنِي عَنْهُ عَيْنِي
كيف يَسْهُو عن سِحْرِهِ مَنْ بَرَاهْ؟
نَامَتْ الفُلْكُ في سَلاَمٍ وَأَمْن
وسَبَى النِّيلَ حُسْنُهاَ وَأَزدَهَاهْ
فَجَلاَهَا لِلْعِيْنِ في صُورَتَيْنِ

يا لَحُسْنٍ تَهَزُّنِي صُورَتَاْه!
رَاعِنِي ظِلُّلهُ وَيا رُبَّ لَحْنٍ
عَبْقَرِيّ يَرِقُّ عَنْهُ صَدَاْه!
دَقَّ في حُسْنِهِ فَقَصَّرَ فَنِّي
وَبَيَاني وَفَاتَ جُهْدِي مَدَاهْ
مَنْظَرٌ تَرْكَنُ النْفُوسُ إِلَيْهِ
يَغْرِقُ الْهَمُّ فِي سَنَي رَيْعَانِهْ
يَهْتِفُ القَلْبُ بِالجَمَالِ لَدَيْهِ
وَيَفِيضُ الشَّجِيُّ مِنْ تَحْنَانِهْ ... لَمَحَاتُ الجمَالِ في إِبَّانِهْ
تَسْكُرُ الرُّوحُ إذ تَرِفُّ عَلَيْهِ ... فَتَوَلّي، فَرَاقَ فِي نَاظِرَيْهِ
بالسُّلاَفِ الشَّهيِّ مِنْ لَمَعَانِهْ ... مَا جَلاَهُ الخَيَالُ بَعْدَ أَوَانِهْ!
يَا لَعَانٍ تَنَازَعتْ أَصْغَرَيْهِ ... كُلُّ حُسْنٍ يَرِفُّ في مُقْلَتَيْهِ
فَهْوَ مَا عَاشَ فِي قَرَارِ جَنَانِهْ
هَكَذَا وَشْيُهُ وَسِحْرُ يديه
خَلَجَاتُ الجَمَالِ من وجْدَانه
قِفْ عَلَى الشَّطِّ ساعَةً وَتَأَمَّلْ
منظرَ النيلِ في سكونِ المسَاءِ
اجْتَلِ الحُسْنَ مِلْءَ عينيكَ وانْهَلْ
من صَفَاءٍ يُنسِيكَ كُلَّ صَفَاءِ
إيه يا نيلُ كَمْ يطوف بِقَلْبِي
عِنْدَ مرآكَ من بَهِيِّ المَعَاني
إن كبا الشِّعْرُ دونَهُنَّ فَحَسْبِي
أن أراني مُسَبِّحاً من بَياني
إيه يا نيلُ كَمْ بَنَيْتَ حَيَاةً
وَصَحِبْتَ الزَّمَانَ في خَطَرَاتك
قَدْ نَبَتْنَا على ثَرَاكَ نباتا
وطَعِمْنا الجَنِيَّ مِنْ ثمراتِكْ
لا تري الأرضُ ما حَلَلْتَ مواتا
إذ تسير الحياةُ في خُطُوَاتكِ
أنْتَ أَجْرَيْتَهُ شَهيّاً فُرَاتاً
كُلُّ حَيٍّ أَنفَاسُهُ مِنْ فُرَاتِك!
يا أخا الدَّهْرِ كَمْ وَلَدْتَ بُنَاةً
مَن عَلَى الأَرْضِ سَابِقٌ لِبِنَاتِكْ؟
إِن تكن قَدْ عَدِمْتَ حيناً رواةً
إن هذا الترابَ خَيْرُ رُوَاتِكْ
بشرُ واديك يقظَةً وَسُباتاً
أي شَئ أحلى لهُ من سباتك؟
الخفيف

أعلام الأدب

هوميروس

للأستاذ دريني خشبة

(إلى أستاذي الجليل أحمد حسن الزيات أهدي هذه الفصول)

لزمت هوميروس أعواماً ثلاثة أدرسه وأترجمه وألخصه فما ضقت به، بل ازددت له حباً وبه إعجاباً. وكنت كلما تركته فترةً أحسست شوقاً عجيباً إلى أدبه يجذبني ويلح على فأعود إليه فيخيل إلى أنه قد شرع يغني لي ويطلعني على صور غريبة رائعة من فنه الجميل لم أكن قد ظفرت بها من قبل، فأكب عليه عوداً على بدء، لأطوي الأحقاب الطويلة الماضية، ولأجلس في شرفة الزمان فأطل على أخيل وأجاممنون ونسطور وأجاكس وديوميدز وأوديسيوس في جانب المسرح، وعلى بريام وباريس وأندروماك وهيلين في الجانب الآخر، وبينهما ذاك الضجيج وذاك النقع، ومن حولهما آلهة الأولمب

يشتركون في الوغى ينصرون أو يخذلون ما أجمل هوميروس!
لقد اختلف المؤرخون فيه اختلافاً شديداً، لكن اختلافهم لا قيمة له ما دامت الإلياذة والأوديسة، وما دمنا لا نجد بداً من أن نعترف لهما بمؤلف استطاع أن يسجل شخصيته في كلتيهما وأن يطبعها بطابعه الخاص. . فلم لا يكون المؤلف هوميروس؟ وإن لم يكن هو مؤلفهما فماذا يضير الأدب إذا سمينا هذا المؤلف هوميروس؟ وهؤلاء المؤرخون الذين ينكرونه بغير حجُة ولا برهان إلا أنهم يستكثرون على عقل بشري واحد هذا الإنتاج الضخم والمحصول الكبير الذي يكوّن أدب أمة، والذي نهل منه شعراؤها وشعراء الأمم الأخرى في كل زمان ومكان، وما يزالون ينهلون. . هؤلاء المنكرون لهوميروس لم لا يصدقون هيرودوتس الذي هو أبو التاريخ والذي ذكر أن بينه وبين هوميروس أربعمائة سنة؟
ألا يكون التواتر صحيحاً في أربعة قرون ويكون صحيحاً في عشراتها؟ إن تاريخ هيرودوتس هو أصدق ما وصلنا من التاريخ القديم، وقد ذكر لنا هوميروس وذكر ملحمتيه، بل حدد يوم وفاته، وقد سمع المنشدين في كل فج من اليونان يرددون بالتواتر أغاريد من الإلياذة ومن الأوديسة ومن غير الإلياذة والأوديسة، وكان هيرودوتس خبيراً بأدب بلاده وبتاريخ هذا الأدب، وكان يعرف أن الإلياذة والأوديسة لم تكونا معروفتين بحالهما الذي تواتره الناس عن هوميروس، قبل هوميروس. . حقاً لقد كانت الأساطير التي حشدها هوميروس في ملحمتيه معروفة قبله بأجيال، لكنه كان أول من نظمهما في هذا العقد الجميل الرائع الذي قبس منه إسخيلوس وسوفوكلس، والذي حام حوله يوربيدز، والذي ظل مورداً لجميع شعراء الكلاسيك من غير استثناء
لقد كتب هيرودوتس تاريخه في زمن استقرار الحضارة اليونانية ونضوجها. . . ونحن نلمح في تاريخه روح النقد والتمحيص، والبحث والتحقيق، فهو إذا روى لم يثبت إلا ما يراه متفقاً عليه من الناس، فإذا رآهم يتفقون على شيء لا يطمئن إليه ضميره لم يبال أن يقول بعد إثبات ما اتفقوا عليه: أما رأيي فهو كيت، أو أنا أعتقد كذا. . . ولم يكن يبالي كذلك أن يدلي برأيه في الآلهة، فقد صرح أنه لا يدري من أين نشأوا، وأن شيئاً عن ذواتهم لم يكن معروفاً إلى زمنه. . . وذهب إلى أبعد من هذا فقرر أنهم جميعاً من صنع هوميروس وهسيود اللذين وضعا الإغريق ذلك الثبت الطويل من الآلهة وأنصاف الآلهة ثم راحا يوزعان عليهم ذلك الاختصاص العجيب من مقاليد البر والبحر والأفلاك والهواء والنور والظلمة والحكمة والفنون. . . وقد رفض ما ذهب إليه الشعراء من أن هذا التوزيع وذاك اللاهوت بطقوسه التي تعارفها الناس كانا موجودين قبل هوميروس وهسيود. . . وأكد أهن الميثولوجيا اليونانية كلها لم تعرف إلا بعدهما . . .
إذا كان هيرودوتس قد ولد سمنة 484 قبل الميلاد، فليس يبعد أن يكون هوميروس قد ولد سنه 884 أو حوالي ذلك. . . أو أنه قد عاش بالفعل في القرنين التاسع والثامن. . . أما ما قيل غير ذلك فلم تقم على إثباته حجة، ولم يؤيده برهان
وتتنازع فخر مولده مدائن شتى. على أن الذي حققه المؤرخون ويؤيده ما جاء في ترتيلة أبولو أنه من مدينة خيوس الواقعة في الشاطئ الشرقي من الجزيرة المسماة باسمها والقريبة من مدينة أزمير، وهو لهذا إيونيوي (من إيونيا) بدليل أن أقدم نسختين من الإلياذة والأوديسة مكتوبتان بلغة إيونيا ويختلف المؤرخون في اسمه وفي معناه، فيذكرون له أسماء معقدة لا داعي لذكرها هنا. . . ثم يفسرون أسمه فيقولون إنه يعني (أعمى) وإلى ذلك ذهب
هيرودوتس وهو يعلل ذلك بأن الاسم (هوميروس) مركب من هو - مي - أورون - ومعناها: الرجل الأعمى. ويتعصب هيرودوتس لهذا التأويل بالرغم من وجود تفاسير أُخر قد تكون أقرب إلى المقول من تفسيره هو. . . ذلك أن بعض القدماء يقولون: إن كلمة هوميروس قد تكون مشتقة من (هوميريدا). وهي اسم لإحدى العشائر التي كانت تقطن جزيرة خيوس آنفة الذكر، وقد قطنوها برغمهم لأنهم كانوا أسرى حرب (رهائن) نفوا إلى تلك الجهة. وذاك بدليل أن كلمة هوميروس نفسها تحمل معنى أسير تحت الفدية أي رهينة حرب
ولم يضمن هوميروس إحدى ملحمتيه الخالدتين اسمه كما صنع هسيود في منظومته العظيمة (ميلاد الآلهة وتناسلها) فقد ذكر في مقدمتها اسمه الصريح. ثم ذكر في

قصيدته الأخرى (الأرجا كيف هاجر من كيمي إلى أسكرا، وكثيراً من حياته الخاصة وحياة أهله. ولو قد صنع هوميروس مثل هذا، أو شيئاً من هذا لما وقع المؤرخون في هذا الخلط الكثير عن شخصه وعن زمانه وعن حقيقته.

ولم يشر قط إلى السبب الذي ذهب ببصره؛ ويؤكد المؤرخون أنه قضى شطراً عظيماً من عمره بصيراً سليم العينين بحيث استطاع أن يقرأ ويكتب ويسجل كثيراً مما نظم.

ويذهب بعضهم إلى أنه بدأ نظم ملحمتيه - أو إحداهما - وهو بصير معافى وكل ما جاء في ذلك لا يعدو إشارة طارئة في آخر ترتيلة أبولو يخاطب فيها العذارى اللائى كن يغنين إلى إنشاده: (إذا سألهن أيما ظاعن أي المنشدين أحب إليهن وآثر إلى قلوبهن أن يجبن على الفور إنه رجل أعمى من قطان خيوس الجبوب المعزاء وإن أغانيه يخلدان آخر الزمان!)

وحتى هذه الفقرة لم تسلم من تشكك المؤرخين في قائلها، هل هو رواية هوميروس، أو هو هوميروس نفسه!

هذا ولقد كان للإغريق أدبهم وأشعارهم وأغانيهم وموسيقاهم قبل هوميروس. وليس معقولاً أن هوميروس هو الذي بدأ ذلك جميعاً، لأن ذاك الكمال أو ما يقرب من الكمال الذي جاء في ملحمتيه لا يمكن أن يأتي طفرة. . . وإذا صدقنا هيرودوتس يكون هوميروس صاحب فضلين على سكان هيلاس - اليونان - كافة. . . فهو الذي صنع آلهتهم وأنشأ بذلك لاهوتهم الوثني العجيب، ووزع ما في الحياتين الأولى والآخرة على هذه الآلهة وتلكم الأرباب. . . ثم هو الذي بدأ نظم الملاحم الطوال ودبجها هذا التدبيج المتألق البراق، مستغلا أساطيرهم القديمة، وذاك الفوكلور الساذج الذي يفيض به تاريخهم القديم والثابت أن هوميروس لم ينظم الإلياذة والأوديسة للقراءة والاستمتاع الأدبي، بل هو قد نظمهما للتلاوة والإنشاد في المحافل ومجامع السمر، إذ كان من دأب دويلات بحر إيجة استدعاء الشعراء والمنشدين والمغنين لإحياء أفراحهم وبعث المرح في حفلاتهم.

وقد حفظ لنا الأثر أسماء أورفيوس وميوزيوس ولينوس وغيرهم من شعراء عصر البطولة ومنشديه وموسيقيه. الذين سبقوا هوميروس إلى نظم الخرافات وقرض الأساطير، متأثرين في ذلك بقصص الشعوب السامية في مصر والشام وأساطير الفرس والبابليين. ولم يحفظ لنا التاريخ شيئاً من آثار هؤلاء الشعراء، اللهم إلا نتقاً مما كان يستشهد به اللغويون مؤلفو المراجع للتدليل على صحة كلمة أو سلامة استعمال، وهو شيء يسير ليس فيه غناء

وقد سهلت اللغة اليونانية القديمة على شعرائها الكلاسيكيين عملهم، وجعلت نظم الملاحم الطوال من أيسر الأعمال الأدبية وأهونها عليهم. . . ذلك أنها لغة واسعة شاسعة استوعبت لهجات كثيرة لمختلف القبائل والبطون والأفخاذ الضاربة في شطئان البحر الإيجي، وقد تهيأ لها بذلك ما تهيأ للسان قريش من كثرة المترادفات وليونة التعبيرات وتعددها

ولم يكن نظم الملاحم للتلاوة يستدعي فنية الأسلوب أو صقله بحيث يحتاج مجهوداً أو يلتفت فيه الناظم إلى ما يلتفت إليه شعراؤنا من التهذيب والتطرية البيانية والزخرف الصناعي. . . وقد يحسب قارئ أدبهم أنه من عبث أطفال كما قال قدماء المصريين مرة لصولون. . . وقد كان المصريون معذورين في قولهم هذا، فلقد كانوا يعنون بالجد الصارم من أمور الحياة أكثر مما كانوا يلتفتون إلى هذا القريض الطويل الشعبي يهرف به الشعراء والمغنون.

والحق أن روح الطفولة شائعة في ملاحم اليونان كلها ولم تظهر العناية القليلة بالأسلوب إلا في شعراء الدرامة، ثم في شعراء الإسكندرية بعد ذلك. وهذه الروح واضحة في هوميروس وضوحا شديدا، فهو لا يعني إلا بالحادثة، وكثيرا ما يتحاشى (الرتوش) والتهاويل المملة والزخارف اللغوية التي لا تتهيأ إلا في الأثر الأدبي الذي يؤلف للقراءة لا للإنشاد أو للتمثيل. وهو لهذا يحصر انتباه سامعيه في صميم القصة، وقل أن يشرد بهم خارجها كما يصنع شعراء الرومانتيك. وقل كذلك أن يستعمل الأصباغ لتطرية بيانه كيما يستر فيه ضعفاً أو يعوض السامع بفخامة العبارة تفاهة الموضوع، فهو دائماً يلتزم الروح ولا يلتفت إلى دمام الجسم إلا بقدر، وإلا في حدود النظم الذي أخذ به نفسه في الملحمة

وفي ذلك يقول الأستاذ بورا: (إنه يكتب - أو ينظم - لكل الناس وليس لطبقة بعينها من الناس)
وقد ساعد هوميروس تقلبه في البلاد في هضم اللهجات المخلفة في الأصقاع المتدانية اليوم - المتنائية يومئذ - التي زارها. ونحسب أنه من أجل ذلك تنازعت فخر مولده هذه المدائن السبع التي فعلت ذلك، فقد كان يقيم حقبة بكل منها فينشد إلياذته - ولما يكن قد نظم الأوديسة - ويغنيها بلهجة الجهة التي هو مقيم فيها فيتقن إنشادها بهذه اللهجة إتقاناً لا يدع أثارة من الشك في أنه من أهلها. . . وهنا ملاحظة طريفة انتبه إليها كل من برتون راسكو الأديب الناقد الأمريكي وجلبرت موري - المؤرخ الثقة في الأدب اليوناني - ذلك أنه لا بد أن يكون هوميروس قد نظم الإلياذة مرتين. تُتلى إحداهما في بلدان الشاطئ الأسيوي وفيها يُغَلَّب أبطال طروادة على أبطال هيلاس. . وتتُلى الأخرى في بلدان هيلاس، وفيها يُغَلَّب أبطال هيلاس على أبطال طروادة ويُظفرهم بهم. . . وبغير هذا لم يكن يستطيع أن ينشد إلياذةً واحدة في كلا الشاطئين. ولو صح أنه فعل لثار به الأهلون بفعل العصبية ولمزقوه إربْاً. . . لأنه كيف يترك أخيلا مثلاً يقتل هكتور وهو ينشد هذا الشعر لأحلاف هكتور وأهله. . . وكيف يسيغ أن يترك هكتور يقتل أخيلا إذا كان الإنشاد للملأ من مواطني أخيل؟
غير أن هذه الملاحظة ما تزال تفتقر إلى ما يثبتها، لأن الإلياذة التي بأيدينا هي التي كانت تنشد وتغنى في هيلاس
(البقية في العدد القادم)
دريني خشبة
. . .لو كان. . . لكان
للشاعرة ليلا هويلر ولككس
بقلم السيدة الفاضلة (الزهرة)
إننا نكون في الحالة التي نستطيع بلوغها فلا تقولوا:
لو لم يكن كيت وكيت، لكان تحقق لنا هذا الأمر أو ذاك فليس في تصاريف الحوادث والحظوظ والعوارض ما يمكن أن يثنينا عن النهج الذي اختارته لنا القدرة العلية ولا يقدر على جلائل المدارك ومعالي الأمور إلا كل ذي همة قعساء.
إننا نؤدي الأعمال التي نرغب في أدائها، ونقدر على إنجازها، فإياكم أن تحلموا وتكتفوا بالأحلام، فإن الفرصة تتخلى عن البطل ولا تواتيه، وإنما تغادره حزيناً غير متوج
وإني لأعتقد أن جميع الناس تنم عنهم ظواهرهم وتبدو سيماهم على وجوههم ويعرفون من ثمارهم
. . .والفعّال الحق هو الذي يستطيع أن يعمل في حزم، وينفذ في جدّ
إننا نختار المراقي التي نستطيع تسلقها، فلا تحدثوني عن القواصف الهوجاء التي صدتكم عن تسم الذروة
وأي نسر ضل سبيله عن المرتقى الذي كان يلتمسه ولم يدرك المصعد الذي اتخذ إليه سمته. . .؟
حقَّاً إن الذي يزجم منكب الجوزاء فيتذرى الأوج دائماً، هو الذي يجد في طلابه
ولشدّ ما أمقت هذه العبارة القائلة: (لو كان. . . لكان) فإنها خلو من كل حوْل وقوة، مشوهّة لأجمل حقائق الحياة
وإني لأعتقد أننا ننال وندرك كل ما ينبغي أن يكون أجراً لكدحنا وجزاء لجهادنا
(الزهرة)
بيني وبين نفسي
للأستاذ على الطنطاوي
نظرت اليوم في سجل ميلادي، فوجدتني على أبواب الثلاثين فتركت عملي وجلست أفكر. ماذا بقي لي من هذه السنين الثلاثين يا أسفي! لم يبق إلا ذكريات واهية تحتويها بقية قلب تناثرت أشلاؤه على سفوح قاسيون في دمشق، ومسارب الأعظمية في بغداد، وغابات الصنوبر في لبنان. . . إي والله، وعلى طريق الأهرام في مصر، وضفاف (الشط) في البصرة، وحوائط النخيل في يثرب أشلاء من قلبي وأشلاء. . . فماذا أفدت من عمري الضائع وشبابي الآفل؟ لا شيء! لا مجد ولا مال ولا بنين. لم أفد إلا اسماً مشى في البلاد فحمل قسطه من المدح والذم، والتمجيد واللعن. ولكني كنت في

معزل عن هذا كله فلم ينلني منه شيء.
إن اسمي ليس مني. إنه مخلوق من حروف، ولكني إنسان من لحم ودم. فهل تشبعني الشهرة، أو يكسوني الثناء؟ ولم أملك إلا قلباً أحبّ كثيراً، وأخلص طويلاً، ولكنه سقط كليماً على عتبات الحب والإخلاص، ورأساً حشوته بما وجدت من العلوم والمعارف فأثقلته علومه عن التقدم، فاحتلت مكانه الرؤوس الخفيفة الفارغة. . .
فيا ليتني علمت من قبل أن الحياة مثل اللجة، يطفو فيها الفارغ ويرتفع، وينزل الممتلئ ويغوص
إني لأتصور الآن كيف كنت أنظر في طفولتي إلى أبناء الثلاثين، أولئك الشباب الكمّل الذين بلغوا قمة الحياة وعرفوا الاطمئنان والاستقرار، فأجد بيني وبينهم بوناً شاسعاً، وأرى أني لن أبلغ الثلاثين أبداً. . . ذلك لأن كل ما أعلمه أني ولدت وأنا أبن أربع سنين. فأدخلت المدرسة. فكنت أعيش فيها سنة لأنجح في الامتحان، وأرتقي من صف إلى صف، وأستمتع بالعطلة. فلما أكملت دراستي العالية ولم يبق من مدرسة، ولم يبق امتحان وقفت فلم أتقدم، وفقدت غايتي فلم أعد أحس أني أعيش؛ ثم تلفتّ إلى الماضي أعيش بذكراه، فأصبح كلما انقضى عليّ عام رجعت فيه سنة إلى الوراء، فأنا أصغر كلما كبرت، وأدنو من الطفولة كلما نأيت عنها. فمتى أبلغ الثلاثين، وأين أحط رحالي بعد هذا المسعى؟
وغشيت قلبي غاشية من غّم، فأشعلت عوداً من الكبريت لأوقد دخينة، وكنت في ذهلة فسرت النار في العود ثم تأججت وتوقدت، وأنا أنظر إلى اللهيب جامد العين محدقاً في عالم بعيد الغور حتى أحسست بحرارة النار في يدي، فانتبهت وألقيت العود، فإذا هو قد استحال إلى فحمة سوداء ضعيفة تطير مع النسيم. . . فقلت: هذه هي الحياة. إن الألم الذي أحسسته يلذع نفسي هذه العشية كلذع النار أصبعي، سينتهي بي إلى مثل هذا المصير. سأمضي كما مضى هذا العود، ولكني لا أخلّف ورائي شيئاً. لن أدع مالاً ولا جاهاً ولا عملاً، لأني اشتغلت وا حسرتي بالأدب. .
ويا ليتني تفرغت بعد الأدب، ولم يستغرق حياتي الكدح للعيش. . . إني لم أعمل شيئاً. إن في رأسي وقلبي شيئاً كثيراً، ولكن قلمي مكسور، ودواتي جافة، ولساني مشدود بنسعة، فأنا لا أستطيع أن أقول. . .
عندي ألحان كثيرة، فأنا أحب إن أغني، ولكن الغناء يستحيل من الضيق إلى زفرات تخرج مقالات فيحسبها الناس ألحاني كلها، إلا أن ألحاني لا تزال في صدري لم يسمعها بشر.
وماذا ينفعني أن يسمعها الناس فيطربوا ويصفقوا وأتفرد أنا بالخيبة والألم؟ إن الناس لا يألفون إلا الأغاني الفارغة المدوية، فلتبق أغاني العذبة في صدري، أسمعها وحدي من غير أن يتحرك بها لساني، لأن لساني مشغول بإلقاء الدرس!
كل ما أكتب زفرات متألم وإشارات أخرس، فهل يأتي اليوم الذي تنحسر فيه الزفرات عن الأغاني والإشارات عن الألفاظ والمعاني. . .؟
على أن هذه الزفرات وهذه الإشارات عزاء نفسي، فكم لهذه (الرسالة) من فضل عليّ، وكن من الفضل لهؤلاء الأدباء الذين يستطيعون أن ينقلوني من دنياي هذى الضيقة، إلى دنيا واسعة تطير روحي في أجوائها حرة طليقة! فهل يدري الزيات، أو هل يدري معروف الآرناؤوط، أني طالما أحييت الليالي الطويلة في فرتر وروفائيل وسيد قريش وعمر بن الخطاب، وأني طالما لجأت إليها أقرع بابها وأتواري وراء سورها في جنان سحرية لا أستطيع أن أصفها بأكثر من إعلان العجز عن وصفها؟ فأي عالم في رأس معروف، وأي دنيا في صدره؟ وأي نبل وسمو في هذه اللغة، لغة معروف ولغة الزيات ولغة الرافعي هذه التي تتيه بجواهرها ولآلئها على حين تمشي لغات كتاب العصر بأسمالها البالية ومزقها المخرَّقة. . . لغة فخمة تشعرك بالسيادة والعظمة، لا كهذه اللغات الهزيلة العارية. . .
وكم من الفضل لهيكل عليَّ، فلقد سلخت في قراءة كتابه (منزل الوحي) أياماً كنت أعيش فيها في عهد النبوة، ولقد مررت بهذه البقاع التي يصفها، وأثارت في نفسي عوالم من الذكريات والآمال والخواطر، فإذا أنا أجدها كلها وأجد أكثر منها في كتاب هيكل. . .
هذه هي الواحات التي لقيتها في صحراء حياتي، في سفر الثلاثين سنة، فلولا عالم

لإمرتين أنفذ إليه من خلال نفس الزيات ولغته البارعة، وأسلوبه السماوي الذي أسمع غناء كلماته وهتافها في كل جملة، حتى كأن كل كلمة يقرنها الزيات بأختها عروس تزف إلي بعلها؛ فأنت حين تقرؤه أبداً في عرس، تشم عطره، وتسمع غناءه، وتحسَّ في نفسك طربه. ولولا معروف وعبقريته، ولولا هؤلاء المؤلفين الذين قبست منهم السعادة والاطمئنان، كانت حياتي صحراء قاحلة، وما كنت أطيق الحياة. أفليس أكبر المكافأة للكاتب أن يعيش على آثاره للناس؟

يا رحمة الله على تلك الأيام. أيام كنت أغلق فيها بابي عليّ. . . ثم أقبل على كتبي أجالس فيها العلماء والأدباء، وأجد في حديثهم الصامت لذة ومتاعاً. كنت أقرأ لأني كنت أجهل الحياة، فلما عرفتها لم أعد أطيق قراءة ولا بحثاً. ولماذا أقرأ؟ ولماذا أتعلم؟ ولماذا أكون فاضلاً والحياة حرب على أهل العلم والفضل، والناس كالحياة لأنهم أبناؤها وتلاميذها

إلا يحيا الكاذب المنافق سعيداً موقراً، ويموت الصادق الشريق فقيراً محتقراً؟ ألا يصدق الناس الشيخ المشعوذ لأنه يدخل إلى نفوسهم من باب الدين ويكذبون العالم الفاضل؟ أليس طريق الشعبذة وادعاء الكرامات والمخرقة على الناس بعلم أسرار الحروف، واستحضار المردة، واستخراج الجنّ من أجسام بني آدم، آثر عند عامة الناس من العلم الصحيح والأدب المحض؟ ألا يتمتع هذا اللص بالثقة التي لا يحلم بها عالم متخصص أو باحث مدقق، وتنهال على يده الأموال، وتزدحم على يده الشفاه؟ إلا يبلغ المنافق ذو الوجهين أعلى المراتب وأسماها ويبقى الصادق الشريف في الحضيض؟ ألا يركب الجاهل في السيارة الفخمة، ويسكن القصر العظيم، ويحتل المرتبة العلمية العليا، ويمشي العالم إلى بيته الحقير لا يدري به أحد؟

أليست أسواق الرذيلة عامرة دائرة، وأسواق الفضيلة دائرة بائرة؟

إلا يظفر الكاذب المفتري بالبريء؟ ألا يغلب القوي الضعيف؟ ألا ينتصر المال على العلم؟

فلماذا أقرأ؟ ولماذا أتعلم؟ ولماذا أكون فاضلاً؟

وقمت وقد صفيت حسابي مع الحياة، فإذا أنا قد خسرت ثلاثين سنة هي زهرة عمري وربيع حياتي ولم أربح شيئاً. . .

على الطنطاوي

الأمل. . .

(إذا كانت الحياة وردة، فان الأمل كمامها)

للأستاذ ابن عبد الملك

أجل يا صديقي مُسِّيه: الله في السماء والأمل في الأرض! وبين رَوْح الله المؤاسي، ومَدد الرجاء الآسي، تندمل الجفون القريحة، وتلتئم القلوب الجريحة، وتنتعش الجدود العاثرة

الكروان يموت فرخه في المساء وفي الصباح يرقص ويصدح، والشاة يُذبح حَمَلها في الحظيرة وفي المروج تثغو وتمرح، والقلب يُقطع من القلب، والروح تُنزعُ من الروح، ثم يعيش المحب بعد حبيبه، والوالد بعد ولده، كما يعيش النهر الناضب في ارتقاب الفيضان، والروض الذابل في انتظار الربيع!

لله على الناس نعمتان لا يطيب بدونهما العيش ولا يُبَلغ إلا عليهما العمرُ: النسيان والأمل.

ماذا كان يصنع الأسى بالقلوب الوالهة

إذا لم يمح النسيان من الذهن صورة الحبيب الراحل أو الهاجر؟ تأمل حالك يوم فجعك الموت في عزيز عليك، أما كنت تجد لهيب الحزن متصلاً يوقد صدرك من غير خُبُوّ، ويذيب حشاك من غير هدنة؟

تصور دوام هذه النار على نياط القلب وأعصاب الجسد، ثم قدر في نفسك الحياة على هذه الصورة. على أنها والحمد الله لا تدوم؛ فإن الجبار الذي سلط الألم على الروح، هو الرءوف الذي سلط الزمن على الألم. فالزمن لا ينفك يسحب الأيام والليالي على الصور والآثار حتى تنطمس المَشابه، وتعفو الرسوم، ولا يبقى من المفقود إلا صورة لا تنطق، ولا من الجرح إلا ندبة لا تحس

وماذا كان يفعل اليأس بالنفوس المكروبة إذا لم يفتح الأمل أمامها فرجة في الأفق

المطبق وفسحة من الغد المجهول؟
يا ويلتا للفقير يعتقد أن فقره يدوم بدوام الحياة، وللمريض يرى أن مرضه ينتهي بانتهاء الأجل! ويا بؤسَ للحياة إذا لم يقل المأزوم والمحروم والعاجز: إذا كان في اليوم قنوط ففي الغد رجاء، وإذا لم تكن لي الأرض فستكون لي السماء!

ابن عبد الملك

على هامش الفلسفة

اختلاف الأفكار والنظريات الأخلاقية

للأستاذ محمد يوسف موسى

مدرس الأخلاق بكلية أصول الدين

قلنا في الكلمة الأولى: إن الأخلاق تعتبر علما من العلوم إذ كانت تصل في بحوثها إلى آراء وحقائق أخلاقية تبلغ من العموم وقبول الناس لها مبلغ الحقائق العلمية. ولكن هل توجد هذه الحقائق العامة للجميع؟

مذهب الشك الأخلاقي ينكر وجود أمثال هذه الحقائق التي يقبلها الناس جميعاً: البيض والسود، والحمر والصفر؛ لأن القواعد الأخلاقية ليست إلا عادات وتقاليد تختلف باختلاف العصور والبيئات؛ وليس يعوزنا أن نجد لهذا الرأي سندا في التاريخ. هذا مؤُنْتَاني الفيلسوف والأخلاقي الفرنسي المعروف، بعد أن جمع كثيراً من الآراء والأحكام الأخلاقية، يؤكد هذه النظرية بقوة حين يقول: لا يوجد شيء أكثر اختلافا بين أمم العالم بأسرها من العادات والقوانين. كثيراً ما نجد أمراً ممقوتاً هنا ممدوحا بل موصى به هناك؛ في إسبارطة كانوا يمتدحون المهارة في الفن ويتواصلون بها بينما كان محرما عند غيرهم؛ وقتل الآباء المعمرين إشافقا عليهم من تحمل أعباء الحياة وتكاليفها نراه مباحا بل مأمورا به لدى بعض القبائل التي لا تزال في دياجير الظلام، وأخيرا لا يوجد أمر غير مرضي هنا إلا ويكون محمودا عند أمة أخرى).

وباسكال الفيلسوف الفرنسي الذائع الصيت استعاد بعض ما أتى به مُونْتَاني من مثل وحجج، وأتبع ذلك بفيض من فصاحته اللاذعة إذ يقول: (لا يوجد تقريباً شيء عادل أو غير عادل إلا ويغير من صفته تغير إقليمه؛ ثلاث درجات في الارتفاع إلى القطب تقلب رأسا على عقب كل ما عرف من عدالة. خط واحد من خطوط الزوال يتحكم في الحقيقة والحكم الخلقي - الحق له أزمانه وبيئاته، عدالة مضحكة هذه التي يحدها نهر! حقيقة أمام جبال البرينيه خطأ وضلال وراءها)

حقيقة أن التاريخ وعلم الاجتماع ليؤكدان أن القواعد اختلفت باختلاف العُصُر، كما اختلفت

وتختلف في العصر الواحد بحسب البيئات. الرق كان نظاماً معروفاً لدى العبرانيين والمصريين القدماء والهنود والصينيين والعرب في الجاهلية، وإن اختلقوا شدة ولينا وقسوة ورحمة في معاملة الأرقاء. كما كانت الجمعية الإنسانية في المدينة الإغريقية - التي يفخر بها الأوربيون اليوم - تقوم على استرقاق فريق من المواطنين؛ حتى أن أرسطو بجلاله قدره يبرره لاعتبارات مختلفة: منها أنه لابد من العبيد ليتوفر الرجال الأحرار على الدراسات العقلية العالية، وأنه يوجد أناس بلغوا من السفالة والضعة أن يفهموا أنهم خلقوا للاستعباد. كما لم تمنعه الديانة المسيحية ولا الدين الإسلامي أيضاً؛ وإن لم تنبه الشريعة الإسلامية كغيرها على أن من الناس من خلقوا للذل والهون، ومن لا ترتفع بهم طبائعهم إلى مراقي الأحرار بل جعلت سببه أمراً واحداً: هو الكيد للإسلام ومحاربة الله ورسوله، ثم تدور الدائرة عليه.

هكذا كان الرق نظاماً معروفاً في الأزمان الماضية؛ أما في أيامنا هذه فقد صار معتبراً من أشنع المظالم الإنسانية، وغدا محرماً تحريماً باتاً.

لنترك الآن حق الحرية الشخصية وما كان فيه من اختلاف، لنلقي نظرة على حق الحرية الفكرية لنعلم ماذا كان حظه من تقدير الناس واتفاقهم عليه كحق عام يجب أن يتمتع به الجميع.

في العصور المتوسطة كان عدم التسامح الديني لدى المسيحيين مبرراً لا نكير فيه. ما كان أكثر رجال الدين الأعلام الذين كانوا يؤكدون أن الحقيقة لها كل الحقوق ومن بينها اضطهاد الضالين - في رأيهم طبعاً - بوساطة القوة! وأية حقيقة هذه التي كانوا يتكلمون عنها؟ إنها الحقيقة التي يعتقدونها، أي حقيقة كنيستهم؛ فالتعاليم التي تتعارض

وتعاليم كنيستهم كلها ضلال، كلها إلحّاد، كلها جرائم موجهة ضد الإرادة الإلهية فهي حرية بأشد العقاب. هاهو ذا سانت أوجسْتينْ مع رجاحة عقله وسمو فكره يوصي بالالتجاء للإكراه لهداية الضال حينما تعوز الحيلة ولا ينجح الإقناع. وكذلك سانت توماس (أبعد رجال الكنيسة الغربية ذكراً: 1226 - 1274) يقول في بعض ما كتب: إذا كان المزورون والمجرمون يعاقبون عدلاً بالإعدام، فحري بنا أن يكون جزاء الهراطقة الخوارج عن الدين لا الحرمان الأبدي من الكنيسة فقط بل الموت الزؤام. وقد كان من أثر هذا التعصب الممقوت ما يذكره تاريخ فرنسا من المذابح التي سالت فيها الدماء أنهاراً بين الكاثوليكيين ودعاة الإصلاح الذين اعتبروهم ملاحدة خرجوا على الدين.

ولسنا في حاجة لذكر ما كان من محاكم التفتيش في أسبانيا النصرانية، وما أنزلته بالأبرياء من عذاب لا لشيء إلا حداً من حرية الدين والفكر، ولا لما كان من تعذيب بعض سادات قريش وغير قريش في الجاهلية لبعض الذين هداهم الله للإسلام ليعودوا مشركين. لسنا في حاجة لذكر هذا وأمثاله لنتبين كيف كانت عقلية الناس حتى كبار الأحلام في تلك الأيام! أما في أيامنا هذه فيعتبر عدم التسامح سبة وجريمة أخلاقية مهما كان سببه ومأتاه. العقول الحرة تأباه وتجده مرذولاً، وغالب رجال الأديان يمقتون الإكراه في سبيل نشر ما يعتقدون (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء. لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي. فمن يكفر بالطاغوت، ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها، والله سميع عليم).

على أننا نقول إن الأمر كاد في هذه الناحية يعود قريباً من سيرته الأولى: أحداث تجد، وأفكار تتغير، وأنماط في الحكم تستحدث في بعض دول أوربا تقيد بل تلغي حريات الناس. فلا يفكرون إلا بقدر، وعلى ما يهوى السادة الحكام!

ثم حقوق النساء؛ أترى الناس كانوا فيها على اتفاق؟ لا. إن التاريخ شاهد صدق على اختلاف الناس فيها اختلافاً كبيراً. كان الأثينيون - وهم من تعلم مدنية وحضارة في الأزمان الماضية - يرون المرأة سلعة تباع وتشترى، وجعلوا مهمتها في الحياة تربية الأطفال وتنظيم البيوت. واليهود أباح بعض طوائفهم للأب بيع ابنته وهي قاصرة. وفي فرنسا قديماً بلغ من امتهان المرأة وهوانها عندهم أن عقد في بعض الولايات الفرنسية مؤتمر عام سنة 586 م، اخذوا يبحثون فيه حالة المرأة ومركزها في المجتمع، وما إذا كانت تعد إنساناً أو غير إنسان، وانتهى الأمر بتقرير أنها إنسان؛ ولكن خلقت لتخدم الرجل ليس غير! ولا تنس ما كان من وأد بعض عرب الجاهلية بناتهم، ومن اعتبار المرأة كالمتاع تورث عن أبيها وزوجها. والآن تغير هذا كله، وأصبحت المرأة مساوية للرجل إلا في بعض حقوق يرى بعض الأمم من الصالح العام عدم منحهن إياها

وإذا كانت النظريات والآراء الأخلاقية تختلف في الأمة الواحدة باختلاف الزمن، فهي كذلك مختلفة في الزمن الواحد باختلاف البيئات. بينما نرى في هذه الأيام الناس الذين هم على الفطرة كسود استراليا يعتقدون دينيّاً قدسية بعض أنواع النبات والحيوان، فيكون الموت جزاء من يجرؤ على أكل شيء منها كما نرى البراهمة في الهند يقدسون البقرة ويعتبون أكبر الجرائم قتلها أو الأكل من لحمها، وتقوم بينهم وبين مواطنيهم المسلمين لهذا السبب المعارك الدامية - بينما يرى هذا وأمثاله كثيراً، نرى كثيراً من سود أفريقيا يستحلون بل يفضلون أكل لحوم البشر من أعدائهم الذين يسقطون في ميدان الحرب، أو عبيدهم الذين يعنون بتسمينهم ليكون منهم غذاء دسم شهي، أو أقاربهم الذين نالت منهم السنون وعجزوا عن احتمال أعباء الحياة

في مقابل هذا وذاك نجد بعض البوذيّين الدينيين كرهبان الهند الصيني يعدون جريمة قتل أي كائن حيّ مهما كان؛ ويصل الأمر بهم إلى ترشيح مياه الشرب حتى لا يبتلع أحدهم أثناء شربه أية حشرة حقيرة غير مرئية فيكون في ذلك موتها. أما نحن فنتخذ موقفاً وسطاً بين الفريقين احترام الحياة الذي يعده هؤلاء الرهبان حقاً مقدساً لكل حي لا نراه حقاً إلا للآدميين، ولا يعترف به أولئك المتوحشون إلا لعدد قليل كأسرة الشخص أو قبيلته أو أفراد قريته

كذلك الانتحار الذي يحرمه الدين الإسلامي وتنكره المدنية الأوربية الحالية، يعده

اليابانيون تقليداً وطنياً طيباً، ويرونه واجباً في كثير ما الحالات؛ ينتحر الياباني حين يرى أنه جُرد من شرفه أو عانى سقوطاً فاضحاً كبيراً، وينتحر احتجاجاً على ظلم ارتكب، أو نحو ذلك من العوامل الأخرى التي تجيزه في رأيهم. ذكر الأستاذ شالِيْ في كتاب له عن اليابان بعد رحلة إليها طائفة كبيرة من حوادث الانتحار وعوامله؛ منها: أن ضابطاً انتحر سنة 1891 ليلفت نظر الحكومة والرأي العام إلى تعدي الروسيا على بعض النواحي في شمال اليابان، وأنه في سبتمبر سنه 1892 انتحر الضباط الكبار وزوجته أثناء سير جنازة الإمبراطور إظهاراً لإخلاصهما له وعدم رغبتهما في الحياة بعده وحرمة مال الغير لم تكن دائماً حقاً مقدساً لكل إنسان. التاريخ يقفنا على أن الغارات على الآمنين من القبائل الأخرى كانت من أبواب الارتزاق لدى كثير من الأمم في جاهليتها؛ واليهود كانوا يرون مال الغير - أي غير اليهود - حلالاً سائغاً لهم: (ومنهم من أن تأمنه

(بدينار لا يؤده إليك إلا مادمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل من السهل مضاعفة هذه المثل والإتيان بغيرها مستمدة من حياتنا الحالية وتقاليدنا المختلفة في الصعيد أو الوجه البحري مثلاً من مصر، وخاصة فيما يتصل بالأفراح والمآتم وعادات أخذ الثأر والانتقام، مما يؤكد أن الآراء والأحكام الأخلاقية تتغير مع الزمن وتختلف مع الأوساط والبيئات

ولكن هل من الحق رغم تضافر هذه الشواهد كلها أن ننكر أن هناك حقائق أخلاقية عامة سايرت العُصُر وسادت في جميع البيئات؟ بيان ذلك في الكلمة الآتية إن شاء الله

محمد يوسف موسى

التاريخ في سبر أبطاله

محمد شريف باشا

كان شريف في عصره رجلا اجتمعت فيه الرجال وكانت

مواقفه توحي البطولة وتخلق الأبطال

للأستاذ محمود الخفيف

ساقت الأقدار ولاية العهد لإسماعيل فاستبشر الناس وارتقبوا عهد هذا الأمير الذي ذاع من صفاته فيهم ما حببه إليهم، وكانوا قد علموا أنه من ذوي النباهة والحزم وبخاصة في شؤون المال! ولم يطل ترقب الناس، فقد آل إليه الأمر عام 1863 م وراحت مصر تستقبل طوراً من أطوار تاريخها، نحار أشد الحيرة ماذا نسميه وبأي الصفات ننعته. . طوراً كان غريباً حقاً، تترك غرابته العقول في دهشة شديدة وتكلف من يريد الإنصاف في درسه عسراً شديداً

ما برحت فرنسا وإنجلترا تراقبان الحوادث في وادي النيل؛ أما فرنسا فكانت لا تني تعمل على أن تزيد نفوذها الأدبي في مصر، ذلك النفوذ الذي وضعت أساسه حملتها في هذه البلاد والذي ما فتئ يتزايد ويعظم في عهد محمد على، وهاهو ذا في عهد إسماعيل قد بلغ غايته حينما اتصل في عهده البحران واستطاع ديلسبس أن يجري بينهما تلك القناة التي سوف تغير مجرى تاريخ هذا الوادي. . وأما إنجلترا فكانت على سياستها تحول دون ظهور قوة في مصر، وقد استراحت من محمد على وراحت اليوم تقف في وجه حفيده وتحرص على أن يظل خاضعاً للخليفة، ولما التقى البحران أصبح همها متجهاً إلى السيطرة على مصر لتسيطر على القناة

وكان شريف من رجال هذا الطور في الصف الأول ولكن كان ذلك من الوجهة الرسمية فحسب، فلقد لبث من عمره سنين لا تحس مصر شيئاً مما ظهر له من خطر في أواخر ذلك العهد. . . شهدت مصر في هذا الطور جلائل الأعمال ومظاهر الاستقلال، كما شهدت عوامل البلى وعناصر الانحلال. شهدت يد التعمير تبعث الحياة والنشاط والقوة في العاصمة وعلى صفحة الوادي؛ وشهدت يد التخريب تهوي بمعولها في غير هوادة أو رحمة

فتزلزل البنيان وتقوض الأركان. شهدت العظمة الشامخة والثروة الباذخة وشهدت الذلة المستخذية والفقر المستكين؛ شهدت نوازع الاستبداد وشهدت دوافع الحرية؛ شهدت مواقف البطولة والصدق؛ وشهدت مخازي الدس والبهتان. . . شهدت مصر ذلك كله وشهدت زيادة عليه مثل ما تشهد الفريسة تجمعت عليها الذئاب وأوهنها طول الدفاع والجلاد

أراد إسماعيل أن يسبق عصره فيما يطلب من أوجه الكمال، فلن يجمل بمصر وهو واليها أن تكون قطعة من أفريقيا، ولا أن تكون جزءاً من تركيا، ولن يهدأ له بال حتى تنتسب مصر إلى أوربا، وحتى تحطم الأصفاد وتطرح عن عنقها نير الاستعباد

لم يمض من عهد هذا الأمير الفذ اثنا عشر عاماً حتى غمر مصر فيض من الإصلاح، وتهيأ لها من أسباب الرقي ما لم يكن ليتهيأ مثله في أقل من قرن إذا سارت الأمور سيرها العادي. . . ففي تلك الفترة الوجيزة وصل بين البحرين وشقت الترع الطويلة تحمل إلى أنحاء الوادي من مياه النهر وغرينه ما يدرأ عنها رمال الصحراء. ومدت سكك الحديد وأسلاك البرق، ونظم البريد ومهدت السبل وعقدت الجسور، وأصلحت الموانئ وأقيمت المنائر، وشيدت المصانع وافتتحت دور العلم للبنين والبنات وعني بالمتحف

وفي تلك الفترة تقلص نفوذ السلطان، وأحاطت بوالي مصر مظاهر السيادة فلقب بالخديو وسمح له بمنح الالقاب، وأطلقت يده فأصلح القضاء وأدخل على النظام الإداري كثيراً من الإصلاح وفي تلك الفترة سارت القاهرة تستبدل حياة بحياة، ومظهراً بمظهر، فتتخلص ما وسعها الجهد من أفريقيا ولا تني تقترب من أوروبا، وراح الخديو العظيم ينشر فيها من مظاهر همته ما جعل أعماله في هذا المضمار من عجائب القرن التاسع عشر، وما برحت القاهرة طول عهده غاصة (بالمونة والأحجار) تلك التي كانت هوى الخديو ومسرة فؤاده

ولكن إسماعيل وا أسفاه أنفق في سبيل ذلك المجد ما زاد على خمسين مليوناً من الجنيهات لم يكن لديه منها شيء يذكر. . . ولذلك لم يلبث أن رأى مصر التي أراد أن تكون قطعة من أوربا تساق على رغمه لأن تكون ملكاً لأوربا! فمن أوربا استدانت تلك الملايين؛ ولما عجزت عن دفع دينها كانت رهينة لذلك الدين.

أين كان شريف حين أخذت مصر في سياسة الاستدانة؛ وكيف فاته وهو الأريب الحاذق ما كانت تبيت إنجلترا من غدر لاقتناص مصر؟ أو لم ير أنها كانت تقيم من أموالها حول الوالي شباكا أحكمت نسجها يد المكر، وبالغت في سترها الرؤوس الماهرة والقلوب الغادرة؟

كان شريف ناظراً للخارجية كما سلف أن ذكرنا، فلما تم لإسماعيل الأمر أضاف إليه نظارة الداخلية، فهو يعرف شريفا معرفة خبرة ووثوق إذ كان له زميلا في الدراسة؛ وبقي شريف يدير المنصبين متمتعا بثقة إسماعيل وعطفه، خليقا بما نال منه من تكريم، وأي تكريم. كان أعظم يومئذ من أن يقيمه الوالي نائبا عنه حينما رحل إلى الآستانة عام 1865 وما كان إسماعيل ليفعل ذلك لولا أنه كان يرى شريفا أكثر الناس ولاء له

على أن شريفا لم يك يملك غير النصح في عصر كذلك العصر وتلقاء رجل كإسماعيل تناهى إليه السلطان والبأس حتى ليستنكف أن يذعن للخليفة، فيسعى ما وسعه السعي لتطلق يده في شؤون مصر كلها وبخاصة في عقد القروض

ولكن هل نصح شريف لإسماعيل كما كان خليقا أن يفعل؟ لو أنه فعل ذلك لجاء ذكره فيما جاء من أخبار ذلك العهد الذي كثرت فيه الأقوال. ومهما يكن من الأمر فقد ظل شريف فيما اختير له من المناصب لا يعارض ولا يغضب فيستقيل. . . وتلك مسألة أخرى نعدها على شريف ونأخذه بها. . .

بيد أننا من جهة أخرى نعود فنذكر أن مبدأ المسئولية الوزارية لم يكن قد قام في مصر بعد؛ فإسماعيل هو وحده المسؤول عن حكم مصر وسياسة مصر، وما على نظاره إلا أن ينفذوا ما يأمرهم به دون أن يكون لهم فيه رأي أو تكون عليهم من جرائه تبعة؛ ولم يك ثمة فرق بين جيب إسماعيل وخزينة مصر، ولذلك كانت سلطته المالية أعظم من سلطته الإدارية إن صح أن كان بين السلطتين تفاوت. . .

هذا كله حق لا سبيل إلى إنكاره، ومن أجله يخف وزر شريف وتقل ملامته، ولكنه لن يعفى من ذلك الوزر إلا أن نميل فنتحيز أو أن نذكر بعض ما بذله شريف من جهود جبارة في ما بعد في مقاومة نفوذ إسماعيل ومحاربة طغيان الأجانب فيحملنا ذلك على تناسي موقفه في تلك الفترة التي غلب على طبعه فيها الهدوء والرضى. . . على أننا لا نسيغ هذا ولا تطاوعنا النفس على ذلك.

والواقع أن هذه الفترة من حياة شريف فترة سكون لا يتفق وما جبلت عليه نفسه من

شجاعة شهد له بها حتى خصومه، فهل كان مرد ذلك إلى ما كان من إذعان مصر نفسها واستسلامها؟

يخيل إلى أن ذلك أقرب إلى الصواب. فلقد كان الرأي العام في ذلك الوقت أعني مدى الاثني عشر عاماً الأولى من حكم إسماعيل لا يزال في مرحلة تكوينه، ولذلك لم يكن للشعب نفوذ إلى جانب نفوذ إسماعيل وجاهه، فمجلس شورى النواب الذي أنشأه الوالي والذي أولاه شريف حظاً كبيراً من عنايته ونشاطه، كان لا يملك حق محاسبة الحكومة؛ وكانت البلاد محرومة من الصحافة الوطنية، خالية من الأحزاب السياسية؛ وكان المتعلمون من المصريين منصرفين إلى المناصب الحكومية يتقدمون بالزلفى إلى إسماعيل وحكومته.

ولقد أدى الانتخاب لمجلس الشورى إلى حرمان المجلس من هذا العنصر ولو أنهم أرادوا أن يتجهوا إليه. . .

وعلى ذلك فلو أن شريفاً تحرك حركة قومية في ذلك الوقت لما هزت حركته النفوس، كما راحت تهزها حركاته فيما بعد حين أفاق الرأي العام على تدخل الأجانب في شئون مصر، وحين ظهرت فيه عناصر لم تكن موجودة من قبل، كدعوة جمال الدين التي أومضت في ظلمات ذلك العصر، وكظهور الصحافة واهتمام المتعلمين بقضية البلاد المالية، وغير ذلك من أسباب البعث والنهوض. . .

عندئذ آن لشريف أن يخطو، فكأنما كان قبل خطواته الوطنية في مرحلة الإرهاص، شأنه في ذلك شأن كثير من الزعماء من قبله ومن بعده. وما أعظم الشبه في ذلك بين سعد وشريف! فهذا سعد جبار هذا الوادي وزعيم أبطاله ومفخرة أجياله، ظل في الفترة الأولى من حياته ساكناً لولا ما كان من آثار قلمه ونفثات روحه. فلما سارت الحوادث سيرها، وتهيأت البلاد لانتفاضة تنفس عنها بعض ما بها تلفتت القلوب ودارت الأعين فلم تستقر إلا عليه كأنما ألهمت ذلك إلهاماً؟. . . وإنك لترى من أوجه الشبه غير هذا كثيراً بين سعد وشريف فيما نقص من سيرته

كان لابد للمسألة المالية أن تنتهي إلى من انتهت إليه ما تدخل الأجانب في شؤون مصر الداخلية، ولكن هذا التدخل لم يكن شرا كله كما اعتاد المؤرخون أن يصوروه، وحسبنا مما انطوى عليه من عناصر أن قد استيقظت على ضجيجه وصخبه مصر، فانبعثت القومية

المصرية ومضت تنفض عن كاهلها غبار القرون على صورة أروع وأقوى مما تبدي في ثورتها على نابليون وكليبر، ومما ظهر من آمالها ومشيئتها يوم ذهب أبناؤها وعلى رأسهم عمر مكرم والشرقاوي يلبسون محمد على الكرك والقفطان دون أن يرجعوا فيما فعلوا إلى السلطان. . .

تراكمت الديون على مصر حتى أنها لم تكن تقل عن تسعين مليوناً من الجنيهات في عام 1875 م. فمن ديون سائرة كانت في ذاتها أبلغ ما نال الخديو من معاني الغبن، إلى ديون ثابتة فيها أوضح معاني الشره وأقبحها من جانب الدائنين، إلى قروض داخلية لجأ إليها (المفتش) ذلك الذي قام على شؤون مصر المالية، فكان في ذاته عبئاً فوق أثقالها التي ناءت بها، ومن تلك القروض الدالة على شدة الارتباك والخلل دينا المقابلة والرزنامة. . .

عندئذ تحركت إنجلترا نحو هدفها، وكانت أولى حركاتها في هذا المضمار شراء نصيب مصر من أسهم القناة، اشتراه دزرائيلي رئيس وزرائها بثمن بخس! ولم يرده عن ذلك عطلة البرلمان يوم إذ. وكيف يفوت دزرائيلي وهو الذي يعرف الفرص ويعرف كيف يقتنصها، كيف يفوت ذلك الداهية أمر كهذا الأمر يجعل مركز بلاده في القناة كمركز فرنسا أو أعظم، ويصحح خطأ وقعت فيه إنجلترا ألا وهو استهانتها بالمشروع أول الأمر ظناً منها أنه لن يتم، ثم تراخيها عن شراء الأسهم بعد ذلك رغبة في إحباطه

ولكن مصر بعد بيع أسهما لا تزال في حاجة إلى المال لتدفع به بعض ما جره عليها المال من وبال. وأنى لها المال بعد ذلك كله؟ وأية دولة تمد إليها يدها؟ إذا فالتفكر مصر في الإصلاح ثم فالتفكر إنجلترا في اصطياد الفريسة!

طلب الخديو موظفاً إنجليزيّاً يدرس لها شؤون مالها ويصلح ما يراه من أوجه الخلل؛ فتلكأت إنجلترا لأنها عن دهاء وجشع تحب أن تتدخل ولكنها لا تحب أن تفتح أعين غيرها

وجاء الموظف ولكنه زود من جانب حكومته بأوامر، فعليه أن يدرس وعليه فوق ذلك أن يحقق ويدقق ثم يرفع تقريراً عما رأى؟ وما لهاذا أراده إسماعيل فما كان يريد والي مصر إلا أن يكون هذا الموظف معيناً له في إصلاح مالية البلاد

ورفع (كيف) التقرير إلى حكومته وجاء دور دزرائيلي فأعلن البرلمان الإنجليزي في غير تردد ولا استحياء أنه يرغب عن نشر التقرير لأن الخديو رجاه في ذلك. ولعمر الحق ما

. . .رجاه الخديو ولا أشار إلى ذلك من قريب ولا من بعيد

ذعر الدائنون، وهبطت أسهم مصر كما يقول رجال المال، وتلقى الخديو الصدمة العنيفة ممن أمل على يديهم الإصلاح وقال في مرارة وغيظ: (لقد احتفروا لي قبري) وهي كلمة موجعة جامعة، فبعد هذا التصريح من جانب دزرائيلي سيكون الطوفان. وما كان في تقرير كيف إلا أن مصر (تشكو مما ينتشر في الشرق من أمراض منها الجهل والإسراف والاختلاس والإهمال والتبذير وأنها تشكو من كثرة النفقات التي سببتها محاولة إدخال مدنية الغرب والتي تترتب على مشروعات لا تجدي نفعاً، وعلى مشروعات نافعة ولكنها تنطوي على الخطأ). بل لقد ذكر كيف في عبارة صريحة: (إن مصر تستطيع أن تدفع ما عليها من الديون إذا أحسنت إدارة البلاد). ولكن للسياسة مطامعها وأغراضها ولها من أجل ذلك أساليبها التي كثيراً ما تسخر مما تواضع عليه أغرار الناس من قواعد الخلق والاستقامة!

لم تستطع مصر أن تفلت من دائنيها فكان لابد من إذعانها لمراقبة مندوبيهم وتألف في مصر (صندوق الدين العام) فكان حكومة صغيرة من الأجانب داخل حكومتها؛ ثم وافق الخديو مكرها على تعيين مراقبين أجنبيين أحدهما إنجليزي للدخل والآخر فرنسي للصرف، وعين تبعا لهذين موظفين من الأجانب برواتب ضخمة؛ وعني الخديو حقا بالإصلاح يومئذ ولكن يد الغدر كانت من ورائه تبعث الارتباك وتنصب الشباك وقبل الخديو فيما قبل على رغمه تأليف لجنة من الأجانب سميت (لجنة التحقيق العامة) جعل على رأسها دلسيبس ومنحت سلطة واسعة غير محدودة، فما كادت تعمل حتى اصطدمت، وكان اصطدامها في بدء عهدها لسوء حظها بالرجل الذي يتحفز ويتحين الفرصة ليثب.

ومن يكون ذلك الرجل في تلك الأيام العصيبة غير شريف؟

استدعته اللجنة ليمثل أمامها لتستفهمه، فتعاظمه الأمر فأبى. فأصرت اللجنة وقد خشيت على هيبتها ونفوذها، ولكنه خشي هو أيضاً على كرامته وكرامة منصبه فأصر كما أصرت. . . أيمثل شريف أمام لجنة من الأجانب؟ ولما لا تنتقل إليه اللجنة وهو العزيز بنزاهته واستقامته، الكبير بشخصه ومنصبه، العظيم بوطنيته وكرامته؟ إذا فليطلق شريف المنصب غير آسف وقد كان ما أراد فاستقال! وهزت البلاد استقالته بما تنطوي عليه من

المعاني فلقد كانت وثبة في حينها، كانت غضبة من رجل في أمة عّد بها أمة في رجل؛ وهكذا خطوات أحرار الشمائل وعظماء الأجيال كأنما تجيء على قدر من الأيام فتكون رداً بليغاً على من يزعمون أن عظماء الرجال يدينون بعظمتهم لظروفهم لا لصفاتهم، هذه في مصر هي الظروف، فليت شعري لما لم يظهر غير شريف وقد غضب مع شريف عشرات غيره من الرجال؟

(يتبع)

الخفيف

رسالة المرأة

التربية العملية

أطفالنا

للآنسة زينب الحكيم

التربية العملية مسألة لا يجدي فيها ترقيع، ولا يفلح فيها النصح الكلامي كثيراً إذا فات أوانها، وأهمل شأنها في حياة الإنسان المبكرة. لهذا سأوضح ببعض الأمثلة كيف يمكن تنشئة الطفل منذ طفولته، ليتناسب مع الجماعة، ويشب على روح الفرد للمجموع، والمجموع للفرد.

(المحررة)

كلنا يُقرّ بشدة العناية التي تحيط المولود من يوم ولادته، تلك العناية التي قد لا يشابهها العناية بالملوك على عروشهم، ولا الجبابرة المتألهين على أقوامهم.
فالطفل، في مدى الخمسة عشر أو الثمانية عشر شهراً الأولى من حياته، تؤدي له جميع لوازمه، ولو ضحيت في سبيل ذلك صحة الكبار ولا سيما الأم. وكنتيجة لهذه المعاملة، وتلك الرعاية، يصير الطفل أنانياً بكل ما في هذا التعبير من معنى، خصوصاً بعد أن يقارب تمام السنتين من العمر.
وكلما بدأ الطفل يتحرر من طور العجز، أو الاعتماد المطلق على من حوله في الطفولة المبكرة، يبدأ ينازع رغباته ولوازمه من أجل اخوته وأخواته، ومن والديه والأفراد الآخرين الذين يحيطون به.
فرغباته الشخصية، وطلباته المضادة لطلبات المجتمع، يجب تعديلها بحكمة، وبهذا يبدأ حفظ أول درس صعب في الحياة. وبفهم هذه المتناقضات الأولية في حياة الطفل نتساعد على فهم سلوك الأطفال بوجه عام. . . ومِن ثمَّ نرشد إلى أمثل الطرق لتربيتهم، وأحسن التدابير لتنشئتهم.
أما جعل الطفل مناسباً لبيئته، وتهيئة البيئة نفسها لمناسبته، فعقدتان تستلزمان مجهوداً عظيماً، لأن كل فرد منا يفهم ويقدر أن للجماعة في أي بيئة مطلبين ضروريين:
1 - أن يعيش الإنسان مع آخرين من نوعه، لأجل حماية الجماعة. . . ولأنه اجتماعي بطبعه، ولأجل إيجاد إلف له
2 - أن يقف كفرد يدافع عن سلامته الشخصية، وأن يستطيع جذب رفيق له.
ومن هذا نرى، أن له عدة حقوق خاصة واضحة، وعليه واجبات لنفسه كفرد، ولكن مشكلته العظمى هي معرفته كيف يوفق شخصيته ورغائبه لاحتياجات الجماعة.
لقد كان الإنسان الأول في طفولته يعرف هذا التوفيق بالصدفة، أي بطرق عرضية مطولة ملفوفة، بينما نصل إليها الآن بطرق مباشرة مختصرة قليلة الالتواء إن وجد، لأن الدراسات الحديثة قد أفادتنا كثيراً، ودلتنا على أن في نفس الطفل غرائز وميولا وطاقات كامنة، وهو مهيأ لكيفية تنميتها - إذن ما علينا إلا أن نترك له القيادة، فيفصح لنا عن نفسه؛ وعملنا نحن هو أن نوجهه ونرشده إلى أحسن السبل ليهيئ نفسه لبيئته، مع مراعاة أن ضروريات الجماعة ومستوياتها دائمة التغير.
فالسلوك الخلقي لجيل ما، يعتبر دائماً السلوك غير الخلقي بالنسبة للجيل الذي يليه. وإذا افترضنا أن على الطفل أن يستمع ويخضع لأوامر اخوته ووالديه، وجدوده ومعلميه فعلينا أيضاً أن نفترض له منفذاً لرغباته حتماً.
وهنا يتحتم على الوالدين واجبان: -
1 - أن يعلما الطفل إلى أي حد يجب عليه أن يخضع رغباته واحتياجاته لرغبات واحتياجات الجماعة.
2 - عليهما أن يعلماه إلى أي حدّ يمكنه أن يشبع رغباته، وإلى أي حد يجب أن يدافع عن حقوقه، وإلى أي حدّ يعتد بنفسه، ومتى يخضع لأوامر الغير، ومتى يعدل رغباته نزولاً على إرادة الجماعة.
الطفلة (جميلة) نشأت وهي صغيرة في مزرعة، وأحاطها أمهات وآباء محبون جداً لها، ولم ينقص حب الخالات والعمات لها عن حب الجدات والجدود.
وطفلة في مثل هذه البيئة، وهذا الجو، أحست بأهميتها، وبالغت في إملاء إرادتها فكانت إذا أرادت شيئاً ما يحضر لها، ما كان عليها إلا أن تبكي بصوت مرتفع، ولمدة كافية حتى تحصل على ما تريد. وأحياناً كانت تبكي على أشياء لا يمكن أن تعطى لها، كأن تريد
القمر مثلاً. وكانت تبكي أحياناً أخرى بدون سبب
ففي هذه الأوقات التي لم يمكن فيها إجابة طلباتها، أو الصبر على تدليلها إشفاقاً عليها من كثرة البكاء - كان يقول أحد من بالمنزل: (خذوا جميلة إلى الحديقة وأركبوها الحصان - قد يهدئها ذلك) أو يقول آخر في مناسبة أخرى: (خذوها إلى شارع المحطة لترى القاطرة الكبيرة وهي مارة - قد يهدئها ذلك)
وإذا لم تفلح هذه الطرق معها، كان يعطى لها قطعة من الحلوى لكي تهدأ. ولقد استمر هذا النوع من المعالجة، حتى أتى على أفراد الأسرة يوم نضب فيه معين حيلهم

مع هذه الطفلة لتهدئتها كلما بكت فمرة من تلك المرات ظلت تبكي وترغي وتزبد مدة طويلة ولم يلتفت إليها أحد. فما كان منها إلا أن نادت بأعلى صوت قائلة: (أعطوا جميلة قطعة من السكر - ذلك قد يهدئني) دهش كل فرد حولها لما حدث منها، وحار الجميع كيف يجاوبونها، وتأملت هي طويلاً ثم قالت: (خذوني إلى الحديقة لأركب الحصان - ذلك قد يهدئني) واستمرت تبكي

هنا وهنا فقط فطن الوالدان وكل أفراد الأسرة للدرس المهم الذي أعطته لهم هذه الحادثة، ونبهتهم إلى تلافي الغلطة التي كانوا يقعون فيها في تربية الطفلة؛ ومن حسن حظها أن غيّر الجميع خطتهم معها تدريجياً، وعدلوا مجاوبتهم لبكائها

من هذا يرى أنه إذا سمح للطفل أن يصير أنانياً، بحيث يطلب كل ما يريد غير ناظر إلى حقوق الغير، فإنه سيبقى طول حياته على خلاف ومنازعات مستمرة مع الناس الآخرين، ويشعر غالباً بأن الناس لا يعدلون في معاملته أبداً. وكثير من الأفراد لا يحصلون على ما يشعرون أنه من حقهم، ذلك لأنهم ينتظرون أكثر مما يستحقون من الحياة، ويتطلبون من الناس أن يتنازلوا لهم ويؤثروهم على أنفسهم بحالات لا يمكن تحقيقها

وهذا هو السّر في سوء حال الشبان الذين لا تقدر على ترويضهم عائلاتهم ولا مدارسهم ويضج منهم المجتمع. والكل يشكون ويتأففون من فساد المجتمع، ولكن ليس الذنب كله ذنب المجتمع، فلو لم توجد عندنا حالات عامة شائعة في بيوتنا المصرية من أشباه التربية الخاطئة، لما سمعنا بحوادث الأولاد الذين يتهجمون على آبائهم بالضرب أو القتل، أو تنكيد حياة الأم لشدة هياج ابنها العصبي وغير ذلك في كل وقت. والحقيقة أن لا عصبية هناك

ولا جنون، وإنما هو سوء التربية المبكرة وخطؤها الذي يجعل من الطفل شخصية غير شخصيته، ويجعل حياته كلها تصنعاً والتواء.

إن سلطة الوالدين والمربين على الطفل هي التي تعلمه حقوق الجماعة. ولكن ليحترس من استعمال السلطة بغلظة وجهل معه، فإنه إذا حصل ذلك ولم يكن لدى الطفل المخارج الكافية لنزعات نفسه، فإنه يصبح شغوفا قلقا خجلا في غير موضع الخجل، عنيدا ينكر كل شيء، ويشاغب حيث لا سبيل إلى الشغب، ويصير أشد ميلاً للتأثر بغير بيئته التي باتت غريبة عليه. وهذا دون ريب مالا نقصد إليه. إذن يجب أن تخدم السلطة الوالدية غرضين:

1 - أن تكون وسيلة يتعلم بها الطفل كيف يوفق نفسه للجماعة. . .

2 - أن تكون وسيلة يتعلم بها الطفل أيضاً إلى إي حد يمكنه أن يعبر عن رغباته واحتياجاته.

ذلك لأن كثيراً من الضغط على الطفل يتعين خطؤه وضرره إذا ما كلفنا أنفسنا مشقة إيجاد المخارج الصحيحة التي يعبر الطفل فيها عن نفسه؛ ويظهر لنا تعسف أوامر النهي التي نضايق الطفل بها والتي يستغني عنها تماماً، إذا اتبعت طرق التربية الصحيحة، التي تمكن الطفل من إشباع ميوله دون إزعاج الآخرين.

ولا يصح أن نتصور أن الطفل إذا خالف قانوناً أو نظاماً يجب أن يسامح، لا بل يجب أن يعاقب. وكل ما نرمي إليه هو أنه يمكن أن نعلم الطفل دائماً، ونعوده التعبير عن رغباته وإشباع ميوله، دون مضايقة الجماعة.

زينب الحكيم

ذكريات

بمناسبة انعقاد المؤتمر الطبي بالقاهرة

في مثل هذا الوقت من العام الماضي، كنت اتخذ عدتي مع أعضاء المؤتمر الطبي العربي الذي انعقد في عاصمة بلاد الرشيد.

ولقد تعاونت الحكومة والشعب على إنجاح المؤتمر وإكرام المؤتمرين ومساعدتهم على زيارة بلادهم الجميلة وفضلاً عن تخفيض أجور السفر المتبعة لمناسبة انعقاد المؤتمرات وما شابهها، فإن الحكومة العراقية مبالغة بالسخاء تفضلت بجعل السفر مجاناً على السكك الحديد مع كثر نفقاتها هناك ولقينا من حسن معاملة مختلف الهيئات كل مشرف سار إني قوية الأمل، شديدة الرجاء، أن ينال جميع أعضاء المؤتمر الطبي - وهم في بلادنا - مثل هذه المعاملة جرياً على عاداتنا. وإني أهيب بكل تاجر

ومرشد، وكل ذي مصلحة شخصية من أجانب ووطنيين أن يترفع عن مضاعفة أثمان ما يروق لضيوفنا شراءه، وخصوصاً العراقيين، فإن التجار في بلادهم أقسموا أنهم كانوا يبيعون لنا الأشياء بأثمان أرخص مما يبيعون بها لأهل البلد والتاجر العراقي صادق أمين، كلمته شرف، ووعده موفى مهما يكن من الأمر

وإني لهذه المناسبة السارة أختص الرسالة الغراء بعض الصور التذكارية عن المؤتمر الطبي السابق تحية لأطباء العراق وترحيباً بهم ولجميع الأعضاء الأفاضل

زينب الحكيم

رسالة العلم

إثبات نظرية التطور

للأستاذ عصام الدين حفني ناصف

البراهين على صحة نظرية التطور كثيرة لا يحصرها العد، فحيثما أرسل الإنسان الذي وعى هذه النظرية بطرفه في عالمي الحيوان والنبات، وجد شواهد توضح ما بين مختلف الكائنات الحية من صلة القربى. وقد اخترنا هنا أمثلة قليلة تتعلق بحيوانات مألوفة، نراها مما يسهل فهمه وتجدر معرفته

من علم ترتيب الكائنات

وصف العلماء إلى الآن ما يربى على 500. 000 حيوان حي و 200. 000 نبات و 100. 000 متحجر ينفرد كل منها بصفة من الصفات. وهم يقسمونها إلى أقسام مختلفة المراتب، فنوع الثعلب ونوع الذئب ونوع الكلب تابعة كلها لجنس الكلب، وهذا تابع العائلة الكلبية من فصيلة آكلات اللحوم، وهذه تابعة لتربية ذوات الثدي وهي تابعة لقبيلة ذوات الفقار

وليس تحديد الأنواع من الأمور السهلة، فبعض العلماء يعتبر بعض المجموعات أنواعاً جديدة في حين يعتبرها علماء آخرون مجرد (تنوعات) ونحن نلتقي بالتنوعات دائماً حين نبحث آلاف النماذج من أحد الأنواع الحيوانية أو النباتية، وهذه القدرة على التنوع من أهم خصائص الأحياء فهي تيسر لها ملاءمة البيئة المحيطة بها، وذلك يتيح لها أن تتطور وترتقي من حيث بناء الجسم وقدرته على العمل

وعلم ترتيب الكائنات ينطق بصحة نظرة التطور (1) لأن الوفرة الهائلة في عدد الكائنات الحية التي يمكن على الدوام إثبات وجود أشكال انتقالية بينها، تسير كلها ببطء طريق التحول والتغيير (2) ولأن (النوع) لا يمكن تحديده تحديداً تاماً، فلا بد أن يكون شيئاً متغيراً

من علم الحفريات

تتكون طبقات الأحجار الرسوبية في وضع أفقي، ويكون أسفلها أقدمها عمراً، وتحتوي كل طبقة على حيوانات ونباتات دفنت فيها في العصر الذي تكونت فيه تلك الطبقة، وقد وجد إن الحفريات التي دفنت في طبقة قديمة العهد تكون أبسط في تكوينها وتركيبها من حفريات الطبقات التي هي أحدث منها عهدا. من الأمور الهامة أننا نجد حفريات كل سلسلة من سلاسل الأنواع الحيوانية على النحو الذي كنا نتصورها عليه قبل أن نعثر بها وذلك ما حدث مثلاً في ما يتعلق بقدم الحصان، فقد تعودنا أن نجد معظم الحيوانات الثديية الراقية ذات خمس أصابع فإذا أختلف الأمر عن ذلك في الحصان، ألزمتنا نظرية التطور بافتراض أن أصابع أسلافه كانت خمسا فبقيت منها واحدة وضمرت الأربع الأخرى، ونحن نميز في قدم الحصان الحالي إصبعاً واحدة ونجد في الخيل المتحجرة في عهد البليوسين أن قدمها ذات 3 أصابع وفي الخيل المتحجرة قبل ذلك في عهد الميوسين أنها ذات 4 أصابع وفي المتحجرة في عهد الأيوسين أنها ذات 5 أصابع

من علم التشريح المقارن

يرينا التشريح المقارن ذلك التشابه العظيم بين جسم الإنسان وأجسام باقي الحيوان وفي مقدمتها (الشبيهة بالإنسان) وهي الشيمبانزي (البعام) والجوريلا (الغول) والأورانج أو أوتان (إنسان الغابة) والجيبون. ويقابل التشريح المقارن بين الأعضاء في مختلف الأنواع الحيوانية فيثبت ما بينها من أوجه الشبه سواء فيما يختص بالشكل الخارجي أو الوظيفة. فإذا نظرنا إلى جناح الخفاش وذراع الحفر عند الخلد وذراع

الإنسان وجدناها متشابه تشابهاً عظيما في تركيب عظامها رغم تباين وظائفها، وما ذلك إلا لأن هذه الحيوانات متسلسلة من أصل واحد

ينظر معظم الناس إلى الحوت باعتباره ضرباً من السمك، وذلك لإقامته في الماء ولشكله الوشعي (المغزلي) ولوجود زعانف الصدر والذنب، ولكن تشريح الزعنفتين الأماميتين يرينا في كل منهما هيكلاً عظيماً يشبه مثيله في الطرف الأمامي من الحيوانات الثديية الأخرى. أما الزعنفة الذنبية فيدعمها محور عظمي هو نهاية العمود الفقري. ولبعض أنواع الحيتان زيادة عما تقدم زعنفة ظهرية بيد أنها خالية من أية دعامة عظمية، ولا إيضاح لهذا التباين في بناء الزعانف المختلفة في الحوت الواحد، ولهذا التعقد في بناء هيكل الزعنفة الصدرية إلا أن الحوت متسلسل من حيوان بري كان يستعمل طرفيه الأماميين في المشي

ثم تطور بتطور معيشته من برية إلى بحرية. وهنالك إثباتات أخرى تؤيد أن الحوت حيوان ثديّ متسلسل من أصل بري، وهي كونه يتناول الأوكسجين اللازم لحياته برئتيه من الهواء لا بالخياشيم من الماء، وكونه من ذوات الدم الحار فلا تنخفض حرارة جسمه - كالأسماك - بانخفاض حرارة الماء الذي يعيش فيه، وكون أنثاه تلد صغارها تامة التكوين وترضعها.

من علم الأجنة

يجتاز كل حيوان في نموه من خلية البيضة حتى يكتمل سلسلة من التغيرات المحتومة. ويمر بسلسلة من الأشكال المختلفة، هي إعادة موجزة للسلسلة الطويلة من الأشكال التي اجتازها أسلاف هذا الحيوان أي أصول نوعه منذ أقدم أزمنه الخلق العضوي حتى الوقت الحالي

فالحوت - مثلاً - يمتاز في كبره بعد اشتمال جسمه على الشعر والأسنان والعنق والطرفين الخلفيين، ولكن هذه الأعضاء توجد في جنينه، وذلك ما يشير إلى تسلسله من أصل ثدي له هذه الأعضاء

كذلك يحوي جسم الجنين الإنساني أعضاء عدة لا إيضاح له إلا أنها موروثة عن الأسلاف الحيوانية، فهو مغطى بشعر كثيف يذكرنا بفروة القرد، وقد يبقى الثوب الشعري جنيني في أحوال مرضية شاذة عند من يسمونه بالإنسان الكلبي. وللجنين الإنساني ذنب واضح، وله في كل ناحية خمس مجموعات من غدد لبنية، وذلك ما يدل على أن العضو اللبني - كما هو الحال عند الحيوانات الثديية الدنيئة - ولم يكن في الأصل زوجاً واحداً فقط

من علم الانتشار الجغرافي

تُقدم لنا الجغرافي الحيوانية كثيراً من الحقائق الناطقة بصحة نظرية التطور. فمن ذلك أن المناطق والأقاليم المنعزلة عن غيرها تحوي أنواعاً حيوانية خاصة بها لا توجد في سواها. ولئن كانت حيوانات أمريكا الشمالية شبيهة بحيوانات شمال آسيا وشمال أوربا فإن لحيوانات أمريكا الجنوبية (أعني التي كانت بها قبل أن يستعمرها الجنس الأبيض) صفات ومميزات خاصة بها نتجت من نمو تلك الحيوانات في عزلة وعدم اختلاطها بحيوانات

أمريكا الشمالية. وذلك لأن أمريكا الوسطى كانت في عصر الميوسين مغمورة بالماء، فلم يكن ثمة وجود لذلك المعبر الأرضي الذي أنبثق بعد ذلك فوق اليمِّ فأصبح يصل بين الأمريكتين. ومما يؤيد هذا التفسير وجود بعض الأسماك والقواقع مشتركة في المحيطين شرقي أمريكا الوسطى وغربيها مع أنه لا يوجد نوع من الأسماك والقواقع مشترك في شرق أمريكا الجنوبية وغربها

ومما يلفت النظر تلك الجزائر التي طلعت في المحيط بعمل براكين تحت الماء مثل جزيرة سانت هيلانة (وتبعد 1800 كيلو متر عن أفريقيا) فهي خالية تماما من الحيوانات الفقرية البرية والطيور البرية، وبها من الطيور البحرية نوع واحد من النورز له قرابة بالأنواع الأفريقية، وبها أنواع من الخنافس ذات الخرطوم وهي الأنواع التي تعيش هي ويرقاتها وعذاراها على الخشب وفي داخله. وفي ذلك ما يبين أنها انتقلت إلى تلك الجزيرة النائية محمولة على أخشاب طافية. ولو كانت حيوانات تلك الجزيرة قد خلقت على حدة لما كان هنالك سبب مفهوم لإيثارها بالأنواع ذوات الخرطوم من الخنافس.

التفاعل الحيوي الكيميائي للدم
إذا تركنا دماً طازجاً في مكان ما، رسبت منه الكرات الدموية والألياف وبقى سائل أصفر هو المصل. ولكل حيوان فقري مصل خاص به من شأنه أن يضر بالكرات الحمراء التي في دماء الأنواع الحيوانية الأخرى. بيد أننا إذا كررنا حقن مقادير صغيرة من مصل دم حصان - مثلاً - في الأوعية الدموية لأرنب، تغير دمه بعد فترة من الزمن فأصبح مصل دمه يؤدي عند وضع قطرات منه في محلول يحوي قليلاً من مصل دم الخيل، إلى تكوين راسب زَغَبي، وهو يحدث الترسيب أيضاً - ولكن بدرجة أضعف، مع دم الحمار، وذلك ما يوضح قرابته به. فإذا حَقنَّا أرنباً بمصل دم إنسان أصبح مصل هذا الأرنب يرسب الدم الإنساني، بيد أنه أيضاً - وبنفس القوة - يرسب دم القردة (الشبيهة بالإنسان)، أما القردة الأخرى فيرسب دماءها بدرجة ضعيفة. وهذه التجربة تبرهن لنا على وجود (صلة الدم) بمعناها اللفظي
الإنسان في ضوء نظرية التطور
يتعين علينا من الوجه الفنية المحض أن ندخل الإنسان في نطاق نظرية التطور وقوانينها، فليس الإنسان من حيث العلوم الطبيعية سوى حيوان فقري يمشي قائماً، ومن مميزاته الظاهرة على سائر الحيوانات الثديية القريبة منه أنه يعتمد في سيره على قدميه فقط، وكثير من خصائصه الجسمانية الأخرى موجود في عالم الحيوان وإن لم يكن مجتمعاً بهذا التوافق إلا في الإنسان والإنسان عظيم الشبه بالقردة الراقية إلى حد جعل أحد العلماء يقول: إن الفرق بين أحط الأجناس الإنسانية والقردة (الشبيهة بالإنسان) أقل كثيراً منه بين هذه وأحط القردة
ولئن كان المنظر الخارجي للجوريلا يبعث فينا النفور من تصور صلة قرابة تربطنا بها، فأننا نجد حين نسلخ جلدها أن التشابه بين جسمها وجسم الإنسان لافت للنظر. فكل عظمة ولك عصب وكل عضو من الأعضاء المختلفة موجود عندها في مثل موضعه عند الإنسان. وهي تشبه الإنسان كذلك في كونها بلا ذنب ناتئ خارج الجسم، وبلا انتفاخ في الإلية، وبلا شعر كثيف في الخدين كما تشبهه في بناء عضو التفكير أي المخ، فإن مخها يحوي نفس الأجزاء والأخاديد والتلافيف التي يحويها مخ الإنسان
مستقبل الإنسان
من المرجح جداً أن يستمر الإنسان في التطور مدى أزمنة طويلة جداً، ولكنا لا نستطيع أن نقطع: هل يكون هذا التطور إلى أرقى أم إلى أحطّ؟
لقد اكتظت الأرض بالحياة أحقاباً طويلة دون وجود الإنسان. ومن الممكن أن تبقى حافلة بالحياة ولو انقرض الإنسان؛ فالأرض لم تخلق هي وعالم الأحياء، من أجل الإنسان، ولكن مجده وقوته في كونه يعرف كيف يستغلها ويستخدمها لقضاء أغراضه.
عصام الدين حفني ناصف
رسالة الفن
الفن الأمريكي
العمارة
للدكتور أحمد موسى
لا يرجع الفن الأمريكي المقتبس من أوربا لأكثر من وصول الأسبان إليها. وبدت أولى مظاهره في تشييد الكنائس التي تميزت بضخامة مظهرها وطرازها الباروكي مع بساطة الزخارف وقلة النقوش، على نقيض ما كان جارياً في تلك المرحلة الزمنية. كما أنها عندما شملت شيئا من التحلية كانت ضعيفة إلى حد لا يتناسب مع التصميم الإنشائي.
وأول المباني الضخمة (الثقيلة) كانت بسان فرانسسكو وتولا التي تمت بين سنتي 1540 و 1561 وبعدها كنيسة مريدا المقببة التي تم تشييدها سنة 1598، ثم الكاتدرائية الهائلة بمكسيكو (1573 - 1656) بمنارتيها اللتين بلغ ارتفاعهما نحو الستين متراً.
ولعل كنيسة لاجوس الباروكية الطراز (1649) وكنيسة شايهواهوا (1789) توضحان لنا أثر الفن الأوربي الإسباني وتطوره في أمريكا.
وبدأ تطور الطراز المعماري تطوراً شاملاً منذ القرن الثامن عشر، فاتجه الميل إلى إهمال الزخرفة واعتبارها عملاً يضيع الوقت والمال، وظهرت الرغبة في تبسيط البناء،

إلا أنه بالنظر إلى اتساع الأراضي وقلة ازدحام السكان ورخص التشييد لخلوه من كثرة النقش والتحلية، فإن الضخامة والثقل ظلا على حالهما الأول وحافظا على مكانتيهما من نفس المهندس المعماري. وخير مثل نسوقه لهذا مباني سان فرانسسكو وساجراريو متزو بوليتانو في مكسيكو وكتدرائية ليون.

ولم يكن هذا المظهر منحصراً في الكنائس وحدها، بل كان شاملاً للمباني العامة والمباني العادية؛ فترى السراي الأهلية التي يرجع تاريخها إلى عام 1692 بواجهتها التي يبلغ طولها مائتي متر، وسراي البلدية (1720 - 1724) ومدرسة برج (1797 - 1813) في مكسيكو، خالية كلها من النقوش والزخارف التي تعتبر في (الدنيا القديمة) ضرورية لتجميل البناء وأهم كنائس جنوب أمريكا كنيسة كوسكو التي بدأ إنشاؤها سنة 1537

وكنيسة ريودي جانيرو، وباهيا، وبونس أيرس، وليما، وسانتياجو حيث توجد الكاتدرائية العظيمة (1647 - 1748)، واختلف المجموع الإنشائي في كل منها اختلافاً يحتاج إلى التفصيل الذي لا يتسع له المجال لاتصاله بأصول العمارة.

وقد لوحظ أن فن العمارة الذي انتقل من إنجلترا وهولندا إلى أمريكا كان أميل إلى الناحية العملية منه إلى الناحية الفنية لجملة أسباب؛ منها أن الذين هاجروا إلى (الدنيا الجديدة) كان معظمهم ممن ضاق بهم العيش في بلادهم، أو من الذين اتسع لهم مجال التبسيط على اعتباره تجديداً، فضلاً عن العطش والرغبة الصادقة في الاستغلال السريع. أما الأسبان الكاثوليك فقد ظلوا سائرين في اتجاههم المعماري الذي مال إلى الزخرفة والتنميق؛ فترى في المدن الجديدة التي منها سانتافيه أمثلة عدة تؤيد ذلك.

وبينما اتجه الفن المعماري في الجنوب اتجاه البلاد الكاثوليكية كما هو الحال في كاتدرائية نيو أورليانز (1792 - 1794) التي لا يخرج طراز بنائها عن كونه خليطاً من العمارة الكلاسيكية الفرنسية والعمارة القوطية إلماماً؛ نراه اتجه في الشمال نحو البعد عن الزخرفة والميل إلى تبسيط الواجهات. وهذا يؤيد ما يلاحظه المشاهد المدقق على كنيسة كرست في فيلادلفيا التي تم بناؤها سنة 1727 والتي يذكرنا مظهرها الإنشائي العام بالتصميمات التي حملت طابع المعماري الإنجليزي كرستوفرورين في لندن، وكذلك بيت البلدية في بوستون والبيت الأبيض في واشنجطون، كلاهما حمل مظهر البساطة والرغبة في جعل المباني عملية أكثر منها فنية، فكانت متأثرة بالفن الهولندي المجرد.

أما في القرن لتاسع عشر فقد كان تأثير العمارة الأوربية عم وأكبر، وذلك بالنظر إلى كثرة المعماريين الذين ذهبوا إلى أمريكا. وقد ظهر أثر الفن الكلاسيكي على أشده في البناء الرائع المسمى كابيتول واشنجطن (ش 4) الذي ابتدأ بناؤه سنة 1793 والذي جعلت أعمدته من الطراز الكورنتي والتي أقيمت فوق أعتابها القبة فارتفعت عن الأرض تسعين متراً. على أن هذا البناء ليس الوحيد من نوعه الذي حمل هذا الطابع وهذه الروعة؛ فهناك مشيدات أخرى مثل بيت الاختراعات في واشنجطون ودار الجمرك في بوسطن وفي نيويورك وغيرها في فيلادليفا، كلها شاهد على هذا الاتجاه.

ونجد أيضاً أثر الطراز الرومانتيكي ظاهراً في التكوين الشكلي العام للكنائس وغيرها من

المباني الجديرة بالاعتبار. وهذا لا يمنع من أن تكون كاتدرائية باتركس في نيويورك على الطراز القوطي المتأخر وعلى جانب من عظمة المظهر، ولو أنها بدت في مجموعها نحيفة التكوين بالنسبة للمألوف في هذا الطراز. وعلى نفس المنهج بنيت كنيستا ترينيتي وتوماس وغيرها في نيويورك وكان الواضع لتصميمها المعماري الإنجليزي أبجون

ولا نذكر كنيسة كانت على جانب عظيم من روعة الفن الخالص سوى كاتيدرائية (جميع القديسين) (ش 2) التي كانت ولا تزال ضيقة المساحة، وهذه الروعة تتلخص في دقة التعبير عن الطراز القوطي المبكر.

ولعله جدير بالذكر أن المباني التي تجلى فيها الطراز الرومانتيكي هي كنيسة هولي كوميونيون في فيلادلفيا وردهة كاتدرائية ترينيتي السابق ذكرها، وكنيسة نيو أولد ساوث بمنارتها التي تأثرت بالفن الإيطالي فكانت مثلاً جيداً له في أمريكا.

أما في المباني العامة فبرلمان أوتاوا في كندا وكابيتول الدولة في هارتفورد والمكتبات

في بورلنجتون ووبرن، وكاونتي كورت هاوس في بتسُبرج، ومتحف الفن في سنسناتي، والناشيونال أكاديمي التي تذكرنا كثيراً بقصر الدوج في فينيسيا، ومتحف التاريخ الطبيعي في نيورك. . كل هذه آيات بينات لفن البناء الأوربي في أمريكا، كما أنها خير دليل على الغنى الفني المعماري والمقياس الصادق لتقدير الفن الخالص.

ومن الغريب أن أمريكا لم تقتبس من فن (عصر النهضة) شيئاً يذكر، ولكنه يخيل إلينا أن الرغبة العملية كانت لا تزال الحائل بين العمارة وبين الاقتباس. ولهذا السبب نجد أن الحلقة الفنية المعمارية ناقصة.

وذلك ما انبنى عليه عدم وجود الرابطة بين الطراز السابق اقتباسها وبين المسلك المعماري الذي مثل الضخامة والبساطة في المظهر.

وهذا بلا شك سبب جوهري في الانتقال المفاجئ من عمارة القرون الوسطى من حيث (الثقل والضخامة) كما هو الحال في كابيتول الدولة بنيورك إلى عمارة بيت البلدية في فيلادلفيا، التي كان المنهج فيها مشابهاً لما اتبع في بناء اللوفر، هذا فضلاً عن منارته التي تعد أعلى منارة في العالم. وهذا نفسه نعاينه في مباني بيوت الدولة والمكتبات والمحطات والمتاحف ودور التمثيل وغيرها من حيث اتساع مساحاتها وكبر أحجامها - ولكنها مع هذا

الاعتبار ضئيلة القيمة المعمارية الفنية لما بدا عليها من مظاهر البساطة وقلة التنسيق.

وحتى القصور والفيللات في (الدنيا الجديدة) بنيت دون قيد فني أو شرط من شروط الجمال العام، فهي لا تخرج عن كونها خليطاً من طُرُز مختلفة تجاورت وارتفع بعضها وانخفض البعض الآخر فظهرت خالية من الجمال؛ هذا في بيوت شيدها عظماء البلاد الذين يظن غالباً أنهم أدرى من غيرهم بأصول الجمال، أو على الأقل ممن لا عذر لهم في وجوب العمل على تشجيع الفن أيا كان نوعه.

من هذه الاتجاهات المختلفة وعلى ضوء هذا الخلط وعدم التقيد بقاعدة معينة أو فن معروف بدأت فاتحة اتجاه جديد في أمريكا، هذا الاتجاه هو إشغال أصغر مساحة من سطح الأرض بأكبر عدد ممكن من طبقات العمارات والبيوت، وساعد على ذلك عدم إمكان التوسع في مساحة مدينة واحدة أكثر من المعقول، إذ لا يجوز أن تسافر ساعتين من طرف إلى طرف الآخر في بلدة واحدة، هذا إلى جانب نمو عدد السكان نموًّا هائلاً.

وأولى هذه العمارات بيت بيركشير في نيويورك؛ فقد بنى شاملاً لتسع طبقات، وتدرج الحال حتى وصل إلى مائة وعشرين طبقة وأزيد! ويا ليت الأمر وقف عند هذا الحد؛ بل سار كل في اتجاهه حسبما أراد وتبعاً لما تسمح به دولاراته، فتجد إلى جانب بيت يناطح السحاب منزلاً لا يتجاوز خمس طبقات.

وبعد أن كانت أمريكا تقلد أوربا في أول الأمر، أصبحت أوربا تقتبس من أمريكا وتقلدها. وطغت هذه الموجة على القاهرة أيضاً فأصبحت ترى عمارات يبلغ عدد طبقاتها عشراً وثلاث عشرة بنيت كلها متلاصقة أو متجاورة لا ينفذ إليها نور ولا هواء، مع أننا لسنا في حاجة ماسة إلى مثل هذا المنهج السقيم، لا سيما وأن عدد سكانها ضئيل جداً بالنسبة إلى مدن أمريكا الكبرى، ومساحة القاهرة أكبر نسبياً من مساحة تلك المدن.

(له بقية)

أحمد موسى

صوت الآنسة أم كلثوم

من الوجهة الفنية

يعتبر صوت أم كلثوم أجمل وأكمل وأقوى صوت نسائي في العصر الحديث. ولعله أخلد الأصوات جميعاً في تاريخ الطرب بعد صوت (ألمظ) زوجة عبده الحمولي ومطربة الخديو إسماعيل.

فهو يمتاز بتكوين سليم لا عيب فيه، وبضبط نسب مقاماته ضبطاً محكما لا يحتاج لشرح ولا تحليل لأننا جميعاً نسمعه.

فهو غني بتريولاته (ذبذباته) التي تفعل في النفس فعل السحر أو أكثر، والتي تعطي السامع لوناً لامعاً ونبرة صافية غنية بكل الدوافع التي تسلب الإنسان حسه ونفسه.

يتكون من (ديوانين) تقريباً. وهو من نوع (الكونترآلتو) (واالميزوسبرانو) ويبلغ 15 مقاماً تقريباً (12 كونترآلتو) و (3 ميزوسبرانو)
أم كلثوم أقوى مطربة في الشرق، تتصرف في عقود النغم وعنصره تصرفاً فنياً سليماً. فهي مثلاً تتصرف في العقد الأول (بياتي ذي الأربع على الدوكا) وتتصرف في العقد الثاني (راست ذي الأربع على النوى). كذلك عشاق ذي الأربع على النوى، والحجاز ذي الأربع على النوى، وتهبط من البياتي ذي الأربع على الدوكا (نغمة الكارجهار)
وكل هذ الا يخرج عن عقود النغمة وعنصرها ولا يؤذي أذن السامع بل يصور له ذوقاً رفيعاً سامياً في التصرف، وفي تذوق النغم وفهمه.
وهي أقدر المطربات قاطبة في فن الإلقاء، وفهم الغناء، وإعطاء كل كلمة المعنى الذي يترجمها ترجمة صادقة. وأكبر الظن أن هذا يرجع إلى أنها اشتغلت كثيراً مطربة ومغنية (للقصائد النبوية) في المدائن والقرى.
تجيد كل ما تغنيه: ففي الطقطوقة، والدور، والتوشيح، والمنولوج، والقصيدة، لا تستطيع أن تسمو في ناحية على الأخرى ولا في نوع على نوع، لأن التوفيق يأبى إلا أن يلازمها في جميع ما تغني.
تدين للملحنين بكثير من مجدها، وإن كانت هي لا تحب أن تعترف بهذا تعزف على العود وتفهم في علم النغم، وتلم إلماماً بسيطاً ببحور الشعر وقوافيه.
سننتظر طويلاً حتى نجد صوتاً كصوتها، وتصرفاً كتصرفها، وذوقاً فنياً كذوقها.
محمد السيد المويلحي
رسالة الشعر
جيش أسامة
للأستاذ أنور العطار
ضجَّ مَهد الصحراء بالتغريد... وسَرى النور في رمال البِيِد
هو ذا في غَيَابة البعد خطٌّ ... ينجلي من سَرابها المعقود
سال ذَوْبُ النضار في مصحف الأف ... ق فزان الدنيا بحُلم رغيد
نَهَرٌ من هداية يتلوى ... في فضاء رحْب المطاف مديد
ضم في شاطئيه صَيّابةَ العُرْ ... ب وبأس الممرّسين الصِّيد
والأمير الفتِيْ يَدرَّع البي ... د بجيش من الكماة عديد
رفرفت رايةُ النبي عليه ... ورعته بالنصر والتأييد
مَن هو القائد الفِتُّي وما ين ... شدُ في قصده الطَّروُح البعيد
ولمن هذه الزُّحوف تَوَالى ... كوفود تنهلُّ تِلوَ وفود
يقدُم الفيلق الذي أفزع القف ... ر وهز النجود إثر النجود
تتمشى في سُبْله البيد نشوَى ... ثملاتٍ برملها العِربيد
يا صحابي هذا (أسامة) يختا ... ل بِبُرْد من الشباب نضيد
رأس الأكرمين وهو ابن عشري ... ن بعزمٍ ماضٍ ورأي سديد
وعليه جراءة الأسَدِ الوَرْ ... د وتحديقةُ العُقاب الصيوُد
يا له قاحماً نمته البطولا ... ت وألقت إليه بالاقليد
والبطولات شعلة الأمل السا ... طع في ظلمة الليالي السود
حدث النفس وهو يحلم جذلا ... ن بنصر داني القطوف عتيد
إيه يا نفس لا تَرُعْك المنايا ... فالمنايا أمنية الصنديد
اطلبي المطمحَ القصيَّ مداه ... ودعي الضعف للجبان الرَّقود
واذكري نائماً (بمؤتة) باع الن ... فس زُلْفَى رب البرايا الحميد
وانهضي للجهاد في نصرة الح ... ق وبثي رسالة التوحيد
ودعي اسم النبي تعبقْ به الدن ... يا وترتع في عالم من سعود
وتلاقى الجمعان فارتجت الأر ... ض وغابت في العاصف المشهود
هل رأيت الأتِيَّ يزُبد جيّا ... شاً ويرمي الجلمود بالجلمود
وتعالت في القفر تكبيرة الل ... هـ فدوَّى الوجود بالتحميد
ثبت المسلمون في لقية الرو ... م وغاصوا في القسطل المزرود
وفَروُهم بكل ماض صدوق ... كصباح يفري الدجى بعمود

لا يرُى منهمُ ضحى اليوم إلا ... آيسٌ من نجاته أو مُود
وأُسودُ الصحراء قد غنموا النص ... ر وفازوا بالمأمل المنشود
مَنْ يُردْ فرحة النعيم المرجى ... يصدق الله في ظلال البنود
الصحارى ياسحر هذي الصحارى ... آيةُ الله في كتاب الوجود
ثورة الشمس في خِضَمٍّ من النو ... ر سحيق نائي المرام عهيد
الأراذيُّ في حماها تَنَزَّى ... قاذفات باللاهب الموقود
يالها الله من جحيم تَلَظَّى ... تخطف الروع من جنان الجليد
هي للائذ المحب أمان ... وهي للغاصبين نار الوعَيد
أي زهو تثيره هذه البي ... د بقلب بحبها معمود
نهض الفجر في حماها بهيا ... حافلا بالسنا النقِّي الفريد
عانقتها الأضواء في هبة الصب ... ح فأزرت باللؤلؤ المنضود
سكبت في فضائها العسجد الصر ... ف وحلَّتْ أفياءها بالعقود
أشرق اليمن من محاريبها الزُّه ... ر ومحرابها محط السجود
ها هنا يا صاحبتي معبد الل ... هـ على غابر الزمان الأبيد
ها هنا مشرق النبوة، مهوى ال ... خير مجلى الحلم السنِّي السعيد
ها هنا دارة الهناءة والبش ... ر وما شئت من سخاء وجود
ها هنا البأس والجراءة والحز ... م ومستعصم الفخار الوطيد
ها هنا معقل الغطارفة الغ ... ر ومستوطن العلاء التليد
ها هنا السيف صورة الأمل البك ... ر وترنيمة الشجاع النجيد
وعلى البيد صورة تبهر العي ... ن جلالا بسحرها المسرود
طوَّف الدبن ساحها ثم أسرى ... يغمر الكون بالضياء الجديد
أسمع الرمل يملأ الأرض تسبي ... حاً بشدو محبب مودود
هدهدته قيثارة تتغنى ... بلحون قدسية الترديد
جازه العُرْب في مواكب للنص ... ر تفادي على اللواء المجيد
أذن الله للصحارى فماجت ... ساحتاها بقاحمين أسُود
يا جنود الحق المبين سلام ... أنتمُ للعلاء خير جنود
بكم عزت الحنيفة في الكو ... ن ونالت شأو المرام البعيد
فتحوا الأرض فاستقادت لفتح ... ناصع كالسماء هاد رشيد
غيرهم يفتحون للذل والعا ... ر وهم للعلاء والتشييد
ثم دال الزمان من ناسِه الغ ... ر فقرت سيوفهم في الغمود
واستكانت إلى الكرى فعليها ... صدأ الدهر من طويل الهمود
(بغداد)
أنور العطار
لله. . .!!
للأستاذ محمود حسن إسماعيل
(سألتني القوت حسناء، وهي لا تدري أني. . . شاعر!)
مَالي أَرَاكِ الْيَوْمَ؟. . . نَارُ الضَّنَى ... تَكَادُ مِنْ عَيْنَيْكِ تُلقِي الشَّرَرْ
رُفَاتُ نُورٍ فيهما لِلمُنَى ... رَغْمَ الْمَآسِي عَبْقَرِيُّ الْحَورْ
وَنْعشُ أَحْلاَمٍ طَوَاهُ السَّنَا ... وَسارَ. . . لا يَعْلَمُ أَيْنَ الْمَقَرْ
أَيْنَ؟! وَلَمْ تُبْقِ اللَّيالِي بِنا ... مِنْ رَحْمةٍ تَأسُو جِرَاحَ الْقَدَرْ
لا تَنْدُبِيهِ عِنْدَنَا. . . إِنَّنَا ... أَقْسَى قُلوباً مِنْ صَفَاةِ الْحَجرْ
والصَّوْتُ. . مَاذا في صَدَى نَبْرِهِ؟ ... أنينُ ثُكْلٍ أَمْ نَشاجي يَتِيمْ؟
شَاكٍ أَذَابَ الرُّوحَ في حَمْرِهِ ... لَكِنَّهُ رَغمَ التَّشَكِّي رَخِيمْ
سَاقٍ مَضَى بِالدَّمْعِ في دَهْرِهِ ... يَسْقِي الْحزَانَى مِنْ شَرَابِ الْجحِيمْ
لَوْ طَافَتِ الدُّنْيَا عَلَى خَمْرِهِ ... لَما صحا في الْبُؤْس مِنها نَدِيمْ
لَكِنَّهَا صَمَّاءُ عَنْ سِحْرِهِ. . . ... مَا يَفْعَلُ الشَّاكي لِسَمْعٍ لَئِيمْ؟
وهذِهِ الْكَفُّ الَّتِي ما بَرَى ... مِعْصَمَهَا الْبارِي لِغَيرِ السِّوارْ
بَيْضاءُ كالزِّنْبقِ فَوْقَ الثَّرَى ... أَلْقَتْهُ رِيحٌ في هَجِيرِ الْقِفَارْ
الذُّلُّ سَوَّى حُسْنَهاَ مِنْبَرا ... يَهْتَزُّ بِاللَّيْلِ فَيُبْكِي النهّارْ

والنَّاسُ مَلُّوا شَدْوَهُ. . . يا تُرَى ... لِمَنْ يُنَادِي يا تُرابَ الدِّيارْ؟
سائِلَةَ الْقُوتِ بِهَذَا الْوَرَى ... كُفِّي. . . فما تَلْقَيْن إلاّ الْخسَارْ!
النَّغْرُ رَفرَافُ الهوَى لِلْقُبَلْ ... لِكنْها ذابَتْ عَلَى بُؤْسِهِ
والصَّدْرُ نامَتْ في أَسَاهُ الشُّعَلْ ... وَاهْتاجَ لِلْقُوتِ لَظَى حِسِّهِ
والسِّحْرُ في الأَجْفان يَنْعَى الأَمَلْ ... وَيَسْأَلُ الْخَيْبَةَ عَنْ رَمْسِهِ!
بِنْتَ الطَّوَى! ذُوبِي بُكاءً وَهَلْ ... يَوْمُكِ إلاّ مِنْ صَدَى أَمْسِهِ!
الدَّهْرُ بِالرُّكْبَانِ لاَهٍ ثَمِلْ ... والْحظُّ مَطْوِيٌّ عَلَى نَحْسِهِ!
سأَلْتُهَا: ما بالُ هَذا الْجَمالْ ... أَسْيَانُ في الدُّنْيَا، حَزِينٌ، لهيفْ؟
ماتَ الْهوَى في ظِلِّهِ والدَّلاَلْ ... وفِتْنَةُ اللِّمْحِ، وسِحْرُ الرَّفِيفْ
وَاصْفَرَّ حَتَّى عادَني في الْخيالْ ... رَيْحَانَةً أَبْلَى شَذَاهَا الْخريفْ
قالَتْ: مَحا سِحْرِيَ ذُلُّ السُّؤَالْ ... وَخَيْبَةُ الْحظِّ لِحُسْنِي الْعَفِيفْ
إِنْ قُلْتُ: قُوتاً! قَالَ إِثْمُ الرِّجَالْ: ... بالْعِرْض لاَ نَبْخَسُ حَقَّ الرَّغِيفْ!

محمود حسن إسماعيل

القصص

الدموع

مترجمة عن الإنكليزية

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

كان ريكاردس أرملاً يعيش مع ابنته الوحيدة. وكان كثير التنقل من مسكن إلى مسكن، ولكنه لم يترك لوندرا في وقت من الأوقات. وكانت المساكن التي يقيم فيها من النوع الحقير الذي تؤجر فيه كل غرفة على حدة، وتدفع أجرتها مقدماً

وكان كثيراً ما يلجأ إليه المجرمون للاستشارة، فيفتيهم بما يدفع عنهم العقاب أو يجد لهم الوسيلة للخلاص. ولكنه هو نفسه لم يكن مجرماً، وإن أعتمد في رزقه عليهم وعلى مؤلفات صغيرة يضعها عن المجرمين والإجرام

كان أكثر زواره من طبقة الحدادين والنشالين واللصوص المبتدئين وخدم المنازل. وكانوا يطلقون عليه لقب (العلامة لتفننه في ضروب الحيل) وكان يقول لهم إنه قضى الشطر الأول من شبابه طالباً في جامعة اوكسفورد، وإن له أصدقاء من بين الوزراء واللوردات. وكانوا يجدون أمامه كل ما زاروه أكداساً من الكتب، ومجاميع من صور العظماء. وكانت بنته فيوليت ذهبية الشعر جميلة العينين رشيقة القد. وهي تقوم في المنزل بكل أنواع الخدمة، من الطبخ إلى الكنس إلى مشترى الحاجات من السوق. وكانت زكية نشيطة، وقد بدأ أبوها يحد من حريتها ويراقبها مراقبة شديدة لما بلغت عامها الرابع عشر. وذلك لأنه لاحظ أن بعض زواره كانوا يغمزونها بألاحاظهم، وظن أنها كانت تنتهز فرصة يكون فيها غافلاً فتبسم لاحدهم. وقد لاحظ مرة أو مرتين أنها تركته في أثناء حديث له معتذرة بعذر من الأعذار. ولكن اتضح أن العذر مكذوب، وأنها خرجت لتحادث أحد الشبان على السلم وكان في مثل هذه الحالة يغضب ويحتد ويطرد زائرهُ ويأمره بعدم العودة، ثم يستدعي فيوليت فيأمرها بملازمة حجرتها

وفي يوم من الأيام استأذنته فيوليت في الذهاب إلى السينما مع أحد أصحابها فقال: (كلا لا تذهبي)

قالت: (حتى ولا مع سواني جيمز؟). فقال: (لا تذهبي مع أي إنسان)

قالت وقد بدا عليها ما يبدو على سائر الفتيات في حالة العناد: (ولكنني أريد أن أذهب فلماذا تمنعني؟) فقال: (لأني آمرك بعدم الذهاب)

فهزت رأسها الجميل الشعر وقالت: (هب أنني ذهبت بالرغم من منعك؟). فقال: (إذن أضربك عند عودتك)

قالت: (وهب أنني لا أعود إلى المنزل؟). ثم اغرورقت عيناها الجميلتان بالدموع وقالت: (هب أنني ألقيت بنفسي تحت الترام أو القطار أو في البحر؟)

فهز العلامة كتفيه وأجابها بجواب خشن. واعتادت أن تسكت عند مثل هذه الحالة وتكف عن مطالبته بالذهاب

ولكن لا يحسب القارئ أن معاملته إياها كانت خشنة على الدوام، فقد كان كثيراً ما يلاطفها خصوصاً إذا شرب وانتشى، ويصفها بأنها عزاؤه وتسليته ويقول لها إن أمها أوصته وهي تموت بأن يعني بها، وإنه لهذا السبب يحرص عليها ويبذل من أجلها كل ما

يستطيع، وإنه إذا منعها عن جيمز وأمثاله فإنه يعلم أن أمثال هؤلاء سيجرون إليها المتاعب في المستقبل، وإنه سيجد لها الزوج الكفء في الوقت المناسب لكن كل شيء من هذا قد ذهب وفات أوانه وأصبحت فيوليت في السابعة عشرة فلم يعد يستطيع تهديدها بالضرب ولم تعد تجدي معها النصائح، فإذا ما أراد إرغامها على رأيه هددت بالانتحار فيضطر إلى الإذعان. ولم يعد له من سلاح غير لسانه الذي يلجأ إليه في قليل من الأحيان

وكانت في هذه الحالات تلجأ إلى الدموع

ولما تجاوزت العام السابع عشر وجد أبوها وسيلة جديدة للرزق هي إرسال خطابات يطلب فيها المساعدة من كبار المؤلفين والكتاب وإلى من يقيمون من أنفسهم مقام الرعاية لحملة الأقلام. وكان يقول في خطاباته إن حرفة التأليف كسدت في مدة الحرب وفي العهد الذي تلاها، وإنه يرتزق من قلمه، وإنه لا يملك حتى طابع البريد الذي يرسل به الخطاب، وإنه لذلك يبعث به مع أبنته الوحيدة فيوليت.

ثم يسلم الخطاب إلى ابنته ويأمرها بأن ترتدي أقدم ثيابها وتضع في كفيها قفازين باليين، ويبحث في فهارس الكتب عن أسماء المؤلفين وعناوينهم، ويوصي ابنته بأن تتصنع الكآبة

وتزعم أنه ليس في المنزل طعام وبأن تقلل معهم من الكلام بقدر المستطاع

قالت: (وهل أقول ليس في المنزل شراب أيضاً؟) فقال: (إياك أن تذكري اسم الشراب، ولتقفي حتى يسلم إليك الرد)

وفي أول مرة كلفها بذلك ذهبت وعادت فوضعت أمامه عشرة جنيهات فاستخفه الطرب وقال: (كيف أمكنك الحصول على كل هذا؟)

فقالت: (لقد فعلت كما أمرتني، فأبى الرجل أن يعطيني شيءً ولكني بكيت)

قال: (بكيت؟ كيف؟ هل آذاك؟)

فقالت: (كلا)

قال: (ولكن كيف تبكين؟ هل تأثرت من ذهابك بهذه الرسالة؟) فقالت: (كلا يا أبي ولكني وجدت البكاء وسيلة لتنفيذ المهمة التي ذهبت من أجلها)

قال وقد بدت عليه علائم الراحة والاطمئنان: (خبريني يا فيوليت. هل في استطاعتك البكاء كلما أردت؟). فقالت: (نعم. فإن معاملتك إياي منذ الصغر سهلت عليَّ اصطناع البكاء)

فلاطفها وواساها وقال: (تعالي يا ممثلتي العزيزة. إنني أهنئك بمستقبل باهر)

وكان ذلك اليوم بداية عهد جديد ترك فيه العلامة إفتاء المجرمين وترك حرفة التأليف، وعكف على تحرير الخطابات وإرسال ابنته بها ولقد أغنته هذه المهنة فأيسر، ولكنه ما زال عاكفاً على إرسال الخطابات

وفي يوم من الأيام جاءت إليه الخادم بخطاب وقالت: إن الفتاة التي حملت هذا الخطاب تنتظر مقابلته بالباب. فقال: (أسمعيني ما في خطابها) فقرأته، وهو خطاب من مؤلف كسدت سوق بضاعته، وليس في منزله طعام، ويريد مساعدة مالية لا تقل عن عشرة جنيهات

قال ريكاردس: (اطردي التي جاءت بهذا الخطاب).

فقالت الخادم: (أخشى يا سيدي إلاَّ يكون هذا في استطاعتي. إنها تبكي وحالتها مؤثرة جداً، وتقول أنه ليس في منزلها طعام)

قال: (اطرديها. فلماذا يلجأ إليَّ من أرسلها؟ عنده نقابة المؤلفين وعنده الجمعيات الخيرية المختلفة)

فخرجت الخادم وهي تفكر في وحشية سيدها الذي يأمر بطرد فتاة مسكينة لا تجد هي ولا أبوها القوت الضروري. ثم عادت فقالت: إن الفتاة أبت أن تنصرف، وألحت عليه أن يقابلها. فنزل ريكاردس ووجد الفتاة في ثياب سوداء وفي يدها قُفاز كله ثقوب. وبكت أمامه بدموع حارة، وأقسمت بصوت متهدج، أنه ليس في منزلها قوت. فأضطر ريكاردس أمام هذه الدموع إلى إعطائها خمسة جنيهات)

وربما أدرك القارئ أن تلك الفتاة لم تكن سوى فيوليت متنكرة، وقد غيرت صوتها، وأنها تمثل أمام أبيها نفس الدور الذي كان يرسلها لتمثيله أمام الناس

وفي يوم قريب من هذا الحادث طلبت فيوليت إلى أبيها أن يأذن لها بالذهاب مع جيمز للنزهة. فأبى وأصر على إبائه، وأطاعته وقد كظمت غيظها وأصرت على فكرتها في عصر ذلك اليوم سلم إليها أبوها خطاباً إلى أديب كبير في ضاحية من ضواحي المدينة لأنه كان قد استنفذ أسماء المقيمين فيها، فذهبت لأداء هذه المهمة بعد أن زارت مكتب أبيها وأخذت منه أوراقاً وانقضى اليوم ولم تعد، وانقضى اليوم التالي كذلك، وكاد أبوها أن يجن وأشيع أنها تزوجت من جيمز وأنها تقيم معه في منزل قريب من منزل أبيها

وتفقد مكتبه فوجد كيس نقوده مفقوداً، وكذلك دفتر مذكراته الخاص وبيان طويل بأسماء المؤلفين وعنواناتهم، فكان حزنه على البيان والدفتر أكثر من حزنه على المال المفقود لعلمه أن هذين هما مصدر ثروته. وأدرك أنها ذهبت إلى جيمز لتؤدي له الخدمة التي كانت تؤديها لأبيها فامتلأت نفسه بالأحقاد على هذا المزاحم

وبعد أسبوع واحد تقابل ريكاردس وجيمز في الطريق فأمسك الأول بتلابيب الثاني وطلب إليه أن يرد أبنته أو يسوقه إلى البوليس، لأن فيوليت لم تبلغ العام الحادي والعشرين فلا حق له في الزواج منها إلا بإذن أبيها. وقال إنه إما أن تكون معاشرته إياها سفاحاً معاقباً عليه لعدم بلوغها تلك السن، وإما أن تكون متزوجة بعقد مزور

قال جيمز: (إذن فلنذهب إلي البوليس وأنا مستعد للعقوبة إن كان ثمة عقوبة، ولكني سأقدمك للمحاكمة وعندي الأدلة بخطك من دفتر مذكراتك، ومن بيانك بأسماء المؤلفين. وسأقول إنك تعيش من أموال تحصل عليها بطريق النصب لأنك تطلبها بأسباب غير

(صحيحة؛ وبنتك تشهد عليك

لما سمع ريكادس ذلك وجف قلبه وفتر تحمسه وترك خصمه وذهب قانعاً من الغنيمة بالإياب

وفي اليوم التالي نشرت الصحف إعلاناً هذا نصه: (رجل من المشتغلين بالأدب متقدم في السن يريد أن يتبنى فتاة يتيمة في السابعة عشرة من العمر. العنوان: صندوق البريد رقم 7315)

وليس في استطاعتي إلا أن أفهم أن صاحب هذا الإعلان هو ريكاردس وأنه يريد الاستعاضة باليتيمة عن بنته وممثلته فيولت.

عبد اللطيف النشار

البريد الأدبي

الدكتور طه حسين في ذكرى الأستاذ صادق عنبر

دعت (رابطة الإصلاح الاجتماعي) جمهوراً كبيراً من رجال العلم والأدب والصحافة إلى حفلة أقامتها بدار الجمعية الجغرافية الملكية بمناسبة مرور عام على وفاة المرحوم الأستاذ صادق عنبر. وقد افتتح الحفلة الأستاذ أنطون الجميل بك بكلمة بليغة ثم تعاقب الأدباء والعلماء من أصدقاء الفقيد وتلاميذه والمعجبين بأدبه، فتكلم الأستاذ جاد المولى بك عن شخصيته، والأستاذ الههياوي عن أدبه، وألقيت قصيدة للأستاذ الكاشف، وألقى الأستاذ محمود بيرم التونسي زجلاً رقيقاً، والشاعر الشاب أحمد عبد المجيد الغزالي قصيدة

وكانت الحفلة تليق بذكرى الفقيد الراحل وتدل على أن الأديب يعيش في أدبه العالي ويمتد عمره في أصدقائه الخلصاء

وهنا مسألة لا بد من الإشارة إليها، فقد ذكر الأستاذ الههياوي أن الأستاذ صادق عنبر هو الذي كان يكتب تلك المقالات المعروفة في نقد النضرات للمنفلوطي، وأن الدكتور طه لم يكن له فيها إلا الإمضاء؛ وقد أيده الأستاذ عبد الرحيم بن محمود في هذه الدعوى الجريئة؛ وأذكر أن كاتباً كتب مثل هذا الكلام منذ سنوات في مجلة الزهراء

ونحن بشهادة العيان ننكر هذه الدعوى أشد الإنكار، لأننا كنا مع الدكتور ساعة كان يمليها ويدفع بها إلى الجريدة، وقد ذكرنا في بعض مقالاتنا أسباب ذلك. ولا ندري كيف يسيغ العقل هذا والدكتور طه كان يومئذ أقل من الأستاذ صادق عنبر سنًّا ونفوذا وشهرة. وما الحكمة في أن يكتبها الأستاذ عنبر ويمضيها الدكتور طه وذاك موظف في جريدة (العلم) وهذا أجنبي عنها؟ إن الدكتور طه يأبى عليه طبعه أن يضع اسمه هذا الموضع، وإنا لنعلم أنه نحل كثيراً من الناس مقالات وبحوثاً وكتباً نالوا بها الشهادات

والدرجات والثروة
فلم (الدكتور)
تعرض (شركة مصر للتمثيل والسينما) هذه الأيام في مدينة القاهرة شريطاً مصرياً محضاً عنوانه (الدكتور). وبعيد أن أقف هذه الكلمة على العرض والوصف والبحث؛ فإنما الذي في نيتي أن أحدث قراء هذا الباب من (الرسالة) عما خلص لي من قصة (الدكتور). وذلك لأن الذي يعنيني من المظاهر الأدبية والفنية في مصر إنما يرجع إلى الناحية الاجتماعية
خاصة
أما تمثيل القصة فيدلنا على أمرين: الأول مهارة الممثلين المصريين في فن (المهزلة) (مثلاً مختار عثمان وفؤاد شفيق)، ولن أنسى ساعة يدخل الخادم الريفي على الباشا وزوجه فيجري حديث صامت يضحك المصلوب. والسبب في ذلك أن التمثيل في مصر قام - أول ما قام - على المسرحيات الهزلية، وأن سليقة المصري إلى الخفة والظرف والمرح والمحاكاة الساخرة ميّالة. وأما فن المأساة فالمصري لا يتقنه بعد لأنه لا يحكم كيف يمثل الإنسان، الإنسان من غير صفة تصفه، الإنسان على سجيّته. وتعليل هذا أنه تجذبه المبالغة في التعبير على الغالب وتعوزه قوة الصدق في الإحساس الدفين أحياناً والأمر الثاني مضّي الممثلات في طريق الإتقان، من حيث أنهنه طرحن التكلف وسلّمنا بأن التواضع فضيلة وأدركنا أن الكلام الملقى مصدره القلب أو العقل لا الذاكرة ولا الدعابة (الشخلعة). . . وما ضرّ الأستاذ سليمان نجيب وهو بطل القصة (مع لقب بك) لو حذا حذوهن فتحلّى بالبساطة وأطلق وجهه من الإطار الذي حبسه فيه: إطار يغلب عليه الجفاء ويطرد فيه الانقباض مع شيء من العجب؛ إطار يحصر ابتسامة لا تتبدلّ كأنها مسمرة به، ولا تَرِف لأنها على حظ من التقبّض
بقيت القصة (وهي من تصنيف الأستاذ سليمان نجيب). ومجمل القول فيها أنها تصلح موضوعاً لخطبة يخطبها مصلح اجتماعي متطرف. وإليك فقرات من البرنامج المطبوع، وقد ذكرت بحروفها أو بمعانيها في أثناء التمثيل
مشكلة العصر: الرجل،) ،(فلم الدكتور صراع بين الحب العاطفي والحب الأبوي) فلم الدكتور يعالج داءً قاسياً داء التماسك بالطبقات والتغاضي) (المرأة: أيهما يسسود فلم الدكتور يعيد إلى الريف المصري مجده وعظمته ويرد إليه) (عن قيمة الأشخاص حياة اللهو وحياة) ،(أبنائه الذين سحرتهم مدنية المدن وبهاؤها البراق الخداع . . .الخ (حياة الترف في الحضر وحياة البساطة في الريف) ،(الاستقامة: أيهما أفضل
يا الله ما هذا الداء المتفشي في المؤلفين عندنا ولاسيما الذين يؤلفون للمسرح والسينما؟ يريد كلهم أن ينقلبوا وعاظاً. فهل لهم - أصلحهم الله وأبقاهم ذخراً للفضيلة - ومكارم الأخلاق؟
أن يضعوا العمائم على رؤوسهم، أو يجلسوا القلانس على مقدَّمها فيرتقوا المنابر ليوعدوا خلق الله أو يعدوهم؟
ما هذا التهويل؟ الأديب المصلح يشير ويغمز لأن الأدب فن، أو يظن المؤلفون عندنا أن جمهورنا بليد أيةّ بلادة حتى أنه يحتاج إلى التنبيه الصريح؟ ثم ما هذا الادعاء؟ هل سألهم الجمهور أن يسقطوا الفن إلى التأديب؟ وما هذه المشكلات التي يعرضها شريط (الدكتور)؟ الحب العاطفي والحب الأبوي الريف والحضر. اللهو والاستقامة. . . تلك أحاديث طريفة جداً حقاً!
ثم إن مثل هذا اللون من القصص السينمائية الناهضة على الوعظ والنضال الفكري يعوزه أجل العناصر شأناً: الحركة، نقاش وتدافع حجج وتبيين وتدليل، كل هذا ربما صلح للمسرح إلا أنه بعيد كل البعد عن السينما
و (الدكتور) - على هذا - يشمل قطعاً لطيفة بفضل حذق المخرج نيازي مصطفى وجودة الموسيقى على أيدي محمد الشجاعي وعبد الحميد عبد الرحمن ومهارة طائفة من الممثلين (وقد ذكرت بعضهم فوق) والممثلات أمثال فردوس محمد فدولت أبيض فأمينة رزق. فلا عدمنا (شركة مصر للتمثيل والسينما)
على الهامش: - متى يأتي الزمن الذي فيه نزن الكلام؟ ففي البرنامج المطبوع ما حرفه: (فلم الدكتور أروع ما جادة به قريحة مؤلف (هل هنالك غلطة مطبعية فتقرأ: المؤلف) وأعظم ما أخرجته عبقرية مخرج) (كذا). . . رحم الله هوليود!

كانت لغة القصة العامية على وجه الإطلاق، بل العامية السوقية أحياناً. ومهما يكن - من شيء فقد ساء أذني قول الآنسة أمينة رزق (يا دَكتور) (بفتح الدال) و (يا دُكْتر) (باختلاس الواو). وقد يحق لها هذا اللحن لو كانت ترتدي (ملاية لَفّ) والحال أنها تنعم في (فساتين) على جانب عظيم من الأناقة

بشر فارس

معهد للغات الشرقية القديمة والحية

من المسائل التي نظرها مجلس جامعة فؤاد الأول، في آخر الأسبوع الماضي مذكرة من كلية الآداب بمشروع قانون بإنشاء معهد للغات الشرقية

وقد قرر المجلس إحالة المشروع إلى لجنة اللوائح والقوانين لدراسته ووضعه في الصيغة القانونية

وقد علمنا أن هذا المعهد سيضم ثلاثة أقسام: الأول خاص باللغات الشرقية الإسلامية القديمة. والثاني خاص باللغة السامية. والثالث خاص باللهجات العربية القديمة والحديثة. وربما تقرر أيضاً تدريس اللغات الفارسية والتركية والصينية

وسيقصر دخول هذا المعهد على طلاب كلية الآداب الذين يحصلون على درجة اللسانس، وستكون مدة الدراسة فيه ثلاث سنوات. والمفهوم أن تلاميذ قسم اللغة العربية هم اللذين سيمونون المعهد. ولكن سيباح لطلاب الأقسام الأخرى أن يتقدموا إليه إذا تحققت فيهم الشرائط التي تستوجبها الكلية في الطلاب

التعليم الديني في المدارس

قامت وزارة المعارف في خلال العام الماضي بجهود مشكورة للتوسع في التعليم الديني بمدارسها، عاملة على جعله أساساً للنهضة القومية الحديثة، وتنشئة الطلاب على مبادئه وآدابه تنشئة تقوم عليها تقوية الأجيال المقبلة روحاً وعقلاً ونظاماً

وتقوم الوزارة الآن سيراً على هذا النهج بإعادة النظر في هذا الموضوع من حيث الاعتبارات الآتية:

1 - تقدير أثر العناية التي بذلتها الوزارة أخيراً لمناهج الدين

2 - المقارنة بين المناهج الحالية والمناهج السابقة من وجهة خطوات التعديل

3 - الإطلاع على مبلغ عناية المدرسة وتلاميذها بهذه المادة بدراسة تقارير المفتشين

4 - وضع بيان بالموضوعات التي يجب أن تشملها كتب الدين المقررة لمدارس الجنسين، واختبار وفاء الكتب الحالية بهذه الموضوعات

5 - النظر في هل تقتصر العناية بالدين على ما بين المدرس والتلميذ من تجارب يرجع إلى مقدرة كل منهما، أو العمل على جعله مادة أساسية يمتحن فيها الطلبة في آخر العام مثل غيرها من مواد اللغات والعلوم

وتتجه العناية أيضاً إلى اختيار مدرسي الدين من بين الذين أهلتهم ثقافتهم إلى عدم الاعتقاد بوجود تعارض ما أو جفوة بين تطبيق تعاليم الإسلام وبين مقتضيات العصر الحاضر، وهم الذين عرفوا أسرار الدين معرفة عقلية وقلبية دون الوقوف عند حد النظريات

ويطلع كبار مفتشي اللغة بوزارة المعارف الآن على الكتب المؤلفة في هذا الموضوع لإبداء ملاحظاتهم عليها بما يلائم هذا التوسع توطئة لوضع تقرير توجيهي للعناية الواجبة نحو هذه المادة

بعثة ألمانية للأبحاث العلمية في الحبشة

سافر في منتصف يناير من مدينة ميونخ عشرة من أعلام الألمان بينهم الدكتور فون سالفلد الذي اشتغل في الجامعة المصرية أربعة أعوام، في رحلة إلى بلاد الحبشة وكينيا وتنجانيقا، للقيام بأبحاث تتعلق بعلم الانتروبولوجيا وعلم الأجناس والحيوانات، كل هذا لحساب متحف ميونخ الطبيعي

ويرأس هذه البعثة العلامة الدكتور هارتل ماير الذي سبق أن تولى رياسة مثل هذه البعثات من قبل في أفريقيا أو الهند

ولا شك أنها ستجد كل معاونة من السلطات الإيطالية في الحبشة

ترقية الأغاني المصرية

تقوم وزارة المعارف الآن بمشروع هام لإصلاح ناحية لها خطرها في النهضة

الاجتماعية العامة عند الشعب، وهي ناحية الغناء والموسيقى. فقد لوحظ من زمن بعيد أنه على الرغم من الخطوات الواسعة التي خطتها مصر في سبيل مجدها وقوتها وثقافتها فإن الجانب الفني منها، والجانب الغنائي على الأخص، لا يزال متأخراً عن الهدف الرفيع الذي تتمشى إليه

ويلخص مشروع الوزارة في أن تعهد إلى طائفة من الشعراء الممتازين تأليف خمسين قطعة غنائية في مختلف الموضوعات التي تفي بما يجب توفره في أغاني أمة قوية معتزة ناهضة، على أن تعهد إلى طائفة أخرى من كبار الملحنين وضع الألحان المناسبة لها

وستترك الحرية لهؤلاء الشعراء والملحنين في القيام بعملهم خاضعين فيه لوحي شعورهم وإلهامهم الخاص؛ وتعطى على القطعة الواحدة عشرة جنيهات للتأليف وعشرة أخرى للتلحين. على أن يتجدد تأليف هذه الأغاني كل سنة حتى يتوفر منها العدد الكافي الذي

يقضي على ما هو موجود الآن

وستتبع الوزارة في موضوع (الأناشيد) نفس ما تتبعه في الأغاني، إذ رأت أن الذين يضعونها الآن من ناحية الصناعة لا ناحية الشعور يضرون بالقيمة الفنية التي لو توفرت فيها لأثمرت فيما وضعت له

ترشيح عميد الآداب لعضوية معهد التعاون الفكري

تلقت وزارة الخارجية كتاباً من وزير الخارجية الفرنسية، بوصفه مقرراً لمعهد التعاون الفكري، يرشح فيه صاحب العزة الدكتور طه حسين بك عميد كلية الآداب عضواً في المعهد، لما له من ظاهر في الثقافتين العربية والفرنسية

وينتظر بعد أن توافق مصر على هذا الترشيح، أن يعرض الأمر على سكرتيرية عصبة الأمم لإقراره

المباراة الأدبية بين رجال التعليم

طلبت وزارة المعارف، إلى اللجان الفرعية التي كلفت لدراسة المؤلفات التي وضعها رجال التعليم في مختلف نواحي المباراة الأدبية وبحثها، أن تقدم تقاريرها قبل يوم 18 فبراير القادم

وقد بدأت الرسائل الخاصة بالموسم الثاني لهذه المباراة ترد على الوزارة توطئة لدرسها واتخاذ قرار فيها

التدريب والتكليب

استفاض على ألسنة الكثرة المثقفة قولهم (الكلب هول ومدربه فلان. . .) وهو خطأ لغوي إذ الصحيح أن يقال: (الكلب هول ومكلبه فلان. . .) سواء أرادوا بفلان أن يكون مسلطة على الجناة للدلالة عليهم أو هو الذي ضراه وعلمه طريقة الإرشاد إليهم، إذ بكل من المعنيين وردت كلمة (مكلب) في لغتنا بصدد الحديث عن كلاب الصيد ولا يصح استعمال غيرها في هذا الصدد، وما تسليطه على الجناة للدلالة عليهم إلا كتسليطه للصيد وتعويق المصيد.

وقد جاء في لسان العرب ص 217 من الجزء الثاني (ومكلب مضر للكلاب على الصيد معلم لها؛ وقد يكون التكليب واقعاً على الفهد وسباع الطير. وفي التنزيل العزيز وما علمتم من الجوارح مكلبين.

والكلاَّب - بتضعيف اللام - صاحب الكلاب، والمكلب الذي يعلم الكلاب أخذ الصيد. وفي حديث الصيد: إن لي كلاباً مكلبة فأفتني في صيدها. المكلبة المسلطة على الصيد المعودة بالاصطياد الذي قد ضريت به والمكلب بالكسر صاحبها والذي يصطاد بها)

احمد عبد الرحمن عيسى

مؤلفات موسيقي نابغ

جاءنا من وارسو أنه سيصدر في فبراير القادم الجزء الأول من مؤلفات الموسيقي شوبان البولوني المشهور.

وسيشرف الموسيقي المعاصر المسيو بدرفسكي على إخراج هذه المؤلفات. وينتظر أن يتم إخراجها جميعا في مدى أربعة أعوام

فيا ليت هذا العمل يكون له مشابه في مصر وفي الشرق فنجد من يعنى بإحياء مؤلفات تعد من الكنوز سواء في العلم أو الأدب أو الفن.

ولا يصعب العثور في دار الكتب المصرية على مخطوطات إذا عمل على نشرها وإذاعتها فإنها ستكون موضع عناية أمم العالم وتصبح بمثابة دعاية قيمة تسجل لنا السير في مضمار الأمم الناهضة فعلاً لا قولاً.

أحياء ذكرى العلماء والأدباء

قررت الحكومة التركية إصدار مجموعة من طوابع البريد لمناسبة انقضاء خمسين عاماً على وفاة الشاعر القومي نامق كمال، وستحمل تلك الطوابع صورة وبعض كلمات من شعره

المسرح والسينما

في الفرقة القومية

المخرج فلاندر وسكرتير الفرقة

الخواجة فلاندر مخرج استقدمته الفرقة من بلده باريس ليعمل فيها بعد إذ عاف الأستاذ زكي طليمات العمل، وبعد إقصاء الأستاذ عزيز عيد والاكتفاء بالمخرج عمر الجميعي ريثما يعود فتوح نشاطي الموفد إلى فرنسا للتخصص في فن الإخراج والخواجة فلاندر له ذوق وله فن، وهو رغم جهله لغتنا العربية وعادات أمتنا وتقاليدها، قد استطاع أن يساهم في إخراج بعض روايات موضوعة فكساها رونقاً وأضفى عليها بهاء فنياً، كما أخرج رواية مترجمة يعرفها في الأصل إخراجاً تقليدياً لا اعتراض عليه في الشكل المسرحي، والحركة التمثيلية. ولا أقول شيئاً في الإضاءة لأن معداتها ناقصة نقصاً لا سبيل إلى تداركه

ولعل أحسن الروايات التي أخرجها، وأدناها إلى الدلالة على استعداده الفني هي رواية (المتحذلقات) المكونة من فصل واحد

أزعم أن لمحة واحدة من الناقد يلمح لمعانها في رجل الفن تكفي للدلالة على أن وراءها ما بعدها. فلمعان فن الخواجة فلاندر بدا في قدرته على إلجام ممثلات وممثلي رواية المتحذلقات وتقييدهم كما يفعل مروض البغال الشموسة ومدرب الببغاوات، وفي صدهم عن الإسراف في العطاء أكثر من اللازم الواجب. مثال ذلك: الممثل الضحاك فؤاد شفيق كان أكبر همه استلفات النظر إلى حركاته وإشاراته، غير آبه لإرشادات المخرجين بدعوى أنه يفهم فنه أكثر منهم، ويدرك رغبات النظارة وميولهم، وغير حافل بما تحدث حركاته وإشاراته من خلل في سياق الرواية ومن صرف الأذهان عن الغرض الصارم الذي مهد له المؤلف بنكتة أو إشارة، إذ كانت غايته كما قلت إضحاك الناس فقط

وهكذا الممثلة أمينة نور الدين اقتبست بعض حركات من بعض ممثلي السينما أمثال هاردي ولوريل وإضرابهما ممن يقوم تمثيلهم على الحركة المفتعلة. ولم نكتف بالأخذ عنهم كالقردة بل أخذت تغرق في التقليد والافتعال إغراقاً ممجوجاً وهذا ما دعاني إلى تشبيهها (بالساروخ) إذا اشتعل وارتفع في الفضاء تبدو نجومه لامعة وضاءة بعض لحظة، ولكن

كثيراً ما لا يشتعل لفساد مادته فينخنق وهو في الأرض

أما هذا المخرج، أو بعبارة أصح هذا المروض، فقد استطاع أن يجعلهما يقومان بدورهما على وجه مقبول، وهذا بعض المطلوب منه

ما كنت أبتغي الإلماع إلى هذه الناحية من النقد لولا حوافز ثلاثة:

1 - إدعاء قطب من أقطاب لجنة القراءة أن رأى النقاد المسرحيين لا يتعدى، بل يجب ألا يتعدى ناحية إخراج الرواية وطولها وقصرها على الوقت المناسب

2 - إدعاء قطب ثاني أن ليس في مصر نقاد

3 - شكوى الخواجة فلاندر من سكوت الصحف وإغضاء النقاد عنه

أما أنا فلن أسكت عن دحض الادعاء وعن نفي التهمة عن الناقدين المترفعين والأدباء المنصرفين عن الفرقة اشمئزازاً من أعمال رجالها الذين يتخبطون في ظلمات الادعاءات، ولن أتراجع حتى أظهر العلل التي أخذت تتأصل في الفرقة لوزارة المعارف المغضية عنها، ولأعضاء البرلمان الذين يغذونها من مال الأمة، ولكني أقتصر الآن على تفهم الخوجة فلاندر بأن في مصر صحافة قوية، وفيها نقاد يحسب لهم ألف حساب، وإن مصر تتوقل في نهضتها الثقافية سلم الارتقاء، وتتوجه بدوافع فردية، لا جماعية ولا حكومية، صوب المثل العليا، وإن قول المغرضين أن قحطا يعتور الأدباء

إنما هو محض افتراء على مصر الناهضة وشبابها اليقظ.
وإن في الفرقة القومية - ويا للأسف - جماعة، وصلوا في غفلة الزمن، إلى وظيفة لم يخلقوا لها، ومن هؤلاء موظف يقول أنه سكرتير الفرقة القومية واليد المنفذة لما يرتئيه أو يشير به مديرها والحامل (كرت بلانش) منه، فهذا المخلوق المكلف بتوجيه الدعوات إلى رجال الصحافة وجماعات الأدباء بقبض يده عن الصحافة الناقدة ويبسطها بسخاء على الصحافة التي تنشر المدائح والتقريظ مأجورة بالمال، ويفيض بها فيضاً على من لا أذكرهم وعلى نسوة ما عرفن من الأوبرا سوى بابها الخارجي وهذا المخلوق يعطي تذاكر الدعوات، لا جوداً ولا كرماً كأصحاب البدوات. بل حرماناً وتشفياً من صحافة ومن أدباء يرون الفرقة قد تحولت إلى (تكية)، وأن رجالها تهاونوا في تحقيق غرضها الثقافي، ومن هؤلاء المحرومين من (نعمة) سكرتيرها المحجل ناقد مجلة
الرسالة
كم من صحيفة أمثال (الرسالة) لم تشملها نعمة الفرقة؟ وكم من أديب مغضوب عليه من سكرتير آخر الزمان لأنه لا يذكره إلا بقدر فهمه المحدود؟
ليت الخواجة فلاندر الذي يشكو من إهمال الصحافة والنقاد لفنه يعرف أنه ما من سطر واحد ينشر في الصحف إلا بأجر يدفعه المدير. وليته يعلم مدير الفرقة ويفهم السكرتير الذي لا يفهم أن الفرقة القومية للتمثيل هي للأدباء ورجال الصحافة والمتأدبين وطلاب الجامعات والكليات والمدارس العليا. هي لهؤلاء قبل كل شيء، وليست للمثلات يدعون إليها أترابهن ومعهن أصدقاؤهن، ولا للمثلين يوزعون الدعوات على المارة وجلاس القهوات وموظفي المحلات التجارية
ليت الخواجة فلاندر يقول لمدير إدارة الفرقة إن (بيت موليير) يرسل تذاكر الدعوات إلى أساتذة الكليات، وهؤلاء يوزعونها بالقسط على الطلاب، وأن الطلاب يتهافتون على مسرح الكوميدي فرانسيز والأوديون وسواهما من المسارح التي تغذيها وزارة المعارف بالإعانات كما يتهافتون على مطالعة الكتب المفروضة عليهم
ليت الخواجة فلاندر يقول لمديره إن واجبه يحتم عليه تفقد مندوبي الصحف إذا تغيب واحد منهم، وأن يسعى إلى الناقد يسأله عما عاقه حضور التمثيل، وأن يأمر ببيع عدد من التذاكر بأثمان منخفضة كما هي الحال في كل فرق التمثيل الذي ترعاه الحكومة
ليت سعادة المدير يعرف أن الفرقة هي للأديبات والأدباء وأن مقاصير الأوبرا ليست لتاجر الخمور، وبائع الأقمشة والخياط والحذاء الذين لا يعرفون ولا يفقهون من فن التمثيل شيء، وأن الأليق من هؤلاء بجلوس المقاصير هم الذين يفهمون الحياة عن غير طريق جمع الملاليم إلى قروش والقروش إلى جنيهات تدخر لبناء مسرح خاص بالفرقة يغنيها عن استعارة الأوبرا بعض الوقت
أحسب أني لو قلت في خور الفرقة وهزالها وعجزها عن تحقيق بعض ما هو مطلوب منها تحقيقه أضعاف ما قلته لعددت نفسي من المقصرين، ولكني أرى لزاماً عليّ حرصاً مني على حياتها، وتفادياً لما قد يخالط أذهان بعض الذين لا يرون سوى ظواهر الأشياء، أن أشرك معي طائفة من الأدباء في إبداء الرأي في هذه المؤسسة التي أرادتها وزارة المعارف
وأرادها نواب الأمة لغرض ثقافي نبيل، فتحولت بفضل الرجال الأفذاذ إلى (مصطبة) للشيوخ العلماء المتعالين و (تكية) للكسالى من الممثلين والمتعطلين وفساكل الصحفيين وحثالة المتأدبين
ابن عساكر
العدد 292 - بتاريخ: 06 - 02 - 1939
كيف نعالج الفقر؟
سؤال طالما وقع في رَوع النبيين والمصلحين والفلاسفة ممن يملكون القول والدعوة، ولكنه لم يدرْ أبداً بخلد الأمير فلان والباشا علان والبيك ترتان ممن يملكون الفعل والتنفيذ. ومن بدائه العقل أن يفكر الأنبياء والحكماء في معضلة الفقر، فإنهم نشأوا في مهده الخشن، ودرجوا في فنائه الضيق، وعاشوا في مرعاه الجديب، ورأوا بأعينهم العَبْري أثقال العيش تنوء بالظهور الضعيفة فتسقط في طريق الحياة عرضة لزواحف الرذيلة وجراثيم المرض. ومن بدائه العقل كذلك أن تبقى معضلة العقر من غير حل

يطهر الأرض من سمومه، وينقذ الناس من همومه؛ فإن أرباب الحكم والتشريع والتنفيذ هم من سلائل النعمة وكناز المال، فلا يخطرون ببالهم الفقر، ولا يحبطون في حبالهم الفقير؛ وهم يظنون إذا محا الإحسان الفاقة، ونفي التعليم الجهالة، أنهم لا يجدون الخدم ولا يملكون العبيد؛ والجاه من غير أذلاء زفة من غير نظّارة، والمال من غير فقراء مُلك بلا رعية من أجل ذلك كان الفزع إلي الأقوياء والأغنياء من عوادي الفاقة تزييفاً على الطبع وتكليفاً بالمحال. ومن أجل ذلك كان تنظيم العلاقة بين القوة والضعف، والغنى والفقر، عملاً من أعمال الله وحده، يرقِّه عليه النفوس، ويرفع به الإنسانية، ويجِّمل به الحياة. فإذا حاربنا الفاقة بسلاح الاقتصاد المحض كسنِّ النظم، وتوسيع الموارد، وتوزيع العمل، وأغفلنا أثر الحظوظ والميول والأحوال والأمراض في حياة المرء، قتلنا الفقر بقتل الفقير، كما يقتل الطبيب المرض بقتل المريض. إنما يحارَب الفقير بسلاح الدين ليس غير. وسلاح الدين في مجاهدة البؤس أنه يجعل للفقير في مال الغني حقاً معلوماً لا يصح إسلامه إلا باعتقاده وأدائه؛ وأنه يقوي الإنسانية في الإنسان حتى يشعر بالأخوة لكل مسكين، وبالرحمة لكل بائس. وبقوة الإنسانية وحدها في الدول المتدينة كإنجلترا وأمريكا أوشك البؤس أن يزول، فوجد كل مريض مستشفى، وكل هَرِم ملجأ، وكل يتيم مدرسة. وقد بلغ ما أنفقته الحكومة الإنجليزية على أعمال البر في سنة من السنين ثلاثمائة مليون جنيه، ولا يقل ما يتبرع به الشعب البريطاني للمستشفيات وحدها عن خمسين مليون جنيه في العام!

الدين هو الطب الوحيد لأدواء المجتمع؛ فإذا غرستموه في قلوب النشء، وقويتموه في نفوس الشباب، جعل من الأمة أسرة متماسكة البناء، متضامنة الأعضاء، يعين سعيدها الشقي، ويحمل قادرها العاجز، حتى يقطعوا مراحل الحياة رافهين لا يمسهم نصب، ولا تجافي بينهم عداوة

مَن غير الله يستطيع أن يرقق هذه الكبد الغليظة في هذا الغني المبطان الذي غلا في الكبر، ولج في الهوى، ودلَّل نفسه على ذل الناس، وأمسك رزق الله في خزائنه فلا يطلقه إلا لشهوة أو نزوة؟

من غير الله يستطيع أن يقلِّب العَبر على عيني هذا المغرور فيريه بالشكل والمرض والهمم أن الراحة في النفس ألذ منها في الجسم، وأن الجمال في الرحمة أسمى منه في الجبروت، وأن السعادة في الإعطاء أعظم منها في الأخذ، وأن خير ما في الدنيا هو ما انتقل معه إلى الآخرة؟

هيهات أن يكون في الأرض إيمان ما دام في الأرض فقر. فإن أسباب الفقر ممدودة من الطمع والشح والأثرة؛ وهذه الخلال السوء لا تطمئن عليها نفسٌ مؤمنة. وإن من ضلال الإفهام أو الأقلام أن نعالج الفقر على أنه ناجم من ندرة العمل في البلد أو قلة الخير في الدنيا، فإن العمل ميسور للقادر، ورزق الله موفور للحي. وإذا شكت الأمم اكتظاظ المعامل ونضوب الموارد وضيق الرقعة، فإن مصر الجديدة البكر بينها وبين هذه الشكوى أن تمصِر المصانع والمعامل والمتاجر والمصارف والشركات، وما بالقليل ذلك

لا تطلبوا من الفقير العمل قبل أن توفروا له القدرة عليه. إنه جاهل فاشرعوا له منهل العلم؛ وإنه عليل فانهجوا له سبيل الصحة؛ وإنه معدم فدبروا له رأس المال. ومن بلادة الحس أن الغني يسمعك وأنت تقرأ هذا الكلام، فلا يظن المخاطَب به أحداً غير الحكومة، فيشارك في النقد، ويسرف في الإنكار، ويلح في الطلب، لأن الحكومة في رأيه يجب أن تلبي كل نداء، وأن تؤدي كل واجب. والحكومة لو درى هذا المتواكل القدم لا تتسع مواردها بكل رغبة؛ فإنها لم تجبُ منه ومن أمثاله إلا حق العمارة والأمن؛ أما حق الله عنده فقد وكلت أداءه إلى ضميره، يعطيه من يشاء متى يشاء وكيف يشاء؛ ولكن الضمائر نامت على هدهدة الشهوات، والعواطف قست على جفاف المادة؛ وبين غفوة الضمير، وقسوة العاطفة، ذهب وازع الدين فلم يبق إلا وازع السلطان

فهل يفكر أولو الأمر أن يعالجوا الفقر بما عالجه الله به فيجبوا الزكاة وينظموا الإحسان؟ إنهم إن يفعلوا ذلك لا يجدوا في البيوت عائلاً، ولا في الطريق سائلاً، ولا في السجون

قاتلاً، ولا في المواخير ساقطة!

احمد حسن الزيات

مشابهات

للأستاذ عباس محمود العقاد

في شهر واحد عرضت دور الصور المتحركة بالقاهرة روايتين متشابهتين في كثير من السمات والمعاني، وإن كانت إحداهما في باريس والأخرى في بتروغراد، أو كانت إحداهما في القرن الثامن عشر والأخرى في القرن العشرين، أو كانت إحداهما عن لويس السادس عشر والأخرى عن القيصر نقولا الثاني

كتبنا مقالنا الماضي بالرسالة عن (مارى أنطوانيت) فلم تمض أيام حتى شهدنا رواية (راسبوتين والقيصرة) وشهدنا كيف تتشابه الحوادث والنكبات، وكيف يصدق في بعض الأحايين قول من قال إن التاريخ يعيد نفسه، وإن كانت الإعادة لا تخلو من تبديل وتنقيح: شيمة الراوية الماهر الذي لا يعيد القصة الواحدة مرتين بأسلوب واحد!

في مأساة لويس السادس عشر ومأساة نقولا الثاني مشابه كثيرة يرجع بعضها إلى المصادفات وبعضها إلى تشابه النتائج عند تشابه الأسباب

فكانت لكليهما ملكة أجنبية من أصل ألماني، وكانت لكلتا الملكتين يد في الكارثة التي حاقت بالرجلين، وكان التاريخ في كليهما يجرى على سنة (الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون) ولا يعمل بآية العدل في القرآن الكريم: (ولا تزر وازرة وزر أخرى)

فقد كان نقولا الثاني مظلوماً فيما أصابه كما كان لويس السادس عشر

كان كلاهما طيباً رؤوفاً يريد الخير لشعبه؛ وكان نقولا الثاني محباً للسلام ينادي بالتحكيم في الأزمات الدولية؛ وكان يجنح إلى مشاركة الأمة إياه في تبعات الحكم ما استطاع، وكان منقاداً لمن حوله كما كان لويس من قبله، ولم يكن مشاكساً ولا بطاشاً يحب الفتك وسفك الدماء، ولكنه جاء في زمن وبيل فأصابه وبال الزمن وأخذه مع التيار الجارف الذي لا يتأنى ولا يتدبر في حكمه على الجناة والأبرياء

ليست هذه هي المشابهات الهامة في تاريخ الرجلين المظلومين، فربما كانت أو كان معظمها من أثر العوارض والمصادفات، ولكن المشابهة العظمى هي تلك (الحالة العقلية) التي تحيط بالعوالم المنهارة والدول الدائلة والكواكب الآفلة، ونعني بها العهود التي تجمع بين الأدبار والإقبال وبين النظر إلى الغيب والخوف من الحاضر وقلة الاطمئنان إليه

في تلك العهود يحس الناس أنهم ضعاف عاجزون، لأن زمام الحوادث يفلت من أيديهم وتيار الحوادث يجرفهم على غير إرادتهم إلى غير الطريق الذي يختارونه لأنفسهم، فهم من أجل هذا الإحساس بالعجز والضعف ينظرون إلى الغيب ويتطلعون إلى عالم الأسرار ويؤمنون تارة بالقديسين وتارة بالمشعوذين، على قدر نصيبهم من العلم والبصر بحقائق الحياة

وفي تلك العهود يضمحل الأمل ويغلب اليأس ويبطل الإيمان بالمثل العليا والصفات الرفيعة فيقبل الناس على المتعة والسرور، ويأخذون من الحاضر كل ما يعطيهم من اللذة واللهو، لأنهم لا يرجون غداً ولا يركنون إليه

وقد تجمع النفس بين النقيضين: فهي مغراة بالشعوذة والنظر إلى المغيبات المجهولة، وهي مغراة باللذة في حاضرها؛ لأن الحاضر بغير شاغل من الشواغل لا يطاق في أمثاله تلك الأزمان

إنما المراجع في طلب الغيب وطلب اللذة معاً إلى سبب واحد، وهو أن الحاضر مشؤوم والمستقبل غير مضمون، والإنسان بينهما عاجز عن التصرف بمشيئته فيما يزاول من كبار الأمور وصغارها على السواء

من أجل هذا ظهر (كاليسترو) الدجال الأعظم في عهد لويس السادس عشر

ومن أجل هذا ظهر (راسبوتين) الدجال الأعظم في عهد نقولا الثاني

وكلاهما دليل على تشابه الحوادث والدوافع النفسية بين بني الإنسان وكلاهما دليل على أن التشابه في بني الإنسان لن يمحو الفوارق بين الشعوب، ولن يزيل الخصائص القومية التي اشتهر بها كل شعب من تلك الشعوب

فراسبوتين لم يكن يصلح في مكان كاليسترو. . . وكاليسترو لم يكن يصلح في مكان راسبوتين

راسبوتين ظهر بين الروس وهم أمة لا شرقية ولا غربية، لا مؤمنة كل الإيمان بالدين، ولا مؤمنة كل الإيمان بالوثنية، لا متحضرة بحضارة العلم الحديث، ولا مستغرقة في البداوة أو جهالة القرون الوسطى

فظهر لما ظهر بين هؤلاء القوم برسالة من الدين ومن الوثنية في وقت واحد، أو برسالة

من الشعوذة ومن اللذة في عقيدة واحدة، أو برسالة يمت بعضها إلى زهادة المسيح ومت بعضها إلى المزدكية القديمة، وإلى عبادة (عشتروت) التي هي أقدم منها، وإلى ما قبل ذلك من المذاهب الخفية التي لم تنقطع بقاياها قط في الرقعة الغربية الجنوبية من القارة الأسيوية؛ أي في ذلك المكان المعزول الذي تصل إليه آثار الحضارات جميعاً في آسيا وأوربا وأفريقيا، ثم يحفظها جميعاً في عزلته المطوية بعد أن يصبغها بماله من صبغة قلما تمسحها الأجيال

في تلك الرقعة بقيت عبادة الشيطان، وبقيت الشواذ من فرق الباطنية، وبقيت تلك النحلة التي تبيح في تكاياها وصوامعها باسم الدروشة الإسلامية ما ليس يرضاه دين من الأديان الكتابية، وبقيت نحلة (الخليستي) التي انتمى إليها آخر الأمر (راسبوتين) وكانت أصلح ما ينتمي إليه رجل يدل نعته القديم على طبعه القديم. فإن (راسبوتين) كلمة روسية معناها الفاجر أو الداعر. . . وهو لقب اشتهر به الرجل في شبابه من جراء عبثه وعيثه واستهتاره بالشراب والفسوق

ما هي هذه (الخليستية) وما عباداتها وشعائرها المفروضة على أتباعها؟

هي نحلة مدارها على أن الخطيئة مطلوبة لأن الغفران صفة إلهية فينبغي أن تتحقق لله هذه الصفة التي هي أخص صفات الخالق جل وعلا. وإلا فكيف يكون الله غفوراً بغير الخلائق الخاطئين؟ ومدارها من جهة أخرى على أن الإنسان يعيش بالروح مع الله ويعيش بالجسد مع الناس، وأن لله قديسين هم الذين يقودون عباده في طريق المعيشة الجسدية وفي طريق الغفران. فليس يحق للعبد أن يخطئ وحده بغير قيادة من قديسه المختار

وعلم راسبوتين (سلطانه المغناطيسي) العظيم على نفوس أتباعه فزعم أنه قديس الزمان المرسل من قبل الله لالتماس الغفران، فبغيره لن يهتدي أحد في (الطريق) إلى حظيرة الرحمن!

أما هذا (السلطان المغناطيسي) فقد كان في راسبوتين كأقوى ما عرف في إنسان من الناس، حتى بلغ من سطوته أنه سلطه على رجل يمقته وينصب حوله الفخاخ لقتله بالسم أو الخنجر فأنامه وشل حركاته. ولا ريب أن هذا السلطان المغناطيسي مستمد فيه من تلك القوة الحيوانية الهائلة التي أنقذته من السم ومن الخنجر مرتين، وكادت تنقذه المرة الثالثة

لولا إطباق المتآمرين عليه بالعصي والسيوف بعد إطلاق الرصاص عليه وتسميمه بما يكفي لقتل بضعة رجال، ولا ريب كذلك أن هذا السلطان المغناطيسي هو الذي أعانه على شفاء ولي العهد بالسيطرة على أعصابه وسريرته بعد ما يئس منه الأطباء وأنذروا بموته من أثر سقامه الموروث

بهذه العدة كان الدجال الروسي يستعد لإنجاز (مهمته التاريخية) في ذلك العالم المنهار من الدولة الروسية

فبماذا استعد زميله (كاليسترو) من قبله حين تصدى (لمهمته التاريخية) بين الفرنسيين في عصر الفلاسفة المشككين والدعاة الملحدين الثائرين؟

لابد له من عنصر الغيب والخفاء، ولا سبيل إلى هذا العنصر من طريق النحل الدينية في تلك الآونة الملحدة المستريبة، فلينقل أتباعه إذن إلى صوامع الماسون وهياكل الجماعات السرية ومكامن الدسائس والمؤامرات ولابد له من عنصر الغواية والمتعة، ولا سبيل إليهما من نحلة الدروشة والعبادة، فليسحر أتباعه إذن باسم عقاقير الشرق التي تجدد الشباب وتطيل العمر وتكسو غضون العجائز مسحة الصبا ورونق الصباحة

وهكذا كان لكل (عالم منهار) دجاله الأعظم، ومن ثم موضع التشابه بين العوالم المنهارة

وهكذا كان دجال كل أمة على غرارها أو على نموذج أخلاقها وأطوارها، ومن ثم موضع الخلاف بين تلك الأشباه

وإنما عبرة التاريخ أن نخلص إلى هذه المواضع المتشابهات، وهذه المواضع المختلفات من حوادث الشعوب في قبضة القانون الخالد المستعاد.

عباس محمود العقاد

ابن الرومي

الشاعر المصور

للأستاذ عبد الرحمن شكري

يولع الناس في الحياة عادة، لتسهيل فهم الأنفس والأمور وتبسيطه، بأن يجعلوا لكل نفس أو أمر صفة يرمزون بها أو معادلة أو قاعدة، وفي ذلك أضرار، منها أن العجلة قد ترمز للأمر أو النفس بصفة لا تتفق وأكثر الخصائص المراد تلخيصها بالرمز أو تختلف عنها كل الاختلاف، وإذا تعلق الناس بالرمز صعب إصلاح خطئهم وصعب حملهم على تغيير زيهم وصعب عليهم فعل الأمر الذي يعالجونه أو النفس التي يتفهمونها، أو قد يكون الرمز منطبقاً على جانب صغير منها فيغفل الناس عن الجانب الأكبر. على أن الرمز إذا وافق الجانب الأكبر فهو قد يغري أيضاً بالغفلة عن الجانب الآخر الذي لا ينطبق عليه الرمز فيتسرب الخطأ في هذه الحالة أيضاً، ولكن إذا تأنى المفكر في وضع الرمز واختياره وقدّر أن يكون مخطئاً في بعضه أو كله وحسب حساب مالا ينطبق عليه الرمز حتى في حالة الإصابة كان فعله مسهلاً للتفكير والفهم وتذوق الأمور. وعلى هذا الشريط نبيح لأنفسنا أن ننظر إلى كبار الشعراء على ضوء رمز نرمز به إلى كل منهم وصفة نصفه بها، فنقول إننا نتذوق أبا تمام كأنه خطيب عبقري بصير بأساليب البيان وأثرها في النفس، جرئ في ابتداع الأقوال، بصير بما يعالج من أمور البيان بالرغم من جرأته؛ وسواء أكانت أقواله في أمور حسية أو نفسية فإن كلماته تبلغ صميم القلب بما فيها من الخيال المشبوب وقوة الإيجاز مع الدلالة التامة والإلمام بالمعنى المراد ومع تجنب الإطالة الفاترة. وفنه من هذه الناحية يشبه أيضاً فن صانع القصص التمثيلية في الاعتماد على قوة الأداء مع صدقه الفني وإيجازه مع استيفائه المعنى. وندرك على هذا الوصف أن لأبى تمام ولمن نشبهه به جوانب لا يتفقان فيها ولا يلتقيان عليها، لأن النفس الإنسانية تشبه البِلَّوْر ذا الأضلاع والجوانب العديدة التي تنعكس عليها أشعة الشمس في أشكال وجهات مختلفة متعددة. ونتذوق البحتري كأنه ممثل قدير يلوك حلو الكلام ويتأثر به وينتشي بحلاوة الصنعة حتى تخلق له الصنعة عواطف فنية كما في حياة بعض كبار الممثلين؛ ونقدر مع ذلك أن لنفسه جوانب أخرى تنعكس عليها أشعة الفنون. ونتذوق الشريف الرضي كأنه موسيقى يحكم

الوجدان ويؤثر في النفس بأنغامه؛ ونقدر أيضاً ما للنفس البشرية من مرام مختلفة. ونتذوق المتنبي على أنه محارب مغامر مدجج بسلاح الحنكة والخبرة والاعتداد بالنفس ونعرف له جوانب أخرى. أما ابن الرومي فإننا قد أدركتنا في أول الأمر حيرة في اختيار صفة واحدة له، إذا أنه قد يقف موقف الخطيب المؤثر كما في قصيدته في التحريض على قتال العلوي صاحب الزنج بعد أن خرَّب البصرة وهي التي يقول في مطلعها:

ذاد عن مقلتي لذيذ المنام ... شغلها عنه بالدموع السجام

وابن الرومي مثل أبي تمام مُغْرَى بابتداع التشبيهات والأخيلة والمعاني، ولكنها لم نشأ أن نختار له الرمز الذي اخترناه لأبي تمام لأنه قد يدركه الفتور، وأبو تمام لا يدركه الفتور؛ وقد يطيل حتى يمل سامعه خصوصاً في المدح، وأبو تمام لا يطيل مثله. وقد تدركه اللجاجة الفكرية في إيراد الحجة ودفع الحجة بالحجة على طريقة المجادل المناقش المناظر لا على طريقة الخطيب الذي يؤثر بالعبارات والأخيلة المشبوبة النارية المستقلة في معناها بعضها عن بعض في إيجازها وتركزها تركز الأحماض أو الروائح العطرية المنعشة أو المخدرة أو المميتة. وابن الرومي يبسط معناه بسطاً كما تتسع دائرة موقع الحجر في الماء أو كما يبسط الخباز الرقاقة في قول ابن الرومي نفسه:

ما بين رؤيتها في كفه كرة ... وبين رؤيتها قوراء كالقمر

إلا بمقدار ما تنداح دائرة ... في لجة الماء يُرمْى فيه بالحجر

وهذا هو الوصف الذي ينطبق على ابن الرومي نفسه في صناعة المعاني فكأنه خباز

المعاني. ولابن الرومي في الأهاجي ما هو أشد من الأحماض فتكاً، ولاكن أثرها ناشئ أيضاً من تَقَصِّيهِ أجزاء المعنى وصوره المختلفة وتوليد المعنى من المعنى. ولم نشأ أن نصف ابن الرومي بما وصفنا به البحتري الذي ينتشي بما يصوغ من حلوى الصناعة وما يلوكه منها كما ينتشي الممثل بما يمثل من الأحاسيس. لم نشأ أن نصفه بهذا الوصف لو أنه وصف ينطبق على كل ذي فن إلى حد ما فهو ينطبق على الشعراء جميعاً ولكن ليس كانطباقه على البحتري.

وابن الرومي لا يبلغ به التفاني في فن الألفاظ وصناعتها والانتشاء بها ما يبلغه البحتري بل يستخدم ابن الرومي الألفاظ استخدام السيد الآمر لعبده محبوباً كان العبد أو غير محبوب؛ أما البحتري فكان لا يقرب الألفاظ إلا كما يقرب المحب حبيبته ولم نشأ أن نصف ابن الرومي بما وصفنا به الشريف الرضي الذي نتذوقه كموسيقي يحكم الوجدان والفطرة السليمة؛ لم نشأ أن نصف أبن الرومي بهذا الوصف لو أن له من الغزل والعتاب والشكوى أشياء عميقة الأثر في النفس كقوله في الغزل:

أعانقها والنفس بعدُ مشوقة ... إليها وهل بعد العناق تدانى
كأن فؤادي ليس يشفى غليله ... سوى أن يرى الروحين يمتزجان

وقوله في العتاب:

تخذتكم ترسا ودرعا لتدفعوا ... نُبال العِدَى عني فكنتمْ نصالها
وقد كنتُ أرجو منكم خير ناصر ... على حين خذلان اليمين شمالها
فإن أنتمُ لم تحفظوا لمودتي ... ذِماما فكونوا لا عليها ولا لها
قفوا موقف المعذور عني بمعزل ... وخلوا نبالي والعِدَى ونبالها

ولكنه بسبب لحاجته الفكرية أحيانا وتَتَبُّعِهِ أو موازنته بين أجزاء المعنى وتلمسه دقائق الصور قد تضيع منه النغمة الشعرية وإن كان شعره يكتسب ميزة أخرى. وقد أحس ابن الرومي مع ذلك في نفسه بذلك الجانب منه الذي يشبه به الموسيقىّ أو الطائر الصادح فقال زاعما أنه لا يمدح ممدوحه:

إلا كما راقت القمريَّ جنَّتُهُ فظل يُتبعُ تغريدا بتغريد

ولم نشأ أن نصفه بما وصفنا به المتنبي من أنه محارب مغامر يغالي في الاعتداد بالنفس لأن ابن الرومي لم يطلب مُلْكاً ولا حُكماً ولا رياسة وإنما طلب السلامة من الناس وإنصاف أدبه وفضله وفنه وإعطاءه حق ذلك الأدب والفضل مما في أيدي الوجهاء والرؤساء والأمراء من أموال الله والناس التي كانت كثيراً ما تنهب نهبا. وكان ابن الرومي مرهف الحواس منهوما بالجمال في كل مظاهره ومطالبه، وهذا يكفي أن يكون شغله الشاغل في الدنيا بعكس المتنبي. وكان ابن الرومي يخشى الأسفار في طلب الرزق وله في وصف خشيته منها أشعار، ويخشى ركوب البحر ويخشى لقاء الناس ويتشاءم بهم، فكانت صفاته النفسية تختلف اختلافا كبيراً عن نفس المتنبي، ولا نحسب أن المتنبي كان يذرع في مخاطبة ممدوح كما فعل ابن الرومي في قوله:

أصبحتُ بين خصاصة وتجمُّل ... والمرء بينما يموت هزيلا
فامدُدْ إليَّ يدا تَعَوَّد بطنها ... بذلَ النوالِ وظهرُها التقبيلا

وفي قوله:

تعرفتُ في صحبي وأهلي وخادمي ... هواني عليهم مذ جفاني قاسمُ

وبعد ذلك بأبيات الرئيس المعاتَبَ ألا ينسى أنه خادم. أما شدته في هجائه فشدة الرجل المرهف الحس إذا جُوِفَي أو غُبنَ أو أسيءَ إليه أو اضطهد. ونكرر أن النفس كالبلور ذي الأضلاع والأشعة المنعكسةُ عليه مختلفة النواحي. ولكن لعل أصدقُ وصف يوصف به ابن الرومي هو أن يوصف بالمصوِّر أو الرسام أو النقاش. ويخيل إلينا أنه لو كان عائشا في إيطاليا في عهد نهضة الإحياء واشتغل بالنقش والرسم ما كانت قدرته تقل عن قدرة مصور مثل تشيانو (تيتيان) في ولوعه بألوان الجمال. وجمال الألوان. ولا نعني أنه كان مصورا في وصف مناظر الطبيعة والنبات فحسب، وإنما كان مصورا في كل أبواب شعره من مدح أو ذم أو غزل أو وصف للغناء أو المآكل أو الأشربات. وقد ذكرنا قدرته الخطابية في قصيدة التحريض على قتال صاحب الزنج ولكن أعمق أجزاء القصيدة أثرا هو وصفه دخول الزنج، المدينة ووصفه ما فعلوا بها وبأهلها. فولوع ابن الرومي بالألوان لم يكن مقصورا على ألوان المرئيات بل تعداها إلى ألوان الآراء، فتراه يُغري بوصف لون من الرأي ثم بوصف اللون الذي هو نقيضه. والولوع بالألوان

وشدة الإحساس بمعانيها وجمالها وأثرها من صفات المصور، وكذلك تَقَصِّي الأجزاء وربط أجزاء الصورة في القصيدة. ومن مظاهر ولوعه بوصف ألوان الرأي قصائده في مدحه الحقد وذمه؛ وليس من المرفوض أن نقول إن مدحه الحقد كان بسبب إحساسه المرهف وحقده على الذين آلموا هذا الإحساس المرهف من مناوئيه. فمن مدحه الحقد قوله:

أديمي من أديم الأرض فاعلم ... أُسئُ الربع حين يسئ بذرا
يُسمى الحقد عيبا وهو مدح ... كما يَدْعُونَ حُلْوَ الحق مُرَّا

وقوله:

وما الحقد إلا توأم الشكر في الفتى ... وبعض السجايا يَنْتَسِبْنَ إلى بعض

وإني أشك في أن الحقد توأم الشكر دائماً فإنه إذا قُرِنَ بالحسد، ولكل نفس نصيب منه قل أو كثر، منع من الشكر. وقد راجع ابن الرومي نفسه ولامها على مدح الحقد في قصائد منها قصيدته التي يقول فيها:

يا مادح الحقد محتالا له شبها ... لقد سلكتَ إليه مسلكاً وعثا

وأبدع منها وأعظم قصيدته التي مطلعها:

يا ضارب المثل المزخرف مُطْرِياً ... للحقد لم تقدح بزند وارى

وعندي أن هذه القصيدة من أعظم وأجل قصائده، وكل منتخبات من شعره لا تشملها تعد ناقصة، وفيها يحث على مغالبة النفس لطابع الشر وعلى تنمية طباع الخير. وقد بلغت قوة التصوير عند ابن الرومي مبلغاً جعله يُصوِّر الطبيعة وكأنها من الأحياء. وربما كان ولوعه بذلك أكثر من ولوع شعراء العربية الذين كانوا يجردون من الجماد أشخاصاً فيخاطبون الليل أو السري أو الرياح أو النجوم أو الربوع والأطلال أو الفراق، فيحدثونها وتحدثهم، وهذه الصفة من قبيل تلك الصفة في ابن الرومي وإن كان إحساسه بحياة الطبيعة أعم وأشبه بطريقة الشعراء الآريين. وليس شبه ابن الرومي بالشعراء الآريين مقصوراً على إحساسه بحياة الطبيعة وإشاعة المعنى في أكثر من بيت وتقصي أجزاء المعنى، بل هو يشمل أيضاً تفضيله فكاهة الصور الخيالية ومعانيها على الفكاهة اللفظية الشكلية، وكانت فكاهة الصور الخيالية ومعانيها على الفكاهة اللفظية الشكلية، وكانت فكاهة الصور الخيالية مفضلة في العصور المتقدمة في الآداب العربية فلم يبتدعها ابن الرومي وهي ليست ملكاً له ولا ابتكاراً ولكنه زاد فيها زيادة كبيرة، ثم إن المتأخرين من الشعراء صاروا يفضلون فكاهة المغالطات اللفظية، وهذا النوع كان معروفاً شائعاً في الأدب الأوربي وإن كانت الصور الخيالية أفضل وأعلى مرتبة.

ولعل عظم نصيب ابن الرومي من فكاهة الصور الخيالية كانت من أسباب تبريزه في الهجاء تبريزاً لا يضارعه فيه شاعر آخر. ولو حذفنا هجاءه الذي أفحش فيه مثل هجاء ابن الخبازة المعروف بهجاء بوران وغيره من الفحش القاذع الذي لا يصح نشره في هذا العصر بقيت لنا في هجائه صور فكاهية خيالية لا يستطاع تجنب اختيارها إذا أحصيت خلاصة من شعره، لأنها أعلى مرتبة من مدحه بالرغم من إجادته فيه. وقد كان الهجاء سبب موته مسموماً. والظاهر أن الأمراء والوجهاء كانوا يسيئون الظن ببعض مدحه غلاوة على خشية الذم، وهذا أمر يشاهد كثيراً في الحياة؛ فإذا اشتهر رجل بالسخر ظن الناس كل ما يقول من قبيل السخر أو الذم حتى ولو لم يقصد إلا المدح والتودد والصفاء. ومن شواهد سوء الظن هذا ما حدث عند ما مدح ابن الرومي أبا الصقر إسماعيل بن بلبل الشيباني بقصيدته الرائعة التي مطلعها (أجنت لك الوردَ أغصانٌ وكثبان) فأساء الممدوح الظن بقول الشاعر:

قالوا أبو الصقر من شيبان قلتُ لهم ... كلا ولكن لعمري منه شيبان
وكم أبٍ قد علا بابن ذر اشرف ... كما علا برسول الله عدنان
ولم أُقصرْ بشيبان التي بلغتْ ... بها المبالغ أعرقٌ وأغصان

وظن أنه يهجوه بضعة الأصل مع أن المدح ظاهر للأصل والفرع. ولا نظن أن الغباء هو الذي سما بالممدوح إلى مرتبة الوزارة، وقد كان وزيراً فلم يبق إلا التعليل الذي ذكرناه، وهو أن الرجل إذا اشتهر بالسخر والذم حُملُ مدحه على محمل الذم والسخر،

والشك في نية القائل يُغطي على فهم السامع، وكثيراً ما تراه في الحياة يُغطي على فهم ذوي الفهم حتى تراهم كالأغبياء. والظاهر أن حادث أبي الصقر لم يكن الحادث الوحيد من نوعه وإن كان أظهر حادث. فإن لابن الرومي أشعاراً كثيرة يشكو فيها من خذلان الممدوحين مثل قوله: (مالي لديك كأني قد زرعتُ حصى). وقوله: (فلا تعتصر ماء الصنيعة بالمطل). وقوله: (طال المطال ولا خلود فحاجة). وقوله: (أبا حسن طال المطال ولم يكن). ومثل هذا كثير في شعره. وكان يغبط البحتري لإقبال الممدوحين على شعره، ومن أجل ذلك كان يتعرض ابن الرومي للبحتري، وله أهاج منها قوله:

الحظ أعمى ولولا ذاك لم نره ... للبحتري بلا عقلٍ ولا حسب

(البقية في العدد القادم)

عبد الرحمن شكري

من برجنا العاجي

كل شيء أمامي في الريف يرتل نشيد السلام. فشجيرات الفول الخضراء ترقص مع النسيم، وترسل في الفضاء من حولي أريج زهرها الأبيض كما ترسل القبلات المعطرة. والبقرة ذات الأهداب الشقراء تتمطى في أشعة الشمس كأنها حسناء تستيقظ في فراش دافئ. والكلب رابض أغمض عيناً وفتح أخرى تلقي على الكائنات نظرات الرضا والصفاء. والدواجن والهوام والأرض السمراء وجداول الماء، كلها بأصواتها الصغيرة وأزيزها اللطيف وصمتها الدائم وخريرها الهامس تتراءى للمتأمل كأنها تتبادل حواراً خفياً مفعماً بكلمات الود والحب والأخاء الأبدي، وكأنها جميعاً في حركتها وسكونها جوقة موسيقية تخضع إلى يد غير منظورة كي توقع لحناً متناسقاً أزلياً لا يسمعه غير الأنبياء والشعراء.

صوت واحد نشز في أذني عن هذه المجموعة: هو صوت الإنسان. متى ظهر ظهرت معه الفوضى، ونشأ الخلاف حيث لا ينبغي أن يكون خلاف. تلك طبيعته. وقد تكون تلك أيضاً عبقريته.

جلس إليّ رجلان لا يختلفان في الزي ولا في اللغة ولا في اللهجة. لكن سرعان ما سمعت أحدهما يقول لصاحبه:

- أنت فلاح. أما أنا فعربي.

فعنيت بالأمر، وبادرت أسأل الرجل السؤال الذي طال ما ألقيه في مثل هذا الظرف:

- وما الفرق بين الفلاح والعربي؟

فأجاب الرجل بذلك الجواب الذي سمعته كثيراً في مثل هذا الموضع: مروءة العربي وشجاعته وشهامته وإكرامه الضيف وحمايته الجار. ثم. . . ثم شرف النسب. لم يدهشني ذلك ولكن الذي أدهشني حقيقة، وقد لا يصدقني البعض إذا ذكرته هو أن هذا الرجل غير المتعلم قد أشار إلى صاحبه وقال:

- أما جماعة الفلاحين فما هم إلا أولا توت عنخ آمون!

عجباً! إذن منشأ الخلاف بين العروبة والفرعونية ليس أدمغة المفكرين والمثقفين، إنما هو في الريف وفي قلوب ساكنيه!

توفيق الحكيم

من الشعر المنسي لحافظ!

لحافظ إبراهيم كثير من القصائد والمقطوعات قد أهملها الناشرون، فلم يحفظها ديوانه في طبعته الأهليه، ولا في طبعته الحكومية، على إنها من الشعر الرائع الذي تشرق فيه روح حافظ وتتمثل فيه شخصيته؛ ولذلك رأينا من الوفاء لشاعر النيل، ومن الرعاية للأدب، ومن الإنصاف للتاريخ أن نذيع ما لدينا من ذلك - وهو قدر لا بأس به - بين قراء الرسالة، وربما لو اجتمع لنا مقدار كبير جعلناه تذييلاً لديوانه، ونرجو ممن عنده العلم بشيء من ذلك أن يدلنا عليه وله الشكر منا ومن أبناء الضاد في سائر الأقطار ومن قراء الرسالة)

فؤادي. . .!

يا خافقاً قل لي متى تسكنُ ... لله ما تخفي وما تعلِنُ

يا ليت شعري عنك في أضلعي ... ماذا تقاسي أيها المثخَنُ

وما الذي أبقاه من مهجتي ... ومن حياتي داؤك المزمِنُ

يا ثغره، من ذا الذي يحتسي ... برد ثناياك ولا يؤمنُ

يا قده، هذي قلوب الورى ... معروضة طوبى، لمن تطعنُ
يا لحظه، مُرْنا بما تشتهي ... كل محال في الهوى ممكنُ
خيبة أمل .. !
وخيّب آمالي وقوفُك دونَها ... وأنك عند الظّالمين مَكين
يَسرُّك أني نائم الجد عاثر ... وُيرضيك أني للخطوب ألين
ليهنك ما بي من أسىً وخصاصةٍ ... وتقليبيَ الكفين حيث أكون //
م. ف. ع
صحائف من تاريخنا القومي
قاسم أمين - الرجل
للأستاذ أحمد خاكي
اشتهر قاسم أمين بدفاعه عن المرأة لأن ذلك كان أوضح ما كتب عنه، لكنه عندنا من أكبر المصلحين المصريين الذين ظهروا في أوائل هذا القرن. وليس دفاعه عن المرأة إلا شعبة من آرائه في الحرية والتربية واللغة وسائر وجهات الإصلاح.
ولو أنك تصفحت كلماته قبل أن تقرأ كتابيه في (تحرير المرأة) و (المرأة الجديدة) للمحت عقلية جديدة نفذت وراء الحجب التي تكاتفت على عقول المصريين خلال قرون طويلة، ورأيت كيف تستطيع النفس الحساسة أن تندسّ إلى ما وراء الحجب فتلقي الحقيقة سافرة غير مقنعة، ثم لشاقك من حياة هذا الرجل أنه كان شجاعاً، ولاتخذت من حياته مثلاً أعلى للتفاني دفاعاً عن الفكرة
ظهر في أعقاب القرن الماضي قليل من أمثال قاسم أمين، لكنهم لم يلقوا ما لقي هو من العنت والسخرية والاستهزاء. كان يعيش أكثر إضرابه في أجوائهم، لكن قاسماً كان يعيش في جو خاص به هو ونفسه. وذلك ما استعدى عليه المتعصبين من أصحاب الدين وأنصاف المتعلمين من أصحاب العلم؛ وقليل أولئك الذين قدروا تلك النفس الحساسة التي تؤمن بالحرية إيمانهم بنعيم الحياة. وكثير أحسوا بما كانت ترسف فيه المرأة المصرية من أغلال، لكن أحداً من هؤلاء لم يؤتَ من شجاعة النفس ما استطاع أن يصمد به للمهاترين والمغالين ممن أعمتهم التقاليد على أنه ليس يعنينا اليوم في حديثنا عنه وجوه الإصلاح التي فيه إليها وتحدث فيها وإنما يعنينا أن نرى قاسم أمين الرجل وأن نتعمق في درس تلك النفس الزكية التي أوتيت كثيراً أمن الغضب الكريم.
وأشهد لقد هممت بالكتابة عن النقاش الذي دار بينه وبين الدوق داركور، لكنما رأيت أن الكلام في ذلك سوف يصبح ناقصاً لا غناء فيه ما لم أتحدث عن قاسم أمين (الرجل) لأن قاسم أمين (الرجل) هو الذي غضب للقومية المصرية، وهو الذي غضب للإسلام والمسلمين؛ وهو بعد ذلك الذي دافع عن مصر والإسلام بحرارة المجاهد الرشيد
وأول ما يمتاز به قاسم أمين (الرجل) نفس محسّة تجيش بمختلف العواطف، فهو قد أوتي الكمال من الحس الدقيق والشعور المرهف، وهو من أول المصريين الذين اعترفوا بأن النفس جماع لمختلف العواطف والمشاعر والوجدانات إلى غير ذلك مما يتصل بالدراسات النفسية الحديثة. ولعله أحد المصلحين القلائل الذين اهتدوا إلى تلك النتائج قبل أن يتعمق الناس في دراسة علم النفس. فهو يعترف بأن الإنسان مجموعة من الأعصاب تتأثر بالبيئة التي يعيش فيها، وأن القلب الذي يكنّ البغض هو نفسه الذي يكنّ الحب، وأن النفس الشريرة تنمو - إذا نمت - لأنها تصادف جواً صالحاً يؤثر فيها وقد كان شديداً على البيئة التي نشأ فيها قاسم أمين تؤمن بما جاء به، كان شديداً عليها أن تعنو للنتائج القيمة التي وصل إليها لأنها كانت بيئة نصف متعلمة ونصف متدينة في وقت معاً، أما العلم الذي تشبثت به فقد كان خليطاً من القشور والخطل، وأما وجهتها الدينية فقد كانت ملتوية تمتاز بالنفاق والجدل. لذلك لم يعترف أنصاف المتعلمين بالغرائز التي تندفع في نفس الإنسان، ولم يحاول أنصاف المتعلمين أن يتبصروا فيما انحدر إليهم من أصول القرآن والسنة. ولو أن أولئك وهؤلاء قد اجتمعوا على أن يذوقوا ما ذهبت إليه تلك النفس الحاسة لرأوا رأياً آخر غير الذي بسطوا فيه أقلامهم وألسنتهم عن جهالة
على أن تلك النفس الحساسة التي اعترفت بالخير والشر جميعاً هي النفس التي

أعانت صاحبها على أن يستوعب الآثار الدقيقة التي مارسها في حياته. هو قد اعترفت بالغرائز الدنيا وقد اعترفت بالعواطف العليا، وهو قد رأى الشر إلى جانب الخير، فكان في كل ذلك يمثل المعلم المتبصر الرشيد، ولن يكون الزعيم ولا المعلم حتى ولا القاضي أهلاً لما يرجى منه حتى يرى النفس الإنسانية من ناحيتها وحتى يقدر الشر والخير والرذيلة والفضيلة، وحتى يعترف بالشر والرذيلة ويتفحص هذه وذلك ليترسم السبيل السوية نحو الخير والفضيلة وكل ما ينطويان عليه من معان

تلك النظرة الدراسة هي التي أقامت عند قاسم أمين كل المعايير التي حاول أن يطبقها على المجتمع المصري، ولأنه كان يؤمن بأن النفس جماع العواطف والوجدانات فقد قال: (إن الفضيلة والرذيلة يتنازعان السلطة على نفس الإنسان في جميع أدوار حياته. فتارة يخضع للأولى وتارة تتغلب عليه الثانية، ولا يوجد رجل مهما بلغ في التربية والعلم يكون آمناً من السقوط يوماً في الرذيلة، كما لا يوجد رجل مهما أحاطت به الرذيلة إلا وفيه استعداد لأن يأتي يوماً بأفضل الأعمال

وحقيقة الأمر أن أخلاق الإنسان ليست شيئاً يتم دفعة واحدة، وليس لها حد تقف) عنده، إنما هي في تحليل وتركيب، في تكوين مستمر يعتريها الانحلال زمناً وتعود بعده بل هو قد استطاع أن يقيم معياراً صحيحاً يقيس به رغبات الرجال (إلى التماسك ونزعاتهم. ولسنا ندرى هل كان يتنبأ بكشوف علم النفس الحديث حين قال: (إن الإنسان أسير الشهوات ما دام حياً. وإنما تختلف شهواته باختلاف سنة: فشهوة اللعب عند الطفل، وشهوة الحب عند الشاب، وشهوة الطمع عند رجل الأربعين. وشهوة السلطة عند شيخ الستين، جميعها شهوات تعرض صاحبها للهفوات واقتراف الخطايا) وقد كان قاضياً، على أنه كان ينظر إلى نفس المجرم نظرة دارسة أخرى. كان يرى أن المجرم مسير أكثر مما يكون مخيراً، وأنه (لابد أن تكون الغاية النهائية للتربية الأدبية هي العفو عن الخطيئة - العفو عن أكبر خطيئة، العفو عن كل خطيئة)

هل المخطئ مسئول أو غير مسئول؟ وما هي درجة مسئوليته؟ مسألة عظيمة يجب) على من يريد الحكم على غيره أن يحلها. لكن حلها يكاد يكون محالاً، إذ لا يستطيع أحد أن يلم بجميع العوامل التي تتركب منها الذات الإنسانية بوجهيها الأدبي والمادي، والقليل الذي يعلمه من ذلك يبين أن سلطة الإرادة على النفس محدودة وخاضعة لمؤثرات كثيرة شديدة تنازعها وتقارعها وتضعف قوتها على نسبة مجهولة ومقدار لا يصل إلى تقديره عقلنا. وكل تاريخ الإنسان في الماضي يدل على أنه لم يكن متولداً عن الحيوان المفترس مباشرة، فهو مشابه له في شره وأطماعه وشهواته. خلق عليل النفس كما هو مريض الجسم. خلق على أن تكون صحته الجسمية والعقلية صدفة سعيدة وعارضاً مؤقتاً)

فالخطيئة هي الشيء المعتاد الذي لا محل للاستغراب منه. تركه آدم وحواء لأولادهما) التعساء من يوم أن اقتربا من الشجرة المحرومة. . . من ذلك اليوم البعيد لوثت الخطيئة طبيعتهما، وانتقلت منهما إلى ذريتها جيلاً بعد جيل. وذلك هو الحمل الثقيل الذي تئن تحته أرواحنا الملتهبة شوقاً إلى الفضيلة .. .)

وأخيراً، فإن العفو هو الوسيلة الوحيدة التي ربما تنفع لإصلاح المذنب، فقلما توجد) طبيعة مهما كانت يابسة لا يمكن أن تلين إذا هي عولجت)

وإذا أنت نثرت بين يديك كل ما قيل عن تنازع الغرائز، وإذا أنت نشدت فكرة تأخذ بجماع الغرض الأسمى للتربية، لم تجد تصويراً أدق مما ترسّمه قاسم أمين في تلك الكلمات. كل كلمة تنضح من ينبوع من الحكمة والحق والحب، وكل فقرة تجبهك بحقيقة من الحقائق التي يعيها رجال التربية ويعلمون مداها في تربية العقل والوجدان في العصر الحاضر. وإنما النفس الحساسة التي تفيض رحمة وحناناً هي التي شعرت بكل ذلك. وقاسم أمين القاضي هو الذي آمن ذلك الأيمان. أليس القاضي هو الذي يستطيع أن يبلغ بإحساسه إلى مستسرّ النفس ويتعمق بشعوره إلى أطوائها؟ إلا أنه كان قاضياً فذاً ذلك الذي استطاع أن يوفق بين العدل وبين العفو. فهو يشعر بنواحي الضعف البشري كما يشعر بها شاعر مثل شكسبير ثم لا يمنعه ذلك من أن تجري أحكامه بقسطاس مستقيم

قاسم أمين المربي وقاسم أمين القاضي هو الذي شعر بكل ذلك؛ لكن قاسم أمين

المتفنن الأديب هو الذي استطاع أن يؤلف بين العفو وبين العدل وأن يداول بين المثل الأعلى وبين الفطرة الدنيا. والمتفنون في العالم هم أولئك الذين ألفوا بين المتناقضات وجمعوا الأبيض والأسود في صعيد واحد يفرقون بين هذا وذاك بما يوحي إليهم من الحكمة وبما يُلهمون من شعر أو حديث أو تصوير. ولولا أن المتفننين القدامى والمحدثين قد اعترفوا بالرذيلة والخطيئة والشر لما ورث العالم ذلك الفن الذي رقّه على الإنسان حياته. وقد أوتي قاسم أمين نفس المتفنن الأديب وهي التي ألهمته أن يرد حياة المجتمع في عصره إلى عناصرها الأولى فاستطاع أن يفرق بين الحق والباطل واستطاع أن يدافع عن الأصول التي اهتدى إليها حرارة الأدباء والمتفننين

ولسنا ندري: أإذا أتيح لقاسم أمين أن يكتب في الأدب التمثيلي أكان يكتب من المسرحيات ما يشاكل تلك النفس الفنانة التي ترددت بين جنبيه؟ لكن قاسماً كان فيما يكتب يستروح نفحة نقية من الأدب، ويتهدّي بشعور عميق من الفن. إلا أنه لأمر ما لم يتجه إلى الأدب المسرحي، أو أقل إنه أوتي الكثير من عدة. الفن لكنه لم يتهيأ لإنتاج الفن نفسه. وإنما قوام الفن تلك الحساسية البريئة التي تستطيع أن تشفق على المجرم وأن ترى الغرائز الدنيا مصطخبة مع الأفكار العليا. أنها نفس حساسة تلك التي تستجيب لكل الآثار التي تلقاها، وهي هي نفس المتفنن الأديب. وأي الرجال كان شكسبير، وأي الرجال أبسن أو برناردشو

إذا هم لم يمتازوا بتلك النفس الحساسة التي تستجيب لكل الدواعي؟ وعندنا أن قاسم أمين كان أحد الذين انفعلوا لآثار البيئة التي عاشوا فيها، ثم أعطوا بعد ذلك أضعاف ما أخذوا. وهو يشبه في ذلك جمهرة الروائيين الذين صوروا الحياة كما كانت وكما ينبغي أن تكون. ولو أنه أوتي حظا من التأليف الروائي لخرجت من بين يديه مسرحيات تطاول ما ألفه الآخرون. وحسبه أن كلماته التي لم تبلغ الستين صفحة لم تزل معرضاً لنواح كثيرة من حياة الجيل السالف: معرضاً احسن تصويره أي إحسان. ولعلنا نطيل كثيراً إذا حاولنا أن نتأثر ما صوره قاسم أمين من حياتنا المصرية، فهو في مرة يصف حياة خمس من الشيوخ أحيل إلى المعاش وقضوا أوقات فراغهم في لعبة الطاولة وفي مناقشات بريئة صاخبة عن السن. قضي الموت على أربعة منهم (وبقي خامسهم منفردا كئيبا لا يتكلم ولا يخرج من بيته لا يدري ماذا يصنع بحياته ويراقب الموت الذي يخلصه منها.) وهو يكتب في مرة عن متطفل اقتحم بيت أحد أصدقائه وفيه قوما يسمرون فأفسد سمرهم. وهو في كل ما يصف شاعر بالجدل الذي يملك نفس الروائي، وهو يقول في ذلك: (يقصد الناس التياترات لرؤية الحوادث الغريبة، وسماع القصص المضحكة أو المبكية. والعاقل يكتفي بما يراه حوله ويسمعه، يتفرج مجانا على وقائع لم تبلغها مخيلة المؤلفين، ولا مهارة الممثلين).

وشيء آخر شارك قاسم أمين فيه أهل الفن والأدب، ذلك هو الشعور بالجمل. فلقد كان خياله سخيا لدنا، اتسع لألوان كثيرة من الجمال. وقد حاول أن يسبقه على غرائز الفطرة الأولى التي اعترف بها. فهو إذا اعترف بأن الإنسان يولد شريرا فقد ذهب إلى أن الغريزة قد يستعلي بها إلى المكان الأسمى. وهو في ذلك يختلف عن كل معاصره الذين ثاروا به. ولأن هؤلاء لم يدركوا ذلك الإحساس الأول من أسس التربية والإصلاح فقد ضل قاسم أمين عرضة لسوء الضن، وضلت كلماته غرضا لسوء التأويل؛ وهو قد كان يؤمن بأن (اعظم ما يصاب به المرء أن يحرم من الذوق السليم) وبأن (الذوق السليم هو الإحساس الفطري الذي ينمو ويتهذب بالتربية. وهو الشعاع اللطيف الذي يهدي صاحبه إلى أن يقول ويفعل ما يناسب المقام)

وكأنما قد ألهمت تلك النفس الحساسة حب الجمال إلهاماً، وكأنما تشرفت على ما تندفع به نفس الإنسان من عواطف نبيلة، كما اطلعت على ما يتدفق في أغوارها من غرائز وشهوات. والحق أن باحثاً يدرك الشر لا بد أن يرى ناحية الخير ناصعة بريئة. وقد داول هو البحث بين الخير والشر فأقام حدوداً جمالية نرى أن مصر لم تأخذ بالكثير منها. فهو قد كان يرى أن أكبر الأسباب في انحطاط الأمة المصرية تأخرها في الفنون الجميلة: التمثيل والتصوير والموسيقى، وأن هذه الفنون ترمي جميعها على اختلاف موضوعها إلى غاية واحدة هي تربية النفس على حب الجمال والكمال، فإهمالها هو

نقص في تهذيب الحواس والشعور وهو يقص عليك القصة التالية لتدرك تقديره للجمال، ولترى في أي بيئة كان عايش: (دخلنا قصر اللوفر، وكنا أربعة من المصريين لنمتع النظر لأبدع ما جادت به قرائح أعاظم الرجال في العالم، فبعد أن تجولنا في غرفتين جلس أحدنا على أحد الكراسي قائلا: أنا اكتفيت بما رأيت وهاأنا منتظركم هنا. وقال الثاني: اتبعكما لأني احب المشي واعتبر هذه الزيارة رياضة لجسمي، وسار معنا شاخصاً أمامه لا يلتفت إلى اليمين ولا إلى اليسار، وما زال كذلك حتى وصلنا قاعة المصاغ والحلي. وحينئذ تنبهت حواسه وصار ينظر إلى الذهب ثم صاح: هذا ألطف ما في الدار. وصلنا إلى تمثال إلهه الجمال الفريدة في العالم أجمع، فسألت دليلنا ماذا تساوي هذه الصورة إذا عرضت للبيع؟ فقال إنها تساوي ثروة أغنى رجل في العالم. تساوي كل ما يملكه الإنسان. تساوي ما يقدر لها حائزها ويطلبه ثمناً لها، إذ لأحد لقيمتها)

وأنت تستطيع أن تقدر المرارة التي تخبث النفس الزكية حين تهتز لقطة من التصوير والنحت؛ تحس بهذه المرارة إذا ابتلاك القدر بأن تسير وشخصاً تجافى نفسه كل نوع من أنواع الجمال، فلا يرى من جمال الشعر إلا البيت المتهتك السخيف، ولا من جمال الموسيقى إلا النغم الصاخب المنفر. ولعلك تحس بالمرارة التي كان يشعر بها قاسم أمين إذ كان يساير رجلاً استغلقت عليه آيات الفن الخالدة غير بعض حلى من الذهب والفضة لأن لها بريقاً يلمع! حقاً إن قاسماً كما أسلفنا القول كان يعيش في جو خاص لا يشاركه فيه إلا القليل

احمد خاكي

أعلام الأدب

هوميروس

للأستاذ دريني خشبة

(إلى أستاذي الجليل أحمد حسن الزيات أهدي هذه الفصول)

ألم ينظر هوميروس غير الإلياذة والأوديسة؟

لقد ذكر كالينوس الشاعر اليوناني القديم (660 ق. م) منظومة لهوميروس تدعى لما يعثر عليها إلى عصرنا هذا. ويظن بعض المؤرخين أنها لا تعدو أن تكون الإلياذة في صورة أفخم نظمها للإنشاد في طيبة اليونانية ولذلك أطلق عليها هذا الاسم وعثروا على آثار للشاعر سيمونيدز (أمورجوس) الذي كان يعيش في منتصف القرن السابع قبل الميلاد، وردت فيها مقتطفات من هوميروس يُظن أنها من الإلياذة - منها ذلك البيت المشهور: (وكما تَسَّاقط الأوراق (في الخريف) فكذلك تَسَّاقط أرواح البشر)

وبعد ذلك بقرن كامل (556 - 468) رَوى شاعر آخر يدعى: سيمونيدز (من كيوس) بالتواتر عن هوميروس شعراً من ملحمة مفقودة لا تمت بصلة لا إلى الإلياذة ولا إلى الأوديسة

أما بندار (522 - 448 ق. م)، وهو زعيم الشعر الغنائي في اليونان القديمة، فقد كان مشغوفاً بهوميروس وإن لم يمنعه شغفه به من مآخذ أخذها عليه فيما يتعلق بأوديسيوس. . . وقد ذكر لهوميروس ملحمتين طويلتين عن أخيل ما تزالان وا أسفاه مفقودتين إلى اليوم. . . وإذا كانت الأوديسة قد بلغت هذه الغاية من الإبداع في سمو القصص وكثرة الوقائع وهي لبعض أبطال الإلياذة، فما بال هوميروس في ملحمتيه في أخيل وهو بطل أبطال الإلياذة جميعاً؟! أية ثروة أدبية من شعر البطولة قد فقدها العالم!! لقد كان بندار يعجب بهاتين الملحمتين (الإلياذة الصغيرة والأثيوبيون) إعجاباً فائقاً جعله يشدو بهما كما يشدو عصفور الكناريا باللحن الموجع. . .

أما إسخيلوس فقد كان يقول عن مآسيه التي نيفت على الثمانين ولم يصلنا منها ويا للأسف إلا سبع: (إنهن فتات من موائد هوميروس الحافلة!!) والثابت أنه استخدم أبطال الملاحم

الهومرية في أكثر ما ألف إن لم يكن في كل ما ألف. . . فهل كانت جميع مآسي اسخيلوس عن أبطال الإلياذة والأوديسة فقط؟!

وقد ألف سوفوكليس أربعاً وعشرين ومائة مأساة. . . وكانت ثلاثياته تحوم حول أبطال هوميروس كما كان يفعل إسخيلوس، فهل كانت أبطاله في هذه الأربع والعشرين

والمائة المأساة كلها من الإلياذة والأوديسة؟
يقول المؤخرون حين يعرضون لهذا إن كلا من إسخيلوس وسوفوكليس كان يعد كل ما وصل إليه من ملاحم العصر القديم هوميريا، ولو لم يكن من نظم هوميروس. . . ومن هذا التراث العظيم استمدا موضوعات مآسيهما. . . بل يقولون إنهما كان يدعوان ذاك العصر كله العصر الهوميري. . . على أنه ليس في هذا الكلام دليل على أن هوميروس لم ينظم غير الإلياذة والأوديسة، وإلا يقل إسخيلوس إن مآسيه فتات من موائده الحافلة، لأن إسخيلوس كان يعني ما يقول أكثر مما يحاول مؤرخو زماننا هذا أن يفهموا من عبارته وجهها الصحيح، وهو ولا شك كان يعني هوميروس نفسه، ولم يعن عصره كله وبعض العصر الذي سبقه وبعض العصر الذي جاء بعده أو ما يسميه المؤرخون العصر الهوميري، أو ما يزعمون أن إجزنوفان (القرن السادس) كان يدعوه كذاك
هذا وقد اعترف تيوسيديدز لهوميروس بالإلياذة وبالأوديسة وبترتيلة أبوللو؛ أما أفلاطون فلم يستشهد بأكثر من نتف من الإلياذة والأوديسة وملحمة فكاهية تدعى (مارجيتس) ضاعت فيما ضاع من تراث الإغريق. . . أما أرسطرخوس الإسكندري العظيم (160 ق. م) فلم يعترف له بأكثر من الإلياذة والأوديسة
وعلى ذكر أفلاطون وأرسطو نروي أن كلا منهما كان يقني نسخة من الإلياذة مختلفة في كثير من فصولها عن النسخة الأخرى، ولم يستطع المؤرخون تعليل ذلك بعد، الهم إلا ما يعزى إلى بِزِسْتراتوس - منظم أشعار هوميروس فيما يقال - من أنه تناول الإلياذة بشيء من التحوير، وأقحم عليها زيادات في تمجيد الأثينيين. . . وهو ما يشك في صحته الأساتذة لانج وموراي وبوروا والعلامة كارل موللر
على أنه ليس بزستراتوس وحده الذي اتهم (بتحشية) الإلياذة والتزوير على هوميروس، بل إن صولون نفسه قد أتهم بمثل ذلك. . . بل اتهمت به كل مدينة يونانية. . . وما حدث
للإلياذة من ذاك القبيل هو ما حصل لحديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حينما اختلفت الأحزاب وأراد كل منها أن ينصر مذهبه بأثر من كلام الرسول، فكثر التلفيق وشاع الوضع، ثم نشأ بعد ذلك ما نشأ من مدارس الحديث وشمر الأئمة للتجريد والتضعيف وما إلى ذلك. . فمثل هذا حدث في اليونان القديمة
ولقد ساهمت مدرسة الإسكندرية بأوفى نصيب في درس الإلياذة والأوديسة، وفرغ من تلاميذها الأفذاذ لكلتا الملحمتين عدد عظيم استطاعوا عرفان الزائف من غيره، وكان إمام هذه المدرسة المؤرخ الناقد الكبير أرسطرخوس الذي وضع لنقد الأدب الهوميري قواعده الرائعة
ويحددون عصر البطولة الذي وقعت فيه حوادث الإلياذة ثم حوادث الأوديسة بالقرنين الثاني عشر والثالث عشر، وذلك إن القبائل اليونانية (الأيونيّة والأيوليّة والدوريّة) كانت قد أخذت تنهض فجأة وتناضل في سبيل مجدها وتناوئ الحثيين والمصريين على السواء، وكان لابد لها قبل كل شيء من أن تقهر طروادة المحصنة القوية الرابضة على ضفة الهلسبنت (الدردنيل) الشرقية. . . وبعد أن وضعت الحرب أوزارها. . . وبعد أربعة قرون أو نحوها، جاء هوميروس ليروي وقائع هذه الحرب في منظومته الخالدة، أو وقائع السنة الأخيرة من السنوات العشر من حصار طروادة - أو اليوم - كما كان يدعوها غالباً.
فالإلياذة من هذه الوجهة قصيدة حربية حافلة بأنباء المعارك، تكاد تسمع صليل القتال وأنت تتلوها، وتكاد تشرف منها على ميدان صاخب ثائر النقع، شديد الروع، فائر بالدماء. . . وإذا كنت من رجال الحرب سرتك الخططُ المرسومة والخُدَع المحبوكة، وراعتك هذه الفيالق المجيّشة تأخذ أماكنها ثم تتحرك كالموج، ثم ترتد قطعة بعد قطعة وهي في حالتي الكر والفر كالرجل الواحد، أو كالبنيان المرصوص. . . والإلياذة من هذه الوجهة أيضاً تصور لك حياة الجند في الثكنات أبرع تصوير وأروعه، كما تصور وأروعه، كما تصور لك حياة البحارة والرياضيين والرعاة ورجال الجبال. . . لكنها لا تبلغ من ذلك ما بلغه هسيود في ملاحمه، وذلك ما نرجئه لفصل آخر
الإلياذة وصف قوي لهذه المجازر التي نشبت بين جيل من الناس. يسكن في طروادة،

وبين جيل مختلف عن جيل طروادة. . . لأنه جيل من أنسال الآلهة، وذراري أرباب الأولمب،
فيما تزعم أساطير اليونان. . . جيل توالد من تزاوج عجيب بين هذه الأرباب الأولمبية وبين إنسيات فاتنات من بنات حواء. . . فليس أخيل العظيم ولا أوديسيوس ولا أجاممنون ولا منالايوس ولا ديوديميد ولا نسطور ولاأجاكس ولا أبطال أخايا جميعاً أشباهاً لهكتور ولا باريس ولا أبيهما بريام ولا لأبناء طروادة، لأن الأولين أبناء آلهة والآخرين أبناء بشر مثلنا
شخصيات عجيبة جداً تلك الشخصيات التي أخترعها هوميروس فهو لم يكتف بأن صنع للإغريق لا هوتا يعج بكل زوج من الآلهة بل زاح يزاوج بين تلك الآلهة وبين الناس ثم ينسل أولئك الأبطال العظام الذين دوخوا طروادة، وأرووا سوحها بالعزيز الغالي من دماء أبنائها
فالسيدة هيلين، التي بسببها نشبت الحرب، هي ابنة زيوس كبير الآلهة من ليدا التي أحبها الإله الأعظم في غفلة من زوجة هيرا.
وأخيل - بطل الإلياذة - هو ابن بليوس ملك فتيا - لكن أمه عروس الماء الحسناء المفتان ذيتيس - التي استطاعت أن تزلزل قلب الإله الأكبر - زيوس - بجمالها الساحر، وأن تجعله، وهو سيد أولمب، بعض عبادها، كما استطاعت كذلك أن تسحر قلوب الآلهة الذين أهرعوا من كل مكان ليشاركوا في زفافها ويشربوا النخب في أكواب مما أهدى إليها الصب المدنف، إله الخمر، باخوس!
وأوديسيوس - بطل الأوديسة، وثاني أبطال الإلياذة، وصاحب فكرة الحصان الخشبي - يتصل بزيوس من أمه مايا - وكذلك ابنه تليماك
أما أجاكس، وهو من أبرز فرسان الإلياذة وأشدهم بأساً، فهو من حفدَة دردانوس وأجاممنون، وأخوه منالوس، هماولدا أتريوس حفيد تنتالوس، ذلك الملك القاسي المتحجر القلب الذي حاول مرة أن يطعم الآلهة من شواء صنعه لهم من بدن ابنه. فكان جزاؤه النفي إلى ظلمات هيدز حيث قاسى الظمأ الممض وهو غريق في نهر من الماء العذب لا يصل إليه فوه، وإن بينه وبين الماء لشبراً واحداً
وجميع الأبطال الآخرين هم حفدة الآلهة، وأبناء السماء كما دعاهم هوميروس (الإلياذة ج 2 سطر 513)
على أن أبطال طروادة يمتون هم أيضاً بوشائج النسب إلى بعض الآلهة. فبريام وأبناؤه التسعة (هكتور وباريس. . . الخ) ينحدرون من أسلاف أجاكس (دردانوس)
وفي كثير من كتب الإلياذة مفاخرات عجيبة بالأنساب بين أبطال اليونان وأبطال طروادة، إذ يرد الطرفان أصولهما إلى الآلهة (اقرأ المفاخرة الجميلة بين أخيل وبين إيناس - إلياذة - الكتاب العشرون)
بيد أن أبطال اليونان في الإلياذة يبدون أكثر اقتراباً إلى الآلهة وأشد اتصالاً بهم مما تبدو العناصر المكونة لجيش طروادة
وكذلك الحال بين آلهة الأولمب، فأكثرهم يعطفون على اليونانيين ويناضلون عنهم، ويُسْدون لهم أحسن الجميل فيما تقتضيه معاركهم من تيسير وترشيد
أما طروادة، فيعطف عليها أبوللو، وتنحاز إلى صفوفها فينوس. . . أليس باريس قد قضى بالتفاحة لها من دون هيرا وميزفا؟
لذلك تكاد تكون حرب الإلياذة قائمة بين قبيلتين متفاوتين في الطبائع، فأحدهما أقرب إلى الآلهة منه إلى الناس، والآخر أقرب إلى الناس منه إلى الآلهة، وفي ذلك ما فيه من ميل هوميروس الذي يبدو هواه مع اليونانيين في الإلياذة التي نملكها، والتي هي من تمحيص اليونانيين من أهل أثينا والإسكندرية
على أن هذا الميل لم يكن حاداً أو مبالغاً فيه كما هي الحال في القصص الشرقي الذي خلفته لنا عصور البطولة ومن نحو قصة عنترة أو أبي زيد أو سيف بن ذي يزن، فالغالب في هذه القصص أن يطبع الراوي سامعيه بطابع خاص، فيجعل هواهم في جهة واحدة بحيث يطربون أبلغ الطرب وأشده إذا جال عنترة جولة فأطاح برؤوس مائة أو مائتين أو ألف أو ألفين. أو إذا انهزم الزناتي أمام أبي زيد. . . لا. . . لم يفعل هوميروس كما فعل هؤلاء، فهو بالرغم مما جعل لأبطال الإغريق من شرف النسب وكرم الحسب، وبالرغم مما أنهى به الإلياذة من فتح طروادة وإشعال النيران فيها

وقتل أبطالها البارزين إلا أنه قد خصهم بنوع عجيب من البطولة يرفعهم درجات فوق الأبطال الإغريق. وذلك أنه جعلهم أناساً، وجردهم في المعمعة من هذه الحضانة الربانية التي خلعها على أخيل وغير أخيل، ومع ذلك فقد صبروا وصابروا ولقوا جموع اليونانيين بمثل الشجاعة التي لقيهم اليونانيين
بها، فلم يجبنوا، ولم يهنوا، ولم يتخاذلوا عند اشتداد اللقاء، وكانوا يَقتلون ويُقتلون، وكانت الكرة تكون لهم مرة ولخصومهم مرة. . . وكانت لهم مواقف عجيبة مشرفة تنتزع من القارئ استحسانه أو رثاءه. . . وقد استطاع هوميروس أن يستدر دموع سامعيه وهو يصور وداع هكتور لزوجه وولده، وفزع هذا الولد العجيب وأبوه يتناوله من يديه أمه ليقبله القبلة الأخيرة التي لم يره بعدها، لأنه ذهب ليصاول أخيلا فيقتله أخيل بمساعدة الآلهة. . . لا لأنه أقوى منه وأشد مراساً. . .
لقد استطاع هوميروس أن يستدر دموعنا وهو يصور لقاء أخيل لبريام المحزون وقد ذهب - وهو ملك طروادة - يرجو بطل الإغريق وزعيم الميرميدون في أن يدع له جثة ولده هكتور، وأن يخلي بينه وبينها، فما كان من أخيل إلا أن أصاخ ودموعه تنزف، فترك الجثة، جثة هكتور الذي قتل بتروكلوس حبيب أخيل، ووكيله على جنده وأعز الناس إلى نفسه، والذي بكيناه أحر البكاء حينما قتل، وحينما انتزعت أسلابه، وحينما جيء به إلى معسكر أخيل معفراً بتراب المعمعة، وحينما سهدت عليه العيون، وسهرت عليه حبيبة أخيل
وهكذا يرتفع هوميروس بأبطاله في الناحيتين، ويوزع إعجاب القارئ على المعسكرين، مما سنبينه في العدد القادم
دريني خشبة
عرض سريع
يوم الفتوة في بغداد
للأستاذ علي الطنطاوي
ذلك هو يوم الجمعة 27 يناير، الذي انتقلت فيه بغداد كلها، استقرت في شارع الرشيد، فينشئ المجد الجديد، على أساس المجد التليد. . . وقد أتى الناس من كل فج عميق، ليشهدوا بأعينهم كيف غدا أبنائهم أسوداً صغاراً، أشبالاً، يدافعون عن الحمى، ويحمون العرين. . . ويبصروا ببصائرهم الآتي المجيد، والمستقبل الزاهر، وقد أشرق فجره من عيون أولئك الفتيان، التي تبرق بريق الحماسة والإخلاص، وقلوبهم التي تنطوي على التضحية والثبات، وألسنتهم وهي تنشد النشيد الذي يوقظ الموتى، ويصب الحياة في الصخر الصلد، وأيديهم التي تهز البنادق، تقول بلسان حالها: إنا نحقق ما نقول!
مرحى يا فتيان العراق، عشتم للعروبة، وسلمتم للسلام!
أقبل الناس على شارع الرشيد، قبل أن تقبل الشمس بوجهها على بغداد، فملئوا جوانبه، واستأجروا مداخل المخازن، وشرفات المنازل والفنادق، حتى بلغت أجرة المقعد الواحد ربع دينار، ولا ترى في الشرفة مقعداً، ولا على رصيف مكاناً، وتعلق الناس بالأعمدة، وأشرفوا من الأسطحة، وكانت الوجوه في بشر وانطلاق، كما كانت الطبيعة متهللة باسمة في هذا اليوم المشهود، والشمس بازغة ساطعة، والأنس في الأرض وفي السماء. . .
وأنتظر الناس ساعات، لا يملون ولا يضجرون. . .
وكنت في غرفتي في (الأعظمية) أهم بالنزول إلى بغداد، ثم يردعني خوف الزحام، وكراهية الاختلاط، وخشية أن يبتلعني هذا اللج البشري الهائل. . . وكنت أنظر في ركام الكراسات التي تبلغ المئات، والتي جمع فيها كل تلميذ ما يستطيع من الأخطاء والحماقات، لأموت بتصحيحها، وتقدير درجاتها، فلا أمسها، ولا أدنو منها، وإنما أنصرف عنها أفكر في بلدي وأهلي. . .
أأنا أهجع آمنا في بغداد، وآنس مطمئناً، وأهلي في دمشق يمشون على النار، ولا يدرون أإلى موت أم حياة؟ أأستمتع بالجمال، وأتذوّق الحب، وأنفق الأماسيّ الهادئة، في مسارب الأعظمية، أساير (الشط) وأتفيأ ظلال النخيل والشام قد ثار من تحتها البركان وزلزلت منه
الأركان وهب أهله هبّة المستميت، يريدون الحياة كاملة، أو الموت صرفا زعافا؟ فكرت في ذلك فامتلأت نفسي كآبة وحسرة، فقمت على غير شعور مني وانطلقت

إلى بغداد، وما أدراك اليوم ما بغداد؟
بلغت (الباب المعظم) وعهدي بالمكان أن فيه شوارع وميداناً، فإذا هو بحر من الخلائق يموج بعضها في بعض، وقد غرق في هذا البحر الشارعُ واختفى الميدان، فوقفت حائراً لا أتقدم ولا أتأخر. وطال بي الوقوف، وخشيت أن أبقى كذلك إلى المساء، فتشددت وقلت: ويحك يا نفسي! لماذا الجبن؟ وعلام التأخر؟ ولماذا كنت تدفعينني إلى أن أمارس ألوان الرياضة، إذا كنت لا تستطيعين النجاة في مثل هذا اليوم العصيب؟ وظننت نفسي قد اشتدت، فشمرت عن ساعديّ وأقبلت أدفع هذا، وأزيح ذاك؛ وكلما دفعت عني واحداً حلّ مكانه عشرة، فخارت قواي وأيست من النجاة، واعترفت لنفسي باني لم أبلغ بعد مبلغ عنتر (عنتر القصة) الذي يقبض على الرجل فيرفعه بيده فيضرب به الآخر فيقتل الاثنين. . . فوقفت فاشتد على الضغط من كل جانب، حتى أحسست كأن أحشائي ستخرج، وضاق نفسي، ولكن كل ضيق إلى فرج، فلم يكن إلا أن فرج الله عني فبعث رجلاً من رجال الشرطة أعرفه فحملني إلى الفندق الذي أريد. . .
وكان في شرفة الفندق سعادة القائد البطل فوزي القاوقجي وأخي الشاعر أنور العطار في جماعة، فحللت فيهم، ولبثنا ننتظر الموكب، ونتحدث عن الفتوة في العراق، ونستمع إلى أحاديث فوزي وهي للأديب كنز لا ينفذ. . . وأشهد أن في العراق فتوة وشباباً، وأنه شعب عرف طريق الحياة فسلكه.
ولقد رأيت من مظاهر الفتوة في بغداد ما جعلني أبكي من فرط التأثر! رأيت في بغداد طفلاً يدرج على باب منزله، لم يتعلق المشي ولا النطق، وهو يحاول أن يخطو خطو الجند، ويوعز إيعاز القائد: يس. يم. يسرى. يمنى. . .
رأيت في بغداد أطفال المدارس الأبتدائية، يسيرون سير الجنود. يقودهم مدرس بلباس ضابط، يدربهم على فنون القتال وذهبت مع الطلاب إلى معسكر الإنكليز في (سن الذبان) لمباراة رياضية. فرأيتهم قد قبلوا المدينة الإنكليزية إلى حي من أحياء العرب، وأفاضوا عليها روحهم وشبابهم وفتوتهم، فقلت: تبارك الله! إذا
كان جيش من لاعبي الكرة لا يتجاوز الخمسين شاباً فعل هذا كله، فكيف لو جاء الجيش العربي جيش المستقبل؟ وسألت الطلاب في الامتحان هذا السؤال الأزلي: ماذا يريد أحدهم أن يكون؟ فكان جواب الأكثرين أنهم يريدون أن يكونوا جنوداً، مشاة وركباناً، وبحارة وطيارين، يدافعون عن أمتهم ويذبون عنها كل طاغية أو جبار ينبع من الأرض أو يهبط من السماء. . . ورأيت أثر الروح العسكرية واضحاً في الطلاب، فالطاعة من غير استخذاء، والحرية من غير تمرد، والنظام من غير جمود. تلك هي صفات طلاب العراق. وإن في مدرستنا العربية لثلاثمائة طالب، والمدرسة سائرة سير الساعة المتقنة وليس في إدارتها إلا مدير ومعاون، مع أن مثل هذا العدد يحتاج في دمشق إلى عشرة ضباط (معيدين) ثم لا تكون المدرسة كالساعة، وإنما تكون كالبركان الذي يهدد كل لحظة بالانفجار. فيا ليت شباب دمشق يعرفون الروح العسكرية، كما عرفها أشقائهم شباب العراق
لبثنا ننظر إلى الضحوة الكبرى، والناس لا يزدادون إلا تدفقاً، فكأنهم سيول تصب في هذا الخضم العظيم، والشارع يموج بالناس موجاً، ويزخر بالخلائق، وكلهم يتطلع وينتظر، وكلهم يسأل متى يأتي الموكب، وعمال الشركة الأمريكية للسينما ماثلون بآلاتهم في الشرفات والزوايا، ليصوروا معالم الحياة في بغداد. . .
وإن البحر ليموج ويزخر، وإن أمواجه لتصخب وتضطرب، وإذا بالمعجزة قد وقعت فانشق كما انشق البحر لموسى، وانفتح الطريق، فنظر الناس ونظرنا فإذا الأعلام العربية تلوح بألوانها الأربعة التي تجمع شعار دول الإسلام كلها بأميتها وهاشمها وعباسها وترمز لفضائل العرب كلها:
بيض صحائفنا سود وقائعنا ... خضر مرابعنا حمر مواضينا
وإذا الموكب قد لاح من بعيد، كما يلوح الهلال الهادي، للقائد الآيس ويسطع نجم الأمل في ظلمة القنوط، وإذا موسيقاه القوية تدوي في الآذان، فيكون لها أثر في النفوس أحلى من نداء الحبيبة في نفس المحب المشوق، فحبس الناس الكلمات ووقفوا الأنفاس، يتطلعون ويترقبون، والموسيقى تعلو والفتيان يتقدمون حتى وصلت

طليعتهم. . . فما استطاع ذو شعور إمساك دموع الفرح والرقة والتأثر أن تسيل، وارتجت الأرض بالتصفيق والهتاف، كما ارتجت من قبل بهذه الموسيقى القوية المحبوبة، وهذا النشيد الذي يسمع من خلاله

صوت المستقبل البارح وتلوح في أثنائه خيالات المعارك المظفرة. . . وكان الفتيان أطهاراً مثل الزهر اليانع، لدنا كأغصان الروض، ولكنهم كانوا أقوياء كدوح الغاب، أشداء كأسود العرين؛ وكانوا يسيرون صفوفاً متعاقبة على عرض الشارع، مرفوعة رؤوسهم، منتصبة قاماتهم، موزونة خطاهم، على أكتافهم بنادقهم وعدة قتالهم، يتقدمهم قادتهم ومدربوهم والقائد العام المقدم محمود فاضل ومساعده الجرموز الأكبر بهاء الدين الطباع على الخيول البلق، أمام الجيش الفتي

لا والله ما أحسست بالعجز مرة عن وصف ما أرى مثل عجزي اليوم. ومنذا الذي يقدر على وصف هذا الشيخ الهم، ذي الشيبة السائلة على صدره وهو يلحظ حفيده الصغير، يحمل البندقية ويمشي مختالاً مزهواً، يحلم بأمجاد المستقبل، ويذكر ما درس من أمجاد الماضي، فلا يطيق منع الدموع أن تسيل من عينيه وتتحدر على لحيته البيضاء. . . إني لأسمعه يحمد الله على أن لبلاده جيشاً من أبنائها ولم يكن يرى إلا جيشاً واغلاً أو دخيلاً. .

ومنذا الذي يقدر على وصف هذه الأم التي أمسكت بيد طفليها الصغيرين وهما يتوثبان ليلحقا بالموكب ليريا أخاهما، وطفقت تدعو الله دعاء هامسا يتصعد من خلال الزفرات أن يحفظ لها ابنها، والوطن بنية: (يا رب سلّم، ما شاء الله كان. . يا رب سلم. .) وتبكي!

ومنذا الذي يقدر أن يصف شارع الرشيد في هذا اليوم؟ يا أيها الرشيد قم تر المجد الذي بنيته لا يزال قائماً. قم تر الأحفاد قد نهضوا يسلكون طريق الأجداد. قم ترنا لم نضع الأمانة ولم نهلك التراث. قم تر مجد غازي يتصل بمجدك كما اتصل الشارع بالشارع فعادا مهيعاً واحداً؟

هؤلاء يا مولاي عدة المستقبل، وهذا الجيش وهذه الآمال!

. . .وفكرت فجأة في بلدي وأهلي

نحن هنا في فرحة والنار مشتعلة في فلسطين، والنار توشك أن توشك أن تلتهب! أي مصيبة لم يرها الشاميون، وأي خطب لم ينزل بهم؟ أما خرب الأقوياء بلادهم ضرباً بالمدافع وقصفاً بالحديد وحرقاً باللهيب؟ أما أخذوا ذهبهم وأبدلوهم به ورقاط أقفرت به الخزائن وافتقر به ذوو الغنى واليسار؟ أما قطعوا البلاد حكومات، وجعلوا من القرى دولات، وقسموا الناس بدداً ليجعلوهم طرائق قدداً؟ أفما جروا على هذا كله؟ بلى، لقد حتى

لم يبق في قوس الصبر منزع، واحتملوا مالا يحتمل؟ فلما نفذ الصبر، وباد طوق المحتمل، هبوا هبة الحليم إذا غضب، ويا ما أشد غضب الحليم!

أنكون نحن في فرحة، وقومنا في الشام في ألم؟

وكدت أشعر بالحزن في قلبي، ثم قلت: لا، إن هذا هو الجيش الذي يجب أن يفرح به قومي. أن بطولة العراق وفتوة العراق صفحة من سفر المجد العربي، كما أن تضحية فلسطين، وجهاد دمشق، ونهضة مصر، صفحات منه أخرى. إن هذه كلها قوى متحدة، تتوجه وجهة واحدة!

ثم إن دمشق لا تخاف شيئاً ولا تخشى!

ولم تخاف؟ الرصاص؟ لقد فتح له أهلوها صدورهم! المدافع؟ لقد أعدو لها منازلهم! اليتم والثكل؟ لقد تعوده أبنائهم وأمهاتهم! إنهم يريدون أن يحيوا حقاً أو يموتوا. فهل يغلب شعب وطن نفسه على الموت؟

وكان جيش الفتوة لا يزال يسير، والأرض ترتج بالموسيقى والنشيد والهتاف والتصفيق والدعاء والبكاء، فعاد الأمل إلى نفسي قوياً، هذه (بيه مونت) الوحدة العربية، هذه (بروسيا) العرب،

هؤلاء عدة المستقبل، وهذا الجيش، وهذه الآمال!

فيا أهل دمشق، ويا أهل فلسطين، ويا أيها العرب، في قاص من الأرض ودان. اطمئنوا فإن لكم جيشاً!

ولما جاوز جيش الفتوة شارع الرشيد واتجه إلى شارع غازي ماج البحر واضطرب،

وتدفقت وراءه الجموع، وأسرعت إلى (الأعظمية) لأدرك الصلاة، ونفسي تضطرم بأجمل العواطف وأبهى الصور، ولكن جمالها لا يستتم في نفسي. إن في الموكب لنقصاً ظاهراً. أفما كان في الإمكان سدّه؟ أكانت تخر السموات على الرض، ويفسد نظام الكون لو قدم الموكب ساعة أو أخّر ساعة، ولم تضع الصلاة على هؤلاء الفتيان كلهم؟

هذا هو النقص، فيا ليت الوزارة لم تنسه. . . يا ليتها ساقت هؤلاء الجنود كلهم إلى المساجد ليقيموا فيها الصلاة، فإن أجدادنا ما غلبوا عدوهم إلا بالصلاة، والالتجاء إلى الله، وهو أن الدنيا وأهلها عليهم، وابتغائهم إحدى الحسنيين الظفر لإعلاء كلمة الله، أو الشهادة!

إذن لكما لهذا اليوم جلال الدنيا، وجلال الدين، وإن في الآتي لإصلاحاً لما مضى، وأنه على هذا ليوم مشهود!

(بغداد)

علي الطنطاوي

من ذكريات لندن

عربيد

للأستاذ عمر الدسوقي

في لندن للمصرين نَدِيّ، يختلف إليه الأخيار والأشرار؛ بعضهم لرؤية صديق، أو التزود من أبناء الوطن، أو الاستجمام من عناء الدرس؛ وبعضهم لقتل الوقت في لعب الميسر واللهو في غير كرامة ولا وقار

وكانت لنا فيه جلسات ممتعة، لمصر منها قِسط الأسد، ننتقد الساسة من غير تحرج ولا هيبة، ونضع خطط الإصلاح الجريئة، وتنفطر قلوبنا أسى ولوعة على مصر وما تعانيه، ونحتدم في جدال عنيف كله لمصر ولخير مصر

وفي ذات مساء، بينما نحن جلوس حول المدفأة، ندفع بحر ناره زمهرير الشتاء، نجول ونصول كعادتنا، في السياسة تارة وفي الأدب أخرى، إذ دخل علينا فتى في شرخ الشباب، رَبعةَ عريض المنكبين، غائر العينين بارز الجبهة، أسمر البشرة؛ فحيا بأدب، ثم اتخذ مجلسه بيننا، ينصت إلينا ولا يشاركنا، ثم بدا له فزج بنفسه في الحديث، وخب فيه ووضعن وبعد لأي قصّ علينا قصته، قال:

جئت ناديكم اليوم، أطلب الغياث والنجدة، فقد نزحت إلى لندن طلباً للعلم منذ شهرين، وأقمت مع زوجي وابنتي الصغيرة في منزل مؤثث؛ وفي ذات يوم تسلمت كتاباً من سيدة إنجليزية، تعرض فيه استعدادها لخدمتنا، مدة شهر الصوم، وتدعى أنها مسلمة من ذوات التقى والورع، وأن الذي حداها للكتابة إلينا، إشفاقها علينا، فخدعنا بكتابها المعسول، وبرحنا منزلنا إلى منزلها؛ وقضينا اليوم الأول لا نلاقى إلا كرماً وأريحية، فذهبت الوحشة واطمأنت النفوس؛ وخرجت في اليوم التالي مبكراً، وأبت متأخراً، فوجدت زوجي تبكي وتنتحب، وقد ضمت طفلتها إلى صدرها، فسألتها، ما بالُها؟

- لقد مر بنا يوم عبوس قمطرير، قَفَّت فيه أوصالنا من القر، وجمدت أطرافنا من البرد، وجاعت فيه الطفلة حتى أشرفت على الموت، واستغثنا بربة البيت مراراً، فلم يزدها نداؤنا إلا إعراضاً عنا وازوراراً. ذهبت إليها استعطفها وأسترحمها، فأرتني وجهاً كالحاً كئيباً، وأسمعتني من هجر الكلام ما تعافه آذان الأحرار، وها أنت ذا تراني أعاني والطفلة السغب

والبرد، وأضمها إلى صدري لعلها واجدة فيه دفئاً أو سلوى

- ويل لها من كذوب ماكرة! هكذا قلتن وأنا أنتفض غيظاً وموجدة، وبودي لو أذهب إليها فأحطم رأسها أو أهشم عظمها، أو أمزّقها إرباً، ولكن عَّن لي أن أستعمل الحيلة حتى اخلص منها لا على ولا لي. فغادرنا المنزل تواً، وتركنا متاعنا إلى الصباح، ثم أرسلت من يحضره، فأبت أن ترد إلينا. فقلت: يا لعجب! إني قد وقعت منها على داهية، وأسرعت إلى منزلها غضبان أسفاً، فاستدرجتني حتى دخلت إحدى الغرف، ثم أوصدت الباب وأحكمت رتاجه، وأخذت تهدد وتتوعد، وتبرق وترعد، وتقول: قد أتلفتم أثاث المنزل ولن تبرح حتى تنقدني عشرين جنيهاً، أو تكتب بها صكاً؛ فكتبت ما شاءت فداءً لنفسي، وإبقاء عليها؛ وخرجت لا ألوي على شيء، وذهبت من فوري إلى محل

الشرطة، وذكرت ما عانيته منها، فصحبني أحد رجاله؛ وما إن رأته حتى أصفر وجهها فرقاً ورعباً؛ فسألها عن الصك فأنكرته. فقال: إني على ذلك شهيد، وأخرج أمتعني عنوة، وحذرها بالعقاب الأليم إن هي فكرت في إيذائي. فانطلقت شاكراً له، وحمدت الله على أن نجوت من مخالبها

ولكن وا أسفاه! قد طاردني شرها في كل مكان، فضاقت عليَّ الأرض بما رحبت؛ إذ أنها كتبت للإرسالية تصمني بالعربدة؛ ومرضت زوجتي وطفلتي من أثر ذلك اليوم المشئوم؛ وقد نصحني الأطباء ألاّ أبقيهما يوماً واحداً في لندن حيث لا يعين جوها على البرء والشفاء؛ فودعتها والدموع تنهمر، والقلب ينفطر وسافرا إلى مصر على ما بهما من مرض، وعدت أدراجي إلى منزلي وحيداً غريباً، لا أجد مواسياً أو حبيباً

وهأنذا يا سادتي، أناشدكم أواصر الوطنية ولإخاء، إلا أقلتموني من عثرتي، وانتشلتموني من وحدتي. فقد حجب الحزن بصري عن النظر، وغشيّ الأسى قلبي عن التفكير، وكل ما أبغيه أسرة تحنو عليّ، وتأسو ذلك الجرح حتى يندمل، وتعيني بعطفها على الدرس، وبحسن معاملتها على السلوى

فحركت مأساته الأفئدة رثاءً له وحدباً عليه، وعلت الآهات، والزفرات توجعاً لمصابهن وأخذنا نقدح زناد الفكر حتى اهتدينا إلى سبيل نزود به وحشته، ونخفف كربته، فقلت:

- إني أقيم في أسرة أحلتني مكاناً علياً، وأنا عندهم ملء السمع والبصر، أتقلب في أعطاف الهناءة والدعة، فإن شئت أن تشاطرني ما أتمتع به من الراحة والطمأنينة، فلن تزيدني إلا سروراً

- شكراً لك، ثم شكراً؛ إني محتاج ليد قوية رشيدة في هذا البلد الغريب تهديني سبيل الحق حتى أقف على أسراره وعاداته، ولن يسعني حيَال هذه السماحة إلا القبول، والثناء العاطر، والاعتراف بالجميل

- هيا بنا الآن أريك المنزل وأقدمك للأسرة، وكن واثقاً بأنهم سيضعونك في منزلة العزيز المكرم

أخذت ألمح له أثناء الطريق بما يؤهله لاكتساب محبة الناس في هذه البلاد، وأننا هنا رسل الدعاية لمصر البائسة، فلزام علينا أن نتحاشى السفاسف والدنايا، وأن الأسرة التي سيقيم فيها، تربا بمنزلها أن يدنس، أو يكون موئلاً للفحش والخنا، أو يكون ضيفها عربيداً ماجناً، وخليعاً مستهتراً؛ لأنها متزمتة وقورة، وربها أستاذ كبير في الموسيقى، ولم ير مني إلا كل ما يشرح صدره، ولم اعهد عليه إلا التفاني في سبيل راحتي

بدت على محياه إمارات الارتياح، وأكد لي أنه سيكون مضرب الأمثال في نبل الأخلاق والرجولة، وأني سأكون فخوراً بصحبته تيّاهاً بخلاله وسجاياه

قدمته للآسرة وزكيته وأطنبت في مديحه، وقصصت ما لاقاه من عنت وإرهاق، فرثوا لحاله ورحبوا به، واخذوا يبعدون من مخيلته هذه الصورة المزرية عن بلاد الإنجليز وخلال أبناء التاميز، بحديثهم الحلو ومداعباتهم الطريفة

مضى على صاحبنا أسبوع، بدا فيه نموذجاً عالياً للأدب والظرف والدماثة والوقار، فزدنا في إكرامه والاحتفاء به. بيد أنه أخذ يتخلف عن جلسات السرة بعد العشاء، ويلزم الصمت أثناء الطعام، ثم يفر إلى غرفته فرار الظليم، فرابنا أمره وخشينا أن تكون قد حلت به كارثة، فتبعته مرة، وطرقت باب غرفته، فلم يجب، فواصلت الطرق فترة غير وجيزة، وأنا أناشده الله إلا أفضى إليّ بدخيلته، وبدواعي وجومه وعبوسه؛ ففتح بعد لأي، وشرر الغيظ يتطاير من عينيه، وفي وجهه اكفهرار وامتقْاع ويداه ترتعدان كالمحموم، وابتدرني قائلاً بصوت متهدج يفصح عن الوجل والحنق:

- ماذا تريد؟ لن أسمح لك بدخول حجرتين، اقصر عطفك على نفسك، فلست حدثاً غِراً!

- أسف يا هذا! فلم يدر بخلدي أن مثلك، وقد كان بالأمس سمحاً وديعاً، سيظهر اليوم سافلاً وضيعاًن ما حفزني للمجيء إليك إلا عطفي عليك، وظننت أنك تقاسي همَّاً دفيناً، وأنك ستهش لحديثي وتبش، وقد جئتك لأسري عنك، أما وقد طرقت أذنيَّ كلماتك البذيئة، فأعد نفسي متطفلاً وأنت وشأنك

انطلقت إلى غرفتي، موهماً الأسرة أني لا أزال عنده وأخذت أفكر فيما عساه يكون

سره، ولم حرص جد الحرص على عدم السماح لي بدخول مخدعه، ولكن أعياني الفكر، فلم أهتد إلى إجابة مقنعة، بيد أن الشك أخذ يساورني، ويخيله إليّ شيطاناً مريداً، قد أتى أمراً إداً، ورغب في إخفائه عنا

جاءتني ربة المنزل بعد يومين وأنا أتناول طعام الفطور وقالت:

- إن صاحبك هذا مأفون معتوه، فقد خرج بملابس النوم في الطريق لابتياع إحدى الصحف، ولا ريب أن هذا مخل بالآداب في عرفنا وتقاليدنا، وأخشى أن يراه رجل الشرطة فيقبض عليه تركت الخوان مسرعاً؛ وهرولت وراءه، وحاولت أن أرده إلى صوابه، وأبين له أن خروجه هكذا خطل سيعرضه للبرد القارس، والانتقاد المر؛ وتدخل رجال الأمن، وأن إنجلترا ليست كمصر فوضى لا يعرف الناس فيها نظاماً للأزياء

- لقد نهيتك من ذي قبل ألا تُعنَى بأمري، وأن تدعني وشأني، فأنا أعرف بآداب اللياقة منك

- إننا أبناء وطن واحد، وما يلحقك من العار والمهانة سيلحقني كذلك؛ لن يتحدث الناس هنا بأن فلاناً أخطأ، بل سيقولون: أحد المصريين أجرم؛ فرفقاً بسمعتنا، وتقبل نصحي، فقد مضى عليّ بهذه الديار أمد غير قصير

عاد إلى المنزل وهو يزمجر كمن أخذته العزة بالإثم، وكبر عليه أن ينصاع لطلبة غيره عزوت كل هذه التصرفات لجهله بعادات القوم، فلم آبه لتعنيفه وتقريعه، وأخذت أتلمس العلل والمعاذير لكل ما يصدر عنه فعال يندى منها الجبين خجلاً أمام أناس لا يذكرون عن مصر إلا المشوه من الحقائق. ولكن صاحبنا ظل سادراً في غوايته لا يستمع لموعظة، أو يتعلم من تجربة؛ فجاء ربة البيت في ظهيرة أحد الأيام، وطلب منها أن تطهي له دجاجة على الطريقة المصرية، فاعتذرت بأنها لا تعرف قليلاً أو كثيراً عن الطعام المصري، وأولى له أن يباشر طهيها بنفسه، إن كان لا يزال على رأيه. فأخذ يكيل لها السباب، ويؤول رفضها بامتهانها له، وعدم تقديره، ولج في وقاحته وسلاطته حتى أبكاها.

فذهبت محنقة تتميز من الغيظ، وانتظرت مقدمي على أحر من الجمر، وما أن دخلت المنزل حتى قصت على قصته منفعلة، وأصرت على طرده من المنزل، لأنها لم تسمع مثل هذه البذاءة طوال حياتها؛ فأخذت أهون عليها الأمر، وأعذر تصرفه هذا لشدة حساسيته، شأن كل غريب في بداية حياته ببلاد لم يألف طباع أهلها.

ضقت بهذا الغبي ذرعاً، ولعنت الساعة التي لاحت فيها طلعته الكئيبة علينا؛ وأعملت الفكر عسى أن أوفق إلى سبيل أصرف به هذا الوباء، وقد أصبح كالدمل الممد، أحمله في رقعة من جلدي، ينغص عليّ هناءتي، ويكدر راحتي. أي شيطان رجيم سول له أن يطهى دجاجة على الطريقة المصرية؟ ذهبت علني أجد عنده جواباً شافياً، وطرقت بابه بشدة وغضب، وفي عزمي أن أعطيه درساً لا ينسى؛ فسمعت همس سيدة من الداخل تحذره من الفضيحة إن استجاب لقرعي، بيد أنه فتح الباب على مصراعيه، وقال بصوت المستهتر الماجن المجازف، الذي غاض الحياء من وجهه وكان يترنح سكراً، ويبتسم ابتسامة داعرة:

- هذه فلانة، وقد كانت هنا حينما أنبتك في المرة السالفة على طرقك بابي، وأبيتُ أن أدخلك غرفتي؛ ولا يعنيني الآن، أن تطلع على ما كنت أخفيه، فسوف أنتهج طريق العربدة، ولا أعيرك أو غيرك التفاتاً.

- لكنك رجل متزوج، ولك طفلة، وهذا مُزْرٍ بك، محط لقدرك، وسيلهب أهل المنزل عليك سخطاً وغضباً؛ ثم إن ما تأتيه من المنكر، مخالف للقانون، فليس هذا بيتاً من بيوت الخنا والدعارة، ويخيل إلى أن رفيقتك لم تبلغ بعد سن الرشد، وسيكون جزاؤك، إن فضح أمرك، السجن أو الطرد من هذه الديار، فعجل بإخراجها، وإلا داهمك رجال الشرطة.

- هاها. . . هاها. . .! نعم أنا متزوج ولكني أرسلت زوجتي إلى مصر تخلصاً منها، لا لمرضها كما أخبرتك كذباً؛ ولست أعبأ بما يحط من قدري في هذه البلاد، فقد استمرأت هذه الحياة بمصر وأنا لا أزال عزباً؛ أنا مستعد لأذكر لك تاريخ حياتي، إني رفعت راية الشر والفسق عالية خفافة، وما تزوجت رغبة في الزواج، ولكن طمعاً في مال من تزوجتها؛ وقد تنازلت لي الساذجة عن كل ما تملك، فليس ثمة حاجة إليها بعد ذلك، بل إني أريد أن أبين

منها إلى الأبد، حتى أكون حراً طليقاً. نحن نختلف، يا صديقي، في نظرتنا إلى الحياة؛ ولست أخشى رجال الشرطة، فما أتت هذه الفتاة إلا طواعية واختياراً؛ ولن أترك المنزل، بل عليك أنت أن تغادره، إذا كان مقامي به يزعج وقارك وتزمتك. لِمَ لا أنهل من مورد اللذات وأثمل، أينما شئت وكيف شئت؟ أليست هذه بلاد الحرية كما ينعتها قاطنوها؟ ليست هذه أول فتاة وليس ما ترى أول كأس من الخمر أحتسيها، افعل ما شئت!!

- أيها الوغد الدميم، إنك تبحث عن حتفك بظلفك، ولن تجد مني بعد الساعة هوادة في التنكيل بك، تطهيراً للمجتمع من حثالاته، وعبرة لأمثالك الطائشين، الذين لا أخلاق لهم، ولا ضمير يعنفهم، ولا شرف يردعهم.

أخبرت ربة البيت بكل ما حدث، فاقشعر بدنها هلعاً وقطبت أساريرها احتقاراً، وعدت ابنتها تنادي رجل الشرطة؛ ولكن الطير قد أفلت من سجنه، فلم نقف للفتاة على أثر، وطرد العربيد شر طردة، ووضع تحت مراقبة شديدة صارمة.

هجر لندن بعد أن سدت في وجهه المسالك أنىّ ذهب، وأقام في إحدى ضواحيها غير متوان عن الغواية والضلال.

علم أترابي الذين سمعوا قصته الأولى بما آل إليه أمره، وما أقترف في حق مصر من الآثام، وما لطخ به سمعتنا من الوصمات، فعزموا على شكايته للقنصلية المصرية، حتى تقصيه، ولكن رقت قلوبهم فلم يفعلوا، وإن كان عجبهم قد بلغ أشده، حينما علموا أنه من أعضاء البعثات، وأنه طلق زوجه في النهاية.

ليت شعري لِمَ يُوفد مثل هذا؟ أليكون سبة وعاراً علينا، ومثلاً حياً متنقلاً تقذي منه العيون، ويعافه المجتمع، ويلعنه الناس أينما حل، والبلاد التي لفظته، والأمة التي ينتمي إليها؟؟

عمر الدسوقي

دعيني أنام!

للأستاذ محمد سعيد العريان

دعيني أنام!

إن عينيّ لم تذوقا طعم الكرى منذ بعيد!

سنوات وسنوات، وأنا دائب السَّري في هذه الطريق أفتش عن نفسي فلا أجد نفسي، وأنشد سعادتي فلا أجد إلا شِقْوة النفس وظمأ الروح وقلق الضمير! والطريق لا تنتهي إلى غاية، والعثرات تتكاءد السالك في كل منعرج وكل ثنية!

دعيني أنام!

فهل رأيت السعادة إلا حلماً هنيئاً يتخايل للنفس في لحظة ناعسةٍ ضرب النومُ على آذانها في ليلٍ مطبق؟

ما أجمل هذه الفراشة تتواثب في مطارفها الموشَّاة على أعين الناس! ولكن هيهات أن تنالها يد! كم جهدت جهدي في اللحاق بها فما بلغتْ. . .!

دعيني أنام! لعلي أن أنالها في سِنةٍ حالمةٍ تبلغ بي مالا مَبلغ إليه في يقظة الحياة!

دعيني، دعيني. . .! إنني وجدت نفسي هنا، وطالما نشدت نفسي فما وجدتها. . .!

إن بي حنيناً إلى هذا الفراش الدافئ بعد طول السُري وجهد السهر وكدّ الطريق!

افتحي عينيك يا عزيزتي على حقائق هذا الوجود ثم خبِّرني. . . ذكِّريني ما كان من ماضيَّ، فقد أنسانيه ما ترادف عليّ من أحداث الزمان!

هل تذكرين يا عزيزتي تلك الأيام البعيدة، يوم كنا وليس لنا ماضٍ نأسَى عليه، ولا مستقبلٌ نتطلّع إليه، والدنيا تدور بالناس في حلقتها المفرغة وتدور بنا، فما يعنينا شيء من الدنيا ومن الناس، وما نشعر من الزمان إلا باليوم الذي نعيش فيه، هو كلُّ تاريخنا في الحياة لا ماضيَ لَه ولا آت. . .؟

ذلك زمان كان فما له من معاد!

مَن كنتُ أنا عند الناس يومئذ ومن كنت؟

هل كنا يومئذ إلا فتاة وفتى قد ألفّ الحبّ بين قلبيهما! فما يُريان في الطريق إلا ذراعاً إلى ذراع، وخطوة إلى خطوة، وقلباً يعطف على قلب، وروحاً تهفو إلى روح، وعلى الشفاه

همسات تُخافت بها، وفي العيون نظرات تتناجى. والناس تنظر إلينا فما يهمنا شيء من نظرات الناس ولا من حديث الناس؛ لأننا كنا يومئذ نعيش في أنفسنا بعيدين عن دنيا الناس. . .

هل تذكرين. . .؟

كان ذلك منذ بضع عشرة سنة. . . وكنا صغيرين. . .!

وجلسنا ذات يوم في حديقة على الشاطئ. . . وكانت يدك بين يديّ وقد أطرق كلانا، وتراءى لنا في لحظةٌ حلم رائع سعيد تجاوز بنا الزمان والمكان إلى حيث لم يكن لنا عهد، يظلنا سقف واحد في دويرة تجمعنا وتجمع لنا ما تفرق من أحلام الشباب. . .

وظلت في إطراقك وظللتُ، نتناجى ونتبادل الأفكار صامتين؛ فما كانت بي حاجة لأحدِّثك عما في نفسي ولا كانت بك حاجة؛ وتفاهمنا على صمت. . . ونظرتُ في عينيك ونظرتِ، فتضرَّمَتْ وجنتاكِ من حياء، وأحسستُ يدك تختلج بين يديّ. . .

ونهضنا صامتين فأوصلتك إلى دارك وعدتُ وحيداً إلى داري وأنا أفكر. . .

وعرفنا من يؤمئذ أن غداً هو يومٌ من عمر الزمان؛ وما كان يعنينا قبلُ إلا حاضرنا الذي ننعم به. . .

أما زلت تذكرين يا عزيزتي؟

ولما ضُرب الحجاب بيننا وقامت دونه التقاليد، تلفت القلب ينظر؛ ولزمت الوحدة أياماً أعرض ذكريات الماضي ولهفت الحاضر وأمل المستقبل فعرفت. . .

عرفت يومئذ أن حقيقة الزمان ليست هي في هذا الحاضر، ولا في الغد المنتظر؛ . . . ولكنها في اليوم الذي مضى ولا سبيل إليه. . . أمس!

حينما يكون معنى الزمان في نفس الحي هو اليوم الذي يعيش فيه وحسب، فهو في حقيقة الحياة ومعنى السعادة؛ فإذا سولت لها الأمانيّ أن يتعجّل أيامه فيتطلّع إلى ما قد يكون في غد، فقد آذنته الدنيا بيوم يُطْرد فيه من جنة السعادة نادماً أسوان. . . ثم لا تكون إلا الثالثة، حين يتذكر أن له ماضيا كان وطواه الزمن؛ فما هو يومئذ حيٌّ يعيش في حاضره، ولا آملٌ يفكر في مستقبله؛ ولكنه ذكرى بلا رجاء، ولهفة مالها انقضاء!

الحاضر هو الحقيقة، هو السعادة، هو الحياة؛ وما الغد إلا وهمٌ يدعمه خيال الحيّ ليفر إليه

من حاضره الذي هو به حيٌّ يسعد بالحياة؛ وما الأمس إلا الجزء الذي مات منا وسبقنا إلى الفناء!

ولكن الزمان على ذلك هو أمس، واليوم، والغد جميعاً: هذه الثلاثة هي حياة الحيّ وعمر الزمان؛ لا سبيل إلى تجاهل ذلك بعد عرفانه!

ليتني لم أعلم! ليتني لم أعلم!

لتني ظللت حياتي أجهل معنى الزمان؛ لا أفكر فيما كان، ولا أتوقع ما يكون، ولا أعرف من عمر الزمان إلا اللحظة التي أعيش فيها!

وتلاقينا مرة على ميعاد. . . هل تذكرين يا عزيزتي؟. . . وجلستُ أقرأ لك فصلاً من كتاب كان معي؛ فتندّت عيناك بالدمع!. . . إنني ما أزال أذكر ذلك كأنه أمس، على أن بيني وبينه عشر سنين!. . . لقد قلتِ لي يومئذٍ كلمة ما زال صداها يرنّ في أذني: يا عزيزي! ليس في البشرية كلها من يقدر على خلق المعجزة التي تهزّ النفس من أعماقها غير الأديب البليغ!)

وقلتِ كلاما آخر لا أذكره، ولكن أثره ما زال يعمل في نفسي؛ فجهدت جهدي لأخلق المعجزة التي تهزّ النفس من أعماقها. . . ولم أذق طعم الكرى من يومئذٍ. . .!

ليت شعري، هل جاءك - وبيني وبينك حجاب التقاليد - نبأ ما كنت أبذل من أعصابي ومن دمي في سبيل هذه الغاية حرصاً على أن أكون يوم اللقاء كما تريدين أن أكون؟

يا ليت يا عزيزتي، يا ليت!

عشر سنين من عمر الشباب وأنا أُخرج للناس كل يوم جديداً في الأدب، إلا يكن من إلهامك فإنه بسبيل إلى تحقيق أملك!

يترادف الليل والنهار، وتتعاقب الظلمة والنور، وأنا عاكف على دفاتري وأوراقي، أكتب وأفكر جاهداً لأخلق المعجزة التي تهزّ النفس من أعماقها. . .!

تُرى هل بَلَغْت؟

هأنذا على شَرفٍ من الأرض في طريق لا حب، وثمة بارقةٌ تلوح من بعيد. . .

وما تزال الفَراشة الجميلة تتواثب في مطارفها الْموَشَّاة، لا تنالها يدي على طول السُّرَي وجهد السَّهَر وكدِّ الطريق. . حَتَّامَ المسير؟
. .من أنا اليوم عند الناس ومن أنت؟
هانحن أولاء التقينا منذ عام يظلّنا سقف واحد في دويرة تجمعنا وتجمع لنا ما تفرق من أحلام الشباب؛ ووجدنا تعبير رؤيانا. ولكن. . . أين أنا؟ وأين أنت؟
ماذا أجدى عليّ هذا الجهد المتواصل عشر سنين أبتذل شبابي وأنفق من دمي في سبيل المجد والشهرة والصيت البعيد!
المجد؟ الشهرة؟ الصوت المسموع؟. . . ما كل أولئك يا عزيزتي في حقيقة الحياة وفي دنيا الناس؟
وا خسارة الصفقة! إن الفراشة الجميلة لا يجتذبها شيء من كل أولئك إنها جميعاً أوهام وأباطيل ليست من السعادة ولا هي سبيلاً إلى السعادة
أين مني نفسي وأين أنتِ مني؟
لقد التقينا يا عزيزتي كما تراءى لنا في أحلام الشباب منذ بضع عشرة سنة، ولكنني لستُ هنا، ولكنكِ لستِ هنا. . .!
إنك أنتِ التي أغريتني بسلوك هذا السبيل منذ سنوات وسنوات فنذرتُ نفسي للفن حتى أبلغ إعجابك، فلا تسأليني بعدُ عن نفسي!
. .هذا العبوس في وجهك يا عزيزتي ألمٌ إلى آلامٍ على كاهلي
حدثيني صريحة: لماذا أنتِ غضبانة؟
أنت تريدينني كما كنتُ منذ بضعة عشرة سنة: فتىً لفتاة لا يشعر شعورَ الحيّ إلا معها؟
أنت تدْعينني لرحلة من مثل ما كان في سالف الأيام ذراعاً إلى ذراع على الطريق؟
أنت تسألينني: متى أراك إلى جانبي كعهد مضى لا يعنيكَ من أمر شيء إلا أن تكون لي وأكون. . .؟
وأنت إلى كل أولئك تريدين لي المجد والشهرة والصيت البعيد؟
لقد أذكرْتِني ما كان من أمري وأمرك يا عزيزتي، وأيقظتِ في نفسي ما كان راقداً من زمان؛ وهجتني إلى ذكرى اللهو والهوى والصبابة وسعادة الحب في سالف الأيام، حين لم يكن في الدنيا غيري وغيرك، ولم يكن الزمان إلا اللحظة التي نعيش فيها لا ماضيَ له ولا آت!
ما كان أسعدني بهذا الماضي!
فماذا أجد عليّ ما نلت من دنياي بعد هذا الجهد؟
هاهنا شيء وشيء. فمنذا يهديني بينهما سبيل الرشاد؟
دعيني أنام!
. . .إن عينيّ لم تذوقا طعم الكرى منذ سنوات وسنوات
. . .دعيني دعيني. . . إنني وجدت نفسي هنا!
ما المجد، والشهرة، والصوت المسموع، إلا وهم من الوهم وحيلة من الحيلة لتفسد على السعيد دنياه!
لا تَدْعيني يا عزيزتي بعدُ إلى الجهاد والعمل. إن بي حنيناً إلى الفراش الدافئ بعد طول السري وجهد السهر وكدّ الطريق. . .!
دعيني أنام لعلي أبلغ من السعادة في سِنةٍ حالمةٍ ما لا مبلغ إليه في يقظة الحياة!
بل دعيني يا عزيزتي أستيقظ من ذلك الحُلْم الطويل الذي ضرب على عينيّ بضع عشرة سنة أهذي باسم الفن والأدب والشهرة والجاه والصيت
هذه هي الحياة، هذه هي الدنيا، كل ما عدا ذلك خداع وتلبيس ووهم من الأوهام!
دعيني، دعيني!
(شبرا)
محمد سعيد العريان
. . .أسطورة!
(تصوير فربان)
قالوا: وكيف كان ذلك؟
قال الراوي: زعموا أن الرئيس رزفلت سفير السلام بين السامية ولآرية، ورسول

الوئام بين الديمقراطية والدكتاتورية، أولم لأقطاب الحكم في الدول الأربع ذوات الرأي في مصير العالم اليوم وليمة ليستخرج من بين الأفواه والكروش، علل الخلاف بين الأساطيل والجيوش. فلما فرغت الصحون، وامتلأت البطون، دارت الكؤوس، فدارت الرؤوس، ونم كل لسان بكمين سره قال الدتشي وقد نهض معتمداً على كتف الفوهرر:

إن تشمبرلين ودلادييه لا يزالان على الرياء القديم يتبجحان بالحرية والمدنية والسلام، وهما يخفيان وراء الحرية استبعاد الشرق، ووراء المدنية اهتضام الحق، ووراء السلام الحب والشطارة. أما أنا وهتلر فمبدأنا أننا عراة جياع، وسياستنا الصراع لا الخداع، ووسيلتنا الإخضاع لا الإقناع. فإذا جنح خصومنا للسلام، فليقاسمونا ما في أيديهم من الطعام وإلا فالحرب التي تجعلنا سواء في الضعف، إن لم تظهرنا عليهم بالقوة

فنظر السيد رزفلت إلى عميدي الديمقراطية فوجدوهما يتلاحظان ولا يتكلمان. فقال للرؤساء جميعاً:

- إن الذئاب تتهارش ولا تتفارس. وإن أراكم متفقين على الغاية، بعضكم بالطيش وبعضكم بالحذر، وموافقين على هذا الراي، بعضكم بالكلام وبعضكم بالنظر. وليس أمامكم ما يقبل القسمة إلا بلاد العروبة! فهي التي غزتها فرنسا بالتعليم والربا، وفرقتها أمريكا بالتبشير والهدى، ومزقتها إنجلترا بالتفريق والتجارة. وفي تقسيم القارتين العجوزين بينكم على السواء، نجاة المدينة والديمقراطية من الفناء

قال الراوي: فانبسطت أسارير الرؤساء لهذا الرأي الصريح، وشربوا كما ترى نخب هذا الحل المريح!

ابن عبد الملك

دراسات في الأدب

للدكتور عبد الوهاب عزام

موضوع الأدب

الإنسان إما أن يبين عن حقائق خارجة عن نفسه لا يصلها بخياله ولا يصبغها بعاطفته، وإما أن يعّبر عن حقائق امتزج بها الخيال ولّونتها العاطفة، أو عن خيالات مخترعة ليست صورة من حقائق العالم

إذا قال الجغرافي في وصف أرض: فيها أدوية عميقة بين جبال عالية، فقد أبان عن حقيقة رآها أو سمعها؛ لم يصلها بالعاطفة فيبيّن إعجابه بها أو خوفه منها أو انبساطه أو انقباضه لمرآها أو ما تخيله حين شاهدها

وإذا قال كاتب في وصف هذه الأرض: (تهولك بها أدوية عميقة تطلّ عليها جبال شامخة عاتية يحلق الطرف دون ذراها).

فقد أبان عن الحقيقة مشوبة بما شعر هو به من رهبة وما تخيّل من إطلال الجبال على الأدوية وتحليق البصر دون قممها

وكذلك يقول الجغرافي: (صحراء منبسطة مستوية طرقها متشابهة، شديدة الحر، كثيرة الرياح) فينقل إلى السامع صورة الصحراء لم تغيرها عاطفته، ولم يزد عليها خياله

ويقول الشاعر في وصف هذه الصحراء:

ومَجُهل كاطِّراد السيف محتجز ... عن الإدلاَّء مسجور الصياخيد
تمشي الرياح به حسري مولّهة ... حيرى تلوذ بأكناف الجلاميد
موقف المتن لا تمضي السبيل به ... إلا التخلل ريثا بعد تجهيد

فتراه قد أفاض على الصورة الطبيعية ألواناً من شعوره وتخيله

وانظر الفرق بين فلكيّ يتكلم عن الشمس طلوعِها وغروبها ودورتها السنوية، وعن القمر ومنازله، والنجوم وحبكها؛ يصف الحقيقة كما هي على قدر إدراكه، وبين من يقول - مثلا -:

منع البقاَء تقلبُ الشمس ... وطلوُعها من حيث لا تمسي
وطلوُعها حمراَء صافية ... وغروبها صفراء كالورس

وقول الآخر:

مخبأة أمَّا إذا الليل جَنّها ... فتخفى وأما بالنهار فتظهر
وقد انشقَّ عنها ساطع الفجر فانجلى ... دجى الليل وإنجاب الحجاب المستّر

والْبِس عُرض الأفق لوناً كأنه ... على الأفق الشرقيّ ثوب معصفر. الخ
وقول ابن الرومي:
إذا رنْقت شمسُ الأصيل ونفَّضت ... على الأفق الغربيّ ورسا مُذعذَعا
وودْعت الدنيا لتقضيَ نحبها ... وشول باقي عمرها وتشعشعا
ولاحظت النُّوار وهي مريضة ... وقد وضعت خدَّا على الأرض اضرعا. الخ
الفلكي يصف حوادث لا صلة لها بقلب الإنسان وخياله. والشعراء يصفون شعر الإنسان بفنائه على مر الزمان، ويتخيلون في طلوع الشمس وغروبها صوراً تخلع على الشمس شعور الإنسان وعاطفته.
تمثل نفسك تقرأ نظرية هندسية أو معادلة جبرية ثم تمثلها تقرأ قصيدة لشاعر نابغة أو خطبة لخطيب عظيم؛ إنك حين تقرأ الهندسة أو الجبر لا تفرح ولا تحزن، ولا تغضب ولا ترضى، ولا تخاف ولا تأمن، ولا تضحك ولا تبكي. ولكنك حين تقرأ القصيدة أو الخطبة لا تخلو نفسك من بعض هذه المعاني أو ما يشبهما.
وإذا قال طبيب: (إن مرض كذا منتشر في كل بلد) فهذا خبر لا يعبر عن شيء من عوطف الطبيب بل يخبر عما هو كائن، ولكن أبا العلاء المعري حين قال:
ما خص مصراً وبأوحدها ... بل كائن في كل أرض وبأ
أنبأنا اللب بلقيا الردى ... فالغوث من صحة ذاك النبأ
أراد أن يبين عما يحيط بالإنسان من الآفات ويعرب عن خوف الإنسان وحزنه في هذه الحياة، وإنما ذكر عموم الوباء وسيلة إلى الإبانة عن آلامه ومخاوفه
وهكذا يستطيع الناظر في هذا الموضوع أن يوالي الأمثلة في غير عسر.
كل ما أبان عن عاطفة أو خيال صلح أن يكون موضوع للأدب؛ وهو مادة الأديب يؤلف منها أدبه. ولكن من هذا البيان ما هو شائع بين الناس يشترك فيه الخاصة والعامة والصغار والكبار، فهذا لا يعد في الأدب وإن اتصل بالعاطفة والخيال؛ فلابد من سمو الإدراك، وجودة التصوير. لابد من الصنعة أو الفن.
لا يعد الإنسان مصوراً حتى يجيد التصوير، ولا يعد نجاراً كل من نجر خشبة أو دق مسماراً بل لابد أن تكون له صنعة لا يستطيعها كل من حاولها. كذلك ليس كل من عبّر عن عاطفة أديباً. لا! حتى يكون في بيانه إدراك يرفعه عن العامية ولابتذال، وصنعة تميزه عن الدهماء وتميزه باسم الكاتب أو الشاعر أو الخطيب الخ - حتى يأتي بكلام معجب يحس فيه سامعه أو قارئه إدراكاً قيماً، وتصويراً بارعاً كما تُرى صنعة نجار فيُعرف أنها عمل لا يستطيعه كل من وجد الخشب وآلات النجارة.
الحزن - مثلا - عاطفة تبين بالوجوم والصياح، والأنين والبكاء والعبارة المعتادة، والقصيدة. وكل هذه الدلالات تبين عن العاطفة ولكن لا يعد من الأدب إلا القصيدة.
وكذلك الأمور النفسية الملونة بألوان النفس تملأ كلام العامة والخاصة ولكنها لا تحسب أدبا حتى ترتقي إلى مستوى الفن وفي هذا درجات تتوالى إلى حد الإعجاز.
الفرق بين الأدب والعلم
يتبين مما تقدم أن قضايا العلوم المحضة ليست مادة للأدب؛ فإذا قلنا: زوايا المثلث تساوي زاويتين قائمتين، أو الخط المستقيم أقصر خط بين نقطتين، أو حاصل ضرب خارج القسمة في المقسوم عليه يساوي المقسوم، أو هذا الدواء ينفع لهذا المرض الخ فهي قضايا علمية ليست من موضوع الأدب في شيء
ليست هذه القضايا من الأدب ولكن يجوز أن تدخل فيه لتكون مقدمة لغيرها أو للتشبيه بها أو نحو ذلك كما قال المعري:
طرق العلا مجهولة فكأنها ... صم العدائد مالها أجذار
وقوله:
الخلق من أربع مجمعة ... ماء ونار وتربة وهوا
والكتب العلمية ليست من مباحث الأدب إلا أن ينظر الأديب إلى حسن البيان فيها والترتيب والتقسيم ووضوح الألفاظ فيجوز للفن أن يتناولها من هذه الناحية
فإذا اتحدَت المسائل في كتب علمية واختلفت أساليبها فقيل هذا الكتاب واضح العبارة، صحيح الألفاظ جيد الأسلوب فهذا تقدير موصول بالفن يجعل الكتاب من هذه الناحية ذا

صلة بالأدب. ويستخلص من اختلاف موضوعي العلم والأدب هذه الفروق بينهما:
1 - الأدب مرجعه نفس الإنسان، والعلم مرجعه الطبيعة
2 - فمقياس الأدب صدق التصوير لما في النفس خطأ أم صواباً، ومقياس العلم صدق الإدراك للحقائق الواقعة دون نظر إلى أثرها في النفس.
3 - والأدب الإنساني موضوعه الإنسان: سعادته وشقائه في هذا العالم. والعلم يستوي عنده الإنسان والحيوان الأعجم والنبات والجماد. فالطبيعي يبحث في قوانين الطبيعة السارية في هذا العالم والحيويّ يبحث عن قوانين الحياة في الأجسام الحية، والطبيب يشرّح الأجسام ليتبين تركيبها. وهم في هذا البحث يتحرون الحقائق كما هي لا يبالون أن تكون في الإنسان أو في غيره. وأما الانتفاع بنتائج العلوم في إحياء الإنسان أو قتله وإسعاده أو أشقائه، فهو أمر خارج عن موضوع العلم
4 - والآراء والكتب العلمية تترك إذا تبين خطؤها أو كتب ما هو خير منها فلا يرجع إليها إنسان إلا إذا أراد أن يؤرّخ العلم؛ فلا تجد من يقرأ في كتاب هندسة أو حساب قديم وقد كتب ما هو أحسن منه؛ ولكن كتب الدب تتضمن عواطف الإنسان فإيّان اطّلع القارئ فيها وجد عاطفة إنسانية تؤثر في نفسه لا يضيرها الخطأ أو القدم. فنحن نقرأ اليوم شعر هومير وشعر امرئ القيس وغيرهما، ونجد فيه من متعة النفس ما نجده في الشعر الحديث

اختلاف المنشآت الأدبية

قد تبين أن مدار الأدب على العاطفة والخيال والأمور النفسية لا الحقائق الثابتة خارج النفس. وليست كل القطع الأدبية سواء في ذلك، بل تتفاوت قرباً من هذا المركز وبعداً. وادخلها في الأدب أقربها إلى المركز. وفي الأدب موضوعات يقل نصيبها من العاطفة والخيال حتى تنتهي إلى المحيط الذي يفصل الأدب عما سواه، ويكاد يشك القارئ أنها من الأدب

ومن أجل ذلك اختلف النقاد في شعراء من أئمة البيان كأبي تمام والبحتري والمتنبي وأبي العلا. قال بعض النقاد: المتنبي وأبو تمام حكيمان وإنما الشاعر البحتري. ويميل بعض النقاد إلى إخراج لزوميات المعري من الشعر. والحق أن دواوين هؤلاء الشعراء جميعاً تحوي أدباً لا علماً، ولكن حظها من العاطفة وعمل الخيال يختلف؛ فتجد البحتري أكثر

نصيباً من العاطفة والخيال في جملة شعره؛ وأبو العلاء في لزومياته أقل حظّاً منهما ولكنه لم يخرج عن دائرة الأدب. وأبو تمام والمتنبي بين عاطفة البحتري وحكمة أبي العلاء

وبهذا يفسر قول القدماء: (أعذب الشعر أكذبه) فالأكذب أدخل في الخيال وأبعد عن الحقيقة. ولكن ينبغي ألا يخدعنا هذا القول؛ فربما نجد الشعر القريب من الحقيقة والبعيد عن الخيال أعذب واحب إلينا من شعر كثر خياله وبعد عن الحقيقة. وقد تبين العاطفة قوية واضحة حيث لا خيال كما يؤثر مرأى الطفل الحزين في رائيه، ويعجب المنظر الجميل شاهده، وليس هناك إلا الحقيقة المؤثرة

انظر قول كثير عزة:

خليليّ! هذا ربع عزة فاعقلا ... قلوصيكما ثم ابكيا حيث حلت

لا تجد فيه مجازاً ولا استعارة ولكنه مثّل لك الشاعر واقفاً على دار عزة وقد خلت منها وهو يطلب إلى صاحبيه أن يعقلا ناقتيهما ليفرغا للبكاء معه. ليس في هذا تخيل ولا صنعة ولكنه يكشف عن عاطفة محزونة ساذجة لها أثرها في نفس الإنسان

وانظر هذه الأبيات:

أقول لصاحبي والعيس تهوي ... بنا بين المنيفة فالضمار
تمتع من شميم عَرار نجد ... فما بعد العشية من عَرار
ألا يا حبذا نفحات نجد ... وريّا روضه بعد القنطار
وأهلك إذ يحلَ الحيُّ نجداً ... وأنت على زمانك غيرُ زاري
ليال ينقضين وما شعرنا ... بأنصاف لهن ولا سرار

إنك تجد في هذا الشعر الطبيعي الصادق الخالي من الكذب والخيال والإغراق من الإبانة عن العاطفة مالا تجد في شعر متكلف قد أعرب فيه الخيال وافتنّت فيه الصنعة

عبد الوهاب عزام

استطلاع صحفي
الأندية الأدبية في مصر
نادي الحلمية
لمندوب الرسالة الأدبي

مقهى ضئيل المنظر، تافه الموقع، يطل على ميدان ضيق محدود، يعج بالسابلة، ويضج بالحركة، وترتفع فيه أصوات الترام والسيارات منحدرة من القلعة وصاعدة إليها، فلا رواء فيه ولا بهاء ولا شيء مما يبعث الشعر ويهز الفكر ويحبب إلى الأدب، ويغمر النفس بشعور الرضا والأطمئنان؛ ولكنه على الرغم من هذا كله فهوى الشعراء والأدباء، ومراد الأفكار والآراء، وله في ذلك عمر طويل وتاريخ حافل

ترى ما الذي حبب هذا المكان إلى إخواننا الأدباء وهم طلاب الهدوء والسكون، وعشاق المناظر الشعرية اللطيفة؟! أهي تلك الدرجات الأربع التي يصعدها الداخل إليه فتشعره بالرفعة والصعود والعظمة! وحب العظمة! وحب العظمة شيء في نفوس الأدباء؛ أم هي تلك الديمقراطية الصريحة التي يتميز بها ذلك المكان، إذ يجلس القوم في غير كلف، والتملص من الكلفة شيء محبوب لدى الشعراء؛ أم هي قلة النفقة، والأدباء لاشك قروشهم معدودة، وجيوبهم مكدودة، فهم يرتاحون إلى قلة المصاريف وعدم التكاليف؟!

أنا والله لا أدري السبب في ذلك. ولقد سألت إخواننا الأدباء أنفسهم فما وجدت عندهم شيئاً من علم ذلك السر، بل لقد ذكر ليَ الشاعر (الأسمر) أن أدباء الحلمية تمردوا منذ سنوات على ناديهم، وحالوا أن يكون مجلسهم في مقهى فخم بميدان الأوبرا حتى يليق بمكانتهم، ولكنهم فشلوا في تمردهم، وعادوا إلى مكانهم صاغرين! حيث مازالوا يصعدون الدرجات الأربع! وقد يكون للمسألة تعليل من التاريخ، فلنرجع إلى التاريخ

إن نادي الحلمية يتصل بحي الحلمية، وحي الحلمية حي يتميز بطابع خاص، وينفرد بتاريخ حافل، وهو أول حي أسس في مصر على طراز منظم، وقد كان موطن الأسر العريقة والسلالات التركية التي تحكم البلد، وتملك ثروته؛ وقد كان لهذا الحي ناد يشرف على شارع محمد علي في مواجهة جامع قوصون، وكان يختلف إليه كثير من الكبراء

والأدباء الذين يقطنون ذلك الحي، فكان يجلس فيه المرحوم حسين باشا رشدي، والمرحوم شوقي بك قبل أن ينتقل إلى المطرية، وحفني ناصف، وإبراهيم هلال، وحافظ إبراهيم، والشيخ عبد المطلب، وأحمد نسيم، واحمد الزين، وبيرم، والهراوي، وعماد، والسيد حسن القاياتى، وكان يتردد عليه المازني أيام كان يسكن بالإمام؛ وقد أخبرني الهراوي أنه لا يذكر أديباً في مصر لم يتصل تاريخه بذلك النادي القديم، وإنه ليتحدى من ينكر الجميل على أصحابه، وإنه على استعداد لأن يذكر من لا يذكر ماضيه!

وقد ظل ذلك النادي قائماً أيام الثورة المصرية، فانتقل إليه الشيخ مصطفى القاياتي رحمه الله، وكان الشيخ القاياتي عنصراً قوياً من عناصر الثورة، وكانت له حاشية حافلة بالشباب المفكر الجريء أمثال الشيخ عباس الجمل، والشيخ الجديلي، والشيخ البنا، والأستاذ إبراهيم عبد الهادي، وإضرابهم، فاختلط الأدب بالسياسة بين جدران النادي، فكانت تنطلق منه التدابير المفزعة والقوافي المقذعة، فضاق به الإنجليز، وأطلقوا عليه الرصاص؛ وللهراوي في ذلك شعر. . .

فلما كان سنة 1926 مات صاحب المقهى، فانفض السامر، وانقطع الزائر، وبطل الندى الحافل، وقام مكانه مطعم للفول ومستخرجاته، والعدس بجميع ألوانه؛ وراح الأدباء يتلمسون المكان الذي يجمعهم، فتأخروا خطوات عن جامع قوصون إلى جهة القلعة فوقعوا على النادي الذي هو مجمعهم اليوم والذي هو موضوع حديثاً في ذلك المقال

ولقد غدا النادي الجديد صورة كاملة للنادي القديم، فحفل بالأدباء والشعراء، وعمرت مقاعده بمجالسهم في الليل والنهار، وقصده الكبار في الأدب والصغار!

فكان يجلس فيه الشيخ عبد المطلب شاعر البادية، والحاج محمد الهراوي شاعر الأطفال والرجال، والأسمر أديب القبلتين وشاعر الأزهر، والزين شاعر دار الكتب، وحسين شفيق المصري الشاعر الحلمنتيشي المعروف، والدكتور زكي مبارك عبقري سنتريس ومعبود باريس، والسيد حسن القاياتي شاعر النبل والورع، و (مجنون)

إحسان. وكان ينضم إليهم كثير من شباب الأزهر ودار العلوم وغيرهم ممن يشدون بالأدب ويعملون في الصحافة؛ وكان حافظ رحمه الله يتردد عليهم من وقت لآخر خصوصاً في الفترة التي أحيل فيها على المعاش؛ وبين جدران ذلك النادي نظم قصيدته الطويلة في هجاء صدقي باشا التي لم ينشر منها في الديوان إلا أبيات. . .

ولقد استبدت تكاليف الحياة ومطالب العيش بكثير من الأدباء فألهتم عن مجالس السمر، وحرمتهم من ذلك المجلس الطيب الشهي، ولكن ما زال النادي عامراً بأبنائه المخلصين، وما زال المتخرجون فيه يهبطون عليه بين وقت وأخر حتى الذين يسكنون في الضواحي على بعد الشقة وكثرة الكلفة. ويا له من حنين طيب ووفاء عجيب! وقديماً قيل (ما لحب إلا للحبيب الأول) ويعتبر الهراوي في هذه الأيام عميد نادي الحلمية، أو عمدة مصطبة الحلمية كما يقول صديقنا الدكتور زكي مبارك، أو شيخ السقيفة على حد تعبير المهدي مصطفى الشاعر الظريف

فالهراوي من الجلساء المخضرمين أدرك النادي السابق وكان من رجاله، وأسس النادي اللاحق وآثره بكثير من عطفه وإخلاصه، فقل أن يتغيب عنه في يوم من الأيام ودائماً يحلو له أن يأخذ مجلسه عند المدخل على سفح (الدرجات الأربع) ومن حوله الأسمر والشيخ عبد الرسول ومرتضى الخطاط، أجزاء لا تتجزأ وعصبة لا تفترق وأدباء الحلمية نمط واحد وطراز متفق، ولهم ذوق عملت فيه الثقافة العربية أكثر من أي شيء آخر؛ وهم يعشقون الديباجة القوية السليمة، ويطيرون بالأساليب المشرقة المونقة ويذكرون شوقي وحافظ وعبد المطلب بالخير والحمد، ويترحمون على المنفلوطي والرافعي وإضرابهما؛ والزين لا يعدل بالزيات أديباً في مصر بل في الشرق. وهم يضحكون من أولئك الشعراء والأدباء المستغربين الذين يذكرون جوتة وشكسبير ولا يعرفون المتنبي والبحتري وشيخ المعرة، ويسميهم الهراوي بدجاج القريض، وفي رواية أخرى يغاث الشعر.

وكثيراً ما يدخل أدباء الحلمية في مناقشات حادة، وجدال عنيف، يصل ضجيجه إلى الشارع، ويطول فيه اللسان ويسفه، ولكنهم دائماً خلصاء أصفياء على الكراسي متقابلين.

ويجري أدباء الحلمية في فنون وأمشاج من أحاديث الأدب والنقد والدعابة، فإذا كان الحديث في ذكريات الماضي، فالهراوي فارس الحلبة، يزكيه الشيخ عبد الرسول؛ وإذا كان القول في أخبار الأدباء والشعراء فالحكم للزين والويل لمن يعترض؛ وإذا تكلم القوم في الشعر رأى الأسمر أن يخرج من وقاره فيخب ويضع؛ فإذا انتهى القوم إلى الدعابة حاولوا

جميعاً أن يمدوا ألسنتهم؛ ولكن لا يلبث الشاعر الحلمنتيشي أن يضع يده على رؤوس القوم وأن يجرفهم بتياره الزاخر، حتى يقول كل منهم لصاحبه:

انج سعد فقد هلك سعيد.

وقد يبتدئ القوم حديثهم في شيء يهمهم، أو في مشكلة تعينهم، ولكنهم سرعان ما يخلعون عليه ثوب الأدب ويجعلونه حديث السمر.

فهذا الشاعر الأسمر قد جاء في أمسية يشكو إلى إخوانه أمر ساعة أهدها إليه صاحبه الهراوي فأتعبته وصارت تمشي كما يقول الأسمر تارة (عربي) وتارة. (إفرنجي) وتارة لا عربي ولا إفرنجي أما الدكتور حسين الهراوي فتناولها ثم جس نبضها وقال:

هذه (عندها ضغط دق) وهي (تحتاج إلى الراحة التامة).

وأما الدكتور زكي مبارك فنظر إليها ثم اندفع ينشد:

واها لبعض الهدايا ... بعض الهدايا رزايا
ساعات باريس عندي ... لها جميع المزايا
تدق دقاً لطيفاً ... كمثل همس مُنايا
وساعة الهراوي ... أولى ببعض التكايا
تدق دقاً عنيفاً ... كما تدور رحايا

وأراد أن يسترسل في إنشاده فهدده الهراوي بإهداء (منبه) إليه، فامسك وجبن

وأما الأستاذ حسين شفيق المصري فقال: (دي ساعة دايرة على كيفها) و (ماشيه مشى مسخرة) و (قلبها فاضي) و (عاوزة بوليس يضبطها) و (الساعاتي لما يشوفها

قلبه يدق) و (أنها الساعة التي هي أدهى وأمر. . .)
وكان مجلس طيب لم يسع الهراوي نفسه إلا أن يسجله بالشعر فقال:
وساعة أهديتها ... إلى الأديب الأسمر
حسبتها في مخبر ... كما لها من مظهر
فظرفها من معدن ... مرقش منمّر
فمن بياض فضة ... إلى سواد عنبر
وعقربا مينائها ... من النضار الأصفر
أحجارها كأنها ... من لؤلؤ وجوهر
فلم يكن كمثلها ... هدية من موسر
ولم يكن كمثلها ... من بائع لمشتري
وليس من تقدم ... فيها ولا تأخر
تمشي عليها الشمس في ... عطاردٍ والمشتري
وقد ظننت أنه ... بمثلها لم يظفر
حتى احتوانا مجلس ... يزخر بالتندر
فمن طبيب ماهر ... إلى أديب عبقري
وكاتب مفكر ... وشاعر مصورّ
فجاءنا الأسمر في ... زمجرة الغضنفر
ثم رمى بساعتي ... بهيئة المستنكر
وقال فافتح محضراً ... واذكر وقل في المحضر
بأنني من ساعتي ... ومنك في تحيّر
فإنها تذبذبت ... من سنةٍ فأكثر
فتارة تَقَدُّمٌ ... إلى مدىً لم يحصر
فتسبق الليل إلى ... صباحه المبكر
وتارة تأخُّر ... لغاية لم تقدر
والآن فانظر ترها ... في وقفة المستكبر
وإن ما ذكرته ... دون الذي لم أذكر
فقلت مهلاً يا أخي ... فضحتني في معشري
فانهمرت نكاتهم ... مثل السحاب الممطر
فقائل: حق نشِو ... ق لفقيه أزهري
وقائل: محبرة ... من اختراع (بَركر)
وقائل: رقاصها ... يحتاج للمجبر
وقائل: قوموا بنا ... نسأل عنها السمكري
فقلت كفوا ساعة ... عن ساعة لم تستر
أليس منكم عاذر ... حتى أخي لم يعذر
إن قصرت فإنها ... في زمن مقصر
آليت لا أهدي لكم ... شيئاً - يمين منذر
ومن أراد ساعة ... فليشتر أو يكتر
وكم في (نادي الحلمية) من مثل هذه المجالس الطيبة لو حفل أديب بتسجيلها لحفظ للناس كثيراً من السمر الطيب والدعابة الحلوة والأدب الرائع. . . ولكن هيهات
م. ف. ع
السلام
نظم الصورة القلمية المنشورة في العدد 289 من الرسالة
(مهداة إلى الأستاذ ابن عبد الملك)
للأديب عبد الحميد الهيتي
ذي صورة في وحيها صادقهْ ... توحي إلى الشاعر
صامتة لكنها ناطقهْ ... في منطق ساحر
المن في صفحتها الشارقهْ ... يشرق مثل الأمل الزاهر
والْخَلْقُ في ساحتها غارقهْ ... في أمنها هادئة الخاطر
هنا قطيع الغنم الراتع ... في عيشة راضيهْ

منبثة في حلقها الواسع ... آمنة لاهيه
فبعضها في وقفة الخاشع ... وبعضها جاثية غافيه
يا عجباً للحمَل الوادع ... ترضعه الأم على ناحيه
قد نام عنها كلبها الحارس ... على أثيث العُشُبْ
كأنه وهو به طامس ... من نومه لم يهبْ
قد نسى الذئب ولا هاجس ... يَمرُّ في خاطره أو يدبْ
حتى ولم يهمس له هامس ... في الطيف ما يدعوه أن يكتئبْ
هناك بالقرب من الساحل ... عائلة تبسمُ
ما فكرت في الزمن الزائل ... ولا الذي يقدم
تلهو بصفو الزمن الماثل ... لها ولا في غيره تحلمُ
يا لجلال الأسرة الكامل=لو خط في الرسم أبٌ مفهمُ
هناك عن بعد على اليمين ... مغروسة أشجارُ
ريانة مورقة الغصون ... توقرُها الأثمارُ
وربما في عشها المكين ... آمنة تزقزق الأطيارُ
قد نسيت مرارة السكين ... ولم تداهم عشها الأخطارُ
أرى طيوراً في السما حائماتْ ... من مرح صادحةْ
في هدأة الكون مضت سابحاتْ ... غادية رائحةْ
فلم تروع سربها الطائراتْ ... ولم تجيء قاصفة صائحةْ
والبحر رهوٌ فوقه الباخراتْ ... تمخر لا تجتاحها جائحةْ
يا صورة صورّ فيها السلامْ ... صورته الخالدَةْ
توحي كوحي الصحو بعد الغمامْ ... في الأنفس الراقده
ما السلم إلا الغيث في الابتسام ... والحرب إلا السحب الراعده
فلفسة الله هما في الأنام ... ضلت بها ألبابنا شاردةْ
(هيت)
عبد الحميد الهيتي
قصائد في أبيات
للأستاذ محمود غنيم
المطر
بدت الأرض مرة في الشتاء ... ثرَّةً مثل صفحة الدأماء
فسألت الغمام هل بك خطب ... مثل خطبي حتى بكيت بكائي
قال لا بل دنَّسْتم الأرض بالإث ... م فطهرت وجهها بالماء
لؤلؤة
شاهدت لؤلؤة كالبرق تأتلقُ ... على جبين أمير سار مختالا
فقلت ما أنت؟ قالت إنني عرقُ ... من جبهة الزارع المسكين قد سالا
الناس تنعم والفلاح يحترقُ ... وليس يحرز لا جاهاً ولا مالا
السعادة
لم ادر ما طعم السعادة في الصبا ... فإذا بها موفورة أسبابها
حتى إذا أصبحت أدرك كنهها ... سلب السعادة من يدي سلابها
الغرب
قلت للشمس يا عروس السماء ... إنما تغربين في عين ماء
فلماذا لمحت وجهك إذ اشر ... ق مثل العقيقة الحمراء
قالت الشمس إنما طفت حول ال ... غرب والغرب سابح في الدماء
محمود غنيم
رسالة العلم
أرض تدور وإنسان يحيا ويموت
للدكتور محمد محمود غالي
الفراغ الذي تنتقل في أنحائه - الزمن والحوادث - الأرض
التي تدور - الكون مجموع العوالم - الإنسان يحيا ويموت
نبدأ الكلام عن الفراغ أو الحيز الذي نتنقل فيه، ونتكلم عن الزمن الذي يمر علينا

لاتصالهما بفلسفة كل علم، وأي علم نستطيع أن نتعلمه أو فلسفة نستطيع أن نناقشها
لا يكون الفراغ والزمن عاملين أساسين في دراستهما؟ هذان العاملان ظلا أساساً
للعلوم من عهد المصريين والإغريق؛ فليس في وسعنا أن نتحدث عن الأرض والكون
والإنسان المفكر دون أن نرجع مبدئياً إلى هذين البحرين اللذين تكتنف لججهما جميع
المخلوقات: الحيز والزمن.
وسنعرض لهما في هذه الكلمة حسب الأوضاع التي ألفناها فلا نتعرض اليوم لفهمهما
وفق أحداث الآراء
أما الفراغ أو الحيز فإننا نلمسه بحواسنا وندركه بتحركنا. كلنا يعلم أننا، ونحن في مكان
معين، نستطيع أن ننتقل شرقاً وغرباً أو شمالا وجنوباً أو إلى أعلى وأسفل، كما
نستطيع أن ندور حول نقطة ثابتة، أو نكون في حالة نلفي فيها حركتنا مجموعة من
هذه الحركات كحركة شخص داخل سفينة تتأرجح فوق عباب الماء بالنسبة إلى منارة
على شاطئ البحر
وأما الزمن وفق تصورنا البدائي فكلنا يعرفه ويدركه بالحوادث التي تقع لنا، فنقول: لم
نر فلاناً منذ رحيله للإسكندرية، ونقدر طول غيبته بعدد من الأيام، وينشأ من ذلك أن
أهم الحوادث بالنسبة لنا دورة الأرض حول محورها، فهي التي تولد الليل والنهار
ويسمى مجموعها (يومياً) وقد اعتدنا تقسيمه إلى 24 ساعة، وكان من الجائز أن
نقسمه إلى عشرين ساعة أو عشر، فتقسيم اليوم إلى أي عدد من الساعات عمل
اعتباطي من اختيار الإنسان لا دخل للطبيعة فيه. فلو أننا اتفقنا على أن نجعل اليوم
عشر وحدات جديدة تسمى كل منها احتجنا إلى إدخال أي تغيير في آلات قياس الزمن
التي نسيمها (ساعة) سوى تغيير في
تقسيم ميناء الساعة أما دورة الأرض حول الشمس التي يتكون منها السنة والفصول
فتحوي 365 يومياً وسدس اليوم تقريباً، وهذا العدد ليس اختيارياً كعدد الساعات في
اليوم، وإنما هو حدث طبيعي لا نستطيع تغييره؛ فقد لوحظ أنه بمرور كل عام أي
بإتمام كل دورة للأرض حول الشمس يتكون هذا العدد من الليل والنهار أما فترة
الحياة للإنسان فهي تختلف لكل فرد، فليس من الميسور لنا أن نعين الذين ستنتهي
حياتهم هذا الأسبوع من أهل القاهرة وإن كنا نعرف من مجموع القاهرين أنه يولد في
الأسبوع القادم حوالي التسعمائة ويموت حوالي الخمسمائة. . .
ونحن أكثر إحساساً بالزمن منا للحيز، فإن الزمن يتغلغل في مشاعرنا، وفترة من
الزمن أقرب لإحساسنا من مسافة في الفراغ. وقد يخطئ المرء في تقدير أو مقارنة
مسافتين ولكنه لا يخطئ في إدراك وترتيب حادثين، فإذا وقفنا في ميدان الأوبرا فقد
لا يسهل علينا أن نعرف أيهما أقرب إلينا: مسجد القلعة أم الجامعة المصرية بالجيزة.
بل كثيراً ما يخطئ المرء في تبين الأطول من بين اثنين من أصدقائه رغم تكرر رؤيته
إياهما
أما شعورنا بالزمن فلا يتسرب إليه الخطأ. فنحن واثقون أن حصولنا على تذكرة الترام
حادث لاحق لارتقائنا إياه، وأن وجودنا به حادث لاحق لمبارحتنا المنزل. وإذا اشترينا
صندوقاً من السجائر فمما لا يداخلنا الشك فيه أن الكتابة المطبوعة على ذلك
الصندوق قد تم طبعها قبل شرائنا إياه، وعندما نذهب بأولادنا إلى المدرسة لا يكون
ثمة ريب في أن حادث ولادتهم سبق بكثير دخولهم المدرسة. ويدخل عامل الزمن في
التجارب العلمية، ففي مقدور العلماء أن يقيسوا فترات صغيرة جداً منه، وقد بين لي
الأستاذ جييه في إحدى زياراتي له كيف نتوصل إلى قياس فترة من الزمن لا تتجاوز
جزءاً من خمسة ملايين جزء من الثانية. ولا متسع هنا لشرح التجارب الخاصة بهذا
التحديد الدقيق على أن كل هذه الحوادث قصر أم طال مداها تتعين بأمر ثابت لنا هو:
دورة الأرض حول الشمس التي نسميها عاماً.
فعندما يقول إنسان لقد مضى على إقامتي بهذه الدار ثلاث سنوات وستة أشهر،
فمعنى ذلك أن الأرض في مدارها حول الشمس عادت لمكانها الأول ثلاث مرات، ولا
تزال سابحة في دورة رابعة قطعت منها نصف الطريق
كل الكائنات، وكل ما في الحياة، وكل شيء نستطيع أن نحس به أو نراه، يكتنفه أو
يشمله هذان البحران: الفراغ والزمن. إذ لا يمكن لخيالنا وحواسنا أن تتخيل أو
نستوعب شيئاً كائناً ما كان غير موجود فيهما، فهذه النملة في طريقها على هذه البقعة

من الأرض تقطع هذه المسافة في الحيز ويمر عليها الزمن. وهذه الأرض التي تحمل النملة وتحملنا تقطع أيضاً في هذه الفترة جزءاً من طريقها الذي تدور فيه حول الشمس. وهذا الحجر من أحجار الهرم يشغل حيزاً معيناً وقد مضى عليه أكثر من خمسين قرناً وهو في هذا الوضع؛ أعنى أن الأرض قد دارت حول الشمس منذ وضعه أكثر من 5000 دورة، وحول نفسها حوالي المليونين من الدورات، وليس هذا عمر هذا الحجر منذ تكونه، بل هو الفترة التي مرت على وضعه بين الأحجار. أما عمره فمن تكوين الأيوسين وهو عصر جيولوجي بعيد قد ولى منذ 60 مليوناً من السنين ولو التزمنا جانب الدقة لقلنا إننا نحن والحجر أقدم من ذلك بكثير فإن العناصر التي نشأنا منها ترجع إلى تكون الأرض التي يغلب على الظن أنها انفصلت عن الشمس؛ فكل ما نتكون منه كان موجوداً منذ تلك اللحظة التي لعلها تبعد في الزمن ألفى مليون من السنين، بل كان موجوداً قبل ذلك منذ تكون الشمس، بل قبل تكون السديم الذي نشأت منه الشمس، بل منذ كانت الخليقة. .

هذا هو الحيز حسب الإدراك البدائي والزمن وفق الوضع البسيط. ولكن تصور العلماء لهما قد تغير اليوم

في رواية تناقلها الصحف إبان الضجة التي أثارتها نظرية إينشتاين في النسبية أن ابنه سأله ذات يوم أن يوضح له تلك النظرية؛ فأجابه: إنه لو فرض جدلاً أن كائناً سيسافر بسرعة تقرب من سرعة الضوء واتفق معه مودعه أن يغيب عنه سنة فأنه لا يحق له عند وداعة على المحطة أن يقول له: إلى اللقاء! لأنه عندما يعود المسافر بعد عام يكون قد مر على الذي ينتظره مائتا عام، وبذلك يكون قد ثوى في رمسه منذ نيف ومائة سنة

هذا الوضع الجديد في الزمن والحيز الذي كان الأساس فيه معادلات لورتنز يختلف عما عهدناه، وسنرجئ الدخول في فهمهما إلى مقال آخر

أما في هذه الأسطر فلدينا مسألة أكثر بساطة تتعلق بالأرض التي تعيش عليها والكون التي

هي جزء منه

لئن كان بين الشموس ما يقرب حجمه من حجم الأرض، فإن أغلبها كبير لدرجة أن ملايين الأرض ممكن أن تدخل في أحدها وتدع مكاناً لملايين غيرها. وليس لنا أن نعجب من هذا، فلو أن قروياً لم يخرج في حياته عن بلدته لظن أن كل ما على الأرض من ماء هو من نوع الجداول والمساقي التي اعتاد أن يراها في حدود موطنه الضيق. وما أشد ما تتملكه الدهشة حين يسافر بالبحر للحجاز مثلاً أو لأوربا فإن هذه البحار التي يعبرها تحوي من الماء ملايين أمثال ما تحويه الجداول التي اعتادها

على أن ملايين الملايين من هذه الشموس تكون عالماً واحداً كعالم المجرة الذي شمسنا إحدى شموسه - ويدلنا العلم اليوم أن ملايين الملايين من العوالم تكون الكون ينتج من ذلك أن الأرض بقاراتها ومحيطاتها هي بالنسبة للكون كشوكة من أشواك التين بالنسبة لإقليم متسع غرس فيه نبات التين، أو كقطرة من الماء بالنسبة لمجموع البحار

هذا هو مركز الأرض من الضآلة بالنسبة للكون الذي هي جزء منه. على أن هذه الملايين من الملايين النجوم تسبح في مجراها على مسافات شاسعة جداً بين الواحد والآخر بحيث يعد اقتراب واحد من حادثاً نادراً جداً

فالمسافة بين الأرض والشمس التي هي مليون مثل ارتفاع الهرم الأكبر صغيرة جداً بنسبة المسافات بين الشموس التي نتحدث عنها. ويكفي أن نعلم أنه بينما يصلنا الضوء من الشمس في 7 دقائق تقريباً فأنه يصل لنا من أقرب شمس بعد ذلك (الفاسانتور) ويسمونها (قضيب الكرم) في أكثر من أربع سنوات.

ولو أن الشمس على بعدها عنا تمثل مصباحاً في الردهة المجاورة بالمنزل فأن الفاسانتور تمثل مصباحاً في فينا أو طهران

على أن الغالب على الظن أنه أكثر من ألفي مليون سنة اقترب أحد هذه النجوم وهو في طريقه من شمسنا، وكما أن اقتراب القمر يحدث على بحار الأرض ظاهرة المد والجزر أي ارتفاع الماء في جزء الكرة وانخفاضه في الجزء المقابل؛ ويبلغ ارتفاع الماء المد قريباً من الشواطئ المصرية 30 سنتمتراً وفي الجزائر60 س م وفي فرنسا متراً

أو أثنين وفي فندي في أمريكا 19 متراً و60 سنتمتراً فقد حدث في جسم الشمس مد كبير جداً يبلغ حجمه
آلاف أمثال حجم الأرض كافة؛ وازداد اقتراب النجم فارتفع المد لدرجة سببت انفصال
كتلة من جسم الشمس انقسمت إلى الأجزاء التسعة التي هي السيارات المعروفة
وأقمارها وهي التي تدور من ذلك الحين حول أمها الشمس
ولو شخص القارئ ببصره إلى السماء في الليل لاستطاع أن يلحظ الفارق الكبير بين
السيارات التسعة التي تكون مع الشمس مجموعتنا الشمسية وبين الشموس الأخرى،
فإن ضوء السيارات كضوء القمر يبدو ثابتاً لاكتساب هذا الضوء من الشمس. أما
النجوم فهي تتوهج كالشمس، وأثر هذا التوهج واضح على العين
أما السيارات التسعة فمنها ما هو أصغر من الأرض مثل عطارد والزهرة والمريخ
وبليتون، ومنها ما هو أكبر منها مثل المشتري وزحل وإيرانوس ونبتون. وحجم الشمس
يقرب من مليون وثلث مليون (1. 301. 200)
حجم الأرض بينما حجم عطارد 1005
من الأرض والزهرة 109 والمريخ 10016 والمشتري
وزحل (وهو سيار يمتاز بطوق حوله) 745 مرة 1295
وإيرانوس 63 ونبتون 78؛ أما بليتون فنظن أن حجمه 101
من حجم الأرض ولم يكتشف إلا منذ نحو سبع سنوات
ولكل سيار عدد من الأقمار تابع له يدور حوله، وليس لعطارد والزهرة أقمار. وقد
أشرنا في الشكل إلى مواضع الأقمار بعلامة
وللأرض قمر واحد وللمريخ قمران، وكنا نعرف للمشتري تسعة أقمار، وقد كشف
المنظار الجديد لمرصد مونت ولسون بأمريكا قمرين جديدين فأصبح عددهما 11،
والمعروف لزحل حتى الآن تسعة أقمار ولإيرانوس أربعة ولنبتون قمر واحد
أما بليتون فلم يشاهد له حتى الآن أقمار.
وفي الشكل الأول تمثل الدائرة الكبرى الشمس وفيها دوائر صغيرة تمثل حجوم
السيارات التسعة بالنسبة للشمس وترى مرتبة في داخلها بترتيب بعدها عن الشمس
فأبعدها هو سيار
بليتون إذ هو يتم دورانه حول الشمس في 252 سنة
هذه هي المجموعة التي تنتمي إليها الأرض التي تحملنا
وما شمسنا كما قدمنا إلا إحدى ملايين الشموس من نهر المجرة الذي هو عالم واحد
من ملايين الملايين العوالم التي تكون الكون. ويمثل الشكل الثاني أحد هذه العوالم،
وفي هذه الصورة نرى صورة ضوئية لأحد هذه العوالم وهو عالم تبدو مجموع شموسه
للناظر في شكل الحلزون، ويغلب على الظن أن هذا الشكل الحلزوني لا يوجد في
واقع الأمر على هذا النحو، وإنما هي ظاهرة خاصة بالعوالم البعيدة. فلو افترضنا أن
في ذلك العالم البعيد كائناً ينظر إلى عالم المجرة (عالمنا) لرأى جماع شموسه في
هذه الصورة الحلزونية.
وسنتكلم في المقال الآتي عن الفكرة في منشأ الحياة على أحد هذه الكويكبات وهي
الأرض وعلى احتمال نشوئها كذلك على غيرها من السيارات، ونحاول على قدر
الاستطاعة أن نفسر الحياة ونرى هل هي ظاهرة كغيرها من الظواهر الطبيعية مثل
الإشعاع المادي والمغناطيسية أم هي أمر آخر
وقد وجدنا من الأيسر قبل أن نطرق باب الحياة ولا سيما فيما يتعلق بالإنسان أن نبدأ
اليوم بوصف البيت الذي يعيش فيه قبل أن نصف صاحب الدار. وموعدنا المقال
القادم
محمد محمود غالي
دكتوراه الدولة في العلوم الطبيعية من السوربون
رسالة الفن
الفن الأمريكي
النحت والتصوير
للدكتور أحمد موسى
أما النحت فلا يرجع لأكثر من القرن الثامن عشر. على أن ما هو جديد بالفحص

والدرس منه لا يعود إلا إلى منتصف القرن التاسع عشر؛ لأن ما تم عمله منذ تلك الفترة يمكن اعتباره مقياساً صادقاً لمدى ما وصل إليه النحت الأمريكي
وأول من يمكن ذكره من رجال الفن في (الدنيا الجديدة) رجلان هما باورز نالا في بلدهما درجة من التقدير. وقد سافرا مبكرين إلى روما للمشاهدة والمعرفة، والتقيا هناك بكل من كانوفا وثوروالدسين المعاصرين لهما واللذين كانا من رجال النحت المعروفين. فشاهدا في روما واقتبسا الكثير مما فيها ومن رجال الفن الذين لم يتلقوا على مدرس أو أستاذ مع هذا أنتجوا إنتاجاً يستحق الاعتبار كرافورد وأراسموس يالمر وكان المسلك الذي سار عليه باورز متأثراً بفن (عصر النهضة) الإيطالي والفرنسي، ولكنه مع هذا انتمى إلى مذهب الفن الواقعي الذي تجلى في منحوتاته للأشخاص بطريقة قوية دلت على المقدرة والثقة بالنفس، فجمع بين الأناقة في الإخراج، وبين القوة التي تمكن بها من إبراز الشخصية
وبالرغم من أن الاتجاه السياسي في أمريكا كان أميل إلى إظهار الروح الوطنية عند بعض الأفراد؛ فإن فن النحت كإنتاج عالم لم يخف أثر الاقتباس الأوربي الذي إليه يرجع الأصل في خلقه
ولا يمكن أن نسجل هنا مع الإعجاب خلقاً فنياً في مجال النحت إلا لمثّالين محدثين نسبياً إلى من ذكرناهم. وأول هؤلاء الذي نأتي له هنا بصورة من إحدى تماثيله الرائعة (ش. 1). ألا وهو التمثال البرونزي لتسجيل شخصية لينكولن، فترى الرجولة والقوة والاحترام متمثلة كلها في التمثال أنظر إليه وتأمل الكيفية التي وقف بها لينكولن، وبساطة المظهر الذي ارتسم على ملابسه، ثم شاهد الموضع الأنيق للذراع اليسرى والكيفية التي بها أمسكت
اليد المعطف. هذا إلى الجانب التكوين للرأس والنظرة الثاقبة التي تجلت على العينين. ولا أبدع من تلك الوقفة حيث ترى القدم اليسرى تخطو إلى الأمام؛ أما المقعد خلف التمثال فهذا وإن خرج عما نألفه الآن، إلا أنه طابع مميز ومسجل للاقتباس كما ذكرنا وثاني نحات جدير بالذكر هو وثالثهم ماكنايل. الذي نحت ما يعبر به عن عادات الهنود الحمر من (رقص الأفاعي) و (تمجيد الشمس)
وغير هؤلاء هربت أدمز الذي وضع تصميم البناء التذكاري في أوبرن، ودانيل شيستر فرنش صاحب تمثال ميلمور وتمثال المهندس المعماري هنت في نيويورك، وله أساليب خلابة في الكيفية التي أخرج بها منحوتاته التي نذكر منها تماثيل واردوبارتردج والجنرال جرانت في بروكلين
ولابد من أن نذكر على الخصوص النحات بويل ودونج الذي يعطينا التمثال (ش - 2) فكرة عنه. أنظر إلى سفوكليس، وقد بدا نحيلاً كما ينبغي لمن وصف نفسه بالجمال والشباب، وتأمل امتداد الذراعين وجمال حركة اليدين إلى جانب الرأس
ومن بين النحاتين الأمريكيين من أظهر في صدق وقوة مقدار تأثره بفن أجنبي. وخير مثل لذلك الفنان ستوري الذي عمل تمثال (أورشليم الحزينة)، وإذا نظرت إليه (ش - 3) رأيت أن التكوين الكلي للجسم والطريقة التي جلست بها (أورشليم) والتفاصيل التي تبين ثنايا الملبس كلها إيطالية.
أما الوجه وما أرتسم عليه من كآبة فقد عبّر خير تعبير عن الحزن واليأس والاستسلام وهو ما يتمشى مع المقصود من وضع التمثال. وكان كل من روجز في نفس الاتجاه متأثراً بالفن الإيطالي
أما من تأثر بالفن الألماني فكان كل من راينهارات وإيزيكيل وكايزر، هذا عدا الفنانين الألمانيين أصلاً والذين اتخذوا أمريكا وطناً ثانياً لهم، أمثال كارل بيتر وإيزيدور كونتي ويوهان جيليرت
سار كل هؤلاء في طريقهم تحت لواء الفن الواقعي المنتمي قليلاً حيناً وكثيراً حيناً آخر إلى فن (عصر النهضة) الإيطالية والفرنسية وقد ظهر بعدئذ فن جديد في الأفق الأمريكي لا يخالف في مظهره العالم (الفن الحديث) من حيث الرغبة في التبسيط والابتعاد تدريجياً عن
الضوابط والمقاييس الفنية
وهذا لا يستغرب إذا تذكرنا أن العلاقة بين العمارة والنحت والتصوير موجودة دائماً، وأن البيئة التي يتأثر بها البناء هي نفسها التي تؤثر في النحت وفي التصوير

على أننا لا نريد أن نتناول اتجاهات (الفن الحديث) أو الفن المعاصر في أمريكا بالدرس والنقد لأننا قد وعدنا القارئ بمقال خاص عنه نكتبه في فرصة أخرى
أما في التصوير فإن الأثر الأوربي ظاهر أيضاً وواضح إلى حد لا يحتاج للبراهين، فقد ارتبط فن التصوير في أول أمره ارتباطاً وثيقاً بالفن الإنجليزي، وتقدم على هذا الأساس تقدماً باهراً، فما كاد ينتهي القرن الثامن عشر إلا وقد ظهر مصوران عظيمان، أولهما وست الذي سجل موت الجنرال وولف في موقعه كوبيك تسجيلاً رائعاً. أنظر إلى المجموع الإنشائي للصورة (ش - 4) وفكر في الكيفية التي استطاع بها الفنان إظهار هذه المجموعة من الوجوه الناظرة إلى الجنرال المحتضر، وكلها تعتبر عن الأسى والحزن والجزع، ولاحظ العدد الهائل من الجنود الذي يبدو كأنه ظل في مؤخر الصورة، وتأمل إلى جانب ذلك حركة الأيدي والروعة التي تجلت في الإخراج وثانيهما جون اشتغل كالأول أيضاً بتسجيل المناظر التاريخية والوطنية وغيرهما جلبرت ستوارت ولورينج إليوت الذي اشتهر بتصوير المناظر الشخصية!
وهكذا استمر أثر المدرسة الإنجليزية في فن التصوير الأمريكي حتى النصف الأول من قرن التاسع عشر، وبعدئذ ظهر اتجاه جديد بظهور الفنان أظهر أثر مدرسة دوزلدورف الألمانية - في الصورة (ش - 5) واشنجطون واقفاً في وسط قارب صغير ازدحم برجاله، منهم من حمل العلم الأمريكي ومنهم من اشتغل بالتجديف في ماء مملوء بالثلوج. وليس هذا المنظر مما يستهان بتصويره، فهو محتاج إلى مقدرة عظيمة ودراسة عميقة لقانون الحركة الجسمانية إلى جانب صعوبة التلوين لإبراز تفاصيل الثلج والماء المتجمد
وأعقبه الفنان اشتغل بتصوير المناظر الطبيعية التي وقعت تحت نظره. وظهر أثر المدرسة الفرنسية في أمريكا بعد انقضاء الستين أو السبعين سنة الأولى من القرن التاسع عشر، ذلك بالرغم من تأسيس جمعية الفنانين في أول يونيو سنة 1877 وإنشاء أكاديميات على نمط ما هو موجود في أوربا. وهذا يدل على أن الفن الأمريكي كان أوربيّاً
في الأصل ولم يجد منهلاً صافياً يستقى منه إلا فيها
واشتغل فريق من رجال الفن بتصوير الحيوان وعلى رأسهم وبور كما اشتعل فريق آخر بتصوير المناظر الطبيعية وحدها، وأهم هؤلاء توماس وبيتر موران الذي صور لوحته الرائعة (مزاج الغروب) (ش 6 (والتي أظهر فيها انعكاس أشعة الشمس الذهبية على صفحة الماء.
وغيرهم من هو جدير بالذكر مثل وهارت وجاي. عدا من كانوا في الدرجة الثانية مما لا يتسع المجال لذكرهم
وكان الفنان شاز من الذين أجادوا تصوير الأشخاص وتسجيل المناظر الشعبية، وكنا نود أن نأتي بأكثر من صورة لإنتاجه. ولعلنا بالنظر إلى (ش - 7) نتمكن من الوقوف على جانب من مقدرته، فقد صور الشيطان يفرغ الخمر في كاس وعلى شفتيه ابتسامة السخرية وتخصص هنري كون المناظر التاريخية كما تفرغ هومر للمناظر الشعبية البحتة التي اتصل بها واندمج فيها وذلك في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن.
وظهر جماعة من الذين انتقلوا بخيالهم المحلي إلى خيال أوسع مدى، فمنهم من نقل صورة الحياة كما هي دون تعريج على المثل العليا، ومنهم من رسم مناظر رآها في بلاد انطبعت صورتها في مخيلته، ومنهم فريق أكثر من الأسفار، وسجل كل ما شاهدته عيناه.
ولعنا نرى في (ش 8) التي صورها بردجمان خير دليل على انتقال الخيال، لا إلى (الدنيا القديمة) بل إلى الشرق! سمى هذه الصورة (على باب الحريم) فصور مدخلاً تعلوه (مشربية) لبيت على الطراز العربي واهتم بإبراز الزخرفة والنقش كما حرص على تصوير امرأتين إلى يسار الباب، وقد جلست كل منهما تعرض ما تريد بيعه، وأمام المدخل سيدتان جاءت أحدهما على ما يظهر في الصورة راكبة حماراً وقف بالقرب منهما وبجانبه صاحبه. والمجموع إنشائي رائع لا يستطيع تصويره إلا المتمكن.
وترى على اليسار شجرة اللبخ الكبيرة وقد وقعت ظلالها على حائط البيت، وجلس (إلى اليسار بعض الصبية أمام شباك الكتاب.

هذا ولا يفوتنا أن نذكر مورلروبيرس وويكس ممن ينتمون إلى المدرسة الباريسية في أوائل القرن العشرين.
أما بعد الحرب العظمى فقد سرت موجة جديدة غيرت معالم الفن القديم، سيكون الحديث عنها ضمن مقالنا الخاص بالفن الحديث.

احمد موسى

الأستاذ محمد عبد الوهاب

من الوجهة الفنية

لم يخدم (الحظ) في دنيا الموسيقيين أحد كما خدم عبد الوهاب، ولم يتطوع الزمن في ركاب كما تطوع في ركابه حتى أبدله نعمى بيؤس، ويسراً بعسر. . .!
هو من صدور (الملحنين) في الشرق، ولكنه سيد المطربين فيه. بز القدماء بقديمة، وعز على قرنائه بجديده وتجديده.
سما بالموسيقى سمواً كبيراً حتى جعل منها شيئاً محترماً، وارتفع بمنزلة (المطرب) ارتفاعاً عظيماً حتى أصبح العظماء يتوددون إليه بعد أن كانوا يحسبونه مهرجاً لا أكثر. . !!
صوت رخيم جميل، ولعله أسلم أصوات مطربينا وأقدرهم على التطريب الحق الذي يأسر النفس، ويملك الحس. لا نستطيع أن نقول عنه إنه غني (بتريولاته) ولكننا نستطيع أن نقول إنه غني بالطاعة لصاحبه، والخضوع لكل أوامره ونواهيه
يبلغ أربعة عشر مقاماً (أوكتافين)، خمس مقامات (تينور) ثقيل، وتسعة مقامات (بريتون) تقريباً كلها سليمة قوية واضحة لامعة
لا يرتجل، ومع كل ذلك فهو (يشتغل)! ويشتغل شغلاً عجيباً يدر عليه الآلاف المؤلفة. والسر في هذا أنه لا يؤمن بالتصرف ولا بالارتجال، ولا يغني إلا بعد أن يكون قد لحن الكلام وجربه أكثر من عشرين مرة مع رجال تخته. فإذا طلبت منه (مقطوعة) له قديمة غناها كما سجلها دون تصرف أو خروج كالأسطوانات تماماً. . . !
يحب فنه أكثر مما يحب نفسه؛ ولذلك لا تعجب حينما تعرف أنه لا يرى بأساً من مواصلة ليلة بنهاره ونهاره بليله ملحناً وعازفاً دون أن يراعي صحته الضعيفة! درس (الصولفيج) دراسة طويلة، وهذا ما أفاد صوته كثيراً، ولكنه مع هذا لم يستطع أن يسجل لنفسه لحناً واحداً (بالنوتة) بل يستعين في ذلك بالأستاذين جميل عويس، وعزيز صادق
هو أول من أدخل على التخت العربي آلات الكونترباس. . . الفيولانسيل. . إلاكورديون. . . الكاستنيت. . المثلث النحاسي. . النقرزان
له مدرسة واسعة تضم أغلب الشرق مطبوعة بطابعه، ملونة بلونه، لا تحب إلا إياه ولا تستسيغ إنتاجاً إلا إنتاجه وكفاه فخراً أنه (متبوع) أبداً فلا يكاد يخرج شيئاً جديداً حتى ترى بعض الملحنين الذين يتعقبونه ويترسمون خطاه قد حاكوه وقلدوه. فالموسيقى العربية لم تكن تعرف أو لم تكن تعترف بالرومبا، والتانجو، والكاريوكا. فلم يكد يمصرها يخضعها للذوق الشرقي حتى تهافت عليها غيره كالذباب عدداً وهم يحسبون أنهم ملحنون مجددون كعبد الوهاب
تدين له الموسيقى بالشيء الكثير؛ فهو وإن كان لم يخلق كبتهوفن، ومونسارت، وفجنر، وهندل، ودي لاسو (مثلاً) إلا أنه جدد، وجمع من هنا وهناك بذوق سام حتى خلع على الموسيقى إهاباً قشيباً متيناً! أصبح الآن (مقلاً) لدوجة تبعث على النقد؛ وهو يحتج بتفرغه للسينما ولكننا لا نعفيه من اللوم، فالمال لا يدوم، وإن دام فالسمعة وحب الشعب والمجد والشهرة، كل هذه الأشياء لا يغذيها إلا العمل، والعمل المتواصل الذي يمدها بالحياة.
سن للمطربين سنة (الطراوة والاسترخاء، والدموع) فقلما يغني شيئاً حماسياً أو وصفيا، بل أغلب أغانيه غزلية فحسب فإذا سألته السبب قال: إن الشعب لا يحب ولا يشجع إلا هذا اللون، وما درى أنه وحده الذي يقع عليه أغلب هذا الوزر. المعروف أن المغني الحق هو الذي يقع لا يعرف إلا فنه، وفنه فقط ولكن عبد الوهاب أراد أن يخالف هذه النظرية فعرف الفن وغير الفن، وتأثر بميول ضد ميول وقد عرف عنه ذلك. . . ومع ذلك كل فهو يصر على لونه

إن الفن موطنه السماء؛ ومن في السماء فوق الجميع وللجميع. فمن ترك فنه وسماءه ليعيش فوق الأرض جرفه التيار الذي لا يرحم

محمد السيد المويلحي

القصص

من مآسي التاريخ

مصرع الدون كارلوس

للأديب محمد محمد مصطفى

قال الأستاذ محمد عبد الله عنان في كتابه (تاريخ المؤامرات السياسية)

ما أفاضت سيرة من سير القصور في القرن السادس عشر على دولة الخيال . . .) والشعر قدر ما أفاضت سيرة الدون كارلوس، وما تبعت قصة إلى النفس من روعة وكآبة قدر ما تبعث أساطير هذه القصة العجيبة

وأي سيرة أدعي للروعة والوحشة من سيرة ملك يقضي بالموت على ولده لمؤامرة قيل إنه دبرها لقتله. ثم يذهب في بطشه إلى حد تنفيذ هذا الحكم

(هذا ما يحفظ التاريخ من سيرة فيليب الثاني ملك أسبانيا وولده الدون كارلوس

فوجئ الأمير بتحية صدرت إليه من خلفه، فاتجه ببصره إلى مصدر الصوت فرأى صديقه الأمين الكونت (أجمونت). . . فقل اضطرابه قليلاً وسأل الكونت:

- أتبعك جواسيس الملك الليلة يا كونت؟

فابتسم هذا في خبث وأجاب:

- أبداً يا مولاي، فقد ألحت صورة الخمر على أعينهم فرنق بها الكرى فدلفت إلى جناحك من الباب الخلفي بعد أن تخطيت الأهوال في اجتياز الحدود سراً. . .

- أبخير أتيت؟

فأجاب والابتسامة لا تفارق شفتيه:

- بكل خير

- ثم أخرج الكونت منة ثنايا ثوبه ورقة نشرها أمام ولي العهد، وجعل يمر عليها بإصبعه هامساً للأمير:

- بين شعاف هذه الجبال يا مولاي ستمكن قواتي، فإذا ما جن الليل انضمت إليها قوات أمير أورانج تتبعها قوات الكونت هورن. وعلى سموك اجتياز الحدود سراً مساء منتصف مايو القادم لتعودوا على رأس هذه الجيوش إلى أسبانيا لتثل بها عرش هذا الشيخ الذي لم يتورع الليلة عن الزواج بطفلة في سن حفيدته

- وحمل الدون كارلوس آماله وأحلامه، ومضى بها إلى حديقة القصر الملكي يرسل بين الحين والحين صفيراً خافتاً حتى عثر بين الخمائل على دوحة استذرى بها حتى لا يناله برد الليل إن غلبه النوم تحتها

وتسربت خيوط الفجر من ثوب الليل، ولما يغمض لعروس الملك جفن، وتشعر الفتاة لرؤية عريسها الشيخ الذي يغط إلى جانبها بهم يجثم على روحها، فتتسلل مارقة إلى حديقة القصر الملكي، وتسير بين رياضه على غير هدى. . .

سارت بين الخمائل تناجي النجوم وقلبها الغض يخفق في عالم مجهول. ثم أفلتت منها صرخة خافتة إذ رأت أمامها شاباً كأنما قد تثاءبت عنه الأرض

- ترى بعثت روعة هذا الفجر في نفسك الاكتئاب أيها الشاب؟

- وي. . . من أنت. . . ومن أي فردوس فررت يا فتاة؟

فيشرق الابتسام على ثغر الفتاة وتقول للشاب الماثل أمامها في سذاجة الطفولة ومرحها:

- الملكة. . . ومن أنت؟ فيقف الدون كارلوس في تؤدة ويشخص ببصره إلى الصبية يعبث الهواء بشفوف نومها فيبرز الصغيران، ويظهر تقاسيم وجهها الفتان، ويتمتم الشاب في خفوت:

- عروس أبي. . . أقصد الملك. . . وإلى أين؟

- إلى الفجر وسحره

ويأسى الأمير لهذا الجمال الذي سيذوق في ظل والده الشيخ ويدرك من حديثها نقاء سريرتها فيدرج بها على العشب النضير هْوناً. . . يتسامران فتجرده من قلبه ولبه،

ويأخذها بشبابه وحبه، ويبدو لها وجه الشيخ بلحيته المرسلة كأنه شيطان مريد، وتنظر إلى ولي عهده فتدخل من عينيه الجميلتين إلى جنة الحب، ويخفق له قلبها الغض المتعطش إلى الغرام. . .

وفي غفلة من الدهر كانا يختلسان اللقاء على الربى وبين الخمائل، فهي لا تعرف السعادة إلا في قلب الفتى الحبيب، وهو قد تدله بها فلا يعدل بقبلاتها المسكرة ما في بطون الأرض
وعلى سطحها من أذخار وكنوز. . .

وينظر الملك إلى طول لبثها في الحديقة فيرتاب ويحوطها بعيونه فتنتقل إليه الأخبار. . .

وعلى إحدى الربى وقف الملك مستتراً يرى العاشقين الصغيرين وكيف ينهلان السعادة ويستمتع إلى وسوسة قبلاتهما الناعمة فيحرق الأرم ويستجمع ما تبخر من صبره ويولي عنهما هامساً بينه وبين نفسه:

- ليكن هذا بينهما لقاء الوداع ويتأوه من أعماق نفسه ويهتف:

أما وقد بليت أيضاً بحبها فستعيش هذه الفتاة لأن قلبي يريد لها الحياة. . . أما هذا الوغد. . . وهدد بقبضته في الهواء ومضى لسبيله في طريق القصر

وراح ولي العهد يستعرض أصدقاءه ليختار من بينهم من يمده بخيل يرحل عليها خفية إلى الحدود، فيقع اختياره على مدير البريد. . .

ويشفق مدير البريد أن ينكشف أمره فتناله يد الملك، فينقل إليه رغبة الأمير. . .

ويأمر الملك بالقبض على ولده وإيداعه السجن، فتضبط أسلحته ونقوده وأوراقه التي دلت على مشروع محاولة استيلائه على الأراضي السفلى ودحر الملك ثم الجلوس على عرش أسبانيا. فأبلغ الملك الحادث إلى الجهات الكبرى وانتدب محكمة عليا برياسته المحاكمة ولده

كان سجن الأمير غراماً على نفس الملكة فطوت جوانحها على حرق حبه، وأضحت ذاهلة وانية ترى القصر كأنه قطعة من الجحيم، وعزفت عن الطعام حتى رق جلدها وشحب لونها ولقد تتحامل على نفسها التطوف بمجالس غرامها وأعشاش حبها تدب في رفق كأنما قد حطمت قواها السنون، فإذا جلست في مكان ضمهما يوماً خيل إليها أنه إلى جانبها يضمها ويحنو عليها فتخشى أن يكون ذلك وهماً فتتحسسه بيديها فلا تقع على شيء فتقف فزعة وتحوم حول نفسها وتسقط صارخة:

- يا كارل. . .

فتردد جوانب القصر صيحتها:

- يا كارل. . .

وكان صفاء عينيها الجميلتين وتدلهما ينمان عما تكابده من حر الحب وبالغ الوجد وينظر الملك إليها فيراها متلفة آيسة وقد أطفأ الحزن بريق عينيها فين هدم لها قلبه انهداما
ويسألها عن سر وجومها واكتئابها فتنفجر باكية وتجثو عند قدميه.

ويعلم الملك أنه الحب فيستضحك حتى تبدو نواجذه ويمسك بيديها الصغيرتين لينهضها فتأبى إلا أن يسمع لشكاتها. . .

- خير. أأستنزل لك من السماء نجما تقرين به عيناً يا طفلتي الحبيبة؟

- أتقسم على طاعتي فيما أرجوه منك.

- لك هذا.

- أن تطلق سراح ولدك.

- فأربد وجه الملك وعبست أساريره وأشاح عنها قائلاً:

- أشغفك حباً ذلك الولد الغر؟

- حباً ملك عليّ نفسي

- فلم لا تدفعين هذا الحب عن قلبك وهو لم يزل بعد وليداً؟

- إنه ولد عاتياً قوياً

- فلن أفرج عنه إذاً أبداً. وسأجعل من جسده للطيور طعاماً شهياً. . .

ويظلم الفضاء في نظر المسكينة وتقول وما تملك نفسها:

- فإذا ما قلت لك إني سأقضي على نفسي وأحملك وزري إن مسته بسوء؟

ففكر الملك ثم فكر. . . وفتقت له أفكاره حيلة
فدنا منها وقد زال أثر العبوس من وجهه قائلاً:
- إنني لم آمر بسجنه يا صغيرتي إلا لدفع بغيه عني، ولئن أطلقته ختر بميثاقه وأعاد المؤامرة بعد أن قتلتها في مهدها
- سيفيد من درسك هذا له عبرة
- أفتجعلين من ذمتك عهداً ألا يعيد الكرة؟
فأبكاها فرط السرور لقرب انتصارها ومدت إليه يدها باسمة
- هذا عهد فرقت لها نفس الشيخ وقال:
- إني أعدك بالحكم ببراءته
- فهزتها نشوة الفرح وطوقت عنقه قائلة:
- هل قلت إنك ستبرئه؟
فطرب الملك لعناق فتاته وأعاد القول باسماً: لك هذا
وفي هدأة الفجر تسللت عروس الليل على أطراف قدميها وقلبها يخفق ويدها عليه. . . حتى إذا ما اجتازت الباب السري ركبت عربة كانت تنتظرها خارج القصر وانطلقت بها في مسارب الوادي لتنقلها خفية إلى سجن الحبيب
وما اقتربت الملكة من باب السجن حتى تخلى عنه حراسة، فطوقت سلالم القبو أربعاً أربعاً. . .
وألفت حبيبها المومق مكباً على نضد عتيق وقد سقط رأسه الجميل على صدره تتناوبه فورات اليأس والحمى؛ فلما رأى الملكة انتعشت نفسه وصاح: إيزا
- كارل
وألقت نفسها بين أحضانه وأهوت بقبلاتها على فمه وشعر الدون كارلوس بأنه في حاجة إلى الحياة عن ذي قبل وأحس أن قوة هرقل قد حلت فيه وأن قوى العالم لن تستطيع إفلاتها من بين يديه ولو تكالبت عليه جميعاً وكان بعضهم لبعض ظهيراً
ولم يخف افترار ثغرة عن عين طفلة الحبيبة ما رسمه الأسى على وجهه وما يلاقيه في غياهب سجنه. فانتشرت نفسها عليه رقة ورحمة وأرسلت من عينيها عبرات حرارا. . .
قال الدون كارلوس:
- لم البكاء يا إيزا وهو يتلف عينيك؟
- ومن أحرى مني بطول البكاء؟
- أنا. . . لهول ما أفكر فيك ولفرط ما عاث الحب في قلبي وأماتني حياً لبعدك بينا يحيا هذا العجوز الحيزبون بين أعطافك ناعماً بجمالك مخفرجاً في ظلك؟
ففاظت عيناها بالدمع فحبس عبراته وكبت عاطفته، ولم تشأ أن تخبره بوعد الملك لها بتبرئته لعدم ثقتها بتنفيذ هذا الود وخشية أن يظن الدون كارلوس أنها خدعته إذا ما حنث الملك بوعده حتى إذا أشرقت غرة الصبح انتزعت نفسها من بين أحضانه وعادت إلى القصر تتأوه قلبها المعذب المفؤود
سيق الأمير إلى قاعة المحاكمة وقد بدا على وجهه الساهم علائم العناء.
فلما رآه الملك عبس في وجهه وبسر. وأخذت عينا الملكة الجميلتان ترسلان الدمع مدرارا فتنضو عن صدرها الجميل ثوبها لتخفيه فيه وتقدم الدون كارلوس تنوء قدماه بحمل جسمه الواني حتى انتهى إلى مقعد أعدله فجلس عليه وأخذ يردد الطرف بين الملك حيناً وأعضاء المحكمة أحياناً فيرى على وجوههم مسحة الجد والاهتمام.
وقطع الملك رهبة السكون حيث أمر بابتداء المحاكمة فوقف المدعي (البرنس إيفولي) وألقى بياناً مسهباً عن محاولة الدون كارلوس الاعتداء على الذات الملكية بوضعه مشروعاً لاغتيال أبيه ومحاولته انتزاع الأراضي السفلى، واختتم بيانه بطلب إعدامه فتحرك الملك في مقعده قليلاً وقال بصوت هادئ:
- ألديك ما تقوله يا كارلوس؟
فنهض الدون كارلوس متثاقلا وقال بثبات:
إنني لا آنس في وجه أحدكم رأفته ولا رحمة، وكلكم كشقي مقص الفناء، كل يتمم للأخر مهمة القضاء عليّ؛ بيد أنني أود أن أتلقى حكم إعدامي من شفتين غير شفتيك، فهل لي أن أرجو المحكمة أن تنطق مليكتي بهذا الحكم؟

فرد المدعي قائلاً:
- ولكن الملك رأس الدولة ورئيس المحكمة فهتف الدون كارلوس:
- والملكة جسم الدولة فهل تعيش رأس بلا جسم؟ فاشتد غضب الملك وموجدته على ولده وتهامس قليلاً مع الأعضاء، ثم اعتدل في جلسته ونطق بالحكم
ودوى حكم إعدامه في أذن الملكة كهزيم الرعد فاستهولته وهبت عجلانة إلى الدون كارلوس فاحتضنته وأخذت ترسل من عينيها إلى الملك شرراً كالقصر وهتفت صاخبة:
- ألا أيها العجوز الحانث بوعده. . لن تناله بأذى حتى تمر على جثتي. . . فلتأت أنت وحرسك وجندك فإني لكم وصمت الملك قليلاً ثم قال:
- انظروا كيف تدافع الملكة عن عشيقها الفاجر. . . وأشار إلى جنوده فانتزعوه منها حتى إذا بلغوا به السجن ألقوه فيه في انتظار تنفيذ الحكم
وانصرف أعضاء المحاكمة تاركين الملك والملكة وحدهما فجثت إيزا تحت قدميه جثو الراهب في محرابه وأخذت تستعطفه في ذلة وانكسار أن يرد على ولده حياته وأن يقف
تنفيذ إعدامه وأعطته موثقاً ألا تلتقي به بعد اليوم إن أجاب سؤلها ولكنها كانت تستدر القطر من الصخر، وتبذر الحب في المهمة القفر. . .
وشدد الملك الرقابة على السجين حتى لا تلقاه الملكة فتدبر لفراره أو تحاول إنقاذه. فتبدلت في عينيها وضاق أمام نظرها فضاء الأرض التي لم تتسع على رحبها لحبيبين فعزفت عن الطعام وتساقطت نفسها حسرات عليه
وأومأ الملك إلى طبيب القصر أن ينفذ بنفسه الحكم على أن يبقى شرف الأمير مصوناً وانخلع قلب الملكة لسماعها نبأ إعدامه بجرعة سم دسها إليه الطبيب، فعصفت برأسها نوبة جنون جرت على أثرها حافية القدمين إلى السجن. . . ومنعها حارس الباب فبكت إليه وتوسلت فقال الحارس إن أوامر الملك مشددة. . . فهوت بشفتيها الرقيقتين الناعمتين على قدمي الحارس الموحلتين فتركها تمر وقال:
ليفعل بي الملك ما يشاء
ووجدت جثة الحبيب مسجاة على فراش خشن فأخذت رأسه الجميل بين يديها وشخصت ببصرها إليه فكان في غفوته الأبدية كطائر الأفنان؛ وسكنت حتى لقد خيل لمن رآها أن روحها قد تسللت من جسدها تاركة وجهها على هذه الصورة الجامدة واختلط عقل الفتاة المسكينة فكانت لا ترى إلا في الطريق لقبره ذاهبة أو عائدة، وأرقت فلم تعد تنام إلا لماما
وهاجها الوجد إليه فجر ذات يوم فقامت إلى قبره بفأس تريد اقتحامه وأخذت تحطم رخامه وتكتشف عنه التراب حتى إذا انفتحت لها فيه فجوة أدخلت فيها يديها ورأسها وأخذت تعالج غطاء ناووسه حتى رفعته فانهال عليها حجر كبير فسقط رأسها الجميل على صدر حبيبها ولفظت آخر أنفاسها.

محمد محمد مصطفى

البريد الأدبي

انتهاء الدورة السادسة لمجمع فؤاد الملكي

عقد مجمع فؤاد الأول اللغة العربية في الأسبوع الماضي آخر جلسة من جلساته في هذه الدورة (وعددها 25) وعقد في المساء جلسته أكمل فيها بعض الدراسات التي يضطلع بها
وشهد الجلسة الختامية الأعضاء جميعاً، عدا أربعة منهم، هم حسن حسني عبد الوهاب باشا، وقد اعتذر من عدم حضور الدورة كلها، والأستاذ أحمد احمد العوامري بك، والدكتور فيشر بسبب تغيبهما لمرضهما، والأستاذ جب إذ سافر إلى وطنه إنجلترا منذ أسبوع
وقد أتم المجمع في دورته السادسة طائفة كبيرة من المصطلحات العلمية قاربت الألف
فأنجز في علوم الأحياء زهاء 250 مصطلحاً، وفي علوم الطبيعة نوع الحرارة زهاء 200 مصطلح، وفي الموسيقى حوالي 250 مصطلحاً، وفي علم الهندسة نحو 200 مصطلح
وأرجأ إلى الدورة القادمة قسماً كبيراً من المصطلحات في شتى العلوم وفي الاقتصاد

السياسي. وستضم المسائل المؤجلة إلى ما تضعه لجان المجمع في الفترة القائمة بين الدورتين الحاضرة والقادمة

أما المصطلحات العسكرية فكان المجمع قد كتب إلى وزارة (الدفاع الوطني) يطلب إليها أن توافيه بما قامت به في شأن المصطلحات العسكرية التي سبق أن وضعتها اللجنة المختصة، غير أنه لم يتلق رد الوزارة حتى الآن. وستنتظر اللجان المختصة هذا الرد لتعد بمساعدة الخبير الحربي المختص ما يمكن وضعه منها تمهيداً لعرضها على المجمع في الدورة المقبلة

ويرى كثير من حضرات الأعضاء ضرورة الأشراف على وضع المصطلحات العسكرية في صيغ عربية صحيحة، استكمالاً لظاهر الاستقلال القومي، وحرصاً على استخدام لغة الدولة

المصطلحات الطبية

كان من أهم الدراسات التي قام بها المؤتمر الطبي العربي، موضوع المصطلحات الطبية في اللغة العربية. وقد رأس الجلسة التي دار فيها بحث هذه المسألة حضرة صاحب العزة

محمد العشماوي بك وكيل وزارة المعارف. وقام بأعمال سكرتيريتها صاحب العزة للدكتور عبد الواحد الوكيل بك

وقد أدلى الدكتور الوكيل بك عن الجهود التي قامت بها الجمعية الطبية المصرية في هذا الشأن، إلى أن انتهت بالقرار الذي اتخذه مؤتمر بغداد وهو أن تتصل الحكومة المصرية بجميع البلاد العربية لتأليف لجان البحث المصطلحات والقواميس والمجموعات اللغوية الطبية الموجودة في كل منها، على أن تؤلف لجنة عليا، وتجتمع، في مصر شهراً أو أكثر من كل سنة لاختيار أوفق تلك المصطلحات، بحيث تكون قراراتها ملزمة للجامعات والكليات والمؤلفين والأساتذة في التدريس

وقد ذكر سعادة الدكتور على إبراهيم باشا في هذا المقام قراراً أصدره مجلس كلية عقدت قبيل العيد يتضمن إدخال اللغة العربية بالفعل لتدريس بعض الفروع على أن تكون الإجابة باللغة العربية إجبارية عن الأسئلة التي تلقي في الامتحانات في موضوعات الطب الشرعي والقوانين واللوائح الصحية المصرية. كما قرر المجلس تكليف الأساتذة المصريين بكلية الطب تلقين الطلاب التقارير الطبية باللغة العربية في أثناء تدريسهم العلوم التي تقدم ذكرها باللغة الأجنبية وأشار سعادة الرئيس في هذه الجلسة إلى جهد وزارة المعارف في صدد تعزيز صلات الثقافة والعلم بين مصر والبلدان الشرقية، وأنه قد أنشئت لجنة لهذا الموضوع مضت في طريقها شوطاً بعيداً وقد قرر المؤتمر في هذا الموضوع التوصية بإبلاغ قرارات لجنة المصطلحات إلى مجمع (فؤاد الأول) للغة العربية حتى لا تتعارض أعماله مع قرارات المؤتمر

مدينة في مسقط لا يعرف العالم عنها شيئاً

وصلت البعثة الجيولوجية التابعة لشركة النفط العراقية إلى البصرة وبدأت أعمالها في الأراضي الواقعة في جبل سنام ويقوم مدير البعثة بتعين المواقع المراد حفر الآبار فيها وقد صرح المدير انه قبل وصوله البصرة، قام بجولة جوية في سلطنة مسقط، اكتشف في أثنائها مدينة آهلة بالسكان ولا يعرف أهل هذه المدينة شيئاً عن العالم كما لا يعرف العالم عنهم شيئاً. وقد ظهر للبعثة التي ارتادت تلك المنطقة للبحث عن النفط أن جبل الأخضر المعروف في مسقط لم يكن سوى كثبان رملية كانت السبب الأول في جهل هذه المدينة

واعتقاد الناس بأنه جبل حقيقي تنتهي عنده أطراف تلك البلاد من سلطنة مسقط

معرض المثالين الفرنسيين المعاصرين والمثال مختار

دعت جمعية محبي الفنون الجميلة بعد ظهر الجمعة الماضي رجال الصحافة والفن إلى زيارة معرض المثالين الفرنسيين المعاصريين والمثال مختار بعد أن انتهت من تنسيقه وأعدته للافتتاح. فلما اكتمل عقدهم في الساعة الرابعة والنصف ألقى عليهم المسيو جورج جراب أمين متحف رودان في باريس كلمة استهلها بالإشادة بذكر مصر مهد الحضارة والفنون ولا سيما فن النحت، ثم تكلم عن الفنانين الفرنسيين أصحاب التحف المعروضة

وقد اشتمل هذا المعرض على حوالي 140 قطعة تعد من آيات النحت في العالم منها

28 تحفة للمثال العظيم رودان (1840 - 1917) الذي يعد بحق في مصاف فيدياس نحات اليونان العظيم وميكائيل انجلو الفنان الإيطالي الشهير في عصر النهضة بأوربا أما بقية القطع فهي لتلاميذ رودان مثل بورديل وديسبيو ومايول وبومبون وديجا الذين يؤلفون مدرسة النحت الحديثة في فرنسا وهى المدرسة التي بلغت أوج العظمة في هذا الفن

وتدل مجموعة تحف رودان على ما امتاز به من مقدرة فائقة على تصوير الحياة في تماثيله، فتسجل للخلود الخواطر المضطربة من عقائد دينية أو حب الوطن أو الحنان الأموي أو لهيب الغرام أو الحقد الدفين أو التفكير العميق وغير ذلك من مظاهر الحياة وقد نسج تلاميذه على منواله حتى كاد بورديل يضارعه في المقدرة، كما امتاز بومبون بتماثيله عن الحيوان فأودعها من الفن والبراعة كل ما يمكن أن يمثل في الطين والشمع من حياة

وقد رأى المسيو جراب منظم المعرض أن يعبر عن شعوره نحو صديقه مثال مصر المرحوم مختار فخصص جانباً من المعرض لتحف مختار فعرض منها 34 قطعة كانت دليلاً ساطعاً على أن صانعها أول من وفق من النحاتين المصريين المعاصرين للبروز في هذا الفن فكان خير خليفة لأسلافه النحاتين المصريين الذين سموا بفن النحت في عهد الفراعنة إلى ذروة النبوغ

وقد وفق المسيو جراب في عرض تحف مختار مع تحف الأساتذة الفرنسيين الذين أحاطوه بمحبتهم وتقديرهم

وأعد للمعرض دليل واف باللغتين العربية والفرنسية اشتمل على نبذة تاريخية عن تطور فن النحت وبلوغه حدا الكمال في هذا العصر في فرنسا، ويلي ذلك وصف مختصر لكل قطعة من المعروضات

تاريخ كلمة أدب

كتب الدكتور عبد الوهاب عزام بالعدد 291 من الرسالة بحثاً قيماً في (تاريخ كلمة أدب) تتبع فيه مراحل استعمال هذه الكلمة إلى عصرنا هذا، في دقة العالم الباحث وإمتاع الكاتب الأديب. بيد أنه قال في افتتاح البحث لا نجد (كلمة أدب) فيما بين أيدينا من الكلام المأثور عن الجاهليين) الخ . . .

ولما كنت قد رأيت هذه الكلمة في كلام جاهلي فقد رجعت إلى مظانها، فرأيت أبا على القالي في الجزء الثاني من الأمالي (ص 104) يورد قصة زواج أبى سفيان بن حرب من هند بنت عتبة. وصف عتبة لأبنته هند أبا سفيان فجاء في وصفه: (يؤدب أهله ولا يؤدبونه) وجاء في رد هند: (وإني لآخذه بأدب البعل مع لزوم قبتي وقلة تلفتي) وقد أشار إلى ذلك الأستاذ محمد هاشم عطية في مطلع كتابه (الأدب العربي وتاريخه) في نفس الموضوع وبعنوان (تاريخ كلمة أدب). وللدكتور عزام تحيتي وإجلالي

(ع. ح. خ)

غريب

قرأت في عدد 289 من (الرسالة) مقالاً دبجته براعة الأستاذ عمر الدسوقي وقد أعجبني الشعور النبيل والثورة للكرامة المهانة والدفاع عن القومية المثلومة وأود أن ألفت النظر الأستاذ إلى الغلطة الكبرى التي وقع فيها. إنه دافع عن نفسه خير دفاع وأبان حقيقة المدنية المصرية إبانة لا ينكرها عليه عاقل، ولكنه حط مقام شعوب لها كرامة تعتز بها وقومية ومدنية حافلة زاهرة، فإنه تبرأ من أن يكون (زنجياً أو هنديا ً أو نوبياً أو حبشياً) وذلك ظاهر في كلام الأستاذ الفاضل، إذ يقول: (بل إني مصري، تجري في عروقي أنبل الدماء وحسبك أن تعرف أننا من أرقى الشعوب مدنية وحضارة قديماً وحديثاً ولن أقبل من مخلوق مهما تكن سطوته أن يلحقني بهؤلاء الذين ينظر إليهم بعين الازدراء والامتهان وبعدهم دونه في الذكاء والمدنية)

إنني لست في مقام جدال، وفي هذا الموضع لا يمكنني إلا أن أذكر الكاتب الهندي كاراكا وكتابه (إلى الغرب) فإن هذا الشاب عند ما كان يدافع إنما كان يشمل قضية المهضومين كلهم ولا يفرق بين اسود وأدكن وأسمر وقمحي. كلهم سواء استعبدوا واستذلوا ظلماً وعدواناً. وكان الأحرى بأستاذنا أن يحذو حذوه ويدافع عن (قضية الظلم والاستعمار والاستعباد)

لا شك في أن القوم هناك ينظرون إلينا (الملونين) بعين ازدراء والاحتقار ويعتبروننا أقل ذكاء وعقلية منهم، ولكن العلم الحديث برهن على خطل هذه النظرية التي روجها بعض (العلماء التجار) المغرضين كي يجعلوا له حقاً سماوياً منزلاً لاستعباد الشعوب الضعيفة واستعمارها

إن الدافع الذي أملى على الأستاذ كتابة المقال، هو نفسه الذي حفزني لأن أسطر هذه الكلمات التي لا تفي ولكنها تذكرة. إن الحبشي لا يقبل أي إهانة لوطنه، والهندي لن يرضى بطعن في عقليته أو وطنيته. ولا أدري كيف زل قلم الأستاذ هذه الزلة فإن النوبيين قد مصريو الأصل. . . وربما رد الأستاذ هذا القول بقوله إنهم سودانيون. . . وفي هذه الحالة ستزداد دهشتي لأن المعروف لدينا أن مصر والسودان قطر واحد، ولكن السياسة المغرضة جزأته ولعبت فيه ما شاء لها، وأرجو أن يعمل العاملون لرتق هذه الثغرة. والغريب أن كثيراً من فقرات المقال ينافي قوله هذا!

(الخرطوم)

(م. ح. ب)

الأندلس الجديدة

لما أخذ الأسبانيون يكتسحون البلاد الأندلسية فلا يدعون في واحدة منها أثراً لما كان فيها للإسلام من سلطان وحضارة اهتزت البلاد الأخرى واضطرب سكانها فارتفعت الأصوات من كل جانب تدعو ملوك المسلمين وأمراءهم لنصرة إخوانهم الأندلسيين. ودفع عادية الأسبان عن بلادهم.

فلما لم تلق الدعوة مجيباً، ولم يتقدم أحد من ملوك المسلمين. منفردا - بنجدة - ولا كان بينهم من الاتحاد واجتماع الكلمة - ما يجعل لهم - مجتمعين، قوة يستطيعون بها للأندلس إنقاذاً - نفذ القضاء وتم للأسبان فيها ما أرادوا.

عم الأسى، وشمل الحزن جميع المسلمين. ففاضت ألسنة شعرائهم وخطبائهم قصائد وخطباً - لا تزال تملأ الكتب وتبعث في النفوس أليم الذكريات - في رثاء الأندلس، والتفجع لمصابها،

أما اليوم فالمسلمون يشاهدون (طرابلس الغرب) تقتطع من بين أقطارهم لتصبح إيطاليا الأفريقية، وتمحي منها آثار العروبة والإسلام لتقوم على أنقاضها صروح الحضارة الرومانية، ويستبدل بإخوانهم فيها عنصر لا يمت إليهم بصلة، ولا يحمل لهم غير البغضاء والطمع فيما يتصل من أوطانهم شرقاً وغرباً بطرابلس الغرب يشاهدون كل هذا متفرجين، ويقرءون أخباره في الصحف ولكن كما يقرءون أخبار حوادث الشرق الأقصى أو أمريكا الجنوبية، لا يثور فيهم اهتمام ولا يهتز لهم شعور ولا ترتفع بينهم أصوات حتى بالاحتجاج والاستنكار

فهل ينتظرون أن يغمرها الخطب وحينئذ ترتفع أصواتهم ولكن بالرثاء والتفجع والبكاء على الأطلال - أطلال العروبة والإسلام الدارسين - في طرابلس الغرب:

يا طالبي وحدة الأوطان هل طرقت ... أبواب آذانكم ذكرى طرابلُس؟

أيصبح العرب (طلياناً) تضهم ... (روما) و (مكة) في صمٍّ وفي خرس؟

(غزة)

محمد خلفة شعبان الطرابلسي

الكتب

أقلام الناشئين

للأستاذ فليكس فارس

أمامي كتابان نشرهما الشيخ أحمد جمعة الشرباصي، الأول بعنوان (حركة الكشف) صدر منذ سنتين، والثاني بعنوان (محاولة) صدر في هذا الشهر

ولقد رأيت في هذين الكتابين من روعة الإنشاء ودقة الشعور والنضوج المبتسر ما أهاب بي إلى إرسال كلمة فيهما

إن المؤلف يرمي في كتابه الأول إلى إظهار ما في نظام الكشافة من محاسن وفوائد، داعياً إلى تكوين فرق تعمل بهذا النظام من الشبيبة المنتسبة إلى المعاهد الأزهرية، مستنداً في دعوته هذه إلى أن تقويه الناشئة، وتعويدها الصلابة والطاعة وتدريبها على توحيد الحركة والسير نحو هدف واحد في غاياتها الأخلاقية، إنما هي جميعاً من قواعد الإسلام الأساسية. فلا يمكن أن يعد تكوين هذه الفرق في المعاهد الدينية بدعة أو

اقتباساً لطريقة تخالف العقيدة، أو تشذ عن التقاليد الموروثة عن السلف الصالح
ومما تجدر الإشارة إليه أن كتاب (حركة الكشف) صدر سنة 1936 حين كان المؤلف في السابعة عشرة من عمره، وقد وقفت فيه متعجباً بل مندهشاً أمام هذا التسلسل في تدوين تاريخ الكشف وتطور أساليبه وأمام هذا المنطق الرصين يقدر الحوادث ويزن أعمال الرجال ويتغلغل في التاريخ ليثبت فضل العرب المهتدين بنور الوحي على نهضة الغرب في تفكيره وتنظيمه
أما في الكتاب الثاني فالمؤلف يذهب في محاولته ذهاب من رسخت عقيدته متعالية عن تردد المحاولين، فيأتي بسلسلة مقالات أولها عن الصديق الصدوق يجيء فيها على وصف إخلاص أبي بكر الصديق للرسول الكريم سارداً ما حدث للأول مع عمر فيرسم أروع صورة شهدها التاريخ للوفاء والإقرار بالخطأ وإنصاف سيد المنصفين. ثم يدبج مقالاً بعنوان (محمد عبدة، النابغة الذي عاش في وطنه غريباً) فتقع بصيرة القارئ في هذا الفصل على الصورة الخالدة التي ستحل للأمام الكبير في روع الجيل الآتي بعدنا فترى هذا الجيل أشد إنصافاً منا نحن أبناء حقبة الانتقال وأوسع إدراكاً لعظمة أبطال النهضة وأعمق
تأثراً مما لاقوا في زمانهم من أذية واضطهاد
ويكتب الأزهري الناشئ قطعة (أمام المحراب) بشعر منثور فإذا هي صرخة نفس تتجه إلى خالقها بإيمان يختلج له القلب ويتنبأ لرجال اليوم بتفوق رجال الغد عليهم في إدراك عظمة العبادة ومبادئ الدين الحق
وتقرأ بعد هذه الصلاة مقالاً بعنوان (نزعة الإجرام) يقف فيه الفتى المعمم - وهو لما يبلغ العشرين من سنيه - وقفة الشيخ الحكيم ينفذ بنظراته إلى ما وراء القانون المدني من وازع في الشرع والأخلاق يجتث الإجرام من أصوله
وهكذا يسير الفتى الناضج فيكلمك عن غدر الصديق وعن أيام قضاها في رأس البر يرجع منها يعبر عن الصيانة ومكارم الأخلاق وعن أمل المحبين في مناجاة للقمر، كلها وصف دقيق وشعور رقيق، وعن إصلاح الصحافة فيعرض لها في منازعها وأحزابها وفي قوتها وضعفها. ويصور لك الفراش الدائر بالمصباح وخيانة ابنة ساطرون لأبيها في سبيل عشقها لعدوه كسرى سابور بقصة من أروع وقائع التاريخ، ثم يورد أسطورة الأميرة ليستغل منها عبرة التعاون بين الناس، وينشدك بعد ذلك قصيدة عامرة يهيب فيها بالشباب للدفاع عن الوطن ثم يرسل نجواه إلى الليل فيريك كيف يتجلى النضوج في روح الشباب إذ هو اتخذ الدجنة مركضاً للتفكير لا ستراً للمعاصي وارتكاب الموبقات، ويوجه بعد ذلك خطاباً للمرشدات تدلك على احترام فتى مصر لفتاته ورفعه لمقامها إلى حيث أراد الشارع الأعظم، ثم يعطف على زهرة القبور يناجيها فتى شاعراً وشيخاً مؤمناً، فلا تدري أيسمعك هذا الهاتف قصيدة أم ابتهالاً. ولا يفوت الشيخ الفتى أن يعقد فصلاً عن شهر الصيام يتجلى فيه الزهد والعزم قوة واحدة تجاه الحياة وأخيراً يعرض عليك قصة عربية عن الحب اتخذ الأندلس مسرحاً لها ليعرض للحب الأسمى وللشهوة الدنيئة بتحليل رائع، ويتبع هذه القصة بأخرى عن سرعة الخاطر عند العرب وبأسطورة عن السعادة ويختم الكتاب برواية مسرحية للأطفال.
إن العبقرية العربية تنتبه في هذا الجيل الذي يتقدم ليحل محلنا على الذروة نحن النازلين منها إلى الأغوار.
لقد ولدت أقلامنا أقلاماً خيراً منها، وما كان بيننا من يكتب بين الخامسة عشرة والعشرين
ما تكتبه الناشئة في نضوجها المبتسر في هذه الأيام. فليعطف شيوخ الدب على هؤلاء الأحفاد. إن أقلامنا ستبعث في أقلامهم، وصوتنا سيدوي في أصواتهم حين تتحطم أقلامنا ويخرس الموت أصواتنا.
فليكس فارس
المسرح والسينما
الفرقة القومية
ما هي الوسائل لإصلاح المسرح
هل من عقاب أشد وقعاً على النفس من تركك شخصاً وشأنه في المجتمع لا يأبه له أحد ولا يلفت إليه ملتفت خصوصاً إذا كان له خطرة الأدبي والاجتماعي؟

هكذا ترك الأدباء الفرقة القومية وانصرفوا عنها لا يلتفتون إليها فلولا كتابة مأجورة تنشرها الفرقة في بعض الصحف الأسبوعية، ولولا إعلانات عن أربع أو خمس روايات تمثل في الفصل، لكانت هذه الفرقة التي استنفذت من مال الأمة ستين ألفاً من الجنيهات أشبه بحلم يتبخر في اليقظة، أو بعابر سبيل لا يلتفت إليه أحد

ولما كانت غايتنا المحافظة على هذه المؤسسة الثقافية، واستنهاض بقايا الهمة الباقية في القائمين عليها، عمدنا أولاً للتنبيه إلى الغرض الخبيث الذي ترمي إليه إدارة الفرقة من إغضاب النقاد واستغلال انصراف الصحافة وصدوف الأدباء عنها ليقبع رجالها الأفاضل كالتماسيح المبشومة يهضمون الغنيمة على مهل، وثانياً إلى استفتاء أدبائنا أصحاب الدراية في فن الرواية والمسرح فيما يجب عمله لإنقاذ هذه المؤسسة العزيزة على الأدباء

بدأنا بسؤال كبار الأدباء كالعقاد والمازني وغيرهما، ولهؤلاء الأساتذة الإجلاء رأي مجمل نرجئه إلى ما بعد، ثم سألنا الأستاذ زكي طليمات عن وسائل إصلاح المسرح، وللأستاذ طليمات دراية نظرية وعملية لا ينكرها عليه سوى المتعنت صاحب الغرض، فأجاب:

يتكون المسرح من ثلاثة عناصر: رواية، وممثل، وجمهور فإذا نشدنا الإصلاح للمسرح وجب أن نقوم بإصلاح هذه العناصر الثلاثة، بعد أن نتبين ما هي عليه الآن، وما كانت عليه بالأمس وما يجب أن تكون عليه في المستقبل

الرواية: أقامت وزارة المعارف المصرية لتأليف المسرحية المصرية بقصد ترقيتها ورفع شأن التمثيل، فكان أن حظي المسرح ببعض روايات جيدة، إلا أنها لم تسم بكثير عما كان شائعاً إخراجه على المسارح ولم تسفر عن المخرج الحق المرجو الذي بيده وضع طابع أصيل للمسرحية، والذي يرجى منه خلق مدرسة جديدة في التأليف، وعليه فإني أعتقد أن إقامة المباريات وسيلة تكميلية أهم منها حث الفرق العاملة على إخراج أكثر عدد من

المسرحيات المصرية، وذلك بتنشيط الأفلام، وحفز النابهين من المؤلفين على الإكثار من نتاجهم، لأن المؤلف إذا لم يجد سوقاً لرواياته تولاه اليأس وأمسك عن الكتابة.

وأرى من واجب الفرقة أن تضطلع بمهمة تقديم المسرحيات المصرية قبل أي مهمة أخرى، فإذا انحرفت عن ذلك فإنها لا تحقق الغرض من قيامها، ولذاك أشير لترقية المسرحية المصرية أن تعمل وزارة المعارف على ترجمة نفائس الروايات المسرحية الغربية ترجمة أنموذجيه وإذاعتها بين المتأدبين، وذلك لأحياء ثقافة للمسرح نحن في أشد الحاجة إليها بحكم أننا نفتقر إلى هذه الثقافة في الأدب العربي القديم والأدب العربي المستحدث.

الممثل: فن التمثيل عامة حديث في مصر، دخيل في الأدب العربي، لم نعرفه باللسان العربي إلا منذ ثمانين عاماً. جاء مصر فيما جاءها ضمن موجة الثقافة الغربية التي طلع علينا بها البحر الأبيض في النصف الأخير من القرن الماضي. ومنذ ذلك الحين ونحن نباشر فن التمثيل على طريقة ارتجالية، وإن شئت قل بدائية، أعني أنها لا تقوم على قاعدة ولا ترتكز على أساس. وفن التمثيل، أي فن الأداء كسائر الفنون الشكلية مثل النحت والتصوير وغيرهما، له قواعد وأصول يجري تدريسهما في معاهد خاصة تخرج الممثلين الحاذقين بعد أن يكونوا قد أحسنوا تعرف هذه الأصول والقواعد. وإذا قلت إنه واجب على الممثل أن يتلقى أصول فنه في معهد، فهذا لا يحجزني عن الاعتراف بأن هناك طبائع غنية بمواهبها، خصبة بإحساساتها، هي في غنى عن الصقل والتهذيب في معهد أو مدرسة، إلا أن الطبيعة ضنينة بخلق هذا النفر العزيز الذي يطلع على الدنيا وهو يحمل في روحه الطبع القوي، والذوق الصافي، والحساسية اليقظة، والصوت الجهير، واللفظ الفصيح، ولإيقاع المحكم؛ وهذه هي أهم المصادر التي يصدر عنها الممثل الحق مثل هذا من الشواذ - والشاذ لا قاعدة له - وعليه فإنشاء معهد للتمثيل هو الوسيلة الفعالة ذات الأثر في تكوين نشء جديد من الممثلين يجمعون إلى فيض الموهبة الطبيعية، حذق التعليم، وصقل التهذيب وثقافة الفن

الأكثرية الغالبة من محترفي التمثيل في مصر يقومون بعملهم على إيحاء الفطرة وهدى التجارب وما يستقر في أذهانهم مما يشاهدونه من آثار الفن الغربي أو على الشاشة البيضاء

ومن هؤلاء طائفة احترفت فن التمثيل، لا عن عقيدة وموهبة وإنما عن حاجة، فهم عمال خصتهم الطبيعة بشيء من الموهبة الصادقة فإن ضعف التحصيل العلمي، وافتقار الثقافة الفنية، يجعلان هذا القدر من الموهبة لا يرفع صاحبه إلى الممثل الموهوب المفتن الذي يترجم بأدائه أعمال مؤلفين نبهاء ويسمو بفكره إلى حياة سامية مثل حياة شكسبير مثلاً أو موليير أو أبسن وغيرهم

أما عنصر الممثلات فاقل شاناً من عنصر الممثلين ولا سيما في الناحية الثقافية والعلمية. ويؤلمني أن أقرر أن بيننا ممثلات لا يحسن القراءة، فإذا قرأن يتعثرن، وإذا كتبن فليأتين بأغرب النقوش وأعجب الخطوط

بعد هذا أرى أنه لزاماً على المهتمين بترقية المسرح أن يعملوا على إنشاء معهد للتمثيل في معناه الكامل وفوق هذا أرى أن ترسل بعوث إلى الخارج من خريجي هذا المعهد، لا أن ترسل بعوث من أفراد كل مؤهلاتهم صلة قرابة أو محسوبية

الجمهور: الجمهور في مصر خليط عجيب، فيهم من يعيش بعقلية القرون الوسطى أو ما قبله، ومنهم من يعيش بعقلية عصر النهضة، ومنهم من يعيش بعقلية عام 1939 ولكل فريق منزع خاص وذوق خاص، وهذا أمر لا نجده في الجمهور الأوربي، فمهمة إرضاء هذه الجماهير عن طريق المسرح صعبة وعرة.

هناك نظريتان يأخذ بهما العاملون في المسرح، الأولى الارتقاء بالجمهور إلى آفاق الأدب الرفيع، والثانية مجاراة الجمهور في مرغوبة وممالأته فيما يريد من تملق عواطفه. حاول بعض أصحاب الفرق الأهلية أن يأخذوا بالنظرية الأولى فلم يوفقوا إلى الكسب الوافر فانحدروا إلى الجمهور، كما اخذ البعض الآخر في بدء اشتغاله في المسرح بالنظرية الثانية وما زال أرجوحة بين الفشل والنجاح

وسبب ذلك فيما أرى اختلاف المستوى العلمي والفكري، والجمهور المصري حديث العهد في المسرح ليست له فيه ثقافة أو تقاليد، يؤم دورة بغية التسلية لا ارتجاء الغذاء الفكري أو العاطفي. فواجب مصلح المسرح أن يعمل تدريجياً على إيجاد جمهور يحسّ التمثيل ويتذوقه.

- هل قامت الفرقة القومية بواجبها في إيجاد الجمهور والرواية والممثل؟

- الفرقة القومية ما برحت تتطوع وتتهادى في عملها، ولم تستقم لها بعد طريقة خاصة أو سياسة مقصودة وذلك بحكم أنها مؤسسة جديدة تقوم بمهمة إذاعة فن جديد في مصر، ولا ادري ما الذي يمنعها من أن تستخلص لها خطة بعد التجاريب التي أفادتها في السنوات الأربع التي مضت على تأسيسها.

المال لا يعزها، ومعينها في عطف وزارة المعارف واسع المدى، فهي بذلك تعمل في ظروف جيدة لم يسبق لفرقة مصرية أن عملت فيها.

فمن حيث فن التمثيل لم تقدم الفرقة جديداً، لأن المشتغلين فيها عملوا على المسرح سنوات عديدة، والبعوث التي بعثت بها إلى الخارج لم تعد بعد. فلا ندري ما عسى أن تلقاه في هذه الناحية من توفيق ونجاح. وشأن فن الإخراج كشأن فن التمثيل

ومن حيث الرواية فإنها لم تقدم كاتباً يأبه له، وعملها في المسرحيات المترجمة يطغي على حرصها على تنشيط المؤلفين المصريين وتجيعهم. وهنا موضع العجب، ففي الوقت الذي يقول فيه أحد أعضاء لجنة قراءة الروايات: (إن الفكر الروائي المسرحي آخذ في التقدم إلى الكمال بل إلى الكمال السريع) نرى أن نتاج هذا الفكر ضئيل يتنافى مع ما يقرره أعضاء اللجنة فلا ندري هل الجنة أخطأت في تقديرها؟ أم إن مدير الفرقة لا يؤمن بما تؤمن به اللجنة، وأنه لا يحب الرواية المصرية لوجه الشيطان .!

أما من حيث الجمهور فقد أخفقت الفرقة إخفاقاً تاماً في اجتذاب أي طبقة من طبقات الجمهور في مصر، ولو اقتصر معينها المادي على إيرادها من جيوب الجمهور لما استطاعت أن تصمد شهراً واحداً

ابن عساكر

العدد 293 - بتاريخ: 13 - 02 - 1939

يا أذن الحي اسمعي!

- أوشكت هذه الصفحة أن تحترق لطول ما أنَّ عليها الفقر وزفر فيها الشقاء، وأغنياؤنا أحياهم الله - لا يسمعون لأن آذانهم مبطنة بالذهب الأصم، ولا يشعرون لأن قلوبهم مغلفة بالورق المالي الصفيق؛ وبال الخليّ أطول من ليل الشجيّ، وسمع الناعم أثقل

من همّ الشقى، ودنيا اللذة أشغل بمباهجها وملاهيها عن دنيا الألم!
لعل من القارئين من يختلج في رأسه هذا السؤال:
لماذا يمتد نفَسي بهذا الأنين الموجع، ويستمد قلمي من هذا الدمع القانىء؟ وجوابي أني نشأت في قرية من أولئك القرى العشرين التي سلط القدر عليها الباشا والأمير؛ فانشق بصري على مناظر البؤس، وتنبَّه شعوري على مآسي الجور؛ وعلمت حين تعلمت أن وطننا يفيض بالخير، وديننا يأمر بالإحسان، فأيقنت أن فقر الناس، ناشئ من فقر الإحساس؛ فإذا عرف الفقير حقه، والغني واجبه، تلاقت الأنفس على حدود الإنسانية الكريمة. فأنا أحاول بمواصلة هذا الأنين أن أعالج وقْر المسامع وسدَر العيون وخدَر المشاعر، عسى أن يتذكر المترفون أن لهم اخوة من خلق الله يأكلون ما تعاف الكلاب من المآكل، وينامون مع الحيوان في المزابل، ويقاسون من الأدواء مالا يقاسيه حيٌّ في غير مصر. ولكني علمت وا حسرتاه بعد شهرين مضيا في الشكوى والاسترحام، أن بين أبناء الذهب وأبناء التراب أطباقاً من اللحم والشحم، والحديد والأسمنت، ترتد عنها أصوات الضارعين أصداءً خافتة؛ ثم تتجاوب هذه الأصداء في أكواخ المساكين؛ ثم تتهافت على بريد الرسالة تهافت الأرواح الهائمة على الشعاع الهادي تتلمس في ضوئه الطريق إلى الله وائِلِ الضعيف وعائل المعدم!
من لنا بمن يفتح عيون السادرين على هؤلاء الأيامى اللاتي يقضين ليل الشتاء البارد الطويل على بلاط الأفاريز وقد تطرح أطفالهن على جنوبهن طاوين ضاوين لا يفهمون عطف الأب، ولا يعرفون دفء البيت، ولا يدركون إلا أنهم أجساد تعرى ولا تجد الكساء، وبطون تخوى ولا تصيب الغذاء، وأكف تمتد ولا تنال الصدقة؟
من لنا بمن يفتح قلوب المالكين لأولئك الفلاحين الذين اصطلحت عليهم محن الدنيا وبلايا العيش، وجهلتهم الحكومة فلا يعرفهم إلا جباة الضرائب في المالية، وفرازو القرعة في الحربية، وحراس السجون في الداخلية! أما المعارف والصحة والأوقاف والأشغال فشأنها شأن المترفين والمثقفين لا تعرف غير المدينة ولا تعامل غير المتمدن؟
من لنا بمن يقول لهؤلاء المثرين المستكبرين إن ركفلر ورتشلد لم يرفعهما إلا حب الإنسان، وإن الدمرداش والمنشاوي لم يخلدهما إلا بذل الإحسان، وإن لديهم من فضلات الثروة كربح الأموال في المصارف، ومكافأة النيابة في البرلمان، وحثالة الزروع في العزب من التبن والقش والحطب، ما يوفر الغذاء والدواء والعلم لألوف الألوف من بني الوطن؟
بالأمس كانت ذكرى وفاة المرحوم السيد عبد الرحيم الدمرداش، وهو والمنشاوي وبدراوي سمنود من ملائكة الأرض الذين يرفرفون بأجنحتهم النورانية على شقاء الكثير من الناس. فلماذا لا يقام لهؤلاء الخيِّرين البررة وأمثالهم تماثيل في الميادين العامة، ليتشبه بهم الغني، ويترحم عليهم الفقير، وليكون في رفع ذكراهم على هذا النحو إعلاء لمعنى الإحسان، وإطراء لأريحية المحسن، وتفريق بين من دَلَله الوطن فعقَّ، وبين مَن رباه الوطن فبرَّ، فلا تستوي الحسنة ولا السيئة، ولا ينبغي (أن يكون المحسن والمسيء بمنزلةٍ سواء، فإن في ذلك تزهيداً للمحسن في إحسانه، وتدريباً للمسيء على إساءته)
احمد حسن الزيات
نقص أم ماذا. . .؟
للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني
كان معي - وأنا مدرس في مدرسة دار العلوم - أستاذ إنجليزي كانت بيني وبينه صداقة وثيقة. وكنا نعلم الطلبة مبادئ اللغة الإنجليزية، فأقبل علي يوماً يقول: (لقد أخفقت وأحسب أن من واجبي الآن أن أقنع رؤسائي بنقلي إلى مدرسة أخرى، فما في بقائي هنا خير، ولست أدري كيف تصنع أنت، ولكن الذي أدريه أني أنا أخفقت)
فقلت له وأنا أمازحه: (أقعد، أقعد، وحدث (عمك) المازني بما تعاني وتكابد. ما هي الصعوبة اليوم؟)
قال: (سأخبرك. إن كل طالب يسألني مثلاً عن الفعل - يجلس - كيف انقلب فصار - جلس - فلا أستطيع أن أجيب بكلام معقول مقبول يرتاح إليه العقل. هم يريدون سبباً ويطلبون تعليلاً، وأنا لا أعرف إلا أن هاتين صيغتاه في الحالتين. وقس علي هذا)

قلت: (هل تطيعني إذا أشرت عليك بأمر؟)
قال: (أتمزح؟)
قلت: (أمزح. . . أجد. . . سيان. المهم إنقاذك من الورطة. اسمع يا صاحبي. لقد كنت أظن أنك أفدت شيئاً مما تعلمته من قواعد اللغة العربية. وكنت أحسب أن ذهنك مرن، وأن لك قدرة على الاقتباس والقياس. وكنت أتوهم أنك تستطيع أن تخاطب كل فريق من الناس بما يفهمون)
قال: (لست فاهماً)
قلت: (ألم يعلمك شيوخك في اللغة العربية أن (قال) أصلها (قَوَلَ) وأن الواو فُتح ما قبلها فصارت ألفاً؟)
قال: (نعم)
قلت: (هل تستطيع أن تزعم أن هذا كلام معقول مقبول يستريح إليه العقل؟)
قال: (لا)
قلت: (ولكنك سلمت به بلا جدال، وأخذته عن مشايخك بلا مناقشة أو تفكير، وأجبت به في الامتحان بلا تردد، وأنت تزعم اليوم أنك تعرف العربية حق معرفتها، وأنك أخذتها عن أهلها)
قال: (ولكن ما دخل هذا في موضوعنا؟)
قلت: (كنت أحسبك ذكيّاً ولبيباً، فإن هذا هو حل المشكل. بهذه العقلية التي جعلتك تسلم بإن قال أصلها قَوَل، فُتح ما قبلها فانقلبت ألفاً، يجب أن تخاطب الطلبة. فاذهب وقل لهم إن أصلها وإن حرف العلة فتح ما قبله فانقلب فسترى أن هذا يسرهم ويكفيهم، وستجد أنك استرحت بعد ذلك من كل عناء)
فصاح بي: (ولكن هذا غير معقول)
قلت: (إنه معقول كقولك إن قال أصلها قَوَل وأن الواو فُتح ما قبلها إلى آخر هذا الهراء. ولا تحتقر تلاميذك حين تراهم يصدقون أن أصلها وأن حرف العلة فُتح ما قبله إلى آخر هذا الهراء، أو حين يتوهمون أنهم فهموا. فلست خَيراً منهم، وما أكثر ما يتوهم الإنسان أنه فاهم، وهو غير فاهم شيئاً. اذهب وافعل ما أشير به وأخبرني بالنتيجة، وإن كنت أعرفها من الآن كلها. لن تقول لي بعد الآن إنك أخفقت، وإنك ستطلب من الوزارة النقل إلى مدرسة أخرى)
وقد كان، وسكنت الثورتان: ثورة الطلبة على المدرس، وثورة المدرس على نفسه.
وهذا استطراد بدأت به، أما ما كان العزم أن أقوله فهو أن هذا الصديق المدرس سألني يوماً وقد علم أني رُزقت طفلاً: (حدثني عنه. صف لي كيف تحبه!)
قلت: (لا أعلم أني أحبه)
قال: (لا تتكلف الفلسفة)
قلت: (الحقيقة أني حائر، لا أشعر بأية عاطفة، ولا أحس أن لي به سروراً كذلك الذي أسمع وأقرأ أن الأدباء يحسونه بنيهم؛ وإني لمستغرب)
قال: (أتتكلم جاداً؟)
قلت: (إني جاد جداً. وثق أني حائر)
قال: (لعل العاطفة راقدة، وعسى أن تكون محتاجة إلى ما يوقضها وينبهها)
قلت: (عسى)
وانتقلنا إلى حديث آخر، ومضت الأيام وماتت البنت - فقد كانت بنتاً - فلم أرني حزنت أو جزعت، ولم يكن هذا كافياً لتنبيه عاطفة الأبوة التي قال لي صاحبي أن أكبر ظنه أنها راقدة. ولي الآن من البنين ثلاثة، وقد استطعت أن أوحي إلى نفسي حب بنتي التي ماتت، وحب أخرى جاءت وذهبت مثلها، وحب البنات على العموم دون البنين، أو أكثر من البنين، ولكني أدرك أن هذا فعل الإيحاء لا فعل الطبيعة، وأعرف من نفسي أني لا أعرف لبنيّ مثل ما يعرف الآباء غيري. نعم أشفق عليهم وأعني بهم، ولكني لا أشعر لهم بتلك الرقة التي أسمع بها. ويخيل إلي أن العادة هي منشأ ما أحسه لهم، وأني أرحمهم لأنهم صغار ضعاف، وأعني بهم لأني جئت بهم فأنا مسئول عنهم. وكثيراً ما أضجر وأمل، وأسأل نفسي متى يكبرون ويستغنون عني، فأحط عن كاهلي عبئهم، وأرتاح منهم، وأعيش وحدي مستقلاً عنهم؛ وأرحل وأغيب، فلا أحن إليهم إلا حنة المرء

لعشيره وصديقه، ولمألوفه.
وكان لي أخ أسن مني، وكنت أوقر سنه، ولكني لم أكن أشعر له باحترام أو حب، كالذي يكون بين الأخوين عادة. ولم أبكه لما مات، وإنما سخطت على ضعفه الذي قتله، فقد كانت امرأته تركبه كالحمار، وكان يشكو لي هذا، فأضجر، وأقول له: (ما الفائدة؟ إنك ضعيف، وهي تركبك، ولا أمل فيك ولا خير في الشكوى، فاحتمل على قدر طاقتك، فما خلقك الله لغير هذا)
فيقول: (نعم، صدقت. يجب أن أحتمل) فأنهض من مجلسه مشمئزاً، وإن كنت فيما عدا ذلك أستظرفه وأستخف ظله، وأحب فكاهته، ولكن ضعفه كان يهيج نفسي عليه، وقد مرضت جدتنا فلم يعدها لأن امرأته أبت عليه ذلك، فلما ماتت جاء ليمشي في جنازتها، فأبيت عليه ذلك وقلت له: (كان الأولى أن تعودها في حياتها لتسرها على الأقل ولتعفيها من شعور الحسرة، أما الآن فأولى بك أن تذهب إلى بيتك) ففعل.
وانقطع ما بيني وبينه سنوات لم أشتق إليه فيها قط، ثم التقينا اتفاقاً فتصافحنا في صمت ثم نزعت يدي، ومضيت لشأني ومضى في سبيله. وقد قصصت هذا لأصف شعوري الحقيقي.
فهل هذه بلادة؟ أو هي نقص في بعض جوانب النفس؟ أم ذلك لأن عاطفتي الأدبية تستغرق نفسي كلها؟ أم لأن حبي لأمي استنفد ذخيرة النفس من هذا الحب؟ فقد كان حبي
لأمي - وما زال - أقوى ما استولى على نفسي، وكان هو العامل المؤثر في سيرتي، فكنت إذا هممت بأمر أسأل نفسي: (ماذا ترى يكون رأي أمي في هذا؟) فإذا كان الجواب خيراً أقدمت، وإلا صددت نفسي وكبحتها عن مرادها، وصرفتها عما تحاول. أم ترى التعليل الصحيح أن البنين والأخوة والأقرباء على العموم نتيجة المصادفة، ليس إلا؟
لا أدري. وأكبر الظن أن بي نقصاً، فإني فيما عدا حبي لأمي، لم يغلبني حب قط - لا حب امرأة، ولا حب أحد من البنين أو الأقارب. ولست أرى الناس كذلك، وليس من المعقول أن أزعم أن الناس غيري شاذون، وأني أنا وحدي الطبيعي، والأولى والأقرب إلى العقل أن آخذ بمنطق (قراقوش) فأصدق الناس، وأرفض زعم الفرد.

إبراهيم عبد القادر المازني

التاريخ السياسي
النزاع الإيطالي الفرنسي
وموقف المستر تشمبرلين

للدكتور يوسف هيكل

لم تأت سياسة (تهدئة الخواطر) بما كان يتوخاه المستر تشمبرلين منها. بل إن هذه السياسة أكثرت المشاكل الأوربية وعقدتها. فنجاح الهر هتلر في ميونخ قاد ألمانيا إلى مهاجمة بريطانيا والتهكم بها، وجعل الفوهرر يعد العدة لتحقيق مشروعاته الواسعة في شرق أوربا؛ فعظم الخطر الألماني وتفاقم. . .
أما إيطاليا فقد ازدادت تدخلاً في أسبانيا وازدادت جرأة وتبجحاً، فقامت تهاجم فرنسا مطالبة إياها بقسم من أملاكها. واشتدت مظاهرات هذه المطالب فتحولت إلى نزاع بين باريس وروما يهدد العالم بحرب ضروس. فما هي المطالب الإيطالية؟ وماذا كان تأثيرها في فرنسا؟ وهل تستند إلى حق صحيح؟ وما هو موقف المستر تشمبرلين منها؟
بينما كانت فرنسا آخذة في تحسين علاقاتها بجاراتها اللاتينية، فعينت سفيراً لها في روما، واعترفت بالإمبراطورية الإيطالية، جابهتها إيطاليا بمطالب جديدة فيها اعتداء على أملاك حكومة باريس، وإهانة للجيش الفرنسي. وللتهرب من مسؤولية ذلك، لم تضع حكومة روما هذه المطالب في قالب رسمي، بل عمدت إلى التمثيل في إسماع حكومة باريس مطالبها. وكان مسرح التمثيل قاعة البرلمان في روما، وكان الممثلون وزير الخارجية وأعضاء مجلس النواب. وموجز المشهد أنه في 30 نوفمبر سنة 1938 ألقى الكونت شيانو وزير خارجية إيطاليا خطاباً سياسياً في مجلس النواب، نوه فيه بـ

(مطالب الشعب الإيطالي الطبيعية) وعندما لفظ الوزير هذه الجملة، وقف النواب وقفة رجل واحد صائحين: (نريد تونس وكورسيكا ونيس). . . وفي الأيام التالية أخذت الجموع الإيطالية تطوف الشوارع مطالبة فرنسا بمطالب نوابها، وقامت الصحافة الإيطالية وهي شبه رسمية تبرر موقف النواب، وتوضح شعور الجماهير الإيطالية المطالبة بحق طبيعي لها في الممتلكات الفرنسية الثلاث السالفة الذكر. ولم تكتف الصحف الإيطالية في بيان ما تدعيه حقاً لإيطاليا، بل أخذت ولا تزال تأخذ في التنديد بفرنسا وانتقادها انتقادات مرة؛ فقابلتها الصحف الفرنسية بالمثل، فنشأ بين البلدين جدل صحفي كان من تأثيره ازدياد توتر العلائق بين روما وباريس. وفي هذه الأثناء لم يرد الطلبة في فرنسا الوقوف موقف المتفرج، بل قرروا الرد على المظاهرات الإيطالية، فقامت جموعهم بمظاهرات في أنحاء المدن الفرنسية هاتفة بهتافات تهكمية منها (صقلية وسردينيا لفرنسا) و (إيطاليا للنجاشى)

كان للمشهد التمثيلي في البرلمان الإيطالي وقع سيئ في الدوائر الفرنسية. وقد اهتمت حكومة باريس به اهتماماً كبيراً، فدعا المسيو بونيه وزير خارجية فرنسا سفير إيطاليا لمقابلته في اليوم التالي للحادث، وقابل المسيو فرانسوا بونيه سفير فرنسا في روما الكونت شيانو في 2 ديسمبر واحتج على حادث مجلس النواب الإيطالي، فنفى الوزير مسؤولية الحادث عن حكومته بقوله (إن الحكومة الإيطالية لا تعد مسؤولة إلا عن مسلكها ومطالبها الرسمية)

لم تكتف الحكومة الفرنسية بهذا الرد، وعولت على أن تبرهن أنها لا تتهاون في مصالحها ولا تسمح بالتفكير في الاعتداء على أملاكها، فردت على مظاهرة البرلمان الإيطالي المدبرة رسمياً، بزيارة المسيو دلادييه لكورسيكا وتونس في 3 يناير سنة 1939، بموكب عسكري، فقوبل فيها بترحاب عظيم. وقد هتف أهل كورسيكا وسكان تونس الفرنسيون بحياة فرنسا، وأظهروا أنهم فرنسيون لا يريدون من جنسيتهم بديلاً. أما أهل تونس العرب فأكدوا - إن كان لا بد من المفاضلة بين فرنسا وإيطاليا - أنهم لا يترددون في التمسك بفرنسا، ولا يقبلون قط الانتقال إلى الحكم الإيطالي. وزيادة على ذلك فقد صرح المسيو دلادييه، والمسيو بونيه داخل البرلمان وخارجه، أن الحكومة الفرنسية لن تتنازل عن شبر واحد من أملاكها.

لم ترتح إيطاليا لزيارة المسيو دلادييه لكورسيكا وتونس، بل رأت فيها اعتداء صريحاً عليها وسبباً لزيادة توتر العلاقات بين الجارتين. كما إن تأكيد الدوائر المسؤولة في باريس برفض المطالب الإيطالية، أغضب رجالات إيطاليا وصحافتها. فاشتدت في حملتها على فرنسا، وحاولت إثبات عدالة تلك المطالب الطبيعية.

لم تكن نيس وكورسيكا يوماً ما تابعتين لإيطاليا الحديثة، إذ أن نيس ومقاطعة سافوا كانتا من أملاك الدون دي سافوا وجزءاً من مملكة سردينيا. ولما قام الملك فكتور عمانوئيل ووزيره كافور بتوحيد إيطاليا، احتاجا إلى مساعدة فرنسا لهما ففاوضا نابليون الثالث في مساعدتهما على إخراج النمساويين من اللومبارديا وفي موافقته على توحيد البيمون مع الدول الوسطى. ووعداه مقابل ذلك بالتنازل لفرنسا عن نيس ومقاطعة سافوا. فتم الاتفاق بينهم على ذلك عام 1860. وعندما جرى استفتاء التنازل لفرنسا في 15 أبريل عام 1860، كان 25743 صوتاً محبذين الانتقال و 160 صوتاً فقط ضد التنازل.

أما كورسيكا فقد كانت تابعة لجنوا منذ القرن الخامس عشر حتى عام 1768، الذي فيه باعت جنوا سيادتها على هذه الجزيرة لفرنسا. ومنذ ذلك التاريخ وكورسيكا جزء من فرنسا.

وأما تونس فقد تدخلت فيها الدول الاستعمارية عن طريق قرض الأموال لها. ثم تذرعت هذه الدول كعادتها باضطراب الأحوال المالية والإدارية، ففرضت على تونس عام 1869 رقابة مالية قوامها ممثلون لبريطانيا وفرنسا وإيطاليا. وأخذت هذه الدول الثلاث تتنافس وتسعى كل منها بأن يكون لها القسم الأول من التدخل في شؤون تونس ونشر نفوذها عليها. وكانت إيطاليا تأمل في احتلال تونس وجعلها مستعمرة لها. ولما أرادت تنفيذ رغبتها، أبدت ما عزمت عليه لإنكلترا لأخذ موافقتها، فأجاب رئيس وزارتها حينئذ، أن بريطانيا العظمى لا ترى بعين الارتياح ساحل تونس وساحل صقلية

في يد حكومة واحدة. ولا تزال بريطانيا تحتفظ بهذه السياسة حتى الآن حفظاً لسلامة طرق المواصلات في البحر الأبيض المتوسط. وكانت فرنسا ترغب فيما كانت ترغب فيه إيطاليا من ضم تونس إليها، فاتفقت مع بريطانيا بأن تترك لها حرية العمل في تونس نظير موافقة فرنسا على ضم إنكلترا جزيرة قبرص.

وفي عام 1881 سارت قوة عسكرية فرنسية إلى داخل تونس بحجة مطاردة بعض القبائل

التي اعتدت على حدود الجزائر، وأخذت تتوغل في البلاد التونسية وتستولي عليها. . . فاضطر (باي) تونس إلى النزول عند رغبة الغزاة، وتوقيع معاهدة (بردو) في 12 مايو 1881 التي بموجبها قبل الحماية الفرنسية.

تأثرت إيطاليا من عمل فرنسا كثيراً، واعتبرته اعتداء على أمانيها وعلى حقوقها الطبيعية، حتى أنها لم تعترف بفتح فرنسا لتونس إلا عام 1896، الذي به تم الاتفاق بين باريس وروما على منح الرعايا الإيطاليين البالغ عددهم حينئذ 55 , 572 إيطالياً، امتيازات خاصة، يحافظ الإيطاليون بموجبها على جنسيتهم.

وقد تجدد الخلاف بين فرنسا وإيطاليا فيما بعد الحرب العالمية، بسبب الجالية الإيطالية في تونس، تلك الجالية البالغ عددها الآن نحو مائة ألف إيطالي تقريباً، مقابل ما يزيد على مائة وعشرة آلاف فرنسي، عائشين بين مليونين ونصف من العرب. وأخذ هذا الخلاف يتفاقم حتى أن الصحف أخذت تتحدث عام 1931 عن احتمال وقوع حرب إيطالية فرنسية، وظل توتر العلاقات بين الجارتين شديداً حتى 7 يناير 1935، وهو التاريخ الذي تم فيه الاتفاق بين السنيور موسوليني والمسيو لافال على تسوية الخلاف القائم بين الحكومتين.

نالت إيطاليا، بموجب هذا الاتفاق، لرعاياها في تونس امتيازات جديدة. فالإيطاليون الذين يولدون في تونس قبل 28 مارس سنة 1945 يحافظون على جنسيتهم الإيطالية، والذين يولدون بين 1945 و 1965 يحق لهم اختيار الجنسية الفرنسية، وأما الذين يولدون بعد 1965 فيخضعون للقانون العام. وأما المدارس الإيطالية فتحافظ على وضعها الحالي حتى عام 1955، ومن ثم تصبح تحت الرقابة الفرنسية. وفي هذا الاتفاق أيضاً قام المسيو لافال بتنفيذ البند 13 من اتفاق لندن عام 1915، الذي بموجبه تعهدت فرنسا بتعويض إيطاليا ببعض المزايا الاستعمارية نظير دخولها الحرب ضد ألمانيا، وذلك بالتخلي لإيطاليا عن منطقة تبسي البالغة مساحتها 114 ألف كيلو متر مربع في صحراء أفريقيا، وبالتنازل عن جزيرة دوميرا في البحر الأحمر، وعن قسم من الساحل الصومالي الفرنسي المواجه لباب المندب، وعن عدد من أسهم سكة حديد جيبوتي - أديس أبابا. وظن حينئذ أن هذا الاتفاق وضع حداً للخلاف بين الجارتين.

غير أن تطور الحالة الدولية، وطموح إيطاليا إلى سيادة البحر الأبيض المتوسط، أديا بالسنيور موسوليني إلى تجديد الخلاف مع فرنسا على بساط المطالب الاستعمارية. ولم يكن في الواقع الداعي لهذه المطالب سبباً تاريخياً، أو حرص على تطبيق حق تقرير المصير، وإنما هو سبب حربي.

فلكورسيكا أهمية كبيرة في نظام الدفاع الفرنسي، كما أن بيزرت الواقعة في غربي تونس هي الميناء الحربي الرئيسي للأسطول الفرنسي في شمال أفريقيا. فوضع إيطاليا يدها على كورسيكا يضعف وضعية فرنسا الحربية في البحر الأبيض المتوسط ويزيد في أهمية المواقع الإيطالية الحربية. وأما استيلاء إيطاليا على تونس فمعناه، زيادة على إضعاف فرنسا، تمكنها من وضع رقابتها التامة على القسم الضيق من البحر الواقع بين تونس وصقلية، والذي لا تزيد مسافته بينهما على 90 ميلاً، ولا سيما أن جزيرة بانتلاريا الإيطالية قد حُصنت تحصيناً حربياً عظيماً. وبذلك تتمكن إيطاليا من شطر البحر الأبيض المتوسط إلى شطرين، ومن قطع المواصلات بين قسميه، وفي ذلك ما فيه من الأخطار الفادحة على أملاك فرنسا الآسيوية والأفريقية الشرقية، وعلى الإمبراطورية البريطانية. ومن الغريب أن بعض الصحف الإيطالية لم تخف هذا السبب، إذ قالت: إن إيطاليا لن تتغاضى عن المطالبة بكورسيكا وتونس لأن وجودهما في يد فرنسا خطر عليها. . .

ولكيما يكون لإيطاليا عذر قانوني في تجديد الخلاف مع فرنسا ومطالبتها بمزايا

استعمارية جديدة، نقض السنيور موسوليني معاهدة 1935، وذلك بتبليغ الكونت شيانو في 22 ديسمبر المسيو فرانسوا بونسيه أن حكومته لا تعد المعاهدة الفرنسية الإيطالية التي عقدت عام 1935 نافذة، لأنها لا تتفق مع مقتضيات الحالة الحاضرة، ولأن فرنسا لم تنفذها ولم تحافظ على نصوصها أو روحها بل اشتركت في العقوبات الاقتصادية التي وضعتها عصبة الأمم على إيطاليا خلال الحرب الحبشية. على أن فرنسا متمسكة باتفاق 1935 الذي سوى في نظرها كل أسباب الخلاف بينها وبين إيطاليا، بدليل توقيع الحكومة الإيطالية رسمياً عليه في 7 يناير سنة 1935، والتصريحات التي أفضى بها السنيور موسوليني في ليتوريا يوم 18 ديسمبر سنة 1936 وجاء فيها قوله: (إن مشاكل إيطاليا في القارة الأفريقية حلت كلها حلاً نهائياً مشرفاً) وهي تقول إنه إذا كان اتفاق 1935 لا يلائم أحوال إيطاليا الحاضرة، فإن اتفاقات 1896 بشأن الإيطاليين في تونس لم تعد ملائمة للحالة الحاضرة أيضاً، ولذلك يكون لفرنسا الحق في وضع نظام جديد للرعايا الإيطاليين فيها. أما مسألة العقوبات فمن نكران الجميل التحدث عنها، لأنه لولا ولاء حكومة باريس للاتفاق الذي عقد مع حكومة روما لما تمكن السنيور موسوليني قط من اكتساح الحبشة وإيجاد الإمبراطورية الإيطالية.

أما ما هي المطالب الرسمية الإيطالية فلم تعلنها بعد حكومة روما، وهي تقول إنها ستتقدم بها إلى فرنسا في الوقت المناسب وبالصورة المناسبة. غير أننا نستبعد أن تكون نيس وكورسيكا من ضمن هذه المطالب. وإن ما تطمع فيه إيطاليا على ما يظهر هو الاستيلاء على تونس، أو جعلها منطقة حرة على مثال طنجة والاشتراك في إدارة قناة السويس، والاستيلاء على خط حديد جيبوتي - أديس أبابا، وعلى جيبوتي نفسها أو الاشتراك في استعمال مينائها من غير مقابل.

ومما هو جدير بالملاحظة أن الصحافة الألمانية، الناطقة بلسان حكومة الريخ بصورة غير رسمية، تؤيد إيطاليا في موقفها. وقد ذكر الهر هتلر موقف بلاده تجاه إيطاليا في خطابه الذي ألقاه في 30 يناير، ومما جاء فيه إنه (إذا كان يراد إثارة حرب تحت أي ستار كان ضد إيطاليا فإن الواجب يدعو ألمانيا إلى الوقوف بجانب صديقتها).

ومما لا شك فيه أن إثارة السنيور موسوليني الخلاف الاستعماري مع فرنسا من جديد، هو نتيجة لاتفاق مونيخ، وأن زعيم إيطاليا ما كان يجرؤ على ذلك لو أن فرنسا في المكانة الدولية التي كانت فيها قبل تضحية تشيكوسلوفاكيا. فالسنيور موسوليني أراد الاستفادة من ضعف فرنسا بسبب انهيار ما كانت تعتمد عليه من نظام التحالف بعد اتفاق مونيخ. ورأى في زيارة المستر تشمبرلين فرصة سانحة لمساعدته على تحقيق ما يريد من فرنسا، لأنه كان يعتقد أن بريطانيا ترى من الحكمة توطيد صداقتها مع إيطاليا بالنصح لفرنسا بإيثار خطة المسالمة على العمل على تبديد روح ميونيخ والقضاء عليها.

ولما كانت إيطاليا تعلم أن لا أمل لها في تحقيق مطالبها من فرنسا عن طريق المفاوضات المباشرة، أرادت أن تنقل خلافها معها إلى مجال المسائل الدولية. وبما أنها متأكدة من مساعدة ألمانيا لها في مطالبها عملت على إقناع بريطانيا بعقد مؤتمر رباعي لبحث هذه المطالب. ولنقل إيطاليا مطالبها إلى مجال المسائل الدولية وجعلها من اختصاص

المؤتمرات الدولية، أعلنت أن اعترافها بالحماية الفرنسية على تونس كان مقيداً باحترام حقوق الإيطاليين في البلاد التونسية. وبما أن فرنسا لم تحترم هذه الحقوق فقد أصبحت إيطاليا في حل من الاعتراف بالحماية الفرنسية. وترى أنه من الواجب على الدول الأخرى ألا تكون مقيدة بهذا الاعتراف. وقامت الصحافة الإيطالية تؤيد هذه النظرية وتمهد الرأي العام الدولي لتحبيذ عقد مؤتمر رباعي حفظاً للسلام، وحرصاً على إيجاد التفاهم بين الدول الأوربية الكبرى. فحملت حينئذ الصحافة الفرنسية على هذه النظرية وأكدت أن مثل هذا المؤتمر لن يعقد لبحث المطالب الإيطالية؛ وإن عقد فلن تشترك فيه فرنسا. وعلى أثر ذلك أخذت الصحافة الإيطالية تلفت النظر إلى أن في نية بريطانيا التوسط لتسوية النزاع الإيطالي الفرنسي. وكان السنيور موسوليني يعلق أهمية كبرى على زيارة المستر تشمبرلين للعاصمة الإيطالية؛ فخشيت الحكومة الفرنسية من أن يتمكن زعيم إيطاليا من الضرب على الوتر الحساس عند رئيس

الوزارة البريطانية، ومس نقطة الضعف فيه، فيحمله على التوسط كما حمله الهر هتلر على ذلك في المسألة التشيكوسلوفاكية.

وللحيلولة دون ذلك قابل المسيو كوربان في لندن اللورد هاليفاكس، وأعلمه أن فرنسا ترى أن المطالب الإيطالية من الشؤون التي يجب أن تسوى بينها وبين إيطاليا وحدهما؛ وأن فرنسا لا توافق، وعلاقاتها سيئة مع حكومة روما، على منح إيطاليا شيئاً ما بقناة السويس. وفي 11 يناير يوم وصول المستر تشمبرلن واللورد هاليفاكس باريس في طريقهما إلى روما نشرت جريدة (الطان) الناطقة بلسان وزارة الخارجية الفرنسية أن لا وساطة هناك، لأن فرنسا لن تسمح بأي مناقشة دولية عندما يتعلق الأمر بمصالحها الحيوية ووحدة إمبراطوريتها، وهي لن تشترك في أية مساومة رباعية أو ثلاثية في هذا الموضوع. ومن الأكيد أن بريطانيا تشارك فرنسا في وجهة نظرها، ويستطيع السنيور موسوليني أن يتحقق ذلك بنفسه، إذا رأى فائدة من مفاتحة الوزراء البريطانيين في هذا الصدد.

وقبل أن يزور المستر تشمبرلين روما زار باريس وتحدث مع وزارتها، وفي هذه الزيارة أكد المسيو دلادييه أنه لا يريد التوسط في الخلاف القائم بين روما وباريس. فكان ذلك خيبة للآمال التي كان السنيور موسوليني يعقدها على توسط المستر تشمبرلين، وصدمة للدول التي كانت تعمل على التفريق بين لندن وباريس.

أما محادثات روما فقد فشلت فشلاً تاماً في جميع المسائل التي طرحت على بساط البحث. وكان هذا الفشل نجاحاً باهراً من وجهة نظر بريطانيا وفرنسا، لأن تلك المحادثات لا تعد ناجحة في نظرهما إلا إذا فشلت. وكل ما استفيد من هذه المحادثات هو إدراك إنكلترا أن المستقبل قاتم على رغم إظهار إيطاليا نيات سليمة، وتأكد إيطاليا من متانة التضامن الفرنسي الإنكليزي، وأنه ليس من السهل زعزعته أو الحفر تحته.

وفشل هذه المباحثات جعل جريدة (تلغرافو) ذات العلاقات الوثيقة بالكونت شيانو تصرح بأن (ليس معنى نقض إيطاليا لاتفاق 1935 أنها تريد الحرب، بل معناه أنه يجب البحث عن اتفاق آخر. فالحكومة الفاشية لا تعارض في مباشرة مفاوضات جديدة، ولكن ذلك يعد أمراً متعذراً في الجو الحالي). وذلك الجو لم يصف منذ ذلك الحين بل تلبدت غيومه، فاشتد الجفاء، وتعاظمت حملة صحف الطرفين، مما جعل السنيور جايدا يشير إليها بقوله (إن المدافع ستطلق من تلقاء نفسها) على أن إيطاليا لم تفعل شيئاً لتحسين علاقاتها بفرنسا، بل زادت الحالة خطورة بدعوة فرق من الإيطاليين لحمل السلاح، وبحشد فرق من الجيش الإيطالي في الحبشة قرب حدود الصومال الفرنسي، مما جعل فرنسا ترسل فرقاً وبوارج حربية إلى جيبوتي. ولعل السنيور موسوليني يأمل نيل مطالبه عن طريق التهديد بالحرب، وإرهاب الرأي العام.

فهل ينجح بذلك كما نجح الهر هتلر خلال شهر سبتمبر الفائت؟ هذا ما نشك فيه.

يوسف هيكل

ابن الرومي

الشاعر المصور

للأستاذ عبد الرحمن شكري

(تتمة ما نشر في العدد الماضي)

وترى ابن الرومي بالرغم من إطالته في المدح وإكثاره فيه يذم هذه الخطة فيقول:

وإذا أمرءٌ مدح امرأ لنواله ... وأطال فيه فقد أراد هجاءه

ويقول للممدوح:

فإن الله أعلى منك جِدّاً ... ويرضيه من الحمد اليسيرُ

على أن له بالرغم من كل ذلك مقدرة كبيرة على توليد معاني المدح كما في الأبيات التي يقول فيها:

والناس تحت سماء منك مُشْمِسةٍ ... والناس تحت سماء منك مدرار

فيتتبع هذه المعاني الشائعة ويولد منها معاني أخرى، وله الأبيات التي يقول فيها:

هب الروض لا يثنى على الغيث نشره ... أمنظرة يُخْفي مآثره الحُسْنى

والتي يقول فيها:

له هيبة لم يكتسبها بكلفة ... إذا اكتسبت ذاك الوجوهُ العوابس

والتي يقول فيها:

آراؤكم ووجوهُكم وسيوفُكم ... في الحادثات إذا دَجوْنَ نجوم
والتي يقول فيها:
خِرْقٌ تَعَرَّضَتِ الدنيا له فصبا ... إلى المكارم منها لا إلى الفتن
له حريم إذا ما الجار حل به ... أضحى الزمان عليه جد مؤتمن
كأنه جنة الفردوس قد أمنت ... فيها النفوس من الروعات والحَزَنِ
ولكن أهاجيه بالرغم من ذلك أبرع وأشد أثراً، وهو فيها أكثر ابتداعاً للمعاني والخيالات، وأحياناً يسوق فيها الأخيلة الفكاهية مترادفة ويولد الذم من الذم والهجاء من الهجاء وينتشي بالهجاء ويعربد كل عربدة ويطلق لنفسه العنان كراكب الجواد الذي يطلق العنان لجواده
يعدو ما شاء العدو. ومن شعره المشهور في الهجاء قوله:
ولو يستطيع لتقتيرِهِ ... تَنفّس من منخر واحد
وقوله:
إن للجد كيمياء إذا ما ... مسَّ كلباً أَحالهُ إنسانا
وقوله:
فلو لم تكن في صُلبِ آدم نطفة ... لخر له إبليس أول ساجد
وقوله:
لو كنتمُ صحتي وعافيتي ... فررتُ من قربكم إلى السِّقمِ
وقوله في هجاء طبيب:
سلَّط الله عليه طبَّهُ ... وكفاه طبه لا بل كفاني
وقوله:
وأخرق تضرمه نفخةٌ ... سفاها وتطفئه تفلة
وقوله:
وقال اعذروني إن بخلي جِبلةٌ ... وإن يدي مخلوقة خلقة القفل
طبيعة بخل أكَدَّتها خليقة ... تخلَّقتُها خوفَ احتياجي إلى مثلي
وقوله: وقد أبدع واستطرد في وصف صور السعادة التامة وتصويرها تصويراً بارعاً كي يقول: إن سعادة الناس التامة لا تقتضي الشكر عليها ما دام المهجو منهم، فانظر إلى براعة الرسم والتصوير في قوله:
ما كرَّمَ الله بني آدم ... إذ كان أمسى منهمُ خالد
والله لو أنهمُ خلِّدُوا ... حتى يبيد الأبد الآبد
وأصبح الدهر حفياً بهم ... كأنه من بِرِّهِ والد
ولم يكن داءٌ ولا عاهة ... فالعيش صافٍ شربه بارد
ودامت الدنيا لهم غضة ... كأنها جارية ناهد
ما كلِّفوا الشكر وقد ضمهم ... وخالد اللؤم أب واحد
على أن هذا كله أهون ما في شعره من الهجاء، وأسهل تحملاً من فحشه الذي أطلق لنفسه العنان فيه وخلع الحياء، وأتى بأشد مما جاء به كل الشعراء. فلا الحطيئة ولا الأخطل ولا جرير يدانيه في الهجاء، وهو مع ذلك أحياناً يخلط الهجاء بالحكمة والمثل كما في قوله:
توَقىِّ الداء خيرٌ من تصدٍّ ... لإيسره وإن قرب الطبيب
وكما في الأبيات المشهورة التي يقول فيها:
رأيت الدهر يرفع كل وغد ... ويخفض كل ذي شِيَم شريفهْ
كمثل البحر يغرق فيه حي ... ولا ينفكُّ تطفو فيه جِيفهْ
أو الميزان يخفض كل وافٍ ... ويرفع كل ذي زنةٍ خفيفهْ
فترى أنه مُغْرىً دائماً بتتبع الصور وبالتصوير سواء أكان ذلك في مدحه أو ذمه. وتظهر مقدرته على التصوير أعظم ظهور في وصف الأزهار أو الأنهار أو الأشجار أو القفار أو الرياح أو السماء أو السحاب أو الفواكه أو الروائح أو المأكولات، وله في كل هذه الأشياء أشعار كثيرة. أنظر إلى وصفه للنسيم:
وشمائل باردة النسيم ... تشفي حزازات القلوب الهِيْم
كأنها من جنة النعيم

وقوله في وصف الأرض والمطر:
أصبحت الدنيا تروق من نظرْ ... بمنظرٍ فيه جلاء للبَصَرْ
أثنت على الأرض بآلاء المطر ... فالأرض في روض كأفواف الحبر
نَيِّرَةَ النوار زهراء الزَّهَرْ ... تَبَرَّجَتْ بعد حياء وخَفَرْ
تَبَرُّجَ الأنثى تصدت للذكر
ويقول في غروب الشمس:
كأن خُبوَّ الشمس ثم غروبها ... وقد جعلت في مجنح الليل تمرض
تخاوُص عينٍ مس أجفانها الكرى ... يُرَنِّقُ فيها النوم ثم تُغَمِّضُ
ومن بدائعه القصيدة التي يقول فيها (حيتك عنا شمال طاف طائفها) والتي يقول فيها: (ورياضٌ تخَايَلُ الأرض فيها) والتي يصف فيها النرجس والورد في قوله (للنرجس الفضل المبين لأنه) والأخرى التي يصف فيها فواكه أيلول ويقول: إنه لولاها لزهد في الحياة. وله القصيدة البديعة التي يصف فيها غروب الشمس.
وأول وصفها قوله فيها:
وقدر نَّقَت شمس الأصيل ونفَّضت ... على الأفق الغربيِّ ورسا مذعذعا
وفيها يتخيل أن الشمس تودع النبات ويودعها النبات وكأن كلا منهما يحس لوعة الفراق. ويخيل إلى أنه لو كان نقاشاً لرسم ونقش صورة مملوءة بالحياة كأبدع ما صنع المصورون في معنى هذه القصيدة، ولكن ما أحسب أن مصوراً يأتي بأحسن مما جاء به في الشعر، وله وصف العنب الأبيض الذي يقول فيه:
لم يُبْق منه وَهَجُ الحرور ... إلا ضياءً في ظروف نور
وله في وصف الخمر:
لطفت فقد كادت تكون مُشاعَةً ... في الجو مثل شعاعها ونسيمها
وأمثال هذا الوصف كثير في شعره. وهو مصور أيضاً في غزله. أنظر إلى وصفه محاسن النساء في قصيدة (أجنت لك الورد أغصان وكثبان) ووصفه الجمال والغناء في قصيدته الدالية في وحيد المغنية وهي التي يقول فيها: (يا خيلليَّ تَيَّمَتْني وحيد) وكأنما هو فيها يُصورُ الألحان كما يصور الوجوه الحسان. ومن بدائعه في الغزل قوله: (وحديثها السحر الحلال لو انه) وقوله: (لو كنتَ يوم الفراق حاضرنا) وقوله: (لا تكثرنَّ ملامة العشاق) وقوله: (وفيك أحسن ما تسمو النفوس له) وقوله: (شفيعك من قلبي شفيعٌ مُشَفَّعُ). وله غزل كله شهوة، وله مجون شنيع، وكان يفتخر بالقدرة الجثمانية على الملذات. وهذا كله لا يليق نشره ولكن له مع ذلك غزلاً وجدانياً رقيقاً، فهو قد جمع الأطراف لأنه كان مرهف الإحساس كما كان مرهف الحواس وتراه يجمع الوجدان والتصوير في قوله في حب الوطن:
بَلدٌ صحبتُ به الشبيبة والصِّبا ... ولبست فيه العيش وهو جديد
فإذا تمثَّل في الضمير رأيته ... وعليه أفنان الشباب تميد
فهنا أيضاً نزعة التصوير غالبة عليه في البيت الثاني. وله أشعار أخرى في حب الوطن، ولا غرو فإنه كان يمقت الأسفار. ومن رأيي أن تحسُّرَ ابن الرومي على ذهاب الشباب ليس له مثيل في شعر الشعراء وإن كانوا قد أكثروا في هذا الموضوع. وأحسن قصائده فيه قصيدته التي يقول فيها (كفى بالشيب من ناهٍ مطاعٍ) ومن أبياته فيها، وقد غلبت عليه
النزعة إلى التصوير في هذه الأبيات:
يُذَكِّرُني الشبابَ جنانُ عدن ... على جنبات أنهار عِذَابِ
تفيء ظلها نفحات ريح ... تهز متون أغصان رطاب
إذا مَاسَت ذوائبها تداعت ... بواكي الطير فيها بانتحاب
يذكرني الشباب وميض برق ... وسجع حمامة وحنين ناب
وكانت أيكتي لِيَدِ اجتناء ... فصارت بعده ليد احتطاب
وهو لا يكتفي بما يكتفي به غيره من جعل الحياة بعد الشباب كالموت بل يقول إنها عذاب. وله قصائد أخرى في التحسر على الشباب منها قصيدة (دَابَرَ أوطارَهُ إلى الذِكَر) و (خليليَّ ما بعد الشباب رزية) و (لا تَلْحَ مَنْ يبكي شبيبته) و (أيام إستقبل المنظور مبتهجاً) وقوله:
اكتهلتْ همتي فأصبحتُ لا أب ... هج بالشيء كنتُ أبهج بِهْ

وحَسْبُ من عاش من خلوقتِه ... خلوقة تعتريه في أَرَبِهْ
وهذا الرجل المنهوم بمحاسن الحياة ولذاتها، المولع بوصف مباهجها وفتنها وأطايبها، له حالات إذا وصف فيها الزهد أتى بالقول المؤثر، كما في قصيدته في وصف الزُّهَّادِ، وهي قد جمعت أيضاً بين التصوير والوجدان، وهي التي يقول فيها:
تَتَجافَى جنوبهم ... عن وطئ المضاجعِ
ولكن الجمع بين التهافت على الملاذ في وقت من أوقات الحياة وشدة الشعور الديني في وقت آخر أمر مشهود؛ وقد يتردد صاحبهما بينهما مرات عديدة.
وقصائد ابن الرومي في الإخوان والعتاب متنوعة الأغراض والمعاني والأنغام والصور. وأشهرها قصيدة: (يا أخي أين ربع ذاك اللقاء) وفيها يتخيل مناظرة ونقاشاً طويلاً بينه وبين هنات صاحبه، وهي بارعة في التصوير والتفكير؛ ولكن له من القصائد ما هو أكثر وجداناً وعاطفة، وله مقطوعات موسيقية كقوله:
طلبتُ لديكم بالعتاب زيادة ... وعطفاً فأعتبتم بإحدى البوائق
فكنتُ كمستسْقٍ سماءً مخيلة ... حياً فأصابته بإحدى الصواعق
وقوله:
عدوك من صديقك مستفاد ... فلا تستكثرنَّ من الصحاب
فإن الداء أكثر ما تراه ... يحول من الطعام أو الشراب
والأبيات التي ذكرت من قبل وأولها: (تخذتكم درعاً وترساً لتدفعوا) وهي من أبدع ما قال في العتاب الوجداني، وكذلك قوله: (أتاني مقال من أخ فاغتفرته). وقوله: (إني لأغضى عن الزلات مجتنباً). وكثرة العتاب في شعره تدل على أنه كان منكوباً في الإخاء والأنصار. وقد أجاد ابن الرومي أيضاً في الرثاء لأنه كان منكوباً في أولاده، وإنما هذه نكبة الرزء والموت لا نكبة الجفاء التي دعت إلى إجادة العتاب، ولا أذكر قصيدة في رثاء الأبناء في اللغة العربية تقارب قصيدة ابن الرومي الدالية في رثاء ابنه الأوسط غير قصيدتي التهامي، ومطلع قصيدة التهامي الأولى:
حكم المنية في البرية جاري ... ما هذه الدنيا بدار قرار
ومطلع الثانية:
أبا الفضل طال الليل أم خانني صبري ... فخيِّلَ لي أن الكواكب لا تسري
وفيهما يرثي ابنه كما رثى ابن الرومي ابنه بقصيدته التي أولها مخاطباً عينيه:
بكاؤكما يشفي وإن كان لا يُجدِي ... فجودا فقد أودى نظيركما عندي
وتغلب نزعة الرسم والتصوير على الشاعر، فيصف ابنه يعالج المرض والموت، ويصف حزنه إذا رأى أخويه يلعبان في ملعب له. وهذه القصيدة من أجلِّ ما قال ابن الرومي من الشعر، بل من أجلِّ ما قال شاعر من الشعر، وهي أكبر دليل على أن الشعر الرفيع المقام لا يكون إلا إذا وجدت العاطفة، وأما الصنعة وحدها فلا تخلق شعراً عالياً.
ولابن الرومي قصائد أخرى في الرثاء تستجاد، منها رثاء يحيى بن عمر العلوي التي مطلعها:
أَمامك فانظرْ أي نهْجيك تنهج ... طريقان شتى مستقيمٌ وأعوج
وفيها يقارن بين ترف العباسيين وبين ما كان العلويون فيه من تشريد واضطهاد. ومما يؤسف له أنه شانها بالفحش الشنيع في هجاء العباسيين؛ وهذه القصيدة تذكرني بقصيدة دعبل الخزاعي الرائعة في آل البيت وهي أعمق أثراً ومطلعها:
مدارس آيات خلت من تلاوة ... ومنزل وحي مقفر العرصات
والذي يقرأ شعر ابن الرومي يرى أنه أشد ذوي الفنون عجزاً عن حبس بعض ما يجول في خاطره من الخواطر، وهذا العجز يجعل صاحبه كأنه أسوأ خلقاً ونفساً من الناس، وهو
قد يكون وقد لا يكون، فإن كان إنسان - كما قال سمرست موام - القصصي الإنجليزي في كتاب (الخلاصة) تخطر على خاطره خواطر السوء حتى على بال القديسين المطهرين الذين كانوا يشكون في نقاوتهم وطهارتهم بالرغم من أنهم كانوا لا يفعلون ما يدعو إلى هذا الشك؛ وذوو الفنون، بسبب النزعة الفنية إلى تصوير أنفسهم والتعبير عن خوالجها، قد يعجزون عن كتم هذه الخواطر التي يكتمها غيرهم. وإني أميل أحياناً إلى الاعتقاد أن قصص المجون في شعر أبي نواس وابن الرومي لم تحدث حقيقة ولم يفعلوا ما زعموا أنهم فعلوا أو على الأقل بعضها لم يحدث، وإنما هي خواطر السوء

التي تمر بخاطر الناس ويكتمها الناس ويعجز بعض الفنانين عن كتمها بل يصنعون منها قصصاً فخراً بها أو صنعة. وعلى هذا القياس نستطيع أن نفهم قصيدة ابن الرومي التي أولها: (لهف نفسي على رصاص مُذابٍ) أي رصاص منصهر كي يصبه في فم عدوه حتى يموت ويتشفى بسؤاله عن صحته أثناء ذلك، وهي قصيدة شنيعة. ولكن كم من الناس إذا تألم من عداء رجل ألماً شديداً لا تخطر له مثل هذه الخواطر إذا اشتد به الألم وكان مرهف الإحساس؟ أما أن يصب الرصاص المنصهر في فم إنسان فهذه مسألة أخرى، فقد يكون صاحب هذه الخواطر أعجز الناس عن إتيان الشر كما هو أعجز الناس عن كتمان ما يجول بخاطره من خواطر السوء. ولا ننس أن ابن الرومي كان مرهف الإحساس حتى أنه أعد خنجراً مسنوناً كي يقضي به على حياته فيما زعموا إذا اشتد به الألم في الحياة، وقد اشتد واشتد ولم يفعل.

عبد الرحمن شكري

من برجنا العاجي

يقع لي أحياناً أن أهبط محلاً عاماً فيتقدم إلي شخص لا أعرفه، يحييني تحية رقيقة ويقول: (أحد قرائك المعجبين) ثم يمضي دون أن يزيد. ويحدث لي دائماً في كل عيد أن أفض البريد فأجد بطاقات التمنيات ورسائل التهاني كأنها باقات الورد من قراء كرام لم تبصرهم عيني ولم يروني إلا فكرة تعيش في سياج السطور على أديم الصفحات

هنا معنى الاتصال الروحي، أرفع ألوان الاتصال، وأسمى أنواع المشاعر. وإني ليملؤني العجب حيناً، ويداخلني الزهو أحياناً إذ لأجد في الشرق مثل هؤلاء القراء!

لكن مهلاً. . . فيم العجب؟ ألسنا القائلين الشرق هو قلب (الروحانية) النابض؟

إنما المدهش حقاً هو أن نرى قراء الغرب يبعثون كل صباح ملايين الرسائل إلى كتابهم المحبوبين! نعم أين هذا الاتصال الروحي من ذاك! إذا قلنا إن الفرق في عدد القراء وانتشار الأمية أو التعليم لكذبتنا النسب والأرقام، ولتبين لنا آخر الأمر أن الشرق متخلف في هذا المضمار على كل حال

إن عيب الشرق هو (الكسل). والقارئ الشرقي على وجه عام رخو المزاج فاقد النشاط. إنه يطالع وتتأثر نفسه ويتفتح قلبه، ثم لا يلبث أن يتثاءب ويلقي الكتاب وينسي المؤلف وتخمد فيه الجذوة. ثم هو بعد ذلك كثير الإهمال قليل الاكتراث. فأين القوة الداخلية التي تدفعه إلى طلب الاتصال بذلك الروح الذي أنس إليه؟

إنه (يستهلك) مادة الكتاب مثلما يستهلك مادة الطعام دون أن يلقي بالاً إلى الطاهي الذي أعده لمادته. وهكذا ينكشف الأمر عن هذه النتيجة العجيبة:

إن روحانية الشرق قد هبط بها (كسل النفس) إلى المادية، وإن مادية الغرب قد ارتفع بها (تيقظ النفس) إلى الروحانية!

توفيق الحكيم

أعلام الأدب

هوميروس

للأستاذ دريني خشبة

(إلى أستاذي الجليل أحمد حسن الزيات أهدى هذه الفصول)

كان هوميروس يخفض الآلهة إلى مراتب الناس فيجعل لهم من الغرائز الدنيا مثل ما للناس، ثم يرفع الناس إلى مراتب الآلهة فيجعل لهم من الفضائل ما ليس ينبغي إلا للآلهة، أو ما ليس يتوفر إلا للآلهة.

وعجيب أن تتخذ آلهة هوميروس مثلها العليا من البشر الذين خلقتهم بأيديها، لأن هوميروس - على ما يبدو في ملاحمه - لا يرى الحياة الدائبة النشيطة المفعمة بالغرائز المتضاربة، إلا في محيطها المرئي المعترف به الذي يتكون منا نحن البشر. . . ولكي تتم الصورة الشعرية التي هي روح ملاحمه، والتي تفوّق بها على ضريبه هسيود، تراه يلجأ إلى الأساطير يلون بها فصوله، وليثير بغرابتها اشتياق سامعيه، وليجدد فيهم الحماسة التي هي أولى غايات الملاحم. لذلك تراه يعقد مجالس الآلهة للتشاور فيما ينبغي أن تكون الوسيلة لنصرة فلان أو لخذلان فلان، فإذا اجتمع شمل الأولمب فلا بأس أن تثور الحفائظ بين أرباب وأرباب وبين ربات وربات، ولا بأس أن يُعيّر أحد الآلهة

فلكان إله النار بما وقع بين زوجه فينوس وبين مارس إله الحرب من خطيئة وفسوق. . . ولا بأس أن يدس هرمز أنفه في الموضوع فيصرح أن مارس معذور جد معذور فيما حدث له من الصبوة إلى فينوس، وأنه أول من يشتهي أن يكون الذي وقع لمارس كان قد وقع له. . .

وليس يرى هوميروس بأساً في أن ينزل الآلهة في معمعان الحرب ينافحون عن الأبطال الذين ينتمون إليهم. . . ففي الكتاب العشرين من الإلياذة يستأذن الآلهة سيد الأولمب فينقسمون فريقين، فتكون هيرا ومينرفا وهرمز وفلكان في صفوف الإغريق، وينحاز أبولو ومارس وديانا وفينوس إلى صفوف الطرواديين. . . فإذا ثار النقع، واضطرمت الحرب، والتقى أخيل وهكتور (الكتاب العشرين) وقعقعا بالسلاح، وأوشك هكتور أن يظفر ببطل أبطال اليونان عندما يسقط رمحه. . . تتقدم مينرفا فجأة وعلى عجل فتأخذ الرمح من فوق الأرض وتناوله لأخيل فتنقذه من قتلة لم يكن فيها شك ولا عنها متحول. . . وهي تفعل مثل ذلك في الكتاب الثاني والعشرين فتنقذ أخيل وتمهد له بذلك فيقتل هيكتور. . . ومع أن مينرفا هي ربة الحكمة في الميثولوجيا اليونانية فهوميروس في هذا الموقف ينحط بها إلى أسفل مراتب الإنسان لأنها تكون سبباً في قتل رجل عظيم مثل هكتور يدافع عن وطنه ويذود عن حمى بلاده. . . وهي لا تتسبب في قتله فقط بل تحرمه فرصة نادرة أوشك أن يبطش فيها بأخيل.

وليتها فعلت كما صنع نبتيون في الكتاب العشرين حينما أنقذ إينياس من رمح أخيل مرتين حتى لا يغضب زيوس كبير الآلهة على بطل الإغريق.

هوميروس يزخرف الإلياذة بمثل تلك الأساطير ليقطع تسلسل المعارك، وليتقي سأم السامعين، وليجدد حماستهم، وهو في ذلك أستاذ أرباب المسرح من أمثال شكسبير وموليير. . . وهو لا تعييه الحيلة في اختراع ما يخفف وطأة الحزن إذا استعرت نيرانه في قلوب الناس حوله، فلا بأس عنده إذن من أن يترك جدث بتروكلوس ويقيم حفلاً أولمبياً للألعاب يشترك فيه أبطال الحرب فينافس بعضهم بعضاً فيتسابقون ويتلاكمون ويصطرعون ويقذفون القرص ويرمون الطوق ويحملون الأثقال ويسابقون على الخيل. . . وتكون حفلة باهرة كأحسن ما شهد العالم الحديث في أولمبياد برلين. . . ثم ينهض أخيل المحزون المرزّأ، في إثر كل مباراة، فيوزع الجوائز السنية على الفائزين (الكتاب الثالث والعشرين).

وقارئ الإلياذة يتولاه العجب وتأخذه الدهشة لبراعة هوميروس الأعمى في الوصف. . . فكأس نسطور في الكتاب الحادي عشر، ودرع هكتور في الكتاب السادس، والنقوش الأخاذة التي حفرت في درع أخيل، والستر الأزرق الجميل في قصر ألكينوس، وشروق الشمس وغروبها، وتكاثف الضباب، والنقع المثار فوق المعمعة. . . كل هذه آيات من الوصف الدقيق الذي يشهد لهوميروس بملكة فنية قوية تتجلى في أكثر أنحاء منظومته، وتربك المترجم خاصة حتى يستعصي عليه أن يساير هوميروس، ملك الشعراء، الذي تراه فيما ينظم مصوراً ورساماً وقائد جيوش وإلهاً وسحاباً وبرقاً ورعداً وحداداً. . ثم جزاراً وشواءً. . . ثم راهباً وواعظاً وما شئت من فنون الحياة التي لا حصر لها. . .

لقد يتهم الإنسان لغته وهو يترجم هوميروس. . . فهو لا يدري كيف ينقل كلامه وهو يصف الرجل يتل الشاة ثم يذبحها ثم يسلخها ثم (يوضّبها!) ثم يشعل النار ثم يؤججها ثم ينثر فيها من أعواد الند والرند والصندل ثم يلقي فيها بالقراميد ثم يقطع اللحم ثم ينتشر القُتار (رائحة اللحم المشوي). . . ثم. . . ثم. . .

حقاً إن في كتب فقه اللغة ما يعين المترجم على كل هذا، لكن المترجم يغازل الذوق العام للقراء وهو ينقل آثار الأعاجم، وهو إذا قسا على هذا الذوق أعرض عنه، ولم يلتفت إليه، وذوق القراء عندنا ذوق كسول لا يجب أن يُرهق بما حُشد في كتب فقه اللغة، لأن أكثر ما في هذه الكتب حوشي وقد هجر استعماله، والمترجم لا يستعمله إلا إذا ضاقت به الحيل، ولم يستطع أن ينحت من الكلمات الحديثة السائغة ما ينزل برداً وسلاماً على القراء.

وبعد فأي الملحمتين أثرت في نهضة الأدب المسرحي اليوناني أكثر من الأخرى، الإلياذة، أم الأوديسة؟

لقد أشرنا إلى ما قيل من أن هوميروس قد نظم الإلياذة للرجل، كما نظم الأوديسة للمرأة. الإلياذة التي تفيض بذكر الحروب ووصف المعامع ومقادير الأبطال في أولئك جميعاً، والأوديسة التي هي قضية زوجة وفية غاب عنها زوجها حتى ظن أنه غير آيب وحتى طمع فيها كل طامع، لأنها تفردت بين نساء زمانها بالحسن الذي لا يغيره مرور الأيام ولا ينال منه تطاول الزمان.

نظم هوميروس الإلياذة لتكون مثالاً للرجال يحتذونه. . . إذ ينبغي أن يكون الرجال شجعاناً. ينبغي أن تثور فيهم النخوة إذا تعرض رجل نذل مثل باريس لامرأة أحد منهم بسوء فيقوموا كرجل واحد ويجتمعوا من كل حدب وصوب ليردعوا من نالهم بالأذى في أعراضهم، ولو شبوها ضراماً، وَصَلَوْها أعواماً. . .

ونظم هوميروس الأوديسة للنساء مثالاً رائعاً من الوفاء يحتذينه. . . إذ ينبغي أن يكون النساء وفيات لأزواجهن فلا يفرطن في أعراضهن، ولا يستسلمن للمقادير إذا عارضت شرفهن. لقد غاب أودسيوس زمناً طويلاً، واجتمع عشاق بنلوب في قصره يراودون زوجه ويأكلون زاده ويهينون ولده، ومع ذلك فلم تضعف بنلوب، بل احتالت للطاغين العتاة، وصابرت، وضربت بعضهم ببعض حتى آب زوجها فحصد شوكتهم واستأصل شأفتهم.

فالإلياذة خشنة كخشونة الرجال، والأوديسة لطيفة رقيقة فيها كثير جداً من رقة النساء. . . وهي رقة جعلت صمويل بطلر الأديب الإنجليزي العظيم يؤمن بأن هوميروس لم ينظم الأوديسة ولم يعرفها ولا تمت إليه بسبب، وبأنها من نظم فتاة من جزيرة صقلية استطاعت أن تدرس هوميروس والميثولوجيا اليونانية دراسة هادئة ثم فرغت لنظم الأوديسة فأتمت عملها في سهولة وفي يسر، وأخرجت هذه الدرة الفريدة التي تسمو في كثير من فصولها إلى ذروة الإلياذة.

لشد ما يدهش المرء لهذه الفكرة الغريبة التي قذف بها منطق بطلر! إن كثيراً من القرائن يؤيد هذا الرأي، بيد أننا لا نميل كثيراً إلى الأخذ به لأن الأخذ به شرود خطير مبالغ فيه عن حيز الأدب اليوناني القديم، وقليل من الاستقراء في المآسي التي ألفت بعد هوميروس تهدم رأي بطلر وآراء الذين تشككوا في صحة نسبة الأوديسة إلى هوميروس، فثلاثية إسخيلوس (الأورستية) مثلاً والتي تتركب من مآسيه أجاممنون وحاملات الكئوس والأيومينيدز قد أشير إليها في الأوديسة (الكتاب الحادي عشر) إذ يقص أوديسيوس على ألكينوس الملك رحلته إلى هيدز (الدار الآخرة) وما تحدث إليه به الكاهن تيرزياس عن أوبة أجاممنون، وما حدث له من الغيلة على يدي زوجته كليتمنسترا وعشيقها إيجستوس ثم ما كان من ثأر الفتى أودست لأبيه وقتله أمه. . . الخ.

فهذه الثلاثية التي أخذها إسخيلوس من الأوديسة وقدمها للمسرح تنقض وحدها دعوى الأديب بطلر، لأن الفتاة الصقلية التي يزعم أنها نظمت الأوديسة لم تكن قد وجدت بعد.

وقد جاء سوفوكلس فوضع مسرحيات كثيرة معظمها مفقود بكل أسف متخذاً موضوعاتها من صميم الأوديسة، ومما وصل إلينا من أسمائها تلك المسرحية الجميلة المسماة نوزيكا، وقد أخذ فكرتها من الكتاب السادس، وهي المسرحية التي يُروى أن سوفوكلس نفسه قد قام فيها بتمثيل دور الفتاة نوزيكا ابنة الملك ألكينوس حينما ذهبت إلى شاطئ البحر في سرب من وصيفاتها لغسل أثواب عرسها وتنشرها في الشمس فوق أغصان أشجار الغابة التي كان أوديسيوس مختبئاً فيها بعد نجاته من الغرق.

وهناك أدلة كثيرة تهدم ما رآه بطلر خطأ في نسبة الأوديسة إلى مؤلف غير هوميروس ولم أعثر في الكتب التي درست فيها ملك الشعراء من يوافق الأديب الإنجليزي على وجهة
نظره هذه.

والذي يقرأ مآسي اليونانيين القديمة يلاحظ أن الشعراء قد عنوا بالإلياذة أكثر مما عنوا بالأوديسة، فأخذوا من الأولى أضعاف ما أخذوا من الثانية. وقد لا يكون بعيداً أن إسخيلوس قد أخذ من الإلياذة ستين مأساة على أقل تقدير من الثمانين التي ألفها والتي قال فيها إنها فتات من موائد هوميروس الغنية. . . وكذلك أخذ سوفوكلس مادة

مآسيه في أكثر ما وضع للمسرح.
والإلياذة حقيقة بهذا الالتفات من شعراء اليونان، فهي النهر العظيم الجياش المتدفق الذي تفرعت منه الأوديسة والإلياذة الصغيرة والإلياذت الكثيرة التي ألفها شعراء القرن الثالث قبل الميلاد في كل من أثينا والإسكندرية، والتي لا نستطيع هنا أن نحصرها، بل أن نتكلم عنها.
وليس من شك في أن شخصية أخيل هي أبرع شخصيات الإلياذة. ولا غرو، فقد سمى هوميروس إلياذته (قصيدة غضب أخيل!!). وروح أخيل هي كهرباء الحماسة في الإلياذة من أولها إلى آخرها.
أنظر إليه وقد ذهبت به أمه إلى نهر الخلود تغطه فيه حتى لا ينفذ في جسمه رمح ولا سهم من رماح الحرب أو سهامها لأن لماء هذا النهر ذاك الفعل العجيب! وانظر إليه كيف يبتل جسمه كله ما عدا عقبه. . . ثم يكبر أخيل ويشب ويصبح بطل أبطال اليونان، ثم تكون حروب طروادة فيمضي إليها بخيله ورجاله، ويقتل الأبطال الصناديد، ثم يصوب إليه باريس سهماً من سهامه يقر في العقب التي تبتل بماء نهر الخلود فيكون فيه حتفه!
وانظر إليه يختلف، وأجاممنون من أجل الجارية بريسيز التي هويها أخيل وعلقها قلبه فيرفض أن يغشى المعركة، ويعتزلها وجنوده الميرميدون، فتدور بذلك الدائرة على جيوش اليونان ولا يغنيها أن يكون في صفوفها الأبطال المغاوير أودسيوس وأجاكس وديوميدز ومن إليهم. . . وأنظر إليه يكلمه بتروكلوس في نصرة بني جلدته حين يعز عليه أن يصطلمهم أبطال طروادة فيأذن له، ويضفي عليه درعه العظيمة التي ذهبت أمه فصنعتها له عند فلكان الحداد. . . ويذهب بتروكلوس فيكسر شوكة الطرواديين ويصيبهم القرح على يديه وأيدي الميرميدون جنود أخيل.
وانظر إلى أجاممنون يعتذر إليه ويرد عليه بريسيز ويقسم له أنه لم يطمثها ولم يمسسها بسوء. وانظر إلى أخيل لا يفيء ولا يلين ولا ينهض لحرب الطرواديين، فيغضب الآلهة ويسخط أرباب الأولمب ويخرق الشرائع وقوانين الأخلاق، فتكون النتيجة أن يُقتل بتروكلوس الحبيب العزيز.
وانظر إلى أخيل كيف تسود الدنيا في عينيه حزناً على بتروكلوس فيمضي إلى المعمعة فيصرع أبطال طروادة ويجول فيها ويصول ويزأر ويزمجر ويطويها كالعاصفة. . . ثم انظر إليه يظفر بهكتور قاتل بتروكلوس فيصرعه ويجره خلف عربته ويدور حول طروادة غير موقر قدس الموت ولا حافل بتقاليد السماء.
ثم قف عند أروع مناظر الإلياذة جميعاً: برياء الحزين! والد هكتور! هذا الرجل المحطم يمضي وحده إلى أخيل باكياً ضارعاً متوسلاً، يرجو الرجل الذي قتل أولاده في أن يدع له جثمان هكتور ليشفى بالبكاء عليه جوى نفسه، وليطفئ بتحريقه السعير المضطرم بين جوانحه، فيعصف الحزن بأخيل العظيم، ويعانق الرجل العظيم، ويتبادلان البكاء، ثم يأذن له ببدن ولده. . .
هنا نبل هوميروس، وهنا إنسانيته وسموه، وهنا فرق ما بينه وبين قصاصينا الذين يشتركون مع سامعيهم في السخط على بطل الناحية الثانية.

دريني خشبة

الإسلام دين تبشيري

للمستشرق الإنجليزي توماس أرنولد

للأستاذ عبد الفتاح السرنجاوي

أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية أصول الدين

كان المرحوم السير توماس أرنولد المتوفى في التاسع من يونية سنة 1930 - أستاذاً للغة العربية في جامعة لندن، وكان واسع الاطلاع في علوم الدين الإسلامي واللغة العربية، وأهم مؤلفاته كتاب: (الدعاية الإسلامية وهو بحث عظيم الخطر جليل القيمة في تاريخ انتشار الدين الإسلامي. طبع للمرة الأولى سنة 1896، وأعيد طبعه سنة 1913؛ ثم طبع بعد وفاة المؤلف طبعة ثالثة سنة 1935 كتب مقدمتها المستشرق العلامة (رينولد نيكلسون). وأهم ما يلفت النظر في هذا الكتاب هدوء البحث، وسلامة التفكير، وعدم التحيز، ولا غرو فقد كان مؤلفه من أكثر المستشرقين اعتدالاً وأصدقهم نظراً وأكثرهم تجرداً من النزعات التعصبية، وهذا جعل لكتاباته في الموضوعات

الإسلامية أهمية خاصة، ونحن نكتفي بهذا التعريف القصير لنقدم لقراء (الرسالة) ترجمة الفصل الأول من هذا الكتاب القيم، وهذا الفصل يعتبر مقدمة لما تناوله المؤلف بالبحث في بقية فصول الكتاب، وسنوافي الرسالة بترجمة الفصول الأخرى تباعاً، كما أننا سنعد دراسات أخرى لمآخذنا على بعض آراء المؤلف

(ع. س)

برح الخفاء منذ ألقى الأستاذ ماكس مولر محاضرته بكنيسة وستمنستر يوم الشفاعة للجماعات التبشيرية في ديسمبر سنة 1873. وأسفر الموقف عن أن الديانات الست العالمية العظيمة يمكن تقسيمها إلى تبشيرية وغير تبشيرية. فالنوع الثاني تنضوي تحت لوائه اليهودية والبراهمية والزرادشتية. ويضم النوع الأول البوذية والمسيحية والإسلام. ولقد حدَّد الأستاذ في وضوح ما اصطلح على تسميتها (ديانة تبشيرية) فقال: إن معناها أن يكون نشرها وإدخال الكفار فيها قد سما إلى مرتبة الواجب القدسي في نظر منشئ الديانة أو خلفائه الأولين. . . إنها روح اليقين في نفوس المؤمنين لا يقر قرارها حتى تنبعث فكرةً

فقولاً فعملاً، ولا ترضى وتطمئن حتى تبلغ رسالتها إلى كل نفس إنسانية، وحتى يؤمن بما آمنت به أفراد البشرية جميعاً.

ومثل هذه الغيرة التي بدت من المسلمين لتشهد على صدق دينهم هي التي حفزتهم على أن يحملوا رسالة الإسلام إلى كل أرض ينفذون إليها، وهي التي جعلت لدينهم بحق تلك المكانة بين الديانات التي نطلق عليها (الديانات التبشيرية). وتاريخ نشأة هذه الغيرة التبشيرية والقوى الدافعة إليها وطرائق نشاطها كلها موضوع الصحائف القادمة، ولا ريب أن أولئك المائتي مليون من المسلمين المنتشرين اليوم في الأرض دليل جهاد هذه الروح طوال القرون الثلاثة عشر الماضية.

وأعلن تعاليم هذا الدين لأول مرة في القرن السابع عشر على أهل بلاد العرب نبي انضوت تحت لوائه قبائلها المتفرقة فأضحت شعباً واحداً، ثم دبت فيهم الروح القومية الجديدة فملأتهم حياة ونشاطاً، ثم سرت في جيوشهم حماسة وغيرة فملأتاها بأساً وقوة لا مرد لهما، وبهذه العدة كلها خرج المسلمون إلى القارات الثلاث يفتحون البلاد ويخضعون العباد، فاستولوا في أول الأمر على سوريا وفلسطين ومصر وشمال أفريقيا وبلاد فارس، وانطلقوا بعد هذا غرباً إلى أسبانيا وشرقاً إلى ما وراء الأندوسيا، ولم يمضي على وفاة النبي مائة عام حتى وجد المسلمون أنفسهم سادة إمبراطورية أوسع رقعة من إمبراطورية روما في أوج قوتها.

ورغم أن هذه الإمبراطورية قد تصدعت فيما بعد وانهارت قوة الإسلام السياسية فإن فتوحه الروحية قد بقيت لا تحول دون سبيلها الحوائل. نعم أغار المغول على بغداد سنة 1258 وسلبوها، وأغرقوا في الدماء مجد العباسيين وقد ذبل عوده وحال لونه، وقام النصارى في الأندلس وعلى رأسهم فرديناند صاحب ليون وقشتالة فطردوا المسلمين من قرطبة سنة 1236، ودفعت غرناطة آخر حصن للمسلمين في الأندلس الجزية للملك المسيحي. كان ذلك كله يجري والمسلمون يضعون أقدامهم في أرض جديدة يدخلون أهلها في دين الله، تلك هي جزيرة سومطرة، ثم كانوا على وشك أن يبدءوا تقدمهم الموفق في جزائر أرخبيل الملايو، وهكذا يقوم الإسلام في ساعات انهياره السياسي بطائفة من أعظم غزواته الروحية. وفي التاريخ ظرفان خطيران وطئ فيهما الكفار بأقدامهم أعناق المسلمين، أولهما:

حين دهمهم الأتراك السلاجقة في القرن الحادي عشر؛ والثاني حين غزاهم المغول في القرن الثالث عشر. ورغم أن الغزاة أخضعوا المسلمين لسلطانهم السياسي في كلتا الحالتين فإنهم خضعوا لسلطان الدين الإسلامي ورضوه ديناً لأنفسهم. وفي مرة أخرى نجد المبشرين المسلمين في غير اعتماد على سلطان الحكم وصولة الجيوش يحملون الدين الإسلامي إلى أواسط أفريقيا والصين وجزائر الهند الشرقية.

واليوم يمتد نطاق الإسلام من مراكش إلى زنجبار، ومن سيراليون إلى سيبيريا والصين، ومن البوسنة إلى غيانة الجديدة. ولو أننا تركنا البلاد الإسلامية البحتة أو التي يسكنها عدد كبير من المسلمين كالروسيا والصين، وجوزنا حدودها إلى البلاد التي لم تؤمن بالإسلام لوجدنا بها بعض الجماعات الإسلامية القليلة العدد المحدودة الكيان تشهد على قيام الإسلام بين من كفروا بدعوته. ومن أمثلة ذلك لتوانيا التي يعيش فيها

مسلمون من أصل تتري يتكلمون اللغة البولندية ويسكنون أقاليم كوفنو وفلنو وجردونو، وكذلك المسلمون الذين يتخاطبون باللغة الهولندية في مدينة الرأس، كذلك أجراء الهنود الذين حملوا معهم الدين الإسلامي إلى جزر الهند الغربية وغيانا البريطانية والهولندية، وأخيراً نجد للإسلام أنصاراً في إنجلترا وشمال أمريكا واستراليا واليابان . . .
ويرجع انتشار الإسلام في تلك المساحات الواسعة على ظهر الأرض إلى أسباب كثيرة اجتماعية وسياسية ودينية، ولكن من أهم العوامل التي أحدثت هذه النتيجة المثيرة للإعجاب جهود المبشرين المسلمين المتتابعة، وهؤلاء اقتدوا بالنبي (ص) نفسه فضحوا بحياتهم معه في سبيل إدخال الكفار في دينهم.
ولم يكن واجب الدعوة إلى الدين فكرة متأخرة في تاريخ الإسلام، بل كان أمراً محتوماً على المؤمنين من أول الأمر، يدل على ذلك ما نسوقه إليك من آيات القرآن المرتبة ترتيباً زمنياً بحسب نزولها:
1) (س16) (أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن)
26)
وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب، فلذلك فادع واستقم كما) أمرت ولا تتبع أهواءهم، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب، وأمرت لأعدل بينكم، الله ربنا وربكم، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، لا حجة بيننا وبينكم، الله يجمع بيننا وإليه المصير) (س42)،
(15 - 16)
ونجد نذراً كثيرة كهذه في السور المدنية التي نزلت ومحمد على رأس جيش عظيم وهو في منتهى قوته، نسوق منها ما يأتي:
وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم؛ فإن أسلموا فقد اهتدوا، وإن تولوا فإنما) عليك البلاغ والله بصير بالعباد) (س3) (21)
كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون. ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير . . .) ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) (س3) (104 - 105)
لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه فلا ينازعنك في الأمر وادع إلى ربك إنك لعلى هدى) مستقيم. وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون) (س22) (68 - 69)
والآيات الآتية مأخوذة من السورة التي تعتبر على وجه الإطلاق آخر ما نزل من القرآن:
وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله، ثم أبلغه مأمنه ذلك) بأنهم قوم لا يعلمون) (س9) (8)
إذاً فالإسلام منذ نشوئه دين تبشيري من الوجهتين النظرية والعملية؛ وحياة محمد مثلٌ لهذا المبدأ التبشيري، كما أن النبي نفسه قد ظهر على رأس جماعات تبشيرية عديدة نجحت في إدخال الكفار في الإسلام. ولا يصح فوق هذا أن نغتنم الأدلة على الروح التبشيرية في الإسلام فيما قام به أهل الاضطهاد من ضروب العنف والقسوة، أو أن نبتغيها في جهاد هذه الشخصية التي تكاد تكون إلى الخيال أقرب منها إلى الحقيقة، شخصية المحارب المسلم يحمل سيفه في إحدى يديه ويحمل القرآن في الأخرى؛ وإنما يجب أن نلتمسها فيما بذله المبشر والتاجر من جهد هادئ بعيد عن الفضول، فحملا دينهما إلى كل مكان على وجه الأرض. ويريدنا البعض أن نحذو مثالهم في الاعتقاد بأن المسلمين لم يلجئوا إلى مثل هذه الطرق السلمية في التبشير والإقناع إلا حين أقعدتهم الظروف السياسية فجعلت من المستحيل أو من غير الكياسة استعمال العنف والقوة، ولكن الحقيقة أن القرآن في كثير من الآيات يحض على الرفق في الدعوة؛ ومن أمثلة ذلك:
واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً. وذرني والمكذبين أولي النَعْمة ومهلهم) قليلاً) (س73) (11 - 12)
(إلا بلاغاً من الله ورسالاته) (س72) (24)
س) (قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون)
45) (13)
وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرَّمنا) من دونه من شيء، كذلك فعل الذين من قبلهم، فهل على الرسل إلاَّ البلاغ المبين)

(36) (س16
(83) (س16) (فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين)
ولا تجادلوا أهل الكتاب إلاَّ بالتي هي أحسن إلاَّ الذين ظلموا منهم، وقولوا آمنا بالذي)
(47) (س29) (أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون
(49) (س42) (فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلاَّ البلاغ)
ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا)
(100) (س10) (مؤمنين
(29) (س34) (وما أرسلناك إلاَّ كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون)
وليست أمثال هذه الوصايا قاصرة على السور الملكية، ولكنها تكثر كذلك في السور التي نزلت في المدينة. ومن أمثلتها ما يأتي:
(256) (س2) (لا إكراه في الدين)
1) (س64) (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين)
3)
قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حُمّل وعليكم ما حملتم، وإن)
(55) (س24) (تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلاَّ البلاغ المبين
(50) (س22) (قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين)
إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه)
(9 - 10) (س48) (بكرة وأصيلاً
ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلاَّ قليلاً منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب)
(15) (س5) (المحسنين
والغاية من كتابة الصحائف الآتية أن نبين كيف تحققت هذه المثل في التاريخ، وكيف تناول الداعون إلى الإسلام تلك المبادئ التي تعتزي إلى النشاط التبشيري فجعلوا منها أموراً عملية، كما أود في بداءة البحث أن يفهم القارئ في وضوح أنني ما قصدت من وضع هذا الكتاب أن أدون تاريخ العنف والاضطهاد في الإسلام، وإنما قصدت أن أدون تاريخ التبشير الإسلامي. وليس غرضي من تأليفه أن أتناول الظروف التي تحوَّل الناس فيها إلى الإسلام بوسائل الإكراه والقسر - وهي مبعثرة هنا وهناك في صحائف التاريخ الإسلامي - فقد أمعن الكتاب الأوربيون في التنقير عنها والتهويل في تدوينها على وجه لا يخشى معه من نسيانها، ثمّ هي لا تدخل على وجه الدقة في نطاق تاريخ التبشير الإسلامي. فلنجاوز هذا إلى تاريخ التبشير المسيحي، وفي بطونه نتوقع بطبيعة الحال أن نقرأ عن الجهود التي بذلها القديس ليدجار والقديس ويليهاد بين الوثنيين السكسون أكثر مما نقرأ عن حالات التنصير التي أمر شارلمان أن تكون، فكانت تحت قراع الرماح ورنين القسي، في جو من الرهبة تداعت فيه الأصوات وتجاوبت الأصداء. كذلك الحال في الدانمرك فقد اجتث ملكها كنوت الوثنية من بلاده بحد السيف، ولكن بالرغم من هذا فالقديس أنسجار وخلفاؤه هم الممثلون الصادقون للتبشير بالنصرانية هناك. وفي بروسيا يمثل التبشير بالمسيحية القسيس جوتفريد والأسقف كرستيان برغم ما منيا به من الفشل في كسب الوثنيين البروسيين إلى دينهم، وبالرغم مما كتب من التوفيق لجماعة (إخوان السيف) وبقية الصليبيين الذين تيسر لهم أن يتموا بقوة النار والحديد ما بدأه جوتفريد وكرستيان. وفي ليفونيا نهضت طائفة من الفرسان تدعى (جماعة الإخوان المسيحيين الحربيين) بإدخال أهل هذه البلاد في النصرانية بوسائل الحرب والقسر، ومع ما اقترن بجهدهم من المضاء والغناء فالرهبان مينهارد وتيودوريك هما بحق رسولا المسيحية إلى هذه البلاد. ولقد لجأ الجزويت أحياناً إلى وسائل الإرهاب والعنف، ولكن هذا لا يحط من قدر المآثر التي كسبها أمثال القديس (فرانسيس اكسافيير) والمبشرين الآخرين من الجزويت. ولا يقل عن أولئك كل ما يعزى إلى (فالنتين) رسول جزيرة أمبوينا إذ صدرت الأوامر سنة 1699 لكل راجا من حكامها أن يعد عدداً من الوثنيين ينتصرون على يد هذا الرسول في إحدى جولاته في الجزيرة.
وتبدو حركة التبشير في تاريخ الكنيسة المسيحية متقطعة غير متصلة، فهذا عصر انتعاش

وحماسة في التبشير يعقبه عصر بلادة وجمود، وذاك عصر تحل فيه وسائل الإرهاب والقسوة محل وسائل الإرشاد والدعة. وهذا بعينه هو شأن الدعاية في الإسلام تنساق إلى المد، ثم لا تلبث أن تستطرد إلى الجزر. ولكن لما كانت الحماسة التبشيرية في كلتا الديانتين ظاهرة متميزة، فتاريخ الدعاية في كل منهما حريٌّ بأن يكون موضوع درس مستقل. وليس معنى هذا أن نبعد عنه بقية المظاهر الأخرى للحياة الدينية، ولكن معناه أن نفرغ جهدنا في واحد من هذه المظاهر له مميزاته الخاصة. إذاً فتاريخ الدعاية وتاريخ الاضطهاد يجب أن يدرس كل منهما درساً مستقلاً بعيداً عن الآخر، سواء أكان ذلك في تاريخ الكنيسة المسيحية أو في تاريخ الديانة الإسلامية رغم ما حدث من تلازمهما في بعض الظروف في كلتا الديانتين، ذلك لأن الدين المسيحي لم يستفض هذه الاستفاضة وينتشر هذا الانتشار في كل الظروف بمثل الوسائل التي استخدمها في فيكين جنوب النرويج الملك أولاف تريجفسون الذي عمد إلى من رفضوا الدخول في المسيحية فذبحهم أو قطع أيديهم وأقدامهم أو نفاهم خارج بلاده، وبهذا نشر النصرانية في كل أنحاء فيكين. كذلك لم تكن نصيحة القديس لويس مبدأً يسير عليه المبشرون النصارى، تلك النصيحة التي يقول فيها: (إذا سمع أحد العوام شخصاً يطعن في الشرع المسيحي، فلن يذبَّ عن دينه إلا بسيفه، وليوغل بذلك السيف في أحشاء الكافر إلى أبعد مدى يستطيع)

ونجد بالمثل جماعات تبشيرية إسلامية لم تستن تلك السنة البربرية التي عبر عنها مروان آخر الخلفاء الأمويين بقوله: (من لم يدخل من أهل مصر في ديني ويصل كما أصلي ويتبع مذهبي لأقتلنه وأصلبنه)

كذلك لم نعتبر المتوكل والحاكم وتيبو سلطان أصدق أمثلة المبشرين المسلمين لنخرج من الميدان أمثال مولانا إبراهيم الداعي إلى الإسلام في جاوة وخواجة معين الدين ششتي في الهند وغيرهم ممن لا يحصيهم العد وكان لهم فضل في إدخال الناس في الإسلام عن طريق الهدى والإرشاد السلمي وحدهما.

ولكن بالرغم من أنه يمكن وضع فاصل للتمييز بين اعتناق الدين عن طريق الاضطهاد والعنف وبين اعتناقه نتيجة الإرشاد والدعاية السلمية، فإنه ليس يسيراً أن نتحقق الدوافع التي حملت الشخص على أن يستبدل بدينه القديم ديناً آخر. كذلك ليس من السهل أن ينجلي

لنا إذا كان المبشرون بالدين قد تساموا إلى حد اعتبار الدعوة الدينية واجباً روحياً مقدساً، واسترشدوا بالمثل الأعلى الذي أوضحناه في الفقرة الأولى من هذا الفصل، ففي كلتا الديانتين نجد نفوساً متحمسة تحل دينها محل الحقيقة العليا في حياتها، وقد وَجَدَ مثل ذلك الكلف الشديد بالشئون الروحية مخرجاً في تلك الحماسة التي أدَّت إلى اعتناق الحقائق الجزلة السديدة، وإلى سيادة المذاهب والعقائد التي آمن الناس بصحتها، وهذا كله مصدر القوة التي اشتدت بها عرى الحركات التبشيرية وثبتت قواعدها. وهناك قوم لم يعملوا أكثر من الاستجابة إلى دعوة الداعين، ولكنهم اعتنقوا الدين الجديد بحماسة لا تقل عن حماسة الأولين، وعلى نقيض هؤلاء وهؤلاء عرف الإسلام كما عرفت النصرانية قوماً آمنوا بكلتا الديانتين، وكانت الشرائع الدينية لديهم مجرد ذرائع إلى ما يبتغون من الأغراض السياسية أو وسائل إلى ما يلتمسون من أوضاع للنظم الاجتماعية، وهكذا اعتنق أولئك القوم دينهم الجديد على أنه ضرورة يخطرون أنفسهم عليها إخطاراً، أو على أنها حلول مناسبة للمشاكل التي لم يعنوا بالتفكير فيها وإيجاد حلها بأنفسهم، ومثل هؤلاء نجدهم على السواء في كلتا الديانتين، إذا فقد اعتنق الإسلام كما اعتنق النصرانية في ظل الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية قوم لا تصلهم صلة بهذه الحرقة الروحية، وذلك الغليل النفساني الذي يسهِّد المبشرين الصادقين، وفوق هذا فتاريخ الحركات التبشيرية وما يصادفها من الأحداث إنما يعنى عادة بتدوين حالات التحول من دين إلى آخر دون العناية بتحليل الدوافع التي حملت الناس على استبدال دينهم بغيره، وتاريخ التبشير الإسلامي على وجه الخصوص يفتقر افتقاراً بيناً إلى المادة في هذا الصدد لأن الأدب الإسلامي معوز إلى أخبار حالات التحول إلى الدين الإسلامي، بينما اهتم أدب الكنيسة النصرانية بمثل هذه الحالات في الدين المسيحي وأحلها منه محلاً رفيعاً، وعلى هذا فنحن في عجالتنا القادمة لموضوع النشاط التبشيري الإسلامي لم نستطع الوصول إلى طبيعة العوامل

التي حملت الناس على الدخول في الإسلام، سواء منها السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو الدينية البحتة، ولو أننا استطعنا في بعض الظروف أن نشير إشارات عرضية لما أحدثته بعض هذه العوامل من الآثار.

عبد الفتاح السرنجاوي

قلت لنفسي. . .

عجيبٌ أمر ابن آدم اليوم!! يكاد لا يعطف بعضه على بعض إلا المادة أو السطوة أو الشهوة! أما ألفة الجنس للجنس، ومتعة الإنس بالإنس، وإجابة الحس للحس، فقد أصبحت في هذا الزمان، من الصفات الأثرية في الإنسان.

كانوا يقولون إن الناس مع الزمان، يقبلون متى أقبل، ويدبرون متى أدبر. فكنا نقول: كان ذلك والزمان كلبٌ يجري وراء سيده، ما دام الرغيف في يده. أما اليوم فالزمان إنسان حر مفكر لا يتبع إلا المبدأ ولا يطيع غير الضمير. ولكن الواقع وا أسفا علمنا أن الزمان لا يزال كلباً، وأن المال لا يزال رباً، وأن حكمة الأولين لا تزال صادقة!.

لي صديقي من رءوس العراق المرفوعة بالفضل والنبل والكفاية، كان وهو في سلطان السيف وعزة القلم مرجع الرأي والهوى والحاجة. فلما نكتبه في نفسه وأهله السياسة العشواء الجموح، تجرد كالسيف، وتفرد كالأسد، وأصبح فإذا الوجوه أقفاء، والأنصار أعداء، والأحياء في دنياه موتى؛ فلا رأس ينحني، ولا لسان يحي، ولا يد تصافح. وظل وحده يعالج مرارة الحزن والحرمان والغربة حتى صحا الدهر من غفوته، ونهض الحظ من كبوته، فعاد إلى الوزارة، وعاد الناس إلى الزيارة، وقال الوجه الذي عبس وأشاح، واللسان الذي ذم ونم: والله يا مولانا لا يعدُل حزننا لغيبتك، إلا فرحنا بأوبتك. . . ثم انعكست الصفات في الصحف، فصارت الخيانة أمانة، والبلادة زكاتة، والعقوبة شهادة. . .

ابن عبد الملك

على هامش الفلسفة

الحقائق الأخلاقية

للأستاذ محمد يوسف موسى

مدرس الأخلاق بكلية أصول الدين

ليس من الحق برغم ما سقناه في الكلمة السابقة من الشواهد على اختلاف الآراء والأفكار الأخلاقية تبعاً لاختلاف الأمم والشعوب والزمان والمكان - ليس من الحق مع هذا كله أن ننكر أن هناك حقائق أخلاقية عامة سايرت العُصُر وسادت في جميع البيئات.

ذلك أنه من السهل أن نلاحظ أن الناس على ما بينهم من اختلاف مرجعه الجنس والبيئة والزمن يمتثلون لما يعتقدونه واجباً على أوجه مختلفة، وقد تتباين كما رأينا أحياناً؛ ولكنهم جميعاً يقبلون في قرارة أنفسهم فكرة الواجب ويعتقدون أن بعض الأعمال أعلى خلقياً من البعض الآخر. الكل يعلم أنه يوجد خير وشر، ويحس الاحترام لبعض الناس والاحتقار لآخرين. الرجل الساذج في أفريقيا وأستراليا في خضوعه لتقاليده العجيبة وعده ذلك واجباً، والمجرم الذي لا يخلف ما وعد بعمله من مآثم ومناكر، والذي يرى نفسه ملزماً من نفسه بعدم خيانة عصابته؛ أولئك جميعهاً عندهم خلقية مشابهة في صورتها لا في مادتها ومحتواها لخلقية الرجل الفاضل من هذه الناحية، مادام الجميع يرون القيام بالواجب أمراً مقضياً. ليس علينا إلا إثارة عقول هؤلاء المساكين الذين يخضعون هذا الخضوع الأعمى لتلك التقاليد الظالمة، وتفهيمهم أي الأعمال تعتبر واجبات يجب أن يقوموا بها ويعدوا تنفيذها أمراً إلزامياً. هذا التحقق وهو أنه يوجد لدى جميع الناس بلا استثناء منذ ابتدءوا يفكرون ويعملون نظريات وعواطف أخلاقية، يجيز لنا أن نصف فكرة الواجب والخضوع له وعدِّ من يقوم به خيِّراً بأنها حقيقة أخلاقية عامة. ثم على رغم هذا الاختلاف الذي لا ريب فيه بين ما يسمى واجباً هنا وواجباً هناك، ليس من النادر أن نلاحظ تماثلاً بين بعض النظريات الأخلاقية لدى جميع الناس. إنه من العسير بل من المستحيل أن تذكر وسطاً أو عصراً يعتبر الجبن فيه أفضل من الشجاعة أو الظلم أفضل من العدالة. العدالة اختلف الناس في فهمها وطبقت بطرق متغايرة في الأمم المختلفة، هذا حق؛ ولكن الرجل العادل

كان ولا يزال محترماً دائماً لعموم فكرة اعتبار العدالة فضيلة خلقية. الرجل الذي على الفطرة، بل الطفل الغرير، يقبل بطيبة خاطر عقاباً يعتقد عدالته، ويثور في نفسه على عقاب يراه ظالماً. ذلك معناه تأصل فكرة العدالة لدى الجميع، العدالة العامة التي يحسها الناس جميعاً ويحنون لها الرؤوس إكباراً وإجلالاً، لا العدالة القانونية المدونة في بطون كتب القانون والتي تتغير بتغير البيئات. وفي هذا يقول مُونْتاني الشاك الذي يرفض كل ما لم يقم عليه دليل لا ريب فيه: (العدالة في نفسها الطبيعية العامة، فيها من النبل ما ليس في العدالة الخاصة الأممية التي تنفذ عند الحاجة بسلطة الشرطة ورجال الأمن العام) كذلك (فُولتير) نراه يدلل على عمومية عاطفة الدولة، بعد أن بحث الأمر بحثاً دقيقاً، بدليل مقنع إذ يقول: (فكرة العدالة تظهر لي حقيقة من الطراز الأول، يقبلها الجميع ويشعرون بوجوب احترامها، حتى أن أكبر الجرائم نراها ترتكب تحت حجة باطلة من العدالة. الحرب، وهي أكبر الجرائم الهدامة التي تتعارض والغرض الإنساني النبيل وهو المساعدة والتساند، يجتهد في تبريرها من يشعل نارها أولاً بحجة الدفاع عن العدالة)

لا أراني بحاجة لتدعيم هذا الرأي الذي يذكره (فولتير)، فالحوادث التي تتوالى أمام أعيننا منذ سبتمبر الماضي للآن تؤيد لأقصى حدود التأييد هذا الرأي. لقد أنذر هتلر العالم بحرب ضروس دفاعاً عن السوديت وحقوقهم المهضومة كما زعم؛ واليوم يلعب هذه اللعبة موسيليني دفاعاً عن حريات الإيطاليين وحقوقهم ومصالحهم المهدرة في تونس وغيرها كما يقول! وقبل ذلك استعمر الشرق والأمم المستضعفة تحت ستار من العدالة أوهى من بيت العنكبوت!

وإذا كان من الحق اعتبار العدالة حقيقة عامة أخلاقية فكذلك عاطفة الضيافة والكرم، تلك العاطفة السامية التي تنبئ بالإخاء الإنساني، نجدها ممدوحة موصى بها في كل الأوساط والأزمان؛ الأمم تعيّر بالبخل وتتمدح بالكرم إذا جدت دواعيه.

وليس عجيباً أن ترى تقارباً بل اتفاقاً على كثير من الآراء والصفات الأخلاقية؛ بل لعل العجيب ألا يكون مثل هذا الاتفاق. ذلك أن الناس، تقدم بهم الزمن أو تخلف، السامي والآري والشرقي والغربي والأسود والأبيض، أي هم جميعاً لديهم معين للأخلاق يكاد يكون واحداً، أو هو واحد في أصله وإن اختلف في بعض التطبيقات تبعاً لاختلاف الأزمان والبيئات؛ ذلك المعين هو الضمير.

وفي هذا يقول العلامة بارتلمي سانتهلير مترجم أرسطو من اليونانية للفرنسية في مقدمة كتاب الأخلاق لأرسطو: (ولنؤكد من غير أن نخشى الزلل أن حقائق علم الأخلاق في الساعة الراهنة عند الأمم المتمدنة ليست منذ الآن محلاً للجدل بين النفوس الفاضلة، وأن تلك الحقائق لا خوف عليها. يمكن أن يقع الجدل في النظريات، ولكن لأن سلوك الناس الأخيار هو في الواقع واحد، يلزم حتماً أن يكون بينهم قدر من الحق مشترك يستند إليه كل واحد منهم من غير أن يستطيع مع ذلك في الغالب أن يقف غيره عليه ولا أن يدركه هو نفسه. ومن النادر أن يقع إجماع الآراء على طريقة بسط مذهب بعينه مهما أجيدت ومهما بلغت من الحق، ولكن من الأفعال ما هو مقر عليه عند جميع الناس؛ وبيّن أن هذا الإقرار العام سببه أن هذه الأفعال تابعة لمبادئ مسلمة عند الجميع، وتقع على مقتضاها من حيث لا يشعر الفاعل لها في غالب الأحيان)

ثم يقول في موضع آخر: غير أن قانون الأخلاق ليس قانوناً شخصياً بل هو قانون عام، قد يكون في ضمير أشد قوة وأكثر وضوحاً منه في ضمير آخر، ولكنه موجود في كل الضمائر بدرجات تختلف قوة وضعفاً. إنه ليناجي جميع الناس بلهجة واحدة، وإن كانت أفئدتهم لا تصغي إليه على السواء. ينتج من ذلك أن قانون الأخلاق ليس فقط قاعدة للفرد بل هو أيضاً العامل لوحدة الروابط الحقيقية التي تربط الفرد بأمثاله. لئن كانت الحاجات تقرب بين الناس فإن المنافع تباعد بينهم إذا لم تكن تذكي بينهم نار الحرب. فلولا الاتحاد الأخلاقي لكانت الجمعية البشرية محالاً.

ولعمر الحق إن هذا لا يحتاج إلى أي تعليق لبيان صحة ما فيه من آراء. فهناك كثير من المبادئ الأخلاقية مسلمة بشهادة الواقع من الجميع لصدورها عن معين واحد، قد يختلف قليلاً أو كثيراً بعض الأحيان، لكنه واحد على كل حال.

على أن التاريخ يكشف لنا أمراً آخر يجب أن يكون موضع تقديرنا وأن نعلق عليه أهمية لها خطرها: المثل الأعلى الأخلاقي يقاسي الكثير من التقاليد في بعض الأزمنة والبيئات، هذه التقاليد التي تراها حجر عثرة في طريق المصلحين دائماً. تصفح تاريخ أمة من الأمم تجد في فترات مختلفة سعدت الإنسانية ببعض كبار الأحلام والفكر الراجح الذين كانت

رسالاتهم معارضة للتقاليد الضيقة التي تسيطر في أيامهم بمثل عليا رحبة صالحة للجميع. حقاً إن الرأي العام كان يقف ضد هؤلاء العباقرة، إلا أن المستقبل كان يحكم بأنهم على حق فيما بشروا به، كما أن الإنسانية باركت هذه الثورات، الثورات المدينة لها بخلقية أعلى وأفضل، وأذاعت في جنبات الأرض أن هؤلاء الذين ثاروا على التقاليد هم النبلاء المحسنون للإنسانية عامة.

ولعل من الخير ومن الواجب أن نلاحظ أن تلك التقاليد الدينية أو الاجتماعية التي عارضها أولئك المصلحون كانت مختلفة أشد الاختلاف فيما بينها، وأن هذه الآراء الأخلاقية، والمثل التي كانوا يدعون لها في الأزمنة المختلفة والبيئات المتعددة تعطينا مشابهة مدهشة عجيبة وانسجاماً خارقاً يجيز لنا أن نقدر أنهم كانوا يصدرون عن معين واحد فيما وقفوا أنفسهم على تحقيقه. وموعدنا ببيان ذلك الكلمة الآتية إن شاء الله.

محمد يوسف موسى

استطلاع صحفي (ريبورتاج)

البحث العلمي في كلية العلوم

جولة في معاملها

(في كلية العلوم بجامعة فؤاد الأول نهضة علمية يسودها روح البحث والاكتشاف ويشرف عليها الأستاذ الرياضي الدكتور علي مصطفى مشرفة بك عميد الكلية. وقد آثرنا أن نقدم لقرائنا نبذة قصيرة عما يدور بين جدران هذا المعهد من أبحاث ترفع رؤوسنا وتشعرنا بأننا نقدم للعلم نصيباً من البحث كأمة حية ناهضة).

معهد للبحث

في الطابق الثاني من بناء كلية العلوم غرفة صغيرة هادئة، تشاهد فيها دائماً شخصين، أحدهما يواجه النافذة وينظر إلى مجهر يكبر له أنسجة النبات فيرسمها على قطعة من الورق؛ بينما اختار الثاني لنفسه ركن الغرفة بعيداً عن الأيدي والأرجل، فجهازه معقد طويل يتكون من عدة أوان زجاجية تتصل بآلة كهربائية تسجل درجات الحموضة أو القلوية في التربة أو النبات.

الأول هو الدكتور جريس والثاني هو الدكتور عبد الحليم منتصر، يبحث الأول في النباتات المصرية القديمة ومنها يعرف تاريخ الأمراض التي تصيب النباتات كما يعرف شيئاً عن التطور الذي تناول النباتات المصرية الحديثة، ويقوم الثاني بتجاربه ليبين للناس خواص التربة المصرية ونباتاتها، فقد صرف الدكتور منتصر كثيراً من وقته وعلمه حتى قدم عدة أبحاث عن تركيب التربة المصرية وعلاقتها بالنبات.

وكلا الأستاذين من أعضاء هيئة التدريس في كلية العلوم. فالأستاذ أو المدرس أو المعيد في كلية العلوم لا يقصر همه على تلقين الطلاب بعض الدروس؛ ولكنه مسئول أمام نفسه وأمام العلم أن يقدم للعالم بحثاً يدل على أنه يصرف وقته لمنفعة الإنسانية؛ ولذلك لا يكاد يمر شهر واحد حتى نرى بحثاً جديداً تنشره مجلات العالم العلمية التي يدل النشر فيها على أن البحث جديد على الناس وأن البحث أضاف مادة جديدة تدعم مدنية المجتمع.

الأدوات الأولية للبحث

ومهمة الأستاذ في كلية العلوم تختلف عنها في الكليات الأخرى؛ فقد يقتصر الأستاذ في كلية الآداب مثلاً على إلقاء المحاضرات وتلقين الطلاب مختلف أساليب البحث، ولكن أستاذ كلية العلوم مطالب بأن يجعل من أبنائه علماء باحثين يكشفون أسرار الطبيعة ويظهرون للناس خواص المادة، يهتمون بالمجهول أكثر مما يهتمون بالمعلوم. فعملهم هو إزاحة الستار عما غمض فهمه، ولذلك قلما يهتم المدرس أو الأستاذ بما حصله تلاميذه من قوانين معروفة أو نظريات ثبت وجودها، فإن هذين الشيئين يعتبران الأدوات التحضيرية للعمل في كلية العلوم.

ومقياس النجاح عند الأستاذ أن يرى طلبته يصلون إلى نتائج سريعة، ولذلك يهتم بأن

يدل كلا منهم على أفضل المراجع التي يلم فيها الطالب بموضوعه. وإذا قلنا المراجع فليس معنى هذا أن الأستاذ مستعد لأن يرشد تلميذه في أي موضوع بل إنه مستعد لأن يقدم له المعونة والإرشاد في الناحية التي تخصص في دراستها. فقد اتسع مجال العلم حتى قسم إلى أقسام تجزأت إلى فروع والفروع إلى موضوعات. ولذلك يحتاج الباحث كثيراً أن يترك بلاده ومن فيها من أساتذة ليذهب إلى جهة معينة حيث يجد أستاذاً اختص في نفس البحث الذي يقوم بتحقيقه. وهناك جامعات بكافة فروعها اشتهرت بالبحث في موضوع واحد كما هي الحال في إحدى جامعات إنجلترا العظيمة التي أصبحت قاعدة لدراسة مادة الراديوم وخواصه.

استقرار

وليس اتجاه جامعة من الجامعات إلى دراسة معينة من الأمور الهينة فهو يحتاج إلى استقرار الحياة في تلك الجامعة مدة طويلة كما يحتاج إلى أساتذة ثابتين يضمنون مراكزهم إلى أن تأتي نهايتهم. فطبيعة البحث والاستقراء العلمي بطيئة يُحسد فيها العلماء على طول صبرهم. فهناك علماء قضوا طول حياتهم جادين وراء مبحث واحد. ولعلك تذكر ما ذكرناه في عدد ماض من أن أحد أطبائنا صرف عشرين عاماً ليكشف أسباب مرض تضخم الطحال.

ويحتاج البحث العلمي إلى أجهزة خاصة بعضها دقيق وبعضها كثير التكاليف مما تعجز عن شرائه مالية الأفراد، ولذلك لا مفر من هيئات قوية تحمي تلك الأبحاث وترعاها حتى يجد العلماء واسطة يقدمون عن طريقها ما في رؤوسهم من جذوات تنير طريق المجتمع.

وعدم الاستقرار هو الظاهرة السيئة المشاهدة في كلية العلوم، فإن أكثر أساتذتها من الأجانب الذين يشتغلون بعقود محدودة الأجل. فلا يضمن الأستاذ بقاءه في مصر أكثر من المدة التي نص عليها عقد استخدامه، وهو لذلك ضنين بجهده أن يضيع فيما لا ينتج، فقد يبدأ بحثه وينتهي عقد استخدامه وهو في خطواته التمهيدية.

فمن الطبيعي لهذه الأسباب أن يقصر الأستاذ بحثه على موضوعات قصيرة سهلة التناول سريعة الفحص. ولا شك أن مجهود الأساتذة الأجانب مجهود مشكور؛ إلا أن أبحاث كليتنا لن تتخصص إلا بعد أن ينعم كل أساتذتها بالاستقرار. وهذا لن يتحقق إلا إذا أصبح كل أساتذتها مصريين، وأملنا عظيم في أن يحل ذلك اليوم سريعاً. ففي كل معمل كيمياوي أو نباتي تشاهد الأيدي المصرية تقوم بنصيبها لتقرن الغاية العلمية بالفكرة الوطنية فيسيطر المصريون على جامعتنا ليوجهوها إلى الناحية المقصودة.

هبة العلم

وتقوم الدراسات في كلية العلوم على أساس البحث العلمي. فالطالب في سني الدراسة النظامية إلى أن يحصل على درجة البكالوريوس مطالب بأن يحقق نظريات معروفة ويختبر بنفسه عمليات فرغ منها سواه ليتدرب على طرق البحث العلمي، ويطلع على أساليبه. فإذا جاز امتحان البكالوريوس فهي شهادة بأنه قادر على البحث العلمي تحت إشراف أستاذه. ويراقب أساتذة الكلية أبحاث خريجيهم، فيسدون إليهم النصح ويدلونهم على المراجع التي تسهل لهم الوصول إلى النتائج التي يبحثون عنها.

وإن المشاهد ليدهشه أن يرى هيئة التدريس في الكلية تعمل بنشاط مستمر فتتقدم بأبحاثها في كل شهر وكل سنة، فإن الموظف يبدأ في الكلية معيداً بدرجة بكالوريوس ليرقى بعد فترة فيحصل على درجة ماجستير ثم دكتور. فمن المظاهر البارزة هناك أن كل شخص مقيد ببحث يعمل ليله ونهاره لتحقيقه. وقد أتاحت لي الفرصة أن قضيت الصيف الماضي مع أحد معيدي الكلية فكان دائماً يجلس إلى شاطئ البحر في أوقات فراغه ليقرأ كتاباً عن (الامتصاص السطحي) وهو جزء من بحث يقوم به بين جدران الكلية.

وتنصب أكثر أبحاث الكلية على موضوعات مصرية، فتجد موريس أفندي يبحث في الامتصاص السطحي للقطن، ووديع أفندي يبحث في تركيب أنواع الأصباغ. وقد تمكن بعض الأساتذة المصريين من اكتشاف عائلات من النباتات والحيوانات المصرية التي لم تكن معروفة من قبل. ونظرة واحدة في تقارير الكلية تبين لنا ضخامة العمل الذي يقوم به أولئك الباحثون في غرفهم.

ففي كل قسم عشرات من الأبحاث. وتصدر الكلية نشرة صدر منها حتى الآن ثمانية

عشر عدداً، وتحتوي على أبحاث قومية جديدة على العلم. هذا خلاف ما ينشر في المجلات العلمية الأجنبية التي تشعر العالم الخارجي بوجود العلماء المصريين أكثر مما نشعر نحن بوجودهم. فما زلت أذكر ما أصاب ذراعي من (تنميل) أصابه لثقل مجموعة النشرات التي حملتها إلى داري لأعرف بعض ما يفعل أولئك الناس. ففي الكلية ثمانية أقسام لا يقل عدد الموضوعات التي تبحث في كل منها عن عشرين بحثاً، إلى أن إنتاج الكلية لا يقل عن مائة بحث في السنة.

وتعتمد هذه الأبحاث هيئات علمية أجنبية محترمة فيرسل البحث إليها لمراجعته وتحقيقه وإبداء الرأي فيه؛ فإذا وافقت الهيئة المنتدبة على اعتباره بحثاً جديداً صحيحاً منح صاحبه الدرجة التي يستحقها إذا كان الغرض من تقديمها الحصول على درجة. والدرجات ثلاث: البكالوريوس وقد تكلمنا عنه، ودرجة الماجستير وهي اعتراف بأن حائزها يمكنه أن يقوم بأبحاثه مستقلاً تمام الاستقلال وتؤهله للحصول على درجة دكتور التي يجب للحصول عليها أن تقرر لجنة الامتحان أنها تضيف مادة مبتكرة إلى الإنتاج العلمي.

نسيج العلم الحي

وقلما تجد في كلية العلوم طالباً لا يطمع في الحصول على إجازة الدكتوراه ويسعى إليها. فإن روح الكلية لا تفهم إلا معنى واحداً وهو إضافة مادة جديدة إلى نسيج العلم الحي. وقد يعجب الناس ويقولون: وما لنا لا نسمع عن هذه الأبحاث ولا نراها؟ والجواب على ذلك سهل بسيط، فإن الباحث العلمي يضع الحجر الأول للاستغلال الاقتصادي والصناعي فهو يضع النظرية اليوم ليمكن استغلالها بعد عشرات السنين. وما زال كثير من النظريات التي تحقق وجودها علمياً بعيدة عن التطبيق في الحياة العامة. فهل تمكن العالم بعد من الاستفادة

من تحطيم الذرة؟ إنهم يعرفون ما فيها ولكن هل وصلوا إليه؟

وثمة سبب آخر حجب أعمال هذه الكلية عن الشعب حتى اختلط على الناس اسمها واسم دار العلوم، فقد حكى لي أحد الأساتذة أن أحد الوزراء السابقين كان يجهل الفرق بين كلية العلوم ودار العلوم! ويرجع هذا الجهل إلى اعتزال الكلية وعدم اهتمامها بالدعاية اللازمة لها. فإن الدكتور مشرفة عميد الكلية من ألمع الشخصيات العلمية في الخارج وخصوصاً لأبحاثه عن العلاقات بين المادة والإشعاع التي علق عليها عظماء العلماء في أوربا كالسير أليفرلودج والسير جيمس جينز. ولكن هذه الأبحاث ما زالت مجهولة من أكثر المصريين.

وللكلية مكتبة كبيرة يشرف عليها برهان الدين أفندي وهي مكتبة خاصة بالكتب العلمية التي يحتاج إليها الطلبة والأساتذة في دراساتهم. ومن أهم أقسامها المجلات فإنها الرباط الوحيد بين الباحثين ومنها يعرف الإنسان ما يدور في المعاهد الأخرى وقد يصل بعض أعداد هذه المجلات إلى عدة جنيهات. ويصرف على المجلات وحدها 500 جنيه وعلى الكتب 800 جنيه في السنة.

فوزي جبر الشتوي

رسَالة المَرأة

بين المرأة والرجل

للآنسة الفاضلة (الزهرة)

الشرق والغرب شرع واحد في المسائل التي تتناول الأحاسيس والعواطف، بل الحب - بنوع خاص - في مختلف أنواعه وحالاته، والمرأة هي هي في كل مكان وزمان. والتحليل الدقيق للقصص الأربع التي حضرة الأديبة الكبيرة محررة (رسالة المرأة) باستطلاع آراء القارئات فيها، يجعلني أردّ تصرفات المرأة في كلٍ منها إلى تلك الأصول البدائية التي ركزتْ في نفسها مركبات قوية متناقضة تكاد تكون من الغرائز النسوية لأنها اندست في أغوارها حقباً طويلة دون أن تدريها، فطبعتْ سمتها على حياتها وآرائها، ووجهتها إلى نواح متشعبة كانت مصدراً خفياً لأعمال تنفع وتضر على السواء. ولعلّ من أعظم هذه المركبات ما يسمى (مركب النقص) فإن المرأة منذ بدء عصور التاريخ البشريّ قد كانت في الغرب موضوع حب الرجال وإعزازهم، وكان التغني بمحاسنها والتشبيب بها موضوع قصيدهم وأناشيدهم، على أنهم رغم بلوغهم أوج التعبد لها، ما برحوا حتى العصور الوسطى بل والحديثة يوجسون خيفة منها

ويعدونها بلاءً مقيماً وشراً مستطيراً. وكانوا إذا تفوقت إحدى النساء في ذكائها أو بسالتها يتهمونها بالسحر والشعوذة، ويجعلونها غرضاً لسهام طغمة كبيرة من رجال الدين. أما في عصور الوثنية والجاهلية في الشرق فقد أجلسوها على عروش الربوبية، وجعلوا من العذارى الجميلات كاهنات لمعابد أصنامهم، ثم بقيت من العصور الوسطى وما بعدها كأنموذج لحسنٍ ضائع، وكقنية ثمينة يدخرها الملوك والولاة في قصورهم، أو ملهاة جميلة يتسلون بها بعد عودتهم من غزواتهم ورحلات قنصهم، ثم اتخذوا منها إكليل الغار الذي يتوّجون به كل بطل صنديد مكافأة له على شجاعته، أو ثمناً لعبقريته ومواهبه. . ولقد أدّى هذا كله إلى إشعار المرأة بعجزها ونقصها، ودفعها إلى تغذية رغبتها في الظهور أمامهم لا بمظهر الندّ والنظير فقط، بل محاولة التفوق عليهم وعدم الاستخذاء لهم، والجدّ في الظفر بإخضاعهم لنفوذها الآمر. وعندي أن هذا هو (مركب النقص) الذي يعدّه كثيرون من كتّاب المرأة غريزة أساسية من غرائزها، بل ميلاً قوياً من ميولها الفطرية التي تغريها بحب السيطرة في إيجاع وإيلام الرجل، ولكني أرى أن هذه الغريزة المزعومة ليست أصيلة في المرأة، بل هي في الحقيقة صورة ظاهرة من صور الحب التي مرجعها حب الذات، والتي تختصر تاريخ النزاع المديد الشديد الذي قام بينها وبين ذلك الرجل الذي ظل أحقاباً متعاقبة يقهرها ويحتجزها كغرض من أغراض العاطفة الرخيصة. على أن ذلك النزاع لم يلبث أن استحال إلى حرب نظامية تطورت وصارت خطة سياسية أو وسيلة نسوية، أخذت الآن تتضاءل وتتقلص حتى لتكاد تختفي في أعلى طبقات السيدات تهذيباً وأرقاهن علماً وثقافة. .

أجل، هي صورة ظاهرة من صور الحب التي مرجعها الذات والرغبة في إثباتها بشكل أكمل وأوضح، وتحديد مكانها في حيز الوجود. بل هي مظهر راق لحب الذات مصدره إعجاب المرأة بالقوة، ذلك الإعجاب الذي ينسبه سبنسر فيها إلى نمو شعورها الديني، وحنينها إلى اللياذ بقوة أعظم من قوتها، فهي حين تظهر سيطرتها على الرجل، إذ تطالبه باستعراض مجازفات إقدامه وصلابة مكسره وصرامة بأسه أمام الملأ، إنما تريد أن تتبذخ بقوته، لأنها كما تقول الكاتبة الإنجليزية جورج أليوت: (لا تستطيع أن تتعلق بالرجل الخوار الهشيم). ثم إنها حين تستفز فيه روح المنافسة والغيرة، ولو عن طريق الخطار بحياته، تعمد إلى امتحان حبه، وتتطلع إلى مبلغ تهافته على الاستئثار بإعجابها، وإرضاء نزعات تدللها وتيهها، بطرائق تسير ذكرها في الآفاق، وتفشي تدلهه بحبها على الألسنة، وترجِّع صدى هيامه بها في المحافل، وتذهب سمعه في الناس، ولا تتوانى في سبيل سعيها لامتلاك قلبه عن إثارة زهوه بتقريظ شهامته وتملق رجولته وإطراء نخوته، فلا يتوانى هو بدوره عن حمل نفسه على المخاوف والمعاطب واقتحام الهلكات والمتالف.

ولكي نقرب من إنصاف المرأة مع ذلك، أصرح بأن ما يبدو منها من حب السيطرة، لا يمكن أن يؤخذ على معناه المطلق، لأنه لا يتجاوز ميلها الفطري إلى التسلط على قلب الرجل، ونيل الحظوة في عينيه. ولئن رغبت في أن تكون محبوبة منه بكل قواه، فإنما رغبتها الأولى أن تكون هي المحبّة. وأكبر اعتقادي أن ما تبذله من قبيل استمالته إليها، ليس إلاّ نتيجة لتلك الرغبة الملحة، وعلى كل حال فرغبتها ورغبته مترابطتان، والغالب أن يكون الحب متبادلاً بينهما. ولقد قدمتُ أن المرأة الراقية المهذبة، قد تمكنت بفضل العلم الناضج من معالجة (مركب النقص) الذي أذكته فيها سيادة الرجل في مثل البيئات والأحوال الخاصة التي سردتها حضرة الآنسة الفاضلة (زينب الحكيم) في قصصها، وأصبحت الفتاة اليوم تتوخى في عهد خطبتها وسائل متزنة للسيطرة على قلب خطيبها وشريك حياتها، فأبت أن تتبع ما كانت تتبعه أختها في العهد الماضي من ضروب إحاطته برعاية الأم الحانية على طفلها الرضيع بنواهيها العديدة، لأنها قد تحققت أن فتى اليوم، يكره القيود التي تغلّ الإرادة وتشلّ القوى، ويرفض الانصياع لمنْ تمخضه النصح على الولاء، بارتداء الملابس الصوفية إذا ما لاحت بوادر الشتاء، واستصحاب زوج إضافي من الجوارب السميكة إذا خرج لمباراة في لعبة الجولف ليتقي بها الأمطار في حالة هطولها، وأن يتعشى بفالوذج اللبن والبيض، وأن يعني بتهوية مسكن العزوبة المجدب من أناقة المرأة وعنايتها؛ لأن الحياة الرياضية، التي

يحياها فتى اليوم، في فرق الكشافة والجوالة والتدريبات العسكرية، قد جعلته واسع الحيلة في شؤون المعيشة، شديد الاعتماد على نفسه، كبير القدرة على العناية بصحته وبمسكنه، وأصبحت فتاة اليوم تتجنب إظهار امتلاكها له أمام الناس، والتحدث بحقوق الاختصاص التي وضعتها عليه كما لو كان بعض الدواجن التي تدللها وتستصحبها معها في المنتديات العامة مباهية بسيطرتها عليه. وأصبحت تتجنب الاعتداد بنفسها، والاستعلاء عليه وإبداء البرودة نحوه والإكثار من معاتبته والتفلسف في تحليل كل صغيرة وكبيرة من تصرفاته ومحاسبته على كلماته والإغراق في أخذه بمغالبات جدلية ومناقشات منطقية، وإملاله بسرد النظريات العلمية والتخيلات الروائية، وإذاعة المعلومات وآخر النشرات الإخبارية الشائعة بين أفراد طبقتها، والظهور أمامه بمظهر الحزن والاكتئاب والتجهم ويقظة الضمير والإفراط في ادعاء الورع والتدين، وتحوير الأمور وتحريفها وقلب ظاهرها لباطنه؛ وأخذت تبدو أمامه على الدوام متهللة الغرة، قريبة منال البشر، طيبة النفس فكهة الأخلاق، في احتشام الفتاة، وخفر العذراء، وكرامة السيدة وجلالها وصراحتها وثقتها ومحبتها ووفائها وطاعتها. . ولعله يحسن بي أخيراً أن أنتحي ناحية الرجل فأقول إنه يستطيع تحقيق المثل الأعلى للفتاة كزوج حين تجتمع فيه أنبل ميزات الرجولة وأكرم أخلاقها وأمجد مناقبها، فتجد فيه القوّام المخلص العطوف المطاوع، والشريك الحازم الرشيد الأمين الكريم الذي يتفانى في توفير أسباب الراحة والطمأنينة لها، ويتعاون معها على إسعاد العمران، والسمو بالمجتمع الإنساني إلى مراقي الكمال المنشود.

الزهرة

رسَالة العِلْم

الحياة

هل هي وليدة المصادفة؟

للدكتور محمد محمود غالي

من تفكير مدام كيري - هل نحن والتفاحة شيء واحد - هل تكتب القردة بيتاً من الشعر - وهل يرفع الماء طوبة مغمورة فيه - إمكان الحياة على كويكبات أخرى - شعورنا بأنها غير وليدة المصادفة.

في خطاب لمدام كيري مكتشفة الراديوم لبنت أختها (زلاي) ما يدعو لإنعام النظر، لهذا أذكر منه بعض الفقرات:

عُني ابنتاي في الربيع بتربية دود القز وكنت وأنا مريضة أتتبع مدة عطلتي بالمنزل) التطورات التي تحدث عند تكوين الشرانق، وكانت لي في ذلك لذة عجيبة، فقد لفت دود الحرير نظري إلى الشعور بجنسها العجيب الذي يُشبهنا في ناحية الجلد على العمل والنشاط والمثابرة.

لقد ثابرت طول حياتي على العمل لغرض واحد، وقمت بهذه المهمة دائماً نحو غرضي رغم علمي أن حياتنا سريعة العطب محتومة الفناء لا تترك شيئاً أياً كان وراءها، ولا بد أني فعلت ذلك لأن ورائنا شيئاً يحفزنا للعمل، لعله نفس الشيء الذي يحفز الدودة لتبني هذه الشرنقة. هذه الدودة المسكينة يجب عليها أن تبدأ هذه الشرنقة التي من المستحيل عليها أن تتمها، فهي كما نعلم لا تصل إلى نهاية مهمتها بل تموت في طريق العمل دون تعويض.

(فليستمر كل منا يا عزيزتي في نسج شرنقته دون أن يسأل لماذا وإلى أية نهاية حياة النملة أو دودة القز أو الإنسان، هذه الحياة وما تخفي وراءها من حافز شخصي وما تكنه من وراثة بعيدة المدى، تلك الوراثة التي تحفزنا للعمل المستمر، هذه الحياة - وأدهش ما فيها الإنسان الحي - نريد أن نعرف الفكرة في منشئها ونتبين علاقتها بالكون، ويتناول هذا الموضوع مدرستان أو مذهبان:

الأولى تعتقد أن الحياة وليدة لمصادفة وقعت في الكون، وأن الكون لم يكن في نشأته مخصصاً أو مقصوراً عليها. والمدرسة الثانية تقول عكس ذلك وتعزو للحياة وللإنسان أهمية خاصة.

أما عن نفسي فإن إحساساً خفياً وإن كان غير مَبْنِيّ على حقائق علمية أو على أساس في العلم التجريبي يدفعني إلى أن أكون من أنصار المدرسة الثانية.

أن تحاول إقناعي اليوم أنني والتفاحة التي أكلتها شيء واحد، وأنني والمحبرة التي

أكتب الآن منها مركب متشابه من النيترون والإلكترون وغيره وأن ترتيباً خاصاً من هذه الذرات وما يدور في غلافها من إلكترونات هو الذي جعل هذه تفاحة تُنبتُ غيرها من التفاح وجعلتنا آدميين ننسل غيرنا من جنس الإنسان وجعلت هذه محبرة لا تصلح إلا لتمكنني من أن أمد القارئ بهذه الأسطر.

أن تحاول أن تُدخل في روعي أنني وبقية النبات أو الجماد شيء واحد وأن الحياة ظاهرة وليدة الصدفة كظاهرة المغناطيسية أو الإشعاع المادي، وأنني وهذه الكائنات نتساوى، كل هذه مسائل لا أجد من نفسي تساهلاً في قبولها.

قد تكون بليغاً جدّاً في محاولتك، وقد تكون براهينك العلمية والعملية من القوة بحيث نطأطأ الرأس لحججك، وبحيث لا نستطيع اليوم أن نُقنعك بطريق العلم النظري أو العلم التجريبي بخطأ علمك وتجاربك، ولكن غريزة في النفس تشبه الغريزة التي تحمل دودة القز السابقة على العمل وتحملك على الخروج من المنزل كل يوم لكسب عيشك، تدفعني إلى أن أخالفك في الرأي، ويداخلني شعور يستقر في نفسي يوحي إلي أننا نختلف عن التفاحة والمحبرة اختلافاً مبيناً، وأن في جوهر حياتنا ما يجعلنا نفترق عن الأشياء وعن الظواهر الأخرى للكون.

في محاضرة لمسيو روجيه عميد كلية الطب السابق بباريز حضرتها في شتاء 1934 بين آلاف المستمعين في إحدى ردهات بوليفارد سان جيرمان بالحي اللاتيني، ألقاها في جماعة العقليين التي هو وكيلها تعرّض للحياة وعلى الأخص لما نسميه الروح والعقل. ولو أنك حضرت هذه المحاضرة لأيقنت أن روجيه على حق، ولخرجت مثل الكثيرين مقتنعاً بأنك والتفاحة وباقي الكائنات شيء واحد، وأن ما نسميه العقل والروح والنفس وغير ذلك ما هو إلا نوع من الآمال التي نتصورها لأنفسنا، وأنه لا وجود لها إلا في خيالنا. ليست أمامي

الآن محاضرة الأستاذ روجيه حتى أعيد قراءتها وألخص لك نقطها القوية التي تستند إلى وقائع فعلية وتجارب عملية في الطب والتشريح المقارن والتي تعرّض في ختامها لفلسفة برجسون التي لا يعترف بصحتها ويهاجمها هجوماً عنيفاً.

ولعل رأي روجيه يمثل رأي غالبية العلماء زملائه اليوم من الأطباء والبيولوجيين. والظاهر لي أننا إن أردنا أن نستدل على تفسير للحياة بين علماء الطبيعة والرياضة المعاصرين فإنه يغلب على الظن أننا نصل إلى النتيجة نفسها. وهاهو ذا السير جينز في كتابه (العالم الغريب) يقول وهو يتكلم عن الأرض كسيار انفصل عن الشمس: إننا لا نعرف كيف ومتى ولماذا تولدت الحياة بطريق الصدفة في واحد من هذه الأجزاء التي تناثرت من الشمس وهو الأرض.

هذه الحياة التي بدأت في مخلوقات بسيطة لا تعرف في المبدأ شيئاً غير أنها تتوالد ثم تموت. أجل هذه الحياة التي استمر خيطها يطول ويتعاظم إلى أن وصلت إلى هذا الوضع المعقد الذي تتوالد فيه كائنات تهب الجزء الأكبر من عمرها لأطماعها ورغباتها بل لأديان وضعت فيها أكبر آمالها. وإن شيئاً من التأمل في البحث عن صلتنا بالكون المحيط بنا يحملنا كما يقول ذلك السير جينز على الفزع، فالكون يفزعنا بعظم مسافاته الشاسعة وطول الزمن الذي يمر ويبدو كأنه لا نهائي، والذي لا يُعد تاريخ الإنسانية فيه إلا لمحة من البصر - الكون يفزعنا بوحدتنا وبضآلة المادة التي يتكون منه عالمنا الشمسي بالنسبة إلى ملايين العوالم، وإن أرضنا على حد تعبير السير جينز ما هي إلا جزء واحد من مليون جزء من حبة رمل من مجموع كل رمال الشواطئ - إنما الفزع أن ندرك أن العالم أصم لا يشعر بنا وأنه ممانع لكل نوع من الحياة تشبه حياتنا. فالفراغ بين العوالم أو الشموس من البرودة بحيث أن كل حياة تنتهي فيه بالجمود والموت، والجزء الأعظم من المادة المكونة للنجوم، من الحرارة المرتفعة بدرجة تجعل كل حياة فيها مستحيلة، ويصل إلى هذه الأجرام من الأشعة المختلفة ما هو غير ملائم للحياة وقاتل لها. ويكفي أن أذكّر القارئ أن طبقة الأوزون المحيطة بالكرة الأرضية تحمينا من الإشعاعات القاتلة.

في عالم هذا وصفه ألفينا أنفسنا مخلوقات فيه تتحرك وتفكر، ولو اعتقدنا كما يعتقد جينز وغيره أن وجودنا حادث وليد الصدفة فإن فناءنا أيضاً سيكون وليد الصدفة، فإن من

المعقول في رأيهم أنه باستمرار الزمن يحتمل أن يقع أي نوع من الحوادث.
ويعتقد السير جينز أن (هكسلي) هو الذي قال:
(لو فرضنا وتركنا ستة من القردة تكتب على الآلات الكاتبة دون أن تَعي ما تخطه مدة طويلة تبلغ ملايين الملايين من السنين، فإننا في سير الزمن نرى بين أسطرها بطريق الصدفة كل الكلمات المحفوظة في المتحف البريطاني. ولو أننا اختبرنا آخر صفحة من الصفحات التي سطرتها القردة فقد نلاحظ أن توقيعاتها العمياء قد خطت أحد أبيات شيكسبير، وعند ذلك يحق لنا أن نعتبر هذا البيت من الشعر حادثاً من أغرب الحوادث. ولو أننا بعد ذلك تصفحنا ملايين الصحائف التي كتبتها القردة في ملايين السنين فإنه مما لا شك فيه أننا سنعثر مرة أخرى على سطر آخر من أبيات شيكسبير كان هو أيضاً وليد الصدفة العمياء).
وهكذا لا بد أن يحدث لعدد قليل من الشموس بين ملايين الشموس الأخرى الحائرة ما حدث للشمس من وجود سيارات تدور حولها، مما أوردناه في مقالنا السابق، ويدل الحساب على أن هذا العدد من الشموس قليل جداً بالنسبة لعدد شموس الكون.
ومن البديهي أن الحياة كما نستوعبها لا تحدث إلا على سيارات شبيهة بالأرض إذ يجب لوجودها شروط طبيعية ملائمة مثل اعتدال درجة الحرارة، وعلى هذا الاعتبار تستحيل الحياة في الشموس نفسها التي هي نيران متقدة كما تستحيل في الحيز بعيداً عنها، فهذا لا تزيد درجة حرارته على أربع درجات فوق الصفر المطلق (أي أقل من 268 درجة تحت الصفر العادي)
فالحياة جائزة كويكبات تقع على مسافة معينة من هذه الشموس، إذا ابتعدنا عن هذه المناطق المعينة امتنعت الحياة للبرودة المهلكة، وإن اقتربنا امتنعت أيضاً بسبب الحرارة المحرقة.
ونستدل من الحساب على أن المناطق التي تجوز فيها الحياة لا تكون إلا واحداً على مليون البليون من مجموع الحيز. على أن الحياة تندر في هذا الجزء النادر من الحيز، ذلك لأن تناثر جزء من إحدى الشموس وانفصاله عنها يعد حادثاً نادراً جداً، ويغلب على الظن أنه يوجد نجم واحد في كل مائة ألف نجم يشبه الشمس في وجود سيار يدور حوله كالأرض حيث الحياة على هذا السيار قد تكون جائزة.
لهذا يجوز الاعتقاد أن الكون لم يخلق خاصاً لغرض الحياة، هذا رأي يميل إليه السير جينز وغيره، والواقع أنه لا تناسب مطلقاً بين عظمة الكون والنتيجة الضئيلة الموجودة في بعض أجزائه والتي ترى أثرها في الحياة.
على أننا لا نعلم هل توجد شروط طبيعية كافية بذاتها لإيجاد الحياة، فَثَمَّ مدرسة تعتقد أنه عندما بردت الأرض كان لا بد من ظهور الحياة في أثناء ذلك، ومدرسة أخرى تقول إن حادثاً أولاً أوجد الكائن وأنه كان لا بد من حادث ثان ليوجد الحياة في الكائن.
على أن المركبات المادية للكائن الحي هي ذرات كيميائية عادية، هي الكربون كالذي نجده في دخان المصانع، والأكسجين والهيدروجين كالذي نجدهما في الماء، والأزوت الذي يُكوِّن الجزء الأكبر من الجو المحيط بنا - كل هذه الجزيئات والذرات الموجودة في الكائن الحي كانت موجودة حتماً في الأرض، هذه المولودة الجديدة، وقد حدث في وقت من الأوقات أن مجموعة من هذه الذرات - بطريق الصدفة - ترتب بالطريقة الموجودة بها اليوم في الخلية الحية، وكان لا بد من ذلك مع طول الزمن، كما كان لا بد للقردة الستة من أن تُسَطِّر يوماً أحد أشعار شيكسبير. وعلى هذا لنا أن نتساءل هل هذه الذرات بترتيبها هذا هي التي كونت بمفردها وبهذا الترتيب الخلية الحية؟ وبعبارة أوضح، هل الخلية الحية هي مجرد مجموعة من الذرات العادية مرتبة بشكل خاص أو هي شيء آخر؟
هل المادة الحية مجموعة من الذرات أو هي مجموعة من الذرات مضافاً إليها الحياة؟ وبعبارة أخرى هل يستطيع كيميائي ماهر أن يوجد لنا الحياة على أي شكل باستعمال عدد معين من الذرات أو تنقصه قوة أخرى غير العدد والترتيب؟
هذا ما نحاول أن نتناوله في المقال القادم. ويبدو لي أنه للإجابة على ذلك لا مناص من الدخول في عميق العلوم الطبيعية فنبدأ وصفاً وجيزاً للمادة وللمادة الحية وفق آراء العلماء اليوم.
وخلاصة القول أنه بالرجوع إلى فكرة ترجع في الواقع لشيء أشبه بحساب الاحتمالات

وبالرجوع إلى جواز طول الزمن وجد العلماء مخرجاً وتفسيراً محتملاً لوجود الأرض ولوجود الحياة عليها، تفسيراً مبنياً على الصدفة.

في مثال ذكره العالم الكبير جان بيران الأستاذ الكبير هنري موتون إن اعتبرنا الحركة البروانية التي تتلخص في أن ما يصيب أي جسم داخل السائل من ضغط هو مجموع صدمات جزيئات السائل عليه، فان لنا أن نعتقد أنه يصح بعد ملايين السنين أن يحدث مرة أن يرفع الماء قالباً من الطوب مغموراً في ماء ساكن، وعندئذ لنا أن نعتبر حادث رفع هذا القالب على سطح الماء من المعجزات النادرة، وإن كان هذا الحادث ليس مستحيلاً عند العالم الذي يعرف الحركة البروانية والذي يتوقع حدوثه يوماً.

ومع جواز تسليم القارئ بما يذهب إليه كل من هاكسلي وبيران فالحياة عندي رغم القردة التي يصح أن تكتب يوماً ما سطراً من الشعر ورغم الطوبة التي يصح أن ينهض بها الماء، من الغرابة بحيث لا تطاوعنا النفس على أن نعتبرها وليدة الصدفة وأنها طرأت عن غير قصد.

محمد محمود غالي

دكتوراه الدولة في العلوم الطبيعية من السوربون

ليسانس العلوم التعليمية، ليسانس العلوم الحرة، دبلوم المهندسخانة

النباتات آكلة الحشرات

بقلم رضوان محمد رضوان

تتشابه النباتات بوجه عام في نظم تركيبها واحتياجاتها الغذائية سواء كانت هذه النباتات مائية أو نامية في الصحارى أو على قمم الجبال؛ إلا أن شكلها الظاهري وتركيب بعض أعضائها الداخلية تتحور وتعدل تبعاً للبيئة التي يوجد بها النبات حتى يمكنه أن يعيش في الظروف التي تحيط به؛ وهذا هو الحال في النباتات آكلة الحشرات.

فمن المعلوم أن النبات يحتاج في غذائه إلى عناصر خاصة. لا بد من توفرها في البيئة التي يعيش فيها النبات حتى يمكنه النمو والحياة. والنباتات الخضراء حساسة جداً لعنصر الأزوت فهو من أهم العناصر المكونة للبروتوبلازم الحي؛ كما أن النبات لا يمكنه امتصاص الأزوت إلا على صورة أزوتات، وعلى ذلك فوجود الأزوتات أمر ضروري لحياة النبات.

ويقوم بتجهيز أملاح الأزوتات للنبات أنواع من الأحياء الدقيقة تعرف باسم (بكتريا التأزت) فهي تحول النوشادر إلى حمض الأزوتوز ثم تؤكسده وتحيله إلى حمض الأزوتيك الذي يتحد بالأملاح القلوية مكوناً أملاح الأزوتات.

أما في الأراضي التي لا تعيش فيها بكتريا التأزت لعدم ملائمة الظروف لها كأن تكون الأرض حمضية مثلاً، فعلى ذلك لا تتوفر أملاح الأزوتات اللازمة لحياة النبات، كان لا بد للنباتات التي تعيش في مثل هذه الأراضي أن تبحث عن وسيلة جديدة للحصول على الأزوتات اللازمة لها، وفعلاً قد هيأتها الطبيعة بتحورات خاصة لتجعلها ملائمة لاقتناص الحشرات حتى تستطيع أن تستمد منها عنصر الأزوت. وسنذكر فيما يلي أهم أنواع هذه النباتات وطريقة كل منها في الاقتناص:

نبات الدروزيرا

ينمو في وسط حمضي فيستحيل على الجذور أن تمتص أملاح الأزوتات، وفيه الأوراق ضخمة بها عدد من الزوائد الحساسة التي تفرز مادة لزجة حمضية؛ فإذا ما سقطت حشرة ما على ورقة من هذه الأوراق، التصقت بالمادة الرحيقية حالما تلامسها، وعبثاً تحاول الحشرة الفرار، فإنها إذا حاولت ذلك اشتبكت بزوائد أخرى، فتصير داخل شبكة محكمة من

هذه الزوائد الحساسة، وبهذا يصبح خروجها ضرباً من المحال. فإذا ما اقتنص النبات فريسته تنحني تلك الزوائد فوق الحشرة وتفرز عليها أنزيم الببسين لهضم الحشرة وإذابة جسمها، وبعد ذلك يمتص النبات تلك المواد المذابة، ثم تعتدل الزوائد وتعود الورقة إلى شكلها الطبيعي وتتهيأ لاقتناص فريسة أخرى.

نبات النيبنثس

يوجد هذا النبات في بلاد الملايو، وهو يحتال على اقتناص الحشرات بطريقة طريفة،

فنجد أن جزءاً من الورقة يتحور إلى شكل جرة ذات غطاء يتحكم النبات في فتحه وقفله حسب حاجته. وتتجمع قطرات ماء المطر داخل هذه الجرة؛ ويستعين النبات على جذب الحشرات برحيق حلو الطعم يفرزه داخل الجرة، فإذا ما دخلت فيها حشرة لامتصاص الرحيق انزلقت أرجلها وسقطت في الماء. وفي الوقت نفسه يغلق الغطاء وبذا توصد أوجه الخلاص أمام الحشرة وتفقد كل أمل في النجاة، حينئذ يبتدئ النبات في عملية الهضم بواسطة إنزيما خاصة يفرزها لإذابة الحشرة حتى يتمكن من امتصاص المواد الناتجة. بعد ذلك يفتح غطاء الجرة وتستعد الورقة لاستقبال قادم جديد وهكذا.

وهناك نبات معروف في شمال أمريكا يسمى مثل نبات النيبنثس.

نبات الديونيا

تحتوي ورقة هذا النبات على مصراعين يتحركان على العرق الأوسط وتنتشر على السطح العلوي لكل منهما زوائد شوكية دقيقة، فإذا وقفت حشرة ما على الورقة انقفل المصراعان فجأة وبسرعة وتنغرز الأشواك الحادة في جسم الحشرة فتمزقها وبذا تبدأ عملية الهضم والامتصاص.

حامول الماء

ويوجد هذا النبات في مصر منتشراً في المياه العذبة، وتحمل أفرعه أجزاء منتفخة أشبه بالمثانات بها خلايا خاصة ولها غطاء يفتح للداخل فقط، فإذا لامست إحدى الحشرات المائية الشعور الحساسة، انفتح الغطاء بسرعة إلى الداخل، واندفعت الحشرة مع الماء إلى داخل المثانة، وتبقى هنالك حتى تموت وتتعفن. ثم تمتص بعد ذلك بواسطة الخلايا المبطنة لجدر المثانة.

هذا وقد قرأت أخيراً في إحدى المجلات الأمريكية نبأ العثور على نوع من الأشجار يفترس الإنسان؛ فقد روى العلامة الدكتور كارل ليشي أحد الرواد النمسويين ومن أقطاب العلماء، أنه أثناء رحلته في ارتياد مجاهل جزيرة مدغشقر اتفق أن رأى منظراً غريباً ملك عليه حواسه وأخذ بلبه. ذلك أنه رأى جماعة من الزنوج يدفعون فتاة عارية نحو شجرة هائلة تشبه شجر الأناناس ولها أوراق ضخمة، ويبلغ محيط الشجرة من أسفل ست أقدام أو أكثر، ويخرج منها أفرع طويلة ذات أوراق عريضة إبرية الحافة، ويسيل من الشجرة رحيق مسكر، حتى إذا ما وصلت الفتاة إلى الشجرة أرغموها على شرب الرحيق. فلم تكد تفعل حتى انتابتها نوبة من الإغماء قد تكون من تأثير الخوف، وقد ترجع إلى أن الشراب مخدر للأعصاب.

وما لبثت الأوراق أن التفت حولها واحتوتها بين أسنانها وبذا اختفت عن الأنظار، وما لبث أن سال دم الفتاة مع رحيق الشجرة فأقبل الزنوج عليه يشربونه بشراهة وغلظة.

وقد أيد هذه المشاهدة الكابتن هرست الإنجليزي الذي قام على رأس بعثة علمية لارتياد مجاهل مدغشقر؛ فقد وصف ما شاهده وقال إن أوراق تلك الشجرة تلبث مطبقة ستة أيام أو أقل قليلاً ثم تنفرج عن هياكل عظمية تذروها الرياح.

أقول إن هذه المشاهدات سواء كانت واقعية أو خيالية لا تخالف العلم فقد رأينا كيف أن النبات يفترس الحشرات في احتياجه إلى الأزوت؛ ولن يميز النبات بين حشرة أو حيوان أو إنسان إذا استطاع إلى ذلك سبيلاً. وأغلب الظن أن الشجرة المذكورة في جزيرة مدغشقر، تعتمد في غذائها على الحيوانات التي تلجأ إليها ليلاً أو فراراً من القيظ أو هرباً من عدو، وأن الأهالي وقد عرفوا فيها تلك الخاصية قدسوها وأخذوا يقدمون لها القرابين من الفتيات، ويشربون من رحيقها المسكر المختلط بدم الضحايا، وهم يعتقدونه شراباً إلهياً قدمته إليهم الآلهة تقبلاً منها وكرماً.

هذه كلمة موجزة عن النباتات آكلة الحيوان، وهي جديرة بأن تسمى: (النباتات آكلة اللحوم) أسوة بالحيوانات (آكلة اللحوم).

رضوان محمد رضوان

بكالوريوس في العلوم الزراعية

رِسَالة الفَن

فيدياس

للدكتور أحمد موسى

كان لاستيقاظ الشعب الإغريقي ونمو الروح الوطنية فيه بعد الحروب الفارسية أن ازدهر فن النحت على أيدي الذين استطاعوا السيطرة على الخلْق التكويني، ووصلوا إلى أقصى درجة من الإعجاز في إخراجه، فكان لمنحوتاتهم أن مثلث المثُل العليا أسمى تمثيل وعبرت عن الوصول إلى درجة الكمال؛ فارتبط الواقع بالجمال المُثلى، وظهر النحت الإغريقي بمظهر لا يزاحم فيه إطلاقاً.

وكان استعداد الإغريق للنحت هائلاً، فجعلوا من تماثيلهم البارزة ونصف البارزة ما سجلوا به الموهبة الفطرية والعقلية والفنية في هذا المجال.

ولهم من منحوتاتهم ما أظهر عقائدهم الدينية والكيفية التي كانت تسير عليها عاداتهم فضلاً عن حياتهم العامة التي كانت الألعاب الرياضية ركناً هاماً من أركانها.

وكان ولا يزال وسيظل النحت الإغريقي مثار إعجاب الإنسان المتحضر ورمزاً للتفوق ومثلاً عالياً يحلق في سماء الفن، لا يمكن لطامح أن يعلق بأطرافه.

وللنحت في بلاد الإغريق مناطق ومراحل ومدارس. أما من حيث المناطق فخيرها لهذا المقال منطقة أثينا، وأما المرحلة الزمنية فهي المحصورة بين سنة 470 وسنة 330 قبل الميلاد، لأن هذه هي مرحلة (عصر الرفعة) أو (الازدهار).

على أنه يمكن تقسيم هذا العصر إلى قسمين: أولهما أو أقدمهما استغرق القرن الخامس قبل الميلاد (من كيمون إلى حرب البيلوبونيز) وفيه تناول النحات الإغريقي الحقيقة الواقعة أمام عينيه في أحسن وضع لها؛ فلم تكن تنتحي هذه الحقيقة إلى فرد بعينه، بل إلى النوع كلية، في شيء من السمو في الخيال والتصور، فكانت طابعية النزعة وليست طابعية الإخراج.

ومع هذا لا يزال المشاهد يتصور أو يظن (وحيناً يعتقد) أن التماثيل - في تلك المرحلة على الأقل - قد عبرت بتفاصيلها وطريقة إخراجها عن أصحابها التي نحتت من أجلهم تعبيراً حقيقياً أو طبيعياً، ولكن هذا بعيد الاحتمال بالنظر إلى ما في تكوينها من جمال ساحر قلما يوجد مثله في النوع الإنساني.

ولعله جدير بالذكر أن المظهر الكلي والمجموع الإنشائي لمنحوتات (عصر الرفعة) أو (الازدهار) يعطي فكرة المبالغة في الأحجام مع تمام التناسب، ولم يقصد النحات الإغريقي من ذلك إلا إبراز المعالم في مظهر من القوة وعلو الهمة ووجود الشخصية، في هدوء نفساني وبعد عن العنف.

وأما الحركة الجسمانية التي تعبر عن الحيوية فهذه مع بساطتها - نسبياً - من حيث التنويع؛ فإنها عبرت خير تعبير عن اليقظة والنشاط.

ولا يوجد من يمكن اعتباره في مقدمة هذا العصر سوى زعيم المدرسة الأتيكية القديمة (نسبة إلى أتيكا) ألا وهو فيدياس الذي لا يزال ليومنا من أعظم فناني العالم أجمع.

ولد فيدياس بن خرميدس الاثيني في عام 500 ق. م. واشتغل مصوراً في أول الأمر ثم تتلمذ على وبعدئذ استقل في عمله حتى استدعى لنحت تمثال زويس المعروف في أوليمبيا، وعاد إلى أثينا والتقى فيها ببركليس وعمل في البارتنون.

وبعد ما أتم تمثال أثينا سنة 483 اتهم بالخيانة وطلب للمحاكمة ولكنه مات قبل الحكم عليه.

وأبرز مميزات فنه أنه أول وأعظم مثال مُثلى بكل معاني الكلمة، لا سيما وأنه حصر مجهوده الجبار في خلق تماثيل الآلهة واستطاع التعبير عن المثل الأعلى في التكوين الجسماني المتناسب مع تمثيل الآلهة، فاتخذ من جسم الإنسان مادة بيانه، ولكنه ارتفع بتماثيله إلى المستوى الذي أبعدها عن الصفات البشرية وقربها من الألوهية؛ فبدت في غاية كمال الانسجام التفصيلي للأعضاء ونهاية الكمال المجموعي للإنشاء، وأصبحت مدرسة أتيكا تسير على منواله وعرفت بهذه الميزات الرائعة من بعده.

اشتغل فيدياس بنحت تماثيله من سن الفيل والذهب حيناً، ومن البرنز حيناً آخر ولكنه نحت في الرخام نادراً.

أما أعماله التي استطعنا أن نقف عليها فأولها تمثاله لأثينا برماخوس على مرتفع أكروبوليس وكان ارتفاع هذا التمثال نحو العشرين متراً. وقد سبق أن نوهنا بذكره في مقال سابق.

وله أيضاً مجموعة رائعة مثلت ملتيادِس القائد الذي انتصر على الفرس في موقعة

ماراتون سنة 490 ق. م. وحوله الآلهة وأبطال أتيكا، كما مثل الأثينيين يقدمون الهدايا والقربان في دِلفي.

هذا إلى جانب تماثيل معبد زويس الذي اعتبره الإغريق إلهاً للسماء والبرق والضوء، والذي يقابله الإله جوبيتر عند الرومان، وتماثيل معبد أثينا بارتنوس

وكان الجسم مكوناً من سن الفيل والملبس من صفائح الذهب؛ وقد تم تمثال زويس سنة 448 ولكنه حرق بعدئذ، ولولا الصور التي سُكّت على نقود إليس لما أمكننا أن نعرف من شكله شيئاً. جلس زويس (ش1) على عرش بديع حاملاً بيمينه إلهة النصر وفي يساره العصا، وواضعاً قدميه على كرسي صغير خصص لهذا الغرض، وأحيط الرأس بغصن الزيتون فوق شعره المجعد، كما أحيط الوجه بذقن كثيف. وإذا تأملت صورة اليمنى فإنك تجد القوة والنبل والجمال السامي مرتسماً في وضوح على وجه زويس. وقد تحلى الملبس ببعض رسومات ملونة على الذهب. أما قاعدة العرش فقد تحلت برسومات تمثل مولد أفروديت إلهة الحب عند الإغريق، والتي خلقت كما هو مذكور في قصص الآلهة، من زبد ماء البحر. ولا بد لنا من أن نذكر أن نظرة زويس تدل على الحلم والجبروت، وهذا منطبق على صفة الألوهية في معناها الكامل.

وكان تمثال أثينا بارتنوس من سن الفيل والذهب أيضاً، أتمه سنة 438 إلا أنه اختفى منذ أوائل القرن الرابع. وكان ما حصلنا عليه تمثالان منقولان عن الأصل، أحدهما كبير عن الآخر، وهما محفوظان في متحف أثينا. ويخيل إلينا أن الأكبر منهما أقرب إلى الأصل بالنظر إلى ما فيه من تفاصيل تتناسب مع ما عرف عن فيدياس وما امتاز فنه به من طابع خاص.

وله قطعة تمثل أثينا وهي من بدائع معروضات متحف عاصمة بلاد اليونان. هذا عدا تمثال برنزي على جانب عظيم من الجمال لأثينيا ليمنيا قدّمه الليمنيون إلى مرتفع أكروبوليس.

وفي متحف درسدن تمثالان رخاميان مماثلان له يظهر أنهما منقولان عنه. أما في روما فله

تمثال لأفروديت أورانيا، ولهرمس ابن زويس الذي اعتبره الإغريق إلهاً للرعاة ورسولاً للآلهة وإلهاً للطرق والتجارة، وهو الذي يقابل عند الرومان الإله مِركور.

وكان لفيدياس تلامذة أمجاد منهم من سار على خطاه مثل أجور الذي ساعده في العمل بأوليمبيا، ومنهم من ارتسم لنفسه خطة خاصة مثل ليكيوس بن ميرون وتلميذه، وسترونجيليون الذي كان بارعاً في نحت تماثيل الخيل في حالة السير والتسابق، وكريزيلاس.

واستعان في خلق تمثال زويس بشعر هوميروس الذي فيه وصف الإله وصفاً مكن النحات من خلقه (ش2). ولعلنا بالمقارنة بين الرأسين نجد غنى الفنان واضحاً جلياً، فلا ملامح متشابهة ولا الشعر على أبسط جانب من التماثل.

ونختار هنا جانباً من التماثيل المنحوتة في جزء من وسط المثلث الواقع تحت جمالون الواجهة الغربية لمعبد زويس في أوليمبيا لنقف على مدى العظمة الفنية التي تجلت في عمل فيدياس (3).

أنظر إلى تفاصيل الأجسام، وتأمل تكوين العضلات، وشاهد الحركات الرائعة في كل جزء من أجزاء القطعة، ثم انتقل بنفسك فجأة إلى مصر وإلى من يقدّر الفن فيها ويفهمه، تجد أننا بحالتنا الراهنة لا نستطيع أن نخلق جيلاً يتذوق الجمال في الوقت الحاضر.

أما المستقبل فهو رهين بما نعده الآن، فإن لم يتكاتف الشعب المصري مع الحكومة كلٌّ في دائرته على إحياء الفن والعمل على تعليم النشء كيف ينظر وكيف يتأمل وكيف يتذوق فلا أمل عاجلاً أو آجلاً في شيء.

أحمد موسى

الشيخ محمد رفعت

من الوجهة الفنية

للأديب محمد السيد المويلحي

أكبر الظن أن القراء سيعجبون ما وسعهم العجب، ويدهشون ما مكنتهم الدهشة لأننا نعتبر الأستاذ الشيخ محمد رفعت المقرئ المعروف بل سيد قراء هذا الزمن - موسيقياً

قبل أن نعتبره مقرئاً. ولكنهم لو علموا أن الأستاذ موسيقي بفطرته وطبيعته وأنه يزجي إلى نفوسنا أرفع أنواعها، وأقدس وأزهى ألوانها، لكفوا أنفسهم مؤونة العجب والدهشة. . . لو علموا أنه (بصوته) فحسب يأسرنا ويسحرنا دون أن يحتاج إلى (أوركستر) يشد أزره ويهيئ الأذهان لفنه ويرسم الطريق لصوته، للمسوا موضع الإعجاز في فن هذا الرجل العجيب. وليتصور كل منا مطرباً أو مطربة يغني أو تغني دون مصاحبة (تخت) ماذا يكون، وماذا تكون. . .؟؟

إن البعض يستتر خلف هذه الموسيقى لتضفي عليه لوناً من الحسن والقبول، ولكن أستاذنا لا يعتمد إلا على نبرته اللامعة، وصوته الملائكي الحنون، وفنه المرهف، وأسلوبه المقتدر المبتكر. .!

(محمد رفعت) اسم يخطه القلم بسهولة وبساطة وسرعة فما إن يخط. . . حتى . . . يهيئ للأذهان جواً غير الجو الذي كانت تعيش فيه. . . جواً من النور تسبح فيه أطياف الملائكة، وتغرد فيه بلابل الجنان، ويعطره أريج شذى ندى نقي. جو القرآن الكريم، المرتل، المفسر، الذي تخشع له القلوب، وتخضع له النفوس، وتؤسر له الأرواح مهللة مكبرة، جو الصفاء والنقاء الذي يتخلص فيه الإنسان من أدرانه وأوضاره، وشروره وآثامه. الجو الذي تصفو فيه الروح لتحلق في سماء قدرة الله ورحمته وحنانه، الجو الذي يخضع له العاصي، ويخشع له المتكبر المتجبر الذي يظن أنه كل شيء وما هو بشيء أمام جبروت الله وكبريائه.!!

صوت تبارك من خلقه وصوره، وخصه بهذا السحر الذي ينشر ألويته، ويرفع بنوده فوق ملايين البشر في أنحاء العالم الفسيح.

صوت لم يخلق الله مثله في لونه ونوعه، كما لم يخلق - جل شأنه - بصمتين متشابهتين،

فجاء فريداً وحيداً غنياً بكل ما في الفن من قدرة واقتدار. . .!!

يقول البعض أنه ضعيف (ضيق الحجم) لا يستطيع أن يظهر في المجتمعات المحتشدة، ونقول لهذا البعض إن الجمال لا يتوقف على القوة والشدة، والارتفاع. فالحمار كبير والبلبل صغير والفرق واضح بينهما. .!

يتكون صوته من ديوانين ونصف (18 مقاماً) تقريباً. ديوان (بريتون) وديوان (تينور) ثقيل ونصن ديوان (تينور) خفيف ويمتاز (باستعارته) التي لا يستطيع أن يحاكيها إلا كل صوت سليم قوي. . .

استعارة تزيد على الديوانين والنصف بنصف ديوان تقريباً. فهو كما نرى صوت سليم قوي وإن كان صغيراً في حجمه. . .

أنبل ما في هذا الرجل السامي تواضعه الجم وحياؤه الإيماني، تواضعه الجم مع أن عرشه من فلذات القلوب والأرواح ومع أن جمهوره يزري بجمهور أكبر مطربينا ومطرباتنا لا في مصر وحدها بل في بقاع العالم المترامي، لا من المسلمين فحسب بل من جميع الملل والأديان. . .

أعرف تاجراً كبيراً (مسيحياً) في الموسكى لا أمل له ولا سلوى إلا سماع رفعت. وأذكر في هذا الصدد أن ابنته - وهي متزوجة - كانت على شيء من التعصب فأتلفت (الراديو) عمداً حتى لا يتأثر والدها فيغير عقيدته - كما صور لها الوهم - فلما علم بالأمر طردها هي وزوجها وأولادها من بيته، ثم اشترى آلة جديدة ليرضي روحه من فن رفعت العالي، وقرآنه المرتل المفسر! والقس (م. ع) الذي أسلم في العام الماضي لم يسلم على يد واعظ أو عالم، وإنما أسلم على (صوت) رفعت وحسن ترتيله، وسحر تأثيره.

لو أتيح للقراء أن يذهبوا إلى - الشام - لعلموا أن رفعت هناك مقدس، إذا قرأ سكنت الأصوات وانقطعت الهمسات، وعم السكون، وامتلأ الجو كله تأثراً وخشوعاً ونوراً، فكل بيت وكل فرد يتمنى أن يجود بكل ما يملك حتى يسمعه دواماً.

هذا الرجل وهذه منزلته ومكانته يأبى أن يلقبه المذيع بكلمة (الأستاذ) لأن بعض المقرئين طالبوا أن يلقبوا هم أيضاً كما يلقب فرفضت المحطة فتنازل عن لقبه حتى لا يتألم إخوانه!

تقواه مضرب المثل، وكرمه يشمل الجميع. يعتقد أن توفيقه من الله وحده لا من صوته ولا

من فنه؛ لهذا يخلص له الإِخلاص كله. فإذا قرأ، قرأ بخشوع وفهم لما يقول. يعينه على ذلك إلمامه ببعض علوم العربية وعلم القراءات.

لم يتعلم الموسيقى على معلم ولا في مدرسة، بل ربى نفسه بنفسه، وله في أذنه الموهوبة خير ضمان. وقد عوده الله أبداً أن ينصره ويوفقه، ويجمع حوله القلوب. . .

قد يدهش القارئ إذا علم أن بعض إخوانه يحاربه ويشيع حوله الشائعات المختلفة التي بلغت مرة درجة (الموت)، وقد يدهش أكثر إذا علم أن محطة الإذاعة (لسبب مجهول) تشايع من هم دونه في كل شيء فإذا سألته: ولم لا تظهر هذا للملأ. . .؟ قال: (عودني الله أن يوفقني أبداً. فماذا يصنع العبد أمام إرادة خالقه. . .؟!)

كما أن للورد أريجه، وللماس بريقه. . . فللأستاذ (رفعت) سحره الآسر، وأثره الساحر، وسيبقى اسمه متألقاً ساطعاً في سماء الخلود. . .!!

محمد السيد المويلحي

رسَالة الشِّعر

ابنة الفجر

للأستاذ إيليا أبو ماضي

حينما يغمض الحِمام جفوني ... ودوي صوت مصرعي في المدينة
وتمشي في الأرض داراً فداراً ... فسمعتِ دويه ورنينه
لا تصيحي وا حسرتاه لئلا ... يدرك السامعون ما تضمرينه
وإذا زرتني وأبصرت وجهي ... قد محا الموت شكه ويقينه
ورأيت الصحاب جاثين حولي ... يندبون الفتى الذي تعرفينه
وتعالى العويل حولك ممن ... مارسوه وأصبحوا يحسنونه
لا تشقي عليّ ثوبك حزناً ... لا ولا تذرفي الدموع السخينه
غالبي اليأس وأجْلسي عند نعشي ... بسكون إني أحب السكينة
إن للصمت في المآتم معنى ... تتعزى به النفوس الحزينة
ولقول العذال عنك (بخيل) ... هو خير من قولهم (مسكينة)
وإذا خفت أن يثور بك الوج ... د فتبدو أسرارنا المكنونة
فارجعي واسكبي دموعك سراً ... وامسحي باليدين ما تسكبينه
يا ابنة الفجر من أحبك ميت ... ولأنتِ بمثل هذا رهينة
زايل النور مقلتيه وغابت ... تحت أجفانه المعاني المبينة
فأصِيخي هل تسمعين خفوقاً ... كنت قبلاً في صدره تسمعينه
وانظري ثم فكري كيف أمسى ... ليس يدري عدوه وخدينه
ساكتاً لا يقول شيئاً ولا يس ... مع شيئاً وليس يبصر دونه
لا يبالي أأودعوه الثريا ... أم رموه في حمأة مسمومة
وإذا الحارسان ناما عياء ... ورأيتِ أصحابه يتركونه
فتعالي وقبلي شفتيه ... ويديه وشعره وجبينه
قبل أن يسدل الحجاب عليه ... ويوارى عنكِ فلا تبصرينه
واحذري أن تراك عين رقيب ... ولئن كان حل ما تحذرينه
فإذا ما أمنت لا تتركيه ... قبلما يفتح الصباح جفونه
وإذا الساعة الرهيبة حانت ... ورأيتِ حراسه يحملونه
وسمعت الناقوس يقرع حزناً ... فيرد الوادي عليه أنينه
زودي الراحل الذي مات وجداً ... بالذي زود الغريب السفينة
نظرة تعلم السموات منها ... أنه مات عن فتاة أمينة
طوت الأرض من طوى الأرض حياً ... وعلاه من كان بالأمس دونه
واختفى في التراب وجه صبيح ... وفؤاد حر ونفس مصونة
وإذا ما وقفت عند السواقي ... وذكرت وقوفه وسكونه
حيث أقسمت أن تدومي على العه ... د وآلى بأنه لن يخونه
حيث علمتِه القريض فأمسى ... يتغنى كي تسمعي تلحينه
فاذكريه مع البروق السواري ... واندبيه مع الغيوث الهتونة
وإذا ما مشيت في الروض يوماً ... ووطأتِ سهوله وحزونه
وذكرت مواقف المجد فيه ... عندما كنت بالهوى تغرينه

حيث علمته الفتون فأضحى ... يحسب الأرض كلها مفتونة
حيث وسدته يمينكِ حتى ... كاد ينسي شماله ويمينه
حيث كنتِ وكان يسقيك طوراً ... من هواه وتارة تسقينه
حيث حاك الربيع للروض ثوباً ... كان أحلى لديه لو ترتدينه
فالثمي كل زهرة فيه إني ... كنت أهوى أزهاره وغصونه
ثم قولي للطير مات حبيبي ... فلماذا يا طير لا تبكينه
وإذا ما جلست وحدك في الليـ ... ـل وهاجت بك الشجون الدفينة
ورأيت الغيوم تركض نحو الغـ ... ـرب ركضاً كأنها مجنونة
ولحظت من الكواكب صداً ... ونفاراً، وفي النسيم خشونة
فغضبتِ على الليالي البواقي ... وحننت إلى الليالي الثمينة
فاهجري المخدع الجميل وزوري ... ذلك القبر ثم حيّي قطينه
وانثري الورد حوله وعليه ... واغرسي عند قلبه ياسمينة
(الولايات المتحدة)
ايليا أبو ماضي
توبة المكرَه
للأستاذ حسين شفيق المصري
كبرتُ وهدني طولُ الليالي ... فلا حالٌ تسُر ولا وَسامة
فماذا تبتغي الغاداتُ مني ... أضعفي يبتغين أم الدّمامة؟
وماذا أبتغي منهن ويحي؟ ... أيهوى الشيخُ أم يشكو سقامه
كبا فرسُ الهوى فسقطتُ عنه ... ومات فلستُ بالراجي قِيامه
وأقعدني عن اللذات عجزي ... فليست توبتي عقبى ندامة
فما صومي الغداة ولا صلاتي ... بشيءٍ نافعي يومَ القيامة
حسين شفيق المصري
حنين
للأستاذ حسن حمدي بك
يا غائبين عن العليل لأنتمُ ... في القلب مهما غبتمُ شُهّادُ
يا عائديه في الكرى عودوا، فِدىً ... لخيالكم في اليقظة العُوّاد
لا تحسبوا الآحاد طابت بَعدكُمْ ... طابت لكمْ ما عِشتُمُ الآحاد
لا تحسبوا الأعياد عادت بَعدكُمْ ... أيّام قربكمُ هي الأعياد
بحياة من وقف الجمال عليكمُ ... وحياتكم قولوا متى الميعاد
كم قلت من أسفي عليكم نائحاً: ... بانت، فيا أسفاً عليَّ، سُعاد
فمتى أقول من ابتهاجي شادياً: ... (يا مصر أهلك بالسلامة عادوا)
حسن حمدي
من الشعر المنسي لحافظ
إلى الرئيس روزفلت!
(مر مستر روزفلت رئيس الولايات المتحدة بمصر وهو عائد من الصيد والقنص في أواسط أفريقيا في مارس سنة 1910، فخطب في الجامعة المصرية خطبة أشاد فيها بأبناء عمومته الإنجليز وحمد صنيعهم في مصر. فقال له حافظ هذه الأبيات):
إي خطيبَ الدنيا الجديدة شَنِّف ... سمعَ مصرٍ بقولك المأثور
إنما شوقها لقولك يا (روز ... فلت) شوقُ الأسير للتحرير
قف غداً أيها الرئيس وعلم ... أهل مصرٍ حرية التعبير
أخبر الناسَ كيف سُدتم على النا ... سِ وجئتم بمعجزات الدهور
وملكتم أعنَّة الريح والما ... ء ودُستم على رقاب العصور
قف وعددْ مآثر العلم واذكر ... نِعَم الله ذكر عبدٍ شكور
وإذا ما ذكرت أنعمَه الكب ... رى فلا تنس نعمةَ الدستور
يا نصير الضعيف مَالك تطري ... خلةَ القوم بعد ذاك النكير
لم تطيقوا جوارهم بل أقمتم ... في حمامكم من دونهم ألفَ سُور

أنت تطريهمو وتثني عليهم ... نائياً آمناً وراء البحور
ليت شعري أكنت تدعو إليهم ... يوم كانوا على تخوم الثغور
يوم كانوا قذىً بعين (نيويور ... ك) وداء مستحكمٍ في الصدور
يوم نادى (واشنجطون) فلبّا ... هـ من الغاب كلُّ ليثٍ هَصور
يوم سجلتمو على صفحات الد ... هر تاريخ مجدكم بالنور
ووثبتم إلى الحياة وثوباً ... ونفضتم عنكم غبار القبور
إنما النيل و (المسيسبي) صنوا ... ن هما حَلْبتان للمعمور
وعجيب يفوز هذا بإطلا ... ق وهذا في ذلة المأسور
يا نصير الضعيف حبب إليهم ... هجر مصر تفز بأجر كبير
فعليهمْ أن يهجروا وعلى المص ... ري ذكر المتيَّم المهجور
م. ف. ع

البَريد الأدبي

غريب

قرأت بدهشة وعجب كلمة الأستاذ (م. ح. ب) من الخرطوم في العدد (292) من الرسالة، ولا ألومه أن يغضب إذا أهينت كرامته، أو مست قوميته بسوء؛ بيد أني حين تبرأت من أن أكون (زنجيّاً أو هنديّاً أو نوبيّاً أو حبشيّاً) كنت أشير إلى ما يعتقده الإنجليز في هذه الأجناس خاصة، ولذلك قلت فيما بعد: (ولن أقبل من مخلوق مهما تكن سطوته أن يلحقني بهؤلاء الذين ينظر إليهم بعين الازدراء والامتهان، ويعدهم دونه في الذكاء والمدنية). وقلت: (إني لست في مقام جدال) حتى أفند هذا الرأي الخاطئ، إذ كنت حريصاً على إيجاد مأوى أستريح فيه من عناء السفر، وشدة الداء؛ وحين لاحت الفرصة دافعت بكل ما أوتيت من قوة عن (الشعوب الملونة) فقلت: (الآن عرفت الحقيقة، إذاً لا يوجد هناك تفوق في الذكاء كما لا يوجد تفوق في ميدان الحضارة والاستعداد لتقبلها، ولكن المسألة استعمارية بحتة)؛ وتكلمت عن الشرقيين عامة كما تكلمت عن المصريين خاصة، ولا يلمني الكاتب الفاضل إذا دافعت عن نفسي أولاً ثم عن غيري ثانياً.

الواقع أن الإنجليز وبعض الأوربيين حينما يرون شخصاً أسمر اللون، لا يفكرون إلا في هذه الأجناس؛ لأن الأمريكيين نشروا الدعاية السيئة ضد الزنوج، والاستعماريين شوهوا سيرة الهنود والنوبيين والأحباش ووصموهم بكل رذيلة وعيب. أما أنا يا سيدي فلم يزل قلمي، ولم يخطر قط ببالي أن أهين شخصاً ما، ولو عرفت مقدار صلتي بالهنود والسودانيين والأحباش لما اتهمتني بما ذكرت؛ ففي الهنود ذكاء عظيم، وفضل كبير، وعلم جم؛ والسودانيين إخواننا في الوطن والعروبة والدين، ومنهم أعز أصدقائي الأستاذ الأديب توفيق البكري كاتم سر (النادي السوداني بمصر) وأنا أعطف على ناشئتهم في مدارسنا المصرية عطف الأخ الأكبر على اخوته الصغار. إما الأحباش فقد اتصلت بهم في لندن أيام نضالهم مع الإيطاليين، وعرفت فيهم خلالاً حميدة، وأدباً غزيراً؛ ودرست اللغة الحبشية في معهد اللغات الشرقية بلندن على آخر وزير لخارجية الحبشة المستقلة الأستاذ (هروي) ويعد من إنكار الجميل أن يخطر ببالي إهانتهم ولعل في كلمتي هذه ما يزيل الشك، إن كان ثمة شك.

عمر الدسوقي

تاريخ العرب

لما كانت الظروف الحاضرة قد أحيت بين بلاد الشرق العربي صلاته القديمة، وجمعتها على أمل وحدتها التاريخية، للتعاون المشترك على النهوض والاستقلال، فقد تقدم اقتراح إلى وزارة المعارف لتعمل على وضع تاريخ للشعب العربي منذ أقدم العصور على أن يدلل هذا التاريخ، بحسب ما وصل إليه محققو العرب، على حقيقتين خطيرتين لازمتين للوحدة العربية: أولاهما أن الشعب العربي أعرق الشعوب جميعاً وهو واضع أسس الحضارة الإنسانية ومنظم العدالة ومبادئ العلم وتعتبر أرضه مهبط الشرائع السماوية جميعها. وثانيتهما أن الأمم الشرقية الحالية مما يحيط بجزيرة العرب أمم عربية خالصة مما يمتنع معه الاندفاع مع الدعايات السياسية الغربية من أن العراق آشوري وسوريا فينيقية ومصر فرعونية وبلاد المغرب بربرية وغير ذلك.

وقد رحبت وزارة المعارف بهذا الاقتراح، وشرعت في دراسته.

الشيخ طنطاوي جوهري وجائزة نوبل للسلام
سبق أن أشرنا إلى تقدم فضيلة الأستاذ الشيخ طنطاوي جوهري ببعض مؤلفاته لنيل جائزة نوبل للسلم في هذا العام، وقد كان من شروط التقدم لمثل هذه الجائزة أن يكون صاحب المؤلفات من أساتذة الجامعة أو أن يرشحه أحد الوزراء أو عضو في البرلمان أو أستاذ جامعي في الفلسفة أو التاريخ أو القانون أو السياسة.
ولقد تطوع لترشيح فضيلة الأستاذ الدكتور مصطفى مشرفة بك عميد كلية العلوم، والدكتور عبد الحميد سعيد عضو البرلمان، فأخذت وزارة الخارجية بهذا الترشيح وأرسلت مؤلفات الأستاذ إلى البرلمان النرويجي مشفوعة بتقرير عن جهوده في سبيل العلم والسلام وشهادات علماء إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا في قيمة مؤلفاته.
اللغة العربية في مدارس إيران
رغبت وزارة المعارف الإيرانية في الأخذ ببعض مناهج التعليم في مصر على أثر اطلاعها عليها بمناسبة الدعوة لعقد مؤتمر شرقي للتعليم. وقد تبودلت رغبة أخرى في دراسة اللغة العربية في إيران إذ لوحظ أن انتشار هذه اللغة يكون عاملاً على توثيق الروابط بين إيران وبين جاراتها الشرقية.
وينتظر أن تبدأ وزارة المعارف في أوائل العام المقبل في ندب عدد من مدرسي اللغة العربية للعمل في مدارس إيران.
الأغاني المصرية وتعميمها في العراق
تلقت وزارة المعارف من حكومة العراق طلباً بإرسال صورة من الأغاني المصرية والمقطوعات الشعرية الغنائية لتعميمها في بلاد العراق.
وقد أرسلت الوزارة بعض المقطوعات التي منح أصحابها جوائز مالية وبعض مقطوعات أخرى تمثل النهضة المصرية الحديثة ومنها النشيد القومي للأستاذ محمود محمد صادق.
وقد ذكرنا من قبل أن وزارة المعارف تعني الآن بإحياء الأغاني المصرية وتوجيهها التوجيه التهذيبي لتتمشى مع روح النهضة الحديثة.
قصيدة مولد الليل
سيدي الأستاذ صاحب الرسالة الغراء:
سلام الله عليك. وبعد فقد ورد في قصيدة الأستاذ الشاعر محمود الخفيف (مولد الليل) (الرسالة عدد 290) بيتان شذ عجزاهما عن تفاعيل بحر القصيدة، أحدهما (ومضت تمسح كف الدجى) والآخر (إن دجا فوقِيَ ليل الردى) ولعل هذا تطبيع فنرجو تصويبه ضناً منا بجمال هذه القصيدة أن يصيبه تشويه الكسر. وفي شعر الأستاذ الشاعر رقة وسمو في الخيال يغريان على حفظه والترنم به. وبقاء العجزين على حالهما فيه نبوٌ باللسان عن إنشادهما ونبوٌ بالأذن عند سماعهما.
هذا وحفظ الله ابن عبد الملك الزيات.
(نابلس)
فدوى
(الرسالة): نشكر للأديبة الفاضلة حسن التفاتها ودقة ملاحظتها ونرجو منها أن تقرأ الشطرين هكذا:
(ومضيت ماسحة كف الدجى)
(إن دجت فوقي دياجير الردى)
حول الفرقة القومية
نشر الأستاذ (ابن عساكر) حديثاً لي في العدد رقم 292 من مجلتكم الزاهرة أسقط منه - لعلة لا أعرفها - فقرة خاصة بالمؤلفين المسرحيين المصريين الذين أخرجت لهم الفرقة القومية روايات مسرحية، فذكر في الحديث المنشور ما يأتي: (ومن حيث الرواية فإن الفرقة لم تقدم كاتباً يؤبه له. . .)
هذا في حين أن العبارة التي أمليتها عليه إملاء - وإنني دائماً أملي أحاديثي أو أكتبها - هي: (ومن حيث الرواية فإن الفرقة لم تقدم كاتباً جديداً يؤبه له إلا الأستاذ توفيق الحكيم)
أمليت هذا إحقاقاً للحق، وتنويهاً بمجهود الأستاذ توفيق الحكيم في حين أنني لم أغمط

قدر المؤلفين الذين تقدموه في كتابة المسرحية أمثال الأساتذة: إبراهيم رمزي ومحمود تيمور ولطفي جمعة وعباس علام ومحمد خورشيد وغيرهم.
لهذا أرجو التفضل بنشر هذه الكلمة استدراكاً لأمر خرج عن محاوره.
وتفضلوا بقبول فائق الاحترام.
زكي ظليمات

كلمة (فطاحل)

عثرت وأنا أقرأ المقدمة التي وضعها الأستاذان الكبيران العوامري والجارم عضوا المجمع الملكي، لكتاب البخلاء (طبع دار الكتب المصرية) على الجملة الآتية:
وليس من غرضنا في هذه الكلمة أن نجلو على القارئ فن الجاحظ وأدبه ولا. . . أن) ص3 سطر 4 (نقايس بينه وبين فطاحل العصر العباسي من الكتاب والمنشئين
وكلمة فطاحل هذه هي جمع فِطَحْل، وقد استعملها كثيرون وأرادوا بها معنى العظيم. على أنها ليست من هذا المعنى لشيء على ما نحسب. جاء في اللسان:
وذكر مثل ذلك صاحب (.فِطَحْل كهزبر: الأرض قبل أن يخلق الإنسان. البعير الضخم) القاموس والتاج والنهاية. ولم يذكرها الأساس.
ونحن لم نعثر على هذه الكلمة في شعر العرب أو كلامهم بهذا المعنى. وقد ورد: فحل، وقرم. . . ولم أجد أحداً من العرب استعملها مجازاً. فهل للأستاذين أن يبينا لنا وجه استعمالها، أو يذكرا لنا أحداً من العرب الخلص استعملها، أم كان ذلك جرياً وراء الخطأ الشائع؟
(دمشق)
صلاح الدين المنجد

الفاعل عند البصريين

يمتنع عند البصريين أن يكون الفاعل متقدماً على فعله. وفي الصبان ج2 ص32 جاء (وفي كلام الدماميني ما يفيد أن من المانعين للتقدم من يخص منعه بالاختيار حيث قال نص الأعلم وابن عصفور في قول الشاعر:
صددت فأطولت الصدود وقلما ... وصال على طول الصدود يدوم
(على رفع وصال بيدوم وقدم للضرورة وهو ظاهر كلام سيبويه
فأنت ترى أن من المانعين للتقدم من يخص المنع بالاختيار مستدلاً بهذا البيت. ولو أنهم فسروه تفسيراً آخر غير التفسير الذي فسروه به لما جروا علينا خلافاً كنا في غنية عنه. . . والتفسير المقبول هو: قل وصال يدوم على طول الصدود. فيكون قل فعل ماض وما زائدة ووصال فاعل قل. يبرر ذلك عندي:
أن قلما تستعمل في وجهين: تستعمل للنفي المحض فيمكن أن تكون حرفاً نافياً (1) (كما) فلا تطلب فاعلاً. وقد قرر البصريون إعرابهم على هذا الوجه (ب) وتستعمل لإثبات الشيء القليل كما قال الرضى. وقد قررت إعرابي على هذا الوجه.
أن الفعل وفاعله كجزأي كلمة ولا يجوز تقديم عجز الكلمة على صدرها ج2 ص32 (2) صبان. على أن هذا البيت الوحيد الذي يحتج به قد أخطأ في اللغة قبل أن يخطئ في النحو. فصحة أطولت أطلت. ولكن الشاعر اضطر إلى هذا لضرورة الوزن. فيجوز أن يكون في البيت ضرورتان. ولعل هذا الوجه من الإعراب يسنده ما رأيته (للقاني) في المغني في بحث (ما الزائدة): (إن البصريين لا يجيزون تقديم الفاعل في نثر ولا شعر).
فهل آن لنا - ونحن في دور تبسيط النحو - أن نحذف من كتبنا أمثال تلك الخلافات التي لا تجدي ولا تفيد؟
عبد العليم عيسى
كلية اللغة

في الشعر العربي

أخذ الأستاذ بشر فارس علي الجارم بك كثرة استعمال المحسنات المعنوية والألفاظ التي لا ترى إلا في المطولات من المعاجم، والتي لا يقوم شعر الجارم إلا بها، وعندي أن هذا خير ألف مرة ومرة من هذا الضرب الذي ارتضاه الجارم بك لنفسه.
وإني أقتطف شيئاً من قوله يوم نقل رفات سعد الخالد وأضع بجواره قول أحمد شوقي بك (على قبر نابليون) وقصيدة أخرى له أيضاً (دمعة وابتسامة)

قال شوقي في الأولى:
قف على كنز بباريس دفين ... من فريد في المعالي وثمين
وفي الثانية:
ارفعي الستر وحيّي بالجبين ... وأرينا فلق الصبح المبين
فيقول الجارم بك:
اكشفوا الترب عن الكنز الدفين ... وارفعوا الستر عن الصبح المبين
ويقول شوقي:
وانتقد جوهرة من شرف ... صدف الدهر بتربيها ضنين
فيقول الجارم:
واجتلوه درة ساطعة ... صدف الدهر بشرواها ضنين
والقصيدة كلها على هذا النمط الذي إن قبله الأستاذ الجارم لنفسه فلن يرضاه له أحد.
(إسكندرية)
مصطفى علي عبد الرحمن
بيان من جريدة الشباب
يسرنا أن نخبر القراء أن جريدة الشورى ستعود إلى الصدور قريباً وسنرسلها إلى القراء بدلاً من جريدة الشباب التي سنوقف إرسالها. وستكون الشورى مثل الشباب تماماً إن شاء الله. وإننا من الآن نوصي حضرات المشتركين والقراء والأصدقاء والزملاء بأن يجعلوا جميع مخابراتهم معنا على هذا العنوان:
محمد علي الطاهر
جريدة الشورى بمصر
حول شريط الدكتور
تعقيباً على ما كتبه الدكتور بشر فارس عن رواية (الدكتور) السينمائية، أقول إن من العيوب الموجودة بالفلم أيضاً أن تبرز صورة الحمار الناهق حينما أطل (الباشا) من نافذة المستشفى القروي، لكي يتمتع بهواء الريف العليل، ويتمتع بجمال الطبيعة الساحر!. أما كان الأجمل ألا تبرز صورة الحمار هنا، وأن يكون بدل ذلك شتى المناظر الفتانة والصور الخلابة؟
ولست أدري سبب تلك الصورة المشوهة التي أعطتها لنا الرواية عن أسرة الدكتور حلمي. وأظهر موضع لتشوهها حينما جلس الباشا وزوجته وابنته إحسان مع حلمي وأبويه، لتناول الغداء بالعزبة، فهل يعقل أن تقدم (الشوربة) والأطعمة في صحاف فخمة وأدوات (مودرن) ونظام مدني؛ ثم يقدم بعد ذلك (الخروف) المطبوخ، فلا يؤثر في لحمه السكين، ولا يقدر على تقطيع أوصاله إلا كف الشيخ عبد السلام الششنة؟!
وعندما دخلت أم حلمي على الضيوف. . . هل يعقل أن تسلم فقط على إحسان، ثم تترك أباها وأمها، فلا تخاطبهما ببنت شفة؟ أهذا ما يوحي به الطبع الريفي والعادات المصرية؟!
وهناك مظهر اصطدام السيارة المقلة للضيوف بالجمل المثقل بحمله في حمى العزبة. . . أحقاً يفعل أبناء القرى بالسيارة الفارهة وفيها راكبوها وهم غرباء ذوو مظهر وجاه ونعمة، مثل ما رأينا في الرواية، مما توحيه الجرأة ويمليه التبجح؟ أظن أن الريفي بعيد كل البعد عن هذه الروح؛ فهو لا يزال يجل الغريب ويحيطه بأنواع التجلة والإكبار.
أحمد الشرباصي
الكُتُب
رجعة أبي العلاء
تأليف الأستاذ عباس محمود العقاد
أبو العلاء المعري رجل عبقري الذهن ما في ذلك شك، وهو في عبقريته هذه نفاذ مستوعب يقتحم كل شيء ويحيط بكل شيء. ولقد اهتم به كثير من النقاد والباحثين في هذه الناحية، فدرسوا آثاره، وشرحوا أقواله، وحللوا ملكاته، وقال كل فيه بما يرى وعلى ما يفهم، والأستاذ العقاد في جملة هؤلاء الذين عنوا بشيخ المعرة، بل إنه لأشدهم مصاحبة له، ونظراً فيه، وإدماناً عليه. اتخذه رفيقاً في جميع أطوار فكره، وجرى معه في كل أدوار عمره، وكتب عنه في (المطالعات) عدة فصول هي أدق

. . .وأعمق ما كتب عن المعري في عبقريته وفلسفته وتحليل ملكاته
والمعري أيضاً رجل عبقري النفس ما في ذلك شك، وعبقرية النفس هي الشعور بالواجب والحرص عليه، والإيمان بالحق والتفاني فيه، والإحساس القوي الذي يملأ النفس بالروحانية والثقة والكرامة والأنفة والترفع عن كل ما يشين ويزري بصاحبه.
وغاية الكمال في (الشخصية) الإنسانية أن تجتمع لها العبقريتان: عبقرية الذهن وعبقرية النفس، فتتوازن من الجانبين، وتتعادل في الجهتين. فإذا هي على استواء في التفكير والتقدير، والعواطف والأهواء. . .
وإذا كان المعري في الناحية الأولى قد أشبعه الباحثون قديماً وحديثاً بالبحث والدرس، فإنه في الثانية مطمور مغمور، لم يفطن إليه كاتب، ولم ينتبه له ناقد، ومن هذه الناحية المجهولة، أراد العقاد أن يكشف عن أبي العلاء في (رجعة أبي العلاء) فبلغ من ذلك غاية ما يبلغه الناقد البصير في الكشف عن (مجهول) بالفرض والاستنتاج والحدْس والتخمين والمقارنة بين العبقريات والشخصيات، والمقابلة بين الآراء والأفكار، مع مراعاة الزمان والمكان، والظروف والملابسات.
ففي المقال الذي كتبه العقاد عن (صاحب الجلالة المعري) دراسة قويمة نافذة، تتجلى فيها عبقرية العقاد في البحث والتحليل وتنكشف فيها عبقرية المعري النفسية، أو ما يسميه العقاد بشيمة السمت والوقار، أو كما نقول في لغة العصر الحاضر: أدب البيئة وأصول اللياقة
ومن رأي العقاد أن هذه الخصلة في الرجل ترجع إلى مراجع كثيرة: هي (ص 24) التربية في بيت العلم والوجاهة، والسليقة العربية، وفقد البصر، والكبرياء، وعزة النفس، ووهن البنية، وضعف الخوالج الجسدية ضعفاً أتاح له أن يكبح نوازع اللحم والدم ويقمع دوافع الشهوات.
وفي الفصل التالي يمعن العقاد في التحليل والكشف عن عبقرية المعري النفسية، ويحاول أن ينظر إليه في (عالم السريرة) فيسأل: هل كان من المستطاع تغيير هذه الخصلة، خصلة السمت والوقار؟ ثم يسأل: وماذا كان المعري صانعاً لو أنها تغيرت بعض التغيير أو كل التغيير؟ ثم يجيب العقاد على ذلك بأن تغييرها كان مستطاعاً كما يستطاع كل تغيير في عوارض الصفات، وأكبر الظن في هذه الحالة أنه كان يجمع بين النواسية والخيامية في نمط واحد، أو كان يخرج لنا نمطاً جديداً يضاف إلى نمط النواسي ونمط الخيام في ديوان الآداب الشرقية.
ولقد بلغ العقاد في هذا الفصل والذي قبله غاية لا تطاول في التحليل والتقدير والاستنباط، وهذان الفصلان هما خير ما في كتابه من الدراسة، وأمتع ما فيه من نفاذ الذهن العبقري في إدراك السر العبقري.
ولقد فرض العقاد لشيخه المعري فروضاً كثيرة، ونظره في أوضاع مختلفة، ولقد حاول أن يلبسه لبوس قاضي المعرة، أو أن يظهره في مظهر النواسي، أو يجعله على نهج الخيام وطريقته، ولكنه انتهى به إلى حقيقته الكائنة (فأبو العلاء هو أبو العلاء) حين يمعن في أغوار ضميره فيلمح هواجس قلبه، وشكوك عقله، ومادة علمه واختباره، وآثار نعمته وحرمانه.
وبهذه الطبيعة الكائنة رجع العقاد بشيخه المعري إلى الحياة، وطوّف به في أنحاء الأرض، واستطلع طلعه في شؤون العالم الحاضر مما رأى وسمع. فلما بلغ غاية المطاف، وسئم المضيفين والأضياف، رجع به إلى مثواه، وانتهى به إلى حيث هو في رقاده، بعد أن ودّعه بقصيدٍ على طريقة اللزوميات. والفكرة في رجعة أبي العلاء قد حاولها المنفلوطي رحمه الله من قبل، ولكن هناك فرقاً كبيراً بين العقاد والمنفلوطي في رجعة أبي العلاء وبعثه، فقد كان المنفلوطي يبغي دراسة المعري من أقواله وأشعاره فانتهج لذلك نهجاً قصصياً قريباً
إلى النفوس، سهلاً في التناول. أما العقاد فقد تخيّل (رهن المحبسين) يجوس بيننا خلال الديار، ويتمرس بأحوال الأمم في عالمنا الحاضر. ثم راح ينطقه بالرأي في شؤون زماننا بالقياس على المعهود من كلامه، والمقابلة بين المعروف من آرائه، وهو في كل هذا يستشهد بشعره، ويتمثل بقوله، ويصطنع لغته، ويجري على طريقته. . .
ولقد أخذ على العقاد بأنه في كتابه قد أظهر شخصيته هو لا شخصية أبي العلاء، وأبدى رأيه هو لا رأي شيخه في الحياة، وأنه أنطق الرجل بالقرآن وما كان ديدنه ذلك، وكأني

بقائل هذا قد فاته الغرض الذي قصد إليه العقاد. وأشار إليه في المقدمة بصريح العبارة، فإن العقاد لم يقصد إلى دراسة المعري ولكنه فرضه حيًّا في هذا العصر، وعلى هذا الفرض أنطقه بالرأي قياساً على المعهود من كلامه وآرائه كما يقول، فله أجر المجتهد إن أخطأ أو أصاب في مجال الفرض والتخمين. . .

وفي الكتاب أقوال يجوز فيها بيننا وبين الأستاذ الخلاف، فهو يقول مثلاً: أما الخمر فلا أستبعد أن الشيخ قد ذاقها في بعض الأديرة التي كان يغشاها للدرس (ص 46) وأنا أخالف الأستاذ في ذلك وأرى أن وصفه للخمر لا يقوم دليلاً على ذلك. والأستاذ العقاد نفسه يأخذ بهذا الرأي فيما كتبه عن المعري في المطالعات فبأي قولي الأستاذ نأخذ؟

ويقول على لسان المعري لتلميذه حسبك حسبك وهو يشرح له فلسفة العصر في المرأة، وعهدنا بالمعري يتلهف على المعرفة، ويضرب إليها أكباد الإبل، فليس من طبعه أن يقول: حسبك حسبك. في مثل هذا المقام.

ويقول العقاد: أما أبو العلاء فهو قريب من أبو نواس في الثقافة، وكان الأنسب أن يقول: ولقد كان أبو نواس قريباً من المعري في ثقافته. . . والفرق واضح بين القولين.

ويحاول الأستاذ العقاد أن يقف بالمعري في المناقشة والمحاجة دائماً موقف المتريث المحجم الممتعض، وما كان المعري كذلك بطبعه إلا في مواقف التقيّة والمداراة.

وأعود فأثني على كتاب أستاذنا الكبير خير ثناء، وأشكره على يوم قضيته في استجلاء (كتابه) فلم أندم عليه، بل ربحت منه الكثير، وأفدت منه النافع الجليل.

م. ف. ع

المسرَح وَالسِينما

الفرقة القومية

هل هي في تقدم أم في تأخر أم في ركود؟

لقد ساير الأستاذ توفيق الحكيم الفرقة القومية منذ نشأتها وكانت أولى مسرحياته، أهل الكهف (حسن طالع) لها، افتتحت بها عملها الفني، وقد غذى المسرح بروايته الثانية (سر المنتحرة) وله مجالات في فن القصة تدل على روحه القوي واندفاعاته الجريئة في ارتياد آفاقها ليتعرف أسرار الحياة وليشرك قارئه معه في الفرح بالحياة أو الاكتئاب منها.

قلت للأستاذ الحكيم: لقد سايرتَ الفرقة القومية منذ افتتاحها وغذيتها بمسرحياتك، وعاونت مديرها وسندته في مهمته، وها قد مضى على ذلك أربعة أعوام، فهل في وسعك أن تقول هل الفرقة في تقدم أو في تأخر أو في ركود؟ فأجاب:

من يطلع على التقرير الذي وضعه سعادة الدكتور عفيفي باشا وفيه بيان الغرض من إنشاء الفرقة القومية ير أن المقصود من وجود هذه الفرقة ورصد مبلغ كبير من مال الأمة، هو إنشاء دار تحدث نهضة عظيمة تشعر البلاد والجمهور المثقف بها، يكون من شأنها ترقية الفن والأدب المسرحي وحركة الترجمة أيضاً مما يجعل هذه الدار عنواناً تفخر به مصر. لذلك كان المفهوم أن خطة الفرقة سائرة في هذا السبيل، ولكن اتضح مما قدمته في مواسمها العديدة أنها لم تؤد أكثر مما أدته الفرق الأهلية من قبل، بل إن البلاد شعرت بنهضة مسرحية في أول عهد ظهور مسارح جورج أبيض، ورمسيس، وفاطمة رشدي. حيث أخرجت للناس بعد روائع الأدب الغربي المعروفة أمثال عطيل ومكبث وسيرانو دي برجراك وغادة الكاميليا وغيرها، كما أن مسرح الأزبكية كان قد نهض إلى حد ما بالرواية المسرحية الغنائية. وكان المنظور بمجرد ظهور الفرقة القومية بما لها من وفرة المال والممثلين؛ وتعضيد الحكومة أن تتجه بالفن اتجاهاً جديداً، ولكنها خيبت ظن الجمهور،

فرواياتها المترجمة هي من سقط متاع الغرب ومن أقلام شبه مجهولة، وكذلك التأليف. كما أن الإخراج والتمثيل ليس لهما قاعدة ثابتة لعدم إسنادهما إلى أيد مختصة مسؤولة عن الإدارة الفنية كما هو الحال في جميع المسارح والسينما المحترمة، وقد وضحت جميع هذه النقط في التقرير الذي كلفت بتقديمه إلى وزارة المعارف.

إذن يمكنني أن أقول إن الفرقة القومية ليست في تقدم كما تدعي هي، بل هي في جمود سيؤدي إلى التأخر ولا شك.

- هل علة هذا الجمود هي الإدارة العامة، أم لجنة القراءة، أم المؤلفون الذين لا يغذون

المسرح؟
أعتقد أن المسؤول الوحيد عن سير الفرقة هي الإدارة العامة، وأن لجنة القراءة والمؤلفين ليسو غير وسيلة يتوسل بها المدير للانتفاع بهم في الوصول إلى الغرض الأسمى للفرقة، فلجنة القراءة ليست هي المدير، والمقصود من وجودها إعانة المدير على اختيار الروايات من بين الأكوام التي تقدم إليه. أما المؤلفون فهم على نوعين: مجهول ومشهور، فظهور الأول رهين بالظروف والمصادفات، والمباراة في التأليف هي إحدى الوسائل التي تعجل اكتشافه وتيسر إبراز مواهبه. أما الثاني أي ذلك المؤلف الذي لا تشغله ميادين نشاط أخرى فهو في الغالب لا يمكن أن يقحم نفسه في الفرقة بغير دعوة منها، وفي العالم كله نجد المسارح وشركات السينما هي التي ترسل في طلب المؤلفين المشهورين وتتعاقد معهم. أما قول بعضهم إن كبار المؤلفين يتهيبون الوقوف مع الكتاب الناشئين فغير صحيح، لأن الكاتب المشهور مهما أسفّ فإنه يخرج عملاً له قيمته الفكرية على كل حال، مطبوعاً بطابع شخصيته الأدبية التي عرفها الجمهور ورضي عنها واشتهر من أجلها في مناحي الأدب الأخرى.
- أراك أزحت عن عاتق لجنة القراءة أسباب تأخر الفرقة في حين أن مديرها يقول إنه ينفذ قراراتها، وإن الفرقة لا تمثل إلا الروايات التي تقرها اللجنة.
قلت: إن مهمة لجنة القراءة تصفية المتراكم من الروايات المقدمة للمدير، وليس من شأنها إحداث النشاط الأدبي والفكري اللازمين لحياة الفرقة ورقيها. فليس مثلاً من شأنها البحث عن أمهات الآثار الغربية التي تلائم المزاج المصري فتدفع بها إلى المترجمين،
والمقتبسين؛ وليس من شأنها أيضاً أن تتعاقد مع المؤلفين الذين ترى أن مصلحة الفرقة في أن يكتبوا لها؛ وليست هي التي تبحث عن وسائل إخراج هذه الروايات التي يسترعي إخراجها انتباه الجمهور، فكل هذه المسائل من اختصاص مدير الفرقة وحده، وهو إما لكسله أو لعدم تحمسه لإحداث النشاط الفكري والفني المطلوب يحاول أن يلقي تبعة هذا الجمود على لجنة القراءة أو على كبار المؤلفين، وهي في حقيقة الأمر حجة يستتر خلفها تبريراً لما يشعر به من خيبة الأمل التي كانت معقودة على الفرقة.
قلت: أعرف مدى نفوذ أعضاء لجنة القراءة على مدير الفرقة، كما نعرف جميعاً مبلغ تسامح المدير في كل شيء، وحبه للسلام، وبعده عن النضال والجدل الأدبي فهل لك أن تقول بصراحة هل يمكن لأعضاء لجنة القراءة أن يكونوا رجال حكم صحيح في الفن المسرحي والرواية المسرحية، وهل ما جاء في أحاديثهم يدل على أنهم أهل لمساعدة المدير في تحقيق رسالة الفن المسرحي.
فقال: أعتقد أن أسباب نفوذ لجنة القراءة مستمدة من ضعف مدير الفرقة، وأن أسباب ضعف المدير آتية من استئثاره بالعمل والضن على نفسه بمساعدة يستمدها من صاحب دراية ومعرفة، وهو الكسول كما عرفنا، فلو أنه كان يشفع الرواية التي يقدمها إلى اللجنة برأي فني قاطع، ويترك للجنة النظر إلى الرواية من الناحيتين: اللغوية والخلقية، لكانت اللجنة لزمت حدها. ولو أنه ألف لجنة فنية من المخرجين وكبار الممثلين مسؤولة عن نجاح الرواية وعن سقوطها، لكانت الفرقة مشت في طريقها الطبيعي، وقامت كل هيئة بما هو موكول إليها من أعمال. ولو أن الأمور كانت تسير في هذا الطريق وهو الطريق القويم المتبع في فرق التمثيل في العالم، لما كان يضير الفرقة أن تكون لجنة القراءة فيها مؤلفة من شيوخ أو غير شيوخ. وفي الختام أقول لك ولقرائك: سامح الله مدير الفرقة، فقد أبطأ جد الإبطاء في تيسير الأدب المسرحي في سبيله الممهد.
ابن عساكر
العدد 294 - بتاريخ: 20 - 02 - 1939
الطفولة المعذبة
في الأقوال السائرة أن الفقير كلما طلب من الله قرشاً أعطاه كرشاً. وفي ذلك حكمة للعليم الحكيم تستسر دلائلها على الفطن المحدودة. فإن قوام العيش ونظام الدنيا منوطان بالسعي المرهق والعمل المهين، وهذان لا يقوم بهما إلا الكثرة، ولا يحفز عليهما غير الحاجة. والغني المترف يحسب أن يديه لم تخلقا إلا لصرف النقود وقطف الخدود ورفع القدح؛ فمثله كمثل السبع من الوحش والطير: يهلك ولا ينتج، ويدمر ولا

يعمر؛ فكان من صلاح الأرض أن يقل نسله كما يقل نسل الأسود والنمور، ويكثر نسل الفقير كما يكثر نسل الضأن والبقر. ولكن حكمة الله ضاعت في غفلة الناس، فبغي الغني على الفقير حتى أصبح وهو مصدر الإنتاج في النسل والحرث، مفدوحاً بحمله فلا ينهض، ومكدوداً بعمله فلا يستطيع. ثم نبا كوخه الجديب الضيق عن بنيه فدرجوا في أفازيز الشوارع وزوايا الطرق وعليهم هلاهل من أخلاق الثياب تهتكت على الصدور والجوانب، يستندون الأكف بالسؤال، أو يستدرون الجيوب بالسرقة، أو يأكلون ما طرح الناس من فضلات الطعام في المزابل. هؤلاء الأطفال المشردون هم الذين تراهم يطوفون طول النهار وثلثي الليل على القهوات والحانات، كما تطوف الكلاب والهررة على دكاكين الجزارة ومطاعم العامة، وهمهم أن يصيبوا ما يسد الرمق ويمسك الحياة. فإذا أغلقت المقاهي وهجعت المدينة تساقطوا من السغوب واللغوب على العتبات وفي الحنايا وتحت الجدر، فيقضون آخر الليل بعضهم في بعض كما تتداخل خراف القطيع إذا عصفت الريح أو قرس البرد.

هؤلاء الأطفال المهملون هم الذين يستغل ذكاءهم تجار الرذيلة، وسماسرة الجريمة، يسلطونهم على القلوب البريئة والجيوب الآمنة، فيسلبونها العفة والمال، ثم لا يكون نصيبهم من هذه الثمار المحرمة إلا الخوف والجوع والأذى والمطاردة. يغرون الصبيان بالشر، ويوزعون المخدر في السر، ويسرقون السابلة بالحيلة، ويستجدون الجلوس بالرحمة، ويجمعون الأعقاب من الطرق، وكل أولئك لطغمة من المتعطلين يتعقبونهم بعين النسر من بعيد؛ حتى إذا اخذوا ما معهم تركوهم لأهوال الليل، فإذا خشوا منهم نفاراً أو فراراً كدسوهم في أقباء المنازل المهجورة فلا تدركهم عين الشرطة ولا تنالهم رعاية البر. ولا أدري كيف سالت على قلمي كلمة البر هنا، وهي لو كانت في لغة الناس لما كان كل هذا!

إن سادتنا المترفين ليأنفون أن تقع أعينهم على هذا القبح، وتدنو أثوابهم من هذا القذر، فهم ينهرونهم كما ينهرون الكلاب، ويذبونهم كما يذبون الذباب، ويفورون غضباً على الحكومة أن تسمح لهذه الحشرات أن تدب على الطرق المغسولة، أو تحوم حول الموائد المزدانة!

شق الله هذه الأشداق المنفوخة يا سادة! إن هؤلاء الأطفال الذين يحملون العلب بالأصباغ، أذكى من أطفالكم الذين يحملون القماطر بالكتب؛ وإن عباقرة العالم في الأدب والفن والعلم والحكم قد ولدوا كهؤلاء في مهاد اليتيم والعدم، ونشئوا في حجور الألم والفاقة، فاضطرهم الشقاء الباكر أن يعرفوا أن لهم أذهاناً للتفكير، وعقولاً للتدبير، وأيدياً للعمل؛ ففكروا ثم قدروا ثم علموا، فكان من آثرهم هذه الدنيا، ومن سيرهم هذا التقدم. أما أبناؤكم أبناء الدعة والسعة والرفاهة فانتفى عنهم العمل لقلة الحاجة، وضعفت فيهم أداته لكثرة البطالة، فاصبح المخ مستوياً أملس كالصحيفة، والجسم صقيلا املط كالديباجة، واليد رقيقة رفافة كالزنبقة. فهم تماثيل ناطقة للغباء الأنيق، تطعم وتنعم وتلهو على حساب الفقير الذي يعمل ولا يأكل، والأجير الذي يشقى ولا ينال!

بالله ما ذنب هذا الطفل الشريد الذي تتحامون مسه، وتتفادون مراه إذا كان القدر قد اختار له ذلك الأب البائس الذي يتزوج ولا يعاشر، ثم يلد ولا يعول؟ هل من طبيعة الحي أن يلقى أفلاذ كبده مختاراً في مدارج الطرق تطأها الأقدام وتتحيفها المكاره؟ هل تستطيعون أن تجدوا لذلك إذا وقع علة غير الفقر الذي يحمل الأب في أزمات القحط والحرب على بيع بنيه واكل بناته؟ فإذا كنتم تشفقون على نعيم عيشكم من رؤية البؤس، وتخشون على جمال حياتكم دمامة الفقر، وتضنون بسلام وطنكم على أدواء التشرد، فاقتحموا على الفقر مكامنه في أكواخ الأيامي وأعشاش العجزة، ثم قيدوه بالإحسان المنظم في المدارس، والصدقة الجارية في الملاجئ، تجدوا بعدئذ أن الدنيا جميلة في كل عين، والحياة بهيجة في كل قلب، وتشعروا أن روحاً عامة قد وصلت بين جميع الأرواح فاصبح الشعب كله جسماً حياً متآلفاً متكاتفاً تتغذى خلاياه بدم واحد، وتتساير نواياه إلى غاية واحدة!

أحمد حسن الزيات

كتاب مصطفى كامل

للأستاذ عباس محمود العقاد

الأستاذ الكبير عبد الرحمن الرافعي بك جدير أن يسمى بحق مؤرخ النهضة القومية الحديثة، لأنه أرخها في مرحلتها التي بدأت بالحملة الفرنسية، وأرخها في مرحلتها التالية التي بدأت بقيام محمد علي الكبير على الأريكة المصرية، وصحبها فيما أعقب ذلك من المراحل إلى عهد الثورة العرابية فالاحتلال البريطاني فالحركة الوطنية في عهد هذا الاحتلال

وهاهو ذا قد تأدى في تاريخه لها إلى ختام القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، أي إلى الفترة التي ظهر فيها زعيم الوطنية في أبناء ذلك الجيل مصطفى كامل باشا رحمه الله

ونهج الأستاذ الكبير في كتابه عن مصطفى كامل شبيه بنهجه في الكتب المتقدمة من حيث الطريقة والوجهة، يتتبع الوقائع ويستقصي ما احتاج إليه من الأسانيد وينصف في الحكم على الرجال والحوادث مع ميل يسير إلى تخفيف التبعات أو تجميل المحاسن في بعض الجوانب، وسهولة في التعليل والتعليق لا تثقل على ذهن القارئ ولا تكتفي مع ذلك بالظواهر دون ما يلازمها من الأسباب والعواقب

إلا أنه في كتابه عن مصطفى كامل قد اقترب من ميدان الحياة الحاضرة أو من معترك السياسة الذي يعيش فيه، فكان لذلك أثره في الميزان دون قصد في بعض الأحيان، وعلى قصد ظاهر في بعض الأحيان

ولتوضيح ما نقول نرجع إلى الحركة الوطنية ومذهبيها المختلفين بعد احتلال الإنكليز لهذه البلاد

فقد كانت الدعوة الوطنية كما قلنا في كتابنا عن سعد زغلول (شعباً مختلفات في المقصد والنتيجة المأمولة، فمنها ما كان يتجه إلى الدولة العثمانية، ومنها ما كان يتجه إلى فرنسا لأنها أكبر الدول التي كانت تناوئ في مطامعها الشرقية، ولم يشترك مع هؤلاء ولا هؤلاء حصفاء الثورة العرابية الذين شهدوا بأعينهم تذبذب السياسة الفرنسية والسياسة العثمانية قبل الاحتلال. فقد رأى رجال هذا الفريق ما هو حسبهم وزيادة في هذه الآمال الكاذبة وهذه الجهود العقيمة، فاستقاموا على الطريق الوحيد المفيد الممهد لهم وهو طريق النهضة

المصرية الصميمة واستقلال المصريين أنفسهم بطلب الاستقلال، وتزويد الأمة بعدة العلم واليقظة والمثابرة، لأنه ما من وسيلة إلى الاستقلال في رأيهم أنجع من وسيلة فهمه والاستعداد له والإصرار على طلبه. ومن هذا الفريق كان أناس من فطاحل المصريين أمثال محمد عبده وسعد زغلول).

هذان هما المذهبان اللذان شاعا من مذاهب الحركة الوطنية بعد الاحتلال: مذهب مصر للمصريين، ومذهب الاعتصام بالسيادة العثمانية، أما لأنها دولة الخلافة، أو لأن السيادة العثمانية (حجة شرعية) لمحاربة الغاصب وإظهار مركزه (غير المشروع)

ولا يخفى أن مصطفى كامل رحمه الله كان من أنصار السيادة العثمانية، وكان يذكر الاستقلال ولا يذكر الاستقلال التام، وكان يقيم المحافل كل عام في عيد جلوس (المتبوع الأعظم) عبد الحميد سلطان آل عثمان ليؤكد ولاء المصريين للسيادة العثمانية. وقد انشأ الحزب الوطني فكان المبدأ الأول من مبادئه (استقلال مصر كما قررته معاهدة لندرة سنة 1840، ذلك الاستقلال الذي يضمن عرش مصر لعائلة محمد علي مع الاستقلال الداخلي عن تركيا).

وكان المبدأ العاشر من مبادئه (تقوية العلائق بين مصر والدولة العلية).

ولبث أشياع مصطفى كامل على هذا الرأي حتى كتب اللواء يعيب على الأستاذ الكبير (أحمد لطفي السيد بك) أنه يطالب بالاستقلال التام ويخرج بذلك على أحكام القانون وعلى سنة الولاء للسيادة العثمانية، فاضطر الأستاذ يومئذ إلى التفرقة بين الاستقلال التام والاستقلال الكامل توفيقاً بين ما يدعو إليه وبين الصيغة الشرعية

ثم لبث أشياع مصطفى كامل على هذا الرأي إلى ما بعد الحرب العظمى وبعد الثورة الوطنية التي أعقبتها، فحولوا الأمر إلى أصحاب السيادة في الآستانة ثم في أنقرة، كأنهم هم الأصلاء وليس للمصريين أن يبرموا أمراً في هذه السيادة إلا بعد إبرام الأصلاء رأيهم في موضع الخلاف!!

وقد تعاقبت الحوادث وتمخضت الآراء فظهر بعد حين موقع الصواب من المذهبين،

وضعفت حجة السيادة العثمانية شيئاً فشيئاً حتى أصب الجيل الحاضر يعجب كل العجب كيف كان هذا الرأي في يوم من الأيام موضع خلاف!!
وقد كان الأنصاف التاريخي يقضي ببيان هذه لحقيقة في تاريخ مصطفى كامل ولا يمنع المؤرخ أن يفصل أعذار المعتصمين بالسيادة العثمانية في ذلك الحين، بل يوجب عليه أن يذكر هذه الأعذار وإن يذكر معها صواب المخالفين ولا سيما حين يشعر أنه صواب ولكننا بحثنا في كتاب مصطفى كامل فلم نر فيه إشارة إلى هذا أو ذاك، وكأنما غلبت عليه النزعة الحزبية على النصفة التاريخية فوجدنا أن الأستاذ الكبير قد اغفل الموضوع كل الإغفال، فلم يذكر محافل المتبوع الأعظم ولم يذكر حملة اللواء على طلاب الدستور والحرية في البلاد العثمانية، وكتب أكثر من عشر صفحات عن تأسيس الحزب الوطني مفصلا أسماء أعضائه وأقوال الصحف فيه دون أن ينشر مبادئه أو يأتي بالمهم منها وهي أهم ما يثبته المؤرخ في سيرة زعيم حزب من الأحزاب
ولو أنه فعل هذا لأقر الحقائق في نصابها وأتاح للقارئ أن يحيط بمعاني الحركة الوطنية من جميع نواحيها، وإن يستخرج العبرة المقصودة بالتاريخ من صواب أو خطا لكل فريق، وما من فريق واحد معه كل الخطأ أو كل الصواب
وبينما الأستاذ الكبير ينسى هذه الحقائق التي لا يبطلها النسيان إذا به يأخذ بالظنون التي لا سند لها ولا معول عليها فيما يكتبه عن سعد زغلول فيقول عن علاقة سعد بالجامعة المصرية (وتبين أن انسحابه من رياسة اللجنة كان تحقيقاً لرغبة الاحتلال لكي يحبط المشروع، وقد أصابه الفتور والركود فعلاً بعد إنسحابه من اللجنة، وبخاصة لأن الحكومة خلقت في ذلك الحين بإيعاز من الاحتلال أيضاً حركة إنشاء الكتاتيب واستحثت الأعيان في مختلف الجهات على التبرع لها معارضة بذلك مشروع الجامعة).
ثم أشار الأستاذ الكبير إلى مسألة التعليم باللغة العربية فقال (وقد كانت خطبته - أي خطبة سعد - دفاعا عن سياسة الاحتلال في التعليم. لأن الاحتلال هو الذي احل اللغة الإنجليزية محل اللغة العربية في التدريس بالمدارس الأميرية. . .)
تبين أن انسحاب سعد زغلول من رياسة الجامعة كان تحقيقاً لرغبة الاحتلال. . . يا عجباً! كيف تبين ذلك؟ ومن أين جاء ذلك البيان؟
أما الحقيقة فهي أن الحكومة تبرعت للجامعة بالمال واعترفت بشهاداتها كما تعترف بشهادات المدارس الأميرية. وسألناسعداً في ذلك فقال في بيان نشرناه في كتابنا عنه: (. .
كل هذا والذين يريدون إخراج الجامعة من قبضة الحكومة قد يجهلون أنها دفعت مرة واحدة خمسة أضعاف ما دفعه المتبرعون في أنحاء القطر المصري بأجمعه، وليس هذا كله كل ما أمدت به الحكومة هذه الجامعة فإن اعتبارها لها مدرسة منتظمة وقبول شهادتها بين بقية الشهادات المدرسية ينشط الناس إلا الإقبال عليها إقبالاً لا تظفر بمثله إذا كان الغرض منها مجرد تحصيل العلم وتوسيع العقل، وربما لا تنسى أن بعض هؤلاء كان يطلب من الحكومة إعانة المشروع مادياً، فرفضهم الآن إشرافها عليه بعد أن أدت الحكومة ما طلبوه منها بعد من الغرابة بمكان).
هكذا كان موقف سعد من الجامعة وهو وزير، وأنه لأصوب ألف مرة من موقف الداعين يوم ذاك إلى إحباطها وتشكيك الناس في مصيرها. أما إنشاء (الكتاتيب) واعتباره حرباً للجامعات والمدارس العليا فقد عشنا بحمد الله حتى رأينا الدستور المصري يفرض التعليم الإلزامي فرضاً ويجعله واجباً من الواجبات الوطنية، وعشنا بحمد الله حتى علمنا أن سعداً قد سبق النهضة القومية سنوات إلى ذلك العمل المجيد الذي كان محسوباً يوم ذاك من الجنايات
ومن السهل على الإنسان أن ينق سعداً حين يعارض الهجوم على تقرير التدريس باللغة العربية في جميع المدارس المصرية قبل إعداد الكتب وإعداد المدرسين والنظر في عواقب هذا التبديل؛ ولكن من السهل أيضاً أن يعلم الإنسان أن المستطاع هو المستطاع وإن سعداً قد عمل في سبيل اللغة العربية والتمهيد لتدريسها جهد ما يعمله وزير في تلك الأيام، وإن مدرسة مصطفى كامل نفسها لم تكن تستغني بالمدرسين المصريين عن المدرسين الإنكليز، اعتماداً على ما كان يقال في ذلك الحين من أن تدبير الدراسة والكتب المدرسية ليس بالأمر العسير.
هذه ملاحظاتنا على موازين الأستاذ الرافعي في تاريخ هذه الفترة، فهو يمسح من هذا

التاريخ كل ما يبين وجه الصواب عند من خالفوا صاحب السيرة في الأساس أو التفصيل، ويثبت من جهة أخرى ظنوناً لا ثبوت لها لتقرير الصواب في جانب المؤيدين والمناصرين.

ومع هذا نقول أن مكتبة (النهضة القومية) لا تكمل بغير كتاب الأستاذ عن مصطفى كامل،

لأنه يشتمل على وقائع صحيحة وأسانيد صادقة وملاحظات قيمة. أما المواضع التي ينحرف فيها بعض الانحراف عن سنته في الإنصاف والتمحيص، فليس للقارئ أن يطلب الحق كله من كتاب واحد، ولا سيما في تاريخ تختلف فيه الميول والآراء.

عباس محمود العقاد

رد على رد

بين القديم والجديد

(لأحد أساطين الأدب الحديث)

يجمع الأستاذ الغمراوي في نفسه من صفات الخلق العظيم ما لا يتفق إلا لقليل من المهذبين الأفاضل؛ فهو يغار على الفضيلة والدين، ويجمع إلى غيرته لطف المناظرة والأنصاف وآداب الحديث والمجادلة بالتي هي احسن؛ وهذه رعاية من الله، نرجو أن يديم الله عليه نعمته. وقد ظهر عدل الأستاذ وأنصافه في اعترافه بأن في الأدب القديم أكثر مما يشكو منه مما في الأدب الحديث، وفسر القديم بأنه ليس القدم الزمني، فالقديم والحديث في اصطلاح الأستاذ صفات لا تدل على الزمن، وضرب مثلاً بشعر عمر بن أبي ربيعه وقال: أنه لو كان في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه له نفاه بسبب غزله. فعمر بن أبي ربيعه إذاً على قدمه الزمني ليس من المذهب القديم في الشعر والأدب على سد اصطلاح الأستاذ، إذ أن القديم في اصطلاح الأستاذ هو من لم يقل غزلاً يثير شجون النفس وشهواتها وتعلقها بفتنة الحسن. وليعذرني الأستاذ إذا قلت أنه يصعب عليه أن يجد شاعراً واحداً يصح أن ينطبق عليه اصطلاح القديم في عرفه، فهذا الرافعي على تقواه ودينه وفضله له في الغزل نثراً وشعراً أشياء (أشهى) من شعر عمر بن أبي ربيعه. ألم يقرأ الأستاذ الغمراوي للرافعي وصفه للراقصة ومحاسن جسمها وقصته معها؟ ومع ذلك فالأستاذ الغمراوي يقول أن أدب الرافعي يمثل الأدب القديم في اصطلاحه، مع أن الأستاذ الغمراوي لو كان خليفة وعرض عليه غزل عمر بن أبي ربيعه وبعض ما قاله الرافعي شعراً ونثراً في الغزل ووصف مفاتن الحسن ولذة التقبيل ومحاسن جسم المرأة لأمر الأستاذ بنفي الشاعرين: ابن أبي ربيعه والرافعي معاً. وإذا كان الأستاذ في شك من أن الرافعي له أشياء أشهى من أشياء عمر بن أبي ربيعه ذكرنا له طرفاً منها ورضينا بحكمه وهو اعدل الحاكمين من الناس. بل نحن نترك للأستاذ الخيار فليختر أي شاعر ونحن نورد له ما يستحق به النفي لو وكل الأمر إلى الأستاذ الغمراوي في نفي الشعراء ونورد ما يستحق به النفي ونقارنه بما استحق به عمر بن أبي ربيعه النفي ونقبل حكم الأستاذ الغمراوي في المقارنة وهو خير الحاكمين.

أننا ما أردنا أن نعذر شطط المتأخرين بشطط المتقدمين كما ذكر الأستاذ وإنما أردنا أن

نبين أولاً أن النفس البشرية واحدة في كل زمان ومكان مهما اختلفت الفروق الظاهرة وبالرغم من شذوذ الآحاد بالنقاوة النادرة أو النجاسة البالغة النادرة. وأردنا أن نفسر أثر المتقدمين في أقوال المتأخرين وإن نقول أن الشطط في وصف المفاتن وفي شرح الشكوك النفسية لم يأتنا من ناحية الإفرنج وحدهم بل جاءتنا به مؤلفات العرب ولا سيما عندما أدخلت الطباعة وطبعت المخطوطات العربية القديمة والحديثة.

على أن النفس الإنسانية يا سيدي الأستاذ ينبوع يفيض بكل ذلك من غير حاجة إلى كتب العرب أو كتب الأوربيين؟ وإن شاء الأستاذ فليرتد أماكن الناس الذين لم يتأثروا كثيراً بكتب العرب ولا بكتب الإفرنج وليسمع هواجس نفوسهم.

على أن في ذكر الأستاذ التجاء عمر بن الخطاب إلى النفي ما يدل على أن النفوس في عهد عمر رضي الله عنه لم تكن تمتنع عن التعلق بمفاتن الحسن ومحاسن الحياة، ولعل الأستاذ قد أذكرته التجاء عمر إلى النفي قصة سماع عمر غناء التي تغنت بهذا البيت:

هل من سبيل إلى خمر فأشربها ... أم من سبيل إلى نصر بن حجاج
فنفى عمر رضي الله عنه نصراً هذا. ولو رجع الأستاذ إلى ما قبل سيدنا عمر وتدبر حكمة الآية الكريمة التي تنهي الناس عن قرب الصلاة وهم سكارى لرأى عبرة تسلك النفوس البشرية في كل عصر في صعيد واحد بالرغم من تفاوتها. وأستحلف الأستاذ أن يحكم على تلذذ كعب بن زهير بذكره كبر عجز حبيبته في قصيدة (بانت سعاد) عندما قال (هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة) وتلذذه بذكر كبر العجز في قصيدة يمدح بها النبي صلى الله عليه وسلم وهي قصيدة يتبرك بها بعض الناس، وبعضهم يتخذها حجاباً وتميمة بما فيها من التلذذ بذكر كبر العجز من غير فطنة إلى ما فيها. ومع ذلك قد مر النبي صل الله عليه وسلم بغزل كعب هذا مر الكرام بما كان يدعو إليه من العقيدة السمحة وتألف النفوس ومعرفته ضعف النفس وقصورها. فماذا كان يصنع الأستاذ الغمراوي لو أن شاعراً مدحه بقصيدة تغزل في أولها وتلذذ في غزله بذكر كبر عجز حبيبته؟ هل كن يتغاضى كما تغاضى النبي صلى الله عليه وسلم الله عليه وسلم أم كان ينفيه كما أراد أن ينفي عمر بن أبي ربيعه؟ وماذا كان يقول الأستاذ لو أن شاعراً إنجليزيا مدح ملك إنجلترا ومقام الملك دون مقام النبوة فقال الشاعر في قصيدته (إن حبيبتي يا كنج جورج لها عجز كبير)؟ أننا يا
أستاذنا نضرب هذه الأمثال لنبين أن الناس ناس في كل زمان ومكان، وإن النفس البشرية واحدة مهما تباينت واختلفت صفاتها. ولو كان الأستاذ في شك من ذلك فليراجع ديوان حسان بن ثابت فيراه في قصيدة يتهم أبا الوليد ابن المغيرة بمحبة غلام رومي جميل كان مملوكاً له، وبأنه علق صورة الغلام كي ينظر إليها إذا غاب عن نظره، ويتهم أمه بمحبة الغلام أيضاً. (صفحة 329 طبعة السعادة شرح العباني). ولو رجع الأستاذ إلى كتاب (العقد الفريد) لقرأ أن سائلاً سأل عبد الله بن العباس ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم: هل قول المجون ينقض الوضوء؟ فقال: لا. وانشد بيتاً فيه مجون وكانت قد حانت الصلاة فقام وصلى للدلالة على أن شعر المجون لم ينقض وضوءه. وفي حالة أخرى سمع وهو يحدو ببيت فيه مجون. ولو تقصى الأستاذ أخبار سبي الرقيق من المدن الفارسية والرومية التي فتحت عنوة واثر ورود هذا السبي إلى شبه جزيرة العرب، وما كان يرد قبله من جلب تجارة الرقيق قبل الإسلام لعلم أن الولوع بمفاتن الحسن لم يكن مقصوراً على الشعراء المتقدمين أو المتأخرين. ونحن لا نريد أن نعذر حالة الناس في عصرنا. فلعل التعلق بمفاتن الدنيا في عصرنا أضر وأفسد إذ أن القوى الحيوية الخلقية العظيمة في نفوس المتقدمين كانت تستطيع موازنة ضعف هذا التعلق، وانعدام هذه القوى الخلقية الحيوية في عصرنا يزيد ضرر التعلق بمفاتن الحسن وشهواته. نعلم ذلك ونوافق الأستاذ على ضرورة معالجة هذه المسألة، ولكن لا يكون ذلك إلا بالتربية وتطهير الكتب ولا سيما القديمة. أما أننا رجعنا إلى مبدأ نهضة التجديد فالأستاذ نفسه يعترف بأن التجديد في الأدب روح لا قالب، وإن هذه الروح مستمدة من نظام التعليم الحديث، ومن الأنظمة التي اقتبست من الأنظمة والشرائع والسنن الأوربية، ومن البعثات العلمية إلى أوربا وأثرها في النفوس، ومن الكتب التي ترجمت؛ وما دامت المسألة مسألة روح لا قالب فلا يستطيع الأستاذ فصل التجديد في العلوم والتعليم والنظم والشرائع عن التجديد في الأدب وهو لم يحاول أن يفعل ذلك. أما أننا فسرنا قوله: (تغليب دين على دين) بغير ما أراد فعذرنا في ذلك أنه كان يقارن بين الثقافة والحضارة والدين عند العرب وعند الأوربيين فلم يخطر ببالنا أنه يعني بالدين عند إطلاقه على الأوربيين معنى الضلال والباطل وإنما ظننا أنه يعني دينهم، ولنا العذر أو بعض العذر. وأما قول الأستاذ أن حافظ إبراهيم رجع بالغزل إلى طريقة الجاهلية
وصدر الإسلام أي طريقة الغزل بالعاطفة كما فعل العذريون فهذا ما لا يقول به حافظ نفسه ولم يقل به أديب قبل الأستاذ. والأصح وهو ما قلناه من أن البارودي وشوقي وحافظ أنقذوا الأدب من طريقة ابن حجة الحموي وخليل بن أبيك الصفدي وصفي الدين الحلي وأشباههم ورجوا به إلى طريقة مسلم بن الوليد وأبي تمام والبحتري وحسبهم هذا فخراً. وقد جعلنا أكثر قولنا في التجديد في الشعر لأن الباعث على مقالات الأستاذ كان شعر الرافعي والعقاد، ولم نقصر التجديد على محاولة إدخال العاطفة كشرط أساسي في الغزل بل قلنا أنها شرط أساسي في كل شعر، وإن

الصنعة لازمة. ولكن كخادمة للتعبير عن النفس والحياة وعواطف النفس وأحاسيسها فيهما، فتحجر الصنعة من غير بحث في النفس قيد، والتخلص من جمود ذلك التحجر حرية، وهي الحرية التي أردناها في قولنا. وقد فسرنا ذلك بإطالة وأوضحنا أن هذه الحرية ليس معناها التخلص من قيود العرف أو الدين، فنرجو الأستاذ أن يرجع إلى ما فصلنا من الكلام عنها. وقد اعترفنا للأستاذ بما في نزعة التجديد من عيوب وحبذا لو رجع الأستاذ إلى ذلك التفسير والتعليل، وقلنا أنها عيوب عارضة وليست كل شيء. أما المسائل الاجتماعية التي ذكرها الأستاذ فهي أمور يختلف فيها الأدباء وغير الأدباء ويختلف فيها الناس في كل عصر؛ ولو شاء الأستاذ لذكرنا من أقوال كتاب العرب وشعرائهم ما هو اشد من أقوال طه حسين وهيكل وقاسم أمين. ومن الغريب أن الأستاذ لا يرى حرجاً في الاقتباس من علوم أوربا ويرى حرجاً في الاقتباس من مذاهبهم وأبواب أدبهم، وإذا كان هناك حرج فالحرج في الحالتين.

(قارئ)

من برجنا العاجي

جاءني بريد (بيروت) هذا الأسبوع بمجلة أدبية فاضلة ما كنت ألقي نظرة على صدرها حتى وجدته زاخراً بسب مصر ورجال الأدب في مصر. مع استنكار (لامتداد الأدب المصري والثقافة المصرية في أجواء البلاد العربية) وبعد أن نفى الكاتب الكريم عن مؤلفات المصريين كل قيمة في بضعة أسطر. ختم الكلام بقوله: (أنني أنكر هذه الثقافة (اللقيطة) ويعز علي كلبناني عربي أن تؤخذ بلادي بالتدجيل وتخدع بالدعايات المجانية أو المأجورة)

ما هو الدافع إلى هذا القول؟ أهو نقد الجهود في ذاتها حتى نستيقظ قليلاً ونرى أن قراءنا في البلاد الشقيقة قد بدءوا يسأمون إنتاجنا، ويستحثوننا على تجديد طرائقنا وتعزيز وسائلنا، حتى يظفروا الأدب العربي الحديث بالنهضة الباهرة المنشودة؟ أن كان هذا هو قصد المجلة والكاتب فهو قصد نبيل، لا يسع مصر وكتابها إلا أن يبعثوا إليهما من أجله أصدق عبارات الشكر

أما إذا كان الباعث هو مجرد الغضب لأن مصر بالذات هي التي تنبعث منها أشعة الثقافة العربية الحديثة في الوقت الحاضر، فتلك عاطفة لا تشرف صاحبها ولا نحب نحن أن نسلم بوجودها، خصوصاً في بلد تربطنا به أواصر النسب

ومع ذلك فهذا أمر لا ينبغي أن يكون موضع جدال، لأنه أمر يتعلق بالواقع

فإذا كان الواقع هو أن نسيم الثقافة يهب علينا اليوم من جبال لبنان، فلا أحب إلينا نحن المصريين من هذا. وهو خير لنا وأشرف من أن يهب علينا من جبال الألب.

غير أن الذي يؤلمني هو أننا معشر الشرقيين يكبر علينا دائماً أن نرى الفضل يأتينا من شرقي، ولا نغضب بل نفخر إذ يأتينا الفضل من غربي!

ولأرفع صوتي صريحاً: أن الشرق لن تقوم له قائمة إذا بقيت فيه ذرة من روح التنابذ والتحاسد. فإن لم يسعفنا التعاون والتساند فلنوقن بسقوطنا العاجل بين فكي الغرب النهم.

توفيق الحكيم

أعلام الأدب

هوميروس

للأستاذ دريني خشبة

(إلى أستاذي الجليل أحمد حسن الزيات أهدي هذه الفصول)

(تابع)

ومن ألمع شخصيات الإلياذة شخصية أجاممنون. . . تلك الشخصية العجيبة التي رفعها هوميروس فوق شخصياته جميعاً، وخصها بالقيادة العامة للأسطول في البحر وللجيوش في البر

وأجاممنون هو شقيق منالوس زوج هيلين التي بسببها شبت الحرب بين اليونان وطروادة. وهو الذي ضحى بابنته إفجنيا كي تتحرك الريح وتتأذن الآلهة للأسطول أن يقلع من أو ليس بعد إذ لبث هناك زماناً طويلاً لا يقوى على حركة لسكون البحر وجمود الرياح. . . قد اتخذ إسخيلوس من مأساة الفتاة إفجنيا موضوعاً لمأساته الرائعة التي دبرت فيها كليتمنسترا زوجة أجاممنون غيلة زوجها بعد أوبته من طروادة وذلك

بمعاونة عشيقها إيجيستوس. ثم تتسلسل ثلاثية إسخيلوس المشجية (الأورستية) التي ترجمناها لقراء الرسالة منذ ثلاثة أعوام

ومن المشاهد المؤلمة التي ينقم فيها القارئ على أجاممنون ذلك المشهد الذي يقص علينا فيه هوميروس ما شجر من الخلاف بينه وبين البطل أخيل. . . وذلك أن الجيوش اليونانية كانت قد ظفرت في إحدى المعارك بسبي عظيم كان في جملته الفتاة خريسيز ابنة كاهن أبولو والفتاة الحسناء بريسيز. وقد كانت خريسيز من نصيب أجاممنون وبريسيز من نصيب أخيل. . . ولما علم والد خريسيز بما آل إليه أمر ابنته كمد كمداً شديداً وذهب إلى خيمة أجاممنون يتوسل إليه أن يرد إليه ابنته، لكن القائد العام أغلظ للوالد المنكوب ورده رداً شديداً. فدعا الكاهن آلهة أبولو أن يصيب سوط عذابه على اليونانيين ما داموا لا يردون عليه فلذة كبده وقطعة قلبه. . . واستجاب له إله الشمس فسلط عليهم طاعوناً راح يبيدهم ويفتك بأجنادهم. . . ثم جاءتهم النبوءة بوجوب رد الفتاة إلى أهلها إذا أرادوا رفع البلاء عنهم، فوافق أخيل كما وافق كل رؤساء الجيش، لكن أجاممنون أبى أن يرد الفتاة إلا إذا قبل أخيل أن ينزل له عن بريسيز التي ملكت عليه فؤاده وامتزج حبها بدمه. . . ولما رأى أخيل ما يحل باليونانيين من بلاء قبل مكرهاً أن يهب أجاممنون معبودته، لكنه اشترط ألا يخوض المعركة مع بني جلدته بعد ذاك

هذا مشهد يثير السخط على أجاممنون، كما أثاره تسليم رأس ابنته للجلاد قرباناً للآلهة حتى تثير الرياح كي يقلع الأسطول. . . وبمثل هذه المشاهد التي سنضع بين يدي القارئ صوراً رائعة منها وضع هوميروس أساس المأساة اليونانية ومهد السبيل لمن جاء بعده من الشعراء فخلقوا الدرامة وخلقوا المسرح وتركوا للذهن البشري ثروة ما يزال يستغلها وما يزال يروي ظمأه منها

وقد ورد ذكر أجاممنون في الأوديسة كما أسلفنا وذلك عندما لقي أودسيوس الكاهن تيريزياس في العالم الثاني واخذ يقص عليه ما آل إليه أمر أبطال الإلياذة بعد أوبتهم إلى أوطانهم، وقد ذكر له من أمر أجاممنون ما دبرته له زوجه

وللبطل ديوميد منزلة رفيعة في الإلياذة، ويكاد بشجاعته النادرة يتفرد بالإعجاب بعد إذ هجر المعركة أخيل. ففي الكتاب الخامس الذي قصره هوميروس على هذا البطل لا تقتصر شجاعته على التفوق على الآدميين الذين خاضوا الحلبة بل تتعداها إلى الآلهة، وحسبه فخراً أنه جرح فينوس ربة الجمال التي كانت تتفانى في مساعدة جيوش طروادة، ثم مارس إله الحرب الجبار، المدله بهوى فينوس. . . وكلما حاق بأحد اليونانيين كرب في المعمعة كان ديوميد أسرع الفرسان إلى نجدته بل إنقاذه. . . وقد ذهب في الكتاب العاشر في صحبة أودسيوس إلى معسكر الطرواديين في حلك الليل حيث اغتالا ريسوس بعد أن اجتازا ساحة تعج بالمنايا وتضطرب بألوان المهلكات

أما أودسيوس فله شخصية فذة. . . أنه بطل مخاطر لا يبالي الردى ولا يرهب المنايا، إلا أنه يمتاز بناحية أخرى أظرف وألطف. . . ناحية تثير المرح وتبعث على الضحك، ضحك الجد الصارم لا ضحك المشعبذين، ورجال المساخر. . . أنه كان من عشاق هيلين قبل أن تنشب مدة الحرب، فلما فاز منالوس بهيلين، حزن وتولاه الكمد، لكنه تزوج من إحدى قريباتها (بنلوب التي لم تكن تقل عنها جمالاً ونضرة وطلاوة، والتي استطاعت أن تحتل من قلبه فراغ هيلين كله. . . فلما نشبت الحرب بسبب هيلين وعلم أودسيوس أنه مدعو إلى خوض غمارها فيمن دعي من ملوك هيلاس وأمرائها أثر السلامة، فادعى العته، وذهب إلى شاطئ البحر بمحراث عظيم يجره ثور وجواد، وجعل يحرث الأرض ويبذر فيها الملح كما يفعل المجانين. . . ولم تنطل هذه الحيلة على بالاميد رسول منالوس فقد عمد إلى تزييفها بوضعه الطفل تليماك بن أودسيوس في طريق المحراث. فكان أودسيوس يتفادى ولده في مهارة اشد الناس وعياً وأكثرهم إدراكاً. . . وفي الإلياذة كثير من المشاهد التي تدل على براعة أودسيوس وجمال حيلته وعمده إلى الخدعة في الحرب أكثر من الاتكال على الشجاعة المجردة. كما كان يصنع ديوميد أو أجاكس أو أخيل. . . وخدعة الحصان الخشبي التي فتحت طروادة هي من تدبير أودسيوس. . . أما الأوديسة فإنها غاصة بحيل هذا الرجل العجيب، وكل حيل خلابة لا يمكن استيعابها في هذه الفصول المقتضبة عن هوميروس. وتنتهز هذه المناسبة

فنشير إلى ما تسرب إلى قصص ألف ليلة وليلة من خدع أودسيوس. فأكثرنا قد قرأ رحلات السندباد البحري، وأكثرنا يذكر المارد الذي حبس السندباد ورجاله في كهفه، وراح يسمنهم ويغتذي بهم واحدا بعد واحد حتى دبر السندباد حيلة سمل عيني المارد بالسيخ (السفود) المحمى. وما تم بعد ذلك من هرب السندباد ورجاله إلى زورقهم ونجاتهم بأنفسهم في البحر. . . هذه صورة كاملة من صور الأوديسة اقتبسها الراوية العربي وكساها هذا الرواء القشيب مباعدا بينها وبين الأصل غير مشير إلى مصدرها. ونحسب نحن أن قصة السندباد كلها لم تكتب إلا بعد العصر الذي فشت فيه الترجمة عن اليونانية واشتدت فيه أواصر الصداقة بين هارون عاهل بغداد، وشرلمان عاهل بيزنطة، وما تبع ذلك من وفود تجار القسطنطينية إلى بغداد ووفود تجار بغداد إلى العاصمة الرومية، وما كان يصحب هذه الرحلات من تبادل القصص وسرد الأخبار. . . وليس يبعد كذلك أن يكون لاختلاط العرب بأهل الإسكندرية من مصريين ويونانيين أثر فيما نلحظه من تلقيح القصص العربي بطرائف القصص اليوناني.

هذه بعض الشخصيات اليونانية من المذكور في إلياذة هوميروس، تقابلها شخصيات أخرى في معسكر طروادة. . . ولسنا ندري بأيها نبدأ؟ أن باريس الذي كان سبب هذه الحرب الضروس شخصية هزيلة مريضة شاحبة، وليس يستطيع الإنسان أن يفهم كيف جاز أن

تنشب هذه المجزرة الشنيعة المروعة بين هذين الحلفين الكبيرين من أجل هذا الفتى باريس ينزل ضيفاً على منالوس فيكرمه ويحتفي به ثم ما يلبث الضيف أن يغازل زوج مضيفه. ثم ما هو إلا أن يفر بها بعد تدبير هو اسفل ما عرف في تاريخ الهمجية والقحة!! حقاً، لقد وعدته فينوس قبل أن يقضي لها بالتفاحة المشؤومة أن تمنحه اجمل زوجة وأفتن امرأة. أفلم يكن هذا النذر الإلهي يقضي إلا على هذا النحو؟ والغامض الذي لم يفسره علم الأساطير هو كيف أنه قد ساغ صنع باريس في ذهن أبيه ملك طروادة؟ وكيف رضى بطل عظيم مثل هكتور عن هذه الدعارة التي أثار بها أخوه الحرب بين هذين العالمين؟ قد نلتمس العصبية الجنسية عذراً واهياً لهذا الرضى، بيد أنه يكون عذراً متهدماً على كل حال

يدرس الإنسان شخصية بريام الملك فيعجب لنبالة الرجل وفطرته التي فطره الله عليها من محبة للعدل وميل إلى الإنصاف وإشفاق على الرعية، فكيف وزن عمل ولده حين أبى أن يأمره برد هيلين إلى زوجها حقناً لكل تلك الدماء؟! أين المرض إذن؟ أفي رأس بريام وملثه؟ أم هو في رأس هوميروس؟! هنا موضع الضعف في عقدة الإلياذة، وهو ضعف يشبه الضعف في عقدة الأوديسة، حين يجتمع عشاق بنلوب في قصر أودسيوس، وحين تمر عليهم السنون الطوال منتظرين أن تختار منهم رب الدار بعلاً لها، فهم بذلك يشبهون القطط ويحاكون الديكة حين تقتتل على الأنثى. . . هذا ضرب حيواني من تفكير هوميروس يشوه جمال ملحمتيه، ولعل للوثنية نصيباً كبيراً في توجيه شاعر الخلود هذه الوجهة. . . ولعل المصريين القدماء لم يكونوا متجنين حين قالوا عن ملاحم اليونانيين أنها نتاج صبياني، ولذا لم يأبهوا لها ولم يعنوا بها برغم ما مدحها لهم صولون

والعجيب في هوميروس أنه لم يبال أن ينحط بالمرأة اليونانية إلى مستوى دون مستوى المرأة الطروادية بمراحل هائلة. . . لقد جعل المرأة اليونانية متاعاً شائعاً وغرضاً تتحيفه لبانات الرجال؛ فهيلين زوجة منالوس ملك أسبرطة تفر مع باريس إلى طروادة دون أن تتأبى أو تتمنع. ثم تشب الحرب بسببها فلا تحاول مرة أن تفر إلى معسكر اليونانيين. بل تظل طوال السنوات العشر متعة حلالاً لباريس، وتنتهي الحرب، وتضطرم النار في كروادة، وتعود هيلين إلى أسبرطا، فلا تثور نخوة منالوس، ولا يضطرب قلبه بقليل من غيرة الرجال

أما بنلوب فقد ضربت المثل الأعلى لحفاظ المرأة ووفاء الزوجة، لكنها مع ذلك عوملت من أمراء هيلاس معاملة عجيبة مضحكة تدعو إلى السخرية التي فاجأ بها المصريون القدماء المشترع صولون. . . وإلا فما هذه العصبة من العشاق المعاميد تحتل منزل أودسيوس فتزيغ خيره وتأكل زاده وترتع في شرفه وتستبيح عرضه؟! أكانت منزلة المرأة عند اليونانيين - ولو في عصر هوميروس - بهذه الدرجة من الهوان! زوجة ملك إيثاكا تكون بطلة هذه المأساة الغرامية الوضيعة، وقد قدم

هوميروس من خيوس لينشد ملحمته في المدائن اليونانية ليسمع أهلوها كيف كان أسلافهم يعاملون زوجة بطل أبطالهم؟!
وكليتمنسترا زوجة أجاممنون. . . لقد عشقت هي أيضاً إيجستوس المتآمر على عرش مولاه والذي دبر له تلك القتلة الهائلة الشنيعة بعد عودته ظافراً من طروادة. . . فما هذا الذي صنعه هوميروس بنساء اليونانيين؟ لقد عبث بهم وهو يرفع أبطالهم إلى ذروة المجد، ولها بعقولهم حين عرض عليها بضاعة البطولة المزجاة ملفوفة في أكفان تلك الأعراض الممزقة. . . حتى آلهتهم. . . لقد تناولها كما يتناول الطفل دماه ولعبه يعبث بها ويلهو. . . حتى كبير الآلهة وسيد الأولب. . . انظر إليه كيف احتالت عليه زوجه جونو (حيرا) - الكتاب الرابع عشر - فجعلته يغفى ثم يغط في نوم عميق كيما يذهب نبتيون لنصرة الإغريق، فإذا استيقظ في الكتاب الخامس عشر وعلم ما كان من أمر نبتيون أرسل إليه ينذره في المعركة، فيعود رب البحار وينبري أبولو لمشاكسة اليونانيين. . . .فترتد جموعهم إلى قواعدها عند الأساطيل
أما المرأة الطروادية فقد سما بها هوميروس سمواً بلغ الغاية وأوفى على المأمول. . . أنظر إلى الأزواج والعذارى والأمهات يجتمعن حول هيكتور في الكتاب السادس في عودته من المعركة يسألنه عن ذويهن؛ وانظر إلى أمه تبرز إليه من حريم بريان عابسة مقطبة ترجوه لأنه عاد من المعركة وهي على أشدها، ثم تحضنه على اللحاق بإخوانه ينصرهم ويشد أزرهم ويرد عادية الإغريق. . . ثم أنظر إلى هذه المرأة المرزأة - هيكوبا - تجمع المتضرعات من بنات طروادة وتذهب فيهن إلى هيكل مينزفا تصلي وتعقر القرابين كيما تشمل جيش طروادة بحسن رعايتها وجميل حمايتها. . . ثم استمع إليها تحنو على هيكتور في الكتاب الثاني والعشرين بعد إذ وعظه والده خوفاً عليه من أخيل (الجني!) وقد أفزعها
منظره يصول في الحلبة ويجول، فتذرى دمعها وتساقط نفسها بعد إذا أرسلت إلى المجزرة بأكثر أبنائها. . . أو أنظر إليها تمزق نياط القلوب في الكتاب الرابع والعشرين إذ هي تبكي هكتور بعد إذ عاد أبوه بجسمانه من لدن أخيل. . . أو أنظر إليها تتعلق ببريام وقد انقض بيروس (ولد أخيل) على آخر أبنائها يخترمه برمحه، ثم ينقض على بريام الشيخ الفاني المسكين فيجهز عليه، ثم يقتاد هيكوبا. . . هكيوبا المحزونة المفجعة فتكون في جملة السبي الذي يعود به اليونانيون من طروادة، ويكون سبباً يجر عليهم النحس فيقتل من يقتل ويردي من يردي
وأندروماك! لشد ما يدوي في فؤاد القارئ هذا المشهد الرائع بينها وقد حملت طفلها وبين زوجها هكتور في الكتاب السادس من الإلياذة! إن هوميروس يرتفع في هذا المشهد إلى ذروة فنه في ملحمته الخالدة! لشد ما يحرق القلب وداع أندروماك الزوجة لهكتور الزوج
أنظر إليها واقفة فوق برج من أبراج طروادة وقد قتل أخيل زوجها وراح يجره وراء عربته في الساحة حول اليوم. والرأس الكريم العظيم يثير التراب المنضوج بالدم، وأخيل يلهو بكل ذلك ويشتفي!
بل أنظر إليها وقد وقفت تضرب صدرها وتسكب دمعها على جثة هكتور بعد إذ عاد بها أبوه بريام من عند أخيل، ثم تقول:
زوجي! أهكذا تمضي في عنفوان الصبا وشرخ الشباب، وتتركني وحيدة فريدة) كاسفة! هذا ابنك ما يزال في المهد، وهذان أبواك الشقيان! لن يشب ابنك يا هكتور عن طوقه، لأن من دون هذا دك تلك الحصون، وتقويض طروادة التي كنت حاميها وحامي نسائها والذاب عن بنيها! يا لشقاء الحرائر اليوم يا طروادة! إن هي إلا لحظات ثم يحملهن البجر إماء للغزاة، وأنا وولدي في جملة السبي يا هيكتور. . . ولدي! ولدي البائس الشقي! إلى أين المسير؟! إلى بلاد العدو الظالم لنكون من جملة الخدم والخول. . . ليراك من يحسب أباك قد قتل أباه أو أخاه فيبطش بك، وينتقم منك، ويقذف بك من فوق برج أو حصن. . .
لشد ما كنت حزنا لأبويك يا هكتور! بيد أنك كنت حزناً ممضا لمخلوق تعيس آخر هو) أنا. . .!)
وهكذا بكت هذه الزوجة المخلصة الوفية زوجها، وهكذا كانت دموعها الغوالي مداداً لا ينفذ

لمآسي يوريبيدز
!!ما أجمل هوميروس
!!وما أضيق هذه الفصول بأدبه الخالد الذي لا يبيد
دريني خشبة
دراسات في الأدب
للدكتور عبد الوهاب عزام
الأدب والنقد والتاريخ
يبين الأديب شاعراً أو كاتباً عما يدرك ويتصور ويتخيل من مشاهد العالم ومعانيه. يصف مرأى جميلاً أو دميماً ويعرب عن إحساس مؤلم أو لذيذ. وتارة يكون موضوع الأديب مظاهر الأدب لا مظاهر العالم. يصف قصيدة أو مقالاً يبين ما فيهما من بلاغة وجمال أو ما يعوزهما من قوة في المعنى وسلاسة في اللفظ، أو يعرض للشاعر والكاتب يبين ما فطرا عليه من طبع وما واتاهما من علم، وما يسر لهما في موضوعات البلاغة وأساليبها أو يأخذ عليهما قصوراً في الإدراك أو عياً في البيان وهلم جرا. وربما يتناول الباحث موضوعات من الأدب يصف تقلبها على مر العصور، أو طائفة من الأدباءيصف تواليهم على الزمن واخذ بعضهم عن بعض وتقبل بعضهم بعضاً. فيخرج للناس صورة للأدب في عصر أو أعصر.
هذا كله من الأدب، ولا يسوغ أن نخرج من الأدب المقالات التي تنقد الأدب أو تؤرخه لأن الباحث في قصيدة أو مقال يصف ما أوحت إلى نفسه هذه القصة وهذا المقال - 1 وما أدرك فيهما من جمال وما اشرب قلبه من حب أو بغض. وفرح أو حزن. فهو كالذي يصف مشهدا جميلاً أو دميماً في العالم أو أمراً حزيناً أو بهيجاً من أمور الحياة ولان الناقد والمؤرخ مهما يستعمل الفكر والعقل ويذكر العلل والنتائج إنما يحكم - 2 بعاطفة ويقيس بوجدان فلن يستطيع أن يدخل دائرة العلم المحض ما كان موضوع بحثه الأدب والأدباء
يتبين من هذا أن الأدب له فروع: إنشاء ونقد وتاريخ. ويمكن أن نرد هذه الفروع إلى فرعين: أدب ذاتي وأدب موضوعي، وهذا يشمل النقد وتاريخ الأدب ويزيد وضوحاً فيما يلي:
الأدب الذاتي النفسي هو الكلام الذي ينشئه صاحبه إبانة عما في نفسه. والأدب الموضوعي هو الكلام الذي يقصد به تبين ما في الكلام الأدبي من محاسن ومساوئ، أو الإبانة عن فضل شاعر على آخر، أو ترجيح طريقة من البيان على طريقة، أو بيان أطوار الأدب في
عصوره المختلفة الخ. . .
والخلاصة أنه الكلام الذي يراد به وصف الأدب والأدباء وفيما يلي أمثلة توضح هذين الضربين من الأدب:
- 1 -
قال البحتري في وصف دمشق:
إذا أردتَ ملأتَ العين من بلد ... مستحسنٍ وزمان يشبه البلدا
يمشي السحابُ على أجبالها فِرَقاً ... ويصبح الروضُ في صحرائها بددا
فلست تبصر إلا وأكفاً خضلا ... أو يانعاً خضراً أو طائراً غَرِدا
وقال أبو هلال العسكري:
أما ترى عود الزمان نَضْرا ... ترى له طلاقة وبشرا
أتته ألطافُ السحاب تتري ... وساقت الجنوب غيما بكرا
تبسط في الصحراء بُسطا خُضرا ... وتمنح الروضة زهرا صُفرا
ونرجسا مثل العيون زهرا ... وأقحوانا كالثغور غُرَّا
كأنما يصوغ فيها تبرا ... كأنما يروق فيها عطرا
كأنما ينثر فيها درّا. . . الخ
وقال أبو الطيب في رثاء أخت سيف الدولة:
طوى الجزيرة حتى جاءني خبرٌ ... فزعت فيه بآمالي إلى الكذب
حتى إذا لم يدعْ لي صدقه أملا ... شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي
تعثرت به في الأفواه ألسُنها ... والبرد في الطرق والأقلام في الكتب

وقال الحسين بن مطير الأسدي أحد شعراء الحماسة يرثي معن بن زائدة الشيباني:
أَلِمَّا على معن وقولا لقبره: ... سقتك الغوادي مربعاً ثم مربعا
فيا قبر معن أنت أول حفرة ... من الأرض خُطَّت للسماحة مضجعا
ويا قبر معن كيف واريت جوده ... وقد كان منه البر والبحر مُترعا
بلى قد وسعت الجود والجود ميت ... ولو كان حيا ضقت حتى تصدّعا
فتىً عيش في معروفه بعد موته ... كما كان بعد السيل مجراه مرتعا
ولما مضى معن مضى الجود فانقضى ... وأصبح عرنين المكارم أجدعا
وقال ابن المعتز يصف سامرا بعد أن تركها الخلفاء إلى بغداد فسارع إليها الخراب:
كتبت إليك من بلدة قد أنهض الدهر سكانها، وأقعد جدرانها، فشاهد الناس فيها ينطق،) وحبل الرجاء فيها يقصر، وكأن عمرانها يطوى، وكأن خرابها ينشر، وقد وكلت إلى الهجر نواحيها، واستحث باقيها إلى فانيها، وقد تمزقت بأهلها الديار، فما يجب فيها حق جوار، فالطاعن منها ممحو الأثر، والمقيم بها على طرف سفر، نهاره إرجاف، وسروره (أحلام؛ ليس له زاد فيرحل، ولا مرعى فيرتع الخ
في هذه القطع كلها تجد المبين ينشئ ما يترجم عما شعر به وتخيله وتصوره حينما رأى منظراً بهيجاً من السحاب والرياض، أو مرأى كئيباً من الخراب والإقفار، وحينما علم موت صديق يعز عليه أو عظيم، كان يزجى آماله إليه. وكل هذا تصرف

فإذا تبينت هذا فانظر إلى الأمثلة الآتية:
قال القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني في كتاب الوساطة:
وقد علمت أن الشعراء قد تداولوا ذكر عيون الجاذر، ونواظر الغزلان، حتى أنك لا) تكاد تجد قصيدة ذات نسيب تخلو منه إلا في النادر الفذ. ومتى جمعت ذلك ثم قرنت إليه قول امرئ القيس:
تصدُّ وتُبدي عن أسيل وتتَّقي ... بناظرة من وحش وَجرةَ مطفل
أو قابلته بقول عدى بن الرقاع:
وكأنها بين النساء أعارها ... عينيه أحورُ من جآذر جاسم
رأيت إسراع القلب إلى هذين البيتين، وتبينت قربهما منه؛ والمعنى واحد، وكلاهما خال من الصنعة، بعيد من البديع. إلا ما حسن به من الاستعارة اللطيفة التي كسته هذه البهجة. وقد تخلل كل واحد منهما من حشو الكلام ما لو حذف لاستغنى عنه وما لا فائدة في ذكره لأن امرئ القيس قال: (من وحش وجرة). وعدياً قال. (من جآذر جاسم) ولم يذكرا هذين الموضعين إلا استعانة بهما في إتمام النظم وإقامة الوزن، ولا تلفتن إلى ما يقوله المعنويون في وجرة وجاسم فإنما يطلب به بعضهم الأغراب على بعض، وقد رأيت ظباء جاسم فلم
أرها إلا كغيرها من الظباء، وسألت من لا أحصى من الأعراب عن وحش وجرة فلم يروا لها فضلاً على وحش ضرية وغزلان بسيطة. وقد يختلف خلق الظباء وألوانها باختلاف المنشأ والمرتع، وأما العيون فقل أن تختلف لذلك. وأما ما تمم به عدى الوصف، وإضافة إلى المعنى المبتذل بقوله على أثر هذا البيت:
وَسْنان أيقظه النُّعاس فرنّقت ... في عينه سِنة وليس بنائم
فقد زاد على كل من تقدم، وسبق بفضله جميع من تأخر. ولو قلت: اقتطع هذا المعنى فصار له، وحظر على الشعراء ادعاء الشرف فيه لم أرني بعدت عن الحق) أهـ
الجرجاني في هذه القطعة يفضل بيتي امرئ القيس وعديّ على أبيات الشعراء في معناهما، ثم يبين ما فيهما من الحسن وما تخللهما من الحشو، ثم يصف بيت عديّ الثاني بأنه احسن بيت في معناه. فالجرجاني لم يبين هنا عما أحسه هو في وصف العيون، ولكنه ينظر فيما قال غيره فيبين ما فيه من إجادة وتقصير ويبين أي الأبيات ابلغ وهكذا. فهو إنما يصف كلام غيره ويقيسه بذوقه وتصوره
. . .فهذا أدب موضوعي
وقال بشر بن المعتمر:
ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين، وبين) أقدار الحالات؛ فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً، ولكل حالة من ذلك مقاماً، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات،

وأقدار المستمعين على أقدار الحالات: فإن كان الخطيب متكلماً تجنب ألفاظ المتكلمين، كما أنه عبر عن شي من صناعة الكلام واصفاً أو مجيباً أو سائلاً كان أولى الألفاظ به ألفاظ المتكلمين إذ كانوا لتلك العبارة أفهم، واليها أحن، وبها أشفق. . . (الخ

وقال أبو العباس الناشئ:

لعن الله صنعة الشعر ماذا ... من صنوف الجهّال منه لقينا
يؤثرون الغريب منه على ما ... كان سهلاً للسامعين مبينا
إنما الشعر ما تناسب في النظم ... وإن كان في الصفات فنونا
فأتى بعضه يشاكل بعضا ... قد أقامت له الصدور المتونا
كل معنى أتاك منه على ما ... تتمنى، لو لم يكن، أن يكونا
فتناهى عن البيان إلى أن ... كاد حسناً يبين للناظرينا
فكأن الألفاظ فيه وجوده ... والمعاني ركّبن فيه عيونا
فإذا ما مدحت بالشعر حراً ... رُمتَ فيه مذاهب المسهبينا
فجعلت النسيب سهلاً قريبا ... وجعلت المديح صدقاً مبينا الخ

ترى في قول بشر والناشئ وصف خطة للبيان، ودعوة إلى طريقة في الإنشاء يريانها الطريقة المثلى وهذا أدب موضوعي أيضاً

واقرأ هذه القطعة أيضاً: قال أبو منصور الثعالبي في مقدمة اليتيمة:

(لم ينزل شعراء الشام وما يقاربها بها أشعر من شعراء عرب العراق وما يجاورها في الجاهلية والإسلام. . . والسبب في تبريز القوم قديماً وحديثاً على من سواهم في الشعر قربهم من خطط العرب، ولا سيما أهل الحجاز، وبعدهم عن بلاد العجم، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق بمجاورة الفرس والنبط ومداخلتهم إياهم

ولما جمع شعراء العصر من أهل الشام بين فصاحة العبارة وحلاوة الحضارة ورزقوا ملوكاً وأمراء من آل حمدان، وبني ورقاء هم بقية العرب، والمشغوفون بالأدب، والمشهورون بالمجد والكرم، والجمع بين آداب السيف والقلم، وما منهم إلا أديب جواد يحب الشعر وينتقده، ويثيب على الجيد منه فيجزل ويفضل - انبعثت قرائحهم في الإجادة فقادوا محاسن الكلام بألين زمام، وأحسنوا وأبدعوا ما شاءوا)

يوازن الثعالبي في هذه الأسطر بين شعراء الشام وشعراء العراق، ويفضل الأولين، ثم يبين الأسباب لتي فضلتهم على غيرهم؛ فهو يصف كلاماً بالجودة وشعراً بالتفوق ويحاول أن يعدد الأسباب التي أجادت هذا الكلام، وقدمت هؤلاء الشعراء وهذا أدب موضوعي كذلك

واقرأ بعد هذه الجملة من مقدمة كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة:

(هذا الكتاب ألفته في الشعر؛ أخبرت فيه عن الشعراء وأزمانهم وأقدارهم وأحوالهم في أشعارهم، وقبائلهم وأسماء آبائهم، ومن كان يعرف باللقب أو الكنية منهم، وعما يستحسن من أخبار الرجل ويستجاد من شعره؛ وما أخذته العلماء عليهم من الغلط والخطأ في

ألفاظهم، وما سبق إليه المتقدمون فأخذه عنهم المتأخرين

وأخبرت فيه عن أقسام الشعر وطبقاته، وعن الوجوه التي يختار الشعر عليها، ويستحسن لها إلى غير ذلك)

تجد صاحب الكتاب يعمد إلى تأريخ الشعراء بذكر أخبارهم وازمانهم والى تاريخ الشعر بذكر ما أخذه المتأخر عن المتقدم من المعاني والأساليب - زيادة على النقد وتبيين المستحسن المستقبح، والخطأ والصواب. وهذا يدخل في الأدب الموضوعي كذلك.

كل الأمثلة التي قدمتها في إجمال هذا الفصل تدخل في الأدب؛ ولكنها يمتاز بعضها عن بعض: في القطع الأربع الأولى أدب ينشئه الشاعر إنشاء ويبتدئه لا يصف فيه كلام غيره، بل يصف ما رأى هو من مناظر، وما شعر به من حزن وألم ونحو ذلك فهذا الذي يسمى الأدب الذاتي

وفي القطع الأخرى تجد أدباً يدور حول الكلام البليغ، أدباً يصف أدباً آخر أو يبحث في قوانين الأدب وأحواله وأطواره وهذا الذي يسمى الأدب الموضوعي

ولكن بعض هذا الأدب الموضوعي يبين محاسن القطعة من الشعر أو النثر أو يبين

احسن المناهج التي يسلكها الشاعر أو الكاتب، كما في قطعة القاضي الجرجاني وقطعة بشر ابن المعتمر وقطعة الناشئ وهذا يسمى النقد.
وبعض الأدب الموضوعي يبين التاريخ والتطور كما في قطعة ابن قتيبة. . وهذا تاريخ الأدب.
وفي العدد الآتي نجمل الكلام في النقد وتاريخ الأدب.
عبد الوهاب عزام
دراسات في الأدب المصري القديم
للآنسة الفاضلة الزهرة
إنّا سلالة أمة تباهي بتاريخها الأمم، فمن الواجب علينا أن نلم بذلك التاريخ المجيد، ونستعرض صوره، لنمكن حلقة من تلك السلسلة الجميلة الغالية، التي تصل بيننا وبين القدم، وتقربنا إلى آبائنا الكرام، أولئك الذين بنوا المجد وشادوه، واستذلوا الزمان وأخضعوه، واكرهوه بباهر أعمالهم على أن يسجل أسماءهم في ديوان الخالدين.
ولقد رأيت أن استمد ذرائع الاتصال والقربى بالتغلغل في قرارة الماضي السحيق، للإحاطة بحياتهم الأدبية، بحيث نستطيع أن نلمس فيها زمانهم وبيئتهم، ونلمح قبساً من نظرياتهم في الوجود، وما اتخذوه لأنفسهم فيه من نظم الاجتماع والسياسة، والدين والأخلاق، لعلنا نتدرج من هذا كله إلى إقامة الدليل القاطع، على سمو المنزلة التي بلغها الأدب المصري القديم، ودحض ما رمى به من النقص والقصور. وقد كان علماء المستشرقين إلى منتصف القرن التاسع عشر يعتقدون أنه قد خلا من القصص وطول العبارة، وانسجام التفكير واستمرار الخيال، وافتقر إلى الفلسفة والنظريات. والواقع أن الأدب المصري القديم كان حافلاً بالثروة المعنوية، وافانين القول، وكان متعدد الفروع والأبواب حتى أنه لم يترك فرعاً إلا تناوله، خلا فرع الشعر التمثيلي. ويرى الدارس للكتابات القديمة خصائص بارعة تميزها عن باقي آداب الشعوب السامية لما يتجلى فيها من حسن الوصف، وكمال الصوغ، وبساطة التعبير، وطلاوة اللغة ومتانتها، وسهولة الألفاظ ورقتها، في إمتاع جزل بليغ. ولقد كان من اظهر تلك المميزات، الوضوح والاستقامة، وأناقة الأسلوب، وروعة التركيب، وجودة المقاطع، ونصاعة المبنى، وإيجاز المعنى وإصابته. على أن هذا الإيجاز كان ينتهي بالكاتب الضعيف في أحايين إلى السخف والعي والركاكة. غير أن الكاتب الأريب، كان يستطيع بقليل من التفنن أن يصور سجية من السجايا. وضاءة الجبين إذ يصف عاطفة من العواطف، قدسية الجوهر سافرة المحيا ولم يكن للكاتب المصري ند في حسن اختيار الألفاظ ووضعها في المكان الملائم لها في الجملة، فأنت تراه يكتب كمؤلفي هذا العصر المجيدين دقة ورقة ومتانة وظرفاً، ويمثل لك الحياة كما تقع في صورة كلامية لا تقل تأثيراً وإبداعاً عن الصورة اللونية المتقنة، فإذا نزل بك إلى ميدان السياسة، تجده يصف لك
الملوك والحكام وصفاً دقيقاً، فيقول عن العاهل الجليل: (إنه يعرف كيف يأسر القلوب ويملكها) ويصف القاضي العادل بقوله: (إنه يسلك مناهج الاستقامة ونزاهة القلب). وبألفاظ قليلة منتقاة كان يجلي لنا الحاكم المحبوب المترفق، والقاضي الحكيم المنصف. وإذا عرج على الحياة وألوانها ألفيناه يصف الشباب ولذاته، والمشيب وحسراته، والهرم ومرارته، كل ذلك بأسلوب سهل وإيجاز مبين، لا أثر فيه للصناعة الأدبية المتكلفة فكان فنه الفن الصحيح. وكان من مميزات هذا الأسلوب الموجز الممتع، ما حملته ألفاظه من صور ومقدمات معنوية كانت في الأدب المصري القديم روح المجاز المرسل وعنصر الكتابة البليغة، ويمكننا أن نقتبس أمثلة لذلك كقولهم: (المطيع يطاع!) و (الجاهل حي ميت) وهكذا كانت الجملة القصيرة في الأدب المصري تفرغ في مثل هذا القالب من البساطة وانسجام التفكير ودقة السبك. ومعلوم أن الجملة القصيرة الصحيحة تلخص فكرة العقل القوي الحصيف لأن الإيجاز في الإفهام ممدوح مستحب. ولقد كان الأسلاف يكرهون الإسهاب المخل. والإطناب الممل، فتراهم يجنحون دائماً إلى قرب المجتني، ويعتقدون أن خير الكلام ما قل وجل، ودل ولم يمل، وكانوا في حياتهم اليومية يشمئزون من الثرثار ويعدون الثرثرة مما ينافي عقيدتهم الدينية في اشرف المواهب، واعتاد من يقف منهم في محكمة العدل والدينونة، أمام قضاة (العالم السفلي) في دار الآخرة أن يقول: (أشهد أني لم أكثر

من الكلام في حياتي ولم أسترسل فيه بإطناب تمجه الأذان) وكانوا يحبون تنميق اللفظ وزخرفته ولكنهم أجادوا تنقيحه ووفقوا فيه توفيقاً عجيباً دون أن يداخله التعمل.
وكذلك كانوا لا يطاولون في دقة التشبيه. والحق أنهم كانوا يرتفعون إلى اجمل سماواتها وأعلاها كلما التمسوها من الطبيعة. وبين أن التفوق في تقريب المثال، دليل القدرة على بعد المنال، والتعميم والإطلاق في رسم الحقائق الناصعة رسماً صادقاً، وعنوان البراعة في الموازنة العقلية والمقارنة الذهنية، بل أنه مجلي الحماسة والحرارة والإخلاص للفن ومعرض العاطفة العميقة الصحيحة التي تفنن الألباب بصحتها وقوتها. مثال ذلك تشبيه الملك رمسيس الثاني (بأسد ظافر يضرب بمخلبه ولا يدبر، يزأر ويزمجر بصوت هائل في وادي الظباء. . .) أو قولهم فيه: (أنه يشبه ابن آوى في سرعة خطاه وسعيه لاقتناص ما يجده والانقضاض عليه كالبرق الخاطف).
وكانت التعبيرات المتجافية الوعرة، والكلمات الغثة المثقلة بالاستعارات الرثة والتوريات المتنافرة، والمترادفات المتقعرة الفجة والمحسنات اللفظية الجوفاء من الأخطاء التي يجهلها المؤلف المصري الذي كان يميل في أسلوبه ولغته إلى الوضوح دون أن يتسامح في لفظة واحدة تطن بلا معنى وبلا غرض. . . وكان آية في الجلاء والأحكام حين يروي حديثاً أو يدون حادثاً، ولعل ذلك راجع إلى سلامة طبعه، واستقامة خلقه، وتمسكه بالصدق، ومقته للمبالغة والغلو، ولم تكن تأليفه صادرة بحال من الأحوال عن انحطاط في التخيل، أو قصور في التصور، أو عجز عن عمق التفكير، لأننا حين نطالع سيرة عظيم من العظماء من خلال منظار الحقيقة، ثم نعمد إلى قراءة الشخصيات البارزة في أقاصيص أولئك المؤلفين ومن جعلوا أبطالاً لها كما ابتكرتها تصوراتهم الخصبة واخترعتها عبقريتهم المبدعة، نرى تخيلاً سامياً معتدلاً رصيناً، يحدوه العقل الراجح، ليطابق الواقع المعقول، ويمنح تلك الشخصيات سحنة جميلة، تدب فيها الحياة الناشطة، فتراها متجسدة حيالنا، لا أشباحاً ضعيفة لا كيان لها ولا جسم. . .
وفي هذا العالم الأدبي العجيب، الذي كان يعنى بالأنواع والنماذج التي يكثر أشباهها في الحياة اليومية، نرى مواطن الشبه الموجودة بين كل فروع الأدب القصصي المصري القديم، وبين القصص التي يتحفنا بها المؤلفون المجيدون في القرن العشرين من اتباع المذهب الواقعي. وتزداد إيماناً بأن عقول أهل الأجيال السالفة لم تكن دون عقول أبناء العصور الحديثة. هذا ولعلنا واجدون في قصة (سانيهات) - ابن الجميزة - صورة أمينة واضحة للحياة والعادات القديمة. ولا يبعد أن هذا الاسم قد أطلق على بطل القصة لكونه عاش حيث توجد شجرة من أشجار الجميز المقدسة التي اشتهرت بها مصر منذ القدم، ولا سيما أن الاسم (سانيهات) معناه (ابن الجميزة) ونحن نرى في موضوع القصة ما كتبه سانيهات هذا عما شاهده في مغامراته أثناء تنقلاته ورحلاته في جنوب شرقي فلسطين. وإني كمصرية يسرني أن اذكر بلسان الإعظام والاكبار، هذا الدليل الذي تقيمه القصة على أن المصريين قد سبقوا ماركوبولو وكولمبس وفاسكودي جاما وماجلان وغيرهم من كبار المستكشفين إلى ارتياد المجاهل، وانهم قد كتبوا قصص هذا الارتياد بيد أجادت نقل ما انطبع في الذهن من صور المرئيات والحوادث بخاصة عجيبة وقوة انتباه فائقة. وقد
وصف سانيهات هذه الأصقاع التي رآها وصفاً بارعاً، ورسم الحياة الاجتماعية لسكانها، ومثل أخلاقهم وعاداتهم ونزعاتهم وميولهم اكمل تمثيل واظهر بعد عودته إلى مصر، الفرق العظيم بين حضارة بلاده والحياة البدائية الخشنة التي كان يحياها أولئك القوم. . . وسانيهات هو هذا (الأمير الملكي وحامل خاتم الملك، والصديق المخلص، وأمين شؤون الاجانب، هو المحبوب الملكي التابع للمقام الأسمى) وقد فر من مصر حالما سمع بوفاة الملك امينمعهت الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة، أي قبل الميلاد بألفي سنة. وهو لا يحدثنا في القصة عن هروبه، ولكننا نرجح أنه هرب لأنه كان أحد أبناء الملك من أم لا يجري في عروقها دم الفراعنة ولذلك لا يقدر أن يرث عرش أبيه والى جانبه (أوسرتسن) الابن (الملكي للفرعون) فهو يخشى أن يقتله الفرعون الجديد حتى لا يكون له من ينازعه العرش وينافسه فيه، ويشجعنا على التمسك بهذا التعليل ما جاء في سياق القصة، من اللهج بالإكرام الذي صادفه سانيهات من أفراد البيت المالك عند أوبته من ديار الغربة. ومعلوم أن الفراعنة كانوا شديدي التمسك بعصبيتهم، عظيمي التعلق بأقاربهم فلا يقربون منهم غير كريم النسبة. . .

نعود إلى حديثنا الأول فنقول: أن سانيهات يذكر أنه ولى هارباً من مصر في الليل، وكان (يختبئ في الأدغال نهاراً لئلا يراه أحد من الجيش المرابط على الحدود) وبعد صعوبات جمة ومخاطر عدة وصل إلى سلسلة الحصون التي أقيمت لصد غارات الأعداء على الحدود، وجاوزها في دياجير الظلام، وأنه حين شارف (البحيرات المرة) خارت قوته (وشعر بظمأ شديد، وجف ريقه، وضاقت أنفاسه) فقال في نفسه: هذا نذير الموت. ولكن ثغاء الماشية كان يتطرق إلى سمعه فينعشه وينفخ فيه روح القوة ويطمئنه فيواصل سيره إلى أن يصادفه زعيم إحدى القبائل، فيعطيه (ماء ولبناً مغليا) ويخبرنا بعد ذلك أن كل قبيلة من القبائل العائشة في تلك الأقاليم كانت تكرم مثواه وتستضيفه بدورها، حتى حط رحاله في أرض (أيدوم) حيث أقام سنة ونصف سنة، وإن أمير (تنو) التي زرتها منذ أعوام في جنوب شرقي فلسطين وتقع بين الخليل وبيت جبرين، قد ارسل إليه ودعاه إلى الإقامة عنده. ويحسن بي أن أنقل هنا ما ذكره سانيهات من حسن معاملة ذلك الأمير بقوله: (ومنحني اختيار ما أريده من الأرض حتى تلك الأرض التي كان يملكها في الخارج وهي أرض حسنة. والحق يقال أن ما اعطانيه كان عظيماً، وقد قدمني على أولاده وزوجني من كبرى بناته وأقامني أميراً على قبيلة من خيرة قبائل أرضه). ثم يحدثنا عن اغاراته على القبائل الأخرى ويقدم لنا وصفاً فريداً عن قيامه بمنازلة أحد أبطال تنو. والظاهر أنه كان محسوداً على المكانة التي كانت له في قلب الأميرة العظيمة، وعلى ما أحرزه من مجد الشهرة وفخر الانتصار، فجاء ذلك البطل ذات يوم ودعاه إلى النزال، (رجلاً قوياً لا أخ له في القوة)، وقد (اخضع لجبروته وكان: كل إنسان). وقال: (فلينازلني سانيهات)، وكان يريد أن يقتله، ولكن بطل تنمو تضاءل أمام المصري لخبير بفنون القتال والقائل في ذلك: (وجاء الموعد فالتقينا وناديته أن يبدأ فصوب سهامه ولكني تحاشيتها كلها، وسقطت بقربي سهماً أثر سهم. وهنا فوقت نحوه قوسي وأطلقت السهم. فنفذ إلى عنقه فصاح من شدة الألم وخر على انفه فأخذت قناته وأنفذتها في جسمه، وضعت قدمي على ظهره فهلل البدو، واستحوذت على جميع مقتنايته وماشيته. الشيء الذي كان يريد أن يفعله بي فعلته أنا به).

وأظنني بعد هذا كله لست في حاجة إلى الإشارة إلى أن الآداب القصصية العالمية لم تمنح آية أمة في الوجود ما منحت الأسلاف من التفوق في القصص الخيالية الممتعة التي يعدها العلماء المشتغلون بالمصريات في الوقت الحاضر غاية في سمو التصور ودقة التفكير وسعة التصوير وخصوبة الخيال وسلامة اللغة وسلاسة الأسلوب. ولعل أبدعها (قصة السحرة) التي جمعت ورتبت على طريقة كتاب (ألف ليلة وليلة). فهي في الحقيقة قصة واحدة طويلة. تضم ثلاث أقاصيص متتابعة، ادخل المؤلف كل واحدة منها في التي تليها، وقد عارض سير القصة عينها عند نهاية الجزء الأول منها بشيء جديد، لأنه رأى كما يرى كتاب العصر الحديث في قصصهم ضرورة وقوف القارئ عليه قبل الخاتمة، وهي مهارة أرادها فوفق فيها رغم ما تفيض به سطورها من تحول ساذج معجب لا ترون مثاله في غالبية ما يكتبه كتاب اليوم من الفرنج وغيرهم! وهذه القصة البديعة أشهر من أن تعرف. إلا أن السبيل إلى تلخيصها الآن غير ميسور، ولا يسمح المقام باقتباس شيء مما حفلت به تصانيف الأسلاف من الحكم الخالدة والمواعظ الأبدية والأمثلة العالية والكتب السياسية التي تبودلت بين الفراعنة وملوك الشعوب الأخرى من معاصريهم والرسائل المتبادلة بين الإخوان والأصدقاء وأغاني الحب والتسابيح الدينية، والأناشيد الغنائية

والأشعار القصصية الطويلة التي أتوا فيها على ما سعد به ملوكهم من جلال الانتصارات وعز الفتوحات. بيد أنه لا يسعني إلا أن المع في إيجاز إلى كتاب (المحاورة بين مصري ونفسه) تلك المحاورة التي يزخر فيها كل ما يزخر في الحياة النابضة من قوة دافقة، وتمثل صراع الروح والجسد، وأزمات الوجدان الطاحنة، وفورات العواطف المتأججة، وهجسات الضمائر، في مهاوي ضعفها ودركات فورها، أو درجات مجدها وذروات قوتها

وهناك ثلاثة كتب جديرة بالعناية أولها كتاب (بتاهوتب) وهو اقدم كتاب في الدنيا كما يقول المؤرخون. وفي هذا الكتاب فصول ممتعة، فانتم ترون مؤلفها حين يعرض لذكر المرأة يكتب عنها كمؤلفي القرن العشرين - حفاوة وإجلالاً وإكباراً -

أما الكتاب الثاني فهو (حكم الكاتب آني) ولست أريد أن أطيل الوقوف عند هذا الكتاب وإنما أريد أن اذكر منه نبذة واحدة نصح فيها المؤلف الولد برعاية أمه فقال: (ضاعف الطعام والشواب اللذين تقدمهما لأمك فهي التي تعبت في تربيتك ووجودك وأدخلتك المدرسة وعنيت بتهذيبك وتثقيفك. أحذر من أن ترفع يدها إلى السماء ضدك فتسمع الآلهة شكاتها) ويظهر من هذا جلياً أن رياسة الأسرة في ذلك الحين كانت للأم حيث ينبئنا الكاتب أنها هي التي عنيت بتهذيب الولد وأدخلته المدرسة

أما الكتاب الثالث فهو سياسي بحث وعنوانه تعاليم أمينمعهت الأول وهو غاية في الحكمة والحيطة، كتبه إلى امينه يحذره ممن حولهم من أهل البلاط ومن دسائسهم الكثيرة

وهنا اكتفى بما تقدم مبرهنة على أن مصر بأدبها القديم قد كانت أستاذة الدنيا ومعلمة الوجود، وحسبي أن اختم بقول مسيو سانتهلير: (لست أريد أن أرد على الذين يتهمون اليونان بعدم معرفتهم القراءة ولكتابة إلا بهذه الكلمة وهي: كيف يجهل اليونان القراءة والكتابة وقد كانت تربطهم بالمصريين صلات قوية؟!!)

وجدير بهذا كله أن ينبه غافلنا، ويشعرنا بحاجتنا إلى أيجاد أدب قومي يصور المزاج العقلي المصري، ويستمد من صميم الحياة المصرية مادته وعناصره ومسالكه، فيمثل حالتنا الاجتماعية، وحركاتنا الفكرية، والعصر الذي نعيش فيه لكي تكون لأدبنا شخصية بارزة ممتازة، تضمن لنا المكان العالي الذي نريد أن نشغله بحق في خريطة الوجود.

(الزهرة)

أين أنا؟

للأستاذ محمد سعيد العريان

(أين أنت يا صديقي؟ منذ كم ألتمس لقياك فلا أجد سبيلاً إليك!)

هكذا سألني صديقي وقد لقيني على الطريق منطلقاً لبعض شأني على غير ميعاد. . .

فأخذت أسال نفسي سؤاله إياي: (أين أنا؟)

هأنذا واقف بازائه على حيد الشاعر استمع إليه وهو يفيض في الحديث سائلاً ومجيباً، وعاتباً وعاذراً؛ ولكنني مع ذلك لسن هنا!

أن نفسي هناك. . . بل أنني على التحديد لا أعرف أين نفسي!

في هذا المكان الذي يجمعني وإياه، كنت وكان، ولكني مع ذلك لا أكاد أشعر أنني وإياه في ذاك المكان!

(أين أنت يا صديقي؟)

عجباً؛ أنه ليراني بازائه لأراه، وأنه ليعرف مكانه من نفسي؛ وإن الحب الذي وجد بين قلبينا لخليق بأن يلهمه الجواب ولكنه مع ذلك يسأل، ولكنني مع ذلك لا املك الجواب!

(أين أنا؟)

لقد اخطر هذا السؤال في بالي معاني وصوراً جمة، تذكرني حيث كنا. . . ويوم كنا. . . وتنشر على عيني صحائف من ذكريات الماضي ومشغلة الحاضر وأماني المستقبل!

هأنذا واقف بازائه على حيد الشارع جسداً إلى جسد، فإنني لمعه، ولكنني لست في هذا المكان! وإنني لبعيد عنه، ولكنه معي في سياحة فكرية طويلة تنتقل حيث شئنا في ذكريات الماضي الغابر ونطوي السنين في لحظات!

أتراه كان يراني؟ أتراه كان يعرف أين مكاني؟ هل كان بازائه في تلك اللحظة إلا جسداً وصورة؟

. . .أنه ليسألني: (أين أنت؟. . .) وإنني لأسال نفسي

هل كنت معه؟ هل كنت بعيداً عنه؛ هل كان يجمعني وإياه مكان؟ هل لقيني جسداً أم لقيني فكراً وعاطفة؟ هل كان الذي معي هنا على حيد الشارع هو الذي معي هناك في وهمي وفي ذكرياتي؟

أين كنت وأين كان؟ أين وأين؟

ليت شعري ما الحقيقة؟ وما الخيال؟ أين يلتقيان وأين يفترقان؟ وأين الحد الذي يفصل بين دنيا المنظور ودنيا التصور؟

هانذا ما أزال أسال نفسي: (أين أنا؟) وهذا سؤال صديقي ما يزال يرن في أذني: (أين أنت؟) وما تزال يدي في يده، وما زلنا واقفين جسداً إلى جسد على حيد الطريق!

وتحدث صديقي إلى ما شاء وتحدثت إليه، وهم أن ينصرف لشأنه وهممت؛ وعاد

يسألني:
(وأين ألقاك بعد؟)
أين يلقاني وأين ألقاه؟
ها هو ذا يوليني ظهره ماضياً إلى غايته، ولكنه معي، ولكنني معه، ولكنه يسألني: (أين ألقاك؟)
أتراني وإياه الساعة على فراق أو على لقاء؟
منذ لحظة كان وكنت وأنه ليسألني: أين أنت؟ وأنه ليسألني الساعة أين ألقاك! وما افترقنا بعد!
أتراني معه هناك أصحبه في طريقه أم تراه هنا يصحبني؟
جسدان كانا معاً منذ لحظة فافترقا ومضى كل منهما على وجهه، ولكنه ما زال معي يصحبني في طريقي وما أزال أصحبه لا ريب
أأنا الذي معه هناك يناجيه في طريقه أم أنا الذي هنا؟
أهو الذي معي الساعة أتحدث إليه أم هو الذي مضى وخلفني؟
اثنان هنا: أنا وهو، واثنان هناك: هو وأنا، واثنان كانا جسداً إلى جسد يتناظران على حيد الشارع منذ قليل. . .!
. . .أي هؤلاء أنا وأيهم هو؟. . . أينا الحقيقة وأينا الخيال؟
أأنا واحد أم اثنان؟. . . وهو، ما هو؟ وكم هو؟
أنني أنا مع نفسي الساعة لا ريب، فمن ذاك الذي يزعم صاحبي في وهمه أنها يماشيه ويسر إليه النجوى؟
وإني لأشعر أن صاحبي هو معي الساعة؛ فمن ذاك الذي مضى بعيداً؟
أترى ذاك الذي مضى بعيداً يعرف هذا الذي معي أو ينكره؟
أم تراني أعرف ذاك الذي يماشيه صديقي ويزعم أنه أنا وما هو أنا؟
يا عجبا! أنني لا أكاد أنكر نفسي!
ها هنا أصل وصورة؛ فمنذا يمايز بينهما؟
ها هنا حقيقة وظل؛ فأي الاثنين أنا؟
وطال علي الطريق وما ظفرت بجواب؛ وبرمت بصاحبي الذي كان يماشيني . . .
وأناجيه فأنسيت ذكره؛ وأحسب صاحبي الذي هناك قد مل ملالتي فأنسى ذكرى. . . . . .
وشعرت فجأة كأنما ثابت إلى نفسي. . .!
وكأنما كان جزء مني بعيداً عني فآب أليّ!
وأحسست إحساس الحي بوجوده!
ووجدت بعد لأي جواب ما سألت نفسي!
(هأنذا. . . هانذا. . . أنني أنا هنا!)
أين كنت؟ ومن أين عدت؟
وهل كنت شيئاً قبل له كيان وله مكان؟
(سل الطفل ساعة مولده: أين كنت أيها الوليد قبل أن تصير جنيناً في بطن أمك؟
فلو عقل لسؤال وعني الجواب لما أطاق
سله أولاً: هل كنت؟ قبل أن تسأل: أين كنت؟
أنا ونفسي شيء واحد: لو انفصل منهما شي عن شيء لما كان ثمة شيء!
ما أنا؟ حين يكون خيالي بعيداً عني؟
ما أنا؟ حين تتعلق أوهامي بما ليس في يدي؟
ما أنا؟ حين تمضي بي الذكريات إلى غير عالمي وتحاول أن تعيش بي في غير أيامي؟
ما أنا؟ حين أفكر فيك، أو فيه، أو فيها وأغفل عن حقيقة نفسي؟
ما أنا حينئذ بشيء؛ فلا أنا هنا ولا أنا هناك ولكنني أشلاء!
نحب الشيء ونتمانه، ونتخيل ساعة الظفر به؛ فنحس في أعماقنا ساعة نحب ونتمنى ونتخيل - أننا لا نشعر بوجودنا الكامل في أنفسنا؛ لأن الشيء الذي يكمل وجودنا ليس في
يدنا؛ ثم نظفر بما كنا نحب ونتمنى ونتخيل، فلا نشعر حينئذ بوجودنا الكامل في أنفسنا؛ لأن الشيء الذي يكمل وجودنا لا يمكن أن يأتي من خارج انسفنا!

ونأسى على ما فات، ونتلهف على سوالف اللذات، ونتخيل عودة الماضي إلينا أو رجعتنا إليه؛ فما نحس ساعة نأسى ونتلهف ونتخيل أننا إحياء لنا وجود محدود بزمان ومكان؛ ولكننا فكرة أو حلم أو أمنية: صورة ما لها مثال، ووهم ما له حقيقة!
ولكن الإنسان على ذلك لابد له من أمل يسعى إليه، أو ماض يحرص على ذكره؛ . . . أفيكون ذلك لأن الله الذي برا الخلق حين منح الإنسان نعمة الوجود قد حرمه نعمة الشعور بالوجود؟
إلا الطفل: أنه هو وحده الذي يعيش في حقيقة الوجود، ليس له ماض وليس له أمل؛ أنها هو نفسه شيء واحد منذ كان إلى أن يأذن الله! ولكنه لا يدري! ولكنه لا يدري!.
تعاليت يا رب! شهدت أن لا إله إلا أنت؛ لأنك أنت وحدك الموجود؛ وكل ما عداك ظلال وأوهام وأباطيل!.
(شبرا)
محمد سعيد العريان
من مزاح الشعراء
ساعة الهراوي
متاعب لا تنتهي
للأستاذ محمد الأسمر
أصبحت مع ساعة الهراوي كما يقول البهاء زهير:
كلما قلنا استرحنا ... زارنا الشيخ الإمام
فهذه الساعة الملعونة كلما قلت استرحت منها (جدّ لي منها سبب) وفي العام الماضي حينما ظننت أن الله أراحني منها ودعتها بكلمة في جريدة الأهرام الغراء، ولكن ما لبث هذا التوديع غير قليل حتى أعادني إليها - ولا أقول أعادها أليّ - فانه تبين لي أنني التابع لها، وأنها صاحبتي ولست أنا صاحبها. . . أقول ما ظهر هذا التوديع حتى كانت الأبيات التي قلناها على لسان الدكتور أو (الدكاترة) زكي مبارك موضع أخذ ورد ودراسة وتمحيص أثارها حضرة المربي الفاضل الأستاذ عبد الحليم خطاب بين تلاميذه بدار العلوم في درس من دروس العروض، وكتب عن ذلك البحث العروضي صديقنا الأستاذ عباس خضر كلمة بالأهرام مما حدا بنا إلى رد الشبهة التي وجهت إلى بعض أبيات الدكتور - استغفر الله - بل الدكاترة زكي مبارك.
ثم انتهت بعد ذلك أخبار هذه الساعة ومتاعبها، ولكن مجلة الرسالة الغراء طلعت علينا في العدد 292 وبين صفحاتها كلمة ممتعة عنوانها (نادي الحلمية) للكاتب المجيد (م. ف. ع) مندوب الرسالة الأدبي، وقد حوت هذه الكلمة فيما حوته قصيدة الشاعر الكبير الحاج محمد الهراوي، قصيدته الطيبة في ساعته الملعونة التي أراها في جلبها المتاعب لي كحذاء (أبي القاسم) وما جره على صاحبه من ويلات. وكيف لا تكون هذه الساعة أخت هذا الحذاء - حذوك النعل بالنعل - وهانذا بعد عام كامل أجدني مضطراً إلى التحدث عنها:
يقول الأستاذ الهراوي فيما يقوله عن ساعته في قصيدته ما يأتي:
وساعة أهديتها ... إلى صديقي الأسمر
أحجارها كأنها ... من لؤلؤ وجوهر
فلم يكن كمثلها ... هدية من موسر
ولم يكن كمثلها ... من بائع لمشتر
وليس من تقدم ... فيها ولا تأخر
تمشي عليها الشمس في ... عطارد والمشتري
وهذه الأبيات يصدق عليها قول القائل في الشعر - أعذبه أكذبه - إلا أن البيت الأخير تجاوز الحدود المعقولة كلها لعذوبة الشعر جميعها. فنحن إذا صدقنا أن هذه الساعة أحجارها من لؤلؤ وجوهر وأنه لم يكن كمثلها هدية من موسر. . الخ الخ، فإننا لا نصدق بحال من الأحوال أن الشمس تجري عليها في عطارد والمشتري. فإن الشمس إذا انحرفت عن أبراجها ومشت على أحد الكوكبين عطارد أو المشتري لكان هول في السماء والأرض والسموات غير السموات. وحينئذ لا تغني ساعة الهراوي عن العالم شيئاً، وحينئذ يعلم الأستاذ الهراوي كم كنت أنا مبتلي بهذه الساعة
لو أن صديقي الشاعر الكبير نظر نظرة في النجوم لتبين له أن (عطارداً) و

(المشتري) كوكبان من الكواكب السبعة، لا برجان من أبراج الشمس.
قد تناول أبو إسحاق الصابي الكواكب السبعة في الأبيات الآتية. قال مادحاً . . .:

نَلِ المنى في يومكَ الأجورِ ... مستنجعاً بالطالع الأسعد
وارق كمرقى (زحلٍ) صاعدا ... إلى المعالي أشرف المقصد
وفض كفيض (المشتري) بالندى ... إذا اعتلى في أفقه الأبعد
وزد على (المِريخ) سطواً بمن ... عاداك من ذي نخوة أصيد
واطلعُ كما تطلعَ (شمس) الضحى ... كآسفة للحِنْدِس الأسود
وخذ من (الزُهرة) أفعالها ... في عيشك المستقبل الأرغد
وضاهِ بالأقلام في جريها ... (عُطارِدَ) الكاتب ذا السُّودد
وباه بالمنظرِ (بدرَ) الدجى ... وأفضُله في بهجته وازدد

هذا والله سبحانه وتعالى هو المرجو - بعد اليوم وقبل اليوم - في إراحتنا من هذه الساعة، ومن متاعبها، وهو أرحم بعباده وألطف من أن يجعل الشمس تجري في عطارد والمشتري من أجلها.

محمد الأسمر

القمر بين الحقيقة والخيال

للأستاذ قدري حافظ طوقان

طرائف وعجائب

لو سار قطار إلى القمر بسرعة خمسين ميلاً في الساعة لوصل إليه في مائتي يوم. ولو وأطلقت قنبلة في الجو بسرعة 1640 قدماً في الثانية لوصلت إليه في ثمانية أيام وبعض يوم. والأمواج اللاسلكية التي تدور حول الأرض في سبع ثانية! تصل إلى القمر في ثانية وربع ثانية!

قد يعجب القارئ إذا علم أن بعد القمر عن الأرض ضئيل جداً إذا قورن بغيره من أبعاد السيارات والنجوم عن الأرض. ويزيد استغرابه إذا قيل أنه على الرغم من هذا البعد الذي يبدو هائلاً بالنسبة للأبعاد الأرضية، فإن القمر هو أقرب جسم سماوي إلى الأرض يبعد عنها بمقدار 240000 ميل!. . .

القمر من الأجرام السماوية التي تستمد نورها وحرارتها من الشمس، يدور حول الأرض مرة في كل 28 يوماً، يومه طويل ونهاره طويل، طول كل منهما أربعة عشر يوماً، فنأمل!. . . يشرق متأخراً ويغيب متأخراً خمسين دقيقة ونصف دقيقة عن إشراقه ومغيبه في اليوم الذي تقدمه. يظهر في أشكال مختلفة فمرة نراه هلالاً ومرة نراه نصف دائرة ومرة نراه دائرة كاملة وفي بعض الأحيايين يغيب ولا نستطيع رؤيته. وعلى هذا فالقسم المنير منه يزيد وينقص، يزيد إلى أن يصبح بدراً كاملاً، ثم ينقص إلى أن يطلع مع الشمس فيكون محاقاً. وسبب هذا أن الشمس تنير نصفه كما تثير نصف الكرة الأرضية، وفي أثناء دورانه حول الأرض من الغرب إلى الشرق يكون القسم المظلم متجهاً نحونا إذا صدف أن وقع بيننا وبين الشمس. ثم يتقدم قليلاً نحو الشرق، وهذا التقدم يظهر جانباً صغيراً منه منيراً ويزداد هذا القسم المنير كلما تقدم نحو الشرق إلى أن يطلع من الشرق وقت غروب الشمس وحينئذ يبدو لنا قرصاً منيراً وبدراً كاملاً. ثم يبدأ القمر بإتمام دورته حول الأرض فينقص ما نراه منيراً، وتستمر هذه الحركة والقمر المنير في تناقص إلى أن يطلع مع الشمس فيكون حينئذ وجهه المظلم هو المتجه نحونا ويكون عندئذ محاقاً. ونظراً لقربه منا فهو يبدو كبيراً إلا أنه في الحقيقة صغير بالنسبة للنجوم وبعض الكواكب، فقطره أكبر من ربع قطر الأرض بقليل كما تبلغ مساحته مساحة أمريكا الشمالية والجنوبية. وعلى هذا فجاذبيته أضعف من جاذبية الأرض، والرجل الذي يزن 60 كيلو جراما على سطح الأرض يزن سدس هذا المقدار على سطح القمر. وإذا قدمنا حجراً إلى علو خمسة أمتار هنا، واستعملنا نفس القوة والسرعة فإن الحجر يرتفع إلى علو ثلاثين متراً في القمر، وقد تكون رغبة لاعبي الكرة شديدة في أن تجري اللعبة على القمر إذ يستطيعون رميها وإرسالها مسافة تفوق ستة أضعاف مسافة رميها هنا ولضعف جاذبيته فهو تقريباً خال من الهواء والماء إذ ليس في القمر قوة جذب كافية لحفظ دقائق الهواء محيطة به فهي (أي الذرات) دائمة الحركة والتصادم بسرعة (450) متراً في الثانية، وليست حركتها في جهة واحدة بل في جميع الجهات، لذا فهي

تفلت تماماً من سطح القمر ولا تستطيع البقاء عليه
ولقد نتج عن خلو القمر من الهواء انعدام المياه وعوامل النحت أو التفتت، فلا نرى على سطحه أثراً من ذلك وبقيت الجبال على حالتها الطبيعية لم يحصل فيها أي تفتيت في الصخور ولم تتكون أودية بالمياه الجارفة ويمكن القول أنه عالم قاحل هادئ ساكن خال من أنواع الحركة وعلامات الحياة
ولا يقف الأمر عند هذا الحد، بل أن خلوه من الهواء أدى إلى تعرض سطحه لحرارة الشمس المحرقة وللبرودة الشديدة، إذ الهواء هو الذي يلطف حرارة الشمس وهو الذي يحتفظ بالحرارة التي تشعها الشمس حائلاً دون خروج الحرارة
وعلى هذا ترتفع الحرارة على سطحه أثناء النهار الطويل ارتفاعاً عظيماً حتى تصل إلى درجة الغليان؛ وقد تزيد حتى تقترب من درجة ذوبان الكبريت، وتهبط الحرارة في الليل الطويل فجأة وتستمر في الهبوط حتى تصل إلى أكثر من (250) درجة فهرنهيت تحت الصفر
وإذا تحادث اثنان على سطحه فلا يسمع أحدهما الآخر فيضطران عندئذ إلى التفاهم بلغة الإشارات، ذلك لعدم وجود أمواج هوائية تنقل الصوت، وأظن أن القمر يلائم الذين يعنون بالمدفعية إذ لو أطلق مدفع في القمر لما سمعه أحد هناك ولما حصل على الأذن أي أثر ولما اضطر الإنسان إلى استعمال ما يقي أذنه من شدة الأمواج التي يحدثها صوت المدافع
القمر يعوق حركة الأرض
كانت الأرض قبل وجود القمر تسير حول الشمس في مدة أربع ساعات أي أن يوم الأرض كان أربع ساعات ولم يكن أربعا وعشرين ساعة كما هو الآن!
لقد زاد القمر في طول يوم الأرض، فما السبب في ذلك؟ لكل شيء سبب، وكل ما في الكون يسير ضمن نواميس لا يتعداها. ولقد استطاع الإنسان بفضل ما وهبه الله من القوى العقلية أن يكشف عن السبب ويعرف المجهول في بعض الحالات، وهو لا يزال سائراً في ذلك، وقد كشف من القوانين الكونية والأنظمة الطبيعية ما أمكنه الوقوف على كثير من عجائب الكون وروائعه.
استطاع الإنسان أن يحسب سرعة القمر حول الأرض فوجدها 2300 ميل في الساعة، كما ثبت له أن القمر يدور على محوره مرة واحدة كلما دار حول الأرض مرة واحدة في 28 يوماً ورأى في الجاذبية ما يفسر له الإعاقة التي يحدثها القمر على حركة الأرض فثبت له أنه لولا قوة الجذب بين القمر وبين الأرض لاستمر في سيره على خط مستقيم، ولأصبح بعيداً عنا الآن ملايين الأميال
ولكن هذه القوة المستمرة، هي التي تغير اتجاه سيره وهي التي تجعله يسير في خط منحن (فلك) حول الأرض على الكيفية التي نعرفها
إن الجاذبية بين الأرض والقمر متبادلة، فكما أن الأرض تجذب القمر وبينهما قوة تجاذب تجعله يسير في مسار منحن حول الأرض، فكذلك القمر يجذب الأرض وبينهما قوة تجاذب، وهذه القوة أثرت على الأرض ولا يزال أثرها يعمل فيها (في الأرض) إذ أبطأت حركة الأرض وجعلت دورتها حول نفسها تستغرق 24 ساعة بدلاً من أربع ساعات!
وعلى أساس قانون الجاذبية العام الذي ينص على أن قوة التجاذب بين جسمين تتوقف على مقدار كتلتيهما وعلى المسافة بينهما - أقول على هذا القانون حسب العلماء وزن الأرض وغيرها من الأجرام السماوية. فلقد حسبوا وزن الأرض من جذبها طناً من الرصاص (مثلاً) أو من جذبها القمر أو غيره من الكواكب
وهكذا توصل الإنسان بفضل قانون الجاذبية وبفضل ما أخرجته (الرياضيات) من معادلات ونواميس من الإتيان بالعجب العجاب وبالسحر يخلب الألباب!. . .
القمر والتجارة
ما علاقة القمر بالتجارة؟ أو ما علاقة التجارة بالقمر؟ وهل القمر يساعد على التجارة أو يعوقها؟
إن للقمر أكبر الإثر في أحداث المد والجزر، ولولاها لما كان في الإمكان أن تدخل البواخر إلى الموانئ أو أن تخرج منها. ومن هنا تتبين لنا علاقة القمر بمصالح الناس واتصاله الوثيق بها. ويذهب بعض الفلكيين إلى أن هذا الاتصال قوي إلى درجة أن

القمر في نظرهم هو من عوامل تقدم المدنية وارتقائها، فإذا تلاشى من الوجود أو بعد كثيراً عن الأرض اضطربت التجارة واختل نظامها.

يحصل مدان وجزران في كل يوم؛ والمد هو ارتفاع الماء والجزر هو انخفاضه. ويحدث ذلك من جراء الجاذبية بين الأرض والقمر، هذه الجاذبية ليست من القوة بحيث تجعل دقائق الأرض تتحرك، ولكن مياه البحار تطيعها حسب قوتها وتتجمع في البحر من هنا ومن هناك تجاه القمر، ومن هذا وبتأثير الشمس يحصل المد والجزر. وكثيراً ما نسمع بأن للقمر علاقة بالزراعة، ولكن إلى الآن لم يثبت شيء من هذا. ولا غرابة في ذلك إذا عرفنا أن الزراعة تتأثر (قبل كل شيء) بالحرارة، فالشمس تؤثر على النبات بحرارتها. أما حرارة القمر فهي من الضآلة بحيث أنها لا تحدث أي تأثير يذكر على النبات أو على غير النبات

ولقد قاس الفلكيون حرارة القمر وهو بدر كامل فوجدوها لا تزيد على جزء واحد من 185 ألف جزء من الحرارة التي تخرجها الشمس إلينا

وقد جرب العالم الفلكي (فلاماريون) عدة تجارب في ضواحي باريس ليتحقق مما إذا كان للقمر أي تأثير على المزروعات، فزرع بعض الخضر كالفول والبطاطس والجزر في أوقات مختلفة تطابق اوجه القمر الأربعة فلم يثبت لديه أقل تأثير في نموها. وإذا كان هناك تأثير للقمر في النبات فقد يكون من الزوابع والعواصف التي يثيرها القمر بجاذبيته للأرض

القمر والبحار

إذا نظرنا خلال التلسكوب إلى القمر فأنا نراه غير مستو كثير الارتفاعات والفوهات البركانية. ويقال أن عدد هذه الفوهات يزيد على ستين ألفاً يبلغ قطر بعضها 140 ميلاً وعمق البعض الآخر 18 ألف قدم. أما الارتفاعات فهي سلاسل لجبال كثيرة، فهناك من السلاسل ما يمتد إلى أربعمائة وخمسين ميلاً، ومنها ما يشتمل على أكثر من 3000 قلة أعلاها جبل (هيجنز) ارتفاعه 21000 قدم وهو أعلى من (أفريست) أعلى جبال الأرض. وكذلك يوجد على سطحه سلسلة تعرف باسم (الألب) تشتمل على 700 قنة من قنن الجبال ولها وأد طوله أكثر من ثمانين ميلاً وعرضه يزيد على خمسة أميال ولهذه الجبال ميزات لا نجدها على جبال الأرض، منها عدم وجود مغاور وكهوف ومنها جمال مناظرها الخلابة وما لها من ظلال تفي على ما تحتها من صحارى. هذه الجبال سهلة التسلق لا يجد الإنسان صعوبة أو مشقة في السير عليها أو التسلق إلى أعلاها، بل يشعر بخفة وسرعة ما كان ليشعر بهما لو كان يتسلق جبال الأرض. وإذا صدف أن زلت قدماه وهوى من محل عال فلا أذى يصيبه، ولا ضرر يعتريه. وقد يستغرب القارئ من هذه التفصيلات، وقد يختلط الأمر عليه فيظن أن القمر موطن المعجزات وموطن السحر. ولكن لا معجزات ولا سحر، فكل ذلك آت من ضعف جاذبية القمر إذ قوة التثاقل تعدل سدس مقدارها على الأرض

هذه هي التي تجعل المستحيل هنا ممكناً هناك (على القمر)، وتجعل المعجزة هنا أمراً عادياً هناك، وتجعل من الحركات الصعبة هنا سهلة هناك باستطاعة من (يزود نفسه بالأكسجين) وغير ذلك من الألبسة الواقية من الحر الشديد والبرد الشديد - أن يقوم بها ويتفنن فيها

وفي القمر أودية كثيرة يربو عددها على عشرة آلاف واد، منها ما هو واسع جداً كالسهول الفسيحة ومنها ما هو ضيق فيبدو كمجاري الأنهار

وإذا نظرنا إلى القمر حينما يكون بدراً واستعملنا نظارة صغيرة لذلك رأينا أنه ملئ بالبقع المنيرة التي هي جبال عالية، وبقع أخرى مظلمة هي سهول فسيحة. وقد ظن العلماء في أول الأمر أن هذه البقع المظلمة بحار فسميت بأسماء البحار كبحر الزمهرير وبحر الرطوبات وبحر الخصب وبحر الرحيق وبحر الغيوم

وعلى ذكر البقع يقول أحد الفلكيين أن هذه البقع لم تعرف إلا عند اختراع النظارات، ولكن رأيت في الشعر العربي ما يدل على أن العرب عرفوا هذه البقع المظلمة قبل اختراع النظارات

من ذلك ما قاله التهامي:

فبات يجلو لنا من وجهها قمراً ... من البراقع لولا كلفة القمر

القمر من الأرض

لاحظ العلماء أن كثافة القمر تقرب جداً من كثافة الصخور الموجودة في أعماق الأرض، وثبت لديهم أن العناصر التي يتألف منها القمر هي نفس عناصر جوف الأرض؛ ومن ذلك تحققت النظرية القائلة بأن القمر كان يوماً من الأيام جزءاً من الأرض انفصل عنها من المكان الذي هو اليوم قاع المحيط الهادي؛ وهذا يطابق رأي العالم الإنكليزي (جينز) الذي يرى أن التوابع أو الأقمار ليست إلا قطعاً انتزعت من السيارات كما انتزعت السيارات من الشمس على أثر سلسلة من الحوادث تشبه أن تكون واحدة في الحالين

أما الدكتور علي مصطفى مشرفة بك فلا يميل إلى هذا الرأي ولا إلى الأخذ به لأن الأرض (على رأيه) كانت في حالة سيولة عندما انفصل القمر عنها

وقد يكون من الطريف أن يعرف القارئ أنه لما انفصل القمر عن الأرض وافلت إلى الفضاء نشأ (على رأي الأستاذ بكرنج) انفصال أمريكا عن أوربا فكان الأوقيانوس الأتلنتيكي وكان ذلك عندما كانت الأرض مائعة أو شبه مائعة

اقتراب القمر

قد يظن البعض أن اقتراب القمر من الأرض مما يزيدها جمالاً ومما يغمرها بهاء وسناء وسحراً، ومما يجعل الإنسان يتمتع بنوره وبأشعته الفضية أكثر من تمتعه الحاضر. قد يكون هذا الظن في محله فينعم الإنسان حينئذ بمناظر القمر ويجد فيها كل الجمال وكل المتاع

ولكن ذلك لا يكون إلا بثمن؟ وعلى حساب كوارث وبلايا تصيب الأرض من اقترابه منها. فعلى فرض أن هناك من العوامل ما يقرب القمر من الأرض وما يجعله على بعد ستين ألفاً

من الأميال فقط فحينئذ يزيد المد والجزر 64 مرة. وإذا كان ارتفاع المياه عشرة أمتار فسيصبح 640 متراً وستغمر الموانئ والمدن وما يجاوزها، وقد يلتقي من جراء ذلك البحران الأبيض والأحمر ولا ينجو من اليابسة إلا القليل كالجبال والربوات العالية وليت الأمر يقف عند هذا الحد بل يتعداه إلى الملاحة فلا تعود تأمن سلوك البحار ودخول الموانئ.

منظر الأرض من القمر

إذا تصورنا أنفسنا على سطح القمر ولدينا ما يلزمنا من الأكسجين وما يقينا من الحر والبرد فكيف نرى منظر الأرض؟

وهنا يختلف الوضع عن منظر القمر من الأرض، فلا إشراق ولا مغيب لأن أحد وجهي القمر يبقى متجهاً إلى الأرض دائماً، وإذا اتفق أن ذهبنا إلى الوجه الآخر فلا نستطيع رؤية الأرض بحال ما، وتبدو الأرض كالقمر ولكن أكبر منه، لا تغير مكانها في الفضاء تظهر في بعض الأحيان مظلمة وفي أحيان أخرى منيرة كلها أو نصفها أو ربعها. أما جمالها فيتجلى عندما تكون بدراً إذ يكون ضوءها شديداً أخاذاً.

أما السماء المحيطة بنا ونحن على سطح القمر فغير السماء التي نعرفها، لا شفق هناك ولا سراب، ولا سحب ولا ضباب، نرى الشمس على حقيقتها كرة هائلة في سماء حالكة الظلمة شديدة السواد، ضروها ساطع، ولونها إلى الزرقة مائل. قد يبدو هذا غريباً، ولكن ليس في هذا أي غرابة، فلا جو حول القمر يشتت الضوء ويحلله إلى ألوانه، ولا امتصاص ولا انعكاس لهذه الألوان. وهذا ما يجعل السماء تبدو سوداء ليس فيها ما نراه في سماء الأرض من جمال فاتن وألوان مختلفة خلابة.

نرى القمر عالماً هادئاً يطيب للمفكرين فلا زوابع ولا عواصف ولا غبار تعكر السكينة وتفسد الهدوء، عالماً يكتنف الجبال الكثيرة ويحوي الوديان والفوهات العديدة حيث لا مدن ولا غابات، ولا حقول ولا بحار

القمر والشعراء

لا تعجب من هذا العنوان: فهناك علاقة وثيقة بين القمر والشعر، وكيف لا يكون هناك علاقة والقمر هو الجرم السماوي الذي لفت أنظار الشعراء وشغلهم، وهو الوحي الذي يستهلون منه، كما أنه المعين الذي يغرف الأدباء منه الخيال؛ وقلما تخلو قصيدة غزلية من التشبيه به أو التحدث عنه. لا يفارق مخيلتهم، يأخذون من تزايده ونقصانه ومن اكتماله بدراً ومن أشعته الفضية - ميداناً لنظم الشعر ومسرحاً للأدب الرفيع ولا أدري لماذا كل ذلك؟

إني على يقين أنهم (الشعراء والأدباء) غاضبون حانقون لما ورد في هذا المقال من حقائق، وأقول كما قال الأستاذ توفيق الحكيم (إن كل الجمال المحيط بنا إنما هو من صنع عيوننا القاصرة. والويل لنا إذا أبصرت أعيننا الآدمية أكثر مما ينبغي لها أن تبصر. .).

ولئن أبصرت عيوننا أن القمر خال من الهواء، وإن نهاره محرق وليله بارد لاذع، وإن أشعته مستمدة من الشمس وهي أشعة أكذب من سواد الخضاب في اللمة البيضاء ولئن أدى البحث إلى أكثر من هذا فصنع لنا عيوناً نبصر بها فوهات براكينه المخيفة، ووديانه الموحشة، وأراضيه المقفرة؛ أقول لئن أبصرت عيوننا كل هذا وفجعتنا في القمر، فلقد دلتنا عيون العلم الحادة إلى ما هو خير منه وأبانت لنا الشمس على حقيقتها وأماطت اللثام عن روائع كثيرة ما كنا لنعرفها أو نبصرها بعيوننا الآدمية القاصرة

كشفت لنا عن الشمس وأنها باعثة الجمال على القمر ومصدر الحياة على الأرض، ولولاها لما دارت الأرض ولا دار القمر

فلماذا إذن لا يتغنى بها الشعراء والأدباء؟ ولماذا ينكرون عليها خيراتها وبركاتها ولئن جحد الشعر والأدب افضال الشمس عليهم وعلى الناس فلقد انصفها العلم ورعى حقها وبوأها مكانها اللائق بها وبما تسديه إلينا من نعم لا تحصى ولا تعد

وأخيراً أعزى الشعراء عن حبيبهم القمر بقول المتنبي:

لو فكر العاشق في منتهى ... حسن الذي يسبيه لم يسبه

(نابلس)

قدري حافظ طوقان

التاريخ في سير أبطاله

محمد شريف باشا

كان شريف في عصره رجلا اجتمعت فيه الرجال وكانت مواقفه توحي البطولة وتخلق الأبطال

للأستاذ محمود الخفيف

كان في استقالة شريف معنى الغضب، ولكنه لم يكن غضب فرد لشخصه فحسب وإلا لما كان له ما كان من خطر، كان غضب رجل لشخصه ولقوميته معاً أمام لجنة من الأجانب تريد أن تظهر بمظهر السيادة، وتحرص أشد الحرص على ذلك المظهر، ولذلك كان ذلك الغضب ثورة؛ وما لبثت تلك الثورة أن بعثت في كل نفس من نفوس الأحرار ثورة مثلها، وبذلك تهيأت البلاد لأن تثبت أمام الأجانب وجودها، واغتدى شريف بما فعل رجلها ورأس أبطالها

ورب قائل يقول وماذا كان في ذلك الموقف من معاني البطولة؟ هذا رجل اعتزل منصبه فكيف يكون الابتعاد عن الميدان رجولة؟ ولكن الذين يعلمون مبلغ ما وصل إليه نفوذ الأجانب يومئذ، ومبلغ ما مني به المصريون من خور، وما عرف عنهم من الحرص على المناصب الحكومية، يدركون ما ينطوي عليه موقف شريف من عزة وتضحية. هذا إلى ما سبق الاستقالة من تحد للجنة وسلطانها. ولو أن الخديو آزر شريف يومئذ لما ترك منصبه تاركاً اللجنة بذلك في أحرج المواقف ممعناً في عصيانه وترفعه. . . ولكن الخديو على جلال قدره طلب إلى اللجنة في لهجة تشبه الرجاء أن تكتفي من شريف أن يرد على أسئلتها كتابة. ولما رفضت اللجنة ذلك لم يرد الخديو عليها بعمل أو بقول يكون فيه معنى التأييد لرجله والاستنكار لفعل الأجانب، ومعنى ذلك أنه لم يبق أمام شريف إلا أن يتخذ من استقالته مظهراً من مظاهر الاحتجاج على تدخل الأجانب في شؤون البلاد، فكان ذلك المظهر أول نذر الثورة. . .

أخذت لجنة التحقيق العامة تدرس الحالة. ولقد جعلت اللجنة هدفها بطبيعة الحال العمل الصالح للدائنين، ولذلك فلم تأل جهداً في أن ترجع بكل المساوئ إلى الخديو وحكومة

الخديو متناسية ما فعله الدائنون من مخاطراتهم بأموالهم ابتغاء الربح الوفير وما جره جشعهم على البلاد من دمار، وما انطوى عليه مكرهم من غدر وبهتان وزور واختلاس.

تعامت اللجنة عما كان يقاسيه الفلاحون يومئذ من شقاء، ولم تراع في تقريرها بؤس أولئك الذين أثقلتهم الضرائب وهدهم الجوع، أولئك المساكين الذين كانوا كثيراً ما

يفرون من أرضهم لكثرة ما كان يطلب منهم، أولئك الذين غمرهم في سنة من تلك السنين السود سيل جارف لم يكن أقل هولاً عليهم من سيل الضرائب، ألا وهو فيضان النهر على قراهم وأراضيهم، أولئك الذين أحاط بهم المرابون والأمراض معاً وباتوا يتمنون الموت من قبل أن يلقوه

وتغافلت اللجنة عن أولئك الأجانب الذين كانوا يهربون بضائعهم وينجون بها من الجمارك ثم لا يدفعون عنها شيئاً داخل البلاد في ظل تلك الامتيازات المشؤومة التي كانت من أكبر المساوئ التي منيت بها مصر والتي قل أن يجد المؤرخ مثيلاً لها فيما كانت تتضمنه من الجور، وما كانت تقوم عليه من الباطل والبهتان؛ وكذلك تغافلت اللجنة عن أولئك الأجانب الذين تزايد عددهم في الحكومة المصرية، والذين كانوا يتقاضون الأجور العالية جزاء على ما اتصفوا به من الكسل وقلة المروءة وجمود العاطفة؛ بينما كانت مرتبات الوطنيين لا تدفع لهم إلا في مشقة وعناء وهي من القلة بحيث كانت تحفز الكثيرين إلى الاختلاس والتهاون في العمل.

واقترحت اللجنة في قرار تمهيدي أن يتنازل الخديو عن سلطته المطلقة إلى وزراء مسؤولين، وإن ينزل عن أملاكه في نظير مرتب معين، وكذلك تنزل أسرته عن أملاكها. . . كل ذلك دون أن تفكر اللجنة في أن يتنازل الدائنون عن شيء من ديونهم وهي تعلم كيف تراكمت تلك الديون وكيف تزايدت أرباحها حتى وصلت إلى ما وصلت إليه

وقبل الخديو تأليف الوزارة المسؤولة فاستدعى نوبار من أوربا وعهد إليه تأليف وزارة يتضامن أعضاؤها في التبعة وتقوم بالحكم في البلاد، ونظر المصريون فإذا وزارة المالية تسند إلى رجل إنكليزي، وإذا وزارة الأشغال تسند إلى رجل فرنسي، وهكذا سيطر الأجانب على مصر سيطرة تامة!

ومن غريب أمر هذه الوزارة أنها بينما كانت تسمى (وزارة مسؤولة) لم يكن لمجلس شورى النواب حق إسقاطها بل لم يكن له حق محاسبتها، ولم يك للخديو سلطان عليها، ومع ذلك كانت تلقب بذلك اللقب! فليت شعري كيف كانت مسؤولة ومن كان إليه يرجع الأمر يومئذ؟

كان الوزيران الأجنبيان هما صاحبي السلطان الحقيقي في البلاد، فلئن كانت ثمة مسؤولية على نوبار ومن معه من الوزراء المصريين فأمام الأجانب كانت تلك المسؤولية، وعلى ذلك فمن هذه الوجهة يصح تسمية تلك الوزارة بما سميت به، أما أن تعتبر وزارة مسؤولة كالوزارات التي يكون للشعوب حق محاسبتها وإسقاطها من مناصبها فتلك سخرية من سخريات الأجانب كانت في ذاتها من أبلغ نكاياتهم يومئذ بالبلاد وأهل البلاد

ولكن شريفاً كان عضواً في تلك الوزارة، أسندت إليه وزارة الحربية، وحل محله رياض في الداخلية. ولنا أن نتساءل كيف قبل شريف أن ينضم إلى تلك الوزارة؟ والذي نستطيع أن نستخلصه من حوادث ذلك العهد وملابساته أنه فعل ذلك على الأرجح لأن الخديو كان يرى فيه يومئذ الرجل الذي يستطيع بما أوتي من شجاعة وثقافة أن يراقب أعمال نوبار ومن معه من الأجانب، وفي هذا من الغض من شخصه ما لم يكن يسعه السكوت عليه

على أن شريفاً على رغم ثقة الخديو به وإيثاره إياه بالمحبة كان يكره استبداد الخديو بالأمر بقدر كراهته لنفوذ الأجانب، وكان يضمر ذلك في نفسه حتى تحين الفرصة كما سيظهر من أعماله عما قريب

وسرعان ما دب الخلاف بين الخديو ووزرائه أو على الأصح بينه وبين نوبار والعضوين الأجنبيين، فلقد كان في الوزارة رجال غير شريف يدينون بالولاء لحاكم البلاد الأعلى ومن هؤلاء علي مبارك ورياض. . . وتزايد هذا الخلاف حتى أصبح إسماعيل ولا هم له إلا أن يتخلص من تلك الوزارة التي لم تترك له من السلطة إلا اسمها

وسنحت له الفرصة في حادث مظاهرة الضباط، فإن نفراً من الضباط الذين استغنى عنهم عملاً بسياسة الاقتصاد قد تجمهروا أمام وزارة المالية واعتدوا على نوبار والعضو الإنكليزي السير ريفرزولسن، وكادوا يلحقون بهما الضرر البالغ لولا أن شخص الخديو بنفسه وفرق المتظاهرين. . . وأعلن إسماعيل على أثر ذلك أنه غير مسؤول عن شيء

في البلاد ما دام محروماً من السلطان ومن ثم رأى نوبار أنه لا قبل له بمواجهة الحال بعد ذلك
فرفع إلى الخديو استقالته، وبذلك تخلص الخديو وتخلصت البلاد من تلك الوزارة التي اعتاد الناس أن يسموها الوزارة الأوربية
وإنا لا نستطيع أن نمر بحادث الضباط هذا دون أن نشير إليه ولو في أيجاز، فنقول إن هذا الحادث كان أول خطوة في الحركة العسكرية التي سوف تكبر حتى تكون الجانب العسكري في الثورة العرابية، ذلك الجانب الذي سوف يفسد على الثورة مبادئها ويميل بها عن وجهتها ويكون في النهاية سبب فشلها وتحويلها إلى كارثة تجرف البلاد إلى هوة بعيدة القرار. . ذلك الجانب الذي كان له بسيرة شريف صلة وثيقة، فلسوف نرى أنه لا تطوف العرابيين وشططهم لسار شريف بالبلاد سيراً كان يصل بها بلا شك إلى غاية لو أنها أتيحت لها لتغير بها تاريخها واتجه وجهة غير التي سيق إليها
وكانت تولد بالبلاد يومئذ حركة وطنية قوية، حركة سوف تلتقي فيما بعد بالحركة العسكرية فيتألف من التيارين تلك الثورة التي تعمد كثير من المؤرخين تشويهها والتي أخطأ فهمها عدد منهم ليس بالقليل حتى تبينت آخر الأمر على حقيقتها. . .
وكان لتلك الحركة الوليدة مركزان أولهما المركز الرسمي وهو مجلس شورى النواب، وثانيهما المركز الأهلي وهو بيت البكري حيث كان يلتقي الأحرار من العلماء والنواب والأعيان. . وبهذين المركزين كان شريف دائم الاتصال لا يسهو ولا تفتر له همة
كان شريف دائم الصلة بالنواب أن جاز أن نسمي أعضاء المجلس على حالتهم هذه نواباً؛ وكان يتمنى أن يتخذ منهم قوة يناوئ بها الأجانب ويحد من سلطان الخديو، ولن يتم ذلك فيما يرى إلا أن يكون الوزراء مسؤولين أمام هذا المجلس كما هو الحال في المجالس الأوربية التي تسير على القواعد الدستورية. ولقد بذل شريف جهداً محموداً في إنشاء هذا المجلس وظل يتعهده بنصحه ورعايته، وأنه ليأمل أن يتطور مع الزمن حتى يصبح هيئة لها مكانها في النظام الحكومي في مصر
وكان شريف يرقب حركة هؤلاء الأحرار من الرجال الذين كانوا يجتمعون في بيت البكري، وكان لا يفتأ ينصح لهم ويشير عليهم بما يعملون، وإن له بينهم لمكانة تجعله مناط آمالهم ومعقد رجائهم، وما أشبه تلك الظروف بظروف مصر غداة الهدنة التي انتهت بها الحرب العظمى يوم كان الرجال يجتمعون خفية يفكرون في مصير بلادهم ويتجهون
بأفكارهم وإن لم يقصدوا إلى رجل بعينه يحسون أنه سيغدو عما قريب زعيم ثورتهم سقطت الوزارة الأوربية ولكنها ألفت من جديد برياسة الأمير توفيق، فلقد رفض قنصلا إنجلترا وفرنسا أن يرأس إسماعيل نفسه الوزارة كما طلب. ولقد أرادت الدولتان على لسان قنصليهما أن يدخل نوبار الوزارة الجديدة فرفض الخديو وصمم على الرفض ورأت الدولتان مبلغ حرص إسماعيل على إبعاد نوبار، فاشترطتا انهما تقبلان ذلك إذا أعطى العضوان الأوربيان في الوزارة حق (الفيتو) على قرارات مجلس الوزراء، ورضى إسماعيل بذلك فصار للعضوين الأوربيين حق إيقاف أي قرار لمجلس الوزراء لا يوافقان عليه؛ ومعنى ذلك انهما صارا يحكمان البلاد حكما ديكتاتورياً لا يدع للخديو في مصر سلطة أو ظلها!
وآن لمجلس شورى النواب أن يخطو خطوة ما كان أعظمها من خطوة؛ نمى إلى المجلس فيما نمى إليه من أنباء الوزارة الأوربية أنها تأتمر بالمجلس وتنوي التخلص منه فصمم الأعضاء ألا يتفرقوا وإن يظلوا في أماكنهم للنظر في شؤون البلاد في تلك الآونة العصيبة. . . ألسنا نرى في ذلك صورة مما حدث في فرنسا في مستهل عهد ملكها لويس السادس عشر، حين اشتدت الضائقة المالية ورأى نواب الشعب وجوب العمل على وضع حد لسوء الحال؟ لقد أدت الظروف إلى أن يصبح مجلس شورى النواب تلك الهيئة التي لم يكن لها حول ولا قوة - هيئة تحاسب الوزراء وتملك حق إقصائهم عن مناصبهم إذا ما تهاونوا في حقوق البلاد
لقد كان لشريف الفضل كل الفضل فيما وصل إليه المجلس من حقوق حتى ليعد شريف بذلك مؤسس الحركة الدستورية في مصر.
كان المجلس في وزارة نوبار قد أرسل إلى السير ريفرزولسن وزير المالية يدعوه ليحضر أمامه ليسأله عن بعض الأمور، فسوف وما طل ولم يحضر أو يرسل إلى

المجلس شيئاً مما طلب المجلس أن يطلع عليه من المشروعات؛ وضاق المجلس بما فعل وزير المالية وأصبح يفسر عمله بأنه إهانة موجهة إلى الأمة في أشخاص نوابها وفي وزارة الأمير توفيق استصدر وزير الداخلية رياض باشا أمراً من الخديو إلى النواب بأن مدة مجلسهم قد انتهت فعليهم أن ينفضوا؛ وذهب رياض يتلو على النواب هذا الأمر؛

وهنا وقف النواب وقفة جديرة أن تفخر بها مصر فيما تفخر به من مواقف البطولة، فلقد رفضوا أن يذعنوا، وهددوا رياضاً بما عساه أن يقع من الحوادث في البلاد تجاه سياسة الوزارة، وجعلوا تبعة ذلك عليها. . ولكم نرى من أوجه الشبه بين موقف هذا المجلس ومجلس طبقات الأمة في فرنسا حين وقف فيه نواب العامة يتحدون قرار الملك أثر صيحة ميرابو المدوية التي نقلت تاريخ فرنسا من فصل إلى فصل ولكن النواب هنا لم يكونوا في الحقيقة يتحدون الخديو، ولقد كانوا يعلمون أنه يعطف على حركتهم ليتخلص بهم من تدخل الأجانب في شؤون مصر، ذلك التدخل الذي حرمه كل سلطة وإنما كان النواب يتحدون الوزارة الأوربية ويريدون أن يأخذوا السبيل عليها

وكانت مطالب المجلس يومئذ تنحصر في المسألتين الدستورية والمالية، أما أولاهما فتتلخص في أن تكون الوزارة مسؤولة أمام المجلس بحيث يصبح هيئة لها مكانها الفعلي في حكومة البلاد، وأما الأخرى فمؤداها أن يبحث المجلس المسألة المالية دون الأجانب وإن يقرر في أمر الدين والضرائب ما تمليه عليه مصالح البلاد.

وأصر النواب على تلك المبادئ فكانت حركتهم هذه حركة قومية بأوسع معاني تلك الكلمة؛ وكان يظاهر النواب أحرار البلاد من العلماء والأعيان والتجار، الذين لم تنقطع اجتماعاتهم في بيت البكري. وأخيراً اتفقت كلمة الجميع على أن يتوجهوا إلى الخديو بما عرف باسم اللائحة الوطنية، وفيها يعترض النواب على اقتراحات ريفرز ولسن التي كانت ترمي إلى إعلان إفلاس مصر، ويقررون أن إيرادات مصر تفي بدفع ديونها؛ ويطلبون إلى الخديو تقرير مبدأ مسؤولية الوزارة أمام المجلس وتأليف وزارة وطنية تقوم مقام هذه الوزارة الأوربية التي ضاقت بسياستها البلاد. . .

ولقد وضعت هذه اللائحة لجنة من النواب تحت إشراف شريف؛ فكانت هذه اللائحة الخطيرة كبرى حسناته إلى هذه البلاد كما كانت أهم خطواته السياسية وأبعدها في مجرى الحوادث اثراً؛ ووقع على اللائحة ستون من أعضاء المجلس ومثلهم من العلماء وفي مقدمتهم شيخ الأزهر والبطريرك والحاخام، كما وقع عليها عدد كبير من الأعيان والتجار والموظفين والضباط، ورفعت بعد ذلك إلى الخديو فرأى أن قد حان الوقت ليوجه إلى النفوذ الأجنبي ضربة قوية، فالبلاد من ورائه تؤيده وتشد ازره، ولذلك لم يتردد في الموافقة

على اللائحة، وسرعان ما هزت فعلته البلاد هزة قوية، هزة الفرح بانتصار الحركة الوطنية والأمل في مستقبل تحطم فيه البلاد أغلالها وتنعم فيه بالراحة والرخاء واستقالت وزارة توفيق، فاتجهت الأبصار إلى شريف وأنفقت عليه القلوب والأهواء، فما لبث أن تضاعف سرور البلاد بأن أسندت إليه رياسة الوزارة الوطنية، واصبح شريف زعيم الحركة الوطنية ورئيس وزارة الأمة فكان بذلك في مصر صاحب الرياستين

(البقية في العدد القادم)

محمود الخفيف

قلت لنفسي. . .

لا أدري لأية حكمة قضى الله على قادة العرب أن يختلفوا دائماً في الأسماء دون الأفعال، وأن يدعوا الموضوعات وينصرفوا إلى الأشكال؟ ما هذه العصبية الجاهلية التي عجزت عن محوها الحنيفة المؤلفة، والمدنية المهذبة، والثقافة المتحدة، والآلام المشتركة، والخطوب التي تكفكف النفوس الأثرة، وتطرف العيون الرغيبة؟!

هذه القضية المصرية لم يصبها بالضعف والبطء والتأخر إلا تكالب الزعماء على الرياسة، وإقحامهم الأهواء الحزبية في باب السياسة، ووزنهم الأمور العامة بميزان المنفعة الخاصة؛ فزهق الحق، ونفق الزور، واستخذى المنطق، وطاش الرأي الحصيف

بين غفلة الشعب وأثرة القادة!

كذلك سياسة الأحزاب في سوريا والعراق، لم تخل يوماً من هذا النفاق والشقاق. وهذه قضية فلسطين يجتمع لحلها وفود الدول العربية، وتتفق على أمرها الأحزاب الإنكليزية، وتتحد في سبيلها الطوائف اليهودية، ثم لا يختلف إلا أقطاب الرأي فيها! وقد اشتد هذا الخلاف واحتد حتى أوشك أن يقطع أسباب الأمل، وأن يحول بين المؤتمر وبين العمل!

حتى الأدب والثقافة! لابد أن يكون لهما زعامة وخلافة، ثم يختلفون في مقر هذا السلطان، أفي مصر يكون أم في لبنان؟. . . فهل فرغنا من الجد يا قوم حتى نشتغل في بهذه الصغائر؟ أم عجزنا عن استبطان الأمور فوقفنا عند الظواهر؟

ابن عبد الملك

عند الثلاثين

للأستاذ محمود الخفيف

تَمهَّلي والْتَّفتي لَفْتةً ... لا تَذهَلي عَنْ دَهْرِكِ الرَّاحلِ
لا تَعبْسِي مَا إن تُرى لَذَّةٌ ... أشْهى مِنَ الآمالِ للآمِلِ
عِنْدَ الثلاَّثِينَ قِفي ساعَةً ... وَجَاوِزي الْيَمَّ إِلَى السّاحِلِ
هَذَا هُوَ الماضِي فَماذَا تَرىَ ... عَيناَيَ مِنْ طَيفْ لَهُ مَاثِلِ؟
مَطارِحُ الأيّام مَبسْوُطةٌ ... كَمْ بَيْنها من أَثَر حَافِلِ!
كَمْ اجْتَلي يا نَفْسُ مِنْ صورةٍ ... عَرَفْتُها في عَيْشيَ الزائلِ
كَمْ بَهْجةٍ قَدْ بِتُ يا وَيْلتا ... في شُغُلٍ عَنْ ذِكْرهاَ شاغلِ!
أرَى وَكَمْ يُبْهجُني أنْ أرَى ... مَسارحي في قَرْيتي الضاحِيةَ
هُناكَ حَيْثُ الأمن مَمْدُودةٌ ... ظِلالُهُ والبِشْرُ وَالعَافَيه
هُناكَ حَيْثُ الحسنُ رَفَّافَةٌ ... طُيُوفُهُ للأعْيُنِ اللاّهِيهَ
وَحَيْثُ تَحْلو الأرضُ مَنْضُورَةً ... وَيعْلقُ السِّحْرُ بهاَ خَالِيهْ
وَتُعجبُ الأدْوَاجُ فَيْناَنةً ... وَمَا خَلَتْ مِنْ رَوْعةٍ عَارِيهْ
هُنَاكَ حَيثُ الصَّمتُ أنشُودَةٌ ... لا تَفتَأُ النَّفسُ بهاَ شَادِيَه
في جَنَّةٍ عِشتُ زَمَاناً بِهاَ ... يا لَيتَ لي أيَّامَهاَ ثَانِيَهْ
هَذِى هِيَ السَّرحَةُ في ظِلِّهَا ... أبْنُ ثمَانٍ في الضُّحَى يَلعَبُ
في ثغرِهِ مِنْ بَسَماتِ الرِّضَى ... مِثلُ ابتِسَامِ الزَّهرِ أو أعذَبُ
وَعَينهُ مِنْ لَمَحَاتِ المُنَى ... كَمَا انجَلَى في أفِقِه الكوكب
مِثلُ فَرَاشِ الرَّوْضِ في لَهوِه ... وَدأبِهِ لَكِنَّهُ أوثَبُ!
دنياه هذى النَّخلُ. في جَانِبٍ ... مِنهَا يُرَى للأعيُنِ المكتُبُ
كمْ رَتلَ الآيَاتِ في مَقعَدٍ ... فِيه وَكَم بَاهَى بِماَ يَكتُبُ
أجرَتْ له الفُصحَى بِهِ كَوثَراً ... مَعِينُهُ في القَلبُ لا يَنضُبُ
يا ناشِئاً أوْحَتْ لَهُ سِحرَهُ ... شَمسٌ من الفُرقَانِ لا تَغرُبُ
يا لاعِباً لم يَدرِ غَيرَ المُنَى ... كَمْ يَطرَبُ القَلبُ لمرأَى صِبَاه
كَمْ يَسحَرُ النَّفسَ خَيَالٌ له ... يَنقلُ في تِلك النَّوَاحي خُطاهْ
في عَيشِه الحَالِمِ كَمْ هَزَّهُ ... مِنْ عَالَمِ السِّحْرِ جَمالٌ رآه
أعرِفُهُ! في صَدرِه خَافِقٌ ... غَضٌّ يَرَى في الرِّيفِ دُنيا مُناه
هَاهُوَ ذَا فِي كَونِه هاَئِمٌ ... تَغرَقُ في نور الضُّحَى مُقلَتاه
هاهِو ذا الكَوُن عَلَى بُعدِه ... عَن حَاضِرِي، تملأ عَينِي رؤاه
كَأنما تَهزِجُ في مسمَعِي ... أصْدَاؤه اليَوْم ويَسرِي شَذَاه!
مَغناَي في الرِّيفِ أرَى طَيَفهُ ... في زَحَمةِ المَاضِي وفي لُجَّتِهُ
إن ذَهِلَتْ عَيناَيَ عَنْ مَوضِع ... سواهُ لَنْ تَذهَل عَنْ صُورَتِه
هذا الفِناَءُ الرَّحُب لَمْ أنْسَهُ ... والقَلبُ هيمان إليَ فِتنْتِه
وَهَذِهِ الشُّرفَةُ يَا حُسنَهَا ... يَا حُسنَ شمْس الصُّبْح في جَبهَتِه
الأمْنُ فِيهِ بَاسطٌ ظِلَّهُ ... وَاليُمْنَ وَالإقبَالُ في سَاحَتِه
وَالأهْلُ، والولدانُ من حَوْلَهم ... أرْوَعُ مَا في البَيْتِ مِنْ زِينتَه
صَلاتُهُمْ يَزْخَرُ تَسْبِيحُهَا ... بِالحَمْدِ لله عَلَى مِنَّتِه. . .
عِشْتُ زَمَاناً حُمَّ النوَىَ ... وَذقتُ طَعْمَ الهَمِّ مِن فرْقَتهِ
في غُرْبتي كم مَسَّ قَلْبي الضَنَى ... وهَاجَ تَحْنَاني إلى رُؤْيَتِه

يَا نَازِحاً عَنِ أهِلهِ قَلْبُهُ ... يَذُوبُ مِنْ شَوْقٍ إلى جَنَّتِه
يَسْتقبلُ الدَّرسَ عَلَى وامِضٍ ... يَسطَعُ كالكَوكَبُ مِن أمِسِه
مَا كَادَ يَخطُو لِلعُلَى خُطوَةً ... حَتَّى شَأى الأقْرانَ في دَرسِه
السّبقُ مِن عَادَاتِه، طَعمُهُ، ... أشْهَى مِنَ الشَّهدِ إلى نَفسِهِ
خَيَالُهُ المَشبُوبُ يُوحِي لَهُ ... ما يُبهِجُ المُرهَفَ مِن حِسِّهِ
يَلهَجُ بِالشِّعرِ فَفِي رُوحِهِ ... وَحيٌ لَهُ يُصغِي إلى هَمسِهِ
إن ضَاقَ بِالوَحشَةِ طَارَتْ بِهِ ... أجنِحَةٌ مِنهُ إلى أنسِهِ
أوْكَلَّتْ النَّفْسُ حداها إلى ... ما أنْبَتَ العِرفَانُ من غَرْسِهِ
في حَلبَةِ العِلمِ مَضَ سَابِقاً ... يَسْتقبِلُ اليافِعَ من سِنِّهِ
ما أوْهَنَ الجَهْدُ لَهُ عَزْمَةً ... في سَهلِ ما يَطْوِي وَفِي حَزنِهِ
يُسَدِّدُ الحَزْمُ له خَطوَهَ ... وتنطوي الأيَّامُ في يُمنِهِ
يَرْسِمُ آمَالاً عِرَاضاً ولا ... يَدِري من الدَّهرِ مَدَى ضَنَهِ
فِي كُلِّ ما يَقرَأُ مِن سِيرَةٍ ... صَدىً لِما يَهجِسُ في ظَنِّهِ
فَفِي غَدٍ (سَعدٌ) بهذا الحِمَى ... يَذودُ ذَودَ اللَّيثِ عن رُكنِه
وتارَةً ذو صَولَةٍ قادِرٌ ... يُصَرّفُ الأمرُ عَلَى إذْنِهِ
أوْ مِدرَةٌ مُقتِدرٌ نَابِه ... الحقُ والقِسطاسُ في وَزنِه
أحَبُّ مَا مَنَّى بِهِ نَفسَهُ ... شَادٍ تَغَارُ الطَّيرُ مِن لَحنِهِ
مُقَدّمٌ في قَومِهِ شاعِرٌ ... السَّحرُ والإعجازُ في فَنِّهِ!
غَنِّى زماناً بِالمُنى حالماً ... في عُمرِهِ المزدَهِرِ النَّاضِرِ
يبيتُ جَذلاَنَ هني الكَرَى ... مُمَتَّعاً بَالُحلمِ الزَّاهِرِ
ماذا دهى قيثاره فاشتكى؟ ... يا ويله من حُبِه الباكِرِ!
طافت بِه من خَمرِ هذا الهوى ... كؤوسهُ. . . يا ويحِ للشَّاعِرِ
تكَشَّفَت دُنيَاهُ عن عالَمٍ. . . ... يا قُدسَ هذا العالَمِ السَّاحِرِ
يا حَيرَةَ الشِّعرِ لَدَى وَصفِه ... يا زَحمَةَ الأطيافِ في الخَاطِرِ!
هذى الرؤى تَرجِعُ رفَّافَةً ... من غَمرَة الماضي إلى ناظِرِي
يَهدفُ لِلعِشرِينَ في نَفسِهِ ... وَحيُ الذي يخفق في جنبه
مُحَبَّبُ العِشرَةِ في وَجهِه ... بَشَاشَةُ الوَردِ أليّ صحبه
وفي حنايا صَدرِه رُقيَةٌ ... عن الخنا والهُجرِ مَالتْ بِهِ
يا نَفَحَةَ الخُلدِ لأنْتِ التي ... أيْقَ ظتِ هذا الطُّهرَ في قَلبِهِ
يَا ومضَةَ الرُّوح جَلَبتِ الهُدَى ... وطُفتِ بالنُّورِ على هُدبه
يَا نَسَمةَ الحُبِّ بِهَذَا الشَّذَى ... الرَّوحُ وَالرَّيْحَانُ مِن رَبِّهِ
في كُلِّ حُسن حَولَهُ لَمحَةٌ ... تُلقِى عَلَيهِ السِّحرَ مِن حُبِّهِ
والكَونُ، ما دارت به عينه ... مُلق معاني الحُبّ في لُبِّهِ
كَمْ عَادَ لَلْقرْيَةَ في لَهْفَةٍ ... لِلعَيْشِ في أكْنَافِهاَ الواسِعَةْ
والصَّيْفُ في أنحائِها رَائِعٌ ... بَاتَتَ بِهِ أمْسَاؤُهاَ رَائِعةَ
هُنَاكَ لاَ يَلْبَثُ حَتَّى يَرىَ ... فَتاَتَهُ بَعْدَ النَّوَى رَاجِعةَ.
هُنَاكَ كَمْ سَارَا على مَوْعِدْ ... وَاللَّيْلُ يَغْشَي القَرْيَةَ الهَاجِعَه
فالتقيا لا عَيْنَ تَرْعَاهَمَا ... إلا عُيوُن الأنْجُمِ اللاّمِعَة
يَا قُدْسَ هذا الحبَّ في خَلْوَةٍ ... صَلَّتْ بِهَا مُهْجَتُهُ خاشِعةَ
في رَوْعَةِ الصُّبْحِ يرى وُحْدَه ... جَبينهاَ في شَمْسِهِ الطَّالِعَه
وَيَمْلأ النَّفسَ صَدَى صَوْتِهاَ ... والطيرُ في أفْنَانِهاَ سَاجعه
وَينْطَوِي الصَّيفُ وَأحلامُهُ ... والوَصْلُ في عيشه الوادِعه
يَا لَيْلَةَ التَّوُديعِ كَمْ لَوْعَةٍ ... هَاجِسَةٍ في نفسِه الجازِعه
يا حَيْرَةَ الأعْيُنِ في مَوقِفٍ ... تُرَى بِهِ بَاسِمَةً دَامِعَه!
صَحَا عَلى العُيشِ وَأكلاَفِهِ ... فَسارَ سَيرَ النَّابِهِ المَاجِدِ
هذا هو الزورَق يَجري بِهِ ... يا رَحمَتَا للزَّورَقَ الجَاهِدِ
ما هذه الدنيا وأوضاعها ... كم ذا يرى من طَبعها الفاسِدِ!
الجاهُ فِيهَا للخنا تَوأمٌ ... والحظُّ لِلاَّهِي وَلِلقَاعِدِ!
كمْ جَاهِلٍ يَعلُو بِهِ جَهلُه ... فيها وكم من غَافِلٍ جَامِدِ!

وَالصَّابِرُ الَمكدُودُ يَشَقى بها ... ما أضيَعَ الآمَالَ لِلحَاصِدِ
وَكم يَرَى ذو اِلبرِّ من جَاحِدٍ ... وذو الحجا والفَضلِ من حَاسِدِ
والناسُ إلا قِلَّةً أذوبٌ ... وحَاقدٌ يَنعَى عَلَى حَاقِدِ
مَا ضَرَّهُ من عَيشِهِ ما رَأى ... أو صَدَّهُ عن سَيرِهِ القاصِدِ
يَحتَقِرُ الدُّنيا وأوهَامَهاَ ... مِن طَارِفٍ فيها ومِن تِالِدِ
!يَكِيدُ لِلدَّهرِ بِأقدَامِهِ ... فَلَيسَ هذا الدَّهرُ بالكائِد
مَا هَذِهِ الدُّنيا لِيَشقَى بِهاَ ... أمَا تُرَى هَازِلَةً لاعِبَهْ؟
وَيلٌ لِمَنْ تَطغَى عَلَى لُبِّه ... بُرُوقُها الكاذِبَةُ الخَالِبَه
يَا أيُّهاَ الباكي على حَظِّهِ ... لا يُرجِعُ الدَّمعُ مُنىً ذاهِبَه
عَجِبُت للشَّاكِين أيّامَهُمْ ... ما نَفعُ تِلكَ العِيشة الصَاخِبة؟
الَهَمُّ، والدُّنيا على حالِهاَ ... غِذاءُ هَذي الأنفُسِ الغاضِبَة
حَيَاتُهُم لا يَستَسِيغُونَهاَ ... حَتَّى تُرَى شَاحِبةً غَارِبَه
!يَا عَجباً حِين يَلُوحُ الرَّدى ... تَلمَحُهُ أنفُسُهُمْ هَائِبه
ابتَسِمي يا نَفسُ لا تَعبِسي ... لا خَيرَ لَلعَابِسِ مِن دَهرِهِ
الحُرُّ لا يَأسَى عَلَى فَائِتٍ ... والدَّهرُ لا يَقْوى عَلَى قَهْرِهِ
هذا هُوَ الماضِي خُذِي وَحيَهُ ... واسْتَقبِلي الغَيبَ عَلَى ذِكرِهِ
مَاضِيكِ لا تَذهَبُ أطيَافُهُ ... أو تُطفِئُ الأيَّامُ من بِشرِهِ
بَاتَ مِن الأقدَارِ في نَجوَةٍ ... هذا هُوَ المعُجِبُ مِن سِرِّهِ
ما غابَ من عيش الفَتَى من أسىً ... لا يُقِدمُ المَرءُ عَلَى نَشرِهِ
أمَّا سَنَا الماضي فيوحي لَهُ ... ما كَرَّتْ الأيَّامُ، مِن نورِه
ما لَذَّةُ العَيشِ إذا ما خلا ... من رَوعِةَ الماضي ومِن سِحر
مَوتٌ من الموتِ بِقَلبِ الفتى ... نِسيَانُهُ السَّالِفَ مِن عُمْرِه
آليتُ لا آسَى عَلَى ذاهِبٍ ... أوْ أذْرِفُ الدَّمعَ عَلَى دَارِس
هواي لن أشقَى بِهِ بَعدَ مَا ... عِشتُ زَمَاناً عِيشَةَ اليائِسِ
سَّيانَ عِندي بَعدَهُ ما أرى ... من بَاسِمِ الأيامِ والعابِس
لكنني أمِضي إلى غايَتِي ... أحنو على المَحزُونِ والبائِس
أصِغي من الماضِي إلى ماثِلٍ ... من طَيفْهِ في مِسمعِي هَامِسِ
أحيا عَلَى الذِّكرَى حَيَاةَ امرِئٍ ... ما كانَ من دُنَياهُ بالآيِسِ
إن فَاتَهُ فِيها لذيذُ الجَنَى ... كفاَهُ مِنهاَ لَذَّةُ الغَارِسِ
عِندَ الثلاثين قفي وَانظرِي ... وَغَازِلِي يا نَفسُ حُلوَ الأمَلْ
مَن لَمْ يُشَمِّرْ لِلمعَالَي فَتىً ... هَلْ يَعرِفُ العَزمَ إذا ما اكتَهَلْ؟
العَيْشِ في الدُّنيا قَلِيلٌ فَهَل ... مِن مَوضِعٍ فِيهِ لغَيرِ الجذَلْ؟
كَم شدَّةٍ يا نفسُ مخبوءة ... وَلَذّةٍ في عَيشِكِ المُقَتَبلْ
لا تَلعَنِي دَهرَكِ أو تحَمِدي ... الدَّهْرُ لا يُسأَلُ عَمَّا فَعَل
هَّيا إلى الزورَقِ خُوضي بِه ... غِمَارِ هذي اللُّجَجِ القَاذفَةْ
لا تَطرَبي للرِّيح إن سْالمت ... أو تَرْهبي أنواَءهَا القاصِفه
السَّبْقُ أن تَجرِي عَلَى ثائِرٍ ... وَالفَخرُ أن تَقتَحِمي العاصفه
الضفَةُ الأخرى إذا ما دَنت ... لا تَنفري مِن قُرْبَها خائفه
الخفيف

رسالة المرأة

فن التجميل

للآنسة زينب الحكيم

التطور سنة الحياة، ومعناه النمو التدرجي والتكشف، ومعناه أيضاً نشوء الأشكال العليا من الدنيا في الحياة كما يقول القاموس

إذن نفهم من هذا أن كل شيء حي، وأي شيء يمت لذلك الحي بأدنى صلة، يسري عليه ناموس التطور التدرجي في الحياة. ومن غير الضروري أن نثبت منطقياً أو علمياً سلسلة تطور الإنسان مثلاً من عصور ما قبل التاريخ إلى البربرية الأولى فالثانية فالثالثة، ولا أن نعدد الأطوار التي قطعها حتى وصل إلى ما هو عليه الآن. فلسنا في حاجة إلى ذلك في هذا المجال. إن هذه أشياء مقطوع بصحتها على الأقل من ناحية

التدرج النشوئي الذي استغرق آلاف السنين
إنما الذي يعيننا هو أن نوضح أن الحياة في مختلف نواحيها تخضع للناموس ذاته؛ فكلما تطورت حالة الإنسان اختلفت بيئته وتغيرت طرقه ووسائل معيشته من تجارة وصناعة، وعادات ونظم، وتعاليم ومبادئ، وعلوم وفنون وغير ذلك
وفن التجميل ولو أنه يبدو فناً كمالياً، فانه في الواقع فن ضرورة ولزوم إذا أخذنا بالمبدأ القائل بسذاجة الطبيعة وأنها جرداء قاحلة ما لم نضف عليها من رائع خيالنا وبديع تصويرنا
فإذا وضحت النظرية الآن، وصح تطبيقها على الجمادات والعجماوات، فمن الضروري لزومها للكائن المفكر الذي يسوقه تفكيره إلى بلوغ أقصى درجات الكمال في كل شيء. ولا جناح عليه إذا لحظ أنه يعمل للارتقاء في جهات قبل أخرى، أو إذا تباينت درجات ذلك التطور، فهذه سنة الحياة ونظام تكوينها
وفن التجميل على هذا الأساس من اعرق الفنون وأكثرها حركة وإشدها اقتحاماً. فالكوخ لم يبق ذلك الشكل الساذج، بل تحول وتحور حتى صار بيتاً، والبيت تطور وتطور على أشكال وأنماط. . .
والقدر لم يبق ذلك الإناء الضروري لحمل الماء أو غليه، وإنما تطور فتحور وهذب، واختلف أنواعاً وأشكالاً، ونقش تارة، ولون وزركش أخرى
وكذلك الناس تطوروا، ولم تعد المرأة تلك البربرية التي كانت تحمل نفسها الأحجار وقطع المعادن الثقيلة للتزين مثلا، وإنما تطورت زينتها إلى ما هو ألطف وأجمل لهذا نقول: إن فن التجميل في كل العصور بالنسبة للمرأة في الشرق والغرب، يتغير مثله الأعلى بالنسبة لدرجة تطورها، وإن اتفقت بعض مظاهره في أشياء
فمثلاً من زمن بعيد كانت منضدة التزين هي المرآة التي انعكس عليها نشاط المرأة. وقد وجد المنقبون في بلاد أشور، وفي مصر، مناضد للزينة تكاد تكون محملة بضروب من وسائل الزينة، كما قد يرى على أفخم مناضد التزين اليوم في البيوت، وفي محال التجميل العامة
والتاريخ يبرهن، مع الأسف أو مع الغبطة، على أن الجمال لم يكن طبيعياً أبداً (وهذا يتفق مع النظرية التي أشرنا إليها في أول هذا المقال) ثم قرر العقل البشري إثبات ذلك في الشرق والغرب، بدليل ما اتخذه الناس من وسائل للتجميل، ومن تحايل لأسبابه انتفعت به النساء بوجه خاص؛ وإذا اختلفت وجهات النظر في ذلك، فإنما تختلف من حيث التقدم في التطور لا من حيث المبدأ
ففي الغرب اخترعت محسنات البشرة ولون الوجه وفق أسس فنية وعلمية. أما الشرق فقانع بهذه النتائج غير المتقنة، التي يمكنه الحصول عليها من أنواع الكريم والحناء، والكحل الأزرق الذي تكحل به الجفون من الداخل، فيحدث تهيجاً في العين بسبب ملأها بالدموع، ويجعلها شديد اللمعان، ويعتبر ذلك من الجمال، وهو خطأ مضر بالعين
ويستعمل الروائح العطرية القوية التي تضعف من أعصاب نساء الشرق البدينات فتزيدها وهناً على وهنها، وبالجملة فإن نساء الشرق لا يحسن استعمال وسائل تزين الغربيات، وكثيراً ما يخطئن في تطبيقها العملي، ويخلطن بينها مما يؤذي أجسامهن ويسيء إلى أخلاقهن بوضعهن الأشياء في غير موضعها
كل ذلك لجهلهن تراكيبها، وعدم دراستهن لأنفسهن بحيث يعرفن ما يلزم لهن، وكذلك لعدم استعمالهن مبتكرات بلادهن، التي تكون وليدة حاجاتهن، وما يتناسب مع طبيعتهن إن غفلتهن عن التعليل المنطقي تجعلهن مقلدات مسرفات في التقليد، فكثيرات منهن قلدن
وما زلن يقلدن النجمة السينمائية فلانة، والممثلة المسرحية علانة، وغاب عنهن أن زينة الفتاة الممثلة على المسرح أو السينما، لا يمكن أن تجعلها جميلة أو متزينة بالمعنى الذي يقصد من التزين، لأن المقادير الهائلة التي تصبغ بها وجهها، إنما يقصد بها أولاً أن تساعد على إظهارها بوضوح على المسرح الشديد الضوء، أو أمام أنوار التقاط الأفلام السينمائية، كيلا تظهر شاحبة ذابلة، غامضة الملامح إذا ما سطعت عليها تلك الأنوار القوية.
والصورة البشعة، التي نراها هنا وفي كل مكان من المعمورة بوجوه النساء، إنما تدل

على الجهل الذي تحمل المرأة عنوانه على ابرز جزء فيها، مما ينفر من مزاولة فن التجميل الذي يعتبر من أرقى الفنون وأعرقها.

لو عاشت جدتنا لتسمع ما نقوله اليوم عن التزين، ولو رأت بعيني رأسها حال وجوه السيدات اليوم، لذهلت وطار لبها، لأنه ما كان يستعمل للتزين في أيامها إلا أنواع من الصابون الصحي غير المهيج للبشرة كصابون القطران والكبريت الممتازين.

بينما كان الرجال في ذلك الزمن، يوضحون رجولتهم بنحو قدم أو أكثر من لحية مربعة مهذبة حول ذقونهم.

أما وسائل التزين التي يعلن عنها بلا انقطاع في جميع المجلات النسائية وغيرها الآن، أو ما يسمع عن علاجات البشرة المختلفة وما شابه ذلك، فكان غير مألوف، ولم يطق سماعه أو السماح باستعماله السواد الأعظم من الناس في القرن التاسع عشر

وقد اعتبر استعمال الدهون وأصباغ الوجه - من أحمر وذرور وغيرهما - من الجرائم الخلقية. والغواية في المجتمع، واعتبر استخدام أصباغ الشفتين وتزجيج الحواجب من علامات الانحراف، ومنتهى التبجح، بل دليل الفساد والشر

لهذا طالما انتهرت الجدة العزيزة بناتها إذا ارتابت في حمرة وجنتي إحداهن، أو إذا هي صففت شعرها بأداة التجعيد المحماة. ولعمري ما عساها كانت تفعل الآن، إذا رأت بعض الفتيات االمتطرفات، اللائي ينمين أظافرهن حتى تصير كمخالب الحداة، أو يلبسن أحذية طول كعوبها أربع بوصات أو خمس؟! من غير شك كانت تثور وتفور ولها الحق، وليست معارضتها في هذه الحالات وأشباهها مما تؤاخذ عليه، والشيء إن زاد عن حده انقلب إلى ضده

وفي الواقع، لا يوجد شيء تطور في العالم بسرعة مثل ما تطورت وسائل الزينة وطرق استعمالها

وأصبح استخدامها باعتدال وفن من التقاليد المرعية والعادات المقبولة.

فالسيدة التي تظهر بأظافر غير معتنى بها مثلاً، أو بشعر لا تظهر عليه دلائل العناية والتهذيب والتجميل، أو بوجه شائه وكان في استطاعة صاحبته أن تقلل من شوهه، تعتبر خارجة على التقاليد، مقصرة في حق نفسها، وفي حقوق المجتمع. وهل هذا العصر إلا عصر تجدد ونشوء؟!

لهذه الاعتبارات من جهة، ولإسراف السيدات وبعض الرجال في التزين الخاطئ من جهة أخرى، ارتفعت تكاليف التزين جداً، بحيث أصبح ما ينفق على وسائله من نقود مقادير لا تصدق بسهولة لو لم تثبت صحتها الإحصاءات الرسمية

لقد قدر الآن في الولايات المتحدة أن المرأة تنفق ثلاثمائة مليون جنيه في السنة على معالجة التجميل، والدهون من كل نوع. وقد قسم الإحصائيون هذا المبلغ الضخم بين أصباغ الشفاه، وأصباغ الوجنتين والذرور، ودهانات تغذية بشرة الوجه والكريم بأنواعه، وأصباغ الحواجب والأهداب، ودهونات الشعر وغير ذلك

أما في إنجلترا، فإن أرقام ما ينفق على هذه الأشياء ليست إلى هذا الحد من الغلو، والمصاريف في إنجلترا على التجميل خمسون مليوناً من الجنيهات، أو ربما كانت 70000000 جنيه

أما في مصر، فليست لدينا إحصائيات يمكن الاعتماد عليها في هذا الصدد، ولابد أن يكون الإنفاق في منتهى الإسراف، لأن مصر سوق دولية، والعرض كثير والمهارة في التصريف ممتازة، والعقول ساذجة، والإرادة ضعيفة في اغلب الحالات

كثيراً ما ألحظ وأنا أشتري شيئاً من الصيدلية، أو من متاجر الأدوية، سيدات يستغلهن مهرة الباعة فيها استغلالاً سيئاً، وكثيرات من السيدات يفوضن أمرهن للبائعة اللبقة، أو البائع ذي الحيلة لينصحا لهن بما يشترين، مما يكون أقوى أثراً في زينتهن

ولنا أن نتصور أي نوع وأية كمية من البضاعة يبتاع هؤلاء السيدات!

أما الحالة في العراق، فانه ولو لم أعثر فيه أيضاً على إحصائيات يستدل منها على مقدار

ما تنفقه السيدات هناك على التجميل، فإني بما شهدته من تهافت المرأة، وطنية وأجنبية، على الأصباغ والدهون والعطور، والتغالي في عمل التواليت بوجوههن وأيديهن بل وأرجلهن، باستعمال أجود أنواع الزينة وأغلاها ثمناً، أستطيع أن أقول أن المبالغ التي يصرفنها حتماً تكون ضخمة.

ويأتي بعد سيدات العراق السيدات اللبنانيات
أما السوريات (وعلى الأخص الرشيقات) فكثرتهن لا يحسن استعمال هذه الأشياء، ولا يسرفن فيها
والسورية العادية لها طرق تزين أهلية، فتستعمل أنواعاً من تربة أرض بلادها وأعشابها، وتستعمل أنواعاً من الصابون من صناعات حلب. وبالضرورة قد تحتوي هذه الأشياء أنواعاً من العناصر الضارة التي تتلف الأجزاء التي توضع فوقها من الجسم، ولكن المرأة لا تبالي كثيراً بذلك لجهلها من جهة ولشدة اقتصادها من جهة أخرى، ولا تستطيع أن تدرك أنها تسرف من حيث تقتصد
أما المرأة التركية فتسرف في استعمال وسائل الزينة ولكنها تتزين بفن وحسن وذوق والمرأة اليونانية الحديثة قد سبق لنا ذكر شيء عن زينتها، والأغلب عليها الاعتدال والبساطة في التجميل وفي النفقات
أما المرأة اليوجسلافية، فأشد نساء أوربا الحديثة تطرفاً، ولكن بحسن تصرف وإتقان، ويغلب عليها الإسراف الشديد.
والنساء الفرنسيات لهن شهرة معروفة عالمية في فن التجميل، ومع إسرافهن الشديد في عمل التواليت، وانفاق الكثير جداً على أسبابه، فانه مشهود لهن بالدقة والصنعة وحسن التصرف.
أما المرأة الألمانية، فتكاد تكون مسترجلة في هذا الصدد، والتزين الصناعي قليل عندهن، ولذلك فكثرتهن يعانين حياة سقيمة مع أزواجهن، ومن العجيب أن العلم وحده لا يفيد كثيراً في الحياة، فانه بقدر ما تمتاز به المرأة الألمانية من علم وثقافة، وتفرغ لفن الأسرة، بقدر ما يتعلل الرجل عليها. وهي تكلف نفسها فوق ما تحتمل النهوض به من مسؤوليات الحياة العملية، فتهرم قبل أوانها، ولا تحاول كثيراً أن تخفي هذه المظاهر بعمل التواليت.
هذه إلمامة سريعة بفن التجميل بالنسبة للمرأة في العصر الحاضر، فهل كانت وسائله قديماً مشابهة لما تستخدمه الآن؟ هذا ما سنطالعه في الأسبوع القادم إن شاء الله.
زينب الحكيم
رسالة العلم
النظام الشمسي للمادة
كلمة لازمة قبل التعرض للحياة
للدكتور محمد محمود غالي
تجزئه المادة والرجوع بها إلى علاقات زمنية مكانية - الذرة
في المادة تمثل نظاما شمسيا - أمثلة من هذا النظام في المواد المختلفة
يرى القارئ وهو يقلب صفحات هذا المقال أشكالاً تشبه الأشكال التي كان يحاول كل منا رسمها وهو على مقاعد المدرسة عندما ملك كل منا لأول مرة بركاراً (برجلاً) للرسم، وقد يعتقد القارئ بادئ الأمر أن هناك خطأ مطبعياً لورود هذه المنحيات المنتظمة التي حاولها كل منا في حداثته وسط مقال يتعلق بالمادة وبالحياة ويحاول كاتبه أن يجد تفسيراً لهما، وبدهى أن تتملكه الدهشة عندما يطالع في عنوان المقال (كلمة لازمة قبل التعرض للحياة)، ثم يتأمل هذه الأشكال: ترى ما العلاقة بين المادة أو الحياة وهذه الرسوم المنتظمة؟ أية رابطة بين الكائن الحي وأغرب ما فيه الإنسان المفكر، وهذه المنحيات والقطاعات التي تذكرنا بعبثنا في حداثتنا. . . هذا ما سيجده القارئ بين هذه الأسطر وفي المقال الذي يليه
كل ما في الكائنات في حركة دائمة - عندما ترى قطرة ماء صافية على ورقة من أوراق الشجر وسط حديقة في يوم هادئ خف نسيمه ووجم كل ما في المكان من كائنات، قد يخيل إليك أن كل ما هو حولك في هدوء تام، والواقع أن أياً من هذه الكائنات، حتى نقطة الماء، بعيدة كل البعد عن هذا الوصف من الهدوء، فلا نقطة الماء في سكون ولا ورقة الشجرة التي تحملها؛ إنما السكون جزئي بالنسبة إليك وليس بالنسبة للكون. نعود إلى نقطة الماء فكل جزء منها مركب من ذرات من الأكسجين والهيدروجين، كل ذرة من هذه مجموعة شمسية تشبه الشمس والأرض وسياراتها التسعة وأقمارها

ليتأمل القارئ معنا أصغر ما في هذه المجموعة وهو الإلكترون يجده يدور حول نفسه ثم
حول النواة مركز الذرة، كما تدور الأرض حول نفسها ثم حول الشمس، على أن هذه المجموعة من الذرات تكون جزءاً دقيقاً من الماء ذكرنا فيما تقدم أنه في حركة دائمة ذهاباً وإياباً، صعوداً وهبوطاً، بالنسبة لمجموعة الجزيئات الأخرى المكونة لنقطة الماء. هذه الحركة الأخيرة كبيرة جداً بالنسبة لحركة الإلكترون الدورية المتقدمة، حتى أننا نرى أثرها إن لجأنا إلى تلوين هذه النقطة بأية مادة كولويدية واستخدمنا الالترابيكروسكوب. على أن هذه الجزيئات المكونة للنقطة تدور مع الأرض حول محورها بل تدور مع الأرض حول الشمس - على أن الشمس بدورها تدور ومعها الأرض والسيارات التسعة دورة أخرى مداها حوالي 300 مليون سنة لتعود إلى وضعها الأول بالنسبة لمجموعة الشموس التي هي إحداها. على أن هذه المجموعة من الشموس ومنها شمسنا تبتعد في الحيز بالنسبة للمجموعات الأخرى المجاورة لها، وتبلغ سرعة ابتعاد بعض هذه المجموعات أو العوالم بعضها عن بعض 25 ألف كيلو متر في الثانية أي أنها تقطع في الثانية الواحدة مسافة كالتي تفصلنا عن الصين، وهكذا لو أردنا أن نبحث حركة الإلكترون، أصغر ما في نقطة الماء أو حركة جسيم آخر في الورقة الحاملة نقطة الماء، بالنسبة للحيز، لتملكنا الدهشة، ولأدركنا أن كل ما في الحديقة، على ما يبدو عليها من هدوء ظاهر، بعيد جد البعد عن السكون والراحة إنما ذكرنا ما تقدم لأن العلوم اليوم تتقدم نحو مقصد جديد، ذلك أنها تحاول الرجوع بالأشياء إلى علاقات مكانية زمانية - وعندما يصل الإنسان إلى الرجوع بكل الظواهر إلى مثل هذه العلاقات، في الزمن وفي المكان، نكون قد اقتربنا من قمة العلم ونهاية المعرفة. أما وقد تعرضنا للحياة وهي التي تبدو لنا مظهراً من مظاهر المادة فلنحاول أن نعرف إلى أي مدى وصل بها العلماء في هذا السبيل.

قبل أن نتكلم عن المادة الحية كالخلية وجسم الإنسان ونبحث هل تمكن العلماء في تجديد جسيماتها بعلاقة مكانية زمنية يجمل بنا أن نشرح للقارئ إلى أي درجة وصلوا بالمادة الصماء (عادمة الحياة) إلى مثل هذا التحديد.

يتكون الجزئي للعناصر المادية كالحديد والذهب من مجموعة من الذرات وقد ثبت أن الذرة ليست أصغر ما في المادة، ذلك أنه أمكن عمليا فصل الإلكترونات عن الذرة وإثبات
وجودها فيها، وقد تبين ذلك في بادئ الأمر أولاً لوجود ما نسميه الذرات المتأينة في المحاليل وهي ذرات فقدت أو اكتسبت إلكترونات وهذا ما يثبت وجود الإلكترون في الذرة؛ وثانياً لما يمكن أن تصدره الذرة من الإشعاع، وما دام الضوء موجات كهربائية فلابد أن هذا الإشعاع نتيجة لعملية كهربائية حدثت داخل الذرة نعلم الآن أنها حركة الإلكترونات أي ذرات الكهرباء داخل الذرة

ويطول الشرح لو أردنا أن نذكر للقارئ سلسلة التجارب الطبيعية التي تثبت ذلك. ولعل النتائج التي نشأت عن اكتشاف (بكارل) الفرنسي للنشاط الإشعاعي واكتشاف مدام كيري أستاذة السوربون للراديوم، لا تجعل اليوم مجالاً للشك في إثبات حقيقة تفتت الذرة الكيميائية وأنها تتركب من مركز رئيسي يسمى النواة ومن عدد الإلكترونات تدور حولها

هذا التركيب الذري كان وما زال هدفاً لسلسلة من الدراسات الطبيعية التي ترمي إلى معرفة النموذج الذي تتألف منه الذرة أي صورتها المكانية سواء فيما يخص النواة أو الإلكترونات التي حولها. ولقد كان للعالم الإنكليزي المعروف رذرفورد الخطوة الأولى لمعرفة هذه الصورة المكانية للذرة. وتنحصر دراسته الأولى في قذف الذرة أي ضربها بإشاعات مختلفة، ودراستها ودراسة هذه الإشعاعات بعد ذلك. وقد اثبت بهذا أن الذرة مجموعة لجسيمات منفصلة الواحدة عن الأخرى ولكنها مرتبطة بعضها ببعض بقوة جاذبية تعادل قوة دوران هذه الجسيمات حول الذرة وبعبارة أخرى اكتشفت (رذرفورد) في الذرة نظاماً شمسياً يشبه نظام مجموعتنا الشمسية، ولكن يختلف عنه في أن القوة الجاذبية في المادة قوة كهربائية بين شحنة موجبة وشحنة سالبة بينما القوة بين الشمس والأرض هي القوة الجاذبية النيوتونية أي بين الكتلة والكتلة

على أن نظريات (رورفورد) وغيره الخاصة بنماذج الذرات المختلفة لم يكن التقدم في

كل حالة حليفها، فقد تقدمت تارة وعثرت أخرى، ونرى ونحن نطالع الآن اجمل باب تعثر عليه في فلسفة العلوم الطبيعية كيف اتخذ نظام رذرفورد الشمسي للمادة طريقاً متعرجاً غير مستقيم، وإن شئنا أن نسطر هنا ما صادف هذه الآراء من عقبات ووثبات لسطرنا نصف العلوم الطبيعية الحديثة، ولكن لا مناص من أن نلخص يوما هذه المسائل وهي من أبدع ما وصل إليه الفكر البشري من الجمال والتنسيق، عندئذ نذكر قصة بالمير ثم انتصارات

بوهر الدنمركي الذي كان مساعداً لرذرفورد. فليست هذه من المسائل التي يجوز إغفالها، ونكتفي الآن أن نذكر أن الأخير وفق بين النماذج الشمسية لرذرفورد، وبين نظرية الكم للعالم الكبير بلانك ولبوهر تعزى فكرتان أساسيتان في الفلسفة الحديثة، الأولى تتلخص في أنه يجوز لنا أن نفترض كل الأقطار أي الأطوال في مسارات المجموعات الشمسية الخاصة بالعالم الكبير بينما لا يجوز لنا أن نفترض إلا أطوالاً معينة لمسار الإلكترونات. والفكرة الثانية: أن الإشعاع وفق آراء (بوهر) هو جهد حادث من وثبة للإلكترون حول النواة من مسار إلى مسار أقرب منه لها

إنما أذكر ذلك ليعلم القارئ أن النموذج الشمسي (رغم ما دخل عليه من تعديل بعد الميكانيكا الموجبة للعالم (دي بروي) لم يكن مجرد العلم التخميني أو النظري بل كان يتصل بكل الفروع الطبيعية الأخرى وبخاصة التحليل الطيفي، وعندما تتاح لي الفرصة لأطلعك على الانتصارات الكبرى التي حازها بوهر وغيره تصبح هذه الحركات الإلكترونية في المادة الصماء أمراً عند القارئ لا يقبل الجدل.

نعود للنموذج الشمسي ونترك البراهين عليها في الوقت الحاضر؛ فالذرة وفق (رذرفورد) مجموعة شمسية تتوسطها نواة كالشمس شحنتها موجبة وتدور حولها إلكترونات كالسيارات التسعة شحنتها سالبة، ويصح أن تحوي النواة عدداً من الوحدات السالبة تتعادل مع عدد من الإلكترونات، وكلما كانت النواة ثقيلة زاد عدد وحداتها الموجبة. وأخف ما نعرفه من النواة نواة الهيدروجين التي تحوي شحنة واحدة موجبة يدور حولها إلكترون واحد كالأرض يتبعها القمر. أما الهيليوم فلنواته شحنتان وبالتالي يدور حولها إلكترونان، ويحضر الذهن بعد ذلك في جدول العناصر الليتيوم الذي لنواته ثلاث شحنات ويدور حولها ثلاث إلكترونات كما هو مبين بالشكل (1)

ولقد أمكن البرهنة على أن واحداً من الإلكترونات الثلاثة لا يجتمع مع الآخرين في غلاف واحد (الغلاف الجزء المحدد بالمسار) وهذا الإلكترون الثالث يشبه في هذه لمجموعة الشمسية الصغيرة كوكب بليتون في مجموعتنا الشمسية الكبيرة، والذي ذكرنا أنه يدور بعيداً جداً عن الشمس ويتم دورانه في 252 سنة وهكذا كان لذرة كل عنصر عدد من الإلكترونات يتزايد من عنصر لآخر حتى نصل إلى الذرات العليا مثل الرصاص الذي

يدور في غلافه 82 إلكترونا وهو بذلك مجموعة شمسية معقدة. كذلك الايرانيوم وتعد ذرته أثقل الذرات إذ يدور حول نواته 92 إلكترونا ولعل هذه الكثرة هي السر في عدم اتزانه وفي كونه المواد المشعة

وفي (الشكل 2) مثال آخر لنموذج ذرة النيون وهو الغاز الذي استعمله لأول مرة جورج كلود أستاذ كلية فرنسا والذي يكثر استعماله في الإعلانات في المساء فتملأ أنابيبه شوارع القاهرة. وفي هذا النموذج ترى للنواة مسارين لإلكترون وثمانية مسارات لثمانية إلكترونات أخرى

هذه هي المادة كما يراها العلماء وقد ذكرنا في مقالنا السابق أن المركبات المادية للكائن الحي هي ذرات كيميائية (الكربون والأكسجين والهيدروجين والأزوت) وإن العلماء يعتقدون أنه قد حدث في وقت من الأوقات أن مجموعة من هذه الذرات ترتب بطريق الصدفة بالطريقة الموجودة بها اليوم في الخلية الحية، وتساءلنا هل المادة الحية مجموعة من الذرات أو مجموعة من الذرات مضافاً إليها الحياة؟ وقد بدأنا اليوم بهذا الوصف للمادة وفق آراء العلماء، وبقي لنا أن نتناول المادة الحية ونعرف في أي الأوجه تختلف عما وصفناه

لقد اعتدت أن اعد القارئ في آخر كل مقال بما سأتناوله في المقال الذي يليه وإن ادله عند الوصول إلى خطوة بلغناها على الطريق الذي تبعها في استعراض هيكل العالم وسير الحقائق. على أني أتقيد هذه المرة بتناول موضوع الحياة بعد أن انتهينا

اليوم من وصف المادة وصفاً كان لازماً لتناول مثل هذا الموضوع. وها قد وصلنا معاً إلى طريق وعرة ولكني سوف لا أدخل بالقارئ مكاناً أشعر انه لا يتعلم منه شيئاً جديداً. وإني أنتهز الفرصة لأقدم شكري للذين أرسلوا أليّ كلماتهم الطيبة بخصوص هذه الجولات، وسأواصل جهدي على صفحات الرسالة في تبسيط ما نصل إليه من المعرفة

محمد محمود غالي
دكتوراه الدولة في العلوم الطبيعية من السوربون
ليسانس العلوم التعليمية، ليسانس العلوم الحرة، دبلوم المهندسخانة

رسالة الفن

بركسيتلس

للدكتور أحمد موسى

كان للانقلاب المدني الذي جلبته حرب البيلوبونيز (431 - 404ق. م) وتطور العقلية والنفسية الإغريقية أثر عظيم في النهوض الفني واتجاهه. ولذلك يمكن اعتبار المدة المحصورة بين نهاية تلك الحرب وبين عصر إسكندر الأكبر (400 - 330ق. م) مدة (الازدهار المتأخر) أو (عصر الرفعة الثاني).

ولا يهم مؤرخ الفن المشتغل بالأركيولوجية الإغريقية أن يتناول في مقال كل ما أحاط بالحياة الإغريقية من سياسية واجتماعية إلى مدنية إلى حياة خاصة بسبب الحرب؛ وإنما يهمه أن يتلمس النتائج التي ترتبت عليها في الآثار الموجودة أو على الأقل بين دفات الكتب الموثوق بقيمتها العلمية كمراجع يعتمد عليها ومصادر أثبت البحث صحة ما جاء فيها.

ولما كان الفن الإغريقي قد اتجه في النحت بعد حرب البيلوبونيز اتجاهاً صادق التعبير عن التغير والمنهج الجديد الذي مال كثيراً وفي وضوح إلى تمثيل الفردية بعد أن كان ممثلاً للجماعات؛ فقد جاء من حيث الجوهر أقوى إفصاحاً عن النظرة الشخصية للفنان.

ولذلك - ولا نبعد عن الصواب - نجد أن التماثيل في مجموعها انتقلت انتقالاً هائلاً من ناحية تعريفها للحياة في صدق ومحاكاتها للطبيعة البشرية في قوة، لما ظهر عليها من حسن التكوين والحركة، كما تمكن الفنان من التعبير عن خوالج النفس، وهذه ناحية لم تكن إلى هذه المرحلة مما يستطاع تمثيله أو محاكاته ولا سيما أن المشاعر النفسية والعوامل التي يتأثر الجسم منها تأثراً يبدو في حركته وينعكس على ملامح الوجه، مما لا يتاح لنحات أن يخرجه إلا بعد وصوله إلى درجة عليا من المقدرة الفنية

فبينما نرى اهتمام الفنان كان قبل هذه الآونة متجهاً نحو تمثيل المقدرة والشجاعة والقوة، نراه في هذه المرحلة أكثر ميلاً نحو صدق المحاكاة ومراعاة التعبير عن النفسيات،

والرغبة في التأثير على المشاهد بإشراك حواسه في الاستمتاع والسمو قبل الشعور بالرهبة والتأثر بالعظمة.

وهذا ما انبني عليه تقهقر النحت التذكاري والتجسيم المعماري وتقدم التماثيل المستقلة ذات الفكرة المحدودة. وهكذا ترى انتشار التماثيل الرخامية (لاسيما في اتيكا) واختفاء غيرها من تلك التي كانت تنحت من سن الفيل والذهب، هذا فضلاً عن الكيفية التي سار عليها النحات لإبراز التفاصيل دقيقة وإظهار القدرة في القطع الرائع.

تم هذا على أيدي فنانين مبدعين الذكر منهم ديمتريوس وسيلانيون الأثيني وسكوباس الذي يعد أول نحات إغريقي في القرن الرابع قبل الميلاد. كما يعتبر في مقدمة زعماء المدرسة الأتيكية الحديثة.

بعد هذا التطور وفي وسط هذا المحيط نشأ الفنان العظيم بركسيتلس بن كيفيسودتس الذي ينتمي إلى عائلة أتيكية. وكان أصغر سناً من سكوباس فرأى الكثير قبل البدء، كما أنه أقام معظم سني حياته في أثينا حتى عصر إسكندر الأول، وقد خلدت شهرته كنحات للرخام دون غيره بالرغم من أن له بعض قطع عملها من البرنز وبدراسة ما تركه هذا النحات الفذ نحصل على قسط وافر من ميزات طابعه الشخصي الذي يتلخص في أنه عنى عناية فائقة ونجح نجاحاً باهراً في التعبير عن الجمال النابض،

واختار مادته منه في ربيع الحياة، فمثل الشباب تمثيلاً رائعاً خلاباً وأبرز أسمى صفاته وهي الصبا والزهو والقوة والنشاط وحسن التكوين.
وهذا لا يمنع من وجود بعض القطع التي مثلت ناحية الجد والنضوج، فجمع بين حالتين جعلت منه أستاذاً في تصوير العوامل النفسية دون نزاع. كل هذا بالنظر إلى الدرجة العليا التي وصل إليها في هذا المجال؛ فمن الهدوء إلى الحركة ومن اللين إلى العنف فضلا عن أنه جاء بجديد له قيمته العظمى في دراسة فن النحت، فقد استطاع الجمع بين التكوين الجسماني في وضع ما، وبين ما يلائم هذا الوضع من ملامح ترتسم على الوجه وتنسجم مع تكوين الرأس فكأنه اكسب رؤوس تماثيله حياة اتفقت مع تمثيل الواقع، وانسجمت مع المجموع الإنشائي، فجاءت دليلا على أن الفنان بلغ الذروة في دقة الإخراج من ناحيتيه الفنية والعملية، كما أنه سار بالنحت خطوات واسعة نحو التأنق في التكوين.
أما من حيث الناحية الإنشائية فانه كان واسع الأفق غير محدود الخيال، فأخرج إلى جانب تماثيل الآلهة تماثيل للإنسان (تمثال ديادومينوس وغيره).
ولبركسيتلس ناحية أفرغ فيها حبه وهيامه، تلك هي الناحية التي عبر بها عن جمال أفروديت آلهة الحب، وشباب إيروس إله الحب وابن أفروديت وهو الذي تحدثنا القصة الإغريقية عنه بأنه كان ولداً جميلاً بجناحين أو شاباً يحمل قيثارة أو قوساً، وموسيقى أبولو بن زويس إله النور والغناء والعزف، ونشوة ديونيزوس إله الزراعة والحصاد وزراعة الكرم.
واهم إعماله الباقية وأحسنها تمثال هرمس ابن زويس إله الطبيعة والرعاة ورسول الآلهة (واله التجارة والطرق والرحل واللصوص) والنوم والأحلام. وهو التمثال الذي وجد أثناء أعمال الحفر سنة 1877 ولا يزال محفوظاً بمتحف أوليمبيا.
وقف الإله الشاب عارياً يحمل ذراعه اليسرى المتكئة على جذع شجرة الطفل ديونيزوس (ش2 تمثل نصف التمثال فقط) ويمسك بيمناه عنقود العنب متجهاً به نحو الطفل. والساق اليمنى مستقيمة (هكذا في الأصل الكامل) والوسط محدود بخطوط غاية في الدقة مما تميز به نحت الفنان. والإنشاء المجموعي والوضع الكلي لهذا التمثال كله مليء بالحياة، عظيم بالجانب المتوفر فيه من الجمال، ولا سيما الرأس الدقيق الصنع البديع التكوين. أما الابتسامة الهادئة التي ارتسمت على وجه صاحبه (ش 4) فهي من ادق ما شوهد منحوتاً في الرخام.
ولعل تمثاله لإفروديت كينتوس هو أهم وأعظم عمل فني قام به (ش6)، وقد فهم الأقدمون ذلك ونظروا إلى التمثال نظرة تقدير وإعجاب واستمتاع بروعته. تريد أفروديت النزول إلى البحر، فتخلع ملابسها وتلقي بها على آنية الزهر. وقد اتخذ من فكرة الرغبة في الاستحمام والتهيؤ للنزول في الماء موضوعاً للإنشاء الفني الخلاب، فبدا التمثال هائلاً، وظهر الوجه وعليه أثر ابتسامة أقل ما يقال فيها أنها التوفيق الكامل.
ولم يكن أثر يدل على هذه العظمة الفنية إلا الصورة التي رسمت على العملة، إلى جانب تماثيل نقلت عن الأصل، أحسنها التمثال المحفوظ بالفاتيكان (ش4) وآخر محفوظ في ميونيخ فيه بعض التغيير.
وفي إنجلترا رأس أفروديت (ش5) وله تماثيل لأفروديت في لباسها نذكر منها ما عمله لمدينة كوس
وله أربعة تماثيل لإيروس موجود أحدها بالفاتيكان وآخر في نابولي. وتماثيله لأبولو تحاج إلى شرح وإفاظة. وكل ما نبتغيه من هذا المقال ومن غيره أن يلتفت القارئ إلى النحو الذي سار عليه أساطين الفن ومقارنة ذلك بالاتجاه السقيم الذي يتجه نحوه بعض الشباب من المشتغلين بالنحت في هذه الأيام، وهم يعتقدون أنه الاتجاه الصحيح على حين أنها العجز في معناه الكامل.
أحمد موسى
السيدة فتحية أحمد
من الوجهة الفنية
للأديب محمد السيد المويلحي
من أثبت المطربات قدماً في فنها، وأعظمهن خبرة بصناعتها. تعتبر ثانية مطربات

الشرق بعد (أم كلثوم)، وإن كان بعض جهابذة الفن يرفعها عليهن جميعاً لقدرتها وتصرفها العجيب الذي يجمع بين سحر القديم وقوته، ورونق الجديد ورقته، والذي لا يعجز عن إرضاء جمهرة السامعين ولو كانوا حشدا مختلفا في ذوقه متباينا في عمره!.

سمعتها مرة تغني في دار (الاتحاد الموسيقي) الذي يرأسه الأستاذ إبراهيم شفيق وكان على رأس الجميع مصطفى رضا بك مدير المعهد الملكي للموسيقى العربية، والدكتور محمود أحمد الحفني مدير إدارة الموسيقى بوزارة المعارف؛ والآنسة أم كلثوم، فإذا بها تبتدئ من نغمة (النهاوند) فعملت من (النوا) بياتي ثم نهاوند. وحولت النوا عشاق وقفلت (نركيز) على أساس النغمة، ثم النوا راست وقفلت (زاريل)، ثم رجعت للنوا حجاز وطلعت على جواب الكردان وعملت نهاوند وراست على (الكردان)، ثم صبا علي الحسيني، ثم قفلت (نهاوند)!

وكل هذا متآلف مع النغمة الأصلية مما أخرج (أم كلثوم) عن طورها فلم أرها في موقف لمطرب أو مطربة (تصرخ) كما كانت تصرخ أمام (فتحية)ـ ولقد أراد البعض أن يرجوها في الغناء بعد أن انتهت. . . فما كان منها إلا أن قالت حرفياً (وماذا أقول بعد هذا)!

يبلغ صوتها خمسة عشر مقاماً تقريباً. وهو من نوع (الكونتر آلتو) وإن كان البعض يقول أنه من فصيلة (التينور). . .!

يمتاز بلمعته ونبرته وقدرته حتى أطلق عليه جميع الموسيقيين والموسيقيات لقب (الفتوة)! لأنه ينفرد بقوة عجيبة غريبة؛ فلو استمر شهوراً يشتغل كل ليلة ما شكا وما نقص وما (خستك) كغيره من الأصوات. . جيد الإلقاء. دقيق المحاكاة.

هي أول (مطربة) جمعت بين أشياء متناقضة متنافرة لا سبيل إلى جمعها أبداً! جمعت (الشرف) والفن والأمومة المنتجة الرحيمة التي تبذل دمها وروحها لتهذب وتعلم أولادها من مالها (الحلال) الذي جمعته من كدها، وتعبها، وصوتها!

أشهد أنني أكره هذا النداء الذي قتله مطربونا ومطرباتنا نداء، وأوجعوه . . .(يا ليل) وانحنوه مناجاة. ولست أدري السر في هذا، القصور فني، أم لضعف صوتي؟؟ إن كان هذا أو ذاك فقد كنت أكره نداء الليل ومناجاته حتى سمعت هذا النداء العجيب من (فتحية)

سمعتها تناجيه وتناغيه بتصرف حيرني، ثم أدهشني وأعجبني حتى حول كراهتي حباً وافتناناً. . . وصرت لا أود ولا أسعى إلا لأسمعها تقول: يا ليل. . .! بقوة تخجل الرجال، وبقدرة تذهل النساء، حتى اعترف لها الجميع وأولهم (أم كلثوم) و (عبد الوهاب) بأنها أقدر مطربة في العصر الحديث فاقت المطربين والمطربات في مناجاة (الليل) وغناء (الموال).!!

هاجرت إلى الشام مراراً وراحت تذيع رسالتها هناك فذاع اسمها ذيوعاً قل أن يدركه غيرها، ولكن الحنين عاودها إلى مصر فرجعت لترى أن القدر قد أعد لها (مزحة) تهد الجبال وتقتل الرجال. رجعت وكان لها (رصيد) في البنك يبلغ سبعة آلاف من الجنيهات فإذا به (ستة مليمات) فحسب. . .! فإذا أردت أن تعرف السبب فهو (رجل) وضعت فيه ثقتها بحكم قرابته لها فإذا به يستغل جهلها بالقراءة والكتابة - وقتئذ - وينتزع منها ومن أولادها هذا المال الذي جمعته كما قلت قبلا بكدها وسهرها وصوتها. . .!

لا عيب في مطربة (القطرين) إلا أنها كغيرها من مطرباتنا قطعت شوطاً عظيماً، وزمناً طويلاً في الجو الموسيقي فلم تستفد، ولم تتقدم، ولم تتعلم، اعتماداً على صوتها وحسن تصرفها الذي وهبها الله إياه

تحب الفن للفن، والموسيقى للموسيقى، ولا تستطيع أن تملك نفسها وتكبت شعورها وتحبس إعجابها - كما يفعل غيرها - عندما تسمع الجيد المتقن، فتراها تثني وتصفق (وتزن) كأي فرد عادي تماماً ولعلها المطربة الوحيدة التي تسعى وراء كل مطرب أو مطربة لتسمع وترخي أذنها وفنها. ولا يظن القارئ أن تلك الصفة التي توصف بها فتحية (عادية) لأنها أن كانت عادية معه ومعي إلا أنها معدومة مفقودة في الوسط الفني. ما من فرد من أبناء الموسيقى سواء أكان مطرباً أو مطربة تسأله رأيه في زميل إلا سمعت الثناء أولاً ثم التعقيب بكلمة (ولكن. . .) ولكن هذه كفيلة بتشويه جميع الحسنات، وتدنيس جميع المزايا، وتحقير جميع الهبات. . .

أما فتحية فرأيها صريح واضح، قاطع صادق، وما أندر الصدق بين المطربات!
محمد السيد المويلحي
البريد الأدبي
في الاستشراق
ظهر الجزء الأخير من المجلد الثاني لكتاب (تكملة تاريخ الآداب العربية) من تأليف المستشرق الكبير الذائع الصيت الأستاذ كارل بروكلمن، وهذه (التكملة) تستدرك ما فات المؤلف في (تاريخ الآداب العربية) المطبوع سنة 1898. ثم تأتي بكل ما حدث في جانبي النشر والبحث منذ ذلك العهد. وهي على جانب عظيم من التدقيق والتحقيق، وإن رأى بعضهم أنها موضع مراجعة من هنا ومن هنا. والحق أن الأستاذ بروكلمن جدير بالإعجاب فضلاً عن الشكر؛ ذلك أن عمله جليل ونافع، وما نظن أحداً من المشتغلين بالشرقيات يستطيع أن يهمل (تاريخ الآداب العربية) و (تكملته) فانهما مصدر عرفان لا يعدله مصدر في بابه. ودليل هذا أن جميع من كتبوا في الآداب العربية رجعوا إليه بل اعتمدوا عليه؛ ولهذه التكملة جزء ثالث سيبرز هذه السنة في أجزاء متوالية، وسيكون موقوفاً على الأدب العربي الحديث
مكارم الأخلاق
للدكتور بشر فارس مبحث عنوانه: (مكارم الأخلاق) عبارة أخاذة ترجع إلى الأخلاقيات التقليدية نشر من عهد قريب باللغة الفرنسية في (مجلة الأكاديمية الوطنية للعلوم) في روما (الجزء 5 - 10 لسنة 1937) وهي من أعلى المجلات العلمية مكانة في أوربا، وكان الدكتور بشر فارس ألقى هذا المبحث محاضرة في مؤتمر المستشرقين المنعقد في روما سنة 1935، واليك فصول هذا المبحث: رواج عبارة (مكارم الأخلاق)، مفادها، مصدرها، مضمونها، علاقتها بالفتوة والمروءة، اتصالها بزمن الجاهلية، الخاتمة: عبارة إسلامية محضة، رخصة، مبهمة، أخاذة. ويمتاز هذا المبحث بالمنهج العلمي وبإثبات المصادر الأولى. وقد بلغنا أن صاحبه سينشره بالعربية هذه السنة في مصر طي كتاب يضم مباحث أخرى عنوانه (مباحث عربية).
هل في القرآن الكريم أسلوب غير عربي!
ذكر الشيخ الخضري في حاشيته على شرح ابن عقيل الألفية ابن مالك في النحو أن قوله
تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: (فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي) يجوز أن يكون وضع اسم الإشارة للمذكر فيه وهو هذا موضع المؤنث لأن لغة إبراهيم كانت لا تفرق في اسم الإشارة بين المذكر والمؤنث، فجرى القرآن في ذلك عليها، وأشار إلى الشمس وهي مؤنثة باسم الإشارة الموضوع في لغة العرب للمذكر
وقد نبهت طلابي في الدرس إلى خطر هذا الرأي وأحببت أن أبين هذا لقراء مجلة الرسالة الغراء
فالأمر في هذا يرجع إلى الأسلوب، ولم يختلف أحد في أن أسلوب القرآن يجب أن يكون عربياً، فلا يصح أن يتقدم فيه مثلاً المضاف إليه على المضاف، ولا غير هذا من أساليب اللغات الأخرى، وإن كان كلامه مترجماً عنها، لأنه يسلك في ترجمته أسلوب الترجمة المعنوية، ولا يتقيد فيها بشيء من أسلوب ما يترجم عنه
وهذا الذي أمنعه مما يرجع إلى الأسلوب غير ما اختلف فيه العلماء من وقوع المعرب في القرآن الكريم، لأن ما يرجع إلى الأسلوب يرجع إلى نحو العربية، فتكون مخالفته خطأ. أما وقوع المعرب في القرآن فيرجع إلى إيثار لفظة أعجمية على لفظة عربية، وهذا لا يمكن أن يتوجه إليه الخطأ، ومع هذا اختلف علماؤنا فيه ورأى بعضهم أنه يقدح في عربية القرآن الكريم
وقد ذكر الشيخ الخضري مع ذلك الاحتمال الذي نخالفه فيه احتمالات أخرى تسيغها العربية، ولا تكلف القرآن أن يجري على أسلوب لغة أخرى غيرها، فقال: يجوز أن يكون تذكير اسم الإشارة في ذلك مراعاة لتذكير الخبر، أو أن يكون تذكيره لتنزيل الشمس منزلة المذكر. وإني أرى أن إبراهيم كان يشير إلى جرم الشمس في ذلك الوقت لا إلى لفظها، ولفظها هو المؤنث في العربية، أما مدلولها فكوكب من الكواكب كالقمر وغيره، والكوكب مذكر لا مؤنث، ولهذا أشار إليه إبراهيم بلفظ المذكر
عبد المتعال الصعيدي

الأدب المصري في رأي كاتب لبناني
ننقل عن زميلتنا (المكشوف) البيروتية ذلك الرأي الجريء الذي أشار إليه في هذا العدد
الأستاذان: توفيق الحكيم وابن عبد الملك، فإن في الاطلاع عليه فائدة من جهة صوابه ومن جهة خطأه. قال الكاتب:
لست مكابراً، ولكنني أنكر مستنداً إلى الوقائع الحقيقية التي قررها الأستاذ سامي) الكيالي في رده على كلمتي البريئة حول إشارته إلى (امتداد الأدب المصري والثقافة المصرية في أجواء البلاد العربية). فقد بنى الأستاذ زعمه هذا على ما تخرجه المطبعة المصرية من مؤلفات عربية
فما هي هذه المؤلفات؟
أكثرها غير مصري. والأستاذ الكيالي لا يجهل أن المطبوعات الصادرة عن مصر هي في الغالب كتب قديمة أعيد طبعها، أو مخطوطات نادرة تطبع للمرة الأولى. فهي إذن ليست مصرية لأن أصحابها من خارج مصر. وليدلني إن استطاع على كتاب واحد ذي قيمة لمؤلف مصري صميم
أما المؤلفات المصرية الحديثة فلا أعرف أين هي مخبأة لا تظهر على وجهي، فإن أكثر هذه المؤلفات أنشأه كتاب مصريون، ولكن بمادة أجنبية مستوردة من الخارج
تأمل أن مصر التي يقول الأستاذ صاحب (الحديث) أنها تسيطر بثقافتها على البلاد العربية قد عجز أدباءها وأعلامها عن وضع الموسوعة الإسلامية فلجأ بعض المعلمين الرسميين إلى ترجمتها عن لغة أجنبية، ويا ليتهم أجادوا الترجمة، إذن لهانت المصيبة، ولكن ترجمتهم جاءت فاسدة مشوهة تضلل، والمفروض فيها أنها تهدى!
وتأمل أن مصر التي يريد بعضهم أن يجعلها زعيمة العروبة، ينادي أكبر أديب فيها بفرعونيتها ويقول: إن الإسلام لم يغير شيئاً من عقلية أبنائها على الرغم من مرور ثلاثة عشر قرناً على قيامه في وادي النيل!
وتأمل أن مصر العظيمة هذه لم يخلق فيها بعد ناثر أو شاعر يسجل في ملحمة شعرية أو نثرية الأحداث الخطيرة التي تعاقبت عليها منذ الهدنة إلى اليوم، ويخلفها تراثاً خالداً للأجيال الآتية!
وتأمل أن أكبر مفكري مصر وأدبائها من طه حسين، إلى حسين هيكل، إلى أحمد أمين، إلى محمد لطفي جمعة، إلى غيرهم وغيرهم، قد عجزوا في مؤلفاتهم التي خلقت شهرتهم
الأدبية عن الإتيان بنظرة واحدة طريفة لم يستعدوا روحها من أجنبي. فالشك في صحة (الشعر الجاهلي) مسبوق إليه، و (حياة محمد) مقتبسة من كتاب أميل درمنكهيم، و (ضحى الإسلام) ليس لمؤلفه فيه إلا العنوان بدليل الأسماء العربية الواردة مشوهة في طبعته الأولى أمثال زافار وأصلها ظفار، وأريتاس وأصلها الحارث، و (فلاسفة العرب) وأصله بالفرنسية (مفكرو الإسلام) لكاراديفود
أتكون هذي هي الثقافة المصرية التي تريد يا أستاذ سامي أن تتأثر بها البلاد العربية؟
إنني أنكر هذه الثقافة اللقيطة، ويعز على كلبناني عربي أن تؤخذ بلادي بالتدجيل وتخدع بالدعايات المجانية أو المأجورة).
زهير زهير
مصر في مختلف العصور
فرغ الأستاذ محمد قاسم بك عميد دار العلوم من تقريره عن مؤتمر العلوم التاريخية الثامن في دورته الأخيرة التي عقدت بمدينة (زوريخ) ومثل هو مصر فيه ثم رفعه إلى معالي وزير المعارف
ويقع هذا التقرير في 23 صفحة، تحدث فيها الأستاذ قاسم بك عن النظام السياسي والفكري في سويسرا، ثم أشار إلى أهم الموضوعات التي عرضت على بساط البحث، ولا سيما ما يتصل منها بالبلاد الشرقية والمسائل التي تتخذ صبغة عامة
وانتقل إلى الكلام عن رسالته التي عرضها على المؤتمرين - وهي خاصة (بالبحث العلمي) - وانتهى من هذا إلى ذكر طائفة من المقترحات رأى أن تنفيذها يجعل مصر تتابع الأبحاث التاريخية التي تجري في البلاد الأخرى.
ومن هذه المقترحات تحويل الشعبة التاريخية المحلية إلى جمعية تاريخية تعنى ببحث

تاريخ مصر، وإنشاء متحف تاريخي ووضع فهرس سنوي خاص بشؤون التاريخ
ومما جاء في هذه المقترحات أن تعمل الحكومة على وضع أطلس تاريخي لا ليسد حاجة المدارس ومعاهد التعليم وحدها بل يفي بجميع حاجات الدولة. وإن يوضع معجم تراجم يبين تاريخ كل من اشتغلوا بالشؤون التاريخية في أجيال مصر المختلفة
ومن أهم هذه المقترحات وضع تاريخ عام لمصر تنهج فيه الحكومة منهجاً قومياً، أسوة بما حدث في الممالك التي نهضت حديثاً كبولندا وتركيا وألمانيا وإيطاليا وغيرها
ترقية الأغاني وإعداد أناشيد مدرسية قومية
أشرنا من قبل إلى مشروع وزارة المعارف لترقية الأغاني المصرية ورفع مستواها والتوسع في أغراضها ومدلولاتها بما يفي بحاجات الوطن المعنوية لاطراد النهوض والتقدم
وقلنا أنها اعتزمت أن تعهد إلى عدد من كبار الشعراء والموسيقيين تأليف وتلحين خمسين قطعة غنائية، متجهة في ذلك إلى العدول عن نظام المسابقات
ونزيد اليوم أنه تألفت لجنة من حضرات على الجارم بك ومصطفى رضا بك مدير معهد فؤاد للموسيقى والدكتور محمود الحفني مفتش الموسيقى بوزارة المعارف للنظر في تفاصيل هذا المشروع وطرائق تنفيذه وإنجاحه
أما اختيار الشعراء الذين يعهد إليهم وضع القطع فسيترك إلى رأي معالي زير المعارف، وسيبدءون في عملهم عقب إبلاغهم ذلك مع التوجيهات التي تحرص الوزارة على إحاطتهم بها دون المساس بحريتهم في التأليف
وسيكون من عمل اللجنة أن تنظر في إعداد الأناشيد المدرسية التي تريد الوزارة أن تكون نموذجاً للأغاني التي تنشدها وذلك في مناسبة احتفالها باستقبال صاحب السمو الإمبراطوري ولي عهد إيران.
توحيد الثقافة بين مصر والأقطار الشرقية
من الخطوات أو الوسائل التي فكر فيها أولو الأمر في وزارة المعارف للوصول إلى توحيد الثقافة بين مصر والأقطار الشرقية إنشاء معاهد علمية مصرية في بعض هذه البلاد الشرقية تنشر من أبنائها الثقافة المصرية والمناهج العلمية الحديثة التي يراعي فيها أن تتوحد بالتدريج ثقافة الشرق العربي. وقد صادف هذا التفكير قبولا من بعض الهيئات التي يهمها أن تشتد أواصر الصداقة بين مصر وشقيقاتها العربية، وإن تحمل مصر علم الزعامة العلمية في هذا العهد الجديد
،ولكن هذا المشروع ما زال مبدئياً، ولا بد أن تخطو به وزارة المعارف خطوات كثيرة فتخرج من حيز التفكير إلى حيز العمل، ومنها الاتفاق مع الدول الشرقية التي ينتظر أن يبدأ بإقامة المعاهد المصرية فيها، وتدبير المال اللازم للبدء في المشروع. وقد اتصلت الوزارة ببعض وزراء الدولة المفوضين في الدول الشرقية وطلبت إليهم إبداء رأيهم في إنشاء هذه المعاهد وينتظر أن تتصل بالبعض الآخر لتتكون لديها فكرة واضحة ذات تفصيلات صحيحة عن الموقف كله ولتبدأ بعد ذلك في السير في المشروع إذا استطاعت اجتياز عقبة تدبير المال
إحياء الأدب العربي القديم
عزمت وزارة المعارف رغبة منها في تقريب الأدب العربي القديم من نفوس الطلاب وناشئة المتأدبين أن تعمل على تهذيب طائفة من كتب الأدب
وقد استقر رأيها على البدء بتنفيذ هذا المشروع في 30 مؤلفاً بين كتاب وديوان على أن تدع باب الاشتراك في هذا العمل مفتوحاً أمام من يريده من الكتاب حتى 15 مارس القادم، وإن يكون أجل تقديم الكتب والدواوين بعد إعادة وضعها على الأسلوب الذي تشير به الوزارة يوم أول سبتمبر سنة 1939 وفيما يلي أسماء هذه الكتب:
العقد الفريد. الصناعتين. الخطط للمقريزي. الطالع السعيد للأدفوي. تاريخ الجبرتي. علم الدين لعلي مبارك. المستطرف للابشيهي. محاضرات الأدباء. مختارات من الأغاني. مسالك الأبصار للعمري. نهاية الأرب للنويري. طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة. صبح الأعشى. النجوم الزاهرة. مختارات من مقامات الحريري. الضوء اللامع للسخاوي. حسن المحاضرة للسيوطي. مختارات من قصة عنترة. مختارات من رسائل الجاحظ. تراجم من ابن خلكان. تراجم من خزانة الأدب البغدادي. تراجم من معاهد التنصيص. ديوان أبي تمام. ديوان ابن النبيه. ديوان البحتري، ديوان المتنبي. مقدمة ابن

خلدون. ديوان البهاء زهير. ديوان ابن سناء الملك. ديوان ابن نباته
هذا وستمنح الوزارة مكافأة كبيرة لكل كتاب يقبل، وقد ألفت لفحص هذه الكتب لجنة
من الأساتذة: أحمد أمين، ومحمد جاد المولى بك، وعلي الجارم بك.
اللغة الفارسية في الجامعة الأزهرية
ندبت مشيخة الأزهر الأستاذ توفيق محمد تقي القمي العالم الإيراني نزيل مصر الآن
لتدريس اللغة الإيرانية بكلية اللغة العربية. وقد بدأ الدراسة في الأسبوع الماضي
وحضرها من الطلبة ثلاثون طالباً وقدمه صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ إبراهيم
حمروش شيخ الكلية بكلمة طيبة فرد عليه مبينا فضل اللغة العربية على العالم
الإسلامي وأشر إلى ما بينها وبين اللغة الفارسية من الروابط الثقافية مما يجعلهما
متلازمتين.
ثم انتقل بعد ذلك إلى الدرس الأول في اللغة ولم يشأ أن يعلم في هذا الدرس الطلبة
غير كلمات ثلاث وهي (الله والملك والوطن)
وسيشمل تدريس اللغة الإيرانية تاريخ الأدب الإيراني وينتظر أن يمتد تدريس هذه اللغة
إلى كليات أخرى.
الدكتور زكي مبارك
مضت أسابيع وأصدقاء (الرسالة) يسألون عن السبب في احتجاب الدكتور زكي
مبارك، وقد خشينا أن يكون أصيب بمرض الكسل الذي يؤاخذ به من يناوشهم من
الأدباء. ومن عاير ابتلى! ثم عرفنا أنه كان في ضيافة (ليلى المريضة في العراق) وإن
كتابه عنها وصل إلى ثلاثة مجلدات ضخام. وقد وصلت إلينا مقدمة هذا الكتاب
وسننشرها في العدد المقبل
أما أبحاث الدكتور زكي مبارك في النقد الأدبي فسنواجه بها القراء بعد أيام
جمعية تركية مصرية
تلقينا أنه قد تألفت في مدينة القاهرة جمعية باسم (الجمعية التركية المصرية الخيرية)
غرضها إيجاد صلة من التعاون والتعارف بين الأتراك والمصريين وتقوية الروح الفكرية
والروحية والخيرية بين الشعبين.
وستعمل الجمعية للوصول إلى هذا الغرض على إلقاء محاضرات تتناول الموضوعات
العلمية والاجتماعية والأدبية وغيرها، كما أنها ستنشئ مدرسة تقوم بتعليم اللغتين
العربية والتركية لأعضائها مجاناً؛ وستقوم كذلك بمساعدة المحتاجين وإنشاء
المستوصفات الخيرية لمرضاهم، وتسهيل السياحة بين مصر وتركيا، وما إلى ذلك من
الأعمال التي تقوى العلاقات بين المصريين والأتراك.
وترحب الجمعية براغبي الانتساب إليها، وترجو منهم مقابلة سكرتيرها في مقرها رقم
51 بشارع إبراهيم باشا
إلى الأستاذ فيلكس فارس
أحييك تحية الأدب وأشكر لك تلك الروح الطيبة، وأتقدم إليك بموفور الشكر على
كلمتك الممتعة التي صدرت بمجلة الرسالة الغراء بعنوان (أقلام الناشئين) فقد لمست
فيها عظمة جبارة وروحاً عالية وتقديراً صحيحاً وميزاناً عدلاً
وحقاً ليس الأديب من يدبج بليغ المقالات ويبتكر غريب المعاني ويظهر للملأ أقوم
الأساليب فحسب. إنما الأديب هو الذي يضم إلى ذلك نقداً صحيحاً، وتقديراً حقاً،
ويحكم للأديب أو عليه بأحكام هي الصواب. فمحكمة الأدب إذا كانت عادلة فإنها مع
إحقاق الحق لذويه مدرسة عالي، وثقافة جد نافعة ومرآة عامة تتجلى فيها صورة
الحقائق فيشهدها الناس ويتخذون منها درساً مفيداً
وانك بما حللت به نفسية الشاب أحمد جمعه الشرباصي وكلامه قد وضعت نفسك أو
وضعك أدبك موضع عظماء الحكام فشكراً لك وسلام عليك
مصطفى الصاوي
مدرس أدب بمعهد القاهرة الأزهري
إلى الأستاذ دريني خشبة
بمناسبة الفصول القيمة التي تنشرها في الرسالة الغراء عن هوميروس - أود أن
أعرف هل هناك ترجمة مطبوعة للإلياذة والأوديسة، وإذا كانت هذه الترجمة حلماً لم
يتحقق بعد، فلماذا لا يفكر الأستاذ في طبعها في كتاب ينشره على الناس بعد أن وال

نشرها في الرسالة والرواية قلمه المهذب الرصين، وأسلوبه الساحر البليغ؟!
إن هذا أمل الأغلبية الساحقة من قراء الرسالة في مصر والشرق الذين يقدرون إنتاج هوميروس، ويعجبون بالأستاذ دريني خشبة، ويعرفون قيمة الأدب القوي الرفيع.
أحمد أحمد العجمي

تصويب

وقعت أخطاء مطبعية في مقال (يوم الفتوة في العراق) في العدد 292 من الرسالة تصحيحها كما يأتي:

السطر	الخطأ	الصواب	الصفحة	العمود
2	مركب الفتوة	موكب	253	1
3	لثلثمائة	لثمانمائة	254	2
21	للقائد	للتائه	254	2
28	البارح	البارع	254	2
9	على أن	على أن رأى	255	1
7	ولم تخاف	ومم تخاف	255	2
29	جروا	صبروا	255	1

المسرح والسينما

الفرقة القومية

نجاحها وفشلها
ووسائل إصلاحها

ينفرد الأستاذ محمود تيمور بك بين من أعرف من أصدقائي الأدباء، بطبيعة مسالمة، وخلق سبط منسجم، يحاول جهد المستطاع الابتعاد عن مسالك الخصام الأدبي ومواطن الشحناء. ومجمل ما قد تسمعه منه - إذا احتكت الآراء واصطدمت الغايات في موضوع قصة أو كتاب أدبي - رأى بيديه بدون ما تصلب أو تشدد، أو حد يوقفك عنده إذا توعرت وتصعبت. يفعل ذلك ولا تفارقه ابتسامة رخية تطوى تحتها كل شيء، وتجعلك لا تطالع في تقاطيع وجهه ما نم عن تكتم مقصود، أو في رفات جفونه عن نفس كظيمة، ولكني لمحت فيه في هذه المرة وهو يحدثني عن الفرقة القومية ما لا يتفق وما وصفت من طباعه. وأحسب مرد ذلك إلى ألم في النفس من أمل خائب. وهل من ألم أشد على نفس الأديب من صدمة يصدم بها من هذه المؤسسة الثقافية في مثل هذا الوقت؟

سألته ما رأيه في الفرقة القومية، هل نجحت في رسالتها أم فشلت؟ فأجاب: الفرقة القومية نجحت وفشلت في وقت واحد. نجحت في أنها قدمت لنا بعض الروايات الفنية في إخراج مبتكر وتمثيل متقن، نذكر من ذلك: أهل الكهف، وتاجر البندقية، والجريمة والعقاب.

وفشلت في أن ما قدمته لنا من مثل هذه الروايات كان قليلاً جداً في السنوات الماضية التي اشتغلت فيها؛ وهذا يدل على أن المجهود المبذول من القائمين بأمرها ضعيف

والأقوال كثيرة في أسباب هذا الفشل، وقد عالجها بعض النقاد في حملاتهم على الفرقة، كما أن البعض الآخر أدلى برأيه في الدفاع عنها، فمن ذلك يقال: إن الفرقة تشتري الروايات ولا تمثلها إذ يتضح لها عدم صلاحيتها أو عدم رضا بعض المقامات.

كذلك يقال إن كثيرين من المؤلفين المصريين قدموا روايات جيدة ولكنها أهملتها لأسباب لا محل لذكرها. ولو صحت هذه الأقاويل لدلت على أن الإدارة ليست مستقلة تمام الاستقلال

في عملها، وأنه يعوزها إدارة مركزة تتحمل كافة المسؤوليات

ويمكننا أن نتأكد من فشل الفرقة في عملها بمراجعة ميزانيتها المادية والأدبية، أي مقدار ما ربحته ومقدار ما قدمته من الروايات الناجحة لجمهور. وليس هناك سر إذا أذعنا أن الفرقة القومية تتكبد اليوم خسائر مادية جسيمة لولا الإعانة السخية التي تمدها الحكومة بها لكان قضى عليها في بدء عملها

أما الخسارة الأدبية كما أوضحنا سابقاً فالفرقة لم تقدم لنا من الروايات الناجحة خلال الأعوام الأربعة سوى ثلاث روايات أو أربع، وأنها لضعفها لجأت إلى استعارة روايات سبق تمثيلها كمجنون ليلى، وأنها تزمع في موسمها المقبل تمثيل روايات فرقة جورج أبيض القديمة، مع أن الروايات الإفرنجية الجديدة مثلاً تعد بالمئات، وأقصد بهذه الروايات تلك التي تساير نهضة الفن الحديثة. فمصر محرومة من هذا النوع، مع أن الوسائل كلها متوفرة لترجمة وإخراج هذه الروايات، كما أن مصر لها من المؤلفين المصريين المجيدين من يستطيع أن يمد الفرقة ويغذيها بروايات فنية

ويمكننا إنصافا للفرقة أن نقول أن من دواعي فشلها سببا عالمياً يشكو المسرح منه على وجه العموم، ألا وهو طغيان السينما. إنما يمكننا أن نعالج هذا الداء بوسائل في استطاعة المسرح صد تياره القوي، فلقد ثبت للفنيين أن لكل من الفنين المسرحي والسينمائي ميدانه المستقل، فإذا فهمنا ذلك حق الفهم، استطاع المسرح أن يعمل في ميدانه دون أن يخشى قضاء السينما عليه

والفرق بين السينما والمسرح أن الأول يعني بالمظاهر إذ يعطينا أروع المناظر بصورها المفصلة وجوها الحقيقي، بينما المسرح لا يطلب منه في الوقت الحاضر مثل هذه الزخارف الدقيقة، لأنه مهما أوتي من الدقة في إظهارها فانه يعجز دائماً عن تأديتها على وجهها الصحيح، ولكن يطلب منه العناية بإبراز الفكرة ناضجة قوية كما يعنى بروح الانسجام الواجب بين الممثل والجمهور، وهذا ما نطالب به الفرقة

- ماذا ترون من علاج للإصلاح؟

لعلاج الفرقة وإصلاحها أوجه اذكر منها ما يأتي -:
أولاً: هو ما سبق لنا ذكره من ضرورة تركيز الإدارة واستقلالها استقلالاً تاماً أي جعلها تتحمل مسؤولية أعمالها وحدها أمام وزارة المعارف، وتوضيحاً لذلك نقول أنه يجب ألا تتلقى الإدارة أوامر لتنفذها، بل يجب أن تصدر هي الأوامر وتتحمل مسؤولية إصدارها. ويجب أيضاً أن يكون للجنة القراءة رأي استشاري فقط وتكون هي ضمن الإدارة المشرف عليها مدير الفرقة

ثانياً: يجب دعوة المؤلفين المصريين بصفة جدية، والعمل على تشجيع مؤلفاتهم بكافة الوسائل. وحسبنا أن الجمهور هو الذي سيصدر حكمه على هؤلاء المؤلفين أو عليهم، كما أن هذه الدعوة ستمهد لمؤلفين المغمورين طريقاً إلى تبوئ مراكزهم بحق

ثالثاً: إيجاد مسرح دائم للفرقة تمثل فيه طوال الموسم ليتم الاتصال بينها وبين الجمهور

رابعاً: أرى أن يتبع في نظام المرتبات التي تدفع لهيئة الإدارة والممثلين النظام الآتي: يدفع للموظف نصف مرتبه الحالي والنصف الآخر يكون بمثابة أسهم تدر عليه ربحاً يقل أو يكثر وفق نجاح الفرقة أو فشلها. والمقصود بذلك إشعار العامل في الفرقة موظفاً كان أم ممثلاً بمسؤولية نجاح الفرقة، وإن عليه واجباً يؤديه كأنه يعمل لفرقة هو أحد أصحابها، وليس موظفاً يتقاضى مرتبه الشهري، وسيان عنده نجحت الفرقة أو فشلت كما هي الحال الآن

خامساً: أرى تحبيباً في المسرح وتقليلاً من منافسة السينما له أن ترخص الإدارة أسعار الدخول رخصاً نسبياً بحيث تكون أسعار نصف كراسي الصالة تساوي ثمن الكرسي في السينما، وتكون أسعار النصف الآخر من الكراسي مخفضة أيضاً. كذلك يجب عمل تخفيض خاص لطلبة وطالبات المدارس، والموظفين، وأعضاء الهيئات الأدبية، والنوادي، والصحفيين بأن يكون لهم حق الدخول بنصف الأجرة

سادساً: يجب تحديد التذاكر المجانية تحديداً دقيقاً فلا تبعثر ذات اليمين وذات الشمال، كما يشاع ويقال، بعثرة زهدت الناس في الفرقة تفادياً لما يقال عن هذه الدعوات التي تأتيهم بالمجان أو تطرح عليهم طرحاً. انتهى

أشار حضرة الأستاذ الفاضل تيمور بك إلى أشياء أرى لزاماً علي توضحيها، وهي استقلال الإدارة، ونفوذ لجنة القراءة، والسعي إلى قبول بعض الروايات ورفض بعضها فالإشارة وحدها في مثل هذا الموقف لا تفي بالمرام ولذلك سأعود إليها في فرصة مواتية

ابن عساكر

العدد 295 - بتاريخ: 27 - 02 - 1939

إن في ذلك لعبرة

غني فقير. . .!

قد يكون مع بعض الفقر عزاء ورجاء وسكينة؛ ولكن فقر هذا الغني البائس الذي سأقص عليك نبأه ألمٌ لا يهاون، وهمٌّ لا يهادن، وحمَّى لا تُقلع

سأسوق إليك خبر هذا المسكين بقلمي لا بقلمه، فإن الرسالة التي كتبها إليّ كلماتٌ كحسرات النادم لا تتصل، ومقاطع كأنّات المحتضَر لا تبين. على أنني سأحاول ترجمتها لك ترجمة الشعور للشعور، لا ترجمة اللفظ للفظ، لترى كيف يشقى المرء بخطأ نفسه، أكثر مما يشقى بخطأ غيره

قال بعد أن سلم وعظم وشكر:

(قرأت وأنا في وحدتي السامة وعلتي القاتلة ما كتبتَ من مآسي الحياة في الرسالة، فراعني أن يبلغ البؤس ببعض النفوس إلى هذا الحد، وفي أرض الله رزق لا ينضب، وفي يد الناس مال لا ينفد!

ولا أكذِبُ الله لم أفطن إلى معنى الحرمان والإحسان إلا بعد أن نيفت على الستين وأقعدني الكُساح، وسلبني حريتي وثروتي وغبطتي من جعلت حياتي له، ووضعت أملي فيه

أنا أملك ربع مليون من حر المال وخالص الذهب. وكان يخيل إليّ قبل أن ينكشف الغطاء عن العين أني أسبح في بحر أحمر لا أدري أكانت حمرته من الذهب أو من الدم أو من الدمع، فإني كنت مصمت القلب لا يختلج فيه شعور ولا ترف عليه عاطفة.

فلما بلغت الشاطئ لأستجم وجدتني على ساحل الحياة، هنا الموت الراصد، وهنا المرض المثْبِت، وهنا الضمير المعذب، وهنا الوارث الحاقد الذي دفنني وأنا أشعر، وورثني وأنا أنظر، وحرمني وأنا أريد. فإذا كان في بؤس الفقراء ما يستدرُّ ماء العيون، فإن في ذل الأغنياء ما يذيب شِغاف الأفئدة!

أتدري كيف جمعت هذا المال يا سيدي؟ جمعته بالسعي الدائب، والتدبير المعجز، والربا الفاحش، والشح الدنيء، والتقتير المهلك؛ ثم أمات الله في نفسي نوازع الأبوة والقرابة والإنسانية فلم تبضّ يدي في سبيل شيء من ذلك، فنما المال واتسع وامتد حتى صرفني عن الناس وشغلني عن العالم. ثم حسبتني بهذا الثراء الضخم أستطيع أن أشتري السعادة

والسيادة والإيمان والجنة، فإذا بي وا حسرتاه أملك مفاتيح قارون ولا أملك عصا موسى!

كان رأسمالي جنيهات معدودات ادخرتها من نفقاتي وأنا طالب بالأزهر، فلما عدت إلى بلدي استثمرتها في الربا والتجارة، فكنت أقرض الزراع المأزومين والعمال المعوزين والتواجر والأرامل بربا خمسة قروش في الشهر للجنيه الواحد. ثم اتخذت من فناء بيتي قُنا للدواجن، ومن سطحه مزرعة للبقول؛ فكنت أبيع الدجاج والأرانب من تحته، والفجل والكراث من فوقه؛ وألححت على نفسي بكبت الشهوة وقتل الرغبة إذا اعتدنا على المال، حتى كنت أرى الفاكهة عند الفاكهاني فأتقزز، وابصر اللحم عند القصاب فأهوع، ولكني إذا لمحتهما في يد إنسان تبعتهما نفسي وتحلَّب عليهما فمي. ثم اقتنيت العقار والضياع؛ أكثرها بغلق الرهان وأقلها بالشراء؛ وقمت عليها أحسن القيام بالرعاية والجباية والتوفير حتى غدت غلتها سيلاً لا ينقطع عن الأهراء والخزائن. ثم فرضت نفقة أسرتي من الطعام والإدام على مستأجري المزارع والدكاكين يؤدونها فوق الأجرة يوماً بيوم؛ واقتصرت في غذائي على الأبيضين: الماء والثريد، وفي كسوتي على جلابيب من القطن للبيت والغيط، وبذلة من الصوف للاحتفال والسفر. ثم وقع في نفسي أن حماية هذه الثروة العريضة لا بد لها من لقب (بك) فاشتريته أيام كانوا يبيعون الألقاب، بقبضة من الذهب؛ ثم شيدت قصراً وبنيت دوراً وجعلت في رأسه دائرة، فاتسع النفوذ وامتد السلطان، وصرت آمر ولا أرجو، وأغتصب ولا أختلس. ورأيت الناس يلقونني بالإجلال والهيبة لفخامة اللقب وضخامة الثروة، فازدادت نفسي شراهة ويدي كزازة؛ وأفرط عليّ الغنى فغطى على بصيرتي وبصري، فلم أعرف أن لي ديناً له حرمة، وزوجة لها حق، وأولاداً لهم رعاية؛ وعشت لنفسي بل لمالي، أقضي النهار له، وأسهر الليل عليه، حتى كرهتني أسرتي، وحقرتني عشيرتي، وسئمتني حياتي، وأصبت بمرض عقام برى عظام ساقي وفخذي فلم أستطع المشي ولا النهوض؛ واستولى ولدي البكر على مفاتح الكنوز وأضفى على نفسه وزوجه وأمه وأخواته الذهب والحرير والنعيم والأبهة، وتركوني سطيحة في حجرة منعزلة لا يدخلها علي إلا الخادم بالماء والثريد والقهوة. ولا أدري لماذا استعرت في نفسي اليوم شهوة الأكل ورغبة المتاع؛ فأنا أشتهي كل شيء، وأبتغي كل معنى؛ ثم أنظر في يدي الجماعة الكسوب فإذا هي معروقة كيد المسلول، فارغة كراحة السائل؛ وأدور بعيني في الحجرة

الموحشة فأرى أطياف الذين فجعتهم في أموالهم وآمالهم تخفق على الجدران ساهمة حزينة، فأتذكر كم مدين أغرقت، وكم بيت أغلقت، وكم قلب سحقت، فتنهل مدامعي أنهال القطر على خدي الغائر الشاحب؛ وأتمنى لو تعود قدرتي على ثروتي فأمحص خطاياي بإنفاقها كلها في سبيل الله؛ ولكن هيهات هيهات لما أرجو! لم يبق لي منها إلا حريق القلب في الدنيا، وحريق الجسم في الآخرة! حتى الدواء لا أناله؛ وحتى الكفن لا أرجوه! وكأنما أمات الله نصفي الساعي وأبقى على نصفي الشاعر لأدرك بعيني وفكري وخيالي مضَّ الألم الذي يحسه المظلوم يُغتصب ولا يستطيع أن يدفع، والمحروم يتشهى ولا يستطيع أن يجد، والمهموم يتلظى ولا يملك أن يموت.) ثم يلي ذلك شكوى ضارعة من زوجه الفارك وابنه القاسي وصهره المتعجرف لا تتسع لها الصفحة!

سيدي البك! إن حالك لا تغني فيها دمعة تذرف ولا كلمة تقال. أدع الله معي أن يتغمد خطاياك بالعفو، ويقطع بلاياك بالموت. وإن كنت في حياتك للضعيف شقاء وللأهل

حسرة، فإنك في موتك للفقير عزاء وللغني عبرة!

أحمد حسن الزيات

الشهرة والجماهير

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

في سنة 1909 كنت ألازم من الأدباء صديقنا المرحوم الأستاذ محمد السباعي صاحب كتابي (الصور) و (السمر) ومترجم قصة (المدينتين) لدكنز و (الأبطال) لكارليل و (التربية) لسبنسر وعشرات من الكتب الأخرى. وما أظن بأبناء هذا الجيل إلا أنهم يجهلونه ولا يعرفونه ولا يخطر لهم أنه عاش على ظهر هذه الأرض، وكان له فضل على الأدب الحديث. واحسب أنه سيكون عليَّ أن أعرفهم واذكرهم به إنصافاً له وقضاء لحقه علي فإن له لدينا في عنقي

وكان السباعي - رحمه الله - منهوماً بالأدب لا يشبع، وعاشقاً لا يسلو؛ وقلما رآه أحد إلا وفي يده كتاب أو كراسة. ولا أدري ماذا لفته إلى ابن الرومي، ولكن الذي أدريه أنه كان يذهب إلى دار الكتب وينسخ ديوان ابن الرومي في كراسات ويحفظ أكثر شعره عن ظهر قلب فأعداني بحب هذا الشاعر المنكود الحظ فقلدته واستنسخت شعره؛ فلما كملت عندي نسخته شرعت أبيضها في كراسات بعد تصحيح ما يوفقني الله إلى تصحيحه من الأغلاط التي لا آخر لها في نسخة دار الكتب

وكان صديقنا الأستاذ السيد عبد الرحمن البرقوقي قد أصدر مجلة البيان فاقترح عليَّ أن أكتب عن ابن الرومي ففعلت؛ وكان هذا حافزاً آخر لدرسه، ولكن الحرب صرفتني عن مواصلة الكتابة فانقطعت عنها إلى سنة 1924. وفي أثناء ذلك ظهر الجزء الأول من ديوان ابن الرومي شرح المرحوم الشيخ شريف ثم الثاني بعد وفاته، ومختارات من شعر ابن الرومي جمعها الأستاذ كامل الكيلاني، فوصلت ما انقطع وعدت إلى الكتابة عن ابن الرومي في جريدة الأخبار وجمعت ذلك كله ونشرته في كتابي (حصاد الهشيم) وكان من توفيق الله بعد ذلك لهذا الشاعر المغمور أن عنى به صديقنا الأستاذ العقاد فتناوله بالبحث الوافي والدرس الدقيق في كتابه الجليل عنه

وهكذا برز ابن الرومي من ظلمة الخفاء ونضيت عنه الأكفان التي ظل ملفوفاً فيها أكثر من ألف سنة

خطر لي وأنا أدير هذا في نفسي أن العالم من أبناء اللغة العربية أكثر من مائة مليون، وأن

من هؤلاء نحو عشرة ملايين يقرءون ويكتبون، فكم من هؤلاء يقرأ ابن الرومي والمتنبي والمعري والشريف وأبا تمام والبحتري وأبا نواس وغيرهم وغيرهم. . .؟ لا أكثر من بضعة آلاف قليلة. وجل هؤلاء يقتنون الكتب كما يقتنون التحف ويرصونها للزينة لا للاطلاع، ويتخذونها كما يتخذون السجاجيد والزهريات والصور وما إلى ذلك. والذين يفتحونها، منهم من يفعل ذلك للتسلي وتزجية الفراغ، والأقلون هم اللذين يعنون بالدرس والتحصيل؛ فهم في هذا العالم العربي الطويل العريض لا يعدون بضع مئات. فكأن خلود الأديب في إخلاد الناس ليس معناه أن السواد الأعظم منهم يعبئون به، بل معناه أن قلة ضئيلة هي التي يرجع إليها الفضل في بقاء اسم الأديب مذكوراً وآثاره منشورة

وهذا هو الخلود - ثلاثة أو أربعة أو أكثر من المجانين بشيء لا يزالون يقرعون الطبول باسم من الأسماء ويلحون به على الناس حتى يوقظوا النفوس لهذا الاسم ويوحوا إليها أن صاحبه جدير بالذكر وأن آثاره تستحق الاقتناء

ومن كان لا يصدق فليسأل نفسه: هل شهرة المتنبي مثلاً ترجع إلى تعليق رجل الشارع به. . . أليس الواقع أنه لو كانت شهرته رهناً بعناية الرجل العادي به لما طال عمرها أكثر من بضعة أيام - أسبوع على الأكثر. . . والمتنبي مه ذلك أشهر شعراء العرب، وحكمه لا تزال تدور بها الألسنة وتجري بها الأقلام، وديوانه يعاد طبعه كل بضعة أعوام مرة. ولكن كم نسخة تطبع من ديوانه في كل مرة؟ ألفان. . ثلاثة آلاف. . أربعة آلاف. . في عالم عربي يبلغ عدد القراء فيه عشرة ملايين أو خمسة على الأقل إذا جادلت. . . فما ظنك بحظ الذين هم أقل منه شهرة. .؟

والمدارس والجامعات تخرج في كل عام - في هذا العالم العربي - عشرات من الآلاف تلقوا دروساً في الأدب، وعرفوا أسماء الأدباء وألموا إلى حد ما بخصائص فنونهم

ومميزات آثارهم، ومع ذلك تبقى ثلاثة آلاف نسخة من ديوان شاعر كالمتنبي محتاجة إلى أكثر من عشرات سنوات لتنفد. . . ولولا أن في كل جيل بضعة مجانين بالأدب لا يكفون عن الصياح بأن المتنبي شاعر فحل وأنه رجل عظيم، وأنه جدير بأن يقرأ ويدرس لبقيت هذه الآلاف القليلة من نسخ ديوانه مكدسة في مخازنها لا تجد لها طالباً هؤلاء المجانين القليلون هم الذين ينقذون الشهرات من الفناء ويبقونها حية جيلاً بعد جيل.

فإن لكل جيل مجانينه الذين لا يزالون يبحثون وينقبون حتى يعثروا على عظيم مقبور كما يفعل المنقبون عن آثار المدنيات التي عفى عليها الزمن - لا يعروهم فتور ولا يدركهم ونى؛ حتى ليكاد المرء يعتقد أنه لا خوف من بقاء عظيم مدفوناً وحقه مهضوماً وفضله مطوياً أو مجحوداً. وقد لا يكون في هذا ما يعزى العظيم، ولعله شبيه بمنح القتيل في ساحة الحرب وساما على سبيل الاعتراف ببسالته، والشهادة بحسن بلائه، ولكنه على كل حال يجدي بأن يمنع اليأس من إنصاف الدنيا ولو بعد الأوان.

وحتى حين يفوز المرء في حياته بالشهرة التي يستحقها - أو لا يستحقها كلها - عند الجماهير يكون الفضل في بقاء هذه الشهرة للقلة المتحمسة، لا للكثرة التي لا تلبث أن تذهل عما أحبت ومن أحبت. وبهذا وحده تظل الجماهير تذكر وهي لا تفعل ذلك عن اقتناع أو فهم وإدراك صحيح لاستيجاب الشهرة، بل لأن هؤلاء المجانين الذين لا يخلو منهم زمن يقولون لها عشرة آلاف مرة أو عشرين ألف مرة إن فلاناً عظيم وحقيق بالذكر والتخليد، فتصدق وهي لا فاهمة ولا مدركة. ويقصد آحاد من هذه الجماهير التي فعل الإيحاء في نفوسها فعله - إلى المكاتب ويشترون ديوان المتنبي ويضعونه على الرف ويفركون أيديهم وهم فرحون باقتناء هذه التحفة التي آمنوا بأنها خالدة وأنها أبقى على الزمن من الزمن

وتسأل: لماذا يجن هؤلاء الأقلون بخارجيات السلف، فلا تجد جواباً يقنع العقل وتسكن إليه النفس. ولن تعدم من يقول لك إن سر هذا الجنون هو ما في هذه الآثار من الحق والحكمة والفكاهة والجمال، ولكن هذه لا تزال ألفاظاً تتطلب معانيها التحديد، ومن العبث أن تلعب لي بها وتصنع لي منها توافيق وتباديل، وتزعم أن هذه هي المعاني التي تفهم من هذه الألفاظ التي نشعر بدوران معانيها في النفس وتعيننا العبارة الدقيقة عنها. . . أو هذا على الأقل حالي أنا معها. وإذا كان شاعر مثل (كيتس) يستطيع أن يقنع نفسه بأن الجمال هو الحق، وأن الحق هو الجمال، ولا يحتاج بعد ذلك إلى كلام أو شرح أو بيان، فإني أنا مع الأسف لا يكفيني هذا وإن كنت آنس من نفسي حب كلمته هذه والسرور بها سروراً ليس مرجعه إلى الفهم.

إبراهيم عبد القادر المازني

اسمعوا صيحة الحق

للدكتور زكي مبارك

أخي الأستاذ الزيات:

ما هذا الذي نشرته في مجلتك لبعض أدباء لبنان؟ وكيف جاز أن تقول: (إن في الاطلاع عليه فائدة من جهة صوابه ومن جهة خطأه) وهو بعيد كل البعد من الصواب؟

أفي الحق أن أدباء لبنان ينافسون أدباء مصر؟

ليت ذلك كان صحيحاً. فقد شقينا من غير طائل في البحث عن المنافسين حتى خشينا أن تفتر عزائمنا لقلة من نصاول ونقاتل من أقطاب البيان

إن ذلك الأديب اللبناني دلنا على أن العقل في بعض البيئات الأدبية في لبنان لا يزال في طور الطفولة البريئة، وكل شيء من الأطفال الأبرياء مقبول

ألم يقل إن مصر لم يصدر فيها كتاب واحد ذو قيمة لمؤلف مصري صميم؟

فإن لم يكن هذا الحكم من أحكام الأطفال الأبرياء، فكيف تكون أحكام الأطفال الأبرياء؟

ولنفرض أيها الأخ أن مصر ليس لها وجود أدبي كما يتوهم بعض أهل لبنان، فهل لكم أن تدلوني على الأسباب الصحيحة التي قضت بأن يبذل المستعمرون ما يبذلون ليشوهوا سمعة مصر في الأقطار العربية؟

هل لكم أن تدلوني على الأسباب التي قضت بأن يشقى المستعمرون في الحيلولة بين مصر وبين الأقطار العربية؟

إن المستعمرين يعرفون أن مطامعهم في الشرق لن تتحقق إلا يوم تضعف اللغة العربية ويضعف سحر المصحف؛ وهم يعرفون أن مصر تستقتل في سبيل اللغة العربية وفي سبيل المصحف؛ ولبعض ساستهم الكبار كلمة مأثورة وصلت إلى أسماع من في القبور وإن لم تصل إلى آذان بعض الأحياء!

وأنا لا أتهم من يشوهون سمعة مصر الأدبية بأنهم يخدمون بعض الأغراض الشيوعية أو الاستعمارية، فذهني لا يسيغ أن يكون فلان وفلان من أهل الضلال؛ ولكني أرجو أن ينتبه فلان وأشياع فلان إلى أنهم يخدمون المستعمرين من حيث لا يشعرون. والغفلة قد تكون أقبح من الإثم الصريح

وما الذي يغنم بعض أدباء لبنان من الطعن في الثقافة المصرية؟ أيستطيعون أن يدعوا لأن في مقدورهم أن يمدوا أهل بلادهم بكل ما تتطلع إليه الأذواق والعقول؟ أيستطيعون أن يدعوا أن أهل بلادهم من القناعة والزهد بحيث يكتفون بما يصدر في لبنان من مؤلفات وجرائد ومجلات؟

أيستطيعون أن يدعوا أن أدباء مصر لا يملكون من وسائل العناد والغطرسة ما يملك بعض أدباء لبنان يوم يستعر الجدال؟

أيستطيعون أن يدعوا أننا سنصفح أبد الدهر عن تطاول بعض الناس فلا نجزيهم عقوقاً بعقوق؟

لقد زرت لبنان، فماذا رأيت؟

رأيت الطبيعة ورأيت الناس، ويعز عليّ أن أصرح بأن بعض الناس في لبنان يصدون النفوس عن التطلع إلى جمال الطبيعة في لبنان.

وما الذي يهمنا من الجبل وهو صامت لا ينطق؟ وما الذي يهمنا من جبل لبنان يوم يصح أن أبناءه يؤذون العروبة جاهلين أو عامدين؟

لقد تعقبتني إحدى مجلاتهم وأنا في بغداد فكتبت تقول:

(سفير العروبة المصرية في العراق يطعن صدر لبنان)

وقد كتبت رداً مفحماً على ذلك المقال الجائر الظلوم، ثم طويته ترفقاً بلبنان الذي أرجو أن يظل بإذن الله من حصون اللغة العربية. وأنا مستعد لنشر ذلك المقال إن أذن أصدقائي الكرام من أهل لبنان

إن أدباء مصر يملكون من الثروة الذوقية ما لا يملك بعض الناس، فأدباء مصر هم الذين يشيدون بمحاسن الأقطار العربية، وهم الذين يضفون الجمال على كل بلد يحلون فيه؛ والى أقلامهم يرجع السحر الذي يتمتع به جبل لبنان

وأنا مع ذلك أشهد بأننا نرد إلى أهل لبنان بعض ما طوقوا به أعناقنا من وداد: فلمصر في لبنان مكانة عالية. وفي أدباء لبنان رجال أبرار لا يذكرون مصر بغير الجميل؛ ومن أجل هؤلاء الرجال الأبرار تتسع صدورنا لما نسمع من فلان وأشياع فلان، لأننا نعرف أن المرء لا يمثل أمته حين يخطيء، وأنما يمثلها حين يصيب

ثم ماذا؟

قالوا: إن مصر مدينة في بعض نشاطها الأدبي إلى ناس كان أجدادهم من لبنان وهذا حق

ولكني أتحداكم أن تثبتوا أن لبنان نبغ فيه أديب واحد ولم يكن مصدر نبوغه الاتصال بالثقافة المصرية

أتحداكم أن تثبتوا أن في مقدوركم أن تنقلوا إخوانكم في مصر إلى مرابعهم في لبنان

إن الأدباء السوريين واللبنانيين لم يذوقوا طعم المجد الأدبي إلا بعد أن شربوا ماء النيل، وفلان وأشياع فلان سيظلون من النكرات إلى أن يذوقوا ماء النيل

فتعالوا إلينا أيها الإخوان لنحولكم إلى رجال عظماء يسيطرون على الأدب والتاريخ

إن القاهرة تصنع بعقول العرب في العصر الحديث ما كانت تصنع بغداد في عصر بني العباس؛ فإن استطعتم طمس نور الشمس فامضوا في عنادكم آمنين!

أتشتم مصر في لبنان وبفضل مصر تنبه العرب إلى جمال لبنان؟

ثم ماذا؟

ثم زعم فلان وأشياع فلان أن أمثال الدكتور طه حسين والدكتور هيكل والأستاذ أحمد أمين والأستاذ لطفي جمعة لم يصنعوا شيئاً وأنهم في مؤلفاتهم لم يكونوا مبتكرين

فهل يستطيع فلان وأشياع فلان أن ينكروا أن لهؤلاء الرجال فضلاً عظيماً في نشر

الثقافة الأدبية والعلمية والذوقية؟
هل ينكر أحد أن الدكتور طه حسين رجل موهوب وأن صوته وصل إلى المشرقين؟
هل ينكر أحد أن الدكتور هيكل من أعاظم المتحدثين عن شخصية الرسول؟
هل ينكر أحد أن الأستاذ أحمد أمين وضع أحجاراً متينة في تاريخ الحضارة الإسلامية؟
هل ينكر أحد أن لطفي جمعة له أبحاث وفصول تعد من الروائع؟
ومن هو الأديب الذي يسمح له ضميره بأن يتجاهل أقدار هؤلاء الرجال؟
قد يتطوع أحدكم فيبعث ما كنت قلته في طه حسين وأحمد أمين وأنا أعرف أني قلت في هذين الرجلين ما قلت باسم النقد الأدبي، ولكني مع ذلك أعرف أنهما من أقطاب هذا العصر، وليس لهما نظير في لبنان أو غير لبنان، وسيكون لهذين الرجلين صدى مسموع
في الأقطار العربية يمتد إلى أجيال وأجيال
احب أن أعرف لحساب من يتعب بعض الناس أنفسهم في الغض من الثقافة المصرية؟ فمن المستحيل أن يكون هذا التحامل خالصاً لوجه الله والأدب. ومن البعيد أن تكون تلك النزوات بريئة من شوائب الأغراض
لقد آن أن نعرف أن الاستعمار يغزونا من كل جانب. آن أن نعرف أن الاستعمار يريد أن يتخلص أولاً من تفوق مصر في خدمة اللغة العربية، لأنه يفهم جيداً أن سيطرة الثقافة المصرية تقوم بفضل اللغة العربية، وهو يرجو أن يخرس لسان العرب لتحتل مكانه ألسنة روما ولندن وباريس
الاستعمار يفهم أن القاهرة صارت محور الحركة العربية، ففيها تُعقد المؤتمرات، وفيها يلتقي العرب بعضهم مع بعض، وفيها تحل المعضلات، وإليها يرجع الأمر في فض الخصومات العربية، وهو من أجل ذلك يبذل جهده الأثيم في تنفير العرب من الثقة بالأمة المصرية
فكيف يغفل بعض إخواننا في لبنان عن هذه الحقائق؟
كيف ينسى بعض إخواننا في لبنان أن للمستعمرين مكراً يخفي على إبليس؟
كيف يجهل بعض إخواننا في لبنان أن تلك الحركة قد تسوق أهل مصر إلى نفض أيديهم من صداقة لبنان؟
وهل يظنون أن أهل مصر من الملائكة وأنهم لا يعرفون في جميع الأحوال غير الصفح الجميل؟
أرجو أن يعرف بعض إخواننا في لبنان أننا نلاقي كثيراً من العَنت والمشقة في تبديد ما يحيطون به أغراضهم من ظلمات وشبهات.
أرجو أن يعرفوا أن قالة السوء قد تطِّوق أعناقهم إذا فكرت الصحافة المصرية في دفع ما يوجهون إلى مصر من زور وبهتان
أرجو أن تعرفوا جميعاً أن يد الله مع الجماعة. أرجو أن تعرفوا أن العروبة تستطيع أن تنسى أن في الدنيا بلداً اسمه لبنان يوم تثق بأنه يضع الأشواك في طريق الوحدة العربية، ولكن ذلك اليوم سيكون مشئوماً لأن العرب يؤذيهم أن يضيع لبنان
هل تصدقون أنني دافعت عنكم في دمشق وبغداد؟
هل تصدقون أن الحزن يفعم قلبي كلما تذكرت أن الدسائس الاستعمارية قد تبعدكم عنا إلى غير معاد؟
هل تصدقون أني طربت حين رأيتني أُشتَم في بعض مجلاتكم باللغة العربية لا باللغة الفرنسية؟
وأؤكد لكم أيها الإخوان أني لا أتصدق عليكم بهذا العطف الصادق، فلو جُمع ما نُشر في جرائدكم ومجلاتكم من الدعوة إلى الثقة بمصر لتكوّن منه محصولٌ أدبيٌّ نفيس.
ونحن نعرف منزلتنا في قلوبكم، ونحرص على أن تبقوا أصدقاء أوفياء، ولكنكم تعرفون أن الطبيعة الإنسانية يغلب عليها الضعف، فهي قد تذكر السيئات وتنسى الحسنات. فأرجوكم بالله ألا تحبطوا أعمالكم بمظاهر الغدر والجحود، فقد تلقون منا من يقابل العدوان بالعدوان
أما بعد فهذه كلمة صريحة أردت بها وجه الحق، وما أنكر أن فيها بَدَوات لا تخلو من خشونة وعنف، ولكن يعزيني أني كنت فيها مخلصاً كل الإخلاص

ولكم أن تثقوا بأن مصر لن تقف إلا حيث تحبون، ولن تروا منها غير الصدق والوفاء.
زكي مبارك
من برجنا العاجي
هل ينتظر اللغة العربية والأدب العربي الحديث في مصر مستقبل سعيد؟ لقد بدرت البوادر بشروع بعض الأجانب في الإقبال على تعلم اللغة العربية والاهتمام بمعرفة كتاب مصر البارزين. من رأيي أن الحياة لن تدب في هذه اللغة وهذا الأدب إلا إذا ظفر بقراء كثيرين من هذا العنصر النشط المثقف. وإني لأتخيل اليوم الذي يتم فيه ضم أجانب مصر أو أغلبهم إلى حظيرة قرائنا في لغتنا. هؤلاء الأجانب الذين يعدون القراءة غذاء ذهنياً له ضرورته في حياتهم اليومية، شأنهم في ذلك شأن الحاجات الأولية؛ هؤلاء الآلاف القليلة من الأجانب الذين استطاعوا أن يكفوا لرواج حوانيت الكتب الأجنبية التي لا يخلو منها شارع كبير في أي مدينة كبيرة من مدن هذه الدولة العربية اللغة؛ هؤلاء النفر الذين استطاعوا أن ينشئوا لأنفسهم صحفاً ومجلات بلغاتهم المختلفة وأن يضمنوا لها حياة وازدهاراً. ترى ما الذي يحدث لو أن هؤلاء فهموا أخيراً أن استقلال مصر وسيادتها معناه سيادة لغتها وآدابها وفنونها على الأقل فوق أرضها وفي حدود بلادها وأن الخير والكياسة والمصلحة تقضي عليهم أن يكفوا عن تجاهل لغة الدولة وأن يعيشوا بيننا كما يعيش كل أجنبي في دولة محترمة، يعني بتعليم لغتها والاطلاع على أدبها ومسايرة الحياة الذهنية والاجتماعية فيها؟ لا ريب عندي، لو وقع ذلك الحدث، في أن أدبنا سيتغير ويتطور في مثل لمح البصر تطورات تثير الدهشة والعجب. ليس فقط لأن نتاج فكرنا سيرتفع شأنه في السوق، بل لأنه سيرتفع في ذاته من حيث الصنف والقيمة. فإن القارئ الجيد يخلق الكاتب الجيد، و (الزبون) المحترم يوجد الحانوت (المحترم).
لكن. . . كيف نحمل الأجانب على ارتياد (حانوتنا) الفكري وأكثره قد استقرت في نفسه بغير علة فكرة الاستخفاف بلغتنا؟ ما هي الوسائل التي ينبغي أن نتخذها لنزع هذه الفكرة عنه وترغيبهم في بضاعتنا؟
هذا سؤال مطروح على القراء المثقفين
توفيق الحكيم
بين القديم والجديد
لأحد أساطين الأدب الحديث
عاب الأستاذ الغمراوي على عميد كلية الآداب الدكتور طه أنه اختار في كتاب (حديث الأربعاء) مجموعة من شعر المجون العباسي، ولا أريد أن أتعرض الآن لهذا الاختيار بنقد مطول وإن كنت أعتقد أنه جعل الكتاب غير لائق إلا لقراءة المؤرخ الباحث في آداب الشعوب في العصور المختلفة، وأنه ليس للقراء عموماً؛ وهذا لم يكن رأي مؤلفه عندما ألفه، فإني أذكر أنه عاب على الشيخ الحضري حذفه المجون من نسخة الأغاني التي هذبها وقال: إن دارس الأدب لا بد أن يقرأ هذا الشعر كيلا يخطئ في الحكم على عصره. وكان الدكتور يجد له طلاوة خاصة يستحق من أجلها الصيانة. ولا ادري هل الدكتور لا يزال على هذا الرأي أم أن جلال المنصب قد حوره؛ لكني أريد أن استخلص من ذكر الأستاذ الغمراوي كتاب (حديث الأربعاء) حجة على الأستاذ الغمراوي؛ فالشعر الذي اختاره المؤلف فيه شعر عربي، والأستاذ الغمراوي يقول إن الأدب الأوربي هو الذي أفسد المذهب الجديد في الأدب بمجونه. فكأنما يريد الأستاذ الغمراوي أن يقول إن اطلاع الدكتور طه حسين بك على الأدب الأوربي هو الذي دعاه إلى اختيار شعر الحسين بن الضحاك وشعر أبي نواس وغيرهما. فإذا كان هذا قصده ومعناه فأن الأستاذ الغمراوي يكون على حد اصطلاح الأوربيين كمن يضع العربة أمام الفرس بدل أن يضع الفرس أمام العربة وهو الترتيب الطبيعي، لأن الدكتور طه قرأ الشعر العباسي قبل أن يقرأ الأدب الأوربي، وتأثر بالشعر العربي قبل أن يتأثر بالشعر الأوربي، وإني واثق أنه اطلع في الأدب الأوربي على الوقور وغير الوقور من الشعر. اطلع على شعر سوفوكليز ويوربيدس وإسكيليس. فهل يريد الأستاذ الغمراوي أن يقول إن اطلاع الدكتور طه حسين على شعر سوفوكليز مثلاً هو الذي أغراه باختيار شعر الحسين بن الضحاك؟ إنه إن قال هذا القول دل على أنه لم يطلع على شعر سوفوكليز وقس على ذلك غيره من الشعراء ولا أدري أي الشعراء الأوربيين هم الذين

أوعزوا إلى الدكتور باختيار شعر مجان العرب. هل قراءته لشعر بودلير أم قراءته لشعر فرلين؟ إني لم أقرأ في شعر بودلير وفرلين (وقد قرأت بعضه) ما يماثل بعض شعر أبي نواس والحسن بن هاني في صراحته. ولا أظن أن الجمهور الأوربي كان يطيق من بودلير أو فرلين صراحة كصراحة أبي نواس والحسين بن الضحاك. إذاً يستحيل أن يكون بودلير أو فرلين هو الذي أغرى الدكتور باختيار شعر الحسين بن الضحاك أو شعر أبي نواس، لأن الأشد صراحة في المجون هو الذي يبيح ما هو أقل منه شدة. فأبو نواس هو الذي يبيح فرلين وبودلير، وليس بودلير هو الذي يبيح أبا نواس. وإذا عرفنا أن الدكتور تأثر بالشعر العربي الأشد صراحة في صباه ولم يطلع على الشعر الأوربي الأقل صراحة إلا بعد أن رسخ أثر الأول في نفسه علمنا أن ما زعمه الأستاذ من أثر الشعر الأوربي خاصة والأدب الأوربي عامة في التأثير على المؤلف وفي تعيين اختياره لما اختار في كتاب (حديث الأربعاء) زعم غير رجيح. وعلى هذا القياس يكون أيضاً زعمه غير رجيح في تعليل اختيار الدكتور طه حسين بك للقصص الفرنسية التي كان ينقلها إلى العربية، وكان ينشرها هيكل في السياسة الأسبوعية، وهي القصص التي يشكو منها الأستاذ الغمراوي فإنها مهما بلغت في صراحتها، أقل صراحة مما قرأه الدكتور طه في صباه من القصص العربية في كتاب (مصارع العشاق)، وغيره؛ وإذا يكون مثل الأستاذ الغمراوي في تعليله كمثل من يحسب السبب نتيجة والنتيجة سبباً، أو كمن يقوم بتجربة كيميائية في المعمل فيبدأ التجربة من آخر خطواتها سائراً إلى أولها. والحقيقة أن الأستاذ الغمراوي أحياناً في مقالاته يتخلى عن التعليل الطبيعي ويفضل التعليل المصطنع، ويتخلى عن ترتيب المؤثرات الطبيعي ويفضل الترتيب المصطنع. فهو مثلاً يقول إن في المذهب الجديد شططاً، وبدلاً من أن يعلل هذا الشطط التعليل الطبيعي القريب بما اكتسبته العقول والنفوس من شغف بتذوق التجارب النفسية والعقلية بسبب الحوافز الاجتماعية وغير الاجتماعية، وهذا الشغف قد يؤدي إلى الشطط؛ وبدلاً من أن يعلله بازدياد الحرية السياسية والقانونية وهي قد تؤدي إلى هذا الشطط؛ وبدلاً من أن يعلله بأنه من أثر نشر الطباعة العربية الحديثة للكتب العربية التي فيها أمثال ما يشكو منه كما علل المؤرخون الأوربيون بعض الشهوات في نزعة التجديد والإحياء في القرن السادس عشر في أوربا بطبع كتب الأدب الإغريقي القديمة - أقول بدل أن يأخذ بهذه الأسباب الطبيعية التي لها نظائر في التاريخ - والتاريخ يفسر بعضه بعضاً - تراه يغفل كل هذه الأمور ويقول: إن أعداء الدين الإسلامي من الأوربيين رأوا أنهم لا يستطيعون النيل من الإسلام قدر ما ينالون منه بمؤلفات الدكتور طه حسين ومؤلفات هيكل باشا القديمة قبل كتاب (حياة محمد) و (منزل الوحي). وقد يسيء القارئ فهم تعليل الأستاذ الغمراوي ويتساءل: هل يعني الأستاذ الغمراوي أن نزعة التجديد دسيسة مقصودة مدبرة؟ أرجو ألا يجسم الوهم المسألة للأستاذ إلى هذا الحد، فإنه عالم قد اختبر البحث العلمي، وهو كالعلماء لا بد أن يترك التعليل البعيد ما دام هناك تعليل طبيعي له شواهد ونظائر في التاريخ كما أوضحنا بذكر ما كان من الشطط في نهضة إحياء العلوم في أوربا في القرن السادس عشر. فلو أن مؤرخاً زعم أن الوثنيين خفية راموا القضاء على المسيحية ببثهم الشهوات والمفاسد في الكتب الإغريقية ما كان تعليله بعيداً عن طريقة الأستاذ الغمراوي في تعليل شطط النزعة الحديثة إلى التجديد. أو لو أن مؤرخاً زعم أن الفرس والروم في صدر الإسلام أرادوا النيل من الإسلام ببثهم المفاسد والترف حسداً وحقداً ما كان تعليله بعيداً عن تعليل الأستاذ. أو لو أن مؤرخاً زعم أن مفكري الإغريق حاولوا إفساد العقائد الإسلامية في عصر الدولة العباسية ببثهم روح التفكير الحر المطلق من قيود الدين حنقاً وحقداً على الدين الإسلامي ما كان تعليله بعيداً عن تعليل الأستاذ. والحقيقة أننا ربما نكون قد فهمنا من كلامه عن أعداء الدين الإسلامي ومحاولاتهم القضاء على الدين الإسلامي بنزعة التجديد ومؤلفات المجددين المصريين أكثر مما يقصد الأستاذ، لأننا لا نستطيع أن نتصور أن عالماً جليلاً كالأستاذ الغمراوي يريد أن يقول: إن بين الدكتور طه مثلاً وبين أعداء الدين من الأوربيين تفاهما واتفاقاً على الدين الإسلامي. إنما ينبغي ألا يترك الأستاذ لجمهور القراء موضع لبس، لأن اللبس في هذه الأمور قد تكون له عواقب خطيرة. ولا أدري لماذا اعترف الأستاذ

الغمراوي بما في الأدب القديم من مفاسد ولم يستطع أن يعترف بما لهذه المفاسد من أثر في الأدب الجديد، وما هذه إلا خطوة بعد تلك الخطوة، وهي نتيجة لها؛ ولا يستطيع أن يخطو خطوة إلا وهو ينظر إلى خطوته الثانية؛ وقد خطونا خطوتين فاعترفنا أن الأدب الجديد به عيوب وأن بعضها يرجع إلى بعض المؤلفات الأوربية؛ فالخليق بالأستاذ أن يعترف بأن بعضها أيضاً أو أكثرها يرجع إلى قدوة المؤلفات العربية؛ والخليق به أن يعترف أن ليس كل الأدب الأوربي من نوع القصص التي كان يشكو من نشر السياسة الأسبوعية لها، وأن يتعرف أنه إذا كان بعضها صريحاً في تصوير الشهوات فإن بعضها جليل؛ وأن الصريح منها أقل صراحة من بعض ما في كتب القصص العربية؛ وأن يعترف أن شاعراً كشكسبير لا خطر منه على الإسلام، فلا هو مبشر بالمسيحية ولا هو ملحد وداعية للإلحاد. وما يصدق في الكلام عن شكسبير يصدق في الكلام عن ألف شاعر وألف كاتب من شعراء الأوربيين وكتابهم. وخليق بالأستاذ أن يعترف أيضاً أن بين الكيميائيين وعلماء الطبيعة الأوربيين من هم أشد خطراً على الإسلام من كثير من أدبائهم، لا لأنهم يحقدون على الإسلام ويريدون الكيد له، بل لأن علمهم الطبيعي شط بهم عن الأديان.

وأظن أن لنا بعض العذر إذا فهمنا بعض ما فهمنا من قول الأستاذ عن أعداء الدين الإسلامي من الأوربيين إذ قال أنهم أرادوا ألا يهاجموا مواجهة بل بحركة التفاف، وأن حركة الالتفاف هذه هي نزعة بعض الكتاب المصريين إلى التجديد، وذكر مؤلفات الدكتور طه حسين عميد كلية الآداب ومؤلفات هيكل القديمة، فبالله كيف لا يكون للجمهور العذر إذا فهم من قول الأستاذ الغمراوي أن الدكتور طه حسين وهيكل من دعاة أعداء الدين الإسلامي ومن عمالهم السريين القائمين بحركة الالتفاف هذه بدل مهاجمة الدين الإسلامي مواجهة، وعلى فرض أن تأليف الدكتور طه كتاب (على هامش السيرة) وتأليف هيكل (حياة محمد) و (منزل الوحي) لم يقنع الأستاذ الغمراوي بخطأ رأيه فيهما ألا يقنعه تأليفهما هذه الكتب أنهما لا يريدان معاونة الحاقدين على الدين الإسلامي من الأوربيين للقيام بحركة الالتفاف كما يقول الأستاذ وأنه إن كان في تأليفهما القديم أو الحديث شطط فأسبابه ما أوضحنا من الأسباب الاجتماعية، ومن شغف جديد بالبحث قد يخطئ وقد يصيب، لا لأنهما يريدان معاونة الحاقدين على الدين في القيام بحركة التفاف. ولو أن كاتباً في أوربا في بدء نهضة الأحياء في القرنين الرابع عشر والخامس عشر اتهم رواد النهضة في أوربا بأنهم يريدون القيام بحركة التفاف معاونة لمن يكره المسيحية من المسلمين لما تعدى قوله قول الأستاذ الغمراوي. ولا أظن أن الأدباء في أوربا يسعون سعياً حثيثاً لمهاجمة الإسلام؛ وإن كان بعض الكتاب الأوربيين يفعل ذلك فإنه لا يفعله كأديب ولا كمفكر عالم ولكن كمبشر بدين آخر. وإذا كان بين أدباء المسلمين ومفكريهم وبين الأدباء والمفكرين في أوربا صلة فهي ليست صلة عداء لدين بل صلة بحث وتفكير قد يخطئ وقد يصيب. وبالرغم من أن الأستاذ الغمراوي قد فسر قوله (إرادة تغليب دين على دين) تفسيراً جديداً فإنه يحوم ويحلق دائماً في جو المعنى الذي فهمناه من قوله.

إن المؤرخين المعاصرين في أوربا يميل الكثير منهم إلى الاعتقاد أن النزعة إلى التجديد في أوربا في القرن السادس عشر كانت لا بد واقعة بمحاسنها ومفاسدها لأسباب أصيلة في دول أوربا حتى ولو لم يكن للعرب أثر فيها. وربما يدعونا هذا الرأي إلى بحث رأي يقابله والى أن نتساءل إلى أي حد كان التغيير الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الحديث في مصر مؤدياً حتماً إلى النزعة إلى التجديد بمحاسنها ومفاسدها حتى ولو لم يكن للأدب الأوربي أثر فيها قل أو كثر وإني واثق أن الأستاذ لو بحث هذا الموضوع وجد في هذا الرأي من الحقائق ما يصح الاعتراف به حتى ولو لم يقره كله على علاته.

قارئ

على هامش الفلسفة

الحقائق الأخلاقية أيضاً

للأستاذ محمد يوسف موسى

قلنا إن من الخير والواجب عند تاريخ التقاليد والحقائق الأخلاقية أن يلاحظ الباحث ما

كان من اختلاف بل تناقض أحياناً بين كثير من التقاليد الضيقة، وما كان من تشابه عجيب وانسجام نادر بين المثل الأخلاقية العليا التي عارض بها دعاة الإصلاح وفلاسفة الأخلاق ومعلمو الإنسانية تلك التقاليد. وذلك ما يدعو للقول بأن هؤلاء المصلحين كانوا يصدون عن معين واحد فيما وقفوا أنفسهم على تحقيقه

من الممكن أن نذكر في معرض التمثيل لذلك في الأزمنة العريقة في القدم حكيمي الهند والصين (بوذا وكونفشيوس) وسقراط الإغريق وأنبياء بني إسرائيل وفلاسفتهم وحكماءهم، وأخيراً المسيح ومحمداً عليهم أفضل الصلاة والسلام

في تراث الهند الروحي وتعاليمها السامية يجد الباحث تعاليم أخلاقية صالحة حقاً، أو يجب أن تكون كذلك لكل الناس. منها: لا تقتل، لا تكذب، لا تشرب المسكرات، لا تأخذ مال غيرك ولا زوجته. هذا بعض التعاليم السلبية؛ وفي التعاليم الإيجابية نجد الأمر بالصبر والرحمة والتسامح والإغضاء عن الأذى ونكران الذات والتضحية في سبيل الغير. يقول بوذا نفسه في بيان وجوب مقابلة السيئة بالحسنة: (إذا كان الحقد يرد على الحقد بالمثل كيف ينتهي إذن). وللبوذيين مثل بديع في وجوب الإحسان هو (أن أرنباً لا يملك قوته عز عليه أن يرد سائلاً طلب ما يمسك به رمقه، فشوى نفسه له حتى لا يرجع خائباً) هذا المثل يبين بإعجاب كيف يجب أن يساعد المرء غيره بما يملك من وقت ومال، بل وبذات نفسه أيضاً. ويحضرني في هذه المناسبة قول الشاعر العربي:

ولو لم يكن في كفه غير نفسه ... لجاد بها فلْيتق الله سائله

وإذا تركنا الهند إلى الصين نجد كونفشيوس حكيمها الأكبر يبشر في القرن السادس قبل الميلاد كسابقه بأخلاق يحكم العقل السليم بصلاحيتها للجميع، كأن يوصي بالاعتراف بالخير والجميل للأموات، بالشفقة البنوية، بالإخلاص الأخوي، بالأدب الذي منبعه القلب، بالمعاملة الحسنة لجميع الناس على السواء. بعض كلماته تمثل نمطاً عالمياً من التفكير

وأخلاقاً تفرض نفسها فرضاً. هاهو ذا يقول: (من المعرفة الحقة أن يكون المرء عارفاً ويعلم أنه عارف، أو جاهلاً ويعلم أنه جاهل. العاقل لا يرفض كلمة طيبة لأنها جاءت من شرير. يجب مقابلة الخير بالخير (لعل هذا خطأ مطبعي وأن الصواب مقابلة الشر بالخير) والظلم بالعدل. أحبوا الآخرين كأنفسكم). ولما حانت ساعته رفض أن يصلي (تلاميذه لأجله وقال في نبل وإيمان: حياتي كانت عبادتي وصلاتي

وفي اليونان القديمة نرى سقراط مؤسس علم الأخلاق يأمر، ضمن ما يأمر به، بأن يكون المرء سيد نفسه؛ بالشجاعة، وبالعدالة إلى غير ذلك من الصفات الأخلاقية العامة. وفي ساعة موته دفع بشجاعته إلى حد البطولة حين يقول لقضاته، وقد قدم للمحاكمة متهماً ظلماً بالسفسطة والإلحاد وإفساد الشباب: (لشد ما أنتم في الضلال إذا كنتم تعتقدون أن رجلاً يعرف لنفسه بعض القيمة يفاضل بين حظوظ الحياة والموت، وبين البحث دائماً عما إذا كان ما يعمله عدلاً أو غير عدل) وحين يقول لتلميذه: (كريتون لا ينبغي أن نجترح أي ظلم حتى ولو كنا ضحايا الظلم الآخرين. عمل الشر للغير هو الظلم بعينه. لا يجب مقابلة السيئة بمثلها).

وإذا تركنا اليونان، وعرجنا على بني إسرائيل، نجد أنهم كانوا في فجر تاريخهم لا يعتقدون واجباً إلا لإلههم المحلي وأنفسهم حتى جاءهم أنبياؤهم وحكماؤهم بالمبادئ الأخلاقية الرحبة الواسعة. وفي ذلك يقول أحدهم في القرن السادس قبل الميلاد: (ليس لجميع الشعوب إلا إله واحد كل العالم معبده، وتكريمه أن يكون الكل عادلاً). وفي التلمود: (أحبب غيرك كنفسك. لا تعامل غيرك بما لا تحب أن يعاملك به). وهذه الحكمة أخذها أحد حكمائهم وهو: (هلِّي الذي عاش في القرن الأول قبل الميلاد مبدأ له. فهي عنده كلمة الشريعة وما عداها مجرد تفسير لها. وفيه أيضاً: (من يفعل الخير حباً في الخير يكن من أصدقاء الله). وجاء في كلمة للكاتب الروسي الكبير (مكسيم غوركي) هذه الحكمة السامية لهلّيل الحكيم السابق ذكره: (إن لم تكن لنفسك فلمن تكون؟ ولكن إن كنت لنفسك فقط فلم تكون؟). وقد تأثر غوركي بما في تلك الكلمة من معنى إنساني نبيل، وحكمة عميقة حتى ليقول: (إن حكمة هلّيل هي النبراس الذي هداني السبيل وما كان سهلاً سوياً)

بعد هؤلاء جميعاً نذكر عيسى عليه السلام الذي جاء معارضاً لما وجده من تقاليد عتيقة

ضيقة بمثل أخلاقي عال صالح للناس جميعاً. كان مما بَّشر به: (حب المرء لله أن يحب قريبه كنفسه) وليس القريب هنا هو الإسرائيلي مثلاً، بل الإنسان للإنسان: (عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به. إن وصيتي لكم أن يحب بعضكم بعضا كما أحببتكم، لا يوجد حب أعظم من أن يعطى المرء من حياته لأصدقائه).

أما محمد: صفوة الخلق كافة، خاتم الأنبياء والمرسلين. فقد جاء في الأخلاق بما يعتبر بحق المثل الأعلى الكامل: (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه، وبالوالدين إحسانا). . . إلى آخر هذه الأوامر الحكيمة الذهبية العالمية التي احتوتها تلك الآيات الكريمات: (وجزاء سيئة سيئة مثلها. فمن عفا وأصلح فأجره على الله. إن أكرمكم عند الله أتقاكم. يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود. إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهي عن الفحشاء والمنكر والبغي، يعظكم لعلكم تذكرون). ويضاف لهذا ومثله قوله صلى الله عليه وسلم: (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه). (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) (الدين المعاملة).

وهكذا نرى أن كثيراً من ذوي الضمائر الإنسانية عارضوا التقاليد والإفهام الضيقة التي كانت مقبولة في أزمانهم وبيئاتهم بمثل عليا؛ وبعبارة أخرى بمثل أعلى أخلاقي حكموا حقاً بصلاحيته للجميع دائماً. وصلوا لذلك لأنه أتيح لهم أن يتخطوا الجماعات التي كانوا يعيشون بينها، ونجحوا في الدخول في حظيرة الإنسانية الخالدة والحياة العامة التي لا يحدها مكان أو زمان

هذه الأفكار الأخلاقية العالمية التي وصل إليها أصحاب الضمائر العالية النيرة بعد تفكير عميق تجاوزوا به أزمانهم وبيئاتهم وأممهم إلى الإنسانية العامة في أوسع حدودها. هذه الأفكار السامية التي يجب أن تكون مقبولة منا جميعاً، أليس لنا أن نقرر أنها حقائق أخلاقية عامة فتكون الأخلاق لذلك علماً من العلوم؟ بلى وربي، إنه مما لا مرية فيه أن هذه الآراء ليست شعاراً ومبادئ مقدسة للناس جميعاً يصدرون عنها في أعمالهم دائماً. هذه حقيقة لا ريب فيها، ولكن الحقائق العلمية لا تزيد عليها في هذا المعنى حينما يعرف العلماء الحقيقة العلمية بأنها الاتجاه العقلي العام نحو مركز واحد أو نتيجة واحدة، أو بأنها الشيء الذي تتجه إليه العقول كلها وتقبله - حينما يعرفونها بهذا أو ذاك لا

يقصدون أن هذا الاتجاه العام محقق، بل يقصدون أنه أمنية يرجون يوماً ما أن تكون.

وفي الواقع لا يقبل كثير من الناس الذين لا يزالون على الفطرة والجهالة الأولى التفسيرات العلمية الصحيحة لكل الظاهرات الكونية كالرعد والبرق والمطر والكسوف والخسوف، بل لا يزال منا معشر المصريين من يعلل هذه الظواهر ونحوها بما لا يتفق مع العقل في شيء. ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون. فحين يعلن العلماء أن الحقائق العلمية محل اتفاق جميع العقول، يكون الغرض العقول الموهبة القادرة على الحكم الصحيح، أو الأمل أنها تكون حقاً ذات يوم محل اتفاق جميع العقول بلا استثناء. إذن لنا أن نأمل هذا للحقائق الأخلاقية السابق ذكرها هي وأمثالها، فنقول: هناك حقائق أخلاقية تفرض نفسها على الضمائر السليمة، وإنها من الآن مقبولة من كل وهب القدرة على الحكم الصائب كما أنها ستكون يوماً ما، قريباً أو بعيداً، مقبولة من الجميع عندما ينظر المرء نظرة واسعة تنتظم العالم بأسره وتعتبر الناس اخوة متساوين فيما لهم من حقوق وعليهم من واجبات

هذا الرجاء الذي يجب أن نقنع به الآن، نجد لحسن حظ الإنسانية أنها تقترب منه شيئاً فشيئاً لعوامل عديدة. هناك قوى هامة مختلفة تعمل للتقريب بين الضمائر وجمعها على مبادئ واحدة من الناحية الأخلاقية كما حصل ويحصل كذلك من الناحية العلمية.

من ذلك انتشار العلم وسهولة اتصال الناس في كافة أرجاء الأرض وسرعة ذلك الاتصال وحدته وتزايده يوماً فيوما لا فرق في ذلك بين السود والبيض وغيرهم من الأجناس المختلفة. هذا الاتصال مستمر الذي طابعه الحدة والعنف بل الوحشية بعض الأحيان كما في حالات الاستعمار، أنتج كثيراً من المظالم والآلام، ولكنه عمل أيضاً على تعارف الأمم وتفاهم الشعوب والقضاء على كثير من التقاليد الأخلاقية الضيقة الخاصة، كما عمل على تبادل المبادئ الأخلاقية واختيار انفعها الضيقة الخاصة، كما عمل على تبادل المبادئ الأخلاقية واختيار أنفعها. وسيؤدي استمرار هذه العملية الواسعة إلى إتاحة الفرصة إلى أن يوسع الناس جميعاً مداركهم ويسموا بترتيبهم حتى

يجاوزوا بذلك الدود الطبيعة من محيطات وبحار وأنهار وجبال ويصلوا إلى أبعد الآفاق. حينئذ يجمعون في عقولهم وقلوبهم كل ما أمكن لشعوب العالم قاطبة خلقه أو كشفه من حقيقة وجمال، ويركزون في ضمائرهم ما يوجد في الحياة العامة من عقل وحكمة ومبادئ أخلاقية نبيلة

والآن وقد ثبت أن هناك حقائق أخلاقية عامة نرى الضمير المستقيم مجبراً على قبولها، ونرى من الواجب أن يقبلها الجميع يوماً من الأيام. لنا الآن من غير إسراف أن نقرر أن الأخلاق علم من العلوم، وأن نعتبره عملاً من أعمال العقل كسائر العلوم الأخرى لا وليد التقاليد أيا كان مصدرها. الأخلاق عمل من أعمال العقل الذي يبحث بكل ما يملك من قوى مختلفة من تفكير وذاكرة وتخيل وتعليل واستنتاج للوصول لحقائق أخلاقية صالحة للجميع

بعد هذا لنا أن نتساءل: ما هي الطريقة التي تتبع في دراسة هذا العلم، في تحديد المثل الأعلى الأخلاقي تحديداً صالحاً طيباً يقبله الناس بلا استثناء؟ ذلك موضوع البحث التالي إن شاء الله.

محمد يوسف موسى
المدرس بكلية أصول الدين

في الحرب

للأستاذ عبد المنعم خلاف

كل زعيم ينشد نشيد السلام ويقف في محرابه على منبره يقدم له الترتيلات والقرابين والنذور. . .

ويلكم! إن السلام هو أن تسكتوا جميعاً عن النقيق والنعيق باسمه. . .

أتذبحونه وتذكرون اسم الله عليه؟!

إن السلام ألا تفكروا في مستقبل الذريات لإسعادها بأشقاء آبائها وطحنهم برحي حروب زَبون. . . بل أن تفكروا في حاضر الآباء الحاضرين الذين تأخذون لقمة بطونهم وتضعونها في بطون المدافع آكلات الأجسام، وهاضمات المدن والخيام!

عدتم إلى فلسفة الردة تمجدون الحرب للحرب، وتضعون لها مكاناً في قلوب الرجال كمكان الأجنة في بطون الأمهات. . والأمهات الوالدات تخرج لكم الكتل اللحمية البشرية كما تخرج معامل الأسلحة مصنوعاتها. . . فتولد كل يد ومعها أظفورها وقنبلتها ومدفعها. . . ويولد كل وجه ومعه قناعه. . .

والشياطين والزبانية تجمع الأحطاب من نغل القلوب وإحن الأفئدة. . وتضع الألغام على منابر الساسة وألسنة الزعماء. . . والإنسانية - العروس الهندية! - تسمع إلى صلوات كهنة النار قبل أن يقذفوها فيها بصبر وعجز، وربما بطرب وسرور؟

وصار كل كاهن يلقي خطبه وتصريحاته المشئومة بإلقاء جميل وإشارات تمثيلية باهرة. . .

ووقفت (العروس الهندية) تنظر إلى أَلسنة الخطباء نظر الأحطاب إلى أعواد الثقاب. . .

واجتمعت في قلوب الزعماء أحقاد أممهم تغلى على الألسنة، فصار كل زعيم يصر على أضراسه لأنه يحس سُعار السلاح في يده. . .

ونظر كل زعيم إلى قرينه قبل أن ينظر إلى مصالح أمته. . . والحرب تتجرد من ثيابها لتبرز إلى الميادين راقصة عارية. . .

عليها تَنُوس ذؤاباتٌ سود وعقود من الجمرات الحمر. . .

وقد خرست أصوات الكهان والمعلمين والدعاة. إن كل هذا يختفي عند لزوم ظهوره وإلا عد أسلوباً من أساليب الخيانة والتثبيط والفت في الأعضاد. . . أن الحيوان المقدس المتمدن لا يزال يعيش بغرائزه على رغم معابده ومحافل السلام فيه ومعاهد العلم عنده. . .

وتكتلت المحصولات والأثمار والذهب لتقذف في النار مع الجماجم والأيدي التي صنعتها وتعهدتها. . .

إذاً لماذا تبنون ناطحات السحاب وتجملون المدن وتقيمون التماثيل والأنصاب وتفرغون على ما تصنعون كل ما تملكون من فن وعلم ما دمتم تهدمون كل أولئك في

لحظة؟
أين الحياة التي يحياها الإنسان في الأرض؟ ومتى؟ إن كل ما في العالم الآن من علم ودين وفن إنما هو إعداد للموت السريع. فأين العمل للحياة والاستقرار؟
أما والله لو لم تكن (الآخرة) التي تصير فيها الإنسانية إلى مصير آخر، أمام عيون الحكماء فلقد يضل ضلالهم ويجن جنونهم!
لقد أسبغت الإنسانية على مظاهر الحرب خلاصة من فنها المغري بها؛ إذ زينت الجنود بزينة فاتنة، وجعلت ثيابهم أفخر الثياب وادعاها إلى العشق والإعجاب، وعشق النساء رجال الحرب أكثر مما عشقن رجال السلم والعلم والفن.
أية خدعة محبوكة الأطراف هذه الحياة يا رب الحياة! إنك تدفعنا فيها إلى غايات مستورة ببعض الحلوى والزينة. . .
تدفعنا بمظاهر الضعف: بالحب، إلى النسل والولادة والعمران وتدفعنا بمظاهر القوة: بالحرب، إلى الموت والعقم والخراب. . .
الحب والحرب هما المظهران الأكبران للحياة، وعلى هامشهما يحيا الفن والشعر والعلم والعمل. . .
حياة محوطة بنواميس في داخل النفس وفي خارجها هي بهما في جذب ودفع. . .
أنحن آلات لا سعادة لها في دنياها إلا العمل، وليس وراء العمل سعادة؟
أظن هذا هو الأصح والأدعى إلى راحة العقيدة في الحياة
وإلى الآن لم يظفر الإنسان - ذلك المخلوق التائه - بنعمة الاستقرار حتى يتيح الفرصة لعلمائه أن يجاهدوا في الكشف عن عرائس أحلامه. . . لأن زعماء القطيع لا يزالون يتغنون بمجد الأنياب والأظفار. . . ولا تزال خيلاء المجد: مجد الديكة المنتفشة تسوق الناس في ضباب من الشعر والألفاظ المعسولة.
(بغداد - الرستمية)
عبد المنعم خلاف
أعلام الأدب
إسخليوس والدرامة اليونانية
للأستاذ دريني خشبة
مقدمة
نشأ شعر الملاحم وترعرع في ظلال الأرستقراطية التي سادت الحياة اليونانية طوال عصر البطولة في القرنين التاسع والثامن، أو الثامن والسابع قبل الميلاد
ونشأ الشعر الغنائي وترعرع في ظلال الأرستقراطية كذلك وامتد إلى منتصف القرن الخامس
وبرع في شعر الملاحم هوميروس صاحب الإلياذة والأوديسة، وهسيود صاحب الأرجا (الأعمال والأيام) والثيوجونية (نشوء الآلهة) ودرع هرقل
وبرع في الشعر الغنائي كل من سافو - شاعرة الخلود - وأليسوس وأنا كريون وأرخليوكوس. . . وقد كان هؤلاء يقرضون الشعر ويتغنون به تسلية لأنفسهم فحسب، أي أنهم لم يكونوا (محترفين)
أما الشعراء المغنون (المحترفون) فقد ألفوا الفرق الغنائية (للغناء والإنشاد والرقص)، فهم بذلك مبتدعو (الخورس) اليوناني. وقد كان أرسطو يطلق على الأغنية من أغانيهم لفظة (دثرامب) (كتاب الشعر لآرسطو)
ومن زعماء الشعراء المغنين ألكمان الشاعر الغَزل الرقيق الذي يعده المؤرخون مبتدع أشعار الحب، وإن تكن سافو فيما نرى زعيمة هذه المدرسة. وقد اكتشفت ماريت باشا سنة 1855 برديّة مصرية بها قصيدة من روائع هذا الشاعر الفحل مما نظم لفتيات الكورس. وفي القصيدة نفحات من الدرام تدل على بداءة الأدب المسرحي
ومنهم الشاعر آريون الذي يُعزى إليه ابتكار الدثرامب (أغاني باخوس)
ومن أعظمهم الشاعر تيزياس الذي يعدونه في الشعر الغنائي نداً لهوميروس في شعر الملاحم؛ وقد اكتسب الشعر على يديه مزايا عظيمة من حيث التنوع والقصص والمزج بين الملحمة والغناء وابتكار القصة الشخصية التي تفيض بالاعترافات

ومنهم الشاعر إبيكوس الذي اهتم كثيراً بقرض أناشيد (الصبيان) ومازج بين الشعر والموسيقى ووشى قصائده بورد الربيع وعصافيره وحبر العذارى

ومنهم سيمونيدز (556 - 468) وهو أوسعهم ثقافة، وهو في شعر الحكمة يشبه شاعرنا أبا الطيب من حيث الفكرة العميقة وقوة السبك وعلو المنزلة؛ وكانوا يتدارسون شعره في مجالس يعقدها جلة العظماء لهذا الغرض. وكان سفير قومه في بلاط الملوك والأمراء الأجانب. وقد ذهب برغم كبره ليعقد الصلح بين أميري صقلية المختصمين فأدى مهمته على خير وجه. ويعزون إليه أنه كان بخيلاً شديد الحرص؛ وذلك أنه كان يطلب لقصائده (ثمناً محدداً) لا ينقص منه مهما ألحف عليه في ذلك. . .

وأحسن قصائده ما كان له علاقة بالحرب. وقد كتب عن ترموبيلي أروع غُرره ونظم في قتلاها أجمل فرائده. . ولذا أحبه اليونانيون وآثروه بلقب شاعرهم الوطني دون بندار

أما بندار، فهو بلا ريب أعظم الشعراء الغنائيين الذين أنجبتهم اليونان على الإطلاق. . . ولقد ولد في إحدى قرى بووطيه حيث نشأ نشأة موسيقية، فتعلم العزف على القيثارة ثم مهر في النفخ بالناي، وكان أستاذه في ذلك عمه الشاعر الذي كان يلازمه ويعلمه الغناء والإنشاد فضلاً عن الموسيقى والشعر. . . ثم ذهب إلى أثينا ليتخصص فيما شداه من هذه الفنون، فأتيح له الاتصال برجالاتها وذوي الرأي فيها. ومما يذكر له في هذه الفترة من فترات التحصيل أنه دخل في مباراة إنشادية غنائية مع زعيمة من زعيمات الغناء في أثينا تدعى كورينّا. فغلبته وتفوقت عليه. . . وتقلب بندار في الإمارات اليونانية جميعاً، وحل ضيفاً كريماً على أكثر ملوك الولايات حيث كان يقابل بالبشر ويُتلقى بالترحاب. . . وكان بندار يكره سيمونيدز، وينقم من الناس تهافتهم على شعره الذي كان يدعوه حكمة ولم يكن يدعوه شعراً. وبندار وسيمونيدز في ذلك مثل البحتري والمتنبي. فقد كان البحتري شاعراً لأنه كان يُغني، أما أبو الطيب فقد كان حكيماً. وحسبه أن ثلاثة أرباع ما يحفظ الناس من أبيات الحكمة هو من شعره. وقد كان بندار ينزع في شعره وفي حياته نزعة لاهوتية، فقد أخذ على عاتقه إحياء سنة السلف الصالح بالغناء للآلهة، وقرض الشعر، ونظم الأناشيد الدينية تسبيحاً بأسمائهم، وله في رها وبان. وأبولو منظومات خالدة. . . ومن هنا منزلته الرفيعة في دلفي، فقد كان كهنة المعبد يحبونه ويعتبرونه قديساً، لأنه ألف حولهم قلوب العامة، وأعاد للدين بهجته، ولذ خصوه بأرفع منزلة في هيكلهم وأفردوه بغرفة خاصة يحل بها كلما زار دلفي. ونحسب نحن أن هذا هو الذي نفر منه خاصة الأدباء الذين هم قادة الرأي العام. . . والشعب الوثني هو أعرف الناس بآلهته، فلما أغرق بندار في هذه النزعة الدينية انصرف الجمهور عنه إلى سيمونيدز شاعر الحق والحكمة وتمجيد البطولة والأبطال.

وقد انتشرت أشعار بندار انتشاراً واسعاً بلغ مصر، وتغلغل في صحرائها إلى معبد أمون - زيوس في سيوه حيث نقشت أوراده الدينية على جدران المعبد وأعمدته بالذهب الخالص مما أدهش الإسكندر الأكبر وملك عليه لبه. . . لكنه كان إعجاباً طارئاً سرعان ما طغت عليه الذكريات القديمة المؤلمة. . . الذكريات التي لم ينسها اليونانيون لهذا الشاعر الكبير الذي خان وطنه الأكبر (هيلاس) بموقفه المزري في غزوة الفرس الكبرى. . . لقد انضمت بلاده للفرس ضد أثينا، فلم يحتج ولم تثر فيه النخوة الوطنية، بل راح ينظم القصائد في وجوب عقد الصلح. . . هذه صفحة بندار السوداء، الصفحة التي لم تنسخ ظلماتها شموس القصائد الغُر التي نظمها بعد ذلك في تمجيد أثينا وتخليد بطولة أبنائها. وهي قصائد أجود بكثير من كل ما نظم سيمونيدز في هذا المضمار. لكنها قصائد تشبه هدايا عضد الدولة للمتنبي. أغزر من هدايا سيف الدولة وأكثر، لكنها كانت ينقصها الروح!!

ولا نستطيع نحن أن ننقص من قدر أشعار بندار إذا قرأناها ولم نكن ملمين بتاريخه، بل ربما رفعناها إلى أعلى أوج يرتفع إليه شعر قديم أو جديد. . . فأشعاره إلهام رفيع ووحي علوي مما يعز على فحول الشعراء. . . وقد نظم كثيراً غير أوراده الدينية في الرياضة والرياضيين، وقد كانت أولمبيا تستهويه بأبطالها كما كانت دلفى تجذبه بآلهتها. . . وكان بندار يعيش عيشة فنية، فمسكنه كان متحفاً للصور والتماثيل والموسيقى والشعر، وكان مشغوفاً بالجمال ينشده في كل ما تقع عليه عيناه. . . في

الطريق. . . في الحديقة. . في الملهى. . . في الماء. . . في السماء. . . في كل شيء
هذه هي الأطوار التي ترقى في مدارجها الشعر اليوناني قبل أن ينهض الدرام نهضته العجيبة الخارقة في القرن الخامس قبل الميلاد، وهؤلاء هم الشعراء المخلدون الذين مهدوا الذهن اليوناني لعصر النور والعرفان. . . عصر بركليس العجيب
أما كيف بدأ شعر الدرام، وأما كيف وجد المسرح اليوناني فهذا ما لم يعرفه أحد حتى ولا آرسطو نفسه الذي يعتبر معاصراً لنهضة الأدب المسرحي في أوجه، والذي شهد روائع هذا الأدب تؤديها أقوى الفرق اليونانية في أعظم المسارح التي عرفها التاريخ، والذي أخذ نفسه بالدفاع عن الشعر عامة ونقض نظرية أستاذه أفلاطون في ذم الشعر وامتهان الشعراء
والنظرية الشائعة في ذلك، والتي اتفق على صحتها المؤرخون هي أن الشاعر آريون هو أول من حَوّر الإنشاد الفردي إلى إنشاد يقوم به خورس (فرقة) ويتولى توجيهه رئيس، وأنه هو أول من ابتكر أغاني الدثرامب (أغاني باخوس أو ديونيزوس إله الخمر والمرح والعربدة!) وهي أغان كان يمارسها الشعب على النمط الذي وصفه آريون إبان قطاف العنب
ثم جاء الشاعر ثسبيس (من قرية إيكاريا) فكان يرأس خورساً كبيراً وزع على أفراده أدوار غنائه مستغلا الدثرامب التي وضعها آريون ثم وسع دائرتها بحيث جعلها تشمل أغاني بان إله المراعي، فكان أفراد خورسه يلبسون رؤوساً تنكرية تمثل رؤوس الماعز، ولذلك كان يطلق عليهم لقب (المنشدين العنزيين) ولم يكونوا يمثلون درامات بالمعنى الذي نعرفه اليوم. بل كانوا ينشدون مقامات أشبه بمقامات الحريري والبديع تشمل كل منها حادثة واحدة معينة
ومن لفظة ? اشتقت لفظة تراجيدي للمأساة
ومن لفظة ? أي الأشياء التي تؤدي اشتقت لفظة درامة أي الأداء، وهي ألفاظ كانت شائعة في المحيط الديني في اليونان القديمة ثم أطلقت الدرامة على الرواية المسرحية فيما بعد
هذا وثمة آراء أخرى في أصل نشوء الدرامة، منها أنها نشأت في جزيرة كريت (إقريطش) حيث كان الأهالي يحتفلون كل سنة بإحياء ذكرى مولد سيد الأولمب (زيوس!) فكانوا يمثلون ميلاده ثم زواجه من حيرا كما كانوا يصنعون ذلك في آرجوس وفي ساموس
ثم نهضت أتّيكا - المقاطعة التي كانت حاضرتها أثينا - وعز عليها ألا يكون لها أدبها القومي الخاص فأقلمت الملاحم - كما صنع بيزاستراتوس - وأشعار الغناء، ثم نهضت بأدب الدرام على يدي ثسبيس الأيكاري الذي مثل بنجاح عظيم في سوقها سنة 534، وخُويْريلوس وبراتيناس
ولقد كان الشاعر - وهو رئيس المنشدين - يقوم بأدوار عدة، من دور الملك إلى دور القائد إلى دور الجندي إلى دور الرسول. . . فكان لا بد له من تغيير ملابسه في كل حالة من هذه الأحوال. لذلك أعد له في جانب من جوانب ساحة الرقص (خص) أو خيمة ليبدل فيها ملابسه
وإذا كان الشاعر يقوم بكل هذه الأدوار في المقامة الواحدة فماذا كان يصنع في الأحاديث؟ قالوا إنه كان يستعين بممثل آخر ليكون الطرف الثاني في الحديث، وكانوا يسمون هذا الطرف الثاني ومعناها المجيب، ثم استعملت هذه اللفظة نفسها فيما بعد للممثلين. . . فكانت الفرقة القديمة تتكون عادة من شاعر ومجيبين (اثنين) وثمانية وأربعين راقصاً
وكانت الحكومة هي التي تؤتي الممثلين والراقصين أجورهم كما كانت تنفح الشعراء بجوائزها الثمينة السنية. أما الإخراج فقد كان الأغنياء يتحملون كل نفقاته، وذلك بأن يلجأ الشاعر إلى أحدهم فيعرض عليه أن ينفق على درامته من خالص ماله إلى أن تؤدي في المسرح، فكان المثري يستأجر للشاعر خورساً بأكمله ثم ينفق على الملابس والمناظر حتى يتم الإخراج كله. وكان الأغنياء يتباهون بهذا العمل ويتبارون في مضماره، ولا يبخلون بعزيز أموالهم عليه ولو ذهب بأكثرها، وكل ما كانوا ينشدون من جزاء هو شعور الفخر والزهو الوطني حين تنجح الدرامة التي أنفقوا عليها بعد العرض الأول. ويجب أن نذكر هنا أن جمهور النظارة بل الجمهور الأثيني كله في القرن

الخامس قبل الميلاد كان قد أوتي حظاً عظيماً من الثقافة العامة، وكان قد تربى فيه ذوق فني رفيع نمته فيه ديموقراطية هذا العصر التي أكبرت من قيمة الفرد وأشاعت فيه كبرياء الحرية والشعور بالسيادة

وفي ظل هذه الديموقراطية تربى ذوق الأثنيين الفني حتى غدا ذوقاً أرستقراطياً مرهفاً يقدر الفن حق قدره ويزن آياته بالقسطاس المستقيم، فحينما كانت تعرض الدرامات في مسرح أثينا كان الجمهور نفسه هو الذي يصدر حكمه عقب الانتهاء من التمثيل. . . وكان الشعراء يرهبون هذا القاضي الجبار لأنهم كانوا يقدرونه. وكم كان جميلاً من أرسطو فأن في بعض مهازله أن يتملق النظارة ويبالغ في تمليقهم ويطلب إليهم صراحة أن يحكموا له. . . ولنتصور إذن قضاة يبلغ عددهم ثلاثين ألفاً أو يزيدون يصوتون للشاعر أو عليه، وما

يكون لحكمهم من أثر عظيم في نفسه في حالتي السخط أو الرضى. . . لقد يكون في هذه الألوف المؤلفة قضاة غير عدول. . . فقد ذكر الأستاذ ج. ك. ستوبارت أن كثيرين من أهل أثينا كانوا ينظرون إلى التحكيم في المباريات الأدبية بحسبان أنها مصدر عظيم من مصادر رزقهم. . . بل كان بعضهم يعدها المصدر الوحيد لهذا الرزق. . . يقصد بذلك أنهم كانوا يبيعون أصواتهم لمن يدفع ثمناً أكثر. . . وهذا عيب تافه من عيوب الديمقراطية شهدنا مثله في معاركنا الانتخابية، لكنه لا ينهض دليلاً على فساد الذوق الفني عند اليونانيين.

لقد كان غشيان المسارح فرضاً قوميّاً على الأثينيين في أعيادهم. وقد أثر عنهم أنهم كانوا يقولون إن من لم يذهب إلى المسرح في العيد لم يكن له عيد. . . وقد كانت الحكومة تنظر إلى المسرح نظرة كريمة عالية. لقد كانت تعد الجامعة العليا التي لا تعلم حروف الهجاء بل التي تطبع الشعب على أسمى صور الفضيلة والإيثار والتضحية فتخلق منه شعباً راقياً طيب الأعراق يتذوق أمور الحياة العليا بإحساس حي ناضج بصير لا بإحساس بهيمي بليد

وكانت كل طبقات الشعب تغشي المسرح الكبير في أثينا، وكان يظن أن النساء كن محجوبات عن شهوده، لكن الأستاذ روي فلكنجر دحض هذا الظن الذي لم يكن إلا حدساً وترجماً، بل زاد فأثبت بأدلة قاطعة أن الأرقاء أنفسهم كانوا يذهبون إلى المسرح للتمتع بالتمثيل، وكانت الحكومة تدفع لهم ثمن تذاكرهم، وكان ثمن التذكرة أوبولين، قطعة من العملة اليونانية القديمة يساوي من عملتنا المصرية أثنى عشر مليما (ثلاثة بنسات إنجليزية أو خمسة سنتات أمريكية) فيكون ثمن التذكرة قرشين ونصف قرش تقريباً أو ما يعادل ثمن التذكرة بالدرجة الثالثة في أي دار من دور السينما عندنا.

وبعد فهذه لمحة خاطفة عن نشوء الدرامة اليونانية تليها لمحات عن المسرح اليوني في عصر بركليس، العصر الزاهر العجيب الذي حفل بأكبر عدد من شعراء الدرام على رأسهم إسخيلوس وسوفوكليس ويوربيدز.

دريني خشبة

-

من برج بابل

ليعذرني الأستاذ الحكيم صاحب البرج العاجي؛ فما اتخذت عنوان خواطري (برج بابل) تقليدا ومحاكاة. . . وإنما اتخذته تحديا ومباراة!

. . . وأخشى أن ينقلب البرجان أحياناً حصنين

ولكنهما سوف لا يتقاذفان بالرصاص والقنابل. . . وقى الله الإنسانية شرهما، فتلك أبعد عن طبيعتنا السمحة الوديعة المسالمة. . . بل سيتراشقان إن تراشقا بسهام من أغصان الزيتون. . .

وأخشى أن تزعجه ثرثرة برجنا، فتقطع عليه هدوءه وعزلته وتفكيره وأبحاثه الفلكية أيضاً! ناهيك بثرثرتنا نحن النساء.

ومن يدري؟ فلعله يهجره فراراً من جيرتنا المزعجة!

وحسناً يفعل! فلسوف تحتله المرأة. . . فهو من العاج. . . والعاج حلية لطيفة ثمينة محببة إلى قلب المرأة، والتحلي حاسة سادسة لها. . . كأنك تتحدى المرأة وتمعن في عدائك المعروف بالتزامك حصنك العاجي، معذرة، بل برجك!

وكأنك أردت أن تخدع بنت حواء بأنه برج حقاً، حسبك من استشراف نجوم الأرض ونجوم السماء ونجوم السينما!.
ولكن عاجك يا رسول البرج غنيمة تغري ولا تخدع فهو قلعة في زي برج!
لم تحدثنا أيها الفلكي الراهب من برجك العاجي منذ أقمت بنيانه حتى الآن عن نجوم الليل السابحة في تيه قصي بعيد، ولا عن عين السماء الفضية، ولا عن الزهرة في موكبها الفخم الجليل. . . وكأنك عدوها أيضاً!
. . .!وإنما بلغ أسماعنا من شاهق برجك كلامٌ لا يتصل بالفلك ولا بالنجوم ولا بالأبراج
ولو كان برج حمام لأقنعت نفسي بأنه حمى أمان وسلام!
ولكنه برج من عاج. وهو كأشجار زرقاء اليمامة!.
(الإسكندرية)
ماري نسيم
التاريخ في سير أبطاله
محمد شريف باشا
كان شريف في عصره رجلاً اجتمعت فيه الرجال وكانت مواقفه توحي البطولة وتخلق الأبطال
للأستاذ محمود الخفيف
كاد الخديو للأجانب كيداً شديداً؛ وظهر كمن يريد أن يثأر لنفسه فلم يكتف بإجابة الوطنيين إلى ما طلبوا، بل لقد ذهب إلى مشاركتهم مظاهر ابتهاجهم بالعهد الجديد حتى لقد حضر بنفسه حفلاً أقامه في داره السيد علي البكري ودعا إليه كبار رجال الحركة الوطنية فكان موقف الخديو في ذلك موقف الزعيم!
وتلقى الأجانب الضربة ولكنهم لم يطيشوا أو يذهلوا عما يجب عليهم أن يعملوا إزاء موقف الخديو، ومن أجل ذلك لقيت وزارة شريف منهم عنتاً بالغاً، فتلاشت في ضوضائهم كل دعوة إلى الحكمة، وضرب الحقد على آذانهم وجعل الغضب على أبصارهم غشاوة
ولكن شريف ظهر يومئذ بمظهر جدير بالإعجاب حقاً، فلا هو خشي جانب الأجانب فتخاذل عما هو بسبيله، ولا هو مال كل الميل فانقلبت سياسته شططاً، وبذلك جمع شريف على خير ما يرجى بين حمية الوطني الثائر وكياسة السياسي الماهر وروية المجرب البصير
احتج الأجانب على إبعاد الوزيرين الأوربيين واستقال كثير منهم من مناصبهم، وراحت إنجلترا وفرنسا تتهددان الخديو وحكومته وتنددان بهما؛ وتوجه الدائنون إلى المحاكم المختلطة فرفعوا أمامها القضايا؛ وأعلنت لجنة التحقيق أن الحكومة في حالة إفلاس منذ أكثر من عامين؛ ولما عرض شريف على هؤلاء الأجانب الصاخبين استعداده إلى إعادة المراقبة الثنائية كما كانت تقضي به تعهدات الخديو في حالة ما إذا أخرج الوزيران الأجنبيان أو أحدهما رفضوا ذلك الحل مبالغة منهم في الكيد ورغبة في زيادة الأمور حرجاً وتعقداً. . .
ولكن شريفاً لم يلوه حرج الموقف عن وجهته؛ وما كانت وجهته إلا أن يجعل مرد الأمور إلى الأمة، فلئن كان يمقت تدخل الأجانب، لقد كان كذلك يكره استبداد الخديو أشد الكراهية.
لذلك جعل محور سياسته أن يكون مجلس الوزراء مسؤولاً أمام مجلس شورى النواب، ولقد تم له ما أراد فجاء في خطاب الخديو إليه بتأليف الوزارة عبارات لا تقبل تأويلاً فيها يذكر الخديو أنه يرجع بالأمور إلى الأمة ويوافق على مسؤولية الوزارة أمام مجلسها
بهذا كان شريف أبا الدستور في مصر، فإن ذلك المجلس الذي تعهده برعايته منذ نشأته عام 1866م قد تمت له السلطة على يديه عام 1879م فصار الحكم في مصر حكما دستورياً لا تشوبه شائبة مهما يقول القائلون في طريقة الانتخاب يومئذ وجهل سواد الناس بأصول الحكم. . .
أجل، إن العهد الدستوري في مصر إنما يرجع إلى عام 1879م وهذا العهد إنما نالته مصر بجهاد بنيها وعلى رأسهم شريف وما كان دستور عام 1923م إلا الدستور الثاني للبلاد، أو بعبارة أخرى ما كان إلا توقداً لتلك الجمرة التي ظلت مطمورة تحت رماد

الاحتلال حتى حل سعد محل شريف في الحركة القومية فأزاح ذلك الرماد ونفخ في تلك الجمرة فأوقد نارها!

لم تكد البلاد وا أسفاه تفرغ من مظاهر فرحها حتى جاءت الأنباء بعزل عاهلها، فإن الدولتين ما فتئتا تسعيان لدى الباب العالي حتى تم لهما عزله وإسناد الحكم إلى ابنه توفيق باشا؛ وبخروج إسماعيل من مصر فقد شريف وفقدت البلاد الرجل الذي كان يمكن الاعتماد عليه في مناهضة نفوذ الأجانب. . .

رفع شريف استقالته إلى الخديو الجديد كما تقضي التقاليد الدستورية، فطلب إليه الخديو إعادة تأليفها، وأشار توفيق صراحة في أمره وفي خطابه أمام مجلس الشورى ميله إلى العطف على الأماني القومية كما تظهر في الحركة الدستورية الوطنية. وسار شريف على نهجه الدستوري يدعم ما بنت يداه ويجهد في توطيد أسسه. . .

ولكن توفيقاً ما لبث حين جاءه فرمان التولية أن تنكر للحركة الوطنية فما كان في موقفه الأول إلا مخادعاً يكتسب الوقت فلما اطمأن إلى مركزه من جهة الباب العالي بدأ سياسته الجديدة بأن رفض أن يجيب رئيس وزرائه إلى ما طلب بشأن توسيع سلطة مجلس الشورى ووضع نظام الحكم على أساس دستوري ثابت؛ وفي هذا رأى شريف نية إقصائه عن الحكم فاستقال، وجاءت استقالته هذه المرة أيضاً عاملاً قوياً من عوامل إذكاء الروح الوطنية وإشعال جذوتها

وما كان أحوج توفيق يومئذ إلى شريف وإليه دون غيره من الرجال. أجل ما كان أحوج الخديو إلى ذلك الرجل الذي كانت تجتمع فيه الرجال وتلتقي في سياسته الآمال، وإني لأزعم هنا في غير تحرج أنه لو بقي شريف في وزارته يؤيده الخديو لكان من الممكن أن تتفادى البلاد تلك الثورة التي جرت عليها نكبة الاحتلال فلقد كانت دسائس إنجلترا في تلك الآونة تنفذ إلى كل ركن وكانت إنجلترا تتحين الفرص وتعمل على تهيئتها، ولو أن شريفاً قد بقي في مركزه لما اتجهت الحركة الوطنية إلى الحزب العسكري ولسارت سيرها ولو في بطء إلى غايتها

حل رياض محل شريف فأخذت السياسة الرجعية موضع الحركة الدستورية، وتلفت الوطنيون، فإذا الأجانب يعودون إلى نفوذهم الأول بل إلى أكثر منه وبخاصة إنجلترا التي أوحت بسياستها إلى توفيق أن يتخذ منها سنداً ضد الباب العالي وضد فرنسا وضد الوطنيين! فلقد كان توفيق يوجس في نفسه خيفة من تركيا ويعتقد أنها تتآمر عليه، كما كان يفهم أن فرنسا تعطف على العرابيين منذ ظهرت حركتهم. هذا إلى أنه رأى مبلغ نفوذ الأجانب في خلع أبيه وأحس ما تركه هذا الخلع من أثر في قلب مثل قلبه. . .

واقتضت الظروف أن يظل شريف بعيداً عن الحكم سنتين عانت فيهما البلاد رزايا الحكم المطلق وبلايا تدخل الأجانب، حتى هبت العاصفة من ناحية أخرى هي ناحية الجيش

وكانت حركة الجيش أول الأمر قاصرة على مطالب تتعلق برجاله، ولكن ما لبث أن التقى التياران واتحدت الغاية، فإن رجال الحركة الوطنية حينما ضاقوا بما فعلت وزارة رياض، وحينما سدت في وجوههم السبل لم يبق أمامهم إلا الاستعانة بالعسكريين. ورأى العسكريون من جانبهم أن في اضطلاعهم بمطالب الأمة مل يرفع من قدر حركتهم فرحبوا بالفكرة وساروا بها لا يلوون على شيء. . .

وهكذا تتقاذف السفينة الأنواء وتلقى بها في غيبة ربانها في بحر لجي متتابع الأزباد كأنما جن فيه جنون الريح فلن تهدأ إلا على مناظر الغرق والدمار.

سار عرابي العسكري بخيله ورجله ومدافعه إلى الخديو يعلن إليه مطالب الأمة وينذره أن لا مرجع للجيش حتى تجاب تلك المطالب؛ ولم يكن للخديو أمام هذا التحدي إلا أن يجيب

عرابيا إلى ما ضن به على شريف! ولكنه صرف الجند ليلقي بنفسه في أحضان المشيرين عليه من الإنجليز الذين واتتهم الفرصة المرتقبة

وأقيلت وزارة رياض كما طلب الجيش، ودارت أعين الأحرار تلتمس غيره فلم تقع إلا على شريف؛ وهل كان ثمة غيره تقع عليه العيون؟ ونظر شريف فإذا العاصفة هوجاء تنذر بفقد الرجاء ففكر في الإحجام ولكن الرجل لم يكن من طبعه الإحجام، وما كان

ليرضى أن يترك البلاد فيما كانت عليه فإنما يعرف ذو العزم في الشدة وعلى قدر عزمه تكون رجولته.

اشترط شريف ألا يكون لعبة في يد الجيش فما كان هو بالرجل الذي تهون عليه نفسه إلى هذا الحد، وقبل الجيش ما اشترطه، فألف الزعيم الكبير الوزارة وكان أول عمل قام به أن أبعد زعماء الجيش عن العاصمة فخرجوا طائعين.

وراح شريف يصل ما انقطع فما كان ليحيد عما وهب للبلاد حياته من أجله؛ فوضع نظام الحكم على أساس دستوري كأحدث الأسس الدستورية يومئذ ودعا البلاد لانتخاب مجلس نيابي. ولما انعقد المجلس ترك له شريف النظر في الدستور وأصوله فجعل منه جمعية تأسيسية يريد بذلك أن يجعل إلى الأمة مرد كل شيء

وخيل إلى البلاد أنها استراحت من عنائها، وأن قد آن لها أن تسير إلى معالجة مشكلتها المالية في هدوء، وأن تمضي إلى إصلاح مرافقها والنهوض بشتى نواحي البناء والتعمير فيها؛ فهذه هي وزارة الأمة حائزة لثقة النواب، وعلى رأسها الرجل الذي تطلعت إليه آمال الرجال، وهؤلاء هم نواب البلاد لا غرض لهم إلا العمل لخير البلاد.

ولكن - وما أوجع لكن في هذا الموضع - هناك. . . وا أسفاه من وراء ذلك دسائس لا تنام ولا تسهو، ورؤوساً لم تتدبر الأمور كما كان يرجو شريف أن تفعل، ومطامع شخصية هي علة العلل فيما أرى في كل خلاف تشتعل ناره في هذا الشرق المسكين؛ وماذا كانت تجدي إزاء ذلك كله كياسة شريف وروية شريف، وماذا كان يغني عنه بعد نظره وحسن تدبره عواقب الأمور؟

وكانت فرنسا هي التي بدأت بالتحرك هذه المرة فأشارت على إنجلترا بالتدخل، فرنسا التي سندت محمد علي بالأمس ضد إنجلترا حتى جد الجد فتراخت عزمتها دون نصرته حتى

تحطمت قوته هي بعينها فرنسا التي تشير على إنجلترا بالتدخل اليوم في شئون مصر! ألا ما أشقى الضعفاء بضعفهم! كلا، بل لعمري ما أتعس الأقوياء بقوتهم إن كان ما يبنونه لأنفسهم على حساب الضعفاء قصارى سعادتهم وبرهان إنسانيتهم. . .

هذا هو مجلس النواب يجادل شريفاً وشريف يجادله في أمر الميزانية وحقه في نظرها أو عدمه؛ أليست هذه مسألة داخلية بحتة؟ ولكن الدولتين لا تعترفان بذلك؛ ومتى اعترفت ذوات المخالب لغيرها من ذوات اللحم الطري بحقها في أن تعيش؟ إذاً فلتحرم الدولتان على المجلس النظر في الميزانية، ميزانية مصر، وإلا أفهمتاه كيف يكون الإذعان للسلطان لا للحجة والبرهان!

ونضيع جهود شريف عبثاً في دعوة المجلس إلى الاعتدال. . . إلى الاعتدال؟ أيطلب الاعتدال زعيم ثوري من هيئة ثورية؟ ذلك ما راح النواب يتساءلون فيه؛ ألا يا ويل كل رئيس من الظروف إذا كادت له فقلبت كل عرف لديه نكراً وألبست حوله بالباطل كل حق. لقد وصف اعتدال شريف بأنه خور وأخذت سياسته على أنها مروق، ألا هل من يعقل أو يتدبر؟ ألا هل من يستمع له حينما فكر في آخر حل فطلب تأجيل الأمر كله حتى يبحثه في هدوء؟ كلا لن يستمع له أحد. أيستمع إليه عرابي المتحفز المتوثب، أو يدين برأيه البارودي الطامح إلى رياسة الوزارة؟ أو يسكن إليه المجلس الذي كره الأجانب وتدخل الأجانب حتى لم يعد له على الصبر طاقة؟

والدولتان أتتهاونان أو تريان جانب الحق؟ كلا. إنما ترسلان إلى الخديو أنهما على استعداد واتفاق لتأييده أمام ما عساه أن يصادفه من المتاعب، ولا يتردد هو في قبول هذه (المذكرة)، فتثور ثورة الوطنيين، ويطلب شريف من الدولتين مذكرة تفسيرية تهدئ الخواطر ولكنهما، وقد أرادتا إثارة الخواطر، لا تجيبان. . .

ويحمل الوطنيون على شريف زعيم الوطنيين فيحرجونه حتى لا يجد أمامه وسيلة لإقناعهم، ثم يطالبون بإسقاط وزارته فيستقيل ويعود إلى داره، فتندفع الثورة هوجاء قد جن جنونها؛ ويفرح ذوو المطامع من الأجانب، هؤلاء الذين أجابهم شريف إلى إعادة المراقبة الثنائية ووافقهم على قانون التصفية التي تم في عهد رياض على ما كان فيه من عدوان وظلم. . .

وتمضي الثورة في طريقها، والدولتان في طريقهما؛ ثم تنفرد إنجلترا فتغافل فرنسا كي تلتهم الفريسة وحدها، وتضرب أساطيلها قلاع الإسكندرية مرتكبة بذلك أشنع ما عرف في تاريخ الحروب من عدوان وغدر، ويدفع عرابي مصر لتدافع عن نفسها

فيكون جهاد فيه قوة وحماسة، ولكنه لا يخلو مما منى به الشرق في عصوره الأخيرة من ختل وخيانة، فتفشل الثورة ويعود الخديو من الإسكندرية ليجد في طريقه إلى قصره فرقة من الجيش البريطاني تصدح موسيقاها بالسلام الملكي الإنجليزي. . .!
وتقع على هذا المنظر عينا شريف وقد عاد معه، فلا يملك - على ما يقول الرواة - ذلك الرجل الكبير دمعه فيجهش كما الطفل! ألا ما أغزر ما تفيض به الدموع من المعاني!
بكى شريف وحق له أن يبكي فهذه جهوده تذهب عبثاً، بل هذه مصر تصبح وهي لا تملك من أمرها شيئاً؛ وما كان شريف غداة طلب من المجلس الأناة والاعتدال لعمري خواراً ولا مارقاً؛ بل لقد كان يومئذ يقف أجمل وأعظم موقف في حياته، موقف الشجاعة التي لا تتملق النواب ولا تخشى في الحق ما يعلنه الرأي العام، والتي لا يغرها مديح أو يستهويها الحرص على إطراء الجمهور ورضاه، وموقف الكياسة في معالجة الأمور، والنظر في عواقبها؛ وإنا لن نجد في الحق موقفاً يوضح أخلاق شريف ويكشف عن طباعه خيراً من هذا الموقف الجليل. والزعيم الحق هو الذي يهم بما يراه حقاً ويصر عليه مهما لاقى من عنت، وإلا فعلى أي أساس دون ذلك تقوم زعامته؟
ودعى شريف بعد الاحتلال لتأليف الوزارة فلم يحجم، ودخل رياض في وزارته، وما كان قبوله الحكم في تلك الظروف عن رغبة منه في المنصب، فهو يرى ما يطلبه المنصب الآن من جهد شاق وصبر طويل، وإنما كان موقفه موقف ذي النجدة الذي لا يتسرب إلى عزمه وهن ما دامت في جسده حياة. . . كان موقفه موقف المخلص الذي يسيره إخلاصه ويملي عليه ما يجب أن يعمله حتى ما يستطيع أن يفلت أو يتردد
إن فكر في ذلك أو مال إليه وكان طبيعياً أن يجري في وزارته على خطته قبل الاحتلال، أو على الأقل كان طبيعياً أن يقبل تأليفها على هذا الأساس فإن ذلك وحده هو الذي استطاعه، ذلك أنه ما لبث أن رأى الإنجليز هم كل شيء على رغم ما كانوا يذيعونه من وعود بالجلاء في مشرق الأرض ومغربها
وجاءت الفتنة المهدية في السودان فأرادت إنجلترا أن تخليه مصر لتعيد فتحه من جديد؛ وأبى شريف إلا أن يضيف إلى محامده ومآثره في هذا الوادي مفخرة سوف يقترن بها اسمه الكريم على مدى الأيام، فرفض ذلك الاقتراح وقال كلمته التاريخية التي تنطوي على كثير من المعاني: (إذا تركنا السودان فالسودان لا يتركنا)
ولكن انجلترة التي تعتزم الجلاء عن مصر تصرح على لسان معتمدها أنه على الوزراء والموظفين أن يعملوا (بالنصائح) التي تسديها حكومة جلالة الملكة وإلا فعليهم اعتزال مناصبهم! ولا يتردد الخديو أن يقبل حتى هذا التصريح!
وعرف شريف من المقصود بهذا التصريح، وهيهات أن تسير الوطنية مع نوايا الاحتلال والعبودية، لذلك لم يكن بد أن يختم شريف حياته السياسية بالاستقالة من وزارته الرابعة والأخيرة بعد أن قضى فيها عامين. . . وكانت هذه كبرى استقالاته إذ كانت تنطق بشهامته وصراحته؛ وتفيض برجولته فهو لا يستقيل (لأسباب صحية) ولكنه يحتج على محاولة سلخ السودان وعلى هذا التصريح الذي يتنافى مع الدستور ويتنافى مع الاستقلال، وكان ذلك عام 1784
وفي عام 1887 يموت هذا الرجل العظيم وهو على سفر في النمسا فتتلقى مصر جثمانه وتمشي خلف نعشه الجموع الهائلة التي لم تر مثلها البلاد من قبله، فهذه أول جنازة شعبية في تاريخها الحديث. هذه هي السابقة التي سترى مكبرة عظيمة يوم تضيق القاهرة بالمنتخبين من أبناء مصر يشيعون جثمان رئيس الثورة الثانية زعيم الوفد الأول، ذلك الذي كانت حياة شريف أيضاً وجهاده القومي سابقة قومية لحياته وجهاده. . . رحم الله العظيمين وجزاهما عن وطنهما خير ما يجزى به الشهداء والمجاهدون
(تم)
الخفيف
. . .قلت لنفسي
حتى العلماء وراث النبوة وأولياء الحكمة يجوز عليهم ما يجوز على أتباع الهوى وعبادة الشهوة من بني الأرض!
- وما ذاك؟
- يقولون إن في الأزهر عريضة، فضيحتها طويلة عريضة. وإذا صح ما تلهج به حولها

الألسنة فقد استشرى الضلال حتى حارت الهداية، واستحكم النفاق حتى فجرت الغواية. وإذا ضل الدليل فكيف تسلك السبيل؟
يتحدثون أن نفراً من العلماء جعلوا قيادهم في يد الهوى فدلاهم بغرور ومناهم بباطل وزين لهم أن يشغبوا على الإمام المراغي مظهر الإسلام المشرق، وممثل الرأي الصحيح وأول من وحد بين الملك والدين ووفق بين الأزهر والدنيا؛ فمضوا يظهرون عريضة فيها الرجاء والثقة، ويسترون عريضة فيها التمرد والإفك، وطافوا بهما على علماء المعاهد يقرءون عليهم ما فوق، ويضعون أختامهم على ما تحت، حتى اجتمع لهم من هذه الإمضاءات المغشوشة سبعون ونيف، فدخلوا بها على الأستاذ الأكبر دخول النذير المدل بما وراءه، فتلقى الإمام هذا النزق بحلم العظيم ورفق الكريم؛ ثم تدارك الله الحق فبرح الخفاء وشاعت الفضيحة. وقال الأعمى أنا لا أقرأ، وقال الغافل أنا لا أفهم، وقال الخادع أنا لا استحي!
بهذا يتحدث الناس وربما كان في الحديث افتراء؛ فإن رجال الدين أكرم على الله أن يجعل فيهم هؤلاء، وهل يخشى الله من عباده إلا العلماء؟!
ابن عبد الملك
استطلاع صحفي
الأندية الأدبية في مصر
مقهى الفيشاوي
(لمندوب الرسالة الأدبي)
أتعرف الحيّ اللاتيني يا صاحبي؟
أقصر الطرف، وقرّب الفكر، واقتصد في الخيال، فلا تذهب إلى ما وراء البحار إذ تحسبه في باريس مدينة العلم والنور، وبلد الطرافة والحسن، ومبعث الفتنة والخروج على الوقار. . .
إلى هنا يا صاحبي! في قاهرة المعز لدين الله، موطن المجد القديم والعز التالد والتاريخ الحافل، حيث المسالك الضيقة والدروب الملتوية والشرفات المتشابكة والسطوح المتواصلة والبناء العتيق العتيد، الذي أفنى جدارةُ القرون وما زال تتحلى فيه روعة الفن الشرقي الخالص، وعبقرية الذوق المصري الصحيح. . .
إلى هنا يا صاحبي! حيث الأزهر يعجّ بأبنائه من سائر الأقطار، ومشهد الحسين يضج بقصاده من جميع الأمصار، وخان الخليلي معرض الكهرمان والآبنوس والصدف والعاج والسجاد الفاخر يتلهف عليه السائحون ومجانين الأثرياء؛ والغورية سوق العطر والأصباغ والألوان وكل مساحيق التجميل البلدية والأوربية تتزاحم عليها أسراب الفتيات من كل هيفاء هي منية النفس، ومن كل شوهاء هي فداء إحسان، ومن كل عطبول رداح يفديها صاحبنا بيرم بأبيه وبروحه إذ يقول:
بأبي وروحي اللابسات خلا خلا ... الآكلات مدمساً وفلافلا
إلى هنا يا صاحبي! حيث يمتزج القديم بالحديث، ويختلط الطيب بالخبيث، ويتلاصق الوضيع بالرفيع، ويتساوى الأصيل بالدخيل، فتتجلى لك القومية المصرية في تباين المظاهر واختلاف الطبقات، وتتبين لك المفارقات في أذواقنا وسلوكنا ومدنيتنا إذ ترى عربات سوارس والكارو ما زالت تجرجر وتكركر إلى جانب مركبات الترام والأتوبيس والفيات. . .
إلى هنا يا صاحبي حيث سوق البقول والأفاويه والتوابل والأعشاب، والبن بجميع أصنافه، والشاي بسائر ألوانه، واللب المحمص، والحمص المقلي، والبطاطة المشوية، والعدس القشري، وما إلى ذلك من الأطعمة الشهية التي تخالف في عرضها وفي طهيها كل شروط الصحة على أنها عند أهلها كل قوام الصحة والعافية، فهي لهم ملء البطن، ومشتهى النفس، ورغبة العين. . .
إلى هنا يا أخي! حيث درج محمد عبده وسعد زغلول وحمزة فتح الله والسيد المرصفي والسيد القاياتي وإبراهيم الهلباوي ومحمد أبو شادي ومحمد السباعي وطه حسين وأستاذنا الزيات وزكي مبارك وغير أولئك ممن أعرف ومن لا أعرف من رجال مصر في السياسة، وأعلامهم في الرياسة، ونبهائهم في الأدب والفضل والصحافة. . .
إلى هنا يا أخي، فذلك هو الحي اللاتيني كما يسميه الظرفاء من أهل الأدب، والنبهاء من أولاد البلد!

في هذا الحي الذي رأيت، وعلى خطوات من مدخل خان الخليلي الضيق من جهة الحسين يقع مقهى الفيشاوي العتيد، فهو في موضع بعيد عن جلبة السابلة، وضوضاء المركبات، فأحر به أن يكون في غمرة من الهدوء والسكون، ولكن الله ابتلاه بكثرة الباعة، وإلحاح ذوي الحاجة، وصوت النادل الأجش يرفعه عالياً عالياً في المناداة على المطلوب وشرح المطلوب فيكون له دوي وطنين لا يتحمله إلا الذين تعودوه ومقهى الفيشاوي في روائه آية من آيات الفن القديم، وصورة قوية من الذوق الشرقي الذي يغرق بطبعه في التجميل، ويهول في التزين، ويخلبه البريق واللمعان، فيحمل الصورة فوق ما تطيق من التمويه والتوشية، وكثرة التلافيف والتعاريج، وأنت تستطيع أن تستجلي ذلك كله في تلك المرايا الضخمة الفخمة التي علقت بجدران الفيشاوي وتجاه مدخله بالشارع. . .

ويهدف إلى الفيشاوي كل أدباء مصر بلا استثناء، في فترات قد تبعد وقد تقصر، ويدمن الجلوس فيه طبقة خاصة من مفاليك الأدب، وصعاليك الصحافة، وصرعى الآمال في المشاريع الحرة، والذين عاكستهم الأقدار في نيل الشهادات والفوز بوظائف الحكومة، ومن شطت بهم الدار من الأقطار الشقيقة في طلب الرزق أو طلب المجد، يتلفف هؤلاء حول موائد (الشاي المفتخر) كل مع من يشاكله ويأنس إليه، فيغرقون في الحديث عن أنفسهم، أو يتلهون بالنرد ولعب الورق على تدخين النارجيلة ورشف أكواب الخمر الحلال: أكواب الشاي الأخضر والأحمر والأسود والأبيض الذي يتيه الفيشاوي بصنعه على كل مقاهي القاهرة، وكأني بأدباء الفيشاوي يجدون في هذه الأكواب لذة وغناء عن أكواب بنت الحان. . .

وكثيراً ما ينطلق أدباء الفيشاوي على طبيعتهم، فيتشاجرون بالنادرة ويتضاربون بالنكتة، ويغرقون في المرح إلى أبعد حد، ويرسلون الضحكات عالية قوية كلها سخرية بالحياة، واستهانة بقسوة الدهر، واستخفاف بعبث الأيام ومطالب العيش، فهم يضحكون عن فلسفة ونظر، وكأنهم يقولون: ولماذا يا أخي لا نضحك، وقد تحملنا من الرهق فوق الطاقة، ولقينا من الأقدار ما تنوء به عزائم الرجال؟ فيالها من دنيا لا تستحق إلا الهوان. . .

وأدباء الفيشاوي يتباينون في ثقافتهم، ويختلفون في عقليتهم وإن كانوا جميعاً في نظرتهم إلى الحياة سواء، فتجد فيهم الشيخ الأزهري الذي يرغي ويزبد بالقافات كما يقول حافظ، وفيهم الأديب الظريف الذي يملأ جعبته بنوادر السابقين واللاحقين، وفيهم الصحافي الذي يضيق رأسه بأخبار الملاهي والمسارح ونجوم السينما والمسرح في هوليود وعماد الدين، وفيهم من يضج لسانه بالعجمة ويرتضخ بالعامية وكل ما عنده جملة طيبة من أسماء الأدباء في الشرق والغرب، وهو يحسب أنه رأس المفكرين، ولله في خلقه شئون.

ويجري ذكر الأدب والأدباء في حلقات الفيشاوي، فيذكر من الكتاب العقاد والمازني وطه وهيكل والزيات وأحمد أمين وزكي مبارك وكل كاتب في مصر، ويذكر شوقي وحافظ ومطران وشكري والزين والهراوي والأسمر وكل شاعر حي أو غبر، ويذكر حافظ عوض وعبد القادر حمزة وأنطون الجميل وصاحب الهلال وإخوانهم في الصحافة، ويذكر يوسف وهبي، وجورج أبيض وسليمان نجيب، وعزيز عيد، وفاطمة رشدي، وزينب صدقي، وأمينة رزق، ومن لا أعرف من أهل المسرح، ولكن كل هؤلاء لا يفوزون من أدباء الفيشاوي إلا بابتسامة؛ ولست أدري أهي ابتسامة الرضى والإعجاب أو الهزء والاستخفاف. وعلى كل حال فهم يرون أنه لولا معاكسة الأقدار، وقسوة الحظ لكان أقل شخص في الفيشاوي أكبر من أي شخص من هؤلاء في النثر أو في الشعر أو في الصحافة

أو في التمثيل، كل فيما يحاوله ويرغب فيه، وجبراً لخاطر إخواننا في الفيشاوي نلعن ذلك الشيء المدعو بالحظ، قاتل النبوغ، وقابر العبقريات. . .

وللفيشاوي (موسم) يتم له فيه المجد، ويبلغ الغاية من الجلال والكمال، وذلك في رمضان إذ تنشد النفوس الإنابة وحسن الثواب وتطلب السهرات البريئة الطيبة فتستبدل أكواب الشاي بأكواب المعتقة، ومن ثم تجد في حلقات الفيشاوي رجال السياسة والأدب والصحافة في مصر، فتجد لطفي السيد باشا، وهيكل باشا، وحفني

محمود، وعبد الرحيم محمود، ونيازي باشا، والصحافي العجوز، وفكري أباظة، ولطفي جمعة؛ وكثيراً من النواب وأساتذة الجامعة وشيوخ الأزهر، كل منهم في حلقة حافلة، يشدون أطراف الحديث طلباً للسمر، واستعانة على السهر، حتى السحور ثم يأتي العيد، فينفض السامر الحافل، ويعود الوضع إلى مستواه، ولا يبقى للفيشاوي إلا الذين يعكفون عليه من أمثال الشاعر إبراهيم الدباغ والأستاذ عبد العزيز الأسلامبولي صاحب المعرفة، والشيخ سلطان الجهني المحرر بالوفد، والشيخ علي عامر المحرر بالدستور، صديقنا الشيخ البهي المحرر بالمقطم، والشاعر البائس الثائر على نفسه وعلى الناس والأيام عبد الحميد الديب. . .

وعبد الحميد الديب هذا شخصية عجيبة متناقضة، تثير في النفس بمظهرها وبأدبها وبسلوكها كل عواطف الإشفاق والقسوة والألم والضحك. فهو يعجبك بشعره، ولكنه يغضبك بسلوكه. وهو يضحكك بحديثه، ولكنه يؤلمك بمظهره. أشبعته الأقدار قسوة وإرهاقاً وبؤساً، وأشبعها هو استخفافاً واستهانة وزراية. وهو على حاله تلك يعتد بنفسه إلى أبعد حد، ويرفع شعره فوق كل شعر، فشوقي مهما سما في تقديره لا يبلغ شعره في مفرقه، وهو ملازم للفيشاوي لا يريمه في الضحى والأصيل والعشية، وحتى لقد يبيت على كراسيه. ولقد جاء العيد وتفرق إخوانه كل إلى شأنه وبقي هو وحده على أفريز الفيشاوي ينشد:

يا معشر الديب وافي كل مغترب ... إلا غريبكم في مصر ما بانا
قدمتموه الشاة قربانا لعيدكم ... والدهر قدمني للبؤس قربانا

لقد تغير كل شيء في الحياة! ومن ذا الذي يا عز لا يتغير؟! وهاهو ذا معول الهدم يهدد مقهى الفيشاوي بالدمار تنفيذاً لقرار دائرة الأميرة شويكار. فهل يحفل أدباء الفيشاوي بتاريخ ناديهم العتيق وذكرى أيامهم الطيبة فيه كما يعني بذلك أدباء الغرب؟ هيهات!

م. ف. ع

حوريتي تَسأل. . .!

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

(مهداة إلى شفتيها الطاهرتين)

قالَتْ: لَقَدْ غَربَ الشُّعَاعُ! فَقُلتُ: مَا ... غَرِبَتْ بَشاشَتُهُ وأَنْتِ بِجَانِبي!
قالَتْ: وَكَيْفَ؟ فقُلْتُ: أَنْتِ شُعَاعَةٌ ... بَيْضاءُ في قَدَحِ المْسَاءِ الذَّائِبِ
تَفْنَى الأَشِعَّةُ والْعَوَالِمُ خَلْفَهاَ ... وسَناكِ يُشْرِقُ في قَتَام غَياهِبي
أَنْوَارُ حُبِّك خَالِدَاتٌ في دَمي ... غَمَرَتْ لَديَّ مَسالِكي ومَذاهِبي
بِسِواكِ لا تَزِنُ الْوُجُودَ بَصِيرتي ... إلاّ بوَهْمٍ في الْجَوَانِحِ سَارِبِ
لا تَنْدُبي شَمْسَ النَّهارِ، فَطالَما ... دَارَتْ رَحاها فِي الضُّحَى بِمَصائِبي
طَلَعَتْ عَلَيَّ فما لَمَحْتُ لَها سَناً ... في الأَرْضِ تَرْفُهُ في يَدَيْهِ مَتاعِبِي
النَّاسُ حَوْليَ أَنْفُسٌ مَطْمُورَةٌ ... في بَهْرَجِ دَنِسِ السَّرِيرَةِ كاذِبِ
أَشْبَاحُهُمْ سَقَطُ الْقُبُورِ، وَطَيْفُهُمْ - ... قَدَّسْتُ طَرْفَكِ عَنْهُ - بُومُ خَرَائِبِ
هَيَّا اتْرُكي عَنْهاَ الْحَدِيثَ، فَإِنَّنِي ... عَنْ دَهْرِها لَسْتُ الْغَدَاةَ بِعاتِبِ
عَمْيَاءُ كابْنِ الطِّينِ تَخْبِطُ مِثْلَهُ ... خَبْطَ الْمُحَيَّرِ في هَجِيرِ سَباسِبِ
مَالَتْ وَحادِيها الظَّلاَمُ لِشَاطِئٍ ... في الْغَرْبِ مِنْ جُرْحِ الْمَطَامِعِ خَاضِبِ
مَرَّتْ جِنَازَتُهاَ بَطَرْفِي مِثْلَماَ ... إِثْمٌ يَمُرُّ عَلَى ضَمِيرِ الرَّاهِبِ. . .
نَسَّانِيَ الدُّنْياَ جَبِينُكِ فَاشْكُبِي ... قَبساً أَعَزَّ من الشُّعاعِ الْغارِبِ
أَيَّامِيَ احْتُضِرَتْ فَيا وَيْلِي إذا ... لَمْ يَحْيِهاَ نُورُ الْجَبِينِ الْغَائِبِ
قَالَتْ: وَمَا لِلنِّيلِ يُشْبِهُ سَاجِداً ... نَسِيَ الصَّلاَةَ وَلَجَّ في اسْتِغْفاَرِهِ؟
قُلْتُ: ارْقُبِيهِ، لَعَلَّ مَوْجَةَ شَطِّهِ ... تُنْبِكِ دُونَ النَّاسِ عَنْ أَسْرَارِهِ
هُوَ شَاعِرٌ مِثْلِي رَآكِ فَرَقَّ لِي ... وَأَذَابَ هذا السِّحْرِ مِنْ أَوْتاَرِهِ
وأعانَ مِزْهَرِيَ الْجَرِيحَ عَلَى الْهَوَى ... وَشَدا بِلَوْعَتِهِ عَلَيْكِ وَناَرِهِ
وَمَضَى يُغَمْغِمُ فِي الضِّفَافِ، وَفِتْنَتِي ... وصَبابَتي تَنْسَابُ في تَيَّارِهِ!
قَالَتْ: كَآباتُ الْمسَاءِ أَهَجْنَنِي! ... قُمْ هُزَّ مِنْ فَجْرِ الْخَيالِ صَبَابَتي
هاتِ اسْقِني نَغَمَ الصَّبَاحِ لَعَلَّنِي ... أَنسَي عَلَى شَفَةِ الْمسَاءِ كَآبَتِي!

. . .!قُلتُ: ارْقُبِينِي في غَدٍ إِنَّ الأَسَى ... في الرُّوحِ أَخْرَسَ هَوْلُهُ شَبَّابَتي
(وزارة المعارف)
محمود حسن إسماعيل
النُّور
للأستاذ أمجد الطرابلسي
تدَجّى السَّبيلْ ... ومات الدَّليلْ
وتاه الرَّفيقْ
وهذا الظّلامْ ... أضاع الزِّمامْ
فضلَّ الطَّريق
وخاف الرّحيلْ فأَغفى ... ونامْ وما يستفيقْ
وأين الصَّباحْ ... يواسي الجراحْ
ويحيى الأملْ
سقته الحسانْ ... ضياء الدِّنانْ
وخمرَ القُبلْ
فألقى السِّلاحْ وراَء ... الزّمانْ صريعَ المُقَلْ
أقامَ الأَلَقْ ... وراء الغسقْ
يُنيرُ المدى
وحولَ الخصورْ ... وفوقَ النّحورْ
يَصُبّ النَّدى
صبايا الشَّفَقْ رفعنَ ... السّتورْ له فاهتدى
سباه الجمالْ ... وسحرُ الدَّلالْ
وحلوُ النَّغَمْ
فألقى عصاهْ ... مُريقاً سَناهْ
وراءَ الظَّلَمْ
وخَلى الضَّلالْ وبؤسي ... المَتاهْ لِرَكْبِ الأَلَمْ
هنا الليلُ نامْ ... رهيبَ الظَّلامْ
مهيبَ الْحَلَكْ
وباتَ الصَّباحْ ... أسيرَ الملاحْ
رَضِيَّ الشَّرَك
فمن للهِيامْ وراَء ... البطاحْ وتحتَ الفلكْ؟
طلبتْ الضِّياءْ ... فجزتُ الجواءْ
أمامَ النُّسُورْ
نفضتُ الدّهورْ ... وخُضتُ البحورْ
لأحظي بِنورْ
ظلامُ الفناءْ يَعُمُّ القُص ... ورْ فكيفَ القُبورْ. . .؟
(باريس)
أمجد الطرابلسي
المصور
شاهدت حاكية تأتي على الصوَرِ ... كأنما يتحدى رسمها القدرا
فقلت خلق بلا سمع ولا بصرِ ... لينفخ المرء فيها الروح إن قدرا
محمود غنيم
رسالة المرأة
فن التجميل والمرأة في مختلف العصور
للآنسة زينب الحكيم
بينت في مقال الأسبوع الماضي نشأة فن التجميل، وأوضحت اتجاه المرأة بالنسبة له. واليوم نتحدث عن فن التجميل في مختلف العصور.
استفسرت من أميرة كردية في راوندوز عن الوسائل التي يتزين بها بعد أن أثنيت على جمالهن، وعجبت إذا كان كله من إبداع الطبيعة! فقالت: إننا نحن الكرديات ليست لنا أسرار. قالت ذلك علناً أمام رجلين من الأكراد كانا في مجلسنا. وعندما

هممت بالانصراف، وجدتها تستبقيني لحظات بعد انصراف الرجلين، وانتحت بي ناحية خاصة من الحجرة الكبيرة، ثم قالت: الآن أستطيع أن أصدقك القول جوابا عن سؤالك لي عن وسائل زينتنا. ورفعت غطاء حريرياً ثقيلاً عن صندوق، فلما فتحته أوضحت لي محتوياته، فأرتني نوعاً من المسحوق الأبيض غير النقي، وقالت: هذا نوع من تربة بلادنا كردستان نستعمله لتبييض وجوهنا بعد أن نمزج قليلاً منه بالماء

ثم أرتني نوعاً من الكحل ونوعاً من الدهن يستعملنه لشعورهن، وأطلعتني على عدد من مناديل اليد الحريرية الزاهية الألوان، هذا إلى جانب الحلي الذهبية الكثيرة التي تحملها فوق رأسها وصدرها وأطرافها، والثياب الفخمة الثقيلة التي تلبسها وأسّرت إليّ: (إننا كجميع النساء لا بد لنا من بعض الأسرار)

وما كان أشبه هذا الحادث بما حصل مرة مع أميرة هندية، سئلت عن وسائل تزينهن قالت: (ليس لنا نحن الهنديات أسرار لأننا كجميع النساء كلنا أسرار) ومع ذلك، فقد كانت تحمل أنواعاً من صناديق المراهم والدهون أينما ذهبت، ووسائل تزين هاتين (الكردية والهندية)

توضح أبسط وسائل الزينة وأيسرها اتباعاً

وفي الحق أن التفاني في اللجوء إلى الجمال المصطنع، والتغالي في إتقان فن التجميل دلت عليه نهضة صناعة قديمة تضارع أقدم الحضارات

فقد أوضحت الاستكشافات الأثرية، وبرهن التاريخ، على أنه قد وجد في مقابر قدماء المصريين، وعلى زهريات اليونان، وفي نقوش بابل، وفي الفسيفساء الروماني، أن الدهون قد استعملت بكثرة غامرة، بحيث تجعلنا نتخيل أن الوسائل التزين والتجميل استعملت في تلك الأيام بحالة لا يمكن أن تكون أقل انتشاراً مما هي عليه في أيامنا فطالما وجدت تحت أكوام الآثار القديمة عشرات الآنية التي احتوت على أنواع الكريم والأصباغ وسوائل التدليك من كل صنف

أما المرأة الرومانية واليونانية كما يقرر عنها أتنيس فقد استعملت مسحوق المحار الأرجواني اللون (كالروج) للوجنتين، واستعملت للشفاه أحمرها المعتاد. ومن المشاهد أن هذا اللون الأرجواني لصبغ الوجنتين، قد أعيدت بدعته من نحو سنتين، ولا يزال يعرض في الأسواق اليوم وتستعمله بعض السيدات؛ وهذا دليل على تقصي مهرة مصنفي وسائل التجميل لتاريخ فن التجميل، ودراستهم لنفسية المرأة، وتتبعهم تفننها وتنوّع ميولها في مختلف الحقب

أما المصريات فقد استعملن الكحل (الأثمد)، ومن الغريب أنهن كن يسودن طرفي الفم بحيث يصل طول الخط الأسود الممتد من طرف الشفتين نحو سنتمتر أو أكثر قليلاً، وتوجد نماذج من التماثيل التي توضح ذلك في المتحف المصري بالقاهرة والأثمد يستعمل الآن بكثرة في الشرق الأدنى لتسويد الأهداب، وإظهار الحواجب، وتفخيم العيون، وكان يستعمل معجوناً كدهان للجفون السفلى مما أكسبها نظرة جذابة، ولعل (الرِّمل) الذي يستعمل الآن هو اختراع مهذب عن ذاك

والإنجيل يخبرنا أن الزيوت العطرية كانت تستعمل لدهن الشعر، وكثير من رءوس الموميات المصرية وجدت مغطاة بآثار شعر مصفف بطرق أنيقة لتجعيد الشعر وكيه وقصه ووجدنا أن الزهريات الرخامية الفاخرة، تحتوي على مراهم يرجع تاريخها إلى 3500 عام قبل الميلاد.

ووجدت مرايا من أيام الأسرة السادسة، أي من نحو 2600 سنة قبل الميلاد، وأقلام لتزجيج الحواجب من عهد الأسرة الثامنة عشرة أي منذ 1500 سنة قبل الميلاد وبفحص ما عثر عليه من آثار توت عنخ آمون الفخمة في مقبرته، وجدت آنية تحتوي على عطور لا تزال باقية من نحو 3300 سنة

وكان السعتر والمر، والبخور والناردين، وأنواع الزيوت ولا سيما زيت السمسم واللوز والزيتون، كلها كانت المواد التي استعملت في أقدم أصناف الدهون، وكثير منها استخدم مع الكحل، والحناء التي استعملت لصبغ الأصابع والأقدام، ولا يزال يستعملها بعض الناس إلى اليوم

بل لقد اختص المصريون باختراع أغطية متقنة من الذهب والفضة، لتغطية أظافر السيدات وتجميلها، فكانت ترفع أو تستعمل وفق التقاليد.

ولعل الطلاء الأظافر الفضي اللون والذهبي الذي يستعمل اليوم، طريقة أسهل

وأرخص من ذاك الاختراع الذي أخذت عنه على ما يظهر
والإسلام يأمر باتخاذ الزينة والتطيب، والنظافة الشخصية. واستعمل العرب السواك كفرجون للأسنان
واستعلمت الرومانيات الزنك الأبيض والطباشير لتبييض وجوههن في بعض الأزمنة، كما استخدمن الكحل لأعينهن، والأحمر لوجناتهن وشفاههن
أما النساء المتمدنات اللائى وجدن في الآثار القديمة فقد عرف أنهن استعملن مسحوقاً لطلاء الأسنان، صنع من نوع من الأحجار. . .
وصنعت أنواع الكريم للتجميل من دقيق الشعير والزبد. وبيض النساء شعورهن بطريقة يظهر أنها تشبه الطريقة البلاتينية التي اخترعت في أيامنا
وكانت مناضد زينتهن تحمل ثلاثة أصناف من الدهون في أوان قيمة، كما استعملن أنواعاً من الذرور الثمينة مثلما يستعمل نساء اليوم
وشاع استعمال العطور والمساحيق وحمامات اللبن ووسائل تجميل أخرى في أظلم الأوقات من العصور الوسطى! بل لقد عمت البدع المتبعة، ونقلت من الشرق إلى الغرب وبالعكس بواسطة الصليبيين الذين أحضروا الفرسان وعرفوهم أسرار التجميل التي كانت محفوظة
في (الليفان أي شرقي بحر الروم
أسباب لها تأثيرها في طابع الأمم
في سنة 1770م قدِّم اقتراح للبرلمان الإنجليزي، يهدد بتحريم أي زواج لإحدى رعايا الملك إذا استعملن الروائح والأصباغ والدهون، كما حرم اتخاذ الأسنان الصناعية وغيرها. ولست أدري إذا كان هذا الاقتراح هو السبب في شدة اعتدال المرأة الإنجليزية في استخدام أصباغ الوجه، وانصرافها عن عمليات التجميل التي تحسن الأسنان الشائهة مثلاً، فإن الإنجليز ناس تقاليد ونظم!
وهل يمكن أن يكون هو السبب ذاته في عدم تشجيع القوم هناك على العناية بالنظافة الشخصية، مضافاً إلى ذلك حالة الجوّ! أظن أنهما معاً السبب المباشر في الروائح التي تنبعث من بعض المجتمعات الإنجليزية مما ينفر من حضورها أو الإقبال عليها، لا سيما إذا ما كانت في أمكنة ضيقة
حاولت بعض المستعمرات الأمريكية أن تسن قوانين مشابهة لتلك، قاصدة إلى إحباط نشاط المرأة في سبيل التزين ولكنها لم تفلح كثيراً
أما النساء الفرنسيات في بلاط لويس الثالث عشر فكان لهن ملء الحرية في استعمال الدهون من أغلى الأنواع، وبذلك ساعدن على اختراع وتركيب العطور والكريمات وجميع المنتجات التي تزيد من جمال المرأة على أساس صناعي تجاري
وأظن من الواضح ما نشاهده من تأثير تلك الحرية بالنسبة لفن التجميل عند المرأة الفرنسية التي تغالي جداً في استخدام الأصباغ والعطور بحسن تصرف وذوق حسن كما سبق أن نوّهنا
ولقد روج هذا، دون ريب، تجارة وسائل الزينة وصناعتها، وأحدث موجة من نوع خاص في جملة بلاد ولا سيما في الولايات المتحدة
فمثلاً حلاقو الشعر وأصحاب محال التجميل وأطباء جراحات التجميل للوجه والجسم، وغير هؤلاء من الأخصائيين تعاونوا مع الصيدليين والمجربين على اختراع طرق ووسائل لما تركته الطبيعة بدون تشكيل حسن في نظر العصر وذوق التطور، أو ما سببه شذوذ الخلقة من نقص أو ما فعلته تأثيرات ظروف حياتنا الحاضرة
ومن عوامل التوفيق أن تدخلت الحكومات في هذا العمل من ناحية تقييد المقادير ومراقبة المركبات الكحولية خصوصاً المركبات السائلة
أما الصناعات الإضافية مثل صناعة القوارير الجميلة للروائح وآنية الذرور وأصباغ الشفاه وأشباهها فساعدت كثيراً على رواج استعمالها
على أنه مع كل الذي أسلفنا لا يزال هناك معارضة من بعض النواحي للتزين واستخدام الأصباغ: من ناحية الفضيلة من جهة، ومن جهة أخرى من ناحية مبدأ الإنسان الشخصي الذي لا يتفق والصورة المصطنعة التي تظهر بها الفتاة الحديثة والسيدة المقلدة
ولكن ما العمل و (الموضة) معلمة شاقة الرسالة والتطور سنة الحياة؟
إن كثيراً مما يظهر مجرد بدعة وعجب لأول وهلة أصبح ضرورة ملحة في سبيل

المجاهدة للحياة التي يتعرض لها كثير من السيدات اللائى يضطلعن بالوظائف والحياة العملية
فعارضة الأزياء، والبائعة، والتشريفية، والزوجة، والفتاة التي تنتظر الزواج، عليهن جميعاً أن يكن أنيقات غير متبرجات، ولا داعي لأن ننبه الأذهان أيضاً إلى ما يستلزمه موقف الممثلة والراقصة والمغنية
لقد أصبحت روح العصر تحتم أن تكمل ما ننقصه الطبيعة، وأن نصلح ما تخطيء فيه، لهذا تقدم المختصون في التجميل بأنواعه جالبين معهم جميع ما يستطيعونه من المغريات للتزين ومحرضين عليه بشتى وسائل الإعلان.
لا عجب إذا في نهوض فن من أقدم الفنون، تدرج في نشوئه من مئات السنين، وليس مما يطمس هذه الحقيقة، أو يحط من قدر الفن ذاته، الفكرة التي سادت بين الناس من نحو قرن أو أكثر قليلاً، وهي أن الوسائل الاصطناعية للتجميل ليست إلا مغريات لسفلة نساء الأمم. إنما شدة مغالاة النساء في التزين راجعة إلى قفزة عنيفة قفزتها المرأة لتحطم بعض ما تبقى من القيود الثقيلة التي شلت حركتها، وعطلت تفكيرها طويلاً.
وما إسرافها الذي نلحظه ولا نوافق عليه إلا رد الفعل الذي يأتي بعده الإصلاح والتوجيه، وهذا ما سيكون موضع عنايتنا إن شاء الله.
زينب الحكيم
رسالة العلم
الحياة
للدكتور محمد محمود غالي
من البويضة للشيخ - فيم تختلف المادة الحية عن المادة عديمة الحياة - الكربون مكون أول للحياة - ذرة الراديوم - الشبه بين الحياة والمغناطيسية والنشاط الإشعاعي - أعمال (ليب) - إمكان تطور البويضة والحصول على كائن لا يحافظ على جنسه - آمال للتجديد في هذا السبيل
نرقي مدارج الحياة، وننتقل خلال ذلك من حالة إلى أخرى، من طفل يلهو ويعبث بما يراه، إلى غلام يلعب ويعنى بتافه الأمور، إلى شاب ممتلئ حركة ونشاطاً، يكبُ على العمل ويقوم بدوره في المجتمع، إلى رجل يهتم لأبنائه أكثر من اهتمامه لنفسه، إلى كهل يتهالك في خدمة عشيرته وبلاده، ثم إلى شيخ لا يستطيع قليلاً ولا كثيراً، يستند إلى عصاه إن تعسر عليه المسير، اكتفى بمقعد في حديقة المنزل، حتى إذا تعسر عليه هذا أيضاً قضى أيامه الأخيرة في مضجعه، طوراً بين ذكريات الماضي ومرارة الحاضر، وتارة بين الداء وزجاجة الدواء، كلنا نعرف آخر القصة، وكلنا نعرف نهاية الهرم المحتوم.
هذه طريق الحياة، كلنا عابرها، من البويضة الضئيلة في الرحم قبل مولد الطفل، إلى هيكل مهجور في الرّمس بعد التجرد من الحياة - ترى ما هي الحياة؟ وفيم يختلف الإنسان عن العصفور، والعصفور عن التفاحة، وهذه عن المحبرة التي نستعين بها لنبعث للقارئ بهذا النوع من التفكير.
لقد ذكرنا أن جزيئات المادة عديمة الحياة هي ذرات كيميائية، وأن الذرات تتركب من نواة مركزية يدور حولها إلكترونات. وذكرنا أن المركبات المادية للكائن الحي هي ذرات كيميائية مألوفة، وأن العلماء يعتقدون أنه قد حدث أن مجموعة من هذه الذرات تجمعت بطريق المصادفة بالكيفية الموجودة بها اليوم في الخلية الحية، وتساءلنا: هل المادة الحية هي مجموعة من الذرات المادية، أم هي هذه المجموعة مضافاً إليها الحياة؟
أما أن المادة الحية تختلف عن المادة التي لا حياة بها اختلافاً يدل على وجود عناصر كيميائية جديدة لا نعرفها في الثانية، فهذا لا يقوم عليه أي دليل، فكل أنواع الذرات الموجودة في إحداهما موجودة في الأخرى، فلا فارق هناك بين مادة ومادة من حيث أنها عناصر كيميائية
على أن الذي يستطيع أن يؤكده العلماء، أن المادة الحية مركبة من ذرات معتادة، لا تختلف إلا في أن لها قابلية عظيمة للتماسك أو التجمع في جزئيات كبيرة بنوع خاص، بمعنى أن معظم الذرات الأخرى المكونة للمادة المجردة عن الحياة ليس لها هذه

الخاصة. خذ مثلاً الماء باعتباره المادة الأكثر شيوعاً أمامنا على سطح الأرض، فإن ذرات عنصرية الهيدروجين والأوكسجين تتحد لتكون إما جزئيات هيدروجينية أو أكسوجينية أو ماء

على أن أياً من هذه المركبات لا يحوي أكثر من أربع ذرات، كذلك لا يتغير الوقف بإضافة الأزوت، فإن جزئيات مركباته مع العناصر السابقة تحوي ذرات قليلة؛ بيد أن وجود الكاربون مع هذه العناصر يغير الموقف كلية، إذ تتحد ذرات هذه العناصر مع الكاربون لتكون جزئيات تحوي الواحدة منها آلافا بل عشرات الآلاف من الذرات، ويتكون جسمنا الحي من هذا النوع من الجزئيات الكبيرة

وقد كان يعتقد العلماء، منذ قرن من الزمان، لزوم قوة حيوية خاصة، لإحداث هذه الجزئيات الكبيرة. على أن (فولر) استطاع بالوسائل الكيميائية أن ينتج أحد المركبات البولية (? وهو نتاج حيواني كما تمكن علماء غيره من الحصول على مركبات حيوية أخرى

ونعد إلى الكلام على ذرة الكاربون العجيبة في كونها مكونة أولى للحياة، فنرى أنها تتألف من ستة إلكترونات تدور حول نواة مركزية، كستة سيارات تدور حول الشمس، ولا يختلف الكاربون عن البورق والأزوت أقرب الذرات شبهاً به في الجدول الكيميائي، لا في أنه يزيد سياراً واحداً عن البورق، كما ينقص سياراً عن الأزوت، ويبدو أن هذا الفارق البسيط هو الذي يعين كون المادة كاربوناً أو غيره، وبالتبع يعين إمكان دبيب الحياة فيها، أو استحالة ذلك

ومن هنا نتساءل، عما إذا كانت الذرة التي لها ستة سيارات تدور حولها، لها خواص استثنائية ترجع بها لسر من الأسرار العلمية التي لم تكشف لنا؟ إن الرياضة الطبيعية، كما يقول السير جينز لا تجيبنا اليوم على هذا السؤال

وتدلنا الكيمياء على ظواهر أخرى تشبه ذلك أشار إليها السير جينز في كتابه وتبدو في نظري أهم ما في هذا السفر الجليل، فالمغناطيسية مثلاً تبدو واضحة في الحديد (وذرته ذات 27 إلكترونا) وتبدو بدرجة أقل في النيكل (وذرته ذات 26 إلكترونا) وفي الكوبلت (وذرته ذات 28 إلكترونا) ويلاحظ أن لذرات هذه العناصر الثلاثة عدداً من الإلكترونات متتابعاً، كما يلاحظ أننا لا نرى في كل العناصر المادية الأخرى المعروفة لنا أي أثر للمغناطيسية، فالمغناطيسية إذن ظاهرة خاصة بالذرات التي لها هذا العدد من الإلكترونات

ولدينا في العلوم الطبيعية مثال آخر، هو النشاط الإشعاعي، وهو ظاهرة نراها في العناصر التي لذراتها من 83 إلى 92 إلكترونا والتي تبدأ في البيزميث ورادون الراديوم وتنتهي في الأيرانيوم، وقد بينا بالشكل الكيفية التي عليها ذرة الراديوم وفق بعض الاتجاهات الحديثة، فهي كما تراها مركبة من نواة وسطى يدور حولها عدد كبير من الإلكترونات يبلغ 88 إلكترونا كما هو مبين بالشكل.

على أن هذه المقارنة بين المغناطيسية كظاهرة والنشاط الإشعاعي الذي يبدو ظاهراً في الراديوم كظاهرة أخرى، هذه المقارنة توجهنا إلى أن نضع الحياة في قائمة الظواهر الطبيعية الأخرى كالظواهر المتقدمة

وعلى هذا الأساس، فإن العالم مربوط بقوانين معينة، وفق هذه القوانين يبدو أن للذرات التي لها عدد معين من الإلكترونات (6 ثم من 26 إلى 28 ثم من 83 إلى 93) لها خواص مُعينة، يظهر أثرها في الأولى بالحياة، وفي الثانية بالمغناطيسية، وفي الثالثة بالنشاط الإشعاعي وفعل الراديوم.

فالذرة إذن في جزيء المادة الحية لا تختلف في مجموع ما فيها عن الذرة في المادة المجردة عن الحياة، ولكلتيهما إذن نظام أشبه بالنظام الشمسي للمادة الذي سبق التحدث عنه، وإن كان من الصعب أن نمثل على الورق جزئيا من المادة الحية لكثرة عدد ذراته وبالتابع إلكتروناته كما مثلنا على الورقة الآن ذرة الراديوم. وبعبارة أقرب للوضع العلمي: إن كل ما يؤلف المادة الحية هو جسيمات أو كهارب في حركة ممكن إرجاعها يوماً إلى علاقات ترتبط بالبحرين الكبيرين اللذين يغمران كل الكائنات: الحيز والزمن، وبعبارة واضحة: إن المادة الحية كالمادة عديمة الحياة، ترجع في النهاية إلى حركة أو اعتبارات

إلكترونية في الزمان والمكان.
بقى أن نتساءل عن أمرين:
الأول: هل يجوز إذن، ابتداء من مادة عديمة الحياة، أن نحصل في مختبراتنا على مجموعة من المواد الحية كالمجموعة المكونة لنا؟ أي مجموعة لها خاصية التناسل والتكاثر والمحافظة على نوعها؟
الثاني: هل في مجموعة الظواهر الحيوية ما يفسرها بموضوعات طبيعية كيميائية؟ وبعبارة أوضح، هل يمكن بمعلوماتنا الحالية، وبالرجوع إلى الميراث العلمي أن نرجع مجموع الظواهر الحيوية إلى موضوعات طبيعية كيميائية؟
ولو أننا بعد التحري الجدي، وجدنا الإجابة على الأمرين بالإيجاب، لجاز لنا أن نعتقد أننا كالتفاحة التي نأكلها، والمحبرة التي نكتب بها، بل لجاز لنا أن نعتقد أن لحياتنا الاجتماعية والأخلاقية، أساسا علمياً، يرجع إلى قواعد تتوافق مع نتائج البيولوجيا العلمية والطبيعية النظرية التجريبية
أيستطيع البيولوجيون والطبيعيون أن يرجعوا يوماً كل مظاهر الحياة، كل ما فيها من صفات وغرائز موروثة، حتى عظمة الرجل الذي يموت في سبيل بلاده وهو راض، حتى حنان الأم التي تتفانى في سبيل أولادها وهي سعيدة؟ أيستطيع العلماء إرجاع كل هذا، كل ما في الرجل من إرادة وآمال، كل ما في الأم من عطف وحنان، إلى حوادث داخل أجسامنا، تجد تفسيرها المادي في الكيمياء والطبيعة والرياضة؟ هذا ما أريد أن ألم به في ختام هذا المقال
للعالم ليب أستاذ جامعة بركلي بالولايات المتحدة كتاب الفكرة الميكانيكية للحياة، صادف نجاحاً في أمريكا، ترجمه إلى الفرنسية العالم المعروف هنري موتون أستاذ الكيمياء الطبيعية في السوربون، صادفت ترجمته أيضاً نجاحاً حتى أصبح البعض يعرف (موتون) بها أكثر مما يعرفه باكتشافه للألتراميكروسكوب وبأبحاثه في (تأثير المجال المغناطيسي على الظواهر الضوئية)
لقد لازمت موتون سنوات عديدة، وطالما جمعتنا الأيام منفردين في مَخْبَره بمعهد باستير، وطالما حدثني في العلوم بما لا يَمُتُّ لعملي في شيء، وكان لهذه الاجتماعات أثر في
تكويني، وعجيب أنه لم يذكر (موتون) يوماً شيئاً عن (ليب)، ولم أشعر أن أعمال الأخير شغلت يوماً حيزاً من فكر صديقي العالم
وعندما افترقنا في سنة 1935 بوفاة (موتون) وبعودتي إلى مصر، اقتنيت بطريق المصادفة تلك الترجمة المتقدمة التي أخرجها الآن من مكمنها بين الكتب بعد أن ظلت محتجبة أربعة أعوام، لأستدل من رجل قضي سنين طويلة من حياته في البحث التجريبي على الإجابة على ما تقدم، ولأستدل على ما قد يُرضي رغبتي أن أجد في الحياة أمراً غير التفاحة التي نأكلها، والمحبرة التي أستملي منها
والواقع أنه قد نجح (ليب) وغيره نجاحاً باهراً في نواحي تجاربه العديدة، هذه التجارب التي هي آية في الدقة والتي تبعث على الإعجاب في الوصول إلى تفسير مادي لكثير من الظواهر الحيوية، هذه التجارب التي وإن انحصرت في مخلوقات كالأسماك والحشرات إلا أنها قد تمتد يوماً إلى الحيوانات العليا كالإنسان. وعند (ليب) وزملائه أن اتجاه الفراشة نحو الضوء في خط مستقيم ليس إلا أثراً ضوئياً - بل إن تلقيح البويضة وإمكان تطورها إلى مخلوق دون الالتجاء إلى الحيوان المنوي أو بالالتجاء إليه، له عند (ليب) ومعاصريه تفسير كيميائي طبيعي
على أنه إذا كان العلماء قد يحصلون الآن على مادة عديمة الحياة فإنه مما لا شك فيه أنه لم يمكن حتى الآن إلا تحضير مجموعة من نواة مختلفة للخلايا ولكنها مجموعة لا تصلح أن تكون خمائر تتكاثر وتحافظ على جنسها، بالشكل الموجودة فيه في الأحياء لتكن عقائدنا بحيث يجمل بنا أن نمتلئ إيماناً بتقدمنا، يجمل بنا ونحن ندرس أعمال العلماء المجيدة أن نعتقد أنه إذا كان لم يتح لأحد منهم حتى اليوم أن يوجد المادة الحية بطريقة يتكون بها كائن يتناسل ويحافظ على جنسه من مادة مجردة عن الحياة فإنه ليس من حقنا ولا في مقدورنا العلمي، أن نجزم بأن هذه الغاية ضرب من المحال إن أعمال (ليب) وغيره تدعو للإعجاب. وإذا كان قد نجح ونجح معه معاصروه في أن يُرجع كل التطورات التي تتم عند تلقيح البويضة إلى مسائل كيميائية طبيعية، بل نجح

في تعهد بويضة لم يلقحها الحيوان المنوي بحيث نتج منها كائن له قلب ومعدة وهيكل عظمي، وتنقصه الدورة الدموية اللازمة لاستمرار الحياة، كائن استطاع أن يعيش على هذه الأرض
شهراً من الزمان - فإنه ما زال أمام العلماء إحداث كل ذلك بالاستغناء عن البويضة نفسها وعن كل ما يمس الحياة.
أيستطيع إنسان أن يوجد، ابتداء من الذرات مهما تنوعت والإلكترونات مهما تعقدت، كائناً آخر؟ كائناً يتطور ويترقى ليكون يوماً أو بعد ملايين السنين مثلك ومثلي ومثل (موتون) و (ليب)؟ هذه مسألة ما زال العلم النظري والتجريبي بعيداً جد البعد عن الوصول إليها، وإن كانت العلوم التجريبية تحتم علينا ألا نعتبرها ضرباً من الخيال على أنه عند القرب أو الوصول إلى هذه الحدود، يكون العلماء قد أحدثوا في العلم تطوراً يفوق بكثير ما أحدثه جاليليو ونيوتن في القرن السابع عشر، وما يحدثه بلانك وأينشتاين ودي بروي في العصر الحاضر.

محمد محمود غالي
دكتوراه الدولة في العلوم الطبيعية من السوربون
ليسانس العلوم التعليمية، ليسانس العلوم الحرة دبلوم المهندسخانة

ما هي الحياة؟
وكيف ظهرت على الأرض؟
للأستاذ نصيف المنقبادي

وحدة النباتات والحيوانات

يعتقد جمهور الناس أن الحيوانات (ومن بينها الإنسان) والنباتات والجمادات يختلف كل منها عن الآخر اختلافاً جوهرياً كلياً. وكانوا يعلموننا في المدارس أن هناك عالم الحيوان وعالم النبات وعالم الجماد، وأن كلاً منها مستقل تمام الاستقلال عن غيره. ولا شك في أن من يلقي نظرة سطحية عليها يجد أنها تختلف في الظاهر. فالحيوان يتحرك، والنبات ينمو، والجماد يبدو كأنه ثابت لا يتغير. ولكن الذي ينعم النظر ويدقق على ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة يتضح له أن هذه كلها اختلافات ظاهرية لا حقيقة لها في الواقع

ونقصر اليوم حديثنا على وحدة النباتات والحيوانات (ومنها الإنسان) والصفات المشتركة بينهما وهي مميزات الحياة بعينها. ونبحث في مقال قادم عن وحدة الأحياء عموماً (الحيوانات والنباتات والجمادات) لنستخلص من ذلك ماهية الحياة وكنهها وكيف أنه ظاهرة طبيعية مثل باقي ظواهر الطبيعة. ثم نشرح في مقال آخر كيفية ظهورها على الأرض بفعل العوامل الطبيعية، وعلى الأخص طاقة الشمس التي كانت تشتمل في ذلك الماضي البعيد جداً على الكثير من الأشعة فوق البنفسجية وعلى إشعاعات أخرى أكثر مما تحتوي عليه الآن. وأخيراً نتكلم عن المواد المتوسطة بين الأحياء والجمادات كالخمائر الذائبة في الماء وكالمعادن الغروية المدهشة التي تتصرف مثل الكائنات الحية في أهم أحوالها

مميزات الحياة المشتركة بين الحيوانات والنباتات

نطلق على جميع الحيوانات (ومن بينها الإنسان) وجميع النباتات اسم (الأحياء) أو (الكائنات الحية). ونقول عن كل فرد منها إنه (حي). وهذا يدل على أنها تشترك جميعها في بعض صفات وظواهر هي التي تميز الحياة وتجمع بين الكائنات الحية على اختلاف طوائفها وأنواعها وأفرادها. كالشكل النوعي، والتكوين الخلوي، والتركيب الكيميائي، والتغذي، والتنفس، والتحرك الذاتي والتطور الفردي والنوعي. وسيرى القارئ أن هذه
الصفات وإن كانت تميز - مجتمعة - الكائنات إلا أنها ليست خاصة بها كما سنثبت في مقال قادم، بل هي توجد ولكن مشتتة أو مبعثرة في الجمادات، وكل ما في الأمر أنها إذا اجتمعت في جسم واحد قيل عنه إنه (حي)

فلنستعرض هذه المميزات المشتركة لنقول كلمة موجزة عن كل واحدة منها لأن مقام التفصيل في كتب البيولوجيا. وحسبنا أن يكون فيما نورده هنا مقدمة أو تمهيد يسهل لقراء الرسالة الوقوف على الأبحاث الجديدة العظيمة التي كشف عنها العلم في

الثلاثين سنة الأخيرة مما سنشرحه في المقالات القادمة.
الشكل النوعي: لكل نوع من الكائنات الحية شكل معروف خاص به يميزه من غيره لأول وهلة. وتستوي في هذا الحيوانات والنباتات، كما أن لبلورات الجمادات والمواد المعدنية المبلورة أشكالاً هندسية ثابتة بكل نوع كيميائي منها تميزه من سواه.
وأشكال الحيوانات والنباتات تظهر ثابتة في مدة معينة من الزمن. ولكن إذا نظرنا إليها خلال ملايين السنين - على ما تبدو لنا في البقايا المتحجرة في طبقات الأرض المختلفة التي تكونت في الأعصر الجيولوجية القديمة المتعاقبة نجد أنها غير ثابتة، بل أنها في تغير وتحول مستمرين بفعل العوامل الطبيعية، والمؤثرات الجوية وتقلباتها، وتنازع البقاء بين الفصائل والأنواع والأفراد وما يترتب على ذلك من الانتخاب الطبيعي وبقاء الأنسب وانقراض غير الملائم للبيئة الجديدة والظروف الطارئة. غير أن فعل الطبيعة هذا تدريجي بسيط لا يظهر أثره إلا في ملايين السنين فيخيل لنا أن أشكال الحيوانات والنباتات ثابتة على الدوام، ولكن الحيوانات والنباتات المتحجرة التي عثر ويعثر عليها العلماء كل يوم في مختلف طبقات الأرض في جميع أنحاء الكرة الأرضية تدلنا على عظم تحول الأنواع وتسلسل الحديث منها من القديم. ويكفي أن يزور الإنسان أحد المتاحف الجيولوجية في أوربا ليقتنع بهذه الحقائق الثابتة التي يؤيدها من جهة أخرى علم التشريح التقابلي وعلم تكوين الجنين (يراجع المقال القيم الذي نشره أخيراً عن هذا الموضوع بمجلة (الرسالة) للأستاذ عصام الدين حفني ناصف)
التكوين الخلوي: إذا فحصنا بالميكرسكوب أية قطعة من جسم الإنسان أو أي حيوان أو أي نبات نرى أنها مؤلفة من خلايا صغيرة متلاصقة لا ترى بالعين المجردة، والخلية مكونة
من مواد زلالية بها قليل من مواد دهنية وسكرية، وفي وسطها نواة من مادة زلالية خاصة، ويحيط بها في أغلب الخلايا غشاء من مادة زلالية أخرى في الحيوانات ومن مادة السيليلوز (مادة القطن) في النباتات، والشكل العام للخلايا الحيوانية والنباتية واحد ولا سيما في الأدوار الأولى من تكون الجنين ولكن الخلايا تختلف بعد ذلك بعض الاختلاف في تفصيلاتها باختلاف وظيفة كل نسيج تدخل في تكوينه، كالخلايا العصبية وخلايا العضلات وخلايا الجلد وكالخلايا التي تدخل في تركيب الأوراق وأعضاء الزهرة والخلايا الخشبية والخلايا التي تؤلف منها الطبقة المولدة في غصون النباتات.
وتوجد إلى جانب هذا كائنات من خلية واحدة وهي الحيوانات والنباتات الأولية التي لا ترى إلا بالميكرسكوب، وكذلك كرات الدم البيضاء والحمراء
التركيب الكيميائي: تشترك جميع الأحياء من حيوانات ونباتات وإنسان في تركيبها الكيميائي وهو تركيب الخلية نفسها ونعني به ذلك الخليط من المواد الزلالية والدهنية والسكرية أو النشوية المتقدم ذكرها، وبعض مواد أخرى إضافية ثانوية قد توجد في بعض الخلايا ولا توجد في غيرها
التغذي: معلوم أن النباتات تتغذى مثل الحيوانات. ذلك أن مادتها الخضراء (الكلورفيل) تستعين بالطاقة الإشعاعية الكامنة في ضوء الشمس لتحليل غاز حامض الكربون المنتشر في الجو، وتنتزع منه الكربون: (الفحم) وتمزجه بالماء الذي تمتصه جذورها من الأرض فيتولد النشا الذي يتحول تارة إلى السكر وتارة إلى السيليلوز ومادة الخشب، وتتولد أيضاً على هذا النحو المواد الدهنية وتراكيب وأحماض عضوية أخرى ثلاثية: (مكوّنة من كربون وهيدروجين وأوكسيجين). وتمتص جذور النباتات في الوقت نفسه من الأرض - مع الماء - تراكيب الأزوت مثل الأزوتات: النترات وأملاح النشادر، وكذلك بعض مواد معدنية أخرى. وهذه المواد الأزوتية تمتزج بفعل قوة الشمس أيضاً بالسكر أو النشا، وبالمواد الدهنية والأحماض العضوية المشتقة من كربون الهواء على الوجه المتقدم بيانه، فتتولد المواد الزلالية التي هي أهم غذاء لها: أي النباتات وللحيوانات ومنها الإنسان. وخلاصة القول أن النباتات تتغذى مثل الحيوانات وتتناول لغذائها نفس المواد التي تتغذى بها الحيوانات وهي: المواد الزلالية، والمواد الدهنية، والمواد السكرية أو النشوية.
كما أن الغرض من التغذي واحد في الحيوانات والنباتات وهو، أولاً: توريد المواد اللازمة لتشييد بناء الأجسام الحية أثناء نموها وإصلاح ما يتلف ويستهلك منها. ثانياً: وهو الأهم، احتراق المواد الغذائية - بعد هضمها وامتصاصها - داخل أنسجة الجسم وخلاياه لتوليد

الطاقة (التي كانوا يسمونها بالقوة فيما مضى). والحرارة اللازمتين للقيام بأعمال الحياة ووظائف الأعضاء.

التنفس: ويلحق بالتغذي التنفس، ولا يخفى أن النباتات تتنفس مثل الحيوانات أي أنها تمتص الأكسجين من الهواء وتفرز غاز الحامض الكربونيك، ولها مسام في أوراقها وغصونها لهذا الغرض، كما أن الغرض من التنفس واحد في الحيوانات والنباتات وهو احتراق المواد الغذائية لتوليد الطاقة (القوة سابقاً) والحرارة الضرورتين لأعمال الحياة. وقد عرف علماء الفسيلوجيا الحياة بأنها احتراق أو تأكسد

التحرك: والحركة لا تختص بها الحيوانات دون غيرها فإنه توجد - من جهة - طائفة كبيرة من الحيوانات السفلى تعيش ثابتة في مكانها لا تتحرك منذ نشأتها، وهي تتولد بعضها فوق بعض في قاع البحار فتتكون منا جزر وهضاب لها شأن كبير في علم الجيولوجيا مثل الحيوانات الجوفاء أو المرجانية وغيرها. وإلى جانب هذا توجد نباتات تتحرك حركة ذاتية من تلقاء نفسها مثل الأنواع المفترسة (يرجع المقال الذي نشر في هذا الصدد أخيراً بمجلة الرسالة للأستاذ رضوان محمد رضوان). ومن النباتات المتحركة النبات المعروف باسم المستحية ومنها فصيلة كاملة من النباتات الطحلبية المائية، وهي الفصيلة المسماة (بالمهتزة) ومنها جرثومة التلقيح في النباتات السفلى فإن لكثير منها شعرة طويلة في مؤخرها أو أهداباً عديدة حولها تستعين بها على العوم في الماء فتتحرك وتنتقل وتروح وتجيء، لا فرق في ذلك بينها وبين الحيوانات الصغيرة ذات الخلية الواحدة ولهذا سميت أي الجرثومية التلقيحية الحيوانية، وهي نبات محض ولولا ضيق المقام لبيّنا أن السبب في عدم تحرك النباتات في مجموعها يرجع إلى مادة السيليلوز الجامدة التي تتركب منها أغشية خلاياها فتمنع امتداد الحركات المحلية الحاصلة على الدوام داخل كل خلية وذلك خلافاً للخلايا الحيوانية

التلقيح والتناسل والتطور: تتناسل النباتات كالحيوانات للتلقيح في أغلب الأحوال (ولكن ليس في جميعها على الإطلاق) ويشتق أو يولد كل فرد منها من فرد مماثل له، ثم ينمو بالتغذية، ثم يتناسل ويتكاثر بدوره، ثم يضعف ويموت متأثراً بما يتراكم في أنسجته من بقايا احتراق المواد الغذائية ومن تعفن فضلات الطعام داخل جسمه قبل إفرازها، عدا الحيوانات والنباتات الأولية ذات الخلية الواحدة فإنها أحياء خالدة لا تموت إلا إذا طرأ عليها حادث مهلك يقتلها كأن يجف مثلاً الماء الذي تعيش فيه أو يفسد.

وحدة الحيوانات والنباتات

ينتج مما تقدم أنه ليس هناك فرق جوهري بين الحيوانات والنباتات حتى لقد حار العلماء في إيجاد حد فاصل بينهما أو محك للتمييز بين بعض الأحياء السفلى الملتبس في أمرها لمعرفة هل هي حيوانات أو نباتات. ولم يجدوا أمامهم غير فاصل واحد هم أول من يعترفون بأنه سطحي ظاهري ونعني به مادة السيليلوز التي تتركب منها أغشية الخلايا النباتية فإنه لا وجود لها في الحيوانات

ولكن هذا الفاصل غير شامل لجميع النباتات في جميع أدوار حياتها لأنه توجد بعض الأنواع السفلى من النباتات الفطرية من فصيلة الميكزوميست تقضي حياتها كلها أو معظمها دون أن تكون لخلاياها أغشية من أي مادة كانت. غير أنه إذا ساءت الأحوال الجوية أفرزت هذه النباتات حول نفسها مادة السيليلوز فتتقي بهذا تقلبات الجو. أما في باقي الفصول المعتدلة فإنها تعيش خالية من هذه المادة.

ثم إنه من جهة أخرى توجد في جميع الحيوانات مادة تعد شقيقة السيليلوز من الوجهة الكيميائية وهي السكر، فكلاهما مكون من امتزاج الفحم بالماء ولكن على نسب مختلفة في كل منهما. ولذلك أطلقوا على هذه المجموعة اسم (هيدرات الكربون) التي منها أيضا النشا ومادة الخشب

وهناك فاصل فسيولوجي بين الحيوانات والنباتات قد يكون أهم إلى حد ما من الفاصل المتقدم وهو كيفية التغذي في كل منهما. فقد قلنا فيما تقدم إن الحيوانات والنباتات تتغذى على السواء، وأنه لا بد لغذائهما من نفس المواد الزلالية والدهنية والسكرية، ولكن الفرق بينهما هو أن الحيوانات تتناول هذه المواد مركبة مهيأة من الحيوانات الأخرى أو من النباتات. أما النباتات فإنها بحكم تكوينها لا تستطيع أن تتناولها مركبة (مع استثناء النباتات

المفترسة) بل تركبها أولاً من الهواء والماء والأرض بفعل قوة الشمس بواسطة المادة الخضراء (الكلورفيل) على الوجه المتقدم بيانه ثم تتغذى بها
على أن هذا الفاصل غير شامل لجميع النباتات، فإنه فضلاً عن النباتات المفترسة توجد طائفة أخرى كبيرة هي النباتات الفطرية المعروفة بعض أنواعها العليا عند الجمهور في مصر باسم (عيش الغراب) وهي خالية من المادة الخضراء فلا تستطيع أن تركب غذاءها بنفسها كما تفعل النباتات الأخرى ولكنها تتناوله مركباً - كما تفعل الحيوانات - من الأجسام الحيوانية والنباتية الأخرى. ومن أجل هذا نراها جميعها طفيلية تعيش على غيرها من الأحياء أو أجزائها الميتة أو مشتقاتها.
وعلى هذا تكون النباتات الفطرية الحلقة المتوسطة بين الحيوانات والنباتات، ولولا وجود السيليلوز فيها لعدها البولوجيون من الحيوانات. فهي نبات من جهة احتوائها على السيليلوز وحيوان من كيفية تغذيتها. وفي هذا الدليل الواضح على وحدة النباتات والحيوانات وعلى تسلسلها من أصل واحد وهو الجمادات كما سنبينه في المقالات القادمة.

نصيف المنقبادي المحامي
دبلوم في الفسيولوجيا العليا الحيوانية والنباتية
من كلية العلوم بجامعة باريس (السوربون)

رسالة الفن

التصوير الإغريقي في مرحلته الأولى

للدكتور أحمد موسى

كان الفنان المصري إذا صور جماعة من الناس أو الحيوان أو المواد، فأنه يضعها بحيث يكون بعضها خلف بعض أو إلى جانبه، من غير مراعاة الوضع الطبيعي الذي كانت تظهر به أمام عينيه، وكان هذا هو الحال أيضاً عندما أراد التصرف بعض الشيء - مثلاً - في تصوير مائدة عليها أدوات أو مواد، فتراه يصورها قطعة قطعة، كما لو كانت متفرقة غير مجتمعة على مائدة واحدة؛ ذلك لأنه لم يكن يعرف أصول تصوير المجسمات، وعلاقة الحجم والبعد بالتصوير المنظور وكان هذا سبباً جوهرياً في ظهور مختلف المصورات التي مثلت شئون حياته الزراعية والصناعية والدينية والاجتماعية والسياسية وغيرها، كما لو كانت متجاورة بالرغم من أن بعضها كان يجب أن يخفي البعض الآخر بحسب وضعه وراءها.
كما أن نظرة الفنان المصري لجماعة من الناس بينها شخصية بارزة، دفعته حيناً إلى إظهار هذه الشخصية بمقياس أكبر من المقياس الذي تقيد بتنفيذه في مصوراته، غير ناظر إلى موقع هذه الشخصية من حيث البعد أو القرب منه، أو لوضعها بالنسبة إلى مجاوريها، فضلاً عن نظرته إلى جسم الإنسان على وجه الخصوص، كما لو كان شيئاً ينظر إليه من وضعين مختلفين؛ فتراه كما ذكرنا في مقال سابق، نظر إلى الرأس والبطن والساقين والقدمين من الجانب، على حين نظر إلى العينين والكتفين والبطن من الأمام.
هذا هو التقرير العلمي عن التصوير المصري القديم، ذكرناه لتعريف القارئ بعض الشيء عنه، ليلمس الفوارق بين فنين قديمين أحدهما فن قومي والآخر فن مثلي بلغ الذروة التي تدفعنا دائماً إلى تلمس آثاره والسير على نوره والعمل على استيعابه، والمناداة بأنه وإن لم يكن أول الفنون جميعاً إلا أنه كان ولا يزال أعظمها خطراً وأجملها مظهراً وأصدقها تعبيراً.
لذلك كله لا نشك في أن الإغريق خلقوا فناً تصويرياً حقيقياً تقدموا فيه بخطوات واسعة ووصلوا إلى نتائج باهرة.
إلا أنه لشديد الأسف لم يبق الكثير من آثارهم فيه، وحتى الصور التي نقلت عن الأصول لا يمكن التأكد - غالباً - من صحة نقلها، أو مطابقتها لما نقلت عنه وعلى ذلك فالتصوير الإغريقي الذي يمكن اتخاذه مادة لتأريخه والوقوف على اتجاهاته ينحصر باستثناء قليل في التصوير المرسوم على أواني الزهر التي اتخذ منها الإغريق عالماً كاملاً لتصوير مختلف شئون الحياة عندهم، وفي التصوير الزخرفي الذي جاء متأخراً ومعاصراً للرومان.
ولذلك كان معظم ما نعرفه عن المصور الإغريقي أو قل كل ما نعرفه عنه مأخوذ من

المصادر المكتوبة.
وبالرغم من أن التصوير وصل في دقته إلى درجة مثيرة لكل إعجاب، فإنه لم يكن ليصل إلى درجة السمو والعظمة التي بلغها فن النحت الإغريقي الخالد، وهذا لا يمنع من ذكر بعض فنانين مصورين ارتفعوا بفنهم إلى درجة عالية لا يمكن إغفالها أو إهمالها إطلاقاً.
وإذا شئت فقل: إن الاختلاف الجوهري بين فن التصوير الإغريقي - على قدمه - وبين فن التصوير (الحديث) محصور في ناحية (الظل والنور) وناحية (التلوين) أما من ناحية روح الفن والطابع المميز والطراز والموضوع الإنشائي وتقدير الجمال والوثوب إليه رغبة تسجيله؛ فإن مصورات الإغريق لم تكن لتقل نسبياً عن أعمال الفنانين المحدثين.
فقد كان المصور الإغريقي قادراً على تجسيم الرسوم وإعطائها شيئاً من الحياة، ولكنا لا نزال نكرر القول بأنه لم يصل للدرجة الهائلة التي وصل إليها النحات والمثال.
وظل التصوير إلى القرن الخامس قبل الميلاد بدائياً بسيطاً، أي أنه سار في أول أمره بخطوات أبطأ بكثير من تلك التي سار بها فن النحت.
ولعل أول ما يمكن ذكره عنه هو أنه تطور في مدرسة أتيكا، تلك المدرسة التي أسسها في أثينا الفنان أول مصوري العالم بالمعنى الفني، والذي عمل بين سنة 475 وسنة 455 ق. م في أثينا.
والفنان في اعتبارنا لا يكون عظيماً إلا إذا كان له طابع مميز واتجاه معين، مثله في ذلك مثل الموسيقي والشاعر والكاتب، وإلا ففي أي شيء آخر يمكن أن تظهر هذه العظمة؟
إن كثرة إنتاج الفنان لمما يساعد دون نزاع على درس طابعه واستخلاصه من خلال هذا الإنتاج، ولكنها لن تكون سبباً في تعظيمه أو تخليده؛ إذ أن من بين أساطين التصوير من كان نسبياً قليل الإنتاج ومع هذا كان عظيماً، على حين رأينا غيره ممن كثرت لوحاتهم وبقيت آثارهم لم يكن لهم نصيب في الخلود في عالم الفن، نظراً لضآلة طابعهم المميز أو انعدامه.
وهاهو ذا المثل بين أيدينا، فالمصور بوليجنوت مع قلة ما أنتجه وضآلة ما وصل إلى أيدينا من خلقه، كان فناً بارزاً لوضوح طابعه الدال على سمو نفسيته وقوة تعبيره ودقة ملاحظته.
ويتلخص هذا الطابع في أنه أول من أبتدع التصوير التذكاري الذي سار فيه متجهاً نحو المثل الأعلى؛ فدل في جلاء على النضوج العقلي. وإلى جانب ذلك يعد بوليجنوت أستاذاً في التصوير الخطي أي المكون من خطوط تحديدية خصصها لتصوير موضوعات أخلاقية أظهر فيها ناحية الجمال المثلى، فكان كما أطلق عليه علماء الفن (مصور الأخلاق) ويعنون بذلك الانتماء إلى الاتجاه الفلسفي الذي يعني بالتفرقة بين عادلات الإنسان وبين ميوله لتحقيق فكرة الخير أو العمل مندفعاً نحو الشر.
على أن هذا الطابع وهذا الاتجاه ليس دليلاً على النضوج الفني الذي لم يصل إلى نهايته في التصوير، ولذلك، كما قلنا، كانت معظم أعماله تصويراً خطياً لونها بألوان معدودة دون ظل ولا نور؛ فبدت أشبه شيء بصفوف بعضها وراء بعض على أرضية ذات مستوى واحد. وكان غالباً ما يرسم - في ركن من الصورة - شجرة أو بيتاً قاصداً بذلك تمييز مصوراته متخذاً معظم مادته الإنشائية من سير الأبطال.
وأشهر ما تبقى من إنتاجه صورتان حائطيتان في ردهة الاجتماع بمدينة دلفي، أولاهما مثلت (تخريب تروادة ورحيل الإغريق عنها). وثانيهما زيارة أوديسوس - بطل تروادة - للدنيا السفلى.
كما أن له صورة حائطية مثلت (تشاور الإخائيين) في ردهة السوق. وغيرها (الديوسكوريين يخطفون بنات لويسبس) في معبد ديوسكور أو معبد أبناء زويس من معشوقته إليدا التي كان - كما تذكر القصة الإغريقية - يزورها وهو في هيئة البجعة.
وكان له تلاميذ تأثروا به ونهجوا على منواله أهمهم ميكون الذي صور (أعمال ثيسيوس) في معبد سمى باسمه، ورسم (عراك الأمازونات) في ردهة السوق. وتنسب إليه أيضاً (؟) صورة حائطية موضوعها (موقعة مارتون) في نفس الردهة، وهي الموقعة المشهورة التي قامت في البقعة المعروفة بهذا الاسم على ساحل أتيكا

الشرقي، والتي ترجع شهرتها إلى النصر المبين الذي أحرزه الأثينيون تحت قيادة ملتيادس على الفرس في 12 سبتمبر سنة 490 ق. م.
ووجد حوالي نهاية القرن الخامس قبل الميلاد فنان ذو طابع جعل منه رائداً لمرحلة فنية، هو أبولودور الأثيني، لأنه استطاع إبراز الصور بهيئة مجسمة وذلك بإدخال التظليل فيها بعد أن كانت صوراً خطية. ولذلك يطلق عليه مؤرخو الفن (مصور الظل) فخطى بذلك خطوة جديرة بالتسجيل والإعجاب.
أحمد موسى
محمد القصبجي
من الوجهة الفنية
للأديب السيد محمد المويلحي
يحاول الآباء أن (يصبوا) أبناءهم في (قوالب) المجد فيبذلوا وسمعهم من جهد ومال ليحققوا هذه الأمنية المرغوبة. . . ولكن القدر. . . يقف وينظر ويبتسم! لأنه يعلم أنه المسيطر الآمر الذي يهيئ المستقبل الذي لا ينقض!
أراد الشيخ (القصبجي) الكبير أن يكون أبنه (محمد) صورة له، فيلبس العمامة، ويتثقف ثقافة دينية تهيئه للتدريس بالمدارس الأولية، فنجح إلى حد ما. . . وحصل أبنه على كفاءة التعليم الأولي وأمتهن التدريس سنة. . . ولكن القدر كان يترصد الشيخ محمد الشاب المرح الذي يعبد الموسيقى، فأنتزعه من مدرسته وقلبه بين الحرمان والفقر وغضب الوالدين، ولكنه تعلم خلال هذه المحنة كيف يتقن العزف إتقاناً عجيباً. . . هذبته السنوات العجاف وربت في نفسه رجولة قوية، وصبراً طويلاً. فتحدى الحياة، وتحدى الفقر وانتصر عليهما. . . ثم كان ما أراده القدر (القصبجي الموسيقار)
أول من خرج من الموسيقيين بتجديد (صحيح) وابتكار طريف، وأول من جرد فغير وبدل حتى أخرج للناس صوراً رائعة للموسيقى الفنية القوية
صاح في الشرق صارخاً بقطعته الخالدة (إن كنت أسامح) فعرف الناس أن في مصر صوتاً جميلاً لآنسة ترتدي العقال وتسمى (أم كلثوم). . .! وأن في مصر ملحناً شاباً يسمى (القصبجي) أنقذ (التخت) الشرقي والمصري من جموده، ونفض عنه ثوب (الملل) الذي كان يعلوه.
هذا (المنولوج) الذي لحنه من نغمة (الماهور) بشكل لم يسبقه إليه، (إن كنت أسامح) سابق، وقد بلغ من الذيوع والشهرة ما حبب الناس في الموسيقى ولفت نظر الملحنين إلى هذا الفتح الجديد. وقد بلغ من إقبال الناس على شراء هذا (المنولوج) أن باعت منه شركة أوديون مليوناً ونصفاً من الاسطوانات.
ابتدع فن التطويل والمد، وأدخل على التلاحين الشرقية لوناً (كلاسيكياً) أخذ عنه وتأثر به أكثر ملحني هذا الزمن
أهم ما يمتاز به عن غيره من الملحنين والمجددين أنك لا تستطيع أن ترد له لحناً إلى لحن قديم سمعته، وأنك مهما كنت بارعاً عالماً لا تجد تلحيناً له يشبه الآخر كل الشبه أو بعضه كما نسمع في تلاحين غيره
أخرج للناس أكثر من خمسمائة (لحن) ما بين مونولوج وأهزوجة ودور، ولكنه انفرد بالتوفيق الكامل في (المنولوجات) وتمتاز تلاحينه القوية الحية بأنها لا تستغل الغرائز الدنيا فلا بكاء فيها ولا عويل، وبأنها تحتل الآذان فوراً لتصل إلى شغاف القلوب، فهو الملحن الوحيد الذي لا يكاد يخرج للناس شيئاً حتى تسمعه يجري على لسان الرجل والمرأة، والولد والبنت، لا في مصر وحدها بل في بلاد الشرق قاطبة
طيب القلب لا يخاصم ولا يناوئ ولا يحمل ضغينة أو حقد إلا من أجل المال والعمل مع أم كلثوم!
يعجبني فيه أنه شركة لا تنضب، فلو طلب منه تلحين (رواية) بأكملها وأغري بالمال الذي يعبده لرأيت التلاحين تجري على لسانه وتسيل من فيه كأنها آتية من بحر خضم!
سمع مرة رجلاً يبيع (الزيتون الأخضر) وينادي عليه بصوت جميل، وبنغم جديد سحره، فلم ير القصبجي بداً من متابعته والسير وراءه في الأزقة والحارات والدروب، حتى وصلا إلى شارع في العباسية (شارع عبدة باشا) وهناك حفظ اللحن والنغم الذي لحن به قطعته المحبوبة (يا فايتني وأنا روحي معاك). . !!
شاذ في تصرفاته، ولعل الشذوذ ضرب من ضروب العبقرية، فهو يركب الترام فإذا

ألفاه مزدحماً، وكان الجو حاراً تظاهر بأنه محموم وأخرج من جيبه (الترمومتر) ووضعه في فيه وتهالك وأكسب وجهه منظر الذي سيموت بعد لحظات فلا يلبث الركاب أن ينسحبوا، ولا يلبث الترام أن يخلو جميعه إلا من القصبجي الممثل. . .!
هو على رأس العازفين في الشرق، وتعتبر (ريشته) أقوى ريشة في مصر، فهي تمتاز بالقوة والحلاوة والقدرة على الاستمرار في العزف ليلة كاملة دون أن تسمح للملل بأن يتطرق إلى نفوس السامعين؛ ومع ذلك فإن محطة الإذاعة تتجاهله ولا تحس بوجوده لأنه يرفض الأجر الذليل. . .!
ولولا بخله الشديد، ولولا بيعه تلاحينه أكثر من مرة لكان شيئاً عظيماً. . . ولكنه إنسان!
محمد السيد المويلحي
البريد الأدبي
الدكتوراه الفخرية لصاحب الجلالة الملك
تشرف صاحب السعادة الأستاذ أحمد لطفي السيد باشا مدير الجامعة بمقابلة حضرة صاحب الجلالة الملك لالتماس الموافقة من جلالته على قبول درجة الدكتوراه الفخرية التي قررت جامعة فؤاد الأول رفعها إلى مقامه السامي
وتفضل جلالته فوافق على قبول الالتماس وأمر بتحديد الساعة الحادية عشرة من صباح الغد (الثلاثاء 28 فبراير) لإقامة الحفل الجامعي التقليدي الذي سترفع فيه الدكتوراه الفخرية إلى جلالته، وتفضل جلالته كذلك فوافق على توزيع عدد من الدرجات الجامعية على الذين إجازتهم لهم إدارة الجامعة
وقد عهدت الجامعة إلى أحد كبار متعهدي الأزياء الجامعية بإعداد روب خاص لجلالته يختلف عن روبات جميع الكليات
وعهدت الجامعة كذلك إلى أحد متعهدي المداليات للسرايات الملكية في صنع مدالية ذهبية في حجم الريال تقريباً وستكون على شكل دائري بداخلها تمثال للآله توت مصنوع من المينا وستكتب في داخلها العبارة الآتية: (إلى حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ملك مصر المعظم ترفع جامعة فؤاد الأول درجة الدكتوراه الفخرية في 9 محرم سنة 1358 الموافق 28 فبراير سنة 1939)
وقد تقرر ألا تهدي الجامعة هذه الدرجة الفخرية إلا لأصحاب التيجان ورؤساء الدول. أما الدكتوراه الفخرية التي تقدمها الكليات فتمنح طبقاً للتقاليد المتبعة بعد موافقة مجلس الجامعة.
وسيخطب في حفلة الإهداء صاحب المعالي الدكتور حسين هيكل باشا بوصفه الرئيس الأعلى للجامعة، ثم صاحب السعادة أحمد لطفي السيد باشا رئيس مجلسها.
في ذمة الله صديقنا الهراوي
في صباح يوم الجمعة الماضي قضى بموت الفجاءة صديقنا الأستاذ محمد الهراوي، وكان لليلتين خلتا في دار الرسالة ملء السمع والبصر والشعور، يناقش في الأدب، ويوازن في الشعر، وينشدنا قصيدته التي أعدها لموسم الشعر، وما كنا ندري أن ذلك الجسم الدافق
بالحيوية، وذلك القلب النابض بالشاعرية، يطويهما الردى في مثل لمح الطرف، فيخلو مكان الهراوي الوالد والصديق من بيته وناديه، فيفتقده أبناؤه فإذا هو أثر، ويسأل عنه أصدقاؤه فإذا هو خبر!
كل حي فان، ولكن فناء الحي الذي طبع وجوده في القلوب والعيون والكتب والأمكنة تحد لهذه الحقيقة، واعتراض على هذه القضية. وسيحيا الهراوي في شعره الذي عاش فيه وله، وفي قلوب إخوانه الذين أخلص لهم وبرّ بهم، وسيكون من الصعب على الزمان والنسيان أن يطمسا هذه الشخصية المحبوبة بما خصها الله من سلامة القلب وعفة اللسان وكرم العشرة وصدق المودة. رحمه الله رحمة واسعة، وعوض الأدب العربي منه خير العوض.
حول كتاب ضحى الإسلام
أرسل إلينا صديقنا الأستاذ أحمد أمين ما يأتي: زعمت جريدة المكشوف - فيما نقلت الرسالة - أني أوردت الأسماء العربية في (ضحى الإسلام) محرفة فقلت: (زافار) بدل (ظفار) و (أريتاس) بدل الحارث و (فلاسفة العرب) مكان (مفكرو الإسلام)
وهذا كله غير صحيح، وأنا أتحدى صاحب المكشوف أن يبين الصفحة التي وردت فيها

هذه العبارات إن كان صادقاً
أحمد أمين
حول كلمتي ذكورة وأنوثة
. . .حضرة الأستاذ الكبير. . . صاحب (الرسالة) الزهراء السلام عليكم
وبعد فقد قرأت في العدد (282) من رسالتكم كلمة للأستاذ صلاح الدين المنجد تحت عنوان (حول كلمة أنوثة) أنكر فيها الكاتب الفاضل صحة كلمتي ذكورة وأنوثة محتجاً بأن اللسان لم يذكر الأولى بالمعنى المتعارف وهو مقابل الأنوثة، وأما الثانية فلم يذكرها بتاتاً؛ ولذلك حكم بعدم وجود كلمة أنوثة في العربية.
قال: وإنما هي أناثة
ونرى أن عدم ذكر اللسان - كغيره من المعاجم - كلمة لا يدل على عدم صحتها إلا إذا نص علماء اللغة على ذلك، أو على الأقل خلت منها المعاجم الموجودة، وإلا فمن حفظ حجة على من لم يحفظ.
ونلفت نظر الكاتب الفاضل إلى أن الكلمتين اللتين أنكرهما لم تنكرهما المعاجم. ففي المصباح بمادة ذكر:
(والذكورة خلاف الأنوثة)
وهذا نص قاطع. وفي الأساس بمادة أنث:
(ونزع أنثييه ثم ضرب تحت أنثييه، والأنوثة فيهما من جهة تأنيث الاسم)
وكذلك في التاج. واستعمال هذا اللفظ في بابه من معجم موثوق به دليل على صحته.
وفي التاج أيضاً مادة فحل:
(وتفحل تشبه بالفحل في الذكورة)
واللفظان جاريان على ألسنة المصنفين من الفقهاء وغيرهم، ومن أمثلة ذلك قول النووي في المجموع: (أما نبات اللحية ونهود الثدي ففيهما وجهان أحدهما يدل النبات على الذكورة والنهود على الأنوثة. . . الخ)
إذن فكلمتا ذكورة وأنوثة صحيحتان شائعتان قديماً وحديثاً ولهما في العربية نظائر كالطفولة والفحولة والأبوة والبنوة والأمومة والعمومة والخؤولة. . . إلى غير ذلك. . .
ولا أحسب أن أخانا الفاضل - بعد هذا - يرى أن لفظ (أناثة) أسوغ من لفظ (أنوثة) مع ما قدماه والله أعلم
(حضرموت: سيوون)
صالح الحامد العلوي
تخليد ذكرى مختار وإقامة متحف مؤقت لمخلفاته
كانت إدارة متحف فؤاد الأول الزراعي قد قدمت اقتراحاً إلى ولاة الأمور في صدد إقامة متحف خاص لمخلفات المرحوم المثال مختار. وأخيراً رأت إدارة المتحف اختيار مكان مؤقت لهذه المخلفات ريثما يعتمد المال اللازم إنشاء مبنى لها، وقد تقرر أن يكون ذلك المكان المؤقت هو المسكن الملحق بالمتحف
وستكون نواة متحف مختار الذي يقام عما قريب في ذلك المكان، ما يوجد الآن من تماثيله
في معرض الفن الفرنسي القائم على أرض الجمعية الزراعية بالجزيرة، وذلك إلى أن ترسل الحكومة في طلب بقية آثار مختار من باريس.
ويتجه الرأي إلى استعارة التماثيل التي باعها مختار لبعض الهواة لتعرض في متحفه لآجال معينة على أن تحمل خلال عرضها أسماء أصحابها. وسيضم المتحف إلى جانب التماثيل زي مختار والأدوات التي كان يستعين بها في عمله، ونموذجاً من حياته الخاصة
أعلام الدراما في مصر
كتبت القنصلية الملكية المصرية بسان فرنسسكو إلى وزارة الخارجية تنبئها بأن جمعية القلم النسائية الأمريكية قد طلبت إليها موافاتها بأسماء أعلام فن (الدراما) في مصر رغبة منها في ضم أسمائهم إلى زملائهم في مختلف الممالك والأقطار
وطلبت الجمعية أن تتعرف مركز هذا الفن في مصر بعد أن طغت السينما على المسرح وهل لا زالت (الدراما) محتفظة بمكانتها في البلاد
وقد أحيل هذا الطلب إلى وزارة المعارف للنظر فيه ولعلها تحيله هي أيضاً على إدارة

الفرقة القومية لتقول كيف قضت على بعض أعلام الدرامة بالخمول وحكمت على البعض الآخر بالتشريد

مستشرق ألماني

يزور مصر الآن الدكتور جوستاف نيوهاوس، أحد أساتذة معهد اللغات الشرقية في برلين

ومما يذكر عن الدكتور نيوهاوس أن مؤلفات كثيرة في اللغات (السواحلية) وأبحاثاً طريفة عن بلاد زنجبار ودار السلام وآثار العرب فيها، كما أخرج أخيراً كتاباً عن رحلته من مصر إلى بلاد شرق أفريقيا

جماعة الأخوة الإسلامية

اجتمع في اليوم الحادي عشر من فبراير أعضاء جماعة الأخوة الإسلامية برآسة الدكتور عبد الوهاب عزام في دارها (قبة الغوري) وحضر الاجتماع كبار العلماء ورجال الإسلام من أربعين قطراً إسلامياً.

وتكونت هيئة المكتب من ممثلي: مصر والحجاز والهند، ويوغسلافيا والصين وألبانيا والعراق واليابان وكردستان وبلغاريا وأفريقيا ورومانيا واليمن ومنشوكو وفلسطين وأندنوسيا وبولونيا وافغانستان وطرابلس الغرب وجبل أورال وسودان وجزيرة لفزيمة وحضرموت وإيران وروسيا والحبشة والشام وتركيا وملايو وسيام وشرق الأردن وسيلان والجزائر ومراكش وملديفيا والبحرين وقفقازيا وأناضول وبنغال.

افتتح الحفل بآي الذكر الحكيم ثم قام الدكتور عبد الوهاب عزام فبين أغراض الجماعة، وتلاه من الخطباء: الأستاذ طنطاوي جوهري، فتكلم في الإسلام والسلام العام، ثم الشيخ عبد المتعال الصعيدي، ثم الشيخ صاوي شعلان، ثم الأستاذ أحمد بك خليل، والأستاذ محمود جبر، والدكتور عبد العزيز عزام، ثم الدكتور ميرزا فضل الله الإيراني.

وتألفت اللجنة الأساسية من: الدكتور عبد الوهاب عزام رئيسا والأستاذ محمد أمين نور الدين بك المحامي وكيلاً والأستاذ إبراهيم عثمان مراكش مراقباً عاماً. والأستاذ محمد حسن الأعظمي الهندي مراقباً مالياً. والأستاذ إسماعيل حنفي البلغاري خازناً. والأستاذ عمر وجدي كيردي سكرتيراً. والأستاذ يوسف عبد الله قريمي أميناً للمكتبة

حياة الرافعي

يصدر في هذا الأسبوع كتاب (حياة الرافعي) وسيرسل إلى حضرات المشتركين الذين سددوا قيمة الاشتراك ونفقات البريد؛ أما الذين لم يسددوا إلا قيمة الاشتراك فقط، فيمكنهم الحضور إلى إدارة الرسالة ليتسلموا النسخ التي اشتركوا فيها.

اللجنة العليا لقرش فلسطين

اجتمعت اللجنة العليا لقرش فلسطين في الساعة السابعة والنصف من مساء يوم الأحد 23 من ذي الحجة سنة 1357هـ والموافق 12 فبراير سنة 1939 بدار المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين، وانتخبت حضرة الأستاذ الدكتور عبد الحميد سعيد رئيساً والأستاذ عبد المجيد بك إبراهيم صالح سكرتيراً عاماً وحضرة صاحب العزة ميرزا مهدي رفيع مشكي بك أميناً للصندوق والوجيه محمد أفندي حسين الرشيدي مساعداً لأمين الصندوق وحضرات أصحاب السعادة الأستاذ محمود بك بسيوني وعبد الخالق مدكور باشا ومحمد فهمي الناضوري باشا واللواء أحمد فطن باشا وأصحاب العزة الأستاذ الشيخ أحمد

إبراهيم بك ومحمد عيد بك وأصحاب الفضيلة الشيخ عبد الوهاب النجار والشيخ محمد عبد اللطيف دراز والأستاذ حسن البنا وحضرات الدكتور محجوب ثابت وللدكتور نجيب أسكندر والأستاذ عبد القادر العبد والأستاذ أحمد السكري أعضاء

وألفت لجاناً فرعية:

لجنة الدعاية: برياسة حضرة الدكتور محجوب ثابت

لجنة الحسابات: برياسة حضرة صاحب العزة ميرزا مهدي رفيع مشكي بك.

ولجنة المتطوعين: برياسة الوجيه محمد حسين الرشيدي أفندي

ورأت أن توزع الطوابع يوم 15 من محرم سنة 1358هـ وهي تهيب بطبقات الشعب أن تساهم في هذا المشروع الإنساني الجليل لتخفيف جراح فلسطين الشقيقة

المجاهدة كما تدعو شباب الأمة الناهض في مختلف طبقاته إلى المسارعة للتطوع والقيام بما يفرضه الواجب نحو فلسطين المجاهدة

رسالة النقد

في سبيل العربية

كتاب البخلاء

للأستاذ محمود مصطفى

- 1 -

من فوق هذا المنبر العالي والمنار القائم للغة الضاد (وهو صحيفة الرسالة الغراء) نرفع صوتنا مرة أخرى في سبيل العربية، وقد كنا تعرضنا تحت هذا العنوان لنقد كتب يصدرها بعض رجال وزارة المعارف المصرية، وتقرها الوزارة لطلابها.

عدنا اليوم لمثل عملنا في العام الماضي، ولكن في طريق شائكة وخطة ملتوية. تلك هي نقدنا للغويين الكبيرين والعالمين الفاضلين: صاحبي العزة أحمد العوامري بك، وعلي الجارم بك المفتشين الأولين للغة العربية بوزارة المعارف، وعضوي المجمع الملكي اللغوي بالديار المصرية

وقد جئنا ننقدهما في عملهما الذي تآزراً عليه وأفرغا جهدهما فيه، فكان لا بد أن يجئ مظهراً لفضلهما وصورة صادقة لهذه الممارسة الطويلة للعربية وآدابها، هذه الممارسة التي كانت منهما في هذا العمر المديد والزمن المتطاول، وكنا ننوي أن نتخذ من أقوالهما وآرائهما حججاً في العربية نضيفها إلى أقوال فحول اللغة السابقين. . . ذلك ما فتحنا صدورنا له واستعددنا لتلقيه حين بدأنا نقرأ تعليقهما على كتاب البخلاء للجاحظ الذي وكلت وزارة المعارف المصرية إليهما أمر إخراجه في صورة واضحة تقرب إلى أهل جيلنا أدب القرن الثالث للهجرة، وتحبب إلى قرائنا الزاهدين في هذا الأدب أن يقبلوا عليه ويستجلوا جماله الفاتن.

توقعنا ذلك من هذين العالمين الفاضلين اللذين جمعا إلى الثقافة العربية ثقافة غربية، ولم يدر بخلدنا إلا أن يكون عملهما في خدمة هذا الكتاب مزجاً حسناً لهاتين الثقافتين وتجلية لهما في ثوب عصري شائق

ولكننا لم نلبث حين نظرنا في الكتاب أن رأينا جهداً نحوياً عنيفاً أغرم فيه المخرجان بتعقب الجاحظ، يعربان أدبه الراقي وفكاهاته الظريفة، ويعتديان على ذلك البيان الواضح بقولهما إنّ أنْ هذه مفسرة وتلك مخففة من الثقيلة، والتعليق على (كان) بأنها مرة تامة وأخرى ناقصة إلى غير ذلك من مسائل الإعراب التي زهدت الطلبة في العربية إبان طلبهم للعلم بالمدارس. فإذا بالمخرجين لم يكفيهما إلحاح بعض المدرسين في ذلك على طلابهم حتى زادا الإبالة ضغثاً والكيل طفحاً

وما ندري كيف اجتمع في صدر هذين الرجلين أو صدر أحدهما على التحديد هذا الإلحاح في مسائل الأعراب، مع الرغبة في تيسير قواعد اللغة العربية وقد كان أول مظاهرها عند هؤلاء الميسرين إهمال ذلك الإعراب!

والكتاب إلى ذلك مظهر آخر لهذا الذي يسمونه تطبيقاً على البلاغة فما تزال ترى في تعليقاتهما أن هذا التركيب استعارة وذلك تشبيه أو مجاز بالحذف أو إطناب أو إيجاز، وكأنما ظن المخرجان أن الجملة لا تفهم إلا إذا أعربت، ولا تقدر قيمتها في البيان إلا إذا طبقت عليها علوم البلاغة بوضعها الذي نعرفه. ولسنا نحرم على شراح كتاب ككتاب البخلاء أن تكون منهم إشارة إلى مثل ذلك، ولكن حضرتي المخرجين أسرفا في ذلك حتى صح في نظري أن أعتبر هذا الشرح كراسة تطبيق على النحو والبلاغة. وصرت أعد نفسي حين قراءته طالباً من طلاب الشهادة الثانوية أتزود للامتحان قبله بأيام. وهذا إسراف في حق الأدب أو الأدب الرفيع الذي إن صدق على شيء فأول ما يصدق عليه هو كلام الجاحظ

وليت المخرجين حين فعلا ذلك كانا موفقين إلى الصواب سالكين النهج الجدير بمكانتهما بين أهل العربية في عصرنا! ولكن الذي كان موضع العجب أنهما زلا في كثير من هذه المواضيع التي أرادا أن يدلا بمعرفتهما فيها على جمهور الأدباء ممن يجهلون أو يتجاهلون ذلك.

كان هذا حقاً موضع العجب من أمر رجلين عظيمين قضيا حياة طويلة في نقاش المعلمين، ومحاسبتهم على عباراتهم وإشاراتهم، حتى كان للهمزة توضع في غير

موضعها، وحرف الجر ينوب عن غير مشادات ومصاولات، ثم فوز لهذه الاعتبارات الهينة يظهر أثره في التقارير، فإذا هذا المعلم مهمل لأنه لا يعنى بوضع الهمزات مواضعها، وإذا بذاك مجيد لأنه
راعى رغبة المفتشين في هذه الدقة وتلك الشدة.

قلنا إن طريقنا في نقد المخرجين كانت شائكة، وإن الخطة كانت ملتوية، وما قصدنا في هذا إلى صعوبة المآخذ وغموض الصواب علينا، فقد والله قيدنا ملاحظاتنا في أثناء قراءة هادئة لم نقصد منها إلا التمتع بأدب الجاحظ واللهو بفكاهته، فإذا المآخذ تنادينا وتقول خذوني!

وإنما شاكت الطريق والتوت الخطة لأننا اضطررنا في سبيل العربية أن ننال من علمين من أعلامها بيننا؛ ولم يكن نيلنا في أمور يحتمل فيها الخطأ، أو يقبل اعتساف الرأي لدقة المسلك أو حلكة الشبهة، بل قد وجدنا هذه المآخذ يشتد العيب فيها على ناشئ في العربية لا يزال يتعثر في ذيول الإعراب والتطبيق، فآلمنا أن نجرح بمثل هذه المآخذ عالمين فاضلين من أفذاذ المصريين فيما نصبا أنفسهما له، وتصديا للرياسة فيه من علوم.

وقد كنا هممنا أن نبوب للقارئ هذه المآخذ فنجمع متشابهاتها تحت عناوين تشملها: فهذا عنوان الأغلاط النحوية، وذاك عنوان المآخذ اللغوية، وذلك باب الفهم النابي أو الترجيح للمرجوح و. . . ولكنا رأينا أن نجعل مآخذنا تساوق صفحات الكتاب، فكلما مررنا بواحدة منها تكلمنا عنها وبينا وجه الصواب فيها

في أول صفحة من الكتاب في تعليل ذكر نوادر البخلاء بين جد وهزل (لأجعل الهزل مستراحاً، والراحة جماماً) وفي التعليق على هذه العبارة يقول الشارحان: الجمام: الراحة

وهذا التفسير ظاهر الخطأ لأنه ينتهي بالجملة إلى أن تكون هكذا: لأجعل الراحة راحة، وهذا غير جائز في حقيقة ولا محاز

ومأتى هذا الخطأ من الشارحين أنهما وجدا في كتب اللغة تفسير الجمام فيما تفسره بالراحة، فارتاحا إلى هذا وفاتهما أن هذه الكتب عينها تفسره أيضاً باجتماع النشاط وتراجع القوة. تفهم ذلك من قول القاموس: جمت البئر تراجع ماؤها، والفرس ترك الضراب فتجمع ماؤه، وترك فلم يركب فعفا من تعبه. . . فهذه العبارات تفيد معانا صراحة وتعفينا من تفسير الماء بالماء كما حصل من حضرتي المخرجين

وفي ص26 مسألة ذات بال سيتعب القارئ من تتبعهما ولكنهما ستنتهي به إلى نتيجة شديدة على الشارحين، فليجعل حكمه على فهمها ووقوفه على مقدار ذوقهما ثمناً لهذا التعب

قال الجاحظ (فأما ما سألت من احتجاج الأشحاء ونوادر أحاديث البخلاء فسأوجدك ذلك في قصصهم إن شاء الله تعالى مفرقاً وفي احتجاجهم مجملاً، فهو أجمع لهذا الباب من وصف ما عندي دون ما انتهى إلى من أخبارهم على وجهها وعلى أن الكتاب أيضاً يصير أقصر ويصير العار فيه أقل)

قال الشارحان (فهو الخ: الضمير عائد إلى (ذلك) أي أن احتجاج الأشحاء ونوادر أحاديث البخلاء منبثة في قصصهم مفرقة ومجملة - أجمع لهذا الباب (باب البخل) من وصف الخ والجار والمجرور في قوله من وصف حال من (ذلك) في قوله: فسأوجدك ذلك و (دون ما انتهى) حال من وصف ما عندي. والمعنى سأطلعك على ذلك حال كونه من وصف ما عندي من مشاهدات أحوال البخلاء ونتائج معاشرتي إياهم وسيكون هذا غير ما سأذكره أيضاً مما انتهى إلى من أخبارهم)

تدبر أيها القارئ عبارة الشارحين واعصر ذهنك في ضمائرها وإشاراتها وأحوالها ومتعلقاتها فإن محاولة إفهامك مرادهما شاقة عسيرة إلا إذا اجتمعنا أمام سبورة أكتب لك عليها الجملة بالأحمر والأصفر وأجعل أتنقل بك من ضمير إلى أسم إشارة واصلا هذا بذاك حتى تفهم المراد

ولكن ينبغي أن تعلم أن السر في هذا التعقيد هو عدم اهتدائهما إلى مرجع الضمير في قوله: (فهو أجمع. . .) كذلك اعتبارهما الجار والمجرور (من وصف) متعلقاً بحال من (ذلك). وقد أوقعهما هذا التقدير في مشكل نحوي لم يلتفتا إليه وهو وقوع اسم التفضيل المنكر المجرد من الإضافة، بدون من تالية له جارة للمفضل عليه، كما تقول:

محمد أكرم من علي، فيكون (من علي) متعلقاً بأكرم وهذا ملتزم في مثل ذلك التعبير.

أما الذي نقوله في عبارة الجاحظ فهو أن الضمير في قوله (فهو أجمع) يعود على مصدر الفعل (أوجد) والجار والمجرور (من وصف) متعلق باسم التفضيل (أجمع) فيكون المعنى: إن إيرادي لقصصهم واحتجاجاتهم أشمل لهذه النوادر من أن أقتصر على إيراد ما عانيته بنفسي من أحوالهم، مع ترك ما وصل إلي من أخبارهم عن طريق الراوية، إذ أني لو اقتصرت على إيراد ما عانيته وحده ما استطعت أن أذكر شيئاً كثيراً فيقصر الكاتب، كذلك مشاهداتي وحدها لا تمثل شناعة فعل البخلاء كما تمثله الحكايات التي تناقلها الناس عنهم

لصحة اتهام الفرد بالكذب أو المبالغة؛ فأما إذا تواترت الأخبار واجتمع عليها جم من الناس فذلك أقوى لها وأشد في تصور شناعتها.

ولا نترك هذا المقام حتى ننقل لك ما علق به الشارحان على قول الجاحظ في نهاية العبارة (وعلى أن الكتاب أيضاً يصير أقصر ويصير العار فيه أقل) قالا حفظهما الله: (وعلى أن الخ. (على) للتعليل هنا، وهو تعليل لاقتصاره على ما عرفه عن البخلاء، وما وصل إليه برواية صحيحة من أخبارهم).

وقد بان لك من كلامنا كيف أن هذه العبارة الأخيرة من الشرح مضطربة إلى أبعد غايات الاضطراب، إذ كيف يقصر الكتاب لو ذكر الجاحظ ما عرفه عن البخلاء وما رواه من أخبارهم! وهل يبقى بعد ذلك شيء يذكر؟!

(للكلام بقايا)

محمود مصطفى

المدرس بكلية اللغة العربية

المسرح والسينما

الفرقة القومية

// لا غرضا ثقافياً حققت ... ولا روائع المسرحيات الأوروبية أذاعت

الأستاذ إبراهيم رمزي، مدير التعليم الحر، واحد من أوائل الأدباء الذين عنوا بإحياء المسرح المصري، وبذلوا في سبيله جهوداً ذات قيمة، وغيرة كان يجب أن تقابل بالثناء الخالص والشكر الجزيل. إلا أن عوامل لا أعرف بواعثها - قد تكون مادية لبست جلباباً على غير قدها - قد حولت الأستاذ رمزي عن طريق القويم، فجعلته يسلك مسلكاً في التأليف باللهجة الدارجة وفي تجريح الفصحى أراه ويراه معي كل غيور على اللغة العربية التي ارتضتها مصر وسواها من الأقطار المجاورة أو النائية عن شبه جزيرة العرب، أن تكون لغتها الدينية والقومية ولغة حكوماتها الرسمية. إنه خروج على آدابها وقواعدها، ونكوص يخالف سنن الترقي والتقدم، ولوثة تلوث نهضة مصر الثقافية، وما خلا ذلك فالأستاذ رمزي ما برح يعمل للمسرح المصري بروح الأديب المخلص لفنه

قلت له: الفرقة القومية مؤسسة حكومية، هل حققت الغرض الثقافي والفني، وهل عملت على ترقية المسرحية المصرية وأذاعت روائع المسرحيات الغربية؟ فأجاب:

- ليس من السهل الجواب على هذا السؤال إلا إذا استهدف الإنسان لعتاب الأصدقاء والأحباب، ولكني تعودت أن أكون صريحاً فيما له علاقة بمصلحة قومي ووطني، ولذلك لا أتردد في أن أقرر:

أن الفرقة القومية لا تستطيع أن تحقق غرضاً ثقافياً كبير الشأن في هذه المدة القصيرة لأنها إنما تعمل حتى الآن لجمهور المثقفين وعليه المصريين الذين ليسوا في حاجة إلى ثقافتها. على أني لا أدري كيف ينتظر منها التثقيف وهي إلى اليوم لم تتخط القصة المترجمة والمقتبسة التي لا علاقة لها بمجتمعنا المصري، كما أنها على كثرة ما أخرجت لا تشتغل إلا أياماً معدودات في العالم كله وتقتصر على مدينة القاهرة ولا تنتقل إلى أي بلد من عواصم المديريات.

لا يا سيدي، الفرقة لم تحقق غرضاً ثقافياً ولن تحقق غرضاً، وأحب أن أقول هنا إن القيود الكثيرة التي كبلت بها أيدي المشرفين عليها، والمبادئ العجيبة التي تتحكم في مراميها، لا يمكن أن تنهض معها فرقة بعمل كالذي يرمي إليه اسمها. واعتقد في النهاية أنها فرقة موجودة وعمل من الأعمال التي لها نظائر في بلدنا ينفق عليه لقصد عظيم لا يتحقق

منه شيء كثير
أما تحقيقها الغرض الفني فكل ما يمكن الإجابة في صدده أن الممثلين يقومون بأدوارهم أحسن قيام، والإخراج لا بأس به لأنه ليس إلا نقلاً لإخراج ظهرت به في فرنسا الروايات المعربة وأكثرها منقول عن الفرنسية
جوابي عن سؤالك: هل عملت الفرقة على ترقية المسرحية المصرية وإذاعة روائع المسرحيات الغربية، هو: لا، ثم لا، وأخيراً لا، لأنه بلغ من المشرفين على هذه الفرقة (وعندهم الروايات المؤلفة) أن يؤثروا عليها الروايات المقتبسة والمنقولة ومنها السخيف وغير السخيف لسبب واحد هو أن مخرجهم أوربي، ولأن إخراج الروايات العربية ليس في مقدوره، وإخراج الروايات العصرية يحتاج إلى من يدرك دخائل الظروف المحلية، ولأن المشرفين على هذه الفرقة ليسوا كلهم ممن يشعرون تمام الشعور بالواجب القومي في هذا الزمن الأسود.
أما كونها أذاعت روائع المسرحيات الغربية، فالجواب عنه: لا يصح أن يكون ذلك مؤاخذة للفرقة لأنها لم تظهر منها إلا القليل وذلك بحكم الضرورة، فالروائع لا عد لها وهي لم تتأسس إلا منذ أربعة أعوام، على أنها تميل الآن إلى التقرب من الجمهور فهي تعطيه شيئاً من غير الروائع يستطيع أن يستمتع بما فيها من بساطة سطحية
قلت: إذن هل أنت متفائل؟
فأجاب: كلا لست بمتفائل، لأن الهمة الواجبة لمثل هذا العمل الذي تمده الحكومة بمالها وجاهها وقوتها يحتاج إلى نفوس أقوى، وأيد أشد، وعزائم غير هذه العزائم، عزائم مخلصة فعلاً ومضحية فعلاً
على أني يا سيدي وقد وضعت للمسرح ما تعلم من القصص التاريخي الكثير وغيره من القصص العصري باللغة العربية السليمة أعلن جهاراً أن المسرح المصري يجب أن يكون أولاً للشعب أي للتسعين في المائة من أهله من المصريين، أي باللغة الدارجة المهذبة ومكملة بما تحتاج إليه من الألفاظ في اللغة العربية السليمة كما نفعل الآن في أحاديثنا
وخطبنا ومساجلاتنا ونترك هذا النفاق الذي نعيش عليه في هذه الأيام!
أما العشرة الباقية في المائة فحسبهم هذه الفرقة القومية وروايتها ولغتها العربية القرشية أو لاتينية الشعوب الشرقية
انتهى كلام الأستاذ إبراهيم رمزي بنصه. وعندي حديث ممتع للأستاذ عمر سري بك تناول فيه هذه الناحية تناول الرجل الخبير وأوضح موقف وزارة المعارف المتناقض في مساعدتها للفرقة القومية الحريصة على اللغة الفصحى وفي مساعدتها لفرقة أخرى تعمل على ترويج العامية. وسننشره قريباً
ابن عساكر
العدد 296 - بتاريخ: 06 - 03 - 1939
منطق الغنى
لقيت أول أمس على مقهى (أتينيوس) بالإسكندرية رجلاً من نابهي النواب أعرفه معرفة لا تقرّب ولا تبعّد. هذا الرجل ينزع بطبعه منزع الأرستقراطيين في نمط العيش وأسلوب التفكير ورونق المنظهر؛ فهو يتجمل بالزينة، ويتنبَّل في الكلام، ولا ينفك يعلك ألفاظ المثرين المترفين كالبنك والبرصة والسيارة والخيل والسباق والسهرات والحفلات والملاهي حتى لتظنه المرجع الحجة في أولئك جميعاً.
ونباهة هذا النائب لم تأته عن طريق الفطنة أو الخبرة أو الكياسة، وإنما أتته عن طريق التهويش والتهريج والسياسة؛ فهو في مجلس النواب جزء من كرسيّه لا يتحرك ولا ينبس؛ ولكنه في الأمور الحزبية والانتخابية ولاّج خرّاج يجذب الزعماء بالمآدب الصاخبة، ويخلب الناخبين بالوعود الكاذبة، ويدرج بالدعوى والدعاية من قهوة إلى قهوة
قال لي بعد أن تبجح طويلا بقوة أثره في توجيه المجلس، وتسفيه المعارضة، وتنظيم النادي، وتقويم الحكومة:
- مالك وللأغنياء توغر عليهم صدور الصناع والزراع والخدم؟
- عجيب! وهل تقرأ الرسالة؟

- إنما يقرأها ابني وابنتي؛ وهما متأثران بها ومشايعان لها، ولا يزالان يجادلانني فيما تكتب وتطلب حتى أترك لهما الدار! فهل تريد أن يكون الناس كلهم سواء في الثروة، وليسوا كما تعلم سواء في الذكاء والقوة؟

- يا سيدي ما اعتقدنا ذلك ولا كتبناه. فإنا نؤمن بالغنى والفقر كما نؤمن بالقضاء والقدر. والتفاوت في الطبع والكفاية والحيلة والوسيلة مبدأ مقرر في الطبيعة، ونظام مسلّم في الدين؛ ولكنا نحاول أن نُذَكر الأغنياء، أن اللّه الذي خلقهم وخلق الفقراء، قد جعل جُمعةَ ما بينهم وبينهم قائمة على أساس من المودة والرحمة يكفل المخالصة ويضمن السلامة. فإذا تعهدوا هذه الصلة الإلهية بالبر، فمنح القادر العاجز روحاً من قواه، ونفح الواجد الفاقد قليلاً من جدواه، سارت القافلة الإنسانية في طريقها إلى الكمال الممكن غير ظلعاء ولا وانية. وإذا أردنا المساواة فإنما نريدها في الحق والواجب، وإذا ذكرنا المشاركة فإنما نذكرها في حدود الإحسان والزكاة

- الإحسان يغري بالكسل ويعين على بقاء الفاسد. والفقير في أكثر أمره عليل الجسم أو العقل؛ فلم لا يكون من الخير أن يترك للحرمان حتى يذبل ويسقط؟

- إذا استطعت أن تنفذ هذا الرأي في أسرتك الخاصة، استطعنا أن ننفذه في أسرتنا العامة. فهل في مقدورك أن تترك ابنك المعلول الذي لا يبرأ، وأخاك المخبول الذي لا يعي، حتى تعصف بهما المنون كما تعصف ريح الخريف بالورق الجفيف؟

- ما أظن القلب يطيع العقل في ذلك

- ومن قال لك أن العقل يخولك حق الله على خلقه؟ إن للفقير حق الحياة، وليس لك عليه حق الموت. والله الذي خلق الكون خلق الفساد وجعل لكل منهما قوانين يجري عليها في الطبيعة. وستنالك أنت على الرغم من قوتك وغناك عوامل الذُّوِيِّ والبلى، فهل تقبل من ذوي رحمك ووارثي مالك أن يدعوك فريسة الهرم والمرض، كما يدع القطيع الحمار المحموم في الفقر الجديب؟

رأى صاحبي أن هناك مدارك من فهم الحياة استعجمت على ذهنه الشارد، فغمغم بعض الجواب وبيّن بعضه الآخر حين قال:

- ولكنني أعلم أن الزكاة في أوربا ليست مشروعة ولا مجموعة، ومع ذلك تجد . . . الفقر محمولاً والحياة آمنة. فكل إنسان يعمل، وكل حي يعيش

- لا يغرنك يا سيدي ما تعلم من ظواهر الحياة الأوربية، فإن مدنيتها طلاء على صدوع، وكبرياء على خضوع. ولولا قيام الأديرة بجمع الصدقة وتنظيم الإحسان، ونهوض الحكومات لحماية العجز وتوفير العمل، لرأيت البؤس كرمز الموت هيكلاً بادي العظام لا تستره أثواب ولا تحجبه أبواب

- وما قولك في أمريكا؟ أليست المسافة فيها بين الفقراء والأغنياء، كالمسافة بين الأرض والسماء؟ ومع ذلك لا تجد بين هؤلاء وهؤلاء حسداً ولا ضغينة

- عفواً يا صاحب العزة! لقد عرفت القياس وأنكرت الفارق. إن أكثر المنافع في أمريكا من فضل الغنى؛ فكيف يبطن الفقير له الغل وهو يتعلم في مدرسته طفلاً، ويعمل في مصنعه رجلاً، ويتداوى في مستشفاه مريضاً، ويأوي إلى ملجئه شيخاً؟ إن صاحب الملايين في الدنيا الجديدة مثل الإنسان الأعلى: أثرى بالكد والإيمان والكفاية، ودبر ثراءه على قواعد الوطنية والإنسانية والدين، فكان حرباً على الجهل والبؤس والشر، وعاملاً للسلام والوئام والمحبة. أما أغنياؤنا فمثال الطمع الجريء والشح الدنيء والصلف العاتي: أثروا بالإرث أو بالحرص أو بالحظ أو بالحيلة؛ ثم كدروا صفو الحياة على الفقير، فهم يزاحمونه على المجانية في المدارس، ويغلبونه على الوظائف في الدواوين، ويدوسونه بسياراتهم في الشوارع، ويسلبونه بطماعتهم في المزارع، ويصدونه عن البرلمان حتى لا يكون لغير أقوالهم سميع، ولا يصدر بغير إرادتهم تشريع

ونظر صاحبي في ساعته ذات السوار، ونظرت أنا إلى البحر فإذا هو يمور ويفور، والصيادون المساكين يكافحون العاصفة ليصيدوا لهذا الغنى المبطان لوناً من الطعام تكمل به مائدته الموقرة الحافلة!

ثم افترقنا وكل منا على رأيه!

احمد حسين الزيات

حرب الأجيال

للأستاذ عباس محمود العقاد

أعلن الناقد الإنجليزي (فرانك سوينرتون) في صحيفة (الأوبزرفر) عن قرب صدور الكتابين الجديدين للمؤلفين الكبيرين (ولز) و (موجهام) فقال في مقدمة كلامه:

هناك تناقض يغري بالتساؤل بين موقف العصريين وموقف الجيل الفكتوري حيال) الكتاب النابهين. فقد كان هؤلاء الكتاب يحاطون بالإجلال المرهوب حين ينتهون إلى الشيخوخة ويقلعون عن التأليف، وكانوا قبلة التبجيل والتشريف والحجيج من سائر البلاد. أما اليوم فنقيض ذلك هو الواقع: اليوم يلبث كتاب الأمس في الميدان ولا يخرجون منه ولا يتطلعون إلى إجلال مرهوب أو يستقبلون التبجيل والتشريف، وكل شاب ذي ملكة موهوبة يقتضيهم الثناء السخي والتشجيع ولكنه يرى لنفسه حقاً في الإنحاء عليهم واتهامهم بالوقوف في طريق الثورة الأدبية)

هذه حرب الأجيال التي يتحدثون عنها في البلاد الأوربية، ويقصدون بها قيام جيل من الكتاب والأدباء وراء جيل، ومحاولة الجيل الجديد أن يفسح له مكاناً إلى جانب الأعلام النابهين في ميدان الأدب والتأليف

وهذه الحرب قديمة لم تنشأ في زماننا هذا ولا في الزمان الذي قبله وإن اختلفت فيها الدعاوى والأساليب

ولكنها اشتدت في الجيل الحاضر لعوامل جديدة طرأت عليها: منها التزاحم العنيف، ومنها أن النظرة إلى (الماضي) اختلفت بين العهد الفكتوري والعهد الحاضر، أو بين أوائل القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين

كان التوقير حقا للماضي، لأن الناشئين كانوا ينتظرون منه كل شيء ويتجهون إليه إذا أرادوا العلم والخبرة والحنكة والهداية

أما اليوم فقد جدت مشكلات نفسية واجتماعية ليس للماضي فيها تصريف ولا احتيال، ولا يتجه فيها أحد إلى الماضي ليعرف ما عنده لها من علاج وتدبير، لأنها لم تكن معروفة فيه ولم تكن معروضة على أهله، فتحول الاتجاه من الماضي إلى المستقبل، وبطل ما كان مألوفا مقررا للماضي من التبجيل والتشريف

هذه المشكلات هي سر الحياة وسر الأزمات العالمية وسر القلق والاضطراب في علاقات الاجتماع

ليس للماضي فيها تصريف ولا احتيال. فهل التصريف والاحتيال فيها للحاضر؟ وهل هما للمستقبل القريب أو البعيد؟

كلا! التصريف والاحتيال فيها للزمان وللعمل المشترك بين جميع الناس من شيوخ وكهول وشبان وأطفال لا يزالون في المهود أو لا يزالون في الأصلاب

وهل يرجى أن يجيء على الدنيا عهد من العهود خلواً من المشكلات التي تطلب الحلول ولا ينفرد بحلها جيل واحد من الأجيال؟

كلا! إن هذه المشكلات لا يحلها الحاضر ولا المستقبل برأي هذا أو باحتيال ذاك، ولكنها تنحل مع الزمان تارة بالعمل المقصود وتارة بأعمال كثيرة غير مقصودة، ولا تزال طبقة منها وراء طبقة على مدى السنين

هذه هي الحقيقة التي يجهلها بعض المتعجلين. وليس من غرضنا في مقالنا هذا أن نسهب في توضيحها وتمحيص نظرات الناظرين إليها، وإنما أردنا أن نشير إلى العامل الجديد الذي أضاف بعض الشدة والعنف إلى حرب الأجيال، وأدى إلى ذلك الموقف الذي لخصه (فرانك سنوينرتون) فيما تقدم

يوشك من يقرأ كلمة الناقد الإنجليزي ويذكر ما يكتب في مصر وفي بعض الأقطار العربية أن يبادر فيقول: (إن بعض الحال من بعض) أو (الحال من بعضه) كما يقول العامة في البلاد المصرية. . .

فإن قال قائل مثل هذا فهو مخطئ، لأن الحال الذي يحسب (بعضه من بعض) لمختلف أبعد اختلاف.

هناك يتكلمون عن الشيوخ الذين أنافوا على السبعين، وهنا يطالبون الكهول فيما دون الخمسين بالسكوت والانزواء.

هناك يأتي بعد جيل (ولز) جيل هكسلي وهو في الرابعة والأربعين، ثم يأتي بعده جيل الشبان الناشئين وهم في نحو الثلاثين، وهنا لا يتجاوز الشاب العشرين حتى يتعجل

الشهرة بل يريدها له وحده خالصة دون أبناء الثلاثين أو الأربعين أو الخمسين، بل دون زملائه
الآخرين من أبناء العشرين.
هناك يؤلفون ويبتدعون ويزاحمون الرأي بالرأي، والنهج بالنهج، والتفكير بالتفكير؛ وهنا لا يؤلفون ولا يفكرون ولا يقرءون، ولا يزيدون على إبراز شهادة الميلاد والترنم بما يسمونه حقوق الجيل الجديد.
هناك يثبون إلى المستقبل فيسبقون، وهنا يرجعون إلى الوراء ويشبهون الببغاوات في ترديد الصياح القديم.
أضف إلى هذا أموراً أخرى تختلف فيها البواطن والظواهر ويؤجر عليها القادحون في مشاهير الكتاب لغرض ليس بالصريح ولا بالشريف.
فهم تارة مأجورون لأصحاب المطامع السياسية الذين يريدون القبض على أعنة الدعوة في بلاد المشرق، فلا يملكون هذه الأعنة والمشاهير من الكتاب قائمون مسموعون، فيبذلون ما في وسعهم للغض من أولئك الكتاب والتطاول عليهم بالصياح والضجيج الذي قد يروج بين الأوشاب والأغمار، لأن الأوشاب والأغمار لن يطلبوا دليلاً ولن يميزوا ما يسمعون.
وهم تارة مأجورون للشيوعيين الذين ينادون بالأدب الدارج أو أدب اللغة العامية لأنه أدب (الصعاليك) وهم يبشرون بدولة الصعاليك ولا يسرهم أن ترسخ في المشرق العربي آداب اللغة الفصحى ولا الآراء التي تناقض ما يدعون إليه من فوضى وابتذال، بل لا يسرهم أن تستقر في الأقطار العربية مكانه مصر خاصة لأن مصر خاصة قبلة المأثورات الموقرة من التاريخ القديم، فإذا هدموا مكانتها فقد زال من طريقهم هذا المعقل الحصين وتمهدت الأرجاء بطاحا ذلولا ليس فيها ما يعوق نعيب ماركس وخليفته لنين، وصاحبيه تروتسكي وستالين.
فإذا لم يكونوا مأجورين لأصحاب المطامع أو للشيوعيين فهم مغرورون يتهافتون على الشهرة ولا يتذرعون لها بأسبابها ولا يرجعون إلى ما فيهم من نقص وكسل وعجز عن الكفاح، بل يفضلون التعلل بالأسباب الواهنة والدعاوى الكاذبة والحجج المسلية التي تشبه الأفيون في التخدير والإرضاء وتشبهه في هدم القوى وتخريب الأذهان وكثيراً ما تسمعهم يقولون: كيف تأتينا الشهرة وهؤلاء الكهول أو الشيوخ يحتكرون ثناء الصحف السيارة ويستأثرون بميدان الدعوة والتأليف؟
وهذا بعينه هو الأفيون إن لم نقل هو أخبث من الأفيون في الكذب والتحطيم فقد صدر في مطلع هذا العام كتب ثلاثة لمن يسمونهم بالكهول والشيوخ وهم طه حسين واحمد أمين وكاتب هذه السطور. فكم نهراً من أنهر الصحف اليومية قرءوه في تقريظ هذه الكتب أو في الإشارة إلى صدورها؟
لا أذكر أنني قرأت شيئاً ذا بال في الصحف اليومية عن كتاب طه حسين (مستقبل مصر الثقافي) أو كتاب احمد أمين (فيض الخاطر)
أما كتابي رجعة أبي العلاء فقد ظهر وأوشك أن يباع نصفه ولما تذكر صحيفة يومية واحدة أنه صدر من المطبعة مجرد صدور. . . والكتب مع هذا تسير في طريقها وتلقى حظها من الذيوع
فالواقع أن جيل الأدباء الكهول في مصر جيل لا يدين لأحد بما أصاب من شهرة ومكانة، وهو في هذه الخصلة جيل فريد بين أدباء العالم من أقدمين ومحدثين فالأدباء الأقدمون كانوا يعولون على النصراء والمشجعين ويعتمدون على الخلع والهبات
والأدباء العصريون في أوربا يعولون على دعوة الناشرين وإقبال الملايين من القراء في لغاتهم وفي اللغات الأخرى التي يترجمون إليها
أما أدباء الكهول والشيوخ المصريون فلا نصراء ولا هبات ولا دعوة ناشرين ولا ملايين قراء، وكل ما هنالك حسد واضطغان واستهداف للبذاء من مأجوري الشيوعيين ومأجوري أصحاب المطامع ومن تقعد بهم الرخاوة عن الجد والكفاح
فماذا كانوا لاقين يا ترى لو أصابوا من الكسب والشهرة ما يصيبه برناردشو أو ولز أو موجهام أو لدفيج من طبعة واحدة لكتاب واحد يباع للقراءة ويباع للتمثيل ويباع للصور المتحركة ويباع للترجمة في بضع لغات!

وما أحسب إلا أننا كنا نمشي يومئذ في الطريق فيخرج علينا الكامنون من (نابغي الجيل الجديد) بالمسدسات والسكاكين!!
هذه هي حرب الأجيال عندنا لا يقال في وصفها أصدق من أنها لعب أطفال، أو مكيدة أنذال، أو سفاهة جهال؛ وليس من ورائها نفع للأدب العربي ولا لمن يحاربون في ميدانها بذلك السلاح المفلول؛ ولن ينهزم فيها أناس انتصروا على الزمن وعلى الجهل وحدهم بغير
معونة من حكومة ولا دعاة، ولا محاباة من الجماعات أو الأفراد الأقوياء، بل على الرغم في معظم الأحايين من الإجحاف والعداء يلقاهم بهما جميع هؤلاء. فأحرى بهم ألا ينهزموا اليوم في ميدان مأمون لا يقابلهم فيه جيش ولا جنود، ولا سلاح ولا بنود، إلا اللجاح والهراء ودسائس الجبناء في الجهر والخفاء.
عباس محمود العقاد
النجم الذي هوى
للدكتور زكي مبارك
ما كنت أحسب أن الأيام تدّخر لي هذا النصيب الضخم من الحسرة والحزن والالتياع
ما كنت أظن أن في أخبار الدنيا ما يهددني بالموت وأنا سائر في الطريق
ما كنت أتوهم أن صدري يملك هذه الذخيرة من الحرص على حياة الأصدقاء
رجعت إلى بيتي عصر الخميس ولم أخرج منه إلا صباح السبت طلباً للتفرغ لبعض الأعمال
فماذا رأيت حين خرجت؟
رأيت أن يوما واحداً هو يوم الجمعة كان كافياً لأن تذهب دولة من المروءة والشرف والأريحية من عالم الفناء إلى عالم البقاء
إي والله، يوم واحد كان كافياً لأن يموت فيه رجل ويدفن وينقضي مأتمه وينفضّ من حول بيته الجازعون بحيث لم تبق فرصة لمن يريد أن يقدم إلى أهله كلمات العزاء
. . .إي والله، في يوم واحد ذهب الأستاذ محمد الهراوي إلى غير معاد
فيا أخي ويا صديقي ويا كل ما كنت أملك من الصدق الصادق الصحيح، كيف تطيب الدنيا بعدك وفيها ما أعرف وما كنت تعرف من ندرة الأصدقاء الأوفياء؟
كيف تطيب الدنيا بعدك، يا محمد، وكانت حياتك العزاء، عما في الدنيا من بلايا وأرزاء؟
كيف تطيب الدنيا بعدك، وما تخلّق الناس بالصدق إلا ليزاحموك، ولا عرفوا الوفاء إلا لينافسوك؟
يا محمد، وما أجمل اسمك!
لك أن تعرف في عالم الأرواح أن إخوانك وأصفياءك سيذكرون أيامك كما يذكرون بشائر الأحلام وبواكير الأماني
لك أن تعرف، يا محمد، أن إخوانك وأصفياءك يؤمنون بأن فجيعتهم فيك هي فجيعة الرياض بموت البلبل الصداح، وفجيعة القلوب بذهاب الأمان، وفجيعة الجسد بفراق الروح
أين من يعزيني فيك يا أخي ويا صديقي؟
أين من يعزيني فيك وأنا أشعر بأن الموت حين خطفك لم يوجّه الطعنة إلى صدر غير صدري؟
أين من يعزيني فيك وأنا أومن بأن أباك لو كان عاش حتى ثكلك لما جزع عليك معشار ما جزعت عليك؟ أين من يعزيني فيك إن كان قلبي سيعرف من بعدك العزاء؟
يا محمد، وما أجمل اسمك!
كيف جاز عندك أن تغمض عينيك قبل أن تراني؟
كيف جاز عندك وأنت مثال العطف والحنان أن تفارق الدنيا قبل أن أراك؟
أكنت تعرف بوحي القلب أنك مفارق؟
كنت تعرف ذلك ولا ريب، لأنك تلهفت إلى لقائي في أيامك الأخيرة مرات ومرات، وكنت لجهلي أحسب ذلك من إمارات الشوق، لا من إمارات التوديع، فضيَّعتُ حظي من لقائك وأنا آثمٌ ظلوم
ليتني أعرف، يا محمد، كيف تشعر بعد الموت بجزعي عليك!
ليت الحجابُ يكشَف مرةً، لأعرف أن حزني وصل إليك!

أين من يعزيني فيك يا نعيماً ذهب وأملاً ضاع؟
أين من يعزيني فيك يا روضة من الحسن عصف بأزهارها الزمان؟
أين من يعزيني فيك يا دوحةً من المجد عَدتْ على أغصانها العوادي؟
أين من يعزيني فيك وما عرفت معنى الأخّوة إلا حين عرفتك، ولا تذوّقتُ معنى الأنس بالأرواح إلا حين أنستُ بروحك، ولا فطنتُ إلى ما في الدنيا من ذخائر إلا حين فطنتُ إلى الذخائر المودَعة في صدرك الأمين
يا محمد، وما أجمل اسمك!
أفي يوم واحد تضيع من يدي، أيها الكنز الثمين؟
أفي مثل ومضة البرق يذهب الروض الذي كنت آوى إلى ظلاله حين يلفحني هجير العناء؟
أفي مثل لمح البصر أنظر فأراني وحدي وكنتَ جيشاً أحارب به الزمان؟
أفي مثل خفقة القلب ينطفئ السراج الذي كنت أستهدي به في الملمات؟
يا محمد، وما أجمل اسمك!
سيكون في دنيانا بعدك أفراح وأحزان، وسنلقى الدنيا بعدك باسمين أو عابسين، ولكنا سنذكر أن طالت الحياة أن خفقات القلوب من بعدك لن تكون إلا مزاحا في مزاح.
نكذب عليك، يا محمد، إذا قلنا إننا سنجعل خفقات القلوب وقفاً على الهتاف باسمك، والشوق إليك، ولكنك ستعرف أنك ستظل في قلوبنا مثال الشرف والصدق، وسترانا من أهل الحرص على التغني بمحامدك في أكثر الأوقات، حين يجدّ ما يوجب أن نتطلع إلى الأصدقاء الأوفياء.
يا محمد، وما أجمل اسمك!
بموتك عرفتُ أن الحزن خليقٌ بأن يكون شريعة من الشرائع
بموتك عرفت كيف يجب أن أفكر في لقاء الرفاق الأصفياء كل يوم.
بموتك عرفت أن في قلبي ذخائر من الصدق والوفاء
يا محمد، وما أجمل اسمك!
أقسم بالله وبمودتك أن الموت كاد ينتاشني في الطريق حين قرأت خبر موتك، فإن طالت حياتي بعدك فسيكون ذلك أعجوبة من الأعاجيب، وسأقضي ما بقى من حياتي في تحقيق الأغراض التي كنت تحبّ أن تحققها في حياتك
أخي وصديقي:
لا أقول: (يغفر الله لك)، فقد كنت أطهر من الزهر المطلول، وإنما أقول: (يغفر الله لمن عرفك ولم يمت لموتك).
أما بعد، فقد كان في نيتي أن أرثي الهراوي في إحدى الجرائد اليومية، ثم رأيت أن أرثيه في (الرسالة) لأحدث عنه إخوانه في سائر الأقطار العربية.
وسأرجع إلى الحديث عنه مرة أو مرات لأبين ما صنع هذا الفقيد العزيز في خدمة العروبة والإسلام والإنسانية.
نفعني الله بدعواتك، يا محمد، وحرمني فيك العزاء، فما أحب أن يكون لي فيك عزاء.
يا محمد، وما أجمل اسمك!
أحبك وأشتاق إليك، وأحب من أجلك ذاويات الأزهار، وهاويات الكواكب، فاذكرني عند ربك يا أصدق صاحب وأشرف صديق. وسلامٌ عليك من صفيّك وأخيك.
(مصر الجديدة)
زكي مبارك
رد على رد
بين القديم والجديد
لأحد أساطين الأدب الحديث
كنت أقرأ مختارات الشعر التي جمعها محمود باشا سامي البارودي الذي يعد زعيم المذهب القديم في الأدب في العصر الحديث؛ فوجدت أنه قد أختار في باب النسيب مجونا ليس بأقل من مجون الحسين بن الضحاك وأبي نواس الذي أختاره الدكتور طه بك في كتاب حديث الأربعاء بل بعضه أشد منه وبعضه مثله، فاختار لأبي نواس قصيدة قالها يتغزل في شاب جميل كان كاتبا في ديوان الخراج بدليل قوله في القصيدة:
ومر يريد ديوان ال ... خراج مضمخا عَطِرا

وكانت عادة الشعراء في ذلك العهد التغزل في ملاح كتَّاب الدواوين. وفي هذه القصيدة يقسم أبو نواس أن مُرَقَّشاً الشاعر العذري النزعة لو كان حيا لما أحب امرأة بل لأحب ذلك الكاتب المليح. وهذه هي القصيدة كما أوردها البارودي:

أما والله لا أشرا ... حلفتُ به ولا بَطَراً
لو آن مُرَقَّشاً حَيٌّ ... تعلَّق قلبه ذَكَرا
كأن ثيابه أطلع ... ن من أزراره قمرا
بوجه سابريٍّ لو ... تَصَوَّبَ ماؤه قَطَرا
وقد خَطَّتْ حَواصُنهُ ... له من عنبر طُرَرا
بعينٍ خَالَطَ التَّفْتِيرُ ... في أجفانها حَوَرا
يزيدك وجهه حسنا ... إذا ما زدته نَظَرا

واختار البارودي لأبي تمام قطعة قالها في غلام مملوك أهداه إليه الحسن بن وهب فقال:

قد جاءنا الرشأ الذي أهديته ... خَرِقاً ولو شئنا لقلنا (المركب)

والذي اختار هذا الشعر ليس الدكتور طه بك ولا هيكل باشا بل البارودي باشا.

وقد أوردنا قبل الآن اختيار البكري أشياء من مجون ابن الرومي ونشر الشيخ شريف مجونه أيضاً. ولكن الأستاذ الغمراوي ترك البارودي وترك البكري والشيخ شريف واختص الدكتور طه وهيكل. فإذا كان ذلك لأن البارودي عارض قصيدة البردة فقد ألف الدكتور طه

على هامش السيرة وألف هيكل حياة محمد وفي منزل الوحي، ولا أظن أن أحدهما نشر شيئاً يقارب ما نشره البكري والشيخ شريف والبارودي

والفكرة التي يتبينها القارئ من كلام الأستاذ الغمراوي غير صحيحة، وهي أن المجون يعصم منه التدين فقد سمعنا في بعض حفلات إحياء المولد النبوي الكريم من التغزل في الذات النبوية من الشعر ما ينبغي أن ينزه عنه ذلك الحفل من ذكر الرضاب والريق والوصال الخ الخ على طريقة بعض الصوفيين.

وسمعنا بعض الأفاضل يختلفون في أمور ثانوية تافهة من أمور الدين، وكل منهم متدين، فإذا انصرف أحدهم ذكره مناظره بكل سوء وبالمجون واتهمه بالزندقة. بل رأينا أن أعظم سلاح شيوعاً في الدفاع عن الدين والفضيلة أو عن عقيدة الوطنية أو عقيدة سياسية هو سلاح المجون في القول وتهمه، وتعدى هذا السلاح هذه الأحوال إلى الدفاع عن النظريات العلمية والرأي يُرى في البحث العلمي. والحقيقة أن المجون مزاج لا دخل له بالتدين أو عدم التدين؛ وقد كان من أثر انتشار مزاج المجون أنك تقول قولاً سليماً تقصد به معنى نظيفاً فيكون أول ما تصنع عقول السامعين أن تفتش فيه عن تخريج إلى المجون، ولا فرق في ذلك بين المتدينين وغير المتدينين، ورأينا أناساً من المتدينين يدعوهم الحسد والحقد إلى اتهام كل من كان أغنى أو أعقل أو أنظف منهم بالمجون. ونعرف أن في علم النفس قاعدة تدل على أن بعض الناس حتى المتدينين منهم يتمنون لأنفسهم أماني المجون فيتلذذون بأمانيهم بنسبة ذلك المجون إلى غيرهم. وهناك طائفة من المتدينين صاروا ينافسون بعض رجال الصحافة والسياسة في سلاحهم السياسي ويحتجون باستعمال حسان بن ثابت هذا السلاح في الدفاع عن الدين، وقد فاتهم أن المسلمين كانوا في عهد قوله هم المضطهدين المشتومين وقد نالهم من أقوال خصومهم من السباب مثل ما نال المشركين من أقوال حسان بن ثابت. وفي يقيني أن النبي صلى الله عليه وسلم عندما دعا له أن يؤيده روح القدس وعندما نصحه أن يلجأ إلى أبي بكر الصديق لم يكن يريد أن يزيده سيدنا أبو بكر من شدة الهجاء فقد كان الشاعر به أعرف، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم تحرج من الرمي بالباطل بالرغم من أن شعراء الكفار ما كانوا يتحرجون من ذلك. وقد ذهبت أقوالهم بعد ما انتصر الإسلام وبقيت أقوال حسان بن ثابت. ولو بقيت أقوال شعراء الكفار لدلت على ما

أردنا إثباته وهو أن شعراء الكفار كانوا هم البادئين بتلك الطريقة في الهجاء. ومع ذلك فإن ديوان حسان بن ثابت خليق بأن يسمى ديوان العبر لأن سادة المشركين الذين هجاهم صاروا بعد إسلامهم سادة المسلمين، وفي هجائه بعض ما لا ينقصه الإسلام ولا يغيره. وهذا الديوان إذا أخذ على علاته دلّ على حالة خلقية لا يتوقع القارئ أن تكون

في ذلك الزمن. والسير على هذه الطريقة من غير رقيب أو وازع هو من الإخلال بروح الدين في عصرنا وهو عصر ينقاد فيه السذج لمن يريد أن يشفى حقده أو حسده ممن لا دين له ولا خلق وإن تظاهر بالدين والخلق، وهذه حقيقة لا مبالغة في تعبيرنا عنها وقد لا يكون الأستاذ الغمراوي ممن يعرفها لبعده عن هذه الطوائف وبعده عن أحقادها وأقذارها ولكنها حقيقة يستطيع أن يراها في المجادلات السياسية وخصومات بعض المشتغلين بالسياسة والصحافة والأدب؛ فليس من العسير أن يفهم المفكر وجودها في بعض النفوس التي تتخذ السذج من المتدينين قنطرة للوصول إلى غرض شخصي، أو في نفوس بعض الذين لا يفهمون أن الدين ينبغي أن يترفع أنصاره عن المجون؛ لكن كيف تفهم ذلك نفوس مزاجها ذلك المجون. والمزاج لا يستطاع تجنبه مهما كان المرء متديناً. فالخطأ الذي وقع فيه الأستاذ الغمراوي عندما حسب أن شدة التدين تعصم من الانهماك في الشهوات، أو أنها تعصم من لذة قول المجون إنما هو خطأ الذي يحكم على غيره بحالة نفسه؛ فإذا وجد نفسه متديناً يكره المجون ظن أن التدين يعصم من المجون. وليسمح لي الأستاذ الغمراوي أن أقول بكل رعاية: إن هذا الظن يدل على أنه لم يدرس خصائص النفس الإنسانية عامة في نفوس الناس دراسة غير المتحيز وغير المتعصب لطائفة دون طائفة، فإنه لو فعل ذلك لعلم أن مقدار ما في نفس المرء من مجون لا يعينه مقدار تدينه، حتى ولو وجدنا أمثال الأستاذ الذين يعصم تدينهم من المجون. ونحن لا نريد التعرض لشواهد من شعر ونثر الأدباء القريبي العهد كرامة وصيانة؛ وأما من عداهم من المتدينين وغير المتدينين فما على الأستاذ إلا أن يخالطهم وأن يدرسهم من غير أن يشعرهم أنه يدرسهم إلا إذا كانوا يهابونه كل الهيبة فلا يظهرون أمامه حقيقة نفوسهم. والخطأ الثاني الذي وقع فيه الأستاذ هو ظنه أن الشكوك الدينية تمنع الاعتقاد. والخطأ الثالث حسبانه أن عجز الكاتب عن منع إذاعة هواجس نفسه يدل على أنها أكثر تمكناً من نفسه؛ ومثل الأستاذ كمثل الذي يرى صنبور ماء لا يقفل تماماً فيحسب أن ماءه أغزر من ماء غيره لأنه لا يستطاع إحكام حبس الماء من التسرب منه. وهذه الهفوات الفكرية هي التي وطدت السبيل لأن يفهم الأستاذ في النزعة إلى التجديد ما ليس فيها، ففهم أنها حركة التفاف يراد بها التعاون مع الحاقدين على الدين الإسلامي من الأوربيين. وقد أوضحنا للأستاذ بالشواهد التاريخية والأدلة المنطقية أن كل ما في هذه النزعة من محاسن ومفاسد كان من الممكن استنباطه من الآداب والعلوم العربية حتى ولو لم تتأثر النفوس بأدب اللغات الأوربية، وإنما كانت تحتاج إلى زمن أطول لاستخراج كل هذه الأمور لو لم تتأثر بأدب اللغات الأوربية. ولا أدري لماذا لم يتهم الأستاذ الغمراوي أبا العلاء المعري بأنه كان يريد أن يقوم بحركة التفاف وتطويق معاونة لأعداء الإسلام من الأوربيين ومن رأيي أن الأستاذ الغمراوي يؤدي خدمة كبيرة للدين والفضيلة لو أنه ترك نزعة التجديد وحاول بغيرته الصادقة أن يطهر الشعور الديني من شوائب الأثرة والمجون في نفوس الناس الذين يعتقدون أن تدينهم صك يعفيهم من ضرورة تطهير أنفسهم من المجون ومن تهالك الأثرة وجشعها ووسائلها الخبيثة وأحقادها. وإذا كان شيخ الأدب القديم محمود باشا سامي البارودي لم يعصمه أخذه بالمذهب القديم من اختيار شعر أبي تمام في الغلام. فإن من الظلم يا أستاذ أن تلوم الدكتور طه وهيكل بعد ذلك على نشر قصص منقولة عن الفرنسية، وهي مهما كانت لا يبلغ بها المجون هذا المبلغ، وبعضها كان دراسات نفسية (سيكولوجية)، وإذا كان شيخ المعرة أبو العلاء المعري لم يرد أن يقوم (بحركة التفاف) لمعاونة أعداء الإسلام من الأوربيين عندما قال: (قالوا لنا خالق حكيم) إلى أن قال:

هذا كلام له خبئ ... معناه ليست لنا عقول

وعندما قال: (الموت نوم طويل لا انتهاء له)، وانظر إلى قوله لا انتهاء له، وعندما قال في إنكار البعث:

لو كان جسمك متروكاً بهيئته ... بعد التلاف طمعنا في تلافيه

ومثل قوله في فناء الروح:

وجسمي شمعة والروح نار ... إذا حان الردى خمدت بأفِّ

أقول بعد هذه الأقوال وأشباهها التي يتخللها أقوال أخرى تختلف عنها: إذا كان شيخ المعرة
جديراً بإحياء المسلمين ذكراه، وطبع أقواله فمن الظلم أن يعد الأستاذ الغمراوي دراسة فولتير جريرة وحركة التفاف.
إن للدكتور طه آراء نخالفها كل المخالفة، ولكنها ليست حركة التفاف؛ إنما هي نتيجة التفكير الذي قد يخطئ وقد يصيب. وكذلك ليست القصص التي نقلتها السياسة الأسبوعية حركة التفاف وإنما يصح أن ينتقد الناقد نشر بعضها، وما دامت مكتبات مدارس البنين والبنات الدينية وغير الدينية مملوءة بمثل المجون وأشد من الفحش والمجون الذي سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه سحيم عبد بني الحسحاس ينشده في بنت سيده ويقول:
ولقد تحدَّر من كريمة بعضهم ... عرق على جنب الفراش وطيب
فمن العبث لوم السياسة الأسبوعية على تلك القصص
(قارئ)
من برجنا العاجي
قرأت بين الرسائل التي جاءتني في موضوع نشر اللغة العربية بين الأجانب رسالة لم أر بداً من إثباتها هنا، لأنها قد عرضت في فقرات سبع، مسائل ينبغي أن توضع موضع التفكير. قال صاحب هذه الرسالة: كي ننجح في اجتذاب الأجانب إلى (جانوتنا) الفكري يجب أن نتبع ما يأتي:
أولاً - أن يتكلم المصريون جميعاً اللغة العربية في كل المناسبات، وألا يسمحوا لأنفسهم ما داموا يعيشون في مصر بالتكلم بأية لغة أخرى مهما ترتب على ذلك من نتائج
ثانياً - أن تكون جميع مكاتباتنا باللغة العربية، وأن نضطر الأجانب إلى قبول الكتابة إليهم بلغتنا
ثالثاً - أن يكون التعليم في جميع المدارس الأجنبية في مصر باللغة العربية
رابعاً - أن يوطد الكاتب المصري عزمه على أن يكتب للعالم كله. إذ على الرغم من أن ما يكتبه لن يخرج عن حدود الأمم الشرقية الناطقة بالضاد، إلا أن مصر بالذات هي شبه عالم صغير فيها من كل الأمم وكل الجنسيات
خامساً - العناية بأسلوب الكتابة، والارتقاء به إلى السلاسة مع السهولة، وأن يجتهد كل كاتب في الكشف عن نفسه وغرضه في وضوح وصفاء
سادساً - أن تعرض المطبوعات بأثمان معتدلة لإغراء الأجانب بقراءتها
سابعاً - أن تكون هناك رقابة على المؤلفات جميعاً فلا ينشر منها إلا ما يستحق النشر، حتى لا نكلف الأجانب قراءة سخافاتنا المزرية
تلك مقترحات صاحب الرسالة. وهي من غير شك كفيلة بتحقيق الغرض. لكن المعضلة في التنفيذ، وأن بعضها لا يمكن أن يقوم به غير حكومة قوية الشوكة مرهوبة الجانب، وبعضها يقع حمله على كواهل الأدباء.
وأعجبني قول هذا الأديب: إن الكاتب المصري ينبغي أولاً أن يوطن عزمه على أن يكتب للعالم كله. ولعل هنا مفتاح القضية كلها، فهل في مصر الآن أدباء يكتبون للعالم كله؟ ذاك موضوع يحتاج في بحثه إلى صفحات طوال.
توفيق الحكيم
أعلام الأدب
اسخيلوس والمسرح اليوناني
للأستاذ دريني خشبه
وكان للتمثيل موسمان عند اليونانيين. فموسم الشتاء (الليناية وذاك هو موسم عصر الخمر عندهم، وموسم الربيع (الديونيزيا حينما كانت تجتمع في أثينا وفود أحلافها ولم تكن تمثل على المسرح اليوناني إلا كل درامة تنجح أمام هيئة المسابقة، وكانت المسابقات تعقد ثلاث مرات في السنة بإشراف الحكومة التي كانت تمثلها الهيئة الدينية
وقبل أن ينشأ مسرح ديونيزوس العظيم على منحدر الأكروبوليس الجنوبي الشرقي كان لأثينا مسرح آخر في مكان سوقها وكانت مدرجاته من عروق الخشب، وقد حدث

أن سقطت هذه المدرجات مرة في نزاع كبير نشب بين أنصار كل من اسخيلوس وبراتيناس وخوريلوس في الأولمبياد السابع (499 ق. م) فقتل خلق كثير من النظارة، وكان هذا الحادث هو الباعث لبناء مسرح ديونيزوس، حيث صنعت المدرجات من الحجر على الحدور الراسخ فكانت تتسع لثلاثين ألف متفرج

وكان مكان التمثيل هو الدائرة المنخفضة الوسطى من المسرح وكانت تسمى المرقص أو الأركسترا

وفي وسط المرقص كان يقام المحراب الذي يبدل فيه الممثلون ملابسهم وأزياءهم التنكرية، وقد رؤى أن يكون إلى خلف المرقص حين رفعت أرضه بالخشب لتتناسب مع المدرجات العالية أمامها

ولما كان المسرح في مثل هذا الاتساع الهائل عمد الأثينيون إلى حيل المكياج ليضخموا الممثلين بحيث تراهم الصفوف الخلفية، فكان هؤلاء يلبسون أخفافاً كباراً لها أعقاب عالية من الخشب، وثياباً سميكة محشوة ومبطنة ببطائن منتفخة، وقد يكون للثوب ذيل فضفاض يجرره الممثل وراءه

وكانوا يلبسون الأوجه التنكرية الكبيرة التي تلائم المشهد الروائي، فإذا كان المشهد محزناً ظل الوجه عابساً بادي الألم، وإذا كان المشهد مضحكاً بدت على الوجه أسارير المرح وقسمات الضحك أو علائم التهزيل

وكما عمدوا إلى ذلك لتضخيم الممثلين فكذلك عمدوا إلى فم الوجه التنكري فنفخوه بحيث يخرج الصوت منه مدوياً يجلجل في أرجاء المسرح فلا تضيع كلمة واحدة على نظارة الصفوف الخلفية

وقد أدى هذا المكياج العجيب إلى بطء الحركة في المرقص بطئاً شديداً لأن تلك الأخفاف الخشبية ذات الأعقاب العالية لا تعمل على السرعة بل تعمل على البطء، هذا إلى اضطرار الممثل أن يتجه دائماً إلى الوجهة التي يعبر عنها الوجه التنكري الذي يلبسه، لأنه لا يستطيع تبديل (تقاطيعه) حسب ما يقتضيه سياق الحديث

وكانت طبيعة هذا المسرح الضخم الرحيب تقتضي أن يكون الممثل حاذقاً بارعاً ملماً بدقائق فنه خبيراً بتوجيه الصوت الذي كان ينبغي أن يكون دائماً جهورياً عالياً في غير حشرجة ولا تصديع

وقد كان الشعراء أنفسهم - وهم مؤلفو الدرامات - يقومون بتمثيل الأدوار المهمة ويتولون في الوقت نفسه مهمة الإخراج والإشراف الشامل على تمثيل الأدوار الأخرى. . . وقد ظل إسخيلوس وسوفوكليس يمثلون أدوارهم حتى اضطرا إلى التخلي عن ذلك حينما ضعف صوت إسخيلوس ورأى سوفوكليس أن يستعمل ممثلا آخر يقوم عنه بهذه المهمة، ومن هنا نشأ الاحتراف في التمثيل حوالي سنة 456 ق. م

وإسخيلوس هو أول من اتخذ ممثلين بدل ممثل واحد يقوم بمعظم الأدوار الهامة في الدرامة. وقيل إن سوفوكليس زاد عدد الممثلين فجعلهم ثلاثة؛ وقيل إن إسخيلوس هو الذي صنع ذلك وسنّه لمن جاء بعده

وكانت أدوار النساء تسند عادة إلى الصبيان المُرد ذوي الصوت الناعم الرخيم. وقد مثل سوفوكليس نفسه دور الحسناء نوزيكا في درامته المفقودة (نساء غاسلات). . . ولا تدري ماذا منع الإغريق من إسناد هذه الأدوار إلى السيدات، وليس في المصادر التي بأيدينا ما يلقى النور على ذلك

وقد كان الفنانون يبدون مهارة عجيبة في صنع الأوجه التنكرية وخاصة لأدوار النساء، وقد حفظ لنا الأثر كثيراً من فن فدياس في ذلك خصوصاً في أدوار درامات سوفوكليس

أما الخورس (المنشدون) فقد عرفنا أن عددهم في الدثرامب (أغاني باخوس) القديمة كان

خمسين وقيل ثمانين وقيل غير ذلك، وقد نزل بهم إسخيلوس إلى ثمانية وأربعين لا يظهر منهم في المشهد الواحد إلا اثنا عشر. وقال ستوبارت بل كان يظهر منهم في المشهد الواحد خمسة عشر يخرجون من المحراب في صفوف ثلاثية طولية عدد كل منها خمسة، ويقودهم رئيسهم صاحب الناي وعلى يمينه ويساره قائدا الصفين الآخرين

وكان أفراد الخورس يُختارون من أمهر الراقصين اليونانيين، ومن الذين مرنوا على الإنشاد والغناء، وذلك لما يتطلبه فن الدرامة اليونانية من التوقيع الموسيقي الرشيق

الأنيق المنتظم الذي يوائم مجرى التمثيل ويتفق ومشاهد المأساة أو الملهاة أما ملابس الخورس فكان يؤدي ثمنها المثري الذي تعهد للشاعر بمصروفات الدرامة، وكان لكل فرد من المنشدين أربعة (أطقم) من الثياب يغيرها حسب اختلاف المشاهد. . .

وكان للخورس المقام الأول في الدرامة القديمة، فهم الذين يشرحون الحوادث وهم الذين يعطون للنظارة كل فكرة هامة عن الدرامة، وما الممثل (أو الممثلان أو الثلاثة) إلا قائد التسلسل أو كما يقول آرسطو أي الشخص الذي يقود الحديث ويوجهه. وقد أخذت مهمة الخورس تتضاءل وتقتصر على الشرح الخفيف والأغاني والموسيقى بعد اسخيلوس. ففي درامة المتضرعات ترى أن الخورس هم أبطال الرواية ذكوراً وإناثاً، وأنهم ينشدون من مادتها الثلثين على الأقل؛ أما الثلث الباقي فهو للحوار ويؤديه الممثلان. فالخورس في إسخيلوس هم صلب الرواية، وهم حاضرون أبداً في الأوركسترا لا يبارحونه. . . أما في سفوكليس، أو في درامته فيلوكتيتس فلا تكاد تحس للخورس تلك الأهمية، بل لا تكاد تحس لهم أهمية مطلقاً، وهم لا يظهرون في الأوركسترا إلا بعد أن تقترب المأساة من أوجها، ولا يكادون ينشدون من مادتها أكثر من السدس. وهذا هو السبب في سرعة الأداء في مآسي سوفوكليس وبطئه في مآسي إسخيلوس، بل هذا هو السبب الذي أظفر الشاعر الشاب بالشاعر الشيخ كما سنرى فيما بعد.

وقد فقدت أغاني الخورس قيمتها تقريباً في درامات يوريبيدز واحتلت الموسيقى المكان الأول فيها جميعاً، وقد حدث ذلك التبدل حينما انحط الغناء وتشوف الأثينيون إلى الموسيقى العلوية الرفيعة التي تذكى المشاعر وتحوم بهم في آفاق شعرية جميلة، ومن هنا اهتمام يوريبيدز بالأناشيد والمراثي القروية مما سوف نتناوله في حينه إن شاء الله.

وقبل أن يبدأ التمثيل، كان لا بد من إعطاء النظارة فكرة عن موضوع الدرامة، فكان يبرز من المحراب أحد أفراد الخورس أو الممثلين أو الشاعر نفسه ليقدم المقدمة أو ال وذلك قبل أن يدخل أحد من الخورس، أما مقدمة الخورس أو ال فهي ما يقدم به الخورس نفسه قبيل كل مشهد جديد. . .

أما مادة الدرامات اليونانية فقد كان لها مصدران عظيمان: أحدهما خارجي ويشمل مشكلات السياسة ومؤامراتها وكل ما يتعلق بسلامة الدولة، والآخر داخلي أو أهلي ويشمل الأساطير الدينية التي تحدد العلاقة بين الناس والآلهة أو بين الآلهة والآلهة أو بين الناس والناس فيما يتعلق بتقليد ديني أو فيما له صلة بتلك التقاليد وفي الدرامات التي تتناول موضوعاً سياسياً لم يكن يسمح للشاعر أن يستهزئ بدولة ما حتى ولو كانت دولة معادية؛ ولم يكن يسمح له أيضاً بأن يثلب طائفة ما من الطوائف التي يتركب منها الشعب الإغريقي. وقد حدث أن ألف الشاعر فرينيخوس درامة آذى بها الأيونيِوَيّين، فثارت الخواطر عليه في أثينا وانتهى الأمر بمحاكمته والحكم عليه بغرامة فادحة

وقد كان لأبطال الملاحم الهومرية والهسيودية النصيب الأوفى من عناية شعراء الدرام. وكانوا يعنون كذلك عناية فائقة بأبطال الحروب المروعة التي نشبت بينهم وبين الفرس. . . تلك الحروب التي خلقت المجد اليوناني وحالت بانتصار اليونانيين دون تبرير أوربا

أما الأساطير التي تعج بها المثيولوجيا اليونانية فقد كانت مادة أساسية للدرامة. . . ولا غرو، فقد عرفنا أن الدثرامب كانت الفجر الصادق لهذا الفن الجميل العظيم. . . والدثرامب هي أغاني باخوس، وهي وإن كانت تنشد باسم هذا الإله المرح الطروب قد أدت إلى المأساة الصارمة المشجية التي تفيض بالألم وتورث الحسرة والأسى

وهنا موضع إشارة إلى رأي طريف جهر به أستاذ عظيم من أساتذة الأدب اليوناني القديم هو العلامة ردجواي. . . فقد أنكر هذا الأستاذ أن تكون أغاني باخوس الفياضة بالفرح والمرح والتهريج أصلاً للمأساة، وزعم أن أصلها إنما هو الأسى والحزن، والأسى والحزن إنما ينشأن حول الموتى وحول المقابر وفي المحافل الجنائزية التي كانت تقام في هذه المناسبات، وما كان يصحبها من إقامة شعائر الموت والطقوس الدينية المختلفة. ودليله

على ذلك تلك المشاهد الكثيرة التي تزدحم بها المآسي من مناظر الحزن وإبراز إمارات الأسى وتجصيص القبور في المناظر التي تقتضي ذلك.

هذا رأي طريف حقاً. . . لكنه رأي لم يشر إليه أحد من قدماء اليونان، لا أفلاطون ولا أرسطو ولا هيرودوتس ولا أحد ممن أرخ لهذا الأدب المسرحي العظيم. بيد أنه لا ينقض هذا الرأي عدم إشارة أحد من هؤلاء إليه. فهو رأي محترم لأنه منطقي ولأن الأستاذ قد أردفه برأي آخر في نشوء الدرامة الكوميدية كاد ينكر به ما تواتر به التاريخ وأجمع عليه العلماء من أمر نشوئها، فقد زعم أن الكوميدية لم تنشأ عن الدثرامب التي هي أغاني باخوس الخمرية المرحة، بل نشأت في قرية تدعى اشتهر أهلها بممارسة عبادة العنز لا عن تقي وورع بل اندفاعاً مع التيار. . . وآية ذلك أنهم لم يكونوا يظهرون إلههم الذي هو ديونيزوس أيضاً. . . في المظهر الذي كان ينبغي له بصفته أحد سادة الأولمب، بل هم كانوا يظهرونه في مظهر المخلوق المخمور العربيد الذي يثير مرآه الضحك ويبتعث النشوة والابتهاج، والسخرية أحيانا. فمن اسم هذه القرية اشتقت كلمة للملهاة ولفظة لشعرائها ومنشديها

ومع ما لهذا الرأي من قيمة ووجاهة فهو ما يزال يفتقر إلى إثبات وتدعيم.

هذا ولم تكن مناظر القتل وسفك الدماء تمثل على المسرح، بل كان يكتفي بدخول رسول فيفاجئ الممثلين والخورس بمقتل فلان أو الاعتداء على فلان. وهنا تتغير اتجاهات المأساة، وتبلغ أوجها بالخطبة الطويلة التي يلقيها هذا الرسول، لأنه يتناول شرح الاعتداء ووقته ومكانه وكيفيته والقائم به. . . الخ. وكانت المأساة في الغالب تنتهي بهذه الخطبة، فيظهر إله، خصوصاً في درامات يوريبيدز، فيلقي عظة أو عبرة، ثم يدخل الخورس إلى المحراب، وينصرف الجمهور إن لم يكن هناك تحكيم

وعلى ذكر الخطبة التي يلقيها الرسول نذكر أن الدرامة اليونانية لا تشبه بحال من الأحوال الدرامة التي نشهدها اليوم في مسارحنا. . . فدرامتنا تعتمد على الحوار القصير، أما الدرامة اليونانية فتعتمد على الخطب الطوال في أكثر الأحوال. . . ولم يوزع الشعراء اليونانيون بيتاً واحداً من الشعر على أكثر من ممثل واحد كما يصنع شعراؤنا اليوم ومنذ عصر شاكسبير. . . ومن الظريف جداً أن مترجمي الدرامات اليونانية القديمة من الإنجليز

والألمان والفرنسيين قد حافظوا على هذا التقليد حينما نقلوا تلك الدرامات إلى لغاتهم شعراً

وقبل أن نختم هذا الفصل نرى ألا يفوتنا أن نشير إلى حرية الرأي الكاملة عند هذا الشعب الأثيني الراقي العظيم. . . تلك الحرية العجيبة غير المحدودة - إلا ما سلفت الإشارة إليه في تناول بعض المشكلات السياسية - التي كان ينعم بها المؤلف والخطيب والمحاور وكل فرد من أفراد ذلك المجتمع الأثيني المهذب

لقد نشأت الدرامة اليونانية نشأة دينية بحتة. . . لكن المجتمع الأثيني لم يكن مجتمعاً دينياً متزمتاً. . . ودينه لم يفرض عليه طقوساً يومية من العبادات، وإن كنا نحن نؤمن إيمانا مطلقاً بما لهذه الطقوس من الأثر الجميل في مجتمعنا. . . لكنهم هكذا نشأوا. . . نشأوا وثنيين في عشقهم للجمال والحرية ومحبة العدل وإيفاء كل ذي حق حقه. . . احترموا الموت ولم يفكروا فيما وراءه، وآمنوا بالقضاء والقدر إيماناً إيجابياً لا إيماناً سلبياً مثل إيمان بعضنا بهما. . . ومن هنا نبعث روائع دراماتهم. . . لقد كان كل ما يأمرهم دينهم به هو تقديم القرابين وعقر الأضاحي. . . ثم دفن الموتى. . . فمن لم يدفن بعد موته أو قتله ظلت روحه هائمة في الظلمات عابسة كاسفة حتى يدفن صاحبها فيؤذن لها في دخول هيدز. . .

هذا كل ما فُرض عليهم من أمر دينهم. . . ومع ذاك فقد فهم أحرارهم هذا الدين الأسطوريّ على وجهه الحق فلم يبالوا أن يزيفوه ويتناولوا آلهته بالنقد والتخطيء والتسفيه والسخرية أحياناً. . . كما سيمر بك فيما يلي

دريني خشبه

في السلام

للأستاذ عبد المنعم محمد خلاف

لا كلمة الآن أشد سحراً وأكثر دوراناً على ألسنة الساسة من كلمة السلام، فهم يرسلونها في خطبهم العالمية والمحلية حتى لتظنهم ويظنون أنفسهم خلفاء الرسل

في الدعوة إلى سلام الأرض
وقد بنوا لهذه الكلمة الساحرة بيتاً عالياً في جنيف له سدنة وكهان وحجاب، وكل هذا (كالعروض): بحور بلا ماء!
ولا أعرف ديناً عنى بترديد هذه الكلمة على أسماع أهله في الخلوة والجلوة وتثبيتها في طباعهم كما عنى الإسلام
بل إن الإسلام والسلام كلمتان متداخلتان مادة ومعنى. ويعرف كل من له إلمام بفقه اللغة العربية وخصوصاً قانون (تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني) أن هاتين الكلمتين ليس بينهما من فرق في المعنى إلا بمقدار ذلك الفرق الضئيل في اللفظ
وأنا الآن بمعرض بيان الأسس التي وضعها الإسلام لضمان السلام في النفس، وبين الطبقات في الشعب، وبين الأمم في الأرض
وأول ما يسترعي النظر هو أن تحية المسلمين هي إلقاء كلمة السلام. وما أجد تحية أقرب مناسبة لكل وقت كهذه التحية، وهي في الواقع بمثابة عهد بين البادئ والمجيب، على ألا يمس أحدهما الآخر بسوء. وفي البادية يفهمون لها هذا المعنى الجميل فيرافق المجيب البادئ إلى آخر حماة حتى لا يصاب بسوء ما دام في حماه، بعد هذا التعاقد
وفي الصلاة الإسلامية ترديد كثير للسلام؛ حتى ليصح أن نطلق على التشهد (نشيد السلام) ففيه سلام على النبي صلى الله عليه وسلم وفاء له وذكرى بين يدي الله، وسلام على النفس لبعث الطمأنينة وإشاعة معناها في الروح وإيحاء ذاتي إلى القلب بذلك المعنى، كما يشير بذلك علم النفس الحديث، وسلام على العباد الصالحين يرسله المصلي إليهم في غيبتهم وغيبوبته هو في مقام الله، وكأنه يتعهد أمام الله ألا يمس أحداً من رجال الإصلاح بسوء، ثم تنتهي الصلاة بسلام عن اليمين والشمال يستأنف به المصلي عودته إلى ملابسة أمور الحياة. ذلك موقف هو أعظم مواقف التصفية للنفس المسلمة في حياتها اليومية،
فلينظر فيه علماء النفس ويبينوا أي قوة تربوية أوحى بمعاني السلام منه؟
ثم يعمد الإسلام إلى تثبيت معنى السلام من طريق العظة بالقول بعد أن أوحى به في العبادة فيصف المسلمين بأنهم (إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلية) (المسلم من سلم الناس من لسانه ويده) إلى آخر النصوص التي تفيض بها مراجع الإسلام
ولما قامت دولة الإسلام بالمدينة وابتدأت الحياة السياسية للمسلمين شرع الله شرائع الحرب والسلم حتى لا يسير المسلمون وراء السياسة وهى فاجرة قاسية، فنادى نداء عاماً (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة) (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله) (وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله) (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلم لست مؤمناً) وقد نهى وحذر من الخداع واتخاذ العهود والمواثيق تمويها وغشاً (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها) (ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً) (ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة إنما يبلوكم الله به)
وهنا نقف قليلاً لنفكر في هذه الآية العجيبة التي تلخص كل مشاكل السياسة وبخاصة في هذا العصر. فنحن على علم الآن بأن كل ما يوقع الأمم في جحيم الحرب هو عدم الثقة المتبادلة فكل دولة لها مواثيق مستورة ومواثيق علنية، والاعتماد الأكبر على المحالفات السرية، وكل دولة متهمة عند الأخريات، وكل دولة تريد أن تكون أربى وأكثر عدداً وقوة ومنافع من الأخرى، فهم قد اتخذوا مواثيقهم وعهودهم دخلاً وغشاً بينهم فلا تترك ثقة ولا تدفع شكا، وكل هذا للمادة والمال (لتكون أمة أربى من أمة) لا لخدمة مثل أعلى، ولا لعلم أو معرفة، ولا شك أن هذا بلاء كبير كما يعبر القرآن
فانظر كيف يدخل الإسلام إلى السياسة بهذه الروحانية الجميلة التي هي سر نجاح سياسة العرب في تعريب الأمم وإسلامها
ويعد القرآن اتخاذ العهود والمواثيق دخلاً وخداعاً وغشاً، زلة قدم بعد ثبوتها، وذلة تحت حكم السوء، وصدّاً عن سبيل الله (ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم)
ولم أر القرآن يؤكد معنى في موضع واحد منه وفي آيات متلاحقة وفي بيان يدير المعنى

على اختلاف وجوهه ويستعين على توكيده بالتشبيه والتمثيل كما رأيته في هذه الآيات التي تحض على الوفاء وتنهى عن الخداع في السياسة بين الأمم. . .!

وأحب ألا يفهم قارئ أن القرآن يدعو إلى الضعف والغفلة بإدخاله الروحانية في السياسة، فإن هذا فهم خاطئ. فقد دعا الإسلام إلى الأخذ بأسباب القوة ما وسعت الطاقة (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة). (وإما تخافن من قومٍ خيانةً فانبذ إليهم على سواء). (وليجدوا فيكم غلظة). . . (المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف) . . .وإنما هي رحمة الأقوياء، وعفو القادرين، وسلام تحت ظلال السيوف

(بغداد - الرستمية)

عبد المنعم محمد خلاف

من برج بابل

أسعد ساعاتي وأحفلها بالعبر والتأمل، حين أجلس إلى طفلي. فأعمد أنا إلى إبرتيّ الطويلتين دائبة على صنع قطعة من النسيج، ويفرغ هو إلى الدُّمى واللُّعب كأنه ملك عابث، فهو منهمك أبداً في تدبير دولة من لُعب، فتارة يقسم فصائل جيشه وينصب عليهم القواد ويدعوهم إلى القتال والجهاد، وطوراً يزف الملك إلى الملكة، وأحياناً يحرك القطار على القضيب. وهو في هذا كله نشيط دائم الحماسة والحركة، يزمزم بلغة غريبة عنا، كأنما لا يفهمها غير عالمه الصغير ورعيته الجامدة!

ثم لا يلبث أن يعتريه الملل والسآمة وتسيطر عليه غريزة عجيبة، فيهدم عرشاً نصبه، ويبعثر جنوداً مدربة منظمة، ويصدم عربات قطاره، ويهرع إليّ محتجاً متبرماً، يطلب عالماً جديداً أو إن شئت لعبة جديدة. وبأي قدرة أستطيع أن أمده على الدوام بعوالم لا متناهية متجددة في كل لحظة! فإذا شعر مني بالعجز عن الخلق والإبداع انصرف إلى دنيانا نحن الكبار: فيجذب الزهرية المستقرة في رشاقة على المنضدة ويهوى بها إلى الأرض؛ وإلى الورد فيعبث بأوراقه، ويعمد إلى الستار المسدل على النافذة فيهدله. وإلى زجاجها فيحطمه؛ ويسعى إلى القط الجميل الوديع فلا يزال يستدرجه، حتى إذا تمكن منه حاول خنقه بيديه الدقيقتين.

لشد ما يجهد أعصابي هذا المخلوق الصغير الجبار! إنه لا يهدأ، إنه لا يستقر. ولا يحلو له غير التدمير والعبث بنظامنا. لا توقفه نظرتي الحادة المهددة، ولا تهدئه بسمتي الحنون الرقيقة، ولا يثنيه ما أقدم من حلوى.

ألا إن في الأطفال حافزاً عجيباً يدفعهم على الدوام إلى هدم ما هو قائم، وإفساد ما هو كائن، وتحليل ما هو مركب. وحين ألقى النظر على يديّ وهما دائبتان في نسج الحياة، وعلى آثار الحطام التي أنزلها بعالمي طفلي الصغير، أشعر بالفارق الهائل بين الأمومة العاملة والطفولة الهادمة

هؤلاء الصغار، فلذات أكبادنا، يولدون في الحياة بمشاعر جديدة، وطبائع جديدة، وأفكار جديدة، وآمال جديدة. . فلا يطيب لهم أن يبقوا على ما صنعت الأمهات وما بذل الآباء؛ فتراهم يحطمون في لحظة عالمنا، ثمرة كدنا وعمرنا وجهدنا، كما لو كان صنماً قديماً سخفت عبادته!

ماري نسيم

حول كتاب (مصطفى كامل)

مصطفى كامل والسيادة العثمانية

للأستاذ محمود العمري

في عدد الرسالة الصادر في 20 فبراير كلمة للأستاذ العقاد عن كتاب (مصطفى كامل) لعبد الرحمن بك الرافعي، لا يسع قارئها إلا أن يرى فيما جاء بها، حواراً طبيعياً بين مؤرخ (سعد زغلول) ومؤرخ (مصطفى كامل). وقد أوسع الأستاذ العقاد مجال المناقشة من الجانبين، إذ قال في آخر كلمته أن ليس للقارئ أن يطلب الحق كله من كتاب واحد لا سيما في تاريخ تختلف فيه الميول والآراء. وهذه دعوة ضمنية إلى طرح الموضوع على بساط البحث كيما يستنير أبناء الجيل الحاضر ممن تأثروا بحركة سعد زغلول دون حركة مصطفى كامل.

والمهم في هذه الكلمة أن الأستاذ العقاد يأخذ على عبد الرحمن بك أنه ظل غير متحيز في سلسلة كتبه عن الحركة القومية منذ الحملة الفرنسية إلى أن وصل إلى مصطفى

كامل فتحيز له ضد خصومه.

ولأجل أن نبحث هذه الملاحظة لا بد لنا من الرجوع إلى السياق التاريخي لمنطق الوطنية المصرية منذ الحملة الفرنسية، لنتبين ما إذا كان هناك عدم تناسق في حلقاتها؛ وعندئذ نرى الحكمة الحقيقية فيما قاله عبد الرحمن بك في مقدمته: من أنه كان في أول الأمر يريد ترجمة سيرة مصطفى كامل، فأدى به البحث إلى أن يمهد لها بتحقيق تاريخ الحركة القومية منذ الحملة الفرنسية التي تعد بداية محاولة دول أوربا الاستيلاء على مصر بأساليب واحدة؛ إذ أن حركة مصطفى كامل لا يمكن اعتبارها من جانب المؤرخ الحقيقي إلا حلقة من حلقات سلسلة جهود المصريين للوقوف في وجه الفاتح الأوربي؛ كما أن تشابه الموقف في هذه الحلقات كان من شأنه أن أملي على المجاهدين في سبيل الاستقلال الحقيقي خطة واحدة. وما الشعور الوطني إلا غريزة الدفاع عن النفس، وهى غريزة طبيعية فطرية إذا كانت سليمة صادقة فرضت على النفوس منطقاً سليماً على اختلاف درجة تعمق الآخذين بها في مبلغ فهمهم إياها عن طريق العقل.

فالسلسلة التاريخية التي بدأت منذ قرن ونصف قرن تقريباً إنما هي عدة فصول في رواية واحدة يطلع عليها القارئ في سلسلة الحركة القومية بقلم رجل يجمع إلى صفاته كمؤرخ صفة أخرى وهي صفة المؤمن بتلك الحركة، وهذه مزية ضرورية لمؤرخ أي فكرة؛ إذ أن عبد الرحمن بك رجل يؤهله طول بلائه فيها لأن يفهمها بروحه ومزاجه فضلاً عن فهمه إياها كمؤرخ وكرجل يدرك المرامي السياسية عن طريق إلمامه بالقانون.

احتل نابليون مصر، وكانت تابعة لتركيا، وكانت إنجلترا منافسة له تسعى لإخراجه منها. وكانت حجتها في ذلك أن في هذا الاحتلال اعتداء على حقوق الدولة العثمانية التي لم يكن في حالة حرب ضدها بل كان متعهداً بسلامتها بمقتضى المعاهدات. فأخذت تحرض تركيا على التمسك بحقوقها، وتحرض المصريين على التمسك بعلاقتهم بها ما دام الاحتلال الفرنسي قائماً. وكان نابليون يسعى جهده لحمل تركيا على الرضا عن احتلاله لمصر نظير مزايا عظيمة في البلقان، كما سعى بوسائل شتى لحمل الزعماء المصريين على قبول الانفصال عن تركيا فبذل في سبيل ذلك جهوداً عظيمة، وأدى للشعب خدمات جليلة، ولكنه لم يفلح مع تركيا ولا مع مصر، ولذلك تم للمصريين ما أرادوا من عدم تمكن النير الأجنبي من أن يقوم على رضاهم بسند شرعي. ولو أنهم خدعوا بما أغراهم به نابليون باسم الانفصال عن تركيا لخلا الجو أمام احتلاله وهو الإهدار الحقيقي للاستقلال ولكانت مصر إلى الآن مستعمرة فرنسية. . .

أثبت التاريخ بعد ذلك أن مصر لم تكن بهذا السلاح السلبي تقصد التبعية لتركيا بدليل أنها ما كادت تتخلص من الاحتلال الفرنسي حتى أخذت تعالج مشكلة استقلالها مع تركيا وجهاً لوجه، فوضعت محمد علي على رأسها وحارت تحت قيادته المتبوع الأعظم وهزمت جيوشه؛ وذلك بفضل استقلالها الداخلي الذي مكنها من أسباب القوة القومية، وهذا لعدم توفر الركن الأساسي للتبعية الفعلية لتركيا وهو وجود جيش احتلال تركي في مصر.

لم يقف الجيش المصري الظافر على تركيا إلا تدخل دول أوربا التي لا تأخذ الواحدة منهن على المصريين تمسكهم بتركيا إلا عندما يكون هذا التمسك مقصوداً به التخلص منها. أما إذا كان مقصوداً به التخلص من دولة منافسة لها فإنه يصبح عندئذ أمراً منطقياً تمليه الوطنية الحقة ولا تعصب فيه للدين ولا للخلافة

ولم يقف الاستقلال الذي عملت له مصر في ميدان القتال عند الحد الذي رسمته معاهدة سنة 1840 إلا تدخل تلك الدول خشية فتح باب المشكلة الشرقية بما تقتضيه من التنافس على توزيع أسلاب الدولة العثمانية

وفي سنة 1882 احتلت إنجلترا مصر احتلالاً مؤقتاً بموافقة صاحبي الشأن في معاهدة سنة 1840 وهما سلطان تركيا وخديو مصر فعاد نفس الموقف الذي كان قائماً أيام الاحتلال الفرنسي. وبعد أن انتهت الحالة المؤقتة التي أدت إلى ذلك الاحتلال أصبحت فرنسا تطالب إنجلترا بالجلاء بنفس الحجة التي كانت هذه تتذرع بها أيام نابليون

فسعت إنجلترا سعي هذا الأخير لإزالة العقبة القانونية التي تجعل احتلالها غير مشروع فأوفدت درامندو ولف إلى الآستانة للاتفاق على تبرير الاحتلال الدائم وهو الحماية ففشلت، وكان بعض فشلها راجعاً إلى سعي فرنسا التي حاربتها بنفس الحجة التي حوربت بها قبلاً وظلت تحاربها بها إلى أن اتفقت معها إنجلترا على إطلاق يدها في مراكش

لجأت إنجلترا أيضاً إلى مثل ما لجأ إليه نابليون من حمل الشعب المصري على المطالبة بالانفصال عن تركيا قبل أن ينجلي الجيش الإنجليزي عن مصر وقدمت في سبيل ذلك للشعب المصري خدمات اقتصادية وقامت له بإصلاحات إدارية كثمن لإلهائه عن الاستقلال فنجحت مع بعض الأعيان الذين كانوا يسمونهم أصحاب المصالح الحقيقية فراحوا يقولون إن الاستقلال هو الانفصال عن تركيا قبل الجلاء. وكانت الغاية التي قصد إليها الإنجليز أن تزول من طريقهم إلى الحماية الحقيقية تلك العقبة التي جعلت مركزهم غير صحيح. ثم شفع هؤلاء المصريون خطتهم بالمناداة بالاتفاق مع إنجلترا كما تنكروا لسلطة الخديو الممثل الشرعي للسيادة المصرية المقررة في معاهدة سنة 1840 حتى تنهدم المعاهدة المذكورة من ركنيها الخارجي والداخلي، هذين الركنين اللذين هدمهما الاحتلال

عندئذ قام مصطفى كامل فنهض نهضة استقلالية تامة لاشك في اتجاهها ومراميها، وقال مراراً إن مصر لا تريد إبدال متبوع بمتبوع، ولكنه احتاط عند تحديد المطالب السياسية فجعل هدفه الأول جلاء الاحتلال ووضع أمامه معاهدة سنة 1840 سنداً قانونياً سياسياً ضد الاعتداء الحقيقي على تلك المعاهدة

إن القول بأن استفادة مصطفى كامل بالعوامل الخارجة عن الجهود المصرية كان مناداة بالتبعية لهذه العوامل إنما هو قول بعيد عن الحقيقة التي لمسها معاصروه قبل أن يسلموا له

بما اعترف به الأستاذ العقاد إذ قال عنه إنه زعيم الوطنية المصرية في ذلك العصر استفاد مصطفى من خلاف فرنسا مع إنجلترا فظن بعض الناس أنه صنيعة فرنسا. فلما تنحت فرنسا عن قضية مصر استمر في جهاده بل ضاعف قواه. واستفاد من خلاف ألمانيا وحلفائها وأيد الخديو، حتى إذا خرج كرومر وتغير الحال أثبت مصطفى كامل أن انتصاره لسمو عباس حلمي باشا لم يكن إلا انتصاراً للسيادة المصرية لا لشخص الخديو وضاعف الهمة حتى زالت حجة المكابرين الذين قالوا بأنه صنيعة. وكذا كان شأنه مع تركيا شأن المستفيد من مصلحة مشتركة في موقف معين. وما قوله في شأن الخلافة إلا شأن فرنسا وإيطاليا مثلاً عند اتفاق مصالحهما بأن هناك رابطة لاتينية

ولما تولى الحركة فريد بك ازدادت خطة الوطنية وضوحاً لمناسبة الظروف التي استجدت فقامت الحرب العالمية وهو في تركيا فأفهم رجالها وهم على وشك الهجوم على مصر أن عدم مطالبة المصريين برفع السيادة التركية إنما كان لوجود الاحتلال الإنجليزي

اعترفت إنجلترا بأن تكييف مصطفى كامل للاستقلال كان تكييفاً صحيحاً كما اعترفت للمجاهدين ضد نابليون عندما كانت تريد إخراجه من مصر. ويكفي أن يطلع الإنسان على إعلان الحماية ليرى هذا الاعتراف إذ جاء فيه: (بما أن تركيا في حالة حرب مع إنجلترا فتزول من الآن السيادة التركية وتصبح مصر تحت الحماية البريطانية)

ولما انتهت الحرب العظمى لم يتمسك رجال مصطفى وفريد بالسيادة العثمانية، فهذا غير معقول، وإنما عملوا على ألا يتم تنازل تركيا عن سيادتها إلا لمصر لا لإنجلترا كما عملوا على احتفاظ مصر بما لها من الحقوق في معاهدة سنة 1840. ولذلك سافروا إلى أنقرة وإلى لوزان ولم يسع (الوفد المصري) إلا أن يبعث معهم بعض رجاله ويشترك معهم في هذا المسعى.

أما ما حصل بعد ذلك فيكفي أن تكييف مصطفى كامل قد سجل له التاريخ نتيجة واضحة وهي أن معاهدة سنة 1936 استنفدت برامج جميع الأحزاب ما عدا برنامج الآخذين بمبدئه.

محمود العمري

دراسات في الأدب
للدكتور عبد الوهاب عزام
الأدب الموضوعي نقد وتاريخ
رأينا فيما تقدم أمثلة من الأدب الموضوعي، ورأينا بعض هذه الأمثلة يتناول قطعة من الأدب ليبين ما فيها من عيوب ومزايا؛ ورأينا أمثلة أخرى تبين مناهج الكلام البليغ، وتوضح مزايا هذا الكلام في معانيه وألفاظه وأساليبه، وقلنا أن هذه الأمثلة وما يشبهها تسمى نقداً. ثم وجدنا أمثلة غيرها تقصد إلى تبيين أطوار الكلام في العصور المتتابعة وإيضاح أسبابها، وقلنا إن هذه الأمثلة وأشباهها تُعدّ من تاريخ الأدب
وهنا نُجمل الكلام في النقد الأدبي وتاريخ الأدب
1 - النقد الأدبي
نقد الكلام تبيين مزاياه وعيوبه، وتمييز جيّده من رديئه يقال: نقد الكلام وانتقده على قائله، وهو من نقده الشعر ونقَّاده. . . الخ
2 - نشوء النقد وتطوره
النقد طبيعي في الإنسان، ينشأ من استحسان الشيء أو استهجانه. ويزيد الناس اهتماماً به اختلاف الأذواق في تقدير الشيء الجميل والقبيح، وتفاوت الإدراك في معرفة الصواب والخطأ، ويعظم الخلاف في دقائق الأمور التي لا يُبينها حِس واضح أو إدراك بيّن، وكلما دقت المسألة عسُر الحكم فيها وكثر الخلاف؛ وكلما كثر الخلاف كان النقد أصعب، وكان على صعوبته ألزم. والنقد يكون في العلوم، والصناعات، ويكون في الآداب. وهو في هذه أغمض وأعسر لأن الآداب لا يرجع فيها إلى الحس أو العقل ولكن إلى العاطفة والذوق، وهما من الأمور النفسية يصعب تحديدهما ويكثر الاختلاف في أحكامهما
والنقد يكون في مبتدئه أحكاماً لا يدعمها برهان ولا يوضحها بيان، ثم تتناقض الأحكام، وتتصادم الآراء، فيذهب كل ناقد يفسر رأيه، ويقيم حجته، على قدر ما يواتيه فكره، ويمده ذوقه، حتى ينتهي الجدال إلى أمور مسلمة ومقاييس محدودة يحتكم الناس إليها فيتفقون. وربما ينتقل الخلاف من المسائل الجزئية التي يختلفون فيها إلى المقاييس الكلية التي
يقيسون بها؛ يختلف اثنان في وزن شئ أو طوله فيعمدان إلى الميزان أو الذراع ليعرفا الصواب فيما اختلفا فيه، وربما يقع الخلاف في صنجة الميزان أو في طريقة الوزن أو في الذراع أو طريقة الذرع.
وكذلك الأمور المعنوية، يقع فيها الخلاف فيرجع المختلفون إلى قواعد يتفقون عليها، وربما يختلفون في القواعد نفسها. يقول واحد: هذا حسن، ويقول آخر: بل هو قبيح، فيرجعان إلى القوانين التي يعرف بها الناس الحسن والقبيح، يقول أحدهما: حسن لأنه نافع، ويقول الآخر: قبيح لأنه ضار، ثم يعرفان أنه نافع أو ضار فيتفقان. وقد يتمادى الخلاف بينهما في المقياس نفسه، فيقول أحدهما: كل نافع حسن، ويقول الآخر: ليس كل نافع حسناً، ليس مقياس الحسن والقبح هو النفع والضر بل قبول النفس أو نفورها أو اللذة والألم. فإن لم يتفقا على مقياس الحسن والقبح استمر الخلاف بينهما
كذلك الأدب: يسمع أحد الناس قصيدة فيستحسنها ويطرب لها ويخالفه آخر؛ فيقول الأول: ألفاظها مألوفة سلسة حسنة النغمة، ومعانيها جميلة فيها سمو بالنفس ولها أثر في القلب، وكثير منها مخترع. ويخالفه الثاني فيما زعم للألفاظ والمعاني من أوصاف فيقول: ليست الألفاظ مألوفة سلسة، أو يوافقه على أنها كما قال ولكن يدعي أن الألفة والسلاسة ليست مقياس الجمال أو البلاغة؛ فإما أن ينتهيا إلى مقياس يرضيانه فيتفقان، أو يتمادى بينهما الخلاف
وفي البحث عن المقاييس والاتفاق عليها أو الاختلاف فيها يكون تطور النقد الأدبي وتشعب مذاهبه، ووضوح مناهجه، واستناده إلى براهين تتفق فيها المعرفة الواسعة والذوق المهذب والحس المرهف
3 - ضروب النقد
وفي النقد الأدبي ضروب منها:
1 - نقد الجزئيات، وهو نقد قطعة من النثر أو الشعر بالنظر في ألفاظها وتبيين أنها مما عرف في اللغة، وأنها موافقة للصرف والنحو، وأنها مألوفة غير مبتذلة، وأن وزنها،

إن كانت من الشعر، صحيح لا خلل فيه - أو بالنظر إلى معانيها وتبيين أنها غامضة أو واضحة، وقيمة أو تافهة، وطريفة أو مبتذلة، ومخترعة أو مسروقة، وأن التصوير فيها واف بالمقصد أو مقصر عنه، وأن مجازاتها واستعاراتها حسنة أو قبيحة. . وهلم جرّا

2 - وقد يتناول النقد شاعراً أو كاتباً؛ فيقال إنه ركيك الألفاظ أو غامض المعاني أو مستهجن الموضوعات أو متكلف لا يصور الطبيعة أو سراق غير مخترع

3 - وربما يكون النقد أوسع من هذا فلا يتناول قطعة أو شاعراً بعينه، بل يتناول طرائق البيان ومناهج البلاغة؛ فيقال: ينبغي أن تؤلف الألفاظ على أسلوب كذا، وأن تحرر من السجع والصناعة، وينبغي أن تكون المعاني بيّنة قريبة من المخاطب، وينبغي أن يطول الكلام أو يقصر على قدر المقام وهكذا

4 - وأحياناً يسمو النقد فوق هذا كله وينظر إلى الأدب ومقاصده عامة فيتناول مسائل كالمسائل الآتية: هل للأديب أن يطرق كل موضوع، أو هو جدير بأن يتناول موضوعات سامية لا يتناولها العامة؟

هل على الأديب أن يلتزم الأخلاق والآداب فيما يكتب أو هو حرّ فيما يُبين غير مطالَب إلا بالإجادة في بيانه؟

هل الحق والصدق من أسس البلاغة أو يكون الكلام بليغاً وهو كذب وباطل؟

هل للأديب مقصد فيما يكتب، أو هو كالزهرة تنشر الرائحة العطرة بطبعها لا تبغي وراء هذا شيئاً؟

وهذه المباحث أعمق مباحث النقد وأوسعها وأعظمها جدوى لأنها تتناول وجهة الأدب ومقاصده وموضوعاته، تعمد إلى سُبل الأدب تبيّنها وتوضّحها ليكون الأديب على بينة من غايته وسبله قبل أن يسير، فلا يعتسف الطريق ولا يضل دون الغاية

4 - النقد في الأدب العربي

أما النقد اللفظي الذي يرجع إلى متن اللغة والنحو والصرف والعروض فالأمر فيه يسير لا يحوج إلى شواهد، وهو واقع في كل زمان يشترك فيه الشادون والمنتهون. ويُرى في كتب الأدب كثير منه؛ وقد كتب فيه الحريري كتابه (درة الغوّاص في أوهام الخواص)

وأما نقد الألفاظ من حيث سلاستها أو تنافرها وألفها أو غرابتها ونحو هذا ففي كتب الأدب والبلاغة مباحثه وشواهده

والنقد المعنوي عرفه العرب في كل عصور الأدب حتى العصر الجاهلي ولكنه كان أول الأمر نقداً مبهماً غير معلل كقولهم: فلان أشعر، وهذه القصيدة أحسن؛ أو نقداً لمعان جزئية أحسن فيها القائل أو أساء

ثم حاول العلماء منذ القرن الثاني أن يصفوا طرائق البيان، ويحدّوا حدوده ويبينوا معالمه فكتبوا في البيان وأكثروا ودعموا دعاويهم بكثير من المنظوم والمنثور

ونجد النقد عندهم مفرّقاً في الكتب الآتية وأمثالها:

1 - كتاب البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن الجاحظ المتوفى سنة 255

2 - كتاب نقد الشعر وكتاب نقد النثر لقدامة بن جعفر المتوفى سنة 335

3 - الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني المتوفى سنة 392

4 - كتاب الموازنة بين أبي تمام والبحتري للحسن بن بشر الآمدي المتوفى سنة 370

5 - كتاب العمدة في صناعة الشعر ونقده لابن رشيق القيرواني المتوفى سنة 456

6 - كتاب أسرار البلاغة ودلائل الأعجاز لعبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة 471

7 - كتاب المثل السائر في أدب الشاعر والناثر لضياء الدين ابن الأثير المتوفى سنة 637

تناول هؤلاء البيان من جهاته المختلفة ألفاظه ومعانيه وأساليبه وحاولوا جهد الطاقة أن يبينوا النهج للبلغاء ويصفوا القواعد التي يبنى عليها الكلام البليغ

ولكن نُقادنا لم يتناولوا المباحث العامة التي تبين وجهة الأديب ومقاصده، وموضوعاته وصلة الكلام بقائله وصلة القائل ببيئته

وقد عنى بهذا الأوربيون منذ عصر النهوض، وتوسع فيه الفرنسيون منذ القرن السابع عشر الميلادي حتى نبغ منهم في القرن التاسع عشر ثلاثةٌ يعدّون أئمة النقد الأدبي حتى اليوم. وهم:

1 - سنت بوف وأساس مذهبه معرفة الصلة بين الأدب ونفس الأديب، وجعل النقد تاريخاً للعقول والأنفس يتعرفها في آثارها ويكشف عن خباياها
2 - تين ومذهبه يعني كثيراً بمعرفة البيئة التي نشّأت الأديب ليتوسل بها إلى معرفة الأديب نفسه
3 - برنتيير ومذهبه أن البلاغة قائمة على التدرج والتطور كالحيوان والنبات وعمل الناقد
هو تتبع هذه الأطوار
عبد الوهاب عزام
إنني تعبة!
للشاعرة أيلا هويلر ولككس
إنني تَعِبة الليلة، وهناك شئ - لست أدري على وجه التحقيق ما هو. ولعله هزيم الريح أو دوي المطر في جنح الدجى، أو لعله تصايح الطير على الأيك من كل جانب في الخارج
هناك شيء، أجد لشجوه أمثالاً تستخرج وجدي، وتبعث أساي من بعد هجومه، وتعيد إلى الماضي السحيق وأحزانه وآلامه
فأشعر، وأنا أجلس هنا متأملة مفكرة، أن يد شهر مدبر، من شهور يونيه التي خلت ولم يبق من عهدها السعيد إلا التذكر، تمتد الآن إلى أوتار قلبي المرتخية، وتشدّها، وتصلح وحدة أوزانها، وتحكم انسجام اهتزازاتها
إنني تعبة الليلة، وإني لأفتقدك، وأحن إليك يا حبيّ، وأشتاقك شوقاً أكتمه جهدي. . . ومن خلال الدموع أحسب أنني أراك، وكأنك تمضي اليوم فقط مع الذاهبين إلى ربهم مع أن الزمان قد مدّ خطاه الواسعة في مهامه مترامية، وتجاوز عهوداً عديدة وأعواماً مديدة مذ فارقتني، وكأني أستشعر الانفراد والوحشة من جديد. . . أنا التي كثيراً ما أحيا في عزلة وحدي، وهاهي ذي أوتار قلبي المشدودة تدعو الهديل
ولكن هيهات أن يجيبها منوط بأطراف الجناح رميم. . . هيهات أن يطربها باللحن القديم الحلو الرنان
إنني تعبة، وذلك الحزن العصيّ الذي كرّت عليه الأعوام، يثور دفعة واحدة على غير انتظار، وإن ثورته الهائلة لتحدث فيه ثلمة واسعة تتدافع منها الآلام، وتنحدر بقوة إلى قاع نفسي كما يتحدر بغتة تيار نهر هائج من ثغرة في حواجزه وينفجر كطوفان متدافع لا تقوى عليه السدود، فيجرف في طريقه كل شئ، ويكتسح في لجه الزبد، وثبجه المرغي بقايا سفينة محطمة لها شراع ناصع البياض، وإن تلك اليد لتهوى ثقيلة على أوتار قلبي المشدودة وتحركها بريشتها في عنف لتكتسح منه الأنغام
ولكن يخيل إلى أن أوتار عواطفي التي تلاشى رنينها مع الزمان عادت تطنطن وتدوّي بعد ذلك الأمد الطويل بفعل تلك اللمسات العنيفة التي تحاول أن تجدد وقع اللمسات الأولى الرقيقة، بيد أن النغمات التي تفر من تحت الأنامل المحركة الأوتار لا ترجّع غير صوت
النواح والعويل، وصدى الحسرة والأنين
الزهرة
حياة محمد
باعتباره صاحب الدعوة الإسلامية
للمستشرق الإنجليزي توماس أرنولد
ترجمة الأساتذة
عبد الفتاح السرنجاوي
عمر الدسوقي
عبد العزيز عبد المجيد
لم أقصد بكتابة هذا الفصل أن أضم إلى البحوث الكثيرة التي عالجت موضوع السيرة بحثاً جديداً، وإنما قصدت دراسة حياة محمد في مظهر واحد من مظاهرها، هو الذي يتمثل لنا فيه رسولاً يدعو الناس إلى دين جديد. ومن الطبيعي أن نتوقع في حياة منشئ الإسلام والداعي له عرضاً للوضع الحقيقي لما اقترن من النشاط بالتبشير بالدين الجديد، ولو أننا اعتبرنا حياة النبي معياراً خلقياً لما يجب أن يكون عليه المؤمن

العادي، لحق أن تكون حياته كذلك معياراً لما يجب أن تكون عليه الدعوة الإسلامية، وما دامت حياة النبي عنواناً للدعوة الإسلامية، فإنا نتطلع إلى معرفة شئ عن الروح التي استولت على من يأخذون مأخذه ويستنون بسنته، وعن الوسائل التي قد يعمدون إليها في سبيل تحقيق أغراضهم، ذلك لأن الروح التبشيرية في الإسلام ليست فكرة متأخرة في تاريخها، وإنما نذهب إلى أنها تقترن بالدين منذ نشوئه الأول. ونود في هذه العجالة أن نبين ما ذهبنا إليه، ونوضح كيف أن محمداً النبي (ص) مثال للمبشر الإسلامي، ونحن بغض النظر عن معالجة حياته الأولى أو العوامل ذات الأثر في حياته حتى بلغ رجولته، أو دراسة حياته باعتباره سياسياً أو قائداً حربياً، نعني العناية كلها بدراسة حياته كمبشر ونذير.

ومحمد ما لبث بعد اضطراب وكفاح نفساني طويلين أن اقتنع بصحة رسالته السماوية، وكانت أولى جهوده أن دأب في إقناع أهله بذلك الدين الجديد القائم على وحدانية الله، وإنكار عبادة الأوثان، ووجوب أن يخضع الإنسان لمشيئة الخالق، تلك هي الحقائق المجردة

التي دعاهم إلى الإيمان بها. فكان أول من آمن به زوجه الوفية المخلصة خديجة التي تزوجت قبل هذا بخمسة عشر عاماً من قريب لها فقير كانت قد استخدمته في تجارتها، فصيَّرها أجدى عليها وأربح، تزوجته بهذه الكلمات:

(يا ابن عمي، إني قد رغبت فيك لقرابتك ووساطتك في قومك، وأمانتك وحسن خلقك، وصدق حديثك فانتشلته بهذا من الفقر ومكنته من العيشة في المستوى الاجتماعي الذي يليق بنسبه، ولكنَّ هذا كله يسير إلى جانب ما بدا من وفائها وإخلاصها إذ شاطرته اضطرابه الفكري وغمرته بعطفها وشملته برعايتها في ساعة الشدة. أتاه الوحي مرة وهو في الغار فآوى إلى خديجة، وقد شمله الفزع واستولى على قلبه الاضطراب، فآمنت خيفته وأذهبت عنه الروع وقالت تخاطبه:

(أبشر يا ابن عمّ واثْبُت، فوالذي نفس خديجة بيده، إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة، والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكلَّ وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق)

ولقد بقيت حتى وفاتها سنة 619 م أي بعد خمسة وعشرين عاماً في حياة الزوجية تفيض عليه دواماً من حنانها وعزائها وتشجيعها كلما أصابه من أعدائه الأذى أو ساورته في نفسه الشكوك، وفي هذا يقول ابن إسحاق:

(كانت خديجة أول من آمن بالله ورسوله وصدقت بما جاء به عن الله تعالى، وآزرته على أمره فخفف الله بذلك عنه، فكان لا يسمع شيئاً يكرهه من قومه من رد وتكذيب إلا فرَّج الله عنه بها إذا رجع إليها تثبته وتخفف عنه وتصدقه وتهوِّن عليه أمر الناس)

هذه خديجة يقدم لنا التاريخ في سيرتها أروع الصور في الحياة الزوجية وأنبلها.

ومن بين السبَّاق في الإيمان بدعوة محمد اثنان كان قد تبناهما هما زيد وعلي، ثم صديقه الحميم أبو بكر الذي قال فيه النبي فيما بعد:

(ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده كبوةٌ ونظر وتردد، إلا ما كان من أبي بكر، ما عَكم عنه حين ذكرت له)

وكان أبو بكر تاجراً على سعة من المال، يحترمه قومه احتراماً شديداً لكرم خلقه وذكائه وكفايته، أنفق بعد إسلامه الجزء الأكبر من ثروته في شراء الأرقاء المسلمين الذين

اضطهدهم مواليهم لاعتناقهم تعاليم محمد. وحين أسلم أبو بكر دعا إلى الله فأسلم بدعائه خمسة نعتبرهم في عداد السابقين في الإيمان، هم سعد بن أبي وقاص الذي فتح فيما بعد بلاد فارس، والزبير بن العوام الذي اشتهر بالكفاية الحربية، وعبد الرحمن بن عوف التاجر الثري، وعثمان ثالث الخلفاء الذي تعرض للأذى والاضطهاد منذ إسلامه، فقد أخذه عمه فأوثقه كتافاً وقال له:

(ترغب عن ملة آبائك إلى دين مستحدث! فوالله لا أحلك أبداً حتى تدع ما أنت عليه).

فقال عثمان:

(والله لا أدعه أبداً ولا أفارقه)

فلما رأى عمه صلابته في التعلق بدينه أطلق وثاقه وتركه. واستطاع النبي أن يجتذب إليه طائفة أخرى أكثر أفرادها من الموالي والفقراء، وبذلك نجح في أن يجمع حوله

فئة قليلة من التابعين خلال السنوات الثلاث الأولى من الدعوة. وكان التوفيق الذي أصابه محمد في هذه الجهود السرية مشجعاً له على أن يوسع نطاق دعوته ويجهر بها، فدعا عشيرته فاجتمعوا فقال لهم:

(يا بني عبد المطلب، إني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر؟)

وهنا صمتوا جميعاً ولم يتكلم غير عليّ في حماسة الصبي فقال:

(أنا يا رسول الله)

وما كاد علي يفرغ من كلامه حتى علا ضحك القوم ساخرين مستهزئين. ولم يكن ذلك الإخفاق ليصد محمداً عن تبليغ رسالته فدعا الناس في مناسبات أخرى، ولكن دعوته لم تلق منهم غير السخرية والتحقير

وحاولت قريش أكثر من مرة أن تغري عمه أبا طالب باعتباره عميد بني هاشم الذين ينتمي إليهم النبي كي يردعه عن سب آلهتهم وعيب دينهم ودين آبائهم، وهددوه وقالوا إما أن تكفه عنا وإما أن تخلي بيننا وبينه، فنصح أبو طالب لابن أخيه أن يبقى على نفسه وعليه وألا يحمله من الأمر مالا يطيق، فأجابه النبي:

(يا عماه، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته)

فتأثر أبو طالب وقال له:

(اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً)

ولما ضرب الإخفاق على هذه المحاولات السلمية اشتدت موجدة قريش وتضاعف احتدامهم وأيقنوا أن انتصار ذلك الدين الجديد معناه القضاء على دين بلادهم وعلى ما يمتازون به بين العرب من السيادة القومية، ثم هم فوق ذلك يخسرون الثروة والجاه اللذين يستأثرون بهما عن طريق سدانة الكعبة الشريفة. أما محمد نفسه فقد كان برغم ما تعرض له دواماً من بذاءة القوم وسفاهتهم في ذمة أبي طالب وذمار بني هاشم الذين منعوه وحالوا دون أي اعتداء على حياته؛ يحفزهم على هذا ما جبل عليه العرب من قوة العصبية، مع أنهم لم ينعطفوا نحو الآراء التي دعا إليها. أما الفقراء والرقيق الذين لا ملاذ لهم ولا جوار فلم يجدوا مخرجاً من طائلة الاضطهاد الغليظ، فكانوا يحبسون ويعذبون كي يفارقوا عقيدتهم. وكان أبو بكر يشتريهم ليخلصهم من العذاب، فقد اشترى بلالاً ذلك العبد الأفريقي الذي كان محمد يطلق عليه (أول ثمار الحبشة) والذي لقي من ضروب الامتهان ما لم يلقه أحد، فكان يلقى في الرمضاء وقت الظهيرة وقد حميت الشمس ثم توضع على صدره صخرة ثقيلة ويقال له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وترجع إلى عبادة الأوثان، وبلال لا يجيب على ذلك إلا بقوله:

(أحدٌ أحدٌ). وهلك شخصان متأثرين بما أصابهما من الاضطهاد وما ألم بهما من نوازله القاسية. ولما أن رأى محمد ما نزل بالمسلمين من الأذى مع عدم قدرته على تخليصهم مما هم فيه نصح لهم بالهجرة إلى الحبشة، فخرج في السنة الخامسة من النبوة (615 م) إلى الحبشة أحد عشر رجلاً وأربع نساء، وهناك رحب بهم ملكها النصراني. وكان فيمن هاجروا مصعب بن عمير، وفي سيرته يتمثل أقصى ما أصاب المؤمنين من بلاء ومحنة، فقد أبغضه من أحبهم ومن كانوا من قبل لا تقصر قلوبهم عن الولوع به. أسلم بعد أن تفهم تعاليم الدين الجديد في بيت الأرقم، ولكنه أخفى إسلامه لما كان له من مقام كبير في قومه، ولما كان له من حب جم في قلب أمه، وأمه لا تقل عن قومها كراهية للدين الجديد. ثم ما لبثت هذه الحقيقة أن تبدت للناس وذاع إسلام مصعب، فأطبقوا عليه وسجنوه، ولكنه استطاع الهرب وخرج مهاجراً إلى الحبشة وسار حقد قريش في إثر المهاجرين إلى الحبشة فأرسلوا وراءهم بعثة من رجلين يطلبان إلى النجاشي أن يسلمهم إليهما ليردوهم إلى قومهم، ولكن النجاشي سأل المسلمين عن أمرهم، ولما أن علم منهم الخبر اليقين أبى أن يسلمهم وقد جاوروه ونزلوا بلاده واختاروا حمايته، قال المسلمون للنجاشي عندما دعاهم وسألهم عن أمرهم ما يأتي:

(أيها الملك، كنا أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام

ونسئ الجوار ويأكل القوي منا الضعيف حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا لتوحيد الله وألا نشرك به شيئاً ونخلع ما كنا نعبد من الأصنام، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم، وأمرنا بالصلاة والصيام، فآمنا به وصدقناه وحرمنا ما حرم علينا وحللنا ما أحل لنا؛ فتعدى علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان، فلما قهرونا وظلمونا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك)

فقبل النجاشي رجاءهم ورد رسولي قريش خائبين

في ذلك الوقت بذلت جهود جديدة في مكة لإغراء محمد بالجاه والمال على أن يكف عن الدعوة إلى دينه، وضاعت كل هذه الجهود عبثاً. فلما عادا رسولا قريش إلى مكة يعرضان نتيجة سعيهما ضد المهاجرين إلى الحبشة، وكان قريش يترصدون خبرهما ويتحينون عودتهما، حدث حادث خطير، هو إسلام شخص كان من قبل أشد وأغلظ أعداء محمد، وكان يعارضه بحماسة وحّدة لا يحدهما الوصف، وكان المسلمون يعتبرونه بحق أقوى خصوم الإسلام وأشدهم، وأصبح بعد إسلامه من أعظم الشخصيات وأنبلها في الصدر الأول من تاريخ الإسلام، ذلك هو عمر بن الخطاب

حدث يوماً وهو في نوبة غضب على النبي أن خرج ومعه سيفه يريد قتله، فلقيه رجل من أقاربه فقال له:

(أين تريد يا عمر؟)

(أريد محمداً الذي فرَّق أمر قريش وعاب دينها وسبَّ آلهتها فأقتله!)

فقال له: والله لقد غّرتك نفسك، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً؟ أفلا ترجع إلى أهلك فتقيم أمرهم؟

قال عمر: (وأي أهلي؟)

قال الرجل: (خَتَنُك وابن عمك سعيد بن زيد، وأختك فاطمة زوجهُ، فقد والله أسلما!)

فرجع عمر إليهما وعندهما خباب يقرئهما القرآن، فلما سمعوا صوت عمر أخذت فاطمة الصحيفة فألقتها تحت فخذيها، وقد سمع عمر قراءة خباب فلما دخل قال:

(ما هذه الهيمنة؟)

قال: (ما سمعت شيئاً)

قال: (بلى، وقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه)

وبطش بخَتَنِه سعيد بن زيد فقامت إليه أخته لتكفه عن زوجها فضربها فشجعها، فلما فعل ذلك قالت له أخته:

(قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما شئت)

ولما رأى عمر ما بأخته من الدم في وجهها ندم وقال لها: أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرءون فيها الآن حتى أنظر إلى ما جاء به محمد. وبعد تردد أعطته الصحيفة وفيها (طه) فلما قرأ بعضها قال:

(ما أحسن هذا الكلام وأكرمه!)

وانشرح صدره للإسلام وما لبث أن قال:

(دلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم)

(يتبع)

الأدب المصري وكيف ننظر إليه

للأستاذ شكري فيصل

أثارت كلمة (زهير زهير) في (المكشوف) التي نقلتها الرسالة الغراء في العدد 294 موضوعاً جديداً للبحث عن الأدب المصري، وعن مظاهر هذا الأدب، وما كان من أثر المؤلفات والمطابع المصرية في الأقطار العربية الأخرى

وأشهد أن كلمة (المكشوف) كانت جريئة. . . وأن حملة (زهير زهير) كانت شديدة قاسية بخست الأدب المصري والثقافة المصرية حقهما وفضلهما على وضوح هذا الحق وعظم هذا الفضل

وما كان لي أن أعرض لبواعث هذه الحملة

ولا يسرنا أن نذهب إلى الظن بأن العصبية الدينية، أو النزعة الإقليمية، تملي مثل هذه الآراء أو أبعد منها، وإنما الذي يهمنا أن ننافس السيد زهير زهير فيما عرض له

يقول الكاتب: إن أكثر المؤلفات التي تخرجها المطبعة المصرية غير مصري، وهى تختلف بين أن تكون نوادر مخطوطات أو طبعات جديدة لكتاب قديم، وإن المؤلفات المصرية الحديثة مخبأة لا تظهر على وجهه، وهو يتساءل عن كتاب واحد ذي قيمة لمؤلف مصري صميم

لنتساءل: ألا يكون إخراج المخطوطات النادرة، والقيام على تصحيحها وطبعها ونشرها، أو تجديد طبع الكتب القديمة وإصلاحها وإخراجها للناس منقولة محببة، عملاً أدبياً ذا قيمة؟ وهل يقتصر العمل الأدبي على كتابة مقال، أو تأليف قصة، أو نظم قصيدة؟

نحن في طور من أطوار النهضة، ونحن في هذه النهضة محتاجون إلى هذه المكتبة القديمة، ننبش آثارها، ونحيى مواتها ونجلو صدأها، ونظهرها طريفة براقة، تجتذبنا إليها، لنفيد من علمها الغزير، وفوائدها الكثيرة، والعمل في هذه الناحية والتوفر على إخراج هذه الثروة الدفينة عمل أدبي قيم، وجهد علمي شاق

ونحن لا ننظر إلى الأدب المصري في المقالة والقصة والقصيدة، فهذه ناحية واحدة من نواح كثيرة متعددة؛ وإنما ننظر إليه على أنه مجموعة من الجهود تتناول إحياء الثقافة الغافية، ونشر المؤلفات القديمة، والإنتاج الأدبي الصرف

وعلى هذا فقد قدمت المطبعة المصرية إلى العالم العربي أجل الخدمات، وستظل النهضة الحديثة في الأدب العربي مدينة للمطابع المصرية، لأنها كانت أكثر مطابع الشرق العربي إنتاجاً ولأنها في هذا الإنتاج بعثت النشاط والحركة في ذهن العالم النائم

ومن العبث ومن الإنكار أن ننسى فضل المطبعة الأميرية، ومطبعة الساسي والحلبي وكثير غيرها، فقد ولدت هذه المطابع بما أخرجت من كتب، وقدمت من ثمرات، تياراً فكرياً كان له أكبر الأثر في الحركة الأدبية الحاضرة

والعالم العربي كله على المطبعة المصرية، ينظر إليها كما ينظر المزارع إلى السماء، يأمل خيرها، ويرجو غيثها؛ والسيد زهير يعرف ذلك في بيروت، وأعرفه أنا في دمشق، ويعرفه غيري وغيره في العراق والمغرب والحجاز؛ وهو لا يجهل أيضاً أن الجيل الحاضر قد فتح عينيه على المنفلوطي والزيات وطه حسين وأحمد أمين والمازني والعقاد والحكيم وشوقي وحافظ ومطران ورامي، وأنه قرأ هؤلاء وكثيراً غيرهم وأفاد منهم فأصلح لسانه وقوّم بيانه، وثقف عقله، ثم التفت إلى المكتبة العربية الزاخرة فلم تطق عيناه هذه الأوراق الصفراء البالية، فكاد يعزف عنها لولا أن تداركته المطبعة المصرية بهذه الذخائر الممتعة التي أخرجتها للناس

الواقع أن امتداد الأدب المصري، والثقافة المصرية، في أجواء البلاد العربية قد كان. . . وأنه كان امتداداً واسعاً. . . وأن أثره كان طيباً عميماً. . . وأن البلاد العربية كلها مدينة له، عالة عليه، فقد استثار في أجوائها الحياة، وسكب فيها بعد رقدة طويلة روحاً جديدة نيرة

وليس من عرفان الجميل حين يشتد منها الساعد، في العراق ودمشق وبيروت، وتبدأ البذور التي رعتها المطبعة المصرية بالإنماء، أن نجحد الفضل الأول وننكره ونزدريه.

وبعد فهل صحيح أن المطبعة المصرية اقتصرت على المؤلفات القديمة، وأن المؤلفات المصرية الحديثة أنشأها كتاب مصريون بمادة أجنبية مستوردة من الخارج؟

نحن نحب أن يقوم النقاش الأدبي، وأن تنضج الحركة الفكرية، ولكنا لا نحب أبداً أن يكون هذا النقاش قائماً على عصبية مفرطة أو خيال خصب. . . وإلاّ فمن ذا الذي يقول إن المؤلفات المصرية الحديثة غير موجودة؟ أنا أحيل السيد زهيراً إلى فهارس المكتبات العامة، فسيجد فيها كل ما كان مخبأ لا يظهر على وجهه، وسيحفظ للقراء أوقاتهم مخافة أن

يضيعوها في التعداد المضني.

وكأن السيد (زهيراً) قد أحس هذا الإسراف. . . وهذا الإفراط، فحاول أن يبرهن عليه، فما استطاع أكثر من أن يعدد الشعر الجاهلي وحياة محمد وضحى الإسلام

ولكن هل يكفي أن تكون نزعة الشك التي سُبق إليها طه حسين، أو نظرة دورمنكهيم إلى حياة النبي، أو آراء المستشرقين في الثقافة العربية. . . هل تكفي هذه وحدها لتجرد الأدب المصري كله من ميزاته كلها؟؟ ومن ذا يقول إن التأليف يجب أن يكون مبتكراً في كل نواحيه وكل خصائصه؟. . وهل يحرم على العقل الإنساني أن يستفيد

. .من عقول إنسانية أخرى؟
إن حقائق العلم مشاعة، وإن ثمرات الفكر وقف مباح للناس كلهم، يفيدون منه ويبنون عليه، وإذا كان كل عالم من العلماء مضطراً إلى أن يبدأ أبحاثه من النقطة الأولى، أو أن يبتدئ تعداده - كما يقول الرياضيون - من الصفر، فإن الحضارة الإنسانية ستظل حيث هي لا تتزحزح.
وهذه سنة الكون يبني المتأخرون على غرار المتقدمين أو ينتقدون ما بنوا، ليشرعوا في منهج آخر. . . وهذا ما فعله طه حسين واحمد أمين وهيكل، وقد يكون أكبر أخطائهم أنهم لم يشيروا إلى بعض المصادر التي أخذوا عنها في الطبعات الأولى. . . أو أنهم أشاروا إليها في اختصار واقتضاب.
والترجمة أيضاً. . . ألا تكون ناحية من نواحي النهضة الأدبية. . . وهل يقتضي تكوين الأدب المصري ألا تكون هناك ترجمة أو مترجمون. . . وهل تدل ترجمة بعض المؤلفات الأدبية والفلسفية، على أن مادة الأدب المصري مستوردة من الخارج؟
إن عصور النهضة في أقطار الدنيا مقرونة ببعث وتجديد وترجمة. . . ولقد كان البعث والتجديد عن طريق إخراج المؤلفات القديمة، ثم كانت الترجمة أيضاً على أيدي كثيرين وتناولت الأدب والرواية والفلسفة، وأضافت إلى الأدب العربي لوناً جديداً من ألوان الثقافة، وأطلعت الأقطار العربية على علم الغرب وأدبه وفلسفته
هذه هي الناحية العلمية من النهضة الفكرية في مصر. . . أما الناحية الأدبية فهل نستطيع أن نتجهم لها أيضاً بمثل هذه الجرأة وهذا الإنكار؟. . . وهل كانت مؤلفات توفيق الحكيم
منقولة عن لغة أجنبية؟. . . وهل مقالات الزيات وأمين والعريان مستوردة من الخارج؟. . . ثم هل كان خيوط العنكبوت وعلى هامش السيرة وعشرات غيرها، يخجل المنصف أن نعددها له، غير مصرية. . .؟
هنالك بعض نقاط ضعيفة في الأدب المصري. . . ولكن هذه النقاط الضعيفة لا تقتضي أن تذهب بنا هذا المذهب الجاحد في الإنكار الشديد، وأن تدفع بنا إلى مثل هذه الأدلة الهزيلة. فنقول إن مصر التي تسيطر بثقافتها على البلاد العربية قد عجز أدباؤها وعلماؤها عن وضع الموسوعة الإسلامية، أو إن أكبر أديب فيها ينادي بفرعونيتها، أو أنه لم يخلق فيها بعد ناثر أو شاعر يسجل في ملحمة شعرية أو نثرية الأحداث الخطيرة التي تعاقبت عليها
ومتى كان رأي قديم لأديب كبير باعثاً على إنكار ثقافة بلد كامل؟ وما هي العلاقة بين هذا وذاك؟ أفلا يحس الأستاذ زهير زهير نفسه في بيروت آراء أشد من هذه، وأقوى في النيل من الإسلام، وطعنه في ظهره. ألا يرى ذلك في كليات التبشير ونشرات الأدباء المبشرين؟. . . ثم هل يكون العجز عن تأليف موسوعة دليلاً على ما نتعمده من إنكار؟ إن الأقطار العربية، ومصر منها، لا يعيبها أنها لم تشرع بعد في الموسوعة الإسلامية فلقد كانت غارقة في معترك سياسي عنيف، وكانت قوى علمائها وعامتها منصرفة إلى السياسة ومتأثرة بها، والموسوعات إنما تتطلب الاستقرار والنعيم والثروة. . . ولئن توفر بعض هذا في مصر فلم يتوفر كله، وحين يبدأ قطر عربي آخر بالموسوعة الإسلامية نستطيع أن نقرنه بعد ذلك إلى مصر، لنهب أحدهما الزعامة الأدبية
وبعد فإن الأستاذ (زهير زهير) قد أغرق. . . وقد كان في كلمته حائراً بين امتداد الثقافة، وسيطرة الزعامة، وفرعونية مصر، وإنكار الأدب المصري. . . ولقد كان متجاوزاً حدود الجرأة حتى سمى هذه الثقافة (ثقافة لقيطة) وكما عز عليه كلبناني عربي، يعز علينا كعرب مسلمين أن يؤخذ الشاب العربي المسلم بعصبيات إقليمية، ونعرات دينية، (وأن يخدع بالدعايات المأجورة المجانية)
(نزيل القاهرة)
شكري فيصل
استطلاع صحفي
في خدمة الفلاح
جولة في المعمل البيطري
(لمندوب الرسالة)

في مصر كثير من أمراض الحيوانات المعدية والوبائية التي تحرم الفلاح كثيراً من ثروته. فأن طبيعة مصر حيث تبدأ حدودها شمالاً في المنطقة المعتدلة وتنتهي جنوباً في المنطقة الحارة، يساعد على نمو الحشرات والميكروبات، بأنواعها وخصوصاً أن نظام الري الحديث يزيد الجو رطوبة.

ويقاوم المعمل أمراض الحيوانات تبعاً للمثل العربي السائر (وداوها بالتي كانت هي الداء) فهو يقضي على المرض باستعمال ميكروبه في الأمصال أو اللقاحات التي ثبت عملياً صلاحيتها أكثر من الأمصال واللقاحات الواردة من الخارج.

مصنع الميكروبات

التهبت أحشاء هذا الأرنب فمات نتيجة حقنه بدم حصان أردنا أن نتحقق من أنه مات (بمرض التسمم الدموي). . . هكذا قال الدكتور زكي محمد وكيل المعمل الباثولوجي للأبحاث الفنية وهو يكشف أمعاء الأرنب ليبين ما أصابها من التهابات. ثم تناول ماصة وغرسها في قلب الأرنب وامتص فيها قليلاً من الدم وزرعه في أنبوبتي اختبار كانتا مغلقتين بسداد من القطن المعقم وتحتوي إحداهما على حساء لحم وتحتوي الأخرى على مادة جيلاتينية تصنع من نبات ياباني اسمه آجاراجار، وبعد أن أعاد السدادتين أحرق سطحهما الخارجي بالنار ليقتل ما قد يكون علق بهما من ميكروبات خارجية ثم تناول شريحتين من الزجاج نشر عليهما نموذجاً من دم الأرنب، ثم ثبتهما بالكحول استعداداً لصبغهما وفحص النماذج تحت المجهر. وبهذه العملية احتفظ الدكتور بميكروبات المرض حية وميتة. فإن الغرض من وضع نماذج الدم في أنبوبتي الاختبار اللتين تحتويان على أنسب الأوساط الغذائية التي ينمو فيها الميكروب أن ينمو ويتكاثر. وبذلك يسهل الحصول على لقاح واق ضد هذا المرض. والغرض من نشر الدم على شريحتي الزجاج

وصبغهما معرفة شكل الميكروب وما طرأ على الدم من تغير

مهمة المعمل

ويقوم المعمل الباثولوجي البيطري بتحضير عدد كبير من المستحضرات البيولوجية المختلفة من أمصال ولقاحات ومواد للتشخيص يمكن باستعمالها علاج بعض أمراض الحيوانات ومكافحتها وتشخيصها. وعلاوة على ذلك فإن المعمل يفحص النماذج المأخوذة من حيوانات مريضة أو نافعة لمعرفة نوع المرض المصابة به ودراسة الميكروبات المختلفة التي ينشأ بسببها كثير من الأمراض الوبائية وبذلك أمكنه أن يحفظ الثروة الحيوانية في القطر المصري من أخطار الأوبئة

والميكروبات هي شغل المعمل الأكبر، وهي مخلوقات دقيقة تكبر ألفاً أو ألفي مرة ليمكن رؤيتها وبعضها لم تره العين ولكن أحست بفعلها الأجسام. وهي تهاجم الحيوان والنبات بأعداد يعجز عن إدراكها الخيال. وأخطر الأمراض المنتشرة في مصر الحمى الفحمية والسل والسفاوة والتتنوس والتسمم الدموي وخناق الخيول والكوليرا. ولذلك فإن مخازن المعمل تحتوي على مقادير كبيرة من مواد المصل والكفاح لإرسالها إلى الجهات التي تطلبها. وقد تمكن المعمل بمساعدة معمل السيرم من إيقاف الطاعون البقري الذي فتك بكثير من الماشية فسبب كثيراً من الخسائر للفلاحين

المصل واللقاح

وقد تمكن المعمل من تحضير أغلب أنواع الأمصال واللقاحات ويتجه التفكير الآن إلى تحضير مصل ولقاح الحمى الفحمية الذي يستورد من الخارج لخطورته، ولأن تجهيزه يحتاج إلى مكان منعزل واحتياطات شديدة. وبتحضير هذه الأمصال واللقاحات فإن المعمل البيطري يوفر على الحكومة كثيراً من المال

ويتعرض المشتغلون بتجهيز هذه المستحضرات للعدوى بتلك الميكروبات، فإن بعض أمراض الحيوانات كالسفاوة والسل والحمى الفحمية يصيب الإنسان أيضاً. وبعضها شديد الخطر فلا ينجو من يصاب به إلا بمعجزة.

ويخطئ كثير من الناس إذ يظنون أن المصل واللقاح شئ واحد. فإن الأول يتكون من أجسام مضادة للميكروبات والغرض من إعطائه للحيوانات إيقاف المرض وعلاجه. وهو يعطي للحيوانات السليمة والمريضة إلا أن جرعته تتضاعف في حالة الحيوانات المريضة. أما اللقاح فيتكون من ميكروب المرض أو سمه مقتولاً أو ضعيفاً والغرض منه وقاية الحيوان مدة طويلة إذ يكون في الجسم مناعة ضد المرض لمدد مختلفة

تحضير المصل واللقاح
ويحضر اللقاح بعزل الميكروب ثم زرعه على أوساط غذائية يضاف إليها بعض الفيتامينات لتكون أكثر مناسبة لحياته وتكاثره. واللقاح عبارة عن الميكروب نفسه أو ما يفرزه من السموم بعد قتلها أو إضعافها بالحرارة أو بالمواد الكيميائية تبعاً لطريقة التحضير
أما الأمصال فتجهز من حقن الخيول أو الأبقار بكميات من الميكروبات أو من سمومها، وتزاد الجرعات بالتدريج حتى يبلغ الحيوان أقصى درجة من المناعة فيفصد جزء من دمه ويفصل منه المصل.
احتياطات شديدة
ولا تتم هذه العمليات بسهولة، ففي كل خطوة يعملها الأخصائي في إعداد هذه المستحضرات، يقوم بعدة عمليات يطهر بها أدواته وأوانيه بحيث يتأكد أن الميكروبات الغريبة لم تصل إلى مستحضره لا بالنقل بالأيدي ولا بالهواء. ولذلك فإن الأواني الزجاجية الفارغة التي يزرع فيها الميكروب تحفظ في أفران تكفي درجة حرارتها لقتل جميع الميكروبات. فإذا أراد الأخصائي في علم الميكروبات أن ينقل الميكروب من أنبوبة إلى أخرى أحرق أداة النقل بالنار قبل أن يضعها في الأنبوبة ثم ينقل الميكروب
عملية دقيقة
وليكون البحث العلمي كاملاً فإن الأعضاء المصابة من الحيوان تؤخذ ويعمل منها قطاعات تثبت على شرائح زجاجية لفحص حالة أنسجة العضو وخلاياه بالمجهر (الميكرسكوب) فبعد أن يفصل العضو من جسم الحيوان تقطع منه أجزاء صغيرة تمرر في محلول فورمالين ثم في كحول لتتخلص مما قد يعلق بها من ماء. ثم توضع في (زيلول) ليطرد ما فيها من كحول وليسهل اتحادها بالشمع إذ توضع في أفران درجة حرارتها 56 فيتخلل
الشمع الناعم الخلايا وتصبح فراغات العضو ممتلئة بالشمع وعندئذ تصب الكتلة الناتجة في قوالب من الشمع الجاف وتقطع إلى قطاعات صغيرة سمكها أربعة من ألف من الملليمتر
وتؤدي عملية التقطيع بهذا السمك آلة خاصة دقيقة الصنع تحتاج إدارتها إلى مهارة ودراية فإذا تم تحضير القطاعات ثبتت على شرائح زجاجية بالحرارة ثم تصبغ بالصبغات المختلفة ليظهر ما فيها من أنسجة وخلايا وميكروبات وما طرأ عليها من تغييرات يكشفها المجهر
ويحتفظ المعمل في فنائه الخارجي بعدد كبير من الحيوانات كالأرانب والحمام والدجاج والكلاب فيجري عليها تجاربه كحقن الميكروبات فيها أو اختبار فعل المرض في أعضائها أو للتأكد من معرفة الأمراض التي نفق بها أحد الحيوانات الأخرى.
(الشتوي)
رسالة الشعر
إلى الهاجرة. . . كوكب!
للأستاذ أنور العطار
- 1 -
مناجيك مكتئب متعب ... وأنت تَأَلق يا (كوكب)
أفي الحق ألاّ يقرّ البريء ... وأن ينعم الآثم المذنب
وأن يتشهى فؤادي رضاك وأن ... ت أخو نفرة مُغضَب
فيا هاجري قد أطلت الصدو ... د وصدك يا هاجري يصعب
لقد ضقت ذرعاً بهذا الهوى ... وضاق بي الفلك الأرحب
فلا جدولي يتندَّى مُنىً ... ولا بلبلي لحنه يطرب
حياتيَ معشبة بالأسى ... وخدي بمدمعه معشب
رضاك هواي الذي أشتهي ... ووصلك سؤليَ والمطلب
- 2 -
سلام عليك أيا كوكبي ... سلام على النافر المغضبِ
أعيش بنورك جم السناء ... ولولاك غلغلت في الغيهب
أغنيك أعذب ما في الهوى ... من النغم المسكر المطرب

وأصبو إلى طرفك المشتهى ... وأهفو إلى ثغرك الأشنب
وأحيا لقلبك أنشودة ... تَرَقرق بالحلُم الأعذب
حلال لك الشعر يا هاجري ... وملك لك الروح يَا كوكبي
- 3 -
أنر لي دجي العمر يا كوكب ... فقد مصَّني المجهل الغيهب
وخذ بي إلي عالم ضاحك ... يموج به الأمل الأطيب
فلا تتركنِّيَ نهب الأسى ... يعاودني داؤه الأصعب
فأنت شعاعيَ في ذي الحياة ... وأنت رجائي والمطلب
ترفق بصب براه السهاد ... يناديك في الليل يا كوكب
أنور العطار
حُوريَّتي تَسْأَلُ ...!
للأستاذ محمود حسن إسماعيل
(مهداة إلى شفتيها الطاهرتين)
وَذهَبْتُ أَسْتَبِقُ الشُّعاعَ لِرَبْوَةٍ ... أبْكَي شتاءُ الْعُمْرِ يافِعَ زَهْرِها . . .
الطَّلُّ في أكمامِها دَمْعُ الْهَوَى ... شَرَحَتْ به للطَّيْرِ كامِنَ سِرِّها
مِنْ كُلِّ عُصْفورٍ، وَسَقْسَقَةُ المُنَى ... مِنْ ثَغْرِهِ دُنْيا ذُهِلْتُ لِسِحْرِها
أَتُرَاهُ غَنَّى؟ أَمْ بكَى؟ أَمْ هَزَّهُ ... نَغَمُ الْأَلِيفة فاسْتَطَارَ لِنَبْرِها؟
ومَضَى لَها . . وَمَضَيْتُ أَحْنُقُ آهَتِي ... صَبْراً عَلَى حُلْوِ الْحَياةِ وَمُرِّها
وعَلَى الَّتِي ثَكِلَتْ حَياتي بَعْدَها ... وأذَابَني في الدَّمْعِ فاجِعُ هَجْرِها
ظَلَّتْ تُهامِسُنِي ونَشْوَةُ لَفْظِهَا ... كَأْسٌ جُنِنْتُ مَعَ السُّكونِ بِخَمْرِها
وَلَها جَبِينٌ كادَ يَرْتَدُّ الدُّجَى ... حِينَ اسْتَهَلَّ، وَشِيعَةً مِنْ فَجْرِها
بَرَأَتْهُ كَفُّ اللهِ، وارْتَجَزَتْ لهُ ... لَحْنَ الْعَفافِ تمائِمٌ مِنْ ثَغْرِها
سَجَدَتْ عَلَيْهِ وكَبَّرَتْ منْ فِتْنَةٍ ... حَوْلَ الضِّياءِ ذَوائِبٌ مِنْ شَعْرِها
وَغَدتْ تَفُوحُ به، وَتَنْسِمُ قُدْسَهُ ... في خافِقَيَّ مَجامِرٌ من طُهْرِها
أَفضَيْتُ بِالشَّكْوَى لَها فَتَخايَلَتْ ... وَاخْتَالَ عابِدُهَا الشَّقيُّ بِكِبْرِها
وَعَدَتْ. . . فَأَحلَفَ دَهْرُهَا! وَيْلِي عَلى ... رِقِّ الْحَبِيبِ لَها وَقَسْوَة دَهْرِها
أَفْنَيْتُ عُمْرِيَ في مَسَابح خطْوها ... شَغَفاً. . . وعِشْتُ مَعَ الْوُجودِ بِعُمْرِها
أَفَما تُحِسُّ بعَاشِقٍ أَنىّ مَشَتْ ... في الْأَرْضِ يَخْفُقُ حُبُّه مِنْ ذَرِّهَا!
. . . عالٍ عَلى الْأَكْوَانِ ذَلَّ لِحُسْنِها ... وأَذَلَّ كِبْرَ الْمُلْهَمينَ لِأَمْرِها
بِالْأَمسِ رَفْرَفْتُ النشِيدَ وَسُقْتُهُ ... مِنْ نَارِ أَشْجَاني بِها وَتَفَجُّعي
لَهَبٌ منْ الْأَنْغامِ رَقَّ مهَابَةً ... وَجَنَا نَبِيٌّ في عِبادَتِهَا مَعي
كُنَّا غِناءً لْلِجَمالِ، مَضَى الَهوى ... في ظِلِّهِ الشَّاجي يقُولُ لها: اسْمعَي
فَتَرَنَّحَتْ طَرَباً، وقالَتْ: هاتِ لي ... نَغَمَ الصَّبَاحِ الْعَذْبِ يَمْسَحُ أَدْمُعي
سَرَتْ الكآبَةُ مِنْ غِنَائِكَ في الْمسَا ... فاسْبِقْ خَيَالَ الشَّمْسِ وَارْقُبْ مَطْلَعي
. . .وَأَعِدَّ لِي أُنْشُودَةً قَمَرِّيةً ... مِنْ نُورِ أَحْلاَمي الَّتِي لمْ تَسْطَعِ
فَقَبَسْتُ مِنْ أَلَق النُّجومِ قَصِيدةً ... وبَكَرْتُ أَنْتَظِرُ السَّنَا في مَوْضعي
. . .وَسَبَقْتُ، وارْتَقَبْتُ عيُونِي عَلَّما ... هَالاَتُ مَوْكِبِهَا تُذِيبُ تَفَجُّعي
فإذا بِوَعْدِ الْأمْسِ كانَ عُلاَلَةً ... وَغَدا جَحِيماً لْلحَنِينَ بِأَضْلُعي
فَرَجَعْتُ والْآلاَمُ تَصْرَخُ في دَمِي ... وَيَنُوحُ مِنْ وَلَهي بِهَا دَهْرِي مَعي!
(وزارة المعارف)
محمود حسن إسماعيل
رسالة المرأة
التجميل والمرأة عن طريق الرياضة
توجيه
للآنسة زينب الحكيم
قال فيلسوف حكيم مرة لابنته: (ابقي صغيرة وأنت تحتفظين بجمالك)
ولعله كان يحسن به أن يضيف إلى هذه النصيحة: أن احرصي على صحتك وأنت تبقين شابة:
فإن الشباب والصحة والجمال، هي الأشياء الثلاثة التي يقدرها الجنس اللطيف،

ويقدرها فيهن الجنس النشيط
ولربما كان أهم هذه الأشياء الثلاثة هو الجمال، ولكن من الصعب أن يفكر الإنسان في الجمال دون شذي الورد، أو أن يفكر في الورد بدون نضرته. احتفظي بصحتك تحتفظي بشبابك، واستمعي لهذه النصيحة المخلصة، ونفذيها بصبر ومثابرة. ثم ثقي أنه لن يعرف حقيقة عمرك أحد
وفي الغالب أن أكبر ما يعيب المرأة أياً كان عمرها هو جسمها حيث ينمو بثقل، ويصير كجسم المرأة التي قاربت سن اليأس، فتنام إلى ساعة متأخرة من الصباح، وتشعر ببعض التعب أثناء النهار، وتأكل كميات أكثر مما اعتادت أكله، وتأوي إلى فراشها مبكرة، وتصبح أقل مبالاة بمنظرها ومظهرها
ماذا يحدث لقاء هذا كله؟!
يسمن الجسم وتزدوج الذقن، ويتمدد البطن، ويغلظ الخصر وتتجمد المفاصل وتبدو المرأة كأنما مرت من طور الشباب المبكر إلى متوسط العمر
والواقع أن لا عذر لها في ذلك، والسبب في كل هذا راجع إلى عدم عنايتها بنفسها، وإلى إهمالها ما منحتها الطبيعة من محاسن كان في مقدورها أن تزيد في جمالها فبشرة الإنسان وعضلاته، في حاجة إلى دم متجدد حار يجري فيها عن طريق الرياضة البدنية الصحية التي يجب أن تمارس في الصباح والمساء لمدة ربع ساعة على الأقل
إن المرأة التي بدأ يظهر عليها الكبر، والمرأة الشابة التي تريد أن تحتفظ بشبابها ونضرتها. يجب أن تعرفا أن الشباب والجمال يتوقفان على ثمانية أشياء رئيسية قوام الجسم (2) لون بشرة الوجه (3) الفم (4) العيون (5) الوجنتان (6) العنق ((1) 7) اليدان (8) الشعر
هذا ويمكن إضافة أشياء أخرى للتجمل، ولكن هذه الأشياء الثمانية لغالبية النساء أما المرأة التي تمتاز برشاقة قدّ وتريد أن تبقى كذلك، فعليها بإتباع التمارين الرياضية التي تساعد على ذلك وهي كثيرة ومتنوعة. ولقد أصبح ذلك ميسوراً جداً في الوقت الحاضر بفضل الاختراعات الحديثة والراديو. وخروج المرأة إلى ميادين الرياضة العامة، وهذه وإن كانت لا تزال قليلة في مصر، إلا أنه في مقدور السيدات اللائى لهن بيوت منظمة. والتي لها حدائق، أن يلعبن وفق ما تذيعه محطة الإذاعة كل صباح، وأن يخصصن جانباً من أوقاتهن للعب في حدائق دورهن. كما في استطاعتهن استعمال الألعاب البيتية التي تدعو إلى الحركة كالبنج بنج، وتنس اليد، والمسابقات وغيرها. ولست ممن يحبذن الألعاب البيتية التي تدعو إلى الجلوس مدداً طويلة مثل لعب الورق، فإن ذلك يضيع كثيراً من نشاط العقل، ويوهن الجسم ويرهل لحمه ولا تنس السباحة فإنها من أهم الرياضات التي تجمل الجسم عموماً، والمشي في الهواء الطلق، والاستمتاع بحرارة الشمس، والسفر في قطر المفاجآت كلما أمكن.
وعلى المرأة أن تعني بأخذ حمامات الماء الدافئ مرة واحدة يومياً قبل التمارين الرياضية، مع استعمال أملاح أو سوائل الحمام المنشطة.
كثيراً ما يشكو إلينا بعض السيدات من أن أوقاتهن لا تسمح لهن بالانتفاع بتمارين الرياضة الصباحية التي يذيعها الراديو وكذلك يفتقدن النوادي الرياضية، ونحن من أجل هؤلاء، نذكر هنا بعض تمارين رياضية بسيطة. وبعض مركبات يمكنهن الانتفاع بها في الأوقات التي تناسبهن حتى لا يحرمن الرياضة يومياً.
1 - الدرس الأول والمهم هو المشي صحيحاً.
ضعي الجسم في الوضع الصحيح. امشي ببطء مع ارتفاع الرأس. وافردي الكتفين إلى الخلف. املئي الرئتين بالهواء، وتنفسي بانتظام مع ارتفاع الذقن واعتدال الظهر وضغط
المعدة. وتكون الذراعان إلى الجانبين. في هذا الوضع احني الجسم إلى الأمام حتى الوسط. ثم امشي خطوات واسعة ثم أديري قدميك إلى الخارج. يؤدي هذا التمرين مدة عشر دقائق يومياً.
2 - اصعدي على مقعد قريب من الأرض (ستول) وفي يدك عصا.
يشتمل هذا التمرين على الوقوف بتوازن على قدم واحدة بالتبادل، ثم تحرك العصا إلى أعلى وأسفل حول الرأس.
3 - تمارين الانحناء.

يجب أن تؤدى بحرص، فالمرأة الضعيفة يجب ألا تنحني أثناء التمرين أكثر من مرتين أو ثلاث مرات، ويشتمل التمرين على المشي أيضاً والجري حول جدران الغرفة أو في الحديقة، ويمكن المشي والجري على اليدين والرجلين تشبهاً بذوات الأربع. ثم الوقوف والانحناء إلى الخلف حتى تلمس اليدان الأرض إذا أمكن. والانحناء إلى الأمام حتى تستقر راحتا اليدين منبسطة على البساط ثم ينقلب الجسم من ناحية إلى أخرى.

هذه التمارين تكفي للمرأة العادية، وإذا تمرنت عليها باستمرار مرتين مع الحمام كل يوم، يمتنع تراكم اللحم الزائد على جسمها. ويبقى الجلد نضرا والعضلات مرنة قوية حافظة لجمالها الطبيعي ووظائفها.

أما المرأة البدينة والسيدة المتوسطة في العمر، فننصحهما بعمل تمارين - المصنوعة من الخشب، وهذه التمارين مع الحمام ترجع الجسم إلى حجمه الطبيعي، وتعيد العضلات إلى مراكزها الأصلية. والحمام الذي تأخذه السيدة البدينة، يجب أن يكون بارداً إلى الحد الذي تحتمله، فإذا كان قلبها ضعيفاً (وغالباً يكون) ففي هذه الحالة يجب ألا تأخذ حمامات باردة جداً، وإنما تكتفي بحمام بارد فقط معطر بأملاح أو خل الحمام وربما كانت أحسن طريقة لإعداد حمام السيدة البدينة، هو أن يوضع الماء في الحوض في الليلة السابقة للصباح الذي يؤخذ فيه الحمام، وبذلك تكون حرارة الماء كحرارة الحجرة، ويضاف إلى الماء أملاح الاستحمام كالمعتاد

كانت عطور الحمام في الزمن الغابر تصنع في المنازل، وكانت رخيصة، تصنع من أنواع من الأزهار والأعشاب مع الكحول والخل. والغرض منها تنظيف الجسم وإنعاش الجلد
والاحتفاظ بنضارته.

أما الآن وقد تقدم علم الطبيعة، وعمت الآلات، وكثرت الاختراعات، فأصبح من ضياع الوقت والمجهود ألا نشتري الأشياء من الصيدليات

وعلى هذا لن أصف هنا غير سائل واحد رأيته يستعمل في إنجلترا، ومفعوله جيد، وصنعه بسيط

يؤتى بمقدار جيد من ثمر الشليك، ويوضع في جزء من خل النبيذ، ويترك لمدة ثلاثة أيام، يصفى بعدها ويوضع في زجاجة للاستعمال وقت الحمام

وإذا وضع ملء فنجان منه على قليل من الماء وغسل به الوجه، فإن ذلك يساعد على تحسين لون بشرته

إن تأثير الروائح العطرية على الأعصاب مدهش، ولقد حرق القدماء البهارات إذا ما مرض منهم أحد، لا على سبيل التطهير فحسب كما نفعل اليوم بالليزول وغيره، وإنما اعتبر شم الروائح نفسها الدواء الشافي. والإنجيل يخبرنا أن القدماء عالجوا المرضى بالروائح العطرية؛ كما اشتهرت البيمارستانات في بلاد الشرق برش العطور فيها باستمرار

وأطباء اليوم النفسيون وغيرهم يخبروننا: أن النساء الحساسات جداً ينتعشن إذا ما شممن طاقة من البنفسج لأن رائحته للأعصاب، ورائحة الورد للروح، والعطور الأندلسية للرأس. والمرأة العصبية لها أن تمزج قليلاً من النوشادر بعطر البنفسج، وتشمها لتريح أعصابها. أما المرأة القلقة، فيسري عنها شمُّ الروائح اللطيفة الشذى. ويجب أن توجد زجاجة منها على الدوام في المنزل للاستعمال كضرورة واجبة لا كشيء كمالي، وأظن الرياضة في البساتين تؤدي ذلك على خير وجه
هذا وأن للروائح فلسفات، وللرياضة أشكال وأنواع ليس هذا مجالها.

زينب الحكيم

رسالة العلم

رسالة من العوالم البعيدة

تنبئنا أن الكون ينتشر

أحدث ما نعرف في علم الفلك

للدكتور محمد محمود غالي

فكرة النسبية لأينشتاين توحي بتمدد الكون - نبوءات العالم

- بوجوب ظهور الأجرام البعيدة كأنها تبتعد عنا (دي سيتر)

هذا الابتعاد حقيقي بخلاف ما يعتقد (دي سيتر) - الطيف خير

رسالة من النجوم لإثبات ذلك - رسالة العوالم تنبئنا بابتعادها
كلها عنا، وأننا أبناء كون يمتد.
ترى ما هي هذه الرسالة من العوالم البعيدة؟ وترى كيف يكبر الكون ولماذا؟ وكيف توصل العلماء إلى اكتشاف ذلك؟ وهل يعد الاكتشاف من الأمور النظرية، أو أن خطوات العلم التجريبي تدل على ذلك؟. . . هذا ما نحاول أن نتناوله في هذه الأسطر، فنبحث موضوعاً جديداً، لا تبعد نتائجه التجريبية الأولى عن عشر سنوات، وإن رجع البحث النظري فيه لأكثر من عشرين عاماً.
وتعد نشرات السير أرثر أدنجتون أستاذ الفلك في جامعة كمبردج، وكتابه (العالم ينتشر) الذي ترجمه للفرنسية مسيو روسينيون من أهم المراجع في هذا الموضوع. كذلك محاضرته التي ألقاها في المؤتمر الدولي للفلك المنعقد في كمبردج سنة 1932 والتي أتبعها بسلسلة محاضرات في الراديو بأمريكا.
لم يعن الجمهور في الممالك المختلفة بنظريات إينشتاين في النسبية، التي تنبأ فيها بتقوس الأشعة الضوئية التي تصل لنا من الأجرام السماوية، إلا بعد التجارب الشهيرة التي قامت بها الهيئات العلمية المختلفة أثناء كسوف الشمس في سنة 1919، هذه التجارب التي أثبتت
نبوءة أينشتاين، وجعلت من نظريته مثاراً لحديث الناس عامة. على أنه إذا كان هذا حظ الجمهور من الاهتمام فقد عنى كثير من العلماء بنظرياته قبل ذلك التاريخ، ففي نوفمبر سنة 1917 أي بعد مرور عامين من نشرات أينشتاين عن (النسبية في وضعها العام)، نشر العالم (دى سيتر) بحثاً عن أثر نظرية أينشتاين في الناحية الفلكية. ونرى في هذا البحث لأول مرة أن الأجرام السماوية البعيدة يجب أن تعطينا على الأقل فكرة الابتعاد عنا، ولم يؤكد (دى سيتر) هذا الرأي بطريقة جازمة، وكان عمله من قبيل توقع ظاهرة يغلب على الظن ملاحظتها.
وظلت فكرة (دي سيتر) الجديدة في مفترق الطرق تفتقر للإثبات التجريبي بحيث إذا أيدت أرصاد الفلكيين هذا الابتعاد ثبتت صحة الطريق النظري الذي اختطه (دي سيتر) ومن المدهش أن يتوصل الفلكيون بعد ذلك، لا إلى إثبات تحقق نبوءات (دي سيتر) فحسب، بل إلى أن هذا الابتعاد حقيقة واقعة، وأنه يتغير مع المسافة وفق قانون خاص. وبعبارة أخرى توصل العلماء لاكتشاف يُعد أكثر أهمية مما كان يتوقعه (دي سيتر). لندع الآن جانبا النظريات لنتكلم عن الطرق التجريبية التي أثبتت تمدد الكون واتساعه
ذكرنا أن السُّدم اللولبية هي أبعد ما نعرف من عوالم في الكون. وتقع السدم التي أمكن رؤيتها على مسافات تختلف من 1 إلى 150 مليون سنة ضوئية. ويجمل بنا أن نذكر أن السنة الضوئية هي المسافة التي يقطعها الضوء في سنة، بمعنى أنه لو تصورنا قاطرة تستطيع أن تدور حول الكرة الأرضية سبع مرات في الثانية الواحدة، فإنها تستغرق 150 مليون سنة لتسير من أحد تلك السدم حتى الأرض
هذه السدم المتباعدة منتشرة في الحيز الواحد بعد الآخر.
كل منها يكون عالماً كعالم المجرة الذي يحوي ملايين الكواكب التي تعد شمسنا واحداً منها، ولا حاجة بنا إلى أن نذكر مرة أخرى أنه إذا كان المجرة عالماً واحداً مكوناً من حوالي مائة ألف مليون نجم فإن مجموع العوالم الأخرى التي تشبهه تبلغ مثل هذا العدد
هذه العوالم المتباعدة الواحد منها عن الآخر لا نستطيع، عند التفكير فيها، أن نفصل فكرة الفراغ واتساعه عن فكرة الزمن والتطور، ولكن ندع فكرة تكوينها لنشرح الطريقة التي علمنا بها سرعة ابتعادها
ونبدأ بكلمة موجزة عن التحليل الطَّيْفي لعلاقته بهذا الموضوع. كلنا يعرف أن الضوء إذا وقع على منشور، كحافة مرآة مشطوفة، يتحلل إلى ألوانه العديدة التي نميز منها بالعين السبعة الألوان المعروفة، من البنفسجي إلى الأحمر؛ كذلك نعرف أن لكل مادة طيف إشعاع يميزها عن غيرها، فالهيدروجين والصوديوم مثلاً لهما خطوط معينة يتميزان بها في الطيف، كما أن لكل مادة خطوطاً أخرى، وعلى هذا يدلنا التحليل الطيفي للأشعة الآتية من الشمس أو النجوم عن العناصر الموجودة بها، وهكذا أثبت العلماء أن كل العناصر الموجودة في الأرض موجودة أيضاً في الشمس.

ويجد القارئ في الشكل (1) ست صور لأطياف مواد مختلفة. بعد أن نسلط عليها قوساً كهربائياً. والطيف الأول من أعلى الشكل خاص بالزئبق عند أول تكوين القوس، والثاني خاص به ولكن بعد أن توازنت حالة الإشعاع في الزئبق، أي بعد مرور فترة على تكوين القوس، والطيفان الثالث والرابع خاصان بنفس الظاهرة للصوديوم، والطيفان الأخيران، الأول للهيدروجين عند احتراقه بمرور شرارة فيه، والثاني للبوتاسيوم عند تسليط القوس عليه.

ومما يجدر ذكره أن المصابيح المستعملة في إنارة بعض ميادين العصمة والإسكندرية، كالمحطة وجوار معبر قصر النيل، تضاء بهذه الطريقة أي باستعمال الزئبق الذي يعطي هذا اللون الجميل المائل للزرقة أو استعمال الصوديوم الذي يعطي لوناً مائلاً إلى الاصفرار، على أن هذا النوع من الضوء يقع في الجزء الحساس من العين؛ لذلك ولأسباب أخرى، تُعد هذه المصابيح أكثر اقتصاداً من المصابيح المعروفة

وهكذا لكل مادة طيف خاص بها يميزها عن غيرها من المواد؛ على أنه يشترط لكي تبقى هذه الخطوط الطيفية في مواضع معينة وثابتة، أن يكون الجسم مصدر الطيف ثابتاً بالنسبة لنا، وكما أننا نستطيع أن نعرف درجة ابتعاد قاطرة عنا من سماع وتسجيل صفيرها، كذلك يمكن بدراسة خاصة بالتحليل الطَّيْفي أن نعرف إذا كان النجم يبتعد أو يقترب منا، كما نعرف سرعة ابتعاده، ذلك أن الخطوط الطَّيْفَّية تقترب من جهة الطيف الأحمر إذا كان النجم يبتعد عنا، أو من الجهة الأخرى إذا كان النجم يقترب منا، وعلى قدر اقترابها من أحد الطرفين نعرف سرعة ابتعاد النجم أو اقترابه والشكل (2) مثال من هذا الطيف الذي

يسمح بالحصول على تقدير هذه السرعات الكبيرة، والأشكال التي تبدو في الصورة كالطوربيد، هي طيف لسدم مختلفة، مأخوذ فوق الطيف الأرضي العادي، وترى أنه كلما نزلنا في اللوحة مالت خطوط معينة في الطوربيد إلى الجهة اليمنى، وتختلف سرعة هذه السدم الواحد عن الآخر فالطيف الأعلى يمثل ضوء السماء والسديم الأول وهو الذي يليه يقترب بسرعة 185 كيلو متراً في الثانية والثاني يبتعد بسرعة 385 كيلو متراً والثالث والرابع بسرعة 4900 كيلو مترا و 4884 كيلو مترا على التوالي والخامس بسرعة 19700

وأول من قام بعمل هذا النوع من التجارب هو الأستاذ سلفر مرصد لويل هذا عن تعيين سرعة السدم وبقي أن نشرح الطريقة لمعرفة بعدها عنا

من الممكن أن نرى في العوالم الحلزونية القريبة بعض النجوم الكبيرة المنفردة عندما تفوق هذه النجوم الشمس في حجمها وضوئها مئات أو آلاف المرات، ومن حسن الحظ تتغير شدة إضاءة طائفة من هذه النجوم من وقت لآخر وتسمى هذه النجوم التي يتغير ضوءها ويحدث توهجها، الذي يقع في فترات متتابعة ومتساوية، من نبض حقيقي للنجم أو تغير في حالته الطبيعية؛ وتختلف هذه الفترات من بضع ساعات لبضعة أسابيع، حسب حجم هذه النجوم وقوة توهجها

وكما أن الأطباء يحاولون بدراسات جديدة تمييز الجنين في بطن أمه إن كان ذكراً أو أنثى، من عدد ضربات قلبه، فقد وجد العلماء أن هذه الفترات تدل على حالة النجم.

وقد أثبتت الملاحظات أن النجوم التي لها نفس الفترة لها نفس الخواص الأخرى كالحجم والتوهج والنموذج الطيفي، وعليه فالفترة التي يمكن أن نقيسها بسهولة بساعاتنا الأرضية تعين درجة توهج النجم؛ فإذا عرفنا أن نجماً من النجوم توهجه يختلف مرة كل عشرة أيام، كان سطوع هذا النجم يماثل 950 مرة قدر سطوع الشمس.

وتنحصر المسألة بعد ذلك في معرفة المسافة التي يوجد عليها نجم عرفنا درجة توهجه، ونعرف أن حجمه الظاهري لنا النقطة التي نراها.

من هنا عرف العلماء مسافة هذه النجوم البعيدة، وبالتبع مسافة العالم الذي يحويه وهكذا أصبحنا نعرف مسافة هذه النجوم المتغيرة، معتبرة وحدة للقياس، كما نعرف مسافة

شمعة معتبرة وحدة للقياس من درجة توهجها الظاهرة

وقد اكتشف الدكتور هبل من مرصد جبل ولسون بأمريكا نجوماً من هذا النوع في ثلاثة من أقرب السدم الحلزونية وحدد أبعادهم بالطريقة السالفة - هذه الطريقة التي صعب على هذا العالم تطبيقها للسدم البعيدة؛ فاضطر إلى الالتجاء لطريقة أخرى يعتد

بها فريق من العلماء، ولا مجال لشرحها هنا.
وها نحن نسرد النتائج الفعلية لهذه الأبحاث
أولاً: أن سرعة ابتعاد السدم تفوق كثيراً السرعة التي تسير بها النجوم في أفلاكها داخل هذه السدم
ثانياً: هذه السرعة للسدم تزداد بازدياد المسافة التي تفصلنا عنها
ثالثاً: تبتعد جميع السدم عنا بسرعات كبيرة جداً
صحيح أنه دل امتحان 90 سديماً، في بادئ الأمر، على اقتراب الخمسة السدم الأولى منا بسرعة بطيئة، ولكن يعتقد السير أدنجتون أن هذا الاقتراب اقتراب ظاهري، ذلك أن الباحثين لم ينسبوا سرعة هذه السدم للمجرة كمجموعة، إنما نسبوها لمجموعتنا الشمسية، وباعتبار أن الشمس تسير حول مركز المجرة بسرعة تختلف من 200 إلى 300 كيلو متر في الثانية، فإن هذا الاعتبار الأخير يصحح معرفتنا الحقيقية عن هذه السدم الخمسة التي يثبت بعد ذلك ابتعادها.
ويحسن أن نطلع القارئ على درجة سرعة ابتعاد السدم عنا، فبينما تختلف سرعة النجوم في أفلاكها من 10 إلى 50 كيلو متراً في الثانية، إذ تختلف سرعة السدم في الأربعين سديماً القريبة منا كما بين ذلك (سلفر) من 800 كيلو متر في الثانية إلى 1800، هذا وقد اكتشف (هاماسون) من مرصد مونت ولسن بأمريكا أن السرعة تزداد بعد ذلك كثيراً للسدم البعيدة ففي جهة التوأمين يُرى سديم يبتعد عنا بسرعة 25 ألف كيلو متر في الثانية، ويبعد عنا بنحو 150 مليون سنة ضوئية. ولا شك أنهم سيكشفون الآن سُدُماً أبعد من هذا، وذلك بعد أن تم وضع المنظار الجديد في مرصد جبل ولسون، ذلك المنظار الذي كان له الفضل في كشف القمرين الجديدين للمشتري كما ذكرنا في مقال سابق
ولقد كان لهبل في سنة 1929 الفضل في اكتشاف تناسب سرعة السديم مع بعده، وهذا
مطابق لنظرية إينشتاين، ولو أن (دي ستر) ظن بادئ الأمر أن السرعة تتناسب مع مربع المسافة، إلا أنه اتضح له خطأ هذا الحساب فيما بعد
وتزيد السرعة وفق تجارب هبل 500 كيلو متر في الثانية لكل سديم يبعد عنا بثلاثة ملايين سنة ضوئية تقريباً، وعلى هذا فالسديم الذي يبعد 30 مليون سنة ضوئية يبعد عنا بسرعة تقرب من 5000 كيلو متر في الثانية أي يبعد عنا مسافة كالتي تفصل أمريكا عن أوربا، ويكفي أن نصل إلى مسافة تقدر بمائة وخمسين مليون سنة ضوئية لتكون سرعة ابتعاد السديم عنا 25000 كيلو متر في الثانية
هذا هو الكون، كل عالم يبتعد فيه عن الآخر، وقد يأتي وقت تبتعد فيه كل العوالم، فلا يبقى للأحياء عالم ليروه، اللهم إلا إن تقدم المنظار الفلكي بقدر ابتعاد هذه العوالم.
وقد أثبت الحساب كما يقول أدنجتون، أن على راصد السدم أن يزيد فتحة منظاره بقدر الضعف كل 1300 مليون سنة، وعلى الذين يعتقدون دوام الجنس البشري ملايين السنين، لنعرف كل مالا نعرفه اليوم أن يُعَجلوا بدراسة موضوع غير قابل للتأجيل
هذا رأي جديد في العوالم المحيطة بنا، والكون الذي نحن بعض أفراده. ولنا أن نتساءل: لماذا تبتعد عنا كل العوالم كأنها جميعاً أعداؤنا، لا صديق بينها يقترب منا؟ هل هناك سر وسبب لهذا الابتعاد؟ وترى ماذا شكل الكون وفق الظواهر المتقدمة؟ هذا ما أتركه للقارئ يتأمل فيه ليجد الجواب عليه، إذ أن هناك صورة واحدة محتملة لكون له خاصيتان: الأولى أن كل عالم فيه يبتعد عن الآخر. والثانية أنه كلما كان العالم بعيداً بالنسبة لعالم آخر زادت السرعة التي يبتعد بها هذا العالم عنه.
هذه الصورة للكون وفق أحدث الآراء نطلب من القارئ أن يحاول تصورها، فإن لم يهتد فسنحاول أن ندله عليها في المقال القادم؛ وسنرى أنه إذا كان أغرب القضايا العلمية هي أننا أبناء كون يمتد ويتسع، فأغرب من ذلك أننا سنرى أننا أبناء كون محدود.
محمد محمود غالي
دكتوراه الدولة في العلوم الطبيعية من السوربون
ليسانس العلوم التعليمية. ليسانس العلوم. دبلوم المهندسخانة

رسالة الفن
التصوير الإغريقي في مرحلته الثانية
للدكتور أحمد موسى

وكان لإبراز الصور بهيئة مجسمة على يد أبولودور الأثيني أثر عظيم في الاتجاه الفني، فلم ينته القرن الخامس ويبدأ القرن الرابع قبل الميلاد حتى كانت المدرسة اليونانية قد تأسست واشتغلت بإكمال الحلقة التي بدأها أبولودور، فتقدم تصوير اللوحات؛ وظهر زوبكس في الميدان وكذلك الذي اشتغل في أثينا وإيفيزوس. وكان كل منهما قادراً على التأثير في المشاهد بالنظر إلى ما بدا على رسومهما من تجسيم خادع أما التلوين فقد ظل عندهما بسيطاً كما كان. وأما الموضوع الإنشائي فقد اتجه نحو تسجيل الجمال الهادئ، فضلاً عن بحثهما عن الموضوعات الجديدة اللافتة، فكان هذا سبباً لأن تصبح رسوماتهما ذات تأثير خاص، وحاولا إيضاح المعالم النفسية في تصوير الأشخاص.

وصورة زويكس لهيلينا وصورته لزويس محاطاً بالآلهة جديران بالذكر والاعتبار ومن ضمن ما تخيره بارازيوس موضوعاً للرسم تصويره بروميتيوس في الأغلال، وبروميتيوس هذا هو الذي سرق - كنص القصة الإغريقية - النار من زويس لإعطائها للناس وعوقب بضغطه في الصخر حتى جاء هرقلس وخلّصه من محنته. وله صورة أخرى لا تقل عن هذه تمثل فيلوكتيت الصارخ الذي ورث نشاب هرقلس وقتل باريس في تروادة وغير ذلك للأشخاص ولأوديسيوس وثالث مصوري هذه المرحلة تيمانتيس الذي تفوَّق على بارازيوس، وكان مولعاً بتصوير المنظر المعبرة عن خوالج النفس المتصلة بالعقل. فصور (تضحية إيفيجاني) ابنة أغاممنون وكلينيمنسترا ? التي قُدمت قرباناً لأرتميس ابنة الإله زويس، والتي تقابل ديانا عند الرومان. وقد وجدت صورة حائطية في بمباي على نفس النمط، وهي من أروع الصور بالنظر إلى أهمية القصة.

ولم يصل إلى أيدينا من آثار تلك المرحلة إلا بضعة مصورات حائطية من باستوم (بمتحف نابولي الآن). وهي ترجع إلى آخر القرن الخامس. وصرة المحاربين العائدين تحت لواء النصر وصور الراقصات التي رسمت على أرضية بيضاء وتمتعت بقسط وافر من دقة الإخراج والحياة.

أما في القرن الرابع فقد وصل التصوير الإغريقي إلى أزهى أيامه لا من حيث الناحية الفنية والدقة فحسب، بل كذلك من حيث العمل الصناعي. وتُعد مدرسة سيكيون التي رأسها بامفيلوس من أبرز المدارس وأهمها.

وكان بامفيلوس نفسه عالماً وكاتباً في فن التصوير، وقد صور لوحات صغيرة لتمثيل المناظر الاجتماعية في دائرة محدودة، ولكنه تخصص في تصوير الزهر والأغصان، وله لمعشوقته جليكيرا صور عديدة، كما أن له صورة مشهورة أسماها محاربة الثيران وقد وجدت مدرسة هامة من مدارس التصوير لها تاريخ مجيد، ألا وهي المدرسة الطيبية الأتيكية التي برز بعض العاملين فيها مثل نكوماخوس الذي اشتهر بسرعة العمل والإنتاج المبسط، وابنه وتلميذه أرستيدس الذي كان مولعاً بالمواقف الممثلة للحالات النفسية العنيفة وله فيها صورة فذة تمثل أماً تنظر إلى ابنها الرضيع يحتضر. وله تلميذ هو أويفرانور الذي اشتغل حينا في أثينا، وكان نحاتاً إلى جانب كونه مصوراً، كما كان كاتباً وعالماً، وله طابع مميز هو تصويره الرجولة في أكمل معانيها. وله قطعة معروفة أسماها (عراك الفرسان في مانتينا الواقعة في أركاديا الشرقية والتي تم النصر لايباميثنداس على الاسبرطيين فيها سنة 362 ق. م وغير ذلك في أثينا.

ولعل تلميذه وقريبه نيكياس من أحسن مصوري تلك المرحلة، فقد كان معاصراً لبركسيتلس ولون له بعض تماثيله، واشتهر بالتصوير بالشمع ووصل إلى دوجة عليا في صناعة الألوان، وكانت له عناية خاصة باختيار الموضوعات الجديرة بالتصوير، فصور مناظر القصة الإغريقية وأبدع في تصوير أبطالها من الرجال والنساء.

أما أعظم مصوري الإغريق إطلاقاً فهو أبيلليس الكلوفوني الذي عاش في إفيزوس والذي تمتع بأكبر قسط من التقدير والشهرة؛ فأسموه بحق (بوكسيتلس التصوير) أو (رفائيل العصر القديم). عاش في النصف الثاني من القرن الرابع، ودعاه الملك فيليب إلى قصره، ثم عمل كمصور في بلاط اسكندر الأكبر، وقد قدره أحسن تقدير ورعاه أجمل رعاية. ومما هو معروف عنه أنه كان على غاية التواضع ولين العشر، وكانت له

كلمات خالدة ذهبت مثلاً بين الناس.
وينحصر طابعه المميز في أنه وحّد بين الاتجاه الهادئ للمدرسة اليونية وبين الميل العنيف
الذي غلب على إنتاج المدرسة السيكيونية فضلاً عن أنه كان مصوراً تخطيطياً من الطراز الأول. ولا يزال معدوداً من الطبقة الأولى، بل ولم يكن لغيره في العصر القديم أن يصل إلى مرتبته في العمل الصناعي والتكوين الإنشائي والجمع بين الظل والنور وحسن استخدام اللون.
هذا إلى جانب القدرة الهائلة في تمثيل الطبيعة أصدق تمثيل؛ فدل بذلك على دقة الملاحظة في أكمل معانيها؛ فيرى الناظر إلى مجموع إنتاجه مما وصل إلى أيدينا أنه كان مَثلياً في اختيار الجمال وتكييفه وعرضه في ثوب الأناقة والمباهاة التي أصبحت له وللوحاته دون غيره من مصوري عصره مع توافر البساطة في الإخراج.
وقد اقتصر على تصوير اللوحات فلم تكن له صور على أواني الزهر أو على الحوائط.
وأهم ما تركه من العمل الفذ حقاً صورة لأفروديت أناديومين في معبد أسكليبيوس بقوص والتي أخذت إلى روما في وقت ما. صور أفروديت تظهر خلال أمواج البحر، فبدا نصفها الأعلى وأخذت تنثر شعرها بيديها. وكانت لهذه الصورة منزلة عظيمة عند معاصريه، وأثر كبير على الفنانين إلى حد أن بعض النحاتين مثّلها في الرخام بنفس طريقته وعلى نمط إنشائه.
وله غير ذلك صورة (لأرتميس وعرائس البحر) وصورة لهرقليس وخاريس، ولوحات لاسكندر الأكبر في صورة الإله زويس بمعبد أرتميس في إفيزوس؛ وصورته له كفارس محاط بأوضاع رمزية لحاشيته. وكانت له معشوقة هي بانكَسَبا التي كان لها حظ التخليد على يديه.
ووجد غيره من الفنانين، منهم من كان على اتصال به مثل بروتوجينيس الذي عمل صوراً فردية ولكنها كانت على أعظم جانب من صدق المحاكاة وأبرع قسط من جمال الإخراج. وأهم ما نذكره له صورتان إحداهما لياليزوس هيروس وأخرى لسانير متعب وللمصور آتيون صورة مشهورة لزواج الإسكندر من روكسانا. ولا بد لنا من ذكر المصور ساموس والمصور أنتيفيلوس الذي عاش وانتج في مدينة الإسكندرية
وفي هذه المرحلة تطور فن التصوير من حيث الرغبة في إخراج اللوحات الصغيرة التي يمكن لأكثر الناس اقتناؤها. وأول من اتجه هذا الاتجاه الفنان بايريكس الذي صور مناظر
دكاكين الحلاقين وصانعي النعال وبائعي الخضروات والمأكولات فأظهرها إظهاراً بديعاً وإذا بدا الجفاف على هذا المقال فذلك لأنه مقال علمي خال من حشو القول، ولا غاية لنا منه سوى توجيه القارئ إلى نواحي الفن العريق؛ فيحصل على قسط من المعرفة يكسبه شيئاً من الميزة والدراية والتثقيف الواجب، فيكبح من جماح إعجابه السريع بكل ما يراه لصغار الفنانين الذين يدعون لمجرد عرض بعض لوحاتهم وإطناب الصحافة التي ليس لها في قياس الإنتاج الفني معيار، أنهم وصلوا إلى القمة. أما أولئك الذين يشتغلون بالفن ويعتبرون أنفسهم من تلاميذه، فإليهم أيضاً أكتب آملاً أن يكون فيه بعض التوجيه لما يفيد وبعض التهيئة لإنتاج جدير بالاعتبار والتقدير

أحمد موسى

زكريا أحمد

من الوجهة الفنية

للأديب محمد السيد المويلحي

أقرب الموسيقيين إلى الفن من ينغمس في لجج الحياة حتى يصل لأعماقها، ويذوق حلوها ومرها، وابتسامها وعبوسها
وأبقى الموسيقيين على الزمن من يحتقر المادة فلا يشغل نفسه باكتنازها بل يصرف ما في يده في ليلة، حتى إذا تنفس الصبح لم يجد لقمة يسكت بها صراخ أمعائه فلا يكترث ولا يقتصد إذا أصاب بعد هذا يسراً. بل هو لا يتغير، ولا يتدبر، ولا يحسب (للغد) حساباً أبداً ولا يهمه أن يكون أنيقاً رشيقاً بقدر ما يهمه أن يكون أشعث الشعر مهلهل الثوب. لا يكترث لكلام الناس عنه إن كان خيراً أو شراً، لأنه لا يعوج إلا لشيء واحد. هو (فنه). . وزكريا أحمد يعبد الحرية ويقدسها. . يمثل (البوهمية) الفنية أدق تمثيل لا

يهمه في دنياه إلا فنه وقلبه.
تربى زكريا تربية دينية، فحفظ القرآن المجيد وألم ببعض علومه ولكن (جرثومة) الموسيقى كانت تسري في دمه فلم يستطع مقاومتها فانظم (كمذهبجي) للشيخين علي محمود، وإسماعيل سكر، وأمضى معهما وقتاً طويلاً، ثم تتلمذ لأستاذنا الشيخ درويش الحريري يأخذ عنه ما عنده من موشحات (وضروب) فأدهش الرجل بذكائه وحسن استعداده وأذنه العجيبة!
آنس زكريا من نفسه المقدرة فرأى أن ينفصل عن الشيخ علي محمود ليكون ملحناً فأخرج السحر الحلال الذي جمع حوله جمهرة المطربين والمطربات يأخذون منه وهو البحر الذي لا ينضب والفنان الذي لا يعجز.
لا يلحن للمال، ولا للفخر. بل يلحن لقلبه وحبه ووحيه الذي يترجم أسمى ما في العواطف من نبل ونور.
ملك (الصبا) غير منازع، وإذا قلنا (الصبا) فإنما نعني اللحن المسيطر على النفوس والمترجم لأشرف ناحية وأسماها من حياة الإنسان وهي ناحية عواطفه، وآماله وآلامه، وتوفيقه وفشله. وهل نستطيع أن ننسى أدواره التي غنتها أم كلثوم: (قلبي كلما تقوى ناره)
(اللي حبك يا هناه) (يا رايح علي جده) (هو ده يخلص من الله). . .
لحن أكثر من خمسمائة قطعة نجحت جميعها نجاحاً عظيماً. وهو فنان موهوب لم يتعلم في مدرسة ولا معهد، وإنما نشأ كما ينشأ العبقري الملهم تكفيه (الخميرة) التافهة ليزداد ويزداد حتى يصبح كله (خميرة) تنضج كل شيء. . .!
يعزف على العود (سماعياً) فلا يعرف (النوتة) الغربية.
تمتاز قطعه بروحها العربية الشرقية البحتة، فلا سرقة، ولا مزج، ولا خلط، ولم يعرف عن ملحن أو موسيقي أنه اختلط بالمرحوم الشيخ سيد درويش زعيم المدرسة الحديثة فنال حبه وملك قلبه كزكريا. وإنك لتجد تشابهاً عجيباً في روحيهما ونظرتيهما للحياة. . .!
يدهشك في هذا الرجل وفرة رجولته، واعتداده بفنه وكرامته. فهو يعطف على إخوانه الفقراء ويساعدهم ويلحن لهم بالمجان، ولكنه يتصلب ويشتط ويغالي مع الكبيرات الغنيات اللائى يأخذن كل شيء ولا يعطين شيئاً. ولعل وقفته المشّرفة مع (أم كلثوم) في روايتها الأخيرة تترجم تلك الرجولة القوية وتسجل تلك النفسية الكريمة، فقد رفض أن يأخذ أقل من (مائة) جنيه في اللحن الواحد ولم يقبل ما قبله القصبجي والسنباطي. ومن أصدق ما قيل فيه قول شاعر الشباب الأستاذ محمود حسن إسماعيل:
يا مثير (الصبا) من العود تحكي ... نغم الطير في صباح الخلود
أو تآويه عاشق عبقري ... أرعشت ليله رياح الصدود
أو قمارى جنة ساجلتها ... حلم الشدو غافيات الورود
أيها الشاعر الذي طار بالفن ... وأعلى شعاعه في الوجود
مر بالجاحدين كالكوكب المشبو ... ب واصدح بكل لحن جديد. . .
محمد السيد المويلحي

البريد الأدبي

تقويم النوع الإنساني

نشرت مجلة (حياتك) الأمريكية التقويم التالي للنوع الإنساني، وهو من وضع العلامة الأستاذ (آرثر هـ. كومبتن) حائز جائزة نوبل في (الفيزياء)، والباحث الشهير في الأشعة الكونية، وقد صغَّر فيه الزمن مليون مرة:
قبل مدة تتراوح بين السنة والسنتين: تعلّم الإنسان الأول استعمال العصيّ والأحجار كأدواتٍ وأسلحة.
في الأسبوع الفائت: أنشأ إنسان ما فن تكييف الأحجار بحيث تسدُّ حاجاته.
أمس الأول: استعمل الإنسان الصور المبسَّطة كتابة رمزية
أمس: ابتكِرت الألفباء.
أمس عصراً: أنشأ اليونان فنهم وعلمهم.
منتصف البارحة: سقطت روما

الساعة 8 والدقيقة 15 من هذا الصباح: لاحظ (غليليو) أجسامه الساقطة.
الساعة 10 صباحاً: صُنع المحرك البخاري الأول.
الساعة 11 صباحاً: كشفت قوانين المغنطيسية الكهربائية
الساعة 11 والدقيقة 30 صباحاً: تلا ذلك التلغراف والقدرة الكهربائية. . . الخ.
الساعة 11 والدقيقة 40 صباحاً: كشفت أشعة إكس
قبل خمسة عشرة دقيقة: عم استعمال السيارة
قبل خمس دقائق: بدأت خدمة البريد الجوي.
في الدقيقة الفائتة: شاع استعمال الراديو.
الآن، ظهراً: نجد النوع الإنساني - بمعنى جديد كل الجدّة - موحداً بفضل العلم
عبد الكريم الناصري
الفنون الإسلامية
أبدى صاحب المعالي الدكتور محمد حسين هيكل باشا وزير المعارف رغبته في نهاية العام
الدراسي الماضي في أن تزيد عناية مدرسة الفنون الجميلة العليا بالفن الإسلامي
جاعلة منه أساس الدراسة في هذه المدرسة، بما يتناسب وأغراض النهضة القومية
الحديثة ومراميها في تربية شباب الفنانين المصريين، وكان ذلك عقب زيارة معاليه للمعرض الذي أقيم في المدرسة لإظهار نشاطها
والمعروف أن القواعد التي تقوم عليها برامج هذه المدرسة تميل حتى الآن بحكم
نشأتها القديمة إلى تدريس الفن في مختلف صوره على الأصول الغربية، مع تقدم الزمن بمصر للأخذ بفنونها الخاصة، ولطبع الثقافة الفنية فيها بطابعها الأصيل وهو الفن الإسلامي
على أن بعض أساتذة المدرسة المصريين قاموا في الأيام الأخيرة بجهود فردية -
وبخاصة في قسم العمارة - لتوجيه البرامج إلى هذه الوجهة، وتربية الذوق الإسلامي في نفوس الفنانين الناشئين
ولما كان الأمر أجل من أن يترك في هذا المعهد الفني العالي لمجرد المجهود الشخصي فقد رفع الدكتور محمد فكري أستاذ تاريخ الفن بالمدرسة مذكرة إلى معالي
وزير المعارف اقترح فيها بناء على رغبة معاليه السابقة إنشاء قسم خاص للفنون
الإسلامية بالمدرسة وتقوم في نفس الوقت بتفاصيل إنشاء هذا القسم والمقترحات الخاصة ببرامجه
وقد جاء في هذه المذكرة أن الفن الإسلامي هو الفن القومي لمصر، وأن الخصائص
الفنية العظيمة التي ينفرد بها هذا الفن يجعل منه مادة خصيبة لتغذية جميع نواحي
النهضة الحديثة في مصر، فضلاً عن قابليته الدائمة للتطور وتمشية مع روح البيئة الطبيعية في هذه البلاد
وقد عنى معالي وزير المعارف بهذا الاقتراح وأحاله على مراقبة الفنون الجميلة لدراسته
وفاة العالم الأثري هوارد كارتر
نعي من لندن الأستاذ هوارد كارتر العالم الأثري الإنجليزي المشهور عن 66 عاماً.
وليس بين المصريين من يجهل اسم هذا الرجل الذي كشف مع اللورد كرنارفون
مقبرة توت عنخ أمون التي لفتت العالم بأسره إلى مصر. وكان عمله العظيم أكبر
دعاية عالمية شوقت ألوف السياح إلى غشيان مصر من كل فج وصوب.
جاء المستر كارتر إلى مصر سنة 1890 وعاون الأستاذ فلندرس بتري في حفائر تل
العمارنة لحساب اللورد أمهرست سنة 1892، وعين مفتشاً عاماً لمصلحة الآثار في
الحكومة المصرية وأعاد تنظيم إدارة الآثار في مصر العليا تحت إدارة السير وليم
جارستن والمسيو جستون مسبيرو، وأدخل نور الكهرباء إلى وادي الملوك وإلى أبو
سمبل، واكتشف لحساب الحكومة المصرية مدافن الملوك منتوحتب وحتشبسوت
وتحتمس وأمنحتب الأول وغيرهم إلى أن اهتدى في سنة 1923 إلى قبر توت عنخ أمون
وقد نشرت صحف إنجلترا ترجمة حياته بتفاصيل مسهبة، وأسفت على فضله وعلمه
الواسع وعادت تذكر الخرافة المشهورة باسم (لعنة الفراعنة) التي قيل إنها لاحقت

جميع من اشتركوا في كشف مدفن توت عنخ أمون لكن جريدة (الديلي تلغراف) أوضحت أن كارتر نفسه لم يكن يعبأ بهذه السخافة فضلاً عن أن موته بعد هذه السنين العديدة من كشف المدفن لا يمكن أن ينسب إلى كشفه

تركيا تهزل والعالم يجّد!

من أنباء استامبول أن الصحافة التركية قامت أخيراً بحملات شديدة على فكرة إنشاء مؤسسات لها صبغة دينية في البلاد وتقوم على أكتاف الشباب. وقد طلبت جريدة (بني صباح) إغلاق هذه المؤسسات في تركيا واستامبول بوجه خاص بحجة أن هذه المؤسسات تقوم بدعايات غير قومية ولا تتفق مع الروح التركية الجديدة.

ويظهر أن هذه الملة التي تثيرها الصحف كانت صدى لخطاب رئيس الوزراء رفيق سيدام الذي أعلن بالراديو مقاومة الجمهورية التركية لكل حركة دينية تقوم في البلاد

حول عريضة الأزهر

جاءنا من أحد العلماء الذين أمضوا تلك العريضة التي تحدث عنها الأستاذ ابن عبد الملك في عدد الرسالة السابق كلمة يصحح فيها بعض الوقائع، وقد طلب إلينا أن ننشرها على مسئوليته، ولكنه في الوقت نفسه وقعها بتوقيع مستعار، وبين تحمل المسئولية وإخفاء الاسم تناقض ظاهر.

حول ترجمة الإلياذة والأوديسة

أخي الكريم الأستاذ أحمد أحمد العجمي:

كنت أوثر أن أعرف عنوانك لأكتب إليك عما سألت لأن بعضه يخصني ويتعلق بظروفي. . . فاعلم يا أخي أن المرحوم البستاني قد نقل الإلياذة إلى العربية نظما. . . ولم يكن رحمه الله طويل النفس في الشعر ولا ذا ديباجة تحببه إلى القراء. . . من أجل هذا ركدت ترجمته ولم يقرأها عشرات. . . وأستغفر الله أن أسوء أحداً بما أقول. . .

وقد بدا لي بعد أن فرغت من كتابة (أساطير الإغريق) ونشرها تباعاً بالرسالة أن أترجم الإلياذة نثراً لا شعراً لما للنثر من مزايا خصوصاً في اللسان العربي. . . ومع ذاك فقد خشيت إذا أنا ارتبطت بترجمة الأصل أن يصدف القراء وينفروا لكثرة ما يرد من أسماء الآلهة والأشخاص، وأكثرها أسماء حوشية نابية. . . فآثرت التلخيص السريع وأضفت مقدمة لحروب طروادة ليست من الإلياذة، بل هي مما ترك الشعراء القدامى غير هوميروس، حتى إذا انتهيت من الإلياذة أردفت لها ذيلاً من فرجيل. . . وقد كان لا بد مما صنعت ليكمل سياق الملحمة الخالدة، فالزيادة الأولى هي الفصل الأول، والزيادة الثانية هي الفصل الأخير

أما الأوديسة فلم ينقلها إلى العربية فيما أعرف سواي، وقد نقلتها نثراً لا شعراً للأسباب نفسها التي خشيت منها على الإلياذة. . . وللأمانة التاريخية أقرر أنني نقلت الفصول الخمسة عشر الأولى نقلاً شبه كامل، ولما خفت أن ينتهي المجلد الأول من مجلة الرواية دون أن تنتهي الأوديسة عمدت إلى تلخيص كل فصلين مما تبقى ونشرهما في عدد واحد بعد أن صارحت أستاذنا الزيات بذلك. . .

أما أن جمهور القراء في مصر وفي الشرق يرغب في طبع ما ترجمت وما لخصت من ذاك كله فهذا ما يظنه أخي وما يخيفني أنا لأن الطبع يكلفني مئات كما كلف كثيرين غيري فلم يحصلوا ربع ما أنفقوا. . . هل سمعت؟ لقد قلتها لك بصراحة يا أخي وتقبل شكري على ما أطريت.

دريني خشبة

جريدة الوادي

اعتزم زميلنا الأستاذ محمد نجيب صاحب جريدة (الوادي) أن يصدر الجريدة قريباً بشكل جديد يعتبر فتحاً في الصحافة العربية اليومية. وسيتولى الإشراف عليها أساطين السياسة المصرية وكبار المفكرين وجمهرة وافرة من الأدباء والكتاب الممتازين.

ولا تزال الاستعدادات جارية لإخراج الجريدة في هذا الثوب الجديد قبل نهاية الشهر الحالي

الكتب

قصتان:

1 - الأميرة: للآنسة جميلة العلايلي
2 - كاهن آمون: للأديب أحمد صبري
- 1 -
هاتان قصتان، كانتا غذائي في يومين:
أما الأولى فقصة غرام عنيف عفيف، وهي كما تقول المؤلفة: قصة جمعت في فصولها تاريخ الحياة كلها، كتبت حروفها من نار العقل ونور القلب، فتصارع فيها اليقين والشك، والإيمان والإلحاد، والخير والشر، وظهرت فيها شخوص مختلفة من تهاويل المدنية الحادثة، وبساطة الطبيعة الخالدة، واصطدمت فيها التقاليد الصارمة بالعواطف اليقظة، وكان فيها ما كان من رغبة ورهبة، وثورة وخنوع، وألم وأمل، ثم انتهت عند حقيقة خالدة، وهي أن الرجل رجل والمرأة مرأة، ولن يكون الاتصال بينهما إلا على هذا الأساس الذي قامت عليه الحقيقة الإنسانية منذ الأزل
والآنسة جميلة أنثى، فأحسن ما فيها أنها تكتب بطبيعة الأنثى وميولها، فلا كذب ولا نفاق ولا تزوير، ولكنها الأنوثة الواضحة، والصراحة التي لا تتوارى، والعواطف التي تتدفق على وضع الطبيعة؛ ووضع الطبيعة في الأنوثة الكاملة هو الإعجاب، أو إن شئت فقل العشق للرجولة الكاملة، وإقراراً لهذا الوضع المقدس ضحت بالأوضاع والتقاليد في سبيل زوج لا تقدره لها الأوضاع والتقاليد. ولقد نجحت التجربة الجريئة، فكان لها برجولته وكبريائه واعتداده ملء القلب والبصر والسمع، وكانت له بأنوثتها ملاك الرحمة، ومثال التضحية، ورسول الحب!
والمرأة بطبيعتها - كما تعلم - رقيقة الإحساس، مرهفة العواطف، فإذا جمعت إلى ذلك موهبة الشعر كانت في خيالها وفي شعورها متوثبة، كأنها تريد أن تلتهم الدنيا بنظرة، وأن تزم البحر بشعرة، وهذا هو شأن الآنسة الفاضلة في قصصها: فهي تغرد على كل فنن تغريد الشاعر، وهي تجري وثباً وراء الخيال فتسبق الحوادث، وتستطرد من معنى إلى
معنى دون أن تعني بالنسق القصصي، وما يسمونه بالحبكة الفنية، ومن ثم جاءت قصتها كما تقول هي: سلسلة حبائل كلها أقاصيص عجيبة، ولدتها قصة واحدة غريبة غامضة، فيها شئ من خلل السرد، وترتيب الوقائع، وكانت في حلّ (العقدة) قاسية، عفا الله عنها! فقد أغرقت تجارة وطوحت بعائلة كريمة في مهاوي الفقر والحاجة لأجل أن تصل إلى رجلها الذي رأت في الاتصال به اطمئنان النفس، وبهجة القلب، ويقظة الروح، على أنه لا يمت لأسرتها بصلة القومية كما تقول
وفي القصة ما أحب أن أنبه إليه الآنسة المهذبة، ولولا الرفق لحاسبتها عليه الحساب العسير، وهو الاستهانة في الأسلوب بحق اللغة وهو حق تجب مراعاته وإن تبجح في ذلك المتبجحون، ثم حق القوة البلاغية وهو أيضاً حق يجب العناية به لا للإفهام فحسب بل للتأثير الذي هو مهمة الفنان وغايته، ثم تلك الأخطاء المطبعية الشائعة التي إذا احتملها ذوق الرجل الجبار فلن يتحملها ذوق المرأة الدقيق الذي يغرم بالأناقة ويفنى في روعة التنسيق؛ وأخيراً بعض هفوات فاتت على فطنة الأديبة اليقظة، فما كان يصح مثلاً أن تصف الأعرابي يلبس حذاء لا يلبسه غير سراة العرب، ثم تعود إلى وصفه بعد صفحات فتصف حذاءه بأنه لا يلائم الرجل العادي على الأقل، وبعد هذا كله لا يصح من الآنسة الشاعرة أن تستهين في أناشيدها بعروض الشعر، ولعلها تهتم فتتلافى كل هذا في الطبعة الثانية للرواية، فإن في تلافيه الجمال والكمال
- 2 -
أما القصة الثانية فقصة مسرحية تقوم على حقيقة من حقائق التاريخ المصري القديم، وضعها مؤلفها الفاضل وهو في معزل على حافة الصحراء في جنوب القاهرة حيث امتلأت رأسه من صور الأجيال القديمة وأطيافها، وازدحمت عيناه بعبرات الجيل الحاضر وآلامه، فطالع التاريخ لهذه القصة ووضع صورتها التخطيطية الأولى، وعرف أبطالها وحلم بهم. ويا لنفس الفنان إذا اهتاجتها ذكريات الماضي وعبرات الحاضر! إنها تحترق في فكرتها، وتذوب في فنها فتأتي بكل ما فيه الروعة والجمال. . .
وتاريخ هذه القصة يرجع إلى عهد الملك إخناتون، وقد كان لهذا الملك مذهب ديني يدعو إلى عبادة قرص الشمس متمثلاً فيه جميع الآلهة، وقد كان متعصباً لمذهبه هذا تعصباً

شديداً، فحاول أن يفرضه على الناس فرضاً، واندفع يغلق الهياكل ويطرد الكهنة، وانشغل عن أمور الدولة فسرح الجنود وأهمل الجيش، فكان من وراء ذلك أن انتقضت عليه المستعمرات المصرية، واستولى الحثيون على شمال سوريا كما استولى العبرانيون على جنوبها، ففزع المصريون لذلك، ونهضوا ثائرين عليه بتدبير الكهنة ورجال الجيش المعطلين، وفي مقدمة هؤلاء أوزيران كاهن آمون في معبد خناعي، وهو شيخ جليل خالف الملك في عقيدته الدينية ودعا إلى محاربته باسم الوطنية

هذه المبادئ التي أذاعها إخناتون ودعا إليها ما وسعه الجهد، وهذه الثورة التي أعلنها عليه المصريون لإنقاذ حضارتهم وغضباً لوطنيتهم وقوميتهم هو موضوع القصة، وغاية المؤلف التي يرمي إلى توضيحها. ولا شك أنه قد استطاع أن يشرح فكرته شرحاً فنياً قويماً، فلا فضول ولا ثرثرة، ولا اقتضاب ولا شذوذ في سرد الحوادث والانتقال من وضع إلى وضع، ولكنك تحس وأنت تقرأ أنك تجري في نسق طبيعي مطرد، يرسمه أسلوب حلو يفيض بحرارة الإيمان وحماسة الوطنية، وكأنها حماسة أمازيس إذ يقول: لقد فهمت وآمنت، سأعلمهم أننا ولدنا جنوداً، وأننا ما زلنا رغم العوادي أبناء هذا النيل، نحارب وننتصر، ونطوي العالم في نفوذنا من جديد. . .

ولقد ذكر المؤلف الفاضل أنه تقدم بقصته إلى الفرقة القومية فكان رأيها قاطعاً في عدم صلاحيتها! وأنا أستطيع أن أطمئن المؤلف الفاضل من هذه الناحية، فإن الفرقة القومية أصلحها الله لا تقدر الآثار إلا بأسماء أصحابها وما لهم من شهرة ودوي وطنين. ثم أن الفكرة في هذه القصة تقوم على الانتصار لتاريخنا وقوميتنا ووطنيتنا، هي غذاء لروحنا وعواطفنا بما يلائم روحنا وعواطفنا؛ ولكن الفرقة لا يهمها ذلك، فهي تحب أن تكون دائماً متطفلة على موائد الغرب، تذيع كل ما هو غريب عنا ولا يمت إلى روحنا بأدنى شئ. . .

نعم أنا أطمئن المؤلف من هذه الناحية، وأقدر فيه موهبته الفنية واستعداده للقصص، فإنه استعداد قوي كامل، إذا ما تعهده بالمران والصقل فسيكون له شأن أي شأن. ولو أنه رزق الدقة في الحوار، والوضوح في التعبير لكان فناناً من الطراز الأول، ولجاءت قصته وشأنها في الكشف عن عبقريته والإعلان عن مواهبه شأن (أهل الكهف) في الكشف عن صاحبه الأستاذ الحكيم

وأحب أن أنبه الأديب الفاضل إلى ما أخذه عليه بعض الناس من غموض العبارة وخفاء المعنى في بعض جوانب الرواية، وليس بالعذر أن يقول إنه حاول أن يكون مفهوماً بالمعنى الذي يألفونه فلم يستطع، فإن اللغة أداة الإفهام، وعلى الفنان أن يُفهم وإلا كان قاصر الأداة، عاجزاً عن تصوير ميوله وعواطفه، وماذا يكون الفنان إذا عجز عن تصوير ميوله وعواطفه؟!

تلك ناحية ليست بالعسيرة ولا بالشاقة؛ وفي استطاعة المؤلف الفاضل أن يبلغها إذا اقتصد في ثورته وتمكنت عنده الرغبة في ذلك

محمد فهمي عبد اللطيف

المسرح والسينما

الفرقة القومية

لغة المسرح، أدباء الشباب

الدكتور إبراهيم ناجي أديب وعالم ملحوظ المكانة، معروف في الأوساط الأدبية، مشهور بأحاديثه الطيبة، وحيويته الفياضة، وحسه الدقيق، يعرف فيه أصدقاؤه - وأنا منهم - سرعة في الفكر وفي الحركة وفي كل شئ

لم تقف حركة الدكتور ناجي عند حدود نظم الشعر، وتأليف القصة، وكتابة البحوث العلمية، وإلقاء المحاضرات، بل تناولت أيضاً فن الترجمة. وقد تعاون أخيراً مع الممثل الأديب فتوح نشاطي على ترجمة رواية (الجريمة والعقاب) لمؤلفها ديستويفسكي القصصي الروسي العظيم، فمثلتها الفرقة القومية وجعلتها (افتتاحية) لموسمها الثاني.

وهاهو ذا يحدثنا عما لقيت روايته من رجال هذه الفرقة ويجيب على الأسئلة التي وجهتها إليه:

قلت له: الفرقة القومية مؤسسة ثقافية فهل حققت شيئاً من أغراض الثقافة؟ فأجاب:

إنها تحاول يا سيدي، ويجب أن نعترف أنها تبذل ما تستطيع، ولكن الفكرة خطأ،)

والتوجيه خطأ، والمسرح الذي نراه مسرح قديم بال
أما خطأ الفكرة فلأن مدير الفرقة، مع احترامنا لأدبه وفضله، يصرح ويجاهر بأن المسرح إنما وجد لترقية اللغة، وما دامت هذه الفكرة أساساً للمنطق فقد انهار كل شئ ولا معنى للجدل
والفكرة خطأ أيضاً، وخطأ فاحش لأن قراء لجنة الروايات علماء لغة، وليس فيهم فرد يعرف شيئاً عن فن المسرح
والتوجيه خطأ، لأن التوجيه مبني على الفكرة، والتوجيه المسرحي عندنا أساسه إنشاء مسرح كلاسيكي على فكرة كلاسيكية، ولهذا حفل مسرحنا بأندروماك وأنتيجونا وعدنا إلى راسين وكورنيل وقد فرغ العالم منهما ونفض يده، وإليك المثل:
الجريمة والعقاب رواية شعبية كتبت للناس ولمخاطبة الناس، وهذه رسالة المسرح، وقد أرادت إدارة الفرقة من مترجمها أن يترك ترجمته بتاتاً ويعيد كتابتها بلغة من عنده أنيقة مجلجلة مدوية كأنه هو مؤلفها. فانظر بالله كيف تريد الفرقة القومية أن تعبث بدستويفسكي
وتسيء إلى دستويفسكي وتسيء إلى رسالة المسرح. كل ذلك في سبيل لغة كلاسيكية مجلجلة أولى بها حلقات الأدب لا المسرح الذي هو منبر يثقف ويعلم ويفيد وإنه لما يبكي ويحزن أن تجد الممثل النابغ (؟) وقد فرضوا عليه لغة بائدة فصار يوجّه همه إلى إتقان المرفوع والمنصوب وقد نسى الفن وترك روعة التمثيل جاناً لأنه منصرف إلى ما ألقى بروعه في شأنه أنه أهم. وإنه لمن المحزن أيضاً أن تجد لجنة قراءة الروايات تجيز روايات ليس فيها من شيء إلا أنها كتبت بلغة عربية سليمة. وإنك لتستعرض كل الروايات التي نجحت في المباريات فتجدها لغة في لغة، وتجدها نماذج من الإنشاء، أما الفكرة فلا، أما الفن فلا، أما الكلام و (الدروشة) فنعم. وقد تجيز رواية لا لغة فيها ولا فكر ولا فن كرواية طبيب المعجزات. إليك المثل الثاني:
قُدمت رواية من هذا الطراز فأجازتها الفرقة فأعدت للتمثيل وكلف مترجم الفرقة أن ينقلها إلى الفرنسية ليتمكن المخرج الفرنسي من إخراجها، فرأيته بعيني رأسي يكاد يغمى عليه من الطنطنة والجلجلة والكلام المدوي كالطبل الأجوف، ويسأل ناقلها إليه: أحقيقة كل هذا موجود، كل هذا الكلام الطويل العريض، كل هذا اللفظ المكرر المعاد. لا وربي، إن هذه الرواية لا يمكن تمثيلها بحال؛ إن التمثيل تمثيل لا كلام، وكلمة دراما معناها نقل القول إلى الحركة، لا الحركة إلى القول، كل هذا عن رواية أجيزت وأعدت للتمثيل. وكم كم عند الفرقة مثلها من متراكم لا حصر له تجيزه الفرقة فلا يمثل ولا يصلح لشيء.
قلت: ما دمت ترى الأساس خطأ في إنشاء الفرقة فما رأيك في علاجها لتصبح مؤسسة تماشي النهضة الأدبية؟
فأجاب: يجب أولاً أن يتنازل مدير الفرقة فيعترف معنا بأن رسالة المسرح الجديد غير قائمة على اللغة، وليس من العار أن يجلس إلى رجل كالمسيو فلاندر أو إلى ممثل كجورج أبيض فيتحدث إلى أحدهما في رسالة المسرح. ويمكنه أن يسأل نجيب الريحاني وهو رجل يفهم هذه الرسالة على أتمها وقد سمعته بأذني يتمنى أن يرشد المهيمنين على الفرقة القومية إلى رسالة المسرح
الفكرة الثانية: يجب أن تبدل لجنة القراءة تماماً - مع احترامي لأعضائها وتقديري لعلمهم وأدبهم - أرى أنهم لا يصلحون بتاتاً إلى ما هم مكلفون به، ولو خيرت لجعلت لجنة
القراءة مكونة من فلاندر وجورج أبيض ورياض وعلام وأضيف إليهم رجلاً واحداً يفهم اللغة
وفكرة أخرى: يجب أن تكلف الفرقة من تتوسم فيه من المؤلفين الفهم والمقدرة أن يترجم أو يقتبس أشهر الروايات العالمية. نعم تكلفهم بذلك وتفتح الباب أمامهم وتترقب مجهودهم وبهذا يتسع المجال ولا تقبر الكفايات، وبذلك تخطو الفرقة خطوات في سبيل السداد
- هل أنت من دعاة اللهجة العامية، وأنت الشاعر المفروض فيه الحرص التام على المعنى والمبنى؟ وهل تصلح اللهجة العامية للتراجيديا والدراما والكوميديا على السواء؟

- إني من دعاة اللغة العربية التي يفهمها الشعب على شرط أن يباح استعمال اللفظة العامية حين لا يكون منه مناص وحين لا يعتبر وجودها إسفافاً، وحين تضيف جمالاً ونغمة جديدة إلى لغة المسرح

- هل كانت رواية (الجريمة والعقاب) مكتوبة في الأصل باللهجة العامية؟

- كانت مكتوبة في الأصل باللهجة الفرنسية البسيطة التي تقارب العامية ولكن ترتفع قليلاً عنها. ومن يرد معرفة الحقيقة فليقرأ النص الفرنسي التمثيلي من وضع جاستون باتي، ولكنها في الأصل من قلم ديستويفسكي الفخم وتحليله العميق

- هل تظن أن هذه الرواية كانت تفقد قيمتها لو ترجمتها باللغة الفصحى؟

- يا سيدي إنها بلغتها البسيطة كانت أرقى من مستوى الجماهير فما بالك بها وهي بالفصحى المجلجلة؟. . . انتهى.

لا ينفرد صديقي الدكتور ناجي بالرأي الذي أبداه بشأن لغة المسرح وضرورة جعلها تناسب ذوق الجمهور، فقد سمعت حديثاً غريباً من صديق أديب أعرف فيه ولعاً باستعمال الألفاظ النابية وقد أطلقنا عليه اسماً لا أريد ذكره يدل على أنه يقد ألفاظه قداً وينحتها من صخر صلد، لأن كلمتي افرنقع وتكأكأ وما يماثلها من الكلمات الحوشية التي ألحدها الإهمال ودفنها التناسي هما من الكلمات المستملحة المستحبة عنده. وقد يصوب كراته الافرنقعية والتكأكئية على الأذواق (منجنيق)، لا يخلو مقال له من.

أقول سمعت رأياً غريباً منه، وقد سمعنا ما يضارعه في حديث الأستاذ إبراهيم رمزي خلاصته أن الأمة لا تريد اللغة الفصحى ولا تستطيبها، وحجته أن الطبقة الأرستقراطية نساء ورجالا، لا تعرف العربية وهي تتكلم الإنجليزية أو الفرنسية، ولهذا لا تميل إلى التمثيل سواء أكان بلهجة العامة أو باللغة الفصحى، وإن طبقة الدهماء لا رجاء منها ولا فائدة. أما الطبقة الوسطى وهي أقلية بالنسبة للطبقتين العليا والدنيا تؤثر اللهجة العامية لقربها من الفهم، ولأنها تنشد من المسرح التسلية والترفيه عن النفس، وينتهي بالدعوة إلى مسايرة الشعب ما دام الشعب لا يميل إلى غير التسلية والانبساط

قد يكون رأي صديقي هذا أكثر آراء الشبان تهاوداً وأبعدهم عن التعسف في الحكم على اللغة العربية وقواعد صرفها ونحوها، وتنوع مترادفاتها ووفرة مفرداتها، ولكن هل يجوز - على هذا القياس - أن نهمل اللغة ونعطل أداة التعليم ونحد من معرفتنا إرضاء لطبقة تؤثر التسلية والانبساط؟

إني قبل كل شيء أنزه الأمة بطبقاتها الثلاث عما قاله فيها صديقي الأديب، لأني أوقن أن نهضة الأمة محسوسة ملموسة بدليل أنه عندما تهم لحضور التمثيل تهيئ ذاتيتها كما تهيئها للصلاة أو لسماع خطاب أو محاضرة. وقد برهنت على هذا الاستعداد النفساني قبل عشرين أو ثلاثين عاماً بإقبالها على حضور تمثيل فرق عبد الرحمن رشدي وجورج أبيض والشيخ سلامة حجازي إذ كانت كل رواياتها تمثل باللغة العربية الفصحى، فما بالها وقد ارتقت بالفعل، وتطورت وفق نهضة العصر وأصبحت آدابها واضحة الازدهار؟ أقول: ما بالها تشكو اليوم مما قد استساغته بالأمس وأفادت منه خير فائدة؟

الأدب بخير، والآداب بخير أيضاً، وتقدمنا الثقافي مستمر، وإن كان ثمة من شكوى موجعة فهي من كسل الشبان ومن رخاوتهم وخنوثتهم ومن قعودهم عن سلوك مسالك الكمال، فلغة المسرح الرصين يجب أن تكون الفصحى كما يجب أن تكون لغة الرواية التي من نوع التراجيدي أسمى من لغة الرواية التي هي من نوع الدراما، ولغة الكوميديا أبسط من لغة الدراما. أما القائل باللهجة العامية للمسرح فهو مغرض أو كسول أو بعيد عن روح الأمة

ابن عساكر

العدد 297 - بتاريخ: 13 - 03 - 1939

رسالة أمير المؤمنين الفاروق إلى الشباب

شعبي العزيز

أحببت ونحن نستقبل العام الهجري الجديد، أن أهنئكم والعالم الإسلامي بهذا العيد السعيد، مبتهلاً إلى الله أن يجعله عام خير وسلام وإقبال على الجميع، وأن يقرنه بتوفيق الجد، وبلوغ القصد.

إن هذا اليوم الذي يتمثل فيه أمامنا حادث الهجرة العظيم بما فيه من العظة البالغة، والمعاني السامية، وبما كان له من الأثر الخالد في بث روح الفضيلة والإخاء والمغامرة في سبيل الحق، ليستحق منا تمجيده بالعمل الصالح والتوجيه النافع لخير الإنسانية.

وإني ليطيب لي أن أشير إلى ما سيتم بإذن الله وجميل رعايته في مستهل هذا العام المبارك من عقد أواصر المصاهرة، بين الأسرتين الكريمتين في إيران ومصر، مما يزيد في إحكام روابط الإخاء والمودة بين الشعبين، فوق ما يربطهما من الصلات الأدبية والثقافية منذ القدم

شعبي العزيز

لم أتحدث إليكم قبل اليوم عن نفسي، وكنت أعد ذلك من سبق الحوادث؛ ولكن هذه الفرصة قد أتاحت لي أن أتحدث إليكم قليلاً في ذلك فتزدادوا معرفة بي، وركوناً إليّ

إن سر النجاح هو الثقة والإيمان. ومن لا ثقة به ولا إيمان له لا رجاء فيه. فعلى الذين وثقوا بي أن يعتمدوا عليّ، إذ في ذلك كل الخير لهم

إنني مع إعجابي العظيم بوالدي - طيب الله ثراه وتغمده برحمته - قد أكون قد حالفته في بعض طباعه، ولكني أؤكد أنني قد احتفظت بأبرز هذه الطباع. فأنا مثله لا يستطيع أن يؤثر فيّ أحد إذا تبنيت صواب أمر واعتقدت - بعد تقليب وجوه الرأي - أنه في صالح شعبي أفراداً وجماعات

وإن ثقتي بنفسي، وتوكلي على الله، هو الذي يلهمني تصريف الأمور، ويوجهني الوجهة التي اختارها

بيد أن هذا لا يمنع أن أستمع لآراء ذوي الخبرة من الرجال، شأن كل إنسان يتحرى وجوه الصواب

إنني أومن - ومرُّ الأيام يؤيد إيماني - أن شباب مصر المتوثبة للمجد سيكتبون صفحة خالدة في تاريخ الوطن. وفي استطاعتهم أن يصنعوا من هذا الوطن العزيز مصر العظيمة

المتحدة التي هي آمالنا وأحلامنا جميعاً وعلى الشباب وحده تحقيق هذا الحلم.

ولكن انتبهوا؛ فالطريقة التي تتبعونها لا تحقق أملنا هذا. ولابد من العمل المتواصل في جو يسوده الهدوء والإفادة من الرؤوس الناضجة واحترام النظام.

وليكن هدفكم سعادة المجتمع ومصر القوية، القوية في نفسها، وفي أبنائها، والمستعدة لإعلاء كلمتها، وفرض احترامها على من يعبث بعزتها

شعبي المحبوب!

كم كنت أحب أنكم بعد أن سمعتم هذه الكلمات تذكرونها ليرجع إليها كل منكم بين الوقت ولآخر، حتى لا تأتي عليها يد النسيان

ونصيحتي التي أسديها إلى كل مصري مخلص لوطنه ومليكه: أن يكون ذا ثقة بالله وبنفسه وبمليكه.

والسلام عليكم ورحمة الله

براعة استهلال العام

ليس أدل على يمن هذا العام وإقباله، من براعة استهلاله. وبراعة استهلاله تأييد قوة الإسلام، وتوحيد كلمة الشرق، بتوثيق الصلة بين عرشين أثيلين بالمصاهرة، وتمكين الألفة بين شعبين نبيلين بالمودة.

والعرشان المصري والفارسي أعرق العروش في أصل الحضارة، والشعبان المصري والإيراني أسبق الشعوب إلى خدمة الفكر. والسامَّية الممثلة في مصر، والآرية الممثلة في إيران، هما اليوم مناط الرجاء في نهضة الشرق الإسلامي القريب والبعيد، لأنهما تجمعان شعبتي الفكر البشري وما يميزهما من سمو الروح وبراعة الذهن وصوفية الخيال وحب الحقيقة. فلا جرم كان زواج صاحب السمو الإمبراطوري محمد رضا بهلوي ولي عهد إيران، من صاحبة السمو الملكي الأميرة فوزية شقيقة صاحب الجلالة الفاروق ملك مصر، حادثاً سعيداً في تاريخ الإسلام والشرق، سيكون له أثره المحمود في تبليغ الرسالة المحمدية مرة أخرى إلى النفوس العانية التي ضلت سعادتها وراحتها في ظلام القلق والحيرة والشك

نسجل هذا القران الميمون في هذا العدد الخاص بالهجرة، لأنه وقع في أوائل السنة الهجرية، ولأننا نرجو أن يكون للإسلام والسلام والمدنية من نقلة الأمير المصرية من القاهرة إلى طهران، ما كان لها من نقلة الرسول الأعظم من مكة إلى المدينة. وأنا لندعو الله مخلصين أن يحقق فيه للعرشين العريقين صوادق الرجاء، وأن يجعله للشعبين العظميين عهد الإخاء والرجاء، وأن يقرنه للعروسين الكريمين بالبنين والرفاء.

ابن عبد الملك

ذكرى الهجرة

لإمام المسلمين الأستاذ الأكبر

الشيخ محمد مصطفى المراغي

شيخ الجامع الأزهر

في مستهل هذا الشهر العظيم بذكراه، أذعت على العالم الإسلامي نجوى لصاحب الهجرة صلوات الله وسلامه عليه، كان فيها تذكرة وفيها بلاغ. وليس شيء أحب إلى نفسي من إعادة هذا الحديث، فإن التذكير بسيرة رسول الله، وبهجرته في سبيل الله، شفاء لغل الصدور، وجلاء لرْين القلوب، وقوة لضعف الأنفس

إن دعوة الرسول الأعظم كانت في مكة أشبه بالغيث أنزله الله في يباب القفر، ففاض بعضه في سباخ الأرض، واحتبس بعضه في أصلاد الصخور، ثم نفّس الله عنه من شدة الضيق والحصر فانبثقت عنه الحواجز الصم، فجرى سيولاً في السهول والأودية، وتشعّب ينابيع في القرى والمدائن، يحمل الخصب والنماء، ويوزع الري والغذاء، فأحيا موات الأرض، وروى غُلة الناس، وكان منه العمارة والحضارة والخير نعم كانت هجرة المصطفى عليه الصلاة والسلام إلى المدينة هي هذا الانبثاق الذي انساح به الإسلام في أقطار الأرض يحمل الهدى للأرواح الحائرة، والسلام للنفوس المحروبة، والألفة للقلوب المختلفة، فسارت الإنسانية في طريق الحياة على ضوئه، تنعم بالإخاء في الدين، وتتمتع بالمساواة في الشريعة؛ فلا عصبية تزرع الأحقاد وتنشر الفرقة، ولا امتياز في الجنس أو في اللون أو في الثروة يوجب الاستعباد ويقتضي الظلم. وحمل خلفاء الرسول رضوان الله عليهم أجمعين مصباح الهداية وزمام القيادة من بعده، ثم استاروا بسيرته، واستنوا بسنته، فأورثهم الله مللك الأرض، وملكهم مقادة العالم، فقادوه على بصيرة وساسوه عن دراية؛ فكان كتاب الله هو الدستور، وحكمه هو القاضي، وسنة رسوله هي الخطة. فلما ابتعد المسلمون عن مشرق النور وأعرضوا عن الذكر، غشيتهم الغواشي فضلوا وجهة أمرهم، وجهلوا غاية قصدهم، وتفرقوا شيعاً في الضلال، وتدفقوا أحزاباً في الباطل، وأصبح كلام الله على ألسنتهم ألفاظاً لا معاني لها ولا رَجْع منها، فأفلت من أيديهم زمام الأمر، وسلب الله من أعدائهم الرعب منهم، فتقهقروا إلى مؤخرة الركب، وساروا أتباعاً بعد أن كانوا أئمة، وإهمالاً بعد أن كانوا سادة. كل ذلك والإسلام هو الإسلام، أنواره لألاءة لا تخبو، ومنبعه ثَرَّة لا تنضب؛ ولكن المسلمين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، واستعزوا بغير سلطانه فوكلهم إلى غير راحم

أشهد أن هذا الأمر لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله: رجوع إلى الله في أمره ونهيه، وردُّ الخلاف إلى تنزيله ووحيه، وتأليف القلوب على كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة. وفي يقيني أن الضال متى أدمت قدميه وعورة الطريق، وأنهكت قواه مشقة الحيرة، عاد يلتمس الهدى من مصدره، ويبتغي القصد من دليله. فالإسلام كما كان المبدأ سيكون المعاد، وكما أنقذ العالم في الأولى سينقذهم في الثانية. ومادام الله عزه اسمه قد ختم به الوحي فلابد أن يجدد حبله كلما رث ليعتصم به اللاجئ ويجتمع عليه الشتيت ويفيء إليه الشارد.

إن آية الهجرة التي ظهر بها الإسلام وعلا فيها الحق هي الإخلاص للعقيدة والتضحية للمبدأ والمصابرة في الجهاد والمؤاخاة في الله. وهذه الصفات التي زود الله بها رسوله الكريم لتبليغ رسالته وتمكين أمره، هي عدة كل دعوة ووسيلة كل نهضة؛ وبدونها لا يتفق رأي ولا تجتمع كلمة ولا تؤدي سياسة. يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله ولرسول إذا دعاكم لما يحييكم، واعلموا أن الله يحمل بين المرء وقلبه، وأنه إليه تحشرون. يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول ولا تخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون)

أسأل الله المسلمين عامة ولهذا البلد خاصة هَديْا وسدادا، وعونا وإسعادا، وألفة

واتحادا. إنه واسع الفضل عظيم الطول سميع الدعاء.

محمد مصطفى المراغي

يهتمون به فهل يعرفونه؟

للأستاذ عباس محمود العقاد

العصر الحاضر من العصور التي اشتد فيها الاهتمام بالعالم الإسلامي بين جميع الدول الكبرى

لأن هذه الدول على وشك القتال، وتعلم كل منها ولا ريب أنها غانمة رابحة. وأنها كبيرة الأمل في النصر إذا ظفرت من اليوم بمودة الشعوب الإسلامية؛ وهي موزعة في المواقع التي تحوم حولها المطامع ويتأشب فيها النزاع

فاليابان تنادي بمبدأ (آسيا للأسيويين) وتعني بذلك أن (آسيا لليابانيين) وتعرف ما تكسبه في أسواق التجارة وفي ميادين الحرب إذا هي استمالت إليها مسلمي الصين والهند وما وراءهما من أواسط آسيا، فضلاً عن المسلمين في جزر الهند، وهم أصحاب شأن عظيم في تلك الأرجاء

والولايات المتحدة لا يسعها أن تنسى الاهتمام بشيء يهتم به اليابانيون، وبخاصة كل شيء تكون له علاقة بالصين والفليبين وشواطئ المحيط الهادي في عدوتيه

والدولة الشيوعية الكبرى - وهي الروسيا - تقف لليابان بالمرصاد في القارة الآسيوية، وتتودد إلى المسلمين هناك، وهي حائرة لا تدري هل تهدم الشعائر الدينية تطبيقاً لمذهبها فتغضب المسلمين وتدفع بهم إلى أحضان خصومها، أو تبقي على الشعائر الدينية فتغضب دعاتها ولا تستطيع التوفيق بين برامجها في الأرض الروسية وبرامجها في البلاد التي تصاقبها وتبادلها المعاملات التجارية والسياسية.

ولا تتخلف (الفاشية) في المضمار، بل يبرز على رأسها (موسوليني) منادياً بأنه (حامي) الإسلام ونصير المسلمين، ولو كان على نصيب من (الحذق الاستعماري) أوفى من هذا النصيب لعلم أن الإيمان بالدين وقبول حمايته من غير أهله نقيضان في المنطق والشعور على السواء، ولاسيما من وجهة النظر الإسلامية التي تفرض على المؤمن بها حماية نفسه في وجه المغيرين عليه

أما الدول الديمقراطية فهي تقابل المساعي اليابانية والمساعي الشيوعية والفاشية بالتوجس والحيطة. وتريد أن تقاومها فتعمد إلى عقد المحالفات وفض المشكلات وتوحيد المصالح

بينها وبين العالم الإسلامي في حالتي الهجوم والدفاع، وتفتح لها الطريق في هذا المجال بريطانيا العظمى ثم الجمهورية الفرنسية

والعالم الغربي يعتقد اليوم أن (العالم الإسلامي) يتحفز ويتوثب، وأنه قوة رشيدة لا تعمل معاملة القاصر التابع لغيره، ولا مناص من حسبان حسابها لمن تربطه بها علاقة قريبة

كتبت مجلة (التاريخ الجاري) في عددها الأخير مقالاً جعلت عنوانه: (محمد يتهيأ للعودة) وعقبت بذلك عنوان آخر فحواه أن المسلمين رقدوا خمسمائة سنة وهم يتحركون الآن ويتوثبون إلى السلطان

ثم قالت: (في جزائر الفليبين وفي الجامعات المصرية، في قصور الملوك الشرقيين وفي خيام التتار المرتحلين، على الكراسي البرلمان اليوغسلافي وبين أكواخ الزنوج عند الشاطئ الذهبي، في آجام أفريقيا وفي صحارى آسيا، يترقب السلمون كل يوم بل كل ساعة مطلع المهدي الذي يتجسد فيه محمد عليه السلام، وقد تيقظت قوة الإسلام واتخذت لها شكلا سوياً في عالم السياسة، ولا تزال (التعاليم المحمدية) سارية منتشرة بين الشعوب الملونة التي تجد من المقاربة بين إدراكها وبين هذا النوع من التوحيد ما ليست تجده في المسيحية أو اليهودية. وهنالك عامل آخر من عوامل هذه الحركة وهو إخصاب الشعوب الإسلامية وتوالدها. فإن الشعوب البيضاء تصاب بالعقم وقلة النسل بينما يتوالد المسلمون كالأرانب!)

وعلى هذا الاهتمام باليقظة الإسلامية وهذا الإيمان بقوتها هل تراهم يعرفون الحقائق عن الإسلام أو عن أخبار المسلمين الجوهرية؟

إن مجلة (التاريخ الجاري) من أوثق المجلات الأمريكية خبراً واصدقها بحثاً، ومع هذا ترى الخلط فيها بين نهضة الإسلام وبين ما تسميه انتظار المهدي الذي يتجسد فيه

وترى قبل ذلك أنها تمهد لمقالها فتقول: (في كل يوم من أيام الجمعات يقف خمسة وعشرون ألفاً من رعايا الولايات المتحدة خاشعين مكتوفي الأيدي متوجهين إلى الشرق يصلون إلى الله ويسألونه قرب ظهور المهدي المنتظر. فإن أبناء الإسلام هؤلاء قد حافظوا على عقيدتهم الغامضة في رجعة مسيحهم كمحافظة المائتين والخمسين مليوناً من إخوانهم الموزعين بين مراكش وجزائر سنداي وبين مدغشقر وأرض المغول)

فأين العلم بالإسلام وبنهضة المسلمين ممن يكتبون هذه الكتابة وهم محسوبون بين أبناء وطنهم ممن يحسنون الخوض في هذه الشؤون؟

على أن الجهل بالأخبار الواقعة لا يقل عن الجهل بالعقائد النفسية والشعائر الدينية، فقد كتبت مجلة أمريكية أخرى اسمها (أخبار الأسبوع) تقول بعنوان: (الخليفة فاروق):

(لما دخلت تركيا الحرب في سنة 1914 أعلن السلطان عبد الحميد (هكذا) باعتباره خليفة المسلمين الدعوة إلى الجهاد أو الحرب المقدسة على الحلفاء الكافرين، وقد فشلت هذه الدعوة ولكنها كلفت بريطانيا العظمى وفرنسا وهما تحكمان مائة مليون وستة ملايين من المسلمين نفقات جمة في مقاومتها بدعوة أخرى، وبذلت الدولتان تلك النفقات وهما خائفتان.

(ثم ألغى كمال أتاتورك الخلافة في سنة 1934 بعد إقصاء السلطان.

(ثم قام موسوليني ينادي بأنه حامي الإسلام ويستثير العرب على بريطانيا العظمى في فلسطين وغيرها من البلاد. وشاع أنه أراد بعض حكام العرب من أصدقائه على أن ينصب نفسه للمبايعة بالخلافة، وإن كان الأمل في نجاح الجهاد اليوم أضعف من ذلك الأمل في سنة 1914 مكتفياً بما تستطيع تلك الخلافة من المضايقة في بعض الأحوال).

وبعد أن أشارت المجلة إلى منافسة بريطانيا العظمى في هذه الحلبة قالت ما خلاصته أن صاحب الجلالة الملك فاروق بويع في الأسبوع الماضي بالخلافة في مسجد قيسون العظيم، وأن خمسمائة ضابط هتفوا فجأة للخليفة الفاروق! وأن أمراء العرب شهدوا ذلك الحفل كأنما كان شهودهم إياه من قبيل المصادفة.

هذه أمثلة من جهلهم بعقائد المسلمين وأخبار بلاد المسلمين، وهم يهتمون جد الاهتمام بنهضة المسلمين.

ويرجع هذا الخلط إلى أسباب: بعضها مقصود، وبعضها غير مقصود.

فمن الأسباب ما هو مقصود لأغراض سياسية أو تجارية كتمثيل المسلمين في صورة تسوغ للدول المستعمرة أن تعاملهم معاملة المتأخرين الذين لا يصلحون لقوانين الحضارة وقواعد الحرية

ومن الأسباب ما هو مقصود لأغراض فنية ونعني بها الرغبة في التأثير والإغراب وتشويق القارئ إلى العجائب التي لا يألفها في بلاده وبين أبناء وطنه. ومن الكتاب الغربيين من يتعمد التحريف في أخباره لأنه يخشى أن (يخيب أمل) القراء فيه إذا أصغوا إليه ليحدثهم عن شعوب الشرق وأحوال الإسلام فإذا هو يحدثهم بما يألفونه ولا يستغربونه ولا يحققون به تلك الصور المزخرفة التي طالما تخيلوها وحلموا بها وهم يقرءون ألف ليلة وليلة ويستعيدون ما نقل إليهم من أقاصيص الرحالين في الزمن القديم.

أما غير المقصود من الأسباب فمنشأه قلة الاكتراث وصعوبة البحث وعزلة المسلمين في العصور الماضية وسماع أخبارهم من جهلاء بينهم لا يفقهون أسرار دينهم ولا يبالون ما يهذرون به من عقائدهم وعاداتهم ولا يدركون الفرق بين ما تعودوه ودرجوا عليه وبين ما هو من حقائق الإسلام وشعائره الصحيحة.

على أن الذي يعنينا حق العناية هو أن نعلم نحن حقيقة الغربيين، لا أن يعلموا هم حقيقتنا، وينفذوا إلى الصحيح من أخبارنا ومقاصدنا، وإن كان علمهم بهذا نافعاً لنا كلما تيسرت وسائله في أيدينا.

والذي يبدو لنا من العلم بحقيقة القوم أن العالم الإسلامي خليق أن يعامل كل من يعامله منهم على سنة الإنصاف والمنفعة المأمونة العواقب، وكل ما ينبغي أن يحذره هو الإصغاء إلى دعاة الشيوعية والإصغاء إلى دعاة الفاشية، وأن يكون ذنباً في أعقاب

الديمقراطية، فإذا استطاع أن يمشي مع الأمم الديمقراطية الحرة في الطليعة فلا عليه بعد ذلك أن يعامل من يشاء على سنة الإنصاف والنظر البعيد إلى العواقب الأمور.

عباس محمود العقاد

عمر في بيت المقدس

للدكتور عبد الوهاب عزام

- 1 -

هذا عام ستة عشر من الهجرة، وقد انساحت جيوش المسلمين في الشام والعراق وفارس وألقت أقاليم الشام بالمقاليد إلا فلسطين. وأبو عبيدة ابن الجرّاح يحصر بيت المقدس، وقد ملأ الأسماع والقلوب بأس المسلمين وعدلهم ووفاؤهم عزم أهل بيت المقدس أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس - في عهد المسلمين وحمايتهم وعدلهم، ورغبوا أن يكون صاحب عقدهم عمر. . . عمر الذي ملأت سيرته الآفاق وسكنت إلى عهده النفوس، واشتاقت إلى رؤيته العيون

وفصل عمر عن المدينة في جمع من الصحابة ومعه مولاه أسلم. خرج يغذّ السير إلى الشام ليتفقد أحوال المسلمين، ويصالح أهل فلسطين . . .

ويمضي في طريقه حتى يبلغ أيلة. ويتنظّر الناس موكب أمير المؤمنين يحسبون أنه سيطلع عليهم في زينته يحيط به جنده ورجاله. والذي رأى منهم هرقل حين فتح بيت المقدس قبل عشر سنين، أو شهده من بعدُ في حلّ أو ترحال، تخيل عمر قادم في موكب كموكب هرقل أو في موكب دونه ولكنه موكب ملك أو أمير

ولما دنا عمر من أيلة تنحى عن الطريق وتبعه غلامه فنزل فمشى قليلاً (ثم عاد فركب بعير غلامه وعلى رحله فَرو مقلوب وأعطى غلامه مركبه). وكأن عمر خاف أن يداخله الزهو وهو على مركبه في غير زينة فآثر أن يشعر نفسه أنه وخادمه سواء فتحول إلى رحل غلامه. فلما تلقاه أوائل الناس قالوا: (أين أمير المؤمنين؟ قال: أمامكم (يعني نفسه). وذهبوا إلى أمامهم فجازوه حتى انتهى هو إلى أيلة فنزلها. وقيل للمتلقين: قد دخل أمير المؤمنين أيلة ونزلها. فرجعوا إليه)

ونظر الناس إلى رجل طويل جسيم أصلع أشقر شديد الحمرة كثير السَبلة في أطرافها صهوبة وفي عارضيه خفة - رجل لا تقع العين منه إلا على الوقار والتواضع والشدة في الحق والرأفة بالضعفاء. رأوا ملكاً في زي ناسك، وراعي أمة في صورة راعي ثلة. رأوا إنساناً لا تفقد فيه الإنسانية حقيقة من حقائقها، ولا يصيب فيه الجبروت باطلاً من أباطيله.

اجتمع الأساقفة والرهبان يرون رجلاً في يده الدنيا ولكنها ليست في قلبه، يملكها ولا تملكه، ويصّرفها ولا تصرّفه، ويستبعدها ولا تستبعده. وليس شيئاً أن تكون زاهداً في صومعة ولكن العظمة كلها أن تكون زاهداً والدنيا تحت قدميك.

ودفع عمر قميصاً له كرابيسَ قد إنجابَ مؤخرُه عن عقدته من طول السير، إلى) الأسقف وقال: أغسل هذا ورقعه. فانطلق الأسقف بالقميص ورقعه، وخاط له آخر مثله فراح به إلى عمر؛ فقال: ما هذا؟ قال الأسقف: أما هذا فقميصك قد غسلته ورقعته؛ وأما هذا فكسوة لك منيّ. فنظر إليه عمر ومسحه ثم لبس قميصه ورد عليه ذلك القميص. وقال: هذا أنشفهما للعرق).

- 2 -

وسار عمر حتى نزل الجابية في وسط الشام التي غلب عليها هرقل، ولكنه دخل الجابية كما دخل أيلة. قدم (على جمل أورق تصطفق رجلاه بين شعبتي رحله بلا ركاب. وطاؤه كساء أنجاني ذو صوف، هو وطاؤه إذا ركب، وفراشه إذا نزل. حقيبة ممزقة أو شملة محشوّة ليفا هي حقيبته إذا ركب، وسادته إذا نزل، عليه قميص من كرابيس. الخ)

وجاءه رجل من اليهود، وكان اليهود يرقبون رَوح الله بأيدي العرب، ويدعون الله أن يفرج كربهم ويذهب عنهم جبروت الروم بأيدي المسلمين. قال اليهودي: السلام عليك يا فاروق، أنت صاحب إيليا، لا والله لا ترجع حتى يفتح الله إيلياء

وأقبل وفد بيت المقدس إلى الجابية فصالحوا، وكُتب لهم عهد شهد فيه خالد بن الوليد وعمر بن العاص وعبد الرحمن ابن عوف ومعاوية بن أبي سفيان. وأعطوا الأمان على

أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وألا يُكره أحد على الدين أو يضّار في شيء
وأزمع أمير المؤمنين المسير إلى بيت المقدس فإذا فرسُه يتوجّى فأتى ببرذون فركبه
ومشى البرذون مشيته فأسرع وهزّ راكبه فرأى عمر فيها خيلاء فنزل وضرب وجهه
وقال: لا علّم الله من علّمك، هذا من الخيلاء

دخل عمر بيت المقدس لا مدمراً مخرباً كما دخلها بختنصر، ولا مضطهداً أهلها كما دخلها
الرومان من قبل، ولا مزهواً بفتحه كما دخلها هرقل قبل عشر سنين بعد أن غلب
الفرس على الشام، ولكنه دخل رافعاً لواء التوحيد والعدل والأخوة العامة والمرحمة
الشاملة. دخل المدينة فسار إلى المسجد ليلاً ومضى إلى محراب داود فصّلى فيه.
وطلع الفجر بعد قليل ودوّى الأذان في أرجاء المدينة المقدسة للأول مرة - صيحة
الحق في أعقاب الباطل المهزوم ترفعها تباشير الصبح في أخيرات الظلام. وشهد الله
لقد كانت فاتحة الخير والسلم والكرامة لبيت المقدس ومن فيه. وقرأ عمر في الركعة
الأولى سورة (ص) وسجد حين قرأ آية السجدة: (وظن داود إنّما فتنّاه فاستغفر ربّه
وخّر راكعاً وأناب). ثم قرأ في الركعة الثانية أول سورة الإسراء - سورة بني إسرائيل
وفيه وصف ما أصابهم على يد البابليين
ثم تقدم إلى الكناسة - الكناسة التي تراكمت على البيت حين أخرب وهجر والتي عجز
اليهود أنفسهم عن إزالتها حين ملكوا أمر البيت - تقدم إلى الذلة المكدّسة على الحرم
- تقدم عمر ليزيلها عن البيت كما أزال عن أهله الظلم والقسوة. تقدم أمير المؤمنين
وجثا وقال: (أيها الناس اصنعوا كما أصنع وجثا في فرج من فروج قبائه)، وإنما فعل
عمر ما فعل تكريماً للبيت وتطهيراً وإيذاناً بهذا العهد عهد الطهارة والكرامة
وكبر كعب الأحبار وكبر الناس معه. قال عمر: ما هذا؟ قال: كبّر كعب وكبّر الناس.
قال عَليّ به. فقال كعب: (يا أمير المؤمنين إنه قد تنبأ بما صنعت اليوم نبّي منذ
خمسمائة سنة. فقال: وكيف؟ فقال: إن الروم أغاروا على بني إسرائيل فأديلوا عليهم
فدفنوه؛ ثم أديلوا فلم يفرغوا له حتى أغارت عليهم فارس فبغوا على بني إسرائيل، ثم
أديلت عليهم الروم إلى أن وليت، فبعث الله نبياً على الكناسة فقال: ابشري أوري
شلِم! عليك الفاروق ينقّيك مما فيك. أتاك الفاروق في الجندي المطيع، ويدركون
لأهلك بثأرك في الروم)
لقد لبث اليهود خمسمائة سنة ينتظرون أن تطلع شمس الإسلام، ويأتي الفاروق ليحثوا
التراب في قبائه ويأمر الناس بتطهير بيت المقدس
وما فقدوا رعاية الإسلام من بعدها، إلا تسعين عاماً غلب فيها أهل الصليب فأصاب
البيت المقدس ما أصابه حتى أسترجعه رجل من رجال المسلمين، ملك يتشبه بعمر
بن الخطاب في الإشادة بعدل الإسلام ومرحمة الإسلام. رحم الله صلاح الدين يوسف
ابن أيوب
ولكن بني إسرائيل حين رأوا الزمان ينيخ على المسلمين بكلكله لم يأتوا عوناً للعرب
والمسلمين، ولم يذكروا فضل الإسلام ولا حفظوا يد عمر، ولا اعترفوا برعاية
المسلمين وحمايتهم ثلاثة عشر قرناً، بل جاءوا يجزون الحسنة بالسيئة، ويعينون
الخطوب على الذين دفعوا عنهم الخطوب، ويناصرون الأعداء على الذين أنقذوهم من
الأعداء، ويمالئون الذين دفنوا بيت المقدس على الذين رفعوا عنه التراب والرجس
والهوان
وليت شعري ماذا ينقمون من المسلمين والعرب؟
(يا أهل الكتاب هل تنقمون منّا إلا أن آمنّا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم)؟
يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم، وأوفوا بعهدي أوفِ بعهدكم وإياي)
(فارهبون
عبد الوهاب عزام
من الفتوة العربية
الشاعر الفارس
أبو محجن الثقفي
للأستاذ أحمد حسن الزيات

- 1 -
كانت (المدينة) يومئذ عاصمة الإسلام، وعمر الجبار العادل يحمل بيده القوية مَشعل محمد فيرسل أضواءه السماوية إلى الجهات الأربع، والفرسان المسلمون في القادسية يَثُلّون العرش المجوسي ليقيموا على قواعده الكسروية منبر الهدى والسلام. وكانت الجزيرة العربية لا تزال معلقة بين السماء والأرض، ترفعها الروحية الإسلامية إلى أعلى، وتجذبها المادية الجاهلية إلى أسفل. وكانت مدن الحجاز الثلاثُ: مكّة والمدينة والطائفُ مظهرَ الفتوة العربية، لأنها مجمع السيادة والقوة، ومنبع الرفاهة والثروة. والفتوة العربية وإن جمعت أطراف المروءة كانت تدور على ثلاثة الشاعر الشاب طَرفَة، وهي الحب والشرب والحرب، ثم تصوير كل أولئك بالشعر الغنائي الرقيق. ولم تستطع هوادة الإسلام ولا صرامة عمر أن تكفكفا نوازي الهوى في نفوس نشأت على فتون الجهالة ومرَح الشّرك؛ فكان في أبطح مكة، وعقيق المدينة، وغزوانِ الطائف (مساحبُ من جَرَّ الزَّقاق على الثُرى) لا تزال معطرة الأديم بمناجاة الحب، ومطارحة الشعر، ومناقلة الحديث. وكان وادي العقيق في العاصمة المنورة قلما يفيض دون أن تنتظم على حواشيهِ الخضر مجالس الشراب وسوامر الأحباب يتساقون في غفلة العيون كؤوس الراح والصبابة؛ ولكنهم ما كانوا يستطيعون أن يغيبوا عن عيون العَس ولا أن يفلتوا من يد الخليفة مهما تستروا بالليل وتحصنوا بالبعد في صبوة من هذه الصبوات الليلية الجاهلية قبض العسس العُمَري على الشاعر الفارس أبي محجن وهو عائد في نداماه من العقيق يتماوَح من السكر وينشد في تطريب وهِزَّة:

إذا مت فادفني إلى أصل كرمة ... تُرَوِّي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفني بالفلاة فإنني ... أخاف إذا ما مت ألا أذوقها

وأبو محجن - إن كنت لا تعرفه - رجل من سروات ثقيف، درج في رياض الطائف وكرومه، ونشأ على فتوة أهله وصبوة شبابه؛ فهو رضيع كأس، وتِبعُ نساء، ومِسْعر حرب، وصناجة شعر، وصِنو مروءة. أسلم هو قومه في أخريات الناس حين لم يكن من الإسلام بد، ودخل في دين الله بما ورث وكسب من عادِ الجاهلية، فأخذ يروضُ نفسه الصعبة على الوقوف عند حدود الله، فكان يخفق مراراً وينجح مرة، حتى أقنعه اليأس آخر الأمر أن لا بأس من الشراب مادام يطهره الحد، وأن لا َصْير من الحب مادامت تمحصه التوبة!

على ذلك عشق (شموس) الأنصارية وركب إلى رؤيتها المحظورة شيطانه المحتال، فتزيا بزي فلاح وعمل أجيراً في بستان يطل على دارها، فكان ينعم بالنظر والسمع، وربما تمتع بالسلام والحديث، ثم يعود فيسلسل الماء بين البقول والزهور ويتغنى بمثل قوله:

ولقد نظرت إلى شموس ودونها ... حرَجُ من الرحمن غير قليل

وعلى ذلك أيضاً كان يتتبع هو ونداماه رياض الأرض، يشربون ويطربون ثم يرجعون إلى المدينة نشاوى من القصف والعزف فلا تنم عليهم عين ولا يشي بهم لسان، حتى وَلي الخلافة الفاروق فطارد الجريمة في كل مكان، وهاجم الرذيلة في كل مكمن

- 2 -

دخل العسس بأبي محجن وندمائه على عمر، فسألهم:

- أشربتم الخمر بعد أن حرمها الله؟

فأجابه لسان القوم أبو محجن:

- كيف حرمها الله يا أمير المؤمنين وهو يقول: ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طمعوا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات؟

فوقف صاحب رسالة القضاء من حجة الشاعر موقف الحائر؛ ثم التفت من حوله من صحابة الرسول يستمد رأيهم في الأمر فاختلفوا فيه. فأرسل إلى علي مرجع الفتوى وفيصل الحكم يستشيره، فقال: (أن كانت هذه الآية كما يقولون فينبغي أن يستحلوا الميتة والدم ولحم الخنزير. وأرى إن كان قد شربوا الخمر مستحلين أن يقتلوا، وإن كانوا شربوها مستحرمين إن يُحدُّوا. فسألهم عمر، فقالوا: والله ما شككنا في أنها حرام، ولكنا قَدَّرنا أن لنا فيما قال نجاة. فجعل يجلدهم رجلاً رجلاً حتى انتهى إلى أبي محجن، فلما جلده جعل يقول:

وإني لذو صبر وقد مات اخوتي ... ولست عن الصهباء يوماً بصابر
رماها أمير المؤمنين بحتفها ... فخلانها يبكون حول المعاصر
فقال له عمر: قد أبديت ما في نفسك، ولأزيدنك عقوبة لإصرارك. فقال الأمام عليّ حجة القضاء وولي العدل:
- ما ذلك لك يا عمر. وما يجوز أن تعاقب رجلاً قال لأفعلن وهو لم يفعل. وقد قال الله في الشعراء: وأنهم يقولون ما لا يفعلون. فقال عمر: إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات. فقال علي: أهؤلاء عندك منهم؟ لقد سمعت الرسول (ص) يقول: لا يشرب الخمر شارُبها وهو مؤمن.
نجا أبو محجن وما نجا. فأنه أصر على ألا يترك الخمر مخافة العقوبة، وأصر عمر على أن يجلده كلما شرب، حتى أعيا الخليفة أمره وأعجزه صلاحه، فقرر أن ينفيه إلى جزيرة كان ينفي فيها الخلعاء، ووكل به شُرَطياً يصحبه إلى المنفى وأوصاه أي يدع معه السيف فإنه كميٌّ فاتك. وعلم أبو محجن بالحكم والوصية، فتزود بغرارتين ملئتا دقيقاً، ثم عمد إلى سيفه فجعل نصله في غرارة، وغمده في غرارة. فلما بلغ هو والشرطي ساحل البحر قعدا للغداء، وفتح الغرارة يوهم أنه يخرج الدقيق ولكنه أخرج السيف! فلم يكد الشرطي يراه في يده حتى انطلق يعدو إلى بعيره فنجا به إلى المدينة بعد لأي.
وقال الشاعر لنفسه بعد تفكير وتدبير وعزم: لا ينبغي أن يكون المفر من عمر في الحجاز إلا إلى سعد في العراق
- 3 -
وفد أبو محجن على فاتح العراق سعد بن أبي وقاص يوم الكتائب من أيام القادسية؛ وكان سعد قد تلقى من أمير المؤمنين الساهر اليقظ كتاباً يأمره فيه بحبس الشاعر ساعة يفد. ودارت رحى الحرب بين العرب والفرس وأبو محجن مقيد في قصر القائد، فما كاد يسمع وغاها حتى عصفت النخوة في رأسه، وثارت الحمية في نفسه، واضطرب في حبسه اضطراب الأسد في قفصه. ثم زأر بهذه الأبيات على مسمع من سلمى زوج سعد:
كفى حزَناً أن تطعن الخيلُ بالقنا ... وأُتركَ مشدوداً عليَّ وثاقيا
إذا قمت عنَّاني الحديد وغُلِّقت ... مصاريع من دوني تُصم المناديا
هلم سلاحي لا أبالك إنني ... أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا
ولله عهدُ لا أخيس بعهده ... لئن فرجت ألا أزور الحوانيا
ثم قال يا سلمى: هل لك من خير إلي؟ فقالت: وما ذاك؟ قال: تخلين عني وتعيرينني البلقاء فرس سعد، ولله عليّ إن سلمتُ أن أرجع حتى تضعي رجليَّ في القيد. فترددت سلمى حتى تبينت الصدق في قوله فأطلقته. وركب أبو محجن البلقاء ثم دب عليها؛ حتى إذا تنفس الصبح وأشرق يوم أرماث واصطف الناس، حمل على ميسرة العدو حملة صادقة فانخلعت لها القلوب، وانخرعت منها الفيَلة، وتضعضت أمامها الفرس. وعجب العرب أن يكون فيهم هذا الفارس ولا يعرفونه، حتى قال أحدهم: إن كان الحضر يشهد الحرب فهو صاحب البلقاء. وقال آخر: لولا أن الملائكة لا يقاتلون ظاهرين لقلنا هذا ملك. وجعل سعد يقول وهو يشرف على المعركة: الطعن طعن أبي محجن، والضبْر ضبر البلقاء، ولولا محبسه لقلت إنه هو!
وانتصف الليل فتحاجز العسكران؛ وأقبل أبو محجن حتى دخل القصر ووضع رجليه في القيد!
وكانت سلمى قد رأت فعله وسمعت قوله فأعجبت بإبائه ووفائه وبطولته. ثم دخلت على سعد وكانت مغاضبة له، فصالحته وأخبرته بخبر أبي محجن، وسألته أن يطلقه. فأستخف سعداً ما رأى من فتوة أبي محجن ورضا زوجه، فدعاه وقال له وهو لا يزال في حماسة الإعجاب ونشوة الغبطة: والله لا أحبس بعد اليوم رجلاً نصر الله المسلمين على يده هذا النصر، ولا أعاقبه إذا شرب. فقال له أبو محجن وقد بدت على محياه سماتُ النبل ودلائل المروءة:
- وأنا والله لن أذوقها بعد الساعة. لقد كنت أشربها أنفةً من أن يقول خاف الحد، فأنا اليوم أتركها رغبة في أن يقولوا خاف الله!
أحمد حسن الزيات

المرأة في شباب الرسول
للأستاذ توفيق الحكيم
لم يرو لنا التاريخ أن النبي عرف امرأة أو تحرك قلبه لامرأة قبل خديجة. فلقد كانت حياته حتى الخامسة والعشرين حياة الشاب الهادئ البعيد عن النساء، العاكف على عمله، يرعى الغنم في الفلاة ويلجأ إلى التأمل العميق. فلم يكن للهو والمرأة حتى ذلك الوقت مكان من اهتمامه أو تفكيره. كل ما ورد مع ذلك من أخبار لهو الشباب أنه قال ذات ليلة لفتى من قريش كان معه بأعلى مكة يرعيان غنم أهلها: (أبصر لي غنمي حتى أسمر هذه الليلة بمكة كما يسمر الفتيان). ثم خرج. فلما جاء أدنى دار من دور مكة سمع غناء وصوت دفوف ومزامير، فجلس يلهو بذلك الصوت حتى غلبه النعاس فنام في مكانه ولم يوقظه إلا مس الشمس. فرجع إلى صاحبه فسأله: (ما فعلت؟) فأخبره بما كان. وكان هذا شأنه في كل ليلة من مثل هذه الليالي
كانت العفة المطلقة إذن هي صفته الغالبة؛ وكانت الزهد والحلم والصبر والتواضع ما ميزه عن بقية الشبان، وما جعل قومه يسمونه (الأمين).
ما الذي كان يشغل رأس الشاب محمد في تلك السن مادام اللهو والمرأة لا محل لهما عنده؟ أتراه كان يحس في قرارة نفسه بمصيره العظيم؟ نعم.
ولعل هذه الفكرة تملكت كيانه وطغت على كل شبابه فلم تتسع حياته في ذلك الوقت لشيء آخر.
لقد كان هذا دائماً شأن أغلب أولئك الذين انتظرتهم أقدار عظام، وتملكتهم منذ شبابهم مثل عليا وأحلام، عمرت كل أعوام شبابهم وحلت فيها محل اللهو والمرح.
إن كل شاب يعيش مع شبح امرأة جميلة إلا الشاب الموعود برسالة عظمى فهو يعيش دائماً مع شبح المجد المنتظر.
لعل هذا يفسر لنا بعض الشيء حياة الفتى محمد حتى الوقت الذي لقي فيه أول امرأة أحبها (خديجة). وإنّا لو تأملنا الأمر ملياً لتبين لنا أنه لم يكن البادئ بالحب. كل شيء يدل على أن الزواج لم يخطر له على بال، والزوجة والمرأة آخر ما كان يفكر فيه وقتئذ، فلقد كان يسير في طريق تأملاته الداخلية وأحلامه العليا، وكأنه لا يمشي على هذه الأرض إلى أن
لحظته خديجة ذات يوم ولمست كتفه فأفاق قليلاً ورفع عينيه إليها.
نعم. إنها هي التي كانت ترقبه منذ زمن؛ وأن لشعورها نحوه جذوراً ممتدة في أغوار قلبها، امتداد عرق الذهب في المنجم العميق. ما مبدأ هذا الشعور؟ لعله ذلك اليوم الذي احتفلت فيه نساء قريش بعيد لهن، وكانت خديجة بينهن عند وثن من الأوثان فبرز لهن أحد اليهود ونادى بأعلى صوته: يا نساء تيماء! إنه سيكون في بلدكن نبي يقالا له محمد، فأيما امرأة استطاعت أن تكون له زوجاً فلتفعل!) فقذفته النساء بالحجارة وقبحنه وأغلظن له، إلا خديجة فأنها أطرقت وكأن شيئاً وقع في نفسها من كلامه.
ثم حدث بعد ذلك أن خديجة - وقد كانت ذات مال كثير وتجارة تبعث بها إلى الشام وتستأجر من أجلها الرجال - أرسلت الشاب (محمداً) في تجارتها وضاعفت له الأجر وأرسلت معه غلامها ميسرة، فعاد رابحاً ضعف ما كان تربح التجارة على يد غيره، لأمانته واجتهاده
وقص عليها عندئذ غلامها (ميسرة) وقد راقب محمداً في رحلته ما رآه من خلق هذا الشاب المستقيم الأمين، ولعله أخبرها فيما أخبر أن أحد الرهبان قابله، وأنهما تذاكرا ملياً في أمر النبي الموعود المسمى (محمد) كل هذا مع ما تشبعت به الأذهان من أساطير النبوة المنتظرة قد ألقى في روع خديجة أنها أمام شاب لا يبعد أن يكون هو النبي الموعود.
فإذا أضفنا إلى كل هذا أن محمداً كان فتى في الخامسة والعشرين كريم الخلق جميل المنظر، وأن خديجة كانت امرأة في الأربعين، أدركنا أن مثلها كان لابد له أن يحب مثله. وهل يمكن أن يسمى هذا الشعور باسم آخر غير (الحب)؟ ذلك الذي يدفع امرأة ذات شرف وثروة أن تبدأ هي الخطوة الأولى نحو فتى فقير يتيم؟ هي التي قد تقدم إليها أكرم رجال قريش نسباً وأعظمهم شرفاً وأكثرهم مالاً، طلبوها وبذلوا لها الأموال فلم تلفت إليهم، وأرسلت تابعتها (نفيسة) دسيساً إلى الشاب محمد تعرض عليه يدها منبع الحب إذن كان قلب (خديجة)، ولقد كان هذا الحب سامياً قوياً عظيماً فاستطاع

أن يفتح قلب محمد وأن يملأه كل تلك الأعوام التي عاشتها خديجة، بل إن الحب لم ينطفئ بموت خديجة، ولقد ظل مكانها من قلبه قائماً دائماً لم تستطع قط امرأة أن تزاحمها فيه.

هذا هو حب محمد الأول، وتلك ناحية من نواحي الفضل المجهولة لم يذكرها الناس كثيراً
لخديجة بما هي أهله من التكريم والتمجيد.

توفيق الحكيم

أعظم يوم في تاريخ العالم

للأستاذ عبد العزيز البشري

لاشك عندي في أن أعظم يوم في تاريخ العالم على الإطلاق، هو اليوم الذي هاجر فيه محمدُ (ص) وصاحبه من مكة إلى المدينة. فإذا كنت في حاجة إلى دليل، فسيطالعك بعد قليل.

يرى المستعرضُ لتاريخِ الأديان ودعوة الرسل أنها جازت بمراحل ثلاث، طوعاً لتطور الإنسان من البساطة والغفلة والوحشية إلى أن أصبح كفؤاً للحياة المفكرة المدّبرة التي تطلب السمو، وتنشد السعادة في ظل الأمن والنظام.

الطور الأول:

ففي الطور الأول كانت بعثة الرسل مقصورة على الدعوة إلى الإيمان بالله ورسوله، والأمر بأمهات الفضائل، والنهي عن كبريات الرذائل، كما كان وعيد مخالفين الكائدين وتعذيبهم وإرسال العبرة بهم بالغاً غايةَ الرَّوعة في الفتك والعصف والتنكيل.

فلقد أهلك الله قوم نوح، بعد إذ عصَوْه وتحدَّوا دعوته، بإغراقهم أجمعين. قال تعالى: (حتى إذا جاء أمرُنا وفار التنورُ قلنا احمل فيها من كلٍّ زوجين اثنين وأهلَك إلا من سبق عليه القولُ ومَن آمَن، وما آمن معه إلاَّ قليل. وقال أركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها، إن ربي لغفورٌ رحيم. وهي تَجري بهم في موجٍ كالجبال، ونادى نوحٌ أبنه، وكان في معزلٍ، يا بنيَّ، اركب معنا ولاتكن مع الكافرين. قال سآوي إلى جبلٍ يعصمني من الماء. قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلاَّ من رحم، وحال بينهما الموجُ فكان من المغرَقين):

(سورة هود)

ومن هؤلاء المخالفين من أهلكوا بالريح العاصفة. قال تعالى: (وأما عادٌ فأهلِكوا بريحٍ صَرْصَرٍ عاتية، سَّخرها عليهم سبعَ ليالٍ وثمانية أيامٍ حُسوماً، فترى القومَ فيها صرعى فيها كأنهم أعجاز نخلٍ خاوية. فهل ترى لهم من باقية): (الحاقة) وقال تعالى: (كذبت عادٌ فكيف كان عذابي وُنذُر، أنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمرَ، تَنزعِ الناسَ كأنهم أعجاز نخلٍ مُنقعر، فكيف كان عذابي ونُذُر) (القمر) وأما ثمود فَأهلَكوا بالصواعق والزلازل. قال تعالى: (فأخذتهم الرَّجفةُ فأصبحوا في دارهم جاثمين) (الأعراف).

وقال تعالى: (وأخذ الذين ظلموا الصيحةُ فأصبحوا في ديارهم جاثمين كأن لم يغَنوا فيها) (هود).

وقال تعالى: (وفي ثمودَ إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين، فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقةُ وهم ينظرون): (الذاريات).

أما قوم لوط، فانظر ماذا أُخذوا به من العقاب الشديد. قال تعالى: (فلما جاء أمُرنا جعلنا عاليَها سافَلها وأمطرنا عليها حجارةً من سجِّيلٍ منضودٍ مسوَّمةً عند ربك. وما هي من الظالمين ببعيد) (هود).

وقال تعالى: (فأخذتهمٍ الصيحةُ مشرقين، فجعلنا عاليَها سافلَها وأمطرنا عليهم حجارةً من سِجيَّل، إن في ذلك لآيات للمتوسمين) (سورة الحجر).

ونكتفي بهذا القدر اليسير في الاستشهاد بما كان يُؤخذ به العُصاة الكائدون من ألوان العصف والخسف والتنكيل والتدمير

وقبل أن نتحول إلى الحديث في الطور الثاني نرى من الخير أن ننبه إلى أن انقسام التاريخ إلى مراحل أو أطوار، ليس معناه أن مرحلة تبدأ من حيث تنتهي سابقتها على الضبط والتحديد، ولا أن التطور من حال إلى حال يحدث دفعة واحدة، بل إن المراحل لَيتداخل بعضها في بعض كما أن التطور لا يكون إلا بالتغير من طرفيه جميعاً بالنقص

من هذا وبالزيادة من هذا، حتى يتلاشى القديم ويحل محله الجديد، وهكذا. وكذلك يكون التطور في كل شيء في هذا العالم

الطور الثاني:

أما الطور الثاني فمن أظهر مظاهر الترفُّق بعض الشيء في النُّذُر، والتخفيف في فنون العقوبات وسعة الدعوة وتبسّط التشريع، سواء في العبادات أو في المعاملات بين الناس. وفي هذا الطور أيضاً كانت تعتمد الدعوة، بقدر كبير، على تحدي بالمعجزات، حتى لقد انتهى هذا الطور بكف العقوبات وتفرد المعجزات

أما الترفق في النذر والتخفيف في ألوان العقاب، فلقد كان هذا التخفيف يتناول الكمَّ أو الكيف أو يتناولهما جميعاً. قال الله تعالى: (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون) إلى قوله: (فأرسلنا عليهم الطوفانَ والجرادَ والقُمَّل والضفادعَ والدم

آيات مفصّلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين. ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى أدعُ لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمَننَّ لك ولنرسلنَّ معك بني إسرائيل. فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون) سورة الأعراف

وقال تعالى: (ولقد أوحينا إلى موسى أن أسْرِ بعبادي فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دَركاً ولا تخشى. فأتبعهم فرعون بجنوده فَغشِيهم من اليم ما غَشِيهم وأضل فرعون قومه وما هدى) سورة طه

فأنت ترى أن ما أصاب آل فرعون من الجدب ونقص الثمرات وما أرسل عليهم من الطوفان والجراد الخ لم يبلغ من الشدة والروع بعض ما يبلغ العصف والدمدمة والخسف والتدمير. أما إغراق فرعون ومن أتبع بني إسرائيل من جنده فلعصمة الفارّين من كيدهم وبطشهم، والأمر لا يعدو هنا وقع الأذى على كل حال. على أن عددهم بالنسبة لجمهرة الكافرين الكائدين جدُّ قليل

وأما المعجزات فحسبك منها معجزات موسى عليه السلام إذ ألقى عصاه فإذا هي حية تلقف ما يأفِك الساحرون وإذ ضرب بها الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً، وإذ ضرب بها البحر فانفلق فكان كلُّ فِرْقٍ كالطَّود العظيم

وحسبك منها معجزات عيسى عليه السلام. قال تعالى: (ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرِئ الأكمهَ والأبرصَ وأحيي الموتى بإذن الله، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم، إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين). (آل عمران)

الطور الثالث:

وبعد فإن بمعجزات عيسى عليه السلام، قد ختُم هذا الضربُ من الخوارق التي تجري على أيدي الرسل، يتحدَّون بها المخالفين المعاندين، ويثبتون بها أن ما جاءوا به إنما هو من عند الله، وكيف لا وقد أيدهم منها بما يخالف سنن الكون وينِدّ على طبائع الخلق

أما بعثة محمد صلى الله عليه وسلم، ففوق أنها تشارك بعثة عيسى عليه السلام في تجرُّدها من الأحداث التي مر بك بعض وصفها، فلا عصفَ ولا خسف، ولا رياحَ عاصفة، ولا زلازلَ مدمدمة، ولا شيء من هذا ولا ما دونه مما يزعج النفوس ويدخل الروع على القلوب - فإن معجزة محمد صلى الله عليه وسلم تمتاز بأمرين: الأول أنها لا خلاف فيها لسنن الكون ولا مغايرة فيها لطبائع المخلوقات، والثاني أنها باقية مستمرة لا تنقطع على طول الزمان. وقد عرفتَ من غير شك أن هذه المعجزة هي (القرآن)

وكذلك جعلت الدعوة الإلهية تتطور وتنمو بتطور الإنسانية ونموّها على الأحقاب إذن لقد نضجت الإنسانية أو أصبحت على وشك النضوج، وإذن لقد تجاوز الإنسان طور القِصَر وبلغ الرشد أو أضحى على شَرَف البلوغ

لقد أضحى الإنسان حقيقاً بأن يُرفع عن نفسه الحجر، وتُطلق له حرية التصرف في استنانه مناهج الحياة. إذ قد تهيأ له لو فكّر وتدّبر، أن يعرف ما ينفعه ما يضره، وما يسيئه في الغاية وما يسره، وأن يميز بين ما يسعده وما يشقيه، وما يعزه وما يرديه. فإذا أختلط عليه الأمر أو نَزَعت به العادة إلى الهوى، نُبِّه ذهنُه، وحُرِّك فكره، وُضربت له الأمثال، وأقيمت له الحجة يصول بها العقل كَل مَصال. (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي)

أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن)

الأعراف (يكون قد اقترب أجلهم، فبأي حديث بعده يؤمنون
أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلقت وإلى السماء كيف رُفعت وإلى الجبال كيف نُصِبت)
الغاشية. (وإلى الأرض كيف سُطحت، فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر
وهذان مثلان مما لا يدركه الحصر مما ورد في القرآن الحكيم
هذه دعوة محمد، وقد رأيت أن ما سبقها من دعوات الرسل إنما كان مقدمة لها
وطريقاً إليها
هي الدعوة التي تسعى بالإنسانية إلى غاية كمالها من الطريق إيقاظ العقل، والفَسح
في حرية الفكر، والتي تسعى بالإنسان إلى غاية سعادته من طريق اعتناق الفضائل،
والتجرد من الرذائل. فبكظم الشهوة، والعفة، والرحمة، والإيثار، تستطيع هذه
المجموعة البشرية أن تعيش على الأرض ناعمة بالرغد والدَّعة والسلام قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم: (بُعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق)
ولقد دعا محمد صلى الله عليه وسلم أول ما دعا، أهلَه وعشيرته من قريش، فكذبوه
وشاّقوه وآذوه وأسرفوا في الكيد له والعَنَت عليه. وكيف له باستعانتهم على بث
دعوته، ونشر رسالته التي أرسل بها للعالمين، إذ هم أشدُّ من كفر بها وصدّ عنها
وبغّض فيها ونفّر منها؟
ولكن يأبى الله إلاّ أن يُتم نورهَ. فلقد أسلم أهلُ يثرب وآمنوا بالله ورسوله، وأعدّوا
أنفسهم للذياد عن دينه مهما جشّمهم الأمر من التضحية في سبيل الله بالأموال
والأنفس والأولاد. هذا شعبٌ قويٌّ بَعدده، قويٌّ ببسالته، قويٌّ بإيمانه. يدعو الرسول
ليتسلّم زمامَه، ويتولّى قيادَه، ليثبّت من الإسلام دِعامَه، ويرفع أعلامَه، ويَبسط في
الأرض حكمَه وأحكامَه. وكذلك يهاجر محمد في سرّ من معشره العاتين إلى المدينة،
حيثُ يعز الله الدين، ويذُل الشرِك، ويفتح الله لنبيه الفتح المبين، وينصره النصر العزيز
وتعلو كلمةُ الإسلام في العالَم ويسود حكُمه أقطارَ الأرض. ثم لا يمضي أكثرُ من قرن
ونصف قرن حتى ينشئ بفضل تحكيم العقل وإطلاق حرية الفكر أزَهى حضارة عرفها
التاريخ، تجود في ظلها القرائحُ بأجدى العلوم وأندى الفنون، مما لا تزال آثاره، ولو
على أيدي غير أهله، ثابتةً على وجه الزمان!
أرجو أن تكون أنت أيضاً قد آمنتَ بأن يوم الهجرة هو أعظمُ يوم في التاريخ
عبد العزيز البشري
قومي بين الشرق والغرب
للأستاذ محمود غنيم
قومي لأنتم عبرةُ الأقوامِ ... هل تُنْسبون ليافثٍ أو سامِ؟
أبناء عمي من نزارَ ويعربٍ ... ليسوا بأعراب ولا أعجامِ
يترسمون الغرب حتى يوشكوا ... أن يعبدوه عبادة الأصنام
ما قلدوهم مبصرين وإنما ... تبعوا نظامهمُ بغير نظام
للغرب عادات كغازات سرت ... في الشرق مسرى الداء في الأجسام
إني رأيت جيوشه لم تغزنا ... في الحرب بل في ملبس وطعام
لا تأمنوا للمستعمرين فكم لهم ... حرب تقنع وجهها بسلام
حرب على لغة البلاد وعادها ... ليست تُشَنُّ بمدفع وحسام
والشعب إن سلمت له عاداته ... ولسانه لم يخش قطع الهام
ما صاغ ربك من نضار خالص ... شعباً، وشعباً من حصى ورغام
هي محض أوهام أعيذ الشرق من ... أمم تعيش أسيرة الأوهام
أني أعيذ الشرق من متمسَّح ... بالأجنبي لقومه هدام
إنْ لاَمَ غربيٌّ على أوطانه ... أنحى بلائمة مع اللوام
وإذا رنا نحو الغريب فإنما ... يرنو بمجهر راصد الأجرام
وإذا أعار بني أبيه نظرة ... فبمقلة الأعمى أو المتعامي
والعين تخدع ربها. ولربما ... خلقت عمالقة من الأقزام
وإذا تنكر للحمى أبناؤه ... فهمو أضرُّ له من الأخصام
ما بال بحر الروم من يجتازه ... يوماً تناسى سالف الأيام؟
فإذا به خلق جديد. ما مضى ... من عمره حلم من الأحلام
تتغير الدنيا عليه فكلها ... في عينه نقص بغير تمام

هل تغرق العادات من أربابها ... في ذلك البحر الخضم الطامي؟
ما اجتاز شرقي عجاجة موجه ... إلا وعاد مزوداً (بمدام)
إن التكافؤ في الدماء فريضة ... ولو أنها لم تأت في الأحكام
وهو القران إذا تخالف أهله ... وطناً فعقدته لغير دوام
كم زيجة مازال يدَمي جرحُها ... ومن الجروح ذوابلٌ ودوام
لا أعرف العربي يكشف رأسه ... نحو المجالس مومئاً بسلام
إِنْ زِيرِ تخرجُ عِرسهُ من دونه ... للزائرين بثغرها البسام
بدوارس الأطلال يلحق أمه ... ويرى أباه رابع الأهرام
يعصي الإله. فإن أشارت عرسه ... بإشارة فالقول قول حذام
ويكاد يسلخ نفسه من قومه ... لو تُستطاع قطيعة الأرحام
ويكاد يمسخ خلقه لو كان في ... يمناه قلب معالم الأجسام
لا أعرف العربي يلوي فكه ... إن هَمَّ يوماً فكه بكلام
إن فاهَ تسمعُ لكنة ممقوتة ... من فيه سكسونيةَ الأنغام
لفظاً من الفصحى وآخر نابياً ... كالقار ممزوجاً بكاس مدام
لغة إذا قرعت بجندل لفظها ... أذن السميع شكت من الآلام
لهفي على الفصحى رماها معشر ... من أهلها. شلت يمين الرامي
لم يهتدوا لكنوزها فإذا همو ... يرمونها بالفقر والإعدام
الدر في طي البحور مخبأ ... والتبر - إن تنشده - تحت رجام
لن يستعيد العُرْب سالف مجدهم ... ولسانهم غرض لكل سهام
إن يرفعوا ما انقضَّ من بنيانهم ... فالضاد أول حائط ودعام
أبني نزار ويعرب أوصيكمو ... بذخيرتين الضاد والإسلام
إن جاءكم باسم الثقافة ملحد ... في دينه فطؤوه بالأقدام
العلم وضع العالمين وإنما الأ ... ديان وضع الواحد العلاّم
المسلمون على شتات ديارهم ... فرض الإله خضوعهم لإمام
الله بالجُمُعات وحَّد بينهم ... وبحج بيت في الحجاز حرام
دين ابن عبد الله دين باسمه ... قبض الرشيد على الورى بزمام
هو دولة كبرى وملك شامخ ... لا محض تكبير ومحض صيام
إن يُزْهَ شرقي بغير العرب من ... أجداده الأتراك والأروام
فأنا الفخور بأنني لا ينتمي ... للغير أخوالي ولا أعمامي
إن تسألوا عني إلى من أنتمي؟ ... فإلى رعاة النوق والأغنام
أبغير مجد بني نزارَ ويعرب ... يُزْهى عراقيٌّ ويفخر شامي؟
(مدرسة الأورمان)

محمود غنيم

صيانة العقيدة المحمدية من احتيال النفوس

للأستاذ عبد الرحمن شُكري

نقرأ في كتب السَير عن أناس من السلف الصالح بلغت نفوسهم من الصفاء والتغلب على احتيال الأهواء مبلغاً كان للإسلام حجة أعظم من ألف حجة ودليل من الحجج والأدلة النظرية، وقد بهرت سيرتهم وقدوتهم من عرفها من غير المسلمين فأجلوا ذلك السلف الصالح من أجلها وأجلوا المسلمين من أجلهم ولو أنهم كانوا لا يؤمنون به وامتدحوه كما يمتدح الأب إذا حسنت سجايا ابنه التي بثها فيه. ولكن لا شك أن روح العقيدة الواحدة تختلف في نفوس معتنقيها باختلاف تلك النفوس؛ فإن من الناس القاسي والرحيم والكريم واللئيم والشهم والوغد والمقبل على لذات الدنيا والزاهد فيها والوفي والغادر والعالم والجاهل والذكي والغبي، وقد يعتنق العقيدة الواحدة أناس من كل هذه الطوائف ولكل منهم صفات تغلب على نفسه وتصبغ آرائه وأقواله وأعماله بلونها، وكأنه لا يرى ولا يسمع ولا يحس ولا يعمل إلا وعليه رقيب من تلك الصفات وهي كالقيود لا يستطيع أن يخلص منها. والعقيدة في نفس معتنقها كالماء في الإناء يتخذ شكله؛ فإذا كان الإناء مستديراً كان الماء فيه مستديراً، وإذا كان الإناء مستطيلاً كان الماء مستطيلاً. وكذلك العقيدة تتخذ شكل النفس التي تعمرها. نعم إن العقيدة تخالط النفس والماء لا يخالط مادة الإناء ولا يحدث به أثراً؛ ولكن المشاهد

المحقق أن العقيدة تؤثر في النفس بعض الأثر ولكنها لا تستطيع أن تحول طبائعها، وإلا لو استطاعت لما وجد بين معتنقي العقيدة الواحدة الطاهر البريء والمجرم الأثيم والسمح الكريم والوغد اللئيم والذكي الفهيم وذو الفهم البهيم والرحيم والقاسي الزنيم. فالعقيدة فيما هو مشاهد في الحياة لا تحمل النفوس على أن تتخذ شكلاً واحداً بل تبقي النفوس على محامدها ومساوئها، وكما تؤثر العقيدة في النفس بعض التأثير تؤثر النفس في عقيدتها. ومهما اشتركت النفوس المتباينة في شعائر العقيدة فهو اشتراك عام لا يمنع اختلاف النفوس في تفضيل جانب على جانب ومظهر على مظهر من مظاهر الدين، فشكل العقيدة في النفس الغليظة القاسية الغبية غير شكلها في النفس الرحيمة الذكية، وتتخذ العقيدة الواحدة أيضاً أشكالاً مختلف في الأمم والأقاليم والأزمنة المختلفة وهي عقيدة واحدة ذات شعائر ومبادئ لا تتغير. والناس قلما يلتفتون إلى فروق روح العقيدة في النفوس المتباينة،

وقلما يحسبون حساباً لهذه الفروق بالرغم من أنها قد تجعل الرجلين وهما على عقيدة واحدة وكأنهما على عقيدتين بينهما من البعد مثل ما بين السماء والأرض، وإغفال هذه الفروق يؤدي إلى الاهتمام بمظاهر الدين أكثر من الاهتمام بروحه، والدين معناه في روحه الزكية، فإن رذائل النفوس قد تستولي على مبادئ الدين وتقاليده وعرفه وأخلاقه فلا تأخذ منها غير المظاهر بل إنها قد تزكي نفسها وتهون أمر تركها روح الدين وحقيقته وأخلاقه بالاندفاع في نصرة مظاهره والانفعال في نصرتها وقد يكون انفعالاً لا يُخْفي العقلُ الباطنُ أنه بسبب أن النفس في غيظ شديد من أن روح الدين تخالف أثرتها وفائدتها الدنيوية وأنها لا تستطيع أن توفق بين ورع روح الدين وعفته وبين مطالب الحياة فتضحي بورع روح الدين كي تنال الدنيا أو بعض مطالبها حسب استطاعتها ثم تظهر الغيرة على مظاهر الدين الذي ضحت بروحه وورعه وتغتفر تلك التضحية بتلك الغيرة، والنفس في احتيالها هذا ربما كانت معذورة إلى حد ما إذا لم تغال وتشتط وتقسو وتلوم وتؤذي الناس كي تعذر نفسها لدى نفسها التي ضحت بورع الدين وكفافه وعفته وهي تحسب أنها إذا لم تستطع صيانة روح الدين والتخلق بورعه كي تنال رضاء الله ونعيم الآخرة فهي ربما تنال رضوانه ورحمته ونعيمه بهذا الاحتيال فتجمع إلى نعيم الأخرى الانطلاق في طلب الدنيا وتكفر عن نبذها ورع الدين بالاقتصاص من غيرها وتجعل هذا الاقتصاص قرباناً إلى الله بدل أن تجعل قربانها الصفاء والزهد في الدنايا والعفة عما يتطلبه نيل حطام الدنيا. ولقد قلنا إننا نعذر هذه الروح ونرحمها إذا لم تشتط في هذه الخطة، نعذرها بعض العذر لضعف النفس البشرية ولضرورات الحياة وما تقهر الحياة النفس عليه من الدنايا، ولأن النفس الورعة التقية قد تتردد فيها بالرغم من ورعها هواجس وخواطر طلب الشهوات لنفسها فتحاول أن تكفر عن تلك الخواطر التي تخشاها بالقسوة على من تحبسه مطيعا لها ولأن النفس قلما تفطن إلى باعثها على الانفعال في نصرة مظاهر الدين دون ورعه وتقواه، بل أنها قد تحسب أن الورع هو باعثها وإن كانت لا تتورع، وقلما تفطن النفس إلى أن بين الناس من يستطيعون الجمع بين المجون والقسوة والغباء وبين التدين ونشدان المثل الأعلى بالقول لا بالخلق، وهذه الاستطاعة من مآسي الحياة وربما كانت من ضروراتها المكروهة بسب ضعف النفوس ونقصها وأوضاع الحياة التي تعيش فيها

فينبغي لمن يريد صيانة روح الدين والعقيدة المحمدية السمحة الرضية أن يحذر عند أدائه فروض الدين وفروض الحياة وأن يحاسب نفسه حساباً عسيراً عند أداء تلك الفروض أكثر من محاسبتها عند إهمالها لأن ألذَّ فرض وواجب وأطيبه لدى النفس وأحلاه عندها هو الواجب الذي يُمكِّنها أداؤه من أن تؤذي الناس وأن تَتَشفَّى بأذاهم من متاعب الحياة وإن كانت لا تفطن إلى ذلك. وما أشد إتلاف متاعب الحياة لصفاء النفوس خفية

فالنفس قد تفضل أداء الواجب الذي يمكنها أداؤه من أذى الناس سواء أكان الذي تؤذيه عدواً أو غريباً عنها وإن كانت تفضل أذى الأول، وأسمج فرض وواجب لدى النفس وأبغضه ليها هو الواجب الذي يتطلب أداؤه ترك شيء من أطايب الدنيا المادية أو المعنوية. والنفس قلما يعوزها عذر تحول به ما تجد فيه سعادة ولذة إلى فرض وواجب.

فنصرة العقيدة الرضية الزكية وصيانة روحها وقدسها من احتيال الروح الدنيوية تقتضي دراسة علم النفس وتطبيقه على النفوس وأعمالها وأساليبها ووسائلها واحتيالها للتوفيق بين القدسية والدنيوية ولو بمخادعة نفسها فلا شيء يقتل أمل الإنسانية في صفاء الدين وقدس فضائله من احتيال أهواء النفس على النفس وتزويرها الحقائق تزويراً يخلط بين حقد النفس الشريرة وبين الغضب المقدس للحق، ويخلط بين الباعث السامي للنفس والباعث غير السامي، ويخلط بين صيانة روح الدين وبين التكفير عن قتل روح الدين في طلب الأهواء بالانفعال في نصرة مظاهره. ومن قرأ تاريخ الأديان في العالم وجد أن بعض القبائل المتأخرة ترى مخرجاً لغرائزها الوضيعة عن طريق الدين. وفي الأمم المتحضرة يوجد أناس يسلكون في إخراج غرائزهم التي يستحيون من إخراجها على حقيقتها مسلك تلك القبائل المتأخرة إما لجهل وإما لما يُسمى في علم النفس بالرجعية النفسية إلى صفات عصور الإنسانية الأولى وهذه الرجعية قد يصاب بها حتى المتعلمون وقد تظهر في أمور كثيرة غير أمور العقيدة. وهذا غير ما يُخْشى على قدسية الدين من رياء المرائين، وأعظم ما يدعو إلى الحسرة والأسف أن ترى روحاً صافية نقية صادقةً في غيرتها على الدين طائعة منقادة لنفس مرائية تبغي حطام الدنيا، وهذه النفس الثانية أي النفس المخادعة عادة تغلب النفس الأولى، الصافية الطاهرة لأن النفس المتلهفة في طلب حطام الدنيا تخلق لها لهفتها ويخلق لها

غيظها وخوفها من فوات الحطام انفعالاً شديداً تحاكي به الغيرة على الدين وقلما تستطيع النفس الصادقة في تدينها محاكاة ذلك الانفعال الدنيوي الذي تمده الحياة بقوتها لأنه في طلب أمور الحياة. وقلما تستطيع تمييزه إلا إذا كان لها نصيب من الخبرة بعلم النفس وتطبيقه على أساليب النفوس ووسائلها وهي خبرة لابد منها لصيانة روح العقيدة المحمدية السامية.

ومن الأخطاء التي يقع فيها المفكرون وغير المفكرين أن يحسبوا أن الإنسان على مستوى واحد لا يتغير من حيث روح الدين في نفسه ومن حيث فضائله، والحقيقة هي أن النفس الإنسانية في الحياة كالطائرة الهوائية التي تصادف جيوبا هوائية كثيرة مختلفة الضغط الجوي فتظل ترتفع وتنخفض فجاءة، ولكن كل إنسان يريد أن يستثمر ارتفاعه لمغالطة الناس كما قد يغالطهم في انخفاضه ويعده ارتفاعاً ويوهم أنه كذلك بقوة الإيحاء. وهو لو قصر المغالطة على قوة الإيحاء لهان الأمر ولكن أشد الضرر بروح الدين أن يتخذه المرء وسيلة للإشادة بعلو قدره وإعلان انحطاط قدر عدوه أو عدو صديقه أو عدو قريبه أو من يعاديه قريبه فيصبح الدين في نظره قوة دنيوية للكسب كقوة المصاهرة أو المسامرة أو كقوة المال.

عبد الرحمن شكري

حرارة الأيمان

للدّكتور إبراهيم بيومي مدكور

ما أرهب ذلك الجيش السائر والبحر الزاخر والجمع الثائر يخوض غمار المعركة في عزمة رجل واحد وهمة قلب صادق فلا يلبث أن يكتب له النصر ويفوز بالغلب على من تفرقت بهم الميول والأهواء! وما أروع تلك الرءوس الحاسرة والأجسام شبه العارية تجتمع في صعيد واحد تسبح الله وتناجيه فلا تخشى بأس حر ولا برد، ولا تألم من صر أو قر! وما أخشع ذلك الناسك الذي حرم نفسه لذيذ الطعام والشراب واستطاب الخشن وغليظ الثياب، وضوي جسمه من طول الركوع والسجود، واحمرت عيناه من البكاء والسهر. كل هؤلاء قد استولت عليهم فكرة وتملكتهم عقيدة، فساروا وراءها طائعين، وائتمروا بأمرها راغبين لا راهبين

وكم من أفكار نسلم بها وآراء نوافق عليها ودعوات نصغي إليها، ولكن طائفة قليلة منها فقط هي التي تنفذ إلى قلوبنا وتمتزج بأرواحنا، فتُصبح طوع إرادتها ورهن مشيئتها، وما ذاك إلا لأن الدعوات لا تتجه دائماً إلى القلب ولا تخاطب كلها الروح؛ فمنها ما يرمي إلى غاية مادية يتشبث من يرجو أن يساهم فيها بنصيب، ويطمئن إليها من آثر العاجلة على الآجلة. ومنها ما يقوم على الحجة والبرهان والبحث والتعليل، ولغة المنطق لا تلائم الناس على اختلافهم ولا يسمو إليها جمهورهم وعامتهم. لذلك كان أكثر الدعوات حظا من النجاح ألصقها بالقلب وأقربها إلى الفؤاد، وبقدر تفاوت

الدعاة في القدرة على تحريك العواطف وإثارة الشعور تتفاوت آثارهم ويزيد أو ينقص عدد أتباعهم، وعن هذا الشعور تنبعث حرارة الإيمان المتأججة، ومن تلك العواطف يتولد صدق العقيدة الباهر، وفي القلب قوى خارقة للعادة وفي الروح أسرار تلين الحديد وتنسف الجبال ولا تبالي بصعاب

هناك ضربان من الإيمان لا سبيل إلى خلطهما ولا إلى إنكارهما: إيمان العقل وإيمان العاطفة، أو أن شئت فقل: إيمان البرهان والتعليل والحجة والدليل؛ ثم إيمان الشعور والإحساس والقلب والروح؛ في أحدهما هدوء التفكير ورزانة المنطق، وفي الآخر حمية الوجدان ونشاط العاطفة. ولئن كان الأول قد استنار بنور الحجة وقوى على مجالدة الخصوم ودفع الشبه، فإن الثاني ينبعث من قرارة القلب وأعماق الفؤاد ولا يرى نفسه في

حاجة إلى برهنة واستدلال، ولا يأبه مطلقاً بخصوم ولا معارضين. والدعوات سياسية كانت أو دينية، إنما تقوم إبان نشأتها على معتنقين اتجهوا نحوها بقلوبهم وتفانوا بها بأرواحهم، فأصبحوا ولا يعز عليهم مطلب ولا تبعد عنهم غاية. وكم سمعنا أن قائداً تسلق مع جنده الجبال واخترق البحار وخاض غمار الشرق والغرب دون أن يتخلف عنه متخلف، أو يقعد عن مناصرته الأتباع والأعوان. وكم روى لنا التاريخ من أخبار زعماء سياسيين أو دينيين كانت إشارتهم وحياً وكلمتهم أمراً، إذا ما تحركوا تحركت الألوف المؤلفة، وإذا ما دعوا لبى الجميع. فإذا ما فترت الدعوة وضعفت العقيدة وخمدت حرارة الإيمان الأولى، أخذ الناس يبحثون في معتقداتهم ويعللون ويناقشون ويعارضون لهذا كان لابد لكل عقيدة من غذاء، ولكل دعوة من مواد تلهب الشعور وتنمي العاطفة. وما الطقوس الدينية والصلوات المفروضة والأدعية الخاشعة والذكر الدائم والقرابين المتكررة، إلا وسيلة من وسائل جذب النفوس نحو عالم النور والألوهية والإيمان والعقيدة. وعلى نحو هذا يجدُّ السياسيون في إقامة الحفلات، وتنظيم الدعوات والمظاهرات، وإلقاء الخطب المثيرة للجماهير. وإذا استطاع الزعيم أن يكون سياسيًّا ودينيًّا في آن واحد، أو بعبارة أخرى، سياسيًّا وصوفيًّا، توفر لديه كثير من أسباب الغلبة والفوز. وهانحن أولاء نرى زعماء العصر الحاضر يخلطون حركاتهم السياسية بآراء تتصل بالدم والجنسية والدين والعقيدة؛ فالهتلرية مثلاً نظرية سياسية تعتمد على دعائم روحية وصوفية، وهذا من غير شك عامل كبير من عوامل نجاحها وتقدمها. ولقد أجادت سبل الدعاية وأتقنت طرق تنظيم الأتباع إلى طوائف وجماعات يميزها زي خاص وشارات معينة، فزادها هذا تقديساً لإرادتها واستمساكاً بنظريتها. ولعل أعون شيء على تنمية الإيمان والعقيدة أن يحس المؤمن أنه عضو في أسرة وجزء من مجتمع، وأن يشعر المعتقد أن عقيدته ذات سيادة شاملة وسلطان عام. وما نراه من تعصب أعمى أحياناً وغلو في الدين أحياناً أخرى إنما منشؤه تغلب العاطفة على العقل والرغبة في أن نحمل الناس على اعتناق كل ما ندين به من أفكار اختلف علماء الكلام المسلمون - كما اختلف رجال الدين من المسيحيين - في حقيقة الإيمان، هل يزيد وينقص وهل هو إذعان قلبي فقط أم هو اعتقاد بالجنان ونطق باللسان

وعمل بالأركان. وكأني بهم جميعاً قد تناسوا جانبه العاطفي، ولو ذكروه ما وقعوا في كثير من خلافاتهم. فالإيمان على أنه حقيقة وفكرة قد لا يقبل الزيادة والنقص، أما الإيمان الذي هو عاطفة تتأجج لحظة وتخمد أخرى فثمة مجال فسيح لزيادته ونقصه، ويتبع هذا طبعاً أن يكون الاعتقاد قوياً أو ضعيفاً جازماً أو غير جازم. ولا شك في أن الأعمال الخالصة تنميِّه والأقوال الصالحة تغذيه، ومن ذا الذي ينكر ما للدعوة والإرشاد من أثر في تربية النفوس وتهذيبها وما للتقرب والعبادة من قدرة على ربط الأرواح ووصلها بعالم النور والفيض

ولا يضير الاعتقاد في شيء أن يُدْفِئه القلب بحرارته، وتمده الروح بأسرارها. والعواطف كانت ولا تزال، من أهم بواعث التفكير ودواعي العمل. والجماهير أخضع عادة للغة القلوب منهم للغة العقل والمنطق، ورب عاطفة قوية أعون على تحقيق غايات سامية من تفكير عميق.

إبراهيم مدكور

عندنا غدهُم
للأستاذ عبد المنعم خلاف
الغربيون يبحثون عن غد يشرق عليهم ضحاه وهم في سلام وطمأنينة على ميراث العلم والمدنية وقد صار نفيساً عزيزاً على الذين بنوه بضياء العيون وحُرّ الدماء وحبس الأنفاس في المعاهد والمعابد والمعامل، فهم لذلك يخشون في لهفة أن يهدمه البطر والجشع في لحظة واحدة فتذهب مدخرات الإنسانية من العلم والمتاع. . . ولا ينفك آباء الحضارة وعلماء الاجتماع يرسلون روادهم للبحث عن غد يوحي إليهم فيه الواقع أن ينشدوا نشيد السلام الذي سمعه الرعاة من السماء ليلة ميلاد المسيح (وعلى الأرض السلام وللناس المسرة) لأنهم وجدوا أن الواقع يكذب هذا النشيد منذ ميلاد المسيح إلى اليوم كما يقول القس إبراهيم سعيد في جريدة الأهرام عدد 25 ديسمبر سنة 1938
ونحن المسلمين الذين يتمثل فينا العقوق لأنفسنا وللمدنية، نرى الإنسانية جاهدة في البحث عن ذلك الغد، تشقى أمام عيوننا وتشقينا معها ومع ذلك لا نحرك المفتاح في باب الكنز المرصود العجيب الذي فيه لآلئ الصباح وذهب الضحى. .
وأقسم للحق ولكل حر الفكر! أنني لا أتكلم كمسلم يقول تقليداً لقول أبيه وأمه وأمته، وإنما أقولها بعد أن أنضجتها حجج الأيام ونهض بها كل قائم في الفكر والحياة والزمان! ولست كاهناً ولا رجلاً يحترف الدين للعيش ينادي على بضاعته في الأسواق. . . وإنما أنا باحث كسر عنه كل قيد ليظفر بالحق خالصاً من غير تقليد ورجا أن يوفقه قيوم السموات. . .
ثم أقسم أنني لا أريد أن أتملق من يسمون أنفسهم مسلمين ولا أن أسير في مواكب أناس لا يدرون لماذا هم فيها سائرون ولا يسألون لماذا يسيرون. . . وإنما أتكلم بقلب إنساني خالص للإنسانية. . . للقطيع الشقي الذي ما ظفر إلى الآن براحته من حل تلك المشكلات الكبرى: الاعتقاد، والعيش، والعمل. ولم يتفرغ بعدُ للقبض على مفاتيح الطبيعة التي خوله الله إياها لأخذ أسرارها المخبوءة فيها حتى تصعد بها روحه إلى السماء في سلام ورضا
إلى الآن لم يظفر ذلك المخلق التائه بنعمة الاستقرار وإتاحة الفرصة لعلمائه أن يجاهدوا في الكشف عن عرائس أحلامه؛ لأن كباش القطيع لا تزال تتهارش وتتغنى بمجد الأنياب
والأظفار. لا تزال خيلاء المجد مجد الديكة المنتفشة المزدهية تسوق الناس في ضباب من الشعر إلى الجحيم. . حتى المسلمون قد أخذهم الهول من كل جانب وغشى ضباب الزمان وظلال الإنسان على عيونهم فنسوا ما بين أيدهم من العواصم. . . نسوا مضخات الحريق واندمجوا في المحترقين. . .
ما الذي نملكه لإصلاح غدنا وغد الناس؟
سأجرد الأهم من التركة فاقرءوا الأسماء:
نملك اعتقاداً صافياً ليس فيه شيء يفسد على العقل الإنساني ألْفَته؛ إذ أن إلهنا هو إله الطبيعة الذي يدرك العلماء والحكماء والفلاحون السائرون على الفطرة أسماءه وصفاته كما ندركها نحن.
ونملك سماحة في النظر إلى القاصرين الذين لم يدركوا إدراكنا ولم يعتقدوا اعتقادنا ولا نحمل أحداً على ترك دينه إلى ديننا كرها.
ونملك فهماً واسعاً وتقديراً جميلاً لمجهود المجاهدين من الرسل السابقين كتقديرنا لرسولنا.
ونملك سلاماً عميقاً في أرواحنا ننشد له في صلواتنا نشيداً لم يترك جهة من جهات الحياة إلا ألقى عليها الأمان والدعاء: فسلام على النبي، وسلام على العباد الصالحين للحياتين، وسلام على النفس وإيحاء لها به في هذا الموقف العظيم بين يدي رب الحياة ودخول في السلم كافة وجنوح إليها مع الجانحين، وتحية بيننا سلام.
ونملك كتاباً تنزل آياته دائماً من السماء. . . لأن صور الدنيا وحرب الخير والشر وتقلبات النفس في الهدى والضلال ومظاهر المجتمع وظواهر الطبيعة هي مادة ألفاظه وهي مادة الحياة.
ونملك حلاً دائماً لمشكلة الفقر والغنى مشكلة المجتمع. . . مادة الدمع والدم، مادة

الدعوات والأحزاب، مادة الثورات والحروب.
ولا ندين بعصبية جنسية ولا دموية ولا لونية. ولا نقدس الوطنية والمحلية هذا التقديس الوثني الضيق.
ونملك الرحمة بكل حي ذي كبد رطبة إنساناً أو حيواناً، عدواً أو صديقاً.
ونملك تقديس حريات الحياة فلا يهدر حق نفس في نظامنا إلا بحق الحياة.
مأمورون بصداقة الطبيعة لأنها باب ربنا ومصدر علومنا وأستاذ عقولنا. . .
أخلاقنا هي كل ما يرفع النفس ويسمو بالحياة.
محرماتنا هي كل ما يفسد الجسم والنفس.
اللذات الطيبات وزينة الحياة هي عندنا أعمال دينية إذا ذكرنا فيها اسم رب الحياة، واستحللناها بكلمته وإذنه، ونظرنا إليه في متاعنا بها كما ينظر الأطفال إلى أبيهم وهم يأكلون وينعمون!
العلم عندنا تعبد، لأنه يرينا يد الله في كل شيء. . . ويجعل لنا الطبيعة محاريب دائمة لصلاة الفكر.
هذا هو ميراثنا مضغوطاً في ألفاظ معدودة يضعها كل مسلم حقيقي في عقله وقلبه.
ثم يسير في الحياة عاملاً ساعياً للمجد والحق إلى أن تخرجه من الدنيا اليد التي أدخلته إليها. . .
أفلا يرى كل عاشق للفكر والحق والسلام والصلاح أنه مضطر إلى أن يقف في صف الحراس لهذا الميراث، وأن يجاهد في سبيله ما وسعه الجهاد؟
أفلا يرى كل من يحس بنفسه، ويفكر في وجوده ووجود دنياه أن راحته النفسية وألفته العقلية، ونوازعه الشريفة تتطلب منه أن يقدم جسده ليكون ثوباً لهذه المعاني تلبسه وتسعى به، وتبطش في حرب الخير والشر؟
أيها الملحدون من أبناء المسلمين!
هل آن لكم أن تعيدوا النظر بهدوء في مفردات هذا الميراث لتروا أننا لسنا مخرفين ولا هارفين، وأننا لم نعشق خيالاً، ولم نَضع ضلالاً؟
ألا ترون إن الجهاد في هذا السبيل إنما هو جهاد للإنسانية لا لعصبية جنسية ولا لغايات اقتصادية، وأن خير ما تقدمونه للغرب الآن مكافأة له على جهوده في سبيل العلم هو هذه المعاني الإسلامية التي يحتاجها بالذات، ويرسل من أجل مثلها رواده ويرصد أرصاده؟
إن الغرب كفر بالدين لأسباب تعلمونها. . . وليست هذه الأسباب في الإسلام، حتى تكفروا به. وإن أفق الإسلام هو نفس الأفق الذي تتجه إليه حياة الفكر والحكمة والحرية.
وإن أصول الإسلام هي خلاصة الاتجاه الديني في نفس الإنسان منذ فجر التاريخ إلى الآن، هي أصول ثابتة في الأرض فارعة في السماء ثبات الحق والعقل.
كل ما في الغرب جاءنا وعرفناه؛ فما كان فيه من خير وجدناه في ميدان الإسلام، وما كان فيه من نقص وجدنا كماله في الإسلام.
فماذا يحملنا على خلعه وإهداره إلا الضعف والسفه؟ ما الذي يحملنا على السير وراء قافلة ضائعة في بيداء ونحن في الطريق الواضحة التي عليها صُوىً وأعلام؟
ربما يكون السبب في تمرد بعض النفوس على الإسلام أن كثيراً ممن ينتسبون إليه الآن هم لعنات مجسمة تجمع القبح والجهل والسوء وتمشي في الأرض مشي الطاعون. . .
ولكن لأجل هذا يجب أن نجاهد. . . لأجل إنقاذ الإسلام من هذه الأجساد التي تلتصق به كما تلتصق القاذورات بمحراب جميل يجب أن نجاهد. . .
نريد أن نخلصه من المنتسبين إليه زوراً ونعرضه على الجاهلية كأنه حقيقة تاريخية ضائعة قد عثر عليها باحث منقب في بطون الكتب والأسفار أو طبقات الأرض. . أجل، من مصلحة الإسلام أن يدرس على أنه نظرية ليس لها أناس يتبعونها وأن محمداً صاحب الإسلام قد ظلم في الماضي أكبر ظلم وقع على رجل في التاريخ! فلقد شوه الجهلة والمتعصبون والمجرمون اسمه في أوربا كتشويه اسم الشيطان. . . كل هذا لأنه نبي رسول من الله! والمسلمون الآن يشوهون اسمه بالجهل والذل. . .
وأقسم بالعدالة! أن محمداً لو لم يكن رجلاً إلهياً ممدوداً بوحي الله، وكان رجلاً بشرياً

من أبطال التاريخ كالاسكندر أو سولون أو نابليون أو هولاكو. . . إذاً لحضي من تقدير الأوربيين بما لم يحظ به بطل. . .
إن ذكريات ابن سينا والفارابي والزهراوي وابن رشد والبتَّاني وغيرهم يحتفل بها في مجامع أوربا ويدرس تاريخها بنزاهة مع أنها ثمرات ضئيلة من ثمرات محمد. . . ولكن محمداً رجل الخير المطلق والحق المطلق لا تقام لذكرياته حفلات وجمعيات، وإنما تلصق به كل شنيعة وعضيهة. . .
بل لقد ظلم من كثير من أتباعه أيضاً؛ لأنهم صاروا يحسبونه رجلاً من رجال الآخرة فقط. . . يعد النفوس للموت وما بعده ولا يعدها للحياة هنا، فاتخذوا القرآن أوراداً وتسابيح وتعاويذ وتمائم، وتركوا التفكير والعمل بما فيه من آيات القوة والمجد والعزة والإعداد لهذه الحياة الدنيا. . . وافتتنوا ببضائع الفكر المجلوبة من الغرب كما افتتنوا ببضائعه المادية
كالأحذية والخمور. . .
ولكن روح الحق لا تموت، وعين العدالة الإلهية لا تنام، وما كان الله ليضيع إيمان الناس وهو الذي تعهدهم بالرسالات كلما ضللتهم قوى الشر عن طريقه. ولذلك ابتدأ يزلزل عناوين النظم الأوربية ويضرب بعضها ببعض أمام أعين المسلمين حتى يعود لهم يقينهم بثبات عناوين الإسلام
ولا يزال روح الحق الذي تمثل في رسول الله صلى الله عليه وسلم يجذب إليه الأفكار الحائرة والقلوب الضالة التي تبحث عن الحق والسلام. فتقيم له موازين الإنصاف بعد الإجحاف. ويخطئ من يضن أن الإسلام قد انقضى عهد عزته في القلوب والعقول، فإن عزة الإسلام لا تكون إلا في أيام العلم والحرية، ولا يذل إلا في أيام الجهل والاستبداد
هانحن أولاء نرى من سير التاريخ الحاضر أنه كلما تقدم الزمان بالمسلمين خطوة إلى العلم والحرية، تقدم بالإسلام إلى الحسنى
إن رسالة محمد ليست تبنة تذهب في الريح أو ورقة جافة تحرق في موقد، أو بدعاً من بدع الزمان يذهب بذهاب جيل وفناء قبيل وإنما هي مَرَدُّ الحق والخير وخلاصة جهاد الذين جاءوا بهما إلى الناس من عهد آدم إلى يومهم هذا
وإن الذين يعرفون ما في الإسلام من سعة وعمق واستيعاب يدركون تماماً أنه إنما يليق لمثل هذه الأزمنة التي نعيش فيها وما بعدها أكثر مما كان يليق بالأزمنة الماضية وإن ما فيه من الحرية والمساواة والأخوة والتسامح والسلام والفكر لا يمكن مطلقاً أن يفهم فهماً صحيحاً إلا على ما في عصرنا الحاضر من تجارب. فعلينا أن نفهم ونؤمن به ونعمل له عمل المتقدمين
(بغداد - الرستمية)
عبد المنعم محمد خلاف
من التاريخ الإسلامي
هيلانة ولويس
للأستاذ علي الطنطاوي
كل شيء ساكن سكون الموت، مظلم ظلمة القبر!
ولقد أسدل الليل فروعه السود، فغطى على المعركة اللافحة الأوار، وأخفى هذه الساحة المفروشة بالجثث، وهذه الأصلاد المصّبغة بالدم، وأرخى الستار على مشهد من أروع مشاهد المأساة التي يمثلها الإنسان أبداً على مسرح الوجود فيلبس فيها جلد الذئب وأظفار السبع وأنياب الثعبان. . . فسقط جنود المعسكرين صرعى الجهد والكلال، وهجعوا كالقتلى لا يحسّون ولا يحلمون، وأمست خيامهم ومنازلهم جامدة لا حياة فيها كهذه الصخور الصّم التي تحيط بها من كل جانب. . .
وتلك هي الحرب، آفة الحياة، وعار الإنسانية!
تلك هي الحرب: تنفجر الأذهان بالعلوم والمعارف، وتنفرج الأيدي عن الصنائع والمصانع، واللطائف والزخارف، وينفق الوالدون النفس والنفيس لتنشئة الأولاد وتهذيبهم، فإذا استكمل البنون الفتوة والقوة، وأزهرت الفنون وتقدمت، وارتفعت المصانع وسمت، وأخذت الحياة زخرفها وازيّنت، جاءت الحرب فأودت بذلك كله، فجعلته حصيداً كأن لم يغن بالأمس. . .

فيا ويل الحرب. . . ويل لها ما لم تكن دفاعاً عن شرف أو حياة أو دين!
كل شيء ساكن سكون الموت، مظلم ظلمة القبر، إلا خيمة في معسكر النصارى نائية ينبعث من شقوقها وفرجها ضوء خافت، ويسمع من جوفها همس ضعيف، لو أنت أصغيت إليه لسمعت صوت امرأة تتكلم بلسان الإفرنج تقول لصاحبة لها:
- ماذا يشجيك الليلة يا هيلانة، وما الذي جدّد أحزانك، وهاج آلامك؟ أفزعت من هذه المعارك العابسة التي جئنا نخوضها ونصلى نارها دفاعاً عن (قبر. . .) المسيح؟ أم هو الحزن على لويس قد خامر نفسك؟ لا تحزني يا هيلانة فقد كان مقدراً عليه هذا المصير؛ ولقد عرفه ومشى إليه مطمئناً راضياً، فاصبري يا أختاه، فإن لويس في السماء. ألا يسرك أنه مات في سبيل النصرانية؟ فلا تدعي اليأس يخالط نفسك القوية في هذه الساعة التي تحتاجين فيها إلى الصبر والجلد!
وسكتت المرأة وعاد السكون يغمر الدنيا. . . ومضت فترة طويلة لم يسمع خلالها نبأة، ولكن النور الضعيف لبث منبعثاً من شقوق الخيمة. . . ثم ظهر القمر يطل على الدنيا بوجه شاحب كأنه وجه عليل مدنف، أو ميت محتضر، وأبدت أشعته الكليلة ما كان الليل قد ستره، فبان من خلالها ذلك المشهد الموحش المرعب وقد زاده شحوبها وحشة وهولاً. . . فخرجت المرأة من الخيمة وجلست على مقربة منها تتأمل وتفكر، وكانت في الثلاثين من عمرها، ذات عينين زرقاوين واسعتين، وشعر كستنائي اللون، وبشرة بيضاء ناعمة، وكانت جميلة جذابة، ولكن في أنفها طولاً ينأى به عن الجمال. . .
كانت تنظر إلى تلك الخيام وقد انتشرت السفوح والصخور، وتمدّ البصر إلى جيش أعدائها المسلمين وقد احتل القلعات العالية ليحمي أسوار المدينة ويدرأ عنها، وتفكر في هذه الحياة المروعّة التي تحياها، فتمتلئ نفسها حسرة على حياتها الوادعة في ماضيات لياليها، يوم كانت في قريتها المتوارية في حجر صخرة من صخور (الألب) لا تعرف إلا هذا العالم الصغير الذي يحدّه شرقاً منعطف الوادي، ويحده من الغرب المضيق الصخري الضيق، ومن الشمال والجنوب غابة الصنوبر الفتانة وهي تحتضن القرية وتنبسط على السفح الجميل، وذلك السور الصخري يطيف بذلك كله ويعانقه ويدفع عنه الأذى. لقد كانت ترى من يوغل في الوادي، ويحتجب عن القرية في ملتفاته ومنعطفاته بطلاً من الأبطال؛ أما هذه الجلاميد، وهذه الذرى المشرفة على القرية، فلم تفكر يوماً من الأيام في البحث عما وراءها، ولم ترتق بفكرها إلى أعاليها لتفكر ماذا فيها. . . فكيف طوحت بها الأقدار فألقت بها في هذا العالم النائي الغريب الذي لم تكن تدري به أو تعلم له وجوداً! وكيف كتبت عليها أن تفقد زوجها الحبيب، وأن تعيش وسط الذعر والموت؟
واشتد بها الضيق، وزاد بها الحنين إلى ماضيها الهانئ، وصور لها وهم القرية فرأتها أمامها، وشاهدت الغابة التي يقطعها فتيان القرية وفتياتها كل صباح ومساء، ليبلغوا العين فيزدحموا عليها ليرتووا من مائها العذب النمير، ويذهبوا ظمأ أجسامهم، وليرتووا من العيون الأخرى فيطفئوا ظمأ نفوسهم إلى الحبّ. . . فذكرت كيف عرفت فتاها الحبيب، وقد رأته أول مرة على باب داره تلقاء الغابة، فأحست كأن عينيه قد اخترقتا شغاف قلبها. .
ورأته بعد ذلك في الغابة ولكنها لم تجرؤ أن تكاشفه بحبها. . . وهل تجرؤ على مثل ذلك فتاة؟ حتى كان ذلك اليوم السعيد الذي يمرّ في موكب حياتها بهيّاً مشرقاً، على حين تمر أيامها الأخرى شاحبات غائمات. . . فجلست معه تحت تلك الشجرة المنعزلة أحلى مجلس في حياتها، إذ قد أعلن فيه مولد الحب بقبلة مسكرة لا تزال تحس طعمها في فيها، وأثرها على شفتيها. . .
لقد كانت سعيدة في هذه القرية، تعيش في جنة الغرام، لا تعرف إلا قلبها وربها، فهي تصبح فتمشي إلى الكنيسة لأنها لم تعرف لله بيتاً خيراً منها، فتتوجه فيها إلى الله بالصلاة التي حفظتها. . . وتمشي فتطوف في الغابة يدها في يد الزوج الحبيب، حتى تبلغ كنيسة حبها تحت الشجرة المقدسة، فتؤدي فيها صلاة الحب على دين الغرام، قبلة فيها (كما قال ابن أبي ربيعة) خمر وعسل! ذ
كانت القرية كلها في أمن ودعة، حتى نزل بها ذلك الرجل، فنزل بها البلاء وهبطت المصائب، وتعكرت حياتها الصافية كأنما هي بركة ساكنة ألقيت فيها صخرة من الجبل.

. . كانت القرية في ذلك الصباح مستلقية في فراش أمنها ترشف بقية أحلام الليل اللذة، تنهض مع الشمس فتعمل على تحقيقها، وكانت الغابة تصلي وقد شمرت أشجار الصنوبر للعبادة عن سوقها، ووقفت بين يدي باريها صفوفاً للصلاة، وقامت الطير تتلو صلواتها على منابر الأغصان، ووقف الورد والزنبق في الحدائق خاشعاً مصغياً، وسبّحت السواقي بحمد ربها فكان لتسبيحها وسوسة دائمة جميلة، وأصاخ الجبلان وصمت الوادي. . . فلم يفسد هذه الصلاة الخاشعة في معبد الطبيعة إلا صرخة تدوي في الوادي، يحملها صوت مبحوح، كأنه صوت جريح ينضح صراخه بدمه، فيسمع الصوت أحمر قانياً يقطر دماً. وتوالت الصيحات الحمر، وازدادت شدة وهولاً، فحملت الذعر إلى بيوت القرية وأرباضها وأوكارها وأبدلت بصباحها الباسم صباحاً كالح الوجه مربدّاً قبيحاً، وذهب القوم يستقرون الصوت ويتقصونه، فرأوا قساً من القسوس مكشوف الرأس، منفوش الشعر، قد لبس المسوح، وطفق يلقي عليهم باللاتينية تارة وبالفرنسية تارة أخرى، ما يفهمون ومالا يفهمون؛ وكان يمر في كلامه (الخطر الداهم) و (المسيح) ثم عرض عليهم صورة (القبر المقدس. . .) الذي ينزل عليه النور، والذي يحجون إليه ويتبركون به. . . وقد قام فارس من فرسان المسلمين، فوطئه وأهانه وجعل الفرس يبول عليه. . . وكان يعرضها باكياً نادباً ناتفاً لحيته، منذراً بفناء النصرانية وضياع الدين، ويدعو إلى إنقاذ (القبر. . .) من أيدي (الكفرة المسلمين. . .) فذهب الهياج بالعقول، وأطار الأفئدة، وألغت الحماسة المنطق، ونسي الناس كل شئ إلا هذه النار التي سرت في العروق، ومشت إلى الدماغ فألهبته، فنهضوا يتبعون الراهب إلى حيث لا يعلمون، إلى إنقاذ (قبر المسيح. . .!) من أيدي (الكفرة المسلمين. . .) الذين أهانوه وحقروه . . .

وكانت هيلانة وزوجها من المؤمنين، فلما قالوا لهما إن المسلمين أكلة لحم البشر، وإنهم ذئاب الإنسانية، وإنهم عدو على المسيح. . نهضا يدفعهما الإيمان الذي عبث به القسوس، واستغلوه وأوقعوا في أبناء آدم هذه المذبحة المروعة، فأخذا الطفل الوليد وسارا مع الجموع - نحو بيت المقدس. . .

وعاودتها ذكرى زوجها الحبيب، فانفجرت باكية، فأيقظ صوتها صاحبتها فخرجت تراها . . .

- ما لك يا هيلين؟ لماذا تبكين؟ لم لم تنامي؟

فلم تجب واستمرت تبكي، فعادت ترفه عنها وتواسيها.

- ماذا عراك يا هيلانة؟ أجيبي، كلميني، لا تقتلي نفسك بسكوتك.

- لويس!

وخرج اسمه زفرة متصعدة من أعماق القلب، غارقة بالدمع، وعادت تبكي.

- اصبري يا أختاه. إنه في السماء، ثم إن عندك لويس الصغير، ألا تسمعين كيف يبكي؟ إنه ابنه يا هلين، ابن الحبيب، فعيشي من أجله. أريه ألوان لسرور والمرح، تسعد روح لويس في سمائها. هاك الطفل يا هيلانة، ألا ترين أن بكاءك يؤلمه؟

فأخذت هيلانة الطفل، تضمه إلى صدرها، وهي مغمضة العينين، وتقبله في عنقها الدافئ، وتمرغ وجهها في صدره. ثم تضع خدها على خده، وهي تهمس باسم لويس، كأنما تذكر فيه مولد الحب وقبلاته الأولى. . .

- 2 -

وهجعت هيلانة وصاحبتها، وانطفأ هذا النور الكليل الذي كان ينبعث من الخيمة، ومرت من الليل ساعات. . .

وكان معسكر المسلمين صامتاً مظلماً لا يرى في خلاله إلا النور الذي يسطع من الخيمة السلطان، وكان الجند نائمين يستريحون من عناء النهار الماضي الذي خاضوا فيه حرباً من أشد ما عرفوا من الحروب، وبذلوا جهد الجن حتى استطاعوا أن يشقوا الطريق إلى (عكا) المحصورة، وكان المدد يتتالى على جيش العدو من البحر، وكاد يجزع المسلمون عندما رأوا الإمداد، ولكن منظر السلطان ثبتهم، فقد كان ينظر إلى المراكب تحمل الصليبيين إلى البر، فلا يثنيه مرآها ولا يدخل الروع إلى قلبه، بل كان يراها مستبشراً متفائلاً مؤمناً بنصر الله. ولقد خبّر القاضي ابن شداد رفيق السلطان الجند وقص عليهم أن السلطان عدّ بنفسه من العصر إلى الليل سبعين مركباً نزلت إلى البر تنقل المدد والذخيرة فما ضعف ولا اضطرب، ولا تغيّر اعتقاده بالله الذي

يعتقد بأن النصر من عنده. وكان السلطان أشد القوم تعباً لأنه كان يباشر أمور الحرب بنفسه، وينتقل خلال المعركة، ويعرض روحه للمهالك، ثم يبيت الليل ساهراً يدبر أمور المسلمين لا يبالي راحته ولا صحته في سبيل إعلاء كلمة الله.

في تلك الساعة كنت تلمح رجلين يتقدمان في الظلام يريدان معسكر المسلمين، وهما يخطوان بحذر، ويقفزان على الصخور بخفة ونشاط، وقد حمل أحدهما هنة صغيرة ملفوفة بخرقة بيضاء قد ضمها إلى صدره برفق، وأحاط بها يسراه بعناية، وأمسك بيمناه السيف مصلتاً خشية أن يفجأه كمين أو يعرض له عدوّ في هذه الظلمة الحالكة، وكانا صامتين. فلما جاوزا (اليزك) ودخلا مسكر المسلمين وأمنا، وضعا السيوف على الأرض وجلسا يستريحان وقد أبقى الأول حملة على ذراعه وأحاطه بطرف ثوبه مبالغة منه في العناية به، وقال لرفيقه:

- ماذا ترى السلطان قائلاً لنا؟ أتراه راضياً عن عملنا وهو الذي أوصانا ألا نعرض للنساء والأطفال، وألا نمس الأعزل بسوء، وأن ندع القسوس، ولم يسمح لنا إلا بسرقة المحاربين والجند؟ أفلا تحسبه يكره ما أتينا هذه الليلة ويكون غضبه علينا أضعاف رضاه عنا يوم سرقنا ذلك القائد من فراشه؟

فأطرق الثاني كأنما كان يفكر في غضب السلطان، ويبحث عن سبيل الخلاص من هذه الوهدة التي سقطا فيها، ثم رفع رأسه فجأة وقد أشرق وجهه بنور الأمل وقال له:

- لماذا يغضب؟ أليس الله قد أباح لنا أن نردّ العدوان بمثله؟ أما بدأونا هم بمثل هذا أول مرة، وروّعوا نساءنا وسرقوا أطفالنا فلما صبرنا عنهم وترفعنا عن مقابلتهم بمثل فعلهم، ظنوا ذلك عجزاً منا فأوغلوا في عدوانهم الآثم الدنيء؟ أفندعهم يفعلون ما يريدون لا نمدّ إليهم يداً؟

واطمأن الأول إلى هذه الحجة، فقاما يسيران في هذه البقاع التي كانت في ما مضى رياضاً زاهرة وتلالاً خضراء معشبة، فجعلتها الحرب قفراً خالياً، وقبراً واحداً مفتوحاً، وألبستها ثوباً دامياً من أشلاء أبنائها، حتى بلغا خيمة السلطان فوجداها مضيئة فعلما أنه لم ينم، ووقفا ينتظران الإذن ليعرضا عليه ما جاءا به، لأنه كان يطلع بنفسه على كل كبيرة وصغيرة. . .

ومرت ساعة ومال ميزان الليل وهما واقفان، فسمعا حركة ورأيا رسولاً يحاول أن يدخل على السلطان وهم يمنعونه حتى أنبأهم أنه يحمل رسالة خطرة مستعجلة لا يجوز تأخيرها، فخبر السلطان فسمح له وقابله على خلوة لم يكن فيها إلا ابن شداد القاضي ثم خرج الرسول على عجل، وخرج من بعده ابن شداد معلناً أن السلطان سينام قليلاً، وكان ذلك في السحر. . . فأيس الرجلان من لقائه وذهبا ينتظران الصباح ولما كان الصباح ذهب أول الرجلين يلقى القاضي ابن شداد يسأله عن أمر السلطان، وكان صديقاً له، فحدثه أن الرسول حمل إلى السلطان نبأ مروّعاً هو أن جيشاً من الصليبيين الألمان يزحف نحو الجنوب في عدد هائل، فلم يستطع أحد من أمراء المسلمين في الشمال أن يرده أو يقف في وجهه فأصبح المسلمون بين نارين تفكر السلطان في الأمر، ثم جمع الملوك والقواد ولم يكن يقطع أمراً دون مشورتهم، فهبوا من فرشهم، وجفوا راحتهم في هذه الليلة العصيبة التي يلتمس الراحة في مثلها أشد الناس مراساً، وأكثرهم صبراً، فلما اجتمعوا عرض عليهم الأمر، فبذلوا له طاعتهم، ولكنهم تهيبوا الإقدام على هذين الجيشين، واضطربوا لهذا الخطب الذي لم يتوقعه أحد منهم، ولم يكن هؤلاء الملوك والقواد من الجبناء الرعاعيد، بل كانوا أبطال الحومة، وسادة الجلاد، ولم يفقدوا الإيمان الذي قابلوا به جيوش أهل الصليب كلها حين جاءت يحدوها التعصب

الذميم، ولا الشجاعة التي ردّوا بها هذه الجحافل الجرارة، وقسموها قسمين، قسم مصرَّع على الثرى قد ذهب ضحية العدوان الآثم، وقسم طائر على وجهه فزعاً لا يدري أين المحط، فتصدّع الخميس العرمرم تحت ضرباتهم المسددة وهتافهم المظفر، كما يتصدع القطيع من الغنم إذا سمع صوت الأسد وأخس أنيابه. . . ولم ينسوا طعم النصر الذي ذاقوه، ولا النهاية الماجدة التي ختمت الوقائع الماضية التي خاضوا غمرتها، ولكن لم يكن في تلك المعارك مثل هذا الخطب العابس الذي حمل نبأه الرسول. . .

فغاضت الحماسة من صدورهم وإن لم تنفد، وسكنت قليلاً لتستجم وتنهض من جديد؛ أما نفس السلطان فلا تني ولا تلين، وحماسة السلطان لا تبلغ منها خطوب الدنيا كلها،

وإنهم لمن العظماء ذوي النفوس الكبيرة، ولكن أنى لهم بمثل نفس السلطان وخلاله البارعة وبطولته الفذة التي تحققت مرتين فقط في تاريخ البشر كله: في عمر بن الخطاب وصلاح الدين الأيوبي، ولم تعرف في غيرهما إلا خيالاً يلوح ولا يظهر، وإشارات تلمح ولا تبصر!

. . .فلما رأى السلطان هيبتهم صرفهم. ولبث وحده مهموماً يفكر

قال الرجل: فماذا فعل السلطان كان الله له؛ كم يحمل وحدهم الأهوال التي تخرّ تحتها الجبال، وتعجز عن حملها الأمم!

قال ابن شداد: جلس يدبر أمره، ويرسم خطط القتال وهو مهموم قد أخذ منه التعب والنعاس، وأنا أنظر إليه ليس معنا ثالث إلا الله، فسألته أن ينام ساعة فيستريح؛ فظن أني قد نعست فقال لي: (لعلك جاءك النوم.) ونهض. . . فخرجت أمشي إلى خيمتي فلم أصل إليها وآخذ في بعض شأني حتى أذن الصبح. فعدت لأصلي معه على عادتي، فوجدته يمر الماء على أطرافه فقال لي حين نظر إليّ: (ما أخذني النوم أصلاً) فقلت: قد علمت. قال: من أين؟ قلت: لأني ما نمت وما بقي وقت للنوم

ثم اشتغلنا بالصلاة وجلسنا على ما كنا عليه، وجعلت أفكر في أمره وما يحمل من الهمّ وما ورد عليه من الشدة وذكرت أن قتيبة بن مسلم وقع في إحدى الشدائد وهو يحارب الأتراك وضاق به الأمر، وتكاثر عليه العدو، وبذل كل ما يستطيع من القوة والمكيدة فلم يغن ذلك عنه شيئاً. فقال: أين محمد بن واسع؟ قالوا: هو في أقصى الميمنة جانح على سية قوسه يومي بإصبعه نحو السماء. فتهلل وجه قتيبة واستبشر ووثق بالنصر، وقال: والله لتلك الإصبع الفاردة أحب إليّ من مائة ألف سيف شهير وسنان طرير. فلما فتح الله عليهم قال له: ما كنت تصنع؟ قال كنت آخذ لك بمجامع الطرق

وذكرت أن قواد المسلمين الذين دوخوا العالم، وأخضعوا الممالك، وملكوا الأرض، لم يملكوها بقوتهم وعددهم وإنما ملكوها بإيمانهم والتجائهم إلى الله، ورأيت السلطان قد وقف حياته على الجهاد في سبيل الله، وباع نفسه من الله، ولم يقصر في فريضة ولم يهمل نافلة، بل كان ينزل حيثما أدركته الصلاة فيصلي ويسمع الحديث بين الصفين، ولم يعرف عنه ميل إلى دنيا أو حرص على لذة من لذائذ العيش. فأيقنت أن دعاءه لا يرد، وأنه هو الولي إن عدّ الناس الأولياء، وهو التقي إن ذكر الأتقياء. فقلت له: قد وقع لي واقع وأضنه مفيداً إن شاء الله

قال: وما هو؟ قلت: الإخلاد إلى الله، والإنابة إليه، والاعتماد في كشف الغمة عليه

قال: وكيف نصنع؟ قلت: اليوم الجمعة، يغتسل المولى ويصلي ويتصدق بصدقة خفية على يد من يثق به ويدعو الله وهو ساجد فيقول: (إلهي قد انقطعت أسبابي الأرضية في نصرة دينك، ولم يبقى إلا الإخلاد إليك والاعتصام بحبلك والاعتماد على فضلك. أنت حسبي ونعم الوكيل)

وإن الله أكرم من أن يخيب من يلتجئ إليه!

- 3 -

وقطع القاضي حديثه ونظر إلى تلك المرأة التي أقبلت تريد خيمة السلطان، وهي سافرة تصيح بلسان الإفرنج وتعول باكية تشير إشارات الفزع المروّع، فأقبل عليها يسألها ما خطبها. . . وكانت هيلانة بذاتها، أفاقت فلم تجد طفلها فخرجت من الخيمة جاحظة العينين مجنونة تصيح باسم ولدها وهي تعدو على غير هدى، تسير في كل سبيل تسأل كل من ترى على ولدها هل رأى ولدها؟ أين ذهب ولدي؟ ماذا أعمل؟ ساعدوني. فتشوا لي عن ولدي. أين ذهب؟ هل مات؟ من أخذه؟ أأكلته الذئاب؟ هل تدخل الذئاب إلى المعسكر؟ أم قد سرقه اللصوص؟ آه أين أنت يا ولدي؟ ألا تردونه عليّ؟ ارحموني يا ناس. فتشوا لي عن ولدي. . .

وانطلقت تعدو في أرجاء المسكر، حتى بلغت خيمة القواد فاقتحمتها، وهبطت على أقدامهم

تولول وتصيح. . . فأخذتهم الشفقة بها ولكنهم كانوا عاجزين عن معونتها. فصمتوا، وبالغت في البكاء والتوسل، فرأى قائد منهم أن يبعث بها إلى صلاح الدين

إن الرجل شهم وشريف، وفارس نبيل، وما نحسبه يسد أذنيه دون شكوى امرأة - مفجوعة تسقط على قدميه باكية ذليلة ترجوه أن يرد عليها ولدها الوحيد. . . وهو الذي

قبض بالأمس على قائد الحملة الفرنسية، فلما صار بين يديه وانتظر القتل لم ير منه إلا الإكرام والإحسان، خلع عليه وقدّمه ورفع مجلسه وسَّيره إلى دمشق معزّزاً مكرماً، فلم يستطع القائد أن يرفع بصره إليه لعجزه عن شكره، ولخجله من نفسه حين قابل بين صنيع السلطان به، وصنيعه هو بمن أسرهم من قواد السلطان. . .

ووافق القواد على ما وصف به صلاح الدين من النبل والشرف والإنسانية، فسيروا المرأة إليه، فانطلقت تعدو حتى تقطعت أنفاسها وهي تتحامل على نفسها وتعود إلى السعي تريد أن تقطع الطريق كله بوثبة واحدة ترى من بعدها ابنها، أو يكون فيها حتفها، وتخشى أن تتأخر لحظة فيصيب ابنها شر. . . يا رحمة الله على الأمهات!

وكانت نفسها كالبحر الغضبان لا تستقر فيه موجة حتى يموج موجة أخرى. . . وكانت الصور تتردد على نفسها متعاقبة يأخذ بعضها بأعقاب بعض، فبينما هي تتصور فرحها بلقاء الطفل فتقدم مسرعة، إذا بها تفكر في هلاكه فتقف لحظة كأنما لطم وجهها القدر بكفه، ولكنها تطرد هذه الصورة من نفسها ولا تطمئن إليها، ويعاودها الأمل قويًّا منيراً، ويخالط الأمل خوف وإشفاق، ثم تمرّ عليها صور من حياتها الأولى تجوز آفاق نفسها بسرعة البرق فتهزها هزًّا عنيفاً ثم تمضي إلى غايتها وترجع صورة الولد فتحتل خيالها كله. . .

حتى بلغت (اليزك) فصاحوا بها: قفي. فوقفت تنظر ماذا يريدون. . . ولم تكن تدري ما (اليزك) وما الحروب، وما جاء بها إلا إيمانها الذي استغله دعاة الشر وسخروها من أجله لمنافعهم فحرموها زوجها وطفلها وجرعوها كما جرعوا الآلاف المؤلفة من البشر غصص الآلام!

وجعلت تصرخ فيهم صراخ اللبوة التي فقدت أشبالها، وتخاطبهم بالفرنسية:

- ابني، ابني أيها الجند؟ ردّوه عليَّ، أريد ابني، فلماذا تمسكونه؟ لماذا تعذبون امرأة مسكينة؟ أين هو؟ هل قتلتموه؟ لا، لا أرى على وجوهكم سمات الوحشية. إني ألمح الشفقة على هذه الوجوه، فلماذا لا تردون عليّ ابني؟

فلا يفهمون منها شيئاً، فتعود إلى صراخها حتى جاء رجل منهم يعرف لسانها فسألها:

- ومن هو ابنك أيتها المرأة؟

- ابني لويس. لويس. أنا هيلانة. ردّوه عليّ. أريد أن أقابل السلطان

فأخذته الرحمة فتركها تمر ودلها على الطريق إلى خيمة السلطان فذهبت تعدو قال لها القاضي:

- ولكن السلطان الآن في شغل. يجب أن تنتظري ساعة

- لا. لا. أتوسل إليك، أخاف أن يصيب ابني سوء، فدعني أذهب إليه

فقال لها القاضي: اذهبي مع هذا الرجل. وأمره أن يدعها ساعة في خيمة الأسرى حتى يستأذن لها على السلطان، وينبئه نبأها. وظنت أنها في طريقها إلى السلطان، فسارت صامتة مسرعة، فلما دخلوا بها الخيمة ورأت الأسرى، عادت تصيح وتولول، فنبّه صياحها الأسرى، واستفاض حتى بلغ خيمة السلطان فبعث يطلبها. . . وكان في أقصى الخيمة أسير أضطرب لما رآها ووجف قلبه، ولبث بصره عالقاً بها حتى خرجت من حيث جاءت، فلبث مفكراً مشدوهاً، تطفو على وجهه خيالات أفكار هائلة وذكريات بعيدة، ثم تراخى رأسه فأسنده بكفيه، وظل ساكناً تنطوي جوانحه على البركان. . . الذي انفجر بعد دقائق، فنهض الأسير يصرخ صراخ الوحش الكليم: أريد أن أراها، أريد أن أراها. . .

وراع صياحه الأسرى وهم يعهدونه وديعاً كالحمل، فأقبلوا يسألونه، فلا يأبه لهم ولا يكلمهم، وأسرع إليه الحرس يكلمونه فلا يجيب إلا بهذا الصراخ، فرفعوا أمره إلى السلطان وأدخلوه عليه. . . فلما احتواه مجلس السلطان طأطأ رأسه ووقف خاضعاً، وكانت عظمة السلطان تملأ نفسه إكباراً له، وكان يحس فيها الشكر الخالص لما رأى من إكرام السلطان في هذه المدة الطولية التي قضاها أسيراً عنده، ثم رفع رأسه وجعل يقلب نظره في أرجاء المجلس فوقع على هيلانة وهي راضية مطمئنة وابنها في حجرها، وهي تنظر إلى السلطان نظرة شكر وحبّ، ثم رآها تنهض فجأة فتجثو بين يديه فتقبل قدميه وتتقاطر دموعها، فيتململ السلطان وينهضها. . . فلم يعد يتمالك

نفسه، فأسرع نحوها على غير شعور منه، فلما رآه الطفل هتف به: بابا. . . ووقع بين ذراعيه. . . ونظرت المرأة مبهوتة لا تكاد تصدق ما
ترى، وجعلت تنظر حولها لتتثبت مما ترى، ولتعلم هل هي في يقظة أو في حلم، ثم صاحت: لويس! أنت حيّ؟
. . .وفهم السلطان القصة فحول وجهه حياء وتركهما يتعانقان
ولما تلفت السلطان وجدهما جاثيين بين يديه يحاولان شكره، فلا تجاوز الكلمات شفاهما إلا وهي جمجمات غامضة، فقال لهما:
- إنّا لم نفعل إلا ما يأمرنا به ديننا؟
قالت المرأة:
- أدينك يأمرك بهذا؟
قال: نعم، فإن الإسلام رحمة للعالمين، للإنسانية كلها. قالت: أفتضيق هذه الرحمة عن امرأة مسكينة. . . تحب أن تسعد وتحيا بسلام، في ظلال الإسلام؟
فتهلل وجه السلطان، وقال لها: إن رحمة الله وسعت كل شيء
قالت: كيف أغدو مسلمة؟
قال تشهدين أن الله واحد، وأن محمد رسول. لا إله إلا الله، محمد رسول الله.
فنطقت بها، وتلفتت إلى زوجها فوجدته ينطق بالشهادة
وخرج ويده في يدها يذكران الماضي الحلو، والقرية الهادئة.
- لقد تركنا البنفسج يا هيلانة مخضراً يانعاً، فهل أزهر من بعدنا البنفسج فتضوّع أريجه في جوانب الحديقة؟ وشجرة التفاح هل تدلت ثمارها، وارتخت أغصانها؟ والعين هل بقيت على صفائها. . . أواه يا هيلانة! هل لنا من رجعة إلى ذلك الوادي السعيد وتلك الغابة التي ولد حبنا في جناتها ونما واكتمل؟
- لا يا لويس، إنا لن نعود. إن يكن حبنا قد ولد في تلك الغابة، فإنه قد بعث هنا بعد ما مات. هنا عدت إلي، وهنا عرفت الله، وهنا رأيت النبل والطهر والإنسانية، فلنبق هنا يا لويس. . . أليست هذه هي الأرض التي ولد فيها المسيح؟ إننا لم نخسر المسيح، ولكننا ربحنا معه محمداً!
وتقدم الجيش بعد ساعة، يمشي إلى الظفر مكّبراً مهللاً، وكان لويس في طليعة الجيش!
(دمشق)
علي طنطاوي
النواحي الإنسانية في الرسول
للدكتور زكي مبارك
أعتقد أن شخصية النبيّ محمد لم تُدرس حق الدرس إلى اليوم في البيئات الإسلامية لأن المسلمين يجعلونه رسولاً في جميع الأحوال: فهو لا يتقدم ولا يتأخر إلا بوحي من الله، ولا يأخذ ولا يدع إلى بإشارة من جبريل
ومعنى ذلك أن شخصية محمد في جميع نواحيها شخصية نبوية لا إنسانية
يضاف إلى هذا أن جمهور المسلمين يعتقدون أن النبوة لا تُكتَسب، وهم يعنون بذلك أنها لا تنال بالجهاد في سبيل المعاني السامية، وإنما هي فضل يخص الله به من يشاء وإنما غلبت هذه العقيدة لأن الإسلام نشأ في بيئات وثنية، أو خاضعة للعقلية الوثنية، والرسول لم يَشْقَ بين قومه إلا لأنه حدثهم بأنه بَشرٌ مثلهم، ولو أنه كان استباح الكذب فحدثهم بأن فيه عنصراً من الألوهية لوصل إلى قلوبهم بلا عناء
الواقع أن محمداً كان آية من آيات التاريخ، ولكن كيف؟
لا تسألوا عن أشياء أن تبد لكم تسؤكم. فبنوا آدم يصلحوا لكل شيء إلا سماع كلمة الحق
أراد الله أن يكون الإسلام إعزازاً للفكرة الإنسانية، ولكنْ بنو آدم يؤذيهم ذلك؛ لأنهم خضعوا لألوف أو ملايين من الأوهام التي تشل القلوب والعقول
كان محمد إنساناً بشهادة القرآن، والقرآن كتاب سماويٌّ نص على أن محمداً إنسان، وبنو آدم يؤذيهم أن يتلقوا الحكمة عن رجل يأكل الطعام ويمشي في الأسواق!
وفي غمرة هذه الضلالة نُسيت النواحي الإنسانية في حياة الرسول وإلا فمن الذي يصدق أن رجلاً مثل محمد يضيع من عمره أربعون سنة بلا تاريخ؟

ولأي سبب ينسى الناس أو يتناسون تلك المدة من حياة الرسول؟
إنهم يصنعون بتاريخ الرسول ما صنعوه بتاريخ الأمة العربية لأنهم أرادوا أن يخضعوا خضوعاً تاماً للمعجزات، فالنبي لم يكن رجلاً عبقرياً وإنما خصه الله بالرسالة فكتب له الخلود، والعرب لم يكونوا أمة قوية وإنما ارتقوا بفضل الرسول
وما يجوز عند جمهور المسلمين أن يقال: إن الله خصَّ محمداً بالرسالة، لأنه كان وصل إلى أسمى الغايات من الوجهة الإنسانية، ولا أن يقال: أن الله اختار ذلك الرسول من العرب، لأنهم كانوا وصلوا إلى غاية عالية من قوة الروح.
ماذا أريد أن أقول؟
أنا أمشي على الشوك وأنا أقيد هذه الفكرة الفلسفية، لأن بني آدم يحتملون جميع الأفكار، إلا الأفكار المتصلة بحيوات الأنبياء
ثم ماذا؟
كان محمد إنساناً قبل أن يكون نبيًّا، وذلك من أعظم الحظوظ التي غنمها في التاريخ، فسيأتي يومٌ قريب أو بعيد يثور فيه الناس على الأمور الغيبية، ولكنهم لا يستطيعوا أن يثوروا على عبقرية محمد.
كان محمدٌ في سريرة نفسه إنساناً يخطئ ويصيب، بدليل ما وُجِّه إليه من اللوم أو العتاب في القرآن؛ وهو قد خضع للضعف الإنساني فذرف الدمع السخين يوم مات ابنه إبراهيم، وهو قد عانى الحب والبغض كسائر الناس، وهو قد توجع من ظلمات الخطوب، وهو قد تألم من غدر الأصدقاء، ثم لم ينج من الكرب عند سكرات الموت
أحبك أيها الرسول!
أحبك لأنك كنت إنساناً له ذوقٌ وإحساس، ولم تكن كما يصوِّرك الجاهلون الذين رأوا عظمتك في أن تكون حاكياً لوحي السماء، وما أنكر وحي السماء، ولكني أومن بأن في السريرة الإنسانية ذخائر من الصدق والروحانية، وأنت أول نبي أعز السريرة الإنسانية.
أليس دينك هو الدين الذي تفرد بالنص على أن المرء يتصل بربه بلا وسيط؟
أحبك أيها الرسول وأشتهي أن أتخلق بأخلاقك السامية. أحب أن أكظم غيظي كما كنت تكظم غيظك. أحب أن أسلم بجهادي من شهوات النفس كما سلمت بجهادك من شهوات النفس. أحب أن أفرَّ من الشيطان كما فررت من الشيطان، على شرط أن أحب الحياة كما أحببت الحياة
أتدري لماذا أحبك أيها الرسول؟
لأنك أول من شرع الديمقراطية بين الأنبياء. ألست أنت الرجل الذي كان يتبذل في أكله ويقول:
(إنما أنا عبدٌ آكل كما يأكل العبد)
أتدري لماذا أحبك أيها الرسول؟
أحبك لأنك جعلت الحرب في سبيل الحق شريعةً من الشرائع وهي مزية إنسانية، وكان الأنبياء من قبلك يكتفون بالتفكير في عجائب الملكوت!
أحبك لأنك أعلنت حبك لطيبات الحياة واحتقرت الرهبنة والانزواء في العابد والصوامع
أحبك لأنك انتقلت من المعلوم إلى المجهول
أحبك لأنك أعززت الشخصية الإنسانية يوم اعترفت بأنها صالحةٌ للخطأ والصواب
ولكن ما رأيك فيمن يقاومون الحرية الفكرية باسم الغيرة على دينك؟
ما رأيك فيمن لا يرضيهم أن تكون إنساناً يتذوق أطايب الحياة ويلهو أحياناً بالمزاح المقبول؟
ما رأيك فيمن يحاربون الفنون والآداب باسم الدين؟
ما رأيك فيمن يتوهمون أن الشخصية النبوية مجردة من البهجة والأريحية؟
ما رأيك فيمن يُخرِجون من فردوس العقيدة الصحيحة كل من يتَّسم بسمة الحب لأطايب الحياة؟
أنت حاربت الزهد، وحاربت العبوس، وحاربت اليأس، ولكن بعض الناس يرون الإيمان لا يكمل إلا عند من يغرقون في لجج المسكنة والكآبة والقنوط
كنت إنساناً أيها الرسول قبل أن تكون نبيًّا، وتلك الإنسانية هي التي فتحت صدرك للصفح عن هفوات الناس، وهي التي جعلتك تنظر إلى ضعفهم بعين العطف، وهي

التي قضت بأن تذوق ملوحة الدمع في بعض الأحيان
أنت نزهت نفسك عن الشعر، الشعر المحبوس في قواف وأوزان، ولكني لا أنزهك عن الشاعرية العالية التي تواجه الوجود بنظر ثاقب، وقلب حساس
وكيف تخلو من الشاعرية وقد خلوتَ إلى مناجاة القلب في غارٍ حراء؟
كيف تخلو من الشاعرية وقد كنت رجلاً فحلاً يجيد افتراع المعاني؟
أنا أعرف لماذا نزهت نفسك عن الشعر أيها الإنسان الحساس إنما نزهت نفسك عن الشعر لأن الشعراء في عصرك لم يكونوا عظماء الأرواح
وإلا فأي شعرٍ فاَتك وأنت تدعو إلى التفكير فيما خلق الله من غرائب وأعاجيب؟
أي شعر فاتك وأنت تجعل السير في الأرض من واجبات الرجال؟ أي شعرٍ فاتك وأنت الذي أشار بالأفضلية في الإمامة لمن وهبهم الله حسن الوجه وجمال الصوت؟
أي شعرٍ فاَتك وكان شخصك الكريم قيثارة تتغَّنى بمحاسن الوجود؟
الآن عرفتُ لماذا يضن عليك بعض أتباعك بصفة الإنسانية،
إنما فعلوا ذلك لأنهم في ذات أنفسهم لا يؤمنون بعظمة الإنسانية، أما أنت فقد رميت بالكفر كل من يريد يخلع عليك ثوب الألوهية لأن الله خصك بأجمل مزية من مزايا الإنسانية وهي الصدق
لقد فكرتُ مرات كثيرة من الاقتراب من روحك فلم يعقني عائق لأن بيني وبينك وشيجةً من الإنسانية
ودعاني الشوق مرة إلى مسامرة خيالك فرأيتك إنساناً كاملاً لا تقع عينه على غير الجميل من شمائل الأصدقاء
وصحبتك مرةً في بعض غزواتك فهالني أن تكون رجلاً نبيلاً يصبر على الظمأ والجوع والأذى في سبيل الحق
وشهدتك وأنت تعاني الكرب من فضول الناس وتزيّد المنافقين وتقوّل السفهاء، فعرفت أنك إنسانٌ ممتاز، لأن الابتلاء بأذى الناس لا يكون إلا من حظوظ الممتازين بين الرجال
وشهدتك يوم الموت وأنت تواسي ابنتك فتقول: (لا كرب على أبيك بعد اليوم) فعرفت أن الكرب في الدنيا مقصور على عظماء الرجال
شهدتُ من أخلاقك وشمائلك ما شهدتُ، أيها الإنسان الكامل، فزدتُ اقتناعاً بأنك على خلقٍ عظيم
ولكن ما هي العظمة في خلقك، أيها الرسول؟
أنت رويت القرآن عن جبريل فيما يقول المؤمنون، وأنشأت القرآن فيما يقول الملحدون. وهذا القرآن فيه لوم كثير وجه إليك، فإن كان وحياً من السماء فأنت غاية الغايات في أمانة التبليغ، وإن كنت أنت منشئ ذلك الكتاب كما يتقول الملحدون فأنت غاية الغايات في أدب النفس، لأنك سجلت ما آخذت به نفسك في كتاب مجيد
وأين الرجل الذي يدين نفسه بنفسه كما صنعت أنت حين رويت القرآن أو حين أنشئت القرآن؟
لقد وضعت أعظم دستور للسريرة الإنسانية، وهو دستور الصدق، يا أصدق من عرف التاريخ من الرجال
أما بعد فقد ارتاض القول بعد جموح، وصار من السهل أن أحكم بأن النبوة عهد من عهود العظمة في الطبيعة الإنسانية، ولولا خوف الفتنة لزدت هذا المعنى تفصيلاً إلى تفصيل
محمد إنسان، ولكنه إنسان مظلوم، لأن أتباعه جردوه من فضل الاجتهاد في سبيل الخير والحق والجمال
وهنا تظهر مزية جديدة لذلك الرسول هي نكران الذات، فلو كان محمد رجلاً من أمثال فلان وفلان وفلان من الذين نقلوا أممهم من حال إلى أحوال لملأ الدنيا بالحديث عما وضع للحياة من أصول وقوانين
ولكن محمدا كان يحبّ أن يعيش مسكيناً وأن يحشر بين المساكين، وقد جزاه الله خير جزاء، فخصه بالعظمة في الحياة وبعد الممات
محمد بشرٌ مثلكم يا بني آدم، وقد دعاكم إلى التخلق بأخلاقه، ولم يكتف بذلك، بل دعاكم إلى التخلق بأخلاق الله إلا الكبرياء

فهل رأيتم إنسانية مثل هذه الإنسانية؟
محمد تحدث عن هفواته - إن كان له هفوات - ليدلكم على أن العظمة الحقيقية لا تكون إلا باتهام النفس والحذر من طغيان الأهواء
كان محمد يقول في صدر خطبته (أيها الناس) أو (يا عباد الله) وأنتم تقولون في صدور الخطب (أيها السادة) أو (سيداتي، سادتي)
فتأملوا الفرق بين العبارتين لتعرفوا أنه كان يبتعد عن تملق الأهواء.
استطاع محمد أن يتحدث عن هفوات الأنبياء، وعجزتم عن الحديث عن هفوات الزعماء
فاعرفوا - إن شئتم - أن عظمة محمد من الوجهة الإنسانية هي تمجيد الصدق والخوف من زيغ القلوب
قد تقولون: إن الله أوحى إليه أن يكون كذلك.
وأجيب بأن أكمل خصيصة من خصائص الرجال هي الصلاحيةُ لتقبُّل وحي السماء.
وللسماء وحيٌ في كل وقت، ولكن أين القلوب التي تسمع؟ إن محمداً حدثكم بأن الرجل يستطيع أن يخاطب ربه بلا وسيط.
فأين المسلم الذي فهم أسرار الحروف واتجه بقلبه إلى مناجاة فاطر الأرض والسموات؟
أين المسلم الذي تأدب بأدب الرسول فعرف أنه مسئول أمام الله لا أمام الناس؟
والآن أرجع إلى نفسي فأقول:
كان محمد إنساناً، ولكنه كان أعظم من جميع الناس لأنه لم ير الغنيمة في غير المعنويات.
كان محمدٌ يستطيع أن يبني لنفسه داراً تشبه إيوان كسرى؛ وكان يستطيع أن يبني لنفسه قبراً يشبه هرم فرعون، ولكنه آثر أن يحيا ويموت وهو في مَتْربة المساكين.
إن محمداً ظلم نفسه لينتصر ويفوز، وقد انتصر وفاز.
إن محمداً حرم نفسه أبهة الملك، وباسمه عاش الملوك.
إن محمداً حرم نفسه الشهرة بإجادة البيان، وبفضل الكتاب الذي بلّغه عاش البيان. فيا رسول الله ويا إمام العرب والمسلمين إليك أوجِّه أصدق الثناء.
زكي مبارك
في غار حراء
مهبط الرسالة
للأستاذ محمود الخفيف
أَيْنَ مِن قَدْرِكَ جُهْدُ الشُّعَرَاءْ ... يا قَرينَ الطُّورِ فِي نَجْوَى السَّمآءْ؟
أَشْفَقَ الشِّعْرُ، وَكَمْ رَاوَدْتُهُ ... فَجَرَى كَالصُّبْحِ بَسَّامَ الرُّؤَى
زَاهِرَ الصَّفّةِ رفَّاف الرُّواءْ
طَابَ للسَّامِرِ يا شِعْرُ النّشيدْ ... وهَفَا المِزْمَارُ لِلَّحْنِ الْجَدِيدْ
هَاتِ يا شِعْرُ حَدِيثاً طَالما ... مَلأَ الأَعْصُرَ وحْياً وَمَشَى
مِلْءَ سَمْعِ الدَّهْرِ لَحْناً وحُدَاءْ
هيه. . . صُغْ لحنَكَ في أُمْ القُرَى ... أَعْبُرِ الأَجْيَالَ واطْوِ الأَعْصُرا
اِقطَعِ البيدَ إلى مُنْعَزَلٍ ... التَقَتْ فِيهِ السمواتُ العُلَى
مَرَّةً بالأَرْضِ في غارِ حِراء!
غَنِّنا عَنْ شَاهِقٍ عالي الْجَبِينْ ... تَتَمَلاَّهُ عُيونُ النَّاظِرِينْ
هَرَمِيّ نازِعٍ مُستَشْرِفٍ ... للسَّموَاتِ، مَنيعِ المُرْتَقَى
للعلى رَمْزٌ وللْحَقِّ لواء
جَبَلِ النُّورِ الوضِيءِ النَّسَبِ ... لقَبٌ يا حُسْنَهُ من لقَبِ!
أين في الأَرْضِ مَكَانٌ مِثْلُهُ ... بَيَّنَاتُ الله فيه والهدَى
لَمَعَتْ فانجَابَ في الكون العماء؟
مَهبْطُ النُّورِ على هذا الوجودْ ... مُرْتَقى أوحى له مَعْنَى الصُّعودْ
شَدَّ ما يَمْلأُ نَفسِي سِحْرُهُ ... ولكَمْ تَلْمَحُ روحي من رُؤَى
ومَعَانٍ عَبْقَرِيَّاتٍ وِضاءْ!
هَاتِ ألحانَكَ عِنْدَ الْجَبَلِ ... غَنِّ يا شِعْرُ بهِ لا تُجْفِلِ

امتَلِئُ مَا شِئتَ مِن رَوْعَتِهِ ... إلتَمسْ وَحْيَكَ في هذا السَّنّا
وتَرنّمْ، يَحْلُ يا شِعْرُ الغناء
هَاتِ. حَدِّثنَا عن الرَّاعي الأمينْ ... ذلك الأُمِيِّ، عند الأرْبَعِين
ذلك الأمِيِّ من عَلَّمَهُ. . . ... غنِّ في بيدائه كيف اهتدى
واجتلى في الأرضِ آياتِ السماء؟
يَا رِمَالَ البيدِ هذا جَاهِدُ ... هادِئُ النَّظْرَةِ ماضٍ صَاعِدُ
يا رِمَالَ البيدِ كَمْ شاهَدْتِهِ ... يحملُ الزّادَ ويمْضِي؛ هَل رأى
حَوْلَهُ غَيْرَ الرَّواسي والفَضَاءْ؟
يَهْمِسُ الرُّعْيَانُ. . . ما يَشْغَلُهُ ... أيُّ أمْرٍ حَازِبٍ أذهَلَهُ؟
شاحِبُ الوَجْنَةِ لا مِن عِلّةٍ ... مُطْرِقٌ هَامَتَهُ، وانيُ الخُطَى
طَالَ فِي اللهِ بِهِ عَهْدُ الرَّجاءْ
يا لهذا العَرَبِيّ الصَّائم ... ابْنِ عَبْدِ اللهِ، أزكى هاشِمِ
بَلَغَ الغارَ فألقى زَادَهُ ... يا لهُ من لا غِبِ طَاوِي الحشا
أكثرُ الزّادِ لهُ تَمْرٌ وَمَاء!
يا نجومَ اللّيْلِ أَصْنَاهُ المَّهَرْ ... لم يَنَلْ مِن طَرْفِهِ طولُ النّظَرْ
هَلْ أتى مَكّةَ ما أرَّقَهُ؟ ... حَسْبُهَا مِن لَيْلِها طِيبُ الكَرى
يَغْرقُ السُّمَّارُ فيه السُّعَداء!
إيه شمْسَ الصُّبْحِ، يا نورَ الأزَلْ ... هَلْ جَلاَكِ اللاّتُ يومًا أو هُبَلْ؟
اسألي مكّةَ عن أصْنَامِها ... اسألي السَّادَة في أمِّ القُرَى
عن تماثيلَ لها حَقُّ الوَلاَء!
حَدِّثي يَا شَمسُ عَنْ أَنْصَابهَا ... وأُولي الغَفْلَةِ من أصحابِهَا
حَدِّثي عن ظلْمَةِ العَيْشِ بِهَا ... وعن الشَّحْنَاء فيها والخنا
وَذَوي الفُحْشِ بها والخَيلاَء
تُؤثِرُ اللّيْلَ عَلَى الصُّبْح اتجاها ... كَهْلُهَا يَسْبِقُ في الشّرِّ فَتَاهَا
بَلْدَةٌ كَمْ غَرَّهَا بَاطِلُهَا ... لَيْسَ في شِرْعَتِها إلا الهَوى
شِرْعَةِ الجورِ ودين السُّفَهَاءْ
لاذَ بالوَحْدَةْ في عُزْلَتِهِ ... ذلك الواحِدُ في نَشْأتِهِ
ذَلِكَ المُفرَدُ مِن أيَّامِهِ ... ما دعا داعي الصِّبَا إلا أبَى
وَتَوَلّى وهْوَ موفورُ الإبَاء
كَمْ يُعَانِي اليَوْمَ مِمَّا يَحْمِلُ ... لاَذَ بالغَار فِفيه المؤْئِلْ
هَاجِسٌ في نَفْسِهِ يَشْغَلُهُ ... يَنْسَجُ الْيَأسَ بهِ لَمْحُ المُنى
سَاعَةً ثم يُغَشِّيهِ الخَفَاءْ
يَا لَعَانٍ يَعْظُمُ الكَوْنُ لَهُ ... كَمْ يَرَى الرَّهْبَة فيما حولَهُ
كَمْ لَهُ في صُبْحِهِ إذ يَنْجَلِي ... ثمَّ في اللّيْلِ إذا اللّيْلُ سَجَا
من يقين وجَلاَء واهْتِداءْ!
هَذِهِ الأفْلاَكُ من يُمْسِكُهَا ... في الفَضَاءِ الرَّحْبِ من يُسْلِكهَا؟
والرَّواسي الشُّمُّ من شَيَّدَها ... من دَحا الأرضَ ومن ساق الحيَا
فَسَقَى التُّرْبَ بِهِ حَيْث يشاء؟
مَنْ لهذا السَّاجِدِ المُقْتَرِبِ ... هَلْ تَلَى في أمْسِهِ من كُتُبِ؟
هَلْ بنتْ أُمُّ القُرَى مَدْرَسَةً؟ ... مُنْتَهَى ما عَلِمَتْ تِلك الدُّمَى
يَتَمَلاَّهَا بنوها النُّجَبَاءْ!
مَنْ لَهذا الفَرْدِ في بَيدائِهِ ... بِرُؤى العَالَم أو أنبائِهِ
هَلْ أَتَاهُ نَبأٌ عَن فَارِس ... هَلْ عَن الشّام ومِصْرٍ من نَبا
وعن الرُّومِ وأرْضِ الحُكَمَاءْ؟
ضَجَّ بالعُدوان ذاك العالَمُ ... ما يرُى هَادٍ له أو عاصِمُ
الهداياتُ بهِ حائرةٌ ... والضَّلاَلاَتُ به استشرت فما
يَفهَمُ الرَّحْمَةَ إلا الضعفاء!
باتَ ما طافَ به من قَبَس ... في ظَلاَم الأرضِ كالمُحْتَبِسِ
يا لَها مِن شُعلة خابيةٍ ... غَرقَتْ أو أوشكت فيما جرى

من دموعٍ هاطِلاَتٍ ودِمَاء!
لَوَت الشُّعْلَةَ عن وِجْهَتِهاَ ... أُمَمٌ ثارَتْ على وَمْضَتِها
ضَرَبَ الغَيُّ على آذانِها ... واشتَرَت بالحقِّ والنُّورِ العمى
فَتغَشَّتها دياجيرِ الفناء
طابَ للأمِّيِّ في الغارِ المُقَامْ ... ليس يثنيه سُهَادٌ أو صِيامْ
لِلسَّموات العلى مُستَشْرِفٌ ... في دُجى الليل وفي نورِ الضُّحَى
ضارِع لِله موصولُ الدُّعاءْ
سَابحٌ في الملكوتِ الدائِمِ ... وَالجَلاَلِ المُستفِيضِ القَائم
مُطْلَقُ النَّفْس رَضِيٌّ آمِلٌ ... صُوَرُ الحقِّ بهذا المُجْتَلى
أمَدَّتْهُ بِرَوْحٍ وانتشاء
رَوْعَةُ التَّسبيحِ في نَظرَتِهِ ... وَجَلالُ الحقِّ في مُهْجَتِهِ
سَاجِدٌ لله يرجو وَجْهَهُ ... صَابِرٌ مُرْتَقِبٌ جَم الرَّضا
خاشِعُ المحَبةِ مَصدوق الولاء
طاف بالرغْبِ على مَضجِعِه ... هَامِسٌ يَهْمِسُ في مِسْمَعِهِ
يا له الله! أرؤيا نائم ... ما له يَسْمَعُ لكن لا يرى
حوله إلا هواءَ أو هباء؟
إنها الشعْلةُ جاءت من جديدْ ... لِلوَرَى فيها طَرِيفٌ وتَليدْ
هَبَطَ الغَارَ بها الرُّوحُ الأمين ... سَاقَهَا اللهُ لِطَهَ المُصْطَفَى
ابنِ عبدِ اللهِ خَيْرِ الأنبياءْ
قَبَسُ اللهِ العلي الأكْرَمِ ... (عَلَّمَ الإنْسَان ما لم يَعْلَمِ)
قَبَسُ الله الذي أوحى له ... ظَلَّ يرجو نورَه حتى انجلى
رائعَ الإشراقِ وهَّاجَ الضياء
هلَّ نورُ الله في أعلى الجبل ... أبْشِري يا أرضُ قد هَلَّ الأملْ
حَمَلَ ابنُ البيدِ ما أُلْهِمَهُ ... وَمَشى الراعي رسولا للورى
يرفع الشُّعْلَةَ من بَعْدِ انطفاء
يَا رِمَالَ البيد قد جَاَء البَشيرْ ... نَزلَ الدَّاعي إلى الحقِّ النَّذِيرْ
انظريه . . نوره بين يَدَيهِ ... أيُّ نُور مِثلَ هذا أومضا
أيُّ قَوْل حَارَ فيه الفصحاء؟
غَمَرَ النُّورُ جباه الصَّابِرينْ ... وَتمَشَّى بين أيدِي الفَاتحينْ
مِنْ رُبُوع الْهِنْدِ لِلأندَلُسِ ... أُلْهِم النَّاسَ الْعُلاَ أنَّى مَضى
فَهُمُو فِي الدِّينِ والدُّنيا سواء
الخفيف
بين مصر وإيران
لِلأديب محمد فهمي عبد اللطيف
الترابط بين الأمم والشعوب ضرورة اجتماعية، تقتضيها طبيعة الوجود، والرغبة في التعاون والمنفعة. وإن الأمم لتأخذ لهذا الترابط بأسباب مختلفة، وتقيمه على اعتبارات متباينة؛ فهي مرة تقيمه على الأغراض المشتركة، والآمال المتفقة، والمذاهب المتماثلة؛ ومرة تدعو له باسم الوشائج الجنسية، والروابط العصبية؛ ومرة تَشْرعه بدعوى العلم والحضارة والصالح العام؛ وفي هذا العصر يتخذه القوم وسيلة لسد المطامع، والجشع الاستعماري، وفرض السلطان على الشعوب الضعيفة؛ وهم في كل هذا يوثقون له بالمعاهدات والمحالفات والمشارطات والمؤتمرات تقام ثم تنفض، وقد ملأ القوم الدنيا بالخطب الرنانة، والوعود الخلابة، والرغبات التي ظاهرها الرحمة للإنسانية، وباطنها الويل كل الويل للإنسانية.

وكل هذا باطل في منطق الحق، وكذب على طبيعة الوجود، وإن صح في خسيس من المذاهب رجس كما يقول أمير الشعراء. وإن التاريخ ليخبرنا بوقائعه وتجاريبه بأنه ما وثق بين الأمم والشعوب مثل تبادل العواطف، وما وثق في تبادل العواطف مثل المصاهرة: تلك الفضيلة الاجتماعية التي جعلها الشرع الإسلامي صلة من صلات المودة والألفة والاتحاد، وأنزلها منزلة القرابة العصبية واللحمة في النسب، فقد حرم على الشخص أن يتزوج بأم زوجته أو بأنثى من فروعها وأصولها. كما حرم عليه أن

يتزوج بأمه أو بأنثى من أصول نفسه وفروعه، وكذلك حرم على زوجته الاقتران بأحد من أصوله أو فروعه، فكأنما أنزل الله كلاًّ من الزوجين منزلة نفس الآخر حتى أنزل فروع كل منهما وأصوله بالنسبة إلى الآخر منزلة أصول نفسه وفروعه. وهذا برهان يقيمه لنا الشرع الحكيم على أن الاتصال بطريق المصاهرة مساو لنفس القرابة النسبية في الأحكام والحقوق والألفة والاحترام.

على هذا الاعتبار القويم تتخذ الأمم الرشيدة من المصاهرة رابطة مودة، وواسطة سياسية، وعلاقة تامة يكون بها التعاون والرغبة في الإفادة والخير؛ بل على هذا الاعتبار جرت عوائد الأمم في الأزمنة الغابرة، فكانت القبائل والعشائر تتصاهر إذا أرادت أن تدخل في ميثاق يكون به المعونة على دفع الشر وجلب الخير؛ ولو أن دماء سفكت بين قبيلتين،

وعداوة تمكنت بين أمتين، حتى ملوا مقارفة النزال، وكلوا من مقارعة النضال، ورغبوا في الأمن والطمأنينة والسلام، لم يجدوا وسيلة تقطع دابر العداوة فيهما، وتوثق روابط المحبة بينهما، إلا أن تتصاهر القبيلتان فتصيرا كأسرة واحدة، وتدخلا في عهد جديد تتوحد فيه المشاعر والعواطف، وتصح به الهمم والعزائم، وتقوى الرغبات والآمال

وعلى هذا الاعتبار الذي تقتضيه الطبيعة، وتشير به الشريعة، وتقره وقائع التاريخ، تقوم اليوم الصلة بين شعبين كريمين: بين مصر ذات المجد الخالد، وإيران صاحبة التاريخ التالد. والصلة بين مصر وإيران صلة قديمة منذ العصور الغابرة، فالتاريخ يحدثنا بأنه لما ظهر (كورش) مؤسس الإمبراطورية الفارسية العظيمة، فاندفع في الغزو والاستعمار حتى استولى على ليديا وميديا وآسيا الصغرى وتوغل شرقاً إلى شواطئ السند، خشيت الدول بأس الفرس، وعقدت ضدهم تحالفاً ضم بابل وليديا ومصر وبعض ولايات الإغريق، فنهض (كورش) العظيم للانتقام من الدول المتحالفة، فأعاد ليديا لطاعته، وفتح بابل من جديد، ثم مات وفي نفسه الرغبة في غزو مصر!

فلما تولى من بعده (قمبيز) عمل على تنفيذ الرغبة، فجاء بجيش جرار إلى مصر، وكانت مصر منيعة بالتحصين، ويقول مؤرخو الإغريق أنفسهم: إن أحد الجنود اليونانيين خان المصريين فدل الفرس على أسهل الطرق في اقتحامها، وبهذا استطاع (قمبيز) أن يفتح مصر بعد مقاومة شديدة، حتى لقد أسر ملكها (ابسماتيك الثالث)، واشتط في معاملة المصريين، فأذاقهم ألواناً من القسوة الحنق، وهزئ بديانتهم فهدم المعابد والهياكل، وقتل بيده العجل أبيس في أحد الاحتفالات الدينية

فلما تولى (دارا الأول) أراد أن يصلح ما أفسده (قمبيز)، فزار مصر، وأبدى احتراماً عظيماً لديانات المصريين ومعبوداتهم، حتى لقد شيد هيكلاً فخماً بواحة سيوة لمعبودهم آمون، وبنى كثيراً من المدارس ودور العلم، وعضد التجارة ففتح الخليج الموصل بين النيل والبحر الأحمر، وأصلح طريق قِفْطْ المار بوادي الحمامات، وعلى الرغم من هذا كله فقد انتهز المصريون الفرصة في هزيمة (دارا) مع الإغريق في موقعة (مرتون)، فخرجوا على طاعته، واستردوا استقلالهم بزعامة أمير من الوطنيين، ولكن الفرس عادوا إلى غزو مصر ثانية في عهد ملكهم (إجزرسيس)، فقابلهم المصريون بالثورة والتمرد. وهكذا ظل

الفرس على الرغبة في استعمار مصر، وظلت مصر في الثورة على هذه الرغبة حتى جاء الفاتح العظيم الإسكندر الأكبر فطوى مصر وفارس فيما طوى من الأمم والشعوب

تلك هي صلة مصر بفارس في التاريخ القديم، وهي كما ترى صلة الفتح والاستعمار، ورغبة السيطرة وبسط النفوذ. فلما كان مطلع التاريخ الحديث اتصل المصريون بالفرس اتصال محبة ووفاء واحترام، فتمكن الود بين السلطان الغوري والشاه إسماعيل الصفوي على دفع الخطر العثماني الداهم، فسمح الغوري بأن يمر بطريق الشام الوفد الذي أرسله الشاه إلى البندقية لعقد محالفة على محاربة العثمانيين. ولما زحف السلطان سليم الأول على بلاد الشاه وأراد أن يكتسح فارس بأجمعها، وجد الشاه قد أتلف كل ما خلفه في المدن والقلاع من المئونة والذخائر، فأرسل السلطان سليم في طلب المدد والزاد من بلاده، ولكن قبائل التركمان وإمارة الغادرية التابعة لمصر أغارت على قوافله ومنعت وصولها إليه، فقلت الأقوات في معسكره، واضطرب الأمر في جيشه، وحرم لذة انتصاره، فأسرها السلطان في نفسه، وكانت

مما تعلل به في غزو مصر وضمها إلى خلافة آل عثمان
واليوم ترتبط مصر وفارس برباط المصاهرة الكريمة، أعني رباط القرابة والنسب، والود والألفة، وإنه لوضع ثابت في الاختلاط بين الشعبين، وعهد جديد في التعاون بين الأمتين الخالدتين، وميثاق صريح صحيح يؤكده دعامتان: (دين) يوحد بيننا في المشاعر والأفكار والعواطف والميول والأخلاق والعادات، (وثقافة) مستمدة من تعاليم الإسلام، وسياسة القرآن، وكل ما خلف العرب من أفانين العلوم والمعارف. والدين والثقافة عند علماء الاجتماع هما أهم المبادئ التي تحفظ كيان الأمم، وأقوى العناصر في تكييف حياتها ورقيها. أليس بفكرة الإسلام وحدها استطاع محمد صلوات الله عليه أن يجمع شمل تلك القبائل المتفرقة المتخاذلة، وأن يخلق منهم تلك الدولة العظيمة التي دوخت العالم، وتبوأت أرفع مكان في التاريخ؟!
ولاشك أن الشرق اليوم هو اللقمة السائغة التي يتقابل على التهامها أمم الغرب، ولاشك أنه لا طاقة للمسلمين بدفع هذا الخطر ولا قائمة لهم إلا بتبادل الشعور والعواطف، وإحكام الروابط والصلات، والرجوع إلى وحدة إسلامية لا مناص من الرجوع إليها كما يقول أستاذنا المراغي. ولاشك أن هذه الصلة الوثيقة بين مصر وإيران، قد قربت الوصول إلى
تحقيق هذه الوحدة، وستكون إن شاء الله طالع سعد للإسلام والمسلمين، وتوثيقاً لعرى القومية بين أمم الشرق التي هدها نفوذ الغرب وجشعه، وأنهكها طول التفرق والانقسام.
أميرة مصر وأمير إيران يقترنان. . . ألا إنه لبراعة استهلال للعام الجديد، وطائر يمن للشرق والإسلام، ورغبة أمتين كريمتين في الخير والمحبة، ثم هو صلة بين قلبين طاهرين، وعاطفتين نبيلتين، نسأل الله أن يحوطه برعايته، وأن يقرنه بالسعادة والبركة، وأن يحقق به الآمال والرغبات، وأن يجعله وسيلة الخير والسلام لغاية الخير والسلام
محمد فهمي عبد اللطيف
رسالة الإسلام خالدة
لِلأستاذ محمد فريد وجدي
وقر في عقول أهل العلم الغربيين، وعقول من نهل من حياضهم من الشرقيين، أن الأديان التي احتضنت الجماعات البشرية منذ نشوئها إلى عهد قريب قد انتهى دورها، وانقضت رسالاتها، لعدم وجود نفع يرجى للجماعات الراهنة منها. وكثيراً ما أسأل: هل رسالة الإسلام لا تزال قائمة؟ فأجيب: نعم، وأبد الدهر. ولست في تأكيدي هذا بواقع تحت سلطان العقائد الوراثية، ولا بمخدوع بالأوهام التقليدية، ولكني مستند فيه إلى علم، وماض فيه على بينة
ذلك أن كل مجموعة من التعاليم يحكم عليها بانقضاء دورها، حين تستنفد الحياة كل ما فيها من غذاء يناسبها، أو تتطور العقول وتظل هي جامدة لا تماشيها، فتترفع عن الأخذ بها؛ ولكن تعاليم الإسلام لا تجري عليها هذه السنة، فقد جاءت بالمثل العليا في كل ناحية من نواحي الحركة الروحية والعقلية والاجتماعية، فكيف يعقل أن تنتهي له رسالة، أو تزول له دولة؟
فأما من ناحية الحركة الروحية فإن الإسلام يصرح بأنه دين الفطرة الإنسانية، وهذه الكلمة أسمى ما يعبر به عن دين يخلد خلود البشرية. فإن الفطرة مودع فيها شريعة النوع كله بالقوة، وهي واحدة في جميع الأفراد لا تتعدد إن لم تفسد بدس تعاليم خارجية إلى النفس تحولها عن سمتها الطبيعي. وقد شدد الإسلام في النهي عن إفسادها بالتعاليم الضارة بها في كل مناسبة؛ وقد زاد فحاطها بحوافظ قوية من ضروب مختلفة، فنبه النفوس أولاً إلى ضرر التقليد الأعمى للآباء والقادة، وأمر بطلب الدليل المقنع على كل عقيدة يتقدم بها داع لنحلة، وصرح بأن الإيمان التقليدي لا يقبل، وأن الإنسان مسئول عن عمله الشخصي، وأن أحداً لا يغني عنه شيئاً، وأن أكثر من في الأرض لا يتبعون إلا الظنون والخزعبلات الموروثة، وأن الدين يهتدي إليه الإنسان على ضوء العقل الناضج والعلم الممحص، وأن الإنسان يترقى في معارج الهداية بقدر ما يخلص في طلب الحق، ويتجرد من الأهواء والأوهام، ويثابر على النظر والفكر،

ويستمع لكل كلام فيتبع أحسنه، ولا يأنف أن يأخذ بحقيقة يأتيه بها من يخالفه في دينه ولغته، وألا يصر على قول إذا ظهر له وجه الصواب في تركه،
وألا يتعصب لمذهب أو رأي تعصباً يعميه عن نظر ما عسى أن يكون فيه من الثلم أو يرد عليه من الاعتراضات، وأن يكون دائماً حريصاً على استقلاله العقلي وحريته الفكرية، مستعداً لأن يصحح ما يتضح له أنه مخطئ فيه، معتقداً أن ليس بعد الحق إلا الضلال.

وبناء على هذه الكليات يرى الإسلام أن الناس ماداموا كلهم متشابهين في الخلقة، ومتساوين في الميول والعواطف، فلا يصح أن تكون لهم أديان متعددة لم يفرق بينها إلا أهواء القادة وأوهام الزعماء، فإنما هو دين واحد، دين الفطرة المؤيد بالعقل والنظر، المنزه عن الظنون والوساوس، الجامع لكل ما حصلته الإنسانية في أدوار حياتها من مذخورات أدبية، وفتوحات روحية، فقال تعالى: (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى، وما أوتي النبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون. فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا، وإن تولوا فإنما هم في شقاق، فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم) وقال: (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء)

وأما من ناحية الحركة العقلية فإن الإسلام قد رفع من شأن العقل ونوه بسلطانه، إلى حد أنه اعتبر الذين لا يقيمون له وزناً في تقدير قيمة عقائدهم دوابَّ تحقيراً لهم، فقال تعالى: (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون). وعد الذين لا يستخدمون حواسهم الظاهرة في النظر والتأمل، ومشاعرهم الباطنة في الاستدلال والتعقل، أنعاماً بل أضل. قال الله تعالى: (لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام، بل هم أضل، أولئك هم الغافلون)

وشفع الإسلام كل هذا بالتحضيض على طلب العلم والتحريض على تصيد المعرفة من كل المظان التي يتخيلها العقل، من النظر في الكون والتأمل في الكائنات، والتنقيب عن مساتير الخليقة والسريان في سرائر الوجود، في السماء وأجرامها، في الأرض وعوالمها، في الحيوانات وعجائبها، في النباتات وبدائعها، كل ذلك لبناء الشخصية الإنسانية وإبلاغها إلى ذروة الكمال المقدر لها. ولقد رفع من شأن العلم في نظر الإنسان إلى حد أنه حصر فهم آيات الله وإدراك مراميها، وفهم مغازيها في أهل العلم، فقال تعالى: (إنما يخشى الله من عباده العلماء) وقال: (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) وقال: (إن في ذلك لآيات للعالمين) بكسر اللام فيهما. ولا يمكن أن يتخيل أحد أن يتجاوز التنويه بشرف العلم هذا الحد

هذا ولم يغفل الإسلام في تطلب ترقية الشخصية الإنسانية شيئاً، حتى الضرب في الأرض، وتعرف أحوال الأمم وطبائعها، ودراسة ما هي عليه من شرائعها وعاداتها، وناهيك بأثر ذلك في ترقية النفسية البشرية، فقال تعالى: (أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها. أو آذان يسمعون بها، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور). وقد كرر الحض على السياحة مراراً كثيرة

وأما من ناحية الحركة الاجتماعية فإن الإسلام قد بلغ بها الأفق الأعلى، وأوجد في رابطة الاجتماع تجديداً لم تحلم به الإنسانية بعد، ولا مناص في أنها ستعول عليه في المستقبل، فقد جعلها الإسلام مؤلفة من الأصول الأدبية، والقواعد الخلقية، لا كما كانت قائمة عليه من الحاجات الجسدية، والمقومات القومية. فعل الإسلام ذلك لتشمل تلك الرابطة النوع البشري كافة، وتلاشي في طريقها الفروق الجاهلية القائمة على الجنسية، والخلافات اللغوية واللونية التي كانت ولا تزال عوامل شقاء في بنية الإنسانية، بما تثيره من الحروب والغارات بينها، وما تمحق من روح التكافل والتعاون فيها. فالإسلام لا يعترف بفرق بين عربي وعجمي وصيني وتركي، وجاوي وفرنسي الخ، فالناس كافة في نظره أولاد آدم وحواء، وقد خلقوا ليتعارفوا ويتعاونوا، لا ليتناكروا ويتناحروا، فقال تعالى: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير)

فالإسلام يقرر أنه مادام النوع البشري واحداً، فيجب أن يكون له دين واحد وغرض في

الحياة واحد. وأنت ترى أن العالم كله رغماً عن طغيان العاطفة القومية في هذا العصر، وازدياد عوامل الفرقة والخلاف بين الشعوب، سيضطر إلى التوحد، وستكون هذه الموجة نفسها من الخلاف والتفرق من أكبر العوامل في إيجاد تلك الوحدة المرجوة، لأنها ستتثبت بدليل محسوس أن هذه الوحدة هي العامل الوحيد لنجاة المدنية من التلاشي.

إذا اعتبرت كل ما ذكرته هنا رأيت بما لا يدع شكاً أن رسالة الإسلام لا تزال باقية، وأنها ستبقى ما بقي النوع الإنساني على الأرض. وإنما تزول التعاليم إذا كانت مقدرة على أحوال معينة، متى ارتقت أصبحت تلك التعاليم لا تسد حاجة المجتمع فتزول، أو يثبت فسادها بترقي العقول. فتتلاشى مع كل ما يتلاشى من أمثالها

ولكن ما بيناه من تعاليم الإسلام هنا لا يعقل أن يزول، لأنها أصول أدبية خالدة، ومثل عليا لا يمكن التماري في سموها، وفي تأدي العالم في المستقبل إلى محاولة تحقيقها.

محمد فريد وجدي

مجد المرأة وكرامتها في كنف الإسلام

لِلأستاذ محمد عبد الرحمن الجديلي

مدير المساجد

أقام المشرع الإسلامي قواعد للمجتمع، على أسس اجتماعية أصلها ثابت وفرعها في السماء. ونظر إلى الدعامة الأولى لبناء الأفراد وهي المرأة، فجعلها قسيمة الرجل في الحياة، أمّاً أو زوجة، ثم أوضح لها شرعتها حكيمة مسدّدة تمهد لها كل ما هو ميسر لها، متسق مع طبيعتها. وطبيعة المرأة: وجدان متأثر، وعاطفة مشبوبة، وجانب لين، وأجزاء دقيقة، وهيكل متأنق، ورونق متألق، ولطف ساحر في التأسية، وفيض ضاف من الحنان

ولقد تنطق المرأة بكلمة تواسي بها الرجل إذا تفزع فؤاده من الهول، فتفعل الكلمة في قلبه، وتؤثر وتجدي ما لا يؤثره أو يجديه بلاغة الأساة من الرجال. ولعلك على ذُكر من كلمة خديجة أم المؤمنين يوم جاءها زوجها محمد صلى الله عليه وسلم وفؤاده يرجف من لقاء الملك، ومن تلقي الوحي، وهو أمين الله ومختاره جلادة وقوة وصبراً واحتمالاً، فلم يكن منفرجُ الروع، ولا ذهاب الخوف إلا ساعة قالت خديجة كلمتها، كلمة المواساة والترفق والأمل: (كلا والله لا يخزيك الله أبداً. إنك لتحمل الكل، وتكسب المعدم، وتعين على نوائب الدهر)

أعلى الإسلام من قدرة المرأة ما وسع العلاء طبيعتها، وعظم من شأنها ما شاءت الخليقة أن تعظم، ثم وفر لها من الحرية ما يناسبها ويُهَيِّئ له من ميدانها سبيل النفع والخير؛ فلم يُردْها قعيدة بيت بل سيدة بيت؛ ولم يجعلها مسلوبة الإرادة، بل شاءها طليقة في مملكتها الصغيرة الكبيرة، ورجا لها الصيانة في قدس الخِدْرِ

خطب صلى الله عليه وسلم بنت عمه أبي طالب واسمها أم هانئ، وكانت قد تزوجت ونسلت ومات عنها زوجها. فما الذي ألهمها الإسلام أن تقول أن تقوله في جواب هذا العرض المحمدي الشريف؟ لقد قالت تخاطب صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم: (يا رسول الله، لأنت أحب إلي من سمعي ومن بصري؛ وإني امرأة مؤتمة (مات عني زوجي) وَبنِيَّ صغار، وحق الزوج عظيم، فأخشى إن أقبلت على زوجي أن أضيع بعض شأني وولدي؛ وإن أقبلت على ولدي أن أضيع حق زوجي)

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن خير نساء ركبن الإبل نساء قريش: أحناهن على ولدٍ في صغره، وأرعاهن على بعل في ذات يده)

لم تكن تلك الحرية فيمن تختاره المرأة لنفسها قاصرة على كرائم أحرارهن، بل بسطها الإسلام حتى على من كانت أمَة وخلصت من الرق.

ملك عقبة بن أبي لهب جارية حبشية اسمها بريرة، وزوجها عبداً من العبيد، فكانت تضيق به وتتبرم منه. ولكنها مملوكة، وأمرها ليس بيدها. فلما علمت عائشة أم المؤمنين بما تعانيه (بريرة) في هذا الزواج اشترتها وأعتقتها. فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ملكتِ نفسكِ فاختاري) فاختارت أن تنجوَ بنفسها من هذا الزواج الذي لا تطيب به. فكان زوجها بعد هذا الفراق يمشي خلفها ويبكي ويسترضيها، فلا ترضى عنه. وكان يرثي له كل من يراه خلفها باكياً. رآه صلى الله عليه وسلم مرة وتلك حاله فقال لأصحابه: (ألا تعجبون من شدة حبه لها وبغضها له!) ثم قال لها: (اتقي

الله فإنه زوجك وأبو ولدك) فقالت: (أتأمرني يا رسول الله؟) فقال: (لا. إنما أنا شافع) فقالت: (إذن، فلا حاجة لي إليه. . .) هكذا تقررت حرية المرأة في أمر نفسها، حرية تكفل للبيت النعيم، وتوفر لها الهناءة. وبهذا جاء الإسلام موقراً لرأيها، محافظاً على كيانها، مظهراً لشخصيتها. فإذا ما أجارت المسلمة لاجئاً، أو أمَّنت أسيراً، فقد أجار المسلمون - جميعاً - مَن أجارت، وفكوا من أطلقت، وحموا من استعاذ بها. . .

ورد في الصحيح البخاري أنه لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأعلى مكة يوم الفتح احتمى رجلان بأم هانئ بنت أبي طالب وهي مسلمة، فدخل عليهما أخوها علي وهَّم بقتلها، فأغلقت دونه الباب، وجاءت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها: (مرحباً وأهلاً يا أم هاني، ما جاء بك؟) فأخبرته خبر الرجلين وخبر أخيها علي، فقال عليه السلام: (قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ وأمَّنا من أمنت)

فقد أجاز المشرع لعقيلة مسلمة كريمة أن تفك عانياً أسره المسلمون في غزوتهم، وقد كانت بين الأسير وبين الكريمة أسباب وثيقة، فما هو إلا أن عاذ بها واستجار في حماها، فأجارته

ولقد كانت كبرى بنات سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وهي زينب قد تزوجت من ابن خالتها أبي العاص بن الربيع، وكان أبو العاص يخص زوجته زينب بإكباره وتكرمته، فلما

انصرف عن الإسلام بادئ الأمر وزوجته مسلمة فرق بينهما الإسلام، وهاجرت زينب، وبقي هو منصرفاً عن الإسلام؛ غير أن حنينه لزوجته لم يفتر، فكان يرسل لوعته الحرَّى في أبيات من الشعر الرقيق ويقول:

ذكرت زينب لما وركت إرما ... فقلت سقيا لشخص يسكن الحرما

بنت الأمين جزاه الله صالحة ... وكل بعل سينبي بالذي علما

ثم خرج إلى الشام في تجارة لقريش، فعرض للقافلة زيد بن حارثة في جمع أرسله محمد عليه السلام، فغنموا المال وأسروا الرجال. وكان في الأسرى أبو العاص، فاستجار بزينب، فرجت أن تحقق إجارته وأن تحميه. وترقبت صلاة الفجر، وأبوها يؤم المسلمين، فلما انتهوا وقفت بباب المسجد ونادت بأعلى صوتها: (إني قد أجرت أبا العاص بن ربيع). فقال صلى الله عليه وسلم: (هل سمعتم ما سمعت؟) قالوا: نعم. قال: (فوا الذي نفسي بيده ما علمت بشيء مما كان حتى سمعت ما سمعتم. ألمؤمنون يد على من سواهم، يجير عليهم أدناهم، وقد أجرنا من أجارت) فلما أنصرف النبي صلى الله عليه وسلم إلى منزله دخلت عليه زينب فسألته أن يرد على أبي العاص ما أخذ منه، ففعل. . .

ولقد حسن شأن أبي العاص، وحلت الهداية قلبه، فعاد إلى مكة وأدى الحقوق إلى أهلها، ثم رجع إلى المدينة مسلماً، فرد رسول الله إليه زوجته زينب الوفية البارة.

رأى المشرع الإسلامي أن صيانة الأعراض وحرمة السير وكرامة الأسر من حقوق المجتمع، بل من أسباب بقائه ونموه؛ ذلك بأن الخلية الأولى من خليات المجتمع هي الأسرة، والأسرة لا قوام لها إلا بالرجل، يندفع لحمايتها، وينبعث لرعايتها، ويعاني أخطار الحياة، ويجوب العامر والخراب - كل ذلك ليوفر لأبنائه ولبيته أسباب الحياة وسعادة العيش؛ وما يدفعه إلى ذلك إلا حنان الأبوة، ووشائج النسل، وشعور ملتهب بأن الولد قطعة من أبيه، وفلذة من كبده، فمن أين تتم للرجل تلك الدوافع وهاتيك الوثبات إذا هو ارتاب أو حاك الشك في نفسه صحة انتساب ولده إليه، أو خلوص زوجته له. . .!

لهذا أحاط الإسلام المرأة بسياج حصين، وأمن الرجال على أنسابهم وأعراضهم، لصلاح مجتمعهم. ثم توعد - في أسلوب قوي رائع - كل من يمس قداسة الطهر، أو يتعرض - على غير علم - لصفة المرأة، أو جرى على لسانه الهُجْرُ والفحش في سيرتها. . .

يقول تعالى: (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون)

فانظر كيف حدد الله للتهجم على الأعراض عقوبة جسيمة ثم أردفها بأخرى أنكى وأخزى وأبقى على الأيام، تَسِمُ القاذَف بميسم الخزي وتتهمه - أبد الأيام - بفقدان الثقة وخبث الذمة ومرض الضمير. ثم يختم سبحانه الآية بتسجيل فسق القاذف وخروجه عن طاعة الله ونبذه من لمجتمع الأخلاقي. . .

ثم شاء - جل وعلا - ألا يدع هؤلاء الوالغين في الأعراض حتى يجعل الخزي والعار ناطقاً بشناعتهم مشهراً بسوآتهم فقال:
(إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم، يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين)
ولقد ثقف الإسلام المرأة ثقافة يتطلبها شأنها، ثقافة دينية خلقية، فكان عليه الصلاة والسلام يجعل للمسلمات يوماً كل أسبوع يعلمهن ويثقفهن، وكان كريم الصبر في إرشادهن، فسيح اللبان في هدايتهن
أخذ عليهن - عندما كن يبايعنه مرة - ألا ينحن على الموتى. فقالت عجوز ممن حضرن: يا رسول الله، إن أناساً أسعدوني على مصيبة أصابتني، وإنهم أصابتهم مصيبة، فأنا أريد أسعدهم. فقال لها عليه السلام: (انطلقي فأسعديهم) ثم عادت فبايعته.
تلك بعض نظرات المشرع الإسلامي إلى المرأة، فأين نحن؟ وكيف صرنا؟
لقد يروي لنا المؤرخون أن دولة الرومان يوم تألق نجمها، وعظم سلطانها، واستبحر عمرانها، كان الشطر الثاني للمجتمع وهو النساء، لا يعرفن غير البيت والأسرة، يقمن للبيت بواجبه، ويؤدين للأسرة حقها، وهن من وراء حجبهن. بل لقد غلون في الحجاب يومذاك غلواً كبيراً، فلن تخرج واحدتهن إلا وهي ملثمة، وعليها الأردية السابغة، ومن فوقها العباءات التي لا تبين تقاسيم الجسم - في ذلك الحين برع الرومان في كل شيء، في الملك والصناعة والتشريع، ودانت لسلطانهم الشعوب. فلما بلغت الدولة مداها ولع الناس بالترف، وغمرهم النعيم، وأفسد أجسامهم البذخ، فغدوا يبتكرون الملذات من غير تحرج ولا
تأثم، حتى فترت غيرتهم، وامحت نخوتهم، فتضعضعت قوة الملك، ووهى صرح المجتمع، ولم تلبث دولة الرومان العظيمة أن تساقط ملكها، وانتزع الفساد شوكتها، وراحت صريعة الشر الاجتماعي الذي نزل بالمرأة من عليائها إلى الحضيض، وهوى بالدولة معها إلى الفناء.
ولقد نسمع المفكرين وذوي المذاهب الإصلاحية الاجتماعية يتصايحون اليوم: أن ارجعوا بالمرأة إلى ما خلقت له، وجنبوها مزالق الاجتماع، واجعلوا تحت نظرها كتب التهذيب الديني، والتدبير البيتي، لتروي أبناءها من منابع الدين وأصول الفضائل، وتحكم بتدبيرها نظام الأسرة الذي أوشك يتداعى. فهل من سميع؟ وهل من مجيب؟ لنا في تراثنا مرجع لصد العابثين، وإيقاظ السامدين. إن في تربية الإسلام للمرأة ما يوفر لها حريتها ومجدها وكرامتها.
الجديلي
عياش بن أبي ربيعة
لِلأستاذ كامل محمود حبيب
(يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم، لا تقنطوا من رحمة الله. إن الله يغفر الذنوب جميعا، إنه هو الغفور الرحيم. وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون. واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون).
(قرآن كريم)
الليل ساج والحياة نائمة، وعيّاش في طريقه يتسلل في رقبة وحذر، وقلبه يضطرب خشية القوم أن يستشعروا فراره فيجلبوا عليه وهو يرد أن يفزع بدينه إلى المدينة . . إلى حيث يجد الحرية والأمان. لقد كان - هو في طريقه - ينظر إلى الوراء، بين الفينة والفينة، يودع ملاعب الطفولة ومراتع الشباب للمرة الثانية، والعبرات تترقرق في محجريه، غير أنه ما كان ليأسى على شيء في مكة وفي قلبه الإيمان والصبر إلاّ على أن حُرم استجلاء النور الإلهي من طلعة النبي صلى الله عليه وسلم، وإلا على فراق أمه وقد تعلق بها قلبه فما ينصرف عنها، وإلا على مال كثير خلّفه هناك كان يطمع ن يشد به عصبه؛ ولكن خياله كن يوحي إليه أن رفيقيه - عمر بن الخطاب وهشام بن العاص - ينتظران عند التَّنَاضُب من أَضَاةِ بنيِ غفار فوق سَرِف على أميال من مكة، فهو يهفو إليهما في غير أناة ولا تردد
وبلغ الفتى المكان فاطمأن قلبه أَنْ ألفى عمر بن الخطاب هناك يتشوفّ . . وتنفس

الصبح ولّما يبدُ هشام عند الأفق، فانطلقا معاً. . . ونزلا المدينة ينعمان بالحياة والإيمان لا يجدان من الضيق والعنت بعض ما كانا يجدان في مكة
وتناهى خبر عيَّاش إلى القوم من بني مخزوم فَغَدَوْا إلى أبي جهل والحارث يعيرونهما ويحثونهما: (أفَيَفرّ الرجل من بينكما ثانية ليكون لكما - على الدهر - عاراً وسُبَّة)، وأبو جهل يتلهّب من الغيظ والحقد وقد انطوت نفسه على أمر، والحارث إلى جانبه يقول: (وماذا عسانا أن نفعل في سفيه فَرّ مع سفهاء مثله؟) وثارت الحّمية حمية الجاهلية في رأس أبي جهل تستلبه الهدوء والاستقرار، والشيطان من ورائه يدفعه إلى أمر، فراح إلى
الحارث يحدثه حديثه وحديث الشيطان في وقت معاً. . . ثم انطلقا معاً صوب المدينة. . .
وجلس أبو جهل والحارث إلى أخيهما عياش يترفقان معه في الحديث، ويدخلان إلى قلبه بفنون من الكلام، فاستعصى عليهما؛ غير أن أبا جهل لم يكن رجلاً تزَعه الكلمات عن غايته أو تثنيه عن قصده، فيرتد خائباً مخذولاً، فراح يقلب الرأي في خاطره، ويتلمس الحلية من شيطانه، ثم. . . ثم قال: (يا أخي، إن أمك قد نذرت ألا يمس رأسها مشط حتى تراك، ولا تستظل من شمس حتى تراك!) ورأى عمر بعض ما بدى على عياش من رقة واستخذاء حين سمع ذكر أمه، وخيل إليه أن الرجل يلقي إلى أخويه السَّلم فيذهب ضحية المكر والخديعة، فقال: (يا عيَّاش، إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك، فاحذرهم، فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت) ولكن الشيطان كان قد عدا على الرجل فاستلبه الثبات، فقال: (أبِرٌّ قسم أمي، ولي هنالك مال فآخذه) فقال عمر: (والله إنك لتعلم أني لمنّ أكثر قريش مالاً، فلك نصف مالي ولا تذهب معهما) غير أن الرجل كان قد وقع في حبالة أخويه حين صوّر له شيطانه أمه في الهاجرة شعثاء غبراء تندب ولدها وتؤذي نفسها، فأبى إلا أن يصحب أخويه، وعمر به ضنين. وعجز عمر عن أن يدفع الرجل عن الهاوية التي يوشك أن يتردى فيها، فقال له وهو يهم بالرحلة: (يا عياش، أما إذ قد فعلت ما فعلت فخذ ناقتي هذه، فإنها ناقة نجيبة ذلول فالزم ظهرها، فإن رَابَك من القوم رَيْبٌ فانجُ عليها) ثم. . . ثم وقف ينظر إلى الاخوة الثلاثة حتى غَيَّبتهم البيداء في أحشائها فرجع وفي نفسه الأسى والحزن، وقلبه يحدثه حديثاً. . .
وانطلق عياش بين أخويه، وأبو جهل يختلس النظرات - بين الحين والحين - إلى ناقة عمر وهي تخد بأخيه وخداً سريعاً، وقد حمل لها كرهاً حين لم يستطع أن يحول بين عياش وبينها، وحين عجز عن أن ينالها بسوء، ثم لمعت في رأسه خاطرة ابتسم لها، وأشار إلى أخيه الحارث ينذره بأمر، ثم راح إلى عيَّاش يحدثه: (والله يا أخي لقد استغلظتُ بعيري هذا، أفلا تعقبني على ناقتك هذه؟) فقال عيّاش وقد أمن مكر أخيه: (بلى، يا أخي!) فأناخ وأناخا ليتحوّل إليها، فلما اسْتَوَوْا بالأرض عَدَوَا عليه فأوثقاه وربطاه ثم دخلا به مكة نهاراً وعلى وجهيهما سمات الفرح والسرور يباهيان أهل مكة بما كان، ويقولان: (يا أهل مكة، هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفيهنا هذا) ثم فتناه فافتتن
أفحقاً قد افتتن الرجل وارتد عن دين الله واطمأن إلى الكفر، وسكن إلى الجاهلية، واستحب العمى، بعد إذ ذاق حلاوة الإيمان، ووجد في قلبه برد الإسلام، وعاش زماناً بين اخوة من المؤمنين يستروح منهم نسمات الحب والإخلاص وهو في الحبشة حيناً وفي المدينة حيناً، لا يستشعر مرارة الفراق ولا لذع الغربة؟ إن صُبابة من الإيمان ما تزال تتوثب في قلبه، غير أنه خشي أن ينطلق إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستغفره فلا يتقبّل منه، وهو كان يسمع صحابته يقولون: (ما الله بقابلٍ ممن افتتن صرفاً ولا عدلاً ولا توبة. قوم عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر كبلاء أصابهم) فيرتد على عقبيه وفي نفسه الحسرة والشجن. . . ثم لبث في قومه سنين
وترامى إلى الرجل أن النبي صلى الله عليه وسلم هاجر من مكة في رفقة صديقه أبي بكر فنازعته نفسه إليه تدفعه أن يلحق به ولكن. . .
وتصرمت أعوام وعَيّاش في حيرة من أمره، ما يستطيع أن ينزل عند رأي أخويه فيغتمر في الكفر فيجحد ما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم، وما هو بقادر على أن يطير إلى المدينة، وحديث رفاقه ما يبرح يدوّي في أذنيه، وعمر هناك في

المدينة أسيف على أن يرتد رفيقه عن دينه، وعلى أن يتلمس إليه الطريق عَلَّه يجد الوسيلة إلى قلبه فلا يستطيعه
وأنزل الله تعالى (يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً، إنه هو الغفور الرحيم) ووجد عمر فيما أنزل الله متنفساً . . .فانطلق إلى قرطاس يسطّر عليه الآيات الكريمة ويبعث بها إلى صديقه
وأقبلت الرسالة تنفح من عبيرها على قلب الرجل فاضطرب لها ولمّا يفضّ مغاليقها؛ وتاقت نفسه إلى أن يطمئن إليها ساعة من زمان يحدثها وتحدثه، غير أنه لم يكن ليجد الخلوة. . . وعلى حين غفلة من أهله دلف إلى ذي طوًى بأسفل مكة ينشر الرسالة على عينيه وقد أمن الرقيب، ثم راح يصعّد بها فيه ويصوّب فلا يفهم منها حرفاً، وبدت الكلمات أمامهُ عقداً أعيت عليه. ماذا؟ لقد استغلق عليه الكلام العربي المبين وهو عربي في الصميم والذروة من العرب! فأخذ يقلّب الصحيفة بين يديه وقد سيطر عليه الحزن والأسى، ثم ألقي في روعه أن حجاباً كثيفاً أسدل بينه وبين أن يفهم كلام لله لأنه نجَس، فأقبل على الله بقلب
سليم يسأله: (اللهم فهِّمْنيها) فألقى الله في قلبه أنها إنما نزلت فيه وفي من هم على شاكلته وفيمن كانوا لأنفسهم ويقال فيهم، فرجع إلى بعيره فجلس عليه ولحق برسول صلى الله عليه وسلم وهو يستبشر بما غفر الله له
وعملت الآيات الكريمة معجزتها في الرجل لتجذبه من هاوية كاد يتردى فيها ما لها من قرار، إلا أن يستقر في الدرك الأسفل من النار
كامل محمود حبيب
كتاب السيرة
لِلأستاذ أحمد الشايب
المدرس بكلية الآداب
- 1 -
تحتل السيرة النبوية في تاريخ الأدب العربي مكانة لم يظفر بها موضوع آخر، لهذه المكانة التي يشغلها صاحبها في تاريخ الأمة الإسلامية أولاً، وفي التاريخ العام ثانياً، فإن الرسول عليه السلام لم يكن أديباً فقط له هذه الآثار القوية الخالدة من الأحاديث والخطب والرسائل، وإنما كان قبل ذلك وبعده، رسولاً صاحب دعوة إصلاحية عامة تناولت الدين والنظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، وأثرت في الحضارة العامة لمن اعتنقوها طائعين أو جانبوها كافرين، واستطاعت أن تستوقف التاريخ أو تلوي عنانه لتملي عليه إرادتها، وتلقي إليه وحيها، فأخذ عنها ما أملت، وكتب من فصوله صحفاً ملأى بالجهاد، والفضائل، والأدب، والفن، والسياسة؛ ولا يزال الإسلام إلى اليوم - على الرغم مما أصاب بعض ذويه من هوان - مصدر الخير والسعادة، وموئل البشرية حين تعزوها الهداية، ومعهداً لدراسات خطيرة تلقي أمام رواد الحضارة المثالية ضوءاً يرجى أن يتم به على العلم ما يبغي من رشاد وسلام.
ولم تقف العناية بالسيرة عند العرب وحدهم، أو المسلمين فقط، وإنما تجاوزتهم إلى جماعة من كتاب الفرنجة الأعلام الذين رأوا في نبي المسلمين رجلاً عظمياً من رجال التاريخ خليقا بالبحث في أسباب عظمته، وما أتيح له من هذا الفوز الذي استأثر بالسلطان المدني والسياسي طوال القرون الوسطى، إذ كان العالم الإسلامي يشغل التاريخ بأحداثه الكبرى، ودوله المتعاقبة، وآدابه الغزيرة حين كان الغرب يضطرب في ظلمات كثيفة، ويحيا حياة خاملة.
ولسنا هنا بعرض الاستيعاب، واستقصاء هؤلاء الذين كتبوا عن الرسول قديماً وحديثاً من المسلمين وسواهم، وحسبنا أن نلم بشيء من ذلك لنصل منه إلى جماعة من المعاصرين الذين تناولوا السيرة بأساليب مختلفة، لها قيمتها العلمية والفنية جميعاً.
- 2 -
منذ ألف ابن إسحاق سيرته التي اختصرها ابن هشام في هذا الكتاب المنسوب إليه، والناس يعدونها المرجع الأول لكل من يحاول تأريخ الرسول. وليس ذلك لأن جميع ما احتوته حق تاريخي خالص، وموضع الثقة التي لا ينالها تجريح، لا، ولكن ذلك لأسبقيتها التاريخية في التدوين، ولما احتوته من حقائق ثابتة في كثير من المواقف، ولأنها روت أخبارها بهذه الروح التي كانت مسيطرة على المسلمين في القرون الاولى، أي بوجهة

نظرهم، وطريقة تفسيرهم لحوادثها. . . فكانت الخطوة الأولى في هذا السبيل عند المتقدمين، ونقطة الابتداء لكل من يحاول تأريخ النبي الكريم من المحدثين، يرجع إليها محققاً أو مستلهماً. دع عنك بعد ذلك ما تراه فيها من شعر منحول، وروايات مكذوبة، وأخبار لم تصح، لأن وزر ذلك لا يقع على ابن إسحاق وحده، وإنما لهذه البيئة التي كان يعيش فيها الأثر الأول فيما وقع فيه من قصور، فقد كان يحكي أخبار جاهلية بعيدة، ويقص أياماً نالتها المبالغات والعصبيات، وينقل آثاراً مات أهلها، واعتراها التحريف. على أن ابن هشام لم يقيد جميع ما كن لابن إسحاق من خبر بل حذف منه كثيراً وبخاصة ما كان متصلاً بالجاهلية الاولى، منفصلاً عما يتصل بحياة الرسول اتصالاً مباشراً كما هو مذكور في المقدمة.

ثم جاء الواقدي وتلميذه ابن سعد في طبقاته، وحاولا التحقيق والزيادة فظفرا منهما بنصيب. وأصبح فن السيرة بعد هؤلاء تقليداً من التقاليد يعمد إليه الكتاب تعيداً أو تأدباً كما فعل كتاب المقامات في عصور التاريخ الأدبي المتوالية، فكانت السيرة الحلبية، والسيرة الشامية. ولم تخل كتب التاريخ العام - كالطبري وابن الأثير - من تخصيص بعض أجزائها لسيرة الرسول إذ كانت تشغل وحدها فترة واسعة، خصبة، بعيدة الأثر فيما أعقبها من دول وأحداث.

وهذه المؤلفات القديمة لم تكن بالطبع خاضعة لهذه المناهج العلمية الحديثة، فكانت مجموعة من أحاديث الرسول، وأخبار الجاهلية وأساطير القدماء، وأشعار الناحلين ومبالغات الراوين، دون عناية بالنقد والتفسير أو التنسيق وحسن التأليف. ولكنها كانت مؤلفة بروح هذه العصور السابقة، وبوجهة النظر التي كانت - في الغالب - مقياس الصحابة والتابعين حين يذكرون الرسول الكريم ويفسرون أعماله وآثاره

أما كتاب الفرنجة فقد رأينا مستشرقيهم يتهافتون على هذا الموضوع، ويسلكون فيه هذه المناهج العلمية التي قد تفيد من ناحية الشكل والنظام، ولكنهم بعد ذلك كانوا فريقين: فريقاً أتخذ السيرة مجالاً للتعصب على الإسلام فكان من المبشرين الخاطئين، وفريقاً حاول الإنصاف ووقف عند الأصول العلمية الجافة ففقد هذه الروح أو الجو الذي كانت تجري حوادث السيرة في ظلاله، فتعسر عليه تفسير أشياء كثيرة كان من السهل عليه إدراكها لو أنه كسب هذه الروح وعاش بخياله في عصور النبوة الأولى. نذكر من آثار المستشرقين حياة محمد لإرفنج، وأخرى لوليام موير، وثالثة لمرجليوث، ولا ينسى التاريخ هذا الفصل البديع الذي كتبه كارليل تحت عنوان (البطل في صورة نبي) إذ دل على تفهم عام لهذه الروح التي كانت تشيع في بلاد الرسالة قديماً

على أن الهنود لم يقصروا في هذه الناحية فكتبوا باللغة الإنجليزية في السيرة رأساً مثل النبي لمولانا محمد علي، وفيما يتصل بها مثل روح الإسلام لسيد أمير علي، ولغير الهنود في مصر وفي العالم الإسلامي آثار في السيرة لم تخل من فائدة.

ولكننا نختار من هؤلاء المعاصرين ثلاثة نقف عندهم وقفة قصيرة لا لشيء إلا لأنهم نهجوا في كتابة السيرة مناهج طريفة من ناحية، ومتغايرة من ناحية أخرى: محمد حسين هيكل، وطه حسين، وتوفيق الحكيم

يتفقون جميعاً في العناية المحمودة بسيرة الرسول، وجعلها في العصر الحديث موضوعاً خليقاً بالدرس وبذل الجهود في إذاعته بين الناس بأسلوب جديد يقربه إليهم ويحببه إلى نفوسهم، وهذا وحده غرض نبيل يستحق التقدير. كذلك سلكوا مسالك واضحة ممتازة وإن كانت متغايرة، ولكل مذهب محدود ذو معالم ألتزمها صاحبة ليس فيه هذا الاضطراب القديم الذي كان يجمع أشتاتاً من القصص، والتقرير والوصف والرواية ونحوها، وإنما هو مذهب علمي أو فني متناسق الأجزاء، منظم العناصر، فيه فقه للأشياء وفهم لها بروح قديمة أو حديثة أو بهما جميعاً. ومع ذلك فهم مختلفون في أشياء كثيرة

يمتاز هيكل بالمنهج العلمي الذي ترسمه فيما كتب، فكان مذهبه مذهب العالم المحقق، إذ قسم موضوعه إلى فصول متواصلة متلاحقة كما كانت حياة الرسول عليه السلام منتظمة

في هذه الفصول أو الأقسام التاريخية، ولا أقول إن هذا المنهج كله من اختراعه فلقد سبق إليه، ولكنه آثره وهذب منه، وهذه الخطة نفسها اقتضت مؤلف - حياة محمد - أن يكون مستقصياً استقصاء الباحث فليس له اختيار ما يحب وترك ما لا يهوى، لأنه يعالج موضوعاً من عمل التاريخ، عليه أن يعرضه كما حدث دون أن يخلع عليه من نفسه إلا ما شاء الخيال التاريخي الذي يربط المفكك، ويصل المنقطع، ثم هذا النقد الذي يظهر في تفسير كثير من المسائل بمقياس إسلامي علمي بعد ما كانت أشبه بالسمعيات تصدق ولا تعلل. . . وفي مناقشته آراء المستشرقين الذين تجافوا فيما كتبوا عن روح الدين وطبيعته، وبعدوا عن عصر الرسالة وبيئتها فلم يوقفوا فيما يتصورون. وصاحب (حياة محمد) بعد ذلك مسلم حدب على الدين غيور، أشرب روح الإسلام، وألم بكثير من أسراره فظهرت على كتابه أعراض الحمية، حمية من لا يسمح لأحد بغمز دينه أو النيل منه، وذلك كله في أسلوب منطقي واضح هو أسلوب العلماء.

ولكن طه حسين سلك سبيلاً أخرى هي سبيل الأديب حقاً، فلم يشأ في الظاهر أن يتقيد بمنهج علمي، وإنما كان قصاصاً، ترك هذا العصر الذي نعيش فيه، وانتقل بخياله الخصب إلى الجاهلية وصدر الإسلام وعاش مع ناسهما يفهم بعقولهم، ويحس إحساسهم، ويأكل مما يأكلون منه، ويشرب مما يشربون؛ وبذلك استطاع - ما وسعه الجهد - أن يقص علينا الحوادث بروحها وفي جوهرها، وأن يفسر المسائل كما كانت تفسر حينذاك، فنقل إلينا هذا الماضي أو نقلنا إليه بحيلة لطيفة. وفن القصص لا يقتضي صاحبه استقصاء ولا نقداً علمّيا دائماً، ولا تحقيقاً وتفنيداً، فآثر أهم الأمور التي يرى فيها روعة قصصية لأنها كانت رائعة إبان حدوثها أو فيما شعر وتخيل صاحب (على هامش السيرة). . . ثم تناولها واصفاً وحاكياً لم يترك جانباً منها إلا أضاءه وأكمل منه ما فات الرواة. وليس من شك في أن ذلك قد عرض بأسلوب جميل هو أسلوب القصص الممتاز الجامع بين التحليل النفسي للأشخاص، والإحاطة التامة بما يعرض له من مواقف

أما توفيق الحكيم فقد توسط الاثنين، وجمع بين ميزتي العالم والأديب الممثل، فكانت سيرته أخف شيء على النفوس. استشار المراجع القديمة، ووقف عندما رسمت دون أن يستعين الخيال إلا قليلاً؛ وقد ألم بأطراف موضوعه وقسمه فأحسن التقسيم، ثم اختار قضاياه

وصفاها وجعلها معالم واضحة خالصة من براهين التحقيق العلمي، وإسهاب الفن القصصي، فصارت قضايا موجزة باتة حاسمة، ثم عرضها بهذا الأسلوب الحواري أو التمثيلي كما كان يتحدث الرسول وصحابته والمتصلون بسيرته قديماً إلا ما لم يرد فيه نص. وكان توفيق الحكيم بعد ذلك حذراً محتاطاً لم يمس الموضوع إلا بخفة وإن كان الأسلوب من تقسيمه وابتكاره

كان هؤلاء الكتاب، إذا، بين عالم محقق، وأديب قاص، وفني ممثل، كل أخلص لمنهجه، ووصل منه إلى غاية بعيدة

وتستطيع أن تتبين هذا الفرق في أسطر قليلة جداً فيما كتب عن أول ما عمل محمد عليه السلام في تجارة خديجة؛ فهيكل يقرر المسألة ويقول أن أبو طالب كان السفير بين ابن أخيه وبين خديجة؛ وطه حسين يقيم ذلك على ميل خديجة إلى محمد وإرسالها دسيساً إلى عمه تعرض عليه أن يكون ابن أخيه في تجارتها بأجر مضاعف؛ فيأتي توفيق الحكيم، فيقتضب المسألة، ويترك الباب مفتوحاً للخيال.

والمرجو ألا يقف العلماء عند ما كتب هيكل، وكفى، وأن يتم طه حسين: (على هامش سيرته). . . وأن يجيبنا العلماء: هل تمثل سيرة الرسول على المسرح ثم ترسم على الشاشة البيضاء؟

(رمل الإسكندرية)

أحمد الشايب

حالة العرب الاجتماعية في عصر الدولة الأموية

للدكتور حسن إبراهيم حسن

أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية الآداب

كان لاختلاط العرب والروم وغيرهم من الأمم الأخرى أثر كبير في تغيير عاداتهم وحياتهم الاجتماعية وبخاصة في عهد الأمويين فقد تأثر معاوية بن أبي سفيان بنظم

الحكم التي أدخلها الروم في بلاد الشام وابتكر ابتكارات لم يسبقه إليها أحد، فهو أول من أتخذ الحشم وأقام الحجاب على بابه ووضع المقصورة التي يصلي الخليفة بها الخليفة في الجامع منفرداً عن الناس وذلك لخوفه مما جرى لعلي رضا الله عنه وكان من أقدس واجبات الخليفة أن يؤم الناس في صلاة الجمعة والصلوات الخمس. وقد سار على ذلك الخلفاء الراشدين وبعض الخلفاء بني أمية. وكان الخليفة في العهد الأموي يحضر إلى المسجد مرتدياً ثياباً بيضاء وعمامة بيضاء مرصعة بالجواهر ويرقى المنبر لإلقاء خطبة الجمعة وبيده الخاتم والعصا، وهما شارتا الملك

وقد تشبه خلفاء بني أمية بالملوك وأبهتهم، وكان الخليفة يجلس في صالة الاستقبال الكبرى وعلى يمينه أمراء البيت المالك وعلى يساره كبار رجال الدولة ورجال البلاط ثم يمثل بين يديه رسل الملوك وأعيان البلاد ورؤساء النقابات والشعراء والفقهاء وغيرهم

وكان الخلفاء الأول من بني أمية يستمعون في أوقات فراغهم إلى أخبار الحروب وسير فرسان العرب في الجاهلية، فكان معاوية يقرأ أخبار العرب وأيامها وسير ملوك العجم وسائر ملوك الأمم وحروبها وسياساتها لرعيتها وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة، وكان يقرأ عليه ذلك غلمان مرتبون، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات

وكان الأمويون يستمعون لقصائد الشعراء ويمنحونهم الجوائز ويخلعون عليهم الخلع. ولم يلبث أن حل الغناء محل الشعر، كما كلف الناس بالموسيقى والغناء، وتدفقت على دمشق طبقات المغنين المشهورين والموسيقيين الذين كان الخلفاء يدعونهم إلى دمشق من أقاصي البلاد

وكان لعب الشطرنج و (الدومينو) والورق معروفاً عند الأمويين. ومن الألعاب التي شاعت

في ذلك العصر قتال الديكة على الرغم من أن الوليد بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز حرما هذا النوع من الألعاب

وكان سباق الخيل من أهم تسلية الشعب على اختلاف طبقاته. ويقال إن هاشم بن عبد الملك الأموي كان أول من أقام حلبات السباق لتحسين نتاج الخيل حتى أنه اشترك في السباق معه أربعة آلاف من خيله وخيول الأمراء.

وكانت المرأة العربية في ذلك العصر تتمتع بقسط وافر من الحرية، وكانت المرأة متحجبة على الرغم من أنها كانت تقابل الرجال وتتحدث إليهم وتقود الجيوش.

وقد أوجب الإسلام تعلم العلم على كل مسلم ومسلمة، كما أوجب على أمهات المؤمنين أي زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم أن يعلمن الناس ويعلمن أبناءهم وبناتهم، وقد أمرهم الله سبحانه وتعالى بذلك فقال في كتابه العزيز (واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة) ناهيك بعائشة أم المؤمنين فقد اشتهرت بالفقه ورواية الحديث والتاريخ والنسب والطب وعلم النجوم وقادت جند المسلمين يوم الجمل سنة 35هـ كما اشتهرت أختها أسماء بنت أبي بكر وأم عبد الله بن الزبير برواية الحديث والكرم والشجاعة، فقد أثر عن عبد الله بن الزبير أنه لما انظم بعض اتباعه إلى الحجاج ابن يوسف الثقفي قائد الخليفة عبد الملك بن مروان الأموي وبقي هو في عدد قليل من أنصاره وأيقن نه مقتول لا محالة دخل على أمه فقال يا أماه قد خذلني الناس حتى ولدي وأهلي، ولم يبق معي إلا اليسير ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا - فما رأيك؟

قالت: أنت أعلم بنفسك. إن كنت تعلم أنك على حق، وإليه تدعو، فامض له فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكن من رقبتك غلمان بني أمية، يلعبون بها. وإن أردت الدنيا فبئس العبد أنت، أهلكت نفسك ومن قتل معك. وإن قلت كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين. كم خلودك في الدنيا؟ القتل أحسن.

فقال: يا أماه، أخاف إن قتلني أهل الشام أن يمثلوا بي ويصلبوني. فقالت: يا بني أن الشاة لا تتألم بعد ذبحها. فامض على بصيرتك واستعن بالله. فقبل رأسها وقال: هذا رأيي. فطفقت أمه تدعو له وتشجعه. وخرج عبد الله بعد ذلك وقاتل أهل الشام قتالاً شديداً، وأظهر شجاعة نادرة حتى حمل عليه العدو وقتلوه. ولم يهب القتل بفضل تشجيع أمه التي ضربت المثل الأعلى

في الشجاعة والتضحية في سبيل إعلاء شأن الوطن.

وليس أدل على جرأة المرأة وشجاعتها من ذلك الحوار الذي دار بين معاوية وبين الدارمية، فقد روى القلقشندي (صبح الأعشى ج1 ص259 - 260) أن معاوية حجّ فسأل عن امرأة من بني كنانة تسمى الدارمية، وكانت سوداء كثيرة اللحم فجيء بها، فقال لها: ما حالك يا ابنة حام؟ قالت: لستُ لحام أدعى، إنْ عِبْتَني أنا امرأة من بني كنانة. قال: صدقتِ أتدرين لمَ أرسلتُ إليك؟ قالت: لا يعلم الغيب إلا الله. قال: بَعَثتُ إليك لأسألك علامَ أحْبَبْتِ عليًّا وأبغضتني، وواليته وعاديتني؟ قالت: أو تعفيني يا أمير المؤمنين؟ قال: لا أعفيك. قالت: أما إذ أبيت، فإني أحببت علياً على عدْله في الرعية وقَسْمِه بالسوَّية، وأبغضتُك على قتالك مَنْ هو أوْلى بالأمر منك، وطلبك ما ليس لك بحق. وواليتُ علياً على ما عقد له من الولاية، وعلى حبه المساكين وإعظامه لأهل الدين؛ وعاديتك على سفك الدماء وَجوْرك في القضاء وحكمك بالهوى. قال: ولذلك انتفخ بطنك وعظم ثدياك. . . قالت: يا هذا، بهند كانت تضرب الأمثال لا بي. . . قال لها: فهل رأيتِ علياً؟ قالت: لقد كنت رأيته. قال: كيف كنتِ رأيته؟ قالت: رأيته لم يفتنه الملك لذي فتنك، ولم تشغله النعمة التي شغلتك. قال لها: فهل سمعت لكلامه؟ قالت: نعم! والله كان يجلو القلوب من العمى كما يجلو الزيت الطَّست من الصدأ. قال: صدقتِ، فهل لكِ من حاجة؟ قالت: وتفعل إذا سألتك؟ قال: نعم! قالت: تعطيني مائة ناقة حمراء فيها فْحَلها وراعيها. قال: تصنعين بها ماذا؟ قالت: أغَذِّي بألبانها الصغار، وأستحيي بها الكبار، وأصلح بها بين العشائر. قال: فإن أعطيتك ذلك فهل أحُلُّ عندك محل عليّ؟ قالت: ماء ولا كصدّاء، ومرعى ولا كالسَّعْدان، وفتى ولا كمالك. يا سبحان الله أو دُونَه. فأنشأ معاوية يقول:

إذا لم أعِد بالحلم مني إليكم ... فمنْ ذا الذي بعدي يُؤَمَّل للحلم؟

خذيها هنيئاً واذكري فعل ماجد ... جزاك على حرب العدواة بالسِّلْمِ

ثم قال: أما والله لو كان علياً ما أعطاك منها شيئاً. قالت: ولا وبرة واحدة من مال المسلمين

وممن اشتهر من نساء العرب في ذلك العصر أم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك، وبنت عبد العزيز بن مروان، وأخت الخليفة عمر بن عبد العزيز. قال المسعودي في مروج الذهب (ج2 ص152 - 153): وفد الحجاج بن يوسف على الوليد في بعض نزهه، فاستقبله. فلما رآه ترجل له وقبّل يده، وجعل يمشي وعليه درع وكنانة وقوس عربية؛ فقال له الوليد: اركب يا أبا محمد! فقال: دعني يا أمير المؤمنين أستكثر من الجهاد، فإن ابن الزبير وابن الأشعث شغلاني عنك، فعزم عليه الوليد حتى ركب، ودخل الوليد داره، وتفضَّل في غلالة، ثم أذن للحجاج، فدخل عليه الحجاج في حاله تلك وأطال الجلوس عنده. فبينما هو يحادثه إذ جاءت جارية فسارَّت الوليد ومضت، ثم عادت فسارَّته ثم انصرفت. فقال الوليد للحجاج: أتدري ما قالت هذه يا أبا محمد؟ قال: لا والله. قال: بعثتها إليّ ابنة عمي أم البنين، بنت عمر ابن عبد العزيز تقول: ما مجالستك لهذا الأعرابي المتسلح في السلاح وأنت في غلالة؟ فأرسلت إليها أنه الحجاج، فراعها ذلك وقالت: والله ما أحب أن يخلو بك وقد قتل الخلق. فقال الحجاج: يا أمير المؤمنين! دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول، فإنما المرأة ريحانة وليست بقهرمانة، فلا تطلعهن على سرك ولا مكايدة عدوك، ولا تطمعهن في غير نفسك، ولا تشغلهن بأكثر من زينتهن. وإياك ومشاورتهن في الأمور، فإن رأيهن إلى أفَنْ، وعزمهن إلى وهن؛ واكفف عليهن من أبصارهن بحجبك، ولا تُملِّك الواحدة منهن من الأمور ما يجاوز نفسها، ولا تطمعها أن تشفع عندك لغيرها، ولا تُطل الجلوس معهن، فإن ذلك أوفر لعقلك، وأبْين لفضلك. ثم نهض الحجاج فخرج، ودخل الوليد على أم البنين فأخبرها بمقالة الحجاج، فقالت: يا أمير المؤمنين! أحب أن تأمره غداً بالتسليم عليّ، فقال: أفعل. فلما غدا الحجاج على الوليد قال له: يا أبا محمد! سر إلى أم البنين فسلم عليها. فقال: أعفني من ذلك يا أمير المؤمنين. فقال: لابد من ذلك. فمضى الحجاج إليها فحجبته طويلاً، ثم أذنت له فأقرته قائماً ولم تأذن له في الجلوس؛ ثم قالت: إيه يا حجاج! أنت الممتن على أمير المؤمنين بقتل ابن الزبير وابن الأشعث؟ أما والله لولا أن الله جعلك أهون خلقه ما ابتلاك برمي الكعبة، ولا بقتل ابن ذات النطاقين وأول مولود ولد في الإسلام (تعني عبد الله بن زبير). وأما ابن الأشعث فقد والله والى

عليك الهزائم حتى لذت بأمير المؤمنين عبد الملك فأغاثك بأهل الشام، وأنت في أضيق من القرن، فأظلتك رماحهم، وأنجاك كفاحهم. ولولا ذلك لكنت أذل من النقد. وأما ما أشرت على أمير المؤمنين من ترك لذاته والامتناع من بلوغ أوطاره من نسائه، فإن كن ينفرجن عن مثل ما انفرجت به عنك أمك فما أحقّه بالأخذ عنك والقبول منك، وأن كنْ
يتفرجن عن مثل أمير المؤمنين فإنه غير قابل منك ولا مصغ إلى نصيحتك. قاتل الله الشاعر وقد نظر إليك وسنان غزالة الحرورية بين كتفيك حيث يقول:

أسدٌ عليّ وفي الحروب نعامَةٌ ... فتخاء تفَزَع من صفير الصَّافر
هلا برزت إلى غزالة في الوغى ... بل كان قلبك في جناحي طائر

أَخرجْتَه عني! فدخل إلى الوليد من فوره، فقال: يا أبا محمد! ما كنت فيه؟ فقال: والله يا أمير المؤمنين ما سكتَتْ حتى كان بطن الأرض أَحَبَّ إليّ من ظهرها. فضحك الوليد حتى فحص برجله الأرض ثم قال: يا أبا محمد أنها بنت عبد العزيز

ومن مظاهر الترف في دمشق حاضرة الأمويين أنه كان لكل دار فناء مستطيل على جوانبه أعمدة من الرخام ومماش مرصوفة بالحجارة أو الحصباء على أشكال هندسية منتظمة. وفي الفناء نافورة يحيط بها حديقة صغيرة بها الأزهار الزكية الرائحة، وتظلها أشجار البرتقال والليمون، وأمام الباب شباك يوضع فوقه الطست والإبريق للوضوء - وكانت قصور الأغنياء مكونة من طابقين أحياناً - وفي الشتاء تكسى الحجرات بالسجاد الثمين وتدفأ بالمنهل (الموقد). أما في الصيف فكانت النافورات والنوافذ كفيلة بتلطيف حرارة الجو. وكانت سقوف الدار مزدانة بنقوش على الطراز العربي أو مطلية بالذهب. ولم تكن هناك مقاعد، فإذا كان صاحب الدار من أصحاب اليسار، وضعت السجاجيد بعضها فوق بعض لتكون بمثابة مقعد له

وكان قصر الخليفة الأموي بدمشق غاية في الأبهة. وقد ازدانت جدرانه بالفسيفساء، وأعمدته بالرخام والذهب، وسقوفه بالذهب المرصع بالجواهر. وقد لطف جوه النافورات والمياه الجارية والحدائق الغناء بأشجارها الظليلة الوارفة. وقد شيد الحر بن يوسف حفيد مروان بن الحكم الذي ولي بلاد الموصل في عهد هشام ابن عبد الملك، داراً منيفة من الرخام الخالص والمرمر، عرفت بالمنقوشة لما تمتاز به من النقش البديع، كما بنى خانات (فنادق) في الموصل. وقد رأى الحر ما يعانيه أهل الموصل من المشاق في سبيل الحصول على ماء الشرب، فشق قناة لا تزال باقية إلى اليوم؛ وغرس الأشجار على ضفتها حتى أصبحت بمثابة متنزه عام لأهل المدينة

وكانوا يرتدون العباءة فوق القباء ويصنعونها من وبر الجمل. وكانوا يرتدون في الحرب أردية خاصة فيلبسون السروال عادة ورداء قصيراً بدلاً من الثياب الفضفاضة (الواسعة) المتدلية. أما لباس الرأس فهو العمامة كما كانوا يلقون الطيلسان فوق العمامة. وهو عبارة عن منديل كبير متدل إلى الكتفين ليقي الرقبة حرارة الشمس. وكانت الملابس تختلف تبعا لثروة الناس ومركزهم الاجتماعي ونوع عملهم. فكسوة الفقيه والكاتب تختلف عن ثياب الجند. وكان رؤساء القبائل وغيرهم من علية القوم يرتدون قباء يصل إلى الركبتين يعلوه سروال ثم جلباب فضفاض يتدلى إلى العقبين ويشده من الوسط حزام من الحرير، ويلبسون فوق كل ذلك الجبة أو القباء.

وكانت ثياب المرأة تتكون من سروال فضفاض وقميص مشقوق عند الرقبة عليه رداء قصير ضيق يلبس عادة في البرد. وكانت إذا خرجت من بيتها ترتدي ملاءة طويلة تغطي جسمها وتقي ملابسها التراب والطين، كما كانت تلف رأسها بمنديل يربط فوق الجبهة.

وكان العرب يكتفون بالقليل من الطعام، فلم يتجاوز طعامهم اللون أو اللونين. وكان خير أطعمتهم الثريد وهو الخبز يفت ويبل بالمرق ويوضع فوقه اللحم. وقد تغيرت أطعمتهم وتعددت ألوانها. وفي عهد الأمويين استعمل العرب الفوط والملاعق كما كانوا يجلسون على الكراسي حول مائدة الطعام التي كانت تكسى بمفرش من القماش.

حسن إبراهيم حسن
محمد الأديب الأعظم
لَلأستاذ دريني خشبة

لا أدري لماذا يشفق الكتاب أن ينعتوا النبي الكريم بالأديب العظيم؟! هل في ذلك سبة أو فيه حط من قدره صلى الله عليه وسلم؟ وإذا لم يكن الرجل الذي أوحي إليه بهذا القرآن أديباً فماذا يكون الأديب؟

لقد ترك النبي فينا كتاب الله وسنّة النبوة، وفيها جوامع الكلم التي لم يؤتها إلا هو. ولقد علم بهذين ما لم يعلم فيلسوف بفلسفته، ولا أديب بأدبه، ولا نبي بما أرسل به. . . أسلوب مُعجز، ومعنى مُعجز، واتفاق بين الأسلوب والمعنى معجز، وغرض يشمل كل الكائنات معجز، وحياة هي البطولة المعجزة. . . وأمية لا تعرف القراءة والكتابة يسبح القُراء والكتاب في بحر لجي من قرآنها وحديثها. . . علماً وأدباً ولغةً وبياناً وهدىً وتشريعاً وأخلاقاً. . . فماذا يصنع الأدب غير ذاك؟ الأديب يترك أثره في حيز محدود من بيئته، لأيام معدودات من زمنه، ويكون بعد ذلك رجعاً كرجع الصدى في تضاعيف ذكرياته، حيث يكون شعراً في ديوان، أو قصة يلتذ بقراءتها أفراد، أو درامة يستمتع بشهودها ملأ من الناس، ثم ينصرفون فلا تكون لها في أذهانهم إلا صورة أو فكرة قد تدفعهم إلى فضيلة أو تنهاهم عن رذيلة. . . فماذا ترك الأديب الأعظم محمد بن عبد الله من هذا وذاك؟! أستغفر الله بل ترك أدباً حيًّا يتغلغل في نفوس الملايين من الناس لملايين من الأجيال حتى تقوم الساعة. يحضهم على الخير، وينهاهم عن المنكر، ويستهويهم بصور رائعة من أدبه الحق الذي نسميه الأدب الواقعي يُشرب قلوبهم المحبة الخيّرة النّيرة، ويعمرها بالسلام القائم الدائم، ويعلمهم الإنسانية، ويحبب إليهم الإخاء، ويروضهم على المساواة. . . إلا فيما رفع الله به الناس بعضهم فوق بعض درجات

قد يقول قائل إن هذه الدعوى من باب إقحام الدين في الأدب والأدب في الدين. . لأن الدين هو الذي صنع كل هذا. . ونحن نقول إن الدين هو الذي صنع كل هذا حقاً ولكنه صنعه بأسلحة شتى ووسائل متفاوتة، وقد كان أمضى هذه الأسلحة، وأشرف تلك الوسائل. . هو الأدب. . فالرسول الكريم كان حلو الكلام أغر البيان طليّ المقاطع، ذا قدرة عجيبة في تنسيق حجته، والتدقيق في عبارته، في غير كلفة ولا صنعة حتى وهو في مواقف الخطابة. . ولم يحفظ الأثر أنه حصر مرة أو أرتج عليه، أو التاث عليه القول، لا على المنبر، ولا في حلقة الدرس، بل كان يتدفق ويشقق الحديث إذا اقتضى الموقف الإطناب، ويقتصر على العظة الصغيرة بلفظها، الكبيرة بفحواها إذا لم يقتض الحال غير ذلك

ثم هاهم أولاء الأنبياء جميعاً. . . فمن منهم تحدى قومه بقوة البيان وصوغ الكلام وإعجاز الأسلوب؟! وما ذلك كله إن لم يكن أدباً؟ وماذا يكون صاحبه إن لم يكن سيد الأدباء؟! إن الله الذي يَسّر القرآن بلسان محمد قد تحدى الناس أن يأتوا بشيء مثله، فما استطاعوا؛ وما يزال التحدي قائماً، ولسوف يعجز البشر جميعاً عن أن يجيئوا بشيء مثل القرآن. . . والقرآن وحي الله، وقد يسره الله بلسان نبيه، والقرآن تشريع ليس فيه جفاف القانون الوضعي، وقصص من النسق الإلهي الذي لا يتملق الغرائز بالفتنة في الحياة الدنيا بل يسمو بها إلى لذائذ الحياة العليا؛ ثم عظة بالغة، ودعوة إلى الحق، ودستور للناس لا يعتوره نقص ولا تشويه شائبة

هل الأدب قصة أو درامة فحسب؟! إن كان هذا فقد قص النبي أحسن القصص وأقواه وأكثره حلاوة وطلاوة، وأشده روعة وتأثيراً. . . وأي قصص أشهى وأحلى وألذ مما يسر الله بلسان نبيه في آدم ونوح وإبراهيم وموسى ويعقوب ويوسف ويونس وهود ولوط وعيسى من أنبياء الله؟!

أم يقولون أنها أخبار مروية فيما يؤمنون أنها الكتب المقدسة التي أنزل الله من قبل؟! ونقول أجل. . . ولكن أين هي هذه الكتب التي أنزل الله؟ أباقية هي على ما أنزل الله لم يعتورها تغيير ولا تبديل؟ ألم تشحنها أقلام الرواة والنُّسَّاخ بما طاب لهم وبما ندّت به أقلامهم؟. . . أحقًّا قد زنى داود؟ أحقًّا قد وقع جميع الأنبياء في الخطيئة؟ لقد جاء القرآن مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل مما لم تبدله قرائح البشر، فبرّأ الأنبياء مما أخذوا به باطلاً من الدنس، ثم روى أخبارهم بلسان صدقَ عِليّ وبأروع بيان وأدق أسلوب، ثم حدّث النبي بما يشبه أن يكون تعليقاً وشرحاً وتفسيراً فجاء بكل معجب وكل مطرب. . . ثم حدّث بالأحاديث القدسية العالية التي مسرحها السماء وملهمها لله

القدير، فأي درامات الكتاب والشعراء روع مما تحدث به النبي؟ وأي حديث زخرفه قلم شاعر أو ناثر أو روائي يسمو إلى الحق الذي تنزل به جبريل على فؤاد محمد وما حدّث به محمد من

تخاصم أهل النار وتحدث أهل الجنة، والواقفين على الأعراف، والولدان المخلدين، والكواعب الأتراب، ومخاطبة العزيز اللطيف لمن فاز من عباده، وغيظ الكافرين وما يقع بينهم وبين إبليس من شحناء وموجدتهم على الشياطين والنار تؤزهم. . .؟

هذا هو القصص الحق الذي لم تبهرجه يراعة مؤلف، ولم يختلقه خيال روائي. وهذا هو قصص الله الذي خلق الإنسان علمه البيان. . . الله الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم. . . الله الذي أرسل للناس نبياً عربياً من الأميين، فقضى أن تكون أمية عجيبةُ معجزة تفهم كل شيء وتعي كل شيء، وتبهر المتعلمين والدارسين بما لا يستطيعونه ولا يقدرون على مثله أو بعضه. . . أمية أعدها الله لهذا الأمر العظيم إعداداً لا تقوى جامعاتنا الحديثة على شيء مثله. . . أمية أبوتها في بني هاشم، وخئولتها في بني زهرة، ورضاعها في سعد بن بكر، ونشأتها في قريش، وزواجها في بني أسد، وهجرتها إلى الأوس والخزرج. فانظر كيف تقلبت في القبائل فتمرست بها، ووعت لغاها، ووقفت على أسرار بيانها، فلما بعثها الله لهذا الأمر لم تضق ذرعاً بأحد، ولم تضق فهماً بلسان أحد، بل كانت تكلم كلاً بلسانه، وترد على كل بلهجته. بل هي قبل أن يبعثها الله لتبليغ رسالته كانت تحب الأدب وتشغف به، فكانت تتردد على الأسواق تصغي إلى الشعراء الخطباء، وتحفظ من الخطب ولا ترى حرجاً في أن تروي منها.

علل أحد البصريين أمية الرسول الكريم: فقال: (إن الله إنما جعل نبيه أمياً لا يكتب ولا يحسب ولا ينسب ولا يقرض الشعر، ولا يتكلف الخطابة، ولا يتعمد البلاغة لينفرد الله بتعليمه الفقه وأحكام الشريعة، ويقصره على معرفة مصالح الدين دون ما تتباهى به العرب من قيافة الأثر، وعيافة الطير، ومن العلم بالأنواء وبالخيل، وبالأنساب وبالأخبار، وتكلف قول الأشعار، ليكون إذا جاء القرآن الحكيم، وتكلم بالكلام العجيب، كان ذلك أدل على أنه من الله. . . وزعم أن الله لم يمنعه معرفة آدابهم وأخبارهم وأشعارهم ليكون أنقص حظاً من الحاسب والكاتب، ومن الخطيب والناسب، ولكن ليجعله نبياً، وليتولى أمر تعليمه بما هو أزكى وأنمى، فإنما نقصه ليزيده، ومنعه ليعطيه، وحجبه عن القليل ليجلي له الكثير. . .)

وقد تولى شيخ أدباء العرب أبو عثمان الجاحظ (البيان ج1 ص230) نقض هذا الكلام فقال: (وقد أخطأ هذا الشيخ ولم يرد إلا الخير، وقال بمبلغ علمه ومنتهى رأيه، ولو زعم أن أداة الحساب والكتابة، وأداة قريض الشعر وجمع النسب قد كانت فيه تامة وافرة مجتمعة كاملة، ولكنه صلى الله عليه وسلم صرف تلك القوى وتلك الاستطاعة إلى ما هو أزكى بالنبوة وأشبه بمرتبة الرسالة، وكان إذا أحتاج إلى البلاغة كان أبلغ البلغاء، وإذا أحتاج إلى الخطابة كان أخطب الخطباء، وأنسب من كل ناسب، وأقوف من كل قائف، ولو كان في ظاهره والمعروف من شأنه أنه كاتب حاسب، وشاعر ناسب، ومتفرس قائف، ثم أعطاه الله برهانات الرسالة وعلامات النبوة، لما كان ذلك مانعاً من وجوب تصديقه، ولزوم طاعته، والانقياد لأمره، على سخطهم ورضاهم، ومكروههم ومحبوبهم؛ ولكنه أراد ألا يكون للشاعر متعلق عما دعا إليه، حتى لا يكون دون المعرفة بحقه حجاب وإن رق، وليكون ذلك أخف في المؤنة، وأسهل في المحنة، فلذلك صرف نفسه عن الأمور التي كانوا يتكلفونها ويتنافسون فيها، فلما طال هجرانه لقريض الشعر وروايته صار لسانه لا ينطق به، والعادة توأم الطبيعة، فأما في غير ذلك فإنه إذا شاء كان أنطق من كل منطيق، وأنسب من كل ناسب، وأقوف من كل قائف، وكانت آلته أوفر، وأداته أكمل. . . إلا أنها كانت مصروفة إلى ما هو أبعد. . . وبين أن يضيف إليه العادة الحسنة، وامتناع الشيء عليه من طول الهجران له فرق. . . ومن العجب أن صاحب هذه المقالة لم يره في حال معجزة قط، بل لم يره إلا وهو إن أطال الكلام قصر عنه كل مطيل، وإن قصر القول أتى على غاية كل خطيب، وما عدم منه إلا الخط وإقامة الشعر. . . الخ)

فالجاحظ هنا يحامي عن معرفة النبي لآداب العرب - وهو ما يعنينا - وعن إلمامه بما كان فخر قومه ومحل نبوغهم. . . ولما كان أعز ما يفتخر به العرب هو البيان فإنه لم يمنع النبي مانع إذا أراد البلاغة أن يكون أبلغ البلغاء، وإذا أراد الخطابة أن يكون أخطب

الخطباء، وإنه أن أطال لكلام قصر عنه كل مطيل، وإن قصر لقول أتى على غاية كل خطيب. . .)

وهذا دفاع مجيد من شيخ الأدباء العرب عن النبي الأديب الأعظم في معرض ما فهم أحد علماء البصرة من أمِّية محمد صلى الله عليه وسلم، وهو دفاع رجل كان يهب حياته للأدب، وكان يعنى بأدب الرسول خاصة، وكان يصف كلامه فيقول: (هو الكلام الذي قل عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، وجل عن الصنعة، ونُزّه عن التكلف، وكان كما قال الله تبارك وتعالى قل يا محمد: (وما أنا من المتكلفين) فكيف وقد عاب التشديق، وجانب أصحاب التقعير، واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السوقي فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُفّ بالعصمة، وشُيّد بالتأييد، ويسر بالتوفيق وهذا الكلام الذي ألقى الله المحبة عليه، وغشّاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام، ومع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معادوته، لم تسقط له كلمة، ولا زلت له قدم، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يبذ الخطب الطوال بالكلام القصير، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتج إلا بالصدق ولا يطلب الفَلج إلا بالحق، ولا يستعين بالخلابة، ولا يستعمل المواربة، ولا يهمز ولا يلمز، ولا يُبطئ ولا يعجل، ولا يسهب ولا يحصر. ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً، ولا أصدق لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح عن معناه، ولا أبين في فحواه، من كلامه صلى الله عليه وسلم كثيراً. . .)

والذي وصف به الجاحظ كلام الرسول قول حق، وهو كان يفضل به كلامه صلى الله عليه وسلم على كل كلام العرب، أما نحن فنجعل حكم الجاحظ أعم وأشمل. فليس في كلام أحد من الفرنجة قاطبة كلام يشبه كلام الرسول فيما رسمه الجاحظ. . . وقد يقول قارئ غير مسلم: (كاتب مسلم متحمس للرسول فهو لا يستطيع أن يقول غير هذا!) كلا والله. . . فلقد قرأت ودرست أدب الأقدمين شعراً ونثرا وخطبا؛ ولقد قرأت ودرست أدب النهضة في جميع الممالك الأوربية؛ ولقد قرأت ودرست ووازنت بين أدباء عصر بركليس وأدباء عصر إليصابات، وأدباء عصر لويس، وأدباء القيصرية الروسية، فلا والله ما وجدت أجدهم يرتفع إلى أدب الرسول ولا يحكيه غزارة ورقة وازدحاما بالمعاني وشمولا للأغراض. وهذه هي خطب ديموستين في التبغيض في الأرستقراطية والتبشير بالديمقراطية. . . أين هي من هذه المساواة العجيبة التي أقامها محمد بين هذه الملايين بقوله: إنه لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى؟ بل أين هذا الخطيب الوضيع المرتشي الذي يقول بلسانه ما ليس في قلبه، والذي فر من مواطنيه اليونانيين حتى إذا لاحقوه وضيقوا عليه عمد إلى السم ليضع حداً لمهزلة حياته الفياضة بالمخازي؟ أين هذا الخطيب الذي يحفظ الأثر خُطبه كأنها المثل الأعلى للخطابة من الرسول الكريم الذي لم يكن ينطق عن الهوى، والذي ألف بخطبه بين أشد القلوب عنجهية وأفدحها جاهلية وأكثرها عصبية، فخلق منها أمة تعبد رباً واحداً بعد أرباب، وتنتشر من الصحراء بمصابيح الهداية فتملأ المشرقين والمغربين نوراً وهداية وحكمة وعرفاناً؟

ثم خطيب الرومان شيشرون! هذا الرجل الذي فضح مارك أنطوان بخطبه الرنانة. . ماذا ترك لخير الإنسانية من كل ما كتب وخطب؟ لقد كان محامياً مدرهاً، فهل كسب للإنسانية قضية كهذه القضية لتي كسبها لها محمد بن عبد لله؟ لقد كتب في القانون والفلسفة والأخلاق، فهل حل معضلاتها المعقدة كما حلها محمد بن عبد الله النبي الأمي؟ ولقد حفظ لنا الأثر كثيرً من خطبه ومقالاته، فهل فيها ما يرتفع إلى بيان محمد وبلاغة محمد؟ هل استطاع أن يضع للرومان دستوراً يحمي الجمهورية ويحول دون قيم الإمبراطورية كهذا الدستور الذي أوحي به إلى محمد، والذي يَسَّره الله بلسان محمد؟

ثم هذا دانتي. . . هذا الكاثوليكي القح. . . الذي يرفعه مؤرخو الأدب إلى ذروة المجد بما بهرج في الكوميديا الإلهية؟ ماذا جاء به من السحر في هذه المنظومة؟ لقد أثبتنا بما نشرناه في (الرسالة) أن كل شيء رائع في هذه القصيدة ليس من صنع دانتي، بل هو مما سرق دانتي من أخيلة القرآن وبيان الأحاديث في وصف الجنة ووصف الجحيم،

وذلك بما أنتشر من ثقافة القرآن وثقافة الأحاديث بعد الحروب الصليبية وقبلها عن طريق الأندلس وعن طريق صقلية إلى فرنسا ثم إيطاليا
ثم هذا ملتون. . . فأين ما جاء في فردوسه من الحرب بين الشيطان وبين المسيح وأجناد المسيح مما جاء في القرآن والحديث من تحاور بين الله العلي وبين إبليس، وبين إبليس وبين ملئه الذين أغواهم فأدخلهم النار ثم تبرأ منهم وهو يرسف معهم في سواء الجحيم؟!
ثم هذا جون بَنْيَنْ! فماذا جاء به في (رحلة الحاج) مما ليس له مثل بل أمثال تبذه وتزري به في أدب محمد النبي الأمي؟
وهذا بيكون الأديب النائب العام والكاتب الأخلاقي الفيلسوف المرتشي الذي لم يرع لذي
فضل عليه فضله ولم يكن عنده من الوفاء ما يجزي به ذوي الأيادي الغر عليه، ماذا كتب في فصوله في الأخلاق مما لم يسبقه إليه الرسول الأعظم؟
والأدباء العظام في عصر لويس الرابع عشر: بيير كورنيل وديكارت وموليير وراسين ولافونتين، إننا نقولها كلمة حق لا تصدر عن حماسة فحسب، بل عن تروية ويقين: إن المُثل الرائعة التي زاد بها هؤلاء في تراث الفكر الإنساني والثقافة الإنسانية هي قل من كثر مما ضاعف به النبي هذا التراث، ونحن نقول المثل لأن النبي لم يكن ضحاكاً كموليير ولا فيلسوفاً كديكارت ولا مؤلف درامات كراسين، بيد أنه مع ذاك أنشأ للإنسانية مثُلاً أسمى مما أنشأ هؤلاء، وأنشأها كلها عن طريق الأدب
والأدباء الذين مهدوا للثورة الفرنسية. . . فولتير وديدرو وبومارشيه ورسو. . . هل أنشئوا ثورة كهذه الثورة التي أنشأها محمد بن عبد الله وقام بها وحده؟! وأين هي الثورة الفرنسية التي انتهكت فيها الحريات باسم الحرية، وخضعت فيها الكرامات والشرائع لجنون الشعب وعربدة النساء ولوثة الأوشاب من تلك الثورة العظيمة في سبيل الحق وخير الإنسانية وانتشال العقل من براثن الأغوال الحجرية التي كان يعبدها الناس. . . هبل ويغوث ويعوق ونسر واللات والعزى وضمار؟! أي الثورتين كانت أروع وأيهما كانت أعود بالخير على الناس وعلى الأفهام؟!
لقد كتب روسو إنجيل الثورة، فهل رسم فيه ما رسم القرآن للناس أجمعين في كل العصور؟! وهل كاتب إنجيل الثورة كهذا الوحي لذي يسره الله بلسان محرر؟!
ثم هؤلاء منشئو الأدب الألماني: جوته صاحب فاوست، وشيللر صاحب وليم تل، ولسنج مؤلف لاوكون، وهم الذين أعدوا الذهن الألماني إعداده الذي غبر عليه قرن ونصف قرن، الإعداد الذي لا يعرف شيئاً وهو المثل الأعلى غير القوة والغَلْب، هل جعلوا ألمانيا تقهر العالم في أقل من عشر سنين كما جعل محمد أمته تصنع ذلك؟ وإذا قدر لألمانيا أن تصنع ذلك، فهل كانت تنشر الأمن والطمأنينة والعلم والنور ودين الحق بالسلام كما نشر العرب ذلك جميعاً في ربوع العالم؟ أم أنها كانت تستعبد الناس وتذلهم وتقول لهم أنتم ساميون وحاميون. . . و. . . آريون. . . أما نحن فآريون نورديّون؟! في حين يقول محمد للناس: (لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى!!)
أم أدباء روسيا: لرمنتوف وجوجول وتولوستوي ودستوفسكي وترجنيف وبوشكين وجوركي؟! ماذا أسلف هؤلاء جميعاً؟! لقد مهدوا بأدبهم الباكي المتوجع البائس الفقير الغارق في الدموع لهذه الشيوعية المخربة التي تستبد بالناس وتسومهم الخسف وتهدم مساجدهم وكنائسهم وبيعهم وتبيح نساءهم باسم لدولة. . . فكأنهم تخلصوا من راسبوتين ليقعوا في براثن ستالين!!
وبعد. . . فنحن لا نحصي أدباء العالم هنا لنوازن بين ما انتهى إليه أدبهم وبين ما انتهى إليه أدب الرسول الكريم. . . ونحن لا نقص من الآداب الرائعة التي لها قيمتها ولها أثرها لنرفع أدب نبينا بغير حق، بل نحن نقارن بين مُثُل ومُثُل ونوازن بين خير كثير أصاب الإنسانية على يد رجل واحد وخير كثير أصابها على أيدي كثيرين، وشتان بين الأدبين
أما ن يقول أحد إن الأدب هو القصة، فلقد قص الرسول أحسن القصص وأروعه، في أحسن عبارة وأقوى أسلوب. . . وأما أن يقول أحد إن الأدب هو الشعر، فما كان محمد شاعراً، ولم ينبغ له أن يكون شاعراً، ومع ذاك فقد يَسر الله بلسانه في القرآن من المعاني والأوصاف والأمثال والتشريع والحكمة وجمال الأداء، وإعجاز التراكيب، ما لم

يتيسر لشاعر من شعراء العالمين. وكذلك حديث رسول الله، فهو ثروة ثانية من أروع صور الآداب، ومنهل عذب للواردين

وأما أن يقول أحد إن محمداً لم يؤلف درامة، فحسبه أنه كان يمثل درامات الحق فوق مسرح الواقع، وليس في الأدب المسرحي جميعاً ما هو أروع من إسلام حمزة أو موت حمزة، وإسلام عمر أو مقتل عمر، وهجرة محمد من وطنه العاق إلى مُهاجَره الصادق، وصبر أصاحبه على أذى قريش وكفران قريش، ورمي المنافقين زوج الرسول بالإفك وصبر عائشة لذلك. . . وهذه المئات والمئات من مشاهد الدرامة الكبرى التي قام بأدائها الرسول، والتي رواها وقص فصولها في واقعه، ويسر الله لسانه بذكرها في قرآنه

صلى لله عليك يا رسول لله إذ يسألك أبو بكر: لقد طُفْت في العرب وسمعت فُصحاءهم فما سمعت أفصح منك، فمن أَدَّبك؟ فتقول: أَدَّبني ربي فأحسن تأديبي!

دريني خشبة

المُروءة مصادرٌ مَطويَة

لِلدكتور بشر فارِسِ

المروءة (أو المروّة) من الألفاظ التي يكثر ورودها في النصوص العربية القديمة ولاسيما في الكتب التي ألفها أدباء العهد العباسي. وهي، من باب آخر، من الألفاظ المشتبهة في اللغة العربية لتضارب الأقوال فيها وتدافع التعريفات لها. وقد عظم شأنها على تعاقب الأيام حتى تناولها المتكلمون والمتصوِّفة فنزلت منزلة الفضيلة بل منزلة مبدأ (أخلاقي). وذلك ما دفع بعض المستشرقين والشرقيين أن يعدوها، وهماً، رأس الفضائل الجاهلية

والذي يبدو لي أن المروءة أفادت، أولّ أمرها، الرجولة الحسية أي شدة الأسر، ثم الرجولة المعنوية أي السجايا الرفيعة، سجايا السيد مثلاً. ولذلك قرنها نفر ممن تكلموا عليها بالسيادة أو السؤدد. وهذان المفادان: الحسي والمعنوي، ظلا يتنازعان المروءة، فاتصل الأول بالحياة المادية ولحق الثاني بمكارم الأخلاق. وقد غلب الجانبُ المعنوي الجانبَ الحسي بفضل الإسلام. (وهنالك أحاديث غير صحيحة في المروءة وعظمة شأنها) وأخذ ذلك الجانب الغالب ينتقل على مدار الأيام من موضع إلى موضع؛ فدلت المروءة على العفاف والأدب والفضل والإنسانية والسرو؛ ثم قامت لفظاً واقعاً على محاسن جمة، على أقلام المحدثين والمتكلمين والأخلاقيين والفقهاء. وأما المتصوفة فأنزلوها منزلة الفتوة، فتجاورت اللفظتان في ميدان الأخلاقيات المجردة. وقد اتفق لها أن تنحرف إلى هنا وإلى هنا على ألسنة العامة قديماً في الأندلس وحديثاً في مصر والشام

كل هذا الحديث مع ما تحته من التفصيل والتبيين تجده في فصلٍ من فصول كتابٍ من هذا القلم يخرج باللغة العربية بعد أيام، وعنوانه (مباحث عربية) وعنوان الفصل (المروءة في اللغة والعرف). وقد انسقت إلى النظر في هذه اللفظة يوم كنت أؤلف (العرض عند العرب الجاهلية) ثم انصرفت إلى استجلاء غوامضها وتمحيص مدلولاتها باستقصاء المصادر والمراجع فنشرت فيها فصلاً في (تكملة دائرة المعارف الإسلامية) البارزة في هولندة (الجزء الرابع)

وأما هذه المصادر والمراجع فمتشعبة غزيرة، فيها المطبوع والمخطوط؛ وفي القراء من أصاب في كتب الأدب أشباه (العقد الفريد) (وعيون الأخبار) و (الموشي) و (أدب الدنيا والدين) أبواباً في المروءة. بل هنالك كتاب أُفرد لها، عنوانه (مرآة المروءات) لأبي منصور الثعالبي (مصر 1898). ومن المصادر المطوية كتاب (مرآة المروّات) لعلي بن الحسين ابن جعدويه، كتبه للوزير نظام الملك (456 - 485هـ) وكتاب ابن جعدويه مُجرىً على أسلوب كتاب الثعالبي مع ميل إلى الناحية الدينية بل الصوفية. وقد اهتدى إلى مخطوط ابن جعدويه المستشرق الأستاذ تيشنر فوصفها في المحلة الاستشراقية (الجزء الخامس 1932).

والذي في نيتي ههنا أن أنشر مصدرين آخرين. أما الأول ففصل في المروءة والسؤدد من مخطوط عنوانه (كتاب مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب وبدايع الأوصاف وغرايب التشبيهات) لمجهول، وقد أصبته في المخطوطات المخزونة في دار الكتب الوطنية

في ليدن ورقمه 409.
وأما الثاني ففصل في المروَّة من مخطوط مخزون في أيا صوفيا تحت رقم 2049 ويقع في ص206. وقد أشار الأستاذ تيشنر إليه في المقال المنشور في المجلة المذكورة، ثم بعث إلي وسمح لي بنشرها، فله الشكر.
وفي المصدر الأول تعريفات وأقوال في المروءة على أنها لون من ألوان السيادة وشرط من أشراطها وأما الثاني ففيه محاولة لرد معنى المروءة إلى المدلول الأصلي من ناحية الاشتقاق ثم نظرة (أخلاقية) في شأنها، طرافتها ذلك التفريق الذي بين المرأة والرجل.
ا - مخطوط ليدن
(الفصل السابع في السودد والمروّة) (ص11)
قال النبي صلى الله عليه وسلم: تجافوا عن عقوبة ذوي المروة ما لم يقع حداً. وإذا أتاكم كريم قوم فأكرموه. قيل لقيس ابن عاصم: بِمَ سدت؟ قال: ببذل الندى، وكف الأذى، ونصر المولى. وكتب عمر رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري: إن للناس وجوهاً يرفعون حاجة الضعيف فأكرمهم. وقال عليه السلام: أقيلوا الكرامَ عثراتِهم. قال معاوية لابنه يزيد: ما المروة؟ قال: إذا ابتليت صبرت، وإذا أنعم عليك شكرت، وإذا قدرت عفوت. قال: أنت مني، وأنا منك. وسئل بعض الحكماء عن المروة، فقال: إسرار ما تحَب (تحِب) أن تعلن، ومواطاة القلب اللسان. وقيل: المروة ألا تعمل شيئاً في السر تستحي منه في العلانية. يقال:
كان سَلم بن نوفل سيد كنانة فجرح رجل ابنه، فأتى به، فقال له: ما أمنك (ص11 م) من انتقامي؟ قال: فلم سودّناك إلا أن تكظم الغيظ وتعفو عن الجار وتحلم عن الجاهل وتحتمل المكروه؟ فخّلى عنه. دخل جُذيم بن أوس الطائي على معاوية، فقال: من سيُدكم اليوم؟ قال: من احتمل شتمنا، وأعطى سايلنا (سائلنا) وأغضى عن جاهلنا، وأغتفر ضَرَبنا (ضرْبنا) إياه بعصيّينا (بعصيّنا). وقال عدي بن حاتم: السيد، الأحمق في ماله، ذليل (الذليل) في عرضه، المطرحُ لحقده، المعّني (المعنيّ) بأمر عامته. يقال الارتقاء إلى السوود صعب، والانحطاط إلى الدَّناة (الدناءة) سهل. قال عمر بن عبد العزيز لرجل: من سّيد قومك؟ قال: أنا، قال: ولو كنت كذا ما قلته. مال (قال) معاوية لوفد: كيف كان قطبة بن زيد فيكم؟ قالوا: كان إذا حضر أطعناه، وإذا غاب شتمناه. قال: هذا والله السودد المحض. قال عمرو بن عبيد: لا يكمل مروة الرجل في دينه حتى يكون فيه ثلاث خلال: يقطع رجاه مما في أيدي الناس، ويستمع الأذى فيحتمل، ويحب للناس ما يحبَّ (يحبُّ) لنفسه. قال ابن عمر: إنا معاشر قريش نعد الحلم والجود السودد، ونعد العفاف وإصلاح المال المروة. سأل معاوية (ص12) الحسن بن علي رضى الله عنه - عن المروّة. فقال: حفظ الرجل دينه وإحرازه نفسَه من الدنَس وقيامه لضيفه وآد (أداء) الحقوق وإفشاء السلام. بعث رسول من خرسان إلى سَوار بن عبد الله القاضي يسأله عن المروة ما هي، فقال الإنصاف والتفضل. وقال علي رضى لله عنه: ثلاث من كن فيه استوجب بهن أربعاً (ثَلثاً تصويب في النص) من إذا حدث الناس لم يكذبهم، وإذا وعدهم لم يخلفهم (يخلفهم)، وإذا خالطهم لم يظلمهم؛ فإذا فعل ذلك فقد وجبت اخوته وكملت مروته وحرمت غيبته. قال ابن عمر: ما رأيت أحداً أسود من معاوية، قيل: يا أبا عبد الرحمن: أهو خير من أبي بكر وعمر؟ قال: هما خير منه، وهو أسود منهما. قيل له: هو أسود أم عثمان؟ قال: إن عثمان لسيّد، ومعاوية أسود منه.)
ب مخطوط ايا صوفيا.
وأما المروة فلها اشتقاقان من أحدهما يقتضي أن يكون هي والإنسانية متقارنتين، وهو أن يجعَل من قولهم: مَرُؤ الطعام وامرأة (وأمرأة) إذا تخصص بالمري لموافقته الطبعَ، فكأنها اسم الأخلاق والأفعال التي تْقلّبها (تقبلها) النفوس السليمة. فعلى هذا يكون اسماً للأفعال المتحسنة كالإنسانية. والثاني أن يكون من المرْءِ فَيُجعل اسماً للمحاسن التي يختص بها
الرجل دون المرأة فيكون كالرجولية؛ وذلك أخص من الإنسانية، إذ الإنسانية يشترك فيها الرجال والنساء، والمروة أخص بكثير مما يكون فضيلة للمرأة يكون ذاية (رذيلة) للرجال كالبله والخفر والبخل والجبن، ولهذا قيل الخلايق الرجال (خلايق الرجال) أرذل

(.أخلاق النساء، فالكيس والشجاعة والجود رذيلة لهن
بشر فارس
روح الإسلام في العبادة
لِلأستاذ عُمر الدسوقي
من ذياك المخلوق المتجبر الذي تعنو له جباه الضواري في أدغالها، وتفرق من طلعته الوعول في معاقلها، ويمعن السمك في مساربه هلعاً لدنوه، وتهابه الطيور في أوكارها، والصّلال في أجحارها؟! هو الإنسان! درج على الأرض فكان سيدها المطاع، ولم تعجزه إلا تلك القوى السماوية، من ريح زفوف عاتية، أو رعود قاصفة مدوية، أو زلازل تميد لها الأرض تحت قدميه، أو براكين تثور محنقة غاضبة أمام عينيه. كيف يدرأ شرها، أو يحوز رضاها؟ سجد لها وتضرع، وتزلف بالقربى والابتهال. ولكنه خلق وفي نفسه عنجهية وكبرياء، فأخذ على مر القرون يتنكر لها، ويشمر عن ساعده لتسخيرها وصرعها، وكلما ذاق لذة الظفر مرة، قوى إيمانه بقدرته، وجلال عقله، وكفر بها، ولج في كفرانه؛ بيد أنه أحس من أعماق فؤاده نداء خفياً أن ثمة إله آخر، أنت والدنيا والطبيعة صنع يده القادرة! ما بالك كلما حز بك مر، أو تكأكأت عليك المصائب، أو خطف الموت فلذة كبدك وأحباءك، تنادي في ذلة وضراعة ذلك الإله الذي لا تراه، أنْ رفقاً يا رباه، فليس لي حول ولا طول أمام جبروتك وعظم ملكوتك. قرت في جنانه تلك العقيدة فهدأ بلباله، وطفق يلهج بما يكنه فؤاده من حب ومعرفة بالجميل، وندم وتوسل، لذلك الإله الدائم اليقظة، الذي ينشر رحمته على الدنيا جمعاء. وهل الصلاة والعبادة سوى مظهر من مظاهر ذلك الشعور الذي يفيض به قلب الإنسان؟
فكر في كنه ذلك الإله، ثم فكر حتى أجهده الفكر، وكبا عقله في الميدان صريعاً، وزين له الشيطان أن يصور ذلك الإله ويرمز له، ويعبد الرمز تقرباً إلى الله وزلفى؛ ثم أتى عليه حين من الدهر نسى مغزى هذه الرموز والأصنام، فخالها آلهة قادرة، يتحكم كل منها في شأن من شئون العالم؛ وتوهم أن لها ما للإنسان من شهوة ورغبات، وإحساس وشعور؛ ومادام الإنسان لا يَقر عيناً ويطيب نفساً إلا إذا عَلّ من معين المادة حتى روى، فكذلك الآلهة لابد له من القرابين والضحايا. شاد المعابد والهياكل وأخذ يتعبد كما زخرف له الشيطان؛ ولهذا كانت العبادة عند قدماء الهند تتألف من الطهارة والقرابين، وظلت هكذا ردحاً من الزمن غير قصير، حتى آب الإنسان لرشده وارتقت الفكرة الدينية عند فلاسفة
الهند الأقدمين، ففهموا للطهارة والقربى مغزى غير ما أدرك أسلافهم؛ بيد أن البرهمية لم تحد قيد شعرة عن إيمانها بالقربان؛ ولاسيما بعد أن قويت عقيدة الدهماء بالكهنة، وما حبتهم الآلهة من فضائل خفية هي حَبْس عليهم وعلى ذرياتهم من بعدهم اعتقد طغام الناس أن الآلهة لن تتقبل القربان، إلا إذا باركه الكاهن، وقدمه بيده، وبطريقة معينة لا تغيير فيها ولا تبديل، مرتلاً خلال ذلك أناشيد وأدعية، يرددها لسانه، ولا يحس بها جنانه، بينما يقف المتقرب مكتوف اليدين يسمع ويرى دون أن يضرب بسهم، أو يفوه بكلمة، في هذه العبادة التي أقيمت من أجله. لم تكن العبادة تقدر بسيرة المتقرب الخلقية، وفضائله ومزاياه، أو رذائله ونقائصه، ولكن بحذق الكاهن وبراعته في تأدية المراسيم الدينية غير متلعثم اللسان، أو جامح اليد، وإلا بطل ثوابها وحبط عملها؛ وما على المتعبد إلا أن يعتقد بأن الآلهة سوف تسبغ عليه أبراد الرحمة ضافية، جذلاً بما قدمت يداه
أما الزرادشتيون، والصابئون من الفرس، فقد عاشوا في دنيا من الصلوات والدعاء؛ فكان الزرادشتي يتمتم بالدعاء، إذا عطس، أو قلم أظفاره، أو قص شعره، أو حاك ثيابه، أو طهى طعامه، أو أشعل مصباحه، ليلاً ونهاراً، لا يكل ولا يمل
دانوا بالعبادة بادئ ذي بدء لإلههم (أورمزد)، ثم ما لبثوا أن قدسوا السماء وبروجها، والأرض وجبالها، والوحوش الكاسرة، والأشجار المتباينة، وكان لنبات القمر منزلة في نفوسهم لا تسامى
وما كانت عبادتهم سوى تكرار صيغة من الدعاء، فقدت ما بها من حرارة، وذهب ما لها من طلاوة وتأثير بكر الزمان ومر العشي. أجل! أن المثل الخلقية كانت جلية عند بعض مفكريهم، ولكن الشعب لم يدرك لها رسماً. أضف إلى ذلك أن الكهنة خصوا أنفسهم بالحياة الروحية، وحرموها على سواهم من الناس؛ كما شيدوا حصوناً من القداسة

كانت لهم معقلاً يباعد بينهم وبين غيرهم، ويحول بين الناس وبين المتعة الروحية السامية؛ لأن الكهنة ابتدعوا نوعين من العبادة، أولهما حِكر عليهم وعلى طائفتهم، وثانيهما مباح للناس أن يساهموا فيه

أما اليهودية فجاءت خلواً من الأوامر التي تحث على الصلاة، اللهم إلا صيغة واحدة من الدعاء يلفظ بها رب الأسرة، حين يدفع جُعل الكاهن، أو يتقرب بباكورة ماشيته وزرعه، مثنياً فيها على الله أن مكنه من القيام بامتثال أوامره، ومتوسلاً إليه أن يسبغ بركاته على بني إسرائيل

ثم سمت الفكرة الروحية حول الذات العلية، عند عامة اليهود، ووعاظهم، واختفت عقيدة التجسيم من أفئدتهم، وأدرك الناس أن العبادة شرعة يصل بها العبد إلى مولاه؛ ومن ثم أصبح اليهود بالعرف والعادة أمة ذات صلاة، على الرغم من فقدان النص الصريح في شريعتهم. ولكن الصلاة عادت آلية في كثير من الأحيان؛ لأن الشعب لم يجد مناصاً عن طلب الكاهن ليؤمهم، إذ لم يكن بين أيديهم تشريع خاص من الله يرجعون إليه؛ ونفقت سوق الكهنة وأخذوا يبيعون كلمات الله بثمن بخس دراهم معدودات. ألم يعنفهم القرآن على ذلك الجرم في سورة البقرة مخاطباً بني إسرائيل: (ولا تَشْتُروا بآياتي ثمناً قليلاً، وإيَّايَ فاتَّقُون)؟؟

ثم مثلت تعاليم المسيح تطوراً جديداً في شعور الإنسان الديني وقدرت الصلاة حق قدرها، واقتفى الحواريون خطى إمامهم فعكفوا على عبادة الله وحمده؛ ولكن المسيحية، جاءت كاليهودية، خِلوا من قواعد معينة، ونظم محدودة، يسترشد بها الدهماء في صلاتهم، فتركوا على مر الزمن ألعوبة في يد القسيسين الذين أخذوا على عاتقهم، تنظيم العبادة، وبيان أوقاتها ومراسيمها؛ ومن ثم ألفت كتب الصلاة والأنظمة الدينية، والمجالس الكنسية؛ لتبين للناس ما يعتقدون وكيف يتعبدون؛ ومن ثم برزت للوجود عبادة الرهبان الآلية، وأناشيدهم وترتيلاتهم التي لا روح فيها؛ واخذ الناس يهرعون إلى الكنائس يوماً من كل أسبوع، ليأخذوا ما فاتهم من الغذاء الروحي خلال الأيام الستة الأخرى.

كانت هذه حال الديانات في القرن السابع الميلادي، حين سطع نور الرسالة المحمدية في أفق صحراء العرب، يهدي الناس إلى دين جديد، يشبع نهم نفوسهم، ويسمو بأرواحهم إلى الدرجات العلى. دع جانباً ما كانت تهيم فيه الأمة العربية ذاتها، من ضلال، وفساد في العقيدة، وإسفاف في الفكرة الدينية، وعجز عن إدراك عظمة الإله وقدسيته، وطوافها بأصنام من الحجر الصلد، لا تحير جواباً إذا نوديت، أو تنفع إذا دعيت، أو تشع في الفؤاد نوراً أو تبعث في الروح يقظة إذا عبدت وقدست.

نفذ الإسلام إلى قرارة الروح الإنسانية، ورأى تحرقها للإفصاح عن حبها وشكرها لله، ففرض صلاة، تسعد بها النفوس، وتنبل الأخلاق، وتسمو العقول؛ وجعلها على أوقات، حتى لا يسبح الفكر الإنساني في عالم الماديات، وينسى غذاءه الروحي. وقد أوضح صاحب الرسالة عليه السلام كيفية أدائها قولاً وفعلاً، لئلا يترك الناس فوضى في عباداتهم.

وغدا المجال فسيح المدى أمام كل فرد، ليعبد الله بقلب يفيض حباً وضراعة وإخلاصاً. إن الصلاة التي تؤدى، والنفس تعمرها الخشية والخشوع، لجديرة أن تجعل من الإنسان مَلَكاً يغمر الناس حباً وحناناً وخيراً وإحسانا، وفي ذلك يقول الله سبحانه: (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولذكر الله أكبر)

وهاك ما قاله أحد كتاب الإنجليز مرة: تتجلى عظمة الإسلام في أن معابده ليست مما تشيدها الأيدي، وأن المسلم يستطيع تأدية صلاته في أي مكان شاء، تحت القبة الزرقاء، أو على ظهر البسيطة) أي بقعة يصلي فيها المسلم مخلصاً لله حنيفاً فهي له مسجد (جعلت لي الأرض كلها مسجداً، وتربتها طهوراً)

لم يقدر المسيحيون ما في صلاتنا من قوة روحية ومعنوية، ونبي الإسلام يقول: (جعلت قرة عيني في الصلاة) لأنه يناجي ربه ويجرد روحه أمام بارئه دون وساطة أو شفيع. وقد ثبت عن الثقاة أنه كان يبكي، وينتحب في صلاته، ويتململ تململ السليم تضرعاً إلى الله، وإنابة له.

لا رهبانية في الإسلام؛ لأنه دين سمح، سهل، يكفل خيري الدنيا والآخرة، ولم يدع أي شيء يحول بين العبد وربه: (وإذا سألك عبادي عني فإني قريبٌ أجيبُ دعوة الداع إذا

دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا لعلهم يرشدون) وهذا ما جعل الإسلام يهزم البوذية والزرادشتية في عقر دارهما، ويدخل الناس فيه أفواجاً من كل أمة ونحلة؛ هرباً من عتو الكهنة واغتصابهم لحريتهم، وتحكمهم في أرواحهم.

كل مسلم مكلف بمعرفة دينه، والتفقه فيه، فلا طوائف دينية في الإسلام، ولا كهنة حباهم الله القداسة والقربى، بل الناس أمام الله سواسية كأسنان المشط، أكرمهم عنده أتقاهم. والتشفع بالأولياء، في شرعة الدين الحقة، ضرب من البدع وانحراف عن جادة الصواب، وروح الإسلام.

ربما توهم بعض الناس أن التقرب إلى الله بإراقة دماء الأضحية من تعاليم الإسلام، ولكن

هذا باطل لأن نحر الأضاحي في عيدنا الأكبر تذكرة بما قام به سيدنا إبراهيم لا غير، فضلاً عما فيه من إطعام البائس والفقير؛ ولذلك يُهدى ثلثها ويُتصدق بثلثها، ويؤكل ثلثها الباقي.

جعل الإسلام طهارة البدن شرطاً في صحة الصلاة، وفي الوقت ذاته نص على أن مجرد الطهارة البدنية لا يغني أمام الله فتيلاً، إذا لم تصحبها طهارة في الروح، وإخلاص في القلب، وخلوه من الكبر والرياء، والحسد والبغضاء.

يستقبل المسلمون جميعاً مكة في صلاتهم؛ حتى يظل مهد الإسلام الذي انبثق منه هذا النور الفياض، والذي شاهد أشعته الأولى تبدد دياجير الجهل، ملء سمع المسلمين وأبصارهم؛ وحتى يتمثلوا موطن ذياك الصراع العنيف بين الحق وصولته، والباطل ودولته، وكيف حطمت الأصنام وطهرت الأرض من أدران البغي والعدوان، والعشق والدعارة؛ وحتى يتذكروا أن إخوانهم في مشارق الأرض ومغاربها يشاطرونهم شعورهم، ويولون وجوههم صوب هذه البقعة المباركة كما يتوجهون، وأن المسلم عضو في جماعة عظيمة تملأ فجاج الأرض، يربطها دين واحد، ويحفزها رجاء واحد، وتؤمن بإله واحد.

تلك هي روح الإسلام في فرع واحد من فروع العبادة، ولولا خشية الإطالة لبينت ما في الصوم والزكاة والحج من فكرة سامية وروح عالية.

عمر الدسوقي

دارٌ مُؤمنةٌ

للأَستاذ محمد سعيد العريان

(ضلّت البشريةُ إن كان هذا مَبلغَها من العلم بالله!)

همس بها (زيدٌ) في أذن صحابته فالتفتوا إليه مذعورين يسألونه الصمت والحذر!

هذه بطون قريش جميعاً في عيد لهم عند صنم من أصنام الجاهلية مُلَبِّين ضارعين يعظّمونه وينحرون له عاكفين عليه. ذلك شأنهم في كل عيد. .

وأولئك أربعة نفر من قريش قد اجتمعوا لغير ما اجتمع آباؤهم وأبناؤهم واخوتهم من سائر قريش، ينظرون إلى القوم ضجيجهم حافين حول المعبود الأخرس لا يتكلمون، وعلى شفاههم بسمات، وفي أعينهم نظرات يخافتون بها، وفي صدورهم رغبات مكبوتة، لو تَأَتَّى لهم لأَهْوَوْا على هذا المعبود فكبّوه على وجههُ جذاذاً محّطما!

وانتبذ الأصدقاء الأربعة ناحيةً يتناجون في همس، وإن المكان ليضجّ بمن فيه بين داعٍ ومُلَبٍّ وسائل ومستغفر. وعاد الرجل يقول لصاحبه:

(أما والله إنكم لتعلمون ما قومكم على شيء؛ لقد أخطئوا دين أبيهم إبراهيم. ما حَجَرٌ نُطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع؟ يا قوم التمسوا لأنفسكم فإنكم والله ما أنتم على شيء!)

ويؤِّمن صاحبته على ما يقول

ذلك زيد بن عمرو بن نفيل، من بني عدي بن كعب؛ وأولئك أصحابه: ورقة بن نوفل، وعبيد الله بن جحش، وعثمان ابن الحارث.

أربعة نفر أضاء الله لهم على حين غفلة وضلال، فسبقوا قومهم إلى التوحيد والإيمان بالله؛ وجلسوا يداولون الرأي بينهم، فأجمعوا أمرهم على أن يتفرقوا في البلدان يسألون أهلَ العلم ما يعملون عن دين إبراهيم. . .

وأقام زيد بن عمرو بمكة زماناً، معتزلاً قوَمه وما يعبدون من دين الله؛ لا يؤاكلهم ولا يشاربهم، ولا يخشى أن يباديهم بالعيب على ما هم فيه، وحرمّ على نفسه ما أحُّلوا

لأنفسهم من الميتة والدم وما ذُبح على النُّصب.
وعرف القرشيون ما أجمع عليه أمره، فاعتزلوه وخلّوا بينه وبين نفسه، لكنه لم يخلِّ بينهم
وبين أنفسهم؛ فإنه ليقصد إلى البيت فيسند ظهره إلى الكعبة يقول: (يا معاشر قريش، والله ما منكم على دين إبراهيم غيري، وإنكم لتعبدون ما لا يغني عنكم من الله شيئاً. يا معاشر قريش، إنكم لتأتون المنكر، وتقارفون الشر، وتئدون البنت، وتكفرون النعمة. يا معاشر قريش، أيُّما رجلٍ منكم هم أن يقتل ابنته خشية إملاق فأنا أكفيه مئونتها. يا معاشر قريش. . . يا معاشر قريش. . .)
فإذا فرغ من دعوته وجّه وجهه لله يقول: (لبّيك حقاً حقا، تعبُّداً ورقًّا، عُذْتُ بما عاذ به إبراهيم. اللهم لو أني أعلم أيّ الوجوه أحب إليك عبدتُك به، ولكني لا أعلمه. . .) ثم يسجد على راحته ويقول:
أنفى لك اللهَّم عان راغمُ ... مهما تجشِّمني فإني جاشمُ
ولم يزل زيد على ذلك: يذكّر قومه ويعيب عليهم ما يعبدون، حتى ضاقوا به؛ فأجمعوا على نكايته وتربّصوا به الشر؛ ثم مازال به عمه (الخطّاب بن نفيل) يؤذيه وينال منه حتى أجاءه إلى (حراء) لائذاً بالله مستجيراً؛ فوكل به الخطاب شباباً من سفهاء قريش يأخذون عليه الطريق وينالونه بما يكره إن هَمَّ أن يعود إلى مكة، خشية أن يُفسد عليهم دينهم ويتأثره بنوهم. وكانت زوجه فيمن كان من عيون الخطاب عليه، لا يكاد زيد يهم أن يدخل مكة حتى تُؤذِن به الخطابَ فيقف له؛ ثم يتناوله السفهاء من شبابهم بما يقدرون عليه حتى يعود على وجهه!
رجل فرد في وجه أمة، قد برئ منه أهله، وتمردت عليه زوجه، وتذامر سفهاء الإنس وشياطين الجن على مناهضته والوقوف له؛ ولكنه من قوة الإيمان بحيث يغالب ما لا غلبة عليه!
وأيّ قوة في الأرض تنال من الرجل يعمر قلبه الإيمان؟
وأرادوه على أن يلزم مكمنه من الجبل لا يبرح، لا هابطاً إلى الكعبة يسبح الله في . . . البيت الحرام، ولا مُصعداً يلتمس أسباب المعرفة في بلاد الله؛ ولكن صوتاً من وراء الغيب يهتف به، ونوراً يتنوره على بعد يضيء بين يديه، وإيماناً يعمر قلبه يذلِّل ما يتكاءده من عقبات على الطريق.
كان يؤمن إيماناً لا شك فيه أن للكون رباً غير ما يعبد الخطاب وبطون قريش؛ هو رب إبراهيم وموسى؛ فمنذا يهديه الطريق إليه؟
ووجد زيد غفلة من حراسه فأفلت يقصد قصده، متنقلاً بين الموصل والجزيرة إلى . . . بلاد الشام، يسأل عن دين إبراهيم ويبتغيه
ومضى تتقاذفه البلاد يستطلع أنباءه بين أحبار اليهود ورهبان النصارى؛ فما منهم إلا من يبشره بنبي قد أظلّ زمانه، يبعثه الله بدين إبراهيم في أرض حجاز!
يا ناقُ سيري عنَقاً فسِيحاً إن نبياً قد أظلَّ زمانه يبعثه الله بالهدى ودين الحق في أرض الحجاز. يا ناقُ هذا سبيلك إلى الوطن النائي يجمع شملك بالأحباب من آل عديّ بن كعب في أرض الهدى والسلام. يا ناقُ هذا فجر يوشك أن ينبثق بالنور فسِيري بي إليه أقبس من نوره نوراً لقلبي وسلاماً لروحي. يا ناقُ هذا يومُك المأمول تبرق شمسه في حواشي الأفق فأبلغيني مأملي قبل الغداة.
ذلك زيد بن عمر بن نفيل في طريقه إلى مكة يسعى نوره بين يديه إلى أمل يرجوه، فإنه ليحدو بعيره مغتبطاً جذلان أن يعود إلى وطنه ومرتع صباه فيظفر بالحسْنَيَين من لقاء الأهل والولد وصحبة النبي القرشي الذي أظلَّ زمانه؛ وإنه ليغذُّ السير وفي نفسه شوق ولهفة، وعلى لسانه تسبيح ودعاء!
وانطوى الطريق تحت أخفاف البعير الذي أنضاه السرى وجهد السفر، فلما صار على قرب قريب من أرض الحجاز وأوشك أن ينعم بلقائه الأهل والولد ورؤية النبي الذي قطع مفازة الحياة سعياً إلى لقاه - عَدَا عليه من عدا أهل السبيل فصرعه قبل أن يبلغ حيث يريد، فإنه ليقول وهو يلفظ أنفاسه: (اللهم إني أشهدك أني على دين إبراهيم!) يرحمك الله يا أبا سعيد!
وأشرق الصبح على أرض الحجاز، وفاض النور من غار حراء يغمر بطحاء مكة . . . ويسيل سيل العرم فيمحوا الظلمات ويدخل منه في كل دار قبس يضيء. وداعبتْ

أشعةُ الصبح الضاحك نافذةَ الدار التي آوتْ زيد بن عمر بن نفيل عُمْراً من عمره، ثم هجرها ساعياً إلى الله يبتغي الوسيلة إلى دين الحق، فكان ولده سعيد بن زيد وزوجه فاطمة بنت الخطاب - من السابقين الأولين في الإسلام!

وعاد نور والإشراق إلى الدار التي يُعْزَى إليها أولُ مذكر بدين إبراهيم على حين غفلة وضلال. وكان إيمان سعيد واستجابته لدعوة الحق امتداداً لدعوة أبيه في الجاهلية وصفحةً مشرقة من التاريخ تنضمّ إلى صفحات!

ثم دار الفلك دورة، وإذا فتى عارمٌ من فتيان قريش يدخل دار سعيد متوشحاً سيفه، وفي عينيه شرٌّ وعلى لسانه وعيد، فما إن رآه سعيد وزوجه حتى سكت القرآنُ وخَفَتَ الصوت وانكمش بعضٌ في بعض؛ وأوشكت أن تنقض صاعقة تزلزل أركان الدار المؤمنة. . .

يا عجبا! ما بال هذا الفتى قد نسي ما جاءَ له وَرَقَّ بعد عُرام وعنف؟ هل كان يقصد إلا هذا الفتى العربيَّ وزوجَه، أن ينالهما بأشد الأذى على ما صَبَآ وفارقا دين قومهما؟

هاهو ذا في موقفه منهما خاشع الطرف يتلو من صحيفة في يده:

بسم الله الرحمن الرحيم. طه. مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتشْقَى. إِلا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى. (تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّموَاتِ الْعُلَى. . .)

فما يكاد يفرغ من تلاوته حتى يلتفت إلى خَتَنِه سعيد وأختِه فاطمة بنت الخطاب يقول: (دُلاَّني على محمد حتى آتيه فأسلم!)

ذلك عمر بن الخطاب وتلك دار سعيد بن زيد بن عمرو؛ دخلها دخول الفاتك المتقحم لا تهدأ نفسه إلا أن يريق دما؛ فما احتوته الدار حتى كان عمرُ غيرَ عمر!

إن في بعض الأمكنة لَسرّاً يهمس، ونجوى تخافت؛ وإن في هذا الدار. . .!

وجلس سعيد بن زيد بن عمر بن نفيل، وعمر بن الخطاب ابن نفيل، مجلسهما إلى رسول الله غدوة، فقالا: (يا رسول الله استغفر لزيد بن عمرو!)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (نعم، فإنه يبعث أمةً وحده!)

رحمة الله عليه

محمد سعيد العريان

مِن مذكرات عُمر بن أبي ربيعة

ذات النطاقين

للأستاذ محمود محمد شَاكر

(قال عمر بن أبي ربيعة بعَقِب حديثه):

فوالله لقد جَهَدنا البلاء - يا أهل مكة - ولقد صبرنا على حصار الحجاج سبعة أشهر . . . أو تزيد في غير حصن ولا منعة، وإنّ أحدَنا لُيرى وقد لحقت بَطْنُه بظهره من الجوع والطَّوَى، ولولا بركة تلك العين (يعني زمزم) لقضينا، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم (إنها مباركة، إنها طعامُ طُعم) لقد أشبعنا ماؤها كأشد ما نشبع من الطعام، وما ندري ما يُفْعلُ بنا مُنذُ اليوم. فلقَد خذَل (ابنَ الزُّبَير) أصحابه خذلاناً شديداً، وما من ساعةٍ تمضي حتى يخرج من أهل مكة من يخرج إلى الحجاج في طلب الأمان. ألا شاهتْ وجوه قوم زعموا أنْ سينصرونه، يحمون (البيت) أن يُلحَد فيه، ثم ينكشفون عنه انكشافةً كما تَتفرق هذه الحمامُ عن مَجْثمها على الرَوْع. . .

وخرجتُ، ومكة كأنها تحتَ السَّحَر خليَّة نحل مما يدوِّي في أرجاءها مِنْ صوتِ داعٍ ومكبِّر وقارئ، وصَمدْت أريد المسجد فأسمع أذان (سعد) مؤذِّن ابن الزبير فأصلي ركعتي الفجر، فيتقدم ابن الزبير فيصلي بنا أتَّم صلاة، ثم يستأذن الناس ممن بقي من أصحابه أن يُوَدّع أمه (أسماء بنت أبي بكر الصديق) فأنطلق وراءه وما أكادُ أراه مما أحتشدَ الناس في المسجد، وقد ماجوا وماجَ بهم يتذامرون ويحضّضُون ويُحرّضون، وزاحمت الناس بالمناكب أرجو ألا يَفوتني مشهد أسماء تستقبل ولَدها وتودِّعه ولقد تَعْلمُ أنه مقتول لا مَحَالة، فما أكاد أدركهُ إلا وقد انصرف من دارها يريد المسجد، وإذا امرأة ضَخْمة عجوز عمياء طُوالة كأنْ سرْحةٌ في ثيابها، قد أمسكت بعُضادتي الباب تصرف وجهها إليه حيثما انتقل، فوالله لكأنها تثبتُه وتُبصره، وقد برَقت أسرَّةُ وجهها تحت الليل برق العارِض المتهلل، ثم تنادي بأرفع صوت وأحنِّه وألينه، قد اجتمعت فيه قوة إيمانها وحنينُ قلبِها: (يا عبد الله! يا بُني، إني أمك التي حملتك، وإني احتسبتك فلا

تهن ولا تجزع. يا بني ابذل مُهجة نفسك، ولا تَبعد إلا من النار. . . يا عبد الله! لا تبعد إلا من النار، أستودعك الله يا بُني!) ثم تدور لتلج الدار فكأنها شِراعٌ قد طُوِي
رحمة الله عليكم يا آل أبي بكر، لأنتم أصلبُ الناس أعوادا وألينهم قلوباً. وأحسن الله عزاءك يا ذاتَ النطاقين، فلقد تجملتِ بالصبر حتى لقد أنسيت أنك أمٌّ يجزع قلبها أن يَهلكَ عليها ولدُها فيتقطع عليه حَشاها
وانصرفتُ عنها بهمِّي أَسعَى، فوالله ما رأيت كاليوم أكسَبَ لعجبٍ وأجَد لحزنٍ من أمٍ ثكلى يحيا ظاهرُها كأنه سراجٌ يَزهرُ، ويموتُ باطنها كأنه ذُبالَةٌ توشكُ أن تنطفئ، وذهبتُ ألتمسُ الوُجوهَ وأحزانها، فما أَرَى وُجُوَمها وقُطُوبها وانكِسَارَها وزَهَقَها وصُفرَتها إلا ذلةَ النفس وخضوعَها واستكانتها وضعفَها وعلَّتها، وأن المؤمِنَ حين يحضُرُه الهَّم أَشعَثَ أغبرَ يَردُّه إيمانُه - حين يؤمن - أبلجَ يتوقَّد، ليكون البُرْهانَ على أنَّ الإيمانَ صيْقلُ الحياةِ الدُّنيا، يَنْفي خَبَثَها ويجلو صَدَأَها، فإما رِكَبها من ذلك شيءٌ، عادَ عليها يُحَادثها ويصقُلها حتى يتركها بيضاءَ نقيَّة. . .
وما بلغتُ المسجدَ حتى رأيت ابن ذاتِ النِّطاقين قائما بين الناس كأنه عمودٌ من طُولِهِ واجتماعه ووثاقَة بنائِه؛ وحضَرْته وهو يقول: (أيها الناس، عجِّلوا الوقِاع، ولا يرعكُمْ وَقْع السيوف، وصونوا سيوفكم كما تصونون وجوهكم، فلينظرْ رجُلٌ كيف يضرب، لا تخطئوا مضاربكم فتكسِروها، فإن الرجُلَ إذا ذهب سلاحُه كان أعزَل أعضبَ يأخذ أخذاً كما تؤخذ المرأة. ليَشغَلْ كلّ امرئٍ قِرنه، ولا يلهينكم السؤالُ عني: أين عبد الله بن الزبير؟ ألا مَنْ كان ساءلاً عني فإني في الرَّعيل الأول). . . ثم يدفَعُ في صدور أهل الشام دفعة عند باب بني شيبة كأنه صاعقةٌ، وكأنه أسدٌ في أَجَمةٌ، ويحيصُ أصحابُ الحجاج حيصة في منازلهم من الرُّعب، فلقد رأيتُه يقفُ ما يدنو منه أحدٌ، حتى ظننتُ أنه لا يُقتَلُ، حتى إذا كان بين الركن والمقام رُمي بحجرٍ فأصاب وجْهَهُ فبلغ منه حتى دَمِى، وسال دَمُه على لحيته، وأُرعشَتْ يدُه. . . وغَشيَهُ أصحابُ الحجّاج من كلّ ناحية وتغاوَوْا عليه، وهو يقاتلهم جَاثِماً أشدَّ قتال حتى قُتِل
وا رحمتا لك يا بنتَ أبي بكر!! أيُّ كبدٍ هي أشدُّ لوعةً من كبدِكِ! لقد والله رُحمت رحمةً إذ كفَّ الله منك البصر، لئن لم تكوني تجزعين لموته، لقد كنتِ جزعتِ لما مثَّلُوا به وحزُّوا رأسهُ، ورفعوه على خشبة مُتكِّساً مَصلوباً. . .
وما كدْتُ حتى أقبلتْ أسماء بين يديها كفنٌ قد أعدَّته ودَخَّنتْهُ، والناسُ ينفرجون عن طريقِها
في أعينهم البكاء، وفي قلوبهم الُحزْنُ والرُّعب، قد انتُسفت وجوههم كأنما نُشروا من قُبورهم لساعتهم، وسكنت الأوصالُ، وجالت الأحداقُ في مَحاجرها وكأنها هَّمت تخرُج، وتمشي أسماء صامدة إلى الخشبة صمداً وكأنها ترى أبنها المصلوب، وكأنها تستروح رائحةَ دَمِهِ، حتى إذا بَلَغَتْهُ - وقد وجم الناس وتعلقت بها أبصارهُمْ ورجفت بهم قُلوبُهم - وقفتْ، وقد وجدت رائحة المسك تحت ظِلاله فقالت: (يا بُنيَّ طبتَ حيًّا وميّتا، ولا والله ما أجزعُ لفِراقك يا عبد الله، فمن يَكُ قُتِلَ على باطل فقد قتلتَ على حق، والله لأثنين عليك بعلمي: لقد قتلوك يا بني مسلماً محرماً ظمآن الهواجر مصلياً في ليلك ونهارك)
ثم أقبلت وجهها السماء ومدت بيديها تدعو: (اللهم إني قد سلمته لأمرك فيه ورضيت بما قضيت له، فأثبني في عبد الله ثواب الشاكرين الصابرين. اللهم أرحم طول ذلك القيام في الليل الطويل، وذلك النحيب، وبره بأبيه وبي)
ووجم الناس وجمةً واحدة، وخشعوا خشعةً لكأن السماء والأرض صارتا رتقاً فما يتنفس من تنفس إلا من تحت الهم والجهد والبلاء. وكأن مكة بيت قد غلقت عليه أبوابه لا ينفذ إليه أحد ولا يبرحه أحد. وكأن الناس قد نزعت أرواحهم وقامت أبدانهم وشخصت أبصارهم، وبدت أسماء بينهم وكأن وجهها سراج قد نص على سارية، لا يزال يزهر ويتلألأ، ثم تتلفت كأنما تتطلع في وجوه هذه الأبدان الخوالد، وأضاء ثغرها عن ابتسامة. والله لقد بلغت من العمر وما سقطت لها سن، ومازال ثغرها ترف غروبه ثم قالت: (يا بني، لشد ما أحببتم الحياة وآثرتم دنياكم، فخذلتم أخاكم، وفررتم عن مثل مصرعه. يا بني يغفر الله لكم، وجزاكم الله عن صاحبكم خيراً)
وأطرقت أسماء إطراقةً ثم رفعت رأسها تومئ إلى الخشبة فوالله لقد رعدت فرائصي حتى تَزَايلتْ أوْصالي، وصَرَّ الناس كأنما تقصفت أصلابهم، وإذا هي تقول: (ألا

من مبلغ الحجاج أن المُثْلَة سبة للحي وما تضر الميت. ألا من يبلغ الحجاج عني أن الشاة إذا ذبحت لم تألم السلخ)

وحامت أسماء وطافت بين الناس وبين هذه الخشبة ساكنةً صابرةً، لا يرى إلا بريق وجهها يومض كأنه سيف صَقِيل، ثم طفقت تردد (يا بني، أما آن لهذا الراكب أن ينزل؟ أما آن لهذا الراكب أن ينزل! يا بني ليستأذن أحدكم حَجَّاَجكُم هذا أن يدفع ألي هذه العظام. أدوا

(عني؛ يرحم الله من أدى عني

فيجيء الرسول من قبل الحجاج يأبى عليها أن تدفع إليها عظام ابنها المصلوب ويجيء على أثره موكلون قد وكلهم بجثته يقومون عليها يحرسونها، كأنما خشي أن يحيا ميت قد حز رأسه أن تمسَّهُ يَدُ أُمِّه. فوالله لقد سمعتْ أسماء وخُبِّرتْ فما زادت على أن وَلَّتْ عنهم كما جاءت ما تقطر من عينيها قطرةُ دَمْع، وما تُجاوز قوماً إلا جاوزتهم كأنهم فُسطاطٌ يتقوَّض، حتى ولجتْ بابَها وغلَّقَته عليها

وانطلقتُ أنفضُ الناس بعينيَّ، فرأيتُ أخي الحارث (ابن عبد الله بن أبي ربيعة) وابن أبي عتيق (هو عبد الله بن محمد عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق) ما في وجهيهما رائحة دم من الحزن والفرق. فقلت: ما هذا أوان جزع؛ انطلقوا بنا - يرحمكم الله - إلى دارها نواسيها ونترفقُ لها، فوالله لقد تخوَّفتُ أن يذهبَ بها الحزن عليه، وإنه لفالقٌ كبدَها ما لقيته. ويطرق الباب ابن أبي عتيق. فيجيبُ الصوت من داخل: قد أسمعتَ فمهْ. فيقول: أنا ابن أبي عتيق يا أمَّاه. ويؤذن لنا فندخل دارها تجف قلوبنا من الروع والرّهبة، ونأخذ مجلسنا عند بنت أبي بكر الصديق خليفة رسول الله (ص) وزوج حواريِّه عليه السلام، وكأن قد تركنا الدُّنيا وراءنا وأقبلنا على الآخرة.

استضحكت أسماء حتى بدت نواجذُها وقالت: (مرحباً بكم يا بَنيّ، جئتم من خلل الناس تعزُّون أمكم في عبد الله. يرحم الله أخاكمُ لقد كان صوَّاماً قوَّاماً ما علمتُ. وكان ابن أبيه الزُّبير أوّلِ رجل سلّ سيفه في الله، وكان أشبه الناس بأبي بكر

يا بَنيّ، والله لقد حملتُه على عُسْرَة، والمسلمون يومئذ قليلٌ مستضعفون في الأرض يخافون أن يتخَّطفَهُم الناس، ولقَدْ سعيت به جنيناً بين بيت أبي بكر وغار ثور بأسفل مكة في هجرة رسول الله صلى لله عليه وسلم وصاحبه أبي بكر رضي الله عنه آتيهما تحت الليل بما يصلحهما من الطعام؛ ويسكنُ الطلبُ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتيتهما بسفرتهما وسقائهما ونسيت أن أتخذَ لهما عِصاماً؛ فلما ارتحلا ذهبتُ أُعلِّق السُّفرة فإذا ليس لها عِصامٌ، فوالله ما أجدُ ما أعلقهما به، ووالله ما أجدُ إلاّ نطاقي وأناُ حُبلى مُتِمٌّ. فيقول أبو بكر: يا أسماء شُقِّيه باثنين؛ فأشقه فأربط بواحد منهما السقاء وبالآخر السفرة؛ فلذلك ما سمّاني رسول الله صلى الله عليه وسلم (ذات النِّطاقين) يعني في الجنة. وأعود بعد الله

يرتكض في أحشائي، قد احتسبتُ نِطاقي في سبيل الله؛ فوالله ما أجدني احتسبتُ بنيّ عبدَ الله اليوم إلا كما احتسبت نطاقي ذاكم. وأعود إلى دار أبي بكر ويأتي نفرٌ من قريش فيهم أبو جهلٍ فوقفوا ببابها، فأخرج إليهم فيقولون: أين أبوك يا بنت أبي بكرٍ؟ فأقول: لا أدري والله أين أبي؛ فيرفع أبو جهل يده - وكان فاحشاً خبيثاً - فيلطم خدَّي لطمة يطرح منها قُرطي، فتُغول بي الأرض الفضاء، فوالله لما لقيتُ من حَجّاجكم هذا أهونُ عندي مما لقيتُ من لطمة أبي جهل وأنا بعبد الله حامِلٌ مُتِمٌّ. يا بَنيّ إني آخر المهاجرين والمهاجراتِ، لم يبقَ على ظهرِها بعدَ عبد الله منهم غيري؛ فلا والله ما حَسَنٌ أن يَجزَعَ من هاجَر - وإنّ شأن الهجرة لشديدٌ - وما حَسنٌ أن يجزع من شهد المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه، وكيف وقد أربيت على المائة؟

(يا بني جزاكم لله عني وعن أخيكم خيراً، قوموا لشأنكم وذروني وشأني يرحمكم الله وودَّعنا وانصرفنا، ولا والله ما نجدُ لأسماء في الرجال ضريباً، فأين في النساء؟ ولكنها كانت تصبر صبر المهاجرين الأولين على الجهد والبلاء

وما كان صُبح خامسة من مقتل ولَدها حتى استجابت لدعوة ربّها رضي الله عنها وأرضاها، وهي أمٌّ حنَّت تكتم حنينها، ولكأنه عجَّل بها موته فقطع نياطها وصدع فؤادها، وفلق كبدها عليه حنينها إليه. . . . . .

محمود محمد شاكر

المعاهدة السرية
لِلأستاذ محمد عَرفة
قبل هجرة محمد صلى الله عليه وسلم في الليلة الثانية عشرة من ليالي ذي الحجة بعد أن قضى الناس حجهم خرج جماعة من رحالهم المضروبة في وديان منى وضواحيها بعد أن مضى الثلث الأول من الليل، خرجوا يتسللون تسلل القطا يمشون الهوينا، فلا يسمع وقع خطاهم على الأرض أحد كأنما يخافون أن يشعر بهم الناس. خرجوا فرادى وجماعات، وكلهم يقصد جهة معينة هي العقبة، وكلما وصل إليها فوج منهم نزل بها حتى كملوا سبعين رجلاً
جلسوا يتناجون في صوت خفي، لا يسمع إلا همسهم وتتابع أنفاسهم. جلسوا كأنما ينتظرون قادماً يقدم عليهم كانوا معه على ميعاد . . .
وبينما هم كذلك إذا برجلين قد أقبلا يؤمانهم، ويريدان مكانهم، فلما تبينوهما خفوا إليهما، ونهضوا فسلموا عليهما. وكانت هذه الجماعة من سكان يثرب من الأوس والخزرج، وكان هذان القادمان عليهم محمد بن عبد الله وعمه العباس بن عبد المطلب
وكانا معهم على ميعاد
ليت شعري ما الذي حفز هذه الجماعة على أن تخرج من رحالها وتقصد هذا المكان القصي؟ وما الذي حفز محمداً وعمه العباس أن يتركا منزليهما بمكة ويسيرا تحت ستار الليل والناس نيام ويوافياهم عند العقبة؟ كان محمد يريد الهجرة إلى المدينة وكان يريد أن يعقد مع أهلها معاهدة سرية على أن يحموه ويعززوه وينصروه.
فلما جلسا وجلس الناس حولهما، تكلم العباس بن عبد المطلب وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له فقال: (يا معشر الأوس والخزرج إن محمداً منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا، وهو في عز من قومه ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانقطاع إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، وما نعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده)
فلما انتهى العباس من كلامه قالوا له: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله، وخذ لنفسك
وربك ما أحببت. فتكلم رسول الله، فتلا القرآن، ودعا إلى الله ورغب في الإسلام، ثم قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم. فتقدم إليه البراء بن معرور وأخذ بيده وقال: والذي بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه أنفسنا، فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أهل الحرب، وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر
فاعترض القول أبو الهيثم بن التيهان وقال: يا رسول الله إن بيننا وبين اليهود حبالاً، وإنا قاطعوها، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله ثم قال: بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنتم مني، وأنا منكم، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم. فصرخ فيهم العباس ابن عبادة الأنصاري وقال: يا معشر الخزرج، هل تدرون على م تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم، قال، إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتل، أسلمتموه، فمن الآن، فهو والله خزي الدنيا والآخرة إن فعلتم؛ وإن كنتم ترون أنكم وافون بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال، وقتل الأشراف، فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة. قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا؟ قال: الجنة. قالوا: أبسط يدك. فبسط يده فبايعوه
وبعد أن تمت المعاهدة قال لهم رسول الله: ارفضوا إلي رحالكم. فقال له العباس بن عبادة: والذي بعثك بالحق لئن شئت لنميلن غداً على أهل منى بأسيافنا، فقال رسول الله: لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم، فرجعوا إلى مضاجعهم. فلما أصبحوا غدت عليهم أكابر قريش، فقالوا: يا معشر الخزرج، إنا قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا، تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم. وكان مع المسلمين الذين

عقدوا المعاهدة قوم مشركون من المدينة لم يعلموا بما كان منها فانبعثوا إلى قريش يحلفون لهم بالله ما كان من هذا شيء، وما علمناه. ثم تفرق القوم، ورجع الأنصار إلى المدينة، وأقام رسول الله بقية شهر ذي الحجة من تلك السنة والمحرم وصفر وهاجر إلى المدينة في ربيع الأول

وكانت هذه المعاهدة السرية التي عقدها رسول الله بينه وبين أهل المدينة هي أول حادث أعز الإسلام وقواه ومكن له في الأرض وكتب له البقاء والخلود، في هذا الوجود لم يكن أهل المدينة حين عقدوا هذه المعاهدة مع رسول الله يجهلون ما وراءها، فقد كانوا يعلمون أن وراءها حرب العرب جميعاً لأن العرب جميعاً على خلاف هذا الدين الجديد، وهم لا محالة معارضوه ومحاربوه، وقد ذكرهم بذلك العباس بن عبادة فلم يشفقوا من ذلك وأقدموا عليه وهم يعلمون ما يفعلون، ويعنون ما يقولون

علموا ذلك كله فلم يهلهم ولم يفزعهم، وأقدموا عليه طيبة به قلوبهم، راضية به نفوسهم. لقد عرض رسول الله (ص) نفسه قبل ذلك على القبائل، فأشفقوا منه ولم يقو أحد على حمل هذا العبء الثقيل.

لقد ذهب إلى ثقيف بالطائف وعرض عليهم الإسلام، فامتنعوا وقال له أحدهم: ما وجد الله أحداً يرسله غيرك. وقال آخر منهم: لا أكلمك كلمة أبداً، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول، لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام. ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك. فقام رسول الله من عندهم، وقد يئس من خير ثقيف ثم أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به، ثم نجاه الله منهم. وكان ينتظر أيام الحج فيذهب إلى الحجاج من العرب في منازلهم ويعرض عليهم الإسلام فيأبون عليه، ذهب إلى كندة في منازلهم فامتنعوا عليه، وأتى كلباً فامتنعوا عليه، وأتى بني حنيفة فردوه أقبح رد.

لم يقدروا على حمل هذه الأمانة، وادخرها الله لهذا الحي من أهل المدينة فقد جاء نفر منهم إلى موسم الحج، فلقيهم رسول الله فقال لهم: من أنتم؟ قالوا نفر من الخزرج. قال: أفلا تجلسون حتى أكلمكم. قالوا: بلى. فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، فآمنوا به وصدقوه وقالوا له: قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى الله أن يجمعهم بك وسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين. فإن يجمعهم الله على يديك، فلا رجل أعز منك. ثم رجعوا إلى المدينة ودعوا قومهم إلى الإسلام فأجاب منهم خلق كثير، ثم جاء منهم قوم إلى مكة وقابلوا رسول الله، وكانت المعاهدة التي ذكرناها.

إن هذه المعاهدة لتدل على ما للأنصار من جلد وقوة وشجاعة وبسالة وكرم وتضحية وإيثار

أباحوا أرضهم وديارهم وأرزاقهم لمن هاجر إليهم من المسلمين فقاسموهم ما عندهم، وآثروهم على أنفسهم

فتحوا بها صدورهم لحراب العرب ورماحهم، وقطعوا بها حبالهم التي كانت بينهم وبين العرب، فما أعظم هذه التضحية، وما أجل هذا الإيثار

وبحسبهم أن الله سجل لهم مفاخرهم ومكارمهم في قوله:

(والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون)

محمد عرفة

عِبرة الهجرة

لِلأستاذ محمد عبد الغني حسن

قُمْ باسم رِّبك في الحياة مُجاهدا ... وأَعِدْ إلى العرب التُّراثَ الخالدا

مجدٌ بذلنا النفس في تدعيمه ... حتى استقرَّ على الثُّريا قاعدا

أَهْوى إلى كسرى فدكَّ صروحَه ... ورمى هرقلَ فكان نَسْراً صائدا

فتح البلادَ مسالكاً ومعاقلاً ... وأدالهن صوامعاً ومعابدا

ومشى إلى الرومان أنبلَ غايةً ... وأعفَّ في يوم القتالِ مقاصدا

يدعو إلى دين النبي مناضلا ... ويصد دعوى المشركين مجاهدا

ويكاد يفتتح القلوب بحجةٍ ... غراء كالصبح المُبين شواهدا
هذا النبي من الجزيرة مقبلٌ ... يبني يقيناً أو يُقيم عَقائدا
المسلمون ببطن مكة أسَّسوا ... للمجد ركناً والفخار قواعدا
رفعوا على التقوى قواعد ملكهم ... وَرَجوْا له فوق السماء مقاعدا
عَرَبٌ من الصحراء إلا أنهم ... رفعوا لتمثال الحضَارةِ شاهدا
تلك الخيامُ الضارباتُ بمكةٍ ... سخرتْ من (الإيوان) فخماً صاعدا
قد لقنته من العقيدة صافيا ... وسقْته ماء الحق عذباً باردا
حتى رأينا الفُرْس أصبح دينهم ... دينُ الحنيفة مشمخراً صاعدا
دخلوا إلى الإسلام أطوعَ أنفسا ... لله وانقادوا أخَفَّ مقاودا
دين من الحقَّ الصراح رأيتهُ ... يغزو الممالكَ فاتحاً ومجاهدا
لم يعبأ الأوثان وهي نواصب ... شَرَكاً ولم يخشَ الضلالَ الراقدا
ومضى فما سَدَّ القتالُ سبيله ... وسعى فما هاب الفريقَ الحاشدا
يَهْدي ويفتحُ للعيون مسالكا ... ويشقُّ في سبب السماء مَصاعدا
ويكاد يهزأ بالعناد مكابرا ... والكفرِ أحمقَ والضلالِ مُعاندا
نصبوا له الشَّرَكَ اللئيمَ فما ونى ... ومضى يَحيك لصائديه مصايدا
ما كان صاحبُه إلى غاياته ... نِكْسًا ولا داعيه شيخاً قاعدا
آذوْهُ فاحتمل الأذاةَ مُصابرا ... ورمَوه فاحتملَ الرُّماة مُجالدا
والحاسدون تنقصوه فما وهى ... عزماً ولا بالى العدوَّ الحاسدا
نفسٌ من الإيمان صيغ كيانها ... وغدت على سر البطولة شاهدا
سَخِرَتْ بما صنع الضلالُ وأقبلت ... تستلهم اللهَ الطريقَ الراشدا
وإذا النفوسُ تباعدت غاياتها ... زادت عن الغرض اللئيم تباعدا
يأيها الداعي لكل كريمة ... هذا سبيلُك قد أقامَ على هدى
أعليتَ باسم الله كل بنَّية ... فيه وصيَّرْتَ الكنيسَ مساجدا
ودعوتَ لا تخشى لدينك هازئاً ... وصَدَعت لا تخشى لرأيك ناقدا
وخملت من ظلم القريب مُعاكسا ... ولقيتَ من عَنتِ الولِّي مُطاردا
فهجرتَ أهلك لا قلىً لودادهم ... وتركتَهم لا ساخطاً أو واجدا . . .
لكن كرهتَ على المقام جحودهم ... والحر يجتنب المقامَ الجاحدا

محمد عبد الغني حسن

الحسن بن الهيثم

لَلأستاذ عبد الحميد حمدي

المدرس الأول للعلوم بوزارة المعارف

للحسن بن الهيثم منزلة رفيعة في عالم العلوم الفيزيقية لا ينتقص من قدرها أنه غير معروف في الشرق بقدر ما هو معروف في الغرب بين علماء الفيزيقا الذين قدروه فكتبوا عنه وترجموا مؤلفاته وعلقوا عليها وشرحوا الغامض منها.

وهو أبو علي الحسن بن الهيثم، ولد بالبصرة عام 355هـ (965م) ومات بالقاهرة عام 430هـ (1038م) وكان قد استقدمه الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي لينظم لم مياه النيل لينتفع بها الزرع أوقات الزيادة والنقصان. وأمده الحاكم بالمال والرجال وقصد إلى أسوان وعاين النيل عندها ودرس مشروعاً كان قد أعده هو أثناء إقامته في العراق ليطبقه على حالة نيل مصر، فرأى تعذر الأمر ورجع وأعتذر إلى الخليفة بما تظاهر بقبوله ثم ولاه بعض الدواوين.

وقد ساهم الحسن بن الهيثم في الحركة العلمية في مصر إذ قام بالتدريس في الجامع الأزهر وتخرج عليه كثيرون من المصريين نذكر منهم أبا الوفاء الميشر بن فانك من أعيان أمراء مصر وأفاضل علمائهم، وقد أخذ عنه كثيراً من علوم الهيئة والعلوم الرياضية، كما كانت لابن الهيثم مساجلات ومحاضرات ومراسلات قامت بينه وبين العلماء في مصر وفي غير مصر

وقد كان الحسن بن الهيثم أحد الأساتذة الذين تكونت منهم (دار الحكمة) وهي نوع من الأكاديمية العلمية أنشأها الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي وأمدها بآلاف الكتب وأغدق عليها الهبات واختصها بعنايته. وقد كان الحسن بن الهيثم زميلا في هذه الأكاديمية العلمية لأبن يونس وعمار وعلي بن رضوان وماسويه المارديني، وكلهم من

قادة الفكر في العالم الإسلامي في ذلك العصر، وكانوا من أصدقاء الحاكم وكانت لهم معه مجالس ومحاضرات
حضر الحسن بن الهيثم إلى القاهرة عام 386هـ (966م). وعاش فيها عيشة النسك والزهد، فقد كان في السنين الأخيرة من حياته يكتب في كل سنة اقليدس والمجسطي ويبيعهما ويقتات من ثمنهما ولم تزل هذه حاله إلى أن توفي عام 430هـ (1038م).
فيكون قد قضى بالقاهرة حتى وفاته أكثر من اثنين وأربعين عاماً؛ فهو مواطن مصري انقضت على وفاته تسعة قرون كان فيها اسمه مغموراً غير مشهور لا تذكره المحافل العلمية الشرقية ولا تشيد بذكره؛ فمن الواجب علينا ومن الإنصاف له ونحن نحتفل بالسنة الهجرية الجديدة أن نحيي ذكراه في وقت نحن أحوج ما نكون إلى الإشادة بذكر السلف الصالح وإلى الكشف عن أعمالهم ومؤلفاتهم لتنشط الهمم ولنصل بين ماض تليد وحاضر مرتقب النتائج معقود عليه الرجاء أن يتفتح عن مستقبل حافل بالعلم والعرفان. ويمتاز الحسن بن الهيثم في بحوثه الفيزيقية عن سواه من الفلاسفة الذين عاصروه أو تقدموه ممن كتبوا في العلوم الفيزيقية، فقد كان له منهج علمي اتبعه في بحوثه يتلخص في: المشاهدة والتجربة والاستنباط. وفي ذلك يقول جورج سارتون في كتابه (مقدمة لتاريخ العلوم): وهو أعظم عالم فيزيقي مسلم وأحد كبار العلماء الذين بحثوا في البصريات في جميع العصور. وقد كان فوق ذلك فلكياً ورياضياً وطبيباً، وله شروح على مؤلفات أرسطو وجالينوس؛ والترجمة اللاتينية لكتابه (المناظر) وهو أهم مؤلفاته - كان لها أثر عظيم على العلم في الغرب وخصوصاً على روجر بيكون وكبلر وفيها يتجلى الرقي العظيم الذي وصلت إليه الطرق التجريبية) ويقول في ذلك أيضاً إيفور ب هارت في كتابه (الفيزيقيون العظام): (وقد أدخل تحسيناً ذا شأن في جهاز بطليموس لقياس زوايا الانكسار في الأوساط المختلفة، وقد كانت طرائقه في الحقيقة تذكارات ماضية لطرائق البحث العلمي في معاملنا في الوقت الحاضر.
ونحن نعرض الآن لبعض أجهزة للحسن بن الهيثم استخدمها لإثبات بعض الظواهر الضوئية، ونذكرها على سبيل المثال لا الحصر، لأن التجارب ابن الهيثم التي تضمنها كتابه (المناظر) أكثر من أن تحصى. وسيكون بحثنا في هذه الناحية التجريبية التي بز بها ابن الهيثم غيره من العلماء الفيزيقيين بحثاً مقارناً فنذكر تجاربنا الحديثة وأجهزتها ونقرنها بتجارب ابن الهيثم موضحة بالأجهزة التي استخدمها
أولاً: الضوء ينتشر على سموت خطوط مستقيمة
إذا وضعت جسما معتما بين عينيك ومنبع ضوء صغير يبعد بمسافة قصيرة فإنك لا ترى الضوء إذا كان الجسم والمنبع والعين على استقامة واحدة؛ وإذا نظرت إلى شعاع ضوئي
نافذ من ثلمة من نافذة حجرة مظلمة تشاهد مسير الشعاع داخل الحجرة في خطوط مستقيمة. والحقيقة أن الضوء في ذاته لا يرى، ولكن الجسيمات الصغيرة المبعثرة في الهواء هي التي تعكس الضوء إلى العين وتساعدها على تتبع مسيرها. وإذا راقبت مغرب الشمس عندما تختفي تحت الأفق تشاهد أن الأشعة المنبعثة منها تكون في خطوط مستقيمة؛ ويمكنك أن تثبت هذه الظاهرة عملياً بعدة تجارب نقتصر منها على ما يأتي:
خذ ثلاثة أفرخ من الورق المقوى ا، ب، ج (شكل 1 - 1) واثقب كل منهما بثقب في وسطه، ثم ضعها رأسياً على حوامل ثلاثة بحيث تكون الثقوب على استقامة واحدة. أشعل شمعة (ش) وضعها أمام الثقب الأول ثم انظر من خلف الثقب الثالث عند (ع) تر الشمعة. أزح أحد الأفرخ في أية جهة لا تر الشمعة. وهذا يدل على أن الضوء ينتشر في خطوط مستقيمة في الوسط المتجانس (الوسط هنا الهواء طبعاً)
وإليك شرح ابن الهيثم لهذه الظاهرة وتجربته التي أثبت بها صحتها:
فأما كيف يكون نفوذ الضوء في الأجسام المشفة فهو أن الضوء يمتد في . . .) الأجسام المشفة على سموت خطوط مستقيمة، ولا يمتد إلا على سموت الخطوط المستقيمة، ويمتد من كل نقطة من الجسم المضيء على كل خط مستقيم يصح أن يمتد من تلك النقطة في الجسم المشف المجاور للجسم المضيء. وهذا المعنى قد

بيناه في كتابنا (المناظر) بياناً مستقصي، ولكنا نذكر الآن منه طرفاً يقنع فيما نحن بسبيله، فنقول: إن امتداد الضوء على سموت خطوط مستقيمة يظهر ظهوراً بيناً من الأضواء التي تدخل من ثقوب إلى البيوت الظلمة، فإن ضوء الشمس وضوء القمر وضوء النار إذا دخل في ثقب مقتدر إلى بيت مظلم، وكان في البيت غبار أو أثير في البيت غبار فإن الضوء الداخل من الثقب يظهر في الغبار الممازج للهواء ظهوراً بيناً، ويظهر على وجه الأرض أو على حائط البيت المقابل للثقب ويوجد الضوء ممتداً من الثقب إلى الأرض أو إلى الحائط المقابل للثقب على سموت مستقيمة. وبعد هذا الشرح يدلي ابن الهيثم بالتجربة فيقول (شكل ا - ب): (وإن اعتبر هذا الضوء الظاهر بعود مستقيم وجد الضوء ممتداً على استقامة العود، وإن لم يكن في البيت غبار وظهر الضوء على الأرض أو على الحائط المقابل للثقب، ثم جعل بين الضوء الظاهر وبين الثقب عود مستقيم، أو مد بينهما خيط مدّاً شديداً، ثم جعل فيما بين الضوء والثقب جسم كثيف ظهر الضوء على ذلك الجسم الكثيف وبطل من الموضع الذي كان يظهر فيه، ثم إن حرك الجسم الكثيف في المسافة الممتدة على استقامة العود وجد الضوء أبداً يظهر على الجسم الكثيف، فيتبين من ذلك أن الضوء يمتد من الثقب إلى الموضع الذي يظهر فيه الضوء على سموت خطوط مستقيمة).

ثانياً: إن البصر يرى المبصرات على سموت خطوط مستقيمة

في تجاربنا الحديثة لا توجد تجربة خاصة لإثبات هذه الظاهرة ولكنا نستنتجها من التجربة السابقة. أما الحسن بن الهيثم فيثبتها بتجربة مستقلة وبجهاز خاص. . . وإليك شرح تجربته وجهازه (شكل 2)

يتخذ المعتبر مسطرة في غاية الصحة والاستقامة ويخط في وسطها خطاً مستقيماً) موازياً لخطي نهايتها، ويتخذ أنبوباً أسطوانياً أجوف طوله في غاية الاستقامة واستدارته في غاية الصحة ودائرتا طرفيه متوازيتان، ونهايته متشابهة ومقتدر السعة وليس بأوسع من محجر العين، ويكون طوله أكثر من طول المسطرة بقدر يسير ويخط في سطحه الظاهر خطاً مستقيماً ويقسم الخط الذي على المسطرة ثلاثة أقسام أوسطها مساو لطول الأنبوب ويطبق خط الأنبوب على الأوسط من الأقسام الثلاثة بحيث يتطابق طرفاهما ويلصق الأنبوب بالمسطرة على هذا الوضع إلصاقاً ثابتاً ملتحماً ثم يعين على مبصر من المبصرات ويلصق طرف المسطرة بالجفن الأسفل من إحدى عينيه والطرف الآخر بسطح المبصر ويغمض العين الأخرى وينظر من ثقب الأنبوب فإنه يرى من المبصر الجزء المقابل لثقب الأنبوب الذي يليه

وإذا ستر الثقب بجسم كثيف استتر ذلك الجزء فإذا رفعه عات الرؤية، وإن ستر بعض الثقب استتر من ذلك الجزء البعض المقابل لجزء الثقب المستتر الذي هو والمبصر والساتر على خط مستقيم، وإذا ستر الثقب استتر الجزء المقابل له

فمعلوم أن بين البصر وذلك الجزء هواء متصلاً لا يتخلله كثيف ومسافات لا نهاية لها، كلها غير مستقيمة؛ فلو كان ممكناً أن يدرك البصر شيئاً على غير استقامة في الهواء من غير انعكاس لكان يدرك الجزء في تلك الحال - فتبين أن هذه الرؤية لا تتهيأ إلا من سموت خطوط مستقيمة

ثالثاً: الحجرة المظلمة (شكل 3)

إذا أغلقت جميع نوافذ حجرة وتركت ثلمة صغيرة فيها ووضعت خلفها حاجزاً كلوح من الخشب شاهدت تكون صورة عليه للمرئيات التي خارج الحجرة وهذه تكون مقلوبة ويمكن إثبات ذلك عملياً (شكل 4) فإنك إذا ثقبت لوحاً رقيقاً من المعدن عند (ث) وثبته على حامل ووضعت شمعة موقدة (1ب) أمامه وحائلاً من الورق الأبيض خلفه تتكون على الحائل صورة مقلوبة للهب الشمعة هو (اب) ويعلل ذلك بأن الأشعة تتفرق في جميع الجهات من كل نقطة من نقط الجسم المضيء، ومن هذه الأشعة تنفذ حزمة صغيرة للغاية من الثقب فيخرج من (ا) شعاع ينفذ من الثقب ويسقط على الحائل فتتكون عليه صورة (ا) لهذه النقطة وكذلك يخرج من (ب) شعاع ينفذ من الثقب ويلاقي الحائل في (بَ) تكون هي صورة النقطة (ب) وبالمثل تتكون على الحائل بين (ا، ب)، صورة لجميع نقط اللهب الأخرى بين (ا، ب)، وإذا كان الثقب ضيقاً كانت الصورة واضحة ومحدودة، وإذا كان الثقب متسعاً كانت الصورة غير واضحة وغير محدودة. ويرجع انقلاب الصورة إلى انتشر الأشعة الضوئية في خطوط مستقيمة

وتقاطعها عند الثلمة، فالأشعة الآتية من الأجزاء العليا تقابل الحائل في أجزائه السفلى، وبالعكس الآتية من الأجزاء السفلى تلاقي الحائل في أجزائه العليا والأشعة الآتية من الأجزاء المتيامنة تقابل الحائل في أجزائه المتياسرة، وبالعكس الآتية من الأجزاء المتياسرة تلاقي الحائل في أجزائه المتيامنة فتكون الصورة مقلوبة من عامة الوجوه، وإليك قول ابن الهيثم في هذه الظاهرة:

وبعد ذلك نقول: كل صورة مضيئة قابلت ثقباً مستديراً في غاية الصغر فإن . . .) المخروط المتشكل بينها وبين مركز الثقب ينفذ إلى السطح الموازي ويحدث ضوؤها على السطح على شكل شبيه بشكل الصورة، لكنه يكون معكوساً، ولنسمه الضوء المتوسط، فإذا تعددت الصور المضيئة تعددت أضواؤها المتوسطة لكن الضوء الحادث من الصورة المتيامنة عن الثقب يتياسر، ويتيامن ضوء المتياسرة، ويتعالى ضوء المتسافلة، ويتسافل ضوء المتعالية

وأشكال الأضواء تشبه أشكال الصور ونسبتها إلى أشكال الصور واحدة، وضوء كل صورة يرد في جميع المخروطات المتشكلة بينها وبين كل نقطة من سطح الثقب إلى ما

يقابله، وقواعد تلك المخروطات على السطح المقابل متساوية

فإن كان الثقب في غاية الصغر فإن شكل الضوء الحادث يكون قريب الشبه . . . بشكل الضوء المتوسط، ويقل الشبه بقدر زيادة فسحة الثقب. . . وهكذا إلى أن يخفى الشبه ويبقى الشبه في مجرد الضوء واللون. . . وكلما كان الثقب أضيق والسطح أبعد كان شكل الوسط أشبه بالصورة

وكذلك أيضاً إذا قابلت قطع سحاب بيض ثقباً ضيقاً يفضي إلى موضع نقي اللون لا يصل إليه ضوء آخر فإنه يرى في ذلك الموضع قطع أضواء إلى البياض بعدد قطع السحاب مخالفة الأوضاع لها، وإن كانت قطع السحاب تتحرك نحو جهة فإن الأضواء أيضاً تتحرك لكن إلى خلاف تلك الجهة

وكذا لو طار بعض الكبار من الطيور قريباً من ثقب كما ذكر فإن صورة لونه تظهر على ما يقابل الثقب متشكلاً بشكل يشبه شكله متحركا في خلاف جهته

رابعاً: دوامة الحسن بن الهيثم وقرص نيوتن

يمكث التأثير الذي يحدثه أحد الألوان على شبكية العين برهة من الزمن صغيرة 101 ثانية فإذا تتابعت عدة تأثيرات من ألوان مختلفة في زمن أقل من 101 ثانية لا يضيع أثر أي لون من هذه الألوان بل تتأثر العين بها جميعاً في وقت واحد وتحس العين بلون خاص هو نتيجة اندماج تأثيرات الألوان المختلفة. ويمكن إثبات هذه الظاهرة باستخدام قرص نيوتن وهو قرص مستدير من الورق المقوى مقسم (شكل 5 - 1) سطحه إلى قطاعات ملونة تختلف مساحتها وترتيبها حسب وضعها الطبيعي في الطيف الشمسي ويثبت القرص عند مركزه على محور عمودي على مستواه، فإذا أدير القرص بسرعة تكفي لسقوط الألوان كلها على العين في فترة تقل عن 101 ثانية اندمجت التأثيرات من الألوان المختلفة على العين وظهر القرص أبيض قليلاً. وإذا كانت ألوان الأقسام ليست في ترتيب وضعها في الطيف الشمسي ولم يراع مساحتها فيه أحست العين بلون مركب من ألوان القرص كلها

وإليك شرح ابن الهيثم لنظرية تركيب الألوان ووصف دوّامته (شكل 5 - ب) نقول إن إدراك ماهية اللون ليس يكون إلا في زمان وذلك لأن إدراكها ليس إلا بالتمييز والتشبيه وذلك لا يتأتى إلا في زمان والذي يدل على ذلك ما يظهر من الدوامة عند حركتها فإن الدوامة إذا كانت فيها أصباغ مختلفة وكانت الأصباغ خطوطاً ممتدة من وسط سطحها الظاهر وما يلي عنقها إلى نهاية محيطها ثم أديرت الدوامة بحركة شديدة فإنها تتحرك على الاستدارة في غاية السرعة

وإذا تأملها الناظر في حال حركتها فإنه يدرك لوناً واحداً مخالفاً لجميع الألوان التي) فيها كأنه لون مركب من جميع ألوان تلك الخطوط ولا يدرك تخطيطها ولا اختلاف

ألوانها
ويدركها مع ذلك كأنها ساكنة إذا كانت حركتها في غاية السرعة، وإذا كانت في حركتها فلا تثبت نقطة منها في موضع واحد زمانً محسوساً وهي تقطع في أقل القليل من الزمان جميع الدائرة التي تدور عليها فتحصل صورة النقطة في ذلك الزمان اليسير على محيط دائرة من جميع محيطها الذي يحصل في البصر فيدرك لون تلك النقطة في الزمان القليل مستديراً.
وكذلك حكم جميع النقاط التي في سطح الدوامة وجميع النقاط المتساوية الأبعاد عن المركز تتحرك حينئذ على محيط دائرة واحدة فيعرض لذلك أن يظهر لون كل نقطة من النقاط المتساوية الأبعاد عن المركز على محيط دائرة فتظهر ألوان جميع تلك النقاط في جميع
محيط الدائرة ممتزجة ولا تتميز للبصر فلذلك يدرك سطح الدوامة لوناً واحداً ممتزجاً من جميع الألوان التي في سطحها)
وبعد فهذه تجارب وأجهزة نسوقها على سبيل التمثيل لا الحصر فهي قليل من كثير؛ ولعلنا نكون قد وفقنا إلى الكشف عن ناحية عظيمة - هي البحث العلمي التجريبي - امتاز بها الحسن بن الهيثم في بحوثه فكان لها أكبر الأثر في قادة البحث العلمي في أوربا في العصور القديمة ولا يزال أثرها محسوساً في عصرنا الحالي.
عبد الحميد حمدي مرسي
صفحة مطوية من تراث العرب العلمي
لِلأستاذ قدري حافظ طوفان
لا أظن أن عالماً أصابه الإهمال كالخازن. ولا أظن أن الإجحاف الذي لحق بمآثره لحق بغيره من نوابغ العرب وعباقرتهم؛ فلقد أدى ذلك الإهمال وهذا الإجحاف إلى الخلط بينه وبين علماء آخرين فنسبت آثاره لغير كما نسبت آثار غيره له. وقد وقع في هذا الخلط بعض علماء الغرب وكثير من علمائنا ومؤرخينا. قال (درابر) الأمريكي إن الخازن هو الحسن بن الهيثم وإن ما ينسب إلى ما يُسمى (بالخازن) هو على الأرجح من نتاج ابن الهيثم. وخلط الأستاذ منصور حنا جرداق أستاذ الرياضيات العالية بجامعة بيروت الأمريكية في محاضرته عن مآثر العرب في الرياضيات والفلك بين الخازن وابن الهيثم، يتجلى ذلك في قوله: (ومن أشهر المشتغلين بالفلك والطبيعيات في الأندلس أبو الفتح عبد الرحمن المنصور الخازني الأندلسي الذي عاش في أواخر القرن الحادي عشر للميلاد وأوائل القرن الثاني عشر للميلاد، وألف مؤلفاته الشهيرة في النور وآلات الرصد وأوضح مقدار الانكسار. وألف في الفجر والشفق وعين ابتداء كل منها وقت بلوغ الشمس 190 درجة تحت الأفق. . . الخ)
ونحن هنا أمام خطأين: الأول في اعتبار الخازن من الأندلس وهو في الحقيقة من مرو من أعمال خراسان.
والثاني في أن المآثر التي أوردها الأستاذ ليست للخازن بل هي من نتاج ابن الهيثم. وأكبر الظن أن ما وقع فيه الأساتذة والعلماء من أخطاء يعود إلى الوضع الإفرنجي للاسمين فأكثر الكتب الإفرنجية حين تكتب الحسن بن الهيثم تكتبه - وحين تكتب الخازن - فظن أن كثيرون أن هذين الاسمين هما لشخص واحد لم يدققوا في حروفهما مما أدى إلى التباس الأمر عليهم ووقوعهم في الخلط والخطأ.
وسنحاول في هذا المقال أن نبين مآثر الخازن في علم الطبيعة وأثره في بعض بحوثها جاعلين نصب أعيننا إنصاف عالم هو مفاخر الأمة العربية ومن كبار عباقرتها من الذين عملوا على إنماء شجرة المعرفة وساهموا في خدمتها ورعايتها
والخازن من علماء النصف الأول من القرن الثاني عشر للميلاد وهو أبو الفتح عبد الرحمن المنصور الخازني المعروف بالخازن نشأ في (مرو) أشهر مدن خراسان، وقد درس فيها وعلى علمائها نبغ ولمع في سماء البحث والابتكار. اشتغل في الطبيعة ولاسيما في بحوث الميكانيكا فبلغ الذروة وأتى بما لم يأت به غيره من الذين سبقوه من علماء اليونان والعرب، كما وفق في عمل زيج فلكي سماه (الزيج المعتبر السنجاري) وفيه حسب مواقع النجوم لعام 1115 - 1116م، وجمع أرصاداً أخرى هي في غاية الدقة بقيت مرجعاً للفلكيين مدة طويلة.
ومن الغريب أن قنصل روسيا في تبريز في منتصف القرن الماضي عثر صدفة على

كتاب ميزان الحكمة، وقد كتب عنه عدة مقالات في إحدى المجلات الأمريكية. ولعل العلماء الألمان أكثر العلماء اعتناءً بآثار الخازن. فنجد في رسائل للأستاذ ويدمان فصولاً مترجمة عن (ميزان الحكمة) وقد استوفت بعض حقها من البحث والتعليق كما نجد في رسائل غيره مقتطفات من محتويات الكتاب المذكور دللوا فيها على فضل الخازن في علم الطبيعة.

ولابد لي في هذا المجال من إبداء دهشتي لعدم نشر فصول هذا الكتاب النفيس في كتاب خاص، ولا أدري سبباً لهذا. . .

ولعل السؤال الآتي يتبادر إلى غيري أيضاً: لماذا نُشرت بعض محتويات الكتاب وأهملت الأخرى؟ ليس لي أن ألوم علماء الألمان أو غيرهم في ذلك، فلقد قاموا بواجبهم نحو الخازن أكثر منا وعرفوا فضله قبلنا، ولا أكون مبالغاً إذا قلت إنه لولا قنصل روسيا وبعض المنصفين من مستشرقي الألمان وعلمائهم لما عرفنا شيئاً عن الخازن، ولما كان بالإمكان نشر هذا المقال. وقد يكون الأستاذ مصطفى نظيف بك أول عربي أشار إلى بعض محتويات كتاب ميزان الحكمة في كتابه: (علم الطبيعة تقدمه ورقيه. . .)، ولكنه لا يذكر شيئاً عن المؤلف بل ولا يذكر أنه الخازن، ويقول: (. . . والكتاب لا يعلم مؤلفه. . .) ثم يردف هذا القول: إن (درابر) يرجح أنه من تأليف الحسن ابن الهيثم. وأظن أن مقالنا هذا أول مقال يظهر في مجلة عربية يبحث عن الخازن ويزيح الستار عن آثاره ويفيه بعض حقه. والذي أرجوه أن يثير هذا المقال أساتذة كلية العلوم في جامعة فؤاد الأول بمصر وعلى رأسهم حضرة صاحب العزة الدكتور علي مصطفى مشرفة بك فيعملون على إنصاف الخازن وعلى نشر مآثره بين المتعلمين والمثقفين، فهم أولى الناس بذلك، وأحق من غيرهم بالقيام بهذا العمل الجليل. ولنا من حماستهم للتراث العربي والإسلامي ما يدفعنا إلى لفت أنظارهم إلى حياة الخازن الحافلة المليئة بالإنتاج التي أحاطها الإهمال من كل جانب.

وضع الخازن كتاباً في الميكانيكا سماه (كتاب ميزان الحكمة) هو الأول من نوعه بين الكتب القديمة العلمية القيمة، وقد يكون هو الكتاب الوحيد المعروف الذي يحتوي على بحوث مبتكرة جليلة لها أعظم الأثر في تقدم الأيدروستاتيكا، وقد قال عنه الدكتور سارطون إنه من أجل الكتب التي تبحث في هذه الموضوعات وأروع ما أنتجته القريحة في القرون الوسطى. والذي يطلع على بعض مواد هذا الكتاب تتجلى له عبقرية الخازن وبدائع ثمرات التفكير الإسلامي والعربي. واعترف (بلتن) في أكاديمية العلوم الأمريكية بما لهذا الكتاب من الشأن في تاريخ الطبيعة وتقدم الفكر عند العرب لا يجهل طلاب الطبيعة أن (توريشيللي) بحث في وزن الهواء وكثافته والضغط الذي يحدثه. وقد مر على بعضهم في تاريخ الطبيعة أن (توريشيللي) المذكور لم يسبق في ذلك وأنه أول من لفت النظر إلى هذه الموضوعات وبحث فيها وأشار إلى أهميتها والواقع غير هذا، فلقد ثبت من كتاب (ميزان الحكمة) أن من بين المواد التي تناولها البحث مادة الهواء ووزنه. ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل أشار إلى أن للهواء قوة رافعة كالسوائل وأن وزن الجسم المغمور في الهواء ينقص عن وزنه الحقيقي وأن مقدار ما ينقصه من الوزن يتبع كثافة الهواء

وبيّن الخازن أيضاً أن قاعدة (أرشميدس) لا تسري فقط على السوائل بل تسري على الغازات، وأبدع في البحث في مقدار ما يُغمر من الأجسام الطافية في السوائل. ولا شك أن هذه البحوث هي من الأسس الذي عليها بنى علماء أوربا فيما بعد بعض الاختراعات الهامة كالبارومتر ومفرغات الهواء والمضخات المستعملة لرفع المياه ولسنا هنا ننتقص من قدر توريشيللي وباسكال وبويل وغيرهم من العلماء الذين تقدموا بعلم (الإيدروستاتيكا) خطى واسعة، ولكن ما نريد إقراره هو أن الخازن قد ساهم في وضع بعض مباحث علم الطبيعة وأن له فضلاً في هذا كما لغيره من الذين أتوْا بعده، وقد توسعوا

في هذه الأسس ووضعوها في شكل يمكن معه استغلالها والاستفادة منها

وبحث الخازن في الكثافة وكيفية إيجادها للأجسام الصلبة والسائلة واعتمد في ذلك على كتابات البيروني وتجاربه فيها وعلى آلات متعددة وموازين مختلفة استعملها لهذا الغرض. واخترع الخازن ميزاناً لوزن الأجسام في الهواء والماء وكان لهذا الميزان

خمس كفات تتحرك إحداها على ذراع مدرّج. ويقول بلتن إن الخازن استعمل الأيريومتر لقياس الكثافات وتقدير حرارة السوائل. ومن الغريب أن تجد أن الكثافات لكثير من العناصر والمركبات التي أوردها في كتابه بلغت درجة عظيمة من الدقة لم يصلها علماء القرن الثامن عشر للميلاد. وفي الكتاب أيضاً شيء عن الجاذبية، وأن الأجسام تتجه في سقوطها إلى الأرض، وقال أن ذلك ناتج عن قوة تجذب هذه الأجسام في اتجاه مركز الأرض. ويرى أن اختلاف قوة الجذب يتبع المسافة بين الجسم الساقط وهذا المركز. وجاء في كتاب (علم الطبيعة - تقدمه ورقيه. . .) للأستاذ نظيف: (. . . ومما يثير الدهشة أن مؤلف كتاب ميزان الحكمة كان يعلم العلاقة الصحيحة بين السرعة التي يسقط بها الجسم نحو سطح الأرض والبعد الذي يقطعه والزمن الذي يستغرقه - وهي العلاقة التي تنص عليها القوانين والمعادلات التي ينسب الكشف عنها إلى غاليلي في القرن السابع عشر للميلاد. .). وعلى الرغم من التحريات العديدة لم أتمكن من العثور على المقتطفات التي تنص على العلاقة بين السرعة والبعد والزمن في المصادر التي بين يدي سواء العربية منها أو الإفرنجية. ولهذا فمن الصعب جداً أن أحكم في صحة ما جاء عن الخازن بشأن هذه العلاقة. وأظن أن العلاقة التي عرفها الخازن والتي وردت في كتابه - وهي العلاقة بين السرعة التي يسقط بها الجسم نحو الأرض والبعد الذي يقطعه والزمن الذي يستغرقه لم تكن صحيحة ودقيقة بالدرجة التي تنص عليها معادلات غاليلي، ولكنها قد تكون صحيحة إلى درجة ودقيقة إلى حدّ. وآمل في أول فرصة أزور فيها مصر أن أبحث عن هذه النقطة في مكتبات القاهرة فقد أجد فيها ما يلقي ضوءاً على المدى الذي توصل إليه الخازن في الجاذبية

وأجاد في بحوث مراكز الأثقال وفي شرح بعض الآلات البسيطة وكيفية الانتفاع منها، وقد أحاط بدقائق المبادئ التي عليها يقوم اتزان الميزان والقبان واستقرار الاتزان إحاطة مكنته

من اختراع ميزان من نوع غريب لوزن الأجسام في الهواء والماء كما مرّ بنا

هذا ما استطعنا الوقوف عليه من مآثر الخازن بعد الرجوع إلى مصادر عديدة، ونرجو أن يكون هذا المقال حافزاً لغيرنا للاعتناء بتراث هذا العالم العربي الذي ترك ثروة علمية ثمينة للأجيال، كما نأمل أن يدفع بعض المنصفين من الباحثين والمؤرخين إلى الاهتمام برفع الإجحاف الذي أصابه، والعمل على إزالة الغيوم المحيطة بنواح أخرى من ثمرات قريحته الخصبة المنتجة

(نابلس)

قدري حافظ طوقان

درس للزعماء في سيرة زعيم

للأستاذ سعيد الأفغاني

في حياة خالد بن الوليد الحافلة بالبطولة والرجولة، درس للصغير والكبير؛ غير أن ما يحيط بنهضة العرب اليوم من تناحر على الغنائم، والمعركة لم تنته بعد، يحتم أن نعرض لعبرتين في سيرة الفاتح العظيم، فيهما درس بليغ، ينتفع به من في قلبه حبة خردل من إخلاص. وكذلك التاريخ أيها القارئ يسعفك كلما كلب الزمان وحرب العدو، ولن تعدم منه أبداً سراجاً يضيء حاضرك ويبصرك بالسبل وينجح لك المساعي، ويريك بم كان تقدم المتقدمين وفوز الفائزين، وبم كان التأخر والذلة والخسران

أما الأولى من العبرتين، فهي أن خالداً من أبطال قريش وصناديدهم، بل هو البطل فيهم لا يعدله غيره. أظفر الله المسلمين بالمشركين يوم بدر، فكان عليهم عار الأبد، وأصبحوا بهزيمتهم سبة بين العرب؛ فما قر لهم قرار، حتى تألبت جموعهم في أحد، متعطشة إلى الثأر، ثم تقع الواقعة فينهزمون أيضاً. ويريد ربك أن يصاب المسلمون بعد نصرهم، لتكون لهم الهزيمة بعد الظفر درس الأبد، فلا يخالفون رئيساً بعدها أبداً. ثم لا يفطن إلى خلو الجبل من الرماة إلا خالد اليقظ، فيحيط بالمسلمين - وهم لاهون بالغنائم - من خلفهم، وينتعش المشركون حينئذ، وتكون المصيبة في المسلمين بالغة؛ فكانت هزيمتهم، وكانت الفرحة الكبرى لقريش أن ثأروا لقتلاهم يوم بدر، ورفعوا عن أنفسهم العار، وكان أن ذهب بفخر هذا اليوم كله خالد.

هذا القائد الباسل الذي طارت شهرته في أهل الشرك والتوحيد على السواء، وقع في

قلبه أن الإسلام حق، فرمى بالقيادة والشهرة جانباً، ووطن نفسه على الأذى يناله من قريش، الذين سيحنقون أشد الحنق، وقصد إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليقبله مسلماً في المسلمين، وقد سأله في طريقه عمرو بن العاص: (إلى أين يا أبا سلمان؟) فقال: (والله قد استقام الميسم، وإن الرجل لنبي، أذهب والله فأسلم؛ فحتى متى؟!)

ألا يجد رؤساء الناس وزعماؤهم في هذه عبرة ودرساً، ألا يدعون نصرة أهوائهم وإرضاء نفوسهم، ليقبلوا على أمر تبين رشده فيتبعونه؟ إن الناس لينظرون إليهم، وإن الله لسائلهم عن الوطن والدين يتجرون بهما، وعن العامة يلعبون بعقولهم، وقد أعطوا الله موثقاً:

ليكونن مع الحق حيث كان، وليقومُن بنصرته وحده لا نصرة نفوسهم ونزغاتهم. جمعهم وطن واحد فراموه أجزاء وأشلاء، واستعدوا الأجنبي المتربص بهم ليحفظ عليهم رياساتهم الواهية، فنال هذا فريسته بسلاحها، وكانت هذه الأثرة الدنيئة أفتك بالبلد من كل غارة. ثم انتظم أمورهم دين واحد فأبوه إلا شيعاً وفرقاً وطرقاً، فبادر الأجنبي يعلن حمايته لكل فرقة على حدة ويعترف باستقلالها عن أختها، ويبالغ في تشجيعه على التفرق، وفي تفكيكه عرى الطائفة الواحدة حتى عم البلاء وطم. وهانحن أولاء نرى في قطر عربي صغير كسورية، ثبتاً حافلاً بأسماء طوائف لو وزعت على أهل الأرض ما نجت من شر فتنتها بقعة، وفي كل يوم فرقة جديدة وحماية سريعة

إن خالد بن الوليد طوح بالقيادة والفخر والظفر والمجد وأقبل على النبي واحداً من المسلمين، ونحن لا نكلف هؤلاء السادة طرح شيء فستبقى عليهم زعاماتهم، وسيرجعون أعز ما كانوا إن جندوا أنفسهم في خدمة الحق والخير

وأما العبرة الثانية التي يجدها الزعماء في سيرة خالد، فغاية في إنكار النفس وبذل الروح وإماتة الهوى

أسلم خالد وأبلى البلاء الحسن في كل غزواته مع النبي، ثم في حربه المرتدين، وتوطيده دعائم الوحدة في الجزيرة، ثم في سيره إلى العراق، وانتصاره على الفرس الانتصارات الآخذ بعضها بحجز بعض؛ فمن قهر جيوش، إلى دك عروش، إلى فتح حصون، إلى خطف قواد، إلى قتل أبطال. . . مآثر لو طلب بهن الخلافة لما ساغ في العقل أن يختلف عليه فيها اثنان. ثم يبعثه أبو بكر مدداً إلى الشام ثم يكون يوم اليرموك، وقد بلغ الروم في التعبئة غاية كيدهم وفنهم: عدد كثير، وشجاعة فائقة، واستبسال واستماتة، حتى لقد سلسل رجال منهم أنفسهم للموت بسلاسل من حديد، وقيد آخرون أنفسهم لئلا يفروا، ثم يكون رأى خالد توحيد العمل معلناً في خطبته البليغة المشهورة، ثم جولات منه صادقات، فإذا بالعدد الضخم من الروم يهوى إلى الواقوصة كالبناء المتداعي، ثم يتصل الظفر حتى يكون يوم دمشق، وقد ولي الخلافة عمر، ووصل بريده يعهد إلى أبي عبيدة بالقيادة، ويجعل خالداً جندياً من الجنود؛ وهنا العبرة، وهنا يبدأ الدرس:

في هذا الموقف يختلف خالد وزعماء اليوم، أما زعماء اليوم - من أمتنا طبعاً - فدستورهم

الكلمة المشهورة التي نجمت في مصر على ألسنة بعض الناس: (الحماية على يد فلان، ولا الاستقلال على يد فلان)، فلو كانوا مكان خالد لانشقوا بجند عظيم وحاربوا أبا عبيدة ومن معه، ثم ظفر الروم بالفريقين معاً وارتدت الدعوة العربية إلى الحجاز، ثم لا يُدرى أيكتفون أم ينبتون الجزيرة كلها خلافاً وتناحراً. وأما خالد داء الجيوش وقاهر الروم والفرس معاً، فقد كان رجلاً فوق هذا: انضوى إلى لواء أبي عبيدة وأخلص النصح والعمل، ولم يُر أحد أكثر جهداً وانكماشاً وبلاءً منه يومئذ أمام أسوار دمشق. لم ينم عن العدو ساعة قط، ولا فاته من حركاته صغيرة ولا كبيرة، فهو أبداً مقدم منطلق، وهو إلى ذلك يقلب وجوه الحيلة، ويعمل الفكرة كأنه لم يزل هو القائد، حتى هداه النظر إلى نصب السلالم على السور، فالتمس غفلة الحامية في يوم عيد فصعد عليها وطائفة من خيرة الشجعان فواثبوا الحراس ونزلوا إلى الباب فقطعوا إغلاقه بسيوفهم. وقد فتح المسلمون دمشق بحنكته ويقظته واقتحامه وحده لا شريك له في ذلك، ولم يبال أن يكون فخر هذا الفتح لأبي عبيدة أو لغيره، فما عمل خالد لزعامة ولا شهرة، عمل لله وحده وقد رضي الله عنه وأرضى الناس. وأولئك قوم نزع الله ما في

صدورهم من غل إخواناً
هذا بدء تاريخنا، أم النهاية التي ختمناه بها نحن: فسلسلة من التفريط وتضييع الفرص، وعبادة النفس والاندفاع مع الأهواء. في سبيل ذلك ضحى المتزعمون بخير البلاد خيراً بعد خير. لنرجع عشرين عاماً إلى الوراء فلننظر: كم مرة خسرنا مراحل في تقدم القضية لأن الحلول لم تكن على يدنا ولا باسمنا؟ وكم مرة غششنا الناس وجهدنا أن نريهم كل حسنة ظفر بها غيرنا سيئة شنعاء؛ وكل شر لبسناه عليهم سعادة الأبد؟ فنجحنا - لأمر يريده الله - وقال الناس لصاحب الخير: (أنت شرير لا يصدر عنك خير، الخير كله في حزب كذا، وقف عليه دون خلق الله أجمعين. . .)
كان هذا في الشام وكان مثله في كل قطر عربي، وهو ما نرى أشباهه في جميع مرافقنا، حيث كان تناحرنا، وتكالبنا وبالاً علينا جميعاً. نعم، هذا ما بلينا به في كل النواحي، في السياسة والإدارة، والحكم والدين و. . . الخ
حصرنا في أنفسنا الإخلاص وخدمة البلاد، لنتمتع بعرض زائل، وكتب الله علينا إثم كل مصيبة نزلت بالأمة من جراء أثرتنا وتدجيلنا، ونحن وأولئك جميعاً، لا نبلغ بعد ذلك كله أن نكون غباراً على قدم أصغر جندي من جنود خالد.
(طلبت القتل في مظانه، فلم يقدر لي إلا أن أموت على فراشي، وما من عملي شيء أرجى عندي بعد لا إله إلا الله، من ليلة شديدة الجليد في سرية من المهاجرين، بتها وأنا متترس، والسماء تنهل عليّ، وأنا أنتظر الصبح حتى أغير على الكفار، فعليكم بالجهاد. . .
لقيت كذا وكذا زحفاً، وما في جسدي شبر إلا وفيه ضربة بسيف، أو رمية بسهم، أو طعنة برمح، وهأنذا أموت على فراشي حتف أنفي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء. . .
(إذ أنا مت فانظروا في سلاحي وفرسي، فاجعلوه في سبيل الله
هذه حسرة الفاتح الكبير، الذي لم يفارق النصر موكبه ساعة قط. هذه كلمات الذي ساق السعادة إلى بلدين كبيرين: العراق والشام، تفيض باللوعة والأسى، فتثير الإجلال والحزن من أقصى مكامنهما في النفوس.
يتلهف أبو سليمان وهو يحتضر - وكل جسده إما مطعون أو مضروب أو مرمي - على أن لم يقض بين الصفين، أو أمام الحصون، أو في الثغور، جندياً يتخبط بدمه الشاخب، في سبيل إعلاء كلمة الله، ظامئاً مُجهداً مُشعثاً، يرسل من فيه شهادة الحق مع آخر نفس يخرج من صدره الحنون:
رحمك الله يا أبا سليمان! وليس بيدك ما تمنيت، فالله وحده يتوفى ويختار، وما عليك ألا تموت في الساحة بين الصفين، فما كنت لحظة من اللحاظ لتفتر عن جهاد، أو تعبئة لجهاد، أو حديث نفسي بجهاد. ما كنت يا ابن الوليد إلا جهاداً متلاحقاً في سبيل الواجب. لقد أرضيت ربك فجعلك سيفه في الأرض، وأرضيت رسوله فحمد أمرك ورضي عنك، وأرضيت خليفته حتى قال: (ما على نساء قريش أن ينشئن مثل خالد)! وعمر نفسه حين لامك لم يترك إكبارك، ولما نزل الشام ورأى معجزاتك في الفتوح لم يملك أن قال: (أمَّر خالد نفسه، يرحم الله أبا بكر، هو كان أعلم مني بالرجال).
لقد كنت أمة في رجل، فعليك الرحمة من هؤلاء جميعاً، من كل من حارب تحت لوائك. وعليك الرحمة من النساء والصبيان والرهبان والفلاحين والمستضعفين الذين لم تكن تفتأ توصي جندك المنصور برعايتهم، والكف عنهم، والرأفة بهم. وعليك الرحمة من كل نسمة خلصتها من قسوة الفرس، أو ظلم الرومان.
وليس لنا أن نقول بعد تزكية الله ورسوله وخليفته، فما رأت جيوش الرحمة والهداية قائداً أيمن نقيبة منك. ولئن تصرمت حياتك التي كانت نفعاً كلها، وعوضت حياة خيراً منها، فإن خير أعمالك متصل عميم إلى الأبد. ولا يعلم إلا الله كم نفعت سيرتك بعد مماتك، وكم حفزت هِمماً خامدة وعزائم خائرة
ولقد جاء بعدك أناس كثيرون فبذلوا أرواحهم ودماءهم محامين عن الحق، فخلفوك في إرخاص الروح. ولا نزال نتلو متمثلين ولله الحمد: (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً) ولا تزال الأرض من المغرب الأقصى إلى طرابلس إلى فلسطين إلى الهند، تنبت الشهداء، ولا يفتأ الدم الطاهر يجري أنهاراً في سبيل الحق. . .

ولكن أحداً من الزعماء لم يخلفك في إنكار الذات وإهانة الهوى وقهر النفس، ولم يذكر التاريخ بعدك قائداً فعل فعلك يوم اليرموك أو يوم دمشق.

(دمشق)

سعيد الأفغاني

حمامة الغار. .

لَلأستاذ محمود حسن إسماعيل

حَمامَةَ الْغَار. . . أُيُّ لْحَن ... مِنْ جَانِبِ اللهِ عَبْقَرِيْ!

أَلْهِمْتِ دُنْيَاهُ مِنْ صَبَاحٍ ... في سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى وَضِيِّ

وَمِنْ عِطارِ الْجِنَان بَلْ مِنْ ... سُكُونِهِ الطَّاهِرِ الشَّذِيِّ

وَمِنْ نَشِيدٍ عَلَى رُبَاهُ ... مُعَطَّرِ اللَّحْنِ سَرمَدِيِّ

يَفُوحُ مِنْ زَهْرَةٍ، وَيَرْكُو ... مِنْ جَدْوَلٍ تَحْتَهاَ سَرِيِّ

رَنَّتْ بِأَصْدَائِهِ، وَغَنَّتْ ... مَلاَحِمُ الْمُلْهَمِ الشَّجِيِّ

. . .وَرَفْرَفَتْ فَوْقَهُ صَلاَةٌ ... عَزَّتْ هُدَى الْعَابِدِ التَّقِيِّ

قَبَسْتِ أَنْغَامَكِ الشَّوَادِي ... مِنْ فجْرِهِ الرَّائِعِ السَّنِيِّ

وَمِنْ مَجَالِيهِ في الرَّوابِي ... وَنَشْوَة الْماءِ في الْقُنِيِّ

وَسَكرَةِ الْهادِلِ المُغَنِّي ... وَخَشْعَةِ السَّوْسَن النَّدِيِّ

وَمِنْ دَوَالِيهِ حِينَ تُغْفِي ... والطَّيْرُ نَعْسَانُ في الْعشِيِّ

. . .كَأَنْهَا وَهْوَ فِي ذُراهَا ... بِالْخُلْدِ تَهْوِيَمةُ الْخَلِيِّ

وَجِئْتِ مِنْ جَنَّةِ الأَعَالِي ... لِشَاطِئِ أَقْدَسٍ عَلِيِّ

عَلَى جَنَاحَيْكِ لِلْبَرَايَا ... في الأَرْضِ آمَالُ كُلِّ حَيِّ

أَقَمْتِ بِالْغَارِ أَيَّ عُشٍّ ... مُشَعْشَعِ النُورِ كَوْكَبِيِّ

غُصُونُهُ الْبِيضُ مِنْ شُعَاعٍ ... بِمُعْجِزَاتِ السَّنَا جَنِيِّ

يَدُورُ بِالْحقِّ أَيْنَ دَارَتْ ... مَحاجِرُ الْبَاطِلِ الْعَتِيِّ

وَيَنْفُثُ السَّحْرَ أَيْنَ لَفَّتْ ... لِلْكُفْرِ عَيْنانِ مِنْ غَوِيِّ

ظَلَلْتِ وَالْوحْيُ مُسْتَكِنٌّ ... مِنْ صَوْلَةِ الْفَاجِرِ الْقَوِيِّ

تُلْقِينَ مِنْ وَكْرِكِ الْمُعَلّى ... تَرْنِيمةَ الْوَادِعِ الرَّضِيِّ

كَأَنَّمَا عِشْتِ مِنْ زَمَانٍ ... في ذلِكَ الْمَسْبَحِ الْهَنِيِّ

خَبَأْتِ وَالْعَنْكَبُوتَ دُنْيَا ... لِلْحَقِّ في عالَمٍ خَفِيِّ

خُيُوطُهُ الْوَاهِيَاتُ أَضْحَتْ ... حُصُونَ مُسْتَعْصِمٍ قَوِيِّ

فَزُلْزِلَتْ دُونَهَا قُلُوبٌ ... بِالشِّرْكِ صَخّابَةُ الدَّوِيِّ

!وذَلَّ مَنْ رَامَها، وَأَلْوَى ... في حَسْرَةِ الْخَائِبِ الشَّقِيِّ

!وَرْفَاءُ! يَا لَيْتَنِي سُكُونٌ ... في ظِلِّكِ النَّاعِمِ الشَّجِيِّ

صَمَدْتِ لِلْكُفْرِ ذَاتَ بَأْسٍ ... يَؤُجُّ مِنْ عُشِّكِ النَّقِيِّ

صَبا لَكِ (الْمُصْطَفَى) وَقَرَّتْ ... عُيُونُ صِدِّيقِهِ الْوَفِيِّ

فَرَجَّعَ الْكَوْنُ في هُتَافٍ ... لِبَاعِثِ النُّورِ. . . عَبْقَرِيِّ

نَبِيَّةُ الطَّيْرِ أَلْهَمَتْهَا ... إِعْجَازَهَا حِيرَةُ النَّبِيِّ

!!. . . تُهْجَرُ الأَمَانِي ... والْعُمْرُ في ظِلِّهِ الْوَضِيِّ مُهَاجِرٌ.

(وزارة المعارف)

محمود حسن إسماعيل

الموسيقى في الإسلام

بِقلم محمد السيد المويحلي

يزعم بعض الناس أن الموسيقى محرّمة، لأنها تلهي الإنسان عن ربه، وتشغله عن دينه وعبادته، وتدفعه دفعاً لارتكاب ما نهى الله عنه. فإذا سألتهم آية أو حديثاً قالوا: هذا شيء معروف منقول سمعناه من آبائنا وأجدادنا والسلف الصالح. . .!

هذا زعم لم ينشأ أيام النبي صلى الله عليه وسلم ولا أيام الخلفاء الراشدين، وإنما نشأ أيام الدولة الأموية حينما سما مركز المغنين والقيان سمواً عظيماً حتى حجب مراكز العلماء والفقهاء الذين حقدوا على الموسيقى والموسيقيين حقداً كبيراً، واستسلموا لخوالجهم (وهم بشر!) فراحوا يذيعون بين الناس أن الموسيقى حرام، وأن الخلفاء قد نسوا دينهم وربهم، واتبعوا خطوات الشيطان. . .!

ومن هنا نشأت هذه الشائعات وتطورت حتى غدت على ممر الأيام والأعوام قريبة من الاعتقاد والإيمان. . .

ولإنصاف بعض رجال الدين في هذا الوقت نقول: إنهم أبوا أن يتخذ بعض إخوانهم - في العلم - الدين سلاحاً للتشفي والانتقام من فن رفيع سام يخفف عن الناس آلامهم وشقاءهم فأصدروا الكتب الكثيرة في الرد على مبتدعي التحريم. ولعل أشهر هذه الرسائل وأقواها وأدعمها حجة تلك الرسالة (الخطية) الوحيدة الموجودة الآن (ببرلين). (الاستمتاع في الرد على من يحرم السماع. . .!) . .

قبل أن أذكر شيئاً عن الموسيقى في صدر الإسلام وفي أيام النبي (ص) أحب أن أذكر شيئاً عن حياة العربي وطبيعة بلاده، وتأثير مناخه في نفسه ليرى القارئ معي أن العربي موسيقى بطبعه وفطرته

البيئة العربية خالية مما يسر العين ويرضي القلب، فالصحراء شاسعة مترامية موحشة مقفرة لا حياة فيها، ولا أنس يُحييها. والسماء بنجومها وقمرها. . . هي السماء بنجومها وقمرها (دائماً) لا تتغير ولا تتبدل. .!

فأي شيء يسد هذا الفراغ. . . ويشغل نفس العربي ويملأ حسه غير (الغناء) الذي يساعد عليه رقة الشعر وسلامة قوافيه واختلاف بحوره؟ أي شيء يساعد الإبل والحداة على السير

تحت الشمس المحرقة، وفوق الرمال الملتهبة المتقدة أياماً وأياماً بالعطش والجوع غير الغناء الذي ينسي الإنسان همومه، ويمسح دموعه؟

عرف العربي الترنم بالشعر ولم يكن يدري أن هذا اللون من ألوان الموسيقى صناعة تخضع لقانون معين فاستمر هكذا يغني ويشرب الخمر، ويتعلق بالحب، ويكلف بالصيد والميسر حتى استطاعت القيان التي استقدمت من بلاد العجم والروم بآلاتهن الموسيقية الفارسية والرومية أن يؤثرن في الموسيقى العربية تأثيراً كبيراً.

فنشط العرب في هذا المضمار نشاطاً عظيماً، وإن كان هذا النشاط قد حجبه الكبرياء والتعالي، إلا أن حب الفن تغلب على غطرسة العربي فنهض واستحدث حتى احتفظ لموسيقاه بطابعها العربي الذي ميزها عن غيرها ولا يزال. . .!!

وقد عرف العرب في الجاهلية وصدر الإسلام من الآلات الوترية (المزهر) وهو عود ذو وجه من الرق (والعود) ذا الوجه الخشبي (والجنك) أو الصنج (الهارب) (والمعزف) (والموتر)

ومن آلات النفخ المزمار، والقصبة أو القُصَّابة، والشبَّابة، والصُّور، والناي. ومن آلات النقر: الطبل، والدف، والقضيب - لبيان الميزان أو الإيقاع - والصنوج والجلاجل، والمربع والمجنب!!

انحصر جهاد الرسول صلى الله عليه وسلم في الذود عن دينه وتبليغ رسالته، ونشر دعوته، وقتال المشركين ممن آذوه وأصحابه في أرواحهم وأموالهم ونسائهم، ولكن هذا لا يمنع أنه صلى الله عليه وسلم كان يحب الموسيقى. فقد كان كلما (هادن) سمع من بلال ابن رباح الحبشي، أول موسيقي مسلم، وأول مؤذن في الإسلام، ترتيله وأذانه بصوت جميل، وبتوقيع وترتيل فني.

ولقد جاءته مرة عائشة رضي الله عنها وقالت: يا رسول الله، لقد أقسمت شيرين مولاة حسان بن ثابت إن رجعت منصوراً من غزوتك أن تغني وتضرب بالرق في بيتنا، فماذا ترى.؟

فابتسم المصطفى وأذن لها وجلس مع حشد من صحابته وفيهم صديقه أبو بكر يسمع شيرين وهي تغني وتضرب بالرق، واستمروا كذلك حتى قدم عمر بن الخطاب فانكمشت

شيرين وجلست فوق (رقها) فضحك الرسول وقال:

لقد ذهب شيطانها لما رأى عمر.

فأجابت شيرين: كلا يا رسول الله ولكنه قاس لا يرحم وأنت كريم رحيم!

فضحكوا جميعاً حتى عمر.

ولقد اتسعت فتوح العرب أيام عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين وانتفع العرب بمدنيات البلاد المغلوبة وحضارتهم ولاسيما الحضارتين الفارسية واليونانية، فتأثر العرب من اختلاطهم بهؤلاء الأسرى واهتموا بأمور دنياهم، وأصبحوا ينظرون إلى

الموسيقى نظرة جديدة خالية من الغلو والشطط حتى ارتفعوا بها على الشعر والأدب، وحتى غدوا لا يرون بأساً ولا ملامة في أن يحضروا مجالسها. وقد كان حسان بن ثابت رضي الله عنه يسمع من مولاته شيرين ومن رائقة سيدة المغنيات وقتئذ وتلميذتها عزة الميلاء وكذلك كان حال أشراف العرب وساداتهم. . .!

وأحسب أن عصر ابتداء النهضة الحق ابتدأ في خلافة علي كرم الله وجهه. ولعل حبه للشعر وهو لون من ألوان (الفن) أكبر حافز. على أن هذه النهضة لم تؤت ثمرها اليانع إلا في الدولة الأموية عندما اتسعت الفتوحات شرقاً وغرباً. وقد ابتدئ في وضع الألحان العربية في هذا العصر على إيقاعات متعددة، وورد في غنائه ذكر إيقاعات (الثقيل) الأول و (الثقيل) الثاني، وخفيف الثقيل، والهزج، والرمل

وأشهر الموسيقيين في هذا العصر هو (سائب خاثر)، وهو أول من غنى في المدينة بالعربية مستعملاً العود. وقد أخذ عنه ابن سريج، ومعبد، وعزة الميلاء، وجميلة!

ومن المشهورين أيضاً ابن مسجح أول من نقل غناء الفرس إلى غناء العرب بمكة. وقد ابتدع مذهباً خاصاً وطريقة جديدة تأثر بها وأخذ عنها ابن محرز ومعبد وابن سريج والغريض

وقد بلغ من إهتمام الأمراء والحكام بالموسيقى أن الخليفة عبد الملك بن مروان نفسه كان موسيقياً وملحناً. وقد اشترى يزيد بن عبد الملك (حبابة) المغنية بأربعة آلاف دينار مع أنها كانت دميمة متهدمة. . .

ولعل في رعاية الوليد بن يزيد لمعبد وتمريضه إياه وإخلاء جناح خاص له في قصره، ثم تشييعه لجنازته بنفسه أكبر برهان على مكانة الموسيقي وقتئذ. وقد كان الوليد عالماً بصناعة الألحان عازفاً بالعود موقعاً بالطبل والدف

وقد سرى تيار هذا الاهتمام إلى الأشراف والنبلاء حتى أن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب كان لا يستريح إلا إذا سمع (سائب خاثر) فينشط. وسكينة بنت الحسين رضي الله عنها وعن أبيها، كانت مشغوفة بالغناء والموسيقى، وكانت تكرم الغريض، وكان بيتها منتدى لسماع الموسيقى والغناء، وقد طُلِب منها مرة أن تستدعي (حنين الحيري) مُغّني (الحيرة)، فاستدعته مع أشهر المغنين في الحجاز ابن سريج، ومعبد، والغريض. وقصد الأربعة بيتها فحفلت الدار بالناس حتى ضاقت بهم، فصعدت شراذم منهم فوق (السطح) وأخذ حنين يغني ويغني والناس تموج وتهتف، وإذا (بالسقف) يهوي بمن فوقه على رأسه فمات مخنوقاً. فقالت السيدة سكينة: (لقد كدر علينا حنين سرورنا. انتظرناه مدة طويلة كأننا والله كنا نسوقه إلى منيته)

وفي العصر الأموي ابتدأت حركة التأليف الموسيقي فوضع يونس الكاتب (كتاب النغم) و (كيان القيان)

أما في العصر العباسي ذلك العصر الذهبي للموسيقى والأدب والشعر فقد سمت فيه الموسيقى سمواً عظيماً وارتفعت إلى ذروة المجد، وزادت مقاماتها وطرائق إيقاعها حتى تعددت في اللحن الواحد وكثرت الآلات وتنوعت وكثر استعمالها

وأصبح العربي يفخر بأنه موسيقي حتى أن أبناء النبلاء انخرطوا في سلكها، فكان منهم ابن جامع القرشي. بل زاد اهتمامهم إلى حد الاعتراف كإبراهيم بن المهدي. . .!

والخليفة الواثق كان من أحذق الخلفاء بل من الموسيقيين المحترفين أنفسهم بالغناء والعزف على العود، وقد قال في إسحاق الموصلي:

(ما غناني إسحاق قط إلا ظننت أنه قد زيد لي في ملكي. . وإن إسحاق لنغمته من نغم الملك التي لم يحظ بمثلها، ولو أن العمر والشباب والنشاط مما يشترى لاشتريتهن له بشطر ملكي)

وإسحاق هذا هو أول من عني بإثبات قواعد الموسيقى العربية ونظرياتها بعد يونس الأكوي وجاء بعده الخليل بن احمد فصنف كتاب (النغم والإيقاع) ولكن الذي بزهما هو إسحاق ابن يعقوب الكندي الذي ألفَ عدة كتب في الموسيقى ونظرياتها، وهو أول من دون الموسيقى بالحروف بشكل مرتب، وهذا أكبر رد على من يتهمون العرب بإهمال تدوين تلاحينهم. ثم جاء بعده أيضاً أبو نصر محمد الفارابي فوضع (كتاب الموسيقى الكبير) الذي تدين له الموسيقى بالشيء الكثير. وفي العصر العباسي أمر هارون الرشيد اسحق الموصلي، وإسماعيل بن جامع، وفليح ابن أبي العوراء، أن

يختاروا له من الألحان العربية مائة صوت فصنعوا.
ومن أشهر الموسيقيين في هذا العصر إبراهيم الموصلي، وإسحاق الموصلي، وفليح بن أبي العوراء، ويحيى المكي، وحكم الوادي، وزلزل، ومخارق، وبذل المغنية، وابن جامع
وقبل أن نختم هذه اللمحة العابرة نحب أن نقول لهؤلاء الذين يعتقدون أن الموسيقى محرمة: هذه هو شأن الموسيقى في صدر الإسلام
إن الموسيقى في ذاتها نبيلة رفيعة، ولكن المحرم فيها هو التخنث والبكاء والاسترضاء واستغلال الغرائز البهيمية، وهذا ليس بمحرم شرعاً فحسب، بل هو محرم شرعاً وذوقاً ورجولة أيضاً
محمد السيد المويلحي
العدد 298 - بتاريخ: 20 - 03 - 1939
الأدب والفن في القران الملكي السعيد
. . .قلتُ لنفسي
أستطيع أن أتحدث إليك يا نفس، وأن آمن أن يتسمع إلى حديثنا ناقد أو حاقد فينشره؛ فما كل ما يعلم يذكر، وما كل ما يذكر ينشر.
كان الشعب والجيش في أسبوع القران المصري الإيراني السعيد قصيدة شاعرة الأبيات بالجمال والحب، وملحمة عامرة الأناشيد بالفخار والمجد، تجلت فيهما عبقرية الجنس ونبالة التاريخ وأريحية النيل، ودلتا على أن الشعب يتقدم بصيراً بالفطرة ككرام الطير، وأن الجيش يولد جباراً بالروح كآلهة الإغريق. والفطرة والروح من عمل الله الذي أحسن كل شيء خلقه، وهدى كل حي طريقه.
أما الأدب والفن وهما من خلق الناس فكانا - على حسبما بلغته عيناي وأذناي - موضع النقص وموضوع النقد. ومن الظلم لمواهب هذا البلد الكريم أن يكون ما ذاع منهما في هذا الأسبوع التاريخي مقياساً لقرائحه وترجماناً لعواطفه. وأسارع إلى استثناء النثر من أنواع الأدب؛ فقد كان أجمل الزهر الذي نثر على العروسين، وأنفس الدر الذي قدم إلى التاجين، وأصدق الدلائل على مكانة مصر في المدنية والعقلية والثقافة. . .
ولكن الشعر كانت كثرته الكاثرة كزقزقة الأفراخ النواهض في صبح من أصباح مارس: هي إلى الصُئِىَ أقرب منها إلى التغريد، وعلى المحاكاة أدل منها على التجديد، وفي التشابه أدخل منها في التنوع. والله وحده يعلم الآن موقف امرئ القيس من الجاحظ في الجنة أو في النار، وأحدهما يرى فنه يذوي ويهوي وينطوي، ولآخر يرى فنه ينمو ويسمو وينتشر!
ومهما يكن من قصور الشعر فإن فن الكلام في مصر أنبض الفنون الرفيعة بالحياة وأسبقها إلى النهوض وأدناها من الغاية. فإنك إذا وازنت بينه وبين التمثيل والموسيقى في هذا الأسبوع على الأقل والأخص عجبت كيف يتقدم فن الأمة المفكر هذا التقدم، ويتأخر فنها المصور هذا التأخير، حتى يكون ما في ذلك من الخلق والجدة والتطور والشعور، معادلا لما في هذا من النقل والركود والجمود والبلادة.
فالتمثيل - ومظهر النبوغ المصري فيه (الفرقة القومية) - كان خذلاناً من الله لإدارة هذه الفرقة، وبرهاناً من نفسها للناس على أنها لا تعلم ولا تعمل ولا تدير.
أرادت هذه الفرقة أن تساهم في الحفلة الموسيقية التي أقامتها وزارة المعارف في دار الأوبرا الملكية احتفاء بصاحب السمو الإمبراطوري ولي عهد إيران، لأنها تعيش على أموالها، وتعتمد على مشورة رجالها، فاختارت أن تمثل لهذه المناسبة في حضرة المليك العظيم وأمام الخاطب الكريم ملهاة (المتحذلقات) لموليير، وموضوعها كما تعلمين خطبة عابثة هازلة، يلبس لها خادمان لباس النبلاء ويخدعان بالحذلقة الغبية امرأتين من أغنى النساء!
كان من السهل لو كان للوزارة (فرقة)، وللفرقة إدارة، وللإدارة دراية، أن تطلب إلى كاتب من كتاب المسرح أن يقتبس لها في هذه المناسبة السعيدة موضوع مسرحية ذات فصل واحد من شاهنامة الفردوسي، كحكاية شيرين، أو قصة زهراب ورستم، فيكون تمثيلها أمام الأمير وحاشيته أبلغ في معنى الحفاوة، وأبين عن سمو الذوق، وأدل على أن في مصر تمثيلاً له أدبه المحلى وطابعه الخاص وروحه المميزة. أما

متحذلقات موليير فقد مضى على تأليفها مائتان وثمانون سنة، قرأها فيها كل بلد ومثلها كل مسرح؛ فلو لم يدل اختيارها على سقم الذوق لسوء المناسبة، لدل على عقم الأدب لضرورة الاقتباس. ورحم الله من طلب إلى (غزلانزوني) في سنة 1871 أن يؤلف له (عايدة) لتمثل في هذه (الأوبرا) أمام الأضياف الأوربيين في مهرجان قناة السويس، فقد كان أسهل عليه وأسرع له أن يأمر الممثلين أن يمثلوا له ما شاء من الأوبرات الإيطالية والروايات الفرنسية؛ ولكنه لسمو نفسه وصفاء حسه أراد أن يكون الموضوع مصرياً واللون محلياً والتمثيل جديداً فكان له ما أراد!

والموسيقى - ومظهر الفن المصري فيها (معهد فؤاد الأول للموسيقى العربية) - كانت ضرباً من السأم والغثاثة لا نعرف له ضريباً في موسيقى الأمم. فقد أقام هذا المعهد كذلك في داره حفلة ترحيب وتسلية للأمير الخاطب، فكانت ألحاناً مكررة، وأصواتاً منكرة، وبشارف وتقاسيم وأدواراً يعزفها لقلتها البادئ والمنتهى، ويعرفها لشيوعها الموسيقار والسامع، ولا تكاد الأذن الفنانة المرهفة تنفتح لنغماتها التقليدية المكرورة أكثر من دقائق! وما دامت موسيقانا تسير على نهج (التخت) في وضعه التمثالي الجامد، فهيهات أن تشيع فيها الروح، وتظهر عليها الجدة، ويرتاح إليها الشعور. وأعجب العجب أن هذه الموسيقى

الواحدة، يجعلون لها أسماء متعددة؛ هذه (تحية العروس) وهذه (رقصة الأمل) وهذه (سكرة الموت) ولو وضعت على كل واحدة منها أسم الأخرى لما أنكر ذلك سامع ولا اعترض عليه معترض!

أما إذاعتنا اللاسلكية فكانت على عادتها إهانة عالمية لمصر! فبينما تجدين محطات الإذاعة العربية في العالم تتغذى على الهنيء السائغ من فن عبد الوهاب وأم كلثوم، تجدينها هي تتغذى على الغث البارد من أنامل وحناجر لا هي معجبة ببراعة الفن، ولا هي مطربة بحلاوة الصوت!

أقول لك ذلك يا نفس، وأنا أعلم أن في قوله تفريجاً عنك، وليس فيه إن سمعه سامع ما يغضب الحق ويؤذي الناس!

ابن عبد الملك

بلادة أم اتزان؟

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

يجيء يوم في حياة الإنسان يرزق فيه البلادة المريحة، وأعني بالبلادة انتفاء الحدة والعنف فيما يساور النفس من شعور، ويدور بها من خوالج. فَمَطَةُ بوزٍ هي كل ما يبديه من أسف على فائت، وهزة كتف خفيفة لا تكاد تلمح هي ما يقابل به الحوادث الجسام، والبرود أو الجمود هو ما يتلقى به الغمز والطعن والتشهير، والابتسام هو كل ما يبدو من سروره.

زارني مرة صديق لا يزال على ارتفاع سنه فتى الروح يغلي في عروقه دم الشباب، ودفع إلي بصحيفة وقال وهو يشير بإصبعه إلى موضع فيها، وكأنه يشكه برمح: (ألا ترد على هذا؟) فرفعت رأسي إليه - فإن قامته مديدة، وأنا كما يعلم القراء، أو كما لا يعلمون، قميء صغير - وسألته: (ماذا؟) قال وهو ينتفض كأن به حمى: (هذا الشتم! هذه القباحة! هذه السفالة! هذه. . .)

فاستوقفته بإشارة وقلت: (حلمك! لقد شتمني بعضهم مرة في صحيفة كبيرة فقال عني إني (من فراش العار) وأضاف إلى زملائي جميعاً فقال عنا إننا (أبناء الزواني) فهل قال هذا - أشرت إلى الصحيفة التي ألقاها على مكتبي - شراً من ذاك؟)

فترك هذا وسألني: (ألم تقتله؟)

قلت: (يا سيدي لو كنت أعلم أنه خالد لحاولت قتله، ولكنه فانٍ مثلي، فلماذا أجشم نفسي عناء باطلاً، وأتكلف تحصيل الحاصل، وأتعاطى العبث والسخافة؟)

قال باشمئزاز: (هذه فلسفة لا أفهمها. . . هه. . . من ضربك على خدك. . .)

قلت: (لا ليست هذه فلسفة، وإنما هي بلادة، ثم إني لا أدير للضارب خدي الآخر، وكل ما في الأمر أني لا أحس ما ظنه الضارب لطمة لي على خدي. . .)

فصاح بي: (كيف لا تحس؟ أيقول عنك إنك من فراش العار، وإنك ابن زانية وتجيء وتزعم أنك لا تحس ولا تبالي؟)

قلت: (حلمك مرة أخرى. إني أعرف أني لست من فراش العار، وأني لست ابن زانية،

فما يشتمني به لا يغير ما أعرفه. ثم إنك تتوهم أن الناس يصدقون كل ما يذم به بعضهم بعضا. وهذا غير صحيح. ولو أن الذي شتمني التزم القصد، وآثر الاعتدال فيما يرميني به

لكان أخلق بأن يصدقه الناس ويقتنعوا، ولكنه أسرف واشتط فأفسد على نفسه مرامه، فكلامه في ينال منه ولا ينال مني. وقد أخجله ضني بنفسي على هذه الأوحال (فاعتذر، فهل تدري ماذا قلت له؟

قال: (لا أريد أن أسمع. يظهر أنك تحاول أن تقلد غاندي. . . المهاتما غاندي!) قالها بلهجة المتهكم الزاري

قلت: (ولا هذا أيضاً. إن غاندي حي - مثلك - ولكن أساليبكما مختلفة. أما أنا فأهون ما أقوله في نفسي أني أصبحت لا أطيق بعثرة القوة وتبديد الجهود في العبث الذي لا طائل تحته. أصبحت بخيلاً مقتراً أنفق حياتي بحساب دقيق، وأدخر كل ما يسعني ادخاره من القوة؛ وما زلت مسرفاً في إنفاق حياتي، ولكن في ما أحب أنا، وبإرادتي لا بالشعور الدافع. وإنه ليحلو لي أن أسمي هذه بلادة، ولكنه قد يكون اتزاناً، وصحة إدراك للقيمة الحقيقية للأشياء. ولا تخف. ستراني يوماً أنقض على خصم فأمزقه إرباً إرباً، فما نفدت قوتي، ولا فقدت القدرة على استطابة أكل اللحم البشري، وما زلت ذلك الوحش القديم الذي يلذه أن يمزق لحم الفريسة، وأن يلغ في دمها. وإذا رأيتني أسطو على أحد، وأكر عليه وأصميه، أو أعذبه تعذيب القط للفأرة، فاعلم أني أفعل ذلك بإرادتي، لأن شعوري غلبني، فما يغلبني شعوري في هذه الأيام. وعلمي بما أقدر عليه هو الذي يصدني عن هذه المهاترات الفارغة)

فقال: (لقد تغيرت جداً)

قلت: (إنك تذكرني بقول القائل:

وقد زعمت أني تغّيرت بعدها ... ومن ذا الذي يا عز لا يتغير؟

نعم من ذا الذي لا يتغير؟ حتى الحجر! ومع ذلك من يدري؟

لقد كنت في صدر حياتي مدرساً، وكان بعض التلاميذ يحاولون أن يعابثوني، فكنت آخذ عليهم طريق العبث وأكتفي بذلك، وأستغني عن الاحتياج إلى عقابهم، وكنت أزعم أن هذه حكمة، والواقع إني ما عاقبت تلميذاً قط، في عشر سنين زاولت فيها التعليم، وكان الذي بيني وبين تلاميذي عامراً كل هذا الزمن، ولكني كنت أدير عيني في نفسي وأفحصها، وأغوص في أعماقها، أتبين أني أكره العقاب الخفيف، وأنه لا يرضيني إلا أن تكون الضربة قاصمة للظهر، لأني بطبعي عنيف، ولما كان لا محل لضربة قاضية من أجل أن

تلميذاً لاعبني أو مازحني، وهو لا يريد شراً، وإنما تغريه بذلك طبيعة الصبي، فقد كنت أكبح نفسي وأردها عن الأذى، وأعمل بقول الشاعر:

توقى الداء خير من تصدٍ ... لأيسره وإن قرب الطبيب

نعم تغيرت، بمعنى أن بعض الطباع التي كانت تظهر وتخفى فيما مضى، صارت أبرز وأقوى، فهي الآن السمة الغالبة والطابع الملحوظ.

هذه خلاصة ما حدثت به صديقي، وقد قلت له كلاماً آخر كثيراً، نسيته، فقد طال بيننا الحوار، وتركني وهو غير مقتنع بصوابي، فلم أحفل بذلك. وماذا يضرني ألا يقتنع؟ ولماذا أكلف نفسي تعب إقناعه؟ أنا الذي جربت مراراً كيف يخيب الأمل، ويذهب المسعى سدى؟

وأويت إلى مكتبي في الليل، بعد أن نام البيت، وأعفيت من ضجة الأطفال وأخرست لسان الراديو الصاخب. . . وعلى ذكر الراديو أقول أن بني مثلي، يأكلون على ضوضاء الراديو، ويراجعون دروسهم على ضجات الراديو، ولا يبدو عليهم أنهم يسمعون ما يصيح به، أو يبالونه، ومن شابه أباه فما ظلم، وإني لأرجو أن يظلوا مثلي، وألا يكترثوا لمن عسى أن يسبهم ويزعمهم (من فراش العار) - في حوار أدبي أو جدل سياسي - ما علينا.

سألت نفسي لما خلوت بها: (أهذا الذي صرت إليه اتزان أم بلادة؟ وصحة إدراك للقيمة الحقيقية للأشياء، أم فتور حتى عن محاولة الإدراك؟ وهل النار كامنة تحت هذا الرماد، أم هي خمدت وأنت تحسبها لا تحتاج إلى أكثر من التقليب؟ وهل يشي هذا بالقوة، أو يشي بالضعف؟ ومن اليأس هذا، أم من العلم والفهم الصحيح؟ وحال تدوم،

أم عارض يزول؟
وطال تفكيري في جواب هذه المسائل، ولم أنته إلى شيء تسكن إليه النفس، فنهضت وأنا أقول: (ولماذا أعني نفسي بهذه المتعبات؟ وماذا أبالي على كل حال سواء أكان الأمر هكذا أم كذلك؟)
وأعجبتني (لا أبالي) هذه، فقد صارت عندي مخرجاً من كل ورطة، وباباً لتفريج كل أزمة في النفس. ومن كان يسعه أن يقول - ويكون على نحو ما يقول - (لا أبالي) فقد أوتي الراحة، ولا أقول السعادة فإنها خرافة.
إبراهيم عبد القادر المازني
إنجليزي يتحدث في السياسة
لأستاذ كبير
أعرف إنكليزياً داهية في السياسة وإن لم يكن له مركز سياسي، ولكنه يميل إلى المبادئ الحرة. قابلته مرة وتحدثنا وجرنا الحديث إلى السياسة فقال: إنه يدهشني أن يكون بين المصرين من يسئ الظن بالسياسة الإنكليزية. فقلت: إن كنت قد رأيت من يسئ الظن بها من المصريين فلا يدهشك أن يكون بين الملايين من الناس آحاد يفعلون ذلك إذا كنت حقيقة قد رأيت منهم سوء الظن ولم تتوهمه. قال: ومع ذلك فأن أعظم الناس سذاجة يستطيع أن يفهم أننا لو شئنا نقض سياستنا الموالية لحليفتنا لكان ذلك من أيسر الأمور. قلت: ماذا تعني؟ قال: أعني أننا لا نريد الغدر بصديق ولسنا معروفين بذلك، فهذا تاريخنا يدل على أننا لم نغدر بأحد أئمتنا، فقد كنا دائماً أمناء، وكانت استقامتنا مضرب الأمثال، وليس لنا نفع نرجوه من وراء الغدر لأننا لا نريد أن نتحمل مسؤولية الحكم فتزيد أتعابنا العالية.
ثم سكت قليلاً وعاد إلى الكلام فقال: على أننا لو أردنا لاستطعنا أن نتبع خطة تطلق يدنا من غير أن نتحمل مسؤولية الحكم وأتعابه في الظاهر. ثم التفت إلي وابتسم ثم قال: ولكنا لا نريد. قلت: إني لم أفهم كلمتك الأخيرة. فسكت كأنما يشاور نفسه ويسألها: هل يبوح بما في نفسه أم لا يبوح؟ وبعد ذلك لوح بيده إشارة عدم الاكتراث لما قد يكون من نتائج ما أزمع أن يفسره وقال:
هناك أمور ثلاثة يمكن استثمارها وهي الأمور الدينية والأمور المالية والأمور الدستورية.
ولا أعني استثمارها مباشرة أو الظهور بمظهر المستثمر لها؛ بل لابد إذا اتبعنا هذه الخطة ألا يفهم أحد أننا نستثمرها. ولنجاح هذه الخطة ينبغي ألا يفطن إليها أحد، ومن أجل ذلك يمكنك أن نثق بسبب شرحها لك أننا لا نريدها لأننا لو كنا نريدها لكتمناها ولأنكرناها إذا فكر فيها أو فطن إليها غريب عنا، ولحاولنا أن نقنعه بكل الوسائل أننا لا نريدها وأننا لم نفكر فيها.
قلت: وما هي هذه الخطة؟
قال: إنك تعلم أن خطتنا التقليدية كانت عدم المساس بالشعور الديني في صدر المحافظين
عليه؛ ومع ذلك كنا نستعمل وسائل كثيرة للتوفيق بين احترام الشعور الديني واحترام العرف والتقاليد، وبين مراعاة حالة مصر الدولية ووجود الأجانب بها ومراعاة ما تقتضيه التغيرات الاجتماعية والقانونية والفكرية الحديثة. وقد كان التوفيق بينهما يقتضي مرونة ولياقة إلى حد يجعل ذلك التوفيق غير مُحَسٍ به ولا مفطون له، وعلى ذلك كان يتوقف نجاحنا. ولا أقول إننا نجحنا كل النجاح، ولكني أقول إننا نجحنا نجاحاً يسهل إدارة الأمور فاكتسبنا مؤازرة العلماء والقائمين بأمر الدين فيما يهمنا من تصريف الأمور، كما تمكنا أن نمنع من حدوث ارتباك بسبب اصطدام الشعور الديني وشعور المحافظة على العرف والتقاليد بمنزلة مصر الدولية وبما تقتضيه التغيرات الاجتماعية والقانونية والفكرية الحديثة. . . وهنا ابتسم ابتسامة مكر ودهاء وقال: فلو كنا نريد بسط يدنا في إدارة شؤون البلاد مباشرة، لاستطعنا أن نمتنع عن هذا التوفيق بطريق مباشر وبطريق غير مباشر، واستطعنا أن نشجع المحافظة على التقاليد حتى يستولي على زعامتها أشد الناس تطرفاً، وأظهرنا في أول الأمر عدم ميلنا إلى التدخل. وهذه الخطة تؤدي حتما إلى تدخلنا في النهاية وإلى كسب الأنصار أولاً وأخيراً وإلى وجود الأعذار والفرص التي تبرر وتسهل ذلك التدخل وتجعله أمراً لا مناص منه حتى لدى كثيرين ممن يكرهونه.

قال ذلك وسكت قليلاً وجعل يضرب ركبته بأطراف أصابعه وكأنه مشغول بالتفكير في أمر. . . ثم التفت إلي كأنما قد أفاق من انشغاله بالفكر وقال:

أما المسائل المالية فإنكم تعلمون أنها هي التي أطلقت يدنا في مصر منذ ارتبكت المالية المصرية في عهد الخديو إسماعيل باشا وما كنا نستطيع أن نجيب طلبات المصريين الوطنية وأن نقيد يدنا في مسائل إدارة شؤون البلاد لولا أننا أصلحنا المالية؛ فلو كانت المالية لم تصلح لاضطررنا أن نضرب بمطالب المصريين عرض الحائط بحكم الضرورة ولوجدنا أنصاراً كثيرين من المصريين والأجانب يشد أزرنا في خطة التمسك بإدارة شؤون البلاد، بل لوجدنا من المصريين والأجانب ومن الدول أيضاً من يطالبنا بالتمسك بإدارة شؤون البلاد ويصر على ذلك خوفاً من كل على أمواله. لكننا لا نرى من يطالب أو يصر على ذلك لأن مالية الشعب والحكومة تحسنت كثيراً. . . وهنا عاد إلى سكوته كأنما يريد مني أن أهضم ما قاله وأن أفكر فيه، وأقتنع بصدقه قبل استئناف الحديث، ثم عاد إلى الكلام فقال: لو كنا نريد أن نطلق يدنا في إدارة شؤون البلاد لاستطعنا أن نشجع الإسراف أو على الأقل نشجع الصرف صرفاً كثيراً على أمور لا تأتي بثمرة اقتصادية ولا بربح اقتصادي مباشر، وهذا أمر ميسور لنا (أولاً) بسبب شعور مصر بمقام استقلالها بين الدول وما يقتضيه من المصروفات في الأمور السياسية، و (ثانياً) بسبب خطر الحرب وما يقتضيه من المصروفات في الأمور الحربية. وهذا الصرف تطالب به العزة القومية ولا يشك أحد في مطالبتها به. على أنه مهما حسنت مالية الدولة والشعب فإن مالية الدولة لا تتوقف على موازنة الدخل والمنصرف في الميزانية وحدها ولا على الاحتياطي من المال لديها وحده، وإنما تتوقف أيضاً (أولاً) على موارد الدولة، وتنوعها ضروري لأنها إذا لم تكن متنوعة وأصيب المحصول الرئيسي بفشل أو تدهور مستمر في الأسعار ربما ذهب حسن المالية الذي برر كف يدنا عن التدخل في إدارة الشؤون. و (ثانياً) تتوقف مالية الدولة أيضاً على دخل الأهالي، فإذا فرضنا أن ثروة قطر من الأقطار زادت لتحسن طرق الإنتاج ومقداره ولكن زاد عدد السكان زيادة كبيرة وارتفع مستوى المعيشة وزادت الديون التي على الأهالي وكثر المتعطلون عن العمل وكان أكثر أفراد الشعب لا يملكون إلا القليل وبدأ يقل محصول الفدان الواحد في مقداره إذ كان القطر زراعياً. . . أقول إذا اجتمعت كل هذه الأمور وأشباهها لا يختزن أفراد الشعب كثيراً مما كان من ازدياد مجموع ثروة الشعب، ولا يكون عند الشعب من المتانة المالية ما يسند متانة الحكومة المالية ويشجعها في المضي في الصرف بسخاء على أشياء قد تكون شبه ضرورية. فإذا اعتمدت الحكومة على متانة ماليتها الحاضرة وحدها من غير نظر إلى ما قد تؤدي إليه هذه العوامل الاقتصادية في النهاية. وإذا أردنا أن نطلق يدنا في إدارة الشؤون ونجعله أمراً محتوماً يطالب به كما كان في الماضي أمكننا أن نقلل من أثر هذه العوامل وأن نهون أمرها لدى الحكومة. . . قال ذلك ثم التفت إلي وقال: ولكن الحكومة المصرية متيقظة تمام التيقظ. . . وقال: ومع ذلك يمكننا - إذا شئنا - أن نتغلب على هذه اليقظة. ولكننا كما أوضحت لك لإنشاء تحمل مسؤولية وأعباء الحكم حتى ولو أنه من المستطاع تحميل الحكومة الوطنية التي تطلق يدنا كل الإطلاق مسؤولية وأعباء الحكم. ثم رجع إلى سكوته الطويل كي أتدبر ما قاله عن المسائل المالية والاقتصادية كما سكت طويلاً بعد كلامه عن المسائل الدينية.

وبعد ذلك التفت إلي مرة أخرى وقال:

بقيت مسألة نظام الحكم، ونحن بطبيعتنا نميل إلى الحكم الدستوري الذي كنا أول من شاده بين الأمم، ونفضل الاتزان والاعتدال في الحكم الدستوري. وكثيراً ما تحول الدستور في بعض الدول الأوربية إما إلى حكومة نفعية غير ديمقراطية من طبقة المغامرين، وإما إلى حكومة رعاع مؤقتة. ولكننا في انجلترة قد صنا الديمقراطية على الحالتين؛ وهذا هو سبب ثبات الديمقراطية عندنا. ومن أسباب ثباتها أيضاً قدم عهدنا بالنظام البرلماني الدستوري ومحافظتنا على القديم من تقاليدنا الدستورية، أما عندكم فلا يوجد تقاليد كما عندنا تتغلب على النزعة التي ذاعت في كثير من الأمم للتخلص من النظام البرلماني أملاً في إصلاح أو رقي أو تحسن سريع يأتي على يد حكومة قادرة من الأكفاء يمكن انحصار السلطة فيها في أيد قليلة ويمكن عدم تقيدها بدورات

المشاريع وعدم تأخرها؛ بسبب الشورى وبسبب قيود نظم الحكومات الدستورية. وقد بدأ الكتاب يكتبون في هذه النزعة في مصر وبدأ بعضهم يحبذها. فلو أننا كنا نريد إطلاق يدنا كل الإطلاق في إدارة شؤون البلاد لاستطعنا أن نشجع هذه النزعة بطريق مباشر أو بطريق غير مباشر وكان يمكننا أن نتخذها وسيلة لخلق حالة في البلاد تتطلب أن نتدخل بسبب نزاع أنصار الديمقراطية وأنصار الدكتاتورية وما يؤدي إليه. بل يمكننا أن نخلق حالة تدعو كثيرين إلى مطالبتنا بالتدخل سواء أكان ذلك بسبب هذه الحالة التي يخلقها النزاع بين الدكتاتورية والديمقراطية أو بسبب المسائل المالية أو بسبب المسائل الدينية لو شئنا أن نتبع الخطة التي أوضحت لك إننا يمكننا أن نتبعها في المسائل الدينية أو المالية أو الدستورية؛ ولكنا كما قلت لا نشاء اتباع هذه الخطة حتى ولو أدت إلى إطلاق يدنا إطلاق تاماً في إدارة شؤون البلاد من غير تحمل مسؤولية وأعباء الحكم، إذ نستطيع أن نجعل من نشاء يتحملها عنا إذا جاءت نتائجها أحياناً عكس ما توقنا. ولو أننا كنا نشاء اتباع هذه الخطة لما كنا نتحدث فيها بصراحة إلى كل من نقابل من الناس.

وهنا غلبه الضحك فضحك ثم قال: والمأمول أن لا يفعل المصريون من تلقاء أنفسهم بدون دافع منا ما يؤدي إلى إحدى الحالات الثلاث التي تحتم تدخلنا ونحن آسفون على التدخل.

قارئ

من برجنا العاجي

حدث في الأسبوع الماضي أمر أحب أن أسجله هنا:

هو قيام القيامة في الجامعة ضد كتابين قيمين، لأنه قد ورد فيهما طعن في الإسلام. لا أريد أن أنظر إلى الأمر من ناحية التفكير الحر، ولا من حيث تأثير هذا الموقف في الحياة العقلية لبلد متحضر ولكني أريد أن أبحث المسألة من جهة الدين نفسه. وهنا يبدو لي العجب: لماذا كل هذا الفزع كلما وقع بصرنا على عبارة تمس الإسلام؟ إن الكتب التي عالجت المسيحية وتعرضت للمسيح بالطعن والتجريح تطبع وتنشر في أوروبا المسيحية دون أن يخشى أحد على كيان المسيحية. ذلك أن الجميع يعلمون أن الأوان قد فات للخوف من مثل هذه الصيحات، وأن المسيحية التي عاشت عشرين قرناً لا يهدمها عشرون كتابا. كذلك نستطيع أن نقول في الإسلام أن هذا الدين المتين الذي عمر نحو أربعة عشر قرناً وثبت لإحداث الزمان وشاهد دولاً تدول وعروشاً تزول وشعوباً تولد وإمبراطوريات تقام، لا يمكن أن يتعرض للخطر أمام كتاب يؤلف أو عبارات تقال. إن هذا الفزع منا لأكبر مسبة لدين عريق عميق. كذلك يدهشني أن ينشأ هذا الفزع في جامعة عصرية، يؤمها شباب قد قطع مراحل الطفولة والصبا الأول وانغرست في قلبه العقيدة الحارة، فلا خوف الآن عليه من مناقشة المسائل العقلية في جو الحرية.

إني أعتقد دائماً أن صحة العقل وصحة العقيدة كصحة الجسم لا بد لها من الهواء الطلق حتى تكتسب المناعة. وأن حبس العقيدة والعقل في قفص من الزجاج خوفاً عليهما من خطرات النسيم معناه إنشاؤهما على بنية عليلة وكيان سقيم.

توفيق الحكيم

الأثر العربي

في الثقافة الإنجليزية في القرون الوسطى

للأستاذ عبد العزيز أمين عبد المجيد

ليس من الممكن معالجة موضوع الأثر العربي في الثقافة الإنجليزية بتفصيل واستيعاب في مقالة واحدة أو بضع مقالات. ولا من الممكن أيضاً ذكر الكثير من أسماء العلماء والمؤلفين والمترجمين الذين ساهموا بنصيب وافر في نقل الثقافة العربية إلى دائرة الفكر الإنجليزي أو الأدب الإنجليزي. ولذلك سأحاول معالجة هذا الموضوع في ثلاث مقالات فقط: هذه المقالة وموضوعها (في القرون الوسطى). والمقالة الثانية

وموضوعها (في عصر النهضة). والمقالة الأخيرة وموضوعها (في القرنين الماضيين). وستكون معالجتي إجمالية عامة.

إن ما أعنيه بالأثر العربي هنا هو كل ما وصل إلى الثقافة الإنجليزية عن طريق اللغة العربية، سواء أكان ذلك من إنتاج العرب أنفسهم أم من إنتاج غيرهم من الأمم التي ترجمت فلسفتها وعلومها وآدابها إلى اللغة العربية. وأعني بالثقافة الإنجليزية ما أنتجته القريحة الإنجليزية من أدب وفلسفة وعلم وكتب حينئذ باللغة اللاتينية التي كانت لغة التأليف الآداب في إنجلترا وغيرها من ممالك أوربا في القرون الوسطى

لعلنا نذكر أن بغداد كانت مقر الخلافة العباسية، وأن خلفاء هذه الدولة قد انصرفوا بعد أن استتب لهم الحكم إلى تشجيع العلم والعلماء، فازدهرت العلوم على اختلاف أنواعها، وبدأ عصر جديد هو عصر الترجمة من اللغات الأجنبية كاليونانية والفارسية والهندية. وبلغ ذلك العصر أوجه في أيام الرشيد والمأمون. ووجد في اللغة العربية ما يسمى (بالعلوم الدخيلة) أي التي دخلت في اللغة العربية من لغات أخرى، كالطب والفلسفة والمنطق والفلك والرياضة. ويعزى أكثر الكتب التي ترجمت حينئذ إلى أرسطو طاليس وأفلاطون وبطليموس وأبقراط وأقليدس من علماء اليونان وفلاسفتهم. وكان أكثر المترجمين من غير العرب - كما نعلم - لأن العرب أصحاب السيادة كانوا منصرفين إذ ذاك إلى العناية بنظام الحكم والسياسة. ولأن من قاموا بالترجمة من السريان والنصارى واليهود كانوا على علم كاف بالعربية واللغات الأخرى المترجم عنها. نمت هذه العلوم الدخيلة وعكف على دراستها

وترقيتها كثير من العلماء حتى أصبحت بغداد مركزاً للثقافة العربية في الشرق امتدت فتوح الإسلام إلى شمال أفريقيا وجزيرة صقلية وبلاد الأندلس، ووطد العرب سلطانهم هناك، وهاجر إلى تلك الممالك كثير من العلماء الذين تفقهوا في العلوم الإسلامية والدخيلة، ووجدوا من إكرام الخلفاء والأمراء لهم ما شجعهم على تنمية هذه العلوم ونشرها، وأقبل العلماء والطلبة من المسلمين واليهود والمسيحيين على دراسة الفلسفة وعلوم الطب والرياضة والفلك وغيرها في المعاهد الإسلامية والمكاتب العامة التي أسست في طليطلة وقرطبة وغرناطة وأشبيلية حتى أصبحت هذه المدن الأندلسية مراكز للثقافة العربية في الغرب كما كانت بغداد في الشرق

وإذا عرفنا أن أثر أية لغة في لغة أخرى إنما ينشأ عن الاتصال المباشر أو الغير مباشر بين متكلمي هاتين اللغتين وجب أن نبحث عن: (متى وكيف وجد الاتصال بين العرب والإنجليز في القرون الوسطى) وهنا نجد أمامنا ميدانين اتصل فيهما العرب بالأوربيين عامة ومن بينهم الإنجليز. الميدان الأول هو الميدان الشرقي في مصر وفلسطين والشام وآسيا الصغرى أيام الحروب الصليبية، والميدان الثاني هو الميدان الغربي في جزيرة صقلية وفي الأندلس. وفي كلا الميدانين كان تأثير العربية في كافة الثقافات الأوربية ومن بينها الإنجليزية. وربما كانت إنجلترا أقل الممالك تأثراً بالنفوذ العربي بدأت الحروب الصليبية في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي وتوالت ست مرات حتى أوائل القرن الثالث عشر. واشتركت في هذه الحروب الصليبية كل ممالك أوربا، كما قاد هنري الثاني ملك الإنجليز جنوده في الحرب الصليبية الثالثة ضد العرب. وكانت هذه أول مرة في التاريخ يلتقي فيها العرب والإنجليز وجهاً لوجه، ويرى الإنجليز ما كان عليه العرب من حضارة وتفوق في فن الحرب وتعبئة الجيوش وطرق الهجوم والدفاع. وكان لهذا الاتصال أثره المباشر في أن نقل الإنجليز عن العرب نظم الحرب والتحصين، ووسائل النقل، واستعمال النقود وتوزيع الضرائب وصنع الزجاج. ويرجع علماء اللغة أن بعض الكلمات قد تسرب من العربية إلى لغة الإنجليز (أعني اللاتينية) في ذلك العصر. وذلك مثل كلمة القطن، السكر، الدرقة، القائد، وغير هذه الكلمات مما لا مجال لذكره الآن. ولم يترك هذا الاتصال أثراً قوياً في الأدب الإنجليزي لأنه كان اتصالاً حربياً ولم يكن اتصالاً علمياً

أما في الميدان الغربي فإن جزيرة صقلية كانت تحت حكم الأغالبة من العرب من أوائل القرن العاشر إلى أواخر القرن الحادي عشر. وبعد سقوط هذه الجزيرة في أيدي النرمانديين ظلت اللغة العربية لغة الكتابة والتأليف بجانب اللاتينية والإغريقية، ولقي العلماء من المسلمين واليهود كل تشجيع وعطف من الملوك المسيحيين،

وبخاصة فردريك الثاني ملك صقلية الذي جمع بلاطه كثيراً من نخبة الفلاسفة والأطباء والمنجمين وعلماء الرياضة. وكذلك شجع الملك روجر الصقلي العلماء على التأليف والترجمة إلى اللغة اللاتينية، إما من العربية، وإما من الإغريقية. وكانت هناك علاقات صداقة قوية بين البلاط الإنجليزي، وبين بلاط الملك روجر الصقلي الذي عهد بمنصب ديوان الإنشاء في بلاطه إلى إنجليزي يسمى وقد مهد هذا الإنجليزي لكثير من العلماء الإنجليز الإقامة في بلاط الملك روجر والاتصال بعلماء العرب، وترجمة بعض مؤلفاتهم، ونقل بعض الثقافة العربية إلى ثقافتهم. وكذلك نجد إنجليزياً أخر تشير إليه السجلات الصقلية العربية باسم (القائد برون)، واسمه بالإنجليزية وقد شغل وظيفة القضاء في البلاط الصقلي، وعرف اللغة العربية، ثم عاد بعد ذلك إلى إنجلترا حيث اختاره الملك هنري الثاني وزيراً للمالية سنة 1158 م. وقد كان من نتيجة هذا الاتصال بين علماء الإنجليز وعلماء العرب في البلاط الصقلي أن أخذ الإنجليز عن العرب طرق البحث الفلسفية، وترجموا بعض الرسائل في الفلك والرياضة.

أما في الأندلس فإن تعاون المسلمين واليهود والمسيحيين في البحث والتأليف، وتسامح الولاة من المسلمين، وازدهار الحركة العلمية والأدبية قد فتح الطريق أمام طلاب العلم من ممالك أوربا المختلفة فوفدوا إلى المعاهد الإسلامية الأندلسية للدراسة والترجمة إلى لغاتهم. ونذكر من بين هؤلاء ادلار الباجى الإنجليزي الذي سافر كثيراً في الشام وصقلية ثم درس في طليطلة، وحين عاد إلى إنجلترا أدهشه ما وجد عليه القوم من جهل بعلوم العرب وفلسفتهم (كما يقول هو) فأدخل في الثقافة الإنجليزية والفلسفة طريقة التفكير الحر في البحث. وكذلك ترجم من العربية رسالة في الفلك اسمها (الأزياج) واستبقى كثيراً من الكلمات العربية في ترجمته، وألف كتاباً سماه (المعضلات الطبيعية) اعترف فيه بفضل الدراسة العربية، وذكر فيه كروية الأرض، وأن المادة لا تفنى، وشرح أسباب الزلازل، وكان يعتمد في كل ما كتب على الأدلة العقلية أو التجربة.

وممن تتلمذ من الإنجليز على العرب فقد درس في الأندلس وهو أول من ترجم القرآن من العربية إلى اللاتينية، كما ترجم كثيراً من الكتب في علم الجبر والكيمياء. ولا تزال هاتان الكلمتان في الإنجليزية حتى الآن: وهناك أيضاً تلميذ أخر يسمى ألفرد الإنجليزي درس في الأندلس وترجم من العربية كتاب النباتات لارسطو طاليس.

ولا يفوتنا أن نذكر هنا ميخائيل الاسكتلندي فقد زار صقلية ودرس في طليطلة ثم ترجم من العربية رسالة في علم الفلك لمؤلفها نور الدين أبي إسحاق البتروجي، ونقل فلسفة ابن رشد، وعلق على كتب ابن سينا وترجم من العربية كتاب الحيوان لأرسطو طاليس.

وكذلك عرف الإنجليز طب العرب، وكيفية استعمال الإسطرلاب، واستبقوا فيه بعض الكلمات العربية كالمغرب، والمريء، والقنطرة، كما اقتبسوا الطرق العربية في الحساب

ولما كانت الفلسفة والعلوم والآداب في القرون الوسطى قوية الارتباط بعضها ببعض تأثر الأدب الإنجليزي مباشرة بكل ما ترجم من العربية إلى اللاتينية من فلسفة أو علم أو أدب. ويذكر علماء الأدب أن تشوسر الشاعر الإنجليزي القديم اقتبس في أشعاره بعض المعاني من كتاب اسمه (أمثال الفلاسفة)، وكان قد ترجم هذا الكتاب أولاً من العربية إلى اللاتينية ثم ترجم بعد ذلك من اللاتينية إلى الإنجليزية، وهو أول كتاب إنجليزي طبع بمطبعة كاكستون. وكذلك كتب تشوسر رسالة في الإسطرلاب اعتمد فيها على كتاب (الإسطرلاب) للمؤلف العربي (ما شاء الله) وعلى كتاب للقبيسي اسمه (مقدمة في علم الفلك). وكتب أيضاً رسالة سماها (الخبز واللبن للأطفال) تجلت فيها الروح العربية.

وقد ترجمت مجموعة من القصص العربية إلى اللاتينية ومن بين هذه القصص بعض حكايات من كتاب كليلة ودمنة، وظهرت هذه القصص في الآداب الأوربية عامة كما ظهرت في الأدب الإنجليزي. وقد ضمن الشاعر الإنجليزي أشعاره كثيراً من هذه القصص والحكايات العربية

ويعزو بعض علماء الأدب انتشار الأشعار الغرامية الشعبية التي كان ينشدها

الموسيقيون المتجولون في القرى الإنجليزية في القرون الوسطى إلى نفوذ عربي لمشابهتها كثيراً
للأشعار الغرامية الأندلسية، وبخاصة الزجل، ويذكرون أيضاً كتابين كان لهما الأثر في انتشار هذا النوع من الشعر الغرامي وهي كتاب (الزهرة) لابن داود وكتاب (طوق الحمام) لابن حزم وموضوعهما الحب العذري، وقد ترجما إلى اللاتينية
هذه فكرة إجمالية عن (أثر اللغة العربية في الثقافة الإنجليزية في القرون الوسطى) وسأعالج ذلك الأمر (في عصر النهضة) في العدد القادم إن شاء الله.

عبد العزيز أمين عبد المجيد

أعلام الأدب

إسخيلوس

للأستاذ دريني خشبة

ولد إسخيلوس عام 525 ق. م في قرية كان يعكف أهلها على عبادة دمتير ربة الزراعة، وديونيزوس إله الخمر، وهي قرية صغيرة متاخمة لقرية إيكاريا التي نشأ فيها الشاعر تسبيز الذي يعزون إليه نشأة الدرام
وقد ذكر لنا اسم أبيه في الأبيات التي أوصى أن تنقش على قبره حيث يقول:

هنا في سهل جيلا المثمر الخصيب
يضم هذا اللحد رفات إسخيلوس بن يوفوريون
فتى أثينا، الذي شهد له الميديون
وعرفت بأسه مرثون

ولقد برع إسخيلوس في الشعر منذ حداثته وكان يغشى حلقات الشعراء ويدرس طرائقهم ويحفظ أناشيدهم فإذا خلا إلى نفسه رددها وراح يهتف بها وقد راقته أغاني تسبيز فكان يقلدها وينظم المقامات على نسقها، ثم فرغ لنظم الدرامة الطويلة التي ثار فيها على العرف فكتب له التوفيق حتى إذا انبثق فجر القرن الخامس قبل الميلاد، وبلغ الفتى السادسة والعشرين من عمره استطاع أن يشهد الناس فنه في أكبر مسارح أثينا حيث مثلت أولى رواياته فبهرت الأثينيين وعرضت عليهم لوناً جديداً من أدب الدرام كان ثورة عنيفة على الماضي ودعامة وطيدة لمسرح المستقبل
ولما نشبت الحرب بين فارس واليونان ألقى الشاعر يراعه وامتشق سيفه وأسرع إلى مرثون الخالدة هو وأخوه فأبليا بلاءً حسناً ترك في نفس إسخيلوس أثراً عظيماً من الزهو والاعتداد لم يمحه نصف قرن عاشه بعد ذلك
ثم تلت موقعة مرتون التي استشهد فيها أخوه (490 ق. م) فترة من السلام فرغ فيها إسخيلوس إلى أدبه واستطاع خلالها أن يحرز النصر على جميع منافسيه في حلبة الشعر للمرة الأولى في المسابقة العامة عام 484 ق. م
ثم دعا داعي الوطن بعد ذلك بأربعة أعوام فترك أثينا مع جميع أهلها ليشترك في موقعة
سلاميس، وليناضل فوق صفحة البحر في تلك المجزرة المروعة التي ذابت فيها جيوش كسرى وحطمت أساطيله وفر أثناءها إلى بلاده بعد أن شهد الهزيمة بعينيه، فسلمت اليونان وسلمت أوربا إلى الأبد من التبربر
وقد اشترك بعد ذلك في حروب تراقية عام 476 كما تدل عليه جذاذات من ثلاثيته المفقودة المسماة (ليكورجوس)
وفي سنة 475 نظم مأساته (نساء إطنة) وكان إذا ذاك في سفارة سياسية إلى سيراكوزا
وقد رحل إلى سيراكوزا مرة أخرى، ونظم فيها درامته (الفرس) التي حازت الجائزة الأولى عام 472.
وفي سنة 468 ظهر منافسه العظيم سوفو كليس في ميدان المسرح فجأة ففاز على إسخيلوس بالجائزة الأولى، وكان لفوزه أثراً بليغ في نفس إسخيلوس لم يمحه أن فاز (إسخيلوس) بعد ذاك بجوائز عدة كان يسيل لها لعاب الشاعر الشاب
وقد عاش إسخيلوس عشر سنوات لا ينسى هزيمته سنة 486 حتى أن بعض المؤرخين يظن أنه هاجر إلى صقلية بسبب ذلك، ويقول بعضهم إنه كان كلما ذكر تلك الهزيمة الأدبية دمعت عيناه ونقم على الشاعر الشاب.

وفي عام 456 توفي فجأة في مهاجره ودفنت رفاته في جيلا.
هذه هي أهم الوقائع في تاريخ حياة إسخيلوس. ولا نستطيع أن نتناول أدبه بالنقد أو التحليل قبل أن نقف قليلاً عند هذه الوقائع نستخلص منها ما ينفعنا في دراسته وما يكشف لنا عن نوحي نبوغه
وليس من شك في أن نشأة إسخيلوس الأولى وبيئته كان لهما أثر بعيد في أدبه. بيد أن هذه النشأة وتلك البيئة ليسا شيئاً إذا قيسا إلى الأثر الكبير الصارم الحاسم الذي تركه في نفسه خوض غمار تلك الحروب الدامية العنيفة التي شنتها على بلاده فارس، والتي كانت حرباً بين جيش جرار كثيف يقدرون عدده بألف ألف أو يزيد، وبين أمة بأكملها قليلة العدد شديدة البأس ساهمت جميعاً، رجالا ونساء وأطفالاً، في آلام الحرب حتى لقد هجرت أثينا إلى إحدى جزائر البحر، وقام رجالها في السفائن يصارعون المنون ويغالبون الموت. ويهزءون بجبروت إجزرسيس، حتى كسروا شوكته وظهروا على أساطيله وأطعموا السمك
ووحوش الماء لحوم أبطاله
لقد تركت مرتون في نفس إسخيلوس أثراً لا يعد له إلا أثر سلاميس، وليس يعدل هذين الأثرين شيء آخر في نفس الشاعر الجندي الذي أخذ يبني مجده الأدبي على أكوام من أشلاء القتلى الذين أكلتهم هذه المجزرة الهائلة بين عدو قوي كثير العدد وبين أمة ضعيفة بعددها كثيرة بوطنيتها استطاعت ببضعة آلاف أن تقهر أكثف جند عرفه التاريخ
خرج إسخيلوس من هاتين المعركتين شخصاً أخر شديد الإيمان بقوة السماء مكبراً لسلطان الآلهة أيما إكبار، مقتنعاً باليد العليا التي تسهر على الكون وتدبر أموره، وترد الحق إلى المظلوم وتكبح جماح الظالم مهما كان ذا حول وطول وقوة. . . وقد ظهرت هذه الروح في أكثر دراماته التي نظمها بعد هذه الحرب، وهي أروع ما نظم.
أما سنة 501 فهي مفتتح القرن العظيم الباهر، القرن الخامس قبل الميلاد الذي يزهى على الزمان بما أفاء على الإنسانية من علم وأدب ومن نور وعرفان. . . وقد كان مطلعه مطلع سعد لعبقرية إسخيلوس، فقد مثلت أولى دراماته في أولى سني هذا القرن، وسنه حينذاك لم تتجاوز السادسة والعشرين.
ولعل عام 484 ق. م هو أهم الأعوام في تاريخ الأدب اليوناني جميعاً. . . وذلك أن مؤرخي هذا الأدب يجعلونه بداءة الفترة الذهبية المجيدة ليس في تاريخ الأدب اليوناني فحسب، بل في تاريخ الأدب الصرف قاطبة، وهم يبدءونها بهذا العام الذي أحرز فيه إسخيلوس أولى جوائزه الأدبية في المسابقة العامة بدرامة مفقودة قلب بها الأوضاع القديمة رأساً على عقب، ووضع الدعامة القوية القويمة للمسرح الحديث، حتى ليصح أن يطلق على هذه السنة: السنة الأولى تاريخ الأدب المسرحي.
وهم يجعلون هذه الفترة بين عامي 484 و431 حينما أحرز يوريبيدز أخرى جوائزه بدرامته الخالدة ميديا. . . وعلى ذلك تمتد الفترة إلى ثلاث وخمسين سنة مثل فيها على مسرحي أثينا أكثر من ألف درامة منها تسعون لأسخيلوس ومائة وثلاث وعشرون لسوفوكليس وثمانون ليوريبيدز وأكثر من مائتين لشاعر عظيم لم يحفظ لنا الأثر اسمه ومئات أخرى لشعراء نعرف بعضهم ونجهل بعضهم الآخر. . . وليس الكم فقط هو العجيب في هذا الإنتاج الباهر، بل الكيف أيضاً هو الذي يسحر ويبعث على الدهش، فهذه
الدرامات السبع الباقية فقط من إسخيلوس، والسبع الباقية من سوفوكليس، والثماني عشرة الباقية من يوريبيدز هي ثروة فائقة من تراث هذه الفترة، والقارئ يقف حيالها ذاهلاً لعمق التفكير وجمال الأداء، وقوة السبك، وسمو الغاية والخلو من الزيف والبهرج. . . وهي مع ذلك ليست أجمل ما أبقت عليه يد العفاء من الثروة الضائعة، إذ أن أكثر الدرامات التي فاز بها الشعراء بالجوائز الأولى ما تزال مفقودة، والأمل معقود على نجاح الكشف في أسكندريتنا للحصول على الغرر والدرر من نتاج الذهن اليوناني العظيم.
وقد لا نجد في تاريخ الأدب المسرحي فترة تشبه هذه الفترة اليونانية إلا فترة الأربعين الذهبية في تاريخ الأدب الإنجليزي في عصر اليصابات، فقد كتبت ومثلت في هذه الفترة جميع درامات شكسبير ومارلاو وبن جونسون وبومون وفلتشر وماسنجر

وويستر وهايود. . . الخ. . . غير أن الشعراء الإنجليز في هذه الفترة كانوا على كل حال تلاميذ هذا السلف الصالح من شعراء أثينا، وكثيراً ما سطوا على آثارهم واستباحوا أخيلتهم واستعملوا طرائقهم التي أوفوا بها على الغاية.

وكما تتشابه الفترتان في الإنتاج الأدبي للمسرح فكذلك تتشابهان في الباعث على النهضة الأدبية في كل منهما. فلقد كان الباعث في الفترة اليونانية هو هذه الحرب الضروس التي شنتها فارس على اليونان والتي كانت مرحلتها الأولى في مراثون، ومرحلتها الثانية في سلاميس حيث حطم أسطول إجزرسيس، مما أيقظ الروح القومي في هيلاس وأجج نيران الوطنية في قلوب الأثينيين خاصة، فجاءت النهضة الأدبية المسرحية وليدة هذا الروح.

أما الفترة الإنجليزية فقد جاءت عقب تحطيم الأرمادا الأسباني اللجب الذي أعده فيليب الثاني لغزو إنجلترا. . . وهذا التشابه في الباعث في الفترتين يدل على ما بين الوطنية والأدب من وشائج قوية يزيدها النصر قوة ويمهد لها بمزيج عجيب من الحماسة والكبرياء يقابله مزيج آخر من المآسي والآلام.

وبعد، فماذا صنع إسخيلوس من هذا كله؟ وكيف ثار ثورته على الماضي العتيق وشاد هذا البنيان الشامخ؟ وما هي هذه المثل التي كان ينشدها ويعمل على إقامتها لتكون نبراساً للذهن اليوناني؟ وإلى أي حد نجح في جهاده الشاق الجميل الطويل؟ ومن يا ترى كان عونه في هذا الجهاد المشكور المبرور؟ وكيف يستطيع كاتب أن يستعرض كل هذا

التاريخ، وأن يلخص درامات إسخيلوس السبع أسرع تلخيص وأقصره في مثل هذه الفصول المقتضبة الضيقة؟

روى المؤرخون أن أسخيلوس كان لا يأنف أن يرى النقص في إحدى دراماته فيعترف به قبل أن يأخذه عليه أحد من النقاد ثم يعمل على إصلاحه في الدرامة التي تليها، وقد يحدث أنه يفوز بالجائزة الأولى في إحدى المسابقات بدرامة كان يشك أكبر الشك في نجاحها، فإذا تناول الجائزة لم يأبه أن يلفت الناس حوله إلى نواحي النقص في تلك الدرامة التي حازت إعجابهم واستولت على شعورهم. . . وفي هذا دليل على أن إسخيلوس كان ينشد المثل الأعلى لفن الدرامة، وكان لذلك يدأب على عمل التجارب ليأخذ بالأصلح وليتوقى ما لا غناء فيه، وكان لا يأنف من الانتفاع بجهود الآخرين وتجاربهم، وكان يعنى عناية خاصة (بتكنيك) المسرح فكان بذلك أول المخرجين الأكفاء وأعظمهم. . . وهو أول من خفض عدد أفراد الخورس وزاد عدد الممثلين، وجعل الغناء والإنشاد في المرتبة الثانية بعد الكلام والحوار. وهو أول من أبتكر الثلاثية، أي المأساة الكبيرة التي تتكون من ثلاث مآس تربطها عقدة واحدة ويجمع بينها موضوع واحد. وقد كان يعتبر هوميروس معينه الأول، فكان يقول أن مآسيه فتات من مائدة هومر، لكنه مع ذاك أبتكر الدرامة السياسية وانتزعها من الأحداث الجلائل التي كانت تحدق بوطنه في ذاك العصر. . . وكان يعنى عناية فائقة (بالحبكة) الدرامية في مآسيه ويجري من خلالها تجاريب الحياة التي تمرس بها فكانت دراماته تشبه التماثيل الفنية الرائعة التي يعنى فيها الفنان بإبراز معنى خاص يجتهد في أن يبرز لأول وهلة للرائي فيملك عليه لبه ويستحوذ على إعجابه.

وكان السراة من أهل أثينا وأغنياؤها يتسابقون إلى الإنفاق على درامات إسخيلوس، وقد ثبت أن بركليس نفسه، وهو سيد هذا العصر قد كان ال: (خوريجس لأكثر من درامة من درامات إسخيلوس.

وأبرز ما يلفت الإنسان من دراماته هو هذا الروح السفسطائي الذي يشيع فيها جميعاً، حتى لقد دعاه المؤرخون أول مبشر بمذهب السفسطائيين قبل أن يوجد السفسطائيون، فهو الذي لم يبال أن يتناول في دراماته ذوات الآلهة بالنقد والتجريح، ومهد بذلك لموجة الشك التي طغت على اليونان بعد ذلك. . . حقيقة لقد سبقه كثير من الفلاسفة إلى ذلك، لكن أحداً منهم

لم يجرؤ أن يصنع كما صنع هو حين قدم للمسرح درامته الخالدة العظيمة (بروميثيوث) والتي كانت ثورة على سيد الأولمب فتحت الطريق على مصراعيه للملحد الأكبر وأعظم أدباء اليونانيين (يوريبيدز).

وكان إسخيلوس يؤمن إيماناً تاماً بالقضاء والقدر، وأنه لا حيلة للإنسان في دفع ما يحل

به من أذى ولا سيما إذا تمت النكبة. وكان يعتقد أن كل المصائب هي نتائج لمقدمات تنتهي إليها حتما، وأن كل الأمور العظام هي كذلك نتائج لأمور أقل منها شأناً، ومقدمات لأمور أخرى أجل منها وأعظم. . . وهذه هي وحدة الكون. . .
وكان إسخيلوس يعلى من شأن الديمقراطية ويجعلها الهواء الذي ينبغي أن تستنشقه الإنسانية لتنمو وتترعرع ويطيب غراسها وستمر بنا الأمثال الكثيرة التي يكبر بها شأن الحرية حين نعرض لدراماته. ولا غرو فقد كان جندياً وكان أديباً، وكان يحض قومه على التفكير الحر بل التفكير المطلق. فهو من غير شك أول من مهد بأدبه لسيادة أثينا، وسيطرتها على جميع هيلاس بعد أن كانت ولاية أيونيوية لا شأن لها. وبالتالي فهو صاحب الفضل على الأدب وعلى المدنية مثل انبثاقهما في القرن الخامس قبل الميلاد.

دريني خشبة

في ذكرى يوم الاستقلال

إلى بلدي الحبيب

للأستاذ علي الطنطاوي

في مثل هذا اليوم (8 مارس) ولد الاستقلال السوري. الذي (عاش عامين ثم مات في (ميسلون)

متى يا زمان الشؤم يعود بلدي كما برأه الله دار السلام ومعرض الجمال، ومثابة المجد والغنى والجلال؟ متى يرجع بَرَدى يصفق بالرحيق السلسل؟ متى تثوب الأطيار المروعة إلى أعشاشها التي هجرتها، ورغبت عنها حين سمعت المدافع ترميها بشواظها الحامي؟ متى تؤوب تلك الحمائم فتشدو على أفنان الغوطة تنشد أغنية السلام؟

متى؟ متى يا زمان الشؤم؟

أتظل الأشجار عارية في جنات الغوطة. لا تعلو هاماتها تيجان الزهر، ولا تتدلى أغصانها بعناقيد الثمر، لأن الزراع قد أغفلوها فلم يتعهدوها بالسقيا، ولم يجروا إليها بالماء؟ أتبقى هذه الحقول والجنائن جرداء قاحلة لأن الفلاحين انصرفوا عنها مستجيبين لنداء الوطن الجريح. الممزق الأوصال، مهطعين إلى داعي الجهاد حين أذن بهم: حي على خير العمل؟

متى؟ متى يا زمان الشؤم يستريح الشام (بلدي الحبيب)؟

ما رأيتك استرحت يا (بلدي الحبيب) ساعة واحدة، فهل كتب عليك أن تظل أبداً في تعب وعناء؟ إني لم أكد أتبين نور الحياة وأرى وجه الدنيا، حتى رأيت المدرس يدخل علينا (معشر الأطفال) مربد الوجه فزعاً مذعوراً. فسألنا: ماله. . . فقالوا لنا كلاماً لم نفهم له معنى، قالوا: إنها الحرب! ولكن إي حرب. . . إن المدرسة مفتوحة، والأسواق قائمة، والمدينة هادئة مطمئنة فأين هي هذه الحرب؟

قالوا: هي هناك في مكان بعيد. فضحكنا وقلنا: هل هناك أبعد من (الصالحية) أو (المزة) إننا لا نبلغها حتى نمشي ساعة على الأقدام، وليس فيها حرب، فأين هي هذه الحرب؟

وهزئنا ولبثنا نلعب ولكن الأيام أرتنا وا أسفاه هذه الحرب: رأيناها في أسواق دمشق، عندما شاهدنا القتال يدور فيها كل صباح من أجل رغيف من الخبز، والفرن مغلق ما فيه إلا كوة واحدة مفتوحة، يقوم عليها الخباز والجندي إلى جانبه، يدعو واحداً بعد واحد من هؤلاء الناس الذي سدوا الشارع بكثرتهم لا يطلبون صدقة ولا إحساناً، وإنما يطلبون الخبز بالذهب فلا يجدونه، وما شحت السماء بالقطر وما أجدبت الأرض، ولكن (حلفاءنا. . .) الألمان. استأثروا بأطايب القمح وتركوا لنا شر الحنطة وأخبث الشعير ثم يا ليت أنا وجدناه.

نعم، لقد رأينا (نحن الأطفال) الحرب في شوارع دمشق حين أبصرنا الرجال يأكلون قشور البطيخ، وينبشون المزابل من الجوع، ثم رأيناها أوضح وأظهر، حين لم نعد نبصر في الشام رجالاً لأن الرجال أكلتهم الحرب. . . ثم رأيناها أشد ظهوراً بطلعتها الكالحة القبيحة حين تعودنا مرأى جثث النساء والأطفال الذين ماتوا من الجوع، نراها كل صباح ومساء، في غدونا إلى المدرسة ورواحنا منها. . .

في وسط هذه المذبحة المرعبة، وخلال رائحة البارود، وعزيف المدافع، وإعوال

اليتامى والثاكلات. . . نشأت وعرفت الحياة فرأيت (البلد الحبيب) نصفه مقبرة للأموات، ونصفه مستشفى لمن ينتظر الموت.

وفي ذات صباح أفقنا على قصف يزلزل البلد، ويهز الدنيا، فسألنا: ما الخبر؟ قالوا: البشارة. هذا مستودع الذخائر يتفجر ويحترق، لقد أباده الألمان قبل هزيمتهم، لقد انتهت الحرب، وانتهى حكم الظالمين من أحفاد جنكيز خان!. . . وبعد ساعة واحدة يصل الشريف.

قلنا: من الشريف؟ قالوا: فيصل بن الحسين، هيا هبوا لاستقباله، فنهضنا ولكنا لم نبادر إلى استقباله، وإنما بادرنا إلى الجيش المنهزم نذبحه! فلما فرغنا منه مسحنا أيدينا من دمه وعدنا نستقبل الشريف. . .

نسيت دمشق جوعها وتعبها، ونسيت نصف رجالها الذين ماتوا على شاطئ غاليبولي وعلى ضفاف الترعة في سبيل مصالح الألمان، ونسيت أحزانها على من عانقتهم حبال المشانق في ساحة المرجة في دمشق والبرج في بيروت، وتكلفت دمشق الابتسام بل لقد ابتسمت حقيقة لما رأت وجه فيصل، وذهبت تبتغي أن تنثر على موكبه من أزهار الغوطة جنة الدنيا، فلم تجد في الغوطة زهرة واحدة، لقد صيرتها الحرب قاعاً صفصفاً، فنثرت على

موكبه أزهار القلوب: دموع الفرح، وهتاف المحبة وتصفيق الإعجاب وحيت لأول مرة العلم العربي الذي يرفرف اليوم فوق بغداد.

وأحبت دمشق فيصلاً أصدق الحب، كما أحبها فيصل، ووثبت ترقص من الطرب وتغني حتى كأن كل يوم من حكمه عيد وفي كل بقعة من الشام عرس، وفاض الخير وابتسم الزمان، وطغت الحماسة على الأفئدة، وعم البشر الوجوه، وولدت دمشق الأموية عاصمة الأرض مرة ثانية. . . وظننت أنك استرحت يا بلدي الحبيب!

ولكنا لم نلبث إلى قليلاً حتى سمعنا صوت النذير. . . ماذا؟ ماذا هناك؟ فقال: انهضوا دافعوا عن استقلالكم الوليد، لقد جاءت القوة العاتية تخنقه في مهده. . . فجن جنون دمشق، وعصفت النخوة في رؤوس بنيها، فلم يسمعوا قول فيصل الحكيم ولا أقوال العقلاء من صحابته، ولم تمض العشية وينبثق الفجر حتى كانت دمشق كلها في بقعة الشرف في (ميسلون) ولم يؤذن الظهر حتى رجعت دمشق من ميسلون وقد تركت فيها استقلالها الوليد وقائدها الشاب صريعين مجندلين على وجه الثرى، هذا قتيل شهيد، وذاك جريح مريض، وفقدت دمشق كل شيء، ولكنها لم تفقد الشرف، كما قال من قبل فرانسوا الأول ملك الأقوياء. . . الذين دخلوا دمشق دخول المنتصرين الفاتحين. . .

وعاد (بلدي الحبيب) إلى حياة الرعب والأسى والنضال. . .

ولكنه لم يخف ولم يجبن. لقد خسر في (ميسلون) ولكنه حفظ الدرس الذي ألقته عليه الحياة في ذلك اليوم، واستراحت دمشق حيناً ثم قفزت قفزة اللبؤة الغضبى، فإذا هي في العرين (في الغوطة الخضراء) وإذا الأقوياء بجيشهم كله وعتادهم يقفون أمام الثائرين، وهم بضع مئات يقودهم رجل أمي من دمشق كان خفيراً من خفراء الأحياء، فلا يستطيع الأقوياء الظفر بهم، فيعودون حنقين، فيسلطون نيران مدافعهم على المدينة الآمنة المطمئنة، فلا يروعها إلا جهنم قد فتحت أبوابها من فوقها، فيخرج أهلها من منازلهم تاركين كل ما فيها للنار، ويمسي المساء على دمشق وثلثها خرائب كخرائب بابل وقد كانت في الصباح أجمل وأبهى وأغنى قصور دمشق. . .

وتعيش دمشق سنتين وسط الرعب والنار والحديد، ثم يحل السلام وتخرج دمشق من المعركة وقد نجحت في الامتحان الثانوي في الغوطة، كما نجحت من قبل في الامتحان الابتدائي في ميسلون. .

وأحسب أنك استرحت يا (بلدي الحبيب)!

أحسب أنك استرحت، فإذا النار تسري في أحشائك، وإذا المعارك في أسواق دمشق. . . حول صناديق الانتخاب، الذي أراده الأقوياء صورياً وشكلياً، وأباه الشعب إلا انتخاباً حقيقياً، فلما لم يكن ما يريد الشعب حطم الصناديق، وهدم قاعات الانتخاب وانطلق ثائراً مرعداً مبرقاً، يهزأ بالحديد ويفتح صدره للبارود. . . وظفر الشعب، وكيف لا يظفر وقد امتحن مرتين. . .

فقلنا: قد استراح ولكنه لم يستريح وإنما دعي إلى الامتحان العالي، إلى النضال الصامت المرعب، فثبت وناضل، ولبثت دمشق خمسين يوماً كاملة، وهي مضربة ليس فيها حانوت خباز أو بقال، وليس فيها قهوة مفتوحة، ووقعت المعارك في الأسواق وعلى أبواب المسجد الأموي، فأقبل النساء بصدورهن على الرصاص، وهجم الأطفال على الدبابات، وعزمت دمشق عزماً ثابتاً على الموت أو الظفر، وعرف العدو أنها لن تُفل عزيمتها أبداً، ولن تلين قناتها فلانت قناته ودعاها إلى الصلح أو التحالف. . .

وهتفنا هذه المرة من أعماق القلوب: لقد استراحت (بلادنا العزيزة). وعادت أيام فيصل مرة ثانية، ودقت طبول البشائر وأديرت كؤوس الفرح، ورجعت الأعراس. . .

ولكن الأعراس لم تتم. . . لم تتم يا زمان الشؤم!. . .

هذا صوت النذير العريان، وهذه ألسن النيران، وهذا صوت البركان، فماذا يحمل إلينا الغد يا زمان، أي مصيبة جديدة يأتينا بها؟ أكتب علينا ألا نستريح ولا نهدأ أبداً؟

لا بأس يا زمن الشؤم، إننا نرحب بالمصائب فسقها إلينا، إننا بنو المجد والحرية والحياة، فلا أمتعنا الله بالحياة إن لم ننتزعها من بين فكي الموت انتزاعاً. . .

وستحيا أنت يا (بلدي الحبيب) ماجداً حراً ولو متنا نحن ماجدين أحرارا!

(بغداد)

علي الطنطاوي

باقة من الفلسفة الإسلامية

لماذا يجب ألا نخشى الموت؟

(مهداة إلى معالي الأستاذ الجليل وزير الأوقاف)

للأستاذ محمد حسن ظاظا

(ما الموات إلا تمام حد الإنسان لأنه حي ناطق ميت، فالموت تمامه وكماله، وبه يصير إلى أفقه الأعلى)

(عن الفيلسوف مسكويه)

كثيراً ما ادعى المتعصبون إلى للفكر اليوناني أن الشرقيين لم يحذقوا التدليل النظري المحكم كما حذقه اليونان وأن الفلسفة الإسلامية لا تكاد تخرج في مجموعها عن آراء أفلاطون وأرسطو بحيث أن كل ما هناك من فرق بينهما لا يستطيع أن يشهد للإسلاميين بالخلق المجيد والإبداع الطريف! ومهما تكن أسباب هذا الادعاء من جهل وتعصب، فأظن أنه ليس أنجح في دحضه من نشر آيات الفلسفة الإسلامية والتعليق على ما فيها من أوجه الطرافة والإبداع.

لذلك أقدم للقراء اليوم باقة من باقات الفيلسوف (مسكويه) الذي حدثتهم عنه في العام الماضي. وأزعم أن هذه الباقة من أقوى وأجمل وأدق آيات الفلسفة الإسلامية تدليلاً وإبداعاً؛ وأنها لا تقل في موضوعها عن كتابات الفلاسفة اليونانيين شمولاً واتساقاً وجمالاً وتحليلاً!

وموضوع هذه الباقة هو: (دفع الغم من الموت!) أو لماذا يجب ألا نخشى الموت. وأحسب أنك تقدر تماماً خطورة هذا الموضوع! بل أحسب أنك لا تدري في الحياة ما هو جدير حقاً بالخوف منه، والرعب غير الموت: ذلك البلاء الداهم الذي يلبسنا ثوب الحداد ويمزق منا الصدور ويقطع نياط القلوب! ذلك الذي يصبغ الكثير من أيامنا بالسواد ويطلق أصوات الأمهات والزوجات والأطفال بالصياح والعويل والشكوى المريرة والأنين المبحوح! أجل أحسب أنك تقدر ذلك كله! وتعرف أن اطمئنان القلب للعقائد الدينية يحتاج في الكثير من الأحيان إلى برهان العقل كيما يزداد ثباتاً ورسوخاً؛ ولذلك كان من أهم الأبواب في الفلسفة الإسلامية باب التدليل على صحة ما في الدين من أقوال وقضايا ووعود؛ وكان موضوع (الموت) من أهم القضايا التي تناولها ذلك الباب.

ويعرض مسكويه لهذه المسألة في المقالة السابعة من كتابه الخالد (تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق). وهي مقالة (رد الصحة على النفس ومعالجة أمراضها) وكان قد وضع في المقالات السابقة دستوره الخلقي الإيجابي الذي أثبت فيه روحانية النفس البشرية وخلودها، وحدد الفضائل وأضدادها، وبين السعادة ودرجاتها وكيفية الحصول عليها ووسائل حفظ الصحة على النفس السليمة. فرأى أن يختم الموضوع بمعالجة النفس المريضة ودفع أهم ما تتعرض له في حياتها من مخاوف وأحزان.

لذلك نراه يقول بعد فراغه من معالجة (الخوف) وأسبابه:
فهذه جملة الكلام على الخوف المطلق، ولما كان أعظم ما يلحق الإنسان منه هو) خوف الموت، وكان هذا الخوف عاماً وهو مع عمومه أشد وأبلغ من جميع المخاوف، وجب أن نبدأ بالكلام فيه فنقول:
إن الخوف من الموت ليس يعرض إلا لمن يدري ما الموت على الحقيقة، أولاً يعرف) إلى أين تصير نفسه، أو لأنه يظن أن بدنه إذا انحل وبطل تركيبه فقد انحلت ذاته وبطلت نفسه بطلان عدم ودثور، وأن العالم سيبقى موجوداً وليس هو بموجود فيه كما يظنه من يجهل بقاء النفس وكيفية المعاد، أو لأنه يظن أن للموت ألماً عظيماً غير ألم الأمراض التي ربما تقدمته وأدت إليه وكانت سبب حلوله، أو لأنه يعتقد عقوبه تحل به بعد الموت، أو لأنه متحير لا يدري على أي شيء يقدم بعد الموت، أو لأنه يأسف على ما يخلفه من المال والقنيات؛ وهذه كلها ظنون باطلة لا حقيقة لها.
أما من جهل الموت ولم يدر ما هو على الحقيقة فإنا نبين له أن الموت ليس بشيء) أكثر من ترك النفس استعمال آلاتها وهي الأعضاء التي يسمى مجموعها بدناً كما يترك الصانع استعمال آلاته وأن النفس جوهر غير جسماني وليست عرضاً، وأنها غير قابلة للفساد،. . . فإذا فارق - (هذا الجوهر) - البدن كما قلنا، وعلى الشريطة التي شرطنا، بقي البقاء الذي يخصه، نقى من كدر الطبيعة، وسعد السعادة التامة، ولا سبيل إلى فنائه وعدمه، فإن
الجوهر لا يفنى من حيث هو جوهر، ولا تبطل ذاته، وإنما تبطل الأعراض والنسب والإضافات التي بينه وبين الأجسام بأضدادها. فأما الجوهر فلا ضد له. وكل شيء يفسد فإنما فساده من ضده. . . وإن أنت تأملت الجوهر الجسماني الذي هو أحسن من ذلك الجوهر الكريم، واستقريت حاله، وجدته غير فان ولا متلاش من حيث هو جوهر، وإنما يستحيل بعضه إلى بعض،. . . هذا في الجوهر الجسماني القابل للاستحالة والتغيير، فأما الجوهر الروحاني الذي لا يقبل الاستحالة ولا التغير في ذاته. . . فكيف يتوهم فيه العدم والتلاشي؟؟.
وأما من يخاف الموت لأنه لا يعلم إلى أين تصير نفسه، أو لأنه يظن أن بدنه إذا انحل) وبطل تركيبه فقد انحلت ذاته وبطلت نفسه، وجهل بقاء النفس، وكيفية المعاد، فليس يخاف الموت على الحقيقة وإنما يجهل ما ينبغي أن يعلمه، فالجهل إذا هو المخوف، إذ هو سبب الخوف، وهذا الجهل هو الذي حمل الحكماء على طلب العلم والتعب به. . .
فاستحقروا جميع ما يستعظمه الجمهور من المال والثروة واللذات الحسية. . .
واقتصروا منها على المقدار الضروري في الحياة وتسلوا عن فضول العيش. . . (. . .
على أن من خاف الموت الطبيعي للإنسان فقد خاف ما ينبغي أن يرجوه، ذلك أن هذا الموت هو تمام حد الإنسان لأنه حي ناطق ميت، فالموت تمامه وكماله، وبه يصير إلى أفقه الأعلى، ومن علم أن كل شيء هو مركب من حده، وحده مركب من جنسه وفصوله، وأن جنس الإنسان هو الحي، وفصلاه الناطق والمائت، علم أنه سينحل إلى جنسه وفصوله لأن كل مركب لا محالة منحل إلى ما تركب منه، فمن أجهل ممن يخاف تمام ذاته، ومن أسوأ حالاً ممن يظن أن فناءه بحياته ونقصانه بتمامه؟. وذلك أن الناقص إذا خاف أن يتم فقد دل من نفسه على غاية الجهل، فإذا الواجب على العاقل أن يستوحش من النقصان، ويأنس بالتمام، ويطلب كل ما يتممه ويكمله، ويشرفه، ويعلي منزلته، ويخلي رباطه من الوجه الذي يأمن به الوقوع في الأسر، لا من الوجه الذي يشد وثاقه ويزيده تركيباً وتعقيداً. . .
وأما من ظن أن للموت ألماً عظيماً غير ألم الأمراض التي ربما اتفق أن تتقدم الموت) وتؤدي إليه، فعلاجه أن نبين له أن هذا ظن كاذب لأن الألم إنما يكون للحي والحي هو القابل لأثر النفس، وأما الجسم الذي ليس فيه أثر النفس فإنه لا يألم ولا يحس. . .
وأما من خاف الموت لأجل العقاب الذي يوعد به فينبغي أن نبين له أنه ليس يخاف الموت بل يخاف العقاب، والعقاب إنما يكون على شيء باق بعد البدن العاثر. . . فهو إذا خائف من ذنوبه لا من الموت، ومن خاف عقوبة على ذنب فالواجب عليه أن يحذر ذلك الذنب. . .
وأما من زعم أنه ليس يخاف الموت وإنما يحزن على ما يخلف من أهله وولده وماله ونسبه، ويأسف على ما يفوته من ملاذ الدنيا وشهواتها، فينبغي أن نبين له أن الحزن

تعجل ألم ومكروه على ما لا يجدي الحزن إليه بطائل، وسنذكر علاج الحزن في باب مفرد له خاص لأنا في هذا الباب إنما نذكر علاج الخوف، وقد أتينا منه على ما فيه مقنع وكفاية، إلا أنا نزيده بيانا ووضوحا فنقول:

(إن الإنسان من جملة الأمور الكائنة، وقد تبين في الآراء الفلسفية أن كل كائن فاسد لا محالة، فمن أحب ألا يفسد فقد أحب ألا يكون، ومن أحب ألا يكون فقد أحب فساد ذاته، فكأنه يحب أن يفسد، ويحب ألا يفسد، ويحب أن يكون، ويحب ألا يكون، وهذا محال لا يخطر ببال عاقل، وأيضاً فإنه لو لم يمت أسلافنا وآباؤنا لم ينته الوجود إلينا، ولو جاز أن يبقى الإنسان لبقى من تقدمنا، ولو بقى من تقدمنا من الناس على ما هم عليه من التناسل ولم يموتوا لما وسعتهم الأرض. . . قياما فكيف قعودا أو متصرفين؟. . .

فقد ظهر ظهورا حسيا أن الموت ليس برديء كما يظنه جمهور الناس وإنما الرديء هو الخوف منه، وأن الذي يخاف منه هو الجاهل به وبذاته. . . وأما جوهر النفس الذي هو ذات الإنسان ولبه وخلاصته فهو باق وليس بجسم. . . وإنما (يستفيد) بالحواس والأجسام كمالا فإذا كمل بها ثم خلص منها صار إلى عالمه الشريف القريب إلى بارئه).

وبعد فهذا تدليل مسكويه على وجود عدم الخوف من الموت بناه في مجموعه على روحانية النفس وأقامه على المنطق المستقيم والذوق السليم، فهلا ترى معي أنه أبدع في الكثير من حججه إبداعاً جديراً بالتقدير؟ الحق أننا ندعو ملحين إلى قراءة كتابه (تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق)، وإلى المقارنة بينه وبين كتب أرسطو وأفلاطون في الأخلاق لأنا نعتقد أنه يفوقهم في الكثير من فصوله قوة ومنطقاً واتساقاً وانسجاماً. وأنه يقترب في بعض أفكاره من الآراء الفرنسية التي ظهرت أخيراً وعالجت نواحي علم الأخلاق.

محمد حسن ظاظا

مصرع حُبَيْب

للأستاذ ناجي الطنطاوي

سار الرجال صامتين، يخبون بأقدامهم على رمال الصحراء الملتهبة، لا يثنيهم عن غايتهم شيء، ولا يشغلهم عن مرمامهم أمر، وكان عددهم عشرة يرأسهم فتى غض الإهاب، ذو عزم ومنة، هو عاصم أبن ثابت، أرسلهم النبي صلى الله عيه وسلم عيناً على الأعداء في بعث الرجيع، يستطلعون أخبار العدو ويتعرفون إلى عدده وعدته. . . كانوا يسيرون مطمئنين آمنين لا يداخل نفوسهم حذر ولا ريب، وماذا يحذرون وهم في هذه الصحراء المترامية الأطراف، نفر قليل لا يتميزون عن سواهم من العرب وليست تبدو عليهم أية شارة تبعث الشك في نفوس من يراهم؛ كانت نفوسهم تفيض ثقة بالله وكانت قلوبهم عامرة بالإيمان الثابت الذي لا تزعزعه العواصف ولا توهنه النكبات، وكانوا قد وطدوا العزم على القيام بما عهد إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مهما لاقوا في طريقهم من المصاعب والأخطار، لا يثنيهم عنه إلا الموت.

ولما مروا في طريقهم بمكان يقال له الهداة جاء رجل من قريش إلى بني لحيان وأخبرهم أنه رأى نفراً من المسلمين يجتازون بهم ولا يدري أين يريدون، فلم يكد القوم يسمعون كلامه حتى داخلهم الشك في أمر هؤلاء، وتبادلوا النظرات، وصمتوا يفكرون، ثم ثاروا إلى نبالهم فاحتملوها وساروا يقتفون آثار المسلمين ويجدون في طلبهم. وكانوا مائة رجل نصف رماة.

أحس أصحاب عاصم بالخطر المداهم الذي تهددهم، ورأوا أنهم قد أخذوا على غرة، فاضطربوا ووجموا وعراهم الذهول، ولكن عاصماً صاح بهم قائلاً:

- لا تقفوا هكذا، أسرعوا إلى هذا الفدفد الذي أمامكم نمتنع به قبل أن نصبح فريسة في أيدي الأعداء. . .

. . .فأسرعوا إليه كما أمرهم، وتحصنوا فيه، ولبثوا ينتظرون قضاء الله فيهم وبأسرع من لمح البصر، كان الرماة ومن معهم محيطين بالمسلمين إحاطة السوار بالمعصم ينظرون إليهم نظر الذئب إلى فريسته التي يخاف أن تفر من بين يديه، ووطد المسلمون العزم على استقبال الموت بثغور باسمة وقلوب مطمئنة وهم يتحرقون شوقاً إلى رؤية

الجنة وما أعد الله لهم فيها من نعيم مقيم وسعادة خالدة.
. . .ـ انزلوا وأعطوا بأيديكم، ولكم العهد والميثاق ألا نقتل منكم أحداً
سمع المسلمون هذا البلاغ، فوقفوا واجمين للمرة الثانية، وفكروا في هذا الذي قاله المشركون، أهو قول صدق وشرف، أم هو مَيْن وخديعة؟ ومتى كان المشركون يصدقون في أقوالهم ويوفون بعهودهم؟ وهل يجدر بالمسلم أن يركن إلى مثل هذا الوعد؟.
أسئلة متوالية، جالت في خواطر المسلمين في تلك اللحظة الرهيبة الحاسمة، ولبثت تطلب جواباً، وفكروا قليلاً ثم اتجهوا بأبصارهم إلى رئيسهم ليسمعوا جوابه، وليعرفوا موقفه، فما لبث أن خاطبهم بقوله:
- أما أنا، والله لا أنزل في ذمة كافر، اللهم أخبر عنا نبيك وانتظر المشركون قليلاً، ليعلموا أثر كلامهم في نفوس المسلمين وليسمعوا جوابهم، ولم يطل بهم الانتظار، إذا وجهوا نبالهم إلى صدور المسلمين وأطلقوها فأصابت عاصماً وسبعة من أصحابه سقطوا شهداء في سبيل الله، وطارت أرواحهم الطاهرة لترفرف في سماء الخلود، وتحظى بنعيم الله الأبدي، وبقي منهم ثلاثة لم يكتب لهم أن ينالوا ما نال إخوانهم من شرف الشهادة، فأرادوا أن يضحوا بأنفسهم في سبيل تجربة أحبوا أن يقوموا بها، وفي سبيل درس رغبوا أن يستفيد منه المسلمون بعدهم؟ ترى هل يفي المشركون بتعهدهم ويصدقون وعدهم؟ ما دمنا على أبواب الآخرة فلنقم بهذه التجربة، ونزلوا فسلموا أنفسهم على العهد والميثاق، ولم يكد المشركون يستمكنون منهم ويعلمون أنهم صاروا في قبضتهم حتى أطلقوا أوتار قسيهم فربطوهم بها، فصاح أحد المسلمين:
- هذا أول الغدر، والله لا أصحبكم، إن لي أسوة بأصحابي الذين قتلوا.
وأبى أن يسير معهم فقتلوه، وساقوا الاثنين الباقيين، وكان أحدهما يدعى خبيب بن عدي، صمم على أن يتم التجربة التي بدأ بها مهما كلفه ذلك من المتاعب ليرى نتيجتها، وليختم الدرس الذي أحب أن يستفيد منه المسلمون.
- من هذا الذي أراه عندك يا ماوية؟
- هذا أسير لدي. ألا ترين القيد في رجليه؟
- ما أسمه؟
- إنه يدعى خبيب بن عدي الأنصاري.
- وماذا جاء به إلى دارك؟
- أغار قومي على نفر من المسلمين فقتلوهم وأسروه وابتاعه بنو الحارث بن عامر، إذا يقال إنه هو الذي قتل الحارث يوم بدر، وأبقوه عندي حتى تنقضي الأشهر الحرم ليقتلوه.
- وكيف رأيت سيرته ومعاملته؟
- أشهد أنه لمن أفضل الناس وأشرفهم ما عهدت فيه الكذب ولا الفحش في القول، وما رأيت منه إلا اللطف والدعة والمعاملة الحسنة، ما دخلت عليه في ساعة من ليل أو نهار إلا رأيته يقوم ويقعد ويخر ساجداً، فسألته عن ذلك فأجابني: أنه يعبد الله ويصلي له، وهو يرتل كل ليلة كلاماً جميلاً يسميه القرآن بصوت عذب فتنني وفتن كل النساء اللائى سمعنه وإنهن ليجتمعن عندي في كثير من الأحيان فيسمعن صوته فيبكين وترق له قلوبهن، وإني لأقول له: هل لك من حاجة؟ فيجيبني قائلاً: لا، إلا أن تسقيني الماء العذب، ولا تطعميني ما ذبح على النصب وتخبريني إذا أرادوا قتلي.
- أهو كثير الجزع من الموت يا ماوية؟
- كثير الجزع؟ إني لم أره ذكر الموت إلا ابتسم وطرب، ولقد عجبت من حاله هذه فسألته عنها فقال: أو لا يسر ويطفر طرباً وسروراً من ينتقل من دار شقاء إلى دار نعيم وهناء؟ إنني إذا مت انتقلت إلى جنة عرضها السموات والأرض فلم لا أبتسم وأسر.
فحدقت المرأة في وجه مضيفتها وقالت متعجبة:
- عجيب أمر هذا الرجل، إنني لا أعرف رجلاً آخر بهذه الشمائل والصفات إلا أن يكون من أصحاب محمد.
فاقتربت ماوية منها وسارتها قائلة:

- إنني أقسم لك أنني رأيته أمس بعيني هاتين يأكل قطفاً من عنب وهو موثوق في الحديد ولا يدخل عليه أحد غيري وما أراك مصدقتي فيما أقول.
فضحكت المرأة وقالت:
- كيف تريدين مني أن أصدقك يا ماوية وليس هذا أوان العنب وما في مكة كلها من ثمره شيء؟
- هذا ما أعجب له، وأقسم أنني غير واهمة ولا متخيلة، وما أدري تفسير ذلك.
ونهضت ماوية فحملت ما عندها من طعام، ودخلت به على السجين، ووضعته بين يديه، وانتظرت حتى أتم صلاته، فالتفت إليها وابتسم، وتناول الطعام من يدها دون أن يفوه بكلمة.
ولم يرق لماوية صمته فقالت له:
- هل لك من حاجة؟
فقال: لا، إلا أن تسقيني الماء العذب، ولا تطعميني ما ذبح على النصب، وتخبرني إذا أرادوا قتلي.
ولما علمت أن جوابه لن يتبدل، طمأنته وتركته.
- يا للهول! ماذا ترى عيناي؟ أهذا جزاء إكرامي لك وثقتي بك؟
- خفضي عليك يا ماوية، إنني لا أزال عند حسن ظنك بي.
- أتقول هذا، وابني في حضنك والموسى في يدك؟ ليتني لم أعرك هذا الموسى.
فابتسم الأسير وأجابها قائلاً:
- لا تغضبي هكذا يا ماوية، إنني لم أطلب منك إعارتي هذا الموسى لأقتل به ابنك، معاذ الله أن أفكر في هذا العمل الشائن، إن ديني يمنعني من ذلك يا ماوية، وما كنت لأفعل ذلك ما حييت؛ ولكن ابنك حبا حتى وصل إلى، وجلس على ركبتي، وكان الموسى في يدي، فلاطفته وداعبته، ولم يخطر لي أن أمسه بأذى، ولعلك ذكرت واقعة الأمس فجزعت. . .
- أجل يا خبيب، ذكرت مزاحك بالأمس عندما طلبت مني أن أعيرك الموسى، وقلت لي عندما صار في قبضة يدك: قد أمكن الله منك. . . أتدري أنك أخفتني بهذا المزاح؟
- إنك لم تعرفيني بعد، ولا أراك تعرفيني إلا يوم تسلمين، فتنجلي لك إذا ذاك حقيقة المسلم. والآن دعيني وشأني، إنني أريد أن أستعد للموت، ألم تقولي لي إنهم أزمعوا قتلي اليوم؟
- بلى.
ولم تمضي ساعة حتى أقبل القوم يهرولون، حاملين حرابهم ونبالهم، وهم مستبشرون فرحون، ولما دخلوا على خبيب فكوا القيد من رجليه وقالوا له:
- هلم يا خبيب، استعد للموت، إنه ليزعجنا أن تبقى حياً إلى اليوم، ولولا الأشهر الحرم لقتلناك يوم أسرك.
فرفع خبيب رأسه، ونظر إليهم طويلاً، وكانت الابتسامة لا تفارق شفتيه، ثم أطرق ولم يجب.
ولما خرجوا به إلى ساحة الإعدام وأجمعوا على قتله التفت إليهم قائلاً:
- هل تأذنون لي أن أركع ركعتين قبل أن أموت؟
فنظر بعضهم إلى بعض في دهشة وعجب وقالوا: أتصلي وأنت على هذه الحال؟ ألا ترى الخشبة التي سنصلبك عليها؟ ألا ترى رماحنا ونبالنا مصلتة عليك؟ ألا تبكي وتطلب الصفح والعفو؟ افعل ما شئت.
فقام خبيب بين يدي الله، متوجهاً بقلبه وجوارحه إليه وصلى صلاة كلها اطمئنان وكلها خشوع، لم يضطرب قلبه، ولم يتلجلج لسانه، ولم يتبدل لون وجهه، وكان في صلاته هادئاً ساكناً آمناً ولما انتهى التفت إليهم وقال بصوت هادئ عذب:
- والله لولا أن تحسبوا أن ما بي جزع لزدت. اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تبق منهم أحداً ثم أنشأ يقول:

لقد جمع الأحزاب حولي وألبوا ... قبائلهم واستجمعوا كل مجمع
وقد جمعوا أبناءهم ونساءهم ... وقربت من جذع طويل ممنع
إلى الله أشكو كربتي بعد غربتي ... وما جمع الأحزاب لي حول مصرعي
وقد خيروني الكفر والموت دونه ... وقد ذرفت عيناي من غير مجزع

وما بي حذار الموت إني لميت ... ولكن حذاري جحم نار ملفع
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزعّ
فلست بمبدٍ للعدوّ تخشعاً ... ولا جزعاً إني إلى الله مرجعي
ولست أبالي حين أقتل مسلماً ... على أي جنب كان في الله مصرعي
ولم يكد يتم الأبيات ويستغفر الله ويذكره حتى رفعوه على الخشبة وأوثقوه بها فقال:
- اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك، فبلغه الغداة ما يفعل بنا.
وبدأ المشركون يرمونه بنبالهم ويطعنونه برماحهم، فلما بضع لحمه وسال دمه قالوا له:
- أتحب أن محمداً مكانك؟
فأجابهم وهو يغالب نفسه من الألم:
- والله ما أحب أني في أهلي وولدي وأن محمداً صلى الله عليه وسلم شيك بشوكة.
الله أكبر، هكذا فليكن الإيمان، وهكذا فليكن حب محمد صلى الله عليه وسلم، أما والله لو لم يكن الخبيب إلا هذا الموقف لكفاه شرفاً وفخراً وخلوداً، وإن رجلاً في مثل هذا الموقف وعلى مثل هذا الحال، بين الحياة والموت، يجيب بمثل هذا الجواب لهو مسلم بكل ما في كلمة الإسلام من معنى، وبأمثال خبيب هزم المسلمون - على قلتهم - جيوش الشرك والطغيان والظلم وفتحوا ثلاثة أرباع العالم، وبنوا حضارة ونشروا ديناً سيبقى لواؤه مرفوعاً في مشارق الأرض ومغاربها إلى يوم القيامة.
(دمشق)
ناجي الطنطاوي
على قبر زوجها
للأستاذ محمود الخفيف
صَلَّتْ لدَى أَحْجَاره خَاشِعَهْ ... يَا قُدْسَ هَذِى الصَّلاَهْ
الله لِلزَّائِرَةِ الْجَازِعَهْ ... كَمْ هَدْهَدَتْهَا يَدَاهْ
تَطُوفُ فِي نَظْرَتِهاَ الضَّارِعَهْ ... بِنَفْسِهاَ كُلُّ طُيُوفِ الْحيَاهْ
والصَّمْتُ في وَقفَتِهاَ الرَّائِعَهْ ... يَا عَيْنُ لاَ يَبْلُغُ نُطْقٌ مَدَاهْ!
كَمْ يَسْحَرُ الأنفُسَ هَذَا الْجَمَالْ ... بَيْنَ الصَّنَى وَالْحَزَنْ
كَأنماَ تُبْرِزُ تِلْكَ الظِّلاَلْ ... من سِرِّهِ ما كَمّنْ!
وَالْمَوّتْ يُلْقِي مِن سِمَاتِ الجَلاَلْ ... ما عَلِقَ القَلْبُ بِهِ وافتَتَنْ
مَا كَانَ إِلاَّ للصِّبَي والدَّلاَلْ ... والْحُبِّ وَالزِّينَةِ هذا البَدَنْ
وَاهَا لِهذَا المُلْهَمِ الْقَادِرِ ... السِّحْرُ فِي رِيشَتِهْ!
لَوْ طُفْتُ بالواقِعِ لا الْخَاطِرِ ... ما زاد عن صُورَتِهْ
لا يَنْثَنِي عَنْ سِحْرِهَا نَاظِرِي ... إلاّ هَفَا قَلْبِي إلى رُؤْيَتِهْ!
كَمْ تَلِدُ الأَوْهَامُ للشَّاعِرِ ... في مَسْحَةِ الفَنِّ وفي لَمْحَتِهْ
وُجُومُ هَذِى الغَادَةِ المطْرِقَهْ ... كَمْ رَفَّ قَلْبِي لَهُ
أَلْمَحُ فِيه لَهفَةً مُوبقَهْ ... تَرْسِمُ لِي هَوْلَهُ
فِي شَفَتَيْهاَ لوْعَةٌ مُحْرِقَهْ ... من فَادِحٍ ما جَزِعَتْ قَبْلَهُ
مُمْسِكَةٌ إِيَّاهُاَ مُطْبِقَهْ ... فِي مَوْقِفٍ مَا إِنْ رَأَتْ مِثلَهُ
يَا رَحْمَتَا لِلزَّوْجَةِ الثَّاكِلِ ... تَأسَى عَلَى إِلْفِهَا
ذِكْرَاتُهَا عَيْشَ الهوَى الزّائِلِ ... يَزِيدُ في لَهْفِهَا
والوَجْدُ فِي هَيْكَلِهَا النَّاحِلِ ... تَحْمِلهُ ضَعْفاً عَلَى ضَعْفِهَا
كمْ عِنْدَ هذا الأَثَرِ الماثِلِ ... تَبْتَعِثُ الوَحْشَةُ مِن خَوْفِها
إِلاَّ تُرِقْ دَمْعاً عَلَى قَبْرَهَ ... فَقَلْبُهَا دَامِعُ
كَمْ حَاوَلَ الدَّمْعَ فَلَمْ يَجْرِهِ ... مِنْ فَرْطِهِ جَازِعُ
ما يُشْبِهُ الصِّبْرَ عَلَى ثَغْرِه ... والهمُّ في أَحْشائِهِ لاذِعُ!
لَوْ بَاحَ بالَمكْنُونِ مِن سِرِّه ... ما مَلَكَ الدَّمْعَ لَهُ سَامِعُ
قَدْ خَتَمَ المَوْتُ عَلَى حُبِّهِ ... فمَا لَهُ مِنْ فَنَاءْ
يَا وَجْهَهَا ما إن تَبَدَّتْ بهِ ... إلاَ مَعَانِي الوَفَاءْ
يَا صِدْقَ هذا الحُبُّ في هُدْبِهِ ... يَا رَوْعَةَ الوَجْدِ بِهِ وَالولاَء!
أَحْسِبُ هذا القَلبَ فِي وَثبِهِ ... يَخْفِقُ لاَ فِي الأَرْض بَلْ في السَّمَاءْ

عَزَائها فِي الأرْض هذا الأثَرْ ... تَسْعَى له زائِرْه
يا حُفرَة مِنْ تَحْتِ هَذَا الحَجَرْ ... طَافَتْ بهَا نَاظرَهْ
يا وَطرَّاً مَا مِثْلُهُ مِنْ وَطرْ ... تَحْيَا عَلَيْهِ الزَّوْجَةُ الذَّاكِرَهْ
أنّى لَهَا مِنْ دُونِهِ مُصْطَبَرْ ... في عِيشةٍ باتَتْ بها سَادِرَهْ؟
ذِكْرَانُهَا أنّ بهَذَا التُّرابْ ... حُطَامَ أَوْصَالِهِ
كَمْ تَصِلُ القَلْبَ بَهذَا اليَبَابْ ... وَصُمَّ أَطْلاَلِهِ
يُطْفِئُ هَذَا الذّكْرُ بَرْحَ العَذَابْ ... في قَلبِهَا المُسْتَسْلِمِ الوالِه
مَنْ فَاتَه فِي العَيْشِ عَذبُ الشُراب ... يَعِيشُ بالوَهْمِ عَلَى آلِهِ
أنّي لها مِنْ دُونِهِ مَوْئِلُ ... يَوْماً بهَذِي الدُّنَي
ما إن لها سُؤلٌ ... ولا مَأمَلُ=بَعْدَ ذُبُولِ المُني
هَيْهاَتَ يَفْنَى حُبُّهَا الأوَّلُ ... أيُّ هَوّىً ينْسَخُ هذا السَّنا؟
مَا حَمَلَ القَلْبُ وما يَحْمِلُ ... يَرْسِمُهُ لِلْعَيْنِ هذا الضّنَى
يَا قِطْعةً مِنْهُ بهذا الوُجُودْ ... هَلْ دُونَهُ مِنْ أَمَلْ؟
تَرِفُّ في مرآه بِيضُ العُهودْ ... وما انطَوَي مِنْ جَذَلْ
يَا لَمْحَةَ الماَضِي ورَمْزَ الخلودْ ... والمُرتَجَى في عَيْشِهِ المُقْتَبَلْ
بأيَّ سُؤْلٍ أمُّهُ لاَ تَجودْ ... أيُّ عَنَاءٍ فِيه لا يُحْتَمَلْ؟
يَا لاَعِباً بِالزَّهْرِ فِي يَوْمِهِ ... لم يَدْرِ غَيْرَ الزَّهَرْ
لَمْ يَدْرِ بَعْدُ الشَّوْكَ مِنْ يُتْمِهِ ... أوْ يَلْقَ وَخْزَ الإبَرْ
في شُغُلٍ بِالزّهْرِ عَن أمِّهِ ... وعن دواعي وَجْدِهَا بالصِّغَرْ
وُقِيتَ مَا يَخْبَأ مِنْ لُؤْمِهِ ... دَهْرٌ كفى مِنْ لُؤْمِهِ ما ظَهَرْ
يا حَالِماً مَا أيْقَظَتْهُ الحَيَاهْ ... يا لاَ هِيًا لاَ يَعِي
!يَزِيدُ مَعْنَى يُتْمِهِ أنْ أرَاهْ ... في ذَلِكَ الْمَوْضِعِ
غداً بِهَذَا القَفْرِ يَبْكِي أباَهْ ... يَسْقِي تُرَابَ القَبْرِ بالأدْمُعِ
وَيُوجِعِ القَلْبَ حَدِيثُ الرُّواه ... عَنْ ذَاهِبِ وَلّي وَلَمْ يَرْجِعِ
لا تَحْبِسِي الدَّمْعَ عَلَى قَبْرِهِ ... أيَّتُها الْجَازِعَهْ
عِظامُهُ تَهْفُو إلى قَطْرِهِ ... طوفي بِها دامِعَهْ
تَوَدُّ لو تَمْضِي لدي ذِكرِهِ ... جُفُونُها طِائَعةً هَامِعَهْ
فَيَغْلِبُ الدَّمْعُ عَلَى أمْرِهِ ... والنَّارُ في مُهجتها لاَذِعَهْ

الخفيف

من برج بابل

قرأت في إحدى رسائل الأدب هذه النادرة اللطيفة: (أهدي إلى ملك الهند ثياب وحليّ، فدعا بامرأتين له وخَّير أحظاهما عنده بين اللباس والحلية. وكان وزيره حاضراً، فنظرت المرأة إليه كالمستشيرة له، فغمزها باللباس تغضيناً بعينه، فلحظه الملك. فاختارت المحظية الحلية لئلا يفطن للغمزة. ومكث الوزير أربعين سنة كاسراً عينه، لكي تقر تلك في نفس الملك، وليظن أنها عادة أو خلقة لازمة. وصارت الثياب للأخرى). قد يلتمس العذر لذاك الوزير المسكين بخوفه من غضب الملك وبطشه وحرصه على منصبه. ولكن ما عذر من يلزم النفس طائعاً مختاراً حركات وإشارات ونبرات وانتحال صفات دخيلة على الطبع الأصيل، فتنقلب الفتاة أو الشاب إلى قرد يقلد أو غراب يحاكي الطاووس! إن أشد ما يخدع المرء نفسه أن يتكلف ما يشذ عن طبعه، ويجرده من شخصيته التي تميزه عن غيره. إنما يدل ذلك على احتقار المرء نفسه واعتبارها من التفاهة بحيث تلغي وجودها وتستعير غيرها. وما عرف زمن كهذا العصر الميكانيكي الذي كثر من يخرجون فيه على غرار واحد كما تخرج الآلة صنوف الألوان والأنماط من متشابه المنتجات. ولعل مرجع هذه الظاهرة (الآلة السينمائية) أيضاً! فإن ما يزينه المرحون والدعاة للمتهافتات والمتهافتين أغرى فتياتنا وشبابنا بمحاكاة ما يصدر عن هذه الشخوص من حركة ترى أو لهجة تسمع. ولقد أصبح المثل الأعلى اليوم للفتاة والفتى بطلاً موهوماً أو نجمة لا سماء لهل. وأضحى الجميع على إلمام دقيق بحياة الممثلات والممثلين مما لم يظفر به درس بطل من أبطال التاريخ ورجال الإنسانية. إن هذه الفطرة السليمة البسيطة التي تتجلى في حركات أخواتنا الريفيات لمما يحملنا على الميل إليهن والإعجاب بخلالهن الكريمة النقية. فكما تزهو

في ربوعهن الناضرة الوردة والوردة، وشتان ما بينهما من نسق ورواء وشذا، أو الشجرة والشجرة، وشتان ما بينهما من ثمر وجني؛ كذلك ترى الفتاة والفتاة، وشتان ما بينهما من سناء وسنا.

ماري نسيم

إيران في القديم والحديث

للأستاذ مصطفى كامل

تتمتع إيران بفضل ارتفاعها عن سطح البحر كثيراً واتساع رقعتها بمناخين متمايزين، أحدهما المناخ المعتدل، وثانيهما المناخ الاستوائي. وقليل من بلاد العالم في مثل اتساع رقعتها يستطيع أن يزهى بمثل هذا التباين في المناخ، فبينا تكثر الأمطار في الولايات الشمالية الثلاث التي تحد بحر الخزر، فإنها لا تسقط في الجنوب إلا في فصل الربيع. أما هضبة إيران نفسها فإنها منطقة المناخ المعتدل.

وإيران من البلاد ذوات المدنيات القديمة، فالاكتشافات التي تمت حديثاً في السوس تدل بجلاء على أن العلاميين وهم من الجنس الآري قد بلغوا مدينة مزدهرة في عهد يمكن تحديده بأربعة آلاف سنة قبل المسيح.

وقد حل الفرس أول ما حلوا بالقرب من إيلان على هضبة إيران، ثم قام واحد منهم فنال السلطان، ثم جاء بعده شيروس فتوج ملكاً عام 558 قبل الميلاد، وقوض إمبراطورية ميديا بعد عام، وبعد أن تحالف مع الكلدانيين والمصريين دمر سطوة كريزوس ملك ليديا الذي كان يقلقه، ثم فتح آسيا الصغرى ولم يلبث أن صار سيد كل آسيا الشرقية بلا منازع وكون إمبراطورية لم يسبق أن كان لها مثيل.

على أن إمبراطورية إيران بلغت ذروة المجد تحت حكم داريوس الأول، ونالت التنظيم الإداري الكامل واتسعت آماد حدودها اتساعاً كبيراً.

ولم يعرف العالم ملوك إيران بالفتوحات فحسب، بل عرفهم كذلك بما بذلوه من الجهود لرخاء أمتهم.

واحتفظت إيران في جميع العهود، حتى في العهد الإسلامي، بطابعها واستقلالها الوطني، فقامت تحت حكم الصفويين وخاصة عباس العظيم بتقدم باهر، وبلغت الهندسة والفن أوجهما في عهده

لكن إيران أخذت تنزوي بعد ملوك الصفويين شيئاً فشيئاً عن العالم، وبدأت طرق القوافل القوية الجميلة تعبث بها أيدي الإهمال، وتناسى آخر الملوك القاجاريين الفوائد التي كانت تعود على البلاد من موقعها الطبيعي في طريق مرور التجارة، ودفعوا أمتهم بسبب عدم قدرتهم إلى الانحطاط، لأن الرجل القوي الممتاز كان ينقصهم. . . إلى أن وجد العاهل الحالي، فكون رضا شاه، تحت اسم بهلوي الأول، الأسرة الحاكمة الجديدة. وسيسجل

التاريخ بحروف كبيرة اسم هذا الشاه العظيم الذي جمع في شخصه رئيس الجيش والمشرع والمنظم والمصلح.

ينحدر جلالة الإمبراطور من أقدم وأنبل أسر إيران التي قطنت البلاد منذ أبعد العصور، وجلالته من مقاطعة سافادكوه التي يمثل أفرادها أنقى العناصر الإيرانية التي عرفت على مدى عصور التاريخ وفي مختلف الحوادث بالبطولة تارة وبالوطنية أخرى.

وانتظم في السلك العسكري طبقاً لتقاليد أسرته، فتقلد المناصب المختلفة فيها ودرج في مراتبها حتى ولي قيادة الجيش العامة، ثم لم يلبث أن قلد منصب وزارة الحربية إلى أن تولى العرش في نهاية عام 1925.

ومنذ ولي الملك أيقظ روح النشاط الكامنة في شعبه بعد أن أشفى على الهوة وأحيا أملها وقوى يقينها، وبدأت الإصلاحات تتوالى في جميع نواحي النشاط الوطني.

لكن عمله لم يقتصر على إمداد شعبه بأمل وتأييده بنفسه في تحقيق الإصلاحات فإن أكثر أثره في وضعه الأسس القوية لقيادة شعبه نحو مستقبل رخي عظيم جدير بماضيه المجيد.

وكانت أولى جهوده العناية بالجيش، فأصدر قانون التجنيد الذي يلزم كل إيراني بالخدمة في الجيش، وأنشأ المدارس العسكرية وأرسل البعثات إلى أوربا لاستكمال التعليم العسكري؛ ثم وجه التفاته نحو تكوين قوة الطيران العسكري؛ وفي طهران مدرسة يذهب عدد وافر منها كل عام إلى أوربا. ثم أنشأ القوة البحرية لتأمين

الشواطئ الإيرانية فاستطاع أن يحقق طمأنينة البلاد منذ سنتين.
وأما عمله في ميدان السياسة فإنه استطاع أن يعقد اتفاقات عادلة على أساس من المساواة بدل تلك الاتفاقات الجائرة التي فرضتها الدول الأجنبية على بلاده في عهد تدهورها.
وأولى أمور العدل عنايته كذلك، فقام فيها بإصلاح كبير وسن القوانين في زمن وجيز، كان منها القانون المدني والتجاري والتحكيم الإجباري كما وضع المحاكم الدينية تحت رقابة الحكومة الرسمية وحدد لها اختصاصاً ضيقاً؛ ثم استطاع أن يلغي في عام 1927 القضاء القنصلي والامتيازات الأجنبية.
ونالت مالية البلاد إصلاحات هامة فتعادلت الميزانية بعد استتباب الأمن وانتظام الحكم، وبعد أن كانت الضرائب لا تجبى أو سيئة الجباية لضعف الحكومة واختلال الأمن.
وتعد مالية إيران من أسلم ميزانيات العالم، والدولة لا تشعر برهق في مواجهة أعبائها، فماليتها تسمح بتحقيق مشروعاتها في الإصلاح والمدنية.
أما مسائل التعليم فتلفت النظر حقاً، فقد شمل التعديل والتنظيم أموره وأصبح يجاري العصر الحديث كما تضاعفت ميزانيته وازداد عدد التلاميذ زيادة ضخمة.
والتعليم إجباري للأطفال من سن 6 - 13 ذكوراً وإناثاً، ومدة التعليم فيها ست سنوات في المدن وأربع في القرى، بغير أجور في المدارس العامة أو بأجر طفيف في المدارس الخصوصية
أما مدة التعليم في المدارس الثانوية فست للذكور وخمس للبنات، والتدريس فيها على غرار المدارس الفرنسية خاصة.
ومعاهد التعليم العالي الآن هي كلية الطب وطب الأسنان والصيدلة، وكلية الحقوق والعلوم السياسية، وكلية التعليم والزراعة ثم معاهد الفنون والصنائع والتعدين، والتجارة والدباغة والفنون للبنات وغيرها من المعاهد.
وأنشأ نظام البلديات، فاستطاعت مدينة طهران بفضل بلديتها الحديثة أن تقوم بإنشاء المستشفيات والملاجئ ودور الإسعاف ودور الأمومة على منوال يضارع العواصم الأجنبية، وخطت الحدائق والميادين على أجمل نظام، وشقت الطرقات في أنحاء المدينة فسهلت ميادين العمل، وشيدت بنايات على أحدث طراز.
ولا تقل باقي المدن الأخرى في إيران شئناً عن العاصمة في نواحي الإصلاح فعاد الجمال والسحر إلى البلاد التي اشتهرت بهما بفضل هذه الجهود المتضافرة.
واهتم جلالته بالأمور الزراعية، فتربة إيران غنية ومحصولاتها منوعة، وعني خاصة بزراعة القطن أخيراً وزراعة الشاي وقام بإجراءات هامة لزيادة إنتاج البلاد من بينها إنشاء مدرسة الزراعة كما أنشأ مدارس نموذجية لتعليم الناس استخدام الوسائل العصرية.
ولا يقل نشاط الحكومة في ميادين الصناعة عما ذكر فأولت عنايتها الخاصة لإنمائها فقامت معامل الصناعة في مختلف البلاد منها معامل السكر التي تكفي حاجة البلاد، ومعمل الأسمنت، ومصانع النسج والدبغ والصابون والكبريت، ومصانع السجاد التي اشتهرت بها إيران في العالم.
وأرض إيران غنية بالمناجم، فيها الحديد والرصاص والنيكل والنحاس ولزنك والزئبق والمنغانيز. كما دلت الأبحاث على أن بها الذهب والفضة والبلاتين. كما يوجد بها البوتاس والفحم لذي يستخرج بانتظام وبطريقة علمية.
على أن أوفر منتجات مناجمها البترول مما يضعها بين أغنى بلاد العالم.
ولم يفت جلالة الإمبراطور أن يهتم بطرق المواصلات. ولو عرفنا أنه شق أكثر من 27 ألف كيلو متر من الطرق المنتظمة الواسعة رغم وعورة البلاد وطبيعتها الجبلية لأدركن عظم الجهود التي بذلها.
وامتدت كذلك أسلاك التلغراف كما أنشأ محطة لاسلكية قوية تتصل بأكبر محطات العالم، كما أن بها الآن خطى الطيران، بين باريز والهند الصينية، وبين امستردام وبتافيا.
هذه هي لمحة عاجلة عن أعمال الإمبراطور. كان عمله في كل ناحية حلقاً. كانت إيران ميتة، أما الآن فقد دبت فيها الحية.
الفن الإيراني

تعتبر أصفهان - مدينة الملوك الصفويين وعاصمة فارس مدى أحقاب طويلة - من ألطف بلاد إيران بفضل قصريها العجيبين، وجسورها الرائعة، وهيكلها الفخمة الفنية؛ فان النقوش والتصاوير التي على جدرانها أعجب ما عمل من نوعها، والسياح الذين يسافرون بين أصفهان وشيراز يعجبون بمجموعتين فخمتين من الهياكل.

والبحوث التي تمت في السنين الأخيرة كشفت عن نقوش عجيبة دلت على ثروة هائلة من المعلومات التاريخية، ورفعت النقاب عن آثار جميع المدنيات التي تعاقبت على أرض الفرس.

وعلى مقربة من هذه المنطقة تقع مدينة شيراز حيث يوجد قبرا الشاعرين الكبيرين: السعدي وحافظ، كما يوجد غيرهم هياكل أثرية وأعمال فنية على جانب كبير من الأهمية.

وهذه الولاية وولاية فارس كانتا مهد العظمة الفارسية قبل الإسلام، وتوجد في أزربيجان جوامع جميلة جداً، كما توجد قبور الملوك الصفويين العظيمة.

وعلى شاطئ أركس في الجنوب الشرقي من أصفهان في سهل مردخب الحالي الفسيح، حيث ترى إلى الآن خرائبها، كانت تقوم برسيبوليس التي كانت عاصمة الإمبراطورية

الفارسية العظيمة منذ ألفين وخمسمائة عام، وكان ينضوي تحت لوائها عشرون ولاية، تمتد حدودها من فارجيانا في الشمال الشرقي إلى الحبشة في الجنوب الغربي، والبلقان في الشمال الغربي إلى السند في الجنوب الشرقي.

الأدب الفارسي

كان الأدب الفارسي زاخراً في كل وقت، ويمكن تقسيمه إلى ثلاثة عهود، العهد الديني، وعهد الملاحم، وعهد الشعر الغنائي، ويكمل هذه الأنواع الثلاثة أدب المسرح والقصة.

وقد خضعت اللغة الفارسية لعدة تعديلات، فقد ظلت الإيرانية لقديمة اللغة الرسمية إلى القرن الثالث قبل الميلاد، وهي لغة ساذجة فقيرة.

ثم تطورت بعد ذلك إلى للغة البهلوية، وهي مزيج من الإيرانية القديمة والعناصر السامية، وبقيت هي اللغة الوطنية إلى الفتح الإسلامي.

على أن اللغة الفارسية الأخيرة لم تولد إلا في القرن العاشر، حين دخل على الروح الفارسية تطور أساسي، فبعد أن كانت محض لغة دينية أصبحت لغة أدب، وصار الشعراء محل إكرام وتبجيل في بلاط الملوك وشغلوا مناصب رفيعة.

وكان الفردوسي أكبرهم وأثرهم، تجسدت فيه الروح الشرقية بشكل عجيب، وخاصة في الناحية الشعرية والغرامية، وكان شعره يزدان بالفخامة والروعة اللتين كانتا تسودان في بلاط الملوك.

ويجب أن نذكر بين الشعراء الغنائيين السعدي الذي اشتهر بكتابيه كولستان والبستان اللذين يعتبران قانون الأخلاق الفارسية حتى لقد اشتهر في العالم أجمع كما أن العالم كله يعرف البديعيات الساحرة التي ينشر بها هذا الشاعر الكبير تعاليمه في الأخلاق الدينية والإنسانية، وأننا لنلمس تحت ستار الأمثال البديعة الدليل على إخلاصه في إصلاح النفس والقلب الإنساني؛ وقد يبدو أن الشاعر يعرفهما أتم معرفة لطول ما قاسى في كثير من الملاحظة والتأمل.

ويعجبنا في السعدي حب الجمال والملاحة على الخصوص؛ وهو على وجه خاص فنان لأنه شديد الحس، يحيا بين الزهور، ويحب الملابس المتألقة، ويجمل أشخصه بجواهر متناهية الدقة في النقش، ويعطرهم بالمسك والعنبر؛ وإن يكن فنه غير فخم لكنه شديد

الأناقة والرقة.

وحافظ هو أحد شعراء الفرس الوطنيين الرشيقين، وأحد الذين يفهم الغرب عنهم روح الشرقيين أحسن فهم بفلسفته الضاحكة وهزئه لساخر.

ثم عمر الخيام الذي يدين بشهرته لكتابه بالمعروف الرباعيات الذي يزخر بالسخرية والشك. وقد سببت ترجمة كتابه إلى الإنجليزية ضجة في أوربا وأمريكا حتى غدت شهرته الآن تملأ الآفاق.

مصطفى كامل

المحامي

نظام العالم ونظام الدول

للأستاذ طنطاوي جوهري

الحفل والجامع الأزهر

نشأت في قريتنا كفر عوض الله حجازي من أعمال مديرية الشرقية - شاركت أسرتنا في أعمالها الزراعية - كان لهذه الأسرة الكبيرة اتصال حميد بعلماء الجامع الأزهر يغدون ويروحون كل عام على سراة الأسرة وأكابر القرية، وأكابر بلدة (الغار) التي فيها أسرة أخوال والدتي، فأثر ذلك كله في المرحوم والدي، فأرسلني إلى كتاب في بلدة الغار وفيها جدتي لأمي، فحفظته بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير. ثم أرسلني مع أقاربي إلى الجامع الأزهر لأكون كهؤلاء العلماء، ويكون لي عمود بالجامع الأزهر مثلهم. درست علومه. هنالك أصبحت السنة مقسمة بين دراستين: دراسة أزهرية، ودراسة حقلية. ذلك أني سمعت في علم التوحيد أن العالم منظم - يا سبحان الله، لا علم عندي، لا كتاب يهديني، لا مرشد يرشدني؛ للقوة السلطان الأعظم، ظلم مخيم، جهل فاضح، فأين نظام العالم؟ أخذت أصوم النهار، وأقوم بالليل، وأسأل صانع العالم أن يهديني. أخذت أدرس الشمس والسحاب والحجر والشجر والزهر والزرع نهاراً، وأدرس النجوم والقمر وأتأمل ذلك الجمال البديع في ظلمات الليل المدلهمات. وأخذت أقول: لعل وراء هذا الجمال حكما وعلوماً، ففي النهار جمال، وفي الليل جمال. فما أسبابه ونظامه؟ حائر، حائر!

دار العلوم بعد الأزهر والحفل.

لم يكن ليخطر لي أن في العالم حكمة وفلسفة تكشف اللثام عن هذا الوجود، كلا ولكن بعد اللتيا والتي أخذت أدرس الفلسفة القديمة بحذافيرها ولكني بعد ذلك لم أزل في موقفي الأول. أريد أن أفهم حقلنا الذي نزرع فيه القطن والقمح والذرة والبرسيم. هل هذه الأرض وما فوقها هي التي تحوي المواد الصالحة للبسنا وأغذيتنا وأغذية الحيوان؟ وأخيراً ما هذه الطيور الجميلة المغردة المنعشة للفلاح في حقله؟ وأخيراً ما هذا الجمال؟ الجمال هو الذي أخذ بلبي وأرقني ليلاً بنظراتي في النجوم، وأبهج قلبي نهاراً بنظراتي في الأشجار والزروع والأزهار.

اتصلت بدار العلوم فدرست فيها علم الفلك الحديث بعد ما درست القديم في الفلسفة. هنالك دهشت أعظم الدهش وقلت في نفسي: هذه فرصة سانحة، فهاهم أولاء علماء الأمم قديماً وحديثاً نظروا فيما كنت حائراً فيه في حقلنا (أ) نظروا في مقادير المادة المسماة عندهم (بالكم) المتصل والمنفصل من الهندسة وعلم الفلك ومن الحساب والموسيقى فقاسوا هذا العالم وحسبوا الكواكب أبعاداً وأحجاماً وحركات فأرونا السنين والشهور والفصول وأوقات الخسوف والكسوف - الله أكبر. نظام بديع. حركات منظمة هذه أعز مطالبي وأجل ما أتمناه. إني لسعيد جد سعيد. كيف لا أكون سعيداً؟ ألم يظهر العلم أن أبعد السيارات نفسها عن الشمس جاريات على سنن المتوالية الهندسية كما كشفه العلامة (يود): 3 - 6 - 12 - 24 - 48 - الخ.

(ب) ثم أن العلماء لم يقفوا عند هذا الحد من البحث فإنهم نظروا في أشكال المادة وتنوعها فكانت العلوم الطبيعية وقد أحاطت بها العلوم الرياضية حتى إنهم رأوا في نحو الأحجار الساقطة نظماً حسابياً يرجع إلى الجذر والتربيع والمتواليات العددية، ويدهش الحكيم حينما يرى الجذر والتربيع مسيطرين على حساب البنادل المختلفة الأطوال وحركات الضوء والصوت والحرارة والكهرباء.

نظام العناصر ونظام أوراق النبات.

وقد أدهشني أن للعناصر المشهورة اليوم (المبدوءة بالأيدروجين المختومة بعنصر (أورانيوم)) جدولا يضم متفرقها ويجعل بينها نسباً أفقية وأخرى رأسية بحيث ترى أن كل عنصر لو وضع في غير موضعه لاختل جميع النظام - يا عجبا! أيصل النظام إلى هذا الحد؟ أكسجين في الماء وفي الهواء، وحديد ونحاس في الجبال، وصوديوم وكلور كامنان في الملح المغمور بالماء في البحار، كيف يكون لها هذا الجدول المنظم وتكون بينها هذه النسب البديعة؟ فأما هذا الإنسان الذي له السلطان الأعظم وهو الغاية القصوى من هذه العوالم فلا يكون له نظام؟ كلا العقل ينكر هذا - هاهنا تحل مشكلة العالم - هاهنا مركز الدائرة - هاهنا عرفنا سبب النزاع المقام بين الأسرات والممالك -

هاأنذا عرفت سبب لجمال في الحقول وفي السموات نهارً وليلاً، فأما أسباب الشقاق والنزاع بين الناس فالبحث جاري فيه الآن كما ستراه.

وكما رأينا نظام العناصر المختلفة في جدولها تاماً رأينا لأوراق النبات على الأشجار المختلفة جداول منظمة ذوات نسب في الصفوف الرأسية والصفوف الأفقية، ولا مناص لي من الاكتفاء بالإشارة إليها في هذا المقال حرصاً على وقت القارئ الكريم، وتفصيل هذا وما قبله في كتاب أحلام في السياسة موضحاً مصوراً تصويراً شمسياً.

وهل في شرعة الإنصاف أن تعتبر أفراد إنسان في هذا العالم كمية مهملة لا نظام يجمعهم، ولا قانون يكبحهم؟ وقد رأينا النسب والقوانين لم تذر ذرات الأيدروجين مع ذرات الصوديوم، ولا ورقات التفاح مع ورقات الأعشاب، ولا حركات سقوط الأحجار، إلى آخر ما قدمنا، كلا كلا. إن قوى نوع الإنسان وعقوله لها نسب خفية، وكل امرئ في الأرض له نسبة إلى غيره في أمته وفي غيرها، ولما خفي ذلك على الناس حاروا في أمرهم فلم يجدوا مناصاً من الحرب لأنهم لم يهتدوا إلى نظامهم، فكل يزعم أن له عند آخر حقاً يريد أخذه بالقوة.

منفعة جوارح الطير والحيوانات المفترسة لهذا العالم الأرضي

وسعد الناس على ذلك أنهم رأوا جوارح الطير تأكل بغاثها والأسود والنمور تأكل الأرانب والحملان، فأخذ القوي يسطو على الضعيف. أو ما علموا أن ههنا نظاماً درسه علماء الأمم قديماً وحديثاً، فعلموا أن الحشرات تمتص العفونة والرطوبة اللتين لو بقيتا لأحدثتا في الجو فساداً فهلك الحيوان والإنسان، وهذه الحشرات بعد تأدية وظيفتها تصبح طعاماً سائغاً للطيور ونحوه ولو بقيت لكانت ضرراً وبيلاً. وهذه الطيور الكثيرة في الجو والحيوانات التي تأكل النبات تهاجما في الحياة كواسر الطير وسباع الفلوات وتأكل رممها بعد الموت حفاظاً للجو من مكروباتها وإلا يفسد الهواء وكان الوباء العام، وروعيت الحكمة في قلة توالد نحو الأسود وكثرة توالد نحو الأرانب والجرذان، ثم روعيت الحكمة في الرحمة الملحوظة في المواد لمخدرة التي تفرغها العنكبوت مثلاً في الذبابة عند اقتناصها فتكون مخدرة لا تحس بآلام.

لم يفكر العامة والجهلاء في ذلك وتبعهم رجال السياسة في سائر أقطار الأمم الأرضية. إن هذه النظرة السطحية في العلم قد آن أن يسقطه البرهان ويدحضه نوع الإنسان لأنهم درسوا.

جمهورية الحيوان

لقد استبان للناس في عصرنا أن للنحل وللنمل ولكلاب البحر وللغربان نظماً عجيباً. وإن أبدع ما أدهشني مما اطلعت عليه نظام النمل الأبيض ذلك لذي ألف فيه العلامة (أوزوريك) الألماني في عصرنا الحاضر كتاباً خاصاً عنوانه النمل الأبيض وانتشر بجميع اللغات فترى فيه صورة الملكة وبجانبها الملك وهو أصغر منها جثة وقد رأيتها تحكم مملكة متسعة الأرجاء وهي عمياء وتحت إشرافها عمال وجنود يحفظون الأمن، ويشيد عمالها ممالك في الصحارى لم يقطعها الفرنسيون بمد السكة الحديدية إلا بالديناميت وهؤلاء العمال لهم نظام فوق كل نظام وعدل، ومنهم حراس في غاية الانتظام يقظون بل وصلوا على ما يقال إلى استنباط الماء من أوكسجين المادة وأيدروجينها، هذا هو النظام الذي يعيش على مقتضاه النمل الأبيض الذي تدير سلطانه ملكة واحدة تحت إمرتها عدد يبلغ أضعافاً مضاعفة لعدد الإنسان على وجه الأرض. يظن علماء العصر أن أمثال هذه الحشرات عاشت قبل الإنسان بما يزيد على ثلاثمائة مليون سنة وأن الإنسان لم يعيش عليها أكثر من ثلثمائة ألف سنة فتم نظام الأول ونقص نظام الثاني.

كافح الإنسان الأول أشد الكفاح ليصل إلى الحقيقة عن طريق القتال وساعده على ذلك تباعد الديار وحيلولة البحار والجبال بين الأمم - وهاهو ذا اليوم أزال الحواجز بالطيارات الطائرات والتلغراف بقسميه والراديو فاتصلت الأمم فآن لهم أن يفكروا - وهاهنا خاطبنا علماء الأمم وذكرناهم بأن نوع الإنسان لن يشذ عن قاعدة هذه المخلوقات - إننا نرى الحكماء والأذكياء في نوع الإنسان أقل عدداً من غيرهم كما قل البارعون في الجمال، ويقول أفلاطون قديماً: الناس ذهب وفضة ونحاس يريد بذلك الحكماء ورجال الجيش ثم الزراع والعمال وإضرابهم من سائر الناس. إذاً لم يتجاوز الإنسان نظام المعادن ونظام الهواء والماء، فقد قل الذهب ليصلح لتقويم الأشياء وكثر الحديد لكثرة الحاجة إليه، كما كثر الهواء وقل عنه الماء، فإن حاجة الحيوان إلى

التنفس أكثر منها إلى شرب الماء.
النظام التام في المستقبل لنوع الإنسان
إن هنا لمنافع مادية وخواص طبيعية موزعة على الأرض، وما حولها من المخلوقات، وهاهنا قوى وأقدار موزعات على أفراد نوع الإنسان. إن هذه المواهب الإنسانية تقابل هذه
الخواص والمنافع المادية، ولم يتسن للناس الانتفاع بهذه الخواص المادية إلا باستفراغ الجهد في استخراج تلك القوى الكامنة في أفراد نوع الإنسان. هذه هي التي تحل مسألة السلام.
فلتشكل لجنة من جميع الأمم تقوم بدراسة العامر والغامر في جميع القارات وتجد في أن تدرس أحوال الأمم كلها، وتمضي كل أمة على استخراج ما كمن في عقول أبنائها من القوى والملكات وما في أرضها من الكنوز المعدنية والزراعية وغيرها من الفوائد والثمرات، وكل أمة قصرت فيهما أو كليهما فلترسل هذه الجمعية العامة من أبناء الأمم الأخرى الذين هم أقرب إلى هؤلاء الجاهلين من يكمل نقصهم ويرفع شأنهم في القسمين معاً، ولهم في نظير ذلك فوائد وثمرات، فإن كل قوة كامنة في فرد لم تستخرج في أي مملكة من الممالك الأرضية، وكل منفعة كامنة في أي بقعة من بقاع أي مملكة أرضية لم تظهر في الوجود تكون خسارة وحرماناً لجميع نوع الإنسان فربما كان من هؤلاء لمهملين في بلاد الصين مثلاً من إذا علم أصبح مفكراً كبيراً أو طبيباً عظيماً يتعدى أثره إلى سائر الأقطار وهكذا في البقاع المهجورة في ممالك المعمورة.
دفع وهم
ربما يقول بعض الناس: إن قياس عقول الناس ومواهبهم على نظام السيارات حول الشمس وغيرها مبحث علمي ليس إلى تحقيقه من سبيل. وللإجابة على هذا الاعتراض أوجه نظر القادة والزعماء إلى فرع من فروع علم النفس في التربية وهو علم مقياس الذكاء فليسألوا مديري المدارس في الولايات المتحدة وفي إنجلترا وغيرها: أليس مقياس الذكاء له اليوم السلطان الأعظم على وضع الشبان ولشابات في لأعمال اللائقة لهم بعد نيل الشهادات العالية، كما له ذلك السلطان يم دخولهم المدارس؟ إن الناس صائرون إلى ما قلناه شاءوا أم أبوا فليدرس نظام العقول ونظام الممالك، وليعلم جميع نوع لإنسان طوعاً وكرهاً. إن من مبادئ ذلك أنهم أخذوا يصطفون من الشبان في جميع أهل الأرض أقدرهم على المصارعة والمسابقة فيعونه بطلً في تلك المصارعة والمسابقة، وهكذا يفعلون مع الفتيات فيصطفون منهن ملكة الجمال وذلك بمجرد الاختيار لا بالقنابل والخناجر والرمح، فهكذا سيكونون في نظم السياسة وإدارة لأمم وحفظ المجموع، سنة لله التي قد خلت في عباده ولن تجد لسنة لله تبديل.
طنطاوي جوهر
نعي الشتاء
للأستاذ محمود غنيم
تعادلَ الليلُ والنهارُ ... وأدرك القُرَّ الاحتضارُ
وراح فصلُ الشتاء يهوى ... في هُوَّةٍ مالها قرارُ
يا صفرة الموت أدركيه ... ليكسُوَ الأرضَ الاخضرارُ
كم ارتدينا فما وقانا ... منه شعارٌ ولا دثارُ
لا كان. هل فيه غيرُ برق ... من عينه يَقْدَحُ الشرارُ
وغيرُ رعدٍ يصكُّ سمعي ... كأنما صوتُه حُوارُ؟
يا من رأى قبله صريعاً ... غنَّى على رأسه الهزارُ؟
أما ترى السُّحْبَ يوم ولي ... حفت لها أدمع غِزارُ؟
لا يُثْلجُ الغيثُ حين يَهْمى ... صدري ولو جفّتْ الثمارُ
وإن تغنَّت به تميمٌ ... وسبَّحت باسمه نزارُ
الدفءُ والضوءُ أين راحا؟ ... لينكشِفْ عنهما الستارُ
والطيرُ والأيكُ أين غابا؟ ... لينتفضْ عنهما الغبارُ
كم من نهار - مضى - عليه ... ثوبٌ من الليل مستعارُ
رياحه آذنت بحرب ... فالنَّقعُ في جوَّه مُثارُ

كأن شمس الشتاء ظبيٌ ... من طبعه الدَّلُّ والنِّفارُ
أو وجهُ عذراء ذاتِ خدرٍ ... تظنُّ أن السفورَ عارُ
لا بدره إن بدا لُجَيْنٌ ... كلا ولا شمسهُ نُضارُ
كم أصبح الفحْمُ - وهو َفحْمٌ - ... كالزاد لم تَخْلُ منه دارُ
كل امرئ كالمجوس فيه ... أمامه موقدٌ ونارُ
نجومهُ قد مشين حبواً ... وشمسُه جرَّها البخارُ
إن جَنَّ فيه الدجى انصرفنا ... فالأرضُ من أهلها قِفارُ
وبات كل امرئ سجينا ... في داره حوله حِصارُ
يا ليت أعمارَنا ربيعٌ ... صِرْفُ ولو أنها قِصارُ
لهفِي على معشر إذا ما ... دارت عروسُ السماء دارُوا
مَشَوْا معَ الشمس كلُّ فصل ... لهم به كعبةٌ تُزارُ
كم ضاق مشتى بهم وجادت ... لهم بشطآنها البحارُ
قد لطَفَ المالُ كل جوٍّ ... فلا صقيعٌ ولا أُوارُ
وبات في الحالتين يشقى ... من خانه مثلِيَ اليَسارُ
محمود غنيم
وحي الربيع
أنفاس مرتعشة!
للأستاذ محمود حسن إسماعيل
إنْ رَأَيْتِ الكَرْمَ تَسْتيْقِظُ في الوَادِي حَيَاتُهْ
وَحَدِيثَ الْحبِّ في الأَعْشَاشِ ذَاعَتْ هَمَسَاتُهْ
وَرَنِينَ الْبَاغِمِ الْمَسْحُورِ نَشْوَى نَغَمَاتُهْ
وَحَنِينَ الْجوِّ في الشُّطْآنِ رَقَّتْ سَبَحَاتُهْ
وَالْهوَى في مَعْبَدِ الْعُشَّقِ عَادَتْ صَلوَاتُهْ. . .
مِثْلَها عُودِي إِلَيَّا . . .
وَاسْكُبِي النُّورَ لَدَيَّا
وَالرَّحيقَ الْعَبْقَرِيَّا
عَلَّ أَقدَاحَ الْأَمَانِي ... تَسْعِدُ الْقَلْبَ الشَّقِيَّا
وَإِذَا بُسْتَانُكِ الهاجِرُ غَنَّاهُ الْخَيالُ
وَجَنَا السِّحْرُ بِدُنْيَاهُ وَناَغاهُ الدَّلاَلُ
وَانْتَشَتْ مِنْ طُهْرِكِ الْعَالِي بِشَطَّيْهِ الظِّلاَلُ
وأتاك الشِّعْرُ يُذْكِيه حَنِينٌ وَابْتِهَالُ
كَنَبِيٍّ تَحْتَ أَنوَارِكِ غَشَّاهُ الْجلاَلُ. . .
فَاذْكُرِينِي فِي حِنَانِكْ
عَلَّ فَيْضاً مِنْ جَنَانِكْ
أَوْ صَبَاحاً مِنْ زَمَانِكْ
يَسْكبُ النُّورَ لِفاَنٍ ... لَمْ يَعُدْ في الأَرْضِ حَيا!. . .
(وزارة المعارف)
محمود حسن إسماعيل
رسالة المرأة
غرائب العادات في الزواج
للآنسة زينب الحكيم
بمناسبة الزفاف لملكي السعيد، الذي تشرح معالمه الصدور، وتبهج زخارفه لأبصار بحيث لا نرى داعياً لوصف الواقع، ولا ضرورة للتنبيه إلى روعته وفخامته، كم أنن لسن في حاجة لأن نسجل عنه شيئاً اليوم ليبقى مسطوراً على القرطاس للمستقبل، لأنه حادث ستضل ذكراه باقية في حافظة الشعوب عامة، وفي حفظة لشعبين المصري والإيراني خاصة. لهذا أذكر فيم يلي بعض غرائب العادات في الزواج في مختلف البلاد:
1 - شيكوسلوفاكيا: توجد عادة غريبة في بعض جهات تشيكوسلوفاكيا، وهي أن كل شباب يتقدم إلى فتاة كخطيب ثم يخفق في مسعاه يقدم إليها شريطاً تضمه إلى غطاء رأسها كالموضح بالصورة.

وكلما كثر عدد الأشرطة المقدمة للفتاة كن ذلك دليلً على شهرتها وارتفاع قيمتها في عين الخطاب الذين يتقدمون إليها. وعندما لا يبقى مكان لأشرطة أخرى تضاف إلى ما سبق أن علقته الفتاة على غطاء رأسها يتحتم على الفتاة أن تعزم أكيداً على اتخذ أمر تنفذه بالنسبة لزواجها. فتصمم على اختيار واحد ممن تقدموا إليها وتكون أسرة.

2 - إنجلترا: في إنجلترا يتمتع العازمون على الزواج بحرية عظيمة في اختبار الشريك أو الشريكة ولهم ملء الحرية في المخالطة والتعارف قبل الزواج. ومما يذكر عنهم بالإعجاب والفخر أن الخطيب أيا كان مركزه ومرتبه يترفع عن أن يشاكي خطيبته عندما ترفض الزواج منه مهما يكن مقدار حبه لها.

ويرجع الإنجليز ارتفاع نسبة الزواج الناجح عندهم إلى الأسباب المتقدمة وهي نسبة تفوق جميع النسب في العالم.

3 - فنلاندا في شمال غربي روسيا: لنساء فنلاندا طريقة مختصرة في معاملة خطابهن، وهي أن يوقد والد الفتاة شمعة أمام الهيكل في الكنيسة أثناء إحدى مقابلات أسرتي الخطيبين. فإذا تركتها ابنته تحترق كان ذلك دليلاُ على أنها قبلت الزواج من خطيبها. أما إذا أطفأت الشمعة فذلك دلالة على أنها ترفضه إذ لا توجد بينهما جاذبية.

4 - السويد: إذا أكل فتى وفتاة من رغيف واحد من الخبز يقال إنهما متحابان دون ريب. فإذا كان ذلك صحيحاً يبدأ الخطيب التكلم في الموضوع، فيرسل صديقة له لتناقش الأمر مع أسرة الفتاة. فإذا نال العرض موافقة، يقدم الخطيب للتعارف إلى أسرة الفتاة في يوم الأحد المقبل بعد الحديث التمهيدي. وفي هذا الوقت لا يسمح للخطيبين بتجاذب أطراف الحديث أو بالمقابلة.

وفي صالة إعلان الخطبة يقام مهرجان يقدم فيه الخطيب للخطبة إناء فضياً يشبه فنجان الشاي الكبير بدون يد وبه قطع من النقود الفضية ملفوفة في أوراق. ويتبع ذلك الزفاف، وهما يتبادلان الهدايا وقت حضور القسيس.

5 - لابلاند وإيسلندا: عادة تكون السيدة أكبر سنا من الرجل، وتطول فترة الخطوبة. ويرجع هذا غالباً إلى المصاريف الباهظة التي تسببها المجاملات وما يظهر به الخطيب من احترام لأسرة خطيبته كواجب حتمي عليه. ويكلف أيضاً بتقديم هدايا متوالية لها ولأقاربها.

6 - اليونان: لا يسمح للخطيبين بالتقابل قبل يوم الزفاف إلا في مناسبات رسمية دقيقة. وفي إيبرص عندما تكون الخطيبة قد تعرفت إلى زوجها في دار القسيس بعد أن باركهما، يطلب إليهما القسيس في رجاء شديد ألا يتقابلا ثانية حتى يوم زفافهما. . .

7 - رومانيا: فيها عادة مشهورة جداً، ولو أنها انقرضت الآن تقريباً، وهي ما يعرف (بسوق الصبايا) ففي يوم عيد سنت بول (في 29 يونيو) يجتمع البنات على قمة جبل عال اسمه وتكون كل واحدة منهن مزودة بجهازها، ويحضر الخطاب مع آبائهم ويختارون خطيباتهم.

وتوجد في جهات أخرى من رومانيا عادات مشابهة كل الشبه لما يوجد في ألبانيا، إلا أنهم يؤجلون مهرجان العرس عند الطوائف المسيحية حتى تلد المرأة ولداً، لأنهم يعتبرون أن الغرض الأول من الزواج هو خلف الأطفال الذين يظمون إلى القبيلة فيزيدون عددها وقوتها.

8 - في غينيا الجديدة: للبنات والأولاد كامل الحرية في الاختلاط قبل الزواج، حتى لقد يضمون الليل سوياً، وإذا وجدوا أن لا بد من التغيير، فيفعلون ذلك حتى يتوق الخاطب إلى الخطيبة التي توافقه تماماً.

إذا قارنا ذلك بما يحدث في اليابان، وجدنا تبايناً كبيراً، لأن مسألة الزوج عندهم من غير الأفراد المحدثين. تترك كلها لتصرف الخاطب الذي يوفق بين الخطيبين، ويرتب تقابلهما وتعارفهما، ويكون ذلك في مقهى يتناولون فيه الشاي، ويكون على الفتاة تقديم شاي المهرجان لزوجها المنتظر.

9 - في جزائر سليمان: الفتاة التي تخطب لرجل عظيم تعتكف قسراً في خص بقرب خيام الحريم، ويقدم لها غذاء دسم، ولا يسمح لها بالخروج من ذلك الخص إلا مرة واحدة في اليوم لتغسل آنية نحاسية كبيرة. وتبقى على تلك الحال ثلاث سنوات

متوالية تخرج في نهايتها من سجنها وقد نما على رأسها شعر أشبه بالفرجون الغزير جداً.

10 - هنود كندا: عندما يصمم رجل على الزواج يطلب إلى من اختارها أن تحزم له شراك صيده، ويكون هذا التكليف منه لها بمثابة مفاتحتها بالخطبة، فإذا قبلته كخطيب تطلب منه دون خجل أن يكلم أمها في الموضوع. وعادة تخبر البنت أمها بنفسها، وعلى ذلك ترشدها إلى بناء مسكن لها بجوار مسكنها، وعندما يقام مهرجان الزفاف يصبحان زوجين.

11 - في غينيا الجديدة: يتعارف المحبون في حلقات الرقص المشترك، فإذا أحب رجل امرأة لأول نظرة، وتبع ذلك عزم على الزواج منها، يفعلان ذلك دون جلبة أو إجراءات زواج من أي نوع؛ إلا إذا كان له منافسون فعندئذ يتقدم إلى والد الفتاة بثمن يدفعه له عنها، وأيضاً لا يتبع ذلك مهرجان زواج.

عادة التقبيل.

إن التقبيل بالفم عادة أوربية على ما يعلم. أما التقبيل عند الصين مثلاً فيكون بواسطة فرك الأنف والفم على الوجه.

أما في أفريقيا وغيرها من البقاع غير المتمدنة فلم يلحظ أن المحبين فيها يقبل بعضهم بعضاً. والرومانيون كان لهم عدة طرق للتقبيل، كتقبيل الوجنتين ويدل هذا على الصداقة. ويدل تقبيل الشفتين على العشق، ولا تزال هذه الاصطلاحات معمول بها في فرنسا وممالك أوربا.

والرقص والألعاب المختلفة كانت كلها من مميزات الحياة الغابرة، (كما أنها اليوم ميزة الحفلات الساهرة في حياة المتمدنين) وكما أنها وما تزال الأسباب المباشرة للتعارف واختيار الحبيبات.

أما الغناء والرواية فأمرهما مشهور معروف، لا سيما في أيام البطولة والفروسية وعند كثير من القبائل. فالمحب قد يروي قصة غرامه غناء أو إنشاد حال يمثل أصدقاؤه الرواية عملياً، ولا يسع الفتاة المقصودة في كثير من الأحيان إلا أن تفتح ذراعيها في النهاية وتراقص خطيبها دليلاً على إتمام الزواج.

القبلة في بلاد الحبشة.

تعتبر القبلة في بلاد الحبشة روح الحياة الاجتماعية فيها، وهي على عدة أشكال، فتستعمل لكل تهنئة، وكدليل على الاحترام، وتمييز المقامات، وتمضى بها المعاهدات السياسية أو التجارية، والناس الذين لا يقبل بعضهم بعضاً علناً هم الأزواج والزوجات.

هذا ويشاهد أن الحب يظهر بين المتمدنين في سن البلوغ، ولكنه يظهر بين الهمج في الطفولة، حتى لقد ترى الأطفال الصغار يمثلون أدواره في ألعابهم. كما يعد عند قبائل أفريقيا من العار ألا يكون للبنت أحباء ويسخرون منها إذا كانت ذلك. أما الولد الذي ليس له حبيبات، فيعمل له سحر يجلب الحظ والتوفيق لإيجاد الحبيبات.

هذا قليل من كثير مما يمكن أن يذكر من غرائب عادات الزواج وفلسفات العواطف الإنسانية.

زينب الحكيم.

رسالة العلم

الكون يكبر

العوالم منتشرة على حيز كروي محدود ولكنه يتسع.

للدكتور محمد محمود غالي

العوالم كالأسماك على شبك الصيد - أو كجسيمات على سطح

كرة تنتفخ - أثر تعديل إينشتاين لمعادلاته - الحيز الكروي

- والعالم كون محدود

في دراسة صورة الكون تجري المعارف أوسع الخطوات.

لو أن صياداً ألقى شبكته في الماء، فتعلق بها عدد من السمك، فمما لا شك فيه، تتوقف المسافة بين سمكة وأخرى على حالة الشبكة. قد يكون الصياد حسن الحظ، بحيث تتعلق سمكة على رأس كل معين في الصف المشار إليه بالسهمين: شكل 1 الذي يمثل هذه الشبكة، عندئذ يتحقق القارئ بنفسه أن الصياد قد وفق إلى اصطياد 16 سمكة. ولو أن السمك في عداد الكائنات، يرى ويفهم ويتصور، فإنه لا يعدم

وسيلة، يتحقق بها من المسافة الواقعة بينه وبين كل سمكة.
لنفرض بعد ذلك، لسبب خاص بمهنة الصياد كسهولة إخراج هذه الأسماك، أن الصياد شد شبكته من الجهتين: اليمنى واليسرى في اتجاه السهمين بحيث اتخذت هذه الحبائل الشكل الثاني، الذي لا يختلف عن الشكل الأول إلا في أنه ممدود، فإن أي سمكة ترى جارتها الأولى ابتعدت عنها بمسافة معينة؛ ولكنها ترى الجارة التي تليها ابتعدت بضعف هذه المسافة، بحيث أن السمكة العاشرة مثلاً ترى كأنها قطعت عشرة أمثال ما قطعته السمكة الأولى، وعندئذ تعتقد هذه السمكة التي افترضنا أنها متأملة أن الأسماك كلها تبتعد عنها بالذات، أو أنها تهرب منها؛ وأنه كلما كانت الأسماك بعيدة عنها كانت سرعة ابتعادها كبيرة.
يتأتى هذا الإحساس للسمكة، لو أننا فرضنا أن الصياد قام بعملية شد الشبكة داخل الماء،
وأن السمكة المتأملة لا ترى حبائل الشبكة أو قاع البحر أو أي شيء غير جيرانها من السمك الذي وقع مثلها في الحبائل. ولو أن السمكة المتأملة رأت كائناً آخر كالصياد أو شجرة أو شيء ثابت، أو لو أنها رأت الحبال نفسها لأدركت أنها هي أيضاً تناولتها الحركة بقدر ما تناولت السمك جميعه، وأن الأقدار شاءت لها هي أن تبتعد عن جاراتها بقدر ابتعادها عنها، وأنه ليس هناك مركز خاص للابتعاد، بل إنها وأخوتها جميعاً قد وقع لها نفس الحوادث.
أمران أود أن يعلقا بذهن القارئ:
الأمر الأول: هو أن السمكة المتأملة إن لم تر من الكون إلا الأسماك الستة عشر التي تحدد عوالمها، فلا أرضاً ترى ولا ماء ولا صياداً ولا شجرة، تصل إلى نتيجة تتلخص في ابتعاد كل الأسماك عنها بسرعة تتزايد كلما كانت المسافة بعيدة.
الأمر الثاني: هو أن السمكة العاقلة ترى من العوالم المحيطة بها حبائل الشبك ورمال الشاطئ، بل ترى الصياد والشجرة، وكل هذه أشياء ثابتة بالنسبة لها فتدرك أن أمراً آخر قد حدث: ذلك أن الحبائل كلها قد امتدت، وأن الحركة تناولتها والأسماك بدرجة واحدة فليس هناك فرار بالمعنى الأول، بل شاءت الأقدار أن تقع على كون هو حبائل الشبك، وأن هذا الكون يمتد.
قد نستطيع الآن أن ننتقل من حبائل الصيد إلى الكون، فكما أنه ليس هناك في الحبائل المتقدمة مركز ثابت بل إن كل جزء منها امتد فابتعدت كل سمكة عن الأخرى، وكما أنه يتراءى أن السمكة البعيدة تزيد سرعة ابتعادها عن سمكة معينة رغم أن جميع الأسماك تتناثر بقدر واحد، كذلك الكون لسنا فيه مركزاً لابتعاد العوالم، وهناك حيز يحملنا جميعاً هو الذي يمتد، ولا يمنع امتداده أن نلاحظ ازدياداً في سرعة العوالم كلما كانت بعيدة عنا.
هذه السمكة العاقلة اتخذتها مثالاً للكون الذي نعيش فيه، نحن كسمكة من ملايين ملايين الأسماك، ممتدة على حبائل أوسع من هذه، وهناك صياد ماهر لا نراه، يتصرف بالعوالم كما يتصرف صياد السمك بالست عشرة سمكة التي كانت من نصيبه، ويبحث العلماء فعل الصياد وأثر القوة الخفية التي تقوم بهذه العملية.
قد يعترض القارئ أن أسماكاً، في صفوف أخرى، تقترب في الوقت الذي تتناثر فيه الست
عشرة سمكة المتقدمة، ولكن عليه أن يتصور أن حبائل الشبكة من مادة تجيز التمدد في جميع الجهات.
مثال أخر يقرب للقارئ الصورة التي يعتقدها العلماء في الكون، ذلك أن تتصور كرة من المطاط، انتشرت على سطحها وفي داخل قشرتها جسيمات صغيرة جداً، فإنه عندما تنتفخ هذه الكرة، تبتعد هذه الجسيمات الواحدة عن الأخرى وفق القانون المتقدم، بحيث يبدو ونحن عند جسيم معين ازدياد ابتعاد الجسيمات الأخرى كلما كانت بعيدة عنه.
هذه صورة الكون الذي يفسر مشاهداتنا إلى حد، ولا يزال علينا أن نعرف مدى ما يساعد عليه العلم النظري من التثبت من هذه الصورة، ويلزمنا قبل أن نبدأ هذا الشرح أن نلخص الوقائع التي نعرفها حتى الآن، ثم ننتقل إلى تعرف الحيز الحامل لنا، هذا الحيز الموجود في إطاره كل العوالم الطبيعية، والذي سنرى أنه يختلف عن حيز

أقليدس اللانهائي.
أوضحنا أننا كما نستطيع أن نعرف اقتراب أو ابتعاد قاطرة عنا من سماع صفيرها، كذلك يمكن معرفة اقتراب أو ابتعاد مجموعة من النجوم عنا من موضع خطوطها الطيفية على الطيف العادي، ففي حالة ابتعاد هذه النجوم تقترب خطوط طيفها من الجهة الحمراء، وفي حالة اقترابها نقترب من الجهة الأخرى، وتتعين سرعة ابتعاد النجم أو اقترابه من درجة اقتراب خطوطه الطيفية من أحد الطرفين.
وذكرنا أن العلوم النظرية والتجريبية قد برهنت على ابتعاد جميع العوالم عنا، كما برهنت على زيادة سرعة ابتعادها من بعدها، فالعوالم، التي تفصلنا عنها مسافة يقطعها الضوء في 3 ملايين سنة، تبعد عنها بسرعة 500 كيلو متر في الثانية تقريباً، أما العوالم المفصولة عنها بمسافة 150 مليون سنة ضوئية فتبتعد عنها بسرعة 25 ألف كيلو متر في الثانية.
وتساءلنا لماذا تبتعد كل العوالم عنا، وأعطينا الآن صورة للكون الذي نعلم عنه أن كل عالم فيه يبتعد عنا، وأن سرعة الابتعاد تتزايد كلما كان بعيداً. هذه خلاصة ما وصلنا إليه، على أننا نخطو بالقارئ خطوة أخرى إلى الأمام.
مهما يكن من الأمر فإنه لم يكن هناك غير طريقين لنجد تعليلاً لهذه السرعة الكبيرة للسدم التي تبتعد كلها عنا.
(1) إما أن هناك قوة إلى الخارج تدفع هذه الكائنات إلى السباق والتنافر.
(2) أو أن تكون هذه السرعة موجودة ولازمة لهذه العوالم منذ التطور الأول للخليقة، ومن يدري ماضيها؟ فقد تكون أكبر من ذلك بكثير.
على أني لا أريد أن يفوت القارئ، أن هذه السرعات الكبيرة، قد لفت النظر إليها البحث النظري قبل البحث التجريبي هذا البحث النظري الذي بدأ بمعادلات (أينشتاين) عن النسبية في وضعها العام، والذي تتبعه دراسة (دي سيتير) الذي توقع هذا التنافر للعوالم البعيدة. ولنعد بكلمة أخرى إلى عمل (أينشتاين) لنرى العلاقة بين عمله وبين صورة الكون.
عندما نشر أينشتاين نظرية النسبية في وضعها العام سنة 1915 التي تناول فيها فيزيقية المجال، والتي درس فيها المادة والكهرباء والإشعاع والجهد، كان أهم جزء في نظريته قانون الجاذبية، الذي يتفق في الحدود العادية مع نظريات نيوتن القديمة، على أينشتاين قد واجه في ذلك الوقت بعض الصعوبات التي لكي يذللها، عدل معادلاته بحيث أصبحت تسمح بتقوس الحيز للمسافات البعيدة، فحذف بعبقريته فكرة اللانهائية التي كانت تشغل دوراً في العلوم، بحيث إذا سرنا في حيز أو كون أينشتاين الجديد دائماً للأمام، رجعنا للنقطة التي بدأنا منها المسير.
هذه المعادلات الجديدة الخاصة بالجاذبية، نرى فيها ثابتاً جديداً يطلقون عليه الثابت الكوني على أن الذي يهمنا أن هذا الطرف الجديد في معادلات أينشتاين خاص بوجود تنافر بين مجموعات الأجرام السماوية، يتناسب مع المسافة، تنافر كوني ليس له مركز خاص، أي أنه قوة متعلقة بالثابت الكوني وتتناسب معه.
ومما هو جدير بالذكر أن المسألة التي نحن بصددها الخاصة باتساع الكون وتعاظم مسافاته، لم تكن قط موضع نظر أينشتاين ولم تكن بين المبررات التي دعته للتعديل الذي قام به هذا العالم الذي لم يهتم للثابت الكوني بقدر اهتمام البروفسير فايل له فيما بعد.
على أن تفكير أينشتاين هذا، أفاد في معارفنا فيما يخص الكون، وخرج بنا من غير قصد من مصاعب كان لا بد أن نلقاها، ذلك أنه إذا اعتبرنا المسافات البعيدة عن 150 سنة الضوئية التي كانت أخر حدود رؤيتنا نصل إلى أجرام تقرب سرعتها من سرعة الضوء، وليس هنا المجال لنذكر ما في ذلك من تناقض للنظريات الحديثة؛ ولعل القارئ يدرك الآن
كيف يمنعنا أينشتاين الذي كان لا يعرف هذه الصعوبة القائمة أمامنا، من التوغل في الكون بشكله الذي نستوعبه، لأن الكون مغلق على نفسه ولأننا لا نلبث أن نعود من حيث نظن أننا لا زلنا نتوغل فيه.
لست الآن بصدد أن أذكر القارئ أن الرياضيين توصلوا منذ أكثر من مائة عام إلى فرض حيز مقوس يختلف عن حيز أقليدس، وليس في نيتي في هذه الأسطر أن

أستعرض علماً من أهم العلوم المعروفة اليوم، هو هندسة ريمان وهندسة لوباتشيفيسكي التي تعتمد كلاهما على تقوس الحيز، وتختلف عن الهندسة التي اعتدنا حل مسائلها في المدارس، والتي لا وجود فيها للخطين المتوازيين، إنما أريد أن ألفت نظر القارئ إلى أن دراسة دقيقة للحيز الطبيعي أوصلت العلماء لخاصية تقوسه، كما أوصلت ريمان لنفس النتيجة. أما ريمان فوصل لهذا التقوس لعدم إمكان إثبات نظرية واحدة، من بين الأربع والعشرين نظرية لأقليدس التي تعلمناها في المدارس، وهي نظرية خاصة بالمتوازيات. أما الطبيعيون فقد وصلوا لهذا التقوس بتجارب سنأتي عليها عندما نتكلم عن النسبية.

وهكذا ظهر لنا حيز أقليدس المستقيم مقوساً، وظهر لنا أن هذا التقوس صفة طبيعية تسمح التجارب اليوم بالتحقق منها، كما نتحقق من وجود المجال المغناطيسي دون أن نراه.

وهكذا كما نصادف في الطبيعة سطوحاً منحنية، نصادف فيها حيزاً منحنياً، أي أن له هذه الخاصية من التقوس الممكن قياسه ولكن يوجد فرق جوهري بين التقوسين، ذلك أن يجوز لنا في السطوح أن نعدلها أي نحذف خاصية الانحناء منها، وذلك بالقيام بعملية معاكسة للانحناء، ولكن لا نستطيع في الحيز أن نجعله يتخلص من هذه الخاصية، أي انه لا يمكن تعديل صفته الطبيعية كما هو الحال في السطوح.

هذا الحيز أو الفراغ في حالته البسيطة حيز ذو أربعة أبعاد، وهذا البعد الرابع هو الذي ينحني الحيز في اتجاهه - هذا التمثيل الرباعي الأبعاد، في الحالة البسيطة المتناسقة، يصبح سداسياً أو ذا عشرة أبعاد عندما ننتقل من الحيز العادي إلى الحيز في الزمن، وليس للقارئ أن يرتبك بهذا الحيز الأخير وعلى حد قولهم - إن ما يميز العالم الرياضي من غيره أن الأول يرى الأشياء في أربعة حدود، إنه لا شك أن ثمة صعوبة في تخيل الحيز ذي أربعة الأبعاد، ويتصور أدنجتون لذلك فقاعة كبيرة، هذه الفقاعة ذات أربعة حدود،
حيث الطول والعرض والارتفاع، موجود كله في القشرة المكونة لها.

هذا الحيز ذو الثلاثة أبعاد المعوج في حيز ذي أربعة أبعاد، يعطينا الرياضيون عنه خواص تتصل بفهمنا للكون، منها أن التقوس كاف ليعطينا حيزاً مغلقاً يختلف عن الحيز المفتوح اللانهائي بالطريقة التي يختلف فيها سطح الكرة عن سطح مستو غير محدود.

كل ما أريد أن يعلق بذهن القارئ هو أن يعتقد أن الحيز المتقوس نتيجة رياضية، ونتيجة عملية في أن واحد، ونكرر القول أن الحيز الطبيعي الذي نحن فيه، حيز من شأنه أن خطا ما، أو موجة ضوئية أو كهربائية، تعود إلى النقطة التي بدأت منها، بعد أن يكون كل منها قد دار حول الكون.

صحيح قد دلتنا التجارب حتى اليوم على أن التقوس صفة ضرورية ولازمة في جزء من هذا الحيز، هو جزء محدود بحدود رؤيتنا فهل يتقدم العلم التجريبي تقدماً يثبت فيه أن هذا الحيز محدود وأنه مغلق؟ هذا ما يعتقده العلماء.

هذا الحيز المتقوس والمقفل على نفسه، يعتقدون أنه كروي، وأن وجود المادة فيه من أن لآخر يحدث اختلافات فيه عندها، كما تحدث الجبال اختلافات في كروية الأرض، وكما أن المساحة الجانبية للكرة الأرضية محدودة، كذلك حجم الحيز الكروي للكون محدود، ولكنه يكبر.

قد يتساءل القارئ: ما لي وكل هذا؟ لماذا هذه الصورة من الكون التي تمنعني تصوراتي من استيعابها؟ أو نحن في حاجة لهذه الصورة المعقدة، لنفهم تمدد العوالم وابتعادها الواحد عن الآخر؟ ألا يكفينا الفراغ الأقليدسي القديم الذي اعتدناه في المدارس، والذي فهمناه على أيدي مدرسين قديرين، قطعوا السنين الطويلة في تلقيننا صورته، والذي دخلنا من أجله عشرات الامتحانات؟ ألا يكفي حيز أقليدس الذي أتصور فيه الطول والعرض والارتفاع لأي كائن كما أتصور فيه المسافات مهما ابتعدت؟ وجوابنا أن عالمنا الأقليدسي لا يكفي لفهم الظواهر الجديدة في تمدد العالم، ويتناقض مع معارفنا الحالية، وإنني إذا كنت أجهدت نفسي في أن نفهم معاً كوناً كروياً، كروياً ليس كالكرة المعتادة، فلأن لذلك صلة كبرى، إن لم تكن بتمدد الكون في ذاته، فعلى الأقل بالنتائج التي تترتب على هذا التمدد. . . نتائج سيدهش لها القارئ عندما أدله عليها في

المقال القادم.
ومع كل ذلك فليس ثمة سبب جدي لهجر كون محدود وحيز متكور، للرجوع إلى حيز أقليديسي غير محدود وهو بهذا غير معقول، ما دام العلم النظري يجيز الحيز الجديد والعلم التجريبي يحتمه.
هب أن أحد المؤرخين، مهما علت مكانته، وصف لنا مقبرة خوفو بالجيزة مخروطاً قائماً في الصحراء، وهب أننا رأينا رأى العين أن هذه المقبرة تمثل شكلا هرمياً، له قاعدة وأربعة أوجه، فليس لنا أن نواصل وصف الأهرام كمخروط وهو ليس بمخروط ومهما يكن من عدد ملايين النجوم والسدم، أليس أقرب للذهن تصورها على كرة محدودة عن تصورها منتشرة في فضاء لا نهائي؟ هذه اللانهائية تتضاءل يوماً بعد يوم، وإذا كانت هذه المجموعة يبتعد بعضها عن بعض، فبدهي أنه يلزم لها حيز يكبر بحيث يقبل هذا التباعد، ومن السهل أن نفهم ذلك لو تصورنا مخلوقات عديدة موزعة على الأرض. إن هذه المخلوقات لا يمكنها أن يبتعد كل واحد منها عن الآخر، دون أن تقترب في نفس الوقت من أي كائن على الأرض، إلا إذا تصورنا إن الأرض أن نفسها تكبر.
هذا هو الكون يدلنا العلم أنه محدود وأنه يمتد في جميع أنحائه، على نحو كرة المطاط السابقة، أو حبائل الصيد المتقدمة، قد تدل الأيام على خطأ في هذا التقدير، وقد تظهر هذه المسائل في يوم آخر بلون جديد، ولكن إذا أردت أن تعرف شكل الكون من هؤلاء الذين شغلوا أنفسهم بدراسته، فقد دللتك على آرائهم، وليس أمثال دي سيتير وأينشتاين وأدنجتون وغيرهم ممن لا يقام لرأيهم وزن، وغايتي بعد الذي وصلنا إليه أن أشرح للقارئ النتائج التي ترتبت على هذه الظاهرة الجديدة - ظاهرة تمدد الكون - نتائج أهم ما فيها الوصول لعلاقة بين الكون في مجموعه، وبين الذرة والإلكترون، أي بين الكون وأصغر ما فيه، بل الوصول إلى معرفة عدد ذرات وإلكترونات الكون مهما كان هذا الكون عظيماً.
محمد محمود غالي
دكتوراه الدولة في العلوم الطبيعية من السوربون
ليسانس العلوم التعليمية.
ليسانس العلوم الحرة.
دبلوم المهندس خانة.
رسالة الفن
الأغاني المصرية
للفنان محمد السيد المويلحي
أعتقد أن أسمى اللغات قاطبة وأقربها إلى العقل والقلب، وأكثرها شيوعاً وانتشاراً في مسالك الأرض: هي الموسيقى وحدها لأنها لغة الطبيعة السهلة التي تجري على كل لسان لتعبر عن خوالجه، وتترجم إحساسه وتصور أمله وعقله، بل وتسجل مقدار ما يتمتع به من حضارة وسمو، أو ما هو عليه من انحطاط وخمول!
ولا أحب في هذا المقام أن أستشهد بأقوال حكماء العالم فإنها معروفة، وإنما أحب أن أركز هذه الأقوال جميعاً في جملة واحدة للحكيم الصيني (كونفوشيس) الذي قال: (أروني أغاني أمة من الأمم أركم مدى ما وصلت إليه من حضارة ورقي. .!).
وقبل أن أعرض مع القارئ مبلغ ما وصلت إليه (أغانينا) من حضارة ورقي أو انحطاط وهبوط، سأحاول - ما استطعت - أن أعطيه فكرة عن الأغاني في شيء من الإيجاز، فإن للإسهاب وقتاً آخر.
1 - الأغاني الوصفية: وتشمل الموسيقى المسرحية ومحاكاة ما تسمعه الأذن من التفاعيل الطبيعية.
2 - الأغاني الحماسية: وتستعمل في إشعال النفوس وتهيئتها لجو الحروب، والتضحية والفداء. . .
3 - الأغاني الشعبية: وتمتاز بلونها السهل الذي لا تركيب فيه ولا تعقيد.
4 - الأغاني الغزلية: وهي التي تترجم خلجات النفس وأماني الفؤاد، وتصوير ما يلاقي الإنسان في حبه من توفيق أو فشل، وأثر هذا التوفيق أو هذا الفشل في حياته وتفكيره. .
5 - الأغاني الصوفية: وهي التي يتداولها رجال (الذكر) ببراعة بارعة وقدرة قادرة على

التصرف والخروج من نغم إلى نغم ومن مقام إلى مقام؛ ثم الرجوع إلى النغمة الأصلية والمقام الأول بسلامة ودقة.

6 - أغاني العمال: ويستعملونها لمساعدتهم على أعمالهم الشاقة واحتمال ما هم فيه من حاجة وضنى.

7 - أغاني الفرح: ويعبر بها الإنسان عن هناءته وسعادته وحبه لكل شيء جميل في الحياة. .

8 - أغاني الأطفال: وتستعملها الأمهات للتنبيه وللمناجاة، ولجلب النوم، ولإطفاء الغضب.

9 - أغاني الحيوانات: ويستعين بها الرعاة والحدأة على السيطرة على الحيوانات لتنتج أعظم إنتاج وأوفره. .

10 - أغاني النواح: وهي التي تجري لحناً حزيناً مؤثراً فتلهب العواطف، وتحرك القلوب، وتثير الدموع.

11 - أغاني المناسبات: وهي التي تغني في أوقات خاصة لمناسبات خاصة كأغاني رمضان، وأغاني الحج، وأغاني المواليد، وأغاني الزار. . . الخ.

12 - أغاني الكنيسة: وهي من أروع الموسيقى القديمة ولها لون يضفي على النفس إهاباً من السعادة والنور.

هذه بعض الأغاني التي تستعمل بعضها أكثر الشعوب استعمالاً يتفق وحضارتها أو تأخرها. فالشعوب الحية الناهضة تستعمل الأغاني الوصفية، والحماسية، والشعبية والخ، وقلما تلجأ للأغاني الغزلية إلا في القليل النادر، وفي البيئات المحدودة، ثم هي لا تعرف أغاني الحزن أو تعرفها ولكن لا تعزفها!. .

والشعوب (الرخوة) المتأخرة هي التي تفني نفسها في أغاني الحب وأغاني الحزن، وذلك لانعدام قدرتها على السيطرة على عواطفها، والتحكم في خوالجها فهي خاضعة لشهواتها، أسيرة لغرامها، لا تعرف من الحب إلا (آهاته وأناته. . .)!.

ولننظر الآن في أغانينا لنحكم بأنفسنا على مبلغ ما وصلنا إليه فيها. . .

إنها بلغت درجة الإسفاف والانحدار تأليفاً وتلحيناً وبخاصة في السنوات الأخيرة، حتى أن الشعب أصبح على رغم صيحات الإنكار وصرخات الاحتجاج التي يرسلها المصلحون الناقمون على هذا التبذل الرخيص والمشفقون على الوطن، وشباب الوطن من هذا (اللون) المسترخي البغيض الذي يشيع في كل كلمة وكل لحن والذي تتناقله الألسن إما إعجاباً، أو محاكاة، أو ترديداً لا أكثر ولا أقل. . .!

أقول إن الشعب برغم كل هذا لا يحرك ساكناً، ولا يرسل صيحاته وإعجابه إلا للمغنى الذي يبكي أمامه ويندب حظه وحبه ويبدي ذله ودموعه بشكل ضعيف سخيف، وإلا للمغنية التي تتأوه، وترثي حبها وحبيبها فتصف قلبها الذي أضناه البعاد، وحسنها الذي أذواه السهاد. . .

فإذا حاول مطرب بعد هذا أن يساهم في حركة الإصلاح فغنى مشيداً بتاريخ بلده العظيم، أو حاضاً على النهوض والوثوب أو مصوراً جلال الحضارة ورفعة المستقبل، لا يقابل إلا بالفتور.

فمن ذا الذي خدر أعصاب هذا الشعب، حتى غدا لا يستسيغ إلا الساقط المسترخي الذي لا يقوم على أساس ولا ينهض إلا على الأنين المدعى، والحنين المصطنع؟

من ذا الذي فرض تلك الأغاني التي لا فكرة فيها، ولا غرض منها إلا ابتذالها وانحلالها؟ للشهرة نصيب، وللجهل نصيب!

فقد انتهز بعض المشهورين بالنواح والبكاء فرصة هجعة الحياة المصرية ففرضوا (لونهم) على الشعب فرضاً، وسمموا حواسه وخدروها بالآهات المصطنعة، وبالأنات المفتعلة؛ ودأبوا طول هذه السنوات لا يغذونه إلا بهذا الغناء المسموم، ولا يسمعونه إلا موسيقى جافة ميتة، وإلا ألفاظاً ساقطة لا حياة فيها ولا فكرة تحييها، ولا غرض يسمو بها إلى أفاق المجد الذي تفيض به الأغاني الأجنبية حتى أصبحوا - الآن - حجاباً صفيقاً بين الشعب وبين نوابغه من الموسيقيين العباقرة الذين ظلمتهم الشهرة الطاغية، فوقفوا صامتين مقيدين لا تسمح لهم ضمائرهم بالهبوط إلى ذلك الدرك، ولا ترحمهم الحاجة الملحة إلى طلب القوت فترفع إليهم هذا الشعب الظالم نفسه وأهله.

لا أريد هنا أن أسمي بعض المطربين والمطربات، ولكنني أقول: إن بعضهم - وهم

الذين يتحكمون في سوق الأغاني وفي سوق الإذاعة، وفي سوق التمثيل السينمي في هذا الوقت على الأقل - أقول إنهم قد اغتنوا واقتنوا ما يغنيهم عن استغلال أحط الغرائز الإنسانية التي لا تزال تتغذى منهم هذا الغذاء المجرم! ما الذي يمنعهم من أن يساهموا في هذه الطفرة المباركة التي ستنهض بالشعب عن طريق أغانيه؟ ما الذي يمنعهم من أن يتركوا البكاء ولعويل ويساهموا في رفعة الشعب فيعرضوا عليه ألواناً من الحماسة والشجاعة والوصف الطبيعي الجميل؟ إن تاريخنا مجيد سجدت له الدنيا، وإن حاضرنا عظيم بنفوس أبنائه وهمة ملكيه الشاب المفدى، فلم لا نخرج للدنيا ألحاناً خالدة خالية من الحب، والغدر، والهيام السقيم واللون الإفرنجي الذي يخالف ذوقنا وفننا كما أشار بذلك سيد لشباب وحفيد إسماعيل. . .؟

إن بلادنا غنية بجمالها وجلالها، وإن شمسها وقمرها وسهولها وزروعها ونخيلها ونيلها، لو اتخذت موضوعاً للوصف والغناء لكانت فتنة للقلب، وسحراً للسمع، وإشادة صادقة بجمال صادق فذ فريد!

إن الشعب كالعجين في أيدي الشعراء، والزجالين، والمطربين والمطربات. . . يتشكل بالشكل الذي يريده هؤلاء جميعاً فلم لا نهيئه للجو الذي نريده ويريده مثقفوه؟ ولم لا نضطره إلى قبول هذا اللون الجميل الجليل بل إلى حبه وهو الذي يقبل منهم التافه المنحل. . .؟

إن الذين طبعوه على البكاء يستطيعون - لو أخلصوا - أن يطبعوه على حب المجد والتضحية ومسايرة الشعوب الحية الناهضة القوية، وإن الذين صوروه في هيئة الرجل الذي لا يعرف إلا قلبه وحبه، يستطيعون أن يصوروه في هيئة الرجل لذي لا يعرف إلا مجد وطنه وفخر أمته.

إن محطة الإذاعة يقع عليها جزء كبير من هذه التبعة فلن نكتفي منها بمحو كلمات (الذل، والهجر، والغدر) من الأغاني، بل نطمع في مساعدتها ومساهمتها في هذا المشروع العظيم بكل ما تملك من سلطة وقوة. . . نطمع منها أن تمنع بتاتاً (أهازيج الغرام، وأدوار الهيام) وإن تشجع هؤلاء الذين يتقدمون إليها بأغانيهم القوية تشجيعاً يحفزهم على مواصلة عملهم والتقدم بفنهم إلى الأمام أبداً. . .

عيها أن تضرب (بالشهرة) عرض الحائط، وستجد من الشعب المثقف ومن الصحافة خير مشجع لها ومشيد بفضلها.

إن الأمر لن يكلفها إلا القليل من الجرأة والإيمان بعدالة هذه القضية فهي متعاقدة مع بعض كبار الملحنين فلتكلفهم بتلحين جديد لكلام جديد. . . فإن عجزوا فالمباريات لن تعجز والجيل الجديد من الموسيقيين لناشئين لمثقفين لن يعجز!

اعتقد أن وزارة المعارف وهي التي تشجع الفنون على اختلاف أنواعها لن تظن على الموسيقى بتشجيعها، وعلى رأسها وزيرها الأديب، ووكيلها لموسيقى بفطرته، ولذي يتمنى أن يرى الموسيقى قد أخذت مكانها الرفيع في التثقيف والتهذيب والتطريب القوي الذي لا انحدار فيه ولا استرخاء.

إن الوزارة لو اشتركت مع محطة الإذاعة في عمل مباريات تنظر فيها لجنة فنية من كبار الموسيقيين تكافأ بما يتناسب وجلال هذه المهمة لكنت خطوة موفقة، ولو كلفتهم الوزارة والمحطة بعمل قطع جديدة وكافأتهم مكافأة حسنة لكانت خطوة أكثر توفيقاً، وأكبر نجاحاً.

أيها الناس. . . لقد سئمنا الشهرة، وسئمنا هذا الاستغلال الذي يتنافر وشرف الفن، ومللنا هذا لبكاء المريض لذي لا يتفق وحضارتنا، وكبرياءنا.

نريد أن نحيا كما يحيا غيرنا. نريد أن نفخر بعزتنا، وبوطننا، وبملكينا الذي يود أن يسمو بالأغاني عن منطقة الدموع والشهوات والقلب والحب، والحسرات والزفرات. حتى لا يقال عنا إننا لا نعيش إلا لشهواتنا وقلبنا. . .!!

محمد السيد المويلحي

البريد الأدبي

النواحي الإنسانية في الرسول

قرأت كلمة للأستاذ زكي مبارك في العدد (297) من مجلة الرسالة الغراء تحت هذا العنوان، وقد بنى هذه الكلمة على أساس أن شخصية النبي صلى الله عليه وسلم لم

تدرس حق الدرس إلى اليوم في البيئات الإسلامية، لأن المسلمين يجعلونه رسولاً في جميع الأحوال، فهولا يتقدم ولا يتأخر إلا بوحي من الله، ولا يأخذ ولا يدع إلا بإشارة من جبريل.

ولو أن الأستاذ زكي مبارك رجع إلى ماضيه في الأزهر فقرأ شيئاً من كتب الأصول، لعرف أن المسلمين لم يكونوا بهذا الشكل الذي يصورهم به. وقد نعذر بعض المستشرقين إذا قال مثل هذا القول، ولكنا لا نعذر الأستاذ زكي مبارك، وقد تربى بين شيوخ الأزهر، ودرس الكتب الأزهرية، ووصل فيها إلى الحد الذي جعله يقدم نفسه من عامين لامتحان شهادة العالمية.

فليس بصحيح أن المسلمين يعتقدون أن النبي لا يتقدم ولا يتأخر في جميع أحواله إلا بوحي من الله، ولا يأخذ ولا يدع إلا بإشارة من جبريل، والذي يعرفه المسلمون جميعاً أن الوحي لم يكن له مع النبي صلى الله عليه وسلم شأن في أمور الدنيا، حتى ورد عنه هذا القول المشهور: (أنتم أعلم بأمور دنياكم) وقد قال هذا حينما رأى قوماً يؤبرون النخل، فقال لهم: لو تركتموه لصلح، فتركوه اتباعاً لقوله ففسد، فلما رجعوا إليه قال لهم: أنتم أعلم بأمور دنياكم.

أما أمور الدين فقد جوز أكثر العلماء له الاجتهاد فيها بدون الوحي، وجوزوا عليه الخطأ فيها أيضاً، ولهذا عوتب في القرآن الكريم بقوله تعالى: (عفا الله عنك لم أذنت لهم) وبقوله: (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض) وقال صلى الله عليه وسلم: (لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدى).

وقد منع بعض العلماء أن يجتهد النبي في الأحكام من نفسه واستدلوا بقوله تعالى: (وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحي) وأجاب الذين ذهبوا إلى جواز ذلك بأن هذا مختص بالقرآن الكريم، وقد جاء رد لما زعمه المشركون من افترائه له.

فهل بعد هذا كله يصح أن يقول الأستاذ زكي مبارك: إن شخصية الرسول لم تدرس عند

المسلمين حق الدرس إلى اليوم؟ وهل من اللائق أن نتنكر لماضينا هذا التنكر؟

عبد المتعال الصعيدي

من ملك مصر والشام إلى ملك بيت المقدس

قاتلهم فكان خير مقاتل، وهادنهم فكان أفضل مهادن، وغلبهم فكان أكرم غالب، وتكلم في الحرب فكان القول زمجرة ونهيما، ونطق في السلم فكان الكلام عندلة وهديلاً، وللهيجاء لسان، وللموا دعة لغة. وكانت لهم في (بيت المقدس) مملكة استمرت مائة عام إلا قليلاً، ومات ملكها وبين (المغير والذائد) هدنة، فأرسل بهذا الكتاب معزياً، ونحن ننشره في (رسالة العرب والعربية) نموذجاً من أدب النفس والخلق العالي والسياسة الحكيمة.

إنه (صلاح الدين) تلميذ (محمد) خادم محمد، صلى الإله على محمد!

كتب القاضي الفاضل عن السلطان (صلاح الدين يوسف ابن أيوب) إلى بردويل أحد ملوك الإفرنج، وهو يومئذ مستول على بيت المقدس وما معه، معزياً في أبيه، ومهنئاً له بجلوسه في الملك بعده، ما صورته:

أما بعد: خص الله الملك المعظم حافظ بيت المقدس بالجد الصاعد، والسعد الساعد، والحق الزائد، والتوفيق الوارد؛ وهنأه من ملك قومه ما ورثه، وأحسن من هداه فيما أتى به الدهر وأحدثه، فإن كتابنا صادر إليه عند ورود الخبر بما ساء قلوب الأصادق، والنعي الذي وددنا أن قائله غير صادق؛ بالملك العادل الأعز الذي لقاه الله خير ما لقي مثله، وبلغ الأرض سعادته كما بلغه محله؛ معز بما يجب فيه العزاء، ومتأسف لفقده الذي عظمت به الأرزاء؛ إلا أن الله سبحانه قد هون الحادث، بأن جعل ولده الوارث؛ وأنسى المصاب، بأن حفظ به النصاب، ووهبه نعمتين: الملك والشباب. فهنيئاً له ما حاز، وسقياً لقبر والده الذي حق له الفداء لو جاز. ورسولنا الرئيس العميد مختار الدين أدام الله سلامته قائم عنا بإقامة العزاء من لسانه، ووصف ما نلنا من الوحشة لفراق ذلك الصديق وخلو مكانه، وودنا الذي هو ميراثه عن والده من ودادنا، فليلق التحية بمثلها، وليأت الحسنة ليكون من أهلها؛ وليعلم أنا له كما كنا لأبيه: مودة صافية، وعقيدة وافية؛ ومحبة ثبت عقدها في الحياة والوفاة، وسريرة حكمت بالدنيا بالموافاة؛ مع ما في الدين من المخالفات. فليسترسل إلينا استرسال الواثق

الذي لا يخجل، وليعتمد علينا اعتماد الولد الذي لا يحمل عن والده ما تحمل؛ والله يديم (تعميره، ويحرس تأميره، ويقضي له بموافقة التوفيق، ويلهمه تصديق ظن الصديق
ذلكم كتاب بطل المسلمين وقاهر الصليبين (صلاح الدين) وإن (معزي) ملك بيت المقدس هو (منقذ) بيت المقدس.
(الإسكندرية)
* * *

التصوف الإسلامي

أخي الأستاذ الزيات

يسرني أن أقدم إليك القصة الآتية: لما ظهر كتاب التصوف الإسلامي كنت أنتظر أن يقع من جميع الباحثين موقع القبول، ثم أزعجني أن يتلقاه بعض الناس بالكدر والامتعاض. وقد دلني ذلك على أن التضامن منعدم بين أدباء هذا الجيل.

وأعيذك أن تظن أني خائف على نفسي من لجاجة بعض الحاقدين. وكيف أخاف وذلك (البعض) واحد من جملة الذين عادوني وخاصموني ثم ارتدوا على أعقابهم خاسرين؟

أما الخوف على كتاب التصوف الإسلامي فهو لا يخطر في البال، لأن الكتاب سيشق طريقه إلى القلوب والعقول، ولو تظاهر الناس كلهم على دفع أمواجه الأدبية والفلسفية.

وإنما أشغل نفسي بهذه القضية لسببين: الأول حق التاريخ، والثاني حق الواجب.

أما حق التاريخ فهو تسجيل ظاهرة من ظواهر الأخلاق، لأن ذلك الأستاذ لذي يحارب كتاب التصوف الإسلامي هو رجل دفعت عنه كيد خصومه بكلمة قوية نشرتها في مجلة الرسالة، وما أمن عليه بما صنعت من جميل، وإنما أسجل أننا قد نخطئ مواطن الجميل في بعض الأحيان.

أما حق الواجب فهو دفع الأذى عن العقول التي تقبل على مؤلفاتي، فما يجوز أن أترك أنصاري عرضة لأراجيف المتقولين والحاقدين.

فما الذي عابه ذلك الأستاذ المفضال؟

1 - قال: إني كتبت في التصوف ولست صوفياً، ولا يجوز عنده أن يكتب في التصوف غير الصوفية!

وأجيب بأني درست التصوف من الوجهة الأدبية والفلسفية وقد وصلت من ذلك إلى ما أريد. أما القول بأني لست صوفياً فهو قول مردود، فتلك أسرار يعلمها الله ويجهلها الناس وأنا أكره أن أصف نفسي بالتقوى والزهد والتنسك لئلا أقع في بلية الرياء؛ وقد قلت ألف مرة إني أحب أن ألقي الناس بالفجور وألقي الله بالعفاف، وأنا راض عن نصيبي عند علام الغيوب.

2 - وقال: إني لوثت كتاب التصوف الإسلامي بالحديث عن أبي العتاهية، وساق كلمة سفيهة وصف بها أبو العتاهية في كتاب الأغاني.

ولو أن هذا الناقد كان اطلع على كتاب (النثر الفني) لعرف قيمة الأخبار الواردة في كتاب الأغاني.

وهل يصح في حكم العقل أن نمحو أسم أبي العتاهية من سجلات الأدب بسبب كلمة سخيفة كتبها صاحب الأغاني؟

أنا لا أنظر إلى أبي العتاهية إلا من جهة واحدة: هي أنه أنشأ في الأدب العربي فناً جديداً حين نظم قصائده الزهديات.

ولن نستطيع أن نقاوم أبا العتاهية بعد أن أمد اللغة العربية بهذه الثروة الشعرية.

وكيف نستطيع ذلك وفي المؤلفين من عد أبا العتاهية من أمراء الشعر في العصر العباسي؟

3 - وعاب على أن أتحدث عن زهديات أبي نواس في كتاب التصوف الإسلامي.

وما لعيب في ذلك؟

أنا أتحدث عن الندم الذي عاناه أبو نواس يوم هداه الله إلى المتاب، فهل يغض ذلك من كتابي؟

وهل هناك فرصة روحية أعظم من فرصة الفاجر حين يتوب؟

وهل كان أبو نواس أسوأ خلقاً من بعض شعراء اليونان الذين بقيت آثارهم على وجه الزمان؟

إن الذين يعيبون على أن أتحدث عن زهديات أبي نواس في كتاب التصوف ينظرون إلى الأخلاق نظرة سوقية لا فلسفية، وأمثال هؤلاء لا يقام لآرائهم وزن وإن لبسوا مسوح
الرهبان.
4 - وعجب حضرة الناقد من ألا أكتب عن الحلاج غير إحدى عشر صفحة، ولو أنه كان تأمل لعرف كيف اختصرت القول في الحلاج، لأن الحلاج درسه المستشرقون من قبل، وأنا أبغض الحديث المعاد.
وأنا مع ذلك أقول إن الصفات التي كتبتها عن الحلاج ستكون نبراساً لكل من يكتب عن الحلاج، ولن يستطيع باحث مهما اعتسف أن يجهل أني هديته إلى معالم الصواب.
5 - وهناك مسألة سكت عنها هذا الناقد وتعرض لها بعض الأزهريين في كلمة نشرها بجريدة الدستور، وهي أنني قلت: إن الحلاج صلب كما صلب المسيح.
وأنا قلت ذلك في كتاب التصوف الإسلامي، ولكن له تأويل سجلته في الجزء الثاني من كتاب (ليلى المريضة في العراق).
وقد فرغت من طبع هذا الجزء قبل أن ينشر ذلك النقد بجريدة الدستور بأسابيع طوال.
وهل يفطن ذلك الناقد إلى السر في أن ينفي القرآن صلب المسيح؟
إن لذلك سراً سنذيعه يوم نأمن كيد الذين لا يهمهم غير مضغ الأحاديث، فقد شقينا بأراجيف الناس أعنف شقاء، ومن الله وحده ننتظر حسن الجزاء.
زكي مبارك

الفائزون بالمباراة الأدبية بين المدرسين

اعتمد معلي وزير المعارف النتيجة النهائية للمباراة الأدبية لتشجيع النتاج الفكري بين المدرسين.
وننشر فيما يلي أسماء الفائزين ومقدار المكافأة التي تقرر منحها لكل منهم.
في الأدب: الأستاذ فخري أبو السعود المدرس بمدرسة الرمل الثانوية وموضوع الرسالة (البارودي الشاعر) وقيمة الجائزة أربعون جنيهاً.
في التاريخ: الأستاذ عباس الخرادلي مدرس أول بمدرسة الأمير فاروق الثانوية وموضوع الرسالة (تاريخ الثورة الفرنسية) وقيمة الجائزة خمسون جنيهاً. . .
للأستاذ فخري أبو السعود وقيمة الجائزة خمسون جنيهاً (الخلافة والسياسة).
في الكيمياء: (الكيمياء ومسائل الحياة اليومية) للأستاذ حسن عبد السلام مدرس أول بمدرسة بنبا قادن الثانوية وقيمة الجائزة خمسون جنيهاً.
في الطبيعة: (الحسن بن الهيثم وجهوده في علم القوة) للأستاذ عبد الحميد حمدي مرسى المدرس بالأميرة فوزية وقيمة الجائزة خمسون جنيهاً.
في النبات: (حياة النبات ومبدأ لسنابل) للدكتور عبد الحليم منتصر المدرس بكلية العلوم وقيمة الجائزة سبعون جنيهاً.
في الرياضة: (التحويلات الهندسية) للأستاذ حسن رضوان المدرس بالهندسة التطبيقية وقيمة الجائزة أربعون جنيهاً.
في الفلسفة والاجتماع: (أحلام الفلاسفة في المدينة الفاضلة) للأستاذ زكي نجيب محمود المدرس بالمدارس الثانوية وقيمة الجائزة خمسون جنيهاً.
للأستاذ أحمد خاكي المدرس بدار العلوم (روح القومية مقدمة الإصلاح الاجتماعي) وقيمة الجائزة سبعون جنيهاً.
ولما كان من أغراض المسابقة إيجاد ذخيرة علمية وأدبية للطلاب وللجمهور في مصر باللغة العربية وخاصة في الموضوعات التي تنشر فيها مؤلفات عربية للآن فقد قررت الوزارة أن تقوم بطبع جميع الرسائل التي منحت جوائز، على ألا تطبع الرسالة إلا بعد إجراء لتعديلات التي اقترحتها اللجان العامة واللجان الفرعية وإقرار اللجان الفرعية للرسائل بعد تعديلها.
وستحتفل الوزارة في اليوم الثلاثين من هذا الشهر بقاعة المحاضرات بجامعة فؤاد الأول بتوزيع الجوائز عليهم، فيلقي معالي الوزير خطاباً، ثم يرد عليه أحد الأساتذة الفائزين بكلمة.

نشر الأدب العربي باللغة الفرنسية

نشرنا من قبل نبأ عن تأليف شعبة محلية لجمعية (جيوم بدييه) تكون مهمتها نشر كتب

الأدب العربي القديم باللغة الفرنسية، رغبة في إيجاد صلة بين التفكير العصري وتفكير القدماء من أبناء لغة العرب.

ونذكر لهذه المناسبة أن جمعية (جيوم بدييه) قد درجت في فرنسا على ترجمة المؤلفات
التي صدرت باللغة اللاتينية ترجمة صحيحة باللغة الفرنسية.

وستبدأ الشعبة المحلية بترجمة كتاب عربي يقدمه معالي الشيخ مصطفى عبد الرزاق بك وزير الأوقاف وتتوخى الجمعية في ترجمتها الحرص على إثبات النص العربي في أحد وجهي الكتاب وفي الوجه المقابل الترجمة الفرنسية.

وستطبع كتبها في مصر، ثم توزع في الخارج.

هافاس والرسالة

روت وكالة هافاس أن الحملة التي قامت بها مجلة (الرسالة) على الطرق بصفة عامة والتجانية بصفة خاصة قد أحدثت تأثيراً كبيراً بالمغرب، وأن قاضي سطات من كبار حملة الأقلام في المغرب الأقصى وهو من رؤساء هذه الطريقة قد ألف كتاباً صغيراً في الرد على مجلة الرسالة وسيطبع عما قريب بعاصمة تونس. وقالت الوكالة المذكورة إن لهجة هذا الكتاب على غاية من الحدة ضد الهادم للطريقة التجانية وخصوصاً ضد الشيخ عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء بالجزائر.

هذا النبأ المفترى لا يوجد إلا في رأس مختلقة من أصحاب هذه الوكالة. وقد كذبت هافاس في هذا الخبر مرتين، فالرسالة لم تقم بحملة ما ضد الطرفيين، وهي أرفع من أن تقوم بحملة من هذا النوع، وكل ما كتبته في هذا الموضوع لا يتجاوز كلمة صغيرة للأستاذ علي الطنطاوي، كتبها تعقيباً على مقال للعلامة الحجوي مندوب المعارف بالمغرب أبان فيها أن الطرق - بصفة عامة - عديمة الجدوى، هذا إن لم تكن سبباً للتفريق بين جماعات المسلمين. والكلمة حق في حق لا تصل أن تكون حملة في الواقع؛ على أن الرسالة أفسحت المجال للشيخ محمد الحافظ التجاني للدفاع عن الطريقة التجانية بما لا تعد بعده أنها حملت على هذه الطريقة.

أما الكذبة الثانية فهي أن هذه الحملة الموهومة قد أحدثت تأثيراً كبيراً في المغرب، والقاضي الذي أشارت إليه الوكالة أكبر شأنه أنه تجاني متطرف من غلاة التجانين ليس أكثر. هذا علاوة على أن الطرقية بالمغرب خفت صوتها منذ أصبحت أداة مسيرة بيد رجال القبعات مختفية تحت أصحاب العمائم.

أما مجلة الرسالة الزاهرة، والأستاذ علي الطنطاوي المسلم المؤمن، والشيخ عبد الحميد بن
باديس المصلح الكبير، فهؤلاء جميعاً أكبر من أن ينتقدهم طرقي مذبذب في كتيب خرافي.

فاس - المغرب الأقصى
(ا. ن)

بكلية القرويين
في الفقه المقارن

أخرج الأستاذ الشيخ عبد المتعال الصعيدي الطبعة الثالثة من كتابه (الميراث في الشريعة الإسلامية والشرائع السماوية والوضعية) وهو بحوث في الفقه المقارن عني فيها المؤلف ببيان فضل الميراث في الشريعة الإسلامية على غيرها بعد أن بين أحكام الميراث في الإسلام، وأحكامه في غيره من الشرائع السماوية والوضعية.

ويتناول المؤلف بعد بيان أحكام الميراث في الشريعة الإسلامية، والمواريث في الشرائع القديمة: عند قدماء المصريين، وعند الأمم الشرقية القديمة، وعند العرب في الجاهلية، وفي الشريعة اليهودية، وعند قدماء اليونان، وعند قدماء الرومان؛ ثم المواريث في الشرائع الحديثة: في القانون الفرنسي، وعند الاشتراكيين.

وبعد ذلك يجري الموازنة في الميراث في الإسلام والشرائع القديمة والحديثة. ومن مواضع الموازنة: التسوية بين الذكور والنساء، التسوية بين الأخوة، إيثار أرشد الذكور، إعطاء البكر نصيبين. . . الخ

وقد سار في كل ذلك على نهج قويم من حيث بيان الأسباب المعقولة والأحكام، وقرع الحجة بالحجة؛ والكلام يتسلسل في أسلوب بين، سهل الورود، مسعف بالإفادة، إلى

حسن تبويب ودقة ترتيب.
وتمتاز هذه الطبعة عن سابقتها بكثير من الزيادات والتنقيحات. ويقع الكتاب في 136 صفحة من القطع المتوسط. ويطلب من مكتبة الشرق الإسلامية بشارع محمد على أمام دار الكتب الملكية.

الأسماء العربية لجبال القمر

قرأت مقالة الأستاذ قدري حافظ طوقان، المنشورة في العدد 294 من (الرسالة)، بعنوان (القمر بين الحقيقة والخيال) فأعجبني ما جاء فيها من الحقائق العلمية الموضوعة بقالب يغري القارئ بمطالعتها. ولما كان حضرة الكاتب قد تطرق فيها إلى الكلام على جبال القمر، كما أنه ذكر أسماء بعضها، أحببت أن أؤيد كلامه بأمثلة أخرى من هذه الأسماء، تهمنا بنوع خاص نحن الشرقيين، فأقول: كنت قد وقفت على كتابين بالفرنسية للعلامة الفلكي مورو أحدهما بعنوان (يوم في القمر) وثانيهما بعنوان (بحث في القمر). إن المؤلف يذكر في كليهما الأسماء الجغرافية التي أطلقها علماء الفلك من أبناء الغرب على جبال القمر، كما أطلقوا غيرها على سائر عوارضه السطحية. ومما يلفت الأنظار من هذه التسميات التي تعد بالمئات، تلك الطائفة التي اتخذت لها أسماء تعود إلى مشاهير التاريخ الشرقي، بل العربي على الأخص. وهاأنذا ذاكرها فيما يلي، مع ما يقابلها بالإفرنجية نقلاً عن الكتابين المشار إليهما:

أبو االفدا
ألغ
ثابت (بني قرة)
الحسن (بن الهيثم)
الزرقالي (إبراهيم بن النقاش الطليطلي)
المأمون
نصير الدين (الطوسي)

ولا يخفى أن أغلبية هذه الشخصيات كانت ذات يد طولي في علم الفلك وما يتصل به من العلوم الأخرى. فلا غرو أن يخلد ذكرهم بهذه الطريقة العلمية الصامتة التي قلما يعلم بها إخلافهم اليوم. وهلا تذكرنا هذه التسميات العربية بما يماثلها في كوكبنا الأرضي، حيث نجد مواقع عديدة سميت بأسماء مشاهير رجال العرب كجبل طارق وبلد الوليد والقاهرة والمدرسة المستنصرية وغيرها مما يطول سردها ويخرج بنا عما أردنا من هذه الكلمة. .

(بغداد)
كوركيس حنا عواد

رسالة النقد
في سبيل العربية
كتاب البخلاء
للأستاذ محمود مصطفى

- 2 -

ذكرنا في المقال السابق مظهرين من مظاهر عمل الأستاذين الفاضلين العوامري بك والجارم بك في شرحهما لهذا الكتاب، وهي العناية بالإعراب، والتطبيق على علوم البلاغة.

واليوم نذكر مظهراً ثالثاً هو الإكثار من ذكر أسماء المراجع اللغوية، فما نفتأ نرى أسم اللسان والقاموس والصحاح وشرح القاموس ولنهاية و. . . و. . . من غير حاجة إلى ذكر شيء من ذلك؛ لأن العادة جرت ألا يخص أسم مرجع بالذكر إلا إذا كان قد أنفرد من بين بقية المراجع بإيراد ما نستدل عليه أو نحتج به، فأما الأمور التي اشتركت فيها كل المرجع أو أغلبها فلا نرى داعياً للنص على المرجع إلا أن يكون ذلك إدلالاً بمعرفة اسم الكتاب أو حيازته. ونكتفي من الدلالة على هذا المظهر في عملهما بذكر مثلين وقعا في صفحة واحدة هي ص 29، قالا حفظهما الله:

(8) الكُلوح (بضم الكاف) تكشر في عبوس. وقد كلح يكلح كمنع يمنع اهـ. من اللسان.

(9) قال في القاموس: قطب يقطب قطباً من باب ضرب، وقُطوباً بضم القاف فهو قاطب وقطوب: زوى ما بين عينيه. اهـ.

والذي ذكر أنه من اللسان تراه في القاموس. قال (كلح كمنع كلوحاً وكلاحاً بضمهما تكشر في عبوس. والذي ذكرا أنه من القاموس تراه في كل كتاب غيره. قال في المصباح: (قطب بين عينيه قطباً من باب ضرب جمع. . .) ويتصل بأمر المراجع للغوية مسألة أخرى وهي الوقوف عند عبارات هذه المعاجم لا تزحزح معه ولا ريم منه مهما أدى ذلك إلى الإيهام أو الاشتباه بألفاظ لا يليق في ذوق الشارحين أن تقع عليها أعين الطلاب والطالبات. وذلك كقولهما في حاشية ص 64: الختن من كان من قبل (بكسر ففتح) المرأة كالأب والأخ والعم والخال.

أيدري القارئ لم اضطر الشارحان إلى تقييد كلمة قبل بكسر ففتح؟ ذلك لأنهما أرادا أن ينفيا شبهة قراءتها بضمتين فيقع المحظور الذي تتوقاه وزارة المعارف. ولكني أقول إن هذا الضبط الذي قصد به لفت النظر والفكر عن شيء غير لائق كان أدل شيء على ذلك الشيء. فأي داع إلى التزام هذا اللفظ خصوصاً بعد تنبه الشارحان إلى ما فيه من خطر على الطلاب والطالبات؟ لا نرى ذلك الداعي إلا وقوفهما عند ألفاظ المعاجم لا يرميان منها ولو قيد أنملة. وفي ألفاظ: جهة المرأة أو ناحية المرأة أو جانب المرأة ما يغنينا عن قولهما بكسر ففتح بين قوسين.

ومن ذلك أيضاً قولهما في حاشية ص 176: (6) المذاكرة مفاعلة من الذكر (بكسر فسكون) وهما لم يقيدا المفاعلة بأنها من الذكر (بكسر فسكون) إلا احترازاً من مفاعلة أخرى يكون الذكر فيها بضبط أخر غير ما ذكرا، وقد كان نفي هذه الشبهة أدعى إلى الوقوع فيها. فلا حول ولا قوة إلا بالله.

ولا نترك هذا المقام حتى نأتي فيه على أكثر ما لاحظنا من الجمود اللغوي لتكون تلك الملاحظات مجتمعة، وبذلك نكون قد عدنا إلى التبويب الذي رأينا ألا نتبعه في نقدنا هذا.

من الوقوف عند ألفاظ المعجم أن ترى الشارحين قد ألغيا عقلهما الحصيف ففرقا بين ما لا فرق فيه وعرفاً بما لا تعريف به، وظننا بعد ذلك أنهما قد أبليا عذراً في الشرح وحققا ودققا إلى أبعد غايات التحقيق والتدقيق.

وهاك فأسمع أيها القارئ أولها في صفحة 176 أيضاً:

قعر في كلامه تشدق وتكلم بأقصى قعر فمه وقيل تكلم بأقصى حلقه. لسان (11) وقبل أن نحتكم إلى الطبيب الشرعي أو الجراح العالم بتشريح الفم أؤكد وأشدد أنه لا فرق بين العبارتين وأنا أخالف مقدماً كل من يحاول إثبات فرق بين أقصى قعر الفم وأقصى الحلق!!.

كذلك تسمع قولهما في ص 161 عند قول الجاحظ فيمن لم يتخذ بناء البيوت للاستغلال وآثر دفع السكنى بأجر (وأنه قد أمن من الحرق والغرق وميل أسطوان وانقصاف سهم واسترخاء أساس) فهما يقولان: (6) السهم جائز السقف أو جائزته فماذا استفدنا نحن من تذكير لفظ جائز مرة وتأنيثه أخرى، ما دام المعنى قد صار أغمض مما كان؟ فهل يعقل

وقوع مثل هذا من عالمين فاضلين كالشارحين؟ إني أترك للقارئ الحكم على هذا العمل فالقول لا يتسع له.

وأعجب ما في عناية الشارحين باللغة أنهما حاولا أن يشرحا كل شيء حتى شرحا البديهي أو ما هو أوضح من البديهي. وقد تعجب من قولي أوضح من البديهي! ولكن أسمع، فهما في ص 73 يعلقان على كلمة أصبح بقولهما:

أصبح: دخل في الصباح!!. وهذه مسألة أخرى أثارها تفسير الشارحين لكلمة (1) أصبح. هل نحن الذين ندخل في الصباح أم الصباح هو الذي يدخل علينا؟ وهل الصباح هو الواقف ونحن المتحركون، أم هو المتحرك ونحن الجامدون!!!

ماذا يسمي القارئ هذه العناية بالصغائر، وتفسير ما لا يحتاج إلى تفسير، والإغضاء عما في كتب السابقين من اضطراب، من رجلين وكل إليهما أمر إصلاح العربية في وزارة المعارف وفي مجمع اللغة؟!

نعود بعد ذلك إلى تتبع سقطات الشرح بحسب ترتيب الكتاب فنقول:

في ص 27 يقول الجاحظ: (ولك في هذا الكتاب ثلاثة أشياء: تبين حجة طريفة، أو تعرف حيلة لطيفة، أو استفادة نادرة عجيبة) فيضبط الشارحان كلمات: تبين وتعرف واستفادة بالكسر، ولا يتركان هذا الضبط دون تنبيه على سببه حتى كان يصح أن نحمل

الخطأ فيه على الطابع الذي نحمله في كثير من الأحيان ما لا جناية له فيه، حتى لقد أسودت أعضاؤه وثيابه من تحمل غلطاتنا كما أسود الحجر الأسود من مسح الناس ذنوبهم فيه.

لم يترك الشارحان هذا الضبط الخاطئ من غير تعليق بل لقد علقا عليه بقولهما: (3) تبين بدل من أشياء. وأنا أربأ بكل قارئ عن أن أوجه إليه بيان الخطأ في ذلك فهو أمر ظاهر لكل من به مسكة من نحوية، ولكني أوجه قولي في ذلك إلى طلاب السنة الثالثة أو الرابعة من المدارس الابتدائية فأقول لهما إذا قلنا حضرني ثلاثة رجال محمد وعلي ومحمود، أليس محمد بدل بعض من لفظ ثلاثة لأنه بعضها، وإذا ضممناه إلى أخويه كان المجموع هو المدلول (ثلاثة) فكيف يجوز الإبدال من لفظ أشياء في جملة الجاحظ وهي بمثابة كلمة رجال في جملتنا هذه الصغيرة؟ ألم يقل النحاة إن البدل على نية تكرار العامل، فإذا أبدلت من كلمة رجال كان تقدير الكلام حضرني ثلاثة محمد وعلي ومحمود (بالإضافة). فهل

يسوغ هذا القول في ذوق أو فهم؟

هذه غلطة لو ضبطها أحد المفتشين لمعلم صب عليه غضبه وأعاده من الثانوي إلى الابتدائي وحرمه من العلاوة حين يجئ دوره فيها، بل إذا وقع فيها تلميذ في امتحان الابتدائية وكان نجاحه يتوقف على التسامح فيها لم ترض للمفتش غيرته على العربية أن يتسامح فيها ورسب التلميذ من أجل ذلك في الامتحان، وربما كان رسوبه قضاء على آماله فانتحر ولكننا نرى الشارحين قد وقعا فيها وأكداها بالتفسير والتعليق ومع ذلك لم ينقلا من عملهما ولم يحرما علاوة لهما، ولم. . . الخ.

وفي الصفحة عينها ينقل الجاحظ قول بعض الحكماء لرجل اشتد جزعه من بكاء صبي له: (لا تجزع فإنه أفتح لجرمه وأصح لبصره) فيعلق الشارحان على ذلك بقولهما: أفتح لجرمه، الجرم الجسم وأفتح له: أعظم إنماء له. والمعجم الذي نقلا منه أن (13) معنى الجرم الجسم، هو نفسه المعجم الذي يفسر الجرم بالحلق. فانظر إلى أي حد يتخط الصواب مع وضوحه، ويجنح للخطأ مع شناعته وبعد تصوره؟!!

وقبل أن تختم مقالنا هذا نرجو من حضرة صاحب المعالي وزير المعارف أن يلقي باله إلى كلامنا ويقيسه بمقياس العلم الذي ينشره أو الجهل الذي يحاربه. فوزير المعارف حريص على الحقائق خصوصاً إذا كان قد دفع من خزانة الدولة ثمناً باهظاً لها.

(للكلام بقايا)

محمود مصطفى

المدرس بكلية اللغة العربية

المسرح والسينما

حديث الأسبوع

و. . . غلطة فنية أخرى

في نص القرار الذي صدر بتكوين (الفرقة القومية المصرية) ما معناه أنها أنشئت لتحمل رسالة ثقافية عن المسرح النموذجي ولتبذر في نفوس الشعب حب هذا المسرح ومولاة تشجيعه. . .

على هذا الأساس تكونت الفرقة وضمت إليها أقوى العناصر الفنية في الشرق وأقواها وأثبتها قدماً، وعلى أكتاف هؤلاء استقام البناء وطرق الشعب بابه، ثم عادوا بين مادح وقادح ومتفائل ومتشائم، حتى سلخت الفرقة من عمرها عاماً تركها بعده المخرج المعروف ومبعوث الحكومة في مسرح الأوديون (زكي طليمات) ليخدم المسرح عن طريق آخر ما دامت قد وقفت في وجهة أشباح المطامع والأغراض.

وظلت الفرقة في سيرها تتخبط، فاستدعت إدارتها خبيراً فرنسياً، ثم انتدبت بعد ذلك مخرجاً فرنسياً أيضاً ليعلم الممثلين المصريين التمثيل بلغتهم وليتولى إخراج مسرحيات لفظتها بلادها ورآها هو عندما كان يعمل مساعداً لأحد مديري المسارح المتنقلة في الريف الفرنسي (ريجسير) فنقلها كما هي فعدنا إلى الوراء سنين عديدة لنقلد ببغاء لولا أنه أجنبي ما وصل إلى مركزه.

حياة الظلام

اشترى ستديو مصر من الأستاذ محمود كامل المحامي حق إخراج قصته الطويلة (حياة الظلام) وعهد بإخراجها إلى المخرج الشاب أحمد بدرخان الذي بدأ العمل منذ أسبوع

بعد أن أختار مجموعة فنية كبيرة لمعاونته.
و (حياة الظلام) قصة عاطفية تعبر عن نوع غريب من الحب العاصف الذي ربط بين قلب ساذج بكر وقلب أثملته تجارب الحياة الغرامية فامتلأ بالحب على أنواعه ومناحيه واستطاع أن يتفنن في الخديعة ويحسن الزيف ولكنه خضع أخيراً واستسلم. .
وهي أيضاً من نوع لم تألفه السينما المصرية إذ لم يستطع مخرج مصري أن يقدم على
طرق مثل هذا الموضوع والتفكير في إخراجه خشية الرقيب والتقاليد في الوقت الذي نرى فيه الشركات الأجنبية تفضل هذا الصنف من القصة العاطفية التي تتحدث عن (حياة الليل) وما نجاح (نانا) لأميل زولا ببعيد. . .
وعهدت إدارة ستديو مصر إلى الهر شارفنبرج بعمل (الديكوراسه) كما سيسجل الصوت فيه مصطفى والي وعزيز فاضل ويقوم بعمل (المونتاج) جمال الدين مدكور.
أما من اختيروا للتمثيل فهم مجموعة فنية على رأسها الممثل الكبير زكي رستم ومنسي فهمي. أولهما في دور عبد الستار الشرقاوي، والثاني في دور الأب، ثم عبد الفتاح القصري، وأنور وجدي الذي سيمثل دور محمود الشيمي. ويأتي بعد ذلك دور احمد علوي بطل القصة وقد وقع الاختيار على وجه جديد ليقوم به. . . أما الأدوار النسائية فقد أسندت إلى السيدة أمينة شكيب وفردوس محمد وروحية خالد. ولعله ما يهم بعض متتبعي قصص الأستاذ كامل أن يعرفوا أن (للمواويل) نصيباً في فلمه، وسيغنيها عبده السروجي ومحمد الكحلاوي ومطربة ناشئة أسمها آمال.
رحلة الفرقة القومية
منذ زمن يرجع عهده إلى ما قبل انتهاء الدورة الأولى لهذا الموسم وإدارة الفرقة القومية تشيع إنها قد نظمت رحلة إلى الوجهين البحري والقبلي والمحافظات (لإعطاء الشعب الفكرة المثلى عن المسرحية العالية النموذجية وللارتقاء بإفهام الجمهور).
ولكن الرحلة لم تتم وموعدها لم يحدد. وتسأل الناس هل عدلت الفرقة عن الرحلة أم أجلتها أم تراها في هذه الأيام تستعد للدورة الثانية التي تبدأها في الوقت الذي تقفر فيه القاهرة من مسارحها؟
والواقع أن الإدارة غير المستقرة هي السبب في كل هذا الارتباك وهي المسئولة عن تأجيل الرحلة وتعطيل العمل، وهي المسئولة أيضاً عن قرارها الذي صدر بتعيين موعد الرحلة وهو يوم 20 الجاري إلى الوجهين حيث تمثل بعض المسرحيات الناجحة. . .
وبتأجيل هذا الموعد لسبب من الأسباب التي تراها بعينيها الناقدتين. وعلى أية حال سواء قامت الفرقة بالرحلة أم لم تقم فقد أعدت للدورة القادمة مسرحياتها وهي (عطيل) و (تلميذ الشيطان) و (المال والبنون) و (رسالة المرأة)؛ وجميعها من إخراج فلاندر إلا (المال والبنون) فهي من إخراج جميعي.
إلى باريس
يعمل القسم الفني في شركة فنار فيلم تحت إشراف السيدة بهيجة حافظ للانتهاء من (مونتاج) النسخة الناطقة بالفرنسية من فيلم ليلى بنت الصحراء، وقد يتم ذلك في حوالي منتصف الشهر القادم إذ تكون النسخة قد أعدت (سالبة) وموجبة فتحملها بهيجة معها إلى باريس ليتم طبعها هناك.
ولرب سائل يسأل عن السر في اختيار باريس لطبع النسخة النهائية (ستاندرد) وبدورنا نقول له: إن هناك معامل تخصصت في إجراء بعض عمليات تكميلية فنية لا توجد في مصر؛ ثم إن شركة فنار فيلم ترى أن تقدم فلمها بعد إصلاحه على صورة جديدة تغاير الأولى بعض الشيء، فمن ذلك أنها اعتزمت أن تقدمه ملوناً بالألوان الطبيعية وفضلت لذلك لونين هما وأضافت إليهما في ذات الوقت اللون الأزرق الهادئ.
وستعرض النسخة الفرنسية أولاً في باريس والبندقية ثم تسافر إلى أمريكا، وفي هذا الوقت يكون الموسم السينمى الجديد القادم قد حل فتعرض في مصر والأقطار الشقيقة والبرازيل وغيرها.
مجنون ليلى
الحقيقة التي يجب أن أعترف بها أن الشقيقين بدر وإبراهيم لاما من أنشط الشباب الذي يعمل في السينما وأسرعهم إنتاجاً، ولكن. . . نتيجة ذلك الحتمية هي ضعف الإنتاج وعدم الإقبال عليه لأسباب عديدة يرجع أهمها إلى عدم وجود الدراية الكافية

والاعتماد على شخصيات هزيلة ترضى بالتافه من النقود و. . . قلة توفر المال اللازم لمثل هذه المشروعات.

والحديث عن السقوط الشنيع الذي لقيه فلم إخوان لاما الأخير (ليالي القاهرة) يطول ويتفرع. . . أجل يتفرع من مآس كتلك التي تمخض عنها خيال الأخوين وأحد المخرفين من أتباعهما إذ زين لهما ضرورة إخراج قصة (مجنون ليلى) على الستار وهي لعمري جريمة فنية مزدوجة فيها جناية على اللغة العربية التي لا يعرفها أحد الأخوين، وجناية على الفكرة السامية التي أخذها الناس عن القصة، جناية على الشعر الذي وكل أمر نظمه

إلى أحد الذين يؤلفون لصالات الدرجة الثالثة في شارع عماد الدين.

وقدم الشقيقان لاما (سيناريو) مجنون ليلى إلى قلم المراقبة بوزارة الداخلية فأحسنت صنعاً بعدم الموافقة عليه (لضعفه و (سخافته)! ومنعاً لإساءة تنسب إلى خالد الذكر المرحوم شوقي بك) وكان طبيعياً أن يثور إبراهيم لاما محاولاً في لهجته الغربية أن يقنع القائمين بالأمر بأنه جدير بالقيام بأعباء هذا العمل وأنه على استعداد لتغيير أسم القصة وجعله (قيس ليلى).

والعقبات التي ذكرت يمكن تذليلها، ولكن الشيء الوحيد الذي يجب أن يذكره الجميع هو أن يطالبوا بإيقاف هذين الأخوين عند حدهما ونصحهما بأن ما لديهما من ملابس بدوية سابغة لا يكفي لنجاح قصة شعرية لها مكانتها في العالم العربي، وأنهما إذا يحاولان إخراجها يسيئان إلى نفسيهما وإلى اللغة وإلى أفكار الناشئة.

حوريس

العدد 299 - بتاريخ: 27 - 03 - 1939

المسلمون والإسلام

. . .رسالة الأزهر

دار الرسالة - وبفضل الله - ملتقى مفكري الإسلام العرب وغير العرب، من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، يزورونها أول ما يزورون من معاهد الثقافة بالقاهرة، فنتناقل الحديث ونتذاكر الرأي في موقف المسلمين اليوم من قراع المذاهب، وصراع القوى، واهتلاك الدول في التسلح بالعلم والدعاية والعدة، واحتفاز الأمم في التقوى بالتعلم والعمل والإنتاج، فنتبين من وراء الحديث أن الإسلام في غير بلاد العرب خلط عجيب من العقيدة السالفة، والصوفية الزائفة، والأساطير الموروثة، والتفاسير الخاطئة؛ ثم استحال هذا الخلط على تراخي الزمن وانقطاع الصلة واستعجام اللسان إلى مُر قد يعوق عن السعي، ويمنع من النظر، ويصد عن الفكر، ويذهل شاربيه عن حركة الوجود وسير الفلك. فالمسلمون في ألبانيا ويوغسلافيا من بلاد المغرب، وفي الصين وجزائر الهند من بلاد المشرق، يتميزون عن مواطنيهم بزهادة كالبلادة، وجهالة كالموت، وتوكل كالتواكل؛ ويتوهمون أن الإسلام ليس من شأنه الدنيا، وأن المسلم ليس من همه المادة، وأن ما هم فيه من رنق العقيدة وظلام الفكر وخدر الشعور إنما هو روح الدين ورضا الله وطريق الجنة. ثم لا يعدمون أن يجدوا مصدقاً لما يزعمون فيما يقرءون من الأحاديث الموضوعة والأخبار المصنوعة والأقوال الملفقة. فإن من محن الإسلام حين ضعف أهله وزال سلطانه، أن امتزجت به كل نحلة، وسرت إليه كل علة، وتراءت فيه كل حالة؛ فكل امرئ واجد فيه ما يلائم استعداده ويناسب فهمه. وإذا كان حاصلاً بين العرب وهم أصحاب الدين وأهل اللغة، فما ظنك بغيرهم ممن بلغتهم الدعوة مترجمة عن طريق الفرس أو عن طريق الترك بالتجارة أو بالفتح؟

لقد عصفت بالعالم كله عواصف هوج من السياسة والاقتصاد فلم تدع فيه ساكناً إلا حركته، ولا بالياً إلا جرفته؛ وكان لابد للعالم الإسلامي أن يهب على دوي هذه الزعازع، فنهض شبابه يستعدون بعدة الناس، ويتجهزون بجهاز العصر؛ ولكن شيوخه الوانين أخذوا يعوقونهم عن الأهبة والسعي بكلام ينسبونه إلى الله والله منه برئ. ثم كان من أثر تلك الهبة العامة وهذه الحالة الخاصة أن نفر من كل قطر من أقطار الأرض طائفة من شباب الإسلام إلى مصر ليتفقهوا في الدين ويتضلعوا من اللغة وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم، فيكونوا شهادة صادقة لحقيقة الإسلام، وقدوة صالحة لنهضة أهله.

ومصر اليوم وقبل اليوم هي بفضل الأزهر موئل اللغة ومعقل الدين ومشرق الهداية.
والأزهر على الرغم مما يؤخذ عليه هو بفضل ما مكن الله له في التاريخ، وهيأ له من الموضع، وأتاح له من المال، أقدر على تبليغ الرسالة العظمى، وتوجيه الأمة الكبرى، وتصحيح العقيدة العليا، إذا صدق رجاله الجهاد، وأخلصوا النية، وأحسنوا العمل، وذكروا أنهم جنود الله يرمي بهم العدو في كل وقت وفي كل أرض وفي أي صورة، فيعيشون للموت كالجند، ويعملون للحياة كالقادة، ويعزفون عن الدنيا كالرسل. والإمام المراغي هو في رأينا خير من يضطلع بما يفهم المثقفون من رسالة الأزهر إذا لم ينله ما نال الأستاذ محمد عبده من اضطراب الريح حول مصباحه، وانبثاث العوائق الخازلة أمام إصلاحه؛ فإنه من أفهم الناس لمعنى الدين وروح العصر ومقتضى الحال.
ورسالة الأزهر التي يريدها الله ويرجوها الناس هي:
1 - تنقية الإسلام من العقائد الواغلة والمذاهب الباطلة والعادات الدخيلة. وسبيل ذلك أن يفسر القرآن على هدى الرواية الصحيحة، وفي ضوء العلم الحديث، تفسيراً يجمع بين ما صح من أقوال السلف، وما صلح من آراء الخلف؛ ثم يؤلف في الحديث كتاب جامع لما لا ريب فيه من الكتب الصحاح، ويستعان على شرحه وتبويبه بعلوم التاريخ والاجتماع والأخلاق والفلسفة؛ ثم يصنف في الفقه كتاب شامل على المذاهب الصحيحة يوضع متنه مواد كالقانون، ثم يشرح شرحاً فنيا يستوعب أصوله، ويستقصي فروعه، في غير حشو ولا استطراد ولا تعمية. ثم تكون هذه الكتب الثلاثة المطولة مادة الدراسة ومرجع القضاء ومصدر الفتوى؛ فتقرر في الأزهر، وتنشر في الجمهور، وتترجم إلى أكثر لغات الشرق وأشهر لغات الغرب؛ ثم ترسل إلى كل بلد يعرف الإسلام أو يريد أن يعرفه. أما ما عدا ذلك من الكتب، فما كان صحيحاً بقي في المكاتب بقاء الآثار في المتاحف، يرجع إليه الأخصائي والمؤرخ؛ وما كان زائفاً صنع به ما صنع عثمان بكل مصحف غير مصحفه
2 - إعداد الوعاظ والدعاة من أهل اللسن والخلق والورع، وإمدادهم بالثقافة الحديثة واللغات الحية، وإيفادهم إلى الأمم الإسلامية البعيدة عن مهبط الوحي وموطن العروبة. ويدخل في ذلك العناية اليقظة بالبعثات الإسلامية في الأزهر، فإنهم أقدر من غيرهم على إرشاد قومهم باللغة والقدوة والنفوذ
3 - جعل اللغة العربية لغة المسلمين كافة، فيكون لكل مسلم في الأرض لغتان: لغة لوطنه الأصغر، ولغة لوطنه الأكبر. والوسيلة أن تحمل المشيخة أقطاب الرأي في البلاد الإسلامية، بالمفاوضة أو بالائتمار، على أن يجعلوا تعلم اللغة العربية والتكلم بها إجبارياً في مراحل التعليم المختلفة، وأن تتكفل بإرسال المعلمين من المتخصصين في الأزهر، فإن في شيوع العربية بين المسلمين تمكيناً لفهم الدين وتثبيتاً لمعنى الأخوة الوحدة، ويجعل للرأي المحمدي سلطاناً يخشى في الحرب ويرجى في السلام ذلك ما يجب أن يقوم به الأزهر؛ وذلك ما يضمن للإسلام الجدة، ويكفل للمسلمين

احمد حسين الزيات

-

رقص ورقص

للأستاذ عباس محمود العقاد

كان شتاء هذا العام في القاهرة موسماً عامراً بالمتعة الفنية التي تنتقل إليها. شوهد فيه معرض التماثيل الفرنسية، وشوهد فيه معرض بل معارض شتى للصور المصرية، وشوهد فيه تمثيل فرقة من أحسن الفرق الإنجليزية لروايات من أحسن الروايات القديمة والحديثة، وشوهد فيه أو سمع فيه شريط شامل لأغاني الموسيقار العظيم جوهان شتراوس، الذي يقال بحق إنه أرقص الكرة الأرضية في مدارها؛ إذ لم يبق في المغرب ولا في المشرق إنسان يرقص على الأنغام الفنية المهذبة إلا وقد رقص على أنغام جوهان شتراوس.
عازف عظيم تفيض ألحانه بالمرح والطرب والشباب والحياة. بلغ مبلغ القادة أصحاب الفرق وهو في الحادية والعشرين، وعزف للملوك والملكات فغلبهم على وقار العرف، ووقار العرش، ووقار السن، في كثير من الأحيان. وما في التاسعة والأربعين عن مئات من أدوار الرقص على اختلافه، وخرج من العاصمة الإنجليزية قبيل موته في أسطول من الزوارق التي تحييه بالغناء والهتاف. . . وأوصى بعد كل هذا النجاح وكل هذا

الطرب وكل هذا السرور الذي أمتع به الناس. فبماذا أوصى؟
بأعجب ما يخطر على بال. . . أوصى ألا يتعلم أبناؤه الصناعة الموسيقية أبداً، وأن يختاروا ما شاءوا من الصناعات إلا صناعة أبيهم. . . فأنبأنا بذلك نبأ ليس بالجديد، وإن كان لنسيان الناس إياه قد يحسب من الجديد الغريب: ذلك أن حياة الفن حياة فداء لأنها حياة فتوح. فما من فنان عبقري إلا وهو فاتح بمعنى من معاني الفتح والجهاد؛ وكل جهاد فداء، وكل فداء فيه ألم محقق، وللنصر بعده سرور مشكوك فيه، لأنه سرور يتمناه من قد حرمه من النظارة المتفرجين. . . أما صاحبه فقلما يحسه من قريب.
على أن أبناءه قد خيبوا حنانه وإن لم يخيبوا ظنه، فقد نشأوا جميعاً موسيقيين ناجحين مشهورين، وأوشكت إعمالهم أن تلتبس بأعمال أبيهم، ولم نسمع أن أحداً منهم أوصى بمثل وصيته في ساعة الوفاة، ولم نسمع بأعقاب لهم في عالم العزف والغناء!
كانت الليلة التي قضيناها في سماع (شتراوس) من ليالي الفن النادرة؛ وكانت دار الصور
المتحركة مكتظة بالسامعين؛ وكان تسعة أعشارهم من الأوربيين، والعشر الباقي من المصريين الذين لا يسيغون ما يساغ من ذلك الغناء الشائع في بلادنا، إن صحت تسميته بالغناء.
وسألنا أنفسنا: أين يختلف الفنان وهما على حسب المفروض أو المظنون من معدن واحد؟
إن موسيقى شبراوس إحدى الموسيقات التي يصح أن تسمى غنائية بسيطة تمييزاً لها من الموسيقى العويصة المركبة التي يريدها عشاق فاجنر، أو الموسيقى العقلية الصافية التي يذيعها في هذا العصر ستافنسكي فإذا كانت هذه الموسيقى الغنائية لا تساغ في مصر فما الفارق بينها وبين موسيقى الغناء الشائع بين الجمهرة (السامعة) من سواد المصريين؟
الفارق أنك لا تستطيع أن تضع موسيقى شتراوس على لسان حيوان.
فهي تمثل المرح، ولكنه مرح الفكر الإنساني حين ينشط فيملى نشاطه على الحواس والأعضاء.
فالراقص على أنغام شتراوس إنما يرقص لأن له نفساً إنسانية قد شاع فيها السرور فنهضت بالجسم الذي هي فيه إلى الحركة الموزونة والنشاط المنسوق.
أما المرح الذي تمليه الأغاني السقيمة عندنا فهي تمثل الحيوانية كما مسخها الإنسان حين استغرقها كلها في الشهوة والخلاعة، والحيوان لا يعرف الخلاعة في الشهوات كما يعرفها الإنسان الممسوخ
ومرقصات شتراوس لا تخلو من بعض الشجا وبعض الأنين ولكن أي شجا؟ وأي أنين؟ شجا إنسان وأنين إنسان.
أنا هذه الشكايات التي نسمعها في الأغاني السقيمة فليس فيها قط ما يستكثر على حيوان.
فإن الحيوان ليحس الانقباض ويحس الألم، وإذا ضرب أو سقم فترجمت شكايته كلاماً عربياً فليس بالكثير عليه أن يقول (آه) وأن يذكر اللوعة والسهر والصيام عن النوم والطعام
أما الأنين الذي يريك فكراً يتألم، أو يريك معنى إنسانياً في حالة الشكاية والقنوط، فذلك شيء مختلف جد الاختلاف عن هذه الكلمات التي لا تعدو أن تكون صرخات حيوان، مترجمة إلى عبارات إنسان
ومن الظلم للفن أن نطلق اسم الفنون على هذه الأغاني المرقصة التي تهتز لها أعطاف بعض السامعين في الأقطاب الشرقية
فالحق أنها نقيض الفنون في جوهرها المشترك بين جميع المعاني الفنية
لأن الجوهر المشترك بين جميع المعاني الفنية هو تغليب الفكرة على المادة، أو سيطرة المعاني على الأشكال
فالرخام مادة تتغلب عليه فكرة الفنان فإذا هو مثال لمعنى من معاني الجمال
والكلمات مادة مبعثرة تتغلب عليها فكرة الشاعر أو الكاتب فإذا هي وحي ناطق بأحاسيسه ومعانيه

والجسم مادة تتغلب عليه الحركة الموزونة فإذا هو رقص يريك كيف تساق الأعضاء في مطاوعة الألحان والأصداء، وكيف تخضع الأجسام لإملاء النظام والرواء
كل فن فهو فكرة غالبة على ما على مادة، أو معنى غالب على شكل، أو فوضى ممثلة في صورة جميلة
فما هي المرقصات التي تهز الأعطاف بين جمهرة السامعين من سواد الشرقيين هي نقيض ذلك
هي غلبة الجسدي على المعنوي، وهي طغيان المادية على المطامح الإنسانية، وهي انقياد وليست هي بإخضاع وترويض وتنظيم
هي الشيء الذي يذهب سفلاً حين يذهب الفن صعداً، وهي الفتور الذي يهبط بالأجسام إلى مهاوي الشهوات، وليست هي بالنشاط الذي يطير بالأجسام في فضاء المرح والطلاقة
وقد تسف وتنحدر من سماء شتراوس إلى حضيض (الجازنبد) الذي لا شك في غلبة الشهوات عليه، فهل من عين بصيرة يغم عليها الأمر فلا تبصر الفارق بين شهوات الجازبند وشهوات المرقصات المعهودة في هز الأعطاف وتحريض النزعات؟
الجازبند مرح جسدي ولكنه مرح حيوان صحيح ممتلئ برغبات الحياة يصول في حركة حية لا تعرف الإعياء
أما (هز الأعطاف) المعهود فهو مرح جسدي أيضاً ولكنه يذهب بصاحبه إلى السرير ولا يندفع به اندفاع الحيوان القوي السليم
وفرق بين حيوان في سلامة الحيوانية، وحيوان يضاف إليه مسخ الإنسانية، ولا يظفر من الحيوانية بالصحة واستقامة الفطرة
فرق بين رقص شتراوس ورقصنا، بل فرق بين رقص الجازبند ورقصنا، لأن رقص شتراوس معنى إنساني، ورقص الجازبند فطرة حيوانية، ورقص الأغاني المبتذلة عندنا قد خلا من أجمل ما في الإنسان، واجمل ما في الحيوان، وجمع المسخ والتشويه في هذا وذاك
لم يكن شأننا كذلك في الزمن القديم، لأننا نرى على المعابد الفرعونية صور الراقصات والراقصين، ونرى في الريف المصري مثالاً متخلفاً من رقص الرجال والنساء، فلا نجد في هذه المناظر المرسومة أو المشهودة خلاعة ولا شهوة ممسوخة، بل نجد فيها جميعاً ما أسلفناه من غلبة المعاني وانقياد الأجساد، أو نجد فيها صحة الفطرة واستقامة البنية الحيوانية. ولا ندري متى نعود إلى ما كنا عليه، أو متى ندين بدين الفن الجميل في تغليب النظام على الفوضى، والفكرة على المادة، والمعاني الإنسانية على الدوافع الجثمانية. ولكننا ندري أننا عجزنا زمنا طويلاً عن إخضاع أجسادنا لأفكارنا أيام كنا بأجسادنا وأفكارنا خاضعين لغيرنا. . . فقد حان إذن موعد الخلاص من قيودنا، ولن تزال فينا بقية من قيود الأسر والاستعباد، ما بقيت الفنون عندنا فنون أجساد أو فنون استسلام وانقياد.
عباس محمود العقاد
أما لهذا الليل من آخر؟
للأستاذ محمد أحمد الغمراوي
إن المسلمين اليوم في ليل أليل لم يبق بأيديهم من مجد آبائهم إلا الذكرى، ولا يكاد يبقى في قلوبهم من عزة دينهم إلا القليل. لكن العجيب أن هذا القليل كلما بدأ ينمو ويشتد كما تنمو الحبة في الأرض الطيبة إذا أصابها غيث، نجم للدين من بين من أنعم الله عليهم من أهله بنعمة البيان من يصرف بيانه في ما من شانه أن يعوق ذلك النمو. وليس يهم أكان ذلك عن قصد أم عن غير قصد فإن النتيجة للمسلمين واحدة في الحالتين
ومن أقرب الأمثلة لهذا وأغربها الكلمة التي أرسلها على الناس للكاتب المعروف الأستاذ توفيق الحكيم من برجه العاجي في رسالة هذا الأسبوع. فقد كتب يعجب مما سماه قيام القيامة في الجامعة (ضد كتابين قيمين) لاشتمالهما على طعن في الإسلام، ويزعم أن هذا الذي سماه فزعاً من كل كلمة تمس الإسلام أكبر مسبة لهذا الدين العريق العميق، لأنه يوهم إنه دين ضعيف يخشى عليه من طعن الطاعنين مع أنه دين متين ثبت على الأحداث فلا خطر عليه من كتاب يؤلف أو عبارة تقال طعناً فيه. ثم

يمضي فيعرب عن دهشته أن يكون مظهر هذا الفزع في الجامعة التي فيها شباب انغرست في قلبه العقيدة الحارة فلا خوف الآن عليه من مناقشة المسائل العقلية (في جو الحرية) ويختم بقوله إن صحة العقيدة كصحة الجسم لا بد لها من الهواء الطلق لتكتسب المناعة، ولا خير لها في أن تحاط ببيت من زجاج

هذا ما قاله الأستاذ توفيق الحكيم كأحسن ما نستطيع أن ننصفه به في التلخيص انه أولاً يكتب من غير أن يعرف فيما يبدو حقيقة المسألة التي يكتب فيها. لأن المسألة قي أحد شقيها على الأقل ليس فيها شيء يتعلق بمناقشة المسائل العقلية في جو الحرية، لأن أحد الكتابين المشكو منهما على الأقل ليس بكتاب مسائل عقلية تدرس وتناقش في جو من الحرية أو من غير الحرية ولكنه قصة كبعض قصصه هو ورد فيها ذلك الطعن الممجوج على لسان بعض أشخاصها.

فليت شعري كيف فات الأستاذ توفيق الحكيم معرفة ذلك حين كتب عن (مناقشة المسائل العقلية في جو الحرية؟) أم كيف، وقد عرفه، فأنه أن ينصف الطلبة حين شكوا من ذلك الكتاب؟

ثم هو فيما يظهر لا يجعل الناس سواسية في حرية القول والتفكير التي يدعو إليها، وإلا فلماذا لا يترك للطلبة الحرية في أن يشكوا مر الشكوى أو حلوها ويقيموا القيامة إذا شاءوا على كتابين يطعنانهم في شيء يعزونه ويقدسونه ولا يريدون أن يسمعوا فيه طعناً ولا تجريحاً؟ أفمن الحرية أن يقرر في الجامعة من قرر دراسة ذينك الكتابين، ولا يكون من الحرية أن يشكو الطلبة منهما كي يستبدل بهما غيرهما من الكتب الأدبية الراقية الكثيرة الخالية من الطعن في الإسلام؟ أفيعاب الطلبة أو الشباب ذوو (العقيدة الحارة) أن يغضبوا لدينهم فيأبوا أن يقرءوا طعناً فيه، ويطالبوا بتحقيق المصلحة لهم من غير إلحاق مضرة بهم في الدين، ولا يعاب من اختار ذينك الكتابين للدراسة عن جهل بما فيهما أو عن استهانة بالشعور الديني في المسلمين؟

إن الذي يقرأ كلام توفيق الحكيم يظن أن الطلبة أكرهوا على ترك كتابين حبيبين إليهم خوفاً على الدين في نفوسهم من طعن ورد فيهما، ويفهم أن الكاتب يشير إلى أن هناك تعدياً على حرية التفكير والدرس باسم الدين. والأمر بالعكس، فحرية التفكير والدرس تقضي بالا يدرس ذانك الكتابان في الجامعة لأن الذي سخطهما هم الطلبة الذين يريد توفيق الحكيم لهم حرية الدرس والتفكير. فهل حرية التفكير والدرس عند توفيق الحكيم ليس معناها حرية الدرس والتفكير؟ إن الطلبة هم الذين شكوا أولاً إلى الأستاذ وأبلغ الأستاذ شكواهم إلى العميد، فلما لم يشكهم العميد اعتماداً على ما يعتمد عليه توفيق الحكيم من أن الدين لا خطر عليه جهروا بشكواهم للجرائد، فاهتم بالأمر شيخ الأزهر ووزير المعارف وكان أن سحب الكتابان. فإذا كانت هذه قيامة فمن الذي أقامها؟ من طلب تغيير الكتابين في هدوء بالطريق القانوني أم من أبى عليهم ذلك التغيير برغم كثرة الكتب الأدبية القيمة البريئة من الطعن في الدين؟

إن المناعة في العقيدة التي يطلبها الأستاذ الحكيم للطلبة وللناس هي بالفعل عند هؤلاء الطلبة الذين أبوا ذنيك الكتابين. وما هي المناعة في العقيدة إن لم تكن هذا الإباء إباء الإصغاء للطعن في الدين من غير موجب ولا داع؟ وما هي إن لم تكن إقامة القيامة على كل ما يسئ إلى الدين في النفوس؟ إن أول ما يفعله الجسم امتناعاً على الأمراض هو ألا يسمح لجراثيمها بدخول الجسم إن أمكن. ومن هنا تجمد الدم أو محاولته أن يتجمد على الجرح ليسده دون الجراثيم. ومن هنا المصفيات والمطهرات المختلفة في مداخل الهواء والغذاء إلى الأجسام. أما إذا دخلت الجراثيم فليس للجسم وسيلة إلى الامتناع منها إلا شن الغارة عليها وإقامة القيامة ضدها على حد تعبير الأستاذ توفيق الحكيم. وهذا بالضبط هو ما فعله الطلبة حين أحسوا من ذينك الكتابين بالجراثيم التي تتهدد صحة العقيدة والدين فيهم. وقد كتب الله لهم النصر في الدور الأول من أدوار الامتناع والكفاح فسدوا الجرح الذي يمكن أن تدخل منه تلك الجراثيم، وكفاهم بذلك الحاجة إلى كفاح تلك المطاعن بعد دخولها في النفوس

ومن العجيب أن يشبه الأستاذ الحكيم قراءة المطاعن الدينية وعلاقتها بصحة العقيدة بالمعيشة في الهواء الطلق وعلاقتها بصحة الجسم. إنه تشبيه مقلوب على أقل تقدير.

ولا ندري كيف أمكن أن يغيب خطؤه وخطله عن مثل الأستاذ! إنه لا يستقيم إلا إذا كان تعريف الهواء الطلق عنده أنه الذي تكثر فيه الغازات الفاسدة والجراثيم. فإذا لم يكن هذا تعريف الهواء الطلق عنده فأنا نرجو أن يرى بعد ما بين تنفس الهواء الطلق وقراءة المطاعن الدينية، كما نرجو أن يرى في ضيق صدور الطلبة بما في الكتابين من مطاعن دليلاً على فساد جوهما الروحي، كما يدل على فساد الهواء ضيق الصدور به عند المتنفسين

لكن لعل أعجب ما في مقال الأستاذ الحكيم جعله متانة الإسلام وثبوته على أحداث الزمان وسيلة إلى استئناس الناس لاستماع الطعن فيه بحجة أنه لا خطر على الإسلام من طعن الطاعنين؛ فإذا أبى الناس أن يستمعوا الطعن طاعن وغضبوا لدينهم عد ذلك الغضب منهم فزعاً، وقال هذا الفزع أكبر سبة لديننا العريق العميق. هذا غريب من القول وعجيب من الاستدلال. إن الإسلام متين ثابت حقاً، لكن متانته وثبوته لا يمكن عند المنطق السليم أن يكونا مبرراً لترك خصومة يعملون المعاول فيه اتكالاً على أنها لا تضره. إنها لا تضر مبادئه وأصوله في ذاتها ولكنها تضره في نفوس أهله الذين لا يهبون لدرء الأذى عنه حين يرون خصومه جادين في الاستهزاء به والطعن عليه. إن الذي يصيبه الأذى بالسكوت على الطعن في الدين هو التدين في نفس المتدين الساكت. وإذا استمر على السكوت فسيسلمه من غير شك إلى الهلاك

ولست أدري كيف غاب عن الأستاذ الحكيم أن المسلمين لو كانوا راضوا أنفسهم منذ بدء الإسلام على ما يريد الآن أن يروضهم عليه من السكوت على الطعن في الدين ما ثبت الإسلام للأحداث ذلك الثبوت الذي يتخذه الآن حجة يخطئ بها الناس في غضبهم للدين. ولماذا نذهب بعيداً؟ لنفرض أن المطعون فيه من غير عقل ولا روية هو توفيق الحكيم وفنه ومقدرته. ولنفرض أننا خاطبناه بما يخاطب به الناس فطلبنا إليه ألا يغضب ولا يدفع عن نفسه ولا يدع أحداً من أنصاره يغضب له أو يدفع عنه، لأن فنه ظاهر العبقرية فلا خطر عليه من طعن طاعن مبطل، ولأن الغضب والدفاع يوقعان في الوهم أن فن توفيق الحكيم ضعيف لا يثبت على الطعن والتجريح؛ ولنفرض أنه وأنصاره عملوا برأيه هذا فلم يغضبوا له، ولم يدفعوا عنه، ماذا يبقي على هذا من فن توفيق الحكيم أو صيته بعد قليل؟ لا شيء، فسيألف الناس حتى أشدهم تعصباً له سماع القالة فيه، وسيهون أمره عليهم بالتدريج حتى يدخل عليهم الريب في أمره ويسلمهم الريب إلى تصديق كل ما قيل فيه

على أن الناس، مهما فاتهم بتغيير رأيهم في توفيق الحكيم من نعمة التسلي بفنه وقصصه، سيظلون هم الناس لم يمسس أرواحهم خطر ولا سوء. لكن ليس الأمر كذلك إن هم ألفوا الطعن في الدين وصاروا إلى الرضا به والسكوت عليه. إنهم سيهلكون حتماً في الآخرة إن لم يهلكوا في الدنيا، أو على الأقل هكذا يعتقد الناس. وسيعتقد ذلك معهم توفيق الحكيم حين يقرأ ما قرءوا من قوله تعالى: (وقد نزّل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويُستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره. إنكم إذن مثلهم. أن الله جامع الكافرين والمنافقين في جهنم جميعاً.)

والقيامة التي قال توفيق الحكيم إنها قامت ضد الكتابين في الجامعة ليست بأكثر ولا أقل من إصرار الطلبة على تغيير الكتابين المستهزأ فيهما بدين الله بآخرين ليس فيهم استهزاء. فماذا في طلبهم هذا يا ترى مما يجعل مثل الأستاذ الحكيم يسميه قيامة ويرسل من أجله سهامه على الناس من برجه العاجي؟

على أنه سواء أقامت القيامة بعملهم ذلك أم لم تقم فإن الطلبة الذين استجابوا لصوت ضميرهم في ذلك إنما كانوا عاملين بتلك الآية الكريمة من حيث علموها أو من حيث لم يعلموها، فهم فيما عملوا كانوا من غير شك على صواب. وسيجزيهم الله خير الجزاء من فضله على ما جاهدوا في سيل الإسلام.

محمد أحمد الغمراوي

من برجنا العاجي

القوة الحقيقية للرجل هي أن يستطيع أن: (يقول ما يريد وقتما يريد أن يقول).

والرجولة الحقيقية هي أن يبذل المرء دمه وماله وراحته وهناءه ودعته وطمأنينته وأهله وعياله وكل أثير عنده وعزيز عليه في سبيل شيء واحد: (الكرامة). والكرامة الحقيقية هي أن يضع الإنسان نفسه الأخير في كفة وفكرته ورأيه في كفة، حتى إذا ما أرادت الظروف وزن ما في الكفتين رجحت في الحال كفة رأيه وفكره. كل عظماء التاريخ كانوا كذلك. بل إن مصر الفقيرة اليوم في العظماء قد عرفت ذات يوم رجالاً من هذا الطراز. رجال لم يترددوا في تضحية كل شيء من أجل فكرة، والنزول عن كل متاع من أجل رأي. بمثل هؤلاء الرجال ربحت مصر كثيراً في حياتها المعنوية والفكرية. بل إني لا أبالغ إذا قلت إن الأمم لا تبنى ولا تقوم إلا على أكتاف هؤلاء. وإن الخطر المخيف هو يوم تخلو أمة من أمثال هؤلاء. نعم. وإنه ليخالجني الآن شيء من القلق إذ انظر حولي فلا أكاد أرى في مصر أثراً لهذه الفئة العظيمة. فناموس اليوم هو وطئ الفكرة بالأقدام راكضاً خلف الجاه الزائف والمال الزائل، وإنكار الرأي والجبن عن إعلانه حرصاً على الراحة وإيثاراً للطمأنينة. وهكذا قد خلت صفحة تاريخنا من أسماء العظماء هذه السنوات، وعجت بلادنا بأصحاب الألقاب وحملة الشارات وراكبي السيارات! وحق لنا جميعاً أن نسأل هذا السؤال: ما هي المعجزة التي تنهض هذا البلد وهو على هذا الخلق؟ وهل يطول غضب الله علينا فلا يظفرنا بعظيم من هؤلاء العظماء الذين يستطيعون أن يردوا الاعتبار إلى قيمة الرأي، ويطهروا النفوس من درن المادة، ويعيدوا المثل العليا النبيلة إلى مجدها القديم، ويرتفعوا بالأمة كلها في لحظة إلى سماء الخلق العظيم! إذا حدث ذلك فقد نجونا. وإذا لم يحدث ذلك فلا شيء ينتظرنا غير انحلال أكيد، وهبوط إلى مرتبة العبيد.

توفيق الحكيم

دراسات في الأدب

للدكتور عبد الوهاب عزام

أمثلة من النقد في الأدب العربي

1 - نقد الجزئيات:

قال أمرؤ القيس في فرس:

وأركب في الروع خيفانة ... كسا وجهَها شعَر منتشِر

فقال النقاد: هذا غلط في مدح الخيل لأن انتشار الشعر على الوجه عيب فيهن

وقال زهير في الضفادع:

يخرجن من شَربَات ماؤها طَحِل ... على الجذوع يخفن الغمّ والغرقَا

فقالوا: هذا جهل بطبيعة الضفادع فإنها لا تخاف الغرق

وقال أبو ذؤيب الهذلي يصف فرساً:

قُصِر الصبوح لها فقصّر لحمها ... بالنيّ فهي تثوخ فيها الإصبع

قال الأصمعي: حمار القصّار خير من هذا. وإنما يوصف الفرس بصلابة اللحم

وقال أبو تمام:

ألذ من الماء الزلال على الظما ... وأطرف من مر الشمال ببغداد

أخذ عليه القاضي الجرجاني أنه جعل الشمال طرفة في بغداد، وهي أكثر الرياح هبوباً بها. . . الخ

فهذه أمثلة من الغلط في طبائع الأشياء

وقال أبو تمام:

اسق الرعية من بشاشتك التي ... لو أنها ماء لكان مَسوسا

إن البشاشة والندى خير لهم ... من عفة جمست عليك جموسا

لو أن أسباب العفاف بلا تقي ... نفعت لقد نفعت إذاً إبليسا

قال القاضي الجرجاني: فليت شعري لو أراد هجوه، وقصد الغضّ منه هل كان يزيد على أن يذم عفته ويصفها بالجموس والجمود وهما من صفات البرود والثقل ثم يختم الأمر بأن يضرب له إبليس مثلاً ويقيمه بازائه كفواً؟

وقال أبو الطيب في مطلع قصيدة:

وفاؤكما كالربع: أشجاه طاسمه ... بأن تسعدا، والدمع، أشفاه ساجمه

وقال القاضي الجرجاني: ومن يرى هذه الألفاظ الهائلة والتعقيد المفرط فيشك أن وراءها

كنزاً من الحكمة، وأن في طيها الغنيمة الباردة؟ حتى إذا فتشها وكشف عن سرها وسهر ليالي متوالية فيها حصل على (أن وفاءكما يا عاذليّ بأن تسعداني إذا درس شجاني، وكلما ازداد تدارساً ازددت له شجواً كما أن الربع أشجاه دارسه). فما هذا من المعاني التي يضيّع لها حلاوة اللفظ، وبهاء الطبع، ورونق الاستهلال، ويشحّ عليها حتى يهلهل لها النسج ويفسد النظم، ويفصل بين البا ومتعلقها بخبر الابتداء قبل تمامه، ويقدم ويؤخر، ويعمى وُيعوص. ولو احتمل الوزن تركيب الكلام على صحته فقيل: وفاؤكما بأن تسعدا أشجاه طاسمة كالربع. أو وفاؤكما بأن تسعدا كالربع أشجاه طاسمه. لظهر هذا المعنى المضنون به المتنافس عليه. . . الخ

وقال المتنبي في مدح سيف الدولة:

وقفت وما في الموت شك لواقف ... كأنك في جفن الردى وهو نائم

تمرّ بك الأبطال كلمى هزيمة ... وثغرك وضّاح ووجهك باسم

فقال سيف الدولة: ينبغي أن تطبّق عجز (البيت) الأول على الثاني وعجز الثاني على الأول وأنت في هذا مثل امرئ القيس في قوله:

كأني لم أركب جوادا للذّة ... ولم أتبطّن كاعبا ذات خلخال

ولم أسبأ الزقّ الرويّ ولم أقل ... لخيلي كرّي كرَّة بعد إجفال

قال المتنبي: أدام الله عز مولانا؛ إن صح أن الذي استدرك هذا على امرئ القيس أعلم منه بالشعر فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت أنا. ومولانا يعرف أن البزاز لا يعرف الثوب معرفة الحائك لأن البزاز يعرف جملته، والحائك يعرف جملته وتفصيله؛ لأنه أخرجه من الغزليّة إلى الثوبية؛ وإنما قرن امرؤ القيس لذة النساء بلذة الركوب للصيد، وقرن السماحة في شراء الخمر بالشجاعة في منازلة الأعداء.

وأنا لما ذكرت الموت في أول البيت أتبعته بذكر الردى ليجانسه؛ ولما كان وجه المنهزم لا يخلو من أن يكون عبوسا، وعينه من أن تكون باكية قلت: ووجهك وضاح وثغرك باسم لأجمع بين الأضداد في المعنى.

2 - ومن قولهم في نقد الشعراء:

كان النابغة أحسن الناس ديباجة شعر، وأكثرهم رونق كلام، وأذهبهم في فنون الشعر وأكثرهم طويلة جيدة، ومدحا وهجاء وفخرا وصفة.

وروى أن عمر بن الخطاب قال: أنشدوني لأشعر شعرائكم. قيل: ومن هو؟ قال: زهير. قيل: وبم صار كذلك؟ قال: كان لا يعاظل بين القول ولا يتبع حوشي الكلام ولا يمدح الرجل إلا بما فيه.

وفي الشعر والشعراء: كان أوس بن حجر عاقلاً في شعره كثير الوصف لمكارم الأخلاق وهو من أوصفهم في الخمر والسلاح ولاسيما القوس. وسبق إلى دقيق المعاني وإلى أمثال كثيرة.

وقال الجرجاني:

(ولو تأملت شعر أبي نواس حق التأمل ثم وازنت بين انحطاطه وارتفاعه وعددت منفية ومختارة لعظمت من قدر صاحبنا (يعني المتنبي) ما صغرت، ولأكبرت من شأنه ما استحقرت، ولعلمت أنك لا ترى لقديم ولا لمحدث شعرا اعم اختلافا وأقبح تفاوتا، وأبين اضطرابا، وأكثر سفسفة، وأشد سقوطا من شعره (يعني أبا نواس.

وفي العمدة:

(وقال بعض من نظر بين أبي تمام وأبي الطيب: إنما حبيب كالقاضي العدل، يضع اللفظة موضعها، ويعطي المعنى حقه بعد طول النظر والبحث عن البينة، أو كالفقيه الورع يتحرى في كلامه ويتحرج خوفا على دينه.

وأبو الطيب كالملك الجبار يأخذ ما حوله قهراً وعنوة، أو كالشجاع الجريء يهجم على (ما يريد. لا يبالي ما لقي ولا حيث وقع

3 - ومن قولهم في تأثير البيئة في الأدب قول الجرجاني:

(ومن شأن البداوة أن تحدث بعض ذلك (الخشونة والجفاء) ولأجله قال النبي صلى الله عليه وسلم: من بدا جفا. ولذلك تجد شعر عديّ وهو جاهلي، أسلس من شعر الفرزدق ورجز رؤبة وهما إسلاميان لملازمة عديّ الحاضرة، وإبطانه الريف، وبعده عن جلافة البدو، وجفاء الأعراب. وقال ابن رشيق:

(قد تختلف المقامات والأزمنة والبلاد فيحسن في وقت ما لا يحسن في آخر،

ويستحسن عند أهل بلد ما لا يستحسن عند غيره؛ ونجد الشعراء الحذّاق تقابل كل زمان بما استجيد
فيه وكثر استعماله عند أهله بعد ألاّ تخرج من حسن الاستواء وحدّ الاعتدال وجودة الصنعة)
فلما ضرب الإسلام بجرانه واتسعت ممالك العرب، وكثرت الحواضر، ونزعت البوادي) إلى القرى؛ وفشا التأدب والتظرف، اختار الناس من الكلام ألينه وأسهله وعمدوا إلى كل شئ ذي أسماء كثيرة فاختاروا أحسنها سمعاً وألطفها من القلب موقعاً. . وأعانهم على ذلك لين الحضارة وسهولة الطباع والأخلاق، فانتقلت العادة وتغير الرسم وانتسخت هذه السنة الخ
4 - ومن قولهم في الطبع والخلق وأثرهما في الأدب قول الجرجانيّ:
ثم قد تجد الرجل شاعراً مفلقاً، وابن عمه وجار جنابه، ولصيق طُنبه بكيا مُفَحما، وتجد) فيها الشاعر اشعر من الشاعر، والخطيب أبلغ من الخطيب. فهل ذلك إلا من جهة الطبع والذكاء وحدة القريحة والفطنة؟ وهذه أمور عامة في جنس البشر، لا تخصيص لها بالأعصار، ولا يتصف بها دهر دون دهر
وقد كان القوم يختلفون في ذلك فتتباين أحوالهم، فيرق شعر أحدهم، ويصلب شعر) الآخر؛ ويسهل لفظ أحدهم، ويتوعر منطق غيره. وإنما ذلك بحسب اختلاف الطبائع وتركيب الخلق، فإن سلامة اللفظ تتبع سلآمة الطبع، ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة وأنت تجد ذلك ظاهراً في أهل عصرك وأبناء زمانك. وترى الجافي الجلف منهم كزّ الألفاظ، معقد الكلام، وعر الخطاب، حتى انك ربما وجدت ألفاظه في صورته ونغمته، وفي جرسه ولهجته)
5 - ومن قولهم في طرائق البيان:
قال القاضي الجرجاني: (ولا آمرك بإجراء أنواع الشعر كله مجرى واحد، ولا أن تذهب بجميعه مذهب بعضه؛ وأرى لك أن تقسم الألفاظ على رتب المعاني فلا يكون غزلك كافتخارك، ولا مديحك كوعيدك، ولا هجاؤك كاستبطائك، ولا هزلك بمنزلة جدك، ولا تعريضك مثل تصريحك؛ بل ترتب كلاّ مرتبته، وتوفيه حقه؛ فتلطف إذا تغزلت، وتفخم إذا افتخرت، وتتصرف للمديح تصرف مواقعه؛ فإن المدح بالشجاعة والبأس يتميز عن المدح باللباقة والظرف، ووصف الحرب والسلاح ليس كوصف المجلس والمدام. فلكل واحد من
الأمرين نهج هو أملك به، وطريق لا يشاركه الآخر فيه. وليس ما رسمته لك في هذا الباب بمقصور على الشعر دون الكتابة، ولا بمختص بالنظم دون النثر. بل يجب أن يكون كتابك في الفتح والوعيد خلاف كتابك في التشوّق والتهنئة واقتضاء والمواصلة، وخطابك إذا حذرت وزجرت أفخم منه إذا وعدت ومنيت.
فأما الهجو فأبلغه ما جرى مجرى الهزل والتهافت، وما اعترض بين التصريح والتعريض، وما قربت معانيه وسهل حفظه، وأسرع علوقه بالقلب ولصوقه بالنفس. فأما القذف والإفحاش فسباب محض، وليس للشاعر فيه إلا إقامة الوزن وتصحيح النظم)
وقال ابن رشيق في العمدة:
يجب للشاعر أن يكون متصرفاً في أنواع الشعر من جد وهزل وحلو وجزل، وألا يكون) في النسيب أبرع منه في الرثاء، ولا في المديح انفذ منه في الهجاء، ولا في الافتخار أبلغ منه في الاعتذار، ولا في واحد مما ذكرت أبعد منه صوتاً في سائرها؛ فإنه متى كان كذلك حكم له بالتقدم وحاز قصب السبق كما حازها بشار وأبو نواس بعده. . .) الخ.
6 - ومن قولهم في حرية الأدب قول صاحب الوساطة:
فلو كانت الديانة عاراً على الشعراء، وكان سوء الاعتقاد سبباً لتأخر الشاعر، لوجب) أن يمحى اسم أبي نواس من الدواوين، ويحذف ذكره إذا عدت الطبقات، ولكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية، ومن تشهد الأمة عليه بالكفر، ولو جب أن يكون كعب بن زهير وابن الزِّبدي وإضرابهما ممن تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجاء، وعاب من أصحابه، بكما خرساً وبكاء مفحمين؛ ولكن الأمرين متباينان والدين بمعزل عن الشعر).

7 - ومن قولهم في صفات الناقد:
قال ابن قتيبة في مقدمة الشعر والشعراء: (ولم أقصد فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختار له سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره، ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه، ولا المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره، بل نظرت بعين العدل على الفريقين، وأعطيت كلا حقه، ووفرت عليه حظه. فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله، ويضعه موضع متخيرة، ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده ألا أنه قيل في زمانه ورأى قائله. ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خص به قوماً دون قوم، بل جعل ذلك مشتركا مقسوماً بين عباده وجعل كل قديم، منهم حديثاً في عصره)
وقال صاحب الوساطة:
(وملاك الأمر في هذا الباب خاصة (النقد) ترك التكلف ورفض التعمل والاسترسال للطبع، وتجنب الحمل عليه، والعنف به. ولست أعني بهذا كل طبع، بل المهذب الذي قد صقله الأدب وشحذته الرواية، وجلته الفطنة وألهم الفصل بين الرديء والجيد، وتصور أمثلة الحسن والقبيح)
هذه أمثلة من ضروب النقد المختلفة سردتها ليلتفت طلاب الأدب إليها، ويستزيدوا منها، ويتبينوا ما وراءها من طرائق النقد ومذاهب النقاد. وفي كتب الأدب كثير منها ومن شاء فليرجع إلى الجزء الأول من البيان والتبيين، ومقدمة كتاب طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي وكتاب الموازنة بين أبي تمام والبحتري
تاريخ الأدب
- 1 -
إذا نقد شعراء أمة وكتابها المتعاصرون، وقرن هذا النقد بعضه إلى بعض وتألفت مما اتفقوا عليه وما اختلفوا فيه صورة لعصرهم، وبينت الأسباب التي اجتمعت على تأليف هذه الصورة، ألوانها وهيئتها، فهذا تأريخ عصر من عصور الآداب
وإذا شمل النظر عصوراً متتابعة فاستبانت صور الآداب فيها، وعرف تطوّر هذه الصور وانتهاء كل واحدة إلى التي تليها، وُرد هذا التطور إلى أسبابه فهذا تأريخ الأدب في هذه العصور
فتأريخ الأدب وصف آداب العصور وترتيبها وتعليلها
- 2 -
وهو كالنقد يستمد من ذوق الناقد وتقديره مزايا الكلام وعيوبه وأطواره، ومما أحاط بالأدباء من حقائق التاريخ والجغرافيا، والاجتماع وغيرها. وعلى مؤرخ الأدب أن يلائم بين ذوقه وعلمه بهذه الحقائق فلا يحكم الذوق على غير بينة، ولا يغفله ويعتمد في تاريخه على
الحقائق العلمية الجافة؛ بل يجعل حكمه نتاج الذوق المهيأ للحكم بمعرفة واسعة، وتأمل دقيق، وتقدير لأحوال الأدب بليغ، فيكون حكمه خلاصة العلم، ونتيجة الذوق الذي لابد منه في تقويم الأدب
- 3 -
لم يكن تاريخ الأدب على هذه الشاكلة معروفاً لدى القدماء؛ وإنما كان سبيلهم جمع تراجم الشعراء والكتاب، وتبيين محاسنهم ومساوئهم، والاستشهاد ببعض أقوالهم، ولم يكن قولهم موصلاً مستوعباً يؤلف صورة عامة للأدب في عصر أو عصور ولا كان التعليل قيها مطرّداً. فكان عمل المؤرخين تراجم متفرقة ينقصها الجمع والمزج والترتيب والتعليل. فهي مصادر لتاريخ الأدب لا تاريخ
ومن الكتب التي ألفت على هذا النمط:
1 - طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي المتوفى سنة 231
2 - الشعر والشعراء لابن قتيبة المتوفى سنة 276
3 - معجم الشعراء للمرزباني المتوفى سنة 384
4 - يتيمة الدهر في شعراء العصر لأبي منصور الثعالبي المتوفى سنة 429
5 - الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الأندلسي المتوفى سنة 429
6 - دمية القصر لأبي الحسن الباخرزي المتوفى سنة 467

7 - قلائد العقيان للفتح بن خاقان الأندلسي المتوفى سنة335
8 - مطمح الأنفس للفتح بن خاقان الأندلسي المتوفى سنة 335
9 - سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر لصدر الدين المديني من رجال القرن الحادي عشر
10 - ريحانة الألباء لشهاب الدين الخفاجي المتوفى سنة 1069

وتاريخ الأدب كما نعرفه اليوم عرفه الأوربيون في عصر نهوضهم؛ سبق إليه الإيطاليون وسار على أثرهم الأمم الأخرى ولا سيما الفرنسيون. ولهم فيه طرائق مختلفة مبنية على مذاهبهم في النقد وقد قدمنا إشارة إليها

عبد الوهاب عزام

أبو تمام شيخ البيان

للأستاذ عبد الرحمن شكري

هو حبيب بن أوس الطائي، وقد سبقه إلى صناعة البيان بشار ومسلم والحسن بن هاني، ولكنه ظهر بها ظهوراً كبيراً وحاكاه البحتري وغيره، وكان حقيقاً بسبب كثرة إجادته في تلك الصناعة أن يسمى شيخ البيان. وكان أبو تمام يقدم الحسن بن هاني ويلقبه بالأستاذ وبالحاذق ويجاريه في طريقته، ولكن أبا تمام قد بز ابن هاني أبا نواس في المدح ووصف الطبيعة، وإن لم يكثر منها وفي الرثاء والأمثال والحكم، وجاراه في وصف الخمر والغزل المذكر. وقد سئل البحتري عن أبي تمام وعن نفسه فقال: جيده خير من جيدي ورديئي خير من رديئه. وهي قوله حق، فقد كان عند البحتري من حذر ذوي الصناعة وإحجامهم ما لم يكن عند أبي تمام الذي كان أكثر جرأة في صناعته. ولم يكن رديئه القليل عن جهل، فقد سئل فيه فقال: إن أبيات الشاعر كأبنائه فيهم الجميل وفيهم القبيح وكل منهم حبيب لدى أبيه الذي يعرف أيهم القبيح وأيهم الجميل.

ولقد قال في إساءة ظن الشاعر بشعره ويعني نفسه:

ويسئ بالإحسان ظناً لا كمن ... هو بابنه وبشعره مفتون

ولكنه يقول أيضاً:

من كل بيت يكاد المَيْتُ يفهمه ... حسناً ويعبده القرطاس والقلم

ولا غرابة في أن يكون قائل البيت الأول هو قائل البيت الثاني، فإن نفس الشاعر قد تتردد بين الثقة بقوله ثقة ليس بعدها ثقة، وبين الشك كل الشك في مرتبته. ولعل هذا الشك وإساءة الظن مما يحفزه على استئناف الإجادة والى الاستزادة من الإبداع كيلا يستنيم إلى ما أجاده من سابق قوله. والشاعر الجريء في صنعته البيانية يكون نصب نقد الناقدين، وعندما مدح أبو تمام أحمد بن المعتصم بقصيدته التي مطلعها: (ما في وقوفك ساعة من باس) أنكر بعض النقاد أن يشبهه بمن هم أقل منه منزلة في قوله:

إقدام عمرو في سماحة حاتم ... في حلم أحنف في ذكاء إياس

ومثل هذا النقد يهدم صناعة التشبيه من أساسها لأنه لم يشبه الممدوح بهم في المنزلة، وإنما يكون للتشبيه وجه شبه خاص لا يتعداه اتفاق المشبه والمشبه به، وهذا النقد يدل إما على الإفراط في تملق الممدوح والمغالطة مع علم، وإما على جهل بالصناعة البيانية. وقد دفع أبو تمام حجتهم بأن زاد في المديح قوله:

لا تنكروا ضربي له مَنْ دونه ... مثلاً شرُوداً في الندى والبأس

فالله قد ضرب الأقل لنوره ... مثلاً من المشكاة والنبراس

وأمثال هذا النقد اللفظي كثير فقد انتقدوا أيضاً قول أبي تمام:

دنيا ولكنها دنيا ستنصرم ... وآخر الحيوان الموت والهرم

وقالوا: إن الهرم يأتي قبل الموت ولكنه أخره وقدَّم الموت. وهذا اهتمام بالصغائر، فقد كان في استطاعة الشاعر أن يقول: (وآخر الحيوان الشَّيبُ والعَدَم) وقد فعل المتنبي ما هو أشد من ذلك وكانت له عنه مندوحة عندما قال:

جفخت وهم لا يجفخون بِهَابهم ... شيم على الحسب الأغر دلائل

يعني جفخت أي فخرت بهم وهم لا يجفخون بها، وكان يستطيع أن يقول: (فخِرتْ بهم وهُمُ بها لم يفخروا) فيستقيم الوزن والأسلوب ولكن هذا لا يؤخر الشاعر الكبير ولا

يقدمه. ومثل هذا النقد يغري به الشعراء أنفسهم عند الملاحاة فقد ورد في كتاب العمدة لابن رشيق أن مسلم بن الوليد انتقد قول أبي نواس

ذكر الصبوح بسحرة فارتاحا ... وأمله ديك الصباح صياحا

وقال: كيف يجتمع الارتياح والملل؟ كما انتقد أبو نواس قول مسلم

عاصي الشباب فراح غير مُفنّدٍ ... وأقام بين عزيمة وتجلد

وقال كيف يجتمع الرواح والإقامة؟ وفي كل من البيتين يريد الشاعر اجتماع حالات نفسية مختلفة الأسباب. على أن أبا تمام قد يأتي في الفلتات بما لا يستجاد مثل قوله:

بلد الفلاحة لو أتاها جَرْوَلُ ... أعني الحطيئة لاغتدى حَرَّاثَا

و (أعنى) هنا أثقل من الرصاص

وقد عد بعض أدباء العصر أبا تمام من شعراء الرمزية، وهذا في رأيي غير صواب، لأن كل شاعر يستخدم الرموز، ولكن ليس كل شاعر من أدباء الرمزية. وأستطيع أن أفهم سبب عد أبي تمام من شعراء الرمزية، وإن لم يكن كذلك، فإنه يكثر من استخدام التشبيه والاستعارة والمجاز، فللاستعارة رمز والكناية رمز. ولكن شعراء الرمزية في أوربا تخطوا منزلة الاستعارات والكنايات وصاروا يرمزون إلى حالات نفسية بأشياء مادية وبألفاظ أو

جمل، ويقطعون الصلة بين الرموز وما يرمز لها بها اعتماداً على خيال القارئ وإحساسه وأحلامه وهواجس نفسه الغامضة، وأحياناً يستخدمون رموزاً مدلولها أشياء مادية ويرمزون بها إلى تلك الهواجس الغامضة في الوعي الباطن، وهي لغموضها لا تستطيع عقولهم الظاهرة تفسيرها إلا بتلك الرموز. وهذه طريقة لم يكتب فيها شاعر عربي. أما طريقة أبي تمام فهي طريقة الصناعة البيانية المألوفة وإن كان قد أبدع وأغرب فيها، وشعره شعر الخيال المشبوب بنار الشاعرية، والجيد من شعره يجمع بين القوة والحلاوة وإقناع الصنعة الفنية، وهي ليست صنعة ألفاظ فحسب بل صنعة ألفاظ وخيال وإحساس وذكاء وعقل وبصيرة. وترى في قوة الجيد من شعره قوة الخطيب، ولا أعني، أن الشاعر خطيب فللخطيب صفات قد تدابر صفات الشعراء، وإنما أعني أن لشعره قوة تشبه وقع خطاب الخطيب في الأذن فكأن له صوتاً يسمع. وإذا كان للشاعر نفسه من صفات الخطيب فهي الصفات التي يقترب الخطيب فيها من عبقرية الشاعر ومن بصيرته النافذة وخياله المشبوب، وليست الصفات التي يقترب فيها الخطيب من فن الممثل وهي صفات عالية في فنها وفي الخطابة. ولا نأسف لإضاعة شاعر من شعراء العرب في التكسب بالمدح شعراً كان يكون أعظم شأناً في وصف الحياة والنفس قدر ما نأسف لإضاعة أبي تمام، فإن الرجل كان قادراً على أن يبلغ ما بلغه شعراء أوربا من وصف الحياة والنفوس ومظاهر الكون؛ على أن في شعره في المدح أشياء من هذه الأشياء. ولعل القارئ يقول: ولماذا لا نأسف على المتنبي قدر أسفنا على أبي تمام أو أكثر، وليس المتنبي بأقل منزلة وهو ذو بصيرة وخيال. ولكن أبا تمام كان عنده من نشوة الصناعة البيانية أكثر مما كان للمتنبي؛ وكان للمتنبي من قوة الشخصية وأثرتها أكثر مما كان لأبي تمام؛ وقوة الشخصية هذه لها أثر في الشعر يظهر في كل أبوابه وتجعل الشاعر يترك بعده دوياً كما قال المتنبي:

وتركك في الدنيا دوياً كأنما ... تداول سمعَ المرءِ أنمُلهُ العشْرُ

أما أبو تمام فإننا نقرأ أنه كان مولعاً بالخمر إلى حد الإفراط أحياناً، ونقرأ أنه سكر مرة في مجلس عظيم وعربد وحُمِلَ من المجلس بين أربعة، وأنه كان إذا اخذ صلة أمير أفناها بين الغناء والموسيقى والرياض والخمر والأوجه الوسيمة. وهذه الأمور ربما كانت تقلل نتاجه وتلهيه عن الشعر لو أنه لم يكن مضطراً إلى قرض الشعر في المديح أو الرثاء لكسب

المار، فإننا عند ما نقرأ سيرة الرجل وشعره نميل إلى الاعتقاد أن الحياة عنده كانت شعراً يُعاشُ وأن الشعر عنده كان حياة تكتب أو شعراً يكتب، وأنه ما كان يلجأ إلى الشعر الذي يكتب إلا إذا سمح له أو اضطره شعر الحياة الذي يُعاش. ولعل هذا هو سبب إقلاله وسبب موته وقد تخطى الأربعين قليلاً. وإننا نتساءل ماذا كان يكون نتاجه لو كان من المعمرين من غير أن يفني قدرته الحيوية بالحياة؛ ولكن من العبث التأسف، فلعل إفناءه قدرته الحيوية بالحياة كان من لوازم نشوته الشعرية، وإن قدرته في صناعة البيان كانت من مظاهر انتشائه بالحياة، وانتشاؤه بالحياة ميز شعر

التكسب في قوله عن شعر التكسب في أقوال الشعراء الكثيرين. فشعر التكسب في قولهم ألفاظ ميتة مهما حاولوا إحياءها بصناعة البيان أو بالأناقة، وكانت قوة شعره مستمدة من انتشائه بالحياة، فلم تكن قوة كتلك القوة في شعر بعض الشبان المبتدئين الذين يفتعلون القوة فيخيل للقارئ أنهم يخنقون ألفاظهم ومعانيهم كي تصيح كما تصيح الدجاجة إذا حاول الطفل الصغير أن يخنقها، وكانت ألوان البيان في شعر أبي تمام طبيعية كألوان الحياة بالرغم من أغرابه، ولم تكن كتلك الألوان التي وضعها القرد على ما لونه المصور في نقشه ورسمه، وقد انتهز القرد فرصة انشغال سيده المصور بأمر من أمور الحياة. وقد أسف المغاربة أيضاً لموت محمد بن هاني الأندلسي في سن مبكرة وكانوا يأملون أن يعمر حتى يفاخروا به أكثر شعراء المشرق، وكان لابن هاني بعض مقدرة أبي تمام ولكنه لم تكن له - ثروّته الشعرية في نفسه وكان كل منهما مولعا بشعر الحياة الذي يعاش. وجرأة أبي تمام في التشبيه والاستعارة والمجاز هي ما يصح أن يسمى بالجرأة الموفقة إلا في القليل من شعره، وهي تشبه في المبارزة بالسيف نوعا من الهجوم إذا أجاده المبارز نثر سلاح خصمه وأصابه في الصميم وإذا أخطأ المبارز في هجومه سقط وسلاح خصمه في قلبه.

(البقية في العدد القادم)

عبد الرحمن شكري

أعلام الأدب

درامات إسخيلوس

للأستاذ دريني خشبة

أقدم ما وصلنا سليما من مآسي إسخيلوس هي درامته البارعة (نسوة متضرعات) وهي درامة شائقة لا يعرف في أي سنة نظمها الشاعر بالضبط، وتليها في القدم درامة (الفُرس) فقد نظمها سنة 472 ق. م وفي سنة 458 تقدم إلى المباراة التمثيلية بدرامة مفقودة ففاز عليه الشاعر الشاب سوفوكليس للمرة الأولى وكان لهذا الحادث أثره الذي لم يمح من نفس إسخيلوس والذي قيل إنه هاجر بسببه إلى جيلا بعد ذلك بعشر سنين

وفي السنة التالية (467) فاز على جميع منافسيه بدرامته (سبعة ضد طيبة)، ولا يعرف المؤرخون على وجه التحقيق متى نظم رائعته العصماء (برومثيوث) ويظن الأستاذ جلبرت موراي أنها نظمت هي وأختها المفقودة (ليكورجيا) بعد (سبعة ضد طيبة) وقبل أن يموت في جيلا بعامين نظم أقوى دراماته وأعنفها (الأورستيّة) (458ق. م) وهي الثلاثية الوحيدة الكاملة التي وصلتنا سليمة من هذا التراث الأدبي الحافل المفقود

1 - نسوة متضرعات

نسوة متضرعات هي الحلقة الأولى من ثلاثية كاملة ما تزال حلقتاها الثانية والثالثة مفقودتين وإن يكن موضوعهما معروفاً. . والثلاثية كلها تتلخص في أن إيجبتوس أحد أمراء مصر الشمالية كان له خمسون ولداً؛ وكان له أخ يدعى دانوس رزقه الله بخمسين ابنة ذوات جمال بارع، فحدث أن هام كل من أبناء إيجبتوس بواحدة من بنات دانوس. . وتقدم إيجبتوس إلى أخيه يخطب بناته على أبنائه. . . وهنا تقوم عقبتان أولاهما تلك النبوءة التي تنبأ بها بعضهم لدانوس وهي أن أحد أزواج بناته سيقتله، وثانيتهما أن شريعة القوم في هذا العصر كانت تحرم زواج الرجل من أبنة عمه وتعتبره زناً. . . فماذا يصنع دانوس؟ فكر الرجل ثم فكر، ثم رأى أم يقر ببناته إلى بلاسجوس ملك آرجوس إحدى ممالك اليونان. . . ورست الفلك على الشاطئ ونزل الركب، ولمحت إحدى البنات رجلاً عظيما بادي الوقار يتنزه هناك، فلما سألت عنه قيل لها إنه الملك. فأستاذنت أباها وذهبت

إليه تدعوه إلى والدها ورحب الملك بهؤلاء المحتمين به اللائذين بظله وخصص لهم منزلاً رحباً وعيشة رغداً. . . وأقبل قائد مصري بعد أيام يطلب تسليم دانوس وبناته الخمسين. فجمع الملك وزراءه ومجلس شوراه، وجميع مواطني آرجوس يعرض عليهم الأمر فأبوا جميعاً أن يسلموا اللائجين لما في صنع ذلك من منافاة النخوة وعدم الوفاء. . . فيرتد القائد المصري، ويعود بعد أيام بجند كثيف فيغزو آرجوس ويقبض على دانوس وبناته ويعود بهن معززات مكرمات إلى مصر

إلى هنا تنتهي الحلقة الأولى. . . وقد سمى إسخيلوس درامته الثانية من هذه الثلاثية (فِراش العرائس) أو (ماهدات فراش العرس) وفيها يتآمر دانوس وبناته على أن يقتلن أزواجهن ليلة العرس بعد أن يناموا على ألا يمكنَّهم منهن من شيء. وتُنَفّذ البنات ما عاهدن عليه أباهن من هذا الإثم إلاهيبر مسترا التي استفظعت أن تريق دم هذا الجمال الشاب النائم المستسلم لها، فوقفت تنظر إلى الخنجر المشحوذ مرة، وإلى ابن عمها الذي أحبته وهويته وأغرمت به مرة أخرى فلم تر بدا من أن توقظه، وتبوح له بالسر الهائل. . . وهنا يستيقظ القصر كله، ويكون دانوس مرتقبا الإشارة التي اتفق مع بناته عليها ليعلم أنهن قد قمن بواجبهن وأنفذن ميثاقهن، لكنه لا يرى العلامة تنبثق بالضوء من شباك هيبر مسترا فيرتجف، ويسمع إلى الضجة فيحاول الهرب، ولكن ابن أخيه، وزوج ابنته الذي لم يقتل، يفاجئه ثم يعالجه بضربة تقضي عليه فيثأر لاخوته وتنفذ على يديه النبوءة.

ثم تبدأ الحلقة الثالثة التي سماها إسخيلوس الـ (دانايدز أي بنات دانوس اللائى يلقين جزاءهن في هيدز ويكلفن بملء وعاء كبير مثقوب من ماء نهر بعيد الغور وعر المنحدر فكلما جئن بجرارهن وصببنها فيه ذهب الماء ولم يبق منه شيء، فإذا جلسن يستجممن صُب عليهن وابل بارد فيهرعن إلى عملهن وهن ناصبات لاغبات. أما هيبر مسترا فتقدم للمحاكمة بتهمتين، أما الأولى فعصيانها أباها فيما أعطته عليه مواثقها، وأما الثانية، فزواجها من ابن عمها وهو زنا في نظر الشريعة المعمول بها حينذاك.

كيف حلّ أسخيلوس هذه العقدة؟ وفي أي الجانبين يقف؟ في جانب القاتلات، أم في جانب الزوجة الوفية التي استنكرت القتل؟ يبدو لنا أنه آثر أن يقف إلى جانب هيبر مسترا، لأنه أتى لها بربة الحب فينوس (أفروديت) فشفعت له وبرأت ساحتها. ولا ندري هل عادت إلى

زوجها أم حيل بينهما. . . لم يذكر لنا التاريخ شيئاً من ذلك!

وتمتاز هذه الدرامة بالإكبار من شأن الديمقراطية التي أبداها الملك بلاسجوس عندما جمع كل المسئولين من رعاياه ليشاورهم فيما طلب قائد أبناء إيجبتوس، كما تمتاز بهذه السخرية اللاذعة من تلك الشريعة الفاسدة التي كانت تحرم زواج البنت من ابن عمها وتعتبره زنا إذا تم.

2 - الفرس

ودرامة الفرس هي الحلقة الثانية من ثلاثية ما تزال أولاها وثالثتها مفقودتين. . . والأولى عن البطل فنيوس كاهن أسطول الأرجنوت الأعمى وباسمهُ تدعى. والحلقة الثالثة تدعى جلوكوز وهو الصياد الذي تحول إلى إله من آلهة البحار وأغرم بالهولة سكيلا.

وقد جعل إسخيلوس مسرح هذه الدرامة في سوسا وجعل جميع أبطالها من الفرس، وفيها تبدو أتوسه أم أجزرسيس وزوجة دارا، وهي تقص رؤيا مزعجة على بطانة من حاشيتها، فما يكادون يطمئنونها حتى يدخل رسول فيقص نبأ الهزيمة المنكرة التي منى بها أجزرسيس وأجناده في سلاميس، وبذا تتحق رؤيا أتوسه، وتأمر حاشيتها بتقديم القرابين لاستحضار روح دارا. . . وتبدو روح الإمبراطور الراحل فتأخذ في سب إجزرسيس، وتنعى عليه طيشه وقلة بصره بمزالق السياسة، وإقدامه على محاربة اليونان دون رجوع إلى أهل الرأي. ثم يدخل أجزرسيس فيأخذ هو الآخر في حزن طويل يشاطره إياه وزراؤه ومشيرو السوء الذين لم ينصحوا له بما كان يحول بينه وبين تلك الكارثة

والدرامة قطعة فنية رائعة، وقد خدمت التاريخ ووصفت سلاميس وصفاً عجز عن الإتيان بمثله أبو التاريخ هيرودوتس. ولا غرو، فقد حضر أسخيلوس سلاميس وجاهد فيها جهاد الأبطال. . . غير أن قيمة الدرامة في ناحيتها الدستورية التي نعى فيها أسخيلوس على الاستبداد والمستبدين بقدر ما أكبر من شأن الحرية والشورى. . . ومع أن الشاعر يرفع في درامته هذه من شأن أثينا فإنه لم يقلل من قدر المنهزمين. بل هو قد أضفى على الفرس وقار العدو العظيم فلم ينتقص من شأنهم ولم يقدح فيهم، وبذا كان درامياً عادلاً

3 - سبعة ضد طيبة

هذه الدرامة هي الحلقة الثالثة من ثلاثية ما تزال حلقتاها لأولى (لايوس) والثانية (أودبيوس) مفقودتين. وتتلخص لايوس وأوديبوس في هذه الأحداث المؤلمة التي حاقت ببيت لايوس ملك طيبة وزوجته جوكاستا. فقد رُويت لهما نبوءة تقول أنه سيولد لهما طفل يقتل أباه ويتزوج أمه ويقضي بالشقاء على ذريتهما. فلما ولد لهما طفلهما الوحيد بعثا به إلى الجبل ليقتله أحد رعاياهما، لكن الرجل أشفق على الطفل فتركه ثمة وعاد بدم كذب على قميصه وادعى أنة قتله. وعثر أحد القضاة على الطفل ملقى في شجرة وقد ورمت قدماه؛ فأخذه وسماه أودبيوس: (أي ذا القدمين المتورمتين). وشب أوديب وتعلم الفروسية في بلاط ملك كورنثه. ثم حدث أن هجر البلاط لخلاف بينه وبين أحد الأمراء الذي غمزه في نسبه وهاجر إلى دلفي يستوحي الكهنة فيما غمزه به هذا الأمير. وقيل له إنه سيقتل أباه ويتزوج أمه، ويجر الشقاء على أبنائه. . . فانطلق والهم والحيرة يمزقان قلبه. . . فبينما هو في طريقه إذا قائد عظيم يأمره أن يتنحى عن الطريق حتى يمر مولاه أولاً. فلم يمتثل أوديب وانقض على القائد فقتله. ثم جاءت عربة فنزل منها الحرس فنازلهم وقتلهم. ثم نزل منها وجل عجوز شيخ فنازله وقتله، ولم يكن هذا الرجل سوى لايوس الملك والد أوديب الذي كان ذاهباً إلى دلفي يستوحي كهنتّها في أمر مما نزل بطيبة، ويمم أوديب شطر طيبة فوحد الناس في فزع من أمر تنين (سفنكس) يقف عند باب المدينة من جهة البحر بالمرصاد لكل داخل أو خارج: يقول التنين (ما حيوان تكون له أرجل أربع في الصبح، واثنتان في الظهر وثلاث في المساء؟) فإذا لم يجب الشخص افترسه التنين في الحال. . وقد حار الناس في تأويل هذه الأحجيّة، ونذروا لمن يخلصهم من التنين أن يتزوج ملكتهم الأرمل زوجة لايوس وأن يتربع على عرش مملكتهم. . . سمع أوديب أهل طيبة يهمسون بذلك، وكان قد برم بحياته فاعتزم أن يلقى التنين فإما أن يقتله وينقذ طيبة من شره وإما أن يريحه التنين من الحياة. . . وأول أوديب الأحجية بأن الحيوان المقصود هو الإنسان بعينه، فهو يحبو صغيراً على أربع، ويدب شاباً على رجلين، ويتوكأ على عصا إذا بلغ به الكبر عتياً. . ثم انقض على التنين فقتله، وبذا تربع على عرش طيبة وتزوج الملكة التي هي أمه وهو لا يدري. . .

بذلك تحقق شطر النبوءة الأول ثم شطرها الثاني. . . ثم يجتاح طيبة طاعون هائل ويذهب الناس إلى دلفي يستوحون كهنّتها فيقال لهم إنه لا بد من القصاص من قاتل الملك لايوس ليرتفع أذى الطاعون عن طيبة. . . وهنا ينتشر الجواسيس والرقباء في كل فج يجمعون الأخبار ويتجسسون أنباء القاتل فيتبين أنه أوديبوس الجالس على العرش طيبة وأنه هو نفسه ابن لايوس وابن الملكة جوكاستا. . . ويعترف الخادم الذي عهد إليه بقتل الطفل بأنه لم ينفذ ما أمر به، فيذهل أوديب وينطلق إلى الغابة فيسمل عينيه ويهيم على وجهه حتى يموت

ثم تبدأ حوادث الدرامة الثالثة (سبعة ضد طيبة). . . فقد ترك أوديب ولديه إتيوكليز وبولينيسيز يتنازعان العرش كما ترك ابنتين أخريين نظمت فيهم جميعاً درامات كثيرة. . . ويتفق الشقيقان على أن يتبادلا الحكم عاماً لكل منهما، ولما ينتهي عام أتيوكليز ويقدم أخوه ليتسلم مقاليد الحكم يرفض شقيقه أن يسلمه إياه فيلجأ الآخر إلى أدراستوس ملك آرجوس يستنصره ويعرض أن يتزوج من ابنته، فيقبل الملك ويرسل مع صهره سبعة من قادته يقودون سبعة جيوش إلى طيبة. . . ويستمر الحصار سبعة أعوام طوال دون أن ينالوا من طيبة قليلاً أو كثيراً وإن يكن الحصار قد أجهدها فيعرض القادة أن يطلب بولينيسيز مبارزة أخيه على أن يكون الفائز صاحب الحق في العرش، ويجيز إتيوكليز هذا الحل فيمضي إليه بقلب ثابت وجنان رابط وهو يعرف النتيجة، لكنه يذهب في غير خوف لكي يريح طيبة من ويلات القتال. . . ويلتقي الشقيقان، ويستمر النزال ساعة ثم يضرب كل منهما أخاه فيسقطان معاً ويضرجان الأرض بدمائهما. . . وبذلك تتخلص طيبة من كليهما كما تتخلص من نسل لايوس وتتحقق النبوءة كلها.

(للمقالة بقية)

(دريني خشبة)

بين مصر ولبنان
إلى الدكتور زكي مبارك
للأستاذ محمد رشدي الخياط
سيدي الدكتور
تستطيع الأمم أن تحتجز كل شئ دون الخروج من أراضيها إلا الثقافة فلا تستطيع قصرها عليها دون غيرها، فهي قسم مشترك بين العالم يدلف إليها كل فرد وتطلع عليها كل أمة، وتؤثر في كل من يصل إليها كما أنها تتأثر بما يصلها، وذلك أمر بَدَهي لا مندوحة لنا من الإقرار به. وثقافة الأمم منها ما تشارك فيه دون أن تكسوه لوناً خاصاً وهو ما يكون علماً خالصاً، ومنها ما تلبسه ثوباً إقليمياً حسب المؤثرات الخاصة التي توجد لديها ويبقى بعد ذلك عالياً في نزعته وأثره. هذا إلى أن ثقافة الأمم لم تكن في يوم من الأيام أثراً خاصاً من آثار أمة دون أخرى، فهي مزاج من ثقافات العالم القديم والحديث ترتكز كل أمة في ثقافتها عليه فلا يحق لنا إذا ما ذكرنا الثقافة اللاتينية مثلاً أن نقصرها على نتاج عقليات هذه الأمم بل يجب أن نقر أثر الأمم الإغريقية والعربية ونتيجة الثقافات الفرعونية والهندية وسائر الأمم القديمة التي حملت الثقافة الأولى في العالم، ونستطيع بعد ذلك أن نزيد عليها أثر الأمم الحاضرة في تغذية هذه الثقافات وتقدمها. والأمة العربية ليست بدعاً من هذه الأمم، فهي إنما تخضع لقوانين العالم، فالثقافة المصرية لم تكن في يوم من الأيام مقصورة في نهضتها على العقول المصرية كما أنها لا يمكن أن تبقى محصورة في دائرتها الخاصة، بل من الواجب الحتم أن تتعداها إلى غيرها من البلدان كي يظهر أثرها في التأثير في العالم، وقيمتها في المساعدة على تقدم الثقافة العربية. ومصر بما لها من الموقع الجغرافي، والبسطة في المال، والكثرة في السكان، تستطيع أن تباهي شقيقاتها الدول العربية في قطعها دونها شوطاً بعيداً في بناء النهضة الأدبية الحديثة؛ ويجب في الوقت نفسه ألا ننكر جهود سائر البلدان العربية على اختلاف هذه الجهود في القوة والضعف، إذ قام كل بلد بما يستطيعه من المشاركة في هذا الأمر. ولا يعزب عن بالنا أثر لبنان خاصة والبلاد السورية عامة في هذه المشاركة الفعالة؛ فنحن نعلم أن طلائع النهضة بدت في سوريا مسايرة لطلائعها في مصر أو متقدمة عليها بعض التقدم. ولئن استطاعت مصر أن تتقدم شقيقاتها
في هذا المضمار فإن مرجع ذلك إلى أمور لا تتعلق بخصب العقلية المصرية، وضعف غيرها كما يفهم من كلمة الدكتور زكي مبارك في (العدد: 295) من الرسالة. إذ يقول: (ولكني أتحداكم أن تثبتوا أن لبنان نبغ فيه أديب واحد، ولم يكن مصدر نبوغه الاتصال بالثقافة المصرية). ثم يقول في موضع آخر: (إن الأدباء السوريين لم يذوقوا طعم المجد الأدبي إلا بعد أن شربوا من ماء النيل). وإنما يعود ذلك إلى مؤثرات خاصة نستطيع أن نجملها في أربع نقط.
ترجع أولى هذه النقاط إلى ما وهبته مصر من خصب في التربة درّ عليها إخلاف الرزق في سهلها المخضوضر المعشب فتهيأ لها بذلك الأساس الذي تقوم عليه النهضات، وهو المادة التي استطاعت بها أن تبث البعوث في مختلف أشتات أوربا لتعود إليها بالغذاء العقلي؛ والبلاد السورية خاصة والعربية عامة صفر من المادة، فهي في لبنان جبل أجرد ضيق أكثر بقاعه لا يمكن سكانه من استغلاله إلا في أشهر معدودات من الصيف، ثم ينقلب بعد ذلك غطاء أبيض ناصعاً من الثلج يحول دون زرعه أو الاتكال عليه في كفايته حاجات السكان. هذا إلى أن المدن المنتشرة في منبطحة ليس لها من الموارد ما يهيأ لها أسباب الراحة وبلهنية العيش كما هيأتها طبيعة مصر لمصر. وسائر البلاد العربية يتكون أكثرها من صحارى محيطة بأطرافها وسهول ضيقة الأركان تنبت خلالها. كان من أثر هذه البيئة أن ضاق النبوغ العربي ذرعاً بهذه الحياة فكبت في مهده، ولم تتجمع له المادة التي تمكنه من استغلال هذا النبوغ فوجد في بقاع الأرض متسعاً لإظهاره، فاحتمل نفسه إلى مصر وما وراء البحار حيث استطاع أن يثبت هذا النبوغ ويؤكده، فكان أثره في مصر بارزاً في نهضتها وفي غيرها من بلدان العالم وبخاصة في أمريكا مركزاً كل التركيز. ولا يفهم من هذا أن مصر أو غيرها من البلدان هي التي أوجدت هذا النبوغ وإنما يعود ذلك إلى البيئة الأصلية ولم يكن من أثر البيئات الجديدة ألا أن ساعدت البيئة الأصلية على استغلال هذه الثروات العقلية الكامنة في زوايا

الفقر والفاقة. ومن هنا لا نستطيع أن نوافق الدكتور فيما ذهب إليه من حملة كنا نرجو ألا تثور به حتى يقعد على مثل الألفاظ التي استقر عليها. ومع ذلك فإن الشعب العربي مع فقره وشدة حاجته إلى المادة استطاع أن يشارك في النهضة العربية بقدر ليس بالقليل، وبخاصة لبنان حيث الثقافة العامة في الشعب أكثر منها في مصر حتى الآن، وكل ما في الأمر أن مصر أنجبت طبقة من المثقفين عالية لا تستطيع أن تجاري الشعب في تفكيره، إذ أن التوازن مفقود بين هذه الطبقة العالية في ثقافتها وبين الشعب الذي لا يزال أكثره أمياً أو ضئيل التعلم. وعكس ذلك لبنان وسائر البلاد العربية، إذ نجد الطبقة المثقفة هناك لم توجد بينها وبين الطبقة العامة مثل الهُوى التي توجد في مصر. هذا السبب المادي الذي آل إلى تخلف بعض البلدان العربية عن مسايرة مصر يتبعه سبب آخر هو قلة السكان في أي قطر من الأقطار بالنسبة لمصر، فأكبر بلد عربي لا يتجاوز سكانه خمسة ملايين، بينا مصر تعد بفضل الله ستة عشر مليوناً أو تزيد، وهذا له أثره في قيمة انتشار الثقافة العامة، إذ لا تستطيع الطبقة المثقفة أن تسير في واجبها بوساطة التأليف ونشر المجلات العلمية والأدبية لقلة عدد المستهلكين حيث لا يجد القائمون عليها وسيلة من وسائل الاستغلال والإفادة، بينا مصر تساعدها كثرة سكانها على نشر مختلف المجلات وطبع متباين المؤلفات، ومع ذلك نستطيع أن نسأل الدكتور نفسه عن عدد الكتب التي طبعها وعدد نسخها وما هي الكمية من هذه الكتب التي استطاعت مصر أن تهضمها بالنسبة إلى الكمية التي أقبلت عليها البلاد العربية؟ أكبر الضن أنا سنرى البون شاسعاً بين ما تناولته مصر من مؤلفات الدكتور وبين ما التهمته العقول العربية ولنا في شهادة أستاذنا الزيات أكبر دليل، فالرسالة أثيرة لدى الشعب العربي حبيبة إليه يقبل لذلك عليها أكثر من إقبال إخواننا المصريين. أليس فهذا دليل على رقي الشعب وكثرة المفكرين فيه؟ ولكن ما الحيلة في أن الله قد ابتلانا بضعف المادة وقلة السكان مع ما سيأتي من الأسباب فحرمنا ذلك من كثير من وسائل الإعلان والدعاية؟

وبعد ذلك يا سيدي يحضرنا السبب الثالث الذي يقوم على السببين الأولين - ضعف المادة وقلة السكان - وهو انعدام وسائل النشر والدعاية أو ضعفها، إذ أن المادة التي يقوم عليها البشر لا تواتي المؤلفين والناشرين على الإكثار منهما لقلة ما بأيديهم منها؛ هذا إلى أن ضآلة الاستهلاك من هذه المطبوعات والمنشورات لقلة عدد السكان قعد بالبلاد عن الإعلان والدعاية اللذين اتخذتهما مصر سبباً من أسباب نهضتها بصحفها ومجلاتها وكثرة مطبوعاتها لاعتمادها على ما لديها من المادة وكثرة الاستهلاك المحلى. فالصحف المصرية مثلاً تستطيع أن تنفق عن سعة لأنها ترتقب انتشارً سريعاً بين السكان وقل مثل ذلك في المجلات. من هنا نرى أصحاب الصحف في مصر قد أثروا من عملهم هذا، وكان في ذلك دعاية أي دعاية لمصر في البلدان العربية، ويتبع ذلك المجلات. وهنا نستطيع أن نميز فيما بينها، فهناك المجلات الأدبية والعلمية وهذه يستهلك منها في خارج مصر أكثر مما يستهلك في مصر، أما المجلات الإخبارية أو الروائية أو المصورة فلها عناية خاصة لدى إخواننا المصريين. ولا أبالغ إذا قلت أن أثر بعض المجلات في الدعاية لمصر كان معكوساً، وبخاصة ونحن في بلد لا يزال يحرص على كثير من تقاليده، فهو لا يقبل أن يرى المرأة كاشفة عن ساقيها معلنة عن نهديها ملوحة بذراعها العاريتين أو نصف العاريتين، هذا إلى ما تحويه بعض هذه المجلات من أخبار نسائية ومشاكل اجتماعية ليس من الخير أن تنشر بمثل هذه الإبانة لما توقره في نفوس بعض القراء من آثار سيئة، وبخاصة أولئكم الشبان الذين لم يتجاوزوا طور المراهقة إذ يقبلون عليها بلهفة وشوق ينتهيان إلى انحراف في الأخلاق أو ميل إلى التهتك دون أن يعرفوا الأثر السيئ الذي سيعود عليهم. ما كنت لأرغب في أن أعرض لهذا الآن ولكن المناسبة قادتني إليه.

من هنا يا سيدي الدكتور نستطيع أن نلم ببعض الأسباب التي دفعت مصر إلى أن تخطو خطوات واسعة في طريق النهضة العربية دون أن تستطيع الوقوف على ما يجري لدى شقيقاتها من هذه النهضة. وأنت أدرى يا سيدي بما تلقاه المؤلفات والنشرات التي تصدر في البلدان العربية من إقبال لدى إخواننا المصريين! لو ذهبت تعدد قراء البلاد العربية للمنشورات المصرية لألفيتهم عدداً جماً، ولكنك هل تستطيع

أن تدلني على أناس لا يتجاوزون عدد الأصابع قرءوا أو اقتنوا كتاباً واحداً ألفه أديب غير مصري
ولكن ما العمل وإخواننا المصريون قد تضخم لديهم حب الذات حتى غدوا لا يبصرون في هذا العالم أحداً غيرهم ولا يقبلون في الثقافة العربية على غير مؤلفيهم - مع قلة هذا الإقبال - وأنت تقر معي يا سيدي الدكتور أن هذه ناحية من نواحي الضعف في جمهور القراء من المصريين. وأنتم في مصر مع ذلك تشكون قلة القراء على ما لديكم من كثرة السكان وتوفر المادة فكيف بنا نحن العرب الفقراء في كلتا الناحيتين؟
ونستطيع أخيراً أن نبرز الناحية الرابعة التي دفعت بالبلدان العربية إلى عدم استطاعتها المضي مع مصر في طريق النهضة، وهي ناحية سياسية خاصة تختلف كل الاختلاف عن
الناحية السياسية في مصر. وذلك أن مصر قد كفل لها استقلالها بشئونها الداخلية منذ أيام محمد علي باشا حيث تمكن من بعث البعوث والنهوض بمصر في مضمار الثقافة، ثم مضت البلاد في ذلك فيظل خلفائه إلى أن أظلها القرن العشرون فأتت النهضة أكلها. أما البلاد العربية فكانت تحت الحكم التركي المباشر حيث كانت الأمية ضاربة إطنابها في مختلف البلاد، وحيث كنت تبحث عن المثقف بمصباح ديوجين، ومع ذلك كان لبنان في مقدمة العاملين في سبيل النهضة الحديثة تحت لواء آل البستاني وآل اليازجي وآل المعلوف وغيرهم، هذا إلى ما قامت به الإرساليات الأجنبية من جهود لا تنكر، ثم تقلبت الظروف وإذا بنا في معركة حامية الوطيس بين الحلفاء وتركيا، تبع ذلك تمزيق أوصالنا إلى دويلات تحت دول متباينة في ثقافاتها. وكان من أثر هذا الصراع أن اتجهنا في حياتنا وفي تفكيرنا إلى حفظ كياننا السياسي - وهو أمر طبعي - قبل التوغل في العمل في الحقل الثقافي. ورغم هذه الظروف استطعنا أن نقطع في طور الثقافة شوطاً غير قليل
قد يقول قائل إن ما لقيته مصر لا يقل عما لقيته شقيقاتها، وفي هذا ما فيه من المغالاة إذ أننا إذا استثنينا الثورة العرابية والثورة المصرية الأخيرة لا نجد صراعاً مسلحاً أخذ بمجمع القلوب المصرية وشغلها عن كل ما عدا ذلك من شئون الثقافة هذه يا سيدي الدكتور الأسباب التي دعت مصر إلى أن تتقدمنا في طريق النهضة الحديثة، وهو في الوقت نفسه لا يدل على ضعف في عقليتنا أو خصب في غيرها، وإنما يعود إلى عوامل لا بد من مراعاتها قبل الحكم في هذه القضية. أما الإبقاء على تراث الجدود والمحافظة عليه فما من أحد ينكر على مصر قيامها به بل نرى من الواجب العض عليه بالنواجذ
وأخيراً يا سيدي الدكتور أستطيع أن أختم كلمتي حول هذا الموضوع بعتب إخوانك وقرائك عليك لحملتك التي خرجت في بعض مواطنها عن حد الاعتدال. وليتك وقفت من مثل هذه الدعوة التي وصلت إليك موقف الأستاذ (ابن عبد الملك) في تهجينها دون تجريح، وفي إنكارها دون جنف أو ميل لك أو عليك، فتكون بذلك قد تجنبت بعض الآثار التي ليس من الخير إثارتها الآن وأنت تعلم أننا أتوق إلى مطالعة آرائك ومنتوجاتك الأدبية من توقنا إلى مثل هذه المنازعات
(فلسطين)
محمد رشدي الخياط
ابنتي. . .!
للأستاذ محمد سعيد العريان
مرحباً يا عزيزتي الصغيرة!
هاأنتِ ذي يا ابنتي أمام عيني حقيقةً أراها وكنتِ حلماً من أحلامي!
وهأنذا ألقاك بعد صبرٍ صابر وجهدٍ جاهد وطول تشوُّف وارتقاب؟
مالك مغمضةَ العينين أكثر ما تكونين يا ابنتي كأنما لا تجدين في دنياك الجديدة ما يغري على اليقظة والنظر؟
وما لك صامتةً أبداً فما تفتحين فمك إلا للبكاء كأنما تشعرين بالغربة في هذا العالم الجديد؟
وما لهذه اليدين والرجلين دائبات على الحركة أبداً كأنما تحاولين الفكاك من قيد غير منظور؟

أين كنتِ يا ابنتي؟ ومن أين جئتِ؟ والى أين المسير؟
أهذا يوم ميلادك يا ابنتي أم هو أول الطريق في مرحلةٍ بين مرحلتين من عالم مجهول إلى عالم مجهول؟
حدِّثيني حديثك عن دنياك التي كانت، ودنياك التي تكون؛ فأنت أقرب عهداً يا بنية إلى ما كان، وأصفى نفساً إلى تصوُّر ما يكون!
هأنذا أرى شفتيك تختلجان وأنت نائمة كأنما تهمسين بسرٍ في أُذُن!
وتبسمين أحياناً بسمات غامضة كأنما تستمعين إلى نحوي صامتة في دنيا الأحلام التي تصل جديدَك في هذا العالم بماضيك القريب في العالم المجهول!
وتعبسين أحياناً باكيةً بلا صوت ولا دموع كأنما لا يعنيك أن يسمع أحد أو يرى؛ لأن الذي تعنين أن يعلم بشكواك ليس خَلْقاً من الخلق ولكنه روح من روح الله؟
حدِّثيني ماذا ترين يا بُنيةُ في منامكِ وماذا تسمعين؟
مَنْذَا يسامرك يا ابنتي في أحلامك وما عرفتِ شيئاً بعدُ في دنيانا تؤلِّفين من أشتاته أقاصيصَ في أحلام!
ليتني أعرف ماذا كنتِ أمس؟ وماذا أنت اليوم؟ وماذا تكونين ونكونَ في غد!
أطوار ثلاثة في تاريخ البشرية ليس في أيدينا من العلم بها إلا اليوم الذي نعيش فيه؛ أما
أمس قبل أن نكون، وأما غدُ بعد أن نصير. . .!
من يدري، من يدري؟ إن هنا سرّ الأزل، وسرّ الأبد، وبرهان الخلود!
حياة بين حياتين، ليس لنا من العلم بأولاها إلا بطن الأم، وليس لنا من العلم بالأخرى إلا بطن الأرض، ونحن بين الحياتين في مضطرب مائج لا نكاد نحس إلا ما تقع عليه أعيننا وما تلمس أيدينا، وإننا على ذلك لنزعم أن لنا الحق في أن نتحدث عم قبل الحياة، وما وراء المادة في جدال السفيه ودعوى المغرور!
ابنتي طفلة في المهد لم تتجاوز من العمر في تاريخ البشرية إلا أياماً معدودة، ولكنها إلى ذلك كبيرة كبيرة في نفسي وفي أوهامي، إنها لم تولدْ أمس، ولكنها كانت في رحلة ثم آبت. إنها كبيرة كبيرة لأنها كانت تعيش في أحلامي منذ سنوات وسنوات. منذ أيقنت أنني يجب أن أكون أباً؟
هل كنتِ تسمعين نجواي يا بُنيتي من وراء حدود المجهول وقد جلست ذات مساء أهتف باسمك في دنيا الأماني متسائلا: أين أنتِ يا ابنتي؟ أين أنتَ يا ولدي؟ أين أنتِ يا زوجي التي لم أرها ولم أعرفها بعد؟ أين أنتم يا أحبائي؟
طفلةٌ هي على حساب الزمن إن كانت سن الحي تُعَدُّ بالسنين والأيام؛ فكم تكون . . . سنها على الحقيقة منذ كانت أمنيةً تتراءى لي في اليقظة وطيفاً يُلمُّ بي في الأحلام؟
صورة إنسان في بضعة أرطال من لحم ملفّفة في طيات الفراش، ولكنها معي أينما كنتُ، أطوِّف بها ما أطوِّف في دنيا عريضة من الأماني والأوهام!
خرساء مالها بيانٌ بعد، فإذا التقت عينان بعينين فإن بينها وبين نفسي حديثاً أفصحَ من حديث كل ذي شفةٍ ولسان!
طفلةٌ هي إذا نظرتُ إليها في فراشها هادئة مستسلمة لا تقدر على الحركة؛ فإذا أغمضتُ عيني وسبحتُ فيما أسبح من آمالي فهي غير منْ هي: صبيّة تدرج، أو فتاة تخطر، أو عروس في جلوة العرس إلى ذراع عروس. . .!
تعالي إلي يا بنيتي أضمك إلى صدري؛ إنني أنا أبوك؛ أتراك تعرفين؟
هاتان عيناك الساجيتان تنظران إلي نظرات ليستْ من مثل ما تنظرين إلى أخي وابن عمي؛ بربِّك من علمك؟
انظري إلي يا ابنتي وأَطيلي النظر، إن في عينيك سرًّا يلهمني ما لم تلهمني مشاهد الدنيا جميعاً منذ كنت إلى يوم عرْفتك!
حدثيني حديثك الصامت يا عزيزتي لعلي استشفّ من وراء حديثك سرَّ المجهول؛ ما أنتِ؟ وأين أنت؟ وما كان ماضيكِ؟ وكيف تأملين أن يكون غدك. . أأنتِ هنا أم أنت هناك؟
شمس تشرق وتغيب، وليل يطبق وينجلي، ورياح تعصف وتهدأ، وإنسان يعبس . . . ويضحك، ومعدة تمتلئ وتفرغ، وقلب صافٍ صفاء الحق أو عابس عبوس الضلال، وعيون فيها بريق الشهوات أو فيها دموع الألم، ووجوه سافرة ووجوه عليها نقاب. . .

هذه هي دنيانا أيتها الصغيرة، فما هي دنياك؟
أتراك تعرفين يا عزيزتي الصغيرة؟. . . ما أرى صمتك الطويل يا بنيتي إلا حذراً ورقبة
حتى تعرفي ما أنتِ في دنياك الجديدة. . .! تُرى من أدبك هذا الأدب يا بنيتي؟
سائح جوّال رمتْ به الأقدار إلى وادٍ غير واديه؛ ودنيا غير دنياه، وعيش لم يعش مثله
فيما استدبر من حياة؛ ماذا يقول وكيف يتحدث. . . أهكذا أنتِ في صمتك يا عزيزتي؟
هذه أمك يا صغيرتي لم تحمل ولم تلد قَبلُ؛ علّميها الأمومة يا صغيرتي، إنها لم تكن تعرف. . .!
هاهي ذي حانيةٌ عليك صابرة على ما تعاني من أوجاع الأمومة الأولى وإن في عينيها
لبريقاً لم أر مثله فيما رأيتُ من عينيها قَبْل!
مغتبطة سعيدة أن تضمك إلى صدرها في حنان ورقة وإن بها من الآلام ما يذهل كل
ذات ولد!
وهاتان شفتاك الصغيرتان تبحثان عن شئ هنا. . . مَنْ علّمك أيتها الصغيرة أن هنا أودع
الله ما أودع ليكون لك شبعاً وريًّا؟
ورأيتك تلقمين ثديها مغمضة العينين تناول الخبير الفطن، فأحسنت الرضاعة، وما
تحسن أمك أن ترضع!
يا عجبا! الطفل الصغير يعلم أمه الأمومة قبل أن تتعلم هي أن تكون أماً!
في كل مرأى عين منك يا صغيرتي درس يهديني ويلهمني!
هل أنت سعيدة بدنياك أيتها الصغيرة؟ هل تتألمين لشيء؟
هل تؤملين في شيء؟ هل وجدت الحياة كما علمك باريك الأعظم؟
من لي بأن أسمع جواب ما سألت! ولكن، لا، لا، حسبي الذي أرى؛ إنك أنت أنت لأنك
لا تجيبين؛ إنك أنت أنت لأني لا أعرف من أنت؛ حسبي من العلم ما تلهمني نفسي؛ إن
ذلك أعمق أثراً في جناني من كل بيان!
هذا جسمك ينمو كل يوم شيئاً شيئاً، وهذه حركاتك تقوى وتشتد، وهذا صراخك يتنوع
نبره وتختلف أنغامه؛ وغداً - إن شاء الله سيكون لك غد - ستكبرين يا صغيرة حتى
تبلغي ما تبلغين؛ وكم يلذني أن أتمثلك في خاطري صبيةً وفتاةً وسيدة كما آمل أن
تكوني؛ ولكن شيئاً واحداً هو أغلى من كل ذلك آمل أن يظل معك صبية وفتاة وسيدة؛
هو قلب الطفلة، وابتسامة الطفلة، ونظرة الطفلة، و. . .، وصمت الطفلة حين تضج
الحياة من حولك وتصطخب، ويلتمس كل سؤال جوابه. . .!
ولكن، آه. . . إن حكمة المقادير لتأبى. . .!
هكذا كنا جميعاً، وهكذا صرنا؛ وكانت لنا حياة أين منها الحياة التي نعيش اليوم!
عيشي لي يا ابنتي واسلمي، وكوني ما تكونين؛ فأنت أول من أبوت، وأنت أول من
علمني معنى الحياة. . .!
لماذا تبكين يا بنية؟ هأنذا على مقربة منك، تملين عليّ وأكتب؛ تعالي بين ذراعي، . . .
إنهما على ما إنهما، لألين مسا على جنبيك من هذا الفراش الوثير!
تبكين لأني منصرف عنك منذ ساعات إلى أوراقي أكتب؟ من علمك هذه الغيرة يا . . .
بنية؟ إن فيك لطباع الأنثى وإن لم تكونيها بعد!
ابتسمي لأبيك أيتها الصغيرة؛ لا تبكي؛ إنني أنا أبوك؛ لقد تعلمت منذ الساعة ما أنا،
وعرفت ما علي من واجب؛ إنني لك منذ الآن، لا يصرفني شأن من شئون الحياة عن
هذا الواجب إلا أن يكون سعياً إلى ما يصلح من شأنك. . .
تعالي تعالي علميني! إنني أنا والدك ولكنك أنت ولدتني يوم ولدت لأنك أنشأتني خلقاً
آخر من يومئذ. . .
تعالي، قبلي أباك!. . لا تعرفين؟. . هذه قبلتي على جبينك يا صغيرة تذكرينني بها إلى
معاد؛ وإنها لدين إلى أجل لا بد أن اقتضيه يوماً من شفتيك!

محمد سعيد العريان

استطلاع صحفي

جولة في مزرعة الجبل الأصفر

لمندوب الرسالة

في دار النيابة زوبعة نائمة ينتظر نواب الأمة أن يثيروها عندما يعرض الاستجواب الخاص بالتحقيق في مزرعة الجبل الأصفر. وبذلك سجلت هذه المزرعة لنفسها تاريخا

خاصا وأثارت في نفوس القراء فضولا رأينا أن نشبعه بأن نقدم للقراء وصفا شاملا لما يحدث في تلك المزرعة متوخين في تحثنا أن نكون بعيدين كل البعد عن السياسة ومراميها.

الأرض المتمردة

على مسير20 دقيقة من المرج معهدان أولهما مستشفى المجانين، والثاني مزرعة الجيل الصفر. وكلاهما يقع في الصحراء بعيداً عن الناس. ففي الأول أناس اقتضت التقاليد عزلهم لما أصاب مراكز التفكير فيهم من خلل؛ وأما الثاني فبرغم بهائه ونضرته، وعلى رغم زرعه وضرعه، لم يجد الناس مندوحة من إقامته بعيداً عن عيونهم وأنوفهم، فمواد سماده من فضلات المجاري، فهي خطر على الصحة العامة لما تنقله من الجراثيم، وهي خطر على حاسة الشم لأن رائحتها كريهة، وهي خطر على المزاج لأنها تعكر صفوه وتشيع في الإنسان الكآبة: ولذلك اقتضت ضرورة الذوق السليم أن تخط مزرعة الجبل الأصفر في بقعة نائية من الصحراء

ولا يربط هذين المعهدين بالمرج إلا خط حديدي مفرد تسير عليه مركبة الترولي مرات معدودات أثناء النهار عندما ينتقل إلى سكان المزرعة البريد اليومي أو يحاول أهلها الاتصال بسكان العالم عن طريق الرسائل. ولو استطاعت الصحراء أن تتحدث لاتهمت المزرعة بالجنون كما اتهم به الناس سكان المعهد المجاور، فكلاهما خارج بل متطرف في الخروج على مألوف بيئته، فأينما وقفت من أطراف المعهدين تجد الأفق ينطبق على رمال الصحراء سوى هذه البقعة، فقد تمردت بفعل الإنسان فأرسلت من جوفها إلى العالم حياة طافحة بالخير والشر، وأشجاراً باسقة تعطي الظل والخشب، وأثماراً تدر على الإنسان

الربح الوافر والغذاء الدسم

تلك الأرض التي كانت منذ سنوات صحراء جرداء تستوي مع جيرانها في أديمها الأصفر وهجيرها اللافح وشمسها المحرقة، أصبحت الآن بستاناً تهوى العين رؤيته وتتوق النفس إلى سكناه. وليس غرام البقعة قاصراً على عشاق الطبيعة الذين يحبون جمعها بين الصحراء وتلالها الرملية وبين الماء والخضرة، بل إن هذا الغرام يمتد إلى التجار. ألم تسمع عن الثورة القائمة في دار النيابة؟ وهل سمعت أيضاً بحديث القتيل الذي راح ضحية المنافسة عليها عند البيع والشراء؟ فإذا لم تكن تعرف هذا فتيقن أن المزرعة مصدر ربح وفير، فإنتاجها حسب تقدير قسم البساتين بوزارة الزراعة يزيد على اثنين وعشرين ألفاً من الجنيهات.

صيد طائرين بحجر واحد

أما مساحة المزرعة فثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسون فداناً حولتها فضلات المجاري إلى حالتها الراهنة، إذ استعملت سماداً عضوياً جيداً لتغذية الأرض حتى أنتجت الأشجار والأثمار المختلفة. ولكن المشرفين رأوا أن يستفيدوا من الأرض في التجارة بزراعة الموالح من برتقال ويوسفي بأنواعهما. أما البقول والفول والشعير فاقتصر زرعهما على الاستهلاك المحلي لسكان المزرعة الذين يزيدون على ألف نسمة

ويزرع من هذه المساحة ألف فدان موالح، وهي الأرض التي يسمح باستغلالها في التجارة، وبذلك تكون هي منشأ النزاع وإن شئت الدقة قلنا الاستجوابات المطروحة في دار البرلمان. ويزرع من المساحة الباقية 150 فداناً شعيراً ومثلها فولاً و30 فداناً غابات، ومثلها للنخيل وعشرة أفدنة للخضروات؛ أما الباقي فأراض بور لم يتم إصلاحها بعد، ولو توفر الماء لريها لصبحت كمثيلاتها؛ فالسماد العضوي الذي تجلبه إليها المجاري غذاء غني للنبات

وليست الناحية التجارية هي الأصل في إنشاء هذه المزرعة بل الغرض أسمى من ذلك، ففي مدينة القاهرة مجار تجمع الفضلات من المنازل لتلقيها بعيداً عن الناس دون أن تكلفهم مشقة التعب في النقل وإيجاد المكان. وهذه المواد يجب أن يقتل ما فيها من جراثيم كما يجب أن تستهلك لتنعدم رائحتها وحتى لا تزيد وتتكاثر بمرور الزمن. ولذلك فكر ولاة

الأمور في إنشاء مزرعة يتغذى نباتها بتلك الفضلات، وبذلك يضربون طائرين بحجر واحد كما تقول الأمثال؛ فمن الناحية الأولى نجد مصرفاً دائماً للفضلات، ومن جهة ثانية نزرع الأرضة ونجني الثمار.

ولذلك لم تكتف المزرعة بالناحية المادية والتجارية، بل أرادت أن تضيف إلى الثروة الزراعية المصرية نباتات جديدة لم نعرف أثمارها من قبل فأدخلت زراعة بعض الفواكه (كالكوم كوات) كما استطاع الأخصائيون الزراعيون إنتاج فواكه في غير أوانها، فاستطاعت المزرعة أن تمد السوق بالفواكه في أكثر أوقات السنة. ولم تقتصر الفائدة على الحكومة بل عمت فاستفاد منها الشعب فقد اشترى بعض المزارعين بذور تلك الفواكه فشاركوا المزرعة في إنتاج الفواكه على غير ميعاد.

بر الشيطان

وتأبى أرض المزرعة إلا أن تضع أمام اخصائيها معضلة حاروا في كشف سرها إذ يظهر نبات شيطاني اسمه (المنتنة) لم تبذر له بذور ولم يعتن به في سقي ولا حرث، ومع ذلك فأنه ينمو ويكبر؛ وهو غني بالزيت، ولذلك أريد استغلاله باستخراجه منه فجربت زراعته ففشلت. (فالمنتنة) نبات ينمو إذا تركته للطبيعة، فإذا أخذت بذوره وأعطيتها العناية والوقاية فإنها لا تنبت؛ أما إذا تركت على الأرض فإن نبات المنتنة يكثر فيها. أما كيف ينبت فهذا سر الطبيعة؛ وأما لماذا لا ينبت إذا قدمت له العناية فأمر علمه عند الله، وكل ما نعرف عنه أنه نبات شيطاني يحتفظ بسر نفسه، وما زالت التجارب تعمل. وما يظن أنها بذوره تدفن في الأرض أو تبذر على سطحها لتنبت، ولكنها تختفي في الجهات التي تزرع فيها لتظهر في جهات ثانية. والغريب في أمرها أنها تنبت بإذن الله وحده في عدة جهات وبكميات كبيرة، فأمكن استخراج كميات من الزيوت منها.

وتحاول المزرعة أن تحتفظ في حقول تجاربها بكثير من النباتات ولكن بعضها قد لا يحتمل حرارة الشمس لأنه نبات إحدى المناطق الباردة، أو أن حرارة شمس مصر لا تكفيه لأنه نبات إحدى المناطق الحارة، ولذلك فإن المزرعة مجهزة ببيوت من الزجاج، وأخرى من الخشب

فأما بيوت الزجاج فتوضع فيها نباتات المنطقة الحارة حتى إذا انكسرت أشعة الشمس داخلها كانت حرارتها أقوى مما هي في العادة، وهذه البيوت حوائطها من الزجاج الذي يسمح لأشعة الشمس بالنفاذ. أما بيوت الخشب فإنها تصنع لتعطي النبات كثيراً من الظل، وبذلك تقل الحرارة داخل البيت فيستطيع النبات البارد أن يعيش. وبعض النباتات يمكث في هذه البيوت مدة حتى يمكنه أن يتحمل الحرارة والبرودة وعندئذ يمكن غرسه في أرض المزرعة في العراء

سماد عضوي

تروى أرض المزرعة وتسمد من فضلات المجاري التي تصل من القاهرة بواسطة أنابيب تقذفها في أحواض واسعة حيث ترسب الفظلات الثقيلة في قاعها وتمرر في عدة أحواض أخرى إلى أن تصبح ماء صافياً يستعمل في ري المزرعة. أما المواد الغليظة فإنها تنشر في أحواض رملية وتعرض لأشعة الشمس حتى تجف وتباع للزراع كسماد عضوي جيد، ويختلف ثمن المتر المكعب منه تبعاً للمكان الذي يسلم فيه وتنحل المواد البرازية أثناء انتقالها داخل الأنابيب من القاهرة إلى تلك الأحواض فإنها تبقى عدة ساعات كافية لقتل أي مكروب، ولذلك فإن المواد تصل إلى تلك المنطقة سوداء مما يدل على انحلال موادها. أضف إلى ذلك أنها في ماء جار لا يسمح للميكروبات بالحياة. بل إن بعض الأطباء يؤكدن خلو تلك المواد من أي ميكروب؛ ولذلك يأخذون على وزارة الصحة اعتبارها للمواد التي تسقط على أرض ملوثة؛ ويقول آخرون إن هذا احتياط واجب وهو ادعى لطمأنينة الناس وثقتهم بنباتات المزرعة ولأول مرة شاهدت أرض المزرعة عجبت لكثافة الحشائش في أرضها مبيناً ضرر ذلك على النبات. ولكن محدثي وهو ممن عاشوا في المزرعة مدة طويلة قال: أن هذه الحشائش الطفيلية تنبت بغزارة وقد تعبنا في التخلص منها بدون جدوى. وثلاثة أرباع العمل الذي نبذله هنا يقتصر على حشها ولكنه لا تمر 24 ساعة حتى تنبت بهذه الكثافة من جديد. ولما سألته عن السبب قال: إن الماء الذي تزرع به الأرض يحتوي على كميات كبيرة من السماد فتشبعت به الأرض أكثر من الحد الطبيعي حتى أصبحت أرضها صلبة مما يضر بالمزروعات أحياناً، وإذا أردنا أن نرجع بالأرض إلى الحالة الطبيعية وجب أن نزرعها مدة عشر سنوات بدون سماد

تجارب لعزل الفضلات

ومن المشاكل التي يحاولون التغلب عليها الحصول على ماء خال من السماد الذائب

فيه، ولذلك عملت تجارب لتصفية ماء المجاري والحصول على ماء نقي. فليس هذا سهلاً باستيراده من النيل أضف إلى ذلك أن مشكلة ماء المجاري ستظل بدون مصرف لها. واتبعت عدة طرق مازالت تحت التجربة لتنقية الماء بطريقة السواقي أو الرشح بين الزلط والرمل، وينتظر أن تصل هذه التجارب إلى نتائج حاسمة قريباً فقد شاهدت إحدى التجارب وقد أصبح الماء المتخلف منها شفافاً ولكن تكاليفه غالية. ويراد استنباط طريقة رخيصة التكاليف. وقد بنيت لتنفيذ تلك التجارب عدة نماذج مساحة الواحدة منها خمسون متراً تقريباً

وهناك مشروع لتحضير غاز الاستصباح من فضلات تلك المواد، فإذا نجح هذا المشروع فإنه يكفي لإضاءة شوارع القاهرة جميعها. وقد بدأ القائمون بالأمر بعمل التجارب اللازمة، فأنشئوا لذلك بئراً عمقها 11 متراً كما شيدوا خزاناً من الحديد لاستقبال الغاز وتوزيعه

محافظة على الصحة

وتحرص وزارة الصحة كما قلنا على منع الثمار الملوث من الوصول إلى أيدي الناس، ولذلك إذا أراد مستغل المزرعة أن يجمع ثمار قطعة من الأرض فعليه أن يخطر رجال للصحة ليمروا في تلك المنطقة وليجمعوا منها الثمر الذي يلمس الأرض سواء كان ساقطاً أو في فروع قريبة من الأرض فلامستها. ويدفع للمستغل ثمن ما يتلف لأنه ملوث وقد قدر بخمسة آلاف جنيه في العام الماضي

ويعدم الثمر الملوث بوضعه في حفر عميقة وصب (حامض الفنيك) عليه ثم ردم الحفر

فوزي جيد الشتوي

التاريخ في سير أبطاله

أحمد عرابي

للأستاذ محمود الخفيف

أما آن للتاريخ أن ينصف هذا المصري الفلاح، وأن يحدد له مكانه بين قواد حركتنا القومية؟

يذكر المصريون أسم عرابي فلا يبتعث هذا الاسم وا أسفاه في أذهانهم إلا صور العنف والنزق والحمق، وتراهم - وإن لم يقصدوا - يقرنون اسم عرابي بمعاني الهزيمة والاحتلال والمذلة كأن هذه المعاني من مرادفاته

وما اذكر مجلساً تطرق الحديث فيه إلى عرابي إلا وسرت في الوجوه كآبة، وتسابقت الألسن للهزء به وتعديد مساوئه وإبراز مثاليه. . .

والحق أنه قل أن نجد في رجالنا رجلاً ضاعت حسناته في سيئاته كما ضاعت حسنات عرابي المسكين فيما ارتكب وفيما افترى عليه من سيئات؛ وكذلك قل أن نجد في رجالنا رجلاً كرهه بنو قومه واستنكروا أعماله بقدر ما كره هؤلاء عرابيا واستنكروا ما فعل وما أسند إليه من الأعمال زوراً وإفكاً. وفي ذلك دليل قوي على أن التاريخ قد يظلم عامداً كما قد يخطئ غير عامد؛ وفيه كذلك دليل على أن الأمور كثيراً ما تجري فيه كما يرسم الحظ لا كما يضع العدل من قسطاس؛ فيكون نصيب بعض الرجال من التعظيم بقدر ما يتوافي لهم من حظ لا ندري كيف اتفق لهم دون غيرهم، بينما يجني على كثير من ذوي النفوس الصحيحة والعظمة الصادقة ما يلحق بهم من سوء الطالع وما يحيط بهم من نحس الأيام

وما كان عرابي فيما أعتقد أثقل الرجال وزراً وإن لم يكن أقلهم أخطاء. ولعلي أستطيع أن أجلو ذلك في سيرته بقدر ما أصل إليه من وجوه الصواب في تلك السيرة التي بالغ كثير من ذوي الأغراض في تشويهها والحط من قدر صاحبها

ومهما يكن من الأمر فما أحسب من الناقمين على عرابي من يستطيع أن يماري في أنه كان زعيم حركة وداعية فكرة، وأنه - أخطأ أو أصاب - كان مخلصاً فيما يفعل وفيما يقول، وأنه قبل ذلك كله وفوق ذلك كله كان أول مصري فلاح في مصر الحديثة خرج من

بين عامة الفلاحين في قرية من قرى مصر فاضطلع بقضية، ونادى على رأس المنادين بمطالب مصر، وصار اسمه في موقف هام من مواقف نهوضها علما على الجهاد ورمزاً للمقاومة حتى شاءت الظروف فامتشق الحسام وسار على رأس جيش من بنيها يذود عن أراضيها ويقف غير هازل ولا طامع في وجه الغادرين الباطشين من

. . .أعدائها
بهذه الروح اكتب عن عرابي، وعلى هذا الأساس أبين سيرته، فالإخلاص في الرجال هو عندي مقياس بطولتهم الأول، بل هو فيما أرى اصح المقاييس وأهمها؛ أما الصواب والخطأ وما إليهما، فأمور توجد في الأبطال وغير الأبطال، ولا فرق فيها في كثير ولا قليل بين هؤلاء وهؤلاء!
ولد أحمد عرابي في عام 1840 م في قرية تدعى هرية رزنة بمديرية الشرقية، ونشأ الصبي القروي كما ينشأ الآلاف مثله في قرى مصر على نمط من العيش لا نحسبه يختلف كثيراً باختلاف العصور في هذه القرى التي نبتت على ماء النيل منذ الأزل. . .
نشأ في هذه القرية الصغيرة ذلك الصبي الذي قدر له أن يجري اسمه يوماً ما على كل لسان في مصر ودرج بين لداته عرضة للأمراض المختلفة، يحيط به في الجهل والفقر أينما اتجه، ولا يجد حوله من مظاهر الحياة والعمران مثل ما يجده صبي مثله ينشأ في مدينة كبيرة أو يتلقى العلم المنظم في مدرسة منظمة
على أنه يذكر عن أبيه في مذكراته أنه كان (شيخاً جليلاً رئيساً على عشيرته عالماً ورعاً تقياً نقياً موصوفاً بالعفة والأمانة)؛ ومهما يكن من أمر أبيه فليس يعنينا في هذا المقام سوى أنه أرسل ابنه إلى مكتب القرية وهو كما يقول ابنه من منشآته فيها، وفي هذا المكتب فتحت عينا الصبي على نور العلم فحفظ شيئاً من القرآن وتعلم القراءة والكتابة؛ وتعهده صراف القرية زمناً فعلمه مبادئ الحساب
ومات أبوه وهو في الثامنة من عمره، ولكن يتمه لم يحل بينه وبين أن ينال قسطاً من العلم في الأزهر فلقد أرسله أخوه الأكبر إلى هناك عسى أن يكون عالماً من علمائه، ولكن الصبي لم يلبث بالأزهر كثيراً فعاد إلى قريته، وكان من الممكن أن يعيش في تلك القرية ثم يموت فيها كما يعيش ويموت فيها كما يعيش ويموت سواه من الفلاحين من أهلها. . .
ولكن الأقدار تخرجه من هذه القرية ليغدو فيما بعد رجلاً من رجال مصر، وليثبته التاريخ
في سجله، بعد أن يصل اسمه إلى مسامع جميع الساسة في ذلك العصر؛ وتنطوي السنون وتبقى ثورته صفحة من أهم الصفحات في تاريخ هذا البلد
أراد سعيد أن ينهض بالجيش، لا لأنه كان رجل حرب وأطماع، ولكن لأن الجيش كان ملهاته، فأمر بتجنيد أبناء المشايخ والأعيان، وكان من بين من جندوا ذلك الفتى الأزهري القروي الذي لم يكن له من عمل في قريته، وكان يومئذ في الرابعة عشرة وبالتحاق عرابي بالجيش تبدأ مرحلة جديدة في حياته، ثم تنتهي من ناحية أخرى مرحلة تعليمه. ومن ذلك نرى أن كل ما ناله عرابي من المعرفة لم يعد ما تلقاه في المكتب ثم في الأزهر قبل سن اليفاعة، اللهم إلا ما كان من مطالعاته الخاصة فيما بعد وهي أمر لا يمكن تحديده. . .
ولطالما رمى عرابي بالجهل ثم عد هذا الجهل من أهم نواحي ضعفه، بل لقد كانت تلك الناحية في مقدمة ما يهزأ به منه خصومه، وبخاصة أولئك المؤرخون الأجانب الذين ينتابهم أبداً لذكر عرابي ما يشبه الحمى فيطلقون ألسنتهم فيه بلا حساب
ولست أحاول هنا أن أنسب العلم إلى عرابي فما أبعده عن أن يوصف بالعلم، ولو كان يفهم أهل عصره من مدلوله؛ ولكني من ناحية أخرى لا أراه من الجهل كما يصفون أو كما يسخرون، ذلك أني أقيسه إلى جمهرة المتعلمين في عصره من أهل مصر، وما كان لي أن أعدو ذلك فأقيسه إلى رجال جيله في أوربا إلا أن أعتبر مصر يومئذ في مصاف تلك الدول علماً وثقافة وحضارة. ولن توصف الشمعة لعمري مهما كانت ضئيلة النور بأنها مظلمة، ولا سيما إذا قيست إلى غيرها من الشموع وما على شاكلتها من المصابيح؛ أما أن تقاس إلى المشاعل القوية أو أن تنقل من ظلمة الليل إلى وضح النهار ثم يتحدث بعد ذلك عن مقدار نورها، فهذا ما لا يجوز إلا في حساب المغرضين والمبطلين
ومتى كان العلم الغزير من مستلزمات البطولة؟ ألا كم شهد التاريخ من أناس لم يكن لهم من العلم إلا مثل حظ الرجل العادي منه بحيث لو أنهم قيسوا من هذه الناحية إلى معاصريهم من العلماء والفلاسفة لكانوا في حكم العدم، ومع ذلك فلم ينل نقصهم هذا من بطولتهم أو يقعد بهم عن مواصلة السير إلى مثلهم التي رسموها؛ وذلك أن قلوبهم

كانت عامرة بما هو أغلى وأعظم من نظريات العلماء وأحلام الفلاسفة. . . كانت قلوبهم عامرة
بالإخلاص والحماسة والعزم وهي خلال لن تقوم عظمة حقيقية بدونها ولن تغنى عنها سواها من الخلال مهما كان من قيمتها في مجال آخر؛ ولرجل واحد وثيق العزيمة صادق الإخلاص متوقد الحماسة خير في قيادة الناس وتحريرهم من عشرات الفلاسفة الغارقين في أوراقهم وكتبهم
وما كان عرابي فيما استخلص من سيرته خلواً من هذه الخلال، بل لقد كان ما توفي له منها لا ينزل به في البطولة عن مرتبة شريف والمويلحي والقاني ومحمد عبده وجمال الدين والبارودي وغيرهم من مثقفي عصره، إن لم يكن يرتفع به عليهم على ضآلة علمه بالنسبة إليهم. ولست أغلو في ذلك أو أتحيز، وإلا فكيف انتهت إليه في وقت ما زعامة الحركتين الوطنية والعسكرية معاً؟ ولقد كان في الأولى كما ذكرت من الرجال من هم أعلى كعباً منه في المعرفة، وفي الثانية من هم أرسخ قدماً في الجندية؟ وهل يعزى ذلك إلى الحظ وقد كان عرابي من أكثر الناس شغباً على رؤسائه في الجيش، أم يعزى إلى الجاه والثروة وقد كان فلاحاً ابن فلاح من بيت عادي لا ثروة له ولا جاه؟
ألا إنه لا مناص لنا إذا أردنا الإنصاف من أن نعزو ذلك إلى انه كان أكثر ممن حوله أيماناً وأقوى منهم جناناً وأشد منهم توثباً وتطلعاً، وإن كان من أقلهم معرفة واطلاعاً؟ وهنا لا أتردد أن أثبت رأياً آخر وهو أنه لا يجوز عندي أن يعد عليه ما يعزى إليه من جهل أو أن يؤخذ به، وإنما ينبغي أن يعد له وأن يعتبر داعياً من دواعي فخره!
انتظم عرابي في سلك الجندية (نفراً) عادياً فما لبث أن ترقى بعد سنتين إلى رتبة (ملازم ثان) وكان ذلك حوالي عام 1860 ثم إلى رتبة ملازم أول فيوز باشي في نفس العام، ولم يمر عامان بعد ذلك حتى وصل إلى رتبة قائمقام (بك) وكان عرابي أول مصري وصل إلى هذه الرتبة كما يقول في مذكراته
وصل هذا الجندي من رتبة الجاويش إلى رتبة قائمقام في نحو أربع سنوات وما كان ذلك عن حظوة له عند أحد، وإنما كان سلاحه ذلك القدر من العلم الذي أشرنا إليه، فيه تمكن عرابي أن يدرس القوانين العسكرية ويجتاز الامتحانات متفوقاً، ويدلنا ذلك على ندرة المتعلمين في ذلك الجيش، ولا شك أن هذا الترقي السريع قد بث في نفس الفتى القروي كثيراً من الطموح والإقدام. . .
على أنه كان شجاعاً بطبعه في عصر كثيراً ما كانت تعد الشجاعة فيه ضرباً من العصيان والتمرد كما سيأتي بيانه؛ لسوف نرى من مواقفه في هذا العصر ما يزيد معنى بسالته ويظهرها مضاعفة. . .
وأول ما عرف عنه في الجندية كراهته للعنصر الجركسي، فكان لا يفتأ يقارن بين نصيب هذا العنصر ونصيب المصريين من المناصب، فلا تزيده المقارنة إلا غضباً وكراهية لهؤلاء الأجانب. أليست هذه النزعة من جانبه هي نزعة الوطنيين في الجيش حينما تبدأ الحركة العسكرية؟ ثم ألسنا نجد فيها جانباً من الوطنية ومعنى من معانيها؟
ولكن بعض المؤرخين لا يفهم هذا من جانب عرابي إلا على أنه ضرب من الأنانية والجشع، بل ليسرف بعضهم فيرميه بالتبجح قائلين: ما لهذا الفلاح وعليا المراتب في غير جدارة؟ وإنهم في ذلك ليمتدحونه من حيث لا يشعرون! ولئن كان الطموح بالنفس والشعور بالقومية تبجحاً، فماذا نسمي التقاعد والتخاذل والاستخذاء أمام الأجنبي؟ ألا ليت كل تبجح يكون كتبجح عرابي هذا فما أعظمه وما أجمله، وما أجدره بالتقدير والإعجاب! وليت شعري كيف يستطيع رجل في مثل موقفه أن يقنع المكابرين أن نزعته كانت قومية يقصد بها بني قومه جميعاً؟ وأي عيب في أن يبدأ بنفسه فيرقى بها؟ أليس مصرياً؟ وهل كان يعتز بغير مصريته إذا اعتز بنفسه؟ على أنه لو أراد بالرقي نفسه فحسب دون أي اعتبار قومي، فما وجه العيب في ذلك؟ أيكون من العيب أن يتطلع الرجل إلى المعالي، ولا يكون من العيب أن يرضى بتقدم غيره عليه حتى ولو كان ذلك الغير أجنبياً؟
إن الرجل المخلص لا يقف ليقول للناس إنه مخلص وفي ذلك شك منه في نفسه، ولا يكون هناك دليل على إخلاصه إلا ما يعمل في سبيل تحقيق مبدئه، أما الكلام فسبيله ميسور؛ وفي استطاعة كل مبطل أن يملأ أسماع الناس بدعوى إخلاصه في غير

مشقة.
(يتبع)
الخفيف
مقدمة (ليلى المريضة بالعراق)
تقرير طبي
(مرفوع إلى حضرة صاحب المعالي وزير المعارف)
للدكتور زكي مبارك
أيها الأستاذ الجليل
كنتم سألتموني منذ شهرين أن أقدم إليكم تقريراً عما صنعت في مداواة ليلى المريضة في العراق، فأنا اليوم أجيبكم عما سألتم، راجياً أن تغضوا النظر عما وقع من إمهال وتسويف
وأسارع فأعتذر عن تقديم هذا التقرير مطبوعاً إلى الجمهور في الوقت الذي أقدمه إليكم، لأن لي في ذلك غاية نبيلة: هي تذكير زملائي من الأطباء بواجبهم في التعرف إلى الدراسات الأدبية والفلسفية، على نحو ما كان يصنع الأطباء العظام في الأمم العربية والإسلامية، وقد أعلنت هذا المعنى منذ شهور طوال في مجلة (المعلم الجديد) التي تنشرها وزارة المعارف العراقية، فاستقبله الأطباء هناك بالترحيب
ومعاذ الأدب أن يكون في نشر هذا التقرير بطريقة علنية دعاية لنفسي، فما أطمع في أن أكون أستاذاً للحكمة الوجدانية بكلية الطب بعد أن صنع الأدب بحياتي ما صنع: فقوض عيادتي بشارع المدابغ، وأغلق عيادتي بشارع فؤاد، وأصارني إلى احتراف الصحافة والتدريس
وقد كنت نشرت بعض فصول هذا التقرير بمجلة (الرسالة) في السنة الماضية فارتاع زملائي من أطباء بغداد وشكوني إلى الجمعية الطبية المصرية، وكانت حجتهم أنه لا يليق بالطبيب أن يفشي سر المريض
وما اجهل أني أخطأت، ولكن متى سلمت أعمال الرجال من الأخطاء؟ وهل يدعي العصمة إلا أهل الغفلة والحمق والخبال؟
إن أعظم مزية يتحلى بها كاتب هذا التقرير هي أنه يعترف سراً وعلانية بأنه إنسان يخطئ ويصيب، وقد يشطح وينطح في كثير من الأحايين!
وما أتخوفه اليوم وأنا أقدم إليكم هذا التقرير قد تخوفته من قبل: فقد كاد ما نشر من هذا
التقرير يزلزل الأرض تحت قدمي في بغداد، واضطرني ذلك إلى الدفاع عن نفسي أمام (نادي القلم العراقي) وفيه كثير من الأطباء، فتقبل الزملاء دفاعي بأحسن القبول. ومن ذلك عرفت أن الأطباء قد يحسون معاني الإنسانية حين يتصلون برجال الأدب والبيان
وما أخفي عليكم أني كنت أعرف أن اهتمامي بمداواة ليلى سيعرضني لكثير من المكاره، فهدتني الفطرة إلى أن أحتاط لنفسي فأوهمت أهل العراق أني أديب عظيم، واستطعت بذلك أن أتصدر لتدريس الأدب العربي بدار المعلمين العالية، على قلة ما أملك من الذخائر الأدبية، وقد أعانني الله تباركت أسماؤه على تحقيق ما ادعيت، فألقيت على تلاميذي وعلى جمهور أهل العراق محاضرات أسبوعية بكلية الحقوق كان لها في آذان أدباء بغداد رنين أي رنين
ولم اكتف بذلك، بل بالغت في ستر الموقف فأنشأت الفصول التي رأيتموها في كتاب: (وحي بغداد).
فأن عجبتم من أن أوفق إلى ما وفقت إليه في زمن لا يزيد عن تسعة أشهر فتذكروا أن الإخلاص قد يزعزع رواسي الجبال
أليس من العجيب أن أهاجر إلى بغداد وأنا طبيب فأرجع وأنا أديب؟!
ولكن ما الذي ستقرءونه في هذا التقرير الذي تعد صفحاته بالمئات ويقع في ثلاثة أجزاء؟
من المؤكد انه يغاير التقارير التي أقدمها إلى مكتب تفتيش اللغة العربية من أسبوع إلى أسبوع
ستجدون في هذا التقرير صراعاً مروعاً بين الحلم والجهل، والرشد والغي، والهدى

والضلال. وستجدون فيه ما هو أخطر من ذلك: ستجدون فيه صراعاً بيني وبين نفسي، والجهاد الأكبر جهاد النفس، كما قال الرسول
سترونني هززت شجرة النفس الإنسانية هزة عنيفة لأعرف ما تحمل من الثمار المعطوبة والثمار الصحاح
سترونني صنعت بالقلوب والنفوس ما تصنع الأعاصير بالشجر والنبات لا ينجو من عنفها إلا القوي المتين
فإن رأيتموني قدمت إلى أصونة وزارة المعارف تقريراً لم تعرف مثله قبل اليوم فاجزوني
بكلمة ثناء تخفف ما أصارتني ليلى إليه: فقد رجعت من دارها مفطور القلب مصهور الروح. وإن رأيتموني أحدثت في عالم الطب بدعة سيئة فاغفروا ذنبي، فحسبي من المحنة أن أسكب الدمع كل يوم ما أسرفت على نفسي من الهيام بأودية المعاني، والضلال في هوى الملاح. أعاذك الله من بلاء الحب، ونجاك من فتك العيون السود!
أتذكر أيها الوزير الجليل كلمة جاءت في كتاب (ثورة الأدب) الذي ألفه كاتب من أقطاب الكتاب في هذا الجليل؟
أتذكر أن ذلك المؤلف قال: إن هناك آفاقاً من المعاني يتحاماها كتاب العصر الحديث؟
فما رأيك في من يكفر عن سيئات أولئك الكتاب فيتحمل المشاق في ارتياد تلك المجاهيل؟
لقد اقتحمت تلك الآفاق بلا زاد ولا ماء، وأنا أعرف أني أعرض سمعتي للأقاويل والأراجيف، لأن الناس عندنا لا يفهمون كيف يدخل الطبيب على نفسه ليشرح على حسابها أهواء النفوس والقلوب والعقول؟
اقتحمت تلك المهالك وليس لي إلا سناد واحد هو الشعور بأني أودي خدمة للأدب والطب. وهل يخدم الأدب والطب بأفضل من التغلغل في تشريح النزعات والأهواء؟
وهل كنت أملك الفرار من الصنع الذي صنعت؟
لقد قضيت نحو تسعة أشهر في بغداد وأنا في حوار موصول مع ليلى وظمياء، وأنت تعرف كيف يتعرض القلب - حين يألف مثل هاتين الشيطانتين - للطواف بأركان الحقائق والأباطيل
أقول هذا وأنا أشعر بأني لم أوفق كل التوفيق في تدبيج هذا التقرير لأنه خلا خلواً تاماً من شوائب الرياء، في وقت صار فيه الرياء سيد الأخلاق، وإلا فما الذي كان يمنع من أن أضيف إلى نفسي وإلى ليلى محامد ومناقب يسير بها الركبان؟ ما الذي كان يمنع من أن أقول إن ليلى لم تعتب علي مرة واحدة وإني كنت في هواها أعقل الناس؟
منع من ذلك التعقل مانع واحد هو الغرام بالصدق. منع من ذلك أني أشعر بأن الأدب العربي أصبح على شفا الهاوية بفضل شيوع التدليس في تصوير العواطف والغرائز والطباع
منع من ذلك أني أبغض أشد البغض أن تشعر وأنت تقرأ هذا التقرير بأن فيه شيئاً من الزور والبهتان
وهل من القليل أن تراني وصلت إلى ضمير الحياة العراقية ثم وصفته بأسلوب يخفي سحره الدقيق على هاروت وماروت؟
في هذا التقرير، أيها الوزير، ما يشبه التحامل على الأطباء ولي في ذلك عذر مقبول. فأنت تعرف أن الحكومة كانت أوعزت إلى الجمعية الطبية المصرية أن تقيم مؤتمرها العاشر في بغداد لتعينني على مداواة ليلى المريضة في العراق.
ولكن أولئك الأطباء حاربوني وقاتلوني بلا ترفق، وقد جزيتهم بما يستحقون، وأنا مع ذلك أشعر بأني أحسنت إليهم كل الإحسان.
أما يكفي أن أصور بقلمي فلماً للمؤتمر الطبي العاشر، فلماً رائعاً لم يشهد مثله الناظرون؟
سترى في هذا التقرير أن ليلي - وإن بالغت في الدلال - لم تضمر غير الحب ولم تمنح الواشين الآثمين غير الصد والإعراض
سترى أن ليلى عرفت أني لم أكن إلا طيفاً زار في السحر بساتين الكرخ وبغداد.
ويؤذيني أن أعرف أنه قد يصعب أن أرى ليلى بعد اليوم فقد قيدني أهلي وأبنائي بقيود من حديد، وقهروني على أن أعترف بأني من مصر لا من العراق

وإن رأيتم في هذا التقرير حبسا شديداً للأمة العراقية فلا تعجبوا، فما ذقت طعم الحياة إلا في العراق، ولا رأيت صدق القلوب إلا في العراق، ولا عرفت جمال النيل إلا بعد أن رأيت لون مائه في دجلة والفرات
وما أسفت على شيء كما أسفت على أن لم يقدر لشاعرنا شوقي أن يزور العراق.
وقد دعوتكم إلى زيارة العراق، فمتى تجيبون؟
أحب أن أعرف متى أراكم في العراق بين قومي وأهلي؟
أحب أن تسمعوا سجع الحمائم في الموصل، وأن تروا غابات النخيل في البصرة، وأن تعانوا بقايا السحر في بابل، وأن تكحل أعينكم بغبار الصحراء في النجف، وأن تستصبحوا بظلام الليل في بغداد
أدعوكم أيها الوزير إلى زيارة الأماكن التي قضت بأن يتموج هذا التقرير بعباب الهدى والضلال.
أدعوكم إلى زيارة العراق لتواجهوني بما في هذا التقرير من الزائف والصحيح، إن ارتبتم في بعض ما ستقرءون.
ستروه في هذا التقرير رموزاً كثيرة، وقد تجزون من يحدثكم بأني سلكت فيه مسلك الغمز والتجريح، فإن سمعتم شيئاً من ذلك فاختبروه بأنفسكم على ضوء الحق لتعرفوا أني أخلصت النصح للأمتين العظيمتين: (مصر، والعراق).
وما الذي يوجب التصريح في مواطن يكفي فيها التلميح؟
أن البلاغة تجعل اللبس والغموض من أغراض الكتاب في بعض الأحيان فكيف تحرمون على ما استباحه المفكرون في مختلف العصور والأجيال؟
إن هذا التقرير يحدد صلات مصر بالأمم العربية والإسلامية ويدلها على مذاهب الخلاص من الشبهات والأراجيف. وهو كذلك يشرح المعضلات التي يتعرض لها الجيل الحديث في مصر والشرق، وما كان يتيسر ذلك إلا إذا اعتمد الكاتب على رموز وإشارات يفهمها أولو الألباب.
وإني لواثق بأنكم ستعجبون حين ترونني وصلت إلى دقائق لم يفطن إليها أحد قبل اليوم وأنا أتلقى الوحي من ليلى ومن ظمياء
وهل كان ينتظر من رجل يلهو ويلعب أن يصل إلى ما وصلت إليه في تشريح السياسة الدولية في الشرق العربي والإسلامي؟
ذلك شيء غريب، ولكن الأغرب أن تتلقوا الحكمة عن أفواه المجانين!
وأعيذكم أن تظنوا أني آذيت بهذا التقرير أحداً من الناس، فقد عرضت بعض فصوله على ليلاي بالعراق قبل أن أعرضه عليكم فتلقته بالقبول، وهي التي علمتني مذاهب الرمز والإيماء، وسيرمي النقاد مني بداهية إن بدا لهم أن يعترضوا على ما في هذا التقرير من رموز لا يدرك مغازيها إلا الراسخون في الحب والطب
ولك يا معالي الوزير أن تبلو سرائر هذا التقرير إن أردت لك أن تسأل - بيني وبينك - عما في هذا التقرير من غرائب وأعاجيب. . .
وليس لك أن تطالبني بأن أفسر للجمهور ما يقصد إلى طيه الحكماء، وأنا من الحكماء لأني بحمد الله مجنون!
في هذا التقرير خطابات شخصية، فلا يرعك ذلك: فقد كان أدبي من مواسم الأفراح الروحية في بغداد، وفيه صور كثيرة لمعالم العراق وبعض أهل العراق، وكان في نيتي أن أحلي هذا التقرير بصورة ليلى - أعزها الحب - ولكني خشيت أن أخرج على أمرها العالي، وهي قد أشارت بأن يصان وجهها الجميل عن شره العيون.
لا تعجب من أن أفتن بما وفقت إليه في هذا التقرير، فسترى أني لم أفرط فيه من شيء، وسيدعوك إلى أن تستوحي ليلى المريضة في أسوان كما استوحيت ليلى المريضة في العراق!
أيها الأستاذ الجليل
سترى في هذا التقرير صفحات تشرح الحوادث التي كانت سبباً في وقوع فاجعة بغداد، فاقرأ تلك الصفحات - غير مأمور - لترى أن ما وقع لم يكن أثراً لعداوة موجهة إلى الأمة المصرية، وإنما هو نتيجة لتصرفات أوقعت فيها المقادير بعض الناس لتعرف من في أنفسنا من الصلاحية للاستبسال في خدمت المقاصد العالية بمعاهد الشرق
وكان في نيتي أن أطوي تلك الصفحات من هذا التقرير، ولكن دعاني إلى إثباتها ما

عرفت من أن بعض المفسدين يريدون أن يجعلوا تلك الفاجعة نهاية الصلات الودية بين مصر والعراق
وأرجو أن تعرفوا أني لم أتلطف في سرد تلك الأسباب، ولم أضف إليها شيئاً يمليه الغرض في مراعاة مصر أو التحامل على العراق، وإنما وقفت موقف الرجل الأمين الذي يقدر المسئولية أمام الله وأمام التاريخ
وعند قراءة الفصول الخاص بتلك الفاجعة سترون أن الله قدر ولطف: فلم تكن تلك الحوادث إلا سحابة صيف، وقد تقشعت بفضل الله الكبير المتعال
لقد قلت ما قلت، وكتبت ما كتبت في الدفاع عن العراق، ومن الله وحده أنتظر حسن الجزاء. فمن كان له هوى في أن يصدني عن قول الحق فليمض في ضلاله كيف شاء، فما أنتظر العطف من أحد، وقد أقمت حياتي الأدبية على قواعد من الحديد
وما هذه الدنيا الصغيرة التي يتعادى فيها الناس بلا بينة ولا برهان؟
وما بال قوم يؤذونني وما قدمت إليهم غير الجميل؟
اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون
(مصر الجديدة)
زكي مبارك
أبي
للآنسة الفاضلة فدوى ط.
إلى النبراس الذي يضيء أفق حياتي، إلى ذلك العزيز الذي
(يتململ الآن على فراش المرض في ظلمات السجن، إلى أبي
يا أبي ضاق بي الفضاء على رحب مداه ... إذ ضاق صدري الكظيمُ
وعراني مما أصابك من نف ... ي وسجنٍ كآبةٌ وهمومُ
وحشةٌ تملأ الفؤاد وغمٌّ ... راسخٌ في جوانحي لا يريمُ
لا الأخ البَرُّ يا أبي فيه للنف ... س سلوٌ ولا القريب الحميم
أنت ظلّي الظليلُ في العيش إمَّا ... لفحتني أو لوَّحتني السَّموم
أنت ركني، لا قوَّض الله ركني ... وملاذي البرُّ الحفيُّ الرحيم
يا أبي حال بعدك الأنس في الد ... ار فأضحى وهو الأسى والوجوم
كيف تمسي، ترُى وكيف تصبح فالس ... جن ثقيل على النفوس أليم
ليت شعري هل كفَّ عنك مضيض الس ... قم أم أنت موجع مكظوم
يا لقلبي وكيف جسمك في القُرِّ ... فعهدي به معنًّى سقيم
أبا دفء المهاد يجفوه جنبي ... ويح لي، كيف يزدهيني نعيم؟
ويح لي، كيف أنشد الخفض ... واللين وأنت المقيد المحروم
يا أبي كلما تدلت سجوفُ الليل ... فالليل مدلهمٌ بهيمُ
وغفتْ أعين، وقرتْ نفوس ... حشوها خِسةٌ وطبع لئيمُ
زيَّن اللؤمُ قبحَ ما أبرمته ... من أمورٍ، واللؤم خلق ذميم
فاستراحت لمخزيات فِعال ... هي عند الأحرار إثم عظيم
تشتري الذلّ بالكرامة فاعجب ... كيف يرضى ذلّ العبيد (زعيم)
راح يُزهى تيهاً بعارية المنصب ... يغريه صدره الموسوم
كل شؤم كانت بلادي بمنجًى ... منه لولا وسامه المشؤوم
أرَّقتني ذكراك، والليل للذ ... كرى كتاب مفسَّر مرقوم
فأرى في السطور أخلاقك الزُّ ... هْر يزين الأخلاق قلب سليم
وأرى نفسك الأبية لا تع ... نو لضيم يبغيه باغ ظلوم
رعاها أن يميل بالوطن الأقد ... س - لا مال - مستبدٌّ غشوم
فسعتْ سعيَها النبيل تردُّ ... الكيد عنه إذ أزمعته الخصوم
وأرى صحبك الكرام وكلٌّ ... نهجه نهجك السوَّيُّ القويم
لم يَضِركم أن قيد القيد أيد ... يكم ولاقت مرَّ العذاب الجسوم
همم، لو هوت نجوم لإعظ ... إم لأهوت تجلهنَّ النجوم
كلما هَّم أن ينهنه منها ... بضروب النكال جان أثيم
قام روحٌ من الإله يقو ... يها فيشتد أزرها فتقوم
وطني، بي مما عراك شجون ... وبقلبي مما دهاك كلوم

الرزايا حلت بساحك والأ ... يام جارت والبؤس فيك عميم
الأيامي، ويا لبؤس الأيامي ... خضب الأرض دمعها المسجوم
رفرفت حولها فراخ مها ... زيل براها الشقاء فهي رسوم
أجنحٌ ما نمت قوادمها الز ... غبُ وقد هاضها المصاب الجسيم
هاضها اليتم وهي في جدة الر ... يش ويا شدَّ ما يلاقي اليتيم
والنسور الأباة لما استضيمت ... ضاق عنها في الأرض هذا الأديم
أَنِفَتْ عيشة الهوان وراحت ... في سما المجد والعلاء تهيم
أعنقتْ تستجيب للواجب الأس ... مى دعاها إليه حقٌّ هضيم
لم تبال الهول المبيد ولم تف ... لل شباها صواعق ورجوم
ترسل الموت فاغراً فاه عن زر ... ق حداد وهو الأكيل النهيم
يا ضحايا الجهاد في ذمة الله ... لأنتم مجدُ البلاد المروم
أيّ نار كنتم وقود لظاها ... لو وعاها لريع منها الجحيم
قد تركتم في مصحف المجد ذكراً ... هو باق على الزمان مقيم
سطرته لكم مواقعُ حُمرٌ ... صبغتها جراحكم والكلوم
(جبل النار)
فدوى
من الشعر المنسي لحافظ
إلى محرر المرأة
أرسل إلينا كثير من الأدباء جملة طيبة من شعر حافظ المنسي سنوالي نشره شاكرين لهم فضلهم وعنايتهم، وهذه القصيدة أرسلها إلينا الأديب حسنين محمود حسنين بالإسكندرية وهي مما تجاوزه الديوان الذي طبعته الوزارة على أنها من أروع ما قال شاعر النيل:
لحاظك والأيام جيش أحاربه ... فهذي مواضيه وهذي كتائبه //
وهمين ضاق القلب والصدر عنهما: ... غرام أعانيه وشوق أغالبه
وليل كمطل القوم كابدت طوله ... وأيقنت أني لا محالة صاحبه
كأن دياجيه صحيفة ملحد ... تخط بها أعماله ومثالبه
قريت به جيش الصبابة والأسى ... وأنزلته صدراً تداعت جوانبه
وعلمت نفسي كظم غيظي ولم أبح ... بما فعلت بين الضلوع قواضبه
تماسكت حتى لو رأى القوم حالتي ... رأوا رجلاً هانت عليه مصائبه
رجائي في قومي ضعيف كأنه ... جنان وزير سودته مناصبه
ودائي كداء الدين عز دواؤه ... وحظي كحظ الشرق نحس كواكبه
فيا ليت لي وجدان قومي فأرتضي ... حياتي ولا أشقى بما أنا طالبه
ينامون تحت الضيم والأرض رحبة ... لمن بات يأبى جانب الذل جانبه
يضيق على السوري رحب بلاده ... فيركب للأهوال ما هو راكبه
فما هي إلا أن تجشمه النوى ... وما هو إلا أن تشد ركائبه
ويحرج بالرومي مذهب رزقه ... فتفرج في عرض البلاد مذاهبه
أقاسم أن القوم ماتت قلوبهم ... ولم يفقهوا في السفر ما أنت كاتبه
إلى اليوم لم يرفع حجاب ضلالهم ... فمن ذا تناديه ومن ذا تعاتبه
فلو أن شخصاً قام يدعو رجالهم ... لوضع نقاب لاستقامت رغائبه
ولو خطرت في مصر حواء أمنا ... يلوح محياها لنا ونراقبه
وفي يدها العذراء يسفر وجهها ... تصافح منا من ترى وتخاطبه
وخلفهما موسى وعيسى وأحمد ... وجيش من الأملاك ما ت كواكبه
وقالوا لنا رفع النقاب محلل ... لقلنا نعم حق ولكن نجانبه
في أفق البساتين. . .
وهي بساتين بركات بالشرقية، انتقل إليها سعد باشا رحمه الله في الفترة الأخيرة من حياته انتجاعا للراحة، وكان بصحبته نفر من الميامين من أبنائه وفيهم مكرم وحافظ والدكتور محجوب ثابت، وكان لهم ملس حافل بالأنس والسمر قال حافظ في وصفه:
لّما مددْنا بِساط للهو وانبعثت ... روائح الأنس تزري بالرياحين
أغنت شمائلُ سعدٍ عن معتّقة ... من العنا قيد تسري في الشرايين

وأرشفتنا سجَاياهُ على ظمأٍ ... ألذّ من رشفات الخرّد العين
في أنس سعدٍ وفي أوْفَي صراحته ... ترى جلالاً ورأيّا غيرَ مأفون
لما مثلت على أنس بحضرته ... رأيتُ بين الندامى وجه هارونَ
رأيتُ وجهًا صبوحًا حوله نفرٌ ... من الميامين من شمِّ العرانين
إذا دعاهم إلى الجليّ حسبتهمُ ... على أعاديهمو مثل الشواهين
وإنْ دعَاهْم إلى أنسٍ رأيتهمُ ... مثل الحمائم في خَفضٍ وفي لين
وجالَ محجوبُ جولاتٍ موفّقةٍ ... فأحرز النصرَ في كلّ الميادين
عصى نَذِيرَ الحجا عمداً وصاح به: ... (ما لذة العيش إلا للمجانين)
وحلم سعد وسعد يعجبان معاً ... من لوثة الشيخ - شيخ الأقرباذين
يرغى ويزبد بالقافات تحسبها ... قَصْفَ المدافع في أفق البساتين
وتجد بقية القصيدة في الديوان من باب الإخوانيات بعنوان الدكتور!
(م. ف. ع)

رسالة العلم

وزن الكون

وعدد ما به من إلكترونات

للدكتور محمد محمود غالي

لم يكن الموضوعان الأخيران اللذان تعرضنا لهما على صفحات الرسالة: (الكون ينتشر) و (الكون يكبر) من الموضوعات السهلة التي يمكن للقارئ أن يتصورها كغيرها، ولعله اقتنع إلى حد أنه موجود في كون محدود، وأنه محمول على حيز متقوس، وأن عالمه أحد ملايين العوالم التي تبتعد كلها الواحد عن الآخر، والتي تقع كلها في قشرة كرة كبيرة لكنها جوفاء، شاء لها القدر أن تتسع وتمتد على نحو كرة من المطاط، وهي بهذا تكون كوناً واحداً محدوداً منتهياً يختلف عن الكون اللانهائي الذي تصوره أقليدس والذي اعتقده العلماء منذ الإغريق حتى عهدنا القريب

ولم يكن في وسعي أن أواصل اليوم موضوعاً دقيقاً كهذا، وأخطو بالقارئ خطوة أخرى، أدله فيها على الطريقة التي توصل بها العلماء إلى معرفة عدد الجسيمات أو الإلكترونات المكونة للكون، كنتيجة للدراسة المتقدمة، دون أن يتخلل أحاديثنا فترة من الراحة ودون أن نهيئ للذهن فرصة للتأمل، هذا الشعور من التأمل والراحة نود أن يشعر به القارئ في هذه الأسطر من هذا المقال

لم تصبح دراسة هذه الظواهر الحديثة من تمدد الكون وابتعاد جميع العوالم بعضها عن بعض وما يترتب على ذلك من معرفة وتحديد عدد جسيمات هذا الكون، من المسائل التي تدخل في حدود الهندسية والميكانيكا المعروفة، ولا في حدود تصوراتنا المعتادة، مع أن التجارب الطبيعية التي ثبت لنا منها فرار جميع العوالم بعضها عن بعض، وبالتبع فرارنا عنها، بسيطة جداً لا تدعو لكثير من التأمل، وأبسط ما فيها أنها وقعت كلها داخل المجموعة الشمسية التي نحن فيها، بل وقعت جميعها فوق سطح الأرض، بل في حجرة في أحد المراصد الأرضية المتعددة

عجيب ألا يعرف العالم الطبيعي من هذه الحجرة المتواضعة أن الكون محدود فحسب بل

يحاول أن يعرف من رسائل الطيف العديدة التي تصل إليه، والمنبعثة من العوالم البعيدة، عدد الإلكترونات المكونة للخليقة، وهي التي لا يتغير عددها في نظر العالم الطبيعي ما دامت مكوِّنة لكون محدود.

إن النتائج التي ترتبت على معرفة تمدد الكون وقياس الدرجة التي يكبر بها في خلال الزمن، والتي تتلخص في معرفة عدد الإلكترونات المكونة لهذا الكون، مهما كان جسيم الإلكترون متناهياً في الصغر، ومهما كان الكون متناهياً في الكبر، قد تبدو للقارئ غريبة، لذلك رأيت لزاماً أن أحاول رفع هذا النوع من الدهشة لديه قبل شرح الأسباب التي أدت إلى مثل هذه النتائج

لو سألنا عالماً طبيعياً أن يحصي لنا عدد الذرات ونوعها وبالتبع عدد الإلكترونات والبروتونات التي تتكون منها مدينة القاهرة، فإن من المستحيل أن يعطينا هذا العالم أي فكرة عن هذا العدد مهما استعان بمئات الأخصائيين والعلماء. إن محاولة إحصاء المنازل وما بها من أثاث ومعرفة نسبة أوزان جميع العناصر التي تدخل قي تكوينها، بل

إن إحصاء الأحياء، الإنسان منها والحيوان والنبات، ومحاولة الوصول من ذلك إلى عدد ما تحويه المدينة المائجة من إلكترونات ضرب من العبث
ولو أننا بعد ذلك حاولنا أن يعطينا عالمنا الطبيعي فكرة عن عدد الإلكترونات الموجودة في مياه النيل مدة فيضانه، وهي كمية أكبر بكثير من الموجودة في القاهرة لأجابنا أنه قد يستطيع بعد البحث والتحري أن يدلنا على فكرة ولو تقريبية عن هذا العدد. صحيح أن هناك صعوبة كبرى في تقدير تصرف المياه المتدفقة في النهر في مثل هذه المدة من السنة، كما أن ثمة صعوبة في تقدير أطوال النهر وأحجامه في المناطق المختلفة وفروعه المتعددة، بل إذا أردنا أن ندخل في حسابنا ما تحمله المياه من طمى تعترضنا صعوبات أخرى، ذلك أن الطمى يختلف مقداره في الزمان والمكان ويتركب من أكثر من عشرين عنصراً، لكل عنصر ذرات تختلف في عدد إلكتروناتها عن الأخرى، ولكن مهما يكن من الأمر، فإن عالمنا الطبيعي قد يستطيع بعد مجهود مضن أن يعطي فكرة عن هذا العدد من الجسيمات، وأن يحدده بين رقمين يتعلقان على دراسة هيدرولوجيه طبيعية معقولة.
ولو أردنا أن نعرف عدد الذرات المكونة للكرة الأرضية الحاملة لنهر النيل وغيره لهان الأمر قليلاً، ذلك أوزن الأرض معروف بينما وزن مدينة القاهرة أو لندرة غير معروف، بل إن الكثافة المتوسطة للكرة الأرضية معروفة أيضاً وهي تساوي 5 , 25. ليس المجال هنا لإثبات ذلك. وهكذا يحاول العالم أن يعطينا فكرة تقريبية رغم ما يتخلل الموضوع الأخير من مصاعب، منها عدم معرفتنا مقدار النسب الموزعة بها العناصر المختلفة في باطن الأرض. ومهما يكن من الأمر فإنه يبدو أن الخطأ النسبي في معرفة العدد التقريبي لذرات الأرض بالنسبة للعدد الحقيقي لها أقل بكثير من الخطأ النسبي عندما نحاول عد هذه الجسيمات لمدينة القاهرة.
ولو أننا سألنا العلماء اليوم عن عدد الذرات ونوعها وبالتبع عدد الإلكترونات والبروتونات المكونة للكون، وعن بعض البيانات الأخرى الخاصة به مثل نصف قطرة قبل تمدده ودرجة تقوسه وكتلته وكثافته وغير ذلك لأعطونا الإجابة التي نراها في هذا المقال - إجابة يظهر أنها عند هؤلاء العلماء أقرب للحقيقة من كل تقدير سابق.
وليس السبب في ذلك أننا نرى الكون وحدوده، ولا أننا نعرف أجزاءه جزءاً جزءاً، ولا أننا نحيط بمقدار كل عنصر من العناصر المكونة له، ولكن لأن ثمة معارف في مسائل أخرى مثل تمدده تجعل بين هذه المعارف وبين إلكترونات الكون رابطة تسمح بالوقوف على هذا العدد، بحيث إذا كانت معارفنا في هذه المسائل صحيحة كان عدد الإلكترونات المكونة للكون صحيحاً. ولعل القارئ قد أدرك أن هذه المعارف لا بد وأنها تتصل مباشرة بعلاقة بين الكون في مجموعه وبين الإلكترون المتناهي في الصغر والذي قلنا إنه يدور في المادة حول النواة كما يدور القمر حول الأرض
قد يتراءى للقارئ أن هذا الترتيب غريب لا يتفق مع المنطق في شيء. كيف أستطيع أن أعرف عدد إلكترونات الكون أكثر مما أعرف عدد إلكترونات الكرة الأرضية؟، بل كيف أعرف عدد جسيمات هذه أكثر مما أعرف جسيمات مدينة القاهرة؟ هذه المدينة التي أعرف حدودها أكثر مما أعرف الأرض، وهذه الكرة الأرضية محدودة أمامنا أكثر من الكون. إن طيارا مثل كامبل الإنجليزي قطع دون توقف المسافة بين لندرة ومدينة سدني من أعمال استراليا في ثلاثة أيام وثلاث ساعات، أي أن الطيار يدور في عهدنا حول الأرض في أسبوع واحد. كيف تصعب معرفة عدد جسيمات الأرض عن الكون؟ وهذا الأخير مكون
من ملايين الملايين العوالم - كل عالم مكون من ملايين الملايين الأجرام والشموس.
ولكن لا أريد أن يعجب القارئ لذلك فإنه على قدر المستندات العلمية التي أمامنا تكون درجة معرفتنا للأشياء صحيحة.
هب جدلاً أن صديقاً لك شيد مسكناً خاصاً في إحدى ضواحي القاهرة، وأنك عثرت في أوراق صديقك على مستندين: أحدهما يدلك على أن الأرض والمباني قد كلفته ثلاثة آلاف جنيه، والثاني يدل على أن الأثاث قد كلفه ألف جنيه أخرى، عندئذ تستطيع أن تؤكد أن هذه الدار كلفت صاحبها 4000 جنيه
وهب أن صديقاً آخر سألك عن تكاليف حجرة المكتب بمفردها أو عن القيمة التي دفعها ثمناً لأشجار الحديقة أو لسجادة موجودة في غرفة الاستقبال، فإنه يتعذر عليك

عندئذ أن تعرف أيا من هذه. قد تحاول أن ترجع إلى أسعار السوق لتعرف كم كلفته هذه السجادة الفاخرة، ولكن يعوزك مثلاً معرفة التاريخ الذي اشتراها فيه، وقد يعوزك إن عرفته تعيين الظروف التي اقتناها فيها، فقد يكون ابتاعها في مزاد تصادف وقوعه في ذلك التاريخ، وقد يكون المزاد خاصا بصديق له فلا تعرف أن كان تساهل معه في تقدير الثمن: ثمة عوامل عديدة تجعل تقدير ثمن أثاث كل حجرة ضرباً من المحال.

ولكن ليس لصديقك أن يدهش إذا علم أنه إن فاتك معرفة ثمن جزئيات الدار، فلا يفوتك معرفة الثمن الكلي لهذه الدار؛ إذ أن من حقك دائماً إن تقول لمحدثك: لا تسائلني عن أجزاء الدار ولا عما تكلف صاحبها لشراء هذه السجادة أو المكتبة، كل هذا لا أستطيع أن أعطيك فكرة عنه، ولكن سلني عن الدار بأكملها أجبك أنني أعرف

هذا ما أود أن يعلق بذهن القارئ، فلسنا في حاجة لأن نتجول في الكون لنعرفه فقد يكون لدى العلماء مستندات جديدة تدل على عدد ما به من إلكترونات أو على طول نصف قطره قبل ابتداء تمده أو درجة تقوس الحيز فيه في الوقت الذي يتعذر علينا أن نعرف فيه عدد الإلكترونات المكونة الأرض أو لمياه النيل أو لمدينة القاهرة

على أنني إن تحاشيت فيما تقدم من مقالاتي أن أشغل ذهن القارئ بالأرقام، أرى لزاماً علي هذه المرة أن أدله على وصف الدار التي يسكنها وعلى حدود المملكة التي هو فرد فيها هذا الكون الذي ذكرنا أنه كروي وأنه يكبر بات أرضاً خصبة للتفكير العلمي. وللقارئ فيما يلي

النتائج الكمية الخاصة بالكون وفق آراء أدنجتون العالم الإنجليزي المعروف

سرعة ابتعاد العوالم (1)

كيلومتر في الثانية لكل 528

مليون سنة ضوئية 26 .3

نصف قطر الكون قبل (2)

ابتداء التمدد

مليون سنة ضوئية 1068

كتلة الكون (3)

جرام أي 55 10 14 .2

قدر كتلة الشمس 22 10 08 .1

عدد الإلكترونات المكونة للكون تساوي عدد البروتونات (4)

79 10 29 .1

كثافة الكون الأولى (5)

جرام س م3 أي بمعدل ذرة واحدة من الهيدروجين لكل 1. 58 س م 27 - 10 05 .1 3

الثبت الكوني (6)

س م - 2 55 - 10 8 .9

ومما يجدر بالذكر أن هذه النتائج التي هي آخر حدود معارفنا حتى سنة1934 مرتبطة الواحدة منها بالأخرى، بحيث إذا عرفنا إحداها عرفنا البقية منها، وتتعلق كلها بالسرعة التي تبتعد بها العوالم أي بالرقم 528 الموجود بالصف الأول من الجدول

على أن درجة معرفتنا لسرعة السدم والعوالم البعيدة وعلاقة ذلك بتمدد الكون تزيد سنة عن أخرى، ففي سنة 1931 لم يكن يعرف العلماء سوى 90 سديماً وكانت أكبر سرعة يعرفونها هي سرعة سديم الأسد وهي 19600 كيلومتر في الثانية، ويبعد عنا هذا السديم بمسافة يقطعها الضوء في 104 مليون سنة

أما في سنة 1936 فقد وصلت معارفنا إلى قياس سرعة 179 عالماً وسديماً من العوالم البعيدة عنا وكان أكبر هذه السرعات لسديم موجود في اتجاه الدب الأكبر وهو يبتعد عنا

بمسافة 241 مليون سنة ضوئية ويبتعد بسرعة 42 ألف كيلومتر في الثانية، وهذه المعلومات الأخيرة عرفناها من كتاب الأستاذ الكبير بريا أستاذ السوربون الذي يشغل الآن كرسي الطبيعة الفلكية، هذا الكرسي الذي أوجدته جامعة باريز منذ سنة 1937

وقد طالعنا في الأسبوع الماضي أن منظار مرصد مونت ولسون بأمريكا الذي يبلغ قطره مترين ونصف المتر والذي ترى صورته الفوتوغرافية هنا يكشف العوالم

المفصولة عنا بمسافة 500 مليون سنة ضوئية
ذلك ما بلغناه من المعرفة، وللقارئ أن يتصور مبلغ خطورة هذه المعرفة منذ أن ذكر وليم هرشل في أواخر القرن الثامن عشر أن للسدم اللولبية جزرا كونية شبيها كل منها بعالمنا المجرة. ومنذ أن نشر أينشتاين في سنة 1915 النسبية في وضعها العام وتنبأ (دي ستير) في سنة 1917 بابتعاد العوالم عنا، ووضع شابلي في سنة 1918 القانون الذي يربط القدر المطلق للنجوم المتغيرة بفترة تغيرها، ومنذ أن اكتشف هبل في سنة 1924 نجوماً في السدم القريبة من هذا النوع الأخير، ناهيك بما بلغته الأجهزة الفلكية من الكمال
عجيب هذا الإنسان! كل يوم يزداد معرفة عن يوم، حتى أصبح الكثير من الأمور لا يخفى على ذكائه.
أنستطيع أن نحصي إلكترونات الكون؟ نعم. وأي عجب في ذلك ما دمنا نتبع طريقاً علمياً سليماً يعطينا هذا القدر.
عندما نريد أن نعرف وزن كرة صغيرة من مادة معينة نفكر عادة أن نضع هذه الكرة على كفة ميزان، ولكن إذا استحال وزنها لتناهي صغرها بدا للشخص أن القيام بهذه العملية مستحيلاً، ولكن العالم الطبيعي يعرف مثلاً علاقة بين وزن الكرة، وبين سرعتها في الماء أو الهواء، وحيث أنه يتيسر له قياس هذه السرعة فإنه يصل لمعرفة وزن هذه الكرة، وهو لذلك غير محتاج إلى الاستعانة بالميزان للوقوف على حقيقة ثقلها.
وإنما أردت بالكرة المتقدمة أن أقدم للقارئ مثلاً كيف يصل العلم بطريق غير مباشر لاختراق طريق المعرفة، وليس هناك أي علاقة بين سرعة الكرة المتقدمة وموضوع تمدد الكون أو معرفة وزنه.
ولو أن السحب المحيطة بالكرة الأرضية كثيفة بحيث لا نرى الشمس بل تكتنفنا ظلمة حالكة، لما استحال علينا أن نعرف دورة الأرض حول نفسها. فللوصول إلى ذلك نرقب كرة معلقة بخيط طويل بعد هزها فنلاحظ أنها لا تهتز فقط بل نلاحظ دوران المستوى الذي تهتز فيه.
وهكذا لم يكن العالم الكبير (فوكوه) بحاجة ليرى الليل والنهار ليعرف من تعاقبهما دورة الأرض، بل استدل على ذلك من بندوله المعروف الذي علقه من قبة (البانتيون). مدفن العظماء في باريس، هذه القبة التي ترتفع عن سطح الأرض 78 متراً. ذلك البندول نرى شبيهاً له في متحف فينا الحالي.
وهكذا يزداد قاموس المعرفة وتتقدم العلوم بين البشر، ولعل في وزن الكرة الصغيرة المتقدم ذكرها وفي بندول فوكوه الذي عرف منه دوران الأرض سبباً عند القارئ ليعرف أن قطر الكون ووزنه وعدد إلكتروناته مسائل يجيز معرفتها العلم

محمد محمود غالي
دكتوراه الدولة في العلوم الطبيعية من السوربون
ليسانس العلوم التعليمية. ليسانس العلوم الحرة. دبلوم المهندسخانة

القصص

أقصوصة من الكاتب الإنكليزي ينز الشاعر
(جائزة نوبل)
للأستاذ صلاح الدين المنجد

مشى يتخلع ثملاً في حنايا المدينة، وقد أغفى الليل وسجا الكون، فطرق سمعة نغم حلو يصعده ناي حزين. فسعى إليه، جذلان طرباً. فقد كان للأنغام أثر في نفسه، وسلطان على حسه، وسيطرة على هواه. . .
فلما جاز بالدار التي ترسل النغمات. . . نادى صاحبها، فقام إليه يندى وجهه فرحاً، فرحب به وقال له:
- ما هذا الهجران الطويل يا هانرهان. . . فلقد صرمت حبالنا منذ بعيد، فنحن بعدك في شوق يلح، وكآبة تضني. . . أهلاً. . . حللت يا هانرهان. . .!
فلكزته زوجه بجمع كفها، وهمست في أذنه: أن اطرده، فإن الناس يتقولون الأقاويل عليه، وإن الكهنة يقصونه عن المعبد كلما أتى إليه. . . ثم إن ثمل. . . دعه. . . دعه

يمض وحيداً
فصاح بها زوجها قائلاً: (أأطرده أن جاء إلي بعد سنين طويلة. . .؟ إنه شاعر رقيق القلب، طيب النفس
ودخل الشاعر الدار يتبع ربها. . . فقاده إلى غرفة تكدس الناس فيها من الجيران. . . فغشيها وقد شخصت الأبصار إليه. وقال فتى كان هناك:
- أليس هذا هانرهان الذي ذاع صيته. . . وكان معلماً فطردوه. . .؟
فأخرسته أمه وقالت له:
- أنصت. . . لو أنه سمع مقالتك لا ندرأ عليك سباً وشتماً!
وساد السكون. . . ولكن أحد الفتيان نادى الشاعر لينشد القوم شعراً. فأبى رب الدار ذلك عليه. . . لأنه لم يصب بعد من الراح شيئاً، ولم ينل من الراحة قسطاً. فأخذ الشاعر يعب
الخمر وقد جاشت في كأسها. . . ثم يحول بصره نحو الباب لينظر إلى (وانا) فتاة الدار، وقد أتت تعانق حزمة من الحطب الجزل، لتؤرث بها النار، وشعرها الأشقر الجعد متهدل على وجهها وعينيها
وقام إليها الفتيان مسرعين ليأخذوا منها الأعواد. ولكنها رمت بها إلى الموقد. . . وانثنت وثغرها المرفاف يضحك لترقص مع فتى لها، فغضب الشاعر. . . وضرب الأرض، ثم دفع بالفتى وهو يزبد صائحاً:
- ولقد قطعت طريقاً طويلة، وأتيت لأراها. . . فأنا الليلة فتاها. . .
وأسرعت (وانا) إلى الشاعر فمدت إليه يديها والخجل يعلو خديها. . . وعزفت الموسيقى، وقام الناس ليرقصوا. . . ولكن وا أسفاه. . . لقد انحنى الشاعر فرأى حذاءه الذي حال لونه وبلى فبدت من خلاله أصابع رجليه التي نفذ إليها الطين، وأبصر سرواله الممزق، وساقه العارية المملوءة بالشعر الأسود الغليظ. . . فارتد إلى مكانه وهو يقول:
- لا أستطيع الرقص والموسيقى تسرع
ولها الناس، وجنت الموسيقى، وعربدت الأنغام. . . والشاعر جالس مع (وانا) يقص عليها أحلى الأقاصيص
وأدركت الأم خطر الشاعر الذي يريد أن يسحر الفتاة. . . فنادتها ولكنها أعرضت عنها. . . فأقبلت الأم على الموقد تتظاهر بتأريث النار، وتصغي إلى حديث هانرهان. لقد سمعته يحدثها عن (ديردر) ذات الأيادي البيض. . . التي قادت الأمراء إلى الموت فماتوا وجداً بها وهياماً. وأحزنها فقدهم. . . فطفقت تبكي. . . آه يا (وانا). . . إن الأزهار تذرف الدمع في السحر حزينات رحمة بها، وإن الشعراء يتغزلون ويبكون لها. . . ما كان أجملها وأعذب صوتها يا (وانا)!
واضطربت الأم، وأرهفت أذنها. إنه يقول لها: (مثل الشمس والقمر يا (وانا) كمثل المرأة والرجل، خلقا ليتحابا. . . ألا تنظرين إليهما يتنقلان في السماء؟ لقد خلقت يا (وانا) معي قبل أن يخلق الله الناس لكي نرقص بين طيات السحاب الرقيق. . . نرتفع مع النغم الهادئ، ونهبط مع النشيد الجميل بخفة وسرور، على حين يسقط الناس صرعى لاغبين!)
وانتصبت المرأة مضطربة الشعور، ومشت إلى زوجها وهو يلعب الورق، فحدثته حديث الشاعر والفتاة. . ولكنه ازور عنها يضحك منها. فأحزنها الأمر، وقامت إلى عجوز فقصت عليها نبأ (وانا) مع الشاعر المخيف: (ويلي كيف السبيل إلى طرده. . . إنه ساحر ملعون. . . فلأحرضن الفتيان عليه!)
وجاءت إلى الفتيان وقالت لهم: (ويحطم. . . ألا تستطيعون نزع ابنتي من هذا الشاعر فترقصوا معها. . . هيا. . . هيا!)
وقام الفتيان. . ولكنها ردتهم خائبين. . فمالوا إلى الشاعر يلحون عليه في الرقص. . . فأذعن بعد لأي. . وانتصب يرقص مع الفتاة
وبينا هو كذلك. . . إذ طرب. . . فاندفع لينشد الشعر. . . فخرست القيثارة. . . وأنصت القوم وقال هانرهان:
(يا أصابع الموت المخيفة. . .!)
(لن تمسِّي روحينا في هذا المكان. . .!)

(!. . .ولكن في ذلك الوطن الغالي الحبيب)
(!. . .حيث تبسم الزهور وترفّ الثغور)
(.من راد الضحى. . . حتى جنوح الأصيل)
(!. . .حيث تدب الجداول. . . الجذلى)
(. . .تحمل موجات الجعة العذبة الشقراء)
(. . .وحيث يلعب الشيخ الهمّ على الأوتار)
(!. . .في الغابة المليئة بالذهب والفضة)
(وحيث الأميرات ذوات العيون الزرق الصافية)
(!. . .يرقصن على الحشيش الغض بفرح وكبرياء)
كان يغني بحماسة وشوق و (وانا) تتقرب منه، وقد حرك إنشاده شجونها وملك عليها أمرها. . . فلما فرغ من إنشاده. . . أطرقت (وانا) وسقط الدمع من عينيها ندي. فقال أحد الفتيان:
- أيها الشاعر. . . . أين هذه البلاد التي تصفها في شعرك؟ (وانا) إنه يخدعك. . . إن الطريق طويلة. . . والوطن بعيد!
وقال فتى آخر:
- ليست بلاد الصِّبا هذه يا (وانا) إنك لم تخلقي لتصاحبي هذا المجنون!
عندئذ شخصت (وانا) ببصرها إلى الشاعر الحزين. . . كأنها تريد أن تسأله شيئاً. . . ولكنها وضعت كفها بين كفيه ورفعتهما إلى أعلى. . . وقالت بصوت رخيم:
- إن الوطن لقريب منا. . . يا شاعري. . . إننا نستطيع إدراكه الآن. . . إنه هناك. . على ذرى الهضاب ذات الرفيف. . بالقرب من الغاب التي تأويها الريح ذات الزفيف. . .
فصاح الشاعر:
- نعم في ذرى الهضاب. . . يا فتاتي. . . يا ذات العيون الزرق. . . ولكن الموت لن يجدنا. . . هناك. . . لأننا نختفي بين السحاب الأبيض الجميل .!
وأنا. .! يا ذات العيون الزرق. . . هل تريدين المجيء معي. .؟
وذعرت الأم وقالت لعجوز كانت إلى جانبها:
- كيف السبيل يا جارتي إلى طرده؟
- ولكننا لا نستطيع. . . إنه شاعر الآلهة، ومن يطرده تنصب عليه اللعنات تتري في الغدوات والعشيات! ثم يجف الضرع ويموت الزرع، وتهلك النفوس .!
- ربّاه عونك! إن في لسانه السحر. .
- كان عليك طرده. . ولكن. . اسمعي. . تعالي. . سنخرجه وهو راض عنا، تعالي. .
وخرجت العجوزان ثم عادتا تحملان حزماً من الفصفصة الخضراء، وكان الشاعر يكلم (وانا) ويقول:
- إن الديار يا وانا ضيقة والعالم فسيح، ولن تجدي يا فتاتي مخلوقاً تيمه الحب، يخاف (الليل أو الفجر، والشمس أو النجوم، وأشباح الأماسي وأطياف الأسحار، هيا يا فتاتي.)
واقتربت الأم من الشاعر فربتت على كتفه وقالت له:
- هات يدك يا هانرهان. .
وقالت العجوز:
- أنت قوي يا هانرهان. . . ساعدنا على ربط هذه الحزم الخضر. . .
وتقدم الشاعر يربط الحزم بحبل والعجوزان تفكان العقد التي يعقدها ويجران الحبل نحو الباب، والشاعر منهمك في الربط. . والفتاة تنتظر. . حتى إذا كان عند الباب دفعت الأم به، فهوى إلى الشارع لا يعي. .
واستفاق الشاعر يبكي. . . فضرب الباب. . . وصعد الزفرات وأرسل اللعنات. . . ولكن لم يجبه أحد. . .
وساد السكون. . . وتلاشت الأنغام. فقد مضى الشاعر في طريقه يذرف الدمع. . . وا رحمتا له!. . . لا رفيق ولا حبيب، لا كأساً يجيش فيها الخمر، ولا فتاة ترهف لأناشيده وأنغامه الأذن
وقالت له نفسه: هيا إلى البحر، فلن يسعك شيء سواه!
وجلس فوق الصخور الشم يستمع إلى تصفيق الموج، ويصغي إلى همس الريح

السجواء. . فطرب واندفع يغني، وكان الضباب الهف يغمر الفضاء ويحف بالشطئان، وكانت أشباح الليل ترقص حوله. . هنا وهناك تصعد من البحر وتهبط من السماء!
. . .لقد خيل إليه فجاءة أن طيف الأميرة التي حدث (وانا) عنها يناجيه
ولكن. . . آه! إنه يتذكر الحبل والعقد. . . أهو حبل؟ لا. . . تلك أفعى خرجت الآن من البحر. . . هاهي ذي تحيط به يا لله! لشد ما تخيف. لقد وسعت كل شيء: الأرض، السماء حتى النجوم الخافقات. . .!
ولكن. . لا. . هاهو ذا طليق، فمشى يتماوح ويعربد ويغني
لقد اختطفته الأمواج، وحفت به الأطياف، وحملته الأشباح على الزبد الجياش، وهي تغني. . وتقول:
هيا لنحمله إلى بنات الهضاب. . . إلى الحسان الراقصات هناك. . . فهو لن يذوق) الحب في الأرض. . . لقد دب الفناء في نفسه. . وجثم الظلام فوق قلبه، دعوه ينم. . دعوه يحلم ببنات الهضاب. . . دعوه يمت)
صلاح الدين المنجد
البريد الأدبي
الفرقة الإيطالية للغناء في دار الأوبرا الملكية
الثقافة غير محصورة في القراءة والكتابة. الثقافة تجمع بين الفن والغناء والأدب والعلم والمسرح؛ على وجه التخصيص. فقد ولى الزمان الذي فيه كان يقال: تأدب فلان إذا قرأ كذا وكذا. ومعنى ذلك أن متأدب هذا الوقت يحق عليه أن يرهف الحس لألوان الفن؛ ويميل الأذن لضروب الغناء والعزف، ويقلب النظر فيما يجري على خشب المسرح، إلى جانب المطالعة والتلقي
والكلام هنا على الغناء والعزف. فمن يخبرني على أي وجه تقوم الموسيقى السائرة في مصر مقام مصدر من مصادر الثقافة؟ أما الغناء الدوار على ألسنة أهل الصناعة فمرذول، لما فيه من الإسفاف والابتذال وضيق المجرى، فضلاً عن مسخ طائفة من الأغاني الإفرنجية. وأما العزف فقد جمد وجف بفضل جماعة قصروا هممهم على التقليد، وفي ظنهم أنهم حضنة الموسيقى؛ عفا الله عن المعهد الملكي للموسيقى العربية، وأصلح من يمده بمال الأمة!
الموسيقى عندنا غير صالحة، وليس في وسعها أن تساير النحت والتصوير والرسم - وقد جل شأنها جميعاً على أيدي الفنانين المصريين - في تهذيب الجانب الفني من طبائعنا، ولا في إسعاف من يهوى الموسيقى الجيدة ببغيته. ولذلك لا بد لمن ينشط لما وراء (البشرف والسماعي والموال والطقطوقة) أن ينصرف إلى سماع الموسيقى الغربية. وهذه وزارة المعارف تجلب في فصل الشتاء من كل سنة فرقة إفرنجية تعمل في دار الأوبرا الملكية.
ومما يورث الأسف بل الحزن أن الفرقة التي هبطت دار الأوبرا لهذه السنة (وهي إيطالية) لم تصنع شيئاً في سبيل الثقافة. وذلك لأن الموسيقى الغربية فيها الحسن والقبيح، والرفيع والساقط، والطريف والمبتذل. فكأن من وكل إليه لم أفراد هذه الفرقة (وهو إيطالي) قال في نفسه: (ليس في مصر من يحسن السماع، وليس فيها من يميز اللحن الجيد من اللحن الرديء). قال هذا أو نحوه ثم جاء بفرقة لا تتجاوب أطرافها، إذ فيها نفر من المغنين الحذاق، وكثير من المغنين الضعفاء. وأحسن ما فيها القائد الأول للعزف واسمه فتو.
وأما القطع التي أدتها تلك الفرقة فبينها وبين الفن الخالص مسافة. ذلك أن طائفة منها بالية
والأخرى مبتذلة؛ وهذه القطع تكاد تؤدي كل سنة في مصر، وأساميها لاكتها الألسنة: مثلاً , , , , , هذه القطع تلحق اليوم، في أوربة، بنوع الأوبرة الشعبية، لأن الألحان فيها لا تعدو، في غالب الأمر، النغم القريب المنال. ودليل هذا أن أكثر القطع التي أديت من تلحين فردي وهذا الملحن الإيطالي (1813 - 1901) عمد، إلا في قطعته الأخيرة: إلى اللحن الوجداني تساوقه الآلات في استرخاء. وهذا اللون من التلحين عقبه ما يقال له: الموسيقى الفيرية: وخصائص هذه الموسيقى المأساة المفرطة، والخطابة في الغناء. وهز الأعصاب، والمبالغة في التعبير. ومن أصحاب هذا اللون من الموسيقى ملحن والمذكورتين قبل. هذا وفيما أدته تلك الفرقة قطعة للملحن الفرنسي واسمها وليس

ذلك الملحن في المرتبة الأولى ولا الثانية - عند أهل الدارية - لما في صناعته من التكاليف وقرب الإحساس والرخاوة.

فإذا أنت استثنيت هذه القطعة الأخيرة (وقطعة فجنر الآتي ذكرها) تبين لك أن تلك الفرقة عنيت بتأدية قطع إيطالية. ومما لا يخفي على البصير بالموسيقى أن فن الأوبرة إنما بلغ الغاية أو قاربها على يد فجنر الذي حطم القيود اللاتينية، ثم على أيدي فئة من الفرنسيين مثلاً) والروس مثلاً). والفرق الذي بين الأوبرة الإيطالية والأوبرة الفجنرية، على سبيل التمثيل، كالذي بين ديوان ينظمه شاعر رقيق كما يقال اليوم، وشاعر فحل كما كانت العرب تقول.

ومن الغريب أن الفرقة أغفلت أن الفرقة أغفلت الأوبرة الحديثة من ألمانية وفرنسية وروسية وغير ذلك. وقد بدا لها أن تعلن أنها تؤدي قطعتين لفجنر هما: الأولى، وأما الثانية فقد أدتها على شكل كان الإهمال عنده أفضل

بقى أن الفرقة أعلنت أنها تؤدي قطعة طريفة لملحن إيطالي مجهول: فما بلغني هذا حتى أسرعت إلى دار الأوبرة، مهتزاً. فإذا القطعة شر ما مزق أذني من التلحين (الرومنتيكي) المفرط في (الميلودرام)

أن ظن بعضهم أن لا رغبة في الموسيقى الحقة بمصر، وأن الحظ الأعلى فيها لألوان الأوبرة البالية والمبتذلة، فليقصروا ظنهم على أنفسهم أو على الفئة الكبرى من الإفرنج المقيمين بهذا القطر. فإنما في المصريين من يرغب في الموسيقى الجيدة، الطريفة،

الموسيقى التي تقوم مقام مصدر من مصادر الثقافة

عفا الله عن وزارة المعارف، فهذه خمسة آلاف جنيه أنفقت لإعانة فرقة لم تصنع لمصر شيئاً.

بشر فارس

كشف أثري عظيم

وفق المسيو مونتيه رئيس بعثة الحفريات الفرنسية للعثور على مقبرة ملوكية لقدماء المصريين بالقرب من صان الحجر

والمقبرة لملك اسمه شوشنك، والمعروف أن خمسة ملوك بهذا الاسم قد حكموا مصر ما بين عامي 850 و750 قبل الميلاد، وأولهم هو الملك شوشنك الذي استولى على القدس وغنم هيكل سليمان بن داود (ع)، ولا شك أن هذه المقبرة لواحد من هؤلاء الملوك الخمسة سيصل إلى حقيقته البحث العلمي فيما بعد

وقد عثر المسيو مونتيه في الحجرات التي تم فتحها على تابوت من الفضة يمثل شكل آدمي له رأس الصقر، وبداخل هذا التابوت مومياء محنطة سليمة مغطاة برداء من الذهب. وقد تبين من قراءة النقوش أن المومياء للملك شوشنك نفسه، وبجوار التابوت جثتان باليتان، وعلى الجثة الموجودة إلى اليسار عقد من الحجر الأحمر مصنوع على شكل سلسلة من الذهب، وفي الحجرة جملة من التماثيل الجنائزية الصغيرة التي يعثر عليها عادة في مقابر الموتى من قدماء المصريين، وفها أيضاً جملة من الأواني الجنائزية المقفلة بالطين، وقد فتح مسيو مونتيه ثلاثاً منها - بحضرة صاحب الجلالة الملك - فوجد بداخلها ثلاثة تماثيل من الفضة للملك شوشنك، وهي عبارة عن أوان على هيئة تماثيل، وفي داخل كل منها بعض أحشاء الميت وفي جانب من الغرفة آنية كبيرة من الفخار مسدودة بالطين، يبلغ ارتفاعها 130 سم، وقطرها30 سم ولم تعرف محتوياتها بعد

وتحيط بهذه الغرفة عدة غرف لم يفتحها مسيو مونتيه، ولكنه احدث في إحداها ثغرة تيمناً بزيارة صاحب الجلالة الملك، فظهر من خلالها غرفة متوسطة الحجم بها (ناووس) كبير من حجر الجرانيت الأحمر يعلوه غطاء من حجر البازلت الأسود، وقد دلت القرائن على

أن صاحب هذا الناووس من الشخصيات الملكية، وأن اللصوص لم تصل أيديهم إلى مقبرته

ولهذا الكشف قيمة كبيرة من الناحية التاريخية، لأن مقابر ملوك الأسرات: 21، 22، 23 لم يسبق اكتشافها من قبل ذلك، وإنما عثر على بعض تماثيل لهم في مدينة طيبة، ولا شك أن هذا الكشف سيجلو تاريخ هذه الأسرات الثلاث، وقد كانت فترة غامضة في

تاريخ قدماء المصريين
وقد قرر الدكتور دريوتون مدير مصلحة الآثار نقل محتويات غرفة الملك (بسوسنس الثاني) التي تحتوي على تابوت الملك شوشنك إلى دار المتحف المصري لتعرض على الجمهور
كشف أثري آخر
علمنا أن بعثة كلية الآداب التي تشتغل في الحفر بمنطقة (تونة الجبل) تحت رياسة الأستاذ سامي جبره عثرت في هذا الأسبوع على أشياء هامة من الوجهة التاريخية وكانت البعثة قد عثرت على غرف المحفوظات الخاصة بكهنة هرمو بوليس في جنوبي المنطقة وعثرت فيها على ملف كبير من البردي يتضمن نصوص القانون المدني المصري
وقد وجدت البعثة أخيراً ملفاً آخر يبلغ طوله مترين ونصف متر موضوعاً في قادوس مقفل ومختوم بالطين. وقد فض هذا القادوس فوجدوا فيه ملف البردي الذي دلت القراءة الأولى لما ورد فيه من النصوص على أنه يتضمن نص أسطورة طويلة من الأساطير الشعبية
وقد أرسل الملف إلى معهد الآثار ليتولى الأخصائيون قراءته وترجمته.
وعثرت البعثة أيضاً على تمثال صغير للآله (مين) إله التناسل عند قدماء المصريين يبلغ طوله نحو 60 سنتميتراً، وقد صنع من الخشب، وغطى بطبقة من الصفائح الذهبية اللامعة
ويعد وجود هذا التمثال غريباً في تلك المنطقة لأنه لم يكن بين معبوداتها الرسمية التي هي طائر الإيبيس والقرد. ويمثل كل منهما إله الحكمة (تحوث) معبود تلك المنطقة وقد سماه الإغريق (هرمز) وسموا المدينة على اسمه (هرمو بوليس)
والبعثة مستمرة في الكشف عن السراديب الأرضية الطويلة الممتدة تحت الأرض إلى مسافات بعيدة وتحتوي على مئات الآلاف من جثث الطيور والقرود المحنطة.
فلم التشريفات الملكية
عنيت شركة مصر للتمثيل والسينما بتصوير غدوات صاحب الجلالة الملك وروحاته مع ضيفه الكريم صاحب السمو الإمبراطوري محمد رضا بهلوي ولي عهد إيران، وجاء التقاط المشاهد المختلفة على أجمل شكل سواء في النهار أو في الليل، وكان اختيار المشاهد حسناً، ويساوق المشاهد عزف رقيق يناسب مقتضى الحال. إلا أن صوت المتكلم كان رفيعاً من غير داع إلى ذلك
إلى الأستاذ توفيق الحكيم
هل لك أن تنضو مسوح ذلك الجاه فتشرف من برجك المنيف على مستوضح منك الرأي فيما كتبت بالرسالة عن (كتابين قيمين، قد ورد فيهما طعن على الإسلام) قلت إنك بحثت المسألة من جهة الدين فبدا لك العجب لأن الكتب التي تعرضت للمسيح بالطعن والتجريح تطبع وتنشر في أوربا ولا يفزعون. وهنا أسألك متحدياً: أي برنامج من برامج التعليم في أوربا قررت فيه تلك الكتب في قاعات الدرس والامتحان وفرضت فرضاً على الطالب أن تكون من أسس ثقافته الرسمية التي تحث عنده عقداً نفسية تتولى تنميتها تأثيرات الأستاذية القوية. لا مانع من البحث والتحليل والتمحيص وإلا لما تكونت سبيكة الذهب من العروق الملقاة في التراب، ولكن للبحث أزمنة وأمكنة قد مضت منذ أزمان. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن هذا طعن صريح، باعترافك أنت، لا شبه علمية تستحق جلال الدرس وعظمة العلم، وفوق ذلك كله أنها موجهة لشخصية الرسول أكثر منها لدينه، فكيف يستسيغها شعور الجماهير من المسلمين. ألا ترى أن إنجلترا حرمت دراسة نظرية دارون (النشوء والارتقاء) في مدارسها احتراماً لشعور الجماهير، بيد أنها لم تحرم دراستها خارج دور التعليم؟ وأما قولك (إني أعتقد دائماً أن صحة العقل وصحة العقيدة كصحة الجسم لابد لها من الهواء الطلق حتى تكتسب المناعة) فذلك حق لا مريه فيه، كما أن حصوله وثبوته الآن واقع بين المسلمين لا مريه فيه. ألا تعلم أن في الأزهر والمعاهد الدينية تدرس شبه الجبرية والمعتزلة والرافضية والمجسمة والشيعة وسواهم ويرد عليها في جو علمي محترم لأنها شبه لا طعن تدسه العصبية الممقوتة. ألا تدري أن المذهب الأبيقوري مذهب اللذة

والإباحية يدرس في الأزهر ويرد عليه في جلال من العلم وحرية من الفكر، ومثله مذاهب الشيوعية والشعوبية، وسواهم. فليس إذا (حبس العقيدة والعقل في قفص من الزجاج خوفاً عليهما من خطرات النسيم) كائناً بين المسلمين. وما على الشاك إلا أن يغشى بيئات الدراسات الإسلامية فيعود منها متغير الرأي هادئ البال وإن في هذا لبلاغاً

(كلية للغة)

احمد عبد الرحمن عيسى

فتش عن المرأة

فتشنا عن أول من قال: (فتش عن المرأة) في العربية وعن قوله فوجدنا هذين البيتين في كتاب (الكشكول) لبهاء الدين العاملي غير معزوين، وهما في معنى القول الفرنجي

إذا رأيتَ أموراً ... منها الفؤاد تفتتْ
فتشْ عليها تجدها ... من النساء تأتتْ

* * *

جمعية أنصار التمثيل والسينما

انتهى الأساتذة سليمان نجيب، وعلي شوقي، وعبد الوارث عسر من تأليف رواية الحجاج بن يوسف، وقد رأت الجمعية رأياً جديداً يتعلق بتمثيل الشخصيات في العصور العربية، ولهذا سنبدأ في دراسة هذه الرواية بمحاضرة يلقيها الأستاذ على شوقي عن (عصر الحجاج بن يوسف) ثم يعقب عليها الزميل عبد الوارث عسر بكلمة تعد تمهيداً لدراسة الشخصيات العربية في ذلك العصر ووضعها على الأشخاص الذين سيقومون بتمثيلها من أعضاء الجمعية. ورغبة من الجمعية في فائدة الجمهور من هذا الموضوع الطريف، رأت أن تكون هذه المحاضرة عامة يحضرها من يشاء

وتبدأ المحاضرة بدار الجمعية 8 شارع البورصة الجديدة بحضور جميع الأعضاء في تمام الساعة السابعة من مساء الخميس 30 مارس 1939

رسالة شكر وتقدير

تلقينا من الأستاذ شاهين إبراهيم شاهين كلمة مسهبة ينوه فيها بالمقدرة البارعة التي يعالج بها شيخ الصحافيين الأستاذ خليل ثابت بك الموضوعات الاجتماعية في المقطم وبخاصة موضوع (أي السياسات الإيجابية تختار مصر) ونحن نشاطر الكاتب الفاضل إعجابه بالأستاذ خليل بك وثناءه عليه، ونكتفي لفوات المناسبة بهذه الإشارة الموجزة لهذه الرسالة الطيبة.

حياة الرافعي في العراق

قرأنا في جريدة (البلاد) العراقية ما يأتي:

اقتراح على وزارة المعارف - حول كتاب حياة الرافعي

سيظهر قريباً كتاب (حياة الرافعي) للأديب الكبير الأستاذ محمد سعيد العريان، وهو كتاب أدبي فذ يبحث عن جميع الخصومات التي حدثت بين الرافعي وأدباء عصره، فحبذا لو أن وزارة المعارف تشتري منه كميات كبيرة لتوزعها على طلابها، وعلى مكتباتها؛ وبذلك تسدي أكبر خدمة أدبية نحو فقيد البيان المرحوم مصطفي صادق الرافعي

(بغداد)

مقترح

(الرسالة): ظهر كتاب حياة الرافعي منذ قريب.

الكتب

من وحي السيرة

1 - بطل الأبطال: للأستاذ عبد الرحمن بك عزام

2 - صور إسلامية: للأديب عبد الحميد المشهدي

- 1 -

لاشك أن الإنسانية لم تعرف في تاريخها من عظمة النفس، وسمو الروح، ونبل الغرض، وقوة العزيمة، وصفاء النفس، وحسن السيرة، مثل ما عرفت في شخصية محمد صلوات الله عليه، ذلك النبي الكريم، والرسول العظيم، والمثل الأعلى للبطولة

والجهاد في سبيل العقيدة والإخلاص لله!
هذه العظمة الإنسانية التي تمثلت في شخصية محمد صلى الله علية وسلم وفي سيرته، كانت وما تزال وستظل على مدى الدهر روعة تملأ القلوب وتهز مشاعر الناس في جميع العصور والأجيال سواء آمنوا أم كفروا، وتفتح لأهل الفكر والأدب والتاريخ آفاقاً مشرقة يقبسون من نورها، ويهتدون بهديها، ويجدون في كل جانب من جوانبها مادة مواتية، وثروة باقية للفكر والأدب والتاريخ. . .
والذين كتبوا في سيرة النبي وشخصيته كثيرون حتى ليخطئهم العد، وما أحسب سيرة ولا شخصية قد أخذت من عناية الكتاب والأدباء والمؤرخين في الشرق والغرب مثل ما أخذت تلك السيرة الحميدة، وهذه الشخصية العظيمة. وعلى الرغم من ذلك فما زال القول فيها جديداً، والبحث عنها طريفاً، والحديث في أسرارها مهما طال وتكرر حلو سائغ كله الروعة والجلال، يهش له القلب، وتهفو نحوه الروح، وترتاح له النفس. . .
وهذان كتابان من وحي الشخصية العظيمة، والسيرة الخالدة أسعدني بهما الحظ ونحن في مطلع الهجرة حيث يحلو الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم، ويجب التأسي بسيرته.
أما الأول فكتاب (بطل الأبطال) للأستاذ عبد الرحمن بك عزام، وهو جملة أحاديث تناول فيها المؤلف الفاضل أبرز صفات النبي صلى الله عليه وسلم فتكلم عن شجاعته، ووفائه، وزهده، وقناعته، وتواضعه، وتعبده، وعفوه، وصفحه، وبره، ورحمته، وفصاحته،
وبلاغته، وحسن سياسته، وحكمته في تصريف الأمور، ونظام الحرب، ووضع الأساس لحرية الدعوة وحرية العقيدة للأديان السماوية جميعاً، ثم تكلم عن أثر الدعوة المحمدية في النفوس، وصلتها بالقلوب، وكيف فعلت فعلها في الفرد، وشمل سحرها الجماعة، فبدلت الناس غير الناس، والأرض غير الأرض، وما زلنا وما زال العالم في آثار ذلك حتى آخر الدهر.
ولقد أحسن الأستاذ المؤلف كما يقول أستاذنا المراغي إذ تناول السيرة الكريمة من الناحية الخلقية، فإن الناس أحوج ما كانوا في أي عصر من العصور إلى أن يهتدوا بأخلاق محمد، ويقبسوا من نوره. وزاد الأستاذ إحساناً إذ استخلص هذه السيرة الكريمة من الحادثات والوقائع الصحيحة في التاريخ، فلم يرسل القول دعاوى يعوزها البرهان، ويلتمس لها الدليل، بل قرن الرأي بالحجة، وثبت القول بالواقعة، واستدل للحديث بالرواية الصادقة
وإذا كان الشاعر لا يفهمه إلا شاعر كما يقولون، فالرجل لا يقدره إلا رجل كذلك، والأستاذ عزام بك رجل من أهل الجلاد والجهاد، والرأي والعزيمة، وانه ليكبر ذلك في شخصية محمد صلوات الله عليه، ويتخذه مثلاً أعلى للبطولة والرجولة، فلما وقف بقبره أخذ مأسوراً - كما يقول - بهذه البطولة، وتملكه روح لا يزال يشرق من غيابة الماضي، هو روح سيد الرجال، وبطل الأبطال، وبهذه العقيدة تحدث الأستاذ الفاضل عن النبي الكريم، فجاء كتابه صفحة مشرقة بالإعجاب والإشادة ببطولة محمد ورجولته، وما ينقصها إلا الإفاضة والاستيعاب بما يكافئ عظمة السيرة الخالدة، والأستاذ يعترف بذلك ويرجو أن تسعفه الفرصة فيفيض ويستوعب وإنا لمنتظرون.
- 2 -
أما الكتاب الثاني فكتاب: (صور إسلامية) للأديب عبد الحميد المشهدي، وهو - كما يقول المؤلف الفاضل - أفق من آفاق الحياة المحمدية، وصورها الكثيرة، مازج الحقيقة فيها الخيال، وخالط فيها الفن التاريخ، دون أن يعدو على حقائقه، أو يستر الخيال جمال الحقيقة الرائع، وجلالها الواقع.
قال المؤلف: فما أجريت على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم ما لم يقله، ولا أخضعت اتجاه التاريخ من أجل طبيعة الأسلوب، وإنما حاولت بقدر المستطاع أن أخضع الفن ليكون
في خدمة الحق والتاريخ لتبدو السيرة المحمدية في جمالها الشفاف، وفتنتها الأخاذة وأسرارها الاجتماعية، وسياستها الخالدة. وليس القصد من هذا كله إلا أن أستخرج معين السيرة من تحت جلامد التعابير الخشنة والعنعنات المملة، وكثرة الروايات الطامرة للحقائق، وأن أنظمها أسلوباً قصصياً سهلاً ليستطيع الناس أن يستوعبوا

نواحي الصورة التطبيقية للشريعة الإسلامية التي جاء بها القرآن، وفصلتها سيرة سيد الأنام!

والواقع أن المؤلف الفاضل قد وفق في غرضه، واستطاع أن يصل إلى غايته في تجلية السيرة على هذا النمط الذي شرحه، وإنه لنمط قويم، ونهج قريب إلى النفوس والأرواح. وما أستطيع أن آخذ عليه في ذلك إلا بعض هفوات في الأسلوب، والتهويل في التصوير، والخروج في بعض المواقف عن حدود الحياة الإسلامية كما وصفها التاريخ. وإنك لتقرأ في صدر الجزء الثاني من كتابه حديثه عن تحرش قريش بالنبي وأصحابه، فكأنك تقرأ وصفاً لمظاهرة تسير في شوارع القاهرة هاتفة صاخبة. ولعل مرد هذا إلى ما عرف عن المؤلف الفاضل من ثورة الشباب، وإنها لثورة جامحة تتمثل لك في كتابه، بقدر ما تتمثل لك رزانة الأستاذ عزام في كتابه

وكتاب (صور إسلامية) يقع في جزئين، انتهى بهما المؤلف في الحديث عن السيرة إلى بيعة العقبة وإسلام عمرو بن الجموح من سادات يثرب، وقد وعد بالجزء الثالث عن قريب، وإنا لنرجو له التوفيق حتى يصل إلى الغاية، وينتهي إلى النهاية.

محمد فهمي عبد اللطيف

المسرح والسينما

على هامش الفنون

المسارح القومية في النرويج

نقرأ في الصحف التي تعنى بالدراسات المسرحية العالية أنباء شتى عن المسارح المعروفة كما نقبل مشغوفين على دراسة آدابها؛ ولذلك ليس بالعجيب أن نسمع أن جمهرة قراء الصحف المصرية ونقاد المسرح ودعاة هذا الفن وهم كثيرون يعرفون - إن لم يكن عن دراسة - حركات التطور الفكري في المسرح الإنجليزي وحب الفرنسيين للمسرحيات الاستعراضية الراقصة في الوقت الذي يفضل فيه الألمان (الأوبرات الكلاسيكية) وهكذا

ولكن هؤلاء جميعاً لا يعرقون - وقد زحمتهم الصحف بعدد محصور من الأنباء عن مسارح خاصة - أن في العالم مسارح أخرى وآداباً مسرحية عريقة غير تلك التي يعلمون. بل مَنْ من هؤلاء جميعاً يفكر في ترك دراسة المسرحين الإنجليزي والفرنسي - ولو إلى حين - ويعرج على دراسات أخرى أكثر تعمقاً وأنقى فكرة وأرقى فلسفة ثم يأتي بعد ذلك ليطالعنا بدراسة مقارنة؟!

إن الفكرة التي قدمت من أجلها العجالة السابقة لن تجد الأذن السميعة، ولذا أجد نفسي مضطراً لطرق الباب وفق طريقة سبقني إليها غيري في تقدمة المسارح المعروفة إلى جمهرة القراء وجموع المتأدبين آملاً أن يجد دعاة النقد المسرحي في مصر مادة جديدة لهم عند ما يتحدثون عن مسرح جديد بالنسبة إليهم وهو المسرح النرويجي

والنرويج بلاد في طبيعتها ما يساعد على خلق أدب مسرحي يعبر عن البيئة والأفكار التي تجول في رؤوس هذا الشعب الذي يعيش في شبه عزلة عن العالم. بل إن النرويجيين قوم خياليو النزعات ميالون إلى الابتكار الخرافي، ولذا كان لهم مسرح وكانت لهم آداب مسرحية، وفي بلادهم مسرحان قوميان أسسا في أواخر القرن الماضي أحدهم في العاصمة (أوسلو) والثاني في مدينة (برجن)

وقد ظل هذان المسرحان القوميان في عملهما دون أية حاجة إلى مساعدة الحكومة حتى عام 1927 عندما فكر أولو الأمر في مساعدتهما مادياً فأجدت المساعدة وشجعت على إيجاد مؤسسة فنية أخرى هي (المسرح النرويجي)

وقبل ظهور الكاتبين النرويجيين هنريك أبسن وبيورنسون لم تكن للمسرح النرويجي أهمية تذكر، وكان محصوراً داخل دائرة خاصة لا صلة تربطها بالحياة الأدبية؛ ولكن ما حل عام 1851 وعين الشاب هنريك أبسن في وظيفة فنية بمسرح (برجن) حتى بدأ المسرح النرويجي عهداً جديداً. فهناك كتب المؤلف الشاب مسرحيته الأولى وما بعدها مفرغا في كل ما كتب تجاريبه الفنية ومعلوماته التي استفادها من عمله، والتي صارت دستوراً لمن أتى بعده لا من كتاب النرويج بل لجميع الكتاب في كل أصقاع العالم

ولعل الظروف التي قيضت هنريك إبسن لخلق مسرح نرويجي جديد لم ترد أن تتركه يناضل وحده فشدت أزره بمؤلف مسرحي آخر ظهر في نفس الوقت هو بيورنسترن

بيورنشون. وكان أن ظهر على خشبة المسرح عدد كبير من نوابغ الممثلين والممثلات الذين ساروا جميعاً وفق طريقة تقليدية ظلوا يتوارثونها حتى شهدها الجميع أخيراً عندما احتفلت كبيرة ممثلات النرويج جوهان دايبواد البالغة من العمر سبعين عاماً بيوبيلها الذهبي ونجحت هذه الطريقة نجاحاً كان مثار حسد الشباب الذي قام ينادي مطالباً بالتجديد

ولقد اقترن ظهور ابسن وبيورنسون بنهضة فكرية كانت مؤلفاتهما المسرحية مثارها. وبدأ الشعب يقبل على التمثيل وآدابه كفن ضروري جميل مثل الموسيقى والنحت والتصوير والدراسات الأدبية. . كما أثبت ظهور هذين الكاتبين أيضاً أن (الدراما) تستطيع أن تحتل مكانة أرفع وتصل إلى مستوى عظيم، ومن هنا نشأت النهضة المسرحية وأقبل الناس على المسرح فظهر نوابغ الممثلين وعظيمات الممثلات، واستحالت بلاد النرويج في العصر الحديث إلى ما يمكننا أن نشبهه بأثينا في عصورها الذهبية القديمة، فلم يكن عسيراً وقد ارتقى كتاب المسرح بإفهام الناس أن تنشأ المسارح القومية وأن تعمل فيها الفرق الأهلية وأن يقبل عليها الشعب مشجعاً مما حفز بعض المهيمنين على المرافق من ذوي المكانة على إغراء الدولة لتضع هذه المسارح تحت رعايتها وتقدم لها المساعدات اللازمة

ولرب سائل يسأل وقد عرف أن للفرقة القومية المصرية برنامجاً تعمل على تنفيذه وإليه يرجع السبب في إنشائها وإن لم تكن قد حققت منه أي شيء. . . وبدوري أسارع فأقول إن للمسارح القومية في بلاد النرويج أغراضاً ترمي إليها، وبرامج من اللازم أن تنفذ ما جاء فيها، وإلا تعرض القائمون بالأمر فيها للمسئوليات الجسام من مادية وأدبية. ولعل أهم ما

أنشئت من أجله هذه المسارح هو تمهيد الحقل الفكري لإنتاج أدب الدراما المحلية. ولا بأس في نفس الوقت من إعطاء فكرة عن تطور الأدبيات المسرحية في أمم العالم وعرض صور منها بين قديم وحديث، إلا أن التجاريب دلت على أن البرامج ذات المسرحيات (الكلاسيكية) التي يتكلف إخراجها الشيء الكثير من المال لا تحدث تغييراً محسوساً في الإيرادات ولا ترتفع بالميزانية إلى درجات خطيرة، ومن هنا ظهرت قيمة الشعب الروحية وبرهن جمهور النظارة على أن له رغبة يجب أن تطاع، وأثبت للقائمين بالأمر المسرحي أن بيده توجيه الحركة الفكرية والإنتاج الفني إذ أقبل بكثرة على المسرحية العصرية (والأوبريت) وفضل على الـ (كلاسيك)

وقد أثرت السينما في المسرح النرويجي كما أثرت في نفس الوقت على جميع مسارح العالم؛ وهذا شيء ملموس بطبيعته. ولعل أهم ما فيه هو رخص أسعار دور السينما وتكرار المشاهد فيها وسرعة تغيرها. . . ولكن الأثر الذي أحدثته السينما في العالم المسرحي شيء وما أحدثته في بلاد النرويج شيء آخر، أحدثت ما يمكن أن نسميه بالموقف الغريب إذ لم يسبق أن وفقت الحكومة في أي من دولة من دول العالم مثل الموقف الذي وقفته حكومة النرويج من أزمة المسارح وكسادها بسبب منافسة السينما لها، إذ راحت البلديات النرويجية تساعد بالمال كل مسرح قومي، ولكن هذه المساعدات المتكررة لم تستطع موازنة المالية كما أنها لم تؤثر في الإيراد ولم تصلح الميزانية العامة، الأمر الذي أجبر الحكومة على التنازل للمسارح هناك عن جزء كبير من إيرادات اليانصيب الحكومي، وقد حدث هذا في مستهل عام 1927

والأدب المسرحي النرويجي يكاد يكون الأدب الوحيد الذي يقوم على دعائم قوية معززة، فنراه يطرق السياسة ويحلل أساليبها، ويتحدث عن الاجتماع والإصلاح وينقده، ويطلع الشعب على آراء جديدة في الفلسفة واللاهوت دون أن ينسى السخرية من بعض النظم والرغبة في هدم القديم ليقوم على أنقاضه جديد مدعم البنيان. والنهضة الأدبية المسرحية هناك تقوم على أكتاف الشباب الذين أذكر منهم الكاتب المسرحي الراديكالي: (نورداهل جريج) الذي يحبه الشعب ويعرف فيه ميله إلى السلم وكثرة دعوته إليه في كل كتاباته، وزميله هلج كروج الذي تشبع بروح الكاتب الايرلندي الساخر برناردشو وحاكاه في

كتاباته ونقده اللاذع في الوقت الذي لم يفته فيه أن يخرج للناس مسرحيات قوامها علم النفس الحديث وبعض مشاكل المجتمع

وحدث في عام 1935 أن أرادت الحكومة دراسة حالة المسرح في النرويج فصدر أمر

إداري بتعيين لجنة فنية لكتابة تقرير واف عن المسرح ومدى تقدمه وما ينتظر له في مستقبله وأوجه النقص فيه وكيفية إصلاحها. . . وباشرت اللجنة عملها ودرست المسرح النرويجي دراسة وافية، ثم وضعت، ثم وضعت تقريراً لست في حاجة إلى نقله، بل أفضل تلخيصه ليستوعبه أفراد الهيئات الفنية في مصر:
(يجب على الحكومة والمجالس البلدية أن تضاعف قيمة الإعانات التي تقدمها للمسرح القومي كي يستطيع أن ينهض بأعباء الرسالة المقدسة التي اضطلع بها، وكي يشرف الاسم الذي يحمله كما يجب على الحكومة أن تسرع في سن قانون يحدد مركز المسارح ويضمن تغطية نفقاتها. . .)
ورأى هؤلاء الخبراء أن يعمدوا إلى طرق منطقية لترقية المسرح وكان أن اقترحوا ضرورة تعميم الإذاعات الأثيرية من مسرح المملكة كي يسمعها سكان القرى البعيدة فيأخذوا من المسرح فكرة أولية تنمو مع الأيام فتستحيل حباً وإعجاباً.
وبلاد النرويج تكاد تكون الوحيدة بين بلدان العالم التي تعنى بتربية الناشئة تربية ثقافية فنية، فتراهم يلقنون الطفل في المدرسة حب المسرح وذلك الخلق جيل جديد يتفهم الرسالة المسرحية، ويعمل مخلصاً على رفعة المسرح القومي فأنشئوا للأطفال (الجماعات التمثيلية المدرسة) وشجعوا الطفل على ارتياد المسارح بأجور زهيدة حتى إذا شب علق بهذا الفن وأصبح يرى في إحدى ضروريات الحياة.
والممثل في النرويج يعيش في بحبوحة من الرزق لأنه يتبع النظم ويسير وفق القانون وينفذ بنود العقد المرتبط به، ولا يخل بشرط منها مهما كانت الأسباب قوية واضحة. إنهم هناك يحترمون العقود ويقدسون إمضاءاتهم على العكس من السادة ممثلينا من فطاحل المسرح المصري الذي نسمع بالواحد منهم وقد موضع إمضاءه على أكثر من عقد وفي أكثر من فرقة
أما أصحاب المسارح هناك فيحبون ممثليهم ويعملون على نصرتهم وجمع شملهم، وتوحيد
صفوفهم، وذلك بمساعدتهم على إنشاء النقابات الفنية وإعطاءهم المعاش عند بلوغهم سنا معينة
هذا هو نموذج من المسرح القومي، وتلك لعمري الطرق الفعالة لرفعة هذا الفن الجميل الذي بحت أصوات الكثيرين في مصر من جراء تكرار المناداة بإصلاحه حتى هبت الحكومة من غفوتها ولبت النداء بأن وكلت أمر أهل الفن إلى من لا علاقة لهم بالفن فمات التمثيل، واللجنة العليا لترقيته تعقد الاجتماعات للنهضة به ورفع مستواه!
إبراهيم حسين العقاد
حول مجنون ليلى
كتب محرر الصفحة السينمائية عن مجنون ليلى ما كتب بأسلوب كالسب موجهاً إلي والى الأخوين إبراهيم وبدر لاما قائلاً فيما يخصني من هجومه أنني أحد الذين يؤلفون لصالات الدرجة الثالثة في شارع عماد الدين
وأي ضرر على الكاتب أن يكتب للصحافة أو للمسارح بالأسلوب التجاري الذي يقوم بأود حياته ما دامت كتابته لا تمس جوهر الفن في نفسه.
إني لم أكتب كلمتي هذه متبرماً بنقد ناقد فإني ممن يؤمنون بفائدة النقد وجدواه ولكن على أن يكون نقداً لمجرد النقد لا أن يكون هجوماً لمجرد الهجوم، فحضرة الكاتب لم ير شيئاً حتى يحكم عليه؛ وما يدريه لعلني وأنا لست بذي الاسم الرنان أن أكون قد وفقت في كتابة حوار القصة وأشعارها توفيقاً قد يعجب ويرضي، وكان عليه أن ينتظر حتى يرى الثمرة بعد أن تخرج للناس ثم يحكم عليها بعد ذلك حكمه
السيد زيادة
العدد 300 - بتاريخ: 03 - 04 - 1939
كذبة إبريل
للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني
في أول إبريل يحلو لبعض الناس أن يكذبوا، ويطيب لهم أن يزعجوا بهذا الكذب إخوانا لهم، أعزاء عليهم، إثراء عندهم. ولو اختصوا بالكذب المثير أو المزعج، أو الذي يورث المتاعب، غير الأوداء والأصدقاء: أي الخصوم والأعداء، لكان هذا أقرب إلى العقل وأشبه بما ينبغي أن يكون، فما يبالي المرء على أي حال من السوء يكون عدوه، وكلما

زاد الشر الذي يقع فيه أو يُمنى به العدو كان ذلك أشرح لصدر عدوه وأثلج لقلبه. ولكن الصديق شيء آخر، والإنسان جدير أن يخجله أن يركب صاحباً له بدعاية مؤذية، وأن يضحك ويفرح بما ينزله بهذا الصاحب من السوء

وقد لقيت في أول إبريل هذا من المتاعب ما بغضه إلي، حتى لتمنيت على الله أن يلهم الناس حذف الشهر كله، وإسقاطه أجمعه من تقويم العام

صبحني واحد، وأنا أجلس إلى مكتبي، بأن برقية وردت بأن ألمانيا قذفت بجيشها على أرض بولندا، وأن القتال يدور بين الطلائع النازية وقوات الدفاع، فسألته: (أتتكلم جادّاً؟)

قال وهو يشير إلى ورقة في يده (هذه هي البرقية. اسمع ترجمتها)

فتفرست في وجهه وحدجته بنظرة فاحصة، فلم أر ابتساماً، ولا ما يشي بأنه يهم بالابتسام. فقلت: (إني كنت، وأنا آت إلى هنا، أحدث نفسي بأن أكتب في التصريح الذي ألقاه المستر تشمبرلن أمس في مجلس العموم البريطاني، وكنت أريد أن أقول إنه من العوامل المرجحة لكفة السلم؛ ولكنك تروي لي نبأ غريباً، لا يكاد يقبله عقلي، فهات لي هذه البرقية لأقرأها فإني لا أكاد أفهم، واحسبني سأجن، فما أعرف لماذا تجازف ألمانيا هذه المجازفة التي ليس لها أي موجب، ولا من ورائها أي خير لها أو لسواها)

وانتزعت منه الرقعة فإذا هي قديمة وتاريخها أول مارس، وليس فيها أي ذكر لألمانيا أو بولندا! وماذا يبالي صاحبنا هذا أن يهدم لي الدنيا، وأن يحيلها حولي أنقاضاً، وأن يدير لي رأسي حتى ما أعود أعي شيئاً؟!

وبعد نحو ساعة، طُلبت إلى التلفون، فقمت إليه، فإني أكره أن تكون آلته على مكتبي، أو في الغرفة التي أنا فيها، ولا أعرف ما هو أشد إزعاجاً لي من صوت جرسه حين يدق

فجأة، وقلت وأنا أضع السماعة على أذني (نعم)

فسمعت صوت زوجتي يقول لي: (أبو خليل. . . مبروك!)

فسألتها مستغرباً: (ماذا؟ مبروك إيه؟)

قالت: (بالهناء والرفاء والبنين! لماذا لم تخبرنا لنفرح لك معك؟)

قلت: (عن أي شيء تتحدثين؟ رفاء، وبنين. . .؟! ما هي الحكاية؟)

قالت: (برقية وردت بتهنئتك بعروس جديدة. . . هل أقرأها لك في التليفون؟ أو يكفي أن أذكر لك اسم مرسلها؟! وقبل البرقية دق الباب رجل وسأل عنك، فعرف أنك خرجت فكلفنا أن نبلغك تهنئاته القلبية. فلم نفهم، ولكنه انصرف قبل أن نتمكن من سؤاله. على أن البرقية ما لبثت أن جاءت ففهمنا كل شيء! مبروك، على كل حال)

فأيقنت أن أكاذيب إبريل كلها ستقذف عليَّ في هذا اليوم السعيد. وقلت لها: (آه، كذبة إبريل. . . اشكري عني المهنئين والمهنئات. فإني الآن مشغول بالعروس، أبثها حبي، وأناجيها بما يجن قلبي لها! ألا تسمعين؟)

فألقت السماعة، ولم تجب! والمصيبة أن النساء أميل إلى تصديق كل ما يثير غيرتهن، ولو كان كل شيء يدعو إلى نقيض ذلك فإني لا آكل شيئاً ويغري بالاطمئنان.

وخرجت، فمررت بصاحب لي، فقم لي شوكولاته، فاعتذرت فإني لا أكل شيئاً بين طعامين، فألح، فأصررت على التأبي، فاقترح أن أنتقي بضع قطع أدسها في جيبي، وآكلها حين أشاء فلم أر في هذا بأساً فأجبته إليه. وعدت إلى البيت، وخلعت ثيابي لأستريح، فسألتني امرأتي: (معك سجاير)؟!

قلت: (في جيبي. . . خذي ما تريدين)

فدفعت يدها في جيبي وقالت، وهي تخرجها وتتأمل ما عثرت عليه: (آه. . . شوكولاته العروس)!!

قلت: (لا تكوني سخيفة. . . هذه أعطانيها فلان).

فألقت في فمها واحدة، وهي تضحك، وإذا بها تلفظها فجأة وتصيح وقد عبست جداً: (ما هذا القرف؟)

فسألتها: (قرف؟ أي قرف يا شيخة؟ مالك في هذا النهار؟)

قالت: (تضحك عليّ، وتغريني بأكل شوكولاته حشوها ثوم وفلفل، وتزعم أن فلاناً أعطاكها؟! أي مزاح هذا؟ هل ارتددت طفلاً؟ ألا تجد أحداً غيري تمازحه هذا المزاح

البارد؟)
فقلت - وأنا أحدث نفسي -: (شوكولاته بثوم وفلفل! يا امرأة، هل سمعت بالمثل العامي: تكون في فمك فتقسم لغيرك؟ أنا كنت المقصود بهذا المزاح البايخ، ولكني نجوت ووقعت أنت؛ وما يخالجني شك في أن هذا أبعث على سرور صاحبي الذي أهدى إليّ هذه الشوكولاته! ولكنا لن نخبره بشيء، وسندعه بضعة أيام يتقلى وبوده لو عرف ماذا كان من أمرنا. . . لا بأس! سأجزيه سوءاً بسوء! فانتظري!)
فظلت تصيح وتسأل عما عسى أن تصنع الآن، فقد فسد طعم فمها، وأكبر ظنها أن رائحة الثوم ستظل بأنفاسها، فاقترحت عليها أن تشرب قليلاً من الكولونيا!
فهزت رأسها وقالت: (تريد أن تقتلني لتخلص لك عروسك الجديدة، ويصفو لك الجو معها!)
فسكت ووضعت إصبعي في الشق، بل وضعت أصابعي العشر كلها في الشقوق فما من سبيل إلى إقناع المرأة بسخافة الغيرة
وأحسب أن الكذب يطيب في أحيان كثيرة، بل أحسبه لازماً للإنسان، وعسى أن يكون الصدق متعبة شديدة، ولعل التزامه في كل حال مما لا يطاق
ولكن من الكذب ما هو بريء، وما هو سوء يحسن اتقاؤه وأنا مستعد أن أضحك، وأن استظرف نكات الإخوان وأستملح دعاباتهم، ولكن لا أظن أن ما ذكرت يدخل في باب الفكاهة المستملحة. وقد يكون هذا وما إليه محتملاً، ولكن الفظيع أن ينعى لك صديق وهو حي يرزق، فتخف إلى داره لتعزي أهله، ويلقاك ابنه أو أخوه، ولا ترى في وجهه حزناً أو سهوماً، فلا تستطيع أن تقص عليه الخبر الذي حملك إليه، ولا تجد ما تسوغ به هذه الزيارة في ساعة غير مألوفة! وبعض الناس يضحكهم ويسليهم هذا الضرب من المزاح! ولم لا؟ كل ما سر جائز. . .

إبراهيم عبد القادر المازني

كتاب السياسة

للوزير نظام الملك

للدكتور عبد الوهاب عزام

نظام الملك أبو علي الحسن بن إسحاق: وزير السلاجقة من أعظم الوزراء الذين عرفهم تاريخ الإسلام. ووزير للسلطان محمد ألب أرسلان، ثم لابنه ملكشاه ثلاثين سنة (455 - 485) هـ.
كان أبوه أحد دهاقن طوس، وذهبت بماله الحادثات فولد نظام الملك في بيت فقير سنة 408. وماتت أمه وهو رضيع. ونشأ نجيباً زكياً فتعلم العربية والفقه وسمع الحديث. وتقلبت به صروف الزمان في أرجاء الأرض، حتى استقر في بلخ عند أحد عمّال داود والد السلطان ألب أرسلان. ثم تولى أعمال ألب أرسلان ووزر له قبل السلطنة. فلما خلف ألب أرسلان عمه طغرل بك دبّر نظام الملك أمور الدولة، وظهرت كفايته، وشاع ذكره؛ فاستقل بسياسة الملك طوال عهد ألب أرسلان وعهد ابنه ملكشاه. وتولى أبناؤه، وكانوا أثنى عشر، المناصب الرفيعة في الدولة. فتمكن سلطانهم، وعظم جاههم، وانقادت لهم الأمور حتى فاقوا البرامكة في أيامهم.
يقول ابن الأثير:
كان عالماً جواداً عادلاً حليما كثير الصفح عن المذنبين طويل الصمت. كان مجلسه) عامراً بالقراء والفقهاء، وأئمة المسلمين، وأهل الخير والصلاح. أمر ببناء المدارس في سائر الأمصار والبلاد، وأجرى لها الجرايات العظيمة، وأملى الحديث بالبلاد وببغداد وغيرها. وكان يقول: إني لست من أهل هذا الشأن، ولكني أحب أن أجعل نفسي على قطا نقلة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم)
وما زالت الأمور في تصريفه، والأحوال مواتية له، إلى أن قتل سنة 485.
وذلك إنه كان مسافراً مع السلطان ملكشاه من أصفهان إلى بغداد، فنزلا على مقربة من نهاوند. قال ابن الأثير:
فلما كان بهذا المكان بعد أن فرغ من إفطاره، وخرج في محفة إلى خيمة حرمه أتاه) صبي ديلمي في صورة مستميح أو مستغيث، فضربه بسكين كانت معه، فقضى عليه وهرب،

(فعثر بطنب خيمة فأدركوه فقتلوه.
وقد شاع بين الناس أن الملاحدة دبروا لقتله إذ كان يبغضهم وكتب في كتابه سياستنامه فصلاً في بيان مفاسدهم. ويقال إن ملكشاه هو الذي أوحى بقتله وكان قد نقم منه ومن أولاده تمكنهم في عظم المناصب، وجاههم، وأوغرت صدره عليهم امرأته تُركان خاتون، وكانت تسعى ليخلف ابنها الطفل محمود أباه على الملك، وكان نظام الملك يؤثر بركيا روق أخا محمود الأكبر. إذ يقال إن جمال الملك بن نظام الملك قتل مسخرة للسلطان كان يحاكي نظام الملك في المجلس السلطاني، فنقم عليه السلطان وأمر من دس له السم في شربة فقاع
ويروي ابن الأثير أن السلطان أرسل أحد قواده شحنة إلى مرو وكان يتولى أمورها حينئذ عثمان بن جمال الملك ومفيد نظام الملك. فوقع نزاع بين الشحنة وعثمان فحبسه عثمان ثم أطلقه فذهب إلى السلطان شاكياً؛ فأرسل السلطان إلى نظام الملك يسأله أأنت شريكي أو وزيري ويذكر استيلاء أبنائه على المناصب وتجاوزهم الحد
فلما بلغت الرسالة الوزير الكبير غضب وقال للرسول (قولوا للسلطان إن كنت ما علمت أني شريكك في الملك فاعلم، فانك ما نلت هذا الأمر إلا بتدبيري ورأيي. أما يذكر حين قتل أبوه فقمت بتدبير أمره وقمعت الخوارج عليه. . . فلما قدت الأمور إليه وجمعت الكلمة عليه وفتحت له الأمصار القريبة والبعيدة، وأطاعه القاصي والداني، أقبل يتجنى لي الذنوب ويسمع في السعايات! قولوا له عني إن ثبات تلك القلنسوة معذوق لهذه الدواة وأن اتفاقهما رباط كل رغبة وسبب كل غنيمة، ومتى أطبقْت هذه زالت تلك).
ومن عجائب الاتفاق أن السلطات مات بعد شهر من قتل الوزير واضطربت الدولة اضطراباً شديداً
ومهما يقل من أسباب النفور التي وقعت بين السلطان والوزير فأنا بعد أن يدبر الملك لقتل وزيره الشيخ الذي كان يثق به ويعتمد عليه ويستصحبه في حضره وسفره.
كتب نظام الملك كتاب السياسة (سياستنامه) قبل موته بسنة واحدة، وضمنه علمه وتجاربه وآراءه في سياسة الملك وترتيب الدولة، وإنصاف الرعية، وقسمه إلى خمسين فصلاً.
وللكتاب مقدمة كتبها ناسخ الخزانة السلطانية يبين فيها سبب تأليف الكتاب فيما يأتي:
أمر السلطان السعيد أبو الفتح ملكشاه ابن محمد أمين أمير المؤمنين أنار الله) برهانه، سنة
أربع وثمانين وأربعمائة بعض الكبراء والشيوخ والعلماء أن تفكَّروا في أحوال المملكة وانظروا ماذا من السيئات في عهدنا، وماذا خفي علينا، وماذا فعله السلاطين السابقون ولم نفعله، وأعلمونا به. وكذلك اكتبوا ما تعرفون من سنن الملوك السالفين مما يتعلق بدولة السلاجقة وملكهم، واعرضوه علينا لنتأمّله ونأمر بعدُ أن يسير كل عمل ديني ودنيوي على قاعدته، ويوضع كل شيء في موضعه، وننهي عما لا يُستحسن. فإن الله وهبنا الدنيا وأتم نعمته علينا وقهر أعدائنا فلا ينبغي أن يكون أمر في مملكتنا ناقصاً أو يذهب عمل على غير وجهه أو يخفى علينا شيء.
أمر بهذا نظام الملك، وتاج الملك، ومجد الملك وطائفة أمثالهم، فكتب كلُ ما تيسر) له في هذا الشأن وعرضه على السلطان فلم يعجبه إلا ما كتب نظام الملك فقال: كُتبت هذه الفصول كما أردت فليس في نفسي عليها مزيد. وقد اتخذت هذا الكتاب إمامي وسأعمل به.)
ويقول نظام الملك في خاتمة الكتاب: (هذا كتاب السياسة. أمر سلطان العالم خادمه أن يكتب في هذا الموضوع فامتثل أمره. كتب تسعة وثلاثين فصلاً على عجل ورفعها إلى السدة العالية فلقيت قبولاً. وكانت مختصرة فزدت عليها، وأضفت إلى كل فصل ما يناسبه، وبينتها بلغة واضحة، وقد سلمته إلى ناسخ الخزانة السلطانية محمد المغربي سنة أربع وثمانين وأربعمائة ونحن على عزيمة السفر إلى بغداد، وأمرته أن ينسخه بخط جميل، فإذا لم يتح لي الرجوع من هذه السفرة قدمه إلى السلطان.)
وسأتكلم على الكتاب وأترجم فصوله في المقالات الآتية إن شاء الله.
عبد الوهاب عزام

الجامعيون يحتربون
للدكتور زكي مبارك
كان الأسبوع الماضي من الأسابيع الدامية في حياة الجامعة المصرية، وكان رجعة إلى معارك الصعايدة والبحاروة في الأزهر الشريف، فما هي الصلات بين القديم والجديد من هذه المناوشات التي تقع في المعاهد العلمية؟
إن النضال بين الصعايدة والبحاروة من الأزهريين كان رجعة لأحقاد عرفتها مصر منذ عهد الفراعين بين سكان الشمال وسكان الجنوب، وكان لهذا النضال مواسم يذكرها من شهد الحياة الأزهرية قبل أن تخضع للنظام الحديث
فما هو سبب النضال بين كلية الآداب وسائر الكليات؟
وما الذي قضى بأن يكون للجامعيين تاريخ في العداوة والبغضاء؟
لقد كانت كلية الآداب منذ نشأتها محفوفة بالرعاية والعطف من جميع المعاهد العالية، فما الذي جد من الشؤون حتى تصبح هذه الكلية المحبوبة هدفاً للعداوات، وحتى تشن عليها الغارة بلا ترفق ولا استبقاء؟
ما الذي جد في دنيا القلوب حتى تثور الحرب الدموية بين طلبة الآداب وطلبة الحقوق؟
وكيف جاز أن يصبح الحرم الجامعي مجروح الهيبة والجلال وفيه تمثال الشهداء في سبيل الوطنية لا في سبيل المنافع الشخصية؟
كيف جاز أن يحترب الرفاق في بقعة مسَّورة بالأزهار والرياحين في مطلع الربيع؟
وكيف نسى أولئك الشبان أن من الجريمة أن يدنسوا الحرم الجامعي بالأحقاد الشخصية، وهو بفضل العلم لا يقل قدسية عن المحاريب؟
كيف نسى أولئك الشبان نعمة الله عليهم وهم يغدون ويروحون في رياض تذكّر بأرواح الفراديس؟
إن الجامعة لها موقع قليل الأمثال في الشرق، وهي تنتظر من أبنائها أن يكونوا جذوة روحية تضيء أقطار الشرق، فبأي وجه تلقى الناس إذا صح لأبنائها أن يحتربوا ويقتتلوا بأسلحة ينكرها العلماء؟
إن أولئك الشبان لا يعرفون أن هناك مسامع تستريح لأن تسمع فيهم قالة السوء، ولا يدركون أن هذا النوع من المناوشات يغض من هيبتهم العلمية، ولا يذكرون أن سيرتهم قد تصبح قدوة لطلبة المعاهد العالية في الشرق
ولكن ما هي أسباب المعركة بين كلية الآداب وكلية الحقوق؟
السبب في جملته يرجع إلى كتابين يدرسان في كلية الآداب وفيهما فقرات تمس العقيدة الإسلامية
ولكن فات خصوم كلية الآداب أن من المستحيل أن يقع ذلك عن عمد: فعميد الكلية يعرف أن في مصر تيارات دينية وسياسية؛ وليس من مصلحته أن يتعرض لمكاره من جانب رجال السياسة أو رجال الدين. ومتى صح أن سوء النية غير موجود فمن التعسف أن يقال أن كلية الآداب تحارب العقيدة الإسلامية
أتريدون الحق أيها الجامعيون؟
لقد ضيعتم على أنفسكم فرصة عقلية لا تتاح في كل يوم، وهذه الفرصة بدت طلائعها بحديث عميد كلية الآداب وحديث شيخ الأزهر وشيخ كلية أصول الدين
وكان يجب اغتنام هذه الفرصة: كان يجب أن نرى المصاولات العقلية بين الأزهر والجامعة المصرية. كان يجب على الأقل أن يكون الحكم في هذه القضية إلى مناظرة علنية تقوم في قاعة الحفلات تحت رئاسة مدير الجامعة المصرية
ولكنكم أسرعتم ففصلتم في القضية بالأيدي لا بالعقول.
ثقوا أيها الجامعيون بأن الحركة الفكرية في حاجة إلى وقود، وهذه المحرجات التي تثور من حين إلى حين هي أعظم باعث ليقظة العقول، وأعداء هذه البدوات الفكرية هم من جيش الموت، لو تعلمون.
أقول هذا وأنا أعرف أن المشكلة فُصَّتْ ولم يبقَ إلا حكم التاريخ.
ولكن يؤذيني أن يكون للجامعة في حياة العقل تاريخ يشبه تاريخ العنف في أيام الظلمات.
إن كلية الآداب لها مهمة أعظم مما تظنون.

لا يراد من كلية الآداب أن تقف عند المحكيّات في الشؤون الأدبية والفلسفية، وإنما يراد من كلية الآداب أن توقظ غافيات العقول، وأن تخلق الفرص لوثبات الأخيلة والأحاسيس. فمن كان يظن إنه انتصر على كلية الآداب حين رجمها بالحجارة والطوب فلينم قرير
العين.
أما كلية الآداب فمن حقها أن تعتز وتستطيل بأن يكون لها في حياة العقل تاريخ.
(مصر الجديدة)
زكي مبارك
من برجنا العاجي
إني من الذين يعتقدون أن في مصر اليوم نهضة ملحوظة في الأدب والفن، وأن الأدباء والقراء يزدادون يوماً بعد يوم. على أن الذي يسترعي الالتفات ويدعو إلى القلق هو أن نتاج الذهن لم يبلغ بعد في قيمته المادية وأثره الاجتماعي المستوى المطلوب. لماذا؟ لأن هنالك عنصراً آخر في هذا الشأن ما زال مفقوداً. إن قوة الأدب والفن في أمة لا ترتكز فقط على طائفتي الأدباء والقراء. هنالك طائفة ثالثة عليها يقع قسط كبير من عبء العمل ولها ينسب بعض الفضل في إذاعة نتاج الذهن وإيصاله إلى متناول كل يد، وإحداث الضجيج حوله، والإعلان عن خطره. أولئك هم الوسطاء والتجار والناشرون. ففي فرنسا مثلاً ما يكاد يظهر كتاب جديد في باريس اليوم حتى تجده في صباح الغد معروضاً في أصغر قرية من قرى الريف الفرنسي. ووسائلهم في ذلك بسيطة أوجه إليها نظر تجار كتبنا الكسالى المتواكلين. إنهم يعلمون أن الكتاب لا يطلب عادة إلا في المحطة عند السفر، إذ هو خير أنيس في وحدة القطار. فتراهم قد جعلوا في كل محطة صغيرة أو كبيرة عربة يد صغيرة كتلك التي توضع عليها عندنا (البسطة) والفطائر والمأكولات. يعرضون عليها كل مستحدث من الكتب، ويعهدون بها إلى صبي يمر بها على الرصيف أمام كل قطار مار. هنا في مصر توجد فكرة عرض الكتب والمجلات في المحطات، ولكن الذي يؤسف له حقاً هو أن مصلحة السكة الحديدية المصرية قد منحت هذا الامتياز لرجل رومي لا يعرض غير الكتب والصحف الإفرنجية؛ لأن هذه المصلحة لا تنظر إلا إلى راحة المسافر الأجنبي والسائح الافرنجي؛ أما نشر ثقافتنا في أنحاء بلادنا على يدها فهو مشروع لم تفكر بعد فيه.
لذلك سيظل الأدب والفكر وكل ما يتعلق بالتثقيف الذهني والروحي في بلدنا محصوراً في محيط محدود.
توفيق الحكيم
أبو تمام شيخ البيان
للأستاذ عبد الرحمن شكري
(تتمة ما نشر في العدد الماضي)
والسائر من شعر أبي تمام لا يقل في الصفات التي تؤهله لأن يسير عن شعر المتنبي السائر. وترى كثيراً من هذا الشعر السائر في جميع أبواب شعر أبي تمام من مدح أو رثاء أو وصف أو هجاء، وله أبيات كثيرة تدل على بصيرة وفهم وذكاء، وأسباب السيرورة هي التوفيق في الصناعة والإيجاز والبيان والوضوح وسهولة اللفظ وقوة السيل الشعري المنبعث من النفس وسلامة الفطرة والذوق. ولأبي تمام أبيات صارت ملكا مشاعاً مثل قوله:
وإذا أراد الله نشر فضيلة ... طويت أتاح لها لسان حسود
ومثل قوله:
فلا تحسب هنداً لها الغدر وحدها ... سجية نفس، كل غانية هند
وقوله:
ومن لم يُسَلِّم للنوائب أصبحت ... خلائقه طرا عليه نوائبا
وقوله:
وطول مقام المرء في الحي مخلق ... لديباجتيه فاغترب تتجدد
وقوله:
وقد يستر الإنسان باللفظُ خلقَه ... فيظهر عنه الطرف ما كان يستر
وفي رواية فعله (أي سبب فعله) بدل خلقه؛ وقوله أيضاً:

يعيش المرء ما استحيا بخير=ويبقى العُود ما بقي اللحاء
وقوله:
وإني رأيت الوشم في خُلُق الفتى ... هو الوشم لا ما كان في الشعر والجلد
وقوله في تعزية الرثاء من قصيدة جليلة مشهورة:
أتصبر للبلوى عزاء وحِسْبَةً ... فتؤجر أم تسلو سلوَّ البهائم
وقوله:
لذلك قيل بعض المنع أدنى ... إلى مجد، وبعض الجود عار
وقوله:
ليس الغبيُّ بسيد في قومه ... لكنَّ سيد قومه المتغابي
وقوله:
وإذا امرؤٌ أسدى إليك صنيعة ... من جاهه فكأنها من ماله
وقوله وفيه روايتان في اللفظ:
ومن الحزامة لو تكون حزامة ... ألا تؤخر من به تتقدم
وقوله:
إنْ شئتَ أن يَسْوَدَّ ظنك كله ... فَأجِلْهُ في هذا السواد الأعظم
يعني جمهور الناس. وقوله:
فصرت أَذَلَّ من معنى دقيق ... به فقر إلى فهم جليل
وقوله:
قد يُنْعِم الله بالبلوى وإن عظمت ... ويبتلي الله بعض القوم بالنعم
وقوله:
بصرت بالراحة الكبرى فلم أرها ... تنال إلا على جسر من التعب
وقوله:
إن الكرام إذا ما أسهلوا ذكروا ... من كان يألفهم في المنزل الخشن
وقوله:
سكن الكيد فيهمُ إنَّ من أع ... ظم إرْب ألا تُسَمَّى أريبا
وقوله:
فقد تألف العين الدجا وهو قيدها ... ويُرْجَى شفاء السم والسم قاتل
وقوله:
أنكرتهم نفسي وما ذلك الإن ... كار إلا من شدة العرفان
وإساءات ذي الإساءة يُذْكِرْ ... نَكَ يوماً إحسان ذي الإحسان
وقوله:
وقديماً ما اسْتُنْبِطَت طاعة الخا ... لق إلاّ من طاعة المخلوق
وهذا البيت الأخير فيه إلمام بمذهب الملاحدة الذين يقولون إن الاعتقاد بالخالق فكرة إنسانية ولها نشأة بشرية في قديم الزمن بسبب تأليه رب الأسرة ورئيس القبيلة في العصور التي
قبل التاريخ. على أن البيت يصح تأويله بما لا يخالف الدين. وقد طعنوا في عقيدة أبي تمام بسبب تركه للصلاة والصوم وقوله في الشاعر والفروض الدينية كلاماً، كما جاء في كتاب مروج الذهب للمسعودي وفي غيره من الكتب. وقد طعنوا أيضاً في نسبته إلى طي، وبعضهم صحح نسبته إلى طي وقال إنه نشأ في فرع مسيحي منها ثم تظاهر باعتناق الإسلام؛ وقد مدح الإسلام في مدحه للخلفاء والوجهاء ووصف المسيحيين بالشرك والكفر وعبادة الأصنام كما قال في مدحه المعتصم ووصف فتحه مدينة (عمورية) وإذا أردنا أن نحصي خلاصة الخلاصة من شعر أبي تمام لم نستطع أن نستغني عن المدح، وإن استطعنا الاستغناء عن المدح عند إحصاء خلاصة الخلاصة من شاعر كالشريف الرضي فإن شعر المدح في صنعة أبي تمام يحبب إلى القارئ قراءة المدح حتى ولو كان ممن لا يميل إليه. انظر إلى قوله:
نَسب كأن عليه من شمس الضحى ... نوراً ومن فلق الصباح عموداً
أو قوله:
خدم العلى فخدمته وهي التي ... لا تَخدم الأقوام ما لم تُخدَم
أو قوله:

ولو لم يكن في كفه غير نفسه ... لجاد بها فليتق الله سائله
أو قوله:
فلو صورتَ نفسك لم تزدها ... على ما فيك من كرم الطباع
أو قوله:
غَرَّبتهُ العلى على كثرة الأه ... ل فأضحى في الأقربين جنيبا
وله قصائد كثيرة فخمة حلوة في المدح مثل قصيدته في محمد ابن عبد الملك الزيات التي يقول في مطلعها:
لهان علينا أن نقول وتفعلا ... ونذكر بعض الفضل منك فنفضلا
أو الأبيات التي يقول فيها:
ليس الحجاب بِمُقْصٍ عنك لي أملا ... إن السماء تُرَجَّي حين تحتجب
وإجادته في المدح إجادة بطول حصرها، وهي ليست في مدح الأحياء فحسب بل هي أيضاً
في مدح الموتى في الرثاء مثل قوله:
هيهات أن يأتي الزمان بمثله ... إن الزمان بمثله لبخيل
أو قوله في رثاء بني حميد:
وانفس تَسع الأرض الفضاء فلا ... يرضون أو يجشموها فوق ما تَسعُ
يود أعداؤهم لو أنهم قُتِلُوا ... وأنهم صنعوا بعض الذي صنعوا
عهدي بهم تستنير الأرض إنْ نزلوا ... بها وتجتمع الدنيا إذا اجتمعوا
أو قوله من رثاء ابني عبد الله بن طاهر: (نجمان شاء الله ألا يطلعا) إلى آخر القصيدة وهي من مأثور قوله وبها بيت يتمثل به كثيراً وهو قوله:
وإذا رأيت من الهلال نموه ... أيقنت أن سيكون بدراً كاملا
وقوله أيضاً في مدح الرثاء:
فالماء ليس عجيباً أَنَّ أعذبه ... يفني ويمتد عمر الآجِنِ الآسِنِ
وأكثر رثائه على هذا النمط: رثاء صنعة فخمة رائعة لا رثاء حرقة ولوعة، ولا رثاء وجدان؛ ومن أجلِّ رثاء الصنعة قصيدته المشهورة التي يقول في مطلعها:
كذا فليجل الخطب وليفدح الأمرِ ... فليس لعينٍ لم يَفِضْ ماؤها عذر
ولا ينقص من قدرها أنها من رثاء الصنعة فإن الشعر كالفاكهة أنواع ولكل نوع طعم ولذة. وله مع ذلك قصائد من شعر رثاء العاطفة والوجدان مثل رثائه لأخيه الذي أوله:
إني أظن البلى لو كان يفهمه ... صد البلى عن بقايا وجهه الحسنِ
والقصيدة التي يقول فيها: (بأرّان لي خل مقيم وصاحب) ولكنه أحياناً تغيض العاطفة من رثائه كما قال في رثاء جارية له:
يقولون لا يبكي الفتى لخريدة ... إذا ما أراد اعتاض عَشراً مكانها
وهل يستعيض المرء عن عُشرِ كفه ... ولو صاغ من حُرِّ اللجين بنانها
فالتعليل يدل على الذكاء، ولكن ليس هذا رثاء العاطفة؛ وكان ينبغي أن تكون حجته منزلة الجارية من نفسه لا أن يضعها بمنزلة عشر الكف. ومثل هذا رثاؤه محمد بن حميد إذ يقول إنه رآه في الحلم فسأله: ألم تمت؟ قال: لا. . . كيف يموت من كان كريماً مثلي كرمه خالد. وكان ينبغي أن يجعل المرثي أرفع من أن يقول هذا القول الذي كان يستطيع الشاعر
نفسه أن يقوله فيه بدل أن يضع المرثي موضع المفاخر بكرمه وإنه لو كان حياً لكان حرياً به أن يرى من الكرم ألا يفتخر بالكرم والبيت هو:
ألم تمت يا شقيق الجود من زمن ... فقال لي لم يمت من لم يمت كرُمْه
ومن رثاء العاطفة قوله في رثاء ابنه وكان وحيداً بدليل قوله (بُنَيَّ يا أوحد البنينا) وهذه القصيدة هي التي مطلعها: (قد كان ما فخت أن يكونا) ولكنها ليست شيئاً إذا وضعت بجانب قصيدة ابن الرومي في رثاء ابنه وهي التي مطلعها: (بكاؤكما يشفي وإن كان لا يُجْدي). وإذا قارنا بين غزل أبي تمام وبين أقواله في المودة والإخوان وجدنا شعره في الإخوانيات أكثر عاطفة ووجداناً وأعلى مرتبة في الشعر مثل قوله:
من لي بإنسان إذا أغضبته ... وجهلت كان الحلم رد جوابهِ
وإذا طربت إلى المدام شربتُ مِنْ ... أخلاقه وسكرت من آدابهِ
وتراه يصغي للحديث بقلبه ... وبسمعه ولعله أدرى بِهِ

أو قوله:
عصابة جاورت آدابهم أدبي ... فهم وإن فُرِّقوا في الأرض جيراني
أرواحنا من مكان واحد وغدت ... أبداننا بشآم أو خراسان
ورب نائي المغاني روحه أبداً ... لصيق روحي ودان ليس بالداني
أو قوله:
جليد على ريب الخطوب وعتبها ... وليس على عتب الإخلاء بالجلد
أو قوله:
وقلت أخٌ قالوا أخ من قرابة ... فقلت لهم إن الشكول أقارب
نسيبيَ في عزمي ورأيي ومذهبي ... وإن باعدتنا في الأصول المناسب
أو قوله:
خليليّ ما ارْتَعْتُ طرفي ببهجة ... ولا انبسطتْ مني إلى لذةٍ يد
ولا استحدثت نفسي خليلاً مُجَدَّداً ... فيذهلني عنه الخليل المجدد
أو قصيدته في علي بن الجهم التي يقول فيها إن ودهما (عذب تحَدّر من غمام واحد)
أو قوله:
وتكَشُّفُ الإخوانِ إن كشَّفْتَهُمْ ... ينسيك طول تصرف الأيام
أما غزله فكثير منه من قبيل التغزل بالغلمان وأكثره غزل حواس وليس به عاطفة عميقة أو وجدان. وأكثره مقطوعات صغيرة في أغراض أكثرها بنت ساعتها ولعلها من عفو القريحة. هكذا أكثر غزله ولو أن به ذكر الدموع التي تحولت إلى دماء (إفْنِ صبري واجعل الدمع دما)، وذكر آلام الحب وحرقاته ولكنه ذكر لا يدل على شعور عميق كما يدل غزل العذريين، ولا على وجدان كوجدان العباس بن الأحنف أو كوجدان الشريف الرضي. وله في أول قصائد المدح بعض الغزل الرقيق، وهو مولع بذكر محاسن أعضاء الجسم كالعيون والخدود. . . الخ.
انظر قوله:
صبَّ الشبابُ عليها وهو مُقتَبلٌ ... ماءً من الحسن ما في صفوه كدر
لولا العيون وتفاح الخدود إذاً ... ما كان يحسد أعمى من له بَصرُ
وكثير من غزله يشبه غزل أبي نواس، ولعل هذا هو سبب ورود قصائد في الغزل في ديوانه وفي ديوان أبي نواس مثل التي أولها (قال الوشاة بدا في الخد الخ) والتي أولها (أفنيت فيك معاني الشكوى) والتي أولها (وفاتن الألحاظ والخد). ومما هو شبيه بالغزل في قصائد المديح مما يستحسن الأبيات التي يقول فيها:
أدار البؤس حسَّنكِ التصابي ... إليَّ فصرت جنات النعيم
والتي يقول فيها:
يا موسم اللذات غالتك النوى ... بعدي فربعك للصبابة موسم
والتي يقول فيها:
أصبحت روضة الشباب هشيما ... وغدت ريحه البليل سموما
ولتي يقول فيها:
ثم انقضت تلك السنون وأهلها ... فكأنها وكأنهم أحلام
وله في الغزل والوصف:
باشر الماء وهو في رقة الصن ... عة كالماء غير أنْ ليس يجري
خدش الماء جلدَهُ الرطب حتى ... خلته لابساً غلالة خمر
أما قوله في المغنية الفارسية فمن عذب القول وهي قصيدة مطربة وهي التي يقول فيها:
ولم أفهم معانيها ولكن ... وَرَت كبدي فلم أجهل شجاها
وفي باب الوصف من شعره أشياء بلغت منزلة عالية من الجودة تجعلنا نأسف لقلتها ونود منها المزيد. ومن هذه القصائد وصفه لفتح عمورية، ووصف السحابة في أرجوزتها المشهورة، ووصف القلم في قصيدة يقول فيها: (لك القلم الأعلى الذي بشباته) وهو وصف مشهور أيضاً وهو من قصيدة مدح كوصف فتح عمورية. ومن وصفه أيضاً أرجوزة (إن الربيع أثر الزمان)، ومنها أخذ البحتري قوله: (وجاء الربيع الطلق يختال ضاحكا). وأحسن قصائده في وصف الطبيعة قصيدته التي يقول في أولها: (رقت حواشي الدهر فهي تَمرْ مِرُ) وفيها يقول البيت المشهور:

تريا نهاراً مشمساً قد شَابَهُ ... نَوْرُ الرُّبَى فكأنما هو مقمر
والنَّوْر الذي يحدث هذا الأثر هو النور الذي له لون يغض من اصفرار أشعة الشمس كأن يكون لونه أبيض، ولا يحس القارئ مقدار صدق هذا الوصف إلا عند المشاهدة.
وله في وصف الخمر قصيدته التي مطلعها: (قَدْكَ اتَّئِبْ أربيتَ في الغلواء) وفيها يقول:
صعبت وراض المزجَ سيئَ خلقها ... فتعلمت من حسن خلق الماء
وضعيفة فإذا أصابت فرصة ... قتلت، كذلك قدرة الضعفاء
وكأن بهجتها وبهجة كأسها ... نارٌ ونورٌ قُيِّدَا بوعاء
أو درة بيضاء بِكْرٌ أطبقت ... حملاً على ياقوتة حمراء
يخفى الزجاجة لونها فكأنها ... في الكف قائمة بغير إناء
ولها نسيم كالرياض تنفست ... في أوجه الأرواح بالأنداء
وقد أسقطت بعض الأبيات للاقتصار، والبيتان الأخيران ينسبان إلى البحتري أيضاً في قصيدة له، ولأبي تمام إجادة في الهجاء وله في قصائده سائرة مثل قوله:
كم نعمة لله كانت عنده ... فكأنها في غربة وإسار
كُسِيَت سبائب لؤمة فتضاءلت ... كتضاؤل الحسناء في الأطمار
وقوله:
مساوٍ لو قُسِمْنَ على الغواني ... لما جُهِّزْنَ إلاَّ بالطلاق
فخلاصة الخلاصة من شعره لابد أن تشمل شيئاً من كل باب وهذا يدل على علو منزلته ومقدرته.
عبد الرحمن شكري
الأم فنانة عظيمة
للآنسة الفاضلة (الزهرة)
تقولين إن حياتك الزوجية مقرونة بالسعادة، إلا انك كثيراً ما تعقّبين على ذلك بقولك إن الهموم والمشاغل تعمل على إقصاء أسباب هذه السعادة حيناً، وتفلح في القضاء عليها حيناً آخر، وإن جلبة الأطفال وضوضاء ثرثرتهم وهذرهم وطياشتهم الصبيانية تجهد هذه الأعصاب التي أرهقتها من قبل واجبات واهتمامات عديدة تبهظ الذرع، وتعيي الطوق، وتزحم سوانح الفراغ النادرة، وتجتاح نطاق الوقت الضيق. وكأنك تنسين أيتها الأم الفنية، أن رجال الفنون الكبرى، وهي الرسم والنحت وهندسة البناء والموسيقى والشعر، كذلك كانوا يشتغلون، وفي مثل هذه الحالات كانوا يجدُّون ويعملون، بل كأنك تجهلين أنك تفوقين هؤلاء الفنانين جميعاً، لأن أعمالهم الفنية مجالها العالم الماديّ، أما عملك أنت فمجاله رحاب الحياة البشرية بأسرها
ولعمري كيف لا يعرف العالم أن النحيب على الأمومة والتفطر لها، يحقران شأنها ويقوضان سرادق مجدها! وهل كان بركليس يطلب من الملأ الرحمة والرثاء لأنه بفضل جهاده ومصارعته الصعاب جعل لأثينا السيادة العليا في البر والبحر، وصيّرها مجد العالم؟ وهل كان ميكال انجلو يصيح طالباً الغياث والنجدة مما عاناه مدة سنتين قضاهما مضطجعاً فوق ألواح خشبية مشدودة إلى السقف ليتمكن من رسم قبة معبد (السيستين) في الفاتيكان؟ وهل كان رفائيل يسأل الناس الرأفة، ويجعل من ينظرون إليه يستشعرون مسّاً من الشفقة عليه، والتفجع لكفاحه الطويل المضني الذي جاءه أخيراً بصورة السيدة مريم العذراء وابنها الطفل؟!
إن كتب السيِّرَ لا تتوجع لجهاد أولئك الأقطاب، ولا تتبعهم بإحساس حار من العطف الباكي المحزون، والحنو الدامي المستحرق، بل إنها تتبين في صبرهم على المشاق عناصر رجولة نبيلة أبيّة أوغلت في ميادين العزم والشجاعة وعلوّ الهمة، وغذّت مواهبهم بقوة الإرادة، والقدرة على تذليل الصعاب، فزادتهم بذلك فضلاً على فضل، وأضافت إلى ظفرهم فلاحاً وعزّاً
ولكن هل تمكن المقارنة بين الموادّ التي يستخدمها الفنان لتدوين تعبيراته الفنية، ورسم كل ما يقع تحت حسه من ألوان وظلال وأوضاع وانفعالات، وبين ما تتناوله الأم من المعنويات السامية الزاخرة بالممكنات التي تستطيع هي وحدها أن تستشفّها وتفسرها، وتبحث في ثناياها عن أحب الأشياء وأنقاها، وتحضها على استغلال أشرف ما

أودع في القوى البشرية وتروضها على التحلي بأكرم الأخلاق الإنسانية، والتمسك بخير ما فيها من سجايا الطهر، التي تنيل الحياة عمقاً واتساعاً، وتكسبها نبلاً ومجداً وكرامة وسعادة

أجل. إني أراك في أحايين، توسعين لنفسك مجال التفجع، حين تجمحين في الإشارة إلى المتاعب التي تلقينها في العناية بأسرتك الصغيرة، والاهتمام بمطالبها التي تستنفد وسعك كله، وتهدّك وتطيّر النوم من عينيك، ولست أنكر أن هذا الاهتمام يستنفد الجهد حقاً، ولكن أليس محبباً إلى النفس؟ وأي شيء يفيض على حياة الفرد جمالاً أعظم من جمال العمل الحيوي الذي يقتضي الاهتمام المستفيض ويستغرق الجهد المستطيل الملهوف على مساكه وقوامه؟ وعملك من أعظم الأعمال في الحياة، وما الذي يجعل للحياة قيمتها؟ أليس هو شعور الفرد في كل صباح بأن مهمة خطيرة موكولة إليه، وأمراً جليلاً موقوف عليه دون سواه؟ وهذا الشعور يا سيدتي هو الذي ينبض بالاهتمام - الاهتمام الخالي من الهاجس والبلبال والتأرق، والمفعم بإدراك أهمية الواجب والمسؤولية. وإنها لحياة حقيرة تلك الحياة التي لا نعرف فيها قداسة الواجب والجد لتحقيق غاية مجيدة! بل إنه لوجود وضيع خسيس، ذلك الوجود الذي يكون فيه الفرد منفعلاً شيء فيه، دون أن يكون لبعض شؤون الحياة الحق فاعلاً. أو ليس من دواعي الغبطة إذاً أن تعرفي قيمتك من هذا العالم الوسيع الرحيب، ونصيبك من واجب الخدمة فيه؟ بل أليس من دواعي الفخر أن توقني من أن لك أنت فيه حياة أعلى من هذه وواجباً أجل وأكرم، وقد ائتمنتك الروح الكلية على أدائه. فهل تبغين سواه؟ أتريدين أن تقومي بإلقاء الخطب والمحاضرات؟ أو أن تشغلي وظيفة في بعض المصالح والمؤسسات؟ أو تكوني رسامة مجيدة تحبو الناس بقبسات باهرة من مخيلتها المبدعة، وريشتها المبتكرة، وروحها المقتبسة، ونفسها الحساسة؟ ومع ذلك فهل تخلو هذه الصناعات والوظائف مما يفرض العناية ويستلزم الاهتمام، لو راعيت الأمانة والدقة في أدائها؟ ولست أريد أن أنتقص من قدرها بما أذكره في صددها الآن وكلها جليلة نبيلة تليق بأن تستغرق حياة من لم تنتدبهن السماء لذلك الواجب الأقدس، أو من أكملن

سعي الأمومة المبرور، وأحسنَّ البلاء في تعهد الأولاد بالعناية اللازمة، وهيأنَ من ريعان اقتبالهم، وعنفوان شبابهم خير عدة للمجتمع!

هذا ولا تنسى أن رجال الفن يتخذون أداة عملهم الفني من الجماد، والجماد لا روح فيه، ولا يملك من الاستجابات غير ما يشعر الفنانون إنه صوت العواطف والأفكار التي تدوي في نفوسهم. أما أنت فإن مادة تعبيراتك الفنية معنوية حية؛ تجيش في خلاياها الكائنات الحية، ويترقرق في أغوارها ماء الحياة الناشطة، ويقظة الفؤاد، ودقة الفهم، ولطافة الحسّ، وقوة العقل. وفي كل يوم ترين استفاضتها؛ في كل يوم ترين الأغصان النامية التي تساعدينها على اتخاذ سمتها إلى النور والسماء، وتستجيب لهاتف رعايتك وتثقيفك، وفي كل يوم تتكرر مظاهر اتصالها بك، إذ تلتفّ تلك السواعد البضّة حول عنقك لتحدثك عن حبها الساذج النقي، وفي كل يوم تشنف أذنيك مرارا تلك النغمات الملائكية كلما نادتك قائلة: (ماما! ماما)! وفي كل يوم ينفخ إيمانُ تلك القلوب الغضة، وثقتهم بما أوتيت من حكمة وخبرة، روحَ الحياة في قلبك. إن الفنان يحكي الطبيعة، وينقل ما يقع تحت حسه من صورها، ويتخذ من مخلفات حياته الفنية صلة الحياة بما بعد وجوده الفاني في عالم الزوال. أما أنت فتسلمين وديعة السماء السرمدية إلى الأرض، وتخلدين نبتة الحياة التي تنتقل ثمارها من جيل إلى جيل، وتتفتح أزهارها في متلاحق الحقب، ويدخر حصيدها الذهبي إلى ما وراء الأبد والبعث. . . وتقدمين للوجود على يديك إثباتا أكيداً لذات أوسع وأكبر، وبقاء أشمل وأكمل، وتمنحين الإنسانية فوزاً متكرراً، وذخراً يجدده بروز مواهبك في الأمومة الرشيدة الحكيمة. وما جمال الفن، وما مجد الفنان إلا بعض فضل الأم على كل مبتكراتهما وروائعهما! فهل تشتكين بعدُ من العناية بالبيت؟ وهل تقولين إن الأطفال أيضاً يضايقون ويزعجون! و. . . و. . . الخ. وزوجك العطوف؟ إنه يحبوك بالنصح والتدبير والمشورة في حيرتك وارتباكك، ويسرّي عنك آلامك، ويمحضك إعجابه، ويخصّك بحبه الذي تستمدين منه سنداً لضعفك. . وأمومتك نفسها توقظ فيه حنو الرجولة وتنّبه حنانها الشهم القويّ. . . فهل تحرصين على هذه العطايا أن تذهب بلا طائل؟ أم هل تعدّينها من الالتزامات والضرائب

المفروضة على الزوج؟ أو لا تعرفين أيتها الجليلة الفتية الراتعة في بحبوحة الدعة أن هذه الدعة هي خير ما تستطيع أن تغدقه عليك عناية الزوج المحبّ؟ ألا تعرفين أيتها الأم الشابة المنعمة بالطمأنينة التي يبعثها في نفسك شعورك بأنك توفرين أسباب الصحة والحياة لأولادك، وتظللينهم بستر جناحيك، وتجعلينهم في حرز حريز يصونهم من أحداث الزمن وسموم القدر التي تعصف بمن أذلهم اليتم، وأخنى عليهم الحرمان والفقر. . .

ألا خذي هذه العطايا البنوية الشاكرة والزوجية الواقية ولا تجحديها. . . لأنك بهذا الجحود تحطمين أشرف عاطفة، وتلغين أنقى رابطة قائمة على التفاهم والإخلاص، وإدراك الحياة الكاملة، والتوجه إلى ما فيها من حب وتعاون وشكران. . . فتقبليها من يد الزوج الأبرّ القوي، آية وفاء لحقوق تلك الشركة المقدسة التي ربطت بينكما، وتعاهدتما على أن تلتمسا بها لحياتكما أمناً بل زينة تنسيك أنت متاعب الفروض البيتية والعناية بالأطفال وتحيلها لذة ونعيما مقيما. . .

هذه أمانيّ الراجية المؤملة أزجيها غير متجافية ولا متبجحة. وهأنذي أتطلع إلى ما توحيه إليك نفسك السمحة، وينتهي إليه جهدك الجبار، فإنها لعمر الحق برهانك الذي يباهي به جنسك هذا المجتمع بل الإنسانية قاطبة، فاحرصي على أن تكون فَلَق الصبح المبين لمصرنا العظيمة. والسلام عليك ورحمة الله

الزهرة

أعلام الأدب

درامات إسخيلوس

للأستاذ دريني خشبة

(تتمة ما نشر في العدد الماضي)

الأورستية - 4، 5، 6

هذه هي الثلاثية الواحدة التي وصلتنا سليمة من إسخيلوس وقد أخذ كل مادتها من هومر، وأجاممنون هو بطل حلقتها الأولى وباسمه تدعى. . . والمأساة تبدأ من ذلك اليوم المشؤوم الذي ضحى فيه أجاممنون بابنته إفجنيا حيث ذبحها لتتحرك الريح وتحمل الأسطول إلى طروادة كما مر بك في هوميروس. . . فلما علمت زوجته كليتمنسترا - أم الفتاة - بما وقع لابنتها من الغدر، ولم تكن تعلم بهذا التدبير من قبل، بل قيل لها إنها ذاهبة لعقد قرانها على أخيل بطل أبطال اليونان، ثارت ثائرتها، واعتراها حال من الهم والحزن أخرجها عن إنسانيتها فأبعدت عنها كل معالم الحياة. . . حتى ابنها الأوحد أورست لقد نفته بعيداً عنها، وعاشت وحدها في قصر البلوبيد الرهيب، واضطرمت في قلبها نار الحقد على زوجها القاسي. . . ثم وصلت أسبابها بأسباب إيجستوس أحد ذوي الثارات على بيت أجاممنون، فوافق شنُّ طبقة كما يقولون، وألفت التّرات بين قلبيهما فشاعت عن علائقهما الشائعات. . ولما وضعت حرب طروادة أوزارها وعاد أجاممنون مع تلك الفتاة النَّبيَّة ابنة بريام، دبرت له زوجته تلك القتلة المشئومة التي ذهبت بروحه وروح فتاته إلى هيذر

فأما الحلقة الثانية الـ (خُوَراُفْروَا) أو حاملات الخمر المقدسة فتقع حوادثها بعد ذلك بسنين عدة كانت الملكة وعشيقها يحكمان آرجوس طوالها. . . فلما شب أورست أستأذن ملك فوسيز في العودة فأذن له ولصحبه صديقه بيليدز. . . ووصل إلى مقابر آرجوس حيث وجد أخته إلكترا تصب الخمر على جدث أبيه لأن أمها رأت في المنام أنها تلد ثعباناً ثم تأخذه في حضنها، فأرسلت بنتها لتصب الخمر قربانا إلى روح أجاممنون. . . ويعرب الشاب أخته فيعرفها بنفسه وتكون قد صلت للآلهة على ثرى أبيها أن ترسل إليها أخاها، فتكون مفاجأة جميلة، ثم يوصيها أورست بكتمان الأمر حتى ينتقم لأبيه. . . ويدخل القصر

في هيئة تنكرية فلا تعرفه أمه، ثم يأخذ في سرد قصة فحواها أن أورست قد مات فتتظاهر الأم بالحزن ثم تدخل مخدعها، ويدخل أورست وصديقه حجرة الأضياف. . . وتذهب مرضعة لتدعو إيجستوس ليعلم ما قال الرسول عن وفاة أورست فما يكاد يصل إلى القصر حتى يسمع من الداخل وهو يصرخ ويجود بنفسه. . . لقد قتله أورست!!. . . وتهرع كليتمنسترا لترى ماذا حدث، لكنها تعاجل بضربة شاطور (بلطة) فتتلفت فترى أورست عند جثة عشيقها، وهي مع ذاك تنسى آلامها وتنحني فتبكي فوق

جثة إيجستوس. . . ثم يأتي أروع مشاهد إسخيلوس الدرامية. . . فالأم حينما تعرف أورست لا تبالي الدم المتدفق من جرحها، بل تكشف عن ثدييها وتعيّر الابن بكفرانه هذا اللبن الذي غذاه صغيراً، ثم تنذره بملاحقة ربات العذاب إياه حتى ينتقمن منه على جريمة قتل الأم وهي أشنع الجرائم في الشرع اليوناني، ويهتز أورست، ثم تعروه نوبة من الجنون، وتتراءى له ربات العذاب فيذعر، ويفر من وجوههن ليحتمي بهيكل الإله أوبوللو في دلفي.

وفي الحلقة الثالثة (يومنّيدز) أو ربات العذاب، يتعلق أورست بأستار هيكل أبوللو ضارعاً إلى إله الشمس أن يحميه، وتكون الكاهنة وسنانةً فتستيقظ مفزّعة مروعة ثم يظهر الإله أبوللو نفسه فيطمئن أورست ويشمله بحمايته ويأمره أن ينطلق إلى أثينا حيث يعرض قضيته على ربّتها مينرفا (بألّلا أثينا) فيصلي أورست وينطلق إلى حيث أمره أبوللو وتبقى ربات العذاب فيدخل شبح كليتمنسترا وتأخذ في تحريض الربات فيتغنّين قليلاً ثم يطردهن أبوللو. . . ويتغير المنظر فنكون في أثينا في هيكل مينرفا وقد تعلق أورست بأستار المذبح وقد أخذت تنوشه ربات العذاب فتبدو ميرنفا وذتودهن عنه، ثم تستمع إلى شكواه. ويكون في المعبد جماعة من المحلفين وينهض الإله أبوللو ليؤدي شهادته ويدلي برأيه فيقرر أن الإنسان ينتسب إلى أبيه لا إلى أمه؛ ولذا فهو مرتبط بوالده قبل أن يرتبط بوالدته. . . وبعد أن تسمع مينرفا إلى آراء الآخرين تنهض هي فتعلن رأيها ثم تجلس ويأخذ المكلفون في (فرز) الأصوات وتكون النتيجة متساوية بغير ترجيح فيحدث شيء من الهرج في قاعة العدالة وتتبرم ربات العذاب لتدخل أرباب أقل منهن مرتبة في أخص أمورهن، فتنهض مينرفا وتأخذ في تلطيف سورتهن بفصاحتها المعهودة وتهتف بهن (أن أسمى واجب الآلهة هو نشر السلام بين بني الإنسان!) وتعدهن بإقامة مأوى عظيم لهن في هضبة إيرس فيهدأن ويختفي الجميع بذهابهن إلى مأواهن في حفل رهيب

هذه هي أرفع درامات إسخيلوس بل أرفع درامات الأدب اليوناني إذا استثنينا درامة بروميثيوث للشاعر نفسه. . . وقد سخر فيها الشاعر بهذه الشريعة العجيبة التي تنافي العدالة المطلقة التي جعل لها الفوز والغلبة في النهاية. . . وكان إسخيلوس ماهراً في تلك الدرامة إلى آخر حدود المهارة فقد استدرج اليونانيين حينما أراد إصلاح وجهة نظرهم إلى تلك الأغوال التي يدعونها ربات العذاب حتى جعلهم يؤمنون أنها ينبغي أن تكون لخير الإنسانية لا لذعرها، ولنشر السلام لا لتعميم الذعر والأذى. وهكذا استطاع إسخيلوس أن يبشر بدين جديد من دون أن يحدث ثورة، وكان جل إيمانه بسيادة عليا تهيمن على الكون وتسير به إلى الكمال كما سنرى في بروميثيوث

7 - بروميثيوث:

أخذ إسخيلوس موضوع ثلاثيته من أسطورة بروميثيوث الخالدة وتتلخص فيما يلي: بعد أن فرغ إيروس (كيوبيد) من توشية الأرض وزخرفتها بالنبات، عَمَرها بالحيوان، ثم دعا إليه الإلهين بروميثيوث وإبيمتوث ليخلقا فيها حيواناً راقياً تكون له السيطرة على سائر صنوف الحيوان ويسمياه (الإنسان). فلما صنعاه سألا إيروس أن ينفخ فيه أنفاس الحب (روح الحياة) كما سألا مينرفا أن تنفخ فيه من روحها (روح الحكمة). فلما دبت الحياة في هذا المخلوق العجيب زُهي بروميثيوث وشاعت فيه الكبرياء واعتزم أن يهدي إلى الإنسان منحةً جزيلة تفتح له أبواب المدنية وترقى به في مدارج الحضارة. . . وكانت النار إلى ذلك الحين حقاً خالصاً للآلهة وكان لهم دون غيرهم (امتياز) استعمالها، فاعتزم بروميثيوث أن ينسرق إلى الأولمب ليحضر للإنسان جذوة من النار المقدسة فأحكم تدبيره وتغفل سيد الأولمب (زيوس) وسرق الجذوة ثم آب إلى الأرض دون أن يشعر به أحد. . . ومضى حين من الدهر، وتلفت زيوس من عليا سمواته فشهد النار تتأرجح في أطراف الأرض فهاج هائجه، وأقسم ليعذبن السارق عذاباً شديداً. ويعرف أن السارق هو بروميثيوث فيأسره ثم يذهب به في أقل من لمح البصر إلى جبال القوقاز حيث يقيده ويربطه بسلاسل وأصفاد في قمة جبل هناك ويسلط عليه باشقاً من جوارح الطير فيظل ينهش كبده نهشاً شديداً. . . وهنا يبدأ إسخيلوس الحلقة الأولى من درامته. . . فهذا بروميثيوث مُصفّداً بالأغلال صابراً لأنكى ألوان العذاب، ينهش الباشق كبده نهاراً ثم ترقأ جراحه ليلاً وتنمو الكبدة، فإذا أصبح عاد الباشق إلى نهشه وتعذيبه وهكذا دواليك. . لكن بروميثيوث إله فهو لا يموت،

ثم هو لا يقهره هذا العذاب بل هو يصبر له في سبيل سعادة الإنسان الذي خلقه وحضّره وجلب له النار وعلمه الفنون، والإنسان مع ذاك شاكر له ذاكر أياديه فهو يصلي له ويقنت، والفتاة يو البائسة المعذبة التي سلطت عليها حيرا زوجة سيد الأولمب هذا الوحش الفظيع آرجوس والذبابة المؤلمة تلدغها وتسومها من العذاب ألواناً. . . هاهي واقفة بجانب بروميثوث تواسيه وتتوسط له عند التيتان ليستغفروا له سيد الولمب فلا يغفر له، لأنه قوي مجنون ليس في قلبه شفقة ولا يعرف فؤاده العدالة. . . ويصبر بروميثوث ثم يصبر، ولا يرضى أن يخذل الإنسان لأن الإنسان يصلي له ولا يني عن عبادته. . . وفي الحلقة الثانية يذهب هرقل بن سيد الأولمب في إحدى مجازفاته فيشهد بروميثوث مصفداً في قُنَّة الجبل والطير تنهش كبده، فينقض على الباشق الجارح ويقتله، ويرد إلى بروميثوث حريته. فينطلق هذا الإله الطيب ويلقاه الناس مسبحين بحمده فرحين مستبشرين. . . وفي الحلقة الثالثة (بروميثوث حامل النار) يصف إسخيلوس احتفاء الأثينيين بالإله الذي ضحى نفسه واحتمل نفسه واحتمل الآلام في سبيل الإنسان

هذه خلاصة سريعة لأعظم درامات إسخيلوس، وبروميثوث خي درة فلسفية أعجب بها الشعراء في كل العصور، وقد عارضها شللي الشاعر الإنجليزي بمنظومة رائعة جرى بها في أذيال إسخيلوس. . . وقد كان إسخيلوس لاذعاً في هذه الدرامة، فقد سخر بهذا الإله المتغطرس زيوس الذي كان يكره الإنسان ويناوئه ولا يريد له الخير الذي أراده له بروميثوث. وجماع فلسفة إسخيلوس في هذه الدرامة أن القوة التي تهيمن على هذا العالم يجب ألا تكون قوة مجردة لا عقل لها، بل يجب أن تتضافر القوة والحكمة بحيث لا تطغى إحداهما على الأخرى لخير الإنسانية وعمار الكون، فإذا اختل التوازن بينهما لم يصح أن تكون هناك آلهة. . إذ كيف يكون إلهاً ذلك الذي يعذب إلهاً آخر (بروميثوث) ثلاثين ألف سنة؟ بل كيف يكون هذا الإله عاقلاً؟

وبعد، فلقد كان إسخيلوس يحتقر الديانة اليونانية ويعرف أنها أضغاث، وقد احتقرها من يوم نبوءة دلفي التي أمرت اليونانيين بأن يستسلموا للفرس لأنهم لا يغنون عن أنفسهم من

شرهم شيئاً. فلما انتصر اليونانيون آمن إسخيلوس بإله عادل يسيطر على الكون ويقهر الظالمين، ويرعى الضعفاء، فلم يأل جهداً بعد هذا في هدم هذه الآلهة الكثيرة التي خلقها السلف ووقع في عبادتها الخلف عن جهالة وغباء

هذا هو إسخيلوس الدرامي الأول، فلعل دراسته تمنعنا من الإسهاب في تأريخ من يليه من أدباء اليونان

دريني خشبة

من ذكريات لندن

حرية. . .!

للأستاذ عمر الدسوقي

مضى الشتاء متثاقلاً متلكئاً بعد أن أطلق لشياطينه العنان، تعبث بالأرض عبث الوليد بخذروفه، وتجوس خلال الديار بوجوه مقطعة مكفهرة، تتواري منها ينابيع الجمال والرحمة هلعاً وفرقاً؛ وتلفح أنفاسها الأوراق النضرة فتذوي، وأوراق الدوح فتساقط عصفاً مأكولاً؛ وتزفر زفرات مَرّتْ على زمهرير سقر، حتى تنتفض لها الدنيا، وتنكمش في أبرادها وتسري في أوصالها رعدة الفر، وقشعريرة الحمى البرود، أو ترسلها ضباباً أسود بشعاً، يملأ فجاج الأرض، تطرف منه العيون وتدمع، وتغص به الحلوق وتشرق، وتسيل الأنوف وتنتفخ، وتسعل الصدور وتنقبض؛ يحجب الشمس، ويعطل الحياة، ويحيل السبل سراديب مدجنة يرتطم فيها الأحياء بالجمادات وهم يتحسسون طريقهم، وتتراءى فيها الجمادات مردة طليت بالقار، أو اشتملت بمسوح نسجت من أديم الليل البهيم؛ أو ترسلها ريحاً زفزفاً مزمجرة، تهز الأرض هزّاً عنيفاً، وتزأر زئيراً منكراً كئيباً، يصم الآذان، ويرجف الأفئدة. . .

حتى إذا خالت الشياطين أن الدنيا قد هلكت رعباً، وحالت جثة هامدة باردة، وأشلاء ممزقة مبعثرة، دفعت بالثلج كفناً أبيض يتراكم كسفاً، ويجلل الأرض بقطع بيضاء هشة، كأنها زبد الموج الصاخب، أو شعر عجوز شمطاء اجتثته وهي مغيظة محنقة، أو العهن المنفوش، أو القطن المندوف

ثم حشدت فيلق المزن في عنان الجو، تتردى حبر الحداد، وتبكي وتنتحب، وتجهش بالعويل، فتسمع لها شهيقاً وزفيراً؛ وتسكب الدمع مطراً هتوناً تسقط حباته على الأرض كأنها نقرات الدفوف، أو عصا جبار ينكث الأرض موجدة وغيظاً، أو حجرات مسلم متعبد يرجم الشيطان بمنى، ثم تزدحم به الأودية فيطغى ويكتسح كل ما يعترض موكبه الهائج وتياره المائج

وها قد نفخ الشتاء في بوقه، فحشرت إليه شياطينه من كل فج، وولى مشيعاً باللعنات، وطفقت حرارة الحياة تتمشى في أطراف الدنيا، فتنهض الطيور الهاجعة، وتتثاءب البراعم

الوسنانة، وترقع الرياض ما بلى من كسائها بالحشائش الحواء، وتوشيه بالأزهار اليانعة العبقة الشذى

وهاهي ذي ذكاء صفراء عليلة، غب احتجاجها الطويل، ثم تتواري في خدرها بعد هنيهة، ثم تبدو أثبت قدماً وأربط جأشاً. وتحاول السماء أن تتجرد من ثياب الشتاء القاتمة الغليظة، فتمزقها إرباً إرباً، فتظهر أجزاء من أديمها الأزرق الصافي خلال بردها المهلهل الخلق

وهرع أهالي لندن إلى العراء ليشهدوا آخر معركة بين التوأمين الربيع والشتاء وجاءتني ربة الدار فرحة متهللة، مشرقة الطلعة، كأنما نفث الربيع فيها من سحره، فغدا وجومُها بسمات، وحديثها ضحكات فحييت تحية كأفواف الزهر، ثم تغنَّت بفتنة الطبيعة في ديارها إبان الربيع، فحسبتها قمراً يُرَجِّع على فنن دوحة تميس في الحبر السندسية البديعة، أو مِزْهر عازف يوقع أنشودة الجمال الرائع؛ ثم قالت:

- حذار أن تظل جلس بيتك في مثل هذا اليوم النادر، فمسرح الطبيعة عندنا جم المناظر، تارة يلفظ شُواظاً من نار فتقبع المخلوقات في دورها، وتارة يبتسم ابتسامة الرضا فينسى الناس فترات تجهمه، فيعدون إليه بقلوب يستخفها الطرب، ويتملكها العجب. إن أشعة الشمس في بلادنا نفيسة كالذهب الوهاج، يتهافت عليها الناس ويدخرونها لأوقات يربدُّ فيها وجه السماء، وما أكثرها حتى في هذا الفصل الذي تخطر فيه الدنيا في حلة قشيبة من النّوْر، وتتنفس فيه الرياض عبيرَ الأقحوان النَّدّ، والياسمين والورد

- لقد حدثتِ فأطربت، ووصفتِ فأطنبتِ، فهل لكِ أن تهديني إلى أي الحدائق أبهج للفؤاد، وأجلى لصدى النفس، وأمتع للنظر؟

- إن لندن يا سيدي مدينة تزخر بألوف الألوف من البشر، مترامية الأطراف، واسعة الجنات، فسيحة الرقعة تتمثل فيها الحياة العاملة المجدة، والحركة الدائبة النشطة في أوجها؛ ترى قُطُر الكهرباء تجري فيها رائحة غادية، في سراديب تحت الأرض، وعلى قضب فوقها؛ وترى أسراب السيارات تجوب أرجاءها ألوفاً ألوفاً، فمنها ذوات الطبقتين كأنها بواخر تمخر عباب اليم، ومنها القميئة التي تنساب في الطرقات انسياب الصِّلال وسط الإحراج والأدغال؛ والناس فيما بين ذلك يهرولون زرافات ووحداناً، كأنما الحياة الدنيا قد أفلست وعرضت ذخائرها، وهم إلى الغنيمة يهطعون ولهم ضجيج يفزع الكواكب في

مسابحها، والشياطين في معاقلها

وحري بنا ونحن نتنفس هواء قد أفسدته الصناعة، وأنفاس الخلق، أن ننشئ الرياض العريضة الرحبة، تخُطُّها البحيرات الجميلة الجذابة، ففيها نستجم من نصب العمل والحياة المضنية، وإليها نهرع إذا ضاقت صدورنا، وكادت أرواحنا تزهق من حر أنفاسنا. ولكل روض خاصة: فإذا نشدت الهدوء والعزلة، والمنظر الخلاب البهيج، فدونك (الريجنت)؛ وإذا شئت أن تدرس طباع الشعب عن كثب، وتشهد صراع الفكر، وخطباء النَّدى، والجموع الغفيرة، والحرية المطلقة، فدونك (هايدبارك)؛ وإن كنت مولعاً بالتلال المعشبة، والرُبى الخضراء، والوهاد الفسيحة، والطبيعة الساذَجة الغفل التي لم تصقلها يد البشر، فأعمد إلى (هامستدهيث)؛ وإن كنت مغرماً بدرس النباتات وأنواعها المختلفة وأشكالها المتباينة، فعليك بحدائق (كيو) حيث يمثل فيها نبات الدنيا جمعاء. وهناك رياض أخرى لا تقل رونقاً وبهاءً وحسناً ورواءً عما ذكرت

- لقد شدت - يا سيدتي - بمدينتك فخورة مُدِلة، ولا غرو، فأنتم أمة لم تنس نصيبها من متع الدنيا وزخرفها. فها هي ذي لندن، قد تجَّلت في مبانيها سلامة الذوق والانسجام

البديع، وحفت طرقها بالأشجار، وزينت منازلها بالحدائق الصغيرة سيان في ذلك بيت الأمير وبيت الحقير. وإني لنصيحتك جِدُّ مطيع، ولك مني ثناء عطر جزاء وفاقاً على ما أتحفتني به من حديث ممتع طريف؛ فمعي صباحاً، وإلى اللقاء. . .!

ذهبت إلى (هايدبارك) وها أذنا ألج ساحتها المزدحمة

يا عجباً هنا منابر وخطباء، وهنا جموع محتشدة تنصت وتنتقد وتجادل تسخر وتحتد؛ وعلى كل منبر رَق مرقوم، يفصح عن الفكرة التي يدعو إليها الخطيب أو ينافح عنها. والناس ينتقلون من حلقة إلى أخرى كأنهم زُمَر النحل، تقتطف من كل زهرة قطرة؛ حتى يقعوا على ما يَلَذ لهم حديثه، فيرهفون السمع ويعملون الفكر ويجادلون المتكلم أحرَّ جدال

هاك شيوعياً يبسط للناس مبادئ عقيدته، ويلوم في حدة وسلاطة وعنف، هؤلاء الذين اكتنزوا الذهب والفضة واستعبدوا بهما الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؛ وأخذوا يَنعمون بأطايب الحياة، ويبعثرون النضار في سبل الفسق، بينما يَغضض المجتمع بقوم يبيتون على الطوى ويندبون جَدَّهم العاثر، وزمنهم الغادر. ويدعو بكل ما أوتي من ذرابة لسان،

وشجاعة جَنان، إلى تقسيم الثروات حتى يتساوى الناس في الشقاوة والسعادة، والغنى والفقر

وهاك اشتراكياً لا يشتط كتربه وإنما يطلب - كما يقول - العدل والرحمة، والرفق بمن يكد ويكدح لينعم سيده ويقوى بمن يذوي شبابهُ ويراق دمُه، ويَضنى جسمه في المصنع والحقل؛ ليقدم للإنسانية عُدة الترف والبذخ؛ مفنداً في لباقة وطلاوة حديث ما يتصدى له الشيوعي من دعوة ترمي بالعالم في أحضان التهلكة والدمار؛ وكيف يُسَوَّي بين الذكي والغبي، والشجاع والرعديد، والقوي والضعيف، والجاد والخامل. . .؟ وهل الحياة الدنيا سوى كفاح وجهاد، وصراع وجلاد، يفوز فيه من قويت مُنَّته، وحسنت عدته، ودأب على العمل لا يَكل ولا يمل. . .؟

ثم يعرج على أزمات الأمم في عصرنا هذا، وأنها نِتاج استبداد الأغنياء بالفقراء، ولو رعى الأول حقوق الثاني لأخلص الثاني في خدمة الأول ولاستقام العالم وعاش في بُلَهنية ووفاق. ولم ينس أن يَصُبَّ ذَنُوباً من ألفاظ السباب على الحكام المستبدين وقتلهم لحرية الأفراد، وتسخيرهم الأمم لإشباع مطامعهم

وهاك يهودياً يبكي ويستبكي، ويناشد القلوب الرحيمة والعقول السليمة، أن تنصف شعب الله المختار، الذي كتبت عليه الذلة والمسكنة، والذي طارده الحكام المستبدون في كل بقعة عقد لهم فيها اللواء، وكتب الظفر، فبات شريداً طريداً، خالي الوفاض، كسير القلب، مهيض الجناح. ويقول: إننا قطعة من الإنسانية المعذبة، وأنتم يا أبناء التايمز قد ربُيتم على البر بالمحروم، والنصفة للمظلوم، ولا نطلب منكم سوى ديارنا التي كنا نقطنها منذ ألفي سنة، وما تركناها إلا قسراً وقهراً، جودوا لنا بفلسطين، نُحيلها جنَّة من جنان الخلد، ومعقلاً أميناً يصد كل من تحدثه نفسه بالتعدي على طرق الإمبراطورية العتيدة. ينفذ بمثل هذه العبارات إلى أفئدة الناس فيأسرها، ويستدر دمعهم، ويكسب عطفهم.

وهاك قسيساً، قد ارتدى مسوحه، ووقف في وقار وتزمت ينادي القطعان النافرة من حظيرة الكنيسة: أن ارجعوا إلى بارئكم، فالباطل لا يغني من الحق فتيلا وأن لكم في طمأنينة الروح عوضاً عن فقدان المادة، وأن الحياة الدنيا كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا لم يجده شيئاً؛ يدعها الإنسان وحيداً إلا مما قدمت يداه، فلا مال ولا عتاد، ولا جاه ولا

سلطان والآخرة خير لكم وأبقى

وهاك امرأة، قد تملكتها نزعة صوفية، فبرزت في أسمال، وأطمار وطفقت ترفع عقيرتها منشدة الأغنيات الدينية فتجذب إليها جموع الناس، ثم توسعهم لوماً وتأنيبا على تقصيرهم في حق المسيح، حتى إذا انفضوا عنها ضاحكين هازئين عادت تغني مرة أخرى.

وهاك ملحداً يسفه الشرائع والأديان، وهاك عالماً يشرح للدهماء أصول علم النفس وقوانين الاجتماع.

وهاك حبشياً يثير حماس القوم ضد القوة الغاشمة، والأمة الظالمة، ويلجأ إلى سجايا

الإنجليز الكريمة، وأريحيتهم ومروءتهم وتقديسهم للحرية ألا يدعو وطنه يذهب نهبة لأطماع الاستعمار، وقرباناً على مذبح الغدر بالعهود والحنث بالذمم.
وهاك سفسطائياً يبرهن على أن الإنجليز هم (شعب الله المختار) لا بني إسرائيل، وأنهم أولى الناس بحلم العالم.
وهاك نازياً، يبرق ويرعد، ويتهدد ويتوعد، ويهدر كالسيل الجارف، ويغزو الديمقراطية في عقر دارها، ويرميها بالتفكك والانحلال، والضعف والفساد؛ ولاتباعها أوهاماً وخزعبلات، وتعلقها بمثل لا تغني أمام جبروت المدفع شيئاً؛ ولما لأوشاب الناس فيها من أيد وقوة، فيتخلف عن دست الحكم ذو الرأي الرشيد، ويطفر إليه من لا يقيم للأمور وزناً؛ ويرمي المجالس النيابية بأنها ميدان للثرثرة وقتل الوقت، ويقول:
لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ... ولا سراة إذا جهالهم سادوا
يا قوم، القوا أعنة أموركم ليد مصلحة سديدة، ففي ذلك العزة والمنعة، والعدل والمساواة، طهروا دياركم من اليهود الذين امتصوا دماءكم وأنتم في غفلة ساهون. ألم يسيطروا على صحفكم ويوحوا إليكم بما تعتقدون؟ ألم يخضعوا المسرح والخيالة لسلطانهم المالي، ويعرضوا عليكم ما يشاءون لا ما تريدون؟ ألم يغتصبوا ينابيع الثروة منكم، ويصيروكم فعلة مأجورين؟
إن آفات المجتمع - يا قوم - تجد المرعى خصباً ممرعاً، في ظل الديمقراطيات؛ حيث يتغنى الناس باسم الحرية فتوزع جهود الأمة، ويتفرق شيعاً، ويُشغَلون بالحزازات الحزبية عن السير في طريق الإصلاح والفلاح
راعني، وأيم الحق، تلك الحرية العجيبة، وكيف أن عقول الناس في هذا البلد، تصغي إلى كل هذه المبادئ المتباينة ولا تتأثر بها، وكيف أن حلمهم يسع كل هذه الطعنات في أنظمتهم وعقائدهم وآرائهم. ولو كان هؤلاء الدعاة في أمة أخرى غير إنجلترا لزجوا في غيابات السجون، أو حزت ألسنتهم أو قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف لما ينفثونه بين الناس من سموم، وما يريدونه من شر بالحكم ونظامه والمجتمع واستقراره
تركت تلك الجلبة الصاخبة، وأخذت أجوب الحديقة، فشاهدت ما لا عين رأت ولا أذن سمعت؛ رأيت الفضيلة تذبح في معبد الشهوات، والناس لا يتورعون عن الفاحشة تحت شمس الضحى، وقد عادوا أشبه بالضواري في أدغالها، لا قانون ولا نظام ولا حرمة ولا حياء. انتهكت الأعراض علانية، ووطئت المكارم طواعية؛ ولم يرتفع صوت يهيب بهم: أن رفقاً بمبادئ الإنسانية والشرائع الدينية، والمثل الخلقية
بل سمعت أدهى من ذلك وأمر، أعني حماية رجال الشرطة لكل من في الحديقة، والضرب على يد كل من يتصدى لهم واعظاً أو مبكتاً، وأن الحديقة حرم يأوي إليه كل من يريد أن يفرج عن نفسه أو يطفئ نار شهوته، أو يفوه بما يعد جريمة في مكان غير هذا؛ وأن الشعب هنا يسير على سجيته وفطرته، فلا يتقيد بعرف أو نظام، بل يتمتع بالحرية المطلقة
فقلت: رحماك ربي، إن هذه أعجوبة العصر. . .!
ثم سألت شرطيا: أيتاح لي أن أعتلي منبراً كهؤلاء الخطباء؟
- ولم لا؟ ما عليك إلا أن تستأجر منبراً وتقول ما شئت، وإن استجاد الناس حديثك استمعوا لك، وإن لم يلذ لهم انفضوا من حولك
تركته شاكراً متعجباً، وقد عقدت العزم على أن أدحض باطل هذا الدجال الصهيوني الذي يفتري على الحق، ويعلي كلمة الزور والبهتان، ويدعي وطناً ليس له بحق عربي مبين؛ وقلت لنفسي: ما دام للدهماء في هذه البلاد كلمة وسلطان فجدير بي أن أسمعهم صوت فلسطين العربية
ثم عدت وزمرة من لداتي أبناء العروبة، نتبارى في تبيان قضية العرب العادلة؛ وكانت ملحمة حامية الوطيس بيننا وبين الصهيونيين، سأرجئ وصفها إلى حديث آخر إن شاء الله
عمر الدسوقي
وليم بتلر يايتس
الفنان الذي أوجد لأمة أدباً
1865 - 1939
للأستاذ عبد الكريم الناصري

في الثامن والعشرين من شهر فبراير، وفي روكبرون من كاب مارتن من أعمال فرنسا، فقدت أيرلندا وفقد معها العالَم عبقرياً من النسق الأعلى: وليم بتلر يايتس، زعيم حركة (الإحياء السلتي) وعميد الأدب الأيرلندي، وشاعر أيرلندا الأكبر، ومؤسس مسرحها الأول، وخالق نهضتها الأدبية والفنية، وعميد المذهب الرمزي في الأدب الإنجليزي الحديث. . .

كتب النقّادة (روبرت لِنْد) بعد وفاة يايتس يقول: (ما كان الفقيد فناناً عظيماً فحسبُ، وإنما كان إلى ذلك رسولاً عظيماً من رسل الفن؛ جعل حياته في سبيل خلق حركة أدبية ومسرحية أنزلت أمته أكرم المنازل بين الأمم)

ولعلّ أغلب الذين رأوه في صدر شبابه ورأوا ذلك الشعر الأسود الفاحم وتلك (الربطة) وتلك اليد الشاحبة، لم يكونوا ليروا فيه إلاّ أخا خيالات وأحلام لا قدرة له على عمل ولا صلاح فيه لتنظيم

بَيْدَ أن (يايتس) كان يشتمل على طاقة روحية وقوة حماسية لا حدَّ لهما، وكان في الوقت نفسه (عملياً) لا يقل عن غيره من أهل التنظيم والإنشاء، والمعنيّين بمسائل الجمعيات وإدارتها، حدّة ذهن وسرعة خاطر) - (وإذا كان (البعث الأيرلندي الأدبي) حدثاً من أشهر أحداث زماننا هذا فإنه إلى حماسة يايتس ودعايته ينبغي أن يُوّجه أكثر المدح والثناء)

- 2 -

ولد المستر (وليم بتلر يايتس) في (سانديماونت) من (دبلن) في 13 يونية سنة 1865، وكان أبوه مصوّراً معروفاً وكان جدّه لأمّه تاجراً قديراً. أدخل وهو ابن تسع (مدرسة غودلِفنْ) بلندن، وحين بلغ الخامسة عشرة دخل (مدرسة إراسموس سميث). ثم دخل

الجامعة وتخصّص في التصوير، ثم انصرف إلى الشعر. وكان في العشرين حين نشر في (مجلة جامعة دبلن) أولى قصائده وهي (جزيرة التماثيل)

ويايتس نفسه يصف انصرافه إلى الشعر بأنه أكثر من استجابة لدافع من الطموح الشخصّي (فما كان موضوع أحلامه يومئذ) كما يقول النقّادة فورست (بأقلّ من خلق أدب لأيرلندة كامل. ففي تلك الأحلام تستقُّر بذور (الحركة الأيرلندية) الحديثة؛ ومع أن فكرة إنشاء مسرح قوميّ كانت لا تزال بعيدة، فإنها هي أيضاً لم تك إلا تطوّراً لطموح غلام لا يتجاوز العشرين)

كيف استطاع ذلك الفتى الصوفي الحالم، الذي كان فيما روت أديبة ناقدة في كتاب لها عنه عنوانه: (ذكريات خمس سنين) يظلّ ساعات من النهار يقرأ الشعر، ويترنم به في زاوية من الدار وهو في شبه غيبوبة، ولا يتذكر الجوع أبداً إن لم يذكّر به؛ أو ينهضُ في الهزيع الأخير من الليل ليقضي ما تبقى منه في الغناء والإنشاء، والذي كانت الراوية المذكورة تسلمه الرسالة ليُلقيها، وهو المطيع أبداً في صندوق البريد، فيتناول الرسالة ويضعها في سلة عظيمة، ويحمل السلة إلى دار البريد، والرسالة المسكينة تعلو وتنخفض، وتقوم وتقعد هنالك! والذي اتفق له مرّة أن كان واقفاً وهي إلى جانبه على الرصيف في الليل، ينتظران عربة، والمطر ينهمر مدراراً، والطريق موحل، والماء إلى الركب، فتذكر قصيدة شلي الطويلة: (النَّبتة الحساسة). فاندفع يصب الشعر في أذنيها وقد مالت المظلة التي كانت بيده بحيث لا تقي أيَّاً منهما! والذي شاهده أحد أصدقائه الشعرّاء مرة يرسم صورة لغابة أمامه، في وهج الظهيرة، والشمس تذيب الصخور؛ فلما دنا من الصورة، وجد المشهد هو مشهد الغابة ولكن الألوان. . . هي أشعة القمر!

أقول كيف استطاع هذا الشاعر الصوفي الحالم الذي ما سقنا الأمثلة السابقة من حياة صباه إلاّ لنبّين أنه ذاتيٌّ منطو على نفسه، أن يتزعم الجمعيات الكبرى، ويترأس حركة قومية وأدبية فنية تعدُّ (من أشهر أحداث زماننا هذا؟ لست أدري؛ فذلك سر من أسرار العبقرية والوراثة

ولكن الذي أدريه أن حياته كانت سلسلة باهرة من الفتوح (يتضح مَداها) كما يقول المستر روبرت لند، (لكلّ من يقارن بين مركز الأدب الأيرلندي في اللسان الإنجليزي قبل أن يبدأ

يايتس في الكتابة والنظم، وبين مركزه عند وفاته، لقد كانت أيرلندا قبل يايتس لا وجود لها على خريطة العالم الأدبية، ولكنها بقيادته أضحت مثوى للعبقرية. فليس (لأديب من أدباء هذا العصر أن يفخر بعمل أجلّ من عمله وأبرز

لقد التقت في (يتس) تأثيرات أيرلندية وإنجليزية وأوربية، فهو فنان رمزي، أو لعله شبه رمزي، يستمد الوحي والمادة من تقاليد أيرلندا القديمة، ومن أساطيرها البعيدة، ومن مشاهد أريافها وأرضها وسمائها، وقلما التفت إلى أهل البلاد أنفسهم، (ولكن أليست عبقرية البلاد ساكنيها؟) ويقوم شعره وخصوصاً في شبابه - وشعر شبابه قد يكون أروعَ من شعره فيما بعد، وأصدق عبارة عن طبيعة عبقريته - على صوفية رقيقة تذكر في غرابة أحلامها وشدة أسرها بصوفية (بلايك) وقد تميل إلى الرمزية وخصوصاً في مجموعته الموسومة (بالريح بين القصب) وقد ظهرت قبل بدء هذا القرن وبعد اتصال الشاعر (بملارميه) كما يقوم شعره على الألوان الغاسقة والأضواء الخافتة بوجه عام

ولفظه صقيلٌ نقيٌ بسيط. وهذه الصفة وإن غلبت على الشعر الرمزيّ والصوفيّ على العموم، لكنها في شعر يتس ترجع أيضاً إلى تأثره (بمدرسة ما قبل رفائيل). وهي مذهب في الشعر يتعلق بمذهب في التصوير تقدَّم عليه، وأساسه الرجوع بالأسلوب إلى أبسط الصور الممكنة مع العناية المبالغة بجماله وروعة إيقاعه، ثم قَصْرُه على التعبير عن معانٍ عاطفيّةٍ أو خياليّةٍ خالية من تعقيد الفكر والفلسفة. (فالفن) فوق كل اعتبار، والفنّ هو دينُ هذه المدرسة التي لا تدين بغيره. ومما يلاحظ ههنا أن أساطين هذه، ومنهم يتس، جمعوا بين فن التصوير وفن الشعر.

ولعلنا لا نغلو إذا نحن قررنا أن هذا الحس بجمال الشكل بلغ في يتس حدّاً هو إلى الإعجاز أدنى.

وليس فهم يايتس بالمطلب الهين الداني؛ ولكنك إن فهمت معنىً من تلك المعاني (الضبابية) القصية الحاملة لجو (اللاشعور) السحريّ الغاسق، ارتد جزءاً من أجزاء نفسك لا يتجزأ، وعنصراً من عناصر حياتك لا ينفكّ يعمل فيك عمله.

وليس يايتس بشاعر من (شعراء الطبيعة) - إن قصدنا بالطبيعة الطبيعة الخارجية - وإنما

هو كما سبق القول وبينت الأمثلة صوفي ذاتي (وما العالم الذي نجده في شعره إلا عالم مرَّ في دنيا خياله فتلفع بالغسق المخيم هناك). وما الطبيعة عنده إلا بحزن للرموز والحالات النفسية. فصيحة الطير رمزٌ لحبٍ مفقود، أو لقب هام على وجهه في طلاب حُبّ. وعويل الريح رمز للأسى وشهادة بالألم، وجَريَان الماء مثلٌ لذويّ الحسرة ومضيّ الزمن:

(لقد سمعت الشيوخ الطاعنين يقولون:
كل شيء يحول،
ولسوف نقضي واحداً إثر واحد، ونمضي
وكانت لهم أيد كالمخالب، وكانت سوقهم ملتوية كأشجار الحسك القديمة، القائمة . . . بجانب الجدول
لقد سمعت الشيوخ الطاعنين يقولون:
كل جميل يمضي،
. . .كما يمضي الجدول

وخيال (يايتس) يبدو على الدوام كأنه خيالُ إنسانٍ (متعبٍ) وما هو على ذلك بمتعب، أو خيال إنسان يعيش في (التخوم) بين عالم الإنس وعالم الجن (على أني في الواقع لا أستطيع أن أعبر عن مقصدي بعبارةٍ أبين)

خيال يايتس يتّجه إلى (حيث تخوّضُ النجاد الصّخرية في البحيرة، فهنالك جزيرة وريقة، فيها الأطيار ترفرف وتصدح، فتوقظ فيران الماء الناعسة. . .) وهنالك تخفي الجنيات سلالهن المليئة بالتوت، وبالكريز الأحمر المسروق. . . هنالك:

(حيث الرسالة المعتمة الشهب
تلتمع تحت نور القمر،
وبعيداً غاية البعد عن أرض (روسن)،

سرينا، نحن معشر الجنيات،
راجلات،
نرقص قديم الرقصات،
فتختلط منا الأيدي وتختلط النظرات
حتى اختفى القمر. . .
فأنثيْنا نثب هنا وهناك
ونطارد الفقاقيع الراغية،
بينما الدنيا مترعة بالآلام
والإنس قلقون حتى في المنام). .
(البقية في العدد القادم)
عبد الكريم الناصري
العاقل
للشاعر الألماني باول ارنست
للأستاذ بديع شريف
الأشخاص: (سقراط، ألسيبياد ,
المكان: (شارع في أثينا أمام بيت سقراط، السوق في المساء)
الاثنان يبتعدان من بيت سقراط، بينما اكسانتيب تشتمهما من النافذة، ويذهبان إلى (سوق المساء)
ألسيبياد - حدثتني نفسي كثيراً بأن أسألك يا سقراط عن عيشتك مع المرأة التي تزوجتها لأني أعلم أنك رجل ذكي الفؤاد، وأنك ما أقدمت على الزواج في صغرك إلا لأمر، ولا اخترت هذه المرأة إلا بعد تفكير
سقراط - إنك على حق يا ألسيبياد! فإني ما تزوجت إلا بعد أن علمت أن الآلهة ألقت في نفسي شيئاً وأني أريد أن أقوم به على أتمه، ولكني وجدت نفسي محتاجة إلى زوج أسكن إليها، فإننا معشر الرجال لا نستغني عن المرأة، ولكني ما فكرت قط في مالها وجمالها وحسبها، بل فكرت دائماً أن تكون لي زوج هادئة قنوع مرحة أستطيع أن أسكن إليها وأفكر في جنبها
ألسيبياد - أتقول إن كسانتيب كائن هادئ مرح، قنوع؟
سقراط - أتعتقد أن سقراط تزوج كسانتيب ولم تتزوج كسانتيب سقراط؟!
ألسيبياد - نعم، إن كسانتيب أيضاً تزوجت سقراط
سقراط - وماذا تظن في كسانتيب، هل فكرت في شيء حين تزوجتني؟
ألسيبياد (ضاحكا) - ظنت أنها تزوجت رجلاً مجتهداً عاملاً يكسب الدرهم، لتعيش هي مع أولادها على حسب منزلتها في المجتمع
سقراط - يظهر لي أن قولك الحق، ولكن يا ألسبياد! ماذا عساها تقول عني اليوم؟
ألسيبياد - إنها ملأت الشارع سباً، وعرفت جميع المارين أنك رجل باهلٌ وأنك تقضي طوال النهار تهذي مع الشباب بدلاً من أن يكون لك محل تعمل فيه.
سقراط - أتظن أنها على حق؟
ألسيبياد - ليس لها حق! ولكن لها أن تقول: إنني امرأة فقيرة، أريد رجلاً غير هذا. أريد زوجاً يكتسب، لا زوجاً يتفلسف
سقراط - ربما تريد قصاباً، أو خبازاً
ألسيبياد - نعم! تريد مثل هذين، فتكون له زوجاً مدبرة نظيفة مجتهدة مقتصدة يخشى بأسها الخدم
سقراط - ألست على الحق حين أقول: إنها امرأة أثرة، معتدة بنفسها، غضوب، سيئة غبية، حمقاء؟
ألسيبياد - لا! لست على حق، لكن لك أن تقول: إنني رجل تأمل فرأى نفسه محتاجة إلى زوج هادئة، مرحة قنوع، يستطيع أن يفكر في جنبها.
سقراط - لقد وصلنا إلى السوق، وهاهي ذي امرأة الفلاح جالسة، تلك التي ضحكنا منها كثيراً عندما كانت تحدثنا عن دجاجها وتثني على بيضها. أتعرف ماذا كانت تقص علينا؟ كانت تقول: عندي عشرون دجاجة وديك واحد، في كل يوم يبيضن عشرين بيضة، آتي بها إلى سوق أثينا فأبيعها، وإن دجاجي لا مثيل لها في القرية، وقد يكون في

البيضة محان، لذل لا ينثني عن من اشترى مني أول مرة. ولا أكذبكم فقد تكون بيضة في هذا البيض ذات محين. إنني محسودة من جميع الجيران، ومن له مثل هذا الدجاج لا يعدم الحساد. إن لي مشترين كراماً يعرفون أن دجاجي من الطراز الأول. وكيف أقتني الرديء وقد ورثت تربية الدجاج أباً عن جد؟ أتدري يا ألسيبياد ماذا أوحت هذه المرأة إلى (أرسطوفان) فطفق يتحدث عن دجاجها؟ لقد أطرق أرسطوفان مليا ثم وضع إصبعه على أنفه وقال: دعونا نذهب إلى دار هذه المرأة ونسأل دجاجها ثم نرى ماذا تقول؟ إني لا أشك في أنها ستقول: إننا بين يدي امرأة صالحة تنثر لنا الحب الملتوت بكثير من المشهيات في الصباح وعند الظهيرة وفي المساء بنظام لا يتغير. على أننا لا ننسى ذلك الصوت الحنون الذي نسمعه عند كل وجبة، وإذا قدمت لنا الماء قدمته عذباً صافياً، وفي كل عام تطلي قننا بالكأس مرة أو مرتين، وبالإيجاز إننا راضيات عن هذه المرأة ولا نريد امرأة كسلي لا نظام عندها لأننا ما تعودنا الإهمال وعدم النظام. هكذا كان ينشد أرسطوفان في شعره فكلكم ضحك عليه وسخر منه، لأنه استطاع أن يعبر عن نفسية الدجاج لكن ماذا ترى؟ إني أرى بين يديها دجاجاً مذبوحاً!

الفلاحة: أتريدون مرق دجاج سمين؟ هلما! إنه دجاج حديث الذبح. المساه، إنه سمين. انظرا هذه القطعة الصفراء، إن أجوافهن مبطنة بالشحم، كل دجاجة تزن أكثر من ثلاثة أرطال

سقراط (إلى المرأة): يسرني أن أعرف شيئاً عن تربية الدجاج أيتها الفلاحة! فهل تستطيعين أن تعلميني: أيهما أنفع لك، ذبح الدجاج وبيعه في السوق ليطبخ ويؤكل أو تعنين به كل يوم فينتج لك البيض وتبيعينه في السوق؟

المرأة - وا حسرتاه! إن هذا الدجاج الخائن كاد يقضي عليَّ من الحقد والحزن عليه؛ فإن واحدة منهن باضت بيضة لم يتكامل قشرها، فأكلنها حالاً فاستذوقنها، وجعلن ينقرن البيض كلما بضن ثم يأكلنه، فما حصلت بعد هذا على واحدة. لهذا ذبحتهن. المساهن. إنهن سمينات. لقد كان لهن بيض نقي يندر وجوده في القرية. ويلهن! إنهن خائنات

سقراط - شكراً أيتها المرأة الصالحة، إني لا أريد شراء

الفلاحة - كل واحدة بدرهمين، منتوفة، منظفة. انظرا، هاهما تان الرئتان، هاهي ذه القانصة، هاهو ذي الكبد، والقلب، كلها موضوعة في الجوف، إن امرأتيكما تستطيعان أن تضعاها في القدر حالاً

ألسيبياد (إلى سقراط) - يجب أن نذهب بسرعة

الفلاحة - أما رأيتما غير هذه المرأة المسكينة موضوعا للهذر والتسلية أيها النكدان! إن رجلاً مثلك كسلان، لا يمتلك حذاء يستطيع أن يأكل دجاجاً؟ (المرأة تستمر في السب بحيث لا يتميز كلامها وهما يسرعان الخطا)

سقراط - ماذا تعتقد يا ألسيبياد في الدجاج؟ لو استطاع أن يتكلم حين ذبحته المرأة فماذا يقول؟؟

ألسيبياد (واضعا إصبعه على أنفه) - إنه يقول إن هذه المرأة لخائنة لقد ذبحتنا، إنها سفاكة، لقد كان علينا أن نعرف نياتها من قبل!

سقراط - ماذا تظن يا ألسيبياد؟ هل تغير الدجاج، فكان قبلاً صالحاً ثم صار خائناً؟ وهل تغيرت المرأة حيث كانت ودوداً ثم عادت خائنة سفاكة؟؟

ألسيبياد (ضاحكا) - إن الدجاج هو الدجاج، وإن المرأة هي هي. لكن كلٌ في هذه الحياة يعتقد إنه هو الموجود الأهم. وليس هذا فحسب، بل على الغير أن يشاركه في هذا الاعتقاد. على أن هذا الغير يعتقد كما يعتقد الاول؛ لذلك كان الدجاج صالحاً عند المرأة؛ لأنه كان يقدم لها البيض، فلما احتفظ الدجاج ببيضه لنفسه أصبح خائناً. وكانت المرأة صالحة عندما كانت تقدم للدجاج الطعام، فلما ذبحته عادت سفاكة خائنة

سقراط - وحق الكلب! إن الأمر يجري هنا كما يجري هناك، أي كما يجري بيني وبين زوجي كسانتيب

ألسيبياد - إسمع يا سقراط - إنك تعرف أنني وقفت حياتي في خدمة الدولة وعالجت شئونها، ألا يحتمل أن تنشأ العداوة والبغضاء بين الناس كما نشأت بين الدجاج والمرأة؟؟

سقراط - يظهر لي أن هذه الفكرة لم تكن خطأ
ألسبياد - وأيضاً ليس كالعداوة بين المرأة والدجاج فحسب بل مثلما بين سقراط واكسانتيب؟
سقراط - ربما يكون الأمر كذلك
ألسبياد - لكن أيترك الرجل العاقل الناس يشتمون ثم يعمل هو ما هو الواجب
سقراط - هذا ما أعتقد.

بديع شريف

على هامش الفلسفة

طريقة الأخلاق

للأستاذ محمد يوسف موسى

قلنا في الكلمة الأخيرة: ما هي الطريقة التي تتبع لمعرفة الخير من الشر، ولتحديد المثل الأعلى الأخلاقي تحديداً صالحاً مرضياً من الجميع؟ تساءلنا كذلك بعد أن أثبتنا أن الأخلاق علم من العلوم فيجب أن نسير في دراسته على الطرائق العلمية التي تصل بنا إلى الغرض في غير عوج ولا التواء

على أن الفصل في هذا ليس سهلاً ميسوراً؛ فهي مسألة ولا أبا حسن لها! مسألة اشتجر فيها الخلاف بين المفكرين والفلاسفة، بل لعل الخلاف لا يزال قائماً فيها حتى اليوم. يرى البعض أخذ الأخلاق من الدين - فهو المعين الذين ينقع الغلة ولا يكذب قاصده - أو مما وراء الطبيعة أو من علم الاجتماع؛ ويرى آخرون أنه من الخير أن نتعرف المبادئ الخلقية بأداة المعرفة المباشرة أي بالحماسة الخلقية التي تدرك الخير والشر من نفسها بدون نظر واستدلال: (استفْت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك)؛ بينما يذهب غير هؤلاء وأولئك إلى أن الواجب أن يطبق في الدراسات الأخلاقية الطريقة التجريبية الاستقرائية

الأخلاق الإستنتاجية

من الممكن كما يرى فريق من الباحثين أن نستنتج الأخلاق إما من الدين أو مما وراء الطبيعة أو من العلم الذي تنتمي إليه العلوم وهو علم الاجتماع

بالبحث نعرف أن الأخلاق، أو المبادئ الخلقية العامة، في كل الأديان التاريخية مستقاة من الإلهيات. نرى رجال الدين يقررون أولاً المسائل الخاصة بالله وصفاته وكمالاته، وبالحياة الأخرى ونعيمها وعقابها، ثم يربطون بذلك نتائج خلقية مردها للكتب المقدسة. يقررون أن الله لم يخلقنا عبثاً: (أفحسبتم إنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون) وأنه لابد محاسب كلا على ما جنت يداه: (لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت) وأنه لابد من دار أخرى يكون فيها ذلك الحساب على ما أسلف المرء من خير أو شر: (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً). كما يقررون أن

الجنة التي عرضها السموات والأرض (أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء، والكاظمين الغيظ، والعافين عن الناس) وأن النار عقبى الظالمين.

ويستنتجون من هذه الحقائق الدينية وأمثالها أن المرء يجب أن يكون خيّراً في كل أعماله، وأن ينأى دائماً عن الشر وبذلك يصل للكمال الأخلاقي. والخير والشر هنا ما جاءت به الكتب السماوية

استنتاج منطقي حسن من الناحية العملية؛ إلا إنه ليس له القيمة التي تؤتى ثمرها الخلقي إلا لدى المؤمنين بالله والدار الأخرى والثواب والعقاب وبهذا أو ذاك من الكتب المقدسة. فكيف العمل بمن لا يؤمن بإله أو رسول، أو بمن يؤمن بالإنجيل دون التوراة، أو بالعكس، أو بهذين دون القرآن الكريم؟ إذن ليس من الممكن بهذا الطريق أن نصل لتحديد قانون أخلاقي يرضاه الناس جميعاً على ما بينهم من خلف في الأديان والمعتقدات (فضلاً عن هذا فالرباط الذي يكون بين هذه العقائد الدينية والأفكار والآراء والمبادئ الخلقية التي يربطونها بها يكون غالباً واهياً متداعياً، فلا يكون الاستنتاج قوياً له قيمته وخطره)

وهاهو ذا العلامة (جوستاف بيلو يقول عن هذه المسألة (من الناحية المسيحية طبعاً): (ليفتح من يشاء أي كتاب من كتب العقائد الدينية: وحينئذ ماذا يجد. يجد أن الجانب الأكبر منه مشحون بالنظريات الخاصة بالله وقدرته وصفاته وأن الأخلاق تجيء في

المركز الثانوي منه، وأنه من الواجب أن نكره الطفل على أن يفهم ويقبل نظاماً من الاعتقادات الدينية دون أن نعني بالتساؤل عما إذا كان في مقدوره فهمها! إن رجال الدين يجأرون بالشكوى من تزعزع الأخلاق وتدهورها من يوم لآخر لأن الإيمان يتزلزل من آونة لأخرى. لو أن هذا كان صحيحاً فعلى من تقع التبعة والمسؤولية؟ أليس على هؤلاء الذين يعملون دائماً على تفهيم الأطفال أن الأخلاق تتعلق دائماً بالدين والعقائد الدينية؟ مع أنه ليس في مقدورهم حماية هذه الاعتقادات من حملات الشك ومعاركه التي تنشب من حين لآخر. إنه مما يتفق مع حقائق الأشياء كما يتفق مع الحقائق العملية أن يرد للأخلاق استقلالها)

ينقد هذان الأستاذان الباحثين في الأخلاق من المسيحيين، وقد أصابا في كثير مما نقداه. إن الديانة المسيحية أعلنت في مبدأ أمدها الحرب الضروس على الفلسفة الإغريقية معلنة أن الأخلاق ليس لها أن ترجع في معينها للعقل والنظر، ولا أن تُترك للفلاسفة الذين هم بشر

يخطئون ويصيبون؛ وإنما الدين وحده هو الحري بنشر التعاليم الصحيحة والأخلاق الفاضلة التي يوحي بها العليم الحكيم؛ ومن ثم أصبحت الأخلاق لا ترتكز على النظر المنطقي السليم، بل على الوحي المسيحي وحده، وصار أجل الفضائل في نظر المسيحية هو حب الله والإيمان به اللذان يوصلان إلى الخير الأسمى والسعادة الكاملة في الدار الأخرى بدل أن كان أرقى الفضائل وأسماها هي الحكمة في رأي الفلسفة اليونانية

أما الإسلام فلم يبخس العقل حقه ولم يحجر عليه في التفكير. أمرنا أن نعمل عقولنا فيما خلقت له، وأن نفكر في خلق السموات والأرض: (وفي الأرض آيات للموقنين، وفي أنفسكم أفلا تبصرون. إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون. إن في ذلك لآيات لأولى الألباب). كذلك لم يلجأ الإسلام في تحديد قيم الأعمال الأخلاقية، وبيان خيرها من شرها إلى ما فيها من منافع وملاذ في العاجل أو في الآجل كما يتوهم واهم إذا قرأ وصف الجنة، والترغيب فيها، والنار والترهيب منها؛ بل هو يخاطب كلاًّ حسب ما يسعه فهمه تمشياً مع الغرائز الإنسانية. حتى إذا فعل المرء خير رجاء الصواب مرات عديدة أصبح له عادة، ويتشربه قلبه ويفهم ما فيه من جمال وسمو ذاتيين، فينتهي به الأمر إلى أن يفعله لذاته وحده. وهذا عين ما أراده الرسول إذ قال: (نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه). أي أن المثل الخلقي الكامل هو ما وصل إليه صهيب وأمثاله من فعل الخير، وترك الشر لذاتهما لا رغباً ولا رهباً.

على أننا نجد في تاريخ التفكير الإسلامي أن فريقاً كبيراً من المسلمين وهم المعتزلة يقررون أن الأعمال توصف بالحسن والقبح لذاتها لا لأن الشرع أمر بها أو نهى عنها، فيكون الشرع مبينا لصفاتها لا مثبتا لما ليس فيها. ويدللون لذلك باتفاق الناس على كثير من الفضائل والرذائل قبل مجيء الشرائع السماوية، إلى غير ذلك من الأدلة التي ليس هذا موضعها وليس هذا رأي المعتزلة وحدهم بل كان رأي غيرهم من مفكري المسلمين وحكمائهم أمثال الفارابي الذي يؤكد أن العقل يستطيع أن يحكم على العمل بأنه خير أو شر بنفسه بدون رجوع للوحي؛ لأن العقل عنده ليس إلا قبسا من النور الإلهي. وابن طفيل في رسالة (حي ابن يقظان) يجعل العقل قادراً على إدراك الحقائق كلها (ومنها طبعاً الخير والشر) وعلى العروج في المعارف العُلى حتى يصل للحقيقة المطلقة، لمعرفة الله تعالى.

وابن رشد فيلسوف الأندلس بل الإسلام يقرر أن العمل يكون خيراً أو شراً لمعان يكشفها العقل، وليس ذلك لأن الله أمر أو نهي

والخلاف في هذه المسألة يذكرنا بالخلاف بين الفلاسفة المحدثين فيما سمَّوه (نظرية القيم). فإنا نراهم مختلفين في أن القيم التي تقدر بها الأشياء من جمال وقبح وخير وشر وحق وباطل صفات عينية في الأشياء؛ كالألوان والطعوم والروائح، وبذلك يكون لها وجود مستقل عن العقل الذي وظيفته حينئذ إدراكها لا إثباتها؟ أم هي من صنع العقل (يصف بها بعض الناس الأشياء إذا كانت لها في نظرهم قيمة، ولهم فيها غرض أو غاية، ولا توجد إلا حيث توجد هذه الغاية). ذهبت طائفة إلى الرأي الأول، وأخرى إلى الرأي الثاني. ولكل وجهة هو موليها.

وأخيراً؛ إذا كان أخذ الأخلاق من الدين وربطها به منقوداً من بعض نواحيه كما رأينا،

فهل من الممكن استنتاجها من معين آخر؟ ذلك ما حاوله كبار علماء ما وراء الطبيعة. وموعدنا ببسط آرائهم الكلمة الآتية إن شاء الله تعالى.

محمد يوسف موسى

التاريخ في سير أبطاله

أحمد عرابي

للأستاذ محمود الخفيف

أما آن للتاريخ أن ينصف هذا المصري الفلاح، وأن يحدد له مكانه بين قواد حركتنا القومية؟

ظل عرابي في مرحلته الأولى في الجندية ساخطاً على الأتراك في الجيش والجركس لا يفتر سخطه ولا ينقطع عليهم شغبه، يكيدون له ويكيد لهم. وإنا لنلمس في هذا سبباً قويّاً من أسباب زعامته للحركة العسكرية فيما بعد، فلسوف يلتقي في دار هذا المتبرم الساخط رؤوس الساخطين الحانقين من رجال الجندية يوم يزمعون أن يشتكوا إلى الحكومة في أوائل عهد توفيق مما يلحق بهم من سياسة وزير الجهادية الجركسي عثمان رفقي

ويشير عرابي في مذكراته إلى حسن صلته بسعيد باشا حتى لقد أهدى إليه هذا الوالي كما يذكر تاريخ نابليون؛ ولقد قرأ عرابي هذا التاريخ، ولست أستطيع أن أتبين على وجه التحقيق ما تركه مثل هذا الموضوع من أثر في نفسه، فلم يعلق هو على ذلك إلا بقوله: (ولما طالعت ذلك الكتاب شعرت بحاجة بلادنا إلى حكومة شورية دستورية، فكان ذلك سبباً لمطالعتي كثيراً من التواريخ العربية)ـ ولست أدري كيف توحي قراءة تاريخ نابليون بحاجة مصر إلى حكومة شورية دستورية؟ على أن قراءة سيرة هذا الجندي المغامر الفذ الذي وصل بجده إلى قمة المجد الحربي وبلغ أوج الشهرة والجاه توحي إلى كل من يقرؤها معاني الإقدام والبطولة، وتملأ النفوس تطلعاً وحماسة. وعلى هذا فلا يصعب أن نتصور ما عسى أن تلقيه تلك السيرة من المعاني في نفس كنفس عرابي الجندي المتطلع المتوثب

ويشير عرابي في كتابه إلى أن سعيداً كان يميل إلى المصريين في الجيش والى رفع ما يلحق بهم من غبن أمام الجركس، كما يشير إلى إنه كانت لسعيد نزعة وطنية تجلت في خطبة أثبتها عرابي في كتابه وكان قد سمعها في الحفلة التي ألقيت فيها، يقول عرابي: (فلما انتهت الخطبة خرج المدعوون من الأمراء والعظماء غاضبين حانقين مدهوشين مما سمعوا؛ وأما المصريون فخرجوا ووجوههم تتهلل فرحاً واستبشاراً. وأما أنا فاعتبرت هذه الخطبة أول حجر في أساس نظام مصر للمصريين. وعلى هذا يكون المرحوم سعيد باشا هو واضع أساس هذه النهضة الوطنية الشريفة في قلوب الأمة المصرية الكريمة)

ولقد كتب عرابي هذه الآراء بعد الثورة، ولعل في ذلك ما يدعو إلى ضعف الثقة في قيمتها عند بعض المؤرخين، كما هو الحال في مذكرات نابليون التي كتبها في منفاه في سنت هيلانة، فلقد أخذها بعض المؤرخين على إنها دفاع من جانب نابليون عن أعماله بعد أن خلا إلى نفسه فنظر وتدبر

ولكن أعمال عرابي التي لا ينكرها المؤرخون حتى المغرضون منهم لا تتناقض مع كثير مما جاء في مذكراته. وعلى الأقل في هذا الجانب الذي نتلمس فيه الدليل على ما نحسبه من أن عرابياً قد اتجه منذ نشأته اتجاهاً قومياً وطنياً، وهذا أمر نراه على جانب عظيم من الأهمية. ففي هذه النزعة القومية نرى عرابياً الحقيقي. أما عرابي الذي صوره خيال المغرضين من المؤرخين فما أبعده عن هذا. وهل كان يحلو لهؤلاء الذين استغلوا حركة عرابي أقبح استغلال، إلا أن يصوروه أقبح صورة؟ فلا يكون عندهم إلا جندياً جاهلاً مغروراً واتته الظروف فراح يخبط في حماقته لا يلوي على شيء وما زال في جنونه يلوح بسيفه حتى اضطر آخر الأمر أن يسلمه صاغراً إلى قائد جيش الاحتلال الإنجليزي!

ما كانت حركة عرابي عسكرية بحتة، وما كان هو بالأحمق ولا بالمجنون، وإنما كان لابد أن تلتقي الحركة العسكرية وهي لا تخلو من الصفة الوطنية بالحركة الوطنية العامة؛ ثم لقد تم هذا الالتقاء في شخص عرابي، وكان النجاح حليفه فيما طلب باسم الأمة يوم عابدين، ولا لوم عليه بعد ذلك ولا جناح أن تحاك الدسائس وتوقد نار الفتنة تنفيذاً

. . .لسياسة مرسومة سوف نميط عنها بكل ما وسعنا من حجة
هذه النزعة الوطنية القومية في نفس هذا المصري الفلاح مع ما توافر له من صفات الغيرة والبسالة، هي التي جعلت إليه قيادة الحركتين يوم التقتا. ولقد كانت هذه النزعة كما ذكرت تجيش بها نفسه منذ شب. كتب في ذلك مستر بلنت وكان من أصدقاء عرابي يقول في علاقة عرابي بسعيد: (وقد حظي عرابي الذي كان وسيما ووجيهاً برضائه حتى سمى أركان حرب له ورافق سعيداً إلى المدينة في السنة التي سبقت وفاته. وعندي أن عرابي كون آراءه السياسية الأولى أثناء حديثه مع سيده في هذه السفرة التي كانا فيها متلازمين،
وتنحصر هذه الآراء في المساواة بين الطبقات، وفي الاحترام الواجب للفلاح باعتباره العنصر الأساسي المجد في الجيش المصري؛ وهذا الدفاع عن حقوق الفلاح هو الذي ميز عرابيا عن مصلحي ذلك العصر. وغني عن البيان أن حركة الإصلاح الأزهرية كانت تشمل المسلمين ولا تميز بين الأجناس؛ أما حركة عرابي فكانت قومية ولذلك كانت الوطنية فيها أظهر، وإقبال الناس عليها أقوى وأكثر)
وفي عهد إسماعيل يزداد نفور عرابي من الجركس وتزداد ميوله الوطنية وضوحاً باتصاله بالحركة الوطنية التي أخذت تدب في جسد الأمة المنحل الذي أثقلته سياسة إسماعيل وديون إسماعيل
وكذلك تزداد في هذا العصر نزعة تمرده وسخطه وتتجلى في كثير من مواقفه، ومن أهم تلك المواقف ما كان بينه وبين خسرو باشا الذي ما زال يكيد له حتى رفت من الجندية، وكان خسرو هذا جركسياً ويعزو عرابي سبب رفته إلى أن خسرو قد سار بالوقيعة بينه وبين وزير الجهادية متهماً إياه بأنه: (صلب الرأي شرس الأخلاق لا ينقاد لأوامره ولا يحفل بما يصدر منها عن ديوان الجهادية). وأما سبب الخلاف بينه وبين خسرو فيذكر عرابي إنه كان في لجنة لامتحان الضباط وكان على رأسها خسرو، فأراد أن يتحيز إلى أحد الجراكسة فيعطيه ما لا يستحق ولم يرض عرابي على رغم إلحاحه عليه أن يشايعه في ذلك فعول على الانتقام منه
والذي يعنينا من هذه الرواية أنها تصور لنا شدة الخلاف بين عرابي ورؤسائه في الجيش مهما كانت أسباب ذلك الخلاف، كذلك يكشف لنا ما علق به عليها عرابي عن ناحية من عقليته، فلقد راح يذكر ما حل بمن آذوه من المصائب معدداً أسماءهم مبيناً ما لحق بكل منهم مورداً ذلك على إنه انتقام له من الله. . . وفي هذا نوع من السذاجة لاشك كما أن فيه دليلاً على ما كان للدين من سلطان على عقل عرابي وقلبه
على أن هذه الناحية الدينية في حياته قد استغلها ضده خصومه كذلك محاولين أن يسوقوها دليلاً على إنه كان رجلاً لا يفترق كثيراً عن عامة الناس في جميع أفكاره ونزعاته، دون أن يشعروا أنهم بهذا التعميم الذي لا مبرر له إنما ينالون من عقولهم هم، أو على الأقل أنهم إذا كانوا يدركون خطأ هذا التعميم ثم يتمسكون به فإنما ينالون من أنفسهم لا من نفسه
كان للدين سلطانه على عقل عرابي ما في ذلك شك، ولكن تلك كانت نزعة العصر. على أننا نسأل ماذا يضيره من ذلك؟ وكيف يساق هذا على إنه من مساوئه وحقيق به أن يكون من حسناته؟ وهل عاب أحد على كرمويل وهو جندي مثله تزمته وتقشفه وصرامته في دينه؟ وهب إنه كان يغلو أحياناً فيخلط بين ما يتصل بالدين وما يتصب بالسياسة فهل مال به ذلك عن منهاجه السياسي أو صرفه عن وجهته التي عمل على بلوغها؟ وهل يستطيع أحد من خصومه أن يقيم الدليل على إنه اتخذ يوماً من الدين سلاحاً في غير محله؟ أو على إنه استغنى بالدعوة الدينية عن الجهاد والقتال حتى النهاية حين عملت خيانة بني قومه ودسائس أعدائه على انتزاع النصر من بين فكيه؟
ظل عرابي ثلاث سنوات مبعداً عن وظيفته إلى أن عفا عنه الخديو فعاد، ولكنه طلب أن يحال على الأعمال المدنية كمكافحة الفيضان والإشراف على بناء الجسور من ناحية نقل ما يلزم من الأدوات؛ وإنه ليذكر إنه بذل في تلك الأعمال جهداً كبيراً، ولكنه رأى غيره يكافأ مكافآت مالية أما هو فكان جزاؤه كما يقول: (وكوفئت أنا على تلك الأعمال الشاقة الجليلة بالتقاعد والراحة من غير معاش لحين ظهور خدمة أخرى، فيا لله ما أمر وأصعب تلك المكافآت المقلوبة على النفوس الحساسة الشريفة! وما أكثر

العجائب في الحكومات المطلقة المستبدة الظالمة)
على أن مستر بلنت يذكر أن تكليف عرابي بتلك الأعمال كان على غير رغبته، وأن ذلك كان سبباً من أسباب نقمته على العهد القائم يومئذ ومن دوافع انضمامه إلى الساخطين والمتذمرين
وأعيد عرابي بعد ذلك إلى الجندية وألحق بالحملة الحبشية، ولكن عمله في هذه الحملة لم يكن عمل الجندي المحارب فقد كان يعمل في منصب مأمور مهمات بمصوع. ولقد عظم حنق عرابي على تلك الحملة فهو ما يفتأ يندد بها في مذكراته ويصف ما حل بالجيش فيها من كوارث في غير موجب. جاء في كتاب مستر بلنت: (وقد عاد منها كسائر زملائه ساخطاً على ما حدث فيها من سوء التصرف، وإلى هذا يرجع تفرغه الآن للسياسة، وتعاظم غيظه الذي كان موجهاً بعد ذلك نحو الخديو)
وفي فبراير عام 1878 وقعت مظاهرة الضباط الخطيرة، تلك المظاهرة التي نلمح فيها
بوادر الثورة العسكرية. يتلخص الحادث في أن عدداً من الضباط بزعامة البكباشي لطيف سليم، قد توجهوا إلى وزارة المالية يطالبون بمرتباتهم المتأخرة، فلما حضر نوبار باشا رئيس الوزراء وكان معه السير ريفرز ولسن وزير المالية هجم هؤلاء الضباط عليهما وأشبعوا نوبار لطماً ولكماً وراحوا يجرونه من شاربيه، وامتدت أيديهم كذلك إلى وزير المالية؛ وكاد يتفاقم الحادث لولا أن خف إلى هناك الخديو بنفسه في فرقة من حرسه حينما نمى إليه خبره، وأمر الخديو بإطلاق النار إرهاباً فأطلقت رصاصات في الهواء وفر المتظاهرون
ولكن تهمة القيام بهذه المظاهرة أو تدبيرها قد وجهت إلى عرابي وأثنين آخرين من الضباط، وعقد لهم مجلس يحاكمهم وأصدر المجلس حكمه بتوبيخهم وفصل كل منهم عن آلايه إلى جهة بعيدة وكانت الإسكندرية نصيب عرابي، وفيها اتصل بكثير من الأوربيين
ويدفع عرابي التهمة عن نفسه مقررا أنه لا يد له فيها مطلقاً إذ كان في رشيد وقت وقوع الحادث، ذكر ذلك في مذكراته وذكره كذلك في التاريخ الذي كتبه لمستر بلنت بناء على طلبه عام 1903 بعد عودته من منفاه. ولقد أطلع مستر بلنت الشيخ محمد عبده على ما كتب عرابي، فوافق على براءته من هذا الحادث
ولقد أدى اتهام عرابي على هذا النحو إلى ازدياد كراهته لإسماعيل وعهد إسماعيل. ولسوف يكون ذلك من أهم الدوافع التي توجهه إلى الاتصال بالوطنيين بغية معاونتهم والاستعانة بهم على تنفيذ ما كانوا يأملونه من وجوه الإصلاح. ذكر عرابي فيما كتبه لمستر بلنت: (ولكن قبل أن نفترق اجتمعنا (يشير إلى الضابطين اللذين اتهما معه) فاقترحت عليهما أن نكون عصبة لخلع إسماعيل. ولو فعلنا لحللنا المسألة من وقتها لأن القناصل كانوا يرغبون في التخلص منه بأية طريقة. . . ولكن لم يكن قد ظهر بعد من يقود هذه الحركة فوافق الموجودون على رأيي ولكنا لم نقدر على تنفيذه)
(يتبع)
الخفيف
نقل الأديب
للأستاذ النشاشيبي
361 - لا أعرف منهم شخصاً ولا يعرفوني
طلع الدين مستغيثاً إلى الله وقال: العباد قد ظلموني! يتسمون بي وحقك لا أعرف منهم شخصاً ولا يعرفوني
362 - حتى نروي أشعار المجانين . . .
في (الأغاني) قال ابن دأب: قلت لرجل من بني عامر: أتعرف المجنون وتروي من شعره شيئاً؟
قال: أوقد فرغنا من شعر العقلاء حتى نروي أشعار المجانين؟! إنهم لكثير
فقلت: ليس هؤلاء أعني، إنما أعني مجنون بني عامر الشاعر الذي قتله العشق
فقال: هيهات! بنو عامر أغلظ أكباداً من ذاك، إنما يكون هذا في هذه اليمانية الضعاف قلوبها، السخيفة عقولها، الصعلة رؤوسها. فأما نزار فلا
363 - ثلاث كلمات بألف دينار

في (سرح العيون شرح رسالة ابن زيدون): كان رجل على عهد كسرى أتوشران يقول: من يشتري ثلاث كلمات بألف دينار؟ فتطير منه الناس إلى أن وصل إلى كسرى فأحضره وسأله عنها فقال: (ليس في الناس كلهم خير)
فقال كسرى: هذا صحيح، ثم ماذا؟
فقال: (ولابد منهم)
قال: صدقت، ثم ماذا؟
قال: (فألبسهم على قدر ذلك)
قال كسرى: قد استوجبت المال فخذه قال: لا حاجة لي به وإنما أردت أن أدري من يشتري الحكمة بالمال.

364 - أليس نكون شهداء الطرب

للعمري: قال محمد بن المؤمل: كنت مع أبي العتاهية في سميريته (مسالك الأبصار) ونحن سائرون إلى أشموني. فسمع غناء من بعض تلك النواحي، فاستحسنه وطرب له، وقال لي: أتحسن أن ترقص؟ فقلت: نعم. فقال: فقم بنا نرقص. فقلت: في سميرية؟ أخاف أن نغرق
فقال: إن غرقنا أليس نكون شهداء الطرب؟؟

365 - لا خوف عليهم ولا هم يحزنون

في (تجارب الأمم) لابن مسكويه (أحمد بن محمد):
أفرد في دار عضد الدولة (في بغداد) لأهل الخصوص والحكماء من الفلاسفة موضع يقرب من مجلسه، وهو الحجرة التي يختص بها الحجاب. فكانوا يجتمعون للمفاوضة آمنين من السفهاء ورعاع العامة، وأقيمت لهم رسوم تصل إليهم، وكرامات تتصل بهم

366 - سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يختار

في (طبقات الشافعية): من ظريف ما يحكى عن القاضي عبد الجبار (المعتزلي) أن الأستاذ أبا إسحاق الشيرازي (الشافعي) نزل به ضيفاً. فقال (القاضي مداعباً): سبحان من لا يريد المكروه من الفجار
فقال الأستاذ: سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يختار. وهو جواب حاضر.

367 - أقدر على تركه

في (الغرر والدرر) لأبي القاسم علي بن الطاهر المرتضى: حكى أبو القاسم البلخي:
أن عبد الله بن الحسن قال لابنه محمد. كل خصالك محمودة إلا قولك بالقدر
قال: يا أبت فهو شيء اقدر على تركه. فورد الكلام على رجل عاقل فقال: لا عاتبتك عليه أبداً
قال أبو القاسم البلخي: يقول إن كنت اقدر على تركه فهو قولي، وإن كنت لا أقدر عليه فلم تعاتبني على شيء لا اقدر عليه؟

368 - فشرده بقرص دريهمات

إذا استثقلت أو أبغضت خلقا ... وسرك بعدُه حتى التنادي
فشرّدْه بقرض دريهمات ... فإن القرض داعية الفساد

369 - دعوه فإني أعرف عذره . . .

في (المنتخب من كنايات الأدباء وإشارات البلغاء): يروى أن النضر بن شُمَيْل صاحب الخليل حضر مع جماعة من الأدباء فغنّتهم قينة:
وقالوا لها: هذا محبك معرض ... فقالت: أرى إعراضه أيسر الخطْبِ
وما هي إلا نظرة بتبسم ... فتصطك رجلاه ويسقط للجنب
وأحسنت، فطرب الجماعة إلا النضر. فألحوا عليه بالعذل، فقالت القينة: دعوه فإني أعرف عذره. إنما سببه كون إنشادي: (هذا محبك معرض) ولم أقل: (معرضاً) ألم يعلم أن عبد الله ابن مسعود قرأ. (وهذا بَعْلي شيخ) فلما سمع النضر ذلك قام وأظهر الطرب

370 - من أجل أنك فارس

أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه:
إذا لم يكن صدر المجالس سيداً ... فلا خير فيمن صدرته المجالس
وكم قائل: مالي رأيتك راجلاً؟ ... فقلت له: من أجل أنك فارس!

وحي الشاعرية
تمرُّد الخيال
للأستاذ حسن القاياتي

أبت الهناءة أن تغازلها المَنى ... شَبَهَ الفرادس ما أعزَّ وأحسنا
لي من زماني أن أروع مجَادةً ... وعليَّ أن أصِلَ الشكاة وأَفْتَنَا
لِمَنَ الهناَءة في غِنىً ومحبةٍ ... كَلاّ فكم تصِم المحبةُ والغنى؟
ما للفتاة اَّزينت فهفا بها ... لُبُّ الفتى ثم انثنى فازّيَّنَا؟
صَلَفُ الملاحة أنها معبودة ... تَصِفُ المهانةَ كلما بُذِلَتْ لنا
قسماً لو أن الحسن أُرسل كله ... طَلْقاً لما فتح القُلوب ولأَوْهنَا
كم فاتِكٍ حرس الجمالَ مخافةً ... أن يستثير من الحنان الأعينا
إن الذي خلق الصبَّاحة زينةً ... قالوا تَغَضّبَ أن تلوح فَتُفْتَنَا!
وَرْدٌ يَرفُّ نضارةً ما بَالُهُ ... لا يجُتلَى إذ كلُّ وردٍ يجُتَنَى؟
لولا مخادعةُ الغرائز لم تَرُمْ ... متمنِّعاً بالحسن إلاّ أَمْكَنَا
أوَّاه واكبدي أكلُّ مُحَّبب ... إذ كان مُقْتَرَحَ العيون تَحَصَّنَا؟
فَتن الجمالُ على الحجاب وقَلّمَا ... كان السفور أرقَّ منه وَأَفْتَنَا
الحسن يَخْتَبِلُ النفوس لأنها ... وَصَمت حُلاَه بأن تُذال وتُسْجَنَا
زعم الحجا أن اللثام غضاضةٌ ... فاليوم إذ سفر الأوانسُ بَرْهَنَا
ليت الذي صنع السلاسل حليةً ... للغيد أطلق سربهنَّ وغَلّنَا
للغيد أنفسنا فليت عُيونها ... تُوْدي بنا شغفاً إذا لم تُحْينا
ما أقسى هواك فليته ... في لين عطفك ما أرقَّ وألينا (إحسان)
أخلو فيعصمني الحياءُ فمن رأى ... كيف انْثَنَيْتُ وفاتني كيف انْثنى؟
كَذبُ المنى وكرامة تَشْفَى بها ... دون الهوان وعزةٍ تَشقَى بِنَا
ماذا لقيتُ وما أَرَبْتُ وشدَّ ما ... خطب السموَّ فتىً أراب فَأَعْلَنَا؟
ذو اللُّبِّ تحزنه مشاهدُ جَمَّةٌ ... واللُّبُّ يعصم ربَّه أن يّحْزَنَا
أَدِرِ الحديث عن البيان لعله ... يجني لنا ثمرَ المنَى ولعلَّنَا
ما قيمةُ الأدب السَّرِيِّ وما جنَى ... منه البديع سوى أَجَادَ وَأَحْسَنَا
سَل أفصح الشّادين أَيَّةُ غِبطةٍ ... حَلَّت ببيت صاغ أو بيتٍ بَنَى؟
يُرْجُون من رُتب البيان لمحسن ... يَشْآهُ مُقْتَبَلٌ يَبُذُّ المحسنا؟
ليس البديع من العلاء ولم يكن=للأوْج أن يُهدي لكوكبه السَّنَا
كم فاتن تحت الخمول كما شدا=غرِّيدُ ليل ما أرقَّ وَأَفْتَنَا
تَرِفُ الشمائل كَمْ يُتَاُح لجفوةٍ ... كالماءِ ينبت في مسالكه القَنَا
يا موحياً سور الإشادة رقيةً ... أنا شاعرٌ صفتي ولكن مَن أنا؟
ملك الفصيح العذب ليتك آخذي ... بوثيقةٍ عبدَ البيان الألْكَنَا
مَن عَزَّهُ وَزْنُ الرِّجال فَقَصْرُهُ ... ألا يصوغَ الحمدَ حتى يُوْزَنَا
الرَّأْيُ أشيعه الأفِينُ إذا مشت ... في الشعب خاطئةٌ أَصَاخَ فَأَمَّنَا
شهد الحجا أن الجماعة ضَلّةٌ ... حتى إذا قضت الجماعةُ أَيْقَنَا
أَوَّاه من جَنَفِ العشير فإنه ... غَلَّ النُّهَا عنَتاً وفَلَّ الألْسُنَا
العدل في الأخرى وتلك عُلالةٌ ... عدلُ يُقامُ هناك من ظلمٍ هنا!
الحر يَصْطَنِعُ الإباء فديته ... بالشعب يُصْرَعُ بالهوان فَيُفْتَنَي
أَمَلُ التَّحَضُّرِ كل جَزْلٍ مُفْضِلٍ ... شَرِقُ الحجا بعلومه غَصَّ الْجَنى
في الناس مُبْتَكَرُ االحياةِ وهاتفٌ ... شَادِيَّ عَّرِّدْ بالقَديم وغَنِّنَا
إن الحياة فضيلة من هَدَّهَا ... سقط الأخَسَّ من الشعوب الأوهَنا
من عاش لا وطناً حماه ولا انْتَحَى ... للصالحات فكيف عاش بلا مُنَى؟
النُّبْلُ مُحْتَفَلُ الثراء فلا تَسَلْ ... كيف استقلَّ الشعبُ بل ماذا اقْتنى
شعبانِ يصطرعان أَيَّةُ سُبَّةٍ ... للحزْم إن عَكَفَ الصراعُ وَأَدْمَنَا؟
يا جَوُّ مالك بالأخوَّةِ عابساً ... كالماء قَطَّبَ للنسيم وَغَصّنَا
وَلَعُ الدسائس كم يسود ونسجُهُ ... بيتُ العناكب ما أخسَّ وَأَوْهَنا
ظلَم الخِلاف مَنَى الوفاق فطالما ... خفَّ الجمالُ إلى التَّواصُل مَوْهِنَا؟

طلب الحياة سرية رَفّافَةً ... أَنّي أَعَزَّ دعاته وأذلنا؟
أين الوئَامُ وكلُّ بِرٍ قبله ... صوتُ التآلف كالمُصَلّي أَذَّنَا؟
هُبُّوا إلي الرأي الأَصيل فإنه ... أمنٌ وإن خلافه لن يُؤْمَنَا
الرأيُ أنبَله تجاربُ أشيب ... كالسيف نازل دهره حتى انْحَنَى
صدق الحجا. الحزمُ أشرف نزعةً ... والنَّاهض الوثّابُ أنبلُ موطنا
(السكرية - دار القاياتي)

حسن القاياتي

قلعة بعلبك

للأستاذ أحمد الصافي النجفي

دار وَحْيٍ أم قلعة أنا فيها ... كنبيٍّ يستنزل الإلهاما؟
حرثٌ أرنو إلى الطلول وأرنو ... لقرون مضت ومجد أقاما
إيه أطلال بعلبك أجيبي! ... أين خلّفتِ قومك الأعْلاما؟
هل يبيد الحمامُ قوماً إذا ما ... نهضوا للحروب قادرا الحماما؟
هل يبيد الحمامُ قوماً وهذي ... غرّ آثارهم خلدْنَ عظاما؟
تلك أرواحهم خلدْنَ بفنّ ... جلّ عن أنْ يخلّد الأجساما
إيه باخوس. . . كم شربتَ قديماً ... مِنَ سلافٍ وكم سقيتَ ندامى؟
صَرَعَتْهُمْ منك المدامُ. . . ولكن ... أنت صاحٍ مهما احْتسيتَ المداما
كم سقيتَ الورى بحامك خمراً ... ثم أعقبته من الموت جاما!
أنت تسقي الوضيع كأسك حيناً ... ثم تسقي بها المليك الهماما!
رَفَسَتْهُمْ رجلاكَ لم ترع ذلاًّ ... لوضيع، أو للمليك احتشاما!
والعواميد خلتها في صلاةٍ ... رُكّعاً حول معبدٍ وقياما
صَرَعَ الدَّهر بعضهنّ، وبعض ... واقفات تصارع الأيَّاما!
وشجاني من العواميد ستّ ... واقفات صفاً يروع نظاما
ناظرات يسألن عن قرناء ... قد قطعن القرون والأعواما
دُمْنَ يبحثن عن رفاق فلا ... يبصرن إلاّ الإيوان والأهراما
وبقايا من تدمر كعروس ... ذات حُسْنٍ بالتِّبر هَامَتْ وهاما!
يتساءلْنَ هل أخذنا عهوداً ... لِلِيَّالي أو هل قطعنا ذماما؟
درست دوننا القصور ودمنا ... ثم نرجو أنْ سوف نبقى دَوَامَا
يَتَفَاخَرْنَ عكس طبع الغواني ... أيّ أخت تربو على الأخت عاما؟
يبغض السنّ من يخاف فناءً ... وأخو الْخُلْدِ يعشق الأعواما
بمرور السنين يَزْدَدْنَ حُسْناً ... ثم يَزَدْدنَ لِلْخُطوب ابتساما؟
يَا لَستٍّ من العواميد هاجت ... في فؤادي ذكرى تؤجّ ضراما
أيّ شأن لها، وأيّ ملوك ... سجدتْ حول عرشها تترامى؟
إِن رَأَتْ سجْدَةَ الملوك فهذا ... الدهر ألفى لها السُّجود احتراما!
أنا أكرمتها بدمعي احتراماً ... وكرام الأنام تبكي الكراما
يا لَستِ من العواميد تُلْفَى ... لجميع الورى دروساً جساما
واقفات كأنها خطباء ... تعظ الأرضَ والسَّما والأناما
قائلات: المجد يبقى وإنْ كا ... ن بنوه تحت التراب رماما
يَا لَستٍّ من العواميد كم قد ... رفعت ثُمَّ نَكّسَتْ أعلاما
صافحت في الزمان رُوماً وعرباً ... ونصاري الغزاة والإسلاما
صافحتهم وودَّعتهم بكفٍّ ... لم تطوِّل وداعها والسَّلاما
ولكم أبصرت ولم تتزعزع ... عادياتٍ تجرّ مَوْتاً زؤاما
كم تلّقتْ بصدرها مِنْ سهام ... ورأت للعدى قناً وحساما
بسمت نحوها الغزاة وعادت ... وهي تذري لها الدموع انسجاما
يا لَستٍّ من العواميد ظلّت ... كشموعٍ لِلدَّهْرِ تجلو الظّلاما
قد تعالَيْنَ فاتحدن رؤوساً ... ثم أحكمنَ في الثرى الأقداما
حاكيات وسط الفضا أخوات ... قد تماسَكْنَ واتحدنَ غراما
وضع الحسنُ والبها تاجَ حسن ... واحداً فوق رأسهنَّ تسامى
وَحَّدَ الحسنُ بينهنَّ بتاجٍ ... حيث في الحسن قد بلغن التّماما!

فتعاهَدْنَ في كِفاحِ اللّيالي ... لا يبارِحْنَ حظّهُنَّ انهزاما
أو كقوّاد جَحْفَلٍ قَد أَطلّوا ... يصدرون الآرَاءَ والأحكاما
يتناجون دون تحريكِ هام ... حيث ولّوا نحو الجيوشِ الهاما
ظلَّ بعضٌ يفضي لبعضٍ برأيٍ ... واستمرُّوا يراقبونَ الصِّداما
يا لستٍّ من العواميد تبكي ... أخوات لها قضين انهداما
هدّتها كفّ القضا فاشتهت لو ... حطمت معول القضا الهدّاما!
ذكرت عهدها القديم فأمست ... وهي يَقظَى تشاهد الأحلاما
كم وعت خطبةً وأصغت لنجوى ... آه. . . لو أنها تعيد الكلاما؟
تتراءى كأنها كفّ جبا ... رٍ عظيمٍ زادوا بها إبهاما
جسمه القلعة المهيبة لكن ... ألْبَسَتْهُ يَد البِلى اسقاما
فانْهِدَامَاتها جراح بجسم ... طالما مارس الوَغى والرّحاما
كسرت عظمة الليالي فلم ... يُبْدِ انكساراً ولا اشتكى آلاما
وسبتني فيها تماثيل غيد ... عبدتها أهل الهوى أصناما
سكب الفجر ضوَءه في ثنايا ... ها وألقى الضحى عليها ابتساما
يشتهي الثغر لثمها وهي صخر ... ويذوب الفؤاد فيها هياما
هِمْتُ فيها فقلت هزؤاً بنفس ... أيّ صبٍّ قبلي أحبَّ الرّكاما
عاريات مثل الملائك لم يس ... دلن ستراً ولا وضعن لثاما
اتخذت عفة النفوس رداءً ... وسنا الحسن في الجبين وساما
لم تشوِّه بالصبغ يوماً وجوهاً ... جعل الحسن عندهن مقاما
هنَّ مهما شاب الزمان صبايا ... راميات بلحظهنَّ سهاما!
وشجتني منهن هيفاء خود ... سامها الحظ دونهن اهتضاما!
شوَّه الدهر ثديها بانكسار ... قبل أن يبلغ الرضيع الفطاما
فرنت نحو صحبها بانكساف ... خوف نقص يعزى إليها اتهاما
وتمنَّتْ لو اكتسين جميعاً ... برداء ليستر الأجساما!
ورأيت الضرغام فارْتعت منه ... أيُّ قلب لا يرهب الضرغاما؟
مُعْلياً صمته المهيب زئيراً ... ساكناً خضرة السما آجاما
أسد الغاب خلته احتل (برج ... الأسد) اليوم، واعتلى الأجراما
فاتح الطرف، كاشر الناب، يبغي ... أن يخيف القضا إذا ثمَّ حاما
نصبوه في الجوِّ حامي عرين ... يقظ الطرف، لا يحب المناما
ظلَّ في الجو حارساً لحماه ... ومخيفاً وحش الدجا والطغاما
قام أسد الحمى وظل مفيقاً ... لا يذوق الرّقاد حتى لماما
وشجتني فيها مسارح لهوٍ ... وفنون تنوّر الأفهاما
كم عَلَتْ فوق ساحها خطباءٌ ... وغوان ترجِّع الأنغاما
أقفرت تلكم المسارح منهم ... واستحالت ساحاتها آكاما
إنّ أطلالَ بعلبك كتابٌ ... قد حلا مبدأً وطاب ختاما
فيه تبدو طلاسم أنا مهما ... رمت حَلاًّ لها تزد إبهاما
صار فيها وهمي فخلت بأنّي ... كنت فيها أجَسّم الأوهاما!
(دمشق)
أحمد الصافي النجفي
رسالة المرأة
الإسلام (والأتيكيت)
الأتيكيت أو الآداب العامة
دراسة وتحليل
للآنسة زينب الحكيم
نصت الشرائع السماويةُ كلها، على مراعاة الآداب العامة في مختلف نواحي الحياة الاجتماعية. وإذا أنا اخترت أن أبين نسبة آداب الفرنجة إلى الآداب الشرقية وعلى الأخص الإسلامية منها، فما ذلك إلا لشدة الشبه بين هذه وتلك، ولأن في الإسلام وهو دين الاجتماع والتشريع الإنساني الرفيع - ما لو عرفناه وعملنا به - لما احتجنا إلى التقليد والنقل، مما تضيع معه قوميتنا الشرقية، وتتلاشى به شخصيتنا المصرية

ولقد اطلعت على كتب كثيرة شرقية وأجنبية في هذا الصدد حتى كوّنتُ فكرةً تحليلية عن الآداب العامة ونشأتها
فمجمل الكتب الشرقية (الإسلامية على الأخص) تشير إلى إنه من الواجب على الإنسان كفرد، وعلى الأمة كجماعة، أن تقوم بواجب الآداب العامة نحو الخالق الذي أوجدها سبحانه وتعالى؛ فتقر بفضله تعالى عليها - وتعتبر هذه أول خطوة في الآداب - ثم المحافظة على ما ورثته من نظم، وأن تتبع هذه النظم، وتسير على مهل في سبيل الانتقال بها من طور إلى طور أكمل منه في غير اهتزاز وعنف. كل هذا يكون الميراث التقليدي الأدبي، ونكون قد تدرجنا على شبه ما تدرج بالبرية موجدها الأعلى من مهدها ومن زمنها الأول وإلى الآن
والأديان السماوية أدل شيء على هذا التدرج المعتدل، فإن من يترسم خطى هذه الأديان، يلحظ سمة الطفولة على التوراة، ويرى سذاجة الفطرة والتضحية في الإنجيل، ويميز اتسام القرآن بسمة الرشد، ومدى النضوج العقلي الذي يعتمد عليه الإنسان للسير في الحياة وقد هُيئ له من أمره رشد
ولهذا فإن قائد الأمم أخلاقها وطباعها، والحاجة والزمان هما الكفيلان بإعداد النظم الجديدة،
وأخلاق الأمة هي التي تحكمها. فكل نظام أو تشريع لا يتفق مع هذه الأخلاق ويمتزج بها امتزاجاً تاماً، يكون نظاماً مؤقتاً وتشريعاً لا يدوم طويلاً
ومما يجب التنبه له أن البيئة والأحوال والحوادث، تدل دلالة واضحة على مقتضيات الزمن الذي هي فيه. . . فلو نظرنا إلى التقاليد في أي زمن، ولأي أمة، وجدناها عبارة عن ماضي الأمة في حاجاتها ومشاعرها وأفكارها
فالتقاليد إذن: عوامل تشخص روح الشعب والحقبة التي وجد فيها لما لها من تأثير عظيم في القوم
فإذا بحثنا مثلاً في ضرورة احتياجنا إلى تقاليد في الآداب العامة (أتيكيت) من نواح كثيرة تساءلنا:
1 - لماذا نلاحظ قوانين واصطلاحات خاصة؟
2 - لماذا يحيى الناس بعضهم بعضاً، بشتى الطرق مثل الانحناء، والابتسام، والسلام باليد، ورفع غطاء الرأس الخ؟
3 - لماذا نقوم بعمل تعارف بين الأفراد، ونرسل الدعوات بعضنا لبعض؟
4 - لماذا نهذب طباعنا وحديثنا؟
لكي نستطيع الإجابة على أشباه هذه الأمثلة، يجب أن تتبع سير المدنية من مبدئها، فإذا فعلنا ذلك، وجدنا أنه كان من أولى ضروريات الإنسان الهمجي تدبيرُ بعض الطرق، واختراع بعض الوسائط التي تقنع الهمج من قبائل أخرى بأنه لا يريد المشاجرة، ولا الاعتداء، وإنه يريد أن يعيش في سلام.
ولكن كان من الصعب عليه جداً أن يفعل ذلك مبدئيا. فقد كان تفكيره المحدود مرتبكاً بالخوف وبوعورة الحياة. إذ أن الإنسان في تلك العصور الأولى كان دائم الارتياب، شديد التطير، كثير الظن؛ وقد كان مضطراً إلى أن يكون كذلك، لأن حياته كانت متوقفة على حذقه وحرصه
ولكن الحاجة أم الاختراع دائماً، فأقيمت علامات خاصة، وروعيت أشياء أخذ يميزها الهمج، وتعارفوا عليها كتحيات سلام وأمان
فتحية اليوم نتيجة مباشرة لتلك الضرورة الغابرة، ويقاس عليها كثير من التقاليد المتبعة.
فإن تحية الأمان هذه كانت أول المخلفات من الآداب العامة التي نطق بها بين الإخوان والمريدين
ولما عرفت قيمة هذه الشعائر السلمية، اتبعت تحايا خاصة لكل ظرف ولكل مناسبة مما ساعد على وضع الأمور في نصابها بأقل مشقة، وبأخص طريق، فساد السلام نوعا ما، وأخذت العواطف الإنسانية تقوى (ومن هنا بدأ عهد جديد في تطور البشرية).
فإذا أودعت هذه الشعائر خفايا النسيان، وأسدل عليها ستائر الإهمال كان الغرض استئناف حياة الهمج من جديد.
على إنه لن يكون في استطاعتنا وأدْ الآداب دفعة واحدة وهي التي تكونت على مر

الدهور، ولا يمكن أن ينكر أحد أن البشرية نشأت ونمت معها المدنية، فمن تحية الأمان الأولى، نمت سلسلة تحايا خاصة، وأشكال احترام خاصة جمعت الرجال تحت لواء حماية متبادلة، وصداقة مشتركة، فتولدت الحفلات، وحلقات الرقص لتعظيم القوى الطبيعية التي حار العقل البشري في فهمها حينئذ، كالشمس والنجوم، وقدمت الضحايا لآلهة الخوف التي أزعجتهم، كالظلام، والوحوش، والأصوات غير المعهودة لهم، كما أقيمت حفلات تأبين الموتى، وولائم الأفراح، وغير ذلك.

من ذلك نرى، أن الهيئة الاجتماعية حريصة على سلامتها، فهي لذلك أقامت تشريعاً اجتماعياً محدودا واضحا، مبنياً على الأخلاق والعادات، فأصبحت هذه التقاليد تشريعاً أرتآه، وعمل به نفر ممن تفخر بوجودهم في زمرتها الجماعة الإنسانية المثقفة الراقية.

فنحن ملزمون إذن أن نتعلم هذه التقاليد رغبنا أو كرهنا ما دمنا نعيش في جماعات، وننشد مجتمعاً راقياً في حياتنا

مما لا ريب فيه إنه توجد عند كل إنسان رغبة للخير، وإن جانب الخير في الإنسانية توقظه وتظهره الرحمة والآداب والأخلاق الكريمة بوجه عام. كما أن المران على (الأتيكيت) أو الآداب العامة يحتاج إلى أكثر من مجرد استقاء معلومات من معاهد التقاليد الاجتماعية الخاصة بالأخذ والعطاء، والقبول والرفض، والدعوات والولائم، أو عدد البطاقات التي تترك للآخرين بالمناسبات، أو استعمال الألقاب على وجه صحيح في التحدث وللكتابة. فإن التمرن العملي على (الإتيكيت) يجب أن يبني على المبادئ الأولية،

وهي الاحترام، ومشاعر الرحمة والشفقة نحو الآخرين، وإلا كانت التقاليد مجاملات جوفاء وهذه لا تلبث أن تزول

وان أميز ما يمتاز به الرجل الملم بمعرفة الآداب (العامة والخاصة) ما يتسم به من وقار وسماحة يغمر من يقابله، كما يساعده على العمل والقول اللائق الصحيح في كل موقف من المواقف. فالفرد الذي يعرف كيف يوجد بين جماعة راقية، لا يدع مجالاً للغضب ولا لعدم الصبر، ولا يتسيطر ولا يتحكم ولا يضغط على الآخرين بطباعه الجافة

أن مركز الآداب الراقية، يمنع التبجح مع الرؤساء، كما يمنع الأحاديث التي تؤلم المشاعر، ويحبذ العمل على إيجاد رغبة صادقة في جلب السرور لمن نوجد معهم. فالمرأة والرجل المثقفان يجتهدان في جعل كل فرد مجتمعهما سعيداً مطمئناً (على شرط أن يستأهل هو ذلك أيضاً من جانبه). ثم أن مشاركة عواطف الغير واحترامهم مفروض على كل فرد مهما كان نوعه، وذلك واجب عليه سواء أكان غنيّاً أم فقيراً، عالماً أم جاهلاً. ومع أن الأخلاق الرقيقة قد تكون وراثية إلى حد ما، فانه يمكن تحسينها وإنماؤها بوساطة البيئة الصحيحة، وبدراسة القوانين الاجتماعية ومراقبة المجتمع نفسه، وتطبيق ما حصله الإنسان في معاهد الآداب عمليا في الحياة العملية حتى يجنى المجتمع ثمار عمل أفراده وبُناته

لعلنا بهذا التلخيص نكون قد أوضحنا بعض الشيء نشأة الإتيكيت وضرورته في الحياة.

زينب الحكيم

رسالة العلم

ما هي الحياة

وكيف ظهرت على الأرض؟

وحدة الأحياء والجمادات

للأستاذ نصيف المنقبادي

أثبتنا في مقالنا السابق وحدة الحيوانات (ومن بينها الإنسان) والنباتات وبينا أن النباتات الفطرية إنما هي الحلقة المتوسطة بينهما وقلنا أن هذا دليل على اشتقاقهما من اصل واحد؛ وهو الجمادات ونتكلم اليوم عن وحدة الأحياء والجمادات مستعرضين من جديد الصفات المشتركة بين جميع الكائنات الحية لنبين إنها ليست خاصة بها. بل توجد جميعها ولكن مبعثرة ومشتتة في الجمادات، كما أشرنا إلى ذلك في المقال السابق ونقول إجمالاً من الآن أن تلك الصفات الموصوفة عادةً بالحيوية ليست لازمة للحياة ولا ضرورة لها، إذ أن هناك بعضاً من مظاهر الحياة - هي أهمها وأدقها - تقول بها مواد كيميائية وأجسام معدنية محضة لا يتوفر فيها شئ من تلك الصفات أو المميزات. ومن

ذلك التخمر
فإذا سحقنا مثلاً كمية من النباتات الميكروسكوبية المكونة من خلية واحدة من النوع الذي يخمر المواد السكرية ويحولها إلى خمر (خميرة البيرة)، أو من النوع الذي يخمر الخمر ويحولها إلى خل، أو من النوع الذي يخمر سكر اللبن ويحوله إلى الحامض اللبني، ثم نقعناها في ماء معقم مطهّر ورشحنا الماء بعد ذلك، نحصل على سائل يخمر هذه المواد مما يدل على أن خواص الحياة ما زالت قائمة فيه. فهل لنا أن نقول أن السائل المرشح كائن حي؟ وإذا أغلينا هذا السائل إلى درجة المائة فوق الصفر فانه يفقد خاصة التخمير كأنه مات مقتولاً بالحرارة كما يحدث للكائنات الحية والواقع أن الذي يقوم بالتخمير وبمعظم أعمال الحياة في الكائنات الحية من هضم الأغذية على أنواعها، إلى تحليلها وامتصاصها وتركيبها من جديد داخل أنسجة الجسم وخلاياه إلخ إنما هي خمائر تفرزها غدد خاصة في الأجسام الحية المتعددة الخلايا أو كائنات حية أيضاً مكونة من خلية واحدة مثل النباتات
والحيوانات الأولية الميكروسكوبية، وهذه الخمائر تذوب في الماء وتفعل فعلها وهي ذائبة فيه
والخمائر لا يمكن القول بأنها كائنات حية بالمعنى التام لأنه لا جسم لها ولا قوام، وهي لا تتغذى ولا تتنفس ولا تنمو ومع ذلك تبدو كأنها حية، وتقوم بأهم مظهر من مظاهر الحياة وهو التخمير على أن كل هذا لا غرابة فيه، لأن الخمائر التي تسلك مسلك الأحياء لم تخرج عن كونها مفروزة من أجسام حية، ولكن المدهش حقاً هو فعل المواد المعدنية الغروية، فقد توصل العلماء إلى تحضير كثير من المواد المعدنية والعضوية على هذه الحالة، ' وقد شوهد أن بعضها مثل الفضة أو المنغانيز وغيرها تخمر المواد القابلة للتخمر. فإذا وضع قليل منها في شراب السكر مثلاً لا يلبث هذا الشراب حتى يختمر، لا فرق في ذلك بين هذا التخمر وبين التخمر الذي تحدثه الكائنات الحية بفعل الخمائر التي تفرزها سوى أن التخمر يتم هنا بأسرع مما يتم في حالة التخمير الحيوي. وأول ما يتبادر إلى الذهن أن جراثيم التخمر العادية تسربت إلى ذلك السائل من الهواء أو من الماء أو من الأوعية العادية والأدوات المستعملة، ولكن الدقة في تعقيم كل هذه الأشياء لا تدع محلا لمثل هذا الاعتراض
واغرب من هذا فعل الكلورفروم المخدر في المواد المعدنية الغروية التي نحن بصددها؛ فانه يخدرها ويبنجها تبنيجاً ويمنعها عن مواصلة التخمير إلى أن يتطاير، ويتلاشى فتعود إلى فعلها هذا المدهش، وإذا أضيف إليها قليل من سيبانور البوتاسيوم وهو سم قاتل، فأنه يمنع فعلها التخميري بتاتاً؛ فكائن هذه المعادن هذه الجمادات المحمضة - ماتت مسمومة ولا يمكن أن تعود إلى أحداث التخمر إلا إذا أزيل عنها هذا السم ثم تحولت إلى معدنها الأصلي الجامد ومنه إلى الحالة الغروية من جديد، وعند ذلك فقط تبعث بعثاً، وتعود إليها الخاصة التي كنا نظنها مقصورة على الأحيان دون غيرها.
وإذا لوحظ أن في المادة الزلالية الموصوفة (الحية) التي تتكون منها خلايا الحيوانات (بما فيها الإنسان) وخلايا النباتات وكذلك في الخمائر التي تفرزها الحية أثرا من المواد المعدنية التي كان يظن البيولوجيون إلى عهد قريب إنها مواد إضافية لا شأن لها بالمادة الحية، وإذا قورن هذا بما تقدم بيانه من فعل المعادن الغروية، لأدركنا معنى النظرية البيولوجية القائلة
بأن أداة الحياة أو أن الذي يقوم فعلا بأعمال الحياة في الكائنات الحية ليست المادة الزلالية الخاصة المسماة (بالبروتوبلاسم) وإنما هي تلك الزوائد المعدنية المحضة. وعلى هذا يكون الجزء الحي في الأحياء هو المعادن المذكورة أي الجمادات الخالصة، وما المادة الزلالية إلا قاعدة ترتكز عليها المعادن للقيام بأعمال الحياة. نعود إلى الصفات المشتركة بين الأحياء التي يقولون إنها تميز الحياة، لنبين إنها ليست وقفاً على الكائنات الحية بل إنها توجد جميعا بلا استثناء في الجمادات.
التكوين الخلوي والتكوين المعدني
قلنا أن الكائنات الحية مؤلفة من خلايا صغيرة لا ترى بالعين المجردة. ولكن هذه الظاهرة - أي جزئيات الجسم تكوينا دقيقاً - ليست خاصة بالأحياء، فان الأجسام المبلورة المعدنية التي يتكون منها معظم ما الأرض من مواد كجبال الجرانيت والرخام

وكالأملاح العديدة المختلفة وغيرها، مكونة من بلورات متلاصقة؛ كما أن جميع الجمادات على الإطلاق مكونة من جزئيات صغيرة جداً وهذه الجزئيات مؤلفة من ذرات وقد اتضح بعد اكتشاف الراديوم والأجسام المتشععة المماثلة له الذرات مؤلفة من الكهارب وغيرها (تراجع المقالات النفسية التي جاد بها أخيراً يراع عالمنا المصري الدكتور محمد محمود غالي على صفحات الرسالة عن تكوين المادة)

التركيب الكيميائي

تتركب الأجسام الحيوانية والنباتية من مواد زلالية ودهنية وسكرية كما بينا في مقالنا السابق. ويظهر أن عدم وجود المواد المذكورة بحالتها هذه في الجمادات قد جعلها من قديم الزمان الحد الفاصل بين الأجسام الحية والأجسام المعدنية، حتى أن الكيميائيين كانوا يفصلون فصلاً تامَّاً بين المواد العضوية التي تستخرج من أجسام النباتات والحيوانات وبين المواد المعدنية، وأوجدوا بينهما هاوية سحيقة لا تعبر. ولكن العلم الحديث قد أزال هذا الحد واثبت وحدة المادة

وأول ما يلاحظ هنا على مواد الأجسام الحية وعلى المواد العضوية عموماً، أن العناصر المركبة منها الأوكسجين والهيدروجين والكربون والأوزوت والعناصر الإضافية الأخرى موجودة جميعها في الطبيعة، وتدخل في التراكيب المعدنية التي لا عداد لها بحيث لا يوجد عنصر من العناصر خاص بالأحياء دون غيرها

والواقع أن المواد المسماة بالحية، وعلى العموم المواد العضوية، مشتقة جميعها من الجمادات رأساً، وهي تتركب منها مباشرة في كل لحظة أمام أعيننا وعلى مرأى منا على الوجه المتقدم بيانه في المقال السابق. فمادة النباتات الخضراء (الكروفيل) تستعين بقوة الشمس وتحلل غاز الحامض الكربونيك المنتشر في الجو وتنتزع منه الكربون وتمزجه بالماء فتكون منه السكر والنشا والسيليلوز ومادة الخشب والمواد الدهنية والأحماض والقلويات العضوية الثلاثية. وفي الوقت نفسه تمتص جذور النباتات التراكيب الآزوتية من الأرض، وهذه تمتزج بالمواد الكربونية سالفة الذكر بفعل قوة الشمس أيضاً فتتولد المواد الزلالية الحية

وما تنشئه الطبيعة بواسطة النباتات من المواد قد أمكن للإنسان أن يصنعه من مواد معدنية محضة، فقد توصل الكيميائيون إلى تركيب معظم المواد الحيوانية والنباتية ومشتقاتها من الجمادات مباشرة كالسكر والنشا، وبعض المواد الدهنية، ومواد الصباغة، وكثير من القلويات المستعملة في الطب، وجميع العطور وغيرها ذلك. ومن المدهش الذي يدعو إلى الإعجاب الكبير أنهم صنعوا عطوراً اصطناعية لا وجود لها في عالم النبات حيث لا توجد زهور تقابلها

ويجدر بنا هنا أن نخص المواد الزلالية بكلمة على حدة لأنها كانت إلى وقت قريب تعد معقل الحياة. فقد ثبت من تحليلها بطريقة علمية دقيقة إنها مكوّنة من امتزاج بعض الأحماض العضوية الآزوتية والفسفورية ببعض كالحامض النمليك وغيره. وما أن عرف العلماء ذلك حتى اخذوا يمزجون بعض هذه الأحماض ببعض على صور عديدة مختلفة. فنجحوا في وضع الجيلاتين والبروتين وزلال اللبن (مادة الجبن)، وزلال يدعى الكيراتين يدخل في تركيب أظافر الإنسان والحيوانات الفقرية الأخرى. وهذا النجاح يبشر بقرب الوصول إلى تركيب المواد الزلالية المسماة بالحية.

الشكل النوعي

فضلاً عما ثبت نهائياً وقطعياً من الكائنات الحية ليست ثابتة في أشكالها، بل إنها في تغير

وتحول مستمرين في ملايين السنين بحكم ناموس التطور والتسلسل؛ نقول إنه فضلاً عن ذلك فإن هذه الظاهرة (الشكل النوعي) ليست من جهة شاملة لجميع الأحياء لأن بعض المكروبات غير ثابتة في شكلها، بل إنه تتشكل حسب البيئة التي توجد فيها بحيث لا يمكن تميز أنواعها إلا بمفعولها، وكذلك الحال بالنسبة للاميبا، وبالنسبة لبعض أنواع النباتات الفطرية السفلى من فصيلة الميكزوميست التي سبق لنا الإشارة إليها في المقال السابق. فانه لأفرادها شكل معين حيث لا غلاف ولا غشاء لخلاياها في معظم الأحوال

ومن وجهة أخرى فان لكثير من الجمادات ونعني الأجسام المبلورة، أشكالاً ثابتة وهي بلوراتها الهندسية تميز كل نوع منها من غيره

واوجه الشبه بين الكائنات الحية والأجسام المبلورة عديدة فمن ذلك أن الأنواع المبلورة القريبة التركيب كيمائياً قريبة الشكل هندساً، كما أن الأحياء كلنا اقتربت أنواعها اقتربت أشكالها

وكما تحدث أحيانا أن الأنواع الحية القريبة يتناسل بعضا من بعض مثل الحصان والحمار كذلك يحدث أحيانا أن الأنواع المعدنية القريبة كيميائياً تتبلور معا مثل حجر الشب فانه مؤلف من بلورات سلفات الألمونيوم وبلورات سلفات البوتاسيوم مشتبكة بعضها مع البعض وهناك ظاهرة كان يظن أن الكائنات الحية اختصت بها دون الجمادات وهي استعداد أفراد الحيوانات والنباتات الصلاح كل تشويه يحدث لها واستعادة شكلها الأصلي بقدر الإمكان، فإذا جرحت يلتئم جرحها، وإذا انقطع جزء منها لا يلبث حتى ينمو غيره مكانه، وعلى الأخص في النباتات والحيوانات السفلى وكذلك في أطراف أعصاب الحيوانات العليا والإنسان. وهذا ما يحدث للبلورات المعدنية المحضة، فإنه إذا كسرت بلورة من أحد أضلاعها ثم غُطِّست في سائل مشبع من مادتها أو فوق المشبع نراها تنمو على الأخص من جهة الجزء المصاب إلى أن يعود إلى حالته الطبيعية وشكله الأصلي فيأخذ مجموع البلورة في النمو

تغذي الأحياء والجمادات

لعل التغذي هو أهم مظاهر الحياة وأكبر مميز للكائنات الحية، ولكنه غير خاص بها أيضاً بل يحدث لكثير من الجمادات. فبقعة الهواء التي تبدو صغيرة على قطعة المعدن ثم تكبر

إلى أن تنتشر على كل سطحه إنما هي تتغذى في الواقع من بخار الماء والحامض الكربونيك المنتشرين في الجو ومن مادة المعدن القائمة عليها، فتنمو وتتسع كما ينمو ويكبر الجسم الحي من التغذي. والبلورات الصغيرة المغموسة في ماء مشبع من محلول مادتها تتغذي منها فتنمو وتصبح بلورات كبيرة

على أن خير مثال لتغذي الجمادات بالمعنى الحقيقي التام ما هو حاصل في الآلات الميكانيكية فإنها تتغذى بالفحم أو البنزين أو البترول، وما الوقود إلا غذاء تلك الآلات تحترق فيها فتولد الطاقة (القوة) اللازمة لقيامها بأعمالها كما يحترق الغذاء بعد هضمه وامتصاص في الأجسام الحية فيولد فيها الطاقة اللازمة للقيام بأعمال الحياة ووظائف الأعضاء، وسنشرح في مقال قادم ناموس بقاء الطاقة ' وانطباقه على الكائنات الحية (بما فيها الإنسان)، وحسبنا أن نقول اليوم أن جميع القوى التي تعمل في الحيوانات (ومن بينها الإنسان والنباتات حتى التفكير والقوى العقلية ليس لها إلا مصدر واحد وهو الغذاء، أو بعبارة اصح الطاقة الكيميائية الكامنة في مادة الغذاء

التنفس في الأحياء والجمادات

ويلحق بالتغذي التنفس، وهو أيضاً ليس مقصوراً على الأحياء لأن الجمادات التي تحترق بسرعة أو تتأكسد ببطء إنما هي، تتنفس، أي أنها تمتص الأوكسجين من الهواء وتفرز الحامض الكربونيك وهذا التنفس بعينه، وقد عرف علماء الفسيولوجيا الحياة بأنها حريق أو تأكسد كما تقدم القول، وما الرئتان إلا مدخنة الآلة الحية الحيوانية، توصل الأوكسجين إلى الجسم وتخرج منه الغاز الناتج من ذلك الاحتراق، كما هو حاصل في الآلات الميكانيكية من جميع الوجوه

تحرك الأحياء وتحرك الجمادات

وليست الحركة وقفاً على الأحياء ولا هي خاصة بها، ولكنها تشمل الجمادات وتعم كل ما في الكون من الأجرام الفلكية إلى أصغر الذرات وما هو أصغر منها مما اكتشف أخيراً ونعني به الإليكترونات أو الكهارب وغيرها.

ومن حركات الجمادات التي تشبه حركات الحيوانات الأولية الميكروسكوبية الحركة المعروفة باسم حركة براون فإننا نشاهد في كثير من السوائل عند فحصها بالأولترا ميكروسكوب أجساماً صغيرة جداً في حركة مستمرة وهي لا يمكن أن تكون كائنات حية لأنها تشاهد في السوائل السامة الكاوية التي تقتل الأحياء وجراثيمها في الحال كالحامض الكبريتيك وغيره. ولاشك في أن تحرك هذه الذرات ناتج من تحرك جزئيات المادة المستمر كما شرح الدكتور محمد محمود غالي ذلك أخيراً على صفحات الرسالة.

ومن حركات الجمادات التي تكاد تكون اختيارية حركة الأجسام تحت تأثير الجاذبية أو

الألفة الكيميائية، فإنه بمجرد أن تشعر هذه الأجسام بقرب بعضها من بعض تتحرك وتنتقل من تلقاء نفسها إلى أن يتصل الواحد منها بالآخر كأنما يعشق بعضها بعضاً. وأمر بعض المواد الكيميائية لبعض معروف في علم الكيمياء. فالماء مثلاً يصعد من تلقاء نفسه رغم جاذبية الأرض ويندفع إلى الطبقة العليا من الجهاز الخاص بمجرد إدخال غاز الكلور في هذه الطبقة العليا، ولا يهدأ له بال إذا فاز بالوصل منه شأن العاشق الولهان. وما عاطفة الحب التي يتغنى بها القصصيون والشعراء من قديم الزمان إلا ظاهرة كيميائية محضة ترجع في النهاية إلى تلك الجاذبية التي تدفع جراثيم التلقيح المذكرة (مثل الحيوانات المنوية وما يقابلها من النباتات) نحو بويضات الإناث مما سنشرحه في مقال قادم

ومن حركات الجمادات تحرك نقط المواد الرغوية المعدنية المحضة من تلقاء نفسها كما تتحرك الحيوانات الأولية ذات الخلية الواحدة واستمرار هذه الحركة بضعة أيام في التجارب البديعة التي قام بها العالم البيولوجي بوتشلي. ولولا ضيق المقام لشرحناها بالتفصيل

على أن حركة الجمادات المماثلة لحركة الكائنات الحية من جميع الوجوه إنما هي حركة الآلات الميكانيكية نتيجة احتراق الفحم أو البترول أو البنزين فيها كما أن حركة الأحياء هي نتيجة احتراق المواد الغذائية في العضلات المحركة لها

التأثر في الأحياء وفي الجمادات

نقول إن التأثر ليس خاصاً بالأحياء بل إنه يوجد في كثير من الجمادات، وإذا شئت فقل في كلها مع التفاوت. فالمواد المفرقعة تتأثر بل وتغضب وتنفجر عند أقل لمس. ومواد التصوير الشمسي تتأثر بالضوء، ولهذه المناسبة نذكر أمر اللوحات الفوتوغرافية الملونة،

فإنه إذا سلط عليها نور أحمر تلونت في الحال باللون الأحمر، وإذا سلط عليها النور الأخضر تلونت في الحال باللون الأخضر. فأملاح الفضة التي على هذه اللوحات لا تتأثر فقط بالضوء بل كأنها تدافع عن كيانه ضده لأنه يقتلها بأن يحللها ويحولها إلى مواد أخرى. فعندما يسلط عليها النور الأحمر تتلون في الحال باللون الأحمر لأن هذا اللون يمنع دخول الأشعة الحمراء؛ وكذلك الحال عندما يسلط عليها النور الأخضر أو غيره. أفلا تكون غريزة حب البقاء القائمة في الإنسان وفي جميع الحيوانات من نوع هذه الظاهرة الغريبة؟ وما الفرق بين هذه اللوحات الفوتوغرافية - هذه الجمادات المحضة - وبين بعض الحيوانات التي تتلون بألوان مختلفة حسب البيئة التي توجد فيها

ومن الأمثلة على تأثر الجمادات ما هو معروف في علم الصوت من أنه إذا دق إنسان على وتر من آلة موسيقية، فإن الوتر المقابل له في الآلة القريبة منها يتأثر ذاتياً ويهتز من تلقاء نفسه اهتزازاً خفيفاً، ولكنه يظهر جلياً بواسطة الآلة المكبرة للصوت

وقد وضع السيربوز العالم البيولوجي الهندي الكبير الذي زار مصر سنة 1928 جهازاً دقيقاً بديعاً لإثبات تأثر المعادن بالكهرباء يدل على أنها تتعب وتضعف اهتزازاتها إذا تكرر تسليط الكهرباء عليها مدة طويلة متعددة. وإذا استراحت مدة من الزمن عادت الاهتزازات التي تحدثها فيها الكهرباء إلى قوتها

النتيجة

يتضح من كل ما تقدم إنه لا يوجد أي فرق جوهري بين الكائنات الحية وبين الجمادات، وأن كل ظواهر الحياة توجد في الجمادات، بل إن بعض الجيولوجيين يرجحون أن الجزء الحي فعلاً في الحيوانات (ومن بينها الإنسان، وفي النباتات هو المواد المعدنية الغروية التي تدخل كميات قليلة منها في تركيب خلاياها. وقد ثبت أن المادة الحية تشتق رأساً من الجمادات على الدوام تحت أعيننا وعلى مرأى منا بفعل قوة الشمس بواسطة مادة النباتات الخضراء (الكلوروفيل) بحيث لا يوجد عنصر خاص بالأحياء. كما أن القوى التي تعمل في الأحياء وتديرها هي من القوة الطبيعية المحضة ومشتقة منها وليس شيء آخر خلافها

وكلما تقدم العلم تلاشى ذلك الخيال الذي كانوا يعتقدون فيما مضى أن له وجوداً خاصّاً قائماً بذاته مستقلاً عن المادة. وما الحياة في الواقع إلا تفاعلات كيميائية أو بالأحرى طريق

بطيء أو تأكسدات مستمرة، فهي ظاهرة طبيعية مثل باقي ظواهر الطبيعة

نصيف المنقبادي المحامي
دبلوم في الفسيولوجيا العليا الحيوانية والنباتية
من كلية العلوم بجامعة باريس (السوربون)

رسالة الفن

الموسيقى الإيرانية

للأستاذ محمد السيد المويلحي

لم يتح للموسيقى المصرية لسوء الحظ - ولسبب لا أدريه - أن تشترك في الاحتفاء بمقدم سمو ولي عهد إيران، كما فاتها حظ الاشتراك مع باقي الفنون العليا في التعبير عما خالج مصر من عواطف الفرح وخوالج البهجة والمرح. اللهم إلا تلك الحفلات الهزيلة الشاحبة التي لم تقو على إعطاء سمو ولي العهد الإمبراطوري الصورة الحقة للنهضة الموسيقية المصرية الشابة التي طفرت إلى ذروة رفيعة مرموقة موموقة. . .!

وقد سمعت بعض الشائعات التي تقول بأنها أبعدت لأنها غير مفهومة من سموه؛ فعجبت لهؤلاء الذين طيروا هذه الشائعات لأنهم لا يعلمون أن موسيقانا بل وجميع الموسيقى الشرقية إطلاقاً من أصل فارسي، فكيف تنكر الأذن موسيقى نشأت على سماعها منذ الصغر؟ وكيف لا يستسيغها سموه وهي التي خلفت في وطنه؟ إن العبرة ليست بالكلام العربي أو الإيراني وإنما بالموسيقى التي تصور وتترجم في حدود الذوق الشرقي!

إن (السلّم) العربي لم يخلق في مكة أو المدينة ولا في تركيا أو مصر، وإنما خلق كما هو الآن في إيران ثم انتقل إلى بلاد العرب حين غزوها للفرس مع باقي الفنون والعلوم الإيرانية. وظل هكذا حتى انتقل إلى بلاد الترك الذين عرفوا كيف يستخدمونه جيداً فركبوا منه نغماتهم وموسيقاهم التي أضفت على الموسيقى الشرقية لوناً زاهياً واستحدثوا نغمات: النوا أثر، وشط عربان، والحجاز كاركرد، والفرح فزا، والكرد. . . إلخ

وليكون القارئ على بينة بالسلّم سنكتبه له:

(1) قرار حصار (وهي لفظة إيرانية يسميها الترك (كابا) (3) قرار حصار (2) نيم قرار حصار (4) تيك قرار حصار (5) عشيران (6) نيم قرار عجم (7) قرار عجم (8) عراق (9) كَوِشْت (10) تيك كوشت (11) راست (12) نيم زير كولا (13) زير كولاه (14) تيك زير كولاه (15) دوكاه (16) نيم كرد (17) كرد (18) سيكاه (19) بوسالك (20) تيك بوسالك (21) جهاركاه (22) نيم حجاز (23) حجاز (24) تيك حجاز

هذا هو السلّم الفارسي الذي استعمله الشرق قاطبة واستخرجوا منه حسب استعدادهم الفني وقدرتهم الموسيقية أنغامهم وألوانهم التي تتفق وأذواقهم ومشاربهم، وهو يتكون من ديوان (أوكتاف) سبعة مقامات: ثلاثة كبيرة وأربعة صغيرة (وهي التي يتكون منها النغم الشرقي الذي لا يعرف الماجيور، والمنيور أو الميجيير والمنيير كما ينطقها الفرنسيون. . .

وقد ابتكر الإيرانيون النغمات الآتية التي لم يكن الشرق يعرفها حتى سمعها منهم وهي:

. . .الدوكاه (البياتي) والأصفهان، والعجم عشيران، والعراق والحجاز، والسيكاه. . . الخ

وهي نغمات فارسية أصيلة تدل على قدرة عالية ومكنة متمكنة لا حد لها. . .!

قد يقال إن السلّم عربي، ولكن الأسماء هي الفارسية؛ وربما يستدل على هذا بما قاله الدكتور (هنري فارمر) من (أن ابن مسجح تعلم فن الغناء الفارسي، وتلقى أيضاً بعض الدروس عن الموسيقيين الروم العازفين منهم على (البريطين) وعلماء الموسيقى النظرية، واستعان بما تعلمه في غربته على وضع نظام للنظرية الموسيقية رضى به رجال الموسيقى في عصره. على أن هناك ما يدلنا على أن ابن مسجح رفض الطرق الفارسية والرومانية التي رآها غريبة عن الموسيقى العربية. ومن هذا يستدل على أن هذه النظم الموسيقية المنقولة من الخارج لم تكن سابقة لنظرية الموسيقى الوطنية العربية. قد يقال هذا، ولكن أليس فارمر هو القائل:

(ليس من العسير الوصول إلى معرفة الزمن الذي انتقل فيه العرب فعلاً من طريقة

الديوان الواحد (الأوكتاف) إلى طريقة الديوان المضاعف أو الجمع التام، ففي أيام إسحاق الموصلي والكندي ويحيى بن علي والفارابي وإخوان الصفاء كانت أوتار العود الأربعة تسمى من الأعلى إلى الأدنى: زير مثنى، مثلث، بم، والاسمان الأول والأخير (فارسيان

فكيف يستعين الإنسان بأسماء غريبة عن لغته. ثم يدعي بعد هذا أن السلم له؟ إن العقل ليقف قليلاً متسائلاً:

كيف يوفق العرب إلى خلق السلم ثم لا يوفقون إلى خلق الأسماء فيسمونها بأسماء إيرانية بحجة أن نفوذ الفرس أدّى إلى هذا!

ثم إذا فرضنا جدلاً أن السلم لا يمت إلى الإيرانية إلا بالأسماء فقط فكيف عجز العرب إلى اليوم عن تعريبها وتسميتها بأسمائها؟!

هذا من الناحية الشكلية والعقلية (للسلم) الذي لا نزال نستعمله إلى اليوم بأسمائه الإيرانية

من مئات السنين. وقد حرصنا ألا نسهب فيه من الناحية التحليلية الفنية البحتة حتى لا يتسرب الملل إلى نفس القارئ أما من الناحية التاريخية فإن الفرس قد سبقوا العرب في الاهتمام بالموسيقى اهتماماً عظيماً حتى تأثر العرب بها تأثيراً كبيراً، و (طويس) أول من غنى بالعربية غناءً إيقاعياً، تعلم الغناء من الفرس، وكذلك سائب خائر الذي تأثر بنشيط الإيراني ونقل مثل غنائه إلى العربية وحاكاه في العزف على العود بعد أن كان العرب لا يعرفون في غنائهم إلا (القضيب)

وابن مسجح الذي احتج به الدكتور هنري فارمر كان أول من نقل الغناء الفارسي إلى العربية وقد أخذ عنه ذلك - كما قلنا قبلا - ابن محرز ومعبد وابن سريج والغريض.

ولعل في هذه العجالة الصغيرة ما يعطي القارئ صورة عن الموسيقى الإيرانية، وفضل الفرس في هذا الميدان الذي سبقوا جميع الشرق فيه حتى يعلم الجميع أن الموسيقى لم تقم بواجبها الحق أو لم تمكن من ذلك أمام سيد البلد الذي ترعرعت فيه الموسيقى وازدهرت ازدهاراً نقل عنه الجميع. . .!

محمد السيد المويلحي

البريد الأدبي

عطف ملكي كريم

تلقينا من ديوان حضرة صاحب المعالي كبير الأمناء هذا الكتاب الكريم الذي نتشرف بنشره:

حضرة المحترم الأستاذ أحمد حسن الزيات.

أتشرف بإبلاغ حضرتكم الشكر السامي على النسخة التي قدمتموها إلى حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم من عدد الرسالة الممتاز الخاص بالهجرة.

وتقبلوا حضرتكم وافر الاحترام

تحريراً في 26 مارس سنة 1939

كبير الأمناء

محمد سعيد ذو الفقار

حول إنسانية الرسول

قد قرأت ما كتب الدكتور زكي مبارك في إنسانية الرسول في العدد 297 من الرسالة الغراء، وقرأت ما عقب به الأستاذ عبد المتعال الصعيدي في العدد 298، فوجدت كلا منهما قد غلب على قلمه فغالى فأخطأ. ومغالاة الأستاذ الصعيدي وخطؤه على قلته أعجب عندي من مغالاة الدكتور زكي مبارك وخطته على كثره. فالدكتور لم يتضلع من علم الأزهر ولا من فقه الإسلام وإن كان قد تقدم للعالمية المؤقتة منذ عامين. والقدر الذي عرفه في الأزهر أيام كان أزهريّاً قد عفت عليه السنون الكثيرة التي قضاها خارج الأزهر في جوه غير جوه الديني، بين القاهرة وباريس. ومن هنا الغلطة التي أخذها عليه الأستاذ عبد المتعال الصعيدي من تصويره شخصية الرسول غير مدروسة حق الدرس في البيئات الإسلامية. ومن هنا المعاني الشاذة الأخرى التي يعرفها القارئ في لحن مقاله مما لا يسنده فيه كتاب ولا سنة ولا عقل: من نحو أن النبوة تكتسب، وأن وحي السماء ينزل على الرسول صلوات الله عليه هو من هذا الذي يسميه الدكتور وحيا يهبط كل وقت من

السماء!
هذا وأمثاله ليس غريباً أن يقع فيه مثل الدكتور زكي مبارك لأنه لم يقل هذا لقال كما تقول جماعة المسلمين. ولكن الغريب أن يقول الأستاذ عبد المتعال الصعيدي في خطابه: (والذي يعرفه المسلمون جميعا أن الوحي لم يكن له مع النبي صلى الله عليه وسلم شأن في أمور الدنيا). هذا غريب من القول فيه غلو كبير من غير شك، وعبارته من غير شك أعم كثيراً من المعنى الذي إليه قصد. فتأبير النحل الذي ضربه مثلا ليس هو كل أمور الدنيا، ولا هو مثال لأهم أمور الدنيا، وإنما هو مثال لدنيا الناس التي يعرفونها بالتجربة من نحو حرث وزرع وسقي وصناعة، فهذه لم يأت الدين ليعلمهم إياها وإنما وجههم إلى البحث فيها ووكلهم في التفاصيل إلى نتائج بحثهم وتجاربهم. أما غير هذا النوع من أمور الدنيا فالإسلام قد هدى الإنسان فيه، وهداه فيه بالوحي، كما يعرف الأستاذ من الآيات الكثيرة المتعلقة بالأحكام في القرآن. فليست هناك ناحية من نواحي الحياة إلا وقد شملها الإسلام بهديه ووحيه حتى ما يأكل الإنسان وما لا يأكل، وما يشرب وما لا يشرب، وما يلبس وما لا يلبس، وما يبدي من جسده وزينته وما لا يبدي، وحتى الاستئذان قبل الدخول والسلام عند الدخول لم يهمل الإسلام تأديب الإنسان فيه. فإذا كانت هذه الأمور وأمثالها ليست من أمور الدنيا فما هي أمور الدنيا يا ترى؟
إن الأمثلة التي ساقها الأستاذ في خطابه على أنها من أمور الدين أكثرها من هذا القبيل كعتاب الله سبحانه لرسوله في إذنه في غزوة تبوك لبعض من استأذنه من المنافقين في القعود، وفي قبوله الفدية ممن قبل منهم من أسرى بدر. هذا كله من أمور الدنيا في الصميم. وإذا لم يكن القتال وأموره من أمور الدنيا فماذا يكون؟ طبعاً هذا كله أيضاً من أمور الدين، وهذا بالضبط هو الدليل الذي لا ينقض على أن أمور الدنيا في الإسلام جزء من أمور الدين
بقيت نقطة في خطاب الأستاذ كان يحسن أن يحتاط لها فيستتمها ولا يتركها كما تركها. فقد قال إن أكثر العلماء جوّزوا على النبي صلوات الله عليه الاجتهاد في أمور الدين بدون الوحي (وجوزوا عليه الخطأ فيها أيضاً) وسكت عند هذا. ولا عند هذا يكون السكوت، فإن إطلاق القول هكذا يوهم أن كثرة العلماء أو قلتهم ترى أن بعض أحكام الدين التي جاءتنا
عن الرسول. يجوز أن تكون في ذاتها. هذا هو لازم القول بعدم الخطأ على النبي في الاجتهاد من غير تنبيه إلى الحقيقة الكبرى وهي إنه ما من خطأ اجتهادي وقع فيه النبي. ومن هنا الأمثلة غير الكثيرة التي عاتب الله فيها رسوله في القرآن. فكل ما لم يعاتب فيه النبي، وكل ما لم ينبه هو صلى الله عليه وسلم الناس إلى خلافه هو من الدين طبق مراد الله سبحانه، وإلا لأرشد سبحانه نبيه ورسوله إلى الصواب فيه
هذا ما نرى أن الأستاذ الصعيدي كان عليه أن يحتاط فيه للناس فينبه إليه حين كتب ذلك الخطاب. والسلام على الأستاذ.
محمد أحمد الغمراوي
إصلاح بيتين في مجلتين
قال أديب في مجلة مشهورة شهرية: (إن قول عديّ بن زيد العبادي:
ويلومون فيك يا ابنة عبدا ال ... له والقلب عندكم موثوق
(خطأ، والصواب: موثق
وعدي لم يقل (موثوق)، بل قال: موهوق، والموهوق المحبوس، ووهقه حبسه، والبيت من شواهدهم
وروى (فاضل) في مجلة شهرية أسبوعية بيتاً في أبيات لأحد الشعراء، والبيت هو:
وقبة ملك كأن النجوم ... تضيء إليها بأسرارها
والأبيات لعلي بن الجهم صاحب (عيون المها. . .) وقد حرم بيتَه ذاك الرواية الصحيحة في كل موضع ورد فيه، فكتاب ذكر تضيء وميم النجوم في آخر الصدر، ومجموع قال تصفى والميم المذكورة في أول العجز. وإني لموقن أن علياً قال:
وقبة ملك كأن النجو ... م تفضي إليها بأسرارها
وأفضى إليه بسره أعلمه به. والبيت من المتقارب، ومن المعلوم أن بحر هذا الشعر تتلاقى فيه العروض الصحيحة (والقبض فيها أحسن من التمام) والعروض المحذوفة.

وقد بلبل ترتيب الصدور والأعجاز في أبيات هذا البحر كثيراً من الشعراء والأدباء - من شوقي والعقاد فنازلا - لتلاقي تلك الأعاريض التي تطول وتقصر. . .

(* * *)

مسلمو يوغوسلافيا

سيدي الأستاذ الجليل صاحب الرسالة:

قرأت مقالكم الشائق (رسالة الأزهر) وأعجبت به وهزتني نشوة الطرب لأنه بشير بعدة مقالات لعلمي بصرخاتكم الاجتماعية والدينية الاستنهاضية

بيد أنني قد رأيت في حكمك على مسلمي يوغوسلافيا شيئاً من الشدة لعل سببها عدم إلمام الذي رويتم عنه - بأحوال المسلمين هناك، وإني مسلم عربي أعرف أحوال المسلمين في يوغسلافيا وأدواءهم لأني عرفت القوم وعاشرتهم وأقمت بين ظهرانيهم

لذلك أعلن أن البوسنيين والهرسك وهما العنصران اللذان يدينان بالإسلام في يوغسلافيا - لا يؤمنون بالصوفية الزائفة ولا يدينون بالخرافات، إلا أن فيهم جهالاً وفي طباعهم شيء من الشدة وفي تمسكهم بالدين شيء من العصبية لعل سببها أنهم مطوقون بالأمم الأجنبية التي لا تعتقد عقيدتهم ولا تدين بدينهم

ولئن كانوا يمتازون عن مواطنيهم بشيء فإنما يمتازون عنهم بطرابيشهم الحمراء القانية وعمائمهم البيضاء الناصعة، ثم بجرأة المسلم وعزة المؤمن والنشاط الإسلامي الذي لا يلهي بدنيا ولا يصرف عن دين

ولئن كانت العجمة والأمية تحولان بين المسلم الأوربي وبين دينه، فطغيان العامية وانتشار الأمية، وشظف العيش، وأعاصير السياسة وعسف السلطات، والأمراض الفتاكة في الشرق العربي كفيلة بصرف المسلم عن دينه والحيلولة بينه وبين فهمه.

ولقد طفت الشمال الأفريقي كله وتجولت في مصر، والشام، والحجاز والعراق، واختلطت بالعامة وتغلغلت في طبقات المتعلمين فما وجدت فرقا بين هذه الشعوب.

وما أراها أحسن حالاً من مسلمي يوغوسلافيا ولا سيما إذا صرفنا النظر عن طائفة القرويين في مراكش، والزيتونيين في تونس، والأزهريين في مصر، وجماعة النجف الأشرف في العراق

فالمسلم العامي في يوغوسلافيا لا يختلف في عقيدته، وعقليته، وعاداته عن أخيه المسلم

العامي في الشرق العربي، والمسلم اليوغسلافي الذي نزح إلى الشرق ودرس اللغة العربية لا يختلف عن أخيه المسلم الأزهري، والمسلم اليوغسلافي الذي تخرج في مدارس يوغسلافيا المدنية لا يبعد عن أخيه المسلم المصري الذي تخرج في جامعة فؤاد الأول. على أن المسلم اليوغسلافي لا يألو جهداً في فهم دينه بواسطة العلماء والكتب المترجمة، والتفاسير المنقولة إلى لغته أو غير لغته؛ أما كون هذه التفاسير أو تلك الكتب صحيحة أو غير صحيحة، فهذا ما نوجه السؤال عنه إلى مشيخة الأزهر.

والحقائق المرة التي نقررها والأسف يملأ جوانحنا هي أن الجهل لا يزال منتشراً بين المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وأن الذين فهموا الدين أو قاربوا نهجه من المتعلمين لم يتجاوزوا العدد القليل بعد، وأن الجهل سبب ويلات المسلمين أينما حلوا، وأن الأزهر لم يؤد رسالته على الوجه الأكمل بعد، وأن مصر لم تقم بأعباء الزعامة الإسلامية التي تطفح بها صحفها صباح مساء، وأن الأغلبية من المفكرين والشباب الإسلامي في مصر لا يعلمون عن إخوانهم في الأقطار النائية قليلاً ولا كثيراً

حمدا لك يا حضرة الأستاذ وشكراً على اهتمامك بإخوانك وعنايتك بقضيتهم. وإنا معشر الغرباء والضيوف نهيب بحضرتك وحضرات السادة قادة الفكر الإسلامي، أن تؤدوا زكاة أقلامكم وتبذلوا لإخوانكم المسلمين شيئاً من عنايتكم وتنشروا عنهم الحقائق الصحيحة حتى يعلم قراؤكم العرب أن لهم إخوانا يمدون أيديهم للتعارف. وأملنا وطيد ورجاؤنا أكيد أن تعالج أنت القضية الإسلامية كما عالجت في الشهور الماضية قضية القضايا (الغني والفقر)، ورسالتكم كفيلة إن شاء الله بتحقيق كل أمنية، لأنها منتظرة كالحبيب، شافية كالمطهر، منتشرة كالقمر، محبوبة كالعافية. ونسأل الله أن يحقق آمالنا ويصلح أعمالنا ويوفقنا إلى فهم ديننا

علي محمد رفعت

مسلمون في فنلندا
هذا عنوان المحاضرة الطريفة التي ألقاها الدكتور بشر فارس في قاعة جمعية الشبان المسلمين في الأسبوع الماضي. وأولئك المسلمون لم يسمع بأمرهم قبل رحلة الدكتور بشر
إلى بلاد الشمال سنة 1934. فلما لقيهم هنالك تتبع آثارهم وفحص عن أحوالهم الدينية والثقافية والاجتماعية وبحث في شؤونهم القومية والقانونية فخرج برسالة وجيزة نشرها سنة 1935 باللغة الفرنسية في مجلة الدراسات الإسلامية الصادرة في باريس والمحاضرة جمعت بين الوصف والإخبار والتقرير، وقد قسم المحاضر الكلام، فتناول الدين والثقافة والقومية وشؤون المرأة على الترتيب، ثم تلا القرار الذي به اعترفت الحكومة الفنلندية بالدين الإسلامي وأعقبه بقانون الطائفة الإسلامية الفنلندية وهو على خمس وعشرين فقرة تحدد واجب أبناء الطائفة وتعين معاملة بعضهم لبعض وغير ذلك من الشؤون الخاصة
وبعد المحاضرة ابرز الدكتور بشر بعض صور بالفانوس السحري؛ منها صورة الإمام، وثانية لزفاف بنت الإمام، وثالثة لدكان أحد المسلمين الأغنياء، وأخرى لفرقة كرة القدم
وقد وقعت المحاضرة عند السامعين ألطف موقع لما اشتملت عليه من البيانات الجديدة في عبارة فصيحة وأسلوب جذاب.
اللغة العربية وتدريسها في بعض جامعات الصين
ورد من (هونغ كونغ) عاصمة الصين المؤقتة، أن وزارة التربية والتعليم هناك قررت تدريس اللغة العربية والثقافة الإسلامية في ثلاث من جامعاتها ابتداء من العام الدراسي المقبل، واختارت لهذا الغرض ثلاثة من أعضاء البعثة الصينية بالأزهر الشريف، هم: السيد محمد مكين والسيد عبد الرحمن ناجون والسيد بدر الدين هاي ويليانغ
وسيتولى الأول تدريس اللغة العربية والثقافة الإسلامية في الجامعة المركزية بهونغ كونغ، والثاني في جامعة يونان بكوتمينغ حاضرة مقاطعة يونان، والثالث في جامعة شمال الصين الغربي بخانغ شونغ في مقاطعة شينسي
ونذكر لهذه المناسبة أن السيد ناجون نال شهادة العالمية من الأزهر الشريف عام 1936، ونالها السيد هاي ويليانغ عام 1937 أما السيد مكين فقد نال شهادة الأهلية من الأزهر عام 1935 وسيتقدم لنيل إجازة التدريس من دار العلوم في الصيف القادم
رقص ورقص
سيدي الأستاذ الزيات:
طالعت اليوم مقال الأستاذ العقاد (رقص ورقص) وقد ملأني الحماس والفرح وكلما اكتملت جمهرة من الإخوان قرأت على مسامعهم تلك الكلمات الحقة التي أجمع الكل على صحتها، فهو يعبر فيها عما يخالج كل مصري يهوى الموسيقى. وقد اتفق صدور المقال في يوم الذكرى الثانية عشرة بعد المائة لوفاة الموسيقي العظيم بيتهوفن، وأحيت محطة إذاعة أنقرة (التركية) تلك الذكرى بمقطوعات من ذلك الشاعر الموسيقي. وفي اليوم السابق سمعت أغاني وطنية من محطة روما. والحقيقة أن الإنسان قد حرم على نفسه المقارنة أو المشابهة لأنها كانت تنتج الحسرة والألم أنعقد مؤتمر الموسيقى الشرقية منذ أعوام وسمع أغانينا وسجلها على أقراص احتفظت بها وزارة المعارف، وقرر التمسك بالموسيقى المصرية لمصر، وما كانوا إلا مؤتمرين هازئين بالموسيقى الشرقية ولا حاجة بي أن أردد شعورهم نحونا لأنه مفهوم. وقد كتبت مرة في المجلة الموسيقية أحبذ نشر الموسيقى الأسبانية لأنها سلالة من الأغاني العربية درسها الأوربيون وتتلمذوا عليها ثم كيفوها حسب طبيعتهم، وتغنوا بها، فصارت عالمية تعبر عن الشعور والإحساس والعواطف. وأمامنا الموسيقى الروسية، وهي تلائم شرقيتنا. ولم لا تبدأ مراقبة الموسيقى بوزارة المعارف في تعليم الناشئة أغاني الأطفال التي أصبحت عالمية يتغنى بها الطفل الإنجليزي الألماني والهولندي وغيرهما كل بلغته، وهي سهلة سائغة محبّبة للنفس. تلك كلمات سريعة أذكرها وأفوض لأستاذي العقاد وللفنان المويلحي أمر تلك المسألة الحيوية
(أسيوط)

دكتور حسن إبراهيم وهبه
حول عياش بن أبي ربيعة
حضرة أستاذنا الزيات
السلام عليكم ورحمة الله. وبعد فقد قرأت بالعدد رقم 297 من الرسالة للأستاذ كامل محمود حبيب قصة إسلام عياش بن أبي ربيعة وافتتانه ثم عودته إلى حظيرة الإسلام بعد أن نزلت
الآيات: (يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم. . .) إلى آخر الآيات الشريفة
غير أن الحقيقة المذكورة في كل مراجع السيرة هي أن الآيات لما كتبها عمر بن الخطاب رضى الله عنه أرسلها إلى هشام ابن العاص (الثالث الذي واعدهم على الهجرة) لا إلى عياش (كما هو مذكور في قصة الأستاذ)
فعمر رضى الله عنه يقول:
- وقال هشام في ذلك (فكتبتها بيدي في صحيفة وبعثت بها إلى هشام بن العاص):
- إلى آخر حديث هشام (. . .فلما أتتني جعلت أقرؤها بذي طوى)
(المنصورة)
دروش الجميل
تنبيه مهم
وقع في الآية الكريمة التي استشهدت بها في آخر مقالي في العدد الماضي من الرسالة تحريف بتقديم كلمة (الكافرين) على كلمة (المنافقين) وصحتها: (إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا) فأرجو كل قارئ أن يتفضل بتصحيحها في العدد الذي عنده
الغمراوي
رسالة النقد
في سبيل العربية
كتاب البخلاء
للأستاذ محمود مصطفى
- 3 -
يعلم الله أننا ما نقصد بنقدنا هذا تجريح الأستاذين الفاضلين والعالمين الجليلين العوامري بك، والجارم بك. فإن حقهما علينا مرعي، ومقامهما لدينا كبير. وإنما أشفقنا على العربية التي وقفنا حياتنا على خدمتها أن يشيع في طبقات أهلها ما اعتقدناه مجانباً للصواب ومتجانفاً من الحقيقة التي ننشدها وينشدها معنا صاحبا العزة الشارحان للكتاب
أشفقنا على الحقيقة أن يضل الناس في أمرها، وقد شاع الكتاب وذاع وانتشر في شرق وغرب، وتناوله كل أديب واحتواه قمطر كل طالب. فأحببنا أن يصحح كل قارئ نسخته ليقرأه بعد ذلك سليماً وليجعله إلى الصواب محجة لا أمت فيها ولا عوج ودليلنا على حسن النية أننا لا نعترض إلا على خطأ لا سبيل إلى التماس الصواب فيه، فأما الذي يحتمل الصواب ولو بوجه من الوجوه، وأما الخطأ الذي لا يوجب ارتباكاً في الفهم، فقد تركنا كل ذلك اتكالاً على فهم القارئ واجتناباً لأن نتهم بالاستكثار من عدالتهم والرمي بها جزافاً
في ص33 في رسالة سهل بن هارون التي يخاطب بها بني عمه يقول:
(ولئن أخطأنا سبيل إرشادكم فما أخطأنا سبيل حسن النية فيما بيننا وبينكم وما أردنا بما قلنا إلا هدايتكم وتقويمكم، وإلا إصلاح فسادكم وإبقاء النعمة عليكم.)
والكلام واضح لا يحتاج إلى تفسير، ولكن حضرتي الشارحين يأبيان إلا شرح ما لا يحتاج إلى شرح فهما يقولان:
قوله (فيما بيننا وبينكم). (في) هنا للسببية أي بسبب ما بيننا وبينكم من صلة القرابة (أي إن عدم خطئنا سبيل حسن النية إنما هو بسبب ما بيننا وبينكم من صلة)
وهذا كلام ظاهر التكلف: فيه تكلف في اللفظ بإخراج لفظة (في) عن معناها الأصلي إلى
معنى السببية، وفيه تجوز في معنى الكلام وعدم إجراء له على وجهه المتبادر. وإنما المعنى المفهوم الذي تدل عليه الألفاظ بوضعها الحقيقي الأول هو: إننا لم نكن غير

حسني النية في الأمر الذي نحدثكم فيه وهو تصويب الرأي في البخل وعده حزماً وحيطة
هذا هو الأمر الذي بينهم وبينه وهو الذي بني عليه رسالته من أولها إلى آخرها. أفرأيت أيها القارئ أننا لم نكن بحاجة إلى جعل في للسببية وتفسير ما بينه وبينهم بالقرابة وهي لم يجر لها ذكر في الرسالة؟
في ص 34 يقول سهل: (إن من أعظم الشقوة وأبعد من السعادة أن لا يزالُ يتذكر زلل المعلمين)
وفي الشرح يرتكب الشارحان خطأ ظاهراً بجعلهما أن في قوله (أن لا يزال) مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن وجملة لا يزال خبر لها. وقد تبع ذلك أن ضبطا الفعل يزال بالضم لأنه في نظرهما لم يسبق بناصب ولا جازم، كما تبع ذلك أيضاً أن فصلا أن من لا في الرسم لأنها حين لا تكون ناصبة تفصل من حرف النفي
ولسنا بحاجة إلى الإطالة في شرح هذا المقام وبيان ضرورة جعل أن مصدرية ناصبة للفعل، لأن شرط جعلها مخففة من الثقيلة أن تكون مسبوقة بيقين أو ظن، ولم يسبقها هنا شيء من ذلك
وهذه قصة صغيرة وردت ضمن رسالة سهل نوردها لحسنها في ذاتها أولاً، ولنذكر بعدها تعليقاً للشارحين على جملة منها أعرباها إعراباً غريباً ثم شرحاها شرحاً مضطرباً ينقض آخره أوله
وهذه هي القصة ص 46
حدث أحمد بن رشيد قال: كنت عند شيخ من أهل مرو لا تريده، هو مالح! قلت: هات) من كذا وكذا قال: لا تريده، هو كذا وكذا، إلى أن عددت أصنافا كثيرة. كل ذلك يمنعنيه ويبغضه إلي. فضحك أبوه وقال: ما ذنبنا؟ هذا من علمه ما تسمع. يعني أن البخل طبع (فيهم وفي أعراقهم وطينتهم
أما الجملة التي نؤاخذهما على إعرابها وشرحها فهي (هذا من علمه ما تسمع) فقد أعرباها هكذا: هذا مبتدأ و (من علمه) جار ومجرور خبره وما بدل من ذا في هذا) وهذا الإعراب
خطأ لا يبرره أي تمحك مما اعتاد المعربون أن يلجئوا إليه، لأن الإعراب فرع المعنى كما يقولون
فلننظر قبل في المعنى الذي فهمه الشارحان من الجملة. قالا: (أي هذا الذي تسمعه ناشئ من علمه ولم يلقنه بل هو من سجيته)
وهذا كلام متناقض، كيف يكون الذي تسمعه ناشئاً من علمه ثم يكون لم يعلمه ولم يلقنه؟ وهل العلم إلا بالتعليم، فكأنهما قالا: تعلمه ولم يتعلمه فيكونان قد أثبتا شيئاً ثم نفياه في حال واحدة
إنما المراد لقائل الكلام هو أن هذا الذي بدا من كلام الصبي لم يصل إليه من طريق التعليم ولا التلقين وإنما هو وحي الطبع وإرشاد السليقة؛ وإذا كان كذلك فهو غير داخل في باب التعليم وإنما هو إلهام وغريزة مركبة في النفس. وحضرتا الشارحين أولى منا بفهم الفرق بين الغريزة والكسب لأن هذا من مباحث علم النفس الذي طلباه في أوربا وبه امتازا على إخوانهما ونالا مناصبهما العالية
ومن أجل ذلك وجب أن تقرأ الجملة هكذا: (هذا من علمه ما تسمع) ويكون الكلام على الاستفهام الذي يراد به النفي وتكون الإشارة في (هذا) إلى الصبي. والمعنى أن هذا الصبي لم يعلمه أحد ما صدر منه في جواب الممتحن وإنما أجاب بما ركز في طبعه وثبت في نفسه من طبيعة البخل المتوارثة في قومه
في ص66 في حديث بخيل عرف فضل ماء النخالة في شفاء السعال وفائدته في الغذاء، فقال لامرأته: (لم لا تطبخين لعيالنا في كل غداة نخالة فإن ماءها جلاء للصدر وقوتها غذاء وعصمة، ثم تجففين بعد النخالة فتعود كما كانت فتبيعين إذاً الجميع بمثل الثمن الأول ونكون قد ربحنا فضل ما بين الحالين)
ويعلق الشارحان على عبارة (فتبيعين بمثل الثمن الأول) بقولهما: (الجميع أي دقيق القمح ونخالته. أما الدقيق فلأنه باق على حاله، وأما النخالة فلأنها عادت بالجفاف كما كانت)
سبحان الله! ما رأيت كتكلف هذا الشرح. من أين جاء الشارحان بالدقيق وهو لم يرد

له ذكر في الكلام؟ ومن أين لهما هذا الخيال الذي تصورا به أن هذه الأسرة قد استغنت بماء النخالة عن كل طعام وشراب فلم تعد بعد بحاجة إلى الدقيق؟ إن أحداً لا يعقل هذا!! ولكن
الأمر أيسر مما عسّرا وأبسط مما ركّبا، وذلك أن الرجل لما رأى في ماء النخالة غذاء وشفاء عرض له أن يستفيد من ذلك، فتقدم إلى امرأته بأن تطبخ للعيال كل غداة نخالة ليكون في متناول حسائها غنية عن أكلة من أكلات اليوم، ثم هو يوجهها إلى تدبيره المحكم بقوله (فتبيعين إذا الجميع بمثل الثمن الأول) يريد إنه إذا تجمع عندها مقدار صالح من مطبوخ النخالة بعد تجفيفه باعته بمثل الثمن الذي اشترته به لأن النخالة لم تتغير حالها بعد الطبخ عما كانت عليه قبله
فقد بأن مقدار التعسف في هذا الشرح بتصور القمح وطحنه وإبقاء الدقيق والاستغناء بالنخالة عن كل طعام آخر وأن أصحاب هذا التدبير قد وفقوا إلى أن يعيشوا حياتهم كلها بفرق ما بين النخالة جديدة ومطبوخة
فيا الله أيها الشارحان إذا كنتما جادين في هذا الخيال وقد اقتنعتما به، فلم أشتري الرجل وامرأته القمح وتكلفا طحنه ثم بيع الدقيق الذي بقي بحاله والنخالة بعد طبخها؟ أما كان يكفيهما أن يشتريا النخالة وحدها ليأخذا فائدتها ثم يبيعاها مسلوبة الفائدة فلا يكونان بحاجة إلى كل هذا التعب؟ ولكن تكلف الشارحين وتعسفهما قد جعلهما يكلفان الرجل والمرأة كل هذه المشقة في أمر معاشهما
(للكلام بقايا)
محمود مصطفى
الكتب
حياة الرافعي
تأليف الأستاذ محمد سعيد العريان
للأستاذ محمود الخفيف
عرفت الرافعي رحمه الله، واتصلت بيني وبينه أسباب المودة في دار الرسالة أعواما ثلاثة؛ وأعرف سعيداً - متعني الله بطول صحبته - معرفة وثوق وخبرة. لذلك أراني . . .شديد الغبطة أن أقدم إلى قراء العربية كتابا عن الرافعي جرت به براعة سعيد يعتبر هذا النوع من الكتب (كتب التراجم) من أهم أبواب الأدب عند الأمم الغربية؛ ولقد عظمت عنايتهم بتلك المؤلفات التي يجمع الواحد فيها بين دفتيه حياة رجل كان له في الحياة الإنسانية خطره وكانت له فيها رسالته؛ ولذلك كانت تلك الكتب واسعة الانتشار إذ يجد القراء فيها إلى جانب الدراسة والتحليل المتعة واللذة، وأي متعة أدبية هي أجمل من أن تصاحب عظيما لحظة من الزمن على صفحات كتاب؟
ولقد صار هذا النوع من المؤلفات فناً بذاته وصارت له أصول وأوضاع كما هو الحال في القصص والشعر وغيرها من فروع الأدب؛ فلابد فيه من الإحاطة بالموضوع عامة وفهم فن المترجم له ورسالته خاصة، ولابد من سلامة المنطق وعمق النظرة وتقصيها؛ ولا بد من الإنصاف والنزاهة واللباقة، ثم لابد بعد ذلك مما يجب توفره في كل أثر أدبي من استقامة الأسلوب وجماله وبلاغته
فإذا أضفت إلى ما سلف معرفة الكاتب بالمترجم له وصلته به شخصياً، فهنا الكمال الذي لا مطمع بعده؛ وبقدر ما يكون من هذه الصلة تكون قيمة الترجمة وخطرها، ولذلك كان طبيعياً أن يعد هذا القسم الخاص من كتب التراجم أكثرها أصالة في هذا الفن وأعظمها استهواء للقراء، بله قيمتها من حيث صحة الإسناد وصدق الرواية والرجل العظيم، كاتباً كان أو سياسياً أو جندياً أو ما سوى هؤلاء، لا يعرف من آثاره أو أعماله وحدها، فلابد من تمام المعرفة به من درس حياته، فمن ظروف تلك الحياة ولدت آثاره ومنها استوى له مزاجه ونشأ وجدتنه
ولقد كان الرافعي فيما أرى من عظماء رجال القلم لا في مجال العربية فحسب بل في مجال الفكر البشري كله. وكان رحمه الله من ذوي الأصالة، تجيش نفسه بالمعاني كما يتفجر الينبوع بالرائق العذب، لأن من طبيعته أن يتفجر بهذا دون حاجة إلى مدد من غيره: فلقد حيل بينه وبين الأدب الأوربي لأنه لم يتحرك بلغة من لغاته لسانه، وحيل بينه وبين مناقشات الناس في مجالسهم لأنها لا تنفذ في مسمعيه، فلم يبق إلا أن يقرأ العربية ثم ينطوي على نفسه ينظر ويتدبر. . .

أعجب سعيد بأدب الرافعي ثم ابتغى إليه الوسيلة حتى لقيه فنشأت بينهما صلة، ثم توثقت الصلة فكانت مودة، وتزايدت المودة فصارت إخاء، ثم كان بعد ذلك ما يكون بين الصديقين الحميمين من زيادة الألفة ورفع الكلفة. وتسنى بذلك لسعيد أن يدرس الرافعي الرجل في شخصه وأن يستبطن دخيلة نفسه كما درس الرافعي الكاتب في آثار قلمه، ومن هذه الناحية كملت ترجمته فهي كما ذكرت الناحية التي تكمل بها التراجم

وأدب الرافعي ثروة عظيمة يضم إلى تراثنا، ودراسة هذا الأدب لاشك أمر مطلوب في ذاته لناشئة الأدب عامة؛ ثم هو أمر لا غنى عنه للباحث المثقف شأن كل أدب رسخ أصله وامتدت فروعه

والرافعي كغيره من فطاحل الكتاب لابد من معرفة حياته لنفهم آثاره، بل لعله أجدر بذلك من كثيرين غيره لما أشرت إليه من صفاته؛ هذا إلى إنه لابد في دراسته من هاد، فلقد يعظم ويسمو أحياناً حتى ليغدو كالجبل الأشم لابد لمن يريد ارتقاءه من دليل.

اقرأ على سبيل المثال مقالاته في النبوة، واقرأ مقالاته: رؤيا في السماء، وابنته الصغيرة وبين خروفين وإضرابها تجد البرهان على ما أقول؛ ولقد يرق ويسهل حتى تصبح مقالاته كأفواف الزهر ولكن لابد ممن يشير إلى سر جمالها، ثم لقد يعمق ويدق حتى يصير كالجدول المتواري لا سبيل إلى معرفة منبعه إلا أن يهديك إليه هاد، خذ مثالاً لذلك مقالاته في الجمال البائس والمشكلة، ثم لا تنس أوراق الورد ورسائل الأحزان وأشباهها فإنك لن تفهمها حق الفهم إلا أن تعرف المنبع الذي تفجرت منه. . .

ويسرني أن أذكر أن الأستاذ سعيداً قد دلنا بكتابه على نواحي القوة والجمال في هذا الأدب الفذ، ثم لقد كشف لنا من أسراره وخبيآته، وفرغ من عمله على خير ما يرجى من الجودة،

وهو بما يرشدنا ويدلنا يؤدي إلى الضاد خدمة من أجل الخدمات

هذا ويسرني كذلك أن أذكر دون أن أتحيز إلى سعيد، إنه قدم بكتابه هذا أقوى براهينه على أصالته، فلقد حيل بينه كما حيل بين أستاذه وبين الأدب الغربي في لغاته، ومع ذلك فإني لأشهد أن ما اتبعه في كتابه تلك الترجمة لا يختلف في جوهره عن أصول ذلك الفن. وفي ذلك دليل قوي كما أقول على إنه كالجواد الكريم، لم يأت كرم أصله من المحاكاة والتعلم، وإنما كان كرم ذلك الأصل طبيعة فيه لأنه هكذا خلق

سار سعيد سيراً منطقيا فتتبع حياة الرافعي في مراحلها دون تعثر أو ارتباك، ثم حلل ودرس المزاج الأدبي والنزعات الاجتماعية والسياسية التي امتاز بها عصر الرافعي، فكانت طريقته بهذا هي الطريقة العلمية، طريقة النظر والتبصر، وبها امتاز كتابه عن تلك الكتب التي تعمد إلى مجرد الحكاية والسرد، وإنك لتقرأ الكتاب فتحس كأنك صاحبت الرافعي وترتسم لك شخصيته قوية واضحة فتسأل هل كان مرد ذلك إلى حسن سياق الكاتب أم إلى شدة معرفته بمن يكتب عنه، ثم لا يسعك إلا أن ترده إلى ذلك جميعاً

وثمة حسنة في الكتاب زادتني محبة له، ذلك أن الدافع الأساسي إلى كتابته كما نعلم كان دافع الوفاء نحو صديق راحل فلم يحمل هذا الدافع القوي سعيداً على التحيز وعهده بصاحبه قريب، ورأيناه بصدقه وإنصافه يرينا ناحية من نواحي قوته ككاتب. ثم لقد كان يجد نفسه أمام أمور دقيقة فكانت تواتيه فيها لباقة ترضي الذوق ولا تغضب الحق. . .

أما أسلوب سعيد فلست بحاجة إلى أن أتحدث إلى القراء عنه، وقد عرف القراء سعيداً بجمال أسلوبه وبلاغة بيانه قبل أن يعرفوه بكتابة هذا، وحسبي هنا أن أشير إلى إعجابي به

وعهدي بسعيد إنه يحب في إخلاص أن يعرف رأي المنصفين فيما كتب فيحفل بأن يسمع ما لا يرضيهم أكثر مما يحفل بالثناء والمجاملة وهي خلة تضاف إلى محامده، ولذلك أصارح سعيداً بأني كنت أحب منه أن يدرس أسلوب الرافعي وطريقته دراسة نقدية. ولقد يرد على ذلك بقوله إن لهذه الدراسة مجالاً غير هذا المجال، وهو رأي له وجاهته بل هو رأي أكثر كتاب فن التراجم وفي مقدمتهم أميل لدوج وأندريه موروا وغيرهما، بيد أني شخصّياً أرى أن الموضوع يكون بهذه الدراسة أتم وأجمل

ولقد طبع الأستاذ سعيد كتابه طبعاً أنيقاً متقناً في مطبعة الرسالة وختمه بفهرست للموضوعات وثبت دقيق للأعلام والصحف والمجلات والكتب التي ورد ذكرها فيه أهنئ الأستاذ سعيدا بكتابه الفذ الجميل وأكرر له إعجابي. ويسرني في خاتمة هذه العجالة أن أشير إلى معنى آخر هو أن كتابه هذا بموضوعه وبما سلك فيه من طريقة يعتبر من مظاهر التجديد في أدبنا العصري، ولذلك كم أراني مغتبطاً بالحديث عنه في هذا الموضع من سجل الرسالة!

الخفيف

المسرح والسينما

حديث الأسبوع

625 جنيهاً تصرف يومياً على الفرقة القومية

أكدت لنا بعض المصادر العليمة أن حضرات النواب المحترمين الأساتذة عبد الحميد عبد الحق وسليمان غنام وأحمد أبو الفتوح سيتقدمون في هذه الدورة بسؤال إلى معالي وزير المعارف عن الفرقة القومية والرسالة الثقافية التي أدتها للبلاد وعن مبلغ الخمسة عشر ألفاً من الجنيهات التي تصرفها الحكومة إعانة لها. . . وتؤكد هذه المصادر أيضاً أن بعض النواب سينضم إلى الأساتذة مقدمي السؤال وأنهم سيطالبون بتوفير هذا المبلغ وتقديم جزء منه كإعانة للفرق الأهلية

والواقع أن هذه الفرقة يجب أن تحل لأنها تكلف ميزانية الدولة من المال مالا تستطيع أية حكومة في العالم أن تقدمه لمساعدة جميع الفرق في بلادها. وإذا عرف القارئ أن الفرقة تعمل في الموسم دورتين، وأن كل دورة تستغرق على أكثر تقدير أربعة أسابيع، وأن أيام العمل في كل أسبوع تصل إلى ثلاثة أيام لخرج بنتيجة وهي أن مدة عمل الفرقة في موسمها أربعة وعشرون يوماً. ومعنى هذا أن الحكومة تدفع لها كل يوم 625 جنيهاً مصرياً إعانة خلاف إيجار المسرح وأجور موظفيه وثمن التيار الكهربائي المستهلك والملابس المؤجرة وغيرها

هل يعرف حضرات النواب المحترمين هذه الأرقام المخيفة؟! إن البلاد الآن في عصر انتقال يتحتم عليها فيه أن تقضي على كل ضار فتمهد لبقاء الصالح. والتجارب العديدة أثبتت أن الفرقة القومية هزيلة الجسد لا تستطيع القيام بأعباء الرسالة الملقاة على كتفيها، وجدير بالحكومة أن تصرف الإعانة على مشروع جدي يعود بالخير على البلاد. . .

تقسيم جديد

قد يعرف المتتبعون للتطورات الفنية في البلاد أن ستوديو مصر كان قد استحضر خبيراً فنياً ليقدم تقريراً عن أوجه الإصلاح اللازمة للمؤسسة الفنية الكبيرة وأن الرجل قام بعمله وقدم تقريره ثم غادر مصر إلى فرنسا ثانية

وعملت إدارة ستوديو مصر على تنفيذ تقرير مسيو أفنيون الذي اقترح وجوه إصلاح عديدة وبدأت في الأسبوع الماضي تنفيذ الجزء الأول منها وهو القاضي بالتقسيم الإداري والفني وتحديد السلطات، فأصبح الأستاذ محمد رفعت مديراً للإنتاجبدلاً من الهر فريتز كرامب الذي أصبح مستشاراً فنياً، وأسندت مهمة المدير الإداري إلى الأستاذ رجائي، ومهمة مدير التوزيع إلى الأستاذ موريس كساب وكل هؤلاء المديرين يعملون تحت سلطة المدير العام الأستاذ حسني نجيب

موسيقى للجميع

المفروض - فنياً - أن الجزء الأكبر من نجاح الأفلام يعود إلى إتقان الناحية الموسيقية فيها وهي ناحية لا نجد في مصر من المنتجين من يهتم بها، ولذا نشعر بالملال يسود نفوسنا في معظم الأفلام المصرية التي يعتمد فيها المنتج والمخرج وكاتب السيناريو وواضع الحوار و. . . المؤلف أخيراً. . . على الحوار

والواقع أن الموسيقى التصويرية في مصر تكاد أن تكون مهملة، لأن ملحنينا يتجهون إلى مناحي أخرى توفروا عليها. ولذا رأت السيدة بهيجة هانم حافظ المديرة الفنية لشركة فنار فيلم بصفتها رئيسة نقابة الموسيقيين المحترفين أن تسد هذا النقص الموجود بأن تضع عدة قطع موسيقية تصلح لشتى (المواقف) السينمية وأن تسجلها وتطبع منها نسخاً عديدة تعرض للبيع لمن يطلبها من أصحاب الشركات التي ترى نفسها في حاجة إلى سد هذه الناحية الواجب أن تملأ بما هي جديرة به من الاهتمام

والإتقان الفني
حوريس
العدد 301 - بتاريخ: 10 - 04 - 1939
يا للجلال الصريع!
الملك غازي. . .
في ذمة الله نبعةٌ فواحة من أرومة الحسين، ذوت في ازدهار الربيع وغيَدان الصبى وفوران الأمل، ثم أسقطها الجفاف والري موفور والخصب شامل!
كان الملك غازي - تغمده الله برضوانه - مهوى قلوب العرب ومعقد رجاء العراق؛ لأن شبابه يرافيء شباب النهضة، وطموحه يجاري طموح العروبة؛ ولأنه من بعدُ وريث فيصل باني العروش وقائد الثورة. وكانت تباشير الصباح المسفر تنبئ عن الضحى الجميل والنهار الصحو، لولا أن للقدر أحكاماً لا تجري على أقيسة العقول ولا تسير على رغائب الأنفس
عرفت خليفة فيصل وهو لي عهد، ولم أنل شرف لقائه وهو ملك؛ لأنني تركت العراق وأبوه لا يزال على عرش الرشيد يدبر الأمر بذكاء على ودهاء معاوية. وكانت جلساتنا الليلية في حديقة البلاط المزهرة المقمرة، حيناً في حضرة الملك وحيناً في حضرة خاله، تكشف لي قليلاً قليلاً عن مصاير هذه النفس الرغيبة الطيِّعة التي نبتت في هجير مكة وأزهرت في ظلال بغداد، فكنت لا أنفك منها أمام طبيعتين مختلفتين: طبيعة تتأثر بحاشيته فتسامح وتساير وتمرح، وطبيعة تتأثر بأبيه فتصعب وتسمو وتطمح. ولكن المقرر في الأذهان كان أن الشبل سينتهي بالضرورة إلى طبيعة الأسد مهما أثر فيه طبع الناس ونال منه قفص الحديقة
قلَّ في الشباب الملكي من كان كغازي في سماحة نفسه وسجاحة خلقه ونبل شعوره وسمو تواضعه وظرف شمائله. وتلك هي الصفات الهاشمية التي تنتقل في بني الحسين بالإرث، وتقوى إذا ساعدتها القدوة وساعفتها البيئة. ولكن ما ورثه هو عن أبيه صقر قريش من الجناح الزَّفاف، والبصر النفاذ، واللب الحصيف، كان يتيقظ رويداً رويداً مع الزمن والخبرة؛ فلم يكن بعدُ قد توثقت آرابه للاضطلاع بالعبء الفادح الذي ألقي على ظهره فجأة. والعبء الذي كان يحمله فيصل من أمور العراق هو العبء الذي قسمه الدستور على سلطات الدولة الثلاث فجمعه هو على عاتقه. من أجل ذلك لم يضع غازي يده من سياسة العراق العليا موضوع يد أبيه للتعديل والموازنة، وإنما تركها في أيدي الزعماء تجري
سفينتها على مشيئة الريح، تضطرب حين تثور، وتستقر حين تسكن. ومن أجل ذلك امتحن الله الفراتين بالقوة الغشوم، فحكم الجيش، واستبد الطيش، واضطرب العيش، وسطت الأيدي المجرمة على عباقر الأمة. ومن أجل ذلك لا نتوقع لسياسة العراق بعد غازي ما توقعه لها الناس بعد فيصل. والغالب في الظن أنها ستجري في عهد فيصل الثاني كما كانت تجري في عهد فيصل الأول. فإن نوري السعيد الذي يقبض على سكانها اليوم هو تلميذ أبي غازي؛ وضعا معاً سياسة العراق الحديث على أساس من المرونة اللبقة، ثم ساساه بنوع من الدكتاتورية المعتدلة التي تسير مع النزاهة وتقف عند حدود العدل. ولعل هذه السياسة الفيصلية هي التي تقتضيها الحال اليوم بعد ما فت في أعضاد الشعب توزع الرأي وتقلب الهوى وتوقح الخصومة
إن مصرع الملك الشاب على هذه الصورة الأليمة فاجعة تدمى العيون وترمض الجوانح.
وإن العالم العربي كله ليشاطر العراق الحزين أساه على سيد شبابه ومناط أمله؛ ولكن للدواهي النُّكر صدمات تهز الشعور وتوقظ الفطنة، فتنبه على قدر ما تُذهل، وتوجه على أثر ما تُضل. والشعب العراقي من الشعوب الكريمة الحرة التي تصقلها الخطوب وتلمها الأحداث فتقف بفطرتها السليمة أمام الخطر هوىً واحداً ورأياً جميعاً وعزيمة صادقة. وسيرى الذين يتخيلون ويتقولون أن إرادته الصارمة الحازمة ستَثبت لدواعي الشقاق ونواجم البغي، وتُثبت أن عصر فيصل الثاني سيكون عصره الذهبي الثاني، فيشتد بنيانه ويمتد سلطانه ويتسع عمرانه وتهبُّ من جوف الهلال الخصيب عبقريات غفت في أحضان الخلود ولكنها لم تمت!
في ذمة الله نبعة فواحة من أرومة الحسين ومن دوحة فيصل، سقاها النبل الخالص،

وغذاها الكرم المحض، وتعهدها الحفاظ الحر؛ حتى إذا أوشك الكم أن ينشق عن الزهر المثمرة قصفها الموت المفاجئ، فكان ذُوِيها حسرة في نفس شعب، وقرحة في قلب وطن!

برد الله ثرى غازي بالصيب الهتون من رحمته، وشعب قلب العراق بالصبر الجميل عن مصيبته، وجعل عهد المليك الطفل على العروبة والإسلام عهد سلام ووئام وبركة!

أحمد حسن الزيات

دخيلة آسيا

للأستاذ عباس محمود العقاد

جون جنتر كاتب صحفي روائي ذو شهرة عالمية، بدأ حياته الصحفية في الحادية والعشرين من عمره حوالي سنة 1922 مخبراً في صحيفة شيكاغو دايلي نيوز الأمريكية، ثم أسندت إليه مراسلتها من عواصم أوربا والشرق الأقصى فأقام في لندن وباريس وبرلين وموسكو ومدريد وحواضر الصين واليابان والهند وكل حاضرة كان لها شأن في السياسة العالمية

واتصل بعظماء البلاد بين محادث ومجالس ومراقب، واستعان بالوسائل الكثيرة التي يستطيعها الصحفي الأمريكي من بذل المال وإقامة الولائم والتقاط الأسرار للإطلاع على دخائل الزعماء المحجبين في البيوت وفي دواوين الأعمال؛ ثم اعتزل الصحافة منذ ثلاث سنوات وتفرغ للتأليف في موضوعات تشبه موضوعات الصحافة، فكان تصنيفه الأول في هذا الباب كتاباً ضخماً يربى على خمسمائة صفحة كبيرة أسماه دخيلة أوربا ويشمل على نوادر مستملحة ومعلومات طريفة عن كل من عرف من الرجال، وكل ما عرف من الشؤون والأحوال؛ وهو محصول نفيس ولا شك يحتاج إليه كل من يعنيه أن ينفذ إلى حقائق الأمور في سياسة الدول الأوربية وسياسة العالم عامة

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب في شهر يناير سنة 1936، وصدرت الطبعتان الثانية والثالثة منه قبل أن ينتهي الشهر، وأمامي الآن الطبعة الحادية والثلاثون منه؛ ولا يبعد أن تكون الطبعة الثانية والثلاثون في الطريق، وثمن النسخة نيف وستون قرشاً بالعملة المصرية. . . فلعلي لا أتهم غداً بالتحريض على جريمة قتل واغتيال إذا اطلع على هذه (الأسرار) أولئك الحانقون على كتابنا الكهول والشيوخ، لأنهم ناجحون!

وسر المؤلف بهذا النجاح فأقدم على تجربة ثانية باسم (دخيلة آسيا) في هذه المرة، تناول فيها عظماء اليابان والصين والهند وفارس وسائر العظماء الأسيويين، وكتب عن إمبراطور اليابان وقائد الصين وشاه إيران وغاندي وجوهرلال، وأجاد في هذه التراجم كما أجاد في تراجم المشهورين الأوربيين، فسيلقى كتابه الثاني من الرواج ما لقيه كتابه الأول؛ وسيقبل عليه الأمريكيون والأوربيون قبل إقبال الآسيويين وإخوانهم الإفريقيين عليه!

ولما يصدر الكتاب بعد من المطبعة، ولكنا اطلعنا على نخبة من فصوله في المجلات المختلفة، ومن هذه الفصول نلخص بعض ما يطيب الإطلاع عليه لقراء العربية

كتب عن إمبراطور إيران صاحب الجلالة رضا بهلوي بعنوان (ملك الملوك) أو شاهنشاه بالإيرانية، فذكر جهاد جلالته في كفاح الجهلاء من رجال الدين الذين يحاربون الإصلاح باسم القرآن، وما يحاربونه في الحقيقة إلا بما يجهلون من العلم ومن القرآن، وذكر اجتهاده في تعليم نفسه وقال: إن ظهوره كان أكبر حادث في التاريخ الفارسي بعد أيام جنكيز خان، وإنه كان قبلة الآمال حين فكرت فئة قليلة من الشبان في إنقاذ البلاد من الفوضى والفساد، فجمع حوله ألفين وخمسمائة من الجند وتقدم إلى طهران في العشرين من شهر فبراير سنة 1921 فاستولى عليها بغير عناء

ويقول المؤلف إن الشاه يستيقظ في الخامسة من الصباح، وليس في المملكة موظف كبير إلا ويتوقع دعوة منه في أي وقت من أوقات الليل والنهار للحضور إلى القصر بعد خمس عشرة دقيقة، وهو يستحث وزراءه إلى العمل الناصب فيفخرون بالعمل ويفخرون بإيران

ويقال إن الشاه أوسع الملاك أرضاً في أرجاء القارة الأسيوية، وأنه يملك أعظم الفنادق الكبرى، ويجعل السياحة في البلاد الفارسية حكراً للدولة، وليس على الدولة ديون بل لها موارد في احتكار السكر والشاي والملح والتجارة الخارجية، والنقل

والنفط وما إلى ذلك، وتنفق كلها على المرافق العامة والإصلاحات الداخلية. وقد وهب الشاه بلاده كل ما عنده من الذهب منذ عهد قريب.

ولا يطيق الشاه تعصب الجمقي من رجال الدين. فمن ذلك أن جماعة منهم هجموا على موظف أمريكي في السك القنصلي فقتلوه لأنه التقط صورة شمسية لمحفل من المحافل الدينية، وكانوا بقيادة رجل يزعم أنه من نسل النبي عليه السلام. فأمر الشاه بمحاكمته وصدر الحكم عليه بالموت، فمات، وكان عبرة لغيره من الجهلاء الذين يسيئون بهذه الحماقات إلى سمعة البلاد.

وقال إن الشاه تدرج في إلغاء الحجاب فأصبح نساء المملكة جميعاً سافرات، وإنه يقتدي بالغربيين، ولكنه لا يستسلم لأحد منهم في سياسة داخلية ولا سياسة خارجية. وقد ألغى خطوط الطيران الألمانية والإنجليزية وسمح للطائرات الهولندية وحدها أن تطير فوق بلاده، على أن تجدد الرخصة كل شهرين.

وندع ما أشار به الكاتب إلى (خصوصيات) الشاه، ونذكر بعض ما رواه عن (الإنسان الإله) أو إمبراطور اليابان ومن أنهم يستأنسونه شيئاً فشيئاً لأنه يعيش حتى الساعة عيشة الأرباب المعبودين، فلا يتكلم في المذياع ولا يجوز لأحد أن يصوره ولا أن يحدجه بنظره، وأنه مع هذا ينظم الشعر ويقيم في قصره مكتباً للمسابقات الشعرية تعرض فيه المنظومات كل سنة ويشترك الإمبراطور فيها وإن كان لا يشترك في الجوائز الممنوحة للسابقين

ونقل المؤلف عن بعض المصادر أن السياسي الياباني الكبير الأمير (إيتو) قد استشار بسمارك أثناء زيارته لبرلين في أمر الدستور والقواعد النيابية فقال له ضريبه بسمارك إن الشرط الأول لنجاح المملكة الدستورية هو اعتصام الملك بثروة كافية وافية. وعلى هذا يقول المؤلف إن رأس مال البيت الإمبراطوري هو الثالث أو الرابع بين رؤوس الأموال في الديار، وإن للإمبراطور أسهماً في كثير من الأعمال الصناعية والسكك الحديدية وخطوط الملاحة، ومع هذا لا يأذن العرف للإمبراطور بحمل النقود كما يقولون.

وكتب عن زعيم الصين (شيان كاي شيك) فقال: (إنه لغز من الألغاز النفسية لأنه لدود الخصام شديد الصرامة في النظام، ومع هذا يصفح عن كثير من أعدائه ويوليهم المناصب ويلقي عليهم التبعات.

يستيقظ عند الفجر ويدأب على العمل حتى المساء، ويحب أن يؤدي أعماله وهو مضطجع، وينام قليلاً أثناء النهار على صوت الأغاني التي تدار له على الحاكي، ويختار من الأغاني أنشودة دينية لشوبير، ويعلم مرءوسوه في الحجرة المجاورة أنه قد نام ساعة ينقطع الإنشاد.

لا يدخن ولا يشرب الخمر، وقلما يتعاطى القهوة أو الشاي، وله يومية يواظب على تدوين الملاحظات فيها؛ ويقال إنه نجا من الموت مرة بفضل هذه اليومية، لأنها وقعت في أيدي المعتدين عليه فقرءوها فبدا لهم الرجل في حياته الخاصة بعد قراءتها على صورة غير التي تعرضها لهم مغامراته السياسية، فأحجموا عن قتله

رياضته المختارة السير على الأقدام فوق التلال، أو تناول الغداء في الخلاء، ولا يزجى الفراغ في غير القراءة، وأكثر ما يقرأ في الكتب الصينية القديمة، وشعاره من كلام كونفشيوس الحكمة التالية:

من أراد أن يحكم أمة فعليه أن يحكم أسرة. ومن أراد أن يحكم أسرة فعليه أن) يروض جسمه قبل ذلك بالرياضة الأدبية. ومن أراد أن يروض عقله فعليه أن يخلص في (نياته ومقاصد حياته. ومن أراد الإخلاص في النيات فعليه التوسع في المعرفة

ومفتاح أخلاق الزعيم الصيني العناد والصبر والمثابرة. ويبلغ من يقينه بصوابه أنه ينتظر من أعدائه أن يثوبوا إليه مع الزمن نادمين موافقين ولو طال الانتظار

مرتبه ألف ريال صيني في الشهر، وهي تساوي مائتين وخمسين من الريالات الأمريكية. وهو سعيد في حياته المنزلية تعاونه زوجة فاضلة من بيت كريم هو بيت أستاذه زعيم الصين الأكبر (سون ياتسين)

ولا يزال وفيًّا كل الوفاء لأستاذه الجليل. ففي صباح كل يوم من أيام الاثنين يقام في معسكره حيثما كان اجتماع عام يحضره نحو ستمائة من أعوانه، وتعزف الموسيقى

سلاماً فيقف جميع الحاضرين، ويرفعون القبعات وينحنون ثلاثاً راكعين أمام صورة كبيرة لسون ياتسين، ثم يتلو شيان كاي شيك وصية أستاذه في خشوع واتئاد كما يتلو الصلاة، ثم يسأل الحاضرين السكوت دقائق ثلاثاً يعقبها بإلقاء موعظة تستغرق الساعة أو أكثر من ذلك، يعرض فيها على أستاذه أعماله وحساب أسبوعه كما يعرض المرؤوس تقرير الأسبوع على رئيسه الذي هو مسؤول بين يديه، ويظل السامعون والمتكلم واقفين طوال وقت الاجتماع، ثم ينفضون خاشعين بعد أن يؤذنهم الخطيب (بكلمة الختام

ويرى المؤلف أن شيان كاي شيك ربما كان اقدر أبناء الصين منذ العهد الذي بنى فيه الحائط قبل المسيح بثلاثة قرون

ولا يتسع المقام لتلخيص ما كتبه عن غاندي وجوهرلال وغيرهما من أعلام الهند والقارة الآسيوية، فلعلنا نرجع إلى تلخيص الطريف النافع بعد صدور الكتاب

عباس محمود العقاد

البحتري أمير الصناعة

للأستاذ عبد الحرمن شكري

قيل إن أبا العلاء المعري شرح ديوان المتنبي وسماه (معجز أحمد) وشرح ديوان أبي تمام وسماه (ذكرى حبيب) وشرح ديوان البحتري وسماه (عبث الوليد). ولعمري لو كان شعر البحتري عبثاً ما احتفل له أبو العلاء المعري ولما سلخ زمناً من عمره في شرحه، وإلا كان المعري عابثاً لإضاعة وقته في شرح العبث. وهذا أمر يذكرني بكارليل والقرن الثامن عشر، فقد كان كارليل كلما ذكر القرن الثامن عشر في أوربا سماه العصر العقيم وعصر طاحونة المنطق، ويعني المنطق الفارغ وعصر الإلحاد؛ ولكنا لو درسنا مؤلفات كارليل لوجدنا أن أكثرها كان في دراسة القرن الثامن عشر ورجاله ونزعاته الفكرية والسياسية، ولو كان عقيماً ما حفل له ولا أهتم به كل هذا الاهتمام.

وكنت أود أن أسأل شيخ المعرة، على ما له عندي من الاحترام والمنزلة، هل شعر الوليد (ويعني البحتري وهو الوليد بن عبادة) هو العبث أم الجناس والتزام ما لا يلزم هو العبث؟ وإذا تساويا في العبث فأيهما أحب؟ يخيل إلي أن المعري إنما أراد أن يداعب البحتري، ولعله في صميم قلبه كان يحب عبث الصناعة بدليل ميله إلى الجناس والتزام ما لا يلزم؛ والحب يجلب المداعبة ويغري بها كما يداعب المحب حبيبه، وقد يكون ثقل المداعبة دليلاً على شدة الحب الذي لا يجد تنفيساً وترويحاً إلا بالتثاقل بالمداعبة. وإذا أضفت إلى ذلك اعتزاز المعري بتفكير كثير ليس للبحتري مثله كنت قد جمعت بين شِقَّي المداعبة وسببيها. فليس من المحتوم أن يكون لها سبب واحد. على أن المعري يُغْري أحياناً بمعارضة البحتري في شعره، وهذه مداعبة أخرى في ثناياها الجد فقد قال البحتري من قصيدة:

وعَيَّرتْني سجال العُدْم جاهلة ... والنبع عريان ما في فرعه ثمر

أي أن الفقر لا يعير به الرجل كما أن الشجر النافع مثل النبع لا يعير بأنه ليس له ثمر. فقال المعري يعارضه:

وقال (الوليد) النبع ليس بمثمر ... وأخطأ سِرْبُ الوحش من ثمَرِ النَّبْعِ

يعنى بالوليد البحتري ويقول: إن قول البحتري إن النبع ليس له ثمر خطأ لأن النبع تصنع منه القِسيُّ وبالقوس يقنص الصائد سرب الوحش، فكأن سرب الوحش من ثمر النبع الذي

ليس له ثمر من فاكهة النبات. فبالله أليست هذه دعابة؟ ثم أليست فكرة المعري مأخوذة من بيت البحتري، إذ يعنى أن النبع الذي يمد القانص بالقوس من خشبه لا يعير بأنه ليس له ثمر من فاكهة النبات لأنه يكون سبباً في اقتناص القنص فله مزايا؟ فأيهما إذاً العابث؟ على أنه لو كان شعر البحتري عبثاً لكان أفضل من كثير من عبث الحياة الذي يسمى جداً على سبيل تسمية الضد بالضد. ثم أما كفى المعري إضاعة وقته بشرح عبث الوليد في زعمه حتى يضيع جزءاً آخر من وقته بالإشارة إلى معانيه والبحتري أقرب الشعراء في صناعته إلى أبي تمام وإن كان أبو تمام أكثر جرأة في تلك الصناعة وأعظم ابتداعاً. ونجد لأبي تمام معاني يجاريها البحتري، فأبو تمام يقول:

وإذا أراد الله نشر فضيلة ... طُوِيَتْ أتاح لها لسان حسود

فيقول البحتري في المعنى نفسه:

ولن تستبين الدهر موضع نعمة ... إذا أنت لم تُدْلَلْ عليها بحاسد
وبيت أبي تمام أسير وأحسن معنى. وألاحظ أن الصناعة هنا هي التي أثقلت بيت البحتري وعاقته عن السير. أما أبو تمام فعرف كيف يجعل الصناعة خادمة للمثل السائر وأبى أن يعوقه بأن يحمله ثقلاً من الألفاظ، وهذا المعنى هو نصف الحقيقة المشاهدة في الحياة، والنصف الثاني من الحقيقة هو ما عبر عنه الشريف الرضي بقوله:

رُبَّ نعيم زال ريعانه ... بلسعة من عقرب الحاسد

وهناك فرق قليل في المعنى بين بيت البحتري وبيت أبي تمام ولكن الموضوع واحد.
وقال أبو تمام أيضاً:

لو سعيت بقعة لإعظام نعمي ... لسعى نحوها المكان الجديب

فقال البحتري:

فَلَو أنَّ مشتاقاً تكلف فوق ما ... في وسعه لسعى إليك المنبر

وقال أبو تمام أيضاً في أرجوزة:

إن الربيع أثر الزمان ... لو كان ذا روح وذا جثمان
مصوراً في صورة الإنسان ... لكان بَسَّاماً من الفتيان

فقال البحتري:

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا ... من الحسن حتى كاد أن يتكلما

وقد زاد البحتري في المعنى واختصر كلماته وأحسن سبكه. والحقيقة هي أن البحتري قلما يأخذ معنى إلا زاد فيه وأجاد سبكه أو تصرف في معناه. أنظر كيف أخذ قول أبي الصخر الهذلي:

تكاد يَدِي تَنْدَى إذا ما لمستها ... وتنبت في أطرافها الورق الخُضر

فالهذلي يقول إنه إذا لمس حبيبته أعدته بالحسن، ولكن أي حسن؟ حسن النبات، فجعل البحتري العدوى بحسن الإنسان فقال:

أغتدي راضياً وقد بتُّ غضبا ... ن وأمسى مولى وأصبح عبدا
وبنفسي أفدى على كل حال ... شادياً لو يُمَسُّ بالحسن أعدى

وقد ظلم أبن الرومي البحتري بقوله فيه:

كل بيت له يُجَوِّدُ معنا ... هـ فمعناه لابن أوس حبيب

فإننا لو شئنا لأتينا بأبيات يشترك في معانيها ابن الرومي ومن كان قبله من الشعراء. ويمتاز البحتري بجودة الصنعة، وكثيراً ما يزيد المعنى، أنظر إلى قول أبي تمام: (ولا يَحِيفُ رضا منه ولا غضب) وإلى قول البحتري:

يُرْتَجى للصفح موتوراً ولا ... يَهبُ السُّؤْدَدَ فيه للحَنَقْ

فصفح الموتور أعظم من صفح الغاضب، والشطر الثاني زاد المعنى بهاء. لا شك أن ابن الرومي كان أكثر ابتداعاً، وكان يجيد الصنعة ولكن للبحتري قطعاً لا يستطيع أبن الرومي محاكاتها في حلاوة الصنعة ولا سيما في المدح، ومدح البحتري كان أسهل متناولاً، ولعل هذا وحلاوة صنعته مما جعله مسعوداً لدى الممدوحين أكثر من أبن الرومي. والظاهر أن الأمراء، والوجهاء كانوا يسيئون الظن بمدح أبن الرومي أحياناً لأنه كان هجاء ساخراً، ومن كان كذلك حُمِلَ بعض مدحه على محمل السخر، وهذا أمر مشاهد في الحياة. أما البحتري فإنه يذكرنا بما يحكى عن أحد طهاة باريس الذي أجاد صناعة الطهي حتى أنه طبخ ذات مرة نعلاً سال له لعاب آكليه من جودة صناعة الطهي. وقد بلغت جودة الصنعة في شعر البحتري مبلغاً جعلها تحاكي العاطفة والوجدان كما نرى في بعض غزله، ولكن لو كان كل ما في شعر البحتري حلاوة في الصنعة لما حفل به أبن الرومي قدر ما حفل به؛

وأما إتقان صناعة البحتري محاكاة صدق العاطفة فهي صفة في كبار الفنانين. فالممثل الكبير إذا مثل الحزن أو الحب لم تفرق بين الحقيقة والمحاكاة، بل إن المحاكاة تصير حقيقة حتى أن الفنان نفسه قد يخدع بمظهرهما في نفسه كما يخدع المعجبون بفنه، ومن أجل ذلك قد تختلط حقيقة العاطفة ومحاكاتها في حياة الفنان كما تختلط الحقيقة والعاطفة في فنه. أنظر مثلاً إلى قصة البحتري وغزله في مملوكه نسيم الذي كان يبيعه ويقبض ثمنه ثم يصنع فيه غزلاً من أرق الغزل ويعرضه على المثرى الذي اشتراه فيرد المملوك إليه هدية فيربح المملوك، ويربح ثمنه، ويصنع غزلاً

من غزل محاكاة العاطفة، ولكن حلاوة الصنعة فيه تغطي على المحاكاة وتختلط الحقيقة والخيال فيه.

والمدح في شعر البحتري لا يقل كثيراً في جودته عن المدح في شعر أبي تمام. وإذا أردت أن تنتخب خلاصة الخلاصة لم تستطع ترك المدح من شعرهما. أما ابن الرومي فإن له أشياء في موضوعات وأبواب أخرى تلهيك عن مدحه عند اختيار خلاصة الخلاصة من شعره، وإن كان له في المدح قدرة كبيرة. ومن بديع شعر البحتري في المدح قوله:

تلقِى إليه المعالي قصد أوجهها ... كالبيت يقصد أَمّاً بالمحاريب
كالعين منهومةً بالحسن تتبعه ... والأنف تطلب أعلى منتهى الطيب

وقوله:

علا رأيه مرمى العقول فلم تكن ... لتنصفه في بعده وارتفاعه
وقارب حتى أطمع الغر نفسه ... مكاذبة في ختله واختداعه

فهذه الأقوال ليست صنعة فحسب بل هي أيضاً خيال وفكر. وأنظر إلى قوله في مدح قوم توارثوا خصال الحمد:

خلقٌ منهم تردد فيهم ... ولِيَتْه عصابة عن عصابَهْ
كالحسام الجراذ يبقى على الده ... ر ويفنى في كل عصر قرابه

أو قوله:

جهير خطاب يخفض القوم عنده ... معاريض قول كالرياح الرواكد

وهذا تشبيه بديع، وانظر إلى قوله:

مدرك بالظنون ما طلبوه ... بفنون الأخبار فناً ففناً

وقوله:

وكأن الذكاء يبعث فيه ... في سواد الأمور شعلة نار

وقوله:

صحبوا الزمان الفرط إلا أنه ... هرم الزمان وعزهم لم يهرم

وقوله:

عليم بتصريف الأمور كأنما ... يعاني صروف الدهر من عهد تُبَّعِ

وقوله:

عَجلٌ إلى نجح الفعال كأنما ... يمس على وِتر من الموعود

وقوله:

وكم لبست الخفض في ظله ... عمري شباب وزماني ربيع

فمدحه حلو شائق سواء أكان المعنى سائراً مألوفاً أم كان جديداً مبتدعاً. أنظر إلى دقة المدح في قوله:

لم يرتفع عن مراعاة الصغير ولم ... ينزل إلى الطمع المخسوس إسفافا

ولكنه مع ذلك لا يخلو من أشياء فيها فتور الصنعة وتكلفها عندما تكون الصنعة قاهرة لعاطفته الفنية ومنافسة لها بدل أن تكون زميلتها أو خادمتها. وقد روى أنه أحرق أكثر هجائه الذي به فحش وأن كان في ديوانه القليل من هذا النوع وله في الهجاء أشياء مستحسنة مثل قوله:

تزيد الإهانة في حاله ... صلاحاً وتُفسِدُهُ التكْرِمةْ

وهذا البيت يصف الإنسانية في بعض حالاتها وهو في معناه شبيه بقول القائل:

يُصْبِحُ أعداؤه على ثقة ... منه وخِلاَّنُهُ على وَجَل
تَذَلُّلاً للعدو عن ضعة ... وصولةً بالصديق عن نغَل

ومن مأثور هجاء البحتري قوله:

وبعضهُمُ في اختبارته ... يُحبُّ الدناءة حبَّ الوطن

والظاهر أنه لم يجد حباً أشد من حب الوطن كي يقارن به حب المهجو للدناءة. ومن المشهور قوله أيضاً:

كل المظالم رُدَّتْ غير مظلمة ... مجرورة في مواعيد ابن عباس
مَنعْتنِي فرحة النجح الذي التمست ... نفسي فلا تمنعَنِّي فرحة الياس

وأبياته التي يقول فيها:

وبعد عن المعروف حتى كأنما ... ترون به سقم النفوس الصحائح

والأبيات التي يقول فيها (ويعتمد العتاب من السباب) وذمه على أي حال لا يقارن بهجاء أبن الرومي الذي بزهم جميعاً في بابه
والبحتري لا يُعني نفسه كثيراً بالتفكير في معضلات الحياة كما يفعل المعري، ولكن أمراً واحداً يفكر فيه كثيراً وهو تفاوت الناس في الحظوظ ولا سيما في قسمة المال حتى أن في بعض قوله نفحة من الاشتراكية؛ فهو يقول إن الغنى مفسدة والفقر مفسدة ويود لو تقاربت الحظوظ في المال، وهو يكرر هذا المعنى فيقول
كان يُحْيِي هالكاً من ظمأ ... بعض ما أوْبق ميْتاً من غرق
ويعني بالظمأ والغرق قلة المال وكثرته، ثم يكرر هذا المعنى فيقول
تفاوتت الأيام فينا فأفرطت ... بظمأن بادٍ لوحُةُ وغريقِ
وتمنيه في البيت الأول أن يسعد جميع الناس في الحظوظ يخالف قول أبن الرومي:
ومُحَالٌ أن يَسْعد السعداءُ ال ... دهرَ إلا بشقوة الأشقياء
(البقية في العدد القادم)
عبد الرحمن شكري
خواطر
للأستاذ فليكس فارس
كنت كلما سمعت النشيد الوطني المصري: (بلادي بلادي) أحول ذهني إلى فكرة بعيدة حين تكرار اللازمة فيه وهي:
(تعيش بلادي ويحيا الوطن)
كان يؤلمني أن أسمع مثل هذا التركيب الغريب في مبناه ومعناه ولا أفهم كيف يتغنى شعب هو في طليعة النهضة العربية بمثل هذا الشطر وفيه العيش شيء والحياة شيء آخر، وفيه البلاد شيء والوطن شيء آخر!
ثم مرت الأيام فإذا هذه اللازمة مسبوكة في قالب آخر تنشدها الجماعات والأفراد ويتغنى بها الأطفال هكذا:
(تعيش بلادي ويحيا الملك)
لا أعلم كيف وقعت هذه القافية على آذان الشعراء والموسيقيين لأول ما سمعوها، بل لا أعلم كيفْ كتبها من أقرها دون أن يتمرد القلم على يده أو تتمرد أعصابه على أذنه! أين القافية المماثلة لكلمة (مَلِك) في النشيد نفسه أو في أية قصيدة نظمت منذ قرت الأبيات على قواف؟
أما أنا فقد رأيت سبابتيَّ تسدان أذني عندما سمعت هذه اللازمة فترحمت على اصلها ولا أزل حتى الآن أتألم كلما سمعت هذا القرار الناشز في نشيد الوطن؛ ويخيل إلى أن حورية شعري تبسط ذراعيها هاتفة:
(يعيش مليكي ويحيا الوطن)
فهل يقرّ إخواني هذا التصحيح لتأخذ به وزارة المعارف فتنقذ النشيد وتحمي ذوق الناشئة من الانطباع على رطانة قراره؟
في بريد الولايات المتحدة أن قرينة الأستاذ جيمس آرجويت توفيت منذ أمد قريب تاركة، بوصيتها لجامعة هارفرد، مائة وخمسين ألف دولار يتصرف بها أستاذ يعين لتدريس اللغة العربية واستخراج ما في كتبها خدمة للعلم في الديار الأمريكية
ليعلق المفكرون على هذا الحدث، كل بما توحي إليه عقيدته. ليقل البعض إن ما أبقاه الأجداد من تراث علمي وأدبي قد استنزفه الغرب فلم يبق فيه قطرة لرجال العلم في هذا العصر، وإن أدمغة العرب قد عقمت في هذه الأيام فليس فيها ما يُطمع به. وليقل البعض الآخر إن قرينة الأستاذ جيمس قد استهواها ما يبدو من أبناء وطنها من غرائب الأعمال. أما نحن فلا نملك القلم من أن يكتب تكراراً ما كتبه منذ سنوات ونشر في رسالة المنبر:
إن هذه البلاد مستودع لأشرف الثقافات، ومكمن لأسمى المواهب، فمن واجب أجناد) المنابر والأقلام فيها أن يظهروا هذه القوات لأبنائها نزوعاً بهم عن الانقياد لدخيلات (العادات والأخلاق التي تغلبت عليهم بما وجدوه من التوهم في أنفسهم فاستصغروها
وعين الرضى عن كل عيب كليلة ... ولكن عين السخط تبدى المساويا
في هذا البيت حكمة أصابت صميم الحقيقة في الشطر الأول، غير أنها قصرت في الشطر الثاني عن تصوير حالة الساخط النفسية؛ فإن من نقم على إنسان لا يقف عند

إبداء مساويه بل يندفع إلى مسخ حسناته عيوباً
تلك حالة مستقرة في الطبيعة يصعب على الإنسان أن يحلق فوقها. ولكم نتمنى لو يخضد تهذيب النفس من شوكتها أو على الأقل لو انعتق الأدباء من سلطانها وهم الداعون إلى الإنصاف والمتجهون إلى المثل العليا
صديقنا الكاتب الروائي كرم ملحم كرم معروف في العالم العربي بآثاره الأدبية القيمة وصديقنا إلياس أبو شبكة كاتب من الطراز الأول وشاعر من طليعة شعراء هذا الجيل؛ ولست أدري أي شيطان نفخ بينهما فحول نورهما ناراً تتقد ولست أدري أيهما بدأ بإشهار الحرب لعدم اطلاعي على صحف بيروت كلها؛ غير أنني قرأت مجلة الأمالي فإذا فيها مقالات متتابعة يشن فيها الروائي الغارة على الشاعر ويتهمه بأنه سرق من شعراء الفرنجة جميع ما نظم في ديوانه (أفاعي الفردوس)
وعهدي بصديقي الأستاذ كرم عميق الغور رصيناً فإذا به يخرج من حلمه ويوجه نقده شتماً وتحقيراً، وما هذه الغضبة المضربة على قوله إلا غيرة على الأدب العربي وإشفاقاً على المسكين بودلير واضرابه، ينتزع منهم إلهامهم ويختلس ثمرات قرائحهم وقد أورد صديقي كرم ما يزيد على عشرين قطعة من هؤلاء الشعراء باللغة الفرنسية وألحق كل قطعة بما اختلسه أبو شبكة وقيده لحسابه
وهأنذا أورد أنموذجاً من هذه الأدلة التي يقضي بها الأستاذ كرم قضاء مبرماً على زميله:
أبيات أبي شبكة من قصيدة شمشون:
شبق الليث ليلة فتنزَّى ... ثائراً في عرينه المهجور
تقطر الحمّة المسعَّرةُ الش ... هباء منه كأنه في هجير
يضرب الأرض بالبراثن غضبا ... ن فيصدى القنوط بالديجور
ووميض اللظى يغلّف عين ... يه فعيناه فوهتا تنور
ونزا من عرينه تتشظى ... حمم من لظاه في الزمهرير
والهاث المحموم من رئتيه ... يشغل الغاب في الدجى المغرور
وهذه ترجمة الأبيات التي يتهم شاعرنا باختلاسها وهي من قصيدة آلهة الغاب لألفريد دي فينى:
(ورأى النمر جبابرة الغاب يذهبون إلى بعيد بالنمرة دون أن يتمكنوا من حجبها عن نظراته الملتهبة، فوجم وتململ، فاهتز الغاب لهزيم صيحاته، وتدفق الزبد من شدقيه سائلاً على لسانه المشتعل، واشتد احتدامه فانطلق محطماً قيوده)
ويقول صديقي كرم بعد إيراد شعر السارق الوقح وشعر المسروق المسكين:
أليس النقل حرفاً بحرف؟ ألم نقبض على اللص الأديب بالجرم المشهود؟ أيجوز للأدب العربي أن يرضى عن هذا الشعر المسروق حتى بتكته وحذائه؟
فليسارع إلى نجدة الأستاذ كرم للدفاع عن الأدب العربي من يشاء إذا وُجد أديب يأخذ بحكمه. أما أنا فأجيز لنفسي أن أقول إن قطعة دي فيني فضلاً عن أنها في واد وقطعة أبي شبكة في واد من حيث معناها ومبناها لأبعد حتى في اصلها الفرنسي من أن تداني أبيات شاعرنا العربي في سمو الخيال وروعة البيان
متى نحول إيماننا بكل ما هو غريب عنا إلى ثقة بأنفسنا؟ ومتى يسود التضامن والإخاء بين من لا يجدون غير النصب والشقاء في سبيل هذا الأدب العربي الذي تتوقف على إحيائه حياة الأمة العربية
(الإسكندرية)
فليكس فارس
أعلام الأدب
سُوفُوكْلِيس
للأستاذ دريني خشبة
ظل سوفوكليس يمد المسرح اليوناني بروائع دراماته نيفاً وستين سنة، فكان عمراً ممدوداً مباركاً متصل الجهاد، وكانت حياته كلها كالحديقة الجميلة الغناء باسمة بالزهر يانعة بالثمر حافلة بالطير مزدهرةً بالألوان
وُلد سوفوكليس سنة 496 قبل الميلاد، في كولونوس؛ وكان أبوه سوفيللوس تاجر أسلحة ذا ثروة واسعة فنشأ ولده تنشئة راقية وضمن له حياةً مترفة مليئةً بالمناعم،

وثقافة أثينيةً هي إلى الأدب والفن، أقرب منها إلى العلم والفلسفة، ويبدو ذلك واضحاً جلياً في جميع ما تركت لنا يد العفاء من دراماته التي بلغت ثلاثاً وعشرين ومائة فلم يصلنا منها غير سبع

ويبالغ التاريخ في وصف جمال سوفوكلس إذ هو صبيٌّ وإذ هو فَتىً؛ ويقال إنه لم يكن في أثينا كلها من كان يفوقه رشاقةً وتناسقاً وجمال تركيب، حتى إنهم اختاروه في الاحتفال بالنصر في سلاميس ليقود فريق المنشدين، فكان يتقدمهم عارياً مُجَلّل الرأس بالغار والأزهار، عازفاً على قيثاره أشجى النغم، فكان فتنة الاحتفال كله وكان يجمع إلى جمال الجسم ورشاقة اللفتات محاسن النفس الخَّيرة وفضائل القلب التقي، فكان يحب الناس جميعاً ويقسرهم جميعاً على محبته والشغف بمواهب روحه ولقد شدا الموسيقى - وربما الشعر - عن الفنان الكبير لمبروس، الذي كان له أكبر الأثر في توجيه سوفوكليس والذي حبب إليه الإنشاد وموسيقى المسرح فجذبه إلى الفن وأقصاه عن الفلسفة، وضمن له الظفر على أقطاب الأدب وفحول الشعر في عصره، وهو لما يزال شاباً حدثَ السن

ويذكرون أنه نال أولى جوائزه، وكان منافسه إذ ذاك إسخيلوس الشيخ، وهو في الثامنة والعشرين من عمره، بدرامة وطنية مفقودة تدعى (تربتوليموس). ويختلف المؤرخون في السبب الذي أظفر الشاعر الشاب بالشاعر الشيخ، واشهر الروايات أن إسخيلوس كان قد سخر بالآلهة سخرية واضحة لاذعة في درامته التي تقدم بها للمباراة مما أهاج الرعاع عليه وأثارهم ضده حتى كادوا يفتكون به وهو يمثل لولا أن حال أخوه بينه وبينهم، كاشفاً لهم

عن ذراعه التي جرحت في سلاميس دفاعاً عنهم، وذياداً عن بيضة الوطن. . . ويقولون إن سوفوكليس كان قد أغرى القضاة بماله الكثير، وإنه نحَّاهم، وكانوا خمسة، حينما حان وقت فرز الأصوات وتقدم القادة العشرة المعجبون بدرامة سوفوكليس الوطنية فزخرفوا الحكيم ودلّسوا النتيجة وقضوا بالجائزة الأولى للشاعر الشاب. وأيّاً كان السبب فقد ترك الحادث في نفس سوفوكليس أثراً عظيماً من الزهو ليس يعدله إلا أثر الحسرة والمرارة في نفس إسخيلوس. . . ولم يضار المسرح ولا الأدب بما حكم للأول على الآخر، فقد نظم إسخيلوس أسمى روائعه بعد ذلك، كما أن سوفوكليس صمد لخصمه، وراح يعزز فوزه بعشرات ثم عشرات من أرفع ما شهد المسرح من المآسي في جميع عصوره.

ذاك، وقد ظفر سوفوكليس بالجائزة الأولى عشرين مرة، وبالجائزة الثانية أكثر من ثلاثين، وقلما هبط إلى الجائزة الثالثة. ومهما يكن لأمواله من اثر في هذه النتائج الباهرة فمما لا ريب فيه أن أدبه وفنه ودقته كانت العوامل الأولى الأساسية في تعدد مرات انتصاره. . . أما إسخيلوس فقد فاز بالجائزة الأولى خمس عشرة مرة، على قلة منافسيه وهوان شأنهم، كما فاز بها يوربيدز - سيد شعراء الدرام - خمس مرات فقط ولما كان سوفوكليس جميلاً بارع الجمال، فقد كان يقوم بنفسه بتمثيل أدوار النساء في صدر شبابه، كما ذكرنا أنه أدى دور نوزبكا في درامته (نسوة غاسلات). وكانت ظلال جماله تنعكس على فنه، فكان يؤثر البساطة في التعبير والتفكير، ويفضّل العاطفة الجياشة الثائرة على العقل الخامد الرزين، ولذلك لم يفكر في أن يرتفع إلى أفق إسخيلوس في بروميثيوث مثلاً، لأنه كان يتجنب عمق الفكرة التي تجهد قرائح النظارة وتكمدها، ويؤثر أن يشب في قلوبهم حرائق من الألم والتأثر في روعة من الشعر العالي وجمال من الفن الدقيق.

وقد عاش سوفوكلس حياته الطويلة هادئاً لا يعكر صفوه شيء، حتى ثار في أعماقه شيطانه الفنان فوصل أسبابه بأسباب عادة سيئة السيرة فاسدة الخلق تسمى تيوريس - اضطره فنه على ما يبدو لنا من تحليل حياته إلى أن يتخذها خليلة تذكي مشاعره، وتصل إلهامه، وتحيي من قلبه موات الشيخوخة، وتدفئه من ريح العمر الباردة. . . لكن صلته بها قد افتضحت آخر الأمر، وكان ينفق عليها بسخاء غريب فثار ولده يوفون وشكاه أمام القضاء طالباً الحجر عليه وإقامته وصياً ليحول بين أبيه وبين تسرب ثروته وبعثرتها تحت قدمي

تلك (المحظية) العابثة الهلوك!. . .

وهنا تكتسح عظمة سوفوكليس تدبير أعدائه، فإن ولده برميه أمام القضاة بتهمة العَتَه

والسفه، فما يكاد يقولها حتى يقف الشاعر العظيم، ثم ينسخ التهمة بإلقائه وتمثيله إحدى قطعه الخالدة من درامته (أوديبوس في كولونوس) التي كان ينظمها خلال تلك المحنة، وسرعان ما يصفق له القضاة الذين خلبهم بشعره الرفيع الرصين، وفنه الجميل العالي، وتمثيله القوي الخلاب، ثم يحكمون بسلامة تفكيره وحريته المطلقة في تصريف شئونه. . . وهكذا اعتبر القضاة غرام سوفوكلس من شئونه الخاصة فلم يدمغوه بحكم يذهب بشرفه وربما كان يقضى على تلك العبقرية الرائعة التي عكست سناها على جميع العبقريات في جميع عصور المسرح.

فغرام سوفوكلس بالغيد الأماليد لم يكن إلا إيحاءً فَنّياً تستلزمه حياة الفنان . . . وتقسره عليه ميوله. ويكاد كل فنان يكون خاضعاً لمثل هذا الإيحاء، وقد خضع له إسخيلوس من قبل، فقد رُوِى أنه لم يكن يستطيع أن يحسن شيئاً من الشعر الرفيع إلا حين تلعب بلبّه حُميّا الخمر. وقد قال فيه سوفوكلس إنه نظم أبدع روائعه وهو لا يدري ماذا يقول ولا ماذا ينظم. . . على أن هذه المغامرة الغرامية قد ذهبت جُفاءً في حياة سوفوكلس، فلم تترك فيها وصمة، ولم تلطخها بالعار، بل على الضد من ذلك فقد زاد شغف الناس بشاعرهم العظيم حتى قيل إن طائفةً منهم عبدوه بعد موته عام 406 باسم الإله البطل دكسيون الذي يؤثر أنه ضاف في منزله الإله أسكلبيوس واعتبروا قبره طريق دكليا دار حج لهم

ولد سوفوكلس سنة 496 وتوفي سنة 406 ق. م وفاز على إسيخيلوس وهو في الثامنة والعشرين ثم لبث يمد المسرح نيفاً وستين عاماً درامتين كل سنة، فهو بذلك قد ملأ القرن الخامس العظيم من تاريخ أثينا بأدبه وروائعه، وشهد جلائل الأعمال التي تمت في هذا العصر وعادت بالخير الجزيل على اليونان خاصة وعلى الإنسانية عامة. . . لقد كان سوفوكلس أنضر زهرة في حديقة بركليس العظيم. . . لقد شهد نهضة الفن وساهم في نهضة الدرام، ووقف من شرفة برجه الرفيع يطلع على ذاك الصراع العنيف بين أثينا وأسبرطة، ويرى إلى الديمقراطية تصارع عسكرية الأسيرطيين فتساجلها مرة، وتواثقها مرة، ثم يموت بركليس فتسقط أثينا في الميدان وتغزوها أسبرطة بعد موت سوفوكليس

بعامين (404). . . عاصر سوفوكليس هذه الأحداث الجسام لكنه لم يندغم فيها، لأنه كان يشهدها بطبع الفنان الذي يؤثر الراحة ويخلد إلى الأدب ويطلب السلامة، لا سيما إذا كان في مثل ثروة سوفوكليس وجاهه اللذين رشحاه لعضوية أعظم مجالس الأمة بالرغم من قلة درايته بالأمور الإدارية وعدم بصره بشئونها. . . حتى قيل إنه كان إمّعة بين زملائه يوافق إذا وافقوا ولا يدري على أي شيء يوافق، ويرفض إذا رفضوا ولا علم عنده بما يرفضون. . لكنه مع ذاك أديب أثينا وفنّانها وبلبلها الغرّيد الذي يهذب ويوحي ويلهم ويواسي ويُسلي ويبكي ويغني وينفذ إلى سُوَيْداءات القلوب

لقد كان إسخيلوس صارماً متجهماً يرمي بشرر كالقصر حينما يرتطم بالقضاء والقدر، وكان يؤثر الأسلوب الفخم في الأداء والعبارة الفصيحة والمجاز العميق، وكان ينقصه كثير من روعة الفن. . . أما سوفوكلس فقد خلص من كل القيود التي تحول بينه وبين قلوب الناس. . . إنه لم يرتبط بنظام الثلاثيات الذي أخذ به إسخيلوس نفسَه، بل كان يعمد إلى الموضوع الذي كان إسخيلوس ينظمه في ثلاث درامات فيجعله هو درامة واحد في ثلاثة مشاهد مستعيناً على ذلك بسرعة الأداء وتقصير الحوار وتركيز الغرض والمحافظة على الوحدة في العبارة السهلة والبيان الهيّن

وليس هذا هو كل ما أدخله سوفوكلس على الدرامة اليونانية بل لقد أدخل عليها ألواناً من التجديد لم يلبث الجمهور أن شغف بها وأجاد تذوقها، فمن ذلك اتخاذه المناظر المنقوشة ثم اقتصاده في التهويل في كل من الصوت والملابس التنكرية وإيثاره النشاط ومقته للحركة البطيئة التي تشل الممثل وتربكه وتذهب بروعة الأداء وتشوه جمال التمثيل. . .

لقد كان سوفوكلس وسطاً ما بين إسخيلوس ويوريبيدز، لأنه وإن يكن قد حافظ على العنصر الديني في معظم درامته فجرى بذلك في غبار إسخيلوس إلا أنه اقترب إلى الناس وابتعد عن الآلهة ولم يرفرف دائماً فوق شعاف الأولمب كما كان يصنع إسخيلوس. . . لقد عرف القلب الإنساني واكتشف ما فيه من الكنوز التي لا تقوم بدونها دولات الدرام. . . لقد لمح القبس المقدس الذي يعمر قلوب البشر. . . القبس

الإلهيّ!. . . الحب!. . . لقد أشركه في دراماته ولم ينأ به كما صنع إسخيلوس. . . لقد جعل له نصيباً أوفى في توجيه كثير من درامته وحل عُقَدها. واستطاع أن يصوغ له اللغة البراقة الدفاقة والأسلوب المصطخب
الملتهب فجاء كلامه عنه كلام المجرب ذي الصبوات
اسمع إليه ينظم للخورس هذه الأنشودة العالية في درامته أنتيجوني:
لله أنت يا حُب! أيها الظافر بنا في كل حَلْبة!
أيها المحارب الذي حطامنا أسلابه!
لله أنت إذ تكمن في خدود العذارى الناعمة كالمخمّل
تترصد فرائسك في غيهب الليل، طاوياً الموج
رفّافاً في الحراج والغاب، والهضاب والتلاع
وأكواخ الرَّعاء
لا يتعرض سبيلَك أحد.
الكل يخضعون لك
الناس والآلهة. . . سواسية جميعاً
كلهم مهزومون في ميدانك
يستولي عليهم جنونك
صناع يا حب! لشد ما تضل الهداة!
فيتردّون في التهلكة بأيديهم؟!
وكما أجاد سوفوكلس في كل ما كتب عن الحب الغرامي، فكذلك قد أتى في سائر ألوان الحب بما لم يستطعه غيره، ففي درامته إلكترا يصور لنا الحب الأخوي تصويراً رائعاً شائقاً ويعبر عن أحاسيس الطفولة تعبيراً هيّناً ليناً، فيه من ضَعْف الصغر وسذاجته وأحلامه ما يجعله أقرب إلى الطبيعة مما صنع إسخيلوس في أورست كذلك كان سوفوكلس بارعاً إلى آخر حدود البراعة في تصوير شخصيات النساء. وقد عنى فيهن بناحية الضعف ولم يعن بناحية القوة والصرامة كما صنع إسخيلوس في كليتمنسترا. . . عنى بناحية المحبة والعطف والحدب والتألم والبكاء والخوف ولم يؤثر أن تكون بطلاته جبارات عاتيات كبنات لانوس اللائي قتلن أزواجهن ليلة الزفاف إلا واحدة، أو كزوجة ممنون التي تقتل زوجها وتؤثر عليه عشيقاً لم تحبه ولكن ربطه بها التدبير السيئ والمشاركة في الغرض الوضيع
وقد ثار سوفوكلس على أحد الأوضاع الهامة التي أخذ إسخيلوس بها نفسه؛ فقد أجاز حوادث القتل وسفك الدماء على المسرح وكان بذلك يثير شجون ويمزق أحشاءهم من الألم، ففي درامته (أجاكس) ينتحر البطل وتتصبب دماؤه أمام المتفرجين، وفي أوديب يسمل الملك عينيه فينبجس الدم منهما ويصيح من الألم مستنجداً أن يقوده أحد. . . هذا إلى المشاهد التي كان يتجنبها إسخيلوس ويجنب نظارته شهودها. . . فقد أوقف سوفوكلس كليتمنسترا تبكي تحت سكين ولدها قائلة له: (حنانيك يا بني لهذا الثدي الذي غذاك بلبانه!) وتكون ابنتها إلكترا واقفة عن كثب فما تكاد استغاثة أمها تصك أذنيها حتى تقول محرضة أخاها على قتل أمه: (وهل استشعرت حناناً لك أو لأبيك من قبل؟). . . أو ذلك المشهد الرائع الفاجع من مشاهد (فيلوكتييس) حينما يظهر البطل في غمرة من الذهول فيملأ المسرح أنيناً ويثير في قلوب النظارة زوابع هائلة من الألم والوجد
يعد المسرحيون هذه الظاهرة عيباً في فن سوفوكلس، بيد أنه كان يوجه دراماته وجهات تحتم أن يعرض تلك المشاهد على نظارته، وكان له من روعة الفن وعبقرية الأداء ما يحيل هذه المجازر إلى ضرب من الاستمتاع غير المستكره، ليس مرجعه إلى ما فطر عليه الإنسان من ميول سادية، لكنه يستمتع بما فيها من جمال الحق وروعة الإيمان، ويزيد في استمتاعه أغاني سوفوكلس العذاب ولغته السهلة، وذلك الترابط الوثيق بين أجزاء المأساة، والتوازن بين حوادثها، وإحكام المؤامرة، والقدرة البارعة في حل العقدة، ثم ذاك (التكتيك) المنتظم المتزن الذي كان يعرض به مآسيه. . . هذا إلى سرعة الأداء بإظهار أكثر من ممثلين مرة واحدة في المسرح
أما المعين الذي كان يستقي منه موضوعات دراماته فلم يكن يعدو الشعر الغنائي الشائع وشعر ملاحم العصريين ثم هذا البحر الزاخر من الأساطير التي حشدها

أركتنوس ولسبوس وغيرهما من الشعراء الأسطوريين في منظوماتهم، وقل أن كان يعتمد سوفوكلس على هوميروس أو على أحد من شعراء الدرام من معاصريه
دريني خشبه
حديث السكوت
للشاعرة أيلا هوبلر ولككس
ترجمة الآنسة الفاضلة (الزهرة)
إن بحر السكوت الهائل المخيف يفصل بيننا
وأعرف أنك حيّ ترزق. . . وأنك تحبني. . .
- ومع ذلك - فشدّ ما أتمنى أن تقبلَ إليّ من عبر المحيط
سفينة بيضاء. . . تتحفني بكلمة منك!
إن الهدوء التام يرعبني بسكونه الصامت الرهيب
لا تعكّره في صدري خلجات الشك، وشبهات الارتياب، أو تهزه في عقلي خشية المداجاة
وتمويهات الإفك
فيا ليت موجة صغيرة من موجات اللسان، تلثم شطيّ الحزين الأبكم. . وتهز أعطافي.
.
مثيرة رواكد هذا السكوت. . . غير المتناهي!
إنني ضائقة بهذا الإحساس العظيم بالحب، الذي عجمتُه دون قول، وأشر به قلبانا! وإنا لنتبادل منه الشيء الكثير
بيد أني قد استروحتُ منه شذا حبّك الذي نفحني خلسة.
وكما يتسرب البخور الزكيّ النفّاذ من المجمرة، ويعقد سحبه في الفضاء، هو ذا حبّك قد
تكاثف حولي وشملني بفوحته المسكيّة، ولفّني في شملته العطرية
إن لغة الكلام غثّة تافهة، والألفاظ المحبّرة المسطورة جوفاء لا وجدان لها ولا معنى فيها.
. .
لذلك أطلب أن تحمل الصبا إلى مثواي نفحة من بليل نسيمها
تخفّف الضغط عن علمي التام بوجود الحبّ بيننا. . .
وتلطّف وطأة هذا السكوت الواصب الكتوم الذي يبهظ عقلي.
ما أشد إملاق الحبّ الذي يفتقر إلى الكلمة أو الرسالة، تمحو الشك، أو تغذي الجنان!
ولكنني مع ذلك ألتمس الكلمة والرسالة، رجاء أن تعززا حجج الحب وأسانيده التي
يجذمها السكوت ببلاغة تجاوز كل حدّ، ويقوض دعائم برهانها ويردهّا قميئة صاغرة
وكأنما أفرغ عليها ذَنوباً. ويوجد بحراً عظيماً يفصل بين المتحابّين فيجعلهما غريبين
وذلك لأن الإحساس لا يكفي لإبراز ما استسرّ في القلب، والاقتناع بوجوب الحب وتعرَّف
مخبره لا يقدران وحدهما أن يضفيا على الحياة رونقاً
والكلام إن لم يبرز بياناً واضحاً منسقاً، يعجز في التعبير عن جوهر المعاني والأشياء،
ويقصر عن تأليف صلة القربى بين الروحين
إن اللغة التي تتناجى بها الروح غاية في الغموض والخفاء
والغمرات التي تهيم نفسي في رحابها، وتثير خبرتي لججها، فيحاء مترامية
فارسل سفينة بيضاء من عبر بحر السكوت الرهيب الأفيح
واقطع حبل حديثه المسهب. . . وجدله المسترسل
بكلمة منك. . .
(الزهرة)
وليم بتلر يايتس
الفنان الذي أوجد لأمة أدباً 1865 - 1939
للأستاذ عبد الكريم الناصري
(تتمة ما نشر في العدد السابق)
والحب عند يايتس صوفي، فذ في صوفيته ونقاوته. (هو لهب أبيض يحترق فيه كل ما

(له صلة بالأرض وبالتراب
هو حب (شلى)، (آريلي)، حب مثالي لجمال مثالي
ولكن أين هذا المثل الأعلى من الجمال؟ إن دونه الكلال والملال، والهرم والشيخوخة، والصدى الذي لا يبل، والقلق الذي ماله من حد:
(خرجت إلى غابة البندق، لأن ناراً كانت في رأسي، فاقتطعت غصناً وقشرته، ومكنت بندقة من صنارة، ووصلت الصنارة بخيط، وساعة أن كان فراش العُث في جو السماء، وكانت النجوم تبزغ رفاقة خفاقة وكأنها الفراش، ألقيت الصنارة في الجدول فصدت سمكة فضية صغيرة، ثم وضعتها على الأرض ومضيت أنفخ النار لتلتهب، ولكن شيئاً حف على الأرض، وإنساناً هتف باسمي، وإذا بها أمست فتاة تكاد في الضوء الخافت المرتعش لا تبين، وفي شعرها زهرة تفاح، وقد هتفت باسمي وفرت واختفت في الفضاء الرفاف بأضواء اللهب
ألا إني وإن كان أهرمني التطواف الهائم خلال النجاد وخلال الوهاد، لواجد يوماً ملاذها ومأواها، فمقبل ثغرها ومتناول يدها، ثم سائر وإياها بين العشب المرقط الطويل، ثم مقتطف حتى آخر الزمان، تفاح القمر الفضي. . . وتفاح الشمس الذهبي)
ومَحْزنة الحب في هذه الدنيا أنه لا يدوم. إن يايتس ليعترف بهذه الحقيقة، ولكنه في بعض الأحيان يأبى أن يعترف:
(أيها الجبين الشاحب! أيتها اليد الساكنة! أيها الشر المظلم. . . لقد كان لي صديقة جميلة؛ ولقد خيل إليّ أن اليأس القديم سينتهي بالحب في النهاية، ولكنها نظرت ذات يوم في قلبي
فرأت صورتك هناك فابتعدت باكية)
على أنه يؤمن بأن القلب إذا كان عاجزاً عن صدّ عاديات الزمن، عاجزاً عن الاحتفاظ بالحب والروح حبيسة الجسد، فإنه يعود قوياً نشيطاً ويسترجع الحبَّ القديم جديداً كما كان أوّل ما بدأ، بعد انطلاق الروح. . .
(أيها القلب الرّثيث البالي)
(أخرج سالماً من شبَك الضلال والصواب)
(اضحك - أيها القلب - ثانية في الغسق الأشهب)
(تنهد - أيها القلب - ثانية بين ندى الصباح)
(أما والقلب والروحُ رهينا الجسد)
(فإن الحبَّ أقل رفقاً من الغسق الأشهب)
(وإن الأمل أقل نفاسة من ندى الصباح)
والشاعر من أجل ذلك يتمنى لحبيبته الموت. فلو أنها ماتت لعادت إليه وقد صفحت عنه، لأنها ماتت، وعند ذلك يضم جمالها إلى صدره.
ثم إن حبيبة هذا الشاعر أجمل مخلوق في الوجود. بل هي المرأة الجميلة الوحيدة. ثم إن الناس جميعاً، بل الكون جميعه، يحبها حبَّ عبادة وتقديس:
(ما عليك إلا أن ترفعي يداً من شحوب اللآلئ، وتجمعي ما تفرق من غدائر شعرك ثم تتنهدي. . . فإذا قلوب الرجال جميعاً تتأجج وتخفق؛ ثم لا يحيا الزَّبدُ على الرمال المعتمة، ولا النجوم وهي تصعد في السماء يتنزل منها الندى إلا لتنير قدمك العابرة)
وإذا كان هذا هو شأنها، فأي هدية إذاً تليق بها؟!
(لو كنت أملك أنسجة السماء الموشاة)
(تطرزّها أشعة من ذهب وفضة)
(ما بين أزرق ومعتم وأسود)
(ومن ليل أو نهار أو شبه ليل أو نهار)
(إذن لنشرت تلك الأنسجة تحت قدميك)
(ولكن فقيرٌ ما أملكُ إلا أحلامي)
(ولقد نشرت أحلامي تحت قدميك)
(فخففي الوطء لأنك تطئين أحلامي)
أحلام الشاعر! أجل أحلامه. . .
(ما ذوت الأغصان لأن ريح الشتاء هبّتْ عليها)
(قد ذوت الأغصان لأني قصصت عليها أحلامي)

وكما أن الحب عند يايتس مقدسٌ لا يعلوه شيء، فكذلك اللهو البريء - الرقص والموسيقى - مقدس لا ينبغي أن يُنزل منزلة التخنث والصلاة، لأنه أعلى منهما وأقدس:

حين أعزف على ربابي في (دوُني)
يرقص القوم مثل موجة البحر
وابن عمي راهب في كفارنتْ
وأخي راهب في مُهارَبوى.
لقد فُقْت أخي وابن عمي،
فهما يقرءان في كتب الصلاة
وأنا أقرأ في كتاب الأغاني،
كتاب شريته من سوق الريف.
وحين نتقدم في آخر الزمان
من (بطرس) وهو جالس على عرشه الفّخم
سوف يبسم للأرواح الثلاثة القديمة،
ولكن يدعوني أنا أولاً إلى الدخول
لأن الخيرّين هم المرحون،
إلا من عثَر بهم الحظّ النكود. . .
والمرحون يحّبون الرّباب،
والمرحون يحبون الرقص.
وحين يلمحُني القوم هناك
سوف يتراكضون نحوي صائحين:
(هاهو ذا منشدُ دوني!)
ثم يرقصون مثلَ موجة البحر

- 4 -

وراء كل أدب عظيم فلسفة. والمستر يتس يلخص فلسفته فيما يلي:

(إني أعتقد بتعاطي فلسفة ما تواضعنا على تسمية بالسحر أو ما ينبغي لي أن أسّمَيهُ استحضار الأرواح - وإن كنت لا أدري ما هيه - أو بالقدرة على خلق أوهام سحرية، أو بانكشافات الحقّ في أعماق النفس إذ العين مغمضة؛ وإني لأعتقد بثلاثة مبادئ:

1 - أن حدود النفس في تحوّل دائم، وأن الأنفس الكثيرة تستطيع أن تتصل أو يسيلَ بعضها إلى بعض إن صحّ هذا التعبير، لتخلقَ أو تظُهر نفساً واحدة، طاقة واحدة

2 - أن حدود الذاكرة هي أيضاً في تحوّل دائم، وأن ذاكراتنا جزء من ذاكرة واحدة كبرى هي ذاكرة الطبيعة نفسها

3 - أن هذه النفس الكبرى وهذه الذاكرة الكبرى يمكن استحضارهما بواسطة الرّموز إن هذه (الذاكرة الكبرى) هي مخزن الرموز. وما الشاعر الرمزي إلا ساحر يقوم بدور الوسيط لاستحضار هذه الرموز - هذه الأرواح - ولكنه لا يخلق منها شيئاً. وعلى ذلك فكل ما نحس من عاطفة أو نرى من رأي أو نطلب من هدف ليس لنا، (وإنما صعد من الجحيم أو هبط علينا من السماء)

ولكي يستطيع الشاعر استدعاء هذه المعاني والرموز والعلاقات، ينبغي له أن يجعل نفسه في حالة سلبّية - أن يجعلها كالماء الساكن تنعكس عليه شّتى الصور. قال يايتس:

(كنت ذات مرة أنظم قصيدة شديدة الرمزية والتجريد فاتفق أن وقع قلمي على الأرض، فلما أنحنيت لالتقاطه تذكرت حادثاً من حوادث الخيالات والأحلام ولكنه لم يبد لحظتئذ أنه منها بل كأنه وقع لي فعلاً. فلما سألت نفسي متى حصل هذا الحادث وجدت أني إنما كنت أتذكر أحلامي في عدة ليال. ثم حاولت أتذكر ما فعلته في اليوم السابق، وما فعلته في الصباح، فلم أستطيع، إذ كانت حياة الوعي واليقظة قد غادرتني كلها، وما استطعت ذلك إلا بعد جهد شديد، فلما تذكرتها غادرتني بدورها حياة الأحلام التي هي أقوى من حياة الوعي وأروع. فلو لم يسقط قلمي لما فطنت قط إلى أن التأمل استحال غيبوبة)

إن آراء يايتس الجمالية تتصل بفلسفته هذه اتصالاً منطقّياً وثيقاً
فغاية الفن استحداث نشوة في النفس الدائمة التقلب مصدرها ما يعرضه الفن من حقائق الكون وعناصره الثابتة
وما دامت هذه هي غايته وهذه هي وظيفته، فلا موضع فيه إذن (لعلم عصره أو سياسته أو فلسفته أو أخلاقياته) لأن هذه الظواهر جميعاً في تطور مستمر، وتغير دائم
وخليقٌ بالفن إذاً أن يرتدَّ إلى روح ماض كان الناس فيه يعبدون الطبيعة، ويدينون بالوثنية، ويعيشون (في عالم يستطيع كلُّ شيء فيه أن يتبدل ويستحيل، ويصير أي شيء آخر؛ وبين الآلهة العظام الذين كانت عواطفهم في الغروب الملتهب، وفي الرعد وفي هواطل الرعود). . . وفي تلك الأزمان (التي كانت الحزمة المسكينة من الحلْفاء فيها) كما يقول الشاعر (ينظر إليها على أنها كانت يوماً من الأيام. . . إلهة تضحك بين النجوم)
هذه الحقيقة، حقيقة أن الفن لا يكون عظيما إلا إذا اعتمد على أساطير الأقدمين من عَبَدة الطبيعة، وما في عالمها من خصب وغنيً ومن حياة زاخرة فياضة، هذه الحقيقة أدركها (الأساتيذ) العظام جميعاً.
(لقد لُخص موقف يايتس فيلسوفاً بهذه العبارة: إنه رجل يعتقد بوجود عالم الغيب وحين نشر يايتس لأول مرة (1903) كتابه (فكرات عن الخير والشر) أبى بعض ناقديه ومراجعيه أن يسلموا بأن المؤلف يعتقد بالذي يقول. ولكن أن يعتقد الإنسان بما يقول أو لا يعتقد لا صلة له في الواقع، بصواب رأيه أو ضلاله. ولست أدري، مع المستر ريد، لم يعلق الناس هذه الأهمية الكبرى على موقف صاحب الرأي من رأيه. إن العقيدة الفنية على كل حال تتعلق قبيل كل شيء بالجمال. فأيما شيء خاطب شعور الفنان بقوة واستمال خياله بشدّة، مالَ إلى الخروج من عالم الخيال إلى عالم الحقيقة واليقين. (وحسب الشيء أن يكون على درجة من الجمال كافية ليرتدَّ جزءاً من عقيدته، جزءاً من دينه. وهذا هو الذي عناه كيتس حين نطق بقوله المشهور: (الجمال الحق والحق الجمال)).
هذه نظرة سريعة في (و. ب. يتس): عمله وفنه وفلسفته، أرجو أن أكون استطعت فيها أن أعطي القارئ فكرةً حسنةً عنه، وهو الأديب المعقَّد الشخصية، الضبابيُّ المعاني. وأرجو أن يتسع لي الوقت لأترجم لقراء الرسالة بعض آثاره الشعرية والمسرحية. وهنا أحب أن
يعلم القارئ جيداً أن (يايتس) - بالرغم من كل هذه (الغرابة) الظاهرية في أدبه - لم يصنع أكثر من أنه عبَّر بإخلاصٍ عن (عبقرية أرلندا).
(بغداد)
عبد الكريم الناصري
حياة محمد
باعتباره صاحب الدعوة الإسلامية
للمستشرق الإنجليزي توماس أرنولد
ترجمة الأساتذة
عبد الفتاح السرنجاوي
عمر الدسوقي
عبد العزيز عبد المجيد
ويعتبر إسلام عمر فاتحة عصر جديد في تاريخ الإسلام، إذا استطاع أتباع الرسول حينئذ أن يجهروا بعقيدتهم. ترك محمد (ص) بيت الأرقم، وأقام المؤمنون صلواتهم جماعة وإعلاناً حول الكعبة. وبدأ أشراف مكة يتوجسون خيفة من هذه الحال الجديدة، لأنهم لم يعودوا بعد يناضلون عصابة من الخارجين المضطهدين المنبوذين الذين كانوا يدافعون عن حياة بائسة مستضعفة وإنما يناضلون طائفة أصبحت ذات بأس. تزداد قوتها يوماً بعد يوم بانضمام بعض ذوي السلطان من أهل القبائل، وتهدد كيان الحكومة القائمة، بالمعاهدة مع أمير قوي من قبيلة أخرى
لهذا أجمعت قريش أمرها أن تدبر محاولة ناجعة لتعرقل نمو تلك الحركة الجديدة في مدينتها. تعاقد أهل قريش على مقاطعة بني هاشم الذين حموا الرسول لما له بهم من صلة القرابة، واتفقوا على ألا ينكحوا إليهم، ولا ينكحوهم، ولا يبيعوهم شيئاً، ولا يبتاعوا

منهم، ولا تكون بين القبيلتين معاملة أيا كان نوعها. ويقال إن بني هاشم استمروا مدة ثلاث سنوات لا يغادرون ناحية معينة من مكة، اللهم إلا خلال الأشهر الحرام التي تمتنع فيها الحروب في كل الجزيرة، والتي تعاهدت العرب من قبل على الأمن فيها حتى يفد الحجاج لزيارة الكعبة الشريفة مركز دينهم العام

أنتهز محمد (ص) الفرص في أيام الحج ليدعو إلى الإسلام بين القبائل المختلفة التي كانت تفد أفواجاً إلى مكة وإلى الأسواق المجاورة لها. ولكن الرسول لم يوفق لأن عمه أبا لهب

كان يقتفي أثره صائحاً بأعلى صوته: (إنه مشعوذ يريد أن يصرفكم عن دين آبائكم إلى العقائد الكاذبة التي جاء بها فتحاشوه ولا تسمعوا له). فكان الحجاج يعيرون الرسول ويجابهونه بقولهم: (إن أهلك أنفسهم وأقاربك أحق الناس بمعرفتك، فلم لا يصدقونك إذاً ويتبعونك؟). وأخيراً استفز كل هذا الاضطهاد الذي لحق بمحمد وأتباعه عاطفة جماعات كثيرة من قريش، فنقضوا عهد المقاطعة.

وفي هذا العام غمر محمداً أشد الحزن والجزع لفقد خديجة زوجه الأمين التي كانت له مشيراً ونصيراً مدة خمس وعشرين سنة. وبعد وفاة خديجة بمدة مات أبو طالب فحرم الرسول (ص) بموته أقوى حام له، وأثبت مدافع عنه. وبذلك أصبح الرسول مرة أخرى موضوع استهزاء الأعداء به، واحتقارهم له. قاسى محمد (ص) سخرية عشيرته به، وإعراضهم عنه، وفشلاً في رسالته التي ظل يبلغها إليهم مدة عشر سنوات، فصمم على أن يبحث عن عشائر أخرى لعلها تكون أكثر استعداداً لسماع دعوته، وعن أرض أخرى خصبة قد تنمو فيها بذور عقيدته، فخرج مصحوباً بذلك الأمل إلى الطائف، وهو مكان يبعد سبعين ميلا عن مكة. وهناك أمام جماعة من رؤساء القرية أوضح محمد (ص) دينه المتضمن وحدة الله، والرسالة التي بعث بها رسولاً للناس، وتوسل إليهم في الوقت نفسه أن يحموه ممن اضطهدوه في مكة. رأي أهل الطائف ألا توافق بين دعوة محمد الطموحة (التي كانت إذ ذاك أسمى من أن يدركها المشركون مثلهم) وبين حال الضعف وقلة الأنصار التي كان فيها، فذهبوا يحقرونه ويسخرون به، ويرمونه بالحجارة في غير شفقة، ثم طردوه من ديارهم

غادر محمد الطائف، وقد ظهرت بوادر النجاح أضعف ما تكون، فتنفس الصعداء بالعبارة التي تضمنتها الآيات الكريمة التي صدرت على لسان نوح عليه السلام: (قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً، فلم يزدهم دعائي إلا فراراً، وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم، واستغشوا ثيابهم، وأصروا واستكبروا استكبارا).

كانت عادة محمد (ص) خلال موسم الحج السنوي أن يذهب إلى منازل القبائل العربية المختلفة، ويتحدث إليهم عن الإسلام، فكان بعضهم يقابل دعوته بالجفاء، وآخرون يعرضون عنه ساخرين؛ ولكن عزاء جاء إليه من حيث لم يتوقع. ذلك أنه قابل شرذمة من

ستة نفر أو سبع، وعرف أنهم قدموا من المدينة أو يثرب كما كانت تسمى حينئذ، فسألهم قائلاً: (من أنتم؟) قالوا: (نفر من الخزرج). قال: (أمن موالي اليهود؟). قالوا: (نعم). قال: (أفلا تجلسون أسمعكم؟). قالوا: (بلى). فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. وكان مما صنع الله لهم به في الإسلام أن يهوداً كانوا معهم في بلادهم، وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان، وكانوا قد عزُّوهم ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم: (إن نبيًّاً مبعوثاً الآن، قد أظل زمانه، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم). فلما كلم رسول الله (ص) أولئك النفر، ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض: (ياقوم، تَعلَّموا والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود فلا تسبقنكم إليه). فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدّقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا له: (إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين. فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك). ثم انصرفوا عن رسول الله (ص) راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا

هذا هو الخبر المأثور لهذه الحادثة التي تعتبر فجر يوم جديد للدعوة المحمدية. فلقد لاقى محمد قوماً مستعدين لقبول تعاليمه، قوماً كانت أحوالهم الاجتماعية حينئذ ممهدة لدعوته، كما سيتضح ذلك فيما بعد

كانت يثرب إذ ذاك مسكونة باليهود منذ زمن طويل، ويغلب على الظن أنهم أخرجوا من ديارهم على يد الإمبراطور أدريان الذي اضطهدهم (فاستقروا في مكان يثرب).

ولما وصل بطنا الأوس والخروج من العرب - في إحدى انتجاعاتهم للمرعى - إلى يثرب، سمح لهم اليهود بالإقامة فيها. وبنمو النسل وتكاثر العدد اكتسبوا السلطان من رؤساء اليهود شيئاً فشيئاً، حتى نجحوا أخيراً، حوالي منتهى القرن الخامس الميلادي في احتجان كل السلطان على يثرب

اعتنق بعض العرب اليهودية وظل كثير من رؤساء يثرب اليهود مقيمين بها، تحت سلطان العرب الغزاة. من أجل هذا نجد عدداً كبيراً من اليهود من ساكني يثرب، في العصر الذي ظهر فيه محمد صلى الله عليه وسلم. كان سكان يثرب لذلك على علم بأمر (المنقذ) الذي

توقعوا قدومه، ونتيجة ذلك أنهم كانوا أكثر قدرة على فهم ما يقول محمد - وهو أنه رسول - وقبوله من أهل مكة الوثنيين الذين كانت فكرة الإسلام لهم غير مألوفة، كما كانت منبوذة من القريشيين خاصة، لأن سلطانهم على القبائل الأخرى، وغناءهم المادي ما كانا إلا لأنهم السدنة الورثة لجمهرة أصنام العرب التي نصبوها في حرم الكعبة

يضاف إلى هذا أن يثرب كانت مشتتة النظام لما حل بها من النزاع الداخلي الذي أشعل ناره شنآن قديم بين الأوس والخزرج. كان السكان دائماً في اضطراب وقلق، ولهذا اعتبروا أي عمل يؤدي إلى ائتلاف القبيلتين المتخاصمتين فأل خير وبشرى لمدينتهم

لقد حدث في القرون الوسطى أن اختار سكان الجمهوريات الشمالية لإيطاليا أجنبياً ليكون الحاكم الأعلى على جميع مدنهم، حتى يحتفظوا بالتوازن بين قوات الأحزاب المتنافسة، وحتى يتفادوا - بقدر المستطاع - الخصومات الداخلية التي كانت قاضية على التجارة، والأمن العام. وشبيه بهذا ما وقع من أهل يثرب، فإنهم لم ينظروا إلى ظهور أجنبي بينهم بعين التهمة، حتى حين أدركوا أنه ربما يستغل ما كانوا فيه من انحلال ليكتسب لنفسه سلطاناً عليهم.

إن الواقع ليثبت عكس ما كان يظن، إذ يظهر أن أحد الأسباب التي جعلت أهل المدينة يرحبون بمحمد (ص) ترحيباً محموداً هو أن العقلاء والمثقفين من السكان قد تبينوا أن اعتناق الإسلام هو العلاج الوحيد للاضطراب الداخلي الذي عانوه مدة من الزمن، لما جاء به الإسلام من نظم المعاش القويمة، ومن إخضاع الشهوات الإنسانية الجامحة لتهذيب القوانين الموحى بها من سلطة أعلى وأسمى من سلطة البشر المتقلبة.

وتوضح لنا هذه الحقائق كيف استطاع محمد - بعد ثمانية أعوام من الهجرة - أن يرأس جيشاً من أتباعه تبلغ عدته عشرة آلاف نفر، وأن يدخل المدينة التي جاهد فيها من قبل لينشر دعوته مدة عشر سنين فلم يفلح إلا قليلاً

لقد تعجلت الحوادث فيما ذكرت الآن. فلنعد إلى بدء عرض محمد نفسه على أهل الخزرج الذين دخلوا في الإسلام أن يصحبهم بنفسه إلى يثرب، ولكنهم رغبوا إليه في أن يعدل عن ذلك حتى يحدث صلح بينهم وبين بني الأوس. وقالوا: (إننا نتضرع إليك أن تدعنا نعود إلى قومنا لعل الله يخلق السلم بيننا فنرجع إليك بعد ذلك. وموعدنا موسم الحج القادم).

فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول اله صلى الله عليه وسلم ودعوهم إلى الإسلام، واستجاب منهم نفر كثير فلم تبق دار إلا وفيها ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم. حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم طائفة من يثرب - عشرة من بني الخزرج واثنان من بني الأوس - فلقوه في المكان المعين، وبايعوه أن يتبعوا تعاليمه. وهذه هي البيعة الأولى المعروفة ببيعة العقبة، وسميت بذلك لأنهم اجتمعوا سراً في مكان خفي. وقد أخذوا على أنفسهم (ألا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف) رجع هؤلاء الإثنا عشر رجلاً بعد ذلك إلى يثرب مبشرين بالإسلام، وبذلك مهد السبيل للدين الجديد، وأقبلوا على نشر الدعوة بحماس ورغبة، حتى انتشر الإسلام سريعاً من بيت لبيت، ومن قبيلة لقبيلة

وقد صحبهم في دعوتهم إلى يثرب مصعب بن عمير. ويقال في رواية أخرى إن

الرسول بعثه إلى أهل يثرب بعد أن كتبوا إليه بذلك. كان ذلك الشاب الناشئ أحد معتنقي الإسلام الأوائل. وكان قد رجع حديثاً من الحبشة، بعد أن حنكته التجارب هناك، وأنضجت التنشئة القاسية في ميدان الاضطهاد حماسته، وعلمته كيف يقابل الاضطهاد، وكيف يناضل أولئك الذين كانوا متوثبين للحط من شأن الإسلام من غير أن يعلموا شيئاً من تعاليمه الصحيحة. لذلك استطاع محمد (ص) أن يعهد إليه واثقاً القيام بذلك الواجب العسير، واجب إرشاد حديثي العهد بالإسلام وتعليمهم، وتنمية بذور الحماس والإخلاص الديني، التي غرست فيهم من قبل، حتى تؤتي أكلها طيبة

كان منزل مصعب على أسعد بن زرارة، وكان يجمع معتنقي الإسلام إليه للصلاة ولقراءة القرآن. يفعل ذلك أحياناً في دار مصعب وأحياناً في دار بني ظفر، وكانت في ناحية من المدينة يقطنها بطن بني عبد الأشهل وبطن بني ظفر

كان رؤساء بني الأشهل سعد بن معاذ وأسيد بن حضير. وبينما كان مصعب جالساً ذات يوم مع أسعد في دار بني ظفر يعلم طائفة من حديثي العهد بالإسلام. إذ وفد سعد بن معاذ، وكان يبحث عن مكانهم فقال لأسيد بن خضير: (أنطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا ديارنا ليسفها ضعفاءنا، فازجرهما وأنهاهما عن أن يأتيا ديارنا فإنه لولا أن أسعد بن زرارة من حيث قد علمت كفيتك ذلك لأنه كان ابن خالة أسعد. فأخذ سيد بن حضير حربته ثم أقبل

على أسعد ومصعب حتى وقف عليهما متشتما وقال (ماذا تفعلان؟ تسفهان ضعفاءنا؟ إعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة). قال له مصعب: (وتجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كفَّ عنك ما تكره) فركز أسيد حربته وجلس إليهما ليسمع، فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن. وبعد هنيهة صاح أسيد متهللاً وقال: (كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟) فأجاب مصعب: (تغتسل فَتَطهَّر، وتشهد أن لا إله ألا الله وأن محمداً رسول الله) فقام أسيد وفعل ذلك، وكرر الشهادة. ثم قال: (إن ورائي رجلاً (يعني سعد بن معاذ) إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن). وبعد هذه العبارة انصرف أسيد، وجاء بعده تواً سعد بن معاذ بنفسه غاضباً حانقاً على أسعد لما منحه مبشري الإسلام من رعاية. فتوسل إليه مصعب ألا يحقرن الدين قبل أن يسمعه. فقبل سعد أن يستمع، ولم يلبث غير قليل حتى تأثر بما قاله مصعب من العبارات التي أدخلت في قلبه الإيمان فاعتنق الدين واصبح مسلماً. عاد سعد إلى قومه يلتهب حماساً، وقال لهم: (يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟) فقالوا: (سيدنا وأفضلنا رأياً، وأيمننا نقيبة) قال: (فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله محمد). ومن ذلك اليوم لم يبق في دار بني عبد الأشهل رجل أو امرأة إلا مسلماً أو مسلمة.

عبد العزيز عبد المجيد

رواية المصاهرة

بمناسبة زواج حضرة صاحبة السمو الملكي الأميرة فوزية

للأستاذ محمود غنيم

1 - تتألف الرواية من فصلين: زمن الأول قبل الميلاد بنحو خمسة قرون، وزمن الثاني عصرنا الحاضر

2 - أشخاص الرواية:

الفصل الأول

(1) ملك الفرس (2) حاشية ملك الفرس وعلى رأسهم الوزير (3) ملك مصر (4) حاشية ملك مصر وعلى رأسهم الوزير (5) عراف مصري قديم (6) حاجب الملك

الفصل الثاني

(1) ضابط مصري مع فرقة من جنوده

(2) ضابط إيراني مع فرقة من جنوده

(3) جندي يلتقط ورقة من ورق البردي

(4) جندي معه صحيفة تتضمن نبأ المصاهرة الملكية الحديثة

الفصل الأول

المنظر الأول

كسرى وحاشيته المكونة من أربعة أشخاص منهم: الوزير. المكان: إيوان كسرى.

الزمان: قبل الميلاد بنحو خمسة قرون
كسرى (يفتخر):
أنا للحُكم والحِكَمْ ... أنا للبأس والكَرَمْ
إنّ عرشي على السها ... قائمٌ راسخُ القَدَمْ
هل درى الدهرُ من أنا؟ ... إنني سيد العجم
إنما يخضع الزما ... ن لكسرى إذا حكم
البرايا عبيدُه ... والليالي له خَدَم
أنا كسرى ودولتي ... دولةُ السيف والقلم
الحاشية:
عاش ربُّ التاج كسرى ... عاش للأوطان ذخرا
أنت فقت الشمس نورا ... أنت فقت الشمس قدرا
قد جعلت العدل للم ... ك أساساً فاستقرا
كاد يا مولاي يعنو ... لك أهلُ الأرضِ طرّا
كسرى: وزيري
الوزير: لبّيك يا سيدي
كسرى: ألا فادنُ مني ولا تبعد
الوزير:
وماذا يريد المليكُ فِداه ... حياتي وما ملكتهُ يدي
كسرى:
هنالك أمرٌ لديَّ خطيرٌ ... ولم أرَ غيرَكَ من مُرْشدِ
وزيريَ إني أفكّر في أن ... أصاهرَ قوماً لهم سُؤْدُدي
أفتش في الأرض عن دولةٍ ... كدولة كسرى فلا أهتدي
(الوزير بعد أن يطرق هنيهة)
أمولاي إن شئت خير الحرم ... إذن فعليك بأرض الهرم
هنالك قوم حسانُ الوجوه ... كرامُ الجدود كبارُ الهممْ
ألا إن فرعون خير الملوك ... وأمة فرعون خيرُ الأمم
ومَن مثلُ فرعون في مجده ... وفي جَدِّه غيرُ شاه العجم؟
كسرى:
أشرتَ بالحكمة والسدادِ ... ملوكُ مصرَ وحدَهم أندادي
غدا تسير مسرعاً من (سوس) ... وتقطع الأرض إلى (منفيس)
سر نحو مصر حاملاً خطابي ... وكن لمولاك من الخطّابَ
المنظر الثاني
فرعون وحاشيته تتكون من أربعة أشخاص منهم الوزير. المكان: قصر فرعون.
الزمان: قبل الميلاد بنحو خمسة قرون.
فرعون (يفتخر):
تعرف الأفلاك قدري ... ويطيعُ الدهرُ أمري
إنني فرعون والأنه ... ار من تحتيَ تجري
حسب فرعون جلالاً ... أنه سلطانُ مصر
كم مليك من ملوكٍ ال ... أرض قاسى ذلَّ أسري
يشبه الأهرامَ عزمي ... إنه قطعة صخر
ينقضي عمري ويبقى ... رغمَ أنف الدهر ذكرى
الحاشية:
عاش فرعونُ ودامْ ... عاش مولانا الهمامْ
يا سليلَ المجد يا نس ... لَ الفراعين العظامْ
أنت للكون هلالٌ ... لاح والكونُ ظلام
إنما أنت مُرَبي ال ... كون أستاذُ الأنام
(وزير فارس يصل ويقف بالباب فيستأذن له الحارس)
الحارس (يدخل): مليكي
فرعون: منْ؟

الحارس:
أنا الحارسْ ... رسولٌ جاء من فارسْ
فرعون:
ما خَطبُ هذا الرسول ... اسمح له بالدخول
(وزير الفرس (يدخل:
ألا أيُّهذا المليكُ الهمام ... سلامي عليك
فرعون: عليك السلام
وزير الفرس:
مليكَ الحمى يا رفيعَ الجنابْ ... معي لك من عند كسرى كتاب
فرعون: كتابٌ وأينَ؟
وزير الفرس:
تفضَّلْ فدْيتُ ... كَ يا خير من سار فوق التراب
(يناوله الخطاب فيقرأه فرعون صامتا ثم يقول):
فرعون: يا وزيري
وزير فرعون: نعمْ نعمْ
فرعون: إن كسرى فتى العجم
جاءنا يخطبُ ابنتي ... أهْو كفءٌ كما زعم
(الوزير (بعد أن يطرق قليلا:
وكيف القول يا مولا ... ي في مملكة الفرس
وفي كسرى سليل المج ... د ربِّ السيفِ والترْسِ
مليكُ الفرس إن فُهتُ ... به أحنى له رأسي
فتى النيرانِ والنورِ ... جديرٌ بابنة الشمس
(فرعون (بعد أن يطرق قليلا:
قد أجبنا يا رسولْ ... قم فبشّر بالقبولْ
وزير الفرس:
دمتَ يا مولايَ في عزٍّ ... وفي عمرٍ يطول
أنت يا فرعون شمسٌ ... ما لها قطُّ أفُول
(ينصرف وزير الفرس ثم يقف العراف بباب فرعون فيستأذن له الحارس)
الحارس:
مولاي عرافٌ هنا بالبابِ ... تقبضُ يمناه على كتابِ
فرعون:
قم فأت يا حارسُ بالعرَّاف ... قد يكشف العراف بعض الخافي
(العراف يدخل):
ألا أيُّهذا المليكُ الهمامْ ... سلامي عليكَ
فرعون: عليك السلامْ
ماذا يقول النجم في المصاهره ... بين ملوك مصر والأكاسرهْ؟
العراف (بعد أن يفتح الكتاب ويقلب صفحاته ثم يتكلم وهو يكتب على ورقة من ورق البردي):
أميرَ الحمى يا مليكَ الزمانْ ... ألا بارك اللهُ هذا القِرانْ
وسوف يتم قرانٌ كهذا ... إذا الله شاء وآن الأوان
إذا ما مضت خمسة بعد عشري ... ن قرناً إذن تسعد الدولتان
بعرس سعيدٍ به شعبُ مص ... ر ودولةُ فارسَ يرتبطان
وسوف يكون الفريقان حلاّ ... من المجد إذ ذاك أعلى مكان
يكون على رأس كلِّ فريقٍ ... أميرٌ مطاعٌ له الشعب دان
هناك (رضا) وهنا (ابنُ فؤاد) ... يعيش لشعبَيْهِما الملِكان
(ستار)
الفصل الثاني
المنظر: فرقتان من الجند إحداهما إيرانية والثانية مصرية تتكون كل منهما من أربعة جنود ومعهم ضابطهم واقفاً منعزلا قليلا. ويلاحظ أن الفرقة الإيرانية تدخل أولا وبعد أن

يتم كلامها تدخل الفرقة المصرية
المكان: ردهة في دار السفارة الإيرانية أو ما يقرب من ذلك.
الزمان: زمننا أي بعد مضي خمسة وعشرين قرنا من حوادث الفصل الأول
الجنود الإيرانيون
نحن نسلُ الفرس أبطالٌ كماةْ ... نحن علَّمنا الورى معنى الحياةْ
سائلوا التاريخَ كم للفرس شاهْ ... تخفضُ الدنيا له شُمَّ الجباهْ
من قِدَم ... نبتني الملكَ كما تُبني الجبال
لِلْعَجمْ ... شرف يأبى على الدهر الزوال
الضابط الإيراني
ما لِمَنْ بادوا ومالي؟ ... لست أحيا في الخيالِ
أتباهُون بعصرٍ ... من قديم الدهر خالِ
أتباهُون بعظمٍ ... تحتَ بطن الأرض بالِ
أنا لا أفخرُ يا قوْ ... مُ بماضٍ بل بحالِ
حاضرُ الفرس كماضي ... هم جلالُ في جلالِ
قد خُلقنا لسخاء ... وخُلقنا لنضالِ
عن بلاد حرّة يرـ ... خُصُ فيها كلُّ غالِ
لم تشوّه بقيودٍ ... أو تدنَّس باحتلال
قد نشِطنا مثل ما ين ... شَط ليثٌ من عقال
وبذلنا للعلا مه ... ريَن من نفس ومال
فاخروا الكونَ بشاهٍ ... قادنا نحو المعالي
جودُه قد فاض فيض الن (م) ... هر بالماء الزلال
بطشه قد بات منه ... راجفاً قلبُ الليالي
(يستمر الفريق الأول في مكانه ثم يدخل الفريق المصري ويقف في مواجهته)
الجنود المصريون
نحنُ أبناءُ الفراعين الشداذْ ... كم بنى فرعون بالأمس وشاد
سائلوا رمسيسَ كم عز وساد ... وانحنى الدهر له بين العباد
مجدنا ... سائل الأهرامَ عنه والنجوما
هاهنا ... نبت العلم مع الفن قديما
الضابط المصري
فَخَرتم بالفراعنة الشِّداد ... وقلتم نحن ساداتُ العبادِ
وليس الفخرُ بالرِّمم البوالي ... وبالعُصُر القديم، من السَّداد
إذا أنا لم أشد مجدي بعزمي ... إذن لا طاب لي مائي وزادي
لقد قمنا نشيد لمصرَ صرحاً ... يقوم من العلوم على عماد
جعلنا النيل طَلْق الماء يجري ... بسَلْسال من العذب البراد
وحطَّمنا قيوداً من حديدٍ ... ونلنا ما نحاولُ بالجهاد
لنا سفنٌ على الأمواج تجري ... تبثُّ الرعبَ في روع الأعادي
وجيشٌ بالمدافع قاذفاتٍ ... يصولُ وبالمرقَّقَة الحِداد
وطياراتُنا في الجوِّ تعلو ... تُذلِّلُ متنها بدلَ الجياد
إذا نزل النزيل بأرض مصر ... يحلُّ من النواظر في السواد
لنا كرمٌ لنا همم كبارٌ ... خُلقنا للسلام وللجلاد
فلا تفخر بفرعونٍ قديمٍ ... رميمِ العظمِ مدفونٍ بواد
ولكن فاخر الثقلين طرّاً ... بفرعونٍ تحدَّر من فؤاد
الضابط الإيراني (للضابط المصري):
عجيب أمرُنا جدّاً ... أرى أنَّا شبيهانِ
سمعت الشعر يا مصريُّ م ... من فيك فأشجاني
الضابط المصري:
أرى يا صاح مجدَ الشر ... ق في مصرٍ وطُهرانِ
فنصف المجد مصريٌ ... ونصفُ المجد إيراني
الضابط الإيراني:

فمن يَفْخَر بتجديد ... فشعبانا جديدان
ومن يفخَرْ بأجدادٍ ... فشعبانا قديمان
الضابط المصري:
مليكُ النيل فاروقٌ ... وشاهُ الفرس نِدَّان
هما في الجَدِّ والجِد ... وفي النهضة سِيَّان
الضابط الإيراني:
وهل في الشرق من دانا ... هما في رفعة الشان
كأن الشرقَ جسم
و ... هما للجسم عينان
الضابط المصري:
ألا ما أسعدَ الشرقَ ... لو انضَمَّ المليكان!
(هنا يدخل جندي مصري معه ورقة بردي التقطها)
الجندي:
تحيةً يا جندنا الأحرارا ... هل فيكمو من يقرأ الآثارا؟
الضابط المصري: أنا. لِمَهْ؟
الجندي:
لقيتُ بالعِشيِّ ... ورقةً من ورق البرديِّ
الضابط المصري: إيت بها
الجندي (يعطيه الورقة): خذ
الضابط المصري (يفحصها)
إنها قديمهْ ... خطٌّ محا طول المدى رسومَهْ
وهْي بخط كاهنٍ عرّافِ ... من أهل مصر القُدم الأسلاف
الجندي:
ألستَ تستطيعُ أن تتلُوها
الضابط: بل أستطيعُ فاسمعوا ما فيها
أميرَ الحمى يا مليك الزمانْ ... ألا بارك الله هذا القرآنْ
وسوف يتم قرانٌ كهذا ... إذا الله شاء وآن الأوان
إذا ما مضت خمسةٌ بعد عشري ... ن قرناً إذن تسعدَ الدولتان
بعرس سعيدٍ به شعبُ مصرٍ ... ودولةُ فارسَ يرتبطان
وسوف يكون الفريقان حلاّ ... من المجد إذ ذاك أعلى مكان
يكون على رأس كلِّ فريق ... أميرٌ مطاعٌ له الشعبُ دان
هناك (رضاً) وهنا (ابن فؤاد) ... يعيش لشعبَيْهما الملِكان
الجندي (في دهشة):
هذا كلامٌ واضحٌ صريحُ ... يا حبذا لو أنه صحيحُ
الضابط الإيراني:
إن الأوان هذه الأيامُ ... يا حبذا لو صحت الأحلامُ
في ذلك الوقت يدخل جندي حاملا صحيفة فيها نبأ الزواج ويصيح قائلا:
بشرى لكم يا معشرَ الإخوانِ ... في الصُّحف لم تسمع بها أذنانُّ
أما سمعتم نبأ القرآنِ ... (فوزية) مليكةُ الحِسَان
قد زفَّت اليوم بمِهْرَجانِ ... إلى وليِّ العهدِ في إيران
الجميع ينشدون هذا النشيد:
أيها الطير تغَّنى ... حلّ ميعادُ الأغاني
أيها الشاهُ تهَنَّا ... تلك أوقاتُ التهاني
بالرِّفاء والبنين ... دائماً طول السنين
إنه عرسُ البدورْ ... قد تجلّى في السماءْ
عرس أملاكٍ وحور ... لا رجالٍ ونساءْ
بالرِّفاء والبنين ... دائماً طول السنين
التقى التاجانِ فيه ... تاج رمسيس وكسرى
يا بلادَ الفرس تيهي ... يا بلادَ النيلِ بشرى

بالرِّفاء والبنين ... دائماً طول السنين
مصرُ قد حان السرورْ ... طبتِ يا مصرُ وطابا
رقص النيلُ الوقورُ ... وجرى تبراً مذابا
بالرِّفاء والبنين ... دائماً طول السنين
بلَّغ الشرقَ مناه ... ذلك العُرسُ السعيد
دمت في عزٍّ وجاه ... أيها الشرقُ المجيد
بالرِّفاء والبنين ... دائماً طول السنين
(ستار)
محمود غنيم
كتاب السياسة
للوزير نظام الملك
للدكتور عبد الوهاب عزام
الفصل الأول
في أحوال الناس وتقلب الزمان، ومدح ملك العالم غياث الدين والدنيا قدس سره
الله تعالى يجتبي في كل عصر واحداً من خلقه، ويجمّله بالفضائل الملكية، وينوط به مصالح الدنيا وراحة الناس، ويغلق به باب الفساد والفتن والاضطراب، ويمكن هيبته وحرمته في قلوب الخلق وعيونهم، ليعيش الناس في عدله، ويأمنوا في سلطانه، ويرجوا بقاء دولته
وإذا عصا الناس الشريعة واستخفوا بها وقصروا في إطاعة أوامر الله تعالى فأراد أن يعاقبهم ويذيقهم جزاء أعمالهم، ويحل بهم شؤم عصيانهم - لا أرانا الله مثل هذا الزمان، ولا ابتلانا بمثل هذا الشقاء - يحرمهم الملك الخيِّر، فتختلف بينهم السيوف وتسيل الدماء، ويغلب كل قوي على ما يريد حتى يهلك هؤلاء المجرمون في هذه الفتن وهذا القتال. كمثل النار تشتعل في القصب فتحرق كل يابس، وتتعدى إلى كثير من القصب الرّطب
الله تعالى يمنح واحداً من عباده السعادة والدولة، ويرزقه الإقبال على قدره، ويهبه العقل والعلم ليسوس بهذا العقل والعلم كل واحد من الرعية على الوجه الذي يصلحه، ويضع كل واحد في مرتبته؛ ثم يختار رجاله وعماله من الناس، ويوفي كلا منهم درجته، ويعتمد عليه في كفاية أمور الدين والدنيا
ويكفل الراحة لمن يسلك سبيل الطاعة ويقبل على عمله من رعيته ليعيشوا مغتبطين في ظل عدله
وإذا تجاوز أحد عماله حدّه وأطال يده فإن أصلحته الموعظة والتأديب والتأنيب، واستيقظ من نوم الغفلة، حفظ عليه عمله ومنصبه، وأن تمادى في غفلته لم يستجز إبقاءه في عمله واستبدل به من هو أهل للعمل
وكذلك من جحد من الرعية حق النعمة، ولم يعرفوا قدر الأمن والراحة، واعتقدوا الخيانة وأبدوا التمرد، وجاوزوا حدودهم يعاقبهم على قدر جرمهم حتى يتوبوا
ثم على الملك بعدُ أن يدأب في عمارة المملكة فيحفر القنوات ويشق الأنهار، ويمد الجسور على الأنهار العظيمة، ويعمر القرى والمزارع، ويبني الحصون، ويشيد المدن الجديدة، والأبنية الرفيعة، والقصور البديعة، ويقيم الربط على الطرق السلطانية، فيخلد بهذه الأعمال ذكره، وينال ثوابها في الدار الآخرة، ويتصل الدعاء له بالخير . . .
ولما أراد الله سبحانه أن يجعل هذا العصر زينة العصور الماضية وغرة مآثر الملوك السالفة، ويرزق الناس السعادة التي لم يرزقها أحد من قبل اختار ملك العالم السلطان الأعظم من أصلين عظيمين ورثا الملك والسيادة أباً عن أب إلى أفر أسباب العظيم، وجمله بالكرامة والعظمة التي لم يظفر بها الملوك السابقون
فأنعم عليه بما يحتاج الملوك إليه من حسن المنظر، وجمال الطبع والعدل والرجولة والشجاعة والفروسية ومعرفة أنواع السلاح واستعمالها، والتحلي بالفضائل والشفقة والرحمة بالخلق، ووفاء النذور والوعود، وصحة الدين والاعتقاد وطاعة الحق تعالى، وتأدية النوافل من صلاة الليل، وكثرة الصوم، وإعظام أهل العلم وإكرام الصالحين والزاهدين والحكماء، وتواتر الصدقات والإحسان إلى الفقراء، ومعاشرة الرعية

والعمال بخلق حسن، وكف الظالمين عن الرعية. لا جرم سخر الله له ملك العالمين على مقدار جدارته، وحسن نيته، ومد هيبته وسياسته إلى كل إقليم حتى يؤدي الناس الخراج إليه ويأمنوا بالتقرب من سطوته. وإن كان بعض الخلفاء أوتي بسطة في الملك وسعة فما فرغوا وقتاً من القلق وخروج الخوارج. وفي هذا العهد المبارك لا نجد - بحمد الله - أحداً ينطوي على خلاف أو يخرج رأسه من ربقة الطاعة أدام الله هذه الدولة إلى قيام الساعة وأبعد عن هذه المملكة نظر السوء وعين الكمال ليعيش الناس في عدل ملك العالم وسياسته ويديموا دعاء الخير له وإذ كانت حال الدولة كما وصفت كان العلم والبصر بالسنن الحسنة على مقدار هذا، والعلم كشمع ينشر ضوءاً كثيراً فيهتدي الناس به الطريق، ويخرجون من الظلمات، ولا يحتاجون إلى دليل ولكن تدبير الملك يعجز عنه العبيد، وهم لا يبلغون درجة عقله وعلمه. فلما أمر هذا العبد أن اكتب طرفاً من السير الطيبة التي لا غنى للملوك عنها، وكل ما عمله الملوك الماضون ولا يعمل الآن من حسن أو قبيح، وكل ما سمعت في ذلك أو قرأت أو علمت فكتبت إطاعة للأمر العالي هذه الفصول بالإجمال وذكرت في كل فصل ما يلائمه بعبارة واضحة، بتوفيق الله عز وجل

عبد الوهاب عزام

من برجنا العاجي

ليس على الأرض أخطر ولا أقوى من آدمي يعيش من أجل فكرة. هذا الآدمي يركز كل وجوده في فكرة كما تتركز أشعة الشمس في عدسة ليستطيع أن يحدث مثلها حريقاً مخيفاً أو نوراً وهاجاً ساطعاً. إن أغلب الأنبياء والرسل وقادة الفكر وعظماء التاريخ الذين قلبوا العالم أو ملئوه ضوءاً وجمالاً كانوا كذلك: أشعة متجمعة في عدسة فكرة. إنهم لم يعيشوا للحب والحياة؛ إنما عاشوا من أجل فكرة.

ذاك خاطر مر برأسي في لحظة من اللحظات. ولست أدري أأنا مصيب فيه أم أنه عزاء جميل أدخله على نفسي كلما ذكرت وأيقنت أني أنا أيضاً آدمي لم يخلق كي يعيش للحب والحياة. لماذا أعطي دائماً الفكرة ثمناً أغلى من حياتي، دون أن أشعر ودون أن أريد؟ آه. . . لو أتيح لي أن أعيش حياتي كما أحب؛ ولو سمح لي أن أقدر الحياة كما يقدرها السعداء من الآدميين! لقد منحني الله من أسباب النعيم ما لم يتيسر مثله للكثيرين، فلم أبسم ولم أسعد؛ فقد عافت نفسي مائدتي المنمقة وسيارتي اللامعة ومسكني الرحب. آه. . . إن أجمل أفكاري ما ظهرت إلا أثناء سيري البطيء على الأقدام. وإن ألذ أكلة عندي ما اقتصرت على لون واحد من الطعام. وإن خير مسكن لي هو حجرة واحدة أضع فيها كل ما يربطني بالوجود من كتب وورق وفراش وثياب. لقد صحت يوماً من أعماق نفسي: (اللهم أتم نعمتك عليّ وجردني من كل هذا النعيم الذي لا أفهمه، واملأ قلبي بحب نورك وحده، فبه تزهر كل فضائلي الآدمية كما يزهر النبت تحت الشمس الحارة البارة!). وكان لي ما أردت، وانقطعت للفكر وتجردت. ولكن. . .

لكن هل كل من تجرد من حياته في سبيل الفكر ينظمه الزمن في سلك العظماء؟ لست أظن. وهنا الكارثة. هنالك رجال خلعوا رداء الحياة دون أن يلبسوا الفكر ثوباً وضاءً. أولئك هم التعساء في الدارين. أخشى أن يكون قد كتب عليّ مصير هؤلاء!.

توفيق الحكيم

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

من حق الفتوة أن أكتبها قائماً - 371

قال الكراني: حرّم بعض الأمراء بالكوفة بيع الخمر على خماري الحيرة، وركب فكسر نبيذهم، فجاء بكر بن خارجة يشرب عندهم على عادته، فرأى الخمر مصبوبة في الرحاب والطرق فبكى طويلاً وقال:

يا لقومي لما جنى السلطان ... لا يكونَنْ لما أهان، الهوان

فهوة في التراب ممن حلب الكرم (م) ... عقاراً كأنها الزعفران

فهوة في مكان سوء لقد صادف (م) ... سعدَ السعود ذاك المكان

كيف صبري عن بعض نفسي وهل يصبر ... عن بعض نفسه الإنسان
قال: فأنشدتها الجاحظ فقال: إن من حق الفتوة أن أكتب هذه الأبيات قائماً، وما أقدر ذلك إلا أن تعمدني - وقد كان تقوس - فعمَدته، فقام فكتبها قائماً. . .
372 - حولها ندندق
في (مجمع الأمثال): قاله - أي هذا المثل: حولها نُدندن - (صلى الله عليه وسلم) لأعرابي قال: إنما أسأل الله الجنة فأما دندنتك ودندنة معاذ فلا أحسنها الدندنة أن يتكلم الرجل بالكلام تسمع نغمته، ولا تفهمه عنه لأنه يخفيه. أراد (صلى الله عليه وسلم) أن ما تسمعه منا هو من أجل الجنة أيضاً.
373 - وكفى الله المؤمنين القتال
في (تاريخ ابن عساكر والنجوم الزاهرة): كان المتوكل قد ولى على أهل دمشق سالم بن حامد، فأذل قوماً بها كان بينه وبينهم طائلة ودماء، وكان لبني بيهس وجماعة من قريش دمشق قوة ووجاهة ومنعة وكلمة مقبولة، فلما رأوا كثرة تعدي سالم وجوره وأذيته وثبوا عليه فقتلوه على باب الخضراء بدمشق في يوم جمعة (سنة 236) وبلغ ذلك المتوكل فندب لإمرة دمشق أفريدون التركي وسيره إليها، وكان فاتكاً ظالماً، فقدم في سبعة آلاف فارس وثلاثة آلاف راجل، وأباح له المتوكل القتل بدمشق والنهب ثلاث ساعات!!! نزل أفريدون بيت لهيا، فلما اصبح قال: يا دمشق، أيش لا يحل بك مني في يومي هذا؟! ثم طلب الركوب فقدمت له بغلة فضربته بالزوج على فؤاده فسقط من ساعته ميتاً، فدفن مكانه، وقطع الله أمله، وصار حديثاً ومثلاً، ورجع الجيش إلى العراق خائباً. وبلغ المتوكل ذلك، فصلحت نيته لأهل دمشق
374 - أدب النفس
في (الاقتضاب في شرح أدب الكتاب) للبطليوسي:
المتأدب أحوج إلى تأديب أخلاقه من تأديب لسانه وذلك أنك تجد من العامة الذين لم ينظروا في شيء من الأدب من هو حسن اللقاء، جميل المعاملة، حلو الشمائل، مكرم لجليسه، وتجد في ذوي الأدب من أفنى دهره في القراءة والنظر وهو مع ذلك قبيح اللقاء سيئ المعاملة، جافي الشمائل، غليظ الطبع، ولذلك قيل: الأدب نوعان: أدب خبرة، وأدب عشرة وقال الشاعر:
يا سائلي عن أدب الخبرة ... أحسن منه أدب العشرة
375 - إلا الأنبياء
قال القاضي أبو يوسف عبد السلام القزويني: قال لي المعري:
لهم أهج أحداً قط
فقلت له: صدقت إلا الأنبياء عليهم السلام. . .
376 - أن الإزار على ما ضم محسود
في (العقد): خرج أبو السائب وابن أبي يوماً يتنزهان في بعض نواحي مكة فمال أبو السائب لأمر وعليه طويلته فانصرف دونها. فقال له أبن أبي عتيق: ما فعلت طويلتك؟ قال؟: ذكرت قول كثيّر:
أرى الإزار على لبنى فأحسده=إن الإزار على ما ضم محسود!
فتصدقتُ بها على الشيطان الذي أجرى هذا البيت على لسانه. فأخذ ابن أبي عتيق طويلته فرمى بها وقال: أتسبقني إلى برّ الشيطان؟!. . .
377 - كريح المسك فاح بلا دخان
في (ذيل ثمرات الأوراق) لإبراهيم الأحدب: يحكى أن شهاب الدين الخفاجي المصري شرب الدخان هو وجماعة، فاعترض عليهم شيخي زاده، فكتب له الشهاب:
إذا شرب الدخان فلا تلمني ... وُجدْ بالعفو يا روض الأماني
تريد مهذباً لا عيب فيه ... وهل عود يفوح بلا دخان؟
فأجابه شيخي أفندي:
إذا شرب الدخان فلا تلمني ... على لومي لأبناء الزمان
أريد مهذباً من غير ذنب ... كريح المسك فاح بلا دخان
378 - أرسلت نفسي على سجيتها
في (تاريخ بغداد). قال اسحق الموصلي: أتيت محمد بن كناسة لأكتب عنه فكثر عليه

أصحاب الحديث فتضجر بهم وتجهمهم، فلما انصرفوا عنه دنوت منه، فهش إلي، واستبشر بي، وبسط من وجهه فقلت له: لقد تعجبت من تفاوت حاليك، فقال لي: أضجرني هؤلاء بسوء آدابهم، فلما جئتني أنت انبسطت إليك وأنشدتك، وقد حضرني في هذا المعنى بيتان وهما:

فيَّ انقباض وحشمة فإذا ... صادفت أهل الوفاء والكرم
أرسلت نفسي على سجيتها ... وقلت ما قلت غير محتشم

فقلت له: وددت (والله) أن هذين البيتين لي بنصف ما أملك، فقال: قد وفد عليك مالك، والله ما سمعها أحد وما قلتها إلا الساعة. فقلت له: فكيف لي بعلم نفسي أنهما ليسا لي

لو تركته لأورثك السل - 379

روى ابن الجوزي: أنشد رجل أبا عثمان المازني شعراً له، فقال: كيف تراه؟ قال: أراك قد عملت عملاً بإخراج هذا من جوفك، لأنك لو تركته لأورثك السل

دين سوء يدور مع الدول - 380

قال إبراهيم بن عبد الله الكَجِّي: قلت للبحتري: ويحك! أتقول في قصيدتك التي مدحت بها أبا سعيد:

يرمون خالقهم بأقبح فعلهم ... ويحرمون كلامه المخلوق
أصرت قَدَرياً معتزلياً؟

فقال لي: كان هذا ديني في أيام (الواثق) ثم نزعت عنه في أيام (المتوكل) فقلت: يا أبا عبادة، هذا دين سوء يدور مع الدول. . .

أنشودة الذكرى

في عيد الربيع

للأستاذ محمود الخفيف

يَا حَدِيثَ النَّفسِ في خَلْوَتِهاَ ... يَا أَغَانِيهاَ وَيَا لَحْنَ بُكَاهَا
نَامَتِ الأَلْحَانُ لَوْلاَ شُعْلَةٌ ... في حَنَايَا الصَّدْرِ لَمْ يَخْبُ لَظَاهَا
هَي ذِكْرَى لِعُهُودٍ أَدْبَرَتْ ... رَجَّعَ الشَعْرُ مِن الماضِي صَدَاها
مَا لِهذَا الذَّابِلِ المُرْتَعِشِ ... رَفَّ فِي صَدْرِيَ شَوْقاً وَهَفَا؟
كُنْتَ يَا قَلْبُ تَأَسَّيْتَ فَمَا ... جَدَّ من عَيْشِكَ أَوْ ما اخْتَلَفاَ؟
أَيُّهاَ الخافِقُ في وَحْدَتِهِ ... فِيمَ ذِكْرَاتُكَ عَهْدَ سَلفاَ!
أَوْرَقَتْ يَا قَلْبُ في الرَوْضِ العُصُونْ ... وَزَكاَ الوَرْدُ وَرَاقَ المَوْسِمُ
وَمَشَى في الأَرْضِ عُرْسٌ بَهِجٌ ... نَفَحَاتُ الْخُلْدِ فِيهِ تَنسِم
وَالْتَقَى الشَّمْلُ فَبِشْرٌ وَمُنىً ... وحبيبٌ لحبيبٍ يَبْسِمُ. . .
إيه يا قَلبِي، دَوَاعِي الأمَل ... لَمَحَتْ في كلِّ غُصْنٍ أَوْرَقَا
لاَ تُلَبِّيهاَ وَقَدْ كُنْتَ إِلَى ... سِحْرِهَا مِنْ كُلِّ قَلْبٍ أَسْبَقَا!
رَمَنُ الوَصْلِ حَلَتْ أَيَّامُهُ ... وَقُصَارَاكَ بِهِ أَنْ تَخفِقاَ!
يَا فؤادِي كلُّ شَيْءٍ ضَاحِكٌ ... في رَبِيعٍ راقَتْ الدُّنياَ بِهِ
في رَبيعٍ يُنبِت الوُدَّ وَمَا ... يَمْلأُ الأَنْفُسَ مِنْ أَسْبَابِهِ
طَاف في الرَّوْضِ عَلَى سُنْدِسِهِ ... بِرَحِيقِ الْحُبِّ فِي أَكْوَابِهِ
هَذِهِ يَا قَلبُ أفوافُ الرَّبِيعْ ... مِهْرَجَانٌ بَثَّ فِيهِ خَطَرَاتِهْ
يُبْهِجُ الأَنْفُسَ مِنْ أَزْهَارِه ... بَسَماتٌ حُلْوَةٌ مِنْ بَسَماَتِهِ
وَأَحَادِيثُ جَرَتْ عَاطِرَةً ... زَاخِرَاتٍ بِمَعاَنِي صَبَوَاتِهِ
الرِّضَا والسِّحْرُ فِيها وَالمُنَى ... والشَبَّابُ الغَضُ بُوحي نَزَوَاتِه!
ابْتَهِجْ واطْرَبْ وَرَفْرِفْ والْعَبِ ... وَتَنَقَّلْ في الرُّبُوعِ النَّضِرَهْ
الْتَمِسْ في كلِّ رُكْنٍ فَرْحَةً ... كَالْفَرَاشَاتِ، وَغَازِلْ زَهَرَهْ
واجْتَلِ الرَّوْعَةَ في أَفْوَافِهِ ... أَفْرَغَ السِّحْرُ عَلَيْهاَ صُوَرَه
في زَمَانٍ مِنْ تَهاَوِيلَ بِهِ ... كُلُّ حَيٍ رَاحَ يَقْضِي وَطَرَه
مَسْرَحٌ كَمْ جُلْتُ في أَنْحَائِهِ ... لاَعِباً، لَسْتُ أَمَلُّ اللَّعِبَا
لَمْ يَرُعْ نَفْسِيَ يَوْماً أَنَّنِي ... سَأَرَي جَنَّتَهُ مُكْتَئِبَا!
في رَبِيعِ العُمْرِ وَالعَيْشُ مُنىً ... عَجَّلَ الدَّهْرُ لِيَ المُنْقَلَبَا
يَا عِشاَشاً في الرِّيَاضِ امْتَلأَتْ ... غَنِمَتْ فِيهاَ الشَّوَادي الفَرَحَا

كُلُّ إِلْفٍ حَلَّ فِيهاَ لِهَجٌ ... بِزَمَانِ الوَصْلِ فِيما صَدَحَا
نَسِيَ الْوَحْشَةَ حَتَّى خِلْتُهُ ... عَنْ حَوَاشِي أَيْكِهِ مَا نَزَحَا
ياَ شَوَادِي الأَيْكِ غَنِّي وَاطرَبِي ... قَدْ توافَتْ لَكِ أسْبَابُ المُنَى
هَلْ شَجَا يَوْمَكِ أَمْسٌ أَوْ غَدٌ ... أَوْ عَرَفْتِ الدَّمْعَ يَوْمَاً والضَّنَى؟
اهْتِفِي مَا شِئتِ أَوْ شاَء الهوَى ... وَاتْرُكي لِي ياَ شوادِي الْحَزَناَ
أَنَا إِنْسِيٌّ مِن الطِّينِ فمَا ... أَعْرِفُ النَّعْماَء إِلاَّ حُلُماَ!
عَاَلِمِي مِنْ طَبْعِهِ أن أجْتَنِي ... عَقِبَ اللّذّةِ فِيهِ الألَمَا
إِنْ شَرِبْتُ الكأسَ يَوْماً عَسَلاً ... لَمْ يَدُمْ حتَّى أذوقَ العَلْقَماَ
شِقْوَتِي بالْغَيْبِ أَنْ أَجْهَلَهُ ... وقُصَارَى الهمِّ في أن أَعْلَماَ!
جَنَّةُ الفِرْدَوْسِ مُنْذُ الأَزَلِ ... لِأبِي آدَمَ كاَنَتْ نُزُلاَ
فَقَضَى اللهُ بِأَنْ يُبْدِلَهُ ... بِرِياَضِ الْخُلْدِ هَذَا الْبَدَلاَ!
وَأناَ مِنْهُ فَحَظِّى حَظُّهُ ... كَمْ أَرَى فيهِ لِنَفْسِي مَثَلاَ!
غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَذُقْ من جَنَّتِي ... أبداً مَا عِشْتُ فِيهاَ أكلاَ. . .
كانَ لِيَ في الأَرْضِ حُلمٌ زَاهِرٌ ... فَمضَى فيهاَ كَماَ يَمْضِي الربيعُ
رُحْتُ كالطِّفْلِ لَدَى صَحْوَتِهِ ... دَامِعاً يَبْكِي رُؤَى الْحُلْمِ الْبَدِيعْ
صَحْوَتِي قَدْ الْبَيْنُ بِهاَ ... أَيْنَ مِنِّي ذَلِكَ الشَّمْلُ الْجَمِيعْ؟
عَادَ قَلْبِي يشتكي الوجد فَهَلْ ... تُطْفِئُ الشَّكْوَى بِهِ هذا السَّعِيرْ؟
عِشْ عَلَى الذِّكْرَى وغَالِط واخْدَعِ ... فَمَدَى عَيْشِكَ في الدُّنْياَ قَصِيرْ
يَتَهاَوَى الْعُمْرُ فِيهاَ مِثْلَمَا ... يَتَهاَوَى ذَلِكَ الزَّهْرُ النَّضِيرْ!

الخفيف

رسَالة المَرأة

صاحبة السمو الإمبراطوري

الأميرة فوزية

للآنسة زينب الحكيم

يا سليلة المجد، يا كريمة المحتد. . . تزوجت من ابن عاهل بلاد عريقة الحضارة، باسقة الدوحة، فشغل هذا الحادث السعيد انتباه الناس، وانصرف كل يحييه بشكل خاص

كنت أمشي مرتاضة على جسر الزمالك ثم إلى جسر إسماعيل، وكان ذلك في الصباح المبكر النادي، حيث ينتعش النبت ويبتهج الزهر ويصدح الطير

ترتفع الشمس من مشرقها فتواجه صنوها أهرام مصر، فينعكس إشراقها على مرآة الدهر؛ وليست عنه تغرب، وإنما هي تحييه كل يوم، وتحيي في هيكله المرصوص نور العلم، وقوة العقل، ونهضة البشرية؛ ثم تخط في سجله دورتها التي لا تنقطع وقد تزول المدنيات، وتدول العروش، ويفنى الخلق؛ وتبقى الأهرام وتبقى الشمس. . . هذه تسجل وهذه تدور. . . والخلود للنافع الباقي في سجل الأبدية

فيا أميرة الأهرام فوزي بأمير الشمس رضا. . . لقد تنبأت بسعود مستقبلكما وهناء أيامكما وأنا أسير على الجسور. وقد استرعى انتباهي الأعلام المتناثرة المرفوعة على أعالي القصور وفي البساتين والميادين، كلها ترفرف في الجو معلنة صفاء نفسين واتحاد قلبين، مذيعة على موجات الأثير أفراح أمتين شقيقتين، ورجاء شعبين صديقين في اللحظة الخاطفة الوامضة، التي أيقنت فيها بذيوع النبأ السعيد في العالم أجمع، وأكده تشريف ابن الأكاسرة ديار الفراعين؛ استوقفني بين الجسرين صوت التابع (الخادم) حيث لاحقني من البيت، قال: سيدتي، لقد نسيت هذا الكتاب، فأخذته منه وشكرته وانصرف

وتابعت سيري ووجهني جسر إسماعيل، فلما بلغت وسطه، شعرت أن الكتاب أثقل ذراعي، فوقفت استريح برهة، وقد شغل تفكيري قيمة ما يحتويه الكتاب بالنسبة إلى حجمه ووزنه

وحانت مني نظرة إلى ماء النيل، وهو يخاصر رقائق النسيم؛ ومن عجب أرى ضوء الشمس الفضي ينعكس على جهات خاصة من سطح الماء، فيكوّن من الموج الهادئ نجوماً

متلألئة، أما باقي سطح الماء فعادي إذا استثنينا اختلاف ألوان تموجاته في مواضع.
هذه اللوحة الفنية بإطارها المعشوشب، أوضحت أمامي صفحة من صفحات شهيرات النساء منذ أبعد الحقب، ومن ثم اطمأننت أنه يعتمد عليهن في فتح الكتب المغلقة وفهم غوامضها وتكييف الأقدار. وهذه الناحية من سطح الماء، التي تتلألأ عليها النجوم الساطعة، إنما تدل على شهيرات النساء اللائى جذبن انتباه العالم لخطورة مراكزهن كالملكة حتاسو، وفكتوريا، والسيدة خديجة، ومثيلاتهن ممن حكمن المماليك، وشرعن، وشيدن أسس العمران وسُسن مصلحي البشر؛ أو مدام كوري ومن على شاكلتها من العالمات، والمخترعات؛ أو كالسائحات والكاتبات اللائى يدرسن البشرية عملياً ويسجلن تاريخ البشر التجريبي؛ أو كرسولات السلام والمودة من أشباه أميرتنا المحبوبة فوزية.
وفي الحق أنه ينطوي في شخصية مثيلاتها تضحية، وأقوى شجاعة، وأحد نظرة وأجدها.
يا له من مركز خطير! يضطلع به الرجل فيثقله، فما بالنا إذا ما اضطلعت به امرأة؟! من غير شك تكون المسئولية أعظم، والتضحية أوفر، والإرادة أمتن
يا أيتها المرأة إنك ضحية الوجود، وزهرة الوجود، فيا له من شوك وشذى في وقت واحد!
أذكر عندما حمل البشير إلى فكتوريا نبأ تنصيبها ملكة على عرش بريطانيا العظيم، تلقت الخبر السار بذهول لهول المسئولية، وكانت سنها لا تزيد على الثامنة عشرة، ولكن ذاك الذهول، وذاك الهول، لم يثنياها عن المبدأ الذي ألهمته، وكان سبب نجاحها إذ أجابت بعد صمت لحظات سأكون صالحة. قول قصير ولكنه منطق حكيم ومبدأ متين
وهكذا عاشت الملكة فكتوريا عمراً مديداً، وحكمت خمسين عاماً من أحسن وأنفع السنين التي مرّت على بريطانيا. ولا يزال حب فكتوريا مستقراً في القلوب. تعرفت إلى سيدة إنجليزية عجوز في إحدى ضواحي لندن، فلما توثقت عرى الصداقة بيننا، أرادت أن تقدم إليّ هدية من أثمن ما تملك، فسارت معي إلى خزانة أنيقة من البلور، وأخذت منها علبة فضية ثمينة، أخرجت منها شيئين صغيرين، ولكن بدا على السيدة الاهتمام والرعاية لهما
بدأت تفض الأغلفة التي أحاطت بالدرة الثمينة على ما ظننت، وأيقنت أنني سأنال شظية من تلك اللؤلؤة النفيسة، وما كان اشد دهشتي عندما وجدت أن الجوهر المغلفة لم تكن أكثر من قطعة صغيرة من كعكة عرس الملكة فكتوريا!!
ثم عادت السيدة فأخرجت من المغلف الثاني نموذجاً لثوب العرس الذي ارتدته الملكة فكتوريا ليلة زفافها، وقد صنع من القصاصات التي تخلفت من قماش ذلك الثوب. أما نموذج الثوب، فكان تحفة ثمينة، وأثراً بارزاً يشير إلى بعض عواطف الإنجليز، وهم ناس تقاليد وناس وفاء وشمائل نبيلة كم أرجو أن ينال أفراد الشعبين: المصري والإيراني منحة تحفظ في ذاكرة الأجيال!! لا يخالجني شك في أن عبقرية الزوجين الكريمين ستكوّن طاقة من الزهر تشم في نسمات الخلود
يا أميرة النيل: إني أتخيلك وأنت آمنة الآن إلى خلجات قلبك، مفكرة في رياض المستقبل بما تحويه من أزهار وأثمار وأطيار، لا تلبث أن تصبح بلابل القصر المرمري العامر؛ ثم أتخيلك وأنت تجولين في بساتين إيران الزاهية وحقولها المخصبة، وأتخيل مواقفك التي ستفوق ديمقراطية إحدى ملكات أوربا
ذلك أنها كانت تكثر من تفقد حال رعيتها خفية، ففي ذات مرة كانت تتجول في الحقول منفردة، فرأت فتاة حسناء تعمل بنشاط في حقلها بحيث لم تنتبه إلى المتجولة العظيمة، فقربت منها الملكة وحيتها وتحدثت معها طويلاً مستفسرة عن محاصيلها وعن معيشتها، وكانت الفتاة تحادثها دون تعمل على طريقتها القروية الساذجة
ولما همت الملكة بالانصراف سألتها الفتاة عن اسمها وماهيتها، فأجابتها ببساطة مستملحة: أنها الملكة فلانة. فطربت الفتاة كما تطرب فتاة الريف الوادعة وسألتها عن عنوانها، فأجابتها الملكة إلى ما أرادت. فلما كان عيد الميلاد بكّرت الفتاة بإرسال زوج من القفازات الصوفية من صنع يدها هدية للملكة بمناسبة العيد، وتقبلتها الملكة

راضية وأرسلت خطاب شكر إلى تلك الفتاة ومعه قفاز مملوء بالذهب، وآخر مملوء بالحلوى
وبعد أيام أرسلت الملكة خطاباً آخر للفتاة تستفسر منها فيه عن وصول الهدية، ومقدار ما نالها منها شخصياً، فأجابت الفتاة في حياء جميل: لقد استأثر أبي بالذهب، وتمتعت أختي الصغيرة بالحلوى، بينما أجاهد أنا في الحصاد. فعادت الملكة وأرسلت قفازين أحدهما مملوء بالذهب والآخر بالحلوى، وشفعتهما بخطاب منها شخصياً تقول فيه لوالد الفتاة: (أترك الهدية كاملة للفتاة هذه المرة) فما أجمل عطف المرأة وما أدق مواقفها!
هنيئاً لك يا إيران بابنة فؤاد المصلح، الذي شمل عطفه وبره ورقيه مصر وغير مصر من
بلاد المشرق والمغرب، وعم نور عهده الذهبي فتبدد عن العقول ظلام الجهل، وعن النفوس كابوس الملل
إن التاريخ يعيد نفسه. ومن حسن التوفيق أن يكون إشراق النجوم، وبشير السلام والمودة متصل الحلقات بمحور شريف.
فقد سبق أن حدثت مناسبة سعيدة مشابهة لحادث اليوم، بزواج الأميرة نازلي هانم أخت الخديو إسماعيل، وعمه المغفور له الملك فؤاد بأحد الأعيان التونسيين، وكانت تسكن قصراً بديعاً بالقرب من قرطاجنة على شاطئ البحر وسط بساتين غناء.
تحدثت عنها الكاتبة الفرنسية مريام هاري قالت: أدى بي الحديث مع الأميرة نازلي يوماً إلى الكلام عن المرأة المسلمة، فقالت لي: هل تقصدين المرأة المصرية؟ إنه لا توجد امرأة في العالم عرفت ما عرفته من الاستقلال في عهد الفراعنة! فأمريكا ذاتها لم تبتدع جديداً يمكن أن يقارن بالحركة النسوية التي كانت على ضفاف النيل منذ أربعة آلاف سنة.
لقد كانت تتمتع المرأة المصرية بوحدة الزوجية، بل كانت تنعم بما ينعم به الرجل من الحرية والمراتب، عكس ما كانت تعامل به نساء البلاد الأخرى في ذلك العهد كالإسرائيليات والبابليات وغيرهن.
والزوجة الحقيقة كانت تشارك زوجها في التاج والعرش، وكانت تمتاز عن أختها العصرية بالاشتراك مع زوجها في الأعمال الفكرية، وقد وجدت مؤلفات باسم الزوج والزوجة، وفي الألعاب الرياضية أيضاً، فكانت تخرج معه للصيد والقنص، وكانت ترأس الحفلات)
ثم أفضى الحديث بين الأميرة والكاتبة إلى التحدث عن كليوباترا الملكة العظيمة، فقالت الأميرة نازلي: حقاً إنها كانت ملكة قادرة من أسرة البطالسة، ومع ذلك كان أفول نجم المرأة المصرية بعدها. فقد فرض عليها القانون الروماني الذي أخذ عنه الفرنسيون قانونهم، أن تأخذ ترخيصاً من الزوج في أعمالها، وهذا أمر لا يعرفه الإسلام، إذ ليس الإسلام خلافاً لما يظنون هو الذي جعلنا في مرتبة أقل من الرجال وحرمنا حقوقنا، وإنما هو التفسير غير الصحيح للنص المقدس، وإهمالنا وقعودنا نحن النساء).
ولقد أبيح للمرأة المسلمة على الدوام أن تنص في عقد الزواج على أن تكون منفردة بالزوجية، ولو أن الزوج أخل بهذا النص لعوقب بالحبس
قالت الأميرة نازلي هذا القول من نحو ربع قرن مضى، فليتها ترى بنفسها اليوم مقدار ما بلغته المرأة المصرية الحديثة من التعاون مع الرجل في أكثر مرافق الحياة، لتعجب بنهضة المرأة الفكرية والرياضية والاجتماعية، ولتسرّ كل السرور بحفيداتها أميرات البيت المالك، إذا ما رأتهن يزرن المدارس ويشجعن التعليم، ويفتتحن المعارض العلمية والفنية من زراعية وصناعية. كم كان ينشرح صدرها لرؤيتهن أثناء لعبهن التنس ولهوهن بالثلج في سويسرا! لو كان ذلك لأدهشها أن ترى الملك المحبوب فاروق الأول مع زوجه جلالة الملكة فريدة وهما يجولان في الصحراء للصيد والرياضة، ولأثلج صدرها ما ألفته بعض الأميرات من نفائس الكتب كالأميرة قدرية حسين
وسمو الأميرة فوزية زهرة تتضوع شذى ذكيًّا بما تحمله في دمها من عبقريات والديها الكريمين، وتنقل عن أخيها جلالة الملك (فاروق الأول) المحبوب روح الشباب الطامح، وحكمة الشيوخ الأتقياء، وحزم المجرمين الأشداء. وتتأثر بوراثات فوارة عن الأجيال

الطويلة التي قطعتها مصر في الرقي العلمي والحضارة
فيا أيتها الوديعة العزيزة أنت خير من يفهم رسالة مصر، وخير من يمثل بلاده الخالدة، فتزدادين منعة وعظمة من رائع خيال إيران، ورفيع فنها، وواسع علومها وفلسفاتها. وإن من كانت مثلك في قوة الذكاء وروعة الحسن مع شخصية قوية وجرأة حازمة وسياسة رشيقة ونبل - وما استمتعت به من رعاية وجوار كريم من جلالة أخيك الملك الصالح - كل هذا، وليس بالقليل، تستطيعين به أن تتصفحي الكتاب الزاخر وتكفلي بهجة الحاضر ونجاح المستقبل ومودة الدهر

زينب الحكيم

رسالة العلم

ما هي الحياة

وكيف ظهرت على الأرض؟

انطباق نواميس الطبيعة على الأحياء

للأستاذ نصيف المنقبادي

تكلمنا في مقالنا الأول عن وحدة الحيوانات (ومنها الإنسان) والنباتات وأثبتنا في مقالنا الأخير وحدة الأحياء والجمادات بأن بحثنا عن مظاهر الحياة في الجمادات وقد وجدناها جميعاً بلا استثناء ولكن مبعثرة ومشتتة فيها كالتكوين الدقيق والشكل النوعي والتغذي والتنفس والتحرك والتأثر والنمو الخ

واستكمالاً لهذا التحقيق (وحدة الأحياء والجمادات) واستيفاء له من جميع نواحيه نسلك اليوم الطريق العكسي لنصل إلى نفس النتيجة بأن نبحث في الكائنات الحية عن نواميس الطبيعة التي تدير الكائنات الحية، وسيرى القارئ فيما يلي أن تلك النواميس تنطبق جميعاً بلا استثناء على الأحياء (ومن بينها الإنسان) وأنها هي التي تعمل فيها وتديرها وليس شيء آخر خلافها

نقول إنه يتضح لكل من يطلع على كتب العلوم الديولوجية الحديثة (علوم الحياة كالبيولوجيا العامة والفسيولوجيا وعلمي الحيوان والنبات، وعلم التشريح التقابلي، وعلم تكوين الجنين الخ) أن هذه العلوم أخذت تفسر المسائل الحيوية وتعللها بالنواميس والقواعد المقررة في علوم الميكانيكا والطبيعة والكيمياء، وقد خطت خطوات واسعة في هذا السبيل، ولا يهدأ للعلماء الآن بال وهم يعالجون أية ظاهرة من ظواهر الحياة حتى التفكير والقوى العقلية إلا إذا عللوها بالعوامل الطبيعية وردوها إليها ووحدوا بينها وبين الجمادات

فوظيفة القلب والحركة الدموية على العموم خاضعة لنواميس الهدروليكا أو الهدروديناميكا. وهضم الأغذية ليس إلا تفاعلات كيميائية محضة. وامتصاص الغذاء بعد هضمه، وإفراز المواد الإفرازية خاضع لقواعد التشرب المقررة في علم الطبيعة، وكذلك الحال بالنسبة لامتصاص الأوكسجين وإفراز الحامض الكربونيك في الرئتين وفي أعضاء التنفس

الأخرى وفي الشرايين الشعرية. وتحرك الحيوانات وسيرها على الأرض أو طيرها في الهواء أو عومها في الماء، كل هذا يجري طبقاً لقواعد علم الميكانيكا دون غيرها. وإبصار العين وسمع الأذن وحدوث نبرات الصوت ارتفاعاً وانخفاضاً، كل هذا يحصل بمقتضى القواعد المقررة في علمي الضوء والصوت المتفرعين من علم الطبيعة. وكذلك الحال بالنسبة للتلقيح وانقسام الخلايا وتكوين الجنين وتكوين الزهور والأثمار. . . الخ. وكذلك الحال أيضاً فيما يتعلق بالانفعالات النفسية والغرائز والعواطف والتفكير، فقد توصل العلماء إلى إرجاع الكثير منها إلى ظواهر طبيعية وكيميائية محضة وفسروها بالعوامل الطبيعية التي تدير الجمادات. ويضيق بنا المقام لو أردنا شرح شيء من ذلك لأن هذا يستغرق المجلدات الضخمة العديدة، فنحيل القراء على المؤلفات الحديثة في علوم البيولوجيا والفسيولوجيا والبسكولوجيا. ونقصر حديثنا الآن على الناموسين الأساسيين اللذين تتفرع منهما باقي نواميس الكون وهما ناموس عدم تلاشي المادة وناموس عدم تلاشي الطاقة (القوة سابقاً) '

المادة والطاقة

ينقسم كل ما في الوجود إلى مادة وطاقة ولا ثالث لهما. فالمادة تشمل الكواكب والشموس والسيارات ومنها الأرض وما عليها من المعادن والجبال والبحار والمواد

التي تشكلت بشكل خاص كالأجسام المبلورة والكائنات المسماة بالحية كالإنسان وباقي الحيوانات والنباتات
والطاقة تبدو في صور مختلفة معدودة تتحول من الواحدة إلى الأخرى وهي الكهرباء، والجاذبية، والضوء، والطاقة الميكانيكية كالحركة، والطاقة الكيميائية الكامنة في ذرات المادة، والحرارة
والمادة والطاقة ليستا مستقلتين إحداهما عن الأخرى فلا يمكن تصور وجود الواحدة منهما بمفردها دون الأخرى
بل ثبت أخيراً على اثر اكتشاف الراديوم والأجسام المتشععة المماثلة له، أن المادة تتحول إلى طاقة والطاقة إلى مادة، فكأنه لا وجود للمادة في الواقع، وأنها ليست إلا طاقة متكاثفة كما أن السوائل غازات متكاثفة وكذا الجمادات بالنسبة للسوائل.
وعلى هذا تكون المادة صورة أخرى من صور الطاقة فوق الصور المتقدم ذكرها ومن نواميس الطبيعة الأساسية ناموسا عدم تلاشي المادة، وعدم تلاشي الطاقة سالفا الذكر. ومعنى هذا أن مجموع المادة التي في الكون ثابت لا تزيد عليه، ولا تنقص منه ذرة واحدة، وإن كانت المادة تتحول على الدوام من تركيب إلى آخر ومن شكل إلى شكل، وكذلك الحال فيما يتعلق بالطاقة؛ فإن صورها أو مظاهرها في تحول مستمر من الكهرباء إلى الحركة إلى الضوء إلى الطاقة الكيميائية إلى الكهرباء وهلم جرا، ولكنها في مجموعها ثابتة لا تزيد، ولا تنقص منها أية كمية مهما صغرت.
انطباق هذين الناموسين على الأحياء
قلنا وكررنا في المقالين السابقين أنه لا يوجد عنصر من عناصر المادة خاص بالكائنات الحية، وأن العناصر التي تتركب منها أجسامها تدخل في تراكيب معدنية لا عداد لها. وبيّنا كيف أن المواد التي تتألف منها أجسام الأحياء مشتقة من الجمادات رأساً بفعل قوة الشمس أو طاقتها الإشعاعية بواسطة المادة النباتية الخضراء (الكلورفيل). فالحيوانات آكلة اللحوم تتغذى من الحيوانات النباتية، وهذه تتغذى من النباتات. والنباتات تركب المواد التي تتغذى بها وتشيد منها أجسامها من المواد المعدنية - أي من الجمادات - على الوجه المتقدم بيانه، بحيث لا يزيد على الكائنات الحية شيء أكثر مما تتناوله من الغذاء ولا ينقص منها شيء أكثر مما تفرزه أو يتبخر منها وبعد الموت تتحلل أجسامها وتتحول إلى كمية من بخار الماء ومن الحامض الكربونيك ومن بعض تراكيب أزوتية ومعدنية بحيث يساوي مجموع كل هذا وزن الجسم عند الموت تماماً لا أكثر ولا أقل
وكذلك الحال بالنسبة للطاقة فإن الكائنات الحية تتحرك حركة ذاتية كالانتقال من مكان إلى آخر، وحركة أعضائها الداخلية وحركة نمو الخ، وهي تفرز عصائر وخمائر وسوائل مختلفة وإفرازات داخلية وخارجية متنوعة، وتحلل بعض المواد الكيميائية وتركب غيرها، وتتولد فيها حرارة ثابتة في ذوات الثدي (التي منها الإنسان) وفي الطيور، أو حرارة عرضية في الحيوانات الأخرى وفي النباتات، كما يتولد الضوء والكهرباء في بعضها، وهذه كلها من الطاقة، ولا يمكن أن تأتي من العدم لأن الطاقة لا تخلق ولا تنعدم، ولا بد أن
تكون قد اشتقت من صورة سابقة من صورها الأخرى. فما هو مصدر تلك الطاقة التي تدير الأحياء وتحركها وتعمل فيها؟
لقد أثبت علم الفسيولوجيا بالأدلة والاختبارات والمشاهدات القاطعة أن جميع القوى التي تعمل في الإنسان وباقي الكائنات الحية تنتج من احتراق المواد الغذائية داخل أنسجة الجسم وفي خلاياه، وما الغذاء إلا وقود الكائنات الحية يحترق فيها ليولد الطاقة والحرارة اللازمتين لأعمال الحياة كما يحترق الفحم أو البترول في الآلات الميكانيكية لإدارتها؛ وما الحيوانات والنباتات إلا آلات تحول الطاقة الكيميائية الكامنة في مادة الغذاء إلى طاقة ميكانيكية كالحركة وإلى حرارة وإلى كهرباء وضوء في بعض الحيوانات
وقد أراد علماء الفسيولوجيا أن يتحققوا مما إذا كانت العوامل الطبيعية، وبعبارة أدق الطاقة الناتجة من احتراق المواد الغذائية في الأحياء هي التي تدير بمفردها الكائنات الحية وتعمل فيها، أم أن هناك عوامل أخرى من وراء الطبيعة تشترك معها في ذلك. فمن أجل ذلك صنع اثنان منهم وهما الأميريكيان أثوثر وبينديكت جهازاً خاصاً هو عبارة

عن كالوريمتر كبير مركب تركيباً دقيقاً من مواد تحفظ الحرارة وتمنع تشععها إلى الخارج وهو في الوقت نفسه يقيس أقل كمية من الحرارة توجد فيه مهما صغرت. ووضعا فيه شخصاً وأحكما غلقه عليه، ويخترق هذا الكالوريمتر تيار من الهواء يمر في أنابيب مصنوعة خصيصاً ومركبة عليها آلات للتحليل والقياس فيقيسون مقدار ما يدخل من الهواء وما يشتمل عليه هذا الهواء من الأكسيجين وغاز حامض الكربونيك، وكذلك مقدار الهواء الخارج من الجهة الأخرى وما نقص منه من العنصر الأول، وما زاد عليه من الغاز الثاني، والفرق يدل بطبيعة الحال على كمية ما احترق مدة العملية داخل جسم الشخص الجالس في الكالوريمتر من المواد الغذائية المدخرة في أنسجته وخلاياه، ذلك لأن كل احتراق حتى في الجمادات يستهلك الأكسيجين ويفرز غاز الحامض الكربونيك

ومن جهة أخرى يقيس الكالوريمتر كمية الحرارة التي تتشعع من جسم ذلك الشخص، والحرارة التي تتحول إليها في النهاية الحركات المختلفة التي يقوم بها كحركاته الذاتية، وكحركات أعضائه الداخلية كالقلب والرئتين.

فكانت النتيجة أن الطاقة (الحرارة) التي تنتج من احتراق المواد الغذائية المدخرة في الجسم

تساوي تماماً الطاقة (القوى) التي تعمل في الجسم وتتحول في النهاية إلى حرارة.

وكان بعض الفسيولوجيين قاموا قبل ذلك بمثل هذا الاختبار على حيوانات مختلفة وكانت النتيجة واحدة.

ومعنى هذا أنه لا تعمل في الكائنات الحية بما فيها الإنسان ولا تديرها سوى القوى الطبيعية، وأن هذه القوى ليس لها إلا مصدر واحد وهو الغذاء، أو بعبارة أصح الطاقة الكيميائية الكامنة في مادة الغذاء

وحتى التفكير والقوى العقلية فقد ثبت بالاختبارات والمشاهد العديدة أنها تستهلك كمية من الطاقة الناتجة من احتراق المواد الغذائية المدخرة في المخ والتي يوردها الدم إلى ذلك العضو. وإننا نكتفي بالتجربة التالية إثباتاً لذلك: فقد صنعوا جهازاً خاصاً دقيقاً لقياس كل زيادة تطرأ على حجم المخ مهما كانت طفيفة، يستخدمون هذا الجهاز في أشخاص يكون قد أصابهم كسر في الجمجمة وتفتت قطعة من العظم حتى صار مكانها مكشوفاً لا تغطيه إلا قشرة من نسيج رقيق، فيضعون قاعدة الجهاز على رسم الجزء المكشوف وقياسه ويغطونه بها. وتتفرع من قاعدة الجهاز هذه أمبوبة من الكاوتشوك تتصل بآلة تدل على أقل زيادة أو احتقان يطرأ على المخ وترسمه رسماً يرسم هذا الجهاز في الحالة الاعتيادية خطاً متعرجاً ولكنه يكون في مجموعه على منسوب أو ارتفاع واحد، وهذه التعرجات هي أثر نبض القلب. ويكلفون الشخص الموضوع عليه الجهاز بالقيام بأعمال عقلية بأن يطلبوا منه مثلاً إجراء عملية حسابية، حتى إذا بدأ في التفكير أخذ حجم مخه في الزيادة بورود كمية من الدم إليه أكثر من المعتاد يدل عليها ارتفاع منسوب الخط المتعرج الذي يرسمه الجهاز، كما يحدث في كل عضو يؤدي وظيفته، لأن الدم يحمل إليه الغذاء الذي يحترق فيه لتوليد الطاقة اللازمة لقيامه بوظيفته، وعندما ينتهي ذلك الشخص من العملية العقلية التي كلف بها يرجع مخه إلى حجمه الطبيعي بأن ينزل الخط المتعرج إلى مستواه الأصلي

يؤيد هذا أيضاً التجارب التي قام بها كل من شيف من جهة وموسو من جهة أخرى، فإن كليهما استعان بآلات دقيقة جداً لقياس درجة حرارة المخ على مثل ذلك الشخص المكسورة جمجمته صنعها خصيصاً على أساس الكهرباء، وهي حساسة إلى حد أن تقيس واحدا من

الألف من درجة الحرارة الواحدة. وقد دلت هذه الآلات بطريقة ظاهرة على أن حرارة المخ ترتفع أثناء التفكير، وهذا الارتفاع لا يمكن أن يأتي إلا بورود كمية من الدم إلى المخ واحتراق بعض المواد الغذائية التي يحتويها أو من المدخرة في المخ شأن كل عضو في حالة العمل

يؤيد هذا أيضاً ازدياد كمية المواد الفوسفاتية في البول لدى الأشخاص الذين يزاولون الأعمال العقلية المتواصلة كما يدل على ذلك التحليل الكيميائي، وهي تنتج من احتراق المواد الغذائية الفوسفورية المدخرة في المخ مثل الليسيتين أو التي يوردها الدم إلى ذلك العضو

ويؤيد هذا أيضاً ما هو معروف للجميع من أن الطفل يكون عند ولادته عديم التفكير ثم تأخذ قواه العقلية في النمو بنمو مخه مع باقي جسمه، وأن كثيراً ما تضعف هذه القوى في الشيوخ حينما ييبس المخ وتتصلب شرايينه ويذهب فريسة كريات الدم البيضاء المفترسة، أو حينما يتناول الإنسان كمية من الخمر أو يصاب بحمى شديدة أو بأي مرض يؤثر في المخ. فلاشك في أن التفكير إنما هو وظيفة المخ وأن مصدره الوحيد الطاقة الناتجة من احتراق المواد الغذائية شأنه شأن باقي وظائف الأعضاء الأخرى وبالجملة فإن ناموس بقاء الطاقة وعدم تلاشيها ينطبق على الكائنات الحية ومنها الإنسان وانطباقه على الجمادات

النتيجة

فمن أية ناحية نظرنا إلى الموضوع نجد أنه لا يوجد أي فرق جوهري بين الكائنات الحية وبين الجمادات كما قلنا في ختام المقال الأخير، وهذا يدل دلالة قاطعة على وحدتهما ولا يسعني إلا أن أختم هذا البحث بالعبارة التي ختم بها أستاذي المأسوف عليه فريديك هوسيه أستاذ علم البيولوجيا بجامعة باريس (السوربون) محاضراته في هذا الموضوع حيث قال: (إذن فكل ما في الطبيعة حي، أو ليس فيها حي) , (يقصد أنه لا يوجد أي فرق بين الكائنات الحية وبين باقي ما في الطبيعة من أجسام أخرى معدنية أو جمادات

وحتى الأخلاق فقد تناولها العلم وأثبت أنها ظاهرة طبيعية تطرأ على الحيوانات الاجتماعية كالنمل والإنسان نتيجة لازمة لحياة أفرادها جماعة، وقد أصبحت - أي الأخلاق - غريزة

متأصلة في النمل والنحل، وهي غريزة في دور التكوين في النوع الإنساني لأنه أحدث من تلك الأنواع كما سنبينه في مقال قادم

وسنبين في المقال الآتي كيف ظهرت الحياة على الأرض بعد أن ثبت لنا نهائياً وقطعياً أنها ظاهرة طبيعية مثل باقي ظواهر الطبيعة

نصيف المنقبادي المحامي

دبلوم في الفسيولوجيا العليا الحيوانية والنباتية

من كلية العلوم بجامعة باريس (السوربون)

أطفال الشمس

للأستاذ قدري حافظ طوقان

لاحظ العلماء أن هناك شقة واسعة بين المريخ والمشتري وقالوا: من المحتمل أن يكون فيها سيار يدور حول الشمس، وقد حاولوا أن يكشفوه وأن يعرفوا شيئاً عنه عن طريق الرصد فلم يوفقوا إلى ذلك. وفي بداية القرن التاسع عشر للميلاد كشف بعض الفلكيين أجراماً صغيرة أطلقوا عليها (النجيمات) أو (الكويكبات) عرفوا منها ما يزيد على الألفين، وقد أطلقنا عليها (أطفال الشمس) لأنها صغيرة جداً بالنسبة للسيارات. وقد ظن كثيرون أن هذه الكويكبات دليل الخلل والفوضى في النظام الشمسي، وأن السيارات ستتقلص وتصبح صغيرة يجري عليها ما يجري على تلك الكويكبات التي بدورها ستؤول إلى شهب ونيازك، وعلى هذا قالوا: إن بداية الكون في الدم ونهايته في الشهب والنيازك

ولسنا بحاجة إلى القول بأن هذه الآراء لا تستند إلى علم أو دراسة بل هي مجرد تخمين لا أكثر، وقد اثبت البحث العلمي بطلانها وعدم صحتها، وتحقق لدى الفلكيين والطبيعيين أن لا خلل ولا فوضى في الكون، وأن ما يسيطر على أصغر موجوداته يسيطر على أكبرها، وأن الإنسان كلما تقدم في وسائل الرصد وتفتحت أمامه المغلقات تجلى له أن الكون بأجزائه المختلفة المتعددة لا يتعدى دائرة من القوانين والنواميس لا يتطرق إليها خلل أو فوضى! وأن ما يظهر للإنسان شذوذاً دليل على أنه لا يزال عند عتبة اليقظة العقلية، وقد عجز عن إدراك كنه هذا الشذوذ وحقيقته إن من يحاول الوقوف على عجائب الكون ويسعى لتفهم ما يجري فيه من مدهشات وغرائب ويعمل على الإحاطة بالقوى الطبيعية المتحكمة فيه يتبّين له أن ما ظنه شذوذاً وفوضى هو في الواقع اطّرادٌ ونظام. . .

والآن. . . ما هي هذه الأطفال؟. . . وما خصائصها؟. . . وما مقامها في النظام الشمسي؟ هذا ما سنحاول الإجابة عليه بإيجاز

تسير هذه الكويكبات أو الأطفال حول الشمس في نفس الاتجاه الذي تسير به الكواكب السيارة، وقد حسب العلماء سعة أفلاكها وأقطارها، ووقفوا على كثير من خصائصها فوجدوا أن أكبرها (سيرس) وقطره لا يزيد على (480) ميلاً، ويليه (بالاس) الذي يبلغ
قطره (306) من الأميال، ثم (فِسْتا) ويقدر قطره بِ (241) ميلاً. وهناك من الكويكبات ما لا تزيد أقطارها على ميلين، ويتراوح زمن دورانها حول الشمس بين 1. 76 و 13. 7 من السنين، أي أن طول السنة عليها يختلف؛ فبينما سنة أقرب كويكب (سيرس) تعدل 1. 76 سنة من سنينا نجد أن سنة أبعدها (هيدالاكو) تعدل 13. 7 من السنوات
أما أيامها فقصيرة جداً حسب الفلكيون أطوالها فوجدوا أن يوم (إيرس) لا يتجاوز ست ساعات و 12 دقيقة، ويوم (أونوميا) لا يزيد على ثلاث ساعات ودقيقتين، ويوم (سيرمنا) يبلغ تسع ساعات وأربعين دقيقة. وهناك مجموعة من ستة كويكبات تسير وتتحرك بطريقة غريبة بحيث تكوّن مع الشمس والمشتري مثلثاً متساوي الأضلاع. والكويكبات صغيرة جداً حسب الرياضيون أوزانها كلها (المعروف منها) فتبيّن لهم أن الوزن الكلي لا يزيد على جزء واحد من ألف جزء من وزن الأرض. وتدل الحسابات وحركات الكواكب في أفلاكها أنه لا يمكن أن يزيد المجموع الكلي للكويكبات - ما كشف منها وما لم يكشف - على جزء واحد من خمسمائة جزء من وزن الأرض؛ ولو كان الوزن أكثر من ذلك لحدث اضطراب في فلك المريخ ولما التزم طريقه الحالية ولأقصى عنها بعض الإقصاء
ولقد كشف العالم الألماني (وِتْ) في أواخر القرن التاسع عشر للميلاد كويكباً صغيراً اسمه (إيروس) يقع فلكه ضمن فلك المريخ وفي بعض الأحيان يتخطاه، ويبلغ قطره خمسة عشر ميلاً ويتم دورته حول الشمس في سنة وتسعة أشهر، طول يومه خمس ساعات وست عشرة دقيقة. وهذا الكويكب يدنوا أحياناً من الأرض حتى يصير على بعد (13840000) ميل، ولقد ساعد هذا القرب الفلكيين على رصده واستطاعوا من ذلك حساب بُعد الشمس عن الأرض وكتلة الأرض بدقة متناهية. واختلف الفلكيون في منشأ هذه الكويكبات فمنهم من ذهب إلى أنها تناثرت من صدام كوكبين، ومنهم من قال بأن سياراً حلّ به القضاء أي التمزيق والتناثر عندما اقترب قليلاً من المشتري، والحقيقة أن العلم لم يصل في هذه النقطة إلى درجة يرضى عنها العلماء ويطمئنون إليها. وقد تبدو هذه الكويكبات لا أهمية لها في علم الفلك، فهي لا أكثر من أجسام صغيرة جداً تسير حول الشمس، ولكنها في الواقع ذات قيمة وشأن في بحوث الفلك الرياضي، فمن حركاتها واقتراب بعضها من الأرض ومن دراسة تأثير المريخ على البعض الآخر من هذه جميعاً وغيرها تتكون لدى
الفلكي مادة يمكن بها تحقيق بعض القياسات المتعلقة بالأرض والشمس كما تتكون لدى الرياضي مسائل طريفة في حلها شحذ للعقول ومتعة للأذهان.
(نابلس)
قدري حافظ طوقان
رسالة الفن
دراسات في الفن
الموسيقى روح ومعان
للأستاذ عزيز احمد فهمي
- أهنئكِ فقد أتقنتِ القهوة اليوم. أين أخوك؟
- ألا تسمعه؟ هو هذا الذي يعزف على العود في الحجرة المجاورة. تعال. . . تعال اسمع تلميذك النابغة
- لعله الدرس الأول هذا الذي يراجعه
- لا. إنه قطع شوطاً بعيداً في دراسة الموسيقى. إنه يتردد على المعهد الملكي منذ سنتين. وهذا الذي يعزفه لحن صاغه هو
- أعوذ بالله!
- مم؟
- من هذا الخبط الذي يخبطه. أي معنى له؟ وأي إحساس فيه؟

- ليس هذا شأني، وإن كان هذا هو رأيي
- نِاديه!
- قيل لي إنك برمت بلحني يا أستاذ، فهل هذا حق أو هي الماكرة تريد أن توقع بيني وبينك الشر؟ على أني أريد أن أحذرك منها فقد ربتها أمها تربية غربية فهي لا تتذوق فننا الشرقي؛ فإذا كانت قد نقدت أمامك موسيقاي فإنما ذلك لأنها أعجمية الحس
- ما شاء الله! منذ متى وأنت تقسم الناس إلى عرب الحس وعجم الحس؟
- منذ دخلت معهد الموسيقى وعلمت أن للشرق موسيقى ينقسم المقام فيها إلى أربعة أرباع بينما لا ينقسم المقام في الموسيقى الغربية إلا إلى نصفين
- أعظم بهذا علماً. أفما كنت تدريه من قبل وأنت تعلم أن في حروفنا العربية (قافاً) و (عيناً) و (حاء) عدمها الغربيون وأن عندنا ستة عشر بحراً من بحور الشعر لها مجزوءات لا تصل إلى عددها أوزان الشعر الغربي. . .
- ولكن هذين الفرقين لا صلة لهما بالحس، فالشعر فيه من المعاني والأخيلة والأحاسيس ما يصلح للترجمة، فإذا ترجم إلى لغة غير العربية راع أهلها جماله وليس لهم بعد ذلك شأن بقافاته وحاءاته ولا أوزانه وضروبه. . .
- وهل تحسب الموسيقى أعصى على العقل والحس من الشعر؟ إنها أسلس منه قياداً لأنها تتجرد مما يغل الشعر من الألفاظ والكلمات، فهي لغة النفس التي يفهمها الناس على اختلاف ألسنتهم. . هي اللسان الذي لم يتبلبل. . والذي لا يحتاج إلى ترجمة
- إذن فلماذا لا يطرب الغربيون لموسيقانا؟
- أو لا تطرب أنت لموسيقاهم؟ أو لا يستسيغ المصريون والشرقيون هذه الألحان الغربية التي يدسها بعض الملحنين المصريين في ألحانهم؟
- بلى!
- أتعرف لماذا؟ لأن هذه الموسيقى الغربية موسيقى. . . وعليك بعد ذلك أن تسأل نفسك ومعهدك لماذا لا يستسيغ الغربيون موسيقانا. . . فإذا تعجلت الجواب فهو عندي.
- هاته
- لأن موسيقانا ليست موسيقى. . .
- كلها؟
- لا. أستغفر الله فإن عندنا موسيقى لن تعرفها أنت وأضرابك الصغار إلا يوم يكف المعهد عن الموسيقى.
- وما هي هذه الموسيقى. . . أظن أمك تناديك يا أختاه. . .
- لماذا كذبت عليها وأخرجتها. . .
- لأني بدأت أشعر أنك ستهاجمني هجوماً عنيفاً. وأنا لا أطيق أن أتردى فريسة بين مخالب منطقك أمام ابتسامتها الساخرة الشامتة. والآن هاهي ذي قد خرجت فماذا تريد أن تقول؟
- أريد الآن أن تجيب عما سأوجهه إليك من الأسئلة.
- سل ما شئت.
- ما هو التعريف الذي اتفقنا على أن نحدد به معنى الأدب؟
- لقد قلنا إن الأدب هو الفن الذي يتجه إلى الحياة بما فيها من مناظر تراها العين، وأصوات تسمعها الأذن. . . واحساسات تشعر بها النفس، وأفكار يدركها العقل
- حسن. وما الذي يجب أن يتوفر في الأديب تبعاً لهذا؟
- قلنا إن الأديب لا بد أن يعيش مفتوح العين ليرى ما يحيط به، مرهف الأذن ليسمع ما يتعالى حوله من أصوات وما يتخافت، مرقرق النفس ليشعر بما يرفرف حوله من البشائر والنذر وبما ينتاب غيره من انفعالات، متحفز العقل ليتلقط ما ينبت حوله من أفكار وليتخطف ما يتطاير في جوه من آراء، فيعبدها نهجاً، وينظمها مسلكا، ويزيد عليها إذا شاء، وينتقص منها إذا أراد، ويبدل منها ويغير ما يحب
- حسن. وما هي الأدوات التي تلزم للأديب في عمله؟
- القلم، والمداد، والورق. فهو ينقش بالقلم المسقي مداداً على الورق حروفاً وكلمات يراعي في كتابتها صحة الهجاء، وصحة التركيب، وجمال التعبير، ثم بلاغته آخر الأمر
- أو لا يمكنك أن تتصوره يعمل بغير هذه الأدوات؟

- أما القلم والمداد والورق فيستطيع الأديب أن يستغني عنها. فقد عرف التاريخ كثيرين من الشعراء الأميين الذين لا يقرءون ولا يكتبون. وأما صحة التركيب وجماله وبلاغته فكلها مما تهدي إليه الإنسان سليقته وفطرته
- فإذا لم يكن الإنسان مفطوراً على الأدب. . . أفما من سبيل لترويضه عليه؟
- قد تكون هناك سبيل، هي التربية. فكثرة القراءة تربي فيه الذوق، وإغراؤه بالنقد يمكنه من تبين المحاسن والكشف عن المساوئ، وإرشاده إلى ما في الحياة من موضوعات صالحة قد يحمله على معالجة بعضها. . . على أنه مهما تعلم ومهما تدرب فإنه لن يثمر كما يثمر الأديب الموهوب أدباً ناضجاً شهياً
- فإذا اكتفى (الأديب (بتعلم القراءة والكتابة، وتاريخ الحروف وتطور أشكالها فماذا يكون؟
- لن يكون أكثر من خطاط!
- يكفيني هذا منك. وعليك منذ اليوم أن تقلع عن الموسيقى فلست منها إلا كالخطاط من الأدب
- لا يا أستاذ. إني أدرس الموسيقى في المعهد الملكي منذ سنتين، وأنا أحفظ عشرين بشرفاً، وعشرة موشحات، وخمسة أدوار، وقد بدأت فلحنت هذه القطعة التي سمعتها اليوم
- ليتك لم تفعل. فأنت اليوم إذ لحنت هذه القطعة كنت كشيخ الكتاب الذي حفظ القرآن ولم يفهمه، والذي حفظ المعلقات السبع ولم يقرأ لها شرحاً ولا تفسيراً، والذي يكتب فلا يخطئ في الهجاء. . . ثم سولت له نفسه بعد ذلك أن يكون شاعراً فصنع كلاماً حسبه شعراً وما هو بالشعر. . . أسمع يا بني. . . إذا كنت تريد أن تلحن فاختبر نفسك أول الأمر وانظر: هل هيأك الله للتلحين؟ فإذا لم يكن قد هيأك له فاعدل عنه يا بني واكتف بالعزف
- ولكني أحب التلحين
- إذن لحن في السر، ولا تطلع أحداً على بليتك
- لا حول ولا قوة إلا بالله. . . ولكن كيف أستطيع أن أعزف إذا كان الله قد هيأني للتلحين أو أنه قد ضن علي بما يؤهلني له؟
- كم هي الحواس التي أنعم الله بها على الإنسان؟
- خمس. . .
- لنفرض هذا جدلاً
- وهل اختلفوا في عدد الحواس أيضاً؟
- وما أشده من خلاف. . . الدنيا تتقدم يا بني وأنتم في معهدكم لا تزالون آخذين بخناق ذلك اليوم الذي أغرى فيه مديركم بالعزف على القانون. . . هم يقولون اليوم يا بني إن للإنسان حاسة سادسة اسمها الحاسة العامة، ويقولون إن له حاسة سابعة هي الحاسة الدينية، ويقولون إن له حاسة ثامنة هي الحاسة الفنية؛ ولكني أقعد بك عند الحواس الخمس فلست أريد أن أتعب نفسي كثيراً معك. . . والآن لعلك تعرف أن كل حاسة من الحواس الخمس تشغل المخ بما يؤثر فيها إذ تنقل إليه ما انتابها من الأثر. . .
- أعلم هذا فقد درسته في علم النفس. . .
- في المدرسة لا في المعهد طبعاً. . . أريدك الآن أن تتخيل نفسك وقد وقفت في ميدان إبراهيم باشا خمس دقائق. . . فما الذي ترى أن نفسك أو (مخك) قد اشتغل به؟. .
- تمثال إبراهيم باشا. المتاجر الكثيرة. المشارب العامة والجالسون فيها. المارون في الطريق وأخصهم الحسان. السيارات الرشيقة. الدواب المتعبة
- كفى كفى. . . لو أنهم سألوك هذا السؤال حين أردت أن تدخل المعهد فأجبت هذه الإجابة، وكانوا يعلمون، إذن لوفروا عليك جهدك ولأنبأوك بأنك فاشل في الموسيقى، فاشل، فاشل. . .
- عجباً. . . وما دخل ميدان إبراهيم باشا وما فيه من مركبات ومتاجر. . . في المعهد والموسيقى. . .
- أسمع يا بني. . . لو أنك راجعت ما سردته على مما يشغلك وأنت في ميدان إبراهيم

باشا لرأيت أنك لم تحص غير منظورات تراها العين، وأنك حتى حين أحصيت السيارات وصفتها بأنها رشيقة وهو وصف فيما أظن ينصب على شكلها وحركتها ولا ينتبه إلى صوتها ولا يلتفت إليه. . . وهذا يدل على أن نفسك تطل على الحياة من عينيك لا من أذنيك. . . والموسيقى يا بني يستطيع أن يعمى وأن ينتج، ولكنه لا يقوى على الإنتاج إذا صمت أذناه

- وما رأيك في بتهوفن الذي كان يلحن وهو أصم؟

- إن الصمم لم يدركه إلا على كبر بعد أن اختزن في نفسه من صور الأصوات وخيالاتها ما جعله بعد صممه مادة لفنه؛ ولو أنه ولد وهو أصم لما استطاع أن يتكلم فما بالك بالموسيقى والتلحين. . . هل سمعت أبكم يغني. . . أو هل رأيت أعمى يرسم؟ الفنون يا بني ليست شيئاً غير تركيب (الخامات) التي تحصل عليها النفس وتأليفها تأليفاً منسقاً

- وما هي هذه (الخامات) التي تحصل عليها النفس؟

- هي الأحاسيس والانفعالات التي توصلها الحواس إلى المخ. هذه هي المنظورات، والمسموعات، والمشمومات، والمذوقات، والملموسات، والمدركات. . . تستقر في النفس مختلف عددها، وصاحب الفن يؤلف منها فنه. . . فإذا كانت نفسه تتلقى بطبعها منظورات أكثر من المسموعات فهو أصلح للرسم منه للموسيقى؛ وإذا كانت نفسه ترحب بالمدركات المعنوية المجردة أكثر مما ترحب بغيرها فهو أصلح للفلسفة والأدب العقلي؛ وإذا كان الله قد منحه قوة في أنفه فهو يشم ويميز الروائح أكثر من غيره كان أصلح الناس لإنتاج الروائح العطرية وتأليفها، وأظنك لا تنكر على أصحاب الروائح الجميلة أنهم كأصحاب الألحان الجميلة، فهم الذين يلهمهم ذوقهم إضافة البنفسج بنسبة خاصة، إلى الليمون بنسبة

خاصة، إلى الورد بنسبة خاصة فيخرجون بعد ذلك رائحة تطيب للغواني وعشاقهن

- ما هذا؟ لقد فتحت ليّ باباً لم أكن أحسب أنه مسلك إلى الفن. . .

- ولا مسلك غيره يا بني. . . ولا يمكنك أن تخطو في سبيل الفن خطوة واحدة حتى تعبر هذا المدخل. . .

- فإذا عبرناه وأردنا أن نخطو في سبيل الموسيقى الخطوة الأولى فكيف نخطوها؟

- كما خطونا في دراسة الأدب الخطوة الأولى. فكل صوت في الموسيقى يشبه الحرف في الكلام، والنغمة تعادل الكلمة، ومجموعة النغمات تعادل العبارة أو الجملة وهي التي تسمونها في معهدكم (فرازا) وهي كلمة إيطالية معناها (عبارة) ولكنكم قد لا تعلمون هذا. . . ومجموعة العبارات الموسيقية هذه يتألف منها اللحن الذي نسمي ضربيه في الأدب موضوعاً، وفي الرسم صورة. وموضوع الأدب تقرأه فتخرج منه إما بفكرة وإما بعاطفة وإما بشيء من هذه الأشياء التي اتفقنا على أن الأدب يعالجها. واللحن، أو الموضوع الموسيقي، إذا لم يؤد ما يؤديه الموضوع الأدبي لم يكن شيئاً. وأنت إذا لم تستطع أن تعبر بلحنك عن عاطفة أو فكرة أو صورة صوتية لم تكن موسيقياً، وكان من الخير لك - كما كررت عليك - أن تقلع عن الموسيقى

- لم أفهم شيئاً

- لأنك من تلاميذ معهد الموسيقى. اسمع مرة أخرى. في الطبيعة موضوعات تصلح مادة للأدب، وفيها موضوعات تصلح مادة للرقص (وهي الموضوعات الحركية) وفيها موضوعات تصلح مادة للموسيقى. . وهكذا. . . أما الموضوعات التي تصلح للأدب فقد تعرفناها، وأما الموضوعات التي تصلح للرسم فلعلك تعرف أنها هذه الأشكال وهذه الألوان التي تراها العيون فينقلها الرسام الجامد نقلاً أميناً، ويلفقها الرسام المهندس تلفيقاً جديداً، ويؤلف منها الرسام ذو الروح، والفكرة، والعاطفة موضوعاً ذا أشكال وألوان يعبر بها عن فكرته وعاطفته. . . والأمر في الموسيقى لا يختلف عن هذا. . . فأصلها مأخوذ من أصوات الطبيعة، فأهون الموسيقيين هو من يقلد صوت البلبل، وحفيف الشجر، واصطخاب الموج، وقصف الرعد، وهزيم الريح. . . كل صوت على حدة. وأشد منه تمكناً من الفن هو الذي يجمع هذه الأصوات في موضوع صوتي أو في لحن كما تسميه.

وهناك من الموسيقيين ملحنون اجتماعيون يصفون بألحانهم بيئات الناس المختلفة وطوائفهم المتباينة، ومن الموسيقيين مزخرفون نقاشون يرصون الأنغام بعضها إلى

بعض في أسلوب هندسي يلذ للأذن فيطرب النفس ولكنه لا يحمل إليها معنى من المعاني، وليس يشبه هؤلاء أحد في الأدباء إلا إذا كان هناك أدباء يرصون الألفاظ رصاً جميلاً لا يهمهم بعده ما يحملون هذه الألفاظ والجمل من المعاني والاهتزازات النفسية. . . وإنما لهؤلاء أشباه في الرسامين الذين ينظمون الخطوط مربعات ومخمسات ومسدسات ودوائر وقطاعات في نظام جميل ترتاح له العين ومن ورائها ترتاح النفس وإن لم يكن لرسومهم معنى. فأي واحد من هؤلاء أنت؟

- أنا لم أسمع بهذا من قبل. . . وأرجو أن توضحه لي بأمثلة

- لا بأس. هل سمعت في معهد الموسيقى بسيد درويش؟

- نعم وأحفظ له دور (أنا هويت)

- ولا شيء غير (أنا هويت). إنهم يخفون عنكم سيد درويش لأنهم لو أظهروكم عليه لنفرتم منهم. . . ولكني لا أظن ذلك أيضاً. . . فأغلب الظن أنهم لا يعرفونه. . . كما أنك لا تعرفه إلا كما قد تعرف محمد عثمان. فأدوار سيد درويش على ما تحررت من قيود الصناعة فإنها لا تزال مقيدة بنهج (الدور)؛ فإذا أردت أن تعرف ذلك الرجل الذي هو المثل الكامل للموسيقي المصري فعليك أن تسمع مسرحياته. ففي هذه المسرحيات ترى أغلب هذه الألوان الموسيقية التي حدثتك عنها، ففيها ألحان عرض فيها سيد درويش العواطف والنزعات النفسية المختلفة فكانت هذه العواطف موضوعات ألحانه؛ وفيها ألحان كانت موضوعاتها الطبيعية الجامدة فصور فيها الرياض والجنان، والصحاري والبحار؛ وفيها أيضاً ألحان كانت موضوعاتها البيئات الاجتماعية المختلفة للمصريين وغير المصريين. وأما زخارفه الموسيقية فتلمسها في موشحاته وأدواره على الرغم من أنه لم يستطع أن يكبت إذ صاغها روحه فخرج بها عن تقاليدها القديمة ونفث فيها من الحياة ما قربها من الموسيقى التمثيلية وإن استبقى لها اتجاهها الزخرفي الهندسي. وذلك لأنه كان موسيقياً له وراء الأذن الحساسة المرهفة نفسٌ حساسة مرهفة، وعقل ذكي حاد

- إذن فما الذي تريدني أن اصنعه حتى أكون موسيقياً خالقاً ما دمت أشعر في نفسي الميل إلى الموسيقى؟

- أما أنت فإني يائس منك. ولكن الذي يريد أن يكون موسيقياً مبتدعاً فعليه أول الأمر أن يسمع الدنيا، ثم عليه أن يشعر بها، ثم عليه بعد ذلك أن يحاول التعبير عن شعوره بالموسيقى؛ فإذا اهتم بنقد غيره ممن سبقوه إلى التعبير عن أنفسهم بها فإنه قد يبدأ إنتاجه الفني مقلداً ثم لا يلبث حتى يتميز بطابع خاص به في موسيقاه

- وهل للملحن أيضاً طابع خاص كالأديب؟

- وهل في الدنيا صاحب فن خلاق وليس له طابع خاص به إلا في مصر حيث يباح السطو والترقيع؟!

- الآن كأني بأهل المعهد لا يعلموننا شيئاً. . . فهم لا ينهجون في تربيتنا الموسيقية هذا النهج. . .

- أستغفر الله. إنكم تتعلمون العزف فيما أظن كما يتعلمون الكتابة والقراءة في الكتاتيب. . . ويكفي معهدكم فخراً أن به آلات كثيرة مختلفة الأشكال متباينة الأصوات. . . وهو في فخره بهذا كمدرسة الفنون الجميلة العليا عندما تفخر بأن فيها مجموعة كبيرة من ألوان الماء، وألوان الزيت، وألوان الرصاص. . . دعنا الآن من هذا واتل عليّ موضوع الإنشاء الذي اتفقنا على أن نكتبه

- أرجو أن تسمح لي بسؤال قبل أن أقرأ الموضوع

- سل ما شئت

- هب أنك مدرس في معهد الموسيقى وأنك أردت أن تضع أسئلة امتحان الدبلوم للطلبة فكيف كنت تضعها. .؟

- كما أضع لك أسئلة الأدب كل عام. فليست الموسيقى إلا أدب الأذن. . .

- أرجو أن تملي عليّ بعض هذه الأسئلة لأحاول الإجابة عنها. . .

- لا بأس. . . أكتب:

1 - صف باللحن قرية مصرية عند الفجر، أو حبيبين التقيا بعد غيبة طويلة

2 - صف باللحن جماعة من الفلاحين في الحقل
3 - ضع لحناً يصور أسرة تودع فتاها الذاهب إلى الحرب
4 - أنقد موشحة (منيتي عز اصطباري) لسيد درويش ووازن بينها وبين موشحة (طاف محبوبي) لكامل الخلعي
5 - أذكر تاريخ حياة موسيقي مصري، واذكر العوامل الاجتماعية والطبيعية والدراسية والاقتصادية والعاطفية التي أثرت في موسيقاه، موضحاً إجابتك مع الشرح بالأمثلة
6 - ما الفرق بين الموسيقى التمثيلية والموسيقى الزخرفية، ومن من الموسيقيين المصريين الأحياء تراه ينهج النهج الأول ومن منهم تراه ينهج النهج الثاني؟
7 - سمعت لأول مرة دور (إمتي الهوى ييجي سوا) وسمعت لأول مرة مونولوج (يا غائباً عن عيوني) فأدركت أن الأول من تلحين زكريا أحمد، وأن الثاني من تلحين محمد القصبجي فكيف استطعت الوصول إلى هذا الحكم؟
8 - ما هي العيوب التي تلاحظها في موسيقى عبد الوهاب أنقد أغنيته المعروفة (بلبل حيران) مع الإشارة إلى أصولها في الموسيقى الشرقية والغربية
9 - وازن بين عصري عبده الحامولي وسيد درويش مبيناً أثر كل عصر من هذين العصرين في موسيقى كل من هذين الملحنين
10 - ما هي الميزات التي كان يمتاز بها سلامة حجازي من حيث الصوت ومن حيث الفن، وما هي الميزات التي يمتاز بها محمود صبح من حيث الفن فقط؟

وأخيراً فإنك تستطيع يا بني أن تضع بعد هذه الأسئلة وأشباهها أسئلة مما يدور . . . حول الصناعة والآلات. . . وأنا أجهل هذا ولكنهم يعرفونه عندكم في المعهد . . .وهم في المعهد لا يعرفون شيئاً مما تقول -

الله وحده يعلم أينا أدرى بالموسيقى -!

عزيز أحمد فهمي

خريج كلية الآداب ومعهد التربية العالي

السيدة ملك. . .

من الوجهة الفنية

للأستاذ محمد السيد المويلحي

أعتقد أن أعظم اللغات ذيوعاً وقوة لا تستطيع أن تكون لغة عالمية يفهمها الجميع، ويتخاطب بها الجميع. ولكن الموسيقى: ملك اللغة الصامتة السامقة التي تؤثر في النفوس جميعاً، وتأسر الأرواح جميعاً، وتربط بين النفوس برباط قوي مكين، هي وحدها ملك اللغة (العالمية) التي تترجم الخوالج المختلفة، والاحساسات المتنافرة . . . على أن أسماها وأبقاها وأدناها إلى القلب والروح ما كان صادراً عن قلب وروح. ولن تجد قلباً وروحاً يؤثران في النفس، ويأسران الحس كقلب (ملك) وروحها التي وهبتها للفن خالصة

موسيقية عظيمة قديرة، تعيش عيشة مثالية، هي جماع ما في الإنسانية من مثل عليا. أقول: (موسيقية). ولا أقول: (مطربة). لأنها انفردت - وحدها - من بين جميع مطرباتنا بدراسة واسعة، وبثقافة علمية مكنتها من إتقان اللغات الفرنسية، والإنجليزية، والعربية، وبثقافة موسيقية أتاحت لها أن تلحن جميع ما تغنيه بنفسها تلحيناً إن دل على شيء فعلى قدرة قادرة، وعلى مكنة ودراسة عميقة هيأت لها هذا التوفيق، وهذا اللون الذي يزجي إلى النفوس أرفع ما في الفن من جمال ونبل!

أصغر مطرباتنا سناً، وأعظمهن إلماماً بعلم الموسيقى، وأقدرهن على العزف بالعود عزفاً يضعها في الصف الأول بين عازفينا الكبار؛ وليس ثمة من يقرب منها في العزف بين المطربات إلا نادرة، وأم كلثوم، وهما الوحيدتان اللتان تلمان بالعزف . . . يتركيب صوتها من خمسة عشر مقاماً وهو من نوع: (الكونترالتو، والتينور، والميزوسوبورانو). وهذه المطربة الوحيدة (بين النساء) في التاريخين الحديث والقديم التي يمتاز (ديوانها) الأول بأنه (تينور).

صوت غني بذبذباته (نريولاته) حتى ليهيئ للسامع حين شدوه أن هناك أكثر من صوت واحد يغرد، وهو يتمتع (بنفس) طويل يمكنه من الاستمرار في الغناء أكثر من دقيقة دون أن ينقطع للزفير أو الشهيق، ولولا أن صاحبته تضم فكيها عند الغناء لأهلكت من يسمعها،

ولعل هذا من رحمة الله بالناس
خرجت على الناس بلون جديد من التلحين الشرقي العربي البحت الذي تجري السلامة في أعطافه ولم يخضع لشهوة السرقة والمزج باللون الغربي، فعرف كيف يملك القلوب بسحره الآسر، وأثره الساحر، وعرف كيف يلجم هؤلاء الذين يرمون الموسيقى العربية بالعقم والضعف وانعدام التصوير والتلوين وعدم إبراز العواطف الإنسانية في إهابها الحق الذي يترجمها الترجمة الصادقة
قلنا إنها تغني وبروحها، ولهذا سميت (مطربة العواطف)؛ وليس معنى هذا أنها تعتمد كغيرها على الآهات والأنات واللون المسترخي البغيض الذي يشيع تخنثاً وشهوة، والذي لا يعتمد إلا على استغلال أحط الغرائز في جمهرة السامعين
ولو أتيح للقارئ أن يسمعها مرة لسمع شعراً قوي الأسلوب سامي الخيال، رفيع الغاية، ولسمع تلحيناً شرقياً عربياً يأخذ بمجامع القلوب. ولعل (ملك) أول من غنى شعراء حماسياً يلهب الجوانح ويدفع دفعاً إلى التضحية. فقد أخرجت للناس سنة 1928 قطعتها الخالدة:
بني مصر صونوا حياة الوطن ... فقد حاربتها عوادي الفتن
تعتد بنفسها اعتداداً يبلغ حد الكبرياء، وتسمح للغضب أن يستحوذ عليها ليجعل منها (عصيبة لا تطاق): تمتاز بثروة فنية عظيمة، فهي تحفظ جميع قصائد المرحوم الشيخ أبي العلاء، وجميع أدوار المرحوم الشيخ سيد درويش، وعدداً كبيراً من الموشحات القديمة الغنية بالنغمات المختلفة و (بالضروب) المتباينة، وبمجموعة عظيمة من أدوار: الحمولي، ومحمد عثمان، والمسلوب الخ
أكبر الظن أن أغلب القراء لا يعرفون أن (ملك) حاصلة على (البكلوريا) وأنها تقدمت عام 1931 لتجتاز امتحان (الليسانس) ولولا زواجها وقتئذ من أحد قضاة الدرجة الأولى لكانت الآن (الأستاذة ملك) ولكنها فضلت حياة البيت، وحياة الزوجية، وكانت المثل الأعلى للزوجة الرحيمة الوفية، وكان بيتها (جنة) ولكن (آدم) لا يحب أن يسكن الجنان. . . فخرج منها بعد خمس سنوات مضت كالسراب الخاطف، ورجعت هي إلى فنها لتعول نفسها بصوتها، بصوتها، بصوتها، وأكررها ألف مرة حتى يعلم الناس جميعاً كيف ينحنون أمام قدس الشرف الرفيع الذي لا يعجب بعض الناس في هذا الزمن فيحاربونه بأحط الوسائل،
ثم بعد هذا يرفعون رؤوسهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ما داموا قد انتقموا لشهواتهم من أقوات الشريفات الطاهرات اللاتي يعتقدن أن الرزق بيد الله وحده. . . !
رب قارئ يقول وكيف لم تسع إليها محطة الإذاعة وهي التي تقدم من لا تجرؤ على أن تكون تابعة لها في إطار المطربة الكبيرة، والجواب عند المحطة نفسها وأظن هذا يكفي لكشف الحقيقة للقارئ. . . !
قد نعجب إذا علمنا أنها ابتدأت حياتها الفنية وهي بنت عشر سنوات (عند نعيمة المصرية في كازينو الهمبرا) بمبلغ عشرين جنيهاً في الشهر فلم تمض سنوات ثلاث حتى كانت تشتغل في (مونت كارلو) والبوسفور (ماتنيه وسواريه) بمبلغ ثلثمائة جنيه في الشهر. . .
سنراها قريباً على الشاشة ولعلها تنجح في التمثيل السينمي كما نجحت في الموسيقى، وأظنها ناجحة
محمد السيد المويلحي
البريد الأدبي
حول إنسانية الرسول
قرأت ما كتبه الأستاذ محمد أحمد الغمراوي تحت هذا العنوان في مجلة الرسالة الغراء عدد (300) فعجبت لأنه ينسب إلي خطأ أعجب من خطأ الأستاذ زكي مبارك فيما رددت به عليه في العدد 298 وهذا لأني بحثت فيما أخذه عليّ فلم أجد فيه ما يصح أن يكون خطأ، أو أن يشغل وقته الثمين بالرد عليه. ولقد قرأ كلمتي كثير من علماء الأزهر وطلابه، فسروا بها سروراً عظيماً، وبلغ من سرور بعضهم أن سعى إليّ فأخبرني بأنه كان في نفسه شيء من مقال معروف لي، فذهبت هذه الكلمة بما في نفسه، وأظهر لي من السرور بكلمتي ما أظهر
أما الذي أخذه الأستاذ الغمراوي عليّ فهو تكلف لم يكن هناك داع إليه، لأني إذا كنت

أطلقت في أمور الدنيا التي قلت إنه لم يكن للوحي شأن بها، فقد أطلق النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك أيضاً حين قال: (أنتم أعلم بأمور دنياكم) ولا شيء في هذا الإطلاق، لأن كل شخص درس دين الإسلام، يعرف أن المراد بأمور الدنيا في ذلك هي ما يعرفه الناس بالتجربة من نحو حرث وزرع وسقي وصناعة وتجارة، وما إلى ذلك من كل ما لم يأت الدين ليعلمهم إياه. وأما غير ذلك من أمور الدنيا مما يدخل في قسم المعاملات، كالبيع والنكاح والطلاق، فهو من أمور الدين، كما هو من أمور الدنيا، وشأنه في ذلك شأن العبادات سواء بسواء، وقد عنيت كتب الفقه الإسلامي ببحث القسمين حتى صارا في نظر المسلمين جميعاً كشيء واحد، ولهذا فهم كل من سر بكلمتي أن القسم الثاني من أمور الدنيا داخل في أمور الدين التي ذكرت اختلاف العلماء في جواز اجتهاد النبي صلى الله عليه وسلم فيها، وكذلك وجوب تنبيهه صلى الله عليه وسلم بالوحي إذا أخطأ أمر مقرر في كتب الأصول، وهي في متناول أيدي الناس والسلام ورحمة الله على الأستاذ.

عبد المتعال الصعيدي

للبستي لا لأبي تمام

عزا الأديب الكبير الأستاذ عبد الرحمن شكري في مقالته (أبو تمام شيخ البيان) في الجزء السابق من (الرسالة) الغراء هذا البيت:

من كل بيت يكاد الميت يفهمه ... حسناً ويعبده القرطاس والقلم

إلى أبي تمام (أستاذ كل من قال الشعر بعده) - كما قال المتنبي - والحق أن هذا القول من خير ما يوصف به شعر حبيب. ولكنه ليس له ولم يشتمل عليه ديوانه، وبعض ما عند أبي تمام أو أبي التمام كما يسميه الحسن بن رجاء يكفيه. وهل من الإنصاف أن يعطي العظيم القوي الغني قوت المساكين

عجباً للناس في أرزاقهم ... ذاك ظمآن وهذا قد غرق

والبيت الميمي إنما هو للبستي. وقد نسبه إليه نسبة صادقة صديقه الإمام عبد الملك الثعالبي في (اليتيمة) في أول سيرته قال: (أبو الفتح علي بن محمد الكاتب البستي صاحب الطريقة الأنيقة في التجنيس البديع التأسيس، وكان يسميه المتشابه، ويأتي فيه بكل طريفة لطيفة. وقد كان يعجبني من شعره العجيب الصنعة البديع الصيغة قوله:

من كل معنى يكاد الميت يفهمه ... حسناً ويعبده القرطاس والقلم

وبعد فما جئنا إلى الأديب الكبير الأستاذ (شكري) ناقدين وإنما أقبلنا مثنين على أدبه العالي وبحثه ومحيين

(القارئ)

مسألة فيها نظر

للدكتور إسماعيل احمد أدهم رأي في سياق دراسته لمطران نشر في المقتطف يتصل بتأثير بعض الأدباء في بعض، وقد عقب عليه الأستاذ عبد الرحمن شكري في العدد الأخير منها، فأرسل الدكتور أدهم إلينا هذه الكلمة تعليقاً على ذلك التعقيب، والمسألة لاتصالها بتاريخ الأدب تحتاج إلى تمحيص ودرس

حضرة الأستاذ صاحب الرسالة

قرأت كلمة الأستاذ عبد الرحمن شكري مدروجة بعدد المقتطف الذي صدر في أول أبريل سنة 1939 تعليقاً على دراستي عن خليل مطران. وإن ما أعلمه من تبحر الأستاذ الشاعر في الأدب يسمح لي بأن أذكره بان الناقد لا يأخذ برأي المنقود أخذاً تاماً، وقد يخالفه في نفس معتقده ولو مس شخصه، وهذا غير خافٍ عن مثله. وبناء على ذلك فقد كتبت ما كتبت وقد خالفت فيمن خالفت الأساتذة طه حسين والزهاوي وأبو شادي وتوفيق الحكيم وغيرهم في الدراسات التي كتبتها عنهم

ويقيني المستخلص من مطالعاتي أن الأستاذ عبد الرحمن شكري تأثر باتجاهات مطران تأثراً قوياً. وللأستاذ شكري أن يتبرأ من ذلك، ولكن مثل هذا التبرأ لن يغير من استنتاجاتي شيئاً لأنها تقوّمت بأسباب دقيقة إن لم أذكرها في ختام دراستي عن مطران حين أعرض لأثر مطران الكبير في الشعر العربي الحديث، فإن لها مكانها في

بعض الدراسات الآتية
وأكرر بهذه المناسبة تقديري العميق لأدب الأستاذ شكري وزميليه الفاضلين، وليس لي أي غاية من دراساتي سوى التحقيق من سبل الدرس التحليلي حسب المقدمات التي تجمعت تحت يدي
أما إذا كان الأستاذ شكري يرى نقصاً في هذه المقدمات فله أن يظهره، وعلى كل حال فأنا في انتظار البيان الذي يعدني بنشره والذي فيه بعض ما يخالف ما جاء في البحوث التي نشرتها إلى اليوم من دراساتي عن مطران. وإلى أن ينشر بيانه فأنا على اعتقاد بصحة ما جاء في سلسلة البحوث التي نشرتها
إسماعيل أحمد أدهم
الإسلام والدعاية النازية
أعلن الهر جوبلز وزير الدعاية في الريخ أن خمسة وعشرين ألفاً من الألمان سيعتنقون الإسلام، والمسلمون في أقطار الأرض يغتبطون أن يهتدي إلى دينهم هذا العدد الضخم من أعداء السامية، ولكن إعلان هذا الخبر على لسان وزير الدعاية النازية يشككنا في إيمان هؤلاء الإخوة، ويحملنا على أن نظنهم فرقة من الجيش صدرت إليها الأوامر بالقيام إلى (مهمة حربية) بهذا السلاح وعلى هذه الصورة. وقد علمنا نابوليون وفلبي ولورنس أن اعتناق الإسلام قد يكون في بعض الأحيان أقصر الطرق إلى الغاية الاستعمارية. على أن المسلمين اليوم أنفذ بصيرة وأصح تمييزاً من أن تدخل عليهم هذه الحيل المكشوفة، فهم يعتزون بوطنيتهم كما يعتزون بعقيدتهم، وهم مصممون على أن يدفعوا عن وطنهم كل
دخيل طامع، كما يدفعون عن دينهم كل عابث خادع
حول عباس بن أبي ربيعة
سيدي الأستاذ الزيات
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ وبعد فلقد قرأت في العدد رقم 300 من (الرسالة) الغراء كلمة الأديب الفاضل درويش الجميل في البريد الأدبي فحمدت له نقده لبعض ما جاء في قصة عياش؛ غير أنه وقف عند رواية أبن هشام في سيرته فحسب ولو أن الكاتب الأريب ضم أشتات القصة من مظانها - وهي مبثوثة في أضعاف كثير من التاريخ والتفسير - فجمع رواية ابن هشام في سيرته، إلى رواية ابن جرير الطبري في تفسيره، إلى رواية الواحدي في كتابه (أسباب التنزيل)، إلى غيرها. . . لاطمأن إلى ما كتبت، ولأنصف ما جاء في مقالي عن عياش
ولست الآن بسبيل أن أنشر على عيني الأديب الفاضل ما جاء في الروايات المختلفة ليقارن هو بينها، فيستخلص رأياً هو الرأي الذي تحدثت به آنفاً، فالمكان ضيق وأنا في شغل
كامل محمود حبيب
وحي الشاعرية
وقع في هذه القصيدة التي نشرناها للسيد حسن القاياتي تحريف يسير نصححه فيما يأتي:
كم فاتك حرس الجمال مَخافة ... أن يستثير من الحسان الأعينا
إن الذي خلق الصباحة زينة ... قالوا تغضَّب أن تلوحَ فنُفتَنا
يا موحياً سور الأشادة رقية ... أنا شاعرٌ صِفْني، ولكن من أنا
تطبيع
جاء في البيت الثاني من قصيدة الأستاذ أحمد الصافي النجفي (قلعة بعلبك) المنشورة في العدد الماضي من الرسالة كلمة (حرثٌ) وصوابها (صرثٌ)
عصبة الأمم، غايات العصبة ووسائلها وأعمالها
نشرت سكرتارية العصبة هذه الأيام نسخة عربية لكتابها المعروف باسم (غايات العصبة ووسائلها وأعمالها) ولم ينشر هذا الكتاب من قبل إلا باللغتين الإنجليزية والفرنسية، وقد أظهرت العصبة بهذا العمل تقديرها العظيم للمنزلة التي تنالها اللغة العربية يوماً بعد يوم في ميدان الثقافة والسياسة
وكان الدافع إلى نشر هذا الكتاب باللغة العربية كثرة الطلبات التي أبداها عدد عظيم من الجماعات الدولية لكتاب عربي يتناول أعمال العصبة ويقبل الناس على قراءته

إقبالاً كبيراً
وقد ظهرت الطبعة الأولى باللغة الإفرنجية في سنة 1935 وكانت موضوعة في أسلوب سهل واضح، ولاقي الكتاب نجاحاً عظيماً في أنحاء العالم باللغتين الإنجليزية والفرنسية فكان هذا النجاح حافزاً إلى إعادة طبعة عدة مرات
والكتاب في هذه الطبعة الحديثة المنقحة مقسم إلى أربعة أقسام
القسم الأول: وقد خصص للشؤون التي يهتم بها الرأي العام في العالم مثل النظام الدولي قبل وجود العصبة ومثل نظام العصبة وغاياتها ووسائلها
القسم الثاني: ويصف أعمال العصبة سياسية وفنية
القسم الثالث: ويتناول أعمال محكمة العدل الدولية الدائمة في لاهاي (وهي المحكمة التي أنشأتها العصبة) وأعمال مكتب الممل الدولي
القسم الرابع: ويتضمن النص الكامل لميثاق العصبة
وقد وضع هذا الكتاب خالياً من النزعات الخاصة، ولم يحاول فيه إخفاء الأزمة السياسية التي تجتازها العصبة الآن، على أن الآمال المعقودة على مستقبلها العظيم لم يرد ذكرها بين سطوره. وإن في الطعن والسخرية اللذين يوجههما إلى العصبة أعداؤها المكابرون في كثير من الإلحاف والشدة لدليلاً واضحاً على الاعتراف بالنتائج الجليلة التي ينتظرها العالم على أيدي هذه العصبة
والكتاب يحتوي على 214 صفحة وثمنه شلنان أو 18 فرنكا فرنسياً. ويطلب من قسم النشر بسكرتارية عصبة الأمم بجنيف
الكتب
كتابان
1 - التربية النظامية: تأليف البكباشي علي حلمي
2 - الجيش المصري في عهد محمد علي:
تأليف اليوزباشي عبد الرحمن زكي
- 1 -
لا شك أن القوة هي الأداة المسيطرة على كيان الأمم وحياة الشعوب، ولا شك أن النظام هو الأداة التي تهيئ للقوة وتعد النفوس والأجسام لاستكمالها، ونحن أمة في مطلع حياة جديدة، حياة الجهاد والنهوض، فأحوج ما نحتاج إليه إنما هو الأخذ بأسباب النظام ومظاهر القوة حتى نستطيع أن نحفظ كياننا ونأخذ مكاننا بين الأمم والشعوب. . .
وهكذا كتاب في (التربية النظامية) وضعه حضرة الفاضل البكباشي علي حلمي أركان حرب مدرسة البوليس والإدارة ومدرس نظام البوليس، والكتاب جملة طيبة من المعلومات الدراسية، والتجارب التي حصلها المؤلف الفاضل بالرحلات العلمية في مصر وخارجها، إذ تم له زيارة مديريات القطر، والمرور بأغلب الشواطئ المصرية، والواحات الخارجية، وبلاد النوبة والسودان، كما تم له زيارة فرنسا وألمانيا وإيطاليا وسويسرا والنمسا وتشيكوسلوفاكيا والمجر ويوغسلافيا وتركيا واليونان والحجاز وسوريا ولبنان وفلسطين. . . قال المؤلف: وقد عنيت أثناء هذه الرحلات بالبحث عن كل ما يتصل بالتربية النظامية وأنظمة البوليس والإدارة وأعمالها، والنظم القضائية والاجتماعية المرتبطة بالأمن العام وشؤون السجون والإصلاحيات ومصير المفرج عنهم وكل هذا إلى جانب ما اكتسبه بالخبرة من الخدمة الطويلة التي تبلغ نحو ثمانية وعشرين عاماً بين وحدات الجيش والحرس الملكي والتدريس والإدارة بالمدرسة الحربية. ومن هذا المعين استمد المؤلف مادة كتابه، وهو كما ترى معين فياض حافل بالدراسة والاطلاع والتجربة والمشاهدة والنظر والاقتباس
فالمؤلف الفاضل قد حفِل لكتابه، ووفر له من المادة والمعلومات ما يكافئ خطر الموضوع الذي يعالجه، وهو موضوع مجهول في أكثر نواحيه من قراء العربية على شدة الحاجة إليه والرغبة فيه، ولقد وضع المؤلف كتابه على نسق قويم من النظام المرتب، والتقسيم المبوب، فهو يشتمل على ستة أبواب، وكل باب يشتمل على جملة فصول؛ ففي الباب الأول تكلم عن النظام وأثره في نهضة الأمم، وعلاقته بالفرد والمجتمع ومظاهره في الأمم الراقية في القديم والحديث، ومدى حظنا من ذلك، والوسائل التي تأخذ بأيدينا إليه، ولم ينس في ذلك القرية المصرية وإصلاحها

الاجتماعي، ووسائل الثقافة العامة للشعب. وفي الباب الثاني تكلم عن سلامة الدولة، وتعاون الشعب والبوليس على حفظ الأمن والنظام واحترام القانون. ثم تكلم في الباب الثالث عن نصيب الجمهور في مكافحة الأجرام ووقاية الأمن من الجرائم والمعاونة على ضبط الحوادث. وفي الباب الرابع تناول الكلام على نظام المرور في الأمم الأوربية ومدى اهتمامها بشأنه وحاجتنا إلى الأخذ بنظمهم ووسائلهم. وفي الباب الخامس تكلم عن التدريب العسكري والتربية البدنية في المدارس والمعاهد والجامعات والمناهج التي قررتها وزارة المعارف في ذلك. فلما كان الباب السادس وهو آخر أبواب الكتاب تحدث المؤلف عن مفاخر الجيش المصري، فجاء في ذلك بعرض تاريخي شامل من عهد الفراعنة، أيام تحتمس الثالث حتى أيام جلالة الفاروق حرسه الله، إذ جعل للجيش من عنايته ورعايته أكبر نصيب، فسار الجيش في طريق النجاح إن شاء الله

وقد زّين المؤلف كتابه الفاضل بكثير من الصور والرسوم، يوضح بها فكرته، ويشرح غرضه، وعنى على الخصوص بالصور الشمسية لأسلحة الجيش الحديثة في نظامه الجديد، فجاء الكتاب في بابه وافياً يشبع العقل، أنيقاً يمتع الذوق. وإنها ليد كريمة أسداها المؤلف لأمته، وبرنامج شامل وضعه للذين يعنيهم الترقي بالأمة المصرية في مدارج الرقي والنهوض، والأخذ بأسباب النظام والقوة والبناء السليم. وإنا لنرجو أن يكون المؤلف الفاضل قدوة صالحة لإخوانه ومن هم في مثلعمله ممن يحصرون مواهبهم ومعلوماتهم بين جدران الوظيفة، وفي حدود الرسميات، وإنها لحدود ضيقة تقتل المواهب وتودي بالنبوغ، وإن من الخير لأنفسهم ولأمتهم أن يجلوا معلوماتهم وتجاربهم للناس فيفيدوا ويستفيدوا

وهذا الكتاب آخر هو في الواقع حلقة تتصل بنظام الكتاب السابق، وضعه مؤلفه الفاضل اليوزباشي عبد الرحمن زكي أمين المتحف الحربي عن (الجيش المصري في عهد محمد علي باشا الكبير) ولقد كان الجيش في عهد محمد علي - كما يقول المؤلف - هو كل شيء، ومن أجله كان كل شيء. فلخدمته أنشئت مدارس الطب والهندسة والفنون العسكرية، ولنهضته قامت صناعات الأسلحة والذخائر والملابس، ولتموينه كان العمل على تقدم الزراعة والتجارة والعمران، ومن ثم استطاعت البلاد أن تقوم بأعباء الكفاح الحربي ومطالب الإمبراطورية الناشئة، وأن تحقق مطامع العاهل العظيم

وخبرة المؤلف الفاضل تتصل بالعمل، وتتصل بالتاريخ، وعلى هذا المعنى جرى في تأليف كتابه، ففيه رواية التاريخ، وخبرة العامل. فهو من ناحية يتكلم عن تاريخ الجيش في عهد محمد علي ممهداً لذلك بمقدمة عن قوات الدفاع قبل محمد علي، ثم يتحدث عن جهود البطل العظيم في خلق الجيش، ومواقع إبراهيم وانتصاراته برواية التاريخ المستمدة من أوثق المصادر مما كتب الإفرنج والعرب ومما هو محفوظ من السجلات والوثائق التاريخية بقصر عابدين العامر، ومن ناحية أخرى يتكلم المؤلف عن الجيش في ميدان العمل، وهو في هذا يفسر الرواية بالدراية، ويعلل للتاريخ بالعلم والواقع، وهذه الناحية هي لا شك أهم ما في الكتاب، لأن الدراسة العلمية للتاريخ الحربي ليست مما تقتضيه الحاجة العلمية فحسب! بل هي كما يقول الأستاذ شفيق غربال - مما تقتضي به الحياة القومية المستقلة وعمادها الذود عن الوطن. وفي تلك الدراسة يجد أولياء الأمور الإجابة عن الكثير مما يعترضهم من مسائل الدفاع، كما يجد فيها رجال الجيش ما يفيدهم في مسائل الحرب وشئون التعليم العسكري

ولقد حرص المؤلف الفاضل على شرح وقائع التاريخ بالصور والرسوم والمصورات الجغرافية، وجاء في آخر الكتاب بثبت حافل من الأرقام والإحصائيات التي تنطق بعظمة الجيش في عهد محمد علي وضخامته، وحسن نظامه وترتيبه، وكأنه يقول: هذا ما فعل أجدادنا فأين جهادنا؟! والواقع أن كتاب المؤلف خدمة علمية قومية، فهو يسد حاجة المؤرخ الباحث، ويفيد الجندي المجاهد. وإنها لخدمة يشكر عليها ذلك المؤرخ الفاضل، والجندي الباسل. وما أشد حاجتنا إلى مثل هذه المؤلفات النافعة في مطلع حياتنا الجديدة.

محمد فهمي عبد اللطيف

المسرح والسينما
الفرقة القومية
(يجب أن تكون حرة بعيدة عن البيروقراطية الحكومية)
بهذه العبارة استهل حضرة الأستاذ راشد رستم حديثه معي
قلت للأستاذ رستم: الفرقة القومية مؤسسة حكومية، هل قامت برسالتها الثقافية والفنية؟ فأجاب:
- لا شك أن للفرقة القومية رسالة يجب أن تؤديها. . . ولكن المسألة الآن ليست مسألة رسالة أدتها الفرقة أو لم تؤدها. إذ هي بنت سنوات قليلة، كما أنها ولدت في ظروف قاسية ولاقت صعاباً، بل ولا تزال الصعاب قائمة، بل وستلقى صعاباً شداداً عند نظر ميزانية الدولة فيما يخص الفن (ويا ويل الفن من أربابه وغير أربابه! سيلاقيها من أين ومن أين. . .) بل إن الفرقة القومية ولدت في زمان خيف فيه على التمثيل جميعه من طغيان السينما، ذلك الطغيان الذي خافت منه البلاد العريقة في التمثيل على تمثيلها، فما بالك بمصر!
على أنه لا بد من مطالبة الفرقة بأن تؤدي رسالتها نحو الفن وتظهر همتها في ذلك، وأن نرجو لها تحقيق ذلك، ونزيد على هذا الرجاء ألا نعيق طريقها، وأن يفسح الأدباء والغيورون على الفن صدورهم، ويعملون لتسهيل مهمتها دون العمل على تصعيبها
قلت: ألا ترى شذوذاً في تكوين لجنة القراءة وتقصيراً وإهمالاً في الإدارة يدعوان إلى التشاؤم من نجاح هذه الفرقة؟
قال: أول كل شيء لا يصح للعاملين والمصلحين أن يتشاءموا، ولا أعرف للتشاؤم معنى ولا موجباً
أما لجنة القراءة فلست واقفاً على دقيق أسلوبها في القراءة، ولكن يلوح لي أنها غير نظامية وأنها تتشدد مرة وتتساهل أخرى، وهذا لاشك عيب يجب الخلاص منه
كما أنه من الواجب أن يكون تكوين لجنة القراءة للفرق التمثيلية بحيث لا يقتصر همها على اللغة وما يخصها، وإنما فوق ذلك لا بد أن يكون أعضاؤها ملمين بفن الرواية، من وضعها وحوارها وعرضها كما يجب إدراك نفسية الجماهير وتتبع تطوراتها
قلت: ما هي الوسائل الفعالة لإصلاح المسرح؟
-: إنني أستشف من روح هذا السؤال ابتعاد فكرة التشاؤم التي جاءت في السؤال السابق، فالحمد لله!
بعد ذلك يجب أن نكون بنائين محافظين لا هدامين. وإنه لمن العدل ومن حب التمثيل والفن أن ننظر إلى الفرقة القومية الناشئة نظرة من يرى العيب فيعمل لإزالته، وليس كمن يرضى فلا يرى عيباً، ولا كمن يسخط فلا يرى إلا المساوي
الفرقة القومية حديثة العهد، وهي فضلاً عن هذا مؤسسة حكومية، ولا يصح لنا أن ننسى ما للمؤسسات الحكومية من مساوئ البيروقراطية، خصوصاً فيما يتعلق بأعمال فنية رفيعة، فإلى أن يتاح للفرقة الخلاص من هذه البيروقراطية الهادمة والتمتع بصبغتها الفنية الحرة لا بد لنا من:
أولاً: أن نعمل للإصلاح دون الهوى الشخصي
ثانيا: أن يعلم كل عامل - فني وغير فني - في نفس الفرقة أن له رسالة فيها يجب أن يؤديها عن طريق الإخلاص للعمل والاجتهاد فيه.
ثالثاً: أن يزداد عدد الذين يفهمون الفن (عارياً) جنب الذين يفهمونه (اعتبارياً) وذلك في إدارة الفرقة، إذ لا بد من وجود هذين العنصرين في الإدارة
رابعاً: أن تبني للفرقة دار خاصة للتمثيل
خامساً: أن تبعث البعوث للممثلين والمخرجين
سادساً: أن تزيد الحكومة للفرقة مواردها المالية وتسهل عليها مهمتها، وألا تضن عليها بالمعونة من كل نواحيها، وبكل مظاهرها مثلما تفعل مع معهد اللغة العربية، لأن رسالة الفن قوية في حياة الشعوب قوة معاهد اللغة. بل إن الفن هو الذي يجعل اللغة حية متحركة غير جامدة
سابعاً: أن يكون أعظم اهتمام الفرقة موجها لتنشيط التأليف المسرحي المصري فتجود بالمال والمكافآت والجوائز والإقدام على تمثيل الرواية المصرية المؤلفة
- هل يحسن أن نستعين بالروايات الأوربية أم يجب أن نشجع التأليف المصري ونقدمه

على سواه
لا شك في أن من أول الواجبات تشجيع التأليف المصري؛ وإذا كان لا بد أن يقال - الحق،
فإن الفرقة بدأت بتشجيع هذا التأليف المصري، بل والذي أعلمه يقيناً أن مديرها خليل بك مطران جعل همه الأول منذ اللحظة الأولى أن يكون افتتاح عمل الفرقة برواية مؤلفه من مؤلف مصري، وقد تم له ذلك
وأظهر به مبدأه الذي يريد إعلانه، وهو تفضيل الروايات المؤلفة من مؤلفين مصريين على أنه يلوح لي أنها استعانت بالرواية المترجمة أو المقتبسة، كي تجعل لها اسماً بين رواد التمثيل، وقد تعودوا ذلك، لكي تجذب إليها الجمهور، وكذلك لكي تعرض أنواع الروايات المختلفة التي احتوتها عصور التمثيل القديمة والحديثة حتى يتكون عند الجمهور الذوق الروائي فيقبل على هذا التمثيل الراقي. غير أني أرى أن يكون معظم مجهود الفرقة موجهاً إلى تشجيع التأليف، وإلى خلق مؤلفين مصريين، وإلى إيجاد طائفة من هؤلاء المؤلفين
أما الموضوعات فأنها معروضة في حياة العالم فهي كثيرة متوفرة مستمرة، والمهم أن يوجد المؤلف الذي يأخذ منها مادة لروايته.
وليس من مانع أن تمثل الفرقة روايات أجنبية كما تفعل كل الأمم، ولكن الأهم أنها تخلق أولاً مسرحاً مصرياً ممتازاً برواياته وبمؤلفيه.
وقال عن لغة الرواية وصياغتها (إن لكل رواية ما يناسبها، غير أنه يجب أن تتراوح لغة المسرح بين أرقى أنواع الفصحى، (وليس معنى هذا اللغة المعقدة المقعرة) وبين السهلة الكلامية الصحيحة النظيفة (وليس معنى هذا اللغة المبتذلة)
هذا وفي التاريخ المصري القديم والحديث مجال واسع للتأليف؛ فإن مادة التاريخ وحوادثه تجذب الجمهور، كما أنها تربي الروح القومية، والأمة عطشى إلى من يسقيها ذلك وأريد هنا لفت النظر إلى مادة التاريخ لجذب هذا الجمهور النافر
ثم ختم كلامه بشهادة طيبة لمدير الفرقة الواسع الصدر، فلولا تحمله وصبره وجلده في هذه السن، ولولا مكانته الشخصية البارزة لضاعت الفرقة. فهو دعامة ارتكزت عليها الفرقة يعرف فضلها كل واقف على دخائل الأمور ثم حمد تحمس سعادة العشماوي بك لرسالة الفرقة وإنقاذه سفينتها من الغرق.
أبن عساكر
العدد 302 - بتاريخ: 17 - 04 - 1939
هل تقوم القيامة!
نفخة الصور
بعد ثلاثة وثلاثين قرناً من تاريخ مصر الخالدة نفخ جندي في بوق فرعونها الشاب توت عنخ آمون، فدوَّى صوته الندىُّ في أرجاء العالم وهو يمور موران البحر، ويفور فوران البركان، وتتدافع شعوبه المكلوبة المكروبة عمياناً وصُماً إلى مهاوي الموت! فليت شعري ما الذي أخطر ببال المتحف والإذاعة هذا الخاطر الغريب في هذا الحين وفي هذه الحالة؟ أهو القدَر الإلهي الراصد الذي يقول كلمته في كل حادث، ويعلن مشيئته في كل مشكل؟ أم هو الروح المصري الخالد الذي بدأ حضارة العالم، وأنشأ معرفة الناس، ولا يزال يوحي بكل فكر ويشارك في كل أمر؟
من كان يقع في حسبانه من فراعين النيل ودهاقين الوادي أن بوقهم الذي كان يدعو إلى الطعن والضرب، ويقضي في السلام والحرب، يحتفظ به الدهر الطحون ثلاثة آلاف وثلاثمائة عام ليبلغ به اليوم أذن الدنيا جمعاء صوتَ مصر الذي لا يخفت، ومجد مصر الذي لا يبيد؟
ما كان أروع هذا الصوت الفضي القوي وهو ينبعث من جوف الماضي العميق السحيق، وينتشر جهيراً جباراً على أمواج الأثير، فينصت الفلك، ويدهش العالم، ويتذكر التاريخ، ويغوص الخيال الشاعر في خضم القرون ويطفو!
أيها النافخ في صور إسرافيل! أهي الراجفة وانصعاق الأحياء، وانشقاق السماء، وزلزلت الأرضيين، واندكار الجبال، وفناء العالم؟ أم هي الرادفة وانبعاث الأمواج، وميزان الحسنات والسيئات، ثم استئناف الحياة الباقية الصافية التي تموت فيها المطامع، وتفني الأحقاد، ويعيش بنو آدم في ظلال الله إخواناً على سرر الحب،

وضيفاناً على موائد الجنة؟
لتكن نفختك يا إسرافيل ما شاء الله أن تكون، فإنها لمصر القاعدة المتخلفة صيحة نشور ونذير أهبة! فقد درجت على هامها القرون وهي مطمئنة إلى الخمول، راضية بالعجز، يستغل خيرها الواغل، ويستقل بحمايتها المغير، حتى خشن على أيدينا السيف، وثقل على ظهورنا العتاد، وجثم على رجولتنا الجبن، وأصبحنا إذا طلبتنا القرعة نهرب، وإذا انتخبتنا الجندية نبكي، وإذا سمعنا بالحرب من بعيد يضطرب البال من الهم، ويطير الفؤاد من
الفزع. ثم كان من أثر هذه الحياة السليمة الوادعة، وهذه التربية المدرسية البليدة، أن فشا بيننا داء العجائز وهو الكلام، وداء الضرائر وهو الحسد؛ فأفواهنا الثرثارة لا تفتر عن قرض الأعراض والعلائق، وعيوننا الطامحة لا تغمض عن الحسد الأرزاق والمواهب، حتى اتسعت الأحداق وطالت الألسن، بمقدار ما ضاقت الأخلاق وقصرت الأذرع. فلو كنا نشأنا على الجندية، وتمرسنا بالحروب، وارتضنا في الشدائد، لكثر فينا رجال القيادة والنظام، وقل بيننا أهل السياسة والكلام، وكان عندنا من الشركات والجمعيات والمصانع والمجامع أضعاف ما عندنا من المؤتمرات والأحزاب والمقاهي والصحف. . .
هذه هي القارعة التي تهتك حجب الأسماع وأغشية الأبصار وغُلف الأفئدة. فاليوم لا كسل ولا جدل ولا اتكال ولا استكانه. لقد سلكنا متن الحياة بعد أن كنا نسير على الهامش، وخضنا عباب الأمر بعد أن كنا نعيش على الشاطئ، وحملنا تكاليف مصر العزيزة بعد أن كنا نلقيها من الخور والهون على الأكتاف الغريبة كتفاً بعد كتف لشدَّ ما يشرق في تاريخ النيل ذلك اليوم الذي يزحم فيه البحر والبر والجو أسطولُه الماخر وأسطوله الطائر وجيشه الجرار، ثم يستقتل في سبيله بنوه البواسل الميامين في الحصون والخطوط والخنادق، ليكون لثراه الحبيب من دمائهم رِي، ومن أشلاء عدوهم سماد، فيغصب فيه جدب العقول، ويزكو به غِراس البطولة!
مرحباً بالنار إذا كانت تذيب غش الأخلاق وزيف العزائم! وأهلاً بالحديد إذا كان يجذب ميت الأصول وذاوي الأفرع! ونِعِماَّ يبتلينا به الله إذا كان من ورائه جمعة من هذه الفرقة، وحياة من هذا الموت!
لقد استنفرَنا الماضي ببوق فرعون، واستفزنا الحاضر بوعيد بيرون، فلم يبق إلا أن نميط اللثام عن الوجه الحر، وننفض الغبار عن المعدن الكريم، ثم نولي وجوهنا شطر الحدود المقدسة، ونقوم للوطن كما نقوم لله صفًّا صفًّا، طائعين خاشعين، متحدين مستعدين تنتظر نداء العلَم المومق وأمر القائد الأعظم!

احمد حسن الزيات

الطفل وحقيقة الإنسان

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

زارتني، ذات يوم، سيدة، ومعها طفلة تناهز الرابعة، فسقيت السيدة القهوة المرة التي تحبها، وحرت في الطفلة: ماذا أسقيها أو أطعمها، أو بماذا ألاعبها، وليس في مكتبي ما يصلح لها؟ ثم خطر لي أن أبعث بالخادم ليشتري لها (شوكولاته). فقالت السيدة: (إنك تدللها وتفسدها). قلت (دعيها تتدلل وتفسد - على قولك - فلن ترى ارغد من أيامها هذه). قالت: (وستحبك بالشوكولاته!)، وضحكت. قلت: (هل تعلمين أن كل حب لإنسان آخر هو من حب النفس؟). ولم أطل في هذا المعنى فإني أعرفها تكره الفلسفة وإن كانت ذكية لبيبة. وجاءت الشوكولاته فأخذتها الطفلة من الخادم وابتسمت له مسرورة. فقالت لها السيدة - وأشارت إلي -: (إنه أولى بابتسامك، فقومي إليه واشكريه بقبلة). فانحدرت عن مقعدها خفيفة ضاحكة ولثمت خدي. وعادت إلى الشوكولاته، وهمت أن تنزع عن بعضها الورق وتأكل؛ فنهتها السيدة عن ذلك وقالت لي إنها ستدخل طعام على طعام، وليس هذا بمحمود أو مأمون. ولفت لها الشوكولاته في ورقة وناولتها إياها وربتت لها كتفها وقالت: (أبقيها معك إلى ما بعد). فأطاعت الطفلة ووضعت اللفافة في حجرها، وجعلت تقلبها وتعبث بها، وذهبنا نحن نتكلم، وإذا بالسيدة تغمزني بعينها مشيرة إلى طفلتها، فنظرت فألفيتها قد فكت الورقة وأقبلت عل قطع الشوكولاته تحركها بإصبعها، فهززت رأسي مستفسراً. فقالت السيدة: (إنها تعدها). قلت: (لعله يفرحها أن تعرف عددها). قالت: (لا) وهزت رأسها:

(ما أظن بها إلا أنها تعدها للمرة الثانية). قلت: (ماذا تعنين؟). قالت: (أعني أن أكبر الظن أنها عدتها حين أخذتها. ثم أخذتها أنا منها ولففتها في هذه الورقة، فهي تعدها مرة ثانية لترى أنقصت أم بقيت كما كانت). قلت: (اتقى الله!). قالت: (لك رأيك، ولكنها بنتي فليس تَخفي عليّ من أمورها خافية)

وصارت الطفلة تعرفني بعد ذلك (يا بابا شوكولاته) وهي خليقة أن تعرف اسمي، وأن تستطيع النطق به، فما هو بأثقل أو أصعب من لفظ الشوكولاته. ولكن الشوكولاته حلواوها الأثيرة، وأنا أتحفها بها كلما لقيتها، فهي تهمل اسمي وتطلق عليّ ما تحب، ولو أهملت أن أقدم لها الشوكولاته، أو قصرت في هذا الواجب، لزهدت في لقائي وانصرفت عن ذكري، وتركت حث أمها على زيارتي.

وليست هذه الطفلة بالشاذة، فإن كل طفل على غرارها، حتى ولديّ أراهما أحفى بأمهما منهما بي، لأنها لا تنسى أن تزودها بما يحبان، وإن كنت أنا المتعب المكدود والذي لا يزال يسعى ويشقى ليسعدا.

وأحسب أن الإنسان يبدو على حقيقته في طفولته، أي قبل أن يصبح إنساناً مصقولاً منجورا أو مهذباً كما نقول، والطفل أثرة مجسدة، يحب ويكره، ويقبل ويدبر، تبعاً لما يلقي منك. وقد يكون أبوه أحنى عليه، وأعمق حباً له، وأعظم شغلاناً به، ولكنه لا يلاعبه، ولا يعني بأن يحشو له جيوبه باللطائف المشتهاة، ولا يجئه كل بضعة أيام بلعبة، فلا يعبأ به الطفل أو يجعل إليه باله، على حين تراه يتعلق بأهداب صاحب لأبيه لأن لا ينسى حين يجيء في زيارة، أن يحمل لهذا الطفل ما يسره أو لأنه يشغل نفسه معه بضع دقائق بالهذر الفارغ. وكان صديق لي يقول: (إنك سيئ الظن بالإنسان) فكنت أبتسم ولاأجيب، وأنتقل به إلى موضوع آخر استثقالاً لهذا البحث الذي لا يطيب للنفس في كل وقت، حتى لفتتني تلك السيدة الذكية إلى المظهر الحقيقي للإنسان، فدرسته في أبنائي، وانتهيت إلى أن كل ما في الإنسان من خير وفضيلة اكتساب وليس بطباع فيه؛ والطفل - قبل أن نعلمه خلاف ذلك - لا يعرف إلا نفسه، ولا فرق بينه وبين الوحش في الفلاة أو الغابة. وعجيب أن ينسى الإنسان أنه حيوان!؟! فهو يضرب أخاه، ويمزق له ثيابه، ويريق الحبر على أوراقه أو كتبه، ويحطم له لعبه، أو يتلفها، ويغضب أو يستاء إذا رآه يلبس الجديد قبله أو دونه، ويعذب العصافير والقطط، ويذوي الورود والأزهار، ولا يقف في العبث والإتلاف عند حد؛ ولا يدركه عطف على أحد، ولا يشعر برقة لإنسان أو حيوان. ولسنا نحن الكبار خيراً منه، وأنا لأحسن ضبطاً لأنفسنا، وكبحاً لأهوائها ونزعاتها، ولكنا نحتاج إلى الضبط والكبح لأن النزعات موجودة تلج بنا وتدفعنا؛ ولو أمنا العاقبة لأطعنا أهواء نفوسنا وأملينا لها فيها. ولو جمحت بنا لما نفعتنا اللجم والأعنة التي اعتدنا في حالت الاتزان أن نصدها بها عما تهم به. ونحن في كل حال نراقب ما هو أوفق لنا وأصلح، والأمر في الأطفال أوضح وأبين، لأن اللجم الكابحة ليست هناك، أو لأن التدريب عليها ناقص، ونمو العقل مع التجربة يساعد على حسن استخدام اللجام، ورياضة النفس على طاعته

ولست أقول إن الإنسان شرير بطبيعته، فليست المسألة مسألة خير أو شر، وإنما هي طباع فيه وفطرة يبنى عليها، والطباع لأخير ولا شر، وإنما وهي طباع. وقد أحتاج الإنسان إلى مقدار من النظام لما أحتاج أن يعيش في جماعته، والجماعة لا تصلح بالانطلاق مع السجية، وإنما تصلح بإقامة حدود وعلى أن روح الجماعة ليس فيها لأخير ولا رحمة ولا رفق ولا شئ مما يجري هذا المجرى، والشر الذي يذعر الفردَ مجرد التفكير في ارتكابه تقدم عليه الجماعة وهي ترقص وتباهي، وهذا ما يحدث في الثورات. وقد رأيت بعيني جماعة حانقت في أبان الثورة المصرية تمزق رجلاً بأيديها فوليت هارباً من هذا المنظر. وما أظن أن أقسى فرد يستطيع أن يفعل ذلك وهو وحدة. وأحسب إن الذي يرد الجماعة إلى الطبيعة الحيوانية وهو أن الطباع الحيوانية المشتركة - وهي واحدة - تتغلب على المزايا المكتسبة التي تزعمها صفات إنسانية - وهي متفاوتة

وما زالت القاعدة الحسابية هي صحيحة، أعني أن الذي يقبل الجمع هو المتشابه لا المختلف؛ ولست تستطيع أن تقول إن عندك أربع تفاحات وأنت تعني أن عندك تفاحتين وبرتقالتين ومن هنا ذهب ماكس نوردو بحق إلى أن برلماناً من أعظم الرجال

مثل جوته وشكسبير ونابليون الخ لا يكون خيراً برلمان من الأوساط العاديين: لأن برلماناً هكذا يكون مؤلفاً من مائة صفه مشتركة تتغلب على كل مزية مفردة لكل واحد من هؤلاء العظماء

ولست أذم أو أمدح، وإنما أصف الواقع، والواقع أيضاً أن المدينة معناها التنظيم، أي الكبح والصقل ودفع الحياة في المجاري التي هي أصلح للجماعة وأجلب لخيرها

إبراهيم عبد القادر المازني

من برجنا العاجي

طالما صحت قائلاً: إن الدولة لا تنظر إلى الأدب بعين الجد، بل إنه عندها شيء وهمي لا وجود له ولا حساب. وأقول اليوم إن الأدباء أنفسهم لا يريدون أن يحملوا الدولة على الإيمان بحقيقة الأدب. بل إن الآداب وقد أنكرتهم الدولة وأنكرت بضاعتهم لم يفعلوا شيء ولم يبدوا حراكا. بل إن الأمر قد بلغ من السوء حداً رأى فيه الآداب نتائج أذهانهم يسقط في التراب كما تسقط ثمار الشجرة الناضجة، فلا يتحركون ولا يصيحون في الناس: أن اقبلوا واجمعوا هذه الفاكهة وانتفعوا بها واطلبوا المزيد حتى تنشط الشجرة للأثمار ولا يجف ماؤها من الترك والإهمال. من العجب أن يلحظ الأدباء أن ثمار مواهبهم لا تصل إلى أيدي كثيرة فلا يجتمعون ليبحثوا هذه المشكلة. ومن العجب أنهم يرون أن زبده جهودهم تتلقفها أيدي الوسطاء من التجار الذين يتربصون بهم كما تتربص جوارح الطير بصغار العصافير فلا يحاولون المداولة فيما بينهم للخلاص من هذا المصير. إن انعدام روح النظام بين الأدباء وتفرق شملهم وانصرافهم عن النظر فيما يربطهم جميعاً من مصالح وما يعنيهم جميعاً من مسائل قد فوت عليهم النفع المادي والأدبي، وجعلهم فئة لا خطر لها ولا وزن في نظر الدولة، ولقمة باردة سائغة في فم التجار والوسطاء. تلك حال الناضجين المعروفين من أدبائنا، أولئك الذين يتخذهم الناشئون من الأدباء مطمحاً لأنظارهم، ويرون فيهم حلماً ذهبياً جميلاً، ويتحرقون عجلة وشوقاً لبلوغ مراتبهم، ويتوسلون إليهم أن يأخذوا بأيديهم ويقودوهم في هذا الطريق. .

واجب الأمانة يدعوني أن أصارح الناشيئن: إياكم أن تعقدوا الآمال الكبار على الأدب في بلادنا اليوم، إذا أستمر الحال على ما ترون. فما أرض الأدب الآن سوى مستنقع مهمل، حرام أن تلقى فيه بذور. وحسبكم تلك الزهرات القليلة الوحشية التي نبتت من تلقاء نفسها على حواشيه فلم يأبه لها أحد ولم يعن بتعهدها وريها إنسان!

توفيق الحكيم

البحتري أمير الصناعة

للأستاذ عبد الرحمن شكري

(تتمة ما نشر في العدد الماضي)

وللبحتري في ثنايا أبواب شعره أبيات كثيرة في الحكم والأمثال، بعضها يدل على فطنة لبعض نواحي الحياة والنفس، وبعضها معان مطروقة كساها ثوباً قشيباً. فمن حكمة وأمثاله قوله:

أُرَاقِبُ صول الوغد حين يهزه اق ... تدار وصول الحر حين يضام

وقوله:

هو الحظ ينقص مقداره ... لَمِنْ وزن الحظ أو كَالَهُ

وقوله:

لولا التباين في الطبائع لم يقم ... بنيان هذا العالم المجبول

وقوله:

ولستَ ترى عود القتادة خائفاً ... سموم الرياح الآخذات من الرند

وقوله:

واليأس إحدى الراحتين ولن ترى ... تعباً كظن الخائب المكدود

وقوله:

كالكوكب الدُّرِّيِّ أخلص ضوَءهُ ... حلكُ الدجى حتى تألق وانجلى

وقوله:

تَنَاس ذنوبَ قومك إن حفظ ال ... ذنوب إذا قدمن من الذنوب

وقوله:

خلت جهلاً أن الشباب على طو ... ل الليالي ذخيرة ليس تفنى
وقوله:
أدَعُ الصاحب لا أعذله ... لاُ يسَمَّى بِعَقُوقٍ فَيعِقّ
وقوله:
وقديماً تداول العسر واليس ... ر وكلٌّ قَدَّى على الريح يطفو
وقوله:
صعوبة الرزء تُلْفَى في تَوَقِّعهِ ... مستقبلاً وانقضاء الرزء أن يقعا
وقوله:
أغشى الخطوبَ فإما جئن مأربتي ... فيما أُسَيِّر أو أحكمن تأديبي
إن تَلْتَمِس تَمْرِ أَخْلافَ الأمورِ وإنْ ... تلبثْ مع الدهر تسمعْ بالأعاجيب
وقوله:
كأنما شرف الشريف إذا انتمى ... جُرْمٌ جناه على الوضيع الأصغر
وقوله:
إذا مَحاسِنيَ اللاتي أُدِلُّ بها ... كانت ذنوبي فقل لي كيف أعتذر
وقوله:
ما أضعف الإنسان لولا همة ... في نُبْلهِ أو قوة في لُبِّهِ
وقوله:
والشيءُ تُمْنعُهُ تكونِ بفَوته ... أجد من الشيء الذي تُعطاهُ
وقوله في التأسي بمصارع الموتى:
إذا شئتَ أن تستصغر الخطب فالتفت ... إلى سلف بالقاع أَهْمِلَ نائمة
ومثل هذا كثير من شعره.
وعندي أن غزل البحتري في مجموعه أرق وأحلى وأكثر نصيباً من الوجدان الفني من غزل أبي تمام. فمن قصائد غزله المشهورة قصيدته التي يقول فيها:
تمشى فتحكم في القلوب بِدَ لّها ... وتميس في ظل الشباب وتخطر
وقصيدته التي يقول فيها:
ذو فنون يريك في كل يوم ... خلقا من جفائه مستجدا
اغتدى راضياً وقد بتُّ غضبا ... ن وأمسى مولى وأصبح عبدا
وقصيدته التي يقول فيها:
أيها العاتب الذي ليس يرضى ... نم هنيئاً فلست أطعم غمضا
وهي رقيقة ومشهورة. ومن بديع غزله قصيدته التي يقول فيها:
والقصيدة التي يقول فيها (ردي على المشتاق بعض رقاده):
دنتْ عند الوداع لو شك بين ... دنو الشمس تجنح للأصيل
وفيها يقول:
وذَكَرَنيكِ والذكرى عناءٌ ... مَشابِهُ فيكِ بينةُ الشُّكولِ
نسيم الروض في ريح شمال ... وصوبُ المزن في راح شمولِ
والتي يقول فيها:
وجدت نفسك من نفسي بمنزلة ... هي المصافاةُ بين الماء والراحِ
والتي يقول فيها:
وهجر القرب منها كان أشهى ... إلى المشتاق من وصل البعاد
والتي يقول فيها (مِنِّى وصل ومنك هجر) والتي يقول فيها:
بات أحلى لديَّ من سِنَةِ النو ... م وأشهى من مفرحات الأماني
والتي يقول فيها:
إذا ما الكرى أهدى إليَّ خياله ... شفى قرُبهُ التبريح أو نقع الصدى
والتي يقول فيها:
وفيهنّ مشغولٌ به الطرف هارَب ... بعينيه من لحظ المحب المُخالِس
وهي ملاحظة فنية جميلة. والتي يقول فيها:
لم يُرْوَ من ماء الشباب ولا انجلت ... ذهبية الصبوات عن أيامه
وفيها يقول:
أُترِيكَ أحلامُ الكرى ذا لوعة ... كِلفَ الضلوع يراك في أحلامه

والتي يقول فيها:
أأنتِ ديار الحي أيتها الربى ال ... أنيقة أم دار المها والنعائم
وأيامنا فيك اللواتي تَصَرَّمتْ ... مع الوصل أم أضغاث أحلام نائم
لعل الليالي يكتسين بشاشة ... فيجمعن من شمل النوى المتقادم
والبحتري شاعر وصاف بماله من شهوة تذوق المرئيات بجمال فنه، فإن الفنان يتذوق مناظر الطبيعة والمرئيات عموماً كما يتذوق الطعام من له ذوق خاص في الطعام والشراب؛ وقد لا يكون شره النظر أو قد يكون، كما أن الذي له ذوق خاص في الطعام
والشراب قد يكون شره البطن وقد لا يكون
ومن أجل شهوة تذوق الأمور بفنه أشك في أن البحتري قد تعمد أخْذَ كل ما أخَذَ من، المعاني فقد تكون شهوة التذوق بالعاطفة الفنية هي التي ساقته إلى هذه المعاني سواء أكان قد اطلع عليها أم لم يطلع وهي على أي حال مفردات. ومن قصائده المشهورة في الوصف قصيدة ووصف آثار الفرس الفنية التي يقول في أولها (صنت نفسي عما يُدنِّس نفسي) وقصيدته في وصف بركة المتوكل التي يقول فيها:
كأنما الفضة البيضاء سائلة ... من السبائك تجري في مجاريها
إذا علتها الصَّبا أبدت لها حبكا ... مثل الجواشن مصقولاً حواشيها
فحاجب الشمس أحياناً يضاحكها ... ورَيِّقُ الغيث أحياناً يباكيها
إذا النجوم تراءت في جوانبها ... ليلاً حسبتَ سماَء ركِّبتْ فيها
ومن أوصافه المعروفة وصفه الشقائق في الأبيات التي يقول فيها: (سقى أكناف الحمى من محلة) وقصيدته التي يصف فيها الربيع وآثاره وفيها يقول:
وقد نَبَّهَ النوروزُ في غلس الدجا ... أوائلَ وردكن بالأمس نُوَّما
يُفَتِّقها برد الندى فكأنه ... يبثُّ حديثاً كان قبل مُكَتَّمَا
وله قصيدته البائية المشهورة في وصف صيد الفتح بن خاقان للأسد، والدالية التي فيها وصف لقائه (أي البحتري) الذئب في البيداء، ويعاود وصف الربيع كما فعل في قصيدته الرائية التي يقول فيها: (ألم تر تغليس الربيع المبكر) والميمية في وصف قصري المتوكل الصبيح والمليح وهي التي يقول فيها:
حلل من منازل المُلكِ كالأنجم ... يلمعن في سواد الظلام
وقصيدته في وصف البيان وهي التي يقول فيها:
لتفننتَ في الكتابة حتى ... عَطَّل الناس فن عبد الحميد
وهي مشهورة. وله أوصاف أخرى منتشرة في قصائده من وصف للنبات والطبيعة أو للحروب وآثارها مثل القصيدة الفريدة التي يقول فيها:
أسيت لأخوالي ربيعه إذ عفت ... مصايفها منها وأقوت ربوعها
ومراثي البحتري مراثي صنعة تكاد تغطي على الصنعة لأن العاطفة الفنية فيها تغنى على
العاطفة الحقيقية أو قد تكون مقرونة بشيء منها، وقد ظفر بنو حميد بمراث بلغت غاية الروعة الفنية من شعر أبي تمام ومن شعر البحتري. ولعل أبدع قصائده فيهم قصيدته التي يقول في مطلعها:
أقصر حميد لا عزاء لمغرم ... ولا قَصْرَ عن دمع وإن كان من دم
أفي كل عام لا تزال مُرَوَّعاً ... بفَذٍّ نَعِيٍ تارة أو بتوأم
إلى أن يقول:
فصرتَ كعُشٍ خلَّفتْه فراخهُ ... بعلياء فرع الأثلة المُتَهَشِّمِ
ثم يقول:
سلام على تلك الخلائق إنها ... مُسلَّمَةٌ من كل عار ومأثم
ومن المختار له في الرثاء قصيدته في سليمان بن وهب التي يقول فيها:
أأُخيَّ نهْنِهْ دمعك المسفوكا ... إن الحوادث ينصر من وشيكا
وقصيدته التي يقول فيها (ابني عبيدٍ شد ما احترقَت لكم) والتي يقول فيها (جحدنا سهمة الحدثان فينا). ومن أشهر قصائده في الرثاء رثاء المتوكل وقد قيل إن ابنه المنتصر ولي العهد دس له من اغتاله وإلى ذلك يشير البحتري في قوله: -
أكان وَلِّيِ العهد أضمر غدرة ... فمِنْ عَجَبٍ أنْ وُلِّيَ الأمر غَادِرُهْ

وهو لم يتمتع بالخلافة إلا بضعة أشهر. ويقال إن ضميره أفسد عليه تلك الأشهر من حياته. ويخيل إلي أن البحتري لم يعلن هذه القصيدة إلا بعد وفاة المنتصر إلا يكون قد تنبأ بها وأجاب الله دعوته في قوله:

فلا مُلِّيَ الباقي تراثَ الذي مضى ... ولا حملتْ ذاك الدعاء منابرُهْ

وفيها يمدح المعتز بن المتوكل فيقول:

وإني لأرجو أن تُرَدَّ أمورُكم ... إلى خلَف من شخصه لا يغادرُه

مُقلَّب آراء تخافُ أناته ... إذا الأخرق العجلان خيفت بوادرُهْ وإني أشك في صدق قوله وأرى أنه من شواهد ما قدمت من اختلاط الخيال بالعاطفة:

أُدَافعُ عنه باليدين ولم يكن ... ليثنى الأعادي أعزلُ الليل حاسرُهْ

ولو كان سيفي ساعة الفتك في يدي ... درى الفاتك العجلان كيف أساوره

إذا أنه لو فعل كما قال إنه فعل لقتله الفاتكون. ولكن المشهود في القصيدة روعة الصنعة وفخامتها لا عمق العاطفة. والحق أن البحتري إذا ملك صناعته ولم يتكلفها أتى بها وهي في بهجتها وحلاوتها حقيقة بالمدح الذي مدح به البحتري منزلة ممدوحة في قوله:

منيت أحاديث النفوس بذكرها ... وأفاق كلُّ منافس وحسود

وأصدق قول يقال في البحتري وأبى تمام هو ما قاله البحتري نفسه إذ قال إن جيد أبي تمام خير من جيدة، ورديء أبي تمام شر من رديئة. ومثل هذا القول يصح أن يقال أيضاً في البحتري وابن الرومي، ولا نعني بالجودة الصناعة فحسب بل كل ما ينهض به الشعر من ميزات. وللبحتري قصائد في العتاب هي من أجل ما كتب في اللغة العربية في هذا الباب ولا سيما عتابه للفتح بن خاقان في قصيدته البائية التي يقول فيها:

ولو لم تكن ساخطا لم أكن ... أذم الزمان وأشكو الخطوبا

والميمية التي يقول فيها:

أعيذك أن أخشاك من غير حادث ... تبيّن أو جرم إليك تقدّما

وفي صنعة عتابه كما في صنعة مدحه حلاوة وسهولة المتناول، وليس فيها اللجاجة الفكرية التي بذلها ابن الرومي في قصيدته في العتاب التي يقول فيها (يا أخي أين ربع ذاك اللقاء). على أن هذه القصيدة لابن الرومي لا تمثل إلا ناحية واحدة من نواحي مقدرته في العتاب فله نواح أخرى منها ناحية العتاب الممزوج بالهجاء، ومنها ناحية العتاب الذي فيه خضوع للمعاتب. وابن الرومي أوسع مقدرة من البحتري وأكثر نصيباً من ذخائر اللب وإن كان البحتري أوفر نصيباً من بهجة الصنعة.

وقد جاء في كتاب الأغاني وصف إنشاد البحتري لشعره: فقال المؤلف إنه كان يتشادق في إنشاده، ويتزاور، ويتمايل، ويلوح بكمه، ويتقدم ويتاخر، ومعنى هذا الوصف أنه كان يُمَثِّل كما يصنع الممثل على المسرح، وإني أميل إلى تصديق هذه الرواية إذ أنها تؤيد ما ذهبت إليه من أن البحتري كانت عنده صفة يكثر ظهورها في بعض الممثلين، وهي اختلاط الأحاسيس التي يمثلونها بحقائق الحياة حتى يصعب التمييز بينهما، وقد ضربت من أمثال ذلك مثلاً من غزله ومن رثائه للمتوكل. ولم يكتف البحتري في إلقائه بطريقة الممثلين في الإنشاد، بل كان ينظر إلى الحاضرين ويطلب منهم الاستحسان ويلومهم إذا لم يظهروا الإعجاب والاستحسان؛ وطلبُ الاستحسان من المشاهدين والحرص عليه والانتشاء به من صفات الممثلين أيضاً. وقد ضجر منه المتوكل يوماً لمغالاته في هذه الأعمال. فأغرى به شاعراً صغيراً عبث به في شعره. ولو جاز أن نتمنى سماع إنشاد البحتري لشعره لتمنينا أن نسمعه ينشد بهذه الطريقة التمثيلية قطعة من شعره تساعد على إظهار مقدرة الممثل قوله في قتاله للذئب:

عوى ثم أقعى فارتجزت فهجته ... فأقبل مثل البرق يتبعه الرعد

فأوجرته خرقاء تحسب ريشها ... على كوكب ينقض والليل مسود

فما ازداد إلا جرأة وصرامة ... وأيقنت أن الأمر منه هو الجد

فأتبعتها أخرى فأضللت نصلها ... بحيث يكون اللب والرعب والحقد

فخرَّ وقد أوردته منهل الردى ... على ظمأ لو أنه عذب الورد

ونلت خسيساً منه ثم تركته ... وأقلعتُ عنه وهو منعفر فَرد

ولا غرابة أن يكون عند الشاعر الذي عماده الصناعة اللفظية صفة الممثل الذي ينتشي

بما يقول حتى يخلق له القول عاطفة فنية لا تكاد تميز من الأحاسيس الناشئة من حوادث الحياة في نفوس بعض ذوي الفنون. وفي الأخبار التي وردت عن البحتري نرى أنه كان يمدح شاعرين هما: أبو تمام، والعباس بن الأحنف. وفي شعر البحتري أثر محاكاته للأول في الصنعة البيانية ومعانيها وللثاني في بعض الغزل من شعره.

عبد الرحمن شكري

أعلام الأدب

درامات سوفوكليس

للأستاذ دريني خشبة

حدّد سوفوكليس الفرق بينه وبين إسخيلوس، ثم بينه وبين يوريبيدز فقال:

أنا أصور البشر كما كان ينبغي أن يكونوا

ويصورهم يوريبيدز كما هم

أما إسخيلوس فقد كان يوحي إليه بالحق فينطق به دون أن يعرف ما هو

وذلك من سوفوكليس تحديد جميل ينتفع به مؤرخو الأدب الكلاسيكي، لأن سوفوكليس كان حقيقةً يلتزم في جميع دراماته هذا التسامي نحو مَثَله الأعلى الذي كان يجهد ألا يضحي به ولو عارض الأوضاع ونافى التقاليد وثار بالشرائع

لقد رأى إسخيلوس يقسو على الفتى أورست الذي قتل أمه لأنها قتلت أباه فأسلمه لطائف من الجنون، وسلط عليه ربات العذاب تُشقيه وتقص آثاره وتسد عليه المسالك. لأن جريمة قتل الوالدين هي أشنع الجرائم فيما تواضع عليه الدين اليوناني الأسطوري من غير نظر إلى ما في ذلك القتل من حق أو غيره. . . ومع أن إسخيلوس كان لا يرى أن يُعد أورست مجرماً بدليل ما ذكره على لسان أبولو أمام محكمة مينرفا إلا أنه أجرى درامته في حدود المعتقدات اليونانية فجعل ربات العذاب تلاحق أورست كما تلاحق المجرمين لتأخذه بما جنت يداه. ثم توسل إسخيلوس بهذه الهيئة القضائية التي كانت مينرفا بمقام الرئيس فيها، كما كان أبوللو بمقام المحامي، وكما كانت ربات العذاب بمقام المدعي في حين كان أورست في مقام المتهم. . . فلما رأت مينرفا أخذ أصوات الحضور بوصف كونهم محلفين، ثم لما تساوت الأصوات ضد أورست ثم له، عمد إسخيلوس إلى مينرفا فجعلها تنحاز إلى جانب أورست، وبالأحرى إلى فكرة إسخيلوس في عدم حسبان الفتى مجرماً لأنه قتل أمه التي قتلت هي أيضاً أباه، لأنه ضَحّى بابنتها إفجنيا كما تقدم ذكر ذلك جميعا

رأى سوفوكليس نده القوي يتناول المأساة على هذا النحو فترك سبيله وسلك سبيلاً أخر. . . أنه لمُ يسلم أورست لطائف من الجنون ولم يُلاحقه بربات العذاب كما فعل إسخيلوس، بل هو قد أهمل الشريعة الأسطورية كلها وأظهر أورست في ثوب البطل الذي يرى أن أمه

قتلت أباه بغير الحق وصَبَت قبل ذلك إلى عشيق مجرم من أعداء أسرته وآذت أبناءه وأهدرت كرامتهم فهي لكل ذلك تستأهل أن تقتل، بل يجب أن تقتل بيد أبنها، فإذا هم أبنها بقتلها وتوسلت إليه بدموعها مرة وثدييها مرة أخرى خشيت (إلكترا) - وهذا هو اسم الدراما - أن يضعف أخوها أو أن يستخذي فحضته على قتل أمه - وأمها - (لأنها لم ترحم أحداً من قبل!)

وهكذا صور سوفوكليس الناس كما ينبغي أن يكونوا، ولم يلف طويلاً كما صنع إسخيلوس. . . أما كيف أتقى ثورة الناس لإهماله شريعتهم الأسطورية فقد كانت حجته أن في الأساطير ما يذكر أن ديانا قد أنقذت الفتاة إفجنيا من الذبح وذلك بفدائها بذبح عظيم على نحو ما نعرف من قصة إبراهيم وولده إسماعيل. . . لذلك كان حنق كليتمنسترا في غير موضعه، وكان باطلاً كل ما كانت تبرر به مسلكها نحو زوجها، وكل ما ترتب على هذا المسلك من نتائج

وليس من عيب في مأساة إلكترا إلا ما أقحمه فيها سوفوكليس على لسان الرسول من وصف الألعاب البيثية وصفاً طويلاً يفضي إلى الإملال.

2 - أجاكس:

قد تكون مأساة أجاكس أقدم ما وصلنا من درامات سوفوكليس سليما كاملا. . . وهي مثل إلكترا يصادفك فيها المعجب المطرب من الفكر الرائع والفن البارع، كما يصادفك المشهد السمج والحوار الثقيل خصوصاً إذا كان ذاك المشهد أو هذا الحوار فيما يتعلق

بتقليد يوناني تطاول عليه العهد فلم يعد سائغاً عندنا اليوم
بعد مقتل أخيل بطل أبطال اليونانيين اتفقت الآراء على ان تُمنح دروعه وعدته الحربية التي صنعها له فلكان الحداد إله النار لأشجع الأحياء من أبطالهم المحاربين، وبالرغم من أن أجاكس كان أشجعهم جميعاً فقد رأى القضاة أن يخلعوها على أودسيوس لأنه كان إلى شجاعته أبرع اليونانيين حيلة وأكثرهم حكمة. . وكان ينبغي أن يخضع أجاكس لهذا الحكم، إلى أنه ثار وتولاه الغضب واعتزم أن يقتل القضاة الظلمة الذين جرحوا كبرياءه بما فضلوا عليه أوديسيوس. . . لكن أثينا (مينرفا) التي كانت تحابي أوديسيوس دائماً، لم تدعه يفعل، بل أسلمته لطائف من المس وفورت من الجنون، فامتشق سيفه وراح يقتل قطعان الشاء
والْنعم وهو يحسب أنه يقتل أعداءه القضاة من قادة الإغريق. . . ثم يفيق أجاكس ويعلم ما كان من أمره، وينظر إلى نفسه فيراه رجلاً لم تعد له كرامة بين عشيرته، ويري الجميع يصدون عنه. . . فيألم ويضيق بحياته، ويزيده ألماً ما ظن من حنق أثينا عليه، وما عرف من تحقيره أَمَتَه الجميلة تكماسا، فينطلق إلى مكان موحش مهجور عند شاطئ البحر، ثم يتكئ بصدره على سنان سيفه، فيسقط على الرمال ويتشحط في دمه. . . ويجتمع القادة حول جثمانه فيختلفون ساعة على دفنه، ولكن أودسيوس ينسى سخيمته، ثم يتولى الدفاع عن عدوه في عبارة كلها تمجيد له واعتراف بفضائله، فلا يسع الباقين وفي مقدمتهم منالوس إلا أن يوافقوا على الدفن وأقام الشعار الدينية على جثته. . . ويقع ثلث المأساة تقريباً بعد انتحار اجاكس، وهذا عيب درامي وقع فيه سوفوكليس حين غلبه الشاعر المستكن فيه على الدرامي الذي هو أروع نواحي شخصيته العجيبة العظيمة. . . وتمتاز هذه الدرامة بالكلمات الجميلة الخلابة التي كان يتبادلها الزعماء فوق جثمان أجاكس، ثم أوديسيوس منه بعد الانتحار. . . ثم هذه النجوى وذاك الوداع الذي فارق بهما أجاكس دنياه وهو يشحذ سيفه وجعلهما آخر أنفاسه. . . على أن أثر إسخيلوس واضح جداً في هذه المأساة التي صور فيها الشاعر صراع الإنسان ضد المقادير وما يلقى في تمرده على القضاء من شقاء. . .
أنتيجونى (445 ق. م) - 3
تعتبر مأساة أنتيجونى أجمل فرائد سوفوكلس، وقد نظمها سنة 442. وتكاد تكون الحلقة الرابعة في ثلاثية إسخيلوس التي ثالثها (سبعة ضد طيبة). فقد شهدنا كيف تبارز الشقيقان: إتيوكليز، وبولينيسيز، وكيف قتل كل منهما الآخر في مأساة إسخيلوس. هنا ينهض بالملك الطاغية كريون أخو الملك أوديب غير الشقيق، وتكون مهمته شاقة لأنه يلي أمر مملكة منهوكة جائعة حزبتها الحرب التي أثارها بولينيسيز، والتي استعان فيها على وطنه بجيوش الأجانب مما جعل مواطنيه ينقمون عليه ويبغضونه أشد البغض. من أجل هذا احتفل كريون بجناز إتيوكليز وأقام الشعائر الدينية على جثته. ثم أمر في الوقت نفسه أن يترك جثمان بولينيسيز منبوذاً بالعراء تنوشه الجوارح، وتغتذي به بواشق الطير وجياع السباع. لكن الفتاة أنتيجونى تسخر بأوامر الملك وتعرض نفسها للمهالك حيث تذهب إلى
جثة أخيها فتحثو عليها التراب وتدفنها وتؤدي لها شعائر الدين التي لا تستقر أرواح الموتى إلى بعد أدائها. هنا تثور ثائرة الملك، ويأمر بالقبض على الفاعل الذي استهزأ بقوانين الدولة؛ فلما يعلم أن أنتيجونى هي التي أتت هذا الأمر لا يبالي أن يأمر بدفنها حية بالرغم من إنها مخطوبة لولده هايمون الذي يحبها ويهيم بها ويعبدها عبادة. ويحضر الابن فيجادل أباه في محبوبته، بل معبودته لكن الرجل ينسى كل شئ إلا انه ملك. فينصرف هايمون بعد أن ينذر أباه أنه لن يراه بعد اليوم، ويذهب فينتحر عند باب القبو الذي دفنت فيه أنتيجون. ثم تنتحر أمه عندما يأتيها نعيه، تلك الأم الرءوم المعذبة التي فقدت ولدها ميجاريوس من قبل، إذ ضحى أبوه من أجل صوالح الوطن. ويتلفت كريون فيراه وحيداً في هذه الحياة العبوس الجائحة، يبكي قلبه من غير أن ينفعه أن حفظ سلطان القانون فيتمنى، ولن ينفعه التمني، لو أنه سمع لنصيحة الكاهن الذي محضه النصح أن يترفق بولده حتى لا يصب الويلات على رأسه
لقد كان سوفوكليس فناناً عظيماً في هذه المأساة الخالدة. . . لقد صور فيها شخصيات رائعة لم تظفر بمثلها درامة في تاريخ المسرح. . . فهذه هي أنتيجون العنيدة الصارمة التي لا تبالي سلطان الملك وجبروت الدولة، وهذه أختها إسمنيه

الضعيفة الساذجة المضطربة التي لا تقر أختها على فعلتها، ولا تنكث بها مع ذاك. . . وذاك الفتى هايمون الذي يجادل أباه بالحق والمنطق، فلما يعييه إقناعه يرتخص الحياة بعد عروسه ويتخلص منها غير باك عليها، وهذا كريون الملك الذي يتغطرس ويغلو في غطرسته، لكنك لا تستطيع مع ذاك إلا أن تعجب به بصفته حاكما، ولا ينبغي أن يكون الحاكم إلا صلباً لا يبالي غير الحق ولا يتهاون في شأن من شئون السلطان. . . ثم أولئك المنشدون (الخورس) الذين يحبذون أنتيجونى حين تصرح أنها لم تأت منكراً حينما دفنت أخاها، ويرثون لها يمون العاشق حين يحاول إقناع الملك بخطل سياسته فلا يقتنع، في حين لا ينتقدون الملك حين يشتط في التمسك بأوامره ووجوب معاقبة الخارجين عليها لأنهم يكونون خوارج على الدولة. . .

هذا إلى فن سوفوكليس وروعة أسلوبه الذي يقول فيه جيته: (إن كل شخصيات سوفوكليس قد أوتوا نعمة الفصاحة، وجمال البيان، فهم أبداً مداره الباء يعرفون كيف يسوقون حججهم ويقيمون براهينهم بحيث يكون السامع إليهم في صف المتكلم الأخير منهم دائماً!)

4 - أديبوس تيرانوس (أوديب الملك)

عرضنا خلاصة هذه المأساة في إسخيلوس عندما لخصنا (سبعة ضد طيبة). ودرامة فوكليس تتناول حياة أوديب بعد أن رقى أريكة الملك ثم تتسلسل الحوادث حتى يعرف السر الهائل: أنه قتل أباه وأنه تزوج من أمه وأنه أولدها أبناءه جميعاً. . وأروع مشاهد المأساة ذلك المنظر الذي يعترف فيه كل من أوديب وأمه أحدهما للآخر عن الماضي المؤلم المشجي. ثم تلك النهاية التي تقتل الأم فيها نفسها، ويسمل الابن عينيه.

وبالرغم من روعة الماسة وسموها الفني قد لاحظ عليها النقاد ضعفاً في الحبكة الدرامية، إذ كيف يسيغ الذوق الدرامي أن يتزوج شاب قوي فتى جميل مثل أوديب امرأة عجوزاً شمطاء تكبره مرتين أو أكثر من مرتين مثل أم هذا الفتى!؟ ليس في تاريخ الجمال اليوناني ما يسيغ هذا الوضع وخصوصاً على المسرح. وقد اعتذر أرسطو عن ذلك بأنه عيب يضيع في روعة حوادث المأساة وجمال تسلسلها وشدة أسرها. . . ثم لماذا تنتحر الأم ولا ينتحر أوديب؟ لماذا يكتفي بأن يسمل عينيه ويعيش بقية حياته أعمى في تيه الغابات؟! يعتذر أرسطو لذلك أيضاً بأن الأسطورة كانت مشهورة قبل سوفوكليس فلم يشأ أن يتناولها بالتبديل والتحوير، ويُرد على ذلك بأن سوفوكليس كان يصور الناس والحوادث بما كان ينبغي أن يكون فِلمَ لم يطبق قاعدته على مأساة اوديبوس؟!

5 - عذارى تراشينيا

لا ندري لماذا أطلق سوفوكليس ذاك الاسم على مأساته هذه إلا أن تكون قد حدثت هنالك. . . وكان الأحرى أن يسميها ديانيرا أو مقتل هرقل يعترض طريق هرقل في إحدى مغامراته نهر عظيم لا يستطيع أن يعبره وتكون معه زوجة الجميلة المفتان ديانيرا فيبدو لهما سنتور عظيم ويعرض أن يحملهما إلى العدوة الأخرى. . . وتركب ديانيرا على ظهر السنتور ويخوض بها في اليم فيحس نحوها بغرام شديد فيعتزم أن يهرب بها من هرقل، فلما يبلغ العدوة الأخرى ينطلق بها فتصرخ فينتبه هرقل فيرسل أحد سهامه المسومة بدماء هيدرا فيخترم السنتور. . . وقبل أن يموت السنتور يهب ثوبه لديانيرا فتفرح به لأنه كما زعم لها يرد إليها محبة زوجها إذا تحول عنها قلبه بشرط أن يلبسه. . . وتحتفظ ديانيرا بالثوب سنين عدداً ثم يمضي هرقل في أحد مجازفاته فتعلم انه صبا إلى حبيبته شبابه وخليلته الأولى فتضطرم الغيرة في قلبها وتذكر ثوب السنتور، ثم ترسل أحد خدمها ليلقي هرقل وليقدم له ثوب السنتور فيلبسه (لأنه يعيد إليه ما خار من قواه في مجازفاته الشاقة)، وما يكاد هرقل يلبس الثوب حتى يسري سم السنتور في جسمه فيعذبه ويضنيه حتى يموت. . . وتعلم ديانيرا بموت زوجها فتعرف حقيقته الثوب وأن السنتور وإنما أراد أن ينتقم من هرقل لأن قتله فتحزن ثم تنتحر في

هذه المأساة والمأساتين التاليتين نلحظ تبديلاً في سوفوكليس ونرى أنه تأثر بالشاعر الشاب يوريبيدز. . ثم نلحظ ضعفاً في الحبكة الدرامية سببه الهرم وتقدم السن، فقد نظمها بعد الثمانين وفي عصر تقلقل وصراع بين أثينا وإسبرطة.

6 - فيلوكتيتس (409 ق. م)

عندما حضرة الوفاة هرقل منح سهامه المسمومة لرصيفه البطل فيلوكتيتس الذي صحب اليونانيين في حملتهم على طروادة. . . لكن أفعى لدغته في رجلة في جزيرة لمنوس، وأحدثت بها جرحاً بليغاً سبب له ألماً شديداً، وخشي المحاربون أن يكون سبب في طاعون يذهب بريحهم فتركوا البطل المسكين وحيداً فوق الشاطئ ثم أبحروا إلى طروادة. . . واستمرت الحرب عشر سنوات سجالاً بين الفريقين، ثم جاءتهم نبوءة أن طروادة لا تسقط إلا إذا حظر الحرب فيلوكتيتس ومعه سهام هرقل. . فذهب البطل أودسيوس ومعه البطل نيوبتوليموس بن أخيل إلى حيث ثرى فيلوكتيتس ليحتالا عليه فيحضر معهم إلى طروادة بسهام هرقل. . . وقد شق على البطل أن يفعل وعز عليه أن يصحب قوماً أهملوه في كربته وغادروه وراءهم وهو في شدة الحاجة إلى معونتهم، وكان جرحه ما يزال يؤلمه ويبرح به. . . ولكن شبح هرقل يبدو له في شبه حلم وينصح له بالذهاب إلى طروادة لنصرة قومه، ولأن هناك الطبيب ماشيون الذي يستطيع مداواة جرحه فيهش فيلوكتيتس وينهض من فوره، ويمضي إلى طروادة. . . وحل عقدة الدرامة على هذا النحو يدلنا على مبلغ تأثر سوفوكلس بيوريبيدز

أوديبوس في كولونوس - 7

لا ندري لماذا عاد سوفوكليس فجأة وبعد نصف قرن تقريباً إلى مأساة أوديب؟ لعله أراد أن يرد على آرسطو قبل أن يولد (384 - 322)، كما أراد أن يقول لماذا لم ينتحر أوديب

كما انتحرت أمة!

بعد أن سمل أوديب عينيه نفاه كريون باتفاق بينه وبين أبنيه المتنازعين على العرش مما جعل أوديب يرسل لعنته على ولديه. . . وذهب الملك الأعمى ليأوي إلى الأحراج والكهوف فتبعته ابنته أنتيجونى لتعينه وتقوده وتسليه، وكانت ابنته الثانية إسمنيه تختلف إليه في الخفاء لتنهى إليه أسرار طبية. . . وتمضي السنون. . . ثم تقول نبوءة إن أوديبوس إذا مات في أرض أجنبية وأشتملت جثمانه تلك الأرض فإنها لا تلبث أن تغزو طيبة وتنتصر على أهلها. . ويذهب أديبوس على وجهة في الأرض، تقوده أنتيجونى حتى يأتيا أحراج يومينيدز أو ربات اللطف والرحمة فما يكاد الملك يمس بقدمه أرضهن حتى يشيع فيه إحساس الرضى والشعور بالرحمة فيعلم أن الربات قد عفون عنه وغفرن له ذنبيه العظيمين: قتل أبيه وزواجه بأمه. ثم تأتيه بذلك النبوة، وتشمله حماية الربات، ويتلقاه ثيذيوس عظيم كولونوس فيكرم مثواه ويعطيه عهده على أن يحميه ضد ولده وضد كريون على السواء. . . وهكذا تنتهي آلام هذا الرجال التعس، وتعود إليه طمأنينته بعد أن كفر عن ذنبه. . .

والمأساة لا عقدة لها، بل هي سلسلة من الآلام عرضها سوفوكليس عرضاً جميلاً رائعاً، واستجمع لها رصانة الأسلوب ودقة الأداء وفتنة الفن. . . وقد مات سوفوكليس ولم يشهد مأساته تمثل، وقد تولى إخراجها حفيده المسمى باسمه فجمع لها قدسية الأكروبوليس وشدو البلابل وعظمة أثينا التي حطمتها إسبرطة

وبعد، فهذا عرض سريع مقتضب لا يغني عن قراءة الأصول شيئاً.

دريني خشبة

يا غازي. . . عليك رحمة الله!

للأستاذ علي الطنطاوي

عليك رحمة الله (يا غازي) الحبيب، يا فخر الشباب، يا من لم يمتع بالشباب! يا سيد العرب، يا من روع فقده العرب. يا بدر العراق الآفل، يا أمل الشام الذاهب يا دنيا من الفتوة والبطولة والنبل طواها كف الموت (يا غازي) عليك رحمة الله!

بالأمس استصرختك وأنت أملنا وملاذنا، وأنت عوننا على الدهر الظالم، والعدو الغاشم، أفأقوم اليوم لأرثيك يا أملنا ويا ملاذنا؟ أأقف على قبرك الطريّ مودعاً وباكياً، وقد كنت أقف على بابك العالي مستغيثاً ومستصرخاً؟ أأخاطبك اليوم من وراء القبر وقد كنت بالأمس ملء الكون حياة وقوة وشباباً؟ ليتني ما عشت حتى أرى هذا اليوم! ليت يدي ما طاوعتني حتى أكتب هذا المقال! ليتني ما بقيت حتى أرثيك يا غازي! (يا غازي) جل المصاب وما لنا فيه يدان! (يا غازي) عظم الخطب وضاقت الحيلة! (يا غازي) لو كان يفتدى ميت لفداك العرب بأنفسهم! (يا غازي) قد فقدناك فعليك رحمة الله!

على شبابك الكامل، على بطولتك النادرة، على أيامك الحلوة، على ذكرياتك الخالدة، على روحك الطاهرة (يا غازي) رحمة الله!

أفي عشرة أيام يدور الفلك، وتتبدل الدنيا، ويستحيل عيد مولد الملك الشاب الحبيب، إلى مأتم الملك الشاب الحبيب؟

أفي عشرة أيام تمر دنيا كاملة، تبدأ بأعظم عيد عرفه هذا الشعب هو عيد ميلاد (غازي) وتختم بأجل مصاب رآه. وهو المصاب (بغازي)؟

من كان يظن وهو يشهد أفراح هذا الشعب في (21 آذار) يوم الربيع الطلق، ويوم (غازي) الذي كان أمرع من الربيع وأبهى، أن الفجيعة الكبرى كامنة في الغد القريب، وان هذا الشعب سيلطم وجهه ويمزق ثوبه حزناً على (غازي)؟ أأحسست بالغد القريب فذهبت تستعجل القدر لتهيأ لأمتك كل شيء قبل أن تمضي، فعرضت جيشك يوم الثلاثاء لتؤكد لها القوة والأيد، وفتحت السدة يوم الأربعاء لتضمن لها الحضارة والخصب، وعطفت على آلام سورية لتنشئ لها الوحدة والعزة، وأجريت الخيل يوم الجمعة لتعلم وليدك الصغير كيف يكون فارساً قبل أوانه، كأنك شعرت أنا سنفجع فيك قبل الأوان؟

لقد كنت قريباً منك يوم (عرض الخيل) فرأيت في عينيك وأنت تراقب أبنك معنى من معاني الغيب ولكنا ما أدركته، ومن أين يخطر على بالي أنك كنت تودعه، وتفكر فيه كيف يفقد أباه ويجد الملك، فلا يدري ما الملك ولا بني ينادى: بابا. . .؟ من كان يظن أن الملك الشاب أبن الخمس والعشرين يموت؟

من كان يظن أن هذه الهبة الكبرى إنما هي استعجال للقدر، وأن هذه الأيام العشرة إنما هي الخاتمة البارعة لتلك الحياة البليغة؟: ولكن هل تم كل شئ حتى تستريح (يا غازي)؟ لقد وعدت (وفد العروة) أن تشرفهم بلقائك وما عهدناك أخلفت قبل اليوم وعداً. لقد كمل الجسر العظيم الذي لم ينشأ مثله في عهد الرشيد والمأمون، فأين أنت لتفتحه بيدك، وتخطو فيه أول خطوة؟ لقد وصل الخط الحديدي إلى الموصل أفلا تفضلت فرعيته وافتتحته؟ لقد أجمعت أمه الشام على نصبك ملك، وتسليمك عرش أبيك على رغم الظالمين، فأين أنت لتسكن قصر أبيك في دمشق وتحتل عرشه فيها؟

لقد تهيأ العرب ليمشوا تحت لوائك إلى قمم المجد وذرى العظمة، فتقدم يا قائد العرب يا مليك؟

وأين قائد العرب؟ أين المليك؟

لقد مشى إلى رحمة الله، فإنا لله وأنا إليه راجعون!

أحين اشتدت المعظلة، واستحكم الأمر، ورجوناك للخطب لا يرجى فيه إلى أنت. .؟

أحين تعلقت بك الآمال، وأقبلت عليك القلوب، وغدوت حبيب الشعب المفدى. .؟

أحين تمت بك الأفراح، وكادت تتحقق بك المنى. . .؟

اللهم لقد حرمت كل شيخ منا ابنه، وكل فتى أخاه، وكل صبي أباه، حين أخذت سيدنا وحبيبنا وملكنا غازي!

اللهم فارزقنا الصبر، وأين منا الصبر؟

أرفع رأسك ساعة وانظر إلى شعبك. إنه يحار ماذا يصنع، فهو يسكن واجماً (يا غازي) ثم يثور نادباً، ثم يستفزه الألم فيقرع الطبول ويرقص رقصة اليأس. إنه يحمل صورتك مجللة بالسواد فلا يراها أحد حتى يبكي. على أنهم حملوا صورتك في الأفئدة ونقشها على صفحات النفوس، فأنت من كل قلب حبته، ومن كل عين سوادها؛ اسمك آهة على كل لسان، ودمعة في كل مقلة، وخفقه في كل فؤاد، ومناحة في كل بيت عربي. . .

فيا غازي، عليك رحمة الله!

لقد لحقني اليوم طفل ما أحسبه بلغ الرابعة، فجعل يطلب مني بإلحاح ويشير بيديه؛ فأعطيته فلسين فألقاهما في وجهي، فزدتهما فرما الأربعه، فتفهمت قصده فإذا هو يطلب شارة سوداء كالتي أضعها في صدري ليعلن بها الحزن عليك، فدفعتها إليه فانصرف وهو يذكر اسمك ويبكي!

لقد رأيت عجوزاً تنظر إلى رسمك المجلل بالسواد وتبكي بحرقه كأنما تبكي فيك ولدها الوحيد، وهي تظن أنه ما يراها من أحد إلا الله!

لقد أغمي على كثير من الطلاب والطالبات لما سقط عليهم الخبر الأسود. لقد احمرت

من اللطم صدور وخدود يؤذيها مس النسيم!
يا غازي، يا أيها الفتى القوي، يا أيها الفارس الطيار، ألم تعد تستطيع أن ترفع رأسك مرة أخرى لترى ما صنع شعبك؟
لقد مت من القضاء مرت ولكنا متنا من الحزن ألف مرة، وسنموت من الحزن ألف مرة، ولن ننساك (يا غازي)، مثلك ما ينسى! إن الشام الذي نادى بك مليكاً منذ أيام وكنت أنت أمله لم يبقى له أمل، فهو يبكي فيك اليوم كل شهيد من شهدائه. إنه كان يحبس دمعه من أجلك فلم يحبس الدمع من بعدك؟
إن العجوز التي كانت تتلقى أبنها وهي تهتف باسمك، لم يبقى لها من تهتف باسمه من بعدك!
من لأطفال الشام، من لنسائه، من لضعافه الذين يسومهم القوي ألوان (يا غازي) الخسف؟ (يا غازي) من لهم، وباسم من يهتفون من بعدك؟
ما تيتم لفقدك فيصل الصغير وحده ولكن فقدك يتم كل عربي. ما يتم فيصل (يا غازي) الصغير، أبداً ماتيتم، إن كل عربي له أب وخادم وصديق، إن له في قلب كل عربي مكاناً!
أحقيقة أنهم أودعوك جوف الثرى؟
إني والله ما أصدق أنك مت (يا غازي)!
لقد سمعت الخبر فكذبته، ولعنت ناقله وانتظرت أن أراك طالعاً علينا، تمر (يا غازي) مر النسيم الناعش، مرّ الرجاء الحلو بخيال الآيس الحزين، تحي شعبك، وتسبغ عليه القوة
والحياة بابتسامتك المنيرة وفتوتك الباسلة؛ وطفقت أراقب الساعة أحسب الوقت فلم تمرّ، فشككت ولكني لم أصدق ما قال المرجفون، ورأيت النساء يبكين ويندبن، فبكيت والله ولكني لم أصدق ما قاله المرجفون. . . وشاهدت بغداد وملء شوارعها البكاء والحسرة والندب، ولبثت أشك ولبثت أرجو، حتى سمعت المدافع ووعيت صحيحة، فلم يبقى شك ولم يبقى رجاء. . . لقد تحقق النبأ فواحسرتاه. . . لن نراك (يا غازي) طالعاً علينا، لن نبصر من بعد موكبك ولا ابتسامتك ولا تحيتك، فيا غازي في ذمه الله وأمانه، يا غازي عليك رحمة الله.
يا أهل بغداد!
مات غازي فابكوا واندبوا، فعلى مثل غازي يحلو الندب والبكاء.
يا أهل بغداد!
ما فجعتم فيه وحدكم، ولكنها فجيعة العرب بسيد العرب. لقد كان منار رجائنا (معشر الشاميين) فانطفأ المنار. لقد كان لنا مناط الأمل. لقد كان لنا كل شيء. . . فيا أهل بغداد كلنا في المصيبة سواء ولكننا سنتبع طريق غازي، وسنمشي تحت لواء خليفته. حتى نبلغ الغاية التي سعى إليها ويقول التاريخ: إن العرب يبكون سيدهم الراحل لأن لهم عواطف وقلوباً، ولكنهم يخلصون لسيدهم الجديد لأن لهم مطامح وعقول. فيا غازي أذهب إلى رحمة الله مشيعاً بالحب والإكبار. ويا أبن غازي اعل العرش، وانشر اللواء واحمل التاج، فإنه ليسر روح غازي في سمائها، وعظامه في ثراها أن يخلص شعب غازي لخليفة غازي كما أخلص له.
يا غازي عليك رحمة الله. ويا خليفة غازي ابسط يديك فهذه بيعتنا، وسر بنا إلى الأمام فهذه سواعدنا وهذه أرواحنا. . . إلى الأمام. . . وعلى غازي رحمة الله والسلام.
علي الطنطاوي
فتح في عالم الطب
يوفق إليه بحاثة وطني
للأستاذ فليكس فارس
إذا كان رجال العلم في الأقطار الغربية يترصدون كل اكتشاف ويرقبون كل اختراع يوفق إليه التفكير الإنساني أيان كان التماعه ومن أية أمة كان انبثاقه، وإذا كنا نحن في بد نهضتنا لا يتتبع منا إلا النذر اليسير خطوات العلم في مجاهل الجسم البشري ومجالات الطبيعة في مختلف مظاهرها، فقد حق علينا على الأقل أن يستوقفنا ما يوقف إليه الباحثون من أبناء وطننا، وأن يهتم الخاصة والعامة منا بأية ظاهرة من ظاهرات العبقرية التي تتجلى من حين إلى حين في أبنا هذه السلالة العربية الشرقية

كأنها تباشير الشفق ودليل انبعاث لعهدنا القديم
لقد أراد البعض ممن يدعوننا إلى اتباع القافلة العلمية الغربية أن يدعوا تفرد السلالات الآرية في الذهنية الاستقرائية قائلين: إن ذهنية الشرقي لا تخصب ألا بالاستحياء والاستلهام من النفس، وإنها تقصر في مجالات التدقيق أما الظاهرات الكونية، وأن ليس لنا نحن أبناء السلالة السامية ألا الاقتباس والعمل بما يكتشف الغرب، فقلنا لهم: إن أجدادنا قد تسلموا تراث العلم مما سبقهم من الشعوب ودفعوا به إلى التكامل وتوسعوا فيه وزادوا عليه، فما أقنعهم دليل الواقع في التاريخ القديم؛ غير أن الزمان يمشي بخطواته والشرق العربي يستعيد أمه في يومه ويتهيأ لوثبته الكبرى في غده، فيعلم دعاة التقليد في مجال التفكير أن الله لم يخلق العقل من مغانيم متعددة متفاوتة الصفات في جماجم الناس؛ وأن الشعوب إذا انفرط شملها على سبل الثقافة في عواطفها وتمتعها في حياتها فأنها لا تجد أمامها إلا صراطاً واحداً في التفكير، وهي متجهة إلى العلم ومعرفة الحقائق الواحدة في جوهرها

هذه كلمة لم أر بداً من إيرادها عطفاً إلى ما سبق لي نشره في مبحث الشرق والغرب لا تدرج إلى قول كلمة في ظاهرة من مظاهر نهضتنا العلمية يحق لنا أن نباهي بها، وقد أقرها من الغرب من لهم ردُّ ما بني على التوهم والاعتراف بما يؤيده العلم الصحيح

من الأمراض التي أضلَّت أسبابها الباحثين قديماً وحديثاً داء الروماتزم أي الالتهاب المفصلي الحاد بأنواعه. فكان دهاقنة الطب يعرفون عنه انه داء عضال خفيت أسبابه، وعزَّ على الطب التحكم فيه إطلاقاً لأنهم لم يوفقوا إلى اكتشاف العامل الحقيقي الذي يلهب المفاصل بسمومه، ولا عرفوا نوع هذه السموم إلى أن قيض الله لطبيب مصري من هذا الشرق العربي، وهو: الدكتور نجيب فرح المقيم في الإسكندرية ان يكشف هذا العامل الخفي، ويهتك بإظهاره للعلم سلسلة من أسرار المناعة والدفاع لا في داء الروماتزم فحسب بل في غيره أيضاً من الأدواء التي لا يزال العلماء يعالجون خفاياها وحين عقد المؤتمر الطبي العربي أوائل فبراير الماضي في القاهرة تقدم الدكتور فرح إليه بتقرير مستفيض عن أبحاثه التي أعترف له بها دهاقنة أطباء الغرب واستشفوا من ورائها آفاقاً جديدة للطبابة فأورد بالأسلوب العلمي شذرات قد لا يسبر كنهها إلا رجال الطب فرأينا التحدث إلى طبيبنا الوطني استجلاء لحقيقة هذا الاكتشاف. وهكذا تسنى لنا أن نضع هذا المقال، ونحن على جلية مما نعرض

لقد وفق مواطننا سنة 1933، وهو يعالج المصابين بالروماتزم إلى العثور على جرثومة البنموكوك ثائرة في دمهم، فاستوقفته هذه الثورة في داء لم يكن يُعرف من قبل أن له بها علاقة مباشرة إذ كان من المقرر قَّنا أن البنموكوك كما تدل تسميته وهي جرثومة ذات الرئة لا يسبب إلاّ التهاب الرئة عند تهيؤ الأسباب له للخروج من استكانته وعندما لجأ إلى طريقة (نوفلد) للتفريق ما بين البنموكوك والستربتوكِوك (وهي تقوم بإضافة صفراء مرارة الأرنب أو الأملاح الصفراوية في أنبوبة المعمل على هذه الجراثيم فتحل النوع الأول ولا تؤثر على النوع الثاني) خطر له وهو يعاين هذا التفاعل في الأنابيب أن يقيس معدل هذه المادة المعروفة باسم (بيلسيروبين) في دم المصابين فثبت لديه أنها ترتفع ارتفاعاً متفاوتاً في شدته تبعاً لقوة رد الفعل الشخصي دون أن يكون في مجاري الصفراء أي انسداد وفي الكبد أية علة يسند إليها ارتفاع معدل المادة الملونة للصفراء في الدم بالتحول، فأدرك بهذه الخطوة الموفقة أمرين هما الحلقة المفقودة في علة الروماتيزم وفي علل أخرى كما سيأتي البيان. وأثبت أن الروماتيزم الحقيقي إنما هو نتيجة لثورة البنموكوك عندما تضعف مقاومة الجسم، وأن السم الذي ينبعث عنه إنما هو المسبب لالتهاب المفاصل كما أثبت في الوقت نفسه أن ارتفاع معدل المادة الملونة للصفراء في الدم

في هذه الحال ليس عبارة عن يرقان مَرَضيَّ بل هو رد فعل داخلي قد يبدو تحت سيطرة الغدد الصماء لحشد ما يمكن (لشبكة آشوف) الغارشية أن تمد به الخلايا من مادتها الملونة للصفراء لمقاومة البنموكوك المجتاح بتلبيده في السدم ثم حله ثم هضمه

وما احتفظ الدكتور فرح لنفسه بهذا الاكتشاف بل ذهب يكرر اختباراته وينشر عنها في كبريات المجلات الطبية، وقد سبق أن أدلى عنها ببيان في المؤتمر الثامن للاتحاد

المصري للأطباء عام 1936 ونشر مثل هذا البيان في مجلة لا نسيت عام 1937، وفي مجلة أمراض البلدان الحارة في لندن عام 1938، ثم عرضه على مؤتمر أوكسفورد العالمي في جلسة ليمانفتون فدون في محضره. فكان لما جاء به هذا الطبيب الوطني من الملاحظة والاستقرار والتعليل شأن كبير لدى رجال الغرب المقطعين إلى استكشاف مجاهل الجسم واستجلاء أسرار العلل فيه

وعندما عقد المؤتمر الطبي العالي في بات من أعمال إنكلترا في أبريل سنة 1938 ووقف النطاسي (هانش) يعرض مشاهداته السريرية عن تأثير اليرقان في الالتهابات المفصلية والعضلية مكتفياً بسرد الحوادث دون الذهاب إلى تعليلها، وقف مواطننا الدكتور فرح فتناول شرح هذه الظاهرة بما اكتشفه في اختباراته انه طوال السنين من تأثير اليرقان تأثيراً ناجعاً في الروماتيزم مثبتاً أن المادة الملونة للصفراء تلبد البنموكوك وتحله وهو أصل الداء في ثورته. وهكذا جاء مواطننا في مجتمع من أكبر المجتمعات العلمية العالمية بتعليل يعززه الاستقراء والتحقيق لظاهرة كان يقف عندها الأطباء كأنها تصادف بين حلول داء الروماتيزم وظهور اليرقان دون أن يعلموا أن ثورة البنموكوك هي كلمة السر في حركة الهجوم والدفاع

أما الأمراض الأخرى التي اكتشف الدكتور فرح تأثير المادة الملونة الصفراء عليها، فمنها ذات الرئة وبعض أنواع الربو والحمى القرمزية التي تهبط الحمى والنوب فيها ويتماثل العليل بها إلى الشفاء بمجرد ظهور اليرقان وانتشار المادة الملونة للصفراء لحل البنموكوك وإبادته. ومنها داء السل والحمى التيفوئيدية التي تجد جراثيمها مرتعاً ملائماً في المادة الملونة للصفراء فتؤدي إلى استفحال الداء على عكس ما يحدث في ذات الرئة والروماتيزم والحمى القرمزية، لذلك يعمد الجسم في دفاعه إلى إنقاص معدل هذه المادة في الدم حين يصاب بالعلل الأولى

وهكذا أثبت مواطننا أن هناك دفاعين: دفاعاً إيجابياً ودفاعاً سلبياً تؤمَّنه الشبكة الغارشية لإمداد الجسم بقوى الدفاع عن سلامته بحسب نوع الجراثيم التي تجتاحه

هذا وإنك لتجد في تقرير الدكتور فرح من تجاربه في دم الأرنب ما يدلك على مبلغ دقته واجتهاده في التوصل بالتجارب العملية إلى نتائج لا تترك مجالاً للشك في صحة القاعدة التي يضعها، فقد تحقق أن الأرنب ذو مناعة طبيعية ضد التيفوئيد لأنه لا مادة ملونة للصفراء في دمه، ولكنه تمكن من قتل هذا الحيوان بهذا الداء بمجرد حقنه يومياً بهذه المادة بعد تلقيح دمه بباشلس ابيرت

وفي هذا التقرير عن سير السل وما يؤدي إليه ظهور اليرقان من اشتداد العلة، والاتجاه إلى نزف الدم، وعن الحمى القرمزية، والربو وتأثير المادة الملونة للصفراء فيهما، ما يطول إيراده تفصيلاً في هذه العجالة.

وبعد أن أورد الدكتور بيانه مستشهداً باختباراته وبما جاء مؤيداً لها من اختبارات من أخذوا بنظريته من علماء الغرب يقول:

إننا لا نغالي إذا نحن أكدنا أن أشد أعداء الإنسانية خطراً إنما هي البنموكوك، وباشلس كوخ لأن عليهما تقع تبعة أكثر ما نشاهد من عاهات، وما يقع من وفيات. هذا فضلاً عن أن أعراضهما المرضية تتخذ أشكالاً جد متعددة؛ وإذا ما احتلا مرتعاً من الجسم توافر الاستعداد فيه أو انكشف إحساسه فإن الأول يؤدي إلى الإصابة بالروماتزم الحقيقي، والثاني إلى ما يشبه الحقيقي، وإلى داء المفاصل على اختلاف أنواعه وفقاً للتفاعل الخاص في كل فرد.

وبعد أن يعرض الدكتور البحاثة لأنواع الأمراض التي يلعب البنموكوك دوره فيها كذات الرئة والالتهابات الشعبية والربو والحمى القرمزية والسل يعود فيضع حدوداً للتمييز بين ما تثيره سموم البنموكوك وما تثيره سموم السربتوكوك من علل مختلفة مثبتاً تأثير المادة الملونة للصفراء وأملاح الصفراء على الروماتيزم الحقيقي بعد أن يثبت البنموكوك هو المسبب له عند ثورته

ومما لاحظه مما يؤيد اكتشافه هو أن المرأة المصابة بالروماتيزم تزول أعراض هذا الداء منها بمجرد حبلها، لأن المادة الملونة للصفراء يرتفع معدلها إطلاقاً في دم الحامل طوال مدة الحمل

وقد حدد الدكتور فرح الأحوال التي تصح فيها معالجة المرضى بالحقن بالمادة الملونة للصفراء والأحوال التي تزيد فيها هذه المعالجة من خطورة الداء؛ وهنا تظهر الدقة البالغة حدها في الاستقراء إذ يتوصل البحاثة إلى تخطئة بعض دهاقنة الغرب في اعتقادهم أن كل روماتيزم يمكن معالجته مطلقاً بالمادة الملونة للصفراء لأن هنالك أنواعاً من الروماتيزم السلي (بونسه) تزيد خطورتها عند المعالجة بالمواد الصفراوية من الصعب أن يتوصل كاتب إلى تلخيص كل ما أورده الدكتور فرح في تقريره من ملاحظات عززها بالرسوم العديدة المأخوذة عن مجالات المجهر ليبين التفاعل الذي تثيره مقاومة الجسم بين بعض أنواع الجراثيم والمادة الملونة للصفراء؛ فلمن تروق له هذه الأبحاث من غير الأطباء أن يرجع إلى المجلة الطبية حين صدورها ناشرة محاضرات أطباء البلاد العربية ولكل منهم أثر بين في دقة الملاحظة في الموضوع الذي تناوله مما يسجل للنهضة العلمية في الشرق العربي ما يرد قول القائلين بانحصار العبقرية السامية ضمن نطاق الذات المستلهمة وقصورها في الاستقراء والتحليل والاستنتاج في رحاب العلم والتحقيق العملي

إن القصور في نهضتنا لا يتجلى في جهود الأفراد ولا في استعدادهم فكرياً وعملياً، بل القصور كله كائن في هذا التفكك بل التناحر الذي يسود كل فئة من الجامعات في أوطاننا، إذ بينما تجد التضامن سائداً بين تجار البلاد الراقية وزراعها وصناعها وأطبائها وعلمائها وأدبائها لا تعرض لك هذه الفئات عندنا سوى التناحر والمزاحمة مما يؤدي إلى تقلص الهمم وانكماش العبقريات على نفسها. وقلما تجد كاتباً لم تنزل به النوائب من كاتب، أو تاجراً لم يزعزع تجارته تاجر، أو زراعاً لم يقطع أشجاره زارع، أو طبيباً لم يهزأ به طبيب. تلك هي علتنا، وإن نحن سجلناها على أنفسنا فما نقصد مجاراة من قالوا بضعف طبيعة الشرقي ونفور فطرته من كل تعاون، إنما نسجل هذا العيب على أنفسنا، وفي تاريخ أوربا في بدء نهضتها ما يشبه عيبنا بل ما يتعداه بمراحل؛ وليت وقائع كولومبس وغاليله وباستور متوارية وراء غياهب التاريخ. هذا وإننا نرجو آن يأخذ العقلاء بيننا بعبر الأيام

وحوادث الدهر ليعلموا على لمَّ الشمل وتوحيد الجهود وأن ينال علماء البلاد قسطهم من تعضيد الحكومة للنهوض بهذه الأمة المتفجرة ذكاءً وعبقرية ونبلا فتتبوأ المقام الذي حق لها في ماضي الحقب وهو حق لها في آتي الزمان

فليكس فارس

دراسات في الأدب

للدكتور عبد الوهاب عزام

الأدب يصور البيئة العامة

قلنا إن الأدب هو البيان المعرب عما يكنه ضمير الإنسان، وما تشعر به عاطفته، وما يصوره خياله من هذا العالم خيره وشره وجماله وقبحه؛ فهو صورة للبيئة التي يعيش فيها، والواقعات التي تنزل به، والآلام واللذات التي يحسها، والآمال والمكاره التي يرتقبها

يرى في إقليمه المروج والرياض في بهجتها ونضرتها، والجبال والبحار في عظمتها وروعتها، والغابات والصحارى في وحشتها ومخاوفها، فيبين عما يرى كما توحي العاطفة ويصور الخيال.

ويرى ألواناً من العيش الرغد أو العيش النكد، وضروباً من السرور واللهو أو فنوناً من الحزن والغم

ويرى دولات من الظفر والغلب، وأخرى من الخيبة والهزيمة، فيتعاون على الإبانة عن هذا وذاك فكره وعاطفته وخياله

ويشهد شقاقاً في أمته، ونزاعاً بين عشيرته، أو يرى المودة والسلام والألفة والوئام، فيطبع في نفسه صورة الشقاق والنزاع والحرب والطعان، أو يتمثل في ضميره صور المودة والسلام والحب والإخاء

ويحيط به سلطان جائر يتحكم في فكره ووجدانه، ويسومه صنوف الذلة والعذاب، فيستنيم ويستكين حتى تموت المعاني في وجدانه، وتجف الألفاظ على لسانه، أو يأبى مجادلاً، ويصيح مغاضباً، ويتخذ البيان حجته وسلاحه، وجداله وكفاحه أو يتاح له سلطان عادل صالح يوسع له في الحرية ما وسعت الحرية الصالحة، فينطلق فكره في العالم،

ويترجم عما يدرك ويشعر جهد بيانه، وملء قلمه ولسانه، لا يخشى حسيباً، ولا يخاف رقيباً
ثم البيان في هذا كله على قدر الفكر الساذج والمعارف القليلة، أو العقل الواسع والعلم الغزير، يختلف باختلاف مدارك القائل ومعارفه، ومشاهده وتجاربه
تغير الأدب
فإن يكن الأدب صورة للبيئة والحادثان، وترجماناً لحالات الأمة ومشاعر الإنسان فتغير هذه الأمور يغير الأدب. فإن كان التغير ارتقاء إلى الأحسن والأعلى مثل الأدب هذا الارتقاء، وإن كان ارتكاساً في القبيح والأدنى صوّر الأدب هذا الارتكاس. فالأمم تختلف آدابها باختلاف بيئاتها وأحوالها، والأمة الواحدة تتغير آدابها بتغير عصورها وأطوارها، والأفراد في الأمة الواحدة تختلف آدابهم باختلاف فطرهم ومشاهدهم، وافتراق حظوظهم من العيش، وأنصبائهم منن المعرفة. وهلّم جرّا
المؤثرات في الأدب
فالمؤثرات التي تغير الأدب متشابكة، ظاهرة وخفية يعسر إحصاؤها والإحاطة بها، ولكن يمكن تعداد أصولها فيما يأتي:
(أ) البيئة الطبيعية:
إذا تغيرت بيئة الإنسان تغير أدبه ارتقاء أو انحطاطاً، أو رقياً في ناحية ونزولاً في أخرى. والتغير هنا له سببان: الأول اختلاف المرائي والموضوعات بين البيئة الحديثة والبيئة القديمة، والثاني تغير الإنسان نفسه بتأثير البيئة وذلك لا محالة يظهر في أدبه
فالعرب حينما هجروا مواطنهم في الجزيرة إلى العراق وفارس والشام ومصر والمغرب والأندلس تغير أدبهم تغيراً واضحاً: ضعف إحساس البداوة القوي الذي يظهر في وصف الصحراء والإبل والخيل وُحمرُ الوحش والظباء والنعام، وفي وصف السفر والكد والحروب - واستبدلوا به رفاهية الحضارة ورقة شعورها. فنشأ الشعراء الذين عرفوا في الأقطار الإسلامية بعد أن اطمأنت الأجيال العربية إلى البيئات التي طرأت عليها
(ب) واختلاف أحوال الحضارة ومنها:
1 - الحال العقلية: فشيوع العلم والفلسفة واتساع المعارف يجعل الأدب أعمق. وأشمل لحقائق العالم ودقائق الطبيعة والحياة.
فشعراء الدولة العباسية وشعراء الأندلس (مثلاً) أبعد غورا وأوسع مجالاً في تفكيرهم، وتصويرهم من شعراء الجاهلية، وصدر الإسلام.
وتأثير المعارف في الأدب يظهر في النثر أكثر من الشعر. لأن النثر أولى بمباحث الفكر،
وأقبل للنظر العميق؛ ولذلك نرى سعة المعارف أبين في كتابة ابن المقفع والجاحظ، وبديع الزمان والتوحيدي، وابن العميد، وابن شهيد، منها في شعر أبي نواس والبحتري وأبي فراس. وربما يقارن انتشار العلوم ضعف الأدب لأسباب أخرى كسوء السياسة، وقلة المكافأة، والإسراف في الترف. وليس الضعف من انتشار العلوم، ولكن من هذه الأحوال المقارنة
فإذا رأينا القرن الخامس الهجري أوسع علماً وفلسفة من القرنين الثالث والرابع ولكنه في الجملة أضعف أدباً منهما، فذلك لا يرجع إلى اتساع المعارف بل يرجع إلى أسباب أخرى
وإذا رأينا الأدب قليلاً بين العلماء المنقطعين للعلوم فذلك بما اغفلوا الأدب أو قلت عنايتهم به؛ أو لأن فطرتهم التي وجهتهم إلى درس العلوم لا يلائمها درس الآداب. فأما إذا تساوى اثنان في الفطرة الأدبية والاتجاه إلى الأدب فأوسعهم معرفة أعظمهم أدباً وأقرب إلى نفوس الخاصة من الناس. وربما يفوقهم الآخرون حظوة عند العامة بما شاركوهم في الشعور ولم يرتقوا عنهم بالمعرفة والفكر كثيراً
2 - الأحوال الاقتصادية:
إذا شغلت الأمة بتحصيل قوتها وأنفقت معظم وقتها في كسب معيشتها لم تزدهر فيها العلوم والآداب والصناعات. وإذا وجدت فراغاً بعد تحصيل القوت انصرفت إلى شئون الحضارة من العلم والأدب وغيرهما
فانتظام ثروة الأمة ورغد عيشها يعين على إزهار الآداب بما تجد النفوس من فراغ

وبما يكثر أمامها من ألوان الحضارة وبدائع الصناعة والعمران التي تحرك الشعور للبيان
وانظر الحجاز قبل الإسلام وفي صدر الإسلام ثم بعد قرون تجد خلافاً بيناً في الثروة وفي الشعر. فالعرجيّ وعمر بن أبي ربيعه وكُثّير وابن قيس الرقيات، يبنون عن شعور دقيق وإحساس رقيق لم يكن لشعراء الحجاز قبلاً
وانظر ما فعلت مراثي الحضارة بالبحتري في وصف قصور الخلفاء، وما وصف شعراء الأندلس من مظاهر العمران والنعيم
وإن يكن إلحاح الفقر أحياناً يجوّد الأدب في بعض الناس فذلك يكون في أمة قد مكّنها ثروتها العامة أن تنتج أدباً. وأما الأمة التي يعمها الفقر وتُبرّح بها الفاقة، فلا ينبغ فيها أديب إلا على الندرة والشذوذ
عبد الوهاب عزام
على هامش الفلسفة
طريقة الأخلاق أيضاً
للأستاذ محمد يوسف موسى
إذا كان استنتاج الأخلاق من الدين وربطها به حسب ما كان يراه رجال الدين المسيحيون منقوداً كما رأينا، فهل من الممكن استنتاجها من معين آخر؟ ذلك ما حاوله كبار فلاسفة ما وراء الطبيعة.
شغل كثير من الفلاسفة أنفسهم ببحوث ما وراء الطبيعة التي أهمها تعرّف القوة الموجدة لهذا الكون والتي إليها الأمر والنهي وهي مصدر الخير كله، ثم استنتاج الأخلاق منها، سواء منهم من تقدم بهم الزمن أمثال أرسطو وأفلاطون أومن تأخر بهم أمثال: ديكارْت، لِيبْنز، سْبِينوزا، مَالبْرَانشْ.
هذه الأخلاق المبنية على مباحث ما وراء الطبيعة لها حظها من السمو والجلالة بجعلها للخلقية الإنسانية معنى كبيراً نبيلاً إذ تربطها بالله العلي الحكيم. على رغم ما بين علماء ما وراء البيعة من اختلافات جوهرية في حل مشكلة العالم، تراهم جميعا متفقين على الاعتقاد بأن للمرء عقلاً نظرياً يصل من نفسه بلا حاجة لتجربة ولا لشيء آخر إلى معرفة الحقيقة الطلقة أي إلى معرفة الله تعالى، ومن هذه المعرفة العالية المباشرة تصدر الأخلاق. فالله هو مصدر كل حقيقة موجودة، والكائن الكامل ومبدأ الحياة الأخلاقية؛ فكرة الكمال هذه هي نقطة التحول مما وراء الطبيعة للأخلاق. كما أن نسب الكثرة هي موضوع الرياضيات، تكون نسبة الكمال موضوع الأخلاق والأساس الذي نبني عليه حكمنا على الأشياء والأعمال. الدابة كما يقول مالْبرانْش أوفر حظاً من التقدير من الحجر لأنها أقرب منه للكمال. والأمر على العكس بين الدابة والإنسان لأن نسبته من الكمال أوفى وأكبر من نسبتها منه؛ فالذي يحترم مثلاً حصان عربة أكثر من سائقها يكون ضالاً في حكمه متنكباً سواء السبيل. كذلك من الواجب أن نلاحظ أنه يوجد في المرء نسب متفاوتة من الكمال بين مختلف أعضائه، وهذه النسب تتباعد تارة وتتقارب أخر إلا أنها تتفاوت على كل حال؛ فالروح مثلاً أكمل من الجسم، والعقل أكمل الحواس
من أجل هذا يجب أن يعيش المرء كإنسان لاكحيوان، وأن يكون في سلوكه حسب النظام
الذي يوحي به إليه أكمل ما وهبه الله وهو العقل، ومعرفة هذا النظام هو أصل الخليقة. يجب على المرء أن يحيا طبقاً لأكمل عضو إنساني فيه وهو العقل الذي يؤلف بين الناس، بينما تفرقهم الشهوات والعواطف والمصالح الخاصة. بسلوك المرء هذا السبيل يصل للسعادة. ليس القصد السعادة الخارجية التي مردها الحظ أو الثروة أو الجاه أو كل ذلك وأمثاله معاً، بل السعادة الداخلية والغبطة النفسية التي هي أسمى ما يطمح إليه إنسان والتي ينالها المرء من التخلق بالفضيلة والوصول للكمال بالقدر المستطاع.
بهذا ونحوه يؤكد فلاسفة ما وراء الطبيعة إمكان استنتاج الأخلاق من تلك الأبحاث. إلا أن هناك صعوبة لا يسعنا تجاهلها تقف دون نزولنا على ما يريدون. أمامنا تاريخ الفلسفة يؤكد لنا بلا ريب أن الآراء في جميع مسائل ما وراء الطبيعة، والحلول التي عرضت لمشاكلها كانت جد مختلفة على نحو لم يعهد في الآراء الأخلاقية التي يرون

استنتاجها منها وابتناءها عليها. حقاً من الممكن أن نقرر بلا مغالاة تقارب النظريات الأخلاقية في المثل العليا الأخلاقية؛ هي تأمر بفضائل واحدة، بينما لا تجد مثال هذا التماثل، ولا قريباً منه في حلول مشاكل ما وراء الطبيعة. من السهل أن نأخذ كثيراً من الآراء الأخلاقية عن سقراط، أو أفلاطون أو أرسطو، أو سبينوزا مثلاً دون أن نتقيد بشيء ما من آرائهم فيما وراء الطبيعة. ذلك معناه أن معين الأخلاق ليس فلسفة ما وراء الطبيعة، لهذا نرى أن هؤلاء الفلاسفة في حاجة شديدة لمهارة جدلية فائقة لربط المبادئ الأخلاقية التي جاءتنا عن الضمير الإنساني، والتي أمدتنا بها أمثل التقاليد العالمية الإنسانية بآرائهم في مسائل ما وراء الطبيعة. وإذاً فلنقل بحق إن ربط الأخلاق بما وراء الطبيعة ليس إلا سفسطة في الغالب من الحالات

إذا كان لم يسلم استنتاج الأخلاق من فلسفة ما وراء الطبيعة، كما لم يسلم القول بأخذها من الدين على النحو الذي أسلفنا، فهل من الممكن استنتاجها من بعض العلوم؟ هذا ما رآه (أوُجست كونت) إذ بنى أخلاقه على العلم الذي تنتهي إليه العلوم، وهو علم الاجتماع

علم الاجتماع يقرر أن الفرد ليس إلا أثراً من آثار المجتمع والإنسانية. الإنسانية هي الموجود الأكبر الذي يستمد الفرد منه كل كيان ومقوماته، فهو يتقبل من المجتمع الماضي والحاضر كل ماله وكل ما هو. ما نأكل وما نلبس وما نتمتع به في مختلف مناحي الحياة

ليس إلا نتيجة عمل الإنسانية الخالدة التي لا تفتر عن العمل لحظة من اللحظات لخير المجتمع كله. أليس ما ننعم به اليوم من سيارات وطائرات وراديو ولا سلكي وكهرباء بعض أعمال شركائنا في الإنسانية الذين عانوا في سبيل ابتداعها أو كشفها كثيراً من الآلام وعملوا لأجلها مالا يستهان به من التضحيات؟ ثم من الناحية العقلية والأدبية نجد اللغات والعلوم والآداب إرثا اجتماعيا أمدتنا به الإنسانية على طول الأيام.

لهذه النظريات الاجتماعية يستنتج (كونت) هذه النتيجة الأخلاقية وهي: أن الفرد يجب أن يعيش لأجل العائلة والإنسانية، وبعبارة أخرى يجب أن يكون مبدأه (الحياة لأجل الغير). إذن تكون الأخلاقية أو الخلقية هي أن نمكن للإيثار على حساب الأثرة. بل يقول أحد من يرون هذا الرأي وهو الأستاذ (جوبلو (ليس الإحسان عطية يقطعها المرء من ماله، بل هو تعويض واجب عليه دفعه)

حقاً هذا استنتاج جميل تعلق به الأفئدة ويتفق مع أعلى التجارب الأخلاقية للإنسانية، ولكن نقطة السير في هذه الأخلاق المبنية على هذه النظريات ليست من القوة والتسليم بحيث تفرض نفسها على العقل بطريقة جازمة. كون الفرد ليس إلا أثراً من المجتمع محل نزاع قوى. الضمير النفسي الذي يكشفه الإنسان في نفسه حقيقة من الحقائق، ألـ (أنا) حقيقة يقينية لا شك فيها، بل ربما كانت الحقيقة الآكد من سواها. لأنه كما يقول (ديكارت): (من الممكن أن أشك في العالم الخارجي ولكن لا يمكن أن أشك في شكي هذا. لا يمكن أن أشك في فكري. ليس من الممكن أن أشك في وجودي ككائن مفكر. إذن أنا أفكر فأنا موجود)

ثم هذا الاستنتاج الكُونتي يصلح حقيقة لإثارة النفوس المتشبعة بالمثل الأعلى الأخلاقي، إلا أنه لا يفرض نفسه منطقياً على كل النفوس والعقول. هذا امرؤ يعتقد الواجب ويؤمن به، فحينما يفهم أنه صنيعة العالم والإنسانية وأنه بدونهما لا يكون شيئاً، يجد من المنطق أن يرد الجميل وان يحيا في سبيل الغير. وذاك الذي ليس عنده أية فكرة سابقة عن الواجب، أية مخالفة للمنطق في قبوله كل مقوماته من المجتمع دون أن يرد له شيئاً، حقيقة ليس من الأخلاق أن ينفق المرء في سبيل لذائذه الأنانية الأموال التي جمعت بطريق الغير، والقوى المركزة فيه من الأسلاف السابقين. لكن هذا إن لم يكن من الأخلاق ليس من السهل وصفه بأنه لا يتفق مع الروح العلمية المنطقية

والنتيجة العامة بعد ما تقدم كله أنه لا يمكن استنتاج أخلاق صالحة مقبولة من الجميع من الدين - على نحو ما كان يفهم رجال الديانة المسيحية - أو من فلسفة ما وراء الطبيعة أو من علم الاجتماع الذي يعتبر نهاية العلوم. إذن فلنترك مؤقتاً الطريقة الاستنتاجية، ولنوجه البحث نحو الطريقة الثانية وهي الرجوع في الأخلاق إلى الحاسة الإلهامية، وإلى اللقاء إن شاء الله

محمد يوسف موسى
المدرس بكلية أصول الدين
ربيع وربيع!
هذا ربيعكما يا فتاتي الفاتنة ويا طفلتي الجميلة: صفاء من سلام النفس يفيض بشراً في العين وطلاقة في الوجه، ورُواء من ألَق الشباب يشع نوراً في السماء وسروراً في الأرض، ورخاء من نعيم الطبيعة ينتشر عطوراً في الجو وزهوراً في الروض، وانتشاء من رحيق العيش يشيع لذة في الحس وبهجة في القلب، وهدهدة على أرجوحة الحب تذهب مع الأمل الباسم وترجع مع الرضى السعيد
هذا ربيعكما يا فتاتي الفاتنة ويا طفلتي الجميلة: استغراق في أمان الله، وإطلاق لمتاع الحياة، واتساق ربيع العمر مع ربيع العام، واتحاد الجمال البشري بالجمال الإلهي الماثل في وشاء الحقول وأفواف الخمائل وأعطار النسيم وألحان الطير وأنفاس الأحبة. فأين - بالله ربكما - أجد الفرق بينكما وبين ملكين يعتنقان في نشوة الخلد، ويأتلقان في وضاءة الفردوس؟ أفي النظرة الساهمة، أم في البسمة الحالمة، أم في الفتنة النائمة، أم في الخلو الحقيق بالطهر، أم في الحنو الخليق بالأمومة، أم في الذهول الغريق في اللذة، أم في الصبي الذي يضوع بريح الجنة، أم في الحلم الذي يصل باللانهاية؟
هذا ربيعكما يا فتاتي الفاتنة ويا طفلتي الجميلة؛ وما كان أحرى الناس أن يكون لكل امرئ ربيع مثله! ولكن النفوس إذا عاث فيها الشر أجدبت فلا تُرْبِع، واضطربت فلا تطمئن! هذا ربيعنا يا زهرتي النضيرتين يلفح بالسَّموم ويطفح بالهموم ويضطرم بالعداوة! كأنما استخلف الله الشياطين على حكم الأرض؛ ففي كل دولة إبليس، وفي كل أمة جهنم. ومن طباع الأباليس كراهة الفراديس. فهم لا يريدون سلاماً في وطن، ولا يحبون ربيعاً في زمن، ولا يدعون آدم في جنة. هذا مَفيستو فولِس النازي وشمهورش الفاشي أصابهما الله بنمو القرون فجأة، فتأبَّها وَتألها ونازعاه ملكوت الأرض، فأحدهما يريد أن يعبده الغرب، والآخر يريد أن يعبده الشرق؛ وهما لذلك يحشدان كل ما في الجحيم من سُموم ونيران وحُمم ليدمرا في أيام معدودات سكان الدنيا وحضارة الدهر! والعالم كله قد وقف أمام الشيطانين موقف الدفاع لا تنتج معامله غير الخراب، ولا تخرج مصانعه غير الموت، ولا تحرك دوله غير الجيوش، ولا يفكر ناسه إلا في الحصون والخنادق والأسلحة والمخابئ والأقنعة!
فكيف يكون لربيعنا في هذا الجدب ازدهار، ولنفوسنا على هذا الفزع استقرار، ولحضارتنا
مع هذا البلاء استمرار، ولحياتنا على هذا الحال المحزنة جمال ولذة؟!
لعن الله يا ابنتي حوا شياطين الإنس وشياطين الجن، فإنهم لو لم يخلقوا لكانت الأرض كلها جنة، والناس كلهم ملائكة!. . .
ابن عبد الملك
من ذكريات شم النسيم
يوم لا أنساه. . .
للأستاذ محمد سعيد العريان
كان ذلك في طنطا منذ ست سنين، وكنا جماعة من مدرسي اللغة العربية قد جمعْتنا على الوداد أواصر لا تنفصم، فما نفترق إلا على ميعاد. وكان لنا من دار صديقنا أمين. . ندوة نختلف إليها في مواعيد رتيبة، نقرأ ونتزود ونناقش الجديد من مسائل العلم والأدب، لا يكاد يفوتنا شئ مما تخرج المكتبة العربية؛ فإذا التقينا فثمة مذاكرة أو مناظرة أو رأى جديد؛ وإذا افترقنا فلكي يخلو كلٌّ منا إلى نفسه وقتاً يتهيأ فيه لموضوع يطرحه على الجماعة في الاجتماع التالي؛ وما كانت الفترة بين الاجتماعين تزيد على يومين اثنين. . .
كنا نعيش عيش الرهابين قد فرغوا من الدنيا واخلصوا أنفسهم لما هم فيه؛ فما لهم من دنياهم إلا التسبيح والعبادة، وما لشيء عليهم من سلطان إلا ما اختاروا لأنفسهم!
وجاء (شم النسيم) فقال قائل منا: (أين تقترحون أن نقضي ذلك اليوم؟)
وما اختلفنا على الرأي، فما كان يعنينا أين نقضي يومنا، إذ كان كل ما يعنينا أن نكون معاً نعمل ما نعمل على النهج الذي فرضناه على أنفسنا منذ تعارفْنا: أي نقرأ ونتذاكر!

واجتمع رأينا على أن نخرج في ذلك اليوم إلى ضاحية قريبة من المدينة لا أسميها، حيث نقضي يومنا هناك في مصلًّى كبير يعرفه بعض أصحابنا على حافة ترعة من تلك الضاحية. . .

والتقينا على موعد قبيل الشروق وما أفطرنا بعد، فاتخذنا طريقنا بين الحقول الناضرة إلى حيث نريد، يحمل كل منا في يده أو تحت إبطه ما يقدر عليه من طعام وفاكهة وحلوى، ومن دفاتر يقدّر أن سيقرأ منها ما يقرأ في ظل شجرة الصفصاف الحانية على ذلك المصلى. . . ولم يغب عنا تدبير الماء الرائق، فحملنا ما يكفينا في زجاجات بأيدينا. ولم يتخلف عن الجماعة في ذلك اليوم إلا صديقنا الذي اختار لنا هذه الرحلة، لأنه آثر أن يساف لزيارة خطيبته في القاهرة، وقد أراد الله لنا وأراد له. . .

سارت الجماعة اثنين اثنين، وثلاثة ثلاثة، نتجاذب أطراف الحديث في صفاء وانشراح؛ لا يكاد يخطر في بالنا شيء إلا ما يجرى على ألسنتنا من فكاهة أو حديث مرتجل. . .

وخلّفنا المدينة وراءنا، فما تقع عيوننا إلا على زرع وماء، وقطرات الندى تلمع على أوراق البرسيم صافية تترقرق، وأشعة الصبح تداعب عِشاش الطيور في أعالي الشجر، والنسيم الرقراق يهمس في آذاننا بشرى ميلاد يوم جديد من أيام الربيع الضاحك!

واستخفنا الطرب؛ فأخذنا نمزح لاهين عابثين، وتخفَّفْنا من بعض ما كنا نحمل على كواهلنا من وقار، وانبعثت فينا روح جديدة لم يكن لنا بها عهد في أنفسنا قبْل، فإذا نحن ناس كالناس حين تصفو لهم الحياة ويعتدل الجو. . .

ومددت نظري إلى بعيد، فإذا المرحوم الرافعي على مدَّ البصر يمشي على حافة قناة بين زرعين يتنسم نسيم الصباح، شأنه كل يوم. قلت لصحابتي: (وهذا رفيق مؤنس!) ثم أقبلت عليه أسأله أن يرافقنا؛ فقال: (وددت ولكن في غير هذا اليوم. . . أسأل الله لكم العافية!)

ومضينا على وجهنا نمزح ونضحك لا يعنينا من أمر شيء؛ وأغفلْنا ما كنا نلتزم من تزُّمت الشيوخ ووقار المعلمين؛ وكان صديقنا (م) أسرعَنا إلى التخفُّف من وقاره على أنه أكبرنا سنًّا؛ فلما ثقل عليه ما يحمل من طعام وماء وكتاب، خلع المعطف الأبيض عن كتفيه، فبسطه على الأرض، فألقى عليه ما كان يحمل، فَصَرَّه فيه وحمله على كاهله. وراقتْ فكرتُه زميلاً منا، فألقى إليه بما كان يحمل كذلك، وتعاوَنا على حمل المعطف من طرفيه وعليه ما عليه كما يبسط بساط الرحمة في جنائز بعض الموتى. . .

ورأينا باباً جديداً إلى المزاح، فألقى كل منا في المعطف بما كان يحمل، وتركنا زميلينا أن يحملا وحدهما ما كنا نحمل جميعاً، لنفرغ إلى المزاج والسخرية والضحك. . .!

ودنونا من المكان الذي نريد؛ وبدت لنا القرية على مقربة؛ فمررنا بنسوة يملأن جراتهن من الترعة على مورد قريب من المصلى الذي نهدف إليه؛ فما كدن يرينا حتى استهواهن المنظر، فقذفن إلينا بعض نكات مازحات في مرح، أو عابثات في دلال!

أما طائفةٌ منا فعادَهم وقار المعلمين وتزُّمت الشيوخ، فطأطئوا رؤوسهم يهرولون في خجل إلى حيث يريدون؛ وأما طائفةٌ فأجابت نكتة بنكتة ونادرة بنادرة. . .

وبلغنا المصلى وتركنا النساء حيث كنّ. . . وخلعنا أحذيتنا، وتخفَّفنا من بعض ثيابنا، واتخذنا من أغصان شجرة الصفصاف مشجباً نعلق عليه من طرابيشنا ومن ثيابنا؛ وافترشنا الأرض وبسطنا السفرة نأكل. .

وجلس اثنان يداولان الرأي في مسألة، وانتحى اثنان من المصلى ناحية، وتناول خامس كتاباً بين يديه، وتوسد سادس ذراعه، واشتغل كل بشأن. . .

وخلع (زهران) طربوشه، فبدت صلعته مصقولة لامعة تحت الشمس؛ فما تعرف أين ينتهي جبينه وأين يبدأ رأسه. . . وكانت مادة حديث. . .

ومر بنا طائفة من الفلاحين فنظروا نظرة ثم مضوا يتهامسون ووقف غلامان يشيران إلينا من بعيد، وتجاوزنا طفلان يُلقي أحدهما في إذن صاحبه حديثاً يضحك منه. . .

وتثاءب زهرانُ وتمطَّى وقال لي: هل لك أن تسابقني عَدْواً على هذا الطريق؟ فأجبته إلى ما دعا. . . ولم أكن أعلم أن ثمة شراً يتربص!

وأخذنا نعدو ليس في أرجلنا نعل تقينا وخزات الحصى، ورأسي عار إلا من الشعر، ورأسه عار من كل شيء وترامت إلينا كلمات ساخرة وعبارات لم تألفها أذناي؛ فنال

منى أن يسخر الفلاحون منى ومن صديقي. . . وأتممنا في السباق دورة؛ وهممت أن أجلس لأستريح، ولكن صديقي أباها علي؛ وعدنا إلى السباق، وعادت كلمات الساخرين تسك مسمعي!

وقلت لصديقي: (تعال نَعُد إلى إخواننا!) ولكنه وقد كان رأسه موضوع السخرية ومحور حديث الساخرين، أبى إلا أن يأخذ بحقه!

إن الفلاحين في مصر لأكرم نفساً وأرحب صدراً من ذلك؛ فما كان بهم أن يسخروا منا ولكنهم أرادوها تحرشاً وكيداً. . . ترى ماذا ظنوا بنا فحملونا على ما لم نكن نقصد إليه؟

وكان ثمة غلام في يده منجل يحش به البرسيم، وعلى شفتيه كلام، فقصد إليه صاحبي يعتب عليه معتبة؛ فما كانت إلا كلمة وجوابها ثم رأيت المنجل المسنون يحزّ في يد صاحبي فيسيل دم. . . وتجاوبت في الفضاء صيحتان، ثم سال الوادي فتياناً وكهولة مسلحين بالعصي والهراوات والشر يلمع في عيونهم!

وأحيط بنا فما وجدنا سبيلاً إلى الخلاص، واشتجرت العصي على رؤوسنا وأبداننا فلا نجد ما نحتمي به إلا أن نعقد من أيدينا على رؤوسنا مجنّةً تقينا ضربةً قاتلة؛ وحاولنا الكلام فما أطقنا، ولو أطقنا لما وجدنا في هذا الجيش الثائر من يسمع؛ وأسلمنا أرجلنا للريح نعدو ونتعثر وما تزال العصي تنال من أبداننا وهم يحصبون أرجلنا بالحصى والحجارة. . .

ورأى أصحابنا على مبعدة ما نالنا فخفّوا إلينا سراعاً حفاةً عراة الرؤوس؛ فما كان سعيهم إلا لينالوا نصيبهم من هذه المعركة الدامية؛ معركة لم يكن لنا فيها يدٌ ولا لسان وما نعرف لها من سبب! وأسرع من أسرع منا إلى دار العمدة يستعينه على تهدئة هذه الفتنة فأغلق دونه بابه. . .

وما كان لنا من وسيلة للدفاع عن أنفسنا غير الهرب، وهيهات. . .!

وبلغْنا المصلَّى عدْواً فقذفنا بأنفسنا بين متاعنا نلتمس الحماية والأمن في جوار الله فما أجدى ذلك علينا. واشتدتْ هجمة الفلاحين علينا، فإذا نحن محصورون بين نارين: العدوّ من أمامنا والبحر من ورائنا!

وأسرع واحدٌ منا إلى المتاع يجمعه فصاح منهم صائح: هذه هي الزجاجات! وقال آخر: يشربون الخمر في بيت الله! وقال ثالث: ويل لهؤلاء الفجرة!

وفي هذه الُحمَّى الثائرة ثاب إلي عقلي ففهمت، فابتسمت، وإن الدم ليسيل من يدي ومن جبيني! لقد انكشف السر. . .

وما أدري ماذا كان بعد؛ فقد سقطت على أرض المصلّى فاقد الرشد!

وأفقت بعد قليل، وإن الماء الذي كانوا ينضحون به وجهي ليصل إلى كل جزء من جسدي؛ وكان جزء من جسدي؛ وكان شيخ البلد جالساً يحقّق ويدقق وقد أحاط به أصحابي مكلومين ملطخي الثياب بالدم والوحل كأنهم أشلاء معركة!. . .

وعرفت القرية كلها بما كان، فخفّ إلينا شيوخها وأعيانها معتذرين يحاولون أن يزيلوا من أنفسنا ما كان من أثر هذه المعركة المشئومة!

وقال العمدة معتذراً: (أحسب أن أثرها سيزول من أنفسكم بعد إذ عرفتهم ما كان من ظنهم بكم وإن قريتنا لكريمة مضيافة؛ فما استفزّ أشرارها إلى ما كان إلا اللعينُ الذي زوَّر عليهم الخبر بأنكم تشربون الخمر في مُصَلىَّ القرية. . .!)

ومازال بنا العمدة وحاشيته حتى صفحنا وتناسينا؛ ولكننا على ما بنا لم نطق بقاء في القرية بعد، فحملنا متاعنا وفارقْنا القرية قبل ان ينتصف النهار، يشيعنا بالاعتذار من شيّعنا من أهلها وما منا أحدٌ إلا في وجهه أثر باد يشير إلى ما كان!

فلما صرنا على مقربة من المدينة، وقد عاد المشيعون من أهل القرية أحسسنا التعب، فجلسنا في ظل شجرة على الطريق نستريح، وهممنا أن نبسط ما كان معنا من طعام شهي لنأكل، فما وجدنا في أنفسنا رغبة، فتركناه لجماعة من القرويين لم ننتفع منه بشيء!

وأخذنا نسترجع ما فات، فتعاهدنا على الكتمان حتى لا يعلم أحد بما نالنا، فإن لنا في المدينة لسمعة نحرص عليها أن تنوشها ألسنة السوء بالباطل؛ ثم أصلحنا من ثيابنا ما استطعنا واستأنفنا المسير إلى بيوتنا فبلغنا عند الأصيل. . . وقضيتُ في فراشي بضع عشرة ساعة أتلوّى من الألم لا يحس أحد ما بي. . .

وفي الصباح توكأت على نفسي إلى المدرسة لا تكاد تحملني قدماي، في غيظ مكظوم وألم صامت. ولقيت في المدرسة بعض رفقائي في الرحلة المشئومة؛ فأكّدنا ما تعاهدنا عليه أمس من كتمان ما كان. . .

وسألني ناظر المدرسة عن بعض ما ينكر من حالي فتعّللتُ بعلة، وسأل زميليّ فما أخطأ الاعتذار!

وتحدثت إلى سائر زملائي في مدارسهم بالمسرة لأطمئن عليهم فأجابوني. وانتصف النهار، وإذا داع يدعوني من حجرة الدراسة إلى لقاء جماعة من الزُّوَّار، فذهبت إليهم حيث كانوا فإذا عمدة القرية وجماعة من حاشيته وبينهم زميلاي وناظر المدرسة، وابتسمتُ وابتسموا، وقال العمدة: (لقد جئت لأكرر اعتذاري وأسألكم الصفح!)

ونال مني الغيظ، فقلت: (لقد كنت صفحتُ أمس، أما اليوم فلا، مادمتم أذعتموها بعد كتمان!) ولم أستطع أن أغالب الضحك جواباً على فكاهة رائقة من ناظر المدرسة.

وعاد العمدة الغبي يقول: (لقد مررت بإخوانك جميعاً فاعتذرت إليهم في مدارسهم. إنني منذ الصباح أطوف المدينة على قدميّ ألتمس الوسيلة إلى رضاكم؛ ولكنى لم أذهب بعد إلى الأستاذ فلان المدرس بالمعهد الديني، وهاأنذا ذاهب إليه!)

قلت: (فلان المدرس بالمعهد الديني؟ حسبك معذرةً؛ سأنوب عنك في الاعتذار إليه، وقد صفحتُ وصفح إخواني!)

وما جاء المساء، حتى كان الخبر على كل لسان في المدينة؛ فقائل: (أخزاهم الله؛ لقد انكشف مستور هم!) وآخر يعقّب: (يا شيخ؛ حسبهم ما نالهم!)

ولقيت الرافعي بعدها فقال لي شامتاً: (. . . هو ذلك. إن الشر ليتربص بالمسلم الذي يحتفل لهذا اليوم اكثر مما يحتفل لمطلع المحرّم! هذه وصية أب!)

وما ذقت حلواً ولا مرًا واحدة في يوم شم النسيم من بعد!

محمد سعيد العريان

التاريخ في سير أبطاله

أحمد عرابي

أما آن للتاريخ أن ينصف هذا المصري الفلاح وان يحدد له مكانة بين قواد حركتنا القومية؟

للأستاذ محمود الخفيف

مازالت إنجلترا وفرنسا بالسلطان حتى استطاعتا إقناعه بعزل إسماعيل فخلفه على أريكة مصر ابنه توفيق، وفي عهد توفيق قدر لمصر أن تنبعث فيها ثورة وقدر لأحمد عرابي أن يكون زعيم تلك الثورة. . .

وما أشبه توفيقاً في بلويس السادس عشر ذلك الملك المسكين الذي قال عنه بعض المؤرخين إنه ورث عن أسلافه الثورة والعرش معاً؛ فلقد تجمعت عوامل الثورة الفرنسية قبل عهده، وما زالت تنمو وتتزايد، وما زالت تلك الأقلام الجبارة أقلام فلتير وروسو ومنتسكيو وإضرابهم تحدوها وتمهد الطريق لها حتى جاء عهد ذلك الملك فاضطرب البركان ثم انفجر فكانت الرجفة التي زلزلت فرنسا زلزالاً شديداً

وأرى توفيقاً قد ورث عن سلفه كذلك العرش والثورة، فلقد تجمعت عوامل الثورة العربية في عهد ذلك السلطان، ثم راحت تحدوها وتمد لها الطريق أقلام جمال الدين وتلاميذه حتى جاء عهد توفيق فانبعثت الرجفة!

لم تكن الثورة العرابية حركة عسكرية فحسب كما يحلو لكثير من المؤرخين أن يصوروها عن عمد أو عن غفلة، وإن الذين يفعلون ذلك منهم ليأتون من ضروب الخطأ ما نعجب كيف يحملون على قبوله أنفسهم وعقولهم، وإنما كانت الثورة العرابية إذا أردنا وصفها في جملة: التقاء الحركتين الوطنية والعسكرية واندماجهما. فلما ذهب عرابي إلى الخديو على رأس جنده ذهب يحمل إليه مطالب الجيش ومطالب الأمة معاً، ومن ذلك الوقت صار سلاح الثورة السيف وقد كان سلاحها القلم، أو بعبارة أخرى حارت قيادتها بين السيف والقلم!

أخذت إنجلترا وفرنسا تتنافسان ففي بسط نفوذهما في مصر منذ حملة بونابرت؛ ولكنهما وجدتا في محمد علي رجلاً لا كالرجال يمد سلطانه لا يفقد ذلك السلطان، فاكتف أولاهما بالسعي إلى تحطيمه، وفرحت الثانية بمصاحبته.

وجاء عهد إسماعيل، وفتحت قناة السويس، وازداد مركز مصر بذلك خطراً، فنصبت كل من الدولتين شباكها وعولت كل منهما أن تسيطر على مصر من طريق المال أولاً ثم من طريق التدخل السياسي ثانياً.

وراح إسماعيل يستدين ويسرف في الاستدانة حتى تراكمتِ على مصر الديون. ولما أرادت مصر أن تجد لمشكلتها المالية حلاًّ سنحت الفرصة لإنجلترا فراحت تتدخل في شئون مصر وتتربص بها الدوائر.

وما هي إلا سنوات معدودة ثم منيت البلاد بالمراقبة الثنائية، وأصبح أمر داخلها ومنصرفها في أيدي المراقبين الأجنبيين. ثم نظرت مصر فإذا وزير ماليتها إنجليزي، وإذا وزير الأشغال فيها فرنسي، وإذا مصالحها تمتلئ بالموظفين من الأجانب يتمتعون فيها بالمرتبات العالية، وإن أهلها لتثقل كواهلهم الأعباء حتى يضيقوا بالحياة.

واشتدت الضائقة على الأهلين لكثرة ما كانوا يؤدونه من الضرائب؛ وأحس المتعلمون منهم أنهم خرجوا من حكم الخديوي المطلق ليدخلوا في نير الأجانب الذين لا تعرف قلوبهم الرحمة.

وهبط السيد جمال الدين مصر يبث فيها مبادئه، ويحمل إليها قبسه، وكان جمال ذلك الرجل الذي أطلعه الشرق ليضيفه إلى كواكبه الزهر، يرى أن علة العلل في الشرق المغلوب على أمره أن شعوبه سلبية الإرادة: تحكم على رغمها، وتسخر لحساب الحاكمين؛ ولا مخرج لها إلا أن تعود حرة كما كانت من قبل حرة؛ ولن يكون هذا إلا أن تقوم الشورى مكان الاستبداد وأن ينسخ نور العلم ما تراكم في الشرق من ظلمات بعضها فوق بعض.

وكانت التربة في مصر صالحة لبذوره فنمت نمواً سريعاً يحمل على الدهشة؛ فما أسرع ما ظهرت في البلاد حركة وطنية كأعظم وأجمل ما تكون الحركات القومية؛ وراح تلاميذ جمال يذيعون في البلاد مبادئه. يقول في ذلك الشيخ محمد عبدة أنبغ تلاميذه وأحبهم إليه: (وكان طلبة العلم - طلبة جمال الدين - ينتقلون بما يكتبونه من تلك المعارف إلى بلادهم أيام البطالة، والزائرون يذهبون بما ينالونه إلى أحيائهم، فاستيقظت مشاعر، وانتبهت عقول، وخف حجاب الغفلة في أطراف متعددة من البلاد خصوصاً في القاهرة).

وظهرت في تلك الأيام الصحافة العربية، وراح الناس يقرؤون فيها نفثات الوطنية، وأخذت تهب عليهم من بين سطورها نسمات الحرية، والتمع لهم فيها وميضها، فانتعشت أرواحهم وهفت إلى الانطلاق من الأسر قلوبهم.

وأدى اتصال المصريين بالأجانب إلى تتبع الأنباء العالمية في الحرب والسياسة. فزادت معرفتهم بأحوال العالم وقارنوا بين الشعوب الحرة وبين أنفسهم، وراحوا يستنبطون أسباب ما باتوا فيه من شقاء وذلة.

واهتدى الناس إلى منهجهم فعرفوا أن منجاتهم في أن يتخلصوا من الحكم المطلق ومن نفوذ الأجانب جميعاً، وظهر فيهم الزعماء فراحوا يعقدون الاجتماعات ويتدارسون أمرهم بينهم، وظاهرهم الخديوي آخر الأمر فأصابوا حظّاً كبيراً من النجاح، ورأى المصريون لأول مرة في تاريخهم وزارة وطنية تخضع لمشيئة مجلس يجلس فيه فريق منهم يعبرون عن مشيئتهم

ولكن المصريين ما لبثوا أن فجعوا في آمالهم بتدخل الدولتين تدخلاً جريئاً في شئونهم أدى إلى عزل الخديو وتركهم ذاهلين، تتنازع أفئدتهم عوامل الحنق والخوف والتشاؤم من المستقبل

وأسلمت قيادة السفينة إلى توفيق، فما كادت تسير حتى اكتنفتها الرياح الهوج، وقامت أمامها العقبات من كل جانب؛ فهاهم أولاء المصريون تتأجج نيران الحقد في قلوبهم على الأجانب ولن يطيقوا بعد اليوم أي جنوح إليهم، وهاهي ذي إنجلترا تتحفز وتتربص، ثم هاهي ذي فرنسا تتحين الفرص لتتغلب على منافستها. . وهناك تركيا جاءت آخر الأمر تطلب أن تعيد سلطانها في مصر سيرته الأولى فتردها الدولتان المتنافستان على عقبيها

والربان غير عليم بالسياسة وأنوائها، ولكنه على الرغم من ذلك راح يستغني عن أعلم رجاله بها، فتخلص من شريف وهو أحوج ما يكون إليه! وتنكر للحركة الوطنية وكان حقيقاً أن يعطف عليها عسى أن يحبه الوطنيون وعسى أن يحملهم هذا الحب على

تناسي ما لحق بمنصب الخديوية من هوان صغر به في أعينهم؛ ولكن توفيقاً غفل عن هذا أو تغافل عنه لما رآه من إقصاء أبيه عن منصبه على ما كان له فيه من جاه وقوة وحل رياض محل شريف فآلم ذلك دعاة الحركة الوطنية وأزعجهم أن يروا رياضاً يجارى الخديو في استكثار الدستور على المصريين فيقنع بما لا يقنع وطني مكتفياً بمبدأ مسؤولية الوزارة عن أعمالها مستغنياً عن مجلس شورى النواب الذي يحرص عليه الوطنيون كل الحرص

وجاء قانون التصفية فازداد الوطنيون به آلاماً على آلامهم، ورأوا ما فيه من غبن شديد يتجلى في إلغاء دين المقابلة وقد أخذ من جيوبهم كما رأوا ما فيه ما هو أكثر من الغبن ألا وهو عدم التنازل عن شئ من الدين وهم يعلمون كيف كانت تقترض تلك الأموال ومبلغ ما كان يصل مصر منها؛ وهم يعلمون كذلك مجازفة الأجانب بأموالهم مما يحملهم كثيراً من المسئولية. هذا إلى أنهم رأوا مرتبات الموظفين من الأجانب في الحكومة المصرية تبقى على حالها من الارتفاع فلم يدر يخلد من قاموا بالتصفية أن يراعوا ذلك في قرارهم فينزلوا بها إلى الحد اللائق

تلك هي الحركة الوطنية أو تلك هي نذر الرجفة. أما الحركة العسكرية فأول ما نتحدث به عنها أنها بدأت كذلك في عهد إسماعيل وتجلى أول مظهر من مظاهرها في تلك الحركة التي اعتدى فيها فريق من الضباط على نوبار أمام وزارة المالية عام 1878م. وكان ما دفع الضباط إلى تلك الحركة ما لحقهم بسبب الارتباك من الاستغناء عن عدد منهم ومن تأخر مرتباتهم عنهم بينما كان الجراكسة في الجيش لا يلحق بهم شيء من هذا. . .

ولقد استغنى عن عدد كبير من الجند في أوائل عهد توفيق حتى نزل عدد الجيش المصري عما اتفق عليه أخيراً في بداية هذا العهد. وولى وزارة الجهادية في حكومة رياض عثمان رفقي الجركسي فكأنما جعل أساس سياسته الكيد للمصريين ما وسعه الكيد؛ فلقد راح يذيقهم من نكاله بقدر ما راح يفيض على الجركس من عطف وإحسان. ولم يكن ذلك عجيباً من جانبه ففي دمه ما في دم جنسه من بغض قديم للمصريين الذين كانوا في رأيهم فلاحين لا يصلحون إلا ليكونوا عبيداً

وكان طبيعياً أن تقتصر الترقيات في الجيش على الجركس. وراح عثمان رفقي يعد مشروع قانون يمنع به ترقية الجند من تحت السلاح لكي يبقى العنصر الجركسي في الجيش هو العنصر السائد. أما عن كبار الضباط فقد بدأ يقصيهم عن مراكزهم كما حدث

في أمر احمد بك عبد الغفار قائمقام السواري إذ فصله رفقي وعين مكانة الجراكسة، وكما حدث في نقل عبد العال حلمي إلى عمل في الديوان ووضع جركس آخر طاعن في السن محله

أما عن الجند فقد كانت الحكومة تسخرهم في أعمال لا تمت إلى الجندية كحفر الترع والزراعة في أراضي الخديو وغير ذلك. ومما يذكر عن عرابي هنا أنه عارض معارضة شديدة في أن يعمل جنوده في حفر الرياح التوفيقي؛ وهو موقف من مواقف شجاعته، تلك الشجاعة التي يأبى خصومه أبداً إلا أن يروها تهوراً، والتي نراها في أكثر الأحوال على خير ما تكون شجاعة الرجال ذوى الحمية والإخلاص. . . وأي مأرب في هذا الموقف؟ وفيم تكون معارضته في أن يسخر جنده في مثل تلك الأعمال إن لم يكن مبعثها الإنصاف والغيرة؟ وما يكون إنصافه وغيرته في موقف كهذا إلا بسالة وإقداماً

تلك هي المشاكل العسكرية. ولو أن تلك المشاكل عولجت بما يقتضيه العدل لما قدر للحركتين أن تلتقيا فتكون منهما تلك الثورة التي اقترنت باسم عرابي. ولكن كان دون علاجها عقبات؛ فهناك تعصب رفقي وغطرسته، وجهل رياض بالشؤون الحربية وترفعه عن هؤلاء الفلاحين من الجند لأنه يترفع عن الفلاحين جميعاً. ثم هناك دسائس الجراكسة في الجيش وكيدهم للمصريين ذلك الكيد الذي لا يفتر

وكان عرابي في أوائل عهد توفيق قد أخذ يتصل برجال الحركة الوطنية، أو على الأقل أخذ يتصل بالحركة نفسها؛ وهو من أول نشأته متحمس لبنى وطنه، وشارك عرابي في هذه النزعة الوطنية بعض ضباط الجيش. ولا غرابة في هذا فإن المسألة العسكرية في وضعها هذا كان لابد أن تدب إليها الروح الوطنية فتكون في مظهرها أمراً متعلقاً

بالجيش بينما هي في الواقع كانت شعبة من تلك الحركة العامة التي كانت تشغل أذهان المصريين منذ أواخر عهد إسماعيل
وكان طبيعياً أن تبدأ المتاعب من جانب الجيش وقد أخذت رجال الحركة الوطنية حيرة منذ أن استقال شريف. ولقد كانت مسئولية الحكومة عن هذه المتاعب وتعقدها مسئولية جسيمة هي عندي من أكبر سوءات ذلك العهد. . .
على أن عرابياً نفسه قد رقي في أول عهد توفيق إلى مرتبة أميرالاي، ومع ذلك فقد أدت
سياسة الحكومة أو على الأصح سياسة رفقي أن يكون هو على رأس المتذمرين بدأت حركة التذمر بأن قدم بعض الضباط المصريين شكوى إلى وزارة الجهادية عن مرتبات لهم متأخرة، وكان عرابي ممن وقعوا على هذه الشكوى. ونظرت الوزارة في الأمر، وكان قنصلا إنجلترا وفرنسا قد تدخلا في الأمر، والفت لجنة للتحقيق أقرت مطالب الضباط، وكان ذلك في مايو سنة 1880، ولكن رياضاً ووزيره رفقي رأيا في ذلك العمل القانوني حركة جريئة وخروجاً على النظام!
(يتبع)
الخفيف
نقل الأديب
للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي
381 - لقد أحدثتم بدعة وظلما
في (الاعتصام) للشاطبي: ذُكر لعيد الله بن مسعود أن ناساً بالكوفة يسبحون بالحصى في المسجد. فأتاهم وقد كوّم كل رجل منهم بين يديه كُوماً من الحصى. فلم يزل يحصبهم بالحصى حتى أخرجهم من المسجد، ويقول: لقد أحدثتم بدعة وظلماً.
382 - البدعة تعتبر في الشر
في (محاضرات الأدباء) للراغب: قُدّم إلي مالك بن أنس حيث يراه المهدي (العباسي) - الماء ليغسل يده للطعام، فقال: هذا بدعة
فقال المهدي: يا أبا عبد الله، البدعة تعتبر في الشر، فأما أبواب الخيرات فإحداثها سنة
383 - لا جرم أنكم تأكلوني
الصفدي: قال بعض الرؤساء لشهاب الدين الفوصي: أنت عندنا مثل الأب، وشدّد الباء. فقال لا جرم إنكم تأكلوني.
قلت: لا يخفى ما في التندير من اللطف لأن الأب مشدد الباء هو المرعى. وقال بعضهم هو للدواب مثل الخبز للأناسي ومن يشدد الباء من الأب لا يكن إلا دابة
384 - حتى يعذب نفسه هذا التعذيب
ذُكر عند أعرابي رجل بشدة الاجتهاد وكثرة الصوم وطول الصلاة، فقال: هذا رجل سوء، وما يظن هذا أن الله يرحمه حتى يعذب نفسه هذا التعذيب
385 - فقلت لعلها
كان عروة بن أذينة نازلاً في دار عروة بن عبيد الله بالعقيق فسمعه ينشد:
إن التي زعمت فؤادك ملّها ... خلقت هواك كما خلقت هوى لها
بيضاء باكرها النعيم فصاغها ... بلباقة فأدقها وأجلّها
حجبت تحيتها فقلت لصاحبي ... ما كان أكثرها لنا وأقلها!
فدنا فقال: لعلها معذورة ... من أجل رقبتها فقلت: لعلها
وإذا وجدت لها وساوس سلوه ... شفع الضمير إلى الفؤاد فسلّها
وقال عروة بن عبد اللهً: فأتاني أبو السائب المخزومي وأنا في داري، فقلت له بعد الترحيب: هل بدت لك حاجة؟ فقال: نعم، أبيات لعروة بن أذينة بلغني أنك سمعتها منه. فقلت له: وأي أبيات؟ فقال: وهل يخفى القمر؟! قوله (إن التي زعمت فؤادك ملها) فأنشدته إياها فلما بلغت إلى قوله: (فقلت لعلها) قال: أحسن والله، هذا (والله) الدائم العهد، الصادق الصبابة، لا الذي يقول:
إن كان أهلك يمنعونك رغبة ... عني فأهلي بي أضن وأرغب
أذهب لا صحبك الله ولا وسع عليك - يعنى قائل هذا البيت، لقد عدا أعرابي طوره، وإني لأرجو أن يغفر الله لصاحبك (يعني عروة) لحسن ظنه بها، وطلبه العذر لها. قال

عروة بن عبد الله: فعرضت عليه الطعام، فقال: لا والله، ما كنت لآكل بهذه الأبيات طعاماً إلى الليل
386 - من حرقة النار أم من فرقة العسل
أبو اسحق إبراهيم بن عثمان ألغزي:
أشكو إليكم هموماً لا أبينها ... ليسلم الناس من عذري ومن عذلي
كالشمع يبكي ولا يدرى أدمعته ... من حرقة النار أم من فرقة سالعسل
387 - رسالة. . .!
في (طبقات الشافعية الكبرى): ركب اسحق بن راهَويْه دين فخرج من مرو وجاء نيسابور، فكلم أصحابُ الحديث يحيى بن يحيى في أمر اسحق، فقال: ما تريدون؟ قالوا: تكتب إلى عبد الله بن طاهر رقعة - وكان عبد الله خراسان وكان بنيسابور - فقال يحيى: ما كتبت إليه قط، فألحوا عليه فكتب في رقعة:
(إلى عبد الله بن طاهر. أبو يعقوب اسحق بن إبراهيم رجل من أهل العلم والصلاح)
فحمل اسحق الرقعة إلى عبد الله بن طاهر، فلما جاء إلى الباب قال للحاجب: معي رقعة يحيى بن يحيى إلى الأمير. فدخل الحاجب فقال: رجل بالباب زعم أن معه رقعة يحيى بن يحيى إلى الأمير. فقال: يحيى بن يحيى؟ قال: نعم، قال: أدخله؛ فدخل اسحق وناوله
الرقعة، فأخذها عبد الله وقبلها، وأقعد اسحق بجنبه، وقضى دينه ثلاثين ألف درهم، وصَّيره من ندمائه.
388 - كأنه من كبدي مقدود
قال على بن عبد الله بن سعد: أنشدت دعبلا قصيدة بكر بن خارجة في عيسى بن البراء النصراني الحربي:
زنّارُه في خصره معقود ... كأنه من كبدي مقدود
فقال: والله ما أعلمني حسدت أحداً على شعركما حسدت بكرا على قوله: (كأنه من كبدي مقدود).
أمل العرب الراحل
للأستاذ خليل هنداوي
(قد خططنا للمعالي مضجعا ... ودفنا العز والمجد معا)
فيصلُ ما إن نسينا يومه ... فاجعلوا يوماً لغازي أروعا
فيصل ما نضبت أدمعنا ... فامزجوا بالدم هذى الأدمعا
لم يكن مصرع غازي واحداً ... إنه كان لشعب مصرعا
ليس يدرى من نعاه أنه ... قد نعى العرب جميعا إذ نعى
أيها الناعي رويداً إنها ... لأماني تهاوت صُرَّعا
إنه بنيان قوم ينحني ... إنه مأمل شعب ودعا
كفنوا غازي بأبراد العلا ... واجعلوا مثوًى لغازي إلا ضلعا
مفزع العُرب إذا ما فزعوا ... من لهم بعدك يبقى مفزَعا؟
أصبح الشعب يتيماً واجماً ... أسفاً، والدار أمست بلقعا
والأماني مضت تبكي فتى ... ضم كشحيه عليها أجمعا
فهي تمشى رامقات نعشه ... تذرف الدمع وتروي المدمعا
والمروءات على جبهته ... يتهاوين حزانى وُقعا
والسموات على مصرعه ... مقلة ذارفة لن تقلعا
أبت الأيام إلا حربنا ... وأبينا أبداً أن نخضعا
فعلى كل ثرًى يجرى دم ... الثرى بالدم أمسى مترعا
وعلى كل سبيل فدية ... لم يضيعها الذي قد ضيّعا
وعلىَ كل شهيد بسمة ... وهي للحق إذا الحق وعى
وعلى كل حًمى تضحية ... حدَّث المربعُ عنها المربعا
والشهادات على أعناقنا ... لا ترى صرفاً ولا منقطعا
كل هذا مرحباً! أهلاً به ... إن يكن يحمل صبحاً ألمعا
(مرحباً بالخطب يبلونا إذا ... كانت العلياء فيه المطلعا)
إن يمت في كل يوم مبدع ... من بني العُرب خلقنا مبدعا

لا يفت الدهر من غرمتنا ... لا يلاقي اليأس فينا موضعا
قد نذرنا للمعالي نفسنا ... واستطبنا الموت فيها مشرعا
لا نرى إلا العوالي مركبا ... لا نرى إلا المعالي مطمعا
(دير الزور)
خليل هنداوي
رسالة العلم
ترى ما وراء هذا الكون؟
علاقة بين الكون المحدود وأصغر ما فيه
للدكتور محمد محمود غالي

بحث الرجل منذ القدم عن معرفة الكون فكانُ يقسم النجوم التي يراها في السماء إلى مجموعات تشبه على وجه التقريب بعض الحيوان أو الأشياء. وقد وُجدت في السويد أشكال من هذه المجموعات الشبيهة بشكل الحيوان، منقوشة على الحجر منذ العصر البرنزي. واليوم يُقسم الفلكيون في مؤتمراتهم السماء إلى 89 مجموعة تجد أسماءها في الدليل الفلكي. وقد كان (باير) في سنة 1603 أول من أطلق الحروف الإغريقية الأولى على أسماء النجوم، لكي يُفرَّق بين نجوم المجموعات الكوكبية المختلفة. ولم يلبث أن تقدم علم الفلك تقدماً جعل هذه الحروف الإغريقية لا تكفي هذه المسميات لكثرتها؛ فلجأ العلماء إلى الأرقام، وأصبحت النجوم تحمل الرقم الوارد من الدليل الفلكي. وتقدم المنظار الفلكي كما تقدمت الطريقة الفوتوغرافية، فأصبح الدليل يحوي مليوناً من النجوم، وتقترب معارفنا الآن من عشرات الملايين.

جُل بنظرك في الشكل الأول ترَ جزءاً من المجرة في برج الثور يدلك على بقعة صغيرة من عالمنا الذي يحوي مئات ألوف الملايين من النجوم والأجرام. ثم تأمل الشكل الثاني وهو السديم الشبكي في الدجاجة تر واحداً من ملايين ملايين العوالم الأخرى المكونة للكون - ثم تصور جسما صغيراً في الكون مثل إحدى أشواك التين؛ وتصور أصغر ما يعرفه العلماء من الجسيمات المكونة لهذه الشوكة، وهو الإلكترون الذي تحوي الشوكة الصغيرة ملايين منه. إن عدد إلكترونات الكون يتعدى كل خيال، ومع ذلك فقد تمكن العلماء من الوصول إلى علاقات معقولة بين الكون في مجموعه وبين الإلكترون المتناهي في الصغر. وسأحاول في هذه الأسطر أن أحيط القارئ علماً بالطرق التي يتبعها العلماء في هذا السبيل ذكرنا أن العلم التجريبي قد أثبت ابتعاد جميع العوالم عنا، وابتعاد كل واحد منها عن الآخر بسرعة تزيد على 500 كيلو متر في الثانية لكل 26 , 3 مليون سنة ضوئية، وذكرنا أن

النظريات الأولى للعالم دي ستير كانت تتنبأ بتمدد الكون، وأن النظريات عامة وإن عرفت تمدد الكون لم تعين في المبدأ الدرجة التي يتمدد بها. وأضيف اليوم أن العلم النظري الحديث لا يحتم الفكرة القائلة بابتعاد جميع العوالم بعضها عن بعض فحسب، بل يُعين السرعة التي تبتعد بها هذه العوالم كما يُعينها العلم التجريبي.

على أن النسبية وحدها لا تزودنا بهذه المعلومات الجديدة، ولكن للعلم منابع أخرى وجدت طريقها بعد النسبية لأينشتاين؛ وأهم هذه المنابع اليوم الميكانيكا الموجبة التي أسسها العالم الشاب دي بروي الحائز على جائزة نوبل، أستاذ السربون وعضو المجمع العلمي الفرنسي؛ وباتباع الطريق العلمي الجديد نجد - مع إهمال القوة الجاذبية بين العوالم إذ هناك ما يبرر إهمالها علمياً - إزاء قوة التنافر للكون، أن سرعة ابتعاد العوالم بعضها عن بعض تقع بين 500 و1000 كيلو متر في الثانية لكل 26 , 3 مليون سنة ضوئية

ومما يلفت النظر أنه للوصول إلى هذه النتيجة الحسابية التي تتفق مع النتائج العملية لم يلجأ الباحثون إلى أي عمل تجريبي أو إلى الأرصاد الفلكية

ويجدر بالذكر أن كل ما يتعلق بحساب الكون أو بحساب الإلكترون يرتبط إلى حد كبير بتعيين سرعة ابتعاد العوالم بعضها عن بعض. على أن هذا النجاح الأخير الذي يظهر في الاتفاق بين العلم النظري والعلم التجريبي لم يقف عند هذا الحد، بل استبنَّا من العلوم النظرية علاقة بين البروتون والإلكترون على وجه خاص بين كتلتيهما. ولكي يفهم القارئ شيئاً عن البروتون نذكر أنه بين مكونات المادة. فذرة غاز الهيدروجين مثلاً مكونة من مركز رئيسي هو بروتون واحد يدور حوله إلكترون واحد كما يدور القمر

حول الأرض. ومن ثم أضحى العلماء بفضل تقدم الميكانيكا الموجية بصدد نظريات تعين أمرين في آن واحد:

الأمر الأول: سرعة تمدد الكون ومنها القوة التنافرية، كذلك الثابت الكوني.

الأمر الثاني: النسبة بين كتلة البروتون والإلكترون

إلى هنا لازال يبعد عن ذهن القارئ العلاقة بين الكون والإلكترون، كما يبعد عن ذهنه أيضا علاقة يرى فيها وزن الكون. ولكي أعطي القارئ فكرة سريعة عن هذا أدله على وجود علاقتين توصل لهما العالم الكبير أينشتاين في سنة 1916. يرى في إحدى هاتين العلاقتين كتلة الكون.

(الأولى) علاقة تربط نصف قطر الحيز عند مبدأ تكوين الكون بالثابت الكوني (الثانية) علاقة تربط ثابت الجاذبية وكتلة الكون وسرعة الضوء مع نصف قطر الحيز السابق الذكر.

كنت أود أن أطلع القارئ على شيء من هذه العلاقات، ولكن تدخل معظمها في الواقع حسابات لم يتعودها ومعادلات من الصعب تبسيط مدلولها. فمثلاً بينما حجم كرة نصف قطرها نق يعادل 34ط نق3 (ط النسبة التقريبية) فإن حجم حيز كروي له نفس نصف القطر هو 2ط2 نق3 أي 4. 71 حجم كرة عادية. والحيز الكروي ليس كرة معتادة بل غلافا لكرة زائدة ذات أربعة أبعاد، وفي كل هذه الأبحاث يفرقون بين قطر الحيز الفارغ الذي هو متوسط أنصاف أقطار مختلفة وفق التوزيع المادي للكون من نصف قطر الكون قبل التمدد، وفي هذه الأبحاث نرى أن تقوس المناطق الفارغة في الكون أقل من المناطق الآهلة بالمادة. كل هذه الاعتبارات التي تربط نصف قطر التقوس الكروي لقطاع ما ذي ثلاثة أبعاد مجال ذي أربعة أبعاد للحيز والزمن الخيالي، صعب على القارئ الدخول في تفاصيلها، ولكن يهمني أن يعلم أن العلماء توصلوا إلى علاقات تجد فيها نصف قطر الكون المتقدم وسرعة ابتعاد العوالم وسرعة الضوء أو علاقات بين نصف قطر الكون وعدد الإلكترونات وشحنة الإلكترون وسرعة الضوء . . . الخ. ولكنى لا أترك هذا الجزء دون أن أذكر أن معادلة من أهم المعادلات الأساسية في هذه الأبحاث تلك المعادلة الموجبة الخاصة بذرة الهيدروجين ' ' أي لمجموعة مكونة من بروتون واحد، وإلكترون واحد مرتبط به كما قدمنا، هذه المعادلة تعين حجم الذرة وتوزيع شحنتها الكهربائية، ولا أذكر هنا كيف أدخل العلماء وحدة الطول الجديدة التي هي نصف قطر الكون في معظم هذه العلاقات، ولكن أرجو أن يستقر في ذهن القارئ أن كل هذه الموضوعات تكوَّن في وقتنا الحاضر وحدة في العلوم، تستمد قوتها من الناحيتين العملية والنظرية معاً، وأنه بالاستقراء طوراً، والبحث التجريبي تارة، توصلوا لكثير من العلاقات التي تربط الكون بأصغر ما فيه والتي سبق ان أعطينا النتائج الخاصة بها في جدول سابق.

كل ما أود أن يعلق بذهن القارئ أن يعرف أن الاستنتاج العلمي لا يقف عند المحسوسات. وسبق أن قدمت أننا لسنا بحاجة لنرى الليل والنهار لنعرف دورة الأرض، كذلك لسنا بحاجة لنحصي أجرام السماء لنعرف وزن الكون، وعدد ما يحويه من الكترونات، وضربت للقارئ مثلاً بعمل فوكوه عندما استدل على دورة الأرض من بندوله الذي علقه من قبة البانتيون.

وأعود فأقول: لو أن المريخ، وهو الذي يحجب الضوء عنه سحب كثيفة، كان مسكوناً بكائنات تفكر مثلنا نسميها المريخيين لما استحال عليهم أن يعرفوا أن سيارهم أيضاً يدور حول نفسه، كما تدور الأرض حول نفسها، ولاستطاعوا أن يؤكدوا ذلك برغم ما يحيط به من سحب كثيفة تحجب عن أهله ضوء الشمس، وهي سحب لم نعهد مثلها

حول الأرض، بل لما استحال عليهم أن يحددوا فترة الليل والنهار الخاصة بهم، فما عليهم إذا كانوا ينعمون بدرجة ذكائنا، وكانت لهم طريقتنا في استقراء الأشياء، إلا أن يعقلوا كرة من خيط طويل يدعونها تهتز، فإنهم سيدركون أن الكرة لا تهتز فحسب، بل إن المستوى الذي تهتز فيه يدور حول نفسه، وبحساب بسيط يمكن للمريخيين إذن أن يحددوا فترتي الليل والنهار.

عسى أن يكون قد علق بذهن القارئ بعد هذا الجهد الذي واصلناه مدى أربع مقالات عن (الكون يكبر) ثلاثة أمور: الأول أننا أبناء كون محدود مكون من عوالم كلها على حيز وغلاف كروي. الثاني: أن هذا الغلاف الكروي يتسع ويتمدد على نحو كرة من المطاط، وان ثمة قوة تدعو لهذا التمدد الذي يجعل كل العوالم يبتعد بعضها عن بعض، وأننا الآن في هذه المرحلة من الابتعاد والتمدد التي بدأت منذ بلايين من السنين. الثالث أن ثمة علاقات ثابتة بين الكون في مجموعه وأصغر ما فيه وهو الإلكترون وأضيف إلى هذه الأمور الثلاثة انه ليس لنا أن نحاول نعرف شيء خارج عن هذا الكون المحدود.

هذا هو الكون وفق احدث الآراء. وقد يتساءل فريق من القراء عما وراء الكون المحدود. وقد يجيز هذا الفريق لنفسه أن يتصور عوالم خارجة عن نطاقه، ولعل السبب في ذلك هو مطالبتنا له بالاعتراف أن الكون محدود وليس لدينا اليوم جواب على هذا سوى أن نكرر أن الكون الذي نرى ونسمع ونتحرك فيه ونعرف منه قوانيننا الطبيعية الحالية هو كون محدود ليس لنا أن نتساءل عن غيرة مادامت الظواهر الطبيعية التي نعرفها تنتشر في مثل هذا الكون وكل شئ يدل على إنها لا تتعداه.

ولكن ماذا بعد الكون؟ سؤال يتردد على الذهن!

إن نمله تّفْتّرُضها متأملة خرجت لأول مرة من كومة صغيرة من الرمل وجدت نفسها بطريقة المصادفة إزاء ثقب في سجاد مفروش في سرادق فسيح مقام في جهة قضى نحبه فيها رجل له بين أهله مكانة، فمد الأهل الأبسطة والمقاعد، وأضاءوا الأنوار وازدحم المكان بالمعزين

تجولت النملة المتأملة الحديثة العهد بالحياة على هذه الأبسطة المتسعة تائهة لا تهتدي إلى المكمن الذي خرجت منه، ترى أنواراً تعلوها، وأبسطة ممتدة أمامها، وأناس يرحون ويغدون، وتسمع فقيهاً يُرَتِّلُ الآيات بصوت رخيم، وترى نادلا يقدم قهوة للقادمين، وكلما مر الوقت انطبعت هذه الصور في ذهن النملة الحائرة

لنفرض بعد ذلك أنه لسوء حظ النملة التعسة انطفأت الحياة فيها بأن داستها أقدام المعزِّين، فإنه يغلب على الظن أن الدنيا عندها هي فضاء تضيئه أنوار، ويحيط به سرادق، وتغطي أرضه أبسطة، وفقيه يرتل الآيات، ونادل يتحرك جيئة وذهاباً إن وجود القاطرة البخارية وحديقة الحيوان ومعرض نيويورك والاستعداد للحرب، أمر غير معروف لديها، فكل هذه أشياء خارجة عن حدود مداركها

قد تكون ملايين السنين التي يقدر الجيولوجيون والطبيعيون أنها الفترة التي مرت على الإنسان منذ وجوده بالنسبة للخليقة كهذه اللحظات بالنسبة للنملة الحائرة، وقد لا يمثل ميراثنا العلمي الذي لا تتسع له دور كتب العالم قاطبة الوجود في شيء، وقد يشبه معارف النملة عن الكون الذي لم تر المسكينة منه إلا ليلة عزاء محصور كل حوادثها بين قطع محدودة من الأقمشة، ويكون الكون ذو الحيز المتقوس وفق ريمان وأينشتاين، المتمدد وفق دي ستير واديجتون، المحدود وفق سان ولميتر، ذرة واحدة، لا نقول بين ملايين ذرات مماثلة لها، بل بين ملايين أكوان لا يمثل هو فيها شبيهاً، ويكون كوننا مثالا خاطئا لحقيقة الوجود، بل قد يكون كأحد جسيمات الدخان لمصنع لا نعلم عنه سوى إحدى ذرات دخانه المتصاعد، ونكون معشر الناس ككائن نفترضه داخل هذا الجسيم من الدخان، لا يرى إلا ما يكوَّن الجسم الذي هو بداخله. فالقطن الذي يدخل هذا المصنع والوادي الذي زرع فيه هذا القطن، والنهر الذي رواه، والمهندس الذي صمم القناطر على هذا النهر؛ كل هذه أمور غير معروفة بالمرة لهذا الكائن الذي افترضناه داخل الجسيم

كم يغلب على ظني أننا لا نختلف كثيراً عن هذه النملة الحائرة أو عن هذا الكائن السجين!

على أن شيئاً جديداً. اكتشفه العلماء يقع داخل هذا الكون المحدود وينتقل بين أرجاء هذا
السجن الفسيح الذي نعيش في داخله. هذا الشيء يشغل بال العلماء اليوم لقوة اختراقه العجيبة وصفاته النادرة، ويسمونه الأشعة الكونية، وهو ما سأجعله موضوع حديثي في العدد القادم

محمد محمود غالي
دكتوراه الدولة في العلوم الطبيعية من السوربون
ليسانس العلوم التعليمية. ليسانس العلوم الحرة. دبلوم المهندسخانة

رسالة المرأة
الإسلام والآداب العامة
آداب تتأول الطعام
للآنسة زينب الحكيم

أوضحنا في مقال سابق نشأة (الإتيكيت) وضرورته في الحياة. واليوم نتحدث عن آداب تناول الطعام. وكل ما أرمي إليه هو التذكير بأشياء بسيطة كثيراً ما تغيب عن أذهاننا مراعاتها دون قصد أو لعدم معرفة

وأريد أيضاً أن أوضح عادات بعض البلاد الأجنبية في تناول طعامهم، ولا سيما أن كثيراً من أهل الشرق يزورون تلك البلاد الآن أكثر مما كانوا يفعلون قبلاً. ومن المستحسن أن يعرف الإنسان عادات الناس حتى لا يضايقهم ولا يضايق نفسه، كما لا يصح أن يكون عرضة للنقد وفي استطاعته تلافي ذلك

وإني لا أنكر أنه قد أثرت في نفسي بعض الحوادث التي كثيراً ما تحدث من الرجل أو من السيدة أثناء حضورهما الحفلات أو ولائم الغداء أو العشاء. وإني لا أنسى أبداً ذلك السيد وزوجه وقد كانا عروسين جديدين احتفى بهما بعض أقاربهما بمناسبة زفافهما فدعوهما إلى وليمة غداء. كان من بين ألوان الطعام الأكلة المصرية المشهورة (ملوخية) من النوع السائل لا (البوراني). ولما حان دور أكل الملوخية وضع النادل (السفرجي) ملعقة صغيرة على طرف كل صحن أمام الآكلين لترفع بها الملوخية إلى الفم ثم يؤكل الخبز

لكن السيد العريس لم ينتبه لاستخدام الملعقة، كما لم يلحظ كيف يتناول الباقون الملوخية، فقرصته عروسه في الخفاء ونبهته إلى مراعاة الإتيكيت، ولكنه استمر يصنع من الخبز ملعقة يرفع بها الملوخية من الصحن إلى فمه. ولم تطق الزوجة المسكينة صبراً على أن يُنْقد زوجها في وليمة شبه رسمية، فنبهته مرة أخرى بينها وبينه، ولكنه ثار في هذه المرة ولم ير أن يستمع إليها وقال في صوت مرتفع غاضب: (سبيني خليني أغَمّس)

بالضرورة كان الحادث مضحكا للجميع، وقد قابلوه ببساطة حتى مرّ بسلام بين الزوجين. ولكنه كان على كل حال إيلاماً من جانب الزوج لزوجته وإحراجاً لهما معا أمام الحضور
مهما تقبلوه

كذلك لا أنسى الآنسة الشرقية التي كانت مسافرة مرة على إحدى البواخر إلى أوربا، ولما كانت تتناول الشاي حاولت استخدام الشوكة في أكل البسكوت الجاف والخبز المقدد، وكانت في كل مرة تأول ذلك ترسل قذيفة إلى وجه الجالس أو الجالسة أمامها أو إلى جانبها مما دل على النقص الشديد في معرفة إتيكيت تناول الطعام

لهذه الحوادث وأشباهها أردت أن أتحدث لحضراتكم عن الغداء في أمريكا، والعشاء في إنجلترا، وآداب الوجبتين عند العرب.

وليمة الغداء العادي في أمريكا

إذا قارنا الغداء الرسمي في أمريكا بالغداء الرسمي في إنجلترا وجدنا أن الغداء الإنجليزي يشبه العشاء الرسمي كثيراً.

أما في أمريكا فتكاد تكون ولائم الغداء مقصورة على السيدات دون الرجال الذين يكونون مشغولين عادة في أعمالهم بمكاتبهم، ولا يستعملون تلك الولائم لأغراض خاصة، في حين أن رجال الإنجليز كثيراً ما ينّتهزون فرص هذه الولائم لنقاش المسائل

المهمة الحاضرة ويتبادلون الآراء في كثير من الأمور
ولهذا تكون ولائم عشائهم خالية من كل ما يجهد العقل، وإنما تكون أوقات مفاكهة ومرح بريء
وولائم الغداء الأمريكية يدعى لها ببطاقات بسيطة قبل ميعادها بعدد قليل من الأيام، وتكتب عادة بضمير المخاطب لا بضمير الغائب كما يتبع في الأحوال المهمة، وتحدد ساعة الغذاء أو لا تتحدد فليست هذه مسألة دقيقه كما في ميعاد وليمة العشاء
طريقة توزيع الطعام على نوعين
إما أن يتناول المدعوات أنفسهن من ألوان الطعام الموضوعة على منضدة جانبية على شكل (بوفيه)، وتكون الألوان عادة واردة (كلحوم جافة باردة، وخضر محمره، وحلوى الخ)
وإما أن يمر النُدل كما في وليمة العشاء بألوان الطعام الساخن
مائدة الغداء العادي
تكون مائدة الغذاء العادي غير مغطاة بغطاء كبير عادة، وإنما تستخدم أغطية صغيرة من الدنتلة أو التيل المخرم (دُيلن كما في هذا الشكل
وتكون قائمة الغذاء ملائمة لفصول السنة (كملاحظة ابن عبد ربه)، ولا يقدم الشاي أو القهوة مطلقاً في حجرة المائدة عقب الغذاء غير الرسمي. وإذا قدم شيء منها فيكون عقب الطعام مباشرة.
والسيدة المدعوة للغذاء العادي لا تبقى بعد تناول الغذاء تنصرف، إلا إذا أعدت المضيفة تسلية خاصة بعده.
إذا استنفد تناول الغداء ساعة مثلاً، فلا بأس من محادثة ربة المنزل بعد ذلك نحو نصف ساعة، ثم يجب أن ينصرف الزوار إذ ربما تكون مشغولة بعد الظهر، ولا يليق أبداً أن يكونوا سبباً في تأخيرها.
وليمة الغداء الرسمي
تشبه العشاء الرسمي كثيراً فيما عدا استعمال المفارش الصغيرة (ديلن) عوض غطاء المائدة الكبير
ويبدأ بتناول بعض الفاكهة - ثم الحساء، فسمك مايونيز أو ما شاكله، وليس السمك ضرورياً، وبعض الأسر تحذفه
يأتي بعد ذلك الصحن الرئيسي: مثل الديك الرومي أو الدجاج أو الفطائر أو اللحوم مع الخضر، فأنواع من السلطة، فالحلوى كالمهلبية أو ما يشبهها كما في وليمة العشاء. ثم المثلجات كالجيلاتي أو الألمزية
وليست العادة أن يستريح المدعون بعد الغداء في الصالون أو أن يتناولوا القهوة فيه، وإنما تشرب على المائدة، فإذا كان الطقس مناسباً ورغب المدعون شربت في الفرندة. ويحسن ألا تقيم ربة البيت وليمة غداء إذا كانت مشغولة بعد الظهر في اليوم نفسه، ولهذا يمكن أن يبقى الزوار وقتاً أطول مما في حالة الغداء العادي
ومن المتبع ترتب تسليات كالموسيقى، وتلقى قطع شعرية، أو تمثل قطع صغيرة
الملابس
تكون ملابس ولائم الغداء على نسق ثياب بعد الظهر الممتازة للسيدات، أما ملابس الرجال فمعروفة
هذا ومن أهم ما يراعيه الأمريكان في ولائمهم الرسمية بوجه عام، أن يكون في كشف المدعوين ستة أو ثمانية من المتصادقين وقد يهبط هذا العدد إلى أربعة فقط، ولكن على أي حال من المهم عندهم مراعاة أنواع المدعوين. كما يراعى عدم زيادة الحضور في الوليمة على ما تطيقه ربة البيت حتى يمكنها العناية بهم جميعاً وملاحظة ما يناسب مزاج كل منهم.
آداب المائدة
أهم الآداب التي يراعيها الأمريكان في ولائمهم آداب المائدة الصحية. فهم مثلاً يعتبرون الحركات الخشنة أو غير المضبوطة منافية للآداب إذا حصلت أثناء تناول الطعام، ويعدونها نقص تربية، ويعتقدون أن من صدرت عنه لم يدرس آداب المائدة بعناية كذلك يوجهون أهمية كبرى لسلوك الإنسان على المائدة فيشيرون إلى أنه كثيراً ما يلحظ على رجل تظهر عليه سمات الثقافة والرقي وهو جالس حول مادة بعض

المطاعم أو الفنادق الراقية، أنه يلعب بأدوات المائدة، أو يضرب الأكواب بعضها ببعض دون وعي.

وقد يتغاضى عن أشباه هذا السلوك في الفنادق أو المطاعم، ولكن حدوث أعمال كهذه على مائدة وليمة رسمية يعتبر من أكبر النقائص الأدبية، فإنه حينما لا يحتاج إلى استخدام الأيدي يحسن وضعها على الحجر في سكون، كما لا يحسن وضع المرفقين على المائدة إذا أسئ السلوك في فعل ذلك، ولا أن يوضع الكرسي قريباً جداً من المائدة، ولا بعيداً جداً عنها. فكلا الأمرين غير مقبول.

زينب الحكيم

رسالة الفن

دراسات في الفن

النحت فن الصمت

على ذكر معرض مختار

للأستاذ عزيز أحمد فهمي

خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان من طين فكان الإنسان تجسيداً لما جرى في علمه تعالى من صوره، وكان الإنسان مجالاً لطائفة من آيات الله أراد لأمر أن يراها حية على مسرح الكون

هذه حقيقة لا أجبر القارئ على أن يؤمن بها معي وفق ما أرضاه، وإنما أدعه يؤمن بها على هواه، فإذا كان من أصحاب الدين فهو معي، وإذا لم يكن منهم فهو معي أيضاً، ولكن بعد فرقة قصيرة لابد إن يلقاني إثرها ليشهد أن الإنسان كان التمثال الذي يرجع إليه المثالون جميعاً مستوحين مستلهمين، ومتعلمين دارسين، وباحثين مدققين، ومعجبين مأخوذين وليشهد أيضاً أن الإنسان ما يزال هو هذا المنبع الذي لم ينضب منذ تعقبه الفن، وليشهد بعد هذا وذاك أن الإنسان لن ينفك أن يكون المورد الذي يقصد إليه كل من يبهره الفن الناضج الكامل

هذه هي البداية التي يجب أن نلتقي عندها لنمشي معاً ولننظر بعدها إلى الإنسان - وهو مرجع الفن - كما ينظر إليه النحات الفنان.

أي شيء في هذا الإنسان؟ وأي شيء في الحيوان معه؟ وأي شئ أغرى المثالين بأن يكثروا من تماثيل الناس إكثاراً ملحوظاً، فلم يحيدوا عنها إلا إلى الحيوان قليلاً، ثم لم يرضوا بعد ذلك أن يعرجوا على النبات والجماد فيستقوا منهما فناً؟

إنها هي الحياة من غير شك - والحركة مع الحياة - فليس شيء يميز الإنسان ومعه الحيوان أمام النحت على النبات والجمال غير الحياة الحركة. فإذا قلنا (الجمال) رأينا في الزهر والجوهر جمالاً، وإذا قلنا (الجلال) رأينا في الدوح والجبل جلالاً، وإذا قلنا (الصوت) رأينا النحت يهمله لأنه يقصر عنه. . . فلم يبق - فيما أظن - للإنسان والحيوان مميزاً على غيرهما في رأي النحت إلا الحياة والحركة كما قدمت. فما هي الحياة؟

أهي في نظر النحات هذا النمو الجسدي الذي يقود الإنسان من طفولته إلى شيخوخته؟ أم هي هذا الاضطراب النفسي الذي لا يهدأ فورانه بين جنبيه مادام حيا والذي ينتاب وجهه وتقاطيعه وقسماته بالتعبير المتواصل الذي تصور كل حالة من حالاته رعدة من رعدات هذا الفوران أو هدأة من هد آته؟ أم هي هذا وذاك؟

بعض المثالين يذهب في فنه - سواء أكان متعمداً أم غير متعمد - إلى المذهب الأول، وبعضهم يذهب المذهب الثاني، وبعضهم لا يذهب مذهباً من هذين وإن كان يجمع في فنه ما يوفق إليه الأوائل، وما يهتدي إليه الأواخر. . . توفيقاً وهديا

أما أصحاب المذهب الأول فقد كثروا في مصر في هذه الأيام، فكل معارض النحت التي تقام في مصر الآن لا تحوي من التماثيل إلا ما تقف أمامه لتقول إن هذا التمثال يمثل رجلاً في السبعين، أو فتاة في العشرين، أو صبياً في العاشرة، أو طفلة في الرابعة. . . أما هذا الفوران الذي نذكره فهو بعيد عنهم، وهم بعيدون عنه. ولعل ذلك يرجع إلى أن النحت فن لا يزال ينتفض تحت أثقال السنين التي تراكمت عليه في مصر فدفنته وكتمت أنفاسه دهوراً

وأما أصحاب المذهب الثاني فهم الذين كنا نتوقع أن نرى لهم أثراً ملحوظاً في معرض المختار الأخير. فقد طلب من المتسابقين في هذا المعرض أن يسجل كل منهم في

تمثاله معالم الصلاة ومعانيها أو ما شاء من هذه المعالم والمعاني، فما كان من حضراتهم - أومن أغلبهم - إلا أن سجلوا من حركات الصلاة ما طاب لهم، موجهين كل اهتمامهم إلى إظهار تمكنهم من دراسة التشريح، وإبداء مقدرتهم على محاكاة جثة الإنسان. وعلم الله أني لا أعرف ممن كانت تتألف لجنة التحكيم في هذا المعرض وإن كنت موقناً بأنها ضمت صفوة مختارة من المثقفين الأفاضل؛ غير أنه يخيل إلي أنهم كانوا بعيدين إلى حد كبير عن هذا الذي نسميه (ما وراء المظهر). والدليل على ما أقول انهم منحوا الجائزة الأولى تمثالا أزرق يمثل شيخاً معمما مهندما جالساً على حصيرة آنية جلسة يجلسها المصلون إذا ما فرغوا من صلاتهم وراحوا يسترجعون في أذهانهم ما أنفقوه وما كسبوه في يومهم،

ويستعيدون إلى ذاكرتهم ما قيدوا أنفسهم به من مواعيد أعمالهم أو لهوهم. . . كل هذا والمسابح في أيديهم تجري حباتها بين أصابعهم! حبة تضرب حبة كدقات الساعات في جيوبهم لا هم انشغلوا بها، ولا هي لفتتهم إلى أوقاتهم. هذا التمثال الذي لا يطالع ناظره بأي معنى من معاني الصلاة أعطى الجائزة الأولى لأن مظهره حسن في أعين حضرات المحكمين. والحق أنه أهل لجائزة ولكن على أن يقدم في مسابقة يكون موضوعها: (الجلوس على الحصيرة) لا (الصلاة)!

أما تمثال الصلاة فقد كان له أشباهه في المعرض لست أدري كيف غمضت عنها عيون المحكمين، فقد كان في المعرض تمثال لشيخ فانٍ يقرأ التحيات، ويومئ بسبابته اليمنى شاهداً أن لا إله إلا الله، ويميل بكتف إلى جنب ميلة من ثقلت عليه الحياة فصبر، ولكنه تخاذل فضعف وآن له أن يتحطم، ولكنه استعان على ماضيه وحاضره ومستقبله. . . بالصلاة. وكان في المعرض أيضاً تمثال لرجلين أحدهما كَبَّرَ ووقف يتلو الفاتحة، والآخر لحقه فائتم به ورفع يديه ينوي الصلاة وراءه. . . وقد ألقيت النظرة الأولى على هذا التمثال فلم أملك إلا أن أتلوّى، فقد نخسني وجه ذلك الرجل المتلهف على الصلاة نخسة موجعة. ذلك أن صاحبه أفرغ في وجهه روحاً من البله والعته كانت أمر سخرية من صلاة الكثيرين!

كان هذان التمثالان في المعرض وأولهما يكاد يفعم قلب الناظر إليه إجلالاً وخشوعاً إذا كان الناظر قد جرب الصلاة مثقلاً بالذنوب وبالحياة، مؤملاً في رحمة الله ومغفرته، مسلماً له شأنه، مفوضاً له أمره. وثانيهما كما رأيت فيه هذه الفكرة العجيبة الجريئة الشاذة التي ينقد بها صاحبه صلاة الكثيرين من المصلين. . ومع هذا فإن هذين التمثالين قضيا ما قضيا من الأيام والليالي في صالة الكنتننتال، وحظيا ما حظيا بشرف المثول بين يدي معالي وزير المعارف وزملاء معاليه وزميلاته، ولم يلق عليهما واحد من هؤلاء تحية، ولم يسعدهما من أولي الحل والربط في فنون هذا البلد نظرة تقدير أو إعجاب

ولندع الآن الحديث عن معرض مختار لنعود إلى ما كنا فيه من الحديث عن فن النحت نفسه، ولنحدد مكان هذا الفن من الفنون الجميلة. واحسبني الآن في غنى عن تكرار التدليل على أن الحواس الإنسانية هي منافذ النفس، وعلى إن النفس تحصل عن طريق هذه

الحواس على أحاسيس وانفعالات وعواطف مختلفة، فتخلطها وتمزجها وتنتجها بعد ذلك فناً تعبر به عن اتجاه صاحبها في الحياة. فإذا كنت في غنى عن هذا فإن عليَّ أن أقف عند النحت وقفة خاصة أقرا فيها أن النحت هو فن الصمت وأنه بهذا كان أقرب الفنون من التصوف. فالنحات يسجل في تمثاله خفقة واحدة من خفقات الروح لا يفتأ ينتظرها ويتوقعها ويبحث عنها حتى إذا ما سطعت له مرتسمة على الجسم عامة، وعلى الوجه خاصة، تعلق بها وطبعها على روحه أو قل إنه يطبع روحه عليها ويرصدها عنده أرصاداً ويقفها عليها وقفاً. وهو بهذا يختلف عن الأديب الذي يتنقل في موضوعه من خاطر إلى خاطر، والذي يطلق وصفه لهذه الخفقة نفسها من ناحية إلى ناحية، والذي يأخذ قارئه في طوافه بها من جانب إلى جانب، وهو في هذا غير الموسيقى الذي يسلسل اللحن ويوالي التنغيم ليؤدي باللحن بعد تمامه ما يؤديه النحات باللمحة التي خطفها من الطبيعة وثبتها في تمثال فخلدها عليه. وهذا الأداء الذي يؤديه النحات لهو أشق وأعصى ما يرجوه الفن من الفنان، فليس يسيراً أن يلحظ الإنسان كل ما ينتاب الناس من اهتزازات الروح؛ وإذا كان من هذه الاهتزازات ما يبقى مواجهاً للعين

والحس لحظة أو لحظات، فإن فيها ما يتلاشى أثناء تكوينه!. . . كلهفة الإعجاب التي تنتاب امرأة متزوجة عندما تلمح تحت بصر زوجها وسمعه شاباً يروقها، فهي لا تكاد تسمح لوميض الإعجاب أن يلمع في عينيها إلا ريثما تهب عليه نسمة من خجلها وريائها أو عفتها تطفئه وتخمده. هذه اللهفة قد يصفها الكاتب، وقد يصفها الشاعر، وقد يصفها الموسيقي موصولة بغيرها؛ وقد تؤديها ممثلة خيراً من أدائهما إذا كان بين النساء ممثلات فيهن من دقة الفهم والحس ما يقف بهن عند هزة خاطفة من هزات الروح كهذه؛ وقد يؤديها أيضاً رسام مستعيناً عليها بالألوان والظلال. . . ولكنن لا أتصور أن فناً من هذه الفنون جميعاً يؤتمن عليها مثلما يؤتمن عليها النحت الهادئ. ذلك أن قلة الأدوات التي يستعملها النحات في فنه تبعثه على الاستعاضة عن التيسير الذي تتيحه الأدوات لأصحاب الفنون الأخرى بطاقة كبرى من روحه يجود بها على فنه، إذ ما قد يستطيع غيره أن يمسك من شعاع النفس لا يملك النحات إلا أن يبذله

والنحات لا يهتدي إلى أمثال هذه اللمحات السريعة التي رأينا أحدها إلا إذا عاش وهو حديد البصر يكاد يلتهم كل ما يراه التهاماً، فإذا ما وقع على شيء مما يطلبه جمدت عنده نفسه.

وما أشق جمود النفس على صاحب الفن، ولكنه عند النحات هو السبيل الوحيد الذي يرصد به فنه لا يغنيه عنه التسجيل على الورق، ولا ترضيه عنه الاستعادة والاستذكار، فهو إذا قنع بهما رأى آخر الأمر أنه فقد شيئاً مما كان يطلبه، وهو لا يريد أن يفقد مما يطلب شيئاً لأنه يطمع دائماً في التوفيق إلى محاكاة صنع الله لأنه يدرك أنه ليس وراء فن الله فن. لهذا كان أكمل المثالين هو هذا الذي يستغرق في موضوعه منذ أن يهتدي إليه إلى أن يؤديه؛ وهذا الاستغراق - كما قد يعلم القارئ - يركز إحساس النحات أو المثال في لمحة من حركة أو سكنه من سكنات وضع. وعلى من يريد أن يتصور مشقة هذا وثقله على النفس والروح والبدن أن يجربه وان يرى كم من الزمن يستطيع أن يستمر فيه. . . فليبتسم ابتسامة رضى وليشعر معها بالرضى وليظل هكذا وليرى كم يستطيع أن يظل؟ فليقطب تقطيبه أسى، وليشعر معها بالأسى وليظل هكذا وليرى كم يستطيع أن يظل؟

هذا عمل لا يستطيع غير النحات أن يؤديه، وهو لن يكون نحاتاً متمكناً إلا إذا استطاع أن يؤديه. . . ومن العجيب أن النحات يطلب من أنموذجه أن يكون مرآته، وأن يعينه على تهيئة الجو الذي يريد أن يندمج فيه، وهو في هذا معذور مسكين. . . فهو حين يؤدي بروحه وبجوارحه ما يريد أن يسجله لا يرى نفسه ولا يستطيع أن ينقل عن صورته. . . عندئذ يضطر أن يشرح للأنموذج ما يطلب أن تكون عليه هيأته؛ وقليلاً ما يوفق النحات إلى طلبته، ولعل قلة التوفيق هذه هي التي تلقي في نفوس النحاتين الغرام بنماذجهم المطاوعة، فكم سمعنا بنحات يتزوج من أنموذجه بعد أن يفرغ من صنع تمثالها مهما كانت هذه الأنموذج فقيرة أو جاهلة أو ساقطة. . . فهو لا يرى فيها إلا أنها مرآة تتلقى حسه وتعكسه في وجهها

هذا هو النحات الحساس كما يريده الفن أن يكون

وهناك نحات آخر فيلسوف صاحب فكرة يرمز إليها بتمثال. ولعل مختاراً رحمه الله كان من هذا النوع حين أراد أن يكون من النوع الثاني فلم تسعفه موهبته. ونظرة واحدة إلى نهضة مصر مع نظرة واحدة أخرى إلى تمثال سعد زغلول في القاهرة أو في الإسكندرية تؤيدان هذا الرأي الذي أذهب إليه، فَهمَّة أبى الهول في التمثال الأول ليست إلا رمزاً لفكرة معجزة في سهولتها أدى بها مختار معنى النهضة بما لا يمكن - في إيماني - أن يهتدي

فنان إلى ما هو أسهل وأبلغ إعجازاً منها في الوقت نفسه. فكم من العيون رأت أبا الهول القديم رابضاً ربضته، وكم من القلوب أحست أيام الثورة بنزعة مصر إلى التوثب، وكم من العقول اهتدت إلى التوفيق بين ما تراه العيون وما تحسه القلوب غير عقل مختار

كان مختار إذن صاحب فكرة، فهل كان من الحس في مقام بدائي في مقامه من الفكر؟

قد يحب أنصاره وأصدقاؤه أن يجاملوه - وعلى الأخص بعد وفاته - فيعترفوا له بهذا الذي أريد أن أتريث قبل أن أقول كلمتي فيه؛ بل الذي لا أريد أن أقول كلمتي فيه إلا

بعد أن أحيلهم على تمثال سعد زغلول وأرجوهم أن يصدقوا أنفسهم حين يرجعون إليها بما ينتابهم من الشعور بعد النظر إلى التمثالين، فإن لم يكفهم النظر فليخضعوا إليهما زمناً وليروا: هل يقف بهم مختار حين يقف عند واحد من هذين التمثالين أمام زعيم كانت له مميزات سعد زغلول الصارخة التي أقل ما سجلها له أعوانه وخصومه: جبروته، وكبرياؤه، ونفوذه؟ أما أنا فأتحاشى المغالطة حين أقول إني لا أشعر في وقفتي أمام أي من هذين التمثالين بشيء من هذا الشعور. . .

وما دمت قد عرجت على مختار، فإني أرى أنه من الوفاء لذكراه أن أسجل له إخلاصه لأساتذته المثالين الفراعنة، واصطناعه أسلوبهم الذي يميل إلى الجلال مع التبسط، وهو الأسلوب الذي جرى عليه مختار تماثيله جميعاً، والذي عشقه مختار لأنه كان مصريًّا صادقاً في مصريته، ولأنه أراد باصطناعه أن يفاخر به الأساليب الغربية المتأنقة ليشهد معه أصحابها أن مصر أم الفن القديم لا تزال خصبة لم يصبها عقم، ولم يعبث بأسلوبها الفني القدم، ولم يقلل من روعته مر الزمن

ولقد أنشأ مختار بصنيعه هذا مدرسة جديدة في النحت لهما اليوم من طلبة الفنون الجميلة العليا وخريجيها تلاميذ، وفيها من زملائه المدرسين فيها أساتذة، ولكن الفرق بين مختار وبين أبناء مدرسته هؤلاء أنه شغف حباً بالفن المصري من غير أن يرسم لحبه هذا خطة بينما هم قديمو الخطة ولما يتلاشوا إلى اليوم في هذا الفن كما تلاشى فيه مختار. فأنت لا تجد اليوم واحداً من النحاتين المصريين إلا وتراه يحدثك في إسراف عن الفن القومي، فإذا نظرت إلى التماثيل المصرية التي تنصب في المعارض اليوم تعذر عليك أن تؤمن - مهما تعمدت هذا الإيمان - بأن الذين أنتجوا هذه التماثيل مصريون. ولو أن هؤلاء الشبان ربوا تربية فنية قومية صحيحة لأنتجوا فناً مصرياً صحيحاً. ولعل وزارة المعارف إذا كانت تهتم بأن تنتج فناً قومياً تفكر منذ اليوم في نقل قسم النحت من مدرسة الفنون الجميلة العليا إلى أسيوط

وأخيراً، فإني لا أستطيع أن أدع هذا الموضوع قبل أن أذكر الفن العصري أو الفن الحديث أو الفن (المودرن) كما يسمونه وقد بدأ يزحف إلينا، وراح يروج له أنصار السرعة من النحاتين الذين لا يطيقون دراسة الصناعة اللازمة للفن. فهم يجيزون اضطراب النسب في الأجسام، ونشوز الحركات والأوضاع، معللين هذا التجاوز بأنهم قوم لا يعبئون إلا بالفكرة والروح. . .

هؤلاء لهم دينهم ولغيرهم دين يؤمن أصحابه بالله وبفن الله، ويسبحون به مرحباً وموئلاً، فهو سبحانه وتعالى النحات الأول، وإنه سبحانه وتعالى لهو الفنان الأول، فأي تمثال كإنسانه؟ وأي كلام كقرآن؟ وأي أغنية يمكن أن تكون أبلغ وأصدق من أناشيد زبوره وألحانه

عزيز أحمد فهمي

من هنا ومن هناك

عصبة البنادق!!

للكاتب الفرنسي موريس برا

(ملخصة عن البتي باريزيان)

من في العالم يفكر الآن في مجلس عصبة الأمم المسكين وهو معلق من خناقه في جنيف؟

إن عصبة الأمم تضمحل ويتلاشى أثرها إن كان ثمة شيء يحمل هذا الاسم. ولقد تبتسم ونحن نفكر في تلك الشخصيات البارزة التي شغلت ردحاً من الزمن بالعمل المتواصل حول تلك المائدة الخضراء في جنيف!

أجل. يحق للإنسان أن يبتسم، بل يحق له أن يضحك ملء شدقيه لو كان في القلب مكان للضحك!

ما مصيرك بعد نورمبرج يا جنيف؟ إنها لفكاهة مريرة قاسية! ماذا تصنع عصبة الأمم الوديعة أمام أحاديث هتلر المتدفقة بالبلاغة وتصريحاته السياسية الملتهبة التي تدوي في أنحاء العالم؟ إن عصبة الأمم لا تملك غير المداد والكلمات في ميدان جرت فيه أبلغ الأحاديث وظهرت فيه احزم الأفكار وأدق الآراء

إن عصبة الأمم المسكينة قد فقدت اعتبارها - ويا للأسف - بعدِ أن افتقرت إلى الأمم

وأعوزتها القوة والنفوذ. ولكننا في هذه الساعة الرهيبة الحالكة الظلام، يصح لنا أن نفكر ونتأمل
ألم يكن الحق مقره جنيف؟ ألم تقم دعامة للسلم في جنيف لمكافحة الحرب، لمكافحة القوة، لمكافحة التسليح الذي يهدد العالم بالخراب؟ أيوجد تدبير أحكم من اتحاد أمم العالم في مجلس قوى منظم لحفظ السلام؟
ألم يكن الخلاص في جنيف؟ ألا يمكن أن يكون الخلاص في جنيف؟!
إنهم يقولون حلم بعيد التحقيق ويضحكون ويقهقهون. ولكن هل من العقل أن نظل كذلك إلى الآن؟
هل من العبث أن نتباحث ومن العقل أن نتحارب؟ هل من العبث أن نبحث عن حلول سلمية عادلة لشئوننا المختلفة، ومن المنطق أن تحكم القنابل في كل ما نختلف فيه من الأمور؟
أمن العبث أن تقدر الضمير الإنساني، ومن العقل أن نقبل حكم المدافع والقنابل بغير تبصر أو تفكير؟
إنها ليست عصبة الأمم التي أفلست. وإنما هي المدنية التي أفلست. . . إنها الإنسانية قد أصبحت (عصبة بنادق). . . وعلى الدنيا السلام. . .
إيطاليا وقناة السويس
بقلم الكاتب الإيطالي ف. بارتو
يقول هيرودتس أبو التاريخ إن العواهل من الحكام الأقدمين كانوا يحملون بقطع تلك البقعة الصغيرة من الأرض التي تفصل خليج العرب الممتد من البحر الجنوبي (البحر الأحمر) عن الخليج الممتد من البحر الشمالي (البحر الأبيض المتوسط) وإلى الآن لم يختلف اثنان في أهمية وصل هذين البحرين
ولقد كان نابليون بونابرت في العصور الحديثة مأخوذاً بهذه الفكرة. . . ولم يكن نابليون بالرجل الذي يعدل عن فكرة اتجه نظرة إليها، ولكنه عدل عنها تحت تأثير مهندسه (لابير) الذي أكد له أن بين مستوى الماء في البحرين اختلافا عظيما قدّره بتسعة أمتار، وان هذه الفكرة مستحيلة التنفيذ
وفي سنة 1820 حاول جيتانو جاديني الإيطالي أن يفند تلك الفكرة القائلة بوجود اختلاف بين مستوى سطح الماء. وجاء إيطالي آخر يدعى نجرللي فتقدم بأول اقتراح لشق تلك القناة، وبناء على اقتراحه تألفت جماعة الفرنسيين والإيطاليين للبدء في هذا المشروع الذي يعد اعظم مشروع حيوي في ذلك العهد
ولكن أصغ إلى ما قالته إنجلترا في هذا المشروع حين نمى إليها خبره: أعلن لورد بالمرستون في البرلمان الإنجليزي أن أقل ما يمكن أن يقال عن هذا الشروع البعيد التحقيق أنه خرافة لا مثيل لها وتغرير لا حد له بعقول السذج الذين لا عقول لهم. كان ذلك في أول يونية سنة 1859
وفي 6 من نوفمبر 1869 افتتحت القناة، أو الخرافة العظيمة، في موكب حافل مؤلف من ستين مركباً لمختلف الأمم، مقلعة من بورسعيد إلى السويس وهكذا أصبح الطريق ميسراً من أوربا إلى غرب أفريقية
ولقد تبرعت إنجلترا - على غير انتظار - بمبلغ عظيم من المال لتتقدم ذلك الموكب بسفينة عظيمة من سفنها
وقد كتبت التيمس قبل ذلك ببضع سنين تقول: إن هذا المشروع تعترضه مصاعب جمة، وإن إتمامه أمر لا يستطيع أن يتصوره العقل قبل حدوثه. وإذا افترضنا وتمت هذه المعجزة بحال من الأحوال وأصبح مشروع قناة السويس أمراً واقعاً فإننا لا نستطيع إلا أن نعلن أن هذا المشروع يجب أن يكون إنكليزياً قبل كل شيء.
وإذ كانت هذه نظرة الإنجليز للمشروع، وكان هذا مبلغ شكهم في إمكان تحقيقه فإن موقف الفرنسيين أدهى وأمر! فقد اختلسوا من إيطاليا فخر تنفيذه!
إننا نحن الذين أوجدوا المشروع وأذاعوا نبأه في العالم. ولقد كان لنا نصيب وافر في الأحوال التي بذلت في سبيل تنفيذه. وإننا نحن الذين قدموا العمال والصناع للعمل فيه وقمنا بنشر الدعاية اللازمة في الدوائر الاقتصادية المختلفة لمتابعة السير فيه
وكل ما للفرنسيين من الفضل في هذا المشروع هو تقديم المهندس الذي قام بتأسيس القناة وهو المسيو فرديناد دي لسبس الذي كان لحظه صديقاً لسعيد باشا

حاكم مصر في ذلك الزمان.
وتظهر قيمة دي لسبس الحقيقية حين هم بإنشاء قناة في بنها مثل قناة السويس وهنا الفضيحة التي لا يجهلها إنسان!
وذلك أن دي لسبس لم يكن له مرشد حينما أراد أن يسير في ذلك الشروع، فلم يكن له سند ولا دليل من الإيطاليين
فقد كان جاتينو جديني الإيطالي هو الذي قام فأثبت خطأ النظرية القائلة بالتفاوت بين ارتفاع سطح المياه، وتجرللي الإيطالي هو الذي قدم تصميم بناء القناة بينما قام بترمو بلوكابا الإيطالي أيضاً بالعمل، وادوادو جوايا الإيطالي الذي قام بالقسط الأوفر في التأسيس، وتوسللي أخيراً الذي دافع عن الفكرة أمام خصومها وأعد حملة من الكتاب والصحفيين
لنشر الدعاية لها. . .
ماذا يضايق الإنجليز؟
نشرت مجلة تصدر في برلين مقالاً تحت هذا العنوان نلخصه فيما يأتي:
للإنجليزي مقدرة عجيبة على التضجر ينفرد بها عن سائر الناس. فهو يتعمد أن يدوس على الأقدام عامداً متعمداً ليبدو أنه سيد العالم
فما يضجر الإنجليزي أن تأكل أمامه ونفسك مفتوحة للطعام، وحسبك أن تمضغ لقمة لتكون قد خرجت عن حدود اللياقة والعرف
لا بأس لدى الإنجليزي أن يراك ثملاً، مادمت تستطيع أن تسير في الطريق في هدوء واعتدال،
ويتضايق الإنجليزي إذا جلست معه إلى طعام وأدخلت ملعقة الحساء مثلاً في فمك، فإنه يعد ذلك من علائم الانحطاط وسوء التربية
ومما يضايق الإنجليز أن تدخن وأنت في لباس السهرة - وقد فعل ذلك سفير أمريكا - فقوبل عمله بنقد شديد. وعلى أن هذه العادة أخذت تزول منذ ظهر مستر بلدوين يدخن لأول مرة في لباس السهرة ومما لا يقبله العرف الإنجليزي أن تطلب فتاة أو زوجة حديثة السن للرقص قبل أن تقدم إليك إذا جمعكما منزل واحد
ولا يطيق الإنجليزي أن يراك تتكلم في الفلسفة أو الدين إلا إذا دعاك هو للكلام في هذه الشئون، لأن الإنجليزي يعتقد في نفسه العصمة من كل ما يسبب الضجر للآخرين. وهو يميز نفسه دائماً عن الأجنبي، لأن الأجنبي لا يعرف ما يضايق الإنجليز وهذا المظهر من عادته أن يجعل الأجانب من رجال السياسة الذين يفدون إلى إنجلترا على حذر في كل ما يأتونه هناك إن لم يكن عندهم شيء من الرصانة والثقة بالنفس فإذا عرف إنسان ما يضايق الإنجليز في بلادهم، فقد أصبح إنجليزيا في عرفهم مهما تكن جنسيته
وقد نقلت هذه النبذة مجلة إنجليزية تحت عنوان (ماذا يقولون عنا) وعلقت عليها بنبذة من كلام أمرسون عن الخلق الإنجليزي جاء فيها:
إن الإنجليزي لا يقدم على عمل بنصف قواه، ولكنه يقدم عليه بكل قواه. أنه لا يطيق) حياة
الرخاوة والكسل بحال من الأحوال. والإنجليز على جانب عظيم من المقدرة في سياستهم وإن شك بعض الحمقى في ذلك
إنني اعتقد أن في الإنجليزي قدرة على تجديد قواه الكامنة في كيانه، وذلك يدل على أن هذه الأمة قادرة على التجديد دائما. وكل شيء يقدر عليه الإنجليزي يفعله بغير (تردد
ونحن نرجو أن تكون هذه المساجلات كل ما يقع بين الأمتين.
البريد الأدبي
أبو تمام - خليل مطران
1 - أرجو أن يثق الأستاذ الجليل (القارئ) أن البيت (من كل بيت يكاد الميت يفهمه) لأبي تمام لا للبستي. ولو أن الأستاذ الجليل أعاد قراءة ديوان أبي تمام وديوان البستي لو جد فيه قوة أداء أبي تمام وهي قوة الأداء التي يفتقد (مثلها) في ديوان البستي. أما قوله إن البيت ليس في ديوان أبي تمام فسهو منه لأنه في ديوان أبي تمام في باب المعاتبات صفحة 409 من الطبعة التي قرظه فيها الأستاذ إسعاف النشاشيبي، وهو

في قصيدة مشهورة موجودة في الديوان وفي غير الديوان قالها يعاتب بها محمد بن سعيد كاتب الحسن بن سهل وأولها هكذا:

محمد بن سعيد أَرْعِنِي أُذُناً ... فما بِأَذْنِك عن أكرومَة صَمم
لم تُسقَ بعد الهوى ماءً على ظمأ ... ما كقافية يَسْقيكهُ فَهِمُ
من كل بيت يكاد المَيْتُ يفهمه ... حسناً ويعبد القرطاسُ والقلَمُ
مالي ومالك شِبْهٌ أنشده ... إلا زُهَيْرٌ وقد أصغى له هرم

الخ. ويروي الشطر الثاني من البيت الثاني في بعض الكتب (كماء قافية) وأظن أن الأستاذ (القارئ) أخطأ فهم قول الثعالبي فإنه أراد أن يمدح قول البستي ببيت أبي تمام على سبيل الاستشهاد والتضمين فقال الثعالبي: يعجبني قوله من كل بيت الخ أي يعجبني قوله من الأبيات التي صفتها كيت وكيت. وأرجو أن يسامحني الأستاذ الجليل (القارئ) في هذا البيان

2 - قال الدكتور أدهم إني تأثرت بطريقة خليل بك مطران. وهذا يشرفني لو كان حقيقة، ولكنه ليس حقيقة، فإني لم أتأثر بطريقة خليل بك لا في قليل ولا في كثير. وإذا استطاع الدكتور أدهم أن يجئ بشواهد فإنها تكون شائعة بين الشعراء فليجئ بها، وإذا ساعدني اطلاعي الضئيل وذاكرتي الضعيفة أثبتُّ أني احتذيتها إما في شاعر آخر وإما لأنها شائعة بين الشعراء. وقد أرسلتُ لمجلة (المقتطف) المقالة الأولى في الرد على قوله عقب قراءتي مقالته في مجلة المقتطف. وليطمئن الدكتور أدهم فإني سأثبت له بمقالات عديدة وشواهد وأسباب كثيرة أنه واهم في قوله كل الوهم

أولاً: لأني اطلعت على الأدب العربي والأوربي في سن مبكرة بالمدارس الابتدائية والثانوية وذكرت الأدلة وقارنت بين كل قصيدة لي والقصائد التي احتذيتها في مقالة (المقتطف)

ثانياً: إن قوله إن شعري يغلب عليه التشاؤم خطأ، ولا أظن أنه يرفع قدر شعر مطران لو صح، وفي شعري التفاؤل والتشاؤم

ثالثاً: أن ثقافتي الأوربية في أول نشأتها كانت ثقافة إنجليزية، وثقافة مطران في أول نشأتها كانت ثقافة فرنسية. ويتضح ذلك من توجيهي قصيدة في الجزء الأول من ديواني إلى الشاعر بيرون، ومن تعلمي اللغة الإنجليزية واتساع المجال إلى قبل سفري إلى إنجلترا وبعده للاطلاع على الأدب الإنجليزي

رابعاً: إن الأدب الفرنسي الذي اطلعت عليه اطلعت عليه في كتب مترجمة إلى اللغة الإنجليزية لا في شعر مطران، وإذا شرفني الدكتور أطلعته عليها وعلى ما أشرت به في هامشها خامساً: إن كثيراً من شعري ونثري يغلب عليهما التحليل النفسي أو السخر أو التفكير في مذاهب التفكير الأوربية الإنجليزية والفرنسية والألمانية الخ. ولم أر ولا أظن أن أكثر القراء رأوا مثل ذلك في شعر مطران، وسأوضح مراجع هذا التفكير الذي تأثرته في الأدب الأوربي

سادساً: إني لم أطلع على ديوان مطران إلا بعد نشري جزءاً من شعري على الأقل. وقد كنت قرأت شعر البارودي في الصغر ورثيته بقصيدة نشرها خليل بك نفسه في مجموعة مراثي البارودي، وكانت قراءتي لشعر البارودي لنشر أستاذه المرصفي الكبير كثيراً من قصائده وقصائد من عارضهم في كتاب (الوسيلة الأدبية) الذي وجدته في مكتبة أبي وأنا تلميذ بالمدارس الابتدائية

سابعاً: أني لم أقابل الأستاذ مطران غير ثلاث مرات، مرة في قهوة نلسون في الصيف بالإسكندرية على غير قصد، ومرة أخبرني الدكتور أبو شادي أن خليل بك يرحب بأن أزوره، والمرة الثالثة قابلته أخيراً في مكتب العشماوي بك في وزارة المعارف (أو هما مرتان). ولم يحاول في مرة منها أن يجعلني تلميذه أو أن يشجعني، ولم يشر إلى أتى أقاربه في مذهبه؛ بل إني ظننت وبعض الظن إثم، أنه في حديثه عن الأدب في قهوة

نلسون في اللقاء الأول كان ينتقد مذهبي من غير إشارة انتقاداً مراً، وكنت قد نشرت أربعة أجزاء والذي أعرفه خليل بك في ذلك العهد كان يتنصَّل من أن يكون قد أثر في الشعراء الشبان. وإذا كان قد شجع شباباً غيري فإنه لم يشجعني مطلقاً إلا بنشر رثائي للبارودي قبل ذلك العهد وقد أرسلته بالبريد ولم أكاتبه مرة أخرى. والحقيقة أن كلمة التجديد في ذلك العهد كانت يساء بها الظن كما لا يزال يساء بها الظن، وأن هذا كان

من دواعي موقف خليل بك، وقد تحول الآن قليلاً
ثامناً: إنه من سوء حظي أني عندما اطلعت على شعر خليل بك لم أطلع على أحسنه وأروعه وأفخمه، بل اطلعت على القصائد التي نظمها لمداعبة الآنسات السوريات وجعلها على قدر فهمهن فظننت أن كل شعره من هذا القبيل. وزاد هذا الاعتقاد أني قرأت له شعراً يشبه بعض شعر الحفلات والحياة الفرنسية والاجتماعية. وقوى هذا الاعتقاد إكثاره من شعر المناسبات اليومية التي لا أكتب فيها ولا أرى أنها من خير الشعر، وقلة اهتمامه بنشر شعره لاشتغاله بالتجارة مما أخمل شعره الجليل وقلّل أثرة؛ ومَدْحُ بعض الشعراء المتطرفين في التجديد له جعلني أشك في شعره وأزهد في قراءته ومنعني من تأثره والاستفادة منه كما كان ينبغي
عبد الرحمن شكري
عبث الوليد
قرأت ما كتبه الأستاذ الكبير عبد الرحمن شكري عن أمير الصناعة البحتري فكان عندي موضع إعجاب وإجلال. وإني لمعجب ومقدر لما يكتبه الأستاذ من الأبحاث القيمة والموضوعات الأدبية الطريفة فأقرأه بشغف وأتزود منه وأنتفع به. غير أن لي ملاحظة على قوله إن المعري (شرح ديوان البحتري وسماه عبث الوليد. ولعمري لو كان شعر البحتري عبثاً ما احتفل له أبو العلاء ولما سلخ له زماناً من عمره في شرحه وإلا كان المعري عابثاً لإضاعة وقته في شرح العبث الخ)
فإن المعري لم يشرح ديوان البحتري كله. وحاشا المعري أن يسمي سلاسل الذهب عبثاً. وكيف يصح ذلك منه وهو الذي يقول: (المتنبي وأبو تمام حكيمان وإنما الشاعر البحتري)
وهذه شهادة منه تعتبر أرقى من أهم شهادة في هذا العصر
وإنما اختار أبياتاً ارتكب فيها البحتري ضرورة من الضرورات أو استعمالاً شاذاً أو مذهباً نحوياً غريباً فشرح هذه الأبيات وبين ما فيها وأسماها عبث الوليد
وهذا الكتاب طبع بدمشق ويوجد منه نسخة بدار الكتب المصرية مأخوذة بالتصوير الشمسي برقم 7957. وهذه بعض أمثلة منه
حرف الهمزة من التي أولها: زعم الغراب منبئ الأنباء:
فلعلني ألقى الردى فيريحني ... عما قليل من جوى البرحاء
الأكثر في كلامهم لعلي وبها جاء القرآن وربما جاء لعلني
وهذا البيت ينشد على وجهين:
أريني جواداً مات هزلاً لعلني ... أرى ما ترين أو بخيلا مخلدا
ومنهم من ينشده لأنني وهو بمعنى لعلني الخ
وقال في محل آخر:
لم تقصر علاوة الرمح عنه ... قيد رمح ولم تُضِعْهُ خَطآء
خطآء بفتح الخاء رديء إلا انه جائز وقد حكي عن بعض القُراء المتقدمين: (أنه كان خطآ كبيرا) بالفتح والمد. والكسر أجود ليكون مصدراً لخاطأ لأنهم قد قالوا تخاطأته المنية قال الشاعر:
تخاطأت النبلُ أحشاءه ... وأُخَّرَ يومي فلم يَعْجَلِ
ويجوز أن يكون خطآ وهو مأخوذ من الخطوة كما يقال خطأه الله السوء أي جعل السوء يخطوه فلا يمر به، وقال:
وما دول الأيام نعمى وأبؤساً ... بأجرح في الأقوام منه ولا أسوى
قوله أسوى تسامح من أبي عبادة لما كان الأسو ظاهر الواو وكذلك قولهم أسوته في الفعل فأنا آسوه آنس بالواو، فجاء بها في أفعل الذي يراد به التفضيل وإنما القياس ولا آسى وما علمت أن أحداً استعمل هذه الفظة التي استعملها أبو عبادة وكأنه قال: ولا أوس ثم نقل الواو إلى موضع العين إذا بنى من أسا يأسو مثل أفعل فالأصل أن يجتمع فيه همزتان إلا أن الثانية تجعل ألفاً كما فعل بها في آدم فهذه الألف جاء بها أبو عبادة في أسوى بعد الواو
يجب أن تكون الهمزة المخففة وقد أبدع في استعماله هذه الكلمة ومن التي أولها:
أبا جعفر ليس فضل الفتى ... إذا راح في فرط إعجابه
ولكنه في الفعال الكريم ... والخلق الأشرف النابه

جاء بالنابه مع إعجابه فجمع بين الهاء الأصلية وهاء الإضمار وذلك قليل إلا أن الفحول قد استعملوه واستحسنه كثير من المحدثين. وقالت امرأة من العرب تهجو ضرتها وتخاطب زوجها:

بطون كلب الحي من جدارها ... أعطيت فيها طايعاً أو كارهاً

حديقة علياء من مدارها ... وفرساً أنثى وعبداً كارهاً

ومن التي أولها: وكان الشلمغان أباً مولهاً:

بنو الأطروش لو حضروا لكانوا ... أخص مودة وأعم رأياً

قوله الأطروش يقول بعض أهل اللغة إنها كلمة لا أصل لها في العربية وقد كثرت في كلام العامة جداً وصرفوا منها الفعل فقالوا طرش يطرش وأفعول بناء عربي كثير. ويجوز أن يكون من أنكر هذه اللفظة من أهل العلم لم تقع إليه لآن اللغات كثيرة ولا يمكن أن يحاط بجميع ما لفظت به القبائل. وكان عبد الله ابن جعفر بن دستوريه يذهب إلى أن كلام العرب لا يمكن أن يدرك جميعه إلا نبي إذ كان غاية ليست بالمدركة. وممن كان ينفي الأطروش عن كلام العرب أبو حاتم سهل بن محمد السجستاني الخ

هذه طريقة هذا الكتاب هو كتاب جليل على صغر حجمه نافع لا يصح أن يكون مجهولاً غير معروف بين الأدباء والسلام على الأستاذ

إبراهيم يسن القطان

المبتدأ الذي لا خبر له

لا شك في انه يوجد في علومنا ما يحتاج إلى التمحيص، ولقد درست النحو في هذه السنة فدرجت فيه على عادتي في الدرس من إيثار تمحيص المسائل على ترديدها كما دونها المؤلفون. ومن ذلك مسألة المبتدأ الذي لا خبر له، وهو الذي أشار إليه ابن مالك في قوله:

وأول مبتدأ والثاني ... فاعلٌ أغنى في أسَار ذَانِ

وهم يقولون في إعراب هذا المثال: الهمزة للاستفهام، وسار مبتدأ، وذان فاعل سد مسد الخبر. وفي هذا الإعراب المشهور مؤاخذة من وجهين: أولهما أن هذا الوصف ليس مبتدأ في المعنى، لأن المبتدأ في الجملة الاسمية هو المحدث عنه أو المسند إليه أو المحكوم عليه، الخبر هو المحدث به أو المسند أو المحكوم به، والوصف في ذلك المثال جار مجرى الفعل، فهو محدث به لا محدث عنه، ومسند لا مسند إليه، ومحكوم به لا محكوم عليه

وثانيهما انه كلما كان هناك مبتدأ وجب أن يكون هناك خبر، فلا يمكن وجود مبتدأ لا خبر له، وهذا كما لا يمكن وجود خبر بدون مبتدأ، ولا وجود فعل أو فاعل بدون الآخر، وذلك لأنه لا يعقل وجود محدث عنه أو مسند إليه أو محكوم عليه بدون وجود محدث به أو مسند أو محكوم به، ولا يمكن أن يسد الفاعل الذي بعد ذلك الوصف مسد الخبر، لأن الفاعل مسند إليه، والوصف إذا كان مبتدأ يقتضي مسنداً لا مسنداً إليه فإذا قيل إنه ليس معنى المبتدأ هو المسند إليه أو نحوه، وإنما هي تسمية اصطلاحية بمعنى الاسم العاري عن العوامل اللفظية، فيكون ذلك الوصف مبتدأً بهذا المعنى، وإن كان مسندا لا مسنداً إليه، فالجواب أن هذه التسمية الاصطلاحية لا نظير لها في علم النحو، فلا يسمي فيه فاعل إلا إذا كان في المعنى فاعلاً، ولا يسمى فيه مفعول إلا إذا كان في المعنى مفعولاً، ولا يسمى فيه حال إلا إذا كان في المعنى حالاً، وهكذا. فيجب أن يكون المبتدأ كذلك، ولا يصح أن تكون تسميته تسمية لفظية صرفه، لأنه لا يوجد في النحو إعراب لا معنى له

والذي أراه أنه لا يجب أن يعرب مبتدأ كلَّ اسم عربي عن العوامل اللفظية، وقد استثنوا من ذلك اسم الفعل فلم يعربوه مبتدأ. وأنا أستثني منه ذلك الوصف فلا أعربه مبتدأ أيضاً، وإنما يعرب عندي اسم فاعل مرفوعاً لتجرده من العوامل، كما يرفع الفعل المضارع لتجرده منها، فإذا كان اسم مفعول أعرب اسم مفعول، وهكذا. وبذلك يستقيم جعل ذلك الوصف مسنداً، وجعل مرفوعة مسنداً إليه.

عبد المتعال الصعيدي

مباراة موسيقية غنائية تنظمها جماعة الأسايست في القاهرة

نظمت جماعة الأسايست بالقاهرة مباراة علمية في البحوث الموسيقية والغنائية، واعدت
للفائزين فيها أربع جوائز، اثنتين منها للبحوث المقدمة باللغة العربية، والأخريين للبحوث المقدمة باللغتين الفرنسية أو الإنجليزية
أما الموضوعات التي اختيرت لهذه المباراة فهي:
الموسيقى العربية - بحث في أحد أعلامها (أعماله، منبع إلهامه، أثره في الموسيقى العربية، الخ.) وآخر في الأغاني الشعبية المصرية، وثالث في الموسيقى المصرية الحديثة الموسيقى الغربية - بحث في ترجمة حياة أحد الأعلام الثلاثة: باخ - بيتهوفن - دبوسي، وبحث آخر في السوناتا، وثالث في عصر من العصور الموسيقية: العصر القديم (الكلاسيكي)، العصر الإنشائي (الرومانطيقي)، الموسيقى بعد الحرب، الموسيقى المقارنة، بحث في المقابلة بين الموسيقى العربية والموسيقى الغربية والصلة بينهما قديماً وحديثاً والاشتراك في هذه المباراة مباح للمقيمين في مصر، بشرط ألا تزيد سنهم على الثلاثين، وألا تستغرق البحوث أكثر من ثلاثين صفحة من القطع الكبيرة مع عدم النقل الحرفي من المراجع. وتقدم طلبات الاشتراك حتى آخر الشهر الحالي، والبحوث إلى يوم 31 مايو المقبل مع رسم قدره 15 قرشاً باسم سكرتيريه الجماعة بشارع المغربي رقم 9 بالقاهرة
أما لجنة التحكيم فقد ألفت من حضرات الدكتور محمود احمد الحفني رئيساً ومدام بتسي ستروس وكيلة، ومصطفى رضا بك، والأستاذ توفيق الحكيم، والدكتور. ب. شيفر الستر، والأستاذان ج. هوتيل، وا. تيجرمان، والدكتور هانس هيكمان: أعضاء، والمسيو سالتيل سكرتيراً
دار الثقافة في السودان
من بين المهتمين بإيجاد دار تجمع المثقفين من المصريين والبريطانيين والسودانيين لتبادل الرأي وتوثيق التعارف، المستر ولسن مساعد السكرتير الإداري بالخرطوم. وقد ذكر أن ثلاث شخصيات كان لها الفضل في اقتراح هذا المشروع وتأييده هم المستر كوكسن مدير المعارف والمستر نيوبولد والمستر كمنجز. وقال إن بعض الناس يطلقون عليها أسم نادي القلم، وهذا خطأ إذ أن الاسم المراد إطلاقه عليها هو دار الثقافة
وسيباح الاشتراك في هذه الدار لجميع الأجناس. وستزود بالكتب الإنجليزية والعربية، وستلقى فيها محاضرات في شئون تهم الوطنيين والبريطانيين وتهم السودان بصفة عامة
عودة البعثة الألمانية من القطب الشمالي
وصلت البعثة الألمانية العادة من القطب الجنوبي إلى كوكسهافن على الباخرة شوابنلند وقد حصلت على نتائج مهمة. وكان المارشال جورنج قد أمر بتأليفها ضمن استكشاف منطقة تمتد إلى شرقي خط جرينتش وغربية في القارة المتجمدة الجنوبية. وقد بلغت الباخرة شوابنلند تلك الأصقاع في يناير الماضي وبدأت البعثة أعمالها في الحال
وقامت برحلتين جويتين وضعت بهما الخرائط لإقليم لم يستكشف بعد وتبلغ مساحته 350 ألف كيلو متر مربع، ويبلغ مجموع مساحة الأراضي التي استكشفت من قبل 600 ألف كيلو متر مربع. ويتألف الإقليم الذي استكشف من بقعة واحدة يحدها من الشرق نجد من الجليد يرتفع فجأة ويمتد في اتجاه القطب ويحتوي على سور من الصخور يختلف ارتفاعاً وهبوطاً إلى أن يتصل بالقطب. وقد جاءت الخرائط التي وضعت لكل ذلك فريدة في بابها
ونزلت البعثة في أثناء طيرانها على حواجز من الجليد ورفعت العلم الألماني على كثير من القمم وجعلت تلقي كلما اجتازت 15 كيلو علماً من أعلام الصليب المعقوف. ثم إن البعثة استكشفت الحاجز الجليدي حتى الدرجة 18 , 30 شرقاً وجابت الشاطئ حتى الدرجة 20 شرقاً. وفي 6 فبراير شرعت السفينة في العودة لأن سوء الطقس وحالة الجليد كانت تنطوي على أخطار كبيرة. وأثبتت الطائرات المائية جودتها الفائقة في استخدامها في تلك الأصقاع. وتبلغ أقصى نقطة جنوبية وصلت إليها البعثة الدرجة 72 والدقيقة 44 جنوباً والدرجة الصفر من خط الطول. أما أقصى نقطة غربية فهي

الدرجة 71 والدقيقة 33 جنوباً والدرجة 4 والدقيقة 5 غرباً. وبلغت أقصى نقطة شرقية الدرجة 22 والدقيقة 10 جنوباً والدرجة 16 والدقيقة 30 شرقاً. ووضعت الأعلام الألمانية على هذه الدرجات لتعيينها. وقامت البعثة إلى جانب كل ذلك بجس بالراديو في 119 موضعاً، وكان 31 موضعاً منها على علو يزيد على 20 ألف متر. وقام الأستاذ باركلي العالم السيولوجي بأبحاث تتعلق باحتمالات صيد الحيتان أجرى تجارب بالشباك ودرس حياة الحوت

الأدب المصري في نظر المستشرقين

سبق للرسالة أن أشارت إلى أن الأستاذ المستشرق الكبير بروكلمن ينشر الآن الجزء الثالث

والأخير من تكملة كتابه (تاريخ الآداب العربية) والذي فيه يتناول مظاهر الأدب المصري شعراً ونثراً. هذا إلى جانب المحاضرة التي ألقاها في مؤتمر المستشرقين المنعقد في بروكسل في السنة الماضية والذي عرضت له الرسالة في حينه. وقد لفت الأستاذ بروكلمن في محاضرته هذه، أنظار المستشرقين إلى ضرورة نقد كتب الأدب العربي الحديث. وقد ظهرت بوادر ذلك في عدد فبراير سنة 1939 من مجلة المشرقيات وهي أهم مجلة ألمانية موقوفة على النقد في دوائر الاستشراق حيث نشر المستشرق المعروف هاج ببرلين نقداً لمسرحية الدكتور بشر فارس (مفرق الطريق). بدأ المستشرق نقده بذكر مؤلفات الدكتور بشر فارس في الأدب والعلم وأشار إلى مكانتها، ثم تطرق إلى المسرحية فبين الفكرة البعيدة المرمى التي تدور عليها المسرحية من الناحية الفلسفية، ووصف الطريقة الرمزية في التعبير عن العواطف والحركات على المسرح، فقال إن الحوار في المسرحية بين النطق والإشارة مما يتطلب من المخرج مقدرة ويترك له مجال الافتنان. أم لغة المسرحية فيراها الناقد منتقاة. وقد يتفق للقارئ أن يقف أحياناً لتفهم تعبير جديد في الأدب العربي. وهنا يرى المستشرق هاج أن النقاد عندنا أثبتوا قدر هذه المسرحية على اختلاف مناحيهم: فذكر أنها نالت من الناحية الأدبية تقدير الدكتور زكي محمد حسن (أهرام 25 أبريل سنة 1938) ومن الناحية الفنية اعتراف الأستاذ زكي طليمات بأنها حدث جديد (الرسالة عدد 250 في 18 أبريل سنة 1938) ثم ذكر رأي الناقد ميخائيل نعيمة بأنها كزي جديد في الأدب العربي (الرسالة عدد 251 في 25 أبريل سنة 1938) ثم عقب المستشرق هاج بأن هذه المسرحية تمهد طريق الاستحداث الأدبي في العالم العربي كما وقع ذلك في الأدب التركي. ثم يختم المستشرق بهذا السؤال: هل يقدر المؤلف أن يصل إلى الغاية التي يقصد إليها؟ فجاء جوابه أن هذه المسرحية إن لم يتفق لها أن تحقق الغاية في المستقبل فإنها قوبلت بارتياح عظيم. وزاد على ذلك أن المؤلف لا يشك في أنه قد حان الزمن الذي فيه أصبح الإيجاز والإيماء في الإنشاء الرفيع أحب إلى القارئ العربي المهذب من التطويل والتذييل

م. ك

الكتب

من بواكير الشباب

قصص وشعر

للأديب محمد فهمي عبد اللطيف

في شبابنا يقظة أدبية وثابة، ولهفة على التأليف في الأدب خصوصاً في القصص والشعر، وما من يوم يمضي دون أن يحمل إلي البريد قصة أو ديواناً يطلب مني صاحبه أن أقدمه للقراء! ومهما يقل بعض الناس في شأن هذه اللهفة، فإنها لا شك بشرى طيبة لعلها تصل بأصحابها إلى نهضة أدبية قويمة متى وجدت المدد والبخور والعطف والتشجيع

وهذه باقة من نتاج الشباب في القصص والشعر نضعها بين يدي القراء الكرام، وإن فيها من طيب الشذا ما ينعش النفس ويغمر الإحساس والشعور، وهل الشباب إلا إحساس وشعور!

في سبيل الخلافة

قصة تاريخية مسرحية، وضعها الأديبان: إبراهيم حسن جعفر وعبد الغفار الجنبيهي، وموضوع القصة موضوع تاريخي يتصل بالصدر الأول للإسلام. ذلك العصر العظيم

بأبطاله، الزاهي بتراثه، الفخور برجاله، والقصة جميلة في تسلسل حوارها، وانسجام أسلوبها، وتحري الصواب في سرد حوادثها، فغاية الفن فيها التهذيب والتزويق، لا الكذب والتزوير، فأنت إذ تراها قصة أدبية قوامها الحوار والتمثيل، فأنت تجدها في الوقت نفسه قطعة رائعة من التاريخ لها كل مميزات الكتابة التاريخية، وإنها لتبشر بمستقبل لمؤلفيها في الأدب، وتدل على استعداد للقصة

قبل الانتحار

وهذه قصة بقلم الأديب خليل منصور الرحيمي، وقد قدمها إلى القراء الأستاذ الكبير إبراهيم عبد القادر المازني وقال في تقديمها: هذه قصة منتزعة من صميم الحياة، فلا تقليد ولا محاكاة ولا تمصير ولا شيء إلا صورة نفس مصرية على قدر ما وسع صاحبها أن يتقصى جوانبها، ويغوص في أعماقها، ويلم بألوانها، ولقد أجاد بحق، وليس فيه من العيوب

إلا ما لا بد منه ولا معدي عنه في سن الشباب، والزمن والتجربة علاج كاف مضمون! والقصة في موضوعها هي قصة المؤلف في الحياة، وما لاقاه فيها من حوادث، ومأثر على نفسه من مؤثرات. والناس جميعاً متشابهون فيما يقاسمون من صروف الدهر، وعنت الأيام، ولكن القليل فيهم هو الذي ينتفع بالتجربة، ويتدبر العواقب، ويستخلص النهج الذي يجب أن يسلكه هو وأمثاله. والأديب حينما يقدم لك صورة من نفسه، فإنه في الواقع يقدم لك صورة من الحياة، ولكن بعد أن يقربها لعقلك وإدراكك، ومن ثم تكون اللذة والإفادة. فلعل الذين يطالعون هذه القصة يجدون فيها كما وجدت صورة رائعة تمثلت في حياة نفس مصرية

في غرفة التحقيق

وهذه قصة كسابقتها، هي صورة من حياة مؤلفها الأديب محمود محمد علوان، ولكنها حافلة بتعدد الشخصيات وكثرة المناظر؛ وكأني بها قطعة صادقة من الحياة الواقعية، أراد صاحبها أن يتحرى فيها الصدق والإخلاص فبلغ غايته ووفق إلى ما أراد.

صدر القصة سرد لتاريخ المؤلف وصلته بالحياة وبالناس وهو في كنف والده أيام الدراسة، وهي إلى هذا الحد قصة عادية أشباهها في الحياة كثير. ولكن المؤلف بعد ذلك يقص حياته في العمل بسكرتارية التحقيقات بنيابة دمنهور، وهو في هذه المرحلة لا يحفل بشخصه، ولكنه يهتم بتصوير ما يصادفه من الحوادث العجيبة، والشخصيات الغريبة، والوقائع التي تبكي وتضحك مما يتصل بأعمال النيابة في الضبط والمعاينة والتحقيق، ولا شك أن المؤلف قد تأثر كثيراً بالأستاذ الحكيم في يوميات نأب في الأرياف وإن كان بينهما البون الشاسع في سرد الوقائع، وترتيب الحوادث، والوضع الفني للقصة وأسلوب الكاتب أسلوب سهل قريب إلى النفس، يدل على طبع موهوب وإن كان لا يخلو من هفوات لا يسلم منها الناشئ

القصتان

وهما قصتان من صميم الحياة المصرية، إحداهما بعنوان (ثورة) والأخرى بعنوان (الرضيع) وضعهما مؤلفهما الأديب عبد الحفيظ أبو السعود دعاية للفضيلة، وانتصاراً للأخلاق الكريمة التي عصفت بها روح العصر، وطغت عليها مدنية زائفة كلها الأذى والشر والتبذل والفساد لنفوس الشباب، وقلب الأوضاع الثابتة، والتقاليد المرعية والمؤلف الفاضل بارع في السرْد القصصي، وحبك الوقائع حتى ليسير بالقارئ في تسلسل وانسجام، فلا نبو ولا شذوذ ولا اقتضاب، ولكنها طبيعة الحياة، واطراد الحوادث. وأسلوبه قوي سليم، ولكن يكثر فيه الترادف والتعابير الضخمة التي لا تلائم روح القصة. إن من الواجب على الكاتب أن يجيد الربط بين المعنى وبين لبوسه من الألفاظ والتعابير، وأن يكون أسلوبه ملائماً لمواقع الكلام. وتلك ناحية يستطيع المؤلف أن يخلص منها في يسر وسهولة، حتى يتم له الاتصال بنفس القارئ في يسر وسهولة.

نجوى المنى

جملة طيبة من المقطوعات الشعرية، نظمها الأديب الشاعر عبد الله حسين رزق في موضوعات تتصل بنفسه، فهي آلام وآمال وعواطف وأحاسيس اعتلجت في نفس الشاعر فجلاها للناس في أسلوب مشرق صادق، وترجم عنها بالأداء أحسن ترجمة. وإذا كان ما يخرج من القلب يصل إلى القلب كما يقول الجاحظ فلا شك أن الشاعر الأديب قد استطاع ان يصل إلى قلب قارئه.

أما الملكة الشعرية والأداة الشعرية فأنهما كما يقول الأستاذ خليل شيبوب في مقدمة الديوان - قد استقامتا للناظم، وليس عليه إلا أن يتعهدهما حتى يستكملهما، وما كثير من المعاني التي يتلمسها، ويمر بها دون أن يستوفيها إلا ومضات ذهنية لا تزال تموج بها ميعه الصبا، ولعلها تنجلي عن شمس الضحى في النهار المشرق.

ألحان الفجر

وتلك مقطوعات أخرى نظم عقدها الشاعر محمد المصري محمود، وهي قطع من عواطف المؤلف في الوطنية، وشعوره نحو الجمال وتقديره للعاملين من أبناء الوطن في السياسة والعلم والأدب.

وألحان الفجر باكورة تدل على استعداد صاحبها للشعر وتنبئ عن ملكة لا بدل لها من المران والتدريب حتى تنمو وتنضج. وإنك لتطالع فيه كثيراً من الأبيات المفردة، والمقطوعات التي تفيض بالعاطفة القوية والإحساس الشريف.

شرح منهج التعليم الإلزامي

ذلك هو جاد الجندي المجهول يؤديه لأمته ووطنه لا يرجو عليه جزاءاً من أحد إلا أداء مهمته وإشباع رغبته واطمئنان نفسه وضميره

والجندي المجهول في مصر هو ذلك المعلم الإلزامي القابع فيك صميم الريف يهذب النفوس ويهيئ العقول ويشحذ المواهب في النشء ويعدهم لفهم الحياة ومزاولة العيش. والمعلم الإلزامي لا شك يجد كثيراً من الصعوبة والمشقة في تقويم أطفال كسغب القطا حمر الحواصل. ولقد يعنيه اختيار الطريقة الملائمة لإدراكهم في الشرح وربما يتنكب القصد. ولقد فزع الأديب عبد المؤمن محمد النقاش في جماعة من إخوانه الذين يزاولون التعليم في المدارس الإلزامية لتسهيل ذلك العمل لأبناء طائفته فقاموا بشرح منهج التعليم الإلزامي لجميع الفرق في الأخلاق والدين والتربية الوطنية والمحادثة والإنشاء والإملاء والمحفوظات والصحة والتعليم المنزلي والأشياء والتاريخ والجغرافيا على ما هو مقرر في تلك المدارس

وقد زينوا الشرح بالخرائط والرسوم لتبسيط الفكرة وتوضيح الرأي، وزادهم تمكنا في الشرح مزاولتهم التدريس في تلك المدارس، فجاء عملهم كاملاً يقوم على العلم والعمل، نافعاً ينير الطريق لإخوانهم ويسد نقصاً هداهم الله إلى تمامه ووفقهم إلى كماله.

م. ف. ع

العدد 303 - بتاريخ: 24 - 04 - 1939

مغزى رسالة الرئيس روزفلت

اقتلوا الجوع تقتلوا الحرب

عالجت الرسالة في بضع عشرة مقالة آلام الجوع وآثام الفقر وما ينجم عنهما من مآسي الحياة؛ وكان في ظننا يومئذ أن الناس متى هذبتهم المعرفة وصقلتهم المدنية يصبحون أعلم بحكمة الله، وأفهم لسياسة الدين، وأجدر أن يحكّموا العقل والعدل فيما شجر بينهم على قسمة الدنيا وغلة الأرض؛ ولكنا تركنا الموضوع قانطين من رحمة القلوب، لأننا وجدنا غاية الأمر فيه لا تبعد عن البكاء والاستبكاء، مادام الحكم لأيدي الأقوياء، والتشريع لألسنة الأغنياء، والغَلب والسبق للناب العضوض والجناح المحلق.

وقلنا ونحن نمسح عن القلم سواد الحظوظ: لا يزال في قدر الله أن يكابد بنو آدم عقابيل البهيمية الأولى، فيوطأ الواني، ويُسترق العاني، ويؤكل الضعيف، ويكون هنا الطمع والكزازة والأثرة، وهناك الحسد والحزازة والثورة، ثم لا يفصل بين الواجد والفاقد غير الحرب. فالحرب لا تنفك مشتعلة بين الفرد والفرد، وبين الأسرة والأسرة، وبين الأمة والأمة، بالقول أو بالفعل، وفي السر أو بالجهر، حتى يتدارك الله عباده فيهيئ نفوسهم لفض هذه الخصومة، بغير هذه الحكومة

والخصومة بين الناس أولاً وأخيراً هي المادة؛ والنكبة الأزلية على النظام والخُلق هي الفقر؛ وكل ثورة في تاريخ الأمم، أو جريمة في حياة الأفراد، إنما تمت بسبب قريب أو بعيد إلى الجوع. حتى الشهوة: شهوة الغرام أو الانتقام لا تقع في تاريخ الجناية إلا في المحل الثاني بعد الجوع، لأنها لا تكون إلا عرضاً من أعراض الشِّبع. من أجل ذلك جاء دين الله يخفف عن الفقير بالإحسان والعدل، ويدفع عن الضعيف بالمودة والرحمة؛ ولكن عُرام النفوس كان أقوى من أن يرده الثواب المغيِّب والعقاب المؤجل، فنبت

على أمر الله، وعللت نفسها بالنجاة من باب التوبة المفتوح، ومن طريق المغفرة الواسع. ثم حاولت فلسفة الناس أن تجد سلام المجتمع في أنظمة متناقضة يدفع بعضها في صدر بعض؛ فوقع العالم من جراء النزاع بين الفردية والاشتراكية، والصراع بين الدكتاتورية والديمقراطية، في حرب عنيفة رعناء لا تأصرها آصرة، ولا تدركها شفقة، حتى أكلت من أمة الأسبان وحدها مليوناً وربعاً من شبابها الآمل العامل؛ ثم أخذت تخمد في هذا الميدان الضيق المحدود لتستعر في ميدان لا حد لعرضه، ولا نهاية لطوله: هو العالم!

أينما يكن الغني يكن السلام، ما في ذلك ريب ولا جدل. ففي أمريكا وإنجلترا، وفي فرنسا وسويسرا، تجد الناس في ظلال الأمن مقبلين على الإنتاج المعمِّر والاستهلاك المرفِّه، لا نكاد نرى بينهم عيناً تحسد ولا قلباً يحقد ولا يداً تجترح

وفي ألمانيا وإيطاليا أصيب الناس بسُعار من الجوع زاده طمع الطاغيتين التهاباً واستكلاباً فانقلب إلى نوع من عبث نيرون أو انتقام شمشون أو مقامرة اليائس الذي يضرب الضربة الحمقاء ليربح الكل أو يخسر الكل!

فلو أن الله أتاح لأبناء برلين ورومه من سعة الدنيا ونفاق التجارة ووفرة المال ما أتاح لأبناء لندن وباريس؛ ولو أن الله لم يبتلي أبناء رومه وبرلين بمن طحنهم بالعمل، وعصرهم بالضرائب، وقهرهم بالحرمان، واتخذ من أجسادهم وأرواحهم وأقواتهم مدافع تقذف بالنار، وطوائر ترمي بالسم، لما رأيتهم يكفرون بالإنسانية ويتنكرون للمدنية، ويفعلون فعل القوي المحتاج: تضطره الحاجة إلى السرقة، وتدفعه القوة إلى القتل، فهم يخرجون اليهود من ديارهم ليأخذوا المال، ويحتلون الأمم بجيوشهم ليملكوا الأرض، ويلقون الدول القوية في بُحْرانٍ من القلق والفزع والذهول، ليضعوا أيديهم الجارفة على أرزاق الدول الضعيفة

رأى خليفة ولسون وهو في دنياه الجديدة السعيدة أن الجوع الذي ولدته الحرب الكبرى في قصر فرساي قد أشتد أسره، وصلب عضله، وفحش طوله، وضخم بدنه، حتى انشق إلى تِنْينين فظيعين لكل منهما مليون رأس، ومليون يد، وفي كل رأس ناب يقطر السم الزعاف، وفي كل يد مخلب ترسل الموت الوحِيَّ. فبعث إليهما برسالة من بقايا النبوة الأولى، فيها الدعوة إلى الحق بالقول اللين كدعوة موسى التي لم تُصِبْ أذناً في مصر، وبالمنطق المؤيد بالقوة كدعوة محمد التي لم تخطيء أذناً في العالم

يطلب الرئيس روزفلت من الجوع المتجسد المتنمر أن يحبس لعابه المتحلب، ويكفكف سعاره المضطرم، ويقبض لسانه اللاهث، ويتخذ هيئة الإنسان ليلتقي بخصومه في مؤتمر عام يجمع والغرب والشرق على المبادئ التي شرعها الله فكفروا بها، والخطط التي نهجها المصلحون فحادوا عنها؛ ثم يضعون لهذه الدنيا المتدابرة المتناحرة سياسة جديدة تجعل أرض الله مضطرباً لكل كادح، وخير الأرض مشاعاً لكل مستغل. ويومئذ يكون الفصل بين

عالم عاش فيه الحيوان بغرائزه الوحشية، يقوى فتنتشر مخالبه بين شعره المنفوش، ويضعف فتنطوي تحت حريره المفوف؛ وبين عالم يعيش فيه الإنسان بطباعه المدنية، يعدل بين جنسه وغير جنسه، ويحب لغيره ما يحب لنفسه، ويطمس في ذهنه حدود البيت والأسرة، ومعالم الوطن والأمة، ليصبح الناس كلهم أسرته، والدنيا بأسرها وطنه.

ويومئذ تستطيع الإنسانية أن تتبجح بميزة العقل والعلم وتقول لقافلتها الضاربة في مجاهل الأبد وهي لا تملك مشاعرها من القلق والفرق: لقد زال الطمع فزالت العداوة، ومات الجوع فماتت الحرب.

احمد حسن الزيات

رقم!. . .

للأستاذ عباس محمود العقاد

مليون ومائتا ألف!

هذا هو الرقم في الحساب، وهو عدد الذين قتلوا في الحرب الأسبانية الأهلية من رجال ونساء وأطفال، ومن مقاتلين وموادعين. بل كان عدد القتلى من الجنود أقل من عدد القتلى الذين لم يحاربوا ولم يحملوا السلاح؛ لأن هؤلاء قد بلغوا ثلاثة أرباع

المليون!
رقم!. . . وماذا في الرقم من دلالة؟ كل ما هنالك أن ألوفاً كثيرة أصبحوا اليوم موتى وكانوا بالأمس أحياء
إلا يعرف الإنسان هذا من قديم الزمان؟ ألا يعرف أن ألوف الألوف وملايين الملايين كانوا في عداد الأحياء فأصبحوا في عداد الأموات؟
فماذا في هذا الرقم الجديد؟ وأي شيء فيه يستوقف نظر القارئ أو يعوقه لحظة عن إتمام بقية السطور؟
لكن كاتباً من الكتاب يعمد إلى واحد من هذه الرمم فيخلق حوله مأساة، أو يبسط المأساة التي خلقتها الحوادث عياناً كأفجع ما يتخيل الخيال
يرينا إياه إنساناً له آمال، وأباً له أطفال، وقريناً له قرينة، ومحباً له محبة، وعدواً له ضغينة
يرينا أطفاله عراة جياعاً مشردين في العراء وقد كان موضعهم من الحياة فوق مهاد وبين أحضان
ويرينا الفتاة اللعوب التي كانت نظرة من عينيها أو لمحة من بين أهدابها أملاً تتعلق به حياة الخاطبين، فإذا هي جيفة يعرض عنها الناظر، أو بغياً يبتذلها الطريق
ويرينا على الجملة قلب إنسان واحد يتمزق بين هذه القلوب، فإذا بصدر القارئ يخفق، وبعينه تدمع، وبرأسه تقيم فيه الخواطر، وبالدنيا تضيق في وجهه، وبالرقم المهمل شيئاً مرعباً تقشعر له الأبدان وتجفل منه الأبدان
ما أبلد خيال الإنسان!
نعمة من النعم في بعض الأحايين أن يمني الإنسان ببلادة الخيال. وإلا فأين هي النفس التي تتخيل ما وراء ذلك الرقم أو ما وراء ذلك المليون والآلاف المائتين من المآسي والفواجع
والآلام والأحزان والأهوال والأثقال ثم تقوى على مس تلك الصدمة إلا كما تقوى على مس التيار الصاعق من الكهرباء؟
لكنها نقمة من النقم أن تبلغ بلاده الخيال ذلك المبلغ الذي لا يرى من وراء الملايين المقتولة إلا رقماً من الحساب
نقمة تجر إلى شتى النقم، لأن الناس لو تخيلوا بعض ما ينبغي أن يتخيلوه من أهوال الحروب وأثقال الفواجع لبطلت منذ عهد طويل
فاللهم لا ذلك الحس الذي يصعق كما تصعق الكهرباء، ولا هذه البلادة الصماء التي تلحق الآدمي بالبهيمة العجماء
اللهم ذلك الحس الذي يبكي لمصرع مليون يتخيلهم مصروعين كما يبكي لمصرع فرد واحد يراه بعينيه ويعلم ما في مصابه من شقاء لذويه ومحبيه
فهل تعلم ما للخيال من شأن في تمثيل المصائب والثورة عليها والتمرد على مقترفيها
فلا نضن عليه بالتغذية ولا نستكثر عليه ما نسميه لهو البطالة وإزجاء الفراغ؟
وكأنما (المريخ) مخلوق له طالع من طوالع السعود، وجد لا يصيبه تقلب الجدود
ففي كل عصر له رزق مسوق إليه على حسب ما يكون في ذلك العصر من علم أو صناعة أو تدبير
قيل أن الناس قد لطفت خلائقهم في العصر الحديث حتى لا يطيق أحدهم أن يبقر البطون ويبتر الأوصال ويشهد اختلاج الأرواح المزهقة في الأجساد الممزقة كما كانوا من قبل يصنعون قبل ألوف السنين
قيل هذا ولعله صحيح أو قريب من الصحيح، ثم هممنا أن نرجو بعض الرجاء، وهم المريخ أن يقنط بعض القنوط، فأقبل العلم الحديث برزق جديد لذلك المخلوق المجدود: إله الحرب الذي أنذره أبو العلاء بسوء المصير حين قال:
ولنار المريخ من حدثان الد ... هر مطف وأن علت في اتقاد
فما أدركه النذير؟
لأن الحرب الحديثة تحول بين القاتل وصرعاه فلا يرى ما هو صانع من فتك وتمزيق وتهشيم
فإذا ركب متن الهواء وألقي بالنار في الفضاء، فلا عليه بعد ذلك أن يلبث في مكانه هنيهة واحدة ليشهد الخراب والشقاء، ويسمع الصياح والبكاء، ويندم على ما أساء، إن

ظن أنه أساء
أما الذي يرى الفجيعة بعينيه ويسمع الصيحة بأذنيه فليست الرؤية بمانعة له أن يصنع بأعدائه ما صنع به أعداؤه، بل لعلها حافزة له إلى الشر ومثيرة له إلى القصاص، ومضيفة إلى رزق المريخ الذي خيفت عليه المسغبة في العصر الحديث: عصر الشعور اللطيف والإنسانية المهذبة، والرفق بالحيوان قبل الإنسان!
ولكل سم ترياق!
العلوم الحديثة قد حالت بين القاتل والفريسة، ولكنها لم تحل بينه وبين أشباحها وأطيافها
فإذا احتجبت عنه جرائر صنعه فهنالك الصور المتحركة تعيدها إلى عينه وإلى كل عين ناظرة كأنها ضمير النادم أو لسان التبكيت والتعزير.
فهل في العلوم ترياق لسم العلوم؟ عسى أن ينفع ذلك الترياق إن صح أنه ترياق فليس أبشع من صورة الحرب المكسوبة إلا صورة الحرب المفقودة، كما قال ولنتون ونحن نعلم من هو ولنتون. . هو كاسب المعركة التي هيهات أن يفرح بالنصر أحد إن لم يكن فيها سرور لقائدها المنصور، لأنه كان نصراً على نابليون سيد المنصورين والمهزومين
فإذا كان قصارى النصر أن يهون البشاعة فأخلق بالناظرين الذين لا ينتصرون فيها ولا ينهزمون أن يلمسوا كل ما فيها من بشاعة مرذولة بغير تهوين، وأن يقاوموا بشعور المقت والنفور ما أبطله الحجاب بين القاتل وصرعاه في حروب هذا الزمان
ولكل ترياق آفة!
نعم لكل ترياق آفة تفسد ما فيه من شفاء، إن لم تعالجه يد تحسن العلاج
فمن أين لنا أن الصور المعروضة على الناظرين تعودهم أن ينظروها ولا تعودهم أن يمقتوها ويغضبوا على آثميها؟
من أين لنا أننا نشحذ الضراوة ولا نشحذ الرحمة بذلك التمثيل والتقريب؟
الأمر كله موقوف على طريقة التناول وطريقة التلقي وطريقة التعويد، وذلك الذي يقف بالترياق الناجح بين الآفة والشفاء
تحدثت الأديبة الرحالة (روزيتا فوريس) إلى طاغية الروس ستالين فوصفت له ما شهدت من صرعى المجاعة والتشريد وحاولت أن تلمس ضميره من قريب أو من بعيد فالتفت إليها سائلاً: كم قتيلاً مات في الحرب العظمى؟
وأسرع الترجمان فقال: سبعة ملايين!
فعاد ستالين يقول: سبعة ملايين ذهبوا لغير غاية معلومة. أما نحن فنبني حضارة جديدة ونقيم الإنسانية بأسرها على أساس جديد، فماذا يضير أن يموت في سبيل ذلك من يموت بالمجاعة والتشريد؟
لو كان ستالين يتخيل كل واحد من أولئك الهالكين بالعرى والجوع فيأخذهم مأخذ الفنان الراوية لما أجاب ذلك الجواب. ولكنه يأخذهم رقماً في الحساب، وليس للرقم نعيم ولا عذاب. ولن تبطل الحرب مادامت مصاير الأمم بأيدي الحاسبين من أمثال ستالين
عباس محمود العقاد
لعبة التخادع في الحياة
للأستاذ عبد الرحمن شكري
كثيراً ما يخطئ المخادع المحتال إذا حسب أن الناس قد انخدعوا بمكره، وكلما كان نصيب المخادع من الذكاء أقل كان اعتقاده في قدرته على خدع الناس أعظم فلا يتخذ في وسائل خداعه من الأساليب ما يحتاط به لفطنة الناس إلى خداعه
أما المخادع الذكي فإنه يفطن إلى أن الناس كثيراً ما يتظاهرون بالانخداع ويدعونه أما لكي يعرفوا غاية المخادع ومأربه، وأما لأن لهم لذة في أن يخدعوا المخادع وأن يضحكوا منه في سرهم، وأما لأن لهم مآرباً لا ينالونه منه إلا بإظهار الانخداع له. ومن أجل ذلك ترى المخادع الذكي يحاول أن يستفيد من ادعائهم الانخداع قدر ما كان يستفيد لو أنهم انخدعوا حقيقة. والقدرة على الاستفادة من ادعاء الناس الانخداع هي سر النجاح في الحياة، وليست بمستطاعة لكل إنسان. والحياة في كل عمل أو مظهر أو رأي أو مطلب ومكسب وفي كل حاجة من حاجاتها يوجد يجانب ما بها من الصدق

شيء من الخداع والانخداع وادعاء الانخداع، وهذه هي أقانيم الحياة الثلاثة أو ثالوثها المقدس
وقد تدرك الحيرة الشاب الذي يزاول الخداع في الحياة في أول عهده بالفطنة لما يتطلبه النجاح من الخداع، فإنه قد يبدأ في خداع إنسان فإذا بذلك الإنسان يحاول أن يخدعه بأن يدعي أنه انخدع به حقيقة. وهذا يكون كالنشال الذي يقابل إنساناً يتوسم فيه السذاجة وهو لا يدري أنه نشال مثله فيسلم عليه بيد ويمد اليد الأخرى بخفة إلى ثياب ذلك الإنسان يبحث بها عن حافظة نقوده، فإذا به يشعر أن يد ذلك الإنسان الأخرى تبحث عن حافظة نقوده هو، فتدركه الحيرة ويكاد لا يعرف أيهما النشال وهذا يذكرني بما جاء في كتاب الكامل للمبرد عن أخذ البيعة بالخلافة ليزيد بن معاوية، فقد أطنب الناس في مدحه وأسرفوا إسرافاً جعل يزيد، وقد كان ذكياً، يعرف أنهم غير منخدعين بصفات المدح التي وصفوه بها وهي ليست من صفاته، وأدرك أن لهم مأرباً في ادعاء الانخداع بخلقه وصفات نفسه، فالتفت إلى أبيه معاوية وقال: يا أبي هل نخدع الناس أم هم الذين يخدعوننا؟ فقال له معاوية: يا بني، إنك إذا أردت أن تخدع إنساناً فَتَخادَع لك حتى تنال منه ما تريد فقد خدعته. أي أن ادعاء الناس الانخداع وأن كان باطلاً فهو
وانخداعهم سيان مادام المرء ينال منهم ما يريد. وهذه حكمة من معاوية تدل على أنه كان بصيراً بالنفس الإنسانية ومسالكها في الحياة.
وهي حقيقة تُحسُّ في كل مجلس من مجالس الناس، وفي كل بيئة. فهي ليست بالأمر الصعب إدراكه. بل لولا ادعاء كل معاشر أنه انخدع بمعاشره في أمور الحياة ما طابت الحياة. ومن أجل ذلك لا يمقت الناس أحداً قدر مقتهم الرجل الذي يريد أن يرفع غطاء الرياء عن الحياة، ويختلقون له أسباباً يسوِّغون بها مقتهم. وكأن لسان حالهم يقول له: دعنا نخادعك وخادعنا أنت أيضاً كما نخادعك، وادَّع أنك انخدعت بنا، ودعنا ندَّعي أننا انخدعنا بك. فإن من الإنصاف، أو من الذوق، أو من الرحمة أن يدَّعي كل عشير أنه انخدع بعشيره ما دامت النفوس لا تستطيع الحياة إلا على هذه الأخلاق، ولا تستطيع أن تغيرها. وكأنما يقول لسان حالهم أيضاً: إن تبادل ادِّعاء الانخداع مَثلهُ مَثلُ من يعطى هدية، ويأخذ هدية في قدر قيمتها. ومطالب الحياة لا تنال إلا على هذا النمط. أما الذي يريد من الناس أن ينخدعوا له ويغضب إذا اتضح له أنهم لم ينخدعوا، بل يدعون الانخداع، ويعد ادعاءهم الانخداع له عملة زائفة لا يقبلها، ويطلب منهم العملة غير الزائفة، أي انخداعهم الحقيقي؛ ثم هو لا يعطيهم لا انخداعاً ولا ادعاء للانخداع، فمَثلهُ مَثلُ من تقدم له هدية فيغضب إذا لم يُعط أعظم منها، وهو لا يُعطى مثلها.
وينبغي للإنسان إذا ادَّعى الانخداع لعشير أو رئيس أو مرءوس أو عميل أن يلازم الحذر من أن ينقلب ادعاؤه الانخداع انخداعاً حقيقياً؛ فيكون كمن يرى لصّاً في منزله فيدَّعي النوم حتى يجد من اللص غفلة ليتمكن منه، فإذا بادعائه النوم قد صار نوماً، فيغط في النوم حتى يأخذ اللص كل ما يريد من البيت ويتركه، وصاحبه قد ادعى النوم حتى نام.
وهذا أيضاً شبيه بمن يريد أن يحتال على إنسان فيقدم له قطعة من الذهب ويدعي أنه وجد كنزاً كي يخدع ذلك الإنسان، ويسلبه ماله، فيدعي ذلك الإنسان السذاجة وأنه انخدع، ويأخذ القطعة كي يسأل عن قيمتها ثم لا يعود.
وهو أيضاً شبيه بصاحب الورق المقامر على الورق المقلوب من ورق اللعب، يدعي الخسارة ويعطي اللاعب جنيهاً كي يستدرجه ويسلبه ماله فيدعي اللاعب أنه ساذج، ويظهر رغبته في استئناف اللعب، والقمار، ويستأذن في قضاء حاجة ضرورية من حاجات الجسم
ثم يذهب بالجنيه ولا يعود.
وهذه الأعمال لها نظائر وأشباه بالقياس في أعمال الناس الجليلة الكبيرة المشروعة المحترمة. فالحذر عند ادعاء الانخداع ضرورة. أما أن يفتخر المرء بأنه لا يستطيع أحد أن يخدعه فإذا كان يراد به التملق لمن يتظاهر مع ذلك بالانخداع لهم فهو دهاء، ووسيلة كسب بالمكر. أما إذا أريد به مضايقة الناس وتحريك عوامل خوفهم وبغضهم فهو سذاجة أو بلاهة، ولا شيء يدعوا إلى الفشل في الحياة كاعتقاد الناس في إنسان أنه لا ينخدع، ولا يدعي الانخداع؛ وهذا الاعتقاد يؤدي إلى بغض الناس من يعتقدونه فيه

حتى وأن كان اعتقادهم باطلاً لا أساس له، وهذا التظاهر بالانخداع هو ما جعله أبو تمام من أسباب السيادة وسماه بالتغابي في قوله:

ليس الغبيُّ بِسَيِّدٍ في قومه ... لكنَّ سيد قومه المتغابي

وتبعه البحتري فقال:

وقد يتغابى المرء في عَظْمِ مَالِهِ ... ومِنْ تحت بُرْدَيْهِ المُغيَرُة أو عمرو

عبد الرحمن شكري

صلوات فكر في محاريب الطبيعة

للأستاذ عبد المنعم خلاف

يا أرض الرستمية!

عليك السلام من عيني اللتين تدوران فيك دورات زائغة زئبقية مروعة وتلقطان الصور من حياتك ومواتك وآفاقك وذراتك. . .

ومن قلبي الذي قدست أسراره وقدس أسرارك وخلدته وخلدك. . .

ومن فكري الذي صقلتِه وأرهفتِه وجعلتِه يتصل بأصول الحياة ويرتبط بوثيق الأسباب. .

لقد توسعت نفسي من رحبك وتعددت بتعدد مرائيك، ورقرق خواطري نهرك الوديع اللعوب، في ابتسام الفجر وبكاء الغروب، وأحسست سلامة النبات وهدوءه وصبره وصمته ونموه وإشراقه يدب في جسدي. . .

لقد اختلطت فيك الرؤى بالأحلام، والصحو بالذهول والمنام، فتوسع عالمي ورأيت في دنياي وفي نفسي مخابئ وعجائب ومدخرات وكنونات. . .

لقد خلدت في خيالي صور الأعواد الجافة والخضراء، والربى والوهاد والزهر والمطر حتى لأوشك أن أعد كل أولئك واحداً واحداً من ترديد النظر وانطباع الصور. . .

وهل أنسى كئوس النور والظلام التي أدرتها على عيني مخضبات بأصباغ الشفقين، مشعشعات بالندى والطل، مطيبات بنفح الزهر وأنفاس السحر؟

لقد شربت عيناي فيك من النور والظلام فسكرت سكراً أبدياً أفرغ في كل خلية من خلاياي نشوة وفتوناً

لقد دخلتك كارهاً فراق بغداد! . . فكنت كالذين يقادون إلى الجنة بالسلاسل

ثم انطلقت في رحابك انطلاق رياحك وأطيارك، أحمل قلبي إلى كل مكان كما تحمل الطير قلوبها على الأغصان، أقف على كل ما فيه حياة ونبض لآخذ لقلبي منه وطاقة يستعيض بهما عما يبذله ويسرف في بذله

فإني حين رأيت عيني عاجزة أن ترى (سر الوجود) جعلت أرمي بنفسي في مواضع يده. وكأنه عندما بدت مني لهفتي الدائمة إليه أوسع لي من عطفه فأخذني إلى قطعة فاتنة من الطبيعة المكشوفة التي لا حجاب بينها وبين حواسي الداخلية والخارجية، لأرى يده دائماً

من وراء ستر شفاف فقادني إلى الرستمية

وقد عشت مختنق الحواس في المدن، لا أرى إلا حجارة ميتة موضوعة بهندسة الإنسان، ولا أرى من الطبيعة إلا قطعة من السماء في سمت شارع أو من نافذة دار. وهيهات كان تيقظي إليها. . .

وكنت لا أتذكر الطبيعة إلا برؤية شجرات في الشوارع تكاد تنكر وجودها في هذه الأماكن الصناعية، وتكاد عيني تحسبها صنعة إنسانية كالأثاث في وجهات الحوانيت، وكنت أزور الطبيعة المكشوفة التي في خارج أرياض المدن كما يزور السائح الأمريكي متحفاً للآثار في الشرق. . .

وحقاً استحالت الطبيعة البكر المكشوفة كمتاحف للآثار التي كان يستعملها أجدادنا وصارت لانقطاعنا عنها غريبة علينا. وصرنا لا نرى مشاهدها إلا من عدسة التصوير أو من ريشة فنان أو ألفاظ قصيدة. . .

ثم قصر الناس صلاتهم على الأنصاب والهياكل والأماكن المظلمة الضيقة التي لا يرون فيها إلا أجسادهم، وتركوا المحاريب التي بناها رب الحياة بيده هو لعبادته بالفكر والقلب. . .

تركوا المعبد المفروش بالأعشاب والرمال، المسقوف بالمصابيح الزهراء، القائم على جدران من سامقات الجبال وأعمدة من بواسق النخيل وفارعات السرو، المغسول

بشعاع الشمس والقمر؛ وكأنهم بنوا معابدهم لتحمي أجسادهم من فيضه وفيض طبيعته، وتركوا قلوبهم تختنق فيها بالبخور والعطور والأصوات الفردية التقليدية
أما أنا. . . فورب الحياة لأعبدنه في الطبيعة تحت الهواطل والصواعق، في حرارة الهواجر وبرودة الأسحار، في وضوح النهار وانبهام الليل، في جمرات الظهيرة وفحمات العَتمَة، ولو طارت بي الريح. . . ولو وقع عليّ سقف الدنيا!
ولأُناديَنَّ على اسمه: الصلاة جامعة أيتها الأحياء. . . إلى الإحساس بالحياة ورب الحياة. . .. . . قومي مصطفة في أماكنك المحدودة الموزونة
. . .فيسجد كل كائن في مكانه ويسجد قلبي معه
وسأعود إلى أحضان الطبيعة أغني في أذنها كطفل يغني في أذن أمه ويدفعه قلبه العاشق
. . .الراهب إلى التمسح فيها والاحتماء بها
. . .وسأحمل قلبي إلى كل مكان فيها كما تحمل الطير قلوبها إلى كل شجرة
وسأسجل خواطري عنها في كل ساعة تتعرض لي فيها بفتنة من فتونها، وأرصدها وهي يقظة أو نائمة، خَفِرة محتشمة أو عاهرة متبرجة، ضاحكة أو باكية، حبلى مكدودة تعاني آلام الحمل والطلق والوضع أو فارغة خفيفة. . .
لقد احتكرتني لنفسها ولم تدع في قلبي مكاناً لحب غيرها إلا يكون مَرَدُّه إليها وجماله من جمالها
فيا ابن الإنسان! هلم معي إليها. لقد كنت تتخذ الحجارة وكثيراً من الأشياء التافهة آلهة من شدة شعورك بها فتسجد لها. أفلا تصلي معها الآن لربها الذي اهتديت إليه؟
هي لا تزال شاعرة بربها كما كانت وكما تكون. وذهب شعرك أنت بها وبربها. وصرت تسجد لنفسك. فمن يعبدك معك؟ لا شيء. . . أن الحجارة تأبى أن تعبدك كما عبدتها أنت في ضلالك القديم!
قبيل الربيع - 1
الطبيعة تلد من كل جسمها. . . جاء ابتداء دورة زمنية. . . الأجنة تتحرك للانفصال من العالم الغائب. . . الأنواع من نباتها وحيوانها تزدحم لتسير في المواكب. . . يستعرضها صاحب الوقت القائم على الزمان.
أنا لا أشترك في الموكب لأني عقيم لم أقدم قرباناً ما للحياة بإلقاء بعض الأحطاب إلى شعلتها؛ ولذلك جعلتني من الواقفين على هامش طريقها يهتفون لها بالقصائد اللفظية.
لعلها غاضبة عليّ، لأني عاق لها بالعمل، وأن كنت باراً بها في الشعر. أما أبناؤها البررَة فقصائدهم: شجرة أو ثمرة أو ورقة أو زهرة أو فرخ بيضة، أو كتلة لحم تصرخ في أذنها وتتكلم! يقدمون ذلك لها في كل عرس من أعراسها كبرهان ولاء وطاعة وشعر حقيقي. . .
قد يخاف الفيلسوف من موت الثمرات أو مرضها أو فسادها. . . ولكن الطبيعة تود الثمرات ولو كانت معطوبة. تود حياة الأمل والألم لا حياة العقل الجامد. تود أن تسمع عويل الثكل وصوت النعي، كما تود أن تسمع صوت البشير وضجيج الميلاد.
تريد دائماً أُمَّا أن تصرخ في أذنها إما من الطلق والوضع، وإما من الفقد والثكل. تريد جنيناً محمولاً في ظلمات البطن، ورضيعاً ملفوفاً في لفائف القماط، أو محمولاً في بطن النعش ملفوفاً بلفائف الكفن. . .
قانونها هذا: أرحام تدفع، وأرض تبلع!! لأنها لا تدور على فراغ، ولا تسمح ببقاء دائم
الربيع - 2
أنظر بعينيك في كل مكان في السماء والأرض، وأحذر أن يشردا منك ولا يرتدا إليك. . .
أدرهما على كل طفل من أطفال الطبيعة. . . وأحذر الخاتلات الناعسات من عيون الأزهار.
العشب والزهر كأطفال خرجوا في صباح عيد. . . والصبح ممشوق القوام واضح الجبين، والليل فاتن الملامح. . .
أخلع نعليك وسر حافياً على جسم أمك، وتمسح فيها حتى يجددك ملمس الحياة الجديدة.

لاعب اخوتك الصغار الذين تفتحت عنهم الأكمام، وقذفتهم الأرحام، ونسجتهم ظلمات الأرض، ولونتهم أضواء السماء، وخذ لشفتيك قبلات من المواليد الجديدة.
أفتح حواسك جميعاً ليدخل شباب الدنيا إلى نفسك، واختزن في قلبك قوت سنة من الحياة والجمال.
أملأ عينيك بالأضواء والأصباغ، وأذنيك بالأغاريد والموسيقى السائلة الذائبة في الأجواء والأنهار.
ضاعف إحساسك بالحياة وتيقظ، واخلق لنفسك أعصاباً جديدة ثم امنع فكرك عن الدوران في الأرقام والحروف والعفونات القديمة. . . وألق كل قديم من قلبك وتجدد. . . وافتح فؤادك الجائع الذي لا يمتلئ، فإن كل هذا الجمال والحياة له أنظر إلى الربى والوهاد والتلاع والسهول والأغوار، تجد الزينة والأعلام في كل مكان. . ما تركت السحب مكاناً بدون أن تفرشه بالسندس والأقحوان، وما تركت النسمات مكاناً بدون أن تمر عليه منبهة ما فيه إلى وجوب الطاعة لحركة الحياة بالتماثيل والحفيف والتصفيق. . . حتى شجرات العوسج والشوك أورقت وأزهرت!
ضع وجهك وجسمك بين الأعشاب والأزهار. . . واستقبل الأنداء والأشعة، وأهدب بأجفانك كالنرجس. . . ودر بعينيك مع الشمس (كعَّبادِها) ودع النحل والفَراش تقبل فاك
وعينيك. . . أرسل نفَسك ندِيّاً خافتاً بسيطاً بدون تعقيد ليحمله النسيم مع العطور. . . ثم لا تفكر! حتى لا تحترق أوراق الورد، وتختنق أنفاس النسيم.
وانظر إلى المطفلات من البهائم، وإلى أطفالها بحنان، وهي ترعى سعيدة تخضم نبتة الربيع ثم تخور وتجتر حالمة. . .
فإذا جاء الليل فاخرج إلى الحدائق المعلقة في السماء، وانظر فيها حالماً ساهماً تحت ضوء القمر الباهت، ودر بعينيك في نفسك وفي أغوار الأزل والأبد. فلعلك أن ترى هناك الربيع الدائم. . .
نعم. فليس قلبك قانعاً بهذه اللحظات الفانية من ربيع الأرض. . . أن قلبك ليس ورقة من ورقات الأشجار تخرج ناظرة ساهمة بلهاء، ثم تفارق الكون مكرهة إلى غير رجعة. بل هو عقدة ثمرة خالدة في الربيع الخالد الذي لا يحرقه صيف ولا يحوله خريف إلى هشيم تذروه الرياح وتلوى به الصبا والدبور إلى الدثور.
ولئن عز عليك أن تفنى بين يديك وأمام عينيك أرواح الأزهار الأرضية، وتتساقط أجسادها جثثاً بالية ناصلة الألوان مسلوبة العطر. . . فأنظر إلى حدائق السماء ذات الزهور الخالدة التي تصل إليك ألوانها وعطورها من بعد. وتَعزَّ بهذا البقاءَ عن ذاك الفناء. وكن على يقين بأن قلبك مخلوق دائم لهذا الربيع الدائم الذي تراه في الحدائق المعلقة. . .
(بغداد - الرستمية)
عبد المنعم خلاف
أعلام الأدب
يوريبيدز نشأته وشبابه
للأستاذ دريني خشبة
في غار جميل غير موحش، مشرف على بحر الأرخبيل، فوق تلعة من تلاع جزيرة سلاميس، كان يأوي ألمع رجالات الأدب، وأعظم أعلام المسرح، يوريبيدز بن مِنْسَارْخيدز. . . يقرأ، ويكتب. . . ويتأمل.
وُلد في فِلْيا، في واد يعبق بالورد، وتظله أفنان الدوح وتغني فيه البلابل. . . ثم اختلفوا في العام الذي ولد فيه فقالوا: إنه عام480 ق. م. . . أي عام سلاميس، وأنه توفي سنة 604 أي في العام نفسه الذي توفي فيه سوفوكليس.
ويعتبر تقويم المؤرخ اليوناني (فيلوخورس) المسمى (التقويم الأتيكي)، والذي وضعه في القرن الثالث قبل ميلاد المسيح، عمدة المؤرخين الذين ترجموا ليوريبيدز، ومن أشهرهم المؤرخ اللاتيني سويداس
وتقويم فيلوخورس في اليونانية، يشبه تقويم القلقشندي المسمى (صبح الأعشى) في العربية، وذلك من حيث عنايته بإيراد المعاهدات السياسية والكتب التي كان يتبادلها الملوك اليونانيون. . . ثم هو يشبه تقويم الثويري المسمى (نهاية الأرب) وتقويم ابن

فضل الله العمري المسمى (مسالك الأبصار)، وذاك من حيث عنايته بوصف أحوال اليونانيين من مواسم، وأعياد، وعادات ومعتقدات، ومن حيث عنايته بتأريخ رجالاتهم من ساسة وقادة وفلاسفة وأدباء.

وقد ذكر فيلوخورس أن يوريبيدز قد ولد عام سلاميس، أي سنة 408. . . على أن الرخامة التذكارية التي اكتشفت في جزيرة باروس في القرن السابع عشر الميلادي، والتي أقيمت ثمة تخليداً لذكرى يوريبيدز سنة 264ق. م تذكر أنه إنما ولد سنة 484. . وقد فضل الأستاذ جلبرت موراي - وعليه جل اعتمادنا في هذا البحث - الأخذ بهذا التاريخ، لأنه اعتبر الرخامة دليلاً مادياً لا سبيل لدحضه ولا مُسوّغ لإنكاره.

ولم يذكر المؤرخ اليوناني (ساتيروس) (أواخر القرن الثالث ق. م) شيئاً في كتابه (حياة يوريبيدز) عن هذا التاريخ.

أما الكتاب فهو محادثات جميلة بينه وبين سيدة لم يذكر لنا من هي، وهو مع ذاك مؤلف جليل فيه عرض وفيه تضمينات، وأقاصيص ونقد، وفيه أخبار ساعدت المتأخرين على معرفة الكثير مما تبعثر أوضاع من درامات يوريبيدز.

أما أبوه فقد كان رجلاً ذا مال من رجال الطبقة الوسطى من أهل فليا، وكان رئيساً لسَدَنة هيكل أبوللو

وكانت أمه (كليتو) من أسرة نبيلة عريقة ذات محتد، ولا عبرة لما ذكره عنها أرستوفان من أنها كانت تبيع الفجل والخس والخضرة في شوارع أثينا، فقد كان أرستوفان هجاءً مقذعاً، وسنعرض لما كان بينه وبين يوريبيدز من عداء وبغضاء. . . ثم هي كانت أماً وفية مخلصة لأبنها، حدبة عليه، وكان لها أكبر الأثر في تنشئته. وسترى من روائع هذه الأمومة آثاراً طيبة في كثير من دراماته

وكان يوريبيدز سيئ الحظ في حياته الزوجية. ولم يذكر التاريخ لماذا كان ذلك. . . فقد كانت زوجته الأولى (ميليتية) من عنصر كريم وذات خلق طيب، بدليل أن أرستوفان نفسه لم يجد ما يقدح به فيها، وهو العدو اللدود الساخر الذي كان يتسقط ليوريبيدز كل منقصة

وقد تزوج يوريبيدز مرة ثانية فلم يكن أكثر توفيقاً. . . وربما كان هو نفسه أصل الداء. . . فقد كان أديباً عظيماً وشاعراً عبقرياً؛ وكان فيه انقباض عن الناس وبغض شديد للضوضاء والصخب، وكان يقضي أكثر وقته في غاره المقدس المشرف على البحر يقرأ أو يكتب أو يفكر ويتأمل. . . وهذه حال من الزوج لا تطيقها الزوجة ولا تصبر عليها. . . والأدب الذي أكثره فكر وفلسفة يدل على ما في صاحبه من صرامة وشموس. . . لهذا كان الشغب الطويل بينه وبين كل من زوجتيه، وهو شغب جميل أفاد الأدب وأفاد المسرح، لأنه بدا في أكثر ما ألف يوريبيدز. . . ثم هو شغب خلق من يوريبيدز عدوّاً للمرأة شديد النقمة عليها، كما خلق من الأثينيات أعداء أشد عليه نقمة وأكثر لددا

أما أبناؤه الثلاثة فقد كان أحدهم تاجراً، وكان الثاني ممثلاً؛ أما ثالثهم وكان يسمى باسم أبيه، فقد كان شاعراً يحترف التأليف للمسرح، وقد أخرج ثلاث درامات من تأليف أبيه بعد موته نالت إحداهما جائزة

ولعل أكثر ما نعرف من نشأة يوريبيدز أنه كان يساعد أباه في سدانة الهيكل صغيراً، وأنه كان رياضّياً ماهراً شابّاً وأنه عمل في الجيش فترة لا هي القصيرة ولا هي بالطويلة. . . وقد تكون حقبة قصيرة بعد سنتي الإجبار يقال أنه عمل أثناءها مجدفاً في إحدى جندولات الأسطول، ثم التحق بإحدى الوظائف القنصلية فترة قصيرة بعد ذلك

أما أصدقاؤه فكان أحبهم إليه أبو زوجته، ولذا كان ألصق به من كل شخص آخر إلا من خادمه أو ناموسه سفيسون الذي لم يكن يبرح منزله إلا لماماً

ومع شدة غرام سقراط العظيم بيوريبيدز فلم يؤثر أن شيئاً من وشائج الصداقة انعقد بينهما، مع أن الفيلسوف الفذ لم يكن يذهب إلى المسرح قط إلا ليشهد درامات يوريبيدز، فيروى أنه كان يتجشم في سبيل ذلك ما ليس يحتمله إلا الأشداء الأقوياء، فكان يمشي الأميال والأميال لكي يصل إلى المسرح ويستمتع بما تفيض به قريحة فخر الشعراء الدراميين كما كان يسميه. هذا ولم يعقد أفلاطون في محاوراته الشائقة حديثاً مّا بين الرجلين، على شدة إعجاب كل منهما بالآخر واعتباره إياه أعظم ذهن

يعيش في عصره
وعلى شدة كراهية يوريبيدز للاختلاط بالناس فقد كان له أصدقاء قليلون معجبون به من رجال الفن والفلسفة والأدب، وإليه يعود الفضل في نبوغ الموسيقار الخالد تيموتيرس الذي أوشك مرة أن ينتحر لإخفاقه في توقيع إحدى مقطوعاته لولا أن نشر عليه يوريبيدز ظله، وأخذ يشجعه ويبعث فيه روح الأمل، حتى نبغ نبوغه العظيم.
ومن أصدقائه زعيم السفسطائيين بروتاجوراس (أبديرا480 - 410 ق. م) الذي كان يتجول في الأقاليم اليونانية يحاضر الناس ويعلمهم دروسه في السياسة والاجتماع، ويحارب أوثانهم ويسفه معتقداتهم حتى إذا انتهى إلى (فليا) وعرف يوريبيدز، وخلبه بيانه وسحرته دراماته بما تفيض به من ثورة ونقد لزمه وقرأ في بيته كتابه (في الآلهة) الذي ينكر فيه ذوات أرباب الأولمب (لأني لا أستطيع أن أثبت وجودهم أو أن أنفيه للعوائق الجمة التي تحول دون المعرفة الصحيحة، والتي من أهمها غموض الموضوع وقصر عمر الإنسان!)
وقد ثار الناس ببروتاجوراس وأحرقوا كتابه جهرة في أوسع ميادين أثينا، ورمّوه بالإلحاد، وكادوا يفتكون به لولا أن فر في سفينة إلى صقلية غرقت به في الطريق. وعزا الناس غرقها إلى غضب الآلهة وحنقها عليه. . . ويبدو أنه كان متأثراً بسوفوكليس حين جعل محور فلسفته الإنسان مقياس كل شيء.
أما الفيلسوف الكبير أناجزاجوراس فقد كان أستاذ يوريبيدز وصديقه في وقت معاً. وأناجزاجوراس هو أول من حمل الفلسفة من شطئان إيونيا في غرب آسيا الصغرى إلى أتيكا أرقى أقاليم اليونان. وهو أول من ثار على الفلسفة المادية البحتة ولفت الناس إلى القوة العليا التي تدبر كل شيء وتسهر على كل شيء. . . ثم هو الذي أربك الماديين بتفريقه بين المادة المجسدة التي زعموا أنها كل شيء، وبين العقلية المجردة التي زعم هو أنها تسيطر على كل شيء. فوضع بذلك الحدود بين الجسم والعقل وبين الطبيعة والإنسان.
وقد كان أناجزاجوراس صديقاً لبركليس العظيم ومستشاراً له وكان في أثينا حزب يناوئ بركليس، فاستغلت السياسة الذميمة مذهب الرجل الفلسفي فرمته بالإلحاد واتهمته بالتجديف على الآلهة، وكادوا أن يبطشوا به بعد أن لفقوا له التهم وساقوه إلى المحاكمة أمام هيئة قضائية من رعاعهم. . . لكن بركليس لم يتخلى عنه، بل دبر له الهرب من أثينا، فارتحل إلى موطنه في آسيا الصغرى حيث وضع رسالته في فلسفته التي انتفع بها سقراط
بهذين الرجلين، بروتاجوراس وأناجزاجوراس، تأثر يوريبيدز. . . ولم يكن تأثره بهما هيناً يسيراً، بل كان أثرهما فيه كبيرا بالغاً: فقد عرَّفه الأول ما في أسطورة الآلهة من سَفَه وتخريف، وعرفه الثاني أن ليست المادة في هذه الدنيا كل شيء. . . زيف له الأول أسطورة الآلهة فذهب إلى غاره الجميل الهادئ المشرف على البحر من ربوة في جزيرة سلاميس يفكر ويتأمل ويبتسم. . . يبتسم لأنه يتذكر حاله في شرخ شبابه إذ يكلفه أبوه سادن أبوللو بحمل الكأس الإلهية في الرقصة المقدسة، رئيساً لفريق حاملي الكؤوس من سادة شباب الأثينيين. . . ثم يبتسم أيضاً لأنه يتذكر حاله حينما كان يحمل الشعلة المقدسة في موكب أبوللو عند رأس زوستر، فيظل يتهادى كالظبي من ديلوس إلى أثينا، مشتركاً في زهو وخيلاء في حماقة البشر وخرافة الآلهة وزيف له الثاني تلك المادة المجردة التي يعكف عليها الناس ويفني فيها الفلاسفة أحلامهم، ثم يُصوّر له القوة العليا المدبرة، والعقل المجرد الجبار، فيلتفت إلى ما ركب في صميم الإنسان من قوى خارقة تستطيع أن تصنع كل شيء وتستطيع أن تتغلب على كل شيء، فيذكر هذه الأيام العبوس القمطرير التي اضطر فيها شيوخ الأثينيين وعجائزهم وأطفالهم - وهو منهم - إلى الهجرة من أثينا إلى جزيرة سلاميس وغير سلاميس، لأن إجزرسيس
عاهل فارس وطاغية البربر قد أقبل بخيله ورجله، وملأ البر والبحر بعساكره، وراح يهلك الحرث والنسل، متقدماً نحو أثينا. . . وهاهو ذا يحرق الدور والمعابد ويخرب كل شيء. . . وهاهي ذي ألسن النيران تلتهم الأكربوليس الشاهق، ويوريبيدز الطفل يشهد المنظر المروع الموحش فيمن كان يشهده من الأطفال والشيوخ والعجائز. . . ويبكي كما كان يبكي هؤلاء لما يصنع الطاغية بوطنهم الجميل الضعيف، ومعابدهم الخالية

الخاوية. . . وآلهتهم. . . نعم آلهتهم. . . تلك الأوثان التي لم تغن عنهم ولا عن أنفسها شيئاً. . . ثم يتصايح الناس من كل فج، ويتسامعون فرحين مستبشرين، فيعلمون أن أسطولهم الضعيف البائس قد مزق أساطيل إجزرسيس، وأن أجنادهم الجائعة المنهوكة قد فتكت بأجناد جبار الفرس، وأن أثينا وحدها. . . أثينا الديمقراطية الحرة العالمة الأديبة المتحدة قد بطشت بالجبابرة العتاة الطغاة فخلصت هيلاس من شرورهم. . . ويقبل تيمستوكليس قائد اليونان المجرب المنتصر فيقول للناس: (تالله ما نحن صنعنا كل هذا!) فيحفظ الناس قالته ويحفظها يوريبيدز حين يكبر، ويتذكرها حين يلقى الفيلسوف أتاجزاجوراس ويتأثر بفلسفته فيعرف لماذا غلبت أثينا فارس، وكيف عصفت المعرفة بالجهل، والنظام بالتبربر، والعقل بالمادة. . .

لقد كان محور فلسفة بروتاجوراس كلمته الخالدة (الإنسان مقياس كل شيء)، كما كان محور فلسفة أتاجزاجوراس أن المادة ليست كل شيء في الوجود، بل أن فوق المادة قوة أرفع منها وأسمى لأنها مسلطة عليها تديرها وتوجهها. . . تلك القوة هي العقل في الإنسان والقوة المدبرة في الوجود. . . إذن فليع يوريبيدز كل هذا، وليطبقه على ماضيه المفعم بالعبر، وليهزأ هو أيضاً بالآلهة بعد أن كان يحمل الخمر المقدسة والشعلة المقدسة في مهرجان أبوللو. ولا يكتفي بالسخرية بالآلهة. بل يشتط فيحطم أوثانها ويغضب عُبَّادها، وليخسر الجوائز السنية التي يسيل من اجلها لعاب الأدباء، ولينل من هذه الجوائز أربعاً فقط في حياته العامرة التي جددت الأدب، وثبتت دعائم المسرح. . . وليضحك حين ينال سوفوكليس عشرين جائزة أولى وثلاثين من الثواني لأن سوفوكليس لا يجرح كبرياء الجماهير ويترفق بآلهتهم ولأنه لا يعني إلا بفنه، في حين يعني يوريبيدز بالغاية والمثل الأعلى.

لقد كان يحب الفن ويشغف به مثل سوفوكليس. وكاد يكون فناناً مثله لولا أن ساق إليه القدر هذين الصديقين. يروى أنه كان قد شدا شيئاً من النقش في الصغر؛ ويروى أنه كان يعجب بمشاهد مآسي فرينيخوس، ولم يكن قد شب عن طوقه بعد؛ ويروى أنه كان يقف، إذ هو غلام مسبوهاً أمام روعة المناظر التي صورها بولجنوتوس فوق جدران الأكروبول؛ ويروى أنه شهد درامة الفرس لإسخيلوس ولم يعد الثانية عشرة. ويذكرون أنه أعجب بدرامة (سبعة ضد طيبة)، وتأثر بها كثيراً ولم يعد السابعة عشرة. وهو ولاشك قد شهد كل مآسي زميليه بطلي الدرام العظيمين.

هذا هو شباب يوريبيدز وهذه هي نشأته، وهؤلاء هم بعض أساتذته وأصدقائه، وتلك هي العوامل التي كونته فجعلت منه أديباً وفناناً وشاعراً وفيلسوفاً ومبشراً بالأدب الرومانتيكي، ثم الأدب الواقعي.

دريني خشبه

بمناسبة ذكرى جمال الدين الأفغاني

إنما ينهض بالشرق مستبد عادل

للدكتور محمد قرقر البهي

لكي نتعرف هذا المبدأ أو هذه الحكمة التي قد يخيل إلينا أنها طابع لنزعة لا تتلاءم وأساليب الحكم في المدنية الحديثة، ومع ما يسعى إليه الفرد من حرية، يجب أن نبحث الدوافع التي حملت حكيم الشرق وباعث نهضته السياسية في القرن التاسع عشر على أن ينادي بهذا المبدأ بعد اعتقاد جازم به، ثم نبحث كذلك مدى علاقة الحكم الفردي بالمشورة التي هي أساس الحكم الديمقراطي ومدى علاقته كذلك بالحرية التي يسعى إليها الإنسان

جمال الدين لم يعتقد هذا المبدأ بناءً على شغفه بالبحث النظري، ولم تمله عليه رغبة علمية مجردة عن مراعاة الواقع، وإنما هي التجارب وأحوال الشرق في ذلك الوقت التي قادت تفكيره وأوحت إليه بهذا المبدأ العملي.

جمال الدين رأى تفرق الأمم الشرقية ليس بعضها عن بعض فحسب، وإنما الأمة الواحدة موزعة إلى شيع وأحزاب، رأى المصالح الشخصية هي التي تملي على القائمين بالأمر في ذلك الوقت قواعد السياسة في الحكم وتصريف أمور الشعب. رأى أن الأمة لم تعرف بعد ما يسمى (بالصالح العام) أو كما يقول عنه الفلاسفة (مبدأ حيوية الدولة واعتبارها الكائن الحي الأعلى الذي يندمج فيه كل الأفراد). رأى تدخل الأجانب في سياسة الشرق الإسلامي كله وإذلالهم شعوبه على يد أفراد من بنيها لقاء

تلبية بعض رغبات شخصية أو ضمان سعادة مؤقتة لهؤلاء. رأى تفكك أواصر القرابة وتحكم الظلم في الطبقات الفقيرة.

كل هذه العوامل أو هذه المشاهدات لم تترك في نفس جمال الدين أثراً من الشك في وجوب معالجة أحوال الأمم الشرقية والنهوض بها. ولكن على أي أساس؟ بالتربية؟ نادى بذلك منذ فارق بلاده في رحلاته إلى الهند، وتركيا، ومصر، وبالأخص هنا في القاهرة منذ أن عاد من مقر الخلافة العثمانية في 22 مارس سنة1871 فقد مكث يحاضر في الأزهر مرة، وفي تلاميذه الأخصاء مرة أخرى، ويحملهم على الكتابة في الصحف ونشر الدعوة، مدة ثماني سنوات (1871 - 1879) ولكن بعد ما تبين له أن عوامل الانفكاك داخل الشعوب الشرقية تتزايد، والمصلحة الخاصة للأفراد يتفاقم أمرها في الأداة الحكومية صمم على الدعوة إلى حكومة يديرها فرد عادل يمت إلى الأمة بنسب قوي، بنسب الدم والدين حتى يجمع شتاتها، ويوحد كلمتها، ويوجه أحزابها المختلفة إلى غاية واحدة (الصالح العام) وجهر بها في باريس على منبر (العروة الوثقى) في سنة 1884 وأيد حكومة هذا الفرد العادل في كل تدبير تتخذه للوصول لهذا الغرض حتى استعمال العنف والشدة ولكن بعد التبليغ والإرشاد

جمال الدين لم يشجع استمرار حكم الفرد العادل، وإنما جعل ذلك لأجل معين، وهو الوقت الذي تنضج فيه الأمة وتعتقد بمبدأ (الصالح العام).

وربما يبدو في عصرنا الحاضر - أن رأينا أن هذه الدوافع التي حملت جمال الدين على النداء بهذا المبدأ ما زالت باقية - أن هذا الذي ذهب إليه فيلسوف الشرق من سيطرة حكومة الفرد العادل ردحاً من الزمن لا يتفق ومبادئ الديمقراطية التي سعت إليها الشعوب منذ القدم ووصلت إليها بدم الثورة الفرنسية وأصبحت أساس الحكومة الراقية، أساس الحكومة العادلة

ولكن ما هي تلك المبادئ؟ حكومة برلمانية وضمان حرية الفرد. هاتان الظاهرتان هما عنوان الديمقراطية ولا يتحقق وجودهما في ظل حكومة الفرد العادل. هكذا يزعم من يدعي أن جمال الدين الأفغاني لم يقدر حقوق الإنسان الطبيعية تقديراً دقيقاً يوم نادى بهذا المبدأ

ولكن أحقّاً أن الحكومة البرلمانية تمثل الديمقراطية؟ وأن حرية الفرد مكفولة فقط في ظل النظام البرلماني؟. لنتبين ذلك! إن أساس النظام البرلماني هو المبدأ الحزبي، وعلى الدعاية الحزبية وما تتضمنه من الوعود للطبقة الشعبية يكون نجاح الحزب ودرجة تمثيله داخل البرلمان. ثم صاحب الأغلبية لأنه مظنة العدالة طبقاً لكثرة الأصوات التي أخذها وهو الذي يتولى رياسة القوة التنفيذية. هل لنا أن نتأكد الآن أن صاحب الأغلبية يبني تصريف أمور الدولة على أساس مشورة كل أتباع كل حزبه واحترام رأي كل منهم في تقرير مصير الأمور؟ وهل نضمن أن كل نائب من نواب حزب الأغلبية يصدر في مشورته هذه عن رعاية المصلحة العامة دون تدخل العاطفة الحزبية أو ما يؤمله من قضاء مصالحه الخاصة على أساس طاعته لقيادة الحزب طاعة عمياء؟ وإذا افترضنا ذلك فهل نتأكد أيضاً أن الدعاية الحزبية التي أتت بالأغلبية قد أتت كذلك بصالح عادل، وهو زعيمها، يسير في حكومته طبق ناموس العدل ولو النسبي ولا يراعي العصبية الحزبية أو ما يسمى (بالمحسوبية؟) وعلى جواب هذا السؤال تتوقف المقارنة بين حكومة الفرد العادل وبين الحكومة البرلمانية في نسبتهما قرباً وبعداً من (الديمقراطية) التي تقوم على رعاية المصالح العامة ممن يحسون بإحساس الشعب ويعترفون بما للطبقة الشعبية من حقوق طبيعية في هذا الوجود على الأقل كغيرهم من الطبقات الأخرى

كذلك يجب علينا أن نعرف: هل حرية الفرد مكفولة في ظل النظام البرلماني فحسب دون حكومة الفرد العادل حتى يكون الحكم على ما رآه جمال الدين واعتقده من مبدأ بأنه يتفق أو لا يتفق مع ما تصبو إليه الشعوب من حكومة راقية عادلة. لهذا يجب أن نحدد أولاً: ما هي الحرية؟ أهي الفوضى واستباحة الحرمات والخروج عن قوانين الجماعة والعرف والنيل من كرامة الآخرين وشرف الذين لا حول لهم ولا قوة؟ أم هي التمتع بالحقوق الفطرية في ظل العرف والقانون، في ظل مراعاة الحرمات وتقدير كرامات الآخرين؟ لا أظن أن أي عاقل يشجع على أن يكون المعنى الأول مفهوماً

(للحرية) كما لا أظن أن هذا الذي ذكر ثانياً على أنه مدلول (الحرية) يفنى في ظل حكومة الفرد العادل
إن صلاحية أي أسلوب من أساليب الحكم نسبية، تتوقف على أحوال الأمة وعلى درجة تطورها الاجتماعي والخلقي فكما أن الحكم البرلماني ليس المثل الأعلى على الإطلاق كذلك الحكم الفردي ليس عنوان الظلم دائماً وإهدار الحريات
وقد كان جمال الدين الأفغاني (حكيماً) إذ ربط أسلوب الحكم بأحوال الأمة الخاصة بها وعلق تطوره أو تغييره بتغيير تلك الأحوال
فالتعصب للحكم البرلماني بدون قيد ولا شرط، ورمي حكم الفرد بالجور بدون قيد ولا شرط، غلو في الخيال وإيمان غير محدود بالنظر المجرد عن حقيقة الواقع مادامت العدالة ليست رهينة أحد النظامين على الإطلاق
محمد قرقر البهي
دكتور في الفلسفة وعلم النفس من جامعات ألمانيا
من برجنا العاجي
أذاع المتحف المصري حديثاً في أنحاء العالم من خلال بوقين أحدهما من الفضة، والآخر من النحاس، هما من مخلفات توت عنخ آمون. وقد كانت هذه الإذاعة أول صوت يخرج منهما منذ ثلاثة آلاف عام. قرأت هذا الخبر في الصحف كما قرأه الناس.
وجاء الليل فتخيلت هذين البوقين قد أعيدا إلى مكانهما في المتحف، وقد سكنت الأصوات، ونامت الكائنات، فإذا هما ينهضان مستويين كأنهما ثعبانان، وجعلا يتحادثان:
البوق الفضي - عجباً! ما هذه اللغة التي خرجت من فمي هذا اليوم؟
البوق النحاسي - أنها لغة غير مفهومة لعلها لغة بعض العبيد أو الأسرى الذين نأتي بهم إلى أرضنا من آن لآن
البوق الفضي - نعم. إنها ليست لغة توت عنخ أمون! لكن كيف سمح الحراس للعبيد والأسرى أن يحملونا ويدنسوا أفواهنا برطاناتهم!
البوق النحاسي - هذا ما يثير دهشتي
البوق الفضي - يا للعار! فمي الفضي يخرج منه مثل هذه الرطانة! هذا لم يحدث لي من قبل الآن!
البوق النحاسي - وأنا لم يقع لي مثل هذا قبل اليوم قط!
البوق الفضي - وبعد. أنذعن لهذه الكارثة؟!
البوق النحاسي - لا. لا ينبغي أن نذعن
البوق الفضي - وماذا نستطيع أن نفعل؟
البوق النحاسي - نستطيع أن نصيح وأن نرفع أصواتنا في أرجاء المكان ساخطين متضرعين، طالبين صيانة حرمتنا وكرامتنا. فلا ينفخ فينا بعد الآن نافخ بغير لغة توت عنخ آمون. فمن أجلها صنعنا ووجدنا فلتخرس أفواهنا إلى أبد الآبدين، إذا نطقت بغير لغة توت عنخ آمون!
البوق الفضي - وإذا أجبرنا على النطق بغيرها؟
البوق النحاسي - حقت اللعنة على من يجبرنا على ذلك!
وذهب من أمام عيني شبح البوقين. وثبت إلى نفسي وأنا أقول (أهي لعنة أخرى كلعنة المومياء، مازال أمرها خافياً على العلماء!).
توفيق الحكيم
من أدب الغرب
للأستاذ فليكس فارس
الشاعر الإيطالي ليونلو فيومي، من أشهر حملة الأقلام في هذا العصر، وقد أوقفه كبار النقاد في أوربا والعالم الجديد إلى جنب جبرائيل دانونزيو في تاريخ آداب القرن العشرين
إن ليونلو فيومي يكتب وينظم باللغتين الإيطالية والفرنسية، وله مؤلفات وترجمات عديدة في التاريخ والعلم والأدب؛ وهو يصدر في باريس منذ تسع سنوات مجلته (دانتي) باللغة الفرنسية، وهي منتشرة بين الطبقات المثقفة ويكتب فيها عدد من أشهر رجال العلم والأدب
وقد أصدر ليونلو أخيراً ديواناً من الشعر المنثور باللغة الفرنسية بعنوان (صدر عن

الأرخبيل) كان له دوي في عالم التجديد الأدبي، وترجمت منه قصائد إلى لغات عديدة.
وقد رأى أصدقاء الشاعر أن قصيدة (نذر) من الديوان قد اختارها عدد وفير من المترجمين فاستكملوا ترجمتها إلى ست وعشرين لغة منها الصينية واليابانية والأرمنية والتركية. وقد طلب لينا أن ننقل هذه القصيدة إلى اللغة العربية، فنزلنا عند إرادة اللجنة التي تولت نشر هذا الديوان لقصيدة واحدة وقد أرسلته إلينا فرأينا أن نقدم لقراء الرسالة ترجمتنا آملين ألاَّ نكون قصرنا في هذا المضمار الذي تسابقت فيه لغات الدنيا في معرض البيان. ولعلنا أثبتنا أن أم اللغات هي المجلية بما فيها من مرونة وجزالة وبلاغة تقتنص المعاني فتوردها بروعة تفوق روعة أصلها

نذر

ما تجلَّيتِ لي ولن تتجلى إلا كلمح السراب؛ لذلك أتوق إلى أن أقيمك تمثال عذراء، أيتها الزنجية، أسوة بالأقدمين من أبناء إيطاليا الذين كانوا يُبدعون من نساء أحلامهم رسوماً يناجيها المتعبِّدون

أنَّ أُمنيتي هي أن أطبع على رافدة هيكلٍ في (المارتينيك) صورة عينيك المتوهجتين بلمعان الماسة الربداء لأقف أمامهما متوسلاً بغير لغة الكلام، وقد أشجاني الاضطراب، أن تقرّ عيناي لحظة عليهما، فأجيل ناظريَّ على غدائر شعرك الجعد الفاحم المنعطف كالجدول إلى ما وراء أذنيك وأرسم منشى أنفك الخافقين كأنهما جناحا طائر صغير. وكأنهما ينفتحان برعشة الشهوة لاستنشاق عطور جزيرتك المسكرة هابة من منابت الكاكاو والروم والفانيلا

لأبذلنَّ كل ما في الوله من عناية في اختيارِ العنبر لأمدَّه أظلالاً فأداعب إهابك حين أرسمه غضّاً ناعماً كأن عليه زغبَ الثمرةِ النَدية فتبدين فتَّانة القوام باسطةً ذراعيك بمعصميهما الضامرين

وعندما أستنفذ ما على لوحة الألوان فلا أجد ما أرسم به لين طفولتك، وهي كأنها تأود القصب النديّ في جزيرتك؛ ويمتنع عليّ رسم ما في صفاء فطرتك وعطفك وذكائك من غوامض الفتنة، لن يسعني وقد خانني الفن إلا أن أعتصر على الرافدة آخر ما احتبس في قلبي اليائس من قطرات شوقه وإلهامه

وإذا ما أتممت هذه الصورة المنذورة أسارع إلى رفعها على هيكل من هذه الهياكل الصغيرة المشرفة على غابات القصب المزهرة وعلى مراوح الموز الوسيعة؛ عندئذ أجد مكافأتي في تعبُّدي لعذرائي الزنجية، فأسجد أمامها صامتاً خاشعاً والغسق يمد أظلاله على الأشجار الباسقة التي لا أسم لها كأن الغسق ليلٌ ثان ينتشر على ظلمات الغاب في بلاد الهجير حين تهتاج الصراصرُ مرسلةً أزيزها في الليل فتجاوبها الحُباحبُ بأشعةٍ لا عِدادَ لها كأنها قطراتُ ندىً تلتمع في ليلة مقمرة

وهذه قصيدة أخرى بعنوان (مولد) للشاعر الكبير جيوفاني باسكوالي استوقفني ما فيها من عاطفة فياضة وروعة فآثرت نقلها إلى العربية أيضاً

مولد

ثلاثون عاماً تتالت منذ ولدتني يا أماه، منذ آلمتك أولى شهقاتي الضعيفة بأكثر من أوجاعك الشديدة الفائرة

وغذيتني من ثدييك المتفجرين حناناً وأنت صبور تساورك المخاوف والأشجان، حتى إذا تكامل لحمي من لحمك ودمي من دمك فاستقرَّ قلبك بأكمله في قلبي، جاء اليوم الذي تواريت فيه منذ عشرين عاماً

وهأنذا أحاول عبثاً أن أجسِّم عينيك وسيمائك لأشاهدك بخيالي. لقد أذبل الزمان ناضر تذكاري فلم أعد أعرفك يا أماه!

أما أنت فلا تزالين حيث يستقر الأموات في مرابع الصقيع تستوقفين أحلامَك لتداعب أناملك غدائر طفلك الصغير

(الإسكندرية)

فليكس فارس

دراسات في الأدب

للدكتور عبد الوهاب عزام

(تابع)

ومن المؤثرات في الأدب والحرية (ج):

وإنما يترعرع الأدب في ظلال الحرية، فإذا منع البغيُ أمة أو طائفة أن تُبين عن آرائها وعواطفها وتعرب عن آلامها وآمالها، لا يزدهر فيها الأدب
وإذا اشتد الحجر على أمة فانبرى جماعة من أباتها يجاهدون في حريتها ويجالدون جبابرتها لم يكن لهم بدّ أن يتخذوا الأدب القوي لبث الدعوة وإيقاظ النفوس وتنفيرها من المذلة وحفزها إلى الإقدام ومجادلة الخصم بالحجة البالغة والبرهان الدامغ، فينشأ لهم أدب حيّ قويّ. ولا يزالون في جهادهم حتى يدال لهم فتسع الحريةُ الأمةَ كلّها، وتنشط النفوس للإبانة عن سرائرها والإعراب عن ضمائرها. وأدب المجاهدين في كل عصر من أروع أنواع الأدب لأنه أدب النفس الإنسانية وهي تدفع عن كيانها، وتجادل عن حياتها
فالحرية العامة والجهاد لها من أجدى الأمور على الأدب
وإذا نظرنا إلى الأدب في فرنسا قبل الثورة وأثناءها وبعدها، وإلى الأدب في تركيا قبل مائة سنة والأدب فيها حين الجهاد للحرية كشعر نامق كمال وأمثاله، ثم الأدب في الثلاثين سنة الأخيرة؛ وإذا نظرنا أيضاً إلى الأدب في مصر قبل عشرين سنة وإلى الأدب فيها اليوم عرفنا فرق ما بين الحرية والعبودية، وما يجدي الجهاد للحرية على آداب الأمم
وكم أنتج جدال الأحزاب السياسية من خطب ومقالات لها في الأدب أثر لا ينكر والحرية الفكرية أوسع من الحرية السياسية فربما تنال الأمة حريتها السياسية ولكن يسيطر عليها أو على فرقة منها مذهب أو عادة قديمة فيمنعها بعض حريتها في التفكير، وانظر إلى المعتزلة والحنابلة في تاريخ المسلمين تدرك كيف أجدت على الأدب حرية الأولين، وجنت عليه عصبية الآخرين، وكذلك التزام موضوع أو أسلوب في الأدب اتباعاً للقدماء يسلب الأمة بعض حريتها الأدبية ويمنعها أن تفتن في موضوعات النظم والنثر وأساليبها
على أن الفوضى في الأدب، وركوب كل إنسان رأسه على غير بينة، وحيد الناشئين عن
سنن الأئمة دون بصيرة - تجني على الأدب، ما يجنيه التضييق والحجر، أو شراً من ذلك
(د) الحروب:
النزاع بين فريقين يهيج كل ما عندهما من قوى نفسية ومادية؛ وكلما كان الخطر أعظم كان الاهتمام والإعداد أكبر. وفي الحروب تتعرض النفوس والأموال والأوطان للتهلكة فتثور أقسى ما في الإنسان من غريزة وأسمى ما فيه من عاطفة. فتدعو كل أمة أحزابها وتحرضهم على قتال العدو؛ وإذا أتيح لها الظفر عظمت أفعالها، وأكبرت مآثر أبطالها، وفي هذا الإعداد للقتال والتحريض عليه والتغني بالظفر والإشادة بالبطولة مجال واسع للأدب
ومن أروع ما أنتجت الآداب القصص الحماسية: فالمهابهارثة والإلياذة والشاهنامة والقصائد الحماسية في الشعر العربي الجاهلي والإسلامي ولاسيما شعر أبي الطيب المتنبي، وقصة عنترة وقصص أبي زيد الهلالي وغيرها كل هذا من آثار الحرب ومآثر الأبطال فيها
(هـ) الدين:
والدين له على الفنون سيطرة عظيمة، فهو يستولي على العقل والعاطفة فيسيرهما كما يشاء، ويصبغ كثيراً من نتائج الأدب بصبغته. ولعل أروع أبنية العالم وأبقاها على العصور المعابد؛ فحيثما سار الإنسان على وجه الأرض وجد علوم الأمم وفنونها وعواطفها ممثلة في المساجد والكنائس والمعابد الأخرى
والأدب الديني من أقدم آثار الأمم الأدبية. فكتاب الموتى عند قدماء المصريين، وأناشيد فيدا عند الهند، وسفر أيوب في التوراة، وأناشيد جاتا في كتاب زرادشت الذي يسمى الأبستا؛ كل أولئك من آثار الدين في الأدب. وإذا نظرنا إلى الدين الإسلامي وتصورنا ما أحدثه القرآن في الأدب العربي والآداب الإسلامية عامة، وما يحدثه اليوم، عرفنا مبلغ تأثير الدين في الأدب، وتصور ما أنتج الإسلام من خطب ومواعظ وقصص في العصور المتطاولة لتعرف جانباً من تأثيره. ثم هذا الشعر الصوفي الرائع في الآداب الإسلامية - ولاسيما الفارسية - نفحة من نفحات الدين
(و) المحاكاة:

ومما يؤثر في الأدب المحاكاة والتقليد - تقليد أمة آداب أمة كما قلد الرومان والأوربيون أدب اليونان، وقلد الفرس والترك وغيرهم الأدب العربي، وقلد الترك والهند الأدب الفارسي، وكما قلد الترك في العصر الحديث الأدب الفرنسي وقلد المصريون الآداب الأوربية

وكذلك تقليد النابغين في الأمة الواحدة؛ فإذا نبغ شاعر أو كاتب حاكاه معاصروه، ثم لم يعدم مقلداً في كل عصر. ويكاد تاريخ الأدب يكون تاريخ النابغين في العصور المختلفة ومن عداهم مقلدون أو كالمقلدين. فالجاحظ، وابن المقفع، وبديع الزمان، وأبو تمام، والمتنبي، لهم تأثير بين في الأدب العربي حتى عصرنا هذا

فإن فتح النابغة للناس فنوناً من الأدب الجيّد والأساليب الحرة كان رائد خير في الأدب، وكان قد سنّ سنة حسنة لا تزال تزيد في إحسانه على كر الأيام كما فعل ابن المقفع والجاحظ وأبو العلاء؛ وأن سلك سبلاً وعرة وخلق أساليب مصنعة متكلفة قد غطّى نبوغُه على عيوبها سار الناس وراءه. وربما ورثوا عيوبه دون مزاياه، وأورثوا الأدب صنوفاً من القيود تضيق الأدب وتميت الابتكار في نفوس المنشئين كما فعل مسلم وأبو تمام في البديع، وأبو العلاء في التزام ما لا يلزم، والحريري في المقامات، وغير هؤلاء في ضروب المحسنات التي شغلت الشعراء والكتاب عن المعاني بصناعة الألفاظ.

وكثيراً ما يخلق التقليد رجلاً في غير عصره. كما تجد اليوم من يقلد أحد النابغين القدماء فيشبه هذا القديم أكثر ما يشبه معاصريه. وكثيراً ما أحيا التقليد الأدب بعد موته. فتقليد القدماء من أدبائنا كان فاتحة نهضتنا الأدبية الحديثة كما كان تقليد اليونان والرومان باعث الأدب الأوربي في عصر النهضة. فقد تخطى البارودي - مثلاً - الأجيال وحاكى الجاهليين والإسلاميين فأتي بنمط من الشعر الجزل هو خير مما كان معروفاً في وقته، وقبل وقته. فكان طليعة الشعراء العصريين.

(ز) والاستطراف

ومما يؤثر في الأدب أيضاً الاستطراف أو حُب التجديد، والنزوع إلى الطريف. ففي الأدب كما في غيره طرائف (مودات). يملّ الأديب موضوعاً مبتذلاً أو طريقاً مسلوكة قد سار

عليها الخاصة والعامة، ويأنف أن يكون واحداً في هذا السواد فيسلك طريقاً آخر في الموضوع أو البيان؛ فإن وفق فقد سنّ للأدباء سنة جديدة، ومهّد في الأدب سبيلاً محدثة. وهكذا حتى يظهر أديب آخر يحل هذه الطريقة فيحيد عنها وهلم جراً. وقد يُستطرف بعد أجيال موضوع أو أسلوب بعد أن ابتذل وهجر وهلم جراً.

فهذا الاستطراف والاستهجان له أيضاً أثره في تحوّل الأدب

(ح) النقد

وأحسن المؤثرات في الأدب وأنفعها النقد الصحيح؛ فإن الناس يسيرون على النهج المألوف لا يرون خطأه ولا يبصرون عيبه حتى يرشدهم النُّقّاد فيبيّنوا لهم الخطأ والصواب، والرشد والغيّ، والحسنُ والقبيح في سيرتهم. وإذا تناول النقد مسألة أدبية كشف عن الحق فيها أو ثار حولها الجدال؛ وما يزال المتجادلون حتى تنجلي الحقيقة من تصادم الحج. فالنقد إيقاظ الأفكار النائمة، وتنبيه الآراء الغافلة، ومثار جدال تتبين فيه الحقائق إذا صحبه الإخلاص وقارنه الصدق

(ط) المكافأة:

وتحريض أصحاب المواهب على الإنتاج بالاعتراف بفضلهم والإشادة بأعمالهم أو منحهم الأموال التي تعينهم على الفراغ للأدب وإتقانه، مما أجدى على الأدب في عصوره، وحفز همم الشعراء والكتاب إلى الإجادة والإبداع؛ ولذلك نرى تاريخ الأدب وكبار الأدباء متصلاً بالملوك والأمراء والكبراء الذين أثابوا القائلين على إحسانهم وحثوهم على الازدياد

وإذا نظرنا إلى تاريخ الخلفاء العباسيين وما أفادوا الأدب بمثوبتهم الشعراء والكتاب ونظرنا إلى تنافس ملوك المسلمين في المشرق والمغرب في الاستكثار من الأدباء حولهم وتزاحم ملوك الطوائف في الأندلس على الاستئثار برجال الأدب - عرفنا كيف يُجدي التحريض والمكافأة على الآداب. وحسبنا أن نتذكر ازدحام الشعراء والأدباء حول سيف الدولة الحمداني حين رأوا فيه أميراً ألمعيا وفتى عربيا يجزل الثواب ويسخو

بالمال
هذه من أسباب تغيّر الأدب. والباحث في الأدب العربي يستطيع أن يتبينها في أطوار كثيرة منه؛ فإذا بحثنا في صور الأدب العربي في الجاهلية وما فعل بها الإسلام، ثم نظرنا
إلى شعر الفتوح الإسلامية، وشعر الوقائع العربية، والمذاهب السياسية، وعصبيات العدنانيين والقحطانيين، ثم عصبيات العرب والعجم، ومدائح الخلفاء والأمراء، وتهاجي الشعراء، وما نشأ في الدولة العباسية من ضروب في النثر والشعر وأثر اختلاط الأمم، والترجمة عن اللغات المختلفة، وقرنا شعراء المشرق بشعراء مصر والمغرب والأندلس، واستعرضنا بعض الحادثات السياسية والاجتماعية في هذه المواطن، ودرسنا تاريخ النابغين المجددين. . . الخ. وجدنا في كل هذا تطبيقاً لما ذكر من مؤثرات الأدب
عبد الوهاب عزام
الدعوات المستجابة. . .
للشاعرة أيلا هويلر ولككس
للآنسة الفاضلة (الزهرة)
استمنحتُ الثروة، فمُدْتْ لي أكنافُ التوفيق، وأسبغت عليّ آلاء النوال الطائلة، وتحوّل كلُّ ما لمسته يداي إلى ذهب إبريز. . . ولكن. . . وا حسرتاه! لقد تضاعفت همومي ومتاعبي، وتناقصتْ راحتي ورفاهيتي، حين فلج سهمُ طلبتي، وزكا منبتُ رجائي، وأخصب زرع ابتهالي. . .
استوكفتُ المجد والعزّ، فسمعت ذكري يشّيع بالحمد، ويذيل بالثناء، من الولدان الروقة الميامين، الذي لحظهم الفلك بعنايته، ووسمهم الكمال بنهايته؛ ومن الشيب السارين في طريق الرشد، بمصباح الكبر، المتحلين بأبهة الحنكة وشيمة الوقار، الجامعين بين قوة الشباب واستحكام التهذيب والتحليم وتناهي الحلال. ولكن. . . أواه! أواه من الآلام والخسار والمضار التي تجيء في مواكب الشهرة. حقاً، إني لم أكن سعيدة إذ ذاك. . .
اجتديتُ الحب، وركبتُ إليه ظهور التوسع والضراعة، ففاز قلبي بمبتغاه، واغتبط بنجح مسعاه، وعاد بمصداق أمانيه، ولكن لهب نيران الحب الآكلة أندلع إلى قلبي المتضور، وجسمي المنهوك. وتلذع أوراها في عقلي المتلظي، بيدَ أنها قد كبتْ، ولم يبقَ منها إلاّ ما غادرت في القلب والجسم والعقل جميعاً، من وسوم لعجها وصفعات حروقها. . .
اتصلتُ ببابه تعالى، ونزعتُ إليه برجائي، أن يمنحني عقلاً راضياً قانعاً. . . وأخيراً! بزغ على قتام روحي المكتئبة نور عظيم، وغمرني أمنٌ تام، واطمئنان كامل. ووردت عليّ قوة جليّ استأنفتْ نشاطي، وشددت عزمي، وشرحت صدري. فيا ليتني كنت التمست هذه الطلبة الغالية قبل كل طلبة أخرى.
(الزهرة)
يوم وقعت الواقعة. . .!
للأستاذ علي الطنطاوي
أما رثاء الفقيد، وبيان جلال الرزء فيه، ومبلغ الحزن عليه، فتلك أمور كبرت عن أن يحيط بها (نظم من الشعر أو نثر من الخطب)، وبُعد منالها عن كاتب مثلي قصير القامة واليدين، فليكن همي أن أروي (ما رأيت وما سمعت)، ولقد رأيت عجباً وسمعت أعجب منه، وشاهدت أحوالاً ربما ظنها القراء الذين هم في غير بغداد مبالغة من نسج الخيال، ولكن الله يعلم وأهل بغداد يشهدون أن الذي أقوله حق كله، وأني ما زدت فيه ولكن نقصت منه، وأني لو ذهبت أتزيد فيه ما استطعت ولا بقي للخيال بعد الذي كان مجال
والذي رأيت أني نزلت من (الأعظمية) مبكراً على عادتي، فلم أرى على الطريق ما أنكر إلا حركة عند (البلاط) ما ألقيت إليها بالاً، حتى إذا شارفت المدرسة (ومدرستنا في ظاهر بغداد قريبة من باب المعظم) رأيت طائفة من الطلاب مجتمعين يتهامسون، ولكن الوجوه غير الوجوه، فلما أبصروني أسرعوا إلي يسألونني عن (الحادثة)، فقلت وأنا خالي البال: أي حادثة؟ إني ما سمعت بعد بشيء!
قالوا: لقد شاع في البلد أن الملك. . .

فاضطربت وتوقعت أن أسمع عنه نبأ لا يسر، ولقد أحببت الملك منذ شهور خلت حبّاً شديداً لم أكن أحبه من قبل مثله، وصرت أرى فيه معقد الأمل وباب الرجاء، فلما قال التلميذ ما قال خفق قلبي من توقع المكروه، وحب الاستطلاع، وروعة المفاجأة، وما يصيب المرء في العادة في موقف مثل هذا، وصحت بالولد أسأله: أن ما للملك؟ وبالغتُ في الصياح حتى روّعتُه، وأثرت أحزانه، فقال متعثراً يجرُ الحروف من فيه جرّاً:
- يقولون أنه. . . قد مات!
. . .فقلت: أعوذ بالله، أسكت ويحك، إن هذا كذب، فلا تنطق به
وأسرعت إلى المدرسة، والطلاب معي، وأنا أرجو وهم يرجون أن يكون الخبر كذباً. وتلبث بعض الطلاب قائمين على الطريق ينتظرون مرور الملك كما يمرّ كل يوم. فلما بلغنا المدرسة وجدنا كل من كان فيها من مدرسين وطلاب قد سمعوا الذي سمعنا، وهم بين مصدق ومكذب. ومرت ساعة ونحن على هذه الحال من القلق نسأل كل آت فلا نلقى عنده
جواباً، ونستخبر الهاتف (التلفون) فلا نسمع خبراً. ثم أبصرنا علم الثكنة العسكرية التي أمامنا قد نكس، وجاءنا الأمر بتنكيس العلم، وجمع الطلاب في غداة الغد للتشييع. . .فعلمنا أن الناعي قد صدق، وأن الأمل قد خاب!!.
وخرج المدير وهو الرجل القويُ المكتمل الرجولة ليعلن الأمر. فما تمالك نفسه أن بكى وهو ينعى لشباب المدرسة (الغربية المتوسطة) سيد شباب العرب. وما أمسك الطلاب أنفسهم أن يصيحوا: (وهم ثمانمائة شاب يعدون مثال النظام) صيحة واحدة، وأن يبكوا بنحيب وعويل، وأن يمزق بعضهم ثيابه، وأن يغمى على بعض. وما أكتم القارئ أني حسبت ذلك رياء وتصنّعاً، وكرهته أول الأمر، واشمأزت منه نفسي، ولكني ما لبثت أن أيقنت أنه حق وصدق، وأنه منشأة هذا الحب العجيب للملك الجندي، وهذا الحزن البالغ على وفاته الفاجعة. . .
وخرج الطلاب بعد ذلك، وخرجت على الأثر. فما دنوت من (باب المعظم) حتى سمعت نواح النساء ونحيبهّن، ورأيت الميدان كله ممتلئاً بالناس، يتدافعون ويستبقون إلى البلاط باكين مفجوعين. مشهد للحزن ما أحسب أن أروع منه يكون؛ فخالفت الجماهير وقصدت شارع الرشيد، فلم أبلغ (الصابونية) حتى رأيت مئات من النساء، تحكي ثيابهّن ومظاهرهن الغنى والحشمة، وهن ينشدن شعراً عامياً، أو شبه شعر، ما فهمته ولكني تبينت فيه ذكر غازي وشبابه الغض، وذكر الموت. . . وكلما قلن بيتاً لطمن وجوههن بشدة، وبكين بحرقة وألم. . . فما رآهن أحد إلا بكى أشد بكاء؛ ورأيت من بعد آلافاً من الناس قد حملوا شاعراً عامياً فهو يقرأ لهم شعراً كله تفجع وألم، وهم يلطمون ويضربون صدورهم أو يشيرون باللطم، فلم أطق المسير ولا الشهود فملت إلى المدرسة (الثانوية) وكانت خالية مقفرة، وعلى بابها علمان متشحان بالسواد، فغادرتها أفتش عن أخي أنور العطار. فما هي حتى جمعني الله به. فقلت له: إن المسير في شارع الرشيد مستحيل، والصبر على رؤية هذه المواكب الباكية أشد استحالة، وحسبنا ما في نفوسنا من الألم، فهلم بنا إلى الدار (في الكرخ) فإنها أهدأ. ورأى ما رأيت، فسرنا نؤم الجسر، وكان اليوم عاصفاً مخيفاً، والنهر مضطرباً مرعباً؛ كأن الطبيعة قد روّعها من النبأ ما روّعنا؛ ففقدت هي أيضاً اتّزانها وهدوءها، فما ظننا والله إلا أن الجسر منقطع بنا، لما كان يضطرب ويرقص، وتلعب
الرياح والمياه بالعوامات التي يقوم عليها، ولكن الله سلّم فبلغنا الكرخ، وإذا بالكرخ قد نشرت الأعلام، أعلام (السباية) السود، ودقت طبول المأتم وخرج أهلوها على بكرة أبيهم، مواكب مواكب: النساء ينحن ويلطمن الوجوه، والرجال ينشدون ويضربون الصدور، وقد تعروا وتكشفوا فعل المتهيئ للصراع، حتى رأيت الصدور وهي من الاحمرار كأنما دامية. والأطفال، يا لله ما فعل الأطفال! لقد تعروا مثلما فعل الرجال، وطفقوا يضربون صدوراً علم الله أنها ما تحمل الضرب ولا تطيقه. . . وكانت المواكب في كل شارع، وفي كل زقاق. فكلما تركنا واحداً منها اصطدمنا بآخر، حتى أزمعنا آخر الأمر أن نعود إلى جانب الرصافة من الجسر الآخر، فما بلغناها حتى رأينا فيها ما أنسانا فعل أهل الكرخ، وكان كل موكب يحمل صورة للملك الشاب مجللة بالسواد، وينشد أشعاراً لم أحفظها ولكن فهمت منها كثيراً، فما فهمت مقالة قوم:
الله أكبر يا عربْ ... غازي انفقدْ من دارَهْ

واهتزتْ أركانْ السماء ... من صدمةِ السَّيارةْ
وقول قوم ما معناه: قولوا لفيصل في القبر يستقبل وليده. . . في أشعار كثيرة هذا سبيلها، ولعل القراء لا يدركون قوتها ووزنها، لأني لم أحسن كتابتها ونقلها، ولكنهم لو سمعوها من أفواه أصحابها ورأوا بكاهم، وشاهدوا صدورهم المحمرّة، لعرفوا أي شيء هي، ولعلموا أن بغداد تعرف كيف تفرح وكيف تغضب وكيف تحزن!
ومن أعجب ما شاهدت فتيات المدارس وهن يلطمن وجوهاً يؤذيها المسّ، ويدميها النسيم، لا يشفقن على أنفسهن، ولا يفتأن ما سرن يَبكين ويُبكين، ويا ليتني فهمت ما كنّ يقلن فإنه أشجى وأعجب مما كان الرجال يقولون!
وبقيت المدينة على هذه الحال إلى صباح اليوم التالي، إلى ساعة التشييع التي أعلن العجز عن وصفها. فلما تم الدفن، وأودع الثرى الملك الشاب الذي كان يفيض قوة وحياة، وحوّمت الطيارات الوطنية تحمل شارات الحزن السود الطوال على الملك الطيّار، وانطلقت المدافع تعلن انتهاء الدفن، وأيقن الناس أن المصيبة قد تمت، وأن الرجاء قد أمحى، أفاقوا كمن يفيق من نومة مزعجة رأى فيها الحلم المروّع، فيرى الواقع أشد إزعاجاً وترويعاً، فأسلموا الأمر إلى الله، وصمتت هذه الألسن التي طالما أنشدت ورثت، وتفجعت، وجفت هذه
الدموع التي طالما جرت وذرفت، وانفضت هذه الجموع واجمة ما فيها من يتكلم أو ينبس، وفي القلوب نيران تتأجج، وبين الأضالع لهيب يستعر، ولم تسكت آخر طلقة من طلقات المدافع التسع والتسعين، حتى عمّ المدينة صمت عميق، وغدت كأنها قبر واحد، قبر غازي الملك الحبيب الذي أمّ الناس قصره قبل عشرة أيام مهنئين بالميلاد السعيد، فانصرفوا الساعة من زيارة قبره الجديد، مودعين حبيباً لن يروه إلى يوم القيامة. . .
وهمس رجل، فسار الهمس على كل لسان:
رحمة الله على غازي، ولفيصل أبنه التوفيق والسعادة والحياة!
(بغداد)
علي الطنطاوي
المدرسة الابتدائية
وتعليم اللغة الأجنبية
للأستاذ عبد الحميد فهمي مطر
تعليم اللغة الأجنبية في مدارسنا الابتدائية مشكلة من مشاكل التربية والتعليم التي برزت اليوم أمام وزارة المعارف فألفت لدراستها لجنة برياسة حضرة صاحب العزة الوكيل الساعد. وقد رفعت هذه اللجنة تقريرها عنها في الشهر الماضي، ولازال هذا التقرير بين يدي معالي الوزير لبحثه ودراسته قبل البت في أمره. وبالرغم من أن هذا الموضوع كان من بين المشاكل الكثيرة التي عالجتها في مؤلفي الجديد (التعليم والمتعطلون في مصر) فقد رأيت أن أفرد له بحثاً خاصاً يذاع على صفحات الرسالة الغراء لأنه أصبح مشكلة الساعة؛ ولا يصح أن يقطع فيه برأي إلا بعد درسه دراسة مستفيضة، فجدير بكل ذي رأي أن يدلي فيه برأيه، وجدير برجال التعليم جميعاً أن يبحثوه وحداناً وأن يمحصوه زرافات وجماعات حتى يتبن أولو الأمر أوجه الخير والشر فيه، ويتعرفوا أوجه المصلحة العامة في جميع نواحيه.
ولا يسعنا أن ندلل على أهميته وأهمية غيره من مشاكل التربية والتعليم عندنا إلا بتلك الكلمة الخالدة التي قالها المغفور له جلالة الملك فؤاد الأول طيب الله ثراه، إذ قال: (إن أم المسائل في مصر مسألة التربية والتعليم. فلو أن كل مصري وضع في تشييدها لبنة لأقمنا للوطن صرحاً يبقى ما بقي الزمان). ولا غرو في ذلك لأن مسائل التربية ولتعليم لا تتعلق بأفراد أو بطوائف معينة فحسب، ولكنها تتعلق بكل منزل وكل أسرة وتتعلق بأبناء هذا الوطن جميعه بنين وبنات، فتيان وفتيات؛ ففيها جماع مشاكل الأمة أو هي تشمل مسائل الأمة جمعاء
ولقد أصبح لزاماً علينا بعد أن أخذنا الأمر كله بيدنا ألا نتعصب لأنفسنا ولا أن نتحزب لقديمنا بل يجب علينا أن نفتح عيوننا لكل ما يجري عندنا وعند غيرنا وأن نتعرف سريعاً شذوذنا وأخطاءنا وأن نعمل بحزم وهمة ونشاط على التخلص مما تتعثر فيه معاهدنا من شذوذ وأخطاء. لعلها هي السبب الأساسي في تعثر شبابنا وتنكبهم الطريق السوي

وانحطاط مستواهم الخلقي والعلمي عن مستوى غيرهم ممن يتعلمون بين ظهرانينا تعليماً أجنبياً

يصحبه نجاح في الحياة مضمون وحظ موفور. فلقد جاء في محاضرة الأستاذ الغطريقي رئيس مكتب تخديم الشبان بوزارة المالية التي ألقاها قريباً بمدرج دار العلوم أنه لا ينجح من شبابنا المتعلمين بمعاهدنا الحكومية ممن يتقدمون للخدمة في الأعمال الحرة كأعمال الشركات والبنوك إلا واحد من كل ثلاثة عشر مرشحاً بينما يؤخذ الباقون من الشبان الذين تعلموا في معاهد أجنبية. فهلا يحق لكل مفكر أن يتساءل ويبحث عن أسباب كل هذا الإفلاس! لا شك أن ذلك راجع إلى نقص جوهري في تربيتنا وتعليمنا. فلقد ذكر حضرته أيضاً أنه حتى هؤلاء القليلين الذين تأخذهم الشركات للعمل فيها تشكوا تلك الشركات سوء نظام الكثيرين منهم وقلة اكتراثهم بالمسئولية وقلة اهتمامهم بالمواظبة والمحافظة على المواعيد الخ الخ

فبين معاهدنا إذن عيوب أساسية كثيرة تستدعي التفكير والعمل، وتستدعي التغيير والتبديل، وتستدعي وضع سياسة تعليمية قويمة يسير الجميع من رجال التعليم على هديها. ولعل من أبرز العيوب وأقوى الشذوذ في نظم تعليمنا قيام المدرسة الابتدائية إلى اليوم بجوار المدرسة الأولية والمدرسة الإلزامية والمعهد الديني الابتدائي وجمعية تحفيظ القرآن الكريم الخ مما يشتت أبناء البلد الواحد في أنواع مختلفة من المعاهد ذات طرائق مختلفة ومذاهب مختلفة وثقافات مختلفة! فالمدرسة الابتدائية بما فيها من لغة أجنبية هي ذلك السدُ المنيع بين المدرسة الإلزامية والأولية من جهة، وبين المدرسة الثانوية والعالية من جهة أخرى، مما لا مثيل له في ممالك العالم أجمع! ونتيجة ذلك أن الطالب المتفوق بين جدران مدارسنا الإلزامية والأولية إذا تعدت سنه العاشرة (وكثير من التفوق لا يظهر إلا بعد هذه السن) استحال عليه إتمام تعليمه تعليماً مدنياً لأن المدرسة الثانوية لا تقبل أحداً من طلابها إلا عن طريق المدرسة الابتدائية حيث اللغة الأجنبية مادة أساسية في جميع سني الدراسة فيها، وفي إقفال أبواب المدارس الثانوية أمام طلاب المدارس الأخرى عدا الابتدائية مضيعة للتفوق والمتفوقين من أبنائنا الذين بدؤوا لسوء الحظ حياتهم التعليمية في مدارس التعليمين الإلزامي والأولي، وقضاء على ذوي الملكات الطيبة منهم وإهدار الكفايات لو استثمرت لجلبت كثيراً من الخير على مصر والمصريين. فما السر يا ترى في وجود هذا السد المنيع الحاجز للمتفوقين من طلاب التعليمين الإلزامي والأولي عن التعليمين الثانوي والجامعي!

هذا السد قد أوجدته السياسة العتيقة من عهد قديم. حتى لا يقوى على ارتقائه إلا العدد القليل من الذين كانت تعدهم المدرسة الابتدائية للعمل في دواوين الحكومة بدليل ذلك التقرير الذي رفعه سنة 1880 علي باشا إبراهيم ناظر المعارف إلى مجلس النظار (الوزراء) وقد جاء فيه:

إن التعليم الابتدائي قليل الاتساع لأنه لم ينشر في أية جهة بين الأهالي ما خلا (المحروسة. وهذا لا يسمح للمدرسة التجهيزية بانتخاب تلامذة نجباء ومستعدين للتعليم التجهيزي ويترتب على ذلك أنه لا يوجد إلا عدد قليل من التلامذة الضعفاء جداً الخارجين من الدراسة التجهيزية فتجبر المدارس العالية في أكثر الأحوال على قبول تلامذة لم يستوفوا الحالة التجهيزية اللازمة، ويستمر هذا الخلل عند خروج التلامذة بعد انتهاء مدة الدراسة، ودخولهم في الوظائف العمومية الخ.)

لهذا وجدت قديماً المدرسة الابتدائية إذن على غرار المدرسة الأوربية ولبس أبناؤها الملابس الأوربية، وتعلم أبناؤها اللغة الأوربية، وكانت فرنسية في بادئ الأمر، ثم انقلبت بعد الاحتلال إلى إنجليزية واستمرت إلى اليوم! كل ذلك في سبيل إعداد أبنائها لرغد العيش في وظائف الحكومة بين جدران الدواوين! فلم يكن إذن الغرض من وجودها تثقيف أبناء الشعب أو إعدادهم للحياة العامة، لأن المدرسة الشعبية أو الكتاب قديماً والمدرسة الإلزامية أو الأولية حديثاً هي التي تقوم بإعداد أبناء الشعب لحياة الشعب! وإذن فقد وجدت المدرسة الابتدائية بما فيها من ميزة وهي اللغة الأجنبية لتفصل طبقة الموظفين ولترفعهم إلى مكان خاص بل إلى مركز خاص يمتاز بميزات خاصة عن مركز أبناء باقي الشعب، فهي إذن السد المنيع بين أبناء الشعب وغوغائه وبين أبناء سادة الشعب وحكامه! وهي إذن السد المنيع بين الديمقراطية

والأرستقراطية! فهل يصح أن يبقى هذا السد إلى اليوم بعد الوضع الذي أصبحنا فيه؟ هل يصح أن يبقى هذا السد بين أبناء أمة حطمت قيودها وقالت بملء فيها إنها أصبحت أمة ديمقراطية ينص دستورها على المساواة بين الجميع في الحقوق والواجبات، وعلى أن الأمة مصدر السلطات؟ إلا إن بقاء المدرسة الابتدائية بعد هذا يعد مهزلة بين الديموقراطية والديموقراطيين إن كانوا جادين

(يتبع)

عبد الحميد فهمي مطر

استطلاع صحفي

مدرسة الهندسة التطبيقية

بمناسبة عيدها المئوي

لمندوب الرسالة

(ينتظر أن يتفضل حضرة صاحب الجلالة الملك بتشريف العيد المئوي لمدرسة الهندسة التطبيقية وافتتاح مبانيها رسمياً في 28 أبريل الجاري. وقد أسسها المغفور له محمد علي باشا الكبير في مارس سنة 1839 وسماها مدرسة العمليات لتعد الطلبة للأعمال الصناعية التي تحتاج إليها البلاد. ولكن الزمن غدر بها إذ أقفل عباس باشا الأول جميع معاهد العلم وهي منها إلى أن أعاد فتحها سعيد باشا باسم مدرسة العمليات أيضاً. ثم تغير اسمها فأصبح مدرسة الفنون والصنايع، وتغير مرة ثالثة فأصبح مدرسة الهندسة التطبيقية)

خرساء تتكلم

في مواجهة المدخل الرئيسي لمدرسة الهندسة التطبيقية نافورة جميلة الصنع من حجر الجرانيت الأسود، وفوق الباب تاج أسود يضم بين ثناياه قطع مستطيلة من النحاس الأصفر يرى الناظر في وسطها أنواطاً يرجع تاريخها إلى سنة 1873 إذ أهديت إلى المدرسة من بعض المعارض الدولية. وعلى جانبي الباب مدفعان ضخمان يبدو عليهما القدم، ويظهر في بنائهما بساطة التركيب، ولونهما أسود أيضاً. فإذا سألت عن تاريخ هذين الأثرين أجابك محدثك: (رأيتهما عندما التحقت بالمدرسة سنة 1904). فإذا حاولت المزيد فلن تصل إلى نتيجة صحيحة. فالمدرسة قديمة العهد استنشقت النسمة الأولى للحياة في شهر مارس سنة 1839 فعمرها الآن مائة عام وإن كان عمر مبانيها بضعة أعوام

تدخلها فإذا هي بنت اليوم. فحجرات الدراسة فيها على أحدث طراز ومعاملها ومصانعها مجهزة بأحدث الآلات. ولكنك بين هذه المظاهر المتعددة تلمس القدم في كثير من حجراتها إذ ترى آثار الماضي في لوحة قضى الزمن على ذكرياتها، أو تجد صورة إسماعيل باشا وهي تحمل اسم صانعها وضريبة الزمن على ألوانها. وأقدم من هذا أن تجد لوحة باسم إبراهيم باشا، وكتب تحت الاسم 1204 - 1265.

فإذا سألت عن تاريخها قابلك محدثك بألفاظ تفهم منها:

(لا أعرف، فإذا رجعت إلى كتب التاريخ، وقابلت بين السنة العربية والإفرنجية وجدت 1204=1789، وسنة 1265 تقابل 1848 والأول هو تاريخ ميلاد إبراهيم باشا، والثاني هو تاريخ وفاته في نوفمبر من تلك السنة. فهل تشك بعد هذا في أنها لوحة تذكارية لتخليد ذكرى ذلك البطل الفاتح؟ وهلا تأسف بعد هذا أن تجد لوحة تذكارية تحتاج إلى ما يذكرنا بها؟ ولكنها ضريبة الزمن وضريبة حياة المكاتب التي يعيشها موظفونا بل ومعلمونا، أنستنا لا لوحاتنا التذكارية فحسب، بل أيضاً تاريخ هذه اللوحات فأصبح سرها في بطون المقابر بدل أن يحيا في أذهان الناس وقلوبهم. فهذه المواد الخرساء عاشت على رغم إهمالها فتكلمت عن ماضينا ونددت بحاضرنا إذ كشفت جهلنا الفاضح.

حياة عملية

والحقيقة أن هيئة التدريس بالمدرسة أجهدت نفسها لكشف تواريخ هذه الآثار، إلا أن كل من قابلناهم من طلبة المدرسة القدماء لا يذكرون من أمرها إلا أنهم التحقوا بالمدرسة فوجدوها. وهم يؤاخذون لأنهم تجاهلوها منذ ذلك التاريخ فلم يهتموا بأمرها ولم يسألوا عن سبب وجودها. ولو اهتم أحدهم بالسؤال عنها وقتئذ لكانت هذه الآثار أكثر أهمية مما هي الآن. فإن قيمة الأثر تزداد كلما زادت معلوماتنا عنه وتقل كلما قلت. وإذا كنت أحب أثراً فإني أحبه لأنه يرجع بي إلى الماضي فيعطيني صورة ذهنية

لما كان يحدث في تلك الأيام سواء أكانت قريبة أم بعيدة.
ولعل أساتذة هذه المدرسة كانوا في شغل عن تتبع هذه الذكريات بما عهد إليهم من عمل. فالحياة في هذا المعهد خليط من النظريات العلمية والخبرة العملية. وهي تشغل في عهدها الجديد مساحة ثلاثين فداناً منظمة على أحدث نظام ومعدة بأحدث الآلات. ويمكننا أن نقسمها إلى ثلاث أقسام: الورش والمعامل وحجرات الدراسة. وقد أعدت جميعها على آخر طراز بحيث يتخرج الطالب من المدرسة وهو معد بكلا السلاحين العلمي والعملي.
ففي الورش يجد الطالب المجال متسعاً أمامه ليتقن الصناعة التي ارتضاها لنفسه. وفي حجرات الدراسة يجد النظريات العلمية التي يمكنه أن يستفيد منها في مهنته. وفي المعامل يجد الآلات الكيميائية والطبيعية معدة للبرهنة على النظريات التي لم تطبق بعد في الإنتاج
الصناعي كما يستطيع أن يجرب - إذا شاء - لينشر على الناس ما هو خير من الأساليب المستعملة في الإنتاج الصناعي الآن
مصنع مستقل
وفي تلك الورش يعمل الطلبة بأيديهم. ففي قسم العمارة يمسك الطالب بأدوات البناء ويقيم الحائط تبعاً للرسم المعطى له، فإذا كان تمرينه في عمل نقوش من الجبس أو المصيص قام بتلك العمليات بنفسه. وما يحدث في قسم العمارة يحدث في غيره من الأقسام، إذ يباشر الطلبة بأنفسهم تطبيق العلم على العمل، ولذلك يلبسون أثناء العمل في الورش ملابس خاصة وهي عبارة عن سترة بيضاء لتقي ملابسهم الاتساخ
وهذه الورش في مجموعها مستعدة لصنع أية آلة يطلب عملها ففي (ورشة السباكة) مثلاً يستطيعون تشكيل أية قطعة معدنية كما يريدون، والطريقة المتبعة لذلك أن يصنع للآلة رسمها بأبعاده ومقاطعه على الورق؛ ثم يوكل إلى طلبة اختصوا بصناعة النماذج الخشبية فيصنعون أدوات الآلة من الخشب بطريقة خاصة، فإذا انتهى نجار النماذج ذهبت القطع الخشبية إلى السباك فوضعها في نوع خاص من التراب بحيث يتشكل برسمها ثم ينزع الخشب ويصب في الفراغ المعدن المطلوب صنع الآلة منه وتنتقل المواد بعد هذا إلى أقسام البرادة والخراطة وغيرها حيث تتولى تلك الأقسام تنظيف الآلات مما علق بها من زوائد معدنية، ثم تعد بما يتفق والرسم المطلوب. وعلى وجه الأجمال فإن جميع أقسام المدرسة تعمل في صناعة هذه الآلة لاختلاف فنونها وتركيبها، فهي تبدأ من المكتب حيث يضع المهندس رسمها الميكانيكي وتمر بأدوار عدة إلى أن تصل إلى وضعها النهائي الذي يعدها للاستعمال
وقد قامت المدرسة بصنع عدة آلات، ففي إحدى السيارات ركب الطلبة بدلاً من المحرك العادي آلة ديزل، وهم يقولون إن ذلك يوفر كثيراً من أثمان استهلاكها للوقود. فإن آلة الديزل تشتغل بالغاز الوسخ وفرق كبير بين ثمنه وبين ثمن البنزين. وهكذا كلما دخلت إحدى الورش شاهدت فيها شيئاً أصلياً من صنع طلبتها وحدهم ولذلك يفخرون به
فيللا ثمنها 800 جنيه
وأراد قسم العمارة أن يتساوى مع غيره من الأقسام من حيث ابتكار الأشياء المفيدة فوضع الطلبة والأساتذة رسماً لفيللا من طابقين يتكلف بناؤها 800 جنيه وتصلح لسكنى عائلة متوسطة، ويشتغل طلبة قسم العمارة في تشييدها في أوقات فراغهم وقد تم منها حتى الآن بناء الطابق الأول وينتظر عند إتمامها أن يتولوا تجهيزها بالأدوات الصحية وغيرها من الأثاث. ففي المدرسة ورشة نجارة كبيرة تصنع كثيراً من الأثاث، وقد شاهدت بعض المكاتب التي صنعها الطلبة لأساتذتهم فأعجبت بما هي عليه من متانة ودقة في الصناعة
وتحتل ورش المدرسة صفاً طويلاً يليه صف المعامل حيث توجد معامل الطبيعة والكيمياء والهيدروليكا وقسم مقاومة المواد وكل هذه المعامل مجهزة بالأدوات التي تيسر للطالب فهم النظريات العلمية المختلفة كما تعطيه صورة واضحة عن أكبر الأعمال الصناعية التي أسست إذ يحتوي على نماذج مصغرة لبعض هذه المشروعات ويحتاج الطالب دائماً أن يعرف قوة احتمال المواد التي يشتغل بها ولذلك تجد في

قسم العمارة آلة يمكن بواسطتها معرفة قوة احتمال مخلوط من الأسمنت. وفي قسم السيارات آلة يقول الاختصاصيون في المدرسة أنها الثالثة من نوعها وبها يمكن معرفة قوة فرامل السيارة ومقدار استهلاكها للبنزين. أضف إلى ذلك معملاً قائماً بذاته اختصاصه اختبار مقاومة المواد من ضغط وشد وانحناء

قاعة للسينما

ومدرسة الهندسة التطبيقية كما قلنا حديثة العهد بالتنظيم على الطرق الحديثة ولذلك تجدها معدة بقاعة للسينما حيث تعرض الأفلام العلمية التي تعطي للشاهد فكرة عن سير العلوم وعن تطورات بعض الصناعات. وتستعمل هذه القاعة للمحاضرات فيجتمع الأساتذة والطلبة لإلقاء بعض المحاضرات. وقد شاهدت في إحدى المرات ناظر المدرسة وهو يعرض على أبنائه الطلبة أن يبدوا آرائهم في كيف يحتفلون بمرور مائة عام على إنشاء مدرستهم فكانت الروح تدل على مدى الحرية الممنوحة لهم فقد كان عدد الطلبة كثيراً جداً ضاق بهم المدرج على سعته فكان كل منهم يدلي بما لديه من الاقتراحات؛ وأخيراً زاد عدد الاقتراحات وتضاعف عدد المتكلمين، فاقترح عليهم ناظر

المدرسة أن يكتبوا ما يريدون. وبذلك ترك للطلبة أن يعدوا بأنفسهم الاحتفال المئوي لمدرستهم. وقد وكل للطلبة أنفسهم تنفيذ ذلك البرنامج وإظهار براعتهم في فن الصناعة والأعمال الإدارية مع إشراف بسيط من ناظر المدرسة الدكتور أمين سيد ومدرسيها

ويتعود الطلبة حياة الابتكار، فإذا دخلت قاعة الرسم شاهدت مشروعات كثيرة. فهذه لناد يقترح الطلبة إنشاءه وقد راعوا فيه أن يتناسب مع الغاية التي سينشأ من أجلها. ولذلك كان فيه قاعات كثيرة بعضها كبير والبعض الآخر صغير. وقد تجد اقتراحاً لتنظيم ميدان تتوافر فيه الأسباب الصحية مع جمال الذوق وإبراز سحر الطبيعة، فإن الطلبة يعدون الإعداد اللازم لأن يكونوا رجال عمل وأهل تفكير وابتكار وذوق حسن.

فوزي جبر الشتوي

التاريخ في سير أبطاله

أحمد عرابي

أما آن للتاريخ أن ينصف هذا المصري الفلاح وأن يحدد له مكانة بين قواد حركتنا القومية؟

للأستاذ محمود الخفيف

وفي يناير من السنة التالية صدرت من ثلاثة من الضباط على رأسهم احمد عرابي حركة أخرى كانت هي الجريئة حقاً، حركة جرت في أعقابها حركات فكانت بمثابة الشرارة التي أوقدت النار

نمى إلى عرابي، وهو في منزل أحد أصدقائه أن وزير الجهادية قد اعتزم عزله وزميله عبد العال بك حلمي، وعلم عرابي أن عدداً من الضباط في منزله ينتظرونه، فخف إليهم فوجدهم يعلمون ما يعلم فتشاوروا في الأمر، واختار عبد العال بك وعلي فهمي بك عرابياً رئيساً لهما ولمن يتبعهما من الضباط في حركتهم الوليدة التي دارت حول طلب عزل رفقي باشا من الجهادية ورفع المظالم عن رجال الجندية

ويذكر عرابي في مذكراته أنه بين للضابطين خطورة الحركة ولكنهما أصرا عليها فطلب إليهما أن يقسما له أن يخلصا النية، فأقسما. ولنا أن نتساءل هنا: لم اختير عرابي قائداً لهذه للحركة دون غيره، وقد كان فهمي على رأس حرس السراي وله صلات برجال الحاشية، ولم يكن عبد العال دون عرابي مرتبة وخبرة؟

إن اختيار رجل من الرجال دون غيره لقيادة حركة من الحركات أمر ينطوي لا ريب على معنى. وما ولدت الزعامات في الغالب إلا بهذه الطريقة. ففي ذلك الرجل توجد صفات يتميز بها من سواه فتجتمع عليه القلوب والأهواء في لحظة لا يكون للتنافس الشخصي فيها مجال. وهذا عندي خير مقياس للزعامة، وبخاصة إذا كان هذا الرجل المختار معروفاً من قبل لمن يختارونه فلا يكون إقبالهم عليه إعجاباً وقتياً لا يلبث أن يتبين خطأهم فيه.

ولن يشذ عرابي عن هذه القاعدة فإنما اختاره الضباط لما عرفوا فيه من صفات

الجرأة والحماسة والإخلاص، ولما جربوه عليه من الصدق وحسن الطوية. هذا إلى أنه كان يفوقهم
من ناحية لا غنى عنها لزعيم من الزعماء ألا وهي فصاحة اللسان، فلقد كان هذا الرجل الذي جعل الجهل في مقدمة عيوبه أفصح الضباط لساناً. ولقد كانت الخطابة إحدى ملكاته حتى ليعد من أخطب رجال ذلك العهد لا في الجيش فحسب بل وبين المواطنين جميعاً
أعد الضباط عريضة بمطالبهم ووقع عليها عرابي وزميلاه وذهب ثلاثتهم فرفعوها إلى رياض باشا وإنهم ليعلمون ما كان ينطوي عليه مثل هذا العمل من جرأة في ذلك الوقت، وكان عرابي هو الذي يتكلم باسم زميليه وباسم الضباط جميعاً كما كان سعد يتكلم حينما ذهب مع زميلين له في مستهل الثورة الثانية إلى مقر المعتمد البريطاني يرفع مطالب المصريين عقب الهدنة
وكان رياض يكره سياسة تقديم العرائض مهما كان من عدالة المطالب، وكان يلقي في السجن أو يحكم بالنفي على من يخطون هذه الخطوات كما حدث للسيد حسن موسى العقاد فقد نفي إلى السودان لأنه انتقد إلغاء قانون المقابلة على الصورة التي جاءت بها لجنة التصفية وكما حدث لكثير غيره ممن أخرجوا من مصر بسبب آرائهم الحرة
وقابل رياض الضباط مغيظاً محنقاً وخاطبهم في كبرياء وغلظة كما يقول عرابي في مذكراته فقال لهم: (إن أمر هذه العريضة مهلك وهو أشد خطراً من عريضة أحمد فني الذي أرسل إلى السودان)، وكان هذا الفتى قد نفي أيضاً لأنه طلب المساواة في المعاملة مع غيره من موظفي الديوان محتجاً على ما كان يجري من محسوبية، ذلك الداء الوبيل الذي لا نعرف متى تتخلص هذه البلاد منه!
أما عن فحوى العريضة فإن عرابي يذكر أنه قد طالب بعودة مجلس شورى النواب إلى جانب المطالب العسكرية، ومع أن أكثر المؤرخين يذكرون أن هذا الطلب لم يأت ذكره إلا فيما بعد. ولكن عرابياً يصر على دعواه في كل ما كتب من تاريخ حياته على أن الأمر الذي غضبت منه الحكومة هو المطالبة بعزل عثمان رفقي فقد رأت في هذا الطلب نوعاً من التمرد فما دخل الجيش في سياسة الحكومة ليطالب بعزل وزير.
وقد كانت الحكومة لا ريب محقة في هذا الغضب، بيد أنها من جهة أخرى لم تسلك إزاء هذه الحركة ما كانت تقتضيه السياسة الرشيدة، فكان عليها أن تبحث في مطالب الجيش فتجيب ما كان منها في جانب الحق ثم تقنعهم بعد ذلك بأن ليس من حقهم المطالبة بعزل رفقي
سكت رياض أسبوعين وهو يحاول إقناع الضباط لسحب العريضة وهم يصرون عليها. وغضب توفيق أشد الغضب وأشار عليه المحيطون به باتباع العنف مع الضباط، ثم نمى إلى رياض أن سكوته قد يفسر بأنه ممالأة للجيش وعدم موالاة للخديو. ويقول مستر بلنت في مذكراته إن الخديو أراد أن ينتهز هذا الحادث للانتقام من رياض فيوقع بينه وبين رجال الجيش.
ولما فطن رياض إلى ما قد يفسر به سكوته وافق على محاكمة الضباط، ووقع الخديو على أمر بمحاكمتهم، ودعي وزير الجهادية الضباط الثلاثة إلى ديوان الجهادية بقصر النيل بحجة الاستعداد لحفلات زفاف إحدى الأميرات وهناك ألقي القبض عليهم. . . وبذلك تفتتح لعرابي صفحة في سجل تاريخ مصر
وكان الضباط على علم بما دبر لهم. فلم يكن من العسير عليهم في مثل ذلك الموقف أن يدركوا ما عسى أن تبيته الحكومة لهم من كيد. ولقد قيل أن قنصل فرنسا كان على اتصال بهم فأخبرهم بما عقدت الحكومة النية عليه
واتفق ثلاثتهم مع فرقهم أن تذهب إليهم إذا تأخرت عودتهم عن ساعتين؛ ثم ذهبوا إلى حيث طلب إليهم أن يحضروا، فما كادوا يدخلون وزارة الجهادية حتى ألفوا أنفسهم بين صفوف مسلحة من الجركس فألقي القبض عليهم وسيقوا إلى السجن ثم إلى المحاكمة وقد انعقد لهم مجلس يحاكمهم برياسة عثمان رفقي باشا.
ويحسن أن نورد هنا ما وصف به عرابي موقفهم ساعتئذ قال: (ولما أقفل باب الغرفة تأوه رفيقي علي بك فهمي وقال: لا نجاة لنا من الموت وأولادنا صغار. ثم اشتد جزعه حتى كاد يرمي بنفسه في النيل من نافذة الغرفة فشجعته متمثلاً بقول الإمام

الشافعي رضي الله عنه:
ولرب نازلة يضيق بها الفتى ... ذرعاً وعند الله منها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها ... فرجت وكان يظنها لا تفرج
وتمثل عرابي بأبيات أخرى نسبها إلى السيدة زينب رضي الله عنها إلى أن قال: (فلا والله ما كانت إلا هنيهة حتى جاءت أورطتان من آلاى الحرس الخديو وأحدق رجالهما بديوان الجهادية وأسرع بعض الضباط والعساكر فأخرجونا من السجن، ففر ناظر الجهادية ورجال المجلس وغيرهم من المجتمعين وقصدوا جميعاً إلى سراي عابدين) وإنما نورد ما ذكره عرابي لأنه من جهة يصور لنا جانباً من شخصيته وناحية من ثقافته ويرينا نزعة اتكاله على الله تلك النزعة التي سوف لا تنخلع عنه حتى بعد أن تنخلع عنه عزيمته في مأساة التل الكبير؛ ثم لأنه من جهة أخرى متفق مع ما يقول الرواة فلا ضير أن نورد القصة على لسانه
(يتبع)
الخفيف
نقل الأديب
للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي
389 - لو جاء في الغناء قرآن ما جاء إلا هكذا
قال مالك بن أبي السمح: سألت ابن سريج عن قول الناس:
فلان يصيب وفلان يخطئ، وفلان يحسن وفلان يسيء، فقال:
المصيب المحسن من المغنين هو الذي يشبع الألحان، ويملأ الأنفاس، ويعدل الأوزان، ويفخّم الألفاظ، ويعرف الصواب، ويقيم الإعراب، ويستوفي النغم الطوال، ويحسّن مقاطيع النغم القصار، ويصيب أجناس الإيقاع، ويختلس مواقع النبرات، ويستوفي ما يشاكلها في الضرب من النقرات
فعرضت ما قال على معبد فقال: لو جاء في الغناء قرآن ما جاء إلا هكذا
390 - أحمد الله فقد نقهت
ابن الجوزي: مر غراب الماجن بسائل يقول: أنا عليل وأنا جائع!
فقال: احمد الله فقد نقهت
391 - يوم الأربعاء
ياقوت: لما ولي الحسن بن زيد المدينة منع عبد الله بن مسلم ابن جندب الهذلي أن يؤم بالناس في (مسجد الأحزاب) فقال له: أصلح الله الأمير، لِمَ منعتني مقامي ومقام آبائي وأجدادي قبلي؟
قال: ما منعك منه إلا يوم الأربعاء يريد قوله:
يا للرجال ليوم الأربعاء أما ... ينفك يحدث لي بعد النهي طربا
إذ لا يزال غزال فيه يفتنني ... يأتي إلى (مسجد الأحزاب) منتقبا
يخبر الناس أن الأجر همته ... وما أتى طالباً أجراً ومحتسبا
لو كان يطلب أجراً ما أتى ظهراً ... مضمخاً بفتيت المسك مختضبا
392 - حتى في القبور!!!
يحيى بن حكم البكري الجياني:
أرى أهل الثراء إذا توفوا ... بنوا تلك المقابر بالصخور
أبوا إلا مباهاة وتيهاً ... على الفقراء حتى في القبور!
393 - جهال الأطباء هم الوباء في العالم
في (الآداب الشرعية) لابن مفلح: ينبغي (للمرء) أن يستعين في كل شيء بأعلم أهله كما عليه نظر عقلاء الناس؛ لأن الأعلم أقرب إلى الإصابة. ولمالك في الموطأ: (عن زيد بن أسلم أن رجلاً في زمان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أصابه جرح، فاحتقن الجرحُ الدم، وأن الرجل دعا رجلين من بني أنمار فنظرا إليه، فزعما أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال لهما: أيكما أطبّ؟ فقالا: أو في الطب خير يا رسول الله؟ فزعم زيد أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: أنزل الدواء الذي أنزل الأدواء). فأما الجاهل فلا يستعين به. قال ابن عقيل في (الفنون): جهال الأطباء هم الوباء في العالم، وتسليم المرضى إلى الطبيعة أحب إليّ من تسليمهم إلى جهال الطب

394 - الأعميان الخبيثان. . .
ابن الجوزي: أخبرنا علي بن المحسن عن أبيه قال: أخبرني جماعة من شيوخ بغداد أنه كان بها في طرف الجسر سائلان أعميان، أحدهما يتوسل بعليّ والآخر بمعاوية، ويتعصب لهما الناس، ويجمعان القطع، فإذا انصرفا اقتسما القطع، وكان يحتالان بذلك على الناس

395 - فينظر أيهدى له أم لا؟
في (كتاب الأم) للشافعي: استعمل النبي (صلى الله عليه وسلم) رجلاً من الأزد على الصدقة، فلما قدم قال: هذا لكم، وهذا أهدي إليّ. فقام النبي (صلى الله عليه وسلم) على المنبر فقال: ما بال العامل نبعثه على بعض أعمالنا فيقول: هذا لكم وهذا أهدي إليّ؟ فهلا جلس في بيت أبيه أو بيت أمه فينظر أيُهدى له أم لا؟

936 - يا لون شعر الصبا
قال أبو بكر يحيى بن محمد الأنتقيري: كنا مع العجوز الشاعرة المعروفة بـ (ابنة ابن السكان) المالقية فمر علينا غراب طائر فسألناها أن تصفه فقالت على البديهة:
مر غراب بِنا ... يمسح وجه الربى
قلت له: مرحباً ... يا لون شعر الصِّبى!

397 - أتتكم شهود الهوى تشهد
دخل أبو القاسم نصر بن احمد الحميري على أبي الحسين بن المثنى في آخر حريق كان في سوق المربد، فقال له أبو الحسين المثنى: يا أبا القاسم، ما قلت في حريق المربد؟ قال: ما قلت شيئاً. فقال له: وهل يحسن بك وأنت شاعر البصرة - والمربد من أجل شوارعها وسوقه من أجل أسواقها - ولا تقول فيه شيئاً؟ فقال ما قلت ولكني أقول وأرتجل هذه الأبيات:
أتتكم شهود الهوى تشهد ... فما تستطيعون أن تجحدوا
فيا مريديون ناشدتكم ... على أنني منكم مجهد
جرى نفسي صُعُداً نحوكم ... فمن أجله أحترق المربد
وهاجت رياح حنيني لكم ... وظلت به ناركم توقد
ولولا دموعي جرت لم يكن ... حريقكم أبداً يخمد

الغرام الجديد
للدكتور زكي مبارك
أخي الأستاذ الزيات:
تفضلت فسألت مرة أو مرتين أو مرات عن سبب احتجابي عن قراء الرسالة، وكانت حجتي في الاعتذار أن كتاب (ليلى المريضة في العراق) لم يُبق من قواي ما أصلح معه لمقابلة الناس في جِدٍ أو مزاح، وقد تلطفت فقبلت عذر أخيك، وصفحت عن تقصيره إلى حين
فما رأيك إذا حدثتك بأني كنت في نشوة شعرية لم أصح منها إلا اليوم؟
كنت يا صديقي مشغولاً بنظم قصيدة (الغرام الجديد) وهي تقع في مائة بيت، وذلك الغرام هو يا صديقي نفحة من نفحات القاهرة في مطلع الربيع. هو ثورة وجدانية تعتاد من يفيق من غفوة القلب حين يتنسم أرواح الأزاهير على ضفاف النيل
أعاذني الله وإياك من غفوة العواطف، وحماني وإياك من الغفلة عن تنادي القلوب!
يا قلبُ هذا نعيمٌ ... من الصفاء وليد
يا قلب هذا سعيرٌ ... من الغرام جديد
لقِيتُه وفؤادي ... غافٍ قَريرُ السرائر
فعدتُ أحيا بروحٍ ... مشرّد الأنس حائر
مَن مُخبري عن نصيبي ... من ظلّ هذا النعيم؟
من مخبري عن مصيري ... في لفح هذا الجحيم؟
كيف انتهينا؟ أجبني ... يا قلب كيف انتهينا؟
أللنعيم وصلنا؟ ... أم في الجحيم ثوينا؟
وبالوصال اصطباحُكْ ... يا قلبُ أم بالصدود؟
وبالسهاد اغتباقك ... يا قلب أم بالهجود؟
يا قلبُ طالت شكاتُكْ ... من الخدود الأسيلة

فكيف تُرجَى نجاتُك ... من العيون الكحيلة؟
أحبُّ نور الضلال ... في ضافيات الغدائر
ويزدهيني الخبال ... في غافيات النواظر
رباهُ ماذا تريد ... من فتنتي بالعيون؟
رباهُ ماذا تريد ... من محنتي بالشجون؟
أأنت يا ربّ راضٍ ... عن حيرتي في الهُيام
إن كان هَذا فإني ... إذاً نبيُّ الغرام
عصرت راح غرامي ... من زاهرات الخدود
وكان نُقل مدامي ... من ناهدات النهود
يطوف بالحسن روحي ... في صبحهِ والمساء
فيجتني من شَذاهُ ... وشوكهِ ما يشاء
عن أكؤسي ودموعي ... روى رحيقُ الخلود
عن مهجتي وضلوعي ... رَوَى سعيرُ الوجود
عن شقوتي في هيامي ... رَوَى ظلامُ الليالي
وعن صفاء زماني ... رَوَى صفاء اللآلي
أنا الشقيُّ السعيد ... في لوعتي وشجوني
أنا الغويّ الرشيد ... في صبوتي وفتوني
من الهوى والأماني ... ومن زهور الجنان
ومن فنون المعاني ... رسمتُ وجه الزمان
لولا غنائي وشعري ... لمات رُوح الوجود
لولا بياني ونثري ... لضاع سرُّ الخلود
في الثغر والصبح معنىً ... لمن أحبُّ شرحتُهْ
في الحِبر والليل سرٌّ ... أظنني قد فضحتهْ
السحرُ يأخذ عني ... عِلم اختدِاع النفوس
والخمر تنقل عني ... عِلم انتهاب الرءوس
ما السيف في يد عاتٍ ... مضلَّل الرأي جاني
يوماً بأفتك مني ... إذا امتشقت بياني
الغيُّ لو شئتُ ركنٌ ... من الرشاد ركينُ
والشكُّ لو شئتُ حصنٌ ... من اليقين حصينُ
للعقل عندي فنون ... وللجنون مذاهب
عندي بياض الصباح ... عندي سواد الغياهب
إن كان في الناس قومٌ ... رأوا هلال السماء
ففي سرائر قلبي ... والروح ألف ذُكاء
ما عندكم؟ حدثوني ... يا أخوتي في الجنون
فبي غرامٌ وشوقٌ ... إلى حديث الفُتون
من الذي طاف منكم ... ليلاً بتلك المناسك
ومن هداه هواهُ ... إلى ضلال الزمالك؟
في ذلك الدوح غصنٌ ... لولا العفافُ هصرتُهُ
في ذلك الروضُ زهرٌ ... لولا الحياء قطفْتُه
أباحني في التداني ... والبعد عزّ الفضيحة
وذاك لو يرتضيهِ ... في الحبِّ خيرُ مَنِيحه
لقيتُهُ ذات يومٍ ... في العصر عند الجزيرة
والنيل سكرانُ صاحٍ ... مثل العيون الكسيرة
لقيتُ من لو دعاني ... إلى الفداء فديتُهُ
لقيتُ من لو دعاني ... بعد الممات أجبتُهُ
لقيتُ فيه وجودي ... وكان بالصحو زالْ
فعدتُ نشوانَ حيًّا ... أعيش عيش الضلال
رأيتُ حين رأيتُهُ ... ما سوف يجني الصفاء
فصاح روحيَ يهذي ... ما الحبُّ إلاَّ بلاء

أذاك نورٌ جديد ... يلوح في قلب شاعر
أم ذاكَ روحٌ مَريد ... يصول في قلب ساحر
كان الفؤاد استراح ... من فاتكات الشجون
فمن إليهِ أتاح ... كيد الهوى والفتون
أفي ظلال الجزيرة ... وفي شِعاب الزمالك
يهيم روحي ويشقى ... ويلاهُ مما هنالك!
يا ليتني ما رأيتُكْ ... يا أجمل الحافظين
يا ليتني ما عرفتُكْ ... يا أقبح الغادرين
ما أنت والزهرات ... على خدود الملاح
يا لوعتي في المساء ... وفتنتي في الصباح
أثرتَني للصِّيال ... يا أُقحُوانِ الرياض
وهجِتني للقتال ... يا أُفعُوان الغياض
أأنت ترمي وتمضي ... إلى رِحاب الخلاص
غرتْك نفسُك فاعلمْ ... أن الجروحَ قصاص
في لحظ عينيك نبلٌ ... وفي عيوني نبال
ونظرةُ الليث قيدٌ ... لألفِ ألفِ غزال
حاول خلاصك واسلُكْ ... إلى النجاة المذاهب
فلن يفوتك سهمي ... ولو علوتَ الكواكب
الرأيُ، الرأيُ عندي ... إذا نشدتَ الأمان
أن تستحيل نسيماً ... ونفحةً من حَنان
عندي وفي ظل حبي ... تحسُّ روح الوجود
وفي ضريم غرامي ... ترى شُعاع الخلود
أنا النجيُّ القريب ... من القلوب الشوارد
أنا الظلوم الحبيب ... إلى الصدور النواهد
رباهُ ما الصادحات ... من ضاحكات الأماني
رباهُ ما النائحات ... من شاديات المثاني
رباه ما الشارقات ... من النجوم الثواقب
رباه ما الغاربات ... من الظنون الكواذب
رباه كيف تراني ... وكيف حاليّ عندك؟
هل كنت في كل حالٍ ... إلا فتاك وعبدك؟
الكون، ما الكون؟ قل لي ... يا مُبدعَ الكائنات
هل كان إلا مَراحاً ... لأنفُسٍ حائرات؟
أريتَني في هواك ... ما يُوحشُ الصابرين
فهل أرى من نداك ... ما يؤنس الشاكرين
رباه أنت الأمين ... على خفايا الغيوب
فهل تكون المُعين ... على مآسي القلوب
خاصمتُ فيك أناساً ... حجبتَهم عن جمالِكْ
فأرجفوا بي وظنوا ... أني ضللت المسالك
قلبي وعقْلي وروحي ... نسائمٌ من شذاك
فهل يكون ضلالي ... إلا بقايا هداك
(مصر الجديدة)
زكي مبارك
رسالة العلم
الأشعة الكونية
للدكتور محمد محمود غالي
تحجب ورقة رقيقة أشعة الشمس عن أعينا ولا تحجب كتلة من الرصاص سمكها) بضعة أمتار الأشعة الكونية التي تخترق أسقف منازلنا أينما وجدت وأجسامنا أينما (تكون
تحدثنا عن نملة افترضنا أنها تتأمل خرجت لأمل مرة في حياتها من مكمنها، فوجدت

نفسها بطريق المصادفة في سرادق تكسو أرضه أبسطه وتعلوه أنوار ويؤمه كثير من الزائرين. انطفأت الحياة فيها قبل أن تتاح لها الفرصة لتعرف ما عسى أن يكون في الوجود غير ما يجول بداخل السرادق الفسيح، وذكرنا أن الدنيا عند هذه النملة فضاء تضيئه أنوار وتحيط به أقمشة وتغطي أرضه أبسطة، وفقيه يرتل آيات، ونادل يتحرك بين الحاضرين

دخلت السرادق نملة أخرى، ظلت تسير على الأبسطة وتحت الأنوار وتتابع السير في مأمن من النادل والفقيه، وعوضاً عن أن تقضي نحبها اهتدت إلى كومة الرمل التي خرجت منها الأولى وصادفت داخل الكومة إحدى بنات جنسها تتأمل عالمها الذي تراه لأول مرة من ثقب السجاد، هذا العالم الذي لازال ينحصر عندها في سرادق وفقيه ونادل وأنوار وزائرين

تحدثت الزائرة إلى جارتها: لا تظني أن الدنيا هي هذا السرادق المحدود، فقد رأيت رأى العين قبل الدخول فيه قاطرة يتصاعد الدخان منها، ورأيت فريقاً من بني الإنسان يجتمع في مركبات تجرها القاطرة، وعند ظني أنهم اجتمعوا لغاية واحدة، هي أن يصلوا جميعاً إلى مكان معلوم، يغلب على ظني أنه بعيد جد البعد عنا، فقد كانت القاطرة تنهب الأرض بسرعة تختلف كثيراً عن سرعة إخوانهم الراجلين

شد ما تختلف هذه المعلومات الجديدة لدى النملة التي تتأمل، وشد ما تختلف هذه الصورة الجديدة للدنيا عندها، فهذه القاطرة وهذه السرعة طفرة في معارفها، لم تخطر لها على بال

في العلوم وثبات تحدث في فترات بعيدة من الوقت، تُعد للإنسان كهذه المعارف بالنسبة للنملة

عندما اكتشف رنتجن في سنة 1895 الأشعة السينية كانت هذه الأشعة وثبة في العلوم لم

يسبق للناس عهد بها. وعندما وفق (بكارل وكيري لاكتشاف المواد المشعة كالراديوم، ظن فريق من الناس أن طاقة هذه الأشعة الجديدة التي تزيد مئات وألوف المرات على كل ما نعهده من طاقة وإشعاع، ستكون نهاية ما نعرفه من الغرائب، ولكن عندما اكتشف العلماء، وفي مقدمتهم العالم هيس الأشعة الكونية التي تزيد طاقتها آلاف المرات على طاقة إشعاع الراديوم، أيقنا أننا لا زلنا في مهد الطفولة في العلوم بالنسبة لما يخبئه لنا القدر من معارف يتضاءل إزاءها كل ما بلغناه

هذه الأشعة الكونية التي تتصل بصميم العلوم الطبيعية الحديثة تنبئنا بأغرب ما نعرف من المعلومات عن الكون الذي نعيش فيه. وقد شَغَلتُ نفسي بموضوعها في السنين الماضية عندما كانت موضوع رسالتي الثانية، للحصول على دكتوراه الدولة في العلوم من السوربون. وإنه ليسرني أني حاضرت عنها الأسبوع الماضي فريقاً من طلبة كلية الطب في جمعيتهم العلمية كما سأحاضر عنها جمعاً من زملائي في جمعية المهندسين الملكية في يوم الخميس 4 مايو القادم. وهأنذا أحاول أن يقف قراء الرسالة في مصر والبلاد الشرقية على أغرب ما يعرفه العلماء اليوم، فأحدثهم عن موضوع بات يشغل بال الكثيرين منهم، وغايتي أن أعطي القارئ لمحه سريعة عن الحقائق المعروفة بصدد هذا الموضوع، وعن التطورات التي تناولته، فيلم بموضوع تزداد أهميته كل شهر عن سابقه، ويهتم له كثير من الباحثين في كل أنحاء المعمورة، نذكر منهم بلاكت في إنجلترا وكونتون ومليكان بأمريكا، ورُوَّسي وتلميذه بيندتي بإيطاليا، وزميليّ بْيير أوجبيه ولبرانس رينجيه بفرنسا، وأخيراً العالم الإيطالي فرمى الحائز على جائزة نوبل للطبيعة في ديسمبر الماضي

ربما كان وصف هذه الأشعة بالكونية أقرب للواقع، فسوف نرى أنها لا تمت إلى مجموعتنا الشمسية بشيء، بل ربما لا تمت لعالم المجرة المكون من حوالي مائة ألف مليون نجم، والتي شمسنا إحدى نجومه، بأي صلة. وربما كان وصفها (بالأشعة النافذة) قريباً للواقع أيضاً، لأنها تمتاز بقوة اخترقتها العجيبة للأجسام، فبينما نستطيع عندما نتحول في الخلاء أن نحجب أشعة الشمس بقطعة رقيقة من الورق، فإن أسقف بيوتنا لا تكفي لتمنع هذه الأشعة من اختراق منازلنا فحسب، بل أجسامنا بعدها لا تكفي لذلك. وبينما لا تنفذ الأشعة

السينية (أشعة إلا في بضعة مليمترات من المادة الصلبة، كما لا تخترق أشعة الراديوم سوى بضعة سنتيمترات مثلاً منها، فإن كتلة من الرصاص يبلغ سمكها متراً لا تحجب سوى نصف الأشعة الكونية. وإنه لا تكفي أحياناً كتلة من الرصاص سمكها حوالي عشرة أمتار لكي تحجب كل جسيمات هذه الأشعة. وسنرى كيف يسجل العلماء على الورق الحساس، مسار جسيمات هذه الأشعة العجيبة بعد اختراقها كل هذه المادة، وكيف ابتكروا جهازاً ينذر بسماع كل جسيم يمر من هذه الجسيمات النافذة والسريعة التي تمطرنا بها السماء والتي لا تمت لعالمنا بشيء

في محاضرة للعالم الشاب بيير أوجيه ألقاها في جماعة العقليين في باريز سنة 1934 عن الأشعة الكونية سمعت لانجفان العالم المعروف باكتشاف للأيونات الكبيرة وباكتشافه طريقة لمعرفة أعماق البحار بواسطة الموجات الصوتية، يقول مقدماً (أوجيه):

(إن الأشعة الكونية موضوع الأسرار والعجائب فهي تخترق أجسامنا طُرّا ولا زلنا عاجزين عن أن نعرف مصدرها أو أثرها علينا)

هذا ما يَجْهَرُ به (لانجفان) العالم الكبير؛ وليس ما يجهر به لويس دي بروي (العالم الشاب المعدود اليوم من أكبر أساطين العلماء) في تقدمة كتاب زميلنا (لبرانس رنجيه) متكلما عن الأشعة الكونية بأقل شأناً من ذلك. يقول دي بروي:

(أي ثروة عظيمة امتازت بها العلوم الطبيعية منذ بضعة سنوات، وأي باب هام وجديد في العلوم لا زال يدخر لنا بلا شك مفاجآت أخرى عجيبة ونادرة)

ويكفي، لمعرفة موضوع الأشعة الكونية، أن يذكر القارئ أن المؤتمر الدولي للعلوم الطبيعية الذي انعقد في لوندرة سنة 1933، حصر دراسته في ثلاث مسائل:

الأولى: الحالة الصلبة

الثانية: الاكتشافات الحديثة في تهدُّم المادة وتحول العناصر بعضها إلى بعض

الثالثة: الأشعة الكونية.

تختلف طاقة الأشعة الكونية أو النافذة كما قدمنا عن طاقة الأشعة الراديومية. فبينما لا تتجاوز طاقة أشعة الراديوم عشرة ملايين إلكترون فولت. تبلغ طاقة الأشعة الكونية مئات بل ألوف الملايين الإلكترون فولت، وهذه الطاقة تجعلنا في الواقع إزاء ظواهر تختلف

كثيراً عن الظواهر التي اعتدناها.

على أن ما يجعل الأبحاث الخاصة بهذه الأشعة تختلف عن كل ما عداها من الأبحاث العلمية: هو عدم الجزم بمعظم النظريات الخاصة بها حتى الآن. فمعلوماتنا ما زالت لا تُجيز معرفة خواص إشعاع له مثل هذه الطاقة، حتى أنه لا يجوز لنا أن نُعامل هذه الظواهر بالطرق المعروفة في الضواهر الطبيعية الأخرى، فمثلاً لا يجوز لنا أن نجزم بأن طاقة هذه الأشعة تتناسب مع قوة اختراقها للمواد. ومما يزيد في صعوبة دراسة هذه الأشعة العجيبة افتقارنا إلى نظريات معقولة بصددها؛ وليس الأمر أن لدينا من النظريات ما تُفاضل بينها وتَتخير الأوفق منها، بل إنه ليس لدينا نظريات معقولة إطلاقاً. حتى أن بعض العلماء يميل إلى اعتبار الأشعة الكونية حالة علمية جديدة، تختلف قوانينها عن حالة العالم، أو الكون الذي نعيش فيه اليوم؛ وإنه ليس من المحال أن تكون هذه الأشعة بقايا (أركيولوجية) ترجع إلى تاريخ بعيد جداً في الوجود، يقدر من السنين بالآلاف من الملايين، كانت الدنيا فيه أحدث عمراً، وكانت تختلف الطاقة والقوى والقوانين كل الاختلاف عن عهدنا بها اليوم

على أننا ندع مؤقتاً فكرة العلماء هذه، ونسير بالقارئ أولاً إلى التعرف عن الناحية الشَّيْئِية أو الفعلية عن هذه الأشعة.

ثلاثة أمور أدركها العلماء، وعرفوها في الظروف العادية، خاصة بهذه الأشعة:

الأمر الأول: تصل لنا جسيمات صغيرة مكهربة كأنها قذائف وتخترق أجسامنا بسرعة كبيرة، وقد دلت عليها مسارات مستقيمة هي أثر لعملية التأيين الحادثة من مرور هذه الجسيمات

الأمر الثاني: عندما تلتقي هذه الجسيمات السريعة بالمادة، وبالأحرى بكتلة هامة منها كقطعة سميكة من الرصاص، تظهر في المادة حزمات لجسيمات أخرى مثل نيترونات أو بوزيتونات أو ذرات ثقيلة، تقذف من المادة نفسها بعيدة عن مركزها الأصلي بسبب

مرور جسيمات هذه الأشعة فيها.
الأمر الثالث: يحدث كل هذا، أي تصل هذه القذائف، ويقع هذا التخريب في المادة، في أي زمان ومكان على سطح الأرض تقريباً بالنسبة ذاتها، فترانا معرضين لفعل القذف المستمر
بمعدل مقذوف في كل دقيقة على كل سنتيمتر مربع في الوضع الأفقي من سطح الأرض؛ فمثلاً تستقبل راحة اليد (باعتبار مساحتها حوالي 60 س م2) مقذوفاً في كل ثانية، ينفذ منها كما تنفذ الرصاصة من قطعة من الكارتون، وعلى حد تقدير روسي أستاذ بادو، تُضرب الأرض بمعدل مقذوف واحد في كل ثانية لكل ديسمتر مربع من سطحها.
يعترضنا بعد هذا الوصف الموجز مسألتان:
الأولى: ما اثر هذه المقذوفات على المادة التي تقابلها؟
الثانية: ما هي طبيعة وأصل هذه القذائف؟
والمسألة الأولى تخص فيزيقا النواة، والثانية تخص الفيزيقا الأرضية، وكلاهما موضوعان حديثان لهما خَطَرهُما في العلوم الطبيعية ويختلفان عن الموضوعات العادية، وذلك بصغر الظاهرة المراد قياسها ودقة التجارب الخاصة بهما، وخطورة الرحلات المتعلقة بهما، سواء ما كان منها في الجو أو على قَمِم الجِبال أو في أعماق البحار؛ كذلك مهارة التحليل العلمي وعظمة الاستنتاج وقوة الاستقراء. كل هذه تجعل من الموضوع بالنسبة لنا موضوعاً يشبه موضوع القاطرة بالنسبة للنملة التي افترضنا أنها تتأمل: وهو ما أود أن يشعر به القارئ في مقالاتنا القادمة
محمد محمود غالي
دكتوراه الدولة في العلوم الطبيعية من السوربون
ليسانس العلوم التعليمية. ليسانس العلوم الحرة. دبلوم المهندسخانة
اكتشاف أشعة جديدة
اكتشف الأستاذ ألفريد توما مدير معهد الشرق - أشعة ايثيرية واصله إلى أرضنا من مصدر الكون الأعلى وقد ألقى عنها محاضرة بالحفلة التي أقيمت بالدار الماسونية الكبرى مساء يوم الخميس 30 مارس سنة 1939 حيث تكلم عن حياتنا القادمة في العالم الأيثيري وعن مصدر الأشعة الأيثيرية التي اكتشفها وقد اثبت منافع اكتشافه للطب في مختلف الأمراض كالروماتزم، والشلل الحديث، والتهاب المفاصل، والربو، وكثير من الأمراض الصدرية؛ فعرضت عليه في نفس الجلسة مرضى بحالات مستعصية ومزمنة فأتت في الحال بنتائج حسنة كانت موضع إعجاب ودهشة الحاضرين من الأطباء والخبراء وضباط البوليس وأساتذة المحفل الماسوني وغيرهم، مما حمل الكثيرين للتوجه لإدارة معهده الكائن بشارع الخليج المصري 719 بغمرة لتحقيق بعض التجارب في حالاتهم المستعصية، ومما يؤيد هذا توقيعات بعض الحاضرين من ذوي الحيثيات والشخصيات البارزة:
الدكتور أيفانوف، الدكتور سليم إبراهيم، اللواء علي باشا شوقي، القطب الأعظم، طه أفندي السيد (الضابط)، الأستاذ نسيم فهمي ميخائيل (مدير كلية أكسفورد)، الأستاذ عباس غالب (المدرس)، الأستاذ نصيف ميخائيل (المحامي)، محمد بك سعيد هيبه (مفتش عام مصلحة التلغرافات)، الأستاذ سعيد بخيت (الخبير بالمحاكم الأهلية)
ما هي الحياة وكيف ظهرت على الأرض؟
غريزة الخير والشر
وكيف نشأت في الإنسان والحيوانات الاجتماعية؟
للأستاذ نصيف المنقبادي
تتبعت بإمعان المقالات الممتعة التي يتحف بها العالم الأخلاقي المحقق الأستاذ محمد يوسف موسى قراء الرسالة. ولكني رأيت فيها المفكرين والفلاسفة حيارى لا يدرون كيف يعللون قيام الأخلاق أو الغريزة الأخلاقية في الإنسان تعليلاً صحيحاً، وهم يتخبطون في البحث عن مصدرها الحقيقي، شأن كل تحقيق لا يستند إلى العلم ولا يدخل في حسابه نواميس الطبيعة وفعل العوامل الطبيعية ولا يقوم على المشاهدة والاختبار. وقديماً كانت المذاهب

التي لا تستند إليهما، بل الفلسفة كلها (عدا الفلسفة اليونانية وفلسفة ابن رشد المأخوذة عنها) حجر عثرة في سبيل تقدم العلم، وهو - أي العالم - لم ينهض نهضته العظيمة الحالية إلا حينما تحرر من تلك المذاهب القديمة وأساليبها العقيمة البالية ووقف أمام الطبيعة يستقصي منها رأساً النواميس التي تدير الكون بأسره بما فيه كرتنا الأرضية المتواضعة، وما عليها من ظواهر ومواد متنوعة، منها الكائنات الحية والبشر وخواصها وتفاعلاتها وطبائعها منفردة ومجتمعةً

لهذا رأيت أن أبين هنا رأي علم البيولوجيا في الأخلاق باعتبارها ظاهرة طبيعية قائمة في الإنسان وفي الحيوانات الاجتماعية الأخرى كالنمل وغيره

وفي الوقت نفسه سيأتي هذا البحث مكملاً لما جاء في المقالات الأخيرة التي نشرناها على صفحات الرسالة عن وحدة الكائنات الحية (بما فيها الإنسان) والجمادات واشتقاق الأولى من الثانية وكيف أنه لا يدير الأحياء ولا يعمل فيها إلا النواميس الطبيعية، وأن جميع ظواهر الحياة حتى التفكير والغرائز (ومنها الغريزة الأخلاقية التي سيأتي الكلام عليها) والقوى العقلية على العموم ليس لها إلا مصدر واحد وهو الغذاء أو بالأحرى الطاقة الكيميائية الكامنة في مادة الغذاء كما شرحنا ذلك كله بالتفصيل في مقالاتنا الأخيرة.

الحياة الاجتماعية منشأ الغريزة الأخلاقية

كان أجدادنا البعيدون اللذين تسلسلنا منهم يعيشون فرادى في الغابات يتسلقون أشجارها ليقتاتوا ثمارها، ثم في المغاور والكهوف في العصر الجليدي الذي دام نحو مائة ألف سنة، فكان الواحد منهم عرضة لجميع أنواع المهالك كهجمات الحيوانات المفترسة لا يستطيع أن يردها بمفرده، كما أنه كان يعجز عن القيام بالصعب من الأعمال في سبيل الحصول على غذائه كصيد فريسة كبيرة مثلاً، أو في سبيل تهيئة مأوى صالح له

ولكنهم لحظوا، مع مرور الزمن، أنه كلما سار فريق منهم مجتمعاً سهل عليه التغلب على العدو المهاجم واستطاع القيام بالأعمال التي لا يقوى عليها الواحد منهم منفرداً وهكذا دلتهم خبرتهم شيئاً فشيئاً مدة ألوف السنين على أن بقاءهم مجتمعين أجدى عليهم وأصلح. وهذا هو منشأ الحياة الاجتماعية وأول صورة من صورها

غير أن اجتماعاتهم هذه كانت في بادئ الأمر قصيرة الأجل لأن الواحد كان يبطش بالآخر كلما سنحت له الفرصة ليستولي عنوة أو خلسة على إناثه أو ما يكون قد حصل عليه من فريسة أو غذاء أو مأوى أمين، فلا تطيق الجماعة الحياة المشتركة، ولا يلبث أفرادها حتى يتفرقوا تخلصاً من اعتداء بعضهم على بعض. وحينئذ يشعر كل منهم بضعفه وهو منفرد أمام الأخطار التي تهدد حياته في كل حين وأمام الصعوبات التي يلاقيها في سبيل الحصول على غذائه

وهنا تدعوهم الظروف الطارئة مرة أخرى إلى مقاومة عدو قويّ أو زحزحة صخرة ضخمة، أو مهاجمة فريسة كبيرة، ثم يتشتتون، ثم يجتمعون، وهكذا. وفي كل مرة يزدادون اقتناعاً - أو بعبارة أصح - يزدادون شعوراً بفوائد الحياة الاجتماعية ومزاياها لكل واحد منهم

وأخيراً فطنوا إلى أنه لا بد لبقائهم مجتمعين من اتباع بعض قواعد كانت في أول الأمر على أبسط صورها مثل احترام حياة الغير وإناثه وملكيته. وهذا هو بدء ظهور الأخلاق بين أفراد النوع الإنساني، وهي كما ترى وليدة المنفعة - منفعة الجماعة وبالتالي منفعة كل فرد منهم على حدة - فمنفعة الجماعة أو الهيئة الاجتماعية هي أساس الأخلاق، فهي التي دعت إليها وحملت الناس على اتباعها والتحلي بها، لأن الحياة الاجتماعية التي اقتنع بنو الإنسان بفوائدها وجنوا ثمارها لا بدّ للمحافظة عليها من احترام حياة الغير وملكيته وغير ذلك من القواعد التي سُمَّيت بالأخلاق، وإلا اضطر كل فرد أن يهرب من غيره فتضيع عليهم تلك المزايا، مزايا الحياة جماعة

وعلى هذا النحو تكوّنت الجماعات القليلة العدد ثم العشائر ثم القبائل ثم الشعوب. وكلما زاد ارتباط الأفراد وعاشوا مجتمعين تقدمت الروح الاجتماعية أو روح التضامن وارتقت الأخلاق واتسعت قواعدها ورسخت أصولها في النفوس إلى أن أصبحت غريزية في الإنسان أو كادت. ذلك لأن كل صفة مكتسبة تصبح غريزةً مع الاستعمال

والاعتياد ومع انتقالها بالوراثة من جيل إلى جيل ومن نسل إلى نسل. وهذه هي ماهية الغريزة كما عرفها هربرت سبنسر وإدمون برييه وغيرهما من علماء البسيكولوجيا والبيولوجيا. فإذا درّبنا مثلاً الكلاب العادية على الصيد وفعلنا هذا مع ما يتعاقب من نسلها فإن الأمر ينتهي بنا إلى أن نحصل على نسل من الكلاب يعرف بغريزته أساليب الصيد ومقتضياته بلا أي تدريب.

وما كلاب الصيد المعروفة الآن بهذا الوصف إلاّ كلاب عادية تدرّب أجدادها على تلك الصفة إلى أن أصبحت غريزة فيها

ومن أهم العوامل التي قربت بين أفراد النوع الإنساني في بادئ الأمر ظرف طارئ طبيعي محض هو قيام العصر الجليدي الأمر الذي اضطر أفراد الإنسان أن تلجأ إلى المغاور والكهوف لتتقي البرد القارس الذي اشتد في ذلك العصر البعيد. ونظراً لأن عدد تلك الملاجئ كان محصوراً عاشت الناس فيها بطبيعة الحال جماعات جماعات. وإلى ذلك العصر يُعزى تعلم الناس تغطية أجسامهم بجلود الحيوانات الأخرى ليحموا أنفسهم من البرد الشديد. فترتب على ذلك من جهة قيامُ غريزة الحياة فيهم، ومن جهة أخرى زوال معظم الشعر الذي كان يُغطي أجسامهم

وحين وصل النوع الإنساني إلى درجة تذكر من التفكير نشأت الأنظمة السياسية البسيطة والشرائع الأولية فزادت في تقريب الناس بعضهم من بعض، وتوثيق عرى الروابط الاجتماعية بينهم، ونظمت قواعد الأخلاق ورغّبت الناس فيها بما صورته لهم من العقاب لمن خالفها والثواب لمن اتبعها

ومن الأسباب التي ساعدت أيضاً على ربط الناس بعضهم ببعض التجارة والمعاملات وتبادل المحصولات والصناعات بين الأفراد والجماعات

ومن العوامل القوية في تحضير الجماعات البشرية وتمدينها ووضع حد لحالة البداوة والتنقل، الزراعة وما تستوجبه من البقاء في الأرض لرعاية المزروعات وجني محصولاتها. ولا يفوتني أن أنوه هنا بفضل نهر النيل العظيم وفيضاناته السنوية وما يعقب كل فيضان من خصوبة في الأرض لا مثيل لها، وأن بعض علماء الاجتماع يرى أنه هو الذي علم الناس الزراعة، ولذلك كانت مصر منشأ المدنية وأصل الحضارة في العالم

ثم ارتقت الحياة الاجتماعية فنشأت فوق الغريزة الاجتماعية (التي بين مظاهرها القومية أو الوطنية) عاطفة جديدة في الأمم الراقية هي عاطفة الإنسانية أي حب مجموع البشر بلا تمييز بين الأجناس والملل، كما وجدت فوق القواعد الأخلاقية الأصلية التي أصبحت غريزية أو كادت على الوجه المتقدم بيانه، ما يسمونه بآداب السلوك وقواعد التربية وحسن المعاملة

وبالجملة فإن الأساس العلمي الصحيح للغريزة الأخلاقية أو غريزة الخير والشر إنما هو المصلحة - مصلحة المجموع قبل كل شيء - وعلى هذا يكون التعريف الطبيعي للفضيلة أنها كل ما يعود على المجتمع الإنساني بالخير، والرذيلة كل ما يلحق به من الضرر. وفي مصلحة المجموع مصلحة كل فرد على وجهها الصحيح كما تقدم بيانه على أن الغريزة الأخلاقية قد رسخت الآن في نفوس الأمم المتمدينة وعلى الأخص في شمال أوربا، وتجردت في الظاهر من صفتها المصلحية أو النفعية إلى حد أن أصبحت تلك الشعوب تحب الفضيلة لذاتها وتمقت الرذيلة وتنفر منها لأنها رذيلة ليس إلا وليس النوع الإنساني هو النوع الاجتماعي الوحيد بين الحيوانات، فإنه توجد أنواع أخرى أعرق منه في الحياة الاجتماعية وأقدم مثل أنواع النمل التي تغلبت فيها الغريزة الاجتماعية وبالتالي الأخلاقية على الفردية أو غريزة حب البقاء. فترى أفراد تلك الأنواع تقوم بأشق الأعمال مثل حفر السراديب تحت الأرض، أو البحث عن الغذاء، ونقله المسافات الطويلة وادخاره لمصلحة المجموع. وهي تفعل هذا في نشاط، وبمحض إرادتها دون أن يأخذها الكلل أو الملل، ودون أن يكون عليها رقباء منها يدفعونها إليه. بل هي الغريزة الاجتماعية، وما يتبعها من الغريزة الأخلاقية، التي تحملها على ذلك. وكثيراً ما تضحي أفراد النمل بنفسها، وتقدم حياتها عن طيب خاطر إذا ما دعت مصلحة الجماعة إلى ذلك، وهي تتحلى بهذه الفضائل الحميدة بفطرتها الغريزية نتيجة حياتها مجتمعةً مدة ملايين السنين منذ أوائل العصر الثاني من الأعصر الجيولوجية.

أما النوع الإنساني فلم تتمكن فيه بعد الغريزة الاجتماعية والأخلاقية إلى هذا الحد، لأنه

حديث العهد بالحياة الاجتماعية حيث أنه لم يمض عليه إلا نحو مائتين وخمسين ألف سنة، وهو على هذا الحال لأنه ظهر في أواخر العصر الثالث.

وخلاصة القول أن الأخلاق ليست وليدة تعاليم خاصة، ولا هي وقف على مذهب دون آخر أو طائفة دون غيرها، وإنما هي ظاهرة طبيعية تطرأ على الحيوانات الاجتماعية مثل الإنسان والنمل نتيجة لازمة لحياة أفرادها جماعة، وقد أصبحت غريزة متأصلة في أنواع النمل، وهي غريزة في دور التكوين في النوع الإنساني

على أن الأخلاق سوف تتأصل في الإنسان مع مرور الزمن الطويل، وترتقي بارتقاء حياته

الاجتماعية فيأتي يوم في المستقبل يسود فيه التضامن التام بين الناس وتعم الروح الاجتماعية ويزول الشر من النفوس، وتمتنع الجرائم والحروب وتنتشر الفضيلة، ويصبح الإنسان مطبوعاً على الخير وحب المجموع بغريزته وتقفل المحاكم والسجون أبوابها.

وقد تزول الحكومات على ما يتوقع هربرت سبنسر، وغيره من علماء الاجتماع، ويخلص الناس من نير الأحزاب السياسية ومساوئها وغرور زعمائها وعبثهم بعقول الناس، وتمجيد الجماهير البلهاء لهم؛ ويكون العلم قد قهر الأمراض، وعالج الشيخوخة، وتغلب عليها (وما هي إلا مرض كسائر الأمراض الأخرى، عبارة عن تسمم تدريجي نتيجة التغذية يضاعفه فعل كريات الدم البيضاء المفترسة) فتطول حياة الإنسان، وقد يمتنع الموت وهو ليس بنتيجة لازمة للحياة بدليل الحيوانات والنباتات الخالدة، وهي الأحياء الأولية ذات الخلية الواحدة، مما سنشرحه في مقال قادم. ويكون بنو الإنسان قد حلوا المشكلة الاجتماعية الكبرى الخاصة بتوزيع العمل وخيرات الطبيعة بينهم توزيعاً عادلاً، فيعيش البشر في سلام ونعيم دائمين، ذلك النعيم الذي ظلوا العصور الطويلة يحلمون به ولن يحققه لهم إلا العلم.

نصيف المنقبادي المحامي

دبلوم في الفسيولوجيا العليا الحيوانية والنباتية

من كلية العلوم بجامعة باريس (السوربون)

من هنا ومن هناك

دكتاتورية هتلر - للكاتب الألماني توماس مان

قد يفاخر فاتح برخستجادن (هتلر) بأنه حمى الشعب الألماني، وأحرز فوزاً وإنتصاراًعظيمين، دون أن يشهر سلاحاً أو يريق قطرة من دماء

فإذا كان هذا مبلغ فخاره، فيحق لي أن أسأل: في أي لحظة عرف أنه قد أمن عواقب عمله، وأنه نجا من حملة لا تخفى عواقبها على أحد؟ فإن الأمر كان يستدعي أن تهب فرنسا لمناصرة الأمة المحالفة لها، وهنا تقع الكارثة

من المحتمل أن يكون قد عرف ذلك، ولكن بعد كل إنسان! فقد ظهر أخيراً أن تحذير جورنج وموسوليني له في الأيام الأخيرة من سبتمبر كان ضرورياً لمنعه من الانزلاق بأمته نحو الهاوية، فيدفعها إلى حرب لا يستطيع أن يصمد لها وهزيمة محققة، رأيا من الشفقة أن يحمياه شرها. ومما يقال على ما فيه من السخرية، إن بعض الفاشست من الإنجليز قد توسلوا إليه أن يتفضل بقبول النجاة التي تعرض عليه!

إن الحكام الإنجليز لا يريدون أن يوقعوا كارثة بالفاشست ولا يودون ذلك على الإطلاق. إنهم لا يريدون الحرب، لأنهم يكرهون أن يحرزوا فوزاً تشاطرهم روسيا فيه؛ ولميلهم إلى السلام قد ظهروا أمام العالم الجزع بمظهر المخلصين المنقذين. وإلا فقد كان من المنتظر أن تحل الكارثة بإيطاليا وألمانيا في أربع وعشرين ساعة، ولكن الإنجليز هم الذين أبوا ذلك. لم يسمح لهتلر أن يحطم الفاشية. ومع ذلك فهو يزعم أنه نال كل شيء بغير عنف، وهو مهدد بالدمار لو استعمل شيئاً من ذلك

أيها المنتصرون المباهون، أنتم لا شيء. إننا لا نعد أنفسنا قد انهزمنا وخرجنا من الميدان. . . إن العقل والروح قد اعتادا الاضطهاد في هذه الأرض منذ آلاف السنين، ولكنها لم يهزما ويقتلا بمثل هذا الانتصار

لا تخف! إن الحق والفكر قد يخمدان لحظة قصيرة، ولكنها قويان في أعماق نفوسنا ومن قمم الفن الصادق تطارد الروح هذا الانتصار الكاذب. ولا يغرنك أنها في عزلة وانفراد، فهي في تحالف وألفة دائمين مع كل ما يفيد العالم الإنساني

إن الدكتاتورية تناقض نفسها بادعائها محو السيئة وتحرير الضمير الإنساني وتلقين

البطولة، بينما تحط من قيمة الإنسان وتستعبده ولا تعتد بكرامته معتقدة أن هذا حظه في الحياة وليس له حظ سواه، وكل ما عداه لغو وهباء. فأي مخالفة للمنطق هذه؟ إن فهم البطولة يحتاج إلى فكر أعمق وفلسفة أدق من تلك الفلسفة التي تستند إلى القوة والتضليل، تلك الفلسفة التي تسوق وراءها الدهماء

رقص الحياة - عن الأفننج كرونيكل

في الشعر والتصوير والنحت صورة معروفة يرمز إليها برقصة الفناء. يصورن فيها هادم اللذات، وهو يحصد نفوس البشر من كافة الأجناس فيمثلون الموت يجذب النفوس من كل سنخ وجنس، في قسوة القاهرة المستبد، وهي تدفعه عنها بكل ما رزقت من قوة، وتتشبث بالحياة في جزع ورهبة، والموت يقتادها إلى حيث يريد وهو مكتوب له النصر دائماً، فيرقص منتشياً بالفوز والظفر وهي مسوقة إلى مقرها الأخير، ومن هنا رمزوا إلى تلك الصورة (برقصة الفناء) ولكن الكاتب المعروف (هافيلوك أليس) يخالف هذه الصورة، فيترك رقصة الفناء ويتكلم عن رقصة الحياة

فهو يقول إن الحياة فن. وكل شيء فيها وكل مخلوق يدب على أرضها فنان يصور حياته كما يصور الرسام لوحته، أو المثال تمثاله. ويدلل على أن التفكير فن والكتابة فن؛ حتى الأديان والأخلاق فنون جميعها، وأن الرقص أساس قوي في تلك الفنون ويعده التعبير الأسمى للحياة

ونظرية (أليس) هذه تفتح أمامنا باباً واسعاً للتأمل والتفكير. فنحن نعرف منها كيف كان الرقص في كيان الإنسان وفي صميم كل مدنية، وكيف يكون معبراً عن الحياة! إن الحياة تعبر عن لحن جميل في الحقيقة، والألحان ينبوع الرقص. ليست الحياة وحدها هي التي تعبر عن هذا اللحن بل الكون أجمع يشترك في هذا التعبير. وهذا يفسر قول الإنجيل: النجوم ترقص في الصباح. إنها بلا شك تخفق وتهتز على تلك النغمة التي تشمل الحياة

وكما كان الرقص مصوراً لحركاتنا والنفسية، فقد كان كذلك أول معبر عن الأديان، وقد نشأ الرقص مع الإنسان

ويقول لفنجستون الرحالة المشهور إنه شاهد في أنحاء أفريقيا قبائل يحيي بعضهم بعضاً بقوله: أين ترقص. وذلك أن رقص الإنسان يدل على قبيلته ويميط عن أخلاقه الاجتماعية والدينية

ويقول فريزر: إن الإنسان الأول لم يكن يلهج بدينه بل كان يرقصه. ويقول الكثير من علماء الشعوب: إن الأديان فيما مضى من الزمان كانت قائمة على الرقص، وإن (الإنسان الأول تعلم الرقص قبل أن يتعلم الدين

ولعل في هذا البحث ما يبعث على التفكير في أساليب بعض رجال الطرق في مصر، وفي غيرها من البلاد الشرقية

مدارس للاستعمار - عن لافرانسيز دي أوتر مير

في ألمانيا الآن مدرستان للاستعمار، إحداهما في وتزنهوس، ولها قسم للتعليم العملي في بترفيلد، والأخرى في رندسبرج. فالأولى تعد رجالاً ذوي قدرة على الاستعمار والاستغلال، والثانية تعد الزوجات الصالحات لهؤلاء الرجال.

وعلى مسيرة ساعة من المدينة يرى هؤلاء التلاميذ مكبين على أعمالهم في معزل عن العالم، ليألفوا هذا النوع من الحياة، التي لا تختلف عن حياة (روبنسن كروزو). وهم يقومون بتشييد المباني وتجديدها، ويستخدمون في أعمالهم أبسط الآلات.

والمدرسة تقوم على تعليمهم النظريات العالية بطرق عملية بسيطة، فإلى جانب العلوم التي يلقنونها داخل الفصول: في الزراعة والتاريخ والطب والصيدلة ونظام المكتبات، واللغات الشرقية، وإدارة المستعمرات يتدربون على الشئون العملية في الحياة تدريباً عجيباً؛ فمن الصباح الباكر يستيقظون لحلب البقر وحمل لبنها إلى حيث يصنعون الجبن والزبد.

ويقوم تلاميذ هذه المدرسة بزراعة الحبوب، ويتولون شأنها في جميع الأحوال من الحرث إلى الحصد، ويقومون بطحنها، وعجنها. وهم فوق ذلك يتعلمون الهندسة الكهربائية، وهندسة الري والبناء والطرق والجسور، وأعمال النسف والتدمير والمستعمر الألماني يتدرب على صناعة الطوب الذي يستعمله لبناء المساكن، وعليه

أن يتعلم النجارة، وإصلاح الأخشاب وإعدادها، وصناعة السفن وعمل السروج والحدادة على اختلافها. وأخيراً يجب عليه أن يتعلم فنون الحرب ويلم إلماماً تاماً بالتعاليم النازية. أما
البنات فلا يختلف نظام تعليمهن عن هذا النظام من حيث الدقة والإحكام، ويتفق معه من حيث الجمع بين التعليمين النظري والعملي
فهن يتعلمن لغة الزنوج ويتدربن على رعاية المرضى والأطفال، ويتعلمن طهي الطعام على الطرق المعروفة في مختلف المستعمرات، مما يختلف والطهي المعهود في ألمانيا كل الاختلاف
ويجب عليهن أن يتعلمن رتق الملابس، ويتدربن على ركوب الخيل وقيادة السيارات وحمل السلاح
ويراعي في هؤلاء الزوجات أن يكن قادرات على تكوين الخلق المطلوب، بحيث يكون لهم نصيب واف في بناء الدولة
فإذا استعادت ألمانيا مستعمراتها، وجه إليها هذا الجيش من المستعمرين والمستعمرات فيقومون ببناء مساكنهم بأيديهم أو بمساعدة بعض الخدم، ويحرثون الأرض ويحصدون الثمار. فإذا أتوا بنسل درج على هذه الصفات. فلا تمضي سنوات حتى يكون في تلك المستعمرات شعب ألماني قوي متين

البريد الأدبي

تاريخ الآداب العربية لبروكلمن

قد سبق لي أن أخبرت قراء هذا الباب من الرسالة أن المجلد الثالث من (تكملة تاريخ الآداب العربية) للمستشرق الكبير بروكلمن قد أخذ في الظهور؛ فوصفت الجزء الأول منه وقلت إن المجلد كله موقوف على الأدب العربي الحديث. وهذا الجزء الثاني يصلني وفيه مواصلة الحديث في الشعر المصري منذ هبوط الإنجليز هذا القطر (ويقول بروكلمن: منذ احتلال الإنجليز له)، ويجري الحديث على حافظ إبراهيم ومصطفى صادق الرافعي واحمد محرم والكاشف وأحمد نسيم وحسن القاياتي، وهم ممن نحوا نحو البارودي في النظم على الطريقة الاتباعية. ويجري الحديث بعد هذا على البكري وعبد المطلب وهما من أصحاب تلك الطريقة مع بعض الإفراط. وينتقل الحديث إلى خليل مطران على لأنه صاحب مذهب جديد في الأداء مع بقائه على المبنى القديم. وممن حذا حذوه أحمد زكي أبو شادي؛ وممن يلتف حوله عبد الرحمن شكري. وقد أفاض صاحب الكتاب في تحليل شعر مطران، ومما قاله إنه جاء بالملاحم وألف بين النظم الإفرنجي والأسلوب العربي، وأفاض أيضاً في وصف شعر أبي شادي ومن المراجع العربية التي عوّل عليها المؤلف أو ذكرها: (حياة حافظ) لمحمد كرد علي، (حافظ وشوقي) لطه حسين، (المختارات) للمنفلوطي، (على السفّود) للرافعي (ثورة الأدب) لمحمد حسين هيكل، (الفصول) للعقاد. ومن المجلات العربية المذكورة في سياق البحث: المقتطف والهلال والرسالة ومجلة المجمع العلمي العربي ومجلة الأزهر

ب. ف

عبث الوليد

أشكر الأستاذ الجليل إبراهيم يسن القطان على مكارمه وفضله وأدبه وسعة اطلاعه. أما عن قول المعري (عبث الوليد) فقد جاء في كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان في ترجمة المعري ما نصه:
واختصر ديوان أبي تمام وشرحه وسماه (ذكرى حبيب). وديوان البحتري وسماه (عبث
الوليد)، وديوان المتنبي وسماه (معجز احمد) وتكلم على غريب أشعارهم ومعانيهم ومآخذهم من غيرهم وما أخذ عليهم وتولى الانتصار لهم والنقد في بعض المواضع عليهم والتوجيه في أماكن لخطئهم) فهذا التفصيل وهذه الإطالة في شرح محتويات هذه الكتب تدل على الاطلاع أو تفهم القارئ أن الكاتب واثق من قوله. فهو يقول اختصر كل ديوان من الدواوين الثلاثة ولم يقل إنه أخذ محاسن أبي تمام والمتنبي في كتابية عنهما واكتفى بعيوب البحتري في كتابه عنه، بل قال إنه ذكر للثلاثة محاسن ومساوئ، وذكر للثلاثة أخطاء وعيوباً ودل على ما امتاز كلّ به من المعاني الخ، ومع

ذلك مَيَّزَ بينهم في عنوان كل كتاب، وهذا التميز هو الذي عنيته بنقدي. على أنه لو صح أن ابن خلكان أخطأ في شرح هذه الكتب وكان كتاب المعري عن البحتري مقصوراً على العيوب والمساوئ ولم يقصر المعري على مساوئ أبي تمام والمتنبي الكتابين الأخريين لكان هذا ظلماً من المعري للبحتري، إذ أن لأبي تمام والمتنبي مثل هذه الأشياء التي ذكرها الأستاذ الجليل القطان فَلَمْ نُرَجِّحْ إذاً أنه قصر الكتاب على عيوب البحتري لهذا السبب وأخذنا بوصف ابن خلكان محتويات الكتاب والتمييز في العنوان بالرغم من ذكر المعري مساوئ شعر أبي تمام والمتنبي في كتابيه عنهما - وإذا لم يكن غير نسخة واحدة في مصر من كتاب عبث الوليد مأخوذة بالتصوير الشمسي فهذا قلة استيفاء بحثها. ومما جعلنا نصدق قول ابن خلكان ومن قال مثل قوله علاوة على الأسباب المتقدمة أننا لم نستكثر على المعري ألا يقدر صنعة البحتري قدره حكمة المتنبي في شعره الذي سماه معجزة احمد. ومما يدل على ذلك أيضاً أنه لم يمدح شيخ البيان أبا تمام كثيراً في عنوان كتابه إذ جعله ذكرى، والذكرى لا تقارن بالمعجزة. وقد سُمِعَ عن المعري انتقاص للشعراء الذين يهتمون كل الاهتمام للصناعة والأسلوب الخطابي، فقد روى أنه قال عن شعر محمد بن هاني الأندلسي: (إن شعره كطاحونة تطحن قروناً لإحداث قعقعة) وابن هاني الأندلسي له شعر يقارب طريقة أبي تمام ومسلم بن الوليد التي احتذاها البحتري أيضاً ولم نستبعد أن يكون صاحب اللزوميات التي ملأها تفكيراً في معضلات الحياة قد صنع ما نسبه إليه ابن خلكان وغيره من مؤلفي السَّير وقدَّم التفكير على الصنعة في الشعر وجعل الصنعة عبثاً إذا قورنت بالحكمة وإن لم تكن عبثاً إذا لم تقارن بها. ومما ينبغي أن نلاحظه أنه كان في نفس المعري كما كان في نفس

تولستوي الأديب الروسي صراع عنيف بين نشدان جمال الصنعة في الآداب والفنون وبين البحث عن الحقيقة الروحانية، وهذا الصراع قد يفسر اختلاف قوله في البحتري.

وبعد كل ذلك نرجو الأستاذ القطان أن يرجع مرة ثانية إلى هذه النسخة المأخوذة بالتصوير الشمسي ليرى هل هي كاملة، وهل هي مقصورة على عيوب البحتري، فإذا كانت كاملة (لا ناقصة كما في بعض الكتب النادرة) وإذا كانت مع تمامها مقصورة على عيوب البحتري كان ابن خلكان مخطئاً في وصفه لمحتويات الكتاب، وكان المعري ظالماً إذا اختص البحتري في كتابه عنه بالعيوب ولم يختص أبا تمام والمتنبي، وهذا أمر مستبعد ولكنه لو صح لكان حجة لنا أيضاً

عبد الرحمن شكري

حول مقال المبتدأ الذي لا خبر له

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي جولات في ميادين العلم والأدب خرج في بعضها ظافراً أيما ظفر. . .

وفي العدد الماضي من الرسالة إحدى جولات الأستاذ في علم النحو أساجله فيها والله أعلم أينا يكون له الظفر؟

درس الأستاذ علم النحو في هذا العام ودرج فيه - كما يقول - على عادته من إيثار تمحيص المسائل على ترديدها كما دوَّنها المؤلفون. أي كما يفعل كثير من الناس! ونحن نحمد للأستاذ طريقته هذه لأننا نعتقد أنها الطريقة المثلى التي يعم نفعها وتجنى ثمرتها، ونأمل أن ينتهجها كل من يتصدى لدراسة المسائل العلمية.

وكان مما محَّصه الأستاذ من مسائل النحو وخرج منه بنتيجة مسألة (المبتدأ الذي لا خبر له) وهو الوصف الذي له مرفوع يغني عن الخبر في مثل قول ابن مالك: إسارٍ ذانِ.

ومجمل بحث الأستاذ في هذه المسألة أمران خرج منها إلى نتيجة، ووضع قاعدة جديدة في علم النحو.

الأمر الأول: مؤاخذة النحاة في إعرابهم الوصف في مثل هذا الموضوع مبتدأ (لأن المبتدأ - في الجملة الاسمية - هو المحكوم عليه، والوصف هنا في مقام الفعل فليس محكوماً عليه

وإنما هو محكوم به.) هذا تعليل الشيخ؛ وإن كنت لم أفهم معنى لتقييد المبتدأ بكونه - في الجملة الاسمية -

فهو يرى أن المبتدأ لا يكون إلا محكوماً عليه والذي نعرفه من كلام النحاة في تعريفهم

للمبتدأ أنه يكون محكوماً عليه في مثل: العلم نافع، ويكون غير محكوم عليه في مثل ما نحن بصدده. وهذا هو تعريفهم للمبتدأ:
(المبتدأ هو الاسم العاري عن العوامل اللفظية: مخبراً عنه أو وصفاً رافعاً لمكتفى به)
والمعنى الذي أدركه الشيخ في المثال (وهو أن الوصف قائم مقام الفعل فهو مسند لا مسند إليه ومحكوم به لا محكوم عليه) هذا المعنى الذي يبدو أن الشيخ قد انفرد به لم يهمله النحاة فقد قالوا في شرح التعريف المتقدم ما خلاصته:
ليس معنى اكتفاء الوصف بالمرفوع عن الخبر أنه ذو خبر أغنى المرفوع عنه لأن الوصف هنا لا خبر له أصلاً لقيامه مقام الفعل والفعل لا خبر له
الأمر الثاني: قاعدة وضعها الأستاذ وهي أنه كلما كان هناك مبتدأ كان هناك خبر. ومن الواضح أن هذه القاعدة لم تنشأ إلا من حصر المبتدأ في المحكوم عليه كما فعل الشيخ. وبالنظر في التعريف المتقدم يعرف أن الصواب أن تكون القاعدة هكذا: كلما كان هناك مبتدأ كان هناك خبر أو فاعل يغني عن الخبر. ومعنى أنه مبتدأ في هذه الحالة أنه اسم مجرد من العوامل اللفظية. الأمر الذي استبعده الأستاذ بحجة أنه لا نظير له لأن النحاة لم يسموا الشيء فاعلاً إلا إذا كان فاعلاً في المعنى، وهكذا ونحن نقول له إن هذا مسلم. وهم كذلك لا يسمون الاسم مبتدأ إلا إذا كان مبتدأ في المعنى أي إلا إذا كان اسماً مجرداً من العوامل اللفظية وهو إما مخبر عنه أو وصف رافع لما يغني عن الخبر وإنما يكون معدوم النظير إذا أنحصر معنى المبتدأ فيما قال الشيخ
والنتيجة التي وصل إليها الأستاذ من تمحيصه لهذه المسألة أن مثل هذا الوصف لا يسمى مبتدأ، بل يسميه الشيخ اسم فاعل أو اسم مفعول لتجرده من العوامل اللفظية. كما استثنوا اسم الفعل مع تجرده من هذه العوامل فلم يسموه مبتدأ.
والمعروف أن اسم الفعل إنما استثنى مع تجرده من العوامل لأنه ليس واحداً من النوعين اللذين يكون منهما المبتدأ، لأنه قائم مقام لفظ الفعل على الصحيح؛ وأما على الرأي القائل بأنه قائم مقام معنى الفعل فهو
مبتدأ مستغن بمرفوعه عن الخبر كاسم الفاعل في مسألتنا
وبعد. فهذا ما أردت أن أعقب به على كلام الشيخ وأرجو أن أكون قد وفقت فيه كما أرجو أن يتقبله الأستاذ بما يجب أن يكون عليه من يتصدى لتمحيص المسائل العلمية بغية الوصول إلى حقائقها.
والسلام على الأستاذ ورحمة الله
أبو حجاج
مدرس نحو
مشروع جديد لتنظيم مجمع فؤاد الأول للغة العربية
يعتزم صاحب المعالي الدكتور محمد حسين هيكل باشا وزير المعارف في هذه الأيام تنفيذ مشروع جديد لتنظيم أعمال مجمع فؤاد الأول للغة العربية، وكان معاليه قد سبق أن أدلى بكثير من آرائه في تنظيم مهمة المجمع في مقالات نشرها في جريدة السياسية قبل أن يصبح وزيراً للمعارف. وقد رأى معاليه أن الوقت حان لتحقيق آماله في هذا الإصلاح والتنظيم، فأعاد مراجعة مقالاته السابقة كما ضم إليها كثيراً مما كتبه كبار الكتاب في الصحف والمجلات في هذا المعنى، ووضع بعد دراسته لمختلف هذه الآراء النواة التي يرى أن يبني عليها المشروع الجديد
ولكي نعرف ماهية الإصلاح المراد تهيئة أسبابه لهذه المؤسسة نقول إن عمل المجمع اتجه من إنشائه حتى اليوم إلى وضع معجم عام للغة، ومعجم تاريخي لها، ومصطلحات للعلوم والفنون، ودراسة اللهجات القديمة والحديثة. والمشروع الجديد يتجه بالمجمع إلى ما يأتي:
أولاً: أن يواصل المجمع عمله في وضع معجم اللغة ومعجمها التاريخي.
ثانياً: أن يترك وضع المصطلحات العلمية والفنية وغيرها إلى الهيئات والجماعات المختصة بها، على أن يسجل منها في معاجمه ما يستقر في التداول منها، وما تقره اللغة
ثالثاً: أن تترك دراسة اللهجات الحديثة للجامعة، ويكتفي المجمع بدراسة اللهجات القديمة

رابعاً: أن يقوم المجمع بعمل إيجابي في إحياء اللغة وذلك بتشجيع الإنتاج الفكري الحديث، وإقامة مسابقات أدبية، وتقرير مكافآت للمنتجين، مقتفياً في ذلك أثر (المجمع الفرنسي)

هذا وينتظر أن تصدر وزارة المعارف قريباً قراراً بتأليف لجنة برياسة الوزير لوضع مشروع القانون بإعادة تنظيم المجتمع

ذكرى السير إقبال

حفلت (قبة الغوري) مساء الخميس الماضي بجمهرة من أبناء الأمم الإسلامية اللذين تربط بينهم جماعة (الأخوة الإسلامية) ليحتفلوا بالذكرى السنوية لوفاة الشاعر الهندي الفيلسوف الإسلامي المرحوم السير محمد إقبال

وقد استهل الاحتفال بتلاوة آي من الذكر الحكيم ثم استمع المحتفلون إلى طائفة من الشباب ينشدون (نشيد إقبال) ثم ألقى الأستاذ الكبير الدكتور عبد الوهاب عزام كلمة ممتعة تناول فيها بالتحليل مذهب الشاعر الهندي في الفلسفة والتصوف ونظرته إلى الإسلام. ثم أعقبه السيد محمد حسن الأعظمي سكرتير الجماعة فألقى كلمة مستفيضة عن منزلة الشاعر إقبال بين شعراء الهند. وأعقبه الأستاذ أبو الحسنات البقالي فتحدث عن الشعر الغزلي الذي أنتجه السير إقبال، ثم ألقى الأستاذ محمود جبر مرثية تناول بعدها الأديب الصيني الأستاذ بدر الدين إيوان الشاعر إقبال فأمتع وأبدع

وقد انصرف المحتفلون وهم يعرفون - من هذه الكلمات الشائقة - كثيراً من روائع الشاعر الهندي وآثاره الخالدات.

أبو تمام - الأستاذ عبد الرحمن شكري

جاءتنا كلمة بهذا العنوان من الأستاذ الجليل (القارئ) بعد طبع هذا العدد فاضطررنا إلى إرجائها إلى العدد القادم

رسالة النقد

في سبيل العربية - 4

كتاب البخلاء

للأستاذ محمود مصطفى

في صفحة 86 وردت في كلام الجاحظ حكمة أكثم بن صيفي وهي: المرء يعجز لا محالة. فعلق عليها الشارحان بقولهما: (أي لا تضيق الحيل ومخارج الأمور إلا على العاجز، والمحالة: الحيلة. ويروى المحالة كما في اللسان. أ. هـ)

ولهذه الحكمة كلام طويل عريض تناولناه في مثل هذه الأيام من العام الماضي في صحيفة البلاغ الغراء، وكنا نود أن يرجع الشارحان يوم ذاك إلى كلامنا في تحرير هذه الحكمة حتى لا يقعا فيما وقع فيه غيرهما من الإيمان بكل ما يقول السابقون من غير إجراء حكم العقل عليه.

نرى أن هذا الشرح الذي شرحه الميداني ونقله الشارحان خطأ ظاهر. لأننا إذا نظرنا إلى العبارة من وجهتها التركيبية رأينا أن هذا الشرح يستلزم أن تكون العبارة هكذا: (المرء يعجز لا محالة). ويكون المعنى كما شرح الميداني إن المرء هو الذي يعجز لا الحيلة.

وإذا نظرنا إلى المقام الذي وردت فيه العبارة رأينا أن أكثم كان ينصح لقومه فيقول لهم:

(أقلوا الخلاف على أمرائكم، واعلموا أن كثرة الصياح من الفشل، والمرء يعجز لا محالة. يا قوم تثبتوا فإن أحزم الفريقين الركين. ورب عجلة تهب ريثاً). فالرجل يثبط قومه عن القتال وينهنه من نزعاتهم الجامحة إليه. فهو يقول لهم: إن العجز من شأن الإنسان، وإنه لا حيلة له في توقيه.

فنرى أن الأسلوب من ناحية والمقام الذي وردت فيه الحكمة من ناحية أخرى يوجبان أن يكون المعنى غير ما ورد في الميداني، ورده الشارحان الفاضلان من غير مناقشة للرجل في رأيه مع أنه إنسان يخطئ ويصيب، فكيف بهما إذا علما أنه كان ناقلاً للمعنى عن آخر سبقه بالخطأ.

ذلك أن الميداني من أهل القرن السادس الهجري، وقد سبقه أبو هلال العسكري المتوفى

سنة 395 هـ في كتابه جمهرة أمثال العرب، فروى المثل هكذا: (المرء يعجز لا المحالة)، وقال في شرحه: إن المرء يعجز عن طلب الحاجة فيتركها، ولو استمر على طلبها والاحتيال لها لأدركها. فإن الحيلة واسعة فهي ممكنة غير معجزة. ثم يروي أبياتاً جعلها في مقام الاستشهاد على معناه الذي رآه، وهي قول الشاعر:

حاولت حين هجرتني ... والمرء يعجز لا المحالةْ

والدهر يلعب بالفتى ... والدهر أروغ من ثعالةْ

والذي نقوله إن الشعر لا يسعف العسكري بمراده لأن الشاعر يقول: إني حاولت يوم هجرتني أيتها المحبوبة أن أقنعك بالرضا وأن أردك إلى عادة الوفاء لي فلم أفلح، والمرء لا بد عاجز، فهو ضعيف يلعب به الدهر ما شاء، ويغير عليه من إرادته ما شاء. فإذا ما حاول أن يظفر بالدهر ويتغلب عليه راغ منه، وفر كما يروغ الثعلب ويفر من قانصه. فهل يرى القارئ الكريم في الشعر رائحة للتنديد بضعف الإنسان وقعوده عن المحاولة؟ أليس الشعر ناطقاً بأن المحاولة لم تجد صاحبها شيئاً، وأن العجز من شيمة المرء؟ فبان إذاً أن هذا الشعر الذي يستظهر به العسكري على معناه لا يسعفه بمراده. بل إنه يرد عليه زعمه، ويبالغ في تخطئته.

وقد نرى للعسكري مندوحة فيما قال. ذلك أنه لم ينسب الكلمة إلى أكثم، فلعل غيره قالها على هذا الوجه، كما أن شرحه مساوق للفظ الذي أورده (بتعريف المحالة) وكل خطئه إنما كان في دعواه أن الشعر يتمشى مع شرحه الذي رآه. فإذا بالشعر ينطق بغير ما يريد.

وليس في الشعر ما يساعده على رواية المحالة (بالتعريف) لأننا نستطيع حذف أداة التعريف من الكلمة ولا ينكسر الوزن.

والخطأ ظاهر في صنيع الميداني لأنه لفق بين نص وشرح وارد لغير هذا النص.

وهذا الخطأ أظهر في صنيع الشارحين لأنهما نقلا كلام الميداني من غير تمحيص، واستعزا بنقل صاحب اللسان، وصاحب اللسان لم يخطئ في مهمته وهي النقل إذ لم يزد على قوله: ويروى لا المحالة. فهو لم يتعرض لتمحيص الرواية، وليس ذلك من شأنه. ولكنه شأن الشارحين وهما لم يفعلا من ذلك قليلاً ولا كثيراً.

في ص 75: حكى الجاحظ أنه عاد يوماً في وقت القيلولة، والشمس حامية شديدة الوقع على الرأس. ثم قال: أيقنت بالبرسام فيعلق الشارحان بقولهما نقلاً عن القاموس وشرحه: البرسام علة يهذي فيها. وهو ورم حار يعرض للحجاب الذي بين الكبد والأمعاء، وهو يتصل بالدماغ. ثم يقولان: ولكنا نظن أن المراد هنا هو الرعن كما هو ظاهر من سياق الكلام. ففي القاموس رعنته الشمس: آلمت دماغه فاسترخى لذلك وغشي عليه

وأمر الشارحين عجيب جداً في هذا المقام، لأن الذي منعاه ليس بممتنع، إذ البرسام كما نقلا علة تتصل بالدماغ. أليس اتصاله بالدماغ كافياً لافتراض نشوئه عن تعرض الدماغ للشمس؟ ثم كيف يغيران على القائل قوله ويوجبان عليه أن يقول ما يريدان؟ أليس القائل هو الجاحظ الذي يعرف اللغة ومدلولات ألفاظها، ويعرف طب زمانه وحدود علله وأسبابها؟ فكيف استساغا أن يقولا له: كان يجب عليك أن تقول فأيقنت بالرعن في موضع فأيقنت بالبرسام؟!

هذا والله أعجب ما رأينا من شأن الشارحين. فهما لم يكتفيا بأن يفرضا علينا آراءهما ويوجباها على طلاب المدارس ومدرسيها بعد أن دمغاها بالصبغة الرسمية التي حصلا عليها لشرحهما، حتى أرادا أن تمتد سلطتهما على الجاحظ وزمنه.

لو أراد الشارحان أن يغيرا على الجاحظ رأيه في معاني الألفاظ وبينا أنه أخطأ المراد في لفظ البرسام لوجب عليهما أن يعودا إلى كتب الطب القديم ليستشيراها في معناه، فإذا وجداه بعيداً عن المقام الذي يتكلم فيه الجاحظ فعند ذلك يقولان له أخطأت المراد وكان الواجب عليك أن تستعمل كلمة الرعن، ولكنهما لم يفعلا شيئاً من ذلك، وكل ما في الأمر أنهما عرفا معنى الرعن فشاءت لهما سلطتهما اللغوية التي يمدانها على طلاب المدارس ومدرسيها، أن يغيرا على الجاحظ رأيه كأنما هما مفتشان أولان على الجاحظ أيضاً

في ص84 ورد ما يأتي:

وقال لي هذا الرجل: أكلنا عنده يوماً وأبوه حاضر وُبني له يجيْء ويذهب فاختلف) (مراراً، كل ذلك يرانا نأكل
وقد ضبط الشارحان كلمة كل في عبارة (كل ذلك يرانا نأكل) بالضم وعلقا على العبارة بما يأتي: (أي كل ذلك حاصل والصبي يرانا نأكل. ويظهر لنا أن العبارة كانت هكذا: كل ذلك وهو يرانا نأكل. فسقط من النسخ (وهو)) أ. هـ
ونقول إن التعسف في التقدير ظاهر جداً وما جر على الشارحين كل هذا إلا ضبطهما لكلمة (كل) بالضم. ولو أنهما أتيا الأمر من أيسر طرقه لضبطا الكلمة بالفتح فتعرف ظرف زمان لأن لفظ ذلك إشارة إلى الزمن المنقضي في المجيء والذهاب والاختلاف مراراً. والقاعدة التي يعرفها حضرتا المفتشين في كتاب (قواعد اللغة العربية) وغيره أن لفظي كل وبعض إذا أضيفا إلى الزمان أعربا أسمي زمان
في الصفحة عينها يقول الشارحان في السطر الذي قبل الأخير (المذار (بفتحتين)).
وما هكذا يفعل أهل اللغة لأن هذا الضبط لا يمنع أن تكون الذال مشددة مع الفتح، فيكون ذلك خطأ في ضبط الكلمة. وإنما الذي يقال هو ما ذكره صاحب القاموس وهو قوله: المذار كسحاب
في ص87 في نصيحة خالد بن يزيد لابنه: (وقد دفعت إليك آلة لحفظ المال عليك بكل حيلة ثم إن لم يكن لك معين من نفسك ما انتفعت بشيء من ذلك بل يعود ذلك النهي كله إغراء لك، وذلك المنع تهجيناً لطاعتك)
فيعلق الشارحان على العبارة (وذلك المنع تهجيناً لطاعتك) بقولهما: يعني أنك لو أطعت في حال انصراف نفسك كان ذلك قبيحاً بطاعتك، لأنها تكون إذاً مغتصبة وغير صريحة.
لا، لا أيها الشارحان. إنما المراد: إنك تقف من نهيئ لك موقف الذي لا ينتهي عما نهاه عنه أبوه، وتكون تلك سبة لك بأنك لن تطع والدك، وهذا يشين خلق الطاعة فيك، لأن أولى الطاعة طاعة الآباء
وإن كان من العجب أن يكون هذا رأي الشارحين في عبارة الكتاب، فأعجب منه أن يكونا قد شرحا ما قبلها شرحاً لائقاً بالمقام فجمعا بذلك بين متناقضين في سياق واحد فقد قالا في شرح العبارة التي قبلها: (يعني أن نفسك إذا لم تقبل على ما وجهتك إليه صار النهي لها بمنزلة الإغراء والحض على ارتكاب النهي عنه)
وهذا منهما حسن يوافق ما أراده القائل للعبارة، فالعجب العاجب أن يعطفا على الجملة وهذا معناها في نفسهما جملة أخرى مناقضة لها على حسب ما شرحا، إذ الأولى أثبتت أنه عصى أباه في نصحه، والثانية أرادا منها أنه أطاعه ولكن بالكره لا بالرضا. فجمعا في كلامهما بين العمل والترك أو بين الضد والضد. فهل شرح كل واحد منهما جملة ثم ضما
عملهما وصفا حروفهما من غير أن يستشير أحدهما الآخر فيما رأى؟ هذا هو الأشبه بعملهما. وفي الصفحة عينها يقول الولد لولده: (وقد بلغت في البر منقطع التراب، وفي البحر أقصى مبلغ السفن، فلا عليك ألا ترى ذا القرنين)
ويعلق الشارحان على هذه العبارة بقولهما: ويشير بقوله: ألا ترى ذا القرنين، إلى قصة ذي القرنين المذكورة في القرآن الكريم، يعني أنا كاف عنه
ولم أر إدماجاً في شرح مثل الذي أراه في عمل الشارحين. إنهما لم يكلفا أنفسهما الاطلاع على قصة ذي القرنين واستخلاص المراد من الإشارة التي يقولان عنها. ولذلك أورد كلامهما بهذا العموم
والذي أفهمه من كلام الأب لأبنه أنه يقول له: إني مجرب عرفت ما في الدنيا وجبت عامرها براً وبحراً فاستفدت تجارب كثيرة وزودتك بخلاصتها. فإذا عملت بها كنت كأنك شاهدت ما شاهدتُ، وجربت ما جربت، وإني في تطوافي بالأرض وجوبي لأقطارها بمنزلة ذي القرنين الذي بلغ مطلع الشمس، فإذا فاتك أن تكون رأيت ذا القرنين فقد رأيت نظيره وهو أبوك
في ص 88 يأتي:
(دع عنك مذاهب ابن شرية فإنه لا يعرف إلا ظاهر الخبر)
وقد علق الشارحان على (ابن شرية) بقولهما: لم نقف لهذا الرجل على خبر في كتبنا، ولم نفهم ما يقصد من مذاهبه، وفي نسخة شرية أهـ

وبهذه المناسبة نقول إن الشارحين قد أعلنا عجزهما عن معرفة كثير من الأعلام التي وردت في الكتاب، ونحن نعذرهما في كثير من ذلك لأن الجاحظ يتكلم عن خلطائه، وليس كل هؤلاء قد رزقوا الشهرة حتى تدون أسماؤهم في كتب الطبقات. فهما في بعض ذلك بمنجاة من اللوم؛ ولكن ليس ينبغي أن يسري هذا العجز إلى هذا العلم المشهور وهو (عبيد بن شرية) فهو رجل معاصر لمعاوية بن أبي سفيان وكان عالماً بالأخبار، وكان معاوية يستمع منه قصص الماضين وتدابير الملوك لينتفع بها في ملكه. وقد ورد اسمه في كتب كثيرة نذكر منها الآن من غير استقصاء: معجم الأدباء لياقوت، وفهرست ابن النديم، ومقدمة ابن خلدون وفي الحديث كتاب فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين

فقول الشارحين أنهما لم يقفا له على خبر لا يعفيهما من اللوم. ثم إن عدم وجوده في كتبهما لا يكفي لنفي وجوده في كتب غيرهما؛ فلو أنهما اعتصما بالصبر في البحث لوجدا على حبل الذراع تراجم كثيرة لهذا الأنباري النابه الشأن.

(للكلام بقايا)

محمود مصطفى

المسرح والسينما

مدير الفرقة القومية وسكرتيره

وحكاية الأب لويس شيخو

لقيني أحد ممثلي الفرقة فقال وهو يبتسم ابتسامة تحمل الكثير من معاني الفرح والشماته والانتقام، ويشير إلى مجلة مطوية في يده: هاهو ذا العدد الأخير من (الرسالة) أحمله إلى حضرة المدير. قلت: ما الداعي إلى اللهفة والمسألة بسيطة عادية؟ فأجاب: حقاً إن المسالة عادية ولكنها غير بسيطة في نظر المدير وسكرتيره المحجل كما أسميته أنت. قلت: أوضح، فقال:

اعتاد هذا السكرتير تقطيع مجلة الرسالة إرباً حتى لا يطلع حضرة المدير على ما ينشر فيها

قلت: ألا يطلع مديركم على كل ما تكتبه الصحافة في الفرقة؟

فقال: أحسب أن وفرة مشاغله المتنوعة لا تمكنه من ذلك، ولكن سكرتير الفرقة يطلعه من وقت إلى آخر على خلاصة بعض ما ينشر في الصحف

دعوت لهذا الممثل ولفرقته بالنجاح وانصرفت!

ولمناسبة هذا الحديث البسيط أروي القصة التالية:

ألف المرحوم الأب لويس شيخو الأديب العالم اليسوعي كتاباً اسماه (شعراء النصرانية) وطلب له لسبب من أسباب مهنته حشر طائفة من شعراء جاهليين وغير جاهليين قال إنهم نصارى؛ فانبرى له المرحوم الشيخ محمد الخياط أو خليل الخياط يفند مزاعمه ويعيد الفروع إلى أصولها ويصحح أغلاطاً عروضية ولغوية في الكتاب، ولم يأبه لصحيفة البشير لسان حال الجزويت التي لم تكن تتغاضى عن هنة ولو بسيطة تمسّ النصارى من قريب أو بعيد

ترقب الناس وقوع الواقعة بين البشير النصرانية وبين صحف المسلمين وتوجس عقلاء الطائفتين من تطورات الحملة الأدبية وانقلابها إلى ضدها

مضى الشيخ الأديب في نقده لا يصده عنه صاد، وهو يعلم أن للآباء اليسوعيين سلطة نافذة وطرائق ذات شعاب أخطبوطية فتاكة ولكنه لم يأبه لها لأنه كان ينافح عن حق لوجه الحق

صدرت جريدة البشير وتلتها مجلة المشرق في الصدور خاليتين من كلمة واحدة في الرد على الشيخ الناقد

شدد الناقد الحملة وزاد العيار. . . وأخيراً ذهب يدفع باب الجزويت يستطلع سر سكوتهم وكنه استلانتهم وهم الجبابرة الأشداء

رحب الآباء اليسوعيون بالزائر الناقد خير ترحاب، وأكرموه الإكرام اللائق بعلمه وأدبه، وأطلعوه على سرهم فقالوا إنهم ألفوا لجنة برياسة الأب لويس معلوف لدراسة نقده وتصحيح أخطاء وقع فيها كبيرهم الأب شيخو، ولم يدعوا الشيخ ينصرف إلا بعد الاتفاق معهم على مواصلة حملته الصارمة عليهم لإظهار الأغلاط التاريخية والعروضية واللغوية

في كتابهم
أرجو ألا تنسى أن كتاب شعراء النصرانية محدود الغرض يطالعه الخاصة من الأدباء في حين أن الفرقة القومية أوسع مدى وأفسح أفقاً من الكتاب وأنفذ إلى مشاعر الشعب وأحاسيسه وخلائقه منه، وأن للفرقة القومية رسالة فرضتها وزارة المعارف حين إنشائها قالت: (إن غايتها رفع مستوى التأليف والتعريب المسرحي وترقية الإخراج وترقية الموسيقى المسرحية والغناء المسرحي بحيث تكون صالحة للتمثيل العربي والأجنبي، وإعداد الممثلين والمخرجين إعداداً فنياً صحيحاً) فأين الفرق بين جماعة ألفوا لجنة من خيرة علمائهم لتصحيح أغلاط في كتاب، من سكوت الفرقة القومية عن كل ما يقال فيها؟
دع عنك العمل الصبياني الصادر من سكرتير الفرقة لأنه غير مستغرب وقوعه منه، فجهل النعامة التي تطمر رأسها في الرمال كيلا ترى الصياد يماثل مجلة (الرسالة) لكيلا يقرأها مدير الفرقة
دع عنك أيضاً أن وزير المعارف ووكيله وآلافاً من الناس يقرءون الرسالة، فتقطيع عدد أو مائة عدد لا يصد الناس عن قراءة عيوب الفرقة وعلل إدارتها
حدثني صديقي قال: إن مدير الفرقة يعزو حملة الرسالة على الفرقة بسبب قبض يده عن
إمدادها بالإعلانات، ولكنه دهش وتعجب حين قال له صديقي: إن الأساتذة تيمور، وطليمات، والحكيم، ورمزي، وناجي، ورستم، وفارس، أجمعت أقلامهم على طلب إصلاح الفرقة، وقد عددوا وسائل الإصلاح وأبانوا مواطن الضعف، وقد فعلوا ذلك لا طمعاً في أجر ولا رغبة في انتقام. فأجاب: إنه لم يطلع على ما كتبه هؤلاء الأساتذة!!
نعود إلى موضوع أحاديث الأدباء فنجمل أجوبة الأستاذ بشر فارس، وقد سألناه: هل المسرح في تقدم؟ وهل الروايات المترجمة أنفع لنا أم المؤلفة؟ وهل في المباراة ما يحفز المؤلف على التأليف؟ فأجاب:
(إن المسرح عندنا لا يزال في جانب النشأة، حتى جانب التكوين لم يبلغه، فكيف لنا أن نتكلم عن تقدمه أو تأخره؟ إنه يحق لنا أن نلقي مثل هذا السؤال: هل المسرح عندنا متجه في نشأته اتجاهاً مرضيًّا؟ والجواب قريب ذلك أنه لا بد للمسرح أيام قيامه من عناصر معروفة، منها المسرحيات المؤلفة والممثلون والممثلات والنظارة والمخرجون والناقدون. فإذا نظرنا إلى ما بين أيدينا في مصر وجدنا المسرحيات المؤلفة (ما عدا واحدة أو اثنتين (أهل الكف) لتوفيق الحكيم مثلاً) بعيدة عن طرائف الفن الخالص، بل مجراه على أسلوب طفلي، لأن المقدمين على التأليف المسرحي يجهلون مبادئ هذا الفن ويظنون أن اللغو والخطابة والنواح والتعريض والوعظ غاية الغايات. وإن كان لدينا ممثلون لهم دراية، قلت أو كثرت، بفن التمثيل فإن ممثلاتنا إلا أقلهن إنما يرين أن التمثيل إلقاء وهياج لقلة ثقافتهن وعجزهن عن الاتحاد بالنص. وأما النظارة فقد تعودوا مشاهدة لونين من المسرحيات: المهزلة التهريجية، والمأساة المفرطة، وكلتاها من النوع الأسفل، كما أنهم تعودوا الإخراج الواقعي، فمن المتعذر عليهم أن يميلوا إلى المسرحيات الضاربة إلى التفكير أو الشعر أو الاختلاج الباطني أو إلى الإخراج الإيهامي. ثم إن للفرقة مخرجاً أجنبياً وكان لها فيما قبل مخرج مصري حاذق هو الأستاذ زكي طليمات، ولكن الإخراج مرتبط بالمسرحية نفسها والممثلين والنظارة. وأما النقاد فلا أكاد أرى اثنين يحق لهم أن يعالجوا الكتابة في المسرح)
وقال رداً على السؤال الثاني: (الترجمة أولاً حتى يتهذب النظارة ويظفر المؤلفون بأمثلة يحتذونها بل يلتفتون إليها، والتأليف لمن يصيب من نفسه قدرة على وضع مسرحية تمتاز بالطرافة والقوة والاتساق والفكرة الناهضة)
أما الترجمة فالذي أراه أن الفرقة القومية ينبغي لها أن ترغب إلى الكتّاب الذين) يجيدون اللغات الأجنبية إلى جانب العربية أن ينقلوا المسرحيات النفيسة إلى لغتنا؛ وأما التأليف فلا مباراة ولا رغبة إلى أحد من الناس، وإنما المؤلفون الحقيقيون - أعني المنجذبين إلى التأليف المسرحي من ذات أنفسهم لا الطامعين في جائزة - ينشرون (ما يؤلفون، وللفرقة القومية أن تقبل عليه إذا رأت له شأناً
وللدكتور فارس رأي طريف في النقد والناقد أؤجل نشره لفرصة مواتية لاتصاله برأي

طريف أيضاً من نوعه قاله عالم غير سربوني
ابن عساكر
العدد 304 - بتاريخ: 01 - 05 - 1939
على ذكر خطبة هتلر في يوم الجمعة الماضي
هذا رجل!. . .
نعم هذا رجل! ولا يستطيع أن ينكر عليه هذه الصفةَ في الدنيا صديق ولا عدو ولا محايد. هذا رجل كما نعتقد، لا رسول كما يدعي؛ لأن الرجل لأمته والرسول للناس. وحسب الفوهرر أن يكون رجلاً، فإن الله تعالت حكمته لا يخلق الرجل إلا كل قرن. والأمم تنتظر في انحلالها الرجل، كما تنتظر الخليقة في ضلالها الرسول.
منذ أسبوعين انتظر العالم كله ماذا يقول هتلر ليبنى على قوله ما يفعل، ويرتب على حكمه ما يرى. وفي خلال هذه الفترة القصيرة الطويلة أوشك نبض الحياة العادية أن يقف انتظاراً لما عسى أن يكون هذا الكوكب. فلما وقف المستشار على منصة الريخشتاغ أصاخ لأمواج الأثير كل سمع في الوجود العاقل. وأعلن الدكتاتور رأيه الصريح بالمنطق الموهوب والبلاغة القوية، فملأ صوته الدنيا، وشغل قوله الناس. وقديماً قيلت هذه الكلمة في المتنبي؛ ولكن دنيا أبي الطيب كانت مملكة الإسلام، وناسه كانوا أمة العرب. أما هتلر فهو أول رجل في تاريخ الخليقة سمع خطابه أو ترجمته في يوم واحد كل دولة في الأرض، وكل مدينة في دولة، وكل بيت في مدينة، وكل راشد في بيت. ذلك لأن هذا الرجل العجيب استطاع في ست سنين ونصف أن يبني من الحديد والنار والسم والعزيمة والعصبية دولة كانت بعد صلح فرساي تتوارى من الخجل، وتتفانى من الجوع، وتتهالك من الدين، وتضع أيديها على هيكلها فلا تجد إلا شلوا تبددت أعضاؤه في كل وجه؛ فأصبحت بما نفخ فيها من روح الكفاح، ووضع في أيديها من قوة السلاح، تملك على الدول الحياة والموت، وتقضي على الأمم بالسلام أو الحرب. كل ذلك فعله كما قال من غير ثورة ولا حرب، فكان حرياً أن يتبجح في آخر خطابه التاريخي بقوله: (ألست بعد هذا حقيقيا بأن أطلب إلى التاريخ أن يعدني في الذين حققوا أعظم ما يسمح الإنصاف بطلبه من رجل؟)
في كل أمة ما شئت من القوى الحسية والمعنوية؛ ولكنها تتفرق في أفرادها فتضعف، ويغشاها الكسل في نفوسها فتخمد. فإذا ما قيض الله لها رجلا منها يجمع قواها في قوته، ويوحِّد إرادتها في إرادته، استطاع أن ينيلها نصيبها الكامل من الحياة، وينهج لها طريقها القاصد إلى الغاية. ولكنك لا تجد هذا الرجل دائماً في كل أمة؛ فإن خصائص رجولته تكون
أشبه بخصائص النبوة. والدنيا أبخل على الناس بمعدن هذه الخصائص لندرته. وهل في الدنيا أندر من عناصر الإيمان والبطولة والصدق والإيثار والنزاهة؟ هل يدور بخلدك أن هتلر الذي تمثلت فيه دولة، ونهض به جيل، وقام عليه تاريخ، تتعلق نفسه في لحظة من اللحظات برغبة حقيرة كمظاهرة في حفل، أو ثروة في بنك، أو أبهة في ديوان، أو قريب في وظيفة، أو مدحه في صحيفة؟ إن القادة الذين يهيئهم القدر لمداولة الأيام وخلق الشعوب يطهر الله من وساوس الهوى ودسائس الطمع، فلا ينظرون في الأرض، ولا يصغون إلى الفتنة، ولا يستجيبون إلا للصوت السماوي البعيد الذي لا يفتأ داعياً إلى السمو أو التقدم
هذه مصر مثلاً، فيها الثروة الموفرة، والقوى المذخورة، والعدد العديد، والموقع الملائم، والتاريخ الحي، والمجد التالد، والهوى المتحد، والحس المشترك؛ فتستطيع بهذه المزايا النادرة أن تكون دولة مطاعة لها في الثقافة لسان وفي الحضارة يد وفي السياسة رأي؛ ولكن مزاياها لا تزال كامنة أو موزعة أو مشاعة؛ فلم يتح لها الله إلى اليوم ذلك الرجل العمَري الذي يجمع من نسماتها اللينة إعصاراً يدوِّي، ومن رغباتها الشخصية طموحاً يحلِّق، ومن قواها المفرقة جيشاً يرعب، ومن قصائدها الفردية ملحمة قومية ينشدها الليل والنهار ويرويها سجل الأبد
عندنا رجال من صاغة الكلام، وحفظة القانون، ومحترفي السياسة، أفلحوا في إثارة الصخب، وتمزيق العلائق، وتفريق القوى، وإغراء المطامع بكراسي الحكم وأبهة الألقاب وأموال الدولة، ولكنهم لم يفلحوا مجتمعين أن يعملوا في عشرين سنة ما عمله هتلر وحده في ست سنوات وستة أشهر.

لا تقل إنه الجهل أو العلم فلسنا أجهل من تركيا، ولا ألمانيا أعلم من فرنسا؛ ولكنها القوى الشعبية الطبيعية تتجمع وتتحد بالإرادة الصادقة والتوجيه النزيه فتفعل قِلتها المجمَّعة في تركية وبولندا، مالا تفعل كثرتها الموزعة في الهند والصين معاذ الله أن يقع في ظنك يا قارئي العزيز أني أحب فردية الحكم لأني أحب أن يتولى قيادتنا رجل. فإن الرجل الزعيم الذي نرجوه، نرجوه للقيادة لا للسيادة، وللإشارة لا للإمارة، وللجهاد والتضحية لا للاستعباد والأثرة. وإن الرجل الذي نرجوه لنا ولكل أمة حبيبة في الشرق لا يمكن أن يطغي لأنه مؤمن، والإيمان من طبيعته كف السلطان وقتل الشهوة؛ ولا يمكن أن يستبد لأنه مسلم، والإسلام من شريعته حرية الإنسان وشُورى الحكم.

أحمد حسن الزيات

المرأة في حياة الأديب

(على ذكر مقال للأستاذ توفيق الحكيم)

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

كتب الأستاذ توفيق الحكيم مقالاً في مجلة الثقافة عن المرأة في حياة الأدباء، أو لا أدري ماذا كان العنوان على وجه الدقة فقد غاب عني عدد الثقافة تحت أكداس من الورق والكتب والمجلات. وفي هذا المقال يذكر (أو يقرر) أن كل أديب أو كل عظيم لا بد أن تكون في حياته امرأة؛ وهو يعنى بالمرأة (على ما يؤخذ من ظاهر المقال إلا إذا كان له معنى أعمق خفي علي) امرأة معشوقة، أي امرأة تكون علاقة الرجل بها جنسية، شرعية كانت أو غير شرعية. وقد ذكر من أبناء الشرق السيدة خديجة ونبينا عليه الصلاة والسلام، ثم طوى كل هذه القرون التي مضت ووثب إلى الدكتور طه حسين ثم إلى الأستاذ أحمد أمين ثم إلى الأستاذ العقاد، وعين المرأة التي يراها في حياة كل منهم؛ ثم قال عني إن (الكذب) هبتي (يعني الخيال والاختراع وإن كان التعبير (بالكذب) غير موفق) وقال إن الخيال يختلط بالحقيقة في كتابتي حتى ليتعذر الاهتداء إلى المرأة التي كان لها تأثير في حياتي، ولكنه أعرب عن يقينه أن في حياتي امرأة (ما في هذا ريب عنده). وقد اغتنمت فرصة كتاب جديد له (راقصة المعبد) تفضل فأهدى إلى نسخة منه فكتبت إليه كلمة وجيزة في الموضوع على سبيل التصحيح؛ ولكني أرى هنا أن أتناول الموضوع من ناحية أعم

وأنا أولاً لا أرتاح إلى هذا التناول لحيوات الناس الخاصة. وليس كونهم أدباء أو مشهورين لسبب ما، بمجيز في رأيي أن نجعل من حياتهم الخاصة وأحوالهم الشخصية (معرضاً)؛ وهذا عندي فضول أكرهه وأقل ما فيه أنه يُفقد المرء حريته واستقلاله. وإذا كنت أروى كثيراً مما أكتب على لساني وأورده بضمير المتكلم فليس معنى هذا أن ما أرويه وقع لي وإنما معناه أني أرتاح إلى هذا الأسلوب في القصة وأراه أعون لي على تمثّل ما أحاول وصفه وتصويره. فليس فيما أروي شيء شخصي، وكثيراً ما نبهت إلى هذا، ولكني أهمله أحيانا اعتماداً على فطنة القارئ

ثم إني ثانياً لا أرى الأستاذ توفيق الحكيم موفقاً في رأيه، فليس ضروري أن يكون للرجل امرأة في حياته أو للمرأة رجل في حياتها، أي أن تكون هذه المرأة المعينة هي التي وجهت حياته وجهتها وأثرت فيها تأثيراً جعلها كما هي. والقول بذلك لا يخرج في الحقيقة عن أن يكون مظهر تقليد لبعض ما يكتبه الغربيون. وقد ذكر الأستاذ توفيق السيدة خديجة ونبينا عليه الصلاة والسلام على سبيل التمثيل، واراه في هذا المثال مبالغاً فما تزوج النبي السيدة خديجة لأنه عشقها، بل الذي حدث هو أنه عمل لها في مالها وتجارتها فأعجبت بأمانته وسرها حسن سيرته واستقامته فرغبت هي أن يكون زوجها. وجاءه رسول يدعوه إلى ذلك أو يقترحه عليه وكان هو يعرف لها فضائلها فقبل. وكانت له نعم الزوجة الحكيمة الوفية الرزينة المخلصة. ولكنه ليس هناك عشق بالمعنى المعهود، ولا يمكن أن يقال إنها وجهته أو أثرت في حياته التأثير الذي يقصده الأستاذ توفيق حين يذكر المرأة في حياة الرجل، وإن كان غير منكور أنها كانت إلى حد عامل استقرار وأمن وراحة في حياة النبي. وقد سألت الأستاذ توفيق في كتابي الخاص إليه عن المرأة المعينة في الحياة المتنبي أو أبي العلاء أو الشريف الرضي؛ ولا بأس من

سؤاله أيضا عن هذه المرأة المعينة في حياة أبي نواس وبشار ومن إليهما. كلا. ليس من الضروري أن تكون في حياة الأديب امرأة معينة بالمعنى الجنسي وإن كانت حياة الرجل لا يمكن أن تخلو من المرأة على العموم. وفرق بين الأمرين. على أن كل شيء في الحياة ليس عند الأديب أكثر من (مادة) وإن كان الأمر في بعض الأحيان يبدو غير ذلك عند النظر السطحي أو السريع

وقد جعل الأستاذ توفيق مزيتي أو هبتي (الكذب) وأنا أشكر له أن رأى لي مزية أو هبة، ولو كانت (الكذب)؛ وإذا كنت أخلط الخيال بالحقيقة فإني أحسب أن هذا لا مفر منه، ولا أدب إلا به. وما أظن الأستاذ توفيق نفسه يفعل غير ذلك أو يشذ عنا معشر الأدباء (الكذابين). فما كان الأديب قط ولن يكون عدسة آلة تصوير. وإذا كان الأستاذ توفيق يظن أن الأستاذ العقاد لم يفعل في رواية (سارة) أكثر من أن يروي حادثة كما وقعت فإنه يكون قد ركب من الوهم شرَّ الحُمُر؛ فإن مزية (سارة) الغوص في لجة النفس لا الحكاية بمجردها، والكشف عن أخفى خفاياها، والتحليل الدقيق للخواطر والخوالج الخ. ولا قيمة لكون القصة حقيقية أو غير حقيقية وإلا هبطنا بالأدب إلى الإعلانات التي يقول فيها أصحابها إن القصص التي ينشرونها في مجلاتهم وقعت فعلاً وليس ما يمنع أن تكون في حياة الأديب أو سواه (امرأة) معينة، ولكنه ليس من الحتم أن

تكون هذه المرأة المعينة زوجة أو خليلة، أي معشوقة على العموم، ولا أن تكون العلاقة بها علاقة جنسية فقد تكون أمًّا أو أختاً أو صديقة أو بنتاً. وقد كانت في حياتي امرأة دللتُ الأستاذ توفيق عليها في رسالتي إليه وهي أمي، فقد كانت أمي وأبي وصديقتي، وليس هذا لأنه لم يكن لي أب، فقد كان لي أب كغيري من الناس، ولكنه آثر أن يموت في حداثتي، فصارت أمي هي الأب والأم، ثم صارت على الأيام الصديق والروح الملهم. وقد استنفدت أمي عاطفتَيْ الحب والإجلال، فلم تُبق لي حباً أستطيع أن أفيضه على إنسان آخر، أو إجلالاً لسواها. ومثلي في ذلك كمثل من يمص عوداً من القصب ويعتصر كل مائه، فلا يبقى من العود بعد ذلك إلا الحطب الذي لا يصلح إلا للوقود. ومن هنا عجزي عن الحب بالمعنى الشائع. نعم أستطيع أن أصادق واصفوا بالود، ولكن العشق على مثال مجنون ليلى أو كما يصفه لنا الشعراء حال لا قبل لي بها ولا طاقة لي عليها لأن ذخيرتي من هذه العاطفة نفدت وليس في وسع نفسي أن تبذل هذا المجهود مرة أخرى

ومع ذلك أقول إني أرى في عاطفتي لأمي غير قليل من جهد الخيال وإرادة النفس، وهي في الأصل ولا شك عاطفة صادقة قوية ولكنه يخيل إليَّ أني غذيتها وقويتها بالإيحاء المستمر إلى النفس، لأني كالخروف دائم الاجترار لما في جوفي. واحسب أن العاطفة قد راقتني وفتنتني إلى حد ما، أو أني وجدت فيها ريًّا لنفسي أنشده فأخطئه، فتعلقت بها وضخمت أمرها، وقويتها بالدؤوب في الإيحاء كما تقوى النار بالحطب حتى استغرقت نفسي كلها وعمرت صدري أجمعه وما أظن إلا أن هذا سبيل كل إنسان فإنه لا يفتأ يقوي عواطفه المختلفة من حب وبغض الخ بالإيحاء وإن كان هو لا يشعر بذلك ولا يفطن إليه

فإذا كان لابد من امرأة في حياة الأديب فهذه امرأة، أفلا تكفي الأستاذ الحكيم؟.

ولست بعد هذا (عدواً للمرأة) كالأستاذ توفيق إذا صح هذا عنه، ولم يكن أكثر من إعلان على الطريقة الأمريكية - معذرة يا صاحبي - وأنا أنشدها أبداً ولا أرى الحياة تطيب، أو يكون لها معنى إلا بها، ولكني لا أطمعها في الحب المستغرق الآخذ بالكلْيَتين، لأنه لا قدرة لي على ذلك، ولأني أشد اعتزازاً بحريتي وحرصاً على استقلال شخصيتي من أن أسمح بأن تتسرب نفسي في نفس أخرى أو تفنى فيها أو تجعلها محور وجودها. ولكل امرئ منا طباعه وفطرته، وأنا في طباعي هذا التمرد الساكن الذي ليس فيه ضجة، وتغليق الأبواب التي تجيء منها الريح لأستريح. ثم أنه لا يعنيني أن تكون في حياتي امرأة أو سواها لأكون أديباً على ما يحب الأستاذ توفيق، وأنا قانع بنفسي، جداً. ولست بعد ذلك بأديب وإنما أنا رجل صناعته القلم، وقد قلت مرات - وأكرر الآن - إني كالنجار الذي فتح دكانا وعرض فيه بضاعة له مما صنع فذاك رزقه يكسبه بهذه الوسيلة، وكهذا النجار تجد عندي الخشب الجيد المتين، والصنعة الدقيقة والخشب الأبيض والقشرة والصقل

المغني عن النفاسة حسب الطلب وتبعاً لحالة السوق ومبلغ استعداد الزباين للبذل. فضعني بالله حيث أضع نفسي واكفني شر الفلسفات، وإليك التحية وعليك السلام.

إبراهيم عبد القادر المازني

من برجنا العاجي

قرأت لك في مقال أنك تساعد ناشئة الأدب. واشترطت لذلك شروطاً. وإني راض بها واليك ما يزيدك معرفة بي: أني قراض تذاكر. أجري ضئيل يبلغ 120مليماً في اليوم. وإطلاعي محدود. وذلك ناتج عن فقري. لا أقرأ غير الرسالة والرواية والثقافة. ولم أقرأ من الكتب غير بعض مؤلفات المنفلوطي وكتب أخرى. وكانت كتاباتي جيدة في الموضوعات الخيالية فقط. ولكني منذ بدأت أتأثر بكم تغلبت طريقتكم علي. وأنا قوي الذاكرة وأميل إلى التفكير. وأستطيع أن انفق في شراء الكتب الأدبية ما يقرب من نصف الجنيه شهرياً كما أني أستطيع أن أختلس للأدب خمس ساعات يومياً. لعل في هذه الإيضاحات ما يهون عليكم أمر مساعدتي على السير في طريق الأدب الذي تصفونه بأنه وعر شائك. ولقد زاد إغرائي به ما نشرتموه في (الرسالة) من تحذير للشبان من الاشتغال به في هذا العصر. . .!

نشرت هذه الرسالة التي جاءتني ضمن عشرات الرسائل في هذا الموضوع لسبب واحد: هو عجبي وإعجابي بقارىء تلك حاله. يبذل عن طيب خاطر سدس مرتبه الشهري وقسطا وافراً من وقته في سبيل الأدب. إنه ذكرني بقراء أوربا. أولئك الذين يخصصون جزءاً ثابتاً في ميزانياتهم للكتب ووقتاً منتظماً معلوماً للقراءة. مثل هؤلاء القراء هم الذين قامت على أكتافهم نهضات أوربا الأدبية. وهم الذين ظهر من بينهم أدباء أوربا العظام. فأن الأديب لا يتخرج في مدرسة. إنما ينبت في حقل الكتب والمطالعات الشخصية. وفي الأدب الفرنسي الحديث مثل صارخ لأديب من أصل بلقاني هو: (بانايت استراتي) لم يكن يعرف الفرنسية ولكنه غرق سنوات في المطالعة وضنّ بماله القليل على الطعام وأنفقه في شراء كتب جعل يلتهم صفحاتها التهاماً. وإذا هو في يوم من الأيام قد استطاع الكتابة بالفرنسية وإذا هو كاتب معروف يربح من كتبه الألوف. أعطوني إذن ألفين من طراز هذا القارئ وأنا أضمن لمصر نهضة أدبية رائعة وأدباء جددا يسيرون في طريق المجد.

توفيق الحكيم

التفاؤل والتشاؤم في الشعر

للأستاذ عبد الرحمن شكري

إذا درس الإنسان في التاريخ اندثار الحضارات والأمم وتمكنت تلك الدراسة من نفسه لا يروعه زوال عمل عمره كما كان يروعه لو لم تتمكن ذكرى مشاهد ذلك الاندثار من نفسه، ومن أجل ذلك كنت قد طبت نفساً عما بذلت من جهد وعمل في الأدب وفي غير الأدب. لكن بعض الأفاضل لا يكتفون مني بذلك بل يريدون أن يغالوا في انتقاص ما قدَّمت من عمل، وبعضهم لا يكتفي بانتقاص عملي ويأبى إلا أن يتخطاه إليَّ. وليسوا كلهم من هذا القبيل، فبعضهم أو أكثرهم يستهويه غيره فيتكلم أو يبدأ في منطقه وتفكيره من العام إلى الخاص فيضع رأياً نظرياً أولاً ثم يلتمس الشواهد ويفسر الأمور على أن تكون أدلة لرأيه، وكان الأليق به أن يتقصى معرفة الأمور أولاً ويستخلص من شواهدها الشاملة الكاملة رأياً. لكن حضرات الأفاضل النقاد كثيراً ما يخادعون أنفسهم ويظهرون الغيرة على الرأي لا حباً للحق وللصواب.

والذي يريد أن يضع رأياً ثابتاً عاماً، إن كان في هذا الوجود أمر ثابت لا يتغير، ينبغي له أن يُفْنِي جزءاً كبيراً من عمره للتقصي والبحث والإلمام بكل ناحية من نواحي الموضوع حتى لا يكون حكمه مخطئاً. والأساتذة الأفاضل الشبان يحسبون أنهم قد قتلوا الموضوع بحثاً وأن إدراكهم له أكثر من إدراك الشيوخ؛ فهم إذا تكلموا عن التفاؤل والتشاؤم في قول - ناثر أو شاعر لم يميزوا بين أثر الحالات العارضة الزائلة، وبين نظره إلى مستقبل الإنسانية؛ ولم يفرقوا بين التشاؤم الذي هو تثبيط وبين التشاؤم الذي هو استحثاث للهمم؛ ويحسبون أن كل وصف للشقاء تشاؤم كأنهم لا يعرفون أن الغفلة عنه والتفاؤل بها هو تشاؤم أحَرُّ من التشاؤم، ويخلطون بين ما تظهره الدراسات النفسية السيكولوجية من حقائق مُرة وبين التشاؤم. كأنهم يريدون أن يبقى الناس على جهلهم بنفوسهم، وهذا هو التشاؤم حقاً؛ وإنما يكون التفاؤل أن

تعرف النفس نفسها، وأن يكون لهذه الدراسة والمعرفة أثر في صلاحها ورقيها؛ وهم أيضاً لا يميزون بين ما قد يدعو إليه شعر العاطفة والدراسات النفسية من وصف حالات النفوس على اختلاف تلك الحالات من حسنة وكريهة، لا دعوة للتثبيط بل دعوة إلى أن يكون الشعر شعراً حيًّا لا أدباً ميتاً متكلفاً للتفاؤل ومكفناً به. ولا يميز هؤلاء الأفاضل بين يأس العجز والقنوط والتراخي، ولا بين يأس الاستبسال الذي هو قوة تفوق أمل أحلام المخدرات وأماني ذوات الخمار. والذي يدعو إلى التشاؤم حقاً هو أن تنُشر في الرسالة قصيدة (العصر الذهبي) التي نظمت لتمجيد جهود الإنسانية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها، ومحاولتها تحقيق ذلك العصر الذهبي الذي نحلم به؛ وقصيدة (نحو الفجر) التي جُعل الفجر في آخرها رمزاً لفجر مستقبل للإنسانية؛ وقصيدة: (شهداء الإنسانية) التي تدعو إلى نصرة من ضحوا بحياتهم وسعادتهم في خدمتها، وإنما يكون الانتصار لهم بالانتصار للمُثل العليا التي ضحوا بحياتهم وسعادتهم لتحقيقها؛ وقصيدة (الشباب) التي تعبر عن أمل الإنسانية في جهود الشباب وآماله وأحلامه؛ وقصيدة (الباحث) الذي خلده البحث والأمل، والذي ينشر للإنسانية الحق والرقي؛ وقصيدة (إلى المجهول) التي تدعو إلى تقصِّي أسرار الحياة والخليقة؛ أقول مما يدعو إلى التشاؤم حقاً أن يأتي إلى قراء الرسالة كاتب يقول: إني أدعو إلى التشاؤم بعد ما نشرت فيها. وليست هذه كل قصائد الأمل؛ فقد نُشر فيها أيضا قصيدة: (الأمل) الطويلة في وصف آثار الأمل في الحياة. وقصيدة: (النجاح) و (فن الحياة) تقديساً لمسرات الفنون والحياة وجعلها فناً في جميع مظاهرها، وقصيدة (سر الحياة) وفي آخرها إظهار عبث الشكوى منها، وأن الشكوى ليست مؤسسة على حقيقة ثابتة، بل على حالة نفسية. ونُشر لي في الرسالة في وصف محاسن مشاهد الكون والحياة: (ليلة حوراء) وبين الجمال والجلال) و (الفصول) و (سحر الطبيعة) و (على بحر مويس) و (الصحراء). . . الخ. ومما يدعو إلى التشاؤم حقاً أن يكتب الأديب الفاضل في المقتطف لقراء المقتطف: أني أدعو إلى التشاؤم وقد نُشر لي فيها: (بين الحق والحسن) وهي وصف للصراع النفسي بين نشدان الجمال وطلب الحقيقة؛ وفي آخرها ذكر أن طلب الحقيقة في الحياة والحياة نفسها لا يدومان إلا مع نشدان الجمال فيها. ونشر لي فيها أيضاً قصيدة (قيد الماضي) وهي دعوة للإنسانية أن تأخذ من الماضي عظاته، وألا تتقيد بطباع الأثرة والأحقاد التي خلفتها الدهور الطويلة. ونشر لي فيها قصيدة: (النشوء والارتقاء) وهي دعوة لمساعدة هذه السُّنة في الأمور النفسية والخلقية كما سرت وتسري في الأمور العقلية. ونشر لي فيها أيضاً قصيدة (أمنيتان للنفس) وفي الأمنية الثانية أي طلب القوة كل أمل ولذة في الحياة. ونُشر في المقطم قصيدة (الأبد في ساعة) وهي دعوة إلى استرسال النفس في مطالبها غير المحدودة. لقد كنت أفهم قول الدكتور أدهم لو نقد ما نُشر لي قائلاً إنه دعوة إلى التفاؤل بولغ فيها وغولِيَ بها؛ وقديماً قد ميزت بين أمل وأمل ويأس ويأس، فقلت في الجزء الثاني: إن أمل الغفلة والأثرة وقلة الاهتمام بشؤون الإنسانية هو أمل مخضب بالدم:

هل يَنْفعنِّي ذلك ال ... أملُ المُخَضّبُ بالدم
يدحو شقاء الأبريا ... ء وينثني لم يُكْلَمِ

وميزت بين يأس الكسل والعجز والخمول ويأس السخط والمساورة:

وفي اليأس يأس يبعث المرء بعثة ... إلى الغاية القصوى من السعي والجد

وقلت إن الخير أغلب على الإنسان:

صَرَّحَ الخير والأذى ... فيه والخير أغلبُ
فإلى العُجْمِ نسبة ... والى الله يُنْسَبُ

وقلت إن الأمل والعمل من صفات العظمة:

أعاظم الناس في اللأواء كم صبروا ... إن العظيم عظيم السعي والأمل

وقلت إن الأمل هو حسن الحياة:

كأن حياة المرء حسناء أرمل ... إذا قيل ساءت حالها طاب حالها
لها شافع يدعو إلى الحزن حكمه ... وآخر يخشى أن يزول جمالها

وقلت إن ألم النفس قد يكون حلية لها:

ألم تَرَ أنَّ القُرْطَ ليس بحلية ... على الأذْنِ حتى تؤلم الأذن بالثقب

وإن الآمال النبيلة هي دواء الشر والشقاء ومبعث إلى الرقي:
آمال تنْسى الفتى شقاوته ... وتُعْدِم الشر أي إعدام
تسمو بنفس المحب عن دَنَس ... فيها ولؤم جَمٍّ وأوغام
وفي قصيدة أخرى:
يرقى الوجود بعيش الصالحين له ... من ليس يدركهم عجز ولا كلَلُ
إن الحياة جهاد لا خفاء به ... فليس يُفلح إلا الأغلب البطل
وفي أخرى:
وعِشْ مع هذا الكون كَوْناً مُعَظَّما ... وكُنْ في قواه بين ناهٍ وآمر
وفي أخرى:
فإني رأيت النفس كالأفْق بَهْوُها ... تسير بها الآمال سير الكواكب
وفي قصيدة (المجاهد الجريح):
ولا أشتكي أني جرعت مريرها ... فيا ليت عمراً في الحياة يعادُ
فأجرع منه الحلو والمر إنما ... مشارب من يهوى الحياة يرادُ
جهلنا فما ندري على العيش ما الذي ... يراد بعيش نحن فيه نُقَادُ
سوى أن عيش المرء بالشك فاسد ... وأن يقيناً في الحياة رشادُ
وعلى ذكر (المجاهد الجريح)، أقول إن أكثر عنوانات قصائدي يدل على الدعوة إلى الأمل كما يتضح من ذكر ما ذكرت من القصائد وما لم أذكر كالإيمان والقضاء والحياة والعمل والعظيم والبطل وقوة الفكر والكونان وعلالة العيش والمثل الأعلى وخلود التجارب والملأ الأعلى وزورة الملائكة
ففي قصيدة (الحياة والحق):
لولا فروض العيش لم أعبأ له ... جيشاً من الآراء والعزمات
إن التجارب كالأزاهر جمة ... أو ما اغتفرت الشوك للزهرات
يا قلب لا يُغْنيك ذعرك للأسى ... فالخوف أول مهبط المهواة
وفي (العيش والرجاء):
لو أدرك الإنسان آماله ... وصابه منها كقطر المطر
ولم يَعُدْ يعرف ما يبتغي ... ولم يجد في العيش ما يُنتَظَر
لكان أشقى الناس في عيشِهِ ... حتى تقول النفس أين المفر
لا عيش إلا بِطِلاب المنى ... لولا المُنَى في عيشه لانتحر
وفي قصيدة (مرحباً بالأقدار):
أدِرْ عليَّ كؤوس العيش قاطبة ... سعد ونحسٌ وإهوان وإكرام
إلى:
هذي مرارة كأس لذ شاربها ... خمارها فهو عَبَّاسٌ وبَسَّامُ
وفي خلود التجارب:
وما العيش إلا حكمة وتهادن ... فتخلط مجهولاً لديه بمعلوم
وتخلط حلواً في الحياة بحنظلٍ ... وتأخذ من عيشٍ حميدٍ ومذموم
وقد صحَّ أن الجد يُلهى عن الأسى ... وإنْ كان جداً لا يجيء بمغنوم
وفي قصيدة المثل الأعلى:
والعيش إنْ لم تَبْغِهِ لعظيمة ... فالعيش حُلْمُ طوارق الأعوام
والنفس إمَّا شئتَ كانت عالماً ... يسع الدنى في طوله المترامي
وفي قصيدة الملأ الأعلى:
مرحباً بالملأ الأعلى الذي ... شرفت داريَ منه والفِناء
أَسعدوني أقتبس من نوركم ... بُلغة النفس وريّاً للظماء
طهرت نفسيَ في أضوائكم ... مثلما تطهر أجسام بماء
وشممتُ الخلد من أنفاسكم ... نفس يشفى من الداء العياء
وأرى في النفس رسماً منكُم ... مثل رسم النجم في متن النِّهاء
وعبيراً كشذى الأزهار إنْ ... خَلَّفَتْ في الأنف ذِكْرَى كالذِّماء
وفي الملك الثائر:
والشر والخير لا يُرْجَى افتراقهما ... فارفض إذا اسْطَعْتَ نعمائي ولذاتي
حتى العقول وحتى الفضل أجمعه ... ولذة النفس في بذل المروءات

وحتى قصيدة الموت جُعِل الموت باعثاً للأمل:
وهيهات أن يسلو عن العيش جازع ... من العيش حتى يصبح العيش ماضيا
وحتى يموت الحب والذِّكْرُ والمُنى ... وتتلو نواعي الشائقات المناعيا
وحتى يموت الموت لولاه ما بكى ... حريصٌ على دنياه يخشى المرازيا
وفي قصيدة (طيرة الفرخ):
فَسَلْ قلب الشهيد عن البلايا ... يُخَبِّرْكَ الشهيد عن الحبور
وفي قصيدة (الشجر والغراب):
إذا أنت ما ذقتَ مِنْ صُرِّها ... أتعرف ما الخير مِنْ شَرِّها
وفي الصبر صبرٌ يُريكَ الدنى ... كأنك رُقِّعتَ عن أمرها
وفي قصيدة (أصبر):
اصبر لعل النحس في لونه ... إذا دجا ظِلٌ لدانى النعيم
لعل دمعا منك لم تَحْتَسِبْ ... يُنْبِتُ زهرا في اليباب العقيم
لعل دمع النحس در له ... يُسْلَكُ في عقد الرخاء النظيم
كم خيبة تعقد عزم الفتى ... للنهر لولا الصخر خطو السقيم
وفي (علاله العيش):
وإن ضياء العيش يزهو رواؤه ... لأنْ حاطه بين الأنام ظلام
وأما وصف محاسن الكون والطبيعة، ففيه قصائد كثيرة مثل (سحر الربيع) و (خميلة الحب) و (الفصول) و (ليلة حوراء) الخ.
ولو أن الأستاذ الفاضل تقصى كل ما كتبت من نثر وشعر لعلم أن ثقافتي غير مقصورة على مذهب واحد، ولا أحتذي احتذاء أعمى، وإنه حتى القصائد التي بها وصف الشقاء أو مقابح النفس أو الموت أكثرها به أيضاً وصف محاسن الحياة. وإذا كنت قد أخطأت الذوق الفني الصحيح في دراسةٍ نفسيةٍ فهذا من خطأ المبتدئ المغالي الذي أراد أن يقلب الأدب من صناعة فحسب إلى دراسات سيكولوجية ربما لا يعجب بها الأستاذ؛ وربما كان من الخطأ عملها والأستاذ أوسع ثقافة من ألا يرى تعدد مذاهب الثقافة في قولي حتى يقصره على مذهب واحد شأن الذي لم يطلع عليه. وإذا لم يكتف الناقد الفاضل بهذه الشواهد والقصائد العديدة ذكرنا له غيرها، وليس أربنا تخليد قولنا، فقد رضينا باندثاره لو رضى أمثال الناقد الفاضل. وقد كنا هجرنا الكتابة والنشر من سنة 1918 إلى سنة 1935 وما عدنا إلا بسبب التحرش من ناحية، والتأنيب من ناحية أخرى.

عبد الرحمن شكري

أعلام الأدب

بين أرستوفان ويوريبيدز

وبين يوريبيدز والمرآة

للأستاذ دريني خشبة

كان يوريبيدز شذوذاً كبيراً في العصر الذي كان يعيش فيه. . . لقد كان ثورة جامحة هدامة لا تدع شيئاً إلا أتت عليه، ولا ترى شيئاً يقدسه الناس إلا سخرت منه واستهزأت به وتهكمت عليه. . . وكانت سخريته مع ذاك لاذعة ضارية لا يهمها أن تكون وحدها في جانب وكل أعدائها وهم جمهور الأثينيين أو كثرتهم الساحقة في جانب أخر

وكان الناس حزبين في يوريبيدز: كثرة محافظة من الرعاع ورجال السياسة والتجار يسوؤها أن تهان آلهتها وتستباح تقاليدها فهي ضده وهي تكرهه وهي تنقم عليه وتهزأ به وتسخر منه كما يسخر منها، ولكن على طريقتها البورجوازية في السخرية والاستهزاء. . . وكانت مع ذاك تتخذه هُزُواً وتجري وراء أرستوفان كيما يضحكها عليه، ويؤلف لها المهازل في ثلبه والطعن عليه والتشهير به وتسفيهه ونهش عرضه وإرسال لسانه في أبيه وفي أمه على السواء. . . وقلة مستنيرة مثقفة كانت تعرف ليوريبيدز حقه، وكانت تؤمن بأنه صاحب رسالة عالية ستعود بالخير الجزيل على الإنسانية في كل زمان ومكان، وستظل مَعيناً نَميراً سائغاً يقبل عليه الظماء فيروون منه ويعالجون آلامهم ويلتذون فيه الأدب والفن والفكر والجمال والعبقرية

لكن هذه القلة كانت تخشى الرعاع الناقمين على يوريبيدز، وحق لها أن تخشاهم لأنهم ليسوا رعاعاً جَهَلة مثل رعاعنا، بل كانوا رعاعاً متعلمين، لأنه لم يكن في أثينا في

عصر يوريبيدز رجل واحد غير متعلم!
كانت هذه القلة إذن لا تستطيع أن تنفع يوريبيدز العظيم، لأن الرعاع الذين يؤلفون كثرة الجمهور الأثيني وجدوا لهم شاعراً آخر لا يقل عبقرية عن يوريبيدز، لكنه شاعر جامد مغلق التفكير محافظ أشد المحافظة على تراث السلف، فكان يؤلف كوميدياته في الطعن على شاعر القلة المهذبة المستنيرة والنيل منه والإزراء بأدبه وتفكيره، وكان يجد جمهوراً
كثيراً ضخماً يصفق له ويقبل عليه، ويستزيده من ذلك التضحيك المؤلم المرير الذي كان يعصف بنفس يوريبيدز؛ وكان ذلك الجمهور يدفع مع كل هذا ثمن التضحيك والسخرية أموالاً جمة ضخمة، فإذا شهد التمثيل خرج نشوان بما سمع، ثملاً بما رأى، وراح يجادل في مُثُل يوريبيدز من غير هدى ولا برهان مبين. . . إلا هذه النكات التي صنعها فيه أرستوفان، وصنعها شائكة نافذة حامية، وإلا هذه المشاهد التي تظهر فيها الحمير على المسرح ويظهر فيها أقرباء يوريبيدز من الرجال المحترمين متنكرين في زي النساء الساقطات اللائى لا أخلاق لهن، حتى إذا عرف الجمهور حقيقتهن أغرق في ضحك طويل مرير وانطلق يصفق ويصفر وهو يقبض على الكبود والقلوب من كثرة الضحك وشدته
وكانت النساء في أثينا من حزب أرستوفان على يوريبيدز، لما كن ينقمن منه تناوله حياتهن الخاصة في دراما ته تناولاً لم يكن سائغاً في ذلك العصر، بل كان تمزيقاً للحجب الكثيفة التي كن يعشن وراءها قابعات في الخدور أو مقصورات في الخيام، مما عددنه منه قلة أدب وقلة وحياء وقلة ذوق، بل قلة في كل مظهر من مظاهر الفضيلة والحفاظ، وسنة السلف الصالح.
لقد كانت مِسِزْ جراندي التي هيمنت طوال العصر الفكتوري على المنزل الإنجليزي وعلى الفتاة الإنجليزية تهيمن بشدة وعنف على المنزل الأثيني والفتاة الأثينية. . . والمسز جراندي هي تلك العجوز الشمطاء المتزمتة التي كانت تكره للفتاة الإنجليزية كل تقدم وكل رقي، وكل ثورة على العرف، وخروج على التقاليد، وكانت تفرض سلطانها على البيئة الإنجليزية فتحترم وتطاع احتراماً كلياً وطاعة عمياء. وكان الوسط الإنجليزي يقدس أوامر مسز جراندي ويأخذ بها نفسه، ومسز جراندي مع ذلك شخص خرافي لا وجود له، لكنها كانت تمثل التقاليد الإنجليزية الموروثة بحيث لا تسمح لأحد بالثورة عليها. فإذا ظهر أديب مثل يوريبيدز لا يبالي سنة السلف صاحت برعاياها أن حذار، ثم سلطت عليه السفهاء الجامدين من أمثال أرستوفان يشعبذون عليه، ويسخرون به، لكنها شعبذة لم تكن قط تبلغ عشر معشار ما بلغت شعبذة مسز جراندي في البيئة الأثينية. . . وكان يثير مسز جراندي الأثينية على يوريبيدز ما كان يبديه هو من ثورة على التقاليد التي كانت تفرضها مسز جراندي على قومه. . . فلقد كان يتناول في دراماته العلاقات الشائكة بين المرأة والمرأة،
والعذراء والعذراء والمرأة والرجل، بل غالى مغالاةً مخيفة فتناول موضوع الميل الجنسي الشاذ عند الذكور في درامته المفقودة (خريسبُّوس)، وموضوع الصبوة الزوجية في مثل مأساة امرأة عزيز مصر مع النبي يوسف في مأساته هيبُّوليتوس - التي سنلخصها للقراء - والتي عالج فيها مشكلة الطلاق، ومأساته المفقودة (ستينبويا) التي عالج فيها المشكلتين معاً.
وكان يوريبيدز لا يستحي في معالجته هذه المشكلات أن يستشهد بتجاريبه هو، وأن يطبقها تطبيقاً صريحاً، ولكنه تطبيق علمي سيكولوجي. كان له الفضل في ابتداعه ومحاربة الخجل الذي يخفي بسلاحه، ولذلك أطلقوا على يوريبيدز (إبسن القديم) إشارة إلى المسرحي العظيم هنريك إبسن الذي نقل الرواية التمثيلية من عالمها الرومانتيكي إلى عالم الحقيقة والواقع في عصرنا الحديث. . .
لقد كان يوريبيدز شذوذاً كبيراً في العصر الذي كان يعيش فيه، ولقد كان كما قدمنا ثورة جامحة على تقاليد عصره، ولن ينسى التاريخ يوم جال أرستوفان وصال، وراح يستصرخ نساء أثينا عليه، ويغري بينه وبينهن العداوة والبغضاء، ويهتف بهن أن يثأرن من يوريبيدز لشرفهن وحفاظهن وتقاليدهن استباحها جميعاً في مأساته (ميديا) تلك المأساة التي كانت نجاحاً رائعاً ليوريبيدز؛ بل كانت تكفي وحدها لتخليد الاسم الذي يتشرف بأنه اسم مؤلفها. ومع ذاك فقد انتصر الجمود عليها، وظفرت الرجعية الذميمة

بها، فسقطت سقوطاً شنيعاً بعد العرض الأول
قال جيته: (لا أدري إذا كان أي مسرحي في أية أمة خليقاً أن يحمل نَعليْ يوريبيدز فيقدمهما إليه!!)
كلمة ساخرة من جيته!! وقد أرسلها في أعداء يوريبيدز، وناقدي دراماته وخص بها قبل كل شيء عدوه الأكبر أرستوفان لكن أرستوفان، وإن يكن أديباً رجعياً شديد المحافظة على تراث السلف الصالح، إلا أنه كان موضع إعزاز أفلاطون. وأفلاطون لا يجعل أحداً موضع إعزازه عبثاً. فقد كان يشهد لأرستوفان أنه وحده الذي عرف قيمة الحياة. فضحك ثم ضحك ثم ضحك. وجذب إليه الناس ليضحكهم عليها وعلى الحقيقة وعلى يوريبيدز!
والآن، ما هي ميديا هذه التي أحفظت نساء أثينا على يوريبيدز والتي استغلها أرستوفان في
إعلان الحرب على الرجل الذي ألهمه فنه إذ هو طفل أو غلام في السادسة عشرة حينما كان يذهب إلى المسرح في حرقة وتشوق للتمتع بدرامات يوريبيدز؟ إنها مأساة دامية تذيب نياط القلوب بما حشده فيها يوريبيدز من العواطف المتضادة المتنافرة، وألوان القسوة التي لا تتورع المرأة من ارتكابها في سبيل لذتها وحبها. إنها مأساة مشتقة من خرافة جاسون التي لخصناها للقراء منذ عامين. ثم هي حلقة مكملة لمأساة أخرى نظمها يوريبيدز في التاسعة والعشرين وسماها: بنات بلياس
وجاسون ابن ملك تساليا هو بطل الدرامتين، وقد كان له عم يدعى بلياس طمع في الملك واستعان على أخيه بجيش أجنبي فخلعه وتولى هو مكانه. ثم قبض على الملك وزوجه وأقام عليهما رقابة شديدة صارمة. وأرسل الملك المخلوع ولده الطفل جاسون إلى السنتور الخرافي شيرون ليعلمه الفروسية. حتى إذا شب ذكر له ما كان من عمه مع والديه، وأهاب به أن يثأر لهما ولنفسه وأن يخلع ويتربع هو على العرش لأنه به أحق. وعاد جاسون بعد إذ استوى عوده وزوده أستاذه بالنصائح الغالية، وأوصاه بمكارم الأخلاق، وأن يحترم كلمته ويبر بوعده. وقد فوجئ بلياس الظالم بحضور ابن أخيه، وكانت نبوءة قد حذّرته منه لأنه سيكون سبب قتله، فلما طلب إليه جاسون أن يخلي له مكانه من الملك عمد بلياس إلى الحيلة، فانتهز فرصة غناء المطربين، وإنشاد المنشدين في حَفل كان قد أقامه لعقر القرابين للآلهة، ولفت انتباه جاسون إلى قصة الفروة الذهبية التي يحتفظ بها الملك إيتيس - ملك البربر ووالد ميديا - وحرضه على الحصول عليها. واستثار فيه نخوة الشباب وخيلاءه، فوعده جاسون بها. وبعد مجازفات وصعاب ومحن وصل جاسون إلى الملك إيتيس حيث لقيته ميديا فمالت إليه؛ بل جنت به، حتى إذا عرفت ما جاء له وعدته بالمساعدة، وكانت تعرف من فنون السحر ما تتغلب به على كل محال. فأعدت له مخدّراً أدناه من التنين الهائل الذي كان يحرس الفروة الذهبية فاستغرق في سبات عميق. وذبحه جاسون وحمل الفروة الذهبية وفر بها مصطحباً ميديا وأخاها الصغير أبستروس حتى إذا كانوا عند البحر ركبوا في السفينة التي أعدها جاسون لهذا الغرض - وكان اسمها الآرجو - فأقلعت بهم تحت جنح الظلام وفي الصباح اكتشف الملك إيتيس الأمر فجن جنونه لفرار ابنته، ثم لأنها صحبت معها ولي عهده وولده الأوحد أبستروس، ثم لضياع كنزه الثمين الذي لا يقدر بملء الأرض ذهباً. . . فيعد سفينة عظيمة ويبحر في نفر من صفوة بحارته وأجناده في إثر الآرجو. . . وتمضي بضعة أيام، وتدنو سفينة الملك من الآرجو حتى تكاد تلحق بها، فيشتد ذعر ميديا، ولا تصغي إلى توسلات أبيها الذي تعتقد أنه معذبها أشد العذاب إذا وقعت في يديه أو استسلمت إليه. . . وهنا تذبح أخاها ولي العهد وتقطعه إرباً ثم تلقى في اليم وراء الآرجو بالقطعة منه وراء القطعة، فيضطر الملك البائس إلى انتشال أشلاء ولده باكياً متفجعاً، فتبطيء سفينته وتغيب الآرجو وتفلت ميديا وجاسون
لقد وعد جاسون ميديا أن يتزوجها إذا هي ساعدته في الحصول على الفروة الذهبية، وقد فعلت، فلما آب إلى وطنه بنى بها وعاشا في رغد وبُلهْنية، ورزقا غلامين جميلين هنا تبدأ الدرامة الأولى (بنات بلياس). . يظل جاسون زماناً لا يستطيع الحصول على العرش، ويضم إليه أبويه المحطمين الهرمين، فترثي لهما ميديا؛ وبصنعة جميلة من سحرها ترد عليهما شبابهما فيرتدان أجمل مما كانا في شرخ صباهما؛ ويتسامع الناس بما كان من ذلك، وتعلم بنات بلياس اللائى كن قد أبدين السخرية بميديا وأشعرنها

احتقارهن، بما تم لعمهن وزوجته من ارتدادهما إلى الشباب بسحر ميديا، فيأخذن في ملاطفتها، ثم يسألنها أن تعيد إلى أبيهن شبابه حتى تطول أيامه في الملك، وهنا تشير عليهن أن يذبحن الملك بعد أن ينام ثم يقطعنه إرباً حتى تحضر هي فتردد إلى الحياة كما ترد إليه شبابه وتخلع عليه بُرْد صباه. . . ويطيعها بات بلياس فيقتلن أباهن. . وبذلك يتخلص منه جاسون. ويصبح البنات مجرمات في نظر الشرع والقانون؛ لكن جاسون يستطار من شناعة ما تصنع ميديا، فلقد ذبحت أخاها دون أن تأخذها فيه رأفة ودون أن يتحرك قلبها لتوسلاته وعبراته، ثم راحت تمزق بدنه وتلقي بأشلائه في اليم. . . وهي اليوم تصنع مثل الذي صنعت بالأمس فتحرض بنات عمه على تلك الفعلة الشنعاء. . .

لقد تبدلت نظرة جاسون، ورفع عن بصره غطاؤه. . . لقد كره ميديا!

ثم تبدأ الدرامة الثانية، التي هي مفخرة يوريبيدز، والتي سماها (ميديا)، والتي أقامت - نساء أثينا وأقعدتهن، والتي ألف من أجلها أرستوفان ملهاته (محاكمة يوريبيدز) أو يفر جاسون مع زوجته وولديه إلى كورنثة حيث يحل ضيفاً على ملكها كريون العجوز الشيخ الذي لا نَسل له إلا فتاة بارعة الجمال. . . ويكرم الملك مثوى ضيفه الذي طبقت شهرة شجاعته الآفاق ثم يسر إليه أنه يرغب في أن يتخذه ولداً ويزوجه ابنته على شرط أن يقطع ما بينه وبين زوجته ميديا الساحرة ابنة ملك البربر. . . ويتردد جاسون ثم يقبل عرض الملك، لكنه يبقى الأمر سرّاً بينهما حتى يدخل بزوجته الجديدة، ثم يرسل الملك بعض جنوده للقبض على ميديا التي تكون قد عرفت كل شيء، وقهرها على مغادرة كورنه هي وولداها. . وتحتال ميديا فيمهلها الملك يوماً واحداً حتى تأخذ أهبتها للسفر، ثم تحتال فيلقاها جاسون حيث يفرغ كل ما في سريرته للآخر، ويكلمها جاسون في برود وتكلف، وتخاطبه ميديا في ازدراء وخشونة وأسلوب كله بَرَم ومَن. . . ثم يلقاها مرة أخرى فتبدو كأنها غفرت له كل شيء أو كأنها نسيت كل شيء، ثم تسأله أن يذهب هو وولداها إلى زوجته الجديدة بهديتها التي يسعدها جدّاً أن تتقبلها من امرأة محطمة كسيرة القلب مهيضة الجناح، فيهش جاسون ويذهب بالهدية وهي ثوب من دمقس وحرير مفتل فيقدمها لزوجته التي تفرح بها. . . لكنها ما تكاد تلبس الثوب حتى تحس بإبر الموت تخزها وتنفذ بالآلام المبرحة إلى نخاعها. . أوه!. . إنه ثوب مسموم احتفظت به ميديا لمثل هذا اليوم!! لقد ثأرت ميديا لنفسها كما ثأرت لكبريائها. . لقد ماتت الزوجة التاعسة من برحاء الألم!. . . لكن ميديا لا تكتفي بهذا الثأر يقع على فتاة بريئة أو قد تكون بريئة. . . إنها تذهب في ثأرها إلى أبعد حدود القسوة البشرية وأشقها. . . لقد قتلت أخاها أبستروس ومزقته إرباً ورمت بأشلائه في البحر لتعرقل أباها من أجل جاسون وفي سبيل حبه. . . فلماذا لا تقتل ولديها نكاية في أبيها، ومبالغة في تمزيق قلبه؟!. . . يا للثأر؟!

ويعلم جاسون بما انتوته فيسارع لإنقاذ الطفلين. . . ولكن! واأسفاه! لقد ذبحتهما الشقية! وهاهو ذا جاسون يقف على جثيتيهما باكياً محطوم القلب مشبوب الجوانح بالحزن الذي ليس مثله كمد ولا حزن

وفي هذه الثورة تبتسم ميديا. . . وتزدري جاسون. . . ثم تركب تنّينها السحري فيطير بها في الفضاء تاركة وراءها الزوج الشقي والجثتين الحبيبتين!

ثارت الأثينيات على يوريبيدز بعد هذه المأساة ثورة جامحة لأنه صرح فيها بأن ميديا صورة من بنات حواء جميعاً، وأنه ليس فيهن من يفضلها قط، وأن كل امرأة تصنع من أجل لذاتها أسوأ مما صنعت ميديا التي خانت أباها في كنزه، وذبحت أخاها وولى عهده، وفرت مع عدوه، ثم مكرت ببنات بلياس فهيأت لهن قتل أبيهن، ثم لم تتورع من أن تقتل طفليها غير آبهة ببكائهما الذي يفتت الصخر لا الكبود وذلك لتتم لها اللذة المجرمة الفتاكة، لذة الانتقام، كما تمت لها الآلام والنكبات لذة الحب. . .

وكان يوريبيدز بارعاً في جميع دراماته التي شنّ بها حربه السيكولوجية على المرأة والتي سنعرضها في الفصول التالية، فأنت لا تقرأ له درامة من تلك الدرامات إلا وتنتهي منها إلى الرثاء للمرأة مهما تكن شريرة عاتية، بل ربما أعجبت بهذه المرأة الشريرة العاتية وشعرت بالعطف عليها، وتمنيت لو كانت خاتمتها خيراً لولا ذلك الأسلوب البارع الذي يسلسل فيه يوريبيدز حوادث مآسيه، والذي يقتضي تلك الخواتيم التي لا يكون محيص منها ما دامت الحوادث تتسلسل هكذا!

لقد جعل أرستوفان من يوريبيدز موضوعاً لكثير من مهازله. وقد حفظ لنا الأثر ثلاثاً من هذه المهازل كلها عن يوريبيدز، وقل أن تجد لأرستوفان مهزلة غير هذه الثلاث لم يتعرض فيها ليوريبيدز بنكتة أو غمزة أو سخرية. . . وكان يوريبيدز يتألم أشد الألم وأبلغه لسخرية الشعب به، وتهكمه على أفكاره، حتى إذا طفح الكيل، لم ير بداً من الهجرة إلى مقدونيا كما سيمر بك

دريني خشبه

العالم

للشاعرة أيلا هويلر ولككس

للآنسة الفاضلة (الزهرة)

يسير الخير على هينته، ويمشي على رود لطيته

ويغذ الشر في سيره الحثيث على أوفاز، ويهتلك في عدوه، كميش الإيزار، فتتزلزل الأرض من وقع فيالقه الشهباء، ونسمع الجلبة والقعقعة فيقال:

إن العالم يزداد انغماساً في المعاصي والسيئات، ويوغل في ارتكاب كل محظور ومحرم. . .

ولكن هذا ليس بصحيح، لأن الفضيلة تتريث في مسيرها وتتئد في خَطْوها وتنثر بذرها بيد التمهل والترزن

في حين ينفض الإثم أجواز الأمصار معلناً أوزاره التي تستفيض هيعتها المنكرة في الأقطار، ويطير ذكر سوءتها الفاضحة في الآفاق، فتنصت لها الأصداء وترّجعها الأنحاء. . .

وكما أنه ليس ثمة ريب في أن الأرض تتحرك وتدور حول الشمس المضيئة كذلك نعلم أنه لا بدّ أن يتمّ الله تعالى أمر الذي يقضي: بأن يُصلح شأن جميع الجنس البشريّ

وعلى الرغم من جيشان أمواه الشرّ، وارتفاع هديرها، وغزارة طموّها، فإن حصيد الحقّ الذهبي ينضج بسرعة، وتسطع أنوارُ حافره الباهرة، وتكسف بسناها شموس الماضي فترتفع بأفكار الناس إلى كبد العلاء وتصيرها أرقى مما كانت. . .

إن الذي يسير موغلاً قد يقرأ هذه الحقيقة التي أرددها قائلة: اعلم أن الإثم يتجوّل راكبا عربة ترتفع لعلعة عجلاتها الصاخبة في الحزون والسهول

في حين يذرع الصلاح فراسخ السماء، ويعلو رونقه حين يطلّ من محرابه النقيّ على أرض الشقاء، متألقاً تألق النجمة الزهراء

فيتوقل العالم كل يوم في معارج السمو والارتقاء.

خواطر

للأستاذ فليكس فارس

لا أعلم ماذا عني واضع تعبير الشعر المنثور، ويخيل إليّ أن هذا الترتيب المستحدث في اللغة العربية إنما ترجم حرفيًّا عن (فير ليبر) بالفرنسية؛ غير أن المترجم التوى عليه المعنى لظنه أن كلمة (فير) تترجم بكلمة (شعر) في حين أنها لا تعني إلا المنظوم من الكلام بوزن وقافية. ولا أرى في العربية ما ينطبق على هذا التعبير الفرنسي إلا (النظم المنفرط) أو حل الشعر وإطلاقه من وزنه وقافيته لإرساله نثراً، وذلك ما يكلفه التلامذة لتسهيل فهم الشعر عليهم ولتعويدهم سبك المعنى الواحد على صور متعددة.

أما (الفير ليبر) في الأدب الأوربي فليس إلا بدعة جاء بها المتأخرون كما جاءوا بأنواع الرسم المكعب والشعر المستغرق في الرمزية، وما هي على ما اعتقد إلا ظاهرة لتقلص الأعصاب في المدنية المتعبة

وإنني لأعجب للأدباء في الغرب يضعون كلمة (فير ليبر) ولا يفطنون لما في مبناها من التناقض، فإن النظم مقيد إلزاماً، فإذا أطلق من أوزانه خرج عن صفته وأصبح نثراً إن البيان من الفكر كلام، ومن العواطف نغمات؛ والنظم معلق بين الكلام والنغمات، يتناول من الأول نتاج الفكر، ومن الثاني خطرات الهوى؛ غير أنه أقرب إلى القلب منه إلى الدماغ، لأنه لا يقوم على حجة ودليل، بل يخاطب ما انطوى في السرائر وما يطمح الناظم إلى وضع مقدمات لاستخراج ما يريد استهواءك إليه، إذ حسبُه من بيانه أن ينفذ إلى ما استقر فيك من مقدمات إن خلت سريرتك منها انزلق عليك بيانه فإذا

أنت ضاحك من بكائه، مستهزئ بشجوه وتحنانه
ما النظم المنثور الذي يسمونه شعراً منثوراً إلا بيان حائر، بل هو جنين تمخض به الخيال وضعف عن مدّه بالتكامل فلفظه مسخاً لا يصلح للحياة
إن للنثر أوزانه الخفية وبحوره التي لا ساحل لها، وللنثر الناضج موسيقاه المطلقة كأمواج البحر تتالى ولكل موجة شكلها وتعاريجها؛ ذلك لأن خطرات الفكر نبضان لا يتكرر على وتيرة واحدة في الدماغ، في حين أن النظم وهو صورة نبضان القلب لا يطلق موسيقاه إلا على نظام الوحدة في تكرار ضرباته
ولعلك إذا نظرت إلى هذه الأشرطة التي تطبع عليها كهرباء القلب صورة خفقانه يدهشك منها ما تمثله لديك من أبحر الشعر في أنواعها، فمن القلوب ما تبسط على الرسم البحر (الطويل) في هدأتها، ومنها ما تصور البحر (المتدارك) في ثورتها، ومنها ما حلا لها كبعض أدباء هذا الزمان أن تمسخ نظمها نثراً فتراها تأتيك بالطويل والقصير والرجز والمتدارك متداخلة متركبة، ومثل هذه القلوب قد استنفدت كهرباءها وآذن اختلالها بقرب انصداعها
من غرائب التقليد في هذا الزمان أن يترجم لنا بعض أدبائنا قصائد أو مقطوعات من منظوم الفرنجة فيأتوا به صورة طبق الأصل في ترتيب السطور؛ فهم يصلون الجملة حيث يجب قطعها، ويقطعونها حيث يجب وصلها، جرياً مع الناظم الذي حكم الوزن والقافية على ترتيبه، وهم لا يفطنون إلى أنهم مطلقون في ترجمتهم من كل وزن وقافية
ما وقع نظري مرة على هذه المنظومات المترجمة وقد كتبت بشكل قصيدة وليس فيها من إلزامات القصائد شيء إلا وحسبتني أرى سابحاً يخرج من البحر ويستمر على دفع الهواء بيديه كأنه لا يزال يسبح على اليابسة ويخشى الغرق ورجلاه ثابتتان عليها. . .
وأغرب من هذا، بل وأنكى، أن تقرأ لبعض المجددين. . . شعراً منثوراً. . . تتوالى سطوره وفي كل سطر أربع إلى سبع كلمات نضدت على سلك لا وجود له إلا مخيلة الكاتب؛ فهو مضطر ولا أدري لماذا، أن يقطع جملته إذا بلغت الخمس أو السبع ليستطرد الكتابة في السطر الثاني، وليس بوسعه أيضاً أن يقف بجملته حتى يتم معناها إذا كان لم يزل لديه متسع من المقياس الذي انطبع في ذهنه من تلاوته قصيدة ترجمت على هذا الشكل عن أحد كبار الشعراء
وقى الله الأدب العربي من آفات التقليد والمقلدين!
(الإسكندرية)
فليكس فارس
حياة محمد
باعتباره صاحب الدعوة الإسلامية
للمستشرق الإنجليزي توماس أرنولد
ترجمة الأساتذة
عبد الفتاح السمرنجاوي، عمر الدسوقي، عبد العزيز عبد المجيد
بهذا الحماس وذلك الجد تقدمت الدعوة الإسلامية حتى لم تمض على الإسلام سنة هناك (في المدينة) إلا وكانت كل أسرة عربية قد ساهمت بدخول بعض أفرادها في حوزته، ما عدا شعبة واحدة من بني الأوس وهي التي استمرت منعزلة بعيدة عن الإسلام وذلك بتأثير أبي قيس بن الأسلت الشاعر
وفي السنة التالية حينما جاء موسم الحج وفدت إلى مكة طائفة من معتنقي الإسلام حديثاً، وعددها ثلاثة وسبعون رجلاً، وبصحبتهم جماعة من مواطنيهم كفار يثرب، وقد عهد إلى هذه الطائفة أن تدعو محمداً (ص) إلى أن يلجأ إلى يثرب تجنباً من غضب أعدائه، وأن يبايعوه على أنه رسولهم وقائدهم، وفد إلى مكة لهذه المناسبة العظيمة كل معتنقي الإسلام الأولين الذين كانوا قد لاقوا الرسول من قبل في الموسمين السابقين، ومعهم مصعب ابن عمير معلمهم، فأسرع على أثر وصوله إلى الرسول، وأخبره بالنجاح الذي لاقته بعثته. ويقال إن أمه لما سمعت بقدومه بعثت إليه رسولاً فقال له: (أيها الابن العاق، أتدخل مدينة فيها أمك من غير أن تبدأ بزيارتها؟) فكان

جوابه: (كلا، إنني لا أزور منزل أحد قبل رسول الله). ثم ذهب إلى أمه بعد أن فرغ من تحية الرسول (ص) والتحدث إليه؛ فقالت له أمه زاجرة: (أخالك إذاً لا تزال خارجاً منشقاً). فقال: (أتبع رسول الله ودين الإسلام الصحيح). فردت عليه قائلة: (أقانع أنت بطريق الشقاء الذي انتهجته في الحبشة وفي يثرب؟). أدرك حينئذ أن أمه تفكر في سجنه فخاطبها متعجباً: (ما خطبك؟ أتكرهين إنساناً على أن يغادر دينه؟ إن كنت تدبرين أمر سجني فإنني سأقتل أول من يضع يده على). فقالت له: (أخرج إذاً من عندي) وأخذت تبكي. فتأثر مصعب لذلك وقال: (أماه. خذي مني نصيحة المخلص! أشهدي أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله). ولكنها أجابته بقوله: (والنجوم اللامعة، لن أكون قط حمقاء بدخول دينك. إنني أنفض يدي منك ومما أنت فيه، وأعتصم بعقيدتي)

وكان قد ضرب موعد ليجتمع سراً بالعقبة من أسلموا في العام الماضي وذلك لكيلا يثيروا حولهم شبهات القرشيين أو عداوتهم؛ وجاء محمد ومعه عمه العباس الذي كان لا يزال وثنياً حينئذ ولكن سمح له أن يحضر هذا الاجتماع السري. أفتتح العباس هذا الاجتماع الجليل موصياً بابن أخيه، ومشيراً إلى أنه ينتمي إلى أسرة من أشرف أسرات قبيلته التي وإن كانت لم تقبل تعاليمه إلا أنها ما زالت تحميه؛ أما وقد أبى إلا الانحياز إلى أهل يثرب واللحاق بهم فإن عليهم أن يتدبروا الأمر بحكمة قبل أن يأخذوا العهد على أنفسهم، وأن يصمموا ألا ينكثوا عهدهم متى قبلوا تحمل هذا الأمر الخطير، فاحتج البراء بن معرور الخزرجي قائلاً: إنهم واثقون من عزمهم على حماية رسول الله، وتوسل إلى العباس أن يذكر ما يريدهم أن يعاهدوا الرسول عليه

بدأ محمد يقرأ بعضاً من القرآن، ويحثهم على أن يصدقوا في دينهم الذي اعتنقوه من وحدانية الله ونبوة محمد رسوله، ثم سألهم بعد ذلك أن يمنعوه وأصحابه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: (نعم! والذي بعثك بالحق لنمنعك كما نمنع أنفسنا، ونعاهدك على طاعتك، وأن تكون لنا هادياً. فنحن أبناء الحروب، وأهل الحلْقة، ورثنا كابراً عن كابر). وهكذا أخذ الجميع يد الرسول واحداً بعد آخر، وبايعوه على الطاعة.

ولما علمت قريش بهذا الاتفاق السري عادت إلى اضطهاد المسلمين مرة أخرى، فنصحهم الرسول أن يهاجروا من مكة، وقال لهم: (اخرجوا إلى يثرب فإن الله قد جعل لكم إخواناً في تلك المدينة، ودارا تأمنون بها) فخرجوا إلى يثرب إرسالا، حيث لاقوا إكراماً عظيماً، وكان إخوانهم في الدين من أهل يثرب يتنافسون فيما بينهم كل يريد أن يحظى بشرف الإكرام، وليقدموا لهم ما يحتاجون. ولم يمض شهران حتى هاجر من مكة تقريباً كل المسلمين - وقد بلغ عددهم مائة وخمسين - اللهم إلا أولئك الذين قبض عليهم أو سجنوا، وأولئك الذين لم يستطيعوا الخلاص من الأسر. وتحدثنا الأخبار عن أحد أولئك المسلمين - صهيب - الذي

لقبه الرسول (بأول ثمرات اليونان) (ولقد كان عبداً إغريقياً أعتقه سيده فجمع ثروة عظيمة بطريق تجارته الرابحة). وذلك أنه لما عزم صهيب على الهجرة من مكة استوقفه أهلها وقالوا له: (أتيتنا صعلوكاً حقيراً فكثر مالك عندنا وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك، والله لا يكون ذلك) فقال لهم صهيب: (أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي؟) قالوا: (نعم)، وهاجر هو تاركاً كل ثروته. ولما بلغ محمداً صلى الله عليه وسلم الخبر قال: (ربح صهيب، ربح صهيب)

أخر محمد صلى الله عليه وسلم هجرته من مكة - قاصداً بذلك ولا ريب أن يصرف أنظار أعدائه عن أعوانه المخلصين - حتى تنبه إلى مؤامرة مدبرة ضده، وأدرك أنه إن أبطأ في الهجرة ربما قضي عليه، فعمل على الهجرة بحيلة

وكان أول ما فعل بعد أن وصل إلى يثرب أو المدينة كما سميت بذلك منذ تلك الحادثة (مدينة الرسول) أن بنى مسجداً ليكون مكاناً للعبادة، وموضعاً لاجتماع أتباعه، وكان المصلون أولا يولون وجوههم شطر بيت المقدس، وربما كانت هذه سياسة اتبعها الرسول صلى الله عليه وسلم لاكتساب اليهود. وقد حاول محمد (ص) بطرق أخرى مختلفة أن يجتذب إليه اليهود، فقد أمر باحترام كتابهم المقدس، ومنحهم حرية العبادة، والمساواة في المعاملة، وحاول أن يصافيهم ولكنهم قابلوا كل ذلك بالتحقير والتسفيه. ولما أصبح الأمل في إدماجهم في الإسلام عقيما واتضح أن اليهود لن يعترفوا بمحمد

(ص) رسولاً لهم، أمر محمد أتباعه أن يولوا وجوههم في صلواتهم شطر الكعبة بمكة
(قد نرى تقلب وجهك في السماء، فلنولينك قبلة ترضاها، فول وجهك شطر المسجد
الحرام، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره، وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه
الحق من ربهم، وما الله بغافل عما يعملون، ولئن أتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من
العلم إنك إذاً لمن الظالمين)
ولقد كان لتغيير القبلة في الصلاة مغزى أسمى مما يظهر لأول وهلة، فقد كان ولا
شك مبدأ حياة جديدة في الإسلام. إذا أصبحت الكعبة في مكة المركز الديني لكل
المسلمين كما كانت منذ الأبد مكان الحج لكل قبائل جزيرة العرب. وهناك مغزى آخر
شبيه بالسابق في أهميته، وذلك هو إدماج عادة العرب القديمة - الحج إلى مكة -
ضمن ما افترضه الإسلام وذلك لأن الحج فرض على كل مسلم مرة واحدة على الأقل
في العمر
وفي القرآن آيات كثيرة تثير روح الشعور بالتكوين القومي وتحث العرب على أن
يقدروا الميزة التي منحوها بإنزال الرسالة الإلهية بلغتهم وعلى لسان واحد منهم
وكذلك أوحينا إليكم قرآناً عربياً لتنذر أم القرى) (إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون)
ولو) ،(ومن حولها، وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه، فريق في الجنة، وفريق في السعير
جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي؟ قل هو للذين آمنوا هدى
وشفاء، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى، أولئك ينادون من مكان
بعيد، ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون، قرآنا عربياً غير
ذي عوج لعلهم يتقون، وإنه لتنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين على قلبك
لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين، فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر
(به قوماً لدًّا
(يتبع)
لما رأيته رأيت القدر
(مهداة إلى (علاء) الصغير)
للآنسة جميلة العلايلي
عندما يبتسم يتكلم القدر من بين شفتيه، وعندما ينظر ليتأمل تشيع الفلسفة من
عينيه، وعندما يتحرك تعلن الحياة معانيها في أسلوب رمزي فاتن
هكذا كان طفلي الحبيب (علاء) عندما شاهد فلم (آلام فرتر)، وقد رأيته على غير ميعاد
وعرفته دون سابق معرفة. . .
إنما فهمته كأنني جالسته الأعوام الطوال، وعاشرت روحي روحه الأجيال. . . جذبت
روح الطفل بسماحتها وحلاوتها روحي التي تشرئب دائماً إلى الصفاء الصرف والنقاء
الأكيد. . .
وهل يمكن أن يأخذ الصفاء مكانه إلا في معين ذلك الطفل النضير؟ كنت أحاول أن
أطالع فلسفة الحياة من عينيه، فكان يولي وجهه ويسبل أجفانه. فهل كان يدري أن
الحقائق الأكيدة المسجلة في أم الكتاب مرقومة واضحة في مقلتيه؟ هل كان يدري أن
معاني الخلود مرسومة على شفتيه؟ هل كان يدري أن أسرار الوجود منقوشة كظلال
من النور على جبينه؟
هل كان يدري ذلك الطفل النضير؟
كان يسأل والده الذي احتضنه بجوانحه، وحباه بعواطفه، كلما تراءت له عواطف
الإنسانية في شبه صور متحركة: ما هذا؟ ولم هذا؟
وكان يجيبه الوالد في إيجاز عن الاسم والسبب
ويا للفارق بين فلسفة الصغير وفلسفة الكبير!
الصغير يعرف ويجهل، والكبير يجهل ويعرف!. . .
يا حبيبي البريء، يضلك الوالد عندما يقول لك: الحياة أمامك. مع أن الحياة فيك. . .
لا تتكلم يا حبيبي ودعه يفهمك لتعرف أن الحياة تشوه العقل الفطري بأضاليلها. . .
أنت الفيلسوف الحكيم، وأنت العاطفة المثالية العليا. . .
إنك تفهم أمك، وتفهم والدك، وتحسب أنهما مثلك لهما براءتك وفلسفتك فتخاطبهما
بأسلوبك

. . .الرمزي في إيجاز
. . .يا حبيبي البريء
ما زلت تعيش في سماء الإنسانية وترقب الحياة على ضوء ذهنك الخلاب راجيا أن تسير عجلة الحياة بأمضى سرعتها لتكون رجلاً مثل من سعد بحظ أبوتك، فهل تعرف يا صغيري ما يحمله عقل ذلك الرجل الذي دعوته في لطف وحلاوة باسم (الجدع)؟
هل تعرف يا صغيري أنك بطفولتك النقية الملائكية أعظم منه برجولته المعقدة الآدمية؟
هل تعرف أنك كلما زدت في أعوام عمرك عاماً نقصت من إدراك حقائق الوجود
. . .أعواماً مهما قالوا إنك غنمت؟
،هل نعرف أنك بقلبك الصغير المليء بالحب العف الطهور
أجل منك بقلبك الكبير المليء بالحب المادي الزاخر بأباطيل الوجود؟
هل تعرف أنك أحب إلى قلب أمك وأبيك من كل حبيب؟
وغداً عندما تكبر يحاسبك الوالد بميزان العقل، ويراك ندًّا له، فيحبك إذا أوليته من نفسك قدر ما تطمع إليه عاطفته، ويمقتك كأي شخص غريب إذا خالفته وخرجت عن تقاليده وأوضاعه؛ والصلة الروحية الوثيقة التي يقبض على زمامها ملاك الأبوة في الصغر يتهاون في شدّها رويداً رويداً لتشعر بأنك فرد لك حريتك وسلطتك وقلبك
. . .وعقلك ولا شأن لك بأمك أو أبيك
. . .هذه هي مرحلة السعادة الأكيدة التي يقضيها الإنسان في حياته
سعادة الطفل بحب أبويه كاملاً
. . .وسعادة الأهل باستسلام الصغير
اليوم لا يحب الطفل غير أبويه، وغداً يحب ويحب ويحب، وقد يكون الأهل أول ضحية تقدم على قربان الحب الذاتي
واليوم يحب الوالد طفله، وغداً يتلاشى الفارق بينهما وتؤدي المساواة رسالتها، وقد يكون الابن أول من يحاربه الوالدان تحت تأثير مخدرات أباطيل الحياة ليقيم لنفسه
. . .وزناً في عالم لا وزن له
يا طفلي الحبيب. . . تمنيت لو أحفظ لك طفولتك وأدفع الثمن من دمي، لأحفظ للإنسانية
. . .روح الصدق والحب والطمأنينة والسلام
اليوم لن تفهم ذلك الأسلوب الذي تعارف عليه الناس وأسموه أدباً لأنك لا تؤمن بغير أسلوب روحك الرمزي النقي. . . وغداً عندما تضلك الحياة وتغريك أضواء الوجود. . . تفهم وتدرك
وسوف تقول: ليتني ظللت طفلاً لأتمتع بحب أبوي الشامل وأحرك المشاعر بأنفاسي
. . .العطرة، وأسيِّر الأقلام بإلهامي. . . ليتني. . . ليتني
. . .ولكن هيهات
فبعد أعوام. . . أسمع عنك وقد أراك، فأجد الحياة المادية تسيرك، وألمح روح الحياة
. . .العلوي ينسحب في بطأ وحسرة ليتقمص كيان وليد جديد
أدام الله لك قلبك بعاطفته البريئة النقية. . . ولتتصرف الحياة في كل ما تملك. . . عدا
قلبك. . . عدا قلبك. . . لتكون كأبيك تحب لتخلد.
لما سألت والدك: لم مات فرتر؟ أجابك: لأنه أحب وأخفق.
فابتسمت ابتسامة عميقة أعمق من فلسفة الوجود لو ارتسمت
في شبه بسمة وقلت: (يعني لما الواحد يحب واحدة ولا تكونش مراته يموت)، فضحك وقال: أجل
فهل علم الوالد أنك تفهم أكثر منه وأنك تضلله بسؤالك
آه. . . لو قال لك: إنه مات لأنه جعل الحب غاية، وكان يريد أن ينتصر في المعركة، فلما انخزل وجد الموت مع الكرامة أشرف من الحياة مع المهانة، لو قال ذلك. . .
. . .لارتسمت تلك الحروف في ذهنك مدى الأعوام ولصرت بطل جيلك
!يا صغيري الحبيب
إنني أتوسم فيك سمات البطولة
وألمح في عينيك شعاع المجد المرتقب

. . .وأرى حركاتك بشير الصراع الحيوي الشريف
. . .فعش لأبيك ذكرى خالدة، ولوطنك شعلة الحب والحق والحرية
جميلة العلايلي
من تاريخنا النسوي
أستاذة الصحابة
للأستاذ سعيد الأفغاني
سلخت سنين في دراسة السدة عائشة كنت فيها حيال معجزة لا القلم إلى وصفها سبيلاً. وأخص ما يبهر فيها: علم زاخر كالبحر بعد غور، وتلاطم أمواج، وسعة آفاق، واختلاف ألوان. فما شئت إذ ذاك من تمكن في فقه أو حديث أو تفسير أو علم بشريعة أو آداب أو شعر أو أخبار أو أنساب أو مفاخر أو طب أو تاريخ. . . فإنك واجد منه ما يروعك عند هذه السيدة، ولن تقضي عجباً من اضطلاعها بكل أولئك وهي لا تتجاوز الثامنة عشرة
ولست بسبيل بيان ذلك الآن، وإنما أخبرك أني وقعت وأنا أنقب في كنوز المكتبة الظاهرية بدمشق على مجموعة خطية في آخرها رسالة نفيسة للإمام بدر الدين الزركشي الشافعي المصري قصرها على موضوع واحد هو: استدراكات السيدة عائشة على الصحابة
من خصائص المرء ذي الطبيعة العلمية أن يكون طُلَعة كثير السؤال، لا يهدأ له بال حتى يرضى طمأنينته ويجلو لنفسه كل خفي مما يحيط به. وكانت السيدة عائشة بهذه الصفة، ساعدها على بلوغ ما بلغت من المعرفة أنها ربيت في حجر أبي بكر الصديق أعلم الناس بأنساب العرب وأخبار قبائلها وميزات بطونها، فحازت من ذلك علماً كثيراً. ثم انتقلت إلى بيت الرسول ومهبط الوحي فكانت أقرب الناس من معين العلم، فغرفت منه ما لم يتيسر لأحد غيرها لمكانها منه كزوجة، ولما تفردت به من ذكاء نادر وفكر واسع. وكلما عظم حظ الإنسان من المعرفة كثر تطلعه إلى ما فوقه. أما الجاهل فليس بمعنىّ أن يبحث أو أن يسأل، فإذا أصاب من المعرفة حظاً بطريق العرض كان أبعد الناس عن أن تطلب نفسه مزيداً أو تثير له شكوكاً تحدثه بسؤال يسأله وقد أوردت السيدة على الرسول من الأسئلة في كل ما مّر بها من موضوعات: في الفقه والقرآن والأخبار والمغيبات وأمور الآخرة، وفيما يعرض له من أحداث وخطوب، وما يفد عليه من وفود
وبعد انتقال النبي صلى الله عليه وسلم، كان علم عائشة قد بلغ ذروة الإحاطة والنضج في كل ما اتصل بالدين من قرآن وحديث وتفسير وفقه. . .
ومع حمل الأصحاب إلى الأمصار طائفة صالحة من الأحاديث والأحكام حتى كانوا ثمة مرجع طلاب العلم ورواة الحديث، بقيت المدينة - لأسباب أهمها وجود عائشة - دار الحديث ومنبع العلم. فحين يشكل على أهل الأمصار أمر من الأمور، يكتبون إلى أصحاب رسول الله في الحجاز يسألونهم عن حكم الله فيه، فكان هؤلاء إذا فاتهم علم شيء رجعوا إلى علماء بينهم اشتهروا بحمل العلم وفقهه كعبد الله بن عمر وأبي هريرة وعبد الله بن عمرو وعروة وابن الزبير. . . تروى عنهم الأحاديث وتنشر الأحكام حتى صاروا مقصد الرواد. ومقام السيدة بينهم مقام الأستاذ من تلاميذه، فكان عمر بن الخطاب يحيل عليها كل ما تعلق بأحكام النساء أو بأحوال النبي البيتية، لا يضارعها في هذا الاختصاص أحد من الرجال ولا النساء
ويصل إلى مسمع السيدة عن أولئك العلماء روايات وأحكام على غير وجهها، فتصحح لهم ما أخطئوا فيه أو خفي عليهم، حتى عرف ذلك عنها، فصار من شك في رواية أتى عائشة سائلاً، وإن كان بعيداً كتب إليها يسألها. ومن هنا طار لها ذلك الصيت في التمكن من العلم، ورجع إلى قولها كبار الصحابة كأبيها أبي بكر وعمر وأبنه وأبي هريرة وابن عباس وابن الزبير. . . وصار معاوية في خلافته يكتب إليها سائلاً عن حكم أو حديث أو شيء من فعل النبي صلى الله عليه وسلم، ولا يطمئن إلى يقين مما يسمع من غيرها حتى يرد عليه جوابها فيبرد صدره
وستجد أن خطأ الصحابة كثيراً ما يرجع إلى أنهم حضروا آخر الحديث وفاتهم أوله، وسترى في كل ما تستدرك: صحة النظر وصواب النقد وحضور الذهن وجودة النقاش. وأغلب الأسباب في تخبط الروايات أن الرواة يستنبطون الحكم من الجملة التي

حضروها. وكثيراً ما يكون الرسول ذكرها في معرض حكاية أو إنكار، وترى ذلك في مرويات أبي هريرة خاصة.
وكما استدركت على أبي هريرة ضياع أول الكلام عليه أو آخره، استدركت على كثيرين فهمهم لحديث، أو خطأ استنباط حكم من آية، أو ضلالا في معرفة أسباب النزول، أو اجتهاداً فيه مشقة على الناس، وكان الناس يقعون منها في كل ذلك على علم غزير وفهم حصيف ورأي صائب، ولا غرو فقد كانت السيدة عائشة الملجأ الأخير الذي ترفع إليه مسائل الخلاف والروايات وأحكام الشريعة لتمحيصها والقضاء فيها القضاء الفصل ومن هنا توقن أن حياة السيدة قد بنت مجداً باذخاً لتاريخ المرأة العلمي في الإسلام، بل إن عبقريتها وحدها كفيلة بملء تاريخ كامل، فلست أعلم في عبقريات الرجال والنساء ما يداني مكانة السيدة. وما أجدر سيداتنا - ونحن في مطلع بعث ونهضة - أن يصلن حلقات هذا التاريخ الذي بدأته امرأة منهن في صدر الإسلام، فتتلمذ عليها مشيخة المهاجرين والأنصار من كل حبر وعالم وفقيه وقارئ وراوية، وعنها وحدها نقل ربع الشريعة كما قال الحاكم في المستدرك، وليس هذا بكثير على من غبرت نحواً من خمسين عاماً بعد وفاة الرسول تنشر سنته وتفنى وتحدث وتستدرك، حتى كونت لنفسها مدرسة من أقوى مدارس الحديث والفقه والتفسير وأوسعها
(دمشق)
سعيد الأفغاني
العالم يتطلع إلى حدودنا المصرية
أربعون يوماً في الصحراء الغربية
للأستاذ عبد الله حبيب
- 1 -
في هذه الأيام يتجاوب البرق في أنحاء العالم بذكر حدود مصر الغربية وتتطلع الدول إلى ما يجري في هذه الحدود من التحصين والاستعداد وتحرك الجيوش من الجانبين: المصري والإيطالي. وقد ارتحل المحرر إلى هذه الأنحاء النائية فقضى بها أربعين يوما، وهو في المقالات يصف الطريقة ويتحدث إلى القراء بأنفع المعلومات في أسلوب
سهل موجز
سحر الصحراء
في مثل هذه الأيام من العام الماضي كان الربيع قد أطل على الوجود بوجهه المزدهر الباسم - وفي الربيع تتجاوب الذكريات - فذكرت فيما ذكرت رحلتي الأولى إلى الصحراء الشرقية، وتمثل في خاطري سحر الصحراء وما يلقى المرتحل إليها من عناء هو أحب إلى النفس من الراحة والدعة والاطمئنان
ذكرت رحلتي تلك إلى صحراء سيناء فتطلعت نفسي إلى رحلة ثانية أرتحلها إلى الصحراء الغربية
ومحافظ الصحراء الغربية صديق قديم، وهو من رجال السيف والقلم يمجد الأدب ويحب الأدباء. . فلتكن رحلتي الثانية إليه. وفي رحابه ومعونته سأجوب الصحراء وأرتاد نجوعها وأنزل على قبائلها، واشرف على هضابها، وأهبط إلى وديانها، وأقطع شعابها ومفاوزها
. . .هتف بي سحر الصحراء ودعاني فلبيت
ولقد كان للعرب من قبل - كالمقريزي والمسعودي واليعقوبي وأبي الفداء وغيرهم - شرف السبق في ارتياد الصحارى واجتياز مجاهلها مستهدفين لأخطارها في وقت لم يعرف عنها غيرهم إلا النذر اليسير؛ وكانت هذه الصحارى - ولا تزال - سراً مجهولاً مهما قال عنها العارفون.
وفي رمال الصحراء المنبسطة، وهدوئها الشامل، وعظمة جبالها الشامخة، وفي صفاء سمائها، وجلال نورها، وفي لياليها الساحرة؛ في هذا، وفي أروع من هذا ما يخلب لب روادها، ويجذبهم إلى ارتيادها، وفيه ما يغري النفس بالتغلب على وعورة طبيعتها ليشعر بعد ذلك بلذة الانتصار والغلبة.
أما ساكنو هذه الصحارى من البدو، وما فطروا عليه من بساطة العيش فإنك حين تخالطهم سر عظمتهم وبعد نظرهم وبساطة حكمهم، وسلامة شرائعهم ومعرفتهم للنجوم، واتجاهاتهم وهبوب الرياح وعلاماتهم وأوقاتها، وتدرك على الجملة سر

سيادتهم على هذه الصحارى وجملهم أدلتها.
وفي هذا المقال سأتحدث إلى القراء في كلمات وجيزة عن المعلومات التي على كل مصري معرفتها في وقت يهتم العالم فيه بهذه البقاع التي تقع في داخل حدودنا المصرية

لغة البدو وديانتهم ومعارفهم

يتكلم البدو بلهجة عربية تختلف عن اللهجة الفصيحة اختلافا بسيطاً، ومن السهل أن يتفهمها سكان المدن. وهم يكثرون في كلامهم من ضرب الأمثال. أما ديانتهم فهي الإسلام. لكن القليل منهم من يعرف قواعده. وأكثرهم أميون لا يقرءون ولا يكتبون، ولكنهم يعبرون عن العدد بأصابع اليد، ويعرفون فصول السنة والجهات الأربع، ويجعلون مواعيدهم طلعة الهلال أو طلعة القمر.

لهم رشاقة القد، وخفة الحركة، وجمال العيون، وذكاء النظرة، وسمرة اللون، وقلة شعر العارضين، ودقة الأنف، ولنسائهم ولع شديد بوشم الشفاه، وهو عندهن آية الجمال

تقوم زراعتهم على الأمطار إلا في بعض الواحات وحول الينابيع والآبار، وهم يزرعون الشعير والاذرة والبطيخ والقمح أحياناً، ويصنعون البيوت من شعر الإبل والغنم وكذلك يصنعون منها ملابسهم وخيامهم، ويعتنون بتربية الإبل والخيل والغنم ويستدلونها ويتجرون بها كما يتجرون بالبلح والعجوة وهو محصول النخيل

يسكن البدو خياماً من الشعر يحيكها نساؤهم ويقيمونها على شكل ظهر الثور جاعلين أبوابها نحو الشرق. ويلبس البدوي قميصاً قصيراً فوقه آخر أطول ثم يلبسون فوق ذلك عباءة، وذلك لباس متوسطي الحال منهم، أما الطعام فالشعير والأذرة والقمح والأرز والبلح

وما يمزج من الحليب والسمن والدقيق، وهم يحبون أكل اللحم حباً مفرطاً، وقلما يأكلون الأسماك

اشتهر البدو بحب الفضيلة والضيافة والكرم والغزو والنجدة والأخذ بالثأر والشجاعة وعزة النفس والشورى، لكن فقرهم يفقدهم كثيراً من هذه الأخلاق، ويحمل أكثرهم السيوف وهي محدبة وتتحلى أغمادها بالفضة، ويحمل بعضهم البنادق من الطراز القديم، ويحمل رعاة الإبل (الدبوس) وهو عصا قصيرة في رأسها كتلة، أما حليهم فهي العقود من الخرز والفضة ويلبسون خواتم ضخمة من الفضة والقصدير

أما خرافاتهم فكثيرة، وهم يعتقدون في الإصابة بالعين ويعلقون الخرز في رقابهم ورقاب حيواناتهم منعاً للحسد. وليس عندهم من آلات الموسيقى غير الربابة والصفارة والمقرون (الزمارة)؛ وهم يغنون الشعر، وغناء الرقص عندهم يقال له (الدحية) والسامر، أما الدحية فهي أن يقف المغنون صفاً واحداً وبينهم شاعر يرتجل الغناء وأمامهم غادة ترقص بالسيف وهم يرقصون ويرددون ويهزون رؤوسهم يميناً وشمالاً بشكل منتظم. وأما السامر فهو تقريباً مثل الدحية فلا يختلف إلا في أن يقف الرجال على صفين متقابلين وأما كل صف حسناء ومعها سيف للرقص به.

أما القضاء عندهم فموكول إلى قضاة من خواص رجالهم يحكمون بينهم بالعرف والعادة على أوضاع عديدة، وأما محاكمهم فعلى درجات ثلاث، وأحكامهم وشرائعهم لا يمكن حصرها في هذه السطور، فلكل جريمة شريعة خاصة، وتسمى هذه الشرائع بروابط القبائل ومنها شريعة القتل وشريعة الجروح وشريعة النساء وشريعة الإبل

(يتبع)

عبد الله

استطلاع صحفي

الأندية الأدبية في مصر

كازينو باب الخلق

لمندوب الرسالة

باب الخلق أو باب الخُرْق كما يسمى في الخطط القديمة، ميدان يقع من القاهرة في الصميم، وكأن الحكومة رأت فيه هذا المعنى. فأقامت به دار المحافظة لتكون في الوسط لكل مواقع المدينة يخترق شارع محمد علي، وهو مجاز المواكب الرسمية والعسكرية بين القلعة والعتبة، والقلعة والعباسية، والقلعة وعابدين. ويمر به الطريق

الواصل بين الحسين والسيدة والإمام، فما تكاد تنقطع منه جموع القرويين الذين جاءوا إلى مصر يوفون بالنذر لأهل البيت، ويستعطفون الأسياد بالنظرة. وفيه تقوم دار الكتب المصرية وهي كعبة يحج إليها طلاب الثقافة والمعرفة من أبناء الأزهر، وشباب الجامعة، وتلاميذ المدارس، ومن في نفسهم الرغبة في الأدب والعلم من مختلف الهيئات وشتى الجهات. . .

وكأن وجود دار الكتب في هذا الحي هو الذي صبغه من قديم بالصبغة الأدبية، وجعله مهوى كثير من الشعراء والأدباء والصحافيين، وكم لهم في هذا الحي من سهرات عامرة، ومجالس حافلة، وذكريات كلها البهاء والرواء، والأدب والشعر، والمضاحيك الحلوة الخالدة، وناهيك بمضاحيك حافظ ونسيم وإمام العبد وصاحب (الصاعقة) ومنشئ (الحمارة) وإخوانهم من الذين ذهبوا في الذاهبين، أو تخلفوا إلى حين!

في هذا الميدان الأدبي العامر، وفي المثلث الحادث من تقاطع شارع محمد على بدرب الجماميز وأمام جامع الحين الذي لا أعرف إلا اسمه، يقع كازينو باب الخلق. ولهذا الكازينو تأريخ قديم، وذكرى غابرة، فكل ما فيه من مظاهر الأبهة، فهو طريف مستحدث، قضى به العصر، وتطور به الزمن، عن أصل كان هو المظهر السائد في مصر القديمة!

كان هذا الكازينو من قبل يسمى (قهوة باب الخلق) وكانت هذه القهوة بين غسق القرن الغابر، وغلس القرن الحاضر، نديا من أندية الأدب في مصر، على ما يحكي الصحافي العجوز، فكان يجلس فيها الشيخ أحمد الفتاح، والشيخ محمد المهدي، والشيخ الحملاوي،

ومحمود بك أبو النصر، وحفني بك ناصف، والشيخ محمد الخضري، تحيط بهم نخبة من طلاب الأزهر ومدرسة المعلمين الناصرية - أي دار العلوم - فيأخذون في أمشاج من أحاديث الأدب واللغة والدين والسياسة في بعض الأحايين.

ثم فعلت الأيام ما فعلت وقامت دولة مكان دولة واحتل القهوة الشيخ محمود حسن زناتي، والشيخ طه حسين، والشيخ أحمد حسن الزيات، والشيخ إبراهيم مصطفى، ومن على شاكلتهم من تلاميذ المرصفي والمهدي والشنقيطي ممن تمردوا على حوشي الأزهر ومتونه وهوامشه، فلما شب عمرو عن الطوق انصرف كل إلى شأنه في الحياة وقد بقي في نفسه شيء من تلك الحياة. أما الدكتور طه فسخر بماضيه وتمرد على إخوانه وراح ينعتهم (بأدباء باب الخلق) زراية عليهم وغضاً من شأنهم. وأما صديقنا الشيخ محمود زناتي فما زال يذكر تلك الأيام بالخير، وما زال يتشهى شطير الجبن والعجوة الذي طالما تناوله من يد عم أحمد - هو وصاحبه طه - في ذلك المكان. وأما أستاذنا الزيات فإذا ما سألته الخبر في ذلك نظر إليك ساهما وهو يقول: تلك أمة قد خلت، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم. صحيح صحيح! لقد كان ما كان!

ثم كان بين الغابر والحاضر فترة من الزمن للتمول والتمور، فقد وفد على مصر وافد الرقي والحضارة، وقامت في رؤوس القوم النية في تنسيق القاهرة وتجميلها، وكان لا بد لباب الخلق من أن يتسع فناؤه ويعلو شراعه وأن يصير إلى نظام أنيق يلائم روح العصر، وكان لابد أيضاً لقهوة باب الخلق أن تتطور وتتحور وأن تلبس لباس الجديد، فأصبح اسمها الكازينو بدل القهوة، وصار بناؤها من الزجاج الشفاف وقد كان قبل من حجر المقطم، وغدت وهي في عصمة شاب مصري ناهض من صميم الريف وقد كان يقوم عليها من الذين ابتلى الله بهم مصر حيناً من الدهر

واليوم يقوم الكازينو في باب الخلق نادياً أدبياً يقصده كثير من الأدباء والشعراء ورجال الصحافة والفن، فتجد السيد حسن القاياتي يهبط عليه في الفينة بعد الفينة؛ وإذ يجلس السيد القاياتي فإنما يحفل مجلسه بالأدب والشعر والرواية والتاريخ والمواليا والزجل، وما ينفض المجلس إلا وقد تحمل الشيخ لحسابه ما ينوء به جيب الأديب. ولكن الله قد بارك في جيب الشيخ

وبين الحين والحين يعرج على الكازينو صديقنا الأستاذ الشاعر أحمد الزين وهو عائد من عمله في دار الكتب، فإذا وجد موضعاً للحديث تحدث كعادته حديثاً شاملاً يتناول كل الأدباء والشعراء في مصر، وإلا أخذ فنجاناً من القهوة وانصرف في صمت رهيب!

وفي ركن من الكازينو يجلس الأستاذ إسماعيل صبري الشاعر ومؤلف الأغاني لشركتي أوديون وبيضافون، فيظل في مجلسه طول النهار وبعضاً من الليل منفرداً

كأنه يستوحي شيطانه ويستلهم وجدانه. وفي ركن مقابل يجلس صديقنا الشيخ رفعت فتح الله في جمع من إخوانه يحقق رأياً لسيبويه، أو يحدثهم فيما كان بينه وبين الرافعي من مناظرة، على كركرة النارجيلة ولعب الشطرنج

ولما مات الهراوي رحمه الله، انفضّ سامره في الحلمية، ولم يتحمل إخوانه الجلوس حيث كان يجلس، فجاء بعضهم إلى الكازينو، فتجد الأستاذ مرتضى الخطاط يجلس ساهماً شارداً كأنه في غمرة من ذكر صاحبه

ويستبد بصدر الكازينو طائفة من شباب الأدب وفتيان العصر الذين أصيبوا بدائه وانطبعوا على غراره، وما داؤهم إلا كما وصف ألفرد ده موسيه في اعترافاته، فهم ينطلقون على سجيتهم، ويستقبلون الحياة بروح يقظة طليقة متمردة على كل القوانين والحواجز، وبهذه الروح الحرة يشدون الأدب، وينظمون الشعر، ويأخذون في النقد، وإنهم لفي ثورة دائمة على الأدباء في مصر وفي الأقطار العربية، ولقد ينقلبون بالثورة على أنفسهم، كالنار تأكل نفسها إذا لم تجد ما تأكله، ولكنهم يخلصون من هذا كله بالمرح والضحك والمزاج الصريح

تجد في هذه الحلقة من الشباب، شاعر الفنون والإذاعة أحمد فتحي، وشاعر البؤس والشقاء المهدي مصطفى، والشاعر البوهيمي طاهر أبو فاشا، والشاعر النحوي الفقيه حسن جاد وشاعر البيت الأباظي أحمد عبد المجيد الغزالي، والشاعر المقل أحمد مخيمر والأستاذ أحمد حمدي المحرر بالبلاغ والشيخ طه أفندي حراز محرر مجلتي الراديو والبعكوكه، والرفيقان عبد العليم عيسى والسعيد علوش؛ يجلس هؤلاء في حشد من إخوانهم وإضرابهم من طلاب كلية اللغة العربية والجامعة ودار العلوم، فينفض كل منهم ما في جعبته، ويتقدم بآخر ما أحدث في الأدب والشعر، وما من يوم يمضي إلا ولهم حدث في الأدب والشعر. . .

يعجبني في هؤلاء الفتيان ذوق دقيق، وتقدير صحيح، ونظر صائب في الحكم على الآثار الأدبية، ووضع الأشخاص في مراتبهم اللائقة بهم، فلا يجوز عليهم الزيف، ولا تخدعهم الألقاب، ولا تغرهم الأسماء، بل إنهم لينظرون، ويتدبرون، فكثير من أعلام الأدب في مصر ليسوا في رأيهم بشيء، ولكل فيما يحاول مذهب!

لهم شغف بالاطلاع، فما يخرج كتاب من المطبعة حتى يكون في أيديهم، يقرءونه ويقدرون له قيمته، وما أعرف بحثاً أو قصيداً نشر في صحيفة أو مجلة قد فاتهم الاطلاع عليه، والنظر فيه، فإذا لم يعجبهم كان بينهم مادة للهزء والضحك والمعارضة بالمثل!

ولهم غرام بترتيب القالب، ولكنها المقالب الأدبية، كأن ينحلوا واحداً منهم قصيدة على صفحات الجرائد، أو يسرقوا أشعار بعضهم المطوية ثم ينشرونها بأسماء غير معروفة، أو يوقعوا بين أديب وأديب فينشروا لأحدهما نقداً صارماً للآخر، ولهم في أبريل كثير من الأكاذيب، ولكنها من الكذب الأدبي المقبول. ولقد كان كذبهم في هذا العام من النوع الطريف العجيب، علموا بأن فلانا الأديب قد أهدى إليه الشاعر إلياس أبو شبكة نسخة من ديوانه، وما رأى أحدهما الآخر قط، فراح هذا الأديب يفضل أبا شبكة على سائر الشعراء، فتخيروا واحداً منهم يجيد حكاية اللغة السورية، واتصلوا بذلك الأديب في بيته، وأخبروه بأن أبا شبكة قد حضر إلى مصر، وأنه يرغب في زيارته فحدد لهم الموعد على لهفة، وذهبوا إليه وكان ما كان من الإجلال والإكبار والاحترام، وخرج القوم على موعد بالغداء في يوم آخر. . . ولكنهم وقفوا في المسخرة عند هذا الحد حتى أساليبهم في الدعابة إنما هي أساليب أدبية، كأن يقيموا لواحد منهم حفلة هجاء، أو حفلة رثاء. وآخر ما حضرت لهم من ذلك (حفلة تكريم من غير مناسبة) للشاعر المهدي مصطفى. وقد اشترك فيها جميع إخوانه وأصدقائه، وقام بتقديم الخطباء والشعراء الأديب الشاعر سيد قطب، وقد استطاعوا أن يوفوا صاحبهم حقه من التكريم، أقل من التهليس. وقام هو أيضاً يرد صنيعهم بمطولة يقول فيها على طريقتهم:

يا قلب كالقبقاب حيرك الجما ... ل فتارة تدعى وأخرى تزجر
صبحاً برجل فهيمة، وعشية ... في رجل سلمى والزمان تجرجر

إلى أن يقول لأصحابه:

أو مكرميَّ؟ فشرتموا! الله يك ... رمني ويعرف قيمتي ويقدر
ليست قصائدكم بمغنية الأدي ... ب عن الفلوس إذا الجيوب تصفر
فتعلموا صوغ القروش فإنها ... تذر الكفيف مفتحا فتصوروا
لقد كان ابن أبي ربيعة قائماً بالحجر يصلي بعد أن نسك، فمر به فتيان جميلان، فلما فرغ من صلاته أدركهما ثم قال لهما: يا ابني أخي، لقد كنت موكلاً بالجمال أتبعه؛ وقد رأيتكما فراقني جمالكما، فاستمتعا بشبابكما قبل أن تندما عليه.
فيا إخواني في باب الخلق: إن البقاء في هذه الدنيا قليل، والدهر يعدل تارة ويميل. فخذوا طريقكم، وامضوا في سبيلكم، واستمتعوا بشبابكم قبل أن تندموا علية.
(م. ف. ع)
خلود الأمومة
(مهداة إلى الأستاذ أحمد حسن الزيات)
للكاتبة الفاضلة (وفيقة)
لست أدري لماذا أثرت في نفسي أيما تأثير هذه الصورة التي في أعلى هذه الصفحة! منذ رأيتها وأنا أحاول التغاضي عن هذا التأثر الشديد بها؛ ولكني لم أفلح. وكلما هممت بقراءة كتاب أو كتابة مقال، شتت انتباهي ذلك المنظر، وأخيراً لم أر بُداً من الكتابة عن الصورة ذاتها.
إن كل أمر مهما كان طفيفاً يؤثر تأثيراً عظيماً في حياة البشر وأخلاقهم.
قال وست المصور: (إن قبلة واحدة من أمي جعلتني مصوراً).
وكتب فول بكستن إلى أمه بعد أن نال منصباً عالياً يقول: (إنني أشعر على الدوام بنتاج المبادئ التي غرستها في عقلي).
ووقفة جلالة الملكة نازلي في هذه الصورة بين كبرى بناتها وصغراهن: صاحبة السمو الإمبراطوري الأميرة فوزية، وسمو الأميرة فتحية، وقفة الأم الرءوم العطوف.
أنظر إلى سمات الحنو الأموي على محياها، وإلى التأثر البادي على قسماتها!!
لعمري أيتها الأم الكريمة، ماذا يكون جواب سمو الأميرة فوزية لو سئلت عن أثر هذا الحنو الدافق من كفك إلى كفها في أرهب لحظة تفارقان فيها أرض الوطن العزيز، وعن مبلغ أمومتك الكريمة في حياتها وتكوينها؟!
سيكون جوابها دون تردد كما قال لورد لنديل، عندما فطن إلى قدوة أمه الصالحة: (إذا وضع العالم بأسره في كفة ميزان وأمي في الكفة الأخرى رجحت عليه رجحاناً عظيماً).
إنها تستمد من جلالتك القوة والشجاعة التي تستعين بهما على حياتها المستقبلة. . . ولست بهذين ضنينة ولا متكلفة. فاغتبطي يا سمو الأميرة، واهنئي بأمك الجليلة.
إن كل أم قوية كالطود، صابرة كالزمن، وادعه كالزهر. . . إلا فيما يمس أولادها من قريب أو بعيد، فهي إذن الرعد المدوي، والفزع الثائر، والقدر الذي لا يرحم. فالأولاد ثمرتها في الحياة، وبهم خلود الحياة؛ وهم رأس مال آمالها، ومعين سعادتها، ومعقد رجائها على الدوام.
يا لله! إني لا أحتمل النظر إلى يمناها التي تحوط الأميرة الصغيرة؛ ولا أستطيع أن أنظر إلى عينيها المسبلتين فراراً من مجابهة الواقع. . . مبارحة وطن إلى حين، ثم فراق ابنة عزيزة بعد حين، تسلمها طائعة نزولاً على سنة الله ورسوله، وانصياعاً لما هيأته الأقدار!
يا أيتها الأم العظيمة والملكة الكريمة، إن صبر الملوك ملك الصبر، وإن حنوّك حنوّ غامر في رقة سجايا ودماثة خلق؛ وإذن فرحمة قلبك تفيض على عالم بأسره فيطمئن أيتها الأمهات. . . أمام أعينكن نموذج الأم الصالحة المدبرة الشجاعة فاقتدين بجلالتها، فإن مصر والشرق في حاجة قصوى إلى الأمهات اليقظات الحكيمات.
والأم الصالحة المهذبة قوام الأسرة الكريمة الناجحة، وما الوطن إلا مجموع أسرات، ونعم وطنا تكون هذه حال أسراته
(وفيقة)
التاريخ في سير أبطاله
أحمد عرابي
أما آن للتاريخ أن ينصف هذا المصري الفلاح وأن يحدد له

مكانة بين قواد حركتنا القومية؟
للأستاذ محمود الخفيف
وذهب الضباط على رأس من أخرجوهم إلى الخديو يسمعونه شكواهم، وكان بعض أعوان الخديو يشيرون عليه بأخذهم بالشدة ومعاملتهم معاملة الثائرين ولو أدى الأمر إلى إطلاق النار عليهم، وقال البعض إن من العبث أن تلجأ الحكومة إلى البطش وليس لديها وسائله، فالفرق جميعاً تؤيد عرابياً ومن معه، والرأي أن يسلك الخديو معهم جانب اللين فيطفئ بذلك نار الفتنة
وتغلبت الحكمة على الطيش ووضع اللين في موضع البطش، فأوفد الخديو إلى الضباط الثلاثة ومن ظاهرهم من الجند تحت نوافذ قصره يخبرهم بإجابة مطلبهم الأول فقد عزل رفقي، وطلب إليهم أن يختاروا من يحل محله حتى لا يعووا إلى الشكوى، فوقع اختيارهم على محمود باشا البارودي؛ ووعد الخديو بالنظر في بقية مطالبهم والعمل على إنصافهم. وطلب الضباط الإذن على الخديو فمثلوا بين يديه وأعربوا له عن امتنانهم وولائهم لشخصه وإخلاصهم لعرشه، ثم انصرفوا وانصرف الجند فرحين مستبشرين
وكان على الخديو أن يتدبر الأمر منذ بدايته وينظر ما إذا كان لديه قوة يقمع بها الحركة إن كان لا بد من وضع العنف موضع العدل؛ فإن عدم القوة كان أمامه أن يلجأ إلى اللين غير مكره ولا مغلوب على أمره. . . ولكنه تصرف في الأمر على نحو ما رأينا فأفضى إلى نتائج خطيرة سوف تؤثر أثرها في مجرى الحوادث، فظفرُ الجند بمطالبهم في عنف وعجز الحكومة عن مقاومتهم قد وضع الخديو وحكومته في موضع الضعف وأحل عرابياً وحزبه محل التوثب والتطلع وجعلهم مناط الرجاء والأمل هذا إلى ما تركه هذا الحادث من سخيمة في نفس الخديو يصعب بعدها كل تفاهم ويلبس فيها كل حق بالباطل؛ ثم من حذر وريبة في نفوس الجند يلقيان على كل حركة من حركات الحكومة شبح الغدر ويلبسان كل عمل
من أعمالها ثوب الرياء
على أن ما يعنينا فيما نحن بصدده أن هذا الحادث قد أدى إلى ذيوع صيت عرابي على نحو لم يسبق لفلاح غيره في مصر، فسرعان ما دار اسم ذلك الفلاح على كل لسان في القاهرة وسمع بذلك الاسم الأجانب ومن لم يكن يعرفه من المصريين؛ ولم يقف الأمر عند القاهرة بل لقد رن هذا الاسم في القرى فأفاق على رنينه الساحر أولئك الأعيان والمشايخ الذين تعودوا منذ القدم أن يخضعوا خضوعاً مطلقاً للترك والجركس، الذين كانوا ينظرون إلى الفلاحين نظرتهم إلى دوابهم
وعجب أولئك الفلاحون أن يجرؤ رجل منهم على تحدي الخديوي والرؤساء الجراكسة، فتعلقوا بهذا الرجل ولم يروه، ورغب كثير منهم في رؤيته، فقدموا إلى القاهرة يحملون إليه الهدايا ويعربون له عن محبتهم وإخلاصهم وإعجابهم بمبادئه التي تدور حول إنصاف الفلاحين في الجيش، وراح هو يخطب فيهم شاكراً مطمئناً
وليت شعري ماذا تكون الزعامة إذا لم تكن هذه زعامة؟ ألسنا نرى الآن في عرابي شخصيتين: شخصية الضابط الذي يسير في مطالب الجيش على رأس الجند، ثم شخصية الفلاح الزعيم الذي بدأ الفلاحون به يرفعون رؤوسهم وقد خفضوها من قبل أجيالاً طويلة؟ إني لألمس في تلك الصحوة فجر عصر جديد للقومية المصرية، كان عرابي أول مؤذن أذن به، ألمس ذلك الفجر الذي سوف يسفر صباحه عما قريب على صيحة فلاح آخر سوف يبرز من القرى كما برز عرابي، هو سعد بن مصر العظيم مفخرة أجيالها ورأس رجالها
ولئن كان جمال قد أيقظ الغافين في المدن، لقد بعث عرابي بإقدامه أهل القرى من مراقدهم، فإن عمله هذا أوحى إليهم أن من الممكن أن يخرج من بينهم من يشمخ برأسه على أولئك الجركس الذين طالما استذلوا في مصر الرقاب!
ويعنينا كذلك من حادث قصر النيل أمر آخر لا يقل عن ذلك أهمية، ألا وهو التفات الوطنيين إلى عرابي، فعند هذه النقطة التقت الحركتان الوطنية والعسكرية فتولدت من التقائهما الثورة العرابية في أصح مظاهرها وأصدقها
رأى الوطنيون ما أصاب رجال الجند من ظفر سريع، بينما قد لحقهم هَم الفشل، واستطاع

توفيق أو بالأحرى استطاع رياض أن يأخذ عليهم مسالك القول والعمل، فسرعان ما اهتدوا إلى الطريق الذي يوصلهم إلى أغراضهم فتقربوا إلى عرابي، فأخذ شريف يراسله ويعقد بينه وبينه أواصر المودة

وحذا حذو شريف زعماء حركة الإصلاح في الأزهر وزعماء النواب مثل سلطان باشا ذلك الذي كان يمثل الأعيان كذلك بحكم أنه منهم، واتضح لهؤلاء أنه يجب عليهم أن يستعينوا بهذه القوة الجديدة لإقصاء رياض عن مركزه، وبعث الدستور الموءود وتحقيق الإصلاح المنشود.

وأصبح منزل عرابي مقصد الكثيرين من الأحرار كما كان موئل رجال الجيش؛ ولم يكن موقف عرابي في الحركة الوطنية موقف الأداة كما زين البغي لبعض المؤرخين أن يقولوا، فلقد كان هو من جانبه من المتمسكين بمبدأ الشورى منذ نشأته، وإنه ليؤكد في كل ما كتب أنه قد طالب في عريضته، فوق ما طلب، بإعادة مجلس شورى النواب، ليكون فيه موئل للمظلومين من الوطنيين في الجيش وغير الجيش.

وكان البارودي وزير الجهادية الجديد، من دعاة الدستور، ومن حزب شريف، ولذلك كان حلقة الصلة بين الجند وبين الوطنيين، وكان كثير الاتصال سراً بعرابي بواسطة علي الروبي حتى لا تدعو كثرة الصلة به جهراً إلى ريبة رياض وحزب رياض، وبهذه الوسيلة كان الجند على علم بكل ما تريده الحكومة بهم.

وهكذا أصبح عرابي ملتقى الآمال، يحرص على الصلة به الوطنيون والجند والفلاحون؛ ولقد بلغ من ذيوع صيته أن أصبح توفيق يغار منه حتى ما يستطيع أن يخفي تلك الغيرة.

ولو أن توفيقا عرف يومئذ كيف يتخذ سبيله وسط هاتيك الأنواء لجنب البلاد ما كانت مقبلة عليه ولتغير تاريخ مصر الذي كان لا يزال مطوياً في حجب الغيب، وما كان للخديو من سبيل يومئذ إلا أن ينضم إلى الحركة الوطنية فتكون البلاد كلها تحت لوائه نوابها وجيشها، ووجوه البلاد وأهلوها؛ وفي ذلك دون غيره سلامتها وأمنها

كانت سياسة توفيق إن كان ثمة له من سياسة عقب حادث قصر النيل أهم العوامل في تطور الحوادث بعده على النحو الذي سوف نراه؛ فلقد وقف موقفاً أشبه ما يكون بوقف لويس السادس عشر من مجلس طبقات الأمة حين أجاب نواب العامة فيه إلى ما طلبوا في

مسألة التصويت على القوانين وفي نيته أن يغدر بهم متى حانت الفرصة

أدرك الضباط لا ريب أنه أجابهم إلى ما طلبوا إذ لم يكن له من ذلك بد، ولذلك أحسوا أنه لا بد متربص بهم فتربصوا هم كذلك به

وكان توفيق من ناحية أخرى يكره رياضاً ويعمل على التخلص منه؛ لذلك وضع نفسه في موضع عجيب حقاً، فبينما هو يكره الضباط ويمقت حركتهم وينتوي المكر بهم إذا به يتخذ منهم أداة للكيد لوزيره بغية إقصائه عن منصبه

وهكذا تشاء الظروف أن يكون رجل كتوفيق هو الذي يحرك دفة الأمور في مثل ذلك الزمن العاصف؛ ولم يكن أمامه كما أسلفنا إلا أن يتخذ سبيله إلى الوطنيين فيتخذ من نواب الأمة سنداً له كما فعل أبوه في أواخر أيامه

ولو أنه فعل ذلك لضعف شأن الحزب العسكري إذ كان يحس الوطنيون أن لا حاجة بهم إلى معونة الضباط، ثم كان الضباط أنفسهم يجدون في وزارة وطنية تحقق رغائبهم ما يطمئن نفوسهم ويكبح في الوقت نفسه جماحهم بطريقة غير مباشرة

ولكن توفيقاً لم يلجأ إلى ذلك الحل، وما نشك أنه كان يفطن إليه، ولكنه كان يقتضيه أن ينزل عن سلطانه إلى نواب الأمة وهو ما نشك كل الشك في أنه كان يستطيع أن يحمل نفسه عليه، ومن هنا أحدقت به وبمصر الأخطار، هذا فضلاً عن دسائس الأجانب الذين أحكموا شباكهم من مدة لاقتناص الفريسة الغالية في هذه الأيام الكدرة!

وقع حادث قصر النيل في فبراير عام 1881 م؛ وفي أعقاب الحادث مرت على مصر بضعة أشهر ما نظن أنه مر على البلاد فترة مثلها في كثرة ما حيك فيها من الدسائس على قصر أمدها

سمع الضباط أن أعوان الخديو يغرون بالمال والمناصب بعض رجال الآليات ليكونوا في الوقت الموعود إلى جانب الخديو، ونمى إليهم أن رياضاً يفكر في طرق إجرامية

للفتك بهم، ومن ذلك ما علموه من أنه كان يدبر مشاجرة في أحد الشوارع يندس فيها من يقتل عرابياً أو من يحضر من زميليه.
ومما يذكره عرابي في مذكراته أن أحد الغلمان الجركس في منزل عبد العال بك حلمي،
وهو ابن زوج حرمه المتوفى، قد وضع له السم في اللبن بإيعاز غلام جركسي آخر من غلمان الخديو، ولولا أن تنبهت الخادمة لراح عبد العال ضحية هذا الغدر الأثيم
وكذلك سمع الضباط أن الحكومة تنوي أن ترسل الآلاي السوداني بقيادة عبد العال بك إلى السودان، بحجة أن القوة الموجودة فيه غير كافية لحفظ النظام. فأحس الضباط من ذلك أن النية متجهة إلى تشتيتهم للقضاء عليهم متفرقين
واتهم تسعة عشر ضابطاً أحد رؤسائهم بأمور نسبوها إليه أثبت التحقيق بطلانها، فأبعدتهم الوزارة عن مناصبهم. فبادر الخديو بإعادتهم، الأمر الذي حنق له زعماء الجيش. إذ رأوا فيه أن الخديو إنما يعضد حركة التمرد في صفوف صغار الضباط ويستميلهم إليه ضد رؤسائهم.
وترامى إليهم أن الخديو يمرن حرسه في الإسكندرية على إطلاق النار، وأنه يشهد ذلك بنفسه وينثر الذهب على الجند متظاهراً بمكافأة المجيدين في إصابة المرمى؛ ولن يفسر مثل هذا العمل في ظروف كهذه إلا بأنه استعداد من جانب الخديو لما هو مقبل عليه من قمع وبطش.
هذا بينما أرادت الوزارة أن تسخر الجند في الآليات الأخرى في حفر الرياح التوفيقي، وكان عليهم أن يسلموا أسلحتهم إلى مخازن الجهادية قبل ذهابهم إلى ذلك العمل؛
ولقد رفض عرابي الموافقة على ذلك، وأيده البارودي وزير الجهادية
وأرسل الخديو من الإسكندرية كما يقول عرابي في مذكراته على فهمي رئيس الحرس إلى زميليه في القاهرة ليقول لهما إن الخديو يرغب في عزل البارودي لما رأى من ذبذبته وسوء سياسته، وإن الخديو يعطف على مطالبهم (فهم ثلاثة وهو رابعهم) وإن سموه يطلب ألا يعلم أحد بإيفاد علي بك.
وعزل البارودي فعلاً، وكان رياض قد أمره أن يبعد عرابياً وعبد العال بفرقتيهما من القاهرة، فأبى عليه ذلك
وجاء إلى البارودي، وكان بالقاهرة، أمر أن يسافر فوراً إلى عزبته.
ولقد كان البارودي على صلة برجال الجيش ينبئهم كما أسلفنا بكل ما تريد الحكومة بهم، واتفق معهم أن يكون خروجه من الوزارة علامة اقتراب الخطر.
وحل محل البارودي داود يكن باشا صهر الخديو فلما لبث إن لجأ إلى الصرامة في معاملة رجال الجيش، فحظر عليهم الاجتماع بالمنازل أو ترك مراكزهم ليلاً أو نهارا وأنذرهم بأشد العقاب إن خالفوا أوامره؛ ومع أن عرابيا وأنصاره قد هنأه بمنصبه، وطلبوا إليه أن يعمل على إجابة مطالب الجيش التي كان البارودي يسعى في إجابتها، فإنه اكتفى بالوعود ولم يفعل شيئاً.
وأحيط بيت عرابي وعبد العال بالجواسيس، وجرت الشائعات بالنذر فملأ القاهرة نبأ عجيب وهو أن الخديو قد استصدر فتوى سرية من شيخ الإسلام بقتل عرابي، وكانت الظروف يومئذ تساعد على تصديق هذا النبأ الكاذب أكبر المساعدة.
وطلب رجل مجهول الإذن على عرابي في منزله فلم يأذن له وشوهد أنه عاد إلى أحد مخافر البوليس؛ وذهب عرابي إلى منزل زميله فعلم أنه حدث لهما مثل ما حدث له فأيقنوا أن حياتهم قد باتت في خطر، وكان ذلك في 8 سبتمبر سنة 1881 م. لذلك كله عول الضباط على أن يخطوا خطوة حاسمة، وكانوا على صلة دائمة في تلك الشهور التي أعقبت حادث قصر النيل برجال الحركة الوطنية
(يتبع)
الخفيف
نقل الأديب
للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي
كأنا له زغب الفراخ يقوتها - 398
ابن فيروز البصير:
وروضةْ لَهو قد جنيت ثمارها ... بدير العذارى بين روض وأنهار

تخال به وجه المدير وكأسه ... هلالاً وشمساً بين أنجم نُوَّار
يطوف بإبريق مفدّى، كرامة ... علينا، بأسماع كرام وأبصار
كأنَّا زُغْبُ الفراخ يقوتها ... بمثل مُذاب التبر من شطر منقار
399 - لا يسمع ذم صديقه
في (مرآة المروءات) للثعالبي: جلس أبو نواس إلى نفر من قريش، فذكروا صديقاً له فعابوه، فقام أبو نواس فاستجلسوه فقال: ليس من المروءة أن أجالس قوماً يذمون صديقاً لي، وأنشأ يقول:
لا أعير الدهر سمعي ... ليعيبوا لي حبيباً
احفَظِ الإخوان كيما ... يحفظوا منك المغيبا
400 - شريكك
قال صلاح الدين الصفدي: رأيت الشيخ الإمام الفاضل ركن الدين محمد بن القريع غير مرة ينكر على من يضرب كلباً أو بهيمة ويقول له بحنق: لأي شيء تفعل به هذا وهو شريكك في الحيوانية؟!
401 - ولا تصحب الأردا فتردى مع الردى
وُجد على ظهر نسخة من (المفصل) بخط عتيق: سئل ابن ابن الأخضر بمحضر ابن الأبرش: علامَ انتصب قوله: (مقالة إن قد قلت سوف أناله؟). فقال: (ولا تصحب الأردأ فتردى مع الردى). فقال السائل: سألتك عن إعراب كلمة فأجبتني بشطر بيت. فقال ابن الأبرش: قد أجابك لو كنت تفهم. وهذا الشطر من قول النابغة:
أتاني - أبيت اللعن - أنك لمتني ... وتلك التي تستك منها المسامع
مقالة إن قد قلت سوف أناله ... وذلك من تلقاء مثلك رائع
يروى (مقالة) بالرفع على أنه بدل من أنك لمتني الفاعل وبالفتح على ذلك إلا أنه بناه لما أضافه لي مبني
402 - فتوة
في (مفيد العلوم ومبيد الهموم) لجمال الدين الخوارزمي: كان رجل نيسابوري يدّعي الفتوة، فاجتاز يوماً بمفرق الطرق، فرأى شاباً مريضاً يتأوه ويستغيث، فتقدم إليه وقال: وما تشتهي؟ قال: أشتهي رؤية أمي والرجوع إلى وطني. قال: أين منزلك؟ قال: ببلخ. فأخذ الرجل بمجامع لحيته ولطم نفسه (وكان اسمه أبا الحسن)، فقال: يا أبا الحسن، كنت أظن أنه يشتهي فُقاعاً، أو قصعة هريسة. ادعيت الفتوة فهات المعنى. فرجع إلى بيته وباع داره، واكترى راوية وحمولة وآلات وحمل الرجل، وأوصله إلى منزله.
303 - الفتوة
في (الذخائر) للأشبيلي: سمع بعض السلف بعض الفتيان يقول: الفتوة إنما هي الظرف والانهماك والمجون. فقال له: ويحك! يا بني، حدت (والله) عن طريق الحق، وجرت عن القصد. والله ما الفتوة إلا مال مبذول، وبشر مقبول، وطعام موضوع، وأذى مرفوع.
404 - ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم
في (الكشاف): (ليتفقهوا في الدين، ولينذروا قومهم): ليتكلفوا الفقاهة فيه، ويتجشموا المشاق في أخذها وتحصيلها وليجعلوا غرضهم ومرمى همتهم في التفقه إنذار قومهم وإرشادهم والنصيحة لهم لا ما ينتحيه الفقهاء من الأغراض الخسيسة، ويؤمونه من المقاصد الركيكة، من التصدر والترؤس والتبسط في البلاد، والتشبه بالظلمة في ملابسهم ومراكبهم، ومنافسة بعضهم بعضاً، وفشوّ داء الضرائر بينهم، وانقلاب حماليق أحدهم إذا لمح ببصره مدرسة لآخر أو شرذمة جثوا بين يديه، وتهالكه على أن يكون موطأ العقب دون الناس كلهم
تقهقر نابليون عن روسيا
لفكتور هوجو
(مهداة إلى الدتشي بعد وضع الرمل مكان الثلج)
كانت السماء تُساقِطُ الثلج؛ وكان الفاتح قد قهره فتحه، والنسر لأول مرة تَطامن رأسه
يا للأيام العوابس! لقد تقهقر الإمبراطور وئيد الخطى تاركاً وراءه (موسكو) داخنة

تحترق!

كانت السماء تساقط الثلج؛ والشتاء القاسي يتدهدى قطعة فقطعة، والبقاع البيض تتعاقب بقعة فبقعة، والجيش قد وقع في غمَّاء فلا يُعرف له قائد ولا عَلَم؛ وكان بالأمس أعظم الجيوش فأصبح اليوم قطيعاً من الغنم؛ واضطرب الأمر وتشعث النظام فلا يتبين له جناحان ولا قلب

كانت السماء تساقط الثلج، والجرحى يلوذون ببطون الخيل المبقورة؛ ونافخو الأبواق على مداخل المعسكرات الليلية المحطمة قد جَّمدهم الصقيع، وغشَّاهم البَرَدُ، فظلوا في أماكنهم واقفين على العتبات، أو صامتين على السُّرُج، وأفواههم الحجرية قد التصقت بأبواقهم النحاسية؛ والسماء تندف بالرصاص والقنابل مختلطة بكبب الثلج؛ وجنود الحرس الإمبراطوري يفجأهم الروع فيمشون مفكرين وقد انعقد رُضابُ الجليد على شواربهم الغُبر

كانت السماء تساقط الثلج، والريح الصرصر تهب، والجنود يمشون حفاة على الطوى في مجاهل الأرض، فلم يعودوا تلك القلوب التي كانت تنبض، ولا تلك النفوس التي كانت تحارب، وإنما أضحوا حلماً يهيم في الضباب، وسراً يجول في الظلام، وموكباً من الأشباح يضرب في الأجواء القاتمة؛ وكانت الوحدة الشاملة المروعة تبدو في كل مكان صامتة منتقمة، والسماء الساكنة تجعل من طباقها ومن ركام الثلج كفناً عظيماً لهذا الجيش العظيم. وكان كل جندي يحس في نفسه دبيب الموت في وحدة ووحشة هل يتيح لهم القدر أن يخرجوا من هذه الأرض المشئومة؟ لقد كانوا أمام عدوين: القيصر وريح الشمال، والشَّمال كانت عليهم أشد. كانوا يلقون المدافع ويشعلون النار في خشبها ليستدفئوا؛ وكان كل من رقد منهم لا يصحو من رقاده؛ وكانوا يفرون شراذم في وجوه الضلال والهم فتتخطفهم المنايا وتبتلعهم الصحراء، فلو نظرت من صدعات الجليد لرأيت كتائبهم تحت أطباقه راقدة

يا لسقطة هنيبال وعُقبى أتيلا! لقد كان المهزومون والجرحى والموتى وصناديق الذخيرة وناقلات المرضى يتساحقون على الجسور ليعبروا الأنهر؛ وكان الجند ينامون عشرة آلاف فيستيقظون مائة؛ و (ني) الذي كان يتبعه جيش من قبل، فر الآن بعد أن نازع ثلاثة من القوزاق ساعته

كانت الهتفات لا تنفك طول الليل تشق الآذان: من هذا! هيا! هجمة! حملة! فيتناول هؤلاء الأشباح بنادقهم فيرون أن قد هجمت عليهم كتائب من الخيالة الفظاع، وزوابع من الرَّجَّالة الشقر، لهم صور كصور الهُوَل المفزعة، وأصوات كأصوات البُزاة الصُّلع! وهكذا باد في غياهب الليل جيش بأسره!

وكان الإمبراطور واقفاً هناك ينظر! كان كالسنديانة العملاق تفرعت ذراها المصونة نكبةُ الدهر، وهي الحطاب المشئوم، ثم أخذ يهين عظمتها بفأسه، والسنديانة الحية ترتجف أمام شبح الثأر الفاجع وتنظر إلى فروعها تتساقط من حولها فرعاً بعد فرع. كان الجيش يموت قادته وجنده. لكل امرئ حِينه وَحينه. وكانت بقية السيوف من رجال الإمبراطور يحفون من حول خيمته في إجلال وحب، ويرون ظله على الأستار يذهب ويجيء، فيتهمون القدر بالغيب في ذاته، ولا يخامرهم الشك في يمن طالعه. ولكنه هو أدرك فداحة الخطب؛ واتجه رجل المجد إلى الله وهو من الهول الهائل في دهشة ورعشة وحيرة. وعلم نابليون أن ما أصابه إنما هو تكفير عن شيء. فقال ووجهه الساهم ينم عن القلق، وكتائبه على الثلج منثورة أمامه:

- أهذا هو العقاب يا رب الجيوش؟. فسمع من وراء الغيب منادياً يناديه باسمه ويقول له: (كلا)

(ابن عبد الملك)

من دخان المجتمع!

(في ذكرى قاسم أمين)

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

جَفَّ الخَمْيلُ . . فَلاَ ظِلٌّ وَلاَ ثَمَرٌ ... وَلا نَشِيدٌ إِلَيْهِ يَظْمَأُ الوَتَرُ
إِلا بَقايا أَغانٍ هَاهُنَا وَهُنَا ... مُصَرَّعَاتٌ عَلَيْهَا الصَّمْتُ يُحْتَضَرُ
وقُبْلَةٌ مِنْ شِفاهِ الطَّيْرِ ثاكِلَةٌ ... عَلَى الغُصُونِ، تَهَاوَتْ حَوْلَها الذِّكَرُ
وَشاعِرٌ في يَدَيْهِ أَدْمُعٌ وَدَمٌ ... وَجَذْوِةٌ مِنْ أَسىً تَغْلي وَتَسْتَعِرُ

وَيَشْتَكي فَيَقُولُ النَّاسُ هَزَّ صَدَّي ... وقال شعرا. ضلَلْتُمْ! إِنَّهُ ضَجِرُ
طَوَى الرَّبيعَ عَلَى أَقْدَاحِهِ مَزِقاً ... مِنْ قَلْبِهِ، في هَجِيرِ العُمْرِ تَنْفَطِرِ
ونَغْمَةً في صَحارَى النَّفْسِ حَائِرَةً ... ما في فَمي نَبْأَةٌ عَنْهَا وَلاَ خَبَرُ
دُفِنْتُ فِيها، وَذَرَّاني بِحيرتِها ... إِعْصَارُ يَأسٍ كَلَيل الجِنِّ مُعْتَكِرُ
ما يَبْتَغي عاشِقُ التَّغْرِيدِ منْ نَغَمي ... وَالكَوْنُ حَولِي زَندٌ خَانَهُ الشَّرَرُ
والأرْضُ بَرْ كانُ آجَالٍ يَكادُ بِها ... لَولاَ العْنَايَةُ في الآفَاقِ يَنفَجِرُ
وَالنَّاسُ مِثْلُ الصَّوَاري لا خَيالَ لُهْم ... إِلا المْخالِبُ والأنْيابُ والظُّفُرُ
وما بِهِمِ جائِعٌ عَرَّتْه لقمَتُهُ ... ولا شَرِيدٌ تَجَافى جَنْبهُ المَدرُ
فما لُهم جَيَّشوا الأرْزاءَ واحْتِشَدُوا ... للمْوتِ فانين لا هَابوُا ولا حَذِرُوا
وَجَنَّدوا الغَازَ. . . وارْتجَّوا له فزَعاً ... وتَحْتهُم فَغَرَتْ أَشْدَاقَها الحُفَرُ
في كُلِّ يومٍ سَريرٌ ذَابَ صَولَجُهُ ... وَدَولَةٌ في رِياءِ السِّلْمِ تندَثِرُ
فإن تَبَرَّجَ فتَّاكٌ. . . وَطُلَّ دَمٌ ... فالنَّسْرُ جَوعانُ في الآجامِ يَنْتَظرُ
وَلْيذْهَبِ العَصرُ مطعوناً بِخنجَرِهِ ... تُبْلي حَضَارتَهُ الأطْماعُ والأشَرُ!
قُنَّعتمُ. . . وعشاشُ الطَّيْرِ عَارِيَةٌ ... والأفرخُ البيضُ والأطفالُ والزّهرُ
حَتَّى الربيعُ. وما ذَنْبُ الصَّباحِ به ... والنَّهْر يَحلمُ والأنْسامُ والشَّجَرُ؟
. . .مهَازِلٌ أَبْدعَ الطّاعونِ فِتنتها ... ما هَزَّني هاجِسٌ منها ولا أَثَرُ
أنا ابْنُ من أعيتِ الدُّنيا حَضَارتُهُم ... ونوَّرُوا وَظلامُ الأرضِ مُعتَكِرُ
وأنْطقُوا مُعجزَاتِ الفَنِ قاهِرَةً ... والدَّهرُ لَجلَجَهُ الإعْياءُ والحَصْرُ
قُمْ غَنِّني منْ دَمِ الأبْطَالِ أُغْنِيةً ... يَحْلُو لِشادِي العُلاَ في ظِلِّهَا السَّمَرُ
وهَاتِ عنْ سيرةِ الأحْرَارِ في وَطَنٍ ... ما أَيْقظتْ قَلْبَهُ الأحداثُ والغِيرُ
واهتِفْ (بِقاسِمَ): قُمْ فانظُرْ صحائِفَهُ ... تَضيقُ عنْ وصفها الأخْبارُ والسِّيرُ
شهدْتَ في الدُّورِ قَيدَ الذُّلِّ محتدماً ... قلبُ الخُدُورِ على بَلواهُ يَنْفطِرُ
أزاهرُ النِّيلِ أَفنى السِّجنُ بهجَتها ... وَمَسَّ أَكمامَها مِنْ هَولهِ خَدَرُ
فرُحتَ تزأرُ حَوَلَ القَيدِ عاصفَةً ... ما شلَّ فورتها جُبْنٌ ولا حَذَرُ
وَحَولَكَ الرَّأيُ تحكيِ نارُ غَضَبتهِ ... أَسنَّةً في قتامِ الحَرْبِ تَشْتجِرُ
فقائِلٌ: مُصلحٌ أوفى بمشعِلِهِ ... على الضِّفاف. كما يُستَشرَفُ القَمُرُ
!أَلقى الْمَبَادِئَ ما في رُوحِها ضَرَرٌ ... مَسَّ الحجابَ، ولا في شَرْعِها خَطَرُ
!وَقائلٌ: شِرعَةٌ قَبْلَ الأوانِ أتتْ ... والعَصْرُ في وهدَةِ الأخلاقِ مُنْحَدِرُ
!وَقَائلٌ: زَنبَقُ الوادي بِربوتِهِ ... تَحْتَ الخَمائِلُ عُذْريُّ الشَّذى نضرُ
!فإن تَنقلَ مَاتَ العِطرُ. . . وانْتَثَرَتْ ... كمِامُهُ، وَطَواهُ التُّرْبُ والوضَرُ
وَبيْنَ هَذا وهَذا. . . أقبَلَتْ زُمرٌ ... ضَلَّتْ سبيلَكَ. تَتْلُو رَكبَها زُمَرُ
هَوَى على كَفِّهم نَجْمُ العفافِ. . . فما ... هَزُّوا لِمصرعِهِ جَفناً ولا شَعُرُوا
باسْمُ السُّفُور أقاموا كُلَّ مجْزَرَةٍ ... يَكادُ يَلطمُ منْ أهوالها القَدَرُ
عَاثُوا فَضَجَّ الحِمى منْ رِجس خُطْوتهِمْ ... وفُزِّعَتْ منهُمُ الأخلاَقُ والأسَرُ
نَعِشُ الفضِيلَةَ يمشي في مَواكبهِمْ ... فما يحِسُّ بِهِ سمعٌ ولا بَصَرُ
قالوا: شأى الغربُ! قلتُ: الشّرقُ سابقُهُ ... وَإِن تبدَّلَتِ الأشكالُ والصُّوَرُ
وما بِعاداتِهِ نُعْلي دعائِمنا ... لكِنْ بما تُلهمُ الأحداثُ والعِبَرُ
!وَكَيْفَ يَعَلو جبينُ الدَّهرِ قي بَلَدٍ ... بكَفِّ شُبَّانهِ الأخلاق تنتحرُ؟
!فقُمْ لهُ (قاسمٌ) واهتِفْ بساحَتِهِ ... يا عَلَّما بعدْ هذا الغَيِّ يزدَجِرُ
. . .أَوْ لا فَنَم هَانئاً في الخُلدِ، لا صَخَبٌ ... يُضِنيْ الحَياةَ ولاَهمٌّ ولا ضجَرُ
مَجَّدتُ ذِكراكَ علَّ اليَومَ خافقَةً ... منْ أرْغُني بِصَدَاها النَّفْسُ تَعْتَبرُ
!أنا الذّي يُسمِعُ الأبطالَ ذِكرهُمُ ... وإن تَزوي بِهم تَحت الثّرى حَجَرُ
. . .عَزِيفُ جِنَىَ فَوقَ الشَّمسِ دارتُهُ ... وتَحتِيَ اللغوُ والتَّهريجُ والهَذَرُ
(وزارة المعارف)
محمود حسن إسماعيل
رسالة الفن
دراسات في الفن:
التمثيل تلخيص الحياة
للأستاذ عزيز أحمد فهمي

ينحو التمثيل في مصر نحوين:

أما النحو الأول فهو صناعة التمثيل، وزعيم مدرستها في مصر الأستاذ جورج أبيض. والواحد من أبناء هذه المدرسة يتلقف الدور الذي يعهد إليه بتمثيله، فينكفئ على جمله وعباراته يدرسها جملة جملة وعبارة عبارة، ويرى أي شيء يقصد إليه المؤلف من كتابة هذه الجملة أو هذه العبارة. فإذا كان المراد بها استفهاماً عرف الممثل الصناع هذا الغرض، وأدرك أن هذه الجملة أو هذه العبارة يجب أن تلقى كما يلقي الإنسان سؤالاً يُشعر بإلقائه سامعه بأنه ينتظر منه الجواب. فإذا كان المراد بالجملة أو العبارة إظهار الشكوى والتوجع أنَّ وهو يلقيها وأرسل صوته متهدجاً متقطعاً. وإذا كان المراد بالجملة أو بالعبارة إعلان الثورة والغضب استلزم تمثيلها عند هذا الممثل أن يصرخ فيها وأن يزعق، وأن يشير بيديه - إذا أحب - إشارات تتفق في معناها ومعنى الغضب والثورة الذي يعلنه بعبارته أو جملته

وهذا أسلوب في التمثيل كان الفرنسيون يصطنعونه حتى السنوات الأولى من هذا القرن وهي السنوات التي أدرك فيها الأستاذ جورج أبيض أستاذه (سيلفان) الذي تعلم التمثيل على يديه في البعثة التي أوفده فيها الخديو عباس، وهذا الأسلوب فيه عيب هو أخطر العيوب التي ينكب بها فن من الفنون وهو التكلف، ذلك أنك لا تستطيع أن تشاهد ممثلاً يمثل بهذه الطريقة وتستطيع أن تنسى أنك تشاهد تمثيلاً، فأنت تلحظ - مهما تناوم حسك - أن كل كلمة مما يلقى أمامك قد درست حروفها حرفاً حرفاً، فلا حرف من حروفها يخرج من بين شفتي ملقيها إلا بعناية مبذولة، ولا جملة ترسل من فيه إلا بتنغيم وتلحين يصرخ في أذنيك بأنه لم يرد عبثاً وبأنه يراد به أن يحوز إعجابك، إعجابك أنت أيها المتفرج! وهذا شيء تزورُّ عنه الطبيعة ولا ترضاه. فليس في الدنيا ناس يكلم بعضهم بعضاً مثلما يكلم أفراد هذا الفريق من الممثلين بعضهم بعضاً وهم واقفون على خشبة المسرح. فهو تمثيل أجدر به أن يقضي الإنسان أمامه الساعات يشاهده و (يتفرج عليه) ولكنه لا يساهم فيه بعواطفه وشعوره، ولا يشارك فيه ممثليه بوجدانه ولإحساسه. . وكيف يصدقهم وهو يذكرونه في كل كلمة من كلماتهم بأنهم ممثلون، وبأن هذا الكلام الذي يسمعه رواية تخيلها كاتب من الكتاب، وأن هذا المقعد الذي يجلس عليه فوتيل ممتاز أجره في السواريه عشرون قرشاً يضاف إليها قرشان ضريبة على لهوه وعبثه!

وهذا هو ما حدا بي أن أسمي هذا النوع من التمثيل صناعة التمثيل، وهو ضرب من التمثيل يستطيعه الموهوب كما يستطيعه غير الموهوب لأنه لا يحتاج في إتقانه إلا إلى تدريب صوتي تتم بتمامه الصنعة، ويقعد بعد تمامها الفن الصادق محزوناً محسوراً

أما النحو الآخر الذي نحصيه للتمثيل فهو هذا الضرب الذي لا يعبأ بالصنعة، والذي لا يعبأ بالصوت، والذي لا يهتم كثيراً بمخارج الحروف، والذي لا هم له في هذه الناحية الصناعية إلا أن يكون الصوت واضحاً مسموعاً مفهوماً؛ ولكنه يتطلب قبل هذا من الممثل أن يكون قد وهب نفسه وروحه وبصره وسمعه وإحساسه وكل قوة من قواه للتمثيل، لا مختاراً، فلا سبيل للاختيار في المواهب، بل مفطوراً مطبوعاً. فإذا لم يكن الله قد خلق الممثل ممثلا فإنه لن يستطيع أن يبلغ من المجد الفني إلا مثلما بلغه الأستاذ الكبير جورج أبيض: دراسة وإلقاء

فالممثل الصحيح هو هذا الذي يشب وهو يراقب الناس فرداً فرداً ويدرس أشخاصهم كاملة لا ممزقة؛ فهو لا يعني بأصواتهم واهتزازتها المختلفة في أصواتهم النفسية المختلفة من تساؤل وغضب وفرح وحزن، وإنما هو يتوغل في نفوسهم إلى ما هو أعمق من هذا؛ فهو ينفذ بروحه إلى حيث مكامن العواطف والانفعالات في نفوسهم، فيتعرف الأسلوب الذي تجرى عليه نفوسهم في تفهم الأشياء وفي الإحساس بالمؤثرات المتباينة. ويجب أن يكون هو نفسه إلى جانب هذه الدراسة التي لا تتاح لكل إنسان صافي الروح سهل الوجه صريح الملامح والقسمات بحيث ينضج وجهه وصوته عفواً بما ينتاب نفسه من المؤثرات. فإذا اكتمل له هذان العاملان أمكن في غير تحرج أن نقول إنه ممثل كامل. ويقف نجيب الريحاني في الصف الأول من هذا النوع من الممثلين المصريين الذين نذكر منهم مختار عثمان وبشارة يواكيم

والواحد من هؤلاء الممثلين الموهوبين يتلقف دوره فيبدأ أولاً في تقليب ذاكرته والبحث

فيها عمن مروا به في حياته من الناس الذين يشبهون صاحب هذا الدور الذي عهد إليه بتمثيله. فإذا عثر في ذاكرته على هذا الشبيه المطلوب فقد عثر على كنز. لأنه لن يحتاج في إخراج الدور الجديد إلا أن يتقمص روح هذا الشبيه، وأن يلاشي نفسه أثناء تمثيل الدور، وأن يُحل محلها نفس ذلك الذي بحث عنه ذاكرته واهتدى إليه. فإذا تم له هذا التقمص، فإنه سيكون على المسرح - أو أمام الكامرا - صورة هي أقرب الصور إلى هذه الصورة الأصلية الطبيعية. فإذا كان المؤلف قد أسعده بالتطابق التام بين الصورة المرسومة في الرواية والدور، وبين الصورة الأصلية الطبيعية، فإن الممثل الموهوب لن يبذل من الجهد أكثر من هذا التقمص الذي ذكرناه، وهو بعد ذلك يستولي عليه منذ أن يصطنعه إحساس يشابه تمام المشابهة الإحساس الذي ترتكز عليه الصورة الطبيعية الأصلية في كيانها. فهو يتكلم كما تتكلم ويشير كما تشير، ويمشي كما تمشي، ويجلس كما تجلس، ويغضب كما تغضب، ويسأل كما تسأل، ويحب كما تحب، ويعلن حبه كما تعلن حبها، ويكره كما تكره، ويعلن كراهيته كما تعلن كراهيتها. . . فهو أولاً وأخيراً قد فَنِيَّ في هذه الصورة التي يمثلها، وهو لا يفيق منها إلا إذا غادر المسرح. بل إن من الممثلين الموهوبين مَن يتلاشون في أدوارهم تلاشياً فلا يستطيعون أن يستعيدوا طبيعتهم إلا بعد أن يفرغوا من تمثيل الدور الذي يستغرقون في تمثيله هذا الاستغراق. ولعل الهواة يلحظون أن علي الكسار قد استحال بربرياً من كثرة تمثيله لدور البربري. ولعل منهم من سمع (عزيز عيد) وهو يقول إنه عاش مدة طويلة من الزمن خليفة للمسلمين أيام كان يمثل دور السلطان عبد الحميد

وهذه الصورة الطبيعية، أو هذه النماذج الإنسانية الأصلية الصحيحة هي مراجع الممثل الفنان، وبها تحصى ثروته الفنية. فما دام قد شاهد منها صوراً كثيرة، وما دام قد تمكن من دراسة هذه الصور، وما دام قد درب نفسه على التبطل التام ليحل محلها صوراً من نفوسها بالتقمص والانصهار والتحول، فهو إذن ممثل غني قادر متمكن

وهذه الصور تستلزم وقتاً طويلاً من الحياة يبذله في معاشرة الناس وفي دراستهم، ولا يمكن

لهذه الدراسة أن تتم إلا بهذه المعاشرة التي لا منطق فيها ولا إعداد لها. لذلك كان مما يشبه العبث أن يتعلم الشبان التمثيل في المعاهد التي لا تستطيع أن تعرض عليهم النماذج المتعددة من الصور النفسية الإنسانية، والتي تقعد عند تمرين الطلاب على الإلقاء وإحسان إخراج الحروف. أما التمثيل الصحيح فمعهده الدنيا كما أنها معهد لكل فن صحيح

وقد يسألنا هنا سائل: ما الذي يستطيع الممثل أن يصنعه إذا عهد إليه بتمثيل دور تاريخي قد مات صاحبه وانطفأت شعلة روحه، فلا يستطيع الممثل أن يراقبه ول أن يدرسه عن كثب ليتمكن بعد ذلك من أن يصهر نفسه ليصوغها بعد ذلك في القالب النفسي الذي كانت عليه نفس هذا الشخص التاريخي الذي يراد تمثيله!؟

ونحن نقول رداً على هذا السؤال: إن القراءة والدرس في مثل هذه الحالة يجبان وجوباً، وأنهما يعوضان جانباً كبيراً من الخسارة الفنية التي يخسرها الممثل بحرمانه الاتصال المباشر بالصورة الإنسانية التي يريد أن يمثلها. فبالقراءة والدراسة يستطيع المثل أن يقف على أسلوب هذا (الأصل) في الحياة، وبهما يستطيع أن يتعرف أخلاقه وعاداته. وما كان يفضل من ألوان اللهو. . . وألوان اللهو مهمة جداً في نظر الفنان، فهي الأعمال التي يمارسها الإنسان برغبته الخالصة والتي يستطيع الممثل أن يعرف بها ميول هذا الذي يريد أن يمثل دوره. ومتى استطاع أن يعرف هذه الميول وما ينبتها من المزاج الخاص استطاع بعد ذلك أن يرسم بالتمثيل صورة تطابق إلى أبعد الحدود الصورة الأصلية الطبيعية التي يريد أن يمثلها

وقد يحدث أن يمثل ممثلان نابغان ذاتاً واحدة - أو أصلاً واحداً - ولكنهما يختلفان في التمثيل فلا تتطابق الصورتان اللتان يظهر أن كلا منهما هي الأخرى كما حدث ذلك قريباً إذ خرج كل من الممثلين العالميين هاري بور وجون باريمور دور (راسبوتين) فقد خرج الذين شاهدوا جون باريمور في دوره بصورة عن راسبوتين تطابق هذه الصورة الشائعة التي صورته لنا بها المقالات التي كتبت عنه في الصحف، والروايات التي ألفت عنه وروجتها دور الطبع والنشر، والروايات الأخرى التي مثلتها عنه المسارح. . وقد كانت هذه جميعاً تمقت راسبوتين وتراه شراً أخبث من الشر، وتبخل عليه حتى

باخس صفة من الصفات الإنسانية تنسبها إليه؛ فهو عندها الجاهل الذي يدعى العلم ويلزم الناس إلزاماً بأن
يروه عالماً؛ وهو القرد الذي ما يكاد يرى أنثى حتى يسيل لعابه وتهيج فيه أحط الغرائز
فيرسلها ثائرة ويطلقها جامحة لا يكبحها ولا يلوى عنانها؛ وهو السكير الذي لا تكف
أمعاؤه عن الصراخ في طلب الخمر والذي لا يستقر رأسه بين كتفيه على حال من أثر
الشرب، وهو الدجال في مسوح القديس؛ وهو آخر الأمر الخائن الذي يبيع وطنه وأهله
وذويه بالثمن البخس، فهو إذن الرجل أو الكوم من اللحم الذي لا إنسانية له ولا كرامة
ولا عفة ولا شرف ولا قومية ولا دين!. . .
هذا بينما هاري بور في تصوير راسبوتين إلى اتجاه آخر، فقد أخذ على عاتقه ألا
يسترسل في نقد راسبوتين هذه الاسترسال الذي يهدم إنسانيته هدماً، فاستبقى هاري
بور لصاحبه من شره ما لم يستطيع أن ينكره لإجماع المصادر التاريخية عليه فأظهره
سكيراً محباً للنساء، ولكنه عدل بعد ذلك عن تلوينه بألوان الدجل والخيانة فأظهره
صريحاً صادقاً يقول للناس إنه يعالج مريضاته المختبلات من الإناث بعلاج طبيعي هو
عند الرجال جميعاً ولكن الناس لا يرضون أن يصدقوا هذا ويأبون إلا أن يسبلوا عليه
مسوح القديس صاحب المعجزات فلا يملك إلا أن يسخر منهم وأن يتأنق في المسوح،
كما أظهره أيضاً مخلصاً لقيصره ووطنه إذ يلح بالنصيحة على القيصر ألا يزج بالروسيا
في الحرب لعلمه بعجزها عن المضي فيها
وهكذا اختلفت صورتا (راسبوتين) اللتان عرضهما جون باريمور وهاري بور، وهذا
الاختلاف يرجع إلى اختلاف دراسة كل منهما لراسبوتين، والى مطاوعة كل منهما
لمؤلفه. . .
وأخيراً، فقد يعهد إلى الممثل بتمثيل دور عادي طبيعي لا شذوذ فيه ولا أصل له متميزاً
في الطبيعة. عندئذ يستطيع الممثل أن يسترجع نفسه هو، ولا بد له إذن أن يكون قد
راقب روحه ورأى كيف تستقبل الحوادث والمفاجآت والمؤثرات وعليه في مثل هذه
الأدوار أن يمثل نفسه في رداء الدور

عزيز أحمد فهمي

رسالة العلم

كيف كشفت الأشعة النافذة

للدكتور محمد محمود غالي

لمحة تاريخية - أعمال جوكل وهيس وكولهورستر - المناطيد
المسجلة - صعود الأستاذ بيكار في طبقة (الستراتوسفير)

إذا أردنا أن نسميها الأشعة الكونية، أو أردنا أن نسميها الأشعة النافذة، فإن الأسماء لا
تغير الوقائع في شيء، فهي كونية لأننا لا نعرف مصدرها، وهي نافذة لأنها تخترق ما
يقابلها. ونعيد القول أنه بينما تحجب ورقة رفيعة أشعة الشمس على قوتها، فإن كتلة
من مادة الرصاص يبلغ سمكها متراً لا تحجب إلا نصف عدد الجسيمات المكونة للأشعة
الكونية
لم يختلف الفضاء منذ آلاف السنين عن الفضاء الذي نعيش فيه، ولم تختلف الظواهر
الطبيعية والقوانين المرتبطة بها منذ عشرات آلاف الأعوام؛ ومع ذلك فقد مضت
المدنيتان المصرية والإغريقية كما مر عهد العرب دون أن يستمتع أحد منهم بالراديو
كما نستمتع به اليوم، ذلك لأنه كان لزاماً أن يتقدم العالم للحد الذي أمكن لمكسويل
الإنجليزي أن يضع الأسس الرياضية لنظرياته الكهرومغناطيسية للموجة، ولهرتز ليدلنا
على أن سرعة الكهرباء هي سرعة الضوء، ولماركوني الإيطالي وبرانلي الفرنسي
ليضعا مع غيرهما الأسس التجريبية التي تيسر لنا اليوم أن نحصل من التاجر على جهاز
نسمع منه، ونحن في وسط الصحراء أو فوق جبل عتاقة، بعيداً عن كل أثر للمدن أو
الحياة، موسيقيا من القاهرة أو خطيباً من باريس
كذلك الأشعة الكونية، لم يختلف الفضاء الحامل لقذائفها منذ عهد بعيد، بل لم تختلف
درجة وصولها إلينا منذ أمد طويل. وفي ظني أهرام الجيزة تصاب في هذا العصر
بالعدد الكبير الذي كانت تصاب به في أقدم العهود، هذا العدد أقدره بأكثر من مليون
مليون قذيفة في اليوم الواحد تقع كلها على أحجار الأهرام وتتغلغل فيها لمسافات

بعيدة تبلغ العشرات من الأمتار
وإذا كان الألمانيان توصلا منذ بضعة أسابيع فقط إلى إيجاد عنصر التوريوم بينما كانا يقذفان عنصر الإيرانيوم بإشعاع تقل درجة اخترقه عن الأشعة الكونية، فماذا جرى في الأهرام منذ بنائها؟ وماذا تكوَّن فيها من ذرات جديدة لم تكن في عداد ذرات أحجارها الأولى؟
كانت الأشعة الكونية موجودة بلا شك منذ القدم، وهي ما تزال تحدث أثرها في كل زمان ومكان، تحدث هذه الآثار في الأهرام كما تحدثها على قمم الجبال أو على سطح البحيرات بعيداً في أعالي النيل، ومع ذلك لم تكن معروفة للإنسان إلا منذ عهد قريب، وقد تمضي سنون عديدة قبل أن نعرف شيئاً وافياً عن أثرها في المادة التي تقابلها، أو عن أثرها في حياتنا. ولا شك أنه عندما نخطو هذه الخطوات تتغير معارفنا، بل تتغير إلى حد أساليب استعمالنا الأشياء، ويرى اللاحقون بنا جيلاً يختلف عن الجيل الذي نعيش فيه
تبدأ معارفنا الأولى عن الأشعة الكونية في سنة 1900، فمنذ ذلك الحين كانت الظاهرة المسماة (التَّأيُّن المتبقي) معروفة لدى الطبيعيين، وتبدأ الأعمال الخاصة بهذه الظاهرة بالعالمين الستر وجيتل اللذين بينا بطريقة دقيقة كما بين العالم الكبير س. ت. ر. ولسون منزلاً في البحث عنهما، أن الهواء الجاف المحصور في وعاء مقفل ليس عازلاً كهربائياً تاماً، بل إنه موصل كهربائي، مهما كان ضعيفاً، فإنه لا شك في حالته الكهربائية، ومعنى هذا أن لكل حجم معين من غاز مصون من جميع الأشعة كالأشعة السينية (أشعة قدرة على التَّأيُّن أي على التوصيل الكهربائي، وبعبارة أخرى تظهر في الغاز شحنات كهربائية تمثل أو تدل على ظاهرة غير مفهومة. هذه المعلومات الأولى جعلت العالم س. ت. ر. ولسون يظن أن إيجاد اليونات ? في الهواء الخالي من جميع المواد المعلقة (كالأتربة الرفيعة) قد يُعزى لإشعاع خارج عن الغلاف الهوائي المحيط بكرتنا الأرضية، إشعاع شبيه بأشعة رتنجن أو الأشعة الكاثورية ولكن له قوة اختراق عجيبة
وقد شاءت الظروف أن ننتظر سنين طويلة، ليكون هذا الإلهام أو الوحي الذي أوحى به هذا العالم حقيقة لا تقبل الجدل، بل شاءت الظروف أن يمضي عشرة أعوام قبل أن تتحقق التجارب الأولى التي تفسر بمقتضاها هذه الظاهرة التي تحدث من تلقاء نفسها وبدون عوامل تتعلق بالأرض أو ما يحيط بها
وتنحصر التجارب الأولى في قياس الوقت الذي يمر لتفريغ ذي ورقتين من أوراق الذهب، في حالة نضمن (الكتروسكوب) فيها بكل الوسائل عدم إمكان مرور الكهرباء خلال كل الأجسام العزلة المتصلة به. ومع معرفة أن وقت التفريغ يتناسب مع حجم وضغط الغاز، وجد الباحثون أن عدد الأيونات الحادثة في 3الس م في الثانية في درجة الحرارة والضغط العادي يساوي من 10 إلى 20 أيونا عند سطح البحر لألكتروسكوب معرض للجو في حالته الطبيعية.
وقد أصبح معروفاً أننا لو حجبنا الألكتروسكوب من جميع الجهات بعنصر ثقيل مثل الرصاص، فإن الرقم السالف ينخفض إلى أيون لكل 3س م في الثانية، ويعللون هذا الانخفاض بامتصاص الرصاص لأشعة (جما) الراديومية الصادرة من المواد الأرضية وغيرها من المواد المحيطة بالألكتروسكوب كالمباني القريبة منه مثلاً
ولكي نثق أن لعملية التأيُّن مصدراً غير المواد الراديومية الموجودة في الأرض، حمل العلماء الألكتروسكوب على سطح بحيرات عميقة جداً، كذلك في مناطيد أرسلوها لارتفاعات كبيرة، وكانت النتيجة أنهم أثبتوا أن عملية التأين موجودة دائماً، وأنها تزداد كلما ارتفعنا في طبقات الجو
ولقد كان لجوكل وهيس وكولهورستر بين سنة1911 وسنة 1913، الفضل في القيام بتجارب في الهواء بإرسال مناطيد إلى ارتفاعات مختلفة تحمل معها غرفة للتأيُّن مصونة

من أي إشعاع، وقد بحث هؤلاء في التغير الحادث في عملية التأين في الحيز الواقع بين سطح البحر، وبين منسوب 9000 متر. وقد دلت التجارب كما قدمنا أن التأين يتزايد في الطبقات المرتفعة من الجو. وهذا ما جعل الأفكار تتجه إلى أن سبب التأين أشعة متجهة من أعلى إلى أسفل في طبقات جو الكرة الأرضية، وليس أشعة تتجه من الأرض إلى الطبقات العليا

كذلك قام فريق من العلماء بتجارب عديدة تحت سطح الماء بأن حملوا الأوعية التي تحدث فيها عملية التأين ويسمونها: غرفة التأين ? في أعماق البحيرات، ووجدوا أن عملية التأين تقل كثيراً تحت سطح الماء. ولقد كان لكولهورستير وميليكان وكامرون فضل كبير في هذه المباحث بتجاربهم التي قاموا بها في البحيرات الجبلية المختلفة الارتفاع، وأهم ما توصلوا إليه من نتائج، هو أن درجة التأين. أو قوة الأشعة الكونية تختلف مع كمية المادة الموجودة فوق غرفة التأين سواء كانت المادة ماء أو هواء هذه الدراسات بلغت درجة كبرى من الدقة في أعمال ريجنيه الذي أدلى غرفة مسجلة للتأين في مياه بحيرة كونستانس إلى عمق 230 متراً. كذلك أرسل بغرفة أخرى في منطاد بلغ في صعوده 25 كيلومتراً حيث يبلغ الضغط الجوي عند هذا الارتفاع 22 مليمترا وحيث يتبقى من كتلة الهواء3 % من كتلته الأصلية وترى نتائج (ريجنيه في الشكل1) حيث ترى كيف يتغير عدد الأيونات المزدوجة في كل س م3 من الهواء في الثانية مع العمق، وكيف يرتفع هذا العدد في طبقات الجو العليا؛ وكيف ينخفض جداً تحت سطح البحيرات. وقد دلت التجارب الأخرى أن الأشعة الكونية تصل مخترقة الماء لمسافات تزيد على500 متر

هذه المناطيد التي استعملها ريجنيه وغيره من النوع الذي يطلقونها بعد أن يضعوا فيها أجهزة طبيعية تسجل الأرصاد المختلفة التي تتبين للعلماء بعد العثور على هذه المناطيد التي ترد في العادة من الأماكن البعيدة التي تقع فيها، وتسمى هذه المناطيد بالمناطيد الجاسة

وقد بلغت هذه المناطيد شأواً كبيراً من التقدم منذ استطاع أيدراك وبيروه في سنة 1927 أن يحصلا بطريقة لاسلكية على كل المعلومات التي تسجل داخل البالون، وترسل

باللاسلكي إليهما دون أن يكون داخل البالون الصغير شخص للقيام بهذه المهمة. وقد قدمت في أعداد مضت من الرسالة أنني استطعت مع العالم بيروه المتقدم الذكر أن أضع طريقة لتسجيل منسوب النيل أو كمية ما تحمله المياه من طمى دون أسلاك ومعرفة ذلك مهما بعدت المسافة

كل هذا لم يصرف بعض العلماء عن أن يقوموا بتنفيذ فكرة جريئة خطرت لهم وهي الصعود إلى الطبقات العليا من الجو التي يطلقون عليها (ستراتوسفير)

ولقد كان الأستاذ من فكر في القيام بنفسه بهذا العمل الجريء، الذي كان يجوز أن يودي بحياته وحياة تلميذه كوزين عندما صعد لأول مرة من 18 أغسطس سنة 1933 ومعهم كيبير إلى طبقة الأستراتوسفير للقيام بدراسات طبيعية عديدة كانت الأشعة الكونية أهم الأغراض فيها، وقد تبين لبيكار وزميليه كيف تتغير الأشعة الكونية مع الارتفاع، والشكل (2) يعطي النتائج العملية الهامة التي توصل إليها بيكار فهو يبين كيف يتغير عدد الأيونات في ال س م3 في الثانية مع الضغط الجوي أي مع الارتفاع

كل هذا يدا على أننا مغمورون بأشعة تصلنا من أعلى إلى أسفل ولها قوة اختراق عجيبة تزيد على الخمسة أمتار من الرصاص أو ال500 مترا من الماء، وهي إما أن يكون مصدرها الطبقات العليا من الجو، أو أن يكون مصدرها خارجاً عن الغلاف الهوائي المحيط بالأرض.

على أننا سنرى أن تغير شدة هذه الأشعة مع خطوط العرض يحتم الرأي الثاني. وسنبين في مقال قادم أن الشمس بدورها لا يمكن أن تكون مصدراً لها كما سنبين أثرها على المادة التي تخترقها ونتكلم عن الوسائل الدقيقة لقياسها، وتسجيل مسارات جسيماتها وسماعها عند مرورها، وهي وسائل تختلف عن غرفة التأين السابقة وتعد اليوم أقصى ما بلغه العلم التجريبي من القوة والتقدم.

محمد محمود غالي

دكتوراه الدولة في العلوم الطبيعية من السوربون
ليسانس العلوم التعليمية. ليسانس العلوم الحرة. دبلوم المهندسخانة
من هنا ومن هناك
كتاب جديد لهتلر - ملخصة عن (باريس ميدي)
يقال إن أحد رجال السياسة المعدودين أراد مقابلة هتلر في الساعة الرابعة بعد ظهر أحد الأيام، فأجيب بأن الفوهرر لا يمكن مقابلته ما بين الثالثة والخامسة لاشتغاله بوضع كتاب.
فإن دكتاتور ألمانيا يشتغل إلى جانب أعماله السياسية بالأعمال الأدبية والفنية ويوليها جزءاً كبيراً من وقته.
وقد اتفقت وزارة الدعاية الألمانية أخيراً مع دار للنشر في أمريكا على طبع كتاب لهتلر. ويقال إن صاحب هذه الدار بعد أن قدمت إليه رسالة عن تاريخ حياة الدكتاتور استفسر عن اسم الكتاب، فأعلن بأنه كتاب ثان لكتاب (كفاحي) من المحتمل أن يصدر تحت عنوان: (كفاح ألمانيا). ويليه كتاب ثالث باسم: (كفاح أوربا).
وتقول بعض المصادر العلمية إن لهتلر كتاباً رابعاً سيصدر بعنوان: (بين الإدارة والطاعة)، وهو كتاب يجمع آراءه الفلسفية والدينية.
إن هتلر بلا شك قد أخرج أروج كتاب ظهر في القرن العشرين، فكتاب كفاحي بيع منه 20 مليون نسخة في ألمانيا وحدها.
كيف يقوم هتلر بتأليف هذه الكتب؟ إن كتاب كفاحي كتب في السجن ومن المعروف أنه قبل أن يكتب آراءه في هذا الكتاب، عمد إلى بحثها مع كارل هانشوفر، ورودلف جميس، والفريد رونزتبرج. ولكنه في كتابه الجديد لم يسترشد بأحد، ولم يذكر لأحد.
ويملي هتلر آراءه على كاتبه فيلتقطها على الآلة الكاتبة في سرعة عجيبة، ويشتغل على الدوام من الساعة الثالثة إلى الخامسة بعد الظهر. وإنما يفعل ذلك لأن مشاغله المتعددة لا تترك لديه مجالاً للاختيار. فإذا تعذر العمل في ذلك الوقت لظرف من الظروف أجل الإملاء إلى ما بعد ظهر اليوم التالي، على ألا يكون ذلك قبل الساعة الثالثة، ولا بعد الساعة الخامسة بعد الظهر. وهو يلتزم هذه القاعدة لأنه يحب أن يقيد نشاطه الأدبي بوقت معين
ويشاع أن نظرية الكتاب الجديد الذي يشتغل به هتلر، مبنية على فكرة جديدة لحل مشاكل العالم جميعاً بالطرق السلمية.
فهل تحقق الأيام القريبة نظرية هذا الكتاب؟ إنه الآن في مركز يجعله أكثر من غيره فطنة
إلى ذلك.
المرأة في ظل الدكتاتورية - ملخصة عن (ذي هبرت جورنال)
الفاشية بطبيعتها لا تتفق وحرية الرأي. فهي في الحقيقة تقوم على حكم القوة. ومن ثم كان مركز المرأة فيها مركزاً ثانوياً، تحت نفوذ الرجل الذي أعد للحرب والقتال وعلى ما هو معروف عن الفاشية من المبادئ المنفرة، نجدها قد وضعت المرأة في مركز لا يبيح لها أن تكون أكثر من آلة صماء لخلق الرجل وخدمته في إبان الحروب ويقول موسوليني في حديث له مع إميل لودفج: المرأة يجب أن تطيع. إنني لو صرحت للمرأة بالدخول في ميدان الانتخاب لأضحكت مني العالم، إن النساء في حالة كحالتنا من الواجب ألا يحسب لهن حساب. وقد أضاف إلى ذلك أنه قد أعجب بشخص من أسلافه قتل زوجته لأنها لم تحتفظ بشرفه. هذا ما يفعله أهالي روما الذين انحدرت من أصلابهم. وقد أصدرت الحكومة الفاشية منذ نشأتها قانوناً يقضي بمنع المرأة من تعليم الطفل إذا بلغ الحادية عشرة أمراً ما قد يكون له تأثير في تكوينه الخلقي، وما زال هذا المبدأ يعمل به إلى الآن.
إن الذين يعرفون ما تقاسيه المرأة في ظل النظام الفاشي - خارج إيطاليا - قليلون.
لقد كانت السن الدنيا للزواج في إيطاليا للبنات خمس عشرة سنة، وللرجال ثماني عشرة، فنقص ذلك إلى أربع للبنات وست عشرة للذكور - في ظل النظام الفاشي - وقد سن في قانون العقوبات الجديد في إيطاليا مبدأ لا يجعل الرجل مدانا في حالة

الاعتداء على أسرته، إلا إذا كان اعتداؤه هذا يترتب عليه عاهة يصعب علاجها، وفي هذه الحالة يحكم عليه بالسجن ستة أشهر بدلاً من خمس سنوات في القانون القديم، فإذا ماتت الفريسة ترتفع العقوبة إلى ثماني سنوات بدلاً من الإعدام. وعلى ذلك فللإيطالي أن يضرب زوجته وأولاده كيف يشاء، ما دام هذا الضرب لا يسبب لهم كسراً في العظم، أو فقداً لحاسة من الحواس. وكثيراً ما يشمله العفو في مثل هذه الظروف، على أن الفريسة يندر أن ترفع أمره إلى القضاء.

فإذا هربت إحدى الفتيات من سوء المعاملة، وقد تكون من هؤلاء اللائى لا يتجاوزن الرابعة عشرة، فإن البوليس يطاردها ويقدمها للمحاكم حيث يحكم عليها بالسجن سنة كاملة، أما الرجل فلا يسأل عن سوء معاملته لها.

أما نظام النازي فقل أن يختلف عن هذا النظام من حيث الاستهتار بحقوق المرأة، فالمرأة الألمانية تستوي مع أختها الإيطالية في المعاملة التي تعامل بها في ظل الحكم الاستبدادي، ولا تزال الشكوى ترتفع إلى العالم مما تلاقيه. وقد أشارت الفيننشيال تايمز الألمانية إلى أن المرأة لا تضايق الرجل بمشاركتها إياه في الحياة فقط، بل بمنافستها له في كسب الخبز أيضاً.

وقد أرغمت المرأة الألمانية على التخلي عن حقوقها الانتخابية وحرمت الحق في التوظف في مصالح الحكومة والمجالس البلدية والمستشفيات، وكذلك بعض المدارس إلا إذا كانت سنها تزيد على خمس وثلاثين سنة. على أنها تفصل من وظيفتها إذا تزوجت من رجل له وظيفة يكتسب منها أو كان من غير العنصر الآري. ويقضي قانون 1933 بفصل المرأة من عملها إذا تزوجت وثبت للسلطات أن إيراد زوجها كاف للقيام بنفقاتها. وكذلك إذا كان لها والد أو أخوة يستطيعون القيام بأمرها فإنها تفصل من عملها ولو لم تكن متزوجة

وقد أخرج النازي آلافاً من النساء اللائى كن يقمن بأعمالهن دون أن تسمع لهن شكوى ولا يصرح بدخول الجامعات في ألمانيا الآن إلا لعشر في المائة من الفتيات اللائى يحصلن على شهادة البكالوريا

وقد سيق آلاف من النساء العاطلات إلى معسكرات للاشتغال بأعمال الغسل والنظافة والطهي

لقد أنقذت المدنية المرأة منذ أجيال من الاشتغال بالأعمال الزراعية المرهقة؛ ولكن النازية قد ساقت إلى الحقول الكثيرات من نساء ألمانيا الذكيات حيث قضى عليهن بأن يقمن بأشق الأعمال

البَريد الأدبي

حماية نفائس دار الآثار العربية

قد سبق لهذا القلم أن عاتب وزارة المعارف في هذا الباب من الرسالة، ولا سيما يوم عرض لدار الأوبرا الملكية ولمعهد الموسيقى العربية. ويحلو له اليوم أن يذيع أن وزارة المعارف حمت نفائس دار الآثار العربية إذ منعت خروجها من مصر. وهكذا تذكر الحسنات إلى جانب غيرها

والقصة أن جمعية (مصر - فرنسا) - القائمة في باريس رغبت إلى المستشرق المسيو فييت مدير دار الآثار العربية في مصر (وذلك بعقد يجدد كل سنتين) أن يظفر بموافقة الحكومة المصرية على الإرسال بأجمل القطع المحفوظة بالدار إلى باريس حتى تُمدّ معرض الفن الإسلامي المزمع إقامته هنالك. فاختار المسيو فييت نحو ثمانمائة تحفة وأوعز إلى معاونيه بجمعها وإعدادها للرحيل؛ وإذا وزارة المعارف تقف في وجه الأستاذ فييت وترفض أن تقره على عمله

ولا شك أن في عمل المسيو فييت بعض الشطط. ذلك أن قانون دار الآثار العربية - فيما أعلم - يحظر خروج محفوظاتها منها وإن قال قائل إن الدار سبق لها أن ترسل بتحف إلى معرض الفن الفارسي سنة 1931 وأخرَ إلى معرض بروكسل سنة 1937، فالذي في الواقع أن تلك التحف كانت معدودة. وأما هذه الدفعة فقد حاول الأستاذ فييت أن يخرج من الدار ثمانمائة تحفة كلها من النفائس التي لا مثيل لها في سائر البلدان والتي بها تفخر دار الآثار العربية وتعتز مصر. ولو اتفق لهذه التحف أن تنفذ إلى باريس فما يكون مصيرها لو وقعت حرب أو تحطمت أو تثلمت أو أثر فيها الجو؟ من أين نجلب أشباهها؟

والوجه أن الآثار لا تخرج من بلد إذا كانت فريدة لا أخوات لها، ثم إنه يحسن أن تخرج نماذج لها بدلاً منها. وعلى هذا أقيم معرض النحت الفرنسي لهذه السنة في الجزيرة في مصر، وعلى هذا أكثر المعارض الرفيعة

وبعد، فالمأمول أن تعد وزارة المعارف نفسها معرضاً للفن الإسلامي تكل أمره إلى دار الآثار العربية، لأن مصر أحق البلدان في إقامة مثل ذلك المعرض، فنفائس دار الآثار لا تجاريها محفوظات المتاحف الأخرى؛ فضلاً عن أن عددها يبلغ هذا الرقم الجليل: 14350

بحسب الإحصاء الذي دونه الأستاذ فييت نفسه باللغة الفرنسية لشهر مضى في (الدليل الموجز لمعروضات دار الآثار العربية) على حين أن آثار الفن الإسلامي المحفوظة في باريس لا تكاد تتطلع إلى ذلك الرقم

بشر فارس

المبتدأ الذي لا خبر له

قرأت ما كتبه الأستاذ (أبو حجاج) في رد ما ذهبت إليه في إعراب المبتدأ الذي لا خبر له، فوجدته أولاً لم يحاول رد إعرابي بشيء، وهذا كسب عظيم لذلك الإعراب الجديد، وكنت أحب للأستاذ أبي حجاج أن يبطل إعرابي هذا قبل أن يحاول تسويغ إعرابهم، وإذا لم يكن إعرابي باطلاً - وهذا ما أرجوه إن شاء الله - فإني كنت أحب أيضاً أن يوازن بين الإعرابين ليرى كيف يستقيم أمر المبتدأ على إعرابي، فيكون مسنداً إليه باطراد، كما يستقيم ذلك في الفاعل ونائب الفاعل واسم كان واسم إن، وكيف يضطرب أمره في إعرابهم، فيجعل مسنداً إليه تارة ومسنداً تارة أخرى؛ مع أن الأصل فيه أن يكون مسنداً إليه. وليس هناك ما يدعو إلى جعله مسنداً إلا ذلك الإعراب الذي يغني عنه إعرابي، ولا شيء في أن يوضع هذان الإعرابان في ميزان واحد. وإن كان أحدهما متقدماً والآخر متأخرا، لأن مثل هذا الاعتبار لم يعد له وزن في عصرنا، وكم من متأخر رجح متقدماً

ووجدته ثانياً يحاول تسويغ إعرابهم بما أنكرته عليهم، فهو يسلم ما قلته من أنهم لم يسموا الشيء فاعلاً إذا كان في المعنى فاعلاً، وهكذا، ثم يقول إنهم كذلك لا يسمون الاسم مبتدأ إلا إذا كان مبتدأ في المعنى، أي إلا إذا كان اسما مجرداً عن العوامل اللفظية وهو إما مخبر عنه أو وصف رافع لما يغني عن الخبر. ولا يخفى أن هذا قياس مع الفارق كما يقولون، لأن ما سلمه من ذلك معناه ظاهر، وهو أن الشيء لا يسمى عندهم فاعلاً في الاصطلاح إلا إذا كان فاعلا في الواقع؛ أما الذي ذكره في المبتدأ فمعناه أنه سمى في الاصطلاح لأنه مبتدأ في الاصطلاح، وهذا تهافت ظاهر. ثم هو عين ما أنكرته عليهم، لأنه اصطلاح يلزم عليه إخراج المبتدأ عن أصله، وإدخال ما لا معنى لإدخاله فيه

والحق أن الوصف في مثل ذلك جار مجرى الفعل؛ وكما لا يصلح أن يكون الفعل مبتدأ، لا

يصلح أن يكون ما جرى مجراه مبتدأ، ولهذا لم يصلح اسم الفعل لأن يكون مبتدأ لأنه جار مجرى الفعل، والفعل لا يصلح للابتداء به. فكذلك ما يجرى مجراه، وهذا هو الحق في اسم الفعل ولو قلنا إنه موضوع للدلالة على معنى الفعل، لا على لفظ الفعل، لأن الخلاف في ذلك يشبه أن يكون لفظياً، ولأن الفعل لا يصلح لفظه ولا معناه للابتداء به، وليس هذا الحكم قاصراً على لفظه فقط

وقد قال صاحب التصريح إن اسم الفعل يعرب مبتدأ على القول بأنه موضوع لمعنى الفعل، وهو قول غير مسلم عندي، وما أظن أن أحداً سبقه إليه، لأن الفعل لا يصلح لفظه ولا معناه للابتداء به، فكذلك ما يدل على معناه من اسم الفعل ونحوه، ولأنهم قصروا المبتدأ الذي لا خبر له على الوصف المعنوي، وهو ما دل على ذات ومعنى قائم بها، وقد أخرجوا منه المصدر لأجل هذا، إلا أن يكون مؤولاً بالوصف، ولا شك أن اسم الفعل مثل المصدر في أنه ليس وصفاً بذلك المعنى، فلا يصح أن يكون مبتدأ مثله. وما أحرى الأستاذ أبا حجاج أن يسلم لي مذهبي بعد هذا كله، والسلام عليه ورحمة الله

عبد المتعال الصعيدي

نقابة جديدة للموسيقيين. . .

وأخيراً وبعد هذا الزمن الطويل الذي قطعه الموسيقيون في تنافر وتنابذ وشقاق

استطاع بعض المصلحين المثقفين منهم أن يلموا الشمل وأن يمهدوا لفكرة التعاون الصادق والإخاء الذي لا ينفصم فاجتمعت الآنسة أم كلثوم بالأستاذ محمد عبد الوهاب، حتى إذا اتفقا وتصافيا ونسيا كل شيء إلا خير الموسيقى ورفعتها والأخذ بيد أبنائها انتقل هذا الاجتماع من (سان جيمس) إلى دار الاتحاد الموسيقي الذي يرأسه الأستاذ إبراهيم شفيق. وقد حضر الاجتماع الذي انعقد يوم السبت 22 أبريل سنة 1939 بالدار من الموسيقيين والمطربات الأساتذة: الدكتور محمود أحمد الحفني مدير الموسيقى بالمعارف، وصالح عبد الحي، وإبراهيم شفيق، ومحمد بخيت، ومحمد القصبجي، وكامل إبراهيم، والسيدة فتحية أحمد. وقد استمر الاجتماع منعقداً أكثر من ثلاث ساعات ذلل فيها أكثر العقبات ورسم فيها أكثر الخطا. . . وقد انصرفوا على أن يجتمعوا بعد أسبوع لتكملة مشروعهم. ولعل الفرح الذي كانت تفيض به نفوس إخوانهم المنتظرين في أبهاء المعهد خير حافز لهم على التوفيق والنجاح. ولعل هذه الحركة المباركة هي المسمار الأخير الذي سيدق في نعش تلك الفوضى التي كانت تسود الجو الموسيقي والتي كانت تحرم الموسيقيين من نقابة ترعى حقوقهم وتسهر على مصالحهم. . .

المويلحي

إلى شباب الجامعة والأزهر

عرض الأستاذ الكبير العقاد في مقاله القيم: (يهتمون به فهل يعرفونه) المنشور في عدد الرسالة (الممتاز) لبعض الخلط والتمويه الذي يتطرق له الكثير ممن يتصدون للكتابة عن العرب والإسلام من أبناء الغرب. وبين يدي كتاب عن: (لورنس في جزيرة العرب) لرحالة أمريكي يدعى لوول ثماس رافق الكولونيل لورنس ردحاً من الزمن في جزيرة العرب أثناء الثورة العربية، حشاه بكثير من الأغاليط لا يعدو الباعث عليها أحد الأسباب التي أشار إليها الأستاذ الكبير في مقاله الآنف الذكر.

لو يتسع لي المجال لقدمت لقراء الرسالة طائفة من عجائب ذلك الكتاب، بيد أني سأقتصر على عجيبتين فقط

قال في ص51 أثناء كلامه عن الحجاج: (. . . وبعد أن يقوم الحجاج بتأدية الشعائر الدينية في مكة، يعودون إلى أوطانهم فيخضبون لحاهم ويعرفون بعدها بالحجاج، أو الرجال المقدسين. وقبل مغادرتهم مكة تسلم لهم تذاكر تضمن دخولهم الجنة).

واستطرد في ص223 إلى ذكر الوهابيين فقال: (وهؤلاء المدققون في أمور الدين، يريدون إبطال الحج، وإزالة كافة المزارات: كالكعبة المقدسة، وقبة النبي في المدينة).

وجل ما يكتب في الغرب عن العرب والإسلام على هذه الوتيرة وأثر هذه الكتابات سيئ وخيم العاقبة! فمكتبة شبابنا المتعلمين اليوم هي المكتبة الغربية، أصلية في الغالب، مترجمة في النادر. فحبذا لو تألفت لجنة من شباب جامعة فؤاد الأول، والأزهر، لنقد وتمحيص ما يكتب عنا، لا ليعلم أبناء الغرب حقيقتنا نقية غير مشوبة فقط، ولكن لنقي أبناءنا ما وسع الجهد من هذا الوباء الفتاك أن يسمم عقولهم. وما عهد الحملة التي وجهت في مصر لكتاب:

(حياة محمد) بعيد.

(البحرين)

(ت)

مخرج حاذق يفقد

من أخبار السينما المصرية أن شركة مصر للتمثيل والسينما رفضت تجديد عقد الأستاذ نيازي مصطفى المخرج المعروف وهذا أمر لا يفرح به من يهمه تقدم صناعة السينما المصرية، ولا سيما بعد ما شهدنا ما بذله من جهد في إخراج روايات ضئيلة الموضوع. وهو ممن تعرف قدرته في ألمانيا، بحسب اعتراف أساتذة فن الإخراج هنالك حتَّامَ يُستبعد أهل الكفاية في هذا البلد، إذا بدت منهم الدراية؟

ب. ف

العلاقات الثقافية بين مصر والبلاد الشرقية

تعنى وزارة المعارف بالعمل على توثيق روابط الثقافة بين مصر والبلاد الشرقية، وقد ألفت لجنة لهذا الغرض من رجال الخارجية والوزارة برياسة صاحب العزة الأستاذ

الوكيل لبحث الموضوع ولكن الرأي اختلف فيه فطلبت وزارة المعارف إلى وزارة الخارجية أن توافيها بما تتضمنه الاتفاقات المعقودة بين الدول الأجنبية في هذا الشأن. فأرسلت إليها نص الاتفاق الذي عقد أخيراً بين فرنسا ورومانيا، وهو يقوم على القواعد الآتية:

تأليف جمعية تعنى بتشجيع حركة التعاون الثقافي بين البلدين وإلقاء المحاضرات وطبع الكتب وتبادل الأساتذة والطلاب بين معاهد البلدين. وإنشاء صناديق ادخار مشتركة لطلبة الشعبين. والأخذ بمبدأ المساواة في الدرجات العلمية والتزاور بين الشخصيات الكبيرة المعروفة في عالم الفن والعلم والأدب. وتشجيع سفر الفرق الفنية والتمثيلية والموسيقية إلى البلدين. وإنشاء جمعيات واتحادات (فرنسية ورومانية) للطلبة في فرنسا ورومانيا، والدعاية لنشر الكتب والمؤلفات الموسيقية والأدبية والأفلام والاسطوانات التي تصدر في أحد البلدين بين سكان البلد الآخر، وكذلك تشجيع السياحة وتنظيم الرحلات وتبادل الإذاعات

اللاسلكية بين البلدين

ومما يذكر أن مثل هذا الاتفاق عقد بين ألمانيا واليابان وبين هذه الأخيرة وإيطاليا، وبلغ من اهتمام الحكومة الأمريكية بهذا الموضوع أنها أنشأت في وزارة الخارجية قسماً خاصاً لتنمية العلاقات الثقافية بينها وبين الدول الأخرى

التسليح الأدبي خير من التسليح المادي

روت المقطم أن 800 محافظ ورئيس بلدية في مدن كندا وبلادها اجتمعوا وقرروا أن تضع حكومة كندا برنامجاً تعرضه على جلالة ملك الإنكليز وملكتها عند زيارتهما لكندا مؤداه أن التسليح الأدبي خير من التسليح المادي في حفظ كيان الأمم وراحتها ورفاهتها

ومن أخبار بلاد أسوج في شمال القارة الأوربية أن200 أستاذ من أساتذة 25 جامعة من جامعات أوربا وغيرها، وعدداً كبيراً من تلامذتها اجتمعوا في جبال تلك البلاد ونظروا ملياً في الطريقة الواجب اتباعها في التعليم والتربية والتثقيف لتكون الجامعات بأساتذتها وتلامذتها في طليعة البانين للهيئة الاجتماعية الإنسانية على أسس العدل والحق وحب الإنسان لأخيه الإنسان وما إلى ذلك من الأسلحة الأدبية التي هي خير من الأسلحة المادية لحفظ كيان الأمم وراحتها رفاهيتها - فنحول إلى ذلك أنظار جامعاتنا الشرقية في مصر وسوريا ولبنان وغيرها

أشباح القرية

تأليف الأستاذ كرم ملحم كرم

للسيدة وداد سكاكيني

الأستاذ كرم ملحم كرم من أكبر أدباء القصة في بلاد العرب ومن أكثرهم إنتاجاً وجهداً موزعا بين فنون الأدب، فهو موهوب في الفن القصصي، نشر رواياته الثلاث: (المصدور) و (صرخة الألم) و (بونا أنطون) فكان لها دوي بعيد، وكتب أقاصيص رائعة في مجلته (ألف ليلة وليلة) أبدعها قلم مرهف مطواع وتلقاها قراؤه بلهفة وإعجاب، لا سيما ما كان منها يعبر عن أحداث رأوها رأى العين أو طرقت مسامعهم، وكان لها مساس بحياتهم. وقد أتخذ الأستاذ كرم الصراحة ديدناً لأسلوبه فما يخشى بأساً إن عرض في قصصه لشخوص بخصائصهم ودخائلهم حتى أنه اكتسب من جراء قلمه الحر عداء وحسداً فوقف تجاههما كالرواسي الشامخات لا تحفل قصيف الرعد ولا تعبأ بهزيم الرياح. وإليه يرجع الفضل في نهضة القصة بلبنان لأنه أول من شق طريقها الجديد منذ أكثر من عشر سنوات فكانت قصصه خير قدوة ودعوة لمن سار على دربه إذا شئت أن ترى القرية اللبنانية وتتعرف إلى حياتها الصحيحة وأهلها رجالاً ونساء فاقرأ كتاب كرم (أشباح القرية). في هذه القصص ترى الحياة الخالية من كل تبرج وتصنع، وكيف أن القرية على خلوها من كل زيف وزخرفة لا تسلم من مساوئ المدينة التي تنتقل إليها على أيدي بناتها وأبنائها الذين يهجرونها لتغذية مطامعهم الوثابة، فما يتركون قريتهم حتى تتولاهم الحيرة والدهشة في طريق البلد الذي يبتغون، حتى إذا حطوا رحالهم باتوا كالمخمورين، وكلما تغلغلوا في حياتهم الجديدة امتدت آفاق العيش أمامهم دون أن تقف على حد. كل هذا بأوصافه الملونة ودقائقه المصورة تراه مثبتاً في (أشباح القرية) كأنك تتطلع على ألواح بارزة ورسوم ناطقة بكل ما في الجبل

اللبناني من ألوان وظلال
ففي (جبور في بيروت) يصور سحر المدينة لابن القرية وإيثاره العمل الشائن فيها على خدمة الأرض التي عاش عليها آباؤه وأجداده بين الزراعة وجمع الحطب ورعاية الماشية فجوزي على جحوده وطمعه بارتكاب المنكر من فسق وميسر ومراهنة في سباق الخيل وقتل نفس حتى وقع في السجن ولحقته الشماتة والندامة فرجع إلى القرية مريضاً بعيداً عن
الساخرين
وفي (رزوق عاد من أميركا) يمثل لك صاحب الأشباح طموح الفلاح والتماسه الرزق وراء البحار وكيف يعود رجلاً آخر يسخر من القرية وأهلها فيضيع ثروته في حياة المدنية ومستواها الذي لم يخلق له
إن في (أشباح القرية) لروعة في الوصف وإبداعاً في التمثيل ونكتة في السياق. غير أنها قد حملت في بعض رسومها ألواناً قاتمة، ولعلها ندت في بعض أطرافها عن تصوير الحقيقة، كأن يصف روائي لبنان عجوزاً بأنها كتعاء عوراء عرجاء، فهذا الغلو في التعبير قد يخرج الصورة عن إطارها الذي يليق بها. ولعل لموهبته المولدة وبصيرته النفاذة وقلمه السيال يداً في هذه ألهناه التي تنجم عن وفرة الإنتاج وجموح الخيال؛ فالأستاذ كرم يخلع على قصصه ألواناً من لإبداعه حتى تتسع أفياؤها ويلتبس على قارئها أهي واقعة من الحياة أم ابتدعتها مخيلته في الرواية، ولكني أعتقد أن مذهبه في الفن القصصي مبني على الحقيقة والواقع، مستمد روعته من مسارح الخيال بدليل أن (أشباح القرية) تمثل لك الأشخاص كأنك عشت بينهم ووعيت حياتهم وعرفت طبائعهم وميولهم. وصفوة القول أن الأستاذ كرم ملحم كرم من بناة النهضة الأدبية الحديثة في لبنان، وكتابه (أشباح القرية) جدير بالمطالعة والإعجاب لأسلوبه الجميل ولهجته السليمة وصبغته الخاصة على ندرة هذه الميزات في كتاب القصة.
وداد سكاكيني
المسرح والسينما
في الفرقة القومية
عطيل
بين الإخراج والتمثيل
ما أظنك رأيت ناسكا من قطان الصحارى والكهوف الواردة أساطيرهم في الكتب يستيقظ في الفجر يسبح ربه ويقضي نهاره على وتيرة واحدة في الأكل والصلاة ثم يودع الشمس الغاربة بأدعية الحمد والتوسلات إلى الباري العظيم أن يدني اليوم العظيم يوم الخلاص من الحياة الدنيا. فإذا شاقك أن ترى شبيهاً لحياة البلادة والكسل وتزاحم أيام الأسبوع وتدافعها حتى ينقضي اليوم الأخير من الشهر، فانظر إلى الفرقة القومية وراقب أعمالها تر ذلك الناسك بعجزه وبجره، لا فرق بينهما إلا في صيغة الدعاء والابتهال إلى الله العظيم أن يصرف أذهان نواب الأمة عن مناقشة ميزانية وزارة المعارف التي تمنح إعانة لنساك من الممثلين كهوفهم قهوات عماد الدين وكتبهم أوراق البوكر والكونكين
وإذا أردت مثلاً صارخاً لبلادة الناسك ومحافظته على الهدوء كالتمساح يهضم ما ابتلعه من فريسة على مهل فاذهب إلى دار الأوبرا واحضر تمثيل رواية عطيل، فأنت ترى نفس أبطال الممثلين والممثلات الذين لعبوا أدوار هذه الرواية بعينها سنة 1912 فلا فارق فيما كانوا عليه قبل سبع وعشرين سنة إلا ما سوف أذكره بالتفصيل، وفيما يجب عليهم إدخاله على فن التمثيل من محسنات وتصحيحات لمواقفهم السابقة. ولا شك في أنك تسائل نفسك ما معنى استقدام مخرج أوربي ليحل محل مخرجين مصريين أقصاهما مدير الفرقة ليتيسر له دفع راتب المخرج الأوربي الذي لم يستطع أن يغير حرفاً من الناموس القديم؟
المخرج الأوربي على شيء من فهم فنه ولا شك، وقد أقام البينة على ذلك، ولكنه ويا للأسف تأقلم فسرت إليه عدوى الموظف الراكن إلى الراتب الفاتن، المكتفي بإبراز عمل يرضي الرئيس ولا يغضب الممثلات والممثلين فصار يساير هذا ويجاري ذاك كأنه كتلة أصيلة من بيئة المسرح المصري
وعلى هذا القياس تم التجانس والانسجام بين رجل الإدارة ورجل الفن ورجل التمثيل،

بدليل أنه لما طاب للفرقة إخراج آخر رواية ترجمها الأستاذ مطران لم يجد المخرج بداً من مسايرة السيدة دولت أبيض والسيد منسي فهمي، بإسناد دور ديدمونة إلى الأولى ودور ياجو إلى الثاني، وبإبقاء دور عطيل مع الأستاذ جورج أبيض، أي بإبقاء القديم على قدمه. فهل قام هؤلاء بتمثيل أدوارهم قياماً مقبولاً؟ وهل أكسبتهم الأعوام اختبارات فنية أضافوها إلى صناعتهم في التمثيل؟ وهل استطاع المخرج الأوربي تلقيحهم بمعلومات خاصة من عنده؟

أزعم أن المخرج لم يكلف نفسه عناء تصحيح أي موقف لممثل من مواقف هذه الرواية الجبارة، ولو فعل حقاً لكان اختار لدور ديدمونة غير الممثلة دولت أبيض، لا لأنها لم تحسن فهم دورها، ولا لأنها لم تُجد إخراج مقاطع صوتها بحنان وعطف، ولا لأنها لم تجهد نفسها لإظهار الحب البريء البكر بأطهر مظاهره، بل لأن تقاطيع وجهها ونظرات عينيها كانت كأنها من صنع رسام فاشل توحي إلى الناظر أكثر من معنى واحد، وتجعله يراها تبكي بينما هي تضحك، أو تضحك بينما هي تبكي. والمفروض في المخرج البارع ملاحظة هذه الحالة الفسيولوجية التي لا دخل لإرادة الممثل واجتهاده فيها، بل والواجب عليه تفاديها، وليس ثمة من سبيل إلى التفادي إلا باختيار ممثلة أخرى وهن في الفرقة كثيرات

وهناك تقصير من المخرج يستوجب اللوم من أجله، ولا أجد سبباً لوقوعه فيه سوى سبب المسايرة والمجاراة وإرضاء الجميع على حساب (الضمير الفني) فالممثل الذي لعب دور ياجو وسبق له أن لعبه مرات في خلال ربع القرن الماضي، إنما كان فهمه له خطأ، وكان تدريب معلميه له خطأ أيضاً، وبذلك دلل على أنه صدى يردد، وأنه لو كان التفت المخرج إلى هذه الناحية الفوتوغرافية فيه لكان طبعه طبعة صحيحة تظهر نفسية ياجو على حقيقتها وعلى ما هي مفطورة عليه

قد يفهم المخرج الأوربي معاني (الكيد والتحدي والجريمة) وهي عناصر رئيسية في الحيوان الشرير الذي يدعى الإنسان، وأن عوامل التهذيب والتثقيف تصقل هذه الخلائق أو تبرقعها ببراقع في علم السلوك والاجتماع، وهي تغوص أو تطفو وفق الانفعالات والظروف. وقد يفهم أيضاً أن شخصية ياجو التي رسمها شكسبير العظيم إنما هي بعينها هذه الشخصية اللعينة المهذبة، المريضة المثقفة، وأن لا محيص لصاحبها أن يكون كيساً

لبقاً لماحاً مرهف الحس، لا ضحاكا مهرجاً كما فهمه الممثل منسي فهمي، وبعبارة أصح كما تركه المسيو فلاندر يلعب دوره على هذا الأساس الخاطئ. فهذا المخرج يستأهل اللوم، لا لأنه أهمل فقط تدريب الممثل بل لأنه يستهين بثقافتنا وبنهضتنا الأدبية متوهما أن محيطنا الأدبي وبيئتنا الثقافية تجللهما سحابة خانقة مكفهرة كالتي تشوب الجو المسرحي

لم تكن كل المواقف التي وقفها الأستاذ منسي فهمي خاطئة، فإنه مثل ببراعة المرح البسام والسخرية المريرة إذ يجتمعان في النفس ومثل السخرية من المخلوقات التي تعميها حيوانية الغرائز، ومن تحفزهم طبيعة الطمع ولاقتناص المال واستلابه من هؤلاء الذين جاءهم عفو الإرث من الآباء أو الأجداد، ومرح الرجل العارف مبلغ قوته ومقدار معرفته طبائع الحياة وأخلاق الناس

قبيل الذهاب إلى الأوبرا أخذت أسال نفسي: هل نضب الأستاذ أبيض أم ركد أم ما برحت حيويته وثابة تنتهز الفرص الحافزة وتترقب سنوحها بصبر؟ ثم قلت إن رواية عطيل خير مسبار يبرز نوع معدن الرجل على حقيقته

جلست في مكاني أعير تمثيل الرجل كل انتباهي. فعلت ذلك لسببين الأول لأني شاهدت تمثيل هذه الرواية على مسارح فرنسية وإيطالية، والثاني لأقول لبعض الأصدقاء من الناقدين إن النقد فضلاً عن أنه موهبة فهو فهم، وحس، وسعة اطلاع، ولا يطالب الناقد المسرحي بزيارة عواصم العالم ومسارحه كلها ليكون ناقداً مسرحياً فالعبرة إذن ليست بالسياحات بل بما ذكرت من المواهب الطبيعية والاكتسابية

أعرت الأستاذ أبيض انتباهي ويقظة نفسي فألفيته يمثل دوره على نقيض ما مثله فيما مضى. وقد أعجبني منه تحوله عن اللهجة الخطابية وانصرافه عن مظاهر الحماسة إلى تمثيل انشغاله الذهني في شؤون وظيفته العسكرية واضطراب عاطفته المستثارة بلواذع الغيرة، ولما كانت تعضه الآلام بأنيابها السامة كان يصرخ صرخة هي كومضة

البرق في ليل ملبد بالسحب القاتمة، ثم يعود إلى نفسه ليسكن لواعجها فيداهمه ياجو بمواد من سمومه القتالة. وهكذا مشى الممثل جورج أبيض يقبض على ناصية المسرح وبعبارة أصح يضم أذهان النظارة وأحاسيسهم في قبضة يده

إني وإن كنت أسجل بفخر للمسرح المصري وقفة الأستاذ أبيض فيجب ألا أنسى الآنسة

فردوس حسن لأنها على قصر الدور الثانوي الذي مثلته أظهرت كفاية جديرة بالإعجاب والتقدير.

وبعد فأرجو أن يحمل نقدي على محمل الإخلاص الصادق لفرقة يعز علي كثيراً أن أقرأ الفاتحة على روح النشاط والمجد والغيرة المفروضة فيها والمعدومة منها

ابن عساكر

العدد 305 - بتاريخ: 08 - 05 - 1939

في وزارة المعارف

تدريس اللغة العربية

في الغرفات الكبرى من وزارة المعارف ضجة منذ أسبوعين ما بين رجال الإدارة ورجال التعليم في البحث عن أمثل الطرق لتدريس اللغة العربية في المدارس المصرية. والموضوع لخطره وقوة أثره يستحق هذه الضجة في الوزارة، ويستوجب هذه العناية من الوزير، ويسمح لغير الرسميين من رجال القلم أن يصدعوا فيه بكلمة الحق التي لا توحيها رغبة رئيس ولا مجاملة مؤلف. فإن من القضايا المسلَّمة أن خيبة الوزارة في تعليم الأدب العربي وقواعده كانت خيبة للنهضة الثقافية في مصر الحديثة، لأن الذين يبتغون العلم من العامة لا يملكون أن يقرءوا، والذين يريدون التعليم من الخاصة لا يستطيعون أن يكتبوا؛ فبقيت الأمة أمية في عصر فرغت فيه الأمم من البحث في الألف والباء، والأفعال والأسماء، لسبر أغوار المجهول من النفس والطبيعة صحيح أن خيبة الوزارة عامةٌ في فروع الثقافة المختلفة، ودرجاتها المتعددة، لأنها إلى اليوم لم تستطع أن تخرج الإنسان المثقف الذي يعرف كيف يعيش، ولا الرجل الموظف الذي يدري كيف يعمل؛ ولكنها لو كانت نجحت في تعليم العربية لخلقت من تلامذتها قراء يكملون نقصهم بالدرس، ويقوّون ضعفهم بالاطلاع، ويتصلون من طريق القراءة بالفكر البشري العام في مناحي تصوره وتطوره وإنتاجه. فإني أومن بأن تعليم الشعب لغته هي أصل الأصول في ثقافته العامة؛ فإذا صلح محا الأمية، وخلق القومية، وكون الأخلاق، ووحد الميول، وقوى المواهب، ونشر المعرفة، وروّج الأدب، ووسع النهضة؛ وإذا فسد أصحاب الأمة بنمط عجيب من الأمية المغرورة والجهالة السفيهة، فيكثر العلماء ويقل العلم، وينتشر الأدباء ويموت الأدب

منذ أن ذهبت ثورة الاستقلال بدنلوب وسياسة دنلوب حاول البانون على أثره أن يرفعوا البناء فلم يرتفع، ثم جهدوا أن يدعموه بتقارير الخبراء ومناهج اللجان فلم يندعم. ذلك لأنهم لا يزالون يبنون على أسس دنلوب وقواعده؛ وأسس دنلوب وقواعده هي أولئك الموظفون المخضرمون الذين نشأهم المستشار على آلية التعليم حتى صارت فيهم عقيدة، وأخذهم (بروتين) النظام حتى أصبح لهم فطرة. فإذا كان القيم على أمر الوزارة قويًّا انطوت هذه

الفئة انطواء القنافذ، وتركوا النشاط للشباب ذوي العلم والخبرة، فغيّروا المناهج، وقوّموا الخطط، ورسموا الغاية، وبدّلوا الكتب، وبدءوا التجربة؛ وإذا كان ضعيفاً بسطت سلطانها على كل إرادة، ورجعيتها على تجديد، فاحتسبت الإيرادات في الرءوس، واستقرت الأنظمة في المكاتب، وعاد الدولاب القديم يدور دورانه البطيء بالتأليف المريب لجواز الامتحان، والتعليم الفج لبلوغ الوظيفة. لذلك لم يكن بد من قصور البنيان بين البناء والهدم، وتذبذب الإصلاح بين الرأي والعزم، وعجز المدرسة المصرية عن تنشئة الجيل الذي يكون له مع العلم خلق، ومع العمل ضمير، ومع الشهادة إرادة. ومن أجل ذلك لا نبالغ في تقويم الفوائد المرجوة من هذه اللجان ما دام الأمر لا يخرج عن جلسات تعقد، ومقترحات تناقش، وتقريرات تقدم، وقرارات تصدر، ثم لا تبقى إلا بقاء الوزير في الوزارة

ليس من شأن المدرسة ولا في مقدورها أن تخرج الطالب عالماً يبتكر ويخلق؛ وإنما شأنها وجهدها أن تخرجه متعلماً يقرأ ويبحث؛ فإذا لم تصنع القارئ فأنها لم تصنع شيئاً.

والقارئ الطُّلعَة من صنع معلم اللغة، لأن القراءة أداة اكتساب البلاغة، واللغة والأدب قبل كل شيء تقليد ومحاكاة؛ فواجبه أن يشوق الطالب بروائع الفن، ويغريه ببراعة الذهن، ويأخذه بدوافع التكليف حتى ينطبع على القراءة بالمران والعادة. ومتى أخذ الرجل يقرأ فقل إنه أخذ يَعلم. فهل استطاع تدريس اللغة العربية في مدى مائة عام خلت أن يجعل مصر أمة قارئة؟ قد تجيب مصلحة الإحصاء بأنه علم الخط كذا رجلاً في المائة؛ ولكنها لا تحير جواباً إذا أردنا من القراءة التتبع والفهم والتحصيل. والقراءة بهذا المعنى هي الفارق بين شاب تعلم في المدارس في المصرية، وبين آخر درس في المعاهد الأجنبية

قضيت في تعليم العربية وآدابها خمساً وعشرين سنة لا أفتري على الحق إذا قلت إنها كانت مثمرة. ولعلها آتت هذه الثمار لأني على ما كان في نفسي من حب الأدب لم أتقيد بطريقة كتاب ولا نصيحة مفتش ولا نص منهاج. وقد لخصت تجارب هذه الحقبة في مقال نشرته بكتابي (في أصول الأدب) أستطيع أن أجمله في كلمتين: أن تكون طريقة المعلم استنتاج القواعد من الأدب ودرس الأدب في المطالعة، وأن تكون غاية المتعلم قراءة ما يُكتب وكتابة ما يُقرأ. وسبيل ذلك كتاب ومعلم ورابطة. فالكتاب شرطه أن يكون أدباً ليصقل الذوق ويربي الملكة؛ والمعلم شرطه أن يكون أديباً ليملك ما يعطى ويحسن ما

يختار؛ والرابطة بينهما هي الضمير الفني الذي يهدي إلى الحق ويغني عن المفتش. فإذا كان أمل الأستاذ الوزير قد تعلق بإحياء اللغة العربية وإذكاء النهضة الأدبية، فليسئ الظن بالسياسة التقليدية التي اتخذتها الوزارة إلى اليوم في نظام التأليف وطريقة التفتيش واختيار المدرس؛ وليبحث في الديوان وفي خارج الديوان عن الخبير الذي ينهج، والكتاب الذي يشوق، والمفتش الذي يوجه، والمعلم الذي يسلك؛ وليطهر التعليم من المدرس الذي يضع القواعد في أشجار وجداول، والمفتش الذي يعاقب على نسيان الهمزة وذكر الغزل، والمؤلف الذي يؤلف بسر الجاه ونباهه الاسم؛ فإنه إن فعل ذلك جاز لنا أن نعتقد أن هذه اللجان هي غير تلك اللجان، وأن حدثاً جديداً يوشك أن يقع في الديوان.

أحمد حسن الزيات

رسالة الأديب

للأستاذ عباس محمود العقاد

في الرسالة التي صدرت (يوم 17 أبريل) كتب الأستاذ توفيق الحكيم من برجه العاجي يقول: (إن الدولة لا تنظر إلى الأدب بعين الجد بل إنه عندها شيء وهمي لا وجود له ولا حساب)

ثم يقول: (إن انعدام روح النظام بين الأدباء وتفرق شملهم وانصرافهم عن النظر فيما يربطهم جميعهم من مصالح وما يعنيهم جميعاً من مسائل قد قوّت عليهم النفع المادي والأدبي وجعلهم فئة لا خطر لها ولا وزن في نظر الدولة)

وفي الثقافة التي صدرت (يوم 25 أبريل) كتب الأستاذ توفيق في هذا المعنى يسأل عن أدبائنا المعاصرين هل فهموا حقيقة رسالتهم؟ ويذكر ما يصنعه أدباء أوربا (كلما هبت ريح الخطر على إحدى هذه القيم - وهي الحرية والفكر والعدالة والحق والجمال - وكيف يتجرد كل أديب من رداء جنسيته الزائل ليدخل معبد الفكر الخالد ويتكلم باسم تلك الهيئة الواحدة المتحدة التي تعيش للدفاع عن قيم البشرية العليا)

ثم يقول بعد أن وصف سوء حال الأدب في مصر:

أمام كل هذا وقف الأدب ذليلاً لا حول له ولا طول، وضاعت هيبة الأدباء في الدولة) والمجتمع، وأنكر الناس ورجال الحكم على الأديب استحقاقه للتقدير الرسمي والاحترام العام. فالعمدة البسيط تعترف به الدولة وتدعوه رسمياً إلى الحفلات باعتباره عمدة. أما الأديب فمهما شهره أدبه فهو مجهول في نظر الرجال الرسميين ولن يخاطبوه (قط). . . على أنه أديب)

كلام الأستاذ الحكيم في هذين المقالين هو الذي ابتعثني إلى التعقيب عليه فيما يلي من خواطر شتى عن رسالة الأديب، وشأن الأديب والدولة، ومستقبل الأدب في الديار المصرية أو في الديار الشرقية على الإجمال

فهل من الحق أن الأدب محتاج إلى اعتراف من الدولة بحقوقه؟

أما أنا فإنني لأستعيذ بالله من اليوم الذي يتوقف فيه شأن الأدب على اعتراف الدولة ومقاييس الدولة ورجال الدولة
لأن مقاييس هؤلاء الرجال ومقاييس الأدب نقيضان أو مفترقان لا يلتقيان على قياس واحد
فمقاييس الدولة هي مقاييس القيم الشائعة التي تتكرر وتطرد وتجري على وتيرة واحدة
ومقاييس الأدب هي مقاييس القيم الخاصة التي تختلف وتتحدد وتسبق الأيام
مقاييس الدولة هي عنوان الحاضر المصطلح عليه
ومقاييس الأدب هي عنوان الحرية التي لا تتقيد باصطلاح مرسوم، وقد تنزع إلى اصطلاح جديد ينزل مع الزمن في منزله الاصطلاح القديم
مقاييس الدولة هي مقاييس العرف المطروق، ومقاييس الأدب هي مقاييس الابتكار المخلوق
مقاييس الدولة هي مقاييس الأشياء التي تنشئها الدولة أو تدبرها الدولة أو ترفعها الدولة تارة وتنزل بها تارة أخرى
ومقاييس الأدب هي مقاييس الأشياء التي لا سلطان عليها للدول مجتمعات ولا متفرقات. فلو اتفقت دول الأرض جميعاً لما استطاعت أن ترتفع بالأديب فوق مقامه أو تهبط به دون مقامه، ولا استطاعت أن تغير القيمة في سطر واحد مما يكتب، ولا في خاطرة واحدة من الخواطر التي توحي إليه تلك الكتابة
ومن هنا كان ذلك العداء الخفي بين معظم رجال الدولة ومعظم رجال الأدب في الزمن الحديث على التخصيص
لأن رجال الدول يحبون أن يشعروا بسلطانهم على الناس ويريدون أن يقبضوا بأيديهم على كل زمان، فإذا بالأدب وله حكم غير حكمهم، ومقياس غير مقياسهم، وميدان غير ميدانهم، وإذا بالعصر الحديث يفتح للأدباء باباً غير أبوابهم، وقبلة غير قبلتهم التي توجه إليها الأدباء فيما غبر من العصور
ولو بلغنا إلى اليوم الذي تعترف فيه الدولة بالأدباء لما اعترف بأفضلهم ولا بأقدرهم ولا بأصحاب المزية منهم، ولكنها تعترف بمن يخضعون لها ويرضون كبرياءها ويهبطون أو يصعدون بغضبها أو رضاها
ولسنا في مصر بدعاً بين دول المغرب والمشرق، فما من دولة في العالم تعترف بأمثال برناردشو وبرتراندرسل ورومان رولان كما تعترف بالحثالة من أواسط الكتاب هذا عن الأديب وشأنه المعترف به بين رجال الدول، فماذا عن التفرق والتجمع، أو عن أثر هذا أو ذاك في تقويم أقدار الأدباء؟
أصحيح أن الأدباء في حاجة إلى الاجتماع؟
أنفع من هذا وأقرب إلى تبيين الصواب أن تسأل: هل صحيح أن شاعرين يشتركان في نظم قصيدة واحدة؟ وهل صحيح أن مصورين يشتركان في رسم صورة واحدة؟ وهل صحيح أن الأدب في لبابه عمل من أعمال التعاون والاشتراك؟
الحقيقة أن الأدباء حين يخلقون أعمالهم فرديون منعزلون، فلا حاجة بهم إلى محفل يسهل لهم الخلق والإبداع، ولا فائدة لهم على الإطلاق من اتفاق أو اجتماع
والحقيقة أن التعاون إنما يكون في مسائل الحصص والسهوم والأجزاء، ولا يكون في مسائل الخلق والتكوين والإحياء
لأن الفكرة الفنية كائن حي ووحدة قائمة ليس يشترك فيها ذهنان، كما ليس يشترك في الولد الواحد أبوان
فإذا كان تعاون بين الأدباء، فإنما يكون على مثال التعاون بين الآباء
إنما يكون تعاوناً على رعاية أبنائهم وحماية ذرياتهم، وقلما يحتاج الآباء إلى مثل هذا التعاون إلا في نوادر الأوقات
فإذا اجتمع الأدباء فلن يرجع اجتماعهم إلا إلى حواشي الأدب أو (ظروف) الأدب كما يقولون دون الأدب في صميمه
وإذا اجتمع الأطباء فهناك طب واحد، أو اجتمع المحامون فهناك قانون واحد وقضاء واحد، أو اجتمع المهندسون فهناك هندسة واحدة وبناء واحد، فكيف يجتمع الأدباء كما يجتمع الأطباء والمحامون والمهندسون وكل أديب منهم نموذج لا يتكرر، ونمط لا يقبل

المحاكاة، وأدب تقابله آداب متفرقات
وإن محامياً قديراً ليغني عن محام قدير، ولكن هل يغني أديب كبير عن أديب كبير؟
وهل ينوب خالق في الفنون عن خالق آخر في الفنون؟ كلا. . . لن ينوب هذا عن ذاك ولن يختلط هذا بذاك، كما أن الوجه الجميل لا ينوب عند عاشقه عن الوجه الجميل ولو اشتركا معاً في صفة الجمال
كل أديب نمط وحده، وكل أديب في غنى عن سائر الأدباء إلا أن يتعاونوا كما أسلفنا في
الحواشي والظروف دون الجوهر واللباب.
أللأديب رسالة؟
نعم، ليس بالأديب من ليست له في عالم الفكر رسالة، ومن ليس له وحي وهداية
ولكن هل للأدب كله رسالة تتفق في غايتها مع اختلاف رسائل الأدباء وتعدد القرائح والآراء؟
نعم. لهم جميعاً رسالة واحدة هي رسالة الحرية والجمال
عدو الأدب منهم من يخدم الاستبداد، ومن يقيد طلاقة الفكر، ومن يشوه محاسن الأشياء
وخائن للأمانة الأدبية من يدعو إلى عقيدة غير عقيدة الحرية أفيدري الأستاذ توفيق ما هو - في رأيي - خطب الثقافة الإنسانية الذي يخشاه دوهامل ويشفق منه كتاب أوربا كافة على مصير الذوق والتفكير والفن والشعور المستقيم؟
أفيدري الأستاذ توفيق ما هو - في رأيي - سر الفتنة الحسية التي غلبت على الطبائع والأذواق وتمثلت في ملاهي المجون أو ملاهي الأدب الرخيص؟
سرها الأكبر هو وباء (الدكتاتورية) الذي فشا بين كثير من الأمم في العصر الأخير لأن الدكتاتورية كائنة ما كانت ترجع إلى تغلب القوة العضلية على القوة الذهنية والقوة النفسية
ولأنها ترجع بالإنسان إلى حالة الآلة التي تطيع وتعمل بغير مشيئة وبغير تفكير
وأين تذهب المعاني والثقافات، بين القوى العضلية والآلات؟
وأين الأديب الذي يستحق أمانة الأدب وهو يبشر بدين الاستبداد؟
لهذا بقيت عقول تكتب وقرائح تبدع في الشعوب الديمقراطية، ولم يبق عقل ولا قريحة في بلاد الدكتاتورية
فإذا تعطلت الكتابة والإبداع بعض التعطيل في أمة ديمقراطية فإنما تتعطل من حالة فيها تشبه أحوال الاستبداد، وهي انتشار الكثرة العددية بين جمهرة الشعراء، والرجوع بالذوق إلى العدد الكثير دون المزية النادرة، أي الرجوع به إلى (الثورة العضلية) لا إلى الحرية أو المزية الفردية
لكل أديب رسالة
ورسالة الأدباء كافة هي التبشير بدين الحرية والانحناء على صولة المستبدين، فما من عداوة للأدب ولا من خيانة لأمانة الأديب أشد من عداوة (القوة العضلية) وأخون من خيانة الاستبداد
عباس محمود العقاد
أعلام الأدب
نساء يوريبيدز
للأستاذ دريني خشبة
أكثر أبطال يوريبيدز وأقواهم وأزخرهم بالحياة الصاخبة والعواطف المضرمة المتضاربة هم من النساء. . . لقد كان ينظر إلى المرأة كما كان إبسن الأسكندنافي ينظر إليها. . . كان يرى أنها محور الحياة وقطب دائرتها، وكان يرى إلى الرجل بجانبها كأنه لعبة، فهي لا تفتأ تلهو به وتتخذ منه ميداناً لنشاطها وفريسة لأهوائها، فإذا أرضاها فهو هالك، وإذا أسخطها فهو هالك، وهو هالك إذا لم يرضها أو لم يسخطها، لأنها تقف منه دائماً موقف السبع الجائع الذي لا يعرف إلا السطو والنهش وإهراق الدماء لا حباً في هذا كله، ولكن لأن هذا كله مركب في طبيعته وجزء من جبلته ولعل السبب في هذا ما لقي يوريبيدز من التعاسة في حياته الزوجية، فلقد كان الشك يمزق قلبه من ناحية زوجته الأولى التي اتهمها التاريخ بأنها خانت زوجها، كما يتهم زوجته الثانية بأنها لم تكن

أخلص له ولا أوفى من سابقتها. . . والمؤرخون المحققون على أن التهمتين باطلتان، ولو أن فيهما ظلاً من الحق لما أهمله أرستوفان عدو يوريبيدز اللدود ومعاصره ومتسقط أنبائه ومحصي عثراته. . . إلا أن قسوة يوريبيدز على المرأة ونظرته الصارمة إليها وما دأب على تحليل أخلاقها به في أكثر دراماته، كل ذلك دليل على ما كان يتردد في أعماقه من أصداء حياته الزوجية، تلك الأصداء التي كانت تتجاوب في شدة وفي صرامة وعنف في ثنايا دراماته. . . ولعل أقوى هذه الأصداء جلبة وأشدها ضوضاء ما صور به بطلته البربرية ميديا التي شغفها جاسون حبا فلم تبال أن تخون أباها وتذبح أخاها في سبيل الفرار معه؛ ثم لم تبال بعد ذلك أن تذبح ابنيها لكي تشب سعيراً من الألم في نفس حبيبها الذي هو أبوهما لأنه أبغضها لكثرة ما رأى فيها من الميل إلى الأذى والتوسل إلى مآربها بسفك الدماء خصوصاً بعد إغرائها بنات بلياس بقتل أبيهن. . . وكان عزائها عن كل ما جنت يداها أن تقف على جاسون وهو يسفك روحه دموعاً بل دماً على ولديه فتشفي حَردَ نفسها ودَخل قلبها لأنه لن يبتسم للحياة بعد، ولن ينعم بلذائذها بعد أن تركته وحيداً فريداً لا أنيس له ولا مواسي فيواسيه لقد كان يوريبيدز جباراً في ميديا سنة 431 بقدر ما كان جباراً حتى في أرق دراماته وأروع مآسيه (هيبوّليتيس) التي غزا بها ميدان الحب الباكي الحزين، والتي نال بها أولى جوائزه الرسمية سنة 428 أي بعد ميديا بثلاث سنوات. ومأساة هيبوليت هذه هي تلك المأساة الغرامية الأولى التي خلصت كلها للحب بعد إذ كان المسرح اليوناني لا يعرف هذا اللون من ألوان الدرام. . . فكانت مفاجأةً مربكةً من يوريبيدز وثورة، ولكن من النوع اللذيذ المحبب، على تقاليد البيئة الجافية التي عرفت المسز جراندي قبل أن يعرفها العصر الفكتوري بثلاثة وعشرين قرناً. . . فيدرا زوجة ثيذيوس الملك، تحب ابنه هيبوليت الشاب الجميل اليافع، لأنها هي أيضاً شابة جميلة يافعة، ولأن زوجها رجل شيخ وإن كان بطل أبطال اليونان! هذه هي المأساة!! فكيف يجرؤ يوريبيدز على تناول هذا الموضوع الغرامي الشائك في درامة تعرض على الجمهور الأثيني الذي كانت تسيطر عليه المسز جراندي الرجعية المحافظة الشديدة الحفاظ على آداب السلف الصالح؟ وكيف يكون أجرأ من سقراط الذي كان لا يرى أن تشارك المرأة في الحياة العامة، بل أن تظل نسياً منسياً. بل كيف يكون مقاحماً أكثر من بركليس ممثل العصر، وصاحب نهضته الفكرية، ورمز مدينته؛ وبالرغم من هذا كان يوصي أن تظل الفتاة قابعة في عقر دارها، متجملة بسنن السلف وتقاليده. . . لكن يوريبيدز كان سوُفسطائياً قبل كل شيء، والسوفسطائيون كانوا (صناع الحكمة) كما تدل عليه كلمة التي تعني الحكمة أو أي الفضيلة، والتي اشتق منها اسمهم أي الناس الذين يتناولون البحث في الحكمة. وليس صحيحاً أنهم كانوا ثرثارين كما اتهموا بذلك ظلماً، ولكن الصحيح أنه كان منهم العظماء وغير العظماء، وكان منهم الكبار، وكان منهم الأحداث، وكان منهم الأغنياء وغير الأغنياء، وكان منهم كل صنف من صنوف الشعب؛ لكنهم كانوا جميعاً ينشدون الحق، ويهذبون الناس، وينشرون النور، ولا يبالون في سبيل ذلك مصادرة ولا نفياً ولا تقتيلاً. ويقولون إن يوريبيدز كان يتأثر بسقراط ولو لم يختلط به، وكان تأثره بالفيلسوف العظيم ينعكس في دراماته. كما قيل من أن شاكسبير كان يتأثر ببيكون، وإن يكن ما يقال عن هذين يعدو حدود التأثير إلى حدود النّحل. فالمبالغون من مؤرخي الأدب الإنجليزي يدّعون أن أكثر درامات شاكسبير هي من تأليف بيكون، وإنما نحلها شاكسبير نفسه. . . ونحن ننفي أن يكون يوريبيدز قد تأثر بسقراط في كثير أو قليل من أدبه. بل نرى أن عكس ذلك هو الذي وقع. فقد ذكرنا أن سقراط كان لا يذهب إلى المسرح إلا ليشاهد درامات يوريبيدز، وأنه لم تكن تفوته إحداها قط ولو كلفه ذلك ما ليس يحتمله إلا الأشداء من جهد ومشقة. ثم أين نظرة يوريبيدز إلى المرأة وما كان يجنح إليه في تحليل أخلاقها من عنف وصرامة، من نظر سقراط إليها؟ لقد ألف يوبيدز أكثر من تسعين درامة كانت البطولة في أكثرها للمرأة. وقد ضاع من هذه الدرامات التسعين أكثرها بحيث لم يصلنا إلا تسع عشرة، ومع ذاك فللمرأة البطولة الأولى في معظم هذه الدرامات الباقية. . . ويأتي الرجل في المرتبة الثانية دائما ألاً في عدد قليل منها. . .

لقد كان يوريبيدز يقسو على المرأة في غير هوادة كما قسا عليها في ميديا وكما قسا

على فيدرا كما سنرى فيما بعد، فإذا لم يقس عليها عرض لنواحي ضعفها الذي تسميه الأخلاق وفاءً أو حناناً أو حفاظاً وتسمية السيكلوجية ضعفاً أو تلبية لنداء الطبيعة إذا كان هذا الضعف زناً أو مروقاً من ربقة الزوجية.

1 - ففي ميديا تذبح المرأة أخاها وتنثر أشلاءه من أجل لذتها، ثم تغري بنات بلياس بقتل أبيهن من أجل الملك الضائع من زوجها، ثم تذبح ابنيها اشتفاءً - أو تشفياً - من هذا الزوج بعد أن تقتل زوجته الجديدة بالسم حتى تضع حداً لسعادته بعدها.

2 - وفي هيبوليت تعشق الزوجة ابن زوجها، فإذا أبي واستعصم ضاقت بها الأرض وذهبت لتنتحر، ولكنها تخشى أن يدافع عن نفسه عند أبيه فيفضحها فتزور خطاباً تتهم فيه هيبوليت بأنه راودها بل هم بها بالفعل، ثم تشنق نفسها بعد ذاك.

3 - وفي ألستيس (438ق. م) يصور لنا أدميتوس الملك الأناني الذي يعشق الحياة، حتى إذا كان لابد له من الموت تقدمت زوجته لتفديه فيقبل الفداء، وبذا تموت هي عوضاً عنه ويمضي البطل هرقل بعد ذلك ليعود بالزوجة من الدار الآخرة هيدز. فليس وفاؤها هذا وفاء إنما هو ضعف سيكلوجي لأنه حصل من أجل رجل دنئ أثر أناني

4 - وفي هكيوبا (424ق. م) يعرض لك هذه المرأة العظيمة النبيلة زوجة بريام ملك طروادة بعد إذ حل بها ما حل من هوان وأسر ثم سبي، وكيف تلقي كل ذلك بأجمل الصبر حتى إذا اشتد بها الضيق وذهبت لتعرض شكواها على أجاممنون عظيم الإغريق الذي آثر

نفسه بابنتها كاسندرا، تلك الفتاة النقية التقية التي احتفظت بعذريتها وتسامت بإنسانيتها حتى غدت نبية الطراوديين فيأتي الملك أجاممنون فيؤثر بها نفسه ويرغمها على أن تكون (حظيته!) إشباعاً لشهواته الوضيعة. . . ومع كل ذاك فإن الأم هكيوبا تصبر لهذه المحن، وتتذرع بكل ما في طوقها من تجلد حتى إذا فاضت الكأس وسيقت ابنتها الشجاعة الصابرة بولكسينا إلى حيث يضحي بها فوق قبر أخيل كما طلب رعاع الجيش ثار ثائر هكيوبا ومسختها الآلام فصيرتها كلبةً من وحوش جهنم الخرافية تتضور وتلهث، فهي تسمل عيني بوليسومور وتذبح ابنيه لتثأر لآلامها.

5 - وفي يون (420ق. م) يعرض لك يوريبيدز مشكلة غرام وزنا بين كريزا بطلة الدرامة وأبوللو إله الشمس والموسيقي فقد أحبها الإله وفسق بها قبل أن تخطب على زوجها إجزوتوس فلما أجاءها المخاض خافت الفضيحة فطمأنها الإله الفاسق وأخذ طفلها يون إلى دلفي حيث خبأته وراء ستائر المذبح في سفط به. شالها وبضعة أشياء أخرى. . . وبعد سبع عشرة سنة عاشها إجزوتوس وكريزا من غير ما ولد تمنى الرجل على أبوللو - في دلفى - أن يرزقه وليا يرثه، فقال له: إن أول من تلقاه حينما تخرج من هنا هو ولدك. . . فلما لقي الرجل الشاب يون احتضنه وفرح به، وعجب الشاب لهذا الرجل الذي يناديه كأنه ابنه؛ ثم تلقاه أمه كريزا فيكون بينهما من التشابه والحنان ما يحير الفتى؛ ثم ترى كريزا السفط فتعرفه وتذكر للفتى أنه سفطها وأنها هي التي أحضرته فيه إلى المعبد فيمتحنها الفتى بسؤالها عن محتويات السفط فتذكرها له جميعاً فيعانقها على أنها أمه، فإذا سألها عن أبيه ألهمها أبوللو الجواب الكاذب فتقول إنها كانت قد اتصلت بأجزوتوس في أحد أعياد دلفي فحملت به. . . وإذ هي تقول ذلك إذا بكاهنة المعبد تبرز فجأة وتقول الحق الصراح عن نشأة الغلام وأنه ابن زنا من أبوللو. . . فتضيق الدنيا بالزوجة وتذهب لتنتحر لولا أن يلقاها أحد العبيد فيشير عليها بأن تقتل الغلام فترضى. . . أما يون فإنه يثور ويجدف تجديفاً مضحكاً ضد أبوللو. . وتنتهي الدرامة بأن تتدخل مينرفا في الأمر فتصلح بين الجميع وتهدأ العاصفة ويرضي الكل بالأمر الواقع!

فانظر كيف سخر يوريبيدز من المرأة وكيف استهزأ بالآلهة وفضح أبوللو ومعشوقته ثم أركس مينرفا رمز الحكمة في بؤرة ذاك الضلال!

6 - وفي النساء الطرواديات (415ق. م) لم ينشئ مؤامرة ما ولم يحبك عقدة درامية ولكنه صور ضعف الأمهات الطرواديات إذ يذهبن إلى المعسكر الإغريقي يسألن القادة الظافرين أن يأمروا لهن بجثث أبنائهن ليدفنها بدل أن تترك بالعراء تنوشها الذئاب وجوارح الطير ومن غير أن تؤدي لها الفرائض الجنازية. وتنتهي الدرامة بأن يتدخل بعض القادة ممن تأثر بدموع الأمهات فيأمر بالأجساد فتحرق ويعطي التراب المتخلف عنها للأمهات. . . درامة ضعيفة إلا أن يوريبيدز قصد فيها إلى شيئين. . . تصوير ضعف

أولئك الأمهات وجبروت الظافرين من جهة، ثم ذم الحرب والدعوة إلى السلام من جهة أخرى، لأنه كان أول مبشر بالسلام عرفه التاريخ إذا استثنينا إخناتون المصري وسنعرض لذلك في الفصول التالية إن شاء الله

7 - أما في إلكترا (413ق. م) فيتناول يوريبيدز المأساة المشهورة التي رأينا إسخيلوس يتناولها فيفسر الحوادث، ورأينا سوفوكليس يتناولها فيصور كيف كان ينبغي أن تكون الخاتمة لا كما تم من أمرها. . . لكن يوريبيدز يتناولها على طريقته الخاصة. . . إنه يقصد الناحية السيكلوجية، ولذا فهو لا يبالغ فيصيب أورست بالجنون بعد قتل أمه كما فعل إسخيلوس ولا يبالغ في تحميل العاطفة الإنسانية وإرهاقها بما لا تستطيع من ابتهاج بالقتل وفرح به وحض عليه كما فعل سوفوكليس. . . لا. . . إن يوريبيدز صنع ما صنعه بعده دستوئفسكي الروسي في قصته الجريمة والعقاب باثنين وعشرين قرناً من الزمان. . . إنه جعل أورست يقتل أمه ويده ترتجف بحركة آليه لا إرادة فيها كما قتل روسكلنيكوف اليهودية المرابية العجوز. . . حتى إذا تمت الجريمة عادت إلى نفس الفتى والفتاة مرارة عميقة لا هي من الندم ولا هي مما يشبهه، لكنها مرارة التحسر لكل ما حدث. . . ومرارة التحسر مما اضطرهما إليه سياق الحوادث وتسلسلها

8 - وفي هيلينا (412ق. م) يبني يوريبيدز درامته على أساس فكرة المؤرخ ستاسيخورس الذي يزعم أن هيلين التي تسببت في حرب طروادة لم تذهب قط مع باريس إلى هذه المدينة بل ظلت طوال سني الحرب في مصر تعبث بملكها وتلهو به حينما حاول أن يتزوجها رغماً عنها ويقتل جميع الإغريق الذين ينزلون في أرضه. . . وتنتهي حروب طروادة وتضل سفينة منالوس زوج هيلينا طريقها في البحر حيث ترسو على الشاطئ المصري ويلتقي الزوجان فيعرف أحدهما الآخر ويفران بمساعدة أخت الملك إلى اليونان. ويعيب المؤرخون هذه الدرامة بخروجها مما عودنا يوريبيدز من أدب الواقع إلى أدب الخيال؛ بيد أن في الدرامة من تحليل أخلاق هيلينا، تلك المخلوقة الخلاسية (لأنها ابنة إله وامرأة) اللعوب التي لا تعرف من مبادئ الأخلاق أو الفضيلة عشر معشار ما تؤثر من الحب ومغامرات الهوى؛ في الدرامة من هذا ومن تحليل أخلاق ألكتر ما يغطي ذلك النقص الذي عابه المؤرخون وكم كان ظريفاً من هيلينا أن تعير ألكترا حينما عيرتها هذه بالعهر والالتواء الأخلاقي بأنها غير جميلة، ولو كانت كذلك وواتتها الفرص لما أمتنعت من إتيان أضعاف ما أتته هيلينا؟!

9 - أما إفجينا في أوليس فهي درامة عجيبة لأنها من هذا النوع الشاكسبيري الجميل الذي تمتزج فيه المأساة بالملهاة؛ والدموع الحرار بالضحك الكثير. . ويقال إن يوريبيدز ليس مؤلفها بل تركها غير كاملة فأتمها شاعر آخر قد يكون ابنه الذي أشرنا إليه في كلمتنا الأولى. . . والحقيقة أن في هذه الدرامة من الفن الجديد ما لم يعرفه يوريبيدز وما لم يعرفه المسرح إلا في عصر شاكسبير. . . وإفجينا هي تلك الفتاة ابنة الملك أجاممنون قائد الحملة على طروادة والتي تنبأ الكاهن كالخاس بضرورة ذبحها قرباناً لآلهة الريح ليتحرك الأسطول. . . يزوّر أجاممنون رسالة إلى زوجته كليتمنسترا كي ترسل ابنتها للاحتفال بعقد قرانها على البطل أخيل فتذهب الأم مع ابنتها وتلقي أخيلاً بما يليق في مثل هذه الحال من الترحيب وتناديه بخطيب ابنتها فيدهش أخيل لأنه خالي الذهن من كل ما دبر، وينقلب الموقف إلى التضحيك على أخيل فيثور، ثم يعرف الحقيقة ويأتي عبد فيخبر الملكة أن ابنتها ستذبح قرباناً لآلهة الريح فتحزن الأم وتبكي الفتاة ويقسم أخيل أن يحميها من هذه الفعلة. . . ثم يعلم الجنود أن أخيلاً هو الذي يحول بين سفرهم وبين ذبح القربان فيثورون ويهجم رجال (الميرميدون) عليه يحصبونه حتى ليوشكوا أن يقتلوه. . . وهنا تتقدم الفتاة فتحميه وتهب نفسها ضحية كريمة من أجل أخيل الذي تفضل روحه أرواح عشرة آلاف فتاة مثل إفجنيا ولأنه خرج مغازياً في سبيل هيلاس. . . وتودع الفتاة أمها ثم تخرج بسامة راضية. . . وهنا يدخل رسول فجأة حاملاً بشرى طيبة. . . لقد أنقذت ديانا الفتاة إفجنيا وطارت بها إلى بلاد البربر. . .

10 - أما إفجنيا في توريس (413ق. م) فهي بقية قصة إفجينا؛ وفيها يعرض يوريبيدز لوناً صارماً من ألوان العراك الداخلي الذي يشب في نفس الفتاة بين السخط على

قومها الذين أوشكوا يقتلونها لغير ذنب وبغير جريرة، وبين محبتها الطبيعية لوطنها هيلاس فخر الأوطان. لقد ذهبت بها ديانا (أرتميس) إلى ملك التوريين (غير الطورانيين) لتكون كاهنة لمعبدها هناك، وقد أكرم الملك مثواها، وعهد إليها بإعداد الغرباء لتحريقهم بالنار (لأن هذا كان دأب الملك، فكل غريب أو أجنبي يحل بأرضه وخصوصاً إذا كان إغريقياً) أحرقه بالنار. ثم يحدث أن يكون أول غريب يعهد إليها بأعداده للتحريق هو أخوها وشقيقها أورست الذي طارده قومه بعد قتله أمه. . . لقاء هائل بعد سبعة عشر عاماً. . . تتحرك العاطفة، وتترقرق الأحاسيس في الدماء. يعرف كل منهما الآخر فيبكي. . . يا للمشهد المؤثر الذي يرتفع فيه يوريبيدز إلى القمة!! ثم تطمئن الفتاة أخاها وتدبر له طريق الهرب إلى شاطئ البحر حيث القارب المعد لفرارهما، وحيث البحارة الأمناء!

هذه طائفة من نساء يوريبيدز عرضها في دراماته عرضاً شاقاً يمتزج فيه الشعر بالأخلاق بالسيكلوجية، بطريقة أهاجت عليه البيئة الأثينية عامة، ونسائها خاصة، لأنها بيئة محافظة لم تتعود أن تُشرح أسرار نسائها على المسرح على هذا النحو الذي أنتحاه يوريبيدز فأخجلها وأغراها به.

وكم كان بودنا لو خلصنا لكل من هذه الدرامات بفصل خاص حتى نتفادى تشويهها بهذا العرض السريع لولا ما نتوخاه من عدم الإملال، وما نخشاه من فتور نشاط القراء.

دريني خشبة

التفاؤل والتشاؤم أيضاً

للأستاذ عبد الرحمن شكري

إذا كان لقائلٍ قولان: قول ينم عن تفاؤل، وآخر ينم عن تشاؤم، فليس من إخلاص الناقد للأدب أو للإنسانية أو للقائل أن يشير إلى اليأس في بعض قوله وألا يذيع الأمل في بعضه حتى ولو كان الأمل في الأقل من قوليه؛ فإذا كان الأمل في أكثر القولين أو إذا تعادلا كان إخلاص الناقد أقل. ومعاذ الله أن أقول إن الدكتور أدهم غير مخلص للأدب، وإنما يجيء البعد عن الإخلاص من الإسراع في النقد من غير تدبرٍ لهذه الحقائق أو من غير قلة التقصي والبحث التي هي صفة عامة في الناس تظهر في أحكامهم على أكثر الأمور. والناس في ذلك سواسية لا فرق بين عادل وظالم، ورفيق وغير رفيق، وعاقل وغير عاقل. وإني أحمل حكم الأديب الفاضل على هذه الصفة العامة في الإنسان وأقول إنه إذا كان لقائل قولان، وكان أحسن قوليه في التفاؤل فمن الواجب إذاعة هذا القول ولا سيما أنه ليس تفاؤله بالقليل المنزور. ولا نحسب أن منصفاً يقول أن ما ذكرنا من الشواهد ليس من أحسن ما قلت؛ وسواء أكان في نفسه حسناً إذا قورن بقول غيري أم غير حسن، فهو إذا قورن بما وصفه الناقد بالتشاؤم في قولي أجود وأحسن وأليق بأن يذاع إذا كانت هناك ضرورة للإذاعة والنشر والنقد، ولم ير الناقد أن من الخير اندثاره كله بما فيه من جيد ورديء، ومن تفاؤل وتشاؤم. وفي قولي من الرديء ما أسفت لنشره.

ولم أذكر جميع الشواهد والقصائد التي تثبت ما فصلته في مقالي السابق، ففي قصيدة (مصارع النجباء) أيضاً أمل وتفاؤل وطموح ومنها:

إنّ الحياة جمالها وبهاءها ... هبةٌ من النجباء والشهداء
لولا طماح الحالمين وهمهم ... بقي الورى كالتربة الغبراء
الحالمون بكل مجد خالدٍ ... سامي المنال كمنزل الجوزاء
الشائدون الهادمون ذوو النهي ... والعقل أعظم هادم بناء
الخالقون المهلكون الشاعرو ... ن المرسلون بآية غراء

فحياتهم وفعالهم ودماؤهم ... مثل الهدى وكواكب الإسراء وأرجوزة (قوة الفكر) وقد نشرت في المقطع وفي الجزء الخامس تدعو إلى تقديس مظاهر الفكر في الحياة والتفاؤل حتى بالخطوب التي يسببها الفكر ومنها:

إن الخطوب سنةُ التجدد ... فلا ترعْ من سهمها المسدد
وأول الفكر الكبير خطبُ ... ثم يظلُّ خيره يُربُّ

وقصيدة (عبث الشكوى) في عنوانها ما يدل عليها. وقصيدة (أبناء الشمال) تدعو إلى

السعي والعمل والأمل ومنها:
هُم لداعي السعي والآ ... مالُ عمال عجالُ
تعرف البيداء مسعا ... هم وتنبيك الجبال
وقصيدة (صوت الله) تدعو إلى الاطمئنان إلى إرادة الله في الحياة وإلى الالتجاء إليه ومنها:
وإنما نفس الفتى معبد ... يضيئها الله بنور عميم
وقصيدة (جهاد المصلحين) تصف ما يعترض الناس عامة من ترك آمال الإصلاح ومساعيه وتدعو إلى التشبث بها ومنها:
ترى دنس الأشياء رؤية آلفٍ ... يرى أن أحلام النفوس لغوب
يظن جهاد المرء في العيش ضلة ... وأن مساعي المصلحين تخيب
يرى أن خير الكون ما هو كائنٌ ... ووحي النفوس السامياتُ مريب
ويحسب أن الشر ضربة لا زبٍ ... وأن أساليب الحياة ضروب
ويصبح في مجرى الحوادث ريشةً ... تجوب به الأيام حيث تجوب
ويطفئ نور النفس حتى كأنما ... دواعي النفوس الساميات عيوب
فلا تعجبنْ إن الشرور كثيرةٌ ... ولكن يأس العاملين عجيب
وقصيدة (سنة العيش) تصف أمل المصلحين في أن تلطف طباع الحرص والشر في النفس وتصف كيف أن فشل المصلحين ينبغي ألا يعوق عن الأمل ومنها:
طبعٌ قديمٌ سينضو المرء خلعته ... مثل الأديم نضته صمه الصممِ
لا بد من فشلٍ من بعده فشلٌ ... حتى يفيق سواد الناس من صممِ
لا يسعد الناس سن الحرص سنتهم ... حتى يُطهرَ داءُ الحرص بالندمِ
وقصيدة (البطل المنتظر) تصف صلاح أمور الناس وتصف تفاؤلهم وأملهم وعملهم بعد الركود واليأس ومنها:
تُمردُ هورٌ والحياةُ كآجنٍ ... أمر وقدما كان وهو طهورُ
إلى أن يحل الغيث حبوه مائه ... فيترع منه جدول وغدير
كذلك حال الناس فالناس آجن ... مرير وماءِ النابغين نمير
وبارقة تجلو الظلام وصاعق ... يشب لهيباً والأنام قشور
فيضطرم القلب الذي كان خامداً ... ويصبح روض النفس وهو نظير
وتعظم نفس المرء حتى كأنها ... عوالم فيها الكائنات تدور
وقصيدة (الإيمان والقضاء) تصف أثر الإيمان في بعث القوة والأمل في النفس ومنها:
كنفٌ مانعٌ وظلٌ ظليلٌ ... وشرابٌ يشفي أوام الظماء
وهناك مقطوعات كثيرة مثل:
كل ما في الوجود مما يريق ال ... دمع أو يستميح شجو الرحيم
كل شرٍ مهما تعاظم لو قد ... س بشأن الوجود غير عظيم
فليست للتفاؤل عقيدة أعظم مماً في هذين البيتين. وقصيدة: (الحياة والفنون). كلها تفاؤل بجمال الفنون في الحياة ووصف لجمال كل فن من الفنون الجميلة والفنون النافعة وأولها:
جملكِ الله يا حياة كما ... جمل وجه السماء بالشهب
والدعوة إلى بلوغ النفس غايتها بالطموح منتشرة في أكثر القصائد كما في قصيدة (غل السرائر)ـ ومنها:
وإن رضاء النفس ما ينبغي لها ... وليس رضاء النفس ما هو كائن
وفي قصيدة أخرى:
والندب يحمل بين جنبيه الدنى ... روعَ الغريب وراحةَ المألوف
إن الذي درس الزمان وفعله ... لأجل من حدث الزمان الموفي
ويشيم أسرار الحياة بحكمة ... تُعدى على المجهول والمعروف
وفي قصيدة (العظيم) وصفٌ لاستنباط فضائل النفس من تجارب الحياة حتى تجارب الشر والشقاء. ومنها:
وفضائلٌ ليست لغير مجرب ... إن التجارب حجة الرجحان
وأرجلُ خير النفس بعد بلائها ... فالعيش حرب فضيلة الغفلان

وفي قصيدة (الشمطاء الفتية) وصف للرجاء الذي هو عبادة وللاعتقاد الذي تزيده الأرزاء:

نصبٌ خالدٌ وأعظم منه ... اعتقادٌ تزيده الأرزاءُ
ورجاءٌ هو العبادة والإيم ... ان درعٌ يرتد عنه الفناءُ

وقصيدة (العدل والكسب) تصف كيف أن الأمل والصبر أعظم حتى من العدل:

فطوبى لمظلوم رأي العدل معوزاً ... قضي أن فوق العدل صبر المحارب

وفي (حقوق الفرائض) تقديم للفروض على الحقوق، وما تستلزمه الفروض من أمل وعمل:

لن يبلغ المرء العُلى بحقوقه ... إلا إذا بلغ العلي بحقوقها

وقصيدة (البطل) تصف ما يكون من أثر الأمل والعمل في مجرى الحوادث والأقدار ومنها:

ترمي الحوادث بالظلال أمامها ... فترى خُطى الأمر الذي هو آتي
يا راكب الأيام تجري تحته ... مأموقة الخطوات والعداوات
إن المقادر تنتحيك لأنها ... ريضت لديك بحكمة وحصاة
كالخيل تعرف رائضاً ومذللاً ... عند اعتقاد السرج والصهوات

وهذه الشواهد كلها شواهد جديدة لم نشر إليها في المقال السابق. ولو شاء الناقد الفاضل الزيادة زدناه ولكنا نختم هذا المقال بالأبيات الآتية أولاً في وصف أمل النفس في أن تتغلب جهود الشباب على طاغوت الحياة وهذا غاية التفاؤل:

ويُذلُ طاغوت الأمور فتغذي ... شرع الحياة شريعةُ الرحمن

وثانياً في وصف تفاؤل النفس واعتقادها فجراً للإنسانية مستقبلاً:

وأملتُ للدنيا صباحاً مؤجلاً ... سيكشف عنها ظلمة الضيم والشر
فكل صباح رمزه ومثاله ... ووعد به يحدو إلى الزمن النضر
نُسرُ بنعماه وإن لم تكن لنا ... وننشده فيما يكون من الدهر

وثالثاً في وصف الاستبشار بقبول الشقاء لتحقيق سعادة الإنسانية المقبلة:

أيفدح أن تقاسوا العيش نحساً ... ليسعدَ بعدكم صحباً وآلا
وكم من نعمة لولا شقاءٌ ... قديماً لم تكنْ إلا وبالا
فكم خبرَ الأوائل من شقاء ... فنلنا من شقائهمُ نوالا

ورابعاً في أن السعادة واللذة شعور لا يستقيم إلا إذا شعر المرء بالألم:

لا يطعم السعد الشهي وشهده ... من لا تورد فؤاده الآلام

وإذا أراد الأستاذ الفاضل زيادة من شعر التفاؤل فإنه يجده كما في قصيدة (حياة جديدة) ومنها:

تلك قلوبٌ كأنها قبسٌ=يضئ دجنَّ القضاء والغيب
قد آمنت بالعلاء واعتقدت ... كما يقنا الإله في الحجب

وكما في قصيدة الباحث:

عشت دهري بالبحث والأمل الحل ... وولولاه لم أرحْ بالنجاء
من سهام المنون إن صروف ال ... دهر فينا كثيرة الإصماء
أنشد الحق بالتقلبِ في العي ... ش وأبغي سريرة الأشياء

وقد قلنا قديماً إن في النفس البشرية قوة تستطيع أن تحول التشاؤم إلى غرض من أغراض التفاؤل، وإلى قوة من قوى الاستبسال في طلب الأمل (إنما اليأس سبيل للمنى). ونعود فنقول إنه من الإخلاص للأدب أو الأديب أو الإنسانية ترك أحسن ما في قول القائل. وهذا قول لا ننعت به الناقد الفاضل

عبد الرحمن شكري

من برجنا العاجي

كلما ارتقى فكر أمة انصرفت إلى إتقان الصناعة وحذق الوسائل الفنية، وشعرت في الحال بافتقارها إلى المواد الأولية. فالصناعة غول فاغر فاه يريد أن يلقف أكبر مقدار من المادة ليحيلها إلى خلق جديد له وزن وثمن. أما الأمم العادية فهي مشغولة في أغلب الأحيان بإنتاج المادة الخام

كذلك الحال في دولة الأدب والفن. فإن الأديب أو الفنان قبل أن يصل إلى مرحلة الانقطاع للفن والصناعة يكون شأن عامة الأفراد يعيش الحياة المفعم بشتى الحوادث

الزاخرة بألوان المادة الصالحة، حتى يدعوه الفن إلى سمائه، فإذا هو يرى أن حذق أساليب الفن وإتقان أسباب الصناعة أمر لابد له من تكريس حياة بأكملها. فإذا هو قد أنصرف عن حياة الناس العادية بما فيها من وقائع هامة وتافهة وأحداث هائلة أو حقيرة، وانزل في شبه (معمل) فني أو مصنع فكري يجود فيه وسائله ليملك ناصية ملكاته، إلى أن يحس من نفسه أنه قد قطع في هذا السبيل شوطاً كبيراً وأنه قد غدا صاحب صناعة. فيلتفت فإذا أيامه التي قضاها في مصنع الفن قد فصلته عن مصنع الحياة الرحبة الصاخبة الزاخرة، وإذا حياته الآن فارغة إلا من جواهر الفكر ولباب التأمل وتجاريب الصناعة القلمية أو الفنية. وإذا هو محتاج لاستعمال فنه وصناعته إلى مواد أولية لا يدري من أين يأتي بها. فهو تارة يرجع إلى حوادث الماضي فينسج من ذكرياتها تلك الأثواب الجميلة التي تخرج عن مصنع فكره وفنه. لقد لحظ ذلك مرة شارلز ديكنز فقال وهو في سن الستين:

(إني دائماً أتغذى وأغذي قصصي ومؤلفاتي بذكريات الطفولة والصبا)

ما الأديب ذو الصناعة إذن إلا دولة صناعية في حاجة إلى المواد الأولية.

توفيق الحكيم

هتلر

لأستاذ جليل

لو رام اليوم جرماني مشغوف بهتلر أن ينشئ كتاباً كبيراً في تقريظ إمامه وزعيمه جاهداً نفسه متنوقاً محتفلاً في كلامه مستنجداً ببلاغة غوته - ما استطاعَ عندي أن يأتي في كتاب بمثل الذي قاله أبو تمام في بيت. وسأروي بيت حبيب وأبياتاً ثلاثة قبله، والشاهد هو، وتلكم مقدمات نفيسات. قال ابن أوس الغواصي على المعاني:

قد علمنا أن ليس إلا بشق النفس ... صار (العظيم) يدعى (عظيما)

طلب المجد يورث المرء خبلا ... وهموماً تقضقض الحيزوما

فتراه وهو الخليّ شجيّا ... وتراه وهو الصحيح سقيما

تميته العلا فليس يَعُد البؤس ... بؤساً ولا النعيم نعيما

وإن امرؤاً ترك في الدنيا هذا الدويّ وبلغ بنفسه الكبيرة ما بلغ (من الرفش إلى العرش) لعظيم حق عظيم، كل العظيم

عطست بأنف شامخ وتناولت ... يداي الثريا قاعداً غير قائم

وإذا تذكر الهر الفوهرر صيور غشمشمين مخاطرين مثل نونابرته - كما يسميه الجبرتي - وغليوم نزيل هولاندة، وتدبر قول المهلب بن أبي صفرة، الجملة الأولى منه: (الإقدام على الهلكة تغرير، والإحجام عن الفرصة جبن شديد) ونال بالتهويل وبالوعيد، بالكلام لا بالمدفع والحسام أمانيه، وفارق الدنيا دون أن يحرقها ويحرق الإنكليز والفرنسيين وصحبه الطليان ويحترق - فإذا تذكر وتدبر وقام اللسان مقام السنان كان فوق الرجل العظيم، كان (والله) عجيبة، كان نبي الجرمان، على أنه اليوم نبي القوم

وإني لأنوه به تنويهاً لبطولته وعظمته وإن شتم الشتامة وقال في أجناس الناس غير الحق. إنه من قادة الأمم العظماء، لا من الباحثين الفاحصين العلماء، وإن جهل ألماني أو غير ألماني أصوله الكريمة وأعراقه الدساسة. . . فليرجع إلى كتاب الأنساب لغير السمعاني، وليقرأ مؤلفات الأستاذ أرنست هيكل العالم الجريء الجرماني، حتى يعرف متغطرس منتفخ من هو، ومن جده وأبوه

إن هتلر من الزعماء لا من العلماء، فقوله في الأصل والفصل والجنس والنوع هراء بهرج، المحقق لا يقوله

وإنه والله يا أخا العرب، على العلات لعظيم أي عظيم

ولقد ذكرتني خلائق في ابن هتلر: إخلاصهُ وزهده وبطولته، بأبطال كرام عظيمين من العربيين والمسلمين السابقين سادة الدنيا وهداة العالمين

محمد! أبعث لنا واحداً من مثلهم، واحداً من مثلهم!

(الإسكندرية)

(* * *)

صلوات فكر

في محاريب الطبيعة

للأستاذ عبد المنعم خلاف

3 - الاستيعاب
أيدري ناظر في الطبيعة ماذا يحدث أمامه كل لحظة؟
الطبيعة تعمل أعمالها العظيمة المتعددة في كل لحظة. . تدير الأجرام، وتبني الأجسام وتسكب الشعاع، وتسوق الريح، وتوزع الدورات، وتملأ جميع القوالب، وتعطي الإذن والمشورة والرأي لكل شيء. . .
لا اصطدام ولا تناقض ولا فطور ولا صدوع. تجيب كل حي بلسانه وتكلمه وتوصيه وتوجهه وتلد وتدفن وتضحك وتعول. لا تنام، ولا تستريح. قلبها لا يقف عن الدوران والنبض. كل بذرة، كل بويضة، كل ورقة، كل حشرة، كل ذرة تحتاج إلى عنايتها وإرشادها، وهي تعطي العناية والمشورة ولا تخطئ!
من يكذبني فليذهب إلى حديقة الحيوان بالقاهرة أو إلى أي حديقة مثلها، حيث تجتمع فيها نماذج حياة الأرض، ليرى ويسمع (الجوق) ويهو يعزف (أوبرا) الحياة جميعها. . .
إن حديقة الحيوان موضع عناية الله البارئ! إنها عندي معبد أذهب إليه كثيراً بالجسم حين أكون في القاهرة، وأذهب إليه الآن وأنا في العراق بالروح والفكر لأقف مع الأحياء جميعها أمام الله!
إنها معرض دائم للمنتوجات الحية المجموعة من كل مكان في الأرض. إنها حسنة من حسنات الإنسان لولا أنه فعلها غير مقصودة، بل للهو والمتاع بدون فكر وروح. . .
إن الملائكة يتفرجون بها أكثر مما يتفرج الناس. . . ليروا فعل ربهم في غير عالمهم. . . في عالم الطين. . . إنهم يعجبون من تصنيف القلوب والشكول والعقول فيها. . . وإن القلوب والطباع هناك أمرها عجيب. الأضداد والأعداء ينظر بعضها إلى بعض من خلال الأقفاص ويتعجب كل منها من هذا الوضع الشاذ في حياته. وترى تناقصاً بين ما في قلوبها وبين حياتها وهي مجموعة ينظر بعضها إلى بعض نظرات متدافعة من خلال القضبان. .
قف هناك طويلاً وانظر هيآت الأجسام والنفوس المتعددة. . . أنظر نظرات العيون المختلفة وفكر: كم للدنيا من أشكال متعددة عند كل نوع من أنواع ساكنيها. . . أنظر نظرات العيون المختلفة واسمع أصوات الحناجر المختلفة واستحضر روح سليمان بن داود مفهم الطير والبهائم والمردة. . .
أمسح على الجلود والريش والشعر والقشر وشق البطون والجلود وانظر الآلات التي تدور بها هذه الأجسام. . .
افقه شجاعة الأسد وجبن الفأر وحقد الثعبان ووداعة الحمل وشراهة الذئب ومكر الثعلب و. . . قد خلق ربك كل هذا من طين يا أخي! كل قلب من قلوبها يختص بصفة واحدة من الصفات التي جمعها في قلب الإنسان: خلاصة الحياة والأحياء والابن البكر للطبيعة. . .
تسمية أولى منها أن يقال (حديقة الحياة) (حديقة الحيوان)
4 - لمن هذا كله؟
كل يوم تفرش الدنيا بالضياء أمام الإنسان ليسير، وتسدل عليها أستار الظلام لينام. . . وسواء أكان على الأرض قدم تسير أم لم تكن. . . وسواء أكان على المهاد جسم ينام أم لم يكن. . . فإن الآلات الإلهية تدور في دءوب عجيب وعدم اكتراث بالإنسان فالصباح يشرق على العاهل والباهل والنابه والخامل، والمساء يستر السهران والنائم المكدود، والربيع والخريف والصيف والشتاء تتداوله وجه الأرض؛ يحيا الإنسان ويموت وهي عاملة ناصبة لا تبالي. . .
فالدنيا تدور باطراد ويدور معها كل شيء لا فكر فيه، ولا يتخلف إلا الإنسان فإنه قد يقف في مكانه حقباً تطول، أو قد يدور دورة عكسية إلى الخلف! لأن فيه قوة الاختيار. . .
ويخيل للمتأمل أن الدنيا قد دارت (على الفاضي) كثيراً عندما لم يعمل الإنسان عملاً يقدمه إلى الأمام، وقد ضاعت قوى كثيرة من عمر الزمان سدى. . . ضيعها جهل الإنسان وبطؤه في إدراك وجهة الحياة
فمن المنتفع بالحياة؟ من الذي خلقت له الحياة؟
هو الذي لا يضيع شعاع ضوء من أضواء النهار سدى، ولا قطرة من ماء السماء سدى، ولا بذرة من بذور الأرض سدى، ويحتفل احتفالاً ليرى صنعة الله!

. . .هذا الذي يلقي أمامه الإله العطايا فيلقطها في يقظة لينتفع وينفع
هذا الذي عرف قيمة الحياة هبة الله العظمى! وأحسها إحساساً عميقاً وفكر فيها
فكراً، وأقبل عليها في شغف إقبال الأطفال على (السينما). . . فرأى كل شيء، وقرأ
. . .كل شيء، ووضع قلبه وفكره على كل شيء
هذا الذي يستعمل مواهبه من الله ليريه أثر صنعته العجيبة في الإنسان. . . وليؤدي
. . .دوره كاملاً بين الكائنات كما تؤدي أدوارها بقية جنود الله
هذا الذي يفكر ويأكل ويغني ويندب ويضحك ملء رئتيه ويبكي ملء عينيه، ويلد ويدفن
ويعمل بيده ويمشي برجله: أعني لا يعطل شيئاً ولا يتمرد. . . هذا الذي لا يغلق حواسه
عن جمال دنياه. . . ولا يترك باباً من أبواب المعرفة إلا قرعه ودخل منه إلى سر من
. . .أسرار الله
. . .هذا الذي تتمثل فيه مجموعات الأحياء وينطوي فيه العالم الأكبر
كل شيء يؤدي خواصه خلقته وتكوينه إلا الإنسان. فقد شغل عن خاصته التي له وحده
. . .وذهل عنها دهراً طويلاً إلا أفراداً قلائل
فتشوا كم من الناس عاشوا كما يريد رب الحياة في النوع؟
مليون؟ ثلاثة؟ ألف مليون؟
يا ضيعة الإنسان إن كانت نسبة (العارفين) منه في جميع الأزمان كنسبة الذين نراهم
!الآن في زماننا
كلمة! سوف لا يدخل إلى الله إلا الذين عرفوه وعرفوا سر صنعته هنا. . . أما غيرهم
فيذهبون إلى جحيم الحرمان والنسيان. (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم
قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك
كالأنعام بل هم أضل. أولئك هم الغافلون. . .)
صور من الأوهام في الغمام - 5
أمامي الآن في السماء دنيا كاملة من الصور والأشكال. . . نسقتها الصدفة وحبكتها
الأوهام. . . كلها من وهمي وليس فيها من الحقيقة شيء. . . لو أرادت عبقرية أي
مصور أن تخرج مثلها لعجزت. . . إنها دنيا من همسات الظنون وخافيات الأحلام في
. . .نفسي
أنظر إليها ولا أمل كما ينظر الطفل إلى فقاقيع الصابون التي تكون وتنفجر في لحظة،
وأجد راحة في نفسي لا تنتهي، ولا عمق لها
إني أجد في الأرض آثار النظام والإحكام والتحديات والقوالب القاسية التي لا تسمح
للخيال بالانطلاق وتكوين ما يريد. ولكني أجد في فوضى الغمام ومزج الصور فيه
انطلاقاً وحرية في تركيب الصور، وفي ذلك ما يرضي ويشبع حاستي باللانهائية
ويجعلني غير خاضع لمنطق الصور الأرضية وأصول التجسيم
فعالم الأجسام والأحجام والصور الحقيقية في الأرض هو عندي روايات تمثيلية يمثلها
أناس وحيوانات حقيقية، وعالم أشباح الغمام كعالم الصور المتحركة التي يمثلها
(ميكي ماوس) وأضرابه. مما يعطي كل جماد وكل حيوان ونبات روح فكر ورمزية
وحركة وحياة
ولو كنت مصوراً لأخذت من تهاويل الغمام في ساعة واحدة آلافاً من (رءوس الأفكار)
في أوضاع الأجسام وإخراج البدائع. ولا شك أن هذا هو أصل التماثيل الخرافية
الأسطورية التي لم يتقيد صانعوها بما هو كائن حقيقي ولا بالقوالب المعروفة
للأجسام. بل ركبوا متناقضات وجمعوا مفارقات وأخرجوها ليرضوا بها نزعات الانطلاق
في النفس الإنسانية زمان طفولتها
فيا عالم الانطلاق! أنا أنظر إليك سجيناً بأغلالي وأصفادي مربوطاً بالعقل الأرضي
والمنطق الإنساني. . . لم يشبع خيالي تنوع الصور الأرضية ولم أقف عند حد. وإنما
في نفسي إدراك عميق تام أن الصور التي عند ربي لا تنتهي
فأطلق اللهم خيالي من العالم (المتبلور) إلى العالم المائع الذي لا أجسام فيه ولا
أحجام. . . أطلق خيالي ولا تضيعه! أسعدني به على القيود ما دمت قد حبوتني هذا
النزوع الحاد الدائم إلى الرحلة في عجائب ما تصنع وما تستطيع أن تصنع؛ ولا حد
!لاستطاعتك
أن عالم الجمال الأرضي لم يملأ عيني ونفسي، ولم يزدني إلا تطلعاً إلى ما عندك مما

خفي على قدرتي المحدودة. ولست طماعاً. ولكني أدركت السر الذي خلقت من أجله، فلن أنام عنه بعدُ، ولن أصبر، ولن أميت أشواقي وإطرابي إليه. وأقسم لك بجلال وجهك! إني ما قصرت في السعي لإدراك أمرك ولن أقصر. . . وكيف أخلق هكذا بصيراً ثم لا أسعى لأرى؟ كيف أبصر النجم العالي، والقرار الداني، والعقل الإنساني، ثم أقف عند حد وأتقيد بقيد؟ إن سر أمرك دائماً في أفكاري وفي أحلامي، ولا أملك غيرهما من معنى الحياة. . . .أما نومي العميق الخالي من الأحلام فذلك ما لا أملك من أمري

(بغداد - الرستمية)

عبد المنعم خلاف

المدرسة الابتدائية

وتعليم اللغة الأجنبية

للأستاذ عبد الحميد فهمي مطر

لاشك عندي في أن كل من تناول بالتفكير بعض المشاكل الاجتماعية، لا بد يعلم أن أساس التفاهم الحق بين أبناء الأمة الواحدة هو التعليم الموحد. فلقد شهدنا ظروفاً لم يفرق فيها اختلاف التعليم، واختلاف طرائقه وأساليبه بين لهجة ابن مصر العليا، وابن مصر السفلى فحسب، بل فرق فيها ذلك بين أبناء القرية الواحدة إن لم يكن بين أبناء الأسرة الواحدة الذين وقعت بهم الظروف في أحضان معاهد مختلفة بين: مصرية أو أجنبية مدنية أو دينية. وما نشأت تلك الفرقة التي كثيراً ما تؤدي إلى الجفاء إلا من اختلاف نوع الثقافة، ذلك الاختلاف الذي يخلق عقلية خاصة يصحبها تفكير خاص ومزاج خاص. ثم إننا نجد على العكس من ذلك أن التعليم في المدرسة الواحدة يؤلف بين المتباغضين، ويقرب بين المتباعدين، ويوحد بين المتنافرين، لأنه يجمع بينهما في أهم وسائل التفاهم: اللغة واللهجة وطرق التفكير ووحدة طرق التنشئة. فترى الآن الصعيدي والبحراوي متجاورين في دواوين الحكومة متفقين متفاهمين كاتبين كانا أو قاضيين، مهندسين أو معلمين، مديرين أو وزيرين؛ حتى لا تكاد تعرف أيهما الصعيدي، وأيهما البحراوي، لأن المدرسة التي نشآ فيها كان لها الأثر الفعال في تنشئتهما تنشئة واحدة مهما كان نوعها. فهل هناك إذن من سبيل إلى التوحيد والتفاهم غير المدرسة الموحدة التي سبق أن أثبتنا أنها السبيل الوحيد أيضاً إلى المساواة في الحقوق بين الجميع أو إلى الديمقراطية الصحيحة؟ إنك لا تجد مطلقاً أن من السهل خلق جو من التفاهم الأكيد بين الأزهري والأفندي كما لا تجد من السهل إيجاد تفاهم تام بين: المعلم الإلزامي وخريج دار العلوم، أو بين هذا وخريج معهد التربية. ولذلك تجد مشاكل وزارة المعارف لا تنتهي للخلافات المستمرة بين تشكيلة رجال التعليم الذين نشأوا في معاهد متعددة مختلفة الثقافة. ثم هل استطاعت وزارة العدل بما يملأ أرجائها من العدل وبما تنشره من المساواة بين الناس جميعاً في الحقوق يحكم القانون أن تنشر جواً من التفاهم الصحيح بين القاضي الأهلي والقاضي الشرعي اللذين نشآ في مدرستين متباعدتي الثقافة! ألم تشغل طويلاً وزارة العدل ولا زالت تشغل بالخلاف القائم بين القاضيين المتآخيين في الموطن المتباعدين في النشأة؟ وهل انتهى حق اليوم شيء من الخلاف القائم بين خريج الأزهر الشريف وخريج الجامعة المصرية وخريج دار العلوم! وإذا كان وزراؤنا وكبراؤنا لا تثقلهم تلك المشاكل الطائفية التي تواجههم بسبب الاختلاف في الثقافة فإنهم على الأقل يضيعون الكثير من وقتهم ومجهوداتهم التي نحس أننا أحوج ما نكون إليها الآن في أمور تافهة أو ثانوية بالنسبة لما تحتاج إليه مصر من مجهودات في شتى النواحي العمرانية والاجتماعية. وما بال هذه الصيحات المتعددة بدعوة الزعماء والأحزاب والمتحزبين إلى المهادنة وضم الصفوف في الأوقات العصيبة التي تجتازها، فهل وجدت إلا إعراضاً وإهمالاً وإمعاناً في الخصومة؟ وإذا كان بعض المفكرين ينسبون ذلك إلى أخلاقنا فهلا يرى القارئ معي أن بعضه يرجع إلى الاختلاف الواقع في صفوفنا منذ نشأنا النشأة الأولى في معاهد مختلفة الثقافة بعضها فرنسي وبعضها إنجليزي وبعضها مصري مدني والبعض الآخر ديني الخ! ألا إن تماسك الشعب المصري ووحدته المتمثلة في فلاحية الجهلاء لتتناثر وتتفتت إلى قوى متنافرة متخاذلة في قادته وزعمائه المتعلمين الذين رضعوا لبان ثقافات مختلفة في معاهد مختلفة

فتفاوتت عقلياتهم وتضاربت آراؤهم وأصبحوا أميل دائماً إلى الخصومة منهم إلى التعاون والألفة!

لقد أصبحنا في أشد الحاجة إلى وضع حد لكل ذلك. ووضع هذا الحد لا يكون بالكلام والصياح ولكنه يكون بالعمل، والعمل على التوفيق بين مختلف الطوائف والأحزاب أمر يصعب تحقيقه للأسباب السالفة الذكر في جيلنا الحاضر. فلنضع الحجر الأساسي لبناء جيل جديد دعامته التعاون والاتحاد. وتنشئة هذا الجيل الجديد لا تكون إلا بإيجاد المدرسة الموحدة، ولن تكون لنا مدرسة موحدة ما دامت اللغة الأجنبية تفرق بين أبناء المدرسة الابتدائية وأبناء المدرسة الإلزامية والأولية والدينية.

ورد في مؤلفي (التعليم والمتعطلون في مصر) تحت عنوان (خلق الطبقات) ص195 ما يأتي:

فهذه المدارس الشعبية الأولى المتعددة التي تتنازع أطفالنا (ويقصد بها الأولية والإلزامية والابتدائية والدينية الخ) تخلق أول تصدع في بناء الأمة الواحدة لأنها تخلق نظام الطبقات المختلفة في جسم هذه الأمة ذات الدين الواحد والعادات المتحدة واللغة الواحدة. وخلق الطبقات بين أمة هذا حالها لا يقره دين ونظام؛ فالديمقراطية تنفر منه كل النفور لأنه لا يمكن أن يؤدي إلى الاشتراك في الميول والرغبات، ولا يمكن أن يؤدي إلى الاتحاد في الفهم العام الذي هو أساس التفاهم بين الأفراد، فهو إذن ينزع إلى التفرقة الشاملة بين أفراد الأمة الواحدة. ولعل قيامه بهذا الشكل هو السر الأول في هذه الفرقة التي نحسها في ديارنا في كل شيء. وطالما هو قائم في هذه المدارس المتباينة التي نرى في كل منها اختلافاً في الطرائق والأساليب والمذاهب فلن تكون لنا وحدة متماسكة ولن نستطيع أن نخلق من أبناء النيل أمة متحدة في الفهم والقصد ترمى إلى غرض واحد وتتعاون في طريق واحد). هذا ولقد دفعتنا العناية الكبيرة التي اضطررنا إلى توجيهها إلى التعليم الابتدائي فالثانوي تبعاً - إلى إهمال شأن التعليمين الإلزامي والأولي إهمالاً كبيراً تدل عليه تلك الإحصائية الواردة بصفحة 176 من مؤلفي السابق الذكر حيث ورد فيها أن تلميذ التعليم الابتدائي ينفق عليه 24 جنيهاً في العام وتلميذ روضة الأطفال ينفق عليه 22 جنيهاً في العام، بينما تلميذ الإلزامي والأولى ينفق عليه جنيه واحد في العام. وهذه تفرقة كبيرة جداً بل هي مؤلمة وليس لها من مبرر غير ذلك الهدف القديم الذي كنا نرمي إليه في التعليمين الابتدائي والثانوي من حيث إعداد خريجيهما للوظائف والتوظف، وهو هدف بدأ يزول من أدمغة القادة ولكنه مع الأسف لا زال راسخاً في أدمغة الطلبة وسواد الشعب، ويجب أن نعمل على نزعه من تلك الأدمغة سريعاً بإزالة الميزات التي تمتاز بها المدرسة الابتدائية عن باقي مدارس الأطفال وإدماج الجميع في مدرسة شعبية موحدة تخرج لنا الوطني المستنير ذا التفكير الموحد، ولن يتحقق لنا ذلك إلا بإزالة اللغة الأجنبية من المدرسة الابتدائية. ولا ضير في ذلك على اللغة الأجنبية لأنها ستعلم بعناية واهتمام وإتقان في المدارس التي أبناؤها في حاجة إليها وهي المدارس الثانوية ومدارس التجارة المتوسطة. أما طلاب المدارس الصناعية والزراعية المتوسطة ففي غير حاجة إليها ولا يصح إثقالهم بتعليمها، وهم فوق ذلك في حاجة إلى صرف وقتها فيما هم أحوج إلى تعلمه من ضروب المسائل العلمية المختلفة

وإذا كان هذا البحث وما سبقه قد اقتضيا من الوجهتين القومية والاجتماعية زوال اللغة الأجنبية من المدرسة الابتدائية، بل زوال المدرسة الابتدائية نفسها وإدماجها مع أترابها من المدارس الشعبية المخصصة للأطفال فإني أعتقد أن بحث هذا الموضوع نفسه من وجهاته التعليمية والبيداجوجية البحتة فيما بعد في الأعداد التالية سيؤيد هذا الرأي كل التأييد

عبد الحميد فهمي مطر

من أدب الغرب

للأستاذ فليكس فارس

كنت أقلب رزماً من أوراقي القديمة فعثرت على صفحتين خطهما قلمي منذ عشرين سنة حين كانت الحرب العامة ترمي

على الدنيا آخر رجومها وتطرح بالأوشحة السوداء على
هامات الأرامل والأيتام
وهاأنذا أنقل للرسالة ما ورد في هاتين الصفحتين، ولعل السريرة الخفية قادت يدي
إليهما لنشرهما في هذه الأيام. . .
هذه قصة كلها شعور وجمال قرأتها في إحدى الصحف التي ترد إلى غرفة)
الاستخبارات من المقاطعات الفرنسية المحتلة فوقفت عندها أتنصت منها إلى قلب
الإنسانية خافقاً على جبهات النار تحت وابل القنابل وهواطل الشرر
هذه صفحة كتبها إنسان برئ حساس تقوده العاصفة إلى المجزرة ليمسى قاتلا أو
قتيلاً
هذه قصة جندي على سيفه جريمة الحرب وعلى قلمه صرخة الإنسانية أترجمها
واطرحها بين دفينات أوراقي)
حلب في غرة يناير 1918
ف. ف
وكان يوم عصيب في تاهور!
بذلنا كل ما في وسعنا من جهد في المعركة ونحن الآن نتوقع صدور الأوامر للعودة
إلى النار
لم نتمتع بالراحة إلا يوماً واحداً فكفانا هذا التوقف عن العراك لنشعر بانحطاط قوانا
وارتخاء أعصابنا
وصلنا إلى المعسكر فأشعلنا النار وقعدنا حولها لننشد بعض الأغاني العالقة بالذكر منذ
الطفولة فخيل إلينا أننا نعود إلى أوطاننا على نغمات هذه الأناشيد
وكان أحدنا يعزف على الأرمونيكا فيسود أنينها ما حولنا من أجواء عافية نحشد عليها
تذكاراتنا وآمالنا
وشعرت بيد ناعمة الملمس تمر على جبيني وسمعت صوتاً مرتجفاً حسبته في غمرات
تذكاري صوت أمي الشيخة العليلة تناديني من بعيد قائلة:
- مسكين، الولد الصغير
والتفت فرأيت ولداً لا يتجاوز الخامسة من عمره يلبس جلباباً واسعاً وقبعة صغيرة
وكان يحدق بالنار وعيناه السوداوان تلتمعان وهو يكرر قوله:
- مسكين، الولد الصغير!
فهتف الرفاق: آه! هذا فرنسي صغير.
وتقدم جندي شيخ إلى الطفل فرفعه وأجلسه على ركبتيه، وبدأ يلاطفه ويلاعبه فزالت
سحابة الخوف عن سحنة الطفل فإذا هو يضحك ويلعب.
وجاء وقت تناول الطعام فقدم الجنود له شيئاً من البطاطس، وجرعوه قليلاً من
القهوة وكنت الفائز باكتساب ثقته إذ قدمت له قطعة من الحلوى وكلمته بلغته فقال
لي: إن أباه ذهب إلى الحرب، وإن أمه ماتت منذ شهور. وكنت أترجم للرفاق حديثه،
وهو يورده بلغته، ويدس في كلامه بعض ألفاظ ألمانية علقت بذاكرته منذ احتل الألمان
مقاطعته؛ وقال إن اسمه أميل بوفيه فأسميناه كوكو الصغير.
ولما حان وقت انصرافنا إلى مضاجعنا تمسك الطفل بي طالباً أن ينام معنا فحملته
وذهبت به إلى بيته.
وعندما اجتمع الجنود في اليوم التالي رأيت الطفل يدخل في حلقتنا مفتشاً عني وهو
يقول: كوكو الصغير.
وما كان وجود القائد بيننا ليمنع كوكو من القيام بحركاته، وألعابه وعندما ذهبنا إلى
ضاحية القرية لإجراء التمرينات العسكرية لحق بنا حتى آخر حدودها.
وكان كوكو يباكرنا كل يوم فيقف مسلماً برفع قبعته ثم يبادر إليّ ويمسك بيدي
ليتبعني، وأنا أمشي مع الفرقة. وبعد العودة من التمرين كان الطفل يدخل معي إلى
مرقد الجنود ويلتف بطرف دثاري مستسلماً للكرى. وهكذا أصبح هذا الطفل يلازمني
ملازمة خيالي؟ وما منعه
تودد الجنود إليه من الاحتفاظ بتفضيله لي، فكان يصافح رفاقي فرداً فرداً إلى ان
ينتهي إليّ فيطوقني بذراعيه الصغيرتين ويقبلني تكراراً، أنا الغريب. . . أنا العدو!
ويطرح جسمه الناحل على صدري.

وجاء يوم السفر. انتهت أيام الراحة وحان وقت العودة إلى الجهاد، فقلت للطفل وكان جالساً أمامي في الباحة الواسعة عند المساء: غداً سأسافر قلت هذا متكلفاً السكون وفي قلبي ثورة وغصص، فهب الطفل من مقعده مضطرباً هاتفاً:

- ولكنك ستعود

- لعلني أعود

- متى؟ بعد غد؟

- قد لا أعود أبداً

فصرخ الولد مذعوراً: أبداً. . . لا. لا أريد، فسوف تبقى وطوقني بذراعيه كأنه يريد تقييدي

وامتنع كوكو ذلك المساء عن الذهاب إلى بيته فرجوت مربيته الشيخة أن تسمح له بالبقاء عندي فرضيت وقالت:

- إن أمه قد انتحرت شنقاً هنا وراء هذا الباب بعد سفر أبيه إلى الحرب إذ لم يقو دماغها الضعيف على مقاومة هذه الصدمة وأمضى كوكو ليلته مضطرباً فكان يتقلّب ويهذي مردداً الاسم الذي لقبته به

وعند بزوغ الفجر نهضنا من الرقاد وبدأنا بإعداد لوازم السفر على نور الشموع المرتجف، وكان كوكو جالساً يتبع حركاتي وسكناتي بلفتاته الواجفة

ولما هممنا بالخروج هرع الطفل إليّ قائلاً:

- ستعود

فأجبته متمالكاً روعي: أرجو أن أعود

وسحب يده الصغيرة من يدي وتولى. وبينما كنت سائراً مع رفاقي في الساحة كان الولد يتقدم نحو مسكنه يتوقف أحياناً دون أن يلتفت إلينا

وقطعنا القرية بخطواتنا العسكرية فكانت تفتح النوافذ وتلوح منها أوجه المتفرجين عليها

مسحة الوسن وفي الأعين جمود وبرود وشعرت بغتة بوصول قادم لقربي وهو يلهث تعباً ويقول:

- كو. . .

وما تمكن الطفل المسكين من التلفظ بالقطع الأخير من إسمه ومددت يدي إليه فخنقته العبرات واندفع مرتمياً على منحدر التله وغلبه الأسى فأخذ يفرك عينيه براحتيه وناديته: أي كوكو الصغير

ولكن صوتي لم يصل إلى مسمعه إذ ضاعت نبراته في صرخة القائد:

- هيا إلى الأمام!

واندفعت الفرقة إلى المجهول

. . .الوداع أيها الصديق الصغير، أيتها البسمة الأخيرة من ثغر الحياة

وبينما كان وقع خطواتنا يرن في أذنيَّ كنت أشعر بيد من حديد تربط على قلبي، تلك يد الإشفاق على الطفل اليتيم وعلى الإنسانية وعلى نفسي!

هنريك أولكه

جندي من لاندشروم

من يعلم ما حل بهنرك أولكة منذ عشرين عاماً؟ لعله قضى قتيلاً يوم كتب هذا المقال. ولعله لم يزل حياً في العقد الخامس من عمره، وقد يكون ابنه جندياً في هذه الفيالق الجوية فيأمر غداً بإسقاط القنابل والغازات على المدن الآمنة

والحق إن الإشفاق قد بلغ حداً بعيداً في آفاق الروح الإنسانية

لقد كان الرجال ينازلون الرجال حتى اليوم فتبقى النساء والأطفال في مهامه الترمل واليتم. فعلى المدنية الراقية أن تحول دون هذه الجناية. عليها أن تخنق المرأة قبل أن تترمل والطفل قبل أن يتيتم. . .!

فليكس فارس

الدعاية الإسلامية

للمستشرق الإنجليزي توماس أرنولد

ترجمة الأساتذة عبد الفتاح السرنجاوي، عمر الدسوقي، عبد العزيز عبد المجيد

انتشار الإسلام في الأمم المسيحية في غرب أسيا
بعد وفاة محمد (ص)، وجه أبو بكر الحملة التي قصد الرسول إرسالها قبل وفاته، إلى بلاد الشام، بالرغم من الاعتراض الذي أعلنه بعض المسلمين لأن أحوال الجزيرة كانت في اضطراب. ولقد أسكت أبو بكر كل معترض على ذلك بقوله: (لن أبطل أي أمر قرره الرسول. ولو كانت المدينة فريسة للوحوش الضارية فلابد أن تنفِّذ الحملة رغبات محمد). تلك كانت أولى الحملات المتتابعة العجيبة التي اكتسح بها المسلمون الشام، وفارس، وشمال أفريقيا، محطمين أركان دولة الفرس القديمة، ومكتسبين من إمبراطورية الروم بعض أقطارها الخصبة الغنية. وليس الغرض من هذا الكتاب أن نتتبع تاريخ هذه الحملات والوقائع المختلفة، ولكن لما كانت غايتنا أن نشرح كيف انتشر الإسلام عقب الفتوحات العربية كان من المهم أن نميط اللثام عن الظروف والعوامل التي مكنت الإسلام من الانتشار.
ولقد ضمن أحد ثقاة المؤرخين المسألة التي نحن بصددها الآن العبارة الآتية: (أكان ذلك الحماس الديني الحقيقي نتيجة لتلك العقيدة القوية الطاهرة المترعرة في بكورتها، والتي جعلت جنود العرب ينتصرون في كل موقعة، ويؤسسون في مدة قصيرة أكبر إمبراطورية شهدها العالم؟ إننا في حاجة إلى برهان لإثبات ذلك: لقد كان قليلاً جداً عدد أولئك الذين اتبعوا الرسول وتعاليمه طواعية، وبإخلاص من أعماق قلوبهم. أما العدد الأكبر فهم أولئك الذين أدخلوا في صفوف المسلمين كرهاً أو رغبة في متاع الدنيا. وهاهو ذا خالد - سيف سيوف الله - أوضح مثال لطريقة القوة الممتزجة بالإقناع التي أتبعت معه ومع كثيرين من القرشيين لكي يعتنقوا الإسلام. ولقد قال هو فيهم حينئذ: إن الله قد قبض عليهم من أفئدتهم وشعورهم وساقهم لإتباع الرسول. ولقد كان أيضاً لروح الافتخار بالقومية العربية المشتركة أثر قوى تلك الروح التي كانت أقوى عند العرب في ذلك الوقت منها في الغالب عند أية أمة أخرى؛ وتلك الروح وحدها هي التي حدت بالآلاف منهم أن يؤثروا واحداً من بني جلدتهم ودينه على أي مصلح أجنبي عنهم. وأقوى من هذا وذاك ما رغبهم فيه الرسول (ص) من غنى مؤكد باكتسابهم الغنائم الوافرة في الجهاد للدين الجديد، ومن استبدال الأقاليم الخصبة المثرية: كفارس والشام ومصر بصحرائهم المجدبة العارية التي تجود عليهم بالكفاف فقط.
وفي الحقيقة لم تكن تلك الفتوحات الرائعة التي وضعت حجر الأساس للإمبراطورية العربية نتيجة للجهاد والحروب الدينية التي أوقدت نيرانها لنشر الإسلام. ولكن تبع هذه الفتوحات ضعف عظيم في العقيدة الدينية المسيحية، ذلك الضعف الذي ظن أنه الغاية المقصودة من هذه الفتوح. وهكذا اعتبر المؤرخون المسيحيون السيف الآلة التي اتخذها المسلمون للدعاية لدينهم. وغطى ذلك النجاح المعزو إلى السيف على الأدلة التي تشير إلى نشاط التبشير الإسلامي الصحيح بطريق سليمة. ولم تكن الروح التي خلقت الحماس في الجنود من العرب الذين اكتسحوا أطراف الإمبراطورية البيزنطية، والإمبراطورية الإيرانية، روح تبشير لإدخال الجاحدين في الإسلام. بل الأمر على عكس ذلك، إذ يظهر أن المصلحة الدينية لم تتمثل إلا قليلاً في تفكير القادة للجيوش العربية إن انتشار الجنس العربي ليتضح بحق في هجرة تلك القبائل القوية النشطة، ساقها الجوع والعوز إلى ترك الصحراء الكزة، والانتشار في أقاليم أكثر خصوبة، في تلك الأقاليم التي يقطنها السعداء.
وبعد، فلقد كان تأسيس الحكومة الدينية في المدينة العامل الذي خلق الوحدة في تلك الحركة (حركة الفتح والتبشير) وكذلك كان عاملاً على الوحدة نظامُ الأمة الحديثة الذي بدأه أصحاب الرسول المخلصون، والحجج الثقاة الذين اضطلعوا بتعاليمه أولئك الذين حفظت متانةُ خلقهم وحماسهم الإسلامَ حياً، ودينا رسميا، وذلك بالرغم من عدم اكتراث أولئك العرب الذين انتسبوا إلى الدين ولما يدخل الإيمان في قلوبهم وإذاً فلا يجب علينا أن نبحث عن الأسباب التي دعت إلى انتشار الدين الإسلامي بتلك السرعة، في حوادث الجنود الفاتحة، ولكن الأولى أن نبحث عن هذه الأسباب في الأحوال
التي كانت عليها الشعوب المغلوبة
إن ما امتازت به حركة الهجرة من كونها ذات جنسية عربية واحدة قد اجتذب إلى

جيوش العرب الغزاة، ممثلي القبائل العربية ورؤساءها، تلك القبائل التي كانت تعيش في أطراف الجزيرة، والتي تمر بها طرق الجيوش الفاتحة. ولذلك فليس غريباً أن نجد كثيراً من أهل البدو المسيحيين قد اكتسحهم مد تلك الحركة القوية، ونجد تلك القبائل العربية التي دانت بالمسيحية عدة قرون تهجرها حينذاك وتعتنق الدين الإسلامي. ومن هؤلاء قبيلة الغساسنة الذين كان لهم السلطان في الصحراء الواقعة شرقي فلسطين وجنوبي الشام، والذين قيل عنهم إنهم (سادة في الجاهلية ونجوم في الإسلام) وبعد موقعة القادسية سنة 14 هـ التي هزم فيها جيش الفرس بقيادة رستم اشد هزيمة جاء كثير من المسيحيين من قبائل العرب البدوية المقيمة على شاطئ الفرات، إلى القائد العربي وقالوا له: (لقد كانت القبائل التي اعتنقت الإسلام في باكورته أعقل منا، أما الآن وقد قتل رستم فسندخل في الدين الجديد)

وشبيه بهذا أيضاً ما حدث بعد فتح شمالي الشام فإن معظم أهل القبائل البدوية انظموا بعد تردد قليل، إلى أتباع الرسول (ص)

إنه لمن الممكن أن نحكم أن القوة لم تكن العامل القاطع في حوادث اعتناق الإسلام، من العلاقات الطيبة التي كانت بين المسيحيين والمسلمين العرب. فقد عقد محمد (ص) نفسه تحالفاً مع بعض قبائل مسيحية، واعداً أن يحميهم، وكافلاً لهم الحرية الدينية، ولرجال دينهم أن يتمتعوا بحقوقهم القديمة وسلطانهم من غير أي تدخل. وقد ألفت مثل هذه العلاقات أيضاً بين أتباع الرسول وبين أفراد عشيرتهم من أصحاب الدين القديم (يعني المسيحية) وقد تقدم كثير منهم طوعاً ليساعد المسلمين في بعثاتهم الحربية، مدفوعين بروح الطاعة للحكومة الجديدة. وتلك الروح نفسها قد أبقتهم منعزلين عن حركة الردة العظيمة التي رفع أصحابها راية العصيان في جميع أنحاء الجزيرة العربية عقب موت الرسول (ص) مباشرة

ويرى بعض المؤرخين أن العرب المسيحيين الذين كانوا يحمون حدود الإمبراطورية البيزنطية من ناحية الصحراء قد غامروا بنصيب مع جيش المسلمين الفاتحين حينما رفض هرقل أن يدفع إليهم ما كان يجري عليهم من العطايا، مقابل خدماتهم الحربية كحراس لأطراف الإمبراطورية

وفي موقعة الجسر سنة 13هـ لما بدت طلائع هزيمة قاضية، وأنحصر العرب - وقلوبهم خاوية - بين الفرات والجيش الفارسي، تقدم رئيس مسيحي من قبيلة طي (كما تقدم من قبل سبوريوس لأريوس لمساعدة هوريشس) إلى صنف العرب لمساعدة المثنى قائد جيوش المسلمين ليحمي الجسر الذي كان عبارة عن مجموعة من الزوارق الصغيرة، وكانت حينئذ الطريق الوحيد للتراجع المنتظم، ولما أخذ المسلمون في جمع الجنود ليستردوا مكانتهم، وليمحوا ما لحقهم من عار كان من بين المدد الحربي الذي انصب عليهم من كل جانب وناحية قبيلة مسيحية تدعى بني نمير، وكانت تقطن داخل الحدود البيزنطية. وفي واقعة بويب التي حدثت سنة 13هـ، والتي كانت قبل الهجوم الأخير للعرب الذي كان الهجوم الفاصل الذي نالوا فيه الفوز. في تلك الموقعة ركب المثنى إلى الرئيس المسيحي وقال له: (إنك من أبناء جلدتنا فتعال إذا وحارب معي كما أحارب) وقد تراجع الفرس وتقهقروا أمام ما لاقوه من هجوم عنيف. وبذا أضاف المسلمون نصراً جديداً في صفحة المجد إلى انتصاراتهم. وكان من أكثر مغامرات ذلك اليوم شجاعة ما قام به شاب من قبيلة مسيحية أخرى في الصحراء وكان هذا الشاب قد قدم في جماعة من أصحابه - وهم طائفة من البدو تجار الخيل - حينما كان الجيش العربي قد أخذ ينسجم في صفوف المعركة. اندفع هؤلاء التجار البدو إلى ميدان القتال في صف مواطنيهم، وبينما كان القتال في أشد عنفوانه إذ هجم ذلك الشاب إلى قلب الجيش الفارسي. وقتل قائده، ثم قفز على جواده الموشى، وقفل راجعاً بين حماس المسلمين وإعجابهم به وثنائهم عليه وكان يصيح في عودته منتصراً ويقول: (أنا من تغلب. أنا الذي قتلت قائدهم)

(يتبع)

العالم يتطلع إلى حدودنا الغربية

أربعون يوماً في الصحراء الغربية

للأستاذ عبد الله حبيب

الحكام
كان من حسن حظ الصحراء الغربية أن قيض الله لها محافظاً هماماً من رجال الجيش البارزين هو صاحب العزة الأميرلاي عبد السميع بك عجرمة الذي تولى هذا المنصب خلفاً لسلفه الإنجليزي فكان أول محافظ مصري يتولى منصب الحاكم لهذه البقاع النائية. وقد شعر سكان الصحراء الغربية منذ ذلك الحين بمصريتهم، واعتزوا بها أكثر من ذي قبل، وكان حاكمهم الجديد خير مصري يشعر بآلام مواطنيه وحاجتهم إلى النهوض والإصلاح. وخير عون لهذا المصري الكفء في هذه الأنحاء هم رجاله الضباط المصريون. وفي طليعة هؤلاء القائمقام محمد بك كامل، والصاغ رفعت الجوهري. وهذا الأخير يعتبر بحق وجدارة أكفأ ضابط مصري ملم بأحوال الصحراء، وطباع أهلها وطرقها. وقد نشر له نادي السيارات الملكي كتاباً قيماً عن صحراء سيناء، ثم وضع في هذه الأيام كتاباً آخر عن الصحراء الغربية لا تزال بين يديه مهيأ للطبع. وقد طالعت أكثر فصوله واستعنت بكثير مما يحوي من المعلومات الطريفة على ما دونت في رحلتي فلا بد من الاعتراف بفضل مؤلفه وشكره.
معلومات عامة
في عهد (الفاروق) ملك مصر الصالح أسبغ الله على صحاري مصر نعمة الأمن والرخاء، وأعاد إليها عهدها الأول في الحضارة والعمران. وكان عصر الفاروق من أزهى العصور التي مرت بهذه الصحاري والقفار، وأغدق نعمه وعطاياه فهطلت الأمطار يوم تبوأ عرشه، وجادت هذه الأمطار بأطيب الثمرات بعد سبعة أعوام مرت بها قاحلة جرداء عجاف.
وقد أقبلت حكومة جلالته تنفق عن سعة على جميع ما يقوي الروابط بين الأهليين ويعزز وسائل الإصلاح والتعمير فارتبطت أجزاؤها بالسكك الحديدية والطرق الممهدة وإنه ليثير الدهشة حقاً أن يرى المسافر ذلك التباين العجيب بين هذه المروج الناظرة المحيطة بوادي النيل وبين هذه الصحارى المقفرة القاحلة التي تجده من الجانبين. نعم إن هناك صحارى مجهولة في مختلف بقاع العالم كآسيا وأستراليا وغرب أمريكا. إلا أن هذه البقاع لا تعد شيئاً إذا قورنت بصحراء مصر الغربية ووحشتها وخلوها من الحيوان والنبات. ذلك لأن حالة الجدب فيها تثير الدهشة حقاً ولست في حاجة لأن تتوغل في مفاوزها وشعابها لكي تتبين مقدار ما بها من الجدب، فإن مسير مسافة قصيرة يكفي لينقلك من مروج ناضرة وأرض خضراء يانعة غنية بطمى النيل السعيد إلى هضاب متسعة مقفرة تكتنفها الصخور والرمال إلى أبعد مدى يصل إليه النظر.
الصحراء الغربية
يسمى القسم الشمالي (البحري) من صحراء لوبيا بالصحراء الغربية أو محافظة الصحراء الغربية، وهي تشمل الجهات الواقعة غربي النيل من الإسكندرية ومديريات البحيرة والجيزة وبني سويف والمنيا إلى السلوم وحدود طرابلس غرباً. ثم من البحر الأبيض المتوسط شمالاً إلى حدود الصحراء الجنوبية جنوباً وتتبعها واحات سيوة والبحرية والفرافرة
والجزء الأكبر من هذا الإقليم أرض قاحلة، عدا المنطقة الغربية من ساحل البحر الأبيض التي تزرع على الأمطار وبعض الآبار القليلة الممتدة على الساحل أو القريبة منه أو التي توجد في الواحات المشار إليها
وتبلغ مساحة هذه الصحراء نحو 240 ألفاً من الكيلومترات المربعة. وتنقسم إلى أربعة أقسام رئيسية:
1 - القسم الشرقي: ومركزه مدينة العامرية، وهو يشمل العامرية والحمام والواحات البحرية والفرافرة.
2 - وقسم مطروح: ومركزه مدينة مرسى مطروح، وهو يشمل مطروح والضبعة
3 - وقسم براني: ومركزه مدينة براني، ويشمل سيدي براني والسلوم
4 - وقسم سيوة: ومركزه سيوة، ويشمل سيوة والواحات الغربية وواحة الجارة
ويبلغ سكان هذه الصحراء نحو 55 ألف نسمة معظمهم من البدو الرحل من قبائل أولاد
علي الأبيض وعلي الأحمر
الحالة العامة

ويمكن القول إجمالاً عن الصحراء الغربية - إذا استثنينا الشريط الأخضر الرفيع الذي يطوق شاطئ البحر الأبيض المتوسط - إنها عبارة عن إقليم لا مطر فيه ولا حياة. ويكاد يكون هبوب العواصف الرملية عليها من الأمور العادية التي لا تخلو منها في سنة من السنين

أما على الساحل فإن حالة السكان تتوقف دائماً على الزراعة ومقدار الحاصلات وما يتوفر من المراعي للإبل والغنم من هطول الأمطار. ومما يذكر أن السكان في هذا العام والذي قبله أسعد حالاً منهم في الأعوام الماضية التي توالى عليهم فيها الضيق من جراء جدب أراضيهم بسبب قلة الإمطار

ولكن الحاصلات الناجحة لا تكفي لسد الديون التي تراكمت على العربان في سبيل حصولهم على حاجيات المعيشة في السنوات الخمس العجاف الماضية

ولقد كان لزيادة المنشئات الجديدة واشتغال العربان في أعمال السكك الحديدية ومد الطرق وهطول الأمطار ومساعدة الحكومة بتوزيع البذور وهبة جلالة الملك لمناسبة قرانه السعيد وهبة صاحب السمو الأمير محمد علي لمناسبة شفائه؛ كان لكل ذلك أثر واضح في تعميم الرخاء واليسر بين العربان، فشعروا بنعمة الحياة، وعاد أكثرهم إلى بلدانهم بعد أن كانوا هاجروا منها، وبدؤوا يزرعون أراضيهم ويقومون بتربية مواشيهم

واحات الصحراء الغربية

وقد منّ الله على الجزء الجنوبي وعوضه خيراً من الأمطار بعدد من الواحات الخصبة الغزيرة المياه. وهذه الواحات يسكنها قوم من العرب وشعب آخر ليس من سلالة الأعراب وهم جميعاً يأخذون المياه من ينابيعها المتفجرة من عيون دائمة التدفق

ويقال إن لفظة (واحة) كلمة مصرية قديمة معناها (مكان الراحة) وهي بقعة من الأرض الخصبة في وسط الصحراء، وكل واحة تعرف غالباً باسم العين أو البئر التي تمدها بالماء

وفي الصحراء الغربية عدة واحات:

وهي تشمل سيوة والزيتون وفوريشت والأرغومي وخميسة وأبو الشروق (سيوة) والليج والمراغي

وفي شرقيها مجموعة الواحات البحرية وتشمل البحرية والفرافرة

كثبان من الرمل تنتقل

تمتد على طول الجزء الجنوبي الغربي من الصحراء كثبان عظيمة من الرمل تنتقل إلى مساحات واسعة وهذه الرمال تطغي على الأرض وتدفن تحت رمالها الناعمة الغزيرة مساحات شاسعة من الأرض قد تزيد على مئات الأميال، وتتجمع هذه الرمال فتحدث كثباناً أو (تلالاً) من الرمال الناعمة تسير متوازية بارتفاع كبير ممتدة من الشمال أو الشمال الغربي إلى الجنوب أو الجنوب الشرقي في نفس اتجاه سير الرياح التي تهب على الصحراء

وهذا التكوين يجعل اجتياز هذه المناطق في اتجاهات عرضية من الغرب إلى الشرق أو بالعكس صعباً عسيراً إلا عند فتحات أو ممرات ضيقة معينة معروفة، كما أن هذا التكوين جعل الكثبان تعد حاجزاً منيعاً للحدود المصرية. ويقال إن طغيان هذه الرمال أخذ في الاتجاه نحو الجنوب بدليل أنها طغت على طريق للقوافل كانت ممتدة بين الواحات الداخلة وواحة الكفرة فاختفت هذه الطريق تماماً كما اختفى تحتها من قبل جيش قمبيز ملك الفرس سنة 525 ق. م. وكان عدده 50. 000 من الغزاة، وذلك عندما أراد غزو واحة سيوة. ولم ينج من هذا العدد أحد، على أن الواحات نفسها لم تسلم من هبوب عواصف الرمال فهي تطغي على الزرع وتحدث به أضراراً جسيمة.

وقد شهدنا بعض هذا الهبوب حين توغلنا في جوف الصحراء إلى واحة سيوة في رحلة بالسيارات قطعناها في نحو تسع ساعات وبسرعة لا تقل عن 60 كيلومتر في الساعة وشهدنا في منتصف هذا الطريق (الاستراحة) التي أقيمت به في عهد الخديو السابق فأقمنا بها بعض الوقت وتناولنا فيها قليلاً من الزاد كنا حملناه معنا وهي غرف شيدت من الخشب أشبه بـ (فيلا) قائمة وسط الصحراء القاحلة يستريح فيها المحافظ والضباط خلال تجوالهم في أنحائها.

(يتبع)

عبد الله
ملحوظة: مصدر هذه المعلومات المشاهدة أثناء الرحلة وما
دونه صديقنا الصاغ رفعت الجوهري مأمور مرسى مطروح
عن الصحراء الغربية.
التاريخ في سير أبطاله
أحمد عرابي
أما آن للتاريخ أن ينصف هذا المصري الفلاح وأن يحدد له
مكانة بين قواد حركتنا القومية؟
للأستاذ محمود الخفيف
واتفق الضباط وحلفاؤهم أن يسير عرابي على رأس الجيش إلى عابدين في اليوم التالي ليطالبوا الخديو بوضع حد لتلك الحال التي ضجت منها البلاد؛ وأرسل عرابي خطاباً إلى الخديو في صباح ذلك اليوم المشهود في قصر الإسماعيلية، وكان الخديو قد حضر في شهر سبتمبر إلى القاهرة، ينبئه فيه بما اعتزم أن يقوم به عصر ذلك اليوم!
يقول عرابي في مذكراته: (ولما كثرت دسائس الحكومة وبان ختلها وعزمها على اغتيالنا، أخذنا حذرنا منها، وسهرنا على إحباط تلك الدسائس المنكرة، وكان السير مالت مالت قنصل إنجلترا بمصر كثير التردد على الخديو ليلاً ونهاراً دون غيره من وكلاء الدول الأوربية، فأوجسنا من ذلك خيفة على مصير بلادنا، وخشينا من مطامع إنجلترا التي كانت ترمي إلى التهام وادي النيل أسوة بما فعلته فرنسا بتونس حتى يتم التوازن التي تدعيه أوربا؛ فعرضنا مخاوفنا على جلالة أمير المؤمنين ليحيط علماً بما كان جارياً في مصر ولكيلا يتورط في تصديق ما قد يصل إليه من دسائس أعداء البلاد. وذيلنا العريضة المذكورة بإمضائي وإمضاءات إخواني علي بك فهمي وعبد العال بك حلمي وأحمد بك عبد الغفار بالنيابة عن الجيش، وأحمد بك أبو مصطفى وأحمد بك الصباحي وعثمان باشا فوزي وغيرهم من وجوه الأمة بالنيابة عن جميع المصريين. . .)
وفي عصر ذلك اليوم 9 سبتمبر سنة 1881 تحرك الجيش يقصد عابدين؛ فحطت الثورة الوليدة أجرأ خطواتها وأبعد أثراً في تطور حوادث ذلك العهد.
وكان الخديو في قصر الإسماعيلية. فأرسل يستدعي السير أوكلند كلفن. ولما حضر سأله ماذا عسى أن يفعل في هذا الموقف. قال كلفن: (فنصحت إليه أن يقاوم؛ فقد أخبرني رياض باشا أن في القاهرة فرقتين مواليتين، لذلك أشرت على الخديو أن يدعوهما إلى
عابدين مع ما يمكن الاعتماد عليه من الحرس الحربي، وأن يضع نفسه على رأسهما. فإذا ما وصل عرابي قبض عليه بشخصه. فأجابني أن لدى عرابي بك المدفعية والفرسان، وربما أطلقوا النار فأجبت أنهم لن يجرءوا على ذلك؛ ومتى توفرت له الشجاعة للمقاومة، وعرض نفسه شخصياً، فأنه يتسنى له أن يقضي على المتمردين، وإلا فأنه ضائع)
هذا ما أشار به كلفن، وما نراه في ذلك يدفع بالتي هي أحسن، وما نراه يحمل - كما يقول كرومر - إلى الخديو: (قسطاً من تلك الروح التي تحيي جنسه الإمبراطوري) وإنما نراه يلقي الزيت والحطب على النار حتى لا تبقى ولا تذر، وبعدها تقتنص الفريسة بدعوى إنقاذ البلاد من نار الفتنة. وما أظن ذلك القول محتاجاً إلى دليل. فهذا الذي يدعو إليه كلفن لو وقع لن يكون إلا حرباً أهلية شرها مستطير، وأمرها خطير:
وتوجه الخديو إلى عابدين قبل حضور الفرق، ومعه كلفن ورياض وستون باشا. فاستدعى علي بك فهمي رئيس الحرس، وأشار عليه بالدخول إلى القصر بفرقته والتحصن بالنوافذ العليا وقد نصح للجند بقوله: (أنتم أولادي وحرسي الخصوصي، فلا تتبعوا التعصب الذميم، ولا تقتدوا بأعمال الآلات الأخرى) فأطاع الجند وأخذوا يتأهبون.
وسار الخديو بعد ذلك إلى القلعة، ولكنه لم يجد من فرقتها مثل ما ظهر له من ولاء الفرقة السالف ذكرها. فسار إلى العباسية حيث كانت فرقة عرابي، ولكنه علم هناك أن عرابياً سار منذ ساعة على رأس جنده، ومعهم المدافع بطريق الحسينية إلى عابدين فقفل أدراجه إليها. . .
وتلاقى عرابي في ميدان عابدين بالفرق الأخرى بقيادة أحمد بك عبد الغفار وعبد العال

بك حلمي وإبراهيم بك فوزي وفوده أفندي حسن وغيرهم من أنصاره، وأرسل عرابي يستدعي علي بك فهمي فحضر من داخل القصر فعاتبه فرد بقوله: (إن السياسة خداع) ثم ذهب فعاد بفرقته، وانضم إلى الجيش فأصبح القصر خلوا من كل عناصر المقاومة.

وتجمع وراء صفوف الجيش آلاف من أهل القاهرة الذين أخذتهم الدهشة لا ريب لهذا المنظر؛ واشرأبت أعناق الشعب التي طالما ألفت الذل، وتطلع من فوق أكتاف الجند، ومن خلال صفوف الفرسان لينظر ماذا يكون في هذا الوقف الرهيب؛ وأسم عرابي يجري على الألسن في حين تدور الأبصار باحثة عن موضعه، وهو على ظهر جواده أمام جنده يتأهب

لمقدم الخديو ليسمعه كلمة مصر، كلمة الشعب الذي ألبس جده العظيم بالأمس الكرك والقفطان دون رجوع إلى السلطان. وما أعظم هذه الكلمة ينطق بها فلاح من أعماق الوادي نبت ونما على ثراه!

ووصل الخديو إلى عابدين بعد أن فشلت سياسة طوافه على الآليات، تلك السياسة التي تدل في ذاتها على منتهى الضعف، والتي لا يشفع له في اتباعها سوى أنها كانت آخر سهم في جعبته إن كان هذا شفيع. والحق أن الخديو قد لاقى في ذلك الطواف ما تنخلع له أفئدة أقوى من فؤاده. وحسبك أن فرقة القلعة قد ثارت في وجهه حينما أمسك بتلابيب قائدها مهدداً حتى لقد وضع العساكر الأسنة في بنادقهم بأمر من هذا القائد وتجمهروا حول الخديو حتى صاح بالقائد (أفسح لنا الطريق يا بكباشي).

ودخل الخديو السراي من باب خلفي. ويقول مستر كلفن إنه قفز من عربته وأشار على الخديو أن يسير توا إلى الميدان ففعل توفيق ذلك، وسار إلى حيث اجتمع الجند، ووراءه ستون باشا وأربعة أو خمسة من الضباط الوطنيين، وواحد أو اثنان من الضباط الأوربيين؛ ويذكر عرابي أنه كان معه المستر كوكش قنصل انجلترة بالإسكندرية والجنرال جولد سميث مراقب الدائرة السنية

وتقدم الخديو ثابت الخطى، فأشار عليه كلفن أن يأمر عرابياً بتسليم سيفه إذا ما دنا منه وأن يأمره بالانصراف ثم يطوف بعد ذلك على الفرق فيأمرها بمثل هذا الأمر وسار عرابي على ظهر جواده حتى إذا اقترب من الخديو صاح به الخديو: (ترجل وأغمد سيفك). ففعل عرابي دون إبطاء، ومشى نحو الخديو ومن خلفه نحو ثلاثين ضابطاً فأدى التحية العسكرية

الموقف رهيب بالغ الرهبة! ففي هذا الجانب إذا نظرنا إلى حقائق الأمور نرى مصر التي أيقضتها الإحن والفواجع تتمثل في هذا الجندي الفلاح تحرى على لسانه كلمتها في غير التواء أو تلعثم؛ وفي الجانب الآخر صاحب السلطان والجاه الموروث، تغضبه هذه اليقضة وتذهله، مع أنه رآها منذ بدايتها ورأى أباه على جلالة قدره يوسع لها صدره ويخفض لها جناحه فيزداد بذلك رفعة. . . هنا الحرية الوليدة، والديمقراطية الجديدة؛ وهناك التقاليد العتيدة، والأوتوقراطية العنيدة؛ ومن وراء ذلك كله الثعالب وبنات آوى تتمسكن لتتمكن، وتتربص لتنقض!

والتاريخ شاهد يثبت للقومية المصرية موقفاً من أروع مواقفها، ومظهراً من أجل مظاهرها، ويضيف بذلك إلى صفحات الحرية في سجله صفحة جديدة لن تبلى الأيام جدتها، أو تبخس أغراض المبطلين قيمتها

همس كلفن في أذن الخديو: (هذه هي ساعتك) فأجاب الخديو: (نحن بين أربع نيران) فقال كلفن: (كن شجاعاً) فتهامس الخديو وأحد الضباط الوطنيين ثم التفت إلى كلفن قائلاً: (ماذا عسى أن أصنع؟ نحن بين أربع نيران، إنهم يقتلوننا)

ويحسن أن نورد ما حدث بعد ذلك على لسان عرابي كما جاء في مذكراته قال: (ثم صاح بمن خلفي من الضباط: أن اغمدوا سيوفكم وعودوا إلى مكانكم. فلم يفعلوا وظلوا وقوفاً خلفي ودم الوطنية يغلي في مراجل قلوبهم والغضب ملء جوارحهم. ولما وقفت بين يديه مشيراً بالسلام خاطبني بقوله: (ما هي أسباب حضورك بالجيش إلى هنا؟) فأجبته بقولي:

فقال: (وما هي هذه الطلبات؟) فقلت: (جئنا يا مولاي لنعرض عليك طلبات الجيش والأمة وكلها طلبات عادلة). فقلت: (هي إسقاط الوزارة المستبدة، وتشكيل مجلس نواب على

النسق الأوربي، وإبلاغ الجيش إلى العدد المعين في الفرمانات السلطانية، والتصديق على القوانين العسكرية التي أمرتم بوضعها). فقال: (كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها، وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائي وأجدادي، وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا). فقلت: (لقد خلقنا الله أحراراً، ولم يخلقنا تراثاً وعقاراً، فوالله الذي لا إله إلا هو إننا سوف لا نورث ولا نستعبد بعد اليوم)

فتلفت الخديو إلى كلفن قائلاً: أسمعت ما يقول؟) فأشار عليه هذا بالعودة إلى القصر إذ لا يجمل أن يزيد الأمر بينه وبين عرابي عن هذا الحد. فانصرف الخديو وبقى الجيش في مكانه لا يتزحزح

وأقبل مستر كوكش يناقش عرابياً في غلظة. ويخيل إلي أن هذا الرجل كان ممكن يحسنون دس أنوفهم في كل شيء وكان ذلك منه لغاية كان يخفيها! ومما وجهه إلى عرابي قوله: ألا حق له أن يطالب بالمجلس النيابي وإسقاط الوزارة فذلك من شأن الأمة، أما عن زيادة الجيش فمالية البلاد لا تساعد على ذلك

ورد عرابي بقوله إن الأمة أنابت الجيش عنها. ثم وجه نظره محدثه إلى الجموع المتراصة خلف الجند قائلاً هذه هي الأمة وما الجيش إلا جزء منها

فراح ذلك الإنجليزي يتهدد ويتوعد في فضول مخجل، ورد عرابي على ذلك بأنه لن يسمح لأحد بالتدخل في شؤون مصر الداخلية. وهنا سأل كوكش محدثه سؤالاً يتجلى فيه خبثه وقد ظن أنه به أحكم الرمية فقال: (وماذا تفعل إذا لم تجب إلى ما تطلب؟) فانظر إلى رد هذا الجندي في هذا الموقف الذي تخف فيه أحلام الرجال والذي تزدهي القوة فيه القلوب فتسلب ذوي العقول اتزان عقولهم! أنظر إلى عرابي في موقف الثورة يقول له: إنها كلمة لا أقولها إلا عند اليأس والقنوط)

وأخذ كوكش يروح ويغدو بين عرابي والخديو حتى جاءه آخر مرة ينبئه بقبول الخديو إسقاط الوزارة القائمة وأن سموه سينظر في بقية الطلبات فلا بد في بعضها من مشاورة السلطان؛ وقبل عرابي ذلك. فعرض الخديو على الجيش اسم حيدر باشا لرياسة الوزارة القادمة ولكنهم رفضوه؛ وجرى على الألسن أسم شريف، فعاد كوكش بعد حين يعلن إلى عرابي الخديو تعيين شريف باشا فقوبل ذلك بالهتاف بحياة الخديو.

والتمس عرابي الإذن على الخديو، فلما وقف بين يديه أخذ يعبر له عن ولائه وولاء الجيش. وذكر له الخديو أنه وافق (على تلك الطلبات بنية صافية)؛ ثم انصرف الجيش بعد ذلك في هدوء كل فرقة إلى مركزها

هذا هو يوم عابدين الذي اعتبره خصوم عرابي من أكبر سيئاته، والذي نعتبره في غير مغالاة أكبر حسناته. وليت شعري كيف يغفل هؤلاء عما ينطوي عليه هذا الموقف من معان؟ إلا إنهم ليتغافلون ليطعنوا الرجل في أجمل مواقفه وأعظم خطواته، وهم إنما ينالون بذلك من أنفسهم دون أن ينالوا منه

طالب عرابي بالدستور فكان في طلبه هذا زعيم ثورة تقوم على أجل المبادئ التي شاعت في القرن التاسع عشر والتي اعتبرها المؤرخون والناس من أعظم خطوات البشرية وأجلها نحو الرقي والكمال فكيف يكون مع ذلك داعية فوضى واضطراب؟ ولقد كثرت في أوربا المواقف الشبيهة في معناها بهذا الموقف فسجلتها الشعوب في ثبت مفاخرها واعتبرتها من أيامها المشهودة التي سوف تمجد إلى الأبد ذكراها

(يتبع)

الخفيف

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

أشيب - 405

ابن سيسنبر الزوزني (علي بن أبي علي):

كفى الشيب عيباً أن صاحبه إذا ... أردت له وصفا به قلت: أشيب

وكان قياس الأصل (إن قست) شائباً ... ولكنه في جملة العيب يحسب

لقد طال وجدي بعدها وحنيني - 406

حكى الخطيب أبو زكريا يحيى بن علي التبريزي أن أبا الحسن علي بن أحمد بن علي بن سلك الفالي الأديب كانت له نسخة كتاب الجمهرة لابن دريد في غاية الجودة فدعته الحاجة إلى بيعها، فاشتراها الشريف المرتضي أبو القاسم علي بن الطاهر

بستين ديناراً وتصفحها فوجد بها أبياتاً بخط بائعها أبي الحسن القالي وهي:
أنست بها عشرين حولاً وبعتها ... لقد طال وجدي بعدها وحنيني
وما كان ظني أنني سأبيعها ... ولو خلدتني في السجون ديوني
ولكن لضعف وافتقار وصبية ... صغار، عليهم تستهل شؤوني
فقلت - ولم أملك سوابق عبرة ... مقالة مكوي الفؤاد حزين:
(وقد تخرج الحاجات يا أم مالك ... كرائم من رب بهن ضنين)
وأخرى تداويت منها بها - 407
في (العقد): قال هرون بن داود: شرب رجل عند خمار نصراني فأصبح ميتاً، فاجتمع عليه الناس وقالوا للخمار: أنت قتلته
قال: لا والله، ولكن قتله استعماله قوله:
وأخرى تداويتُ منها بها
أنا خير البرية - 408
في (الصلة) لابن بشكوال: كان (القاضي) أبو عمران الفاسي بالقيروان، فقال رجل: أنا خير البرية! فلُبب، وهمت به العامة. فحمل إلى الشيخ أبي عمران، فسكن العامة ثم قال:
كيف قلت؟ فأعاد عليه ما قال. فقال له: أأنت مؤمن؟
قال: نعم.
قال: تصوم وتصلي، وتفعل الخير؟
قال: نعم.
قال: اذهب بسلام. قال الله (تعالى):
(إن الذين آمنوا، وعملوا الصالحات، أولئك هم خير البرية). فانفض الناس عنه
حور الجنان على مثالك - 409
أبو العتاهية:
إن المليك رآك أحسن (م) ... خلقه ورأى جمالكْ
فخذا بقدرة نفسه ... حور الجنان على مثالكْ
الشيخ بلا شك إبليس - 410
قال مخارق بن يحيى: رأيتُ وأنا حدث كأن شيخاً جالساً على سرير في روضة حسنة فدعاني فقال لي: غنني يا مخارق، فقلت: أصوتاً تقترحه أم ما حضر؟ فقال: ما حضر، فغنيته:
دعي القلب لا يزدد خبالاً مع الذي ... به منك أو داوي جواه المكتما
وليس بتزويق اللسان وصوغه ... ولكنه قد خالط اللحم والدما
فقال لي: أحسنت يا مخارق! ثم أخذ وتراً من أوتار العود فلفه على المضراب ودفعه إليّ، فجعل المضراب يطول ويغلظ، والوتر ينتشر ويعرُض حتى صار المضراب كالرمح والوتر كالعذبة عليه، وصار في يدي علماً، ثم انتبهت فحدث برؤياي إبراهيم الموصلي فقال لي: الشيخ بلا شك إبليس، وقد عقد لك لواء صنعتك، فأنت ما حييت رئيس أهلها
ما فهمت غير مفرداته - 411
في (الغيث المنسجم): قال العلامة شمس الدين محمد بن إبراهيم ابن ساعد الأنصاري: حضر يوماً الشيخ كريم الدين عبد الكريم الأبكي شيخ خانقاه (سعيد السعداء) عند الشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد (رحمه الله) وأخذ يتكلم في طريقهم وأحوالهم، ويتحدث على
العرفان زماناً والشيخ تقي الدين ساكت لا يفوه بكلمة. فلما قام من عندهم قال الشيخ تقي الدين للحاضرين: هل فيكم من فهم تراكيب كلامه؟ فإني ما فهمت غير مفرداته. . .
قالوا: سكت؟
للأستاذ أمجد الطرابلسي
قالوا: سكتَّ عن الغناء؟ فقلت: لا ... في مسمع الأكوان رَجْعُ غنائي
غنَّيتُ في أُذُن النهار سعادتي ... وهمستُ في قلب الظّلام شقائي
وَوَعتْ أناشيد الطيورُ وردّدتْ ... همسي الخفَّي كواكبُ الظّلماء
فسلوا الجداولَ عن غِناء مياهها ... هل غير ألحاني غناء الماءِ

وسلوا الخمائلَ عن ندى أزهارها ... هل غير دمعي لؤلؤ الأنداء
والورد والشّفَق المُخَضّب واللّظى ... هل هُنَّ إلا من وَميضِ دِماء
والبحر هذا الهادي الصَّخّاب هل ... أمواجُه إلا صَدى أهوائي
والريح هل هبَّاتها بعد الونى ... إلا انبعاثي بعد موت رجائي
اللّيلُ والأرماسُ بعضُ كآبتي ... والفجرُ والأعراسُ بعض هنائي
والعِيدُ صورةُ فَرْحتي ومبَاهِجي ... والبِيدُ صورة وَحْشتي وفَنائي
والرعد يحكي ثورتي في قَصفه ... وزفيفُ أجنحة الطّيور رِضائي
ولقد مَلأتُ الفُتون جَوانحي ... وطويت فوق فنونه أحنائي
وكرعتُ أكوابَ الجمال ولم أزل ... أشكو له نَهَمي وحرَّ ظِمائي
أحببتُ ما شاء الهُيام وشاء لي ... قلبٌ غمرت بحبِّهِ أعدائي
قالوا: سكتَّ عن الغناء؟ فقلت: لا ... ما في يد الينبوع حبسُ الماء
خُلِقَ الرّبيع مُصَوِّراً في كفّهِ ... قَلَمُ الأديب وريشة الوشاء
ما دغدغ الأغصانَ أو لَمَسَ الرُّبى ... إلا ضحكنَ تَضاحكَ العذراء
وَرَفَلْنَ في أفوافِ وَشْيِ بَنانِهِ ... متبرّجاتٍ أو ذواتِ حياء
فسلوه: هل يستطيعُ إبداعَ الأسى ... فعلَ الشّتاء الواجم البَكّاء؟
والزهر، هل يستطيع في أَلَق الصِّبا ... ضَنًّا بنفحِ عاطرٍ وذكاء؟
والشمس هل تستطيع في رَأْدِ الضُّحى ... ألاّ تجودَ بباهر الأضواء؟
لكنْ هَزَارُ الرّوض ليس يهيجه ... للشّدْو صُمت دُجُنَّةٍ نكراءِ
ما حيلةُ الشّادي الرفيقِ غناؤه ... بمسامع تَلْتَذ بالصّوضاء؟
يشدو فيعصر في اللحون فؤادَه ... كيما يؤوبَ ببسمة استهزاء!. . .
قالوا: سكتّ عن الغناء؟ فقلت: بل ... عن أن أريقَ على الجحود وفائي!
أمّا الغِناءُ فقد جرت نَغَماتُهُ ... مَجرى دمي الدَفّاق في أعضائي
حَسبي من الألحان قلبٌ لم يذقْ ... بين الأضالع هَدْأَةَ الإغفاء
غَرِدٌ كما هَبّ النّسيم وتارةً ... كالزّعْزَعِ المجنونةِ الهَوْجاء
رَحْبٌ تَموجُ به اللّحون كأنها ... من كلّ أرضٍ جُمَّعتْ وسماء
أبداً ترفُّ به ملائكةُ الهوى ... هذا بمزمار وذاك بناءُ
ومواكبُ الجِنّانِ تعصف وسْطه ... وتضجُّ تحتَ الرّايةِ الحمراء
ما ضرّني إن كنتُ عِنْدِي شاعراً ... ألاّ يَعدّوني من الشّعراء
لا كان قلبي إن طلبتُ بذوبِهِ ... من كفّ هذا الدهر بعضَ جَزاء!
لا كان شعري إن رفعتُ لواءه ... بين الأنامِ على رُفات إبائي!
يستعبدونيَ ويحهم! وأنا الذي ... حَطَمَ القيودَ تَمَّردي ومضائي
حلّقتُ أرمقُ من بعيدٍ ساخراً ... ذلَّ العبيدِ الراسفينَ ورائي
هم يصنعون قيودَهم بأكفّهم ... وأنا أمدُّ لجانحيَّ جوائي
عشقوا القيودَ كأنما هي حليةٌ ... ذهبيةٌ في معْصَم الحسناءِ
واستعذبوا سوطَ القويّ يؤزُّهم ... في كلّ صبحٍ ناعمٍ ومساءِ
فتمرَّغوا شَغَفاً على أقدامهِ ... كي لا يَضنَّ بهذه النَّعماء
لولا غرامُ القيد لم تكن الدُّنا ... هذه السّجونَ تضيقُ بالسجناء
لولا التَّلَذُّذُ بالأذى ما ألهبتْ ... تلك السياطُ نواصِيَ الضَّعفاء
يا من يريدُ تحرّراً من قِدِّه ... هلاّ بدأتَ بنفسك الشّوهاء
هي بالقيودِ مؤودةٌ لكنّها ... ما إن تحسُّ لحرَّها بعَناء
إني نظرتُ إلى العَبيدِ فلم أجد ... رقّاً كرقّ النّفس والآراءِ
فأشمخْ بأنفكَ رفعةً وتمرُّداً ... وذرِ النفاقَ ولا تَدِن بِرياء
وأتركْ لصيحاتِ الطبول فراغَها ... واسخر من العظَماء والكُبَرياء
فإذا قيودُكَ قد هوت من نفسها ... عن ساعِدَيْك هشيمةَ الأشلاءِ
قالوا: سكتَّ عن الغناء؟ فقلت: لا ... في مسمع الأكوان رَجْعُ غنائي
قلبي لقد وسعَ الحياةَ جميعَها ... من شقوةٍ وسعادةٍ وهناءِ
والكونُ لحني كله رَتَّلتُهُ ... في نشوةِ الإصباح والإمساء
ألفْتُهُ من آهتي وتَبَسُّمي ... فاستنشدوه يُعِدْ لكم أصدائي

(باريس)
أمجد الطرابلسي
نجوى موسيقية (سيرانادة)
(تحت نافذة المرأة التي لم تخلق بعد)
للأستاذ صالح جودت
ما أنتِ إلا امرأة في الخيالْ ... رأيتُها بالقلب رُؤيا المثالْ
لو قَدرتْ ليلةُ قَدْرٍ على ... تأويلها، لم أَرْضَ هذا المحالْ
مُنَايَ أن تحيا بفكري ولا ... تخطر في الدنيا لغيري ببال
وما أنانيٌّ أنا، لكنما ... أخشى عليها من قلوب الرجال
وهي التي صَوَّرها شاعرٌ ... مبتكرٌ أبدع فيها المقالْ
من عُنصر الوهم اجتلى رسمها ... والوهمُ في الدنيا أعزُّ اللآلْ
آمنت بالله، وما شِمْتُهُ ... إلا بعين الوهم خلف الظلال
ونُؤْتُ بالحب وعانيتُهُ ... في امرأةٍ من غانيات الخيالْ
كنتُ أنا الباري الذي صاغها ... فكيف أمسي أنا عبد الجمالْ؟
كناحِتِ (العَزَّى) إذا ما رمى ... مِعْوَلَهُ، ذلَّ لذات الجلالْ
فهل رأى العالَمُ مخلوقةً ... دَلَّت على الخالق هذا الدلال؟
وهو الذي بَارَى بها ربَّهُ ... واسترخص الهَدْىَ وأَغْلَى الضلال
وسار في الناس بأوصافها ... حتى أحبوها بغير اعتدال
وفتشوا في الأرض عن وكرها ... وفي السموات العَوَالي العَوَلْ
تسوَّلَ الناسُ أحاديثها ... والناس لا تسأم ذل السؤال
وقيل إني الغيبُ قد لَفَّها ... وإن حُجْبَ الغيب ليستْ تُذَالْ
وقيل في يمناي مفتاحها ... وقيل يَطْوِي قَلْبَها في الشَّمال
يا طيبَ ما لاقيتُ في حبها ... وطيب قيلٍ في هواها وقَالْ
صالح جودت
رسالة العلم
أقصى ما بلغه العلم التجريبي
يستدل العلماء على مرور إلكترونات الأشعة الكونية بسماعها
ويحصلون على صور مسارات هذه الإلكترونات
للدكتور محمد محمود غالي
لو أن الساسة اليوم وجهوا عنايتهم إلى العلماء والعاملين على التجديد العلمي لما كان ثمة شك في الخطوات العجيبة التي يخطوها العلم إلى الأمام، ذلك أن الميراث العلمي بلغ حداً يمكن الإفادة منه أكثر من أي عهد مضى
ولو أن الأموال التي تنفقها الحكومات المتعددة على الاستعداد للحرب وعلى الإكثار من آلات التهلكة والدمار، أخذت طريقاً آخر للخير العام، فأنفقوا جانباً منها على المعامل العلمية؛ ولو أن الساسة أحسنوا استعمال النتائج العلمية التي يتوصل إليها العلماء واستفادوا للخير لا للشر من انتصارات العلم الباهرة لاقتربنا من جيل يختلف كثيراً عن العهد الذي نعيش فيه، ولشهد الإنسان حضارة أرقى كثيراً من الحضارة التي يستمتع بها الآن، ذلك أن العلم التجريبي بلغ حداً تعجب له عندما تقف على بعض تفاصيله الأخيرة
وإني استعرض مع القارئ بطريقة مبسوطة مثالاً في البحث التجريبي وما أصبح له اليوم من قوة، فأدله في هذا المثال على طريقة قياس الأشعة الكونية وتعيين مسارات جسيماتها السريعة التي لا يمكن للعين أن تراها
لو أني ذكرت للقارئ أن وزن الإلكترون هو (10 27)
من الجرام وأن العلماء يستطيعون اليوم رسم صورة 1060
لمساره ويسمعون مروره لما تملكه العجب، ذلك أن النظر إلى
الأرقام لا يدل بطريقة واضحة وسريعة على ضآلة الشيء أو
جسامته، على صعوبته أو سهولته، بقدر ما تدل على ذلك
الأمثلة وما تنطوي عليه من مقارنة
ولو أني ذكرت للقارئ أن الإلكترون هو من الضآلة والصغر بحيث أن النسبة بين كتلته

وبين كتلة أحد أزرار البدلة التي يرتديها، كالنسبة بين كتلة هذا الزر وكتلة الكرة الأرضية بأسرها، لعجب القارئ كيف أمكن معرفة شخصية هذا الجسيم المتناهي في الصغر ورسم مساره على الورق الحساس، وكيف يمكن أن نسمع بمروره بيننا، هذه أمور يحار لها العقل

هذا الإلكترون (الوحدة السالبة للكهرباء) وشقيقه البروتون (الوحدة الموجبة) يصل كل منهما بسرعة كبيرة وتتركب جسيمات الأشعة الكونية منهما. ولكل من هذه الجسيمات طاقة تفوق حد الوصف، ومع ذلك فبرغم صغرها وسرعتها يتمكن العلماء اليوم من تسجيل مرور كل منها على حدة ومن رسم مساراتها وسماعها عند مرورها، وهم يضعون لذلك وفي طريق هذه الجسيمات من شباك الصيد والأجهزة الدقيقة ما يساعدنا على سماع إنذار عند مرورها، ومن رؤية آثارها في المادة، وتسجيل الطريق التي مرت فيها

ولعل هذا يدعو القارئ إلى شيء من الدهشة يزيد على دهشته عند استماعه من الراديو حفلة غناء تدور حوادثها بعيدة عنه وهو واقف بسيارته في قلب الصحراء هذا الإلكترون، الزائر العجيب، كان هدف العلماء؛ هذا الطائر السريع الآتي من عوالم بعيدة ما زلنا لا ندرك مصدرها، كان ولا زال محل اهتمام العلماء لتحقيق شخصيته، وقدرته على اختراق المادة وإحداث التفتت الذري فيها - هذا الجسيم الذي ربما بدأ رحلته حول الكون قبل بدء العصر الكمبري، وهو العصر الذي لم يترك لنا أي أثر من الكائنات الحية على الأرض، لا زال محل بحث المعامل قاطبة لمعرفة كنهه وأثره وطبيعته

ومن يدري! فقد يكون الوقت الذي استغرقته عملية نشوء الكائنات الحية وتطورها من انفيبيا إلى أسماك، ثم إلى زواحف وطيور وثديات وإنسان، لا يُعد إلا فترة بسيطة بالقياس إلى الزمن الذي قطع فيه هذا الجسيم رحلته الطويلة حول الكون المقفل على نفسه ومع ذلك فقد وصل إلى مكان وجد فيه إنسان مُفكر، يستطيع أن يقف على شيء من دخائل هذا الجسيم الصغير، أن يكشفه، أن يرى مساره، أن يستمع مروره؛ بل يضع له شباكاً من ألواح الرصاص السميكة ويرى رأى العين كيف يخترقها طوراً ويتعثر فيها تارة، بل يرى

آثار التهدم الذي يحدثه هذا الزائر السريع في ذرات المادة، ويرى الانفجارات العديدة التي تقع بسبب مروره وبفعله وفعل طاقته العظيمة. وفي الشكل (ا) يرى القارئ صورة لجسيمات الأشعة الكونية وحزمة من الجسيمات الأخرى ويرى هذه الجسيمات الكونية تخترق لوحاً من الرصاص محدداً بالخطين الأفقيين، كما يرى شيئاً من التهدم الذي حدث في هذه المادة. وفي الشكل (2) يرى حزمة أخرى من هذه الجسيمات المتناهية في الصغر، وبالأحرى يرى مواضعها تظهر دفعة واحدة داخل جهاز ولسون الذي سنتكلم عنه في مقال قادم؛ وهذه الحزمات وهي جسيمات من المادة حدثت بسبب الأشعة الكونية التي لها هذه القوة العجيبة من اختراق ما يقابلها من مادة

ولتعرف شخصية جسيمات الأشعة الكونية، إلكترونات كانت أم بروتونات، وتسجيل مرورها، طريقتان:

الطريقة الأولى تنحصر في استعمال جهاز خاص لعد هذه الإلكترونات ويسمونه (عداد الإلكترونات) وفي هذه الطريقة لا يرسم مسار الإلكترون وإنما يستطيع الجهاز أن يَعدّ الجسيمات التي تمر فيه.

والطريقة الثانية تسمى طريقة (غرفة ولسون) ويمكن بها رسم مسارات هذه الإلكترونات أو البروتونات، وتعيين أثرها على المادة التي تقابلها وسنشرح الطريقة الثانية في المقال القادم.

أما عدد الإلكترونات فهو اليوم أبسط جهاز معروف في العلوم الطبيعية رغم صغر الظاهرة المراد قياسها، ويتكون (شكل3) من أنبوبة معدنية داخلها سلك من النحاس المتأكسد وبطرف الأنبوبة سدادتان حيث لا يجاوز ضغط الغاز داخل الأنبوبة بضعة سنتيمترات من الزئبق، وحيث يتفاوت المجال الكهربائي بين السلك والأنبوبة من 1000 إلى 2000 فولت.

ويتصل السلك الداخلي إما بالإلكترومتر، وإما بمكبر ذي صمام، فعندما يمر في الغاز داخل الأنبوبة أحد الإلكترونات المكونة للأشعة الكونية يحدث عدد من اليونات، وهذه

تُحدث زيادة في الظاهرة الكهربائية، وهذه الزيادة البسيطة يمكن بعد أثر المكبِّر للتيار أن تُحدث حركة آلية من السهل أن تؤثر على جهاز آخر تسمع منه ضربة تدل على مرور أحد
الجسيمات الكونية التي مرت في هذا الوقت داخل الأنبوبة.
ومن تتح له زيارة معهد الراديوم في باريز في شارع (بيير كيري) ويصعد برج هذا المعهد يجد جهازاً لعد الجسيمات الكونية حيث تتملكه الدهشة عند سماعها
على أن مرور أي إلكترون سواء من الأشعة الكونية أو من أي أشعة راديومية، يكون مصدرها المواد المستعملة في الجهاز نفسه أو المباني المجاورة، يحدث هذه اليونات داخل الغاز التي يتبعها هذه الضربات
ولكي نميز بين الضربات الحادثة بسبب الأشعة الكونية من الضربات الحادثة بإشعاع آخر محلي، فكر العلماء في وضع ثلاثة عدادات بينها ستائر تمنع مرور الجسيمات الأخرى التي تقل طاقتها عن طاقة الأشعة الكونية
وقد تم توصيل ثلاثة العدادات بحيث لا تسجل إلا مرور الجسيم الذي يستطيع اختراقها معاً، وبعبارة أخرى، لا تسجل إلا جسيمات الأشعة الكونية
وهذه الطريقة كان لروسي الفضل الأكبر في نجاحها وسنأتي شرح طريقة ولسون في المقال القادم.
محمد محمود غالي
دكتوراه الدولة في العلوم الطبيعية من السوربون.
ليسانس العلوم التعليمية. ليسانس العلوم الحرة. دبلوم
المهندسخانة
رسالة الفن
التذوق الفني في الشرق والغرب
للأستاذ محمد السيد المويلحي
أحسب أننا مهما تغالينا في التجني على الغرب باتهامه بالإباحية، وبالاندفاع وراء شهواته اندفاعاً لا يعرف حياء، ولا يقيم وزناً لما اصطلحت عليه الأخلاق من قيود وحدود، فلن نستطيع أن نقول إن هذا هو الواقع، وإننا نصور حالة صادقة لما هو عليه من عادات، ولما هو فيه من حرية فضفاضة سعى إليها سعياً متواصلاً حتى نالها. . .
صحيح أن عاداته تختلف عن عاداتنا، ونظرته إلى الحياة وإلى الأخلاق تتغير عن نظرتنا إليها، ولكن ليس بصحيح أنه أكثر منا اندفاعاً وحباً لشهواته ونزواته. لأنه - على الأقل - يمتاز عنا بأنه ينظم وقته تنظيماً دقيقاً: فيعطي لوطنه، ولبيته، ولعمله ما لا يعطيه لقلبه وملاهيه. ثم هو لا يعرف أبداً التسكع والخمول الذي يحملنا حملاً على أن يجلس الواحد منا طول يومه أو طول ليله على قهوة لا لعمل شيء يعود عليه بفائدة، بل للنظر إلى المجهول أو للعب النرد أو للتفرج على حركة المرور. . .!
بل هو يمتاز عنا بأكثر من هذا: يمتاز بتذوق فني رفيع لا دخل للشهوة فيه أبداً فهو حينما يسمع يسمع بإذنه فقط لا بقلبه ولا بحبه ولا (بجسمه) كما هو الواقع عندنا!
لا يحكم على مطربة من مطرباته بأنها حلوة العينين، دقيقة الشفتين مستقيمة الساقين، ممتلئة الجسم، رقيقة الاسم. . . الخ. بل يحكم عليها بأنها. . قوية الصوت. لامعة النبرة. متمكنة من فنها، واسعة في ثقافتها، مجتهدة في عملها، لا تعتمد في معيشتها وحياتها إلا على صوتها، لا تمنعها دمامتها من احتلال المكانة التي يؤهلها لها صوتها، ولو كانت في الذروة!
نعم لا تستطيع مطربة هناك أن تثبت إلا (بفنها) فحسب مهما بلغ جمالها وحسنها، ومهما نضج جسمها واكتمل سحرها، ومهما سالمت واستسلمت، وصادقت عظماء وطنها وحكامه فلن تكون أكثر من جميلة ساحرة ذات جسم! أما أن تُفرض على شعبها كمطربة، فهذا هو المستحيل الذي لن يكون ولن يعترف به الشعب ولو تبدلت الأرض غير الأرض
ثم إن بناته ونساءه لا يحكمن على مطرب من مطربيهن بأنه صغير السن، جميل الشكل،
أنيق، رشيق، بل يحكمن عليه بقدر ما يتمتع به من قوة الصوت وسلامته، وجمال الإلقاء، والقدرة على التوزيع والتنويع، والتوفيق في إلباس الكلمات والمعاني

(الموسيقى) التي تلائمها وتترجمها وتبرزها في إطارها المضبوط الذي تجري السلامة في أعطافه، ويشيع السحر منه!

ثم إن العواطف الشخصية والإعجاب بالكتفين العريضتين، وبالذراعين المفتولين، وبالقوام السمهري، وبالوجه الصبوح؛ كل هذا لا يجعل من الرجل عندهن مطرباً، فإذا تمتع بعد هذا بمال أو بتقدير، فإن هذا لا يكون إلا بشكل فردي شخصي لا يغرم فيه الشعب مليماً واحداً. . .!

لقد كان (بيتهوفن) رجلاً أصم، و (فجنر) شخصاً دميماً. و (موزارت) مهملاً في زيه. فهل منع هذا عنهم التقدير والخلود؟ وهل وقفت عاهاتهم أمام فنهم القوي لتسد عليهم إعجاب الشعب بعملهم. . .؟؟

الأصلع، (ومستنجيت) العجوز الشمطاء، و (بول روبصون) الزنجي، هل (وآل جولسون) ظُلموا في هذا العصر، ولم يُقدروا لأنهم حرموا ما يبعث الحمية في الأجسام عند الغربيين؟ أي شرقي أو مصري بنوع خاص يشجع فناناً شرقياً أو مصرياً ذا عاهة؟؟ وأي مصري الآن يقبل على سماع مطربة (كفيفة) بقدر ما يقبل على سماع المبصرة، ولو كانت الأولى أقوى صوتاً، وأتقن صنعة، وأعظم أداء؟

قد يقال إن المصريين قبل نصف قرن كانوا يبزون الغربيين في هذا فكانوا لا يهتمون إلا بالفن وبالصوت بدليل أنهم رفعوا (عبدة الحامولي) وزوجه (الماس) إلى ذروة التقدير والشهرة مع أنهما كانا من أشد الناس دمامة وقبحاً. . . وقد يقال إن العرب أنفسهم كانوا من أشد الناس تقديراً للفن وحده بدليل أنهم أفسحوا مكاناً محسوداً (لأبن سريج) الذي بلغ من قبحه ودمامته أنه كان يطرح على رأسه ووجهه غطاء حين الغناء. . . حتى لا يفسده بشكله. . .

وهذا صحيح لا مرية فيه، وهذا ما امتاز به العربي عن الغربي من قرون إبان أن كان الموسيقار العربي يعيش معززاً مكرماً والموسيقار الغربي ممتهناً يعيش كما يعيش المنبوذ المحروم من أبسط مظاهر الحياة وهي نعمة التمتع بالإنسانية وبالوجود. إبان أن كان يقتل

كما يقتل الكلب فلا يكون جزاء قاتله إلا ضرب (ظله) بالسيف. . .!

قد يقال هذا وأكثر منه ولكن بحث اليوم ومقارنة الساعة لا تنسحب على الماضي وإلا كان هذا أدعى إلى تعنيفنا إذ كيف يستسيغ الإنسان هذا التطور الأخلاقي السريع الذي لا يسير إلا منحدراً. . .؟؟

لقد كان آباؤنا وأجدادنا من خمسين سنة أسلم منا حكماً وأعدل تقديراً، وأضبط عاطفة، وأسمى غرضاً

كانوا لا يعيشون لشهواتهم وجسومهم كما نعيش نحن الآن مع أنهم لو فعلوا ما استطاع اللوم أن يصل إليهم فقد كانوا أوفر منا مالاً وأقل انشغالاً بتهيئة وسائل المعيشة. وكانوا أقرب إلى (الفطرة) منا إليها، وكانت جميع المحرمات والممنوعات التي تستلب الإحساس وتمنع التقدير السليم موفورة لديهم، ومع ذلك كله استطاعوا أن يقدروا الفن ويتساووا مع الغرب الآن. . . أي أنهم كانوا يعيشون من نصف قرن كما يعيش الغرب الآن من حيث تفكيره وتقديره الموسيقي. . .!

قد يكون للاحتلال نصيب، وقد يكون للانحلال الأخلاقي الذي يتغلغل في عظمنا ونفوسنا نصيب، وقد يكون لتلك النفوس التي طبعت بطابع الزلة بعد الحرب وبعد الثورة المصرية نصيب

تلك النفوس التي استساغت هذا اللون المسترخي وهذا التخنث الذي يطفح من كل أغنية، ثم تدرجت بعد هذا إلى السيطرة على بقية النفوس حتى أصبحنا ونحن على هذا الحال البغيض

فالجمهور لا يشجع إلا الجميلة من المطربات أو الظريفة منهن أو كثيرة الأصدقاء. . .

هبط معيار التقدير حتى أصبح منحصراً في الجسم وفي كل ما يرضي الجسم. أما الروح. أما الفن بصرف النظر عن كل شيء فلا. . .!

ولهذا أصبح جونا الموسيقي جو جسم بحت، وأصبحت تربته لا تنبت ولا تصور إلا الشهوة. أما الصوت، أما الفن، فهذه أشياء تافهة في عرف الذوق الشرقي عامة والذوق المصري خاصة!

محمد السيد المويلحي

رسالة المرأة
آداب إنجليزية
مأدبة العشاء الرسمي
للآنسة زينب الحكيم
ترتيب المائدة وما يترتب عليها
ولائم العشاء من أهم أشكال العزائم عند الإنجليز. وإنه لمن الفخر في العرف الإنجليزي أن يدعى الإنسان لوليمة عشاء أكثر من أن يدعى لوليمة غداء، أو لشاي بعد الظهر، أو لسهرة بسيطة في المساء، فإن وليمة العشاء غالية الثمن، لا يدعى إليها إلا علية القوم، ولذلك فهي إكرام له قيمته وأهميته. وعلى ذلك لا ينتظر من الأفراد صغيري الموارد ومتوسطي الحال أن يقوموا بولائم كهذه. وليس معنى هذا أنهم لا يستطيعون عمل ذلك في محيطهم الخاص وإنما نقصد إلى أن المفروض في ولائم العشاء الرسمية أن تكون مستكملة اللوازم والمسرات والإكرام
الدعوة لوليمة العشاء
كيف ترسل الدعوى؟
إما تكتب على شكل مذكرة، أو تطبع على بطاقة، وعادة ترسل قبل الميعاد بعشرة أيام إلى ثلاثة أسابيع حسب أهميتها بالنسبة للغرض الذي تقام من أجله، وبالنسبة للفصل من السنة
فتكون مهلة الدعوة أطول إذا كان الفصل فصل عمل، فتراعى ظروف الأفراد، ويقدر أن كل واحد عنده مشاغل كثيرة
وتكون المهلة أقصر في الأوقات الأقل مشغولية (وبالطبع لكل قاعدة شواذ)
فإذا كان يتراوح عدد المدعوين بين 12و18 فمهلة أسبوعين أو ثلاثة كافية لأن تكون الدعوة بين أيدي المدعوين لكي يوجدوا لها وقتاً من بين أوقاتهم
وعشرة أيام إلى ثمانية عشر يوماً تكفي إذا كان عدد المدعوين 8 - 12 شخصاً، وأسبوع أو ثمانية أيام كافية جداً لوليمة تقام لأصحاب قريبين من الجيران حيث الولائم قليلة. والأسرة التي ليس لها معارف يحسن بها أن تترك مهلة أطول لمدعويها خلاف الذين لهم
معارف كثيرون وفي استطاعتهم اختيار مدعويهم من بينهم
وإذا كانت الوليمة صغيرة كأن كانت لستة أو ثمانية أشخاص فيمكن دعوتهم بالتلفون، على أنه يحسن تأكيد دعوتهم ببطاقات أو خطابات
ويستطيع المدعو أن يحكم على نوع الوليمة كبراً وصغراً وأهمية من الزمن المتروك بين تاريخ إرسال الدعوة وميعاد الوليمة
الضيف الذي لا يبالي
الضيف الذي لا يبالي بعواقب الأمور هو الذي يهمل الرد على الدعوة الموجهة إليه؛ فإن كانت بالإيجاب فليرسل رده تواً، فليس من الحزم ولا من المروءة أن تترك المضيفة حائرة غير متأكدة من العدد الذي سيلبي دعوتها ممن دعتهم
وليكن معلوماً ومقدراً أنه لن يزيد من مقدار الشخص الذي توجه إليه دعوة لوليمة عشاء أن يرفضها برفق. فإن هذه الدعوات يجب أن تلبى إلا إذا وجدت ظروف قهرية حقاً تمنع من قبولها، وهنا يصح أن يعتذر عنها بكل أدب وأناقة ممكنين
أما الأفراد الذين يتركون اعتذارهم أو قبولهم الدعوة للوليمة لآخر الوقت، يقل توجيه الدعوات إليهم تدريجياً، وبذلك ينسحبون من المجتمع على الرغم منهم
السيدات والرجال في الوليمة
يلاحظ في الولائم المدعو لها سيدات ورجال، أن يكون عدد الفريقين متساوياً بقدر الإمكان، لأن من نظام ولائم العشاء الإنجليزية أن تحادث كل سيدة الرجل الذي صحبها إلى حجرة المائدة ويجلس عادة إلى يسارها، وكذلك تتحادث إلى الرجل الذي عن يمينها - وبما أن هذا تقليدٌ من التقاليد التي يجب أن تنفذ أثناء الجلوس حول المائدة فيتحتم أن يراعي الجميع آداب المحادثة، وأن يكونوا جميعاً طيبي السمر والحديث. لهذا كان من أول واجبات صاحبة الدعوة أن تراعي تناسب أماكن الأفراد بعضهم إلى جانب بعض حول المائدة. وإذا لوحظ أن البعض لا يستحسن صحبة من جلس إلى

جانبه فلينقل إلى محيط آخر بلباقة حتى يمضي وقتاً سعيداً. غير أن التوفيق بين الشخصيات ليس سهلاً وبذلك يتعقد الموقف قليلاً أحياناً.

بقيت مسألة هامة، تلك هي أن يراعي دعوة الزوج مع زوجه إلا إذا حالت ظروف طارئة دون ذلك. والمضيفة اللبقة هي التي تستطيع توجيه زوارها وزائراتها إلى الوجهة التي تؤدي إلى إنجاح وليمتها دون أن يشعر أحد بما ترمي إليه، كأن تسوق الحديث إلى موضوعات نقاش وسمر تسر الجميع، ولا تتعرض للشخصيات ولا للأحاديث غير المرغوب فيها، كالتي تعطي فرصاً للبعض لإظهار دخائل نفوسهم بالمناسبات والفرد الذي يقبل الدعوة لوليمة عشاء، يجب عليه أن يقدر مسئوليته بالنسبة لمضيفته، ولهذا يجب أن يضبط نفسه ويؤدي واجباتهِ نحو من كلف رعايتهن ولو لم يكن ممن كان لا يفضلهن لو ترك له الخيار في مجالستهن

مواعيد ولائم العشاء

تختلف من الساعة 7. 45 إلى الساعة 8. 15 ويقدم العشاء في الثامنة والنصف في الحالة الثانية. أما الحالة الأولى 7. 45 فهي المحببة لدى (الفئة المحافظة) وهذه المواعيد تتبع بدقة، لهذا يتحتم على المدعوين أن يحافظوا عليها بدقة أيضاً. والتأخر عن ميعاد العشاء يعتبر من قلة الذوق، كما لو وصل الزائر إلى بيت داعية متقدماً أكثر من خمس أو ست دقائق قبل الميعاد المحدد.

استقبال الزوار والتعارف

يجب أن يكون المضيف والمضيفة على استعداد تام في حجرة الاستقبال قبل الموعد المحدد بعشر دقائق على الأقل. ويلزمهما التسليم باليد على ضيوفهما، وعند وصول المدعو إلى المنزل المقصود لا يجب عليه أن يسأل إذا كانت ربة البيت موجودة فإن هذه مسألة لا شك فيها. وعند دخول الزائرة بهو المنزل، تخلع معطفها وتسلمه للخادمة الموجودة به إلا إذا دعيت للذهاب إلى الحجرة الخاصة بوضع أمتعة الزوار، فيمكنها ترك معطفها أو أي شيء آخر.

وفي الولائم الكبيرة يقف رئيس الخدم بالمنزل على الدرج الصاعد إلى حجرة الاستقبال إذا كانت بالطابق العلوي، أما إذا كانت بالطابق الأول فيقف بالصالة أو المدخل، ويفتح الباب خادم آخر، ويأخذ خادم ثالث أغطية الرأس والمعاطف من الرجال.

أما في حالة السيدات فالخادم في خدمتهن كما تقدم.

وعمل رئيس الخدم هو أن يسأل الزوار عن أسمائهم، ويجب أن تعطى له واضحة صحيحة، وعليه أن يفتح باب (الصالون) ويذكر اسم الزائر عند دخوله إليه.

وعادة يدخل الزوج والزوجة أحدهما إلى جانب الآخر، أو متأبطي الذراعين، وسواء دخلا متفرقين أو مجتمعين فإن الخادم يعلن اسميهما مقترنين فيقول مثلاً: السيد فلان والسيدة فلانة أو الآنسة فلانة.

وبعد أن يحيي أصحاب الدار زوارهم تجلس السيدات؛ أما الرجال فيبقون وقوفاً يحادث بعضهم بعضاً، أو يحادثون من يعرفونهم من السيدات. فإذا وجدت إحدى الزائرات أن لها من الحضور عدداً موفوراً تعرفه، فلا يحسن بها أن تدور في الحجرة لتسلم عليهم جميعاً. بل تسلم على القريبات والقريبين منها، وتكتفي بتحية الأخريات البعيدات بانحناء الرأس أو الابتسام، وإذا كان لها معارف من الرجال فتحيهم بالانحناء، وإذا لم يكن يتحدث إلى أحد، فعليه أن يذهب إليها ويحادثها.

التعريف

وإذا كانت الوليمة صغيرة فعلى المضيفة أن تقوم بتعريف الزوار بعضهم ببعض إذا لم يكن قد سبق لهم المقابلة، أما في الولائم الكبيرة فهذا العمل غير ممكن، ولو أن ربة المنزل تقدم بعض زوارها لبعض قدر ما يسمح لها وقتها بالمناسبات وملاءمة الفرص.

ترتيب جلوس المدعوين حول المائدة

تجلس السيدة أكبر الحاضرات مقاماً إلى يمين رب الدار، ويجلس الرجل الذي في مستواها إلى يسار ربة الدار

ويبقى المضيف واقفاً في مكانه على المائدة حتى يأخذ جميع المدعوين مقاعدهم، وعليه أن يكون عالماً بالمكان الذي يجلس فيه كل شخص وأن يكون مكانه متناسباً وحالته، وعلى رئيس الخدم أن يعلم ذلك أيضاً. أما في الولائم الكبيرة فتوضع بطاقة

باسم المدعو في المكان المعد على المائدة
ويراعى في جميع الولائم صغيرها وكبيرها أن تجلس السيدة إلى يمين الرجل الذي يصحبها إلى حجرة المائدة. وفي ولائم العشاء لا يقصر المدعو حديثه على من صحبها فقط ولا هي أيضاً وإنما يكون التحادث لكليهما مع من يجلسون بجوارهما من الجانبين
متى يرحل الزائر
ينصرف الزائر نحو الساعة العاشرة والنصف أو الحادية عشرة إذا كان ميعاد الوليمة مبكراً إلا إذا أقيمت سهرة موسيقية أو تسلية أخرى مما يجري في العادات الإنجليزية (كالرقص أو اللعب بالورق) فيمكن إطالة المكث بحيث لا يتعدى الساعة الحادية عشرة والنصف إلى الثانية عشرة.
عند الانصراف
في حالة تناول زوجين عشائهما في غير منزلهما، على السيدة أن تلاحظ الانصراف في الوقت المناسب فتملي إرادتها بلطف ودقة على زوجها فينصرفان دون قطع محادثة طريفة، أو حديث في موضوع هام. وعلى كل زائر وزائرة أن يحيي المضيفة تحية الوداع، ويسلم على باقي المدعوين إذا كانوا قريبين منها. ويكون السلام على أصحاب المنزل باليد، ويمكن عمل ذلك مع المعارف إذا لم يترتب عليه إقلاق المجتمع وإلا فالتحية بالانحناء تكفي. ولا بأس من أن يذكر لربة الدار بعض جمل الشكر والاستحسان على الوقت الجميل الذي أمضوه عندها، ويراعي الأفراد ألا يشغلوا ربة الدار أكثر مما يجب، فإن عليها أن تجامل كل مدعويها ومن واجب كل أن يساعدها على ذلك
وعلى رب الدار أن يودع الزوار حتى باب الصالون أو إلى الصالة إذا استطاع ترك باقي الزوار منفردين.
تحية الانصراف
من العادات الإنجليزية تقديم تحية الانصراف، فتوضع منضدة صغيرة خارج حجرة الاستقبال أو في مكان قريب منها، ويكون عليها مشروبات باردة، وسجاير تقدم وقت الانصراف
خلع القفازات
على كل سيدة تجلس إلى مائدة العشاء وهي لابسة قفازيها أن تخلعهما تواً. فإذا كان خلع
القفازين من يديها يستدعي بعض الوقت، فعليها أن تضع فوطتها على حجرها حتى لا يقدم إليها الحساء وهي غير مستعدة
استخدام فوطة المائدة وآنية غسل الأصابع
على الزائر أن يبسط الفوطة ويضعها على حجره، ولا تستعمل فوطة المائدة كمناشف للأيدي فالغرض منها حماية الملابس أثناء تناول الطعام، وتلمس بها الشفتان عند الضرورة القصوى فقط. وقد تجفف بها الأصابع برفق بعد وضعها في آنية غسل الأصابع بعد الفاكهة ولا تطبق الفوطة بعد تناول الطعام بل تترك على طرف المائدة
من هنا ومن هناك
النازية فكرة مؤلف إنجليزي - نقلا عن مجلة تيت بيتس
يقول الفريد روزنبرج وهو من اخصاء الفوهرر، أن أول من مهد الطريق أمام مؤسس ألمانيا الحديثة هو رجل إنجليزي
والحقيقة أن أول من أوحى فكرة النازية هو رجل من هامفشير وليس جندياً من أوستريا كما يزعمون. لقد كان لهذا الرجل نفوذ عظيم في ألمانيا ما زال يزداد وينمو سنة بعد أخرى وقد كتب ثلاث تراجم، ونشر عنه منذ توفي عام 1927 ما لا يحصى من المقالات على صفحات الجرائد الألمانية بأقلام زعماء النازي المعروفين
من هو ذلك الإنجليزي العجيب؟ ذلك هو هوستن ستورد تشمبرلن. وهو من الأسر الإنجليزية العريقة المعروفة في إنجلترا كما يتبين من أسمه. ومن المأثور عنه أنه كان يقول أول ما سكن ألمانيا (إن أبي إنجليزي وأمي من اسكتلندة وجدتي من ويلز فيحق لي أن أقول إنني ابن حق لبريطانيا العظمى) وقد درس علم النبات والطب في جامعة جنت وسمع أوبرا واجنر في بيروت وقرأ جيتي وكانت في ورسدن. وقد استولى عليه شغف جنوني بكل ما هو ألماني، من أدب إلى موسيقى إلى علم إلى فلسفة إلى

صناعات وآلات حربية تدهش العقول
وأتيح له أن يتقن اللغة الألمانية أيما إتقان، حتى أصبح يفضل الكتابة بها على الكتابة بلغة بلاده؛ ومن ثم كان يكتب بها كل مؤلفاته
وقد هداه البحث إلى كتابة تاريخ للعالم أسماه أصول القرن التاسع عشر برهن فيه على أن خير الطرق لفهم شعب من الشعوب هي أن تفهمه في ظل تاريخ المدينة وأطوارها
ودلل على أن كل رقي أو نجاح في أوربا الغربية، كان منشأه الجنس الآري الذي نزح إليها في الأصل من شمال الهند، وانحدرت منه السلالة التوتونية الموجودة الآن. وزاد على ذلك، أن المدينة الغربية لا يمكن الأخذ بناصرها إلا إذا سادها قبيل شديد من الجنس الألماني العريق
وقد نال هذا الكتاب رواجاً عظيماً في ألمانيا بصفة خاصة. واشترى منه القيصر ولهلم الثاني ألفي نسخة ليجعلها هدايا لمن يريد وصار منذ ذلك الوقت صديقاً شخصياً لهوستن
تشمبرلن
وفي سنة 1908 أو سنة 1912 وقع هذا الكتاب في يد شاب نكد، لا عمل له في فينا وهنا ظهر الإنجيل الذي يبحث عنه أودلف هتلر الشاب! فقد أوحت إليه نظرية هوستن تشمبرلن، سر كل ما يحيط به من العار والشرور
متاعب إيطاليا في الحبشة - ملخصه عن لورب نوفيل
نشرت صحيفة (كريتكا فاشستا) التي تصدر في روما نبذة عن مركز القوة الإيطالية في الحبشة نقلاً عن مراسلها الخاص جاء فيها: (لقد أصبحنا الآن في حالة نستطيع فيها أن نصرح بأن مركز إيطاليا في إمبراطوريتها آخذ في الانحدار. ويظهر هذا بجلاء في أديس أبابا أكثر من غيرها يوماً بعد يوم. ويستطيع الإنسان أن يشعر بذلك في أحاديث الناس وفيما تكتبه الصحافة نقلاً عن مراسليها وفيما ينقله إلينا أصدقاؤنا وزملاؤنا الذين يهتمون بشئون الحبشة)
ونحن لم يغب عن ذهننا بعد تلك الحملات التي وجهتها الحكومة الإيطالية إلى بريطانيا وفرنسا أثناء الحرب الحبشية، ولا تلك المزاعم الخرافية التي كانت تدعيها عن الكنوز والخيرات التي تنتظرها في تلك البلاد، مما جعلها تنجح في تهيئة الرأي العام في إيطاليا إلى استعمارها
فماذا وراء هذا التغير الملحوظ الذي طرأ بعد ثلاث سنوات من فتح الحبشة؟
إن هناك تقارير لا تحصى عن المصاعب الحربية والاقتصادية التي تلاقيها إيطاليا في بلاد النجاشي، ونحن وإن كنا لا نستطيع أن ننكر رسوخ أقدامها في تلك البلاد، إلا أن التقارير التي ترد عن المصادر الإيطالية نفسها تدل على أن الحرس الحربي ضروري لإجراء أي عمل فيها، وأن الحالة في إيطالية بعيدة عن المألوف.
ويظهر أن الناحية الاقتصادية في هذه المسألة أشد بكثير مما يتصوره العقل. وقد كتب الجنرال تروزي السكرتير الثاني للإدارة الإفريقية في إيطاليا تقريراً على جانب كبير من الصراحة في هذا الموضوع، وقد ظهرت مقالات شتى بهذا الصدد في الصحف الإيطالية على اختلافها.
ويلاقي الإيطاليون مصاعب لا حد لها في مجاراة الحالة الاقتصادية المألوفة لدى السكان.
ومن الغريب أنهم لم ينجحوا بعد في إحلال الليرة الورقية محل العملة الفضية القديمة التي كان يصدرها النجاشي باسم ماريا تريزا، حتى اضطروا إلى إصدار قطع فضية جديدة من هذا النوع كان لها تأثير كبير في هبوط أسعار الليرة الإيطالية.
ولقد وضعت إيطاليا يدها على الشئون التجارية في الحبشة، كما وضعت يدها على مصادرها الطبيعية، ولكن تروزي يقول في تقريره: إن الأحباش لا يقبلون على شراء المصنوعات القطنية التي ترد من إيطاليا، لأن القطن الذي تصنع منه ممزوج بأنسجة قصيرة تجعله أقل صلاحية من غيره، ولقد سقطت هذه التجارة في الحبشة إلى درجة شديدة.
أما ما كانت تنتظره إيطاليا من الأرباح في تصدير البن، فقد ظهر أن الأجر والتكاليف التي تدفع فيه تقضي على كل أمل في ذلك، وهكذا الشأن في باقي المحصولات.

وقد يكون من المستطاع التغلب على مثل هذه الأحوال، ولكن إيطاليا التي استنزفت في الحرب الأسبانية، وأنفقت الأموال الطائلة في التسليح، قد أعوزها المال والرجال لاستثمار تلك البلاد.

ومما يستحق الذكر أن العمال الإيطاليين الذين لم ينقص عددهم سنة 937 عن 115 ألفاً قد نقصوا إلى 38 ألفاً في مارس سنة 938 و21 ألفاً في شهر يوليه من العام المنصرم.

الحقيقة في المشكلة الفلسطينية ملخصة عن (ذي ساين)

بدأت أسباب الثورة تظهر في فلسطين منذ بدأت التجربة الصهيونية فيها، ولكن تلك الأسباب قد أخذت في الازدياد تحت تأثير الظروف الحاضرة، وقد تزعزع النفوذ البريطاني نوعاً ما في تلك البلاد، بعد أن أظهرت إيطاليا عدم احترامها لقواعد عصبة الأمم، وفهم العرب الذين لا يقدرون المثل العليا التي تعلن في جنيف أن تلك السياسة السلمية تستند إلى القوى الحربية دائماً

ولقد أخذت علاقة العرب باليهود في فلسطين تضعف باستمرار هجرتهم إليها، وأعلنوا الثورة على القانون ليضطروا الحكومة البريطانية إلى تغيير سياستها نحوهم

إن المرء ليتساءل عن الأسباب التي تدعوا إنجلترا إلى ذلك النظام الذي أنشئ لمصلحة اليهود، مع ما في عملها هذا من إضعاف مركزها في تلك البلاد التي نالت فيها مزايا

عظيمة بعد ذلك الانتصار الذي أحرزه لورد اللنبي لها؟ إن حكم هذه البلاد كان من أهم نتائج الحرب العظمى، فلماذا تضع إنجلترا مركزها في تلك البلاد في ذلك الموقف الشائك الذي سبب لها كثيراً من الارتباك؟ مع أن هذا النظام لم يطلبه الرأي العام في انجلترا، ولم تناد به هيئة قوية في مجلس الجيش!

إن الرأي الحقيقي في هيئة الجيش لم يعلن بعد، ولكن هذه الفكرة قد نبتت في وقت عصيب كانت فيه جيوش الحلفاء في أشد الحاجة إلى المساعدة المالية التي قدمها إليهم اليهود إذ كانت جيوشهم تحت ضغط عظيم. تلك الروح الطيبة التي ظهروا بها أمام العالم كان لها أبلغ الأثر في تصريح بلفور الذي جاء في نوفمبر سنة 1917

لقد كان بلفور سكرتيراً أجنبياً للحكومة الإنجليزية في ذلك العهد، ولكنه كان أكثر اهتماماً بالحركة الصهيونية من كل شخص فيها. وعلى الرغم من أن هذه الحركة قد طبعت بطابعه وظهرت تحت اسمه، فقد أعلن أنها عملت برضا حكومة الحلفاء.

وظاهر أن الحركة الصهيونية تشمل ألمانيا والنمسا وغيرها من بلاد العالم

ولقد تضمن هذا التصريح إشارة من الحكومة الإنجليزية بأنها تنظر بعين الاعتبار إلى تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين، وأنها تبذل كل ما في وسعها في ألا يمس هذا الحقوق المدنية والدينية للمقيمين فيها من غير اليهود

ولا نذيع سراً إذا قلنا إن أكثر الأعضاء الذين وافقوا على ذلك لم يكن لهم رغبة ملحة في تلك التجربة، ولكن بعض رجال الجيش رأوا أن الشعب اليهودي على ما هو معروف عنه من الذكاء والرقي مشتت في بلاد العالم، دون وطن يلجأ إليه، فتحمسوا للفكرة على سبيل العطف في ذلك الحين

إن للمسألة الفلسطينية أهمية أكبر مما يتراءى. وليس الأمر فيها على إثبات حسن نية اليهود أو سوء نيتهم، أو انتشار التجارة البريطانية أو كسادها؛ ولكن الأمر أهم من ذلك بكثير إذ أنه يتعلق بمركز بريطانيا في البحر الأبيض المتوسط

إن الانتصار الذي أحرزته إيطاليا في الحبشة قد أصبح يهدد المواصلات البريطانية بلا شك، فإذا لم تعمل معها اتفاقات متينة واسعة النطاق في هذه الظروف فمن الواجب تقوية الأسطول الإنجليزي عدة سنين

فإذا كان الأمر كذلك فإن الأنظار لتتجه نحو فلسطين كقاعدة ذات أهمية لا يستهان بها للجيوش الإنجليزية

إن مركز بريطانيا في الشرق الأوسط قد أصبح مهدداً بعد انتصار موسوليني في بلاد الحبشة

فإذا كانت بريطانيا لا تستطيع أن تحكم فلسطين فإنها عند ذلك تكون أقل مقدرة من إيطاليا، إذ تكون قد عجزت عن حكم بلاد أخذتها باعتراف عصبة الأمم

البريد الأدبي
بين مصر وفرنسا
أصدرت جريدة (الطان) عدداً خاصاً عن مصر، وهو عدد نفيس يقع في عشرات الصفحات، وفيه أبحاث طريفة عن وجوه النشاط الأدبي والاقتصادي، وهو تحية يراد بها توكيد ما بين مصر وفرنسا من صلات
وهذا العدد مفتتح بكلمتين كريمتين:
أما الكلمة الأولى فهي رسالة وجهها حضرة صاحب الجلالة ملك مصر إلى فرنسا. وأما الكلمة الثانية فهي رسالة وجهها حضرة صاحب الفخامة رئيس الجمهورية الفرنسية إلى مصر.
وافتتاح العدد بهاتين الرسالتين يمثل الاحتفاء بتجسيم عواطف المودة بين الشعب المصري والشعب الفرنسي
وفي الرسالة الأولى يقول حضرة صاحب الجلالة ملك مصر: (أريد أن أقول لفرنسا: إني أعرفها وإني أحبها
أعرفها في ثنايا تاريخها الطويل الشائق، وفي مناحي آدابها وفنونها. . .)
أحب علمائها وفلاحيها وصناعها. أحب أناقتها، وأحب أيضاً بساطتها العائلية، وأحب وطنيتها وكرمها
أحبها في أحيائها وفي أمواتها: أمثال شامبوليون ومريت ودي لسبس وسليمان باشا)
وفي الرسالة الثانية يوجه فخامة رئيس الجمهورية الفرنسية تحية طيبة إلى مصر ويرجو أن تواصل جهودها في طريق التقدم الخلقي والاقتصادي والسياسي برعاية مليكها الشاب الذي تحفظ له فرنسا أطيب الذكريات
ونجد بعد ذلك تحية ثانية موجهة إلى مصر من وزير الخارجية الفرنسية، وتحية ثالثة من وزير فرنسا في مصر، ثم تحية موجهة إلى فرنسا من وزير مصر في باريس
وبعد هذه التحيات الرسمية التي تبلغ النهاية في الكياسة واللطف نجد كلمة المسيو دي كومنين عن حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق؛ وهي كلمة في غاية من العذوبة صور بها شمائل الملك المحبوب أجمل تصوير، وفيها تجلت عبقرية الوصف في الأدب الفرنسي
إذ يقول:
نبيلٌ عظيم، أشقر بعيون زرق، له ابتسامة الفتاة وضحكة العملاق. . .)
ثم نجد كلمة صاحب المقام الرفيع محمد محمود باشا عن مصر الحديثة؛ وكلمة صاحب الدولة عبد الفتاح يحيى باشا عن مركز مصر الدولي؛ وكلمة صاحب المعالي الدكتور أحمد ماهر عن مركز مصر المالي؛ وكلمة صاحب المعالي الدكتور هيكل باشا عن التربية والمدينة؛ وكلمة صاحب المعالي الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرزاق بك عن الاتجاهات الدينية في مصر الحديثة؛ إلى آخر ما في هذا العدد من شائق البحوث.
وقد وقفنا طويلاً عند الكلمة الشائقة التي كتبها سعادة صديق بك عن: (مصر وطن الإنسانية). وقد كتبها بروح شعري جذاب، ودعا إلى زياتها عشاق المعاني من أصحاب الأذواق
قلت: إن هذا العدد نفيس، وإنه يؤكد ما بين مصر وفرنسا من صلات
فلم يبق إلا أن أنظر إليه نظرة نقدية: فما الذي فات من اهتموا بتنظيم هذا العدد من الطان؟
كنت أحب ألا تغلب عليه هذه الصبغة الرسمية التي جعلت أكثر كتابه من الوزراء وأصحاب الشأن في الميادين الاقتصادية والسياسية.
كنت أحب أن يكون في هذا العدد مكان ظاهر للحياة العلمية والأدبية والاجتماعية.
كنت أحب أن يكون فيه فصل عن الصحافة والتأليف، وفصل عن تطور الحياة التعليمية في المعاهد العالية، وفصل عن تأثير مصر في توجيه الحياة الأدبية والعلمية بالشرق. . .
وذلك كان يوجب على مراسل (الطان) في مصر أن يستعين بجهود المشتغلين بالصحافة والتأليف والتعليم. ولو أنه فكر في ذلك لوصل هذا العدد إلى الكمال المنشود.
وهذه النظرة النقدية لا تمنع من تكرير الاعتراف بأن هذا العدد قدم مصر إلى قراء

.(الطان) بروح مشبع بالحب والجاذبية، فإلى تلك الجريدة العظيمة نوجه أصدق الثناء
زكي مبارك
أبو تمام - والأستاذ عبد الرحمن شكري
لا أظن أن أديباً عربياً عُني بأبي تمام كما عنيت به، فقد بالغت في مطالعة ديوانه أيما مبالغة، وجمعت أمثاله وشرحتها شرحاً طويلاً، نشرت منه أكثر من ستين صفحة في إحدى المجلات، واخترت طائفة من شعره سميتها (جوهرة الجوهر من شعر الطائي الأكبر) نشرت في مجلة، وربما كان (البيت الميمي) مما جمعتُ واخترت. ولما رجعت إلى الصفحة (409) من طبعة الديوان التي أشار إليها الأديب الكبير (الأستاذ عبد الرحمن شكري) - أدام الله نفع العربية بطول بقائه - وجدتني قد خططت عند ذلك البيت خطًّا علامة اختيار
وإذا ما شاء الله أن يضل العالم أو الأديب في الأحايين فمن أين نظفر بهذه الثروة الأدبية اللغوية الضخمة الفخمة في النقد؟ وكيف تتجلى الحقائق التجلي الباهر التام؟ وهل أغلاط نوادر أبي زياد الكلابي، وأغلاط نوادر أبي عمرو الشيباني، وأغلاط النبات لأبي حنيفة الدينوري، وأغلاط الغريب المصنف، وأغلاط إصلاح المنطق، وأغلاط الجمهرة، وأغلاط المجاز لأبي عبيد، وأغلاط كامل المبرد، وكتاب التصحيف للحسن العسكري، وأغلاط الجوهري للصلاح الصفدي، والتنبيه على أوهام أبي علي في أماليه، والفلك الدائر على المثل الثائر. والجاسوس على القاموس لأحمد فارس الشدياق، وأغلاط أكبر لغوي وأكبر أديب في هذا العصر التي لم تظهر بعد. فهل كل ذلك إلا من فضل ضلال العلماء؟
وإن (وهماً) أفادنا تلك الفائدة، وأدى إلى ذلك التحقيق (الشكري) الكريم المشكور - لخليق بما هو به خليق. . .
جاء في كلمة الأستاذ شكري: (وأرجو أن يسامحني الأستاذ الجليل في هذا البيان). أما بيان الأستاذ الكبير فهو مما يشكره مثلي كل الشكر عليه، وأما سؤال (المسامحة) في الجملة فإني أسامح الأستاذ فيه هذه النوبة لإحسانه إلى العلم وإلى بيانه
(القارئ)
في ذكرى الهراوي
في أواخر الأسبوع المنصرم - والرسالة تحت الطبع - أقام أصدقاء (الهراوي) وإخوانه حفلاً لتأبينه بمسرح حديقة الأزبكية؛ فخطب الدكتور منصور فهمي بك، وأنطوان بك الجميل، وعبد الله بك عفيفي، والأستاذ عبد الوهاب خلاف؛ وأنشد الأساتذة الأفاضل: أحمد الزين، وحسين شفيق المصري، وأحمد محرم، والأسمر، والماحي، وناجي قصائد من الشعر
هذا خبر قد أذاعته الصحف اليومية، ونشرت كل ما قيل في الحفل من نثر وشعر. ولكنا نريد أن نشير هنا إلى معنى قد لحظناه من ذلك الحفل؛ ذلك أن قيام مثل هذا التأبين إنما هو في الواقع مظهر من مظاهر الوفاء والخلق الطيب عند الأحياء. ونحن إذ نسأل عن مدى هذا المظهر في تأبين الهراوي وذكراه نجد الجواب لا يسر، فإن الذين قاموا بتأبين الهراوي من إخوانه وأصدقائه الأوفياء قد توجهوا بالدعوة إلى رجال القلم والأدب في مصر على اختلاف مذاهبهم وألوانهم، ولكن دعوتهم مع الأسف لم تقع موقع القبول إلا عند الرجل النبيل معالي وزير الأوقاف، ومعالي وزير الحقانية، والسيد الببلاوي، وصاحب الرسالة، ونخبة من رجال الصحافة، وطلاب الأزهر والجامعة ودار العلوم إلى جانب أسرة الشاعر وإخوانه الذين حفلوا بتأبينه!
أما وزير المعارف الأديب، وأما الأستاذ لطفي السيد الذي عمل معه الفقيد فترة من الزمن، وأما رجال لجنة التأليف والترجمة والنشر وقد كان الهراوي عضواً بارزاً في جماعتهم، وأما الدكتور زكي مبارك صديق الهراوي على مر السنين، وأما رجال الأدب الذين يتولون زعامته، ويزعمون رعايته، فكل هؤلاء كان تأبين الهراوي، بل قل كان الأدب أهون عندهم من أن يلبوا نداءه ويؤدوا واجبه!
(م. ف. ع)
كتاب حياة الرافعي
أخي الأستاذ سعيد العريان

أشكر لك تفضلك بإهدائي كتابك (حياة الرافعي)، وأهنئك مخلصاً على ما أصبت من توفيق يكاد يكون منقطع النظير.

لقد قرأت الكتاب في ثلاثة أيام، وما أعرف أني استمتعت بكتاب ككتابك - وفي موضوعه - منذ أمد بعيد. نعم، أذكر كتاب (أناتول فرانس في مباذله) وأنه من خير ما قرأت في هذا الموضوع، ولكن كتاب فرانس مبعثر الفصول، مقطع الأبواب ولكتابك مزايا كثيرة ليست
في ذلك.

إنك لم تجلُ حياة الرافعي فحسب، بل جلوت الاتجاهات الأدبية، والعوامل النفسية - الخفية - في أدب جيل كامل من الأدباء.

لقد عشتُ في مصر مدة من الزمن تبلغ قرابة سبع سنوات، وكنت أقرأ ما أقرأ حول الرافعي - رحمه الله - وخصومه - عفا الله عنهم -، وله ولهم، ولكني كنت كمن يعشو في ظلماء موحشة، لا أكاد أتبين سر ما أنا بسبيله من نقد وتأليف، وخصومات، إلى أن جاء كتابك فأنار السبل وأوضح المقاصد، وردّ علي ماضي ما قرأت في صورة نيرة مبينة.

لا أريد أن أطيل عليك، ولكن في نفسي إعجاباً ذا شعب ما أستطيع أن أحبسه في نفسي.

لقد وفقت في الأسلوب بقدر ما وفقت في استقصاء المؤثرات النفسية واستكشاف العوامل الخفية في أدب الرافعي. وبذلك أصبح كتابك جزءاً من كتب الرافعي لا بد لمن يقرأها من أن يقرأه. بل هو من أدبه كالفصل الرئيسي من الرواية لا يمكن أن تتم وتستبين بدونه

وما أكتمك أني كنت ممن لا يستهويه أسلوب الرافعي، ولكن كتابك أوضح أن الرافعي كان نسيج وحده في أسلوبه وتفكيره وميوله. وبهذا دفعت عنه ما اتهم به، وأغريت الناس بقراءته بعد أن مزجتهم بنفسه؛ وكسبت له الإعجاب منتزعاً من أعماق القلوب

الحق يا أخي أنك وفقت، فلك التهنئة الخالصة، والشكر الجزيل والود الصادق من أخيك.

(القدس)

اسحق موسى الحسيني

ذكرى الرافعي في محطة الإذاعة المصرية

يذيع الأستاذ محمد سعيد العريان حديثاً عن المرحوم الرافعي في الساعة الثامنة والدقيقة العاشرة من مساء يوم الأربعاء 10 مايو من محطة القاهرة، لمناسبة الذكرى الثانية لوفاة فقيد العربية الكبير المرحوم مصطفى صادق الرافعي.

وموضوع الحديث: شخصية الرافعي في أدبه.

الكتبُ

كتابان

1 - آرائي ومشاعري: للآنسة فلك طرزي

2 - أشعة ملونة: للشاعر أحمد الصافي النجفي

للأديب محمد فهمي عبد اللطيف

- 1 -

منذ عام أو أكثر التقيت بالآنسة فلك طرزي في دار الرسالة فتعارفنا، وجلسنا نتحدث على طبيعة المجلس في تلك الدار الحافلة فأخذنا في كلام يتصل بالأدب والسياسة وبرجال الأدب والسياسة، وامتد بنا الحديث إلى الأخلاق والتقاليد والقومية وما يتفشى في شباب الشرق من داء العصر. وكانت الآنسة تتحدث وكنت أنا أستمع وأتأمل، فظهر لي وراء ذلك الشخص الناحل ثورةٌ جامحة، ونفس طامحة، وإحساس كبير مرهف، واعتزاز بالقومية العربية، والكرامة الوطنية، تبديه الآنسة الفاضلة في صرامة وعنف حتى لقد فارقتها وأنا أشفق عليها مما هي فيه!

ومنذ أيام جاءني كتاب الآنسة - آرائي ومشاعري - عن طريق الرسالة لأقدمه إلى القراء، فما كدت أجيل النظر بين صفحاته حتى رأيت فيه روح الفتاة كما رأيته بالعيان، وتبينت لي شخصيتها بين السطور كما تبينتها بالنظر من قبل، شخصية صريحة واضحة، وروح - كما قلت لك - ثائرة متمردة على الناس وعلى نفسها، فهي لا تهدأ ولا تقر،

وهي تكشف لك عن هذا الجانب من شخصيتها فتقول: إن نفسي لا تكاد تريح ذاتها من بعض ما تنوء به من أعباء الفكر، حتى تشعر أن ما خرج منها ليس إلا جزءاً من العبء الذي يزخر فيها فيعاودها القلق والاضطراب، وكلما حاولت التخلص منهما رجعا إليها بصورة أشد وأقوى، لهذا قلما تنعم نفسي بالراحة وتسعد بالاستقرار، وإن هي بلغتهما فسعادتها بهما لا تتجاوز اللحظات. . .

وماذا تكون آراء ومشاعر هذه النفس الثائرة وهذه الروح الشرود؟

هي آراء صارمة تتخطى القيود والحواجز، آراء تستمد الحجة من منطق القلب أكثر مما تستمده من منطق العقل، وإنها لتشتد صرامة وعنفاً إذا ما انطلقت في جانب الوطن والقومية العربية، فأنت إذ تسمعها في (يوم الإسكندرونة) وفي (موقف لبنان من الأقطار العربية) وفي تحيتها (إلى شباب النادي العربي) وفي حديثها عن (أثر المرأة في النهضة القومية) نعم أنت إذ تسمعها في هذه المواقف وأشباه هذه المواقف فإنما تسمع زئير الأسد الهائج لا بغام الظبية الشادية!

وهي مشاعر مرهفة تفيض بكثير من حر الجوانح والألم الممض، فأنت إذ تنصت إليها وهي تتحدث عن (النفس الحيرى) و (الوفاء المفقود) و (الضحكة التي تخرج من أعماق النفس) وفي رسالتها (إلى مي) خلبك منها الشعور الدقيق الرقيق، والأناقة الفنية، والنعومة الرافهة، كما يقول الأستاذ خليل مردم

وهذه الآراء وتلك المشاعر هي زفرات متقطعة صعدتها الآنسة المهذبة في فترات مختلفة على صفحات الصحف المصرية والسورية فجاءت قطعة من نفسها وروحها تجري في أسلوب له رنين صوتها وجرسه، وإن كان لا يخلو من هفوات في اللغة والنحو. وإذا كان للآنسة من الآراء والمشاعر ما لا يوافقها عليه القارئ فأحسبها قد تحللت من هذه المؤاخذة إذ سمت كتابها (آرائي ومشاعري)، ولكل إنسان رأيه في الحياة، وليس من الإنصاف أن يتحكم إنسان في شعور إنسان!

قد يكون من الصعب على الباحث وخصوصاً في الأدب العربي أن يتبين شخصية الشاعر واضحة صريحة في قصائده ومطولاته التي يحفل لها بقوة الأسلوب، ومتانة القافية، ونباهة الموضوع. فكثيراً ما يضطر الشاعر في مثل هذه المواقف إلى تملق العواطف في الناس، أو مراعاة الرغبة عند حاكم مسلط، ولكنك قد تتبين شخصية هذا الشاعر على أجلى ما تكون في مقطوعة يرسلها على هواه، أو أبيات صغيرة يقولها فيما بينه وبين نفسه!

وهذه الأشعة الملونة للشاعر أحمد الصافي النجفي هي نبرات متقطعة، وألحان قصيرة أرسلها في لحظات متباينة؛ ونظمها في ظروف مختلفة، وفي نواح متعددة من نواحي الحياة، وفي مكنونات النفس البشرية، ورسوم الأخلاق، وشواذ الكون، وغرائب البشر،

وبالجملة فهي شعور الشاعر تجاه ما يحس وما يرى، وناهيك بإحساس الشاعر المرهف، ونظره الفاحص المستوعب، وكأن هذا هو الذي أطمع الشاعر في أن يقول:

كل بشعري واجد نفسه ... ففيه أسرار الورى المودعة

وقد يكون في هذا إسراف من الشاعر في جانب قرائه، ولكنه لا شك ليس بإسراف في جانب شخصيته هو، فأنا لا أعتقد أن كل إنسان سيجد نفسه في شعر الشاعر الصافي، وإن كنت أعتقد أنك ستجد نفس الصافي في هذا الشعر شفافة مترقرقة، وحسب الشاعر الخالد هذا، وحسب الصافي أن يقول في الكشف عن نفسه:

عندي عيوب بنفسي سوف أظهرها ... لأن إخفاءها مكر وتدجيل
والعيب يجدر أن يبدو ليعرفه ... كل الأنام فلا يعروه تضليل
إني وإن كنت في جهل له صغرت ... نفسي فأجهل مني العصر والجيل
بعوضة أنا في الدنيا وحين أرى ... بعض الورى فكأني بينهم فيل

وأن يقول:

أنا طائر لا يرتضي الأرض مسكناً ... كأني بين الجو أبحث عن عرش
ولكن دهري قص جنحي وأرجلي ... فما حال طير لا يطير ولا يمشي؟

ويعجبني من الصافي روح متمردة على التقليد بين قومه فيقول:

تقلد يا شرقي غيرك دائباً ... فتحسب موجوداً وما أنت موجود

لقد سلبك التقليد عقلك كله ... فشخصك موجود ورشدك مفقود
تقلد في أكل وشرب وملبس ... ويعروك للتقليد في الليل تسهيد
تقلد حتى في انتحار وميتة ... فعيشك تقليد وموتك تقليد
وإنه لينكر ذلك التقليد على نفسه فيقول:
كم سرت متبعاً غيري لتهلكة ... وكم ندمت لدن أحسست بالألم
ندمت دهراً ولكن لم يفد ندمي ... وهاأنا نادم دهراً على ندمي
وأحب أن أنبه الشاعر الصافي إلى العناية بالأسلوب، فإن قوة الأداء وروعته ضرورة لازمة للشاعر حتى يستطيع أن يؤثر، ولا شك أن اللفظ قوة تشد أزر المعنى وترفع من قيمته، ولكن الأستاذ يتهاون في هذه الناحية حتى ليهمل حق اللغة في بعض الأحيان، وحتى
ليبدو أسلوبه مهلهلاً كالثوب الخلق. هذا وإنه ليحرص على أبيات تافهة فجاء ضوءها في الأشعة الملونة ضئيلاً باهتاً كما يقولون
محمد فهمي عبد اللطيف
المسرح والسينما
قبل وداع الفرقة القومية
المال والبنون
حديثنا اليوم عن رواية (المال والبنون) وهي واحدة من الروايات التي فاز مؤلفها بجائزة في المباراة التي أقامتها الفرقة، وعن حظ هذا المؤلف، وقد مثلت له الفرقة في هذا الموسم أيضاً رواية أخرى اسمها طبيب المعجزات
الكلام عن الروايتين لازم واجب، أما الحديث عن الحظ فقد يجرنا إلى التساؤل، وإلى الحدس والتخمين، وإلى نقل ما يقوله الأدباء في مجالسهم عن الحظ والمحظوظين، وعن الوسائل التي توصل الأديب المغمور إلى الحصول على كلمة السر التي تجعل منكود الطالع سعيداً وإن كان جبل في الأصل من طينة فيها جميع خصائص الشقاء وعناصر التعاسة. ولذلك سنضرب صفحاً عنه لأن غايتنا من نقد الفرقة كما قلنا هي تقويم اعوجاجها وذلك أمر مستطاع لا شك فيه. وإن رجال الفرقة في زعمنا مهما تصاموا عن سماع كلامنا، وتغاضوا عن نقدنا، وأسرفوا في تأويل البواعث على متابعة الكتابة في إظهار العيوب التي أوصلت الفرقة إلى المنحدر الخطر، ومهما حاولوا المكابرة في احتمال سهام الحقيقة الجارحة فإنهم ولا بد راجعون إلى أقوالنا وإلى نصائحنا، وإن الغفوة التي تثقل أجفانهم سيعقبها ولا شك يقظة وانتباه. ورب دغدغة أو وخزه تنجي من خطر محقق، وسيان أكان المدغدغ أو الواخز حبيباً أو عدواً، فضلاً عن الناقد الذي لا يعرف الحب والبغض في الأدب والفن
لن نتكلم إذن عن حظ المؤلف بل نقصر كلامنا على الروايتين، فالرواية الأولى (طبيب المعجزات) لم تتحدث الصحف عنها بخير ولا شر، والإهمال أقصى عقوبة يجازي بها المؤلف الفاشل. وقد انفردنا بتلخيصها للقراء ولم نشأ أن نعلق عليها مخافة أن نرمي بحب الهدم الذي يضعضع الناشئين أمثال مؤلفها الشاب، ولكيلا يقال إننا نتخذ أمثلة علياً من أدب المسرح الغربي نقيس بها أعمالنا وما برحنا في دور التكوين بعد. وسألخص رواية المال والبنون) أيضاً فأضعها نصب عين القارئ، وليسأل هو عن الباعث على تمثيل روايتين هزيلتين في موسم واحد لمؤلف واحد؟
والرواية حكاية شاب طبيب يدعو الناس بحرارة إلى اعتناق مبادئه التي يؤمن بها، وهي تتلخص في أن البنين آفة الزواج، وأن كثرة الأولاد مسغبة وفقر، وأن منع الحمل يساعد على الزواج المبكر، وأن تربية النسل متعة يجب أن تقتصر على الأغنياء، وأن تكرار الولادة خطر على صحة الأم، وأن لابد من تنظيم الحمل، ومن إيجاد مركز لرعاية الطفل، ومن فرض ضريبة على العزاب
وهذا الطبيب صاحب هذه (التشكيلة) من المبادئ له أنصار من الفتيات اللواتي يستمعن إلى القائل لا إلى ما يقول، وله معارضون ممن تعلموا في مدرسة الزمن أن مثل أقواله هراء في هراء، والطبيب هذا يحب ابنة عمه ويرغب في الزواج منها؛ غير أن والدها يمانع في هذا الزواج ويصرح باستحالته للطبيب، وقد حضر ليطلب يدها من والدها، لأنه قد اتفق مع عمه على تزويجه بابنته، والفتاة تصغي إلى نصيحة أبيها ولا تلتفت إلى عواطف الشباب ونزواته وتقبل أن تتزوج من عم الدكتور وترفض الدكتور

نفسه وتجابهه بهذا الرفض
وإذ يسمع الطبيب بانصياع الفتاة لأقوال أبيها ورضاها بالزواج من عمه الهرم يهرب من المدينة ويذهب إلى إنجلترا في بعثة يعود منها بعد خمس سنوات فيجد أن عمه قد مات وأن زوجة عمه رزقت غلاماً منه قد ورث كل ما تركه
استيقظ الحب الهائج في نفسه فعاد يطلب الزواج من أرملة عمه على الرغم أن لها ولداً، ولما تزوج منها أحب ولدها وصار يتمنى أن يكون له ولد من صلبه
كاشف زوجته بالأمر فناقشته في آرائه ومبادئه فأعلن تنازله عنها، واقتادها إلى طبيب أخصائي قال إن زوجته عقيم لا تلد قامت قيامة الطبيب يسائل من أين جاءت زوجته بابن عمه وهي عقيم، وثارت ثورته عليها فيلعنها ويصارحها بأنها امرأة عقيم مرذولة وأنها رضيت بالزواج من عمه لتستولي على ماله وتحرمه إياه. ويظهر أخيراً أن الولد الذي يقال إنه ابن عمه إنما هو ابنه قد استولده من فتاة خادمة أغواها وقد جاءت به جدته إلى هذه العائلة لترعاه، أما أمه فقد ماتت بعد الولادة
لقد أسميت مبادئ الدكتور بطل الرواية (تشكيلة) وقد افتن المؤلف حقاً في جعل وقائع الرواية تشكيلة تشبه (ألبوم) طوابع البريد فيه مجاميع مرتبة، هذه للدولة الفلانية، وتلك
للجمهورية العلانية؛ أما قيمة الألبوم فلا يقدرها إلا المهووسون العاطلون الذين ليس للوقت عندهم قيمة
أنا لا أقول إن تقدير رجال الفرقة القومية لهذه الرواية ولأختها التي صنفها المؤلف ومثلتهما الفرقة في موسم واحد هو من نوع تقدير الهاوين لمجاميع طوابع البريد؛ ولكني أسأل هل الإفلاس حفزهم إلى تمثيل روايتين ضعيفتين عرضاً وموضوعاً، أنهم قدروا في مؤلفهما نبوغاً قصرت مداركنا المتواضعة عن فهمه؟
تدل المسارح القومية الناس في فرنسا وفي غيرها على تطوير الروح القومي، وعلى معيار فهمه للحياة، فهل مسرحنا القومي بمديره اللوذعي، ورجال لجنة القراءة، وأبطال التأليف، وما مثلته الفرقة خلال أربع سنوات يدل من قريب أو بعيد على تطور الروح القومي المصري، وعلى معيار فهمه للحياة؟
اللهم كلا!
من المفهوم (أن حياة الأب إن لم تتصل بنفس الأديب وروحه، وإن لم يظهر وحيها في آثار حياته كان الأدب فاتراً ضعيفاً. وهذا عين ما لمسناه من فتور وضعف في روايتي المال والبنون وطبيب المعجزات اللتين طاب للفرقة القومية أن تتحف الناس بهما في موسم واحد
ومن المعروف أيضاً عند الأدباء أن خير ما يكفل وضوح ذاتية الأديب في أدبه أن يتصل ما يكتب بقلبه وعقله وكل حياته، وليس ذلك بمستطاع إلا حينما نصف حياتنا وحياة آبائنا والبيئة التي أنبتتنا، والوراثة الكامنة فينا، فنصل بذلك حاضرنا بماضينا، ونصور حياتنا، وحياة قومنا ووطننا، وكل ما توحي هذه الحياة للعقل، والقلب، والحس، والشعور. فهل في هاتين الروايتين الموضوعتين ما يلمس هذه القواعد المعروفة عند كتاب الرواية؟
المفروض أن الرواية إنما تصور الحياة تصويراً صادقاً تمليه العاطفة، ويحلله العلم، ولكن مؤلف رواية المال والبنون إنما ترك الحوادث للمصادفات، ولم يلتفت ألبته إلى تحليل هذه الحوادث ومراقبتها، وتقدير احتمالاتها، واستشعار المستهجن فيها والنابي عن الذوق، والمتنافر مع الواقع، والبعيد عن الحياة المصرية وبيئتها
لم يبق مما تمثله الفرقة في موسمها الحالي سوى رواية واحدة. وأرى لزاماً علي، خدمة
للفرقة التي يحرص على بقائها كل أديب يتمنى الخير لأمته ويفاخر بنهضة هذه الأمة الفتية، أن أواصل النصح في إظهار العيوب التي رآها الناس رأى العين وشعروا بها بارزة في أعمال هذه الفرقة التي أسموها قومية، فإن أفلحت في إيقاظ ما هجع من هم رجالنا فذلك حسبي، وإن لم أفلح فسأدأب حتى تفوز الفرقة القومية بالنجاح والظفر والمجد
ابن عساكر
العدد 306 - بتاريخ: 15 - 05 - 1939

مناسبة الأربعين
حزن المليك الطفل

هذا اليوم هو الأربعون لمصرع الملك الشهيد غازي الأول. واليوم الأربعون هو في عرف الناس أو الناسين آخر الخطوات في تشييع الحي للميت! فهل آن للجوانح الحرار أن تبرد على سلوان ابن فيصل ونسيان أبي فيصل؟! كل حي إلى حين؛ وكل ذكرى إلى نسيان؛ وكل أثر إلى طُموس؛ ولكن أمثال غازي من ملوك الأرض وشباب الملوك وأزيان الشباب هم ملء السمع والبصر والقلب والتاريخ، فلا يملك الدهر أن يمحو ما لهم في صحيفة الخلود من ذكر وأثر. وإذا استحال على الزمن أن ينسى دولة العراق، استحال على العراق أن ينسى أسرة فيصل. لأن أسرة فيصل هي الأساس المكين لبنيان العراق الحديث: قام على جهادها استقلاله، وورفت على رِيّ دمائها ظلاله، وسارت على نور هداها نهضته.

كان الملك فيصل الأول برد الله بالرحمة ثراه، مثال الرجولة العليا التي يتيحها القدر المديل لإحداث ثورة وإنشاء دولة وإقامة عرش. وكان هو وصحبه البهاليل من أبطال الثورة العربية رموز الحيوية الثائرة والخبرة القادرة والإرادة الحكيمة. جاهدوا حتى تحرر الوطن، ونادوا حتى استيقظ المجد، وأسسوا حتى بني الشباب. ثم قضى وقضوا شهداء في سبيل العراق الخالد، ولا تزال أرواحهم الطاهرة تشرق في جوه، ودماؤهم الزكية تعبق في صعيده.

وكان الملك غازي الأول سقى الله بالرضوان ضريحه، قائد الجيل الذي نشأ معه على قوادم الصقر القرشي الجبار؛ فكان من طبعه الموروث - مهما أبطأ نمو الريش أو أرعد عليه الأفق - أن يرتفع بشعبه الطموح الناهض. وكان بشبابه الفتيان الواعد عنوان الأمل المعقود على فتوة العروبة في توثيق العقدة وتحقيق الوحدة، ثم كان بأريحيته العربية وسماحته الهاشمية نموذج الحكم الرضيِّ الرفيق الذي تسود في عهده الشورى، ويخصب في ظله الفكر، وتعز في كنفه الديمقراطية. فلما صرعه القدر هذه الصرعة القاسية ارفضَّ لهولها صبر الشباب والكهول من العرب، لأنه كان في رأي هؤلاء سر الماضي وذكرى يقظته، وكان في نظر أولئك رجاء المستقبل وروح نهضته.

نعم كان فيصل الرجل، وكان غازي الشباب! وما آلم الإخبارَ بالكون الناقص عن الكون التام! ولقد كان الظن بالأيام أن تُبقي على فرع الحسين النابت على دجلة حتى يستغيل ويتشعب؛ ولكن أعاصير الخطوب كانت أقوى من منى القلوب وأصدق من أحاديث الأنفس؛ فلم يبق من أرومة فيصل الحرة إلا غُصنَةٌ غضَّة النبات تميل حزينة على الجذع المحطم، كما تهوِّم الزهرة الوحيدة على القبر الموحش!

وا رحمتا للوليد المليك! كان له بالأمس صديق لا يخلق الله من نوعه غير واحد لكل. وكان هذا الصديق يقبس نور عينه من نوره، وسرور قلبه من سروره، وغبطة حياته من غبطته؛ ثم لا يرى وجوده كاملاً إلا به، ولا عيشه سعيداً إلا معه. فهما متلازمان كطيفي الجمال والحب، يتجولان يداً في يد بين رياض القصر، أو يتنزهان جنباً إلى جنب في أرباض المدينة، ويوزعان هنا وهناك البسمات الحلوة والتحيات الطيبة على حواشي الطريق أو في مماشي الحديقة، ثم يعودان إلى الأسرة الملكية بالرخاء الطلق والأنس الشامل، فتشرق غرفاتُ القصر السعيد بسناً باهر من جلال الملك، وجمال الطفولة، وعطف الأبوة، وحنان الأمومة، وأمان القدرة، ضمان الغد بالسطوة والثروة والولد!

وا رحمتا للمليك الطفل! أصبح اليوم وحيداً في القصر المظلم والعراق الحزين كأنه بصّة الأمل في القلب اليائس، أو ومضة المنارة في البحر المضطرب؛ ينظر فلا يرى الوجه المتهلل الذي كان يهش له، ويصغي فلا يسمع الصوت الحنون الذي كان يهتف به، ويمشي فلا يجد اليد الرفيقة التي كانت تمسكه، ويسأل فلا يجد اللسان الحلو الذي كان يجيبه، ويجلس على المائدة فلا يرى الفم الباسم الذي كان ينادمه!

أين أبي يا أماه؟ لقد خرج في الصباح من غير أن يسلم على وليده، ولم يعُد في المساء ليقبّل وجنة وحيده!

أين ملكي يا خالاه؟ لقد اختفت السيارة والموكب، وذهب الأمناء والحرس، وغاب الوزراء والقادة! ما لي لا أرى الناس إلا من وراء السواد؟ وما لهم لا ينظرون إليّ إلا من خلال الدموع؟ فهل غيبة أبي هذه الفترة القصيرة تجعل الناس غير الناس، والدنيا

غير الدنيا؟
ثم وقف المليك الطفل ساهم الوجه حالم النظر، يسأل فلا يجاب، ويفكر فلا يدرك، ويبحث فلا يجد، وينتظر فلا يلقي، حتى أعياه الأمر فأستسلم لشواغل الطفولة، واستنام لوعود الحاشية، وراح ينشد أنسه الوقتي في صحبه خاله، ريثما يعود إليه أنسه الدائم بعودة أبيه!
ولكن أربعين صباحاً وأربعين مساء مضت ثقيلة الأطراف موحشة العشايا مظلمة البُكَر، والصديق لما يعد إلى الصديق، والوالد لما يسأل عن الولد! واستيقظ فيصل الصغير الكبير من نومه القلق وحلمه المزعج، فوجد ظهره يبهظه عبء فادح، وجبينه يعلوه تاج ثقيل؛ وأبصر حواليه فوجد مهده الذي كان ينام فيه قد عظم حتى عاد عرشاً، وقصره الذي كان يلعب به قد أتسع حتى أصبح وطناً، وأباه الذي كان ينتظره قد تعدد حتى صار أمة!
احمد حسين الزيات
. . .ابن الشارع
للدكتور محمد البهي
. . .بائع الصحف
. . .وبائع (اليانصيب)
والذي يقفز إلى (الترام) أو إلى (الأوتوبيس) ليقدم لك بضاعته التي لا تساوي كذا. . . مليما
والمتسول الملح في سؤاله. . . وحامل صندوق (الورنيش) الذي يزعج المار والجالس بصوت فرجونه وترديد ندائه. . .
وجامع أعقاب السجائر. . . و. . . و. . . أبناء الشارع
الشارع إذاً معرض لكثير من الحرف والمهن، وسوق لعدد وفير من العارضين بضاعتهم التي إذا قومت فلا تقوم إلا بثمن زهيد، ويعرضونها في إلحاح ومذلة، ولكن في صبر وجلد ما الذي حمل هؤلاء على أن يدفعوا بأنفسهم في هذا السبيل؟ سؤال يلقيه على نفسه من يحضر لمصر للتنزه أو لدرس حالتها الاجتماعية، ويلقيه كذلك المصري دقيق الملاحظة. هل حملهم على اعتساف هذه الطريق الربح من غير تعب؟ لا أظن ذلك، إذ أن التعب شديد والربح ضئيل، وبعبارة اقتصادية العمل كثير شاق والإنتاج قليل الأثر، أي شيء إذاً؟ ألميل إلى (حفظ البقاء؟) وهو - كما يقول علماء النفس - أساس كل الميول الفطرية أو أساس لكل التصرفات النفسية غير الإرادية.
ربما يكون لك باعثاً لهم على السعي لجلب القوت فحسب. ولكن لماذا تحتم أن يكون الشارع ميدان الكفاح؟
هذه ظاهرة اجتماعية مزدوجة: تنم أولا عن شدة الحاجة من جانب (ابن الشارع) واستباحته الطرق والميادين العامة ومركبات النقل وإزعاج الراجل والراكب كوسائل لسد هذه الحاجة ودفعها، وثانياً عن مقدار الرعاية من جانب الحكمة لأفراد الأمة، أو عن مقدار اتجاهها نحو المصلحة الشعبية وبعدها أو قربها من المنفعة الشخصية.
كثير من الناس يلوم (ابن الشارع) ويزجره لأنه في نظره قد انتهك حرمات الغير بإزعاجه، وأساء استخدام المنافع العامة التي يجب أن تبقى مضمونة من العبث.
وكثير من الناس كذلك تدفعه العاطفة الإنسانية أو الرابطة الأخوية، رابطة الدم والوطن، إلى إجابة (السائل) أو مساعدة (جامع أعقاب السجائر) أو على الأقل إلى تأثره لحال (ابن الشارع) على العموم غير ناظر إلى ما يأتيه من أعمال لا تتناسب مع مظهر الجماعة المهذبة من البشر، بل بالعكس هو لا يرى فيها جرماً اجتماعياً ولا خلقياً من جانب فاعلها لأنه مرغم على فعلها، ليس من مرغم له - في نظره - غير حكومته.
فليست غاية الحكومة - في رأي هذا الأخير - فرض الضرائب وجمعها، ثم توزيع ما جمع منها على جماعة من أفراد الأمة، وهي طائفة من الموظفين كان المبدأ الحزبي أو العصبية والمحسوبية أساس اختيارها؛ لأن هذا معناه استغلال فئة خاصة لثروة الشعب من طريق هو أميل إلى الخداع منه إلى تعويضه عن ذلك بعمل إيجابي. وإنما غاية كل حكومة رعاية المصلحة العامة وضمانها لكل فرد سبل العيش بتنظيمها ثروة الأمة، وإنتاج الشعب، ولها مقابل ذلك طاعته لما تفرضه عليه من قوانين أو التزامات، وعلى مقدار تهذيبها للفرد وعنايتها به تكون درجة إنتاجه الذي هو جزء من الإنتاج

الشعبي العام.
رأيان إذاً في تكييف هذه الظاهرة الاجتماعية وشرحها، وبينهما فرق كبير. فابن الشارع إما مذنب في نظر العرف الاجتماعي أو على حسب مقياس أخلاق الجماعة، وإما بريء لأنه بعمله هذا قد استخدم حقه الطبيعي، وهو رعاية نفسه بنفسه حفظاً لبقائه بعد تحلله من رابطة الجماعة تحللاً نفسياً، لأنه شعر ووقر في نفسه كذلك عدم فائدة تلك الرابطة له. فليس ما يأتيه إذاً من إزعاج الغير وتجاوز الغاية المعروفة من الطرقات والميادين العامة منكراً؛ وإن جاز أن يعده قانون الجماعة منكراً، ولكنه اصبح لا يعترف به.
قد يكون هذا شرحاً لتلك الظاهرة من الوجهة الخلقية. وهو أيضا له أثره في الناحية القانونية. فالذي يرى براءة ابن الشارع هذا لا يعترف نفسياً بعقوبة القانون الذي يحاكمه على مباشرته لعمله (الطبيعي) وإن كان يتقبلها على أنها ظلم حل به.
وعلى ممر الأيام سيعتقد بما آمن به بعض قدماء الإغريق من أن (القانون الوضعي جعل لرعاية المصالح الذاتية، مصالح الولاة والحكام، مصالح الأقلية القوية الحاكمة ضد الرعية التي هي أكثرية ضعيفة). وإذاً فعقاب (ابن الشارع) على ما يأتيه مما ظاهره منكر من جانب واحد وهو جانب العرف الاجتماعي اضطهاد لوجوده أو هو عمل على فنائه.
ولكن هل هذا هو ما يشعر به حقاً ابن الشارع أو المنتصر له الذي يعطف منه أو تصدقه عليه؟ قد يكون؛ ويغلب أن يكون ذلك لأنك لو سألت ابن الشارع لماذا لا تعمل عملاً منتجاً أكثر وأحسن من هذا لأجابك على الفور: أين؟ وأي شيء هو؟
وما دام يسيطر عليه مثل هذا الشعور فقلما يكون منه احترام للقانون العام الذي هو قانون الجماعة، وقلما يعرف حرمة لعلاقته بغيره، وقلما يميز بين (مشروع وغير مشروع) حتى تشعره الحكومة بالرعاية وتعترف بوجوده وتعبد له طرق الحياة الشريفة.
ولعل من يلوم ابن الشارع على عمله يلومه لأنه يرى أن حكومة الدولة لم تذخر وسعاً في تعميم تلك (الرعاية) فأنشأت الملاجئ للمعوزين، والمستعمرات الزراعية للأطفال المتشردين، ثم منعت التسول، ثم نظم صاحب السعادة محافظ العاصمة الشاذلي باشا، بائعي الصحف (واليانصيب) بتميزهم بقمصان زرقاء أو صفراء. . . الخ
والواقع أن التدابير التي تتخذها حكومتنا في معالجة المسائل الاجتماعية ليست مبينة على أساس، لان الذي يحملها على ذلك إما التقليد غير الموفق، أو الثائر الوقتي لأمر ما، وغالباً تكون الدعاية الحزبية.
ولن تأتي (تدابير) رعاية ابن الشارع بثمرة ما دامت الحكومة لا تأخذ بمبدأ التدخل في تنظيم الاستغلال والإشراف على الإنتاج العام.
وسيظل ابن الشارع غير مجزم في نظر نفسه؛ وسيظل تضرر الغير به ما دام يباشر عمله؛ وسيستمر هو في مباشرته حتماً حفظاً لوجوده وتلبية لغريزة حفظ البقاء.

محمد البهي
دكتوراه في الفلسفة وعلم النفس من جامعات ألمانيا

من برجنا العاجي

من المسؤول عن فتور الحركة الأدبية الملحوظ في مصر؟ لا ينبغي أولاً أن نعلل ذلك بالحوادث الدولية، فإن الفتور كان دائماً موجوداً في جونا الأدبي قبل أن تنشأ هذه الظروف. ثم إن المشاكل السياسية وتأثيرها في النفوس والشعوب لم تحل في أوربا دون اهتمام الناس بشؤون الفكر وعناية الجمهور بالكتب والأدب، فما زالت الصحف الأدبية تتحدث هناك عن ظهور الكتب الجديدة والأدباء الجدد بعين الحماسة التي تتحدث بها في كل زمان. وما زالت المسابقات الأدبية والجوائز السنوية تهز الناس وتثير نشاط الكتاب كما تفعل في كل حين فأحداث السياسة مهما عظم خطرها لا يمكن أن تشل في أي بلد متحضر حركة الفكر والفن فيها. فالأمة الراقية شأنها شأن الإنسان الحي مهما عرضت له من الحوادث فإن رأسه دائماً هو الرأس اليقظ الذي لا ينى عن التفكير.
إذن ما بال هذا الرأس في بلدنا نائماً؟ وما بال الناس لا يشعرون أن في مصر أدباً يتحرك ويتطور؛ وان فيها أدباء يعملون وينتجون؟ ما يكاد يمضي شهر حتى تخرج

المطابع كتباً في الشعر والنثر، وما يكاد يمر يوم حتى يجيئني البريد بكتاب جديد أو بديوان شعر جديد. كم من الأدباء الجدد والكتاب الناشئين يخرجون عندنا في كل عام أعمالاً جديرة بالكلام؛ بل كم من الأدباء الناضجين ينشرون آراء خليقة بالمناقشة؛ ولكن كل شيء يمر في فتور كأنها نسمات في مدينة الأموات. ما العلة؟ العلة بسيطة. ما من أحد في هذا البلد يبدو علي التحمس الملتهب لشؤون الفكر والأدب. إن علة الفتور هي الأدباء أنفسهم. إنهم في ميدان الأدب أقل نشاطاً منهم في ميدان السياسة مثلاً. إنهم يكتبون في الأدب وكأنهم ناعسون. إن أقلامهم لا تثير في جو الفكر حراكا. وهنا الفرق بين أدبائنا وأدباء أوربا. إنهم هناك في يقظ أدبية ومن كان في يقظة استطاع أن يوقظ الآخرين.

توفيق الحكيم

طريق علاج المشكلة

وبعد. . . يا أيها الأغنياء؟!

للأستاذ علي الطنطاوي

ألم يأنِ لكم أن تخشع قلوبكم، وتلين أفئدتكم؟ أفقدت من حجر؟ إن آيات (الزيات) البينات تلين الحجر، فما لقلوبكم ما رقت ولا لانت؟ إلا تكلفون نفوسكم تحريك أجفانكم وفتح عيونكم لتروا صرعى البؤس، وضحايا الفاقة، ماثلين لكم في كل سبيل، فتأخذكم بهم رحمة الإنسان، وتعرو قلوبكم لهم رقة المؤمن؟ أني لأحاول أن أفهم كيف تزينون لأنفسكم حالكم، وتبررون أعمالكم، فلا أستطيع. . . لا أستطيع أن أتخيل كيف يهنأ صاحب القصر بطعامه وشرابه، وكيف يدلل صبيته ويضاحك عياله، وعلى عتبة قصره، وتحت شبابيكه، صبية مثلهم برءاء، ما جنوا ذنباً، أطهار ما كسبت أيديهم جريرة، يبكون من الجوع ويشتهون قطعة من الرغيف الذي يلقيه الغني لكلبه السمين، يتمنون ويتمنى آباؤهم قرشاً من الجنيه الذي يرميه الغني في الهاوية الخضراء التي يسموها (مائدة القمار) أو يذيبه في كاس السم التي يدعونها (الشمبانيا) ثم يخرج جنيهاً غيره بعد لحظة ليتبعه الأول، ويتبع به عشرات. . . يتمنون هذا القرش الواحد ليعيشوا به يوماً، ويملئوا به بطونهم خبزاً، فكيف تضنون على الإنسان المسكين بالقرش، وتنفقون الألوف على الشيطان، وعلى خراب الأبدان والأوطان والأديان؟

إننا نقرأ في الصحف من أنباء أوربا وأمريكا أن لأغنياء لقوم مآثر وعطايا، ولهم في كل مكرمة السهم الراجح والقدح المعلّى، ونسمع أن فيهم من يعطي العطية وهو مستتر مستحٍ لا يحب أن يدعى باسمه، وإنما يتسمى من التواضع والحياء بـ (فاعل الخير). . .

فما لأغنيائنا الذين يقلدونهم في عيوبهم ومثالبهم، لا تشبهون بهم في مزاياهم وفعالهم؟ وما لأغنيائنا دون أهل الأرض قد اختصوا (بفضيلة. . .) الترفع عن الفقراء، والتعالي على أبناء هذه الأمة التي انحدروا منها وبفضلها عاشوا، وإنكارها إنكاراً ظنوا معه أنهم من طينة غير طينتها، وأن الله صنعهم من الأسمنت حين صنع البشر من الطين، وأنهم أنباء ماء السماء والناس بنو (ماء الأرض. . .؟).

أكانت علة ذك أنهم شرقيون، وكان لسبب هذا الشرق المظلوم، المتهم بكل نقيصة؟ قد يقول ذلك المفتونون بالغرب من ضعاف الأحلام ومرضى العقول، في حين أن الكرم والإيثار بضاعة شرقية، من الشرق قد صدرت. . . ولقد بلغ بالعرب حب اكرم مبلغ الإفراط، وزاد حتى كاد ينقلب نومة يؤخذون بها، فكيف يستقيم في المنطق (مع هذا) أن

يكون هؤلاء الأغنياء بخلاء لأنهم شرقيون، أو لأنهم عرب؟ وهذه عادات العرب، وهذا دينهم هو القانون الأوحد الذي يحل مشكلة الغني والفقير، والذي يرد عن العالم هذا الوحش الكاسر الذي جاء يحتويه بين فكيه اللذين هما الشيوعية والفردية، ويدعه أثراً من الآثار، فكيف تظهر مشكلة الغني والفقير في البلد الذي يدين أهله بهذا الدين؟

لا. ليست الشرقية علة هذه المشكلة، ولكن العلة كفر هؤلاء القوم بالشرقية ودينها وعاداتها كفراً لا يصلح معه تنبيه ولا بيان، وإنما يصلحه أن ينشأ أبناء هؤلاء الأغنياء الأشحة على الخير، الأسخياء على الشر، نشأة أخرى ينقلبون معها ناساً آخرين، ولا يكون ذلك إلا بالمدارس والأدب، ولقد كان عندي في إحدى مدارس دمشق فصل (صف) فيه أبناء أفقر الفقراء، وأنباء أغنى الأغنياء، وكانوا في الفصل منفصلين. . . كأنهم في معسكرين، وكان هؤلاء يأتون إلى المدرسة بالسيارات ويوصلهم إلى بابها

الخدم يحملون كتبهم كيلا تتعب بها أيديهم الناعمة، ويدخلون الفصل مزهوين بثيابهم الجديدة، وأولئك ينظرون محسورين ملوعين. فما زالت (والله) بهم أبين لهم أن الفضل بالعلم والخلق والجد لا بالمال والثياب والمظاهر، وأضرب لهم الأمثلة بعمر وعلي وابن عبد العزيز ولنكولن والشيخ طاهر، وانزل بالأغنياء لأعلمهم فضيلة التواضع، وأرتفع بأولئك لألقنهم فضيلة العزة، حتى صار بنو الأغنياء يستحيون أن يأتوا بالسيارات ويتوارون حياء وخجلاً إذا جاءتهم عند منصرف التلاميذ لتحملهم إلى دورهم وقد كانوا لا يستحيون ولا يخجلون. وكانت النتيجة أن المعسكرين قد انقلبا إخواناً متصافين وظهر في كليهما تلاميذ نابغون ما كانوا لينبغوا أبداً لولا أن ألقوا من نفوسهم مذلة الفقر وكبرياء الغنى واستبدلوها بعزة الكرامة وعظمة التواضع!

فيا ليت أن المدرسين ينتبهون جميعاً إلى هذا الأمر فيسدون إلى الأمة يداً ويكسبون من الله أجراً، فإنه لا شيء أشد على نفس الفقير من أن يتحكم فيه أو يسمو عليه ابن الغني. وأنا (قد) أحمل ما أرى من صلف الغنى وأوهم نفسي انه قد كسب ماله بيده وجده فحق له أن يستمتع بثمرته، أما أن أرى الصلف من ابنه فلا. . . فيا أيها الأغنياء لا تحملوا أبناءكم على رقاب الناس، فأنكم لا تدرون كم عدواً تكسبون لهم، وماذا تفسدون من طبائعهم حين تأبون إلا أن تدللوهم هذا الدلال، وتترفعوا بهم إلى حيث تبلغ أيديكم وأموالكم، حين

تمكنونهم من أولئك الذين ساقهم الفقر إليكم، واضطرهم فكانوا لكم خولاً أو أجراء، فيشمخون عليهم بآنافهم الصغيرة ويذيقونهم ألوان الأذى، والطفل (في الطبع) لا يعرف الرحمة، ولا يدري ما العقل فكيف وهو ابن الغني قد ورث القسوة وتطبع عليها وقلد فيها أباه؟ وإنا لنرى نحن المدرسين من ذلك العجب. . . هذا تلميذ يأخذ كل يوم من أبيه ما يقيم أود أسرة من هذه الأسر الجائعة فلا ينفقه إلا في الشر، والمال يذهب من حيث أتى. . . رأيته يضن على رفيق له فقير بقرش يقرضه إياه قرضاً ليشتري به رغيفاً يتغدى به، ويشتري بسعة عشر قرشاً فرّيّة (كاثو) يطعمها على مرأى منه لكلب له صغير مدلل يسوقه معه إلى باب المدرسة ثم يعود به الخادم في السيارة. وأبوه الغني يسمع بهذا فلا ينكره ولا يأباه. كأن الله قد خلق الناس بقلوب، وخلق هؤلاء بجيوب، فأبدلهم بالعواطف المال، فهم لا يحسون ولا يشعرون ولا يدركون أن الله ما نقص من مال الفقير إلا ليتخذ له في الآخرة إن صبر ذخراً، ولا زاد في مال الغني إلا لينظر أأعطى وشكر، أم بخل واستكبر، ثم لا يكون الغني إلا خازناً لهذا المال يحاسب به يوم القيامة فيشدد عليه الحساب. أفرأيت خازناً في مصرف أو شركة يطن أن المال ماله، فيخالف فيه أمر أصحابه، ويمنعه عمن هو حق لهم؟

المال أيها الأغنياء مال الله فإن زاد لم يمكن إنفاقه إلا على الخلق (عيال الله)، فأروني كيف تأكلون الذهب، وتلبسون (البنكنوت)، وتسكنون صناديق الحديد؟ أن هي إلا معدة تمتلئ بما يقذف فيها والجوع لها خير أدام، وجسد يستقر بما يلقى عليه والنظافة له أحسن حلية، وبيت يكِن من الحر والقر، ولذائذ محللة ميسورة، وما وراء هذا إلا أكل يفسد الهضم، أو وزناً يهد الجسم، وخمر تحرِ الأحشاء، وبلايا معها بلايا أخرى من عذاب الضمير والغفلة وضياع الإيمان، أو مآثر تنفع الناس، وترضى الله، ويجد صاحبها مكافأتها الاطمئنان والمجد في الدينا، والثواب من الله في الآخرة، وهذه حكمة واحدة من حكم الله في الغنى والفقر لو تدبرتموها لفتحت آذانكم فسمعتم كلمة الحق، وكشفت الغشاوة عن عيونكم فقرأتم في خلق الله وفي كتابه آيات الهدى، ولكن اللذاذات قد شغلتكم يا أيها الأغنياء الأغبياء!

على أنه ليس اشد على الفقراء من منع الغنى المترف صاحب الأطيان والمتاجر وبخله وصلفه وتبذيره. . . إلا الموظف الكبير الذي ينال وهو قاعد على كرسيه لا عمل له إلا تشريف أوراق الدولة بتوقيعه الكريم فينال الثمرة التي يتعب فيها الفلاحون، يجدون ويشتغلون في وقدة الضحى تحت الشمس المسعرة، وفي زمهرير الليل تحت النجوم التي ترتجف أشعتها من البرد، ليقدموا لهذا الموظف الكبير ثمن سيارته التي يسوقها ابنه خلال الحقول تياهاً مستكبراً، وقصره الذي يلوح بين بيوت القرية كالجبار العابس الباسر، وثمن كأسه المحرّمة ولذته المنكرة، ويذهبون فيأكلون خبز الشعير وينامون على الحصير. هذا الموظف الذي لا يكفيه وحده ما يدفعه أربعون من صغار (المكلفين) تباع فرشهم من تحتهم وقدورهم وثيابهم لتؤدي من تحتها الضريبة. هذا الموظف

يستعلي ويستكبر ويقبض يده عن الإحسان ويبسطها في سبل السوء، ويتشبه بأولئك الأغنياء الأغبياء وقد يسبقهم في ذلك أشواطاً، ومن كان في شك مما أقول فليذهب إلى القرى والدساكر. . .

ولسنا والله شيوعيين ولا يرانا الله ندعو إلى هذه اللعنة (الحمراء) ولا نؤلب الناس بعضهم على بعض، ولكنا ندعو إلى (الشعور) الذي لا يكون الإنسان إلا به إنساناً، والإحسان هو شعبة من شعب الدين الإسلامي. . . فمن اختار من الأغنياء وأرباب المرتبات الضخام ألا يكون إنساناً ولا مسلماً فليفعل!

على أن ما قلنا ليس إلا صدى لمقالات الأستاذ الزيات التي تتجاوب اليوم أصداؤها في البلاد العربية، وفي الذي يقول الزيات بلاغ وزيادة.

(بغداد - الأعظمية)

علي الطنطاوي

الفلسفة الصغرى للحياة

كيف ينبغي أن نعمل؟ - 1

للكاتب الفرنسي أندريه موروا

ترجمة الأستاذ صلاح الدين المنجد

هذه أولى خمس محاضرات ألقاها لثلاثة شهور خلت، الكاتب الاجتماعي الكبير (أندريه موروا) عضو المجمع العلمي الفرنسي، جلا فيها على القراء فن العمل، والتفكير والحب، والزعامة؛ وبين في إحدى المحاضرات كيف نسقى سعداء ناعمي البال، إذا خلا الشباب واشتعل الرأس شيبا.

وقد نقلنا هذه المحاضرات إلى العربية لما لافتة من إعجاب، ولما فيها من آراء ذات شأن.

(المنجد)

هل علينا من حرج إن ذكرنا ما يقوله المعجم عن (العمل) فناقشناه وبينا النقص الذي فيه؟. . . فإن حديثنا هذا ربما ملك علينا أمرنا فدفعنا إلى الإفاضة فيه. يقول المعجم: (العمل هو إنفاق جهد متعب لإتمام شيء). ولكن هذا التعريف ناقص غير واف، لم يكون الجهد متعباً؟. . . لندع المعجم إلى أربابه ولنضرب الأمثال: هذا صانع جرار يعمد إلى قطعة من صلصال فيسويها شكلاً يريده ويرضاه. وهذا حارث يشق الأرض ويذللها للزرع، فلا تلبث أن تهتز وتنبت الخيرات. وهذا كاتب قصصي يخلق كائنات يخلع عليها من عبقريته وخياله جمالاً، ثم ينضح فيها من روحه سحراً. . . مستمداً عناصرها من البيئة التي تحيط به فتملأ سمعه وبصره، فيأتي بأثر رائع لا يفنيه الحدثان.

فالعمل - كما اعتقد - هو تسليط قليل من التبديل والتحوير على العناصر التي نأخذها عن الطبيعة؛ مما يجعلها أكثر فائدة وأشد جمالاً. وهو كذلك دراسة القوانين التي يخضع لها ذلك التبديل، وتبيان حدوده ومداه.

ولقد عرف (باكون) العمل عند ما عرف الفن، فهو يقول: الفن هو الطبيعة مضافة إلى الرجل؛ أي هو ما نأخذه من الطبيعة، وما نضيف إليه من أشياء، يظهر فيها أثر تفكيرنا وعبقريتنا. والحق أن كل عمل يجب أن يكون فنا.

وسأذكر بادئ الأمر القوانين التي لها صلة بكل عمل، ثم أفصل أحكام عمل الصانع اليدوي، وعمل المرأة في منزلها، والطالب في مدرسته، والفنان في مصنعه، والكاتب في مكتبه.

وعلى الرغم من وفرة الأعمال وتعددها، فإن هناك قوانين تصلح لها كلها. فاختيار العمل الذي نجد في أنفسنا قدرة عليه وحباً له، هو أول ما يجب أن نفكر فيه. فإن قوة المرء وذكاءه محدودان لا يتسعان إلا إلى مدى. والمرء الذي يريد أن يقوم بكل عمل لا يتقن شيئاً. ألا تنظرون إلى أولئك الذين أوتوا مواهب شتى؟ يقول أحدهم: لو أني عانيت الموسيقى لحذقتها. ولو أني عالجت السياسة لسار ذكري واستفاضت شهرتي. فكل عمل هين لديّ. إنهم يكونون من هواة الموسيقى لا من غواتها. . . ومن المفلسين في التجارة لا الرابحين منها. . . ومن الفاشلين في السياسة لا الناجحين. لقد كان يقول نابليون: إن فن الحرب يوجب أن يكون المرء قوياً كأشد ما تكون القوة، في مضمار واحد. وأنا أقول إن فن العيش يوجب أن يستهدف المرء في هذه الدنيا أمراً، فلا يزال يوجه إليه قواه، ويسخر له مواهبه حتى يظفر به. ولذا كان خطأ أن ندع

للأقدار دائماً مصير عملنا في الحياة. فالحياة جهاد ونضال، ومن لم يعدّ نفسه لها فقد باء بفشل عظيم. . . يجب أن يسائل الرجل نفسه فيقول لها: ترى أي عمل أستطيع أن أكون له كفؤاً؟. أنظر إلى ميولك ومواهبك، ثم فكر طويلاً، في نفسك، وفي أبنائك؛ فإذا كان لديك ولد ذو بأس شديد وقوّة، فأرسله إلى الجيش، ودربه على الطيران، لأنه لا يصلح لأن يكون رئيس ديوان.

فإذا اختار المرء مهنة رضى عنها. . . فإنه واجد فيها أموراً لابد من أن ينتخب منها أمراً واحداً، ترضاه نفسه، ويقبله هواه. فالكاتب لا يستطيع أن يبدع الأقاصيص أو الروايات كلها، والسياسي لا يستطيع إدارة الوزارات جميعها. . . والمسافر يعجز عن اجتياز الأرض من شمالها إلى جنوبها. ولابد لنا من أن نكون في بعض الأحايين صماً لما تهمس به أهواؤنا في خاطرنا. . . فتسيطر على إرادتنا وتدفعنا إلى تنفيذ شيء. فكرّ طويلاً، وقدرّ كثيراً، فلديك الوقت المتسع، ولديك التفكير، وكن كقائد الجند الذي يقضي على كل شغب بكلمة واحدة يلفظ بها أمام جنوده. . . فيستمعون إليه وينفذون أمره. نفذ أمر إرادتك كما ينفذ الجند أمر قائدهم، وقل لنفسك: ما عسي أن أصنع في عامي هذا؟. أأصلح للامتحان؟

أأطوف في البلاد. .؟ أأعمل في مصنع؟. . فكر طويلاً، وناقش آراءك نقاشاً هادئاً في زمن محددّ؛ واجعل لنقاشك نتيجة ترجع إليها، وتمضي في سبيلها، فإن التردد قاتل، والهوى مخيف.

فإذا اطمأن الرجل إلى عمله. . . فليتأت له، وليضع حيال ناظريه ما يستهدفه في سيره البعيد وهو واثق بأنه سيبلغ القمة يوماً، وإن عظم الجهد، أو طالت الطريق، لأن أول كل صغير كبير. . .

لقد جاء (ليوتي) إلى مراكش، فوجد بلاداً عاث فيها الساسة، لا رئيس ولا ذخيرة ولا مال. ولو أن من أتي إليها كان غير (ليوتي) لدب الرعب في قلبه، وسيطر اليأس على نفسه. ولكنه كان ليوتي العظيم. لقد بدأ بالمدن فجمع كلمتها، ووحّد صفوفها، وسخرها لما يشاء بما يشاء. ثم انتقل إلى البادية، فما زال يؤلف كلمة كل قبيلة، ويسيطر على كل نزعة، حتى بلغ ما أراد. . . بعد أن جهد طويلاً وتعب كثيراً. إن الحصار لا يحصد سنابل القمح. . . في الحقل. . . بنظرة، ولكن عوداً بعد عود. وإن منظفة الثياب لا تنزع الأوساخ عنها بلحظة، ولكن ثوبا بعد ثوب. . . والعامل الحق لا يهمه شيء، ولا يعرف الخيبة أو الفشل. . ويعلم انه سيبلغ ما يريد إذا اختار عمله، ثم قسمه، ثم مضى فيه. . . وويل للجبان. . .! يخاف كل عمل. . . فلا يعمل. أما الشجاع فهو الذي يستحق الحياة. .!

وأنا لا أعجب لشيء كعجبي لأولئك الذين يرسلون الشكوى من هذه الحياة وطولها. أنا أسألهم: هل يعيشون ثماني ساعات في اليوم؟ هل يعملون فيها عملاً حقاً؟ فإن الكاتب مهما كان هزيل القريحة إذا سوّد كل يوم صفحة واحدة يد في أيام شيخوخته تراثاً عظيما يجعله بين النابغين، كبلزاك وفولتير.

ولكن هل يكفي أن نجلس إلى المنضدة؟ ألا يجب أن نخضع لنظام في عملنا؟ فلا ندع عملاً قبل أن نفرغ منه، لأن اللذة بالعمل تتزايد تزايداً هندسياً إذا لم ننقطع عنه، وهذا الأمر حق عند الكاتب الذي يطلب وقتاً ينسى فيه العالم الخارجي ويتفرغ إلى أفكاره وآرائه، وهو أيضا حق عند الصانع أو الرئيس لكي يتقن العمل وينجو من شر المحيط.

وخليق بالعامل أن يبتعد عن البيئة الخارجية إذ ابدأ العمل، لأن هناك طفيليين لا يفهمون عنه ولا يشفقون عليه، فهم يتكلمون ويثرثرون، ولا يفكرون في أنهم لو تركوا من يتكلمون معه، لاستطاع القيام بعمل ذي شأن. فهؤلاء لا يزيدون المرء إلا ضراً. إنهم يسخرون منه، ويستهزئون به ثم يدعونه متحسراً على ما فات ضاحكين.

بوركت يا غوته! لقد أدركت الحقيقة من سنين وسنين. لقد قال: (يجب ألا تضيع وقتك مع أناس يأتون إليك دون أن تعلم. إنهم يفيدون منك عاماً ثم يدعونك. إن هذه الزورات لا تفيد شيئاً. إنها تفسد عليك آراءك، وتنقلك إلى عالمك الخارجي الذي هربت منه، بعد أن اصطفيت منه صوراً جئت لتخلع عليها مسحة من عقلك فتجعلها آية للناس. أنا غني عن أفكارهم فعندي ما يكفيني) وليحدد طرائق العمل، فإذا نظر فيما اختطه لنفسه بعد سنوات لقي كل شيء هيناً، فيثق آنئذ بقدرته ويرضى عن سعيه فلا

يتقاعس، ولا يخلد إلى الراحة والهدوء. على أنه يجب أن نعلم الأشياء التي تطلب عملاً مباشراً كي نقوم بها ثم نتكل على خطتنا ونسعى وراءها بملء قلوبنا. وليكن قلبك وعقلك متجهين دائما نحو الهدف. فإذا أصبته يوماً استطعت أن ترج على خُطاك.
تتلمس الطريق على هدى وتنظر إلى العقبات التي اعترضتك فتستمد من ذكرى ظفرك بها قو لعملك القادم وأملاً لعيشك الجديد إن النوابغ يدأبون بشغف على العمل.
فلا يدعونه حتى يفرغوا منه، ولا ينكبون على عمل آخر قبل أن يتموا الأول، وتكون عقولهم متجهة نحو طريق واحدة كما يقول المثل الأمريكي. وربما كان ذلك باعثاً على الضجر مسبباً للملل، ولكن ما أهناها ساعة يتغلب المرء فيها على العقبات، ويصل إلى هدفه ظافراً!
فإذا اخترت لنفسك عملاً، فانك تختاره حسب ما تستطيع أن تقوم به قواك، وتوصلك إليه مواهبك. ومن الخطل اتباع أمر لا نجح لك فيه. والفشل يشل القوى ويفقد النشاط. كان (غوته) ينصح للشعراء الشباب أن ينظموا قصائد قصاراً عوضاً عن ملحمة واحدة كبرى، لكيلا يفشلوا فيأسوا على ما فآتهم.
وكان صموئيل بوتلر يقول: (إذا أكلتم العنب، فابدءوا بما ينضج من حبّه) وجدير بالمرء في عمل صعب متشابك أن يجزئه إلى أقسام، ثم يعمد إلى كل قسم فيتمه. فإذا كانت أمامك طريق صعب طويلة تود أن تسلكها فقسمها إلى مراحل لأن من الصعب أن تمضي فيها وتصل إلى منتهاها في لحظات، ثم اقطع كل يوم مرحلة. . فلا تلبث إلا قليلاً حتى تجد نفسك في غايتك، دون إن تلغب نفسك أو تجهد جسمك. كن كالمصعد في الجبل الآمل في
بلوغ القمة؛ إنه لا ينظر أليها دائماً لأنه منهمك في الخطوة التي سيخطوها. . . أما القمة فإن بعدها سحيق. . . يخيفه ويشل قواه إذا حدق فيه. . فليمض رويداً. . وعسى بالعامل الدائب أن يصل إلى مبتغاه.
أن تدوين تاريخ لأمة من الأمم منذ أيامها الخاليات إلى أيامها الحاضرات لعمل صعب يخافه الناس. . . لأنه يبدو من أعمال الجبابرة الذين سما مقامهم وعظمت قدرتهم. ولكنك إذا قسمته إلى عصور وبحثت في كل عصر فإذا فرغت منه انتقلت إلى آخر غيره، لم تلبث أن تجد يوماً عملك الضخم بين يديك فتقف متعجباً دهشاً. ثم يثبت القلب بعد التجاريب، وتدب الحماسة في النفس، ويستولي عليها الاطمئنان؛ فإن الكاتب الذي ألف كذا وكذا من الكتب لا يصعب عليه إتمام كتاب بدأه. إنه يجسر كما جسر (مارتان دوكارد) و (دوهامل) و (جول رومان) و (لا كروتيل) على وضع عدد عظيم مما لا أستطيع معه صبراً. . .).
وقال أيضا: (إن الذي يتوق إلى الخلود ويود إخراج آيات فنية رائعة لجدير به ألا يدع هواه يسيطر على نفسه).
يقول الطفيليون لك: أين أنت؟ إننا لا نراك! تعال غداً لنلهو أو لنصيب طعاما معا. . .! فقل لهم ولا تخش شيئاً لست بحاجة إلى لهوكم وغدائكم. . . فدعوني وحيداً. . .
وكان (غوته) لا يجالس أحداً إذا انغمس في الكتابة أو النظم. . . فإذا جاء إليه رجل على الرغم من خادمه العجوز أرسل يديه إلى ظهره ولاذ بالصمت وتكلم بحاجبيه وعينيه، فيمل الزائر منه. . . ويدفعه هذا الصمت القاتل إلى الهرب. أما رسائله فكان ينتزع منها ما فيه فائدة وعلم، ويرمي بالتي يطلب أصحابها منه شيئاً إلى النار ويقول: (ويحكم يا شباب هذا العصر، إنكم لا تعرفون للوقت ثمناً. . .).
يقول نفر من الناس: هذا غرور بالنفس واحتقار للزائرين. فكم رجال عظماء كانوا يجيبون على الرسائل! وكم طفيليين هم جديرون بالرحمة والعطف. ويغالي هذا النفر. . . فيصم غوته بأنه رجل غير إنساني. ولكني أسألهم: هل يستطيع رجل غير إنساني أن يبدع لنا (فوست) الخالدة أو يخلق (وليم مستر) الرائعة؟ إن من يهمل أمره. . . يأكله الناس. . فيمضي دون أن يترك لنا أثراً نفيد منه. . . والرجل الذي يحب العمل، ويجد فيه لذة
ومتعة، ويقبل علي بشوق وحماسة. . . لا يريد إلا رجالا على شاكلته.
هو يساعد الناس. . . ولكنه يفر من الحديث السخيف، والثرثرة المخيفة. ولذا كان (غوته) ينصح أيضا للأديب أن يهمل حوادث يومه العامة، إذا لم يكن فيها ما يغذي خياله أو يهيج نفسه. فلشد ما نكون أغبياء، عندما تقضي ساعة من يومنا في الاستماع إلى

أخبار الحرب القادمة، وساعة في نتائجها. . . وأخرى في أسبابها. . . ولم نتقلد بعد كرسي الوزارة، أو نحمل عصا القيادة، أو نمسك بقلم الصحافة. . . إننا نسيء إلى بلادنا. . . لأننا ننفق الأوقات فيما يضرنا ولا ينفعنا، فحياتنا قصيرة. . . وبلادنا ترنو إلينا على أن النظام الذي اتبعه (غوته) في عمله وخضع له، هو نظام الإحساس الرهيف. ونحن لا نستطيع أن ندع أحاسيسنا تسيطر على أنفسنا، فتعجزها عن العمل. انظروا إلى العامل البأس الذي غدا إلى عمله، وترك ابنه في داره، فيعالج الحمى. . . فالفكر التي تملأ رأسه تغشى على سمعه وبصره، فيخلد إلى الأحلام. . . وتحف به الطيوف السود والأشباح المرعبة. وربما أمسك بالقلم ليخط رسالة. . . ولكنه يبقى صامتاً حيران. . . أمام ورقته البيضاء. . . تفر منه الكلمات. . . ويلتاث عليه الكلام

(دمشق)

صلاح الدين المنجد

أعلام الأدب

يوريبيدز

لغته. فنه. وطنياته

للأستاذ دريني خشبة

أعظم الآثار الفنية في عالم الآداب هي تلك التي لم يستطع أحد إلى اليوم نقلها من لغته إلى لغة. . . فالقرآن مثلاً لا تعرف قيمته الفنية إلا في اللسان الذي نزل به، وقد فشل الكثيرون في ترجمته ترجمة فنية سائغة تحتفظ ولو بالقليل جدا مما اختص به أسلوبه القوى البارع المسبوك المتين من بلاغة واتزان وموسيقى وشدة أسر. . . وكذلك الإلياذة والأوديسة والأنييد وفردوس ملتون. . . إنه لا توجد لهذه الآيات الأدبية الفنية البارعة ترجمات تعادلها فيما امتازت به من خصائص لُغَاها التي ألفت بها، فما تستطيع الترجمة إلا أن تشوه جمل الأصل وتمسخه مسخاً. . . ومثل هذا يقال في درامات يوريبيدز، فإنه لم يستطع أحد ممن نقلوها إلى لغاتهم أن يحافظ على روح الشاعر العظيم وقوة بيانه. وهذا شللي أحد عباقرة الشعراء الإنكليز وأحد المعجبين بيوريبيدز والمتمكنين في اللغة اليونانية القديمة. . . لقد أحصى له النقاد أخطاء كثيرة في ترجمته درامة السيكلوبس. . . ثم عدوا له ضروباً من الشطط ابتعد بها عن الشاعر العظيم. . . ولقد كان شللي معذوراً من غير شك، فلقد بلغ يوريبيدز الذروة بالبيان الأتيكي واللغة الاتيكية. وقد كان مثل أبي الطيب في الشعر العربي، ارتفع ثم ارتفع، فلما مات لم يخلق الله له ندا يحلم بمرتبته في الشعر والحكمة. هذا ولقد أوتي يوريبيدز أضعاف ما أوتيه أبو الطيب من قوة الأسلوب وعمق التفكير، لا في بيت، أو مقطوعة، أو قصيدة، أو مرثية أو مدحة؛ وإنما في درامة طويلة فيها حوار وفيها خطاب وفيها غناء وفيها بكاء وفيها تدبير وفيها تصور لحادثة متشعبة، هي كالكائن الحي، يملأ المسرح، ويملأ الآذان، ويملأ الأبصار، ويملأ القلوب.

أنهت الدرامة بعد يوريبيدز في تاريخ الأدب اليوناني. . . هكذا يقول المؤرخون. . . وهم يقصدون الدرامة العالية ذات الفن الرفيع. . . وقد عاش يوريبيدز يؤلف للمسرح قرابة خمسين سنة، ومع ذلك فقد عاش غريباً في قومه، بغيضاً إلى غالبيتهم المغيظة المحنقة لشدة ما ثار بتقاليدها وسخر من أفهامها. . . فلما مات. . . أخذ يعيش بأدبه العالي من جديد، وأخذ يخلب القلوب ويسحر الألباب بدراماته التي نيفت على التسعين، والتي ظلت تمثل بعد موته ستمائة سنة أو يزيد، والتي ظلت شغل النحويين واللغويين من علماء الأمم المختلفة في اليونان وفي رومة وفي بيزنطة إلى ما قبل ألف سنة من الزمان. . . فما نجد لغويا من مؤلفي المعاجم إلا وهو يستشهد به في أكثر ما يستشهد على صحة كلمة أو سلامة تعبير على نحو ما يستشهد مؤلفو القواميس عندنا بأشعار الجاهلية والقرآن الكريم.

ومع هذه المرتبة الرفيعة في اللغة فلم يستحدث يوريبيدز شيئاً ذا بال من وجهة الفن المسرحي، بل هو قد أخذ ما استحدثه سوفوكليس دون أن يغير منه شيئاً. ويبدو أن اشتغاله بالفكرة العميقة واستعراض الآراء السيكلوجية التي استحدثها في أكثر دراماته، والتي لم يعرضها تاريخ المسرح قبله، ثم استعراض الآراء الفلسفية التي طبعها فيه أساتذته، وأصدقاؤه السفسطائيون، ثم عنايته الشديدة بالصوغ الشعري،

وتجويد أغاني الخورس، كل ذلك حال بينه وبين التجديد المسرحي الفني، أو ما يعنون به (تكتيك) المسرح من وجهة الشكل لا من وجهة الموضوع.

على أن ليوريبيدز مع ذلك خصائص ميزته من أقرانه، ومن أهمها تلك المقدمات الطويلة الطلية الاستهلالية التي يهيئ بها الأذهان لمشكلته الدرامة والتي يقصها بلسان شبح كما في (هيكوبا) أو بلسان إله كما في (هيبوليتس) أو بلسان أحد أشخاص الدراما كما في (هيلينا). . . الخ. . .

وليس يعترض على ذلك بأنه لم يتبع تلك السبل (إفجنيا أوليس) لأنه لم يكمل هذه الدرامة كما أسلفنا بل أكملها غيره، وربما بدله غيره أيضا.

ومن ذلك أنه كان يحل عقدته الدرامية في اللحظة الأخيرة بظهور شبح أو إله أو سرد نبوءة، فيظهر ما كان مطوياً عن الأفهام، وهو ما يسميه نقاد الآداب الكلاسيكية - أو (إله من الآلة) أو تسخير إله لغرض درامي كما تسخر الآلة.

وكان ارسطو يكره ذلك في درامات يوريبيدز، وإن كان سقراط من قبله لا يرى في ذلك ما يعاب به الشاعر - والحقيقة التي اتفق عليها نقاده، وفي مقدمتهم الدكتور فيرال إن هذا أشق عيوب يوريبيدز بالإضافة إلى طول جواره الذي يجعله إلى الخطب الرنانة اقرب منه

إلى الحوار المسرحي، فقد يطول ما يلقيه الممثل الواحد في القالة الواحدة عن صفحتين أو ثلاث، وهذا ما كان يسخط ارسطو، وما يزال يسخط مترجمي يوريبيدز.

هذا، وينبغي ألا ننسى له براعة تنقله بالنظارة من المشهد إلى الآخر وما يثيره فيهم من الشغف والشوق والتشوف لما بعد. . . ثم ينبغي كذلك أن نذكر أن أجمل الأغاني - ولاسيما أغاني الحب - هي ما نظم يوريبيدز.

أما ما يعيبه بعض النقاد على الكورس في دراماته وعدم قيامه بما جعل الخورس له في سائر الدرامات اليونانية من وصل للحوادث وتمهيد لما يجيء بعد ثم شرح لبعض الوقائع الطويلة التي يتيسر تشخيصها على المسرح، فهل قول مردود لأن الذي صنعه يوريبيدز وحصر به مهمة الخورس في الموسيقى والغناء وسمو منه بوظيفة الخورس، واختفاء ظلاله خلابة من لذة الألم في المشاهد المشجية وجمال الاتعاظ في مشاهد العِبر، وتذوق الجمال في المشاهد المنتزعة من صميم الطبيعة. . وعلى هذا فقد قصر يوريبيدز خورسه على إلهاب الشعور وإذكاء الحس بالموسيقى التي تتفق وكل مشهد من المشاهد، والغناء الذي لا يجيء (نشازاً!) كما نشهد في بعض دراماتنا العصرية وطنيات يوريبيدز.

لم يتأثر شاعر يوناني بروح بركليس كما تأثر به يوريبيدز، ولم يبد هذا الروح واضحاً جلياً في أدب شاعر كما بدا واضحاً جلياً في كثير من دراماته. . لقد سمعه يخطب قبيل حرب البلوبونيز الأولى وهو يشيد بمناقب أثينا وما حملته من قسط عظيم في تأريخ اليونان حينما حررت شعوبها من أربقة الفرس وتعرضت وحدها للدمار والحريق حتى إذا ظفرت بعدها وطهرت منه البر والبحر عادت تنشئ لجميع الشعوب الهيلانية حضارة رفيعة قوامها الديمقراطية والفن والأدب والفلسفة. . . ثم قال بركليس كلمته الخالدة التي أوردها في تلك الخطبة: (لم لا تحدق الشعوب والقبائل اليونانية كعصبة من العشاق المعاميد حول أثينا؟) ثم ذكر ما لأثينا من الفضل في التعريف بالفضيلة ونقلها من حيز النظريات إلى عالم الدولة ومعائش الشعب وسياسته العليا، وقد خاض يوريبيدز معظم حروب البلوبونيز (بين أثينا وإسبرطة) وكان حظ الوطن يعمر فؤاده بالإيمان، وكان يحزن أشد الحزن لهذه المجازر التي تنشب لأسباب تافهة بين شعبين شقيقين وإن تكن الحرب في

الحقيقة بين ديمقراطية أثينا وأتوقراطية إسبارطة. . . وقد كان يوريبيدز من أنصار السلام آخر الأمر وإن يكن قد ظل جندياً من سن الثامنة عشر حين اعتبر رسمياً (إفيبوس) أي شاباً لائقاً للجندية إلى أن بلغ الستين. . . وقد أثار عليه ميله للسلام حفائظ مواطنيه، تلك الحفائظ التي منها ما عرفنا من ثورته على التقاليد السلف وما كان يتناول به النساء في دراماته من تحليل ودفاعه السيكولوجي عن الزناة والقتلة وجنايات المأفوكين، وما سنعرفه عنه في هذا الفصل من سخريته بالآلهة وتجديفه في دين الإغريق ورمي أرباب الأولمب بأقسى التهم وأفتك سهام التجريح. . . لكن يوريبيدز مع ذلك كان يحب أثينا لأنه كان لا ينسى إذ هو طفل والأثينيون ينقلون إلى

سلاميس العجائز من الرجال والنساء والأطفال - وهو منهم إذ ذاك - والفرس البرابرة يحرقون القرى والمعابد على الشاطئ فتندلع ألسن النيران لتكتب في صفحة التاريخ وقائع هذه الحرب بحروف من نار. . . لم يكن يوريبيدز ينسى هذا المنظر الفظيع، ولم يكن يربح ذهنه بعد إذ شب أثينا الضعيفة الديمقراطية قد انتصرت على فارس القوية المستبدة، وأن الأثينيين القليلين الجياع قد انتصروا ذلك النصر لأنهم كانوا غير معتدين على أحد ولا طامعين في ملك أحد. . . ولأنهم (أحرار أيها الملك، ولكنهم غير أحرار في عمل أي شيء، لأن لهم سيداً واحداً يخض له الجميع يدعونه القانون!) كما قال أحد الإسبرطيين لعاهل الفرس أجزرسيس وهو يسأله لماذا لا تفر هذه الحفنة القليلة من الناس أمام عسكره اللجب الكثير!

هكذا أحب يوريبيدز وطنه أثينا الذي أشاد به في كثير من دراماته. وهكذا أحب يوريبيدز الديمقراطية، لكنه سخط على الديمقراطية جميعاً حينما ثار وطنه عليه مع أنه من أعظم أسباب رفعته، وحينما رأى الديمقراطية ترفع الأوشاب وتُكوّن منهم زعماء الشعب فيتحكمون في السادة الأخيار من رجال الذهن والخلاصة الصالحة من نجباء الأمة ثم يظل هؤلاء الأوشاب محترفي سياسة، وموضع تقديس الرعاع والدهماء؛ والويل كل الويل لمن يجرؤ أن ينقذهم بكلمة ولو كانت كلمة الحق، أو أن يرسل فيهم لساناً ولو كان لسان الصدق. . .

من وطنياته في ميديا

حينما لقي جاسون زوجته ميديا بعد إذ كشفت سره دار بينهما حديث طويل فيه مرارة وفيه ثورة وفيه جائحة من السباب والشتائم والتعبير صبتها ميديا على رأس جاسون الذي خدعها وغدر بها ولم يذكر ما صنعت في سبيله يجزها جميلاً بجميل:

جاسون:. . . كيف تزعمين يا امرأة أنني لم أجزك على ما قدمت إلى من جميل؟ لقد أخذت أضعاف أضعاف ما أعطيت! لقد نقلتك من أرض البربرية الخبيثة إلى فراديس اليونان ألفياحة، حيث عرفت لأول مرة جمال العدالة، وبهرك سلطان القانون فأقلعت إلى حين عن وسائلك الوحشية. . . وها قد ذاعت حكتك بين جميع الاغريق، ولو تلبثت بين عشيرتك لما عرفك ولما أحس بوجودك أحد، بل لم يجر ذكرك على لسان!!

ومن هذه القالة نفسها في ذم النساء:

(إنك لا تعذلينني هذا العذل إلا لأن نفسك مقروحة من غريمك؛ ولكن هذا دأبكن جميعاً يا بنات حواء، إذا طابت أهواؤكن في أكناف أزواجكن فقد تمت نعماؤكن، فإن لفح مهاد الزوجية لافح من سوء حظكن فقد تبدلت الحال غير الحال وانقلب كل ما كان خيراً فأصبح شراً مستطيراً. . . كم كان خيراً للإنسان أن يستطيع النسل بطريقة أخرى غير طريقة النساء!! ثم ما كان أجمل ألا يخلق جنسكن؟! إذن ما حاق بنا شر ولا عرف وجه الأرض موبقة من الموبقات!!)

ومن أغاني الخورس في تمجيد أثينا ص97 نقتطف هذه السطور:

(يا أبطال شعب إركتيوس! يا أنسال الآلهة. . يا من يطعمون ثمار الحكمة الناضجة، وينشقون ألطف أنفاس النسيم، وينعمون أبداً بالسماء الصافية، ويضربون في تلك الدروب المأهولة حيث كانت عرائس بييريا ترطب أرواح الآباء بطهر المسرة وتلقن آلهة الألحان كيف تتغنى قصتها الأولى)

والسطران الأخيران من الفقرة الثانية من ذاك الخورس نفسه: يخطر الحب في مهرجان الحكمة في ناديك، وتُدل كل فضيلة وتختال حين تؤثرها آلهة الجمال برعايتها التي تنميها وتشيع فيها المجال!)

أطفال هرقل

عندما مات البطل العظيم هرقل (هركيولز) استبد ملك آرجوس بزوجه وأطفاله، وظل يسقيهم من الهوان ألواناً حتى اضطروا إلى الفرار من راعيهم يولوس. . . وقد رفضت جميع الممالك اليونانية إيواءهم خوفاً من بطش ملك آرجوس حتى ينتهي بهم المطاف إلى المدينة الحرة أثينا فيعطف عليهم ملكها الشجاع الذي يوبخ قائد الأرجيف الذي جاء يقص أثرهم ويعود بهم إلى آرجوس. . . ويثور القائد ويهدد بإعلان الحرب على أثينا في الحال إن لم يُسلم ملكها (ديموفون) الفارين من الأرجيف. لكن الملك يثبت كالصخر وينتهر القائد، لأنه لا يخاف الحرب من أجل المحافظة على الكبرياء الوطنية، ولأن

الذي يلوذ بأثينا فإنه آمن، لأنه يلوذ بالمدينة الحرة.
القائد كريبوس: إذن يهرع الأشرار من كل مكان ليلوذوا بأثينا؟
ديموفون: هذا الهيكل حل لكل لاجئ!
القائد: سيرى أولو الأمر في مسينا غير ما ترى؟
الملك: أولست ملك هذه البلاد إذن؟
القائد: فلا تجر على رؤوسهم الويل بسوء عملك!
الملك: أفأنت تعد ما أرفض من استباحة هياكل الآلهة سوء عمل؟
القائد: لست أحب لك أن تجازف بحرب ضد الأرجيف!
الملك: أنا قرينك في محبتي للسلم وتعلقي به، لكني مع ذلك لن أخيب رجاء هؤلاء المساكين!
القائد: بيد أنني مكلف بالقبض على من هم منا!
الملك: إذن فلا تحسب أنك ستطيع العودة إلى آرجوس بسهولة. . .
القائد: سأجرب لأعلم ما وراء التجربة!
الملك: إذا خيل لك أنك قادر عليهم فستندم على مجرد مسهم!
ويستمر الحوار على تلك الوتيرة ثم يمضي القائد ثائراً مرعداً وتعلن الحرب! والدرامة تكبر من أساليب الديمقراطية في الحكم وتسفه الوسائل الاستبدادية فيه.
وفي درامة (نسوة متضرعات) التي تدور حوادثها على توسل نساء الأرجيف لدى قادة أتيكا في رد جثث أبنائهن قتلى الحرب بين أثينا وآرجوس، منظر وطني رائع بين قائد طيبة وملك أثينا. . .
فإن القائد يدخل متقحماً سائلاً: (من الحاكم بأمره في هذه البلاد؟). فيصبح له الملك خطأه
ويجيبه: (ليس هنا حاكم بأمره يا صاح. . . إن هذه لمدينة حرة. . . وإذا قلت مدينة حرة فإني أعني أن كلاً من أفراد الشعب يأخذ في دوره بنصيب في الملك، وليس للأغنياء عندنا من دون الفقراء امتيازات ما!) وليوريبيدز درامات وطنية مفقودة نظمها قبيل حرب البلوبونيز الأولى أو عقبها بطول بنا البحث إذا تناولناها هنا فنكتفي بالإشارة اليها، وبحسبنا أن نذكر منها درامات إيجيوس، وثيذيوس،، وإيرختيوس.

دريني خشبة

الحاجة

للشاعرة أيلا هويلر ولككس

للآنسة الفاضلة (الزهرة)

أيتها الحاجة التي طالما حسبتها عدوتي الكاشحة، أنت أيتها السيدة الجافية ذات المحيا الشتيم المكفهر لقد أصبحت أعرف جيداً الآن وقد عز اللقاء بيننا، أنك كنت لي صديقة عزيزة، بريئة مما رميتك به من اللائمة منزهة عما عرضته لك بالنكير. . . حقا إن أفضل ما قمت به من الأعمال وأبرع جولات خيالي المجنح، قد كانت من فيض وحيك. وقد أهاب بي صوتك القوي الحازم، إلى ركوب ظهور العوائق، وتخطي رقاب الموانع، كما أقدم بي تحضيضك، على حسن السعي وشحذ عزيمتي على الجد والكفاح.
وأغراني بأن أضرب للحياة جأشاً، وأثبت للوجود عقداً ولولا ما كنت تنفحينه في من روحك لخمدت تلك الجذوة المحتدمة في طين نفسي.
ولولا مهمازك الحاد الذي لم يدعني ألوي عنان السير عن عقلة، أو أنكل لحظة عن خظة، لما عرضت مدى قوتي وحددت جهد طاقتي ولولا سيادتك القاصرة على حياتي وما ألجأتني إليه مراراً من، حمل الأعباء، والنهوض بالبزلاء، والتسامي عن آفاق اليأس والقنوط لما اهتديت إلى منجم الكنوز الدفين في غيابات نفسي ولئن كانت قد تفرقت سلبنا، وتشعبت طرقنا، واختلفت متجهاتنا، وبعدت نوانا، وانشقت عصانا اليوم.
ولئن لم يتح لي أن ألقاك ثانية، إلى أن يقطع بي السبب ويضحو ظلي وتطوى صحيفتي، فأني أريد أن أضفر لك من هذه الأزاهير الشذية إكليلاً أزين به مفرقك، لكي تتعرف القلوب الأخرى إليك وتجد فيك أبر صديقة.

الزهرة

عود إلى التفاؤل والتشاؤم

للأستاذ عبد الرحمن شكري

قلت إن الشاعر أو الناثر لا يحكم عليه ولا يقال إنه متفائل أو متشائم بما يقوله في حالات نفسه العارضة المتغيرة، لأن كل نفس تفيض بالسرور والأمل تارة، وتنقبض بالحزن تارة، والنفس التي لا تستطيع إلا السرور في موطن الحزن إنما هي كالأبله الذي لا يستطيع إلا الضحك، وحالة هذا ليس فضيلة ولا قوة.

وقد يتاجر بعض تجار الأدب باسم التفاؤل، وإنما تفاؤلهم سلعة مغشوشة وعملة زائفة يريدون أن يربحوا بها الحمد والثناء، وأن يغروا بها الناس؛ وهذا التفاؤل أيضا ليس فضيلة في النفس، بل هو نقيض الفضيلة، وإنما يحكم على القائل بما يقوله في وصف أمله في الحياة، وحثه إلى المُثل العليا، وما يقوله في تمجيد جهود الناس فيها كما في قصيدة: (أبناء الشمال) أو (شهداء الإنسانية) أو (إلى المجهول) أو (الباحث) أو (قو الفكر) أو (العصر الذهبي) أو (الحق والحسن) أو (النشوة والارتقاء).

ويحكم عليه أيضا حكماً صادقاً إذا نظر الناقد فيما قاله القائل في وصف محاسن الحياة والأرض والكون؛ فإذا استطاع أن يُجمل الحياة بقدرة فنه على وصف آيات الكون والطبيعة، لم يستطع الناقد أن يقول إن التشاؤم غالب عليه، ولا أدري كيف يستطيع ناقد أن يقول هذا القول إذا قرأ لي وصف محاسن (الصحراء). . . حتى الصحراء تجد فيها النفس، وفي مظاهرها المختلفة محاسن. . . وقصيدة: (البحر). وقد نشرت في الرسالة أيضا وفيها وصف تلون البحر وتغير مناظره ووصف جزره:

ومن جزر مثل الجنان مضيئة ... كأن جهلتها الصائلات الدوائر

ووصف (عيون الندى):

فليس عيون الغيد أشعلها الصبي ... بأحسن في لألائها حين تعطف

ووصف الربيع في قصيدة (الفصول):

أهواكِ يا روح الربيع فهيئي ... جسماً كجسم الغيد في لألائهِ

ووصف النهر المترقرق في قصيدة (على بحر مويس):

عهدتْهُ في صيفه لؤلؤاً ... لو أنَّ للؤلؤ سيلا يسيل

ووصف مناظر الغابة وأصواتها التي تحكي جميع شجون النفس في قصيدة: (الغابة). أما وصف: (شريعة الغابة) من فتك في آخر القصيدة، فهذا ليس من التشاؤم. بل هو تحليل لصفات النفوس يدل عليه تقاتل الآحاد والأمم في العالم، ويعترف بصدقه كل إنسان ما عدا الإنسان الذي لا يستطيع إلا الضحك دائماً، وما عدا الإنسان الذي يتخذ الباطل في وصف النفس تجارة ربح ويسميها التفاؤل. ووصف مظاهر الضوء ومباهجه ومحاسنه في قصيدة: (الضوء) دليل آخر على التفاؤل الصحيح غير المزيف:

أو مثل فجر الآمال إنَّ لها ... فجراً وليلاً يَضاء بالذكرِ

كأنك أنتَ سُلّمُ لعلا ... ء النفس تسمو لآية العَمرِ

تُخالُ من رقة المراسم مع ... نى لا يراه البصير بالبصر

والساخر الذي يستطيع بالرغم من سخره أن يقول كما قلت في قصيدة (سؤر العيش):

والسخر مرآةَ إبليس التي نصبت ... إن تبُصر الحق فيها عاد كذَّابا

فيجعل السخر مرآة الباطل ومرآة إبليس في بعض الأحايين لا يكون التشاؤم غالباً عليه، والذي يستطيع أن يصف سحر: (ضحكات الأطفال) كما استطعت في قلبه نور الأمل لأن الأطفال هم أمل الحياة:

ضحكة منك صوتها صوت تغري ... د العصافير تستلين القلوبا

ضحكة ردت المشيب شبابا ... وأماتت من الوجوه الشحوبا

ضحكات كأنها كلمات ال ... له تمحو مآثماً وذنوبا

إلى آخر القصيدة. وقد قلت في وصف أثر مظاهر الجمال في قصيدة (قبس الحسن):

يا شمس حسن حياتنا ثمرٌ ... ينضج في ضوء حسنك الثمر

على أن الحسن في الأحياء والأشياء ذوق رمز ومعنى واصطلاح تخلقه النفس. ومن أجل ذلك كانت سعادة المرء في نفسه كما قلت في قصيدة (طائر السعادة):

ومن لم يجد في نفسه ذخر عيشه ... فليس له بين الأنام نصير

وكره الإنسان للعيش هو من حبه للعيش كما في هذه القصيدة أيضاً:

قلى العيش حب العيش قد شط رغده ... كما يَبغضُ المهجور وهو أسير

كمن يبغض الحسناء يقلى دلالها ... وفي الصدر منه لوعة وزفير

وقلت في وصف أثر النفس في النفس في قصيدة: (النعمان ويوم بؤسه) وكيف أن الوفاء في أحد الناس جعله يلغي يوم بؤسه ويقول:

ألا علِّلاني يا خليليّ أنمّا ... على العيش بالإحسان والصدق والندى

وأعترف حتى في قصيدة: (ثورة النفس) بما في النفس البشرية من حسن:

تريدين أن الجسم يغدو كأنما ... يضيء به منك الضياء المحجّب

وفي جمال فجر النهار وفجر العمر من قصيدة (فجر الشباب):

وكان للفجر قلب خافق أبداً ... من الحياة ووجه كله لطف

وفي إضاءة الحياة بالجد والعمل والأمل في قصيدة (العظيم في قوله):

رأيت حياة المرء في نفع قومه ... ولا خير في كنز إذا كان خافياً

وما نُصِيب المصباح إلا لضوئه ... وإن كان في أحشائه الدهن فانياً

وفي حب الشعراء للحياة من قصيدة (الشاعر وجمال الحياة):

نحن كالنحل لا نحب من الزه ... ر سوى كل غضة مطلولة

وفي وصف محاسن الأرض والطبيعة:

وكأنما نسج الإله جنانها ... شرك النهى وحبالة الأهواء

وفي أشد القصائد حزناً كما في قصيدة (بين الحياة والموت) وهي من شعر الحالات العارضة أقول في وصف العيش:

ولكنه كالخمر تحلو لشارب ... وإن سُلبتْ منه النهى والسرائر

وفي النسيب اعتراف قصيدة بجمال الحياة بالرغم من مرارة تجاربها:

وأنت جميلٌ كالحياة مُحَبَّبٌ ... وإن كنت مثل العيش مر التجارب

وفي قصيدة (حكمة التجارب) قلت في عزاء التجارب:

خذ بِنصحي فقد حييت كثيراً ... ولو أني لم أُمض عمراً طويلا

عشتُ في كل ساعة أبد الده ... ر وعالجت نَضرَةً وذبولا

ورمتني الحياة بالحلو والم ... ر فطوراً رغداً وطوراً وبيلا

ورفعت الستار عن خدعة العي ... ش وقهقهت وانتحبت عويلا

وصحبت الحياة في حالتها ... وَخَبرْتُ القنوط والتأميلا

إلى أن قلت:

ورأينا الحياة من كل وجه ... وعشقنا كمالها المستحيلا

ورجعنا إلى الحقائق حتى ... لم نعد نطلب المحال بديلا

فهذا ليس من التشاؤم بل هو ما يناله المرء من حكمة الحياة وهو لم يمنع من وصف آمال الإنسانية كما في القصائد التي ذكرت في أول المقال. وقصيدة (الحسن مرآة الطبيعة) عل ما بها من ذكر الموت في آخرها جمعت مظاهر الحسن ومنها:

أنت مرآة ما يجيء به الكو ... ن من الحسن بكرةً وأصيلا

فأرى في الصباح منك ضياءً ... وأرى في المساء منك ذبولا

وأرى منك في الخريف شبيهاً ... ثمراً يانعاً وزهراً جميلا

وما أذكر الموت في آخرها إلا أنه يدعو إلى محاسن الحياة والتزود منها. وقد وصفت أثر تفاعل الكون والنفس في قصيدة (الشعر والطبيعة) ومنها:

إذا غنت الأطيار في الأيك صُدَّحا ... تغنت لأشجان الفؤاد طيور

وللريح هبات وللنفس مثلها ... تُغَنِّي رُخاءٌ فيهما ودَبُور

نرى في سماء النفس ما في سمائنا ... ونبصر فيها البدر وهو منير

إذا كنتُ في روض فقلبيَ طائر ... يُغَنِّي على أفنانه ويطير

وإنْ كنتُ فوق البحر فالقلب موجة ... تَسَرَّبُ في أمواجه وتسير

وإنْ كنتُ فوق الشَّمِّ فالقلب نسرها ... وللنسر في شم الجبال وكور

وفي قصيدة (الشاعر المحتضر) يتعلل بأنه قبل موته جمل الحياة بفنه:

وجَمَّلْتُ الحياة بنظم شعر ... شبيه الضوءِ في الأفق الأغَرِّ

وقد جعلنا مثل هذا القول علالة لأن بين الأدباء من يتعلل به وإن كنا لسنا في حاجة إلى مثل هذه العلالة ولا نأسى لضياع عمل عمر بأكمله.

وفي قصيدة (خواطر الحياة) أثناء التألم أستطيع أن أقول:

والسخطُ غربال جَاهدٍ قصد ال ... سيل كأن الأتيَّ مردود

أي أن حوادث الدهر لا تدفع بالسخط والحزن كما أن السيل لا يرد بغربال.
وفي قصيدة (كعبة النفس) جعلت الرجاء من الإيمان والعبادة:
أيا كعبة الآمال ذات المحارم ... مكانك من قلبي كمحراب صائم
فلا تأخذوني بالرجاء فإنما ... رجائِيَ إيمانُ النفوس الحوائم
وفي قصيدة (بيت اليأس) جعلت الحزن ترياقاً يقي من الحزن كما أن القليل من السم قد يقي من السم:
كشارب السم كي يُصادِي ... مَنْ عَلّهُ سمه صريحاً
ورددت هذا المعنى في قصيدة (عدوى الحياة) وذكرت أن مصل الجراثيم وقاية منها:
كما يتداوى بمَصْلٍ عليلٌ ... وفي المصْلِ من بعض ما تَبّرّه
وفي (عصير الحياة) جعلت لذتها وأنغام فنونها من الآم تجاربها:
أسعى على ساعات عمريَ واطئا ... كالكرم يعصره الجناة فيخمر
وأحيلها نغماً يروق سماعه ... وأعيدها شعراً يلذ ويُسكِرُ
وقلت إن دجن السماء مثل حزن النفس قد يكون لذة وذلك في قصيدة (يوم مطير) فانظر كيف تستخرج النفس اللذة والأمل من الحزن والسحاب:
ثقيل على القلب البهيج عبوسه ... ولكنه قد يسحر القلب كارُبهْ
كذلك بعض الحزن للنفس شائقا ... تعاقره في نشوةٍ وتقارُبهْ
وهل تفاؤل أعظم من تفاؤلي في البيت الآتي من قصيدة (عجائب الحياة):
وأبغي صلاح الكون والناس مثلما ... مضى في بناءٍ عاملٌ وأجير
وقد جعلت حتى تعلل المتعلل بذكر الموت مظهراً من مظاهر حب الحياة:
وما عَلَّلْتْ نفس الفتى بمَنِيةٍ ... ستطوي هموم العيش طي الدساكر
سوى رغبةٍ في العيش يرهب صرفه ... فيعدو على البؤسي بذكرى الغوابر
والتلذذ بوصف مظاهر الأمل وأحاسيسه في قصيدة (السكون بعد النغم) يدل على التفاؤل ومنها في وصف الإحساس بالسكون بعد النغم:
كسكوت اللهيب فوجئ بالبش ... رى ويخشى من حسنها أن تخيبا
أو سكوت الشباب في حُلُم الآ ... مال من قبل أن تعاني المشيبا
أو سكوت الأم الرءوم حنانا ... وابنها نائم وقته الخطوبا
حلمت حلمها بما سوف يسعى ... في مساعيه جيئة وذهوبا
من ثمار الحياة تختار أحلا ... ها له نعمة وسعدا وطيبا
وقد جعلت الأمل بهجة العمران في قصيدة (الأمل):
أيا بهجة العمران لولاك لم يكن ... فلا شيد الباني ولو كدّ كادحُ
وهي قصيدة طويلة كلها في مباهج الأمل ولذاته ومحاسنه، وأحاسيسه وفي قصيدة (شهداء الإنسانية) جعلت النعمة في الحياة مستخرجة من الشقاء.
وكم من نعمة لولا شقاءٌ ... قديماً لم تكن إلا وبالا
فكم خبر الأوائل من شقاءٍ ... فنلنا من شقائهمُ نوالا
وقد ذكرنا في هذه المقالات وغيرها أسماء قصائد عديدة جداً لا هي من شعر التشاؤم، ولا من المذهب الطبيعي الإنكليزي، والشعر العربي ليس في حاجة إلى مذاهب أو مسميات جديدة، وإذا لم يكتف حضرة الناقد الفاضل بهذه القصائد والشواهد ذكرنا له غيرها ونعتقد انه حسن النية في قوله، فعسى أن تكون عقيدتنا فيه صواباً. ونكرر للأستاذ الدكتور أننا طبنا نفساً عما قدمنا من عمل، ولا يهمنا أفنى أم بقى، ولكن الذي يهمنا ألا يتخذ وسيلة للنيل منا حتى ولو كان ذلك عن حسن نية.
عبد الرحمن شكري
من ذكريات لندن
. . .دعاية
للأستاذ عمر الدسوقي
في العراق شباب ملء يومه ملء غده، يتقد حماساً لوطنه وعروبته، ويدأب ليل نهار في الدعاية لنفسه وقوميته؛ عرفته فعرفت الثورة الملتهبة المتأججة، والنفوس الطماحة المتوثبة، نفض عنه غبار القرون، واستيقظ فالتفتت الدنيا ليقظته، ثم زأر فارتاعت الأفلاك من زأرته؛ أينما حل فمعمعة ونضال، أو ضجة وجدال.
وفد على مصر منذ عشرة أعوام أول بعث للفتية العراق، ليطفئوا صدى نفوسهم من

كوثر العلم، وينشروا بين أبناء الكنانة فكرة جليلة سامية، تشبعت بها نفوسهم، وامتزجت دماؤهم، وتراءت لهم في الحلم عزة وقوة، وفي اليقظة عظمة وفتوة؛ ولكن راعهم أنا بنهضتهم جاهلون، وعن دعوتهم معرضون.

دعوا للوحدة العربية، فألفوا قلوباً غلفاً وآذاناً صماء وعقولاً سيطرت عليها فكرة الفرعونية، وبلبلتها السياسية المصرية؛ فلم ينكصوا على أعقابهم، أو يقنطوا من نجاحهم، بل طفقوا يبدون دياجير هذا الجهل، ويعرفون أبناء النيل ببلاد تعجب بهم، وتعلم عنهم أكثر مما يعلمون عن أنفسهم، ويرسلونها صيحة من فؤاد مؤمن بما يدعوا إليه، موقن بأن هناك من سيستجيب له: أن تعالوا إلى كلمة تجمع شملنا المبدد، وتعيد إلى الحياة مجدنا الغابر، وتحلنا بين الأمم مكاناً عالياً، يبعث في قلوبهم الهيبة والرهبة، ويغدوا شجي في حلوق الطامعين، وقذى في عيون المستعمرين، ويحبط كيدهم ويبطل إفكهم؛ فينشدون ودنا بدلاً من عدائنا، وحلفنا عوضاً عن استعمارنا.

لبى ندائهم من فطن إلى ما انطوت عليه جوانح المستبد الغاصب ورأى في تلك النزاعات الإقليمية هوة سيتردى فيها أبناء العروبة وهم في غفلة ساهون؛ فما البربرية، والفرعونية، والفينيقية، والآشورية، إلا شباك نصبها الطامع الشره ليحول بيننا وبين الوحدة المنشودة التي يخشى أن تزلزل الأرض تحت قدميه، وتضع السيف والنار أمام عينيه، إن عاد إلى ما ألف من عبثه بهذه الديار وذويها أو لم يمزق أوصال الشام، وقد مرت عليها العصُر وهي لا تعرف من دواعي الفرقة شبحاً، وهي تلك الصخرة الشماء من العزة والإباء،

تنحسر عنها أو أذى الكائدين كليلة خائبة؟

عزة عليه وقد خرج من معمعان الحرب نشوان بحميا الظفر أن يرى ديار العروبة تتحفز للوثوب، وتجثم للنهوض، فعالجها بضربة خالها قاضية، وفرقها أباديد، حتى لا تطمع في قوة أو تأمل في عزة، وحتى لا تعيد على مسرح التاريخ تلك الأنفة والحمية والأيد والجلد والاستهتار بالموت، في سبيل الكرامة والشرف والعقيدة، أيام أن حشدت أوربا جموعها وشنتها حرباً شعواء على هذه الديار باسم الدين، فأصبحت العراق في قبضته، ومصر في حوزته، والشام أشلاء ممزقة. فما فلسطين وسوريا، ولبنان، وجبل العلويين، وجبل الدروز، والإسكندرونة، إلا أعضاء جسد واحد كان من قبل رمزاً للجد والنشاط والشهامة؛ وأخذت طرابلس الغرب تسير وئيداً في سبيل الفناء، وأحال تونس والجزائر بلاداً لا هي شرقية ولا غربية، فمسخت مسخاً، وتبلبلت ألسنة بينها برطانة لا هي فرنسية فتفهم، ولا هي عربية فيفخروا بها، وعمد إلى مراكش فكان للإسلام والعروبة كيداً، وحاول أن يهدم هذا الدين بعرف قد عفت عليه القرون ولا يصلح لحضارة ولا يبعث رقياً.

فطن من لبى نداء هؤلاء الفتية الأخيار إلى كل هذا، وإلى أن ذاك التراث المجيد قد كان بالأمس منبعاً للنور والمجد والرحمة والإنسانية، يفيض على الدنيا وقد جللتها سحب الجهل والظلم، وإلى أن هذه البلاد على تباين أسمائها تلهج بلغة واحدة، وتعتز بتاريخ واحد اشتركت فيه البؤساء والضراء، وتشعر بشعور واحد، وتنحدر من اصل واحد.

وإذا لم تكن اللغة أداة التعبير ورمز التفكير ووسيلة تصوير الشعور والوجدان، عاملاً من عوامل الوحدة وتأليف الأفئدة، فما يكون؟

وإذا لم يكن التاريخ والأدب والدم، صلات وثيقة، توحد بين الصفوف، والأهداف والغايات، فماذا يكون؟ أسسوا جمعية صغيرة متواضعة تدعو إلى ذلك الغرض النبيل السامي، وتعمل في إخلاص على توثيق عرى المودة بين أبناء العروبة في مصر، فانضوى تحت لوائها شباب طاهر بريء من نزاعات الأحزاب القديمة وحزازاتها الشخصية.

ولكن ما لبث أن سعي إليها الشيوخ يريدون أن يسخروها لأهوائهم؛ وطفق هؤلاء يستهوونها بالمال، وهؤلاء يمنونها بالتأييد، وهي بين ذلك تلقى من السخرية والتهكم ما يضعضع العزائم الثاقبة، ويثبط الهمم الصارمة.

يا طالما كنت أعتذر لهؤلاء الرفاق عما يبديه بنو جلدتي من جفوة وإعراض، وأقول: إنهم متى فرغوا من صراع العدو الغاصب، ونفضوا أيديهم من نزاله، فيسمدون إليكم الأيدي طواعية، وستنفتح قلوبهم لدعوتكم الرشيدة، إن راموا عزاً ومجداً لهم ولبلادهم؛

فلا تهنوا ولا تحزنوا، وثابروا على جهادكم، فإن جلائل الأمور لا تنجز بين طرفة عين وانتباهتها.

غادرت مصر، ونزلت مدينة (إكستر)، ووفد علينا جماعة من العراقيين يطلبون العلم بجامعتها فقلت: ها. . . إن الميدان قد تحول من ضفاف النيل إلى ربوع إنجلترا، ولكن وا أسفاه!، قد استمرأ هؤلاء الفتية حياة اللهو والدعة، فإذا دعوتهم إلى الجد وضعوا أصابعهم في آذانهم وأصروا واستكبروا استكباراً.

ثم رحلت إلى لندن، ووجدت فيها نخبة طيبة من أبناء العراق وفلسطين، قد اتخذوا الجد قبلة يولون إليها وجوههم صباح مساء، وحرصوا كل الحرص على أن يملئوا كنائبهم لا بسهام محطمة من الخزعبلات والدنايا، ولكن بالثقافة العالية والدراسة المجدية؛ حتى يكونوا في ساحة الجهاد أولى قوة وبأس شديد، حتى يحطموا عن شرقنا المسكين هذه الأغلال التي كبلته، وعاقته عن النهوض والرقي زمناً طويلاً؛ حتى ينازلوا الجهل بالحكمة، والأفن بالعقل، والميول النابية والأحقاد المزمنة والأغراض الحقيرة، بالصرامة الحازمة والعقيدة الجازمة.

أجمعوا أمرهم على تأليف جمعية عربية في لندن، تبث تلك الدعوة الصالحة بين شباب العرب، وتقرب بين آمالهم وأهدافهم فإذا ما تشربتها قلوبهم، واطمأنت إليها ألبابهم، كانوا رسل الوحدة العربية في ديارهم، وتعرف الإنجليز بنا، وبحضارتنا، ونهضتنا. ثم بدا لهم أن يكونوا كذلك لفلسطين جنوداً على ضفاف التاميز يهبونها من حرارة إيمانهم، وثمار عقولهم، ما شاء لهم حبهم الطاهر لبلادهم، وقصدهم النبيل في إسعادها.

لليهود في إنجلترا سطوة وقوة، وتجارة واسعة عريضة نامية، ودعاية سديدة منظمة، ينفقون عليها الأموال الطائلة؛ ولهم في دار النيابة خطباءهم أمراء البيان، يذودون عنهم بكل ما أوتوا من قوة وفصاحة.

وأنى لنا، ونحن شباب لا تظاهرنا حكومة، أو يشجعنا ثري أو تشد أزرنا سفارة، مباراتهم في الدعاية التي آمن بها الإنجليز عامتهم وخاصتهم لكثرة ترددها على أسماعهم، اللهم إلا

ذاك النفر القليل الذين ساحوا في البلاد العربية، وفقهوا سر شكواها وكنه مصابها. ولقد وجدنا في هؤلاء نصيراً شد عضدنا، وسدد خطانا، وبذل في سبيل قضيتنا الوقت والمال عن سماحة وطيب نفس.

أخذنا ندمج المقالات الضافية، تنطق بالحقائق الناصعة، ونذيعها تارة بالخطابة، وأخرى بالكتابة، على الرغم من إيصاد الصحف أبوابها دوننا. وقد مُهد لنا السبيل لمناقشة فريق من أعضاء المجلس النيابي، فكان منهم من يرى رأينا ويشد أزرنا، ومنهم من يشيح بعطفيه ويزور جانباً.

لم نقصر دعوتنا على طبقة دون أخرى من الناس، بل جلنا جولات صادقات في كل مجتمع وندى، وهتفنا باسم فلسطين العربية ما أتيحت لنا الفرصة.

جاءت وفود العرب تترى لحضور حفلات التتويج، يقدمهم أمراء العرب الأمجاد، فقلنا: لنا لن يجتمع في هذه البقاع من أبناء العروبة جمع مثل هذا يحميه ويؤيده ويزينه سلائل الملوك الصيد من أبناء عدنان وقحطان. . .!

فلنصرخ صرخة مدوية تخترق شغاف هذه الأفئدة التي أغواها الصهيونيون، ولكن زأرة الأسد ربع حماه، لحمتها الشمم، وسدها الإباء، لا عويل الذليل يسترحم القلوب بالنحيب والبكاء. . .

رغب صحبي في أن يقيموا حفلاً نجتمع فيه بأمرائنا الأخيار، فنؤدي واجب التكريم والتبجيل، ونعلن لهم عزم الشباب على الفناء في سبيل العروبة واتحاد القوى؛ ورأوا أن ما بأيديهم من المال قليل، فغضوا الطرف عن دعوة ذوي الرأي والجاه في إنجلترا، وكنت أرى نمد الدعوة إلى رجال الصحافة وكبار القوم، حتى يروا رأي العين جمعنا الباهر، واتحادنا المتين، وحتى تصل كلماتنا إلى قلوبهم لعلها تلين. وهبت زوبعة من الجدال والنقاش كادت تعوقنا عن بلوغ هذا الشرف الرفيع، لولا أن شد أزري صديق كريم وتعهدت وإياه أن نقوم بسداد ما يزيد من النفقات إذا لم تهز الأريحية أفئدة أمرائنا الغر الميامين ذوي السماحة والندى، فيهبوا للحمية من نفحاتهم ما يعز مقامها ويعلي منارتها.

وكان حفلاً لم تشهد لندن نظيره من قبل روعة وبهاء وعظمة ورواء بل كان حفلاً فريداً قل أن يجود التاريخ بمثله. وكيف لا. . . وقد شرفه أمراء العرب، وتلاقوا فيه لأول مرة جميعاً ملبين نداء الشباب، ومنافحين عن فلسطين الشهيدة.

كبت به من خال أن اتفاق العرب محال، لشدة تنافرهم وتحاسدهم، وتباين أهوائهم ومطامعهم، بيد أن عزمات الشباب تذلل الصعاب وتحقق الرغاب.

وقرعت دعواتنا أسماع من طالما صدفوا عنها، وفتحت الصحف لنا أبوابها بعد أن أطنبت في وصف ذاك المشهد الفخم وهذه المظاهرة العربية الجليلة الوقورة.

وقد حقق أمراؤنا الأبطال آمالنا، فما إن سمعوا نداءنا حتى جاشت في قلوبهم حميا النخوة والكرامة، ففاهوا بكلمات تفصح عن نفوس عامرة، وأفئدة ملؤها النبل والإباء، وقالوا: إن بلاد فلسطين ومحنتها تقص منا المضاجع، وتحز القلوب حزاً، وإن خروجها من المعمعة سليمة مستقلة ظافرة لأمل نضعه نصب أعيننا وصلاة نرتلها صباح مساء، فثقوا بنا وبجهادنا والله يرعانا ويرعاها.

وغمرت عطاياهم جمعيتنا الفتية، فأصبحت في الجهاد أثبت قدماً، وأشد باساً، وأعلى صوتاً، حتى ضاق بها الصهيونيون ذرعاً، فما قام منهم خطيب ينفث في الناس سمومه وتخرصاته، إلا وجدنا أمامه نبطل كيدهم وندحض باطله.

وعدت ذات مساء إلى داري، فرأيت ربة الدار محزونة مكتئبة فسألتها: ما بالها؟ فقالت:

- جاء اليوم فتيان من أبناء صهيون، ينم حديثهما عن خبث طوية ولؤم حاد، وطلبا إلى أن أسدي لك النصيحة بالحسنى عن لسانهما، وأناشدك الله واهلك وغربتك إلا أقلعت وصحبك عن مناوأة جهادهم، وإن أبيت إلا اللجاج والعناد، فلهما معك يوم ما بعده ثم قالت: أني أخشى عليك هؤلاء القوم، إذ لا تؤمن لهم غائلة، ولا يتعففون عن دينة؛ وما كان لي أن أزج بنفسي في خاصة أمورك لولا انك نزيل داري؛ وأنا لهؤلاء الصهيونيين مبغضة وعليهم حانقة.

فقلت: شكرا لكي - سيدتي - هذا العطف الجم، والشعور الكريم، ولا عليك من هؤلاء فلن يضيرني منهم شيء، وسنرى.

عمر الدسوقي

تأملات وتفكرات

شارلي شابلن العبقري

في الخمسين من عمره!

(مهداة إلى السيدة أ. ش)

للأستاذ زكي طليمات

سرعان ما تجري الأيام وتمر السنون!

يرتقي شارلي شابلن علم الأعلام في دنيا السينما أول درجات العقد السادس بعد أن سلخ من عمره خمسين عاماً.

بلغ شارلي شابلن هذه السن ونال كل ما تتوق إليه النفس من الجاه ونباهة الذكر وقلائد الذهب وأكاليل الغار، إلا انه بقي محروماً من دفء الحنان وراحة العيش في ظل امرأة صالحة، لأن الحظ السعيد الذي وأتاه في كل شيء أبى أن يواتيه في النساء.

والنساء في حياة الفنان المرهف الحس القوي الطبع. عنصر لا غنى عنه في استكمال السعادة المنشودة.

ومع هذا فإن شارلي شابلن قد تزوج ثلاث مرات إلا أن كل زواج منها كان ينتهي دائما بالخيبة!

تدخل المرأة في حياة شارلي شابلن فينطوي عليها وتغدو نصفه الثاني ويتفانى فيه كما تتفانى فيه وقتاً من الزمن، وينفخ العبقري الفنان في النصف الجديد أنفاساً من روحه الخلاق فتغدو شيئاً وينبه لها ذكر، ويعلو لها شأن، وتسود الألفة بينهما بما يستجلب عليها حسد الحاسدين ثم. . .

ثم يأخذ النفور بعد ذلك يدب بينهما فتخمد الجذوة المتقدة في قلب الزوجة المعجبة بزوجها، وتنتهب الزوجة آلام الخيبة والجحود، وينتهي الأمر بينهما بالطلاق!

عجيب هذا الأمر، وأعجب منه وقوعه مع رجل دمث موفور الحظ من اللباقة والظرف،

عرك الحياة، وعرف طباع الناس!
اختلفت الآراء في تفسير هذه الظاهرة، وانبرى الكتاب يفسرونها حسب أهوائهم، ولم يتورع بعضهم عن اتهام العبقري الممثل بشذوذ في الطبع وبخرق في الرأي وإن لم ينكروا عليه لطف المعاشرة ولين الجانب وبسط اليد.
ألا إن المتأمل في حياة شارلي شابلن، الفاحص عن أمر طبعه ومنزعه بما يطالعه له من آثار وحيه عن الشاشة البيضاء، يرى غير ذلك إذا توخى الإنصاف والدقة، وتعمق في استكناه في ما وراء وعي هذا العبقري الممثل.
إن شارلي شابلن عبقري فنان. والفنان الحق خّلاق، والخلاق من طبعه البذل والتضحية والإسراف في الجهاد.
تعود شارلي أن يصدر عن كل هذا في عمله، ومؤلفاً كان أو ممثلاً أو زوجاً.
وما كان هذا شأنه فإنه يتطلب الكثير من الناس، ولا يقنع بالغذاء العادي الذي تقدمه المرأة من عطفها وحنانها. هذا والفنان الصادق أثر يحب نفسه وهو لا يشعر، فهو يميل إلى الاستئثار بكل ما يعمر قلب المرأة التي يهبها قلبه، وينزع إلى سوء الظن بما يلقاه من تقصير أو فتور غير معتمد، ويعده جحوداً ونكران جميل . . .
وهكذا كان شارلي شابلن يتطلب من زوجاته أن يعطينه مثل يعطيهن.
هذه هي العلة، وهذه هي غلطة شارلي شابلن مع النساء أو بالأحرى هي غلطة كل فنان خلاق كبير القلب دافق الروح، شاعراً كان أو ممثلاً، أو مصوراً، بل لعلها هي غلطة كل كريم نفس يشرف هذه بذل حبه وكريم عواطفه لإحدى بنات حواء.
ونخرج من هذه المأساة العاطفية بشيء واحد، وهو أنه وهو واجب على الرجل ألا يأمل كثيراً ما عسى أن تمنحه المرأة إياه وأن تقنع منه بظرف المعاملة، بينما ببسماتها الوردية، وبلمسات شعرها العطر، وبومضات جسدها الشاب المضيء. إن لم يفعل ذلك - وواجب عيه أن يفعل - فإنه لا يجني من حياته العاطفية سوى أشواك الجحود والخيبة.
أما ذوي القلب الكبير والروح الخلاق، الصادي الذي لا تروى علته جرعات من الماء فخير له ألا يبحث عن السعادة في ظل امرأة.
لم يكن غريباً بعد هذا أن نلمح في ابتسامات شارلي شابلن أفواه الجروح، وأن نسمع في صدى ضحكاته أنات العويل. إن المسكين يضحك خشية أن يسترسل في بكاء.
ولا عزاء للمسكين في محنته هذه، وفي عزلته. لقد تجاوز السن التي تجعله مرموق الحسان. إن ابن الخمسين لا يصلح إلا أن يكون ملجأ لمنكودات الحظ في الحب أو في الزواج أو طالبات العيش الهادئ في كنف الرجل كان ما كانت سنه، أو العوانس اللواتي يكابرن الدهر والدهر يتطاول عليهن، أو الغواني من قانصات المال والجاه العريض، وهذا الصنف من المخادعات إذا قابلن رجلاً في منحدر العمر، همسن في أذنه أنهن لا يحببن الشباب لنزقه وتيهه، ولكن يعشقن الشيوخ لرجاحة عقولهم وفيض حنانهم.
وشارلي العبقري الفنان، ابن الخمسين، لا يجهل ذلك. ولهذا فقد قدر عليه أن يعيش محاطاً بكل لذائذ الحياة، من مال وجاه وفخار إلا لذة الهجوم إلى صدر امرأة يخفق قلبها بحب خالص له. قدر عليه أن يكابد مرارة الحرمان الدائم، وقسوة الوحدة، وحمى الضمأ الذي لا يرويه ماء.
وهذا كله فدية الروح الخلاق والطموح الذي لا يتطامن، وهذا أيضا فدية المجد الذي علقه شاباً ورجلاً وكهلاً.
زكي طليمات

العالم يتطلع إلى حدودنا المصرية
أربعون يوماً في الصحراء الغربية
للأستاذ عبد الله حبيب
- 3 -
تحدث المحرر في المقالين السابقين عن بعض مشاهداته في الصحراء الغربية فوصف سحر الصحراء، وأني في كلمات وجيزة على ذكر كثير من عادات العرب وصفاتهم، وتحدث عن حكامها ودون عنها معلومات عامة طريفة. وهو في هذا المقال يتحدث إلى القراء عن ساحل الصحراء الغربية وهطول الأمطار وموارد المياه على الساحل وسكة

مريوط الحديدية وسكان الساحل وقبائل الصحراء الغربية حديثاً شائقاً طريفاً.

ساحل الصحراء الغربية

يمتد القسم الساحلي من الصحراء الغربية - وليس له اسم معين معروف - اسم من الشمالالغربي من الإسكندرية شرقاً إلى السلوم غرباً؛ ويبلغ طوله نحو 500 كيلو متر. وقد أطلق عليه القرطاجنيون اسم (ساحل ليبيا) وورد ذكره في كتابات هيرودوت عند وصف رحلات الفينيقيين والقرطاجنيين إذ وصف سكان هذا القسم بما لا يخرج عن حالتهم في الوقت الحاضر وطرق معيشتهم بعد الفتح الإسلامي. قال: انهم يرتدون ملابس اللوبيين، وتضع النساء خلاخيل في أرجلهن ويرسلن شعورهن تنمو وتطول؛ ومن عاداتهم أن للزواج وقتاً ومعيناً، وهو عندهم عيد عظيم، إذ تحضر القبائل - عند افتتاح موسمه - أجمل الفتيات الراغبات في الزواجفيقفن أمام ملكهم ليختار لنفسه منهن زوجة جديدة قبل أي مخلوق آخر.

ولكن هذا الشعب قد انقرض الآن واندمج في القبائل العربية بعد الفتح الإسلامي، واصبح سكان هذا الإقليم من العرب قبائل أولاد علي.

والقسم الساحلي هو شريط رفيع من الأرض المتعرجة الصالحة للزراعة. ويتراوح عرضه من الساحل جنوبا بين 20 و50 كيلو متر، ويتسع من جهة الشرق - العامرية - ثم يأخذ في الضيق عند ما يتجه غرباً، وينهي تقريباً عند السلوم حيث تقترب هضبة ليبيا الكبرى

من الشاطئ وتدخل في مياه البحر

أما أسماء التلال ورؤوس الخلجان فلها تاريخ اثري قديم، ولا يزال العربان يعثرون على آثار ذات قيمة وخاصة من العصر الروماني. ونذكر من أسماء هذه التلال بعضها وهي: رأس الكنائس (وكانت تعرف برأس حرموم)؛ ومرسى مطروح وكانت تعرف برانيوم؛ وميناء النجيلة وكانت تعرف بجازيس، وميناء جرجوب وكانت تعرف بأيبس، والسلوم وكانت تعرف ببرانومس، ورأس الملح في طرابلس وكانت تعرف بأردينس، وميناء البردي وكانت تعرف ببترامجنا.

هطول الأمطار

تعد مسألة هطول الأمطار في هذا الإقليم من المسائل العجيبة حقاً، فبينا يهطل المطر بغزارة في مكان ما، إذ تراه ينحبس عن مكان آخر قريب من الأول جداً؛ غير أنه يهطل بحالة دائمة في مناطق معلومة مبعثرة عن الشاطئ يعرفها العرب انفسهم؛ ويستمر من ثلاثة أشهر إلى أربعة في السنة؛ تبدأ من أكتوبر أو نوفمبر وتنتهي في شهر إبريل؛ وفي بعض الأحيان يهطل المطر مرة واحدة وذلك في شهر مايو، ويسميه العرب (مطر البطيخ).

وبعد نزول الأمطار في الواحات كواحة سيوه مثلاً من الأمور النادرة؛ وإذا استمر سقوطها قليلاً سبب هدم منازل الواحة المصنوعة من (الجالوص) وقد حدث ذلك في سنة 1919 م؛ وكذلك في شهر إبريل سنة 1937 م؛ واستمر هطول الأمطار يومين كاملين؛ فأوقع ضرراً بالمنازل وهدمها، وبقى السكان هناك مدة بلا مأوى.

موارد المياه على الساحل

تنتشر في المنطقة الساحلية خزانات المياه الرومانية، وهي محفورة في الصخر بنظام هندسي عجيب يمنع تسرب المياه منها، وتبقى فيها لمدة سنين، وكان الرومان يستعملونها قديماً ولا يزال العربان يستعملونها إلى الآن؛ وبعض هذه الخزانات كبير الحجم يتسع في بعض الأحيان لآلاف من الأطنان تكفي لأعوام طويلة كالخزانات الموجودة في العامرية ومطروح وسلوم؛ وتهتم الحكومة بتنظيف هذه الخزانات وإصلاحها وطلائها بالأسمنت؛ وتوجد المياه كذلك في بعض آبار (جمامات) على الشاطئ ويسميها الغرب (بالثواني) وهي

أكثر ما توجد في المناطق الرملية.

وتوجد الدواوير والزوايا بكثرة حول المناطق الغنية بالمياه وخاصة ما كان منها قريباً إلى الشاطئ. ويزرع السكان حولها الزيتون والتين والعنب وبعض أصناف الخضر.

سكة مريوط الحديدية

هي إحدى منشات الخديو السابق، وكانت تمتد قديماً إلى بلدة فوكة على بعد 120 كيلو من الإسكندرية. ثم نزعت قضبانها في أثناء الحرب العظمى سنة 1916 لأغراض

حربية وانتهت عند بلدة الضبعة على بعد 102 ميل من الإسكندرية.
أما الآن فقد تم مدها إلى مرسى مطروح أي إلى مسافة 312 كيلو متراً من الإسكندرية ولهذه السكة تاريخ غريب: فقد كان الخديو السابق يزمع مدها إلى السلوم على حدود مصر - طرابلس، أي نحو 514 كيلو متراً من الإسكندرية. وكان غرضه من ذلك أن تقرب السفر إلى أوربا يومين، وكان يرمي إلى مد فرع آخر منها من مرسى مطروح إلى سيوة أي مسافة 300 كيلو متراً أخرى وذلك لنقل محصول البلح والفواكه واستغلال أملاكه الكثيرة التي يملكها في هذه الواحة. ويتضح لمن ينعم النظر في هذا المشروع أنه لا يأتي بالفائدة المرجوة منه ولا يسد تكاليفه الباهظة. ولقد أدى ذلك إلى تدخل المعتمد البريطاني في أمره وشرائه باسم الحكومة المصرية تفادياً من استخدامه لأغراض حربية.

سكان الساحل

يقطن المنطقة الساحلية قبائل من العربان الرحل تعرف بقبائل أولاد علي. وكلهم من البدو الذين يعيشون عيشة غير مستقرة فيزرعون الشعير والحنطة على الأمطار ويشتغلون في وقت الجفاف بنقل حاصلات بلح الواحات إلى الساحل ويعودون بالحبوب والسكر والشاي وسائر الحاجيات إلى الواحات ثانية.
والبدوي بطبيعته يفضل السير في الدروب المطروقة الظاهرة للوصول إلى مقصده، وهو لا يفكر في اختراق أرض مجهولة. ولكن إذا انفق أن أمطرت السماء وغمرت بعض الأراضي ونبتت فيها المرعى فسرعان ما يتجه إليها البدو من كل الجهات لترعى مواشيهم؛ ورعاية الماشية تتطلب السير في مختلف أراضي المنطقة، وبهذه الوسيلة يسير
البدوي فيها فيتعرف على دقائقها جيداً. وللعربي خاصية حفظ الأشياء والمناظر الطبيعية والعلامات الأرضية فهي تنطبع في ذهنه لأول وهلة. على أن هذه الخاصية لا تتوفر لجميع البدو، بل هي تتوافر عند قليلين منهم يعرفون بالأدلاء. وللدليل البدوي مهارة عجيبة مدهشة في تعرف الطرق وسهولة ارتيادها وتمييز الجبال والتلال والقدرة على السير ليلاً في أشد الليالي حلكة وظلاماً.

قبائل الصحراء الغربية

يسكن صحراء ليبيا من النيل إلى جالو والكفره فريقان من البدو: السعادي والمرابطون، وهم جميعاً من نسل (سعدي). وهم ثلاثة فروع:
سعدي. وقد أنجبت جبريل وبرغوث وعقار. ومن ذرية جبريل: العواقير والعربيات والمغاربة والجوازي. ومن ذرية برغوث: عبيد والعرفة والفوايد. ومن ذرية عقار: علي والحرابي والهنادي وبني عونة والجمعيات، ومن ذرية علي: أولاد علي الأبيض وعلي الأحمر والسننة. وأولاد علي الأبيض هم: أولاد والسنافره والعزايم والأفراد. وأولاد علي الأحمر وهم: القنيشات والعشبيات والكميلات. والسننة هم: العزوة، والقطيفة، والمحافيظ، والعجنة.
ويسكن أولاد علي الصحراء الغربية.
أما (المرابطون) فهم أقدم من السعادي ولكنهم متفرقون وكل قبيلة منهم في حمى قبيلة من السعادي، ولعل ذلك يرجع إلى أن السعادي جاؤا البلاد فاتحين. ويعرف المرابطون أحياناً بالصدقان أو الأصدقاء. وأهم قبائلهم: زوي، والمجابرة، والمنفة، والموالك، والشواعر، والجرارة، والقطعان، والحونة والجبابل، والتراكي، والشهيبات والفواخر، وترهونه، والعوامة والصوانقة الخ. . .
وهؤلاء موزعون في الصحراء وفي حمى السعادي. وكل قبيلة منهم مسؤولة عن الدفاع عمن تحميهم من المرابطين.
ويقدر عربان هذه الصحراء بنحو 55 ألفا. وهم جميعاً معروفون بشدة الولاء والإخلاص لجلالة الملك وآل بيته الكريم لما لاقوه من عطف محمد علي باشا الكبير رأس الأسرة العلوية، وما منحه إياهم من امتيازات لا يزالون يذكرونها، ويفخرون بها ويتوارثونها جيلاً بعد جيل.

عبد الله حبيب

ملحوظة: أكثر ما ورد في هذا المقال والذي قبله من البيانات المفيدة مأخوذ مما دونه صديقنا الصاغ رفعت الجوهري مأمور مرسى مطروح عن الصحراء الغربية.

التاريخ في سير أبطاله
أحمد عرابي
أما آن للتاريخ أن ينصف هذا المصري الفلاح وأن يحدد له
مكانه بين قواد حركتنا القومية؟
للأستاذ محمود الخفيف
أما عن ذهاب الجيش على تلك الصورة إلى عابدين فالمسئول عنه الخديو ووزراؤه، فلقد كانوا يعلمون ما في صفوف الجيش من تذمر وهياج ثم كانوا يعلمون مع ذلك مبلغ مقدرتهم على المقاومة فبدل أن يطفئوا النار زادوها بأساليبهم اشتعالاً، هذا فضلاً عن ذلك الموقف المزدوج الذي وقفه الخديو تجاه الضباط وتجاه الوزارة ولقد كان القصر أمام الجيش خلواً من أية قوة. فروعيت حرمته أحسن مراعاة؛ وروعي كذلك مقام الخديو، فلم يخرج أمامه ذلك الجندي الثائر عن طوره، بل تمالك نفسه فترجل وأدى التحية لمولاه. ثم ذهب فأعرب له عن ولائه، وشكره حينما أجيب إلى ما طلب باسم الأمة. . . ألا إنا لتعجب بذلك ونفخر به إذ نكتبه، وما نجد من الأدلة التي نسوقها على رجولة عرابي وشهامته وبعده عما رميه به خصومه أقوى من هذا الذي نشير إليه.
فإذا أضفت إلى ذلك ما كان يدبر في خبث من الدسائس في ذلك الموقف الرهيب، وذكرت كيف أحبطها عرابي بمزيج من البسالة والصبر يدعو إلى الإعجاب، ازددت لا ريب إكباراً لموقفه في ذلك اليوم. ولقد كانت أية كلمة نابية أو أية إشارة يساء فهمها كفيلة بأن تسيل الدماء في تلك الساحة. قال عرابي: (لو حاول الخديو قتلي لأطلقت النار عليه).
ولن يفوتنا أن نذكر أن عرابياً قبل ذلك كله قد اتصل بقناصل الدولة، وأفهمهم قبل أن يتحرك نحو عابدين أنه يقصد بعمله هذا مظاهرة سليمة، وأكد لهم بالغ حرصه على الأمن.
كما أنه كتب إلى الخديو قبل أن يذهب. فكان بذلك كله حكيماً موفقاً لا يدع مسلكه غميزة، أو يهيئ سبباً لملامة. . .
نجحت حركة عرابي إذاً أتم نجاح وأجمله وتهيأت البلاد لأن تستقبل عهداً يسود فيه الإصلاح والنظام؛ فلقد كان قبول الخديو مطالب عرابي التي أشرنا إليها ينطوي على معنى
عظيم ألا وهو مرافقة حاكم البلاد على التخلص من الحكم الاستبدادي الرجعي، والعودة إلى حكم الحرية الدستورية الذي سبق أن وافق عليه يوم تبوأ عرشه ثم عاد فتنكر له حين اطمأن في مصر إلى كرسيه.
وقد عارض شريف باشا أول الأمر في قبول الوزارة، وكانت حجته في ذلك أنه بقبوله الحكم دون قيد ولا شرط إنما يضع نفسه تحت سلطة الحزب العسكري، الأمر الذي لا يستطيع أن يحمل نفسه على قبوله؛ ولذلك دارت بينه وبين رجال هذا الحزب مفاوضات استمرت بضعة أيام تحرجت الأمور فيها حتى أوشك أن يتنحى شريف عن قبول الوزارة نهائياً.
ولكن لاحت بوارق الأمل عقب ذلك، وكم كان جميلاً أن تلوح من جانب ذاك الذي لا يزال نفر من المصريين حتى وقتنا هذا يرمونه بالفوضى ويعودون بأسباب ما لحق مصر من ويلات إليه، فيقيمون الدليل بذلك على أنفسهم أنهم إما ذووا أغراض أو أولو جهل معيب بحقائق الأمور.
كان جميلاً أن يبرق الأمل من جانب عرابي، فلقد دعا يومئذ أعضاء مجلس شورى النواب المعطل وعرض القضية عليهم وكان على رأسهم سلطان باشا ذلك الذي كان يعتبر في تلك الأيام من أكبر زعماء الحركة الوطنية.
وذهب إلى شريف وفد من هؤلاء يرجون منه قبول الحكم، فعرفوا منه انه يشترط ألا يتدخل الجند في شيء، ويريد أن يرحل عرابي وعبد العال بفرقتيهما إلى مكانين يختاران لهما، وأن يترك قبل ذلك حراً في اختيار وزرائه لأن عرابي كان يطلب إليه إعادة البارودي وإدخال مصطفى باشا فهمي في الوزارة، وكان شريف يرفض ذلك لأنهما لم يثبتا على عهدهما فدخلا وزارة رياض عقب إقالة وزارته.
وتعهد هؤلاء الزعماء برياسة سلطان أنهم يضمنون لشريف خضوع الحزب العسكري، وكان بين هؤلاء من ذوي المنزلة في البلاد سليمان أباظة والشريعي والمنشاوي

والمويلحي والشمسي والوكيل، وهم أهل جاه وسلطان يعرف شريف قيمة انضمامهم إليه.

وذهب عرابي بنفسه إلى شريف، قال عرابي: (وفي يوم 14 سبتمبر سنة 1881 قابلته مرة أخرى وقلت إنه لا يمكن ترك البلاد بلا وزارة فأصر على الرفض فقلت له: (إن لم

تؤلف الوازرة اليوم فسنطلب غيرك ولا تظن أن ليس بالبلاد سواك فيها بعون الله العلماء والحكماء ولم يكن اختيارك لعدم وجود غيرك لهذا المركز الخطير. . . فاغرورقت عيناه بالدموع ولم يحر جواباً ثم خرجنا من عنده وبعد قليل جاءنا الشيخ بدراوي عاشور (وكيل زراعته) وقال إن الباشا قبل ما عرضته عليه).

وألف شريف وزارته الثالثة وكانت هذه أولى ثمار الثورة، وقد قبل الوزيرين اللذين أشار بهما عرابي، كما قبل ما رجا منه قبوله رجال العسكرية وهو النظر في القوانين الخاصة بالجيش وذلك في نظير أن يخضعوا لحكمه ويبتعدوا عن كل تدخل.

وراحت مصر تستقبل في تاريخها فترة من أسعد الفترات فلقد نالت أمانيها دون أن تراق نقطة دم، وخرجت سالمة آمنة من ثورة جديرة بأن توضع إلى جانب أهم الثورات التي قصد بها الحرية في تاريخ الإنسانية؛ ثورة جديرة بأن توضع إلى جانب ثورة سنة 168 في إنجلترا وإلى جانب الثورة الأمريكية والثورة الفرنسية الكبرى؛ ولولا ما كتبه المغرضون المبطلون من الأجانب عنها، وما ضربه الاحتلال على الآذان والقلوب فحال بين المصريين وبين تاريخ قوميتهم الحقيقي لكان لتاريخ هذه الثورة شأن غير هذا الشأن في هذا البلد المسكين.

ولقد كان المستر بلنت في مصر يومئذ فوصف تلك الأيام السعيدة بقوله: (إن ثلاثة الشهور التي أعقبت هذا الحادث لهي من الوجهة السياسية أسعد الأيام التي شهدتها مصر، ولقد أسعدني الحظ بمشاهدة ما جرى فيها بعيني رأسي فلم أتلق معلوماتي عنها بطريق السماع ولو كان ذلك لشككت في حقيقتها. إني لم أر في حياتي ما يشبه هذه الحوادث وأخشى ألا أرى مثلها في المستقبل إن كل الأحزاب الوطنية وكل أهالي القاهرة قد اتفقت كلمتهم هنيهة من الزمن على تحقيق هذه الغاية الوطنية الكبرى، لا فرق في ذلك كما يظهر بين الخديو والأمة، وسرت في مصر رنة فرح لم يسمع بمثلها على ضفاف النيل منذ قرون فكان الناس في شوارع القاهرة حتى الغرباء منهم يستوقف بعضهم البعض يتعانقون وهم جذلون مستبشرون بعهد الحرية العظيم الذي طلع عليهم على حين غفلة طلوع الفجر إثر ليلة مخيفة حالكة الظلام).

تقدم زعماء والعلماء إلى شريف بالعرائض يطلبون إعادة تشكيل مجلس شورى النواب؛

وما كان شريف في حاجة إلى مثل هذا الطلب إذ كان في مقدمة ما ينتويه تقرير مبدأ الشورى وتثبيت قواعد الدستور وليست هذه أولى محاولاته في هذا السبيل.

ودعا وزير الحربية عرابياً، فأفهمه رغبة الحكومة أن يسافر بفرقته إلى رأس الوادي، وأن يسافر عبد العال إلى دمياط. فقبل عرابي ذلك، ولكنه اشترط أن يصدر أمر الخديو بانتخاب النواب قبل السفر، ولا ريب أن هذا الشرط من جانب عرابي خروج منه على ما أخذه على نفسه من عدم التدخل في شؤون الحكومة؛ وهي نقطة لا يسعنا إلا أن نحسبها عليه. بل ونلومه عليها مهما كان ما ينطوي عليه طلبه من خير للبلاد، ومهما كان في هذا الطلب من معاني حرصه على الدستور والحياة النيابية، وبخاصة إذا كان على رأس الحكومة رجل مثل شريف.

أما عن امتثاله لأمر الحكومة بقبول السفر، فهو أمر في ذاته - على الرغم ما أحيط به من اشتراط - يعد من محامد عرابي. إذ يدل على مرونة وكياسة ورغبة في التفاهم شتان بينها وبين ما يعزوه إليه خصومه وجاهلوه من الحماقة والنزق والعنف في كل ما يطوف بهم من سيرته. كما أنه يقدم بطاعته هذه دليلاً آخر على حسن طويته ونبالة غرضه فيما سعى إليه.

وفي اليوم الراب من أكتوبر سنة 1881 رفع شريف إلى الخديو مذكرة يلتمس فيها موافقته على دعوة مجلس شورى النواب، ولم يكن للخديو من إجابة رئيس وزرائه إلى ما طلب وما كان أغنى توفيقاً عن أن يعطل هذا المجلس لو أنه كان يحسن النظر في عواقب الأمور. إن البلاد اليوم لتحس أنها تصل إلى بغيها نيلا لا سؤالاً، ولسوف

يكون لهذا الإحساس أثره فيما هي مقبلة عليه من الحوادث.
وخرج عرابي في اليوم الثامن من ذلك الشهر يقصد السفر بفرقته إلى رأس الوادي، وكان قد سبقه إلى السفر إلى دمياط عبد العال. وسار عرابي بطريق الحسينية حتى وصل إلى مسجد الحسين رضى الله عنه. (فوقف الآلاي مقابلاً للمسجد تعظيماً وإجلالاً لسبط الرسول علي الصلاة والسلام)؛ ودخل عرابي المقام الحسيني مع الضباط: (وأمر بيرق الآلاي على الضريح الشرف). ثم سار بعد ذلك نحو المحيطة. فما كاد يتوسط المدينة حتى ألفى الشوارع مكتظة بالناس، وإنهم ليهتفون باسمه في حماسة ويحيونه تحية الزعيم المنقذ،
ويلقون في طريقه الزهر والرياحين.
وفي المحطة وجد عرابي جميع ضباط الجيش المصري وجمهوراً من الأعيان وذوي الحيثية وعدداً هائلاً من عامة الناس فاحتفوا بمقدمه، وكانت توزع الحلوى وتنثر الزهور في فناء المحطة؛ وكان يتسابق الخطباء والشعراء في تمجيد ذلك جرى اسمه على كل لسان في مصر؛ ووقف عرابي في هذا الجمع خطيباً فقال: (سادتي وإخواني: بكم ولكم قمنا وطلبنا حرية البلاد وقطعنا غرس الاستبداد، ولا ننثنى عن عزمنا حتى تحيا البلاد وأهلها، وما قصدنا بشعبنا إفساداً ولا تدميراً، ولكن لما رأينا أننا بتنا في إذلال واستبعاد ولا يتمتع في بلادنا إلا الغرباء حركتنا الغيرة الوطنية والحمية العربية إلى حفظ البلاد وتحريرها والمطالبة بحقوق الأمة، وقد ساعدتنا العناية الإلهية ومنحنا مولانا وأميرنا الخديو ما طلبناه من سقوط وزارة المستبد علينا السائر بنا في غير طريق الوطنية، وتمتعنا بمجلس الشورى لتنظر الأمة في شؤونها وتعرف حقوقها كباقي الأمم المتمدنة في العالم، ومن قرأ التواريخ يعلم أن الدول الأوربية ما تحصلت على الحرية إلا بالتهور وإراقة الدماء وهتك الأعراض وتدمير البلاد، ونحن اكتسبناها في ساعة واحدة من غير أن نريق قطرة دم أو نخيف قلباً أو نضيع حقاً أو نخدش شرفاً، وما أوصلنا إلى هذه الدرجة القصوى إلا الاتحاد والتضافر على حفظ شرف البلاد). وهتف عرابي بحياة الخديو واهب الحرية، وحياة الجيش، وحياة الحرية، ثم امتدح الوازرة ورئيسها ووصف البارودي بقوله: (رئيسنا الوطني الحر القائم بخدمة الوطن وأهله).
وحذر إخوانه في الجهادية من الوشاة والحساد، وحثهم على الاتحاد قائلا: (البلاد محتاجة إلينا وأمامنا عقبات يجب أن نقطعها بالحزم والثبات وإلا ضاعت مبادئنا ووقعنا في شرك الاستبداد بعد التخلص منه). ولنا في هذه الفقرة الأخيرة في خطبته عودة كما أن لنا عودة إلى فقرة غيرها نكتفي الآن بالإشارة إليها وهي قوله: (وقد فتحنا باب الحرية في الشرق ليقتدي بنا من يطلبها من إخواننا الشرقيين على شرط أن يلزم الهدوء والسكينة ويجانب حدوث ما يكدر صفو الراحة).
واستقبل عرابي بحفاوة كبيرة في المحطات التي وقف بها القطار كما حدث في الزقازيق حيث كان على رأس مستقبليه فيها أمين بك الشمسي ووقف عرابي يخطب الناس هناك فكان مما قاله (أما القوة فنحن رجالها، ولا ننثني عن عزمنا في الجسم نفس، وأما الفكر فهو
منوط بأميرنا الأعظم ووزرائه الكرام. وأما العمل فهو منوط بكم فإن القوة والفكر يعطلان بفقد ثروة تربتنا الطيبة المباركة، وقد طلبنا لكم مجلس الشورى لتكون الأمور منوطة بأهلها، والحقوق محفوظة لذويها).
وقال عرابي في خطبة أخرى بالزقازيق (وأنتم الآن مهيئون للانتخاب فلا تميلكم الأهواء والأغراض لانتخاب ذوي الغايات بل عولوا على الأذكياء والنبهاء الذين يعرفون حقوقكم ويرفعون المظالم عنكم) ولم يسه في هذه الخطبة عن امتداح الخديو ووزرائه وهتف في ختامها قائلاً (يعيش الجناب الخديو).
وفي الزقازيق دعى لوضع أساس المدرسة الأميرية فذهب ووضع الحجر الأساسي باسم الخديو قال (وتلوت على الحاضرين خطبة ذكرت لهم فيها فوائد التعليم ومنافعه وفضل العالم على الجاهل والبصير على الأعمى، وحرضتهم على الاهتمام بأمر تعليم أولادهم ليكونوا مستعدين لخدمة بلادهم في المستقبل).
ثم سافر عرابي إلى رأس الوادي بعد أن أولمت له عدة ولائم في دور بعض وجوه مديرية الشرقية مسقط رأسه، وليس يخفى ما ينطوي عليه من معان تكريم هذا الفلاح الذي نشأ في بيت متواضع، على أيدي هؤلاء السادة والكبراء؛ ففي ذلك أول

مظاهر الديموقراطية الوليدة في هذا الوادي الذي خضع قبل ذلك زماناً طويلاً لمظاهر السيادة والأرستقراطية
(يتبع)
الخفيف
نقل الأديب
للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي
412 - والله لا أدري أنا
أمين الدين الحوباني الصوفي:
مت في عشقي ومعشوقي أنا ... ففؤادي من فراقي في عنا
غبتُ عني فمتى أجمعنى؟ ... أنا من وجدىَ مني في فنا!
أيها السامع تدري ما الذي ... قلتُه؟ والله لا أدري أنا. . .
413 - أراني وإياكم طرائق قددا
في (ثمار القلوب): قال ابن عائشة: كان للحسن بن قيس ابن حصين - ابن شيعي: وابنة حرورية وامرأة معتزلة، وأخت مرجئة، وهو سني جماعي فقال لهم ذات يوم: أراني وإياكم طرائق قددا.
414 - أول من قال (واي ويه، واي ويه).
في (الأغاني): لما قال ابن مناذر (في رثاه عبد المجيد الثقفي):
ولئن كنت لم أمت من جوى الحزن (م) ... عليه لأبلغن مجهودي
لأقيمن مأتماً كنجوم الليل (م) ... زهراً يلطمن حر الخدود
موجعات يبكين للكبد الحرى (م) ... عليه وللفؤاد العميد.
قالت أم عبد المجيد: والله لأبرن قسمه؛ فأقامت مع أخوات عبد المجيد وجواريه مأتماً عليه، وقامت تصيح عليه: (واي ويه! واي ويه!) فيقال: إنها أول من فعل ذلك، وقاله في الإسلام.
415 - الجد
قال أبو حيان التوحيدي: قال أبو غسان البصري - وقد ذكر جاهلاً مجدوداً - إن الجد ينسخ خال الأخرق ويستر عيب الأحمق، ويذب عن عرض المتلطخ، ويقرب الصواب بمنطقة، الصحة برأيه، والنجاح بسعيه. والجد يستخدم العقلاء لصاحبه، ويستعمل آراءهم وأفكارهم في مطالبه، ولو عرفت خبط العاقل وتعسفه وسوء تأتيه وانقطاعه إذا فارقه الجد،
لعرفت أن الجاهل قد يصيب بجهله ما لا يصيب العالم بعلمه مع حرمانه.
قال أبو حيان: فقلت له فما الجد؟ وما هذا المعنى الذي علقت عليه هذه الأحكام كلها؟ فقال: ليس لي عنه عبارة معينة، ولكن لي به علم شاف استفدته بالاختبار والتجربة والسماع العريض من الصغير والكبير، ولهذا سمع من امرأة من الأعراب ترقص ابناً لها وتقول: رزقك الله جدًّا يخدمك عليه ذوو العقول، ولا رزقك عقلاً تخدم به ذوي الجدود.
416 - البياض لباس حزن
قال بعضهم في لباس أهل الأندلس البياض في الحزن مع أن أهل المشرق يلبسون فيه السواد:
ألا يا أهل أندلس فطنتم ... بلطفكم إلى أمر عجيب
لبستم في مآتمكم بياضاً ... فجئتم منه في زي عجيب
صدقتم فالبياض لباس حزن ... ولا حزن أشد من المشيب
417 - الفضيلة الجامعة والرذيلة المفرقة
في (الكلم الروحانية): قال أفلاطون: الفضيلة تجمع أهلها على المحبة، والرذيلة تفرق بين أهلها بالتنافر والبغضة: ألا ترى أن الصادق يحب الصادق، ويستنيم إليه، وكذلك الثقة مع الثقة، والحسن الخلق مع الحسن الخلق، وترى الكاذب يبغض الكاذب، والسارق يخاف السارق، وكل واحد منهما حذر من مجاورة صاحبه.
418 - دعوة مظلوم!
في (تاريخ بغداد) لابن الخطيب: قال جعفر لأبيه ابن خالد ابن برمك - وهم في القيود والحبس -: يا أبت، بعد الأمر والنهي والأموال العظيمة أصارنا الدهر إلى القيود ولبس

الصوف والحبس؟! فقال له أبوه: يا بُني، دعوة مظلوم سرت بليل غفلنا عنها، ولم يغفل الله عنها. ثم أنشأ يقول:

رب قوم قد غدو في نعمة ... زمنا والعيش ريّانُ غدق
سكت الدهر زمانا عنهم ... ثم أبكاهم دما حين نطق

الإرشاد في خرق الأدب المعتاد - 419

في (فتوحات محمد بن عربي):

بتنا ليلة عند أبي حسن بن أبي عمر ابن الطفيل بأشبيلية سنة (592) وكان كثيراً ما يحتشمني ويلتزم الأدب بحضوري، وبات معنا أبو القاسم الخطيب وأبو بكر ابن وسام وأبو الحكم بن السراج وكلهم قد منعهم احترام جانبي الانبساط، ولزموا الأدب والسكون فأردت أعمال الحيلة في مبساطتهم. فسألني صاحب المنزل أن يقف على شيء من كلامنا، فوجدت طريقاً إلى ما كان في نفسي من مبساطتهم فقلت: عليك من تصانيفنا بكتاب سميناه (الإرشاد، في خرق الأدب المعتاد) فإن شئت عرضت عليك فصلاً من فصوله. فقال لي: أشتهي ذلك. فمددت رجلي في حجره، وقلت له: كبسني! ففهم عني ما قصدت، وفهمت الجماعة فانبسطوا، وزال ما كان بهم من الانقباض والوحشة، وبتنا ليلة في مباسطة دينية.

. . .نعسان (النيل)

نفثة من لياليه الساحرة

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

ذهبتُ لهُ. . . والأنجمُ البيضُ حوَّمٌ ... على خمِره كالطير تحسو وترشُفُ
لها رعشةٌ مسحورةٌ في جَنانه ... وهمسُ حديثٍ في الحنايا مرفرف
صبتْهُ الرؤى فانساب نعسان مثلما ... على راحةِ المحبوبِ هوَّم مُدْنفُ. . .
وتمتمَ كالجبَّار ميلَهُ الكرى ... وفي فمهِ ذكرى البطولاتِ تهتف!
عَتِيٌّ يهابُ الدهرُ حرمةَ ساحِه ... ويفزَعُ إعصارُ الزمانِ المطوِّفُ
فكيف تَغشّاه الكرى؟! وسجايه ... وسجَّاه في الأحلام سِرٌّ مُغلَّف؟!
خشوعٌ وتسبيحٌ وطهرٌ. . . كأنهُ ... بِكفِّ الليالي أو بِكفِّيَّ مصحفُ!
وصمتٌ على الشطْآنِ أسمع خلفه ... صدى الأبد المخنوقِ للرُّوح يعزف
وألمحُ أشباحَ الفراعينِ فوقهُ ... رهابينَ تتلو اللوحَ والليلُ (أسقف)
ودنيا أغانٍ في الضِّفافِ نشدتها ... فعدت وأوتاري من اليأس تهرف
فيا (نِيلُ) كاشِفني السريرةَ واسقني ... منَ الغيبِ سُلواني إذا كنتَ تعرف
أتيْتُك مذبوحَ الخيالِ معذَّباً ... وكأسِي من سمَّ البّلياتِ تنزف
وفي صدريَ المهدودِ جُرحٌ وخنجرٌ ... ونارٌ على خدَّيْهِ بالرُّوح تعصفُ
وذكرى على شطّيك حن لعهدها ... وجُنَّ عليها عاشقٌ متلهّفُ
فهلْ فَيك للمحزونِ دَمعةُ راحِمٍ ... تُراق على ذِكرى الحبيب وتذرفُ؟!. . .

(وزارة المعارف)

محمود حسن إسماعيل

سوانح طائفة!

للأستاذ أحمد فتحي

قضيت بالشعر من دنياي أوطارى ... طوبَى لدنياي أو طوبى لأشعاري
هذا البيان، وعندي تبْر معْدِنه ... أدَّى إلى المجدِ معياراً، بمعيارِ
يا للرَّوائع، كم تجلو عوارِفُها ... ليلَ الحوادثِ عن صُبْح وأنوار
ودِدت أدرك من شعري وحكمته ... ما غابَ عن فِطنتي في غيب أستار
قَلّبْتُ فيه وجوهَ الرأي أجْمَعها ... وطالَ في البحثِ تَجوالي وتَسياري
ثم انثنَيت إلى نفسي أسائِلها ... هل يكسونَّ البيان الهيكل العاري
وما انتفاعُ أخي الأشعار عاليةً ... بصاغة الحمدِ، من حَشد وسُمَّار
وليس كالهاتِفِ المصغِي، وإن خَلقَتْ ... ديباجتاهُ، ولا كالكاتِبِ القاري!
ألست بالصائغ الشعر الذي هتفتْ ... به المواكبُ في ساحٍ ومضمار
ماذا أفَدْت بأشعاري ورَوعتِها ... سوى عُلالةِ تخليدٍ لآثاري؟!
وما الخلود بميْسورٍ لعارِيَة. . . ... غير الخسيسين من ترب وأحجار
ماذا أصابَ امرؤ القيسِ الذي عرفوا ... من عَبْقَرِيَّتِهِ مأثورَ أخبار؟!

غَنَّت بآياته الأجيال واسْتبقتْ ... تُزْجى له الحمدَ في مَوروث أسفار
ولاتَ حينَ ثناءٍ ليس يَسَمعُهُ ... إلا الذي صاغَهُ من جود مَكّار!
فِيمَ الثناءُ على الموتَى، أتمْنحُهم ... دُرَّ المدائح، قنطاراً، بقنطار؟
وهل يَردُّ عليهم طيب عيشِهمو ... طِيبُ الثناءِ، إذا وافَى بمقدار؟
يا ضيعةَ الشعر، إن لم تَمْتلئْ يَدُهُ ... بدرهم، يكفُلُ الدنيا، ودينار
يا هاتِفَ الوحي أقْصِرْ زِدْتَنا شَجَناً ... وهْجتَ بَرْحَ الجَوَى، من بَرْح تَذْكار
ما حيلةُ الشعر في قوم إذا حشَدوا ... في أهلِهِ كلَّ طبَّال وزمَّار؟!
حِمَى البيانِ استباحوهُ، وكان له ... محض التجلة في قُدس وإكبار
قضُوا بذّلته في الأرض وانبعثوا ... يستأثرون بغاياتٍ وأوطار
إني لأبْصره هَيمان مَّطرَحاً. . ... يشكو الجنايةَ من إيذاءِ أغرار
مُرَوِّعاً تترامَى الكارثاتُ به. . ... وتَبْتَلِيهُ بزلزالٍ وإعصار!
بضاعةً تهبطُ الأسواق كاسدةً ... لا بائعٌ رابحٌ فيها، ولا شارِ
وكان بالأمس أعْلى ما يُعزُّ به ... مَجدُ القبائلِ، في بيدٍ وأمصار
يُعِلى ويُدِنى، كما شاءت رغائبُه ... رفعاً وخَفضاً، لأقدارٍ، وأقدار
يَبني ويهدِم دنيا الخلق من عَجبٍ ... كأنه قُدْرة في كفِّ جبَّار!
ويرزُقُ الناسَ دنيا من فواضلِهِ ... فيحاَء، تُزَهى بجنَّات وأنْهار
إذا تَبسَّمَ فالأكوان باسِمةٌ ... كأنها الروضُ في إشراقِ آذار
وإن تَجَهَّمَ فالأيامُ عابِسةٌ ... نكراءُ تَرْمِى بأكدارٍ وأوضار
فما لِدولته دالَت، ومال بها ... إلى الحضيض ملام الشانئ الزاري
كأن قومي رأَوْا فضل الجحود على ... أصحابه، فأثابونا بإنْكارِ!
والشعرُ أوْلَى بإعلاءٍ وتكرمَة ... لكن جُزينا على فضلٍ بأصغار!
أم هذه شِرْعةُ الأيام، من سَفهٍ ... تختالُ ما بينَ إقبالٍ وإدبارِ
وقد تعزَّيت عن يومي بأمس، وفي ... غدي القريب رجاءٌ غير مُنُهار!
بني العروبةِ هذا صوتُ شاعركم ... كأنهُ نغمٌ من عزْفِ أوتار
تلمّسوا المثلَ الأعلى لديه، وكم ... يستلهم الحقُّ من آياتِ أشعار
ولا تضيقوا به إن يَرْم غادِيَكمُ ... بموجعٍ من شديدِ القولِ هَدَّار
قد يبلغُ الشعبُ بالآداب ساميةً ... ما ليس يبلغُه بالسيف والنار
دعوكمو من قديم المجدِ، وانتبذوا ... ذاكَ الفَخارَ، بتاريخ وآثار!
المجدُ يحظَى به الساعِي إليه وفي ... جنبيه قلبُ جَليدٍ غير خَوَّارا!
(القاهرة)
أحمد فتحي
أمنية
(لما ابتسم الربيع ابتسمت)
للآنسة جميلة العلايلي
يا خالق الحسن هبني الحسن أجمعه ... عّلى من الحسن أروي روح ظمآن
قد شفنى الحسن ممنوعاً فأرقني ... صوت ملحٌّ وراء الأفق نوراني
روح تهادت وشاق الروح فتنتها ... إلى عوالم لَمْ تخطر بحسبان
هبني الكمال وهبني صورة وضعت ... في الخلد ما بين أضواء وألحان
قلبي من الشوق أوصال ممزقة ... يرجو لقاء فؤاد حالم حان
روحاً أذوب روحي في مناعمها ... كأنها لم تكن روحاً لإنسان
جميلة العلايلي
رسالة العلم
غرفة ولسون
اتجاهات حديثة في العلم التجريبي - هذه أنابيب النيون عيون خير من عيوننا - كيف كشف أندرسون االبوزيتون - غرفة ولسون هي أقصى ما بلغه العلم التجريبي من العظمة والدقة.
للدكتور محمد محمود غالي
دعوت ذات مرة العالم الكبير جييه أستاذ السوربون لمشاهدة بعض تجارب كنت أقوم بها خاصة بدراسة ميوعة السوائل، فلبى دعوتي وشرفني بحضوره من السوربون إلى

معهد باستير، وظل ردحاً من الوقت يروح جيئة وذهاباً أمام الحوض الزجاجي الذي أعددته لإجراء هذه التجارب.

مضت أيام صعدت بعدها سلم السوربون واستأذنت في زيارة الأستاذ، وعندنا دخلت معمله وجدته يقوم ببعض التجارب العلمية الخاصة بالميوعة أيضا، ولا أدري إن كانت زيارته السالفة هي التي جعلته يهتم بهذه الناحية التجريبية من البحث العلمي، التي أعلم أنها عند الأستاذ أقل شأنا من غيرها، ولا سيما في وقت كنت أعلم درجة اهتمامه بالخطوات التجريبية الخاصة بالمرناة (التلفزيون).

أما موضوع دراسة الميوعة الذي شغل الأستاذ جييه فهو خاص بالطيران، ذلك أنهم يؤملون أن تتمكن الطائرات يوماً ما أن تطير في الطبقات العليا من الجو التي يسمونها (ستراتوسفير) ويزيد ارتفاعها عن 14 كيلو متراً، وقد دلت التجارب على أن الطائرة في هذه الحالة تخترق طبقات من الجو تزيد درجة الحرارة فيها عن 50 درجة، وطبقات أخرى تنقص فيها درجة الحرارة عن الستين، وهو ما حدث للعالم بيكار، عندما صعد في كرته التي صنعها من الألمنيوم.

ويتحتم مع هذا الاختلاف في درجة الحرارة دراسة خواص الزيوت المستعملة في الطائرات: أي دراسة ميوعتها مع درجة الحرارة، والعوامل الطبيعية الأخرى، وإلا صعب استعمال هذه الزيوت في محركات الطائرات.

وجدت الأستاذ أمام بندول بسيط من الخشب من صنعه أو صنع عامل في معمله، وهذا البندول يوصل تياراً كهربائياً ويقطعه في كل مرة يهتز فيها، ورأيت أمام العالم أنبوبة صغيرة من أنابيب النيون التي شاع استعمالها الآن في الإعلانات ليلاً في الشوارع، وكرة نحاسية معلقة بسلك يحمل في أحد أطرافه مؤشراً يدور دوران السلك فتدور معه الكرة في السائل المراد اختباره، وكلما أكمل البندول هزة اتصل أحد أطرافه بحوض من الزئبق، فيمر التيار الكهربائي وتتوهج الأنبوبة التي لا تلبث أن تنطفئ بمبارحة البندول للزئبق، وهكذا كلما كان السائل مائعاً تأخرت الكرة قليلاً في دورانها عن السلك الحامل لها أي عن المؤشر، وهذا المؤشر لا يظهر للعين إلا في الفترات القصيرة التي تتوهج فيها أنبوبة النيون.

التفت إلى الأستاذ وقال مشيراً إلى أنبوبة النيون: (هذه عيون أحسن بكثير من عيوننا)، وهو بهذا التعبير الصادق يلخص لنا الاتجاهات الحديثة في العلم التجريبي، الذي بات لا يعتمد على حواسنا كما كان الحال في زمن قريب بقدر ما يعتمد على الوسائط الطبيعية.

والواقع أن العين وهي أعظم ما نملكه من حواس هي جهاز متوسط لا يعد شيئاً مذكوراً بجانب الوسائط العلمية الأخرى التي تفوقها حساسية وتعظمها دقة، ولو أن الإنسان اعتمد في كل ما يرجوه من تقدم في أعماله التجريبية على حواسه، لما تقدم العلم للحد الذي هو فيه اليوم، ولما اختلف كثيراً العهد الذي نعيش فيه عن أقدم العهود.

إنما ذكرت تجارب جييه واستعماله غاز النيون والظاهرة المعروفة باسم (الستروبوسكوبي) لأبين للقارئ الاتجاهات الحديثة في العلم التجريبي، فلا ترجعن المسائل للمحسوسات وحدها، وإلا عدنا لعصر الإغريق عندما كان الدليل الفلكي لا يزيد عن بضع مئات من النجوم، أو عصر العرب عندما كنا نقضي عشرة أيام لكي نسافر من القاهرة للإسكندرية، حيث كنا مجبرين أن نتبع فوق ظهر الإبل حركتها الدورية أكثر من مائة ألف مرة، وهي الحركات الناشئة عن خطوات الجمل الذي يحملنا بتثاقل لقطع مثل هذه المسافة البعيدة جداً في العهد المنصرم والتي أصبحت على طرف الثمام في العهد الذي نعيش فيه.

وهكذا في معظم التجارب الطبيعية اليوم لا تأتي العين إلا في المرحلة الأخيرة منها.

ولعل أحسن ما أقدمه من مثال للقارئ هو أن أشرح له (غرفة ولسون)، وهو جهاز يرسم لنا مسارات الأشعة الكونية، وهي الأشعة التي قدمنا أنها آتية من عوالم بعيدة لا نعرف مصدرها، وتخترق طبقات الجو وما يقابلها من مادة، والتي قدمنا أنها مكونة من إلكترونات وبوزيتونات سريعة، وهي أصغر ما نعرفه من الجسيمات المكونة للذرة.

هذه الغرفة يتضاءل مجهود العين بجانب ما يدور فيها من حوادث جسام، لا تدركها العين إلا بعد أن تصبح لهذه الحوادث آثار تدل عليها، وهو نوع من التحايل التجريبي، وفق إليه العلماء كل التوفيق.

ويتكون الجهاز من وعاء بداخله مكبس يغير ضغط ما بداخله من غاز أو بخار، فعند مرور جسيم من جسيمات الأشعة الكونية يحدث عدد من الأيونات في هذا الغاز وتساعد حركة المكبس في نفس الوقت على تكاثف قطرات الماء الرفيعة على الأيونات الحادثة وذلك من تخفيف الضغط دفعة واحدة - وهذا التكاثف الذي يحدث عند مسار الجسيمات الكونية يمكننا من رسمها على اللوح الفوتوغرافي فنرسم بهذا في الواقع مسارات الجسيمات الكونية وتسمى هذه الطريقة بطريقة ولسون أو طريقة الضباب لولسون. ولا يفوتنا أن نذكر أن سنة 1929 كان أول من قام برسم مسارات لجسيمات تفوق طاقتها طاقة جسيمات المواد الراديومية، فكان أول من استعمل طريقة الضباب المتقدمة في أبحاث خاصة بالأشعة الكونية، وطريقة ولسون هذه تسمح بمعرفة الطبيعة والطاقة التي عليها جسيمات الأشعة الكونية من درجة انحناء مساراتها واتجاه هذه المسارات ودرجة التأين الحادثة من هذه الجسيمات، وذلك بتعريض الغرفة لمجال مغناطيسي قوي.

وكم كان عظيما للعلم ورافعا للعرفان أن تتقدم الأبحاث الخاصة بغرفة ولسون للحد الذي سمحت فيه للعالم الكبير الذرة الموجبة للكهرباء التي نسميها بوزيتون منحه المجمع السويدي من أجل هذا الكشف جائزة نوبل للطبيعة.

لقد استعان أندرسون في بادئ الأمر في تجاربه التي قام بها في باسادينا، تجاربه التي قام بها في روستوك، بمجال مغناطيسي قوي يبلغ 18 ألف جوس، فوجدا أن مسارات جميع الجسيمات المكنة للأشعة تنحني في مثل هذا المجال القوي، وبفرض أن كتلة هذه الجسيمات هي كتلة الإلكترون فإن طاقتها تقع بين 108، 106 إلكترون فولت، بل تبلغ طاقة بعضها 1010 الإلكترون فولت، وقد وجدا بادئ الأمر أنه بينما ينحني نصف هذه الجسيمات في اتجاه معين داخل غرفة ولسون، ينحني النصف الثاني في الاتجاه الآخر، مما يدل على أن شحنة نصف عدد هذه الجسيمات سالبة وشحنة النصف الآخر موجبة.

على أن استمرار البحوث في دراسة المسارات المنحنية في اتجاه الجسيمات الموجبة الذي قام به أندرسون أدى إلى كشف غريب بعد من أهم اكتشافات العلوم الطبيعية الحديثة، ففي إحدى الفوتوغرافيات العديدة التي قام بها أندرسون ظهر بوضوح مسار لجسيم اخترق لوحة معدنية موضوعة داخل الغرفة ففقد هذا الجسيم باختراقه اللوحة جزءاً من طاقته لدرجة وضح فيها اتجاه الجسيم الذي دل باتجاهه على أن شحنته موجبة. ولقد كان مساره طويلاً للحد الذي لا يمكن اعتباره مع طول هذا المسار (بروتوناً) (نواة الهيدروجين) وكتلة هذا الأخير، أي البروتون، تساوي 1850 مرة قدر كتلة الإلكترون، عندئذ اقترح أندرسون إمكان وجود جسيم موجب الشحنة قائم بذاته يختلف عن البروتون، وهذا الجسيم الذي كشفه تقرب كتلته للإلكترون عن البروتون وقد سمى فيما بعد (بوزيتون).

ولقد ثبت رأى أندرسون هذا بتجارب أخرى عديدة قام بها اللذان توصلا لتحسين طريقة غرفة ولسون كما توصلا لإثبات ما هسر أندرسون عنه الستار.

وينحصر عمل بلاكت وزميله أوشياليني في أن تمكنا من أن يجعلا الجسيمات الكونية هي التي تقوم بنفسها بعمل الفوتوغرافيات لها في الوقت الذي تمر فيه، وذلك بأن تمر أولاً هذه الجسيمات في عدادين من العدادات التي سبق أن شرحناها، فينتج عن التأين الحادث في هذه العدادات زيادة في فرق الضغط الكهربائي وبالتالي حركة ميكانيكية، هي التي تقوم بتحريك المكبس في غرفة ولسون، بحيث أن الغرفة لا تعمل إلا عند مرور جسيم كوني.

عندئذ بات من المؤكد ألا تحصل هذه الفوتوغرافيات إلا عند مرور الجسيمات الكونية، ومما يجدر بالذكر أنه قبل استعمال هذه الطريقة كان يلزم أن يقوم الباحثين بعمل

مئات الفوتوغرافيات ليحصل على واحدة أو اثنتين من الصور التي يرى عليها مسارات هذه الجسيمات الكونية، لأنه عندما يقوم الباحث بتحريك المكبس والجهاز الفوتوغرافي لا يعلم إذا كان يمر في نفس الوقت جسيم من الأشعة الكونية، أما الآن فإنه في كل مائة صورة ترى حوالي 75 صورة مرسوماً عليها مسارات هذه الجسيمات المتناهية في الصغر.

ويتلخص الموقف اليوم أنهم توصلوا لعمل أجهزة تسمى عدادات الإلكترونات وتوصيلها بعضها ببعض، بحيث لا تتأثر إلا بمرور جسيم كوني يخترق العدادات معاً، وأنه بتأثر هذه العدادات يتحرك المكبس الموجود في جهاز آخر، يسمى جهاز ولسون، كما يتحرك الجهاز الفوتوغرافي، بحيث أن أصغر مكونات الكون وهو الإلكترون عند مروره أو مرور شقيقه البوزيتون بسبب كل منهما حركة كل هذه الأجهزة، فتسمعه أولاً ثم ترى مساره ثانياً، بل ترى أثر ما أحدثه من تهدم وتفتت في ذرات المادة التي اخترقها.

وفي الشكل (1) ترى غرفة ولسون وترى حزمة من الجسيمات تظهر في الجزء الأعلى من هذه الغرفة كما ترى حزمة من الجسيمات المطرودة من لوحة الرصاص الموضوعة داخل الغرفة. وفي الشكل (2) يرى القارئ زوجين إلكترون، وشقيقه البوزيتون، الجسيم المكتشف حديثاً، يظهران فجأة في غرفة ولسون، وتعد غرفة ولسون، وما يدور فيها من حوادث جسام أعظم ما توصل إليه العلماء في البحث التجريبي.

وإلى اليوم الذي قد يتاح فيه القيام بتجارب أعظم أثراً من التجربة السابقة، عندما يتاح للعلماء أن ينتفعوا مثلاً بالطاقة والنشاط الموجودين في المادة في مرافق حياتنا المختلفة، عندما لا نعتمد فيما نحتاج إليه من طاقة إلى ما هو معروف من الفحم، والوقود والكهرباء، عندما يصبح مصدر ما نحتاج إليه القليل من المادة والتافه من الأشياء؛ فأن التجربة الخاصة بغرفة ولسون ستظل حتى هذا الوقت من أعظم وأدق التجارب العلمية التي تحققت في وقتنا الحاضر.

محمد محمود غالي

دكتوراه الدولة في العلوم الطبيعية من السوربون

ليسانس العلوم التعليمية. ليسانس العلوم الحرة. دبلوم المهندسخانة

رسالة الفن

دراسات في الفن

طابعنا المصري في فننا

للأستاذ عزيز أحمد فهمي

منذ أحس المصريون حاجتهم إلى أيجاد كيان ذاتي خاص بهم يميزهم من غيرهم، وأهل الفن منهم يجهدون أنفسهم سعياً وراء فن قومي يكون له طابعه المصري الخاص الذي إذا اتضح وتجلى ثبت للعالم كله أن مصر لها ذوق فني قائم بذاته، وأنها بذلك الفن أمة جديرة بالاعتناء حقيقة بأن تمضي بين الشعوب الحية في هذا الزمان؛ فإنه لا شيء يميز أمة من أمة إلا الفن، لأنه النتاج النفسي المعبر عن إحساسهم والذي لا يحسه غيرهم، ولا يمكن أن يحسه غيرهم إلا إذا عاش معهم في ثنايا مجتمعهم وعلى أرضهم وتحت كل المؤثرات المادية والمعنوية التي تؤثر فيهم. وهذا شيء يستلزمه الفن وحده؛ وهو في هذا يختلف عن العلم الذي تستطيع كل العقول البشرية أن تساهم فيه وأن تتشابه. فأنت إذا ذكرت لأي إنسان الرقم (5) لم يبعد أن يطوف بذهنه أن الخمسة مجموعة من الاثنين والثلاثة، أو من الواحد والأربعة، ولكنه لا يمكن أن يخطر على بال أحد من غير المصريين أن الرقم (5) له معنى آخر وهو مقاومته للحسد، ذلك أن هذا التحول بمعنى الرقم الأصلي إلى هذا المعنى العرفي الجديد شيء اصطلح عليه المصريون وحدهم وقد هيأتهم له عوامل ودوافع لم تتخلق في غير البيئة المصرية. وهذا التحول الجديد اسمه عند أصحاب البلاغة كناية أو مجاز أو أي اسم آخر من هذه الأسماء التي تشير إلى أن الكلمة قد خرجت عن معناها الأصلي إلى معنى جديد. . . ولا شيء يصنع هذا الصنيع بالكلمات إلا الفن.

هذا والمصري يتعلم الحساب كما يتعلمه الفرنسي ولكنه لا يعرف للرقم (5) المعنى الذي نعرفه. إن الفرنسي يدرس الهندسة النظرية كما يدرسها الياباني، ولكنه حين

يطبقها وحين يخرج بها من العلم النظري إلى الفن المنفوث فيه من ذوقه وروحه كانت عمارته التي يجمع علمه بالهندسة لإنشائها مختلفة اختلافاً تاماً في مظهرها وتكوينها عن عمارة الياباني التي ينفث فيها هو أيضا من ذوقه وروحه ما ربته اليابان في نفسه بمناخها، وطبيعة
أرضها وعادات أهلها، ودينهم وأخلاقهم أيضا.

فإذا اتفقنا على أن الفن وحده هو الذي يميز الشعوب بعضها من بعض - وهذا أمر أظن أنه قد أصبح ميسوراً أن نتفق عليه - رأينا أهل الفن المصريين الذين أحسوا وجوب ابتداع فن مصري حديث محقين منصفين وطنهم المسكين الذي طال شوقه إلى العزة الذاتية التي لم يعد لنا سبيل إلى تحقيقها إلا عن طريق الفن ما دمنا قد أدركنا أن الصناعات والعلوم إذا تشابهت في الأمم لم يكن هذا مما يمس كيانها الذاتي، وما دمنا مؤمنين بأننا متخلفون في هذه الآفاق جميعاً عن غيرنا فلن نلحقهم فيها إلا بعد جهد.

نحن إذن لا نملك إلا أن نعجب بكل فنان مصري يعمل لإنشاء الفن المصري أو ينادي بإنشائه لأن في عمله هذا سعياً إلى تثبيت عزتنا القومية.

ونريد الآن أن نتعرف الطريق الذي يؤدي بنا إلى هذه الغاية النبيلة، وقد يرى القارئ بعد الكشف عن هذا الطريق أن مصر لا تزال عذراء وهي المليحة الحسناء، وأن الفنان المصري الظمآن إلى الجمال لا يزال بعيداً عنها كل البعد يبحث عن عروسه في الفضاء، وفي الهواء، وهي تكاد تتخاذل من الشوق اليه، وتكاد تستخذى من كثرة ما تبرجت وازينت وخطرت أمام بصره وتهادت أمام بصيرته، وهو يأبى إلا أن يغمض دونها عينيه، وأن يغلف دونها نفسه كأنما هو يتقيها اتقاء وكأن بينه وبينها ثأراً. وقد يحسن قبل أن نزف هذه العروس إلى هذا المتعشق الحيران أن نحدثه عنها قليلاً. فما هي مصر؟

هي أولاً هذه الأرض التي تعرفها والتي تتشكل الطبيعة فيها بثلاثة أشكال بارزة قد ترادفها أشكال أخرى، أما هذه الأشكال البارزة فهي هذه البيئات الجغرافية الثلاث: بيئة الصحراء، وبيئة الريف، وبيئة السواحل. وأما البيئات الأخرى فنذكر منها بيئات المدن، والواحات، والبحيرات. ومصر هذه يشقها من الجنوب إلى الشمال نهر النيل، وتتناثر في شمالها وشرقها البحيرات، ويجاورها من الجنوب السودان فيلون أهل جنوبها ببعض لونه الذي يمتصه من بيئته الجغرافية. وتكاد مصر بعد ذلك تنعزل عن أراضي جيرانها.

أما سماء مصر فصافية مكشوفة لا تتلبد إلا عند السواحل فقط، وأما مناخها فمعتدل هادئ أميل إلى الحرارة لا يصطخب ولا يبرد إلا عند السواحل أيضا.

هذه هي بيئة مصر الجغرافية وهي كما ترى بيئة سهلة لا تعقيد فيها، وقد طبعت هذه البيئة
السهلة أهلها بهذه السهولة، فالمصريون فيهم من الطفولة البشرية ما في أرضهم وجوّهم من الطفولة والسلاسة، وهذه الطفولة نفسها هي أخصب مجال للفن إذا اتفقنا على أن الفن الصادق هو ما كان مبعثه الحس لا التفكير. والشعب المصري يشهد بهذه الحقيقة؛ فما من مصري إلا وله اتجاه فني خاص؛ وأغلب المصريين يتجهون إلى الغناء والنكتة، والغناء فن، والنكتة فن. هذا إلى جانب ما يشيع في المصريين على مر الزمن من إدمانهم لفن (التدين) الذي آثروه على بقية الفنون فتيسر لهم من ألوانه ما تتابع عليهم وعلى حياتهم منذ ألهوا فراعينهم إلى هذا الزمن الذي وحدوا فيه الله توحيداً صريحاً، ولكنهم مع هذا التوحيد أبو إلا أن يتزلفوا بالتقديس إلى أرباب القباب من الموتى، وأهل الزعامة من الأحياء.

فالشعب المصري إذن شعب فنان لأن أرضه تبعث الفن بما لها من السهولة والنقاء.

فإذا فرغنا من دراسة مصر جغرافياً وجب علينا أن ندرسها بعد ذلك اجتماعياً. وقد لا يجهدنا هذا الدرس إذا سلكنا إليه أقرب السبل فقلنا: إن المصريين سكان هذه الأرض المتشكلين بأشكالها، هم إما صحراويون طبعتهم الصحراء بطبعها، وإما ريفيون شكلهم الريف بشكله، وإما ساحليون لونهم البحر بلونه. . . ولعلنا نعرف أن كل بيئة من هذه البيئات الجغرافية تؤثر في طباع أهلها تأثيراً خاصاً، فابرز ما يميز أهل الصحراء الشمم لدوام حريتهم وإبائهم الضيم؛ وأبرز ما يميز أهل الريف الصبر لخضوعهم الإجباري

لنظام الزراعة ومواقيتها؛ وأبرز ما يميز أهل السواحل روح المغامرة التي يبعثها في نفوسهم التجول في البحر. وإلى جانب هذه الصفات البارزة في أهل كل بيئة من هذه البيئات الجغرافية صفات أخرى لابد أن يحسها الفنان، وقد يستطيع الباحث المتفهم أن يستطلعها.

فرغنا الآن من مصر المعاصرة فألمنا بها أرضاً ومجتمعاً. ولكن مصر المعاصرة هذه ليست مصر كلها، فأن لمصر تاريخاً ماضياً، وإن لها آمالا في المستقبل؛ وإن لها في الحاضر نفسه صلات بغيرها من الشعوب؛ وتاريخ مصر الماضي يتمم كيانها الحاضر، ويساهم في رسم طريق المستقبل وتعبيده، وإن آمالها التي ترجوها في المستقبل تحيا في حاضرها وتوقظ من ماضيها ما تستلزمه وما تريد أن تعتمد عليه، وإن صلاتها الحاضرة بغيرها من الشعوب والأمم تعمل هي أيضا في تبلور كيانها، ولعل هذه الصلات هي أشد العوامل تأثيراً في الذات المصرية الناشئة، ولعلها أشدها خطراً على استقلال هذه الذات،

فهي إذا دبت إلى العلم والصناعة ارتقت بالمصريين، ولكنها إذا تمكنت من الفن المصري مضغت مصر وقذفتها إلى المحتكمين بها لقمة سائغة.

وقد يكون من الخير للإنسانية كلها أن تندمج وأن يتوحد ذوقها وحسها، ولكن يظهر أن هذه أمنية يصعب تحقيقها، ويظهر أيضا أن تحقيقها لن يتم إلا إذا سرى قانون بقاء الأصلح، فإذا كان هذا حقاً فإنه يتعين علينا أن نجاهد كي نكون من الصالحين حتى لا تلتهمنا الإنسانية إذا كانت ماضية إلى التوحد. وأنها لماضية إليه. وكل الدلائل تدل على هذا المضي وإن كنا نظن أن الفن وحده هو الذي سيبقى مميزاً لأصحاب الأوطان المختلفة بعضهم من بعض، وإن كان هذا التمييز سيتقلص كثيراً حتى ينحصر في شكل الفن وأسلوبه وبعض روحه إلى أن يشاء الله غير ما شاء منذ جعل الناس شعوباً وأمماً ليتعارفوا.

وعلى أي حال فنحن لا نزال في حاجة إلى فن مصري قوي. وهانحن أولاء رأينا أن الشعب المصري مفطور على الفن بطبعه؛ خلقته فيه بيئته وأرضه؛ فهل استطاع المتصدون لإبداع الفن في مصر هذه الأيام أن يشبعوا هذا الشعب فناً مصرياً؟ هل يقرأ المصريون من أهل البيئات المصرية المختلفة ما يكتبه أدباؤنا المصريون؛ وهل يفهمه ويحسه الأميون منهم إذا قرى عليهم؟ وهل يستطيع المصريون أن يستمتعوا بالصور التي يرسمها رساموهم؟

وهل يتغنى المصريون بهذه الأغاني التي يرتلها المغنون اليوم؟ وهل ينشد المصريون هذا الشعر الذي يكتبه شعراؤهم وهل يعطفون عليه ويحبونه؟

هل يقرر الواقع شيئا من هذا؟ كلا؟ فالواقع يقرر أن أهل الفن عندنا في واد وأن الشعب المصري في واد. ويظهر أن ذلك راجع إلى نهضة الفن عندنا صاحبت نهضة الثقافة فخرج الفنانون المصريون من بين المثقفين، والثقافة المصرية الحديثة كما هو واضح ثقافة مترجمة منقولة؛ وليتها كانت مترجمة عن أصل واحد قريب من طبعنا، وإنما هي أمشاج من ثقافات شعوب مختلفة لكل منها ذوق ولكل منها طبع. ولقد كان هذا الاضطراب سبباً في اضطراب العقل المصري المثقف، واضطراب النفس المصرية المثقفة. فالفنان المصري المثقف يخرج فناً قد عبثت به الثقافة المضطربة هذه فهو كالخيط المتباعد

الأخلاط، وليس كالمزيج الذي اندمجت عناصره فأصبح بهذا الاندماج عنصراً جديداً له ذات جديدة وكيان جديد.

لهذا يستوحش المصريون هذه الفنون المثقفة، ولهذا يحب المصريون فنونهم الساذجة البلهاء التي ينتجها فنانون لا يعرفهم المثقفون وقد لا يعرفهم الشعب نفسه وإن كان يتعشق فنونهم لهذا كان علينا إذا أردنا أن ننشئ الفن القومي أن نسلك سبيلاً من سبيلين: فإما أن نصبر على هؤلاء الفانون المصريون من غير المثقفين حتى يروقوا وينضجوا فيحتلوا مكانتهم التي تؤهلهم الطبيعية لاحتلالها ويكون هذا أمراً طبيعياً لا يعترضه معترض، وإما أن نحز نفوس المثقفين من أهل الفن عندنا ليتيقظوا من ثقافتهم وليعودوا إلى الطبع المصري، وأظن أنه ليس من العسير على الإنسان أن يسترد نفسه، وأن يسترجع أصله، وأن يستعيد طبعه وأن يغسل نفسه مما لصق بها من الزيف.

ها هي ذي مصر أمام الرسام، وهاهي ذي بيئاتها المختلفة ماثلة أمام عينيه بما فيها من ناس وحيوان ونبات وجماد، وهاهي ذي أخلاق أهليها وعاداتهم تناوش نفسه ما دام يعايش أهلها ويعاشرهم. أفلا يستطيع الرسام المصري إذن أن يقف وقفات كثيرة عند مظاهر كثيرة ومعان كير من مظاهر الجمال ومعانيه في هذه البيئات المصرية المختلفة؟! إنه يستطيع لو أنه فتح عينيه واستقبل الصور التي تتلقيانها بنفس مصرية.

ولا ريب أن هذا القارئ قد لحظ أن عقائد المصريين - مثلاً - لا تزال بعيدة عن التصوير المصري. فمن من المصريين رسم صوراً لقصة السيد البدوي! وللسيد البدوي عند المصريين أقاصيص فيها مواقف تستحق الرسم والتصوير؟ ومن من المصورين المصريين صور الحاوي المصري؟ ومن منهم صور (شيخ الطريقة) ومن منهم صور (بطولة أحمس) ومن منهم صور (غزوة السودان) و (أهل الكهف) و (زفة العروسة) و (رقصة البدو) و (صيد الترسة) و (معركة في الإسكندرية) و (البحث عن أم الحلول) و (صانع القلل) و (عامل المحلة) و (نكتة رشيد) وما إلى ذلك من الموضوعات المصرية البحتة التي لو أخرجت في ألوانها المصرية الطبيعية الصحيحة لأرضت كل إحساس وكل فكر.

وهاهي ذي مصر عند سمع الموسيقى: لماذا لا يغني أهل الصعيد هذه الألحان التي تصاغ في القاهرة؟ ألأن لهم لهجة في الكلام غير لهجة القاهريين؟ كلا، فلهجات الكلام لم تكن يوماً حجاباً دون النغم. فها هي ذي الأوبرات الإيطالية تستبقي ألحانها وأنغامها كما صاغها ملحنوها ويستبدل بنظمها نظم إنجليزي في إنجلترا وفرنسي في فرنسا وألماني في ألمانيا فلا ينفر الإنجليز ولا الفرنسيون ولا الألمان من الموسيقى الإيطالية في هذه الأوبرات مثلما ينفر أهل الصعيد من الموسيقى القاهرية. . . فهل يدل هذا على شيء أكثر من أن اعوجاجاً أصاب الذوق الفني في القاهرة فخرج به على الطبع المصري إذا أراد التجديد؟ أولا يدل على هذا على أن أصحاب التجديد قد انخدعوا في تجديدهم إذ أرادوا أن يلاحقوا به تجديد سيد درويش وهم لا يذكرون أن موسيقاه كانت رجعة إلى الطبيعة الإنسانية وصحوة ارتجفت بها الروح المصرية. والدليل على ذلك أن الحالة التي صور بها بيئات المصريين كانت تعبيراً صحيحاً صادقاً عن النفس المصرية فراجت بين المصريين رواجاً رائعاً، ومنها ما لا يزال يطن في الأذن إلى اليوم مثل (طلعت يا محله نورها شمس الشموسة) و (مليحة جوى الجلل الجناوي) و (يا ولد عمي يا بوي) و (يا صلاة أم إسماعيل في وسط عيالها) . . .

ويحق علينا ما دمنا نرمى إلى إحقاق الحق أن ننصف الموسيقيين المصريين فنقرر أن الأصوات الطبيعية التي يمكن أن تنقل عن البيئة المصرية الطبيعية قليلة، فليس في مصر زوابع ولا أعاصير ولا أمطار ولا رياح ولا غابات تصفر فيها الريح وتزأر فيها الأسود، ولا شيء من هذا الذي تنعم به البيئات الأخرى، ولكن ليس معنى هذا أن بيئتنا المصرية مجدبة مما يوحي الموسيقى، فإن في هدوئها وتخافت أصواتها ورهبتها وجمالها وخفتها وجلالها، وما في مجتمعها وتاريخها وآمالها ما يصلح لتأليف أنصع الموضوعات الموسيقية المنشودة. لا يتوقف ذلك إلا على شعور الموسيقيين المصريين ببيئتهم المصرية وما فيها.

نحن الآن مع الأدباء أمام الحياة المصرية. وللأدب في مصر مشكلتان لا مشكلة واحدة: أولهما مشكلة (الموضوع) التي تعرضنا لها في الرسم والموسيقى، وأخراهما مشكلة (اللغة) فنحن في مصر نتكلم لغة ونكتب أخرى. ولغتنا على تقاربهما الشديد مختلفان لا يمكن أن ينكر اختلافهما إنسان. وعلى أساس ما قررناه كان أقرب الأدب إلى طبع المصري هو أقربه إلى لهجته وكلامه إذا عالج موضوعات من حياته كما يفعل الأديب المصري الصادق محمود بيرم التونسي، فأدبه مستخلص من الحياة المصرية ومؤدى باللسان المصري.

على أننا نستطيع أن نتصور اللغة العربية الفصحى، وقد راجت بين المصريين إذا تعلموا القراءة والكتابة، ومع هذا فإننا لن نستطيع أن نتصور أن هذا سيمحو ضرورة اتصال الأدب المصري بالحياة المصرية. فالتساهل في أمر اللغة لا يؤثر في روح الأدب. وإن للمصريين ذوقاً وطبعاً إذا لم يظهر في الأدب المصري كان أدباً عربياً أو غير عربي، ولكنه على أي حال لن يكون أدباً مصرياً. وقد يحس القراء مع أن في شعر

الشاعر الفذ محمود حسن إسماعيل تحقيقاً لهذا الذي نرجوه. فهو وإن كان يكتب باللغة العربية الفصحى فإنه لا يطرق إلا موضوعات مصرية صحيحة، ولا يؤديها إلا أداء مصرياً سليماً يلحظ فيه الذوق المصري وإن لم يتقيد فيه باللفظ المصري.

فإذا تركنا هذه الناحية الناعمة من الذوق المصري وعرجنا على الأدب في جوهره رأينا الأقلية من الكتاب والأدباء هم الذين يعالجون الموضوعات المصرية، ورأينا هؤلاء الذين يبسطون للناس أدباً مصرياً صحيحاً متهمين بأنهم أدباء (شعبيون) بعد تحويل الوصف الشعبي من معنى المدح إلى معنى الدم.

عزيز احمد فهمي

من هنا ومن هناك

الدعاية في ألمانيا

نشرت مجلة ذي انترنشنال نازي التي تصدر في لندن مقالاً طريفاً عن الدعاية الألمانية رأينا أن نلخصه لقراء الرسالة ليلموا بنوع جديد من أنظمة النازي يشمل سائر بلاد العالم.

في ألمانيا نظام للدعاية واسع النطاق كثير الشعب والأنحاء حتى ليعج عن الوصف. ولا يقف هذا النظام على وكالة واحدة قتوم بهذا الغرض، ولكن الدعاية في ألمانيا لا أقسام وإدارات مختلفة متصلة جميعها بوزارات الحكومة وإداراتها. وقد تمتد مراكزها إلى أقصى جهات المعمورة وتجتمع جميعها في مركز واحد يدبر شئونها ويشرف عليها ووزارة الدعاية في ألمانيا يشرف عليها دكتور جوبلز، ولها جيش من مراسلي الصحف في جميع أنحاء العالم يدخلون في عداد موظفي الحكومة، وهي تشرف على ما لا يقل عن ثلاثمائة جريدة في مختلف الممالك. ولها مخبرون أكفاء يغذون تلك الصحف في بلاد كجنوب أمريكا والشرق الأقصى. وقد أنشئت محطات عديدة للاسلكي لنقل الأخبار إليها من الجهات النائية كجزائر الهند الشرقية. وهي تسخر لأغراضها وكالات السياحة الألمانية وبواخر الريخ وتسيطر على جميع وسائل الدعاية.

ويراقب قسم الدعاية الصحف الأجنبية في مختلف بلاد العالم حتى إذا كتبت صحيفة في أية جهة شيئاً لا يتفق وروح الدعاية الألمانية يصل إليها علمه في الحال. وتزاع التعليمات السرية على الصحف يومياً؛ وكل مخالفة لهذه التعليمات تعد خيانة.

وأهم وكالة للدعاية العامة هي الوكالة الأجنبية للحزب الاشتراكي الوطني وتتصل بالجمعيات الألمانية في جميع أنحاء العالم ولا يقل عددها عن ثلاثين ألفاً ويشرف عليها أرنست بوهل الذي قضى أيام طفولته في جنوب افريقيا، ولم يدخل ألمانيا إلا سنة 1920 وهو في السادسة عشرة من عمره.

والألمان الذين يعيشون في الخارج يجب أن يكونوا تحت تصرف القنصلية الألمانية في البلاد التي يعيشون فيها، ويتصلون بجمعيات النازي المحلية على الدوام، وبذلك يكونون تحت تصرف الحكومة. وكل مخالفة لأوامر النازي قد تعرض الشخص للحرمان من الجنسية الألمانية، وإلغاء تصريح السفر الذي منح له، كما أنها تعرض أسرته للضغط والاضطهاد داخل ألمانيا.

وهناك نظام خاص لتعليم هؤلاء الذين يقومون بالدعاية في الجهات الأجنبية، ففي ألمانيا مدرسة تحت أشراف دكتور روزنبرج، وأكاديمية في ميونيخ يديرها كارل هوشونز.

وكل أستاذ ألماني أو معلم بقبل الخدمة في الخارج، لابد أن يقضي وقتاً في الدراسة بهذه الأكاديمية، والطلبة الذين يسافرون إلى مناطق بعيدة عن ألمانيا يجب أن يلتحقوا بجماعة (الطلبة الألمان) في تلك الجهات.

وتوضع رقابة شديدة في الموانئ على المؤلفات التي تصدر إلى البلاد الأجنبية أو التي ترد منها، فلا يخرج منها كتاب يخالف مبادئ النازي في شيء من الأشياء، ولا تبيح للأدب المخالف للنازي الدخول إليها. وهذه الرقابة تشمل المسافرين على المراكب الألمانية كيفما كانت جنسيتهم.

ولم تكتف الدعاية الألمانية بمراقبة القراء الألمان واتصالهم بالرأي العام في الخارج، فقد أصرت على سحب النسخة التي طبعت في فرنسا من كتاب (كفاحي) لبعض كلمات علق بها على معاملة هتلر لفرنسا.

وترتكب حوادث القتل والخطف في سبيل الدعاية تحت إشراف الحكومة وبمعاونتها؛

ومن أشهر تلك الحوادث خطف الصحف اليهودي برنولد جاكوب، ومقتل دكتور دولفوس.

هل نحن مسوقون إلى الهمجية؟

تتضارب الأفكار في العصر الحديث، فهو عصر تطورت فيه شؤون العالم، واختلفت فيه المبادئ المقررة إلى درجة لم يعهد لها مثيل! كل ما فيه جديد يدعو إلى إطالة التفكير، فهل نحن مسوقون مع هذا إلى تحقيق آمال الإنسانية في التقدم والرقي، أم نحن مسوقون إلى الهمجية؟

والمقال التالي ملخص عن ذي أنديان ريفيو، التي تصدر في مدارس بقلم أستاذ بجامعة الهند، وهو يبين وجهة من وجهات النظر في هذا الموضوع: (إذا كان معنى المدينة تقدم العالم ورفاهته، وتضحية الفرد في سبيل مصلحة المجموع؛ وإذا كان معنى المدينة ضبط النفس وكبح جماحها، فيجب علينا أن نقول إننا منذ الحرب العظمى نسير بخطى واسعة نحو الهمجية.

ففي مدى القرن التاسع عشر كانت آمالنا تمتد وتتسع، حتى أصبحنا نعتقد أننا لسنا بعيدين عن عصر ذهني عظيم! فالعلوم تسير بخطى كبيرة نحو التقدم، تاركة للإنسان السيطرة على قوى الطبيعة المختلفة؛ والديمقراطية تنشر لواءها على سائر بلاد العالم المتمدن؛ والرأي العام يحترم في كل مكان؛ والمثل العليا تقود الإنسان نحو التقدم في سائر أنحاء الحياة.

ولقد جاءت الحرب العظمى بعد ذلك بقواها المدمرة، فشتتت العائلات، وأزالت عن المرأة قناع العفة والحياء، ولم يكن أحد ليفكر في هذه الحال إذ ذاك، لانصراف الأمم جميعها إلى أمر واحد وهو كسب الحرب.

فبعد أن وضعت الحرب أوزارها أنشئت عصبة الأمم، فطرب لها العالم وظن الناس أن العصر الذهبي المرموق قد ظهرت بشائره تحمل معها الأمن والاخلاص، حيث يحل حكم العقل والعدالة في كل مكان، وينصرف الخوف والجزع عن الأمم الضعيفة، فتصبح في مأمن من اعتداء جاراتها القوية.

ولكن تلك الأماني لم تلبث أن تقشعت، وحل محلها ذلك التفكك في عرى الروابط العائلية والوشائج الوطنية. وحلت الإباحية محل العفة وضبط النفس، وذهب الإخلاص والطهر من الرجل كما ذهبا عن المرأة، وحل محلهما الطمع وإشباع الشهوات واختفت الرغبة في الزواج فراراً من تحمل أعباء الزوجية.

إن هذا الانقياد للشرور وعدم الخضوع لقانون العقل والعرف يدلان على أن الهمجية تهددنا وتقترب منا يوماً عن يوم.

ولقد ظهرت هذه الميول الوحشية في شؤوننا السياسية. لقد كانت الأمة تخجل أن تهاجم أمة أخرى قبل أن تمهد لذلك بأعذار يقبلها العقل، وكان الرأي العام يحسب له حساب.

ولكن القاعدة المتبعة الآن تخالف ذلك كل المخالفة، فيكفي أن تكون الأمة راغبة في التوسع والرقي وتبوئ مكانها تحت الشمس كما يقولون، لتعتدي على استقلال جاراتها.

لقد جاء زمن كان الواجب يقضي فيه على الأمة المحاربة أن تعلن الأمة الأخرى بأن تستعد لمحاربتها، ولكن قد بطل كل ذلك في ضمير الأمم الآن. والرأي أن تأخذ عدوك على غرة وتسلط الهزيمة مباشرة عليه.

ولم يعد في عرف الأمم الحاضرة ضرورة لحماية الأطفال والنساء من خطر الطيارات. وقد بطل العمل بالقوانين التي تمنع الاعتداء على المستشفيات وأماكن التعليم والعبادة، وأملت الوحشية على تلك القلوب المتحجرة أن الخسائر التي تحلها الطيارات بالنفوس البشرية عمل من أعمال الإنسانية حيث تقضي عليها في أمد قصير!

ولا يباح الآن للأمة الصغيرة أن تضع سياستها بنفسها، ولكن الأمم القوية هي التي تضع لها السياسة التي تسير عليها، فإذا رفضت أن تعمل تحت إمرتها كان رفضها كافياً لتدميرها. ولقد فقدت ثقة كل أمة بمقاصد جاراتها فلا ثقة اليوم إلا بالتسليح.

إن ما انتهت إليه حال عصبة الأمم، وما كان يوضع فيها من الآمال والمبادئ السامية التي أصبحت أثراً بعد عين، لما يدعو إلى الأسف الشديد.

ولقد رأينا كيف يقضي على حقوق الفرد ويعتدي على حرية الرأي حتى أصبحت أسماء

لا مسمى لها في بلاد كألمانيا وروسيا وإيطاليا، واصبح كل نقد يوجه إلى هذه الحال يقابل بمنتهى الشك وهكذا حيثما وجهنا النظر وجدنا المدينة تتدهور يوماً بعد يوم والعالم المضطرب يسير وسط هذه الزعازع كسفينة بغير سكان، يقودها ملاحون مخبولون نحو الهاوية التي ستدفعها إلى القاع.

البريد الأدبي

1 - على هامش محاضرة حافظ عفيفي باشا

كلام حق ومنطق سديد؛ وآراء في التربية والتعليم يندر أن نسمعها في هذا البلد، لأن الجرأة فيه متقاعدة والصوت المخالف يرق فجأة حين يجب الصراخ.

سرد حافظ عفيفي باشا محاضراته (الجامعة الأمريكية 28 أبريل سنة 1939) عيوب التعليم في مصر، فأخذ فيما أخذ على الشباب انصرافهم إلى السياسة عن التحصيل، وقعودهم عن مواصلة الدرس والاطلاع بعد نيل الشهادة، وشغفهم بالتوظف وقلة (ثقافتهم المعنوية)، وفي رأي المحاضر أنه لابد من إصلاح نظم التعليم. وفي رأيه أن أساس الإصلاح إنما هو إعداد المدرس الصالح.

وما أظن أحداً من أهل الفطنة والدراية يخالف حافظ عفيفي باشا في تلك الآراء، بل أعرف نفراً من المفكرين المصريين يرونها، إلا أن قصة المدرس الصالح والمربي العارف لا تتم على الوجه المرضي ما دام أمر التدريس والتربية في أيدي (أولئك الموظفين المخضرمين الذين نشأهم المستشار دنلوب على آلية التعليم حتى صارت فيهم عقيدة، وأخذهم بـ (روتين) (أي بجمود) النظام حتى أصبح لهم فطرة. . .) كما قال الأستاذ أحمد حسن الزيات في العدد السابق من الرسالة.

اطلبوا الشباب وانظروا إلى الدول الناشطة: إلى ألمانيا وإيطاليا وأمريكة الشمالية. أما سئمتم الخدر والنعاس؟!

2 - حماية نفائس دار الآثار العربية

في الرسالة رقم 304 أخبرتك بأن المسيو فييت، وهو مدير دار الآثار العربية في مصر أقبل على الإرسال بثمانمائة قطعة من نفائس الدار إلى باريس لتمد معرض الفن الإسلامي المزمع إقامته هنالك، وزدت أن وزارة المعارف وقفت دون ذلك.

ومما اتصل بي أن المسيو فييت لا يزال يسعى في إخراج تلك النفائس من الدار. وقد بينت في المقال السابق الأسباب التي من أجلها يمتنع خروجها امتناعاً. وحسب وزارة المعارف أن تتمسك بقانون دار الآثار. وحسبها أن تسأل المتحف المصري هل يأذن في خروج محفوظاته كلما قام معرض في بلد من البلدان. ولا أحب أن أعود إلى التبيين والتدليل،

لعلمي أن أصحاب الأمر في وزارة المعارف يغضبون لخروج تلك النفائس غضبي لذلك، وأنهم يغارون عليها وبها يعتزون. أعلم هذا، لذلك أسألهم أن يأمروا بإعادة القطع إلى الحيطان؛ إذ بعضها لا يزال في الصناديق المجهزة للرحيل، وبعضها مطروح على الأرض ينتظر أن يفصل في أمره. رحم الله الفن!. . .

هذا وما فاتني أن أذكره لك في المقال السابق أن طائفة من نفائس دار الآثار العربية ليست مما تملكه الدار. بل هي مودعة لديها من جانب وزارة الأوقاف. وإني أعلم أيضا أن على رأس وزارة الأوقاف من يكره أن يتجوز في مثل هذا.

3 - الاعتراف بجلال الفلسفة العربية

في المجلة الفرنسية في مرسيلية (عدد فبراير سنة 1939ص185 - 189) أن الأب هكتور أساتذة المعهد الكاثوليكي في باريس ألقى محاضرات في الفلسفة العربية واليهودية للعصور الوسطى؛ ومما قاله:

إن العرب في ذلك العهد يسبقون اللاتين بمئات من السنين؛ ومذاهبهم تنشأ وتتحول) على خلاف المذهب المسيحي. بل لنا أن نتحدث عن غلبات الإسلام المعنوية للفكر اللاتيني. فإن العرب الأرسطوطاليين فتحوا الأذهان فتحاً بالرغم من الحروب الصليبية (يعني ما وراءها من الكراهية والبغض) فانبثت كتبهم فيما يلي ديارهم، فهزوا بذلك من عقولنا الراكدة وفرضوا الفكر اليوناني على اللاتين بعد أن صفوه وذهبوا به حتى الشطط.

وهكذا ترى أرسطو المعرب أو قل العرب الأرسطوطاليين يعينون على تفسير العقيدة المسيحية. . . وأنه ينبغي لنا أن نصحح نظراتنا التاريخية (يعني الاعتراف بتأثير العرب

(في التفكير المسيحي.
وما أقرب الفلسفة العربي من الإنساني! والدليل أن أصولها تجاوز مبادئ الإسلام)
والمسيحية لتصير إلى الفلسفة بمعناها الأعم. وفي هذه الفلسفة من الجلال ما جعل
شراح العقيدة المسيحية يقعون تحت سليطانها. . إنما العرب أساتذة المدرسة الكبرى
للفلسفة!).
والمخرج الآخر؟ - 4
في الرسالة رقم 305 عجبت كيف رفضت شركة مصر للتمثيل والسينما تجديد عقد الأستاذ
نيازي مصطفى المخرج الحاذق. وقد فطن صاحب الأمر الأعلى لتلك الشركة أن
استبعاد الأستاذ نيازي ليس من الحكمة في شيء، فما أبطأ أن أمر بتجديد العقد وإذا
الشيء بالشيء ذكر فهل نسأل من بأيديهم أمر الفرقة القومية: متى ييسر للأستاذ
زكي طليمات أن يسترد عمله، وهو المخرج المصري، بل المخرج الوافر الخبرة الكثير
الفن؟
حتام يستبعد أهل الكفابة في هذا البلد إذا بدت منهم الدراية؟
بشير فارس
إحياء ذكرى عبده الحامولي
عقد معالي الدكتور محمد حسين هيكل باشا وزير المعارف اجتماعاً للنظر في وضع
برنامج للاحتفال بذكرى الفنان المرحوم (عبده الحامولي). وقد شهد هذا الاجتماع
معالي مصطفى عبد الرزاق بك ومعالي جعفر والي باشا وخليل مطران بك ومصطفى
بك رضا والأستاذ محمد عبد الوهاب والأستاذ زكريا أحمد وغيرهم من رجال الفن
والأدب.
وقد بدأ معالي الوزير الاجتماع بإشارته إلى ما في إحياء ذكرى العظماء من تربية
الشعب على الطموح، وتذوق نواحي العظمة في الغابرين من رجاله، فضلاً عما في
ذلك من توجيه القلوب إلى تقدير الفن ومحبته.
وقد استقر الرأي على تأليف لجنتين فرعيتين إحداهما من الأدباء، والثانية من
الموسيقيين، لدراسة النواحي الأدبية والفنية في حياة (عبده الحامولي) وعصره ثم
وضع برنامج للاحتفال بذكراه.
ثم ختم معالي الوزير الاجتماع بقوله: إن وزارة المعارف ستقوم في مناسبات مختلفة
بإحياء ذكرى العظماء الذين مروا في تاريخ مصر في مائة السنة الأخيرة.
المكتب الفني في وزارة المعارف
تفكر وزارة المعارف في إنشاء مكتب فني يضم طائفة ممتازة من أدباء المدرسين،
ليكون صلة بين وزارة المعارف والأدب الحر، ويكون له الرأي في الكتب العربية التي
تختار الوزارة أن تكون في أيدي تلاميذ المدارس. وهي فكرة نافعة تتحقق كثيراً مما
دعت إليه الرسالة في مناسبات عدة. على أن النجاح في هذا المشروع مشروط
بحسن اختيار الوازرة
لأعضاء هذا المكتب، بحيث لا يضم إلا الممتازين حقاً من المدرسين والأدباء؛ وإنهم
لكثيرون في وزارة المعارف، ينقصهم حسن الرعاية ليكونوا من عوامل الإصلاح في
الأدب الجديد.
كتاب منتقى الأخبار
جاء في كتاب المفصل في تاريخ الأدب العربي للأساتذة المحترمين: أحمد الإسكندري.
أحمد أمين. علي الجارم. عبد العزيز البشري. أحمد ضيف. في الصفحة 258 من
الجزء الثاني (ترجمة ابن تيمية هو أحمد بن عبد الحليم ولد بحران سنة 661 هـ وقدم
مع والده إلى دمشق وهو صغير. . . إلى أن قال وبلغت مصنفاته ثلاثمائة مجلداً أكثرها
في التفسير والفقه والأصول والرد على الفلاسفة والمبتدعة وأشهر هذه الكتب منتقى
الأخبار الخ)
وكتاب منتقى الأخبار مشهور متداول معروف بين الناس وهو في أحاديث الأحكام
ونسبته لأحمد بن عبد الحليم بن تيمية المشهور بتقي الدين شيخ الإسلام خطأ عظيم
ولا سيما من مثل رجال هم من أعلام العلم والأدب في هذا العصر. وإني مع احترامي
لمقامهم لا أرضى لهم هذا؛ ولو أنه صدر عن أناس لا شأن لهم لما نبهت عليه ولما

أبهت له، وكتاب المفصل متداول بين الطلبة وغيرهم فلا يصح أن تبقى غلطة هذه شائعة فيه بدون تنبيه.

أما صاحب منتقى الأخبار فهو الشيخ مجد الدين عبد السلام ابن تمية وهو جد أحمد بن تيمية المشهور المترجم له في كتاب المفصل، وقد شرح كتاب منتقى الأخبار الشوكاني وأسماه نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار وطبع عدة مرات وكذلك منتقى الأخبار طبع منفرداً.

ونبه الشوكاني في أول شرحه على الفرق بين مجد الدين عبد السلام بن تيميه صاحب منتقى الأخبار وبين أحمد بن تيمية المشهور بشيخ الإسلام، فقال في أول كتابه: (وسميت هذا الشرح بنيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار. . . إلى أن قال: وقبل الشروع في شرح كلام المصنف نذكر ترجمته على سبيل الاختصار فنقول: هو الشيخ الإمام علامة عصره المجتهد المطلق أبو البركات مجد الدين عبد السلام المعروف بابن تيمية قال الذهبي في النبلاء ولد سنة تسعين وخمسمائة تقريباً. . . قال: وقد يلتبس على من لا معرفة له بأحوال الناس صاحب الترجمة بحفيدة شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم شيخ ابن القيم الذي له المقالات التي طال بينه وبين أهل عصره فيها الخصام وأخرج من مصر. وليس الأمر كذلك. . . الخ).

هذا كلام العلامة الشوكاني وهو جلى ظاهر لا يحتاج إلى تعليق وقال صاحب كشف الظنون: (المنتقى في الأحكام لمجد الدين ابن تيمية شرحه السراج عمر بن الملتن الشافعي المتوفى سنة 804 ولم يكمله. . . الخ).

إبراهيم يسن القطان

هل تتكرر ما لنفي النفي؟

ذكر ابن عقيل في شرح ألفية ابن مالك أنه يشترط في عمل ما عمل ليس ألا تكون مكررة. فإن تكررت بطل عملها، نحو - ما يزيد قائم - فالأولى نافية، والثانية نفت النفي، فصار الكلام إثباتاً.

وكان على ابن عقيل قبل أن يشترط ذلك الشرط الذي انفرد به أن ينظر: هل تجيز العربية هذا الأسلوب أو لا تجيزه؟ وإني لا أذكر أنه مر على في كلام العرب منظومه ومنشوره مثل ذلك الاستعمال، وإنما يتكرر حرف النفي فيها للتأكيد، مثل قول الشاعر في تكرار ما:

لا يُنسك الأسى تأسياً فما ... ما من حمامٍ أحدٌ معتصما

ومثل قول الآخر في تكرار لا:

لا لا أبوح بحب بثينةَ إنها ... أخذتْ عليّ مواثقاً وعهودا

ولست أدري لم تقول العرب في الإثبات - ما ما زيد قائم - ولا تقول من أول الأمر - زيد قائم - وقد قامت لغتهم على مراعاة الدقة في الأسلوب، بحيث لا يزيدون فيها ولا ينقصون إلا لسبب من الأسباب.

قال بعض طلابي في الدرس: إنه يجوز أن يكون أصل ذلك الأسلوب أن شخصاً قال (ما زيد قائم) فترد عليه قوله بقولك له (ما ما زيد قائم).

فقلت له: إني إذا رددت عليه بذلك أكون مخطئاً، لأنه حينئذ يكون منكراً لقيام زيد، فيجب أن أرد عليه بكلام مثبت مؤكد، فأقول له (إن زيداً قائم) ولا يصح أن أرد عليه بذلك النفي المتكرر غير المؤكد، وهذا أمر معروف في علم المعاني.

وقال بعض الشيوخ: إن ذلك الأسلوب لم يرد مثله عن العرب، ولكنه يصح لنا أن نقوله، وهذا يكفي في تسويغ كلام ابن عقيل فقلت له: إن مثل هذا قد مضى زمنه، ولا يمكن أن يقبله الآن أحد منا، لأن النحو موضوع لكلام العرب لا لكلامنا.

وقد رد أسلوب نفى النفي في لغة العرب على نحو آخر مقبول يدخل فيه الاستفهام الإنكاري على النفي لأجل نفيه، لأن الاستفهام الإنكاري يفيد النفي، ونفى النفي إثبات، وهذا كما في قوله تعالى: (أليس الله بكاف عبده) فهو بمعنى قولنا: - الله كاف عبده - ولكنه يفيد ذلك على أبلغ وجه وأحسن أسلوب. وقد قام الإنكار فيه مقام التأكيد اللازم في الرد على إنكارهم، بل هو أقوى من التأكيد في اقتلاع الإنكار من أنفسهم. ومن ذلك الأسلوب أيضا قول الشاعر:

ألستم خير من الركب المطَايا ... وأندى العالمين بطون راحِ

وقد قيل إنه من أجل هذا كان أمدح بيت قالته العرب، ولا شك أن الفرق كبير بينه وبين ذلك الأسلوب الذي أجازه ابن عقيل، ومع هذا نحب أن نشترك قراءة الرسالة في أمره، فلعل بعضهم يحفظ عن العرب شاهداً له.

عبد المتعال الصعيدي

وفاة السيد عبد الرحمن الإمامي

فجع المغرب الأقصى في الأيام الأخيرة بفجيعة كان لها وقع كبير في نفوس الشعب المغربي ألا وهي موت أحد علمائه الكبار السيد عبد الرحمن القرشي الإمامي في العشرين من المحرم؛ فكانت المصيبة التي ذهل الكل لها. وقد كان الفقيد رحمه الله من الساهرين على المصلحة العامة والمناضلين عنها مضحياً في ذلك بكل نفيس. تقلب الفقيد في وظائف شتى فكان قاضياً مثل العدل والنزاهة ثم كان وزيراً لم يشهد المغرب قط مثله وزيراً صارماً

وقد قنع الفقيد رحمة الله عليه بما في يديه فانقطع لعبادة الله ونشر العلم تاركاً الدنيا ولم يخلف فيها ديناراً ولا درهماً.

وتقديراً لهذه الحياة العامرة بجلائل الأعمال قامت نخبة ممتازة من شباب جامعة القرويين

وأسست لجنة دعت الناس إلى الحفلة تأبين للفقيد في اليوم الأربعين من وفاته، فكان الحفل رائعاً.

ووافق يوم الأربعين يوم الخميس 29 صفر سنة 1358 وكان يوماً مشهوداً تجلت فيه العواطف المغربية حزينة كئيبة. وقد اختارت اللجنة أن يكون محل التأبين الدار التي كان يقطنها الفقيد آخر حياته وقد افتتح الأستاذ احمد الشبيهي الحفلة مرحباً بالحضور، ثم أعقب ذلك آيات من الذكر الحكيم فسكوت مقدار قراءة الفاتحة على روح الفقيد، فمقال الأستاذ الرئيس أتى فيه على حياة القيد بإسهاب، فمقالة لوزير المعارف الأستاذ محمد الحجوي، فقصيدة لقاضي مدينة سكات أحمد سكيرج. فقصيدة لقائد قبائل أولاد جامع محمد بوعشرين، فقصيدة لعيبة سمو الخليفة السلطاني بفاس الأستاذ محمد غريط، فمقال للأستاذ لجامعة القرويين العباس المراني، فمقالة لفتى سلا أبي بكر زنبير، فمقال للكاتب بالبلاط السلطاني العربي ابن سوده، فمقال لعالم مدينة مراكش محمد بن الموقت. فخطب وقصائد كثيرة للنخبة الممتازة من طلبة الجامعة.

(فاس)

اللجنة القروية

حول تشبيه

سأل سائل من كرام العراقيين في الموصل عن وجه الشبه في تشبيه هجرة الأميرة فوزية إلى طهران بهجرة الرسول الكريم إلى المدينة في الصفحة الثالثة من عددنا الهجري الممتاز. وجوابنا أن هجرة الرسول كانت عاقبتها قوة الإسلام وعزة المسلمين ووحدة العرب، وهجرة الأميرة نعتقد أنها قبل كل شئ في سبيل الله وستكون عقابها المؤاخاة بين دولتين من أقوى دول الإسلام فرق بينهما الدار واختلاف اللغة والمذهب؛ وفي هذه المؤاخاة ضمان لحسن الجوارين بين إيران والعراق، وتوفيق لصلات التعاون بين المسلمين والعرب. والتشبيه بعد ذلك كله كما يقول البيانيون إلحاق ناقص لكامل. فلابد أن يكون وجهة الشبه في المشبه به أقوى منه في المشبه ولو ادعاء، وإلا عدل عن التشبيه إلى المشابهة 1. ع.

تصويب

وقع في المقال الأخير للأستاذ الكبير العقاد خطآن مطبعيان نصححهما معتذرين: في صفحة 889 سطر 22 جمهرة الشعراء والصواب: جمهرة القراء وفي صفحة 897 سطر 26 يقبضون على كل زمان والصواب: على كل زمام.

ذكرى صديق

دار الفلك دورتين منذ أن ضرب القدر بينك وبيننا يا رافعي بحجاب لا نستطيع أن نظهره ولا تستطيع أنت. . . دار الفلك دورتين، والحياة ما تنفك هي الحياة، والناس من حولها فراش يتهافت على بريق من شعاعها يخطف الأبصار، ويصرف القلوب إلا عن نوازع العيش وحب البقاء، وأنا على حيد الطريق أتشوف، وآسى على قلوب رانت

عليها ظلماء الحياة فما تبصر، غير قلبي. . غير قلبي وهو قد ضم على هوى لك فيه، هو به ضنين، فلا يكاد ينسى انك أنت يا رافعي. . .

يا عجباً! هذا الدار على قسوتها لذة يهفو نحوها كل قلب؛ وهذه الدنيا على ما فيها من بلاء جميلة تصبو إليها كل نفس؛ وهذه الحياة على ما نجد فيها من عناء جذابة يبسم لها كل إنسان! تلك سنة الخلق.

لو تواريت عنا ليقول فيك التاريخ كلمته، وخلصت إلى نفسك علَّ القلوب تنزع عنها سخائمها؛ ولكن ماذا كان؟

إنه لا يحزنني ألا أجد المنصف البريء، فما الخلد مرتبة تؤخذ عن شفاه الناس؛ وليس يؤلمني أن أرى طائفة من الناس تضطغن عليك وتذهب وتريد أن تنال منك ميتاً بعض ما عجزت عن وأنت حي، فالتاريخ من ورائهم له لسان صدق.

ما الإيمان، وما العقيدة، وما الصبر، وما الدأب، وما النشاط، وما الحزم، وما الجد، وما السمو، وما الكرم، وما الوفاء، وما. . . وما. . .؟ أشياء كنت تعرفها وتدين بها وترى فيه الغاية العظمى والمثل الأعلى. فرحمة الله عليك.

كامل محمود حبيب

الكتب

حياة الرافعي

تقدير ونقد

للأستاذ أبو الفتوح رضوان

كتاب (حياة الرافعي) للأستاذ محمد سعيد العريان من أجدر الكتب الحديثة باحتفاء الأدباء، وأحقها بأن يتناولها القارئ تناول تمعن ودرس، وأن يقول الناقد فيه كلمة تضعه موضعه بين كتب العربية. (فحياة الرافعي) كتاب فريد في المكتبة لأن فن التراجم لم يستقم لأي من كتاب العربية حتى الآن.

نعم إن في العربية كتباً فيها تراجم لشعراء وأدباء طالت أو قصرت لكنها ليست من ذلك في شيء، إن هي إلا ذكر بعض أخبار الشاعر ونوادره أو بعض ما اتفق له مما يكون بين الإنسان وبين معاصريه. وقد تكون غالبية هذه الأخبار ملفقة مزورة صنعها الرواة إثباتاً لأمر يريدون إثباته أو تعالماً على غيرهم بأخبار الشعراء؛ أما ترجمة التي يقصد بها إلى تصوير المؤثرات التي خلقت أدب الأديب ووجهت شعر الشاعر ولونت فلسفة الفيلسوف، فليس وجود في العربية قبل (حياة الرافعي). ومن هنا وجب أن يختفي الأدباء بهذا الكتاب إذ كثيراً ما تموت فنون من الأدب لأنها وجدت فلم يلتفت إليها أحد. فإذا كان أدب الرافعي فصلاً منقطع النضير في الأدب العربي، فكتاب سعيد العريان عن الرافعي كذلك فصل منقطع النضير.

والكتاب حقيق بأن يختفي به أيضا لأنه عن الرافعي الذي أضاف إلى العربية ثروة ضخمة من المعاني والأساليب والبيان والفن، ثم عقه أدباء عصره فما كان أحد منهم ينظر إليه أو إلى أثر من آثاره إلا بعين مطروفة. ذلك في حياته، أما بعد وفاته فرحم الله أهل الوفاة. ولقد كتب أحدهم أخيراً مقالة عن أثر المرأة في أدباء العصر، فذكر من شاء إلا الرافعي، مع أن رسالة حزن أو سحابة حمراء أو ورقة ورد واحدة كافي لأن يضعه الإنصاف المزعوم في مقدمة من ذكر.

وثمة ميزة أخرى لهذا الكتاب، وهي أنه تاريخ حافل صحيح للأدب العربي في أحدث أطواره. يكشف بجلاء عن كثير من الحوادث التي أثرت فيه ووجهته، ويوضح حوادث أديبة هامة مرت على أعين قراء العربية دون أن يتبينوا حقيقة دواعيها، ولم يأخذوها على وجهها الصحيح. ثم هو تفسير لابد منه لأدب الرافعي عامة ولعيون كتبه خاصة لابد لفهمها من قراءة فصوله.

ولقد قرأت (حياة الرافعي) منجمة على صفحات الرسالة، ثم قرأتها مجموعة في الكتاب، فكان لي فيها بعض الرأي، أحببت أن أبديه في هذه الكلمة وفاء للرافعي، وتقديراً لعمل أحد أولئك الشبان الذين يحسنون ويجيدون ثم يضيع إحسانهم وإجادتهم وسط دوي الأسماء الضخمة في هذا البلد.

لقد بينت فيما سبق قيمة الكتاب من حيث هو كتاب. على أن فيه حسنات أخرى كثيرة لو ذهب القارئ المتمعن يحصيها لاستغرقت مقالة على حدة. ففي الكتاب تمحيص للحوادث دقيق، وفيه اتزان ونزاهة في الحكم، وفيه لطف في العرض، وفيه أسلوب

مشرق لا يستغرب من أحد أصحاب الإمام الرافعي، وفيه ما يضطر القارئ الدارس إلى الالتفات والوقوف.

على أن في الكتاب بعض ما كان ينبغي أن يسلم منه، وهذا ما نحب أن تنبه إليه، فإن جودة العمل محسوبة على ميزان النقد، والجمال المفرط يظهر أبسط القبح، وأشد ما تكون الذبابة إيلاماً أن تقف على وجه حسن.

ففي الكتاب بعض هنات في الترتيب والتبويب، أتت من أن المؤلف النابه كتب مادة كتابه مقالات في أول الأمر، ثم لما عن له أن يجمع تاريخه مسلسلاً في كتاب تقيد بترتيبها في المقالات فكان في بعض فصول الكتاب ما هو قلق في موضعه يحتاج إلى تقديم أو تأخير. فما موضع فصل (بين أهله) بين فصلي (شعراء عصره) و (من الشعر إلى الكتابة)؟ أليس موضعه الطبيعي بعد (في الوظيفة) حتى تتساوق فصول الرافعي الأديب؟ والحديث عن الرافعي الشاعر موزع بين فصول عديدة متفرقة ولو جمعت كلها بعضها إلى بعض لكان أجدى على وحدة الكتاب. وفصل (شعراء عصره) وهو أشبه بفصل (في النقد) وقد نبه المؤلف إلى ذلك، فأشار إليه عندما بدأ يتحدث عن الرافعي الناقد، وفصل (في النقد) مجزأ غير متتابع لأنه نشر في الكتاب كما كان في المقالات ولم يدمج بعضه في بعض، وفي

أوائل الفصول كثير من وصل ما انقطع كان ضرورياً في المقالات المتباعدة وهو في الكتاب المتلاحق تعطيل للقارئ ومضايقة له، وأشد ما يظهر ذلك في فصل (في النقد)، وفي الكتاب بعض تعبيرات لا تتفق مع أسلوب كتاب كأن يقال: (وهذا له موضع غير هذا المقال) مع أن الكتاب لا يكون فيه مقالات وإنما يكون فيه فصول، ولو لم يتقيد المؤلف بمقالاته في الرسالة ذلك التقييد الشديد لقال: (وهذا له موضع في غير هذا المقام) أو في (غير هذا الفصل).

وفي الكتاب بعض الآراء والحقائق تستوقف نظر القارئ المتمعن، تشير إليها على حساب ترتيب ورودها في الكتاب

ففي ص 13 إشارة إلى حارة سيدي سالم قال عنها المؤلف إنها (حارة ضيقة أوى إليها السيد البدوي أول ما هبط من طنطا منذ ألف سنة). وقد كان قدوم السيد إلى طنطا في سنة 634 للهجرة أي منذ 724 سنة فقط. وليس هذا من صلب الكتاب ولكنه ما يحسن تصحيحه.

وفي ص 19 يقول المؤلف إن الرافعي (كان بلغته ولهجته كأنه لم يقدم من سوريا إلا منذ قريب) وهو قول لا أظن الأستاذ يعني به ما يفهمه القارئ منه، فان لهجة الرافعي - كما سمعناه يتحدث - لم يكن فيها أي أثر للهجة السورية. وكل ما يستغرب منها هي تلك النغمة الحادة التي تشبه الصراخ، والتي أشار المؤلف إلى أنها من آثار ذلك المرض التي أصابه في شبابه، فيها حبذا لو أعاد الأستاذ تحقيق هذه النقطة بالرجوع إلى تصوره وهو أعلم بها على كل حال.

وأستند المؤلف النابه فكرة الحب عند الرافعي إلى ما قرأ من أشعار العذريين من شباب العرب. فهل لم يقرأ الرافعي غير أشعار العذريين مع كثرة ما تناول من دواوين الشعراء. ولماذا لم يتأثر بشعراء (الأغاني) وقد قرر الأستاذ أنه كان دائم النظر في هذا الكتاب وفيه من الشعر والأخبار ما فيه. أليس الأجدر أن يستند ذلك إلى نشأته الدينية التي أشار إليها المؤلف (ص22) وإلى تقاليد أسرته وإلى أنه نشأ تبعاً لكل ذلك (عفيف النظر والشفة واللسان).

ثم ألا يرى المؤلف معي أن عدم شهرة الرافعي بين عامة القراء ليست راجعة إلى أناته

وشدة تأنقه فيما يكتب وما ترتب على ذلك من عدم إكثاره من النشر في الصحف، بقدر ما ترجع إلى بعده عن تملق الجمهور واحتفاظه بأرستقراطية أدبه، وأنه فضل لقرائه ولنفسه أن يرتفعوا هم إليه على أن ينزل هو إليهم، كما أظن أني قرأت له في بعض أحاديثه منذ زمن بعيد.

(البقية في العدد القادم)

أبو الفتوح الرضوان

مصر العظيمة تستعد!
في يوم وليلة
في يوم وليلة رأينا مصر المبعوثةَ من مرقد الخلد تدخل في عهدها الجديد الجدّي فتنهض بما توجبه الحياة الحرة من تكاليف الاستقلال وتبعات السيادة!
كان ذلك اليومُ يومَ الخميس الماضي، وكانت تلك الليلة ليلة الثلاثاء قبله! ففي هذا اليوم كان عرض القاهرة لجيشها الفتيِّ في آلته الحديثة وعدته الكاملة؛ فخرج من عرائنه الشُّم والصباح الضاحي يتنفس بأريج مايو الجميل، وسار في الشوارع الحاشدة يعرض على الأنظار الدَّهِشة قوى الدفاع وأسلحة الأمن وما لا بد منه لمن يعيش في زمن استذأب وضَرِي حتى أنكر حق الحياة على نوع الحمل.
لم تكن المدافع القصيرة والطويلة، ولا الدبابات الخفيفة والثقيلة، هي التي ملكت الألباب وأثارت الإعجاب وفجرت الحماسة؛ فإن منظر آلات الدمار والموت أصبح لطول ما ألِفه الحس لا غرابة فيه ولا عجب منه؛ وإنما الذي ملك الألباب حتى أذهل، وأثار الإعجاب حتى أدهش، وفجَّر الحماسة حتى أطغى، هو منظر جنود مصر بشبابهم الفاره، وخَلْقهم السِويِّ، وملامحهم الدالة، ومظهرهم الأخاذ، ونظامهم الرائع؛ فكأنما جنود إبراهيم لم يلقوا السلاح منذ ارتد قائدهم عن الآستانة. فأين كان مكمن هذه الروح الحربية القوية مدى حقبةٍ من الرخاوة والكسل لو مرت على الضواري لطمست في وجوهها معارف الجرأة، وأماتت في نفوسها معاني الافتراس؟ لقد كان لنا قبل سبتمبر الماضي جيش من الأرقام متواضع العدد والعدة، يعيش في أكناف الشعب عيش الأمان والغفلة، لا يعرف الحدود إلا على الورق، ولا يشهد الحروب إلا في السينما، ولا يدرك معنى الدفاع عن النفس في وجود إنجلترا إلا كما تدركه الزوجة المرفهة في وجود زوجها، والولد المدلل في حضرة أبيه. فكيف انقلب هذا الجيش الصغير الغرير في سبعة أشهر جيشاً من المردة العتاة يقيم المعاقل على البحر، وينحت الخنادق في الصخر، ويروض أوعار الأرض لإقدامه، ويذلل أخطار السماء لقوادمه، ويضع الخطة فلا تخطيء، ويسدد الرمية فلا تطيش، ويقف جنباً إلى جنب مع الجيش الذي قهر نابليون وهزم غليوم وغنم الدنيا، فلا يفوقه في نظام، ولا يفوته في سبق، ولا يبذه في مناورة؟ السر في معدن هذه الأرض التي جعلت للزمان تاريخاً وللإنسان
مدنية. والسحر في طبيعة هذا الفلاح الذي طبع آثاره على جباه القرون وسلطانه على قلوب الأمم. وفرخ النسر لا يعلَّم كيف يصيد، وشبل الأسد لا يدرَّب كيف يفترس!
وفي تلك الليلة كانت تجربة الدفاع الجوي عن القاهرة. ففي عتمة الليل والناس لاهون صاحت الأبواق المنذرة بالغارة في كل حيّ، فأطفأت الأنوار وأسدلت الأستار وخشعت الأصوات وسكنت الحركات، وأقفرت الشوارع إلا من رجال الشرطة والمطافئ والإسعاف، وجثم على صدر العاصمة كابوس من الرهبة والقلق، فامتدت العيون خلسة من وراء السجوف ومن خلال النوافذ فلم تر إلا الظلام يموج، والنجوم تضطرب، والرقابة تحت الحنايا الآمنة تتهامس، والمدافع فوق العمائر العالية ترتقب. ثم أقبلت من الحدود الغربية النسور المغيرة فرنَّقت في جو المحروسة على علو لا يُرى ولا يسمع؛ ولكن آلات الرصد نبهت الكشافة فأرسلتْ على أطباق الجو الحالك أفواجاً من الأشعة الخاطفة، تتطاول وتتعارض، وتتعانق وتتشابك، حتى لم تدع طائراً يطير إلا صوَّرته في عدسة مدفع. وفي آخر الهزيع الأول من الليل أعلنت الأبواق بأصواتها المتصلة انقطاع الغارة، فأشرقت المدينة، واستأنف الناس حياة اللهو والأنس وهم يشعرون انهم اصبحوا خلقاً كسائر الخلق لهم قوة لا تُزدرى، وكرامة لا تمتهن، وحمى لا يستباح.
في هذه الليلة وفي ذلك اليوم أدركنا أن مصر الناهضة قد بلغت سن التكليف وجاوزت حد العبث؛ فهي تستعد للحرب والسلام، وتبنى بالفعل لا بالكلام، وتقد إلى ساحة الدفاع المقدس شيوخ دينها وشباب دنياها، وهي راضية بهذا البذل فخورة بهذه التضحية. والفضل كله للأحداث التي تذيب الغش وتفضح الزيف وتمحص الكفاية.
لا جرم إنا كسبنا مغانم الحرب وأن لم تكن حرب. لأننا بما عملنا أوجَدنا شيئاً لا بد من إيجاده، وبما بذلنا سددنا عوزاً لا مناص من سداده. أما الدول الأخرى فدفاعها مكين الأساس مرفوع القواعد منيف الذرى، فكل ما تنفقه عليه يضطرها الخوف إليه لتأمن

الفشل وتضمن العاقبة.
ماذا كنا قبل أن ينتشر الجراد الرومي المسلح على حدودنا المهملة؟ كنا قوماً من سادة الماشية وعبيد الأرض تركوا أزمتهم للقدر وثروتهم للغريب وحمايتهم للحليف، ثم أقبل بعضهم على بعض يتنافسون في الهزل من غير غرض، ويتراشقون بالتهم من غير بينة،
ويتسابقون إلى الحكم من غير غاية. فلما أينع الحصاد وأزّ في الأفق الجراد وزأر بالوعيد الطغاة، تيقظت مصر الصادقة الحرة على ضفاف النهر وأحقاف الرمل ورياض الريف، ثم وقفت في شِكتها الكاملة موقف الواثق الحذر وهي تنظر إلى الشفق الدامي في وجه الغرب، وتقول للطامع الساعي لإثارة الحرب: حذار! فإن على عرشيَ الفاروق خليفة الله، لا كليو بطرة صديقة قيصر!
أحمد حسن الزيات
لقاح العقول أو لقاح الأنساب
للأستاذ عباس محمود العقاد
أسرته الأصيلة من الفلمنك
وانتقل جد من جدوده إلى النمسا فأقام في الأقاليم البوهيمية واتصل هو وأبناؤه من بعده بخدمة آل هابسبرج
وبنى جده لأبيه بيونانية من جزيرة أقريطش، وبنى أبوه بيابانية من أذكى نساء اليابان
ذلك هو مؤلف الكتاب الذي نحن بصدده، واسمه الكونت (ريتشارد كودينهوف كاليرجي)
أما اسم الكتاب فهو (حكومة الاستبداد حيال الإنسان)
قرأت هذا الكتاب فقرأت عجباً من تآلف الأفكار الغربية، وتقارب الأقطار البعيدة، واختلاط الأساليب التي انغزلت مع الماضي مئات القرون.
هنا شيء من اليابان لا شك فيه، وشيء من اليونان لا شك فيه، وشيء من تعبد الفلمنكيين، وشيء من جماح البوهيميين، وشيء من أدب البلاط، وشيء من مساواة الحرية، ولكنك لا تستطيع أن تفرزها ولا أن تستخرج كل خليط من خيوطها مستقلاً عن سائر شباكها.
وكل ما تستطيعه انك تحس لكل جنس من هذه الأجناس أثراً في مزج الأفكار وصياغة الألفاظ وتنسيق الحلية الكتابية. وقد تجزم الجزم الأكيد أن الياباني وحده لن يصنف الكتاب على هذا الأسلوب، وكذلك اليوناني والبوهيمي والفلمنكي ورجل البلاط وجوَّاب الآفاق، ولكنهم إذا اتصلوا بالأنساب والثقافات كما اتصلوا في ذهن هذا المصنف نتج من تلاقح أذهانهم وثقافتهم مثل هذا الكتاب.
خذ مثلاً هذه الكلمات:
(الإنسان من صنع الله،
والحكومة من صنع الإنسان.
الإنسان غاية وليس بوسيلة،
والحكومة وسيلة وليست بغاية.
قيمة الحكومة هي قيمة ما تؤديه من الخدمة لمن فيها من الخلائق الإنسانية. فكلما خدمت الإنسان وعاونته على التمام والكمال فهي حسنة، وحيثما بدر منها التعطيل لتمامه وكماله
فهنالك الشر والسوء
الحكومة ليست شيئاً حياً ولا جسداً حياً ولا عضواً حياً؛ ولكنها آلة أو أداة مجعولة لخدمة الإنسان في صراعه للفوضى والاختلال
الإنسان مخلوق حي، والحكومة أداته للخير أو للشر، وللنفع أو للإضرار إذ ليست الحكومة كائناً إنسانياً ولكنها مع هذا تريد أن تكون أكثر من إنسان
ليست هي إلهاً فهي إذن تصبح صنماً
يصنعها الإنسان وتطلب منه العبادة
وهذه المصنوعة الإنسانية تعدو طورها فتتخذ لنفسها مكان الوساطة بين الله والإنسان!
هذه الآلة المصطنعة تحسب نفسها مخلوقة عضوية حية. . . وهذه الخادمة التابعة

تتخايل أمام بني الإنسان في زهو السيادة!
إننا لنعيش اليوم في أخطر عصور الانقلاب التي مرت بها الدنيا؛ لأنه عصر انقلاب الحكومة على نوع بني الإنسان!
(إننا لنعيش في أسوأ ما عهدنا من عصور عبادة الأصنام؛ لأنه عصر تأليه الحكومات
ومثل آخر من خواطر هذا الكتاب النفيس ما جاء منه في مستهل الكلام على الديمقراطية والنظم النيابية حيث يقول:
الحرية مثل أعلى وغاية منشودة)
الديمقراطية مبدأ وقاعدة
النظام البرلماني هو وسيلة أو طريق
والخلط بين هذه المعاني يؤدي إلى تشويش مريج
فإنجلترا حرة ولها نظام برلماني؛ ولكن دستورها يعتمد على الديمقراطية بعض الاعتماد؛ لأن المجلس الأعلى والتقاليد الوراثية ليست من الديمقراطية بلا خلاف
وروسيا وألمانيا وإيطاليا ليست بحرة وإن كان لكل منها دستور قائم على سيادة الأمة وعلى مبدأ الكثرة في ولاية الحكومة كما تقضي أصول الديمقراطية
والولايات المتحدة وسويسرا حرتان وديمقراطيتان ولكنهما على غير الوضع النيابي مذ كانت الحكومة فيهما لا تسقط إلا بانتزاع الثقة البرلمانية منها
واليابان لها نظام برلماني ولكنها ليست بالديمقراطية، لأن دستورها لم يؤسس على سلطان الأمة بل على سلطان الإمبراطور- وهو - أي الإمبراطور - يقبل باختياره أن يشرك معه الحكومة البرلمانية
ومن المحتمل جداً أن تتصور حكومة حرة تحترم حقوق الأفراد على أيدي قلة متسامحة، كما تتصور حكومة متعسفة تقيد الحريات جميعاً على أيدي كثرة تدين بعقائد الاستبداد
فالروح الموحية أهم وأقوم من نصوص الدساتير. وحيثما بطل اليقين بالإنسان والاعتداد بحقوق الأفراد لم يكن عجيباً أن يفضي بنا الانتخاب العام إلى الاستبداد؛ لأن المستبد والمشعوذ السياسي ليسا بالنقيضين، ولكنهما قرينان متماثلان)
وكل فصل من فصول الكتاب حافل بهذه الدقائق وهذه القضايا وهذه التعريفات
هنا ولا شك أناقة الياباني في التنسيق وخفة الياباني في الحركة
وهنا ولا شك نفاذ اليوناني إلى بواطن المعاني الفلسفية والحدود المنطقية
وهنا ولا شك جنوح الفلمنكي إلى صبغ الحقائق بصبغة العبادة والأسرار
وهنا ولا شك طلاقة البوهيمي، وكياسة الرجل البلاطي، وثقافة الإنسان الحديث
انك لا تشك في خصلة من هذه الخصال كما لا تشك في اختلاف المنهج والأداء لو كان الكاتب يابانياً أو يونانياً أو فلمنكياً أو بوهيمياً غير مختلط بما عدا سلالته وثقافته من السلالات والثقافات
ولكن أين هذا وأين ذاك؟
أين يبتدئ هذا التفكير وأين ينتهي ذلك التفكير؟
وما وسيلتك إلى منع عنصر من تلك العناصر أن يظهر في منهج الكتاب وأدائه أن كانت بك حاجة إلى إمتاعه؟
وما وسيلتك إلى زيادة عنصر من تلك العناصر أن كانت بك حاجة إلى ازدياده؟
لقد شغلني التوجه إلى هذا المعنى أثناء القراءة حتى خيل إليَّ أنني في معمل من معامل الطبيعة أرقب فيه براعتها في الخلط والمزج والجمع والتفريق
أو خيل إلي أنني أمام مسرح التاريخ الكبير يتناول اللاعب القدير على خشباته نسيج الأحقاب والأعقاب منذ ألوف السنين فيداخل بينها ويواشج بين خيوطها على نمط من السرعة لا تضبطه بعينك في مكان واحد، ولكنك تضبطه كله حين ينتهي إلى النتيجة
فإذا هو هناك حيث لا تدري من أين اتصاله ومن أين انفصاله في مجمل النسيج ورب كلمة من كلمات الكتاب لها اتصال بجزائر اليابان، وكلمة أخرى لها اتصال بشعاب البوهيميين، وكلمة مجاورة لها قد جاءت من أقصى المغرب أو من أقصى الشمال
ان النظر إلى هذا لأمتع من النظر في حقائق الكتاب، وإن كانت حقائقه من المتعة بمكان
ثم يجول في الذهن خاطر آخر هو فضل هذا اللقاح العجيب في تحسين العقول أو في

تحسين الطباع.
هل تستفيد (الإنسانية) بامتزاج كهذا الامتزاج يعم جميع الأجناس في المشرق والمغرب، ويعم جميع الثقافات وجميع المذاهب والآراء؟
أو هل هي قيمة واحدة من القيم الكثيرة نحتفظ بها ونحتفظ معها بصفاء الأصول وافتراق السلالات، وما في كل سلالة من مزية ورثتها واستقلت بها بعد تحضير طويل في معمل التاريخ؟
يحضرني في هذا الصدد ما يصنعه مولدو الأزهار من مختلف الأحجام والألوان والأصول يروقهم أن ينبتوا الوردة السوداء فيستفيد عالم النبات فائدة لا شك فيها إذا أضيف ذلك اللون إلى ألوان الورود
ولكنه يجني على الورد وعلى عالم النبات لا مراء إذا تمادى في تجاريبه حتى يزول الورد الأحمر والورد الأبيض والورد الذي يولد على ألوان مختلفات بغير تخليط وتهجين.
وخير لبني الإنسان أن يتعلموا التآلف وهم مختلفو العناصر متعددو المزايا جامعون بين فضائل العنصر القح والعنصر الهجين من أن يتآلفوا وهم لون واحد فقير المزايا قليل الاختلاف.
على أنني أحمد هذا اللقاح وأتمنى لو يظفر الفكر الإنساني بأنماط شتى من غير هذا القبيل كما ظفرنا بذلك النمط من ذلك القبيل.
عباس محمود العقاد
دراسات في الأدب
للدكتور عبد الوهاب عزام
الشعر والنثر
قدمنا أن الأدب ينقسم إلى الأدب الإنشائي والأدب الوصفي. فالان نبين أن الأدب الإنشائي ينقسم قسمين: شعراً ونثراً
فالشعر أو القريض، كلام موزون مقفًّى
الوزن أن يكون للكلام مقادير محدودة من الحركات والسكنات متتابعة على نسق خاص. فينشأ من هذا التتابع نغمة وتختل هذه النغمة إذا زادت الحركات والسكنات أو نقصت، أو اختلف تأليفها.
والتقفية أن تكون أبيات القصيدة الواحدة متشابهة في أواخرها ولا سيما الحرف الأخير. ففي قول المتنبي:
وقفت وما في الموت شك لواقف ... كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ... وثغرك وضّاح ووجهك باسم
نجد البيتين على وزن واحد تتوالى الحركات والسكنات فيهما على نسق متفق وينتهيان بكلمتين متشابهتين في الوزن وفي الحرف الأخير. وهما نائم وباسم. وسيأتي تفصيل هذا في باب الشعر
أما النثر فكلام لا يلتزم فيه وزن ولا قافية
وتعريف الشعر والنثر بهذين التعريفين فيه نظر إلى الألفاظ لا إلى المعاني
وأما تعريفهما من جهة المعنى فالشعر كلام تنشئه عاطفة قوية أو خيال والنثر كلام مطلق يكون أحياناً مبنيّاً على الفكر المرتب، وأحياناً ناشئاً من العاطفة والخيال كالشعر. فالنثر من جهة المعنى أعم من الشعر
والتعريف المأثور عن أدباء العرب هو التعريف الأول - التعريف اللفظي
وقد نظر قدماء اليونان إلى معنى الشعر دون لفظه فقالوا أنه الكلام المبنى على الخيال المؤثر في النفس بالترغيب أو التنفير
والحق أن العرب حين نظروا إلى صورة الشعر فعرفوه التعريف السابق لم يهملوا جانب
المعنى فيعدّوا كل منظوم شعراً. بل كان الشعر عندهم من جهة معانيه كالشعر عند اليونان. قال قدامة في نقد النثر: وإنما سُمِّي شاعراً لأنه يشعر من معاني القول وإصابة الوصف بما لا يشعر به غيره. وإذا كان إنما يستحق اسم الشعر بما ذكرنا فكل من كان خارجاً عن هذا الوصف فليس بشاعر وإن أتى بكلام موزون مقفى
وإنما نظروا إلى الجانب اللفظي لأنه الجانب المحسوس الواضح الذي لا يشارك الشعر فيه النثر. وربما كان أول من عرّف الشعر العربي رجال العروض الذين

ينظرون إلى ألفاظ الشعر دون معانيه.
وكذلك اليونان حين عرفوا الشعر من جهة المعنى لم يكن شعرهم خالياً من الوزن والقافية ولكنهم نظروا إلى ناحية دون أخرى
والشعر والنثر مشتركان في قواعد البلاغة وقوانين الكلام وإن كان الشعر في جملته أميل إلى المجازات والاستعارات من النثر. قال قدامة بن جعفر في كتابه نقد النثر:
(وقد ذكرنا المعاني التي يصير بها الشعر حسناً وبالجودة موصوفاً، والمعاني التي يصير بها قبيحاً مرذولاً. وقلنا أن الشعر كلام مؤلّف، فما حسن فيه فهو في الكلام حسن، وما قبح فيه فهو في الكلام قبيح. فكل ما ذكرناه هناك من أوصاف حد الشعر فاستعمله في الخطابة والترسل، وكل ما قلناه عن معايبه فتجنَّبه هنا).
ولكن يختلف الفنان فيما يعالجان من الموضوعات وفي طريقة البيان إجمالاً. فالأصل في الشعر أن يتناول الأمور التي هي أدخل في العاطفة والخيال، وإن يتانق في التصوير والتجوّر. والأصل في النثر أن يتناول الموضوعات الطويلة التي تحتاج إلى تفكير وتوضيح وإن يبين إبانة طبيعية، وربما يشارك النثر الشعر في موضوعاته فقد كتب الكتاب منذ القرن الرابع في الفخر والهجاء والمدح والعتاب والغزل الخ. وربما يشاركه في عباراته وأساليبه كذلك. ولكن يبقى بعد هذا أن الشعر والنثر في أصلهما مختلفان في الموضوع وطريقة البيان، ولولا اختلاف الشعر والنثر في الموضوع والتصوير لكان الكاتب المجيد شاعراً مجيداً إذا استطاع أن ينظم، ولكان الشاعر المجيد أجود في كتابته حين يتحلل من قيود النظم، ولكن الإجادة في الاثنين معاً لا تتفق لأكثر الناس. وقد سئل أبو إسحاق الصابي عن الفرق بين الكتابة والشعر فقال:
(ان طريق الإحسان في منثور الكلام يخالف طريق الإحسان في منظومه؛ لأن الترسل هو ما وضح معناه وأعطاك سماعُه في أول وهلة ما تضمنته ألفاظه، وأفخم الشعر ما غمض فلم يعطك غرضه إلا بعد مماطلة النظم)
ثم علل الصابي قوله هذا بفسحة النثر وضيق
وكلام الصابي ليس صحيحاً على هذه الصورة لأن الغموض لا يحسن في النثر ولا في الشعر وكأنه أراد أن يقول: أن الشعر أقرب إلى الإجمال في بيانه. وقيوده تحول دون الإيضاح الذي يملكه الناثر.
فطبيعة النظم تبيح للشاعر شيئاً من الغموض والتقديم والتأخير لا يباح في النثر، ولكن الغموض ليس مستحسناً في منظوم ولا منثور
وقال ابن خلدون في الفرق بين الشعر والنثر:
(واعل أن لكل واحد من هذه الفنون أساليب تختص به عند أهله ولا تصلح للفن الآخر ولا تستعمل فيه مثل النسيب المختص بالشعر، والحمد المختص بالخطابة، والدعاء المختص بالخطابات وأمثال ذلك
وقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه في المنثور من كثرة الأسجاع والتزام القافية وتقديم النسيب بين يدي الأغراض، وصار هذا المنثور إذا تأملته من باب الشعر وفنه ولم يفترقا إلا في الوزن)
عبد الوهاب عزام
من برجنا العاجي
(لم يتيسر لي قراءة كل كتبك. إنما الذي قرأته لك هو مقالات وقصص ومساجلات . . . في الصحف والمجلات ومع أن كل آرائك حرة وجريئة إلا أن رأياً واحداً هو الذي ملك شعوري وكياني: (إن من ملك قلباً حاراً ولساناً حراً فهو الذي يستطيع أن يسود العالم). سيدي: أن قلبي لحار وإن لساني لحر وبهاتين الوسيلتين يعظم أملي في المستقبل. إني أعشق الجمال وأحب الأدب الرفيع ولكنهم يريدونني أن أكون معلماً بإحدى المدارس الإلزامية. أن جو القرية يكاد يخنقني. أريد أن أؤدي رسالتي في الحياة، وهي رسالة الكاتب الموهوب، لا أن أعيش على هامش الحياة! أنه ليسرني أني استطعت إسماعك صوتي. فإن رأيت يا سيدي أن هذه النواة أهل للحياة فتعهدها بالغرس والري. لي من حسن الأمل فيك ما يجعلني أطمئن إلى انك لن ترمي برسالتي في سله المهملات. . .)
قبل كل شيء أحب أن أقول لصاحب هذه الرسالة أن يحسن ظنه بحياته. فلئن كان هنالك إنسان يعيش على هامش الحياة فهو أنا صاحب هذا البرج القصيّ. أن جو القرية

لا يمكن أن يكون خانقاً للقلب الشاعر. وإن مهنة التعليم والعمل على تكوين نفوس نبيلة، ونفخ روح الجمال في نشء ساذج، وإيقاظ عيون صغيرة على حسن الطبيعة؛ كل هذا خلق فني في ذاته. ولكننا لا نريد أن نرى الخلق إلا في مقال يكتب، ولا المجد إلا في هراء ينشر. هنالك شعراء عظام ما فارقوا قراهم قط وما تركوا صناعاتهم الصغيرة قط. أن القلب الحار يسبغ الخير والجمال على ما حوله. ولو كان لصاحب هذه الرسالة قلب حار حقيقة لظهر لهذا أثر في قريته ومدرسته أولاً ثم في مادة نفسه ثانياً. فالقلب الحار يحتاج إلى وقود ليشع ولا يخمد وأيسر الوقود الكتب. وصاحب الرسالة لا يقرأ كتباً ولكنه يطالع مطالعات سطحية سريعة ناقصة. كم من الأعوام وكم من أكداس الكتب تلزم للقلب وقوداً حتى يقال أنه (قلب حار)!

توفيق الحكيم

خواطر

للأستاذ فليكس فارس

- 1 -

لم يكد صاحب الأحذية السيد فيكاني السوري العربي يصنع أحذية عقيلة الرئيس) روزفلت حتى اهتمت البلاد كلها باختراعه فأصبح الرجل الفاشل المعدم بالأمس (رجل الساعة في الصناعة) تنهال الطلبات عليه من كل صوب، وتحوّل مصنعه لتصليح الأحذية العتيقة معملاً كبيراً يجتذب ملايين الزبائن. وهكذا حقق (الصغير الفيكاني) في (الولايات المتحدة ما حلم به في قريته منذ ثلاث وأربعين سنة في وطنه النائي (استبان والاس)

هذه كلمة من إحدى كبريات جرائد الولايات المتحدة موقعة بإمضاء كاتب من أشهر الكتاب في العالمين الجديد والقديم

وقد وقعنا على مقال في مجلة (المناهل) التي تصدر في بونس إيرس عن قصة الفيكاني فاخترنا تلخيصها:

قدم السيد الفيكاني من سوريا وقد ضاقت بوجهه سبل الارتزاق من حرفته. فنزل) في بلدة (كربندال) حيث اتخذ له دكاناً لترقيع أحذية الفقراء فكان دخله يكاد لا يفي لتأمين معيشته. ولكنه لم يستنم للضيم واخذ يفكر ويجرب على نور اختباراته في صنعته حتى وفق أخيراً إلى اختراع قالب لحذاء يتمتع منتعله بالراحة التامة مهما كان شكل قدميه ومهما تجشم من مشقة السير أو الوقوف، وسجل اختراعه. وما عتم حتى أقبل أهل القرية على استعمال أحذيته؛ فابتسم له الحظ، إلا أنه بقى يزاول عمله بيديه لعدم وجود رأس مال كاف يستعين به على بناء مصنع كامل العدة إلى أن وقع نظره يوماً على صورة للسيدة إليونور عقيلة الرئيس روزفلت فتأكد من ملامح وجهها أن حذاءها يؤلم رجليها، فقصد العاصمة. وهناك بدأ من جهة يتسقط المعلومات اللازمة لتهيئة الحذاء الذي سيفتح له باب الشهرة والثروة، ومن جهة أخرى يراجع ذوي الشان للحصول على مقابلة السيدة الأولى حتى بلغ القصد بعد انتظار دام تسعة أشهر. وما مثل لديها وعرض الحذاء المبتكر حتى انتعلته وسارت تتخطر في القاعة جذلة راضية وهي تردد عبارات الثناء؛ ثم أوصته بصنع أزواج عديدة فكان هذا الطلب فاتحة شهرة (الرجل وباب ثروته

ليبتسم من يشاء لهذه القصة من الشبيبة المثقفة الحالمة بتربع دسوت الوزارات والتهافت على باطل الأمجاد وكاذبات الاماني، المحتقرة لكل عمل لا تدور به عناصر التحكم بالناس والترفع عن كل حرفة، فإن من هذه الشبيبة فئة علمتها عثرات الآمال أن تعتمد على نفسها وتنطلق في ميادين الأعمال الحرة من أي نوع كانت، وهذه الفئة تباهي بالإكساف الوضيع الذي عرف أن يجعل السيدة الأولى في أعظم الأمم ثروة وعدداً وجهداً تشهد بفضله وتثني عليه لأنه ابتكر طريقة تريح الناس من عناء تحملوه عبثاً حتى كشف سره وهو لا يحمل شهادة الفلسفة بل لعله أميٌّ لا يعرف من العلم شيئاً

. . .ليس من عمل حقير في العالم إلا العمل الذي تديره يدٌ متواكلة بتفكير حقير

إن من حرفة الكناسة مجالاً للعبقرية، كما أن في مهمة إدارة الأمم مجالاً للحماقة والغرور. ولو أن كل فرد في هذه الأمة اتجه إلى إتقان عمله باذلاً فيه كل جهده لبدت طلائع الرقي بين الطبقات الوضيعة قبل أن تبدو بين الطبقات العليا.

إن حياة الأمم تبدأ بانتباهه الفرد ونشوء فكرة التضامن بين جماعاته الصغرى. فلو عملت الفئة الناهضة المثقفة في هذه البلاد على إثارة هاتين القوتين في المزارع والقرى الصغيرة لقضت على التواكل والخمول ولرأينا بدلاً من الشعب الذي يتوقع من حكومته كل شيء، شعباً واثقاً من نفسه يقيم كل شيء على سواعده
أما يكفي الأمة لتحيا أن يكون حاكموها منها ولها وإن يعدل القضاء بين أفرادها؟

كلمة قد تجيء ثقيلة على بعض الاسماع، وقد يتلقاها من توجه إليه بالصمت والتبرم ولكنها كلمةٌ حقٌّ الجهر بها علينا لأننا اعتقدناها حقاً
لقد كثر عدد الكتاب والشعراء الذين يملكون البيان الصحيح ولكن قل بينهم من ينطق بهذا البيان بلهجة العربية الأصلية محررة من كل لكنة دخيلة أو رطانة أجنبية
وان نحن أردنا تصنيف اللهجات التي تصدها فصاحة اللغة وتتململ منها مقاطعها وحروفها وحركاتها وسكناتها أمكننا أن نردها إلى أصلين: اللهجات التي أدخلتها العامية على الفصحى، فمنها ما حولت الجيم إلى جيم إفرنجية تتنافر وسائر الحروف الحلقية، والألف إلى ألف فارسية تخرج مفخمة من الخياشم كان عليها (أكسانسير كونفلكس) مزدوجة، ومنها
ما حسبه بعض المتحذلقين نهاية الإبداع بالاحتفاظ بالحركات النحوية في أواخر الكلمات وبخاصة عند الوقف فتأتي الحركة نافرة كأنها الشجي في حلق المتكلم أو كالقرار الموسيقي الإفرنجي المقطوع على بقية كذَنبْ كلب الراعي
أما الأصل الثاني فرطانة جميع لغات الدنيا نازلة منزلة الضيف غير المحتشم على مخارج حروفنا وموسيقى مقاطعنا
إن الفرنسي عندما يتكلم بلغة أجنبية لا يكاد يتلفظ بجملة واحدة حتى تسمع لغة أمه نافرة بغنتها من فمه مشوِّهة اللغة الأجنبية، وهكذا الإنجليزي والألماني والإيطالي الخ. .
أما نحن أصلح الله عيب التقليد فينا، فإننا نتكلم لغات العالم محتفظين لكل منها بفصاحتها، وبيننا من يبزُّ الإنكليز والفرنسيين بنقاء لهجته، غير أن الكثيرين ممن تلقوا العلم في المدارس الأجنبية أو تسَّنى لهم أن يمضوا ولو مدة صيف واحد في أوربا تُشلُّ عضلات أحناكهم أو تتشنج أعصابها فيأتون السامعين بعجائب الفصاحة وغرائبها حتى ليصعب عليك لأول ما يطلق الخطيب أو الشاعر صوته في الراديو أو على المنبر أن تتميز اللغة العربية فيما يقول، ولكم من عربي ابن عربي بيننا نحسبه أحد الآباء القادمين من فرنسا أو أحد المرسلين من إنجلترا. . .
دخلت امرأة أجنبية إلى مخزن لتشتري قماشاً فطلبت من المستخدم أن يريها بضاعة شرحت أوصافها على قدر ما تسمح لها معرفتها بالعربية فأوردت ضمير المخاطب بدل ضمير الغائب وقلبت المذكر مؤنثاً والمؤنث مذكراً، واستبدلت بالفاء والعين والقاف حروفاً من لغتها فإذا بالمستخدم العربي يتقدم مدلياً ببيان طويل عما لديه من الأصناف باللغة التي خوطب بها دون ارتكاب خطأ واحد فوقفت السيدة تتفرسه قائلة:
- آجيب هو انتي من مملكت بتاع أنا.
وإذ أجاب المستخدم نفياً أطلقت لسانها بالسباب والشتم وخرجت من المخزن معتقدة أن حضرته يهزأ بها ويقلدها ليحتقرها.
مسكين هذا المستخدم، أنه ساير الأجنبية تملقاً بقصد تصريف بضاعته، فأية بضاعة يريد تصريفها بعض المقلدين بيننا حتى من رجال الأدب، وأي معنى لهذه المسايرة السخيفة التي تضحك الأجانب أنفسهم.
بقيت كلمة لن أدعها عالقة بقلمي، وإن كنت أعلم أنها ستغضب كل من سطت العادة على ذوقه سواء أكان سليماً أم غير سليم.
من أية لغة اقتبس حرف (أ) في كلمة (أب)؟ وليس في لغات العالم ما يشبه هذا الصوت الذي تحسبه قرعة دفٍ فلا يمكن كتابته إلا إذا خلقت ألفاً جديدة تتركب من سائل القاف ومسحوق الضاد وشيء من صيحة الاستنفار ثم أتيت بالباء مشددة بأربع شدات، وقد لا نصل بهذا الإملاء إلى تمثيل خشونة هذه الكلمة وثقلها مع أنها من ألطف ألفاظ العربية ومن أروعها تمثيلاً لعطفة الطفل على والده.
وأخيراً أتمنى لو عمل هؤلاء المصابون بداء الرطانة والحذلقة على الاستشفاء

بإصغائهم إلى فصحاء هذا الجيل كالأستاذ الأكبر المراغي والأستاذ أمين الخولي مثلاً في النثر، وكالأستاذ الجارم والأستاذ أحمد رامي في الشعر، فإن تصحيح اللغة على الألسن ليس بأقل أهمية من تصحيحها في الجرائد والكتب
(الإسكندرية)
فليكس فارس
أعلام الأدب
هجرة يوريبيدز
للأستاذ دريني خشبة
ساءت حالة أثينا والاثينيين بعد موت بركليس (429 ق. م)، وأخذت المصائب تتري عليها في الداخل والخارج. . . في الداخل على أيدي تلك الطغمة الشقية من زعماء الشعب وقادته الذين نبتوا فجأة فورثوا الزعامة كما ورثها ألسبيادس النزق الطياش عن بركليس العظيم، أو تملقوا الجماهير الغافلة التي لا إرادة لها. فأسلست لهم قيادها فأوردوها المهالك بعد ما ضللوا بها تضليلاً كبيراً متخذين من فساد الديمقراطية بعد موت بركليس سلاحاً يشهرونه في وجوه العقلاء والمفكرين.
أما في الخارج فقد تتابعت الهزائم على جيوش أثينا، وأحرق الإسبرطيون حقول أتيكا وقراها ودساكرها كما صنع الفرس من قبل، ثم حطموا قوة أثينا البحرية التي كانت تلقى الرعب في قلوب الدويلات الهيلانية.
كان يوريبيدز يرى ما حل ببلده الأثير المحبوب وهو جالس كالقديس في كهفه الجميل الفريد في صخرة سلاميس فيأخذه الوجد، ويخزن أبلغ الحزن على ما آلت إليه الحال في أثينا من انحطاط مستوى الشعب الخلقي، وتضليل الزعماء بالناس، واقتتالهم على جاه الرياسة الزائف في حين قد أصبحت حرمات الوطن حلاً لكل والغ، ففي كل يوم غزو، وفي كل يوم قهر لعزة الوطن، والإسبرطيون في كل فج يذلون العزة القومية، وينشرون الفقر، والأقوات منقوصة في أثينا، والأمراض تفتك بالأهلين، والاهلون لاهون عن كل ذلك بالجدل السياسي العقيم، وبإلقاء التهم جزافاً على رأس كل وطني مخلص. فيوريبيدز كان يدعو للسلم لأنه كان يتمنى الهزيمة لبني وطنه. . . فليُنْبَذ يوريبيدز إذن. . . وليذكر ماضيه الزاخر بعداوته للمرأة وإلحاده بالآلهة، واستهتاره بتقاليد السلف الصالح، والفت بدعوته للسلم في أعضاء الجند. . . ثم هو يسخر بالديمقراطية فهو من شيعة الاستبداد. . . ثم هو تلميذ السوفسطائيين الملاحدة وصديقهم، وأحد المبشرين بآرائهم. . . فليؤخذ أخذاً شديداً لا هوادة فيه ولا مرحمة. . ولتشرك زوجته في خلق المتاعب المنزلية له فتصبح حياته جحيماً في المنزل، وجحيماً في المجتمع، وجحيماً في أثينا كلها. . . ولماذا يبالي الشعب الضال، والزعماء الأوشاب من طعن يوريبيدز في شرفه؟! أليس قد اشتهر أن زوجته الأولى قد خانته؟ فلماذا يتورعون من إرسال التهمة نفسها عن زوجته الثانية! ثم لماذا لا يدسون إليه من يحدثه بذلك! أليست هي فضيحة والسلام؟ أليس المقصود هو وخز هذه الروح العالية الكريمة المتأبية؟ فماذا ينفع في وخزها إلا صغار هذه الشائعات؟ ألا لا أفلح شعب لا يحرص زعماؤه على الأخلاق، ولا أفلحت أمة يبلغ لها الهوان أن تعبد أمثال أولئك الزعماء!
كان يوريبيدز معتزلاً جميع الناس في كهفه المنفرد، وهذه الضائقة الأخلاقية تفتك بمواطنيه، وكانت أنباء الأزمة تبلغه فيبتسم ساخراً، ثم يعبس عبوسة عميقة مريرة ظهرت آثارها في درامته التي كان ينظمها في ذلك الحين (أورست 408 ق. م) والتي حلل فيها أخلاق رجل ملتاث أو به مس لأنه قتل أمه، وكيف أعدي هذا الرجل جميع من حوله بجنونه وخصوصاً أخته ألكترا وصديقه بَيْليدز، وكيف انتهى أعوانه إلى حرق القصر الملكي في آرجوس ليكون أول مشهد من نوعه يعرفه المسرح اليوناني. . .
وبالرغم من روعة أورست وأنها من أقوى ما نظم الشاعر فقد سقطت لأنها من نظم عدو الشعب، الرجل الغني البخيل الذي طالما بخل بأمواله على بلاده في أشد أوقات محنتها. . . هذه تهمة جديدة حاكها الرعاع حول يوريبيدز، لأنه كان يقتني مكتبة من أحفل مكتبات أثينا بالكتب بل من أحفل المكتبات الشخصية في العالم في ذلك العصر الذي كانت تبلغ فيه قيمة الكتاب الواحد مالا قبل للفقير به
إذن فليهاجر يوريبيدز!

ولْيُلب دعوة أهل مجنيزياله، ليحل عليهم ضيفاً حيناً من الزمان، فإن بينه وبينهم صداقةً قديمة ومحبة كانت تجعل لهم منه في أثينا سفيراً يسهر على صوالحهم وييسر حوائجهم. . . وليتلبث عندهم أياماً ثم فَلْيُلَبِّ دعوة ملك مقدونيا العظيم الملك آرخيلوس، الذي كان يجمع حوله بلاطاً زاهياً زاهراً من أعظم رجال الفكر والفن في العالم، والذي كان يعتقد أن انتهاء أثينا على هذا النحو المزري لا يعني انتهاء المجد اليوناني، بل يعني هجرة هذا المجد، وما دام أعظم رجال الفكر والفن اليونانيين قد هاجروا، واختاروا بلاط مقدونيا مُهاجراً لهم، فسترث مقدونيا هذا المجد الأثيني الباهر العظيم، وستنهض مقدونيا في عالمي الفكر والحرب. وسيكون من ملوكها الملك فيليب وابنه الإسكندر ومن أضيافها العظماء الفيلسوف آرسطو المعلم الأول!

كان آرخيلوس ملك مقدونيا وواضع اللبنة الأولى في بناء نهضتها يطمع من قديم في اجتذاب الشاعر يوريبيدز إلى بلاطه لشدة إعجابه به، وكان يعرف ما يلقى يوريبيدز من قومه من الهون وسوء التقدير، فدعاه مرة وأطمعه في حياة هادئة هانئة لا يعكر عليه فيها صفاءه معكر، لكن يوريبيدز شكر واعتذر، فلما هاجر إلى مجنيزيا وعرف الملك ذلك جدد دعوته وشدّد، فلبى يوريبيدز وأجاب، وشد الرحال إلى البلاط المقدوني المتلألئ حيث وجد من رجال الفن نريكسيز أعظم مصوّري عصره، وحيث وجد الشاعر التراجيدي العظيم أجاثون، والموسيقي الخالد تيموتيوس الذي كان يوريبيدز قد أنقذه من الانتحار كما مر بك. . . ومما يؤثر في قليل من الشك أنه لقي ثمة المؤرخ العظيم تيوسيدز

أقام يوريبيدز في هذا البلاط الزاهر فكافأه الحظ السعيد لأول مرة في حياته مكافأة معنوية عالية لم يكافئ بها الزمان أحداً من الأدباء قط. . . لقد وردت الأنباء من سيرا كوزه حاضرة صقلية بأن أسرى الحملة اليونانية التي أرسلها ألسبيادس لغزو الجزيرة والذين بلغ عددهم سبعة آلاف أسير قد اشترط الصقليون لإطلاق سراحهم أن يلقوا مقطوعات من شعر يوريبيدز، فمن استطاع منهم ترتيل شيء من هذا الشعر واو كان بيتاً واحداً فقد أطلق سراحه وصار حراً، ومن لم يستطع فقد حل للصقليين استرقاته! أي مكافأة هذه يجود بها الزمان على شاعر؟! وأية منزلة بلغها يوريبيدز في الأوساط المثقفة المستنيرة في الزمن الذي كان يعيش فيه! ولكن ماذا كان أثر هذا الجميل في أثينا والأثينيين؟! لقد كان أثراً بالغاً من غير شك، لقد شعروا بالخزي لأن أمماً أخرى غير أثينا قد أخذت تستيقظ وتتنبه، ثم تسمو نحو المجد الأدبي حتى لقد عرفت من أدب يوريبيدز الأثيني ما لم يعرفه الأثينيون!

لم يسكن يوريبيدز إلى الدعة في مقدونيا، ولم يزهه إعجاب البلاط به فيستنيم إلى نشوة الخيلاء، بل لعل الفضل الأكبر يرجع إلى هذه النشوة في نظمه أعظم دراماته جميعاً (الباخوسية) أو سكارى باخوس

وتشبه الباخوسية من حيث الفكرة العميقة وجمال الموضوع بروميثيوث المصفّد لأسخيلوس، وقد نسى فيها يوريبيدز أدب الواقع قليلاً. ثم تغلغل في صميم الأساطير القديمة وغرق في الأدب التقليدي الذي كان هو زعيم الثورة عليه. . . ولا ندري لم لم يعِر المؤرخون هذه الرجعة من يوريبيدز اهتماماً، فلم يعللوها ولم يعرضوا لبحث أسبابها. . . على أن مما لا ريب فيه أن أكبر أسباب هذا التحول هو البلاط المقدوني نفسه والبيئة المقدونية التي كان الشاعر يعيش فيها. . . فأحلام رجال البلاط بالرغم من الأفراد الممتازين الذين جذبهم الملك إليه كانت أحلاماً بدائية مما يزدهيها أدب الملاحم والأساطير ولا يروقها الأدب التحليلي الذي ابتكره يوريبيدز ونظم فيه أروع آثاره. . . أما البيئة فقد ترددت أصداؤها في الباخوسية بهذه القطع الخالدة التي صور فيه الشاعر كثيراً من مناظر الطبيعة في مقدونيا تصويراً حياً رائعاً لا يكاد يدانيه شيء في جميع ما نظم

والعجب أن تكون الباخوسية مع ذاك أروع درامات يوريبيدز بالرغم من أنها نكسة في مذهبه، وربما كان العنصر الإلهي الذي امتازت به هو الذي جعل لها هذه المرتبة بين دراماته. . وهو العنصر نفسه الذي ارتفع بروائع الأدب الأخرى وأكسبها الخلود مثل كوميدية دانتي وفردوس ملتون ورسالة الغفران لأبي العلاء وفاوست لجيته

والباخوسية تفيض بروح لاذعة من السخرية، وفيها مناظر تضحيكية مرة تقف بالإنسان

ليتساءل: ترى هل بين هذه المناظر وما جاء مثلها في درامة إفجنيا في أو ليس التي لم يكملها يوريبيدز، صلة؟! هل من الحق أن المناظر التضحيكية التي تفيض بها إفجنيا ليست من صنع يوريبيدز؟ وهل الفن الذي نشهده في إفجنيا هذه هو فن غريب عن يوريبيدز لأنه لم يرد في دراماته أيضاً؟ فلم إذن حشد يوريبيدز هذه المناظر التضحيكية في الباخوسية التي نظمها في مقدونيا كما نظم أختها إفجنيا هناك؟!

وهذه أسئلة ترغم الإنسان على إعادة النظر في كل ما قيل عن فن يوريبيدز!! لقد رأينا كيف تأثر سوفوكليس الشيخ بيوريبيدز الفتى في أخريات حياته، أفلا يكون يوريبيدز هو الآخر قد تأثر بعدوه أرستوفان؟

يقدم إله الخمر باخوس - أوديونيزوس - متنكراً في رهط من نسائه السكارى المتوحشات إلى طيبة فيذوده ملكها بنثيوس عن القصر الملكي، ويغلو هو ونساء الحاشية الملكية في انتهاره والإزراء به، والتهكم عليه. ثم يأمر الملك بتكبيله بالقيود والأصفاد ثم بإلقائه في غيابة السجن ذليلاً محسوراً. . وهنا تتجلى المقدرة الإلهية العجيبة، فإن ديونيزوس الذي

يصبر لهذا الهوان من أحد رافضي عبادته يرسل طائفاً من الجنون يجتاح سيدات القصر الملكي كله بما فيهن أجاف أم الملك فينطلقن مهرولات مولولات لينخرطن في صفوف ديونيزوس، وليعكفن على عبادته. وينصح أشياخ الشعب الطيبي للملك أن يحد من غلوائه ضد الإله وإن يشرب قلبه محبته عسى أن يغفر له، لكن الملك لا يزداد إلا شموساً، فلا ييأس ناصحوه من النصح له حتى يقبل آخر الأمر أن يستخفي في زي امرأة ثم ينطلق إلى جبل كيثارون حيث يختبئ في بعض الأدغال القريبة ليشهد كيف يقبل نساؤه الملكيات على عبادة الإله وليقف بنفسه على مدى خشوعهن له. . . وما يلبث الملك المستخفي أن يفتضح أمره فيضبطه نساؤه في مخبئه، وتهجم عليه أمه وهي فيما هي فيه من طائف الجنون المقدس فتقتله ثم تمزقه إربًا، وتنثر في الهواء أشلاءه، وتنطلق برأسه نشوانة بخمر النصر وهي تحسب أنها قد قتلت أسداً، وإن الرأس الذي تحمله هو رأس ذلك الأسد!

فإذا انتهت إلى القصر، وراحت تفتخر بفعلتها التي فعلت، لقيها أبوها قدموس الذي آب هو أيضاً من جبل كيثارون حاملاً أشلاء حفيده، فيقول لها وتقول له، وقد فاءت قليلاً من طائف الجنون المقدس:

أجاف - ماذا؟ ما الذي تنكرون؟ فيم أسفكم أيها الأهل؟

قدموس - دوري بعينيك قبل كل شيء في الهواء الذي حولك!

أجاف - أدور بعيني؟ ولماذا أفعل يا أبتاه؟

قدموس - ألم يتبدل الأمر غير الأمر؟ ألم يحدث أي تغير!

أجاف - لله ما أجمل وما أبهى! أبداً ما رأيت مثل هذا أبداً؟!

قدموس - أما تزال خيلاؤك تهيمن على روحك!

أجاف - لست أدري ماذا تقصد! إني أفيق قليلاً. . . أن عقلي المضطرب يصحو. . .

قدموس - ألا تستطيعين أن تنتبهي وتجيبي على ما أسألك؟

أجاف - لقد نسيتُ يا أبتاه كل ما قلت!

قدموس - أتذكرين إلى من زففناك عروساً يا بُنيّة؟

أجاف - إلى إخيون الذي يدعونه ابن التنين!

قدموس - وتذكرين ابنه الذي حملت في أحشائك؟

أجاف - بنثيوس، الوشيجة المقدسة التي تربط قلبينا!

قدموس - إذن رأس من هذا الذي تحملين في كلتا يديك؟

أجاف - رأس أسد! هكذا قال رفاق الصيد!

قدموس - انظري إليه إذن فلن يكلفك النظر إليه عناء!

أجاف - ماذا أرى؟ ما هذا الذي أحمل في يدي؟

قدموس - انظري إليه مرة ثانية. . انك توشكين أن تعرفي!

أجاف - إني أرى الفزع الأكبر الذي ما رأيت مثله أبداً!

قدموس - هل هذا يشبه الأسد؟

أجاف - كلا! وا تعساه! أنه رأس ولدي بنثيوس!

قدموس - ومع ذلك فلم تذرف عليه عيناك عبرة واحدة قبل الآن!

أجاف - من قتله؟ وكيف انتقل رأسه إلى يدي؟!
قدموس - أيتها الحقيقة المرة! لقد أتيت في غير الأوان!
أجاف - تكلم! أن قلبي يخفق حتى ليكاد يثب من بين أضالعي!
قدموس - أنت يا ابنتي التي ذبحته. . . أنت وأخواتك!
أجاف - وأين! هنا؟ أم في أي مكان؟!
قدموس - هناك. . . حيث انقضت عليه كلاب أكتيون فمزقته إربًا!
أجاف - ولم ذهب إلى كيثارون ولدي التَّعس؟
قدموس - ذهب ليستهزئ بالإله! وليسخر بالسَّكارى من عابداته!
أجاف - ولكن كيف وفيم ذهابنا نحن إلى هناك؟
قدموس - لقد أصابك طائف من الجنون، وقد جُنّت المدينة كلها معك!
أجاف - وا أسفاه! لقد أهلكنا ديونيزوس؟ الآن عرفت ذلك!!
قدموس - هذا جزاء ما سخرتم به. . . لقد نسيتم أنه إله!!
أجاف - وأين جسمان ابني يا أبتاه!!
قدموس - هاهو ذاك. . . لقد لقيت العناء في جمعه!
أجاف - وهل كل أشلائه سليمة. . . و. . . هل أصابه ما كان قد أصابني؟
ثم تبكي ألام ولدها ويبكي قدموس حفيده، ويشتد في بكائه إياه لأنه سيظل بلا عقب ولا وارث لملكه ولن تكون له ذرية من الرجال. . . ثم يبدو الإله ديونيزوس فجأة فيصمت الجميع، ويأخذ رب الخمر في إصدار أحكامه وإبرام إرادته فينذر قدموس أنه سيمسخه فيكون تنيناً، وستكون زوجته هولة شائهة الوجه. أما أجاف فستكون هولة أيضاً وستنفى من طيبة إلى أقصى الأرض. . . فإذا تضرعت إليه أن يترفق بها ذكرها بما كان من استهزائها به وتهكمها عليه. . . ثم تودع أباها ووطنها وداعاً مؤثراً وتنطلق من فورها إلى منفاها السحيق!!
أما الإله فأنه يسمو صَعَداً في الهواء ليلحق بدولة الأولمب!!
فهل رأيت سخرية كهذه السخرية؟! لقد حشد يوريبيدز طائفة كبيرة من الطعن في أهل البربر في الباخوسية، كما لجأ كعادته إلى الإشادة بذكر الهيلانيين. . . وقد أقام في مقدونيا عاماً ونصف عام فيهما صفى الملك وحبيبه وصِدِّيقه. . . ثم مات يوريبيدز متأثراً بجراحه التي يزعمون أن كلاب الملك وكلاب المقدونيين أحدثتها به حينما انطلقت عليه تعقره وتعضه وتمزق جسمه؟!. . . فهل هي رواية صادقة؟! وهل بين هذه الرواية وبين ما طعن به على البربر علاقة ما؟ وهل المقدونيون من البربر؟ أم أن استخلاص الملك له وإيثاره إياه أثار في قلوب رجال الحاشية حسدهم له وموجد تهم عليه فأغروا كلابهم به؟!
لقد زعموا أن الملك وجد على يوريبيدز وجداً شديداً. . . وأنه رفض إرسال جثمانه إلى أثينا ليدفن هناك وقد ألح الأثينيون في طلبه وتوسلوا إلى ملك مقدونيا بشتى الوسائل، لكن الملك آثر أن يدفن صديقه بالقرب منه في (سنة 406).

دريني خشبة

رجعة إلى البحتري

للأستاذ عبد الرحمن شكري

أبدى لنا بعض الأدباء الأفاضل شكاً في وصفنا للبحتري من حيث غلبة الصناعة على العاطفة في شعره واختلاط الحقيقة بالخيال في تلك الصنعة مما جعل بعض القراء يغترون بها ويحسبونها عاطفة. ولم نكن نريد انتقاص البحتري إذ عددناه ممثلاً في صناعته، يمثل العواطف المختلفة تمثيلاً متقناً؛ ولم نُرَجِّح صحة رواية كتاب الأغاني عن طريقة إنشاده وعن طلبه الاستحسان من الحاضرين وزجرهم إذا لم يُظْهروا الإعجاب، إلا لأن ذلك يفسر تناقض ما يمثل من العواطف والأحاسيس في شعره، كما سنوضح، ويتفق وطريقة الصناعة اللفظية التي ينتشي فيها الصانع بما يقول، وقد أغفلنا الإشارة إلى ما يروى عن بخله إذ لا دخل لذلك بفنه، وكذلك أغفلنا ما روي عن قلة اكتراثه بثيابه ونظافته. . . الخ.
والحقيقة أننا نعجب بصناعة البحتري إعجاباً كبيراً، لكن الإعجاب لا يمنع من الوصف والدراسة النفسية والسيكولوجية. وربما أخذ علينا بعض حضرات الأفاضل قولنا أن رثاءه للمتوكل كان صنعة وإننا نشك في قوله: (أدافع عنه باليدين. . . الخ). وقد رفضنا

ما قرانا في بعض الكتب من رواية لعلها رواية عدو أو رواية مازح أراد أن يداعب قوله: (أدافع عنه باليدين الخ). فقد قيل أنه اختبأ أثناء مقتل المتوكل. ويكفي أن نقول أن الفتح ابن خاقان هو الذي حاول أن يدافع عن المتوكل بيديه وبجسمه فقتله الفاتكون وهو من زعماء الترك مثلهم، فما كانوا يتعففون إذا عن قتل البحتري إذا صح أنه دافع عنه باليدين أن لم يكن لغضب منه فلكي يصلوا إلى المتوكل. ولم نسأ أن نذكر أنه مدح المنتصر بعد أن هجاه في رثاء المتوكل، ومدح زعماء الفاتكين وعرَّض بهجاء المتوكل في مدحه للمنتصر كما سنوضح، ومدح المستعين الذي خلف المنتصر والذي كان منافساً للمعتز بن المتوكل الذي مدحه البحتري في رثائه للمتوكل ورجاه للخلافة، ومدح ابن المستعين ورجاه للملك أيضاً. كل ذلك والمعتز أسير حبيس، ثم بعد أن ثار الجند الترك على المستعين الخليفة واضطروه أن يخلع نفسه وفتكوا به هجاه البحتري بقوله:

وما كانت ثياب الملك تخشى ... جريرة بائلٍ فيهنَّ. . . ري

وكان الغدر والخيانة والانتقاص أموراً شائعة في ذلك العهد. وفي رثاء المتوكل يهجو المنتصر فيقول: (إذا الأخرق العجلان خيفت بوادره) ويقول:

ولا وأل (المشكوك فيه) ولا نجا ... من السيف ناضي السيف غدراً وشاهِرُهْ

وهذا يشمل المتهم بالتحريض غدراً وهو المنتصر ويشمل الذين شهروا السيف وقتلوا المتوكل وهم الذين مدحهم البحتري بعد ذلك. ورب قائل يقول: أن الشاعر لا دخل له بالسياسة فهو يمدح الحكومة القائمة. ولكن البحتري لم يكتف بمدح كل حكومة كانت قائمة بل كان يهجو الحكومة التي قُضِيَ عليها. وقد رأينا هجاه للمنتصر في رثائه للمتوكل فانظر كيف يمدحه ويقول:

سروا موجِفِين لسعي الصفا ... ورمي الجمار ومسح الحجر

حججنا البنية شكراً لِمَا ... حبانا به الله في المنتصر

أي أنه حج كي يشكر الله على أن المنتصر تولى الخلافة وهو الذي يصفه في المرثية بالأخرق العجلان ويرجو أن لا ينجو من أن يُقْتَل بالسيف لأنه متهم بالتحريض على قتل أبيه، ولم يكتف بالحج شكراً بل وصف المنتصر بالحلم بعد وصفه بالخرق فقال:

من الحِلْمِ عند انتقاض الحلو ... م والحزم عند انتقاض المرر

تَطَوَّل بالعدل لما قَضَى ... وأجمل في العفو لما قدر

ودام على خُلُقٍ واحد ... عظيم الغناء جليل الخطر

ويقول:

ولكنْ مُصَفىً كماء الغما ... م طابت أوائله والأخَر

تَلافَى البرية من فتنة ... أَظَلَّهُمُ ليلها المعتكر

رددت المظالم واسترجعت ... يداك الحقوق لمن قد قُهِر

وآل أبي طالب بعد ما ... أذيع بسربهم فابْذَعَرْ

وصلتَ شوابك أرحامهم ... وقد أوشك الحبل أن ينبتر

وهذا المدح طويل جيد، ولا يقل صناعة عن مدحه للمتوكل بل أن فيه تعريضاً بحكومة المتوكل وهجاءً له، إذ أن المتوكل هو الخليفة الذي غالى في اضطهاد آل أبي طالب. وقوله (رددت المظالم) هجاء صريح للحكومة السابقة، وقال:

بقيت إمام الهدى للهدى ... تُجَدِّدُ من نهجه ما دثر

فإذا كان الهدى قد دثر وجدده المنتصر فمعنى ذلك أن المتوكل هو الذي كان الهدى في عهده مندثراً.

وفي مدح العباس بن المستعين يقول:

تَوَلَّتْهُ القلوب وبايعته ... بإخلاص النصيحة والوداد

هو الملك الذي جُمِعَتْ عليه ... على قدر محبات العباد

بعد أن كان لا يرضى بعد المتوكل خليفة إلا بالمعتز ابنه، وقد قال في ذلك (وإني لأرجو أن تُرَدَّ أموركم الخ)

وفي مدح المستعين يقول:

تِلْو رسول الله في هَدْيِهِ ... وابن النجوم الزهر من آله

وهذا ليس مدحاً شكلياً لكل حكومة قائمة بل هو يُمَثِّل عاطفة الولاء الشديد والاقتناع بالصلاح وإلا ما قال (تلو رسول الله)

وبعد أن جعل المستعين مثل رسول الله عاد بعد تعذيب الجنود له وقتله فقال: (وما كانت ثياب الملك تخشى الخ) وقال أيضاً فيمن شبهه قبل ذلك برسول الله:

ثقيل على جنب الثريد مراقبٌ ... لشخص الخوان يبتدى فيواثبه
إذا ما احتشى من حاضر الزاد لم يبل ... أضاء شهاب الملك أو كلَّ ثاقبه
تخطّى إلى الأمر الذي ليس أهله ... فطوراً ينازيه وطوراً يشاغبه

وبعد قتل المعتز مدح أيضاً الحزب المناوئ له وخليفة ذلك الحزب وكان في مدح كل خليفة يذكر مدحاً يصح أن يحمل على محمل التعريض بالخليفة السابق الذي كان قد رفعه البحتري إلى السماء كما فعل مع المستعين

وهذه الخطة لم تكن خطته نحو الخلفاء والوزراء فَحَسْب، بل أنه أيضاً صنع النسيب والتشبيب في علوة الحلبية حتى ظن بعض النقاد أنه من أصدق النسيب وهو ليس كذلك، فهو في القصيدة الواحدة يصفها بالصيانة والتبذل فقال:

بيضاء رود الشباب قد غُمِستْ ... في خجل دائم يعصفرها
لا تبعث العُد تستعين به ... ولا تبيت الأوتار تخفرها

وبعد هذا الوصف بالتصون يقول في القصيدة نفسها:

وليلة الشك وهو ثالثنا ... كانت هناتٍ والله (يغفرها)

وعلى فرض صحة حدوث ما يستوجب (الغفران) أيليق ذكر ذلك في النسيب الذي يصفها بالتَّصوُّن؟ وأدهى من ذلك أنه عاد وهجاها أفحش هجاء بقول لا يتفق وما وصفها به من التصون وهو قول لا يمكن الاستشهاد به (صفحة 109 من طبعة الجوائب) وفيه أنكر عليها التصون والعفة والجمال والأنوثة. وقصته مع نسيم غلامه معروفة إذ كان يبيعه ويقبض ثمنه ثم يعود فيهدد الذي اشتراه حتى يرده إليه هدية كي يكسب المال. ونسيبه فيه نسيب ظاهره الرقة وباطنه فساد الذوق الذي يكون عندما تنعدم العاطفة وتُدَّعى تمثيلاً قال فيه:

فقل لنسيم الورد عنِّي فإنني ... أعاديك إجلالاً لوجه (نسيم)

ولو كانت عنده عاطفة لقال:

فقل لنسيم الورد أَقْبلْ فإنني ... أحبك مِنْ حبي لوجه نسيم

أو مِنْ حبي لطيب نسيم، أو ما شابه ذلك إذ لا يُعقَل أنه يكره الرائحة الزكية لأن نسيم الورد اسمه مثل اسم نسيم. ما بقى إلا أن يتغزل في الرائحة الكريهة إجلالاً لوجه نسيم كما يقول. وقال أيضاً فيه:

لم تجدْ مثل ما وجدتُ وما إن ... صفْت أن أنت لم تجد مثل وجدي

كيف يكون من الذوق والصدق أن يطلب من ذلك المملوك الصغير أن يعشقه ويحس بوجد مثل وجده به والبحتري شيخ كبير والمملوك غلام صغير؟ أظن أن هذه الشواهد كلها تزكي وصفنا للبحتري وكنا لا نريد الإطالة - وهو وصف على أي حال لا يطعن في علو صنعته.

فقد وصفنا في مقالة (صيانة العقيدة من احتيال النفوس) أن النفس البشرية تستطيع أن تخفى عن نفسها قبح رذائلها وأن تزكيها بأن تلبسها لباس الفضيلة أو الدين ومن نظراته الصادقة أيضاً قوله:

وما القرب في بعض المواطن للذي ... يرى الحزم إلا أن يشطّ ويَبْعُدَا

فقد يكون في البعد من الإبقاء على المودة ما لا يكون في القرب. وهذه النظرات الصادقة ليست قليلة في شعره بالرغم من فساد نظرته أحياناً. وأختم قولي عن البحتري بأن أعيد بيتاً له أعجب به وهو قوله:

ما أضعف الإنسان لولا همة ... في نُبْلهِ أو قوة في لبه

إذ يعجبني منه اختصاصه النبل بالهمة واللب بالقوة وجعل قوة الإنسان في همة نبله كما جعلها في قوة لبه

والغريب في أمر البحتري أنه قد يخطئ في المعنى إذا كان نسيباً ويصيب فيه إذا كان مدحاً كان الرُّغْبَ في قلبه أشد من الحب. انظر كيف فسد ذوقه في قوله في النسيب وقوله في مملوكه نسيم:

فقل (لنسيم الوَرْدِ) عنى فإنني ... أُعادِيك إجلالاً لوجه نسيم

ثم إلى قوله في المدح:

إني لأضمر (للربيع) محبة ... إذ كنتُ أَعْتَدُّ الربيع أخاكا
وأصابته في البيت الثاني كانت خليقة أن تجعله يقول في البيت الأول أنه يحب نسيم الورد لمشابهة الورد للنسيم، كما أحب الربيع لمشابهته للممدوح، ولكن له سقطات في وصف الأحاسيس وما تقتضيه من القول شان القائل بالصنعة لا بالعاطفة وأن كان أميراً لها. وأدهى مما ذكرنا أن عظيماً من بني حميد ماتت ابنته فحزن لموتها فنظم البحتري قصيدة يعزيه فيها فقال أن العاقل ينبغي ألا يحزن لموت أنثى أيَّة كانت لأنها قد تجلب العار:
واستذلّ الشيطان آدم في الج ... نة لَّما أغرى به حَوَّاء
والفتى مّنْ يرى القبور لَما طا ... ف به من بناته الأكفاء
نعم أنه يُعرِّض بمعنى العار ولا يصرح ولكنه تعريض كتصريح، ففي القصيدة يقول: أن أعاظم العرب ما كانوا يئدون بناتهن فقراً (بل حَمِيّةً وإباء) وذكر احتمال العار كي يعزي به أباً حزيناً على فقد ابنته، والمُعزَّى من أعاظم الناس والفتاة التي ماتت من كريمات النساء. فساد في ذوق الصانع حتى مع احتمال حدوث العار لو عاشت إذ يكون من فجاءات الحياة التي لا تتفق وكرم محتد التي يرثيها. هذا هو خطأ ذكاء الصنعة، أما إذا أسلم نفسه لذكاء الطبع والبصيرة النفسية (السيكولوجية) أتى بنظرات صادقة في النفوس والحياة مثل قوله:
إذا أحرجت ذا كرم تخطَّى ... إليك ببعض أخلاق اللئيم
واختياره كلمة اللئيم للكريم المُحْرَج ليس فيه مبالغة كما يعرف المفكر في أخلاق الناس، كما أنه ليس من المبالغة قوله في البخل أو اللؤم أو ما شابه ذلك:
وتماحكوا في البخل حتى خلته ... ديناً يدان به الإله ويُعبَدُ
عبد الرحمن شكري
في الأدب العربي الحديث
للدكتور إسماعيل أحمد أدهم
عنى الباحثون في الآداب العربية من الإفرنج في العصور الأخيرة باتجاهات الأدب العربي الحديث من سبل التحقيق العلمي ووسائل الدرس الفنية؛ وسرعان ما ظهرت عناية هؤلاء الباحثين في الدراسات والمباحث التي قاموا بنشرها في السنين الأخيرة في مختلف اللغات الأوربية عن الأدب العربي الحديث. وخير هذه الدراسات الفصول القيمة التي يكتبها المستشرق الألماني الكبير (كَارْلْ بُرُوكلْمان) في (ملحق تاريخ الآداب العربية) وقد صدر منها أخيراً جزان عن الشعر المصري في العصر الحديث. غير أن ساحة الآداب العربية الحديثة (رغم هذه الدراسات) لا تزال غير مطروقة في جميع نواحيها بالبحث، والنواحي التي طرقت منها لم تتعد دائرة رسم الاتجاهات العامة والخطوط الأساسية. لهذا كانت الحاجة ماسة لدراسات مستفيضة عن الأدب العربي الحديث من طرق التحليل العلمي وسبل التحقيق الذي درج عليه الباحثون في تاريخ الآداب ووسائل الدرس الفنية
وتحت تأثير هذه الحاجة ومعرفتنا للغة العربية التي حصلنا عليها لظروف عائلية بين تركيا ومصر اندفعنا إلى دراسة الأدب العربي الحديث في اتجاهاته وأعلامه في دراسات مفصلة، ظهرت آثارها فيما نشرناه منذ عام 1936 في اللغات الألمانية والروسية والتركية والإنجليزية والعربية. وكان أن رغب إليّ بعض الزملاء من أدباء العربية أن انشر دراساتي في اللغة العربية لفائدة الناطقين بها من جهة، ولإمكان استفادة كل الباحثين من المستعربين الإفرنج في آداب العرب من جهة أخرى، مما لا يتحقق فائدته على نفس الوجه في الكتابة في لغة من اللغات الإفرنجية التي قلمنا بها وتحت تأثير رغبة هؤلاء الزملاء وتشويقهم، لخصت جانباً من دراستي التحليلية التي كتبتها في الألمانية عن (شاعر العراق الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي) ونشرتها بالعربية كما ترجمت بحثي عن الأستاذ الدكتور (طه حسين) ومضيت أضع دراسة عن الأديب الكبير (توفيق الحكيم) صدرت في الشهر الفائت ثم انثنيت أدرس الأديب الشاعر (خليل مطران) وأضع دراسة مفصلة عنه، تكلفت بنشرها متتابعة مجلة (المقتطف) شيخة المجلات العربية. وحدث أن عرضت في الفصل الثالث من دراستي للطريقة التي

استحدثها خليل مطران في نظم الشعر، وتناولت بالكلام العام الأثر الذي تركه مطران بمحاولته التجديدية في جيل من الأدباء الذين نشأوا في عصره وقلت في معرض الكلام ما نصه:

على أن الأثر - أعني الأثر الذي استحدثه مطران - توضح واستبان في العقد الثاني) من قرننا هذا؛ إذ ظهر في مصر شاعران كبيران هما: أبو شادي وشكري. ثم ظهر في أواخر الحرب خليل شيبوب الذي ينفرد من بين كل المتأثرين باتجاهات مطران بأنه لا يزال إلى يومنا هذا أميناً للعناصر التي يقوم عليها مذهب الخليل في نظم شعره. وهو في ذلك عكس زميليه أبي شادي وشكري اللذين استقلا بمذهب لهما في قول الشعر مع الزمن، وأن كان مذهبهما يتقوَّم على أساس من مذهب الخليل، فعبد الرحمن شكري كان ذهابه لإنجلترا سبباً لوقوعه تحت تأثير المذهب الطبيعي الإنجليزي، وكان أن تغلبت عليه نزعة من التشاؤم نتيجة لعوامل تتصل بنفسه. فاستقل بمذهب في الشعر يقوم على أساس التأمل والتفكير الخصب الذي يماشي الشعور العميق الذي يشوبه مسحة من الكآبة. . .)

غير أن هذه السطور رغم ما تنطق من عظيم التقدير لأدب الشاعر الجليل (عبد الرحمن شكري) فإنها لم ترضه. فكتب في المقتطف وفي الرسالة، وعاود الكتابة فيها يناقش مطالعاتنا مقرراً براءة شعره من أثر مطران مبدياً التذمر من نسبتنا نزعة التشاؤم له، محملاً رأينا أنه وقع تحت تأثير المذهب الطبيعي الإنجليزي أكثر ما يحتمل!

وكان بودي أن أصحح الموقف عقب الكلمات الأولى التي كتبها الأديب الفاضل شكري، ولكني لست أملك من وقتي وصحتي ما يملكه هو حتى أبادر إلى التصحيح في حينه، فليعذرني لهذا وهو خير من يتفهم الأعذار.

وقبل كل شيء يستحسن أن أحدد نقطة الخلاف الأساسية. فأنا أقول أن خليل مطران استحدث في الأدب العربي أسلوباً جديداً في النظم يقوم على أساس قول الشعر باعتبار وحدة الشعور واطراد الخواطر وتسلسل المشاعر واتساق المعنى. وأظن أن الشاعر الفاضل عبد الرحمن شكري لا يختلف معي في هذه القضية. ثم إني أقول أن مطران أثر فيمن جاءوا بعده من الشعراء، وأقرر أن هذا التأثير بدا بصورة قوية عقب ظهور ديوانه عام 1908، وهذا التأثير يعترف به على شعره الدكتور أبو شادي والدكتور إبراهيم ناجي

كما يعترف بذلك الشاعر الفاضل خليل شيبوب. وهناك روايات مستفيضة ترددت نحو ثلاثين سنة في المجلات والصحف الأدبية في مصر وسوريا ولبنان والمهجر ناطقة بأثر مطران التوجيهي فيمن أتوا بعده من الشعراء المجددين فضلاً عن أثره في بعض معاصريه من شعراء العربية الأعلام، وهذه الروايات تحمل في تضاعيفها فكرة تأثر شكري بمطران، وهي حين تتكلم عن هذا الأثر لا تتكلم عن تأثير شكري بأخيلة مطران وعبارته، وإنما تتحدث عن تأثره بطريقة مطران في النظم: وحدة في الشعور واطراد في الخواطر وتسلسل في المشاعر واتساق في المعاني تترسل بضبط وتتمشى بإحكام في مختلف أجزاء القصيدة أو المنظومة

وإذاً يكون كل تفسير من شاعرنا الجليل يخرج الكلام عن حقيقته وإنكار للواقع لا نرضاه من أديب مثله.

هذا وأنا بصفتي مستعرباً - ويلاحظ هذا أديبنا المفضال جيداً - مهتم بدراسة الأدب العربي في اتجاهاته وتطوراته، ومناحيه، وفي أعلامه، أتخذ طريقة من البحث منهجية، أمزج فيه التحقيق بالافتراض، والاستقراء بالتخيل، فأتناول بعض الأشياء تناولاً - أو قل التحقيق في كل نوع غير مستطاع. لهذا اقف في بعض النقط من دراساتي عند مجمل الشيء دون أن انزل إلى تفاصيله تاركاً التفصيل والتحقيق لمواقف أخرى. ومن المعروف في الأساليب المنهجية أن طريقة الحدس في الدرس ترجع إلى مراجعة سريعة للمبادئ والانتقال دفعة واحدة منها إلى النتائج دون وقوف طويل ولا تحقيق مستفيض في الحلقات الوسطى. وأنا لم أخرج في بحثي عن تأثير شكري بمطران عن حكم هذا النهج؛ فكل المراجع تقرر أن شكري من المجددين كأقرانه تأثر بمطران.

وليس في استطاعتي مخالفتها إلا بتحقيق، لأن البحث عن مطران والتحقيق غير مستطاع. لهذا أخذت كلام المراجع قضية أولية في مثل هذا الموضوع الفرعي الذي لا يمكنني أن أستقصيه إلا وانزل لدقائقه وتفصيله، والبحث لا يستلزم مني كل هذا، ولكن

للتثبت من صحة هذه القضية الأولية اكتفيت أن انتقل إلى نتائجها الأخيرة، أتحقق من وحدة الطريقة عند مطران وشكري؛ ومراجعة سريعة لديوان مطران ودواوين شكري لا تضع مجالاً للشك في هذه الحقيقة. والفروق الممكن رؤيتها ترجع إلى الاختلاف في الشخصية والأصل الثابت في طبيعة كل
منهما كفردين تقوَّم كل منهما بشخصية أصيلة. وعند هذا الحد وقفت على أن أعود إلى الموضوع أحققه في تفاصيله ووقائعه فيما كنت أريد أن أكتبه عن شكري من دراسة.
على هذا الوجه تتضح المقدمات الأولية في بحثنا التي جعلتنا نقدر تأثير شكري بمطران. ويستبين من ذلك أنه ليس هنالك في فكرنا ما يتوهمه الشاعر الفاضل شكري من تقليل من شانه، وأنه لم يدر بخلدنا أن ننتقص من أمره في كلامنا؛ وأن بحثنا مستقيم من مناهج البحث القويمة، لا ضعف في التخرج ولا تهافت في الرأي ولا قصور في النظر إلى جوانب الموضوع كما راح يغمزنا ويغمز دراستنا الأديب الفاضل بقيت مسألة تتفرع من فكرة تأثير مطران في جيل من الأدباء الذين عاصروه أو جاءوا بعده. وهذه المسألة تقوم على أساس تفهم وجه التأثر؛ فقد يكون التأثر بشعر مطران، وقد يكون بالأثر الذي تركه مطران في المحيط الأدبي. أما عن الوجه الأول فذلك يكون إما باحتذاء مطران في طريقته كما هو الحال عند شيبوب، أو التأثر بالطلاقة الفنية عند مطران كما هو الحال عند أبي شادي، أو التأثر بجو شعر مطران وأخيلته كما هو الحال مع إبراهيم ناجي. وهذه الحالات كلها وأن تباينت فيما بينها، إلا أنه يجمعها شيء واحد هو التأثر المباشر بشعر مطران. أما عن الوجه الثاني فبيان ذلك في مجاراة النسق الجديد الذي أتى به مطران؛ نزولاً على أحكام الجو الأدبي والبيئة الفنية التي تطعمت بمحاولات الخليل التجديدية. ومثل هذا واضح في محاولات أحمد شوقي في إقامة طرز جديد من الشعر في الفترة التي جاءت عقب الحرب العظمى. ولا يعترض علينا بأن الحاجة كانت ماسة لهذه الضروب من الشعر نزولاً على أوضاع الحياة الجديدة التي دلف إليها المجتمع الشرقي. لأن روح التردد والإحجام عن استحداث مثل هذا الحدث كان يسود المجتمع. فضلاً عن أن الشخصية التي تتقوَّم بأوضاع الحياة الجديدة على وجهها الجديد وتماشي حاجة العصر لم تكن وجدت، لأن الجميع كانوا تحت تأثير سريان الشعر القديم. ولا شك أن العصر من حيث أدرك نفسه في شخص مطران الرائد الأول لحركة التجديد في ميدان الشعر في الأدب العربي، حمّل الجو الأدبي لوناً وجعله يتطعم بصورة جديدة: تلك التي تطالعنا من حركة الجديد اليوم
ولا شك عندي في أن حذق الخليل وتحايله على جمود عصره هو الذي مكن أقدام الشعر
الجديد. عناية مطران بأن يكسو شعره ديباجة عربية خالصة، واتخاذه الأغراض الاجتماعية التي تدور عليها الحياة في عصره، هي التي جعلت الناس تتشرب الجديد ولا ترى غضاضة في تذوق أخيلته ومعانيه المستحدثة. والحق يجب أن يقال أنه لولا مطران لما كان لنا أن نرى اليوم تلك المحاولات التي قام بها الشعراء المجددون من شعراء الثقافة الحديثة في مصر
وعلى هذا لنا أن نفهم مناحي تأثير مطران في جيل من الأدباء الذين عاصروه والذين أتوا من بعده ولحقوه. وعلينا لكي ننصف التاريخ الأدبي أن نقدر كل ذلك، وفي ضوئه نصدر أحكامنا وندلي بمطالعاتنا عن الأدب العربي الحديث
وقد حاول الشاعر الفاضل عبد الرحمن شكري في مقاله بالمقتطف أن يخرج بالموضوع عن دائرته الحقيقية إلى بحث في العوامل التي أثرت في نفسه فقومت شخصيته على النمط الذي يظهر في مطالعة شعره. ولست براغب في نقاشه في المسائل التي ذكرها، لأنها من أمس الأشياء بذاته وشخصه، والإخلاص الأدبي يضطرنا إلى تصديقه فيها. ولكن كل الذي أرغب أن أقدره هنا أنه كشف بما كتب عن العوامل التي أثرت في نفسه فجعلته يميل لقرض الشعر؛ إلا أنها لا تبين الأدوار التي مر بها حتى قومته على النمط الجديد الذي يظهر من مطالعة شعره في الدواوين الأخيرة، وفي بعض الأجزاء من روايته الأولى، ولا شك أن شاعرنا لا يعتقد أن شخصيته الأدبية وضحت واستقامت من الأدب القديم بدون أن يكون للجديد أثر عليه. فصحيح أن الأستاذ شكري تأثر بشعراء الصنعة العباسية وبشعر العرب القديم وبشعر البارودي

في الطور الأول من حياته الأدبية، وذلك على الوجه الذي أشار إليه في مقاله الأخير بالمقتطف؛ على أن ما استقامت به شخصيته من نمط جديد لا أظنه ينكره، وهذا النمط هو الذي يعنيني ويعني كل باحث في تصرف شاعريته

ونحن نعتقد أن في إمكانه أن يخرج المسألة تخريجاً يوافق دعواه التي يدّعيها، ويقول أن ما ظهر به من نمط جديد إنما يرجع لارتياضه في دواوين الشعر الأوربي، ولكن لكي نصحح هذه القضية يجب على شاعرنا أن يثبت عدم تأثره بمطران في الوجهين المباشر وغير المباشر. وهو يستطيع أن يزعم أنه لم يقرأ مطران وأنه لم يتأثره؛ ولكن لا أظن أن في إمكانه أن ينفي عن نفسه تأثره بالجو الذي استحدثه الخليل في الحياة الأدبية

في إمكان شاعرنا الفاضل أن ينفي بصيغة البات، ولكنه لا يقنع بذلك أحداً من الذين تقومت لهم شخصية في دراسات التاريخ الأدبي

وأظن أنني بهذا المقال أوضحت الموقف وأجليت الفكرة دون نكران للواقع أو انتقاص لمكانة شاعرنا الجليل عبد الرحمن شكري في عالم الأدب الحديث. وليطمئن الأستاذ فإني في طليعة المعجبين بشعره والعناصر الأدبية والفنية الطيبة التي يتميز بها شعره، وعبارتي في المقتطف عنه ناطقة بهذا الإعجاب: (شعر يقوم على أساس التأمل العميق والتفكير الخصب الذي يماشي الشعور العميق). أما حديث التفاؤل والتشاؤم فله مقال آخر.

(أبو قير)

إسماعيل أحمد أدهم

المدرسة الابتدائية وتعليم اللغة الأجنبية

للأستاذ عبد الحميد فهمي مطر

ورد في تقرير اللجنة التي شكلت بوزارة المعارف برياسة سعادة الوكيل المساعد لدراسة هذا الموضوع ما يأتي:

(تكاد تجمع نظم التعليم بالبلاد الأجنبية على أن ليس من المصلحة أن يبدأ الطفل تعلم لغة أجنبية قبل أن يلم إلماماً كافياً بلغته القومية وقبل أن تتسع مداركه لاستيعاب تلك اللغة الأجنبية

ويرجع هذا الإجماع إلى أن المسؤولين عن تربية الطفل يرون أن في التبكير بتعليمه لغة أجنبية إرهاقاً له وإضعافاً للغته الأصلية، وأن تعليمه اللغتين في وقت واحد يؤدي إلى عدم تمكنه من إحداهما. وهذا أن وافق دولة ما فالأحرى به أن يكون أكثر موافقة لمصر التي يختلف فيها تعلم اللغة الأصلية عن غيرها من الدول، وذلك لأن لغة الكتابة هنا غير لغة الكلام مما يجعل العبء أثقل على كاهل التلميذ المصري)

وورد في تقرير المستر مان الخبير الفني الذي رفعه إلى وزارة المعارف منذ أكثر من عشر سنوات بصفحة 94 ما يأتي:

(ان العبء الثقيل الذي تضعه هذه المحاولة اللغوية الغريبة على كاهل الصبي المصري تتجلى لنا شدة وطأته بوجه خاص إذا راعينا ما بين نشوء الفكر في الذهن والتعبير عنه بالكلام من الاتصال الوثيق، لأن من الصعب كما لا يخفى إدراك ما إذا كان في الإمكان أن يوجد أحد هذين الأمرين مستقلاً عن الآخر. وعلى أية حال فإن من المؤكد أن توقيف تيار الفكر في الصبي بتكليفه التعبير عنه بوساطة لغة أجنبية لا بد من أن يعوق نمو ملكة التفكير فيه. وهناك ما يجعلني أعتقد أن الوسط الذي تنشر فيه لغتان من شانه أن يؤخر نمو القوى المدركة في الأفراد الذين يعيشون فيها حتى ولو كانت هاتان اللغتان حيتين وشائعتي الاستعمال، وعلى ذلك فإن بيئة الصبي المصري الدراسية التي تتغالب فيها لغتان إحداهما ميتة لا بد من أن يكون أكثر تعويقاً لنمو مداركه من الوسط انف الذكر. فبدلاً من أن تكون المراحل الأولى من تعليمه أطوار نمو طبيعية يكاد لا يشعر بها فأنه يراها شاقة إذ أنه لا يقضيها أحياناً إلا في الكدح في تحصيل قواعد كلامية)

وقال هنري سويت في كتابه: (دراسة اللغات العملية) ما يأتي:

(بما أن اللغات ليست عقلية إلا في بعض عناصرها فإن تحصيلها لا بد أن يكون إلى حد كبير بطريقة آلية، والدراسة الآلية لا تحتاج إلى عقل مبتكر ولا إلى ملكة ممحصة ناقدة)

ومنذ سنوات طويلة نبهنا الخبيران الفنيّان: مان وكلاباريد إلى النقص المخيف في تكوين شبابنا وتنمية عقولهم في نواح متعددة أهمها في ملكات الابتكار والنقد والتفكير. وجاء في هذا العام مكتب تخديم الشبان بوزارة المالية فأثبت لنا ذلك النقص عن طريق الشركات التجارية والصناعية التي أقدمت على استخدام بعضهم فظهر لها عجزهم في كثير من الأمور. ولست أشك لحظة في أن سبباً هامّاً من أسباب هذا النقص يرجع إلى دراسة اللغات الآلية التي نركز فيها همنا وهم الطفل منذ أول اتصاله بالمدرسة من غير أن نفسح مجالاً ما لظهور تلك الملكات الضرورية وإنمائها! ويكفي أن ندلل على ذلك بأن الطفل بمجرد التحاقه بالمدرسة الابتدائية يصطدم بتخصيص 21 درساً من 38 درساً أسبوعيّاً لدراسة اللغتين العربية والإنجليزية أي بمعدل 46 في المائة تقريباً من وقته الدراسي، وهذا الوقت موزع بمعدل 9 دروس للغة الإنجليزية و 12 للغة العربية؛ أي بنسبة 24 في المائة للغة الإنجليزية و 32 في المائة للغة العربية. فأين تجد المدرسة وقتاً (بعد صرف هذا الوقت كله) للبحث عن ملكات التلميذ الضرورية وتشجيعها وإنمائها والعمل على تكوينه التكوين الصحيح الملائم؟

فإلغاء اللغة الأجنبية من المدرسة الابتدائية إذن يرفع عن كاهل الطفل المصري المبتدئ في التعليم عبئاً ثقيلاً ينوء به، شهد بوجوده العلماء والخبراء وأحس بثقله الكثيرون من رجال التربية والتعليم في مصر، وأقرت بقيامه اللجنة الرسمية التي درست هذا الموضوع. وإلغاء اللغة الأجنبية من المدرسة الابتدائية يمكن المدرسة من إصلاح حالها في مواطن متعددة لأنه يعطيها فرصة واسعة للعمل مع زيادة تثقيف أبنائها في شتى النواحي القومية والخلقية، كما أنه يساعدها على اتباع أصول التربية وقواعدها المهملة إلى اليوم بين جدرانها. إذ المدرسة في جميع بلاد العالم لا تقف عند واجب التعليم فقط كما هو الحال عندنا، ولكنها تتعدى ذلك إلى أمور تتصل بحياة الطفل وبمستقبله اتصالاً وثيقاً وتؤثر في نفسيته وتكوينه تأثيراً عميقاً يجعل المدرسة الحديثة تنكر نفسها إذا هي أهملتها أو أنقصت من أهميتها. فلقد أصبحت دراسة ميول كل تلميذ على حدة وتوجيهه وتشجيع مختلف الملكات فيه بمجرد ظهورها والعمل الدائم على إنمائها - أموراً لا يمكن للمدرسة الحديثة أن تحيا بغيرها! والمدرسة المصرية الحالية مع الأسف العميق لا تعني بشيء منها! ولا يمكن أن تعنى بشيء منها ما دام 56 في المائة من وقتها ضائعاً في الدراسة النظرية استعداداً للامتحانات!

هذا ولا يذهبن الظن ببعضنا إلى أن إلغاء اللغة الأجنبية من المدرسة الابتدائية يضعف حالة هذه اللغة في المدارس الثانوية أو يقلل من أهميتها، فالأدلة المحسوسة كثيرة على أن هذا العمل يرفع من قيمة هذه اللغة ويقوي مركزها في التعليم الثانوي والمتوسط التجاري بصفة خاصة ويجعل الاهتمام بها أكبر وأعظم لأن التلميذ الذي انتهى من التعليم الابتدائي حيث تكون تكويناً ملائماً يأتي إلى المرحلة التالية مليئاً بالحيوية والنشاط متجها اتجاهاً جديداً تدفعه جدته إلى الحماس في الأخذ به. ثم أن القوة في دراسة لغة من اللغات لا تتوقف فقط على طول المدة التي يقضيها الطالب في دراستها لأن هذه المدة عامل ثانوي بجانب الطريقة نفسها التي تتبع في تدريسها وبجانب حماس المعلم وقدرته. وهي أمور إذا أحسنت واستكملت أسبابها دفعت بالطالب دفعاً إلى الاطلاع والقراءة وهي الغاية القصوى التي يجب أن يسعى إليها المعلم والمدرسة معاً. ولا نستدل على ذلك بأكثر ما نراه رأى العين في مدارسنا اليوم إذ نرى مستوى طلاب البكالوريا في اللغة الفرنسية لا يقل كثيراً عن مستواهم في اللغة الإنجليزية بل قد يزيد أحياناً مع انهم أنفقوا طوال أربع سنوات بالمدارس الابتدائية في دراسة اللغة الإنجليزية من غير أن يدرسوا كلمة واحدة في اللغة الفرنسية، ثم أخذوا يدرسون اللغة الإنجليزية طوال مدة التعليم الثانوي بمعدل تسعة أو ثمانية دروس في الأسبوع في نفس الوقت الذي لا يدرسون اللغة الفرنسية إلا بمعدل أربعة دروس في الأسبوع فقط في مرحلة التعليم الثانوي وحدها، فماذا يقول أنصار إعطاء مدد طويل لتعليم اللغات بعد هذا الدليل المادي القوي؟ فإذا رجعنا ببصرنا بعد ذلك إلى الماضي وجدنا عجباً، وجدنا أن معظم وزرائنا ومستشارينا وقضاتنا الذين تعلموا على النظم القديم ولم يدرسوا اللغة الفرنسية إلا في السنتين الأخيرتين

من التعليم الثانوي استطاعوا بعدها أن يدرسوا مواد العلوم المختلفة في مدرسة الحقوق باللغة الفرنسية وأن ينبغ الكثيرون منهم
فيها
فهل يصح بعد كل هذا أن نخشى على اللغة الإنجليزية إذا نحن أخرنا البدء بدراستها إلى ما بعد مرحلة التعليم الابتدائي؟ لا شك في أنه لا خوف عليها مطلقاً إذا ألغيناها من التعليم الابتدائي كم أنه لا خوف على اللغة الفرنسية إذا أجلنا البدء بتعليمها إلى ما بعد سنتين من مرحلة التعليم الثانوي
وفوق هذا وذاك فإنا نعلم أن الطريقة المتبعة في تعليم اللغة الإنجليزية بالمدرسة الابتدائية الآن هي نفس الطريقة المتبعة في تعليمها بالمدرسة الثانوية وهي يقف الأمر عند ذلك بل نجد أن الكتب التي يدرسها التلميذ في المدرسة الابتدائية يعيد دراستها هي نفسها في المراحل الأولى من المدرسة الثانوية، وفي هذا اعتراف رسمي عملي بعدم أهمية دراسة اللغة الإنجليزية بالمرحلة الأولى وبان الطالب إنما يبدأ بتعلمها فعلاً بمرحلة التعليم الثانوي
أما ما نستفيده عملياً من تعليم اللغة الأجنبية في المدرسة الابتدائية فيتبين بصفحة 238، من مؤلفي (التعليم والمتعطلون في مصر) إذ قد ورد فيه (أما النتيجة العملية التي يستفيدها الطلاب، وتستفيدها البلاد من تعليم اللغة الإنجليزية في المدارس الابتدائية فتبين من الإحصائية التي تنتقل بناجحي الشهادة الابتدائية إلى البكالوريا حيث ينتظر أن يفيدوا أو يستفيدوا من تعلم اللغة الأجنبية. وهنا أوردنا إحصائية يتبين منها النسبة المئوية لناجحي البكالوريا إلى ناجحي الابتدائية في عدة سنين تقع بين 17 و 26 في المائة. ثم قلنا: (فإذا علمنا أن نحو ثلثي الناجحين في الابتدائية يقفون عند هذا الحد من التعليم وأن ناجحي البكالوريا لا يتمكنون جميعاً من الالتحاق بالجامعة، وأن الكثيرين منهم يرسبون بعد ذلك خلال مرحلة التعليم الجامعي، وإذا علمنا أن الطالب كان يتعلم اللغة الإنجليزية إما للوصول إلى التعليم العالي أو التفاهم بها مع الموظفين الإنجليز العديدين الذين كانوا يملئون دواوين الحكومة عند توظفه. وقد زال هذا السبب الآن واقتصر في تعلم اللغة على الغرض الأول وهو البحث العلمي والاتصال بالآراء الحديثة، عرفنا مقدار التضحيات الجسام التي تضحي بها مصر الآن من مجهودات أبنائها ومن أموالها علاوة على إرهاق الطلبة في سبيل توصيل عدد ضئيل من أولئك الأبناء إلى التعليم الجامعي للانتفاع بتلك اللغة)
بعد هذا كله لا نرى أمامنا غير طريق واحد للسير بالتعليم قدماً نحو الديمقراطية الحقة ونحو النظم التعليمية والاجتماعية السليمة ونحو مصلحة مصر وشعبها وذلك بإلغاء اللغة الأجنبية من المدرسة الابتدائية إلغاء تاماً وإدماجها مع غيرها من مدارس الأطفال في مدارس شعبية موحدة
عبد الحميد فهمي مطر
على هامش الفلسفة
طريقة الأخلاق أيضاً
للأستاذ محمد يوسف موسى
رأينا عدم غناء الطريقة الاستنتاجية في الوصول إلى مُثُل عليا مرضية من الجميع؛ وهذا ما دفع فريقاً من الفلاسفة للتوجه وجهة أخرى في تعرف الخير والشر والحسن والقبيح؛ هذه الوجهة هي الحاسة الأخلاقية أو الملهمة، حاسة المعرفة المباشرة التي لا تحتاج لنظر واستدلال، بل يكفي أن نلجأ إليها لتهدينا سواء السبيل
هذه رسالة كل فلاسفة أخلاق العاطفة تقريباً كرجال المدرسة الإنجليزية والايكوسية في القرن الثامن عشر أمثال: شافِتسْبِرِى، وهَتْشون، وآدم سْمِيثْ. ثم جان جاك روسو الفيلسوف والكاتب الفرنسي المعروف، وشارل جُوسْتَافْ جَاكُوبِي العالم الرياضي الألماني الذي عاش في القرن التاسع عشر
مثلاً يرى أن هذه الحاسة تميز الخير من الشر كما تميز العين الألوان، (هتشون) وتجعل المرء يحس مسرات وآلاماً معنوية خاصة هي نتيجة ما يعمل من خير وشر. و (روسّو) يرى فيها، وبعبارة أخرى يرى في الضمير لأنهما اسمان لمسمى واحد، القوة التي تلهمنا القانون الأخلاقي. تراه يناجيه مناجاة خالدة يقول فيها: (أيها الضمير، أيتها القوة الفطرية الخالدة، أيها الصوت السماوي، أيها القائد الأمين للإنسان الجاهل

المحدود - وأن كان ذكيّاً - حراً في إرادته، أيها القاضي الذي لا يضل في تمييز الخير من الشر. . . أنه أنت أشرف جزء في طبيعته، وأنك الفضيلة في أعماله. بدونك لا أشعر بما يرفعني عن الحيوانات ما عدا الميزة التي تجعلني أضل في ميدان الأخطاء، وهي أداة الفهم التي لا قاعدة لها، والعقل بدون مبادئ يسير عليها). أما (جاكوبي) فيقول: (ما هو الخير؟ كل امرئ يملك في قلبه إلهاماً مباشراً به قوة إلهامية تبينه له) هذا الفهم؛ هذه الطريقة في تعرف القانون الأخلاقي يستحق ما وجّه له من نقد شديد من كبار المفكرين وخاصة الأستاذ العلامة (ليفي بْرِهْلِ مؤلفه القيم (الأخلاق وعلم العادات) حين يقول: (هذا المذهب يفترض أن الطبيعة الإنسانية هي واحدة في نفسها لا يعتورها التغير في جميع الأزمان والبيئات، وأن محتوى الضمير الأخلاقي يكون مجموعاً منسجماً

منظماً، ولكنا علمنا سابقاً كيف كان اختلاف الأفكار الأخلاقية شديداً حسب العصور المتعاقبة، وكيف اختلف وتختلف أيضاً الآراء الأخلاقية باختلاف الأمم والشعوب. كيف كان من الممكن إذاً - لو أن هذا المذهب صحيح - أن توحي هذه الحاسة التي لا تضل كما يقولون هذه المبادئ المختلفة أشد الاختلاف بل المتناقضة في بعض الحالات! ثم إننا نحس أحياناً كثيرة تنازعاً وخصومة مؤلمة حادة في ضمائرنا حتى ليكون أسهل على المرء أن يعمل واجبه متى تبين له من أن يعرف بوساطة هذه الحاسة أنه من المستحيل أن يحدّ المرء نفسه بكتابة الأخلاق تحت إملاء الضمير، وإذاً فلننتقل إلى بحث الطريقة الأخيرة لمعرفة المثل الأعلى الأخلاقي، وهي طريقة الاستقراء، علّنا نصل إلى تحديده على نحو مقنع مرض للجميع

يرى فلاسفة مذهب اللذة الشخصية أمثال (أرِيستيبْ و (أبيقور اللذين عاشا في القرن الرابع قبل الميلاد، أن الناس جميعاً يتطلبون اللذة في كل ما يعملون كما يفرون من الألم دائماً، على اختلاف بينهم فيما يعنون باللذة وفي تطبيق هذه القاعدة التي هداهم إليها استقراء ما فطر عليه الناس من طباع. كذلك ترى بعض فلاسفة الأخلاق المحدثين يصدرون عن هذا المذهب. هاهو ذا (جرمي بنتام) الفيلسوف الإنجليزي المعروف في القرن الثامن عشر يؤكد بعد استقراء طويل أن جميع الناس تبعثهم المنفعة أو السعادة على أعمالهم حتى في الحالة التي يضحون فيها بعض المنافع أو يقبلون شيئاً من الآلام، لأن ذلك معناه تطلب منفعة أكبر وأفضل. إلا أنه يضيف إلى هذا تأكيداً آخر هو أن اللذة تكبر وتتسع حتى تشمل أكبر عدد ممكن من الناس، وأن سعادة كل امرئ لا تنفصل عن سعادة الجميع. من أجل هذا يجب على الإنسان باسم سعادته أو منفعته الخاصة أن يبحث في أعماله عن (أكبر مقدار من السعادة لأكبر عدد ممكن). وفي القرن التاسع عشر نجد (سْتيوارتْ ميل) يبدأ بحثه بأن جميع الناس يبحثون عن السعادة، فيرى لهذا أن تكون الغاية الإنسانية والمثل الأعلى الأخلاقي هي (السعادة النبيلة التي تأتي من اللذائذ العالية، مثل لذة التضحية في سبيل إسعاد الغير والإنسانية).

حقاً هذا كله مقنع مرض في نتائجه إلى حد ما، وحقائق نفسية لا شك فيها. ولكن بأي طريق وصلوا إليها؟ هانحن أولاء نقبل مؤقتاً فكرة أن جميع الناس يبحثون ويجرون وراء

لذاتهم أو منافعهم أو سعاداتهم، غير أننا أن وقفنا عند هذا التحقيق الاستقرائي يقينا دون مستوى الأخلاق التي تبحث فيما يجب أن يكون لا فيما هو كائن بالفعل. وأن أردنا من المرء أن يوازن ويختار بين هذه اللذائذ الخاصة أو العامة أو بين هذه الوسائل والأعمال التي تؤدي اليها، تدخل حقيقة في مملكة الأخلاق ولكن في الحين نفسه تترك مملكة التجارب والاستقراء!

فضلاً عن هذا فأخلاق المنفعة العامة تصطدم بهذا الاعتراض الذي لا محيص منه وهو أننا في عديد من الحالات نجد تعارضاً بين المنفعة الخاصة والمنفعة العامة؛ منفعتي أن يقتتل الناس للدفاع عن حقوقي ووطني وألا أخاطر بنفسي بالدفاع عنهم، وصالحي الخاص أن يكون مال الغير على حبل الذراع حتى انتفع به كما أريد، وأن أقبض يدي وأحفظ مالي فلا أساعد به سواي. وإذاً في مثل هذه المنازعات بين المنفعتين أرى أن أخلاق (مِيلْ) التي تدعو للإيثار تدعوني لجعل منفعتي تابعة للمصلحة العامة ولتضحية تلك في سبيل هذه متى تطلب الأمر التضحية. ولكن كيف يمكن قبول هذه التضحية أي

تضحية المنفعة الخاصة في سبيل العامة مع ما سبق أن قرروه من أن جميع الناس يجرون وراء لذاتهم ومنافعهم الخاصة! أليس من التحايل المفضوح أن نضع تحت عنوان أخلاق المنفعة الخاصة أخلاقاً هي الإيثار الصريح؟

ان من التعسف بل من المستحيل أن نأخذ من التأكيد الذي سبق تقريره وهو أن الناس يبحثون وراء لذاتهم أو سعاداتهم انهم يجب أن يختاروا بين مختلف هذه اللذائذ والسعادات وأن يضحوا باللذات الدون التي مرجعها إرضاء عاطفة الأثرة في سبيل الحصول على لذة من نوع أسمى وأعلى يحسها المرء من التضحية في سبيل سعادة الآخرين! ذلك التأكيد الاستقرائي وهذا الاختيار الواجب أخلاقياً طرفان لا يلتقيان على رأي (باسكال).

وأخيراً فكل المذاهب الأخلاقية التي تدخل فيها تجارب الحياة واستقراء ما فيها من البواعث والغايات تتحطم أمام هذه الحقيقة، وهي أن الاستقراء يعرفنا ما كان، بينما تقول لنا الأخلاق ما يجب أن يكون.

هناك بعض الاجتماعيين الأقرب عهداً من سابقيهم عرضوا ضرباً آخر من الأخلاق الاستقرائية، هو أن الأخلاق ترجع أولاً إلى علم العادات الذي مرجعه استقراء التاريخ وملاحظة الحاضر، يتداخل فيها فن عقلي ينظر في الظواهر الاجتماعية والأخلاقية لتعديل ما يجب تعديله منها. هذا هو المذهب الذي عرضه الأستاذ البحاثة (ليفي برهل) في كتابه الآنف الذكر: (الأخلاق وعلم العادات). الأخلاق أعنى مجموع الواجبات التي تفرض على الضمير، لا تستند إلى مبادئ نظرية قامت عليها. إنها عمل، إنها حقيقة؛ عمل اجتماعي، وحقيقة اجتماعية كذلك؟ (إننا لا نعمل أخلاق شعب أو أخلاق تمدن لأنها عملت سابقاً)

إنه بلا شك قد يحصل أن يعارض المرء الحقيقة الأخلاقية بمثل أخلاقي أعلى وصل إليه بالنظر. ولكن هذا البحاثة يجيب عن هذا بقوله: (في الواقع ليس هذا المثل إلا ظهوراً في غير آنه مع بعض التغيير لحقيقة اجتماعية في ماض بعيد أو مستقبل ليس أقل منه بعداً؛ وهذا يكون بالدقة بعض الشيء من هذه الحقيقة التي يجعلونه معارضاً لها).

هذا ملخص ما يراه هذا العالم. فما الرأي فيه؟ موعدنا في بيان ذلك الكلمة الآتية وهي تمام هذه البحوث إن شاء الله تعالى.

محمد يوسف موسى
المدرس بكلية أصول الدين

التاريخ في سير أبطاله

أحمد عرابي

(أما آن للتاريخ أن ينصف هذا المصري الفلاح وأن يحدد له مكانه بين قواد حركتنا القومية؟)

للأستاذ محمود الخفيف

ولندع الآن عرابياً في رأس الوادي ولننظر ماذا كان من أمر شريف ووزارة شريف.

وهنا أبادر إلى القول إن هذه المرحلة من تاريخ مصر كانت أهم المراحل الماضية جميعاً منذ الحملة الفرنسية وأدقها وأبعدها أثراً فيما هي مقبلة عليه بعدها من مراحل.

ظن الناس أن قد انجلت الغاشية على نحو ما صور المستر بلنت ولكنهم لم يكونوا يعلمون أو لم يكن يعلم إلا الأقلون منهم أن وراء هذا الصفو كدراً، وأن سماء السياسة كانت يومئذ كسماء الطبيعة صفت هنيهة لتتلبد بعدها بالسحب المركومة، ولتتلاقى في جوانبها غرابيب سود من الغربان الناعبة فتكون حلكتها وطيوفها بعد هذا الصفة أقبح ما تكون منظراً وأشد ما تكون إيلاماً للنفوس وإزعاجاً للخواطر.

وكيف كان يرجى دوام الصفاء وقد كانت الشباك منصوبة وقد أخذ الصائدون يدفعون الفريسة إليها دفعاً بعد أن أعياهم الأمر فلم يستطيعوا أن يأخذوها بالحيلة أو أن يعصبوا عينيها كما كانوا من قبل يفعلون؟

كيف كان يرجى الصفاء وقد كان الخديو يضمر عكس ما يظهر كأن لم يكفه ما أصاب البلاد من جراء سياسته وتنكره للحركة الوطنية وإيجاده بما فعل الثغرة التي كان ينفذ منها الدخلاء والمتربصون بمصر إلى صميم حركتها وقلب نهضتها؟

وما أشبه توفيقاً في ذلك الموقف، بل وفي معظم مواقفه كما أسلفنا بلويس السادس عشر، ذلك الملك الطيب القلب الذي كان يدفع الثورة في بلاده بمسلكه دفعاً، والذي

يعزى إلى سياسته الملتوية المذبذبة أن تنكبت تلك الثورة منهاجها السلمي العاقل واندفعت في طريق جرت فيها الدماء وتطايرت على جانبيها الأشلاء
ظهر ذلك الملك للنواب أول الأمر في جلد الأسد، ثم استخدى بعد وثبة ميرابو، ولكن الشائعات طافت بأهل باريس أن الملك أخذ يستعد ويجمع حوله الجند، فما لبثت أن جرت الدماء في باريس ودك الناس الباستيل رمز العبودية والجبروت؛ ثم رأى أهل باريس بين الدهشة من الملك والزراية عليه والتهزئ به أنه يركب في جماعة من النواب كان في مقدمتهم ميرابو فيزور باريس ويطوف بأنحائها ويمر بخرائب الباستيل مظهراً عطفه على الثورة والثوار، ولكنه يعود بعد ذلك فيأتي من معاني التحدي والنزق ما يجعل الشعب يذهب فيقتحم عليه غرف قصره في فرساي ويعود إلى باريس ليكون رهينة فيها، ويتم الدستور فيرفع إليه فيوافق عليه ولكن ريثما يعد العدة للهرب، ثم يضبط المسكين وقد أوشك أن يجتاز الحدود فيقضي هذا العمل عليه وتمضي الثورة في طريقها مجنونة لا تلوي على شيء حتى تأكل آخر الأمر نفسها
ولقد كان توفيق يسلك تجاه الثورة العرابية مسلك لويس تجاه الثورة الفرنسية مع فارق واحد وهو أن الخديو، كان من ورائه الإنجليز فلما لجأ إليهم توفيق كما هرب لويس لم يقض هذا العمل عليه وإنما قضى على البلاد
تخلص توفيق من رياض وقد كان يسعى إلى التخلص منه، فكيف أراد أن يسلك شريف مسلك رياض ولقد كان الفرق بين الرجلين هو الفرق بين الاستبداد والديمقراطية؟
لقد عادت الظروف من جديد تبين للخديو بأجلى وضوح أن الطريق الوحيدة هي الانضمام إلى الحركة الوطنية ومشايعتها في صدق وإخلاص، ففي ذلك منجاته من تطرف هذه الحركة وجموحها، وفي ذلك منجاة البلاد من تدخل الأجانب باسم المحافظة على عرش الخديو، ثم من احتلال البلاد باسم القضاء على الفتن والقلاقل ولكن الخديو تنكب هذه الطريق فدفع تيار الثورة بمسلكه هذا كما كان لويس يدفع تيار الثورة في بلاده. ولقد رأينا كيف آنس الثوار في أنفسهم القوة منذ انضم العساكر إلى الحركة، وكيف فهم الزعماء انهم حصلوا على ما حصلوا عليه عن طريق الإرهاب والقوة، بعد أن عجزوا عن ذلك عن طريق المسالمة والرجاء
ومن عجيب الأمور انه لما انتهت الثورة إلى ما انتهت إليه حمل زعماؤها كل أوزارها وخرج عرابي المسكين بالنصيب الأوفى من هذه الأوزار؛ مع أن الحوادث تثبت عكس ذلك، وهي لو درست على حقيقتها وردت فيها الأمور إلى أصولها لرد ما يعزى إلى عرابي أو أكثره إلى الخديو دون أن يكون في ذلك أقل تجن على هذا ولا أدنى تحيز لذاك
سار شريف على نهج حكيم فأرضى الأجانب بقبوله المراقبة الثنائية، وأرضى الوطنيين بتحقيق الآمال الوطنية، ولكنه ما لبث أن أحس أن هؤلاء الأجانب لا يدعون وسيلة لضم الخديو إليهم حتى لقد ترك شريف بعد مدة وجيزة يعمل وحده، وكأنما وضع الخديو نفسه بنفسه في عزلة
ولو أنها كانت عزلة عن الوطنيين دون اتصال بالأجانب وعلى الأخص بالإنجليز لهان أمرها؛ ولكن توفيقاً قد سبب بعزلته أول الأمر ريبة ومخاوف في قلوب العسكريين؛ ثم تطورت الحال إلى كراهة وأدت الكراهة إلى المقاومة من جديد. ولقد كان أمام توفيق في الواقع هيئتان: الوطنيون برياسة شريف، والعسكريون بزعامة عرابي. وكان يستطيع بشيء من الكياسة والمهارة أن يرضي الوطنيين حتى لا يدع مجالاً لتدخل العسكريين من جديد، ولقد رأى بنفسه ما كان من أمر هذا التدخل بالأمس القريب
افتتح مجلس شورى النواب في يوم 26 ديسمبر سنة 1881 وجاء في خطاب توفيق في حفلة الافتتاح ما يأتي: (أبدي لحضرات النواب مسروريتي من اجتماعهم لأجل أن ينوبوا عن الأهالي في الأمور العائدة عليهم بالنفع، وفي علم الجميع أني من وقت ما استلمت زمام الحكومة عزمت بنية خالصة على فتح مجلس النواب ولكن تأخر للان بسبب المشكلات التي كانت محيطة بالحكومة، فأما الآن فنحمد الله تعالى على ما يسر لنا من دفع المشكلات المالية بمساعدة الدول المتحابة ومن تخفيف أحمال الأهالي على قدر الإمكان، فلم يبق مانع من المبادرة إلى ما أنا متشوق لحصوله وهو مجلس النواب الذي أنا فاتحه في هذا اليوم باجتماعكم)
هذا هو كلام الخديو فهل كانت هذه نياته؟ تلك هي المسألة ونرى أن خير ما نجيب به

هو أن نعرض الحوادث التي تلت ذلك ومنها يستبين إلى أي حد كان الخديو ينوي ما يقول
دأب الذين كانوا يعملون من وراء ستار على تخويف الخديو من ناحيتين: ناحية الحركة الوطنية وناحية تركيا موحين إليه في الأولى أن حكم الدستور معناه ضياع سلطة الخديو، وفي الثانية أن تركيا لا ترتاح إلى توفيق وأنها تبيت له ما لا يحب. وغرض هؤلاء الذين كانوا يعملون في الظلام واضح وهو أن يركن الخديو إليهم ليخلص من هذا كله
أما عن حكم الدستور فكان ذلك يقتضي حقاً أن يتنازل الخديو عن جانب كبير من السلطان المطلق إلى نواب البلاد وتلك هي المشكلة، وما كانت مشكلة في مصر وحدها، بل لقد كان لها مثيلات في جميع الحركات الدستورية التي شهدها العالم، فما قام الخلاف بين الملكية والشعب في فرنسا إبان ثورتها إلا من هذه الناحية. وما استمرت القلاقل قروناً بين الملكية والشعب في إنجلترا إلا بسبب ذلك. وما استقرت الأمور في الدولتين إلا حينما أثبت الشعبان قوتهما. وإذاً فكان لا بد أن يتفاقم الخلاف بين الشعب والخديو في مصر حتى يثبت الشعب قوته أو يتنازل الخديو عن مبدأ الحكم المطلق، ومن هذا الخلاف كانت تتاح الفرص للأجانب ليسيطروا على الخديو
وأما عن تركيا فقد كان توفيق يستريب ويخاف من سياستها. فكر السلطان أولاً أن يرسل جيش احتلال إلى مصر ليعيد فيها نفوذ الخلافة سيرته الأولى قبل عهد محمد علي؛ ولكن إنجلترا وفرنسا مازالتا به حتى استطاعتا بالسياسة حيناً وبالتهديد من بعد حيناً آخر حتى أقلع عن هذه الفكرة. ولقد أفادتا من ذلك فائدتين: بقاء مركز مصر على ما هو عليه بحيث يسمح لها بالتدخل في شؤونها؛ والتأثير على الخديو بهذا انهما هما الملاذ والسند
ولقد كان الأمير عبد الحليم بن محمد علي في الآستانة يدس الدسائس ويسعى سعياً متواصلاً لخلع توفيق وتولي حكم مصر بدلاً منه، وكانت سيرة ذلك النشاط تزعج توفيقاً وتقلق مضجعه.
وأخيراً أوفد السلطان وفداً إلى مصر برياسة علي نظامي باشا، وقد فعل السلطان ذلك دون علم الدول الاوربية، ولم تعلم بذلك حتى الحكومة المصرية نفسها إلا عندما وصل الوفد
وكان عرابي قد كتب إلى السلطان قبل يوم عابدين كما أشرنا. ولعل السلطان أوجس خيفة من الحركة القائمة في مصر، وظن أنها تنطوي على عناصر استقلالية ترمي إلى خلع سيادة الأتراك. وقد كان عبد الحميد يومئذ يقاوم الحركات الحرة في بلاده ويبطش بالداعين إليها. ولكن الوفد كتب تقريراً عن الحال في مصر جاء فيه على لسان الخديو أن البلاد هادئة ليس فيها ما يخيف. وجاء على لسان رئيس الوفد أن رجال العسكرية والزعماء جميعاً يؤكدون ولاءهم للسلطان، وإنه لذلك يثني عليهم ولا يخالجه شك في حركتهم. ولقد قامت الدولتان بمظاهرة بحرية في مياه الاسكندرية؛ فلما سألتهما الحكومة المصرية عن
سبب ذلك أجابتا أن سفنهما تغادر الإسكندرية في اليوم الذي يسافر فيه الوفد العثماني عائداً إلى الآستانة؛ وقد تم ذلك فعلاً حينما غادر الوفد البلاد، ومعنى ذلك أن الحكومتين لن تسمحا للسلطان صاحب الحق الشرعي في البلاد حتى بمجرد النظر في أحوالها، ومعنى ذلك أيضاً أن يزداد تأثيرهما في قلب الخديو فيلجأ إليهما إذا لزم الحال حتى ضد السلطان نفسه!
ورب قائل يقول إن في مسلك تركيا ودسائس عبد الحليم ما يدع الخديو العذر في الاعتماد على الدولتين، ولكن هذا زعم باطل؛ فرجال مصر جميعاً لم يكونوا في تلك الأيام يفكرون مطلقاً في الخروج عن سيادة تركيا، كما أنهم كانوا لا يسمحون للسلطان أن يزيد حقوقه في مصر عن القدر المقرر في الفرمانات. ولنفرض جدلاً أن للخديو الحق في أن يخاف جانب السلطان أفلا يكون بالتجائه إلى الدولتين كالمستجير من الرمضاء بالنار، كما يقول المثل العربي؟ وهل كانت الدولتان تحميانه إلا لغرض؟
وهل كان هذا الغرض إلا رغبة كل منهما أن تحل في مصر محل السلطان؟
إن الحوادث كلها كانت تشير للخديو إلى الطريق الوحيدة التي كان عليه أن يسلكها، ولكنه كما ذكرنا اختار الانحياز إلى جانب إنجلترا منذ حادث عابدين مع تظاهره دائماً أنه يعطف على أماني البلاد، وفي ذلك الخطر كل الخطر وفيه من أجل ذلك مسؤولية

الخديو عن اتجاه الحوادث بعد ذلك إلى تلك السبيل التي أفضت بالبلاد إلى كارثة الاحتلال
ونعود إلى عرابي فنقول: إن الحكومة قد استدعته من مقره في رأس الوادي وأسندت إليه منصب وكيل وزارة الحربية؛ وهو يعزو هذا العمل إلى ما بلغ الحكومة على لسان جواسيسها أنه يجول في بلاد مديرية الشرقية فيتصل بالوجوه ومشايخ العرب محرضاً داعياً إلى نشر مبادئه وأغراضه. ويذكر عرابي أنه أنعم عليه وقتئذ برتبة اللواء (باشا) ولكنه رفضها مخافة أن يتهم أنه يعمل لشخصه. ولئن صح هذا وهو ما لا نستبعده، لكان لنا في مغزاه حسنة نضيفها إلى حسنات هذا الرجل؛ حسنة نعتبرها من كبرى الحسنات فإن التهافت على الرتب والألقاب لم يزل حتى اليوم في بلادنا المسكينة داء عياء يتغلغل في نفوس سادتنا وكبرائنا!
ونقول لئن صح ذلك لأن الخبر من جانب عرابي فهو في مرتبة الدعوى! ونقول إنا لا نستبعده مستندين في ذلك إلى شاهد قوي، فهذا الرجل كان بطل الانقلاب يومئذ وعلى يده
وصلت مصر إلى ما وصلت اليه؛ فلم يفد من وراء ذلك أية فائدة شخصية. ولو كان في نفسه يومئذ أطماع من هذا القبيل لرأيناه يصل على الأقل إلى مرتبة الوزير، ونقول على الأقل لأنه كان في موقف تحكم فيه من الخديو وفرض عليه الشخص الذي يؤلف الوزارة، وهو موقف يوحي إلى الأنفس الغرور، فلو خالج نفس عرابي يومئذ طمع في جاه أو منصب لما وقف دونه إلى ما يبتغي حائل
ولقد اتصل بعرابي في منصبه الجديد المستر بلنت وطلب صداقته فأجاب عرابي في سرور إلى ما طلب وتصافحا. ولسوف تتمكن بينهما الصداقة وتتوثق عرى المودة سنين طويلة بعد ذلك
وجرى بين عرابي وبلنت في هذا اللقاء حديث أثبته كل منهما في مذكراته وفيه أشار عرابي إلى ارتياحه إلى تخلص مصر من مساوئ حكم إسماعيل ومن دسائس الجراكسة، ولكنه أبدى مخاوفه من سياسة إنجلترا وفرنسا نحو مصر، وعبر عن أمله في أن تعطف إنجلترا على حركة الحرية في مصر وهي الدولة التي تقدر الحرية، وكان عرابي يتوقع العطف من إنجلترا أكثر مما يتوقعه من فرنسا ولا سيما من جانب المستر غلادستون الذي اشتهر بعطفه على الحرية في كل مكان
وليت شعري ماذا يطلب الذين يرمون عرابياً بالطمع والجهل والنزق، أكثر من هذه البراهين التي نسوقها على أنه كان بريئاً من هذا كله؟ ألم يأن لهؤلاء أن يقرءوا سيرة هذا الرجل في غير تحامل عليه حتى يعرفوا لهذا المصري المجاهد قدره وأثره في نهضتهم القومية؟ وهل يوجد في المعايب القومية عيب هو أشد قبحاً من جهل قوم برجالهم في الوقت الذي يرون غيرهم يمجدون ذكرى رجالهم فيوحون إلى الأجيال القادمة معاني الرجولة بما يقدمون لهم من الأمثلة؟
لقد أعجب بلنت بعرابي ووقعت عباراته من نفسه موقعاً حسناً. يقول بلنت في ذلك: (وكان لهذا اللقاء الأول من حسن الأثر على رأيي في الضابط الفلاح ما حملني على الذهاب في الحال لصديقي الشيخ محمد عبدة لأفضي إليه بحقيقة هذا التأثير)
ولقد بلغ من تأثر بلنت أن اقترح وضع تقرير عما أخبره عرابي به ليرسله إلى المستر غلادستون، ثم اشترك مع الشيخ محمد عبدة في كتابة برنامج الحزب الوطني وأطلعا البارودي عليه فوافقهما ثم أطلعا عرابياً عليه أيضاً فأقره وتولى بلنت رفعه إلى غلادستون.
(يتبع)
الخفيف
نقل الأديب
للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي
والجروح قصاص - 420
كان فتى يجلس إلى أبي الحسن الحراني، وكان يشرب الخمر فسكر ذات يوم فسقط على زجاجة فشجّ وجهه، فاختفى إلى أن برئ ثم عاد إلى مجالسة الشيخ فلما رآه انشد:
أجريجَ كاسات أرقت نَجيعَها ... طلبُ التِّراتِ يعزّ منه خلاص

لا تسفكن دم الزجاجة بعدها ... إن الجروح (كما علمتَ) قصاص
ففهمها الشاب فتاب
421 - فلا تعلمني وهو لك. . .
في (الحيوان) للجاحظ: قال صاحب الأهواز: ما رأينا قوماً أعجب من العرب. أتيت الأحنف بن قيس فكلمته في حاجة إلى ابن زياد، وكنت قد ظلمت في الخراج، فكلمه فأحسن إليّ وحطّ عني. فأهديت إليه هدايا كثيرة فغضب وقال: إنا لا نأخذ على معونتنا أجراً. فلما كنت في بعض الطريق سقطت من ردائي دجاجة فلحقني رجل منهم فقال: هذه سقطت من ردائك. فأمرت له بدرهم، ثم لحقني بالأُبُلِة فقال: أنا صاحب الدجاجة. ثم لحقني بالأهواز فقال: أنا صاحب الدجاجة. فقلت له: إن رأيت زادي بعد هذا كله قد سقط فلا تعلمني وهو لك. . .
422 - والريح في فمي فاعزم وتوكل . . .
قال زنام الزامر: قال لي المتوكل: تأهب معي إلى الشام. فقلت: يا أمير المؤمنين، الناي في يدي، والريح في فمي، فاعزم وتوكل
423 - وقت شرابها نار العذاب
قال الثعابي: بلغني أن ديوان شعر ابن مطران حمل إلى حضرة الصاحب فأعجب به فقال: ما ظننت أن ما وراء النهر يخرج مثله، ومر له في الشراب المطبوخ:
وراحٍ عذبتها النار حتى ... وقت شُرّابها نارَ العذاب
يذيب الهمَّ قبل الحسو لونٌ ... لها، في مثل ياقوت مذاب
ويمنحها المزاج لهيب خدٍ ... تشرّب ماؤه ماء الشباب
فتعجب من حسن البيت الأول وتحفظه، وكان كثيراً ما ينشده كأنه مقلوب قول السريّ في الخمر:
هات التي هي يوم الحشر أوزار ... كالنار في الحسن عقبى شربها النار
424 - مغن. . .
الثعالبي في (خاص الخاص) سمعت أبا بكر الخوارزمي غير مرة يقول:
أنا أحفظ في هجاء المغنين ما يقارب ألف بيت، وليس أبلغ وأوجز وأطرب من قول أبي الفتح كشاجم:
ومغنٍ بارد النغمة مختل اليدين
ما رآه أحد في ... دار قوم مرتين
425 - في فساد الأحوال لله سر!
صوفي:
في فساد الأحوال لله سِرّ ... والتباس في غاية الإيضاح!
فتقول الجهال قد فسد الأمر ... وذاك الفساد عين الصلاح!
426 - كان ماذا؟
في (طراز المجالس): سمع عن العرب كان ماذا، ووقع في شعر ابن المرجل فأنكره ابن أبي الربيع، فصنف في الرد عليه مصنفاً، وأنشد فيه لنفسه:
عاب قوم (كان ماذا) ... ليت شعري لم هذا؟
وإذا عابوه جهلاً ... دون علم كان ماذا؟
427 - عاشق مفلس. . .
مرت جارية للقاسم بن الرشيد جميلة، وفي كفها نرجس، فجمشها أبو نواس، فلم تكلمه، فقال: ما أقبح الهجر بك يا سيدتي. فقالت: أقبح من هجري إفلاسك. فانشأ يقول:
قلت لها يوماً ومرت بنا ... رُعبوبة في كفها نرجس:
ما أقبح الهجر! فقالت لنا: ... أقبح منه عاشق مفلس
شبح الحرب
للأستاذ محمود غنيم
هو الموت أن قامت على ساقها الحرب ... وإلا فحسب الناس ما يفعل الرعب
يلوح لهم في النوم والصحو طيفها ... ودون انتظار الخطب أن يقع الخطب
فُزعنا فلا جفن من الخوف مطبِق ... ولا مستقر في مضاجعه جنب
ولا أنف إلا عالق بكمامة ... ولا دار إلا شُق في جوفها جب

وما اكتوت الأيدي ولا احترق الحشا ... بجمر كجمر لا يشب ولا يخبو
فيأيها الليث المكشر للورى ... حنانيك إما الانصراف أو الوثب
مطامع غر الغرب ومض سرابها ... فأصبح يصلى نارها الشرق والغرب
كأني بها قامت وشُب أُوارها ... وقد جفت الأقلام وانطوت الكتْب
سفين بلج البحر يرميه مثله ... وسر بأعلي الجو يقذفه سرب
وبينهما تمشي المنايا كأنها ... طيور وأرواح الأنام لها حب
وغى لا الدروع السابغات موانع ... أذاها ولا مُجدٍ بها الصارم العَضْب
تثلم حد السيف وانقصف القنا ... وأصبح لا طعن هناك ولا ضرب
كأني بها ترمي مدافعها فلا ... يطيش لها سهم ولا مضرب ينبو
تدمر ما تأتي عليه لو أنها ... تصوَّب نحو الألب دُلئبها الألب
هي البرق خطافاً هي الرعد قاصفاً ... هي الشهب إذ تهوي من الفلك الشهب
فمن كان يصطاد الحمام بنبله ... فأن لنا نبلاً يصاد بها القطب
كأني بها والطائرات بغازها ... تجود كما جادت بوابلها السحب
يمد إلى الأرواح كفيه خلسة ... فلا الرأس مقطوع ولا الدم منصب
رقيق الحواشي لا تكاد تحسه ... وألين منه الصخر والمعدن الصلب
له قطرات لا يبل بها صدى ... ولا يابس تبقى عليه ولا رطب
إذا انتشرت في الأفق لم ترع حرمة ... لأنثى ولا شيخ علا رأسه الشيب
إذا انتشرت في الأفق تصرع كاعباً ... وتخنق أمَّاً خلفها طفلها يحبو
لقد شِيب بالسم الهواء فهل ترى ... يشاب من الأنهار رسائلها العذب
أرى الغرب يدنو كالفَراش من اللظى ... أللقوم من إحراق أنفسهم إرْب؟
ويا رُب حرب منذ عشرين حجة ... بكل فؤاد من جراحتها ندب
أضرت بحزبيها وإن تم نصرها ... لحزب وقاسى ذل خذلانها حزب
إذا ما ذكرناها اقشعرت جلودنا ... إذ الناس كالأنعام قوتهم العشب
وإذ هم بأكناف الخنادق ما لهم ... مضاجع غير الترب لو نفع الترب
يقاسون حراً ما لضب بحمله ... يدان وبرداً ليس يحمله دب
وحشو أنوف القوم غاز مسمم ... وللنار في أجسامهم مرتع خصب
فيا لحروب لا تجف دماؤها ... ويا لشعوب كلما نهضت تكبو
أجدكمو يا قوم طال بنا السري ... ولم يسترح حيناً من السفر الركب
لقد سار نحو المجد قوم فأدلجوا ... ولم يعلموا أين انتهى بهم الدرب
ولو أنفقوا في الخير ما ينفقونه ... على الحرب عم الخصب وانقطع الجدب
ولم يبق طاو ليس يملك قوته ... ولم يبق عار ليس يستره ثوب
شعوب بعصر النور يفتك بعضها ... ببعض كما يعدو على الحمل الذئب
يمثَّل بالإنسان في الغرب بينما ... يعيش قرير العين في ظله الكلب
إذا قنص الليث الغزالة ساغباً ... فما ذنب شعب بات يقنصه شعب
ذنوب الضعاف العاجزين كثيرة ... وما لقويٍّ إذ تحاسبه ذنب
كأنْ ليس بين العالمين شرائع ... ولا خلفهم حشر ولا فوقهم رب
ولا في قوانين البرية رحمة ... ولا شيء في الدنيا يقال له الحب
ولم يبق معبوداً سوى القوت وحده ... فكل فؤاد مستهام به صب
عزاء لنا أن الحضارة أفلست ... فرونقها زيف ومنطقها كذب
إذا ما تمثلت الحضارة خلتها ... لباة لها جوف وليس لها قلب
سل العلماء الفاخرين بعلمهم ... أجاءوا بنور العلم أم ناره شبوا
تقدم فن الموت أي تقدم ... وسار بطيئاً عاثر القدم الطب
فظائع لم يحلم أوائلنا بها ... فيا ليت شعري ما الذي يضمر الغيب؟
فسحقاً لعصر النور سحقاً لأهله ... فكل بني حواء دأبهم السلب
كذلك شأن الناس من عهد آدم ... تباينت الأشكال واتحد اللب
وحسب بني حواء عيباً حروبهم ... إذا لم يكن غير الحروب لهم غيب
(مدرسة الأورمان)
محمود غنيم

المليك الطفل فيصل الثاني
للآنسة زينب الحكيم
صورة صاحب الجلالة الملك فيصل الثاني تدل على شخصية طامحة للعظمة. . . رجل صغير في الثالثة من عمره، يمتاز بسمات النجابة، والنظرة اليقظة، والرجولة البادية آثارها في يديه المعقودتان وراء ظهره، ولباس الضابط الذي يحتوي هذه الشخصية الكبيرة الوثابة على الرغم من حداثة السن ومن الطفولة البريئة، إنما يشير إلى النفع والمساعدة والتضحية. ويكمن في قسماته غموض عميق
لقد كان لي شرف مقابلة جلالة والده المغفور له الملك غازي الأول، وكان ذا شخصية كريمة، وسجايا عربية سمحة، وهمة بدوية نافذة مع تقلب الظروف حوله انصرفت من حضرته، وقد أثر في نفسي طلاوة حديثه، وإيمانه بالاعتماد على نفسه بعد الله في الأخذ بيد شعبه إلى مراقي السمو والفلاح؛ مستمداً من شعبه الكريم الهمة والشجاعة.
إن في سيرة فيصل الأول وابنه الراحل بسبب الحادث المشئوم، ما يظهر للناس كيفية البلوغ إلى العظمة؛ ولهذا فكانا ملكين من أحكم الملوك وأعظمهم.
إني قوية الأمل شديدة الرجاء في أن يهيئ قادة الرأي في العراق أجمل الفرص للمليك العزيز فيصل الثاني، لأن يتصفح تاريخ أبيه وجده، فهو سفر ذو صفحات زاخرة، فيها إصلاح وتجديد، وفيها حِكم وعبر، وفيها قدوة حسنة
لعمري ماذا تكون رسالتك (يا غازي) رحمة الله عليك وأنت في عالم الأبدية إلى الأحياء؟ لسوف تتكلم من عالم الحقيقة ولسوف تُسمع كلماتك ويطاع أمرك بحماس وينفذ بقوة
إني استمع موسيقى رسالتك بين طبقات الأثير، ولا تلبث الرسالة أن تصل إلى إدراك الأحياء. وأشعر أن أول رسالة منك هي لابنك العزيز وستكون نفسه أسرع لالتقاطها، وكنت الأب العطوف عليه وهو شديد التعلق بك. إن رسالتك إليه رسالة معنوية صامتة، تدركه فترحمه من انزعاجه لفقدك، وتقوي من عزيمته لتكوين مستقبله الذي سيكون زاهراً بإذن الله.
أما الرسالة الثانية: فهي إلى الزوجة الثكلى؛ وهي رسالة من شهيد ينعم برضاء ربه، رسالة زوج تحرر من قيود الملك وعناء الشكليات، ولذلك فهي رسالة عطف غامر طاهر، ترد
عليكِ بعض لهفتك يا والدة فيصل الثاني وتقوي من احتمالك للمصيبة، وتستنهض همتك لإدراك روح غازي في ابن غازي (فيصل طفل اليوم)، وبفضلك وحزم رعايتك يكون رجل الغد المسؤول.
من أهم ما لفت نظري وأنا أتتبع تاريخ حياة الملكة فكتوريا الطريقة التي اتبعتها في تربية أولادها. روي عنها أنها كلما أرادت اختيار مربية لأولادها، كانت تكلف بعض خلصائها أن يبعثوا إليها ببعض من يثقون بهن من المربيات، وكانت لا تقابلهن في بادئ الأمر، وإنما تأمر بأن تقدم المربية إلى الأطفال مباشرة وهي تراقبها معهم من وراء ستار. وكان يتوقف قبولها أو رفضها للمربية على تلك المقابلة الأولى مع أطفالها. سئلت مرة عن السر في قبولها إحدى المربيات وقد أثنت عليها دون تحفظ وودت لو كان جميع المربيات مثلها فقالت: لقد رأيت فيها حنو ألام الطبيعي وتضحيتها الصادقة في معاملة الأطفال مما دعاني إلى الظهور لها من وراء السجف لأشكرها وأشعرها برضائي عنها
وهكذا كان لها رأي خاص بالنسبة لاختيار الرائضين من الرجال، وكانت تختار من تتوسم في معاملاته للأطفال الأمراء في غير وجودها سمات الأبوة الرصينة.
والسيدات العراقيات على ما خبرت من أحوالهن، أمهات صالحات بارات مضحيات، وسيدة البلاد الأولى. . . أم فيصل الثاني. . . تبزهن جميعاً في يقظة الانتباه، وصدق النظرة، وقوة الطموح.
نرجو للعراق وأهل العراق السلامة من كل مكروه، وأن يسلم رجاله العاملون، بفناء الخصومات، واندثار الشرور التي تعكر صفو النفوس وتهد أركان الوطن المفدى.
رحم الله سيد البلاد الراحل وعزى أهله وشعبه أجمل العزاء.
زينب الحكيم

رسالة الفن
دراسات في الفن
الغناء بين الارتجال والربط
بمناسبة ذكرى عبده الحامولي
للأستاذ عزيز أحمد فهمي

أشير على وزارة المعارف أن تفكر في إحياء ذكرى عبده الحامولي فحدث أن استجابت للإشارة وفكرت. وجمعت وزارة المعارف - كعادة الوزارات كلها حين تعزم التفكير في جلائل الأمور - حزمة الرؤوس المفكرة كانت درتها المتألقة رأس معالي وزير المعارف الأديب الفنان. وطرحت مسألة الذكرى أمام هذه الرؤوس المفكرة ففكرت فيها وفكرت، ساعة أو ساعتين، فكرت ثم خرجت بتفكيرها أو خرجت من تفكيرها بأن المسألة عقدة معقدة، وإنها ليست من المسائل التي يحلو التفكير فيها للرؤوس المفكرة بحيث تطيق أن تستوعبها وأن تلم بأطرافها أو تعتصرها في جلسة واحدة فأفسحت للتفكير فيها من وقتها خمسة شهور تبدأ في مايو هذا وتنتهي في أكتوبر المقبل تنفرط فيها حزمة الرؤوس المفكرة لتملك كل منها التفكير فيها، وهي على حدة في مسألة ذكرى الحامولي المعقدة ثم تجتمع بعدها ليقول كل رأس منها لاخوته: أي حل يَسَّره، أو أي تيسير قدَّره

وأخشى ما نخشاه هو أن تعود حزمة الرؤوس المفكرة بعد هذا الاجتماع فتنفرط، ثم تعود فتجتمع، ويطول بها الانفراط والاجتماع حتى تصبح ذكرى الحامولي من مشكلات الدولة المستعصية كما استعصت على الدولة قبلها مشكلة الأوقاف الاهلية، ومشكلة مياه الشرب في القرى، ومشكلة تعليم اللغة العربية وغير ذلك من المشاكل الملعونة الجاحدة التي طالما أجهدت - في غير رحمة ولا استحياء - حزماً من الرؤوس المفكرة على إننا لا نزال مستبشرين خيراً، فإنه لا يبعد على الله، ولا يكثر على الله، أن يسأل رأس من هذه الرؤوس المفكرة نفسه في بحر هذه الشهور الخمسة عن عبده الحامولي: من هو؟ فعندئذ لا بد أن يجيب هذا الرأس نفسه بأن عبده الحامولي كان مغنياً. وقد يحدث بعد أن يطرب هذا الرأس المتسائل لتوفيق الله الذي مكنه من إصابة هذه الحقيقة البعيدة النائية

أن يذكر أن عبده الحامولي كان مغنياً من نوع كاد ينقرض من بين أهل الحرفة اليوم، لا لأن أهل الحرفة قد سمن إحساسهم، وإنما لأن الحياة نفسها استدعت هذا الانقراض، وهي لا تزال تستدعيه.

فقد كان المغنون في الجيل الماضي يغنون في اجتماعات عامة من حيث إقبال الناس عليها، ولكنها كانت خاصة من حيث الأنفاق عليها والدعوة إليها، وكانت الأفراح هي الفرص المتلاحقة التي كان يدعى فيها المغنون إلى الغناء، وكان صاحب (الفرح) هو الذي يختار المغني الذي يدعوه، وكان يرهق نفسه في إكرامه إرهاقاً كانت تستلزمه روح التفاخر التي كانت شائعة في ذلك الحين بين المصريين أغنياء وفقراء، وكان يبذل له العطاء كما كان يتأنق في إعداد المائدة له ولأفراد فرقته؛ فكان يطعمهم طعاماً شهياً خفيفاً حتى يكتفوا، وكان يسقيهم خمراً سائغة مشعشعة حتى ينتشوا؛ وكان يصبر عليهم لا يطالبهم بعزف ولا غناء حتى يستخفهم الطرب، فيعمد منهم صاحب القانون إلى قانونه، وصاحب العود إلى عوده، وصاحب الدف إلى دفه؛ والمغني لا تزال روحه تترنح من الشرب والطرب والبهجة والفرح حتى يطيب له أن ينطلق فينطلق وكان المغني يصيح وهو يعلم أن بين مستمعيه مغنين ومطربين خفوا إليه ليمتعوا أنفسهم بحلاوة ترتيله وبهاء نشوته. والذين حضروا أمثال هذه الحفلات يروون لنا أن محمد عثمان كان يجري وراء عبده الحامولي ليسمعه، وأن عبده الحامولي كان يلاحق محمد عثمان ليستردّ منه الدين متعة وطرباً، وهم يقولون أيضاً أن محمد عثمان كان يسمع من الحامولي الدور فلا يتحرج من الاستيلاء على نظمه وكلامه فيلحنه تلحيناً جديداً ويغنيه غناء يجبر الحامولي على أن يترك له الدور مسلماً فيه أمره الله ولصناعة محمد عثمان المنظمة المنسقة

وقد كان محمد عثمان يختلف عن الحامولي اختلافاً بيناً. فقد كان الحامولي أقرب إلى الطبيعة من صاحبه، فكان أكثر غنائه ارتجالاً لا يعدُّه ولا يهيئه، وكان صوته الممتاز الحلو النقي، ونفَسه الطويل المشبع، وروحه الصافية المرفرفة. . . كان هذا كله يمكنه

من السيطرة على نفوس سامعيه والتحكم فيها والخروج بها من حال إلى حال بما لم يتح بعده إلا لسيد درويش الذي أغناه صدقه وعوضته قوة روحه عن حلاوة الصوت وعذوبته

أما محمد عثمان فكان يربط ألحانه قبل إنشادها، وكان لا ينطلق ولا يتحرر مما ربطه إلا في فترات من ليلته ثم يعود بعد ذلك إلى ما ربطه وقيده. وانقسم المغنون والمطربون في ذلك الحين إلى مدرستين: مدرسة الارتجال التي كان يتزعمها عبده الحامولي وكان من أساطينها محمد سالم العجوز؛ ومدرسة الربط التي كان يتزعمها محمد عثمان وكان من أساطينها يوسف المنيلاوي ثم سيد الصفطي. على أن الربط في ذلك الحين لم يكن مقيداً مكتوفاً كل الكتف وإنما كان - كما تقدم - يفسح للمعنى مجال التصريف والتخليق، متى أتيح له التصرف والتخليق

والذي نريد أن نصل إليه من تقرير هذه الحقائق كلها هو أن مجالات الطرب في الجيل الماضي كانت تعنى بتهيئة جو الغناء للمطرب، فكانت تتملقه بالأجر المغري، وتتزلف إليه بالكأس والطاس، وتحفزه بالتشجيع من جانب المستمعين، والتحدي من جانب المطربين، وهذا كله كان يلهب المغني إلهاباً ويشعل روحه إشعالاً وينقل روحه إلى حال من حالين: فإما نشوة ورضى، وإما ركوداً وغماً. فإذا ما أصابه التوفيق بالنشوة والرضى فقد غنت روحه ورقصت؛ وإذا ما ركد وتخاذل فإنه كثيراً ما كان يعتذر عن الغناء ويتهرب منه. ولا يزال هواة الطرب من المخضرمين يذكرون لنا أن عبده الحامولي كان يفسح في تخته مجالاً لمحمد عثمان ويدعوه إلى الغناء في بعض لياليه، كما انهم يذكرون لنا أن عبد الحي حلمي كان يضرب الغلاظ من مستمعيه أحياناً بطربوشه ويبكي ويصر على إبعادهم عنه وإلا يروغ من (الفرح)

هذا يدل دلالة قاطعة على أن المغنين في الجيل الماضي كانوا يغنون لأنفسهم كما كانوا يغنون للناس، أو إنهم في الحق كانوا يغنون لأنفسهم في مناسبات يهيئها لهم الناس ويدعونهم إليها

ولعله لم يبق في هذا الجيل الذي نعيش فيه من أهل هذا المزاج إلا فئة من المقرئين فهم وحدهم الذين يرتجلون الترتيل، وهم وحدهم الذين (يتفاعلون) مع جمهورهم أثناء إنشادهم وقراءتهم. أما المغنون فكلهم كما نعلم يسترجعون في حفلاتهم ما علمهم إياه الملحنون، وأما الملحنون فكلهم يعدون ألحانهم إعداداً تاماً قبل غنائها أمام الجمهور إذا ما دعوا للغناء أمامه. وليس يشذ عن هذه القاعدة من ملحني اليوم إلا زكريا أحمد ومحمود صبح. فهما وحدهما

اللذان ينطلقان في الغناء بما توحيه إليهما نفساهما. أما زكريا فتنساب نفسه في غنائه بأسلوب مصري رقيق، وأما محمود صبح فتجمع روحه في غنائه بأسلوب تركي متعجرف مكنته منه دراسته التي صرفته عن طبيعته المصرية فأصبح وله لون خاص به في غنائه، ليته كان مصرياً قريباً من نفسه ونفوسنا

ونعود الآن إلى غناء الماضي لنلحظ فيه ملحوظة تعزز ما ذهبنا اليه، ذلك أنه كان غناء شراب وفرح وبهجة؛ وقد نجهد أنفسنا في البحث إجهاداً كبيراً إذا حاولنا أن نعثر فيه على شيء غير الشراب والفرح والبهجة التي كانت تبعثها مناسبات الغناء في نفوس المغنين. وقد كان المغنون في الجيل الماضي يعيشون في أفراح متواصلة متتابعة ولعل القارئ يعجب حين يعلم أن موسراً من الموسرين أراد أن يحيي له ليلة فرحه المطرب الشيخ سيد الصفطي؛ فلما قابله أخبره الشيخ الصفطي بأنه مقيد بتسعين ليلة مقبلة لا يمكنه أن يتحلل من إحداها، فاضطر الموسر أن يؤجل فرحه ثلاثة شهور متتالية. فإذا كان هذا هو حال الشيخ الصفطي الذي لم يكن ملحناً ولم يكن أستاذاً لمدرسة في الغناء فكيف كانت حال عبده الحامولي، ومحمد عثمان؟ إنهما لم يكونا يملكان إلا أن يعيشا في أفراح بعد أفراح. ولقد نضحت أغانيهما بهذه الأفراح حتى ما كان منها يجنح نظمه إلى الشكوى والألم، فقد كانا يغنيان في فرح وفي مرح تستسيغهما المناسبة وإن كان الفن والمعنى يزوَرَّان عنهما

ولكن هذا ليس معناه انهما كانا يغنيان على وتيرة واحدة هي نمط البهجة، وإنما كانت روحاهما تنتفضان أحياناً بالأنين والألم. وقد سجل التاريخ لعبده الحامولي وقفة خالدة من وقفات الفن الرائعة إذ جاءه نعي وحيده في ليلة زفافه وكان عبده هو الذي يحييها بغنائه، فغنى عبده ليلتئذ غناء أسال قلوب سامعيه دموعاً، وعصر نفوسهم دماً، وطبع

أرواحهم بطابع أسود خدرهم وهم في مقاعدهم ولم يخطر ببال أحدهم أن يسائل عن سره أو منشئه، حتى إذا طلعت الشمس شاع بينهم الخبر فلزموا مجالسهم حتى جهزت الجنازة فخرجوا بها مشيعين العروس الذي خفوا ليشاطروه الفرح

هذه هي حال الغناء في الجيل الماضي، وهذه هي حال إمامه عبده الحامولي، وهي كما ترى أقرب الأحوال إلى الغناء الطبيعي الذي يصدر عن النفس الصادقة في لون صادق من ألوان العواطف هو الفرح. فإذا قلنا أن الغناء يكاد ينقرض فإنما نقصد بذلك هذا اللون

الطبيعي أو الأقرب من الطبيعة.

فكيف إذن يمكن أن يُحيا غناء كهذا، أو كيف يمكن أن نحيى بنوع من الغناء ذكرى مغن كعبده الحامولي؟

خطر لحزمة الرؤوس المفكرة التي اجتمعت في وزارة المعارف أن يغني مغن في حفلة الذكرى شيئاً من أغاني عبده الحامولي؛ فأشبه هذا الخاطر خاطر لذيذاً مر برأس صاحب لنا كان صوته يشبه صوت سعد زغلول، فرأى أن يلقي أحد خطب سعد زغلول في حفلة من حفلات ذكراه، ولم يمنعه من تنفيذ فكرته هذه إلا أنه عجز عن الاتصال بأصحاب الأمر والنهي في هذه الحفلات. ولعله لو كان قد وصل إلى أصحاب الأمر والنهي هؤلاء لكان قد استطاع أن يقدم للمحتفلين بذكرى الخطيب العظيم الراحل هذه (النمرة الكوميك). فيدخل على نفوسهم شيئاً من الراحة قد يشعرون بالحاجة إليه خلال ذلك الألم الذي ينتاب نفوسهم حين يذكرون الفقيد.

فهل تريد وزارة المعارف أن تكون لذيذة كصاحبنا هذا حين تريد أن تكرم رجلاً من أساطين الفنانين المصريين؟

أن عبده الحامولي لا يمكن أن يستعاد ولا يمكن أن يسترجع، وليس كل عظيم بمستطاع أن يكرم ذكره بتكريم من نوع موهبته وفنه. فالأمريكان إذا أحبوا أن يذكروا إديسون في حفلة فإنهم لا يستطيعون أن يعرضوا في هذه الحفلة مخترعاً يخترع أمام الجمهور اختراعات إديسون!

إنما هناك وسائل أخرى لتكريم أمثال هؤلاء الذين تتصل كرامتهم بأشخاصهم وذواتهم، فلأمثال هؤلاء يمكن أن تقام التماثيل، وبأسماء هؤلاء يمكن أن تتوج المسارح القومية ومعاهد الفنون. وأما ترجيع فنهم نفسه فمحال إلا إذا كان الفن مربوطاً مقيداً مثل فن سيد درويش فهو الذي تستطيع وزارة المعارف أن تحمل الفرقة القومية على تمثيل رواياته الخالدة.

أما إذا أصرت وزارة المعارف على أن تحيي ذكرى عبده الحامولي بغناء وألحان من المحفوظ عنه فإننا نرجوها أن تتريث كل التريث قبل أن تختار المغنين الذين ستعهد إليهم بإحياء هذه الذكرى الجليلة، وعليها أن تعرف أن عبده الحامولي كان مغنياً صاحب صوت

قوي جميل كامل لا يمكن أن يجود الزمن بمثله إلا بين دهر ودهر، وأنه كان يسلط روحه الصافية على صوته هذا وحده فيتسلط به على سمع الزمن، فهل بين المطربين المصريين اليوم من أتيحت له هذه القوة؟

قد يكون الشيخ علي محمود وحده أشبه الأحياء به. . . فلو أنه راجع مع المخضرمين من المطربين أغاني الحامولي فقد يتاح له أن يوفق إلى صورة من الغناء هي أقرب الصور إلى غناء الفقيد الكريم. أما أصدق الصور وأشدها أمانة فهي لا ريب هذه الصور التي طبعها الفقيد بصوته على (الاسطوانات) القليلة التي عبأها، فأين هي؟. .

عزيز أحمد فهمي

رسالة العلم

فروض

للدكتور محمد محمود غالي

تخترقنا جميعاً الأشعة الكونية أو الأشعة النافذة كما يسمونه، أحياء كنا أم أمواتاً، شباباً كنا أم شيوخاً، تنفذ فينا جميعاً بقدر واحد. تُرى هل يُعد هذا التفتت الدائم في أجسامنا الذي يلازمنا من المولد حتى الممات ملائماً لوجودنا ومساعداً على بقائنا؟ أو هو على النقيض من ذلك. أميل إلى الاعتقاد بأنها مُبيدة لنا مهلكة لحياتنا. ومتى كان الهدم من عوامل البقاء، والتفتت مدعاة للحياة لا للفناء؟

إلى المتحف المصري والى الطابق الثالث منه نقلوا حديثاً من المنزل الذي أقام فيه مسيو لاكو المدير السابق لمصلحة الآثار، عشرين مومياء لفراعنة مصر الأقدمين، يمثلون ثلاثين قرناً أو يزيد من أزهى العصور في تاريخ البشر. ويكفي لتعريف هذه الفترة السعيدة التي خلت أن نذكر، أنها الفترة التي كوّن الإنسان فيها معارفه الأولى وعلومه البدائية التي كانت سبباً وأساساً لمعظم ما نملكه اليوم من معارف وعلوم. فالحلقة متصلة إذ كان لهؤلاء الملوك الأولين والمؤتمرين بأوامرهم والآخذين بنظمهم الفضل الأول في كثير مما نعرفه اليوم.

هذه المومياء الهامدة ظلت مستريحة قروناً عديدة، لا يحميها ما حولها من لفافاتٍ عديدة، أو ما يُحيط بها من صناديق محلاة بالذهب والنقوش، من التهدُّم الذرى والتَّفتُّت الداخلي الحادثين حتماً من اختراق جسيمات الأشعة الكونية لها، بقدر ما تحميها طبقات الرمال والصخور التي تعلو الأماكن التي وجدت فيها، فإن هذه الطبقات المفصولة عن سطح الأرض بعشرات الأمتار تمتص هذه الأشعة أو الجزء الأكبر منها.

قليل من التأمل وعود إلى الحساب البسيط يجعلنا ندرك العدد الكبير من هذه الجسيمات التي تخترق هذه المومياء التي لا يحميها الآن من هذا التهدم سوى سقوف المتحف المصري، فهذه القذائف الكونية الدائمة تخترق المومياء الخالدة بمعدل قذيفة على كل سنتيمتر مربع في كل دقيقة، أي أن خمسة آلاف من هذه القذائف الفاتكة تخترق في كل دقيقة كل واحدة من المومياء الممدودة؛ بينما كان لا يخترقها في مثل هذه الفترة وهي في وضعها الأول، مصونة بالرمال والصخور، سوى قذيفتين أو ثلاث؛ وقد لا يخترقها واحدة

من هذه القذائف. وفي ظني أن الذين قاموا بنقلها من مكانها الأولي وأزعجوها من راحتها الابدية، لم يعيروا هذه القذائف الدائمة أية التفاتة، فهم لا يعرفونها. ومن يدري؟ فقد تكون هذه القذائف مدمرة لها على طول الزمن ومتلفة لعناصر وجودها. أو يصح لنا إذن أن نعتقد أنه كان لخوفو منشئ الهرم الأكبر نوع من الغريزة جعلته يشعر بضرورة بناء ضريح في ضخامة الهرم لحماية رفاته من كل عوامل التبديد؟

لا شك أن خوفو وأمثاله كانوا يجهلون الأشعة الكونية؛ وكأنهم عمدوا إلى الاحتياط من تلك الأشعة الكونية التي نلخص في هذا المقال موضوعها، والتي تعد من أعجب ما نعرفه في مراحل العلم الحديث بقوة طاقتها التي تفوق آلاف المرات طاقة أشعة الراديوم وقوة اختراقها للأشياء، فتخترق ما يبلغ سمكه بضعة أمتار من الرصاص. وقد شرحنا كيف يستطيع العلماء تسجيل صور مسارات جسيماتها بعد اختراقها كتلة كبيرة من المادة، وشرحنا كيف يسمعون إنذاراً بمرور قذائفها التي لها أقوى الأثر على المادة التي تخترقها

ونتكلم اليوم عن الفكرة في مصدر أو أصل هذه الأشعة الخارقة لما اعتدناه من إشعاع. ويَجمُل قبل ذلك أن نذكر كلمة أخيرة عن بعض النتائج الهامة في دراسة هذه الأشعة. وهذه النتائج هي مادة لموضوعات مختلفة نكتفي هنا بالإيماء إليها:

الموضوع الأول هو تقسيم العلماء هذه الأشعة إلى نوعين: النوع الأول جسيمات رخوة نتجت عن الأشعة الكونية وليست هي الأشعة ذاتها. والنوع الثاني جسيمات صلبة جزء من الأشعة الكونية نفسها قبل اختراقها طبقات الهواء أو الأرض.

وهذا التقسيم إنما جرى تبعاً لمقدار المادة التي تستطيع الأشعة النفاذ فيها. وللعالم روسي تجارب تدعو للإعجاب في وضع ستائر من الرصاص يعرف بواسطتها أولاً اتجاه الأشعة، وثانياً درجة نفاذها في المادة التي تصادفها وأثرها عليها. وفي ذلك يستعمل روسي عدادات الإلكترونات وغرفة ولسون مجتمعة في تجربة واحدة

الموضوع الثاني هو دراسة تغير هذه الأشعة تبعاً لخطوط العرض؛ ولهذا أثر هام في معرفة ما إذا كان منشأ الأشعة خارجاً عن نطاق المحيط الأرضي. وقد أدت هذه الدراسة إلى أن هذه الأشعة تنقص بمقدار حوالي 14 % عندما تقترب من خط الاستواء. وهذا ناتج من أثر المجال المغناطيسي الأرضي واختلاف شدته من منطقة إلى أخرى. وقد بَيَّن ذلك

كلاي في أبحاثه التي تبَعتها دراسة دولية تولاها العالم كونتون في سنة 1930 إذ قامت 69 محطة مختلفة في المعمورة بدراسة الأشعة. وهذه المحطات منتشرة بين خطي عرض 78 شمالاً و 46 جنوباً. وفي سبتمبر سنة 1933 قام زميلانا بيير رينجيه هامة

بين الهافر وبونس إيرس ذهاباً وإياباً حيث سجلا 170 ألف مسار للأشعة الكونية. وفي الـ 170 ألف شعاع التي سجلها هذان الباحثان نرى أن الأشعة الكونية تنقص بمقدار 16 % عند خط الاستواء

الموضوع الثالث دراسة تَغَيُّر شدة الأشعة تبعاً لنظام تعاقب الليل والنهار أي مع الوقت الشمسي. ولهذا أثره في معرفة ما إذا كانت الشمس مصدراً لهذه الأشعة. وقد دلت الدراسة على أن الأشعة لا تتغير مع تغير الليل والنهار. وفي هذا الشكل ترى كيف تتغير شدة الأشعة مع ساعات اليوم.

فالإحداثي الرأسي ويُسمى محور الصادات يبين مقدار شدة الأشعة، والإحداثي الأفقي ويسمى محور السينات يبين الوقت. وفي المنحنى (1) نرى كيف تَتغَيَّر شدة الأشعة مع مرور اليوم دون أن تخترق الأشعة مادة على الإطلاق وفي المنحنى (2) نرى تَغيُّر شدة الأشعة بعد أن تكون قد اخترقت 21 س م من الرصاص. وفي الحالتين نرى حوالي الساعة 12 ازدياداً طفيفاً في الأشعة، وهذه الزيادة نرى أثرها مرة أخرى في المنحنيين (3) و (4) اللذين يمثلان تَغيُّر الأشعة بعد اختراقها 1. 5 س م من الرصاص و 3 س م منه. أما المنحنيان (5) و (6) فيمثلان شدة الأشعة وتغيرها مع الزمن بعد اختراق 10 س م من الرصاص و 20 س م منه، ولا نرى فيهما أثراً لأي تَغيُّر في شدة الأشعة بل نرى ثباتها على مرور الساعات، وهذا يثبت أن الجزء الصلب من الأشعة الكونية أي الأشعة الكونية الأولى قبل اختراقها الجو غير مرتبط بالشمس بأي حال من الأحوال

والموضوع الرابع هو دراسة الأشعة مع المجال المغناطيسي الأرضي، وهو دراسة رياضية وطبيعية عويصة قام بها علماء كثيرون نذكر منهم ستورمر ونرى ألا نتعرض له في هذه السطور لصعوبته وعدم فائدته للقارئ

على أن استعراض هذه المسائل ولو على هذا النحو المختصر يفيدنا الآن في مناقشة أصل الأشعة الكونية وسرد كل الفروض التي يعتقدها العلماء في مصدرها.

في نشرات العالم الكبير س. ت. ر. ولسون بين سنتي 1925 و 1929 يفرض أن يكون منشأ الأشعة النافذة هو المجال الكهربائي الحادث من العواصف الجوية وقد بين أن الإلكترونات تقذف في هذا المجال بقدر مجموع الطاقة الحادثة من فرق الضغط الكهربائي بين الغيوم المشبعة بالكهرباء، وتبلغ هذه الطاقة آلاف الملايين من الفولتات. على أن اختراق بعض جسيمات الأشعة الكونية أعماقاً من المياه تزيد في بعض الأحيان عن الـ 500 متر يتطلب طاقة أكبر بكثير من الطاقة المذكورة. ومن السهل أن نرى أيضاً أنه لا يمكن بإتباع الرأي المتقدم أن نفسر التغيير الحادث في شدة الأشعة مع خطوط العرض وهو التغيير الذي سبق أن شرحناه. وعلى وفق آراء ولسون تقذف الإلكترونات في العواصف لأعلى السحب المحملة بالكهرباء ثم تنحني مساراتها بوجود المجال المغناطيسي حتى تصل إلى سطح الأرض. ومع ملاحظة أن نصف قطر الانحناء لإلكترون له هذه الطاقة المتقدمة لا يتجاوز 700 كيلو متر وملاحظة أن هذا جزء يسير بالنسبة إلى نصف قطر الارض، فأنه من السهل أن ندرك أنه لا يمكن لهذه الإلكترونات أن تكون موزعة بالتساوي حول سطح الكرة الأرضية، وحيث أن توزيع العواصف نفسها ليس توزيعاً متساوياً فوق سطح الأرض فانه من الصعب تعليل ثبات الجزء الرئيسي من الأشعة الكونية ثباتاً لا يزيد التغيير فيه عن 10001

وما يقال عن الإلكترونات الحادثة عن العواصف يقال عن الإلكترونات الحادثة عن

السحب العادية. فهذه وأن كانت أكثر انتظاماً في توزيعها حول الأرض إلا أن الطاقة الحادثة عنها لا يمكن أن تُسبب الطاقة العظيمة الموجودة في إلكترونات الأشعة الكونية. كل هذا لا يمنع أن السحب المصحوبة بعواصف شديدة يمكن أن تكون قسماً من الجزء الرخو في الأشعة الكونية، وقد بين ذلك شونلاند
على أن من الصعب جداً أن نتخيل علة أرضية أخرى تكون منشأ الأشعة الكونية. فمثلاً يستحيل مهما كانت الحالة الكهربائية للطبقات العليا من الجو أن نتصور مجالاً كهربائياً عمودياً على الأرض يكون عظيماً بحيث يكون مستمراً وتكون له مثل هذه الطاقة.
ولو أننا وافقنا على أن يكون منشأ الأشعة الكونية خارجاً عن نطاق الكرة الأرضية فإن ثبات شدتها المتناهي ثباتاً في الزمن يضطرنا إلى أن نفترض أن لها الخواص ذاتها في الحيز المكون للكون في مجموعه
فالشمس لا يمكن إذن أن تكون مصدراً لهذه الأشعة. كذلك النجوم المكونة للمجرة، لأن هذه النجوم غير موزعة توزيعاً منتظماً حول الأرض. فلو كانت الشمس مصدرها لاختلفت شدتها مع الوقت الشمسي. ولو كانت المجرة منشأها لاختلفت شدتها مع الوقت النجمي. وهذا الاختلاف أو ذاك لا وجود له بالمرة، وبخاصة في الجسيمات الصلبة أو القوية من هذه الأشعة
وما يُقال عن المجرة يُقال عن العوالم الأخرى التي ليست موزعة توزيعاً منتظماً حول الكون المغلق.
على أنه لا يمكن أن يكون مصدر الأشعة المكونات الداخلية للنجوم، لأن طاقة الأشعة في هذه الحالة تصبح ضعيفة لاختراقها كل مادة النجم
ومهما يكن من الأمر فإن مصدر الأشعة الكونية يجب أن يسمح كما قدمنا بتفسير خواص إشعاع طبيعته وقوته واحدة في جميع الجهات حول الأرض. وقد وضع يجيز تولد هذه الأشعة في وقت ابتداء تطور العالم، بحيث أصبحت خواصها الطبيعية مع مرور الزمن واحدة في جميع وذلك بسبب رحلتها المستمرة داخل الكون المغلق
وقد وضح النظرية الاركيولوجية بفكرته في أن الكون في مجموعه لا يكون سوى ذرة كبيرة جداً تشع هذا الإشعاع على طريقة هي فوق طريقة النشاط الراديومي -
أما عند مليكان فأنه يغلب على ظنه أن بعض الحوادث الطبيعية الحادثة باستمرار في المواد الواقعة بين الأجرام السماوية ربما تعطي هذه الدرجة من إشعاع له نفس الخواص حول الأرض.
أما فرض انعدام المادة فهو لا يكفي أيضاً لتفسير إشعاع له مثل هذه الطاقة. ومن المعروف أن الطاقة الحادثة عن انعدام كتلة البروتون تساوي حوالي الألف مليون إلكترون فولت، وهي طاقة أقل من التي نعهدها في الأشعة الكونية.
كذلك ليس من المحتمل أن يكون سبب الأشعة تحول نواة معقدة وثقيلة بانعدامها وانتقال طاقتها إلى الإلكترونات أو الفوتونات، كما أنه ليس من المحتمل أن يكون السبب في الطاقة الحادثة من تكوين نواة معقدة من ذرات أبسط منها، فإن مثل هذه الطاقة تقل أيضاً عما
نعهده في الأشعة الكونية.
ويتساءل أدنجتون لماذا لا تكون هذه الأشعة بقايا تهدم حدث قديماً في المادة وشاءت الأقدار أن تصلنا أخبار هذا التهدم الآن
ويمكن القول أن كل الفروض التي تقدم بها الباحثون حتى الآن لتفسير منشأ وسبب الأشعة الكونية غير ممكنة في ناحية وإن جاز إمكانها في ناحية أخرى.
على أن نظرية العواصف هي النظرية الوحيدة التي ترجع بالأشعة الكونية لسبب مصدره الكرة الأرضية، فإذا لم يكن الدفاع عن هذه النظرية، وهو الأمر الواقع، فإن مسألة أصل الإشعاع الكوني ترتبط رأساً بنشأة الكون
وقد بين لميتر أن الطاقة الكلية للأشعة الكونية مع فرض توزيعها توزيعاً منتظماً في الحيز تبلغ 10001 من مجموع الطاقة لكل ما في الكون من نجوم وأجرام ومادة بينها
وعلى كل حال فدراسة منشأ ومصدر هذه الأشعة يبدو حتى يومنا هذا خفياً على الأذهان، وإذا اتضح كما تظهر التجارب الحديثة أن نصف الجسيمات أو أغلبها المكونة لهذه الأشعة العجيبة هي (بوزيتونات)، فإن من المحتمل جداً أن البوزيتون النادر على

الأرض هو مكون هام للكون خارجاً عنها.
ومهما يكن من أصل الأشعة الكونية، فأنه عندما نعلم ذلك نكون قد خطونا خطوة كبرى في المعرفة وفي حل موضوع يتصل بمنشأ الكون وسر الخليقة وعظمة التطور.

محمد محمود غالي
دكتوراه الدولة في العلوم الطبيعية من السوربون
ليسانس العلوم التعليمية. ليسانس العلوم الحرة. دبلوم الهندسخانة

من هنا ومن هناك

كفاح الدكتاتورين لأجل المعادن - عن ذي سينتفك وركر

تقاس قوة الأمم في هذه الأيام بمقدار ما لديها من الصناعات؛ فالصناعة هي أساس المدنية الحديثة، تستطيع الأمة بها أن تتوفر على المصادر الأساسية التي يتوقف عليها كيانها وهي إحراز الثروة المالية، والمحافظة على الحدود، وزيادة السلاح. . . والصناعة هي السند الوحيد الذي يمكن أن يعول عليه لتحمل أعباء الإدارة الحديثة، وإحراز المال الوفير لتدبير شؤونها. ومما لا شك فيه أن الأمم التي لها شهرة في عالم الصناعة تحرص دائماً على الاحتفاظ بكيانها الصناعي، ولا يتيسر ذلك إلا بوجود الخامات الجيدة التي تتوقف عليها الصناعات.

فإذا أتيح لنا أن تفحص الآلة الميكانيكية لإحدى الطائرات وجدناها تتركب من معادن كثيرة قد لا تقل أنواعها المختلفة عن عشرين نوعاً. ولا يمكن أن يضحي بمادة واحدة من المواد التي تتركب منها دون أن نضحي بشيء من قيمتها.

قد يقال عن تغيير الخامات واستبدال مواد صناعية بها، ولكن هذا إذا صح فإلى حد محدود، إذ أن الخامات المعدنية لها قوى وخصائص لا تغني إحداها عن الأخرى كل الغناء

وتستخرج المعادن من المناجم الخاصة بها، فإذا أعوز وجودها لا يمكن الحصول على ما يقوم مقامها في الصناعة. فإذا لم توفق الدولة إلى الحصول على معدن لصناعة من الصناعات، فإن الخسارة لا تقف عند ضياع هذه الصناعة فيها، ولكنها تقع على نظام المملكة على وجه العموم.

فالأمم التي تريد التوسع والنفوذ، يجب أن تستحوذ على أكبر مقدار من الخامات لصناعاتها. فإذا كان الأمر كذلك، تبينت لنا تلك الصلة التي تربط بين النشاط السياسي والحصول على الخامات.

فإذا دققنا النظر في مركز إيطاليا مثلاً، وجدنا أن هذه الأمة لا تملك مورداً واحداً لنوع من المواد المعدنية. وليس في مقدور موسوليني أن يخلق من إيطاليا أمة قوية إذا اتكل على الزراعة وحدها، فهو يلجأ إلى استصدار الفحم والزيت والحديد والنيكل والمغنيسيوم والصفيح وهي المواد الأولية للصناعات، من بلاد غير بلاده

ولم تكن بلاد الحبشة قد عرفت جيولوجيا قبل الفتح الايطالي، ولكن قد تبين أخيراً أن هذه البلاد تحتوي على أكبر مناجم للبلاتين والذهب والفضة والنحاس والحديد والبوتاس والرصاص والفحم والزيت (وهو أهم ما تصبو إليه إيطاليا) وهذه مواد ذات قيمة لا تقدر، وهي ولا شك تستحق ما بذل لأجلها من المشتقات. فلا يصح أن يقال أن التوسع الإيطالي في تلك البلاد كان يقتضيه ازدياد عدد السكان في إيطاليا مع ما هو معروف من رداءة الجو في تلك البلاد، وعدم ملاءمته للإيطاليين بحال من الأحوال

أما ألمانيا فهي تحصل على ما يكفيها من الفحم، إلا أن ضياع الألزاسي واللورين جعلها تتكل على بلاد أخرى في الحصول على الحديد والذهب. وقد استورد منها في العام الماضي 20 مليون طن. ولا شك أن ألمانيا يهمها أن تطمئن على توريد هذه المواد إبان الحرب، ولا يمكن ذلك إلا إذا وضعت البلاد التي توردها تحت إشرافها (بقصد تشيكوسلوفاكيا)

أما إسبانيا فماذا تقدم للأمم التي تهتم بها سياسياً؟ مما لا شك فيه أن الثروة المعدنية لتلك البلاد لا يستهان بها، فهي تحتوي على موارد عظيمة للحديد الممتاز والصلب والنحاس وغيرها من المعادن التي تستوردها ألمانيا من الخارج. . .

وهكذا حيثما وجهنا النظر وجدنا المواد الصناعية هي المحرك لتلك الأمم والحافز لها على التطاحن والحرب

الحب والخوف - عن مجلة (جون أولندن)

لكي نتخلص من مخاوفنا في الحياة، يجب علينا أن نكون على وفاق معها. قال أحد الحكماء: (إن الحب الخالص يزيل الخوف، إذ أن الخوف يناقض الحب. ولا يوجد قول أصدق من هذا القول). فنحن حين نكون على وفاق مع الحياة، معارفها وتجاربها وكل خليقة فيها فلا شيء نخافه. إذ إننا في هذه الحالة نعيش مع كون صديق. . . وكما يقول إدوارد كاربنتر في شعره المنثور: تسرع كل القوى العلوية إلى تحقيق مسراتنا الأبدية.

فإذا دب الحب إلى قلب الإنسان، واتصلت وشائجه بشأن من الشؤون، أصبح هذا الشان قريباً من نفسه كل القرب، فهو لا يخيفه ولكنه يسره ويؤدي به إلى السعادة.

ليس من العسير أن نوثق عرى الألفة مع الكون حتى ترتبط نفوسنا بكل ذرة فيه. وعند

ذلك نرى أن كل شيء يعما لأجلنا - بدل أن يعمل ضدنا - ويبحث عن سرور دائم يشملنا فلا نخاف شيئاً تبتلينا به الحياة، لأننا نعلم أن الحياة التي توالينا ستوصلنا إلى ما نريد، وتقودنا إلى سعادة أكبر مما كنا نظن. إن كل شيء يعمل لسعادة هؤلاء الذين يعملون مع الله! يجب أن نكون أصدقاء للكون، أصدقاء للحياة وتجاريبها، أصدقاء لكل خير، أصدقاء لكل نظام واتساق لنكون في وحدة تامة مع الحياة.

إن الحياة لحن عظيم يوقعه الحب، فلو عرفنا أن نؤدي دورنا في هذا اللحن، وسرنا على توقيع نغماته الصحيحة، كانت حياتنا جزءاً من لحن الحياة العظيم، فتفارقنا المخاوف جميعها إذ ماذا عسى أن تفعل بنا الحياة سوى أن تزيد من سعادتنا وتمدنا بالسرور الأبدي؟

إن الانسجام الأبدي والنظام يشملان الكون على الدوام، فعلينا أن نضع أنفسنا وفق إرادتهما ونسايرهما. فنظام الحياة لا يمكن أن يتبدل ليسرنا بشيء أو يضرنا به، وليس من الضروري أن يكون كذلك. ولكن الواجب أن نساير نحن الحياة، عند ذلك نجد أن لا شيء يخيفنا فيها، لأننا نكون قد دخلنا في وحدة الكون الذي ارتبطنا وإياه بالحب والوئام.

حول مشكلة العاطلين في أمريكا - عن ذي لسنر الإنجليزية

يظن الكثيرون أن أمريكا أمة غنية لا يعرف الفقر إلى أهلها سبيلاً. ويعتقد الكثيرون أن مستوى المعيشة في هذه البلاد يمتاز عن غيره في سائر بلاد العالم؛ ولكن قل أن يعرق هؤلاء أن في هذه الأمة التي يبلغ عدد سكانها مائة وثلاثين مليوناً من الانفس، عدداً غير قليل من أبنائها يعانون أشد أنواع الفاقة والفقر.

وأستطيع أن أقول إن نسبة هؤلاء البائسين الذين يعيشون في فقر مدقع في بلاد أمريكا أكثر منها في بريطانيا العظمى. إذ أن عدد العمال العاطلين في أمريكا يزيد كثيراً على عددهم في بريطانيا. وإذا كان هؤلاء العمال لا يعرف عددهم بالضبط إلى الآن، فهم لا يقلون على أي حال عن عشرة ملايين من سكان تلك البلاد. ولا شك أن للنظام الإداري والاجتماعي في أمريكا أثراً كبيراً في هذا البؤس الذي يشمل عدداً غير قليل من الأهلين، وعلى الأخص نظام المدن والولايات الثماني والأربعين، فإن هذا النظام المحلي في أمريكا لا يزال على جانب عظيم من الجمود.

وقد كان الرئيس روزفلت أول من فكر جدياً في إصلاح هذه الحال. ولا غرابة فهذا الرجل

معروف بمشروعاته العظيمة وخططه الناجحة في إصلاح تلك البلاد. وقد انتخب رئيساً للولايات المتحدة سنة 1933 في أشد الأوقات وأحرجها بالنسبة لحالة البلاد التجارية. فقلب وجوه النظر لإصلاح هذه الحال، وقد كان أهم المشروعات التي وضعها في هذا الصدد، هو مشروع (مساعدة الضرورة) الذي شمل اتحاد البلاد، وانتفع به ملايين من العمال العاطلين لمدة سنتين.

وقد كلف الحكومة هذا المشروع 150 مليون من الجنيهات، وهو مبلغ ليس بالكثير لإحياء أمة. ولم يكتف روزفلت بهذه التجربة التي استفاد بها عدد كبير من السكان، فأوقف قانون الضرورة وأحل محله نظاماً دائماً للعمال العاطلين. وقد بذل في هذا الشأن أعظم مجهود رآه العالم في مثل هذه الأحوال. . . فأعلن أن حكومة الولايات المتحدة لا تتحمل كل هذه الحاجة، ولا تستطيع أن تقوم بأود كل بائس أو مسكين،

ولكنها ستأخذ بيد العمال القادرين الذين لا يجدون لهم عملاً، لا بإمدادهم بالمال ولكن بإيجاد عمل دائم لهم
إن نظام إعانة العمال العاطلين في إنجلترا لم يرق روزفلت، فأعلن أن أمريكا لا توافق على نظام الإعانات المالية بحال من الاحوال، لاعتقاده أن إعطاء المال بدون عمل مفسدة للأخلاق.
وإذا كان لابد من المعونة فهي تعطى في حالات المرض، ويمد بها العجائز والأمهات ذوات الأطفال.
وقد أبدى روزفلت شجاعة عظيمة في تنفيذ هذا الرأي، فاستدعى صديقه مستر هاري هوبكن وهو رجل ذكي قضى حياته في ممارسة الأعمال، وعينه وزيراً وكلفه بإيجاد سلسلة من الأعمال العامة في البلاد، لتشغيل العمال العاطلين من ألسكا إلى بنما، ولم يقيده بقيود كثيرة، ولم يشترط عليه شروطاً ثقيلة، ولكنه حتم عليه أن يجعل سائر الأعمال التي يقوم بها هؤلاء العمال نافعة للدولة.
وقد قام مستر هوبكن بهذا العمل بكفاية وجدارة وأوجد في الحال أعمالاً دائمة لثلاثة ملايين من العمال العاطلين. ونستطيع أن نؤكد أن هذه الأعمال على جانب كبير من الفائدة للبلاد.
ومن أهم هذه الأعمال وأكثرها طرافة تسخير الكتبة الذين لا عمل لهم في عمل مراجع لجميع الأعمال الفنية في أمريكا، وتسخير النساء في عمل ملابس للعمال العاطلين، وإنشاء
مسارح للممثلين والفنانين العاطلين. هذا عدا الأعمال الزراعية والمنشآت والمؤسسات التي تتطلبها البلاد. وقد أنفقت الحكومة الأمريكية مبالغ طائلة في تنفيذ هذا المشروع، وهي وإن كانت لا ترى أن إيجاد أعمال لهؤلاء يكلفها أموالاً أكثر من التي تتكلفها لو اكتفت بإعطاء المعونة المالية لهم إلا أنها تعتقد أن في عملها هذا محافظة على كرامتهم ورعاية لأخلاقهم.
البريد الأدبي
1 - وضع الشيء موضعه - (مناوأة الخدر والنعاس)
في العدد السابق من الرسالة ختمت التعليق على محاضرة حافظ عفيفي باشا بهذه الجملة: (أما سئمتم الخدر والنعاس؟). وكان غرضي التعريض بقناعة من بأيديهم أمر الثقافة في هذا البلد بـ (الموظفين المخضرمين) مع إهمالهم الشباب القادرين المستنيرين.
وأما (وضع الشيء موضعه) فيدخل تحته كلامي على دار الآثار العربية وعلى استبعاد أهل الكفاية عندنا.
وعلى هذا المحورين سيدور بعض ما أنا كاتب في هذا الباب من الرسالة؛ وذلك بعد استئذان صاحبها وهو ممن يقصد وجه الإصلاح. ولن أطلب فيما أكتب غير الحق فلا أوثر هوىً ولا أخشى غضباً.
2 - فتور الحركة الأدبية في مصر
من غريب الاتفاق أن يصرح الأستاذ توفيق الحكيم في العدد السبق بنُعاس الأدباء إذ يقول: (كل شيء (يعني الكتب والتأليف) يمر في فتور. . . العلة البسيطة، ما من أحد في هذا البلد يبدو عليه التحمس الملتهب لشؤون الفكر والأدب. إن علة الفتور هي الأدباء أنفسهم. . . إنهم يكتبون في الأدب وكأنهم ناعسون. إن أقلامهم لا تثير في جو الفكر حراكاً. وهنا الفرق بين أدبائنا وأدباء أوربا).
إن يكتب الأدباء (كأنهم ناعسون) ذلك لا يقع موقع العلة، بل ذلك مظهر من مظاهر الفتور أو قل مظهره الأسطع. إنما العلة تذهب إلى ما وراء هذا. العلة في انطواء كل واحد من الأدباء على نفسه وتشبثه بأسلوب واحد وتهاونه بالقارئ.
ترى الأديب المصري لا يعني بما يجري حوله كأنه المؤلف الفرد. على أن الأديب سجلّ عصره إذ يدون مجرى التأليف، وينبه الأذهان إلى كتاب أو منحى أو مذهب أو ظاهرة اجتماعية أو ضيق معنوي. ولربما فطن أديب إلى ذلك فإذا به في غالب الأمر وأكثر الحال ينوه بصديق أو يقع في عدو أو يهمل كتاباً من الكتب جهلاً بفنه أو إنكاراً لنفاسته أو اتقاء لصاحبه أو تسامياً. أما التسامي فيدل على ذهاب بعضهم بأنفسهم على كل

أحد وذلك من باب الغرور، وقصة الغرور معروفة. وأما الاتقاء فيدل على ضيق الصدر بالنقد، ومردّ هذا
إلى الحداثة في إقبال أمّةٍ على صناعة التأليف. وأما إنكار النفاسة فمرجعه إلى خفة الثقة بالنفس وما ينشأ عن ذلك من خشية المنافسين. وأما الجهل بفن الكتاب فلتشبث الأدباء بأسلوب واحد.
وتشبث الأدباء بأسلوب واحد أن ينجذبوا إلى طريقة من التأليف أو يهيموا بأدب من الآداب، فيقفوا عندهما ظناً منهم أن ما يليهما أو يخرج عنهما لا وزن له.
وأما تهاون الأديب بالقارئ فملمسه في تلك الكتب التي تخرج للناس وإن هي إلا طائفة من (المسترسلات) مجموعة من المقالات اللاحقة بفن الإنشاء (بمعناه المدرسي) فلن يزال الأدب عندنا قاعداً حتى يدرك الأديب أن المقالات الإنشائية لا تسوّى كتاباً: المقالات للجمهور الضخم، وفيه الأستاذ والبقال وفراش الوزارة، والكتاب للقراء. ثم إن المقالات تهبط بذوق القراء إذا كانوا من الغافلين وتفتُّ في نشاطهم إذا كانوا من العارفين. . . الكتاب ينشر ليبقى فيما أعلم، والمقالات لتذهب، على الغالب. وكل ما تعده للبقاء يستلزم الروية والاجتهاد والمراجعة بل الخلق، والخلق لا يواتيك كل يوم.
إني أكره أن أوافق غيري على أن القراء المصريين لا يقبلون سوى أدب التسلية والإنشاء التعليمي. فإني - وان عرفت جناية منهج دنلوب وأعوانه على نشاطهم الذهني - لأعتقد أن فيهم من يرغب عن الشعر الذي لا تهب فيه عاصفة، ولا يصفق موج، وعن النقد الآخذ بالظواهر دون البواطن، وعن القصة المسرودة سرداً، وعن المسرحية الباكية أو المهذِّبة، وعن المقالة العابرة كما يُقال اليوم، وإن قلتَ: أتحرمني سائر القراء؟ قلت: لك ما تشاء، ولكن الأدب لا يحيا على أيدي قارئ يفتح الكتاب ليستعين به على ركوب قطار السكة الحديدية أو على إغماض الجفن إذا كان ممن يشكون الأرق.
هذا ومن مساوئ العلة الأولى - وهي انطواء الأديب على نفسه - أن أدباءنا يعوزهم التماسك المعنوي. فهذان حادثان كريهان وقعا هذه السنة لأديبين؛ فلم يعضد الأول إلا واحد، وأما الثاني فمن نصره؟ أين الغضب للفكر الحر؟ ألا عسى أن يذكر أدباؤنا أن الفرد مستضعف.
كل ذلك يعلل فتور الحركة الأدبية. ومجمل القول أن الكتاب لا يحدث حدثاً إلا في الندرة، إما لإغفال حملة الأقلام له أم لدقة شأنه؛ وأن القارئ الجدَّ لا يكاد يصيب أدباً رفيعاً يلهج
به، وأن جمهرة الأدباء لا يضمون أصواتهم بعضها إلى بعض حتى يُحس الناس انهم مستيقظون.
بشر فارس
حفلة تأبين الملك غازي الكبرى في بغداد
كان يوم الأحد 14 مايو من أيام بغداد الغر. وما أكثر الأيام الغرّ في بغداد! وكانت حافلة بوفود العربية من كافة أقطارها. وكان الناس في كل نديّ وقهوة ومنزل مصغين إلى صناديق الإذاعة التي لم تنقطع منذ الغداة الباكرة إلى ثلث الليل عن بث الخطب والكلمات والقصائد والمقطوعات تتخللها آيات الذكر الحكيم يتلوها المشيخة من قراء بغداد، وعلى رأسهم القارئان الأشهران الحاج محمود عبد الوهاب والمّلا مهدي
أما الحفلة الكبرى التي شدت إليها الرحال، فقد أقيمت في (بهو الأمانة) في منتصف الساعة الرابعة فافتتحها الملا مهدي بتلاوة آيات (وما محمد إلا رسول) وكان موفقاً في اختيارها، ثم أعلن عريف الحفلة الأستاذ السامرائي مدير الدعاية والنشر أن الكلام لفخامة نوري السعيد باشا الذي رحب الضيوف، وتكلم عن العرب في الجاهلية ووصف ما كانوا عليه من تأخر وجهل وما صاروا إليه بعد اتباعهم محمداً من التقدم والعلم، وعرض لوفود العراق على النبي صلى الله عليه وسلم ووصف هذه الوفادة بأنها ابتداء الصلة بين العراق والأسرة الهاشمية. ثم تكلم عن أثر العراق في نشر الإسلام وصلتهم على الأيام بهذه الأسرة الماجدة، وخلص إلى الكلام على الملك حسين وما قام به من أعمال وعلى ابنه وحفيده عليهم رحمة الله. ثم صرح بأن العراق سيواصل العمل في سبيل القضية العربية، وختم كلمته برفع الشكر إلى الأمة العربية الممثلة في وفودها.

ثم قدم العريف دولة لطفي الحفار بك رئيس الوزارة الشامية السابقة الذي ألقى كلمة طيبة بيّن فيها عظم الفاجعة بغازي، وأثر الحسين وأسرته في تاريخ العرب، وذكر بالشكر موقف الملك غازي من الشام شماله وجنوبه؛ وأعلن أن الشام وأهله سيبقون ذاكرين له شاكرين، وصرح بوحدة المشاعر والأماني بين البلدين

ثم قدم سعادة حمد الباسل باشا فألقى كلمة افتتحها بذكر الاتفاق في الموضوع والفكر في

الخطب كلها، وأن ذلك يدل على اتفاق العواطف والشعور، ثم تكلم عن ثورة الحسين وعن أسرته إلى أن انتهى إلى غازي وفيصل الثاني (الصغير بنفسه الكبير بأمته) وأثنى على حسن اختيار الوصي وعزى العراق باسم مصر وَرَجَا لَهُ التقدم والمجد

ثم تكلم جمال بك الحسيني مندوب اللجنة العربية باسم فلسطين فبيّن أن الكوارث تنشئ القوة وأن امتحان العراق بالنكبات لم يكسبه إلا قوة وصبراً. ووصف روعة المصاب بغازي وآلام البلاد العربية ولا سيما فلسطين وعمل غازي في سبيلها، وأعلن أنها لن تنسى عمله ولن تحيد عن مبدأ جده الأعظم الرسول المصطفى

ثم ألقى الأستاذ علي الجارم مندوب وزارة المعارف المصرية قصيدة دالية افتتحها بالبكاء على النضار الحرّ (فما أغنى البكاء ولا أجدى)، وعلى النبات الذي ذوى، وجذوة النار التي انطفأت ووصف (لوعة مكلوم الفؤاد) وذكر أنه الدهر (هو الدهر ما بضت بخير يمينه، يجمعنا سهواً (؟) وينثرنا عمداً) وأنه لا يفرق بين ملك وعبد، ووصف المصاب أوصاباً عامة تنطبق على كل مصاب، وتصلح لكل ميت، فهدّ (على عادته في كل رثاء) هدّ العلياء، وأطفأ نور الشمس، وفرق الأنفس، وأبكى الترك والهندا (ولا تنس أن القافية دالية). أما ما يخص به الراحل الكريم ويصفه به، فهو أنا فقدناه ريان الشباب، وأن شمائله تفيض مسكاً وآثاره نداً، وأنه كان حساماً بيد الله فصارت الأرض له غمداً، وذكر اسمه بعد فقال:

يقودهم الغازي إلى خير غاية ... فأكرم به ملكاً وأكرم بهم جندا

كأن غبار السيف في لهواتهم ... سلاف من الفردوس مازجت الشهدا

وجاء في القصيدة أبيات حلوة جيدة، ولكنها على حواشي الموضوع كقوله:

لهم في سجل المجد أول صفحة ... كفاتحة القرآن قد ملئت حمدا

ومن كتب المجد المبين بسيفه ... على جبهة الدنيا فقد كتب الخلدا

ثم خاطب (حمامة وادي الرافدين) وسألها الترفق ودعاها إلى الصبر، وتكلم عن دجلة والنيل وجاء بأبيات حلوة ثم أحس بأنه لم يقل إلى الآن شيئاً عن الملك غازي بالذات فعاد يصفه. . .

مضى الهاشمي السمح زين شبابهم ... وأعرقهم خالاً وأكرمهم جدا

فتى تنبت الآمال من غيث كفه!!

واكتفى بذلك، فانتقل إلى وصف سفره إلى بغداد والقلب واجف، وسلوكه الصحراء، وعده الساعات وسأمه، وأنه جاء يقضي للعروبة حقها. ثم ختم قصيدته بالسلام على غازي وعلى الذي من بعده (كما كان يقول المتقدمون. . .) وقد كان إلقاؤه مؤثراً. وأسلوب القصيدة حلو سلس، وأن كانت في غير الموضوع، وكان في الإمكان رد معانيها إلى مواضعها من الدواوين المطبوعة. . .

ثم قرأ الأستاذ بهجة الأثري المفتش في وزارة المعارف كلمة معالي الدكتور هيكل باشا الذي أعلن أسفه على حرمانه من حضور الحفلة، ووصف أثر الأسى في جمع القلوب، وبين أن العرب كلهم أسرة واحدة كان الفقيد من أقطابها وإن الفاجعة فيه عظيمة، إذ فقده شعبه ملكاً، وفقد ابنه أباً براً. وتكلم عن اتجاه العراق إلى الوحدة العربية، واستشهد بحديث له مع فخامة نوري السعيد باشا، ثم بين رجاء العرب في العراق ومليكه الجديد، ومشاركة مصر إياه في آماله وآلامه

ثم قرأ طالب مشتاق بك طائفة من البرقيات الواردة من رفعة النحاس باشا من مصر، وسعادة الدكتور شهبندر من دمشق، والعشماوي بك، وخليل ثابت بك، والأستاذ خليل مطران من مصر، وعصبة العمل القومي من دمشق، والأستاذ صبري العسلي، ومعالي شكري بك القوتلي.

ثم ألقى الأستاذ الشيخ يوسف الخازن كلمة لبنان، فبيَّن أن روابط الجهاد تؤلف بينه وبين العراق، وذكر فضل البيت الهاشمي على العرب، وأن قد (تحدث به الركبان في

الحل والجزم!) ووصف شباب غازي وضمّن كلامه أبياتاً في الشباب، ووصف جماله وذكر أن الله جميل يحب الجمال. . . وبيّن موقفه من الفتنة الاثورية بكلام كله استعارات ومجازات وتضمينات شعرية. . . وشبه غازي بهنري الرابع الذي وصفه شاعر بأنه أخذ الملك بالإرث وبالفتح معاً؛ وشبه فيصل الصغير بلويس الرابع عشر الذي ولى الملك صبياً ورجا لَهُ مثل أيام لويس، وكانت كلمته حافلة بالمعاني، وفيها وصف للفقيد.

ثم ألقى السيد بهاء الدين طوقان قصيدة الشاعر الشيخ فؤاد باشا الخطيب وهي لامية أولها (الذكر باق والعروش تزول) وصف فيها نشأة غازي في أرض الحرم، ونخوته ونفسه الأبية. ووصف حياته بأنها حلم أعقبه حيرة وذهول، ووصف حزنه على الفقيد، وتمنى أن يكون له مزامير داود ليرثه ولكنه عاجز، ووصف عيه وعجزه وتمدح بأنه الطليق الحر، ولكنه غدا اليوم مقيداً. والقصيدة قصيرة أشبه بمقطوعة من شعر الخطيب منها بقصائده الطوال

ثم ألقى مندوب الأزهر كلمته فافتتحها باسم الله، وانفرد بهذا الافتتاح المبارك دون سائر خطباء الحفلة، وبين أن للحياة مراحل أربعاً كل واحدة أوسع من التي قبلها وأطول مدة، وهن حياة الجنين وحياة الدنيا وحياة البرزخ وحياة الخلد في النعيم أو الجحيم. وتكلم عن الوحدة الإسلامية وأنها في وسائل السلام العام، وبيّن مبلغ الفجيعة بغازي والأمل في فيصل، ودعا إلى القوة ونفي اليأس. وكانت كلمة طيبة ولكنها كانت أشبه في مفتتحها ببحث علمي منها بخطبة تأبينية

ثم ألقى الأستاذ أكرم زعيتر من فلسطين كلمة حماسية قوية وصف فيها جهاد فلسطين، وتكلم عن اهتمام المليك الراحل بقضيتها، وعرض صورة خيالية مؤثرة لليالي المليك التي أحياها مفكراً في فلسطين وتوهم حديثاً بينه وبين أهله، واستنجد العراق باسم فلسطين، وطلب لها انتداب العراق وحمايته؛ وذكر أن الأمل في فيصل الصغير، ومدح حكومة العراق وشعبه.

ثم ألقى الأستاذ سليمان الأحمد (بدوي الجبل) قصيدة دالية بدأها بصور خيالية، وصف فيها مصرع الشمس، وجعل حمرة الفجر مقتبسة من دم غازي. ووصف عرس الجنان، وسدرة المنتهى. ثم وصف كيف ضمت آلام فتاها الشهيد وصور روعتها وحنانها، ووصف بغداد (دنيا الرشيد، تفني الحضارات، وتبقى كالدهر دنيا الرشيد)، وكيف لاحت فهتف الهاتفون فجنت السيوف، وانتخت في الغمود)، وانتقل إلى ذكر غازي:

وتجلى غازي فكبرت الدنيا ... وقال الجلال هل من مزيد
وبيمناه راية الوحدة الكبرى ... فميدي يا راية الله ميدي

ووصف عيد المليك، وصوّر المهرجان في دمشق، وما أعدت له من زهر الغوطة وعطورها. ثم ذكر كيف كان ذلك كله حلماً وانطوى، (فمن رأى النسر بادرته المنايا، فهوى وهو ممعن في الصعود). وبين روعة الشام لجلال الحادث:

أشفقوا أيها النعاة على الشام ... ولا تجهروا بنجوى البريد

فربما كان كذباً، ربما كان اختلاقاً. ثم تحقق الخبر، ولم يبق من شك فسألهم أن (أذيعوه يرجف البر والبحر، واحملوه إلى ابن حمدان، وألموا بخالد وأمية وغسان. . . ثم انتقل إلى ذكر الملك الطفل فجعل له:

تاج بغداد والشام ولبنان ... وبحر للروم طاغ عنيد
أيها البحر بعض تيهك لست للروم ... (أنت للملك نضار بتاجه المعقود)
أيها البحر أنت مهما افترقنا ... ملك آبائنا وملك الجدود

وبين أنه: (هاشمي الهوى أحب فما داري، وعادي على هواهم وعودي) - وكانت القصيدة على الجملة أحسن ما ألقي في الشعر في هذه الحفلة، وإن كانت في أسلوبها دون الجارمية وقد اختتمها بذكر الوحدة:

ليس بين العراق الشام حد ... هدم الله ما بنوا من حدود

ووصف جيش العراق الذي يغزو قبة الفلك. . . وتسجد له الدنيا. . . وجعل الشام في ذمة الوصي على عرش العراق وذمة العراق. . .

ثم ألقى الدكتور عبد الوهاب عزام كلمة الجامعة المصرية فوصف كيف شجاها الخطب، وبين التعاون بين القطرين على بناء المجد، وذكر روعة الخطب وعظمه،

ولكنا أعظم منه لأننا بنو الشدائد، وعرض إلى عبرة الخطوب وثمراتها في جمع الكلمة والوحدة، وأعلن أن هذا المصاب مصاب المسلمين كلهم، وختم كلمته بمقطوعة شعرية جيدة، بين فيها أن الرخاء بعد الشدة، وأن البدر يبزغ من بين الغيوم، وأن ضحك الأرض من بكاء السحب، وبعد غيض الماء فيض دجلة، وأن في كل خطب للفراتين دعوة إلى المجد والقوة والحياة. وكانت كلمة طيبة بإلقاء أطيب.

ثم ألقى الأستاذ الشريقي قصيدته فافتتحها بوصف حزنه، ونضوب دمعه، وأثر الحزن في دجلة:

وما الحزن إلا ما ألم بدجلة ... ففاضت دموعاً فهي تندب غازيا

وجعل غناء الأطيار مراثياً، والاقمار تبكي مؤملاً: أطلّ على الدنيا هدى وأمانيا. ووصف غازي وصفاً مجملاً:

فلله من أدى الأمانة حقها ... ووهّج للضوء الذي كان خابيا

وأنه تمرس بالأخطار، وأنه فتى الأمل المزهو، وأنه خير من قاد العتاق المذاكيا، وأنه هو الفجر إشراقاً، وله الهمة القعساء، وطلب لقبره سقيا الغيث:

ويا لشهيد المجد حياه هاطل ... من الغيث لم يبرح على القبر هاميا

في أوصاف هذا سبيلها، ثم عرض للأمل ببغداد وأنها:

تواثب دهر العرب حتى ترده ... وقد كشفت عنه الأذى والعواديا

والقصيدة من باب الجارمية وإن كانت لا تحمل مثل أسلوبها وليس لها سلاستها وحلاوة ألفاظها

ثم ألقى الشاعر اللبناني الأستاذ شبلي الملاط قصيدة وصف فيها الفاجعة بغازي أحسن وصف، ولكنه لم يملك ناصية الأسلوب ولم يستطع أن يجعل ألفاظه كمعانيه فهو على الضد من الجارم، وانتقل من وصف الفاجعة التي حدد تاريخها وصور دقائقها إلى الكلام على فيصل:

بدر العروبة وابن عم محمد ... نسباً وأعرق دوحة ميلادا

وأعاد أيام الرشيد وتاجه ... واستصرخ المجد القديم فعادا

ثم انتقل إلى غازي ووصف أخلاقه وأنه يلين عند اللين ويشتد عند الشدة:

وتثور ثورة نفسه إن حاولت ... أيدي الغريب لقومه استعبادا

ثم وصف فلسطين وأطال ثم خلص إلى الكلام على نصرة غازي إياها، وعرض لذكر فيصل الصغير وندائه أباه، وتفتيشه عنه في سريره، وذكر عبد الإله والعراق ولم ينس أن يتحدث عن نفسه وأن يتشبه بـ. . . هوميروس!

ثم ألقى الأستاذ اليعقوبي قصيدة طويلة جداً ليس في مبناها ولا معناها ولا إلقائها ما يذكر بالجودة. يقول فيها:

أبا فيصل أحبب بها لك كنية ... ورب رجال لا تحب كناها

وجاء فيها (وأسفرن ربات الحجال) على لغة (أكلوه البراغيث)، وجاء فيها (ولا مرحباً في نهضة أو قضية إذا كنتم لا تحملون لواها)، وكان خيراً لو ختمت الحفلة بشبلي الملاط. ثم ختم الحفلة فخامة رئيس الوزارة العراقية بالشكر والدعاء

(بغداد)

(ع. ط)

جمع الباسل

قال فاضل مشهور في قصيدة في هذه الأيام:

طرحنا رداء اليأس عنا بواسلاً ... وأن هزنا يوم العراق وأن أدّا

فجمع (باسلاً) على (بواسل) والبواسل للباسلة، لا للباسل، ولهذا البُسْل - كالبُزْل - والبسلاء، وفي الصحيح الباسلون. قال (الكتاب): (وإذا لحقت الهاء فاعلاً للتأنيث كسر على فواعل، وكذلك أن كان صفة للمؤنث ولم تكن فيه هاء التأنيث وإن كان فاعل لغير الآدميين كسر على فواعل وإن كان لمذكر أيضاً وقد اضطر فقال في الرجال وهو الفرزدق:

(وإذا الرجال رأوا يزيد رأيتهم ... خضع الرقاب نواكس الأبصار

وقد شذت شاذات ذكرها الصحاح والتاج. قال الأول: (أما مذكر ما يعقل فلم يجمع عليه - أي على فواعل - إلا فوارس وهوالك ونواكس، فأما فوارس فلأنه شيء لا يكون في المؤنث فلم يخف فيه اللبس، وأما هوالك فإنما جاء في المثل فجرى على الأصل

لأنه قد يجيء في الأمثال ما لا يجيء في غيرها، وأما نواكس فقد جاء في ضرورة الشعر) وقال الثاني: (قد جاء أيضاً غائب وغوائب، وشاهد وشواهد، وفارط وفوارط، وخالف وخوالف)

وإن قال أدباء بسلاء: (إن بواسل كفوارس شيء لا يكون في المؤنث فلم يخف فيه اللبس) فجواب هذا القول عند (العربيات المصريات) البواسل. . .

محاضرة هامة في جمعية المهندسين الملكية

ألقى الأستاذ الدكتور محمد محمود غالي من مصلحة الطبيعيات محاضرة عن الأشعة الكونية حضرها كثير من المهندسين والعلماء يتقدمهم صاحب المعالي محمد شفيق باشا وزير الأشغال السابق ورئيس الجمعية الذي أهتم بموضوع الأشعة منذ العام الماضي عندما طرح الدكتور غالي بدار الجمعية أبحاثه القيمة عن طمي النيل، فطلب منه أن يحاضر زملائه المهندسين عن أحدث ما يعرفه في العلم التجريبي

والدكتور غالي محاضر ممتاز بتبسيط المواضيع العويصة وبمهارة التحليل العلمي وقوة الاستنتاج وعظمة الاستقراء.

والرسالة تقدم لأحد أفراد أسرتها التهنئة لما يصادفه في جميع محاضراته من نجاح

رسالة النقد

في سبيل العربية - 5

كتاب البخلاء

للأستاذ محمود مصطفى

كان يصح أن أجعل موضوع حديثي اليوم ما أفضى إليّ طالب بالسنة التوجيهية بإحدى مدارس وزارة المعارف بالقاهرة، فقد جلس الطالب إلى جانبي في بعض مراكب (الترام) وجعل يشكو إليّ (على غير علم بأني ناقد كتاب البخلاء) من أنه قد يعرض للطلبة توقف في فهم بعض أغراض الشارحين للكتاب فيبدو لهم أن يناقشوا أستاذهم في ذلك، فيوصد باب التفاهم معهم بقوله: إذا قال الجارم بك وجب الإذعان. وهكذا يميت الأستاذ في نفوس طلابه حب البحث ومعالجة الحقيقة بكلمة لعله يرجو أن تصل إلى صاحبها فتكون شفيعاً له. ولكن ما أدناها من شفاعة إذا كان الأستاذ يعلم صواب ما يريد طلابه مناقشته فيه فيحتجنه عنهم ابتغاء مرضاة رئيسه.

ولكنا نعود إلى عملنا في نقد الكتاب راجين من حضرات المدرسين بالسنة التوجيهية، وهم الذين يدرسون الطلاب هذا الكتاب ويعدونهم للامتحان فيه بمناقشة معانيه وتوجيه مراميه راجين منهم أن يزنوا كلامنا حتى إذا آمنوا بصدقه عادوا إلى طلابهم فصححوا ما كانوا قد مروا به من سقطات الكتاب ليؤدوا بذلك أمانة العلم كاملة إلى طلاب لا لوم عليهم إذا قبلوا حقائق تقول وزارة المعارف إنها محضتها فارتضتها غذاء لعقولهم.

ص 91 يقول خالويه المكدي لابنه:

ولست أرضاك وإن كنت فوق البنين، ولا أثق بك وإن كنت لاحقاً بالآباء، لأني لم أبالغ في محبتك)

هكذا أورد الشارحان كلمة (محبتك) وعلقا على الجملة بقولهما:

(ولست أرضاك) أي لسري وثقتي. (وإن كنت فوق البنين) أي فوق أبنائي منزلة. (ولاحقا بالآباء) أي لأنك كبير السن. (لأني لم أبالغ في محبتك) لأني لم أجاوز الحد في تقدير محبتي إياك

وهذا التفسير خطأ في ذاته ينقض آخره أوله؛ إذ كيف يجعله أولاً فوق البنين ثم لا يكون مبالغاً في محبته! وهل فوق محبة البنين محبة؟!

كان يكفي هذا التناقض لعدول الشارحين عن شرحهما وبحثهما عن تصحيف أو تحريف لعله يكون قد وقع في الجملة، ولكنهما لم يفعلا وقبلا هذا التناقض في سطرين متوالين من شرحهما.

والذي أراه أن كلمة (محبتك) مصحفة عن كلمة (محنتك)، والمحنة الاختبار. فيكون الذي منع الوالد من أن يجعل ابنه موضع سره ليس نقص محبته ولكن نقص تجربته له أما كون الأب لم يجرب ابنه فذلك معقول، جائز خصوصاً إذا كان الأب كخالويه هذا قضى حياته موكلاً بفضاء الأرض يذرعه

وفي الصفحة عينها يقول خالويه هذا متحدثاً عن ماله: (ولم أحمد نفسي على جمعه كما حمدتها على حفظه لأن بعض هذا المال لم أنله بالحزم والكيس)

والمعنى في ذلك واضح، فهو يقول أن بعض هذا المال صار إليّ من غير تعب أو محاولة في جمعه، كان صار إليه من هبة أو ميراث، فلا يكون له فضل في الحصول عليه. ولكن الشارحين يقولان في معنى الجملة الأخيرة: (لأني لم أسلك في جمع بعضه طريق الحكمة والحزم).

وهذه عبارة ناطقة بأنه سلك في جمع هذا البعض طريقاً غير طريق الحكمة والحزم

في ص 106 يصف الجاحظ رجلاً بأنه عضب اللسان عارف بالغامض من الأمور فاهم للدقيق من المحاسن لا يسكت على عيب في الناس إلا ندّد به وشهّر، ثم يقول عنه بعد ذلك:

(وإن ثريدته لبلقاء إلا أن بياضها ناصع، ولونها الآخر أصهب. ما رأيت ذلك مرة ولا مرتين).

فيقول الشارحان بعد أن فسرا البلقة بأنها بياض وسواد أو بياض وحمرة: ويظهر أن هذا التلون في الثريدة يكون من قلة الدسم أو رداءة المرق وقلته، حتى ليكون بعض الثريدة مشبعاً به وبعضها ليس كذلك. اه

والظاهرة العجيبة في هذا الشرح أن الشارحين يذكران فيه شيئاً غير معقول لأحد، حتى

لهما أنفسهما، ذلك أنهما ينسبان هذا التلون في الثريدة إلى قلة الدسم، فكيف يتصوران هذا؟ لاشك أنهما فرضا هذا الدسم صبغاً كصبغ الحيطان أو صبغ البيض في شم النسيم! حين ذاك حقيقة تكون قلة الدسم كافية لأن يظهر بعض الثريدة بلون الخبز الأصلي وهو البياض، وبعضها وهو الذي ناله الصبغ يكون من نصيبه تلك الصهبة، كذلك تعليلهما هذا التلون بقلة المرق أو رداءته. وما ندري كيف جاز هذا في رأيهما ولم يقل به طاه ولا طاهية؟

إنما الذي يصح أن يفهم من اختلاف لون الثريدة أن الرجل كان يقدمها إلى ضيفانه وقد كسي بعضها باللحم وترك جانب منها لا لحم عليه، فظهر هذا أبيض ناصعاً بلون الخبز، وذلك أصهب بلون اللحم. ويكون ذلك عيباً كبيراً ومسبة شنيعة في كرم الرجل لأنه لم يجر على عادة الناس من تغطية جميع الثريدة باللحم. فإذا كان قد زاد على ذلك أنه جعل ما يليه من الثريدة هو المغطى باللحم يكون قد ارتكب إلى جانب البخل رذيلة أخرى هي رذيلة الأثرة على من يجب نحوهم الإيثار

ويؤنسك بهذا المعنى قول الجاحظ تلو هذا الكلام: (وكنت قد هممت قبل ذلك أن أعاتبه على الشيء يستأثر به ويختص به. . . فلما رأيت البلقة هان على التحجيل والغرّة)

يريد أنه كان يرى من هذا الرجل استئثاراً بالشيء دون جلسائه، ولكن ذلك يكون خفي الوضع ليس في شناعة تمييزه لنفسه على الخوان بجعل الثريدة التي يأكل منها على حال غير التي يجعلها أمام الناس من مضار مائدته، فلما رأى منه ذلك لم يروجها لنصحه لأنه لا يقدم على هذا إلا مصرّ غير مبال بذم الناس ونقدهم

ص 109 يقول الجاحظ للحزامي وقد اتهمه بالإسراف وتضييع الحزم حين رآه يلبس من ملابس الشتاء قبل أبانه: (وأي شيء أنكرتَ منا منذ اليوم). فيعلق الشارحان على قوله (أنكرت) بقولهما: أي جحدت واستقبحت من أمرنا.

وقد جمعا في التفسير بين معنيين متضاربين فإن الجحود ادعاء جهل الشيء مع علمه وهو لا يلتقي مع الاستقباح، إذ هو إعلان الرأي بقبح الشيء

والواقع أن الإنكار يفسر بالمعنيين، ولكن ليس يلزم من هذا أن يفسر بهما معاً في مقام واحد. فالمراد هنا هو المعنى الثاني فقط وهو الاستقباح، فأما الجحود فلا محل له كما هو

واضح من مقام الكلام

وقد وقع الشارحان في هذه الغلطة نفسها في ص 129 حين أورد الجاحظ وصف الجارود لطعام عبد الله بن أبي عثمان فقال: (يُعْرَفُ ويُنْكَر). فقال الشارحان في التعليق على ذلك: ينكر من الإنكار وهو الجحود والمراد يُحَبُّ ويُكْرَه. فجمعا في التفسير اللغوي وبيان المراد بين المعنيين وهما الجحود والاستقباح لأن مقصودهما من قولهما (يُكْرَه) إنما هو أنه مستقبح. فبان من ذلك استساغة الشارحين للمعنيين معاً وجمعهما في تفسير كلمة الإنكار حيث وجدت، مع أنها إذا فسرت بأحدهما امتنع

تفسيرها بالآخر في نفس المقام. وهذا ظاهر
ص 114 يحكي الجاحظ عن الحزامي:
كان يقول: أشتهي اللحم قد تهرأ وأشتهي أيضاً الذي فيه بعض الصلابة)
(وقلت له مرة: ما أشبهك بالذي قال أشتهي لحم دجاجتين
فيعلق الشارحان على قوله: (وقلت له مرة) بقولهما: أي لما قال أشتهي اللحم. .
وكان مقتضى الظاهر أن يقول فقلت له. اه
يتعب الشارحان أنفسهما في محاولة ربط الكلام بعضه ببعض ولكنهما في سبيل ذلك يعدلان عن صواب إلى خطأ ويحملان اللفظ ما لا يحتمله من المعاني، ويتقولان على القائل ما لم يقل، أو يستظهران ما لا داعي إلى استضهاره. ومن ذلك قولهما هنا: كان مقتضى الظاهر أن يقول فقلت له (أي بدل وقلت)
ونرى أنه لا داعي لهذا فإن عبارة الحزامي (أشتهي اللحم الذي قد تهرأ) كانت هجيّراً، ومن لوازمه المأثورة عنه فقال له الجاحظ في مرة من المرات التي كان يرددها فيها: ما أشبهك الخ.
والدليل على ذلك قول الجاحظ: (وكان يقول) ولو كان قد قالها مرة واحدة كما ظن الشارحان لقال: (وقال مرة) فتكون ملاحظتهما جائزة
فبان أن الخروج عن مقتضى الظاهر لم يكن من الجاحظ وإنما كان من الشارحين
ص 115 يروي الجاحظ قصته فيقول:
وكنا عند داود بن أبي داود بواسط أيام ولايته كَسْكر فأتته من البصرة هدايا فيها زقاق)
دبس فقسمها بيننا، فكل ما أخذ منها الحزامي أعطي غيره). فيضبط الشارحان كلمته
كل بالضم ويعلقان على الجملة بقولهما: (أي فجميع الذي أخذه الحزامي من هذه
الزقاق فرقه على أصدقائه. فمفعول أعطى الثاني محذوف)
وهذا الضبط خطأ ويتبعه خطأ الإعراب أيضاً، والواجب ضبط الكلمة بالفتح فتكون مفعولاً ثانياً مقدما لأعطى. والقاعدة أن الفعل إذا كان يطلب مفعولاً فما دام في حيزه ولا مانع من وصوله إليه لم يجز منعه عن العمل فيه. وعلى هذا يكون تقدير الجملة
أعطى الحزامي غيره كل ما أخذ من الزقاق
سنراعي جانب الإيجاز البالغ فيما بقى من المآخذ على الكتاب. وربما انتهينا :(ملاحظة)
من ذلك في مقال أو اثنين لأننا نعتقد أن على الرسالة حقاً لقرائها في تنويع القول وتلك هي سنتها معهم.
محمود مصطفى
الكتب
حياة الرافعي
تقدير ونقد
للأستاذ أبو الفتوح رضوان
(تتمة ما نشر في العدد الماضي)
وفي ص 57 نكتة من الأسلوب أظنها تريد أن تلقي في ذهن القارئ أن الرافعي ترك الشعر إلى النثر لأنه عجز عن الصياغة الشعرية. يقول المؤلف: (فما أراه كان يقول ذلك - يعني قيود الشعر - لا تعبيراً عن معنى تأبى كبرياؤه الأدبية أن يصرح به، وفي رأيي أن الرافعي لم يقصر في مضمار الصياغة الشعرية وإنما كان تركه الشعر نتيجة لما تصدى له من فنون الأدب. فالشعر لا يتسع لأكثر من الخواطر السريعة والخلجات النفسية القصيرة، على حين قصد الرافعي إلى الفلسفة والتطرق إلى بواطن المشاعر والوجدانات، ولو أنه نظم فلسفته في الجمال والحب لما استساغ ذلك إنسان، وفي رسائل الأحزان وأوراق الورد شعر جيد قد لا يتفق لغيره ممن اشتهروا بالشعر دونه. فأداة الرافعي في الشعر لم تكن عاجزة ولا قاصرة. ولكن تدفق عاطفته وغزارة خواطره وعمق فلسفته هي المسؤولة عن هجره الشعر. ثم ألم يكن من الخير للعربية أن يتجه الرافعي إلى النثر؟
ويرد المؤلف (ص 67) تقديم شوقي لنشيده بعد أن طلبه إليه ذلك وإحجام حافظ، إلى إباء في طبع هذا وحرص في طبع ذاك على أن يقال في كل مناسبة قال شوقي. ولو كان الأمر كذلك لقدم شوقي نشيده من أول الأمر. والحق أنه استكبر أن يتقدم في مسابقة مع صغار الشعراء، وأنف من أن يضع شعره موضع الامتحان؛ فلما وعد بأن

نشيده هو الفائز تقدم به، أما حافظ فكان عضواً في اللجنة، وعلى ذلك فهو يعرف اتجاهها نحو نشيد شوقي فلم يتقدم حفظاً لكرامته.

وخرج المؤلف من فصل (شيوخه في الأدب) بالنتيجة الصحيحة التي لا يتطرق إليها باطل، من أنه ليس للرافعي في الأدب شيوخ، وإنما هو فريد في فنه وفي أسلوبه، وأنه في ذلك مبتكر لم ينسج على منوال أحد. ولكن مادام الأستاذ قد حاول أن يصل إلى بعض من

أثروا في أسلوبه، ألا يجد شيئاً من ذلك في حبيبته (فلانة). ثم ألا يجد الأستاذ بعض الدليل على ذلك بالموزانة بين أسلوبه وبين أسلوبها في كتابها الذي نشر قبل رسائل الأحزان بقليل؟ ثم ألا يكون لميلها إلى المعاني البكر والديباجة المشرقة بعض ما وجهه في فنه البياني هذا الاتجاه؟

وفي ص 141 يقول المؤلف أنه لما غضب الابراشي باشا من الرافعي نشر قصيدته في مدح جلالة الملك فؤاد جنباً إلى جنب مع قصيدته (الأستاذ عبد الله عفيفي المحرر العربي بديوان جلالة الملك). والصواب أن الأستاذ عبد الله عفيفي لم يلحق بمعية جلالة الملك إلا بعد هذا التاريخ، وإنما كان حينئذ يشتغل بالتدريس. وظل يشتغل به إلى ما بعد نشر مقالات على السفود في نقد قصائده

وحاول المؤلف عند الكلام عن نسخة الرافعي الخاصة من كتاب (كليلة ودمنة) أن يعدد ما كتبه الرافعي من هذه الفصول. فعد ثمانية فصول في كتاب (تحت راية القرآن). ثم قال أنه أهمل هذه النسخة الخاصة من كليلة ودمنة إلى سنة 1933 عندما دارت المعركة حول (وحي الأربعين). فنشر الفصل التاسع وهو (الثور والجزار والسكين). والصواب أن الرافعي عاد إلى تلك النسخة قبل ذلك بكثير. فقد نقل عنها فصلين على ما أذكر في (على السفود). وقد كتبت هذه المقالات في سنة 1929. وجاء فيها حكاية (حبة القمح وحجر الطاحون)؛ وحكاية البعوضة والمنطاد (زبلن). وعلى ذلك فهما الفصلان التاسع والعاشر من كليلة ودمنة الرافعي. ثم عاد الرافعي إلى هذه النسخة ثانية عندما كتب (أوراق الورد) الذي تم طبعه في 1931، ففي ص 229 و 230 من هذا الكتاب حكاية (الغزال والأسد) وهي الفصل الحادي عشر من نسخة الرافعي من كليلة ودمنة؛ وهي حكاية طريفة أدارها على بعض ما كان بينه وبين حبيبته فلانة، وأشار في هامش الكتاب إلى أنها فصل من كليلة ودمنة ووعد بإتمام فصول الكتاب. وعلى ذلك تكون حكاية (الثور والجزار والسكين) هي الفصل الثاني عشر لا التاسع من كليلة ودمنة الجديد

هذه ملاحظات عنت لي في أثناء قراءة الكتاب، وهي لا تنقص شيئاً من قيمته التي قدمت من خبرها في صدر المقال. ولا أختم كلمتي قبل أن أهنئ الأستاذ سعيداً على توفيقه في هذا الكتاب الفذ. وقبل أن أنوِّه بتلك الفصول القيمة التي كتبها عن (رسائل الأحزان) و

و (أوراق الورد)، وهي فصول لم يكتب على منوالها في التعريف (السحاب الأحمر) بالكتب. وأظن القارئ في حاجة إلى أن يعيد قراءة هذه الكتب على ضوء تحليل الأستاذ سعيد مهما كان قد أطال فيها النظر والدرس قبل ذلك

أبو الفتوح رضوان

العدد 308 - بتاريخ: 29 - 05 - 1939

البلاغة من لوازم القوة

من سنن الله في الناس أن البلاغة تلازم القوة فلا تنفك عنها إلا في النُّدرة. والمراد بالقوة قوة الروح لا قوة العضل؛ فإن قوة العضل مظهرها قوة الحركة؛ أما قوة الروح فمظهرها قوة الكلمة. فكلما قويت الروحية في المرء قويت الفكرة؛ وكلما بلغت الإنسانية فيه بلغ البيان. وليس من السهل تعليل سطوع النفس وإشعاع الروح بالمنطق البيّن، فإن ذلك لا يزال فوق الفهم ووراء المعرفة. وحسب المدارك المحدودة أن تقف لدى الظواهر والآثار فتحكم بالاستقراء وتبنى على الواقع. والواقع أن قويّ الرجولة بليغ الكلام ما في ذلك شك. كأنما قوة الحيوية في الرجل تستلزم قوة الشاعرية فيه. ومتى أشرق المعنى في الذهن النفاذ، وتمثل الخيال في الخاطر المجلو، أوجبت الطبيعة بروزهما في المعرض الرائع من وثاقة التركيب وأناقة اللفظ وبراعة الإيجاز.

أولئك علي والحجاج وطارق؛ وهؤلاء الاسكندر وقيصر ونابليون؛ وأولاء هتلر وموسوليني ومصطفى كمال! كلهم كانوا مُثُلاً عالية في شجاعة القلب واللسان، ومضاء السيف والقلم، ونفاذ الرأي والعزيمة، وسمو الفكرة والعبارة. أجادوا القول في الخطبة كما أجادوا الفعل في المعركة، وحذقوا السياسة في السلم كما حذقوا القيادة في الحرب، وأحسنوا مناجزة العدو بشدة البأس كما أحسنوا مناغاة الحبيب برقة الغزل؛ فلا تدري أتجعلهم فيمن جرى على أيديهم أدب الموت، أم فيمن جرى على ألسنتهم أدب الحياة.

والرجل القوي يغلب عليه من الألقاب والصفات ما تُغَلِّبه طبيعة عمله. فهو قائد أو سياسي أو مصلح أو كاتب أو شاعر على حسب ما تتجه إليه قواه وميوله من الحرب أو الحكم أو الخير أو الجمال. فخالد ونابليون، وبسمرك، والجاحظ وفلتير، والمتنبي وهوجو، لا يختلفون في عبقرية الرجولة وإن اختلفوا في دلالة اللقب. والنبوغ في هؤلاء جميعاً لا يكاد يتفاوت في قيمته ودرجته؛ وإنما يتفاوت في شهرته ونفوذه تبعاً لاتصاله بالعامة كالزعيم، أو اعتماده على القوة كالقائد.

قد تقول إن النابغ ممتاز في أكثر صفاته لأنه منتخَب الطبيعة ومختار القدرة؛ ولكني أقول لك إن البلاغة تلازم القوة حتى في الاوزاع والهمج. فالرجل العامي القوي الروح الكبير النفس الصارم الإرادة تجده قويم الفكرة، بليغ الجملة، قوي الجدل؛ ومثل هذا في المدينة أو في القرية يكون دائماً موضع المشورة في الازمة، ومقطع الحكم في النزاع.

وازن بين عصر وعصر في الأدب، أو بين أديب وأديب في الاسلوب، تر الفرق بينهما حللته لا يخرج عن قوة الرجولة في هذا وضعفها في ذاك. فعصر الجاهلية عند العرب واليونان، وعصر الفتوح عند المسلمين والرومان، وعهد الفروسية عند الفرنسيين والطليان، كانت أزهى عصور البلاغة، لأن الرجولة كانت فيها بفضل النزاع والصراع في سبيل الحياة والغلبة والمجد والمرأة أشد ما تكون تماماً واضطراماً وقوة. فلما قتل الترف الرجولة، وأذل العجز النفوس، زهقت روح الفن وذهبت بلاغة الأسلوب، وأصبح أدب الأديب سخفاً وزيفاً وثرثرة.

لماذا يقوى الأدب في الثورات والحروب؟ لأنها أثير ليقظة الشعور، ومظهر لحياة الرجولة!

لماذا قلَّ الأدب في العبيد وضعف في النساء؟ لأن الروح الشاعرة ماتت في إرادة العبد، والنفس المريدة فنيت في شعور المرأة!

أرجو ألا تفهم أني عنيت بقوة الأدب ما كان موضوعه شديداً كالحرب، وبضعفه ما كان موضوعه ليناً كالحب؛ فإن ذلك معنى لا يتجه إليه الذهن الباحث. وأي فرق تراه بين سفر أيوب الباكي، ونشيد الأناشيد الغزِل، وإلياذة هوميروس الحمِسة، في قوة الروح وفحولة الفن؟ إن القوة الروحية الشاعرة التي تخرج الأنشودة للجندي هي نفسها التي تخرج الأغنية للعاشق والمرثية للحزين. ولا يجوز أن تفرق بين هذه المقطوعات الثلاث إلا على الوجه الذي تفرق به بين آية من القرآن في وصف النار وبين آية أخرى في وصف الجنة. إنما عنيت بالأدب القوي ما صدر عن قوة الروح وصدق الشعور وسمو الإلهام وألمعية الذهن فدق معناه وصدق لفظه واتسق أسلوبه؛ وبالأدب الضعيف ما انقطع فيه وحي الذات عن آلة الفن، واحتجبت فيه صُوَر الحياة على مرآة الذهن، فهو تقليد قرد، أو ترديد صدىً، أو شعوذة مهرج!

إن الأدب البليغ كامنٌ في البطل على أي صورة كان. فهو إن أنتجه برّز فيه، وإن لم ينتجه شجع إليه. لذلك ازدهر الأدب في ظلال أغسطس وبركليس والرشيد وسيف الدولة. وما دام كبراؤنا لم يخلقهم الله من الأبطال ولا من عباقرة الرجال فهيهات أن ينتجوا الأدب أو يفهموه أو يحبوه أو يعضدوه أو يقدموا أهله. وسيظل هذا النور الضئيل من الأدب القوي الحر محصوراً في ظلام العمى والجهل حتى تقوى الأمة فينتشر، وينبغ فيها القادة فيزدهر. وسيعيش رجاله القلال المخلصون معتكفين في المكاتب اعتكاف النساك في الصوامع،

يمثلونه على بصر الطبيعة، وينشدونه على سمع الزمن، حتى تقوى دولة الحق والجمال فيجلسوا في الصدر ويمشوا في المقدمة!

أحمد حسن الزيات

في أربعين الملك الشهيد غازي
بني قومنا!
للدكتور عبد الوهاب عزام
ممثل جامعة فؤاد الأول في حفلة التأبين التي أقيمت ببغداد
أيها السادة!
أقوم بينكم مبلّغاً رسالة الجامعة المصرية مديرها وأساتذتها وطلابها المصريين والعراقيين وغيرهم. هذه الجامعة التي شجاها ما شجا معاهد العلم بالعراق من هذا الخطب الجلَل والرزء العمم.
تشارك جامعة فؤاد الأول معاهد العلم العراقية أحزانها، وتحتمل معها آلامها، وتناشدها أن تعزي معها الأمة العربية كلها وتثبتها في مصابها؛ فإن العلم الذي يهدي الأمم طريقها وينير لها في ظلماتها، حريّ أن يثبتها في خطوبها، ويعصمها في محنها.
يا إخواننا لا أبغي إثارة الشجن فما أيسر إثارة الأشجان والمصيبة فادحة، والقلوب دامية؛ ولا أريد استدرار الدمع فما أهون استدرار الدمع والرزء جليل والنفوس باكية، ولكن أريد أن أعرب لكم باسم الجامعة المصرية أننا معكم في السراء والضراء، شركاؤكم في الشدة والرخاء، وأننا وإياكم متعاونون على العمل للمجد وعلى احتمال النوائب.
إن هذا الخطب لم يخصكم، ولا نزل بساحتكم وحدكم، ولكنه خطب العرب على اختلاف ديارهم ومذاهبهم من شرقيّ دجلة إلى بحر الظلمات، وخطب المسلمين على اختلاف أجناسهم وأقطارهم. إنه رزء العرب، وقد استقاموا على طريقتهم وأقسموا ليبلغن غايتهم، ورفعوا الراية ومضوا إلى الغاية - رزؤهم في أحد قادتهم - في ملك عربي شاب طموح استوى على عرش المنصور مبشراً بعهد الرشيد والمأمون. إنه رزء العرب والمسلمين في ملك هاشمي من أبناء فاطمة لمصرعه القيامة في مكة والمدينة، وفي بغداد دار العباسيين، ودمشق دار الأمويين، والقاهرة دار الفاطميين، وبلاد العرب والمسلمين جميعاً.
إنه لخطب عظيم؛ ولكنه ليس أعظم من عزائم هذه الأمة، ولا أكبر من كبريائها ولا أشد من أخلاقها؛ ونحن بنو الشدائد ألفتنا وألفناها، وعركتنا وعركناها.
يا بني قومنا: إن للأمم في معترك الحياة نعمى وبؤسا وفرحاً وترحاً ورخاء وشدة. والزمان قُلَّب تدور غِيره بالخير والشر. والأمم العظيمة الحازمة تأخذ عدتها من مسراتها وأحزانها، ولا تفيت فرصة من لذة أو ألم وفرح أو غم، ولا تمر بحادثة إلا تدبرت في أمرها وأخذت لحاضرها وتزودت لمستقبلها وتأهبت لأحداث الزمان وتقلب الحدثان. بل الأمم في أحزانها أقرب إلى الوقار والجد وأدنى إلى التآخي والإيثار والتفدية، وأجدر بإدراك الحقائق والاعتبار بالوقائع وجمع الكلمة وإرهاف العزيمة، فإن الأحزان تجلو النفوس وتنبهها من الغفلة، وترهق الأكباد، وتذهب بالأحقاد.
يا بني أبينا وأمنا: كانت وفاة الغازي رحمه الله عليه قدراً لا حيلة فيه ورزءاً لا قدرة عليه، ولو كانت نائبة تجدي فيها النجدة وتُغني الهمة وتنفع الشجاعة والتفدية لوجد أبو فيصل منا جميعاً نفوساً تفدّيه، وقلوباً تستميت دونه، وعزائم تردّ الخطب صاغراً، وجلاداً يرجع الموت خزيان ناظراً، ولكنه قدر من وراء الأسماع والأبصار والجنود والأنصار.
فلتفزع الأمة العربية إلى عقلها وخلقها وإبائها وصبرها وثباتها وجلدها، ولتنظر إلى تاريخها تستمد منه الصبر على المصيبة، والاستكبار على الجزع، والإباء على كل خطب، والثبات لكل هول.
ليكن من اجتماعنا على مصيبة الغازي اجتماع كلمتنا واستحكام أخوتنا. لتكن من هذه المصيبة الجامعة أخوة جامعة وكلمة جامعة.
أيها الإخوان: مضى فيصل الأول بعد أن أدى أمانته، ولحق به غازي وهو يسير للمجد سيرته، وقد أورث الله فيصلاً الثاني جهاد جده وطموح أبيه؛ وإن لنا فيه لعزاء، وإن لنا فيه لخلفاً. فلتحطه النفوس ولترعه الافئدة، ولتجتمع حوله الأفكار والآمال، والعزائم والأعمال، وكل ما في العراق وما في العرب من ود ووفاء وإخلاص وبر وكرم، حتى يترعرع ملكاً كريماً في رعاية الله وحضانة أمته ووفائها وإخلاصها، ترجو فيه العراق والعرب جميعاً كوكباً تأوي إليه كواكبه، وسيداً فؤولاً فعولاً لما سن السادة الكرام من

آبائه.
وإن في حكمة أهل العراق ووفائهم، وإن في هممهم وعزائمهم لضماناً للمستقبل الوضاء والمجد الباسم بعد هذه الخطوب المكفهرة والوقائع العابسة.
بني قومنا تقسو الخطوب وتربدُّ ... ويُشرق في أعقابها الصبر والمجد
وإن ظلام الليل يُعقب صبحه ... وبعد غروب النجم إشراقه يبدو
وبعد محاق البدر يبدو هلاله ... وبعد طلوع النحس يرتقب السعد
وبين ظلام النقع نصر منوّر ... لمن صابر الأهوال والبأس محتد
وعند اسوداد الغيم غيث ورحمة ... يقهقه في حافاتها البرق والرعد
وبعد بكاء السحب خصب ونضرة ... تضاحك من أزهارها الغور والنجد
ومن بعد غيض الماء فيض لدجلة ... ومن بعد جزر الشط ينتظر المد
وفي كل خطب للفراتين دعوة ... إلى المجد في أعقابها النصر والحمد
فلا تحزنوا وارموا الخطوب بعزمة ... يذل لها الخطب العصيّ ويرتد
وسيروا إلى العليا من حول فيصل ... وأنتم له حصن وأنتم له جند

عبد الوهاب عزام

في سبيل الإصلاح

الأدباء الرسميون

للأستاذ علي الطنطاوي

ما كان لي أن أعرض إلى هذا الموضوع بعد ما تكلم فيه الأستاذان الكبيران العقاد والزيات، لولا أن في النفس منه أشياء. وإن آراء العامة فيه يعمها الضلال البين، ويعوزها التقويم؛ وإن من الناس من يدعي الأدب ثم يزن أهله بميزان الحكومة، فيضع قيمتهم الأدبية في كفة، ويضع في الكفة الأخرى درجتهم في (الوظيفة) ومبلغ ما يقبضون من مرتب. فالشاعر الذي يعلم في مدرسة ابتدائية، لا يساوَى بالشاعر المدرس في الثانوية؛ والأديب الذي يعمل في تفتيش اللغة العربية أكبر من الأديب الذي يشتغل بالتدريس. أما الشاعر الذي جعلته الوزارة أو أصارته الأيام أول المفتشين، فواجب وجوباً أن يكون شاعر الشرق كله، أو شاعر العرب على الأقل الأدنى. ويدللون على هذا المنطق السقيم بأن الحكومة لو لم تجده أعلم العلماء وأبرع الأدباء ما أحلته هذه المنزلة؛ فالطعن في تقدمه طعن في الحكومة ونفي لحسن التقدير عنها. . . وامتد هذا الجهل إلى الصحف، فصارت تقدم من الأدباء من قدمته الحكومة، وتكتب في رأس المقالة كما يكتب صاحبها في ذنبها، ودرجة الوظيفة الحكومية التي يقوم بها، كأنها هي الشهادة له بتمكنه في الأدب وعلو كعبه فيه، وغدا من المستحيل أن يقدم شاعر مجوّد محسن ولكنه مدرس عادي، على مفتش أو رئيس ديوان ولو كان دونه إحساناً وتجويداً، كأن شعر الوزير في الشعر كشخص الوزير في الناس، يتقدمهم ويعلوهم ولا يوزنون به ولا يتقدمون عليه. ومشى هذا المنطق السقيم وهذا الجهل البيّن في الناس، حتى صار هو القاعدة المقررة والأصل الثابت، وصار غيره هو الفرع الذي يحتاج إلى دليل. . .

وما من أحد يدرك هذه العلة إدراك الأديب الموهوب الذي اضطرته الحاجة إلى (الوظيفة) وأجبره الكدح للعيش على أن يفكر برؤوس رؤسائه الفارغة لا برأسه هو، فلا يكتب إلا ما يشتهون، ولا يقول إلا ما يريدون، وعلى أن يضع أدبه وذكاءه ومواهبه بين يدي مفتش قد يكون جاهلاً أو يكون مخطئاً أو يكون لئيماً ينتقم لغباوته وجهله من الأذكياء العلماء. والمدرس على ذلك كله ملزم باتباع رأيه والصدور عن مشورته. وإذا كتب ينقده في صحيفة أو يسمّع به في مجلس، قامت عليه القيامة ونفى إلى أقصى الأرض، أو أخرج من الوظيفة إخراجاً، ثم لا ينصره عليه أحد لأن الناس قد استقر في إفهامهم أن المفتش أعلم وأبرع من المدرس، ولا سيما إن كان دكتوراً أو كان أستاذاً في جامعة، فإن مثله لا يأتيه الخطأ من بين يديه ولا من خلفه، ولا عن يمينه ولا عن شماله، ولا من فوقه ولا من تحته. . . والمدرس يركبه الخطأ من جهاته الست لا لشيء إلا لأن مرتبه أقل، ووظيفته أصغر. . . ثم إن عندك الموظفين الجاهلين المتزلفين الذين يتقربون إلى المفتش الشاعر أو الرئيس الأديب بإذاعة فضله، والثناء عليه، ومنحه الألقاب جزافاً، ويستمرون على ذلك ما استمر قاعداً على كرسيه لأنهم عباد صاحب

الكرسي. . . فتؤثر هذه (الدعاية) - على بطلانها - في نفوس الاخلياء، وينال هذا المفتش الشاعر شهرة ومنزلة لم تقم على أدبه وإنتاجه، وإنما قامت على أرجل كرسيه الأربع وألسنة أتباعه التي تشبه أرجل الكرسي. . . وربما خدع التاريخ بهذه الشهرة - والتاريخ يخدع أحياناً - فانطمس الحق وعمت البلية. . .

فما هو سبيل الخلاص من هؤلاء (الأدباء الرسميين) الذين يستغلّون هذه الشهرة الزائفة وهذه المنزلة الكاذبة فيقيمون أنفسهم أو تقيمهم الحكومة مقام الأئمة من أهل الأدب، فيرسمون للناشئين خططه ويضعون مناهجه ويملكون تحويله من وجهة إلى وجهة، ويستطيعون أن يؤثروا في مستقبل الأدب بما أوتوا من السلطان، وأن المدارس في أيديهم، وأموال الدولة تحت إمرتهم، تأثيراً لا يقدر على بعضه الأدباء غير الرسميين الذين لا يملكون إلا أقلامهم وعقولهم بل إن الأدباء الرسميين قد يستطيعون والحكومة من ورائهم أن يسخروا بعض الصحف لغاياتهم ومقاصدهم. ولو كان هؤلاء (الأدباء الرسميون) الذين تعتمدهم الحكومة وتثق بهم يُختارون دائماً من ذوي المنزلة الرفيعة في الأدب وممن لهم فيه تمكن ورسوخ لهان الخطب؛ ولكنهم قد يكونون على الضدّ مما قلت؛ بل قد يسيّر الأدب في وزارات المعارف من ليس بينه وبين الأدب رحم ولا قرابة. . . فإلى أين يسير الأدب في حالة مثل هذه؟ وكيف ندفع عن الأدب ذلك المصير المحزن؟

لقد أشار الأستاذ الكبير الزيات في فاتحة الرسالة (305) إلى هذه المشكلة والى دوائها؛ فرأى أن دواءها العدول عن (السياسة التقليدية التي اتخذتها الوزارة إلى اليوم في نظام التأليف وطريقة التفتيش واختيار المدرس) وتطهير التعليم (من المفتش الذي يعاقب على نسيان الهمزة وذكر الغزل، والمؤلف الذي يؤلف بسر الجاه ونباهة الاسم). ثم إنه لابد بعد ذلك من تصحيح مقاييس الناس وإفهامهم أن قيمة الأديب بإنتاجه ومواهبه، لا بوظيفته ومرتبه، وأن الأدب لا يقاس بهذه المقاييس الجامدة، ولا بد من التفريق بين شخصية المفتش والوزير الرسمية، وبين شخصيته الأدبية؛ فأنا أرعى للوزير حق مكانته، وأعطيه كل ما ينص القانون على أنه حق له من الطاعة والاحترام. أما الوزير الاديب، والمفتش الشاعر، فإنهما عاطلان من هذه الحصانة، معرضان للنقد، أستطيع أن أدرس أدبهما وشعرهما كما أدرس أدب أي أديب وشعر أي شاعر، وأستطيع أن أحكم لهما أو عليهما، ولا يدخل في حساب النقد وظيفة عالية ولا مرتب ضخم. وإذا اقترح الوزير اقتراحاً في تعديل خطط التعليم، أو رأى رأياً يتبعه أذى للأدب أو خوف على مستقبله، فإنني أستطيع أن أناقشه وأرد عليه. وبغير ذلك لا تنمو المواهب ولا تثمر ثمرها، ولا يزدهر الأدب ولا يعطى أكله. بقي أمر واحد وهو حماية هذا الموظف الأديب الذي يتقد ويبحث، ويقوم بحق الأدب من غير أن يقعد عن حق الوظيفة، حمايته من انتقام الرئيس، وتشفي المفتش، ولا يكون ذلك إلا بقانون ينظم علاقة الرئيس بالمرءوس، ويوضح لكل منهما ما له (بالضبط) وما عليه، أما إذا بقى أمر المدرس بيد المفتش والرئيس، وترفيعه وتنزيله تابع لرأيهما و (تقريرهما)، فلا حرية في البحث، ولا ازدهار في الأدب، ولا استثمار للمواهب، لأن المدرس لا يستطيع أن يضحي بوظيفة وهي سبيل حياته ومورد رزقه من أجل بحث أو فص أدبي، فيسكت على مضض، ويتوالى سكوته، فتموت قريحته، وتذهب ملكته، ولا يبقى فيه بقية لإنتاج. وإذا ذكرنا أن وضعنا الاجتماعي الشاذ ساق أكثر الشباب طوعاً أو كرهاً إلى وظائف الحكومة قدرنا مبلغ الخسارة الأدبية التي يُمنى بها الأدب، ويبلغ الأذى الذي يصيبه به (الأدباء الرسميون) الذين يعملون عمداً وبغير قصد على تقييد حرية الأدباء، وقتل المواهب، وسد الطريق على الناشئين المتأدبين. . .

هذا وإن الأديب لا ينتج ولا يعمل إلا معتداً بنفسه واثقاً بها، وهذه العزة وهذه الكبرياء الأدبية هما عدة الأديب، فإذا خسرهما لم يصلح بعدهما لشيء. ومن نظر في حياة الموظف الصغير نظر مدقق ناقد، رأى أنه لا يستطيع أن يجمع بين إرضاء رؤسائه وبين الشعور بهذه العزة الادبية، وما له في نقد أحدهما بدّ، وهو يؤثر (على الغالب) أن يفقد عزته الأدبية على أن يخسر وظيفته. وكم من موظف أديب نابغ معتد بنفسه، رأى ألوان الإيذاء، واتهم بالشذوذ والعناد، وعاداه صحبه ورؤساؤه، لأنه لم يبع كرامة نفسه وعزتها

بهذا المرتب القليل؛ وربما كان هذا الموظف المغضوب عليه، المنسي المهمل، من خير الموظفين علماً وكفاية وقياماً بعمله، وحرصاً على الواجب عليه. . . ولكنهم الرؤساء، أولئكم (الأدباء الرسميون) . . .

بغداد (الأعظمية)

علي الطنطاوي

من برجنا العاجي

الرأي الصريح الحر قوة ينبغي ألا تخلو منها أمة من الأمم الآخذة بأسباب الحضارة. ووجود هذا الرأي ألزم من وجود البرلمانات في ضمان العدالة والحد من طغيان السلطات؛ لأن هذا الرأي لا يتطرق إليه عادة ذلك الفساد الذي يشوب أعمال النظم السياسية والاجتماعية، فهو صادر عن قلب حار نبيل قد ارتفع عن دنيا الأغراض والمجاملات.

على أن المشكلة هي دائماً: كيف نعثر على هذا الرأي؟ قد نستطيع أن نعثر على العنقاء، ولكننا لن نستطيع أن نظفر في كل زمان بصاحب الرأي الحر الصريح. لماذا؟ لأن هذا المخلوق ينبغي أن يكون مركباً تركيباً مخالفاً لتركيب أغلب البشر. فلا بد أن يكون قد عرف كيف يستغني عن الناس، وأن يكون قد وطن نفسه على أن يمضي في طريقه دون أن يعبأ بسهام الناس التي أصابت جسده. وألا يكون له عند أحد حاجة ولا مطمع. وأن يكون محباً للوحدة معتاداً العزلة، قانعاً من الدنيا بأبسط متاع وأقل مؤونة. ذلك أن أول خطوة في هذا الطريق الوعر يصادفها صاحب الرأي الحر، هي فقد الأصدقاء والأعوان. ثم يلي ذلك تألب الجميع عليه، لأنه لم يرض أحداً ولم يمالئ فريقاً ولم يعتصم بجاه جهة من الجهات، ولم يستظل بقوة من القوى. إنه وحده منبع كل شيء. وهو بمفرده الواقف في وجه جميع القوى متضافرة. إنه قد ينهزم وقد يتحطم ويتهدم تحت ضربات الجميع، ولكن راية الرأي الحر تبقى خفاقة في الهواء عالية مرفوعة في يده الميتة.

حبذا لو كان لي هذا المصير العظيم! لقد أتاحت لي الظروف أن أطلق رأيي ذات يوم حراً في بعض الأمور فأحسست في الحال أني فقدت كل سند من كل جهة من الجهات، ولم يعد لي صديق. ولم يبق حولي سوى عيون نارية تنتظر ساعة الانقضاض عليّ والفتك بي. غير أن كل هذا لم يزعجني. فلقد شعرت في عين الوقت أن في يدي شيئاً يخفق عالياً، أدركت أنه هو وحده الباقي.

توفيق الحكيم

أعلام الأدب

أرستوفان

والكوميديا اليونانية

للأستاذ دريني خشبة

يجمع المؤرخون على أن الكوميديا - أو الملهاة - القديمة قد نشأت في سيراقوزا حاضرة جزيرة صقلية قبل أن تنشأ في أثينا حاضرة أتيكا اليونانية، فقد ثبت أن الشاعر الكوميدي إبيخارموس قد ألف للمسرح الصقلي سنة 480 ق. م، أي قبل أرستوفان، أو قبل أن يولد أرستوفان بثلاثين سنة؛ وقد كان له في صقلية قرناء أجلاء منهم صوفرون العظيم الذي كان يتناول في كوميدياته العلاقات بين المرأة والرجل بطريقة فلسفية. ومما يدعو إلى شديد الأسف أن كل كوميديات شعراء سيراكوزا قد فقدت كما فقدت جميع الكوميديات اليونانية إلا إحدى عشر لأرستوفان - من أربع وخمسين! - ولم يصلنا من كل ما فقد إلا نتف هينة ومقطوعات قليلة هي على قلتها ثروة هائلة تدل على الخسارة التي لحقت بالإنسانية في ميراثها الثقافي.

أما الكوميديا اليونانية فقد أخذت تنتعش منذ سنة 460 ق. م ثم ازدهرت في عصر بركليس على يد الشاعر كراتينوس الذي كان يتخذ من سيد العصر - بركليس نفسه - هُزُواً لجميع كوميدياته، فكان يصوره تصويراً كاريكاتورياً (هزلياً)، فيدعوه: (الإله الأعظم أبو رأس بَصَلة!)، استهزاءً برأس بركليس الذي كان يواريه دائماً لاستطالته بخوذة. . . ويدعوه أيضاً: (طفل كرونوس وابن الغَدْر!. الخ).

وكانت لكراتينوس منزلة رفيعة بين شعراء الكوميديا، ويعده النقاد أرفع مرتبة من أرستوفان وأعنف منه في تجريح شخصيات عصره. وقد قال فيه أرستوفان: (إنه

كَصَيِّبٍ يتحدر من فوق جبل فهو يكتسح كل من اعترض سبيله من بشر أو شجر أو حَضَر. . .) ومن أبرع الشخصيات التي كان يصورها فيفتنّ في تصويرها شخصيات السكارى، وكان يؤديها له في كوميدياته الممثل الكاتب الكبير كرانس. . . وقد فاز كراتينوس مرات كثيرة بالجائزة الأولى؛ ولما فاز بها للمرة الأخيرة جاء أرستوفان في آخر قائمة المتبارين. هذا
وقد توفي كراتينوس غريقاً سنة 421 ق. م.

وممن نبغ في النظم الكوميدي قبل أرستوفان الشاعر فِرَكرَاتِسْ، والنتف الباقية من كوميدياته تدل على علو كعبه في فنه، وعلى أنه كان يسمو كثيراً على جميع الشعراء الكوميديين حتى أرستوفان. وقد نال أولى جوائزه سنة 437 ق. م. وكانت كوميدياته تمتاز على غيرها بتنوعها وتناولها المشكلات الاجتماعية الشائكة نحو مسألة الرقيق والبغاء وما إليهما، وهو ضريب أرستوفان في تخيّل الطوبويات وجنات النعيم. . . فمن ذلك ملهاته الضائعة (المنجمون) أي عمال المناجم لا رجال التنجيم، وملهاته الضائعة الأخرى (الرجال النمل!)، وقد نسج على منوالها الأديب الحديث ويلز في إحدى طوبيوتاته.

وكما كان كراتينوس يتخذ من بركليس هزواً لكوميدياته فكذلك كان فراكراتس يتخذ السياسي العظيم المعروف ألسبيادس لمثل ذاك الغرض، وإن يكن لم يَعنفْ عليه كما عنف تيموتيوس.

أما يويوليس فقد كان أعظم الشعراء الكوميديين المعاصرين لأرستوفان. . . وكان نِدّاً قوياً له، وقد اتهم كل منهما أخاه بأنه سرق منه ملهاته (الفُرْسان). . . وكان على العكس من كراتينوس يحب بركليس ويمتدح مزاياه في حين كان يبغض رئيس الوزراء كليون ويمزقه في كوميدياته تمزيقاً لا رحمة ولا هوادة فيه. وكان أرستوفان لا يجرؤ على التهكم على سراة الاثينيين وأغنيائهم، أو هو كان لا يحب ذلك، لأنه كان غنياً مثلهم كما سيمر بك، لكن يويوليس كان لا يبالي أحداً منهم فقد فضحهم وأضحك الدنيا عليهم في ملهاته الضائعة (المداهنون)، وكان مثل فراكراتس يبغض السياسي ألسبيادس ويتخذه سخرياً في ملاهيه. ويختلف المؤرخون في سبب ضياع كوميديات يويوليس كلها مع أن كثيراً منها كان أروع وأفخم من كثير من كوميديات أرستوفان. . . وقد علل الأستاذ موراي ذلك فذكر أنه كان من معتنقي ديانة خاصة بالآلهة كوتيتو، وكانت طقوس هذه الديانة تمارس في السر وفي خفية من الناس، وكان العَوام من أهل أثينا لا يبغضون شيئاً مثل ما يبغضون هذه العبادات التي تؤدى في الظلام فلعلهم ثاروا بالشاعر وأبادوا آثاره بعد موته.

ومن الشعراء الكوميديين فرينيخوس وأفلاطون - وهو غير أفلاطون الفيلسوف - وقد نقلا الكوميديا نقلة شاسعة نحو الأغراض الأخلاقية الخالصة؛ ولذا سقطت ملاهيهما لأنها سبقت
الزمن ولم يكن الأثينيون قد استعدوا لتذوق ما فيها من جمال كما حدث لمآسي يوريبيدز.

نشأت الكوميديا اليونانية كما نشأت المأساة من الاحتفالات الشعبية الكثيرة والأعياد الدينية المتعلقة بالإله باخوس (دينزوس) إله الخمر والنماء والحصاد. تلك الأعياد التي كان اليونانيون يمارسون فيها ألواناً عجيبة من (المساخر) تشمل الرقص والغناء والإنشاد والموسيقى والتضحيك وإرسال النكات واتخاذ الملابس التنكرية التي تمثل الطير والحيوان، ووحوش البر والبحر وتمسخ الخلق، وتبعث على العربدة والتضحيك. وكانت ألوان عجيبة من المجون والفحش لا يسيغهما ذوقنا الحديث تمارس في حفلات هذه الأعياد، وكان المشعبذ الناجح هو عادة ذلك الذي يجيد النكتة البارعة التي لا يحتشم في إرسالها عارية مكشوفة، فلا يبالي أن تتناول العورات المستورة، ولا يبالي أن يصيب بها من يصيب لأن كل همه أن يثير عاصفة من الضحك ويطلق الأكف بالتصفيق حماسة واهتزازاً. وقد احتضنت الديمقراطية التي نماها بركليس الكوميديا اليونانية فلم يكن الكوميديون يهابون اقتحام ميادين السياسة والأدب والتعليم والاجتماع، وكانوا يبالغون في ذلك مبالغة تشمئز منها الأخلاق والتقاليد الحديثة، فإذا انتقد أحدهم واحداً من رجال السياسة فليس في القانون الاثيني ما كان يؤخذ به بسبب ذلك إلا إذا أهان الشرف الوطني أو فضح كرامة الدولة في نظر الغرباء. فقد

روي أن أرستوفان نفسه حوكم من أجل ذلك، وحكم عليه بغرامة فادحة في عهد كليون - وقد كانت هذه الديمقراطية المطلقة سبباً في سقوط أثينا، ولذلك شن عليها أرستوفان حرباً عواناً في كثير من كوميدياته. ولما كانت الكوميديات تستبيح جميع صنوف العربدة وتناول العورات وقذف الأعراض وتجريح الكرامات بأقذع ما يتصور الإنسان من أساليب الفحش، وعبارات المنكر فقد منع النساء والأطفال من شهودها لما كانت تفيض به من ضروب الفسق ويرد فيها من الشناعات.

والكوميديا اليونانية من أجل هذا تستند إلى هذه الدعامة الوضيعة من الطعن على رجال الدولة والتشهير بهم على نحو ما تفيض به مجلاتنا الأخبارية اليوم من مثالب وما تتناول به شخصياتنا البارزة من تعريض وكاريكاتور.

وهي تستند كذلك إلى الأساطير المحلية والخرافات التي لا يلجأ الكوميدي إليها إلا إذا ضاقت به ميادين السياسة والاجتماع.

ولا يمكن - أو قد يكون من الصعب العسير - أن تمثل الكوميديات اليونانية اليوم في مسارحنا؛ أولاً لأن أذواقنا تستنكر أسلوب هذه الكوميديات الفاضح الذي يخرج في الغالب عن آداب مجتمعنا؛ وثانياً لأنها جميعاً كوميديات محلية تدور حول طقوس دينية لا نعرفها وتتناول عادات سحيقة في القدم لا نلم بها، وثالثاً لأن نكاتها إن احتفظت بقليل من الاحتشام - وهذا في النادر - إلا أننا لا نفهمها في سهولة ويسر. . . ورابعاً، لأن المسرح اليوناني كان أليق لعرض هذه الكوميديات من مسرحنا الحديث، لأن المسرح اليوناني كان أشبه بالسيارك الجوالة التي نراها اليوم والتي تصلح لعرض الحمير والضفادع والقرود والتنانين وما إلى ذلك مما تفيض به الكوميديات اليونانية. وخامساً، لأن طريقة الأداء التي كانت تعرض بها الكوميديا اليونانية، أو طريقة تأليفها بقول أصح، هي غير الطريقة التي تؤلف بها كوميدياتنا الحديثة.

فالكوميدية الحديثة تتركب من أربعة أجزاء قد لا نسيغها نحن اليوم. فالجزء الأول هو عرض عام لموضوع الملهاة وتفسير للأشكال التنكرية التي يتخذها الخورس أو بعض الممثلين، ويلي ذلك (خطاب الشاعر) الذي نظم الرواية ويلقيه الخورس، ويتضمن أهم العناصر الهزلية في الكوميديا ويسمى هذه الجزء باليونانية وتتبع هذا الجزء سلسلة غير مترابطة من المشاهد التضحيكية لوصل ما انقطع من حديث الجزء الأول المتعلق بالعرض العام، ثم يأتي بعد هذاالـ أو البسط والتمريح، أي إشاعة الانبساط والمرح في نفوس النظارة، وفيه يستمر الممثلون في الأداء والتطريب والتضحيك حتى تنتهي الكوميدية.

وقد ارتبط أرستوفان بهذا الترتيب في كثير من كوميدياته. وهو وإن لم يخلص من كل الشوائب التي تعيب الكوميدية اليونانية، إلا أنه سما بها شيئاً ما وترفع قليلاً عن إيراد مشاهد الفسق والفجور. ولم يكن كالشعراء الآخرين في طريقة مهاجمة خصومه وإن شذ في معاملة خصمه وأستاذه الأكبر يوريبيدز، فقد يعتبر المسرح الهزلي طريقاً إلى النقد الإصلاحي فيما يعرض له من مسائل السياسة والاجتماع والتعليم وسائر شؤون الحياة العامة، فهو كان يقوم عن طريق المسرح بما تقوم به الصحافة اليوم ولكن بطريقته الفنية التي تفرد بها. . والمحقق أن أرستوفان كان يحفظ درامات يوريبيدز عن ظهر قلب، ولم يكن يكتفي بحفظها فقط، ولكنه كان يعيها وعي الحافظ الدارس الواقف على دقائقها الخبير

بأسرارها؛ وقد ترك ذلك كله أثره في نفسه وفي أدبه وفي مُثُله وفي مراميه، فهو كان يسخط على الساسة الأثينيين كما كان يسخط يوريبيدز، وكان يبغض هذه الديمقراطية المطلقة الذميمة التي تنهي بمقاليد الحكم إلى طائفة من الاوشاب، أو تترك للأوشاب الهيمنة على تكييف شكل الحكومة باختيارهم أفراداً بأعينهم لا يمكن أن يختاروا سواهم مهما صنعوا بأثينا من الموبقات. . وكان ملحداً بالآلهة أو أشد إلحاداً من يوريبيدز، وطالما استهزأ بمعبودات اليونان وأضحك عليها نظارته بأسلوبه التهكمي اللاذع حتى لم يترك في أتيكا كلها مؤمناً واحداً بأي ما من أرباب الأولمب!

وكان كذلك يدعو إلى السلم كما كان يصنع يوريبيدز، وكان يسوؤه أن يرى إلى هذه المجازر الدامية التي ذهبت بخيرة الرجال وزهرات الشباب في حروب البلويونيز، وقد تغنى في إحدى كوميدياته بهدنة الثلاثين سنة، وبالغ في ذكر ما يعود على جميع طبقات الشعب من الخير بسببها.

إذن لماذا خاصم يوريبيدز؟! هذا سؤال له جوابه فيما يلي:
ولد أرستوفان سنة 450 ق. م في قرية (كيد أثينايون!)، ومات سنة 385 ق. م، أي أنه عاش خمساً وستين سنة أعطى منها للمسرح وللأدب أكثر من خمس وأربعين، لأنه بدأ نظم كوميدياته وهو فتىً حَدَث السن، فهم يذكرون أن رائعته الأولى (رجال جزلتون)، والتي هاجم فيها التعليم العالي وادعى فيها أنه يتنافى ومكارم الأخلاق!! قد مثلت في المسرح سنة 427، أي أنه كان في الثالثة والعشرين حينذاك، ويذكرون أيضاً أنه لم يشترك في رواياته الأولى لا في التمثيل ولا في الإخراج، بل كان يترك ذلك كله إلى صديقه كللستراتوس، وسبب ذلك فيما يروون صغر سنه وعدم إلمامه بأصول الإخراج وعم استطاعته تمرين أفراد الخورس.
والعجيب أنه لم يقتصر على إسناد الإخراج والتمثيل إلى صديقه هذا، بل كان يبيح له أن ينتحل الرواية لنفسه ويدعى أنها من تأليفه!! وقد صنع بطائفة خالدة من كوميدياته - منها الزنابير والضفادع - مثل هذا الصنع، فقد ترك مهمة الإخراج والتمثيل وحق انتحال التأليف فيها جميعاً لصديق آخر يسمى فيلونيدز. . . وكان الصديقان يهشان لذلك ويبشان لفوزهما بالشهرة الكاذبة، ثم لتناولهما أجر الإخراج من الحكومة وهو أجر يقولون إنه كان
عظيماً يسمن ويغني من جوع.
هذا ولم يكن أحد في أثينا يشك في أن أرستوفان هو المؤلف الحقيقي لكوميدياته، وقد يسأل سائل: لماذا ترك لغيره حق الانتفاع بثمرة جهوده خصوصاً بعد أن شب؟ ذلك أن أباه فيلبّوس كان من الأغنياء المثرين، وكان قد أورثه ضيعة واسعة ذات غلة كبيرة في قرية إيجينا، فكان لهذا السبب يعف عنى أجور الإخراج، بل كان يترك الجوائز المالية - وما أكثر ما نالها - لجماعة المنشدين والممثلين. . . هذا ولا تحسبن أنه كان جواداً سخي اليد لصنيعه ذاك. . . لا. . . لقد كان أرستوفان يكره الفقر ويبغض الفقراء.

دريني خشبة

الواشي والوشاية

للأستاذ عبد الرحمن شكري

أيهما أعظم أثراً ونصيباً في إذاعة الوشايات؟ ميل النفس إلى أن تشي بغيرها، أم ميلها إلى أن تقبل الوشاية في حق غيرها؟ هذه مسألة لا نحسب أنه من المستطاع توضيحها على قاعدة واحدة تصدق في كل النفوس على السواء على اختلاف صفاتها من مكر وسذاجة ومن فطنة وغباء ومن خير وشر. على أن الميلين يتصلان في النفس ويتشعبان من شعبة واحدة وهي الأثرة، وما تثير من رغبة في منفعة أو خوف من مضرة، وإن كانت الرغبة في المنفعة ألصق بالواشي، وكان الخوف من المضرة ألصق بقابل الوشاية. على أن هناك أمراً لا شك فيه وهو أنَّ تَنَوُّعَ أساليب الواشي في الوشاية وتهيئتها تهيئة خاصة كي تكون مقبولة في النفوس المختلفة مما يجعل رد الوشاية ورفضها من أشق الأمور. ولا بد من التأثر بها إما قليلاً وإما كثيراً حتى في حالة رفضها وحتى في حالة كره الواشي وقلة الثقة به، وحتى في حالة معرفة كذبه. وإذا استطاع المرء أن يقاوم أثر الوشاية ألف مرة فهو قد لا يستطيع مقاومته مرة بعد الألف. ومن أجل ذلك ترى الرجل العادل الذي كَفَّ نفسه عن الشر يندفع إلى الشر بسبب وشاية واش بعد طول العصمة ويأخذ بالوشاية بعد رفض أمثالها مراراً فيتعجب الرائي المفكر من فجاءات الحياة والنفوس في أمثال هذه الأحوال الغريبة المباغتة. وإذا كان هذا شأن العادل المتحرج من عمل الشر ومن قبول القول من غير بَيِّنة أو دليل، فما ظنك بأكثر الناس وهم يقبلون القول قبل الإطلاع على البينة، وقبل فحص الدليل والتأكد من صحته، ومنهم من يلتقط القول التقاطاً من فم قائله وكأنما ينتزع الوشاية انتزاعاً من بين ثناياه، وكأنما يخشون ألا يخرج القول كله من فمه فيسعفوه بالمسهلات والمقيئات. وأكثر من هذا وذاك أنهم يأخذون بالظنة من غير حاجة إلى وشاية ونميمة؛ فقد يُحيِّي إنسان إنساناً آخر ولا يرد الثاني التحية لخطأ البصر أو بطئه في تبين الأشخاص، أو لانشغال ذهنه أو عينه، أو لسرعة انتقال الأول وفوات الفرصة لرد التحية، فيحسب الإنسان الأول أن الثاني تعمد الإساءة إليه مع عرفانه بسابق

إعزازه له ومودته وإكرامه. وقد زاد أبو تمام في هذا المعنى ووضحه فقال:

يَظَلُّ عليك أصفحُهمْ حقوداً ... لِرُؤيا إنْ رآها في المنام

وللواشي فطنة بما يؤثر في كل نفس فتراه في بعض الأحايين يتخذ أسلوب التلميح لا التصريح، ويكتفي بالإشارة عن العبارة، لا لرفقه واقتصاده في الشر، بل ليكون قوله أبلغ في الشر، إذ أنه يفطن إلى أن السامع من الذين يفهمون في التلميح أكثر مما كان يبسطه الواشي بالتصريح، ويرون في الإشارة أكثر مما كانت تستفيض به العبارة. ثم إن الواشي يرى في هذا الأسلوب من التلميح احتراساً فيستطيع إذا أُحرِجَ أن ينكر بعض ما فهم السامع أو كله ما دام قوله يحتمل التأويل والتفسير. وفي حالة أخرى يرى الواشي أن الإشارة لا تشغل ذهن السامع ولا تحرك نفسه فيعمد إلى الإطالة والإفاضة والتفصيل والتهويل حتى يكاد السامع يصيبه جنون الخوف أو الغضب من أجل عداء مزعوم أو انتقاص أو تدبير شر أطلعه عليه الواشي فيندفع إلى الشر، وقد يندفع إلى الجرم العظيم، ثم قد يندم أشد الندم ولات ساعة مندم. وتارة يقرن الواشي إلى وشايته وعدا خفياً بمكافأة يجزى بها السامع إذا قبل وشايته؛ ولا نعني مكافأة مالية، وإنما نعني أنه يعده وعداً من وعود المودة والمعاونة والتقديم والإكرام والانتصار له على أعدائه؛ وتارة يُدْخِلُ في ثنايا وشايته وعيداً خفياً يوعد به السامع إذا رفض وشايته، وتهديداً بالعداء إذا عده كاذباً في وشايته وإنذاراً بأنه بعد ذلك الرفض ينصر أعداء السامع عليه أو أنه يُخفي عنه كل ما يدبر له من الشر والكيد فيخشى السامع أن ينقلب الواشي عدواً يناصر أعداءه إذا لم يصدقه أو يخشى أن يصيبه شر من كيد مُدَبَّر يمتنع الواشي من نقل خبره إليه إذا كذبه ولو مرة واحدة فيسرع السامع إلى تصديق الواشي وإكرامه.

ومن أساليب الواشي أنه قد يلاطف السامع ويتحبب اليه، ويكرمه ويمده بنفع، ويطيل في الثناء عليه، ويظهر الحدب عليه، والحزن والخوف من وقوع الشر به حتى يثق به سامعه. ولا شيء تكتسب به ثقة السامع أبلغ من الثناء عليه وذم أعدائه. وإتقان المدح فن قد يُعَدُّ من الفنون الجميلة التي تتطلب صناعة حلوة، وبعد إتقان الواشي مدح السامع ترى ذلك السامع حريصاً على تصديقه كأنه يقول في نفسه هو صادق كل الصدق فيما مدحني به، فلا بد أن يكون أيضاً صادقاً كل الصدق فيما نقله إليَّ من الوشايات؛ ولا يعدها وشايات بل كرامات وهذا هو منطق النفوس البشرية. وإذا أطال الواشي في مدح السامع فقل على الغائب الذي يشي به السلام. فإن كُرْهَ سامع الوشاية لذلك الغائب ورغبته في أذاه وحقده عليه أمور تتمكن من نفسه كلما أجاد وأطال الواشي في مدحه وانتقاص ذلك الغائب. وكيف لا يعد السامع الممدوح الوشايات كرامات وهو يرى مظاهر إخلاص الواشي له وخوفه على جاهه أو سمعته أو حياته أو مكانته ويرى رغبته في صرف الأذى عنه وفي رد كيد أعدائه؟ وقد يصعب في بعض الحالات على الناقل المخلص حقاً الذي إنما يريد بالنقل دفع الشر عن صديقه أن يثبت صدق قوله فيختلط الحابل بالنابل ويضطر السامع أن يقبل من هذا وذاك. على أن الوشاية قد تترك أثراً وخيماً حتى في حالة معرفة السامع كذبها، فإن النفوس البشرية في بعض حالاتها تشك بالرغم من معرفتها ببطلان الشك، وتسيء الظن بالرغم من معرفتها كذب الظن. وهل هذه الحالة أغرب من حالة أشعب الثقفي النفسية، وهو الذي كان يصرف الأطفال عنه فيدعي أن احتفالاً بزواج في حارة مجاورة تُنثَرُ فيه النقود على الناس فرحاً وابتهاجاً فَيسرعُ الأطفال إلى تلك الحارة كي يلتقطوا بعض النقود، وتنخدع نفس أشعب بالقصة التي اخترعها فيعدو خلف الأطفال كي يلتقط أيضاً بعض تلك النقود التي لا وجود لها. على أنه حتى في حالة رفض السامع للوشاية ورفض كل شك في كذبها تراه مهموماً بسبب ما نُقل إليه من الذم أو الرغبة في الأذى لأنه يعد ما نقل إليه قد أنقص من نفسه لدى نفسه وأنقص من اطمئنانه إلى الحياة عامة والى النفوس البشرية فيحسن امتعاضاً وتضايقاً من الغائب الذي نقل الواشي عنه ما لم يقل أو ما لم يفعل لأنه كان سبب ذلك النقل الباطل والوشاية الكاذبة التي آلمته حتى وإن كان سبباً غافلاً عما سببه في نفس الناقل الكاذب ولكن سامع الوشاية المتألم منها بالرغم من تكذيبه لها في سريرة نفسه قد ينقم على ذلك الغائب المكذوب عليه سواء أكان الواشي الكاذب معذوراً أم غير معذور في بغضه له الذي دعاه إلى أن يكذب عليه في وشايته. وهذا أيضاً من

منطق النفوس البشرية. ومما يزيد في حنق سامع الوشاية أنها قد تكون مما لا يستطيع ذلك السامع فحصه أو مخاطبة المنقول عنه؛ ولا سيما إذا كان سامع الوشاية عظيماً أو رئيساً فيخشى على رياسته وعظمته أن تبتذل عند التفصيل في كشف الوشاية وفحصها وتحقيقها، ولا سيما إذا كان الغائب المنقول عنه مرءوساً ليس في منزلته؛ فيرى من الانتقاص لنفسه أن يطلعه على ما نقل الواشي إليه لأنه يضطر أن يُحَدِّثَهُ بالقول المر الذي قيل عن شخصه، أي شخص العظيم، وهذا فيه إحراج لعظمته فيفضل أن ينتقم من غير بحث ومن غير ظهور بينات أو أدلة على صدق الواشي، وتتلمس نفسه لنفسه الأعذار عندما تحوِّل الشبهات إلى بَيِّنات تخلصاً من إحراج عظمته بالتفوه بما قيل في حقه. وإذا كان هذا شأن من توجب عليه منزلته السير بالعدل فما ظنك بالكثير من الناس الذين يرى كل لنفسه عظمة مثل تلك العظمة، وإن لم تكن له تلك المنزلة التي تفرض عليه ما تفرض منزلة الأول. والذين يقرءون كل يوم ويسمعون عما يسمى بالطريقة الأمريكية في الاحتيال، فلا تمنعهم قراءتهم عنها من الوقوع في شرك المحتالين، ووسائل تلك الطريقة الأمريكية في الاحتيال أسهل من وسائل الوشاة. فالنفس البشرية تنقاد بالخيال والإحساس وبالرهبة والرغبة أكثر من انقيادها بالعقل والمنطق الصحيح والعدل.

ومما يزيد الوشاية تمكناً من النفوس أن النفوس طبعت على الخوف، فكل نفس تقبل الوشاية لا لأنها اقتنعت بصدقها بل لدرء الشر واتقاء الضر المحتمل، وهي قد تسرع بالإساءة إلى الغائب المنقول عنه إذا وجدت أن إساءتها إليه أسهل من ملاطفته وملاينته، وإنما تريد تعجيزه عن الشر بالإساءة إليه قبل أن يسيء إليها. وهي تُزَكيِّ إساءتها إليه قبل التأكد من صدق الوشاية بأن تعد تلك الإساءة من ضرورات الحياة ومكارهها التي لا مناص منها، والتي تدعو إلى المبادرة بالشر حيطة وحذراً؛ إذ أن البدء بالهجوم والمفاجأة به نصف الظفر والانتصار كما يقولون. وهذا أيضاً من منطق النفوس البشرية وأعني المنطق الخفي لا الذي يدرس في الكتب.

أضف إلى كل هذه الأسباب ما يدعو إلى قبول الوشاية من الرغبة في الأذى، وهي قد تكون رغبة مُلِحَّة وشهوة قاهرة في كثير من النفوس ولا سبب لها إلا التمتع بارتكاب القسوة وعمل الشر وإيلام غيرها وهذه الرغبة في الأذى والمتعة في القسوة لا تعجز عن خلق الأعذار والأسباب والشواهد والأدلة والبينات كي تُزَكيِّ نفسها في التمتع بالقسوة وفي ارتكاب الشر، وصاحب هذه المتعة النفسية في إيلام غيره يُرَحِّبُ بالواشي النمّام كما يرحب العاشق بحبيبه الذي طالت غيبته لأن ذلك الواشي يساعده على خلق الأعذار التي يُزَكيِّ بها رغبته في عمل الشر.

عبد الرحمن شكري

. . .الموت

حججه اللائحة الملزمة

للشاعرة أيلا هويلر ولككس

للآنسة الفاضلة (الزهرة)

سيدي الأستاذ الجليل الزيات

هل كنت أريد مهادنة لوعتي التي أهاج مدامعها مقالكم المؤثر البليغ بمناسبة الأربعين (في حزن المليك الطفل) حين لجأت إلى ديوان نفيس، لشاعرتي العزيزة أيلا هويلر ولككس، ساعة أن انتهى إلى العدد الأخير النفيس من (رسالتكم) العالية!! وهل كانت المصادفة الرحيمة هي التي طالعتني لأول ما فتحت الديوان بهذه القصيدة وأجرت القلم بترجمتها في الحال، رجاء مغالبة تلك الحسرات العصية التي ما برحت تغلب الجلد وتغذي الجزع، حتى كادت تسد سبيل الصبر، وتصرف عن مواطن الرشد، وتذهل عن سنة الله في خلقه، والدهر في أهله، مذ مضى الملك الشهيد (غازي الأول) فرع الأرومة الزكية، والقائم من منصب السؤدد في الذروة العلية، ذاك الذي غادر قلب العروبة ينعى مهجته، وجعل أمل المحامد يبكي بهجته. وكيف يعزى المصاب من لم يدع لهم المصرع الأليم والخسارة الفادحة فؤاداً يتجلد في وجه الشجون، لندرة الرجال في هذا الشرق الجديب المحزون؟!

أقول هل كانت المصادفة العجيبة، مدداً رحيماً للتماسك عن عزم في النفس لا عن

يأسي، بل تذكرة نافعة تلجئ إلى الاقتناع بأن الأسوة في بعض الأمور قد تكون سلما إلى التأسي. . . إذا عجز العزاء وأعيا المعزي. . . على أنه سبحانه المسؤول أن يكتب لآلاف القلوب المكلومة عزاء جميلا، وأجراً على التصبر جزيلا، وأن يعزى بطول بقائكم دولة الفضل والكمال، ويسكب على الفقيد الشاب العظيم سحائب الرحمة والرضوان بمنه وكرمه.

(الزهرة)

يقول الموت:

لِمَ ترتاع من إيذان قدومي، وتتقبض من ارتقاب زورتي أيها الإنسان؟ ولِمَ تهطع مستطيراً مروّعاً حين آتي لأقبضك إلى رحمة الله وأنتقل بك إلى دار القرار؟ لم تفرّ من أمامي

مشيحاً مستهلكاً، وتتشبث بأذيال الحياة مُزَاحِمتي الأفاكة المرجفة، ورصيفتي السرّاجة المرّاجة!

ألستُ أفيئك ظلال السكون العميق وأقلبك بين أعطاف الدعة، إذ أريحك من المشاق وأعفيك من الشقاء فلا تشغل ذرعك بمهمة، ولا تنقل قدمك إلى دَرَك!

فلماذا تحاول أن تحاجزني عن ذاتك، وتقيم بيني وبينك السدود؟ لماذا تتهضمني وتطلق لسانك في حرمتي وتعبث بكرامتي! لماذا تسلط عليّ بأس لعناتك، وتنزل بي أنكى نقماتك!؟

وأنا - مذ خلقني الله قانوناً طبيعياً لا يدفعه دافع في هذا العالم وجعلني سنّة الخلق التي لا تبديل لها ولا تغيير لم أجرّ على أحد مضرّة ولم أمسّه بأذى، بل اسَوْتُ كل جرح ونثثتُه بالبلسم الشافي، وضمدت كل قرح وأنضجته بالمسخن الوافي.

وظللتُ هذه الدنيا بستر راحتي الأبدية، إذ ضربت لها خيمة الطمأنينة الدائمة، وأوجدت لها ملجأ الغبطة القائمة، لكي تأوي إليهما مما يندلع عليها باستمرار من نيران خطوبها اللافحة، ومصائبها اللاذعة، وهمومها الجائحة، وأطماعها الهائجة، ووساوسها المائجة، وألاعيبها المفترسة، وغواياتها المترامية، وزخارفها المتراصفة، وأحوالها المتقاذفة.

وتلك التضرعات العارضة التي طالما خرجت من أفواه ظمأى تلتمس الرحمة للنفس والعزاء فما ابتلت لهاتها بباطل، ولا حليت بتافه. . بل تلك الاستعطافات التي طالما صعدتها قلوب جياشة باستغاثات تنفطر لها المرائر، ولكنها لم تصب منها رغبة، لأن الحياة ولتها من قلبها جانباً صلباً، وأولتها من إعراضها نكيراً وكرباً.

. . .لقد سوّغتها أنا واستجبتها وألقيت عليها رُخمتي، ومددت لها أكناف مرحمتي

فهلاّ علمت أن عديلتي القاسية وقسيمتي الجافية هي التي تقلبك في ردغة الخبال وحمأة النكال، وتقصم ظهرك بوقر العقاب، وتسوقك كل يوم بسوط العذاب، وتخدعك بعقد يسبقه الانحلال والنصب، وتحطمك بزوال لا تتوقعه عن حِجْر النعمة، وصراع يأخذ عليك سبل الهناء، وكفاح يدفعك عن مناهل الرجاء، وإعنات للنفس بما تعلم أن غايتك فيه اللغو والفشل، وحملها على الجهد في مطالب لا يصحب جهدك فيها أمل.

هلاّ علمتَ أن شوكتي هي أعظم شوكة في الوجود، لأني آخر أعمال الحياة في الموجود. فعلام تتمسك بعروتها، وإلام تسكن إليها، ولِمَ تصارمني إذاً وتقلب لي ظهر المجن؟

(الزهرة)

الدعاية الإسلامية

للمستشرق الإنجليزي توماس أرنولد

ترجمة الأساتذة

عبد الفتاح السرنجاوي، عمر الدسوقي، عبد العزيز عبد المجيد

انتشار الإسلام في غربي آسيا

أما القبيلة التي افتخر ذلك الشاب بانتسابه إليها فهي إحدى تلك القبائل التي اختارت أن تظل على المسيحية، بينما دخل في الإسلام غيرها من القبائل التي كانت تقطن ما بين النهرين كقبيلة بني نمير وبني قضاعة، وكانت قبيلة بني تغلب قد أرسلت من قبل وفداً إلى النبي (ص) في سنة 9 هـ، فأسلم مشركو هذا الوفد وعقد الرسول (ص) تحالفاً مع المسيحيين منهم الذين استبقى لهم عقيدتهم القديمة على ألا يُعَمِّدوا أطفالهم بعد ذلك. وقد حدا هذا الشرط الذي يخالف تماماً ما عهد عن محمد (ص) من

صفات التسامح مع العرب المسيحيين الذين سمح لهم أن يختاروا إما الدخول في الإسلام وإما دفع الجزية، ولم يكرهوا مطلقاً على ترك عقيدتهم، قد حدا هذا الشرط إلى الظن بأنه شرط اقترحته العشائر المسيحية نفسها من بني تغلب بسبب عوامل اقتصادية. غير أن بقاء المسيحية مدة طويلة في هذه القبيلة دليل على أن هذا الشرط لم يعمل به. وقد نهى الخليفة عمر ابن الخطاب عن استعمال أي ضغط عليهم أو إكراههم على الإسلام حينما ظهر أنهم غير راغبين في هجر دينهم القديم، وأمر أن يتركوا في أمن ليزاولوا شعائره على ألا يعارضوا في دخول أي فرد من أفراد قبيلتهم حظيرة الإسلام، وألا ينصِّروا أطفال أولئك الذين أسلموا. وقد طلب إليهم أن يدفعوا الجزية، أعني ما فرض على غير المسلمين من الرعية؛ غير أنهم شعروا أن دفع هذه الجزية شائن لفخرهم القَبلي، لأن هذه الجزية قد فرضت نظير حماية الأرواح والأموال، ورجوا الخليفة أن يسمح لهم بأن يدفعوا من الأموال كما يدفع المسلمون، ولهذا دفعوا بدل الجزية كفلاً من الزكاة - أو الصدقة - التي هي مال فرض للفقراء من عقار المسلمين ومواشيهم. نعم تضجر المسلمون حقاً أن تبقى قبيلة عربية محافظة على العقيدة المسيحية. وقد أسلم أغلب بني تنوخ سنة 12 هـ حينما خضعوا لخالد بن الوليد مع
قبائل أخرى مسيحية من العرب. غير أنه يظهر أن بعضهم ظل محافظاً على العقيدة القديمة نحواً من قرن ونصف، فلقد روي أن الخليفة المهدي (158 - 169) رأى عدداً منهم يسكن قريباً من حلب، فلما علم أنهم مسيحيون غضب وأمر بهم أن يسلموا، وقد أجاب ذلك منهم نحو خمسة آلاف شخص. وقد آثر أحدهم أن يقتل على أن يعتنق الإسلام. وهنا تعوزنا - لتحقيق معظم هذه الروايات - التفاصيل التاريخية التي تشرح لنا زوال المسيحية من بين قبائل العرب المسيحيين الذين عاشوا في شمال الجزيرة. ومن الممكن أن يكونوا قد اندمجوا في العشائر الإسلامية المجاورة، وفي الغالب بطريق التسلل السلمي خفية، وإلا فلو أن المسلمين حاولوا إكراههم على الإسلام بالقوة حينما أصبحوا تحت سلطانهم لما كان من الممكن أن تظل المسيحية حية بينهم إلى عصر الخلفاء العباسيين.

وهاك أهل الحيرة أيضاً فقد قاوموا كل الجهود التي قام بها خالد بن الوليد ليحملهم على قبول الإسلام. وقد كانت هذه المدينة (الحيرة) إحدى المدن الشهيرة في حوادث الجزيرة العربية. وقد حسب ذلك البطل الإسلامي المغوار أن التوسل إلى أهل الحيرة بصلة النسب العربية كاف لحملهم على أن ينضموا إلى اتباع الرسول العربي. ولما بعث سكان المدينة المحاصرة وفداً منهم إلى القائد المسلم ليتفقوا معه على شروط التسليم ويصالحوه سألهم خالد: (من أنتم؟ أعرب؟ فما تنقمون من العرب، أم عجم فما تنقمون من الإنصاف والعدل؟). فقال له عدي، وكان نقيب القوم: (بل عرب عاربة وأخرى مستعربة) فقال خالد: (لو كنتم كما تقولون فلم تحادونا وتكرهوا أمرنا). فقال له عدي: (ليدلك على ما نقول أنه ليس لنا لسان إلا العربية). فقال: (صدقت)، وقال: (اختاروا واحدة من ثلاث: أن تدخلوا في ديننا فلكم ما لنا وعليكم ما علينا؛ إن نهضتم وهاجرتم أو أقمتم في دياركم، أو الجزية، أو المنابذة والمناجزة، فقد والله أتيتكم بقوم هم على الموت أحرص منكم على الحياة). فقال عدي: (بل نعطيك الجزية). فقال خالد: (تبّاً لكم، ويحكم، إن الكفر فلاة مَضلّة، فأحمق العرب من سلكها فلقيه دليلان: أحدهما عربي فتركه واستدل الأعجمي).

وقد اتخذت كل الوسائل اللازمة لوعظ أولئك الذين اعتنقوا الإسلام حديثاً وإرشادهم وتعليمهم، لأنه كان من الضروري - وقد أخذت القبائل تدخل في دين الله بهذه السرعة - أن يؤخذ الحذر حتى لا يخطئوا في العقيدة أو العبادات والشعائر، كما يخشى هذا طبعاً إذا
كان إرشاد حديثي الإسلام غير صحيح. ولهذا بعث الخليفة عمر بالمعلمين لكل الأقاليم. وقد كانت وظيفة هؤلاء المعلمين أن يعلموا الناس القرآن، وأن يرشدوهم إلى كيفية القيام بشعائر الدين الجديد. وكان على حكام الأقاليم، شباناً كانوا أو شيوخاً، أن يحافظوا على حضور صلاة الجماعة، وبخاصة صلاة الجمعة، وفي شهر رمضان. ويمكننا أن نحكم على مقدار العناية التي وجهت إلى تعليم من دخلوا الإسلام حديثاً وإرشادهم من هذه الحقيقة؛ وهي أن وظيفة التعليم والإرشاد هذه لم توكل إلى شخص أقل

خطراً ومقداراً من خازن بيت المال نفسه.
ومن تلك الأمثلة السابقة التي تدل على تسامح المسلمين الظافرين مع العرب المسيحيين في القرن الأول الهجري، ذلك التسامح الذي ظل خلال القرون التالية. نستطيع أن نستنبط واثقين أن تلك القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام إنما فعلت ذلك باختيارها وطوع إرادتها. والدليل الواضح على ذلك التسامح هو بقاء العرب المسيحيين حتى اليوم في وسط الجماعات الإسلامية.
ويحدثنا (لايارد) أنه مر بعشيرة من المسيحيين في ناحية الكرك، شرقي البحر الميت، وأن هؤلاء لا يختلفون عن العرب المسلمين لا في لباسهم ولا في عاداتهم. ولقد ذكر رهبان جبل طور سينا لبوركهارد أن بضعة بيوت من البدو المسيحيين ظلت حتى القرن الثامن عشر على دينها، وأن أخرهم امرأة عجوز توفيت سنة 1750 ودفنت في حديقة الدير.
وكذلك لا يزال على المسيحية كثير من العرب من قبيلة بني غسان الشهيرة، وهم عرب خلص، وقد اعتنقوا المسيحية حوالي أواخر القرن الرابع الميلادي. وهم يستعملون اللغة العربية في صلواتهم الدينية منذ أن خضعوا للكنيسة الرومانية في القرن السابع عشر.
(يتبع)
التاريخ في سير أبطاله
أحمد عرابي
أما آن للتاريخ أن ينصف هذا المصري الفلاح وأن يحدد له مكانه بين قواد حركتنا القومية؟
للأستاذ محمود الخفيف
ولست أدري كيف كان يطمع بلنت في أن يقنع غلادستون بالعطف على قضية الأحرار في مصر، وقد كان رجال السياسة في إنجلترا يسعون ما وسعهم السعي إلى الاستيلاء على مصر منذ أن التقى البحران، وهو إنجليزي لا تخفى عليه نيات الإنجليز وأساليبهم تجاه الشعوب الشرقية؟
إني أفهم أن تجوز ألاعيب السياسة الإنجليزية على أولئك الإغفال من أهل الشرق الذين أذهلهم ما هدهم من ضعف عن الحقائق فصدقوا الباطل وهم يجهلون، أو الذين غرتهم بأوطانهم زخارف العيش ووساوس النفس فانغمسوا في الباطل وهم يعلمون؛ أما أن تجوز الأباطيل على إنجليزي عليم بالسياسة وأوضاعها فهذا ما لا أفهمه، ولذلك فلولا ما تأكد لدى من إخلاص مستر بلنت لقضية الوطنيين حتى قضى الاحتلال فيها قضاءه لارتبت في نياته كما أرتاب في نيات الساسة من أهل بلاده أبداً.
وكأن القدر يأبى إلا أن يظهر بين حين وآخر من الإنجليز أنفسهم من لا تطغى على ضمائرهم خدع السياسة، أو يشوه الجانب الإنساني من نفوسهم أوضار العيش، فيكون من هؤلاء حجة على المرائين الماكرين من بني قومهم، ويكونون بينهم شهوداً من أهلهم عليهم تنبعث أصواتهم مجلجلة فتملأ أسماع أولئك الساسة الذين يوصدون أسماعهم دون أصوات الشعوب المغلوبة على أمرها مهما بلغ من قوة انبعاثها؛ ومن هؤلاء الأحرار روثستين وبلنت ومن حذا حذوهما.
قدر على شريف أن يلاقي عنتاً شديداً من مسلك الخديو من أول الأمر! وأخذت وزارته تشق طريقها في حذر شديد بين تلك الصعاب القائمة، وكان أعظمها دسائس الأجانب وتوثبهم في ذلك الوقت، ولقد هال هؤلاء الأجانب انبعاث الروح الوطنية إذ رأوا فيها بوادر القضاء على ما يمنون به أنفسهم في مصر.
وسارت سفينة الحكم بين هذه التيارات المختلفة، تنكر الخديو لقضية الحرية ونشاط المدافعين عن هذه القضية، وتربص الدولتين بالحركة جميعاً.
وكان طبيعياً أن تفيق البلاد على صيحة عرابي، وأن تنطلق النفوس من عقالها، فلقد أتيح للناس قدر من الحرية وهم إليها عطاش تتحرق نفوسهم؛ فبدأ الوطنيون يعبرون عما احتبس في صدورهم منذ عزل إسماعيل، وعادت الصحف تعبر عن مساوئ التدخل الأوربي وتندد بأساليب الدخلاء في مصر الذين سلبوها أقواتها بالحيلة وحالوا بينها وبين أمانيها زمناً بالإرهاب والبطش؛ والذين كان يحتل الكثيرون منهم الوظائف المصرية الخطيرة ويؤجرون على أعمالهم فيها إن كان ثمة لهم فيها من أعمال أجوراً

غالية من خزانة مصر الفقيرة.
وأخذت جريدة الطيف، وكان يصدرها عبد الله نديم، تقاوم البهرج الزائف الذي بدأ يلتمع في مصر فيخطف سرابه أبصار الجاهلين، والذي سماه الأوربيون مدنية ليكون لهم منه سلاح من طراز آخر يضيفونه إلى أسلحة الدس والكيد التي سلطوها على البلاد؛ وحمل الكرام الكاتبون على المراقص وحانات الخمور ودور المجون ومواخير الدعارة وغيرها من مباءات الفسوق الذي كان يذيعها في مصر أولئك الذين جعلوا من مبررات تدخلهم في شؤون البلاد رغبتهم في هداية أهلها إلى المدنية!
وكان بيت عرابي قبل أن يعين في منصبه الجديد مقصد الناس من جميع الطبقات والهيئات الوطنيون والأجانب في ذلك سواء؛ وكانت شهرة عرابي تطغى على شهرة جميع الرجال من حوله حتى البارودي وشريف وكان لهما الحكم والجاه؛ والحق لقد اتجهت الأنظار إلى عرابي منذ يوم عابدين وأصبح من المستحيل أن يعتزل السياسة أو تعتزله السياسة، وقد خطا في سبيلها تلك الخطوة الجريئة التي كان النجاح حليفها.
أخذنا على عرابي أنه حينما طلب إليه أن يخرج من القاهرة بفرقته اشترط أن يكون ذلك بعد صدور أمر الخديو بدعوة مجلس شورى النواب، ونعود فنأخذ عليه أنه تدخل في الأساس الذي يجتمع عليه المجلس. فكان شريف يرى أن يكون ذلك وفق لائحة عام 1866، أي أول لائحة للمجلس على أن يقوم المجلس بالتعاون مع مجلس الوزراء بوضع
لائحة جديدة تجعل منه مجلساً نيابياً يلائم حال البلاد؛ وبعد معارضة شديدة وافق عرابي على ذلك.
ثم تدخل عرابي في مسألة أخرى وهي الميزانية المخصصة لإبلاغ الجيش ثمانية عشر ألفاً من الجند، فلقد أبدت المراقبة المالية عدم موافقتها على المبلغ اللازم كله، وبعد أخذ ورد وافق عرابي على ما تيسر دفعه من هذا المبلغ على أن يقوم بتوفير الباقي من وجوه أخرى.
لقد قطع عرابي على نفسه عهداً كما أسلفنا ألا يتدخل في شؤون الحكومة القائمة وعلى هذا الأساس قبل شريف رياسة الوزارة؛ لذلك نرى أن تدخل عرابي في الأمور التي ذكرناها يوجب ملامته ولن يَشفع له أنه كان يطلب الخير ولن يخفف من اللوم عليه أنه رضى آخر الأمر ولم يسبب للحكومة عنتاً، فهذه الأمور من اختصاص الحكومة وهي لن تمس كما نرى جوهر قضية البلاد.
لم ين أعداء هذه الحركة الوليدة عن مناوئتها في مصر وخارج مصر؛ والى هذه المناوئة يرجع سبب جموح هذه الحركة والتوائها على شريف ثم خروجها آخر الأمر من يده، ولو أنه قدر لمصر في تلك الأيام العصيبة أن آزر الخديو كبير وزرائه ضد الدسائس التي كانت تحاك للبلاد لأمكن شريف أن يسير بالسفينة إلى شاطئ السلامة، ولكن الخديو وا أسفاه لم يكتف بعدم المؤازرة بل لقد التجأ إلى الأجانب فكان هذا العمل من جانبه أقوى مساعد على نجاح سياستهم. . .
وكان أوكلند كلفن العضو الإنجليزي في لجنة المراقبة المالية، وإدوارد مالت قنصل إنجلترا في مصر هما اللذان يحكمان الشباك حول الخديو، ولقد كانت لهما سياسة ماهرة غادرة تدور على أسس أحكم وضعها أولهما وفق ما تعلم في الهند؛ فهما يظهران الولاء عند الخديو فيدسان له بذلك السم في الملق، ثم هما يخوفانه أبداً من تركيا والعرابيين جميعاً فيذران قلبه هواءاً، وهما بعد ذلك يضللان الرأي العام في بلادهما ويرسلان التقارير السرية بما يجب أن يتبع إلى وزير الخارجية.
وكانت وسيلتهما في تضليل ذلك الرأي العام؛ السيطرة على الصحف بالسيطرة على مراسليها، وكان كلفن نفسه مراسلاً لإحدى الصحف الهامة، وكان مراسل التيمس يعتمد
عليه في استقاء المعلومات، أما شركتا روتر وهافاس، فقد كان يعطى لكل منهما ألف جنيه في العام من خزانة مصر! وقل أن نصادف في تاريخ السياسة عملاً أشد فجوراً من أن تحارب قضية شعب بنقود من خزانته!
وكانت الحركة الوطنية تلاقى أبلغ الكيد خارج مصر من جانب الصحافة أول الأمر، إلى أن منيت بعد ذلك بالتدخل الرسمي الفاجر، الذي لم يدع في تاريخ العالم عرفاً إلا خرج عليه، ولا قاعدة ألا سخر منها وحطمها تحطيماً.

أخذ محررو الصحف في إنجلترا وفرنسا ينددون بثورة مصر ويسخرون من نهضة مصر، ولو أنهم كانوا يحترمون أنفسهم حقاً، أو يحترمون المبادئ التي نادت بها بلادهما لمنعهم ذلك عما فعلوه. . .

وماذا جنت مصر يومئذ حتى تستقبل أوربا حركتها بأسوأ ما تستقبل به الحركات؟ ألم تجر في أوربا الدماء في سبيل تلك المبادئ التي كان ينادى بها المصريون؟ وكيف تكون نغماتها عذبة مشتهاة إذا تغنى بها أهل تلك الشعوب، ثم تكون ممجوجة مملولة إذا هتف بها الشرقيون؟

هذا شعب ينفض عنه غبار القرون، ويخطو نحو الحرية كما خطت أوربا، ثم هو يذب الأجانب عن قوميته، وقد ثقلوا عليها بامتيازاتهم الأثيمة الظالمة ثقل الحشرات والهوام، فماذا كانت ترى أوربا في هذا من معاني الفوضى والهمجية ولم يصحب حركة المصريين عدوان على أولئك الأجانب ما كانوا يلاقونه منهم من عنت وإفساد؟ ألا إنها السياسة تقلب عرف الناس نكراً، وتجعل المبادئ التي ينادى بها دعاة الإنسانية في نظر الساسة أحلاماً لا تجد لها مستقراً إلا في رؤوس الحمقى من الفلاسفة ورؤوس الأغرار من مصدقيهم.

أما السياسة فقد كانوا لا يتوانون عن الكيد، ولا يفتر لهم سعى في تلمس السبيل التي يستولون بها على الفريسة، وكان موقف إنجلترا وفرنسا من مصر ينطوي على كثير من المعاني التي تبعث على الألم والضحك معاً، وكم من المآسي ما تضحك منه النفوس ولكنه ضحك المرارة التي لن يبلغ الدمع مبلغها.

وكان موقف الدولتين كموقف رجلين يطمعان في استلاب شيء وكل منهما يريده لنفسه دون الآخر ولكنه يموه على صاحبه، وكل من الرجلين يفهم حق الفهم أن الآخر يدرك حقيقة موقفه منه، ولكنهما على الرغم من ذلك يتغابيان ويضللان!

هذا هو موقف الدولتين على مسرح السياسة في تلك الأيام، ولكم شهد المتفرجون يومئذ من الأساليب الميكيافيلية وأوضاعها، ولكم شهدوا من أساليب غيرها لو قرنت بها الأولى لكانت منها كالحسنات، ثم يسدل الستار والمتفرجون من أهل مصر لا يملكون أن ينطقوا بكلمة استهجان لما رأوا، بل لقد فرض عليهم أن ينظموا عقود المدح وإلا عد سكوتهم جحوداً وعناداً، وأي شيء أوجع وأنكى من أن يرغم شعب على تقبيل الأيدي التي استلبته حقوقه والأغلال التي دارت حول عنقه.

ويظهر أول شاهد عل السياسة الإنجليزية في تقرير كتبه كلفن بعد الثورة بعشرة أيام جاء فيه: (أرى أن ليست الحال الحاضرة بطبيعتها إلا هدنة، وأن ما وصلنا إليه من التسوية ليعطينا مهلة نستجم فيها ونلم فيها بالقوى التي تعمل حولنا ونسعى في الاستفادة منها أو القضاء عليها).

وليس في هذه العبارة أول شاهد على السياسة الإنجليزية فحسب، بل إن فيها ملخص تلك السياسة؛ فستتربص إنجلترا للحركة حتى يحين الوقت وحتى تستطيع أن تعمل بمفردها دون فرنسا. . .

وكان شريف يقضاً يفطن إلى دقة الموقف ويدرك مرامي السياسة الإنجليزية وأساليبها؛ ولذلك كان لا يفتأ يحض أنصار الحركة الوطنية على اتباع الحكمة ومجانبة الشطط حتى لا يكون من أعمالهم أو أقوالهم ما تسيء أوربا فهمه فتسوء بذلك العاقبة.

وأخذ العقلاء من رجال الحركة الوطنية يعاونون شريفاً على تثبيت قواعد سياسته، وكان من أثر ذلك أن تنازل عرابي عن رأيه في الموقفين السالف ذكرهما، وكان من أثره أيضاً أن خففت الصحف من لهجتها وكفكفت من غلوائها؛ ولقد كان للأمام محمد عبده فضل كبير في توجيه العناصر الوطنية نحو هذا المسلك الحكيم. . .

ولكن الأفق ما لبث أن تجمعت في حواشيه الغيوم وأحست السفينة بوادر عاصفة قوية ما عتمت أن هبت شديدة عاتية نفد لها صبر الربان أو كاد، وتلك هي أزمة الميزانية الشهيرة.

فرغ شريف من إعداد اللائحة الجديدة للمجلس النيابي ثم عرضها على النواب؛ وشد ما كانت دهشتهم أن رأوا شريف يقرر فيها ألا يكون من اختصاص المجلس عند النظر في

الميزانية البحث في جزية الباب العالي والدين العام، وكل ما فرضه قانون التصفية على الخزانة من نفقات.

وهال النواب وأغضبهم أن يكون ذلك باتفاق شريف مع المراقبين، فرفضوا ذلك وأصروا على أن ينظروا الميزانية كاملة، واعتبروا ذلك من الحقوق التي لا تقبل مساومة مهما يكن من الأمر.

وأخذ شريف المسألة من الناحية العملية، فلم يشايع النواب في نظرياتهم، وأخذ يطلب إليهم الأنات والحذر ويريهم عاقبة التطرف والتعجل، ولكنهم لم يلتفتوا اليه، وظهرت في الوزارة نفسها بوادر التفكك. فلقد كان البارودي يطمع في الحكم بعد شريف فكان لذلك يشجع الوطنيين في موقفهم سراً.

وكان سلطان باشا رئيس المجلس ينقم على شريف أن لم يسلكه في سلك وزارته فوجد في الخلاف القائم فرصة ينال بها من شريف فسرعان ما اتهم شريف بالاعتدال، ثم حمل اعتداله على الجبن والضعف. . . ثم بلغ الأمر إلى اتهامه بالخيانة.

ووقف الربان يواجه العاصفة في صبر وجلد، وهو يؤمل أن يجنح النواب إلى السلام والاعتدال، ونشط الشيخ محمد عبده في معونة شريف، ومما ذكره في هذا الصدد قوله: (لقد ظللنا ننتظر حريتنا مئات السنين، أفيصعب علينا أن ننتظرها بضعة شهور أخرى؟).

ثم بدا على الأفق بعد حين ما يبشر بقرب انكشاف الغمة! فلقد أخذ النواب يتدبرون عاقبة هذا التشدد، وبدأ العقل يتغلب شيئاً فشيئاً على العاطفة.

(يتبع)

الخفيف

مأتم غازي

للسيدة وداد سكاكيني

أينَ غابَ اللحن مِنْ شَدْو الطيور ... أينَ غابْ
كيف صار الزهر من (قصر الزهور) ... في التراب
شعلة للمجد من نار ونور ... كالشهاب
سطعت ثم اختفت بين القبور ... كالسراب
أين غازي سيد العُرب الفخور ... بالغلاب
كان رمزاً فوق هامات العصور ... للشباب

التحيات الطيبات لقبر غازي الندي الريان الجاثم على ضفاف دجلة الجميل، في ظلال النخيل، حيث يرقد قائد العرب فيصل العظيم في مضاجع الخلود. هناك في الحلل السود تحت خفق البنود رفرفت أرواح الأسى والأحزان، من كل الجيران والإخوان، وفي هذا اليوم العصيب عادت نساء الشام تسفح الدمع الصبيب، على المليك الحبيب.

إن في كبد الشام زفرات لا هبات، إذ كادت تجدد بيعة فيصل لشبله غازي وتمد إليه الأيدي على الولاء والوئام، ففقدت بموته أملها الباسم وعرشها الحالم، ولكنها عاهدت النفس أن يعيش من بعده أهلوها الأباة إما أعزة أحراراً أو يموتوا كراماً. هذا يوم له ذكراه الأليمة في قلوب العرب. النساء يشاركن العراق في الأتراح بعد أن شاطرنه الأفراح في عهد أشبال الحسين الصناديد من هاشم وعبد شمس، المناجيد في غوث العروبة اللهيفة التي قبَّل أبناؤها الغطارفة الصِّيد على أيديهم الشريفة صفحات السيوف ومسحوا عنها الدماء فاستراحوا في ظلهم الرطيب من غدر الزمان وظلم الإنسان.

لهفي عليك يا غازي يا عبقري الشباب لم تمتع بالشباب؟! لقد تركت قافلة العرب في حومة الصحراء، ظمأى إلى الماء، وكأنها أطبقت الجفون الوسنى على أحلامها فيك وهي تسري على الرمال فتخطفتك المنون من بين العيون، فروعت القافلة، وتهاوت أمانيها العِذاب، فتاهت في أسراب الرمال، وغابت منها الأشباح والظلال، تنادي الآمال وتنشد الرجال.

يا حسرتاه على النسر الطيار كيف هيض جناحاه، وكان في الثريا فهوى إلى الثرى، وثنى رأسه الأشم بعد أن علا بجبينه الوضاح وروحه القاحمة، فزاحم النجوم وحوم في آفاق

الحق والجمال حتى حلق في أمجاد العرب، فضجت له البيداء والفيحاء بالتأييد والتمجيد، وأشرقت من تلك المسارب والمحاريب بأنوار الخير والسلام.
مَنْ كان يحسب من العرب أن ذلك فورة العمر ووثبة الموت وهبَّة الضوء قبل الانطفاء؟ لم يكن مأتم غازي في دنيا العروبة واحداً، وإنما كان حسرات موزعة في حبات القلوب، وحسرات منهلة من الصميم. على أن القلوب التي أحبك بها الناس فضموك في شغافها كانت لك في حياتك مهداً، هي التي احتوتك اليوم يا غازي بالذكرى فصارت لك لحداً. نساء دمشق يمجدن الساعة هذه الذكرى الخالدة التي تلاقت فيها مروءة الحسين وبطولة فيصل وشباب غازي وعروبة الهاشميين الميامين.
لقد حملت يا غازي أمانة جدك ورسالة أبيك وأنت طري العود غض الإهاب، فكتبت في سجل العرب الحديث صفحات نيرات، وأعدت المجد التليد، إلى دار الرشيد، ولم تضيع رعاية فيصل للمرأة العربية وعنايته بنهضتها، فكنت على رأيه السديد: لا يقوم بناء قوم إلا بالرجل والمرأة؛ فسرت يا غازي على نهجه ومهدت للإصلاح والفلاح من بعده؛ فعززت ثقافة الإناث وحدبت على نهضة المرأة في العراق. فيا ليت القدر لم يعجل باختطافك حتى تتم رسالتك وترى عبقريتك ممتدة في أرض الرافدين وحيثما ترفع راية القرآن. . .
(دمشق)
وداد سكاكيني
العالم يتطلع إلى حدودنا المصرية
أربعون يوماً في الصحراء الغربية
للأستاذ عبد الله حبيب
- 4 -
تحدث المحرر في المقالات السابقة عن بعض مشاهداته في الصحراء الغربية فوصف بعض عادات العرب وصفاتهم وحكامهم وساحل الصحراء وهطول الأمطار وموارد المياه وسكان الساحل وقبائل الصحراء وسكة حديد مريوط. وهو في هذا المقال يحدث القراء عن الطريق إلى مرسى مطروح
الطريق إلى مرسى مطروح
لعل أهم ما يفيد القارئ ويلذه هو حديث اليوم عن الطريق إلى مرسى مطروح. وسأوجز القول إيجازاً كي لا يمل القارئ حديث الصحراء، وسأعتمد في تدوين ما أحدث به القراء على ما شهدته خلال الرحلة وما دونه صديقنا الصاغ رفعت الجوهري في كتابه المهيأ للطبع عن الصحراء الغربية.
يمكن القول إجمالاً أن الطريق الساحلية من الإسكندرية إلى مرسى مطروح صالحة للسير وقطعها بالسيارات سهل ميسور، وهي عامرة بالبلاد وترتبط أجزاؤها بالمواصلات التليفونية، وتتوفر فيها وسائل إمداد السيارات من بنزين ووقود، كما يمكن الحصول على الماء على طول الطريق بسهولة.
ويبلغ طول المسافة من الإسكندرية إلى مفرق العامرية 21 كيلو متراً كلها مرصوفة بالإسفلت، ثم تمتد الطريق بحالة شبه صحراوية إلى مسافة مائتي كيلو متر تقريباً حتى ناحية فوكه، ومن هذه إلى مرسى مطروح، والمسافة بينهما تبلغ 15 كيلو متراً كلها مرصوفة بالإسفلت.
من الإسكندرية إلى العامرية
تبتدئ الطريق في الإسكندرية من ناحية المكس ثم بوابة خفر السواحل، ومنها تجتاز جسراً خشبياً حتى لوكاندة المكس المعروفة، وعندها تعبر شريط السكة الحديد ثم تمتد معبدة إلى
الدخيلة، وبعد ذلك بنحو 2 كيلو متراً تتجه الطريق يسرة فتصعد تلاً ثم تأخذ في الهبوط، وبعد نحو كيلو مترين آخرين تسير يمنة ثم يسرة وتمر ببوابة من الحجر خاصة بمصلحة الحدود وذلك للاطلاع على رخص المرور.
يعترض الطريق بعد ذلك جسر طوله أربعة كيلو مترات يقطع بحيرة مريوط التي تنبسط إلى مدى ما يصل إليه البصر، وليس بها إلا بعض زوارق الصيد الصغيرة تروح وتغدو في مياهها المترامية، وتتجه الطريق بعد قطع هذا الجسر إلى تلال تحوط البحيرة من جهة الجنوب إلى أن تتفرع - بعد كيلو ونصف - إلى طريقين: الأولى وهي

الطريق الرئيسية تتجه غرباً؛ والأخرى جنوباً فتقطع سكة مريوط الحديدية بعد كيلو مترين من المفرق إلى أن تصل إلى مركز العامرية على بعد ثلاثة كيلو مترات من محطة السكة الحديدية. ومن العامرية تتجه الطريق جنوباً إلى وادي النطرون فالقاهرة عن طريق الصحراء.

العامرية

أما العامرية فهي بلدة صغيرة، ومركز القسم الشرقي التابع لمصلحة الحدود وبها سراي لخاصة جلالة الملك، ومزارع عظيمة لجلالته، وحدائق واسعة للعنب والزيتون، وتقوم بها صناعات عربية حديثة لعمل السجاجيد، وتنبت بها زهور النرجس الأبيض الطبيعي بكثرة.

وعلى بعد أربعة كيلو مترات منها توجد بئر المكادرة التي يبلغ عمقها 12 متراً، ومياهها حلوة. وعلى مسيرة ستة كيلو مترات من هذه البئر في اتجاه الشمال الشرقي يوجد تل مرتفع يستطيع الواقف عليه أن يشرف على منظر بديع جداً لبحيرة مريوط، ومن ورائها يرى الإسكندرية.

من العامرية إلى بهيج

تبتدئ الطريق الرئيسية الموصلة إلى الغرب، ومن مفرق (العامرية - بهيج) الذي يقع إلى شمال محطة السكة الحديدية بنحو كيلو مترين، ومنه إلى الجنوب الغربي موازية لشاطئ بحيرة مريوط، وتفصل بينهما سلسلة صغيرة من التلال، وبعد اثني عشر كيلو مترا من المفرق تمر الطريق ببئر (سينة) وبعدة آبار أخرى.

ولكي نختصر الوصف نكتفي بذكر البلدان التي تقع على طول الطريق بعد ذلك إلى مرسى مطروح مكتفين بذكر البلدان التي لها قيمة تاريخية، وتتصل بها معلومات طريفة:

بهيج

هي مركز لقسم من هجانة الحدود، وبها مغازل (للأكلمة) اليدوية، وهي معروفة لدى المشتغلين بالآثار إذ تقع على بعد أحد عشر كيلو متراً تقريباً منها بلدة أبو مينا وهي سانت ميناس القديمة.

ويرجع تاريخ هذه البلدة إلى القرن الرابع الميلادي، وقد توفي فيها القديس سانت ميناس سنة 296 ميلادية. وتحتوي على كنيسة مبنية على الطراز الروماني وكنيستين أخريين صغيرتين وبعض مبان أثرية أخرى.

قصة غريبة

وللقديس سانت ميناس قصة غريبة إذ يقال إنه كان أحد الجنود الرومانيين الذين اعتنقوا المسيحية في زمن الإمبراطور دقلديانوس الذي أمر بذبح جميع المسيحيين إن لم يرتدوا عن دينهم. أما ميناس فقد أوقعوا به صنوف العذاب ثم قطعت رأسه سنة 296 ميلادية. لكنه كان قد أوصى قبل وفاته بأن يدفن في مصر، فلما نقلت الفرقة التي كان يعمل بها في لوبيا أحضرت معها رفاته تنفيذاً لوصيته. وسارت الفرقة في طريقها حتى إذا وصلت إلى الساحل الإفريقي نقلت الجثة على جمل فمشى بها في الصحراء حتى إذا بلغ هذه النقطة برك ورفض القيام. وكان ذلك بجوار بئر مياه، فاعتبروا ذلك معجزة، وتقرر دفنه في المكان نفسه وسمي باسمه، وبعد ذلك شيدت الكنيسة فوق المكان وعلى مقربة من العين.

أبو صبر الأثرية

هي مدينة كبيرة تقوم على المكان الذي كانت تقوم عليه مدينة (تبازير ليس ماجنا) القديمة وهي إحدى المدن الثلاث الشهيرة الواقعة بين الإسكندرية والسلوم. وهناك على ربوة صغيرة في أحد أطراف البحيرة عند اتصالها بالبحر يقوم بناء فخم قديم على الطراز المصري طوله 295 قدماً، وربما كان أحد معابد الآلهة (أوزيربس)؛ ولم يبق من هذا البناء إلا مدخله وبعض الحجارة المنقوشة، وتوجد على مقربة من المعبد آثار بعض الغرف والمدافن المحفورة في الصخر.

منار فاروس الرومانية

على بعد بضع مئات من الأمتار من هذا المعبد كانت تقع المنارة الرومانية القديمة الشهيرة بفاروس، ولم يبق منها سوى قاعدتها وبعض آثارها.

أما المنطقة التي حول بهيج وبرج العرب فتكتسي في فصل الشتاء حوالي شهر فبراير

بحلة جميلة من الزهور الزكية الرائحة تنبت طبيعية في الصحراء كما أن أرضها صالحة للزراعة، وأهم حاصلاتها الشعير، وتسكنها قبائل أولاد على ومنهم عدد كبير من الفرسان، وتمتد من برج العرب جنوباً طريق توصل إلى البحرية.

الحمام

هي بلدة تعد مركزاً تجارياً عظيماً للأغنام، والمياه فيها متوفرة وهي مشهورة بطواحين الهواء المنتشرة في جميع أرجائها، ولهذه البلدة تاريخ قديم، وكانت تعرف فيما خلا باسم (مانو كامينوس).

جامع سيدي عبد الرحمن

سميت باسمه محطة السكة الحديدية، ويقال إنها كانت قديماً مركزاً من مراكز السنوسية الشهيرة، ويحج إليها أعراب المنطقة، والجامع مبني على ربوة يشرف الواقف عليها على مناظر عظيمة للمنطقة المحيطة به.

الضبعية

وهي مركز تجاري كبير للبدو، وكانت تدعى قديماً (زيفر يوم)، وبها مبان لخاصة جلالة الملك ومركز للبوليس، ومبان حكومية وجامع. وتشاهد خيام العرب المسماة (بالخيوش) هناك بكثرة وبعضها مقام بحالة منظمة. ومن المناظر الطريفة مشاهدة الأعراب وهم يحرثون الأرض بمحراث يجره جمل بجواره حمار، أو جمل وحصان، والمحراث المستعمل هناك من الأنواع الخفيفة التي يحملها رجل واحد على كتفه.

ويصل المسافر إلى مرسى مطروح وهي عاصمة الصحراء الغربية وبها دار المحافظة. وسنتكلم عنها في المقال الآتي وهو الأخير.

عبد الله حبيب

في ذكرى أربعين غازي في باريس

مصرع الصقر

للأستاذ أمجد الطرابلسي

أقبل الليل من وراء الدُّهورِ ... يتهادى تهاديَ المخمورِ
دغدغ الغابَ فاستكانَ إليه ... وسرت فيه رِعشةُ المقرور
وسجا تحت جنحه يعبث النَّو ... م بأجفانِه كطفلٍ غَرير
مثلما نام أَرْغَبٌ تحت جنح الأ ... مّ في ظلِّ عشّهِ المضفور
أقبل الليل مثلَ أَجْنحة العقْب ... انِ أو وجهِ بائسٍ مَقهور
يسحب الخَطْو مُتبعاً ويجرُّ الذَّ ... يلَ جراً على بَقَايا النّور
وغفا الغابُ لا زئيرُ سباعٍ ... يتعالى ولا هتافُ طيور
ليس إلا النَّسيم يخطرُ هَوْناً ... خَضِل العِطفُ مُثقلاً بالعَبير
يتثّنى وسْط السُّكونِ مُطيفاً ... بِعشاشٍ هَنيئةٍ وَوُكور
كطيوف الأحلام تسرى خفافاً ... حول عذراَء في المهادِ الوَثير
يَمسَحُ الأعْيُنَ النّيامَ رَفيقاً ... ببَلالِ الندى ونشرِ الزُّهور
ويهزُّ الغصونَ حيناً فلا تس ... معُ في الجوِّ غيرَ خفْقِ السَّفير
رقدَ الغابُ في حمى اللّيل عَيّا ... نَ يَعُبُّ الكرى بطرفٍ قرير
وتلاقى الآلاّفُ فيه على الصَّف ... وِ وناموا عن كامن المقدور
رقد الغاب كلّه غيرَ عيني ... ن تَشُعّانِ في الدُّجَى المنشور
شَرَدَ النّومُ عنهما في الدّياجي ... فهما للسّهاد والتفكير
تستشفّان مُخْبَآتِ اللّيالي ... وتُضيئان حالكاتِ السُّتور
يا فتىَّ الصّقور! أيُّ مرام ... يَتَصّباكَ يا فِتيَّ الصقور!
لفَّ هذا الظلامُ أترابَكَ الصِّي - دَ ببردٍ من غبطةٍ وسُرور
أسلموا الأعينَ القريرةَ للحُلْ ... مِ وناموا عن كامِنِ المقدور
وسهرتَ الظلامَ في ذروة الدّو ... حِ تُديرُ الأحداقَ في الدَّيجور
ترمقُ الغابَ تارةً فتراه ... غارقاً في سُكونِهِ والعُطور
وتناجى السَّماَء حيناً فتسبي ... ك الدراريُّ بالحديثِ المُثير
جرد الصقور حوله من بياض الثلج ... جُنحينِ في ائتلاقِ الثُّغور
وانبرى في الفضاء يخترقُ اللي ... لَ بسَيْفَيْه كالشهابِ المغير
زفَّ كالبرقِ وأمحى بعده الغا ... بُ وراَء المدَى وخلفَ البحور

ومضى في السماء يسمو إلى النَّج ... م بعزمٍ وسْطَ الظلامِ مُنير
أين تَسمو يا صقر في حُلكةِ اللي ... ل، وماذا يغريك بالتَّشمير؟
ما الذي نَفَّر الرقادَ وأذكى النَّ ... ارَ حَرَّى في صدرك المصهور؟
النهاياتُ، يا ربيبَ السّموا ... ت، تَطَوَّت لجنحك المحرور
وتوارت عنك الدّنى، وتواري ... تَ بعيداً عن طرفها المحسور
فإلى أين تَنطحُ الجوَّ يا صق ... ر وقد آذن السنا بسُفور
وصفا الكونُ ليس تَسمع فيه ... غيرَ همسِ النجوم وسطَ الخدور
رانياتٍ إليكَ يَرْمقْنِ جُنْحي ... كَ الطليقين في الفضاءِ السحير
يا مغيراً على السحاب تَرَفَّقْ ... بجناحَيْكِ والشبابِ الطَّرير
وبوكرٍ تركتَهُ في حمى الغا ... بِ مشوقٍ لعطفكَ المبرور
رَقَدَتْ رُغْبُهُ وَوَلّيتَ عنه ... نحوَ حُلْمٍ ضافي الظُلال نَضير
أينَ تمضي كالسَّهم في ثَبَجِ الأوْ ... جِ وتَرَقى في المَهْمَهِ المهجور
لم تدعْ في العَلاءِ بعدُ فخَاراً ... لصُقورٍ تَسمو ولا لنُسورِ
يا فتىَّ الصقور قد هبَّت الريح ... فهلاّ سمعتَ صوتَ النَّذير
أعولتْ توقظُ السحاب فتُزجي ... هـ على لؤلؤ الدّجي المنثور
أي حلم يغريك يا صقر حتَّى ... تتخطّى إليه كلَّ خطير؟
تركب الليل نحوه راعبَ الوجس ... هـ وتغضى عن شرّه المستطير!
يا كبير المنى! أما كلّ جنحا ... ك الفتيّان في غلاب الأثير؟!
هل لمسراك يا بعيد الأماني ... في الدّجى من مُعرَّسٍ أو مصير؟
اسمُ يا بنَ الطموح! ما كلُّ صقرٍ ... يطلب العزَّ فوقَ هامِ البدور
ليس كل الشباب يفرح بالمج ... دِ ويَعتزُّ بالطموحِ الكبير
اسمُ حتَّى يَرضني غُرُورك يا صق ... رُ بما نالَ. . . عاش ربُّ الغرور!
الشبابُ العظيمُ لا عاش يا صق ـرُ قَنوعاً يرضى بكل حقير!
الشبابُ الكبير لا كانَ إمّا ... ضَمَّ عِطْفيهِ فوقَ قلبٍ صغير!
جُنَّت العاصفاتُ واضطرب اللي ... ل ودوّى فيه نَذيرُ الثبور
وتبارت فيه الأعاصير غَضبي ... مُعْولاتٍ تهزُّه بالزْئير
تستحثُّ الغيومَ من كلّ فجٍ ... كهضابٍ موَّارة وصُخور
وتَرَجَّى رحبُ الفضاءِ فما في ... هِ شُعاعٌ لمدلجٍ مُستنير
وأفاقتْ عيونُ كلِّ الفجاءا ... ت وماجتْ أرواحُ كلِّ الشرور
وانبرى البرق يصدع الدجية العمي ... آء صدعاً بلمحِهِ المذعور
راسماً باللظى على صفحةِ الأف ... قِ وعيدَ المقدّر المسطور
والرّعودُ الغضابُ زلزلت الكو ... نَ بصيحاتِ ثائرٍ موتور
قهقهتْ في السماءِ تَضحكُ لِلهوْ ... لِ وتُرغى كالشامت المحبور
لحظةً ثمّ فجِّرَ السّيلُ دَفّا ... قاً يجوبُ الدّجى رهيبَ الهدير
تَتَلَوّى حبالُه بيدِ الرّيح ... وتهمي بلا وَنى أو فُتورِ
يا لَهولِ القضاءِ خلف الدَّياجي ... وألاعيبِ صَرفه المستور!. . .
ساعةٌ كالوُجودِ في طولها المرِّ (م) ... ودنيا المعذَّبِ المأسور
مَزّق الفجْرُ هَولها فتجلّتْ ... عن صفاءِ السنا وحُسن البكور
وإذا الغابُ أدْمُعٌ ومَناحا ... تٌ على صقرِهِ أمير الصّقورِ
حَطمت جُنحه الأعاصير في اللّي ... ل فيا رَوْعةَ الجناحِ الكسير
ثم ألقتْ به الرياح إلى الغا ... ب فيا لَوعة الحِمى المْغدُورِ. .
يا ابنةَ المجد والمآثِرِ يا بَغ ... دادُ! يا مَفْخرَ الخلود الفخور
وسِّدي صقرك الصريع ضريحاً ... من جراحاتِ صدرك المفطورِ
واغمري بالزّهور والغار نَضراً ... قبرَ من عاشَ عُمْرَه كالزهور
واجعلي رَمسَهُ منارَ البُطولا ... تِ ورمزَ الهدى وكنزَ الشُّعور
فلقد كانُ حلمنا العذبَ نَرْنو ... لِسنا وجهِهِ الضحوك البشير
ولقد كانَ قُرةً للمآقي ... ولقد كانَ خفْقةً في الصدور
تَتغنَّى به القلوبُ تَسابيحَ ... ويَهفو إليه كلُّ ضمير
إيه بغدادُ! أين مِنِّيَ قبرٌ ... ضَمّ أشْلاءُ حلمِنا المذْرورِ؟!

أنا أبكي له غَريباً فمنذا ... يُبلغُ القبرَ مَدْمعي وزفيري
في بلاد، لا القومُ فيها بقومي ... فَأعزّي، ولا القصور قصوري
ولو أني هناكَ حيثُ فؤادي ... هائمٌ وحدَه وراء البحور
في بلادي وملعبي وظلالي ... عندَ أهلي وجيرتي وعشيري
!لنثرتُ الزهورَ من صدْري الدّا ... مي على قبرهِ الذّكيِّ الطّهور
يا مليكي! يا سِّيدَ الشام إرثاً ... عن أبيهِ المظَفَّر المنصورِ
أرأيتَ الشّآمَ أذْهلها الخ ... طبُ ومادتْ لنعيكَ المسْتَثِير
أمسكتْ قلبها الطّعينَ بكَ ... قّيها وصاحت كالصارخِ المستجير
نسِيَتْ جرحها البليغَ المدَمَّي ... وشكاياتِ صدرِها المصهور
ونيوبَ الدّخيلِ تَفتكُ فيها ... فتكةَ الذّئب بالقَنيصِ الأسير
وتَلَوّتْ مَحلولَةَ الشَّعرِ تبكي ... في مناخاتِ حُلْمِها المقبور
طالما جَمَّعَت لَكَ الزَّهَرَ النَّضْ ... رَ وهامتْ على ضِفافِ الغدير
وقَضتْ لَيلَها تصوغُ لكَ التا ... جَ وتمشي في قَيدها المجرور
!لم تكنْ وهْي تَنسِجِ التاجَ تدري ... أنَّ مَنْعى آمالها في البكور
!لهفَ نفسي يا شامُ يا ملعبَ الأب ... طالِ، يا مَسرحَ الحسان الحور
!يا نشيدي في غُرْبتي ولحوني! ... يا حديثي في وحدتي وسميري
أيّ أشباحِيَ الدّوامي أناغي ... في اللّيالي وفي رُقادي النفور
تضحكُ الأرض والعوالمَ حولي ... وأنا في مواجِعي وسَعيري
كم أتتْ بي إليكِ أخْيلتي الهو ... جُ سِراعاً في زحفها والكرور
تَتخطى المَدى فلا الموج يعتا ... قُ سُراها، ولا لَهيب الهجير
بجناَحيْن من هوايَ وإشفا ... قي شد يَدْين في اختراق الأثير
يا بلادي موجي على نَغَم الهوْ ... لِ وغَنّي وسْط الدّم المهدور
واضحكي للمصاب يَقتحم الغا ... بَ عسيراً على المصاب العسير
أنا أبكيكِ إذْ أُهَدهدُ بغدا ... دَ وأرثى لجنِحكِ المكسور
أنتما في الصفاء والدّمع أختا ... نِ رَبيا تِمائِم وَحجور
ضَمَّ شَمليكما طموحٌ وآلا ... مٌ وأمجادُ أعصرٍ وَدُهور
يا فقيداً بكى لمصرعه العُرْ ... بُ بدمعٍ ملء الجفون غزير
!وحدةُ العرب كم سهرت تناج ... يها مشوقاً لفجرها المنظور
كم أقضَّت جراحة العربَ جنبي ... ك على مَهدك الهنيء الوثير
وشهدتَ الوعيدَ في أعين الذئ ... ب وكنتَ النصيرَ خَير نَصير
نم قريراً فوحدةُ العُرب سارت ... بسناها النّجومُ كلَّ مسير
وحدةُ العرب قد تَضوّعَ في الجوِّ ... شَذاها مثلَ الخميل النَّضير
وحدة العرب مَزَّقتُ حُجب اللي ... ل وشَعّتْ مِلْء الفضاءِ المنير
ملأتْ شَمسُها النهارَ فمنذا ... ينكرُ الشمسَ غير كل ضَرير؟
يا لهزلِ المستعبدين! أَلَمّا ... يأنِ أن يَنظروا بعينِ بصير
عَبثوا والزَّمان جَدَّ وهاموا ... في مَوامي حُلْمٍ لهمْ مَغرور
!. .وأقاموا الحدودَ بينَ الأشقّا ... ءِ، فيا حكمةَ العقول العُورِ
!أيها الساهرون للكيد في دُهْ ... مِ الليالي. . . يا خيبةَ التدبير
قلّبوا الرأي كيف شِئتم خِداعاً ... واشتروا كلّ خائنٍ مأجور
وابذلوا الوعدَ كاذباً، واقتلوا الح ... ق، وغشّوا الضُّحى بليل الزور
!لن تنالوا المنَى ولو قد أقمتم ... ألفَ سور وراَءها ألفُ سور
أيّها العربُ حيث كنتم من الأر ... ض، ومن كلِّ مربضٍ وعشير
جمعتنا الدموعُ في مأتمِ الصّق ... ر، وكم وَحَّد الأسى من شعور
وبكينا حيناً ولا خيرَ في الدَّم ... ع إذا لم يُثر شَكاة الصّدور
فدعوني أصرخْ فَيَسمعَ قومٌ ... أنكروا قَوْلَةَ النَّصيح المشير
واستقادوا لكل أمْلَسَ رَوّا ... غٍ وهاموا بصاغَةَ التزوير
غَصّبتْ الكأسُ بالمظالم حتى ... أنفدَ الظلمُ صبرَ كلّ صبور
فليكونوا أحلافَنا نُخلص الوُدّ (م) ... لهمْ في الشقاء أو في السرور
وليكونوا أعداَءنا نتلقَّفْ ... طعنهم في صُدورنا لا الظّهور

لا نحبُّ الخداعَ في حَوْمَة العِزِّ (م) ... ونأبى ميثاقَ كلّ غَدور
عَرَبٌ نحن ما نَذِلُّ لباغٍ ... مُستبيحٍ ولا نَدينُ بنير
مِشْعلُ النّور ما يزال بأيدي ... نا مُشِعّاً رَغْمَ انطفاءِ العصور
وَحّدَتنا مَواجعُ القيدِ حيناً ... فارقبوا اليومَ وَحدَة التحرير!
(باريس)
أمجد الطرابلسي
ذكرى
(إلى روح الشاعر م. ع. الهمشري)
للأستاذ صالح جودت
قال لي صاحبي، وقد جُنَّت الشم ... س فألقتْ بجسمها في الماءِ
أَلَنا أنْ نسير حتى نرى الصُّبْ ... ح فنُفضي له بسر المساء؟
قُمْ بنا ننتهي إلى ضفة الني ... ل وعشب (الجزيرة) الفيحاء
خُطَواتُ النهار للناس، لكنْ ... خُطَواتُ الظلام للشعراء
نحن من نملأُ العقولَ ضياءً ... ما بنا حاجةٌ لنور ذُكاء
وانتهينا إلى الجزيرة، مغنى ال ... طير والزهر والرُّبى الغنَّاء
لَفَّها النيل في ذراعيه وانْسا ... بَ يُغنِّي لها نشيد الولاء
ورمَى الموج تحت أقدامها السُّمْ ... رِ دُعاباً، فأطرقَت من حياء
وتَعرَّت رضيّةً في يديه ... وتراخت تراخيَ الغيناء
ثم لما خاف الظنون عليها ... لَفَّها في ملاءة خضراء!
جنة الحب يا جزيرةُ شُطْآ ... نُكِ، مَلْهي القلوب والأهواء
جنة الخُلد، غير أن رُباها ... أمَّنَتْ آدماً على حَوّاء
أَمَّهَا شاعر من الخلد يَروي ... بالأغاني صَدَى القلوب الظَّماءِ
وأَطَلَّ الهلالُ حيناً فألْفَى ... كوكباً في الضفاف حُلْوَ الضياء
وأطل الزمان حيناً فألفى ... أَجَلاً في الشباب جَمَّ الرجاء
وأطَلَّتْ عينُ الخلود فقالت: ... إن هذا مكانه في السماء!
يا رفيق الصبا، وهيهات نِسيا ... نُ الليالي المخلَّداتِ الصفاء
يوم كان الزمان كالزهر في الفج ... ر، وكنا عليه كالأنداء
يومَ كنا نمَوِّجُ الماء ضِحكاً ... في ضفاف (المنصورة) الحسناء
لم نكن نعرف التواريخ إلاّ ... من وعود الحسان عند الوفاء
لم نكن نعرف العَشِيات إلاّ ... من غناء الكِرْوان عند المساء
ثم مَرّتْ من الزمان صروفٌ ... وهبطنا مدينةَ الضوضاء
وبَدَأنا الكفاحَ في عالم العيْ ... شِ ودنيا منازَعاتِ البقاء
فجعلنا لقاءنا فَتَراتٍ ... يَنفدُ الصبرُ من خُطاها البِطاء
كم حَثَثْنا تَسْيارَها، وجهلنا ... أنها تنتهي لغير لقاء!
أين هذا الشبابُ والأملُ الضا ... حكُ بين الخطوب والأرزاء
وأحاديثُكَ المليئةُ بالأح ... لام في عالَمٍ قليل الرجاء
كنتُ ألقاكَ، والحياة تجافي ... ني وإعصارُها يهد بنائي
فإذا ما سمعت ضِحكتكَ العذْ ... بةَ، أحببتُ بَعدها أعدائي
وتَمشَّى السلامُ في جوِّ نفسي ... وتَطهرْتُ من طويل عنائي
وقرأتُ الحياة فيك كتاباً ... شاعريَّ الآمال والآلاء
وشباباً هو الربيعُ الموشَّى ... برقيق الظلال والأضواء
حين تبدو وعُرْوةُ الصدر في ثَوْ ... بكَ تزهو بالوردة الحمراء
واحمرارُ الحياة يُشعلُ خدَّي ... كَ، ونور الشباب في لألاء
تَطأُ اليأسَ باعتداء الأماني ... وتُذِلُّ الزمانَ بالكبرياء
وتُغنِّي، وتَنهبُ العيش نهباً ... شَأنَ من ألهمَ اقتراب الفناء!
ها أنا عُدْتُ للجزيرة وحدي ... أتملاَّكَ خلف تلك المرائي
ومَضتْ قَبضتي تُصافح يُمنا ... كَ، فصافحتُ قبضةً من هواء!
وتَلفَّتُ باحثاً عن أماني ... ك، فلم تهدِني سوى الأشلاء!
غير أني أراك في شعركَ الخا ... لد روحاً تهيم بالإسراء

وأرى طيفكَ المغرِّدَ بين ال ... زهر والطير والرُّبى والماء
فأقول الخلودُ لله، واللهُ ... يريد الخلودَ للشعراءِ!

صالح جودت

رسالة العلم

حبيبات المادة والكهرباء والضوء

للدكتور محمد محمود غالي

عندما نعمد في المساء إلى ترتيب ثيابنا، وفي الصباح إلى إخراج كتاب يُلازمنا طيلة اليوم، فالثياب أو الكتب مكونة مما نسميه مادة، كذلك الخزانة أو المكتبة اللذان يحتويانهما مكون كل منهما من مادة هي الخشب أو الكروم الذي تعمل منه الحلية في وقتنا الحاضر.

وتُزَيِّن حجرة استقبالنا بستائر مزدوجة من النسيج الشفاف ونحلي حوائط الحجرة ببعض الصور الفنية، فهذه الستائر وهذه الصور مظهر آخر من مظاهر المادة.

وتصلنا في الأعياد هدية من صديق حميم - تحفه جميلة أو كتاب قيم - هذه آنية من صنع سيفر، وهذا سِفْرٌ هو آخر نتاج (دي بروي) أو (برجسون) وموقع عليه بإمضائه. فالآنية والكتاب والتوقيع مظاهر مختلفة من المادة لكل منها وزنها الخاص وكتلتها المعينة، وهي بهذا مرتبطة بعلاقة معروفة مع الأرض التي نعيش عليها، فهي تجذبها بدرجات مختلفة تتناسب على قدر ما تحويه كل منها من مادة.

ونشعر في القيظ بمسيس الحاجة إلى كوب من الشراب البارد لنطفئ ظمأنا، فإن ما نجرعه من مياه، وما يحويه الماء من عصير الفاكهة، كله مظاهر للمادة، كانت لازمة لبقاء نشاطنا في هذه الفترة من العمل.

ونسوق عربة من طراز جديد هي قطعة رائعة من بدائع ما وصلت إليه مصانع أمريكا النائية، نقلتها إلى بلادنا بواخر ضخمة حملتها أمواج متلاطمة، فالسيارة والباخرة والمياه مظاهر متباينة للمادة.

وتجلس آنسة فتانة أمام المرآة تتزين (ببدرة) ناعمة، لعبيرها على النفس أحلى الأثر، وتتحلى بخضاب أحمر وكحل أسود، لهما على العين فتنة للنظر، هذه (البدرة) وهذه الألوان مظاهر أخرى للمادة.

ونلج حديقة المنزل فنتجول بين الزهور في أصفى أيام الربيع ونتنسم عبيرها المتطاير: هذه الزهور الساحرة، وهذا العبير الشجي الذي يخف لحاسة الشم فينا متواصلاً، هما مظهران من مظاهر المادة.

ونبتاع علبة لفائف الدخان (السجاير) ونشعل واحدة منها، فيتصاعد الدخان على شكل كرات نرى بالعين مجموعاتها متراصة ومتتابعة، ونرى بالميكروسكوب جزيئاتها أكثر تفصيلاً ووضوحاً، فهذه العلبة وما فيها من لفائف، وهذه الملايين من الكريات المتصاعدة مظهران من المظاهر المختلفة للمادة.

وترزق مولوداً سعيداً يحمل أسمك وتهبه مجهوداتك، وتوليه محبتك، ويرث خصائصك وعلمك وتؤول إليه ثروتك: هذا المولود أيضاً من أعجب مظاهر المادة.

هذه المظاهر المتفاوتة في المادة وغيرها نصادفها في كل لحظة من لحظات حياتنا، وكذلك نصادف مظاهر الكهرباء أو الضوء في حياتنا اليومية، بل إن أجسامنا هي مجموعة لهذه المظاهر مجتمعة.

فهذه مركبة الترام تقلنا من المنزل إلى حيث العمل؛ فما يجري في الأسلاك الممتدة على طول الطريق خلال انتقالنا هو مظهر من مظاهر الكهرباء.

ونعود في المساء إلى المنزل فنستمع لبرنامج الإذاعة، ونتتبع أخبار العالم، هذه محاضرة شائقة وهذا لحن جميل، ونحن في هذا وذاك إزاء تَردِّدٍ كهربائي، تحول في داخل الجهاز، وفي اللحظة الأخيرة إلى تردد صوتي؛ فهو قبل كل شيء ظاهرة من ظواهر الكهرباء، وانتشار الأمواج الكهرومغناطيسية.

وتضغط زراً فتسطع الأنوار في الغرفة، هذه هي الظاهرة الضوئية في المصابيح هي ظاهرة كهربائية في فتيلاتها، ويتطاير في الثانية الواحدة من فتيلة المصباح من الإلكترونات ملايين المرات عَدد ما في أرجاء المعمورة من بشر.

وترى وأنت تخترق بسيارتك الصحراء في طريق السويس مثلاً السراب بوضوح تام فتظنه ماء وما هو بماء، هذه ظاهرة ضوئية ناتجة من انكسار الضوء على طبقات الجو

المختلفة، هذا الانكسار الناشئ من اختلاف كثافة هذه الطبقات تبعاً لاختلاف درجات الحرارة. فهذا السراب وهذا الماء المزعوم ظاهرة ضوئية هذه (فوتونات) تصل إلى مقلة العين بسرعة الضوء.

وترى وأنت مطل من نافذتك تتأمل السماء في وقت منذر بالمطر قوس قزح عريضاً في السماء يمثل نصف دائرة كاملة، هذا القوس ظاهرة ضوئية ناتجة من انكسار الأشعة على

قطرات الماء الرفيعة المحمولة في الهواء التي تمثل في هذه الحالة دور المنشور في عمليات الضوء المعروفة عندما يتحلل الضوء إلى ألوانه العديدة المعروفة، هذه أيضاً (فوتونات) تصل إلى العين، لكل لون من الألوان عدد من الذبذبات يؤثر في العين البشرية بتأثيرات مختلفة تجعلنا نفرق ونميز بين كل لون وآخر، هذا القوس وهذا التأثير على العين ظاهرة أخرى ضوئية.

هذه أمثلة مما نقابله كل يوم من مظاهر المادة والكهرباء والضوء، ويتراءى لنا أن كل مكونات الكون والخليقة يمكن إرجاعها إلى ظواهر مادية أو كهربائية (كذلك مغناطيسية) أو ضوئية، أو إلى ظواهر هي خليط من هذه الظواهر الثلاث.

كل هذه الظواهر يمكن الحصول عليها بمقادير متناهية في الصغر، هي التي نريد أن نتأملها ونستعرضها، وهي التي باتت تلعب دوراً فيما نالته العلوم الحديثة من طفرة وتقدم.

على أن أبسط هذه الظواهر هي المتعلقة بالمادة وتقسيمها إلى جزيئات وذرات صغيرة.

إن إرجاع جميع الأجسام مهما كانت صلدة ومهما كانت سطوحها ناعمة، إلى جسيمات صغيرة جداً مركبة تركيباً حُبيبياً فارغة من الداخل هي أول الأفكار التي تطرأ على الذهن. هذه الفكرة ترجع فيما يخص المادة إلى أقدم العهود، وقد تقدمت عن فلاسفة الإغريق، وعمرت على ممر العصور، وبقيت خلال كل التطورات العلمية المختلفة حتى توطدت في أوائل القرن التاسع عشر مستندة على براهين جديدة دعمتها وحققتها بطريقة لا تقبل الشك.

على أن الأفكار التي أدت إلى الفكرة الذرية للمادة مؤسسة في الواقع على ظواهر أولية تفهم بالبداهة ومن دون عناء.

فَثمَّ مجموعتان من الظواهر تؤديان إلى الفكرة الذرية للمادة:

المجموعة الأولى تنحصر فيما يمكن أن يطرأ على المادة من تعديل في شكلها الظاهري، وذلك بما لها من خواص المرونة كضغطها وانحنائها والتوائها، هذا التعديل الذي يصل في السوائل والغازات إلى أقصاه بما لها من سيولة كاملة تأخذ المادة في هذه الحالة شكل الحيز الذي تحل فيه، هذا النوع من الظواهر هو تعديل طبيعي في المادة أي أنه تعديل في مظهرها الخارجي.

أما المجموعة الثانية من الظواهر فتخص التغييرات الداخلية وهذه من موضوعات الكيمياء

مثل التغيير الحادث بين العناصر لتكوين مركباتها؛ فالهيدروجين والأوكسجين يتحدان ليكونا الماء.

وكلتا المجموعتين تثبت فكرة واحدة هي أن الأجسام مكونة من جسيمات صغيرة صلبة، وقد أطلقوا على هذه الجسيمات الكلمة الإغريقية القديمة (أتوم)، أي الذرة ومعناها ما لا يمكن تجزئته. ومع ذلك فقد برهن التقدم العلمي الحديث على وجوب التفريق بين التعديلات الطبيعية الظاهرة والتغييرات الكيميائية، ففي الحالة الأولى لا دخل للذرات في هذه التعديلات الحادثة، وإنما الجسيمات المركبة منها هي التي تدخل في هذه التعديلات، وتسمى هذه الجسيمات وبذلك احتفظ بكلمة ذرة للجسيمات التي تتدخل في التغييرات الكيميائية. صغير من الجزيئي.

على أن العلوم الحديثة أدت إلى أن الذرة قابلة للتجزئة فأصبحت كلمة أتوم أي (غير قابل للتجزئة) لا تؤدي المعنى المراد منها، وعلى ذلك فإننا نتساءل عما إذا كانت هناك حدود للتقسيم المادي والكهربائي والضوئي يمكن عندها أن نقف عاجزين عن الوصول إلى تجزئتها إلى وحدات أصغر من التي نصل إليها.

إن كل معارفنا للعالم الخارجي تتطرق إلى أعماق نفوسنا عن طريق حواسنا، وكل

تعريف لأي شيء أو ظاهرة في الوجود، مهما كان دقيقاً، لا يتعدى حدود قوة هذه الحواس على الإدراك والتمييز بين الأشياء، حتى خيالنا وكل ما يعرض في مُخيلتنا لا بد وأن يأخذ أشكالاً حِسية مختلفة. فهو بهذا مُعرّضٌ لنفس القانون الذي يحكم معارفنا للعالم الخارجي عنا.

إننا لا نستطيع أن نتخيل صورة في الكون لا يمكن إرجاع عناصرها المختلفة وأجزائها المتباينة إلى مسائل وأشياء اعتادتها حواسنا. على أن الرجوع بكل الفروض العلمية إلى حواسنا وقدرتها على التمييز والتفرقة بين الأشياء لا يمنع من أن نفرض أحياناً على الذهن صوراً لأشياء لا يمكن استيعابها بسهولة بهذه الحواس ذاتها، وهذا النوع من الصور تثبت صحته لا عن طريق الحواس وإنما عن طريق إثبات النتائج المترتبة على فرض هذه الصور، بمعنى أنه إذا اتفقت النتائج مع الظواهر الطبيعية المعروفة لدينا كانت هذه الصور التي افترضناها صحيحة.

بمثل هذه الطريقة توصل العلماء إلى الشكل الحُبيْبي أو الذري للمادة وتجزئتها إلى وحدات أولى يسمونها الجزيئات وتجزئة هذه إلى وحدات ثانية يسمونها الذرات، دون أن تكون بحاجة لوضع إحدى هذه الذرات على كفة الميزان.

وبطريقة مماثلة توصل العلماء إلى التجزئة الكهربائية بل إلى قياس وإثبات شحنة الإلكترون كما توصلوا إلى التجزئة الضوئية، ومعرفة الفوتون.

وسنتابع في المقالات القادمة نشر العوامل التي أدت إلى الكشف عن هذه الحبيبات، والمكونات الأولى للخليقة فنستعرض بذلك صوراً رائعة مما توصل إليه العلم الحديث.

محمد محمود غالي

دكتوراه الدولة في العلوم الطبيعية من السوربون

ليسانس العلوم التعليمية. ليسانس العلوم الحرة. دبلوم المهندسخاتة

الأجرام السماوية ذوات الأذناب

للأستاذ قدري حافظ طوقان

أبو تمام والمذنبات

كان الناس في القرون الوسطى يخافون من أكثر الظواهر الطبيعية ولا سيما المذنبات، وكان الملوك والأمراء وذوو النفوذ يأخذون برأي المنجمين قبل الشروع في أي عمل من أعمالهم. ويروى أن المنجمين كانوا حذروا الخليفة المعتصم بالله من فتح عمورية عندما عزم على الاستيلاء عليها، وقالوا له: إنا نجد في الكتب أنها لا تفتح في وقت نضج التين والعنب!

ولكن الخليفة الحازم العاقل لم يسمع لأقوالهم وسار بجيشه وفتح عمورية وكان انتصاره مبيناً. وهنا يأتي دور أبي تمام حبيب بن أوس فيمدح الخليفة المنتصر ويذكر له فتح عمورية في قصيدة خالدة يحمل فيها على المنجمين ويكذبهم في تنبؤاتهم واختلاقاتهم ويقول لهم: إن العلم الحق إنما هو في السيوف وليس في النجوم، وإن أحاديثهم كذب لا أصل لها:

والعلم في شهب الأرماح لامعة ... بين الخميسين لا في السبعة الشهب

أين الرواية، بل أين النجوم وما ... صاغوه من زخرف فيها ومن كذب

تخرصاً وأحاديثاً ملفقة ... ليست بنبع إذا عدت ولا غَرب

ويظهر أن المنجمين كانوا خوفوا الناس عند ظهور المذنب سنة 837م - 222هـ أي قبل فتح عمورية بسنة واحدة فتراه يقول في ذلك:

وخوفوا الناس من دهياء مظلمة ... إذا بدا الكوكب الغربي ذو الذنب

وهذا المذنب هو مذنب (هالي)، وقد قال عنه ابن الأثير: (. . . وفي هذه السنة ظهر عن يسار القبلة كوكب، فبقي يرى نحواً من أربعين ليلة وله شبه الذنب، وكان طويلاً جداً فهال الناس ذلك وعظم عليهم. . .).

وبينما نرى أبا تمام لا يعبأ بالمذنبات ولا يعتقد بما نسج المنجمون حولها من خرافات وتنبؤات ويضرب بأقوالهم عرض الحائط نجد أن ملك فرنسا لويس الأول ابن شارلمان قد استولى عليه الخوف من ظهور المذنب الذي ظهر أيام المعتصم، وقلق لذلك أشد القلق، وبلغ به الفزع درجة جعلته يدعو المنجمين ليقولوا شيئاً عن هذا النجم (في رأيه) ولينبئوه

عن خبره. فقالوا له إن النجم المشار إليه نذير من الله ينذر باقتراب أيام السوء لكثرة المعاصي التي يقترفها الإنسان. ويقال إن الملك منذ ذلك الحين أصلح حاله ورجع إلى الله فبنى الكنائس وشجع الأديرة. كل ذلك تسكيناً لغضبه تعالى.

وقد ظهر أيضاً مذنب (هالي) سنة 1456م ومر على مقربة من الأرض وامتد ذيله كالسيف المسلول، وكان ظهوره بعد فتح القسطنطينية وإيغال السلطان محمد الفاتح في أوربا.

ولقد تشاءم منه أهل أوربا، واتخذوا من ظهوره علامة سماوية على غضب الله تعالى؛ فلقد دخل العثمانيون القسطنطينية، وفر أهلها منها وامتد الفتح العثماني إلى البلاد الأوربية - فنسبوا كل ذلك إلى المذنبات كما نسبوا إليها كل ما يصيبهم من رزايا وفتن وقتل وخسف وغير ذلك.

المذنبات وأقسامها

والآن. نأتي إلى هذه الظواهر التي تظهر في أوقات مختلفة وفترات متباعدة. في الفضاء أجرام في أفلاك اهليليجية حول الشمس فتقترب منها ثم تبتعد عنها كثيراً، وهذه الأفلاك غير ثابتة بل تتغير من وقت لآخر. وهناك عوامل عديدة تؤثر في سيرها وفي موقعها ولعل جذب السيارات لها من أهم تلك العوامل.

ولهذه الأجرام ذنب طويل هو السبب في تسميتها (بالمذنبات) أو (ذوات الأذناب) يتكون من مادة لطيفة جداً لا تحجب رؤية النجوم الصغيرة التي ورائها (ولا يسري هذا القول على النواة) وهي ألطف من الهواء المحيط بالأرض ألف مرة. وتتألف أجسام المذنبات من رأس ونواة وذنب. فالرأس يختلف بحسب المذنب، فقد يكون صغيراً جداً حتى يرى كالنجم وقد يكون كبيراً جداً حتى يرى كالقمر. أما النواة فلا ترى دائماً في المذنبات ويرجح أنها مؤلفة من أجسام نيزكية صغيرة وقد تكون (كما في بعض المذنبات) لامعة جداً تضاهي لمعان الزهرة. وأما الذنب فهو مادة لطيفة على هيئة مروحة كبيرة تتجه نحو الجهة المقابلة للشمس، ويختلف طوله فقد يملأ الشقة بين الشمس والأرض. ويقول بعض علماء الفلك أن المذنب هو مجموع أجرام نيزكية يحيط بها ويتخللها جو غازي يجعلها منيرة وظاهرة (للعين) بسبب المجاري الكهربائية.

ويرجح بعض الباحثين أن نواة المذنب تتألف من أجسام نيزكية صغيرة؛ فإذا دنت من الشمس ارتفعت حرارتها كثيراً وخرجت منها غازات تدفعها أشعة الشمس بما فيها من قوة الدفع فتظهر وراء النواة مثل ذنب لها وتكون منيرة بنور الشمس. ويقول آخرون إن أذناب المذنبات تتولد من كهربائية تتكهرب بها دقائق المادة المنتشرة في الفضاء وتظهر كأذناب من نور وراء المذنبات. وهناك رأي ثالث يقول بأن هذه الأذناب ليست إلا ظواهر بصرية أي أن نور الشمس يخترق رأس المذنب ويظهر وراءه كذنب من نور.

ومن الطبيعي أن يكون لهذه المذنبات وزن ولكنه صغير جداً بالنسبة إلى الأرض أو السيارات إذ لا يزيد على جزء من مليون جزء من وزن أحدها.

أشهر المذنبات

تظهر المذنبات في أوقات مختلفة رصد العلماء منها حتى الآن أكثر من خمسمائة كلها تابعة للنظام الشمسي. وقد ظهر مذنب كبير في منتصف القرن الثالث عشر للميلاد قيل إن طول ذنبه كان كبيراً جداً. وكذلك في سنة 1337م ظهر مذنب كبير، ومذنب سنة 1679م أفزع العالم وبقى ظاهراً أكثر من خمسة شهور وكان قريباً من الأرض. ويقال إنه في سنة 1770م ظهر مذنب شديد اللمعان اقترب من الأرض وكان له ذنب طويل جداً امتد في عرض السماء لمسافة 365 مليوناً من الأميال. وظهر في أوائل القرن التاسع عشر للميلاد مذنب عظيم جداً حسب (هرشل) الفلكي الشهير طول ذنبه فوجده أكثر من (100) مليون ميل وعرضه أكثر من (15) مليوناً من الأميال. وكذلك مذنب (أنكى) من أشهر المذنبات وهو يدور في فلكه كل ثلاث سنوات وثلث سنة. وقيل إنه في سنة 1826م كشف ضابط نمسوي مذنباً أطلقوا عليه اسم (مذنب بيلا) وقد فزع منه الناس واهتموا له. ووُجد أنه يدور دورة كل ست سنوات و (38) أسبوعاً وقد ظهر عدة مرات بعد كشفه. وفي سنة 1682م شهد (أدموند هالي) ظهور مذنب كبير وقد سماه العلماء (مذنب هالي) نظراً لاعتناء (هالي) بدراسته، وقد استنتج من حساباته أن هذا المذنب يظهر كل 75 سنة وتنبأ بظهوره سنة 1757م وقد حدث

فعلاً ما تنبأ به. وفي سنة 1858م ظهر مذنب كشفه العالم (دوناتي) الإيطالي ودرس حركاته وطبائعه وكان شديد اللمعان وقد قيس ذيله فوجد أن طوله بلغ (40) مليوناً من الأميال وكان على وشك الاصطدام بالزهرة.

وظهر سنة 1861م مذنب هائل كشفه (تيوت) في سدني باستراليا وقاس قطر نواته فكان

ميل وذنبه مستعرض على غير نظام بلغت سرعته (10) ملايين من الأميال في (400) اليوم. ويقال إنه في يونيو تلك السنة مرت الأرض في طرف ذنبه وشعر الناس بأشعة فسفورية. وهذا المذنب هو الذي أحدث خوفاً وجزعاً في لبنان فكانت العجائز يضرعن إلى الله ويسألنه العفو والمغفرة ويتوسلن إليه أن يرفع عن الناس مقته وغضبه الاصطدام بالأرض.

قد يقترب مذنب من أحد السيارات وقد ينتج عن هذا انحراف في فلك المذنب. ولكن لحد الآن لم يثبت أي تأثير للمذنبات على السيارات أو على الأرض. ولا عجب في ذلك فكتلة المذنب إذا قورنت بكتلة أي كوكب كانت صغيرة جداً. ولقد سبق ومرت الأرض في ذنب مذنب سنة 1819م وذنب مذنب سنة 1861م ولم يقع عليها ما يؤثر على حركتها أو يزعج سكانها حتى إنهم لم يشعروا بهما. فلولا الحسابات الرياضية والفلكية لما عرفنا شيئاً عن مرورهما واصطدامهما بكرتنا. وإذا اتفق واصطدمت الأرض بنواة إحدى المذنبات العظيمة كنواة المذنب الذي ظهر سنة 1858م فقد تحترق الأرض من جراء ذلك. ولكن هذا بعيد الوقوع لأسباب ليس هنا محل ذكرها أو شرحها.

واستولى على الناس خوف عظيم في سنة 1910م عندما اقترب مذنب (هالي) من الأرض وكان من المحتمل جداً أن يصطدم بها وذهب بعض الفلكيين إلى أن هذا الاصطدام قد يكون بلاءً على الأرض ليس من ناحية تأثيره على حركتها بل من الغاز السام (السيانوجين) الموجود بكثرة في المذنبات. ولكنه بحمد الله مرّ المذنب ولم يحدث للأرض ما يفسد هواءها أو يسمم جوها.

وثبت من الرصد أن المذنبات التي كشفها الفلكيون ووقفوا على بعض تفصيلات تتعلق بحركتها وأفلاكها وأقسامها - تابعة للنظام الشمسي متحركة من أفلاك حول الشمس. وكذلك وجدوا أن بعضها لا تستطيع التماسك بل تتحطم وتتناثر إلى قطع كبيرة ومن ذلك تتكون طوائف تسير حول الشمس في اتجاه المذنب.

(نابلس)

قدري حافظ طوقان

رسالة الفن

دراسات في الفن

الصدق في الفن

للأستاذ عزيز أحمد فهمي

في هذا الكون ظواهر غامضة يحاول الناس أن يتفهموها بعقولهم، فيعرجوا إليها بعكازات من هذه العقول البطيئة المتثاقلة، بينما يقفز بعض الناس إلى حقائق هذه الظواهر الغامضة بإحساسهم لا بعقولهم فيوفقوا إلى قوانينها توفيقاً من حيث لا يتكلفون ولا يتعمدون. ولعل أبرز ما تصدى له هذا الفريق من أهل الحس فبلغوا غايته، ثم لحقهم العلم بعد أجيال فقرر ما أحسوه، هو هذه النفس الإنسانية التي أحسها الكتاب والروائيون منذ آلاف السنين، فعرضوها في قصصهم وساروا بها في مناهجها الصحيحة؛ ثم خلفوها للعلم الذي أخذ يحاول في القرن الماضي فقط أن يتعرفها على أساس يطمئن إليه هذا العقل الشكاك الذي ينكر الحس.

وإذا كان أهل العلم يعرفون الفن بأنه التطبيق العملي للنظريات العلمية التي تحوم حول موضوع واحد، أو التي تدور حول مسألة واحدة، فإنا نرى في تعريفهم هذا ما يعزز الذي نذهب إليه. ذلك أننا نلحظ أن فنون الناس سبقت علومهم، فقد طار الإنسان على بساط الريح في قصص ألف ليلة وليلة قبل أن يركب متن الهواء في الطائرات والمناطيد بألف سنة على الأقل. وقد حول الإنسان الرصاص والنحاس إلى ذهب في خرافات الأقدمين قبل أن تحول المعامل (السلاؤون) الأحمر إلى ذهب في العصر الحديث. وقد استطلع الإنسان الغيب في كرة البلور الهندية ما شاء من الغيب قبل أن تنتهي الدراسة الجديدة إلى (التنويم المغناطيسي) بقرون وقرون. وقد مُسخ

الإنسان قرداً عقاباً له على الشر في قصص القدماء قبل أن يعلن داروين نظرية التطور بدهور ودهور.
فكيف اهتدى هؤلاء (المخرفون) القدماء إلى هذه الحقائق التي لم يثبت أنها حقائق إلا بعد أن تغيرت الأرض ومن عليها؟ هل كانوا يطبقون نظريات علمية تدور حول موضوعات متفرقة فدار كل منهم بنظرياته حول موضوع؟ هل يمكن أن يكون هذا قد حدث مع تسليمنا
بأن النظريات العلمية لم تتكشف إلا أخيراً؟
نعم! هذا هو الذي حدث، ولم يحدث شيء غيره، وإنما كل ما كان هو أنهم لم يعرجوا إلى هذه الحقائق بعكازات من عقولهم، وإنما طاروا إليها على أجنحة من إحساسهم. هم أحسوا هذه الحقائق، وبلغوها صادقين، وأعلنوها، وإن كانوا قد عجزوا عن إثباتها لمن لا يريدون أن يفهموا إلا بالعقول!
ومن هذا نرى أن صدق الإحساس يكشف للإنسان ما يستره المستقبل. فهذا الكاتب الذي طير الإنسان على بساط الريح في قصص ألف ليلة وليلة كان يحس أن الإنسان يستطيع أن يطير، هذا إذا لم نقل إنه كان مؤمناً بأن الإنسان سيطير. وهذا (المخرف) الذي حول الرصاص والنحاس إلى ذهب كان مؤمناً بأن هذه المعادن التي يشاهدها ليست إلا مظاهر مختلفة لشيء واحد يمكن إذا عدلت المؤثرات التي تؤثر فيه أن تتعدل الأشكال التي يتشكل بها. كان مؤمناً بهذا وإن لم يكن يعرف أن المادة ذرات، وأن الذرات كهارب، وأن الكهارب إلكترونات إلى آخر هذه الزحمة التي تشغل عقول العلماء. وهذا الهندي الذي اختلق في قصصه كرة من البلور ينظر فيها الإنسان فيعلم الغيب كان يحس أن في الإنسان هذه القوة التي تمكنه من الوقوف على ما يغيب عنه وهو في حالته العادية، ولم يكن يدري أن الإنسان سينوم أخاه تنويماً مغناطيسياً فيسأله عن بعض المحجوب عن عقله، وأنه يستطيع أيضاً أن ينوم نفسه ليصل إلى ما يريد. وهذا (المخرف) الآخر الذي رد الناس في خرافاته قردة كان يحس أن هناك عقداً تنتظم فيه الخلائق متتابعة متسلسلة من حلقة إلى حلقة كل حلقة أرقى من أختها وأشد تعقيداً. . وإن لم يكن قد قرأ كتب داروين.
كل هذه حقائق اهتدى إليها الكتاب بإحساسهم لا بعقولهم فنحن نعلم أن العقل لا يطمئن إلا إلى ما يثبت ثبوتاً صريحاً للعين والأذن والأنف وبقة الحواس المادية.
فإذا سايرنا أهل العلم وقلنا إن عمل العقل هو جمع هذه المدركات الحسية والنفاذ بها بعد توليفها إلى الحقائق الصحيحة، رأينا أهل الفن والحس المرهف أسبق من غيرهم في الوصول إلى هذه الحقائق الصحيحة؛ فنفوسهم تدرك من المحسوسات والمعنويات ما هو قابل لأن ينتظم في سلك واحد بأسرع مما تدرك النفوس المتعقلة المتشككة هذه الدركات نفسها. ولعل هذا هو ما يسميه المتصوفون (العلم اللدني) أي الذي يأتي من لدن الله فيهدي
الإنسان إلى الصواب.
أما المتصوفون فيقولون إنهم يستطيعون أن يفسروا علمهم هذا، وأما أهل الفنون فهم غالباً يحتاجون إلى نقاد يصفون فنونهم ويفصلون ما فيها من الحق والبلاغة والجمال، فالفنان إذا أضيف إليه ناقده وشارحه كان مجموعهما إنساناً متصوفاً يهتدي إلى الحق بإحساس الفنان، ويضيء السبيل إلى الحق بدراسة الناقد وشرحه.
وقد أشعر بعد هذا التفصيل أن هذه المسألة قد وضحت بحيث أستطيع أن أتركها مطمئناً إلى ناحية أخرى من نواحي الصدق في الفن، فليس كل الصدق الفني متصلاً بالمستقبل، بل إن هذا الصدق المتصل بالمستقبل هو أندر ما يطالعنا به الفن من الصدق، وإنما يتجلى الصدق في الفنون جميعاً إذ تتصدى للحاضر. فهذا الرسام الذي يسجل الخصائص النفسية للشخص الذي يرسمه حين لا يخط بريشته على الورق إلا خطوطاً رآها في وجه الشخص المرسوم فأحس أنها تخفي هذه المعاني التي يعبر عنها بهذه الخطوط. . . وقد يكون عقله في هذا الطواف كله نائماً لا يدرك الصلة بين الخطوط التي يراها على الوجه والتجاعيد الصاعدة والهابطة فيه، وبين هذه الأحاسيس التي يحسها من يرى الرسم وبين هذه الخطوط التي قيدها على القرطاس. . . هذا الرسام من غير شك صادق الحس، صادق التعبير. وهو موفق في فنه ما دام صادقاً في إحساسه صادقاً في تعبيره، فإذا التوى على نفسه وحاول أن يدرس عقله في فنه

لم يصب من هذا الدرس غير التعقيد يشوب الفن، والبعد ينحرف به عن الحق.
وهكذا الصدق في الفنون جميعاً - كما رأينا في الأدب والرسم - فهو دائماً عمدتها في الإحساس بالحياة كما أنه عمدتها في التعبير، وبمقدار ما في الفن من صدق يبلغ الفن شأوه الذي تحسده العلوم عليه، فهو الذي يوجه الإنسانية، وهو الذي يحصي لها خيرها ويحصي عليها شرها، هو ضميرها وروحها.
فإذا أراد القارئ أن أضرب له المثل بالموسيقى فناً يلزمه الصدق أيضاً - فقد تكون صلتها بالصدق متسترة - ذكرته بلحن المارسيليز الذي حرر فرنسا، فهو ليس سوى إحساس صادق بالحرية عربد في أنغام اختلفت في نفوس المستعبدين حب الحرية الصادق فعربدوا كما عربد النغم، وتحرروا كما تحررت روح منشده، وقد كان كل فرنسي منشده وراء
مبدعه.
والآن فإني أظن القارئ الكريم قد بدأ يستسيغ هذا الذي عرضته عليه. وكم أحب أن يستعيد القارئ التفكير في هذه المسائل حتى تسري من عقله إلى روحه. ثم كم أحب بعد ذلك أن يبحث القارئ في ذاكرته عمن يعرفهم من الفنانين وأن يبحث بفراسته في أحوالهم، وأن يرى مدى الصدق في أعمالهم وأقوالهم، وأن يقيس هذا الصدق بما يصيبونه من التوفيق في فنونهم. ولست أريد بالتوفيق النجاح التجاري الذي يؤدي إلى الغنى المادي، وإنما أقصد به الإصابة الفنية التي يعتز بها الإنسان أمام ربه إذ تحسب في حسناته وإن لم تكن صلاة ولا صوماً لأنها أثر من آثار الصدق ومظهر من مظاهره، والصدق في النية، والأعمال بالنيات.
بالمشاهدة والتجربة يتضح أن أبلغ الفنانين فناً هم أصدقهم فعلاً وقولاً كما أنهم أصدقهم حساً.
وهذا الصدق كما أنه حس، فإنه خلق، وإذا كان لا بد لنا أن نلجأ إلى أسلوب العلماء لنثبت الحق في قولنا فإننا لا نكره أن نردد ما يقوله العلماء من أن كل خلق ينمو في نفس الإنسان بالتدريب والتمرين، والفنان الأمين على فنه المؤمن به الآمن له يوالي هذا التدريب ليل نهار، سواء فيما هو متعلق بفنه من الأعمال والأقوال وفيما لا علاقة له بالفن: ذلك لأن الفنان يكون دائماً من المؤمنين بأنفسهم، لأن نفسه ترزقه الحق وتلهمه إياه والحق من الله، ولو لم يدرك بعقله هذا الإيمان وسره. وهو لذلك يطلق روحه حرة صادقة في كل أعماله وأقواله لا يتكلف ولا يتعمل كما يتكلف ويتعمل بقية الناس، ولا يتلون ولا يتشكل في النهار مرات وفي الليل مرات كما يتلونون ويتشكلون، وإنما هو يتشكل ويتلون تبعاً لأحاسيسه الصادقة لا تبعاً لحكمة العقل الكذوب!
وأحسبني لست في حاجة إلى أن أثبت أن الناس كذابون، والناس كما نعرف عقلاء أو هم عقلاء كما يقولون، وهم الذين يتوهمون بعقولهم أن تصرفات الفنانين في حياتهم الخاصة والعامة تصرفات (شاذة) غير معقولة، وهي في الحق شاذة وغير معقولة عند عقل الخداع والغش، وإن كانت طبيعية ومنطقية أمام حكمة الحق.
والآن ما رأي القارئ في الرجل يوالي الصدق ويواصل التدريب عليه؟ ألا ينمو الصدق في نفسه حتى يملأها؟ وما رأي القارئ في الرجل امتلأ صدقاً؟ أليس هو رجل الجنة؟ وأنه رجل الفن!

عزيز أحمد فهمي

الموسيقى المصرية القديمة

للأستاذ محمد السيد المويلحي

إننا حين نكتب عن هذه المدنية الموسيقية المصرية القديمة التي ترجع بالقارئ إلى ثمانية آلاف عام قبل الميلاد لا نقول ما قاله مندل البحاثة الألماني من أن هذا البحث من أظلم البحوث في التاريخ، ولا ما قاله العلامة الفرنسي فيلوتو من أنه بحث غير مثمر يضيع السعي فيه هباء، والكد فيه عبثاً؛ وإنما نقول ما قاله الدكتور محمد أحمد الحفني شرقي نال الدكتوراه في التاريخ الموسيقي (إنه بحث قائم على حقيقة ثابتة يؤيدها العلم والتاريخ وتنطق بصحتها الصور والنقوش).
وهذا حق فإنه لم يدفع مندل وفيلوتو إلى هذا القول اليائس إلا جهلهما بعلم الآثار المصرية فكانا يبحثان ويفحصان دون جدوى لأنهما لم يتوصلا إلى حل تلك الرموز حتى وافاهما أجلهما فلما حلت الرموز وكشفت المقابر عثر أثناء الحفر المتوالي على آلات

قديمة كاملة أو قريبة من الكمال وعلى نقوش موسيقية دلت على حضارة بالغة ومدنية موسيقية ناضجة وصلت إلى درجة تشعرنا أنها كانت مصدر الثقافة الموسيقية في العالم القديم فكانت إماماً للآشوريين واليونانيين والرومانيين والإيرانيين. وإذا علمنا أن ثقافة أوربا الموسيقية كانت أثراً من آثار الحضارة التليدة أمكننا أن نفخر بأن مصر - وحدها - هي التي تولت إذاعة هذه الحضارة والثقافة الفنية الموسيقية!

ولعل القارئ يعجب حينما يرى فيما سيراه من (الصور) تلك الصورة التي تظهر فيها فرقة كاملة بها عازف بالناي، ومغنّ، وعازف بالصنج، وعازف بالزمارة المزدوجة. . . في الوقت الذي كانت أوربا خالية من كل ثقافة علمية أو موسيقية. ولعل مما يؤيدنا في هذا أن الثقافة اليونانية القديمة التي ندين لها بالشيء الكثير حتى الآن كانت صدى للثقافة المصرية القديمة نقلها أرفيوس وأفلاطون وفيثاغورث عمن تتلمذوا على المصريين وأخذوا عنهم ثقافتهم الموسيقية. ولعل القارئ يعجب أكثر عندما يعلم أن أفلاطون كان يؤثر الموسيقى المصرية على الموسيقى اليونانية (موسيقى بلاده) وكان يصفها بأنها أسمى ما عرفه العالم من فن جميل هو جماع ما في الدنيا من صدق وتأثير وجمال وتصوير. . . حتى أن الأغاني المصرية كانت تنشد في اليونان في كل مكان وعلى كل لسان. . .

لو نظر القارئ إلى الصورة رقم (1) لرأى ابن آوى يعزف بالناي الطويل ذي الثقوب العديدة. والناي المصري القديم خشبة طويلة مجوفة بها ثقوب جانبية تصوّت إذا نفخ فيها. ولا يظن القارئ أن المصريين توصلوا إليها طفرة واحدة فقد قطعوا مئات السنين حتى توصلوا إليها وهي قديمة عثر عليها من نقوش سبقت تاريخ الأسر.

أما الصورة رقم (2) فهي لآلة الجنك أو الصنج (الهارب) وهي عبارة عن صندوق مصوت من الخشب ثبتت أوتاره الكثيرة بأوتاد (تقابل المفاتيح في الآلات الوترية الحديثة) وقد قضت هذه الآلة أيضاً زمناً طويلاً حتى تطورت واستقرت كما ترى في شكلها كاملة ناضجة، وإذا علمنا أنها آلة وترية وأن الآلات الوترية هي أحدث أنواع الآلات الموسيقية أمكننا أن نلمس إعجاز قدماء المصريين وجبروت عبقريتهم وعظيم حضارتهم. . .

والصورة رقم (3) وهي التي قلنا عنها إنها تمثل فرقة كاملة فيها المغني والضارب بالجنك أو الصنج والعازف بالناي والعازف بالزمارة المزدوجة. وقد يتكرر أحد أفراد هذه الفرقة فترى أكثر من عازف للصنج أو الناي في الصورة الواحدة كما هو الواقع في شكل رقم (3).

إن الناظر إلى المغني في الشكل المذكور ليلفاه ملوِّحاً بيده في الهواء. ولا يظن أن هذا هراء فقد كان المطرب يستعين بهذه الحركة ليرتِّب الإيقاع وينتقل باللحن من نغم إلى نغم، ويقود عازف الناي أو ضارب الصنك. . . وكان لهذه الحركة أثر عظيم في الموسيقى المصرية القديمة حتى الغناء باللهجة الهيروغليفية كان يسمى (جِسِيْثْ إمْ جِرِثْ) ومعناه الحرفي (الموسيقى بواسطة اليد).

وتُرجِع أوربا أصل التدوين الموسيقي (النوتة) إلى حركة اليد وتسميها لغة إن التي ظهرت بعد أربعة آلاف سنة من هذا التاريخ هي الطريقة المصرية تماماً مع فارق بسيط. فمصر رسمت في الهواء باليد، وأوربا رسمت في الورق باليد!. . .

بل إنها لا تزال إلى هذا العصر تستعملها، وقد استعملها في مصر لتعليم الأطفال الدكتور الحفني فخلد لكل نغمة من النغمات السبع الأساسية التي يتكون منها السلم الموسيقي حركة خاصة تعرف بها وتدل عليها اليد وعممها في جميع مدارس رياض الأطفال. . .

وقد كان المطرب المصري القديم إذا غنى في وضع يده اليسرى تجاه أذنه وخده ليتمكن من
التحكم في صوته فيتلاعب به كيف يشاء - كما هو الحال في البلاد الشرقية إلى الآن - وكما هو الحال مع المقرئين المبصرين والمكفوفين!

قلنا إن الآلات الوترية هي أحدث أنواع الآلات الثلاثة، فأقدمها هي آلات النقر ومنها القضبان المصفقة، والأذرع المصفقة، والأرجل المصفقة، والألواح المصفقة، والرؤوس المصفقة والأجراس والجلاجل، والشخاليل، والطبول، والستروم المنحني والناقوسي. وتلى آلات النقر أو الآلات الإيقاعية آلات النفخ كالناي والمزمار والنفير والفليدت الخ. .

.
أما الآلات الوترية فمنها العود، والقانون، والكمان، والبيانو وقد استعاضت به أوربا في القرن السابع عشر عن العود لموافقته لموسيقاها وتلاحينها. . .
فإذن كان طبيعياً ألا نرى في النقوش القديمة التي عثرنا عليها إلا الآلات الإيقاعية وآلات النفخ وآلة وترية وحيدة هي الصنج؛ وليس معنى هذا أنه لم يعثر على آلات وترية غير الجنك وإنما المسألة مسألة زمنية طبيعية. . .
فالإنسان القديم لم يستعمل إلا تلك الآلات التي خلقها الله له في جسمه فاستعمل فمه في الغناء، ويده في التصفيق ورجله في الضرب على الأرض (وللآن تستعمل الرجل لضبط الوحدة) ثم تدرج شيئاً فشيئاً حتى وفق إلى صنع القضبان والأذرع والأرجل والألواح المصفقة وكان يصنعها من الخشب أو العظم أو العاج كما يتضح من الأشكال (4، 5، 6) أما الأجراس فكان يصنعها من البرنز على شكل البيضة، والشخاليل كان يصنعها من الخيزران المجدول على شكل الكمثرى (شكل 7، 8).
أما الستروم بأنواعه فهو نوع من الأجراس كان يستعمل للعبادة، وهو عبارة عن قضب منحن تخترقه أسلاك تلتوي من نهايتها في اتجاه عكسي سهلة الحركة تصطدم نهايات أسلاكها بجدران القضيب كلما حركه الإنسان (ش 9، 10) وكان استعماله مقصوراً على النساء (كهنة هاتور) وبعض الملوك.
وقد وصفنا من آلات النفخ القديمة (الناي). أما الزمارة المزدوجة (ش 11) فهي عبارة عن قصبة من الخشب تستعمل دائماً مزدوجة، وتعزف بها السبابة والوسطى؛ أما الخنصر والبنصر فتسندان الآلة من الخلف، والإبهام تسندها من الأمام. ولا تزال هذه الآلة تستعمل في ريف مصر إلى الآن.
أما الآلة الوترية الوحيدة التي عثر عليها قبل تاريخ الأسر فهي الجنك أو الصنج، وكانت من النوع المنحني، وقد وصفناها قبلاً.
من هذا ومن الرسوم التي عثرنا عليها قبل تاريخ الأسر وبعده يتضح لنا إلى أي مدى وصلت حضارة المصريين في هذا الفن الجميل الذي فرض نفسه فرضاً على جميع المدنيات القديمة حتى رأينا كما قلنا كيف أن فلاسفة اليونان الذي ثقفوا ثقافة مصرية فضلوا الموسيقى المصرية، وعملوا جاهدين مخلصين - على شيوعها وإذاعتها في بلادهم - فكان لهم ما أرادوا فلم يبق ثمة بيت ولا إنسان إلا ودخل طائعاً مختاراً تحت راية الاستعمار المصري (الفني). .!
بل رأينا إلى أي حد بلغت عبقرية المصريين وقدرتهم الخارقة على الخلق والابتكار والوصول إلى صنع آلات إيقاعية ووترية ونفخ في وقت كان العالم كله يسير في ظلمات بعضها فوق بعض حتى هدته مصر بنورها وبثقافتها، وبعبقرية أبنائها الذين بسطوا نفوذهم وسلطانهم وملكهم على الأرض ومن عليها.
هذا كان من ثمانية آلاف سنة قبل الميلاد. . .! أما الآن وقد تدرجت الدنيا في معارج المدنية وسارت الأرض في مسالك النور فقد أصبحنا وكأننا كنا نسير طوال هذا الزمن سيراً عكسياً متخلفين عن كل حركة إصلاح وحياة. . فثقافتنا أصبحت محاكاة، وموسيقانا أصبحت ترديداً للموسيقى الأوربية التي لا توافق ميولنا، ولا تتفق وخوالجنا، وقد وصل عجزنا في هذا إلى درجة أصبح فيها كل من يخلط ويمزج الموسيقى المصرية بالموسيقى الأوربية يسمى مجدداً.
أصبح كل من يضرب الرومبا، والتانجو، والكاريوكا، والفالس. . . الخ يعتقد أنه أتى بما لم تأت به الأوائل والأواخر.
أصبحنا لا نملك إلا الذكريات، ولا نفخر إلا بالذكريات، ولا نعمل ولا نتقدم ولا نسعى إلا اعتماداً على الذكريات. . . وويل لشعب لا يعيش إلا على الذكريات!
محمد السيد المويلحي
القصص
أقصوصة من (أندرسن) القصصي الدانمركي
الأمير الراعي. . .!
للأستاذ صلاح الدين المنجد
عرَف عزّ المُلك وهو في رفاعة شبابه ونعومة إهابه، وأشرق نور النعيم في وجهه، وهو يتقلب على مفارش الحرير ونضائد الديباج، وضاحَك الحسان النواعم بين ضمائم

العشب ولفائف الأزهار، وخلب قلوب الفتيات، فحلمن به كلما طفن في الغدو والرواح بهذا القصر الهادئ حيث يرتع الحب ويرف السعد ويتوهج النضار.
على أنه لم ينعم وا أسفاه طويلاً بالحب والجاه، ولم يذق هنيئاً طعم اللذاذات. . . فقد مات الأب الكهل، فتولى المال على مهل وأصابته جفوةُ الزمان، فعزف عنه الإخوان. . . .. وأضحى وحيداً في قصره الخالي الكئيب
وكان يعلم أن على بعد مائة فرسخ من قصره أميرة رائعة الجمال فحن صبابة إلى لقياها، وأراد أن تكون معينة له على بؤسه، وشريكة له في عيشه. فأرسل إليها ذات يوم وردة نبتت على قبر أبيه تتفتح مرة في العام فتنشر شذاها فيتضوع في الأجواء ثمانية أيام، يفعم الناس خلالها فينسى الكئيب شجوه والمحزن بلواه. . .!
وكان في روضة الأمير عندليب يردد النشيد المهود في الأسحار فينبه النوَّم ويوقظ الوسنان. فأرسل به إلى الأميرة ليشفع له، فيحظى بالعطف وينال الرضى.
فلما وصلت الصناديق إلى الأميرة، وقد طُلي ظاهرها بالذهب وفوِّق باطنها بالخز، أصابتها هِزّة الفرح فتمايلت طرباً وقالت لوصائفها:
- لئن حسنت الهدية فوالله لأتزوجن المهدي. . .!
وفُتح الصندوق الأول ففاح العبير وسكرت الوصائف وقلن للأميرة: (ما هذا أيتها الأميرة من عبير الورد في الأرض. . . إن هو إلا من عبير الجنان. . .!)
فقالت لهن الأميرة:
- أهي من ورد الطبيعة؟
فقالت وصيفة منهن:
- نعم يا أميرتي.!
فأطرقت الأميرة. ثم قالت:
- أواه. .! يا تعس حظي. . . ستذبل أوراقها عند المساء، فتطأها الأقدام عند الصباح. . . خذوها، فما أطيق رؤية الجمال يذبل.
وفتح الصندوق الثاني. . .
وصدح العندليب بأغرودة أذهلت السامعين، وتهامست الوصائف، وقالت الأميرة:
- ما هذا؟. . . صوت مسكر. . . ساحر. . . غريب. . .! أرأيتُنَّ يا صواحبي. . . مثل هذا الطير قبل هذا اليوم. .؟
فأجبنها: كلا. . .
وقال شيخ من رجال القصر:
- لشد ما يذكرني هذا العندليب يا أميرتي، بمعزف الملكة السحري الذي كان بالقصر في ماضيات أيامي. فله رنين صوته، ورخامة نغْمه. . .!
فانهلت العيون تذرف الدمع لذكرى الملكة الراحلة. . . ثم قالت الأميرة:
- ترى أهو حي. . . أم ميت. . . ضعوه في الحديد. . .؟
فأجابتها وصيفة معربة:
- كلا يا أميرتي. . . إن الحياة تسمع من صوته الجميل. . . انظري إليه يا أميرتي. . .
فأطرقت الأميرة وقالت:
- دعوه يطير بين الزهر والشجر. . . وينتقل بين الأهاضيب والرياض. . . فما أريد أن أنصت إلى أنغامه تتلاشى. . . غداً إذا مات. . . أما الأمير الذي أرسل الهدية. . . فاطردوه!
وغرِض الأمير إلى رؤية الأميرة. . . ففكر وقدر. وإذا به يترك قصره ذات يوم، وقد خلع ما فخر به من الثياب، وارتدى ما سخف منها. . . ويذهب إلى قصر الأميرة، وبيده ناي. . . يطلب أن يكون راعياً لشاء الملك:
وأدخله الملك في خدمه، ومنحه قليدة من ذهب كتب عليها: (راعي القصر الملكي)
وكان يسوق الشاء إلى المرعى التي تحف بالقصر. . . فإذا بج الكلأ بطونها. . . عاد بها، وهو ينظر إلى نافذة الأميرة. لعله يرى وجهها الصبيح. . .
واستيقظ أهل القصر ذات يوم. . . وإذا بأنغام رخيمة تتعالى من كوخ الراعي. فطربت الأميرة لها. . . وأرسلت الوصائف ليفتشن عن مصدر النغمات. . . فإذا بهن يجدن الراعي في كوخه الصغير. . . أما قدر علق في غطائها أجراساً صغيرة، وملأها ماء، ثم سلط عليها النار. فإذا بالماء يغلي. . . فيدفع الغطاء إلى أعلى. . . وإذا بالجلاجل

!. . .تتذبذب فترسل الأنغام
وأخبرت الوصائف الأميرة بما رأينه وسمعنه. . . وزين هذه القدر للأميرة، فأتت إلى
!. . .الكوخ، تتبعها الوصائف. . . لترى القدر المسحورة
وما كادت تسمع النغم. . . حتى صفق قلبها له. . . وقالت:
- ما أشبه هذا النغم بالنغم الذي عزفته بالأمس على البيان. اذهبي يا لينورا، وسليه أن
. . .يبيعنا هذه القدر وتلك الجلاجل
وأتت الوصيفة إلى الراعي فقالت له:
- هل تبيع هذه القدر أيها الراعي. . .؟
قال لها وقد ضحك:
- نعم. . . أبيعها. . .
فقالت له:
- حسن. . . وكم تريد ثمناً لها. . .؟
- !. . .عشر قبلات. . . من الأميرة
- . . .ويل لك. . . ماذا تقول. . . أمجنون أنت؟. . . أم
- القدر قدري. . . والجلاجل جلاجلي. . . وهذا ما أريد. . . وعادت الوصيفة إلى الأميرة
خائبة. . . قالت لها:
- . . .ماذا طلب منك؟
-. . . . . .
- . . .تكلمي يا لينورا. . . تكلمي
- لا أجرؤ يا أميرتي. . . إنه مجنون
- وماذا قال لك. . .؟
وعادت القدر إلى إرسال النغمات فطربت الأميرة مرة أخرى وقالت:
- . . .هيا. . . تكلمي. . . تعالي واهمسي في أذني
- قال إنه يريد عشر قبلات من مولاتي الأميرة ثمناً للقدر. فصاحت الأميرة:
- !. . .يا للوقح. . . يا للسافل
- وغضبت، وأخذت تقطع الحديقة جيئة وذهوباً، ولكن. . ماذا تفعل؟ هاهي ذي القدر
تعود إلى إرسال النغمات، وهاهو ذا قلبها يعود فيضطرب ويثور
ووقفت هنيهة. . . ثم قالت لوصيفتها:
- اذهبي إليه. . . وسليه إن كان يقبل أخذ الثمن منكن وذهبت الوصيفة إليه ثم عادت
. . .خائبة
عندئذ قالت الأميرة:
- . . .لابُدَّ مما ليس منه بد. . . أحضروه. . . وحِطن بي لكيلا يراني أحد
وحفّت الوصائف بالأميرة. . . وأقبل الراعي. . . فقبلها عشر قبلات. . فيها الخمر
والعسل المصفى. . وأعطاها القدر والجلاجل.
يا فرحتها آنئذ. . . لقد قضت يومها أمام القدر كلما نضب ماؤها. . . ملأنها والوصائف
. . .حولها يرقصن ويضربن الأكف بالأكف
وأقبل الليل. وانصرفت الوصائف. . . وقالت لهن الأميرة:
- !. . .إيّاكن أن تخبرن أحداً. . . بما دفعته ثمناً للقدر
وقال الأمير الراعي لنفسه وهو ينصت إلى صلاة الليل:
- (!. . .لقد حطمت كبرياءها يا نفس. . . وعرفت ما يغريها. . . فلن تجزعي بعد اليوم
وتجرمت أيام وليال. . . وإذا بالراعي يبدع معزفاً ما طلبت نغماً إلا سمعته فيه. ومرت
الأميرة بالحديقة ذات يوم، فقالت لوصائفها:
- . . .لنعدلن إلى هذا الراعي، فلن نخلو من أعجوبة لديه
وما كادت تقرب الكوخ حتى سمعت نغمات مشجية وسمعت الراعي يغني فنادت
وصائفها
وقالت لهن:
- اذهبن إليه وسلنه عما يريده ثمناً لمعزفه. . . ولكن. . . احذرن فلا قبلات ولا
!. . .عناق
وانطلقت إحداهن إليه فسألته، ثم عادت كاسفة الوجه، مضطربة الشعور. . . فسألتها

الأميرة:
- ماذا طلب منك؟
- إنه مجنون يا مولاتي. . . إنه يريد مائة قبلة. . .!
- وقح! . . . ويله. . . آه!. . .!
وفكرت الأميرة ثم قالت:
- لا بأس. . . عشر قبلات مني. . . وما بقي فمنكن
ولكن الراعي أصر ولم يقبل. . . عندئذ قالت: (أحضروه. . . فلن يراني أحد مسكينة أيتها الأميرة. . . فها هو ذاك الملك يحدق فيك. . . فإذا رأى ما رأى أقبل إلى الحديقة كالمجنون. . . فيطرد الوصائف. . . ويضرب الراعي. . . ويقول لابنته:
- هيا. . خذيه واذهبي. . . فلن أبقيكما في قصري بعد اليوم
وانطلق الراعي يمشي مع الأميرة على غير هدى. . . في أرض لا تموج بالنبات، ولا ترف بالندى. . . يؤذيهما السحاب الهتون، وتفزعهما الريح العصوف.
وتبكي الأميرة ذات يوم، وهي في واد أغن تستجم، وتقول للراعي: (لشد ما أنا بائسة. . . لو أني قبلت الأمير زوجاً. . . لكنت الآن في قصره. . . ولكنه كان غير. . .) ولم يسمع ما قالته. . . بل أسرع واختفى تحت الغصون. . . فخلع ثوبه الممزق وارتدى ثوباً فاخراً كان معه. . . وجاء إليها فقال:
- هاأنذا أميرك الذي طلبت. . . ولكني لن أخفض لك جناحي اليوم. . . ولم أهب لك قلبي. . . فإن نفسي تشمئز منك. . . لم تقبلي الزوج الشريف ليكون شريكاً لك في حياتك. . . هه. . . لقد علوت يومئذ واستكبرت، واحتقرت الوردة والعندليب. . ولكنك انحططت وقبلت راعياً من أجل قدر. . .!
وداعاً. . .! وداعاً. . . فلن أراك بعد اليوم
وانطلق الأمير إلى قصره وحيداً
لقد لحقت به الأميرة. . . وطرقت أبواب القصر. . . ونادته. . . ولكنه كان في شغل عنها، كان يقول لنفسه: (لماذا أطلب الغناء. . .؟ لماذا أطلب الكبرياء. . .؟ ألا سحقاً لهما. . . شرف وفقر خير من مال وكبر. . . أيها الحارس كن أصم. . . أيتها الجدران كوني عمياء. . . أيتها الأميرة حطمي كبرياءك وتعالي).
(دمشق)
صلاح الدين المجد
من هنا ومن هناك
لماذا نضحك - عن (بورسيف) الأميركية
إذا رأينا طفلاً صغيراً يسقط في الطريق فهذا ولا شك لا يثير فينا شيئاً من الضحك. ولكنن نضحك أو نتكتم الضحك، إذا رأينا رجلاً من ذوي المكانة يسقط على الأرض، وتجري قبعته الحريرية أدراج الرياح.
فإذا كنا نحمل شيئاً من الكراهية لذلك الشخص، فإن ضحكنا ولا شك يكون أشد وأكثر، إذ أنه في هذه الحالة يكون صادراً من أعماق القلوب.
لماذا لا تضحك إذا سقط طفل أو حصان أو امرأة عجوز؟ أنت لا تضحك لأنك لا يمكنك أن تتخيلهم منافسين لك أو متفوقين عليك. ولكن الرجل من ذوي المكانة والوقار، يبرز شخصيته على حسابك، ويدل عليك بمقامه في الهيئة الاجتماعية والشخص الذي تمقته لا تستطيع أن تنسى منافسته لك، وإن كنت لم تفكر في ذلك.
وخلاصة القول أنك تضحك لأنك تشعر برضائك عن نفسك. تشعر بانتصارك، وكأنك تقول في ضحكتك ما أشد سروري وغبطتي!
هذه حقيقة ليس فيها ما يضحك، ولكنك ستحس قوى حانقة تتحفز للدفاع عما يسمونه (طبيعة التفكه).
فإذا كان الأمر كذلك فلا بأس من تناول الموضوع من الناحيتين: الضحك كما يقول هوس (هو تجلي النفس وصفاؤها) أما طبيعة التفكه فليست بالشيء البريء الذي يجلب السرور. فهي تحمل بذور شر لا شك فيه.
الضحك هو طريقك للتعبير عن زهو التفوق للعالم وللناس.
وزهو التفوق من الكلمات التي استعملها الفيلسوف الإنجليزي أنثوني لدوفيسي في بحوثه العميقة حول نظرية الضحك في كتابه أسرار الضحك، وقد أودعه مناحي كثيرة

وآراء عديدة في هذا الموضوع لا نستطيع أن نستوعبها في مقال.
ويشرح زهو التفوق بقصة الضفدعة والكركي: وهي أن ضفدعة دعت كركياً لتناول الغداء، فلما أقبل على الطعام، وجد الضفدعة قد وضعته في إناء مسطح، فلم يستطع الكركي أن يتذوق منه شيئاً، وأقبلت الضفدعة فتناولت منه ما تريد، فعاد الكركي بدوره
فأولم وليمة للضفدعة، فلما دنت لتناول الطعام وجدت أن الكركي قد وضعه في وعاء ضيق العنق، فلم تستطع أن تنال منه شيئاً، وأقبل الكركي فتناول كل ما فيه. ففي المثل الأول يتبين زهو التفوق في الضفدعة، وفي المثل الثاني يتبين في الكركي. قد تضحك لأسباب كثيرة تخرج عن زهو التفوق، ولكننا إذا دققنا النظر أمكننا ردها جميعاً إلى هذه الناحية. من ذلك ضحك الطفل حين نطارده، ويرتمي في حجر أمه. إنه ولا شك لا يتفوق عنا، ولكنه يشعر بأنه على مطاردتنا وتعلق بصدر أمه، فهو في هذه الحالة يضحك لأنه قد شعر بالغلبة والتفوق.
أما في القصص والروايات الهزلية فنحن نضحك لشعورنا بزهو التفوق مع شخصيات الرواية، إذا كانت لهم هذه الصفة. أما إذا كانوا على نقيضها فإن هذا النقص من شأنه أن يضحكنا لأنه يشعرنا كذلك بزهو التفوق.
لا تتزوج من حسناء! - عن سمشز ويكلي
إياك أن تتزوج من حسناء. هكذا يقول القصصي الذائع الصيت هـ. ج. ويلز. فالمرأة البسيطة كما يقول هي وحدها التي تستطيع أن تقوم بوظيفة الزوجية.
المرأة البسيطة هي التي تستطيع أن تحبوك بما تصبو إليه نفسك من عيشة هادئة وحياة مطمئنة. إذا لم تكن ممن قدر لهم أن يرتطموا في حب قديم يعاودهم خفية بالآلام الممضة إلى الأبد.
المرأة الجميلة تكون شغلاً شاغلاً لبعلها، فهو مسخر على الدوام لرغباتها ونزواتها، وهو عرضة من أجلها لحسد الحاسدين وحقد الحاقدين. ولو أنه لا تمضي عليه برهة من الزمن وهو على هذه الحال، حتى يعود فيحسد نفسه على أمسه الذي أفلت من يديه وذلك حين يظهر لعينيه ما كان مخبأ عنه من النقائص.
ويختلف الأمر عن هذا مع المرأة البسيطة، المرأة البسيطة بكل معاني الكلمة، فقد لا يمضي وقت طويل على بنائك بها حتى تظهر لك فيها محاسن كانت مغيبة عن عينيك: ابتسامة يحفها الخجل والبراءة تظهر من آن لآخر وتحتجب. نظرة ساذجة توحي إليك الدعة وترسل إلى قلبك السكينة. وحسب المرأة التي على هذا الطراز جمالاً أنها كلها لزوجها وأنها له كنز أمين.
فإذا كانت لي نصيحة كرجل حنكته التجارب، وكانت نصيحتي تستحق العناية في هذه الأيام التي كثر فيه لغط الشباب، فنصيحتي لك أن تتزوج من امرأة تفوقك في السن، إذا كان لابد لك من الزواج. وأستطيع أن أقول في هذه المناسبة بعد تجاربي في الحياة وقد عشت فيها طويلاً: إنك قد تكون أكثر سعادة إذا تزوجت من أرملة. ويقول ويلز بعد تجارب السنين الطوال: يجب أن تكون المرأة التي تختارها لزواجك بسيطة بقدر الإمكان، ويجب أن تكون في سنك أو أكبر من سنك، عارية عن كل ما يسمونه المواهب الاجتماعية أو الثقافية مجردة من الأناقة المصطنعة، فقيرة إذا أردت أن تحتفظ بكرامتك.
ولويلز كثير من الآراء في المسألة الجنسية يذكرها في شجاعة وجرأة وقد صور في كتابه الذي ترجم فيه حياته صوراً وفصولاً صريحة عن تجاربه في هذه المسألة تتناول حياته الخاصة وملاحظاته الشخصية على الناحية الجنسية في العصر الحديث.
فيقول عن أول حادث وجداني وقع له وهو في العشرين من عمره إذ قبلته خادمة: إنني شعرت بلذة لم أشعر بمثلها في ذلك الوقت، وابتدأت أحس بالحرمان الذي أعيش فيه ويعيش فيه الكثيرون من أمثالي.
ويرى ويلز أن المشكلة الجنسية لا تختلف عن المشكلة الاقتصادية، فعلة كل منهما الامتلاك، ويرى أن تكون الروابط العائلية روابط جسدية فحسب، أما الشؤون الاقتصادية والثقافية ورعاية الأطفال، فيوكل أمرها إلى الحكومات.
نظام الجاسوسية في العصر الحديث - عن مجلة التيمس الأميركية

تقوم الدول بتجارب عديدة لقواها الحربية من آن لآخر تنفق فيها أموال طائلة، وتستعد لها استعداداً عظيماً، وتعمل هذه التجارب في الجهات المجاورة لها عادة.
وهي في هذه الحالة لا بد أن تكون على علم باستعدادها الحربي قوة رجالها وأسلحتها والموارد التي تعتمد عليها. فيتصل الجواسيس بالقوات الحربية والبحرية للدول المختلفة، ويتصلون أحياناً بإدارات المباحث السرية لتلك الدول، ويتتبعون حركة الصحافة والتأليف ليستخلصوا منها ما يفيدهم في هذا الصدد.
وقد أصبح عمل الجاسوسية من الأعمال الأساسية التي لا يستغني عنها في جميع الدول، وعلى الرغم من العقوبات الصارمة التي جوزي بها بعض الجواسيس فإن الإقبال على هذه المهنة لازال كبيراً.
وقد توجد الجاسوسية بين دولتين ليس بينهما شيء من العداء على الإطلاق ولا ينتظر أن يكون في المستقبل. ففي هذه الحالة يكون العمل موزعاً بين الرقابة العامة، وتكتفي بالتقارير الحربية التي ترد إليها من سفاراتها ومصادرها الخاصة، وبين الجواسيس المحترفين الذين لهم قوة الكلاب في شم أخبار الحوادث المحلية التي تقع في تلك البلاد، ومعرفة الفرص التي يمكن أن تستفاد بسببها.
ويقوم الجواسيس بأعمال هامة في البلاد التي يدخلونها، ولا يقتصر عملهم على تسقط الأخبار فحسب، فهم يعملون على إثارة الفتن والاضطرابات، وتشجيع روح الامتعاض والثورة والاعتداء على الأنفس والأموال.
والجواسيس المحترفون من الظواهر العجيبة في المدنية الحديثة فهم يستفيدون من وطنية الغير لأنهم خلو من الوطنية. وهم في الغالب أناس ليس لهم وطن ولا تعرف لهم بلاد، وذلك أنهم من عناصر مختلفة حتى إنهم لا يعرفون شيئاً عن أنفسهم أو لغتهم.
ويقومون بهذا العمل بادئ الأمر بإغراء المال وبدافع الحاجة، ولكن سرعان ما ينقلب الأمر إلى ميل طبيعي للمخاطرة والتهييج، وكراهية للشرف والكرامة، ورغبة شخصية في إضرار البلاد لأنهم لا بلد لهم.
لا صداقة للإسلام مع الاستعمار. عن جريدة الوحدة المغربية
الاستعمار ينتزع الحرية من المولودين أحراراً، وينتزع الملك من المالكين الأولين، ويمسخ الإنسانية إلى حيوانية سفلي فيجعل من المغلوبين مادة جامدة صماء بكماء عمياء، ويحصر همهم في التدحرج على فتاة الموائد الذي يفضل عن الأسياد الغالبين.
وقد أصيبت به أمم الإسلام فكرهته ومقتته مقتاً عظيماً، وأخذت تعمل للتحرر منه ومن الدول التي تمثله مثل فرنسا وإنكلترا. وجاءت ألمانيا وإيطاليا متأخرتين إلى هذا الميدان، وأخذتا تنشران الدعاية ضد الاستعماريين الإنكليزي والفرنسي، ففهم الناس لأول وهلة انهما ستساعدان الشعوب الضعيفة على التحرر، ودخل في روع المغرورين أن إيطاليا ستترك المسلمين الذين أوقعهم
سوء الحظ تحت يدها أحراراً مستقلين. فإذا بالزمن يدور دورته، وإذا بألمانيا تطالب بالمستعمرات، وتضع لاستعمارها أسساً (نازية) قوامها احتقار السلالات الملونة، ومنع تعليمها، وعدم السماح بالاختلاط معها؛ وإذا بإيطاليا تنقض على الأمم الضعيفة هنا وهناك، وإذا بتاج الحبشة وتاج ألبانيا يوضعان على رأس (الإمبراطور الجديد) محي مجد روما البائدة.
لقد كان من الممكن أيها الإيطاليون والألمانيون أن تحتلوا قلوب المسلمين لو لم تسيروا سيرة الفرنسيين والإنكليز والأميركان؛ أما وقد سرتم سيرتهم فلا مناص للعالم الإسلامي أن يناصب استعماركم العداء كما ناصب العداء استعمار غيركم من الدول الأخرى وثقوا جميعاً أنه (لا صداقة للإسلام مع الاستعمار).
أكثرت مذاييع السلطات الغربية في بلادها، وفي بلاد الإسلام المبتلاة بها من الدعايات المتعارضة لقصد التأثير على المسلمين. وقد أخذ كل منها يذكر عيوب الآخر وينشر محاسن نفسه. فمذياع إيطاليا يذكر عيوب فرنسا ويستدل عليه بمقالات الوطنيين المغاربة؛ ومذاييع فرنسا تذكر عيوب إيطاليا وتستدل عليها بمقالات المسلمين المدافعين عن حقوق الطرابلسيين والألبانيين والاحباش؛ ومذاييع إنكلترا تذكر عيوب خصومها، وكذلك مذاييع ألمانيا، والغريب أن كبار الساسة - تحت ضغط القلق الدولي - فقدوا التوازن في أعصابهم، واصبحوا يشجعون كثيراً من الأعمال الصبيانية التي لا

نتيجة لها مطلقاً. ذلك أن المسلمين قد استيقظوا أو أفاقوا، وأصبحوا يعرفون من الغربيين المسيطرين على ما لا يعرفونه هم عن أنفسهم. وإذا كانوا ينصتون إلى هذه المذاييع فليس ذلك ليتأثروا بدعاية خاصة ويصبحوا في صف خاص، وإنما ليتمموا معلوماتهم عن الاستعمار الغربي بمختلف ألوانه وأشكاله. فلا إيطاليا بالغت فيما تدعيه على فرنسا، ولا فرنسا كذبت فيما تدعيه على إيطاليا مثلاً؛ وإنما الجميع سواسية في الإساءة إلى الإسلام واستعباد المسلمين، وجميع المذاييع الغربية المتعارضة تعتبر صادقة في نظر العالم الإسلامي اليوم.

وإذا كانت الدول الكبرى تتناطح على استرضاء المسلمين ليكونوا في صفها يوم الكريهة المنتظر فإنما ذلك لأنهم في حقيقة الأمر قوة دولية كبرى يجب أن يحسب لها حسابها في مستقبل البشرية وتحديد مصيرها القريب، والواجب يقضي عليهم أن يعرفوا قيمتهم

الحقيقية ويقدروها تمام التقدير، وإن يعملوا متى أتيحت لهم الفرصة لحسابهم الخاص حساب العزة والحرية والمجد، لا أن يعملوا لحساب الغير فينتقلوا من يد إلى يد، ويستبدلوا غالباً بغالب! (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين).

البريد الأدبي

الأدب المصري في اللغة الفرنسية

يسرنا أن نذيع أن قصة (الأطلال) التي نشرها الأستاذ محمود بك تيمور باللغة العربية لبضع سنوات خلت قد نقلت إلى اللغة الفرنسية مع أقاصيص أخر للمؤلف نفسه، وظهرت أخيراً في باريس تحت عنوان وهذا مما يدل على قدر فن الأستاذ تيمور، وهو الكاتب المصري الذي عرف كيف يجيد السياقة ويحسن التصوير ويحكم الخاتمة فيما يبتدع من القصص على الطريقة الواقعية حتى إنه أصبح في مقدمة المهرة في فن القصة، وله أتباعه وله مقلدوه.

والترجمة الفرنسية صحيحة الأداء سليمة العبارة على غير تكلف ولا استكراه.

كتاب نفيس ينشره الأب أنستاس الكرملي

هو (نُخب الذخائر في أحوال الجواهر) لمحمد بن إبراهيم ابن ساعد الأنصاري السِّنجاري المعروف بابن الاكفاني (المتوفى سنة 749 للهجرة). ومزيته أنه يجمع كثيراً من العوائد الخاصة بالجواهر من لغوية واصطلاحية وطبية وعمرانية مما ذكره أكابر كتاب العرب مثل الكندي والجوهري والبيروني والغافقي إلى ما أتى به المؤلف نفسه.

وقد نشر الأستاذ الأب الكرملي هذا الكتاب بالدقة والتحقيق اللذين عودنا إياهما، إذ تعقب متن الكتاب فقرة فقرة فعَلق عليها بإسهاب متمكناً ثم أقام أحد عشر مسرداً (فهرساً) للموضوعات والأسماء على اختلافها والأوضاع اللغوية والحجارة والمعادن والأمراض التي تعالج بالحجارة الكريمة. هذا واعتماد الأب الكرملي في نشر الكتاب على نسخة قديمة سليمة رأى الأب العلاّمة الاستغناء بها عن غيرها مما هو محفوظ في خزائن الكتب لأسباب قويمة (ص 110) إلا أن مثل هذا الرأي مع تلك الأسباب - موضع مراجعة عند بعض العلماء.

نشأة الصحافة المصرية اليومية وتحولها

ذلك عنوان الرسالة العلمية التي نال بها الدكتور كمال الدين جلال، الصحافي المصري القدير، شهادة الدكتوراه من جامعة برلين. والرسالة ظهرت أخيراً في اللغة الألمانية، وهي

مستفيضة جامعة تلم أشتات الصحافة المصرية - أخبارها، وحوادثها، وصحفها، ورجالها، وعهودها - منذ الحملة الفرنسية حتى اليوم. وتمتاز الرسالة بأن مؤلفها ذهب وراء العرض والوصف وثبت المصادر، إذ جعل يعلل الواقعات والمظاهر بالنظر في شؤون السياسة وأحوال الاقتصاد وقضايا العمران. فالرسالة بهذا تتصل بفن الفلسفة التاريخية اللاحقة بالحضارة الفكرية.

ولعل الرسالة تنقل إلى اللغة العربية لحاجة قرائنا إلى ما فيها من الفوائد والحقائق، وعسى أن يضع المؤلف إذن مسردين يدرج فيهما أسماء الأعلام وأسامي الصحف، لأجل تقريب الفائدة.

كتاب جريء

أخرج النائب المحترم الأستاذ حسن الجداوي كتاباً عنوانه (عيوب الحكم في مصر). ولا

تعني السياسة مجلة كالرسالة مقصدها الأدب؛ بيد أننا نسجل إقدام الأستاذ الجداوي على الكتابة المنطلقة من كل قيد رغبةً في تدارك العيب الواضح. هذا وإن الأستاذ الجداوي يناوئ أموراً تناوئها الرسالة. من ذلك: (روتين) المصالح الحكومية وجمود نفر من أصحاب الأمر فيها، وقيام نظام (المحسوبية)، ثم إهمال أهل الكفايات واستبعاد الشباب، ثم التفرد والانزواء عن المصلحة العامة. . . بنا حاجة إلى أمثال الأستاذ الجداوي.

وليت الأستاذ الجداوي صرف إلى شؤون الثقافة من همه أكثر مما صرف؛ فإن الذين يتعهدون الثقافة الحق في البرلمان المصري معدودون. ولا بد من تآزر الصحافة والنواب في هذا الجانب حتى نستقبل عهداً تستقيم فيه أسباب الحياة الفكرية.

جلال الفلسفة العربية

ذكرت لك من قبل (عدد 306) كيف اعترف الأب هكتور تيري، من أساتذة المعهد الكاثوليكي في باريس بجلال الفلسفة العربية. فخذ الآن قول العالم اليسوعي الأب كتاب تهافت الفلاسفة للغزالي، وتهافت التهافت لأبن رشد، وتلخيص كتاب المقولات له، والجزء الأول من تفسير ما بعد الطبيعة له. قال الأب بويج في مؤتمر المستشرقين السابع عشر في مدينة اكسفرد (سنة 1928): من الأمور التي جلبت إلى العالم العربي الفخر الاسمى،

والتي أعانت على تسوية الثقافة الأوربية الرفيعة بحيث لا يستطيع المؤرخون إغفالها أن أمثال ابن سينا وابن رشد نُقلت تأليفهم إلى اللاتينية منذ المائة الثانية والثالثة فانبثت في مدارس النصارى حيث حُللت ونُسخت فاحتجَّ بها هذا ودفعها ذاك من الأعلام مثل (دنس سكوت) و (ألبير الكبير) والقديس توما وغيرهم كثير (راجع ظهر غلاف (تفسير ما بعد الطبيعة) بيروت 1938).

(ب. ف.)

لورنس والقضية العربية

نشر في الأسبوع الماضي في لندن كتاب بعنوان (الندوة الشرقية) يحتوي على كتابات مختلفة من المرحوم الكولونل لورنس الذي اشترك في ثورة العرب في الحرب العالمية. ومن هذه الكتابات فصل كان قد أعده ليكون الأول في كتابه الشهير (أعمدة الحكمة) ولكنه عاد قبل الطبع فحذفه منه وألغاه عملاً بإشارة الكاتب المعروف برناردشو.

وفي هذا الفصل يندد لورنس تنديداً مرَّاً بالوزارة البريطانية لأجل بذلها وعوداً للعرب وله معهم كي يشتركوا في الثورة فكتب لورنس ما ترجمته:

كان واضحاً منذ البداية أننا لو ربحنا الحرب لصارت هذه الوعود قصاصات ورق بلا قيمة. ولو كنت أنا مشيراً نزيهاً للعرب لنصحتهم بالعودة إلى بيوتهم وعدم المخاطرة بأرواحهم في القتال من أجل هذه الأوراق. لكنني عللت نفسي بأمل آخر وهو أني أقود هؤلاء العرب بحماستهم الجنونية إلى النصر النهائي. وهناك أجعلهم والسلاح في أيديهم في مركز أمين مضمون إن لم يكن متسلطاً، فتجد الدول الكبرى من الحكمة والملاءمة أن يلبوا مطالبهم بمقتضى الإنصاف).

وكتب لورنس أيضاً: (لم يكن لي ظل من الحق في استخدام هؤلاء العرب في هذه المخاطرة دون أن يعلموا نتيجتها الصحيحة فيما يتعلق بقضيتهم. لكني جازفت بالغش اقتناعاً بأن معونة العرب ضرورية لنا كي نفوز بنصر سريع ورخيص الثمن في المشرق وإنه خير لنا أن ننتصر ونخيس بوعدنا من أن ننكسر ونحن نزهاء).

وأوضح ناشر الكتاب أن هذا الشعور من لورنس كان وقتياً وعاد فرضى بقرارات مؤتمر القاهرة عندما عالج المستر تشرشل المسألة وقرر الوفاء بالعهود البريطانية.

ولقد صرح المستر برناردشو بأنه أشار فعلاً على لورنس بإهمال هذا الفصل الأول لأنه استهلال غير حسن لأسباب غير سياسية.

وزاد المستر شو على ذلك: (أما في شأن العرب فكان لورنس يحسب في أول الأمر أنهم لا يلقون معاملة حسنة، ولكنه شعر بعد ذلك أنهم ينالون أكثر مما تمكنهم إدارته وسلك أخيراً سلوك من يعتقد أن لا أهمية للوجهين. والحقيقة أن لورنس لم يكن يفهم السياسة قط، فهو إنما كان صبياً كبيراً لم يتم نموه يوماً).

نزاع على قصيدة

يا حلوة الوعد ما نساك ميعادي ... عِز الهوى أم كلام الشامت العادي
كيف انخدعت بحسادي وما نقلوا ... أنت التي خلقت عيناك حسادي
طرفي وطرفك كانا في الهوى سبباً ... عند اللقاء ولكن طرفك البادي

ثلاث أبيات من قصيدة للمرحوم شوقي بك تبلغ سبعة عشر بيتاً نشرت الرسالة منها في سنتها الأولى اثني عشر بيتاً تحت عنوان (شوقية لم تنشر تغنيها إحدى القيان). ولم تشر المجلة إلى اسم المغنية لأنها كانت قد تزوجت وانقطعت صلتها بالجو الفني. . وهذه المغنية هي السيدة (ملك) وقد صنع لها شوقي بك هذه القصيدة قبل وفاته بعامين لتغنيها وكان ذلك في مصيفها بالإسكندرية، حيث كان يختلف إليها أمير الشعراء والأساتذة فكري أباظة ومحجوب ثابت ومحمد عبد الوهاب. وقد أعجب الأستاذ محمد عبد الوهاب يومئذ بمعنى القصيدة وتلحينها، فلما توفي المرحوم شوقي بك تحدث الأستاذ عبد الوهاب بأن آخر ما نظمه شوقي له كان هذه القصيدة. فردت السيدة ملك في جريدة البلاغ تنكر عليه ذلك وتستشهد بمن ذكرت وبنسخة القصيدة مكتوبة بخط شوقي إليها. ووقف الأمر يومئذ عند هذا.

ولكن الأستاذ عبد الوهاب عاد فلحن هذه القصيدة في هذه الأيام لروايته الجديدة التي يزمع إخراجها في الشتاء القادم. فلما علمت السيدة ملك بهذا تجدد بينهما نزاع لطيف توَّسط فيه أصدقاؤهما حتى وعد عبد الوهاب بأنه (سيحاول) أن يستغني عن هذه القصيدة. ويظهر أن هذا الوعد لم يطمئن السيدة (ملك) فنشطت حركة استشارة المحامين ونشطت معها تلك

الضجة الطريفة التي لا نعلم كيف تنتهي وعلى أي وجه من الوجوه ستحل. والظريف في الأمر أن أشد الجميع غضباً هو الدكتور محجوب ثابت! فهو يعجب من جرأة الأستاذ عبد الوهاب وعدم استئذانه إياه باعتباره (الشامت العادي) الذي عناه شوقي رحمه الله.

المويلحي

معرض رابطة الفنانين المصريين

افتتحت رابطة الفنانين المصريين معرضها هذا الأسبوع، وهو معرض حر لم يتقيد فيه العارضون بموضوع خاص فكان هذا مما ساعد العارضين على أن يطلقوا أرواحهم وأفكارهم نحو ما يطيب لهم من موضوعات الرسم والنحت والزخرفة. فبماذا عادوا لنا من سماء الفن؟

قد يكون من الشح أن ننكر عليهم ما أصابوه من التوفيق، ولكننا أيضاً قد نسرف في المجاملة إسرافاً لا نحبه إذا قلنا إنهم وفقوا إلى الفن الناضج الذي نطلبه.

فقليل جداً من المعروضات الذي أسعده الطابع المصري الصادق؛ وقليل منها ما قصده به المعارضون إلى التعبير عن عاطفة من العواطف الإنسانية، أو إظهار فكرة لها معنى. وعلى هذا كان المعرض أشبه بمعارض التصوير الشمسي المنقول بالفوتوغرافية منه بمعارض الفنون التي ينتجها فنانون لكل منهم شخصية لها روح ولها عقل.

وقد حاول بعض العارضين أن يظهروا للجمهور وكأن لهم شخصيات مستقلة بهم وكأن لهم أسلوباً خاصاً بهم في فنهم فعمد منهم (منصور فرج) إلى أشكال الناس في لوحة البناء فنحتها نحتاً عجيباً ضخم في عضلاتهم وأعضائهم. فكانوا كالقردة أو (السيدة قشطة) كما عمد (يوذانت) إلى صبغ لوحة (قرية مصرية) باللون الأحمر صباغة لا توزيع فيها ولا تظليل فكانت كأنها (قرية الجن).

ولعل هذين العارضين معذوران فيما فعلا لأنهما قد سمعا كثيراً عن الفنانين الأوربيين الذين يؤثر كل منهم لوناً خاصاً أو شكلاً خاصاً من أشكال الآدميين فحسبوا أن كل فنان حر في هذا الإيثار، بينما الواقع أن الفنان الذي يكثر من لون ما في صوره ورسومه إنما يفعل ذلك غير مختار، لأن الطبيعة تزيف على عينيه الألوان ولأنه مصاب بمرض نظري لا أكثر ولا أقل.

وإذا كان لنا أن نختار من بين المعروضات في هذا المعرض ما نعتقد أنه خير ما فيه فإننا نفضل من غير شك ولا ترتيب

1 - تمثال ميزته الأمانة والصدق (رأس أسواني)
2 - تمثال كان يجدر بصاحبه أن يسميه (بلدي قيافة) (فتوة)
3 - تمثال على النهج الفرعوني فيه جلال (الفداء)
4 - تمثال مصري حديث تجسدت فيه الأنوثة (مصرية)
5 - صورة مصرية صادقة (حي قومي)
6 - تمثال مصري حديث جميل خفيف الروح (مليحة)
7 - صورة كان يصح أن يكون اسمها (الصعيدي) (ابن البلد)
8 - رسم زخرفي بسيط جميل دقيق (العودة من السوق)
9 - تمثال على النهج الفرعوني فيه هدوء وحلاوة (في الشتاء)
10 - صورة قوية (موقعة نصيبين).
11 - صورة رائعة (إدريس).
12 - صورة مصرية فيها غموض ورهبة (القيسرية القديمة).
13 - صورة كويدك حفيفة جداً (فتوات البلد).
14 - صورة عذراء مليحة حالمة (المخطوبة).
15 - تمثال لفتاة عصرية فيه الأنوثة والأناقة (فتاة).

ونحن نهنئ أصحاب هذه التماثيل والصور كما نهنئ غيرهم من العارضين على أن يشحذوا الهمم ويغذونا بما نحتاج إليه الآن من فن ملؤه الروح والفكر.

جريدة الوفاق في عامها الثاني عشر

دخلت زميلتنا الوفاق في عامها الثاني عشر، وهي أصدق ما تكون إيماناً ولساناً في خدمة الأخلاق والأدب. والوفاق جريدة إقليمية أسبوعية تصدر عن بلقاس ويحررها الأستاذ البيلي علي الزيني، وقد سلخت في جهادها الأدبي المحمود أحد عشر عاماً لم تفتر لها في خلالها همة، ولم يتخلف لها عن الظهور عدد، ولم يعقها عن اطراد التقدم عائق، على الرغم مما تعانيه مما تعانيه الصحافة الجدية من جهل القراء وضيق المعونة. والرسالة تهنئ الوفاق بعامها الجديد وتسأل الله لها دوام ما عودها إياه من حسن التوفيق في خدمة الدين والخلق والثقافة.

الكتب

(مباحث عربية)

تأليف الدكتور بشر فارس

نقد للدكتور مراد كامل

حركتني الرغبة في استطلاع ما ينطوي عليه ذلك العنوان. فقرأت الكتاب فأعجبت به وكان إعجابي من جهة الشكل ومن جهة الموضوع.

أما الشكل، فهذا كتاب يقوم مقام صورة صحيحة لطريقة علمية مستقيمة، لما هو عليه من تقسيم وترتيب وتبويب (ولحق) و (مسارد) و (مضاف) و (فائت). ثم إن كتاباً يخرج على هذا الشكل من الدقة والعناية وفيه ما فيه من المصاعب الفنية في إحكام الإخراج ليدل على مقدرة الصانع المصري في فن الطباعة.

أما من جهة الموضوع، فلن أقف عند أسلوب هذا الكتاب الفذ ولا تراكيبه البارعة ولا ألفاظه المتخيرة، لأني أريد أن أصل بكلمتي هذه إلى ما هو أجل شأناً من الأسلوب. ذلك أن الأسلوب يختلف الناس في النظر إليه وفي تذوقه، وإنما أنا أقصد إلى التنبيه على ما في هذا الكتاب من مستحدث في الفكرة والتعبير.

أما الفكرة فقد اختار المؤلف موضوعات شتى جديدة: فبحثه عن المسلمين في فنلندا لم يسبقه إليه أحد بل هو كشف أضاف المؤلف به فصلاً علمياً طريفاً إلى معرفة أحوال المسلمين في العالم.

وقد طرق المؤلف بعد هذا في مباحثه الخاصة بعلم الاجتماع وعلم اللغة مسائل هابها البحاث من قبل أو استثقلوها، فأقدم على درسها الدرس الأتم وعرضها مبسوطة واضحة. ولا غرو في ذلك فللمؤلف باللغة الفرنسية كتاب (العرض عند عرب الجاهلية) وهذا الكتاب مما حدا دائرة المعارف الإسلامية الصادرة في هولندا على أن تسند إلى المؤلف كتابة طائفة من المباحث فيها، ومن هذه المباحث: (الهجاء) و (الفتوة) و (العِرض).

والآن أعرض لك مسائل الكتاب في علم الاجتماع وعلم اللغة.
بحث الدكتور بشر فارس تعبير (مكارم الأخلاق) مستقصياً كل الاستقصاء؛ إذ استخرج وروده من بطون الكتب المطبوعة والمخطوطة ثم شرح التعبير من الناحية اللغوية وفحص عنه في كتب الحديث والتأليف الدينية، ثم دل عل أن من يكتب في مكارم الأخلاق إنما يجري إلى إكبار الفضائل الإسلامية وإغراء الناس بالإقبال عليه اقتداءً بالرسول. وذكر آراء المتكلمين في مكارم الأخلاق، وعرض لآراء المصنفين من كتاب العرب المستقلين عن الطرائق الكلامية والمذاهب الدينية. ثم آراء المنشئين فالمتصوفة. وقد عقد المؤلف فصلاً في علاقة مكارم الأخلاق بالفتوة والمروءة ثم اتصال مكارم الأخلاق بالجاهلية، وخرج من مبحثه بأم مكارم الأخلاق تعبير - في أول أمره على الأقل - أجنبي عن علم الأخلاق المنحدر من الحكمة اليونانية وعن علم السلوك النظري.
ومبحث آخر عن المروءة يدلك على استقامة الدراسة بالتدقيق العلمي. في هذا المبحث يبين المؤلف أن المروءة مدلول للفظ قالت فيه العلماء بالتقريب والاحتمال. ثم ذهب إلى أن في تعريفات المروءة جانبين متضادين كلاهما معقود بالآخر: الأول حسي ينحدر من زمن الجاهلية، والثاني معنوي مصدره الإسلام. ثم تتبع معنى المروءة في الجاهلية ومطلع الإسلام وعهد الخلفاء الراشدين وعهد بني أمية، ثم طلبها عند أهل اللغة حتى في اللهجة الأندلسية وفي لغة العامة لهذا العهد. وانتهى المؤلف إلى أن المروءة أفلتت من المادة لتصير من الكلم الروامز. وقد جاء كلامه في هذا مناقضاً لآراء المستشرقين بأدلة فلسفية ولغوية مستقيمة.
أما مبحثه في التفرد والتماسك عند العرب، ومبحثه في البناء الاجتماعي عند عرب الجاهلية؛ فكلاهما دراسة اجتماعية على أساس صحيح. وقد دفع في الأول أقوال المستشرقين عن التفرد إذ أثبت من طريق الاستشهاد بالشعر والأخبار المتواترة أن العرب كانوا قوماً متماسكين. وبين في الثاني تضارب الألفاظ الدالة على بناء العرب الاجتماعي بحيث يتعذر الفصل في كيفية تكون الجماعة وانتظام الأسرة، وإن تميزت هذه من تلك.
وأما مباحثه في اللغة فقد دلَّ كيف يكون التنقيب عن معاني الألفاظ، بتعقبها في أطوارها المختلفة. من ذلك تعقبه لمدلولات لفظة الشرف وردها إلى أصولها بالاستناد إلى النصوص الجلية. ومما أظهره أن لفظة الشرف خرجت في الجاهلية من الحسيات إلى المعنويات حتى إذا طلع الإسلام أدرج فيها قيماً خاصة به.
أما اصطلاحات الموسيقى التي أفرد لها المؤلف باباً خاصاً فقد أخرج لنا من بطون الكتب تعبيرات وألفاظاً عارضها بما ينظر إليها في اللغات الفرنسية والإنجليزية والألمانية. ومن ذلك لفظة المساوقة والمراسلة. ونحن نقيد له فضل السبق في هذا الكشف.
وهنالك اصطلاحات في الفلسفة، مثل لفظي التفرد والتماسك بدلاً من الفردية والتضامن الشائعتين عندنا. وقد وضعها المؤلف فيما وضع، ومعه حجج قاطعة من ناحية اللغة ومن ناحية الفلسفة، سالكاً في ذلك طريقاً جديداً مما يدل على مرونة في التفكير وسعة في الاطلاع.
أما الفصل الذي عقده المؤلف لبعض المخطوطات العربية التي درسها في دور الكتب المختلفة؛ فنأمل أن يتنبه المجمع اللغوي إلى الاستفادة بها لما فيها من الفائدة الجليلة لوضع اصطلاحات في علوم كثيرة.
هذا ما يتعلق بالفكرة. وأما التعبير فقد أخذتني جرأة المؤلف في التدقيق لوضع ألفاظاً واصطلاحات لمدلولات شتى ثم في تخيرها؛ الأمر الذي نحن في أشد الحاجة إليه حتى نؤدي بكلمة واحدة معنىً نحتاج إلى التعبير عنه بجملة أو جمل. أعجبني منه وضع كلمة.
استطلاع: وهي تفيد البحث العلمي لا الصحفي عن أمر مجهول أو حقيقة مستورة.
الإمداد: البحث العلمي الذي يلقى في محافل العلماء كالمؤتمرات.
الرأي القَبلي: الرأي القائم في الذهن قبل شهادة التجربة، ويقابله الرأي البَعدي.
البناء الاجتماعي: كيفية تكون الجماعة من حيث الصلات المتبادلة فيها ومن حيث اتساعها.

التفرد بدلاً من كلمة الفردية، والتماسك بدلاً من التضامن.
كلمةٌ رمزٌ: أي كلمة متى وقعت في مسمعك نشرت في خاطرك مجموعة من القيم المجردة. وهي من باب الصفة بالمصدر.
المشتَمل: وهو مضمون الكتاب.
المسرَد: لجداول الألفاظ والأسماء وما إليها
وقد خرج المؤلف على استعمال لفظة الفهرس الشائعة اليوم بإفادتها مدلولات مختلفة، بأن استعمال هذه اللفظة للدلالة على الكتاب الجامع للكتب فقط ثم جعل المشتل لمضمون الكتاب وموضوعاته والمسرد لجداول الألفاظ والأسماء.
أما تلك الرموز التي سبقنا إليها الأوربيون؛ فقد تصرف المؤلف في وضعها، ثم زاد عليها الكثير من عنده فوضع علامة لاسم الكتاب حتى نفرق بينه وبين سائر الكلام لنقص الحرف المائل في طباعتنا، وهو المستعمل في مثل هذا الموضع في اللغات الإفرنجية. ثم وضع رمز شاهد (على شكل هرمي) بدلاً من الصليب الذي يضعه الإفرنج للدلالة على الوفاة. ثم ي=وما يلي ذلك، ك ك=الكتاب المذكور قبل للمؤلف، ن=المؤلف نفسه، ذ=الكتاب ذاته. وإني لا أريد القول بأن ما وضعه المؤلف يجب أن يؤخذ به أخذاً، بل أرى أن يلتفت إلى ما وضعه فينظر فيه إن كان يحتاج إلى مراجعة حتى نبني عليه للمستقبل. على أني أسأل المؤلف أن يدون الرموز في الطبعة الثانية على ترتيب ما، نحو الترتيب الأبجدي؛ وأملي أن يتم وضع الرموز والعلامات اللازمة للتأليف العلمي حتى نظفر بدستور يلجأ إليه الباحث والعالم.
هذا وقد سلك المؤلف في كتابه مسلكاً علمياً صحيحاً وسار على المنهج الذي وضعه لنفسه، وهذا المنهج على قوله في تصدير الكتاب (الاعتماد على المشاهدة دون الفرض، والتحقيق دون التخيّل، والموضوعية دون الذاتية، وإقامة الدليل دون القناعة بالمقبولات والمسلّمات، ثم الذهاب من المركب إلى البسيط، ومن الخاص إلى العام؛ مع تسليط النقد النافذ - من جانبيه الخارجي والباطني - على الواقعات، من حيث إنها أشياء طبيعية مبذولة للحس، لا أمثال عالية ولا معانٍ منتزعة من المحسوسات مجردة في الذهن أموراً كلية عامة؛ ومع نبذ التشيع للآراء من مرتجلة وقبلية، فلا إيثار هوىً ولا تعصب لأحد على أحد؛ ومع رد تلك الواقعات إلى مصادرها من طريق الوصف المباشر أو الاستشهاد بالنصوص الصريحة حتى لا يرسل الكلام فيضيع حظه من التثبت؛ ومع التحري في البحث سعياً في الدنو من الحقيقة بفضل المنطق بالعرض البين والسلك المتصل والاستدلال القويم والنظر الصادق على غير استكراهٍ ولا تحكم ولا مكابرة؛ ومع إثبات ما أتى به العلماء العاملون من قبل بالاستناد إليهم أو الاعتراف بجهدهم خروجاً من ظِنَّة التلصص والسطو).
وبكل ما تقدم يبذل لك المؤلف دراسة فلسفية اجتماعية بذهن مجرد عن التشيع للآراء المرتجلة والمعاني المتوهمة مما يجدر بطلبة التعليم العالي أن يلتفتوا إليه. ويبذل لك أيضاً مباحث في اللغة وتاريخ الألفاظ واستخراج الاصطلاحات مما يهم المشتغلين باللغة وفي
مقدمتهم المجمع اللغوي.
وهكذا خرج الكتاب مبشراً بانبعاث الروح العلمي الخالص الذي أهدى إليه المؤلف كتابه.
مراد كامل
مدرس اللغات السامية بكلية الآداب
المسرح والسينما
رواية (الموءودة)
ما هي الرواية؟
اقتصرت في مقالي السابق على إلقاء نظرة إجمالية على رواية (المال والبنون) لمصنفها الأديب فهيم حبشي، لأنها لا تستحق أكثر من ذلك، وما عدت إلى ذكرها ثانية إلا لأقول كلمة إجمالية في جميع الروايات الموضوعة وذلك بمناسبة رواية (الموءودة) التي بعث بها إليّ مؤلفها الفاضل يسألني رأيي فيها وقد وأدتها لجنة التحكيم في مباراة التأليف المسرحي.
يحسن بي قبل الإجابة أن أسأل: (ما هي الرواية؟)

يقول أعلام النقد أن الرواية تبسيط حادث خيالي؛ وأن حاجتنا إلى تبسيط الحادث الخيالي المفرغ في قالب رواية ضرورة لازمة، لأن حياتنا الاجتماعية تمضي في عالم فوضى لا ارتباط فيه ولا تناسب ولا انسجام، وأن الروائي البارع هو الذي يتخيل ويتمنى ويعمل على إخضاع عالمنا لشرائع العقل ويجعله منظماً نفهمه بحسِّنا لا بقوته الخفية المظلمة ولا بكائناته المشوشة المختلطة.

فالرواية كما ترى نجدة نستنجد بها لتمكننا من مقاسمة الانفعالات الاجتماعية دون أن تجعلنا نتعرض لعواقب هذه الانفعالات، وخيال الروائي الذي استنبط حادثة ما (سواء كانت ذاتية أو موضوعية) إنما هي تصور حالة في نفسي أنا، أو في نفسك أنت واقعة فعلاً، أو هي محتملة الوقوع، استعان بها على إبراز خياله بخلق أشخاص مدركين يقدرون تقديراً قياسياً ويَعوْن وعياً نفسياً اضطرابات الإنسان وقلقه وخلجات عواطفه وضوابط نفسه وأحكام عقله.

ولأجل أن يكون الحادث الخيالي الذي ابتكره ذهن الروائي البارع كاملاً، وتكون الرواية تامة لابد لها من عنصرين عنصر الحياة ببساطتها، وعنصر القدرة على تبسيط البسيط من صور الحياة. ولا محيص لها أيضاً من الاعتماد على عنصر ثالث يقوم عليه البناء العقلي وفق النظام وفي حيز الطبيعة البسيطة وصورها وألوانها.

هذه الرواية هي التي تعيدنا إلى ذواتنا فتجعلنا نسمع ونرى فيها هواتف الضمير، وهمهمات الانفعالات، والصور الكامنة في النفس مجلوة واضحة مسوقة على ألسنة ممثلين وممثلات

خلقهم الروائي ودربهم على تحويل صور الخيال إلى حقائق بسيطة سهلة ترتسم في الذهن وتنطبع فيه وتقسره على إطالة النظر وإعمال الروية.

في وسعي أن أقول عقب ذلك بدون تردد إن جميع الروايات الموضوعة التي مثلتها الفرقة القومية منذ تكونها إلى يومنا هذا تنقصها العناصر الأساسية للحياة، والفن، والأدب، وأن حضرات مؤلفيها الأفاضل يشبهون في محاولاتهم (نبيّن زين) يطرحون ودعاتهم في الأرض ويرتجلون، وفق وضعية كل ودعة، كلاماً هو عصارة الذهن الكليل بله الهرف والتخريف. أجل كلهم عرّاف أعطاك ما جاد به خاطره من كلام مفكك الأوصال أسماه (الحوار) ومن جمل خطابية رنانة في الدين أو الأخلاق وأمثال ذلك مما تسميه العامة (لبن سمك تمر هندي). في حين أن الرواية هي كقطعة موسيقية تعزفها جوقة من النافخين في الأبواق ومن الناقرين على الأوتار والضاربين الطبول والصنوج، وأنت إن أرهفت سمعك وكنت من أصحاب الوعي والذوق والشعور، تحس بنغمة هادئة ناعمة تبدو كالهمسة الرفيقة تربط الأصوات النابرة في هذه الآلات وتوحد فيما بينها توحيداً بارعاً يجعلها كالروح الشائعة في الجسد. فهذه الوحدة في القطعة الموسيقية هي التي تغمرك بفيض من النشوة تجعلك ترتفع إلى مقام الغبطة بغيبوبة الفرح، وهكذا الرواية لابد لمصنفها من خلق وحدة فكرية تدور حولها الوقائع والأشخاص.

وأنت يا صاحبي مؤلف رواية (الموءودة) التي افتتحتها بآية من الكتاب الكريم: (وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت) أنت واحد من هؤلاء الذين طرحوا ودَعاتهم أمام لجنة التحكيم، فكان من دواعي الصدف العمياء أن حكمت بردها، فأبيت إلا التمرد على هذا الحكم فطبعت الرواية أي أنك سجلت على نفسك واقعة أدبية غير موفقة.

أزعم أن الذي شجعك على اتهام لجنة التحكيم وأغراك بطبع الرواية هو أن الفرقة القومية قبلت ومثلت روايات من نوع أردأ من (الموءودة) نذكر منها على سبيل المثال رواية (اليتيمة) غير أن سبيل النجاح يا صاحبي ليس في الانحدار إلى الوضاعة ومحاكاتها بل في التطلع إلى الكمال.

حدثني أديب كان قد توفر لكتابة القصة والرواية وانقطع لهما قال: أتمنى لو يكلف مدير الفرقة كبار الأدباء بتأليف روايات للمسرح وأن يغريهم بالأجر المناسب، فمبلغ ثلاثمائة

جنيه للرواية الموضوعة يرضي الأديب ويجعله ينقطع طول السنة إلى كتابة روايته. والرواية التي يكتبها الكاتب الكبير تحمل على كل حال الشيء الغزير من أدبه الخاص واطلاعه العام، والمران على كتابة الرواية يبعثه مرة بعد مرة على الإجادة والإبداع.

وقد ذكر لي حادثة أدبية من هذا النوع حدثت في فرنسا قام بها مدير (الكوميدي فرانسيز) مع الكاتب المعروف أندريه مورياك وقال مستدركاً: صحيح أن الخصائص

الفنية الأساسية لم تتوفر كلها في رواية مورياك التجريبية ولكنها ستتوفر كلها في الرواية التالية ولا شك. وقال أيضاً: يجب ألا يحول مثل هذا التكليف دون إغراء الشباب الناشئ على محاولة كتابة الرواية واشترط لذلك إيجاد العزيمة عند مدير الفرقة وأن يكون حسن الظن بالكاتب المصري وبالشباب المصري أيضاً.

الرأي وجيه سديد، ولكن لابد أولاً من تطهير الفرقة من النكبات المحيقة بها، وغسل السخائم المتأكسدة في أذهان القائمين على إدارتها، وتفهيمها أن المؤلف هو روح الفرقة، وأن البلد بأدبه وأدبائه في ألف خير، وأن إنفاق ثلاثمائة جنيه أو أربعمائة على المؤلف المصري من ميزانية قدرها خمسة عشر ألفاً ليس كثيراً على من صدقت نيته في إنهاض المسرح المصري على قواعد قوية من التأليف والتمثيل.

ابن عساكر

عاصفة فوق مصر

أخرج الأستاذ عصام الدين حفني ناصف هذه القصة الاجتماعية، وهي الأولى من نوعها في اللغة العربية، فليس موضوعها من المواضيع التي ألفنا قراءتها في مؤلفات كتابنا، بل هو موضوع خطير يتناول صميم الحياة المصرية وصميم الحياة الإنسانية عموماً. هو موضوع العلاقة بين الفلاح الأجير والمالك صاحب الأرض. وهو يكشف في هذه القصة عن الطرق التي تلجأ إليها الدوائر الزراعية لحرمان الفلاحين حقوقهم ويبرز في جلاء ووضوح فضائل الفلاح المصري ويذود عنه التهم التي يرميه بها الآخرون.

وهي مطبوعة طبعاً متقناً في 130 صفحة وثمنها 20 مليماً فقط، فنتمنى لها الرواج.

العدد 309 - بتاريخ: 05 - 06 - 1939

حول نظام الطبقات

. . .!فلاحون وأمراء

جلست كعادتي في عصر كل سبت أفكر في موضوعيَ الأسبوعي للرسالة، فتردد على خاطري المكدود معانٍ شتى من وحي الساعة وحديث الناس وحوازِّ القلوب، كمأساة حلحول في فلسطين، وصلة الجديد بالقديم في الأدب، فكنت أذودَها بالفتور والإهمال، لأن معنى من المعاني القوية كان قد استبد بذهني منذ الصباح فهو يراوده ويعاوده ويلح عليه حتى لم يكن من الكتابة فيه بُد. ذلك بيان النبيل عمرو إبراهيم رئيس نادي الفروسية الذي بعث به إلى الأهرام وطلب إليها أن تنشره (كاملاً) في عدد اليوم. والذي استفزني من هذا البيان لَهجته الأميرية المنتفخة في الرد على رئيس الوزراء، والطعن في بعض الكبراء، والدفاع الظنين عن نظام الطبقات، والتفسير المجازف لكلمتي الفلاح والديمقراطية، والتلميح المختزل إلى الساميَّة والطورانية؛ فإن هذه مسائل دقيقة ما كان ينبغي للنبيل أن يعرض لها بهذا الاستكبار، في بيان دفاعيّ لا يجوز أن يخرج فيه عن التنصل أو الاعتذار!

لست والحمد لله من طبقة أولئك النادين إلى هذه (الكُلبِّات) التي تتضاءل فيها الديمقراطية بين أرستقراطية الدم أو المال أو المنصب فلا أزعم أني سمعت الأشداق الملوية تأمر، ورأيت الأنوف الوارمة تمتعض؛ ولكني قرأت كما قرأ الناس ثورة رئيس الشيوخ وزارة رئيس الحكومة، فعلمت والأسى يحز في الصدر أن بعض الذين جعلناهم أمراء ونبلاء لا يزالون على عقلية ذلك التركي الفقير الذي كان يقرع الأبواب مستجديا فإذا أجابه المجيب الفزع قال له في عنف وصلف وأنفة: (هات صدقة لسيدك محمد أغا). ولا أدري ما الذي سوغ لهم أن يعتقدوا أن الله خلقهم من المسك للمِلك، وخلقنا من الطين للطين؛ وجعلهم للثروة والسيادة، وجعلنا للخدمة والعبادة؟ إن كانوا مسلمين فالإسلام قد محا الفروق بين الطبقات إلا البر والتقوى؛ فالعرب والعجم سواء، وقريش وبأهلة أكفاء. وإن كانوا وطنيين فالوطن لا يعرف التفاضل بين أبنائه إلا بأثرهم في تقويته وترقيته وخدمته؛ فالفلاحون على درجته العليا لأنهم عماد ثروته وعدة دفاعه وقوة سلطانه؛ والأمراء على درجته السفلى لأنهم فيه معنى السرف الذي يفقر، والترف الذي يوهن، والبِطالة التي تميت! وبين هاتين الدرجتين تتفاوت مواقف الوزراء والزعماء والكبراء على حسب ما لكل منهم

عليه من فضل.

لا يا سيدي النبيل! ليس نظام الطبقات هو القائم في مصر وأوربا كما تقول؛ فإن جَعْلك نفسك ونُظراءَك طبقة متميزة لها حدودها الأربعة وجهاتها الست لا يجعل نظام الطبقات حقيقة واقعة. إن مصر كلها من أعلى شلالها إلى أسفل دالها طبقة واحدة فيها الغني والفقير والمالك والأجير والصحيح والمريض والعالم والجاهل، فهل تجعل كل حال من هذه الحالات طبقة؟ وهل تستطيع أن تعين لي الفرق بين طبقتك المرفوعة وطبقتنا الموضوعة إذا كان الدستور الذي تخضع له طبقتان يستطيع أن يجعل ابن الخادم الذي ينظف لك الحذاء جليسك ورئيسك؟ لقد كان امتياز طبقتك على طبقتنا أنك تمسك (الكرباج) ونحن نمسك الفأس، وتأكل الذهب ونحن نأكل التراب، وتعبد الشيطان ونحن نعبد الله، وتتكلم التركية ونحن نتكلم العربية. فلما قيض الله لمصر العظيمة فؤاداً العظيم فتزوج منا وحكم بنا وسعى لنا ونشَّأ على خلائقه المصرية المحض شبله المومق فاروق، شعرنا بأن العرش يستقر على كواهلنا، والعلم يخفق على معاقلنا، والسلام يتردد في شعورنا، والحكومة تقوم بأمرنا، والنيل يجري بخيرنا؛ ورأيناكم حين أخذكم - رضوان الله عليه - بأدب الإسلام والشرق لذتم بأطراف الغربة، وقبعتم في زوايا العزلة، وكنتم من مصر وثروتها مكان البالوعة تطفح بعرق الفلاح ودمه لتصب في مناقع البلدان الغريبة!

لا يا سيدي النبيل! ليس المصريون في الجنسية والوطنية بمنزلة سواء؛ فإن منهم من تمصر بالقانون لا بالأصالة، وتوطن للمنفعة لا للعاطفة. وكيف يستوي في الميزان الوطنية

من يقف على مصر يده وقلبه وكسبه ودمه، ومن لا يعرفها إلا معرفة الغرماء ولا يعيش فيها إلا شهور الشتاء، ولا يعنيه من أمورها إلا أجرة العامل وسعر القطن؟

كذلك ليس من خالص الحق قولك: (إن حق الشخص في الانتساب إلى أمة إنما يناله بما يؤديه إلى وطنه من الخدمات سواء أكان ذلك بنفسه أو بأفراد أسرته من آبائه وأعمامه وأبناء أعمامه وأجداده وأجداد أجداده) فإن أموال أبيك لك، ولكن أمجاده له.

والوطني الصميم هو الذي يرفع ما بنى أبوه، ويتمم ما بدأ جده. ولا ينفع المرءَ عند الوطن أن أباه وطني وهو خائن، ولا عند الله أن أباه مسلم وهو ملحد!

أيها الأمراء والنبلاء! إن لكم في سيدكم الفاروق أسوة حسنة. فخذوا أخْذَه الجميل في سيرته ومصريته وشعبيته ودينه؛ فإن ذلك يكفل لكم رضا الشعب في الدنيا ورضا الله في الآخرة!

احمد حسين الزيات

ولا ترابه!

للأستاذ عباس محمود العقاد

قلت فيما كتبت منذ أسبوعين عن رسالة الأديب أنني أستعيذ بالله من اليوم الذي تتوقف فيه أقدار الأدباء على مقاييس الدولة، لأن سيطرة الدولة على أقدار الأدباء معناها إخضاع الفكر الإنساني للعرف الشائع مضافاً إليه إجحاف الهوى والمحاباة، وليس من وراء هذا الإخضاع خير للفكر ولا للأديب

إن تقويم أعمال الموظفين من أخص أعمال الدولة، لأن الوظائف تجري على قياس معلوم في نطاق محدود، وليس فيها مجال للتعمق ولا للإغراق ولا لاختلاف المذاهب والشروح

ومع هذا نبحث عن الإنصاف في محاسبة الموظفين فترى عشرين مثلاً للإجحاف والإهمال والنسيان وسوء التقدير إلى جانب مثل واحد من أمثلة الجزاء الحق والقسطاس المستقيم

فكيف تكون الحال في تقويم الأدب والأدباء؟ وكيف تكون الحال في الجديد من المقاييس الأدبية، ولا خير في المقاييس الأدبية إن لم يحسب فيها حساب التجديد والإبداع؟ وكيف تكون الحال في الرأي المستقل والخلق المستقل والعمل المستقل، ولا خير في الأدباء إن لم يكن لهم استقلال في الآراء والأخلاق والأعمال؟

أحسب أنني تحدثت بالبداهة يوم استعذت بالله من تسليط الدولة على مقاييس التفكير وأقدار المفكرين

ولكننا في البلد الذي (من فاته الميري فيه وجب عليه أن يتمرغ بترابه . .)، فلا عجب

أن يثقل ذلك المقال على كثير من أصحاب الأطماع والآمال، وأن يأبى بعض الذين كتبوا في الصحف وبعض الذين كتبوا إلي إلا أن يكونوا كتاباً (أميريين). . . فإن لم يكونوا أميريين فلا أقل من التراب وما شابه التراب

ويكتب إلي من يقول إن مقاييس الدولة في مصر لن تدوم على ما أصابها من قبل أو يصيبها الآن من العيوب، فهي في الغد كفيلة بحسن التقويم، ومتى حسن التقويم فلماذا هذا الحذر من الجور القديم؟

وتشاء المصادفة أن أقرأ هذا وأقرأ معه فصلاً مسهباً عن (الأربعين الخالدين) في فرنسا

منقولاً في المجلة الإنجليزية (العصر الحي) عن الكاتب الفرنسي هنري بلامي يتناول فيه مجمع فرنسا المشهور وأساليب اختيار الأربعين الخالدين من أعضائه، فإذا هي حال لا نتمنى تكرارها في بلادنا على فرط الحاجة فيها إلى التشجيع والإغضاء عن بعض العيوب.

وحسبك من تلخيص هذه الحالة أن تعرف أسماء الذين استثناهم المجمع من زمرة الأدباء النابهين وبينهم أمثال: موليير، وروسو، وديدرو، وميرابو، وأندريه شنييه، وستندال، وفلوبير، وجوبتيه، وبودلير، وميشليه، وفرلين، وملارميه

وفي وسعنا أن نضيف إليهم ديكارت، ومالبرانش، وباسكال وبومارشيه، وهلباخ، وزولا، وموباسان وغيرهم من أدباء هذه الطبقة الذين عرفهم العالم بأسره ولم يعرفهم المجمع الأدبي في بلادهم!

حسبك من تلخيص تلك الحالة أن تعرف أسماء هؤلاء وأشباه هؤلاء، بعد أن مضت ثلاثة قرون على نشأة ذلك المجمع في عهد الكاردينال ريشيليه، فماذا أغنى وجود المجمع واعتراف الدولة به إنصاف ذوي العقول والقرائح والأقلام؟

نعم إن أصحابنا الخالدين قد اعترفوا بأقدار فولتير، ولافونتين ورينان، وأناتول فرانس، وأناس من طرازهم تفتخر بهم الآداب الفرنسية والآداب العالمية. . .

ولكن متى اعترفوا بأقدار أولئك الأقطاب الأفذاذ؟ إنهم لم يعترفوا بهم إلا بعد أن اعترف بهم (رجل الشارع) كما يقولون، وشاع ذكرهم في الأقطار الغربية والشرقية، فلم يكن للخالدين فضل على غير الخالدين في تقويم القيم وتصحيح الموازين

فإذا كانت مجامع الدولة على منوال الأكاديمية فرانسيز تجهل من جهلت وتنسى من نسيت وتنكر من أنكرت، ثم ننظر إلى من شهدت لهم بالفضل فإذا هم مشهود لهم بفضلهم قبل أن يصلوا إلى عتباتها، فما أغنى بني الإنسان وأغنى أصحاب القرائح والأذهان عن ذلك المقياس وذلك الميزان! وما أولانا أن نرجع إلى (الأصل) وأن نكتفي به دون ماعداه، إذا كان الأصل هو رأي القراء والتبع اللاحق به هو رأي الخالدين من أولئك الأعضاء الأجلاء!

قد يقال إن الكتاب والشعراء يستفيدون الجوائز التي توزعها الدولة على أصحاب الآثار الجديدة والطرائف البارعة في كل عام

فإن قيل هذا فلنعلم أن الأعضاء الخالدين لا يقرءون الجديد. وقد قيل إن الأديب المشهور ألفريد دي فيني زار (الخالد) روبيه كولار ليطلب منه التزكية والشهادة فسمع منه رأياً لم يعجبه، فسأله: كيف تحكم على كاتب لم تقرأ سطراً واحداً من كتبه!

فأجابه الخالد وهو راض عن جوابه: يا صاحبي! إنني لم أقرأ شيئاً قط منذ ثلاثين سنة. (وحسب من كان في عمري أن يعود إلى مراجعة الأقدمين حيناً بعد حين

قال دي فيني: (إذن كيف تبدي رأيك في المجمع يا سيدي؟)

قال الخالد متعجبا: (كيف أبدي رأيي؟ هذا من شأني. إنني أذهب إلى هناك ولا يعنيني أن أخبرك عن طريقتي في إبداء رأيي، ولكنني أبديه. . .)

وقال كاتب المقال الذي أشرنا إليه والعهدة عليه: إن الشاعرة لويس كوليه التي عاشت في عهد الإمبراطورية الثالثة وأنعمت بالسعادة على كثير من الكتاب والشعراء تذكرت يوماً أنها لم تحضر قصيدتها لجائزة المجمع ولم تشأ أن تضيع عليها تلك الجائزة، فما هو إلا أن دخل إليها فلوبير وبويليه زائرين حتى أفضت إليهما بهمها، فما زاد الخبيثان على أن فتحا دواوين لامرتين ونقلا منها مئات السطور من هنا وهناك ووصلا بينها على ما يقتضيه حسن الحبك والصياغة، وأرسلا القصيدة إلى المحكمين فظفرت بالجزاء والثناء وتهنئة الأعضاء!

ثم تحسب مقادير هذه الجوائز التي توزع بهذا المعيار وتحسب الأموال التي تودع المصارف لاستغلالها باسم المجمع الموقر، فإذا هي جدول صغير من ذلك الخضم الغزير على عهدة ذلك الكاتب الأديب، والعهدة كلها فيما نرويه هنا عليه!

أما أعمال المجمع التي تصدى لها منذ إنشائه فمعجم لا يعد من خيرة المعاجم يسهل الاستغناء عنه ويبدو نقصه كلما فرغ من طبعه فيعاد تنقيحه وتأليفه، وإلى جانبه كتاب أجرومية مزيته الأولى أنه مشحون بالأخطاء النحوية والصرفية، بدءوا به في القرن السابع عشر ولم يفرغوا منه إلا منذ بضع سنوات (1932)

وقد عهد إلى المجمع يوم إنشائه في إصدار (قاموس تاريخي) فصدر الجزء الأول منذ سنة 1865 منتهياً بكلمة وصدر الجزء الثاني بعد ثلاثين سنة، وسيتمه المجمع على هذا القياس حوالي سنة 4855 بعد الميلاد

ولعل القارئ يذكر ما يجري في الشركات والجماعات الخيرية والحكومية التي يندب لها (كاتب سر) أو (وكيل عام). فإن الشأن الغالب عليها أن تستبد بها كاتب السر أو الوكيل العام بعد حين فلا يقع في ملكه إلا ما يشاء

فهذه العادة الغالبة هي بعينها التي تغلب على الأربعين الخالدين فلا يبرمون ولا ينقضون إلا بمشيئة من كاتبهم المختار. . . حتى قال سان بيف: إن هذا الكاتب (يحكم ويلي) في وقت واحد خلافاً للملوك الدستوريين!

كل هذه المهازل يعلمها الأعضاء الخالدون ويعلمون أنها شائعة على ألسنة الكثيرين، ولكنهم يجيبون هازلين بلسان فونتينل: (نحن سخرية الساخرين حين نكون أربعين، ولكننا معبودون مقدسون كلما أصبحنا تسعة وثلاثين!. .)

يريد الشاعر أن المرشحين يتملقونهم ويثنون عليهم كلما مات واحد منهم، فأصبحوا تسعة وثلاثين وراح الطامعون يتزاحمون على الكرسي الفارغ، ولكنهم بعد هذا سخرية الساخرين كلما بلغوا تمام العدد المقدور، ولا ندري لماذا يقف الخلود والخالدون عند الرقم أربعين!!

فالمجامع (الرسمية) جميعها على هذا النمط أو على نمط قريب منه بعد حذف المبالغة الفكاهية التي لا تقوى على تبديل الحقائق التاريخية!

وفحوى هذا أنها إذا أريدت لعرفان الأقدار في إبان نبوغها فهي لا تجدي ولا تنصف ولا تزال متخلفة وراء الصفوف بعد أن يفرغ القارئون من الإعجاب ويفرغ المعجبون من التنويه

وإذا أريدت لإغاثة المفتقرين إلى المدد والمعونة فهي لا تغيث المستحق ولا تتورع عن استغلال الأموال وتثميرها كما يثمرها التجار وأصحاب الأقساط والسهوم

وإذا أريدت لإنجاز عمل من أعمال اللغة والأدب فهي لا تنجزه على الوجه المطلوب ولا في الوقت المعقول

ويبقى بعد ذلك أنها تضير ولا تنفع بما توليه الصغار من أقدار الكبار، وما تجنيه على أقدار الكبار من الغضاضة والإنكار

يفتح الله يا عشاق (الميري) وترابه. . . فلا الميري أفضل من المجمع الفرنسي ولا جمهرة القراء في إنصاف الأدباء، ولا ترابه أفضل من التراب، عند أولى الألباب!

عباس محمود العقاد

تعليق وتذييل حول

مناوأة الخدر والنعاس في الأدب المصري

للأستاذ زكي طليمات

أثار صديقاي الأستاذ الكبير توفيق الحكيم والدكتور بشر فارس مسألة الكساد الذي يعانيه النتاج الأدبي في مصر وهذه مسألة الساعة على ما أعتقد، وهي شغل الخاطر منذ أن راعنا كساد سوق الأدب والأديب في هذه السنوات الأخيرة، وهي سنوات مليئة بالأحداث تغيرت معها بعض أوضاع المجتمع المصري في السياسة وفي نظام الحكم، وهي سنوات تتصف بالنشاط والحركة، وبمحاولة التخلص من جمود ران على الذهنية المصرية القومية منذ أمد بعيد، وكان من أبين مظاهر هذا الجمود ركود الأدب وانكماش ملكات الابتكار والتوليد فيه بما يتفق وروح العصر. . .

والذي أراه في هذا الصدد ويعن لي أن أبديه في هذا المقام هو أن من الحرج أن نرد

أسباب هذا الكساد الذي يشمل عالم الأدب في مصر إلى الأديب وحده، وأن نتهم الكاتب المنشئ وحده بالخدر والنعاس، لأن الواقع يخالف هذا. وآية ذلك أن المطابع تطلع علينا كل يوم بالمؤلفات أو التراجم في صنوف الأدب والفن، ولا أعلم أن النتاج الأدبي في مصر بلغ من الكثرة مثل ما بلغه اليوم

فإذا كان هذا النتاج لا يقابل من الجمهور بالحماس الواجب، فلأن الفتور مفروض على كل شيء يجري في مصر، ولأن عدم الاكتراث صفة - ويا للأسف - من صفات الأكثرية الغالبة من الجمهور المصري ولا سيما فيما له علاقة بالأدب والفن. ومرد ذلك - على ما أعتقد - إلى الطبع المصري الذي لم يستكمل بعد عناصر يقظته، ولم يستخلص له ذوقاً أدبياً صريح الطابع متماسك الأطراف متقارب النزعات يشمله التناسق والتوازن ومن ثم كان اضطراب المزاج في استيعاب الأدب وصنوفه، فإذا هو مزاج يعج بالبدوات ويخرج على شرعة الانسجام بميوله المتباينة ونزعاته الملتوية. وجمهور القراء في مصر خاضع لهذا الاضطراب، فمنهم من يعيش بميول القرون الوسطى أو بما قبلها، ومنهم من يفزع من قراءة كل جديد في الفكر والرأي، ومنهم من هو ثائر على كل قديم، ومنهم من لا يرتاح إلى القديم أو الجديد ولا يعرف ما يريد!! هذا والسواد الأعظم من هذا الجمهور

في صنوفه المتباينة التي ذكرت، على ثقافة مرتجلة أو هزيلة لافتقارها إلى الغذاء السليم. هذا ولا أتحدث عن الأمية التي ما برحت متفشية بيننا، ولا عن التعليم البسيط الذي لا يتجاوز مدى الكتابة والقراءة، وهو حظ الأكثرية الغالبة من جمهور القراء، أو المتأدبين، إذا صح أن نطلق عليهم هذا الاسم باعتبار أنهم قراء أوفياء للمجلات الهزلية وروايات الجيب وما شاكلها

بعد هذا يصح أن نقول إن الأدب في مصر لم يصبح بعد لدى أكثرية الجمهور غذاء لابد منه وحاجه لا غنى عنها، وإنما هو لدى البعض زخرف وزينة، ولدى البعض الآخر ضرب من ضروب التسلية التي لا يستطاب الإقبال عليها في كل وقت

وما دام الأمر كذلك فقد قدر علينا أن نرى محنة الأدب قائمة بيننا تغير وجوهاً ولا تتغير، تخف وطأتها بمقدار نصيبنا من انتشار التعليم ورفعة المستوى الثقافي العام. وملاك الأمر في هذا راجع إلى جهودنا وإلى شرعة التطور والارتقاء، التي هي كلمة الزمان وإرادته.

وإذا كان الصديقان الكبيران توفيق وبشر لا يريان ما أذهب إليه أو يريانه بعين الواعية الباطنة ثم هما لا يجرؤان على الإفاضة فيه والتنبيه إليه التنبيه الواجب، بل يعرضان له لمحاً ويعبران به عبراً، فذلك لأن الصديقين أديبان أصيلان مشبوبان، أخذت هوية الأدب بشغاف قلبيهما، فهما يحذران لمس العلة الكبرى التي يشكو الأدب منها في مصر أكثر من أي شيء آخر، وإذا هما لمساها بإيحاء خاطر يطلع عليهما من وراء الوعي، فإنهما لا يطيقان التمعن فيها، وسرعان ما يفزعان إلى أشياء أخرى يتعللان بها ويموهان بها على نفسيهما

كذلك كان شأني إذ كِنت أعمل في المسرح المصري راكباً رأسي شاحذاً عزمي، لا همَّ لي إلا أن أفرض فن التمثيل على الجمهور، فقد كنت أعتقد أن أسباب كساد فن التمثيل ترجع إلى افتقار المسرح المصري إلى الممثل القادر والمخرج الحاذق والمؤلف النابه

كنت أعتقد هذا وأرفع صوتي به وأعمل على تلاقي هذه الأسباب. ولكن كان يقع لي أحياناً أن يهجس بي هاجس خفيت الصوت نافذة يهمس في أعماق نفسي أن العلة الأولى والأخيرة في كساد المسرح إنما هو الجمهور. . .

ماذا كنت أعمل؟

كنت أغالط نفسي، وهذه المغالطة - على ما أظن - مظهر من مظاهر كبرياء الفنان ومن حبه الكبير لنفسه ولفنه!

هذا عن جمهور المسرح، وموقفه من فن التمثيل كموقف جمهور القراء من الأدب. وجمهور القراء واحد من ثلاثة عناصر رئيسية يقوم عليها عالم الأدب في كل زمان ومكان.

أما الكاتب المنشئ فموقفه من محنة الأدب في جمهور قرائه أنه لا يجيد العمل على تخفيف هذه المحنة بما يمتلكه من الوسائل.

إذا أحس الكاتب في مصر بأنه يجيد الكتابة في أسلوب طلي وبيان رائع، وإن النفس يطول به إلى تسويد الصفحات المتوالية فقد نصب نفسه أديباً لا يشق له غبار، وينسى الأديب البطل المغوار - أو هو يتناسى - أن العبرة في الإنتاج الصالح. ليست بالكمية، وإنما بالجودة. وجودة الأدب أن يكون نباضاً بالحياة مما يشغل أذهان الناس، ويدخل على قلوبهم ويحرك رواكدهم، وينفخ فيهم نفساً من الحياة الدافقة التي ينطوي عليها.

وإذا صح هذا فإنه يصح أيضاً - وهو الأمر الذي ترقى إليه الظنون - أن ننفي عن الأديب المصري تهمة النعاس والكسل، لأنه يعمل ويعمل كثيراً بدليل ما يطالعنا به كل يوم من المؤلفات والتراجم في مختلف نواحي الأدب، وهذا جل ما أفدناه من أخذنا بأسباب تطورنا الأخير.

إلا إن هذا العمل الكبير يعوزه التوجيه الصائب والاستشعار الكامل بمهمة الأدب، ولهذا فإنه ينصب في غير غاية مقصودة ألهم إلا غاية الكتابة والتحبير فحسب.

وتوجيه الأدب أمر لا يتم بمجرد الطلب والتمني. واستشعار مهمة الأديب قد لا تحول كاتباً عن طريق اختطه لنفسه ولا تخرجه عن أسلوبه المختار ما لم تعاونها ظروف خاصة أبينها نصيب المجتمع الذي يعيش فيه الأديب من يقظة الروح المعنوي، وتفتح الذهنية العامة على الآفاق النائية، وقدرة البصيرة على تمييز الأشياء المختلطة ثم اختيار ما تريده منها؛ ثم قسط هذا المجتمع من صدق العاطفة ومن الصراحة ومن الإخلاص.

ولا أريد أن أحدد نصيب مجتمعنا وقسطه مما ذهبت إليه الآن. وحسبي أن أقول إن ما نراه من انحراف أدباء مصر - ما عدا القليل مهم - عن معالجة الأمور الهامة التي يخفق بها

قلب مجتمعهم إنما مرجعه إلى أن أكثرية هؤلاء الأدباء ليسوا على حس مرهف تنطبع عليه كل التيارات التي تنبعث من واعية المجتمع ومن وراء واعيته، وإن هذه الأكثرية تعيش بعين الماضي لا بعين الحاضر، أو أنها لا تحيا إلا في أجواء الكتب التي نطالعها أو أنها تعبث لاهية مزهوة بالآراء الواردة علينا من أوربا مع واردات الأزياء وأخبار نجوم السينما.

والأديب إذا لم يكن على هذا الحس المرهف لم يستطع أن يلتقط الهمسات التائهة التي ترتفع من وراء واعية مجتمعة، هذه الهمسات التي هي رغبات مكبوتة، وآمال مقنعة منشودة لا تقوى الجماهير على المصارحة بها، وتترك أمر الإبانة عنها وترديدها في جلجلة الرعد القاصف إلى قلم الأديب.

أوجب واجبات الأديب نحو نفسه ونحو قومه ونحو فنه أن يستخرج هذه الهمسات من الضوضاء التي تحيطها، وأن يستلها من معاقلها ليحولها إلى ليحولها إلى صيحات صريحة تدوي في الفضاء. فإذا لم يفعل ذلك فقد قضى على نتاجه بالعزلة عن الناس، وقطع ما بينه وبين الينبوع الذي منه يخرج ما يثير اهتمام الناس ويهز الركود الذي يرين على الأدب. إذا لم يفعل ذلك قضى على نفسه أن يعيش على هامش الحياة، في حين أن الجمهور يعيش في صميم الحياة، كما يقضي على أدبه ألا يتجاوز أمر المرآة التي لا ينطبع عليها من آثار الأرض سوى أعالي الشجر ورؤوس التلال

هذا هو الحال الأدباء في مصر وهذا هو موقفهم من محنة الأدب، وإن كان من بينهم من سبقوا عصرهم وأدوا شيئاً من رسالة الأدب الحقة

أما حال الناقد، وهو العنصر الثالث الذي يقوم عليه الأدب، فلا أجد ما أصفه به أبلغ مما جاء في مقال الدكتور بشر فارس: (فإنه في غالب الأمر وأكثر الحال ينوه بصديق، أو يقع عدو، أو يهمل كتاباً جهلاً بفنه أو إنكاراً لنفاسته أو اتقاء لصاحبه أو تسامياً، أما التسامي فيدل على ذهاب بعضهم بأنفسهم على كل أحد وذلك من باب الغرور، وقصة الغرور معروفة. .)

وإذا كان هذا هو شأن الناقد أيضاً، والناقد الحق هو بوق الكاتب المنشئ، ومذيع أعماله، ومقيم الميزان الذي لا يحيف ولا يخطئ لنتاج الأقلام، بل هو الحركة الدائبة التي تدفع

البطيء وتهز الركود؛ فليس عجيباً بعد ذلك أن يرين الخدر والنعاس على الأدب في مصر

فهل حان الوقت الذي نراجع فيه أعمالنا، ونشرع الحساب عل ضمائرنا ونفيق

ونستقبل ضوء صباح جديد بعد نوم ثقيل طال؟
زكي طليمات
من برجنا العاجي
في حياتي الفنية جانب مجهول أردت ألا أعترف به ورأيت أن أقصيه وأن أسدل عليه الستار، لأنه في نظري اليوم لا يتصل بأدبي ولا يجوز أن يدخل في عداد عملي. ذلك هو عهد اشتغالي بكتابة القصص التمثيلي لفرقة (عكاشة) حوالي عام 1923. غير أن المصادفة شاءت أخير أن ألتقي بمن يذكرني بهذا العهد، ويعرض عليّ طرفاً مما كنا نعمل في ذلك الحين. ذلك روائي اشترك معي في قطعة موسيقية قام بتلحينها المرحوم كامل الخلعي. ثم انقطع عن الفن منذ ذلك الوقت وشغلته شئون الحياة ثم اختلينا فجعل ينشد لي بعض أغاني رواياتنا القديمة وأنا في ذهول! شد ما تغيرت نظرتي للفن مرات ومرات خلال تلك السنوات! ولكنه هو باق كما كان على احترام تلك القواعد والمثل التي كانت هدفنا ومرمى أبصارنا في الكتابة المسرحية. إنه فيما خيل إلى لم يقرأ شيئا مما أكتب وأنشر اليوم. فهو لا يعترف بعملي الآن. وهو إذ يحادثني في شئون الفن لا يبدي اهتماماً ولا إعجاباً إلا بما كنت أصنع قبل خمسة عشر عاماً. أما اليوم فأنا في نظره غير موجود. إنه يذكرني بأشخاص رواياتنا الغابرة كمن يذكر بأناس من أهل الحسب والنسب والكرم والشهامة لن يجود بمثلهم الزمان. فهو يترحم عليهم ويقول: (مضى كل شيء! ولن نرى مثيلهم أبداً على خشبة مسرح من مسارح اليوم!). هذا الصحيح. وجعلت أتأمل قوله لحظة فخامرني شك في أمري اليوم وقلت في نفسي: (ألا يكون هو على حق؟ وأكون أنا قد ضللت وانحرفت عن طريق الفن الحق! إن فن المسرح فن مرجعه السليقة السليمة لا الثقافة الواسعة. إنه شيء والأدب شيء آخر. أتراني محتاجاً إلى خمسة عشر عاماً أخرى لأكر عائداً إلى ذلك النبع الذي بدأت منه ونأيت عنه؟).
توفيق الحكيم
صلوات فكر في محاريب الطبيعة
للأستاذ عبد المنعم خلاف
الأعشاش - 6
الأشجار تتوجها الأعشاش المعمورة بالحب والرحمة والحنين. . عليها أجنحة كاسرة، وفيها جوانح مشبوبة، ويطعم الحب فيها منقارا بمنقار
فيها دنيا من عالم القلوب. . . قلوب الطير ذوات الأطواق والسراويل والريش الملون والعيون الصافية التي استمدت صفائها من إدامة النظر للسماء
أعشاش مبنية من الأعواد وأوراق الشجر. . . تعبت في بنائها الأمهات والآباء لأداء الأمانة التي في صدورها للحياة. . . بناها هؤلاء بالمناقير التي يزق بعضها بعضاً بها حين الحب. . .
. . .في كل عش فرخان يعين أحدهما الآخر على العزلة والنظر إلى الآفاق البعيدة خرجا من بيضتين متجاورتين، يحركان رأسيهما مغمضين أجردين من الريش معرضين لعوامل قاتلة من البرد والحر وأفواه الشر
من البيضتين انبثق حب دائم ربط بين قلبين صغيرين منسوجين من الهواء والضوء والصفو. . . هو حب اخوة وحب اجتماع في ظروف واحدة، وحب خوف من عالم النور والظلام، وحب زوجية. حديثهما حول هذا الطائر الكبير الذي ينهض من الشرق في الصباح ويملأ الدنيا وقلبيهما بالحرارة والدفء وعيونهما بالنور الذي يكشف لهما عن الأغصان والأفنان. . .
ألم تروا مرة أم فراخ بين أفراخها في عشها؟ ألا ترون الصبر والجد والصرامة واللهفة واليقظة لكل نامة حول العش؟
تصيح الصغار صياحاً ساذجاً بحناجر جديدة الانشقاق رطبة الأوتار. وحين تصيح الكبار تجد الجد والوقار والشعور بالمسؤولية وعبء التربية. لو اقترب الأسد من عش الطير لاعتراه خوف وخشية. . . فإن القبرة تهاجمه هجوم الغائب عن وعيه الحفيظ على أمانة الحياة في صدره. . . لا تبالي الموت ولا تحفل أدواته
إن غضب الطير للمأوى شيء مقدس جليل رائع. إنه ينفش ريشها ويجعلها تنفث أنفاساً من نار، ويدفع بمنقارها في صدر المهاجم. ليت بعض الخونة لأوطانهم ومأواهم

يفهمون تلك الأسرار المقدسة في صدور العباد فيعملوا لها ولو بجهد الطيور الضعيفة
ذعر نحلة - 7
كنت جالساً على الأعشاب أكتب وأمامي محبرة، فجاءت نحلة تبحث عن رحيق الأزهار فحطت على فم المحبرة ووقفت لحظة تنظر إلى تلك اللجة السوداء المسحورة، ثم فرت وتركتني في دوار
أتراها أدركت عمق هذه اللجة حين وقفت على شاطئها؟ أتراها أدركت بعينها الصغيرة ما ندركه نحن حين نقف على هذه البئر المسحورة؟
أتراها أدركت أن هذا الإناء دن كبير طالما سقط الناس صرعى سكرهم بخمره الأسود؟
لقد سكرنا به عن كل شيء. . . ومضينا في دنيانا نرى الحياة من خلال كلماته كما يرى السكير الدنيا من خلال حبب الكئوس
سُكْرٌ وسُكْرٌ يصرعان ألباب ذوي الألباب، والمدمنون على الخمر يتهمون المدمنين على الحبر بالغفلة والعمى عن اللذة. . . وكذلك المدمنون على السكر بالحبر يبادلونهم نفس النعوت والألقاب، (وكل حزب بما لديهم فرحون)
لابد للأفكار أن تغتسل في هذا الإناء نحلة، قبل أن تخرج إلى الوجود. . . إن ماءه يسجد المعاني ويطلسم أفكار البشر
المخ والمداد. . هذا البياض وهذا السواد يتلاحقان فيلدان أشرق وأبقى ما في الدنيا: عالم الفكر!
نعم إن في لجج بعض المحابر ماء زائفاً وضلالات وتعقيدات وغروراً وتجديفاً وسموماً، ولكن على الأقلام الحساسة أن تتيقظ وأن ترد الصفو وتتجنب الأخلاط كما تيقظت النحلة فلم تذق ما لم تخلق له. . .
طيري أيتها النحلة في رحاب الدنيا غائبة عن عيني وانشدي (ن، والقلم وما يسطرون. . .) وما عليك أن تَفْنَىْ، فقد صرت كلمة خالدة على قلمي. . .
منطق كلب - 8
كنت جالساً بين الأزهار الطاهرة الجميلة أتطهر وأتأمل، فمر كلب وجاء إلى شجيرة ورد فيها ورفع رجله وبال عليها. . .
خيل إلى أن الشيطان تقمصه، وأراد أن يسخر مني ويريني كيف يحتقر هو وجنوده ما أقدسه وأستغرق فيه. . .
وأقول الحق! إنه زلزلني ونال مني، فوضعت القلم ونهضت إلى الحياة خاضعاً لمنطق الشيطان على الأقل في تلك الساعة. . .
لم يَرُق الكلبَ لون زهرة ولا عطرها ولا حريرها كما تروقه وتعجبه القاذورات. . .
ومما تعجبت له أنه رفع رجله خوف البلل؛ ثم مد فاه إلى القاذورات. . . تناقض عجيب! وكذلك نرى بعض الناس ينجسون أقدس ما فيهم وأحقه بالطهارة، ويطهرون ما لو تنجس لم يضرهم شيئاً. . .
إنهم كلاب في أفواههم وأحشائهم. . . ولكنهم يتطهرون في أذنابهم وأرجلهم. . . لن يرفعهم شيئاً ن أقدامهم طاهرة، ما دامت رؤوسهم نجسة دنسة. . .
غضب البلابل - 9
رأيت بلبلين في عراك على أنثى. . . وكانا في غضبهما عنيفين يخرجان صوتاً أجش خشناً، ولا تبدو عليهما تلك الشاعرية التي تكون وقت الإنشاد والتغريد. . . ويل للفنان من غضبه!
ويظهر لي أن أحدهما مسكين فريد يريد أن يأخذ أنثى الآخر، فهو يلحقها ويغريها باللحاق به. لقد جاء الغروب، ولم يسمع صوتاً يناديه إلى العش ويعبث بمنقاره في طوقه. . . هو يريد أن يسكب في أذنيها تغريده الضائع، ويسمعها غزل قلبه حين يرى فتنة الأزهار
والأنثى واقفة تشهد الصراع بدون اشتراك فيه. لماذا لا تهجم على الواغل في حياتها الزوجية فتضع حداً للطمع والأغراء؟ يظهر أنها مبلبلة الخاطر زائغة العين. . .
الأنثى دائماً هي كبرى مشاكل الطبيعة عند كل فنان.
غزل الضفادع - 10
أسمع في الليل زمراً من الضفادع في الغدران والسواقي تبدي كل فنها وقدرتها في

إخراج أصواتها. سكون مطلق يصدعه ضجيج منكر. في كل مكان فيه ماء حنجرة تصرخ في زفير وشهيق منكرين. مقطع صوتي واحد يتردد دائماً في الظلام. علمت صوتاً واحداً ففرحت به وجعلت تغني به دائماً كما يغني الإنسان صاحب البيان للمرأة والدينار. . .

لذات خفية في ضمائر الخلائق! لماذا كل هذا الجهد يا بنات الماء؟ أكل هذا غزل وقصائد حب في مطارح عشق تحت الظلام؟

نعم، فهذه لغة أبناء لحياة من البعوضة للبعير، ومن الثعبان للفيل

هي لذة البلبل حين يمسح خديه بحمرة أوراق الورد لا يبالي أن يفقأ شوكة عينيه. . .

وهي لذة الغراب حين يُنغض رأسه ويلوي عنقه ويخرج نعيقه في شناعة وإزعاج. . .

وهي لذة الحمار حين يثور همه وحبه في صدره، فيخرجه صوتاً عميقاً خليطاً من البكاء والضحك. . . وهو عنده نشيد فيه فن وغزل وإغراء

وهكذا يملأ الغزل سمع الحياة من كل حي، والجميع في غفلة عن الغاية، إلا الذين ندُّوا عن حبال الشبكة المحبوكة الأطراف ووقفوا يديرون على أنفسهم وعلى الحياة وأبنائها.

(بغداد - الرستمية)

عبد المنعم خلاف

أعلام الأدب

أرستوفان والديمقراطية

للأستاذ دريني خشبة

كان أرستوفان رجعياً إلى درجة السخف في رجعيته، لكنه كان على شيء غير قليل من الحق في تلك الرجعية التي حارب بها سيد شعراء الدرام يوريبيدز، وأبا الفلاسفة سقراط، والتي جعلها حرباً غير راحمة على الديمقراطية

يذكرون أن أولى كوميدياته (رجال من جزلتون التي تقدم بها للمباراة في الشعر الهزلي سنة 427 ق. م كانت تدور كلها حول التعليم العالي والحط من قيمته ونسبة كل شر حاق بأثينا وأفسد أخلاق شبابها إليه. . . والكوميديا وإن تكن مفقودة إلا أن النتف الباقية منها تعرفنا بموضوعها الذي يقوم بدور البطولة فيه، والد مسكين حائر بين ولديه. . . فأحدهما شاب تقي محافظ مستمسك بعروة السلف الصالح وتقاليده الوثقى، والآخر فتى متمرد فاسد يسخر بالماضي وسُننه العتيقة وآدابه البالية، فما يزال يتهكم بأسلوب الحياة التي يحياها والده، ويسفّه تقوى أخيه، ويتبجح بالموبقات التي يأتيها هو في غير تورع ولا استحياء، لأنها في زعمه من مقومات المدنية التي لا يفهمها إلا على أنها فسوق وخروج على المألوف

وفي سنة 423 تقدم بملهاته الخالدة (السحاب) التي ندد فيها ما شاء له لسانه السليط بسقراط وفلسفة سقراط، والتي يضع فيها رجلاً طاعناً في السن أمام سوفسطائي، فهو يسأله عن أبرع الطُرق التي يأكل بها ديون الناس عليه (!!)، ثم يصنع حواراً شائقاً بين العلة العادلة والعلة غير العادلة (!!) وينتهي بإحراق منزل سقراط! وسنعود إلى ذلك في فرصة أخرى لما (للسحاب) من مكانة فريدة بين كوميديات أرستوفان

وقد كان لرجعيته يعزو ما أصاب أثينا من تدهور وانحلال إلى أدب يوريبيدز، وسنفرد لذلك فصلاً خاصاً نتناول فيه كوميدياته الثلاث الكوامل التي خصه بها، وإن تكن لا تكاد إحدى كوميدياته تخلو من ذكر يوريبيدز والتنديد بيوريبيدز، وإن يكن يوريبيدز مع ذاك أستاذه وملهمه

وبعد، فماذا كان بين أرستوفان وبين الديمقراطية؟ ولماذا كان يبغضها ذلك البغض الشديد

الذي تجلى في معظم كوميدياته؟ لقد تناولنا في الفصل السابق بعض الإجابة عن هذا وذاك، ونحن نضع بين يدي القارئ في هذا الفصل خلاصة لكوميدية أرستوفان المضحكة (الفرسان التي تقدم بها للمباراة سنة 424 ونال بها الجائزة الأولى من الهيئة الرسمية التي كانت تهيمن عليها حكومة كليون وقواد الجيش والشعب من أمثال نسياس وديموستين الخطيب المفوه العظيم

لم يبال أرستوفان أن يسخر بأبرز شخصيات الحكم في أثينا في ملهاته هذه، فصورهم

تصويراً كاريكاتورياً مضحكا، مستعيناً في ذلك بميولهم الخاصة ووقائع حياتهم اليومية. ولعله أول رجل في التاريخ عمد إلى اختراع الشخصية الفكهة التي تمثل دولة بأكملها.
فنحن نعرف أن شخصية جون بول تمثل في العصر الحديث دولة بريطانيا العظمى، كما تمثل شخصية العم سام الممالك المتحدة الأمريكية، وكما تمثل شخصية (المصري أفندي!) مصر الحديثة. وقد سبقنا أرستوفان إلى خلق هذه الشخصية المضحكة المحببة فابتكر لكوميديته شخصية (ديموس) ذلك الرجل الكهل الأناني الطاغية فجعله رمزاً لأثينا الهرمة المضطربة، للأثينيين الديمقراطيين الذين ذهبت دولتهم وشاع في أخلاقهم، واضطرب حبل حكومتهم، وذلك لما نشره فيهم السوفسطائيون وعلى رأسهم سقراط من فلسفة، وما بثه فيهم يوريبيدز من جرأة واستهتار بالتقاليد، وما أفسده به المرأة من تمثيل الغراميات المحرمة أمامها في المسرح، ولما صنع بهم الإفراط في الديمقراطية بعد بركليس من استباحة الحرمات وضياع القيَم وجرأة الأوشاب على السراة وأهل الرأي باسم الحرية وفقدان الحدود بين الطبقات
ثم سلط أرستوفان على ديموس هذا رجلاً مخاتلاً خداعاً هو زعيم الرعاع في أثينا (الديما جوج كليون) الدبّاغ (!!) وبائع جلود الحيوانات القذر (!) فجعل إرادة ديموس تتلاشى في إرادته، وجعله لا يبرم صغيرة ولا كبيرة إلا بإذنه، ولا يحكم على أحد بخير أو شر إلا إذا حكم عليه كليون بالخير أو الشر، فكان إلى جنبه أمعة لا قيمة له ولا رجاء فيه، يُوَجهه حيث يشاء، ويسخّره لما يريد. . وسماه كليون (ألبافلاجوني) أي التفتاف الذي يرسل الزبد في وجوه محدثيه حينما يكلمهم! ثم نعته بالعجرفة والصلف والقحة إذا كان أمام معارضيه، وبالتذلل والضراعة ولبس مسوح الرهبان إذا كان تلقاء مولاه؛ وجعل زملاءه
العبيد يكرهونه وينفرون منه لأنه يستأثر بمولاه من دونهم، فيفرض عليه ما يرى هو، لا ما يرى جماعة العبيد
أما من هو كليون هذا فهو نفسه ذلك الرجل الهائل صاحب الأمر والنهي في أثينا في ذلك العصر. . . الرجل الذي رفعه الرعاع ورفعته الديمقراطية المطلقة إلى ذروة الحكم، وألقت إليه بزمام السلطة يصرفها كيفما يشاء ما دام في حرز حريز من رضى الغوغاء، وما دام متمتعاً بمحبتهم الجاهلة الخرقاء
كان كليون إذن عَبْداً لمولاه ديموس بالدهاء والختل، لكنه كان سيد أثينا ودكتاتورها المطلق عن طريق هذا (الطّبْو!) ديموس نفسه، فماذا يصنع أرستوفان لخضد شوكته وتحقيره كما يحقّر هو أحلام أمة بأسرها؟
لقد جعل له نِدَّيْن من العبيد الأرقاء على شاكلته، هما نسياس وديموستين. . . ونسياس وديموستين هما أعظم رجال الحربية الأثينية في ذلك العصر. وقد أورد أرستوفان أسميهما صريحين كما أورد اسم كليون، ثم جعلهما من عبيد ديموس (أوجون بول أثينا!)، وجعلهما يحقدان أشد الحقد وأمره على كليون لأنه استبد بالسلطان من دونهما فراحا يتمنيان له الشر ويتلمسان له البلاء المبين. . وقد كان نسياس رجلاً فطرياً ساذجاً محافظاً على القديم، يعتقد اعتقاداً جازماً بالخرافات. أما ديموستين فقد جعله أرستوفان رجلاً مرحاً في برود وعدم مبالاة، إذا اعتزم شيئاً لم يتردد في تنفيذه ولو خرط من دونه القتاد، وكان يقبل على الخمر ويشغف بها شغفاً شديداً، فكانت تضاعف من جرأته وتزيد في إقدامه
وقد غيظ نسياس وديموستين من كليون لأنهما أقدم منه في خدمة مولاهما ديموس، فقد اشتراه بعدهما بزمن طويل، ومع ذاك فقد تقدم عليهما عنده بدهائه وطول حيلته، ولذلك فكرا طويلاً في عزله من منصبه في خدمة مولاه، فذهبا ليستوحيا كهنة باكيس، فقيل لهما إن الذي يخلف كليون في منصبه في خدمة ديموس هو شخص من صميم الشعب الديمقراطي!! هو بائع الأكارع (والسجؤ!!) أجورا كريتوس. . . (من أجورا حيث ألتمس الرزق لي ولعيالي!) أي أن أسمه مشتق من أجورا الذي هو سوق الحوايا . . .(الكرشة والأكارع والأمعاء والفشة وما إلى ذلك. . . من أسواق أثينا!!)
وقد تحققت نبوءة باكيس. وأقدم كريتوس (في آخر الملهاة) حيث استطاع أن ينفذ إلى الصميم من قلب ديموس، وأن يحل فيه محل كليون الذي لم يستطيع أن يباري (بائع السجؤ) في ميدان المهاترة والوقاحة والبرجوازية! وبذا تربع كريتوس في كرسي

الوزارة - كرسي النبل والشرف! - مكان الغريم المنهزم.
وهكذا كان منطق أرستوفان في تحليله للديمقراطية. . فمن يستطيع أن يجرد هذا المنطق العجيب من الحق - أو من بعض الحق - فيما يتعلق بمآل الديمقراطية إذا منحت بلا قيد ولا شرط لشعب أخذت عوامل الانحلال تدب فيه مثل الشعب الأثيني؟ ومن يمنع بائع السجؤ من أن يصل إلى كرسي الوزارة ليتحكم في أعناق السراة من النبلاء وأساتذة الجامعة ومسرح الأكروبوليس فيتصرف فيهم كأنهم عبيد أبيه أو قطعان الماشية يسيمها حيث يشاء!
هذا وينبغي أن نرجع إلى الوراء قليلاً لنعرف ماذا نشب من المعارك بين أرستوفان وبين كليون قبل نظمه لفرسان سنة 424 ق. م فإن تاريخ العداوة بين الرجلين يرتد إلى ما قبل ذلك، حينما تقدم أرستوفان بملهاته (البابليون) - وهي ما تزال ضائعة إلى اليوم - للمباراة العامة في الشعر الكوميدي في عيد باخوس الصيفي (الديونيزيا) سنة 426، وهو العيد الذي كان يحضره أحلاف أثينا من كل صوب ليشاركوا الأثينيين أفراحهم، فكانت هذه الملهاة مما شاهدوا، وفيها صور أرستوفان أحلاف أثينا عصبة من العبيد الأرقاء يجرون طاحونا ثقيلاً لديموس (جون بول أثينا!) وكان صارماً إلى آخر حدود الصرامة في حملته على النظام الديمقراطي السائد الذي كانت تهيمن بوساطته عصبة بعينها من الزعماء على مقاليد الحكم فلا تريم عنها ولا تستطيع فئة أخرى أن تحل فيه محلها ما دامت الأكثرية - والأكثرية دائماً هم الغوغاء - مؤيدة للفئة الأولى.
كان أرستوفان عنيفاً إلى غاية حدود العنف في هذه الملهاة المفقودة، وقد استطاع أن يفضح كليون وزبانيته فضيحة قهقه لها الأحلاف من وراء أشداقهم، وإن صورهم في هذه الصورة المزرية الشائنة التي خفف من مرارتها في نفوسهم ما شاهدوا من تصويره لرجال الحكم وعلى رأسهم كليون الهائل. . فلما عاد الأحلاف بعد انتهاء حفلات الديونيزيا، أمر كليون فقبض على أرستوفان وحوكم من أجل ملهاته تلك بتهمة الخيانة العظمى، لأنه فضح الدولة وأهان أحلافها، وصنع ذلك في غير تورع ولا احتشام في عيد ديني قومي!
ولسنا ندري ماذا كان الحكم الذي أصدره القضاة على أرستوفان. ويبدو أنه لم يتعد الغرامة أو التوبيخ، ونستنتج ذلك مما صنع أرستوفان في العام التالي حينما تقدم إلى المباراة الكوميدية في عيد الربع الـ (ليناي) سنة 425 - أي بعد محاكمته بتسعة أو ثمانية أشهر تقريباً - بملهاته الـ أخارنيين - وهي أقدم ما حفظت لنا يد العفاء من كوميديات أرستوفان - وفيها يعتذر للجمهور عما وقع فيه من إهانة الحكومة وتحقير الحكام في ملهاته سالفة. . ولو أنه كان قد حكم عليه بحكم شديد أو يتعدى الغرامة أو التوبيخ لما استطاع في مثل هذه السرعة أن ينظم ملهاته الجديدة، ويحتفظ فيها بثباته وبراعة نكتته، ولما تناول فيها شخصية كليون أيضاً بشيء من التهكم اللاذع، وإن يكن هذه المرة قد بدا رفيقاً بالطاغية الجبار، فكان يسخر منه حينما يفعل ذلك في حيطة وحذر وحساب شديد
وكأنما ضايق أرستوفان أن يقف مكتوفاً هكذا لأن كليون يخفيه، ففرج عن نفسه بمهاجمة شخص آخر هو لا ماخوس، ثم شخص ثالث هو خصمه الأكبر يوريبيدز الذي يسلقه هنا بلسان حديد، ويعزو إليه إتلاف روح أثينا! وقد عجب الشاعر الكوميدي المعاصر لهذا التحرش المستمر من أرستوفان بيوريبيدز، وكان مما لاحظه أن أرستوفان ينسج على منوال خصمه ولكن في ميدان الكوميديا، فكأنما كوميدياته هي معارضات لدرامات يوريبيدز. ومن أجل هذا اخترع كراتينوس اللفظة التي نحتها من اسمي الشاعرين للإشارة إلى تقليد أرستوفان لخصمه، وهي كما ننحت نحن في العربية بعض الكلمات التي تدل على عبارة من نحو يحوقل أي يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، ويحيمل من قوله حي على الصلاة الخ.
وملهاة الآخارنيين هي ملهاة نظمها أرستوفان من أجل الدعوة إلى السلام خلال حروب البلوبونيز (المورة)، وبطلها دِسيوبوليس هو مواطن أتيكي ساذج لكنه مقاحم ذكي ثاقب الفكر، وقد اضطر أمام جيوش الغزاة الإسبرطيين الذين اقتحموا قرى أتيكا إلى الفرار إلى أثينا ليلوذ بأسوارها. . وهنا تثور ذكريات الريف الجميل الهادئ الفطري بخلد الرجل، فيأسف على العيش الساكن البسيط، وأويقات الصفاء في حقول أتيكا فيتمنى على أرباب الأولمب أن تنشر ألوية السلام على ربوع الوطن لتعود مياه الحياة

إلى مجاريها. . . وتتسلسل وقائع الكوميديا فينعقد مجلس الدولة ويشتد الجدل، ويشتط الزعماء فيقسمون ألا
يكون سلام حتى ولو تنزل إله من السموات يأمرهم به!. . . على أن الأمر ينتهي بعقد الهدنة لمدة ثلاثين سنة فيعود دسيوبوليس جذلان فرحاً إلى ريفه الجميل، ويتمتع الناس بسلم طويل يفيقون فيه من أهوال الحرب التي جرتها الديمقراطية - أو جرها زعماء الديمقراطية المستبدون - على الوطن الحزين المسكين.
ولما كان أرستوفان يحس ما يلقاه الأتيكيون من أهوال حرب المورة؛ فقد استمر يدعو إلى السلام في كثير من كوميدياته ففي سنة 421 تقدم بملهاته (السلام) التي جاءت آية من آياته. . . وهي ملهاة خيالية يصور فيها رحلة فلاح أثيني على ظهر خنفساء (!) إلى السماء ينشد السلم ثمة، لأنه سئم الحرب وضج من أهوالها! ولشدة حيرة الفلاح يجد أن الآلهة قد ذهبت في السماء صعداً لأنها هي الأخرى قد نفرت من الناس واشمأزت مما تقترفه أيديهم من قتل بعضهم لبعض ومن سفكهم الدماء بغير الحق، ويجد الفلاح أن الآلهة قد أظهرت شبح الحرب على شعاف الأولمب في حين أنها قد خبأت طيف السلام في كهف هناك سحيق، فيجره ويعود به إلى الأرض، وفي ركابه طيف العيد وطيف المحصول وهما عروسان جميلتان، فيتزوج عروس المحصول ويدخل بها على نغم عروس العيد وغنائها.

دريثي خشبة
في بلاط الخلفاء
بين الشعبي وعبد الملك
للأستاذ علي الجندي

قضى عبد الملك بن مروان شطراً من خلافته في رتق ألفتوق وسدِّ الثُّلم والقضاء على منافسيه والخوارج عليه، فبلغ من ذلك ما أراد بعد أن خاض أهوالاً تشيب لها ناصية الطفل، واضطلع بأعباء تنوء بها الجبال، فعدّ بحق رجل الأمويين، ومر بي ملكهم ومؤثّل دولتهم. ولم يَعْد الصواب من وازن بينه وبين معاوية فقال: معاوية احلم، وعبد الملك أحزم. ولم يَعْل عبد الملك في وصف نفسه من خطبة له: أيها الناس، والله ما أنا بالخليفة المستضعف (عثمان)، ولا بالخليفة المداهن (معاوية)، ولا بالخليفة المأفون (يزيد)؛ فمن قال برأسه كذا، قلنا بسيفنا كذا!
والآن تحتويه دمشق الفيحاء، وقد اتسق له الأمر، وصافحه الإقبال، ونفض عن كاهله غبار الحروب، وتكفل له طاغية ثقف وجبّار العرب بقمع أهل الفساد والشَّغب، والضرب على يد الأسود والأحمر على السواء! فكيف يقضي أوقات الفراغ التي انفسحت أمامه؟ وبأي الوسائل يروّح نفسه، ويدخل عليها البهجة والمسرة؟
لم يكن عبد الملك مُعَنًّى بالنساء، ولا منهوماً بالشراب، ولا مستهتراً بالسماع، ولا موكلا بالصيد والقنص، حتى يلتمس المتعة في ذلك؛ ولكنه كان الخليفة جاداً زَميتاً وقوراً. وكان قبل الخلافة أزهد شباب قريش وأورعهم حتى لقّب بحمامة المسجد، كما كان يُقْرن في الفقه بسعيد بن المسيّب. أما روايته للأخبار، وحفظه للشعر، وبصره بالنقد وذرابة لسانه وسحر منطقه، وثقوب ذهنه، ووثاقة عقله، فقد أربى من ذلك على الغاية، ولعل التاريخ الأدبي لم يعن بالتحدث عن خليفة في الإسلام عنايته بعبد الملك والرشيد
فنٌّ واحد من اللذات إذن يمكن أن يستهوي هذا الخليفة العالم الأديب، ويساوق طبيعته السامية. فن لا يقدره قدره إلا أصحاب المواهب المصقولة، والحسّ المرهف، والعقل المثقف، والذوق السليم، وهو محادثة الرجال ذوي العقول ومجاذبتهم طرائف الأخبار وبدائع الأسمار
وقد نوه الحكماء بهذه المتعة العقلية الرفيعة، فقالوا: محادثة الرجال تلقيح لألبابها. وأشاد بها
ابن الرومي في شعره حيث يقول:
ولقد سئمت مآربي ... فكأنّ أطيَبها خبيثُ
إلا الحديث فإنه ... مثل اسمه أبداً حديثُ
وفي الحق أن عبد الملك ليس أول من طلب هذه اللذة ولا آخر من رغب فيها، فقد قال قبله معاوية: أصبْت من النساء حتى ما أفرق بين امرأة وحائط، وأكلت الطعام

حتى لا أجد ما أستمرئه، وشربت الأشربة حتى رجعت إلى الماء، وركبت المطايا حتى اخترت نعلي، ولبثت الثياب حتى اخترت البياض، فما بقي من اللذات ما تتوق إليه نفسي إلا محادثة أخ كريم

وقال بعده سليمان بن عبد الملك: قد ركبت الفارة، وتبطنت الحسناء، ولبست اللين حتى استخشنته، وأكلت الطيب حتى أجِمته، فما أنا اليوم إلى شيء أحوج مني إلى جليس يضع عنى مئونة التحفظ. إلى غير ذلك من الأقوال التي ملئت بها كتب التاريخ والأدب

لم يكد عبد الملك تهيج في نفسه هذه الرغبة حتى دعا بدواة وقرطاس، وكتب إلى عامله الحجاج بالعراقيين: إنه لم يبق لي من الدنيا لذة إلا مناقلة الإخوان الأحاديث، وقِبَلك عامر الشعبي فابعث به إلى يحدثني. وفي بعض الروايات أنه كتب إليه: أن ابعث لي رجلاً يصلح للدين والدنيا أتخذه سميراً وجليساً. فقال الحجاج: ماله إلى الشعبي

وسواء أكان الاختيار وقع على الشعبي من عبد الملك أم من الحجاج، فأنه لم يقع اعتباطاً ولا جاء مصادفة. فقد كان الشعبي نادرة الدنيا وفقيه العراق.

يقول الشعبي عن نفسه: دخلت إلى الحجاج حين قدم الكوفة، فسألني عن اسمي فأخبرته. ثم قال لي: يا شعبي كيف علمك بكتاب الله؟ قلت: عني يؤخذ! قال: كيف علمك بالفرائض؟ قلت: إلي فيها المنتهى! قال: كيف علمك بأنساب الناس؟ قلت: أنا الفيصل فيها! قال: كيف علمك بالشعر؟ قلت: أنا ديوانه! قال: لله أبوك! وفرض لي أموالاً وسوّدني على قومي. فدخلت عليه وأنا صعلوك من صعاليك همدان، وخرجت وأنا سيدهم.

وقد بلغ من سعة معارفه أنه كان يقول: ما حدثت بحديث مرتين إنساناً بعينه! ومع أن الشعر أقل بضاعتي فإني أستطيع أن أنشد شهراً كاملاً لا أفرغ منه.

وكان ظريف اللسان، بديع المنطق، ساحر الحديث، بارع المفاوضة، إذا تكلم لا يكاد يسمع

غيره لخلابة قوله وعذوبته!

وكان خفيف الروح، رقيق الحاشية، سلس الطبع، لطيف المزاج، فاشي الدُّعابة، سريع الجواب، حاضر البديهة. سئل مرة عن لحم الشيطان فقال: نحن نرضى منه بالكفاف! وسئل أخرى عن أسم امرأة إبليس. فقال: هذا زواج ما شهدناه! وقال له رجل: ما تقول في الذباب؟ فقال إن اشتهيته فكله!

ويريه مصعب بن الزبير زوجه عائشة بنت طلحة ملكة الجمال في عصرها، ويصله ببدرة، وتخت ثياب، وقارورة غالية، فيقول له الناس: يا شعبي، كيف الحال؟ فيقول: وكيف حال من صدر عن الأمير ببدرة وثياب وغالية، وبنظرة من وجه عائشة! إلى غير ذلك من الملح والطرائف والأجوبة الحسان التي تكشف عن ظرف الرجل وسجاحة خلقه ورقة شمائله

ولكن هذه السمات إن وجدت في الشعبي، فلن تُعدم في غيره، فما السر في اختياره بالذات؟ السر عندي أن الشعبي كان يمثل في عصره ما يصح أن نسميه (الدبلوماسية الدينية)، فقد كان هذا الإمام - على فقهه وورعه وتقاه - لّين المجسة، مرن التفكير، رحب الأفق، طَبّا بأسرار التشريع، يتحامى التعسير والتنفير، ويأوي إلى الجانب الظليل من الحنيفية السمحة البيضاء. كان يتساهل في السماع، ويتشدد فيه ابن سيرين؛ وكان يرى التقية والتورية، ولا يراها سعيد بن جبير، فنجا الشعبي من سيف الحجاج وقتل به سعيد! وكان يجنح في إفتائه إلى الأرفق الأهون على الولاة، ويأخذهم الحسن البصري بالعسْر والشدة. فهرب الحسن من وجه الحجاج، وقرّ الشعبي آمناً مطمئناً

هذه (الدبلوماسية) هي التي جعلت الشعبي أثيراً لدى الخلفاء هذا العصر وأمرائه وولاته - على اختلاف منازعهم الدينية والسياسية - من مصعب بن الزبير، إلى ابن الأشعث، إلى الحجاج، إلى عبد الملك بن مروان؛ وهي التي رشحته أخيراً لأن يكون سميراً للخليفة، وبعبارة أدق خلعت عليه وصف (الجليس الممتع).

ولم يقصر أهل الظرف في تعريف هذا الجليس فقالوا: أمتع الإخوان مجلساً، وأكرمهم عشرة، وأشدهم حذقاً، وأنبههم نفساً، من لم يكن بالشاطر المتفتك، ولا الزاهد المتنسك، ولا الماجن المتظرف، ولا العابد المتقشف، ولكن كما قال الشاعر:

يا هند هل لك في شيخ فتى أبدا ... وهل يكون شباب غير فتيان
وهأنت ترى أن هذا التعريف ينطبق على الشعبي كل الانطباق
دعا الحجاج بالشعبي وأفضى إليه برغبة أمير المؤمنين، فوقع منه ذلك بموقع، فبالغ في شكر الأمير وأطال الدعاء للخليفة
وقد جهزه الحجاج بجهاز حسن، وأنفذ معه كتاباً إلى عبد الملك يثني عليه فيه. وسار الشعبي حتى بلغ دمشق، ووقف بسدةِ الأذن، وقال للحاجب: استأذن لي في الدخول على أمير المؤمنين. وكان الحاجب اقتحمته عينه لنحوله وقماءته، فقال: ومن تكون أنت؟ فقال: عامر الشعبي. فقال الحاجب: حياك الله يا فقيه العراق! ووثب عن كرسيه وأجلسه عليه، ودخل مسرعاً إلى الخليفة، ولم يلبث أن خرج ودعاه إلى الدخول في رفق وأدب
ودخل الشعبي حتى إذا واجه عبد الملك سلم عليه بالخلافة فرد عليه السلام وهش له وبش به! وأومأ إليه بقضيب في يده أن اجلس. فجلس على يساره
وعبرت فترة أطرق فيها عبد الملك عابساً متجهماً! ومن الآداب السلطانية المأثورة أن الملك إذا حضره سُمَّاره ومحدثوه لا يحرك أحد منهم شفتيه مبتدئاً. ولم يكن الشعبي يجهل ذلك، بل لا يجهل أن عبد الملك أول خليفة منع الناس من الكلام، وتقدم فيه وتوعد عليه. ولكن اعتداد الشعبي بنفسه، وإدلاله بمنزلته من الخليفة، وتعجله إدخال السرور عليه دعاه أن يسأل غير محتشم: ما بال أمير المؤمنين؟ فرفع عبد الملك رأسه إليه - متجاوزاً عن هفوته - وقال ذكرت يا شعبي قول زهير:
كأني وقد جاوزت سبعين حجة ... خلعت بها عني عذار لجامي
رمتني بنات الدهر من حيث لا أرى ... فكيف بمن يُرْمي وليس برامي
ولو أنني أرْمي بنبل رميتها ... ولكنني أرمي بغير سهام
على الراحتين مرة وعلى العصا ... أنوء ثلاثاً بعدهن قيامي
وبهذا الكلام وجد الشعبي مجاله الذي يصول فيه ويجول، فهز رأسه قائلاً: ليس الشأن كما قال زهير يا أمير المؤمنين، ولكن كما قال لبيد:
كأني وقد جاوزت سبعين حجة ... خلعت بها عن منكبيّ ردائيا
ولما بلغ سبعاً وسبعين قال:
باتت تَشكّي أليَّ النفس مُوهنة ... وقد حملتك سبعاً بعد سبعينا
فإن تُزادي ثلاثاً تبلغي أملاً ... وفي الثلاث وفاء للثمانينا
ولما بلغ تسعين سنة قال:
ولقد سئمت من الحياة وطولها ... وسؤال هذا الناس كيف لبيد؟
ولما بلغ عشراً ومائة سنة قال:
أليس ورائي إن تراخت منيّتي ... لزوم العصا تُحْنى عليها الأصابع
أخبّر أخبار القرون التي مضت ... أنوء كأني كلّما قمت واقع
ولما بلغ ثلاثين ومائة سنة وحضرته الوفاة قال:
تَمنَّى ابنتاي أن يعيش أبوهما ... وهل أنا إلا من ربيعه أو مضرْ
فقوما فقولا بالذي تعلمانه ... ولا تخمشا وجهاً ولا تحلقا شعَر
وقولا هو المرء الذي لا صديقه ... أضاع، ولا خان الخليل ولا غدر
إلى سَنةٍ ثم السلام عليكما ... ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر
فشاع السرور في وجه عبد الملك رجاء أن يبلغ من العمر ما بلغ لبيد.
(البقية في العدد القادم)
علي الجندي
صورة وصفية
. . .صديقي بِشْر
للأستاذ محمود تيمور بك
تلقيت يوماً دعوة من إحدى الهيئات العلمية، ولا أدري متى جرى ذلك على وجه التحقيق. وكانت الدعوة لسماع محاضرة لغوية لبحّاثة معروف، سمعت به؛ ولكني لم أره بعد.
فذهبت، وقد تخليتُ لهذا المحاضر صورة تتفق مع موضوع محاضرته. . . رجلاً أشرف على الخمسين، بشارب مهدَّل، وعينين مجهودتين، وصوت متآكل. فما كدت أستقر في

مكاني من القاعة وأرفع بصري إلى المحاضر، وقد اعتلى منصة الخطابة، وبدأ يلقي محاضرته، حتى طالعَتْني صورة أدهشتْني جد الدهشة. رأيتُني أمام فتى كله شباب وحيوية، بعينين تلمعان ذكاءً؛ له وجه صبيح، بشارب طرير مشذَّب على الطريقة الفرنسية، وقوام إغريقيّ يذكِّرنا بتماثيل (براكسيتيل)!

فتشككت في الأمر؛ وحسبت أنه قد جد تغيير في المحاضرة والمحاضر، وانحنيت على زميل بجواري أتبين منه حقيقة الحال. فأكد لي أن المتكلم هو الدكتور بشر فارس نفسه!

ورحت أستمع، فإذا بالمحاضر يلقي بحثه بصوت جيل النبرات، في لهجة فصيحة، تتوضح فيها دقة في الأداء، وحسن اختيار لمواقف الجمل، وحرص على سلامة مخارج الحروف. كل ذلك في اتساق وانسجام كاتساق النغمات وانسجامها في اللحن الفني البارع!

واتسعت مسالك البحث وتشعبت، بيد أن المحاضر كان قابضاً على زمام موضوعه قبضة جبار، يديره في حنكة، إدارة الربان الماهر لباخرته وسط العباب الصاخب. . . حتى انتهى به أخيراً إلى شاطئ السلام!

منذ ذلك اليوم عرفت الدكتور بشر، وما أسرع أن توثقت صلاتي به!. . فتجلت لي فيه شخصية أخرى غير شخصية ذلك العالم المتحقق - تلك شخصية الصديق الودود المرح. فالابتسامة اللطيفة التي طالما انقلبت إلى ضحكة عابثة لا تفارق ثغره، والنكتة المصرية اللبقة تظل محلقة في سماء مجلسه. وقد يمضي في حديثه الطريف، فلا يكاد يروي لك أخباره عن باريس، ما شاهده في دور العلم بها، ما لقيه في مغاني عبثها ولهوها، حتى ينتقل بك إلى قهوة (الفيشاوي)، ومطعم (الحلوجي)، فيحدثك عن الشاي الأخضر، وصحاف الفاخرة تحيط بها أصناف المشهيات. . . ومن ثمَّ يختفي أمامك العالم (الطعمية) الجهبذ، ليحل مكانه (ابن البلد) الوجيه العريق في المصرية، فلا يعوزه إلا (اللائة) يديرها على رأسه، فينطلق في مسارح (سيدنا الحسين) يلوح في يمينه بعصا الفتُوَّة!!

والحق أن جلسة واحدة مع الدكتور بشر تريح الأعصاب، وتملأ القلب من إيناس، وتحوّل نظر المرء إلى ناحية الرفَّافة الجميلة في الحياة. . .

صاحَبَنَا الدكتور بشر وقتاً، ثم طلبناه حيناً فلم يجده، فكأنه (فص ملح وداب) كما يقولون. . ثم عاد إلى الظهور، ولكن في فترات متقطعة نادرة. كنا نراه اتفاقاً في الطريق مهرولاً لا يقر له قرار، وهو محاط بشرذمة من النجارين والحدادين والطلاَّئين. فإذا ما استوقفناه، فسألناه عن سبب غيبته، أشار إلى مرافقيه، وقال وهو يتأفف في لهفة المكدود: ألا ترون أني مشغول؟! ويتابع سيره في عجلة واهتمام، وقد اشتبك مع صُنَّاعة في مناقشة حادة. . . فلا نشك لحظة في أنه ودَّع العلم والأدب والتحق بزمرة المقاولين!

وبينما كنا في مجلس نذكر صديقنا بِشراً بالخير، ونأسف لتوديعه الأدب؛ إذا به يفاجئنا بدعوة ظريفة إلى مسكنه الجديد في (جاردن ستي). فقمنا من ساعتنا إليه، فوجدنا أنفسنا في متحف فنيّ، كل ما فيه يشف عن ذوق سليم غاية في السموّ وجعل صاحب الدار يمر بنا في مقاصير المسكن وقاعاته المنشأة على أحسن طراز، ويقف بنا أمام تحفه واحدة بعد أخرى، وهو يشرح لنا تاريخها وقيمتها شرح خبير. فهنا صورة طريفة محلاَّة بإمضاء فنان، وهنالك صحفة من الفن الصيني الثمين يرجع تاريخ صُنعها إلى عهود غابرة، ترى بجوارها مقعداً لطيفاً على شكل رَحْل من رحال الجِمال. . . وفي ركن من أركان الغرفة يقوم ذلك الرفّ الساذج البديع، يحتضن (تاييس) و (مدام بوفاري) و (أفروديت) وهن في أثوابهن الغالية الفاتنة!

ففطنا بعد لأي إلى سرِّ غيبة صديقنا، وطفقا نطوف معه ذلك (المزار) المبتكر. . . حيث يعبق في جوه عطر الفن، وتشمله روح الجمال!

طابَع الفن والجمال يسم. حياة الدكتور بشر بأكملها، يسم شخصه ومسكنه وتأليفه وكل أسباب عيشه. فإذا ما قرأت له مقالاً رأيته ألبس الفكرة العميقة والرأي الناضج ألفاظاً ينتقيها في حكمة، وينسقها في صبر وجلد، ثم ينضدها تنضيد العقد على صدر الحسناء!

فإذا لقيت شخصه، ألفيت أمامك شاباً أنيقاً يحسن كيف يلائم بين لون رباط الرقبة والقميص والحُلَّة، ليخرج منها صورة فنية طريفة. . .
ولصديق بشر شخصيتان: شخصية الأديب، وشخصية العالم، تتنازعانه على الدوام. . . ولا ندري آيتهما يقدر لها الفوز على الأخرى؟ فقد أصدر في العام الماضي مسرحيَّته الرمزية: (مفرق الطريق)، فتلألأت نجماً جديداً في سماء الأدب الرفيع.
وظهر له منذ أيام كتابه: (مباحث عربية)، فإذا هو سفر قد لا نغالي إذا قلنا إنه في طليعة الآثار العلميّة التي تمخض عنها العصر الحديث، من حيث دقة البحث، واستيعاب الموضوع، وحسن الصياغة، والبراعة في التنسيق والتنميق. كل ذلك على أحدث نهج علميّ خَطَّه علماء الاستشراق؟
ونحن اليوم نتتبع خطوات بشر فارس وهو يروح ويغدو، ينحت الصخر آناً في مفارز العلم، وينظم الزهر آناً في خمائل الأدب، ونتساءل في حيرة: إلى أي مدى يستطيع الصديق أن يحتفظ بشخصيتيه المستقلتين؟ وهل في الإمكان أن يجمع المرء بين الأدب والعلم، ولا يستشعر في دخيلة نفسه ذلك التنافر القائم بين هذين العنصرين النفيسين اللذين لا يهدأ لهما حال إلا إذا أخضع أحدهما زميله واستبعده؟!
وللدكتور بشر نواح خفية، لا يعرفها إلا أصدقاؤه الخلصاء. وإني لمذيع بعضها، وأمري إلى الله! فقد يحاسبني على إفشائها حساباً عسيراً!
إن صديقي بشراً - ولنخفض أصواتنا قليلاً - رجل ذوَّاقة في المآكل، واسع الاطلاع على ألوان الطعام، عظيم الخبرة في كل ما تزدان به الموائد. . . وإنها لمتعة حقاً حين تسمعه يحدثك عن صحاف الأطعمة المختلفة واحدة بعد أخرى؛ يروي لك - وعيناه تلمعان لمعان المرَق الشهي - كيف يشتري بنفسه الزبد الطازج، وينتقي عند الجزار أطايب اللحم؛ وكيف يقف أمام الفرن يجهز الصنف الذي يحب، ثم لا يلبث أن يأتي عليه ولَما يتمّ نضجه على النار، مقتفياً أثر المثل الصالح: خير البر عاجله!
ولصديقنا بشر جولات موفقة في مطاعم المدينة، فهو إذا دخل أحدهما لا يطلب القائمة، ولا يُعنَى بمكانة من المائدة؛ بل يطلب أن يدلوه فوراً على المطبخ. . . وثم يكشف عن القدور يتفحصها تفحص عارف، ثم يشير أخيراً إلى واحدة منها، فيحضرونها له بأكملها. . .
ويشمِّر الدكتور عن ساعد الجوع غير معني وقتئذٍ بأناقته، وينكبّ على القِدْر فيأتي - في لحظة خاطفة - على ما تعب الطاهي في صنعه ساعات طويلة!
وإني أنصح - نصيحة مجرب! - لمن أصيب في معدته، ويرغب في دواء ناجع لإصلاحها أن يأتي بالدكتور بشر عن يمينه وزكي طليمات عن يساره، ثم يراقبهما هنيهة وهما يتناضلان في معركة القدور كرّاً وفرّاً. . . فإنه لا يعتم أن يشعر بمعدته تتصايح في ثورة جامحة، وإذا به ينطلق هو أيضاً في صحاف الطعام يفتك بما فيها فتك مغوار!

محمود تيمور

من مذكرات بلنت

صفحات مجهولة من حياة الأمام محمد عبده

(مقتطفات من يوميات نشرها في إنجلترا أخيراً ورثة مستر ويلفريد بلنت، صديق مصر ومحامي زعماء الثورة العرابية، عن حوادث جرت في مصر والشرق العربي بين سنة 1888 وسنة 1914).

(وقد خص صديقه الحميم الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية بالشيء الكثير من هذه المذكرات، ودون فيها ما كان يدور بينما من الأحاديث والمناقشات حول السياسة والعلم والدين)

(وهذه المذكرات تلقي الضوء ساطعاً على جانب من أفكار الشيخ محمد عبده وحياته الخاصة وعلاقته بالخديو وصداقته للفيلسوف هربت سبنسر).

مارس سنة1891:

حضر عندي صباحاً الأستاذ المفتي محمد عبده، وجلس معي ساعتين تقريباً، تحدثنا فيهما شتى الأحاديث. وكان قد بعث إلى بالنسخة التي أهديت إليه من كتاب بتلر: (فتح العرب لمصر) فشرحت له محتويات الكتاب لأنه لا يعرف اللغة الإنجليزية. ثم تناقشنا في المسألة الخاصة بنظرية المؤلف من أن المقوقس هو (سيرس) بَطْريق الإسكندرية. فذكر الشيخ عبده أن هذه النظرية خطأ. وعنده أن (المقوقس) قبطي،

وأنه حاكم منفيس، وأن جماعة القبط في ذلك الوقت رحبوا بالفاتحين العرب ليخلصوهم من ظلم الرومان. وإلا فكيف أتيح للقبط أن ينالوا من عمرو بن العاص ما نالوه من امتيازات وعهود طيبة وحكم ذاتي تمتعوا به عصوراً متتالية؟ وفي رأيه أن الحروب الصليبية، وبالأخص هجوم الصليبيين على مصر هو الذي القبط موضع الاضطهاد بسبب انهم أنهم أعلنوا هواهم في جانب الصليبين.

ودار الحديث على ما يجري الآن من الأمور السياسية في الآستانة، فذكر الشيخ عبده أن الخديو عباس حلمي على علاقات سيئة مع السلطان، وأنه قوبل في الآستانة هذا الصيف مقابلة فاترة، وأن السلطان عبد الحميد امتنع أولاً عن مقابلته إلى أن أخذوا عليه تعهداً بالا يفاتحه في مشكلة جزيرة طشيوز. والمسألة هي أن الجزيرة ملك للخديو بالميراث، ولكنها من أملاك الدولة العلية. وأن الخديو لما فرض على سكانها الضرائب بعثوا بشكايتهم إلى

الحضرة السلطانية، فأرسلت الحضرة الجنود ليقيموا فيها استناداً إلى تلك الشكايات. أما الخديو فهو يريد أن تخلي الجزيرة من الحامية العسكرية، ولكن رجال المابين لم يصغوا إلى نظريته

وذكر أيضاً أن الخديو لآن تحت تأثير سيدة مجربة هي حظيته. وقد كانت معه في حادث العربة التي وقعت لهما أخيراً وهما عائدان من (الدار البيضاء) في طريق السويس إذ نشبت عجلات العربة في الرمال. وكان جزاء الخفراء الذين توانوا عن تقديم المساعدة المحاكمة والحبس مع الشغل مدة أسبوع. وقد رفع ذلك الحادث إلى دار الوكالة البريطانية، وقامت بسببه مشاحنات حادة بين العميد وبين الخديو.

ثم تكلمنا - والحديث ذو شون - عن مدحت باشا، وفترة حكم السلطان عبد العزيز. ومن رأى الشيخ عبده أن وفاة السلطان عبد العزيز لم تخرج عن كونها حادث انتحار، وهو ما أخبرني به الدكتور ديكونس في غضون عام 1884.

أما مدحت باشا فأسر إلى كيفية معاملته في (الطائف)؛ وأنهم يحرمونهم من الغذاء الكافي، ويقدمون إليه الخبز الجاف الخشن حتى كسرت أسنانه، ولا يسمح له بقضاء حاجته إلا في غرفته إلى أن مات من سوء المعاملة. ثم قطعت رأسه وأرسلت إلى الآستانة.

وينعت الشيخ عبده السلطان عبد الحميد بأنه (أكبر مجرم سفاك في هذا العصر). وإنها لكلمة قاسية يذكرها عالم ديني كبير عن خليفته.

مارس 1891

رفعت تقريراً إلى اللورد كرومر عن الإدارة المصرية وسوء حال الدولاب الحكومي، وشفعته باقتراح يتضمن تأليف وزارة من المصريين، هذه أسماؤهم بعد استشارة الشيخ عبده والمويلحى:

حسن باشا الشريعي، بليغ بك، أمين بك فكري، سعد أفندي زغلول، أحمد أفندي محمود، إبراهيم أفندي الوكيل، محمود بك شكري، أحمد بك حشمت، يوسف بك شوقي، الشيخ محمد عبده.

فبراير 1893

إن الشيخ عبده في جانب رياض باشا رئيس الحكومة. وفي اعتقاده أن رياض باشا برغم كونه مستبداً رجل شريف، وأنه أفضل من تجران وبطرس وأرتين، لأن هؤلاء كلهم مسيحيون لا يريدون خيراً بنشر روح التعليم الإسلامي. ومدح الشيخ عبده في أخلاق بعض الموظفين الإنجليز، ولكنه عاد فذم الطبقة الجديدة منهم، واستحسن تقربي من الخديو حتى أستطيع التأثير عليه. فيستعين برياض وبطبقة من الشبان المسلمين المتعلمين، ويقصى عنه الأرمن والمسيحيين. وذكر الشيخ عبده أخيراً: نحن لا يهمنا أن يبقى الإنجليز سنة أو اثنتين أو خمسة ما داموا سيشركوننا في الأمر؛ إلى أن يقوى حزب الفلاحين؛ ولكن إذا كانت هناك فكرة مبيتة بضم مصر، فإننا نقبل الاستبداد التركي الضعيف على ذلك الخسران المبين. فإن قمتم بالجلاء غداً فثق أننا جميعاً نفرح ونغتبط.

والواقع أن الشيخ عبده الآن أكثر المصريين ميلاً الإنجليز.

ديسمبر 1893

تغدى اليوم معنا الشيخ عبده. وذكر ضمن أن الشيخ حسونة النواوي هو الوحيد بين

هيئة العلماء الذي يصلح لأن يكون شيخاً للأزهر على أساس حر شريف.
نوفمبر 1894
تغدى معنا وحدثنا عن مقابلته الأخيرة للخديو واستمالته إياه نحو الأزهر. ثم عرض خلال الحديث إلى حادث قتل70 * 12 إسماعيل باشا المفتش وخنقه في إحدى السفن النهرية أمام جسر قصر النيل. وكذلك جرّنا الحديث إلى ما وقع لعلي باشا، شريف وابتياعه بعض الجواري والعبيد. وتناولنا نوبار باشا، وكيف يستعين بمركزه في الوزارة، ونفوذه ليشتغل بالأعمال المالية ويستفيد منها.
نوفمبر 1895
قابلت كرومر اليوم وتحدثنا في شؤون مختلفة، فأخبرني الشيخ عبده أن قد يصدر الأمر بتعينه مديراً للأوقاف، فاستحسنت ذلك التعيين بكل جوارحي.
مارس 1898
زارني الشيخ عبده وأقام عندي فترة طويلة، ودعني فيها بمناسبة أوبتي إلى إنجلترا. والواقع أنني أغادر هذا البلد الطيب وأنا مريض، وقد مللت الحياة، وكنت على وشك أن أعتنق الإسلام، ولكنني أنظر إلى الإسلام بنفس العين التي أنظر بها إلى المسيحية.
5 ديسمبر 1899
ليس بين جميع الشرقيين، بل بين جميع الرجال صديق أعظم لي من الشيخ عبده. وهاهو يعود بعد أن سجن لإرادته الحرة وأفكاره الجريئة؛ وبعد أن نفي عام 1882 فيعترف لي بقضيته. والحق أنه أقدر رجال مصر وأشرفهم وأنبلهم، وهو يشتغل الآن منصب مفتى الديار المصرية. وقد أهديت إليه منذ سنوات قطعة من أرضي في عين شمس تبلغ مساحتها فداناً، فبنى عليه داراً قروية، وصار أقرب جار لنا.
يناير 1900
تحادثنا ملياً عما فعله كتشنر برأس المهدي في السودان، واتفقنا على أن الله هو وحده المنتقم الجبار من هذه الأفعال الإجرامية التي سوف تصل بالإمبراطورية إلى الانهيار الذي وصلت إليه غيرها من الأمم
28 يناير 1900
كان حديثنا الليلة يتناول الإنسانية ومعاملة القوي للضعيف، فألفيته من المتشائمين مثلي. فقال: إنه كان يتلو التوراة من أيام فرأى أن الفظائع والوحشية التي جاءت على يد المسيحية جاءتها من صلتها باليهودية. وذكر أحاديث نبوية كثيرة عن معاملة الحيوان الأعجم بالرأفة والمحبة. وأن قتل العجماوات هو ضد عقيدة المسلم وشعوره، ولكنها ليست كذلك بالنسبة للمسيحية. وهو لا يؤمل خيراً في مستقبل البشرية. وإني لأخشى أن يكون ضعيف الإيمان بأثر الإسلام برغم أنه المفتى الأكبر، مثل ما عندي من ضعف الإيمان بأثر الكنيسة الكاثوليكية.
أكتوبر 1901
أثناء حديث الصباح جاء ذكر (عرابي) بمناسبة رجوعه من النفي إلى وطنه. فأخذه عليه الشيخ عبده الحديث الذي صرح به لمكاتبي الصحف قبل أن يقف على حقائق الأمور، وبالأخص تصريحه أن كل شيء عمله الإنجليز في مصر طبيب.
24 أكتوبر 1901
كانت اليوم أول مقابلة جرت بين عرابي وعلي فهمي وبين الشيخ عبده فتعانقوا عناقاً حاراً وتناول حديثهم ذكريات العصر الماضي ومواقف رجال العصر.
(البقية في العدد القادم)
محمد أمين حسونة
أسرار حياة بلاد العرب السعيدة
'
تأليف الكاتب الإيطالي سلفاتوري آبونتي
للأستاذ محمد عبد الله العمودي
يقسم الجغرافيون القدامى البلاد العربية من حيث التكوين الطبيعي وخصوبة الأرض إلى شطرين عظيمين: يمثل أولهما بلاد العرب الصحراوية وأطلقوا عليه وهو الجزء الشمالي من الجزيرة. والآخر بلاد العرب السعيدة وأسموه وعنوا به الجزء الجنوبي من الجزيرة بما يعرف اليوم باليمن وحضر موت، وما ناوحها من الكور والمخاليف

وهذا التقسيم ليس من مستحدثات هذا العصر، ولكنه يرتفع إلى عصر سحيق جداً؛ فمؤرخو الإغريق والرومان هم أقدم من كتب عن هذا القطر الخصيب، وأول من ابتدع هذا التعريف تفريقاً بين الإقليمين من حيث قوة الإنتاج وكرم الأرض وجمال التربة وأصبحت (بلاد العرب السعيدة) علماً مشهوراً على بلاد اليمن، وبقى هذا المفهوم بهذا الوضع اللفظي واحداً في سائر اللغات الأوربية مع تحريف بسيط في المقطع الثاني من الكلمة الأخيرة

وترجع شهرة هذا القطر الكريم من بلاد العرب إلى عصور متلاحقة في القدم حينما خط أولئك اليمانون على أمواج الدهور حضارات ومدنيات بلغت النهاية القصوى من الإبداع والازدهار والحيرة مازالت أسرارها بعيدة متفرقة في خفايا الدهور، ورمال الصحراء! وبالرغم من كثرة الرواد الذين اقتحموا هذه البلاد، وتغلغلوا في آفاق بعيدة مهمة منها، وأماطوا اللثام عن بعض أسرارها وخفاياها، فبلاد اليمن أو الجزء الجنوبي من بلاد العرب مازال لغزاً من الألغاز، وسراً استغلق فهمه على الأجيال، وسيبقى هكذا إلى أن يبدل الله أرضاً بأرض وأقواماً بأقوام!

هذا الجزء الخصيب من الجزيرة العربية يؤلف منذ أقدم العصور حتى أيامنا هذه سلسلة متلاحقة الحلقات، قائمة بنفسها لجماعات من الرواد الذين رادوا هذه البلاد فجاسوا خلال ديارها ونقبوا عن أطلالها، فكتبوا عنها تقارير ضافية، مبنية على صدق الملاحظة والاستنتاج الشخصي القائم على الخبرة والبصر

فأقدم من أرخ عن هذه البلاد وبقيت أخباره حتى أيامنا هذه مصدراً يعول عليه هو استرابو، ذلك العالم الإغريقي الذي عاش قبل الميلاد، فقد صور هذه البلاد (السعيدة) من جغرافيته في عبارات مشرقة لماحة الرواء رائعة التاريخ كبسمة من بسمات الدهر لهذه البلاد العريقة في القدم التي رماها الزمن بسهام صائبات في سكانها وحكامها، وقفنا على ما بلغته تلك البلاد من الشأو البعيد في مجتلي الحضارة، وبلَهْنية العيش حتى (إنهم ليحرقون الأعواد العطرية الفواحة في الوقود بدلاً من الأحطاب)

وجاءت القرون الوسطى وعصر النهضة، فتواكبت على البلاد العربية أفواج المستكشفين، مستهدفين لأخطارها، همهم الوحيد ارتياد صحاريها واستكشاف مجاهلها والوقوف على مواطن اللبان والمر والبخور وسائر الأطياب التي تفهق بها منحدرات جبال اليمن وشعاب حضرموت العميقة فوقفوا إلى أقصى حد

وإذا كان للإنجليز والألمان والفرنسيس مغامرون إلى هذه البلاد فالإيطاليون لا يقل حظهم عن هؤلاء في هذا المجال. وترجع صلتهم باليمن - الصلة العلمية البحتة - إلى العهد الذي قام فيه الرحالة الإيطالي المشهور (لودفيكيودي فرثمة) الذي يعتبر أول من راد بلاد اليمن من الفرنجة، وفتح لغيره باب المغامرات وذلك عام 1503م، وقد طبعت رحلته خمس مرات في روما والبندقية

ثم انعكست الآية، وظهر في اليمن قبل الحرب العامة إيطالي خطِر يدعى (لويجي كابرتّي) كان الجرثومة الأولى للفكرة الاستعمارية؛ وصفه ادوار غلازر بأنه (أحد أولئك الرجال الذين بنوا مجداً لأوطانهم) و (أول من فتح بلاد العرب للتجارة الإيطالية). وقد ظل في اليمن يعمل على بثّ فكرته حتى قضى نحبه في صنعاء ودفن بمقبرتها، وما زال قبره هناك يعرف بصليب عليه!

وخلفه في مسعاه أخ له يدعى يوسف، يعرفه اليمانيون لليوم (بسيدي يوسف الطلياني!) فكان ضغثاً على ابّالة . . .

أما في هذه السنين الأخيرة التي تحركت الأطماع المتوثبة في صدر إيطاليا الفاشستية فقد حفلت المكتبة الإيطالية اليمنية في هذه السنين بكتب نفيسة، وأسفار ما كتب الأخباريون مثلها حتى أصبحت بلاد اليمن وحياً لأقلام الإيطاليين دون غيرهم. ولقد كتبت في السنين

التالية كتب ومقالات وتقارير عجزت عن مثلها قرون مضت! ولولا الأنفاس الاستعمارية التي ترشح في هذه الكتب لكان الإيطاليون من أكثر الشعوب الأوربية التي أسدت فضلاً عظيما ومجهوداً جليلاً في خدمة التاريخ اليمني والتنويه بذكره في المؤلفات التي نشرها كل من المأسوف عليهما العلامة نللينو والسنيور غرِّيفيني مندوب الأمبروسيانا في ميلانو وغيرهم من الذين أفنوا أعمارهم وأحرقوا أدمغتهم في سبيل الثقافة العربية والتاريخ الإنساني العام. وكما وُجد منهم الخيّرون، وُجد منهم للفاشستية أنصار اتخذوا

من العلم سلاحاً يحققون به أغراضاً معينة، ويخدمون أطماعاً متوثبة نحو البلاد التي تشقى بوطأتهم. من هؤلاء السنيور سلفاتوري آبونتي صاحب هذا الكتاب الذي لا يمكن بحال من الأحوال - ونحن نعرض لكتابه هذا - أن نغمط حقه أو ننكر فضله، وما أضفاه من الأثواب الزاهية على تاريخ اليمن ونشره في أرجاء الغرب؛ كما ننكر عليه ذلك الأسلوب الاستعماري الصارخ الذي أسقط هذا الكتاب كمؤلف علمي بحت هذا الكتاب

هذا السفر الجليل الضخم طبعته ونشرته دار (موندا دوري) بميلانو في قرابة المائتي صفحة؛ محلى باثنتين وسبعين صورة تعد من أبدع الصور، منتزعة من صميم الحياة في سهل اليمن، تمثل الزعماء، والمدن، والقصور، والمعاقل، والجبال المغطاة بأشجار البن. . .

تبتدئ نقطة الرحيل والانطلاق إلى داخلية اليمن من ثغر عدن. ويحدثنا السنيور آبونتي بقصة طريفة قبل أن يبتدئ في مسيره، وذلك أنه عمد إلى صرة فملأها بنوع من العملة الفضية التي لا تزوج إلا في بلاد اليمن والحبشة: هذه العملة هي (ريال ماريا تريزا) أو (أبو طيرة)، وهو عبارة عن ريال ضخم حالك المنظر، قليل القيمة، محدود المنفعة؛ والإمام يحيى وشعبه لا يعرفون إلا هذا النوع من النقد ولا تروج عندهم الأوراق المالية مطلقاً!

ويبارح المؤلف أسوار عدن وينحو نحو الشمال، فتصافحه (أرض العبدلي) سلطنة لحج، فيراها غارقة في بحر من النخيل تحف بها بساتين العنب وأشجار الموز؛ وتبدو الحوطة عاصمة هذه السلطنة في منظر ساحر جذاب، ويزداد المرء إعجاباً بهذه الواحة الواسعة ذلك القصر العجيب المصبوب من المرمر الفاخر الناصع وقد فرشت على واجهته الأمامية

فوطة صفراء مكتوباً عليها بالحرف العريض - خوف الالتباس - هذه العبارة: (قصر السلطان عبد الكريم فضل بن علي محسن العبدلي!)

ويحدثنا المؤلف أن (العبدلي) يعيش في بلهنية من العيش وسمو في الحياة؛ يرجع إلى المرتب الضخم الذي يتقاضاه من الخزانة البريطانية إذ لا يهمه شيء في الحياة إلا العناية بقصوره وزخرفتها بضروب الزينات ثم الشغف العظيم بزرع المزروعات ونمو النباتات وإعطائها قسطاً عظيماً من عنايته واهتمامه. والإنكليز يعلمون منه هذا الميل فيتركونه يفعل ما يريد، لأن سلطنته تكون أهم جزء من المحميات علاوة على أنها موقع مهم يمكن موقع يمكّن الإنكليز من بسط نفوذهم إلى أعلى النجود اليمنية.

وينحدر المؤلف من سلطنة لحج، فيزهاه سهل (المخا) وقبل أن يضرب على أبواب المدينة (العالية!) تعترضه مدينة (تَعِز) وضواحيها، وهي عبارة عن تفاريق من الفراديس المصطنعة؛ مكّنت في سهل اليمن ولها منزلة خاصة في قلوب اليمنيين؛ فحوالي هذه المدينة ينبت أعظم (كيف) تترنح له أعطاف اليمنيين وتهفو له نفوسهم. هذا (الكيف) هو شجرة (القات) التي لعبت ومازالت تلعب دوراً خطراً في الحياة الاجتماعية اليمنية. ويحسن بنا أن نذكر العبارة البليغة التي وصف بها السنيور آبونتي هذه الشجرة الملعونة (ولا مؤاخذة أيها المواطنون!) فقد حللها تحليلاً كيماوياً استهلها بقوله:

منذ قرون خلت وسكان هذا الجزء السعيد من بلاد العرب يمضغ أوراق القات. وأول) ما عرف من أمره أن أحد الرعاة لاحظ أن إبله تمددت على وجه الأرض بعد أن أكلت من هذه الأوراق، وقد غمرتها نشوة من الراحة والانبساط، وسرت في مفاصلها تيّارات خفية أخمدت من حركتها، وشلت من عملها فأخذ يضربها ضرباً مبرحاً لتنهض وإذا بأتعابه تذهب سدى، والجمال أصبحت لا تحس بألم الضرب. فبهت من هذا الأمر الغريب ووقف ذاهلاً متحيراً لا يدري ماذا يصنع؛ وأخيراً بدا له أن يطعم هذه الورقة، فقطف منها شيئاً وصار يتناولها كل يوم وعند كل فراغ. ومن ذلك اليوم أقصيت الجمال (المسكينة) عن هذه الشجرة ووجدت لها مجالاً واسعاً إلى قلوب اليمنيين، فكان متعة نفوسهم في الأفراح والأتراح!

وليس في استطاعتنا تحديد طعم هذه الأغصان، ولكن يمكننا أن نعتبر طعمها حرِّيفاً مراً

يشبه شراب الكحول المشوب بالأفاويه وقد عبده اليمانيون عبادة مدهشة وتفانوا في محبته حتى أنهم ليصرفون في سبيله ما لا يصرفون في غذائهم الضروري وهم يمضغونه كل يوم في ساعات مختلفة من النهار؛ ولهم في طريقة جمعه حماسة غريبة؛ وتغمرهم في أثناء مضغه أمواج من الفرح والأنس، ويرون الدنيا به واسعة تشعُّ فيها ألوان مورّدة زاهية!

ويشعر الماضغ مبدئياً بنشوة مؤقتة، ولكن سرعان ما يعقبها ارتخاء في الأعضاء، وانحطاط في القوى، وهمود في العواطف يشبه التخدير. والإفراط فيه يسبب انقباضاً وميلاً دائماً إلى النوم. وآثاره لا تقف عند هذا الحد فقط، بل إنه يخمد الغريزة الجنسية، ويتسرب ماء الحياة من الرجل مختلطاً ببوله! وإذا بلغ الرجل دور الكهولة فقد فقد كل حيوية وانقطعت بينه وبين زوجه أسباب الاتصال!

ومع كل هذه الأضرار فاليمانيون لا يستطيعون أن يعيشوا في الوجود بدون قطف هذه الأوراق العجيبة! ومن الطبيعي أن هذا النبت الذي تنتجه اليمن لا يمكن أن يكون كله في مستوى واحد من القيمة والجودة. فالأغصان التي تنمو على منحدرات جبل صَبِر هي أفضلها وأجودها وقد كان لها في يوم ما ازدهار عظيم وسوق رائجة. . .

(يتبع)

محمد عبد الله العمودي

التاريخ في سير أبطاله

أحمد عرابي

أما آن للتاريخ أن ينصف هذا المصري الفلاح وأن يحدد له مكانه بين قواد حركتنا القومية؟

للأستاذ محمود خفيف

وخيل لشريف باشا أن الأزمة في طريقها إلى الحل، ولو أنه اطلع على الغيب لعلم أنها كانت تتضاعف ويشتد خطرها لتتخذ في النهاية وضعها الذي سوف يغير تاريخ هذه البلاد!

لمح الصائدون في هذه العاصفة الفرصة المرتقبة! وهيهات أن يضيع هؤلاء فرصة طال بهم انتظارها؛ الخلاف قائم بين الوزارة والمجلس فليعملوا على زيادة هذا الخلاف وليدفعوا بالخديو ليخطو أول خطوة بعد يوم عابدين ضد الحركة الوطنية فيخسر بذلك الوطنيين والعسكريين جميعاً، ويفقدوا هم الثقة فيه نهائياً، بينما هو يقرب بذلك من الأجانب أو على الأصح يزداد قرباً منهم

ولن يعدم الإنجليز وحلفاؤهم أن يخلقوا ألف مبرر لما يفعلون؛ ومن أيسر الأمور عليهم أن يعلنوا أن البلاد تشيع فيها الفوضى، وأن الأجانب ومصالحهم تكتنفهم الأخطار من كل صوب، وأن الخديو بات يخشى على عرشه ولا مخرج له مما هو فيه، بل ولا مخرج لمصر مما هي فيه من خلل وارتباك إلا أن يضرب على أيدي الثائرين المفسدين في الأرض

ومن غريب أمر هؤلاء الإنجليز أنهم بينهم وبين أنفسهم غيرهم بينهم وبين الشعوب الشرقية؛ فهم لا يقبلون من هذه الشعوب ما يعدونه عندهم من مفاخر الإنسانية، وأنهم ليرمون أهل هذه الشعوب بأشنع التهم وأقساها؛ فالتألم من المظالم التي تنصب على رؤوسهم تمرد، والسعي إلى الحرية فوضى وهمجية، والدفاع عن البلاد وذب الدخيل عنها وحشية وإجرام! على أن هذه هي سنة الحياة بين القوى والضعيف منذ كان الإنسان يتخذ سلاحه من الحجر وينحت مأواه في الجبل. . .

ولقد كانت الدولتان تعملان على الكيد للحركة الوطنية في مصر قبل انعقاد المجلس، وكانت بينهما مراسلات في هذا الصدد؛ فكانت فرنسا هي المحرضة هذه المرة. فرنسا التي كانت سياستها منذ فشل الحملة الفرنسية تدور على مناوأة النفوذ الإنجليزي في مصر!

ولي المسيو ليون غمبتا أمر وزارة الخارجية في فرنسا في شهر ديسمبر عام 1881، فسرعان ما اتصل بوزير خارجية إنجلترا اللورد جرانفيل محدثاً إياه في شأن مصر مبيناً له وجوب تضامن الدولتين في العمل إزاء ما يجري هناك من أمور

وحار جرانفيل أول الأمر ماذا يجيب به على هذه الدعوة، فهو إن قبلها أصبح مقيداً

بالعمل مع فرنسا، وان رفضها قطع على دولته الطريق وجعل لفرنسا المكان الأول في شؤون مصر وتلقى جرانفيل من مصر أنباء فاجرة مالت به إلى الطريق التي اختارها. كانت مشكلة ميزانية الجيش لا تزال قائمة بين عرابي والمراقبين، فأرجف المرجفون أن عرابياً يعتزم القيام بثورة جديدة لقلب وزارة شريف وتنصيب البارودي مكانه وكتب السير إدوارد مالت وهو رجل مسؤول إلى اللورد جرانفيل يشكو من تدخل عرابي ويتساءل في لهجة ساخطة برمة: كيف يستطيع شريف أن يرأس الحكومة مع وجود عرابي صاحب النفوذ الفعلي في البلاد؟ وهكذا يسمح هذا الرجل لنفسه أن يكذب فيرمي عرابياً بما هو برئ منه ولا يتورع بعد ذلك أن يكتب إلى رئيسه ينبئه بخضوع عرابي لرأي المراقبين، ولكن جرانفيل كان قد خطأ نحو فرنسا بناء على الأخبار الأولى خطوة لا يمكنه النكول بعدها.

وكتب كلفن كذلك إلى جرانفيل يقول: (والحقيقة أن الإدارة المصرية شركة ثلاثية، فإذا لم تكن الدول على استعداد لتعديل نصيبها فعليها أن تحافظ عليه وتقويه في هذا الوقت الذي أصبح فيه المصريون في حال تطور وانتقال). هذا عدا ما ذكره في تقريره عما يتوقعه من خطر إذا زيدت سلطة المجلس، وثبتت قواعد الدستور المصري

وكان مستر بلنت قد أرسل برنامج الحركة الوطنية إلى جريدة التيمس، وفيه أقوى حجة على براءة هذه الحركة من عناصر الثورة أو المساس بحقوق الأجانب المالية؛ وكان يأمل بلنت وأصدقاؤه من الوطنيين أن يكون لنشر هذا البرنامج أثره الحسن في نفس جرانفيل، ولكنه نشر في أول يناير سنة 1882 بعد أن نفذ السهم، فلقد وافقت إنجلترا على وجهة نظر فرنسا في يوم 31 ديسمبر أي عقب اجتماع المجلس بخمسة أيام

وخطا شريف باشا في تلك الأثناء خطوة حكيمة فأعلن بياناً يشير فيه إلى منهاج حكومته،

فذكر أنها تقوم على أساس الاعتراف بحقوق السلطان والامتيازات التي حصلت عليها مصر والاعتراف بالخديو كحاكم دستوري، والتسليم بقاعدة المراقبة الثنائية ثم إنكار كل اتجاه ثوري، منح الحرية الدينية والسياسية لجميع سكان البلاد والسير على قاعدة الحكومة المسؤولة أمام مجلس نيابي

ولن يكون في الإمكان يومئذ السير على منهاج خير من هذا المنهاج الحكيم الذي كان خليقاً أن يبعث الطمأنينة في نفوس الساسة من الدولتين؛ وكذلك لم يكن هناك برهان على حسن نيات الوطنيين أقوى مما نشرته التيمس لمستر بلنت وهو شاهد عدل من الإنجليز على المصريين

ولكن المسألة لم تكن مسالة اقتناع وإنما كانت نية مبيتة، وهيهات أن تجري الأمور في السياسة على الإقناع والاقتناع، فدوافع الأقوياء إلى العمل في ذلك المضمار أطماعهم وبرهانهم أسلحتهم، وما يكون الكلام إلا تعلة الضعيف. وما أشبه كلام الضعفاء مثل هذه المواقف بصراخ الفريسة قبل تمزيقها

ويذكر مستر بلنت في كتابه سبباً لانحياز إنجلترا إلى فرنسا؛ فيقول إن إنجلترا كانت تسعى إلى عقد معاهدة تجارية مع فرنسا فيها فائدة كبيرة للتجارة البريطانية؛ ومن أجل ذلك هاودت إنجلترا فرنسا وطاوعتها فيما تقترح في شؤون مصر فباعت إنجلترا بذلك مصر إلى فرنسا

وما نظن إنجلترا كانت من الغفلة بحيث تتنازل عن أغراضها في مصر من أجل مثل هاتيك المعاهدة التجارية، وإنما الذي نفهمه أن إنجلترا كانت تراوغ فرنسا لتفوز بهذه المعاهدة ثم تقف من فرنسا بعد ذلك فيما يتعلق بمصر موقف الاتفاق في الظاهر، بينما هي في الباطن تعمل وفق ما تمليه عليها أطماعها. ومما يؤيد ذلك التحفظ الذي أبدته أنجلترا وأقرته فرنسا ومؤداه: (أن الحكومة الإنجليزية يجب ألا تعد بسبب هذه المذكرة مقيدة بسلوك خطة عمل خاصة إذا ما بدا لها أن العمل ضروري)، ولسوف نرى من سياسة إنجلترا في مصر ما يؤيد ما نقول

تم الاتفاق بين الدولتين، وكان المجلس في مصر كما تقدم يخالف الوزارة في مسألة الميزانية، وكان العقلاء من الوطنيين يعملون على الخروج من المأزق بالحسنى، ولاحت

في أفق السياسة بوادر انكشاف الغمة

وما أشد ما نحسه من ألم وغيظ أن نذكر بعد ذلك أن البلاد ما لبثت أن تلقت من الدولتين في يوم 8 يناير سنة 1882 تلك الصيحة المشؤومة التي سميت بالمذكرة المشتركة، والتي قل أن نجد في التاريخ السياسي لا ولا في الخرافات التي تحكي للأطفال على مثال أوضح منها لتحكم القوى في الضعيف واستهتاره به في غير حياء أو تحرج، وحسبك أن تقرأ مثل هذا الكلام الذي بعثت به إنجلترا وفرنسا زعيمتا الحرية والديمقراطية! جاء في المذكرة: (أن الحكومتين الإنجليزية والفرنسية تريان أن بقاء سمو الخديو على العرش بالشروط التي قررتها الفرمانات السلطانية واعترفت بها الحكومتان رسمياً هو الضمانة الوحيدة في الحاضر والمستقبل لاستتباب النظام في مصر واطراد رخائها، وهما الأمران اللذان تهتم بهما فرنسا وبريطانيا العظمى. وأن الحكومتين اللتين اتفقتا اتفاقاً تاماً في عزمهما على أن تمنعا كل أسباب الارتباك الداخلية والخارجية التي يمكن أن تهدد النظام القائم بمصر، لا يداخلهما ريب في أن جهرهما بما عزمتا عليه رسمياً في هذا الأمر سيحول دون الأخطار التي قد تتعرض لها حكومة الخديو والتي لابد أن تقاومها فرنسا وإنجلترا معاً، وأن الحكومتين لتثقان بأن سموه سيستمد من هذا التأكيد ما يحتاج إليه من الثقة والقوة لتدبير شؤون بلده وشعبه)

وأي كلام يمكن أن يعبر عما تنطوي عليه هذه المذكرة من لؤم وفجور؟ ما معنى الإشارة إلى بقاء سمو الخديو على العرش؟ وما شأن الدولتين حتى تهتمان بهذا الأمر؟ وبأي حق تضطلعان بمنع أسباب الارتباكات الداخلية والخارجية؟ وعلى أي أساس يقوم ادعاؤهما وجود هذه الارتباكات؟ وكيف يجوز أن يعتمد الخديو عليهما ويستمد الثقة منهما؟

هذه هي المذكرة المشتركة التي أشار إليها بلنت بقوله: (هذه المذكرة المشؤومة التي يرجع إليها كل ما حدث من المتاعب في خلال ذلك العام والتي أفقدت مصر حريتها كما أفقدت غلادستون شرفه وأفقدت فرنسا نفوذها على جانبي النيل)

ولا تسل عما أحدثته هذه المذكرة الحمقاء من سوء الأثر في مصر لقد بلغ من إثارتها الشعور وإحراجها الصدور أن نقم عليها ما ليت وكلفن وتمنيا لو لم تكن؛ وقد كانا يريدان ألا تكون بمثل هذه الصراحة الطائشة

وكانت النتيجة الطبيعية أن انضم المعتدلون من رجال الحركة الوطنية إلى العسكريين، وهو عكس ما كانت تنتظره الدولتان في غباء مضحك، ورأي العنصر أن الشبح الرجعية المسلحة، بل رأوا الغدر الأثيم يتهدد قضيتهم. وانبعثت الصيحات من كل مكان أن إنجلترا قد ألقت بنفسها في أحضان فرنسا، وأن فرنسا تريد أن تصنع بمصر ما صنعته بتونس، ولذلك يجب الاتجاه إلى السلطان والمناداة بمبدأ الجامعة الإسلامية لمقاومة هذه الحركة الأثيمة

وضاع كل أمل في تهدئة الخواطر؛ فأصر مجلس شورى النواب على موقفه في وجوب نظر الميزانية ورأى شريف في المجلس إجماعاً ضده وحماسة ما رأى مثلها من قبل. ولقد رغب جرانفل في ملاينة الأعضاء في هذه النقطة كأنما أراد أن يعالج بعض خطئه، ولكن غمبتا رفض ذلك بحجة أنه يسقط من هيبة الحكومتين أمام الوطنيين. وما أعجب أمر هذا الرجل الذي يظن أن الهيبة تكتسب بالحماقة! على أن جرانفل ما لبث إن شايع غمبتا في حماقته، فلقد كتب إليه مالت يقول: (إن المجلس باق وسيظل باقياً ما لم يحل بالقوة؛ وهذا أمر لا يكون إلا بتدخل الذي هو آخر سهم في كنانتنا والذي لا يسوغه أبدا ما قد يكون من خرق قانون التصفية. . . إني أعترف أني أفضل أن يعطى المجلس ما يطلبه من الحق وألا نتدخل حتى يسئ استعمال هذا الحق. ويجب ألا ننسى أن الأمة المصرية قد أخذت تسلك طريق الحكم النيابي خيراً كان ذلك أو شراً، وان قانون المجلس الأساسي هو صك حريتها). . هذا ما ذكره ماليت نفسه ولكن جرانفل لم يعبأ به وأرسل إلى غمبتا ينبئه بموافقة الحكومة الإنجليزية على آرائه. ونسي جرانفل أو تناسى أنه كتب إلى مالت قبل ذلك بنحو شهرين يقول له مشيراً إلى حرية المصريين الوليدة: (إن الحكومة الإنجليزية إذا ما رغبت في نقص تلك الحرية أو العبث بتلك النظم التي يرجع وجودها إليها فقد اتبعت سنة تخالف أجمل تقاليد تاريخها الوطني. . . ليس من شيء يحملنا على سلوك خطة أخرى غير قيام

حالة فوضوية في مصر). فليت شعري ما الذي حدث في مصر حتى تخالف إنجلترا على هذه الصورة أجمل تقاليد تاريخها الوطني؟ وحاول شريف أن يحصل من الدولتين على مذكرة تفسيرية يستعين بها على تسكين الخواطر، فرفض غمبتا حتى هذه المذكرة وعاد جرانفل فشايعه في هذا مشايعة عمياء على الرغم من نصح الناصحين من الإنجليز والوطنيين!

ولست أدري كيف كانت ضمائر هؤلاء الساسة تطاوعهم مع هذا على أن ينعتوا رجال مصر بالفوضى وأن يصوروهم أطفالاً في السياسة لا يدرون ما يأخذون مما يدعون؟ ولكن ما لي أذكر الضمائر والحديث حديث السياسة وجشع السياسة؟

وضاقت بشريف السبل فلم يدر ماذا يفعل، ووقفت السفينة لا تستطيع حراكاً، والريح تدوي من حولها وليس في الجو بارقة أمل، والنواب لا يفتر إصرارهم ولا تنقطع زمجرتهم

وعاد مالت يحذر جرانفل فقال في صراحة: (إن التدخل المسلح يصبح أمراً محتوماً إذا ما تشبثنا بمنع المجلس من التصويت على الميزانية، ومع ذلك فجميع الحكومات تهتم بمنع ما يوجب هذا التدخل الذي إذا أقدمت عليه الدولتان وحدهما أدى إلى سوء المنقلب في هذا البلد)

وعلى الرغم من ذلك كله أبلغت الحكومة المصرية رسمياً يوم 20 يناير سنة 1882 أن المجلس لن ينظر في الميزانية إلا إذا أخل بالأوامر العالية التي أنشئت بمقتضاها المراقبة الثنائية

ولما وجد النواب شريفاً يميل إلى موافقة الدولتين، سار وفد منهم إلى الخديو فطلبوا عزله، وتعيين رئيس للوزارة يستطيع أن يسير مع نواب البلاد سياستهم

وسقطت وزارة شريف، وحلت محلها وزارة البارودي في يوم 5 فبراير سنة 1882، وهي الوزارة التي سوف تعرف باسم وزارة الثورة

(يتبع)

الخفيف

نقل الأديب

للأستاذ ممد إسعَاف النشاشيبي

428 - الكهربية بين النفوس

قال علي بن محمد الحلواني: حدثني خير قال: كنت جالساً يوماً في بيتي فخطر لي خاطر أن أبا القاسم الجنيد بالباب اخرج إليه، فنفيت ذلك عن قلبي وقلت: وسوسَة، فوقع لي خاطر ثان فنفيته، فوقع خاطر ثالث، فعلمت أنه حق وليس بوسوسَة، ففتحت الباب. فإذا أنا بالجنيد قائم، فسلم عليّ وقال: يا خير ألا خرجتَ مع الخاطر الأول؟

429 - ونفست علينا أن نتكلم

في (البيان والتبيين): كان نافع بن علقمة خال مروان والياً على مكة والمدينة، وكان شاهراً سيفه لا يغمده. وبلغه أن فتى من بني سهم يذكره بكل قبيح، فلما أتى به وأمر بضرب عنقه، قال له الفتى: لا تعجل على، ودعني أتكلم. قال: أو بك كلام؟ قال: نعم وأزيد. يا نافع، وليت الحرمين تحكم في دمائنا وأموالنا وعندك أربع عقائل من العرب، وبنيت ياقوتة بين الصفا والمروة (يعني داره) وأنت نافع بن علقمة بن نضلة بن صفوان بن محرث أحسن الناس وجهاً وأكرمهم حسباً، وليس لنا من ذلك إلا التراب، فلم نحسدك على شيء، ولم ننفسْه عليك، ونفِست علينا أن نتكلم!

فقال: تكَلمْ حتى ينفك فكاّك.

430 - أصنع من حصونك

كتب الحجاج بن يوسف إلى قتيبة بن مسلم: خذ أهل عسكرك بتلاوة القرآن فإنه أمنع من حصونك.

431 - مالك من اله إلا الله

للرازي: جاء في كتاب (ديانات العرب) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال لعمران بن حصين: كم لك من إله؟ (مفاتيح الغيب)

قال: عشرة

قال: فمن لِغمّك وكرْبك ودفع الأمر العظيم إذا نزل بك من جملتهم؟

قال: الله
قال عليه السلام: مالك من إلهٍ إلا الله
432 - وحور عين. . .
في (روض الأخيار): الأصمعي: رأيت دكاناً فيه أنواعُ الطيور المشوية، وأنواع الفواكه، وامرأة في غاية الجمال فقلت: (وفاكهة مما يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون، وحور عِين كأمثال اللؤلؤ المكنون).
فقالت بالفور: (جزاء بما كانوا يعمَلون)
433 - هذه القلعة بنيت لأولادك
في (صبح الأعشى): من غريب ما يحكى أن السلطان صلاح الدين (رحمه الله) طلع إلى القلعة ومعه أخوه العادل أبو بكر فقال السلطان لأخيه العادل: هذه القلعةُ بُنيت لأولادك فثقل ذلك على العادل، وعرف السلطان صلاح الدين ذلك منه فقال: لم تفهم عني، إنما أردت أني نجيب فلا يكون لي أولاد نجباء، وأنت غير نجيب فيكون أولادك نجباء، فسرَّى عنه. وكان الأمر كما قال السلطان صلاح الدين، وبقيت خالية حتى ملك العادل مصر والشام، فاستناب ولده الملك الكامل محمداً في الديار المصرية، فسكنها:
434 - وأرى نساء الحي غير نسائها
أبو الحسن علي بن أحمد الغالي:
لما تبدلّتِ المنازلُ أوجهاً ... غيرَ الذين عهدتُ من علمائها
ورأيتها محفوفةً بسوي الألي ... كانوا ولاة صدورها وفنائها
أنشدتُ بيتاً سائراً متقدّماً ... والعين قد شرقت بجاري مائها:
(أما الخيام فإنها كخيامهم ... وأرى نساء الحيّ غير نسائها)
435 - في أي مدينة؟
في (منهاج السنة): يوسف بن غز أو غلي (صاحب التاريخ المسمى مرآة الزمان) - يذكر في مصنفاته أنواعاً من الغثّ والسمين، ويحتج في أغراضه بأحاديث كثيرة ضعيفة وموضوعة؛ وكان يصنف بحسب مقاصد الناس: يصنف لهؤلاء ما يناسبهم ليعوضوه بذلك،
ويصنف على مذهب فلان لبعض الملوك لينال بذلك أغراضه، فكانت طريقتهُ طريقةَ الواعظ الذي قيل له: ما مذهبك؟
قال: في أيّ مدينة؟
431 - خير ما في الدنيا
مُعاذ بن جبل: ليس في الدنيا خير من أثنين: رغيف تشبع به كبداً جائعاً، وكلمة تفرج بها عن ملهوف
437 - حضرنا ملاك الوالدة. . .
في (الغرر الواضحة) لإبراهيم بن يحيى الوطواط: قال أبو هريرة الشاعر المصري: خرجت يوماً إلى (بركة الحبش) بمصر متنزهاً في أيام الربيع حين أخذت الأرض زخرفها وازينت، ومعي آنية شراب وكتاب، وكانت تلك عادتي في كل سنة، فجعلت أشرب وأنادم كتابي طول يومي. فلما كادت الشمس تغرب، وتُلمح في أجنحة الطير أخذت في الانصراف إلى منزلي وأنا ثمِل. فبينما أنا أمشي إذ خرج فارس من مصر متلثماً لا يبين من وجهه غير عينيه، فسلّم وقال: من أين أقبل الشيوخ؟
فقلت في نفسي: أجنَّ الرجل؟ ومن يرى معي؟ فالتفتُّ فإذا خلفي قطيع من التيوس فقلت: حضرنا ملاك الوالدة أصلحك الله! فضحك وانصرف.
ولما كان بعد أيام دخلت إلى الأمير (تكين) في حاجة فقَضاها لي، وأسرني بألف درهم وقال: هذا حقُّ حضورك ذاك الملاك. فعلمت أنه هو الذي لقيني، فأخذتها وانصرفت
بركة الحبش هي التي يقول فيها أمية بن أبي الصلت:
لله يومٌ ببركة الحبش ... والأفق بين الضياء والغبش!
والنيل تحت الرياح مضطربٌ ... كصارم في يمين مرتعش!
ونحن في روضة مُفوَّفة ... دبج بالنور عطفها وَوُشى!
وأثقلُ الناس كلهم رجلٌ ... دعاه داعي الصِّبا فلم يطش
فاسقني بالكبار مترعةً ... فهنّ أشفى لشدة العطش

الرَّجع البعيد
للأستاذ محمود الخفيف
إيه قَيْثارتي تَغِّني. . . أعيدي ... لحْن ماضِيَّ واشتَكي من جديدِ
جَدَّدَتِ جِدَّةُ الزَّمانُ هيامِي ... وأثارَ الرَّبيعُ ذِكرَى عُهودي
رَدِّدي في الغنَاءِ أحلامَ أمسِي ... عَلَّ في الذكرَياتِ رَوحاً لنفسي
جدَّدي اللحن كم خدعتُ فُؤادي ... بِسَرَابٍ من المُنى والتَّأسِّي
هَذْهِدِي مُوجعاً صحافي الضلوع ... وهفا اليوم بعدَ طول الهجوعِ
راح يَسْتافُ في الرُّبوعِ نَسيماً ... في شَذاهُ عهود تلكَ الرُّبوعِ!
أتَسَلَّى يَا وَيْلَتَا بِغِنائِي ... ومِن الدَّاءِ أسْتَمِدُّ دَوَائِي!
لُذْتُ بالوَهمِ والتَّجمُّلِ حيناً ... لمْ أُصِبْ فيهما أَقَلَّ شِفَاءِ
ما لهَذي الملاعبِ الخُضرِ تُوحِي ... خطَرات أغرَقْن في الوهم روحي
كُنَّ بالأمس والمُنى نَضِرات ... مبعث السحر والهوى والطموحِ
ضقت بالروض أنقل الخطو وحدي ... بين زَهْرٍ به وَضَاحِكِ وَرْدِ
صوَرٌ في الضُّحى يَزِدْنَ عذابي ... وَمعانٍ يُثِرْن كامن وَجدِي!
خَيَّلَتْ جنَّتي لقلْبِي الشريد ... وَحْشة البِيدِ في القَفار المَديدِ
وغَدَا لَحْنِيَ المُرَدَّدُ فِيها ... بعد موْت المُنى كرَجْعٍ بَعيدِ!
يا بناتِ الهَدِيل رَدِّدْنَ لحْنِي ... وخُذِي الشوْق والتفجُّعَ عَّني
أنا أشْجى بُكاً وأصدَق وَجْداً ... وأفُوقُ الهَدِيلَ زَوْعةَ فنِّ
يا صِحابِي لا تُنكروا اليوم سَجعي ... أتَمَّنى لو كان قَلْبِيَ طَوْعِي
سأُسَرِّي عن مُهجتِي يا رِفاقي ... ساعةَ الشوْق ثمَّ أحبِسُ دَمعي
ساعة الشوق؟ فيم يا نفس شوْقي؟ ... تَعِب القلب بين يَأْسٍ وَخفقِ
حسبك اليوم من زمانك ذِكرَى قَبضةُ الدَّهر غيرَها ليس تُبقِي
أينَ من كنتُ لا أرى لوُجودِي ... أملاً دونَها وأيْنَ عُهُودِي؟
أينَ أيَّامِيَ التي ذُقْتُ فِيها ... فوق هذا الثَّرَى نَعيمَ الخُلودِ؟
هَجَرَت أيْكها الحَمامَة عَجْلَى ... فذَوَى الأيْكُ والرَّبيعُ تَولَّى
أَوحش الروض واستحالت قتادا ... زَهراتٌ عدِ مْن في الهجر طَلاّ
زَهَراتٌ نجيعُ قلبي كَساها ... رَوْعةَ السحر والوَفاءُ سَقاها
نَبَتَت وَهْيَ طفلة فَرَعتْها ... وَشبَبْنا فأَوْدَعَتْها شذاها
صرَّحت وهْي غَضَّة زَهراتي ... قبل أن ينطوي رَبيعُ الحياةِ
كم يَغيظُ الفؤادَ قَوْلٌ مُعادٌ ... كلّ حُسْنٍ مصيره لِلممات!
الصباحُ النَّدِيّ يُوحِي البُكاَء ... والأصيلُ الرَّخِيُّ يَحكِي الفَناَء
ولريحِ المَساءِ حَوْلِيَ نَوْحٌ ... لم يُطِقْ مِسْمَعِي له إصغاَء!
الربيعُ الضحوكِ عيدٌ لغيْرِي ... أبطَلت فيه وحْشتي كلِ سحرِ!
لا الأغانِي به أغانِي رَبيعي ... لا ولا العِطر فيه سالف عطرِي
كل حُسنٍ به يُلَذِّعُ قلبِي ... وهْوَ بالأمس كان فِتنةَ لُبِّي
أرأيتَ اليتيمَ في يومِ عِيدٍ ... حائرَ الدمّع بين حبس وسكبِ؟
فَرحةُ العِيدِ في وجوه الصحابِ ... حوله كم تُذيقُهُ من عَذابِ
يَتأَذَّى، فإن تَغَابَى لَدْيهم ... لَبِسَ الذّل كله في التَّغابي!
عرَف اليُتمُ وَهْو غِرٌّ جفاني ... ودهاني من يُتمهِ ما دَهانِي
وتغابَى، يا لَيْتَهُ ما تغابَى ... ثُمَّ نادَاهُ أمسُهُ فَعصانِي!
الخفيف
ترانيم وتسابيح
من وادي الشمس!
(إلى نورها الساهم الحزين)
للأستاذ محمود حسن إسماعيل
تَعالَيْ يا ابْنَةَ . . . ... ويا فَرْحَةَ أيَّامِي!
تَعالَيْ نَمْلأ الأقدا ... حَ من شِعْري وأنْغامِي!
ونَسْقِ الزهْرَ والأطيا ... رَ من سِحْرِي إلهامِي. . .
فَزَهرُ الرَّوْضِ نَشْوَانُ

ومَوْجُ النهْرِ سَكرَانُ
وشَدْوُ الطَّيْرِ فرْحانُ. . .
وأنتِ الفرْحةُ الكُبرَى ... لِتغْرِيدِي وأَحْلامِي
فَهَيّا نَسبِقُ النُّورَ ... لهذا المَلْعبِ السّامِي!
تَعالَيْ وانظُرِي صَفْوي ... وأَسْمَارِي مع الوادِي
وُعرْسَ الشمسِ في الدُّنيا ... على مِحْرابِ أجْدادِي
وسِحْرَ النِّبلِ والمَوْجُ ... عليه رائحٌ غَادِ. . .
فَوَادي الشمسِ فَنَّانُ
وَشادِي الحُسنِ لَهْفَانُ
وهذا القَلبُ ظَمْآنُ. . .
وأَنتِ الكأسُ والخمْرُ=لرُوحِ البُلبُل الشَّادِي
فَهَيّا أَسعِدِي الكَوْنَ=بِأَعْرَاسِي وأَعْيادِي!
محمود حسن إسماعيل
راعية الغنم
(مهدأة إلى راعي الراعية)
للآنسة جميلة العلايلي
يا رمز جبريل في الدنيا وعائشة ... بين الأنام بقلب ملؤه جمر
ودعت دنياك كالنساك راغبة ... عن الوجود وعيش كله شر!
ودعت أحلامها في غير ما أسف ... ماذا دهاك! ألا أمر له سر!
كيف ارتضيت حياة القفر هانئة؟ ... وكيف أغراك ذك المهمة لوعر؟
علَّ المراعي التي طابت مغارسها ... سعى إليك بها الإيناس والبشر؟
أتسمعين ثغاء في جوانبها ... أم تسمعين غناء بعضه سحر؟
ومن عجائب ما شاهدت راعية ... تقسو عليها الليالي، وهي تفتر؟
أتلك راعية في القفر ضاربة؟ ... أم روضة رفّ فيها الزهر والنور
قد لفها النور في أبهى غلائله ... وزانها المغريان النبل والطهر!
يا ربة الغنمات البيض طالعة ... بين المروج كما قد يطلع الفجر
دنياك، دنياك ما أندى مخاضرها ... وما أحب رباها إنها شعر!
كأنما أنت إذ تبدين عاطرة ... روض تنفس في أبحائه الزهر
يا ربة الغنمات البيض تكلؤها ... عين السماء ويزكو عندها البر
قفر حياتك لكن حين ألمسها ... يكاد ينشق روضاً ذلك القفر
وحيدة أنت في دنياك راضية ... بما تجئ به الأقدار والدهر
يا حبذا القفر دهر للتي سئمت ... كل الأباطيل ممن ودهم غدر!
(المنصورة)
جميلة العلايلي
رسالة العلم
كيف ظهرت الحياة على الأرض؟
للأستاذ نصيف المنقبادي
أثبتنا في مقالاتنا أن الحياة ظاهرة مثل باقي ظواهر الطبيعة، وأن تقسيم ما في الطبيعة إلى كائنات حية وإلى جمادات إنما هو تقسيم اصطناعي سطحي لا يستند إلى الواقع، وتنفيه نواميس الطبيعة الأساسية المقررة في علوم الميكانيكا والطبيعة والكيمياء، إذ لا يوجد فرق جوهري بين الأحياء وبين الجمادات. فجميع ظواهر الحياة أو ما كانوا يسمونه بمميزات مثل الشكل النوعي والتركيب الكيميائي والتغذي والتنفس والنمو والتأثر والتحرك الذاتي، كل هذه موجودة بلا استثناء ولكن مبعثرة ومشتتة في الجمادات، وكل ما في الأمر أنها إذا اجتمعت في جسم واحد قيل عنه إنه كائن حي وقد بينا بالأدلة والمشاهدات العديدة أن الأحياء خاضعة في أمورها وأحوالها وجميع ظواهرها لنواميس الطبيعة وفي مقدمتها ناموسا عدم تلاشي المادة وعدم تلاشي الطاقة، وأثبتنا بالاختبارات والأرقام أن جميع مظاهر الحياة ووظائف الأعضاء وحتى التفكير والقوى العقلية، ليس لها إلا مصدر واحد وهو الغذاء أو بالأحرى الطاقة الكيميائية الكامنة في مادة الغذاء، وما عهد القراء ببعيد بالتجارب والاختبارات

الحاسمة التي قام بها أتووتر وبينيدكت وغيرهما من الفسيولوجيين بواسطة ذلك الكالوريمتر الكبير الذي شرحناه في إحدى المقالات السابقة فلا حاجة إلى التكرار، وكذلك الأجهزة الدقيقة التي تدل على ازدياد حجم المخ قليلاً مدة التفكير بورود كمية من الدم إليه، كما تدل من جهة أخرى على ارتفاع درجة حرارته مما يقطع بأن القوى العقلية تستهلك كمية من الطاقة الغذائية، وأنه ليس لها أيضاً إلا مصدر واحد وهو هذه الطاقة وليس شيء آخر سواها

وما دام الأمر كذلك فيمكننا أن نقول مقدماً إن أصلها وكيفية ظهورها على الأرض لابدّ أن يرجع إلى أسباب طبيعية، فهي ظهرت كما ظهرت أجسام أخرى كالمواد المبلورة وغيرها وكما نشأت الجبال والبحار وتكونت طبقات الأرض المختلفة وما تحتويه من مناجم الفحم والمعادن المتنوعة كل ذلك بفعل العوامل والنواميس الطبيعية

غير أن العلماء كانوا فيما مضى، قبل قيام الاكتشافات العظيمة الحالية في البيولوجيا والفسيولوجيا وباقي علوم التاريخ الطبيعي، حيارى لا يدرون كيف يعللون كيفية ظهور الحياة على الأرض والتفسير العلمي الصحيح

فقال فريق منهم في أواخر القرن الثامن عشر وفي أوائل القرن التاسع عشر، منهم بوفون ومحررو دائرة المعارف إذ ذاك، ومنهم لامارك السابق لداروين في تأسيس مذهب التطور والتسلسل. قال هؤلاء إن الكائنات الحية الأولية تولدت ذاتياً من الجمادات، وهو مذهب التولد الذاتي المشهور، بل إن بعضهم بالغ في ذلك إلى الزعم بأن الأحياء السفلى الحالية مازالت تتولد الآن من الجمادات، كما يعتقد العوام خطأ بأن كثيراً من الديدان والحشرات تتولد ذاتياً من تلقاء نفسها في المواد القذرة والعفنة والمتخمرة. وقد أساءت هذه المبالغة وهذا الخطأ إلى المذهب المذكور على ما هو عليه من الوجاهة وكانت السبب في سقوطه في بادئ الأمر وقد جاءت أبحاث باستور واكتشافاته الجديدة التي قام بها في ذلك العهد تنفي - في الظاهر - ذلك المذهب وتثبت استحالة تولد الكائنات الحية الآن من الجمادات، بمعنى أن كل كائن حي مهما سفل نوعه لابد أن يتولد الآن من كائن مماثل له. وكان في الوقت نفسه قد فشلت في ذلك الحين المحاولات التي قام بها بعض الكيميائيين البيولوجيين لتركيب المواد الزلالية ولو البسيطة منها اصطناعياً. فاتخذ خصوم ذلك المذهب - مذهب التولد الذاتي - من هذا كله أسلحة لمحاربته وقتلوه في مهده.

لهذا فكر بعض العلماء أن يأتوا - بمحض خيالهم - ببذور الحياة من عوالم أخرى ففرضوا أنها تنتقل في صورة ذرات صغيرة جداً في الفضاء الكوني من بعض الكواكب إلى البعض، ومتى سقطت على كوكب صالح للحياة تنمو وتتولد منها الكائنات الحية البسيطة ثم المركبة. وبالغ أحدهم وقال إن تلك الجراثيم الكونية لا تؤثر فيها الحرارة - حرارة الكواكب الملتهبة وحرارة الشهب والنيازك التي تحملها أحياناً وتسقط بها على الكواكب والسيارات مثل الأرض وغيرها - وقد سماها أي الأحياء النارية.

ولكن هذه الفروض التخمينية فضلاً عن أنها خيالية محضة لا تستند إلى دليل علمي؛ فإنها لا تحل الأشكال بل تبعد حله بأن تنقله من أرضنا إلى عوالم أخرى. إذ لنا أن نتساءل: وكيف وجدت الحياة في تلك العوالم الأخرى التي انتقلت إلينا منها الجراثيم الحية؟ ويبقى علينا أن نبحث في أسباب وظروف تكوين تلك الجراثيم في باقي الكواكب والسيارات.

وفوق هذا فإن تلك الفروض التخمينية مخالفة لروح البحث العلمي؛ لأنه إذا كان الكربون والآزوت والهيدروجين والأكسوجين وبعض المعادن الأخرى التي تتركب منها المواد الحية قد امتزجت طبيعياً وكونت تلك المواد في العوالم الأخرى فلماذا - وهي موجودة جميعها على الأرض - لا تمتزج هنا أيضاً وتولد المادة الحية كما فعلت في غير الأرض؟ أليس أساس كل علم أن نفس الأسباب تنتج نفس النتائج؟

لهذا كله وجب علينا أن نواجه الحقائق العلمية في حد ذاتها على ضوء الأبحاث والاكتشافات الحديثة وغير متأثرين بالآراء والمذاهب القديمة الموروثة، وأن نرجع إلى الحالة التي كانت عليها الأرض وقت ظهور الحياة لنستخلص من ذلك مصدرها - أي مصدر الحياة - وكيفية نشوئها وأسباب ذلك. وهذا ما أخذه العلماء على عاتقهم في الخمسين سنة الأخيرة.

قلنا إنه ما دامت الحياة ظاهرة طبيعية فلا بد أن تكون ظهرت على الأرض بفعل

العوامل الطبيعية وهذا هو الواقع.
الواقع أن مواد الأجسام الحية النباتية والحيوانية تشتق رأسا الآن من الجمادات، وتتكون منها مباشرة في كل لحظة أمامنا، وعلى مرأى منا. فمن أين جاءت المواد الحية التي تبنى بها أجسامنا منذ تكوينها من بويضة صغيرة جداً لا ترى إلا بالميكرسكوب؟ لا شك في أنها تكونت من الغذاء. وقد بينا في المقالات السابقة أن المواد الغذائية تشتق من الجمادات وتتكون منها، فالحيوانات آكلة اللحوم تتغذى بالحيوانات النباتية وهذه تتغذى من النباتات، والنباتات تركب أنسجتها وتحصل على غذائها من الجمادات، فمادتها الخضراء (الكلوروفيل) تستعين بطاقة الشمس الإشعاعية وتحلل غار حمض الكربونيك المنتشر في الجو، وتنتزع منه الكربون وتمزجه بالماء فتؤلف منه السكر والنشا ثم الأحماض والقلويات العضوية والمواد الدهنية. وفي الوقت نفسه تمتص جذورها التراكيب الآزوتية من الأرض ذائبة في الماء وتمزجها بالمواد الكربونية المذكورة بفعل قوة الشمس أيضاً فتنتج المواد الزلالية الموصوفة بالحية. وهكذا تتركب الآن باستمرار جسام الكائنات الحية من الجمادات المنتشرة في الجو وعلى الأرض بفعل قوة الشمس وبواسطة الكلوروفيل.
وقد توصل الكيمائيون إلى تركيب الكثير من المواد العضوية النباتية والحيوانية من الجماد
رأساً كما تفعل الطبيعة، فنجحوا مثلاً في الحصول اصطناعياً على المواد السكرية والنشوية المختلفة وعلى معظم المواد الدهنية وعلى الكثير من المواد العضوية الأخرى كالقلويات التي تستعمل في الطب، والعطور المختلفة. والأهم من هذا أنهم ركبوا كيميائيًّا من مواد معدنية محضة حامض النمليك الذي يدخل فيه الآزوت وهو النواة الكيميائية للمواد الزلالية، ثم ركبوا بعضاً من هذه المواد مثل زلال اللبن (مادة الجبن) ومثل البروتيين الناتجة من هضم المواد الزلالية في الحيوانات والنباتات، ومثل الكبراتين التي تدخل في تركيب أظافر الإنسان والحيوانات الفقرية الأخرى. وهذا النجاح يبشر بقرب الوصول إلى تركيب المواد الزلالية العليا الموصوفة بالحية كما بينا كل هذا في المقالات السابقة. . .
ومن الغريب الذي يدعو إلى الإعجاب أن بعض الكيميائيين مثل دانيال برتولو وجوديشون سلكوا في تركيب السكر والحمض النمليك الآزوتي المتقدم ذكره نفس الطريق الذي تتبعه الطبيعة بأن سلطوا الأشعة فوق البنفسجية المنبعثة من بخار الزئبق على خليط من الماء والحامض الكربونيك وبعض تراكيب الآزوت المعدنية البسيطة
فما تصنعه الطبيعة الآن تحت نظرنا وأمام أعيننا من إنشاء المادة الحية رأساً بفعل طاقة الشمس ولكن بالواسطة - أي بواسطة المادة النباتية الخضراء (الكلوروفيل) - بل ما يصنعه الإنسان في معامله إلى حد ما، ألم تستطعه الطبيعة رأساً بلا واسطة في الزمن البعيد حيث كانت ظروف الشمس والأرض أكثر ملاءمة من الآن؟
فقد كانت الشمس في ذلك الماضي البعيد جدّاً الذي لا يقل عن خمسمائة مليون سنة من الكواكب الزرقاء أو البيضاء من الدرجة الأولى، تزيد حرارتها عما هي عليه الآن بمراحل، وكانت - على الأخص - تشتمل على الكثير من الأشعة فوق البنفسجية، وهي كما لا يخفى توجد وتنشط التفاعلات الكيميائية على اختلاف صورها. . .
وكانت الأرض من جهتها مرتفعة الحرارة لقرب عهد انفصالها من الشمس. وفوق هذا فإنها - أي الأرض - كانت في ذلك الحين مسرحاً لكثير من إشعاع الراديوم والأجسام المماثلة له التي كانت توجد كميات وافرة على سطحها. وكانت تنبعث من هذه الأجسام الإشعاعية الكثير من غازات الهيدروجين والهليوم الجديدة، ومن المقرر في علم الكيمياء أن الغازات المستجدة تكون أكثر قابلية للامتزاج بغيرها من المواد الأخرى.
فنتج من كل هذه العوامل مجتمعة أن نشطت التفاعلات الكيميائية على الأرض وفي الماء وامتزجت المواد المختلفة بعضها بالبعض، وعلى الأخص الكربون والآزوت والهيدروجين والأكسجين وبعض المواد المعدنية الأخرى على صور شتى عديدة فتولدت على هذا النحو ما يسمونه بالمواد العضوية البسيطة، أي بعض تراكيب الكربون، ثم المواد العضوية الأكثر تركيباً ومنها الأحماض الآزوتية مثل حامض النمليك

وغيره. وهذه امتزج بعضها ببعض وبالأحماض الفسفورية فأدت إلى المواد الزلالية البسيطة ثم العليا الموصوفة بالحية. وكان هذا أول مظهر للحياة وأبسط صورة من صورها

وتطورت هذه المواد الزلالية بفعل العوامل الطبيعية وتحول بعضها إلى الحيوانات الأولية ذات الخلية الواحدة، وبعضها إلى النباتات الأولية، وثالثة إلى النباتات الفطرية وهي الحلقة المتوسطة بين الحيوانات والنباتات كما بينا ذلك في مقالنا الأول

وتسلسلت من هذه الأحياء الأولية البسيطة الحيوانات والنباتات السفلى ثم العليا في مختلف العصور الجيولوجية التي دام كل منها عشرات الملايين من السنين مما سنشرحه في مقالات قادمة ونبين أسبابه ونأتي على الأدلة والمشاهدات والاختبارات المؤيدة له

غير أن حرارة الشمس أخذت تنقص بالتدريج في مئات الملايين من السنين، كما نقصت أشعتها فوق البنفسجية فأصبحت عاجزة عن تركيب المواد الحية من المواد الجامدة أو المعدنية من تلقاء نفسها كما كانت تفعل في بادئ الأمر، فاستعانت على ذلك بالكلوروفيل كالرجل المتقدم في السن يستعين على رؤية الأشياء بالنظارات. ذلك لأن النباتات كانت قد ظهرت على الأرض على الوجه المتقدم بيانه منذ ذلك الحين

فضعف الشمس الآن هو السبب في استحالة التولد الذاتي في الظروف الطبيعية الحالية، وهذا ما يفسر مدلول أبحاث باستور وتجاربه المشار إليها فيما تقدم. فإن هذه الأبحاث والتجارب لا تدل إلا على استحالة التولد الذاتي في عصرنا الحاضر ولكنها لا تنفي إمكان ذلك في بدء ظروف الطبيعة على الأرض

كان الناس في بدء نشوء النوع الإنساني قبل اكتشاف الكبريت والفسفور، وقبل أن يستنبطوا أحداث الشرر من احتكاك بعض الأحجار الخاصة بالبعض - يعتقدون أن النار سر من وراء الطبيعة لا يستطيع البشر أن يخلقوها، وأن كل نار لا بد أن تولد من نار أخرى سابقة لها، كما يعتقد جمهور الناس الآن في الحياة والكائنات الحية

فكانوا في ذلك الماضي البعيد إذا شاهدوا حريقاً نشأ مثلاً بفعل العوامل الطبيعية كانقضاض صاعقة على شجيرة يابسة أو على كمية من الحطب أو الحشائش الجافة، يوقدون منه ناراً دائمة في مغاورهم ومساكنهم يتخذونها كخميرة يولدون منها النار كلما أرادوا إحداثها لحاجاتهم الشخصية، وهذا هو منشأ عقيدة عبادة النار التي تسلسلت منها عادة المحافظة على مصابيح أو شموع صغيرة تضاء في المعابد والمساكن لأغراض دينية

ومع أن الإنسان اكتشف بعد ذلك الوسائل الاصطناعية لإحداث النار كلما شاء إلا أن تلك العادة ما زالت باقية إلى الآن، شأن كل فعل أو صفة مكتسبة يجري العمل عليها الزمن الطويل فإنها تتأصل وتصبح آليةً، وعلى هذا النحو نشأت الغرائز في الحيوانات والإنسان كما شرحنا ذلك في مقالنا الأخير عند الكلام على نشوء الغريزة الاجتماعية والأخلاقية في الإنسان والحيوانات الاجتماعية الأخرى كالقرود العليا والنمل

وهكذا الحال بالنسبة للحياة؛ فأنه نظراً لعجزنا الحالي المؤقت عن تكوين المادة الحية اصطناعية، نظن أنها سر من وراء الطبيعة، وأنها تختلف عن باقي ظواهر الكون وأنها لم تظهر على الأرض بفعل العوامل الطبيعية، بل هي من عالم آخر كما يتوهمون.

فنحن الآن بالنسبة للحياة على ما كان عليه أجدادنا البعيدون بالنسبة للنار قبل اكتشاف وسائل إحداثها اصطناعياً.

على أن هذا كل الوهم سوف ينقشع ويتلاشى في المستقبل حين يتوصل العلماء نهائياً إلى تركيب المادة الحية في معاملهم. وقد بينا فيما تقدم وفي المقالات السابقة أنهم أوشكوا أن يصلوا إلى هذه النتيجة الهامة حيث خطوا خطوات تذكر في هذا السبيل

فقد صنعوا كيميائياً بعض المواد الزلالية سالفة الذكر وهم في طريق صنع المواد الزلالية العليا المسماة (بالمواد الحية). ومتى وصل العلم إلى ذلك الحد تصبح الحياة ظاهرة طبيعية في نظر جمهور الناس ينظرون إليها كما ننظر إلى النار الآن بعد اكتشاف الوسائل التي تجعلنا نحدثها كلما شئنا.

نصيف المنقبادي المحامي
دبلوم في الفسيولوجيا العليا الحيوانية والنباتية
من كلية العلوم بجامعة باريس (السوربون)

قصة الحرير
بقلم أحمد علي الشحات
دلف نوح علية السلام إلى الصين يسعى بعد الطوفان، وله في الاشتغال في هذا البلد بالحرير ذكر، إذ يقول بعض المؤرخين إنه هو أول من اهتدى إلى الحصول عليه. وسواء لدينا أكان هو أم كان غيره - مادمنا لم نثبت من ذلك بعد - إلا أن الذي لا ريب فيه أن (الصين) هي أول بلد اشتغل بالحرير؛ بل واسم بلاد الصين ذاته معناه بالصينية (الحرير).
ويعزو التاريخ الفضل الأكبر في انتشار الحرير بالصين إلى زوج الإمبراطور الصيني (فوهانج عام 2500 قبل الميلاد)؛ ويسند التاريخ إليها أيضاً اختراع (المنوال) ونسج الحرير.
ومنذ القدم والحرير يقدر بقيمة عالية. فلقد كانت الممالك: كالهند وإيران واليونان وروما تدفع فيه للصين عن طيب خاطر ما يزيد على وزنه من الذهب.
وكانت الصين تسعى جهدها ألا تتمكن مملكة أخرى من الاهتداء إلى طريقة الحصول عليه. ومن الطريف أنه إذا استعلم الأجانب منهم عن ذلك مكروا بهم وأجابوهم بأن الحرير هو من (وبر الغنم) خلطت به ألياف رفيعة ووضع في الماء تحت أشعة الشمس في فصول معينة من السنة. حتى إذا ما سويت هذه الخيوط بعد ذلك إذا بهم يحصلون على الحرير.
ومما يثير الدهشة أن تمكن الصينيون من كتم هذا السر عن العالم لحقب طويلة إلى أن كان القرن الثالث بعد ميلاد المسيح. وكانت اليبان بطبيعة موقعها وجوارها للصين ترى تلك التجارة العظيمة في الحرير التي تدر على الصين الخير كله، صح عزمها على اكتشاف هذا السر بالغاً ما بلغ الجهد منها، وكانت على اعتقاد جازم بأن الصين تمكر بالعالم إذ تذيع تلك القصة السالفة التي ابتكرها خيالهم بأن الحرير أصله وبر غنم.
أوفدت جواسيس لها إلى الصين أسروا بنات أربعا يشتغلن بالحرير، واختلسوا ما تمكنوا من الاهتداء إليه من دود الحرير وعادوا بالأسيرات إلى اليابان، وهناك علمنهم أن الحرير إفراز خيطي من ديدان الحرير في أحد أطوار حياتها، وعلمنهم أيضاً كيفية استغلاله.
ومن ذاك اليوم والسر عن نطاق الصين قد خرج والاتجار بالحرير في اليابان ينمو ويزدهر، ولعل اليابان اليوم أقوى أمم الأرض في التجارة بالحرير.
كيف اهتدت إليه الهند؟
أما كيف كان ذلك فيروي أن أميرة صينية اقترنت بأمير هندي في ذات التاريخ الذي عرفت فيه اليابان سر الحرير (القرن الثالث)؛ وحملت هذه الأميرة بعض دود الحرير إلى حيث مقامها مع بعلها، هناك ألقت إلى الناس بالسر الذي تكتمت عليه مملكتها أشد التكتم؛ ثم ازدهرت تجارته بعد ذلك بالهند.
دخوله القسطنطينية
في القرن السادس دخل راهبان كانا قد قضيا حقبة من العمر في الصين خبرا خلالها الحرير، بيزنطة (القسطنطينية) وأفضيا إلى إمبراطورها (جستنيان) بما يعلمان عن الحرير. فطلب إليهما أن يشدا رحالهما ثانية إلى الصين، ويحملا إليه بعد ذلك ما اتصل بما أسراه إليه عن الحرير مجزلاً لهما العطاء مسرفاً في الوعود والمنح. فامتثلا وقفلا راجعين إلى الصين وهناك تمكنا من تخبئة كمية من بيض دود الحرير في عصا مجوفة، وارتدا إلى الإمبراطور.
ولو قد استشفا ببصيرتهما الحجب، وعلما ما كمن في سطور الغيب لرأيا أن هذه العصا التي يحملانها ستكون سبباً في سعود نجم تجار كثيرين، وأن العالم الأوربي الآن وقد مضى على حمل هذه العصا أربعة عشر قرناً تأسست تجارته في الحرير على محتويات هذه العصا.
وانتعش الحرير في فرنسا كثيراً واتخذته العائلات المالكة هواية لها وكذلك الأشراف، بل وكانت الألقاب السامية تمنح لمن أفلح في إنتاج الحرير حتى إذا ما وافى القرن السابع عشر كانت فرنسا عن بكرة أبيها قد أجادته تماماً
ولقد كانت إنجلترا على النقيض من ذلك لم تلق بالاً إلى الحرير على رغم أن جوها يصلح لتربية الدود ويصلح لشجر التوت، بل وملكها جيمس الأول يحث الناس

ويشجعهم على العمل في إنتاجه والاتجار به. ولكن الناس كانوا عن أمر الحرير غافلين وفضلوا أن يستمروا في تربية الخنازير والعمل على تسمينها واستخراج البيرة ولكن كان لإنجلترا في الهند خير عزاء إذ أن الحرير بالهند والظروف المهيأة لنمو الدود هناك والشجر ليتغذى عليه قد بلغ ذلك كله مبلغاً جعل الهند في مصاف الأمم الأخرى التي أفلحت فيه، بل ولقد برزت هي في ذلك

واختلفت أمزجة الشعوب في النقش على الحرير، فبينما الصين كانت تكثر من رسم الأزهار كانت الأمم المسيحية ومن بينها بيزنطة (القسطنطينية) ترسم زخرفة بسيطة بها صليب. وكانت الهند تكثر من رسم الإنسان والوحوش والطيور ومناظر صيدها، وكانت العرب تكثر من الكتابات المتعلقة بسلاطينهم كقولهم العز والنصر والإقبال للسلطان والمتعلقة بالتوحيد كقولهم لا إله إلا الله.

احمد علي الشحات

كيميائي بالسكة الحديد

رسالة الفن

دراسات في الفن

المرأة والإبداع الفني

للأستاذ عزيز أحمد فهمي

قبل أن أقول كلمة في هذا الموضوع أحني الرأس طويلاً بين يدي حواء، فمهما تكن فإنها أمي، والأم لا تنكر إذ قد ينكر الأب، وإنها بعد ذلك أختي، والأخت لا تتنكر إذ قد يتنكر الأخ، وأنها منذ كنت سكني. . . رحمانك يا رب!

وبعد فإنه يخيل إليّ أني قد استطعت - بعون الله - في حديثي السابق أن أغري القارئ بالتفكير معي في أمر الصدق ولزومه للفن، وإني أرجح أن تفكيره لم يعد يرى بأساً في أن نجعل ما بين الصدق والفن من الصلة أساساً للنظر في صلة الفن بالناس. فالصدق لا يقوم بذاته إلا في الوجود المجرد، ولكنه يحتاج إلى من يتجسده في الكون المحسوس كما يحتاج إلى من يعلنه فيه، والإنسان بعض ما يتجسده، وهو وحده الذي يعلنه بهذا الأسلوب المفهوم المعقول. والإنسان كما هو ظاهر رجل وأمراة، فأيهما كان أقرب من الصدق كان أقرب من الفن. وأيهما كان أقرب من الفن كان أقرب من الصدق.

أما الذي يسجله التاريخ القديم والحديث فهو أن عدد الرجال الذين أبدعوا في فنون الحس والعقل على الإطلاق أكثر من عدد النساء اللواتي أبدعن في هذه الفنون. فإذا نحن سايرنا منطق الحساب فإننا سنشهد مجبرين بأن الرجل أقرب إلى الصدق من المرأة.

ولكن الذي تعودناه من مجاملة حواء لا يجيز لنا أن نمسك بهذه الدعوى وأن نتعلق بها وأن نقف عندها متبلطين لا نتزحزح عنها ولا ننجلي، وإنما يأنف الذوق من هذا ويأبى إلا أن نخف عن هذه الدعوى ألي شيء مما يتلوها، فنقول: لعل طبيعة المرأة في الأصل كانت تكاد تشبه طبيعة الرجل، ولكنها الحياة التي تمردت على الطبيعة بهذه الحضارة هي التي عصفت بالمرأة دون الرجل وللمرأة عندئذ عذرها إلا إذا أنكرت تكوينها، ولها فيه من القوة ما حُرِمه الرجل. كما أن لها فيه من الضعف ما برئ منه الرجل.

قد يتعاشق رجل وامرأة. أما الرجل فيهفو إلى محبوبته، وأما هي فيكون في نفسها أن تطير إليه ولكنها تتمنع، فلا يرى الرجل بداً من أن يخطو هو الخطوة الأولى. فإذا أحست المرأة إشفاقه من هذه الخطوة وتردده عنها أغرته بها ودفعته إليها وشجعته عليها، ولكنها لا تسمح لنفسها بأن تخطوها لأنها لا تعرف الصلة بينها وبينه إلا على وجه واحد، وهو أن تلقي عليه أعباءها. وهي مع رغبتها هذه تأبى إلا أن تسجل عليه خطوته الأولى، وإن كانت هذه الخطوة بإغرائها وتشجيعها، وهي تفعل هذا كله لتبرر فيما بينه وبينها بهذه الحركات الظاهرة دلالها عليه وتحكمها فيه بعد أن ملكت منه رغبته إليها أولاً، وخطوته إليها ثانياً. فكأنها التي تفضلت بانقيادها، وكأنما كانت تريد أن تعيش على بعد من الرجل

صحيح أن من الرجال من يستطيع أن يتماسك أمام المرأة، وأن يمضي معها في صراع المغازلة إلى أقصى ما تريد من فنون المغازلة، ولكن صحيحا أيضاً أن الكثيرين من

الرجال لا يلبثون أمام المرأة إلا ريثما ترتجف أرواحهم فإذا هم يتطايرون عبيراً وشذى، وإذا هم فنون من الأنغام والصور والشعر والحكمة: في هذه الفنون أودعوا اللهفة والشوق، وبها أزينوا وتبرجوا كما يفعل بعض إخوانهم ممن يخادعون المرأة بقوة أبدانهم، وممن ستهوونها بجاههم وأموالهم

والرجل صريح في كل ضرب من ضروب الغزل هذه. . . ولكن المرأة - لا نقل كاذبة - وإنما نقول متحفظة

والتحفظ إبهام ولو ستر وراءه الصدق

وما لنا نتجشم الدخول إلى نفس المرأة، وهذه مظاهرها أمامنا واضحة؟!

أما نرى المرأة تعني بشئون بدنها أكثر من عنايتها بشئون روحها؟ بل إنها إذا صفت روحها سخرت هذا الصفاء لنعمة جسدها، وحسبته في أسباب أناقتها كأنه زي من أزيائها. . . فكثيرات هن المغنيات والراقصات والممثلات اللواتي يغزلن من فنونهن شباكا يقتنص بها الأغنياء والشبان الوارثين وغيرهم ممن يشترون الجمال بالمال بينما لا يفعل مثل هذا من الرجال الفنانين إلا قلة نادرة شاذة

ثم أن هذا التجمل الذي تدمنه المرأة لا يخرج عن أنه تكلف وأنه شيء يشبه الكذب، فهذا المسحوق الأبيض الذي تذره المرأة على وجهها لتقول به إن بشرتها بيضاء ناعمة ليس فيه من بياض بشرتها ولا من نعومتها شيء وإنما الأبيض الناعم هو. وهذا الدهان الأحمر

الذي (تلطعه) على وجنتيها لتقول به إنها حمراء الخدين ليس فيه من حمرة خديها شيء وإنما الأحمر هو. . . وهذا الطلاء القرمزي الذي تسفكه على شفتيها لتقول به إنها قرمزية الشفتين ليس فيه من شفتيها شيء وإنما القرمزي هو. . . وهذا المشد الذي تربط به خصرها لتقول به إنها نحيلة الخصر إذا انفك ارتاح خصرها فإذا هي كما خلقها الله لا كما تقول بمشدها. وهذا (الكعب) العالي الذي تركبه وتمشي به كما يمشي (البهلوان) على الحبل لتقول إنها سمهرية القد تخلعه في وحدتها فإذا الأرض تبلع منها مقدار ما كانت (تتطاول) بكعبها العالي. . .

والرجل لا يفعل شيئاً من هذا، ولكن المرأة تفعله - ولا نقل إن المرأة به كاذبة - وإنما نقول إنها متأنقة

والتأنق تمويه ولو ستر وراءه الصدق

فهل لا تصلح المرأة للفن إذن وهي غارقة في تحفظها وتأنقها هذين؟ الواقع أن كلا من التحفظ والتأنق يخنق الفن

أما التحفظ فإنه يخنق الفن لأن الفن دائماً يبدأ في نفس الفنان، فليس هناك مغن تغني بعواطف الناس قبل أن يتغنى بعواطفه هو، ليس هناك أديب كتب عن الناس قبل أن يكتب عن نفسه، فإذا لم يكن قد كتب عن نفسه فلا بد أن يكون قد فكر فيها قبل أن يفكر في غيرها من النفوس لأنها أقرب النفوس إليه كما أنه أن لابد ينساب منه حين يكتب عن الآخرين ما يدل عليه وما يستطيع القارئ أن يحكم به على ما يحب وما يكره. ولا ريب أن الوصول إلى ما يحبه المرء وما يكرهه لا تتلوه إلا خطوة قصيرة يقف بعدها المستطلع أمام نفس هذا المرء وجهاً لوجه. وليس هناك رسام ينشر في الناس صورة إلا وهو يضمن هذه الصور جميعاً ما ينجذب إليه من الألوان والأشكال؛ فهو يدل بذلك على ذوقه ونواحي الراحة التي تطمئن إليها روحه ما دام يرسم مختاراً غير مجبر

وهكذا الفنون جميعاً تعلن بصراحة ووضوح عن نفوس أصحابها. زد على ذلك أن الفنون الفذة العبقرية تحتاج إلى جهاد يمارسه - في أغلب الأحيان - أولئك الذين تتملكهم رسالاتهم الفنية فيشعرون أن الإنسانية قد استدارت حولهم فجعلتهم نواة لحلقة جديدة في سلسة الرقي الحسي والفكري الذي ترقاه. وهذا الجهاد وما يصاحبه من ألوان الكفاح

وصنوف الحرمان والتعذيب الروحانيين أو البدنيين يستلزمان من الصبر والعزيمة والقوة والمجالدة والإعراض عن مباهج الدنيا ما لا تطيق المرأة الخفيفة الرقيقة أن تحمله.

فهي بين التحفظ الذي أنشأه عندها الضعف، وبين هذا الضعف الجديد إزاء الحالة العبقرية الطارئة في ضعفين يثقل معهما التكليف بالفن أو يكاد يتعذر، فلا هي قادرة

أن تكشف عن روحها فإذا فعلت فإنها عاجزة عن المضي في حياتها وهي روح عادية.
فإذا لحظنا أنه قد شاعت بين النساء أزياء تكشف عما لزمت المرأة تحجيبه عن الأعين دهوراً من الخجل والخفر، وإذا لحظنا إلى جانب هذا أنه لما تذع بين النساء الصراحة حتى اليوم ولما يرج بينهن الصدق، وأنهن ما يزلن يفضلن من يزوق لهن القول ومن يزيف عليهن الحق حتى بعلمهن، إذا لحظنا هذا وذاك أدركنا أن المرأة تعتقد بإيمان كامن في نفسها أن جسمها خير من روحها، وأنها لو أظهرت من جسمها ما أظهرت فأنها لن تصيب الأعين بالقذى، على العكس من روحها التي تدثرها بالغموض والتحفظ خشية أن تحسب عليها خلجات نفسها.

فلماذا تفعل المرأة هذا؟

أفي نفسها شر مرعب مخيف تتقي أن ينفضح؟!

لا أحسب هذا، وقد يكون كل ما في الأمر أن المرأة متحفظة وأنها تحب ألا تعلن إلا ما يسر الرجل، ولما كانت تربط حياتها بحياة رجل واحد إما أن يكون في الغيب فهي لا تدري ما الذي يعجبه وما الذي يغضبه، وهي لهذا تئد النزوع الفني في نفسها حتى لا ينفر منها أحد، وحتى يقبل عليها كل من يريد أن يتعرف بها فعندئذ تريه ما يرضيه هو لا ما يرضيها هي، وإما أن يكون تحت سمعها وبصرها، فهي تسقيه من خمرها ما طاب له لا ما اعتصرته من نفسها

هذه هي حال المرأة الضعيفة المتحفظة

ويشبه هذا حالها في تأنقها واصطناعها الزينة وفنون التجمل فهذا التأنق ينساب من بدنها إلى روحها، والتأنق لا يخلو من التعمل والتكلف، وهما يباعدان ما بينها وبين الفن الصادق الصحيح إذا أحبت أن تدنو من الفن. والأناقة - كما هو معلوم - لها أزياء تتشكل وتتطور على مر الزمن، وهي تخضع في تشكلها وتطورها للذوق العام الذي تدنيه بين الناس

مؤثرات معقدة متعددة يخضع لها المتأنقون خضوعاً لا يرضاه الفنان ولا يستطيع أن يأخذ به لأنه يحب دائماً ألا يفعل إلا ما يقتنع به هو نفسه وهو يستقي سر إقناعه من نظرته للأشياء ومن تجربته الخاصة ومن مقدار الراحة واللذة اللتين يوفق إليهما. . . والمثل الذي يردده المتأنقون هو قولهم: (كل ما يعجبك وألبس ما يعجب الناس) بينما الفنان - ما دام قادراً - لا يأكل إلا ما يعجبه، ولا يلبس إلا ما يعجبه أيضاً جرياً على نهج الحرية والصدق الذي يسلكه في حياته

فإذا فرضنا أن المرأة استقامت إلى الفن فإنها في أغلب الأحيان لا تفعم نفسها وفاء لهذه الاستقامة، وإنما هي تبعثر من إخلاصها في حقل التأنق مثلما تبعثر في حقل الفن، فهي إذن موزعة الجهد مشتتة الروح، وفنها إذن لا يعدو أن يكون صورة أنيقة لزي من أزياء الفنون الرائجة التي يتحدث الناس بجمالها أو التي أنفقت كثرة من الناس على استحسانها، وهذا هو السبب في أنه لم يكد يحدث أن خطت امرأة خطاً جديداً في لوحة الفن لا لشيء إلا لأن المرأة متأنقة، والأناقة لها قاعدة تبيح للمتأنق أن يبتلع ما يعجبه، ولكنها لا تبيح له أن يظهر أو أن يتظاهر إلا بما يعجب الناس

وقد يرد عليّ نصير من أنصار المرأة فيقول إن من النساء الفنانات من لهن أسلوب فني خاص بهن كممثلات السينما المعدودات في الصف الأول بين الممثلات - والسينما اليوم هي المجال الفني الذي تزاحم فيه المرأة الرجل - وقد يضرب لي نصير المرأة هذا المثل بجريتا جاربو التي يعتبرونها ممثلة السينما الأولى في العالم فإن لها من غير جدال أسلوباً خاصاً بها في تمثيلها، كما أن لكل واحدة من الممثلات المبرزات أسلوباً خاصاً وإلا ما احتسبت بين الممثلات المبرزات

قد يقال هذا، ولكن الرد عليه قريب. وهو لا يكلفنا أكثر من أن ننفي عن جريتا جاربو تمكنها من الإبداع الفني الذي يسر لها أسلوبها الخاص بها في التمثيل، فنحن إذا راجعنا تاريخها لفتنا فيه ذكر ذلك المخرج السويدي الذي لطفت عنده جريتا فأحبها واستدرجها إليه بسطوته الفنية، ثم فجئ العالم بها ولها هذا الأسلوب الناعس الجديد في التمثيل

قد تكون جريتا ناعسة في نفسها ولكنها لم تجرؤ على الظهور في زيها النفسي الصادق إلا برعاية رجل وبمعاونته وتشجيعه، ولا ريب أن هذا الظهور قد خدش في نفس جريتا جابو

تحفظ الأنوثة وتأنقها؛ ولا ريب أن هذا الخدش هو الذي يحملها دائماً إلى التهرب من المجتمعات والى حياة العزلة والغموض التي عرف عنها أنها تميل إليها، وأنها تشتريها بالمال الكثير، فهي إذن قد جزعت من الناس عندما ظهرت لهم على حقيقتها لأنها كانت تحب أن تخفي هذه الحقيقة، ولأنها كمن تؤمن بأن التأنق على ما فيه من التكلف خير من الصدق والحق

ولهذا أيضاً اضطربت حياة جريتا الغرامية، فهي قد أصبحت تعتقد أن الرجال قد وقفوا على حقيقة نفسها، وعلى مسالك عواطفها، فهي لذلك تشك فيمن يتقرب إليها بالهوى وإن أقبلت على واحد منهم فريثما تشعر أنه قد تملك من نفسها عندئذ تفيق ولا ترضى أن تؤمن بأن عاشقها هذا يحبها حباً صادقاً، وإنما تحسبه كالنساء التمس إلى روحها مدخلاً هو ناحية الضعف في نفسها

كل هذه الحيرة، وكل هذا الشك، وكل هذا القلق، لم يعتور النفس جريتا إلا لأنها جزعة نادمة على ما كشفت من نفسها، فهي تسمح للمرحوم جون جلبرت بأن يتقدم نحو روحها حتى يتسلط عليها فتشك فيه وتنتفض من حبه وتهجره، ثم لا تلبث أن تمثل مع رامون نوفارو فتحبه وتحس أنه يحبها، فما تحس هذا حتى تفر منه وتهجره خبل ما بعده خبل. . . أحدثه في نفس المرأة الصدق، وكان حق الصدق أن يفيض بها طمأنينة ودعة

فهل يمكن أن يقال بعد هذا إلا أن الصدق غريب على طبع المرأة؟!

وما دمت قد ذكرت جريتا جاربو، وذكرت بها السينما، والسينما - كما قدمت - هي المجال الفني الذي تزاحم فيه المرأة الرجل، فإني أرى نفسي ميالاً إلى الوقوف عند مشاهدة لا ريب أنها تؤيد ما أذهب إليه من تباعد المرأة عن روح الفن الصادقة. . .

تلك هي أنه لم يحدث أن تصدت للإخراج في السينما ولا في المسرح حتى اليوم امرأة. وإن كان ذلك قد حدث فإنه لابد أن يكون قد حدث في حالة واحدة أو حالتين أو . . .- على الأكثر - حالات لا يمكن أن تزيد على عدد أصابع اليد الواحدة والإخراج في التمثيل - كما يحتاج إلى إلمام ميكانيكي بقواعد الفن، فإنه يحتاج إلى أبلغ النفاذ إلى روح الفن ومعانيه ومراميه، وهو لا يقوم إلا بذوق مستقل خاص يتجلى في الطابع الفني الذي يتميز به المخرج؛ هذا زيادة على ما هو لازم للمخرج من صدق الخبرة بالنفوس والحياة، وصدق الحكم على الفن والفنانين، لأنه بهذه الجرأة الصادقة، وبهذا الحكم الصادق وحدهما يستطيع أن يبرز رواية، وأن يوزع الأدوار فيها، وأن يضمن خروجها وهي أقرب ما يكون العرض الفني من الحياة الطبيعية، وأصدق ما يكون من التعبير عما أراده مؤلف الرواية، وأبلغ ما يكون من تصوير عواطفه وأحاسيسه، وأوضح ما يكون من تحديد أفكاره ومراميه. . .

هذا العمل الفني الجليل المعقد المتشعب لم تجرؤ النساء على الاقتراب منه حتى اليوم، ولا ريب أن الذي يحول بينهن وبينه هو الشيء في طباعهن، فإنهن أنفسهن لا يستطعن أن يدعين أن الرجل - وعلى الخصوص في ميدان السينما الحر الطلق - يعوق سبيلهن أو يحد من مطامحهن.

وأخيراً. . . فلعل القارئ قد لفته مثلما لفتني، أن العبقريات من النساء اللواتي شذذن على هذه القاعدة التي رسمناها اليوم فيهن من الرجولة ملامح منها ما هو ظاهر في أبدانهن، ومنها ما هو كامن في أرواحهن، ولست أريد أن أذكر من أعرفهن بالأسماء فقد يكرهن هذا لبقية باقية من الأنوثة في نفوسهن، وإن كنت لا أحب أن أدع حواء قبل أن أعود فأحني الرأس طويلاً بين يديها متوسلاً إليها أن تجرب - إذا استطاعت - الصدق.

عزيز أحمد فهمي

من هنا ومن هناك

الوجوه ودلالتها على الأخلاق

(ملخصة عن كتاب (وجوه وملامح جديدة) للدكتور ماكسويل مولتز)

يرى الكثيرون أن ملامح الوجه تدل على الأخلاق. فيرون في قصر الذقن دلالة على الحماقة وفي اعتدالها ما يدل على الحزم، ويرون في انحدار الجبهة أو طول الآذان دلالة على البلادة، وفي شيب الشعر وتجاعيد الوجه علامة على كبر السن، وفي غلظ الشفة دلالة على الشهوة

وفهم الأخلاق على هذا الوجه لا قيمة له من الوجهة العملية لقد كانت الملامح في الأزمان الغابرة هي الدليل الوحيد لمعرفة أخلاق الإنسان، إذ لم يكن معروفاً أثر الظواهر الطبيعية في تكوينه. فكانوا يحكمون على نوايا الرجل لمجرد النظر إلى وجهه فيعرفون إن كان من أصدقائهم أو من أعدائهم، وكم أزهقت نفوس بريئة للالتباس في أمرها!

إن الحكم على الطبيعة الإنسانية له أهمية كبيرة في حياتنا الاجتماعية، ولكننا مع ذلك لا نزال نتوسل إليه بالطرق العقيمة التي كان يلجأ إليها آباؤنا الأقدمون في فهم الأخلاق والخبايا

يقول البروفسير (كليتون) إن أصدقاءنا أكثر قابلية للحكم علينا من الأجنبيين، إذ أن الأخيرين يتأثرون في كثير من الأحوال بالمظاهر المألوفة عند أصدقائنا

ويقول (جاسترو) إن الحكم على الإنسان بسلوكه وتعبيره وحركاته وأحواله وكلامه ونبرات صوته أصدق وأولى من الحكم عليه بمظهره

إننا لا نستطيع أن نقول عن إنسان أن له آذاناً طويلة لأنه على جانب عظيم من البلادة، فلماذا نقول عن شخص إنه على جانب عظيم من البلادة لأن له آذاناً طويلة؟ إن العقل لا يقر هذا ولا يقر ذاك، ولكن من المعقول أن نقول إن الطفل الذي له آذان تزيد في طولها عن المعهود، يلاقي بعض المشقات في حياته لخروجه عن المألوف. فيرى من سخرية أصدقائه ما يجعله يؤثر العزلة والانزواء في غالب الأحيان وفي ذلك ما فيه من التأثير على حياته وأعماله، ولكننا لا نستطيع مع ذلك أن نجعل الوجه دليلاً على شخصية الرجل، فيكفي لنفي ذلك أن نعرف التأثرات التي تعترض الطفل وهو يقضي تسعة أشهر في بطن

أمه مما لاشك فيه أن قبح الوجه له تأثير في حياة الإنسان، قد يؤدي إلى إفساد معيشته وتعكير صفو سعادته، ولكن الجراحة في هذه الأيام قد تقدمت إلى الدرجة التي تجعلها تتغلب على ذلك، فتيسر للإنسان التخلص من هذا الشذوذ، فيتغير تغيراً تاماً يختفي على أثرة الشعور بالاحتقار والسخرية ويحل محله الثقة بالنفس مضافة إلى حسن المظهر

كتب لا تقرأها - عن (جون أولندن)

إذا تتبعنا تاريخ الأدب منذ أقدم العهود لا نلبث أن نرى بين فترة وأخرى صورة من تسلط القوة على الآراء وحجرها على حرية الفكر. فنعلم أن كثيراً من المؤلفات الثمينة والمذكرات ذات الأثر الفعال في إظهار الحقائق التاريخية والاجتماعية قد قضى عليها بعدم الظهور

ولعل أول حادث من هذا النوع كان في سنة ألفين قبل الميلاد إذ أمر الإمبراطور (شي هيانج تي) بإحراق مؤلفات كنفشيوس الأدبية لحنقه عليها وتفضيله غيرها من المؤلفات المبنية على الحقائق العملية: كالكيمياء والزراعة والطب.

ولقد صودرت منذ ذلك الحين كتب نفيسة لهومير وكانت وابش وبودلير وروسو وجاك لندن ود. هـ لورنس وابتون سنكلير وغيرهم من الكتاب الذين ذاعت شهرتهم في العالم

وإذا كان لك الحظ في زيارة المتحف الإنكليزي أمكنك أن ترى مجموعة كبيرة من الكتب القيمة والمذكرات الهامة محفوظة في قسم خاص، حيث يقوم بالمحافظة عليها موظفون وأمناء ومساعدون. فتجد في هذا القسم مذكرات خاصة لبعض رجال السياسة، وخطابات وتراجم لكثير من عظماء الرجال وكتب ورسائل في كل فن وصى عليها جميعاً بأن تحتجب عن الأنظار.

من ذلك مذكرات لسير هنري الذي كان رئيساً للوزارة الإنجليزية وزعيما لحزب الأحرار، وقد مضت سنين عديدة وهي في مكانها من ذلك المتحف تحت مراقبة إدارة حفظ المطبوعات

لقد كان كامبل من رجال السياسة المعروفين بكرم الأخلاق والنزاهة، وهو فوق ذلك بعد من السياسيين الأفذاذ. فماذا كتب في تلك المذكرات؟ قد يظهر ذلك في المستقبل القريب. وإلى أن يحين ذلك الوقت ستظل محجوبة عن الأنظار المتعطشة تحت إشراف إدارة حفظ

المطبوعات هي وعشرات غيرها من المذكرات والمستندات والخطابات التي لم تظهر للعالم. ولم يغرب عن البال قصة الخطابات التي خلفها القصصي المشهور شارلز دكنز، فقد أرسلت مسز بيروجيني ابنة الكاتب الكبير إلى برنارد شو تستشيره في أمر هذه الخطابات التي عانت أمها كثيراً في سبيل المحافظة عليها وبقائها بغير تلف. فأجابها شو بضرورة إرسالها إلى إدارة حفظ المطبوعات في المتحف البريطاني، لعل أحدا من الكتاب يحتاج إلى شيء منها للكتابة عن أبيها، وقد استمعت مسز بيرجيني لهذه النصيحة، ولكن هذه الخطابات بقيت في مكانها من المتحف دون أن تمسها يد أو يطلع عليها إنسان إلى أن مات آخر أبناء دكنز.

ويسري قانون حفظ المطبوعات على المؤلف في إنجلترا طول حياته، ويستمر إلى ما بعد وفاته خمسين عاماً. إلا أن مذكرات رجال السياسة والأوراق الرسمية التي لا تسري عليها القوانين العامة قد تبقى أربعة أجيال أو خمسة بعد وفاة أصحابها إذا قدر لها ظهور في يوم من الأيام

أما الكتب والروايات المألوفة التي يشتبه فيها لسبب من الأسباب، فلها قسم آخر وبعضها منع ظهوره للجمهور والبعض الآخر حدث منه الأجزاء التي لم يسمح بها مثل كتاب قوس قزح وليدي شاترلي لد. هـ لورنس ودراسات في سيكلوجية الجنس لهفيلوك إليس، ومن الأعماق لأوسكار وايلد

وقد أخذت النسخة الأصلية من الكتاب الأخير لعرضها على المحكمة في ظروف قضائية معروفة، ولكنها لم تظهر بعد للجمهور، أما النسخة المتداولة من هذا الكتاب فقد حذف منها الشيء الكثير

سياسة المحور في أمريكا الجنوبية - عن فورتنايتلي

لم تكن سياسة المحور في أمريكا الجنوبية بالشيء المجهول، فلألمانيا وإيطاليا صلة قديمة بهذه البلاد، إلا أن المحاولات الاقتصادية والسياسية التي ظهرت أخيراً، لم تعرف لبريطانيا العظمى إلا في هذه الأيام.

فمع الحملات التي تقوم بها ألمانيا وإيطاليا ضد الاشتراكية، نراها تعمل لتقليل الثقة بديمقراطية بريطانيا وتجاربها في الأسواق التجارية حرباً لا هوادة فيها.

وقد تكون ألمانيا أكثر الدولتين تحمساً لضم أمريكا الجنوبية إلى سياسة المحور، وعلى الأخص تلك الجهات التي لها علاقات قديمة ببرلين كالأرجنتين وبها مائة ألف ألماني، والبرازيل، وفيها عشرة أمثال هذا العدد. وتقام الاحتفالات النازية في بونس إيرس كما تقام في ألمانيا، وقد اتخذت الاحتياطات الشديدة في الأنحاء الألمانية في الأرجنتين لتطهيرها من الجنس الغير الآري.

ويخالط الألمان الأمريكيين اللاتينيين في الأعمال والمجتمعات بحالة لا يصل إليها البريطانيون وسكان أمريكا الشمالية؛ فإذا أضفنا إلى ذلك الكراهية التي تحملها الأرجنتين للاشتراكية عرفنا كيف يتحمس الأهالي للألمان.

فالجيش في تلك البلاد مأخوذ في نظامه بالأساليب الألمانية، وتلقى الكثير من ضباطه دروسهم الحربية في بوتسدام. أما الأسواق التجارية فقد اختفت منها البيوت المالية الإنجليزية وأخذت المحلات التي تروج التجارة الإنجليزية تقل شيئاً فشيئا.

لقد كان في البرازيل ألمان منذ سنة 1843 ولكن عددهم لم يكن محسوساً، أما الآن فلا يقل عدد الألمان في تلك البلاد عن مليون نفس، وفي جنوب هذه الجمهورية وعلى الأخص سنتا كاثرينا وبرانا وريوجراند دوسيل ينحدر أكثر السكان من أصل ألماني، ويقوم حكام وبوليس من الألمان في كثير من البلدان، وقد قامت البرازيل بحركة شديدة لمقاومة الدعاية النازية، وعلى الرغم من ذلك فقد حلت ألمانيا محل الولايات المتحدة في المعاملات التجارية، وأصبحت الآن أعظم الدول التي تستورد القطن من تلك البلاد وهي فوق ذلك تستورد النيكل والزيت بمقادير هائلة منها

ويتسع نفوذ الألمان كذلك في شيلي، ولا شك أن وجود خمسة وعشرين ألف ألماني في هذه المملكة يجعل لها تأثيراً كبيراً من الناحيتين السياسية والتجارية

وقد اصبح أكثر ضباط الجيش في بوليفيا من الألمان، وقد أرسلت ألمانيا إلى بوتسدام ثلاثة من الضباط للتمرن على الأعمال الحربية الحديثة بها

أما الفاشيست فقد أخذوا يزاحمون البضائع الإنجليزية في الأرجنتين بعد أن كانت بغير

مزاحم، وفي شيلي تلاقي الآلات والعدد الإيطالية رواجاً عظيما
أما بيرد فهي أكثر المناطق الأمريكية اتصالاً بإيطاليا، ويقدر ما يسخر فيها من الأموال الإيطالية بأكثر من عشرين مليون جنيه؟ وفي اكيادور يقوم على تعليم الطيران فريق من الإيطاليين. وفي فينزيولا تقوم فرقة من المدفعية الطليان بإصلاح الجيش. وقد أصبحت هذه الحالة مقلقة لبريطانيا والولايات المتحدة، لا لأن ألمانيا وإيطاليا تستعمران هذه البلاد، فإن ذلك ليس في الحسبان، إذ أنه في الحقيقة غير مستطاع، ولكن ألمانيا وإيطاليا تستفيدان من تلك البلاد المواد الضرورية لها إبان الحروب، فإن لم يكن ذلك فهي تستطيع على الأقل أن تعمل عملاً لمنع تلك المواد عن بريطانيا والولايات المتحدة

البريد الأدبي

التحرر الأدبي ووزارة المعارف المصرية

ليست هذه الكلمة مناقشة للأستاذ أحمد أمين في رأيه التحرر من سلطان الأدب الجاهلي، وإنما هي تعليق على مقالته الثانية في الثقافة وقوله فيها: (أناشد الأدباء والشعراء أن يستمدوا تشبيهاتهم واستعاراتهم مما بين أيدينا من مخترعات، وألا يستعملوا مالا يحسون ولا يعلمون من تشبيه، وأناشد المعلمين أن يعلموا بالخط الأحمر على الاستعمالات التي يستعملها الطلاب الخ. . .)

كيف يستطيع المدرسون ذلك وأمامهم الأكبر ومن تجب عليهم طاعته يذهب من مصر إلى العراق ليرثي ملكا عصرياً توفي من أربعين يوماً، فلا يجد من التشبيهات والاستعارات إلا ما كان يستعمله الشعراء من ألف سنة، فالقدر له سهم (ولن يستطيع العالمون له رداً) والمصاب له سهم آخر أصاب الهاشمية (بعد ثلاثة أبيات)، فهل يقاتل الجيش المصري اليوم بالسهام؟ فما قيمة هذا التشبيه إذن في رأي أستاذنا الجليل أحمد أمين؟ وما قوله إذا كان هذا السهم (العجيب) قد هدّ من العلياء أركانها هدًّا، (فلم يبق للعراق بعده ركن في العلياء قائم. أليس هذا هجاء لأمة في رثاء رجل؟) وإذا كان قد أطفأ نور الشمس وأضرَم المجدا، هل شاهد الأستاذ الجارم الشمس منطفئة فاستعمل ما يحسّ ويعلم من تشبيه؟ وهل رأى هذا (الند) الذي يذكره مع المسك أم كل ما يعرف عنه انه شيء ذكره المتقدمون؟ وذكرُه السيف وسيوف الليالي، أهو من وحي هذا العصر عصر النار والغاز والبارود أم هو التقليد؟ وهؤلاء الذين يبطشون أسداً، أعن حسّ وعلم بالأسد وصفهم الجارم، أم هو قد أخذ المثال النحوي (كرّ على أسداً) من بحث الحال في الكتاب النحو الذي ألّفه؟ ويسأل السيف عن جند العراق كيف صال بكفهم، وهو يرى جند العراق يتنكبون البنادق ويحاربون بالبارود، أفعن تقليد قال ما قال، أم عن مشاهدة وعيان؟ والسلاف تمزج في حانات مصر بالشهد، وتخلط الشمبانيا في خمارات عماد الدين بالعسل، أم الأستاذ يقلد؟ وأياً ما كان الأمر فما هو وجه الشبه بين غبار النصر وهذه السلاف؟

وقوله في غازي رحمه الله: (فتى تنبت الآمال من غيث كفه) أليس إعادة لأقوال المتقدمين يوم كانوا يتمدحون بالكرم ويوم كان الغيث حياتهم في الجزيرة، وتتمة البيت (فلله ما أولى ولله ما أسدى) أليس كلاماً فارغاً، وتشبيه تلال الصحراء بالجمال أعن حسن كان وعلم؟ أفي رحبة وزارة المعارف حيث يقيم الأستاذ، أم في شوارع القاهرة رأى هذه الجمال (التي لا تساق ولا تحدي) أي ولا يحدي بها. . . وكيف رأى في ثنايا وجه فيصل الصغير الوديع (الأسد الوردا) مع أنه لم يشاهد في حياته أسداً إلا محبوساً في قفص الحديقة؟ وقوله في الختام: (سلام على غازي سلام على الندى، إذا ما بكى من بعده الترب والندى)، أيعد له في باب التقليد والجمود شيء؟ أي ندى وأي ندّ يا سيدي إليك؟

فمن أين يستطيع المدرسون اتباع رأي الأستاذ أحمد أمين وإمامهم الجارم بك هذه حاله وهذا مقاله. وأنى لوزارة المعارف أن تحرر الأدب وتعلو به في مدارج العلا وهؤلاء السادة يمسكون بتلابيبها أن تتزحزح أو تريم؟

(بغداد)

ع. ط

تاريخ البيمارستانات في الإسلام

هذا عنوان الكتاب الذي أخرجه العالم المصري أحمد عيسى بك، وقد نشرته جمعية التمدن الإسلامي بدمشق ووقفت (ريعه على المشاريع الخيرية). والكتاب غزير المادة يعرض نشأة البيمارستانات (أي المستشفيات) ونظامها وأطبائها وأرزاقها، وما تحت ذلك من شئون الطب والصيدلة مما يتصل بالتحصيل والمعالجة ومراقبة أهل الصناعة.
ويلي ذلك إثبات البيمارستانات في البلاد الإسلامية المختلفة على وجه التفصيل منذ العهد الأول حتى العصر الحاضر، أي حتى إنشاء مستشفى أبي زعبل بضاحية القاهرة سنة 1825
وفي الكتاب أخبار وفوائد لم تدوَّن في المؤلفات السابقة، إذ أخرجها المؤلف من الكتب التي لا تزال مخطوطة نحو تاريخ حكماء الإسلام لظهير الدين البيهقي، وكتاب قطف الأزهار في الخطط والآثار لأبي سرور البكري
وفي الكتاب مسرد للبيمارستانات؛ وكان يحسن بالمؤلف العالم أن يقيم مسرداً آخر للأطباء

المسيو أميل فابر ومقدرته المسرحية

استقدمت وزارة المعارف المصرية من زمن غير بعيد المسيو ليرى رأياً في الفرقة القومية وينظر في المسرحيات التي نترجمها أو نؤلفها. ومن الظريف أن المسيو فابر ألف أول هذا الشتاء مسرحية مثلتها فرقة مسرح الأوديون في باريس، واسمها - وقد سقطت هذه المسرحية سقوطاً مزرياً وعابها النقاد بشدة، وذلك لشحوب الفكرة التي تقوم عليها، ولمشاهدها الملفقة، ولأشخاصها المُملَّة. هذه المسرحية لا تعرف الفن ولا التفكير؛ إنها من مناقص المسرح الفرنسي (راجع مثلاً (المجلة الفرنسية الجديدة) باريس أبريل سنة 1939 ص 680)

ب. ف

مباريات جديدة للإنتاج الفكري للفنانين والمصورين

أقامت وزارة المعارف في السنة الماضية مباريات للإنتاج الفكري اشترك فيها مدرسو المدارس الأميرية والحرة وكليات الجامعة
وعند بحث الرسائل التي قدمت ظهر أنها لا تستحق الجائزة المقررة لكل منها وقدرها مائة جنيه فمنحت أصحابها 50 جنيها.
ورأت الوزارة أن تضع نظاماً جديداً لهذه المباريات وإنشاء مباريات أخرى يشترك فيها المدرسون وغير المدرسين والفنانون والرسامون.
ويقضى النظام الجديد بأن تقسم تلك المباريات هذا العام إلى ثلاث وهي:
أولا: مباريات يشترك فيها المدرسون في المدارس الأميرية والحرة وكليات الجامعة، وعدد موادها ست مواد ولها جائزتان أولى وثانية.
والرسالة التي تنال الجائزة تعتبر ملكاً للوزارة، ولها أن تطبع منها ما تراه جديراً بالطبع وأن تعطي المؤلف 25 في المائة منها
ثانياً: مباريات للثقافة العامة يشترك فيها جميع رجال الأدب والمدرسون ولها جائزتان أولى وثانية.
ولا تعتبر الرسالة التي تنال الجائزة ملكاً للوزارة ولكن لها الحق في أن تشتري حق التأليف إذا رأت ذلك.
ثالثاً: مباريات للفنانين والرسامين ولها جائزتان أولى وثانية. على ألا تعتبر الجائزة التي تمنح بمثابة شراء للوحة التي تنال الجائزة، وللوزارة الحق في أن تشتريها إذا رأت ذلك.
وللوزارة الحق كذلك في ألا تمنح جائزة عن كل أو بعض الرسائل. ويجوز لها أن تقسم الجائزة الواحدة على أكثر من رسالة

وزارة المعارف العراقية تشجع حركة التأليف

ذكرت البلاد البغدادية أنه بناء على المبالغ التي رصدتها وزارة المعارف في ميزانيتها لهذه السنة لإنفاقها على تشجيع المؤلفين والكتاب ليضعوا الكتب والمؤلفات المفيدة القيمة عزمت على تأليف لجنة من كبار الأدباء والشعراء من وطنيين وغيرهم من البلاد العربية لتعرض عليها كافة الكتب التي ستقدم إليها لتقدير قيمتها الأدبية وما يستحقه أصحابها من المنح والهدايا
وعسى أن يجئ اختيار وزارة المعارف لهذه اللجنة على غير الطريقة التي درجت عليها

في تأليف بعض لجانها من الرجال المتصلين بها في الوظائف والمدارس فقط
معلقة الأرز لنعمة قازان
جثمت المادة على الروح في هذا العصر حتى كادت تزهقها، ولم يقنع شيطان الشر بكتم أنفاس الفضيلة والخير في نفوس الناس وإنما مد يده إلى أسمى الفنون وأرفعها يريد أن يقبض على أعناقها وأن يلوى بها إلى الحضيض ليهشمها فيرتاح بعدها من هذه النزعة التي تنزعها الحياة إلى الله. إذا صحت وانتبهت في غفلة منه إلى الحق والجمال والطلاقة
ولكن هذه الفنون ما زالت هي البقية من شذى الإنسانية المتمردة. على المادة الساخرة من حياة الأرض
هذه هي الفنون الحارة التي يشعلها الله في بعض النفوس لتنير الظلمات أمام أعين تحب النور؛ ومن هذه الفنون الشعر، وأقدمها ما حام حول الجمال والحق، وأبهاها ما تحرر من كل قيد أراد العقل الأرضي أن يغلل به رقصات الروح، واسماها وأقواها ما استطاع أن ينتشل العقل من وهدته وأن يخطفه فيطير به في معارج الصفاء حيث لا حقد ولا ضغينة
ولا غل ولا كراهية، وحيث يشيع الحب ويملأ الفضاء بأعذب أنفاس التسبيح
ومعلقة الأرز للشاعر التقي نعمة قازان من هذا الشعر الذي يلهمه الله ولا تتصيده العقول
وهي شعر لا يوصف ولا يحلل؛ وإنما تقرأه فإذا هيأ الله روحك لاستساغته وجدت نفسك تنشده أو تنشد ما يمثله. . فإن لم تفعل فهي الألفاظ التي تتدلل عليك
عزيز أحمد فهمي
الطفل ووالدته في العالم
صدر أخيراً كتاب باللغة الفرنسية عن (الطفل ووالدته في العالم) تولت الإشراف على إصداره وطبعه مدام هومفري دونفروا واشتركت في تحريره 91 سيدة من الكاتبات يمثلن 55 بلداً من بلدان العالم
وقد جاء هذا الكتاب تحفة نادرة في بابه. ونحن إذ نسجل ثمرة هذا المجهود الجبار الذي استغرق قرابة ثمانمائة صفحة يسرنا أن ننوه بما لحضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول من الفضل في صدوره، إذ تكرمت جلالته فشمل القائمات بأمر هذا السفر النفيس بعطفه الغالي، ومنحهن من المساعدة المادية ما شجعهن على المضي في مشروعهن العظيم تحت رعاية جلالته السامية، وقد نوهت مدام هومفري دونفروا في مقدمة الكتاب بهذا العطف الملكي الكريم وأشارت إلى أنها وجدت في هذه المساعدة المادية أكبر مشجع أدبي لها
وقد حلى صدر الكتاب بصورة رائعة لصاحب الجلالة الملك ووضع مقدمته الكاتب الكبير جوزيف دي بسكيدو، وتتوالى الأبواب بعد ذلك عن الطفل وأمه في البلدان المختلفة في قارات العالم الخمس، وإذا كانت العادات والتقاليد الخاصة بنشأة الطفل وتربيته تختلف بين بلد وآخر فإنها تلتقي كلها في تلك العاطفة النبيلة التي تربط الأم بطفلها والتي تقوم بفضلها أركان الأسرة (لمجد الله وعظمة الوطن)
وقد تولت الكتابة عن (الطفل وأمه) في مصر السيدة الجليلة هدى هانم شعراوي فأشارت إلى ما يشيعه مولد الطفل من السرور والأمل في جميع الأسر، ولا سيما إذا كان المولود ذكراً، وذكرت الآية الحكيمة: (المال والبنون زينة الحياة الدنيا).
اكتشاف علمي خطير - تولد قوة من الذرات
في جميع مختبرات العلوم الطبيعية في العالم يعالج العلماء نهاراً وليلاً الذرات طمعاً في أن يستخرجوا منها القوة التي قال عنها العلامة بول بانليفه (حينما يتحقق ذلك الأمر تستطيع القوة الكامنة فيها أن تدمر أسطولاً متيناً كالأسطول الإنكليزي). وكان بانليفه يقصد بقوله هذا أن يبين حقيقة القوة المخبوءة في مادة يزعم الناس أنها جامدة. على أن الأستاذ شارل تيبو المدرس بكلية العلوم بجامعة ليون وفق إلى تحليل ذرات الأورانيوم المعدود أثقل العناصر الكيميائية المعروفة، فنشأ عن ذلك قوة تزيد على مائة مليون (فولت). وقد قال الأستاذ تيبو في هذا الصدد: (يبقى الآن حصر تلك القوة واستخدامها من الوجهة العملية، وهذا الأمر كفيل به الزمان والجهود التي يبذلها علماء الطبيعة. أما نحن فقد عالجنا الأورانيوم معالجة جدية، وتمكنا من تحليل ذراته

وتأليف عناصر كيميائية منها تختلف عن الجسم المفكك، وأن القوة المنتجة منه تفوق أي قوة يستطاع الحصول عليها بحيث لا يهمنا في المستقبل نفاد الفحم في مناجمه، فالذرات تعطينا قوة لا حد لها، والمسألة الوحيدة التي تبقى لدينا هي أن نعرف طريقة استعمال هذه القوة الجديدة)

ويستنتج من بحوث أساتذة جامعة ليون أن كل مختبر يستعين بأجهزة جديدة، وأنه يجب تفاهم أولئك العلماء وتوحيد جهودهم لإدراك الضالة التي ينشدونها. فالأورانيوم المفككة ذراته ينشئ عنصرين جديدين من الذرات يساوي ثقلهما نصف ثقل الأورانيوم، وهم يبتغون معالجة تفكيكهما أيضاً، وحينئذ يتمكنون من إيجاد مادة أساسية لا يندر وجودها كالأورانيوم نفسه ليتسنى لهم مواصلة التجارب على غير النمط الذي يسيرون عليه في المختبر

مؤتمر التربية الحديثة

يعقد المركز العام لرابطة التربية الحديثة مؤتمراً أوربياً في الفترة القائمة بين 2 و 10 أغسطس القادم للبحث في الوسائل المؤدية إلى المثل الأعلى للديمقراطية. وسيرأس الاجتماع المسيو بول لنجفين أستاذ التربية، وسيشهده كثيرون من رجالات التربية في فرنسا وإنجلترا

ويتناول المؤتمر عدا الموضوع السابق بحث المشاكل التي يجب أن يحلها المربون باشتراكهم في الحياة العامة، والخطة العملية التي يمكن تنفيذها في المستقبل على ضوء الإعداد المهني والاجتماعي للمعلمين وجعل الطفل مواطناً صالحاً. وقد أخطر المركز الرئيسي للرابطة الفرع المصري برؤوس هذه الأبحاث

في اللغة. . . (جاءته كتابي)

جاء في الجمهرة لأبن دريد (ج. أ. ص319) ما نصه: ورجل لغب: ضعيف بين اللُّغابة واللغوبة. . . وأخبرنا أبو حاتم عن الأصمعي قال: قال أبو عمرو بن العلاء: سمعت أعرابياً يمانياً يقول: فلان لغوب جاءته كتابي فاحتقرها. فقلت: تقول جاءته كتابي؟ فقال: أليس بصحيفة؟ فقلت له: ما اللغوب؟ فقال: الأحمق).

وجاء في اللسان مادة (كتب): (حكى الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء أنه سمع بعض العرب يقول: وذكر إنساناً: فلان لغوب جاءته كتابي فاحتقرها. فقلت له: أتقول جاءته كتابي؟ فقال: نعم. أليس بصحيفة؟ فقلت له: ما اللغوب؟ فقال: الأحمق

وقد يحسن أن أذكر هنا ما رأيته في الجمهرة أيضاً (ج2: 70). وهو (ويقولون: ما كان هذا مذ دجت الإسلام. قال: أو حاتم: قلت للأصمعي: لم أنثوا الإسلام؟ قال: أرادوا الملة أو الحنيفية).

قلت: ومنه الحديث: (ما رؤى مثل هذا منذ دجا الإسلام) وورد في رواية أخرى: (منذ دجت الإسلام). فأنث على معنى الملة والشريعة. . . ومما يناسب أن أذكره هنا أيضاً ما رأيته في الكامل للمبرد (ج3: 386) لأعشى بأهلة يرثى المنتشر بن وهب:

إني أتتني لسان لا أسر بها ... من علولا عجب منها ولا سخر

وقد فسره المبرد فقال: (وأراد باللسان هاهنا الرسالة).

عبد العليم عيسى

كلية اللغة

رسَالة النقد

في سبيل العربية - 6

كتاب البخلاء

للأستاذ محمود مصطفى

هذا هو المقال السادس في نقد عمل الأستاذين الكريمين العوامري بك والجارم بك في شرحهما لكتاب البخلاء للجاحظ. وما ندري هل بلغنا رضاهما في هذا العمل، وقد خدمنا به الكتاب خدمة إذا أضافاها إلى خدمتهما له خرج الكتاب نافعاً مرجو الفائدة؟ قد كان الرضا منهما هو الأشبه بخلقهما والأولى بحرصهما على الحقيقة، ولكني لا أسمع إلا حكاية امتعاض ولوم، وما أظن إلا أن القارئ طالب فائدة؛ فليس يهمه أن ننث عتابنا ومكثر اعتذارنا بين يديه، فلنمض فيما نحن فيه مستعينين الله أن ننتهي من نقدنا في هذا المقال إن استطعنا حتى نريح ونستريح

في ص 115 يقول الجاحظ في تصوير جشع الحزامي: (إنه لو أعطى أفاعي

سجستان، وثعابين مصر، وحيات الأهواز لأخذها)
ويعلق الشارحان على الحيات والأفاعي والثعابين تعليقاً ينطق بأن الحيات هي الثعابين أو الأفاعي، وأن الثعابين هي الحيات أو الأفاعي، وأن الأفاعي هي الثعابين أو الحيات. وللشارحين بعض العذر في ذلك، فإن كتب اللغة يكثر فيها ذلك النوع من الإحالة في التعاريف، ولكنه عيب يجب ألا نقره نحن الذين سيكون على يدنا إصلاح كتب اللغة وتلافي عيوبها
إن الذي يحاول أن يتخلص من ذلك العيب يجد في كتب اللغة نفسها المخلص منه. ففي المقام نفسه الذي يقول فيه صاحب القاموس: الحية (م) أي معروف نجد كتباً أخرى ومواضع من القاموس نفسه يمكن أن نستخلص من ثناياها فروقاً تجزئنا أو تنجينا من التهافت
ذلك أننا نرى في القاموس المحيط: الثعبان: الحية الطويلة الضخمة، وفي المصباح: الأفعى: الحية الرقشاء الدقيقة العنق العريضة الرأس التي لا تزال مستديرة على نفسها لا
ينفع منها ترياق.
فهذه تفرقة إذا كان الشارحان قد اتجها إليها في شرحهما بانت قيمة كلام الجاحظ، وأنه إنما كان يعني أن هذا النوع في مصر مشهور بالضخامة والطول وأنه في سجستان على الصورة التي مثلها صاحب المصباح. هكذا
على أنه لو لم تكن بين هذه الأنواع تلك الفروق التي ميزناها بها لصار في كلام الجاحظ فضول يجب علينا أن نتلمس له العذر فيه؛ إذ كيف يعطف هذه المترادفات ومعناها واحد لا يزيد ولا ينقص. إنه إذ ذاك يكون كلامه بمثابة قولنا ثعابين مصر وثعابين الأهواز وثعابين سجستان. فهل يرضى أحد منا للجاحظ بمثل هذا التهافت والتكرار المزري، إنني إزاء هذا أرى أنه كان من الواجب (لو لم أجد للجاحظ هذا المخرج من كتب اللغة) أن أقول إنه إنما كرر هذه الألفاظ ليدل على العرف الجاري في هذه البلاد، فهذا النوع في مصر يسمى بالثعابين وفي سجستان بالأفاعي وفي الأهواز بالحيات. حينذاك يستريح القارئ وتبقى لبلاغة الجاحظ صورتها الجميلة التي له في نفوسنا والتي يجب أن نحرص على بقائها كذلك
ص 129 ورد في وصف الجارود وأبي الحارث جمّين أنهما يمتحنان ما عند الناس بالكُلَف الشِّداد
فيقول الشارحان في ذلك ويمتحنان الخ أي ينزلان المحن بما عند الناس من المال بسبب هذه الكلف الصعبة. وأقول إن تفسير الامتحان بما فسراه به تكلف شديد جداً. وعندي أن الامتحان هو بمعناه المتبادر الذي يملأ عقول الطلبة والمعلمين خصوصاً في هذه الأيام وهو الاختبار، والمراد بامتحان ما عند الناس اختبار أخلاقهم ومعرفة مدى كرم نفوسهم ص 131 يقول الجاحظ: سئل جمّين عن جود محمد بن يحيى فقيل له: كيف سخاؤه على الخبز خاصة؟ قال: (والله لو ألقى إليه من الطعام بقدر ما إذا حَبَس نَزْفَ السحابِ ما تجافى عن رغيف)
ثم يقول الشارحان في معنى ذلك: أي لو أعطى من الطعام مقداراً لو جعل كومة واحدة فارتفعت حتى وصلت إلى السحاب فمنعت ماءه من أن يصل إلى الأرض ما تجافى الخ، ثم يقولان بعد كلام: ووضع (إذا) في العبارة غريب أهـ. والواقع أن وضعها على حسب
شرحهما ليس غريباً إذ قد وقعت موقعها وتوافر في العبارة شرطها وجوابها، فكيف يكون وضعها غريباً إذا تم لها ذلك وقد جرى الشارحان في شرحهما على اعتبار أصالتها بدليل أنهما استعاضا عنها في الشرح بلو. . .
ونحن نعترض على ضبط العبارة وشرحها، فأما الضبط فنرى أنه كان ينبغي أن يكون هكذا:
(إذا حُبسَ نزفَ السحاب . . .) وأما المعنى فهو: لو قدم إليه من الطعام مقدار إذا جمع بعضه فوق بعض وصل إلى السحاب فاحتك به وتشرب ماءه، ما تسامح في رغيف منه مع هذه الكثرة وقد نتكلف تصور ارتفاعه إلى السحاب. بل يكفي في تمثيل كثرته أنه لو سقط عليه ماء السحاب لتشربه، وعلى هذا يكون قوله: (ما تجافى رغيف) جواباً للو، لا لاذا

في الحديث عن مغرم أصحاب الدور يورد الشارحان عبارة الأصل هكذا (ص152):
(فإذا قسمنا الغرم عند انهدامها بإعادتها، وبعد ابتنائها، وغرم ما بين ذلك من مرمتها وإصلاحها، ثم قابلنا بذلك ما أخذنا من غلاتها وارتفقنا به من كرائها خرج على المسكن من الخسران بقدر ما حصل للساكن من الربح).
ويشرحان هذه العبارة المضطربة شرحاً يأتي مثلها مضطرباً. ولسنا بحاجة إلى بيان اضطراب الشرح وإنما نكتفي ببيان اضطراب الأصل فتقول: إن كلمة قسمنا لا موضع لها في الكلام إذ القسمة تقتضي شيئاً يقسم، ولسنا نرى هنا أقساماً فصلها القائل في كلامه وإنما صواب الكلمة قسنا، والقياس هو التقدير والحساب. وهنا قاس المتكلم غرم صاحب المنزل في بنائه أولاً ثم إعادته بعد تهدمه، بما حصل عليه من كراء فخرج القياس بخسران المالك وربح الساكن. كذلك نرى أن الواو في عبارة (وبعد ابتنائها) مقحمة تفسد المعنى والصواب حذفها فكان ينبغي أن تكون الجملة هكذا
(فإذا قسنا الغرم عند انهدامها بعادتها بعد ابتنائها، وغرم ما بين ذلك من مرمتها وإصلاحها ثم قابلنا بذلك ما أخذنا من غلاتها وارتفقنا به من كرائها، خرج على المسكن من الخسران بقدر ما حصل للساكن من الربح)
(بقية المقال للعدد القادم)
محمود مصطفى
العدد 310 - بتاريخ: 12 - 06 - 1939
بمناسبة تبرع اللورد نفيلد نسأل:
هل لأغنيائنا وطن؟!
من أنباء البرق الأخيرة أن اللورد نفيلد صاحبَ مصانع سيارات (موريس) الإنجليزية قد تبرع للدفاع الوطني البريطاني بمليون ونصف من الجنيهات، ووضع مصانعه الكبرى تحت تصرف وزارة الدفاع، فبلغت بذلك جملة هباته للوطن في مدى عشر سنوات خمسة عشر مليوناً ونصفاً من الجنيهات على رواية الصنداى إكسبرس! فإذا قرأت هذا وتذكرت ما تبرع به زخاروف وأفيروف وكوتسيكا وأنطونيادس للجيش اليوناني وهم من رجال الأموال والأعمال في مصر، لا يسعك إلا إن تسأل كما أسأل: هل لأغنيائنا وطن؟
الواقع الذي لا مراء فيه أن ليس لأغنيائنا وطن، إنما لهم قصور لإتلاف النعمة، ومزارع لعصر الفلاح، وبرك لصيد البط، وميادين لسباق الخيل، وأندية لقتل الوقت، ومنازه لإظهار الأبهة. وما عدا ذلك من أرض الوطن ومعنى الوطن فهم لا يعرفونه ولا يفقهونه!
هل سمعت أن غنياً من الأغنياء أو أميراً من الأمراء قال إن له وطناً فتبرع له بطائرة في الجيش، أو بجائزة في المعارف، أو بكرسي في الجامعة، أو بمستشفى في الصحة، أو بملجأ في الأوقاف؟
لا تقل في تعليل هذه الفردية الشحيحة: إن أغنياءنا جهلاء العقل، وأمراءنا غرباء العاطفة؛ فإن الوطنية عصبية طبيعية تقتضيها سنة الحياة، فتكون في رجل الفطرة تعصباً للأسرة، وفي رجل البداوة تعصباً للقبيلة، وفي رجل الحضارة تعصباً للأمة، وفي رجل الإنسانية تعصباً للعالم
ولئن سألتني عن تعليل ضعف الوطنية في هؤلاء الناس لأقولن لك إني عنه عاجز؛ فإنهم لا يزالون يشعرون بها شعور الفطرة الضيقة المحدودة. ومن الصعب على العقل أن يتصور أن أصحاب السمو وأصحاب المجد وأصحاب السعادة لا يجدون في أنفسهم من الحب لمصر الحبيبة الخصيبة، ما يجده الإنسان الفطري للغابة السليبة والبادية الجديبة!
يكاد النيل يعتقد أن أكثر الأجانب الذين يعيشون فيه، هم خير له من أكثر الأغنياء الذين يعيشون عليه! لأن أولئك يعاملونه معاملة الراعي الذي يحلب ويرعى، وهؤلاء يعاملونه معاملة العلق الذي يمتص ويهمل. فأينما رأى التجارة والعمارة والإنتاج رأى ضيوفه، وحيثما رأى الإسراف والإتلاف والتبطل رأى أهله!
ليتني أدري ماذا يقول الغني الأصيل إذا نافره الأجنبي الدخيل أمام قدس الوطن؟ أيقول له: هذه رءوس أموال تنشئ الشركات وتقيم المصانع وتنمي الثروة؟ أم يقول له: هذه (مشروعات) أعمالي تقر الأمن وتحيي البلاد وتقتل البطالة؟ أم يقول له: هذه

ثمار أفضالي تعزز الدفاع وتشجع الإبداع وتنشر الثقافة؟ الله أعلم يومئذ أيهما يقول ذلك وغير ذلك؛ وأيهما يقف ناكس الرأس خاشع الطرف عَيّ اللسان، لا يجري على باله إلا أنماط الثياب وسلائل الكلاب وفصائل الخيل وطرز السيارات وأندية القمار وحسان هوليود!

يظهر أن التفدية والتضحية والخدمة العامة إنما تكون أثراً لقوة الروح وصحة الخلق، فإن أول من تطوع للجهاد شباب الأمة، وأول من تبرع للدفاع رجال الدين. فالحيلة في أغنيائنا إذن هي حيلة الله. هو وحده الذي يملك أن يحيل في النفوس عبادة المال عبادة للوطن، ويجعل في القلوب محبة النفس محبةً للناس

يا أغنيائنا، إنا نريد أن نحبكم فساعدونا على خلق هذا الحب. إن ديننا ينهانا أن ننفس عليكم نعمة الله، وإن وطننا يمنعنا أن نضن عليكم بأخوة الوطن؛ ولكن العقيدة والوطنية اللتين تحببانكم إلينا، هما كذلك اللتان تغضباننا عليكم! لأن الأمة تريد أن تقوي وفي نفوسكم قوتها، وتبغي أن تعتز وفي رءوسكم نخوتها، وتحاول أن تدافع وفي أيديكم ثروتها، فحرمتموها كل ذلك ووضعتموه في غير موضعه، وأضعتموه في غير سبيله؛ ثم مكنتم للجهل والفقر والمرض أن تدهمها

من كل جانب، فقعد القوي لجهله عن السعي، وفتر العالم لفقره عن البحث، وعجز الضعيف لمرضه عن الإنتاج

يا أغنياءنا - والناس أجمعون يعرفون من أعني - لقد جربتم بذل المال في اللهو، وقتل العمر في العبث، وفقد الصحة في المجون، فهل كسبتم من وراء ذلك مجداً أو وجدتم في عواقبه سعادة؟ جربوا ولو مرةً واحدة على سبيل التسلية أن تمسحوا دمعة على خد حزين، أو تنفسوا كربة عن قلب بائس، أو تسهلوا طلب العلم لفقير، أو تمهدوا سبيل العمل لمتعطل، أو تشاركوا أبناء الشعب في منفعة عامة؛ ثم انظروا بعد ذلك كيف يشيع في صدوركم الرخاء، ويرتفع بقلوبكم الإخاء، وتنعم نفوسكم في الحياتين بين عاجل المجد

وآجل الخلود. ثم وازنوا بين متعة الجسم ولذة الروح، وتجدوا أن الأولى تنقضي بالملل والعلل والجريمة، والأخرى تدوم بدوام الروح في الأرض وتخلد بخلودها في السماء

يا أغنياءنا - والله هو الغني الحميد - لقد بح الصوت وحفي القلم وأنتم في نشوة البطر وغفوة النعيم لا تسمعون ولا تقرءون! فهل تظنون أننا بما نقول ونكتب نريد أن نخرجكم عن متاعكم، أو نحولكم عن طباعكم؟ لا يا سادتنا! إن ذلك عمل الله وحده؛ أما عملنا فأن نذكركم كلما نسيتم أن لكم مواهب تهملونها وللوطن في استغلالها نصيب، وأن لديكم أموالاً تبذرونها ولله في ريعها حق؛ وأن ننبهكم كلما غفلتم إلى أن هزل الحياة لا ينفع في جد الموت، وأن ملك الدنيا لا يغني عن ملك الآخرة!

أحمد حسين الزيات

بقية من حديث الإيمان

النبوة - الوحي - المعجزة

للأستاذ عبد المنعم خلاف

كتب إلي كاتب فاضل من بيروت، لم يتكرم بذكر اسمه كاملاً، يستعديني على مقال لدكتور فاضل نشر بمجلة (الأمالي) عنوانه (المعجزة) فسرها فيه تفسير الرافضين الاعتراف بالنبوة بمعناها عند المؤمنين.

وأنا لا أحب الجدل العلني في الصحف، ولا أرتاح إلى نتائجه على النفس والحق وخصوصاً في المسائل الشائكة التي يجب أن تمحص في خفاء وهدوء يوحيان عدم التعصب للرأي، وحب الغلبة أمام الجمهور. ولذلك لم أرد أن أناقش ذلك المقال مناقشة حرفية لأن الألفاظ عالم فضيع غير مضبوط الحدود، وإنما أردت أن ألقي خواطري حول هذا الموضوع الخطير، وفيها يستبين رأيي وردي الضمني على ما ورد بالمقال. وأرجو أن يكون فيما كتبت إرضاء (للعقل المؤمن والقلب العاقل) الذي كاتبني من بيروت.

هل يقنع ناظر باحث في حياة الإنسان العقلية والروحية الأولى أنه يجوز أن يترك الله الإنسان من غير أن يتصل به ويرشده، ويبين له بعض ما خفي عليه وخصوصاً إذا كان هذا الخفاء حول أهم غاية في الحياة العقلية والروحية؟

هل يجوز أن يستمر الكون كله صامتاً أمام الإنسان لا يكلمه فيه أحد بكلمة غير

إنسانية؟
أيمر كل الناس هكذا على الدنيا سائرين إلى القبور وأبواب الغاية المجهولة من غير أن يسمعوا حديثاً إلهياً عما وراء الحياة؟
هل يجوز عقلياً ووجدانياً أن يحتجب ربنا عنا من أول رجل فينا إلى آخر رجل هذا الاحتجاب القاتل؟!
أيمكن أن يكون هذا من إله نرى رحمته وسعت كل شيء؟
أيكون أوجدنا لنثبته بمنطق عقولنا فيقتلنا هو بشوق قلوبنا إليه شوقاً لا أمل وراءه؟
أكان من الممكن أن يستقل عقل الإنسان في طفولته المنحطة بالاهتداء إلى الحق الفاصل في قضايا الوجود وما بعد الطبيعة؟
ماذا يغني العقل وحده وماذا يرشد إزاء هذه الألغاز والمعميات التي رآها الإنسان في دور
طفولته؟ إنه لا يزال غير مغن ولا نافع عند كثير من الناس حتى في زمن العلم والسيطرة على الطبيعة فكيف يغني في زمن الكهوف والإحراج والغابات؟
كيف يغني في زمن الجهل المطلق بالنفس وبالطبيعة وفي زمن عبادة الأحجار والأبقار والثعابين والجعلان والخنفسان؟
وماذا كان العقل في تلك الأزمان؟ إنه لم يكن سوى انطباعات بسيطة من تجارب الحياة المحدودة التي كان يحياها الإنسان، فكيف يقدر أن يستقل بأمر البت في أمر الإلهية وصفاتها وكمالاتها؟
إن الطفل لا يدرك في أول أمره من أمه غير ثديها وهي تلقمه إياه. . . ثم ينكشف له جسمها ومعناها عضواً عضوا وشأناً شأناً حتى يدركها كاملة. . . ولو تركته منذ ولادته لمات جوعاً ولذهب وجوده ولم يدركها. وكذلك الإلهية مع الإنسان، والله المثل الأعلى
هل يمكن أن ينشأ طفل كامل من غير أم أو من في معناها تقول له قولها المعروف وترعاه حتى يصل إلى سن الرشد فيستطيع أن يستقل بأمره بنفسه؟
أنا لا أستطيع أن أتصور الإنسان الذي هو أكرم ما في الأرض يعيش هكذا وحده وخصوصاً في عصور طفولته من غير أن يقول له قائل من وراء الغيب كلمة التوجيه والتسديد
ولو كنا نرى نوعاً آخر محترماً يعمر الأرض ويتولى الخلافة عليها ويسخرها لقلنا: لعل هذا هو المقصود بالخلق ونحن نعيش على الهامش. . . ولكننا لم نر سوانا خليفة يصح أن يكون مقصوداً بالخلق. . . فكيف يقصد وجودنا الخالق ثم يتركنا من البدء للنهاية من غير كلمة!
كلا! لن يثبت العقل على رأي ثابت في (الله) إلا إذا سمع صوتاً منه. . . وإلا فمن الحكم بين العقول المختلفة؟
كلا! لن يؤمن الإنسان بأنه شيء ذو خطر في الوجود إلا إذا قيل له ذلك من غير عالمه العقلي المستقل. . .
كلا! لن يصبر الإنسان على احتمال الحياة بلذاتها وآلامها من غير أن يسمع من يقول له: احي، واعمل، واصبر. . .
الإنسان ما الإنسان؟ إنه كل شيء في الأرض أمام نفسه وأمام الوجود الظاهر فكيف يهمل ويترك سدى من غير نداء خفي بعيد؟
إن الإنسان نفسه كبير الرحمة في بعض أفراده الذين لا يستطيعون سماع استغاثة حي ذي كبد رطبة دون أن يبكوا رحمة له، ويقولوا له: لبيك لبيك. . . فما بال الرحمن الذي ثبتت رحمته ثبوتاً محسوساً تنظر إليه عقول عباده وقلوب الباكين الدائمي البكاء له السائرين في ظلام الحياة وآلامها، اليقظين لكل فكر وحس وحركة في الوجود، الحاملين آلامهم على ظهورهم وأرواحهم على كفوفهم، الحائرين بين مذاهب الأفكار واتجاهات الطباع واختلافات الميول يقولون له: (رب الحياة! قل لنا كلمة واحدة: ما هو الحق؟ قل لنا بصوت منك أو بلمحة أو بحجة قاطعة حتى نجزم به جزم الحس مع جزم العقل. . .
إن جزم العقل وحده في هذه المسألة الكبرى لا يدخل الطمأنينة الكاملة التي لابد منها في حياة الإيمان يا مولانا! فاكشف لنا الحجاب، واهتك الأستار، وأرنا ما وراء هذه الكثافات والأجرام والأجسام والأحجام. . .) أقول ما بال الرحمن لا يسمع دعاء ممثلي

الإنسانية الحائرة المقتولة بالشوق والشك المصروفة بالإفك، فيقول لها بين فترة وأخرى كلمة فاصلة يشير لها بها إلى الطريق مادامت هي القطيع المقصود، ومادام الاهتداء إلى الله هو المعنى الذي يصح أن يكون غاية الله من خلق الإنسان؟

هكذا وقف قلب كل نبي نشأ في حيرة من ضلال قومه قبل أن تتصل به شرارة الوحي، لا يرى نوراً ولا يسمع شيئاً يقول له: (من هنا الطريق. . .)

هكذا وقف كل نبي في الظلمات وبكى. . . بكى لكل شيء. . . بكى للسماء والأرض والحجر والنجم والحي والميت وكل شيء. . . وكل شيء. . .

فإذا كان منطق الإنسان الكامل ورحمته يحتمان أن مثل هذا الباحث الحائر الباكي يجب أن يرحم ويخاطب ويغاث من لهفته وخصوصاً إذا احتاجت الظروف لحركة تطهير الأرض من ضلال وفساد، فأظن ظناً يقرب جداً من العلم أن هذا المنطق وتلك الرحمة يقولان (لابد الله أن يتكلم!) أجل يحكمان على رب الوجود أن يكلم ذلك الرجل الحائر الباكي من عدم الاهتداء إلى حقيقة نفسه وحقيقة الوجود. . . ولن يحمل إنسان عبء النبوة والرسالة الفادح إلا إذا سمع هذه الكلمة. . . ولن يتحدث باسم رب الوجود ويقول: (أوحى إليّ) إلا إذا سمع حديث الله له. . . وإلا كان أكبر مجرم ظالم كاذب والكاذب لا يستطيع أن يبني بيتاً كما يقول (كارليل) فلا يستطيع أن يبني أمة. . . (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً، أو قال: أوحى إلي ولم يوح إليه شيء. . .)

تلك هي النبوة أوقن بها كما أوقن بسنن الطبيعة المطردة وأنتزع حججها من صميم النفس الإنسانية منطقها ووجدانها وأحاسيسها. فكما أومن بأن الشمس يجب أن تظهر للنبات والحيوان لكي تعطيهما وجودهما الجسماني أؤمن بأن الله أظهر للإنسان جانباً من نوره حتى يأخذ وجوده الروحي، وذلك كان في أول النشأة ودور الطفولة البشرية إننا الآن نرضى بصمت الطبيعة المطبق اتكالاً على أن الله كلم بعض أفراد النوع في الزمان القديم. وأنا شخصياً أظن أنني ما كنت لأؤمن بفكرة ثابتة عن الله لو لم أوقن بأن الله كلم محمداً ومن حكى عنهم محمد من الأنبياء. . . وكأني أحس أن الله كلمني شخصياً حين كلم بعض أفراد نوعي. . .

أجل! كيف أثبت على الإيمان به دائماً مادام هو لم يأبه لي ولا لنوعي؟ أمن المعقول أن ينظر الإنسان إلى الله دائماً ولا يبالي هو به؟

إن الله رحمة. . . إن الله محبة. . . إن الله كرم. . . إن الله جمال. . . كما تثبت ذلك صناعته في الخليقة فلا يجوز أن يكون قاسياً متكبراً على الإنسان خليفة الأرض إلى هذا الحد!

إننا الآن في زمن رشد عقلي يلوح لنا أننا نستطيع أن نستقل بعقولنا في الاهتداء إلى الله وإلى الخير. ولكن يجب أن نتذكر حالة النشأة والطفولة التي كنا عليها. . . حين كنا نعيش بالأوهام والأحلام ونرى الكون أمامنا كتلة مبهمة ومجموعة ألغاز ومعميات وأحاج. . . حين كنا نعبد الحجر والبقر والجعلان والخنفسان. . . حين كان العالم مملوءاً أمامنا بالأشباح التي تملأ الهواء والنار والسحاب والبحار. فهل كانت غاية خلق الإنسان متحققة في تلك الدهور والأحقاب بالعقل الإنساني على بساطته؟ ومادامت غاية خلق الإنسان كما يحتمها العقل هي معرفة الخالق وعبادته فلا بد أن تتحقق دائماً وقصور عقل الإنسان في الماضي ما كان يسمح بتحققها فلا بد أن يتولى الله إرشاده عن طريق الاتصال ببعض أفراده

إن الحركة العقلية العنيفة التي كانت في بلاد الإغريق لم تنقذهم من الوثنية المنحطة. فالعقل وحده لا يؤمن بما يصل إليه ويصنعه هو إلى درجة الطمأنينة التي لا بد منها في منطقة الإيمان، والطبيعة الآرية صارت تبحث عن الله بالعقل المادي وحده فما اهتدت إليه إلا أفراداً قلائل. ومن قرأ صور الإله في أفكار كثير من فلاسفة اليونان من العدد إلى الماء إلى العقول السبعة إلى النار إلى آخر الفروض يرى أن العقل وحده حتى في بلاد اليونان لم يقدم الصورة الكاملة للإله كما قدمتها الروح السامية فقد بحثت عن الله في نفسها ووقفت تبكي له بقلوب أنبيائها وصهرتها الآلام وأضناها الإخلاص له إخلاص الطفل حين يبحث عن أمه ويبكي، فظهر لها فأيقنت بالحق والخير وقد نجحت الروح السامية في إنقاذ البشرية من الوثنية وفي إعلاء شأن الإنسان وفي تعميم صورة الكمال الإلهي وفي سيادة الأرض. فلا يمكن بعد ذلك كله أن نقول إن

تلك السيادة السامية المبنية على النبوة كانت عفواً وصدفة، ولا يمكن أن تكون حركة العقليين موازية لتلك الحركة الروحية، وخصوصاً أيام كانت حركة العقل ضئيلة لا تستطيع أن تقيم قوانين وأخلاقاً. فلا بد أن يكون وراء الروح السامية سند من عالم الغيب

لا يمكن أن يستأنف الإنسان عبادة الأحجار والأشجار وغيرها بعد أن وصل إلى التسلط على كثير من قوى الطبيعة وبعد أن زال خوفه من قواها أيام كان يجهل أسرار تركيبها ولذلك ختم لله الرسالة بمحمد وأعطى الإنسان الطبيعة يسخرها ويتصرف فيها بالتدريج كما يعطي الأب أبنه ماله بعد الرشد يتصرف فيه بعلمه وسلطته تماماً هو قانون الأبوة مع البنوة فهو اطراد في سنن الكون. والطبيعة كلها متشابهة. النشأة العقلية العامة في الإنسان كالنشأة الجسمانية فيه

لقد استخلص الله خلاصة الحق من تجارب الحياة الإنسانية في جميع الأمم وأسلمها للإنسان ووصاه وصيته الأخيرة وقال له: بلغت الرشد فأمامك الطبيعة، وإلى اللقاء في الدار الثانية التي يحكم بها عقلك وعلمك، فاستعد لتقدم إلى الحساب عما تفعله في النفس والمادة وقواها

أليس هذا هو قانون الطبيعة مع أفراد الحيوان والإنسان ومع أسرهما؟ بلى، وإنه هو نفسه بشكل أوسع بين الله والمجموع الإنساني.

قد يقول قائل: إن الوثنية لا تزال دين عدد هائل جداً من الناس؛ ولا يزال سكان أفريقية

الوسطى وجزر المحيط والصين والهند واليابان يدينون بالقوى السحرية وعبادة الحيوان. فأين رشد الإنسان المزعوم؟

ولكن مع تسليمنا بذلك نقول إن التبعية ملقاة على عاتق الأمم المتعبدة بالروح السامية، وإنه لتقصير فظيع منها أن تترك بعض أفراد الأسرة الإنسانية هكذا ضائعين من الحياة. ولو كان الاستعمار يحمل غاية روحية سامية لجعل همه الأول هدم الوثنية وتعميم فكرة الوحدة الإلهية. وقد وكل الله الشعب الأصغر القاصر إلى الشعب الأكبر الراشد، كما يحدث من توكيل الأب للابن البكر في الأسرة الواحدة. . . فإذا لم يراع الأكبر حسن الرعاية والإرشاد كان اللوم كله منصباً عليه. وستعلم الشعوب المتحكمة العاشقة للمادة وحدها كم ستكون تبعتها ثقيلة باهظة، وجناياتها كبيرة غليظة، بتركها نفوس الزنوج وسكان الجزر النائية في المحيطات وكل الأمم الوثنية من غير حمل لها بالقوة على ترك عبادة الأوثان وعلى سمو الحياة الروحية

لقد صارت الأرض كقطر واحد بفضل الكشوف الجغرافية وأدوات الاتصال العلمية وسرعة الانتقال، فكان من الواجب أن يتلاقى البشر على معان قريبة في الدين، ولكن المادية الحالية هي الحائل وهي الشاغل. . . وعلى أية حال لن تعمر الوثنية طويلاً بعد الآن

كانت الأمة من الأمم السابقة تحتاج إلى رسول معين يرشدها في حياتها الروحية نظراً للقصور العام، ولكن ميراث الرسل المتروك والملخص في رسالة محمد يستطيع أن يخرج رسلاً عديدين ينقذون الخاضعين للسحر الأسود والوثنية الصفراء وغيرهما. . . ولعلها رسالة مدخرة لأبناء محمد حين يتم نضجهم وكمالهم بعد يقظتهم الثانية هذه. فإنه ليس هناك كتاب دين حارب الوثنية وأبغضها وحطمها وناقشها من جميع وجوهها كما فعل القرآن. وليس هناك؟ أمة أفهمها كتابها أنها منتدبة لحماية عقائد البشر من الوثنية وغوائل الروح كالأمة الإسلامية (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً)

ويمكن لأي فرد الآن أن يعلم من حقائق الدين وحقائق الطبيعة ما كان يختص بعلمه الكهنة والأوصياء في الزمان القديم. ويخيل إلي أن مجهود النبوات كلها كان موجها إلى تفهيم

الإنسان قيمة الطبيعة وإلى شغل عقله بالبحث فيها حتى يهتدي إلى مفاتيح تسخيرها ويبرأ من عبادة ظواهرها وقواها ويعبد بارئها فقط. وقد نجحت النبوات نجاحاً باهراً في ذلك وأنقذت الإنسان الذي يسكن الجزء الأهم في الأرض وجعلته هو صاحب السيادة والسيطرة فيها، وجعلت الأمم الوثنية خاضعة له، أو ناظرة إليه وتابعة لخطواته. فلم يعد هناك حاجة إلى بعث رسل مؤيدين مكلمين من السماء لأن مجال الدين صار

واضحاً وصار التدين مقررا بالعلم لأن العلم كشف في القلب الإنساني منطقة لا غنى لها عن الدين. والخلاف الآن على الطقوس المختلفة في الديانات فقط. وسيكون أقرب هذه الأديان إلى الفطرة والسبيل العلمية هو دين الإنسانية القريبة الموحدة

(للحديث بقية)

(بغداد - الرستمية)

عبد المنعم خلاف

جناية أحمد أمين على الأدب العربي

للدكتور زكي مبارك

- 1 -

لصديقنا الأستاذ أحمد أمين مؤلفات جيدة قامت على أساس المنطق والعقل، وهو من كبار الباحثين في العصر الحديث.

ولكنه على أدبه وفضله لا يجيد إلا حين يصطحب الروية ويطيل الطواف بالموضوع الواحد عاماً أو عامين، وذلك سر تفوقه فيما نشر من البحوث والتصانيف

ولسنا نظلم هذا الصديق المفضال حين نحكم بأنه لا يصلح لتقييد الخواطر العابرة التي تطوف بالذهن من حين إلى حين، لأن ذلك لا يتيسر إلا لمن رزق موهبة أدبية تقيِّد شوارد المعاني بلا تعب ولا عناء، وتضيف المألوف إلى صف الطريف بعذوبة التعبير وقوة الروح

أحمد أمين باحث كبير بلا جدال، ولكنه ليس بكاتب ولا أديب، وإن كان من أساتذة الأدب بالجامعة المصرية

ولم يستطع الأستاذ أحمد أمين على كثرة ما كتب وصنَّف أن ينقل القارئ من ضلال إلى هدى، أو من هدى إلى ضلال، وإنما كانت مؤلفاته وبحوثه ضرباً من (التقرير) الذي يخاطب الأذهان ويعجز عن مخاطبة العقول والقلوب

وحياة الأستاذ أحمد أمين تؤيد ما نقول: فهو رجل لا يعرف الخلوة إلى الفكر والقلم، ولا يتسع وقته لدرس ما في الوجود وما في الأخلاق من مشكلات ومعضلات، وإنما يقرأ ويسمع، ويعلق على ما يقرأ ويسمع، بدون أن يتغلغل إلى أسرار المجتمع أو سرائر القلوب

وهيام الأستاذ أحمد أمين بالظواهر قد عاد عليه بأجزل النفع من الوجهة الشكلية؛ فهو رئيس لجنة النشر والترجمة والتأليف، وهو أستاذ بالجامعة المصرية، وهو عضو في كل لجنة تؤلفها وزارة المعارف، وهو مشرف على بيت المغرب، وهو مؤلف كتب وناشر مقالات، وهو صاحب ثروة يدبرها ويشقى في سبيلها أعنف الشقاء.

وهذا كله مقبول، ولكن الخطر كل الخطر في ألا يقنع هذا الرجل بما وفق إليه في حياته الرسمية والمعاشية

الخطر كل الخطر في أن ينصب هذا الرجل نفسه حاكماً بأمره في تقرير مصير الآداب العربية، وهو لم يستطع إلى اليوم أن يقيم الدليل على أنه يتذوق المعاني والأساليب

الخطر كل الخطر في أن يتوهم الأستاذ أحمد أمين أنه قادر على زعزعة ما أقامته الأيام من الحقائق الأدبية، الحقائق التي ساد بها العرب في أزمان طوال، وكان لها سلطان مهيب في أقطار الشرق وأقطار الغرب

ولكن ما الذي نقل ذلك الرجل الفاضل من حال إلى أحوال، وحَّوله من الروية إلى الارتجال؟

ما الذي قضى بأن يثور أحمد أمين على ما خُلق له فيطالع الجمهور بآرائه من يوم إلى يوم وكان يلقاه من عام إلى عام؟

لقد أصبح الرجل صحفيّاً، وكان أستاذاً ولكنه لم يراع أدب الصحافة، لأن الصحافة تقف عند المشاهدات وهو يهيم بأودية الفروض

ابتدأ هذا الرجل مقالاته في مجلة الثقافة بتلخيص بعض الكتب الأدبية فكان من الصحفيين الأدباء ثم رأيناه يتحول فجأة فيلخص الأدب العربي في جميع عصوره تلخيصاً يقوم على أساس الخطأ والإعتساف، ويعوزه تحرير الحجة وتصحيح الدليل

فهل يظن أنه سينجو من عواقب ما يصنع؟

هل يتوهم أن التجني على الأدب العربي سيمر بلا اعتراض ولا تعقيب؟

إن لهذا الرجل صداقات مع كثير من الأدباء والناقدين، وهو لذلك يرجو أن يصول

ويجول بلا رقيب ولا حسيب
فما رأيه إذا أقنعناه بأن للأدب العربي أنصاراً يغارون عليه أشد الغيرة، ويقفون لخصومه بالمرصاد؟
ما رأيه إذا سددنا في وجهه جميع المسالك وقهرناه على الانسحاب من ميدان الدراسات الأدبية؟
ما رأيه إذا فرضنا عليه أن يعود رجلاً يؤذيه أن يجانب المنطق والعقل؟
(للحديث شجون)
زكي مبارك
أعلام الأدب
بين أرستوفان ويوريبيدز
للأستاذ دريني خشبة
ظل أرستوفان يدعو قومه إلى السلم وينفرهم من الحرب، وظل يسخر من القادة المغرورين ويستهزئ بشكل الحكومة وديمقراطية الغوغاء، فلم يزدد قومه إلا عناداً، ولم تزدد جيوشهم إلا هزيمة، ولم تزدد أثينا إلا فساداً وانحلالاً. فلما بح صوته من دعوة السلام والتنديد بنظام الحكم انصرف عنهما آيساً، وفرغ لأستاذه وعدوه يوريبيدز، يقصر عليه نشاطه الأدبي، ويصب عليه جام نقمته، وما أورثه فشله في دعوة السلام من مرارة وغيظ
وقبل أن نخوض مع أرستوفان في هذه المعركة على فخر المسرح اليوناني لا نرى بداً من التمهل قليلاً لنلخص ملهاتين عظيمتين ألفهما الشاعر الساخر قبل الانقضاض على يوريبيدز. . أما إحداهما فمن أمتع ما نظم أرستوفان، وأما الأخرى فهي أمتع وأعظم ما ألف طول حياته، إلا إذا كان فيما ضاع من كوميدياته ما هو أعظم منها
ففي سنة 411ق. م أخرج أرستوفان ملهاته ليستراتا، وقد نظمها تنفيراً لقومه من الحرب، وصيحة مضحكة في سبيل السلام. . ولا بد أن الأثينيين كانوا أمة من المجانين حين حاول أرستوفان أن يصرفهم عن آلامهم وما تترك الحرب في كل بيت من بيوتهم من مناحة تمزق القلوب وتفتت الكبود وتفجر المدامع، ليضحكوا ملء أشداقهم من كوميديات مواطنهم المهرج العظيم!! لله كم كنا نتمنى لو لم يفقد ذلك الجزء الثمين من كتاب الشعر لآرسطو الذي تناول فيه فلسفة الكوميديا لنعرف رأيه في علة ازدهار الأدب الكوميدي في فترة حروب البليبونيز خاصة حتى بلغ أوجه بين أنين الجرحى وعبرات الثكالى وأحزان الموجوعين
يصور أرستوفان في ملهاته لسسترا بطلة حازمة تدعو إلى نبذ الحرب ونشر لواء السلم، فما تزال بصويحباتها (نساء أثينا) تحضهن على ذلك وتكون منهن حزباً قوياً تنتهي إليه الغلبة في أثينا الديمقراطية، فإذا احتج الرجال وأخذوا يناوئون حركة النساء اقترحت الزعيمة على توابعها حرمان الرجال من ممارسة (المسألة الزوجية!!) حتى يفيئوا إلى الحق ويرجعوا عن هذه المجزرة التي تودي بأبنائهم وبأنفسهم في غير طائل. . وقد تعمدنا
هنا أن نعكس ما أثبته أرستوفان في ملهاته، فقد قصد أن تكون النساء نساء أسبرطة وهو في الحقيقة لم يعن غير نساء أثينا. . . ثم تنتهي الكوميديا بخضوع رجال أسبرطة ومجيئهم طائعين مختارين يطلبون الصلح من الأثينيين فتضع الحرب أوزارها ويكون السلام على الأرض (!!) وقد كان أرستوفان ماهراً في تلطيف عقدة ملهاته الفاجرة التي لا نحسب أنها كانت تخطر لأديب ببال في سبيل وقف حرب المورة، تلك الحرب التي استمرت تهلك الحرث والنسل ثلاثين عاماً طوالاً فكادت تكون بسوساً يونانية بل هي كانت شراً من بسوس العرب. . . فأي سلاح هو أمضى لوقف الحرب من إضراب النساء عن منح الرجال حق المباشرة الجنسية! أليست الفكرة فكرة جريئة وإن تكن فاجرة داعرة؟ لقد كان المسرح اليوناني الكوميدي يجيز ما هو أشنع من اللستراتا أضعافاً مضاعفة، وقد كان أرستوفان عفاً في ملهاته هذه إذا قيس بزميليه أمفيس وألكزيس اللذين كانا يحشدان في ملاهيهما ما لا يسمح قانوننا ولا عرفنا ولا أخلاقنا بعرض صورة منه ولا الخوض اليسير فيه. . . ومع ذاك فقد كان أرستوفان لبقاً في التضحيك على نسائه وإن كان دائماً في جانبهن ضد الرجال، وقد زاد في إشاعة الروح الكوميدي فيهن بجعلهن عربيدات لا يعقدن مؤتمراتهن إلا حين تعبث الخمر بهن وتروي

مشاشهن جميعاً أما أبرع كوميدياته وأمتعها على الإطلاق فهي بلا شك (الطير)، وقد ألفها سنة 414 أي قبل لسستراتا بثلاث سنوات فكانت آية آياته كلها حيث ارتفع بها إلى ذروة الفن الكوميدي وأشاع فيها المرح وجافى بينها وبين الواقع، وبناها على الكذبة الكبرى التي هي أساس الكوميدي اليوناني. وقد قلد فيها سوفوكليس من حيث سرعة العرض ونشاط الأداء والتنقل من مشهد إلى مشهد في خفة وتشوف، كما قلد فيها الشاعر الغنائي الخالد أرفيوس من حيث روعة الأغاني وجمالها وانسجامها وعلوها عن مستوى الغناء الكوميدي الذي كان يقصد به إلى الشعبذة والتهريج لا إلى الفن الخالص الرفيع

استطاع اثنان من أهالي أثينا هما بيثتيروس وإيولبيدز، أن يكتشفا حقيقة عجيبة لم تكن لتدور في روع أحد ولا تخطر يوماً في قلب بشر. . . استطاعا أن يعرفا ما عرفه الشاعر سوفوكليس من قبل، وهو أن ملك الطير إيبوبس هو نفسه الملك تيريوس ملك تراقيا الذي كان يحكمها في سالف العصر والأوان قبل أن يُسحر إلى هدهد وقبل أن يتربع على عرش

الطير مزهواً بتاجه الجميل ومنقاره الطويل وألوانه المتلألئة الحسناء. . . ولما كان بيثتيروس مواطناً منبوذاً من قومه الأثينيين فقد اعتزم الرحلة إلى مملكة الطير ليجرب فيها حظه غير مستعين بأحد إلا بنفسه وزميله المغفل المطواع إيولبيدز. . . هذا وقد كان بيثتيروس رجلاً مقداماً مقاحماً قوي الجدل حاضر البرهان نافذ الحجة لا يعيبه أن يقنع محدثه بالشيء وضده في وقت معاً. وكان يرى الرأي فيصيب به الحقيقة دائماً ولذلك كان قلما يرضيه تصرف الآخرين خصوصاً في شئون الحكم

أما إيبوبس الهدهد ملك الطير، أو تيريوس ملك تراقيا في سالف العصر والأوان، فملك عادل محبوب من رعيته المخلصة له، وهي رعية بُدائية ما تزال تحبو في أول مدارج المدنية، ولذلك فهو دائب على النهوض بها وإصلاح حالها، ولذلك أيضاً يرحب دائماً بكل من يرد عليه من رعايا الدول المتمدينة الأخرى. . . وقد أكرم مثوى بيثتيروس لهذا السبب، واستطاع بيثتيروس أن يقنعه بوجهة نظره في تكوين دولة تحت سيطرته بحيث ينضوي تحت لوائها البشر، وما كادت رعية الطير تسمع بهذا حتى ثارت ثائرتها وهددت الملك بالتمرد وإضرام نار الفتنة، للضغينة القديمة بينها وبين بني آدم ولعدم ثقتها فيهم من قديم الزمان. وقد همت الطير بالفتنة فعلاً، ولكن بيتيروس ألقى فيهن خطبة طنانة رنانة ساد بها الموقف وأنقذ بها مشروعه من الفشل

وأنشئت الدولة برياسة ملك الطير، وأقامت الرعية المتاريس على الطريق إلى مملكة السماء، فانقطعت السبل بين الآلهة وبين الأرض، ولم تقو أرباب الأولمب على إخضاع الطير فاضطرت أن ترسل سعارة من نبتيون إله البحار وهرقل الحديدي إله الرياضة وتريبول الإله البربري الجاهل التمتام التفتاف (!) وقد اضطرت الآلهة إلى إرسال هذه السفارة بعد قبض الطير على إيريس (قوس قزح) مبعوثه حيرا وجاسوستها حين اجتازت بغير حق المتراس الفاصل بين مملكة الطير وطريق الآلهة إلى السماء. . . وقبل أن يصل أعضاء السفارة تنزل الإله برومثيوس - حامي البشرية ونصير الإنسان - مختالاً تحت مظلة كبيرة بين سمع زيوس كبير الآلهة وبصره، ليؤيد بيثتيروس بحجته وليمنحه البركة والتوفيق في مجادلته سفراء السماء. . . وقد استطاع بيثتيروس أن يخدع هرقل بأكلة شهية أعدها له فضمه إلى جانبه، وكان هرقل يسيطر على صاحبه تريبول الجاهل البربري

التفتاف، وبذلك أصبحت الأغلبية في جانب بيثتيروس، وغلب نبتيون على أمره، وعقدت معاهدة بين الفريقين فاز فيها بيثتيروس بأقصى ما كان يصبو إليه من تفوق وسيطرة، فقد رضى سيد الأولمب - زيوس الكبير المتعال! - أن ينزل طائعاً مختاراً عن صولجان ملك الدنيا (الأرض) إلى الأبد لأيبوبس الهدهد ملك الطير كما قبل أن يزوج ابنته الخالدة الفتانة (باسيليا) لبيثتيروس

وفي الكوميديا شخصيات مضحكة أخرى لا يتسع هذا الملخص السريع لعرضها وأهم ما يلفت النظر تعقيباً على ملهاة الطير هو روح الإلحاد والسخرية بالآلهة الشائعين فيها، وهو روح عجيب يدلنا على ما بلغته أثينا من الحرية الفكرية والتحلل من ربقة دينها الأسطوري بحيث لم يتحرج أرستوفان من الشعبذة على أرباب الأولمب إلى هذا الحد المضحك

ثم فرغ أرستوفان لفخر شعراء الدرام، بل لفخر أثينا القديمة، يوريبيدز العظيم، فنال منه ما لم ينل منه شيء آخر، وشعبذ عليه شعبذات أضحكت خصومه حيث ألف فيه ملهاته الفاجرة الشنيعة ال أو محاكمة يوريبيدز كما يسميها المتأخرون والاسم مشتق من (ثسموفوريا) وهو عيد من أعياد اليونان القديمة كانت السيدات يقمنه في أكتوبر من كل سنة تقديساً لربة الزراعة والمدنية سيرس (أودمتير)، ولم يكن يسمح للرجال ولا للذكور بوجه عام في حضوره. . . وقد ألفها سنة 411 أي في نفس السنة التي . . .ألف فيها الليسيستراتا، ولذلك جاء فيها أثر من سابقتها

نمى إلى يوريبيدز أن الأثينيات المحتفلات بعيد سيرس في ال (تسموفوريا) سيثرن قضيته معهن لطول ما شن عليهن الغارة في دراماته ولجرأته على الجنس اللطيف بإبرازه على المسرح، وتناول ما لم يكن ينبغي تناوله من أسراره أمام الناس. وخوضه في شئون الحب والعشق والغرام المحرم من غير ما تورع ولا استحياء ولا مراعاة للعرف، ولا إبقاء على سنن السلف الصالح. وبلغه أيضاً أنهن سيصدرن عليه حكماً صارماً عسى أن يكون له فيه مرتدع. . . خاف يوريبيدز واشتدت خشيته ووقع في حيص بيص (!!)، ولم يدر ماذا يصنع؛ ثم بدا له أن يستعين بشاعر مخنث (!!) جميل الطلعة مشرق المحيا يمكن أن يتنكر في زي النساء ويذهب إلى الـ (ثسموفوريا) ويختلط بالنساء حتى إذا شرعن في فحص قضية يوريبيدز تولى هو الدفاع عنه بكل ما أوتي من ذلاقة ورشاقة وبيان. . . لكن

الشاعر أجاثون يرفض ما يعرضه عليه يوريبيدز من وجوه الإغراء والإغواء فيضرب يوريبيدز أخماساً لأسداس، ثم يبدو له فجأة أن يذهب إلى والد زوجته (حَمئه) - منسيلوخوس - فيرجوه أن يتنكر هو في زي امرأة ثم ينطلق إلى مكان الاحتفال فيتولى الدفاع عن زوج ابنته وإلا وقعت الواقعة وحاقت به البلايا. . . ويقبل حموه، ثم يذهب إلى ال (ثسموفوريا) وما يكاد يتكلم حتى يشك النساء في أمره، حتى إذا تضاعف ريبهن هجمن عليه واكتشفن أنه رجل وأنه حمو يوريبيدز. . . ويسقط في يد الرجل، ويهرب منهن لائذاً بالمذبح، حتى إذا ضيقن عليه الخناق وأوشكن يبطشن به انقض على أحد أطفالهن فاحتمله بكلتا يديه وراح يهددهن بقتل الغلام إذا مسسنه بسوء. . . ويختلط حابل النساء بنابلهن، ثم يكتشفن أن الذي يحمله الرجل ليس غلاماً، بل هو دن خمر مغطى بثوب، فيثرن من جديد ويوشكن أن يوقعن به. . . وهنا يظهر يوريبيدز نفسه ولكن متنكراً في أشكال شتى، فتارة يبدو كأنه منالوس حينما يكتشف أمر زوجته هيلين في مصر؛ ثم يبدو في صورة الفتاة إيخو (الصدى) وهي تساعد الفتاة أندروميدا المصفدة في حيد الجبل. . . ويبدو مرة ثالثة في شكل برسيوس وهو يفك أصفاد أندروميدا. . . ثم يفلح يوريبيدز آخر الأمر في إطلاق سراح حمئه بعد أن نجح النساء في تصفيده في قفص المجرمين، وذلك باتخاذه صورة قوّادة (هكذا!!) وذهابه مباشرة إلى الضابط الذي عهد إليه بالرجل ليحرسه. . . وتأخذ القوادة في الرقص وهز الردف والأثداء والابتسامات الخليعة الفاجرة حتى تزلزل فؤاد الضابط وتغويه فيطلق سراح منسيلوخوس

هذه هي الكوميديا الشائنة التي طعن بها أرستوفان خصمه العظيم يوريبيدز، وقد حاول فيها استعمال طرائق شاعر الدرام الكبير ووسائله في التعبير والأداء. وقد استطاع بها أن يثير حنق يوريبيدز وأن يحيل بقاءه في أثينا إلى مرارة وتلدد وبرم بالناس وبالحياة. . . وقد ألف أرستوفان في خصمه غير هذه الملهاة شيئاً كثيراً ضاع أكثره لحسن حظ الأدب - أو لسوئه، لا ندري! - فلما مات يوريبيدز سنة 406 ق. م، ألف أرستوفان ملهاته الخالدة (الضفدع) سنة 405 التي تسمو إلى أفق (الطير) والتي عرض فيها ألواناً جديدة من الخيال وجمال التصور، وأطلق (لتفنُّنه!) عنانه، فاستحق التخليد برغم رجعيته وجهله أحياناً. . . وقد سبق أرستوفان في هذه الملهاة إلى ابتكار النقد الأدبي المبني على القواعد والقوانين،

بل هو قد وضع الكثير من قواعد النقد في موازنته بين إسخيلوس ويوريبيدز في حوارهما الشائق اللذيذ الذي اشترك فيه الإله باخوس

حزن الإله باخوس حزناً شديداً حين افتقد شعراء الدرام بعد سوفوكليس ويوريبيدز اللذين ماتا في عام واحد فلم يجد من يسد فراغهما، ولذلك اعتزم الرحلة إلى الدار الآخرة (هيدز) كما صنع هرقل من قبل عسى أن يرد منها يوريبيدز كما رد هرقل

ألستيس؛ ويبدو باخوس في جلد أسد وقد تزيى بزي هرقل وحمل عصا غليظة مثل عصاه، وإن يكن مع ذاك يبدو في صورة مخنثة كدأبه دائماً - ثم يكون إلى جانبه عبده - أو خادمه - إكسانتياس - وقد علا صهوة جحش وحمل على كتفه عكازة طويلة (شمروخا!) علق فيها (مخلاته) وحقائبه وكل ما يلزم في مثل هذه الرحلة الطويلة الشاقة من زاد وماء ونحوهما. . . وقد علق هذه الأشياء في طرف العكازة حتى (تحفظ الموازنة) معه. . . ففي المشهد الأول الذي يشك المؤرخون في أن يكون كذلك (أي في أن يكون هو المشهد الأول لأن الملهاة غير مرتبة وقد ضاعت بعض جذاذات منها) نسمع أصواتاً من التنادر (التنبيط!) يتقاذف بها شعراء - أو شويعرون - يجتهد كل منهم أن ينال رضا النظارة بإتقان التهريج وإجادة (التنكيت!) وقد وقف بينهم باخوس - بوصفه حامي مسرح الدرام! - كالصنم لا يحير. . . ثم ينتهي المشهد بنقاش سوفسطائي بين باخوس وخادمه. . . ويهبطان إلى هيدز، ويفتتنُ أرستوفان في إنهاض الموتى لتكلم الزائرين، ثم يأتي أروع مشاهد الملهاة وهو هذا الحوار الأدبي الرائع بين إسخيلوس ويوريبيدز من حيث منهاج كل منهما في الشعر ووجهة نظره في الأدب - وهنا لا يستطيع أرستوفان إخفاء غله على يوريبيدز، بل يختم المشهد بنصرة إسخيلوس (الذي كان يمثل الفضيلة الأثينية والرجولة اليونانية، والشجاعة والإقدام. . . لا هذا الأحمق يوريبيدز الذي هو سبب فساد روح العصر، وأصل خراب الأخلاق!). . . ثم تنتهي الملهاة بطرد يوريبيدز ليستقر في مثواه السحيق من هيدز وقد رهقت وجهه فترة!

والمدهش في هذه الملهاة العجيبة هو قيامها على النقد الأدبي البحت، وهو وإن يكن نقداً بدائياً إلا أن المعارضات التي أتحفنا بها أرستوفان تجعلنا نعجب كيف كان الجمهور الأثيني في هذا العصر يسيغ مثل هذا الحوار الذي هو فوق إفهامه، بل يضحك له ويغرق في الضحك! ثم كيف يحدث هذا، وقد كانت أثينا على شفا الهاوية؟ ألم تدخلها جيوش اسبرطة

بعد هذه الملهاة بسنة واحدة؟!

إن ضحك الأثينيين هكذا على فخر شعرائهم يوريبيدز هو آية انحلالهم وانقضاء دولتهم. . . وقد حصل!.

دريني خشبه

من برجنا العاجي

كان إبسن يقول: (الرجل القوي هو الفرد المعتزل) كان إيماني شديداً بهذه الكلمة. وما برحت أرى فيها دستوري الذي لا ينبغي أن أحيد عنه. فأنا كلما انطويت على نفسي واعتصمت ببرجها أعطتني كل ما أريد من قوة ومنعة. وكلما التمست ذلك عند الناس أو عند أصحاب الجاه والسلطان شعرت أنهم أضعف من أن يستطيعوا لمثلي خيراً أو شراً. فليست قوتي المنشودة في ألقابهم ولا في ثرائهم، إنما هي في شيء ليس في مقدور أحد أن يمنحنيه غير نفسي. فالدولة لم تستطع ولن تستطع أن تنقص أو تزيد في قوة قلمي أو رأيي، ولم تستطع ولن تستطع أن تخفض أو ترفع من قدري وقيمتي في نظر الزمن والتاريخ. وهنا كل متعتي فأنا إذن لا أحتاج إلى الدولة في شيء، لأنها لا تستطيع أن تمنعني أو تمنحني شيئاً ذا أثر في كياني الحقيقي

هذا رأي الأستاذ العقاد أيضاً في كتاباته عن (الدولة والأديب). وقد أشار إلي فيها بما يفيد أني مخالف لرأيه. وهذا غير صحيح. فأنا يوم ذكرت الدولة في مقام الأدب لم أرد منها تشريف الأدب بحمايتها؛ فالأدب شريف بدونها وهي لا تستطيع له تشريفاً، إنما هو الذي يستطيع إذا أراد أن يشرفها وينوء بها. إنما أردت من الدولة أن تنظم بوسائلها المادية أسواق الأدب المادية كما تنظم بقية المرافق الحيوية الأخرى حتى يتطهر من السماسرة والمستغلين. إني أردت من الدولة أن تصون نتاجنا من جشع الطامعين كما تصون مال الأفراد من عدوان اللصوص. فلقد كان كل عجبي أن الدولة لا تعترف بمصالح الأدباء اعترافها بمصالح الأفراد. فهي تتركهم نهباً للناهبين حيث تقوم وتقعد إذا استبد تاجر بسوق الغلال، أو استولى مراب على بعض المال!

توفيق الحكيم

صفحة من حياة شاعر

عاشق ومجنون!. . .

للأستاذ صلاح الدين المنجد

كان اسمه جيرار دي نرفال، وكان مولده في باريس حيث الغيوم البواكي وحيث الجو المكفهر. أما أبوه فكان طبيباً في الجيش، وأما أمه فكانت بنت بائع فقير. فنشأ في قرية أودعه فيها أبوه، بعد أن قضت أمه، وأرسل إلى القتال. فنبت بين الحقول الواسعة، والسهول المتوثبة نحو الأفق البعيد. وطابت له الحياة في هذه القرية التي لا تسمع فيها الأصوات النابية تتعالى على جنبات السين، ولا يُرى فيها فوران الناس بين الأحياء والشوارع، وإنما تسمع فيها أصوات العجائز الخافتة، وهن يتحدثن عن طرائف السحرة والجان، ويرى فيها أسراب الغنم تقودها الفتيات والرعيان. وأحب الحياة في القرية، فأثر ذلك في حياته. ثم خلّف القرية إلى باريس ليشدو فيها العلم. وما كاد يبلغ الثانية والعشرين حتى أخرج للناس طائفة من أشعاره. ثم قرأ (غوته) فكلف بكتبه، وعزم على نقل (فوست) إلى الفرنسية. وسرعان ما نفذ ما عزم عليه، فجاءت آية رائعة أعجب الناس بها كثيراً. فقدروا صاحبها ورمقوه. ودفعه هذا الظفر الذي سعى إليه مذ سلك طريق الأدب إلى انتخاب قطع من شعر (رونسار) وأخرى من أشعار (غوته) و (شيلر) ليقدمها إلى الناس. ثم انكب على الشعر يقرأه وينظمه ووجد أن حياة الأديب، وما فيها من كسل وما فيها من أحلام، قد صادفت من نفسه هوى، فهو لا يصلح بعد اليوم إلا لها، فقد كان له مزاج الأديب وإحساس الشاعر. وكان كما يقولون عنه دقيق الفكر رهيف الحس واسع الخيال، يسكن إلى الأحلام، ويقضي ساعات من نهاره وساعات يفتش عن حلم يرضى عنه. ويظهر لنا من أشعاره أنه كان يجد في الأوهام راحة لنفسه. . . فهو لا ينفك يتوهم ويتوهم. فهو يصف لنا، كيف يستشف أشباح الجان من وراء الغيوم. . . فيصيخ بسمعه إلى عزيفهم المبهم تارة والمخيف طوراً. . . يرسلونه مع زفيف الريح الثائرة. ويراهم مختبئين بين طيات السحاب. . . فيناديهم، فيأتون سراعاً يحيطون به. . . يكلمونه قليلاً ويحدثهم قليلاً. ثم إنه ليتمثل نفسه طائراً. . . يقفوه نفر من الجن، يسرح معهم في الفضاء حتى يصل إلى السماء، فينظر إلى الأرض الخاضعة تحت قدميه، أو يتمثل نفسه حيناً آخر هابطاً إلى سيف البحار ليستجم قليلاً، ثم ليهبط إلى قرارة البحار فيرى الحيتان والأسماك، ويزور أميرات الجن في قصورهن المتلألئة في قاع البحار

وكان لابد له وهو في مثل هذا الحس الرهيف والخيال العميق والسن الباكرة أن يحب ويعشق. ولقد أحب، ولكن حبه كان لوناً من الحب لم يكن للناس به عهد من قبل. فإن فيه

كثيراً من الطرافة التي تعجب، والفكاهة التي تطرب. فهو لم يعشق فتاة رآها في الشارع أو الطريق، ولا لقيها في الحقل أو عند النبع، وإنما عشق فتاة رآها في حلمه. فلقد مسّ الكرى أجفانه ذات ليلة مساً رقيقاً أنساه نفسه ودنياه: (هأنذا في قصر (مورتو فونتين) أرتع بين رياضه، والقمر الساجي يرسل أشعته فتهوى فاترة كليلة. . . تضئ القصر ذا الجبهة الحمراء ثم تختفي بين أزهار الزيزفون. وفجأة تبدو فتيات حسان. . . يرقصن على النغم، ويغنين الأغاريد؛ وكنت وحيداً فحدقت فيهن ورأيت فتاة شقرا ناعمة الشباب غضة الجمال قد اكتنفنها وأخذن يتمايلن معها. سمعتهن ينادينها: تعالي يا أدريان! فملكت عليّ فؤادي؛ وأقبلن نحوي فرقصن. هاهي ذي بين ذراعيّ. . . أرقص معها. لقد سمعت من يهمس في أذني أن قبلها ولا تخف فهي لك. فضممتها إليّ وقبلتها، ثم جلسنا حولها لتغني لنا. فغنت بصوتها العذب الحلو أغرودة من أغاريد الأقدمين تفيض بالحزن، وتفيض بالسحر، فيها قصة تلك الأميرة التي أودعوها البرج الشاهق. . . لأنها أحبت فتى غرانقاً

وكانت الفتاة الشقراء تغني فتنحني الأشجار، وتأتي أشعة القمر ترقص حواليها) فتحفها بنور يبهر الأبصار ويعشيها. وغفلنا عن الليل، وحسبنا أننا في جنة عدن، فقمت إلى غصن من الغار لأضعه على رأسها، ولكنها قامت تتثنى وتلهو. . . ثم اختفت بين الخمائل عن أبصارنا. . . وتلاشى صوتها. . . ونأى طيفها، ولكن صورتها ما تزال في (نفسي لا تغادرها بعد أن تغلبت على كل صورة

تلك قصة حبه، ولقد كان وفياً لهذا الطيف الذي قبله ورآه واعتقد أنه راجع إليه لا محالة. . . فسماه (زهرة الليل التي تفتحت تحت أشعة القمر الشاحب) وسماه (الطيف الوردي الأشقر الذي اختفى بين الأعشاب، والتف بالسحاب)

وفكر شاعرنا طويلاً في زهرة الليل، فانكب على السحر وما يمتّ إليه بسبب يدرسه ويقرأ أصوله كأنما أراد أن يسخره لإحضار أدريان. وكان يسمع عن الشرق أقاصيص حلوة طربت لها نفسه ورضى عنها هواه، فتمنى لو زار تلك البلاد التي هبطت إليها الأحلام، ورتعت بين جنباتها الأوهام، فيدرك ما فيها من أمور يحيط بها الغموض والخفاء. وخيل إليه أن أدريان هي بلقيس صاحبة العرش العظيم، أتت إلى القصر الأحمر لتهمس في أذنه أسرار الدنيا وتدله على طريق الخلود ويذكر لنا من كتب عنه أنه كان يعتقد في تقمص الأرواح، وأن نظرته إلى أدريان كانت نتيجة لذلك الرأي. ولقد أصبح هذا الرأي لديه يقيناً عندما قضى بين دروز سورية ردحاً من الزمن غير قصير. على أننا لا ننكر أن للمخدّرات التي كان يقتل بها جسمه ويفني نفسه أثراً في إخلاده إلى ما أخلد إليه. والعجيب أن يعتقد بأن تلك الأوهام حقائق، على حين يعتقد الناس أن الحقائق أوهام. وكان من خبره بعد ذلك أنه التقى ذات ليلة براقصة في حانة بباريس فحسبها أدريان الحبيبة. وبعث الهوى الأول وهاج الشوق القديم، فقال في نجواه لنفسه: لقد عادت إلي بعد أن اختفت بين الرياض. ولازم المقهى لا يغادره إلا لحاجة ليملي بصره من جمال هذه الراقصة التي تقمصتها روح أدريان. وكان يغمرها بأزاهيره التي كان يرسلها وعليها اسمه. . . ملتمساً بذلك لنفسه وصلاً عندها، قانعاً بالنظر دون الكلام. ولكنها ازوّرت عنه بعد أن رأت جنونه وعلقت فتى كان يغني فتزوجت به وزاد جنون شاعرنا عندما تخطى الثلاثين، فقد رأى في إحدى الأماسيّ نجماً يضطرب في السماء، فضحك له وظن أنه بلقيس تناديه لتذهب به إلى الشرق. فأخذ يقهقه ويغني ويقفز ويبكي، وينزع أثوابه ويمد يديه نحو النجم المتلألئ منادياً تارة ومغرّداً أخرى حتى مر به بعض من عرفه، فأشفقوا عليه ورثوا لحاله وقادوه إلى الطبيب وذهب ما ألمّ به بعد ثمانية شهور قضاها في مصح للطبيب (بلانش) فعزم على الرحيل إلى الشرق. فترك باريس سنة 1843 وكان له من العمر خمس وثلاثون سنة قاصداً جزيرة مالطة، ثم رحل عنها إلى الإسكندرية فالقاهرة. فراعه منها آثار مدنيتها القديمة وعزّها الخالي، وأعجبه زي المصريين فتزيّا به، وحاول أن يتعلم العربية فلم يفلح. ثم ترك مصر قاصداً سورية ومعه جارية سوداء اسمها زينب

وجد شاعرنا في سورية ضالة نفسه. فقد درس ما فيها من ديانات، فأعجبته منها الدرزية. وزاد يقينه بالتقمص واعتقد أن بلقيس لا بد آتية إليه بعد أن فرت أدريان وأعرضت عنه جون. ألم يجتمع ببلقيس فوق ثبج البحر على سفينة صنعت من الذهب، ورصعت بالدر، وحفت بها الجان، فضمها إلى صدره وروى فمها الضمآن من قبلاته؟ وعاد عقله إلى الاختلاط فترك بيروت إلى القسطنطينة فأقام بها زمناً، يقول (بلغت البسفور. . . فالتفتّ نحو مصر الجميلة فإذا هي وراء الأفق البعيد)

لقد ذكرت وطني الذي تركته منذ شهور، عندما وطئت قدماي هذه الأرض الأوربية) التي استولى عليها المسلمون. والتفت حواليّ. . . فإذا أنا أمام حلاق أرمني يقص اللحى. . . ويقدم القهوة. ورأيت جمعاً من الكلاب النائمة على الطريق. ولقيت شيخاً وقوراً يحمل عمته الكبيرة مستلقياً على العشب. . . نائماً ملء عينيه، يحلم بالجنة التي وعد الله عباده الصالحين)

وعاد جيرار إلى باريس فكتب (مشاهد من الحياة الشرقية) أخرجها للناس بعد أربع سنوات. وما زال يتنقل بين السجون لجنونه والبلاد المجاورة، برماً ببلاده ومحيطه، سائلاً ربه (ألا يبدل من حوادث الكون شيئاً، وإنما يبدل ما يحيط به من الأشياء ليعيش وحيداً في عالمه الجديد) مخرجاً للناس (ذكريات ونزهات) و (بنات النار) و (قصور بوهيميا الصغرى) حتى لقي مصرعه الذي كان يمشي نحوه ببطء منذ زمن طويل.

فقد ألحت عليه الأوهام واشتدت في الإلحاح فأذعن لها، واشتط في الإذعان؛ وخيل إليه ذات ليلة أنه سيلقى بلقيس، فكتب إلى صديق له: (لا تنتظرني هذا المساء؛ فإن الليل سيكون أسود أبيض) ثم هام على وجهه في طرقات باريس ذاهلاً حتى انتهى به المسير إلى مكان فيه أقذار وأوساخ فطاب له الجلوس عنده. فلما وهن الليل سمع غراباً ينعق. . . فحسب أنه رسول بلقيس الحبيبة إليه، فناداه وحدثّه. ثم قام إلى نافذة فربط بها حبلاً علّقه في عنقه ونادى: (هأنذا قادم إليك) وما هي إلا ساعات حتى فاضت روحه وانتهت مأساته بعد أن قضى سبعة وأربعين عاماً يقظان حالماً. . . وخلّف لنا

آثاراً مملوءة بالحسن من الوصف والفريد من المعاني.

صلاح الدين المنجد

من العوائد المغربية الممتازة

سلطان الطلبة

بمناسبة تتويجه في ربيع هذا العام

للأستاذ إدريس الكتاني

سيبدو هذا العنوان غريباً عن إخواننا في الشرق. وليس عجيباً هذا، فالمغرب نفسه - لا تاريخه فحسب - غريب في نظر بعض الشرقيين عن الشرق. أما نحن هنا فليس منا من لا يعد المغرب قطعة من الشرق العربي، وجزءاً لا يتجزأ من الجامعة الإسلامية الكبرى. فعسى أن يعمل إخواننا الشرقيون على هذا الاعتبار، ويقلعوا عن تجاهلنا وتناسينا في وقت نجعل نحن فيه الشرق - ومصر في الطليعة - محط أنظارنا وكعبة معارفنا؛ ونتطلع إليه كالمنحط في أسفل الوادي يروم معزوفة ما فوق الروابي التي تعلوه

عفا الله عنا وعنكم يا إخواننا المصريين! كلانا مقصر نحو أخيه ولكن ما عذركم أنتم - وقد أتيح لكم أكثر من ذي قبل - أن تقولوا وتعملوا عملاً صالحاً، وأن تمدوا يد الإسعاف لهذا الشرق العاني فتوقظوه من غفوته؟ إن اليد الضعيفة مع أختها يد قوية، وهي مع أخواتها الضعيفات أشد وأقوى. قد والله نعقل كثيراً ولكننا لا نعمل إلا ونحن جهلاء. . .

عفا الله عنا. . . في تاريخ الحياة العلمية بالمغرب الأقصى ما يجعل المغاربة دائماً يفخرون بأمجاد الأجداد، ويعتزون بما خلفه ملوك العرب وأمراء الإسلام من المآثر الحميدة بهذه البلاد العربية الإسلامية. وفي الحق أن الدول التي تعاقبت على المغرب لا يخلو تاريخها من حسنات شتى في مصالح البلاد العامة. وكم تجد لهم في خصوص النواحي العلمية من اهتمام خاص بالعلم والعلماء والأدب والأدباء؛ ولكن الذي يؤسف له حقاً أن الكتب التاريخية لا تزال حتى الآن موضوعة على الرفوف أو مدفونة في الخزائن تلعب بها الأيدي الجاهلة إذ تتركها غذاء للأرضة، وملعباً للخنافس والعناكب وليس يهمنا الآن أن نلم بجميع ما لتلك الدول من المفاخر الخاصة بنشر التعليم وتشجيع طلابه، فهذا ما يملأ كتباً عدة، وحسبنا من ذلك أن نأتي بوصف أحد تلك المظاهر (الممتازة) فهذه وحدها دليل ساطع على الشعور الكامن من قديم في نفوس ملوكنا نحو بعث

التعليم ونهضة الحياة العلمية. ويلاحظ على الخصوص في هذه الظاهرة مبلغ تعمق ملوكنا في فهم نفسية رعاياهم، وكيف ينفذون إلى قلوبهم فيملكون إحساسها بعبقريتهم الفذة. . .

في ربيع كل عام من بدء ثلاثة قرون مضت يقيم طلاب العلم بفاس ومراكش (سلطنة) رسمية لها أبهة السلطان وجلال العلم، تدوم سبعة أيام؛ ثم في اليوم الثامن تتقوض وتنهار ويعود سلطان الطلبة بعد سلطنة أسبوع طالباً عادياً كما كان قبل أسبوع فقط!

هذه أدوار فكاهية طريفة تقوم بها الحكومة المغربية رسمياً في أواخر فصل الربيع من كل سنة، وهي عادة يلذ للسائح الأجنبي أن يشاهدها ويسجل شتى مظاهرها، وقد تسلسل العمل بها منذ القرن الحادي عشر دون أن يحدث ما يمنع سيرها المعتاد والحديث عن هذه السلطنة تجره إلى أفواه الطلبة طلائع أيام نيسان التي تتفتح فيها الطبيعة عن أكمامها، وتبتسم الأغصان عن أزهارها، وتحلو الحياة لأبنائها

فإذا هجم نيسان نشوان طروباً يجر أثوابه الخضراء اليانعة، هب طلبة القرويين بفاس وطلبة الكلية اليوسفية بمراكش. يطلبون من جلالة الملك الإذن لهم في إقامة سلطنتهم السنوية. وعند الترخيص لهم بذلك يجتمعون على انفراد بإحدى مدارسهم التي يسكنونها، ثم يقوم (مقدم) المدرسة منادياً ببيع (سلطنة الطلبة) بالمزاد العلني، ولكل طالب الحق في أن يبتاعها لنفسه مادام يستطيع أن يزيد في ثمنها على غيره، فإذا انتهت فيها الرغائب ووقف ثمنها على طالب ما، سجل العدليان الشرعيان اللذان يحضران هذا المزاد هذا البيع على الطالب المشتري، ثم ينفض جمع الطلاب معلنين سلطانهم. أما ثمن هذه (السلطنة) فيتراوح غالباً بين 10000 و 5000 فرنك. ويلاحظ أن شراءها خاص بالطلبة الغرباء عن البلد محظور على غيرهم. ولعل هذا الامتياز قصد

إليه لترغيب أهالي البادية والحواضر النائية في ورود منهل العلم من كليتي القرويين وابن يوسف، وتشجيعهم عليه بإدخال أسباب الغبطة والانشراح إلى صدورهم
أما مهمة هذه (السلطنة) فهي قيام (سلطان الطلبة) على رأس رعاياه في موكب رسمي حافل، بنزهة على شط وادي الجواهر بضواحي فاس وهذا الموكب في هيئته المؤلف منها صورة مصغرة لموكب صاحب الجلالة ملك المغرب مولاي محمد الخامس أيده الله
ويقوم (سلطان الطلبة) على أثر تعيينه بتأليف هيئة حكومته من نخبة أصدقائه الطلاب ومن بينهم وزير للمالية ومحتسب بارع في الهزل والنكات الفكاهية
وفي أول جمعة تلي ذلك ترسل الحكومة المغربية لسلطان الطلبة كسوة فاخرة وتقوم بتنظيم موكبه الرسمي. وعند الساعة الحادية عشرة يتحرك هذا الموكب من المدرسة التي يتفق أن سلطان الطلبة ساكن بها، فيركب هو جواداً مطهماً وترفع المظلة الملكية (الشمسية) فوق رأسه ومن حوله الحراب تحملها الشرطة، وتتقدمه موسيقى عسكرية ثم قواد (المشوَر) فرساناً حاملين السيوف، وتتلوه حاشيته وجمهور غفير من رعاياه الطلبة مشاةً على الأرجل، ثم أصحاب الطبول والمزامير، ويحيط بالجميع من اليمين إلى الشمال سلسلتان من الشرطة والعسس ومقدمي الحارات ويخترق الموكب الأزقة والشوارع سائراً بين أمواج صاخبة من الأهالي إلى أن يصل إلى جامع الأندلس فيؤدي السلطان به صلاة الجمعة. ثم يتابع الموكب سيره لزيارة ضريح السلطان الأعظم مؤسس عرش الدولة العلوية الشريفة المولى الرشيد سنة (1040 - 1083 هـ) بداخل قبة الشيخ أبي الحسن علي بن حرزهم بمقبرة الغرباء خارج باب الفتوح، وهذا السلطان هو الذي سن للطلبة هذه (السلطنة) وحباهم بعطفه الكبير فهم يزورون ضريحه أولاً قياماً بواجب شكره وتذكاراً لعهده اللامع. وعند المساء بعد صلاة العصر يعود موكب (سلطان الطلبة) من حيث أتى بينما الوجوه تطفح بشراً، والنساء يملأن السطوح بزغاريدهن المازحة العابثة
وفي عشية اليوم التالي يخرج (سلطان الطلبة) في موكبه الرسمي كهيئته الأولى قاصداً إحدى ضواحي المدينة حيث ضربت خيام (دولة الطلبة) بسهول خضراء على ضفاف وادي الجواهر يتوسطها سرادق كبير لسلطان الطلبة وحاشيته. وتقدر هذه الخيام بنحو المائة غالباً خمسون منها للحكومة، وهذه خاصة بالطلبة تضم كل منها جماعة من بينهم، وباقي الخيام للأهالي الذين يلذ لهم أن يقضوا نزهتهم الربيعية بجوار (دولة الطلبة) التي تعيش أسبوعاً واحداً، وقد يرخص لها بزيادة أسبوع آخر.
وتقوم واردات الميزانية العامة لهذه (الدولة) المحدودة بالزمان والمكان من:
1 - ثمن (السلطنة) الذي يدفعه (سلطان الطلبة) على أن تتعهد له الحكومة في مقابل ذلك بإجابة طلب يتقدم به إليها كإطلاق سراح مسجون له، أو جعله موظفاً في بعض الإدرات ونحو هذا.
2 - الهدايا التي يقدمها جلالة الملك إلى الطلبة باسم سلطانهم، وتتكون هذه عادة من الأكباش وأكياس الحنطة وأكياس من السكر وغيرها، ومن المال أيضاً.
3 - الهدايا التي يتقدم بها الأهلون إليهم عن طيب نفس.
4 - الضرائب التي يجبيها (سلطان الطلبة) من وجوه البلاد وتجارها بواسطة (ظهائر) موقعة بإمضائه والتي يؤديها هؤلاء بكل سرور.
5 - التي تجمع بواسطة (محتسب) سلطنتهم الماجن الذي يرتدي حلة في (الذعائر) شكل مضحك، ويجعل في عنقه سبحة من التين يلتهم منها الواحدة بعد الأخرى من حين إلى آخر، ثم يتجول في شوارع المدينة راكباً بغلة، وواضعاً في حجره صندوقاً مغلقاً يظل يملؤه - من ثقب فيه - بالفرنكات والريالات (كذعيرة) يفرضها على التجار والبقالين بزعم أنه وجد في مبيعاتهم غشاً يعاقب على ارتكابه
وفي خلال أسبوع هذه (السلطنة) ينصرف الطلاب جميعاً للمرح واللهو بقلوبهم وعقولهم معاً، ويقبلون على حياة بعيدة عن حياة الجامعة فيها متعة النفس وصفاء الحديث وطرب القلب.
فإذا مضت ستة أيام وأقبل يوم الأربعاء، تهيأت (أمة الطلبة) حكومة وشعباً لاستقبال جلالة الملك أو خليفته - إن لم يكن هو في البلد - الذي يشرف مملكتهم الصغيرة في موكب عظيم ليقدم لهم هداياه الخاصة، وفي العشية ينتظر (سلطان الطلبة) مع هيئة

حكومته سلطان المغرب المفدى؛ حتى إذا لاح موكبه عن قرب ترجل الأول عن فرسه. وتقدم إلى السلطان الأعظم مطأطئاً رأسه، فيقبل يده الكريمة، ويرفع إليه الكتاب المتضمن طلبه الخاص الذي يؤمل من جلالته الأمر بتنفيذه، ثم يرجع إلى الوراء فيركب فرسه، ويتقدم إلى أن يقف قريباً منه

وهنا تتمثل لنا الديمقراطية الحق في ملوكنا الذين ورثوها كابراً عن كابر. ففي هذه الساعة يتنازل (سلطان المملكة المغربية) فيتحدث إلى (سلطان الطلبة) بكل تواضع حديثاً تمليه العاطفة، وتوحيه الرغبة الصادقة في بعث النهضة العلمية. وفوق ذلك يتنازل لسماع حديث دعابة ومزاح ممتع من محتسب سلطان الطلبة الحاذق في الفكاهة والمجون. فإن هذا يتقدم من جلالة الملك ويخاطبه بصوت جهوري أمام ألوف من الناس بنحو قوله: كيف استطعت

وأنت ملك كسائر الملوك العاديين أن تقف بجانب أكبر ملك في الدنيا تخضع لأوامره ملايين من القمل والذباب والضفادع والبراغيث وغيرها من الهوام والحشرات؟ فيرد عليه جلالة الملك بنكتة رقيقة تمثل سمو الهزل عند الملوك، ويسارع سلطان الطلبة فيعرب عن قبوله لجلالته ضيفاً في مملكته ويرحب به باسم أمته أكبر الترحيب. ثم يقوم المحتسب الماجن فيلقي أمام السلطانين ورعاياهما خطبتين ضاحكتين عابثتين في الإشادة (بالزردة) والتنويه بالأطعمة الفاخرة

وعند الفراغ من هذه المظاهرة الرائعة يستأذن جلالة الملك من سلطان الطلبة في الرجوع فيأذن له بعد أداء الاحترام الواجب ويعود جلالته في موكبه الفخم إلى قصره العامر

وفي الجمعة التالية يقوم سلطان الطلبة في موكبه بأداء صلاة الجمعة في جامع أبي الجنود، ثم يرجع لمقر دولته التي لا يبقى على انهيارها إلا يوم واحد. ففي مساء اليوم التالي يكون الطلبة على أهبة الرجوع لمدارسهم حيث تستأنف الدراسة بالكلية صباح يوم الأحد

ويدهشك بل يغريك بالضحك الذي لا تملك معه نفسك أن تجد الطلاب صباح يوم السبت يبحثون عن سلطانهم فلا يجدونه. لقد فرّ ليلة هذا اليوم مختفياً بين غضون ظلامها القاتم خوف أن يصبح على أبواب ثورة عامة من رعيته التي يلذ لها أن تنقض عليه يوم انتهاء سلطنته حتى لا يدخل إلى نفسه شيطانها فيوهمها أنه حقاً (سلطان الطلبة) وأن واجباً عليهم أن يخضعوا له ويقروا بسلطانه عليهم

هذه هي الرواية التمثيلية التي ألفها السلطان (مولاي الرشيد) لطلبة العلم وبعثهم على تمثيلها بأنفسهم كل سنة على مسرح الحياة لكي يعطيهم درساً عملياً في التدريب والتمرين على أن يكونوا رجالاً أكفاء مقتدرين لهم ما للناس في الحياة من حق

وفي ظني أنه لو كان معروفاً لدى حكومتنا الماضية نظام الكشافة الحديث، لما جعلوا غير الفرق الكشفية مع موسيقاها العذبة جنداً وحراساً لموكب (سلطان الطلبة) حرصاً على أن يكون المظهر طالبياً بحتاً، يمثل أمة في الطلبة بسلطانها وجندها وموسيقاها، وفي هذا وحده من الروعة والمظهر الجذاب ما يشوق الأبناء إلى التعلم ويبعث الآباء على تشجيعهم عليه بالبذل والسخاء. أما الآن، فالمستقبل كفيل بأن يكون هذا وأكثر من هذا. وعسى أن ينتبه الطلبة من الآن إلى هذه النقطة الدقيقة فيؤلفوا من بينهم فرقاً كشفية تقوم بهذه المهمة، فوق أنها تكون عضواً عاملاً في النهضة المغربية الحديثة.

هذه رواية ناطقة أتينا على وصفها معتمدين على ما شاهدناه، وسمعناه، لا على ما قرأناه. فإن تاريخ نشوء هذه (السلطنة) والأسباب التي دعت إليها ووصف مناظرها وظاهرها المتنوعة، كل هذا طواه الزمن في مهملات التاريخ. وما أكثر ما أهمله التاريخ

وليت شعري ما الذي حدا بالمؤرخين المغاربة إلى عدم الاكتراث بهذه المنقبة الخالدة؟ أكبر الظن عندي أن هؤلاء اطمأنوا إلى بقائها وخلودها مشاهدة أكثر من اطمئنانهم إلى بقاء مؤلفاتهم التاريخية فاعتمدوا على ذلك ولم يكتبوا ومن يدري؟ فلعلهم كتبوا وأضعنا نحن فجهلنا، وأياً كان الأمر فإن اطمئنانهم إلى بقاء (سلطنة الطلبة) قد صدق وسيبقى صادقاً إلى الأبد. ولا أنكر فهناك في بعض الكتب لمحة برقية وعلى الأفواه أسطورة تاريخية وعندي أطروفة فكاهية، فإذا سنحت الفرصة

فسأقص خرافتي وإلى اللقاء يا قرائي وقارئاتي في الشرق الحبيب
(فاس - المغرب)
إدريس الكتاني
في بلاط الخلفاء
بين الشعبي وعبد الملك
للأستاذ علي الجندي
(تتمة ما نشر في العدد الماضي)
أقبل الخليفة على رجل جالس بين يديه يرتدي جبة خزّ قد ابيض شعر رأسه ولحيته، وتدلىّ من عنقه صليب ذهب، ورائحة الخمر تنفح من عارضيه! فقال له: ويحك! من أشعر الناس؟ فأجاب الرجل - وفي صوته رنة الزهو والمخيلة والثقة بالنفس - أنا يا أمير المؤمنين
ولم يكد الشعبي يسمع هذه الكلمة حتى تمعّر وجهه ودارت به الأرض، فذهل للمرة الثانية عن آداب السلوك في حضرة الملوك، فصاح بصوت يقطر غيظاً: من هذا يا أمير المؤمنين الذي يزعم أنه أشعر الناس؟
ما كان أغنى الشعبي عن هذا السؤال لو انه روّى في الأمر قليلاً! ترى من يكون هذا الجالس بين يدي الخليفة جلسة الصديق المدلّ بمكانته غير أمدح مداّح الإسلام، وأدب أدباء النصرانية، ولسان تغلب ابنه وائل ومدره ربيعة، والمنافح عن البيت الأموي وشاعر أمير المؤمنين أبو مالك الأخطل؟
لم يستطع عبد الملك أن يكتم استعجابه من عجلة الشعبي بالسؤال وجهله بشاعره الفذ وجرأته عليه! ولكنه تكلف الحلم ورمى الشعبي بنظرة نفذت إلى أعماقه قائلاً: يا شعبي، هذا شاعرنا الأخطل
وكان ما حدث كافياً أن يرد الشعبي إلى صوابه ويفثأ من غضبه على الأخطل، ولكنّ شيئاً من ذلك لم يحدث، فولّى وجهه شطره - زاوياً ما بين عينيه - وهتف: يا أخطل، أشعر منك الذي يقول:
هذا غلامٌ حَسَنٌ وجهُه ... مُقْتَبل الخير سريع التَّمام
للحارث الأكبر والحارث الأصغر والحارث خير الأنام
خمسةٌ آباؤُهم ما هم، هُمُو ... خير من يشرب صوْب الغمام
وكأن عبد الملك أعجبته هذه الأبيات فسرى عنه وقال:
ردّدها عليّ. فرددها الشعبي عليه حتى حفظها
نال هذا التحدّي من الأخطل وشعر بالصغار والضعة، فمسح بيده على جبينه المنديّ وقال في غمغمة الضجر: من هذا يا أمير المؤمنين؟ فمال عبد الملك على أحد جانبيه قائلاً: هذا الشعبي فقيه العراق. فرَم الأخطل بأنفه وأرسل نفساً عميقاً وقال: أمير المؤمنين - حفظه الله - إنما سألني عن أشعر أهل زمانه، ولو قد سألني عن أشعر أهل الجاهلية لكنت حريّاً أن أقول كما قلت
وهمّ الشعبي أن يتكلم فقاطعه عبد الملك بالسؤال عن حاله - وقد شغل بالحوار عن ذلك - فقال: إني بخير يا أمير المؤمنين
ومضى يتأنق في صوغ المعاذير عما كان من خلافه على الحجاج وخروجه مع أبن الأشعث
وكان عبد الملك نبيلاً حقاً فأبتدر قائلاً: مَه يا شعبي فإنا لا نحتاج إلى هذا المنطق، ولست تراه منا في قول ولا فعل حتى نفترق! وأراد أن يزيد في طمأنينته فغير وجهة الحديث قائلاً: ما تقول في النابغة؟ فقال الشعبي: إن عمر بن الخطاب قد حكم له بالسبق في غير موطن على الشعراء. وذلك أنه خرج يوماً - وببابه وفد غطفان - فقال: يا معشر غطفان، أي شعرائكم الذي يقول:
حلفت فلم اترك لنفسك ريبة ... وليس وراء الله للمرء مذهب
قالوا: النابغة. قال: فأيكم الذي يقول:
فأنك كالليل الذي هو مدركي ... وإن خلت أن المنتأى عنك واسع
قالوا: النابغة. قال: فأيكم الذي يقول:
إلى ابنُ مَحرِّق أعملت رحلي ... وراحلتي وقد هَدِت العيون
أتيتك عارياً، خَلَقٌ ثيابي ... على خوف تّظَنُّ بيَ الظنون

فألفيت الأمانةَ لم تخنها ... كذلك كان نوح لا يخون
قالوا: النابغة قال هذا أشعر شعرائكم
ثم أقبل عبد الملك على الأخطل فقال: أتحب أن لك قياضاً بشعرك شعر أحد من العرب، أو
تحب أنك قلته؟ قال: لا، والله، إلا أني قد وردت أني قد قلت أبياتاً قالها رجل منا، كان والله مغدف القناع، قليل السَماع، قصير الذراع! قال عبد الملك: وماذا قاله؟ فأنشده الأخطل القصيدة:
إنا محيوك فاسلم أيها الطَّلَل ... وإن بَلِيت وإن طالت بك الطيل
حتى وصل إلى قوله:
قد يدرك المتأني بعض حاجته ... وقد يكون مع المستعجل الزلل
وقبل أن يسمع الشعبي رأي عبد الملك في الشعر، هتف بالأخطل في لهجة المتهكم الساخر: تالله لقد قال القطامي أحسن من هذا! فأدنى عبد الملك تفاحة إلى أنفه فشمها، ثم قال: وماذا قال القطامي؟ فأنشده الشعبي:
طرقت جَنُوبُ رحالَنا من مطرَق ... ما كنت أحسبه قريب المعنَق
ومر في القصيدة إلى قوله:
وإذا يصيبك - والحوادث جّمة - ... حَدثٌ، حداك إلى أخيك الأوثق
ليت الهموم عن الفؤاد تفرقت ... وَحلى التكلم للسان المطلق
فترنح عبد الملك طرباً إلى الشعر وإعجاباً به! وصاح: ثكلت القطامي أمه! هذا - والله - الشعر!
ونظر عبد الملك إلى الأخطل، فإذا هو كالمغشي عليه من الموت فأخذته الحمية لشاعره، وداخلته الشفقة عليه، فقال ينعش نفسه ويشد منها: ما أشعرك يا أخطل حين تقول في وصف الخمر
وتظل تنصفنا بها قرويةٌ ... إبريقُها برقاعه ملثومُ
فإذا تعاورت الأكفُّ زجاجها ... نفحتْ فشمَّ رياحَها المزكوم
لم يخف على الأخطل ما أراده الخليفة، فألقى على وجهه نظرة ملؤها الغبطة والرضاء! ثم عطف على الشعبي - والزهو يعبث بعطفيه - فقال: أسمعت بمثل هذا يا فقيه العراق؟!
فتربع الشعبي في مجلسه، وتنحنح، وأمرّ يده على لحيته إمراراً خفيفاً، ثم صاح في وجه الأخطل: بعض عجبك! فأشعر منك والله الذي يقول:
وأدكنَ عاتقٍ حَجْل رِبَحْل ... صَبَحْت براحه شرباً كراما
من اللائى حُمِلن عَلى المطَايا ... كريح المسك تستلّ الزكاما
فقال الأخطل: ويحك! ومن يقول هذا؟ قال الشعبي: يقوله شيخك أعشى قيس. فصاح الأخطل كمن أصابه مس: قدوس قدوس!!
ولم يسع عبد الملك إلا أن يحكم للاعشى على الأخطل: إذ هناك بون بعيد بين خمر يشمها المزكوم، وخمر تستلّ منه الزكام! وهنا يشعر الأخطل بالخطر المحدق به ويرى أن ريحه قد لاقت إعصاراً! وأنه رمى من هذا العراقي الدخيل بالداهية النكراء! لقد استطاع أن يسدد إليه سهاماً قاتلة في جلسة واحدة! فما الظن به إذا تطاولت المدة وتراخت الأيام؟! إنه لا محالة سيغلبه على مكانته من الخليفة، وسيسحب عليه ذيل الخمول! فتنبهت في نفسه غريزة المقاومة التي أرهقها طول النضال بينه وبين جرير وغيره في ميدان المهاترة! فورم أنفه وانتفخت أوداجه، وانتفشت لحيته، ودارت عيناه في رأسه كأنهما جذوتان ساعرتان! وفغر فاه يدير فيه لساناً كأنه لسان ثور! واتجه إلى الشعبي هاتفاً بصوت فيه مشابه من هدير البعير المغتلم: اسمع يا شعبي، إن لك فنوناً في الحديث وشجوناً في المحاضرة، وإن لنا طريقاً واحداً لا نحسن غيره، ولست أخالك غير ثانٍ من عنانك حتى تحملني على أكتاف قومك فأدعهم حرضاً!!
فعلت هذه الكلمات الناريّة أفاعيلها في الشعبي! فمثله لا ينكر صولة هذا التغلبي الذي لم يتورّع عن هجاء الأنصار! ويعرف أن أبياتاً من هجائه الممضّ الخبيث قد ترمى بقومه من حالق وتجلّلهم عار الأبد! فيكون أشأم همداني على همدان!
ولم يكد يتمثّل الشعبي سوء هذه المغّبة حتى ذابت حماسته فقبع في مكانه كالقنفذ الخشب! وساورته الرعدة من قمة رأسه إلى أخمص قدميّه! فالتفت إلى الأخطل

ضارعاً يقول: أقلني هذه المرة يا أبا مالك! ولك عليّ عهد الله وميثاقه ألا أعود لمثلها أبداً!

وأحس الأخطل نشوة الظفر! فقال (ماطّاً صوتَه): ومن يضمن لي ذلك أيها الشيخ؟

فرفع الشعبي إلى عبد الملك عينين منكسرتين متوسلتين قائلاً: أمير المؤمنين

فضحك عبد الملك حتى بدت له سِنّ سوداء كان يسترها! وقال: أنا ضامن يا أخطل ألا يعرض لك بشيء بعد هذا!

فقال الأخطل: وأنا قد صفحت عنه يا أمير المؤمنين!

وأراد عبد الملك أن يصل ما أنقطع من الحديث فقال: يا شعبي أي شعراء الجاهلية أشعر من النساء؟ فقال الشعبي: الخنساء. قال: ولم فضلتها على غيرها؟ قال: لقولها في أخيها صخر:

وقائلة (والنعشُ قد فات خطوَها ... لتدركه): يا لهف نفسي على صخر

ألا ثكلت أمُّ الذين غدوْا به ... إلى القبر! ماذا يحملون إلى القبر؟!

فقال عبد الملك: أشعر منها - والله - ليلى الأخيلية حيث تقول في توبة:

مهفهف الكَشْح والسربال مُنْخرق ... عنه القميصُ لسير الليل مُحتقِر

لا يأمن الناس مُمْساه ومُصْبحه ... في كل حيٍّ (وإن لم يَغْزُ) يُنتظر

كان لكلام عبد الملك أثر عميق في نفس الشعبي، فانخزل انخزالاً شديداً وكسف باله! لقد انتصر على شاعر الخليفة ولكن الخليفة لم يعتّم أن أخذ له بالثأر المنيم! وقرأ عبد الملك في وجه الشعبي ما يعتلج في صدره من ألم برح! فقال: يا شعبي لعله قد شق عليك ما سمعت! فقال: إي والله أشدّ المشقة! إنني لم أفدك إلا أبيات النابغة (هذا غلام حسن وجهه. . .) وقد أفدتني أفضل منها

فقال عبد الملك: يا شعبي، إنما أعلمناك هذا، لأنه بلغني أن أهل العراق يتطاولون على أهل الشام ويقولون: إن كانوا غلبونا على الدولة فلن يغلبونا على العلم والرواية، وأهل الشام أعلم بعلم أهل العراق منهم!

ثم جعل عبد الملك يردد على الشعبي أبيات ليلى حتى حفظها، فألقى المخصرة من يده - وهي إمارة الإذن بالانصراف - فنهض الشعبي مودعاً

وخطر لعبد الملك أن ينتفع (بدبلوماسية) الشعبي، فأوفده إلى ملك الروم. قال الشعبي: فلما دخلت عليه جعل لا يسألني عن شيء إلا أجبته، وكانت الرسل لا تطيل الإقامة فأمسكني عنده أياماً. فحين أردت الانصراف قال لي: أمن بيت المملكة أنت؟ قلت: لا، ولكنني رجل من العرب. . . فدفع إلي رقعة خاصة وقال: إذا أديت الرسائل إلى صاحبك فسلمها إليه. فلما رجعت إلى عبد الملك، دفعت إليه الرسائل ونسيت الرقعة، ثم تذكرت بعد خروجي من الباب فكررت راجعاً ودفعتها إليه. فقال لي: هل قال لك شيئاً قبل أن يدفعها إليك؟ قلت: نعم، سألني: أمن بيت المملكة أنت؟ فقلت: لا، ولكنني من العرب. ثم خرجت فما وصلت

الباب حتى ردني إليه فقال: أتدري ما في الرقعة؟ قلت: لا. فنبذها إليّ وقال: اقرأها. فقرأتها؛ فإذا فيها: عجبت لقوم فيهم مثل هذا كيف ملكوا غيره؟! فاحتدمت غيظاً، وصحت مرتجفاً: يا أمير المؤمنين، والله لو علمت ما فيها ما حملتها! وإنما قال هذا، لأنه لم ير أمير المؤمنين! فضحك عبد الملك وقال: أتدري لم كتبها؟ قلت: لا. قال: حسدني عليك فأراد أن يغريني بقتلك! ولكن خاب فأله! فاذهب لا بأس عليك!

وقد نبل الشعبي في عبد الملك وجلت مكانته، فبالغ في إكرامه وتقريبه منه، حتى كان أول من يدخل إليه وآخر من يفارقه! وصفوة القول: أن الشعبي في دولة عبد الملك هو الأصمعي في دولة الرشيد.

علي الجندي

رأي في الرجال

للكاتبة الإنجليزية أرسولا بلوم

بقلم الآنسة الفاضلة (الزهرة)

إني أميل إلى الرجال وأختصهم بمودتي، فوق ما أختصّ السيدات، لأني - بعد استثناء حالات فردية قليلة - أجد أنهم يمتازون عنهن بالحصافة وبعد مراد الفكر وصدق المنزعة. كما أنهم أرحب منهن صدوراً، وأبسط خليقة، وأسجح عطفاً، وأسرعها فيئة، وأقدر على رد عرام المنصب، واحتمال الإساءة.

وفي إمكانك أن تتشاجر مع رجل وتصارحه بما تراه فيه حقاً وتلمصه وتعوّج فمك عليه، وبعد مضي عشر دقائق تعودان إلى مألوفكما من المصافاة والموالاة. ولكنك لا تستطيع شيئاً من ذلك مع سيدة، لأنها تذكر على الدوام الملام الذي كافحتها به مرة، وقد يندمل جرحها منه ويلتئم في الظاهر، إلا أنه يلتحم على نغل ويلثرق على غبرة، ولأقل لمسة يزرف ويمجّ دما.

والرجل يقول ما يقصد ويتمسك به. أما المرأة فلا تعرف على الدوام ما تقصد، ولذلك لا تستطيع التزامه، أو التمسك به. فقد تقول الأم لطفلها الملحاح: (لا يا حبيبي يجب ألاّ تعتلي غارب تلك الأرجوحة المعلقة فيما بعد). ولكنها لا تجد مفراً من الانصياع له، والنزول على رغبته تحت ضغط تماديه في اللجاجة. فترافقه إلى الأرجوحة مرة أخرى. أما الأب فيقول: (أسمع! دعنا من هذه الأرجوحة وتعال بنا نعود إلى البيت) وإنك لتعرف المسلك النهج الذي ترده، والمشرع الواضح الذي تقصده مع الرجل، ولكنك لا تعرف متوجهك مع المرأة، لأنها هي نفسها، لا تعرف لها متجهاً ظاهر المنار. وإنك لتجد في الرجل رفيقاً صالحاً، وصفياً ودوداً، وخديناً مخالصاً. . . وإذا كنت في حاجة إلى مناصحته، فإنك تلقى فيه مشيراً صادق الضمير، يتحرى لك وجوه النصح، وينصّب لك ما يهديك إلى عواقب أمرك، ويبصرك مواقع رشدك، ولا يشير عليك بما تعتقد أنه رأي الصواب الذي طوعته لك نفسك، وحدثتك بالإقدام على فعله. أما المرأة فتدلس عليك الرأي مجاراة لك، وإشباعاً لرغبتك في إنفاذه، وإغراء لعزيمتك باتباعه، ولا يخطر لها أن تشير عليك بما تعتقد أنه أحمد لك في العقبى، وألزم للحوط من أمورك. وقد ارتدي قبعة جديدة،

وأتطلّب رأي إحدى صويحباتي فتكره أن تزهدني فيها، وتميلني عنها، بعد أن شريتها. فتقول: (إنك تبدين فيها يا عزيزتي مدهشة فتانة!). وأسأل الرجل فيقول: (ما هذه القبعة؟ أهي صندوق فحم مقلوب. . .!) ومن الغريب أنه لا يريد أن يحدج بسوء حين يجهر بهذا القول. وإني لشديدة الإعجاب بصدقه وإخلاصه في صراحته. لأني أعتقد يقيناً أنه بفطرته محمود الملابسة، شهي المجاملة، لا يعرف كيف يدامل أو يدامج!

وليس من شأن الرجل أن يغتاظ بمثل السهولة التي تنال من المرأة، وتثير لحتدامها، فقد تستاء وتتكدر بل تستشيط غضباً إذا اعتقدت أن إحدى صويحباتها قد قلدت رسم ثوبها الجديد وسبقتها إلى الظهور به، أو أنها قد استمالت خادمتها القديمة النافعة، أو أنها قد أخبرت صاحبتها فلانة أنك تتهم بسلامة ذوقها في الأزهار التي يطالعك بها فناء حديقتها! أما الرجل فلا يحفل شيئاً من هذا، ولا يزعجه تنديدك بنظام مغروساته وأزهاره، ما دام هو يحبها ويتعهدها بما يلزمها من السقيا والري.

بيد أني أعتقد أن السيد (آدم) مزهوّ بذاته، وأعرف أنني إذا كنت أبغي النجح لمطلب أقصده، فليس عليّ إلا أن أثني على مهارته ثناء جماً، وأمتدح اجتهاده وشهامته، وأتغنى بمواهبه وحكمته. . . وأعرف أن معدته هي نقطة الضعف فيه. . . وأنه قل أن يوجد في الرجال مَن لا يستخفه طبق شهي مصنوع من (مايونيز الخبياري، وجراد البحر (الجمبري). . .)

وإنك لا تجد للرجل ضريباً في صدق صداقته، وهذا سبب من أعظم الأسباب التي تحفزني على أن أمحص الرجل صافي ولائي

وأعتقد كذلك أن الرجال في غضون عشر السنوات الأخيرة قد كيفوا ذواتهم تكييفاً معجباً، وفاق ما استلزمته التغييرات والتطورات الحديثة. فقد مضوا إلى ميادين القتال، وقارعوا في سبيلنا، وجاهدوا جهاد الأبطال للذود عن أوطاننا، ولاقوا الأهوال، وأفنوا زهرة العمر في الخنادق الضيقة الملوثة بالجراثيم والأوبئة، وواجهوا الموت في المغاور والمخابئ الصماء. ثم عادوا وماذا وجدوا؟ وجدوا عالماً غريباً أفرغ في قالب لا عهد لهم به من قبل. بل وجدوا عالماً جديداً، احتلت فيه المرأة مقام السؤدد

ووجدوا أننا قد سلبناهم أعمالهم ووظائفهم، إذا أطلقنا عقال التقاليد، وعدنا غير ذلك الجنس

اللطيف الضعيف؛ وأصبحنا الجنس القوي، الآخذ عليهم المهلة والأنف. ولو أن الأمر كان على العكس، فكانت المرأة هي التي عادت من الحرب، ووجدت كل هذا التطور، لما تأخرت لحظة عن اغتصاب السلطة من الرجل، ومحاربته ومناجزته، بذلك الأسلوب الجبار القاسي العنيف الذي تتوخاه في جميع منافحاتها ومقارعاتها. . .

ولكن الرجل لم يفعل أي شيء من ذلك. بل جلس ساكناً وأخذ ينظر ويراقب سير الأمور. ولعله عرف أننا سنملّ هذا التغيير الجديد على توالي الوقت؛ ولعله كان حكيماً في ألمه وعنائه، وما قاساه من خشونة العيش وضيقه في تلك الخنادق الوبيلة الضيقة فأبى أن يناوش ويداحل، واعتقد أنه وقف موقفاً نبيلاً تجاه جميع تلك التصرفات.
وإني لأجزم بأن الرجال مدهشون بوجه الإجمال: فهم أصدقاء خلصاء، ومحبون كرماء، ومنافسون شرفاء، وهم السواعد اليمنى القوية التي تتمنى أن تتكئ عليها في أحايين، أوفر السيدات استحواذاً على الحرية، وأوفاهن استمتاعاً بنيل حقوق الأمة. وإنني لأوثر الجنس النشيط الخشن على الجنس اللطيف في جميع هذه الأحوال، لأننا لا نستطيع أن نكون من نظرائه وعدلائه في نبل شعوره ومناقبه العالية وصفاته النادرة التي تتجلى في ميادين المباريات والمنافسات. ولقد كشف لي ابني الحدث هذه الحقيقة الرائعة إذ كنت أتلهى معه بالمصارعة، وكان له الغلب عليّ في جميع الحلقات، من بدائيها إلى نهائيها؛ وإذ كنت سجينة بين ذراعيه لم أفتر عن منازلته. وإني لآسف أن أقول: إن غريزة نسوية وحشية قد طغت على إحساسي بقواعد الشرف المتفق عليها في المباريات والمصارعات، وجعلتني أنقضّ عليه في تلك اللحظة خلسةً، وأعضه في محاذرة وتيقظ. . . فزاح ذراعه وتفرّس في وجهي مؤنباً وقال: (أواه منك يا امرأة!).
وإن خير ما أعتقده في صفات الرجل ومميزاته هو هذا الذي بدر من ابني. . . والذي يحملني على المجاهرة في غير منّ ولا تصدق بأن الرجل يجعل النزاهة رائدة على الدوام في النزال والمصاولة. . .

(الزهرة)

من مذكرات بلنت

صفحات مجهولة من حياة الإمام محمد عبده

(بقية ما نشر في العدد الماضي)

أغسطس سنة 1903 10

كان الشيخ عبده قد نقل كتاب الفيلسوف هربرت سبنسر عن (التربية) من الفرنسية إلى العربية بلغة جزلة صحيحة ورأى بهذه المناسبة أن أقدمه إلى مؤلف الكتاب فذهبت مع الشيخ عبده اليوم إلى بريتون لنزور سبنسر، في ذلك الشأن وأنبأته بأمر هذه الزيارة، فأرسل عربته وسكرتيره مستر تروتون ليقابلنا في محطة بريتون. ولما وصلنا إلى المنزل ألفينا الفيلسوف الشيخ طريح الفراش من شهر إبريل الماضي. ولم يكن المرض الذي انتابه قد اثر في عقله بتاتاً، بل ظل ذهنه صافياً وصوته قوياً ولكن يده كانت ناحلة نحول يد الهيكل العظمي. وقد استقبلنا وقتاً قصيراً قبل الغداء، ثم عاد فأستقبلنا في الساعة الثالثة، وحاول في بادئ الأمر أن يتكلم الفرنسية فتكلم ببطء وصعوبة. ثم عاد إلى الإنجليزية، ورحت بدوري أترجم للشيخ عبده

نعى سبنسر على السياسة الحديثة اختفاء (الحق) منها، وتكلم عن حرب الترنسفال فنعتها بأنها وصمة في جبين الإنسانية وقال: لا شك أننا مقبلون على عصر (قوة) عصر تثار فيه الحروب من أجل السيطرة وتباح فيها جميع ضروب الوحشية

وتناول في جلسة الساعة الثالثة ظهراً حديث الفلسفة، وسأل المفتي عما إذا كان الفكر يتطور حقا في الشرق إلى ناحية الغرب. فقال الشيخ عبده: الواقع أن الشرق يأخذ عن الغرب أسوأ ما فيه وإن كانا ما زالا مشتركين في خير الأفكار وأرقاها.

وهنا قال سبنسر: لنذهب تواً إلى صميم الموضوع. إنني أعتقد أن الفكرة عن القوة المحركة للوجود، هي ما تسميه (الله) وما نطلق عليه نحن (الرب) وهي متقاربة عندنا وعندكم. فأجاب المفتي بنظرية وجد سبنسر أنها جديدة طريفة. فقال الشيخ عبده: إننا نؤمن بأن الله (موجود) غير مشخص. فسر سبنسر من ذلك غير أنه لم يلبث أن أجاب: إن الفكرة صعبة الفهم، وزاد على ذلك: إنه من الواضح على كل حال أنكم من المتعمقين في التفكير

تعمقنا نحن معاشر الأوربيين

ومع الأسف لم يكن في وسعنا أن نتمادى في هذه الأبحاث الطريفة فإن سبنسر لم يكن يسمح له بإطالة الحديث بالنسبة لمرضه. غير أني في أثناء عودتنا إلى المحطة سألت المفتي سؤالاً دقيقاً: أعتقد أن الله يعلم أنك موجود وأني موجود، أو لا تعتقد أن هذا العلم هو شخصيته؟

- إنه يعلم
- أو لا تعتقد أنه يعلم بالطيب والخبيث؟
- إنه يعلم وأنه يسر بالطيب ويستاء من الخبيث؟
- أجل
ومن سوء الحظ أن الوقت لم يتسع لنناقش سبنسر ونقف على رأيه في هذا الأمر وإن أمكن أن نلمح بريقاً خاطفاً من تفكيره في الموضوع
أما النساء اللواتي عرفتهن في صحبته، فما يزلن يلازمنه من سنوات أربع. وقد وقفت منهن على معلومات طريفة عن حياته الخاصة، وأكثرهن علاقة به امرأة صماء. وليس لديها صديق، ولم يزره أحد من شهر إبريل الماضي سوى ثلاثة أو أربعة أصدقاء، ولكن صحته بدأت تتحسن، وشرع يستعيد بعض نشاطه، وأمكنه أن يقضي الصيف قرب (تل ليف) وأن يخرج برفقتهن إلى نزهات خلوية، وكان يجد سروراً مضاعفاً من رؤية الزهور والطيور، وهو الآن يجالسهن ويلاعبهن الشطرنج والضامة.
وتعميماً للفائدة نثبت هنا ما كتبه الشيخ رشيد رضا في تاريخه عن الإمام محمد عبده ومقابلته للفيلسوف سبنسر ليمكن المقارنة بين ما سجله بلنت وبين ما دونه رشيد رضا:
قلنا إنه في سفره الأخير إلى إنجلترا عام 1903 زار الفيلسوف سبنسر، وكان ذلك في 10 أغسطس. وكان الفيلسوف مصطافاً في برايتون من جنوب إنكلترا وقد نهاه الأطباء عن كثرة مقابلة الناس، وعن الحديث مع أحد أكثر من عشر دقائق لمرضه مع شيخوخته، ولكنه سر من حديث الأستاذ الإمام، ودعاه إلى الغداء معه، وأطال الحديث إليه في فلسفة الدين والأخلاق والأفكار والمادية وسياسة أوربا
وأنني أذكر ملخص ما حدثنا به أستاذنا من ذلك وأرمز إلى سبنسر بحرف (ف) المقتطعة
من (فيلسوف) وإلى شيخنا بحرف (م) المقتطفة من كلمة (إمام):
ف - هل زرت إنكلترا قبل هذه المرة؟
م - نعم زرتها منذ عشرين سنة
ف - كيف وجدت الفرق بين إنجلترا اليوم وإنجلترا منذ عشرين سنة؟
م - إنني زرت هذه البلاد في المرة الأولى لغرض سياسي خاص هو البحث مع رجال السياسة في مسألة مصر والسودان عقب الاحتلال البريطاني وأقمت أياماً قلائل لم يتعد عملي فيها ما جئت لأجله. وقد الممت بها الآن منذ أيام فلم أدرس حالة الناس، وإنما يجب أن آخذ عنكم ذلك
ف - إن الإنجليز يرجعون القهقرى فهم الآن دون ما كانوا عليه منذ عشرين سنة
م - فيم هذه القهقرى وما سببها؟
ف - يرجعون القهقرى في الأخلاق والفضيلة، وبين تقدم الأفكار المادية التي أفسدت أخلاق اللاتين قبلنا، ثم سرت إلينا عدواها، فهي تفسد أخلاق قومنا وهكذا سائر شعوب أوربا
م - الرجاء في حكمة أمثالكم من الحكماء واجتهادهم أن ينصروا الحق والفضيلة على الأخلاق المادية
ف - إنه لا أمل لي في ذلك لأن هذا التيار المادي لا بد أن يأخذ مداه وغاية حده في أوربا. إن الحق عند أهل أوربا هو الآن للقوة
م - هكذا يعتقد الشرقيون، ومظاهر القوة هي التي حملت الشرقيين على تقليد الأوربيين فيما لا يفيد من غير تدقيق في معرفة منابعها.
ف - محي الحق من عقول أهل أوربا بالمرة، وسترى الأمم يختبط بعضها ببعض ليتبين أيها الأقوى ليسود العالم أو يكون سلطان العالم
ثم انتقلا إلى الكلام في الفلسفة الإلهية
ف - ما يقول علماء الإسلام في الخالق، هل هو داخل العالم أو خارجه؟
م - إن علماء الأثر يقولون إن الله تعالى فوق كل شيء بائن من العالم، والمتكلمين يقولون: إنه لا داخل العالم ولا خارجه، والصوفية القائلين بوحدة الوجود يقولون: إن كل

شيء في العالم مظهر من مظاهر وجوده وذكر له ملخص مذهبهم.
نوفمبر 1903
انتهز الشيخ عبده فرصة قدومه إلى إنجلترا فزار جامعة اكسفورد واستقبل استقبالاً حافلاً من أساتذتها خصوصاً المستشرق براون الذي أقام له حفلة تكريم شهدها أساتذة الكلية. ولدى تفقد الشيخ عبده القسم الشرقي من مكتبة الجامعة عثر على مخطوطات عربية نادرة، أكثرها معروف بالاسم فقط لدي رجال الزهر؛ واهتم اهتماماً زائداً بمخطوط لأحد فلاسفة العرب (السباعي فيه رسائل إلى فردريك الكبير، وقد ذكر الشيخ عبده انه سوف يكلف إدارة الأوقاف بنسخ المخطوط
وتناول الشيخ عبده في حديثه معي زيارته لتونس والجزائر وشرح سوء حالتهما بالمقارنة بينهما وبين مصر، ووصف تلك المقارنة بأنها كالفرق بين الظلام والنور. ثم عرجنا في الحديث على موقف الخديو فقال الشيخ عبده: إن الخديو جشع يعمل كل شيء في سبيل جمع المال، وإنه يريد أن يستبدل ببعض ما يملك أطياناً وعقاراً كلها وقف. ثم إن الخديو ينم ظاهره عن صداقته، ولكنه يعمل في الباطن لإقصائه عن وظيفة الإفتاء
يناير سنة 1904 17
أفضى إلي المفتي بأنه كان في الإسكندرية وقابل الخديو، وهو كعادته معه، له مقابلة حسنة، ومقابلة سيئة. ظاهره ضحك وباطنه دسائس وانتقام. ويقول إن الخديو متضايق منه بسبب الفتاوى الثلاث التي أجاب بها أسئلة مسلمي الترنسفال وهي:
1 - هل للمسلم المقيم في بلاد أجنبية أن يأكل لحماً لم يذبح على الطريقة الإسلامية؟
2 - هل للمسلم المقيم في بلاد أوربية أن يلبس القبعة؟
3 - هل للشافعي أن يقف في صف واحد مع الحنفي في الصلاة؟
وقد أجاب المفتي بما يرضي ضميره. ولكن الخديو اعتبر ذلك كفراً. مع أنه هو نفسه يأكل ويلبس القبعة، ولا يقيم الصلاة في البلاد الأجنبية. على أن كرومر في جانب المفتي، وذلك ما يوجب الدهشة!
يناير سنة 1904 22
تغدى المفتي معنا في الحديقة، تحت شجر الغاب الإفرنجي، وهو متألم لوفاة عالم من علماء الأزهر وخصوصاً أن الخديو مصمم على أن يحدث متاعب لخلفه. وعندما نتكلم على الخديو ينعته بقوله (رجلنا الصغير)!
ومن أحاديثه: أن الخديو منهمك الآن في الأعمال المالية، والتجارية، إلى حد أن كرومر خيره بين أن يظل خديوياً محترماً وبين أن يكون تاجراً محترفاً. وهذا حق، وخصوصاً أن بعض أفراد أسرة محمد علي يحبون المال حباً جماً.
إبريل 1905 13
في حديث اليوم مع الشيخ عبده تفضل وأخبرنا بقصة طريفة لا بأس من إيرادها: ففي أثناء نفيه إلى بيروت عام 1883 حدث أن كان قسيس مقيماً في إنجلترا اسمه اسحق تيلور يقوم بدعاية واسعة النطاق الغرض منها توحيد الإسلام والنصرانية على أساس فكرة التوحيد الموجودة في الإسلام والشائعة عند الكنيسة الإنجليكية. وكان هناك شخص إيراني من أتباعه اسمه ميرزا بكر يشايعه في فكرته. وقد تمكن من التأثير في الشيخ عبده، وفي طائفة من علماء دمشق، فكتبوا إلى القس تيلور في الموضوع. وما إن وصل الكتاب إلى القس حتى فرح به ونشره مستعيناً به على صحة دعواه، إلا أن السلطان عبد الحميد كلف سفيره في لندن أن يستقصي حقيقة الموضوع ويقف على أسماء موقعي الكتاب، فقابل القس وحصل منه على هذه الأسماء؛ وقد أحاق بهؤلاء العلماء فيما بعد عذاب أليم وقرر السلطان إبعادهم عن الديار السورية. . . ويقول الشيخ عبده إن السر في غضب السلطان أنه خشي أن يعتنق الإنجليز الإسلام، ثم يطلبوا أن يكونوا أصحاب الدولة في الإسلام وتكون الملكة فيكتوريا ملكة المسلمين. . ويذهب السلطان من السلطان. . . وسبحان مدبر العقول.
فبراير 1905 19
عاد الشيخ عبده من السودان وأطلعني على تفاصيل زيارته وأنه مغتبط بما رآه وشاهده، فالحكومة هناك أحسن إدارة منها في مصر، والأهالي قانعون حتى عن مسألة النخاسة، والدراسة في كلية غردون على أساس معقول موافق

وعنده أن قانون العقوبات السوداني أسهل وأحسن من القانون المصري، وأن السردار يحكم
بالعدل ويسود بالحكمة واللين، وأن هناك شعوراً حسناً متبادلاً بين الإنجليز والسودانيين
17 مارس 1905
ودعت الشيخ عبده هذا الصباح. ويلوح لي أن هذا السفر إلى الأبد فلا عودة منه. على أن المكان - عين شمس - حبيب إلى نفسي لشمسه المتألقة وسمائه الصافية وما يكتنفه من خضرة وطير. فيا إلهي! من ذا الذي يرعى ذلك كله إذا ما ذهبت؟
وحضر الشيخ عبده إلى المحطة يودعني ويقيناً نتحدث طول الوقت إلى آخر لحظة تحرك فيها القطار. وكان وداعاً مؤثراً حزيناً لأن شعوري أوحى إليّ بأني سوف لا أراه بعد ذلك
8 يوليه 1905
إن الحادث الذي هز عواطفي هو حادث وفاة الشيخ عبده. فأن ذلك من أفدح النكبات التي صادفتها في حياتي كذلك موته خسارة جسيمة للعالم الإسلامي. وإنه يداخلني الريب في كيفية موته، فربما كان موتاً غير طبيعي، وإن له خصوماً سياسيين كثيرين
15 يوليه 1906
قدم مصطفى كامل باشا إلى لندن وجرت بيننا مقابلة طويلة استعرضنا فيها موقف الخديو والأحوال الدولية وسياسة الاحتلال البريطاني والغازي مختار. . . ثم انتقلنا إلى الحديث عن المرحوم الشيخ عبده فذكره مصطفى كامل بتحفظ وأخذ عليه تمسكه بمنصبه الرسمي على رغم تحقير الخديو له. وهو لو احتفظ بكرامته وترك المنصب لجعلناه إمامنا في الحرية والوطنية، ثم تنازل حادث وفاته وقال إنه كان بداء السرطان كما أخبره طبيبه قبل موت الشيخ بثلاثة شهور
محمد أمين حسونة
التاريخ في سير أبطاله
أحمد عرابي
أما آن للتاريخ أن ينصف هذا المصري الفلاح وأن يحدد له
مكانه بين قواد حركتنا القومية؟
للأستاذ محمود الخفيف
ذكرنا أنه كان من نتائج تلك المذكرة المشؤومة اتحاد الوطنيين والعسكريين، ونذكر الآن أن عرابياً ما لبث يومها أن عاد في نظر الجميع الرجل الذي يجب أن يحرصوا على معونته، وتأهب عرابي ليأخذ دور الزعيم من جديد وقد كانت الزعامة تتزايل في نظر الناس عن شريف
ولقد أحس مالت بما كان للمذكرة من أثر في عودة عرابي إلى طليعة الصفوف فأوفد إليه في مكتبه بوزارة الحربية صديقه بلنت، وكان عرابي قد عين وكيلاً لهذه الوزارة كما بينا؛ وكان مالت يطمع في أن يكسب عرابياً إلى جانبه، أو على الأقل كان يتمنى أن يهدئ خاطره لعلمه بما يكون لمثل هذا العمل من عظيم الأثر في ذلك الموقف العصيب الذي سببته رعونة غمبتا وصاحبه
يقول بلنت: وقد ذهبت إلى ثكنة قصر النيل في ظهر يوم 9 وكانت المذكرة قد وصلت في يوم 8 فوجدت عرابياً وحده في مكتبه، وهذه هي المرة الأولى والأخيرة التي رأيته فيها غاضباً، وكان وجهه كسحابة الرعد، وكان في عينه بريق خاص؛ وكان قد رأى نص المذكرة وإن كان لم ينشر بعد، وقد سألته كيف فهمها فقال: أخبرني كيف تفهمها أنت؟ وحينئذ أديت رسالتي فقال: لاشك في أن السير إدوارد ماليت يحسبنا أطفالاً لا نفهم معنى الكلمات. هذه لغة تحد وتهديد وليس في هذه الإدارة كاتب يستخدم هذه الألفاظ لغير هذا المعنى. ثم أشار إلى الفقرة الأولى التي ذكر فيها الأعيان وقال: هذا تحد لحريتنا وليس لإعلان اتحاد فرنسا وإنجلترا معنى إلا أن إنجلترا ستغزو مصر كما غزت فرنسا تونس. . . ثم قال: دعهم يأتون فكل رجل وطفل في مصر سيقاتلهم. ليس من مبادئنا أن نضرب الضربة الأولى ولكنا سنعرف كيف نردها. ثم قال فيما يختص بالمحافظة على عرش
توفيق: (إن السلطان هو الذي يحافظ على عرش توفيق فليس في حاجة إلى ضمان أجنبي. ولك أن تخبرني بما تشاء ولكني أعرف معنى الكلمات أحسن مما يعرف

. . .ماليت
والوقع أن تفسير مالت كان هراء في هراء، وقد شعرت لما صرت أمام عرابي بعقلي، وخجلت من حملي إليه مثل هذا الهراء، ولكني أكدت له أني أديت الرسالة كما ألقاها إلى السير ادوارد ثم قلت: وهو يرجوك أن تصدقها وأنا كذلك).
هذا هو كلام بلنت، ومنه نتبين مبلغ غضب عرابي لهذه المذكرة كما نفهم جانباً مما كان يجيش في نفس هذا الزعيم الثائر، فهولن يجبن ولكنه لن يبدأ بالعدوان، وهو بعد ذلك يلمح نيات إنجلترا من هذه المذكرة كما يفعل السياسي البعيد النظر إذ يقرأ بين السطور كما يقولون. وما كان عرابي مبالغاً في تصوير نيات الإنجليز فلسوف نرى أن جرانفيل كان في ذلك الوقت قد وطد العزم على التدخل بالقوة!
عاد عرابي إلى الميدان. وفي الناس من تبلغ بهم الغفلة إلى حد أن يأخذوا عليه هذه العودة؛ وفيهم من يذهب بهم اتباع الهوى إلى أن يجعلوا ذلك من أكبر خطيئاته قائلين في مثل منطق البلهاء إن كان ثمة للبلهاء من منطق، إنه بعودته هذه قد ساق البلاد إلى ما سيقت إليه من دمار.
ومن المؤلم المثير حقاً أن يقول هؤلاء الناس هذا الكلام دون أن ينظروا في موقف الخديو وموقف الإنجليز على نحو ما بيننا، وهم لا يفهمون من المسألة كلها إلا ما شاع من أن عرابيا كان رجلاً ذا أطماع لا يدري ماذا يفعل؛ فكانت إذا هدأت البلاد لا يفتأ يعمل بنزقه على إثارتها ليصل إلى تحقيق أطماعه.
وأحسب الآن بعد الذي رأينا من موقف أعدائه أن هذا الكلام قد أصبح خليقاً بأن يخجل منه قائلوه. وإنا لنكاد نقطع منذ الآن أنهم - بعد أن نفرغ من سيرة هذا الرجل المظلوم على النحو الذي نسير عليه - لن يعودوا إلى مثل هذا الكلام أبداً، وسبيلنا في إقناعهم الحجة التي نستخلصها من الحوادث في عدالة يوجبها الحق، وفي عطف يتطلبه الإنصاف.
تعهد عرابي ألا يتدخل في شؤون الحكومة، فكان إذعانه لهذا الطلب أمراً لا بد منه. ولو أنه رفضه لكان في ذلك مخطئاً أشد الخطأ، ولكن عرابياً لم يتعهد أن يدع وطنه وشأنه لا تهزه بعد يوم عابدين نحوه عاطفة أو يحركه لنجدته ما عساه أن يلم بقضيته من الأحداث.
ولم يكن ليستطيع عرابي أن يتعهد بمثل هذا التعهد ولن ليستطيع ذلك غير عرابي من الناس، ولو أنه فعل ذلك لأجرم في حق هذا الوطن جريمة ما كان ليغفرها له التاريخ. . وكيف يفعل ذلك عرابي أو أي رجل غيره ولا يكون بذلك مجرماً مفرطاً في جنب وطنه؟ وأي فرق بين مثل هذا التعهد وبين المروق والخيانة والجمود في أوضح صورها وأقبحها؟
ألا إنه الحق كل الحق أن يطلب إلى بني الوطن ألا يتدخلوا في أعمال الحكومة، ولكن على شرط ألا يكون من تلك الأعمال نفسها ما يحفز الناس إلى التدخل أو يوجبه عليهم. أما أن تفرط الحكومات في حق الوطن، وأما أن توضع العقبات في سبيل قضيته ثم يطلب إلى الناس بعد ذلك أن يدعوا الحكومة وشأنها فهذا هو الباطل بأجلى معانيه وأشدها فجوراً، ومن أطاع ذلك من الناس فقد أجرم في حق بلاده وضل ضلالاً بعيداً
لن يكون لقيام الحكومات من مبرر إلا العمل لخير المحكومين وصلاح أمرهم. على هذا الأساس ولدت الديمقراطية، وبهذا المبدأ اقترنت الحرية؛ ولكم نادى بذلك القادة ودعاة الإنسانية في الغرب منذ هدموا صروح الظلم وحطموا أغلال الماضي وفصموا سلاسل الرجعية. وما لنا نستشهد بالغرب وهذه الحكومة الإسلامية الأولى التي قامت في الصحراء قد جعلت تلك المبادئ أساس قيامها، فما أروع وأجمل أن يقول الخليفة الأولى للناس: (أيها الناس إني وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن حرفت فقوموني) وإن يقول لهم الخليفة الثاني: (من رأى منكم في اعوجاجاً فليقومه) فيرد عليه أعرابي من أوزاع الناس بقوله: (لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا) وما أملى على أبي بكر وعمر هذه المعاني السامية وما أمدهما بتلك السياسة العالية إلا ما ألهماه من روح تلك الشريعة السمحة، شريعة دينهما التي تقدم بهذا أحد براهينها على أنها شريعة الفطرة، فما كانت الحرية في شتى مظاهرها إلا بنت الفطرة. . وأبلغ وأروع من قول أبي بكر وعمر قول الرسول الكريم: (إن الناس إذا رأوا الظالم فلم

يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده)
قبل عرابي أن يدع الحكومة وشأنها على أن تجري الأمور وفق ما وضعته الثورة من مبادئ، فكيف لعمر الحق كان يستطيع أن يحمل على السكوت نفسه وقد رأى من الدسائس الأثيمة التي تحاك حول تلك الحرية الوليدة ما أغضب أكثر الناس اعتدالاً وأقلهم علاقة
بالسياسة وشؤونها؟
إذاً فالفرق كبير بين أن يتدخل عرابي في شؤون الحكومة وبين أن يغضب لما حل بقضية وطنه، وفي هذا الغضب دليل وطنيته ووطنية كل غاضب معه. ولقد كان من أصعب الأمور على هذا الرجل أن يدع هذه القضية وشأنها، بل لقد كان ذلك مستحيلاً عليه؛ وإني لأرجو من الذين خاصموا هذا الرجل في غير حق بعد أن أصبح في ذمة التاريخ أن يستمعوا إلى هذا الرأي الذي أسوقه عنه، ألا وهو أن الحرية كانت من طبعه لم يتكلفها يوماً ولم توجهه إليها الحوادث وهو يجهل كنهها كما يقول الذين أرادوا ألا يدعوا له محمدة إلا جعلوها بالباطل مذمة
كانت الحرية من طبع ذلك الجاويش الذي نقم على الجراكسة في الجيش استبدادهم فأكثر من الشغب عليهم. وكانت الحرية من طبع ذلك الضابط الذي اختاره زملاؤه ليحمل عريضتهم إلى رياض. وكانت الحرية هي التي دفعت هذا الرجل إلى أن يقف ذلك الموقف الفذ عصر ذلك اليوم المشهود في ساحة عابدين، ولسوف تكون الحرية هي الحافز له إلى وثبات أخرى. . .
ولقد استوثق مستر بلنت من ذلك عند ما سعى إلى عرابي يطلب مودته قال: (وكانت غرفته الخارجية بل كان الشارع الموصل إلى المنزل يمتلئ كل يوم بجماعة الشاكين. وكان قد اتصل به نبأ عطفي على الحركة ورغبتي في مساعدة الفلاح فاستقبلني بأسمى مظاهر المودة لهذا السبب، وللصلة التي تربط أسرتي باللورد بيرون الذي كان عرابي وإن لم يعرف شيئاً من شعره يمجده لدفاعه عن حرية اليونانيين)
وكيف كان يمجد هذا الفلاح اللورد بيرون نصير الحرية إلا أن يكون هذا تجاوباً بين نفس حرة وأختها؟ ولقد كان بيرون يدافع عن اليونانيين لاعن المصريين، فلم يكن حب عرابي إياه إذاً مشوباً بعاطفة غير عاطفة حب الحرية أينما كانت وكيفما كانت جنسية الداعين إليها وكيفما كان دينهم
ولنعد إلى خطبته التي ألقاها في محطة مصر. لقد أفصح فيها وهو يرتجلها عن كثير مما تنطوي عليه نفسه. والخطيب في مثل ذلك الموقف الحماسي ينسي نفسه فلا يملك التكلف والتصنع لأنه ليس به حاجة إلى ذلك، بل لقد يكشف الخطيب عما يريد أن يغطيه إذا نسى
نفسه في رهبة الموقف وحماسته دون أن يملك لذلك دفعاً. قال عرابي: (البلاد محتاجة إلينا وأمامنا عقبات يجب أن نقطعها بالجزم والثبات وإلا ضاعت مبادئنا ووقعنا في شرك الاستبداد بعد التخلص منه) وقال: (وقد فتحنا باب الحرية في الشرق ليقتدي بنا من يطلبها من إخواننا الشرقيين على شرط أن يلزم الهدوء والسكينة. . .)
وإنا لنرى في ذلك الكلام من الأدلة على أن عرابياً كان يتحرك بدافع من حبه للحرية ما لا تجدي معه مكابرة؛ وعلى ذلك نتساءل: ألم يأن للناس أن ينصفوا هذا الرجل وقد قضى عليه أعداؤه ثم قضوا بعد ذلك على تاريخه الحق؟
ألم يأن لأبناء هذا الوطن وقد فرغوا من قضية استقلاله وحريته أن ينظروا إلى هذا الرجل نظرتهم إلى زعيم جاهد في الوطن حق جهاده، وأن يكفوا عن تلك النظرة الظالمة التي تصوره رئيس عصابة من الأوزاع والهمج يسيرون على نهج ولا يبتغون من وراء سيرهم غاية؟
ألم يأن لأبناء هذا الوطن أن يفطنوا إلى أن الاحتلال هو الذي صور عرابياً هذه الصورة المنكرة ليبرر بذلك فعلته، وأنهم بمجاراتهم الاحتلال وصنائعه إلى يومنا هذا فيما ادعوا إنما يثبتون على أنفسهم الغفلة ويسيئون إلى رجل ما فكر يوماً في الإساءة إلى وطنه؟ رجل إن كثرت أخطاؤه فقد حسنت نياته، وإن فاته النجاح فقد عظم في سبيل النجاح بلاؤه. ولقد قل في المحنة نصراؤه وتعدد غداة الروع أعداؤه
لا جناح على عرابي أن يعود إلى ميدان النضال في سبيل المبادئ التي اعتنقها المصريون ووطدوا العزم على تحقيقها. ولو أنه وقف في جهاده عند وثبته الجريئة يوم

عابدين لحق عليه ما نسبه إليه خصومه من النزق والسير على غير هدى، ولكن هؤلاء الخصوم يلومونه على عودته إلى العمل قائلين لقد أجيبت مطالب الجند على نحو ما كان يرجو عرابي نفسه، وهم في هذا ما يجهلون حقيقة الثورة العرابية وآمال الرجل الذي نسبت إليه تلك الثورة وأغراضه، وإنما يعلمون ذلك ولكنهم يمارون فيما يعلمون، ولكنهم في الحالين ملومون فلن يقبل منهم جهلهم ولن يقرهم أحد على مماراتهم ومكرهم

وسيعود عرابي إلى الجهاد فيقف في وجه الدولتين الطامعتين. وسيسير زعيم الثورة على رأس جيش من أبناء هذا الوادي ليذود عنه في بسالة جريئة وحفاظ مرّ وفق ما توجبه الوطنية والرجولة. وهذا في الحق هو كل ما يطلب منه في مثل تلك الظروف؛ أما الفوز فأمر قد يخرج عن تصريفه، وسبيله إليه محدود بحدود طبيعته ومقدرته. ولقد يتوافر للقائد من أسباب الفوز ما يكاد يعتقد أنه قبل وقوعه حقيقة لا سبيل إلى الريبة فيها، ثم ينظر فإذا تلك الحقيقة خيال أو دون الخيال. ولئن أخطأ قائد فلن تحمل أخطاؤه على معنى آخر، كما حملت أخطاء عرابي ظلماً وعدواناً على معاني الخيانة والمطامع الشخصية

(يتبع)

الخفيف

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

438 - بلع الأمانة فهي في حلقومه

قال أبو الحسن البغدادي الفكيك في نقيب بغداد وكانت في عنقه غدّة:

بلغ الأمانة فهي في حُلقومه - لا ترتقي صُعداً ولا تتنزّلُ

439 - هذا لا يرسخ إلا في قلب مؤمن

في الأغاني: المدائني: شهد رجل عند قاض بشهادة. فقيل له: من يعرفك؟ قال: ابن أبي عتيق. فبعث إليه يسأله عنه. فقال: عدل رضيً. فقيل له: أكنت تعرفه قبل اليوم؟ قال: لا. ولكني سمعته ينشد:

إن الذين غدوْا بلبّك غادروا ... وشلا بعينك لا يزال مَعينا

غيضن من عبراتهن وقلن لي: ... ماذا لقيت من الهوى ولقينا

فعلمت أن هذا لا يرسخ إلا في قلب مؤمن فشهدت له بالعدالة

440 - ما أعظم الله!

في (طبقات الشافعية) منع الشيخ أبو حيان أن يقال: ما أعظم الله، وما أحلم الله، ونحو ذلك. ونقل هذا عن أبي الحسن ابن عصفور احتجاجاً بأن معناه شيء عظمه أو حلمه، وجوزه الإمام الوالد (تقي الدين السبكي) محتجاً بقوله تعالى (أبصر به واسمع) والضمير في به عائد على الله، أي ما أبصره وأسمعه، فدل على جواز التعجب في ذلك. وفي شرح ألفية ابن معطي لمحمد بن الياس النحوي: سأل الزجاج المبرد فقال: كيف تقول ما أحلم الله وما أعظم الله؟ فقال: كما قلت. فقال الزجاج: وهل يكون شيء حلم الله أو عظّمه؟ فقال المبرد: إن هذا الكلام يقال عندما يظهر من اتصافه (تعالى) بالحلم والعظمة، وعند الشيء يصادف من فضله، والمتعجب هو الذاكر له بالحلم عند رؤيته إياها (أي الصفة) عيانا. وذكر الوالد أنه يعني بالشيء نفسه أي أنه عظم نفسه، أو أنه عظيم بنفسه لا شيء جعله عظيما.

441 - خير لعمرك منه خص عامر

الحسن بن علي الأسواني:

فدع التمدح بالقديم فكم عفا ... في هذه الآكام قصرٌ دائرُ

إيوان كسرى اليوم عند خرابه ... خير (لعمرك) منه خصٌّ عامر

442 - تحاسد الأكفاء

قيل لبعضهم: ما الذي أذهب ملككم؟

قال: تحاسد الأكفاء، وانقطاع الأخبار!!

443 - هذه والله مكارم الأخلاق

في (الآداب الشرعية والمنح المرعية): كان بين سعيد بن العاص وقوم من أهل

المدينة منازعة، فلما ولاه معاوية المدينة ترك المنازعة، وقال: لا أنتصر لنفسي وأنا وال عليهم.
قال ابن عقيل في (الفنون): هذه (والله) مكارم الأخلاق
444 - كأنها طبخت بنار شوقي إليك
في (ثمار القلوب في المضاف والمنسوب) للثعالبي: نار الشوق مذكورة على الاستعارة، وكذلك نار الوجد، ونار اللوعة، ونار الغرام؛ وما أشبهها. وقد أكثر الناس فيها نظماً ونثراً. قال أحمد بن طاهر يهجو المبرّد:
ويومٍ كنار الشوق في قلب عاشق ... على أنه منها أحرُّ وأوقدُ
ظللت به عند المبرَّد قائظاً ... فما زلت في ألفاظه أتبردُ
وقال لي السيد أبو جعفر الموسوي يوماً وأنا معه على المائدة - وقد قدم لي لون في غاية الحرارة -: كأنها طبخت بنار شوقي إليك.
445 - بعثه داعياً لا جابياً. . .
في (الطبقات) لابن سعد: إن حيان بن شريح عامل عمر ابن عبد العزيز على مصر كتب إليه: إن أهل الذمة قد أسرعوا في الإسلام، وكسروا الجزية.
فكتب إليه عمر: (. . . أما بعد. فإن الله بعث محمداً داعياً، ولم يبعثه جابياً. فإذا أتاك كتابي هذا، فإن كان أهل الذمة أسرعوا في الإسلام وكسروا الجزية - فاطو كتابك، وأقبل.
446 - فأعلم أنه طلل . . .
في (إعجاز القرآن) للباقلاني: سمعت الصاحب بن عباد يقول: أنشد بعض الشعراء - من أهل زنجان - هلال بن يزيد قصيدة على وزن قصيدة الأعشى:
ودع هريرة إن الركب مرتحل - وهل تطيق وداعاً أيها الرجل؟
وكان وصف فيها الطلل، فقال هلال بديها:
إذا سمعت فتى يبكي على طلل ... من أهل زنجان فاعلم أنه طلل. . .
447 - شطحات. . .
في (ميزان الاعتدال): نقل عن أبي زيد البسطامي:
سبحاني. . .
ما في الجبّة إلا الله. . .
ما النار؟ لأستندنَ إليها غداً. وأقول: اجعلني لأهلها فداء أو لأبلغنها. . .
ما الجنة؟ لعبة صبيان. . .
هب لي هؤلاء اليهود. ما هؤلاء حتى تعذبهم. . .
448 - يلام الصديق إذا ما احتفل
ابن القبطرنة:
دعاك خليلك واليوم طلْ ... وعارض وجه الثري قد بقل!
لقدرين فاحا وشَمَّامة ... وإبريق راحٍ ونعم المحلْ!
ولو شاء زاد ولكنه ... يلام الصديقُ إذا ما احتفل
449 - قتيلنا لا يودي وأسيرنا لا يفدى
في (العقد) قال مسلم بن عبد الله بن جندب: دخلت آنا وزبان السواق العقيق، فلقينا نسوة نازلات من العقيق، لهن جمال وشارة، وفيهن جارية خضابية العينين. فلما رآها زَبان قال لي: يا ابن الكرام، دمُ أبيك (واللهُ) في ثيابها، فلا تطلب أثراً بعد عين، وأنشد قول أبي مسلم بن جمدب:
ألا يا عبادَ الله، هذا أخوكمُ ... قتيلٌ، فهل منكم له اليوم ثائر
خذوا بدمي إن متّ كل مليحة ... مريضة جَفن العين والطرف ساحر
قال مسلم: فقالت لي الجارية: أنت ابن جندب؟ قلت: نعم.
قالت: فاغتنم نفسك، واحتسب أباك، فإن قتيلنا لا يودي، وأسيرنا لا يفدى.
رسالة العلم
حول مقال
ما هي الحياة؟
للأستاذ عبد الله عشري الصديق
سيدي الأستاذ الجليل صاحب الرسالة:

قرأت في العدد 300 من (الرسالة) الغراء مقالاً للأستاذ نصيف المنقبادي في موضوع (ما هي الحياة) قابل فيه الكاتب الفاضل بين أظهر خواص الكائنات الحيّة وما يماثلها في عالم الجماد، وخرج من تلك المقابلة (بأنه لا يوجد فرق جوهري بين هذين العالمين) والحقيقة التي لا تقبل الشك هي أن هذا الفرق (الجوهري) بين الأجسام الحية وبين الجمادات موجود بصورة واضحة في كل واحدة من تلك الخواص التي أوردها الأستاذ في مقاله. وثمة فرق جوهري آخر يعلق عليه علماء البيلوجيا أهمية كبرى في تفهم ماهية الحياة. وسنعمد في هذه العجالة إلى إثبات وجود هذه الفروق متوخين في ذلك الفائدة العامة وخدمة الحقيقة والعلم

الشكل النوعي

يفهم مما جاء في مقال الأستاذ تحت هذا الباب أنه إنما يعني (بالشكل النوعي) الصورة الخارجية للجسم حياً كان أو جماداً؛ فهو يحدثنا عن أشكال البلورات الهندسية وكيف أن هذه ثابتة في النوع الواحد تماماً كما هو الحال مع الحيوان حيث (تقترب أشكالها باقتراب أنواعها) وكل هذا صحيح لا غبار عليه إذا كان المقصود بالشكل النوعي هو الصورة الخارجية دون ما اعتبار للحجم. والذي نعرفه ويقره العلم الحديث هو أن الشكل النوعي يشمل زيادة على الصورة الخارجية الصفة الأخيرة التي ذكرناها وفيها تختلف الكائنات الحية عن الجمادات اختلافاً ظاهراً. فالمعروف لدى كل إنسان هو أن للأحياء (المعاصرة على الأقل) أحجاماً ثابتة تختلف باختلاف أنواعها إلى حد ما. فالنملة مثلاً لا يمكن أن تكبر حتى تصبح في حجم الفيل؛ ولا يمكن لشجيرة القطن أن تنمو حتى تبلغ حجم شجرة السرو أو السنديانة، كما أننا لم نسمع قط بآدمي بلغ طوله ثلاثة أمتار. أما الجمادات فإننا لا نعرف لها أحجاماً ثابتة؛ فبلورة ملح الطعام قد تكون في حجم الجزيئة وقد تكبر حتى يزيد حجمها على حجم الكرة أو أكثر من ذلك فهي ليست ذات حجم ثابت خاص صحيح أن أشكال الكائنات الحية في تغيّر وتحول مستمرين بحكم ناموس التطور، وهذه الحقيقة عينها هي أنصع دليل على وجود الفرق بين تلك الكائنات وبين الجمادات. والذي نعرفه ويعرفه معنا الأستاذ هو أن شكل الفرس بل وحجمه أيضاً قد تغيرا كثيراً عما كانا عليه قبل ملايين السنين. ومثل الفرس الفيل وغيره من أنواع الحيوان، ولكن العلم لم يحدثنا بأن بلورة الملح قد تغير حجمها أو شكلها منذ أن وجد الملح على هذا الكوكب. وأما القول بأن البلورات المعدنية الصرفة (تستطيع) إذا (غطست) في سائل مشبع من مادتها أو فوق المشبع أن تنمو فتعيد الجزء المصاب إلى حالته الطبيعية فهو دليل آخر على وجود الفرق بين الأحياء والجمادات، وإلا فأي معنى يبقى للفظة غطست إذا لم يكن كل معناها هو تضمن قوة خارجة عن البلورة تقرب بين ذراتها فتتصل ببعضها بمجرد فعل الألفة الكيميائية؟

والفرق واضح بين ما يجري في هذه الحالة وبين اندمال الجرح أو نمو العضو المقطوع بنمو خلايا الجسم الحي من الداخل وبدون استعانة بقوة خارجية ظاهرة

تغذي الأحياء والجمادات

والفرق واضح أيضاً بين تغذي الأحياء وتغذي الجمادات؛ فبينما تتغذى الأولى بتحويل المواد الأولية إلى مادتها العضوية تكتفي كمية الهواء بزيادة جزيئات حامض الكربنيك في حالتها الطبيعية إلى جزيئاتها، وليس لها في هذه العملية نصيب ظاهر ولا فائدة محسوسة. والذي يدعو إلى العجب حقاً أن يكون خير مثال عند الأستاذ لتغذي الجمادات (بالمعنى الحقيقي التام) هو ما يحصل من احتراق الوقود في الآلات الميكانيكية فإن هذه كما هو الحال مع كمية الهواء لا تستطيع تحويل مادة الوقود إلى حديد أو غيره من نوع العنصر الذي تتركب منه أجزاؤها، وأما أن يكون التفكير والقوى العقلية وما إليها من مصدر واحد فقط هو الطاقة الكيميائية الكامنة في مادة الغذاء فهو غلو لا نقر عليه أحداً

التنفس في الأحياء والجمادات

أما التنفس أو استعمال الأكسيجين الموجود في الهواء بواسطة الأجسام الحية فهو الفرق الجوهري الذي ذكرناه في أول هذا المقال وقلنا: إن العلماء يعلقون عليه أهمية كبرى في تفهم ماهية الحياة. وقد مرّ الأستاذ بهذه الخاصية بالذات مرّ الكرام وكان الأجدر به أن يقصر كل مقاله على بحثها ودرسها. ولأهميتها الكبرى سنبقيها إلى آخر

كلمتنا هذه لنوفيها بعض الحق ونوضح ما ذهبنا إليه من أن فيها فقط يمكننا أن نعثر على الفرق الجوهري بين الأحياء والجمادات

تحرك الأحياء وتحرك الجمادات

يختلف تحرك الأحياء عن تحرك الجمادات في أن تحرك الأولى يكون بمحض إرادتها إلى درجة ما تختلف باختلاف مستوى الحيوان في سلم النشوء. أما تحرك الثانية فهو نتيجة لفعل القوى الخارجية كالرياح أو القوى الجاذبة أو الدافعة وغيرها من العناصر وليست حركة براونية إلا مثالاً للنوع الأخير كما أنه بعيد جداً عن الصواب أن تكون حركة الأجسام (تحت تأثير الجاذبية أو الألفة الكيميائية) حركة اختيارية؛ فبمجرد تسلط هاتين القوتين عليها يخرج بها عن دائرة الاختيار. ولكي نوضح ذلك نضرب مثلاً بحركة أناملي وأنا أحبر هذا المقال؛ فما أعظم الفرق بين هذه وتلك؛ ونعني حركة ذرات الأملاح في محلولاتها. أما حركات الحيوانات ذات الخلية الواحدة وهي كثيرة الشبه بحركة ذرات الأملاح فأنها تختلف عن هذه في أنها لا تكون إلا لدفع أذى أو الحصول على قوت، ومعنى ذلك أنها تكون لفائدة تعود على الجسم الحي. وتختلف عنها حركة الآلات الميكانيكية في أن هذه الأخيرة تفقد فقداناً وقتياً متى نفذ الوقود بينما يموت الجسم الحي إذا فقد الغذاء وليس الموت معروفاً بين الجمادات

التأثر في الأحياء والجمادات

يخطئ الذي يقول بأن تأثر الأحياء كتأثر الجمادات. فالمواد المفرقعة التي (تغضب) وتنفجر لا تستطيع أن تجمع نفسها (وتهدأ) أو تخفي غضبها كما يفعل الأحياء. وتأثر مواد التصوير الشمسي بالضوء لا يجلب لهذه المواد فائدة ما بخلاف الحال مع الأحياء التي تتلون بلون المحيط لتتقي شراً قد أحدق بها، أو على الأقل لمثل هذه الغاية تتلون وهي

تسترد حالتها الطبيعية متى زال الخطر أو انتشلناها من المحيط الذي كانت فيه.

ثم إنه ليس صحيحاً أن الوتر في الآلة الموسيقية يهتز اهتزازاً (ذاتياً) عندما يدق الإنسان على وتر مقابل. والذي يحصل تماماً هو أن اهتزاز الوتر الأول يهز ذرات الهواء الموجودة في محيطه، ويحدث هذا الاهتزاز أمواجاً تسبح في فضاء الكون بأسره. ولما كانت هذه الذرات قريبة من أخواتها فإنها تحدث بواسطة الأمواج الآنفة الذكر اهتزازاً تنقله هذه بدورها إلى الوتر المقابل؛ وبهذه الطريقة نفسها ينتقل الصوت من أقاصي الأرض إلينا عندما نجلس إلى الراديو.

التفاعل مع البيئة

وهناك اختلاف آخر بين الأحياء وبين الجمادات: هو تبادل التأثر بينها وبين المحيط، وهذا يختلف في الأولى عنه في الثانية. فبينما لا يكون التأثر عند الأحياء إلا بقصد الحصول على فائدة ما أو الخلاص من خطر داهم إذا به ليس كذلك عند الجمادات. ونحن لا نستطيع أن نفهم الجسم الحي مستقلاً عن محيطه، فهو ناقص بدونه بخلاف الجمادات التي لا أثر للمحيط فيها إلا بقدر ما يكون بينها وبينه من تفاعل كيميائي لا يتم إلا بتدخل عناصر غريبة عنها. فهذه الورقة التي أكتب عليها لا تتأثر مطلقاً بانعدام الأكسيجين في الغرفة، وكل إنسان يعرف ما يقع للكاتب عندما يحصل ذلك لا سمح الله. والدور الذي يلعبه الأكسيجين في عالم الأحياء هو الفرق الجوهري بينها وبين الجمادات.

نظرية (نوموغرام) الدم للبروفسور هندرسن

كلنا يعرف ضرورة غاز الأكسيجين للكائنات الحية. والواقع أنه لا يمكن تحديد الحياة بدون اعتبار أمرين في غاية الأهمية؛ هما: كيمياء الغازات وعلى الخصوص غاز الأوكسجين. والصفة التي يمتاز بها الجسم الحي من أنه يكون ومحيطه وحدة كاملة حتى ليفقد صفة الحياة في غير ذلك الوضع. وهذا بخلاف الحال مع الجمادات التي كل تأثرها ليس إلا من قبيل التفاعل السلبي مما لا يمكنها التسلط عليه بحال من الأحوال. والمفهوم أيضاً أن العلم الحديث لم يستطع بعد أن يتوصل إلى معرفة جميع المواد الكيميائية التي يتركب منها البروتوبلاسم وكل ما توصل إليه في هذا المضمار لم يتعد إثبات نقطة واحدة تحقق أنها

ذات أهمية كبرى هي أن المواد التي تتركب منها الأجسام الحية من التعقيد بحيث أنه لا يمكن معرفتها معرفة صحيحة تامة. وقد جاءت نظرية العلامة هندرسن بما يؤكد هذه النتيجة. وسنحاول أن نشرح قدر الاستطاعة هذه النظرية الفريدة؛ فمنها فقط يمكننا

أن ندرك الفرق الجوهري بين الأحياء والجمادات
كانت النظرية القديمة الخاصة بصلة الدم بغاز الأكسيجين وأهمية هذا في التنفس والتغذية وإزالة الفضلات في الجسم في غاية البساطة، فهي تتخلص في أن هناك مادة في الدم تعرف بالهيموجلوبن تتحد بالأكسجين الموجود في الهواء وفق المعادلة:
+
ولا شك أن لهذا الإتحاد أهمية كبرى في تفهم ماهية الحياة. غير أنه قد ثبت بالبحث أن ثمة نقصاً في هذه المعادلة؛ فقد قرر العلامة باركروفت أنه زيادة على الصلة الموجودة بين كمية الأكسجين التي يمتصها الدم من الهواء فإن هناك صلة أخرى بين هذه الكمية وكمية ثاني أكسيد الكربون الموجود في الخلايا الحية. ولهذا الاكتشاف قيمته من حيث إنه قد أرشدنا إلى تغير قدرة الدم على امتصاص الأكسجين بتغير كمية ثاني أكسيد الكربون الموجود في الألياف التي يتركب منها الجسم الحي وهنا لزم تعديل المعادلة الأولى على الصورة الآتية:
ومعنى هذا أنه متى عرفنا مقدار أي اثنتين من هذه المواد غير الثابتة التركيب أمكننا معرفة المادة الثالثة بمجرد النظر إلى المعادلة. غير أن العلماء الثلاثة ج. س. هالدين، وكرسينانوس، ودوجلاس قد استطاعوا إثبات وجود صلة أخرى مشابهة للتي ذكرنا بين ثاني أكسيد الكربون، والكربونات، والأكسجين إذ وجدوا أن كمية الكربونات تقل بزيادة كمية الأكسجين؛ وهكذا تعدلت المعادلة الثانية فصارت:
وو
وبمتابعة هذه الطريقة في التحليل استطاع العلامة هندرسن أن يثبت وجود معادلة رابعة:
*)) =5
وو
ثم خامسة:
من هذا يفهم أننا لا زلنا في المرحلة الأولى في محاولتنا الوصول إلى معرفة كيمياء الدم، إلا أن ما عرفه العلماء حتى الآن قد أوجد مجالاً للتفكير أدى إلى إجراء تجارب عديدة أثبت بها العلامة هندرسن أن الدم في تفاعله مع المحيطين الداخلي والخارجي إنما يمثل عشرين ضلعاً تدخل في تكوينه ست مواد يربط بعضها ببعض عشرون معادلة.
هنا يجدر بنا أن نذكر بعض خواص هذا التوازن، ففي هذه وحدها يكون الفرق الجوهري بين الكائنات الحية وبين الجمادات. وأهم هذه الخواص هي اشتراك الأكسيجين في ذلك التوازن بل إنه (أي التوازن) لا يتم مطلقاً بدون الأكسيجين؛ فأهمية الأكسجين للجسم الحي أكبر من أهمية أي مادة من المواد التي يتركب منها بل هي كما أثبت البحث فوق ذلك بكثير وهذا ما نعنيه عندما نقول إن الجسم الحي هو عبارة عن توازن فيزيقي - كيميائي ذي قوة حيوية يحصل بين المواد الموجودة في داخل الجسم، وبين أخواتها في الخارج. ويفهم من كل هذا أن الهواء الذي نستنشقه بل كل الطبقة الهوائية المنتشرة على سطح الأرض والتي يتوقف عليها مقدار كثافة الأكسجين هي جزء لازم لكيان الأجسام الحية لزوم العظام واللحم الذي يكسوها، وهو ليس كذلك للجمادات. إذاً فالفرق بين هذه، وبين الكائنات الحية موجود، وهو التوازن الوقتي الذي تقيمه الطبيعة بفعل قواها في المواد الأولية - ذلك التوازن الذي لا يوجد له شبيه في عالم الجمادات.
بيروت - الجامعة الأمريكية
عبد الله عشري الصديق
رسالة الفن
دراسات في الفن
الحب والمرأة والفن
للأستاذ عزيز احمد فهمي
جانب كبير جداً من الفنون يدور حول الحب
ولا عجب في هذا، فالحب عاطفة تشترك في تخليقها عدة غرائز من أقوى الغرائز التي يقوم بها كيان النفس الإنسانية وهي مبعث العواطف. ومن هذه الغرائز التي

تخلق الحب في النفس: غريزة حفظ النوع، وغريزة السيطرة، و (غريزة العشرة) وهي أخص واعنف من غريزة الاجتماع، و (غريزة الوثنية) التي تنزع بالإنسان إلى تجسيد ما يصبو إليه وتحديده والتي تخرج به من إبهام المتجرد إلى وضوح الملموس، وهي غريزة لم تضعف إلا عند الذين يدمن إحساسهم التدريب على الاتجاه نحو معان يحبونها ويدهش لهم العالم ويتساءل: كيف يحبونها؟

وهذه الغرائز التي تخلق عاطفة الحب كل منها قوي عنيف. ونفس الفنان بطبعها أكثر طواعية للتأثر من غيرها لأنها أشد حساسية من غيرها. وإذا كانت نفس الفنان تلبي مسرعة نداء المؤثرات الخارجة عنها فأجدر بها أن تستجيب للهتاف المدوي في جنباتها. فلا غرابة إذن أن يزدهر الحب بين أهل الفن أكثر مما يزدهر بين غيرهم، ولا غرابة بعد ذلك إذا دار جانب كبير جداً من الفنون جميعاً حول الحب، فليست نفس أخرى أقرب إلى نفس الفنان من نفسه، وليس أحب إليه منها، وليس أجدر منها بالالتفات الذهني والحسي، وليس أشد منها وضوحاً لديه، وليس شيء ابعث منها على التسجيل

ولكن الذي نلحظه هو أن جانباً كبيراً جداً من فنون الحب يئن بالشكوى من هذا الحب، ويرضخ بالذل له، ويستعطفه متشفعاً إليه بالفن ذاته، كما أننا نرى في هذه الفنون المكلومة كثيراً مما يشبه علامات اليأس، وقد نرى منها قليلاً مما يشبه علامات التمرد الذي يعقب اليأس، إذ ينكر بعض الفنانين الحب إنكاراً، وإذ يسخر بعضهم من المرأة سخرية شاذة لا أصل لها في الطبيعة ولا شبيه لها في حياة الحيوان

وهذا يشهد بان الفنانين فاشلون في حبهم، أو هو يشهد على الأقل بأن كثيرين جداً من الفنانين يفشلون في حبهم. فما الذي يدعو إلى هذا؟ أهو قصور في رجولة هؤلاء الفنانين؟ أم هو التواء حاد بنفوسهم عن المسلك الطبيعي الصحيح الذي يجب أن يسلكه الذكر مع الأنثى ليقنعها بنفسه؟ أم هو انحراف عن أساليب الأرض إلى أسلوب جديد بعيد تسعى الحياة إلى اصطناعه وستأخذ يوماً ولكن بعد أن يكون هؤلاء الفنانون قد ركلوا الأرض إلى عالم يرتاحون فيه ولا يشقون؟ أم هو هذا كله مزيجاً مركزاً؟ الطبيعة وحدها هي التي تهدينا إلى سر هذه المشكلة. وإذا كانت حياة الإنسان قد تشابكت من نواح، وتحللت من نواح، وعقدت الحضارة أغلب أطرافها وأوساطها بحيث لم يعد من الميسور لكل عين أن تميز الأصيل في أفعال البشر من الدخيل عليها، فإن لنا في حياة الحيوان ما يدلنا بوضوح وجلاء على طريقة التهافت الطبيعية التي تجذب الذكر نحو الأنثى، والتي تجذب الأنثى نحو الذكر. فإذا ما تعلمنا من الحيوان هذه الطريقة عدنا إلى الإنسان الفنان ونظرنا: هل هو يماشي الطبيعة في غرامه أو هو يحيد عنها مترفعاً أو متدلياً أو هائماً على وجهه يتخبط ذات اليمين وذات الشمال؟

وقبل أن نخطو هذه الخطوة يجب أن نجيب عن سؤالين قد يخيل لبعض الذين يصحبونني في جولتي هذه أنهما يعرقلان المضي في مذهبنا، أو أنهما على الأقل يشوهان هذا المذهب. أما السؤال الأول فناعم خفيف يقول لنا بصوت خافت رقيق: هبكم رأيتم الفنان قد حاد عن طريق الطبيعة التي تزعمون فلماذا تخصونه بالحساب والعتاب من بين الناس وأكثرهم حائد عن هذا الطريق؟ وإذا كان هو يئن بالشكوى من حبه، فكثيرون غيره يئنون؛ غير أنه يذيع أنته وهم لا يذيعون؟! ونحن نجيب عن هذا السؤال فنقول: إن الفنان هو رائدنا إلى الطبيعة؛ وليس يبرر بعده عنها إلا أن يكون هذا البعد قفزة إلى مرحلة من مراحل الرقي الإنساني يسبق بها البشر ليكون فيهم بشيراً بما سينتهون إليه بعد حين. وليس مما يريح ضمير الإنسانية أن ترى الفنان وهو هاديها إلى الحق ومواطن الراحة مضطرباً في حياته الخاصة، وفي أعز جانب من حياته الخاصة هذه دون أن تعرف علة هذا الاضطراب لعلها تستطيع أن تنقذه منه

وأما السؤال الثاني فيصرخ فينا بعنف ويقول: كيف قررتم أن الحب عند الإنسان يشبه الحب عند الحيوان، ولم تروا أنه أرقى وأشرف؟ ونحن نرد هذا السؤال بقولنا: إن الحب لا يمكن إن يخرج على حال من حالتين: فأما نزوع روحاني لا يصحبه النزوع البدني وهذا شيء لا يعوقه عائق، ولا تصده عقبه ولا يمكن أن يشكو فيه شاك من بعد أو حرمان أو لوعة أو صبابة أو هجر أو غدر أو غير ذلك مما يشكوه العشاق، ومما تدور حوله فنون المتبرمين من الفنانين العاشقين، فالروح متى رضيت عن روح لم تعد تعبأ بما يفرق بينهما من بعد المكان، أو بعد الزمان، ولم تعد تهتم باختلاف الجنس بينهما أو

توحده
إما هذا، وإما أن يصحب هذا النزوع الروحاني نزوع جسدي وفي هذا تظهر الشكوى، ويظهر الأنين، وتظهر فنونهما فلا بد إذن يكون النزوع الجسدي هو الذي يسببهما إذا لم يصب التوفيق، وهذا النزوع البدني موجود عند الحيوان، ولكنه يصيب التوفيق دائماً، ولا يفشل مطلقاً إلا عند العدوان حين يندس بين الذكر وأنثاه ذكر جديد قوي غلاب، وعلى هذا كان من غير الطبيعي في حياة الإنسان أن يفشل الرجل في حبه ما لم يصرعه رجل أقوى منه في الناحية التي تعترف بها الأنثى، وتنقاد لها
هذان هما الحالان اللذان يتشكل بهما الحب في حياة الإنسان على الإطلاق. وأرى من العفة أن أربأ بصورة الحب الإنساني عن الحالة الثالثة التي يتفرد فيها النزوع البدني وحده. لا لأنني أريد أن أمجد الإنسان، ولكن لأني أرى في بعض الحيوان ما يعف عن هذا الحب ويتسامى عليه، ويجمله بالألفة والمعاشرة، والحنان والتعاطف. والمسلم به أن الإنسان أرقى من الحيوان.
وبعد، فأني أحسب أن الطريق قد عبد أمامنا، وأننا نستطيع أن نخطو في خطوتنا الأولى نحو الحب عند الحيوان.
والذي نلحظه هو أن للحيوان غزلاً يشبه الغزل عند الإنسان من حيث إنه دليل الرغبة في إقامة بين الذكر والأنثى، ومن حيث إنه الباب الوحيد الذي يؤدي إلى الحب. والمشاهد أن هذا الغزل يتخذ عند الحيوان عادة شكل الصراع، ومن الحيوان ما يترفق فيه فيكون صراعه كاللعب والمداعبة، ومنه ما يشتد فيه ويقسو فيكون صراعه صراعاً حقيقياً تتهشم فيه العظام، وتسيل فيه الدماء. وهذا النوع الأخير من الصراع يقيم الدليل المحسوس عند الأنثى على أن الذكر الذي يغازلها قوي غلاب، وعلى أنه يأخذ حقه منها قوة واقتداراً، وأنه
لا تثنيه مقاومتها إياه عن الوصول إلى ما يريده من فرض سلطانه عليها، والأنثى في هذا الصراع العنيف تبذل أقصى قوتها لتحول بين الذكر وبين التسلط عليها، لا لأنها تكره أن يتسلط عليها، ولكن لأنها لا ترضى أن تذل لضعيف قد يعجز عن حمايتها وحماية نسلها إذا اعتدى عليها معتد، هذا إذا كانا من الحيوان الذي يأتلف ذكره بأنثاه، أما إذا لم يكونا من هذا الحيوان فهي تكره أن تستسلم للضعيف خشية أن ينتقل ضعفه إلى نسلها الذي تحب أن يكون قوياً غير بما ركب في نفسها من غريزة حفظ النوع سليماً صالحاً.
أما النوع الآخر من الصراع وهو الذي يشبه اللعب والمداعبة فهو أقرب أنواع اللعب والمداعبة إلى المصارعة الإنسانية المصطنعة التي يقيم الناس لها الملاعب في هذا العصر والتي يكتفي فيها الغالب في التدليل على قوته بإظهار تمكنه من تهشيم خصمه دون أن يهشمه وهذا الأسلوب تصطنعه الحيوانات الرقيقة، والحيوانات المستأنسة. ومهما خلا هذا الأسلوب من التحطيم والتهشيم والتجريح، فإنه لا يخلو من معانيها، وإن فيه ما يدل دلالة تامة على احترام القوة والاعتراف بلزوم الغلبة والقهر يقيم عليهما الذكر صلته بأنثاه.
فإذا أضفنا إلى هذا ما نراه من تجميل الطبيعة للذكر دون الأنثى: كالديك ازدان بالعرف دون الدجاجة، والأسد تحلى بالمعرفة دون اللبؤة، والكبش ازدهى بالقرنين دون النعجة، والطاووس تبرج بذيله الملون الطويل دون (الطاووسة). . . إذا أضفنا هذا إلى ما تقدم رأينا أن الطبيعة توجه الذكر إلى (مكايدة الأنثى): قهراً بالقوة، أو اعتزازاً بالجمال، أو قهراً واعتزازاً بالقوة والجمال معاً. ومن هذا يمكن أن ندرك أن الطبيعة قد وضعت ناموساً تقوم عليه الصلة بين الذكر والأنثى، وأن هذا الناموس يستلزم أول ما يستلزم أن يذل الذكر أنثاه، وأن يذكرها دائماً بأنه أقوى منها، أو أنه أقوى وأجمل منها.
والطبيعة توفر في هذه السوق التي يتداول الذكر والأنثى فيها نواحي القوة والضعف، ونواحي الزينة والعطل وبقية تلك الزوائد والنواقص فيهما شرطاً لا بد أن يتوفر في هذه السوق: وهو أن تقتنع الأنثى مؤمنة صادقة مجبرة بفضل الذكر عليها فيما يمتاز به، وإلا فالصلة بينهما زائفة، وهو آخذ منها ما يرضيه ويقنعه، إذ لا يعطيها ما يرضيها ويقنعها كما يحدث للحيوانات المسجونة التي تنسل نسلاً ضعيفاً
اتفقنا في هذا. فلنعرج إذن على الحب عند البشر، ولتكن القبائل التي تعيش على الفطرة

أول من نشارف من البشر. وهذه القبائل لا يزال الرجال فيها يمثلون ما يشبه الدور الذي يمثله الذكر الحيوان مع أنثاه فالقوقاز لا يسلمون العروس لعروسها، وإنما يدبر العروس حملة على محلة عروسه فيهجم عليها في جمع من أهله وأصدقائه، ويختطف عروسه من بين أحضان أهلها بالقوة والعنف ليشهدها وليشهد أهلها على أنه قوي جدير بها، وليسجل عليها هذه الشهادة يذلها بها طول عمرها معه إذا حاولت أن تتمرد عليه أو أن تطاوله. وبعض قبائل الزنوج تحتفل بزفاف فتياتها احتفالاً أعجب من احتفال القوقاز وأشد افتخاراً بالقوة والجلد والصبر. وإن لم يكن فيه من الشجاعة والفروسية شيء: ذلك أنهم يتداولون على العروس السعيد بالضرب المبرح الموجع، فقدر ما احتمل الضرب وكتم التوجع عز عند صاحبته وزاد احترامها إياه ورأته حقيقاً بالحب: لها بل عليها أن تفاخر به معجبة راضية. . . ولا يزال من أهل النوبة المصريين من يفعلون ما يشبه هذا. فالعروس يطلب من صاحبته أن تحضر له جمرة من النار ليشعل بها لفافته، فتحضرها إليه. فيمسك الجمرة بيده، ويضع الجمرة على حجره، تأكل جلده ولحمه ريثما يتأنق في لف التبغ في الورق ليشمل بعد ذلك لفافته ويعيد الجمرة إلى مكانها، وبقدر ما يطول احتراق جسده ويشتد يعز عند صاحبته ويعلو قدره والمرأة القوقازية تحب من يخطفها لأن بيئة القوقاز بيئة رعي ومهاجرة ومحاربة تكثر فيها الغارات، ويكثر فيها الكر والفر ولا يستطيع أن يخطف المرأة فيها إلا البطل. والمرأة الزنجية تحب من يحتمل الضرب الموجع في سبيلها لأن بيئة الزنوج بيئة قاسية تضرب الناس بالحر والبرد والمطر والرياح والمرض والسم، فالأشد صبراً من غيره في هذه البيئة هو البطل. والمرأة النوبية تحب الذي يحترق في سبيلها بالنار لأن بيئة النوبة يموت فيها الضعاف من وهج الحر والقيظ وشدتهما. فالذي يحتمل الحرارة عندهم هو البطل

هذه بيئات إنسانية قريبة من الطبيعة والرجل فيها لا يزال يلوح للمرأة بقوته، والحياة فيها لا تزال مستقيمة بين الرجل والمرأة

أما جمال الرجولة الخشن فقد ظل الرجال يحرصون عليه زماناً طويلاً كانوا يرسلون فيه شواربهم ولحاهم التي زينتهم بها الطبيعة ولكنهم اليوم لم يعودوا يحافظون عليه، واكتفى فريق من أهل المدنية فيهم بممارسة الألعاب الرياضية لتنمية عضلاتهم وتقويتها كما كان

يفعل اليونان القدماء في وقت يذكر التاريخ أن المرأة فيه كانت متبرمة بالرجل لأنه اكتسب من رياضته تناسقاً وامتشاقاً انشغل به عن النظر إلى جمال الأنثى ولعل هذه الألعاب الرياضية هي البقية الباقية من معالم الرجولة القوية التي تحتفظ بها الحضارة اليوم، ولكنها شيء إذا كسا البدن رجولة أو ما يشبه الرجولة فإنه لا ينفذ إلى الروح والنفس، ولذلك يستعين الرجل المتحضر اليوم على قهر المرأة بالمال أو الجاه أو النفوذ أو المنصب أو الشهرة أو غير ذلك مما يتنافس فيه الرجال المتحضرون. ونحن إذا أنعمنا النظر في هذه المميزات المدنية كلها رأينا أنها لا تتاح إلا للذين يتكالبون على العمل في سبيل الوصول إليها أو للذين يصيبونها عفواً بالوراثة أو بالواسطة؛ أما الذين يفوزون بها عن جدارة فأولئك الذين في حسابنا، وهم ينفقون في سبيلها من رجولتهم ما كانت المرأة تحب أن يستبقوه لها فهي لا تستطيع أن تستغني عن حياة المناوشة والمصارعة وهي تكره أن تبيع نفسها بالمال، وإن كانت تبيع نفسها بالمال؛ وهي لا تقنع من الرجل بجاهه وإن كانت ترتمي على أصحاب الجاه؛ وهي لا ترضى بمنصب الرجل وشهرته وإن كانت تتهافت على أصحاب المناصب الكبيرة والمشاهير، فهي تنحرف عن طبيعتها مجاهدة مستعيضة بهذه البهارج عما كانت تتوق إليه من قوة الرجل ورجولته. ولعل حوادث الخيانة الزوجية التي تتعدد وتتكاثر في المدنيات دليل قاطع على أن الزوجات ساخطات على الأزواج، وأنهن لا يزلن يبحثن عن الرجولة الضائعة في هذه الحضارة

وإذا كانت المرأة تكره المال والجاه والنفوذ والمناصب العالية وما فيها من أبهة ولا تقبل عليها إلا على سبيل البدل عن مطلبها الطبيعي، وإذا كانت لا تزال تحب أن ترضي طبيعتها بين يدي من يذلها برجولته ومن يتقن فنون المغازلة والمصارعة على ألوانها فماذا هي صانعة عند الفنان أو ماذا هو صانع بها؟

الفنان تسيطر عليه الغرائز التي تسيطر على بقية الناس فهو إنسان مثلهم ولكن هذه

الغرائز لا تشتد به - حين تشتد - كما تشتد ببقية الناس، ولا تترفق به - عندما تترفق - كما تترفق ببقية الناس، فهو وإن كان يحب أن يحفظ النوع البشري كما يحب الناس أن يحفظوه فإنه يسعى إلى ما هو أشرف من حفظ النوع وهو ترقية النوع، والفنان يؤدي لهذا النوع بفنه ما يجاهد النوع دهوراً في سبيل الوصول إليه. وهو وإن كان يحب السيطرة كما يحبها بقية الناس فإنه يتمتع من السيطرة بما لا يتمتع به أحد، ففنه يلوي عنده الأعناق ويخفض بين يديه الرؤوس؛ فإذا لم يوفق إلى هذا في حياته فهو على إيمانه بفنه مؤمن بان البشرية التي غفلت عن تقديره وهو فيها ستنال جزاءها إذ تنصاع يوماً إلى قبره لتطوف بالتقديس حول عظامه ولو بعد أن ينخرها السوس! وإنه ليرى ذلك وهو في ظل العرش. وهو وإن كان يحب العشرة كما يحبها بقية الناس فهو يتأنق في اختيار عشرائه من المعاني والأخيلة والأفكار التي يرصد لها انتباهه وإحساسه ويتعقبها ويتبختر عندها مترنحاً منتشياً كراهبة ترقص في خلوتها على نغم الذكر عابدة لا فاجرة، خالصة غير مشوبة

هذه هي الغرائز التي كان حقها أن تشترك في تخليق الحب في نفس الفنان كما تخلقه في نفوس بقية الناس، ولكننا قد رأيناها جميعاً تعدل عن الحب إلى الفن وبقيت بعد ذلك (غريزة الوثنية) التي ذكرتها في بدء هذا الحديث، واحسبني قلت إنها لم تضعف إلا عند الذين يهد من إحساسهم التدريب على الاتجاه نحو معان يحبونها هم، ويدهش لهم العالم ويتساءل: كيف يحبونها؟ ومن يكون هؤلاء غير الفنانين؟

إذن فالفنانون على هذا الأساس لا يحبون! وعلة انصرافهم عن الحب بعيدة كل البعد عن الأسباب التي توقعناها في أول حديثنا، فقد خيل إلينا أن عجزهم عن الحب قد يرجع إلى قصور في رجولتهم، أو التواء حاد بنفوسهم عن مسلك الحب الطبيعي الصحيح، أو انحراف عن أساليب الأرض إلى أسلوبهم الجديد

ولكننا رأيناهم في أول حديثنا يحبون. وقد سجلنا عليهم فشلهم في الحب من بعد تسجيلهم إياه على أنفسهم في فنونهم. . . فهل هم يحبون أو هم لا يحبون؟. . . أحبهم الله!

والواقع أنهم يحبون ولا يحبون. فالفنان إنسان حائر بين حلقتين من حلقات التطور البشري. أولاهما الحلقة التي يعيش فيها، والأخرى الحلقة التي ينتقل إليها بروحه ويستنبطها فنه ثم يعود بعد ذلك إلى ناسه. وهذه الحلقة التي يسرى به إليها ستتحقق يوماً ما في الأرض سواء أكان هذا اليوم قريباً أم بعيداً وسيعيشها الناس وكلهم في مستوى ذلك الفنان الذي يبهر جيله وسيكون من بينهم فنانون يبهرونهم بما يستنبطونه من حلقات أخرى لا يسري به إليها غيرهم. وقد ينكر هؤلاء وقد يعترف بهم. . . أمرهم وأمر الحق إلى الله

هذا هو مسلك التطور الروحاني للإنسانية فهو (كالداروينية) الجسدية ولكنه أشد غلياناً وإبهاماً

والفنان يتذبذبه بين الأرض وسمائه يتلون بلونين ويتشكل بشكلين: شكل يلائم حياة الأرض بقدر ما تسمح ذمته الفنية أن يتسامح في أمانته، وشكل آخر لا يلائم إلا الذين يستطيعون أن يطيروا معه إلى سمائه ولو أتباعاً مسترشدين به. والفنان السعيد الذي يرضى الله عنه هو الذي يوفق إلى غرام واحدة من بنات السماء. والفنان المنكوب الذي أرجو له الرحمة هو الذي يتعلق به غرام واحدة من بنات الأرض: تثقل به وتعرقله عن قفزاته فإن أشفقت عليه وسمحت له بهجرته إلى السماء كلما شاء لم يجد عندها حين يهبط إليها إلا ما اختص به الله بنات الأرض. فهو شقي معها كشقاء المقعد الذي يلهب طاغية ظهره بالسياط ليجري في سباق مع صبيان خفاف شياطين. . . وإن كان المثلان متعاكسين وينتبه الفنان إلى علة إخفاقه في حبه، فإما أن يرضي من محبوبته بما طلب له فيها من الجمال الروحي والبدني وإما أن يحاول صقل نفسها وتهذيبها ليجعلها تشبه ما يجب أن تكون عليه، فإذا وفق في هذا فإنه يرضى أغلب الرضى، أما إذا فشل فيه فهو الشاكي المتبرم الساخط على الحب اليائس منه المتخاذل أمامه أو المتمرد عليه

وقليلاً جداً ما يفرغ الفنان من وقته لمصارعة المرأة ومناوشتها لأنه يتعلم من جولاته في السماء أن هذه المصارعة من أساليب العنف التي يصح الاستغناء عنها بإدراك

نتائجها فيحاول أن يتشفع إلى المرأة بفنه، وهو على كثرة ما يتدلل بفنه يخضع نفسه ويخضع فنه للمرأة ويسعى إليها في هذا الخضوع خاشعاً متوسلاً مستجدياً عطفها، فإذا به ينقلب أمام المرأة شيئاً آخر أكثر رحمة بها من الرجل، وأشد حناناً منه، وأكثر بذلاً وعطاء وتضحية في سبيلها ولكنه على أي حال ليس ذلك الرجل الذي تريد أن تراه قوياً، والذي تحب أن يقسو عليها قسوة تصهر أنوثتها وتسيلها. فهذه الرقة وهذه الرحمة وهذا الخنوع وهذه المسالمة التي يقرب بها الفنان من محبوبته كلها من علامات الأنوثة - عندها - لا من علامات الرجولة وهي من مظاهر الضعف - في نظرها - لا من مظاهر القوة، وهي تبعث في نفس المرأة الاستهانة بها والشك في أمر صاحبها إذ لا تضمن المرأة أن يتخذها الفنان وسيلة من وسائل الاستدراج يسلطها على كل من تعجبه من النساء ما دام الأمر لا يكلفه أكثر من كلمات رقيقة أو ألحان عذبة أو صور جميلة

والفنان متى وصل به الحال إلى هذا الموقف كان عليه أن يختار واحد من ثلاث: فإما أن يخصص نفسه لفنه، وإما أن يخصص نفسه لحبه، وإما أن يتذبذب بين الفن والحب وهذا ما يفعله الفنانون الشاكون، فليس يتاح لكل فنان أن يتسامى حتى على الحب فلا يذكره ولا يذكر المرأة إلا كما ذكرها المسيح

عزيز أحمد فهمي

من هنا ومن هناك

دعاوى إيطاليا في قناة السويس - لمحرر الوبرلدوبجست

نقلنا في هذه الصفحة من العدد 302 مقالاً للكاتب الإيطالي ف. بارتو عن دعاوى إيطاليا في قناة السويس، وقد نسب الكاتب الفضل في وضع تصميم القناة وتأسيسها إلى مهندسين إيطاليين ذكر من بينهم: نجّرللي وبترمو وجوايا، وزعم أن إيطاليا هي الدولة الثانية من بين الدول التي تمر في هذه القناة. . . إلى آخر ما جاء في ذلك المقال، والمقال التالي رد على ذلك المقال نلخصه للقراء ليطلعوا على وجهتي النظر في المقالتين.

منذ سنين عديدة كتب أوسكار وايلد مقالاً قيماً عن اضمحلال رذيلة الكذب. فلو عاش في عصرنا هذا الذي انتشرت فيه وسائل الدعاية بين الدول الحديثة، فما لا شك فيه أننا كنا نقرأ له فصولاً ممتعة عن نهضة الكذب.

إن الدعاوى العريضة التي يدعيها الإيطاليون في قناة السويس في هذه الأيام، مما يجعل النفس تشمئز ويعروها الأسف الممض لهذه الهوة التي انحدرت إليها الصحافة في العصر الذي نعيش فيه

ونحن وإن كنا لا نبرئ الصحافة في عصر من العصور من الانحراف عن الجادة في بعض الأحيان، إلا أننا نعتقد أن هذا الانحراف لم يكن يعدو الأمور الصغيرة التافهة التي لا تؤثر بحال من الأحوال في الشؤون العامة التي لها أكبر الأثر في حياة العالم ولكن إيطاليا وألمانيا تذهبان إلى آفاق بعيدة المدى في الكذب في شئون لها الأهمية الكبرى في الحياة، ولعل أسوأ الأمثلة لهذا الكذب الصراح، هو ما تنشره الصحافة الإيطالية عن قناة السويس، لا في إيطاليا وحدها، ولكن في تونس والأمريكيتين مما ينافي الحقيقة من جميع الوجوه.

ولقد استطاعت بعد الاطلاع على هذه المزاعم أن أتوفر على هذا الموضوع وأبحثه بحثاً جديداً فتبين لي أن هؤلاء القوم يلجئون إلى بعض المخلفات القديمة، ليستخرجوا منها أسماء لها علاقة ما بهذا المشروع الجليل، فيخلعون على أصحابها حلل الفخار والشرف التي ارتداها رجال لهم شهرتهم وعظمتهم بين العالم، بعد أن طواهم الثرى في بطونه

فهذه الأكاذيب من النوع الذي يقول عنه (تتيسون): الكذب الذي هو نصف حق، شر من الكذب الصراح

فهم يقولون إن إيطاليا تعد في المرتبة الثانية من الدول التي تمر في قناة السويس. فمن أين جاءوا بالبيانات التي يستندون إليها في هذا الزعم؟ من الإحصاءات المبينة على ذلك الظرف الاستثنائي الذي دعاهم إلى نقل آلاف من جنودهم البسلاء مجهزين بالمدافع والطيارات والأسلحة المختلفة لمحاربة الحبشة العزلاء عام 1936 - 1937،

وعلى هذه الطريقة في الكذب تجري سائر الدعاوى والمزاعم التي يطلعون بها على العالم
إن قناة السويس التي نشأت فكرتها منذ قدماء المصريين، وفكر فيها نابليون بعد حملته على مصر، ثم مشروعها على يد رجل واحد هو المهندس الفرنسي فرديناند دي لسبس. لقد كان الخطأ الذي حال بين نابليون وبين تنفيذ هذا المشروع هو خطأ المهندس لابير الذي رأى أن هناك فرقاً بين مستوى الماء في البحرين يحول دون ذلك، وقد أصلح هذا الخطأ بتأثير دي لسبس وحده، إذ رفع مذكرة إلى محمد سعيد باشا حاكم مصر مؤرخة في 15 من نوفمبر سنة 1854 ينفي فيها وجود الفارق المزعوم، مستنداً إلى تقارير قدمت إليه من مهندسين من الإنجليز لهم خبرة عظيمة ومهارة فائقة في هذه الشئون، فقاموا بقياس مستوى البحرين وكان لهم الشرف العظيم في نفي هذه الخرافة، والتوكيد بأن لا فارق بين مستوى البحرين
ومما يدعو إلى الضحك أن ينسبوا تأسيس القناة إلى مهندس إيطالي يدعى (نجرللي)، فتأمل عمل الدعاية في الانتفاع بهذا الاسم؟ مما لا شك فيه أن هناك شخصاً يحمل هذا الاسم كان ضمن الذين يعملون في هذا المشروع، ولكنه من أوستريا لا من إيطاليا، وقد كان يشغل وظيفة مهندس عموم السكك الحديدية بها، فعين في بعض الأعمال مع مهندس إنجليزي يدعى استيفنش فنسبته الدعاية إلى إيطاليا لأن اسمه نجرللي لا أكثر ولا أقل. وقس على ذلك سائر الدعاوى والأكاذيب
إن قناة السويس لم تنتفع بإيطاليا في حال من الأحوال، ولكن إيطاليا هي التي انتفعت بها في فتح الحبشة
هل في استطاعة ألمانيا أن تحارب - عن لالبر بلجيك
منذ سنتين - وإذا أردت التحديد في 12 مارس 1937 كتبت مجلة ألمانية تقول: إن أهم
العناصر التي سنحتاجها في الحرب هو الذهب
وهذا القول يفسر مبدأ معترفاً به في تاريخ الحروب بما فيها الحرب الأخيرة، إذ وجدت ألمانيا نفسها عاجزة عن تموين جيشها لحاجتها إلى المال. ويتبين من هذا دقة الموقف الذي تقفه ألمانيا وإيطاليا الآن
مما لا شك فيه أن ألمانيا في عجز عن إيجاد الذهب الضروري لحاجتها، والذهب هو القوة التي يمكن الحصول بوساطتها على المئونة، وألمانيا في حاجة إلى الشعير والسكر، وفي حاجة إلى المعادن اللازمة لعمل الأسلحة وتجديدها
ومن المعلوم أن ألمانيا في حاجة ملحة إلى الحديد والنحاس والألمنيوم والمغنيسيوم والرصاص، وهي في حاجة فوق ذلك إلى البترول وهو الروح الأساسية للآلات والمصنوعات الحربية على وجه العموم
وهي تعتمد على عبقريتها الصناعية للحصول على هذه المواد، حتى لا تعول على الدول الأخرى في استيرادها، تلك العبقرية التي تحول الخشب إلى قطن، ولبن الأبقار إلى صوف
وعلى هذا النحو تصنع الملابس لجنود الجيش، ويصنع البترول والمطاط ويصنعونه من الجير، والصابون ويصنع من الفحم، والزبدة وتصنع من الزيت، وتعيش الأمة جميعها على هذه المصنوعات. وهنا تحضرنا الفكاهة القديمة وهي عجز ألمانيا في المعادن، وقلة ثقتها بإخلاص الحليفة؛ وتحت هذا التأثير ولا شك يتفكك محور رومه برلين فإذا قامت الحرب فستكون ألمانيا عاجزة كل العجز عن إعداد المال الكافي إذ أنها ستشتري مئونتها ومعادنها من الخارج.
هذه هي الحقيقة التي لا جدال فيها. فقد أصبحت ألمانيا تستورد 20 % من مواد الأطعمة من الخارج فضلاً عن الأجور العالية التي يتقاضاها المزارعون فيها.
ونحن نرجع في هذا الموضوع إلى ما قاله الكاتب الألماني فرتس استرنبرج في كتاب (قوة ألمانيا الحربية). فقد أورد كثيراً من المعلومات والإحصاءات الهامة التي تدل على عجز ألمانيا عن التموين، واضطرارها إلى زيادة نسبة الوارد إليها من مواد الأطعمة، وتلجأ ألمانيا إلى طريقة المقايضة في كل ما تريد من الدول. فتقول: أعطني بترولك وأنا أعطيك عقاقيري. وكل هذه الوسائل المفتعلة لا قيمة لها أبان الحرب. فإذا أطلقت رصاصة واحدة

لا يمكن بعد ذلك أن يعطي: البترول أو الحديد أو النحاس أو الشعير نظير حبوب الصحة وآلات الموسيقى
نحن مسوقون في تفكيرنا هذا وراء رائد التاريخ، ونعتقد أن زعيم الانقلاب في ألمانيا سيتراجع عن فكرة الحرب، إذ أن مسئوليته كبيرة في أمر هو حياة أو موت لأمته، ونود لو يذكر لأجل الإنسانية والمدنية قول شكسبير:
(!إن في السماء والأرض أموراً غير التي تحلم بها في فلسفتك يا هروتيو)
القرد وحياة الإنسان - عن مقالة للدكتور هوفمان
الدكتور منريت يعد من رجال الطب المشهورين، لقد أجرى في هذه الأيام تجربة نفسية لم يسبق لها مثيل.
فمنذ عشر سنوات عاد من سياحة له في أواسط أفريقيا، يصطحب قرداً صغيراً من نوع الشمبانزي يبلغ من العمر سنتين
وقد بذل كل ما في وسعه هو وزوجته وأولاده، لإبراز هذا القرد الذي أسموه - فاتو - في مظهر الإنسان العاقل بحيث ينسى منشأه الحيواني ويعيش معيشة الآدميين - دون أن يعملوا أي عمل لتدريبه كالعتاد. وهذا عمل بلا شك له أهمية عظيمة، إذ إنه يجعل الحيوان الأعجم يحيا حياة الإنسان
وكان أول مرة خرج فيها فاتو في مجمع من الناس، في حفلة غداء أقيمت في منزل منريت حديثاً دعا إليها لفيفاً من الأطباء والعلماء المختصين بدراسة نفسية الحيوان ورجال الأدب والصحافة. فدخل عليهم فاتو منتصب القامة يسير على ساقيه الخلفيتين كالإنسان. وأغلق الباب من ورائه في خفة ولطف. ومر يحيي الضيوف ويصافحهم واحداً بعد واحد في أدب ورقة، وصاحبه يقدمه إليهم كما يقدم الصديق العزيز، ثم أخذ مكانه في مؤخرة المائدة، وساهم في الطعام معهم، ولم يبد على تصرفاته أي مأخذ.
وكان الطعام الذي قدم إليه من نفس الطعام الذي تناوله المدعوون وهو حساء وسمك ولحم وخضراوات وحلوى وفاكهة. وكان فاتو يتناول الطبق من جاره ويملأه لنفسه بنفسه ويأكل بأدب ونظام. وكل ما لوحظ عليه في تناول الطعام أنه يكثر من أكل الخضراوات والفاكهة ويتناول منها أكثر من غيرها. وكان يحتسي كأس النبيذ فيمسكها بيده فيرتشف منها الجرعة
بعد الجرعة في اعتدال وهدوء. فلما انتهى من الطعام قام فوضع ذراعه على كتف مدام منريت وأشار إلى زجاجة من نبيذ بردو عرفها لمجرد النظر إليها، وكان يخاطبها باسم ماما فقدمت إليه شيئاً منها
وفي أثناء تناول القهوة دعاهم الدكتور للتدخين، فقام فاتو دون أن يشير إليه أحد بذلك فقدم إليهم لفافات التبغ. ولم ينس أن يوقد لكل منهم لفافته ثم تناول لفافة فأوقدها وجلس يدخنها بلذة واستمتاع
وكان فاتو يرتدي قميصاً فسيحاً وسروالاً خفيفاً وينتعل حذاء من الخيش. وقد أعد له الدكتور حجرة خاصة تحتوي على منضدة وكرسي وسرير ومشجب وبها حمام خاص يستعمله بنفسه وهو يتنقل في حجر المنزل بحرية تامة
وقد شرح الدكتور منريت طريقته في تربية هذا الحيوان فقال: إنه لم يدربه على شيء كما يفعل أصحاب السيرك، وإنه ألف هذه الحياة من تلقاء نفسه ولم يعلمه أحد من الأسرة أي شيء. وقال إن تربيته تختلف عن تربية الأطفال، فقد تعلم من تلقاء نفسه كيف يفتح الباب أو يغلقه، وكيف يفتح النور وكيف يستعمل الشوكة والملعقة والسكين عند تناول الطعام، وهو ينطق كلمة (ماما) أحسن من أي كلمة أخرى وقد حفظها عن أطفاله. ومن رأى الدكتور منريت أن هذه الكلمة هي أول كلمة نطقها الإنسان بدليل وجودها في جميع اللغات وينطقها القرد آلياً بمجرد فتح الفم وإغلاقه مرتين
البَريدُ الأدبيّ
1 - مناوأة الخدر والنعاس
في العدد السابق من الرسالة كتب الصديق الفنان الأستاذ زكي طليمات (تعليقاً وتذييلاً) لقصة الفتور في الأدب المصري فراجع بعض ما يراه الأستاذ توفيق الحكيم وبعض ما ذهب إليه فجاءت كتابته جياشة بالمعاني؛ ولعل القراء وقفوا عندما قال فيهم وتدبروه، قال: (فإذا كان النتاج الأدبي في مصر لا يقابل من الجمهور بالحماس الواجب، فلأن الفتور مفروض على كل شيء يجري في مصر، ولأن عدم الاكتراث

صفة - ويا للأسف - من صفات الأكثرية الغالبة من الجمهور المصري لا سيما فيما له علاقة بالأدب والفن). غير إني لا أرى كل هذا الرأي، فالذي عندي ما كتبته في هذا الباب من الرسالة لعددين مضيا، ومجمله أن الجمهور المهذب من القراء يرغب عن أدب التسلية والإنشاء التعليمي ويقدر ما يستحق التقدير إلا أنه قليل

2 - ديوان يظهر في قلب الصيف

ستخرج مطبعة مصرية ديوان شعر بعد شهر وبعض شهر، والديوان مهيأ للطبع منذ ثلاثة أشهر، وإن أنت عجبت للأمر فقلت: كيف يخرج ديوان في العهد الذي فيه يقعد الحَرُّ الناس ويصرفهم عن القراءة ويسيرهم إلى الشواطئ والمصايف القريبة والنائية، فأعلم أن بهذا الديوان غني عن جمهور القراء، إذ أن مؤلفه من أصحاب الحظوة العالية في وزارة المعارف، وحسب ما تقتنيه الوزارة من النسخ. . . قصة معروفة: إن المال الموقوف على تشجيع التأليف في وزارة المعارف لمحبوس - إلا أقله - على إعانة رجالها وأصدقائهم!

3 - في النقد الأدبي

يعني الدكتور إسماعيل أحمد أدهم بكتابة فصول في الأدب العربي الحديث. فأخرج مبحثاً في الدكتور طه حسين بك وآخر في الأستاذ توفيق الحكيم (في مجلة الحديث الحلبية) وهو يواصل نشر مبحث في الأستاذ خليل مطران في مجلة المقتطف. ومزية كتابة الدكتور أدهم أنها منصرفة إلى النقد القائم على الوجهة الموضوعية لا الذاتية، كما نقول اليوم. والحق أن النقد عندنا أكثره مجرى على الطريقة التأثرية. وهكذا ترى الدكتور أدهم يميل مع ناقدين

أو ثلاثة من أهل مصر ولبنان إلى جمح التأثر وتحديده ومراقبته حتى تتغلب المعرفة على الإحساس. ألا أني أرى فيما يكتب الدكتور أدهم موضوعين للنظر: الأول اعتماده على الآراء القبلية والمسلّمات والمقبولات. وترى ذلك في الفصل الأول والثاني اللذين كتبهما في خليل مطران، ومثل هذا الأسلوب أجنبي عن طريقة النقد الموضوعية؛ لأن هذه الطريقة تذهب من الواقعات إلى النظر ومن الخاص إلى العام: فلا يتكلم الناقد مثلاً على لون من ألوان الشعر ليدل بعد ذلك على أن شاعراً من الشعراء ينظم على ذلك اللون، بل يجري على عكس ذلك. ومن هذا أيضاً أن الدكتور أدهم يقرر القضية من باب الارتجال فيستخلص منها ما يستخلص: من ذلك قوله في مطران (المقتطف يونيو 1939 ص 87): (وقد خلص الخليل من هذه السنين (سنين الطفولة) بطبيعته الاجتماعية التي تميل إلى خلق جملة صلة اجتماعية مع الناس). فإني لا أفهم هذا النحو من التفكير (الموضعي) وكأني بالدكتور أدهم اقتبس مني (انظر (مباحث عربية) ص 76) هذا التعبير: (جملة صلة اجتماعية) مع ما ينظر إليه باللغة الفرنسية، من دون أن يحسن استعماله في مجرى حديثه، على ما يبدو.

وأما الموضع الثاني فإهمال الدكتور أدهم لاستقصاء المصادر. من ذلك ما فاته من مراجع فن توفيق الحكيم. فقد كان يحسن به أن يلتفت إلى ما كتبته في هذا الباب في مجلة الشباب (9 مارس سنة 1936) ومجمله: أن كلام توفيق الحكيم في مسرحياته الأولى على أن (الكائنات ظواهر لا حقائق) وما يترتب على ذلك من صراع بين الواقع والحلم، وبين الزمان والتاريخ وبين الشهوة والرغبة، إنما هو أصلاً لكاتب مسرحي فرنسي يدعى ومن تآليف هذا الرجل (إنما الزمان حلم) (سنة 1919) و (آكل الأحلام) (سنة 1922) و (الرجل وأشباحه) (سنة 1924). ثم إن في قصص توفيق الحكيم مظهراً آخر مستمداً من الأول وبيانه: أن الإنسان يسيّره ما لا يعرفه وما لا يقدر على مقاومته. وهذا الرأي الآخر يرجع إلى كاتب بلجيكي يدعى موريس ميترلنك (وإلى إبسن قبله). بقى أن الأستاذ توفيق الحكيم ينحو نحو ميترلنك في إنشاء ما يقال له في فن المسرح (الجو)، وجو القصة المسرحية قائم على بث الأنوار، وتوزيع الأثاث وإجلاس الممثلين، إلى غير ذلك. وجو المسرحية عند الحكيم كجو المسرحية عند ميترلنك من حيث الميل إلى بسط الإبهام على المناظر وإثارة الأوهام في نفس الناظر.

وليس معنى هذا أن توفيق الحكيم لم يأت بشيء من عنده. فقد كتبت قبل اليوم أنه (يحكم سرد الرواية ويحكم الحوار ويحكم تهيئة البيئة؛ فهو صاحب فن حقاً)، وقد استشهد الدكتور أدهم فيما كتبه بهذه الجملة (ص 357)

وبعد، فإني أدعو من يعني بالفصل الذي كتبه أدهم في الحكيم - وهو فصل حقيق بالعناية - أن يرجع إلى نقد الأستاذ صديق شيبوب لذلك الفصل في صحيفة البصير (12 مايو 1939)، فإنه جم الفائدة.

بشر فارس

الأتراك والحرف العربي

كنت نشرت في الجزء (226) من السنة الخامسة للرسالة الغراء - مقالة عنوانها (الحرف العربي والإفرنجي) نعيت فيها على هؤلاء الترك استبدالهم الذي هو أدنى بالذي هو خير، وقلت فيها: (وأما ذلك التجديد فليس لليوم أن يقضي فيه قضاءه، وللغد الحكم فننظر أأحسن القوم أم أساءوا) وبينت أن الحرف الإفرنجي هو الحرف العربي نفسه، وأصل الحرفين معلوم، غير أن الزمن قد حسن الثاني أي العربي وهذبه وإن ما صنع الترك هو أنهم انقلبوا يسطرون أو يخربشون من الشمال مبذرين مضاعفين الكلمة، وكانوا يكتبون من اليمين موفرين الوقت الثمين والكاغد

وقد قرأنا اليوم في الصحف هذا الخبر من أنقرة:

(أنقرة - أخذت الأوساط التركية تفكر باستعمال الحروف العربية بعد أن قامت عدة صعوبات في استعمال الحروف اللاتينية، ويقال إن حكومة الجمهورية قد تفكر في إلغاء القرار القاضي بمنع استعمال تلك الحروف)

فإذا صدق هذا الإعلام - ولا أستبعد صدقه - فقد عقل القوم من بعد السفه، وصحوا من سكرهم، وأحسنوا إلى أنفسهم وأدبهم وتاريخهم - على ضؤولة قدرها - وإلا فإصرار المبطل على الضلالة والباطل لا يدل على أنه محق

الإسكندرية

* * *

على فراش الموت

أصدرت دار الهلال أخيراً كتاباً عنوانه (على فراش الموت) من تأليف الأستاذ طاهر الطناحي. وهو كتاب محكم الوضع طريف الموضوع مختلف الجني بين اللذة والفائدة والعبرة، وقد أهداه إلى الأستاذ أمين الخولي فكتب إليه هذا الكتاب:

. . . إلى الأديب الكبير الأستاذ طاهر الطناحي

تحية وسلام. وبعد فقد تلقيت كتابكم عن اللحظات الأخيرة وأثر فيّ تناولكم الدقيق لتلك اللحظات من اليقظة التي تتكشف فيها النفس عن جوهرها السماوي، وتستقبل الحياة الثانية بصفاء كدرته طوال تلك الحياة الدنيا أوهامها وأخاديعها

نظرت فيما دونت من حال العظماء في تلك الدقائق الرهيبة، آخر عهدهم بالدنيا وأول عهدهم بالآخرة، فتجسم لي قول من سلف: الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا. وشعرت أن من كمال الترجمة لعظماء العالم أن تعرض لنا حياتهم في تلك الأويقات الختامية؛ وكأنما (فراش الموت) بساط ساحر لا ينتهي مداه، فهل أقول لك: ابسط منه ما استطعت وحدث الناس في أجزاء أخرى عن تلك اللحظات على باب الأبدية، وعتبة الحياة الثانية، واكشف من نفوس المعدودين ما لا ينكشف إلا في تلك البرهة الدقيقة الجليلة؟

إن الموضوع رائع رهيب؛ وقد بدت تلك الروعة والرهبة في تناوله. وفي لمحات قصيرة نظرت فيها إلى هذا المؤلف غمرتني تلك الروعة والرهبة، وشعرت فيما شعرت به حين كتبت فصلك عن (الحب والموت) على ما أظن. . . مزيج من الخشية والتسامي إلى عوالم اللانهاية

أشكرك وأحييك، وأبعث إليك مع سلامي أطيب تمنياتي

أمين الخولي

اصطلاح جديد

سيدي الأستاذ الزيات

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد فلقد قرأت مقال أستاذنا الفاضل أحمد أمين (أدب الروح وأدب المعدة) فألفيتُ مطلعه هكذا: (هذا اصطلاح جديد أضعه لنوعين من الأدب يتميزان كل التميز، ويختلفان كل الاختلاف، لعل في وضعه فائدة في تقويم الأدب وصحة تقديره). وما بي من عزم على أن أعرض لما جاء في ثنايا الموضوع من آراء، فأنا أحترم رأي الأستاذ وإن بعُد ما بيني وبينه، ولكني أريد أن أقول: إن هذا النوع

من المقابلة - وهو طريف - لم يكن ابن الساعة، فطالما سمعته يجري على لسان أستاذنا المرحوم الرافعي في صور، وهو جرى على قلمه أيضاً في صورة أخرى. ففي وحي القلم الجزء الأول ص 84 س 1 جاء ما نصه: (. . . لستُ المدير بما في نفس أحمد، ولا بمعدته وبطنه. . .) وفي ص 135 س 12 من نفس الجزء جاء: (أفيؤرخ الإنسان يومئذ بتاريخ معدته وما حولها، أم بتاريخ نفسه وما فيها؟) وفي ص 212 س 4 من الجزء الثاني جاء: (. . . ويتعامل الناس في الشرف على أصول من المعدة لا من الروح. . .) ولو ذهبت أتقصى هذا التعبير فيما كتب الرافعي - رحمه الله - لكلفت نفسي شططاً، وحسبي هذا برهاناً على ما رأيت، والسلام

كامل محمود حبيب

كيفية ظهور الحياة على الأرض

سيدي رئيس تحرير الرسالة:

سلاماً وتحية. أما بعد فقد قرأت مقالة الأستاذ المنقبادي في عدد الرسالة الأخير (309) عن كيفية ظهور الحياة على الأرض. فوجدت فيها كثيراً من الخطأ أبين وجهه وصوابه فيما يلي:

فالأستاذ يبني كلامه على حقيقة لم يقل العلم فيها إلى الآن كلمة (الفصل): فهو يقول إن الكائنات الحية خاضعة لنواميس الطبيعة. ولكن الواقع أن كثيراً من ظواهر الأحياء كالحركة والتفكير والغرائز - لا زالت تحير العلماء - ولما يجدوا لها تفسيراً مقبولاً. ولا زال علماء الحياة يعتبرون أن هناك قوة أسمها الحياة لا يدركون كنهها، ولكنهم يرون أثرها.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الأستاذ يستنتج من هذه الآراء نتائج غير صائبة. فيقول: إن السبب الطبيعي لنشوء الحياة هو حرارة الشمس، والأشعة البنفسجية التي كانت تبعثها في فجر الحياة. فلو سلمنا أن حرارة الشمس كانت حينئذ أشد منها الآن بمراحل - كما يقول الأستاذ - فإن هذا يدحض رأيه. فالحرارة الشديدة لا تساعد على نشأة الحياة وازدهارها، وإن كانت تساعد التفاعل الكيميائي. وذلك لأن البروتوبلازم (المادة الحية) يصاب بالضرر إذا اشتدت الحرارة كما هو معروف لكل من درس علم الأحياء. . . والواقع أن الشمس لم تتغير كثيراً منذ نشأة الكواكب السيارة، ومنذ ظهور الحياة على الأرض. فإن ثلاثة الآلاف من ملايين السنين ليست إلا يوماً في حياة الشمس): (النجوم في مسالكها تأليف السير جيمس جينز وترجمة الدكتور الكرداني) ولو سلمنا برأي الأستاذ لتحتم أن توجد الحياة في بعض الكواكب السيارة الأخرى التي وقعت تحت نفس الظروف التي وقعت تحتها الأرض كالمريخ مثلاً. ولكن (يظهر أن احتمال وجود الحياة على المريخ أو على أي كوكب سيار آخر في المجموعة الشمسية لا يمكن أن يسمى احتمالاً قوياً) (النجوم في مسالكها السالفة الذكر)

ويخبرنا علم الجيولوجيا أن الحياة لم تظهر غالباً إلا بعد مدة طويلة من نشوء الأرض. وأقدم الحفريات (وهي بقايا الكائنات الحية الموجودة ضمن الصخور) يقل عمرها عن نصف عمر الأرض، أي إن الحياة لم تظهر غالباً إلا بعد انقضاء نصف الزمن الجيولوجي. وهذا يخالف ما يذهب إليه الأستاذ من أن الحياة نشأت حينما نشأت الأرض

وقصارى القول أن منشأ الحياة لا يقدر أحد أن يجزم بزمانه أو كيفيته. ولعل تقدم العلم - المبني على التجارب والحساب لا على الخيال - ينير لنا هذه المسائل. والسلام.

منير أمين ملطي

توحيد المصطلحات الطبية في العربية

وافق مجلس الوزراء على مذكرة لوزارة الخارجية قالت فيها: إن الجمعية الطبية المصرية طرحت موضوع (توحيد المصطلحات الطبية في اللغة العربية) على مؤتمرها الأخير الذي عقدته في أوائل سنة 1938 في بغداد فأصدر قراراً اقترح فيه مقترحاً فصلت الجمعية

الطبية قواعده فيما يلي:

أن تتصل الحكومة المصرية بحكومات الأقطار العربية في الشرق الأدنى للاتفاق على ما يأتي بصفة رسمية:

أولا: أن تؤلف كل منها في بلادها لجنة من الأطباء واللغويين للنظر في موضوع توحيد

المصطلحات العربية للعلوم الطبية أي اختيار أفضل تلك المصطلحات للاستعمال، ويراعى في اختيار هذه اللجان أن تمثل فيها الجمعيات الطبية المختلفة
ثانياً: أن تنتدب كل من تلك الحكومات من أعضاء اللجان المشار إليها عضوين للاشتراك في لجنة دائمة تجتمع بالقاهرة شهراً في كل سنة على نفقة تلك الحكومات لبحث المصطلحات العربية المقترحة بواسطة اللجان المشار إليها أو الوارد في المعاجم الطبية العربية والبحوث اللغوية الطبية في مختلف البلاد واختيار أصلحها للاستعمال
ثالثاً: أن تكون قرارات اللجنة الدائمة المشار إليها معترفاً بها للاتباع في جميع المعاهد التعليمية والطبية في الدول المشتركة بحيث تتوحد المصطلحات الطبية العربية في جميع معاهدها وبالتالي في جميع مؤلفاتها ومجلاتها وعلى ألسن أطبائها
رابعاً: أن يكون انعقاد اللجنة الدائمة في كلية الطب أو مجمع فؤاد الأول اللغوي بالقاهرة، وتتولى الجمعية الطبية المصرية الإشراف على سكرتيرة اللجنة، وتتحمل وزارة المعارف المصرية النفقات الخاصة بالسكرتيرة والمراسلات والمطبوعات التي تصدرها اللجنة
جائزة (أمير ونجن)
تلقت قنصلية الأرجنتين في الإسكندرية من جمعية مكافحة السرطان الفرنسية أنها منحت الأستاذ الدكتور انجل روفو مدير معهد الأبحاث الطبية في (بونس إيرس) عاصمة الأرجنتين جائزة (أمير ونجن) ومقدارها 100 ألف فرنك، وذلك لتقديمه إلى الجمعية أفضل الأبحاث الطبية الدولية عن (تأثير الطعام في إنماء السرطان) وقد سلمت الجمعية قيمة الجائزة إلى الدكتور كركانو وزير الأرجنتين المفوض في فرنسا، لإبلاغها إلى الفائز بها
وقد قرر الدكتور روفو الاكتفاء بالشهادة الممنوحة له من الجمعية، أما الجائزة المالية فقد تبرع بها لحكومته لتنفقها في الأبحاث الطبية، على أن ينتدب لهذا الغرض طبيب أرجنتيني يسافر إلى فرنسا لمدة سنة لأجراء أبحاثه هناك، وطبيب آخر فرنسي يقدم إلى الأرجنتين
لعمل مثل هذه الأبحاث
الشعبة المصرية لمعهد التعاون الفكري
بين القرارات التي اتخذتها الشعبة المصرية لمعهد التعاون الفكري، تحديد قيمة الاشتراك السنوي الذي تدفعه مصر للمعهد وجعلها خمسمائة جنيه في العام
ودرست الشعبة مشروع مرسوم بتنظيم أعمالها ومشروع لائحتها الداخلية وبحثت مسألة اختيار أعضائها، واستقر الرأي على أن يكون بعضهم ممثلاً لهيئات علمية وأن يختار البعض الآخر بصفتهم الشخصية
واقترح سكرتير الشعبة الأستاذ محمد العشماوي بك وكيل المعارف أن تمثل الشعبة في المؤتمر المزمع عقده في مصر لتوحيد الثقافة بين البلدان العربية، فوافق المجتمعون على هذا الرأي على أن يمثل الشعبة في الأعمال التمهيدية للمؤتمر: الدكتور منصور فهمي بك مدير دار الكتب، والأستاذ أحمد أمين رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
ووافق الأعضاء على تأليف مكتب مؤقت يضم سعادة لطفي السيد باشا رئيس الشعبة، والدكتور علي إبراهيم باشا وكيلها ومحمد العشماوي بك سكرتيرها العام، والدكتور طه حسين بك والدكتور أحمد عبد السلام الكرداني بك
وعرضت على اللجنة مذكرة مقدمة من الأستاذ محمد قاسم بك عميد دار العلوم ومندوب الحكومة المصرية في المؤتمر الدولي الثامن للعلوم التاريخية الذي عقد في أغسطس الماضي بمدينة زوريخ بسويسرا. وقد تضمنت المذكرة طائفة من المقترحات خاصة بوضع فهرس عام يجمع شتات المصادر المطبوعة للتاريخ المصري، ووضع قاموس للتراجم المصرية، ووضع مصور تاريخي يبين أهم تطورات التاريخ المصري إلى غير ذلك. وقد عهدت الشعبة إلى لجنة مؤلفة من مقدم المذكرة، والأستاذ محمد شفيق غربال عميد كلية الآداب ومسيو دريوتون مدير مصلحة الآثار، ومسيو فييت مدير الآثار العربية - درس هذه الاقتراحات
جمعية الفنانين المصرية

ستقام مباراة في فن الخط العربي للفنانين المصريين والأجانب يدور موضوعها حول كتابة
اسم الجمعية. وللمتسابق الحرية في انتقاء نوع الخط وحجمه على أن يذيل النماذج بإمضائه واسمه وعنوانه، ويرسلها إلى مقر الجمعية رقم 6 شارع فؤاد الأول مصر، في موعد لا يتجاوز يوم 27 يونيو عام 1939
وقد تقرر لها جائزة مبلغ جنيه مصري. وللمتسابق الحق في أن يتقدم بأكثر من مخطوط
ج. روفائيل
الكتب
تاريخ التعليم في عصر محمد علي
تأليف الأستاذ أحمد عزت عبد الكريم
للأستاذ علي إبراهيم حسن
ألف حضرة الأستاذ أحمد عزت عبد الكريم مدرس التاريخ الحديث المساعد بكلية الآداب كتاباً عن (تاريخ التعليم في عصر محمد علي). وقد درست هذا الكتاب أو بالأحرى هذا المجلد الضخم الذي تزيد صفحاته على ثمانمائة صفحة فوجدته درساً دقيقاً وإحاطة شاملة وبحثاً مستفيضاً لتاريخ التعليم في مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وهي الحقبة الهامة التي شهدت تكون إمبراطورية محمد علي وتحول مصر إلى دولة عسكرية فتية آخذة بأسباب الحضارة الحديثة.
وقد نحا المؤلف نحو العلماء الباحثين في بحثه، فسرد الوقائع وأردفها برأيه الشخصي، وعلق على الحوادث بآرائه التي تدل على الفطنة ودقة الحكم والتمييز. وقد استند المؤلف في بحثه إلى مراجع كثيرة ما بين عربية وإفرنجية وتركية. كما استند إلى وثائق ومخطوطات بقسم المحفوظات التاريخية بديوان جلالة الملك.
ولسنا نستطيع في هذه العجالة أن نفيض في الحديث عن كل فصول هذا الكتاب الضخم، وحسب القارئ أن يرجع إلى الفهرس التحليلي الذي أورده المؤلف في صدر الكتاب.
قسم المؤلف فصول كتابه تقسيماً منطقياً إلى ستة كتب وثلاثة وعشرين فصلاً، فتكلم أولاً عن التعليم قبل محمد علي وهو التعليم الديني في الأزهر والكتاتيب والتربية التي كان يأخذ بها الأمراء مماليكهم، والتأثير الفكري الذي استحدثته الثورة الفرنسية في الثقافة المصرية. وانتقل المؤلف من هذا الفصل إلى فصل ألم فيه إلماماً عاماً بسياسة محمد علي في التعليم فعرض لنا فصولاً شائقة في جهود العاهل الكبير في إنشاء المدارس وبعث البعوث وترجمة الكتب ونشرها والأغراض التي كان يتوخاها من النهضة التعليمية. ثم عرض المؤلف مسائل هذه السياسة عرضاً تمهيدياً مبيناً ما بينها وبين وسائل التربية الفرنسية من شبه ومن خلاف، والأثر الغربي في النظام التعليمي الحديث في مصر. ثم أخذ المؤلف في
شرح تطور هذا النظام التعليمي في عصر محمد علي، فتحدث عن نشأة التعليم الحديث في مصر من 1811 إلى 1833 ثم عن إنشاء شوري وديوان المدارس وقد حقق تاريخ إنشاء هذا الديوان واختصاصه وكبار موظفيه تحقيقاً قال عنه أستاذنا شفيق غربال إنه (يصح أن يكون مثالاً لكيفية استخراج الحقائق التاريخية من الوثائق الرسمية)
ثم انتقل المؤلف إلى حركة التعليم في سنة 1841 والنهضة التعليمية التي جدت في السنوات الأخيرة من عصر محمد علي والتي كانت ترمي إلى تجديد الأساليب التعليمية وإلى نشر التعليم بين الأهالي. وفي الكتاب الثالث فصل المؤلف الكلام على معاهد الدراسة الابتدائية والتجهيزية والخصوصية ومناهج التعليم في مراحله الثلاث وخططه، وأتى بإحصاءات دقيقة لهذه المعاهد وعدد تلاميذها وكتب الدراسة بها طوال عصر محمد علي
وقد عنى المؤلف بالحديث عن البعوث العلمية فنقد نظامها وتحدث عن أوجه انتفاع البلاد بأعضائها، ثم سرد إحصاءات طريفة عن البعوث المختلفة في عصر محمد علي. وقد خصص المؤلف فصولاً ممتعة في الحياة المدرسية وكل ما تعلق بها. ثم أعاد بحث المسائل التي ابتدأ بها مستعيناً في نقده بما أورد في الكتب السابقة من التفصيل،

فتحدث - في الكتاب الأخير - عن العلاقة بين التعليم القديم والتعليم الحديث ومدى تأثير كل منهما في الآخر وعلاقة الدولة والمجتمع بكل من التعليمين. وفي الفصل الثاني من هذا الكتاب نقد المؤلف النظام التعليمي الحديث في عصر محمد علي مبيناً ما به من أوجه الضعف وأخصها إهمال التعليم الأول وضعف الصلة بين مراحل التعليم والمركزية في إدارة التعليم وضعف مناهج الدراسة. ثم انتقل المؤلف إلى بيان الصلة التي نشأت بين المدرسة المصرية والمجتمع المصري في النصف الأول من القرن التاسع عشر

ولم يختم المؤلف كتابه إلا بعد أن عقد فصلاً ختامياً تحدث فيه عن مدى نجاح النظام التعليمي الذي أنشأه محمد علي في مصر من حيث توجيه البلاد إلى التعليم الحديث واتصالها بالحضارة الأوربية وتوطيد زعامة مصر في الشرق العربي ونهضة اللغة العربية. وختم المؤلف كتابه بفصول إضافية في تاريخ المعاهد الخارجة عن النظام القومي كمدارس الجاليات الأجنبية والطوائف الدينية غير الإسلامية، وبصور عن بعض الوثائق الهامة كلوائح الدراسة وتقارير الامتحانات والتفتيش، وبنقد للمراجع التي رجع إليها، وبيان

مفصل لسجلات الوثائق الرسمية التي استمد منها مادة البحث وخاصة السجلات التركية والعربية لديوان المدارس في عصر محمد علي، وفي نهاية الكتاب يرى القارئ (لوحات) طريفة لنماذج من الوثائق التركية والعربية والفرنسية يرجع عهدها إلى عصر محمد علي، قصد بها المؤلف - كما قال في مقدمته -: (نقل بعض الوثائق ذات الأهمية التاريخية العظيمة وبيان أسلوب ذلك العصر في تقييد أوامر الوالي ومكاتبات الدواوين وطريقة العمل في الدفاتر التركية والعربية لديوان المدارس، وتقييد نتائج الطلبة المبعوثين لطلب العلم في فرنسا). نذكر من بين هذه اللوحات - على سبيل المثال - الوثيقة الأصلية لأمر محمد علي بإنشاء ديوان المدارس وأختام ديوان المدارس التي كانت تبصم بها قراراته وسجلاته، ومضبطة أول جلسة عقدها شورى المدارس، والجلسة التي أعلن فيها إنشاء الديوان، وصورة التقرير الذي كتب بالفرنسية عن امتحان الخديو إسماعيل عند الالتحاق بمدرسة سان سير بفرنسا في أكتوبر سنة 1848. . . وفيه بيان أسئلة الامتحان والدرجات التي نالها في كل منها الخ

وقد صدر الكتاب بتقديم تاريخي نفيس في أربع عشرة صفحة بقلم أستاذنا المؤرخ الجليل (محمد شفيق غربال) عميد كلية الآداب وأستاذ التاريخ الحديث بجامعة فؤاد الأول وصاحب الفضل في تخريج عدد كبير من الشبان الباحثين في التاريخ. تحدث أستاذنا في مقدمته عن الوثائق التاريخية (وحق المؤرخ) فيها وجهود المغفور له الملك فؤاد - طيب الله ثراه - في حفظها وتشجيع الباحثين على الاستفادة منها، ثم تحدث عن اتجاه (المؤرخين الشبان) نحو دراسة (الإصلاح المحمدي العلوي) وذكر منهم مؤلف الكتاب الذي نتحدث عنه اليوم فأظهر النواحي التي أهلته للكتابة في تاريخ التعليم في مصر. ثم انتقل أستاذنا العلامة إلى الحديث عن محمد علي والتعليم فعرض لنا صورة بديعة (لمنظر الرجل الذي لم يتزود من تعليم المدارس يستحث رعيته على طلب العلم، وينفق النفس والنفيس في تهيئة وسائله لهم) ودرس خطة محمد علي في التعليم وأهميتها (لأهل الجيل الحاضر في مواجهتنا مستقبل الثقافة في مصر).

و (التعليم) عند المؤلف يمثل ناحية هامة من نواحي النشاط السياسي والاجتماعي لمصر الحديثة. وعلى هذه الفكرة بنى المؤلف بحثه حتى جاء كتابه بحثاً تاريخياً بيداجوجياً يجد

فيه المؤرخون بحوثاً واسعة في تاريخ مصر في القرن التاسع عشر، كما يجد فيه رجال التربية والتعليم بحوثاً أخرى في نظم التربية وتطورها في مصر في ذلك العصر ونظريات بيداجوجية عن تعليم الطفل والبالغ وعلاقة المدرسة بالمجتمع ومدى تأثير كل منهما في الآخر. ولذلك فهو مجموعة لا غنى عنه لطلبة (التاريخ) بكلية الآداب، وطلبة المعاهد والمدارس التي تدرس التربية كدار العلوم ومعهدي التربية للبنين والبنات ومدارس المعلمين والمعلمات والمهتمين بدراسة التاريخ السياسي والاجتماعي لمصر الحديثة والمشتغلين بالتربية والتعليم.

علي إبراهيم حسن
مدرس التاريخ بالمدرسة الخديوية
العدد 311 - بتاريخ: 19 - 06 - 1939

. . .من صور الماضي

كان الفلاح في القرن الماضي يكابد صِنفاً من الخَلق صورهم الله على مثال عجيب من خفة الصقور وفتكة النمور وهيئة الناس ليكونوا مذكرين بجبروته ومنذرين بعذابه! كانوا من الأرناءود أو الجركس؛ وكان عملهم جباية الضرائب على كل شيء، ومن كل شخص، وفي كل وقت، وبكل صورة؛ أو اقتحام الدور للبحث عن المحظور أو المحكور من الملح والصابون إذا اقتناهما أحد من غير طريق الحكومة. وكان سبيلهم إلى ذلك سبيل الإرهاب والعنف؛ فمتى دخل أحدهم قرية من القرى دخلها الفزع والروع فلا يملك السائر أن يتقدم، ولا الواقف أن يتكلم، ولا الداخل أن يخرج؛ ثم تخشع في القرية الحياة فلا تسمع حساً ولا حركة إلا هرير الكلاب وقوقأة الدجاج وصراخ الصِّبية! فإذا خرج منها (الجندي) كما كانوا يسمونه انطلقت من ورائه ضجة شديدة في البلد من بكاء المضروب وصراخ المنهوب ودعاء المضطرب!

فلما انتظمت أداة الحكومة بعد الثورة العرابية أنكمش هذا النوع حتى انحصر رهبوته في ضياع الأمراء و (جفالك) السادة. وكانت قريتنا وسبع قرى أخرى متجاورة قطائع لعلي باشا شريف في أواخر القرن الماضي؛ وكانت الإمارة والإدارة فيها لهؤلاء والأرناءود أو (الأرنطة) كما كنا نقول، ففرضوا عليها نظاماً في العيش أخذوه عن حياة الحيوان وعيشة العبد. فكان الناس، كما يحدثنا الباقون منهم، لا يملكون مالاً ولا حرية ولا حياة؛ وإنما كانوا يعملون بالتعذيب ويُغَلون بالكره، كما تعمل الماشية بلسعات السوط وهي صابرة، وتُغَلُّ الأرض بضربات الفأس وهي صامتة. وكان لفظ (المأمور) معناه الموت الذي لا عاصم منه ولا مهرب. ذلك أنه كان يخرج كل يوم على جواده إلى الحقول، شاكي السلاح، كاشر الوجه، منفوخ اللغاديد، مفتول الشارب، متوقد النظر، كأنه تمثال الرعب أو صورة الهُولة! ثم يسير متلفتاً ذات اليمين وذات الشمال لا لتفقد العمال ويتعهد الزروع، ولكن ليبحث عن إنسان يعذبه أو حيوان يضربه. والناس قد تعودوا منه ذلك فهم لا ينفكون طول النهار يرقبون ناحيته ويرصدون طريقه؛ حتى إذا أبصروه من بعيد غابوا في مخابئ الأرض كأنهم لم يكونوا! فإذا عاد من طوافه خائب السوط جلس أمام الدوار وأمر أن ترش الأرض وأن يلقي في وحلها من جاءه في طلب حاجة أو رفع مظلمة! ثم يصيح بالجلاد أن ينهال عليه بالكرباج، وهو في خلال ذلك يميد من الغضب ويبربر من الغيظ حتى تهدأ ثورته وترضى كبرياؤه بعد لأي! وكان العمد والمشايخ منوطين به، فلا يسمعون الأمر والنهي إلا منه، ولا يرفعون مشاكل القرى وقضاياها إلا إليه. لذلك ظل أهلوها يجهلون أن لهم خديوياً غير علي شريف، و (نظاراً) غير نظار الزراعة، و (مأموراً) غير مأمور التفتيش. وكان هذا (الحاكم) كسائر بني جنسه مغلق الذهن مطبق الجهالة؛ يجهل الزراعة ولكنه يأمر، ولا يعلم القضية ولكنه يحكم، والجاني المحكوم عليه هو الذي يجرؤ على أن يعقِّب أو يعارض. وكان سادته لا يفوقونه في الذكاء ولا في الرحمة؛ فكانوا إذا زاروا هذه القرى - وقليلاً ما كانوا يزورون - تنكبوا بنادقهم وخرجوا يقتلون الوز في البرك، والحمام في الأجران، والكلاب على التلول والغربان على الشجر. ويراهم الناس فيرنون إليهم دهشين من طرابيشهم الحمر على وجوههم البيض، ويظنون أن وراء هذا الرواء جمال القلب وكرم النفس؛ فإذا دنوا منهم يسألونهم الإحسان والعدل زموا بأنوفهم ومضوا مستكبرين لا ينظرون ولا يجيبون!

أذكر وأنا صبي دون اليفاعة أن الناس كانوا يتحدثون عن جبار من هذا الطراز اسمه (زينل). كانوا عه كما يتحدثون عن البلاء، ويؤرخون بعهده كما يؤرخون بالوباء، لأنه أذلّ الفلاحين بالخوف والجوع، وأضاع شبابهم بين التربة والغربة. ولا تزال الألسنة هنا وهناك تتناقل هذه المأساة من مآسيه:

يقولون إنه كان في القرية من هذه القرى شاب لم تلد نساؤها أجمل منه وجهاً ولا أشجع منه قلباً ولا أرقعاطفة. وكان هذا الشاب بحكم شبابه وجماله وكرمه حبيباً لكل فتاة وصديقاً لكل فتى، ولكنه كان كلفاً ببنت عمه، فهي وحدها حافز عمله وغاية أمله وروح حياته

وفي ذات عشية من عشايا الصيف كان علي وليلى عائدين من الحقل وهما ينسمان بالحب الخالص، ويبسمان للغد المرجو، فغلبت على العاشق نشوة الطرب من جلال الطبيعة وجمال الفتاة، فقال وهو يقدم إليها آخر قطعة بقيت في يده من الحلاوة:

- ألا تشتهين شيئاً في الدنيا غير هذه الحلاوة يا ليلى؟

فقالت له ليلى بعد لحظة من الصمت الحالم:

- لا أشتهي بعد قربك يا علي إلا عنقوداً من العنب!

عنقود من العنب؟ إن الثريا أقرب إلى يديه من هذا العنقود! وهل رأى في دنياه العنب إلا في حديقة (التفتيش)؟ وماذا يصنع والدنو من سياجها هلاك محقق؟ ولكن الحب لا يدرك البعيد ولا يعرف المستحيل. فكمن عليٌّ بعد رجوعه من الغيط في كومة من دريس (الوسية) حتى جنه الليل فقام يتسلق سور من جانبه المظلم، فما بلغ أعلاه سقط في الحديقة فكانت سقطته في يد الحارس!

وبات علي في سجن الدوار. وأصبح الصباح فجلس المأمور والمعاونون والنظار، ورشت الأرض، وطُرح الجاني، وتعاقبت على جسده المعرَّى عذبات الكرابيج، والناس من حوله يضجون بالبكاء ويضرعون بالرجاء؛ و (الأغوات) يتلذذون برؤية الدماء المنزوفة والدموع المذروفة، ويطربون لسماع الأنات الضارعة والصرخات المتصلة، حتى كلت يد الضارب وخفت صوت المضروب فحملوه إلى السجن. وشفع العمدة لأهله أن يأخذوه. فلما دخلوا عليه لم يجدوا فيه وا أسفاه إلا حشاشة نفس لفظها على صدر حبيبته أثناء الطريق!

أحمد حسن الزيات

كتاب فرويد عن موسى

للأستاذ عباس محمود العقاد

أشارت الأنباء البرقية منذ أسابيع إلى كتاب العلامة فرويد عن أصل موسى الكليم عليه السلام وكان يومئذ على وشك الصدور باللغة الإنجليزية

والعلامة فرويد كما هو معروف أستاذ الأساتذة العالميين في علم التحليل النفسي، بدأ بالكتابة فيه عند أوائل القرن الحاضر ثم تفرعت على مذهبه فيه مذاهب أتباعه ومريديه ومعارضيه تارة بالتوسع والتأييد، وتارة بالتعديل والتنقيح، وتارة بالمناقضة والتفنيد

ونحن على مخالفتنا إياه في الرجوع بكل خليقة من الخلائق وكل عارضة من عوارض النفس إلى الغريزة الجنسية، وعلى إيثارنا لآراء بعض مريديه ممن يضيفون إلى الغريزة الجنسية النزوع إلى امتداد الشخصية، وعلى مما في نظرته إلى الفنون والآداب من الضيق والجفاف، نعتقد أن الرجل قد أضاف إلى معارف الإنسان ذخيرة قيمة من التحقيقات والتوجيهات التي لا تضيع سدى ولا تزال موضعاً للتصحيح والإتقان على تعاقب الأيام

وقد صدر كتابه عن موسى الكليم بالإنجليزية فإذا هو أعجوبة الفروض والاحتمالات، أو باعترافه هو أعجوبة التلفيقات والتخمينات؛ إذ كان من المتعذر عليه أن يرجع إلى حقائق التاريخ أو أساليب العلم في الاستقصاء، فأعتمد على الفروض وقال بصريح العبارة إنه لا يعتمد على شيء غير الفروض

وربما كان العجب الأعجب في الكتاب أن مؤلفه من بني إسرائيل وهو يحاول ما يحاول للرجوع بنسب موسى عليه السلام إلى مصر لا إلى إسرائيل

ولهذا استهدف الرجل للغضب من أبناء قومه قبل الغضب من الأجانب عنه وممن يخالفونه في الرأي والاعتقاد

ظنه الأول قائم على الاسم ومنشأه من اللغتين العبرية والمصرية القديمة

فبعض العبريين يزعمون أن موسى مأخوذة من (موشى) العبرية بمعنى المنتشَلْ أو المرفوع، ويقولون إن بنت فرعون انتشلته من النيل فسمته لذلك بهذا الاسم الذي يدل عليه

وفرويد يشكك في تصريف الكلمة، ويشكك في سبب التسمية، ويقول إنه على فرض صحة المعنى المنسوب إليها بالعبرية فليس من المعقول أن ابنة فرعون كانت تعرف لغة إسرائيل

معرفة الفقهاء والنحاة المتعمقين في النحت والتصريف
أما الرأي الذي يؤثره فرويد فهو أن الكلمة مصرية عريقة معناها الطفل أو الابن، وأصلها البسيط (موس) باللغة المصرية القديمة، ولم يتغير معناها بعد ذلك في عصر من العصور
وقد كان المصريون يسمون أبناءهم تحوت موس أي طفل تحوت أو توت الإله المعروف
ويسمون أبناءهم بتاحموس أو أحموس ومعناها طفل بتاح ويسمونهم (راعموس) أي طفل راع وهو الاسم المشهور رعمسيس أو رمسيس
ثم كانت هذه الأسماء تختصر مع السرعة والترخيم والتدليل فيكتفي منها بالمقطع الأخير وهو (موس) أو موسى
وذلك على مثال الاكتفاء باسم (عبده) في نداء عبد الله وعبد الحميد وعبد الكريم، وعلى مثال جونسون وروبنصون وستيفنسون وموريسون واختصارها أحياناً بحذف مقطع منها في المناداة بين الأعزاء والأخصاء
فموسى على هذا هو اختصار اسم من هذه الاسماء، وهو لفظ عريق في لغة المصريين
والظن الثاني الذي يدعو فرويد إلى تخمينه هو فريضة الختان التي أخذها بنو إسرائيل من المصريين ولم تكن معروفة بينهم قبل هجرتهم من وادي النيل
فإذا كان بنو إسرائيل قد خرجوا من مصر ناقمين عليها وعلى أهلها فكيف يتشبهون بهم وهم خارجون منها أو خارجون عليها؟
إنما التأويل المعقول في رأي فرويد هو أن موسى كان أميراً مصرياً حانقاً على بني وطنه فهجره مع بني إسرائيل المتمردين ثم فرض عليهم عادات مصر وشعائرها فأطاعوه حباً ومجاملة واضطراراً ثم نكسوا في وادي التيه ومزجوا بعقيدته عقائد البادية فيما بين سيناء وفلسطين
ويعرض فرويد هنا كثيراً من الفروض والتخمينات ثم يرجح منها لأسباب يطول شرحها فرضاً يراه لتلك الأسباب قريب الاحتمال
ذلك الفرض هو أن موسى عليه السلام كان أميراً من أمراء البيت المالك على أيام الملك الموحد الداعي إلى الإله الفرد الصمد (أخناتون)
وإن أخناتون خلع من الملك واستبد خلفاؤه بأصحاب الأديان المخالفة لهم، فضاقت سبل
البلاد بموسى وهو على عقيدة التوحيد ولم يجد أمامه أحداً يثور به ويطاوعه في تأسيس دينه ودولته غير هؤلاء الغرباء من الإسرائيليين وهم مثله يشكون ويتململون، فوثبهم وهاجر بهم إلى الحدود المصرية في انتظار الفرصة السانحة أو في طلب الملك والعقيدة الصالحة بمعزل عن كهان الوثنيين
والذي يعزز هذا الاحتمال أن اللاويين من بني إسرائيل كانوا يتسمون بأسماء فرعونية لا علاقة لها باللغة العبرية، وما كان هؤلاء اللاويون إذن إلا حاشية الأمير وذوي قرباه، إذ كان من المستبعد جداً أن يهجر وطنه منفرداً بغير ولي ولا قريب
قلنا: بل هناك احتمال آخر كان أولى بفرويد أن يرجحه على ذلك الاحتمال فلماذا لا يقول مثلاً إن موسى كان إسرائيلياً من أسرة الرؤساء في بني إسرائيل فرباه فرعون مصر على سنة الملوك في تربية أبناء الرؤساء الذين يدينون لهم بالطاعة ويعترفون لهم بالرعاية؟
أليس هذا الرأي أقرب إلى التوفيق بين النقيضين من عادات مصر وعادات إسرائيل؟
ألسنا قادرين بهذا الفرض أن نفهم اقتباس موسى للعادات التي درج عليها وغيَّرته على أبناء جنسه في آن؟
وقد عرض فرويد لنشوء التوحيد في مصر وهو أمر ثابت لا جدال فيه ولا اعتراض عليه وقال فرويد: إن بوادر التوحيد ظهرت بين المصريين قبل ظهور أخناتون الذي أتم هذه العقيدة وأفرغها في قالبها المحفوظ
وعلة ذلك عند فرويد أن اتساع الإمبراطورية المصرية قد استدعى توحيد الإيمان بإله واحد كما استدعى توحيد الطاعة لملك واحد
فإن فرعون مصر ما كان ليطيق العبادات الكثيرة والأرباب المتعددة التي لا تجتمع إلى

وحدة موصولة ولا تزال سبباً متجدداً من أسباب الفتنة والتفرق والعصيان، فجعل للإمبراطورية كلها داخلها وخارجها رباً واحداً تشترك فيه وتثوب إليه، وكان هذا مبعث التوحيد الأول على صورته الساذجة التي أصلحها أخناتون ثم تعاقب الرسل بإصلاحها بعد ذاك
تخمينات!
ولكنها تخمينات علماء مخلصين، وهي لهذا حقيقة بالنظر والاعتبار
عباس محمود العقاد
جناية أحمد أمين على الأدب العربي
للدكتور زكي مبارك
- 2 -
تعود الناس أن يسألوا: (ما الذي بين فلان وفلان؟) حين يرون غبار المعارك الأدبية؛ وقلَّ في الناس من يتصور أن تقوم معركة أدبية في سبيل الحق بين صديقين متصافيين كالذي أصنع اليوم في الهجوم على الأستاذ أحمد أمين
والواقع أن ذلك الفهم لأسباب المعارك الأدبية هو صورة بشعة من ضعف الأخلاق عند من يتوهمون أن الأدباء لا يهجم بعضهم على بعض إلا طلباً لشفاء المكتوم من أمراض الحقد والبغضاء. . .
فما الذي بيني وبين الأستاذ أحمد أمين حتى يصح أن أهجم عليه هذا الهجوم العنيف؟ أنا لا أذكر أبداً أن هذا الرجل وجَّه إلي إساءة في محضر أو مغيب، وإنما أذكر أنه كان مثال الصديق الوفيّ الأمين في مواطن يستظهر فيها الصديق بالصديق، وتنفع فيها كلمة الإنصاف عند طغيان الأغراض
والواقع أيضاً أن الأستاذ أحمد أمين لم يعان متاعب الحيرة إلا فيما يقع بينه وبيني، فهو يقرأ ما أهجم به عليه من وقت إلى وقت فيضجر ويمتعض، ثم يراني بغتة فيقرأ في وجهي آيات من المودة لا يشوبها خداع ولا رياء، فتأخذه الحيرة والاندهاش
فما معنى ذلك؟
ألا يكون معناه أن لي مبادئ وعقائد أدفع عنها السوء ولو وقع من أعزّ الأصدقاء؟
ولكن ما هي المبادئ والعقائد التي أجاهد من أجلها في هذه الأيام. . .؟
أنا أومن بأن الأدب العربي أدب أصيل، وأعتقد أن من الواجب أن ندعو جميع أبناء العروبة إلى الاعتزاز بذلك الأدب الأصيل لأنه يستحق ذلك لقيمته الذاتية، ولأن الإيمان بأصالته يزيد في قوتنا المعنوية، ويرفع أنفسنا حين ننظر فنرى أن أسلافنا كانوا من المبتكرين في عالم الفكر والبيان
وقد درج الأستاذ أحمد أمين في الأيام الأخيرة على الغض من قيمة الأدب العربي، وكان من السهل أن نتركه يقول ما يشاء لو كان من عامة الأدباء، ولكنه اليوم رجل مسئول: لأنه
من أساتذة الأدب بالجامعة المصرية، ولأغلاطه سناد من تلك الأستاذية، فهو يقدر على زعزعة الثقة الأدبية في أنفس طلبة الجامعة حين يريد، وذلك خطر لا نسكت عليه رعاية لما بيننا وبينه من أواصر الوداد
فإن بدا لهذا الصديق أن يغضب من هجومنا عليه فأمامه طريق الخلاص: وهو الانسحاب من ميدان الدراسات الأدبية إلى أن يعرف أن الأدب لا يؤرخ على طريقة الارتجال
ولعل هذا الصديق يرجع إلى نفسه في بعض لحظات الصفاء فيذكر أنه لم يخلق ليكون أديباً، وأنه لم يفكر في دراسة الأدب دراسة جدية إلا بعد أن جاوز الأربعين
لو رجع هذا الصديق إلى نفسه لعرف أنه لا يجيد إلا حين يشغل وقته بتلخيص المذاهب الفقهية والكلامية
ولو شئت لكررت ما قلت في الكلمة الماضية من أن موقفه في جميع أبحاثه موقف (المقرَّر) ولم يستطع مرة واحدة أن يكون من المبتكرين في الدراسات الفقهية والكلامية
وإذا كان هذا حاله في الفقه والتوحيد، فكيف يكون حاله في الأدب، والأدب يرتكز على الحاسة الفنية، وهي حاسة لم توهب لهذا الرجل قبل اليوم، ولن توهب له بعد اليوم، لأنها من الهبات التي لا تنال بالدرس والتحصيل؟

أحمد أمين ليس بكاتب ولا أديب وإن سودّ الملايين من الصفحات
فليس من الإسراف ولا التجني أن ندعوه إلى الانسحاب من ميدان الدراسات الأدبية.
وسيرى كيف نقفه حيث وقفه الله فلا يزعزع الثقة بماضي الأدب العربي لتصح كلمة المفترين في ذلك الماضي المجيد
أُيحكم على العصر العباسي بالفقر والخمود من أجل قالة خاطئة يتنفس بها أحمد أمين؟
أُيهدم ماضينا الأدبي بمحاولة رجل محروم من الذوق الأدبي؟
إن ذلك لا يقع إلا يوم يصح أن المصريين تنكروا لماضي اللغة العربية مرضاةً لمواطن عزيز يسره أن يتطاول على الأدب وهو غير أديب
وأغلب الظن أن المصريين يؤذيهم أن يقع ذلك وهم ينفقون الملايين من الدنانير كل عام في سبيل إعزاز الأدب العربي
والجامعة المصرية أمرها عجب!
في الجامعة المصرية تُدرَس الآداب الإنجليزية والفرنسية والفارسية والعبرانية واللاتينية واليونانية، ولتلك الآداب أساتذة يهمهم قبل كل شيء أن يوحوا إلى الشبان أنها آداب جديرة بالخلود. ولو رأت الجامعة المصرية أن تدرس اللغة الزنجية لوجدت أستاذاً يقول بأن لغة الزنوج أحسن اللغات فكيف تفردت اللغة العربية بالضيم والهوان في أنفس أساتذة الجامعة المصرية؟
وبأي حق يرضى أحد الأساتذة أن يقضي العمر في تدريس الأدب العربي وهو يراه (ينحدر مع التاريخ شيئاً فشيئاً ليكون أدب معدة)؟
ومن هذه النقطة نمسك بخناق الأستاذ احمد أمين
هذا الرجل ينظر إلى الأدب وإلى الوجود نظرة عاميّة، فهو يقسم الأدب إلى قسمين: أدب معدة وأدب روح
والسخرية من المعدة لا تقع إلا من رجل يفكر كما يفكر الأطفال. فالمعدة التي يحتقرها هذا الرجل العاميّ هي سر الوجود. وعن قوة المعدة تنشأ قوة الروح. والأدباء الكبار كانوا أصحاب معدات كبار. وسر العظمة عند فيكتور هوجو يرجع إلى معدته العظيمة، وما ضعف الغزالي في أحكامه الأخلاقية إلا لأنه ألف كتاب الأحياء وهو ممعود والظاهر أن معدة أحمد أمين معدة ضعيفة، لأنه يواجه الوجود بعزائم الضعفاء؛ وإلا فكيف اتفق له أن يؤلف في الأخلاق بدون أن يستطيع الثورة على موروث الأخلاق؟
إن المباعدة بين المعدة والروح عقيدةٌ هندية الأصل، وتلك المباعدة هي التي قضت بأن يعيش الهنود فقراء. ولو احترم الهندي كما يحترم الإنجليزي معدته لما استطاع الإنجليز أن يكونوا سادة الهنود؟
أنا أعرف أن أحمد أمين يتخلق بأخلاق الأسماك. وآية ذلك أنه لم يُغضب الجمهور مرة واحدة. وهل اتفق للسمك أن يقاوم التيار مرة واحدة؟
وهيام أحمد أمين بتحقير المعدة نشأ من رغبته في مجاراة الرأي العام في الأخلاق السلبية، الرأي السخيف الذي يحمل الدراويش والرهبان أعظم أخلاقاً من تشمبرلن وهتلر وموسيليني، والذي يجل زهديات أبي العتاهية أشرف من غراميات الشريف الرضي
وهذه العلمية في التفكير هي التي فرضت على أحمد أمين رضى الله عنه أن يرى الغزل
الفاجر أدب معدة، على حين يرى وصف الطبيعة أدب روح.
وهذا الكلام ضعيف إلى أبشع حدود الضعف.
فالغزل القوي هو من شواهد الحيوية الدافقة في الرجال.
أما وصف الطبيعة فهو إحساس دقيق يأنس إليه من حرموا الأنس بالجمال الحساس الذي يملك التعبير عن العواطف والشهوات ولو شئتُ لاستشهدتُ بقول مؤلف (مدامع العشاق) إذ يقول:
وماذا أصنع بالأشجار، والأزهار، والثمار والأنهار، والكواكب، والنجوم، والسهول،) والحزون، والطيور الصوادح، والضباء السوانح؟
ماذا أصنع بكل أولئك إذا لم يكن معي إنسان أطارحه القول وأساجله الحديث، وأساقيه صهباء هذا الوجود؟

وما قيمة الليل إن لم تظلني في الحب ظلماؤه؟ وما قيمة البدر إن لم يذكرني بالثغر لألاؤه؟ وما جمال الأغصان إن لم تهزني إلى ضم القدود؟ وما حسن الأزهار إن لم تشقني إلى لثم الخدود؟ وكيف أميل إلى الضباء لو لم تشه بعيونها وأجيادها ما للحسان من أعناق وعيون؟ وكيف أصبو إلى غُنّة الغزال لولا تلك النبرات العذاب التي يسمونها السحر الحلال)؟

ذلك أيها الأستاذ رأي مؤلف (مدامع العشاق) وهو رجل له معدة وروح، ولا ينكر ذلك إلا من حرموا قوة المعدة، وقوة الروح.

وقد أراد أحمد أمين - على طريقته في التودد إلى الجماهير - أن يزج بالقرآن في مجال التفرقة بين أدب المعدة وأدب الروح، مع أنه يعرف أن القرآن لا يقيم وزناً لأمثال هذا الاصطلاح. ولو أنه تأمل قليلاً لعرف أن القرآن يفيض بالأفكار التي توجب الاهتمام بالمطالب الجسدية. وعقيدة الإسلام تقوم على أساس الاعتراف بأن الإنسان مكون من جسد وروح. والمؤمنون في نظر القرآن سيصيرون حين يرضى الله عنهم (على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين، يطوف عليهم ولدان مخّلدون، بأكواب وأباريق وكأس من معين، لا يصَّدعون عنها ولا ينزفون، وفاكهة مما يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون، وحورٌ عِين كأمثال اللؤلؤ المكنون، جزاءً بما كانوا يعملون) ويحدثنا القرآن بأن أصحاب اليمين سيكونون (في سدْر مخضود، وطلح منظود، وظلّ ممدود، وماءٍ مسكوب، وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة)

أيكون هذا أدب معدة لتصح سخرية أحمد أمين من المحسوسات؟ ألحق أن القرآن أقحِمَ بلا موجب في كلمة أحمد أمين. والمزية الأساسية في القرآن هي تخليص العقيدة الإنسانية من أوهام الأحبار والرهبان، ودعوة المسلمين إلى اغتنام المنافع الدنيوية والأخروية. وأظهر الأدلة على ذلك هو النص على ما في الحج من شهود المنافع، وهو نص صريح في أن مطالب المعدة تساوي في نظر الشرع مطالب الروح.

وهل يجد أحمد أمين حين يحتقر المعدة؟

هل يجدّ احمد أمين حين يحكم بأن مقالات (الكاتب) التي باعثها الأول الاستيلاء على الأجرة أدب معدة؟

أشهد أنه احتاط حين قيد هذه الحالة بقيود، ولكن تلك القيود جعلت فرضه من المستحيلات

فما هو الباعث الأول لأعمال أحمد أمين في كل ما يباشر من الشؤون؟

هل يرضى أن يعمل في الجامعة المصرية بالمجان؟

هل يرضى أن يشترك في تأليف الكتب المدرسية بالمجان؟

هل يرضى عن نشر إعلان بالمجان في مجلة الثقافة لطبعة من طبعات المصحف الشريف؟

هل يقبل الخروج من ثروته لإطعام الفقراء والمساكين؟

فإن لم يفعل - ولن يفعل - فلأية غاية ينشر هذه الآراء بين الناس؟

وهل يحق للمعلم أن ينشر من الآراء ما لا يستطيع التمذهب به في أي وقت؟

إن السر في نجاح أحمد أمين يرجع إلى أنه يحترم الواقع في مذاهبه الأدبية والمعاشية. وهو في سلوكه الشخصي نموذج للرجل الحصيف، لأنه لا يقبل على عمل إلا حين يعتقد أنه عمل ينفع

والخطأ الذي وقع فيه هذه المرة خطأ مقصود، وهو نافع في حكم المعدة، وإن كان ضارا في حكم الروح

وإنما كان هذا الخطأ نافعاً في حكم المعدة لأنه يصور صاحبه بصورة الراهب المتبتل، وتلك غاية قد تنتفع بها الأمعاء

إن من الخسارة الجسيمة أن يصبح مثل هذا الرجل الفاضل من الذين يزخرفون المقالات في شؤون تضر المجتمع وتعود عليه وحده بالنفع (وتعليل ذلك واضح بقليل من إعمال الفكر) كما يحلو له أن يقول

قامت نظرية أحمد أمين على غير أساس

وما كانت نظرية، وإنما كانت حيلة (باعثها الأول ملء أعمدة من الصحف والمجلات) وقد وصل إلى ما يريد وأضيف إلى حسابه مبلغ صغير أو كبير من المال

ولولا أني أحترم المال لكرهت النص على أن هذا الصديق يعمل للمال

وهل يحتقر المال إلا من كتب عليهم أن يعيشوا أذلاء؟
نحن جميعاً نعمل للمال وللمعدة، وما في ذلك من عيب، ولكن العيب هو في تنفير الجمهور من المال طلباً لحسن السمعة بين من ورثوا السخرية من المال بفضل ما وصل إلى عقولهم المريضة من أقوال الدراويش والرهبان
وليس معنى ذلك أني أنكر مطالب الروح، فلولا مطالب الروح لما استبحت أن أخلق لنفسي عداوة رجل يضر وينفع مثل أحمد أمين
لقد فكرت كثيراً قبل أن أقدم على هذه الجملة الأدبية، وصح عندي بعد الروية أن الغض من قيمة الأدب العربي هو عدوان على كرامة الأمة العربية، فأنا استهدف لعداوة هذا الرجل وعداوة أصدقائه في سبيل المبدأ والعقيدة، فليضف هذه المقالات العنيفة إلى أدب الروح، إن كان من الصادقين!
أشرت من قبل إلى مركز هذا الرجل في الجامعة المصرية وقدرته على تلوين آراء الطلاب حين يشاء، فهل يكون من الشطط أن نقول له حين يخطئ: قِف مكانك!
لو كان أحمد أمين أديباً لقلنا إن من حقه أن يبتدع من الصور الأدبية ما يريد، ولكنه ليس بأديب، وإنما هو مؤرِّخ أدب، ولأحكامه الخاطئة في تاريخ الأدب تأثير سيئ لا يدرك خطره إلا من عرفوا أنه رجل محترم يقبل الشبان آراءه بلا مراجعة ولا تعقيب ونسارع فنقرر أن ضمير أحمد أمين سليمٌ من الوجهة الأخلاقية، فهو يكتب ما يكتب ويقول ما يقول عن اقتناع، وإنما يصل إليه من الخطأ من طريقين: الأول عدم تمكنه من تاريخ الأدب العربي؛ والثاني عدم تعمقه في درس سرائر النفسية والوجدانية. ومن هنا كثرت
أغلاطه في فهم أصول الأدب وأصول الأخلاق
والهجوم على هذا الرجل قد ينفعه أجزل النفع فينقله من حال إلى أحوال، ويحبب إليه التروي والتثبت، ويصرفه عن التحامل البغيض على الأدب العربي، ويقنعه بأن أدب الفطرة أفضل من أدب الافتعال
وأحدد الغرض من هذه الجملة فأقول:
تورط أحمد أمين في أحكام جائرة وهو يلخص تاريخ الأدب بطريقة صحفية وقد دلتنا تلك الأحكام على أن هذا الرجل صرفته السرعة عن مراعاة المنطق والعقل؛ فما الذي سنصنع في محاكمة هذا الصديق الذي نضيّعه آسفين في سبيل الحق؟
سنقدم إليه من البينات ما يقنعه بأنه يجني على الأدب العربي أشنع الجنايات. وسنريه أن جنايته على نفسه أبشع وأفظع. وسنروضه على الاعتصام بحبل الصبر الجميل، فليس من سيف الحق خلاص ولا مناص
ويعز عليّ أن أوجه إليه هذه السهام وهو يتهيأ لقضاء الصيف في الإسكندرية. ولكن يعزيني أن أعرف أن نسمات الأصيل في الإسكندرية فيها الشفاء من كل داء في الإسكندرية متاع العيون والقلوب والاذواق، وفي الإسكندرية (صبايا الخُلدِ تسبَح في الرحيق) وفي الإسكندرية مراتع ظباء ومرابض أسود
فاذكرني بالشر يا صديقي أحمد أمين وأنت تواجه الفتن المائجة بين الشواطئ. واذكرني بالشر حين ترى البحر وحين تخطر بشارع الكرنيش. واذكرني بالشر حين تذكر (أدب المعدة) وأنت تأكل طيبات الأسماك بالمكس، وحين تذكر (أدب الروح) وأنت تتفكر في ملكوت السابحين والسابحات، في ظمأ شديد إلى أن أذكر بالشر في ذلك المصيف الجميل!
آه ثم آه! امثلي يؤذي روحاً يصطاف بالإسكندرية وطن الشعر والخيال؟
انتظر يا صديقي، فستراني حيث تحب في المقال المقبل، وإنه لأقرب إليك من رجعة الموج الفاتن إلى الموج المفتون. والحديث ذو شجون
(مصر الجديدة)
زكي مبارك
الانتداب الفرنسي في بلاد الشرق
للأستاذ بيير فيينو
بيير فيينو نائب البرلمان الفرنسي ووزير سابق لعب دوراً هاماً في عقد المعاهدة الفرنسية السورية سنة 1936. وقد اطلعنا في العدد الأخير من مجلة (السياسة الخارجية) على محاضرة ألقاها عن بلاد الشرق الأدنى آثرنا أن نلخصها في هذه

الظروف التي تضطرب فيها سوريا في جحيم من القلق السياسي
لم أختر المعاهدة الفرنسية عنواناً لمحاضرة اليوم، ذلك لأن هذه المعاهدة ليست في ذاتها إلا جزءاً من القضية الكبرى التي تتناول صلتنا بالشرق الأدنى، ونفوذنا فيه، وسياستنا معه، وردود الفعل التي تنبعث عن هذه السياسة في بلاد شمال أفريقية الانتداب والمعاهدة
لماذا كانت المعاهدة الفرنسية السورية مفاجأة للرأي العام؟
يتجه الرأي العام الفرنسي إلى الاعتقاد بأن فرنسا (تملك) سوريا، ولكنها لا تعاملها كما تعامل المستعمرات. بل إن واجبها أن تقوم على إرشادها والدفاع عنها، ورعاية المصالح الفرنسية فيها
والواقع أنه لا يمكن تطبيق أي لون من ألوان النظم الاستعمارية في بلاد الشرق الأدنى، ولذلك لن أبسط الحديث عن عقم الاستعمار في سوريا، ولا عن ضعف العلاقات الاقتصادية بيننا وبين بلاد الانتداب.
والناحية الجوهرية التي يجب أن ننبه إليها هي أن الاستعمار يوافق الشعوب المتأخرة التي لا تستطيع أن تقوم على إدارة نفسها. فما هو مدى الرقي في بلاد الشرق الأدنى؟
إن نسبة الأميين في لبنان تبلغ 16 % وقد ترتفع النسبة في سوريا إلى أكثر من ذلك فتبلغ 50 %، وإلى جانب هذه الطبقة المتعلمة نجد نخبة مختارة أصابت قسطاً وافراً من المعرفة والذكاء والعلم. وامتاز كثيرون منها بالقيام بأعباء الإدارة في الدولة التركية.
إن فكرة الانتداب (1) التي نصت عليها معاهدات 1919 للبلاد المقتطعة من جسم الدولة العثمانية ليست وهماً، ولكنها تطابق حقيقة اجتماعية واقتصادية وسياسية خاصة بالبلاد المذكورة، وهذه الفكرة تختلف كل الاختلاف عن الحماية، ونستطيع أن نجمل مميزاتها
الأساسية بالتعريف الآتي:
إن السلطة المنتدبة هي التي تمارس الحكم لتأمين تطور البلاد تحت الانتداب (وتوجيهها نحو الاستقلال)
فالسلطة المنتدبة تشرع وتحكم، ولكن كل غايتها تهذيب الشعب وإرشاده. ومهمة المنتدب أشبه بمهمة الوصي، لأن سلطته محدودة لا تتسع، زائلة لا تدوم
قد لا يرضي تعريف الانتداب على هذا الشكل بعض الناس. وقد تكون ثمة اعتبارات نظرية أخرى، ولكن هذه الاعتبارات تقتصر على وجهة النظر الفرنسية. أما الشعوب الشرقية فإنها ترفض هذه الاعتبارات في إباء وقوة، وتنظر إلى الانتداب على أنه عرض زائل ومهمة مؤقتة تنتهي مع بلوغ سن الرشد
والانتداب يتضمن في ثناياه وعداً بالاستقلال، وقد أثار هذا الوعد انتباه السكان في البلاد، وكان عاملاً في نماء الفكرة الاستقلالية، كما أن الخلاف بين الترك والعرب كان عاملاً آخر من العوامل المهمة في هذا النماء
وفي معرض التدليل على نهضة هذه البلاد يجب أن نذكر الاضطرابات السياسية التي كانت تطغي على سوريا قبل الحرب. . . وألا ننسى أن الشعوب العربية قد حاربت في صفوفنا ضد الأتراك وأن قادة الحركة العربية رفضوا نظام الانتداب منذ 1919 لأنهم إنما جاهدوا في سبيل الاستقلال والوحدة. . . ويكفي أن نعرض لذكر المليك (فيصل) فقد وجد نفسه بعيداً عن العرش السوري حين حاول أن يقنع القادة بقبول أسس الاتفاق الذي ارتضيناه معه
لعل من الإنصاف ألا نغفل أثر الوطنية المصرية في بلاد الشرق، فقد ولّد انتشار المقاومة السلبية في مصر صعوبات كثيرة اصطدمت بها إدارتنا في سوريا
وقد اتجهت سياسة فرنسا بعد الثورة السورية الكبرى اتجاها شديداً، ونستطيع أن نذكر هنا مجموعة من الوعود التي صدرت عن الحكومة الفرنسية حول هذا الموضوع
ففي سنة 1927 أكد مسيو بريان رغبة في فرنسا في أن تبقى أمينة على انتدابها.
وفي عهد المفوض السامي مسيو بونسو كانت أولى المحاولات في سبيل عقد معاهدة بين فرنسا وسوريا. وقد تمخضت هذه المحاولات عن معاهدة سنة 33 التي وقعها مسيو دومارتل

وفي نفس الوقت صدرت تصريحات فلاندان بقرب انتهاء الانتداب، كما نشر خطاب (هنري بيرانجيه) الذي رحب فيه بدخول العراق في عصبة الأمم، في شيء كثير من الحماس، وأشار إلى أن فرنسا ستنهج في سوريا نفس السياسة التي انتهجتها إنكلترا في العراق

وفي سنة 933 عرض مسيو دلادييه في مجلس النواب لمفاوضات مسيو بونسو وأظهر اغتباطه بعقد المعاهدة بين سوريا وفرنسا

على أن بيان العميد السامي المسيو دومارتل كان أقوى هذه التصريحات كلها. ففي أول مارس سنة 1936 صدر هذا البيان بموافقة مسيو فلاندان وزير الخارجية، وتضمن وعداً صريحاً بعقد معاهدة سورية فرنسية على مثال المعاهدة العراقية الإنكليزية

أما فيما يتعلق بالانتداب الفرنسي في بلاد الشرق فنحن نواجه وضعاً خاصاً يجب أن ننظر إليه بعين الاعتبار إذا نحن أردنا أن ندرك المعنى العام لنظام هذه المسألة المعقدة

إن الانتداب الفرنسي واحد في الشرق، ولكن ثمة دولتين مختلفتين هما سوريا ولبنان تحتاجان إلى نظام خاص يربط علاقتهما في المستقبل. ومن الخير لفرنسا أن يكون هناك معاهدتان مختلفتان لكل من هذين البلدين تأميناً للمصالح الفرنسية وحرصاً على سلامتها

ويرجع الانتداب في سوريا إلى عهد قريب. . . فقد نشأ بعد ثورة العرب ضد الترك، ولكن الانتداب على لبنان يرجع إلى مدى أبعد، ويتصل بأيام حماية مسيحي الشرق ولا سيما المارونيين في لبنان

ولقد كان هذا الانتداب في لبنان مستساغاً مقبولاً، وكانت اللغة الفرنسية شائعة، وهذا يصادف دون ما شك هوى في نفوسنا لأن لبنان يهمنا بوجه خاص كقاعدة منيعة فرنسية على شواطئ البحر الأبيض المتوسط

وإذن فنحن مضطرون إلى عقد معاهدتين مختلفتين. . . وقد أشار إلى ذلك (لوسيان هوبرت) في تقريره عن المعاهدة في لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ، ولاحظ كيف قوبلت هذه المعاهدة في سوريا بشيء من الحيطة والحذر، بينا وجدت في لبنان رواجاً وارتياحاً عظيمين

ولكن الواقع أن التعاقد مع سوريا شرط أساسي للتعاقد مع لبنان، ومصالح فرنسا) وفائدتها

(من الانتداب يجب أن ترجى في لبنان لا في سوريا

(البقية في العدد القادم)

تلخيص

شكري فيصل

أسرار حياة بلاد العرب السعيدة

'

تأليف الكاتب الإيطالي سلفاتوري آبونتي

للأستاذ محمد عبد الله العمودي

(بقية المنشور في العدد 309)

انتهى ما أردنا نقله من كتاب السنيور آبونتي ص 24 وما بعدها. والأستاذ الريحاني صاحب (ملوك العرب) له كلمة بصدد القات قال في ص 91 من المجلد الأول: (إن في القات على ما يظهر خاصية الحشيش الأولى، أي الكيف، وشيئاً من خاصة الأفيون المخدرة، وبعض ما في المسكرات مما ينبه الفكر. وبكلمة أخرى هو يطرب النفس، ويخدر الحواس، ويشحذ الذهن. وأهل اليمن يعتقدون كذلك بأنه يبعث فيهم النشاط ويقويهم على السهر والعمل في الليل. وقد تحققت بنفسي أنه يؤرق ويحدث في المعدة يبوسة وانقباضاً وفي الفم جفافاً وعفوصة مثل البلوط، فيطلب صاحبه الماء كثيراً. ولكني لم أحس بشيء من الكيف، أي خفة النفس، ولم ينبه الفكر إلى غير الأوهام التي تستحوذ على الناس فتفعل بحكم التأثير الطويل المتوارث فعل الحقائق المحسوسة. وقد يكون هذا وهما لأن تأثيره فيمن يستعمله مرة غير تأثيره فيمن يستعملونه دائماً ويفضلونه على خبز يومهم؛ وكل الناس في اليمن: من رجال ونساء وأولاد وأغنياء وفقراء يأكلون القات. . .

ولا شك أن القات مضر بالصحة والنسل: فهو يفقد المرء شهوة الأكل، ويفسد أسباب الهضم، ويحدث أمثل الأفيون، شللاً في مجاري البول، ولا يقوي ألباه بل يضعفه!).
ومواطنونا اليمانيون لهم قصائد من عيون الشعر في هذا الحشيش. وقد كان الإمام يحيى من الذين (يخزنون) وله حماسة غريبة في الدفاع عنه. يحدثنا الريحاني في كتابه ص 165 أن رفيقه في الرحلة ثار وهجا القات، فانبرى له الإمام يحيى وعارضه بقصيدة من فيض الخاطر فذكر عشراً من مزايا القات منها:

فللعيون جلاء ... للضعف منه ذهاب
وللثغور صباغ ... زمردي يذاب
أحسن بثغر مليح ... له المذاب رضاب!
يا ما أحيلاه ظلماً ... تحتفي به الأحباب
وللنفوس مريح ... وللنشاط انجذاب
ويشحذ الفكر حتى ... يخاف منه التهاب
ويطرد النوم عمن ... له الجليس كتاب

وفي هجاء القات يقول شاعر عدني:

عزمت على ترك التناول للقات ... صيانة عرضي أن يضيع وأوقاتي
وقد كنت المضر مدافعاً ... زماناً طويلاً رافعاً فيه أصواتي
فلما تبينت المضرة وانجلت ... حقيقته بادرته بالمناواة
فقيمة شاري القات في أهل سوقه ... كقيمة ما يدفعه في ثمن القات

ثم يغادر السنيور آبونتي مدينة تَعِز فينطلق في رحاب سهل المخا، فتبدو له المروج الخضراء، والبساتين الواسعة، فلا تحرك عواطفه، ولا تثير اهتمامه. إذ كانت نفسه تواقة متحفزة لرؤية المخا المدينة العالمية، مدينة البن الرفيع. فتصدمه الحقيقة، ويقف أمام الأمر الواقع؛ وإذا به يرى هذه المدينة التي يدين لها العالم قد أخنى عليها الدهر فقضى على مجدها وسلب شهرتها، فأصبحت يباباً وأطلالاً خراباً، انفض عنها سكانها فلم تبق بها إلا أكواخ حقيرة، وقوارب ملقاة على الشاطئ، يأوي إليها السكان. . . أما مجدها فقد ألقى رحاله على الحديدة وعدن، فأصبحتا قبلة العالم في ارتقاب البن اليمني!
وخلص من المخا واندفع في تهامة حتى بلغ الحديدة - ميناء اليمن - فمكث بها أياماً. وبعد ذلك تابع مسيره ووجهته عاصمة حِمْير؛ وكان المؤلف في أثناء سيره يعجب من هذه الجبال الشجراء، وتلك الوديان التي تتدفق مياها ونباتاً. فقد كانت من أعظم المرفهّات عن نفسه من وعثاء السفر. . . وساءته جداً حالة السكان وما هم عليه من شظف الحياة والبؤس الصارخ في جميع المرافق. كما أن هذه الأكواخ الحقيرة والعشش المهدمة التي تسيء إلي روعة هذه المناظر الطبيعية تبعدها من بلاد العرب السعيدة، وتجعلها جزءاً من أفريقيا (ص 54).
ودخل صنعاء - مقر الملوك السيارة - فأطلق لخياله العنان ووصفها بما هي خليقة به: هذه قصور شامخة تصافح السحاب، وهذه القباب تتألق ناصعة في رائعة النهار، وهذه منائرها ناحرة جوف الفضاء فيرتد عنها الطرف. . . هذه صنعاء المدينة العجيبة، مدينة الخرافة والأساطير. أليست صورة صادقة من ألف ليلة وليلة؟ ص 62).
ويقف السنيور آبونتي على ناصية شارع من شوارع صنعاء فيرمي بطرفه على الأقوام التي تسيل بها عاصمة اليمن، فتحتدم في نفسه صور وأحاسيس، وتتحرك فيه الشاعرية، فيبرز لنا وصف صورة حية ناطقة كأنا نحسها ونشاهدها. قال (ص 62):
(هاهم أولاء يمرون سراعاً ممتطين صهوات خيولهم المطهمة ومن ورائهم . . . الحشم، متدثرين بالثياب البيضاء، وعلى أكتافهم تسيل العصائب من حمراء وخضراء. وهاهن أولاء النساء يسرن محجبات؛ وهؤلاء هم البدو وقد تهدلت شعورهم الكثة الرهيبة على الأكتاف، وانكشفت صدورهم المسيلة عليها مسادر الجلود. ثم هؤلاء ذوو المناصب وأهل المقامات يحف بهم الإجلال، وعلى رؤوسهم العمائم البيض، يتبعهم بعض الخدم حاملين الرُّشب البراقة. . . ثم هاهم أولاء رجال القبائل، وقد لفحتهم الشمس فبدت ألوانهم زيتونية، مسلحين بالجنابي المعقوفة المزمتة في خواصرهم بسيور من الجلد. . . وهاهم أولاء العبرانيون في قاماتهم الضامرة وقد استشزرت غدائرهم من الأصداغ تمييزاً لهم. . . وذه هي الجمال تمشي وئيداً، وتلك الأغنام تمثل

(. . .الفوضى، وقد سالت بها الشوارع
ثم يا للعجب من هذه العمارات المذهلة! متى شيدت؟ أبالأمس؟ أم من آلاف)
(!السنين؟
إنه ليحق لليمنين أن يفخروا بهذه العاصمة الفتانة، وليس عليهم بغريب أن يسموها:)
(عرش اليمن) و (أم الدنيا). ألم يؤسسها قحطان أبو يعرب العظيم الذي أخذ منه
(العرب اسمهم ولغتهم؟
ويخرج المؤلف الإيطالي من هذه الصور الشائفة إلى ما هو أبدع منها وأغرب فقد
حدثنا عن ظهور الإمام وجلوسه على عرش التبابعة. . . وعن كنوزه التي تذكرنا بكنوز
ملكة سبأ. فقد تحدث السائح في ص 76 عن مخابئ الإمام يحيى في جوف الأرض
وأحشاء الجبال. تلك المخابئ التي تفيض ذهباً وفضة، والتي يقوم على حراستها رجال
!مخلصون
وأبدع ما في هذا الكتاب، وما يهم العالم العربي الاطلاع عليه: هي شخصية الإمام
يحيى تلك الشخصية العجيبة التي تناولها المؤلف في صفحات عديدة من كتابه. فيهمنا
جداً أن
الجميل هذه الشذرات، وطْرح ما لا يليق نشره، لأن الإمام شخصية شهيرة يحوطها
الغموض، ويجهلها كثير من الناس وهو إلى كل هذا ملك يمثل نوعاً من الحكم المطلق
:ما زالت آثاره في أقاص بعيدة من الأرض. قال المؤلف في ص 90 وما بعدها
الإمام يحيى بن محمد حميد الدين، المتوكل على الله، وأمير المؤمنين شخصية من)
تلك الشخصيات المهمة المدهشة التي تعيش على وجه الأرض. هو رجل وعالم. . .
فهو رئيس الحكومة اليمنية التي تعيش ضمن حدودها، وهو إلى ذلك عالم ديني كبير،
وزعيم لمذهب يعد أتباعه من أشد المتحمسين والمتطرفين هو واحد من أولئك الحكام
أهل النفوذ المطلق، والحكم الذي لا يقابل إلا بالتسليم. يقِّر الزيود بأنه رئيسهم الديني
والمدني، فهم يطيعونه طاعة عمياء، ويحترمونه الاحترام العميق. ويدفعون له المغارم
الثقيلة؛ وإشارة منه كافية لإشعال حرب. ويفعلون هذا، لأن الله أراد ذلك: (إذ فوض
إليه أن يحكم بلادهم، ويتسلط على أرواحهم). فشؤون الدولة اليمنية جميعها في قبضة
يده ومجتلى بصره؛ وإذا كان له وزراء فإنهم صوريون يخضعون لأوامره ويخلصون له
الإخلاص التام، ولا ينفذون أمراً من الأمور إلا بعد عرضه على أنظاره وموافقته عليه.
ومن المسلم به أن هذا النظام من الحكم المطلق سيكلف السياسة اليمنية متاعب
. . .خطيرة
إن الإمام يحيى شخصية مقدسة لدى الكثير من اليمنيين؛ تفد إليه من أقصى (بلاد)
الرحل) جماعات كثيرة من البدو، يدقون القاع، ويقطعون شاسع البقاع، وقد برحت
بهم الأمراض وعجز أطباؤهم عن شفائهم، فلم يبق إلا دواء الإمام، وكرامة الإمام،
فتهل هذه الوفود على صنعاء، وتشخص نحو (المقام) فيمر الإمام يحيى يده على
رؤوسهم وأكتافهم فيزول الشر، وتحل العافية كما كان يفعل في إنكلترا وفرنسا منذ
, :قرون مضت
يعتقد العالم الأوربي أن الإمام يحيى شخصية غامضة ذات أسرار عجيبة ولكن هذه)
نظرية خاطئة نحن مسؤولون عنها فالإمام يحيى يختلف جد الاختلاف عن أئمة اليمن
!السابقين ذوي العجائب والغرائب
كان أولئك الأئمة، في وقت من الأوقات، يعيشون في أبراج من العاج بعيدة عن أنظار
الجمهور؛ في وحشة صامتة! وهذه الخرافة ومنهم من أعماق التاريخ القديم؛ ذلك أن
ملوك سبأ كما تقول الخرافة، لا يستطيعون أن يغادروا قصورهم الفخمة فيتعرضوا
لأنظار
!الجمهور فيقذهم هذا بالحجارة
ووالد الإمام الحالي قد حافظ على هذه العادة العجيبة، وذلك بعكس الإمام يحيى الذي
كثيراً ما يتصل بشعبه، ويميل إلى الظهور في المجتمعات
هناك في فصل الصيف، في ساحة من ساحات (المقام) وتحت شجرة عظيمة وارفة
الظلال يتربع الإمام يحيى وحوله ثلة من الجند، فيستمع إلى شكاوي الناس، فينصف
!المظلوم، ويأخذ الحق من القوي
وقد تفد إليه من أقصى بلاد المشرق: من أرض سبأ جماعات من البدو يرجون إنصافاً،

فيهدفون على المقام فينحرون الذبائح على الأعتاب جرياً على عادات قديمة
الإمام يحيى رجل عالم ومثقف، يملك مكتبة واسعة زاخرة بشتى أنواع المخطوطات العربية القيمة! وهو ميال على وجه أخص إلى علم الفلك وعلم السحر؛ كما أنه مغرم جداً بمسائل التجارة وإجادة القريض وإنشاد القصيد!
يلبس من الثياب الأبيض. وهو ذو وجه أسمر تحوطه لحية ناصعة البياض وعينين سوداوين جميلتين جذابتين. تشع منهما دلائل الذكاء والفطنة والحذر: وهو اليوم في الخامسة والستين)
هذه بلاد اليمن وعاهلها مصورة بقلم السنيور آبونتي صاحب (أسرار الحياة في اليمن)
أما نصيب هذه البلاد من التقدم وحظها من الحضارة فالأمر مشكل ومحزن، فهذه البلاد التي لها ماض مجيد تعيش في القرن العشرين عيشة عجيبة بعيدة عن أنظار العالم؛ بعيدة عن الحياة التي تتمشى اليوم بحرارة في أعراق الأمم؛ منتبذة مكاناً قصياً ظانة أن الحياة في الوحدة؛ وما درت أنها تعد نفسها لأن تكون لقمة سائغة لكلاب الاستعمار!
إن أبسط مظاهر الحضارة الحديثة ما زالت اليمن تتنكر لها، وتتحرج من تتبع آثارها. فالسيارة، وقد عرفها سكان المريخ! ما زال ينظر إليها في اليمن نظرة ريبة وامتعاض. حدثنا المؤلف في ص 93 أن سيارة أهديت إلى الإمام فأراد تجربتها إلى أحد المساجد فما ظهرت لدى باب المقام حتى التف خلق كثير لرؤية (عمل الشيطان) وما كاد الإمام يظهر ليعتليها حتى انسل من بين الجمهور أحد أنجال الإمام يتبعه جماعة من المتصلبة في الدين ووقف أمام والده في رباطة جأش، وعيناه تقدحان بالشرر وصاح قائلاً: وحتى أنت يا إمام الزيدية تجرؤ على اعتلاء هذه الآلة الجهنمية؟؟
ولكن الإمام رده رداً لطيفاً وأخذ طريقة نحو المسجد على قدميه!
وتوجد في اليمن كلها محطة راديو؛ وعدة كهرباء؛ يأخذان موضعهما من (مقام) الإمام فقط؛ يحدثنا السنيور آبونتي في ص 92 عنهما فيقول:
هناك في زاوية قصوى من حديقة المقام توجد بناية ضخمة عليها محطة راديو وهي) الأداة الوحيدة التي تصل اليمن بالعالم الخارجي
يمر أمامها رجال القبائل فيحولون أنظارهم عنها من دون أن يفهموا شيئاً عن أسباب) تأسيسها! وإذا جنّ المساء تألقت الأنوار على مقام الإمام فيأخذهم العجب؛ ويتألمون لهذا الحدث الجديد؛ ولكن يتمتمون في سرهم اعتقاداً أن هذا من عمل (الجن) الذين يهيمن عليهم (المتوكل على الله) أيضاً . . .
وأخيراً يأتي دور النفوذ الإيطالي في بلاد اليمن، فقد لمسنا أنفاس المستعمرين تتمشى في صفحات عديدة من هذا الكتاب. ولم يستطع الكاتب الإيطالي أن يضبط نفسه ويكبح قلمه؛ فهو يقول لنا في صراحة متناهية: إنهم يعدون أنفسهم للاستفادة من أية فرصة شرعية قانونية قد تحين؛ فينتهزونها لجعل نفوذهم ملموساً في اليمن؛ وهو في أثناء هذا يشيد بأعمال إيطاليا في اليمن وما أسدته إليها من الخدمات الجلي؛ فهناك مستشفى لهم في صنعاء على مقربة من قصر الإمام؛ وجميع ما يحوي قصر الإمام من أثاث ومحطات راديو، وعدد كهرباء؛ وسيارات؛ ومصاعد للقصور كلها من عمل. . . (الطليان) بل وهناك في صنعاء شارع يسمى شارع الطليان!
هذه (المكارم) الإيطالية ستؤتي أكلها ولو بعد حين. . . ومكائد الاستعمار كثيرة منها ما يأتي عن طريق الشركات، وبذل الامتيازات، وغير ذلك؛ والسادة الإيطاليون اليوم في بلاد اليمن لهم وجود محسوس؛ ومشاريعهم هناك كثيرة، أهمها أن لهم اليوم مستشفى في صنعاء وأربعة أطباء: اثنان في صنعاء وواحد في الحديدة وآخر في تعز. وبالتأكيد أن هؤلاء لا يقومون بالخدمة الإنسانية ولكنهم ذئاب كاسرة في صورة ملائكة، وأعين خطيرة لوزارة المستعمرات الإيطالية؛ واليمانيون يعرفون هذا؛ والإمام يحيى يدرك أكثر من هذا. وإذا سألتهم: هل لهذا الليل من آخر؟ أجابوك: (الإيمان يمان؛ والحكمة يمانية!) وحياتنا في الوحدة (والوحدة عبادة!)
ولا يفوتنا بعد هذا كله أن نشير إلى أن المؤلف كان في مواضع كثيرة من كتابه هذا يشيد في أسلوب استعماري صارخ بما في اليمن من ثروة طبيعية هائلة أهمها الذهب

والفضة والنحاس والحديد والأحجار الكريمة والنفط والكوارتز والميكا وغير ذلك.
وخلاصة القول أن الفكرة الاستعمارية واضحة لا شية عليها؛ وهي على أشدها في ص 157 وما بعدها. فليحذر الإمام يحيى، فإنه المسئول أمام الله والتاريخ عن مصير هذه البلاد.
هذه أسرار من (أسرار الحياة في اليمن) وهناك أسرار تجنبنا ذكرها حرصاً على سمعة بلادنا وكرامة مواطنينا، ولكن للأسف ستكون معلومة لدى الاستعمار؛ بل هي الجسر الذي يتوصل به إلى تحقيق أغراضه ومطامعه؛ ومن أنذر فقد أعذر.
(القاهرة)
محمد عبد الله العمودي
دبلوم دار العلوم

الحب العذري في الإسلامية
للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

- 1 -

بنو عذرة بطن من قضاعة، وقضاعة من القبائل اليمنية التي نزحت من اليمن بعد سيل العرم، فنزلت بشمال الجزيرة العربية إلى بلاد الشام
وقد اختص بنو عذرة من بين قبائل العرب بكثرة عشاقهم، وامتاز عشاقهم على غيرهم بأنهم كانوا يلحون في الحب إلى حد الاستهانة بالموت فيه، وأن الواحد منهم كان يخلص إلى من يعشقها، ويهبها نفسه وحبه وكل شيء يعزه في هذه الدنيا، وفي ذلك يقول جميل بثينة:

أُصلي فأبكي في الصلاة لذكرها ... ليَ الوَيْل مما يكتب الملكانِ
ضمنتُ لها ألاَّ أهيمَ بغيرها ... وقد وثقت مني بغير ضمانِ

ويقول المجنون، وقد كان من بني عامر:

وَلَماَّ أبى إلا جماحاً فؤادُهُ ... ولم يَسِلُ عن ليلى بمال ولا أهل
تَسلىَّ بأخرى غيرها فإذا التي ... تسلى بها تغري بليلى ولا تُسلى

وكان بنو عذرة يفتخرون بعشاقهم افتخار غيرهم بفرسانهم أو أجوادهم، ويرون عشقهم مزية شرف ونبل، ودليلاً على رقة القلب وصفاء النفس. وقد أخرج التنوخي عن عروة بن الزبير أنه قال: قلت لعذرى: إنكم أرق الناس قلوباً - يريد أصباهم إلى الحب، فقال: نعم، لقد تركت ثلاثين شاباً خامرهم السُلُّ، ما بهم داء إلا الحب
ولقد كان لجمال نساء بني عذرة أعظم الأثر في امتيازها بكثرة الحب، لأن الحب في الغالب يجري وراء الجمال، كما أن الجمال يورث القلب رقة، والنفس صفاء، فتستهويهما النظرة وتسترقهما الابتسامة. ومما ورد في جمال نساء هذه القبيلة ما روي أن فزارياً قال يوماً لعذرى: أتعدون موتكم في الحب مزية وهو من ضعف البنية، ووهن العُقدة، وضيق الرئة؟ فقال: أما والله لو رأيتم المحاجر البُلج، ترشق بالعيون الدُّعج، تحت الحواجب الزُّجّ، والشفاهَ السُّمر تبسم عن الثنايا الغر، كأنها شذر الدر لجعلتموها اللاَّت والعُزَّى وتركتم الإسلامية وراء ظهوركم
وروي عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال: استنطقت أعرابياً عند الكعبة واستنسبه فإذا هو فصيح عذري، فسألته: هل علقه الحب، فأنبأ عن شدة ولوع، فسألته ما قال في ذلك فقال:

تَتَبَّعنَ مَرَمى الوحش حتى رمْيَنَا ... من النَّبْلِ لا بالطائشات المخاطفِ
ضعائفُ يقتلن الرجال بلا دَمٍ ... فيا عجباً للقاتلات الضعائف
وللعين مَلهًى في البلاد ولم يُفِدْ ... هوىً النفس شيء كاقتياد الظرائف

وبالجملة فليس حي أصدق في الحب من بني عذرة، ولا تضرب الأمثال فيه إلا بهم، كما قال في ذلك صاحب البردة:

يا لائمي في الهوى العُذريَّ معذرةً ... مني إليك ولو أنصفتَ لَم تَلُمِ

وكما اشتهروا بالحب إلى ذلك الحد اشتهروا بالعفة فيه أيضاً وقد روي عن سعيد بن عقبة الهمذاني أنه قال لأعرابي حضر مجلسه: ممن الرجل؟ قال: من قوم إذا عشقوا ماتوا. فقال: عذري ورب الكعبة. ثم سأله عن علة ذلك فقال: لأن في نسائنا صباحة، وفي فتياتنا عفة
ويحكى من عفة عشاقهم أن جارية وشت بجميل وبثينة إلى أبيها وأنه الليلة عندها،

فأتى وأخوها مشتملين معتمدين سيفهما لقتله، فسمعاه يقول لها بعد شكوى شغفه بها: هل لك في طَفءِ ما بي بما يفعل المتحابَّان؟ فقالت: قد كنت عندي بعيداً من هذا، ولو عدت إليه لن ترى وجهي أبداً! فضحك ثم قال: والله ما قلته إلا اختباراً، ولو أجبت إليه لضربتك بسيفي هذا إن استطعت وإلا هجرتك، أما سمعت قولي:

وإني لأرضى من بثينةَ بالذي ... لو أبصره الواشي لقرَّت بلابله
بلا وبألاّ أستطيع وبالمُنى ... وبالأمل المرجوَّ قد خاب آمله
وبالنظرة العَجلى وبالحول ينقضي ... أواخره لا نلتقي وأوائله

فقالا: لا ينبغي إيذاء من هذا حالته، ولا منع زيارته لها، وانصرفا

وقد فتن كثير من الناس بهذا الحب العذري، ونظروا إلى أصحابه نظرة العطف والحنان، وأشاروا بذكرهم في الكتب، وأعجبوا بصدقهم وعفتهم في ذلك الحب، وحاولوا أن يجعلوا من الشهداء من يموت بسببه، ورووا في ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: من عشق فعف فمات دخل الجنة. وفي رواية من عشق فعف فظفر مات شهيداً. وفي أخرى وكتم، وقد صحح هذا الحديث بسائر طرقه مغلطاي، واعله البهيقي والجرجاني والحاكم في التاريخ

ولم يكد الشعراء يعرفون ذلك الحديث حتى أولعوا به وعملوا على إذاعته في أشعارهم، وتضمينها إسناده ومعناه. ومن ألطف ما جاء في ذلك ما حكاه التاج السبكي عن أبي نواس أنه قال: مضيت إلى باب أزهر والمحدثون ينتظرون خروجه، فما كان إلا أن خرج وجعل يعظم واحداً بعد واحد، حتى التفت إليّ فقال: ما حاجتك؟ فقلت:

ولقد كنتم رويتم ... عن سعيد عن قَتَاده
عن سعيد بن المسيب ... أن سعد بن عُباده
قال من مات مُحباً ... فله أجر شهادة

فقال أزهر: نعم، وذكر الحديث

ولأبي نواس في تضمينه أيضاً:

حدثنا الخفاف عن وائلٍ ... وخالد الحذّاء عن جابر
ومسعرٌ عن بعض أصحابه ... يرفعه الشيخ إلى عامر
وابن جريج عن سعيدٍ وعن ... قتادة الماضي وعن غابر
قالوا جميعاً أيما طَفلَةٍ ... عُلّقَها ذو خُلُقٍ طاهرٍ
فواصلته ثم دامت له ... على وصال الحافظِ الذاكرِ
كانت لها الجنة مبذولةً ... تمرح في مَرتَعها الزَّاهَر
وأيُّ معشوقٍ جَفاَ عاشقاً ... بعدِ وصال ناعمٍ ناضر
ففي عذاب الله مثوىً له ... بعداً له من ظالمٍ غادر

ولابن المبارك الإمام في تضمينه:

حدثنا سفيان عن جابرٍ ... عن خالد عن سهل السَّاعدِي
يرفَعُهُ من مات عشقاً فقد=استوجب الأجر من الماجد

وكان كثير من العظماء والعلماء يعطف على أولئك العشاق، ولهم في ذلك آثار ونوادر لا تحصى، ومنها ما روى عن المهدي أنه قال: أشتهي أن أصلي على جنازة عاشق مات في الحب

ومنها ما روي أن ابن الليث قاضي مصر كان يكتب في فتيا، فسمع جارية تقول:

تَرى (؟) الحكومة يا سيدي ... على مَنْ تَعشَّقَ أن يُقتَلا

فرمى القلم من يده وهو يقول: لا

وقد أخرج الخطيب البغدادي عن الغزي أنه قال: رأيت عاشقين اجتمعا فتحدثا من أول الليل إلى الغداة، ثم قاما إلى الصلاة، وقد قال في ذلك بعض الشعراء:

لله وقفةُ عاشقين تلاقيا ... من بعدِ طول نوىً وبُعدِ مزارِ
يتعاطيان من الغرام مُدامة ... زادتهما بعداً من الأوزار
صدق الغرام فلم يمل طرفٌ إلى ... فُحشٍ ولا كفٌ لحِلَّ إزار
فتلاقيا وتَفَرقَّا وكلاهما ... لم يخش مطعن عائب أوزار

وهذا كل شان الحب العذري على ما يقرأه الناس في كتب الأدب، وهي تأخذ الأشياء باللطف، ولا تدقق في أمرها كما يدقق غيرها. وقد كنت أقرأها كما يقرؤها سائر

الناس، فلا ألتفت فيها إلا إلى ما يلتفتون إليه، ويصرفني التأثر بأحاديث ذلك الحب عن التدقيق في أمره، إلى أن قرأت مرة قصة وفود جرير وابن أبي ربيعة وجميل وكُثَيِّر والأحوص والفرزدق والأخطل على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وقد طلبوا الإذن بالدخول عليه؛ فكان يذكر لمن يطلب الإذن لهم بعضاً مما قاله كل واحد منهم في الغزل، ثم يأبى أن يأذن له بسببه، ولم يأذن إلا لجرير من بينهم. وقد سوى في ذلك المنع بين ابن أبي ربيعة والأحوص والفرزدق والأخطل وهم من فساق الشعراء، وبين جميل وكثير وهما من أصحاب ذلك الحب العذري؛ فكانت هذه المفارقة سبباً في لفت نظري إلى التدقيق في ذلك الشأن، وبحثه من جهة الدين بحثاً صحيحاً، لا إفراط فيه ولا تفريط، ولا تشديد ولا تساهل، لأن دين الله وسط بين ذلك.

ولا بد لي قبل هذا من ذكر قصة وفود أولئك الشعراء على عمر بن عبد العزيز ليرى القارئ تشديده في أمر أصحاب ذلك الحب العذري، بعد أن رأى تساهل غيره فيه.

عبد المتعال الصعيدي

جولة في عرصات القيامة

للأديب محمد محمد مصطفى

قال سهيل بن النعمان حدث:

ونفخ في الصور فلفضتنا القبور حفاة عراة سواء منا ملك وصعلوك وعذراء حصان . . . وبغي هلوك، لا تستطيع امرأة أن ترنو إلى رجل تجتبيه، وما يستطيع رجل أن يرنو إلى امرأة تدانيه، فكل ذاهل اللب له شأن يغنيه

ورف ملاك فوق رؤوسنا وبيده إبريق، يصب منه ماء لفريق منا دون فريق، فقلت اسقني يا هذا إني لفي صدى شديد وضيق. قال: أفأعطيت في حياتك لابن سبيل ثمداً من غدقك؟ قلت: قد كنت في حياتي نضو إملاق. قال: إن نبيك مات ودرعه مرهونة عند يهودي في ثلاثين صاعاً من شعير. فما كانت صناعتك في الدنيا؟ قلت: شرطي. قال: أفحررت عبداً من رقه، أو كبتَّ مجرماً وكفيت الناس شره؟ قلت: لم يكن في زمني رق ولا رقيق. فرمقني وقال: يلوح لي أنك أتيت في دنياك حوباً كبيراً، وهذا الماء لمن وقى شريداً أو أطعم فقيراً. فسفحت دمعي عله يرق لي. . . لكنه تركني وانصرف

ووضع الكتاب في عرصات القيامة، وأذن في الناس إبراهيم، وجيء بالمنعمين في الدنيا فعرضوا على جهنم فسمعنا لها شهيقاً وهي تفور، وصاح صائح: إنا اعتدناها لهؤلاء نزلاً، وسيرون الآن فيها العذاب قبلا.

ورأيت قوماً تجذبهم الملائكة وتقف بهم بين يدي الله، وينادي المنادي بأعلى صوت: هؤلاء هم الشرطيون الذين كانوا في حياتهم يرتشون، والذين كانوا لا يتركون بائعاً جوالاً إلا وهم من بضاعته آكلون؛ تقوم الدنيا إلى جانبهم وهم بباعة العرقسوس لاهون! وسئل أولهم عما كان يحشو به منديله المحلاوي من لب وفشار، وبطاطا وخيار، وما كان يرشي به من درهم ودينار. ونظرت إليه فإذا هو ناكس رأسه حزناً وألماً يقول: قد رأيت يا رب قلة راتبي وكثرة أطفالي وإن أحدهم كانت تهصر نضارته الحمى وأمه قائمة إلى جانبه يرفض كبدها لصوت أنينه، فلم أملك رفض الدراهم التي كانت تقدم إليّ لأدفعها للطبيب ثمن الحياة لطفلي، إذ لم يكن ينتفع في الدنيا بطب الطبيب سوى الأغنياء. ولم أسمع أن أحداً منهم خصص يوماً للفقراء، وكان زمني كله شرور فذوو السعة يغلون أيديهم لا يبسطونها إلى لشهوة أو نزوة أو لوليمة تقام للأمراء والأغنياء، ولم أر موسراً دعي إلى مأدبة فقراء

وكان في زمني مبنى يسمى (متحف الآثار)، كانت تكدس به تماثيل وقطع من الأحجار، يهرع لرؤيتها الأغنياء من الأقطار والأمصار، وكان يكفي ثمن القطعة منه لبناء أكبر دار تضم بين جدرانها العرايا والمشردين من الأطفال الصغار، الذين كانوا يفترشون الأرصفة فتهطل على أجسادهم الرقيقة الأمطار، على أن أحداً لم يحفل ببيع ما تماثل أو تشابه من هذه الآثار، ليدفعوا ببعض ثمنها عني وعن أولئك الأطفال الدمار، بحجة أن في بيعها لمصر عاراً. مع أن تركيا فعلت ذلك واشترت بثمن آثارها أسطولاً في الجو وآخر يمخر البحار، ولم نسمع في زمننا أن أحداً أشار إليها بعار أو شنار. . . وكنت أقف النهار يلوحني الهجير، وأسهر الليل يقضقض عظامي الزمهرير، ولا يدفع لي عن ذلك

إلا أجر يسير؛ فقيل له: ألك شاهد بذلك؟ قال: رَسِل باشا. فهتف مناد: يا رسل يا ابن حواء! فأشخص إلى المولى وسئل فوافق على ما قاله رجاله، فدخلوا بشهادة الجنة آمنين. . .

ومر مثل عمري في الدنيا حتى حان دوري في الحساب فشدهت من هول الموقف وفرقاً من هيبة الله وجعلت أسبح وأستعيذ والملاك يغذ بي السير حتى مثلت بين يدي الله فغشي بصري من نوره، وثقلت سيئاتي، فسئلت: لم فسقت عن أمر ربك؟ فألجمني الفزع الأكبر. فهتف هاتف: عذبوه. فانطلق بي الزبانية وإذا بي من جهنم على شفير، فريع قلبي وصرخت صرخة رجعت أصدائها أطباق الجحيم وجأرت بالشكوى إلى الله أن يكشف عني الضر (إنني من أمة حبيبك محمد الأمين). . . فرأيت خاتم الرسل يطوي إليّ رحب السماء على البراق وهو يهتف بي: (لا تثريب عليك فقد غفر الله لك). . . ووكل بي حورية هيفاء حملتني وانطلقت بي إلى جنة الخلد التي وعد الله بها المتقين

وأخذت أخبط في جنبات البساتين فإذا بقصور من در تتغلغل في رياض الجنة وورودها لتفئ إلى عزلة سعيدة، فسألت حوراء من حور الجنان: لمن يكون هذا الحي فقالت: إنه لصرعى الغرام. قلت هل تدليني على قيس بن الملوح) إنه مات وجداً بليلاه. فقالت: أنا بك إليه

ودلفت وراءها إلى فناء قصر تتوسطه بركة ملئت ماء ورد قد خلط بمسك وزعفران، وإذا فتى إلى جانبها يتدفق الشباب في برديته ويلتهب بحمرة الورد خداه قد أجلس على ركبتيه فتاة في مثل تهاويل الزهر قد أسبغت عليها الجنة جمال أنوثة الدنيا وبهاء الملائكة، ينظر إليها وترنو إليه. . . وبدا لي أنهما لم ينتبها لي كأن بيني وبينهما آفاقاً بعيدة، فصحت مسلماً فنهضا وسلما. . . فقلت إن شعرك يا قيس ظل يتلى حتى قامت الساعة وأنا أعرفك من شعرك. فرحب بي وسهل، واقترحت ليلى أن توصلنا السابحات إلى عين السلسبيل، وقال قيس: سيكون العشاق لك ندامى وسترقص لك وتغني حور عين. وعلى شاطئ النهر دارت بنا كؤوس من زبرجد أخضر نعب منه خمراً لذة للشاربين، وأفعمت حورية أفئدتنا بصوتها السماوي الساحر، ولعبت الراقصة بقلوبنا برقصها المائس الباهر. وتلبثت وقتاً بينهم في بلهنية وخمر. ولما تعالم العشاق إزماعي الرحيل عن حيهم ألجموا إلي فرساً من نور طفت بها أحياء الجنة والملائكة حولي تهتف: سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار.

محمد محمد مصطفى

بإدارة مدرسة البوليس

من الأدب التركي الحديث

الجزيرة الكبرى في الليل

للكاتبة التركية الآنسة معزز أونكان

في ليلة جميلة من ليالي آذار . . . :

نسمات الربيع تتلألأ حتى تذوب على سطح البحر البراق المشتعل باللمعات الفضية) التي قبسها من سنا الأزهار. . . والنجوم المنثورة على السماء الزرقاء تخفق قلوبها ابتهاجاً وسروراً لقدوم الربيع. . . والبحر في هذه الليلة متقبع بملابسه الخضراء. . . وظلام النجوم تغسل أبد الدهر بمياه هذا البحر. . . والقمر في عليائه كأنه تاج فضيّ على رأس الليل. . . أو زهرة ناضرة على صدر الكون. . .)

خلال هذا المنظر الفاتن ترى الجزيرة الكبرى من بُعد كأنها إحدى بلاد الجان في عزلتها وهدوئها وجاذبيتها، وجمالها وسحرها. . . وفي وسط تلك الجزيرة وبين أشجار الأرز الكثيفة في نقطة مرتفعة أضواء مشعشعة كبيرة، يخيل إلى الناظر إليها من بُعد أن نجمة كبيرة هبطت من السماء على تلك البقعة. أو أن تلك الأضواء التي تغمر الأرز باحمرار رهيب هي نار حريق اندلعت ألسنته هنالك. . .

اجمل قصور الجزيرة مغمور بالكهرباء، كأنما خرج ليباري أضواء النجوم والقمر؛ وأزهار هذا القصر الفخم وأشجاره قد تعودت كأهله هذه الحفلات. . . فهي سكرى تتمايل على هدأة الليل.

وحينما ترفع أجمل النغمات العذاب إلى علياء السماء تنصت الريح إجلالاً وإكباراً،

والبحر يضم هذه النغمات إلى صدره كما يضم الطفل الحالم أغنية أمّه إلى صدره الصغير. والعنادل تردد اجمل ألحانها على أغصان الأرز ثم تصمت حزينة آيسة، حينما تسمع هذه النغمات الشجية الرائعة - نغمات الليل - وحينما تدرك عجزها عن أن تأتي بمثلها. والقمر الذي يطل من كل مساء من فرج الأشجار المرتفعة، والنجوم التي تطل من السماء بغبطة وحسد. كل هؤلاء كان يعرف أن هذه الجزيرة محل الأنس والطرب، لا يمكن للشقاء والبؤس أن يعيش فيها. الحياة هنالك سعادة دائمة وهناء متواصل.
(بغداد)

نجدة فتحي فيردار

صلاح الدين موسى

المعروف بقاضي زاده الرومي

للأستاذ قدري حافظ طوقان

من الغريب أن نجد في تاريخ الرياضيات لسميث في الجزء الأول ص 289 أن غياث الدين يعرف بقاضي زاده الرومي وأيضاً بعلي القوشجين وهذا خطأن فغياث الدين لم يعرف بأحد هذين الاسمين بل إن غياث الدين وقاضي زادة وعلي القوشجي هم ثلاثة أشخاص اشتهروا باهتمامهم في العلوم الرياضية والفلكية، وقد يكون الخطأ الذي وقع فيه سميث ناتجاً عن كون الثلاثة اشتغلوا في مرصد سمرقند وعاونوا ألفي بك صاحب المرصد وأمير تركستان وما وراء النهر في إجراء الأرصاد وعمل الأزياج

إن قاضي زادة الرومي هو صلاح الدين بن محمد بن محمود من علماء الرياضيات والهيئة الذين اشتهروا في القرن التاسع للهجرة، ولد في بروسة في النصف الأخير من القرن الثامن للهجرة وتوفي في سمرقند بين 830هـ و40 هـ. درس مبادئ العلوم على علماء زمانه ثم لازم علي شمس الدين منلا فنارى ودرس عليه الهندسة وقد مدح له علماء خراسان وما وراء النهر وذكر له الشيء الكثير عن تفوقهم في الهيئة والرياضيات مما أوجد رغبة عند صاحب الترجمة في الذهاب إلى تلك البلاد للاجتماع بعلمائها والاغتراف من فيض علمهم ونبوغهم

ولقد شعر قاضي زادة أن أهله سيمانعون في سفره، ولذلك عوّل على تنفيذ عزمه مهما كلفه الأمر. ويقال إن إحدى شقيقاته شعرت بذلك وخافت أن يقع أخوها تحت غوائل الحاجة والفاقة في بلاد الغربة فوضعت بعض مجوهراتها بين كتبه التي ستصحبه في السفر. وفي أواخر القرن الثامن للهجرة اختفى قاضي زادة بغتة وإذا هو في طريقه إلى خراسان وبلاد ما وراء النهر حيث درس على علمائها العلوم الرياضية وقد وصل فيها إلى درجة يحسده عليها معاصروه من فحول العلماء وكبار الحكماء اشتهر في سمرقند وذاع صيته، واستدعاه ألفي بك وقربه وأغدق عليه العطايا وعيّنه أستاذاً له. ولا شك أن الفضل فيما نجده في ألفي بك من رغبة في مواصلة الدرس والبحث يرجع إلى قاضي زاده الرومي

ولقد دفعته هذه الرغبة إلى تأسيس مدرسة عالية وعهد إلى قاضي زاده بإدارتها. وقد بنيت المدرسة على شكل مربع في كل ضلع من أضلاعه قاعة للدرس عُيِّن لها مدرس خاص. وكان قاضي زاده يدرس للطلاب ومدرسي القاعات ويحاضرهم مجتمعين. ومما يؤثر عنه أنه كان شديد المحافظة على كرامة العلماء والأساتذة لا يرضى بالتعدي على استقلالهم ويقف دون أية محاولة للضغط عليهم، كما كان من القلائل الذين يحملون روحاً علمياً صحيحاً، اشتغل للعلم لا لغيره، لم يبغ منه مكسباً أو جاهاً

عزل ألفي بك أحد المدرسين في المدرسة المذكورة فاحتج قاضي زاده على ذلك وانقطع عن التدريس وإلقاء المحاضرات. ويظهر أن ألفي بك شعر بخطئه فذهب بنفسه لزيارته وسأله عن سبب الانقطاع، فأجابه: كنا نظن أن مناصب التدريس من المناصب التي تحيطها هالة من التقديس لا يصيبها العزل وأنها فوق متناول الأشخاص. ولما رأينا أن منصب التدريس تحت رحمة أصحاب السلطة وأولي الأمر وجدنا أن الكرامة تقضي علينا بالانقطاع احتجاجاً على انتهاك حرمات العلم والعبث بقداسته. إزاء ذلك لم يسع ألفي بك إلا الاعتذار وإعادة المدرس المعزول وإعطاء وعد قاطع بعدم مساس حرية الأساتذة والمعلمين

قد يمر كثيرون بهذا الحادث ولا يعيرونه اهتماماً؛ ولكن إذا نظرنا إلى حاجة قاضي زاده إلى الوظيفة ومعاشها وإلى سطوة الأمراء في تلك الأزمان وإلى الجرأة النادرة التي

ظهر بها، نجد أنه لا يقدم على ما أقدم عليه إلا من أنعم الله عليه بروح علمي صحيح وبثقة في النفس عظيمة لولاهما لما وصل قاضي زاده إلى ما وصل إليه من مكانة رفيعة ومقام كبير عند العلماء وأصحاب الثقافة العالية

امتاز قاضي زاده على معاصريه بعد اعتقاده بالتنجيم أو الأخذ به؛ وكان لا يرى فيه علماً يستحق الاعتناء أو الدرس بعكس ألفي بك الذي يعتقد به ويسير أموره بموجب أحكامه. وقد أدى هذا الاعتقاد إلى وقوعه في مشاكل وصعاب انتهت بالقضاء عليه كما يتبين لنا من ترجمة حياته

رغب ألفى بك في علم الفلك ورأى فيه لذة ومتاعاً وأحب أن يتحقق من بعض الأرصاد التي قام بها فلكيو اليونان والعرب وأن يتقدم به خطوات، لهذا بنى مرصداً في سمرقند كان

إحدى عجائب زمانه. زوده بالأدوات الكبيرة والآلات الدقيقة وطلب من غياث الدين جمشيد وقاضي زاده أن يعاوناه في إجراء الرصد وتتبع البحوث الفلكية. وقد توفي غياث الدين قبل بدء الرصد كما توفي الثاني قبل إتمامه، فعُهد إلى علي القوشجي بأعمال الرصد ليكملها

ومما لا شك فيه أن الأرصاد التي أجراها قاضي زاده مما تزيد في قيمة الأزياج التي وضعت على أساسها. فقاضي زاده لم يكن من علماء الهيئة فحسب، بل كان أيضاً من اكبر علماء الرياضيات في الشرق والغرب. درس عليه كثيرون، وبرز بعض تلامذته في ميادين المعرفة، وإلى هؤلاء يرجع الفضل في نشر العلم والعرفان في بعض الممالك العثمانية. يقول صالح زكي: (. . . إن هناك كثيرين اخذوا عن قاضي زاده وقد انتشر بعضهم في الممالك العثمانية ففتح الله الشيرواني الذي درس العلوم الشرعية علي الشريف الجرجاني والعلوم الرياضية علي قاضي زاده، وذهب إلى قسطموني حيث اشتغل بالتدريس وكان ذلك في حكم مراد خان الثاني، وكذلك علي القوشجي الذي دعي إلى زيارة استامبول، وبقي فيها مدة يعمل على نشر العلم وكان ذلك في عصر محمد الثاني. . .)

ولقاضي زاده رسائل نفيسة ومؤلفات قيمة منها:

رسالة عربية في الحساب، وقد ألفها في بروسه سنة 784هـ قبل ذهابه إلى بلاد ما وراء النهر ولها شرحان.

وكتاب (شرح ملخص في الهيئة) وهو شرح لكتاب (الملخص في الهيئة) لمحمود بن محمود بن محمد بن عمر الخوارزمي وضعه بناء على طلب ألفي بك

ورسالة في الجيب وهي رسالة ذات قيمة علمية تبحث في حساب جيب قوس ذي درجة واحدة.

وكذلك له شرح (كتاب ملخص في الهندسة) تأليف محمود بن محمود الخوارزمي، وقد عمل الشرح بناء على رغبة ألفي بك

وشرح كتاب أشكال التأسيس في الهندسة تأليف العلامة شمس الدين بن محمد بن أشرف السمرقندي - وهذا الكتاب خمسة وثلاثون شكلاً من كتاب أقليدس

(نابلس)

قدري حافظ طوفان

العالم يتطلع إلى حدودنا المصرية

أربعون يوماً في الصحراء الغربية

للأستاذ عبد الله حبيب

تحدث المحرر في مقالاته السابقة عن طريف مشاهداته في الصحراء الغربية ووصف بعض صفات الأعراب وأخلاقهم وطرق معيشتهم. وهو في هذا المقال يتحدث إلى القراء عن (مرسى مطروح) عاصمة الصحراء الغربية حديثاً طريفاً

مرسى مطروح

هي ميناء صغيرة تحمي مدخلها من أمواج البحر الأبيض صخور طبيعية في وسها مدخل صغير يسمح بمرور البواخر العادية الحجم. ومن الصعب على البواخر دخول الميناء في أوقات العواصف والأنواء. وحول الميناء عدد من البحيرات يفصل بينها حاجز رملي بسيط لا يلبث أن يطغي عليه البحر فيملأ هذه البحيرات بمياهه. وهناك على رابية

مرتفعة شرقي الميناء تقع طابية أثرية قديمة يغلب أنها من العهد الروماني. ثم حولها الأتراك إلى طابية تركية وجعلت أخيراً حصناً منيعاً للدفاع عن الميناء، وكان ذلك في سنة 1926

ومرسى مطروح بلدة قديمة كان للتجارة فيها شأن عظيم وازدهرت في عهد الرومان وكانت تشتهر بتصدير الشعير والإسفنج والبلح والأغنام، وقد شيدت الملكة كليوبطرة قصراً فخماً بها. وكانت تقيم فيه مع القيصر أنطونيوس. ومنه كانت تدبر حركة جيوشها في مصلحة الأخير ضد أغسطس الذي أقام بها بعد موقعة أكتيوم.

كذلك كانت لمرسى مطروح شهرة ذائعة في عهد اليونان أيام حكم اسكندر الأكبر المقدوني؛ وكانت تسمى في ذلك الحين (برنيوم) كما كان بعض القدماء يسمونها (أمونية) ويغلب أنهم أطلقوا عليها هذا الاسم نظراً إلى أنها كانت بداية الطريق الموصلة إلى سيوة حيث يوجد معبد الإله أمون ويسمي (جوبتره أمون) ويقال إن الإسكندر حين قام برحلته الشهيرة لزيارة هذا المعبد في سيوة والتبرك به ابتدأ من هذه المدينة

وفي الأيام الأخيرة قرر الإمبراطور (جوستنيان) تحصينها وجعلها نقطة أمامية في خط الدفاع عن القطر المصري إذا هوجم من الجهة الغربية. على أنه يغلب أن يكون الحصن المقام بها والسابق ذكره يرجع إلى عهد هذا الإمبراطور. ويظهر أن التاريخ يعيد نفسه، فقد كانت أيضاً نقطة دفاع مهمة في السنة الماضية وفي هذه السنة ضد الهجوم الإيطالي المتوقع من الجهة الغربية

وليست هناك في الواقع آثار يمكن الاستدلال منها على مركز مرسى مطروح قديماً وما كان لها من الأهمية في العصور السابقة. والظاهر أن البحيرة الممتدة غرب الميناء الحالي هي التي كانت مستعملة قديماً للرومان واليونان وهي بحيرة منيعة. ولا تزال بها آثار رصيف حجري يقع على مقربة من طرفها الشرقي

وبالقرب من موقع جامع البلدة الجديدة توجد آثار بناء قديم به بعض النقوش. ولهذا البناء ممر (نفق) تحت الأرض يصل إلى شاطئ البحر، ويسمى هذا البناء (فيلا كليوبطرة) وأحياناً (حمام كيلوبطرة)

أما البحيرات الشرقية من الميناء فيوجد بها بعض درجات صخرية قديمة توصل من الشاطئ إلى شرفة من الصخور المطلة على البحيرة، ولا يعرف تاريخها بالضبط، وفي نهاية هذه البحيرة من الجهة الشرقية أقام بنك مصر ملاحة كبيرة معطلة للآن عن العمل. وفي جنوب البلدة سلسلة من التلال المرتفعة بها عدد من الكهوف الصخرية يظهر أنها كانت مستعملة كمقابر وعلى مقربة منها برج مرتفع يشرف على البلدة جميعها وبجواره سلسلة مواقع حربية حصينة.

البلدة الحديثة

أما البلدة الحديثة فمشيدة بنظام هندسي بديع على أرض مستوية يقع أمامها البحر، وسلسلة صخور. وإلى الخلف سلسلة من المرتفعات الحصينة الصخرية وبها محافظة الصحراء الغربية، وهي مركز تجاري عظيم للقوافل بينها وبين سيوة، وبها سنترال عام للمواصلات الخارجية، وهي آخر محطة في الخط الحديدي الواصل من الإسكندرية. وبها فنادق حديثة. ويعتبر فندق (الليدو) من فنادق الدرجة الأولى إذ أن كل غرفة فيه مجهزة بحمام للمياه الساخنة والباردة. وأما شاطئ البحر الرملي اللامع فيعد من أحسن شواطئ العالم جمالاً وهدوءاً، بل إنه يضارع شاطئ الريفيرا نفسه. وقد أصبحت البلدة الآن محطة عظيمة

للطائرات المحلية والأجنبية، وهي من أحسن الأمكنة لقضاء صيف هادئ جميل وسكانها من العرب والمهاجرين من الطرابلسيين واليونان، ومنازلها مبنية كلها بالحجر على نظام حديث

المياه العذبة

ومشكلة المياه العذبة في مرسى مطروح من المشاكل الدقيقة. وكان الرومان يحفرون خزانات صخرية عند منحدرات التلال تملأ بمياه الأمطار في وقت الشتاء. وتوجد بالبلدة عدة آبار، ولكنها غير عذبة تماماً؛ ويشرب منها الأهلون والحيوانات. على أنه يمكن الحصول على المياه العذبة إذا حفر الإنسان قليلاً بالقرب من الشاطئ. ويزرع الأهلون بعض الحدائق من مياه هذه الآبار وترسل المياه النيلية من الإسكندرية

على بواخر مصلحة السواحل
أما الآبار الرومانية الشهيرة فتقع على بعد 12 كيلومتراً تقريباً من البلدة، وهي آبار عجيبة جداً، إذ هي عبارة عن نفق صخري طويل تسير فيه المياه وطوله عظيم ويمكن للإنسان أن يسير فيه مسافات طويلة تحت الأرض، وله فتحات محفورة في الصخور لإدخال النور وتسهيل تنظيفه. والمياه فيه وفيرة، وقد استغلها الجيش البريطاني في الحركة الأخيرة عام 1926 فركب عليها آلات خاصة ومواسير تصل بها المياه إلى مرسى مطروح، ولا تزال بها حتى الآن، ومنها تمد البلدة بالمياه بسهولة جداً
صيد الإسفنج
صناعة صيد الإسفنج في مرسى مطروح قديمة يرجع تاريخها إلى عدة قرون ويعتبر إسفنجها من أحسن الأنواع في العالم. ويبدأ فصل الصيد من شهر مايو إلى أكتوبر سنوياً حيث تزدحم مياه البحيرات في الميناء بأسطول عظيم من مراكب الصيد كلها من اليونان. أما طريقة الصيد هناك فغريبة وخطرة إذ يغطس الصياد بثقل من الأحجار ويذهب كثيرون منهم في بعض الأحيان ضحية لهجوم وحوش البحر. ويقدر محصول الإسفنج سنوياً بآلاف الجنيهات. أما الصيادون أنفسهم فأكثرهم من سكان الجزائر اليونانية، وهم قوم أتقياء جداً وقد بنوا كنيسة بالبلدة، ولهم قساوسة. وأظن أن هذه الكنيسة هي الوحيدة في الصحراء
الغربية.
عبد الله حبيب
-
من برجنا العاجي
ذلك الرجل الذي يعيش وحيداً قوياً لا يعرف المرأة ولا يذوق اللحم ولا الخمر (هتلر) ولا يفكر إلا في السيطرة على العالم وقيادة البشر، ذلك الرجل الذي لو خرجت من بين شفتيه كلمة رقيقة على مائدة السياسة الخضراء لتغير وجه التاريخ. قد شاء القدر أن يجلس أخيراً إلى مائدة غذاء في مونيخ، منفرداً مع كوكب لامع من كواكب الغناء، وقد خرجت من بين شفتيه هذه الكلمات:
- إن صوتك لصافٍ صفاء البلور النقي!
فقالت المغنية الجميلة في ابتسامة ساحرة:
- شكراً
فقال المستشار:
- أنا الذي ينبغي له أن يشكرك
فقالت الغانية في شيء من العجب:
- على ماذا؟
- على مجرد وجودك في الدنيا لا أكثر ولا أقل!
قرأت خبر ما تقدم في إحدى المجلات الأوربية. وقد ختمت المجلة الخبر بقولها: (وقد سافرت المغنية بعد ذلك إلى باريس، فأراد هتلر أن يضع طائرة تحت تصرفها. أتراه قد وقع في الغرام؟ أي خلاصة البشرية إذا قنع هتلر منذ الآن بمكان رحب بالقرب من المرأة!)
واحب أن أعلق أنا على هذا الخبر بقولي: أترى المرأة تنتقم دائماً من ذلك العظيم الذي قضى حياته في البعد عنها وكرس جهوده لغير التفكير فيها؟ أو ترى الرجل العظيم الذي طرح المرأة من حسابه وأخرجها من حياته يعيش إلى آخر أيامه قانعاً ناعماً أم أنه يشعر فجأة في لحظة من اللحظات أن امتلاك العالم بأسره لا يعدل أحياناً امتلاك قلب امرأة؟!.
توفيق الحكيم
الدين الصناعي
للدكتور محمد البهي
الأستاذ بكلية أصول الدين
تحت هذا العنوان كتب الأستاذ أحمد أمين في مجلة الثقافة رقم 22 بتاريخ 11 ربيع الآخر سنة 1358 - 30 مايو سنة 1939 يشرح الدين الصناعي ويحدده
وقد تناوله من ناحيتين: من ناحية ماهيته ومن ناحية أخرى وهي مظهره العملي أو

ناحية التدين به
فأما من الناحية الأولى فقد وصفه بأنه (كصناعة النجارة والحياكة يمهر فيها الماهر بالحذق والمران
ويحمل صاحبه على أن يحيا به ويتاجر به ويحتال به . . .
(ويحمله على أن يلوي الدين (دين الحق!!!) ليخدم السلطان ويخدم السياسة . . .
أما مظهره العملي في نظره فهو: (. . . عمامة كبيرة وقباء يلمع وفرجية واسعة الأكمام
هو نحو وصرف وإعراب وكلام وتأويل . . .
و (الشهادة) فيه إعراب جملة وتخريج متن وتفسير شرح وتوجيه حاشية وتصحيح قول مؤلف ورد الاعتراض عليه
وأخيراً هو. . . تحسين علاقة صاحبه بالإنسان لاستدرار رزق أو كسب جاه أو تحصيل (مغنم أو دفع مغرم
وعهدي بكتابة الأستاذ أحمد أمين أن تكون لغاية إيجابية تقصد، وعهدي بأسلوبه في التفكير أن يكون مرتب الفِكرِ يصل بالقارئ إلى تلك الغاية بدون مشقة أو تكلف
قرأت مقال (الدين الصناعي) مرة ثم تكررت القراءة لأقف على الغاية العلمية التي يبغيها الأستاذ الكبير، لأن اتجاهه العلمي في أبحاثه هو الذي حملني على أن أطلب هذه الناحية أولاً فلم أخرج منه بالعناصر التي تكون الطابع العلمي للبحث والتي من بينها بل وأخصها (الاعتبار العام)
فما ذكره على أنه مظهر (الدين الصناعي) ليس له صفة العموم في كل بلد تدين بالإسلامية أو تدين أكثريته به. فا (العمامة الكبيرة والقباء الذي يلمع والفرجية الواسعة الأكمام) ليست
من مظاهر التدين الحقيقي أو الصناعي بين مسلمي الهند أو مسلمي شرقي أوربا مثلاً في عصرنا الحاضر. ولم اعرف أن (النحو، والصرف وإعراب الكلام والتأويل) رمز العمل الذي يتناوله محترف الدين أو صاحب الدين الصناعي في أي بلد إسلامي، في مصر أو في غيرها من البلدان الأخرى، كما أعرف أن (الشهادة) عنده هي (إعراب جملة وتخريج متن وتفسير شرح وتوجيه حاشية وتصحيح قول مؤلف ورد الاعتراض عليه).
نعم قد يتناول الباحث اللغوي مثل هذا العمل، كأي راغب آخر في بحث موضوع بعينه قد يتناوله ويعالجه من جهات لا تلذ لبعض القراء أو يقبل ميل السامع إلى الإصغاء إليها، ولكن ذلك لا يدل على تفاهة البحث في ذاته فضلاً عن دلالته إذا ما تناوله رجل ينتسب إلى الدين على أنه مظهر تدينه أو عنوان احترافه بالدين
الأستاذ أحمد أمين، كثيراً ما كتب أيضاً في بعض النواحي الاجتماعية والخلقية في مصر، وكثيراً ما حاول في كتابته علاج تلك النواحي بعد الدقة في وصفها وتشخيصها. لهذا عمدت بعد عجزي عن محاولة جمع العناصر التي تكون الطابع العلمي من مقاله (الدين الصناعي)، إلى التفتيش عن الظاهرة الاجتماعية التي يريد الأستاذ علاجها أو عن المعنى الخلقي الشائع الذي يبغي شرحه ليوقف قراءه على شيء جديد لا يستطيع الرجل العادي أن يهتدي إليه
عرضت أمام نظري، مستعيناً بالمشاهدات، المظاهر الاجتماعية المألوفة في مصر التي يبدو فيها النقص والتي قد تؤخذ على أمة تطلب الكمال في معاني المدنية، وعرضت كذلك كثيراً من الصفات السلبية للخلق السائد فينا
حقاً وجدت (تحايلاً) وكفاحاً من طبقات مختلفة حول هذا التحايل. وجدت تحايلاً باسم (البحث العلمي) وتحايلاً باسم (حرية الفكر) وتحايلاً باسم (الديمقراطية) وتحايلاً باسم (الدين). كل طائفة تبغي قضاء رغباتها الخاصة، وكل تسلك هذه الطريق، طريق (التحايل)، مستغلة سذاجة الشعب وجهله. فكما يسند (التحايل) و (الاحتراف) (والاتجار) إلى الدين فينشأ بهذا الإسناد ما عنون الأستاذ با (الدين الصناعي) يجوز أن تسند كذلك إلى نظائر الدين مما يحترف به في مصر ويتحايل ويتجر به فيها من البحث العلمي، وحرية الفكر، والديمقراطية. . . الخ ويصح أن ينشأ أيضاً عن هذه النسبة ما يسمى بالبحث العلمي

الصناعي، وحرية الفكر الصناعية، والديمقراطية الصناعية. . . الخ
فليس إذاً (التحايل) الذي جعله الأستاذ مقوم الدين الصناعي ومكوناً لأهم جزء من ماهيته خاصاً (بالدين الصناعي) ولا يتحتم أن يكون مصدره صاحب العمامة الكبيرة والقباء اللامع والفرجية الواسعة الأكمام، ولا من يتناول الأبحاث اللغوية أو يشرح التآليف، بل يصح أيضاً أن يكون صاحب البحث العلمي الحر أو من يهيم بأدب الإغريق وفلسفتهم أو خطيب المحافل السياسية
وإذا فالدين الصناعي ليس هو الظاهرة الاجتماعية التي يجب أن تعالج، ولا صاحب العمامة الكبيرة هو الملوم في إحداث هذه الظاهرة، وإنما الذي يجب أن يداوى هو (التحايل والاحتراف) بأي موضوع من موضوعات الثقافة: الدين أو العلم أو السياسة الخ. والملوم في ذلك هو جهل الأمة، وعدم استطاعتها وضع مقاييس صحيحة للقيم الرفيعة.
ولما لم أتبين الظاهرة الاجتماعية التي، ربما، أراد الأستاذ علاجها في (الدين الصناعي) وحده كما لم أنجح في تكوين طابع علمي لمقاله هذا، غلب على ظني أن الأستاذ ربما أراد أن يمتع قراءه بقطعة أدبية، وأن يهيئلهم لذة نفسية من وراء جمالها الرائع، وكثيراً ما يكون ذلك مقصد الأديب في الشرق.
والأستاذ أحمد أمين فوق ما له من الأبحاث العلمية والاجتماعية أديب وفنان!
محمد البهي
دكتوراه في الفلسفة وعلم النفس من جامعات ألمانيا
من أدب العمر
لغة الإدارة. . .
للشيخ حسن عبد العزيز الدالي
وقع في يدي صباح الأمس خطاب لأحد عساكر البوليس كان قد أرسله إلى أبي رحمه الله في سنة 1915 وهو يومئذ عمدة البلد يخبره فيه أن نزاعاً حدث بين أخته وزوجها ويطلب إليه أن يفصل في هذا النزاع، وفي آخر الخطاب يقول: (والحذر من التأخير)! لا أعلم ماذا كان وقع هذه الجملة على مسمع العمدة؛ والغالب أنه حملها باسماً على محمل السذاجة والجهل؛ ولكني أعلم أن هذه الجملة لا توجد إلا في قاموس الإدارة فأين وقع عليها هذا الجندي المسكين؟ لقد كان يعمل في أقسام القاهرة، وكان يلاحظ أن هذه الجملة البليغة لازمةٌ رسمية تختم بها الرسائل والطلبات الصادرة من المأمور إلى الجمهور، فرسخ في ذهنه من طريق القدوة الحسنة أن هذا هو الأصل في التحرير، لكل صغير وكبير!
هل تظن يا سيدي القارئ أن هذه العبارة، سقطت من لغة الإدارة، بعد أن انتشر التعليم، في العواصم والأقاليم، وشاع الذوق الكتابي والخطابي بين كل الناس، من حامل القلم إلى حامل الفاس؟ لقد رجعت إلى دفتر الإشارات التليفونية الصادرة إليّ عن المراكز في شهر مايو الماضي فوجدتها سبعين إشارة، ثلاثة أرباعها ينتهي بهذه الجملة التقليدية: (والحذر من التأخير) والربع الباقي ينتهي بعبارات مختلفة، منها (وإلا فالمسؤولية شديدة)، (فلا تلومون (كذا) إلا أنفسكم)، (ومن يهمل سننظر في أمره بشدة). . . الخ الخ. فقلت في نفسي: عجيب! أيمر عليّ خطاب (الجاويش مرسي) ربع قرن ولم يتول الكتابة من خلاله للمأمورين والمعاونين كاتب من حملة البكالوريا يعلّم سادتنا (الكتاب)، آداب الخطاب، ويفهمهم أن هذه اللهجة وإن صلحت للخفير فلا تصلح للعمدة، لأن العمدة يمثل الحكومة في بلده، كما يمثلها المأمور في مركزه، وإذا كان بينهما فرق فهو أن المأمور يعمل مأجوراً مشكوراً، والعمدة يعمل متطوعاً ومتبرعاً. فهل يجوز أن يكافأ على ما يتحمله من المسؤولية والمشغولية والغرامة، بحرمانه من الأجر والشكر والكرامة؟!
حسن عبد العزيز الدالي
عمدة كفر دميره القديم
التاريخ في سير أبطاله
أحمد عرابي
أما آن للتاريخ أن ينصف هذا المصري الفلاح وأن يحدد له مكانه بين قواد حركتنا القومية؟

للأستاذ محمود الخفيف
حل البارودي محل الشريف وفي البلاد ما فيها من أثر تلك المذكرة التي جاءت في تلك الظروف التي بينا دليلاً على سوء تدبير واضعيها وعلى قصر نظرهم ورعونتهم. ولكن ما لنا نشير إلى قصر نظر الدولتين فيما فعلتا ونحن لا يتداخلنا شك في أنهما كانتا تريان عاقبة فعلتهما، وأنهما إنما أرادتا إثارة الخواطر وزيادة أسباب الخلاف بين الخديو وزعماء البلاد المدنيين منهم والعسكريين، فبهذا يتيسر لهما الوصول إلى الغرض المرسوم
وكان طبيعياً أن يسير البارودي على نهج غي الذي سار عليه شريف، فهو بحكم مركزه بين الزعماء العسكريين وبحكم الظروف التي أدت إلى استقالة شريف، لم يكن أن يحمل نفسه على الهوادة والملاينة، وإلا ففيم كان إحراج شريف ثم إخراجه من الحكم؟
ومن ذلك يتبين لنا أن السياسة التي جرى عليها البارودي في وزارته لم يكن له منتدح عنها، وأن مردها في الواقع إلى مسلك الدولتين وعلى ذلك فمن الظلم أن نرجع باللوم كله على تلك الوزارة فيما ارتكبت من أخطاء، فإن جانباً كبيراً من اللوم بل لعل اللوم كله يقع على الذين دفعوا الوزارة بقبح تدبيرهم وسوء نيتهم في تلك الطريق التي ما لبثت أن رأت نفسها فيه تخرج من أزمة لتدخل في أزمة غيرها
وهكذا تدفع الدولتان البلاد في طريق العنف والثورة ثم تتهمانها مع ذلك بالفوضى وتجعلان من مبررات تدخلهما القضاء على الفتن والقلاقل الداخلية وإنها لمن صنعهما؛ ولن يكون في صور الظلم أبلغ وأوجع من أن يضرب مضعوف على رأسه فإذا نفر من الضرب وتأوه عد نفوره جموحاً واعتبر تأوهه ثورة. . .!
وكان عرابي وزير الجهادية في وزارة البارودي، وأنعم عليه برتبة الباشوية؛ وهو يقول إنه قبلهما هذه المرة كارهاً، فلولا أنه رأى أن المنصب يقتضي قبول الرتبة ما قبلها. وأنا
أميل إلى تصديقه فيما يقول فليس في الأمر ما يحمل على الريبة في قوله، وهو لا يسوق هذا القول مساق الفخر وإنما يسوقه بين براهينه على أنه لم يكن يوماً يدعى خصومه تحكم الأطماع الشخصية
وأما عن قبوله المنصب فما نظن أنه كان يستطيع أن يبقى بمعزل عن الوزارة وقد صار له في سياسة البلاد هذا الشأن بعد حادث عابدين. وإنا لنعجب أشد العجب للذين يعيرون رجلاً لقبوله منصباً من المناصب ويتخذون ذلك القبول دليلاً على أنه يطلب الخير لنفسه فحسب، فهل كانت المناصب عند الناس جميعاً وسيلة إلى إشباع المطامع وجلب المنافع الذاتية؟ وأي شيء يجعل هذا لازمة حتمية للمنصب؟ وأي شيء يمنع من أن يكون المنصب عند بعض الناس وسيلة إلى غاية جليلة شريفة هي العمل للصالح العام؟ وأي قرينة تمنع من أن نسلك عرابياً في سلك هؤلاء الداعين إلى الخير العام والذين يتخذون من المناصب أداة لخدمة المجتمع؟ إن ابسط قواعد العدالة تضع المتهم على قدم المساواة مع البريء حتى تثبت إدانته، فأية إدانة يلصقها بعرابي أولئك الذين عابوا عليه دخول الوزارة؛ إنهم إذ يتهمونه بالسعي إلى صالحه هو لا يعدون بذلك حدود التهمة، فله أسوأ الفروض من موضع البريء من العدالة حتى تثبت إدانته، وما أيسر أن تكال لأي فرد من الناس في غير حساب، وما أصعب البينة على الذين يفترون الكذب وهم يعلمون. . .
إن الذين يرون في الحكم مغنماً لهم إنما هم أولئك المفرطون في حقوق أوطانهم الممالئون للدخلاء فيها، والمستضعفون من الرجال، والذين في قلوبهم مرض، والمغترون بالحياة وأوهامها، والمالئون بطونهم كما تأكل الأنعام؛ أما أولو النخوة والعزة من الرجال فلن تلهيهم عن دوافع نفوسهم الأبية الحياة الدنيا وزينتها؛ ولن تطفئ الحمية في قلوبهم ما يحلي بها الأغرار صدورهم من أوسمة، أو تزدهي أنفسهم الكبيرة الرتب والألقاب، أو يزيغ أبصارهم بريق الذهب، لأن هذه جميعاً عندهم مظاهر وهم يحتقرون كل مظهر، لأنهم يطلبون الجوهر. ومن كان في هذه الدنيا كبيراً بنفسه فما بحاجة إلى أن يتكبر، ومن تكبر وهو بنفسه صغيراً فما زاد على أن أضاف إلى حقارة نفسه ما هو أحقر
ولقد كان عرابي كبير النفس كبير الآمال فكان المنصب عنده باباً من أبواب الجهاد

ووسيلة من وسائله؛ فما يعيبه أن يدخل الحكم وإنما يعيبه أن يعرض عن الحكم وعلى الأخص في
. . .مثل تلك الشدة التي ساق الطامعون إليها البلاد على غير إرادتها
على أن الناس ما كانوا ينظرون إلى عرابي نظرتهم إلى وزير من الوزراء فحسب، بل كانوا ينظرون إليه نظرتهم إلى الرجل الذي تعلق عليه الآمال فيما كانت البلاد مقبلة عليه، وإنما كانت تقوم نظرتهم على ما بلوا بأنفسهم من إخلاصه، وما شهدوا من بسالته وحميته، وعلى ذلك فما زاده المنصب في أعين الناس مثل ما يطلبه غيره ليزداد به من جاه أو شرف، وأي شرف يطمع فيه الرجل هو أعظم من أن يكون في بني قومه معقد الرجاء وموضع الثقة؟
ولقد كان عرابي في الوزارة إذا أردنا الحق أكثر من وزير فكانت الكلمة كلمته وكان الرأي رأيه، أراد ذلك أم لم يرده، ونقول أراده أم لم يرده لأنه بات في الزعماء رجلاً ليس للزعماء مثل ما له في قلوب الناس من مكانة وسحر. وهل كان سعد زغلول في كرسي الرياسة كسواه من رؤساء الوزارات، ليس لشخصه من تأثير في قلوب الناس إلا ما تبعثه هيبة المنصب ورهبته؟ أم كان سعد في الناس رجلاً غير ما ألفوا تحف به هالة من أمجاده فتخلق له شخصية وسطاً بين الملائكة والناس؟ وهل ازداد سعد بالمنصب شيئاً في أعين الناس أم أن المنصب هو الذي ازداد به علواً ومهابة؟ على هذا القياس صور لنفسك شخصية عرابي بين قومه يومئذ مع تذكر الفرق بين جيل عرابي وجيل سعد ومواهب عرابي
كان على وزارة البارودي بادئ الأمر أن تواجه أزمة الميزانية؛ وكان عنصرا هذه الأزمة الدولتين المتجنيتين على البلاد ونواب الشعب الغاضبين لكرامة بلادهم المتمسكين بحقهم أمام باطل أعدائهم، وكان من الطبيعي أن تعمل وزارة البارودي أحد الزعماء العسكريين والتي كان عرابي نفسه أحد وزرائها، على تحقيق آمال البلاد، بل لقد كان أمراً حتمياً على تلك الوزارة أن تفعل هذا فعلى هذا الأساس كان قيامها بالحكم قامت وزارة البارودي على إرادة الأمة ما في ذلك ريب؛ فإن النواب حينما أظهروا أسفهم لشريف أن يكون المجيب لمطالبهم رجلاً غيره، وحينما ذهبوا إلى الخديو يشكون إليه أمرهم كانوا معبرين في ذلك عن مشيئة الأمة، وآية ذلك أن الخديو لما سألهم بأي حق يطلبون إقالة شريف كان جوابهم (هذه إرادة الأمة)
ولم يسع الخديو إلا أن يذعن - ولكن على طريقته - لإرادة الأمة هذه، فدعا شريفاً والقنصلين الأجنبيين وعرض عليهما الأمر فلم يكن أمام شريف غير الاستقالة. ثم إن الخديو دعا إليه زعماء النواب وسألهم كما أسلفنا عمن يرضون لرياسة الوزارة، فبعد أن بينوا له أن ذلك من حقه اختاروا البارودي واشترطوا أن يكون قيام وزارته على أساس إجابة مطالب النواب
ولقد أضاف الخديو إلى أخطائه خطأ جديداً بقبوله هذا الأساس فمن حقه وحده اختيار رئيس وزرائه، ولكنه خطا حتى هذه الخطوة بإشارة القنصلين فلقد أوهماه أن في هذه خيراً له، فبه يخلو من التبعة ويلقيها على عاتق النواب والزعماء. . . ولكنهما في الحقيقة كانا يريدان أن يوسعا مدى الخلف بين الخديو والبلاد؛ ومن السهل عليهما أن يوحيا إليه على لسان أعوانهما بعد ذلك أنه أصبح وليس له من الأمر شيء
على أن مالت وكلفن وأشياعهما ما لبثوا أن أذاعوا في مصر وفي أوربا عن الوزارة كل سوء ورموها بكل باطل من الاتهام، فهي وزارة عسكرية محضة لا تعترف سياسة أو تنظر في عاقبة أمر من الأمور وإنما قوام أعمالها العنف والثورة؛ وهي وزارة لا تحسب لأي سلطة غيرها حساباً فليس للخديو وجود فعلي أمامها، وليس للأجانب على ما لهم في مصر من ديون أي حق أو شبه حق. . . إلى غير ذلك من اللغو والإفك
أما عن عرابي نفسه فقد خرج بأوفر نصيب من التهم الباطلة، ومن هذه التهم ما عزي إليه على لسان جريدة التيمس أنه هدد شريفاً وأنه شهر سيفه في وجه سلطان باشا رئيس المجلس وهدده بتيتيم أطفاله. ولقد بلغ من رواج هذه الإشاعة أن أثبتا ماليت في يومياته، بل لقد أثبت ما هو أشد خطراً منها ألا وهو أن الخديو ما قبل استقالة شريف إلا تحت تأثير تهديد لا يقل عن هذا
ولقد استاء سلطان من هذه الفرية وحاول جهده تكذيبها. يقول مستر بلنت في مذكراته: (وقد ذهبت إلى منزل سلطان باشا فوجدت فيه طائفة كبيرة من النواب

وكثيرين من ذوي الحيثيات والمكانة في مصر وهم: الشيخ العباسي وعبد السلام باشا المويلحي وأحمد بك السيوفي وهمام أفندي وشديد بطرس أحد كبار النواب الأقباط وغيرهم. وقد أنكر هؤلاء جميعاً هم وسلطان باشا أنهم عملوا تحت تأثير أي تهديد، وتكلم سلطان باشا بلهجة شديدة
مستنكراً القصة التي اخترعت عنه وقال: إن أحمد عرابي إنما هو بمثابة ابن لي، وهو يعرف حقي وواجبه، فمكانه في وزارة الحرب، ومكاني في البرلمان، وهو ينتصح لرأي وليس يعتدي على حقوقي. أما من حيث استلاله السيف أمامي فهو لا يفعل ذلك إلا إذا رأى أعداء يهاجمونني، وهذه حكايات لا يصدقها رجل يعرفنا نحن الاثنين وهي حكايات كاذبة لا أساس لها من الصحة، ولك أن تثق أن أصغر نائب هنا يمثل الناس يحسن الحكم على ما يحتاجه أولئك الناس أفضل من أعظم جندي. ونحن نحترم أحمد عرابي (لأننا نعرف أنه صادق الوطنية عظيم المواهب السياسية وليس لأنه جندي . . .
ثم يستطرد بلنت قائلاً: (وقد نقلت كلمات سلطان باشا هذه عن مذكرة لي أثبتها فيها يومئذ، وقد أنحى الشيخ على ماليت لنشره مختلف الأباطيل وطلب مني أن أنقل إليه الحقائق وأن أبلغها لغلادستون وأنشرها في الصحف، وقد أرسلت الحكاية بالتفصيل إلى التيمس، ولكنها لسبب لا أعرفه لم تنشرها، وأرسلت تلغرافا بالمعنى نفسه للمستر غلادستون ثم أرسلت خطاباً مستفيضاً ضمنته رأيي في الموقف كله)
هذه هو كلام بلنت عن هذه الفرية، وما أجمل ما وصف به سلطاناً عرابيا فهو لا يحترمه لأنه جندي ولكنه معجب بوطنيته مقدر لمواهبه السياسية، ومثل هذا الكلام لا يصدر عن مثل سلطان عن خوف أو تملق، فقد كان أكبر من أن يخاف وأعظم من أن يتملق؛ وهو بطبعه شديد الكبر كثير المباهاة بجاهه والاعتزاز بثروته؛ بل إن صدور هذا الكلام عن رجل هذه هي صفاته إنما يزيد في قيمته ويجعله منه وثيقة خطيرة ندعو الذين يجهلون حقيقة عرابي إلى قراءتها في روية وحسن طوية
ويذكر بلنت أن التيمس لم تنشر تكذيبه لسبب لا يعرفه، والأمر في ذلك ظاهر لا يحتاج إلى طويل شرح، فالتيمس وإضرابها من الصحف الإنجليزية تخدم قضية الاستعمار أبداً، وهي خير من يدرك نيات الساسة في بلدها وأول من يطلع على حقائق الأمور، فلم تكن تجهل يومئذ ما تبيته إنجلترة لقضية الأحرار في مصر، بل وما تنتويه السياسة الإنجليزية العليا من الاستيلاء على مصر قبل أن تستولي عليها فرنسا، ولذلك فهي ما كانت لتنشر رأياً مثل هذا الرأي يأتي على لسان رجل مثل بلنت فيكون به من الإنجليز شاهداً من أهلهم عليهم
(يتبع)
الحفيف
ترانيم وتسابيح
تمثال العذاب
وحي الطيف والعزلة والسلون
(!إلى نورها في ظلمات القيد)
للأستاذ محمود حسن إسماعيل
ضَمِئتْ روحي فلا كأ ... سٌ ولا نَجوىَ سرابِ
غيرُ طيفٍ في حِمى العُزْ ... لةِ مَجنونِ التَّصابي
رُحتُ أجثو بين كَفَّيْ ... هِ فَحَيَّاني تُرابي
وأَمحَتْ ذاتي وأَصبَح ... َتْ كصمت في خراب
وانتَهى حِسّي فأطرَقْ ... تُ كتمثالِ العَذابِ
مَرَّت الأحلام بي حَيْرَى فمالتْ
وجَثَّتْ حيناً وريَعَتْ فتوارتْ
وهيَ تبكي غمغمتْ حولي وقالتْ:
!يا نَبيَّ الصمتِ! يا نَعْ ... شَ الهوى! يا ابنَ الترابِ
أترع الأقداحَ واشربْ - نَغَمَ الحُلُمِ المُذابِ
. . .قلتُ: مات الصَّفوُ! يا أح ... لام خَلِّيني وما بي
يا ابنة الفتنةِ والنَّق ... ديس يا فجر الأماني
يا ابنة الحيرةِ والأهْ ... والِ يا جُرحَ زماني

يا صديَّ في قَلبي الث ... أَئرِ مَفطور الحنان
يا غراماً هُوَ قُدسُ ... م الله يجري في كياني
مَلَّتْ العُزلَةُ شكوا ... يَ ومَلَّتني الأغاني
فطرحتُ النّاي عني وصَمَتُّ
ودَعوتُ الطيفَ مِنيَّ وانتظرتُ
فنأى عَنيَّ سناهُ فَبَكيتُ
وأَذَبتُ الشِّعرَ من دمْ ... عي وشجوي وهواني
فإذا مرَّ يَغنِّيهِ ... عَلَي دَنياكِ فانِ
فاخشعي فهو عبادا ... تُ الهوى، نُسك الجنانِ
(وزارة المعارف)
محمود حسن إسماعيل
رد التحية
إلى شقيقي أكرم. . . وحي زهرة طوى عليها إحدى رسائله
إلي ليشعرني بربيع دمشق
للأستاذ أمجد الطرابلسي
بعثتِ هوايَ لو أن الهوى ... خوَت في فؤادي أنوارهُ
وأذكيت في الصدر نار الحنين ... لو أن الحنين خبَتْ نارهُ
وهجت به ذكريات الصِّبا ... لو أن الصبا مات تذكارُه
وأذكرتِني الأمس لو عاقني ... عن الأمس يومي وأعذارُه
وأهلي. . . ولكنَّ أهلي هُمُ ... أحاديثُ قلبي وأخباره
وصحبي. . وكيف وهم سامري ... إذا مُلَّ ليلي وسُمّاره
ولكنني كنت أعصي القريض ... إذا ضجَّ في الصدر زخاره
أهدهِدُهُ بكذوبِ المنى ... فيُغضي وقد ماج موَّاره
فأيقضته بعد طول السُّباتِ ... تُجَنُّ بِكَفَيهِ أوتاره
وفجرتِهِ جدولاً ناغماً ... تَغَنَّي رباه وأطيارُهُ
أيا زهرة الشوق لا صَّوحتْ ... مغاني حماي وأدوارُه
ودامت على الدهر جناته ... تمُدُّ لها الخير أنهارُه
لقيُت بك الأهل بعد الفراقِ ... فبُثَّ الهُيامُ وأسرارُه
رأيتك فإنجاب هذا المدى ... وزالتْ دجاهُ وأستاره
فذا منزلي في حواشي الحِمى ... تلوحُ لعَيْنَيَّ أشجاره
تَناغى بأذني عصافيرُهُ ... وتلمعُ في النَّور أثمارُه
ونافورة الماءِ في ساحِهِ ... لها نغمٌ لذَّ تكراره
تروم السحاب فيلوي بها ... نسيمٌ تمايلَ خَطَّارُهُ
يحطُّ على حوضها طائرٌ ... ويمضي وما بُلَّ منقارُهُ
ومن حولها اخوتي ضمَّهم ... صفاء الإخاء وإيثارُهُ
إذا مرَ حوافي ربيع الشباب ... تولى الوقار أخطارهُ
وإن ضحكوا ضحكت حولهم ... طيور الغناء وأزهارُه
أمشعرتي بالربيع الضحوك ... تَلَد ضحاه وأسحاره
ومنسيتي وحشتي والنوى ... وبيناً تطاول إمرارُهُ
شكرتكِ زائرة برَّةً ... للهفانَ شاقته زُوَّارُهُ
شَققتِ إلى فؤاد النَّوى ... وليلاً تلاحظ أقدارهُ
وتيهاً ترامت مفازاتهُ ... وموجاً تواثَبَ هَدارُهُ
فجئت عليك شحوب الطريق ... وفيك من الجهد آثارُهُ
فحييْت فيك الرسول الأمين ... تَشقُّ على الصبر أسفارهُ
وقبلتُ فيك الوفاء الجميل ... إذا نسي العهد غدارهُ
أيا زهرتي جاد زهر الحمي ... كريم السحاب وثَّرارُه
بلغت فمن مُبلغ جيرتي ... سلاماً تَضوَعَ معطارُه
نأيت عن الدار لا عن قِلى ... فأحلى مغاني الفتى دارهُ
ولكنني سِرتُ يَحتَثَني ... طموح الشباب وأوطاره

تخيرتُ بُعدي ولو أنني ... هُديتُ لما كنت أَختاره!
(باريس)
أمجد الطرابلسي
رِسالَة الفَّن
الشيخ سيد الصفتي
لفظ أنفاسه الأخيرة صبيحة الأحد الماضي وترك فنه وديعة غالية بين يدي التاريخ
للأستاذ محمد السيد المويلحي
لعل الفنان الحق هو أقرب الناس إلى قلب الطبيعة وروحها، ولعله أقدرهم على معرفة أسرارها وأخبارها فهو وحده الذي يترجم لها أسرارها وكلامها، وهو وحده الذي يصور حسنها وجمالها التصوير الرائع الصادق الذي يحملنا على العجب والإعجاب ولعل هذا الفنان هو أقرب الناس إلى الشذوذ والخروج على تلك الأوضاع البشرية التي وضعت للحد من الطباع والغرائز والرغبات. فله دستوره وحده. . . وله طباعه وتصرفاته التي يفرضها على الناس فرضاً. ثم هو بعد هذا أو قبله. . . الإنسان المرهف الحس، العظيم النفس، الممتلئ نبلاً ورجولة وكرماً
وسيد الصفتي من هؤلاء الذين أضفت عليهم الطبيعة كل ما فيها من فن وجمال وإقبال وشذوذ حتى خط لنفسه في كتاب الحياة وسجل الخلود صفحة نيرة مشرقة سوف يتلوها على سمع الأجيال المقبلة
كان قصير القامة يلتهب نشاطاً ويمتلئ قوة، وجبروتاً. . . يزين رأسه (عمامة) صغيرة تمتاز برشاقتها وأناقتها، (وشالها) الحريري المفتول الذي يعطيك صورة واضحة لأناقة صاحبه وحرصه الدائم على أن يظهر في أجمل المناظر
ابتدأ حياته قارئاً يجيد تلاوة القرآن فعُرف وسعى الناس إليه، ولكنه رأى أن يكون كالشيخ إسماعيل سكر قارئ مولد ومادحاً للبيت الشريف وصاحبه (ص)؛ فخرج على الناس سنة 1902 بهذا اللون الجديد الذي قربه اكثر من ذي قبل إلى نفوس المصريين، وما مضت سنة حتى زاحم الشيخ إسماعيل نفسه. . . وتفوق عليه تفوقاً محسوساً. وفي سنة 1904 انظم إلى بطانته الشيخ إبراهيم المغربي الموسيقي المعروف الذي لحن له كثيراً من الموشحات الجديدة التي كانت السبب فيما ناله الشيخ سيد من شهرة طائرة، ومن ارتفاع سريع لم يكتف به وقد ذاق حلاوة الشهرة والإقبال، فكان يقرأ أول الليل قراناً ثم يثني بالقصائد النبوية، حتى إذا كان الهزيع الأخير من الليل غنى أدوار الحمولي ومحمد عثمان وغيرهما بمصاحبة العود. . .
أتراه قد اكتفى بهذا التجديد الغريب. . . لا. . . ولعله رأى أن هذا الخلط ينفر الناس فترك القرآن والقصائد النبوية وظهر عام 1905 على تخته الموسيقي القوي يرسل على الناس سحر صوته وقوة فنه حتى تحكم في سوق الغناء وفي مسامع الشعب، فكان يشتغل تباعاً طول أيام السنة. ولكي نعطي القارئ صورة قريبة عن شهرة هذا الرجل العجيب في صدر شبابه نقول إنه استمر خمس سنوات كوامل يغني دون أن ينقطع ليلة واحدة. . . ومثل هذا في الشام!
كان صوته مركباً من خمسة عشر مقاماً تقريباً (12) بريتون (3) باص، وكان يمتاز بسلامة تامة وبأداء بارع لم يعرف (النشوز) طول حياته. ولعله من الأصوات النادرة التي كافت (تَفرْش) في غنائها حتى لتسمعها الآلاف بوضوح وجلاء.
كان أول موسيقي شرقي اعتنى (بالبروفات) اعتناء عظيماً، فكان يشتغل طول نهاره فيها دون أن يتعب أو يمل أو يشكو ألماً وتوعكاً، ولعل سحر الذهب والإقبال والمجد هو الذي كان يمد هذا الرجل بالقوة الخارقة التي لا يكاد العقل يصدقها. وإلا فهل يصدق العقل أن بشراً يشتغل أغلب يومه وأكثر ليله دون أن يستريح إلا ساعة أو ساعتين. . .؟!
عبّأ في حياته أكثر من أربعة آلاف (اسطوانة) وهو رقم تاريخي لم يصل إليه مطرب ولا مطربة في الشرق والغرب. وقد اكتسب منها الآلاف، ولكن إسرافه أضاع كل شيء إلا ذكره ومروءته وكرمه. . .
نعم باع ماله وأضاع آلافه ليشتري بها مجده وخلوده. وما بالك برجل كانت اسطواناته

توزع في الشرق والغرب كأنها الغذاء الذي لا يستغني عنه حتى ظن (الشام) أن الصفتي هذا لا بد أن يكون مارداً لا تقع العين على نهايته. فلما سافر هناك ورأوه بحجمه الضئيل النحيل خابت ضنونهم واعتزموا ألا يسمعوه إلا في حفلة أو حفلتين من قبيل (الفرجة والاستطلاع). وكان الشيخ رحمه الله قد علم بهذا، فأعد العدة لحفلة الافتتاح، ثم راح يشدو ويرسل سحره وقوة فنه في عقد سحرية على هؤلاء الذين يظنون أن القوة في (العرض والطول) فماجوا وهاجوا وتقبلوا وصرخوا والشيخ يضحك، حتى إذا تأكد من النصر أراد أن ينتقم فاسكت التخت وسكت، ثم نزل وصرح للمتعهد بأنه يرغب في السفر والعودة إلى مصر بعد (يومين) لأنه قصير لا يحسن الغناء. ولا تسل عما حصل من الشفاعات والتوسلات

ولكن الشيخ رحمه الله كان ظريفاً خفيف الظل وقد أراد أن يلهو ويضحك فكلف المتعهد أن يأمر السامعين بكتابة (يفط) بهذا الشكل حرفياً (الشيخ سيد الصفتي طويل. . . الإمضاء) فنفذ الأمر في الصباح واجتمعت لدى الصفتي كل وسائل البهجة والسرور، فاستمر خمس سنوات لا يستريح فيها ليلة واحدة اكتسب فيها الآلاف. فلما رجع إلى مصر لم يرجع (بمليم واحد منها). كان في أخريات أيامه يعيش عيشة فلسفية زاهدة في كل شيء فلم يكترث (كغيره) لأن محطة الإذاعة تناسته وأهملته، بل كان يحيا حياة الأسرة الهادئة: حياة الرجل الذي شبع وشبع حتى مل كل ما يتهافت الناس عليه

. .لقد فُني سيد كما فُني غيره، لكن فنه سيبقى لأنه من الخلود نشأ وإلى الخلود انتهى .

محمد السيد المويلحي

كامل الخلعي وناحية الشذوذ في حياته

بمناسبة ذكراه الأولى

للأستاذ محمد يوسف دخيل

ينقضي العام الأول على مغادرته الدنيا، ومع ذلك فهو لا يزال مجهولاً، وسيبقى مجهولاً إلى الأمد البعيد؛ لا لأنه كان شخصية تافهة ضئيلة الأثر في نفوس الجماهير، ولا لأنه كان غامضاً يمز على إفهام الناس كشف حقيقته، بل لأنه ظهر في عصر من الغموض والركود، بحيث لا يعني الجماهير بغير مظاهر الحياة وأشباحها البارزة للأبصار المجردة. ولو كانت الحياة الفكرية ذات وضع يمكن أن يحسه الناس في مصر لما مرت عليهم صورة من صور الأحداث الشاذة دون أن يتفهموا ويستكشفوا غامض الشذوذ فيها. وإذن لحفلوا بحياة (كامل الخلعي) لا من الجانب الموسيقي، فحسب، بل من جانب لم يعن به القوم في حياة هذا الفنان: وهو الجانب الفلسفي.

لقد كان (كامل الخلعي) صاحب رسالة خاصة في الفلسفة، لا أدري أكانت في كنهها فوق متناول العقلية المعاصرة، أم أن الناس لم يحفلوا بها عامدين لانصرافهم إلى حياة المادة الهينة بعيدة عن الفكر، وما يحيط الفلسفة من غموض، وما يستلزمه بحثها من تكاليف.

وسواء جهلت الجماهير شخصية (كامل الخلعي) عن عمد أو امتنع عليهم فهم رسالته في الفلسفة، فهو قد غادر الدنيا تشيعه أسراب من سحائب الغموض وثوى في مرقده بين صبابات من مجاملات الأقلام جافة الدموع

كان (الغموض) هو شعار الفلسفة التي انطبعت بها حياة (كامل الخلعي) ولذلك ظل الناس يجهلون حقيقته حتى أقرب الناس إلى نفسه. وقد كان مسرفاً في الحرص على أن تفيض روحه الفلسفية على كل مجهول. وفي هذا المنحى الدقيق تلمس الإيمان الصحيح في عقيدة (كامل) وتحس تمكن الدين من نفسه لأنه رغب عن متاع الدنيا واستطاب أن يجوع ليختفي عن سمعه صوت الجياع حتى لا يثير عواطفه توجع الغير وآلامه. فيكون من الأمور العادية عنده أن يدفع بكل ما في جيبه لمستجد شعر بمرارة حاجته. ثم يعود إلى بيته ماشياً على قدميه، وليس عند أولاده طعام اليوم، وكلما نازعه الإحساس بالندم أمام عسرته لتفريطه في قوت أولاده تذرع بقوله تعالى (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)

استطاع (كامل الخلعي) أن يفهم الدنيا فهماً صحيحاً في دقة وإمعان، واستطاع أن يستوعب المجتمع ويتفهم نواحي التقارب والتباعد من حياة الأفراد في بيئاتهم المختلفة، وأن يندمج في الجماعات اندماجاً كاملاً. ومع ذلك لم تستأثر به بيئة دون أخرى، لأن العقلية الشاذة التي تهيأت لهذا الفنان العبقري كفلت له أن يهتضم البيئات دون أن تجتذبه إلى صميمها واحدة منها، ولهذا كان له عديد من الشخصيات التي لو وجد صاحبها في غير مصر لانصرف لدراستها علماء النفس والفلاسفة

إذا أثيرت في مجلس ذكرى (كامل الخلعي) انطلق المتحدثون في تناول ذكراه بشتى أنواع الحديث وليس فيهم من يضع إصبعه على نقطة الصواب من أحاديث المجلس. . . وأغلب ما يجتمع عنده حديثهم أن الرجل كان مخبول العقل! وهي كلمة طالما ترامت إلى سمع (كامل) وهو حي يرزق، فكان يبتسم لها في اطمئنان غير مبالٍ بما يذهب إليه الناس في شأنه من مذاهب. ذلك لأنهم ما كانوا يجدون لأنفسهم مخرجاً من التفكير في عقلية (كامل الخلعي) إلا أنه مخبول ذلك الذي يطوف الحارات والأزقة باحثاً عن الكلاب الضالة والقطط المشردة ليدفع إليها من الطعام ما يباعد بينها وبين الجوع

استقبل كامل الدنيا طفلاً لعوباً كما يستقبلها أترابه من أبناء الذوات والمترفين. ولكنه لم يلبث أن اصطدم بأول حادث هز عواطفه البكر في مستهل حياته. لم يكن قد تجاوز الخامسة حين بدت نذر الثورة العرابية، وكان والده يومئذ من ضباط الجيش المقيمين بالإسكندرية. ففي ساعة واحدة صدرت الأوامر بتأهب الجيش، ولم يجد الضابط الباسل فرصة لتوديع ولده الطفل واكتفى بأن بعث إلى منزله (بكوم الشقافة) من نقل زوجه وطفلها الصبي سريعاً إلى دمنهور مستقر العائلة. والطفل المبكر في نموه العقلي يستطيع أن يحس هذا الموقف كما أحسه (كامل) إذ أدرك أن والده الضابط قد لا يعود إليه لأن القتال قد بلغ حماسته بين المصريين والإنجليز. ولم يشك كامل في أن والده قد لقي مصرعه في خط النار عند كفر الدوار، ولكن مفاجأة أخرى اصطدمت بها أعصابه الغضة بعد انتقال ميدان القتال إلى التل الكبير وبعد عام كامل فإذا بالضابط يعود إلى أسرته حياً بعد أن أدى في سبيل الوطن واجبه، وأن انتهت الحرب على غير ما يبغي الأحرار

وبالرغم من أن (كاملاً) قد استعاد الحياة في كنف والده بعد يأس من لقائه، إلا أن الحادث لم يغادر ذاكرته ولم يزايل الأثر أعصابه، بل بقيت ذكرى هذا الألم متغلغلة في نفسه وصدره فحولته إلى مخلوق كثير الدموع دقيق الإحساس رقيق الشعور بكل ما يحيط به من ألم وسرور، يبكي لبكاء الباكين ويفرح لسرور الفرحين

وفي القاهرة بدأت المرحلة الأولى لشخصية (كامل) إذ كانت المدرسة أول تجربة أظهرت النزوع المرتكز في عقليته، وهو عصيانه لكل نظام يحد من الحرية وإن أوجبت هذا النظام طبيعة الوجود. وقد جنت هذه النزعة على (كامل) في حياته ومستقبله إذ قطعت عليه طريق الدراسة التي يلتمس من ورائها المستقبل المادي في الحياة، فما انتهى من دراسته الابتدائية حتى تمرد على هذا النوع من التعليم المحدود في نطاق البرامج

وصادفته صدمة أخرى أكرهته على التشرد بعيداً عن حضانة الوالدين، إذ تفرق ما بين هذين الوالدين من رباط. فانطلق كامل يضرب في الأرض أفاقاً يلتمس الحرية والتعزي عن فجيعته في حضانة والديه. وعبثاً حاول والده أن يخضعه لطاعته التماساً لدفعه إلى المدرسة يستكمل دراسته. واستقر الفتى بعد ذلك على اختلاس التردد على مكتبة والده في ساعات متقطعة استطاع من ثناياها في مدى عامين أن يقرأ كتاب (العقد الفريد والأغاني) وتاريخ ابن الأثير والجبرتي وطائفة من دواوين شعراء العرب؛ وهو لما يجاوز الخامسة عشرة.

في هذه الفترة كان (كامل الخلعي) يتهيأ لأن يستمع إليه الخاصة مطرباً يحيي موات النفوس ويراه الناس خطاطاً ورساماً قد دق إحساسه بروح الفن. وهو في هذا المجال من الصبا ينطلق بين الجماعات المختلفة: فتارة نراه في مجلس العلماء وأعلام الأدب من طراز (السيد توفيق البكري) نقيب الأشراف يومئذ وقد اصطنع (كاملاً) لنفسه، أميناً لمكتبته؛ وتارة تراه يدارس أساتذة الموسيقى في عصره ويستلهمهم أسرار الفن

وأصوله وقواعده
وفي هذا السياق من التخبط في الحياة، انتقل والده إلى ربه بعد أن ضعف بصره ووهنت قواه. فلم يتريث (كامل) في طريقه بل واصل حياته مستهيناً بكل ما اعترضه في جهاده؛ واستطاع بعقله الخصب أن يصل إلى قمة الشهرة عن جدارة، فكان الأديب واللغوي والفقيه والشاعر والخطاط والرسام بل الموسيقي الذي استهوى القلوب، وتزاحم الأعيان وخاصة
العلماء والأدباء على التماس الاستئثار به في مجالسهم يحادثهم في الأدب ويطربهم بسحر أغانيه العذاب
لقد نضج (كامل الخلعي) قبل الأوان، وشارك أساتذته في ثروتهم من الأدب وعلم الموسيقى، فلم يكن كثيراً على نبوغه المبكر أن يفاجئ الناس وهو في سن السادسة والعشرين بكتابه (الموسيقى الشرقية) فيأخذ به بين علماء الموسيقى في مصر والشرق مكانة (العالم المتمكن) ولكنه ابن السادسة والعشرين
واستطاع (كامل) أن يتعلم من اللغات التركية والفارسية والإيطالية وأن يجيد الفرنسية إجادة الرسوخ. وهو بعد أن تطاول كتابه (الموسيقى الشرقية) إلى أقطار العالم تترامى إليه رسائل المعجبين من كل صوب، مما أوجد في نفسه الرغبة إلى اقتحام مخاطر الرحلات، فزار الشام وتركيا وإيطاليا وفرنسا وتونس، وقضى في كل منها عدة من السنين اتصل فيها بعلماء الموسيقى وأعلام الأدب حتى اندمجت شهرته بشهرتهم وتبادل معهم كل جديد من الرأي في الموسيقى العربية والإفرنجية
ثم هو يستقر بعد ذلك في مصر أستاذاً كاملاً في علم الموسيقى يرجع إليه المشتغلون بها في كل ما استشكل عليهم من غامض الفن. وهو في نفس الوقت يتهيأ لأن يفاجئ المصريين بنوع لم يتعرفوا إليه في الموسيقى من قبل هو نوع الأوبرا والأوبريت التي أبرز فيها شخصية السيدة منيرة المهدية على المسرح الغنائي لأول مرة في التاريخ سنة 1916 تركز بعدها كيان الأوبرا الغنائية في فن التمثيل
ويواصل (كامل) بعد ذلك جهاده الفني بين المسرح و (جوقات الطرب) بما قدم لفن الغناء من تلاميذه النوابغالذين علا نجمهم وإن تنكروا بعد ذلك في محنته. ولكنهم اليوم أصحاب السمعة والصيت دون أستاذهم المجهول الذي ساهم في وضع أساس الفن ومهد له سبيل الحياة. ثم مات عن خصاصة وعاش تلاميذه في رخاء من تركة أستاذهم الفنية، وهي ليست من القلة بحيث تفقد وجودها وسط هذه الفوضى العابثة من الألحان والأغاني التي يخرج علينا بها مطربو هذه الأيام. فقد تجاوزت تركة (كامل الخلعي) من الألحان الأربعين رواية بين الأوبرا والأوبريت موزعة بين فرقة السيدة منيرة المهدية وشركة ترقية التمثيل العربي (شركة مصر للتمثيل والسينما اليوم) وفرقة الكسار. بل من إنتاج (كامل الخلعي)
تزودت أشهر المطربات في مصر فسمون بأغانيه إلى مرتقى مجدهن الذي من عليائه تكونت لبعضهن ثروة تغني مئات من طراز الخلعي الذي مات فقيراً معدماً بعد أن مهد لتلاميذه الطريق إلى الشهرة والثراء. وكان من أشد ما لاقاه (كامل) في أخريات أيامه من مرارة وألم أن مغنية كبيرة ممن لحن لهن (كامل) بلغ بها الشح إلى اغتياله في حق له عندها من ثمن قطعة لحنها لها ربحت منها مئات الجنيهات ضنت عليه بعدها بأجره، وكان من حقه عليها أن تكفيه شر ما لاقى من فقر ومسغبة.
فبقدر ما أسرف (كامل) في العطف على الفقراء والمكدودين وبسط لذي الحاجات كفيهن جحد الناس فضله ونسوا أياديه على الفن وتنكروا لأولاده من بعده. وهو لم يكن يجهل هذا المصير الذي آذنه عند تدهور قواه وسقوطه على فراش الموت، لأنه خبر المجتمع ودرس حياة الجماعات وأمعن في فهم الأخلاق التي تسود القوم من تنكر وجمود وأثرة
كان (كامل الخلعي) مخلوقاً غريب الأطوار في حياته وعقليته. لم يضع كيانه في بيئة خاصة ولم يلتزم جماعة معينة في المجتمع. فبينا تراه نديم العظماء في سهراتم الخاصة وسمرهم الطروب، إذا بك تشهد له في نفس اليوم مجلساً متواضعا بين جوقة من (أولاد البلد) في حي (العشماوي) أو غيره من الأحياء الوطنية في القاهرة، يلقنهم أغانيه الشعبية المرحة التي احتكرها جماعة (الصهبجية) وجوقات الطرب في الأفراح الشعبية. وفي نفس الوقت تكون إحدى دررة الفنية ساطعة الضوء على مسرح من

مسارح التمثيل الغنائي تجتذب بروعتها لب الجماهير. وقد يلزمه فنه الموحي من روح الطبيعة مجالسه إحدى الطبقات من الشعب لتطبيق أغانيهم على لحن صادفه في رواية مسرحية جديدة وقد عهدت إليه (شركة ترقية التمثيل العربي) يوماً بتلحين رواية (طيف الخيال) وفي الرواية مشهد من مشاهد (الحواة) فدفعة إخلاصه لفنه إلى أن يجوب أحياء القاهرة باحثاً عن أحد الحواة ليشركه معه في وضع اللحن الملائم لهذا المشهد. فكان حظه من التوفيق مطابقاً لما سبق له من نجاح دائم في ألحانه المسرحية

وإذ كانت حياة (كامل الخلعي) الموسيقية قد طغت على قيمته العلمية فحجبت عن الجماهير شخصيته كأديب وعالم خصب، فإنه من غير شك كان ينحو في الحياة منحى فلسفياً أفرد له شخصية شاذة ذهب الناس في تكييفها مذاهب شتى. فلم يوفق باحث من كتاب الاجتماع إلى

إبراز شخصية من حيز الغموض والمجهول.

ولقد تناول حديثي عن (كامل الخلعي) مرة مع صديقي الأستاذ أحمد خيري سعيد ناحية شاذة في ميول الرجل ونزعاته الإنسانية، فذكرت لصديقي أنني مرة كنت أرافق (كاملاً) في حي (باب الخلق) وصادفنا صاحب عربة (من عربات النقل) أثقل على حصانه العبء فما كان من (كامل) إلا أن اندفع على الرجل في حالة عصبية ثائرة وأبى إلا اقتياده إلى قسم البوليس! أي جريرة ارتكبها الرجل؟ لقد استعمل القسوة مع الحيوان المسكين وصديقي هذا هو الإنسان الوحيد فيمن اعرفهم الذي وضع الجواب الصحيح لتصوير (كامل الخلعي) في هذا الموقف الشاذ، إذ قرر أن الرجل من غير شك له عقلية فيلسوف ولكن من نوع لا يعيش في هذا الجيل!

هذا هو (كامل الخلعي) الذي كسب من فنه آلاف الجنيهات ومات معدماً إلا عن تركة من الألحان يتناهبها جيل جديد من الملحنين كل مجهودهم أنهم يجيدون نقل الحان (كامل الخلعي) وأغانيه من رواياته القديمة إلى مقطوعات جديدة، ثم هي بعد ذلك ألحان وأغان يكتسب بها ناقلوها ومغنوها أقواتهم ويجمعون ثرواتهم، وأصحاب التركة من أولاد (كامل الخلعي) في عزلة عن الناس وعن الوجود

محمد يوسف دخيل

رسالة العلم

جزيئات المادة

حركة الجزيئات سبب للعمليات الحرارية

للدكتور محمد محمود غالي

في مشاهداتنا اليومية دليل على التقسيم الجزيئي للمادة - حركة (الهابوش) حول المصباح - كيف انتصرت النظرية السينيتيكية في القرن الماضي - قوانين الضغط والحجم والحرارة تجد تفسيرها في الحركة الداخلية لجزيئات المادة - الحرارة عامل أساسي في حركة الجزيئات - الحرارة هي الحركة ذاتها

عندما تطالع مقالاً في صحيفة أو تقرأ موضوعاً في كتاب فيحدثك الكاتب في هذا أو ذاك عن الجزيء وعن الذرة تنظر إلى لهذه الموضوعات كأنها فروض علمية أكثر من نظرك إليها كمسائل عملية وحقائق ثابتة يعترف بها العلم التجريبي. ولكنك إذا أنعمت النظر فيما يعرض لك في حياتك اليومية من أحداث فإنك لست في حاجة إلى اللجوء إلى تجارب العلماء الدقيقة لإثبات الفكرة الذرية، بل إن شيئاً من الملاحظة والتأمل حقيق بأن يثبت لك بأدلة محسوسة أن المادة مكونة من جزيئات متناهية في الصغر تمثل في الواقع وسطاً منفصلة أجزاؤه وحالته غير مستمرة

موضوع يعجب لها لقارئ كيف يتسنى له أن يدرك النظرية الذرية من التأمل في بعض المظاهر التي يصادفها؟ وكيف تحمل هذه بين طياتها أكبر الأدلة على ثبوت بعض القضايا العلمية الدقيقة؟ لذلك نسرد للقارئ طرفاً منها

من العادات الشرقية أن نطلب في بيوتنا من الخادم كوباً من الماء البارد ونطلب منه في الوقت ذاته أن يضيف إليه نقطة أو بضع نقط من ماء الورد، ليكون للماء ونحن نشربه عبير نرتاح إليه. شيء من التأمل يدفعنا إلى فهم فكرة الجزيئات، إذ نعرف ونحن نتجرع ما في الكوب من شراب أن هذه النقطة من ماء الورد التي يعد حجمها

ضئيلاً بالنسبة إلى حجم ما في الكوب من ماء، انتشرت قبل تذوقنا إياه في كل أنحائه، ولم يستأثر جزء من مياه الكوب بها دون الجزء الآخر

هذه الظاهرة من امتزاج نوعين من السائل: الماء النقي المتدفق من المثلجة، وماء الورد المحفوظ في الزجاجة، لا يمكن أن تحدث إلا على حساب انتشار جزيئات صغيرة من ماء الورد بين جزيئات الماء الصافي، لأنه على صغر حجم نقطة الورد أصبحت موجودة في كل مكان بين جزيئات الماء

خاطر آخر: ليس ثمة ما يمنع أن نصب ما في الكوب في حوض كبير مملوء بالماء، إننا عندئذ نشعر بعبير الورد في كل أجزائه ولو بدرجة طفيفة، هذه القطرة الأولى امتزجت في الحوض الكبير الذي نعرف فيه أثرها بعبيرها والذي بات مسرحاً للجزيئات العديدة للنقطة من الورد، تكمن هذه الجزيئات تارة وتنتقل تارة أخرى في أرجائها المترامية ولو أن هذه النقط كانت من الحبر بدل ماء الورد لحدث ثَمَّ تعديل طفيف في لون الماء داخل هذا الحوض لا شك يعم كل أجزائه التي تميل عندئذ إلى الزرقة بانتشار الجسيمات الصلبة الصغيرة للحبر في كل أرجاء الحوض الفسيح

كذلك نرى النوعين من الزجاج الملون، كلاهما أحمر اللون ولكنهما يختلفان في درجة الإحمرار، هذا الاختلاف الشديد في ألوان الزجاج أو أقمشة الملابس هو نتيجة لاختلاف نسبة جسيمات المادة الملونة بالنسبة للمادة المراد تلوينها

كذلك من السهل معرفة مخلوط من البروم والكلوروفورم من رائحة الأخير، وإذ كان العلماء يستطيعون بعد ما سردناه من أمثلة أن يميزوا نسبة الأوكسجين والأزوت في الهواء بكل تفاصيلهما بدراسة أطيافهما، ابتداء من الأشعة تحت الحمراء إلى الأشعة فوق بنفسجية، فإن لهم في هذا طريقة في التحليل الطيفي ليست من عمل الرجل العادي، ومع ذلك فهم يصلون إلى النتيجة ذاتها التي تتلخص في أن الأوكسجين والأزوت مادتان مركبة كل منهما من جزيئات كماء المثلجة وماء الورد، بحيث إذا اعتبرنا قدراً صغيراً من الهواء الذي نستنشقه نجد فيه دائماً هذين المخلوطين بنسبة معينة هي التي يعرفها العلماء من التحليل الطيفي كما أن الورد أو الحبر امتزجا مع الماء بنسبة معينة، هيا لتي تميزها حاسة الشم أو النظر التي تقوم في هذه العملية بما تقوم به الأجهزة الدقيقة في تجارب العلماء المتقدمة

ومع ذلك فإنه من غير المعقول أن مادتين مستقلتين تندمجان أو تختلطان أو يتداخل بعضها في البعض الأخر إلا إذا فرضنا وجود جزيئات صغيرة لكل منهما وأن هذه الجزيئات

تتحرك فتنتشر بعضها بجوار البعض

في مشاهداتنا اليومية عندما يقرع الجرس في إحدى المدارس يخرج الطلبة جميع الفرق إلى فناء المدرسة، ويختلط جميعهم بحيث يصح في كل لحظة أن ترى طالباً من فرقة معينة محاطاً بطلبة من جميع السنين الأخرى، بحيث أن في كل بقعة من فناء المدرسة يوجد طلبة من جميع الفرق تتحدث وتجري وتلعب، كل منهم مستقل بذاتيته، ولا يمنع هذا أن دقة أخرى من الجرس واتفاقاً كان نتيجة التدريب والتهذيب، يجعلان هذه الشخصيات المستقلة والجزيئات المبعثرة تتجمع مرة أخرى في صفوف منتظمة بحيث نرى بعد مرور فترة من الوقت هذه الأفراد تدخل فصولها كل على مقعده الذي كان عليه منذ أمد قصير

كذلك لا بد من أن هناك عملية طبيعية تجعلنا نفصل مرة أخرى ماء الورد من الماء وجسيمات الحبر من ماء الحوض ونزيل عن الأقمشة ألوانها ونفصل الكلوروفورم من البروم، كما أن ثمة عملية أخرى تفصل الأكسيجين من الأزوت بحيث تصبح جزيئات الأكسيجين بمفردها منفصلة في وعاء معين وجزيئات الأزوت في آخر، كما يجتمع طلبة فرقة معينة في ردهة معينة وطلبة الفرقة الأخرى في الردهة المجاورة

إنما سردت للقارئ ما تقدم ليدرك أن في مشاهداته اليومية وعملياته العادية يجد منطقاً للفكرة الذرية، بحيث أن فكرة الجزيء ووحدته هي في الواقع نتيجة فعلية أكثر من أن تكون عملاً من قبيل الفروض

على أننا سنرى فيما نتابعه أن هذا الجزيء مكون مما يسمونه الذرات، وقد كان للكيمياء الدور الأكبر في معرفتها. وسنرى أن كل ما نعرفه في الكون محصور في عناصر مختلفة لا يزيد عددها عن 92 عنصراً، وأنها تبدأ من الهيدروجين أخف هذه

العناصر وتنتهي بالايرانيوم أثقلها، وان الاختلاف بينها راجع إلى التركيب الذري. وسنرى بعد ذلك أن العلماء توصلوا إلى حسر الستار عن حقيقة هذه الذرات، وأنهم استطاعوا أن يضغطوها تارة (أعمال ويهدموها تارة أخرى (أعمال رذرفورد وموريس دي بروي وجوليو وفرمي وأخيراً برايش)، وأنهم في ذلك أعلنوا على المادة حرباً ضروساً لا نعرف مداها، ولا نعرف إلى أي حد يبلغ أثرها، وهم في ذلك كمن أعلن علينا حرباً شعواء مدمرة عبثت بنا نتيجة لطمع الطامعين، حرباً جالبة للأسى وقعت في أثنائها قنبلة تطايرت شظاياها في فناء

المدرسة السابقة، فدكتّها دكاًّ ومزقت الأطفال فتطايرت أشلاؤهم ظلماً وعدواناً، واختلط الأمر وعم الذعر والخراب، فلا جرس يعيد القوم إلى فصولهم ولا شخص واحد منهم نستطيع التعرف عليه. هذا التهدم المدرسي شبيه بالتهدم الذري الحادث في ذرات الجزيئات وهو يشغل بال العلماء اليوم، وسيكون موضوع أحاديث لنا في الرسالة لخطورته وأهميته ولئن كان التهدم في مثال المدرسة نتيجة الجبروت، دليلاً على الفناء، فهو في جزيئات المادة وذراتها انتصار للعلم ومفخرة للعلماء، حتى أن فريقاً منهم يفكر جدياً فيما قد يكمن وراء هذا التهدم من أسباب تمكننا من تسخير المادة تسخيراً يختلف عن تسخيرنا لها اليوم واستخدامها بطرق تختلف عن كل ما ذهبنا إليه

ونعود للجزيء الشخصية الكاملة التي تحوي قطرة واحدة من ماء الورد ملايين الملايين منه فنقول إن جزيئات الورد هذه وتلك التي هي من الماء مستقلة في ذاتها استقلالاً تاماً وإن ما يظهر لنا من أن مزيج الماء والورد أو البروم والكلوروفورم أو الأكسيجين والأزوت مندمجة جزيئاته في الآخر هو مظهر لفعل حواسنا التي لها قوة محدودة في تمييز الأشياء، وإن وجود ماء الورد في كل نقطة من الحوض الكبير أول دليل على تركيبه الحبيبي وأنه مكون من جزيئات عديدة هي التي انتشرت بين جزيئات الماء الصافي في أرجاء الحوض كما ينتشر الطلبة في أرجاء المدرسة

هذه الأمثلة ومثال المرونة في الأجسام الذي قدمناه في مقالنا السابق ترجح الفكرة الذرية للمادة، ولكن لا تقيم عليها الدليل القاطع، وهكذا وبالغم من كل ما ذكرناه ظل العلماء في حاجة قصوى إلى حجة أخرى تكون مستقاة من مصدر آخر.

إن نجاحاً كبيراً أحرزته العلوم الطبيعية للفكرة الذرية الحديثة أتى عن طريق ظاهرة أخرى. فقد تكونت بجوار الظواهر التي ذكرناها مجموعة أخرى من الظواهر تفسر الذرية وتنتصر لها؛ وهذه المجموعة تتجلى في الظواهر الخاصة بالتغييرات الحرارية، وبذلك قدمت ظاهرة الحرارة في الأجسام حجة جديدة لم يفكر فيها الذريون الأقدمون، وعلى أكتاف التقدم الحراري بالطريقة التي تمت في القرن الماضي وضع الطبيعيون للذرية أساسها الحقيقي

ولكي نفسر العلاقة بين الحرارة والذرية، نذكر للقارئ الفكرة الأساسية لهذه العلاقة: وهي

أن الجسيمات المادية صلبة كانت أم سائلة أم غازية في حالة هياج دائم وحركة مستمرة، وأن ثمة علاقة بين هذه الحركة وما نسميه حرارة الجسم. فكلما كانت حرارة الجسم مرتفعة كانت جسيماته اكثر حركة ونشاطاً. هذه النظرية التي كانت من أكبر الانتصارات العلمية للقرن الماضي يسمونها (النظرية السينيتيكية)

صفة من الحركة، وهي تقرر أنه في حالة الغازات تتحرك جزيئاتها حرة حركة غير منتظمة في جميع الجهات، وفي حالة السوائل تتحرك الجسيمات حرة أيضاً في جميع الجهات، ولكنها لا تتركه، وفي حالة الأجسام الصلبة تتذبذب هذه الجزيئات في مكانها دون أن تنتقل فيه.

مثال نقدمه للقارئ ليفهم النظرية السنيتيكية: في القاهرة بجوار النيل والحدائق والمياه يكثر في فترة معينة من السنة نوع من البعوض الصغير يطلقون عليه (الهابوش) يغدو حراً طليقاً في الفضاء، وتتصادم هذه الكائنات الصغيرة المتحركة في كل اتجاه مع كل ما تقابله، وطالما تضايق الإنسان لدنوها من الوجه أو العين، وهي على هذا النحو تشبه جزيئات الغازات في حركتها الدائمة غير المنتظمة.

على أن هذه الحرية المطلقة تصبح محدودة إذا وجدت هذه الكائنات قريباً من طريقها الأعمى نور مصباح؛ فهي في هذه الحالة تتجمع بالمئات والألوف تدور حول المصباح وترتطم به.

هذه الاجتماعات الليلية تختلف عن الاجتماعات الاختيارية التي تحدث لنا معاشر الإنسان عندما نتوجه للاجتماع في قاعة للمحاضرات أو ناد أو حفلة؛ فأن هذه المخلوقات المسكينة لا تذهب مختارة إلى حيث يسطع الضوء القوي، ويتألق المصباح، بل إن ثم (تأثيرات فوتوكيميائية) - وإفرازات معقدة تحدث داخل أجسامها نتيجة للضوء، تأثيرات تجد تفسيرها اليوم في الكيمياء الطبيعية. هذه التغييرات الكيميائية الطبيعية التي سببها الضوء تحرك عضلاتها حركة إجبارية وتوجه هذه المخلوقات التعسة أرادت هي أم لم ترد نحو مصدر الإضاءة. هذه الألوف من الكائنات تدور وتعلو وتهبط ويصطدم بعضها ببعض وبالمصباح ويستمر هذا فترة طويلة، وهى في هذا تمثل عندي جزيئات السائل التي تتحرك بداخله في جميع الاتجاهات كما يصطدم بعضها ببعض، وكما أن هذه المخلوقات

عاجزة عن أن تترك الصباح، كذلك جزئيات السائل داخل الكوب عاجزة عن أن تتركها، وليس خروج أحد هذه المخلوقات بعيدا عنً منبع الضوء إلا حادثاً نادراً يحدث تحت تأثير عوامل خارجية مثل هبوب الهواء شديداً في اتجاه معين بحيث يكون سبباً لبقائها حية فترة أخرى من الزمن، وهي في نجاتها من المصباح، بعامل الهواء، تشبه الذرات المائية التي تخرج من السائل تحت عامل التبخر

وتمر الساعات ويطول الليل ويتكرر اصطدامها بالمصباح الساخن وتفقد نشاطها في المقاومة فيلتصق الكثير من هذه الكائنات بالصباح الكهربائي أو السقف الحامل له، وتقترب ساعتها الأخيرة فنرى طبقة كثيفة مكونة من آلاف الآلاف قبل موتها متلاصقة في مكانها تتذبذب يميناً ويساراً قبل أن تفقد كل أمل في أي حركة وقبل أن تصبح في عداد الأموات. هذه المخلوقات المتلاصقة المتمايلة طوراً إلى اليمين وتارة إلى اليسار تشبه عندي جزيئات الأجسام الصلبة التي لا تستطيع أن تنتقل في مكانها ولكنها تستطيع أن تتذبذب فيه

وهكذا في هذه المخلوقات التي نطلق عليها (الهابوش) نرى صورة صادقة لما يحدث في المادة على أشكالها الثلاثة المعروفة الصلبة والسائلة والغازية

هذه الحركة الداخلية بين جزيئات المادة الواحدة ومعرفتنا إياها كانت انتصاراً للنظرية السينيتيكية، وقد نشأ عن ذلك في بادئ الأمر أن وجد العلماء تفسيراً لضغط السائل أو الغاز على جدران الأوعية التي تحتويها، ذلك أن تصادم جزيء واحد لا يحدث أثراً واضحاً محسوساً، ولكن العدد الكبير من المصادمات الفردية الحادثة في الثانية الواحدة يسبب ضغطاً موزعاً بالتساوي وناتجاً من مجموع الضغوط الفردية على أن تحديد مقدرتنا بالإحساس هي تجعلنا بدل أن نشعر بمصادمات عديدة منفردة نشعر بضغط موزع توزيعاً منتظماً. هذه المقدرة المحدودة في الإحساس هي التي تجعلنا نخطئ طبيعة وعمل هذه المجموعات للجزيئات فنشعر في العادة بضغط منتظم لجسم متصل

هذه المصادمات الفردية التي تسبب تفسر رأساً القانون الأساسي الذي يربط الضغط بالحجم في الغازات والذي تعلمناه جميعاً في المدارس وهو القانون القائل: إنه عندما نقلل حجم غاز إلى النصف مثلاً فان ضغطه يزيد بمقدار الضعف. والواقع أنه عند ما نضغط الغاز إلى نصف حجمه الأصلي فإنه لا يكون لجزيئاته فراغاً لحركتها سوى نصف المقدار الأول،

وعلى ذلك فإنها تضرب في الثانية الواحدة السطح الجانبي للإناء الحامل للغاز ضعف عدد المرات الأولى قبل تقليل حجمه. هذا التضعيف في عدد المصادمات يسبب نفس الزيادة في الضغط، وهى ظاهرة ممكن قياسها بطريقة مباشرة

على أن النظرية السينيتيكية للغازات تأخذ في محل الاعتبار أيضاً العامل الحراري، وبهذا انتهى العلماء إلى قانون أعم من القانون السابق، بحيث إذا رفعنا درجة الحرارة لغاز معين فإن سرعة جزيئاته تزيد، ويزيد بهذا الأثر الذي تحدثه هذه المصادمات وينتج عن ذلك زيادة في الضغط، فزيادة الضغط بتسخين الغاز مع حفظ حجمه ثابتاً تنشأ عن زيادة القوة الحادثة من كل مصادمة فردية

هذه الفكرة وغيرها أمكن وضعها في الوضع الرياضي حتى أصبحت النظرية السينيتيكية لا تفسر المظاهر المختلفة بشكل نوعي فحسب. بل أصبحت تفسر كل التغييرات الكمية الحادثة في كل هذه الظواهر. وهكذا انتصرت النظرية السينيتيكية

وأخذت مكاناً ممتازاً في العلوم الطبيعية، حتى أننا لا نعرف اليوم طبيعياً يطعنها أو يضعها بشكل جدي محل الشك

ولم تقف الدراسة الكمية عند الحد الذي ذكرناه من تفسير قوانين الحجم والضغط والحرارة بل إن سباق الجزيئات الذي لا نظام له والذي يتبع خطوطاً منكسرة، هي نتيجة تصادمها المستمر، أمكن دراسته من الناحية الكمية دراسة أدت إلى حساب عددي للاحتكاك الداخلي للسوائل والغازات الذي يعد العقبة في هذه الحركة بالتصادم المستمر

على أن سرعة هذه الجزيئات كبيرة لدرجة عظيمة ففي درجة الحرارة العادية تبلغ سرعة جزيئات الهواء داخل غرفنا حوالي كيلو متر في الثانية، أي ستة أضعاف أكبر سرعة نعرفها للطائرات الحربية الحديثة، وهي بهذا تزيد سرعتها عن كل ما نعرفه من المركبات الأرضية

لقد اكتفينا حتى الآن بأن نقرر أن رفع الحرارة يزيد في سرعة الجسيمات، وأن ثمة علاقة بين الحرارة والتهيج الجزيئي، ولكنا نريد أن نقدم للقارئ أمراً جديداً، نريد أن نقول إن هاتين الظاهرتين أمر واحد

هنا تستوقفنا أزمة جدية في التفكير الطبيعي الحديث. ونكرر القول بأنه ليس هناك حالة خاصة بالحرارة وحالة أخرى خاصة بالحركة بمعنى أن الحركة ليست نتيجة للحالة الحرارية بل إنها هي الحالة نفسها

هذا النوع الجديد على معارفنا والذي أدخله ليبننز أصبح أمراً عادياً في العلوم الطبيعية لدرجة أن الطبيعيين يطبقون هذه المعارف الجديدة دون أن يعيروها أي التفات، ومع ذلك فإنه مما لا شك فيه أن ما نذكره هنا مدعاة للاستغراب للشخص العادي الذي يميل إلى أن يعتقد أن الحرارة تسبب زيادة في الحركة، أكثر من أن يميل إلى الاعتقاد بأن الحرارة هي الحركة بذاتها، وليس لنا أن نطالب القارئ بتصديق ذلك قبل أن نحدثه في المقال القادم عن انتصارات روبير ماير وبولتزمان التي أحدثت انقلاباً عظيماً في التفكير الحديث

محمد محمود غالي

دكتوراه الدولة في العلوم الطبيعية من السوربون

ليسانس العلوم التعليمية. ليسانس العلوم الحرة. دبلوم المهندسخانة

من هنا وهناك

الديمقراطية والإذاعة - عن تلسكرن كوبنهاجن

الاستماع بمعناه الحق فن عظيم ليس من السهل إدراكه. وكثير من الناس يتعذر عليهم الإصغاء عن أي شيء آخر؛ وقد عملت تجارب نفسية للبحث فيما إذا كان الإنسان يفهم ويذكر ما يسمع أو ما يقرأ. وهل للكلمة المسموعة أكثر تأثيراً في النفس أو الكلمة المكتوبة. ولم يهتد إلى حل مرض في هذا الموضوع؛ ولكن انتشار المذياع ألقى ضوءاً جديداً على هذه المسألة.

فالصلة الشخصية بين المتكلم والسامع لا وجود لها في الإذاعة، إذ أن السامع لا يستفيد برؤية المذيع، والرؤية لها تأثير لا شك فيه. فأنت محتاج حين تسمع إلى تركيز ذهنك إلى حد لا تحتاجه حين ترى المتكلم وجهاً لوجه. لذلك يتحتم أن تكون الإذاعة قصيرة، ويجب أن يكون لها نظام خاص وأسلوب معين.

نحن نعيش في أزمة عظيمة لم يشهد مثلها العالم من قبل، إذ تصطدم المثل والأساليب بقوة ووحشية لم يسبق لهما مثيل. فمن الواجب والحالة هكذا أن تتحرر الإذاعة من هذه الحالة: يجب أن تعطينا صورة صادقة عن الأحوال والشؤون التي تشغل العالم، وتبين الأسباب الحقيقية لها، بصفة موضوعية بقدر المستطاع، بعيدة عن طرق الإيهام والإغراء.

على أن المذياع إذا حل محل الكتاب في التأثير على المدنية، فلغة المذياع لا تستطيع أن تجاري لغة الكتاب. وقد أوضح ذلك البروفيسور لويد جيمس فقال: إن الصحافة الإنجليزية وطدت طريقتها في الأسلوب ووسائل الإيضاح منذ مئات السنين، بينما المذياع حديث لم يتجاوز استعماله ثماني عشرة سنة. وهناك فرق كبير بين الكلمة التي تنطق والكلمة التي تقرأ. فالكلام الذي يبحث ويشرح بالكتابة على الوجه الأكمل

لا يمكن أن يذاع
ويقول لويد جيمس: من الخطأ أن نظن أن أساتذة الكتابة ورجال الصحافة هم أصلح الناس للإذاعة.
ويقول: إننا نتلقى كل معارفنا على التقريب عن طريق العين، وإن 90 % من معلوماتنا مأخوذ عن الكلمة المكتوبة، وقد ظهرت فجأة آلة المذياع وهي تعتمد على الأذن وحدها، وهذا تطور لا شك فيه في طرق تربيتنا وتعليمنا، ومن الواجب أن تعد له الأساليب
والتعبيرات التي تلائمه إذ أنها تختلف كل الاختلاف عما عداها.
ولم تعرف بعد طرق التعبير التي تجعل من المذياع آلة صالحة لنشر الثقافة والتعليم، ولكن من الممكن أن يقال إذا كان التعليم العام والخاص والثقافة هي الطرق المؤدية إلى الديمقراطية، ولا نقول الديمقراطية المعروفة فحسب، ولكن الديمقراطية التي يتطلع إليها العالم في المستقبل: فمن المستطاع أن يكون للمذياع أكبر فضل في بناء صرحها وإعلاء كلمتها.
إن الدكتاتورية تعتمد على نشر الدعاية بين الجماهير، والديمقراطية تعتمد على ذكاء الفرد ومقدرته الخاصة على فهم الأمور والحكم عليها. والمذياع هو ذلك الصوت الذي يرتفع من جانب الحجرة، لا ليجبره على اعتناق فكرة دون الأخرى، ولكن ليفتح ذهنه لمختلف الآراء، ليحكم عليها بنفسه، ويختار ما يلائمه منها.
الخرافة وأثرها في حياة العالم - عن محاضرة للورد بونسونبي
كل إنسان في هذه الحياة عرضة للخرافات والأوهام تلعب دورها معه. ولا غرابة في ذلك فمنذ خرج من عالم الحيوان نظر إلى ما حوله فنسب كل ما لا يستطيع فهمه إلى قوة خفية خارقة. ويقال أن الإنسان ما زال على فطرته الأولى فهو يتعلق بالخيالات ويتعشق الأوهام
ويبدو هذا صحيحاً إذا اعتبرنا ما يسود العالم من الخرافات الآن. وقد اعتمدت الدعاية في العصر الحديث على خداع الإنسان بمختلف الوسائل، ولم يخطئها النجاح إذ أن الإنسان بطبيعته ميال عن الحق
وما زلنا نرى بين الناس من يعتقدون بالحسد ومن يعتقدون بفكرة الجن والعفاريت.
وقد رأيت في الفلاحين من يتشاءمون من زراعة بعض النباتات. ويتشاءم كثير من الناس بكسر المرآة أو بالمشي تحت السلم أو بجلوس ثلاثة عشر على المائدة. وقد أصيب طفلي مرة بسعال ديكي مما يعتري الأطفال عادة، وقد حاولت عجوز أن تشفيه من هذا المرض، فأحضرت ثلاث شعرات من ذيل أتان وخاطتها في كيس ثم ربطتها في عنق الطفل ومن حسن الحظ أنه شفى بعد ذلك
أما مسألة الحظوظ فلها دور كبير في حياتنا. ويلجأ المقامرون إلى طرق غريبة لمطاردة الحظ السيئ. ويتشاءم الكثيرون لبعثرة الملح، ولا يزول الحظ السيئ الذي يترتب على ذلك إلا إذا رميت قليلاً من الملح من وراء كتفيك. وإذا ولد طفل يجب أن يصعد به إلى أعلى السلم في الحال حتى يسير قدماً في الحياة ويرتقي معارج الرقي والفلاح
وقد عرفنا في التاريخ كيف كان القساوسة ورجال الطب يستغلون عقائد الإنسان التي من هذا القبيل، لاكتساب النفوذ والقوة، وإذا كان سلطانهم قد ضعف في هذه الأيام، فمرجع ذلك إلى انتشار العلم. على أن الإنسان ما زال ميالاً إلى أن يخدع ويغرر به على الدوام
ولم يكن حظنا في بلاد الغرب في التخلص من تلك الخرافات بأكثر من حظ الشرقيين، وقد ظهرت عقائد كثيرة في الولايات المتحدة. وما زالت الأفكار الروحانية تلاقي نجاحاً في بلادنا. على الرغم من الاضطراب والحيرة اللذين يسودان العالم
وقد اعترف لي طبيب فرنسي بأنه كان يعطي مرضاه حبوباً مصنوعة من مادة الخبز وكانوا ينالون الشفاء باستعمالها لمجرد الاعتقاد. ويقول بعض الأطباء إن بعض القرويين يتأثرون لغياب الدواء عنهم فيعطيهم الطبيب ماء ملوناً، فيقبلون عليه في غالب الأحيان ولو أنه لا يجديهم شيئاً
وقد انتشرت الميول الروحية بعد الحرب العظمى لما نال العالم من الأشجان والآلام

بسببها فهي تتجر بعواطف الإنسان ومخاوفه والأحزان التي تخامر فؤاده على من فقد من الأهل والخلان

إنني أتنبأ بما سيكون للمذياع من الأثر في إخضاع الأمم فإذا ظهرت أزمة سياسية فسوف تقهر على سماع ناحية واحدة من نواحي الموضوع. وأنت موقن بأنه لا يوجد شر محض كما لا يوجد خير محض؛ ولكن رجال السياسة يمزجون الحق بالباطل لينالوا قوة الإقناع. وهم لا يحتاجون إلى كثير من العناء، ليحرزوا الفوز في ذلك الميدان الذي تعبد وتوطد مع التاريخ، فيسيرون قدماً في طريقهم لإقناعنا بأشياء لا قاعدة ولا أصل لها. ولا جرم فقوتهم مستمدة من الضعف الكامن في نفوسنا

إن مثل هذه الأمور لا تدرك بازدياد الثقافة، ولكنها تفهم بنمو الذكاء

نابليون والتاريخ الحديث - عن ذي نشنال ريفيو

كتب مؤرخ بلجيكي نظرية جديدة يثبت فيها فرار نابليون من جزيرة سنت هيلانا. فإذا صحت هذه النظرية وجب أن تجمع كتب التاريخ ويعاد كتابتها من جديد. والحقيقة أن بقاء نابليون في تلك الجزيرة لم يكن متوقعا، وقد كان الكثيرون منذ اللحظة الأولى لنفيه لا يستطيعون أن يسلموا بأن النسر سيظل قابعاً فوق هذه الصخرة حتى الممات. وعلى الرغم من هزيمة نابليون فقد ظل سلطانه باقياً في نفوس غالبية الشعب، وكان من الطبيعي أن يفكروا في إعادته

كان نابليون يسير على الطريقة التي يسير عليها هتلر الآن، فهو يعد شخصاً مشابهاً له في الخلقة كل المشابهة ليحله محله في ظروف معينة. وقد وصف ليدرو في مذكراته المطبوعة في لينج عام 1840 كيف رأى فرنسوا يوجين روبو المولود في باليكورت عام 1771 وهو يشابه إمبراطور فرنسا كل الشبه، وقد قبل نابليون قيامه بهذه الوظيفة

ويقول ليدرو إن روبو عاد إلى تلك القرية بعد موقعة واترلو، ولم تمض أشهر معدودات حتى أعلن عمدة باليكورت إلى البوليس غياب شبيه نابليون. وقد أثيرت ضجة عظيمة بهذه المناسبة، ولكنها لم تلبث أن خفتت وذهبت إلى عالم النسيان

فهل حل روبو مكان الإمبراطور؟ إن لدينا من الوقائع ما يغري بتصديق هذا، وقد أثبت في سجل الوفيات في باليكورت هذه العبارة: (توفي في جزيرة سنت هيلانة فرنسوا يوجين روبو المولود في هذه القرية في. . .) وقد محى التاريخ لماذا؟ ألا يكون 5 مايو سنة 1821، يوم وفاة الإمبراطور؟ ويكون روبو هو الشخص الذي استقرت عظامه تحت قبة (الأنفاليد)؟ وليس من المعقول أن يموت روبو في جزيرة سنت هيلانة وهو لم يحل بها في يوم من الأيام كما هو ثابت في السجلات البريطانية

ومما يقوي هذا الرأي ويسنده مذكرات مس مودريشو وقد زارت نابليون في سنت هيلانة فأدهشها التغير الذي رأته، ولم تصدق أنه الرجل الذي تعرفه في باريس، وقد كتبت تقول: (لقد وجدت من العسير على أن أصدق أن المرض يغير الرجل كل هذا التغيير)

وفي سنة 1828 حينما اشتعلت نيران الحرب بين تركيا وروسيا قدم رجل أجنبي وعرض خدماته على السلطان وقد وصل إلى تلك البلاد في مركب أمريكي. وقد قاد هذا الأجنبي جيش تركيا في إيراكشا تحت اسم حسين باشا، ويقال إن حسين باشا هذا هو نابليون،

ويستند أصحاب هذا القول على فذلكة مكتوبة في ليبزج. فهل لهذه القضية سند من الحقيقة؟ إنها بعيدة عن التصديق، ولكن جنود روسيا في إراكشا يؤكدون أنهم رأوا الرجل القصير في ثياب الأتراك

البريد الأدبي

حول مناوأة الخدر والنعاس في الأدب المصري

كتب الصديق البحاثة الدكتور بشر فارس في بريد العدد الماضي من الرسالة بما يقطع في أمر أسباب الكساد الذي يرين على السوق الأدبية في مصر بأنه لا يرى كل الرأي فيما سبق أن ذهبت إليه في مقالي السابق من أن انصراف الجمهور عن الإقبال على النتاج الأدبي في مصر إنما مرده إلى ما قلت: (إذا كان النتاج الأدبي لا يقابل من الجمهور بالحماس الواجب، فلأن الفتور مفروض على كل شيء يجري في مصر، ولأن عدم الاكتراث صفة - ويا للأسف - من صفات الأكثرية الغالبة من الجمهور المصري ولا

سيما فيما له علاقة بالأدب والفن) وعاد الصديق الدكتور إلى ترديد ما سبق أن صرح به في هذا الصدد، ومجمله: (إن الجمهور المهذب من القراء يرغب عن أدب التسلية والإنشاء التعليمي ويقدر ما يستحق التقدير)

وشد ما أرغب في الأخذ بهذا الرأي، وشد ما أود أن أحسن الظن بالجمهور الكبير وبالجمهور المهذب حتى أسري عن نفسي كمداً أهمني، ولكن ما الحيلة وقد دل الإحصاء الأخير على أن متوسط ما يباع من المؤلف الأدبي الواحد في السوق المصرية لا يتجاوز خمسين نسخة في العام الواحد!

ومعنى هذا أنه لولا وجود أسواق للأدب المصري في الأقطار الشرقية الأخرى لكان مقضياً على هذه المؤلفات الأدبية بأن تصبح غذاء مستساغاً للسوس والجرذان. . .

ومعنى هذا أيضاً أن هذا (الجمهور المهذب) صفوة قليلة العدد لا يؤبه لأثرها في تصريف المؤلفات الأدبية التي تكتظ بها المكتبات المصرية، حتى ولو كانت مؤلفات من الأدب الرفيع

وإذا جارينا الدكتور بشر فيما يذهب إليه، وهو أن الجمهور المهذب إنما يقبل على ما هو أسمى من أدب التسلية والإنشاء التعليمي فهل للدكتور الصديق أن يدلي لنا بعدد النسخ التي باعتها المكتبات المصرية من مؤلفيه (مفرق الطريق) و (مباحث عربية)، وهما مؤلفان ينفردان بطابع جديد في النتاج الأدبي الرفيع، وليس فيهما من أدب التسلية قمحة ولا من التعليم الإنشائي قطرة؟

بماذا يفسر الدكتور بشر فتور هذا (الجمهور المهذب) إزاء هذين المؤلفين؛ وأمام سواهما من الآثار الأدبية الرفيعة؟

وأين (التقدير) الذي يكنه هذا (الجمهور المهذب) للأعمال الأدبية الرفيعة؟

ومتى يتحرك هذا (التقدير) ليوفي مؤلفيه السابقي الذكر حقهما من الذكر والرواج؟

أخشى بعد هذا كله أن أقول إن صديقي إنما يصدر فيما نحن بصدده عن وحي إحساسه الخالص، وهو إحساس أديب أصيل مشبوب الهوية بالأدب، مشغوف بأن يرى للأدب دولة في مصر قوامها جمهور القراء قبل أي شئ آخر، وهذا من مزالق التفكير الذي يشوبه الإحساس الطاغي.

زكي طليمات

في النقد الأدبي

حضرة الأستاذ الفاضل محرر (الرسالة):

تحية وسلاماً. وبعد. فقد قرأت في العدد 310 من (الرسالة) الغراء ما كتبه الدكتور بشر فارس عن الفصول التي أكتبها عن الأدب العربي الحديث؛ فحمدت له غايته من النقد. غير أنني لاحظت بعض أشياء على قوله:

1 - إن كتاباتي وإن كانت منصرفة إلى النقد القائم على الوجهة الموضوعية - كما لاحظ الدكتور بشر فارس في كلمة في (الرسالة) - والأستاذ صديق شيبوب في مقاله في البصير (12 مايو سنة 1939)؛ والأستاذ خليل شيبوب في مقاله في (الأهرام): (29 مايو سنة 1939) - إلا أن منحى الموضوعية فيها مستنزل من الطريقة (التركيبية، التحليلية) التي تذهب من النظر إلى الواقعات عيناً، ومن الواقعات إلى النظر عيناً آخر؛ والتي هي نتيجة ثقافتنا الرياضية.

2 - إن هذه الطريقة من صميم الأساليب العلمية، والطرائق الموضوعية، لأن الطريقة العلمية تذهب: إما من النظر إلى الواقعات وإما من الواقعات إلى النظر. والمذهب الأول أكثر ما يتظاهر في الأساليب الخاضعة للنهج الرياضي بعكس المذهب الثاني، فإن أساليبه أكثر ما تتمثل في منهج البحث الاجتماعي.

3 - إن الدكتور بشر فارس وثقافته اجتماعية صرفة قد نظر إلى بحثي من الطرائق الاجتماعية التي اتصل بها - أثناء تلقيه العلم في السوربون - فدارت عقليته منها، وكان أقل ما يجب عليه أن يوسع نظرته وينظر إلى منهجي في البحث في النطاق العام للأسلوب العلمي.

4 - كان في إمكان الدكتور بشر فارس أن يتعرف الدافع الذي دفعنا في دراستنا عن مطران إلى الكتابة عن (الشعر والشعراء) في المبحث الأول، وعن (الشعر العربي) في المبحث الثاني، وذلك لأنه ليس من المستطاع - ومطران رأس حركة جديدة في الأدب العربي - فهم حقيقة مذهبه واتجاهاته دون مراجعة الشعر العربي وخصائصه

حتى يمكن عن طريق المقابلة معرفة الأثر الذي استحدثه مطران في الشعر العربي ومدى التجديد الذي قام به

5 - كان في مستطاع الكاتب أن يستنبط من البحث الثالث والبحوث التالية له في المقتطف خطتنا في الدلالة على معنى شاعرية مطران من شعره، تلك الخطة التي تقوم على إرجاء المقدمات - التي انتهت بنا إلى الأحكام التي أصدرناها عن منحى الشاعرية عند الخليل - إلى موضعها الطبيعي من الدراسة.

6 - رأى الكاتب أننا استعرنا اصطلاح (خلق جملة صلات اجتماعية) من كتابه (مباحث عربية) والواقع عكس ذلك. فإن هذا الاصطلاح قد دار على قلمنا من قبل صدور كتابه هذا: تجده في دراستنا عن إسماعيل مظهر حين تكلمنا عن آرائه الاجتماعية (التقدمة العربية لدراستنا عن مظهر في م 36 ص 411) هذا فضلاً عن أن هذا الاصطلاح من جملة ما يجري على أقلام كتاب عصرنا هذا، وإذن فلا يمكن القول بأنه من الاصطلاحات التي استحدثها الكاتب.

7 - ارتأى الكاتب أن الجملة التي أوردنا فيها هذا الاصطلاح مرتجلة بحيث أنها لا تتسق ومنحى البحث الموضوعي الذي أخذنا أنفسنا به. والواقع عكس ما رأى. بيان ذلك أننا رأينا في بحثنا المذكور أن المجتمع الشرقي - عادة - ينعزل أفراده بعضهم عن بعض بحيث ينقبض كل على نفسه. وقد كان ظهور خليل مطران بطبيعة مغايرة لطبيعة هذا المجتمع الذي نشأ فيه ما استوقف نظرنا. وقد رجعنا في بحثنا بهذا الأصل الثابت من نفسيته إلى طفولته التي ترك فيها حَّداً يتعامل مع أقرانه من الأطفال فخلص من ذلك بطبيعته الاجتماعية التي تجعله ينسحب على الجماعة ويشتبك مع أفرادها في (جملة صلات اجتماعية). وواضح إذن أن هذا من باب التحقيق لا ارتجال، ومن ثم فاستعملنا لهذا الاصطلاح استعمال له في موضعه الطبيعي من الكلام لا في موضع غير متسق مع مجرى الكلام كما رأى!

8 - أخذ علينا الدكتور بشر فارس إهمالنا لاستقصاء المصادر في دراستنا عن توفيق الحكيم، ودليله على ذلك أننا لم نلتفت إلى ما كتبه في مجلة الشباب عن توفيق الحكيم كما ينجلي في مسرحيته (أهل الكهف) وأظن أن الدكتور بشر فارس لا ينكر علينا أننا أكثر الكاتبين في العربية استقصاء للمصادر بدليل أن بحثنا عن توفيق الحكيم قد رجعنا فيه إلى نيف ومائة مرجع. ويظهر هذا من مراجعة سريعة لبحثنا. أما عدم التفاتنا إلى بعض ما كتبه المعاصرون عن آثار الحكيم فهذا يرجع إلى أنه ليس في مستطاع كاتب بالعربية استقصاء كل ما يتصل بمادة معينة في الأدب العربي الحديث. ولا وجه للاعتراض علينا بأن الباحثين الغربيين يظهر في بحوثهم استقصاء تام لجميع ما كتب عن مادة موضوع بحثهم لأن هؤلاء يجدون من مهيئات البحث عندهم في لغاتهم فهارس شاملة تجمع كل ما يتصل بمادة معينة فيسهل من ذلك الاستقصاء عندهم

9 - أرجع الدكتور بشر فارس في مقالة مجلة الشباب (9 مارس سنة 936) فن توفيق الحكيم المسرحي في آثاره الأولى إلى فكرة الكاتب المسرحي من حيث يتفق الكاتبان المسرحيان في اعتبار الكائنات (ظواهر لا حقائق) والواقع أن الكاتبين في هذه الفكرة متأثران بالنظرية الاعتبارية التي بثها في مؤلفاته الرياضي الفرنسي الشهير هنري بوانكاريه. وقد أشرت إلى هذا الأصل بالنسبة لتوفيق الحكيم في دراساتي عنه (ص 69 من الطبعة الخاصة وص 361 من طبعة عدد مجلة الحديث) فلا معنى إذن لقول الدكتور بشر فارس من أن توفيق الحكيم تأثر بزميله الكاتب المسرحي الفرنسي خصوصاً وأن توفيق الحكيم من الذين قرءوا هنري بوانكاريه وتعمقوا في دراسة آثاره (أنظر قطعة برجنا العاجي لتوفيق الحكيم عدد 245 ص 404 - 14 مارس سنة 1938 من مجلة الرسالة)

10 - يقول الدكتور بشر فارس بأن الأصل في مسرحيات توفيق الحكيم اعتبار (الكائنات ظواهر لا حقائق) ويترتب على ذلك - عنده - صراع بين العقل والحلم، وبين الزمان والتاريخ (؟!. . .) وبين الشهوة والرغبة (؟!. . .) فإن صح معنا أن فكرة كون الكائنات ظواهر لا حقائق تسوق إلى فكرة الصراع بين الواقع والحلم فإننا لا نرى صلة بين هذا وما يحاول أن يظهره الكاتب من صراع بين الزمان والتاريخ، وبين الشهوة والرغبة. ذلك لأننا نعرف أن التاريخ منبسط الزمان والشهوة متفرعة من الرغبة (قوة النزوع

عند فلاسفة العرب) وليس في هذا أي معنى يحتمل إفادة الصراع
يرى الدكتور بشر فارس أن جوّ المسرحية عند توفيق الحكيم متأثر بجو - 11
مسرحيات ماترلنك من حيث الميل إلى بسط الإبهام على المناظر وإثارة الأوهام في
نفس الناضر. وهذا صحيح إلى حد، وقد أشرنا إليه؛ ويمكن أن نزيد على ذلك فنقول
بأن جو المسرحية عند توفيق الحكيم منبثق من طبيعته الفنية التي دارت حول
الكتابات الرمزية نتيجة إعيائه عن معرفة حقيقة النفس ولوامعها وبوادرها والتي تأثرت
بمبادئ علم النفس الحديث وعلى وجه خاص تجارب شاركو في التنويم والإيهام، وريبو
في الأمراض العصبية، وفرويد في أحوال اللاواعية، وبرجسون في تقليب المنطوي في
النفس على الظاهر منها (ص 69 من دراستنا من الطبعة الخاصة وص 361 من
الطبعة العامة)
وبعد فإني شاكر للدكتور بشر فارس عنايته بالإشارة إلى دراستنا كما أني شاكر له
عنايته بالنقد. وهو إن أخطأ النظر فيما كتب فله حسن القصد والغرض
إسماعيل أحمد أدهم
كتبنا وتآليفنا: محاضرة للأستاذ كرد علي
ألقى الأستاذ الكبير محمد كرد علي محاضرة عن (كتبنا وتآليفنا) في أحد نوادي
دمشق، استمع إليها نفر من أدباء الشام ورجالاتها وطلابها، بينهم الأستاذ عبد الحميد
الحراكي بك مدير المعارف العام، والأستاذ خليل مردم بك، والأمير مصطفى الشهابي،
والأستاذ فارس الخوري، والأستاذ زكي الخطيب وغيرهم
وكانت محاضرة الأستاذ موجزة تقريباً، بدأها بذكر معنى التأليف والتصنيف لغة، ثم حدد
الوقت الذي بدأ فيه التأليف عند العرب بتدوين القرآن والسنة والشعر. . . ثم تخطى
الأستاذ القرون مسرعاً، حتى أدرك العصر العباسي، حيث التأليف المزدهر المثمر.
فلما كانت المائة الثالثة للهجرة، بدأ الضعف يدب في التأليف، لضعف الدول والممالك،
فلم يلق التأليف آنئذ ملكاً يحميه أو سلطاناً يغذيه. وأتت بعد ذلك كارثة بغداد وهمجية
جنكيز خان، فخلت مدينة السلام، وبخارى، وسمرقند، وخوارزم، وطوس، من العلماء
وضاع منها كثير من المؤلفات
وجاء الترك، فسعت إلى القضاء على العرب قضاء لا حياة بعده، فرقد العرب، حتى
هبت مصر فأيقظتهم بعد سبات طويل
ويصف الأستاذ كرد علي حالة مصر في أوائل عصر النهضة فيقول إن أدباءها وعلماءها
كانوا ما يزالون متأثرين بمؤلفات عصور الانحطاط. أما الأزهر فكان شبحاً بلا روح
واسماً بلا مسمى، فلما جاء الشيخ محمد عبده سعى في إحياء التأليف، وأخرج الكتاب
من الركيك إلى النثر الذي كان في القرنين الأول والثاني. ثم ذكر أثر الأستاذ الإمام
في إصلاح الأزهر، وأثر الجامعة المصرية القديمة في نشر العلم بوساطة المحاضرات
التي كانت تلقى فيها، حتى إذا اطلع الشرقيون على مؤلفات الغربيين، سعوا إلى
تقليدها، فبدأت الفواصل في الكتابة، وعنى بأمر المسارد بأنواعها من تاريخية ولغوية
وغيرها
أما أثر الصحافة في تشجيع التأليف فكان ظاهراً لما كان للنقد - على سخفه - من أثر
بالغ في نفوس المؤلفين
وقايس الأستاذ بين الشيخ بخيت المحافظ والشيخ أحمد إبراهيم المجدد، وذكر كيف
قاوم الأزهريون الشيخ النجار
ثم انتقل الأستاذ إلى التأليف في وقتنا هذا بمصر، فقال إن التأليف الحديث ناتج عن
اضطرار لا عن رغبة، لأن معظم المؤلفين في مصر، إنما يؤلفون بحكم الوظيفة
والمنصب. وقال إن هناك مؤلفات لها شأنها، ولو أننا اتبعنا الطرق التي اتبعها (حافظ
باشا عفيفي) في كتابه (على هامش السياسة) وحاولنا أن نحرر أفكارنا كما فعل
(قاسم أمين) فيما ألفه و (عبد الرحمن الكواكبي) في كتابه
لبلغ التأليف عندنا درجة رفيعة (طبائع الاستبداد)
وأنتقل الأستاذ بعد ذلك إلى الكلام عن الشام، فذكر احمد فارس وأثره في التأليف
واهتمام
المسيحين به، ولا سيما آل اليازجي وآل البستاني
أما في العراق وتونس فلم يبدأ التأليف إلا عقب الحرب العظمى. وساعدت جامعتا

بيروت الكاثوليكية والبروتستانتية على ازدياد التأليف، كما ساعد ذلك في دمشق الجامعة العربية والمجمع العلمي
ثم ذكر الأستاذ حاجتنا إلى التأليف وقايس بين مؤلفينا الذين يقنعون بكتاب أو كتابين ومؤلفي الغرب الذين لا يفتأون يخرجون للناس كتباً، وقال إن التأليف يجب أن يزداد وأن يرمي إلى نزع الحواجز بين الخاصة والعامة
وختم الأستاذ محاضرته بقوله إن التأليف هو رمز الحضارة وعنوان المجد، فلنسع لإظهار هذا المجد وإبراز تلك الحضارة
والمحاضرة بالجملة موجزة، سهلة اللغة مرسلتها، ولكنها لا تظهر ما للأستاذ من علم واسع واطلاع شامل
ونحن نشكر للأستاذ جهوده، ونتمنى لو أنه يترك من حين إلى حين برجه الذي بُني من الكتب، والذي ينزوي فيه ويطل على الناس يريهم آياته ويسمعهم نتائج قراءاته (دمشق)
ص. م
الشعر والشعراء في سورية محاضرة للأستاذ صلاح الدين المنجد
سيلقي الأستاذ صلاح الدين المنجد في راديو الشرق (بيروت) سلسلة من المحاضرات عن الشعر والشعراء في سورية. وسيبدأ إلقاءها في النصف من يونية الحاضر، فيقايس بين حالة الشعر قبل ثلاثين وحالته اليوم، ويبين خصائص الشعراء السوريين التي امتازوا بها وقصر دونها شعراء مصر والعراق. وسيعالج الأستاذ أمر تأثير الغرب في شعراء سورية ونتائجه ومداه.
أما الشعراء الذين سيدرسهم، فهم: الزركلي، البزم، الخطيب، جبري، مردم بك، بدو الجبل، أبو ريشة، العطار، الطرابلسي
وسيعقب الأستاذ المنجد هذه المحاضرات بمحاضرات أخرى الشعر في مصر ثم عن الشعر في العراق
فرعون الصغير
إن الأستاذ محمود تيمور من أوفر أدبائنا إنتاجاً، ودليل ذلك تلك القصص التي يذيعها في الناس من حين إلى آخر. وهاهو ذا يخرج اليوم مجموعة جديدة من الأقاصيص عنوانها: (فرعون الصغير وقصص أخرى). وبهذه المجموعة يدل الأستاذ تيمور على أن فنه بلغ الاستواء الأوفى من جهة السرد ولمّ الفكرة والخروج من الحوادث بالعبرة التي لا تجري إلى غاية محسوسة، ولكنها تقصد إلى إيحاء شعور ما. وهذه القصص تتنازعها طرائق مختلفة: منها (الرومانسية) (أي التخيلية) من ذلك قصة (فرعون الصغير)، والواقعية، من ذلك (زمان ألهنا)، والواقعية الملوَّنة بالباطنية، من ذلك (المخ العجّالي) هذا وللمجموعة تصدير عنوانه: (المصادر التي ألهمتني الكتابة). وهو جم الفائدة من حيث أنه يبسط كيف اقبل المؤلف على التأليف القصصي وبأي أنواع التأليف تأثر وعلى أي أسلوب جرى فيه
ثم إن المؤلف رأى أن يستعمل الشكل كلما جاءت كلمة متخيَّرة أو مشتركة في النطق أو داعية إلى اللبس. وهكذا نفع التلميذ والقارئ الناشئ. وعسى أن يظفر (فرعون الصغير) بما يستحقه من النجاح لطرافته ونفاسته ثم شكله اللطيف وطبعه الأنيق
مجلة أدبية في دمشق
علمنا بان الأستاذ محمود كرد علي بك قد عزم على إصدار مجلة (أديبة في دمشق) بالاشتراك مع الأستاذ خليل مردم بك، والدكتور محسن البرازي، والدكتور جميل صليبا، والأستاذ سعيد الأفغاني، وبعض المتأدبين الناشئين كالأساتذة: جمال الفراء، يوسف العش، خلدون كناني
ونحن نشكر للأستاذ صنيعه، ونرجو أن تكون هذه المجلة مظهراً جيداً من مظاهر النهضة الأدبية في سورية
(. . .م)
كتاب الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة
تعد دار الكتب الظاهرية أحفل مكتبات العالم بمخطوطات الحديث الشريف فإن فيها

من النفائس النادرة ما لا نظير له في الدنيا ومن جملة مخطوطاتها القيمة هذه الرسالة التي لا ثاني لها، فهي مسودة المؤلف بخطه الذي (قل من يحسن استخراجه) وعليها خطوط لكبار الأئمة مثل ابن طولون الصالحي والرملي . . .
وقد أخرجها الأستاذ سعيد الأفغاني على خير نسق تحيا عليه الرسائل العلمية القيمة، ولم يدخر وسعاً في بذل الجهد ليكون إخراجاً علمياً كاملاً، فجاء آية في الترتيب والدقة والصحة والجمال.
صنفها المؤلف أبواباً ثلاثة:
الباب الأول - في خصائص السيدة عائشة وشيء من سيرتها
الباب الثاني - في استدراكها على أكثر من عشرين من أعلام الصحابة الأجلاء مثل أبي بكر وعمر وعلي وابن عمر وابن عباس
الباب الثالث - في استدراكات عامة
ويتجلى في هذه الرسالة ذكاء المرأة ونقدها وفطنتها ومواهبها العلمية ومدى ثقافتها الواسعة التي نعمت بها بفضل الإسلام. وهو كتاب ضروري لكل من درس شيئاً عن الإسلامية من شرقي وغربي وفقيه وعالم ومحدث وأديب واجتماعي وكل مثقف وقد صدر في 230 صفحة من القطع الكبير.
بواسل
يعتمد الكثير من الأدباء في التحقيق اللغوي على المعجمات العربية، ويضربون صفحاً عن التنقيب في النصوص الأدبية القديمة التي تعتبر أصلاً لهذه المعجمات
ولقد كتب أديب فاضل في عدد 307 من مجلة الرسالة يخطئ جمع باسل على بواسل، معتمداً على ما انتهى إليه استقراء القواعد النحوية وما أحصته المعجمات اللغوية. وذكر أن الجمع الصحيح الذي ورد لهذه الكلمة هو (بسل وبسلاء وباسلون) ولقد أسعدت المصادفة فالتقيت بالجارم بك وسألته فيما جاء بالرسالة خاصاً بهذا الجمع
فأنشد:
وكتيبةٌ سفع الوجوه (بواسل) ... كالأسدِ حين تذب عن أشبالها
قد قُدْتُ أول عنفوان رعيلها ... فلقفتها بكتيبة أمثالها
فقلت: ولمن هذان البيتان؟ فقال: هما من قصيدة (لباعث ابن صريم اليشكري) من شعراء الجاهلية في ديوان الحماسة فرجعت إلى القصيدة فوجدتها ص 149 من طبعة الرافعي
حسن علوان
رسالة النقد
مباحث عربية
تأليف الدكتور بشر فارس
للدكتور إسماعيل أحمد أدهم
هذه مجموعة مباحث في شئون (عربية، إسلامية) تجمع بين التدقيق الاجتماعي اللغوي - في مسائل اجتماعية وأخرى لغوية - وفي مستهل المجموعة استطلاع لشئون جماعة مسلمة في أقصى الشمال جهة (فنلندة). وقد نشر بعض هذه المباحث بالعربية هنا في مصر كما نشر البعض الآخر بالفرنسية هناك في باريس أو روما. غير أن كاتبها الباحث المحقق الدكتور بشر فارس جمعها في هذا الكتاب بعد أن أجرى فيها قسطاً من التهذيب ثم الحذف والزيادة. لأنه وجد في نشر هذه المباحث بين دفتي كتاب ما يجعلها أدل منها وهي متفرقة، وأبين منها وهي مشتتة. هذا وقد رجا صاحبها بإصدارها أن يوطئ من حيث المنهج والأسلوب الأذهان لرسالته القيمة (العِرض عند عرب الجاهلية) التي نال عليها إجازة الدكتوراه من باريس، ونشرها بالفرنسية لأعوام خلت، وهو اليوم يستعد لإخراجها في اللغة العربية.
وهذه المباحث من جهة المنهاج متأثرة بأساليب البحث الاجتماعي التي لا تعرف مجالاً للافتراض، فهي من هنا أقرب إلى أساليب البحث العلمي الوضعي منها إلى أساليب العلم البحت. ومثل هذا النهج من حيث أنه يعتمد على تسليط النقد على الواقعات مع ردّها إلى مصادرها من طريق الوصف المباشر والاستشهاد بالنصوص الصريحة مقدمة لا بد منها للبحث العلمي البحت. أما عن النهج: فهو التحقيق في الأصول والتدقيق في

الفروع قدر ما يسمح به الموضوع، والرجوع إلى المصادر والإشارة إليها في الحواشي التي تجمع إلى المراجع والمصادر والإشارة إليها في الحواشي التي تجمع إلى المراجع والمصادر إضافات وتهذيبات شتى يستخدم في سردها نظام الرموز والإشارات؛ ومن هنا يمكن أن يقال إن منحى نهج الكتاب الطريقة الجامعية في التأليف، وأسلوب المباحث علمي يمتاز بالوضوح والإشراق والتدقيق في اختيار الكلم مع شيء كثير من الصقل للعبارات والكاتب بذلك
يصون لغته من الأساليب المبتذلة التي جرت العادة أن تدور على أقلام الكتاب في هذا المصر من أدباء العصر
غير أنه وإن كان من مظاهر التدقيق في التعبير، التدقيق في اختيار الكلم، والتدقيق في وضع المصطلحات العربية للألفاظ الفنية الإفرنجية، فإن هذا التدقيق الذي ينتهي به الكاتب - عادة - إلى نتائج قيمة من أسلوب واضح دقيق، ووضع كلمات عربية تجري مجرى الاصطلاح الإفرنجي يخونه التوفيق بعض المرات، وله بعد ذلك جانب السعي المشكور. من تلك الحالات التي خانه فيها التدقيق في التعبير واختيار الكلم قوله (وتسليط النقد النافذ من جهتيه - الخارجي والباطني - ص 12 و 42 من الكتاب. ومن المعروف أن كلمة داخل تقابلها من الجهة الأخرى خارج، كما أن لفظة باطن تقابلها ظاهر؛ فيكون تعبيره وإن دل على المعنى، ضعيفاً من وجهة السياقة اللغوية العربية الخالصة. وقد استعمل بعضهم هنا في مصر ومنهم الأستاذ أحمد أمين اصطلاح النقد الداخلي والنقد الخارجي - ضحى الإسلامية ج 2 ص 130 - 131 - وقد جاراه في ذلك الأستاذ أمين الخولي - أنظر تعليقه على أصول من الترجمة العربية لدائرة المعارف الإسلامية، م2 ص280 - وكان فيإمكان الباحث أن يجري الكلام على هذا الوجه، فذلك أدل على المعنى من جهة وأقوم من الوجهة التعبيرية العربية الخالصة من جهة أخرى فضلاً عن أنها جرت على الأقلام، فمن هنا اكتسبت قيمة المصطلح الفني.
كذلك قوله: (الاعتماد على المشاهدة دون الفرض والتحقيق دون التخيل) فهو لو قال: (الاعتماد على المشاهدة دون التخيل والتحقيق دون الفرض) لاستقام معه المعنى والتعبير. ولقد جرى قلم الباحث بلفظة (أسلوب) في بعض مواضع من أبحاثه محملاً اللفظة أكثر مما تحتمل من حيث تدل على الطريقة أو النهج في الكتابة أو التفكير. فكان من ذلك أن قال: (وإذا بدا لك بعد هذا أن تعدل عن النقد الخارجي وهو النظر في الأسانيد إلى النقد الباطني وهو النظر في الأسلوب) ص 42؛ ومن المعلوم أن النقد الداخلي ينظر في المتن، والمتن ينقسم إلى معنى وعبارة، أو مادة وشكل، أو فكرة وأسلوب، فالعبارة أو الشكل أو الأسلوب شِقّ يعرض له النقد الداخلي، وليس بكل ما يعرض له (انظر لفظة أسلوب في لسان العرب) ومن هنا يبدو قصور تعبير الباحث عن أن يمد المعنى الذي في
ذهنه ظله على ما يلبسه من معنى
ولقد جرى قلم المؤلف سلوك تارة (ص 56) وبلفظ أخلاقيات تارة أخرى (36، 56) مقابلاً لاصطلاح فرنسياً، والسلوك من حيث يفيد النهج يقابل إفرنجياً. أما اصطلاح فيفيد الآداب؛ أما الأخلاق عربياً فتقابل واستعمال لفظ السلوك لأحد مشتقات المصدر تارة ولفظ أخلاق لمشتق آخر لنفس المصدر، يوقع في اللبس والاختلاط (راجع ص56 من الكتاب). كذلك يعتبر الباحث كلمة (البصيرة) مقابلاً لـ (ص 57) ونحن نرجح لفظة (الحدس) لأنها فلسفياً كما جرت على أقلام فلاسفة العرب كابن سينا والفارابي تفيد معنى الانتقال دفعة واحدة من المبادئ إلى النتائج، وهذا ما تفيده معنى اللفظة اصطلاحياً ولغوياً كما يستفاد من مراجعة معاجم اللغة الفرنسية
وثم عندك قول الكاتب: إن للفظة الشرف مفادات متجاورة تارة، متباينة أخرى) ففي هذا التعبير لفظة التجاور تفيد إفرنجياً معنى إفرنجياً والقصور واضح في التعبير العربي. ولكي تتسق مفادات العبارة لا بد من إبدال لفظة (المتجاورة) من الجملة بالمتشابهة، لأنها أدل على المعنى وأكثر اتساقاً في الجملة.
وقد كان بودي أن أمر بكل هذا الذي ذكرته - لأنه ملاحظات
شكلية لا يخلو من أمثالها كاتب - ولكن تدقيق المؤلف
وعنايته الظاهرة بالشكل، هي التي دفعتني لمجاراته في
التدقيق. وبعد ففي موضوع المباحث مسائل تقف النظر،

وموضوعات تستحق وقفة للتدبر، ففي المبحث الأول وهو عن
وهي رسالة نشرت في الأصل بالفرنسية (المسلمين في فنلندة)
في مجلة الدراسات الإسلامية بباريس (13ص 181934) تجد
الباحث يقول إن هؤلاء المسلمين من (الترك - التتر)
الضاربين فيما وراء جبال أورال، وقد هجروها إلى الشمال،
وحلوا بفنلندة عقب الانقلاب السوفيتي في روسيا. وهو في
قوله هذا يعتمد على ما رووه له، وما تحدثوا به إليه دون أن
يتعداه إلى سبل التحقيق للتأكد من صحة أقوالهم. فنحن نعرف
- أن المصادر التركية تتحدث عن رحلة جموع من (الأتراك
المسلمين) إلى الشمال في القرن السادس عشر للميلاد، وأنهم
نزلوا بلاد (الفنوا) - أنظر خير الله أفندي في دولت عَلِية
عُثمانية تاريخي ج 6 ص 138 - 145 - فهل تحقق الباحث
من أن مسلمي فنلندة الذين شاهدهم عن كثب ليسوا من نسل
هؤلاء؟ وأن قولهم بأنهم أتوا فنلندة عقب الثورة الاشتراكية
الكبرى في روسيا حقيقة لا تخلو من الريب؟ هذه أسئلة
خطرت بالذهن حين تلونا للباحث كلامه في صدد أصل
هؤلاء.

ومسألة أخرى في هذا البحث، فالباحث يذكر أن جموع هؤلاء المسلمين الأتراك تنزل العاصمة ثم بمدينتي (تمبري) و (توركو) وهو لم يذكر لنا شيئاً عن المدينة الثانية وهل هناك صلة بين أسمها ولفظة (تورك) خصوصاً أنهم على ما يروي من (الترك - التتر).

ولا شك أنه في فترة خمسة عشر عاماً ليس في مستطاع هذه الجموع (التركية - التترية) أن تخلع على المدينة اسماً مشتقاً من أصول جماعتها، خصوصاً وهم أقلية؛ وإذن فللموضوع شأن أعمق من القول بأن هؤلاء من الذين نزلوا (فنلندة) بعد الثورة البلشفية في روسيا

على أنه يظهر أن الباحث أُخِذ بجدة الموضوع فلم يتعمق في البحث، آية ذلك أنه يقول: (إن لغة التعليم عندهم هي التركية وحروف هجائهم هي الحروف (اللاتينية - التركية) التي وضعت وشاعت بأمر أتاتورك) - ص24 - وهو بهذا يستدل على أنهم صرفوا هواهم عن روسية الجنوبية (؟) إلى أنقرة - ص23 - ولكن لتصح له الدعوى حتى يصح له الاستنتاج، والدعوى لا بد لصحتها من التثبت من أن حروف الهجاء التي يتخذونها هي الحروف (التركية - اللاتينية) التي أخذ بها الأتراك في تركيا الكمالية، وليست الحروف (التركية - اللاتينية) التي توافق عليها أتراك آسيا الوسطى والقوقاز والأورال في مؤتمر تفليس عام 1925: (أنظر في - باب التعليم الوطني -). ذلك أن هنالك بعض الفروق الطفيفة بين أحرف الهجاء اللاتينية، كما هي عند أتراك الجمهورية التركية وأتراك الاتحاد السوفيتي، وهذا الفرق يظهر واضحاً في بعض الحروف التي تدل على حركات معينة، وفي إمكان الباحث بمراجعة هذه الفروق أن يدلي برأي نهائي في الموضوع.

على أنه بعد ذلك في هذا الفصل استطلاعات اجتماعية قيمة تسبغ على البحث أهمية لا تنال مها هذه الملاحظات

والمبحث الثاني عن (مكارم الأخلاق) وهي محاضرة في الأصل ألقاها الدكتور بشر فارس عام 1935 في مؤتمر المستشرقين بروما باللغة الفرنسية ونشرها بمجلة الأكاديمية الوطنية للعلوم في روما. وقد قام بترجمتها والتوسع فيها بعض الشيء في الأصل العربي، والبحث في العموم دقيق في أصوله، ضارب إلى التثبت العلمي في تفاصيله، وكان بودنا أن نناقش الباحث آراءه التي أتى بها في الموضوع ولكن المصادر أعوزتنا. لهذا صرفنا النظر عن مناقشتها. على أنه يظهر أن الباحث وفيَ الموضوع حقه من التحقيق والفحص العلمي.

(البقية في العدد القادم)

إسماعيل أحمد أدهم

العدد 312 - بتاريخ: 26 - 06 - 1939

على ذكر الضرائب الجديدة
تكاليف الاستقلال
وهل تكاليف الاستقلال، إلا ضرائب الدماء والأموال؟
لقد كنا قبل أن نبلغ رشدنا الدولي نعيش في كنف الحكومة وحمى الاحتلال، كما يعيش النشء الأغرار في ظلال الأبوين ورعاية الأسرة! تنفق علينا الحكومة ولا نعلم من أين تكسب، وتدفع عنا الحليفة ولا ندري بماذا تضرب. وكنا نسمع بما تجود به الأمم لأوطانها من الأموال والأثمار والأنفس، ونرى ما نحن فيه من البال الفارغ والعيش الأبله، فنحسب أن حياتنا هي الحياة، وغبطتنا هي الغبطة. ولكننا كنا نرى من الجهات الأخرى أن عزتنا وقومنا لا تقاس على عزات هذه الأمم وقواها؛ فهي في أوطانها حرة الإرادة مطلقة السيادة، وفي العالم مرفوعة الرأس مسموعة الكلمة؛ ونحن في وطننا قطيع يسام ويسمن، وفي العالم سلعة تُساوم وتؤمّن، فلا نشعر هنا كما يشعر الناس هناك أننا نحن الوطن والثروة، والحكومة والسطوة، والدولة والسلطان. فلما بلغنا التكليف وأدركنا الاستقلال وملكنا زمام الأمر، أصبحنا فإذا أخطار المجد تحوم على كل نفس، وأثقال الدفاع تنحط على كل كاهل: فالضرائب تجبى من المال، والكتائب تجمع من الدم، والتضامن الدولي العام يقتضينا المساهمة في حفظ السلام وإقرار العدل بالمعاهدات الدفاعية والمواثيق الاقتصادية؛ وفي سبيل ذلك تستعد كل نفس للموت، ويتهيأ كل شيء للبذل؛ ومن أجل ذلك يجب أن يكون صوتنا هو الأرفع في السياسة، ورأينا هو الأعلى في الحكم
نحن الذين ننفق فلا بد أن يكون لنا الحساب؛ ونحن الذين نموت فيجب أن يكون في أيدينا الأمر!!
ما كنا قبل اليوم نشعر هذا الشعور ونفهم هذا الفهم. والفضل في هذا الوعي وفي هذه اليقظة يكاد يرجع إلى ضريبة الدمغة من دون الضرائب. فإن ضرائب العقار والدخل والإنتاج إنما هي ضرائب خاصة، تُجبى من قوم دون قوم، وفي وقت بعد وقت؛ فالشعور بوجودها محدود، والتفكير في أمرها مؤقت. أما ضريبة الدمغة فهي ضريبة عامة، تُجبى من أي إنسان في أي زمان ما دام له عمل أو حاجة. فهي لذلك لا تنفك تشعرك وتشعرني أننا ننفق على الحكومة؛ فرؤساؤها وكلاؤنا، وموظفوها أجراؤنا، وأموالها أموالنا؛ فنحن حقيقيون أن نراقب الوكيل، ونحاسب الموظف، ونرعى الخزانة؛ ونحن خليقون أن نقول للوزير: إن جهدك للدولة فلا تبذله على هواك الفرد، وللموظف: إن وقتك للأمة فلا تشغله بعملك الخاص، وللنائب: إن رأيك للناس فلا تصرفه إلى متاعك الباطل
لقد كنا ندرك معنى الوطن إدراك الشيوع والإبهام والغفلة، فلا نكاد ندري ما يقدم إلينا وما نقدم إليه. فالترع تشق، والطرق تنهج، والجسور تنصب، والعمارة تمتد، والثقافة تنتشر، والأمن يستقر، والحضارة تزدهر، ونحن نستمتع بذلك كله استمتاع الغريب لا نجد فيه ريح الفخر ولا روح المجد، كأن غيرنا هو الذي قام به وأنفق عليه! ولو أن عابثاً عبث به، أو عائثاً عاث فيه، لما ألقينا بالنا إلا لخبر السرقة أو الخيانة أو المحاباة، نرويه كما نروي أخبار البرق للتفريج والتفكهة في حديث القهوة أو في سمر البيت. وتلك حال كانت أشبه بحال الأمير أو الغني الذي أوتي الملك عفواً من غير حيلة، واستولى على ريعه صفواً من غير كلفة؛ فشعوره به شعور بأثره لا بعينه، وحرصه عليه حرص على ثمره لا على شجره. أما لذة الملك في ذاته فلا يستشعرها إلا المالك الذي اشتراه بجهده، والفلاح الذي استغله بعرقه
كذلك كنا نفهم معنى الوطن قبل أن نفهم معاني الاستقلال والسيادة والعزة، فلما فهمناها وفهمنا لوازمها من الإخلاص والإيثار والتضحية، أصبحنا نعتقد أن كل قوة هي من قوات الوطن العامة، وكل ثروة هي من ثرواته المشتركة، فالقادر لا ينبغي أن يعطل قوته لأنه حر، والغني لا يجوز أن يبدد ثروته لأنه مالك
إن للوطن حقاً معلوماً في أملاك المواطن وملكاته، وإن للمواطن حقاً مشاعاً في أمجاد الوطن وخيراته. فأنا من حقي أن أقول للأمير الذي يهلك ثروتنا وسمعتنا على

الفتون والمجون، وللغني الذي يخمد نهضتنا وحيويتنا بالكزازة واللؤم، وللأديب الذي يزيف أدبنا وتاريخنا باللغو والباطل، وللوزير الذي يوزع المناصب بالهوى ويقسم الأرزاق بالمحاباة، وللموظف الذي يتصرف في أشياء الدولة تصرف المالك، فسيارتها في (جراجه) وسعاتها على بابه، وأموالها في جيبه، وللعضو البرلماني الذي لا يدخل أحد المجلسين إلا ليقبض مكافأته أو يلقى أصحابه أو يتلقى بريده؛ من حقي وحقك أن نقول لهؤلاء جميعاً على التوالي: إنكم علق تعيشون على دماء الناس، وأنكاد تتلذذون بكفران النعم، وافدام تتطفلون على موائد العلم، وأوغاد تدلسون الحكم على الوطن، ولصوص تعيث أيديكم في مال الأمة، وعيال تبهظ أثقالكم عاتق الفقير؛ فحياتكم على الأرض غرور ولهو، ونسبتكم إلى الوطن زور وباطل

ذلك ما يحق لكل مصري أن يكرر قوله؛ وذلك ما يجب على كل مصري أن يتقي سماعه. ولا خوف علينا بعد اليوم من غفوة العيون وغفلة البصائر، فإن كل طابع نشتريه من طوابع الدمغة منبه عنيف الحركة في اليد، شديد الصوت في الأذن. وإنما الخوف كل الخوف على زعيم الأمة إذا ضل، وعلى أمين الخزانة إذا أسرف!

أحمد حسين الزيات

جناية أحمد أمين على الأدب العربي

للدكتور زكي مبارك

- 3 -

تطايرت الأخبار بانزعاج الأستاذ أحمد أمين، وكثُر المتحدثون عن الوفاء والأوفياء. فليت شعري كيف يكون العزم على تصحيح أغلاطه ضرباً من العقوق، ولا يكون إلحاحه في الغض من قيمة الأدب العربي ضرباً من العقوق؟

إن هذا الصديق حدثنا ألف مرة أنه لا يغضب من النقد إذا كان فيه تقويم للأفكار والآراء

ونحن سنضع شجاعة الأستاذ أحمد أمين في الميزان، وسنختبر صبره على كلمة الحق، وسنرى كيف يجزينا على ما نقّدم إليه من جميل

إن هذا الرجل يحكم على الأدب العربي أحكاماً تشهد بأن طريقته في فهم الأدب والحياة طريقة عامية، فكيف يكون حاله إذا صححنا بعض ما وقع فيه من أغلاط؟

أيرجع إلى الحق؟

أيوجه إلينا كلمة ثناء؟

هنا تُعرف قيمة الأخلاق في نفس الرجل الذي ألف أول ما ألف في الأخلاق

وأقسم أني أهجم على هذا الرجل وأنا كارهٌ لما أصنع، فأحمد أمين رجل محترم، وقد وصل بكفاحه إلى منزلة عالية في الحياة الأدبية، وأنا قد ضيعت جميع أصدقائي بفضل جرائر النقد الأدبي، وكنت أحب أن أداوي ما جرح قلمي لأنجو من الدسائس التي تعترضني في جميع الميادين

ولكن كيف أسامح رجلاً يحاول أن يلطخ ماضينا الأدبي بالسواد؟

إن هذا الرجل يؤرخ الأدب بالجامعة المصرية، وهو بذلك قدير على تلوين الاتجاهات الأدبية عند شبان هذا الجيل، فتصحيح أغلاطه لا ينفعه وحده، وإنما ينفع معه ألوفاً من الشبان الذين يدرسون في كلية الآداب من مصر ومن أقطار الشرق

يرى هذا الرجل أن (المديح والهجاء) هما أظهر الفنون في الأدب العربي، وبذلك يكون الأدب العربي في أغلب أحواله أدب معدة لا أدب روح

ولو كان هذا الرجل يدقق لعرف أن المديح والهجاء هما السجل الصحيح للأخلاق العربية،

فمن المديح نعرف كيف كان العرب يتمثلون المناقب، ومن الهجاء نعرف كيف كانوا يتصورون المثالب، ومن المحاسن والعيوب يعرف الباحث صور المجتمع في الحياة العربية والإسلامية

ولو ضاعت قصائد المديح والهجاء لضاع بضياعها أعظم ثروة يستعين بها علماء النفس لفهم تطورات الأفكار والأذواق فيما سلف من عهود التاريخ

فمؤرخ الأدب لا يؤذيه أن تكثر قصائد المدح والهجاء إلا حين يزهد في فهم المشارب والميول، وتعقب المنازع والأهواء، كأن يكون رجلاً يؤرخ الأدب وهو غير أديب

يضاف إلى ذلك أن المادحين والهاجين لم يكونوا جميعاً طلاب أرزاق، وإنما كان

أكثرهم أصحاب مبادئ وعقائد، وكانوا يؤدون في خدمة الدولة ما تؤديه الصحافة في هذه الأيام، وهي تؤرخ الصراع بين أحزاب اليسار وأحزاب اليمين
وقصائد المديح والهجاء كان لها تأثير نافع في تقويم الأخلاق. ولو أن أحمد أمين كان من المطلعين لعرف أن تلك القصائد كان لها تأثير في أكثر ما غنم العرب من الحروب
لو كان أحمد أمين يدقق لعرف أن شيوع المديح والهجاء في البيئات العربية يدل على خلق عظيم من أخلاق العرب وهو (النخوة)، فالعربي يسره أن يُذكر بالجميل ويؤذيه أن يُذكر بالقبيح، ومن هنا كانت المدائح والأهاجي لا توجّه في الأغلب إلا إلى عظماء الرجال
وما رأي أحمد أمين في حسان بن ثابت؟
ما رأيه إذا حدثناه أن الرسول كان يرى المدح والهجاء باباً من أبواب الجهاد؟
ما رأيه إذا حدثناه أن الرسول كان يرى حسان بن ثابت جندياً نافعاً لأنه كان يخوّف خصوم النبوّة بأشعاره في الهجاء؟
أتكون أشعار حسان في الهجاء من أدب المعدة؟ قل بذلك يا أحمد أمين، إن استطعت، ولن تستطيع!
وما رأي أحمد أمين في مدائح الكميت وأهاجيه؟
ما رأيه في قصائد الفرزدق وقصائد دعبل في الثناء على أهل البيت؟
ما رأيه في الشعراء الذين أوقدوا نار الحرب بين بني أمية وبني العباس؟
ما رأيه في قصائد مسلم بن الوليد في الثناء على بعض الأبطال؟
ما رأيه في قصيدة أبي تمام يوم فتح عمورية؟
ما رأيه في مدائح البحتري وهي تسجيل للشمائل العربية؟
أيكون عيب أولئك الشعراء أنهم كانوا يعيشون في ظلال الأمراء والخلفاء؟
وما العيب في ذلك؟
ألم يكن شعراء المشرق والمغرب يعيشون في ظلال الأمراء والملوك؟
وكيف يعاب على أمثال البحتري والمتنبي ما استباحه أمثال فولتير ولافونتين؟
إن أولئك الشعراء كانوا يؤدون لدولهم خدمات اجتماعية وسياسية، ومن حقهم أن يعيشوا بفضل تلك الخدمات، لأنهم لم يخلقوا بلا معدة كما خلق الأستاذ أحمد أمين الذي يخدم الأمة المصرية بالمجان، لأنه لا يتناول من الجامعة في كل شهر غير مبلغ ضئيل لا يتجاوز الستين ديناراً، ولا يتناول من أعماله الأدبية في كل شهر غير دنانير لا تعد بغير العشرات!
ما الذي يعيب الشاعر والأديب حين ينتفع من الشعر والأدب؟ ما الذي يعيبه وهو من جنود المعامع الاجتماعية والسياسية؟ ما الذي يعيبه حين يطمع في أموال الملوك والخلفاء، وكان شعره السناد لدول الملوك والخلفاء؟
وهل يعاب جوبلز لأنه يعيش بفضل الدعاية للسيطرة الألمانية؟
هل يعاب الصحفيون الذين يعيشون بفضل الدفاع عن الحكومات والأحزاب؟
إن الشاعر القديم هو نموذج للصحفي الحديث، وكلاهما يؤدي مهمة اجتماعية وسياسية
لو كان الأستاذ أحمد أمين يدقق لعرف أن رجال الأخبار يؤدون مهمة خطيرة، فهم في حكم الواقع رجال شرفاء وإن احتقرهم المجتمع عن جهل وسخف، فكيف نهين الشعراء والصحفيين وهم يرشدون الدول عن طريق العلانية، ويوجهون أممهم إلى سبيل المجد والاستعلاء؟
ولولا بُناة الشعر في الناس ما درى ... بُناةُ الندى من أين تُبنَى المكارمُ
أنرضى أن يكون شعراء العرب شحاذين ومتسولين لتصح أغلاط أحمد أمين؟
أيكون أسلافنا من الأدباء والشعراء مرتزقة لأنهم لم ينسوا حظوظهم من أموال الملوك والخلفاء، وبفضل مدائحهم وأهاجيهم عاش الملوك والخلفاء؟
إن الأمم العربية والإسلامية لم تضعف حيويتها إلا حين عدمت الأريحية وزهدت في مدائح الأدباء والشعراء
وهل تستطيع حكومة في هذه الأيام أن تعيش بلا سناد من تشجيع الكتاب والخطباء والصحفيين؟
وهل قامت حكومة أو سقطت حكومة إلا بفضل أسنّة الأقلام؟
إن الأقلام تصنع في مصير العالم مالا تصنع جيوش البر والبحر والهواء

وكلمة (مأجور) كلمة ابتدعها أحمد أمين، وما كان (الأجر) عيباً إلا في نظر هذا الناسك المتبتل، فقد كان (الأجر) من قبله كلمة شريفة أقرها القرآن المجيد
ومن الله ألتمس (الأجر) على تصحيح ما وقع فيه هذا الصديق من أغلاط
وما رأي صاحبنا في هتلر وموسوليني وهما يُرهبان العالم بالأقوال قبل الأفعال؟
ما رأيه إذا علم أن هتلر يهمه أن يكون لأقواله ومؤلفاته قيمة مادية؟
بل ما رأيه إذا علم أن العراك حول مشيخة الأزهر له أسباب دنيويه؟
ما رأيه إذا علم أن (البابا) يجتذب مريديه بثمرات النخيل والأعناب؟
ما رأيه إذا علم أن الغض من قيمة المعدة ليس إلا رهبانية نهى عنها الإسلام؟
ما رأيه إذا عرف أن من يحتقرون الأمعاء كانوا كتبوا مرة أو مرتين في تأثير (الهضم) على العقول؟
نحن لا نريد مؤرخاً للأدب يفهم الدنيا بالمقلوب، وإنما نريد مؤرخاً يفهم أن الأدب صورة الحياة، ويعرف أن شعر ابن الرومي في وصف (الرقاق) لا يقل شرفاً عن شعر ابن المعتز في وصف (مداهن الطّيب) لأن الشاعر لا يطالب بغير إجادة الوصف لما تراه العيون، وما تحسه القلوب
نريد مؤرخاً للأدب يدرك أن من حق الأديب أن يصف ما يرى ويسمع.
نريد مؤرخاً للأدب يدرك الفروق بين الأشياء، ويتأثر بجميع المناظر، ويطرب لجميع ما في الوجود، ويتابع النبرات الموسيقية في نقيق الضفادع، على نحو ما يصنع وهو يتسمع لأسجاع الحمائم. وذلك يوجب أن يكون رجلاً له ذوق وإحساس
نريد مؤرخاً للأديب يغلل أسباب الحسن وأسباب القبح مع العطف على جميع مظاهر الوجود
نريد مؤرخاً للأدب يرى السخرية من العيوب ويرى مكر الثعلب لا يقل جمالاً عن بلاهة الغزال
قد يسأل القارئ: وما محصول هذا التصحيح؟
ونجيب بأن له أهمية عظيمة لأنه يضع تاريخ العرب في نصابه من حيث الأخلاق، فأتباع الأمراء والوزراء والملوك والخلفاء من أهل الشعر والأدب لم يكونوا في جميع أحوالهم صعاليك كما يريد الأستاذ أحمد أمين؛ وإنما كانوا قوماً يؤدون خدمات سياسية واجتماعية وأدبية، وكانوا يؤلفون جماعات منظمة تنشط الروح المعنوي في الدولة وتشيد بمكارم الأخلاق. وكان الطائشون منهم يمثلون ما في أرواح بعض الجماهير من عناصر الزيغ والارتياب. فهم الصورة الصحيحة لما كان عند العرب والمسلمين من عناصر الشك واليقين
وأذهب إلى أبعد من ذلك فأقول إنهم خلقوا العصبيات القومية، وأمدوا التاريخ بروح الحياة. فهذه مصر مرّ بها كثير من الخمول في مطلع حياتها الإسلامية، ولم يبق من ولاتها وحكامها من هو أسير ذكراً من كافور والخصيب بفضل مدائح المتنبي وأبي نواس
ولو شئت لقلت إن المداحين والهجائين كانوا يقيمون بقصائدهم مدارس لتعليم الأخلاق، وكانوا يقيمون بقصائدهم معاهد لتعليم اللغة والأدب والتاريخ. وقد كانوا بالفعل معلمين، لأنهم كانوا أساتذة الأدب في تلك الأزمان، وبفضل صوابهم وخطئهم كان يعيش النحاة واللغويون
والأستاذ أحمد أمين الذي يجعل وصف الطبيعة من أدب الروح ينسى أن الإنسان هو خير ما في الطبيعة. وهل يكون مدح الغصن المزهر أشرف من مدح الملك المفضل إلا في ذهن من ينظر إلى حقائق الأشياء نظرة عامية؟
أقول هذا وأنا أزهد الناس في هذا اللون من الحياة، لأن الاتصال بالملوك يتطلب ألواناً من التلطف والترفق لا يحسنها رجل مثلي، فلي شمائل تغلب عليها الشراسة والجفوة وتثقلها بداوة الطبع.
ولكن هذا لا يمنع من الاعتراف بأن الشعراء الذين اتصلوا بالملوك وتفيئوا ظلالهم لم يكونوا في كل حال من ضعفاء النفوس، وإنما كانوا في الأغلب ناساً عقلاء يعرفون روح الزمان
والمرتزقون منهم كانوا انساقوا إلى تلك المزالق بفضل القالة الحسنة التي جعلت الشعر من أطيب ما يشتهي الملوك والخلفاء، فقد مرت أزمان كانت فيها الهبات

الرسمية باباً من الشرف قبل أن تكون باباً من المعاش
قد يسهل على الأستاذ أحمد أمين أن يخرج من هذا المأزق بأن يلوذ بما اصطلح الناس عليه في العصر الحديث من الانصراف عن مدح الملوك، ولكنه، إن فعل، سيصطدم بصخرة قاسية، لأن الحكم الأخلاقي مرجعه إلى تصور الدواعي والأسباب، فما نتحرج منه اليوم لم يكن يتحرج منه القدماء، وما قد نعده عيباً كان الأسلاف يعدونه من التشريف
ماذا أريد أن أقول؟
أنا أريد أن أنزه تاريخ العرب عن وصمة المعدة، والمعدة ليست وصمة إلا في ذهن الأستاذ أحمد أمين، أمدني الله وإياه بالمعدة القوية لنستطيع مواصلة الجهاد!
آمينَ آمينَ لا أرضى بواحدة ... حتى أضيف إليها ألف آمينا
أيرى القارئ أني استطعت إفحام هذا الباحث المفضال؟
لن أُفحمه حتى يشرب صبابة الكأس: (وكل صبابةً في الكأس صابُ). كما قال شوقي أحمد أمين يقول:
نرى في العصر العباسي طغيان أدب المعدة على أدب الروح. هذا البارودي (رحمه الله) اختار لثلاثين شاعراً من خيرة شعراء الدولة العباسية. . . وكانت مختاراته في أربعة أجزاء كبار. فكان ما أختاره من المديح 24185 بيتاً، ومن الأدب 1697 بيتاً، ومن الغزل 4616 بيتاً، ومن الهجاء 1229 بيتاً، ومن الوصف 3993، ومن الزهد 473 بيتاً. ونظرة واحدة إلى هذا الإحصاء تدهشنا أشد الدهش: إذ يتبين لنا طغيان أدب المعدة - (وهو المديح والهجاء - على أدب الروح، طغياناً كبيراً.
ذلك هو أحمد أمين بقصّه وقضيضه كما كانوا يعّبرون. ذلك هو أحمد أمين الذي يدرس الأدب بالإحصاء، والذي يقيس الدواوين الشعرية بالمتر والباع والذراع.
لقد كنت أحفظ أكثر مختارات البارودي ولم يخطر ببالي أن أعّدها. فهل أستطيع اليوم أن
أقول للأستاذ أحمد أمين: (أفادك الله!)
هل بلغت المدائح في مختارات البارودي 24185 بيتاً؟
ذلك (إحصاء) أحمد أمين، ولا موجب لمراجعته لأنه من النوابغ في الإحصاء!
ولكن هل فكر هذا الرجل في (إحصاء) الأغراض المبثوثة في تلك المدائح؟ هل يضنها جميعاً من قبيل: (أنت شمسٌ أنت بدرٌ؟).
ألم يكن أكثرها تسجيلاً لوقائع حربية، ومواسم تشريف؟ هل خطر بباله أن (يُحصي) ما في تلك المدائح من الأوصاف والحِكم والأمثال؟
هل خطر بباله أن يلتفت إلى القصائد التي استوجبت عناية النحاة واللغويين فأمدت اللغة العربية بفيض من الحيوية لا ينضب ولا يغيض؟
أحمد أمين يرى أن محصول المدائح في العصر العباسي أكبر محصول، ويرى محصول الزهد أصغر محصول!
فهل استطاع هذا الرجل أن يستخلص العِبرة من الموازنة بين النسبتين؟
لو كان أحمد أمين يدقق لعرف أن طغيان المديح على الزهد كان من علائم الحيوية في العصر العباسي. فهو الشاهد على أن العرب كانت حياتهم تزدحم بالأخطار الدنيوية. وهو الشاهد على أنهم كانوا أهل نخوة وأريحية. وهو الدليل على أنهم كانوا يحيون حياة تفيض بمعاني الأفراح والأحزان، وتتسم بعلائم القوة والكفاح.
وما كانت الأهاجى أقل قيمة من المدائح في الدلالة على هذه الشؤون.
فالأهاجي كانت في الأغلب تمثل صوت المعارضة السياسية، وكان لها تأثير شديد في كبح الطغيان، وبفضل الأهاجي قلّمت أظفار الاستبداد، وخشي الطغاة بأس القلم واللسان.
وهل تفرّد العرب بالهجاء؟
ألم يكن الهجاء فناً ظاهراً في جميع الآداب الشرقية والغربية؟
وهل خلت الكتب المقدسة من الهجاء حتى نعده من السيئات؟
وما هو الهجاء حتى نحكم عليه ذلك الحكم الجائر؟
ألم يكن صورةً للنفوس التي تغضب وتثور على ما تنكر من ألوان الضمائر والأعمال؟
وكيف نعيش إذا نجونا من ثورة الحب والبغض؟

كيف نكون إذا لم نقل للمحسن أحسنت، ولم نقل للمسيء أسأت؟
إن الملائكة يرضون ويغضبون، ويفرحون ويحزنون. وكل ما في الوجود من طبائع وأرواح يدرك معاني الرضا والغضب والابتهاج والابتئاس. فكيف يعاب علينا أن نكون صبحاً يتنفس وليلاً يتمرد، من حين إلى حين.
(مصر الجديدة)
زكي مبارك
الانتداب الفرنسي في بلاد الشرق
للأستاذ بيير فيينو
(بقية ما نشر في العدد الماضي)
ما هي الظروف التي أحاطت بمفاوضات المعاهدة؟
ولنتساءل الآن: ما هي الظروف التي أحاطت بمفاوضات المعاهدة السورية الفرنسية؟
ليست البلاد السورية بلاداً منعزلة في محيط بعيد، ولكنها على النقيض من ذلك تقع في قلب العالم وتخضع لتيارات من التأثيرات العميقة: أهمها سياسة إنكلترا في البلاد العربية المجاورة كمصر والعراق
ومهما يكن شأن تلك السياسة فنحن لا نستطيع أن ننكر أنها ساعدت في مختلف مراحلها على إثارة الشعور العام في البلاد التي تخضع لانتدابنا
وأول ذلك أن إنكلترا وعدت الشريف حسين سنة 1914 بالمساعدة على تأليف الإمبراطورية العربية، ثم إنها اتخذت بعد الحرب سياسة تختلف كل الاختلاف عن سياستنا نحن، فقد عقدت سنة 1930 معاهدة مع العراق كانت نهاية للانتداب البريطاني وفاتحة لانتظام العراق في سلك جامعة الأمم. وفي سنة 1935 بدأت مفاوضاتها مع مصر لعقد معاهدة صداقة وتحالف. . . وما من شك في أنه كان لهذه السياسة أثر كبير في سوريا التي كانت ترقب مجرى الحادثات في غليان وقلق
وقد أثبت ذلك سلسلة الوقائع المتأخرة، ففي 10 يناير 1936 قرر الحزب الوطني اتباع سياسة سلبية مطلقة وإعلان الإضراب العام إلى أن تجاب مطالب سوريا في الوحدة والاستقلال. وضم الإضراب سلسلة من المآسي وأسفر عن 60 قتيلاً ومئات من الجرحى، واضطر مندوبنا في سوريا مسيو (دومارتل) أن يستشير وزارة الخارجية، وكان على رأسها المسيو فلاندان فأشار بفتح باب المفاوضات مع وطنيّ سوريا
وقد انبثق عن هذه المفاوضات بين زعماء الحركة الوطنية وبين المفوض السامي تصريح أول مارس سنة 1936 الذي نص على وجوب عقد معاهدة في باريس بين وزارة الخارجية ووفد مفاوض تنتخبه البلاد، على ألا تقل هذه المعاهدة عن معاهدة إنكلترا
والعراق
ولا شك أن هذا التصريح كان يحمل طابع الضعف، لأنه صدر إثر تهديد شعبي قوي لم تتمكن الإدارة الفرنسية من أن تصمد له، ولكنه مع ذلك ضروري لازب، لأنه كان على فرنسا أن تختار بين العناد والمقاومة وبين الاتفاق والمسالمة - كما أبرق بذلك المندوب السامي في فبراير 1936 - وطبيعي جداً ألا تزج فرنسا بنفسها في مغامرة جديدة بعد تجربة الثورة السورية الكبرى فضلاً عن أنها ترغب في أن تفي بوعودها المتقدمة
ولقد وجهت بعض الاعتراضات على انتخاب أعضاء الوفد المفاوض، ولكن الواقع يضطرني إلى أن أقول إن هؤلاء الوطنيين المفاوضين هم الذين ناضلوا في سبيل بلادهم، وإنهم كانوا مصدر الصعوبات التي وجدناها في سوريا، وإن فشل معاهدة سنة 1933 أظهر في كثير من الجلاء ضرورة التعاون مع الجماعات الوطنية للوصول إلى تعاقد مُرضٍ حاسم
يقولون إن رجال الوفد المفاوض ليسوا أصدقاءنا - ولكنه قول خاطئ - لأن خصومة الانتداب لا تعني بالضرورة خصومة فرنسا
ولنسلم جدلاً أن ذلك صحيح، أو ليست السياسة أن يسالم الرجل أعداءه لا أصدقاءه؟
المعاهدة
لقد كان الغرض الرئيسي من التعاقد استبدال الانتداب الفرنسي بمعاهدتين مع سوريا ولبنان. وابتدأت المفاوضات في منتصف شهر مارس، وكانت تقتضي منا أن نوجه

انتباهنا إلى كل ما يجري حولنا. . . ففلسطين كانت تخوض غمرات ثورة حمراء كنا نخشى أن يمتد لهيبها إلى سوريا، وفي المغرب تتماوج الاضطرابات العنيفة ضد فرنسا عند كل بلبلة في الشرق الأدنى، ولهذا لم يكن في وسعنا أن نقف في المفاوضات موقف الآمر الناهي؛ وإنما كنا نستمع إلى جلسائنا ونناقشهم ونجادلهم وسأبدؤكم بالحديث عن المعاهدة السورية:

لقد كان تصريح أول مارس مؤكداً لاستقلال سوريا، أما المعاهدة فتصرح أن هذا الاستقلال يتحقق في انتساب سوريا إلى جامعة الأمم كما تشترط فترة انتقال تمتد ثلاث سنوات تمتحن فيها مقدرة السوريين على الإدارة والحكم.

على أن أطراف المشكلات التي اعترضت المفاوضات مشكلة العلاقات السورية اللبنانية؛

ويهمنا كفرنسيين أن يبقى لبنان في نجوة من طغيان الوحدة السورية.

ومع هذا فيجب أن نقرر أن الوطنية السورية تجد في لبنان عناصر مؤيدة فعالة؛ وذلك أن عدد سكان لبنان 850. 000 أكثرهم من المسيحيين، ولكن بعض المدن مثل طرابلس التي تنتهي فيها أنابيب بترول الموصل مسلمة كلها. وقد أثبتت التجارب أن من الصعب أثناء الاضطرابات والقلاقل السياسية أن تحول السلطات دون ظهور الشعور الفعال في الأطراف الأخرى. . .

ولقد عرفنا ذلك 1920 - 1921 في لبنان الجنوبي ومنطقة العلويين؛ وفي سنة 26 كان اتحاد الدروز مع وطنيّ دمشق مثلاً رائعاً لهذه الألفة. وفي يناير 1936 خضعت طرابلس المدينة اللبنانية إلى حركات الوطنيين في دمشق فشاركت في الإضراب العام. ومن هنا ظهرت لنا ضرورة العناية باستقلال لبنان وانفصاله لما له من أهمية رئيسية بالنسبة إلى فرنسا

ولقد كانت المفاوضات في هذه الناحية - ناحية العلاقات بين سوريا ولبنان - صعبة عسيرة، ولكنها انتهت أخيراً إلى عزلة كل من البلدين عزلة كاملة؛ لأننا عارضنا بقوة وشدة كل محاولات طغيان سياسي أو اقتصادي سوري على لبنان

أما مستقبل العلاقات بين فرنسا وسوريا، فقد كانت مدة التعاقد التي نصت عليها المعاهدة خمسة وعشرين عاماً تقوم سوريا خلالها باستشارة فرنسا في الأمور المشتركة بين البلدين

وأما الناحية العسكرية فقد سويت في ملحق خاص واعترضها بعض العقبات الكثيرة التي استطعنا أن نتغلب عليها بفضل مهارة المفاوض السوري ومرونة خلقه السياسي ويختلف الملحق العسكري في المعاهدة السورية عن الملحق العسكري في المعاهدة العراقية - الإنكليزية، التي تنص على بقاء قاعدتين جويتين لسلاح الطيران الإنكليزي، وعلى تحديد مناطق النفوذ البريطاني، بينا يمتاز الملحق العسكري للمعاهدة السورية بأنه يدع مناطق النفوذ من غير تحديد ويترك لفرنسا حق الاحتفاظ بمركزين لجيوشها في مقاطعتي العلويين وجبل الدروز

أما حماية الحقوق والمصالح الفرنسية فمن الطبيعي أن نقول إن المعاهدة صانت هذه الحقوق في نصوص واضحة، ولا سيما ما يتعلق بالمصالح الاقتصادية والحقوق المكتسبة

للأشخاص الماليين والفنيين، وتعهدت بالإبقاء على نظم المؤسسات العلمية الحاضرة وبعثات الحفريات ومعاهد الدراسة الأجنبية؛ ونصت كذلك على استخدام ثمانين مستشاراً فرنسياً في نواحي الإدارة. وقد كان هذا كله ضرورياً من أجل البلاد التي انتشرت فيها ثقافتنا بفضل البعثات التبشيرية واللادينية

هذا فيما يتعلق بالمعاهدة السورية، أما عن المعاهدة اللبنانية فأستطيع أن أقول إنها نسخة ثانية من المعاهدة السورية، ولكنها تمتاز بأن مدة التحالف التي حددت بـ 25 سنة في المعاهدة السورية يمكن تجديدها ثانية في المعاهدة اللبنانية لمدة مساوية؛ وأن القواعد العسكرية لا تخضع لحدود معينة في التمركز والتنقل والمناورات.

وأخيراً قد استطعنا بواسطة هذا النظام الجديد أن نوطد مقامنا في لبنان وأن نثبت أركانه.

تلخيص

شكري فيصل

في بلاط الخلفاء
بين المازني والواثق والمتوكل
للأستاذ علي الجندي
لم تر البصرة بعد سيبويه من كان أعلم بالنحو وأحسن استنباطاً لمسائله، وتخريجاً لعلله من أبي عثمان بكر بن محمد المازني نسباً أو ولاءً على الخلاف في ذلك ولم يشأ المازني أن يقصر همّه على قواعد النحو الجافة، شأن كثير من رجالات البصرة، بل أراد أن يكون وسطاً بين سيبويه والأصمعي، فاتجه إلى تحصيل اللغة والأدب برغبة صادقة، فأخذ عن أبي عبيدة وأبي زيد الأنصاري والأخفش والأصمعي، حتى صار إمام عصره، وحتى كان من تلاميذه المبردُ وعبد الله بن سعد الورّاق وغيرهم من كواكب العربية الساطعة
وكان - إلى تمكنه في النحو واللغة والأدب - على حظ عظيم من قوة اللّسن، وخلابة المنطق، وبراعة الاحتجاج، فما تعرّض لمناظرته أحدٌ إلا افتضح، لدقة مسلكه في الجدل، وامتلاكه مذاهب القول، وتصرّفه في ألوان البيان
وقد ناظر أحد شيوخه الأخفش في مسائل عدّة، فقطعه وتركه ساقطاً مغلّباً!
ولم ينس المازني نصيبه من الشعر فنظمه على قلة. ولشعره حلاوة، وعليه ماء ورونق، وإن لم يخرج في جملته عن نطاق شعر النحاة والفقهاء والمعلمين الذين يعتمدون على حسن الرصف وإبداع الصياغة أكثر من اعتمادهم على الخيال الموشى والتصوير البارع
فمن أبياته السائرة قوله في الحكم:
ثِنْتان يعجز ذو الرياضة عنهما ... رأيُ النساء وإمْرة الصّبيان
أما النساء فإنهن نواشز ... وأخو الصِّبا يجري بكل عِنان
وله تعزية حسنة لبعض الهاشميين تفيض سلوى وتأساء على الكبد المقروحة والقلب الصديع، لما انطوت عليه من الذكرى النافعة، والحكمة البالغة التي تقود النفوس طيعةً إلى التسليم بقضاء الله وقدره. قال:
أني أعزيك، لا إني على ثقة ... من الحياة ولكن سنة الدين
ليس المُعَزَّى بباقٍ بعد ميِّته ... ولا المعزِّى وإن عاشا إلى حين
وكان المازني يمنح نفسه حرية المتشرع في فهم المسائل وإدراكها على الوجه الذي يسوغ في الذوق والعقل دون التعبد بآراء السلف. ومن أثر ذلك: تفسيره للحديث المشهور (إذا لم تستح فاصنع ما شئت) بأن المراد منه: إذا كان الفعل الذي تريد إتيانه لا يستحيا من مثله فاصنع منه ما شئت. وهو رأي حسن لم يسبق إليه
ولهذا الاستقلال الفكري الذي عرف به، كان المبرّد يقول: ما رأيت نحوياً أشبه بفقيه من المازني!
وللمازني رأي غريب في جماعة المشتغلين بالعلوم يحسن أن نورده لطرافته ولدلالته على شغف الرجل بدراسة أخلاق الناس، ودقة فطنته إلى ما يتمايزون به من صفات. يقول: - وقد سئل عنهم - أصحاب القرآن فيهم تخليط وضعف، وأصحاب الحديث فيهم حشو ورقاعة، والشعراء فيهم هوج، وأصحاب النحو فيهم ثقل، وفي رواية الأخبار: الظرف كله. والعلم: هو الفقه
وقد يكون المازني جانب الصواب في بعض هذه الأحكام، ولكنه قد صدق على الأقل في حكمه على النحويين!
ومن نوادره السائغة قوله: مررت ببني عقيل فإذا رجل أسود قصير أعور أبرص أكشف قائم على تل سماد وهو يملأ جواليق منه، ويتغنى بأعلى صوته:
فإن تصرمي حبلي وتستكرهي وصلي ... فمثلك موجود ولن تجدي مثلي
فقلت له: صدقت. ومتى تجد - ويحك - مثلك؟! فقال: بارك الله عليك! واسمع أخيراً. ثم اندفع يغني:
يا ربة المِطْرف والخَلخال ... ما أنت من همي ولا أشغالي
مثلك موجود ومثلي غالي
ويمتاز المازني بسمة واضحة عرف بها شيخ شيوخه الخليل ابن أحمد، وهي القناعة بالكفاف، والميل إلى العزلة والانفراد، والأنفة من التكسب بالعلم، وإيثار البعد عن الخلفاء وحاشيتهم والزهد في احتجان جوائزهم وصلاتهم ما لم يتقدموا بأشخاصه إليهم

رغبة في الاستفادة منه، فيصدر عنهم معزّزاً مكرماً.
ومع أنه من المتعارف لدى الناس أنه قلّما يكون النحوي دّيناً. فقد كان المازني ثقة في دينه
صدوقاً، كثير التزمت والورع، وإن كان منحرفاً عن أهل السنة إلى المعتزلة، ولهذا كان يلقى جفوة من أستاذه الأصمعي السنّي المتشدد فقلّت روايته عنه. وقد بلغ من زهده أن يهودياً بذل له مئة دينار ليقرئه كتاب سيبويه، فامتنع من ذلك! فقال له تلميذه المبرد: جُعلت فداك! أتردّ هذه المنفعة مع فاقتك وشدة إضاقتك؟ فكان جوابه: إن هذا الكتاب يشتمل على ثلاثمائة وكذا وكذا آيةً من كتاب الله عزّ وجلّ، ولست أرى أن أمكّن منها يهوديّاً غيرةً على كتاب الله وحمية له.
ونرجو أن يثاب المازني على حسن نيته، وإن كنا لا نقره على هذه العصبية. ومهما يكن من شيء فإنه لم تمض غير برهة قصيرة حتى أرسل الخليفة الواثق في طلبه ونفحه بالأعطيات السنية، فعدّ الناس ذلك إكراماً من الله له وإخلافاً عليه.
أما سبب طلب الواثق له فقد حدث أن مخارقاً غناه في شعر الحارث بن خالد المخزومي.
أظلوم إن مصابكم رجلاً ... أهْدَى السلامَ تحيةً ظُلْمُ
فذهب بعض الحاضرين إلى نصب (رجل)، ورأى آخرون رفعه، واشتد اللجاج في ذلك، فسأل الواثق عمن بقي من رؤساء النحويين فذكروا له المازني، فتقدم بحمله وإزاحة علله وإحسان تجهيزه ليفصل في هذا الخلاف.
وقد يتساءل بعض القراء: ما شأن الواثق بالنحو، وما قيمة رفع (رجل) أو نصبه حتى يزعج المازني من البصرة، ويعقد لذلك مجلساً من القضاة والمحكمين؛! والجواب: أن الواثق كان من أجلّ الخلفاء وأكثرهم اشتغالاً بالعلم والأدب وأطبعهم على قول الشعر الرقيق، وأبصرهم بالنقد، وأشدهم تمحيصاً للرواية وأميلهم للغناء. ولولا خشية الإطالة لجلونا ناحية من نواحيه الأدبية المشرقة ليعرف الناس كيف كان خلفاء هذا الزمان!
بلغ المازني دار السلام فأدخل إلى الواثق. فقال له: ممن الرجل؟ قال: من مازن. قال: من مازن تميم، أم مازن قيس، أم مازن ربيعة، أم مازن اليمن؟ قال: من مازن ربيعة.
وكانت اللغة الفاشية في مازن ربيعة قلب الميم باءً والباء ميماً. فقال الواثق يخاطبه بلغته بسطاً لنفسه وإدخالاً للأنسة عليها: باسمك؟ يريد: ما أسمك؟!
وهنا تتجلى لباقة المازني وسلامة ذوقه ورفاهة حسه وحسن تأتيه في مخاطبة الخلفاء؛ وأحسبه لو كان نحوياً فقط لارتطم في الهوّة، ولكن ذوقه المكتسب من معاناة الأدب فتق له
عن وجه الحيلة في الخروج سالماً من ورطة دفعته إليها دُعابة الواثق من غير قصد.
لقد عرفنا أن اسم المازني (بكر) والجري على مقتضى القياس في القلب أن يقول: اسمي (مكر) ولكن كيف يرضى المازني الأريب أن يقذف في وجه الخليفة بهذه الكلمة الكزّة الجاسية؟
رفع المازني رأسه إلى الخليفة قائلاً: اسمي بكر، يا أمير المؤمنين
رفّت هذه الكلمة رفيفاً نديّاً على كبد الواثق، واستنار منها وجهه واستضحك لها! وعرف أن هذا الذي يقف بين يديه رجل فيه كيس ودراية، وله طبع مهذب مصقول.
فقال (مستمراً في مفاكهته): اجلس فاطبئن. أي فاطمئن
ويجب ألا ننسى بهذه المناسبة أننا في العصر العباسي، حيث ورفت ظلال الحضارة ولان العيش وفشا النعيم واستفاض الظرف ورقت حواشي الأخلاق، وارتفعت مقاييس الأذواق، فكلمة ناعمة منضورة أمام خليفة أو وزير قد تنبّه من شأن قائلها وتحله منازل السعادة! وربّ كلمة حوشية جافية تهوى به إلى أسفل سافلين!
خذ لذلك مثلاً ما حدثوا به من أن مؤدب الرشيد كان عند والده المهدي (وهو يستاك) فقال له: كيف الأمر من السواك؟ فقال: اسْتك يا أمير المؤمنين. فقال المهدي: إنا لله وإنا إليه راجعون! التمسوا لنا من هو أفهم من هذا. فقالوا له: رجل يقال له علي بن حمزة الكسائي من أهل الكوفة قدم من البادية قريباً. فكتب بإحضاره، فساعة مثل بين يديه قال له: يا علي بن حمزة، قال: لبيك يا أمير المؤمنين. قال: كيف تأمر من السواك؟ قال: سُك. قال: أحسنت وأصبت وأمر له بعشرة آلاف درهم!

وقد حرم الأصمعي التوفيق في بعض مواقفه مع الرشيد على علمه وفضله فقد سأله عن مسألة، فأجاب: على الخبير بها سقطت! فقرعه الوزير يحيى بن خالد ونسبه إلى السوقة والأغتام!

على حين فطن لها أبو أحمد العسكري - وقد سأله الصاحب ابن عباد، فقال: الخبير صادفت. فقال الصاحب: يا أبا أحمد تُغرب في كل شيء حتى في المثل السائر! فقال: تشاءمت من السقوط بحضرة مولانا، وإنما كلام العرب: على الخبير بها سقطت

لهذا نَبُل المازني في نفس الواثق وحليّ في عينه، لأنه توسم فيه سجاحة الخلق وسلاسة

الحاشية ودقة الفطنة. وما زال الناس يستدلون بحديث المرء على دخيلة نفسه وصحيفة لبه ومبلغ تهذيبه وثقافته

ولنعد إلى ما انقطع من الحديث، فنقول: إن الواثق سأله عن البيت المتقدم فقال: الوجه النصب، لأن مصابكم مصدر بمعنى إصابتكم. فأخذ اليزيدي النحوي يعارضه. فقال المازني: هو بمنزلة: إن ضربك زيداً ظُلمٌ. فالرجل مفعول مصابكم، والدليل عليه: أن الكلام معلق إلى أن نقول: ظلم، فتتم الفائدة

فأعجب الواثق بهذا الفقه الدقيق. فقال: صدقت. ثم أردف قائلاً: ألك ولد؟ قال: بنت لا غير. قال: فما قالت لك حين ودعتها؟ قال: أنشدتني قول الأعشى:

تقول ابنتي حين جدّ الرحيل ... أرانا بسوء كمن قد يتم

أبانا فلا رِمْتَ من عندنا ... فإنا بخير إذا لم تَرِمْ

فقال الواثق: كأني بك وقد أنشدتها قول الأعشى أيضاً:

تقول بنتي وقد قرّبتُ مُرْتحلاً ... يا رب جنّب أبي الأوصابَ والوجعا

عليك مثل الذي صلّيت فاعتصمي ... يوماً، فإن لجنب المرء مُضَّجَعا

ولا ندري أقال المازني لابنته هذا الشعر أم لم يقله؟ ولكن ذوقه الذي كشفنا جانباً منه أبى إلا أن يصدق ظن الخليفة.

فقال: صدق أمير المؤمنين. قلت لها ذلك وزدتها عليه قول جرير:

ثقي بالله ليس له شريك ... ومن عند الخليفة بالنجاح

فقال الواثق: ثق بالنجاح إن شاء الله.

وخطر للواثق أن يكل إليه امتحان معلمي أولاده فقال له: إن ههنا قوماً يختلفون إلى أولادنا فامتحنهم، فمن كان عالماً ألزمناه إياهم، ومن كان بغير هذه الصفة قطعناه عنهم. وقد امتحنهم المازني فلم يجد فيهم طائلاً. فجزع المعلمون المساكين، وأيقنوا بالشر. ولكن المازني كان له دين يعصمه من قطع أرزاق الناس، فقال لهم: لا تُراعوا. ثم مضى إلى الخليفة. فقال له: كيف رأيت؟ فأجاب بجواب أبرأ به ذمته وخلص منه إلى غرضه. قال: رأيتهم يفضل بعضهم بعضاً في أمور، ويفضل الباقون في غيرها، وكلٌ يُحتاج إليه. فقال الواثق: إني خاطبت منهم رجلاً فكان غايةً في الجهل خطاباً ونظراً! فقال المازني: يا أمير المؤمنين أكثر من تقدّم من المعلمين بهذه الصفة! وقد قلت فيهم:

إن المعلم لا يزال مضعفاً ... ولو ابتنى فوق السماء بناء

من علم الصبيان أضنوْا عقله ... مما يلاقي بُكْرة وعشاء

فاهتز الواثق طرباً وقال: كيف لي بقربك؟ فقال المازني: يا أمير المؤمنين، إن الغنم لفي قربك والنظر إليك، والأمن والفوز لديك، ولكني ألفت الوحدة، وأنست بالانفراد، ولي أهل يوحشني البعد عنهم، ويضُرُ بهم ذلك، ومطالبة العادة أشد من مطالبة الطباع. فقال الواثق: فلا تقطعنا وإن لم نطلبك. فقال: السمع والطاعة.

وقد أمر له الخليفة بألف دينار، وأجرى عليه في كل شهر مئة، فانصرف إلى البصرة موطنه، وظلت تجري عليه الوظيفة حتى مات الواثق فقطعت عنه.

وقد ذُكر المازني للمتوكل فاستدعاه، فدخل إليه وقد جلس وزيره وصفيه الفتح بن خاقان بين يديه، وحفّت به كوكبة من فتيان الأتراك مدججين بالسلاح فهاله ما رأى من روعة الحضرة وأبهة البلاط، وكثرة العدد والعُدد، فطارت نفسه شعاعاً، وانتشر عليه فكره، وخشي أن يسأل فلا يسعفه الجواب لما داخله من الهيبة. فحين سلّم على الخليفة، ابتدر قائلاً: يا أمير المؤمنين أقول كما قال الأعرابي:

لاتَقْلُوَاها وادْلواها دلوا ... إن مع اليوم أخاه غَدْوا

ولم يكن المتوكل كالواثق في ثقافته العربية فلم يفهم ما أراد المازني، فاستُبرد وأُخرج. ولكن المتوكل لم يستغن عنه، فعاد فاستدعاه وقال له: أنشدني احسن مرثية قالتها العرب:

فقال المازني قول أبي ذؤيب الهزلي:

أمن المنون وريبها تتوجع

وقول كعب الغنوي:

تقول سليمي ما لجسمك شاحبا

وقول متمم بن نويرة:

لعمري وما دهري بتأبين هالك

وقول محمد بن مناذر:

كل حي لاقى الحمام فمودي

وهذه القصائد من الشرّد السائرات في الشعر العربي، وبخاصة قصيدة متمم في أخيه مالك التي كان يسميها الأصمعي أم المراثي! ولكن المتوكل لم يطرب إلى واحدة منها، فكان كلما سمع قصيدة قال ليست بشيء!

ثم قال المتوكل: من شاعركم اليوم بالبصرة؟ قال المازني: عبد الصمد بن المعذّل. قال: فأنشدني له

ولم يشأ المازني أن يُقل عليه بالشعر الجزل الرصين، فأنشده أبياتاً قالها ابن المعذل في قاضي البصرة ابن رباح:

أيا قاضية البصرة (م) ... قومي فارقصي قَطْره

ومرّي بِرَوْيسيجٍ ... فماذا البرد والفتره

أراك قد تثيرين ... عجاج القصف يا حرّه

بتجذيفك خديك ... وتجعيدك للطره

وهذا الشعر من السخف والغثاثة والثقل بمكان! والمتوكل شاعره البحتري أولى من استحق لقب شاعر على الإطلاق، فكان من المظنون ألا يطرب لهذا الشعر البارد المخشوب، ولكن من العجب أنه استطير له ومالت به النشوة كل مميل فوصل المازني بجائزة سنية!

وعرف المازني من ذلك أن المتوكل يستروح إلى الشعر المهلهل النسج، القريب الغور، من مثل المقطعات الرقيقة في الأهاجي والمجون والدعابات والإخوانيات، فكان يتكلف أن يحفظ له من ذلك الشيء الكثير، فينشده إياه إذا استدعاه، فيغمره بالخلع، ويملأ يديه بالصفراء والبيضاء! والسلطان سوق يحمل إليه ما ينفق عنده. وقد توفي المازني سنة ثمان وأربعين أو تسع وأربعين بعد المائتين عن ثروة ثمينة من التآليف الحسان في عدة فنون. نضر الله وجهه وأجزل مثوبته!

علي الجندي

دراسات إسلامية

الزندقة في الإسلام

للأستاذ عبد الرحمن بدوي

للزندقة في الإسلام تاريخ شائق، عنى المستشرقون بدراسته عناية شديدة، فكتبوا فيه الرسائل القصيرة أو المقالات الطويلة المستفيضة التي تظهر باستمرار وأغلب ما فيها جديد طريف. ولكنهم لم يبلغوا من هذا كله شأواً بعيداً، ولم يستطيعوا حتى اليوم أن يلقوا ضوءاً قوياً ساطعاً على أغلب نواحيه

عنوا بدراسة هذا التاريخ لأنه بدون إيضاحه وتعمقه لن نستطيع أن نفهم كيف نشأت بعض النظريات في علم الكلام بل بعض المذاهب الكلامية التي ازدهرت خصوصاً في القرنين الثاني والثالث للهجرة، إذ أن الكثير من نظريات مذهب كمذهب المعتزلة لا يمكن أن يفهم بدون معرفة هذه الخصومات الكثيرة العنيفة التي كانت تقوم بين كبار المعتزلة وبين الزنادقة، والتي كان يثيرها هؤلاء الأخيرون فيضطر أصحاب الاعتزال إلى أن يتخذوا موقفاً بازائها خاصاً. حتى أنه لو أتيح لنا أن نبحث في تكوين النظريات المختلفة التي يشتمل عليها مذهب المعتزلة بحثاً دقيقاً، يتابع تطوره ويرسم المنحنى الذي عليه سار، إذن لوجدنا للزندقة أكبر الأثر وأعظم الخطر في هذا التكوين

كما لا نستطيع أن نفهم أيضاً تلك الحركة السياسة الحضارية الخطيرة التي ظهرت

خصوصاً في أوائل حكم العباسيين، وأعني بها حركة الشعوبية. ودون أن نذهب إلى ما ذهب إليه الدكتور طه حسين في كتاب (حديث الأربعاء) من إرجاع حركة الزندقة كلها أو معظمها إلى حركة الشعوبية، نستطيع أن نؤكد على أقل تقدير أن بين كلتا الحركتين صلة قوية شديدة، حتى كان بعض أنصار العربية ضد الشعوبية يتخذون من الشعوبية وسيلة للدلالة على الزندقة كما سنرى بعد حين

وإلى جانب هذا كله لا يمكن أن ندرك التطور الروحي في بلاد الإسلام والحياة العقلية عامة على حقيقتهما، إلا إذا نظرنا إلى حركة الزندقة باعتبارها عاملاً من أخطر العوامل التي لعبت دورها في ذلك التطور وهذه الحياة، فسيرت الأول في اتجاه معين وحددت له خطوطاً رئيسية مشى فيها؛ وكيّفت الثانية تكييفاً معيناً وصبغتها بصبغة خاصة لم تبهت على مر الزمان

فلهذه الأسباب كلها ولغيرها من الأسباب وجه المستشرقون عنايتهم إلى هذه الدراسة؛ ولكن دراستهم هذه لا تزال حتى اليوم ناقصة، فيها الكثير من التشويه واللبس. وذلك راجع إلى أن تاريخ الزندقة في الإسلام موضوع غامض كل الغموض، مضطرب كأشد ما يكون الاضطراب، يشق علينا كثيراً - الآن على اقل تقدير - أن نتبينه في وضوح وان نتمثله في جلاء

فلفظ (زنديق) لفظ غامض مشترك قد أطلق على معان عدة، مختلفة فيما بينها على الرغم مما قد يجمع بينها من تشابه. فكان يطلق على من يؤمن بالمانوية ويثبت أصلين أزليين للعالم: هما النور والظلمة. ثم اتسع المعنى من بعد اتساعاً كبيراً، حتى أطلق على كل صاحب بدعة وكل ملحد. بل انتهى به الأمر أخيراً أن يطلق أيضاً على من يكون مذهبه مخالفاً لمذهب أهل السنة، أو حتى من كان يحيا حياة المجون من الشعراء والكتاب ومن إليهم. وقد كتب الأستاذ هانز هينرش شيدر فصلاً ممتعاً عن أصل هذا اللفظ واستعماله عند الكتاب غير الإسلاميين وجمع الأستاذ ماسينيون معاني اللفظ كما استعمله الكتاب الإسلاميون في البحث الذي كتبه في دائرة المعارف الإسلامية تحت مادة (زنديق) وفي كتابه عن (عذاب الحلاّج). ويظهر من هذين البحثين أن اللفظ قد اتسع معناه إلى حد لا يسمح بتحديده تحديداً دقيقاً مما يحملنا على الحذر والانتباه الشديد للمعنى المقصود به في السياق الذي نجده فيه

ثم إن المصادر التي تحدثنا عن الزندقة والزنادقة قليلة غير مأمونة. وهذه القلة إما لأن كتب الزنادقة قد فقدت كلها تقريباً، ولم يعد بين أيدينا منها إلا شذرات ضئيلة نعثر عليها بعد عناء طويل في كتب الردود، مثل هذه الشذرات التي عثر عليها الأستاذ كراوس في كتاب (المجالس المؤيدية) وهي شذرات لابن الراوندي مأخوذة من كتابه (الزمرذ) قد رد عليها داعي الدعاة مؤيد الدين الشيرازي في هذه المجالس الموسومة باسمه؛ أو لأن بعض المصادر التي تحدثنا عن الزندقة والزنادقة لا تزال مخطوطة حتى اليوم فليست في متناول يد الباحثين. وأهم المصادر من هذا النوع كتب الشيعة مثل كتاب (الاحتجاج) للطبرسي

كما أنها غير مأمونة من ناحيتين: الأولى أن الروايات المكتوبة في بعضها لم يتحر أصحابها الدقة في إيرادها، فجاءت في الغالب مهوشة ناقصة. والثانية أن البعض الآخر من هذه المصادر، وهو أغلبها، قد كتبه الخصوم وأوردوا فيها آراء الزنادقة بعد أن أدخلوا عليها شيئاً غير قليل من التبديل والتغيير، بما يوافق أغراضهم في الخصومة والحجاج، ومما يتلاءم مع الإلزامات التي يريدون أن يستلخصوها منها. ولهذا يصعب على الباحث أن يتبين أقوال الزنادقة الحقيقية وأن يعرف كيف كانوا يوردونها

ومن أجل هذه الصعوبات مجتمعة كان الباحثون من المستشرقين يقتصرون على دراسة ناحية صغيرة من نواحي الزندقة، أو واحد من كبار الزنادقة الذين يستطيعون أن يجدوا منهم في المصادر شيئاً. ولم يستطع واحد منهم حتى هذه الأيام الأخيرة أن يكتب بحثاً شاملاً لهذه الحركة يتناولها من جميع نواحيها

فعن صالح بن عبد القدوس ألقى جولد تسيهر بحثاً قيماً في المؤتمر الدولي التاسع للمستشرقين سنة 1893. ثم من بعده كتب ا. كريمسكي رسالة صغيرة (في 65 صفحة) بالروسية عن أبان ابن عبد الحميد اللاحقي طبعت في موسكو سنة 1913. وكان ابن المقفع خصوصاً موضوعاً لدراسات عدة أشهرها ما كتبه عباس إقبال في

كتابه (شرح حال عبد الله بن المقفع، فارسي) وهو مكتوب بالفارسية؛ ثم فرنشسكو جبرييلي في مقاله المنشور (بمجلة الدراسات الشرقية) سنة 1932 بعنوان (مؤلفات ابن المقفع) وهو أحسن بحث كتب عن ابن المقفع حتى الآن. وقد أثار بحثين آخرين كتب أولهما كارلو ألفونسو نلينو في المجلة نفسها بعنوان (تعليقات على ابن المقفع وابنه) وكتب الثاني الأستاذ بول كراوس في المجلة عينها سنة 1933 تحت عنوان (حول ابن المقفع) وقد ترجمنا هذه البحوث الثلاثة وربما أتيحت لنا فرصة قريبة لنشرها أو للتحدث عنها. وبعد أن كتب جبرييلي مقاله ظهر بحث عن ابن المقفع كتبه رشتر وكانت أفكاره فيه أجرأ وأصرح من أفكار جبرييلي في مقاله

ونحن قد أشرنا من قبل إلى المقال الذي كتبه الأستاذ كراوس عن ابن الراوندي بمناسبة الفقرات التي عثر عليها في (المجالس المؤيدية) مأخوذة من كتاب (الزمرذ) لابن الراوندي. وهو مقال طويل (في ثمانين صفحة) مملوء بالمعلومات؛ وهو حتى الآن أحسن بحث كتب عن ابن الراوندي، وقد ترجمناه أيضاً

وأخيراً كتب الأستاذ فرنشسكو جبرييلي: (تعليقات على بشار بن برد) ظهرت في مضبطة مدرسة الدراسات الشرقية سنة 1937.

وكل هؤلاء الباحثين لم يحاول واحد منهم حتى الآن أن يكتب عن حركة الزندقة كلها كما ظهرت في الإسلام. ولكن بين يدي الآن فصل ممتع كتبه الأستاذ جورج فيدا سنة 1935 ولم ينشر إلا في سنة 1937 في (مجلة الدراسات الشرقية) أراد فيه أن يدرس تاريخ الزندقة الظاهري - إن صح هذا التعبير - دون التعرض للمناظرات التي قامت ضد الثنوية والمانوية ولما عسى أن يكون هناك من أثر للمانوية في الحياة الفكرية في ذلك العصر (أوائل العصر العباسي)، معتمداً في ذلك على المصادر التاريخية الخاصة باضطهاد الزنادقة، وبأشهر الزنادقة في خلافة العباسيين الأول. وأول هذه المصادر وأهمها كتاب (الفهرست) ويليه كتاب (الأغاني). ثم كتب التاريخ الكبرى مثل: (تاريخ الطبري) و (مروج الذهب).

بدأ الأستاذ فيدا بحثه بأن أورد في القسم الأول منه الفقرات الموجودة في كتاب (الفهرست) لابن النديم، وبعضها خاص بتاريخ المانوية في بلاد الإسلام واختلافهم حول الإمام بعد ماني، واضطهاد كسرى لهم وتشتتهم في البلاد وأسماء رؤسائهم. والبعض الآخر من هذه الفقرات يتعلق بالمتكلمين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الزندقة، وبأسماء الرؤساء والأمراء الذين اتهموا بالزندقة في أيام العباسيين.

وفي القسم الثاني تحدث صاحب المقال عن اضطهاد الزنادقة اضطهاداً رسمياً في أيام الخلفاء العباسيين الأول. فقال: إن المصادر لا تسمح لنا بتتبع هذا الاضطهاد إلا في الفترة القليلة التي مضت بين سنة 163هـ إلى سنة 170 هـ أي في السنوات الأخيرة من خلافة المهدي وإبان خلافة الهادي القصيرة الأجل.

ففي سنة 163 بدأت حملة المهدي العنيفة على الزنادقة بأن أمر عبد الجبار المحتسب، والذي يلقبه صاحب الأغاني بلقب (صاحب الزنادقة) بالقبض على كل الزنادقة الموجودين في داخل البلاد. فقبض على من استطاعوا القبض عليه، وأتوا به إلى الخليفة الذي كان حينئذ في دابق؛ فأمر بقتل بعضهم، وتمزيق كتبهم. واستمر الحليفة في هذا الاضطهاد في السنوات التالية، حتى بلغ الاضطهاد غايته في الفترة ما بين سنة 166 هـ وسنة 170

هـ. وكان يقوم على أمر هذا الاضطهاد قضاة مخصوصون، أشهرهم: عبد الجبار الذي ذكرناه آنفاً، وعمر الكلوزي الذي عين في سنة 167، ثم محمد بن عيسى حمدويه الذي خلف عمر.

وكان الزنادقة يقبض عليهم لأقل شبهة ويأتون أمام القاضي فيطلب إليهم أن يرجعوا عن الزندقة إن اعترفوا بها ويطلق سراحهم إن رجعوا عنها ويقتلون إذا استمروا عليها ورفضوا الخروج عنها.

ولكي يتأكدوا من أنهم رجعوا عن الزندقة حقاً كان الخلفاء يستخدمون وسائل شتى أشهرها تلك التي يروون عن القضاة في عصر المأمون أنهم كانوا يستخدمونها، فهم يذكرون عنهم أنهم كانوا يطلبون إلى الزنديق أن يبصق على صورة ماني، وأن يذبح طائراً بحرياً اسمه التزرج. أما البصق على صورة ماني فالمقصود به تحقير صاحب مذهب المانوية وهو ماني، وهذا دليل على أن الزنديق قد رجع عن هذا المذهب؛ أما

الحكمة في ذبح هذا الطائر فلا تكشف عنها المصادر التي بأيدينا. ولكن مؤلف المقال الذي نحن بصدده يقول بأن المقصود بذلك هو أن يفرض على الزنديق أن يذبح كائناً حياً، وذبح الحيوانات تحرمه المانوية. ولا بد لنا من قبول هذا التفسير لأن كل المصادر التي تحدثنا عن المانوية لا تذكر مطلقاً أن المانوية كانوا يقدسون طائراً بعينه، سواء أكان هذا الطائر التزرج أو كان غيره. وقد حدث مثل هذا في أيام محاكم التفتيش سنة 1239 مع طائفة الكاتار التوسكانيين فقد طلب إليهم بحضور البابا جورج الرابع أن يبرهنوا على إخلاصهم في الارتداد بأن يأكلوا اللحم أمام جمع من الأساقفة

ولم يكن كل هؤلاء الذين يتهمون بالزندقة زنادقة حقاً؛ وإنما كان منهم من يتهم بالزندقة لأسباب سياسية. فقد اتخذ الخلفاء من هذا الاتهام وسيلة للقضاء على خصومهم من الهاشميين. وعلى هذا النحو اتهم ابن من ابناء داود بن علي ثم يعقوب بن الفضل وأتى بهما إلى الخليفة المهدي. ولما كان الخليفة المهدي قد ارتبط من قبل بعهد ألا يقتلهما، فانه لم يستطع أن يأمر هو بقتلهما، وإنما حبسهما وأشار إلى ابنه الهادي أن يقتلهما حينما يتولى الخلافة، ولكن الهادي لم يستطع أن يقتل غير يعقوب، لأن ابن داود بن علي مات في سجنه قبل أن يشغل الهادي مركز الخلافة.

ولسنا نعرف على وجه التحقيق ماذا كان يوجه إلى الهاشميين من تهم. وكل ما ترويه لنا المصادر هو ما يرويه لنا الطبري (أخبار سنة 169 جـ 3 ص 549) وما لخصه عنه ابن العبري في كتابه (تاريخ مختصر الدول) (ص 221) من أن ابنة يعقوب بن الفضل قد اعترف أثناء محاكمتها بأنها حبلى من أبيها! والمانوية تحلل زواج الآباء بالبنات في الروايات الإسلامية.

ولم يقتصر الأمر على الخلفاء في اتهامهم الخصوم بالزندقة لأغراض سياسية، بل كان هناك من الوزراء من يتخذون الاتهام - الباطل غالباً - بالزندقة سبيلاً للكيد والوقيعة بنظرائهم أو خصومهم الذين يحقدون عليهم. ومن هنا نستطيع أن نفهم تلك الرواية التي ذكرها الطبري (ج 3 ص 490) ثم الجهشياري في (كتاب الوزراء والكتاب) (ص 89 - ص90)، ثم صاحب الأغاني وغيرهم، عن اتهام أبناء أبي عبيد الله الوزير بالزندقة. فقد اتهم الربيع صاحب الخليفة المهدي ومنافس أبي عبيد الله الوزير أبناء هذا الأخير، أو واحداً من أبنائه - كما في بعض الروايات - بأنهم زنادقة. وقد أفلح الربيع في هذا الدس عند الخليفة الذي أمر بأن يقتل عبد الله بن أبي عبيد الله الوزير. وكان ذلك سبباً في توتر العلاقات بين المهدي وبين أبي عبيد الله، حتى أن الخليفة عزله من منصب الوزارة، ولى يعقوب بن داود بدلاً منه

والطبري يذكر صراحة أن اتهام ابن أبي عبيد الله بالزندقة كان يقصد به زعزعة مركز أبيه عند الخليفة المهدي. وقد كان أبو عبيد الله موضوعاً لدسائس موالي المهدي. ويذهب صاحب الأغاني إلى أبعد من هذا فيقول إن المهدي أدرك من بعد السبب الذي من أجله أبلغه الربيع أخباراً عن زندقة ابن الوزير (الأغاني 21 ص 122)

والآن، وبعد هذا العرض الموجز للاضطهادات التي عاناها الزنادقة، أو من اتهموا بالزندقة، في الفترة ما بين سنة 163 وسنة 170، نسائل أنفسنا: ما هي هذه الزندقة التي اتهم بها هؤلاء، وبأي معنى يجب أن تفهم؟

يرى صاحب المقال أن الزندقة التي حاربها المهدي والهادي في شخص هؤلاء الزنادقة هي المانوية، أولاً وبالذات. ودليله على ذلك ما ذكرناه من قبل من الوسائل التي كان يمتحن بها القضاء قيمة رجوع الزنادقة عن الزندقة، وإنكارهم لها، حينما يقدمون إليهم. ويؤيد هذا

الرأي أيضاً تلك الرواية التي ذكرها الطبري والتي يمكن اعتبارها صادقة وهي التي تقول بأن أحد الزنادقة قدم إلى الخليفة المهدي فطلب إليه الخليفة أن يتبرأ من الزندقة ولكنه رفض فأمر بقتله، والتفت من بعد إلى ابنه موسى، وقال له كلاماً يحثه فيه على محاربة هذه العصبة من الزنادقة. ووصف له مبادئ هذه العصبة وصفاً يكاد ينطبق كله على مذهب المانوية؛ مما يدل على أن المقصود بالزندقة كان حينئذ مذهب المانوية

ومع هذا كله فإن هذا اللفظ قد اتسع معناه في هذه الفترة ذاتها اتساعاً كبيراً كما سنرى في مقالنا التالي عن أشهر الزنادقة في أيام الخلفاء العباسيين الأول.

عبد الرحمن بدوي

ألفريد دي موسيه
بين العبقرية والحب!. . .
للأستاذ صلاح الدين المنجد

سلك ألفريد دي موسيه في شعره طريقاً ما سلكه أحد قبله. فلقد أذاب أناته عبرات في قصائده وأخرجها للناس، فإذا فيها معان رائعة لا تنفد: تبسم بالذكرى، وتموج بالزفرات، وتنسم بوقد الجوى ساعة، وعطر الهوى ساعات. . .

وإنك لتجد في حياته الخاصة أطاريف كثيرة تتجلى في حبه اللاهب وصباه الفاجر وطفولته اللاهية. فقد كان فتى غرانقاً خلب نساء، ذا شعور من ذهب استرسلت إلى كتفيه. وكان أنيقاً في لباسه، رقيقاً في طباعه، رفيقاً بأصدقائه. حفلت طفولته بالترف والنعيم؛ فقد كان أبوه ذا يسار وسعة، فنشأه تنشئة فيها إدلال ونعومة؛ يلهو في النهار مع ابنة عمه بين الزهر، ويصغي في المساء إلى أحاديث عمه عن نابليون - الذي كان آنئذ قد ملأ الدنيا وشغل الناس - وأقاصيص جده عن الأيام الخوالي، وأعاجيب (ألف ليلة وليلة) و (دون كيشوت)، وغيرها؛ فكان يشعر بلذة عميقة في تخيل تلك العوالم التي تفيض بالحب، وترّف بالبطولة، وتسجو بين السعود والنحوس.

وعشق شاعرنا ابنة عمه، ولما يبلغ الرابعة من عمره؛ وقد كانت تقص عليه تحت الشجر وبين الزهر أحلى الأقاصيص فسألها الزواج ذات يوم، وهو لا يدري من أمره شيئاً. فضحكت منه. وتضطر بعد شهور إلى الرحيل عنه، فيبكي لفراقها، ويحزن لبعدها؛ وتكون هذه الدموع أول ما ذرف الشاعر في سبيل الحب. . .

وكان لهوه وترفه يدفعانه إلى أعمال فيها عبث الطفولة الساخر الذي لا يخشى شيئاً، أو يخاف أحداً؛ فلقد ألقى بكرة البليارد يوماً على مرآة في البهو فحطمها، وعمد إلى نجف الصالة في يوم آخر فمزقها؛ فلم يُسأل عما فعل خشية أن يثور حسه الرهيف فيجهد جسمه النحيف.

ولما التحق شاعرنا بكلية هنري الرابع لقي من رفقائه أذى كثيراً: كانوا يسخرون منه ويهزءون به ويسمونه (بالآنسة) لشعره الأشقر الجعد، ولربطة عنقه الزاهية. فكان يصبر صبراً جميلاً، ويدعهم يلعبون ويمرحون؛ حتى إذا ما أتى الامتحان أراهم الجد كيف يكون،

والجوائز كيف تنال!

وما كاد ينهي درس الفلسفة حتى ظهر ميله للأدب، ولكنه كان يريد أن يبرع فيه. كتب ذات مرة إلى صديقه (بول فوشيه) يقول له:

(أنا لا أريد أن أكتب الآن، فإذا كتبت فيجب أن أكون شكسبيراً أو شيلر)

ودرس شاعرنا الحقوق وقليلاً من الطب، وعنى بالرسم والأدب والموسيقى. وتركته أسرته يفعل ما يشاء، فلم يكن بحاجة إلى العمل الذي يدر المال، وكان الزمان أنيقاً والعيش رقيقاً وأهله كما قلنا من ذوي اليسار

واستطاع صديقه (فوشيه) أن يعقد أواصر الصداقة بينه وبين هوغو، وأن يدخله في مجمعه الأدبي فتعرّف هناك على (دفيني) و (دوماس) والنقادة (سانت بوف)

وكان هذا النفر يقضي أمساء الآحاد عند القصصي الكبير (شارل نودييه) مع (لامرتين) و (بلزاك) و (جيرار دي نرفال) العاشق المجنون و (غوتييه) و (دي لا كروا)؛ فكانوا يستمعون إلى أقاصيص (نودييه) ويتناشدون الشعر على حين تجلس ابنة صاحب الدار ماري إلى البيان (ورأسها الجميل الأشقر يلمع كالشقيقة بين سنابل القمح كما يقول موّسيه، وأناملها الناعمة تتنقل هنا وهناك، ونحن نستمع إلى الشعر، أو نجد في الرقص)

وكان موسيه إذ ذاك وضيء الطلعة متلألئ الوجه يخلب الفتيات. حتى ليصفه (بانفيل) بأنه كان (كالإله الشاب الجميل لتجعيد شعره المسترسل إلى كتفيه كأنه الموج الراعش تحت أشعة الشمس)؛ فأخذ يغشى المجالس ويتنقل بين الفتيات، وينظم الأشعار ويكتب أقاصيص أسبانيا وإيطاليا. فردد الناس اسمه، ثم جذبه المسرح نحوه، فإذا بصاحب (الأوديون) يطلب منه مسرحية شديدة الحماسة: فكتب الشاعر (ليلة البندقية) فمثلت (بين الصفير والضجيج) وباءت بفشل عظيم.

على أن هذا الفشل لم يبعد شاعرنا عن المسرح، فلقد كتب بعد ذلك مسرحيات كثيرة أخفق بعضها ونجح بعضها، واستطاع بفضل ذلك أن يصبح مخبراً أدبياً لمجلة (باريس) و

(الطان).
ثم نشر أشعاره في مجلة (العالمين). وفي هذه الفترة مات أبوه.
عندئذ عاش فتىً مغامراً يرتاد الملاهي، ويضاحك الحسان، ويعاقر الخندريس. والتقى ذات
يوم بجورج صاند، وكانت قد نبه ذكرها، واشتهرت بأقاصيصها ومغامراتها، وصرمت حبال (ساندو) عشيقها. . . فأعجبته وأعجبها، ثم دعته بعد أيام إلى دارها وهناك تعاهدا على أن يبقيا صديقين ويعيشا معاً
وبدأ الحب يشب وينمو، فعاش معها في عالم زاخر بالأماني مائج بالرؤى، فظلّلته بعطفها ووصلها، وأذاقته طعم الوجد والهوى، وأسمعته أغاني الحب فسكر وانتشى، وعاش معها في غيبوبة رف النعيم في جنباتها، وضحكت على حفافيها المنى: قصف، جنون، لهو، شباب، لذة، سكر. تلك كانت حياتهما؛ على أنهما لم يمتعا بهذا كله طويلاً وأتت رحلتهما إلى إيطاليا ليذهب كل شيء. . . وليودعا آمالهما الضاحكات، ويعود الشاعر إلى وطنه ليمعن في البكاء
فلقد أرادت جورج أن تذهب إلى (البندقية) مدينة الحب والشعر؛ فلم ترض أمه عن هذه الرحلة خوفاً على أبنها. فأقسمت لها جورج لتعنين به العناية كلها. وسافر العاشقان إلى البندقية فوصلا إليها في يونية من عام 1843
وكانا لا يزالان في نشوة الحب وفوران الأحلام. فعاشا فيها أياماً لذة كانت آخر أيام الهوى؛ فقد أصابت جورج حمى مذ مرت على البندقية في جيئتها، فعني بها الشاعر؛ ثم مرض ألفريد بعد شهور، فأحضرت له طبيباً اسمه (باجيلّو) أعجبها. . . فتركت موسيه في غرفته مريضاً وتبعت الطبيب، فتخاصم الشاعر وحبيبته وانكب على الخمر يعاقرها لينسى الفاجعة التي أصابت حبه وقلبه، ثم ترك جورج مع الطبيب وعاد إلى باريس وحيداً
لم ينس موسيه في باريس جورج. فكان يمر على مغاني حبهما، ينظر إليها فيذكر ليالي الوصل، فتشجيه الذكرى ويعود إلى نفسه يذرف الدموع، وينظم (الليالي) ويتسلى بالرسائل التي كانت ترسلها إليه وتنصح له أن يحب غيرها، وأن يتذوق الملذات كلها. (ليرتشف قلبك لذات الحياة جميعها. . . ولكن ليؤد رسالته جيداً لتستطيع أن تردد يوماً إذا نظرت إلى الماضي فتقول: لقد تألمت كثيراً وخدعت أحياناً، ولكني ارتشفت وأحببت. . . لقد عشت أنا بنفسي. . . لم أكن شخصاً خلقته كبريائي وأوجده وهمي. . .)
وانكب شاعرنا يكتب ويؤلف، ثم عمد إلى اللذات يرتشفها وإلى الخمور يعاقرها، وهو يتألم ويبكي ويقول:
(دع هذا الجرح المقدس. . . دعه يتسع)
(!. . .فلا شيء يجعلنا عظماء. . . كالألم الشديد)
وفي سنة 1848 قبل الشاعر في المجمع العلمي الفرنسي عضواً، وهو في إحدى الحانات. . . على أنه لم ينتفع بالعيش بعد جورج أبداً: فقضى حياته بائسة، وخبت تلك العبقرية الوهاجة وانطفأ ذلك الذكاء المشع، وغاض الجمال الخلاب ومات وله من العمر سبعة وأربعون عاماً وهو يقول:
(!. . .وأخيراً. . . أريد أن أنام)
(دمشق)
صلاح الدين المنجد
على هامش الفلسفة
مرجع الأخلاق
للأستاذ محمد يوسف موسى
تتمة البحث
رأينا في الكلمة الأخيرة أن الأستاذ العلامة ليفي برهل - يرى في كتابه (الأخلاق وعلم العادات أن الأخلاق ترجع أولاً إلى علم العادات الذي مرجعه استقراء التاريخ وملاحظة الحاضر، ثم يتداخل فيها النظر العقلي لتعديل ما يجب تعديله من الظواهر الأخلاقية والاجتماعية. هذا هو ملخص ما يدعو إليه. فما الرأي فيه؟
لا ريب أن هناك فائدة كبيرة من علم العادات الذي يشير باستيحائه. لأن النظريات

والأفكار الأخلاقية التي تعاقبت على الزمن هي وليدة المجتمعات، وإذا ليكن من الواجب دراستها أولاً بالعقل العملي الدقيق. ولكن لا ينبغي أن نستنتج من هذا أن علم العادات يختلط من الناحية العميقة بالأخلاق بحال من الأحوال

يقفنا التاريخ على أن كثيراً من أرباب الضمائر العالية عورضوا في أيامهم بآراء أخلاقية تقليدية كانت ضد مثلهم العليا، إلا أن المستقبل كان يحكم دائماً لهم، وإذا تكون ضمائرهم الشخصية سبقت الضمير الاجتماعي المستقبل وأعدته لما أرادوا له، وإذاً يكون من الممكن والواقع أن الخلقية تقوم على قتال النظريات الأخلاقية والعادات الاجتماعية التي توجد في زمنها. هاهي ذي أخلاق (بوذا) لم تكن متفقة مع عادات الهند البرهمية في القرن السادس قبل الميلاد، كما لا تتفق الأخلاق التي جاء بها أنبياء بني إسرائيل وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام مع عادات الأمم والشعوب التي بعثوا فيها ولها.

لا يقول لنا علم العادات كيف نختار عندما تتعارض المثل العليا للثورات الأخلاقية مع الآراء والحقائق الاجتماعية التي توجد معها! لننظر مثلاً للحرب، نجدها تكشف حقيقة اجتماعية لا شك فيها؛ هي تسيطر العواطف والمشاعر الحربية على جميع الشعوب، ومع ذلك لا يرضى أحد أن يرفض مثالاً أعلى هو السلام العالمي متى وجد لذلك سبيلاً. وبعبارة أخرى إن تحقق أية حقيقة ولو اجتماعية لا يلزم المرء بالانحناء أمامها واعتبارها مبدأ

أخلاقياً جديراً بالتقدير

وبعد فعلم الاجتماع وعلم العادات من العلوم التي لها قيمتها وجدواها، ولكنهما لا يحلان محل الأخلاق التي تقدر الأعمال وتضع لها قواعد للسير عليها. الاستقراء المطبق على تجارب التاريخ يعلمنا حقيقة ما كان في الماضي وما هو كائن الآن لا ما يجب أن يكون. ذلك أن دراسة ماضي مسألة من المسائل من الوجهة التاريخية كمركز المرأة وحقوقها مثلاً معناه الوقوف على ما كان خاصاً بذلك من نظريات مما يجعل الدارس أكثر صلاحية من غيره لمعرفة ما إذا كان من الخير الاحتفاظ بالحالة الراهنة فيها أو تناولها بالتعديل قليلاً أو كثيراً؛ لكن هذه المعلومات التاريخية والاجتماعية التي أمدّنا بها البحث لا تكتفي وحدها لفرض حلّ حازم سواء أكان حلاً محافظاً أم معدلاً أم ثائراً. هذا حق لا شبهة فيه؛ إذ كيف يمكن تاريخياً معرفة ما يمكن أن يكون في المستقبل! أكبر دروس الماضي أنه مضى لطيته، وأن الحاضر يجب أن يتبعه أيضاً. والأخلاق لا يكفيها هذا بل تسعى كما قلنا لمعرفة ما يجب أن يكون.

وأخيراً، إذا كنا لم نرتض نظرية من النظريات السابقة التي تواردت بشأن الطريقة التي تتبع لتعرف القانون والمثل الأعلى الأخلاقي، فما هو إذا الحل الذي نرضاه؟ هذا الحل هو ختام هذا البحث الذي قد طال وقوفنا عنده

التجربة الأخلاقية

ليست الحياة الأخلاقية إلا مجموع أعمال نفسية واجتماعية خاصة، فمن الممكن أن نقول بتطبيق الطريقة الاستقرائية عليها، ولكن على نحو آخر غير الذي رآه الأستاذ (ليفي برهل). والعقل العلمي لا يتطلب منا أن نلتزم في كل موضوعات البحث طريقة واحدة، إذ يتطلب فقط أن يلائم المرء بين موضوع البحث وطريقته، وأن يعني الأخلاقي بأن يقارب بالقدر الممكن بين الطريقة التي ينتهجها في الأخلاق والطريقة التي يستخدمها العالم في العلوم التجريبية؛ أي أن يصدر عن تجارب واسعة وصدر رحب وروح غير متحيزة لا تدع للخطأ سبيلاً. هكذا عالج العلامة روه) موضوع طريقة الأخلاق في مؤلفيه القيمين، وهما: (التجربة الأخلاقية، ودراسات الأخلاق)

يرى هذا البحاثة أن العالم يقبل كمبدأ لبحثه اكتشافات أسلافه وآراءهم كفروض على الأقل

يأخذ في بحثها وتمحيصها بكل ما يملك من وسائل. كذلك الأخلاقي يجب أن يبدأ بحثه من التقاليد فيمحصها ويزنها بما تمده به تجاربه الخاصة والحقائق الدينية التي لا ريب فيها والضمير القادر على الحكم الصحيح. بعض هذه الأفكار التقليدية توسع من قلوبنا وعقولنا، وتبث فينا يقيناً شريفاً وسعادة نبيلة، ونحن بعد تمحيصها لا يسعنا أن نضعها موضع الشك، كما لا يشك العالم في فروض محصها وظهر له صحتها

حقاً يجب السير مما اتفق عليه الأديان ثم من التقاليد؛ فالحياة تولد من الحياة، حياتنا

الأخلاقية لم نبتدعها بل جاءتنا من حياة أسلافنا الأخلاقية إلى حدّ ما، فمن الادعاء والعبث الذي لا معنى له أن يهمل باحث كل تجارب الإنسانية الأخلاقية. ومن الغباء أن يزعم أحد قدرته وحده على أن ينشئ أخلاقاً، كما ليس في مكنة أحد أن يبني وحده علم الهندسة أو الطبيعة مثلاً

لكن حذار أن نقتصر على تقاليد البيئة الأسرية أو القومية الخاصة. يجب أن يعنى الباحث الأخلاقي بتقاليد الأمة كلها فيجتهد في تعرف أصولها في زوايا الماضي البعيد والقريب وآثارها في الحاضر؛ ومن ثم يكون لعلم التاريخ فائدته وخطره وخاصة تاريخ الفلسفة والأديان. على أنه ليس للمرء أن يحد نفسه باستشارة المكاتب؛ عليه أن يخالط - مصغياً مستطلعاً باحثاً - المساجد والكنائس وسائر دور الدين بلا تمييز، وألا ينسى المجتمعات المختلفة للأوساط الاجتماعية، بعد هذا يجب أن يبحث ويقارن ويحقق ما جمعه بهذه الوسائل من الآراء والنظريات الأخلاقية المختلفة وأن يستخلص منها ما يكون متماثلاً ومشتركاً، ويختار من بينها الأصلح حينما تتعارض حسب تجاربه وضميره وفكرة المنزه عن الهوى

بعد هذا أيضاً يجب ألا يكتفي بتقاليد أمته وجنسه، بل يكون واسع الأفق عالمي البحث حتى يصل إلى مبادئ يمكن الحكم بصلاحيتها للجميع. والسياحة بما تهيئ لنا من فرصة تعرف تقاليد الأمم والشعوب المختلفة الدينية والاجتماعية في مواطنها الخاصة يمكن أن تمدنا بهذا البحث الأخلاقي الواسع الدقيق بمبادئ أخلاقية عامة لها قيمتها وخطرها.

من أجل هذا يقول أحد الكتاب الإنجليز - بعد ما ساح كثيراً بين أوربا وأمريكا وأقام أخيراً باليابان - ما دمنا معاشر الأوربيين لم نعش إلا في نصف الكرة، فليس لنا إلا (أنصاف أفكار وآراء.

وإذاً لكي نصل إلى مبادئ وأحكام صحيحة، يجب أن نسائل هذا وذاك، لا نخص بحثنا بأمة دون أمة ولا بجنس دون جنس، ولا بعصر دون عصر. يجب أن نجمع شهادات كل الضمائر التي لها قيمتها، وأن نبحث لنفهم نفسية الأفاضل والأبطال والحكماء ثم نعمل التحقيق غير المتميز في كل هذا المجموع من الآراء الأخلاقية لنعد بذلك العقيدة الأخلاقية غير المغرضة على طريقة (المروحة) حسب تعبير (روه - نفسه، وإذا يكون القانون والمثال الأعلى الأخلاقي هو نقطة الانتهاء لطرق متعددة متنوعة.

هذه هي الطريقة الحية المنتجة التي أرى أنه باتباعها نصل إلى تقرير حقائق أخلاقية صالحة لكل العقول، وإلى تعرف المثل الأعلى الأخلاقي الذي يقبل من كل الضمائر المستقيمة والإرادات الطيبة في كل البيئات والعصور.

إلى هنا انتهيت مما أردت بحثه، ولم يبق إلا أن أتوجه بالشكر لله تعالى، وإلى حضرة الأستاذ الجليل صاحب (الرسالة)، وحضرات القراء الذين تفضلوا بتشجيعي على جهد المقل برسائلهم وكلماتهم الطيبة. وأخص حضرة الباحث الجليل الأستاذ نصيف المنقبادي الذي لا أجدني أهلاً للثناء الذي وجهه إليّ بعدد (الرسالة) الغراء رقم 303 في ابتداء الكلمة القيمة التي بحث فيها غريزة الخير والشر من الناحية البيولوجية أي من ناحية أصلها ونشأتها وتطورها وذلك غير الناحية التي حاولت بحثها.

وإلى اللقاء بعد العودة من فرنسا إن شاء الله تعالى في أول العام الدراسي الآتي.

محمد يوسف موسى

المدرس بكلية أصول الدين

من برجنا العاجي

أبصرت اليوم من نافذة برجي (شهر يوليو) مقبلاً بخطى سريعة وهو متدثر برداء أحمر كأنه قطع اللهب، وقد تصبب من جبينه العرق، وهو يقرع باب برجي ويصيح:

- أيها الغافل عن جسمه، القابع بين جدران سجنه. انطلق قليلاً إلى نسيم البحار وهواء الجبال، وأرح نفسك واسترح من نفسك!

فسمع الجواب من أعماق نفسي:

- وكيف يستريح من هذه النفس وهي تمتطي وجوده امتطاءً؟

- أو نذعن لهذا الفارس القاسي حتى يسحق المطية سحقاً؟!

فقالت النفس (لشهر يوليو):

- أهي رحمة منك بالمطية أم أنك تريد أن تأخذها مني لنفسك أيها الشهر اللعين!

- إنها ستجد عندي الراحة والنعيم. وسأقدم لها (علفاً) من فاكهة الجبال الغضة وزهر

الغابات الجميل ونسيم صيفي العليل. . . أما أنت فماذا تجد عندك؟ إنك لن تقدمي إلى هذه المطية النحيلة غير (علف) من الحبر والورق والسهاد المضني والعمل المرهق والتفكير الطويل!

- سأعطيها النور الذي يضيء لها السبيل!

- لا تخدعيها بهذه الكلمات. ومع ذلك فإن عينيها في حاجة كذلك إلى الراحة والبعد عن النور. أقصى عن وجهها شهراً واحداً ذلك المصباح الذي لزمها طول الشهور!

- إنها لا تستطيع السير خطوة بغير ذلك المصباح

- أقسم لك أن الزيت قد نفد من هذا المصباح. دعيني أذهب بها إلى حيث تملؤه من جديد زيتاً خالصاً نقياً، يرسل الضوء وهاجاً قوياً، لها وللآخرين من القراء والمريدين، طول عامها القادم. . . آمين!

توفيق الحكيم

د. هـ. لورنس

للأستاذ عبد الحميد حمدي

مقدمة

أمل ويأس: في هاتين الكلمتين يتلخص تاريخ القرن التاسع عشر والجزء الأول من القرن العشرين. كانت تقوم الحركة تلو الحركة، وفي كل مرة ينبعث الأمل ويظن الناس أن الحياة قد بعثت من جديد وأنهم صاروا قاب قوسين أو أدنى من السعادة الإنسانية، ولكن سرعان ما تذوي الحركة وتموت، فيتحول الأمل يأساً، وينقلب النعيم بؤساً، وتحل الحسرة محل السرور، ويأخذ الألم مكان اللذة، وبذلك تقتم الحياة وتظلم أكثر من ذي قبل حتى لا تبشر بعد ذلك بخير

ففي مستهل القرن التاسع عشر قامت الحركة الصناعية، فهلل الناس وكبروا استفاقوا كأنهم من كابوس مريع. ولكن لم تلبث هذه الحركة أن خلّفت أضعاف ما كان موجوداً من بؤس وشقاء، فازدحمت المدن حتى ضاقت بسكانها وتوزعت الثروة ولكن توزيعاً غير عادل؛ فكان من جراء ذلك أن مال الناس عن هذه الحركة وتعلقوا بأهداب حركة أخرى ناشئة هي الحركة العلمية التي قامت نتيجة للمستكشفات العلمية والمخترعات الحديثة؛ فأمل الناس فيها واستبشروا بها حتى صدمتهم الحقيقة المرة وتبينوا أن العلم قد يعطي الإنسان قوة فوق قوة ولكنه لا يهبه السعادة ولا الهناء وعلى أثر يأس الناس من هذه الحركة ناصروا الحركة السياسية التي قامت تحت زعامة جلادستون أملاً في أن الدعوة إلى الحرية وإلغاء الفوارق بين الطبقات والتخلص من امتيازات الطبقة العليا هي سبيل السعادة المنشودة. ولكن ما كاد عميد الحركة يقضي حتى قضت الحركة إلى جواره، ثم أتت هزيمة فرنسا في الحرب السبعينية فكانت ضغثاً على إبالة وكالت الضربة القاضية للحركة لأن فرنسا كانت نصيرة الحرية ورمزاً لها في ذلك الوقت

وبهذه الطريقة بلى الإنسان باليأس المرة بعد المرة حتى نضب معين أمله، وزال عنه تفاؤله، وصار لا ينظر إلى الحياة إلا بمنظار أسود، بعد أن تبين له أنه إنما يحارب عدواً لا قبل له به، وأنه قد كتبت عليه الهزيمة مهما قاتل ومهما استبسل. لذلك رأى أن لا مفر له

من اجتناب هذه الحياة والابتعاد عنها، فكانت الفنون خير مكان يلجأ إليه. . . فهناك في دنيا الخيال يسبح الإنسان في عالم من صنع يده، عالم هو مبدعه وخالقه، بعيداً عن صخب الحياة وضجيجها. ولكن ما كاد يبزغ فجر القرن الجديد حتى تبين للناس أن الفنون ما عادت تصلح لأن تكون ملجأ الإنسان إلى الأبد، وزاد إيمانهم بهذا عند نشوب حرب جنوب أفريقيا واستعداد ألمانيا للحرب بشكل لم يسبق له مثيل من قبل. عند ذلك أدرك الناس أن الوقت قد حان كي يتركوا عالم الخيال جانباً ويعودوا إلى الحياة ومواجهتها

وقامت في ذلك الوقت مدارس عديدة تدعو إلى مبادئ متباينة. فقامت مدرسة ريارد كبلنج، ومدرسة برناردشو، وهـ. ج. ويلز، ثم مدرسة ج. ك. تشسترتون. وكان هم كل واحدة منها نقد مبادئ المدرستين الأخريين ودعوة الناس إلى اعتناق مبادئها هي، حتى قامت الحرب العظمى التي إن دلت على شيء فإنما تدل على أن الأفكار والمبادئ التي كانت تسيطر على عقول البشر في ذلك الوقت خاطئة تحتاج إلى التعديل أو

التغيير، وعلى هذا الأساس قامت مدارس أخرى، وعلى رأس هذه المدارس قامت مدرسة لورنس
وبرغم أن لورنس في نظر بعض ضيقي العقول لا يعدو كونه كاتباً مفحشاً أو رساماً لا خلاق له، إلا أنه يعتبر في رأي أئمة المفكرين نابغة عصره. فقد بذ معاصريه الكتاب في عالم الروايات الطويلة والقصص القصيرة والروايات المسرحية، كما فاق غيره من الرسامين بلوحاته الفنية، وظهر على الموسيقيين بمقطوعاته التي وضعها بنفسه.
وكان يحدوه في ذلك كله أمل واحد وغرض واحد: هو القضاء على هذه الحياة التي غلبها التكلف وساد فيها التصنع حتى صارت حياة ملق ورياء، فكان همه أن يهدم هذه الحياة من أساسها ليقيم على أنقاضها حياة جديدة
ولما كان هذا هو غرضه وجب عليه أن يكون صريحاً إلى أقصى حدود الصراحة، وأن يتوخى الصدق في كل ما يقوله، لا يهمه في ذلك نوع الموضوع الذي يعالجه ولا رأي الناس فيما يقوله، فلا يجد فارقاً بين أن يكتب في موضوع العلاقة الجنسية وبين أن يكتب في موضوع مناجم الفحم أو ما إلى ذلك من الموضوعات العادية. وهم يعيبون على لورنس صراحته وصدقه وأنه يحاول أن يخدع نفسه ويخدع الناس كما يفعل غيره من الكتاب. يعيبون عليه لغته وجرأته في التعبير وهم يعلمون أنهم يستعملون نفس اللغة في أحاديثهم
في منتدياتهم الخاصة، ويعيبون عليه الموضوعات التي يعلجها وهي لم تخرج عما يفعله الإنسان منذ الخليقة حتى يومنا هذا
ولما كان لورنس صريحاً لا يعرف للمداراة معنى فقد حذر الناس من تيار المدنية الحديثة الذي يجرفهم إلى هاوية الدمار وهم لا يشعرون. فهذه المدنية الحديثة وليدة العقل والتفكير قد قامت على حساب كبت الغرائز الإنسانية. فبعد أن كان الإنسان وحدة كاملة بعقله وجسمه انفصل الاثنان، ثم تغلب العقل حتى أصبح الجسم مسجوناً لا يستطيع التنفيس عن رغباته؛ فيرمي لورنس من كتاباته أن يفك قيود الجسم ويطلق سراحه كي يستعيد الفرد كليته الأولى. ولما كانت العلاقة الجنسية وتنظيمها هي التي تكفل للإنسان الوصول إلى هذا الغرض فقد اهتم بها لورنس وعالجها في معظم كتبه
ولورنس من ذلك الصنف من الكتاب الذي يخلق في قرائه الذوق الذي يعينهم على فهم كتبه واستساغتها، وهذا في حد ذاته يحتاج إلى وقت ليس بالقصير. ونلاحظ على كتب لورنس أنها سهلة القراءة صعبة الفهم، وهذا سر خلودها. فلورنس يعتقد أن الكتاب خالد ما دام يسبر غوره أحد. وكثيراً ما يقرن اسم لورنس باسم جيمس جويس أو فيرجينيا ولف أو بروست أو غيرهم من رواد المدارس الحديثة في الأدب. والحقيقة أن لورنس يختلف عنهم اختلافاً بيناً، فكتب هؤلاء صعبة القراءة في أول الأمر سهلة الفهم بعد ذلك، لأن صعوبتها هي في لغتها الجديدة وتعبيراتها غير المألوفة في حين أن موضوعاتها لم تخرج عن المطروق المألوف. وأما لورنس فعلى العكس من ذلك، فهو يكتب في لغة مفهومة مألوفة، ولكن شخصيات رواياته وحوادثها وموضوعاتها أبعد ما تكون عن المألوف، وكلها ترمي إلى غرض واحد هو شق طريق جديد في الحياة
وكان من يجرؤ على قول الصدق بين قوم ألفوا الكذب وتعودوه يحاكم محاكمة صورية تنتهي بحرقه أو بزجه في أعماق السجون. أما في عصرنا هذا عصر المدنية الحديثة و (حرية القول) فتقوم الصحافة مقام محاكم التفتيش القديمة؛ فإذا لم يعجبها كاتب بأن كان صريحاً أو مخلصاً فيما يقول قامت تشوه اسمه وتسيء إلى سمعته حتى تنفر الناس منه وتبغضه إليهم. وهذا ما فعلته الصحف المغرضة بكاتبنا، وساعدها على ذلك ميل الناس في عصرنا هذا إلى تصديق كل ما يقال دون أن يكلفوا أنفسهم مؤونة بحث هذه الآراء
وتمحيصها. ولهذا نرى عدداً كثيراً من الناس لا يعرفون عن لورنس أكثر من أنه وضع كتاباً اسمه (عشيق لادي تشاترلي) صادرته الحكومة وأمرت بحرقه. وهم يعرفون كذلك أن رجال البوليس داهموا معرضاً لصوره في لندن وحطموا كل ما وصلت إليه أيديهم، ثم بعد ذلك لا يعرفون عنه شيئاً. وكان الأولى بهم أن يقرءوا كتبه بعد أن يدرسوا المؤثرات التي دفعته إلى كتابة ما كتب، وبعد ذلك يصدرون على الكاتب حكمهم.
وبرغم كل هذه الظروف المعاكسة ورقة حال الكاتب ومرضه الذي لازمه طول حياته

حتى قضى عليه وهو لا يزال في زهرة شبابه، وبرغم عدم فهم الناس لكتبه وبعدهم عن تقدير صاحبها، وبرغم تنكر أصدقائه له وانفضاضهم من حوله كان لورنس كاتباً مكثاراً ما ولج باباً إلا نبغ فيه. فرواياته الطويلة كثيرة، وقصصه الصغيرة ممتعة وشعره رائع، وكتبه في الفلسفة وعلم النفس هدمت النظريات القديمة، ومجموعة رسائله كنز أدبي لا يفنى

عبد الحميد حمدي

مدرس بمدرسة شبرا الثانوية

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

450 - والله ما شعرت بذلك

في (معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان): كان (الإمام) محمد بن سحنون ذات يوم يؤلف إلى أن حضر العشاء. فجاءته جاريته أم مدام بالعشاء. فقال لها: يا أمّ مدام، أنا مشغول عن العشاء بما أنا فيه. فلما طال انتظارها أخذت تلقمه وهو على حاله يؤلف حتى أتت على جميعه. وما زال كذلك حتى أذّن المؤذن لصلاة الصبح، فطوى كتابه وقال: يا أم مدام، هات ما معك من العشاء!

فقالت: يا سيدي، إني أطعمتك إياه!

فقال: والله ما شعرت بذلك!

451 - لو كان من كلام النظام لكان كبيرا

في (الأغاني): عتب المأمون على عريب (المغنية) فهجرها أياماً. ثم اعتلت فعادها. فقال لها: كيف وجدت طعم الهجر؟

فقالت: يا أمير المؤمنين لولا مرارة الهجر ما عُرفت حلاوة الوصل، ومن ذمّ بدء الغضب حمِد عاقبة الرضا.

فخرج المأمون إلى جلسائه، فحدثهم بالقصة. ثم قال: أتُرى هذا لو كان من كلام النظام ألم يكن كبيراً؟!

452 - فيستثنون فتبطل أيمانهم . . .

(وفيات الأعيان): قال الربيع صاحب المنصور: يا أمير المؤمنين هذا أبو حنيفة يخالف جدك: كان عبد الله بن عباس يقول: إذا حلف على اليمين ثم استثنى بيوم أو بيومين جاز الاستثناء. وقال أبو حنيفة: لا يجوز الاستثناء إلا متصلاً باليمين. فقال أبو حنيفة: يا أمير المؤمنين إن الربيع يزعم أن ليس لك في رقاب جندك بيعة. قال: وكيف؟ قال: يحلفون لك ثم يرجعون إلى منازلهم فيستثنون فتبطل أيمانهم. فضحك المنصور وقال: يا ربيع لا تتعرض لأبي حنيفة. فلما خرج أبو حنيفة قال له الربيع: أردت أن تشيط بدمي. قال: لا. ولكنك أردت أن تشيط بدمي فخلصتك وخلصت نفسي.

453 - أن يجلسوا على حائط . . .

(روح المعاني) للآلوسي: عن ابن سيرين أنه سئل عمن يسمع القرآن فيصعق، فقال: ميعاد ما بيننا وبينهم أن يجلسوا على حائط فيقرأ القرآن من أوله إلى آخره، فإن صعقوا فهو كما قالوا

454 - وكريم أنظر له

في (الإيجاز والأعجاز) للثعالبي: سمعت مأمون بن مأمون خوارزم شاه يقول: همتي كتاب أنظر فيه، وحبيب أنظر إليه، وكريم أنظر له.

455 - الجلهكية

في (الملل والنحل ونهاية الأرب): الجلهكية أي عُباد الماء في الهند، يزعمون أن الماء ملك، ومعه ملائكة، وأنه أصل كل شيء، وبه كل ولادةً ونمو ونشوء وبقاء وطهارة وعمارة. وما من عمل في الدنيا إلا وهو يحتاج إلى الماء. فإذا أراد الرجل منهم عبادته تجرد وستر عورته. ثم دخل الماء حتى يصل إلى حلقه (أو وسطه) فيقيم ساعة أو ساعتين أو أكثر. ويأخذ ما أمكنه من الرياحين، فيقطعها صغاراً، ويلقى في الماء بعضها بعد بعض، وهو يسّبح ويقرأ. فإذا أراد الانصراف حرّك الماء بيده، ثم أخذ منه فنقط على رأسه ووجهه وسائر جسده خارجاً، ثم سجد وانصرف.

456 - من عدم الناس عاشر القردة

في (تتمة اليتيمة): كان أبو سهيل الحراني ينادم قردة له، فقيل له في ذلك، فقال:
ملت إلى قردة أنادمها ... فأنكرت ذاك زمرةُ الَحسَدهْ
فقلتُ: يا بُلْهُ لا عقولَ لكم ... من عدم الناس عاشر الِقردَهْ
التمثالان في تدمر - 457
في (معجم البلدان): كان من جملة التصاوير التي بتدمر صورة جاريتين من حجارة من بقية صور كانت هناك، فمر بها أوس بن ثعلبة التيمي صاحب قصر أوس في البصرة، فنظر إلى الصورتين فاستحسنهما فقال:
فتآتيْ أهل تدمرَ خبَّراني ... ألَمّا تسأما طولَ القيام
قَيامُكما على غير الحشايا ... على جبل أصمَّ من الرُّخام
فكم قد مرّ من عدد الليالي ... لعصركما وعامٍ بعد عام
وإنكما على مرّ الليالي ... لأبقى من فروع ابنَيْ شمام
قال المدائني: فقدم أوس بن ثعلبة على يزيد بن معاوية، فأنشده هذه الأبيات، فقال يزيد: للّه درّ أهل العراق! هاتان الصورتان فيكم يا أهل الشام، لم يذكرهما أحد منكم، فمر بهما هذا العراقي مرة فقال ما قال...
مفرق - 458
في (مروج الذهب، والكنز المدفون): بلغ خالد بن عبد الله القسري، وكان عاملاً لعبد الملك بن مروان على مكة قول الشاعر:
يا حبّذا الموسمُ من موفِد ... وحبذا الكعبة من مشهد
وحبذا اللائى يُزاحِمْنَنا ... عند استلام الحجر الأسود
فقال خالد: أما هن فلا يزاحمنك بعدها. فأمر بالتفريق بين الرجال والنساء في الطواف. فهو أول من فرّق بين الرجال والنساء في الطواف. فاستمر ذلك إلى اليوم، وكان يُجلس لهن حرساً عند كل ركن، معهم السياط، يفرقون بيتهم.
ثم اطووه إلى يوم القيامة - 459
في (زهر الآداب): شرب كوران المعنى عند الشريف الرضي فافتقد رداءه وزعم أنه سُرق. فقال له الشريف: ويحك! من تتهم؟ أما علمت أن النبيذ بساط يطوى بما عليه...؟
قال: انشروا هذا البساط حتى آخذ ردائي ثم اطووه إلى يوم القيامة...
موت كريزيس
للأستاذ زكي المحاسني
(ضعني على قلبك كالميسم ... فالحب مثل الموت للمغرمِ)
صغت هذا البيت من قول (مارلين ديتريش) ليلة رأيتها في الصور المتحركة وقد باتت عند عمتها؛ فلما تهيأت للنوم أخذت بكلتا يديها كتاب العهد القديم ثم وضعته على صدرها وفتحته ثم تلت نشيد الأناشيد بصوت ملائكي خافت قالت في آخره: (ضعني كالخاتم الواسم على قلبك فالحب كالموت)
صار بها هذا النشيد إلى الموت فماتت في روايتها حرقاً ولقيت جزاء قلبها. تفننت في كلام الحب وفنيت في صباباته حتى هشمت بمطرقة كبيرة تمثالها الذي صنعه عاشقها النحات، لتدخل في أغوار العدم
هكذا فكرت في غادة نشيد الأناشيد حين مرت في خاطري (كريزيس) في الإسكندرية القديمة وقد اغتسلت ذات مساء بالعطور ونادت جاريتها الهندية (دجالان) فقالت لها:
نشفيني وألبسيني وزينيني ثم ضمخميني بالطيوب
خرجت كريزيس تشق رواق المساء بنور وجهها الساطع وتخطر في مشيتها حتى بلغت شاطئ البحر. وكان هناك على متكأ الشاطئ النحات (ديمتريوس) الذي صنع تمثال (آفروديت) ملكة الإسكندرية. وقف على الشاطئ وفي سمعه أنغام الزامرتين وقد ابتعدتا عنه وغابتا في تضاعيف الظلام. وقف ينظر إلى البحر فيرى نفسه في موجه الصاخب ويحسن تلك الثورات الخفية التي يثور فيها روحه ثم يصطدم في حدود جسمه فيعود مستكيناً حبيساً
فكر في الملكة التي تعشقه وفكر في آلاف الرعابيب اللواتي ارتمين على قدميه وما حظين منهما بالتقبيل. وإنه لكذلك سادر في تأمله إذ مرت به كريزيس فتيمته حبا. فلحقها فعزت عليه وتجنت. ثم اشترطت الهوادة غوالي الشروط وأشدها هولاً. فسرق

من أجلها وهو الشريف. وقتل من أجلها وهو البريء. وهزئ بالآلهة جرّاها وهو الحكيم الرزين. ثم أنقذ نفسه فجأة من مهاوي العدم وبؤرة العار؛ فصدف عنها واجتواها، وكان كرهه لها حبا، واجتواؤه إياها هياماً. ولما صارت إلى السجن قدم إليها السجان كأس الشوكران وقال
اشربي
مدت يدها وأخذت الكأس فرفعتها إلى فمها وشربت نصفها، ومدتها بالنصف الباقي إلى ديمتريوس، وقد جاء ليشهد مصرعها، فنحى عنه كأسها. فاستردتها إلى فمها وشربت السم حتى الثمالة. . .
سألت كريزيس السجان: ماذا أفعل؟ فقال لها سيري جيئة وذهاباً. ففعلت حتى عمل فيها السم، وارتمت كما يرتمي غزال قد صيد. . . وماتت
عاد إليها ديمتريوس وهي في لفائف الموت قد سُجيت على سرير. فجلس حيالها يناجيها بصمته، ويستودعها بروحه. وبدت له على سرير الموت أروع جمالاً وأشع نوراً مما كانت في الحياة
جلب معه عجين التراب الذي يصنعه للتماثيل، وأقبل على السرير فنضا الثياب عن الضحية، ثم أقعدها في وضعٍ فنيٍ رائع ثم أخذ منقاشه وظل من الصباح حتى سد عليه المساء نافذة السجن، فانتهى من صنع تمثال (كريزيس الخالدة) حين دفنتها صديقتاها (روديس وميرتو) قطعتا من شعريهما خصلة دفنتاها معها ثم بكتا على قبرها أحر البكاء. . .
فكرت في نهاية (كريزيس) التي قص قصتها العبقري بيير لوئيس، فاستطعت بسبب فاجعتها أن أفهم نشيد الأناشيد في كتاب العهد القديم.
زكي المحاسني
ترانيم وتسابيح
أنشودة الصباح. . .
(إلهامات من سحر الحب وجمال الطبيعة في ضفاف الجزيرة)
للأستاذ محمود حسن إسماعيل
سَبقْتِ إلى النيلَ خَطوَ الصباح ... فَتيَّمتِهِ بالصِّبا والفُتونْ
وخَمْرُ إلهيّة في يَدَيكِ ... وكأسٌ من الحُبِّ ملآى جنون
وتَغْرُكِ تَغريدَةٌ ما وَعَى ... ترانيمَها غَيْرُ قَلْبي الحزينْ
عَشِقْتُ صَداها فَغنَّيتُها ... ولَقَّنتُها لِشِفاهِ السِّنينْ
وما كُنتُ أدْرِي الْهوَى والحياهْ
ولا السِّحرَ في أُغْنِياتَ الشِّفاهْ
ولا كُنتُ أعلَمُ سِرَّ الإلَهْ
سِوَىَ بَعدَ ما لُحْتِ لي فِتنةً ... وأقبلْتِ لي مَرَّةً تَبسمينْ!
وعَيناك عَلّمتاني السُّجودَ ... وكيفَ أخِرُّ مَعَ العابِدينْ
لَهمْ دِينُهم في زِحامِ الصَّلاةِ ... وَديني الضِّياءُ الذي تَنشرينْ
عَبَدْتُ بِكِ الله. . . ما في دَمي ... ولا في فَمي غَيْرُ هذا الرَّنينْ
فيا ولَهاً ناعِساً في الجُفونْ ... ويا سَجْدَتانِ بِدَيْرِ الجَبينْ
ويا قُبلْتانِ بِخَدِّ الصَّباحْ
ويا بَسمتانِ بِثغْرِ الأقاحْ
طفَتْ بَيْنَ جَنْبيَّ نارُ الجِراحْ
فَرُدَّي لبَلْوايَ سِحرَ المُنَى ... وبُثِّي حديثَ الهْوَى يا عيونْ!
وإيقاعُ صَوتِك فوقَ الضِّفاف ... أهازيجُ رفَّافةٌ بالحَنينْ
سَمِعتُ لُغاهُنّ تحتَ الظّلالِ ... أناجيلُ تُتلَى على الرّاهبينْ
وأنغامَ رقْصٍ بَعيدِ المَدَى ... حَلَمتُ به في سَماءِ الظُّنونْ
مَحا شَجنَ الطَّيْرِ إغْرادُهُ ... وتَيَّمَ في عُشِّهِنَّ السكونْ
فَهَّللن بين خَميلٍ وأيْكِ
وهَفْهفْنَ مِثلي حَنانًا إليكِ
وكِذْن يقبِّلن طُهراً يديْكِ
ويَسجدْنَ حَولكِ فوق الرُّبى ... وتخشعُ لِلحبِّ هامُ الغصون!

وقلتِ: هنا النهرُ! قلتُ: اصمُتي ... هُنا الله يَرعَى هوانا الأمينْ
هنا قَدَرٌ في الضُّحى نائمٌ ... أساريرُهُ طَلْسمتها القرونْ
يسمونه (النيل)! وهْوَ الذي ... يُنيل ويشفى صدى الظامئينْ
سقَى الدهر من جامه فارتْوى ... ورَوّى بِخَمرتِهِ الملْهَمينْ
فَغنَّى بِأسرارِهِ الشَّاعِرُ
وكبَّر في شطِّهِ الكافرُ
وخَرَّ لَهُ السحرُ والساحرُ
!وَلَمَّا تهادَتْ عَليهِ الصَّبا ... تَصابَى فحَيَّا خُطا العاشقين
أَتيناهُ والصُّبحُ طِفلٌ غَريرٌ ... تهدهدُهُ سَكرةُ الحالمين
طَهورُ المسارِبِ ما لَوَّثتْ ... خُطا شَمسهِ قَدمُ العابِرِينْ
سِوَى بائِسينَ إلَى قُوتِهم ... تَنادوْا: سَلامٌ على البائِسين
أفاقوا مَعَ الفجرِ فوق الثَّرَى ... حَيارَى على أرضهم مُتعبينْ
وصيَّاد رزْقٍ على الشاطِئَيْنْ
مِنَ اليأسِ قَلَّب نار اليدَينْ
وفي وَجهِهِ مِنْ كلالٍ وأينْ
!بَقايا مِنَ الَّليلِ يَمْشي بها ... إلَى كوخِهِ في شعاب الأنين
وَنجْوَى يَمامِيَّةٌ في العشاشِ ... تَحجَّبُ إلاَّ عَنِ المغرَمِينْ
فَهِمنا لُغاهَا وأسرارها ... فهمنا بها في الضُّحى حَائِرين
وفي ظِلِّنا لِلهْوى رِعشةٌ ... وقَفْتِ على طيفها تسألينْ
وصدْركِ يَهتَزُّ تَحت السَّنا ... كأنشودةٍ في أكفِّ الحنينْ
شجاها التَّغنِّي فهزّتْ لنا
تحايا مِنَ الله طافتْ بِنا
ونجْوَى مِنَ الله رَفَتْ هنا
. . .وقالتْ: سلامُ الهوى والعفافِ ... على قُبلَةٍ في فَمِ الخائِفينْ
(وزارة المعارف)
محمود حسن إسماعيل
الشاعر والأمة
للأستاذ إيليا أبو ماضي
خير ما يكتبه ذو مِرْقم ... قصة فيها لقوم تذكره
كان في ماضي الليالي أمة ... خلع العز عليها حَبره
يجد النازل في أكنافها ... أوجهاً ضاحكة مستبشره
ويسير الطرف من أرباضها ... في مغان حاليات نضره
لم يقس شعب إلى أمجادها ... مجدها الباذخ إلا استصغره
همها في العلم تعلي شأنه ... بينها، والجهل تمحو أثره
ما تغيب الشمس إلا أطلعت ... للورى محمدة أو مأثره
فتمنى الصبح تغدو شمسَه ... وتمنى الليل تغدو قمره
ومشى الدهر إليها طائعاً ... فمشت تائهة مفتخره
كان فيها ملك ذو فطنة ... حازم يصفح عند المقدره
يعشق الأمر الذي تعشقه ... فإذا ما استنكرته استنكره
بلغت في عهده مرتبة ... لم تنلها أمة أو جمهره
فإذا أعطت ضعيفاً موثقاً ... أشفقت أعداؤه أن تخفره
وإذا حاربها طاغية ... كانت الظافرة المنتصره
مات عنها فأقامت ملكاً ... طائش الرأي كثير الثرثرة
حوله عصبة سوء كلما ... جاء إدّاً أقبلت معتذره
حسّنت في عينه آثامه ... وإليه نفسه المستكبره
وتمادى القوم في غفلتهم ... فتمادى في الملاهي المنكره
زحزح الأمة عن مركزها ... وطوى رايتها المنتشرة
ورأت فيها الليالي مقتلاً ... فرمتها فأصابت مدبره
فهوت عن عرشها مصروعة ... مثلما ترمى بسهم قبّره

كان فيها شاعر مشتهر ... ذو قواف بينها مشتهره
كلما هزت يداه وتراً ... هز من كل فؤاد وتره
تعسُ الحظ وهل أتعس من ... شاعر في أمة محتَضَرة؟
يقرأ الناظر في مقلته ... ثورة ظاهرة مستتره
ما يراه الناس إلا واقفاً ... في مغاني قومه المندثره
حائراً كالريح في أطلالها ... باكياً كالسحب المنهمره
وهي في أهوائها لاهية ... وكذاك الأمة المستهتره
ما رأت مهجته المنفطرة ... لا ولا أدمعه المنحدره
فشكاه الشعر مما سامه ... وشكاه الليل مما سهره
ثم لما عبث الناس به ... مزق الطرس وشق المحبره
مر يوماً فرأى أشياخها ... جلسوا يبكون عند المقبره
قال: ما بالكمُ ما خطبكم ... أي كنز في الثرى أو جوهره؟
ومَن الثاوي الذي تبكونه ... قيصر أم تبّع أم عنتره؟
قال شيخ منهم محدودب ... ودموع اليأس تغشى بصره:
إن من نبكيه لو أبصره ... قيصر أبصر فيه قيصره
كيف يا جاهل لا تعرفه ... وحداة العيس تروي خبره
هو مَلْك كان فينا ومضى ... فمضت أيامنا المزدهره
ولبثنا بعده في ظُلَم ... داجيات فوقنا معتكره
والذي كان بنا (معرفة) ... لصروف الدهر أمسى نكره
فانتهى التاج إلى معتسف ... لم يزل بالتاج حتى نثره
كل ما تصبو إليه نفسه ... مُعْصر أو خمرة معتصره
مستهين بالليالي وبنا ... مستعين بالطغام الفجره
كلما جاء إليه خائن ... واشياً قرّبه واستوزره
فإذا جاء إليه ناصح ... شك في نياته فانتهره
مستبد باذل في لحظه ... ما ادّخرناه له وادخره
يهب المرء وما يملكه ... وعلى الموهوب أن يستغفره
هزأ الشاعر منهم قائلاً: ... بلغ السوس أصول الشجره
رحمة الله على أسلافكم ... إنهم كانوا تقاة بررة
رحمة الله عليهم إنهم ... لم يكونوا أمة منشطره
إن من تبكونه يا سادتي ... كالذي تشكون فيكم بطره
إنما بأس الألى قد سلفوا ... قتل النهمة فيه والشره
فاحبسوا الأدمع في آماقكم ... واتركوا هذى العظام النخره
لو فعلتم فعل أجدادكم ... ما قضى الظالم منكم وطره
ما لكم تشكون من محنتكم ... رضتمُ ألسنتكم أن تشكره
وجعلتم منكمُ عسكره ... وحلفتم أن تطيعوا عسكره
كيف لا يبغي ويطغى آمر ... يتقي أشجعكم أن ينظره
ما استحال الهر ليثا إنما ... أُسد الآجام صارت هرره
وإذا الليث وهت أظفاره ... أنشب السنور فيه ظفره
(الولايات المتحدة)
إيليا أبو ماضي
القصص
الباب المقفل
للأستاذ محمود تيمور بك
ذهبت إليه، وسألته أن يعطيها الكتاب الذي وعدها به فوقف هنيهة يفكر: أين وضعه؟. . ثم تمتم:.
العله في حجرة البيان!
وتقدمها إلى الحجرة، فدخلاها. إلا أنها تنبهت إلى شأن غير عاديّ بدر منه. لقد أقفل الباب بالمفتاح!. . . فتسارعت دقات قلبها، واختلست إليه النظر، فوجدته قد اتجه إلى الخزانة، واندفع يقلب محتوياتها. . .

. . .كيف اجترأ أن يقفل الباب بالمفتاح وهي معه؟!. من يظنها؟! ورمته بنظرة حادة وأبصرت خصلة من شعره الذهبي قد تهدلت على جبهته. . . يا لله! لم تره على هذه الفتنة قبل الآن. . . قامة مبسوطة، ومنكبان عريضان، ووجه صبيح عليه طابع الرجولة الحق!

لم تره قبلُ في هذه الفتنة، على أنها نشأت وإياه في منزل واحد، وكان يكبرها بعشر سنين، فهو ينظر دائماً إليها نظرات الأخ الكبير إلى أخته الصغرى. . .

ووقع بصرها على خيالها في المرآة، فتذكرت معابثته إياها إذ كان يلقبها أحياناً بالضفدع، لقصر قامتها!

ورفعت عينيها إليه ثانية

ها قد حبسها معه في حجرة واحدة، هذا الفتى المبسوط القامة، العريض المنكبين. . .!

إنه يتظاهر بالبحث عن كتاب، ويطيل التقليب فيما بين يديه، وقد يكون الكتاب المقصود على قيد أنملة منه!

ما أجهله بعقول الفتيات!. . . إنه ما برح يتوهمها طفلة، على حين أنها استقبلت منذ أيام عامها السادس عشر!

ولكن أية مفاجأة تلك التي يفكر فيها؟

أهجوم مصحوب بقبلة حرّى؟

إن يدها على استعداد لدفع هذا الهجوم!

. . .صفعة قوية تثيب إليه رشده

وجعلت ترنو إليه، وهو منهمك يبحث عن الكتاب، وكان مرتدياً منامةً حريرية تتموج على جوانب جسمه الرياضي البديع، الذي يحسده عليه أجمل كواكب (السينما). . .

وأطالت النظر إلى ساعديه القويين، فاختلج جسمها بهزة كهربية. . .

لقد أنبها أخيراً لأمور تتعلق بسلوكها. . . أتكون الغيرة قد بدأت تتسلل إلى قلبه؟!

هو قليل التحدث معها، ولكنه كثير التفكير والسهوم. وهل تنسى يوم سارقها النظر، فتضرج وجهها؛ فغضب لافتضاح أمره، ونهرها بشدة؟!

. . .ما أشد كبرياءه! ولكنها ستهزم اليوم هذه الكبرياء هزيمة ساحقة

سيجثو تحت قدميها، ويقول لها: (كم أحبك. . . كم أحبك يا عصفورتي الصغيرة!. . .

فتجيبه، وهي مهتاجة: (دعني أخرج!. . افتح لي الباب. . .) ثم يمسك بيديها، ويغمرها بقبلاته وهو يكرر: (ارحميني!. . . ارحميني!. . .)

وأخيراً رفع رأسه عن كومة الكتب، ثم التفت إليها، فرآها تبتسم له، فأجابها بابتسامة سانحة!

. . .تلك هي العاصفة توشك أن تهب، فلتستعد لها

. . .إنها لم تره على هذه الوسامة قط

أتراه يفكر في حملها بين ذراعيه، ثم يقفز بها من النافذة إلى الحديقة، ثم يظل يعدو بها. قد يعقد الذعر لسانها، فلا تستغيث ولا تتحرك. . . فلا يفتأ يجري ويجري. . . فإذا ما امتلكت نفسها، واستعادت شجاعتها، وأرادت أن تصيح، أسكتها بقبلة طويلة!

لم يعد يبحث عن الكتاب، إنه في تفكير شارد مضطرب. يُعد برنامج الهجوم. . . أفلا تتقدم إليه من فورها، وتباغته بقولها:

لقد كشفت عن خططك. . . سأفسدها عليك. . . افتح الباب، ودعني أخرج. . .)؟!

. . .والتفت إليها في هذه اللحظة، ثم رأته يدنو منها

. . .يا لله! ما أشد خفقان قلبها!. . . إنها تسبل جفنيها!

وسمعته يقول:

هذا هو الكتاب.

فرفعت إليه بصرها، فإذا به يمد إليها يده بالكتاب الذي كان وعدها به. وقد زوى ما بين حاجبيه. . . فأخذته منه في صمت!

وأبصرته يفتح الباب بالمفتاح، وينفذ منه، وهو يصيح بالخادم قائلاً:

ألم آمرك غير مرة بإصلاح هذا الباب؟ إن المرء ليضطر لاستعمال المفتاح كلما دخل أو خرج تفاديا من هذا التيار الشديد!. . . ثم اختفى عجلاً.

ولبثت الفتاة طويلاً تحدق في الجهة التي اختفى منها. . . ثم وقع بصرها عفواً على

الكتاب في يدها فاندفعت إلى النافذة، وقذفت به!
. . .ثم ارتمت على المتكإ، وانكبت على منديلها تمزقه بأسنانها

محمود تيمور

رسالة الفن

دراسات في الفن

الفن شعور

للأستاذ عزيز أحمد فهمي

يأبى بعض علماء النفس إلا أن يسرفوا كل الإسراف في التقيد بالتجارب المادية فلا يرضون أن يقرروا الحقائق النفسية إلا بعد أن يقيسوها ويزنوها بمقاييس وموازين مادية من الأجهزة البارعة التي استحدثوها. ولست أدري كيف غاب عن هؤلاء العلماء الأجلاء أن المادة لا تستطيع أن تقيس وأن تزن إلا المادة وهم - على ما يعترفون بجهلهم المطبق بالنفس ذاتها - لا يجرؤ أحدهم على القول بأنها مادة. فإذا قال قائل: إن هناك طريقاً غير سراديب المعامل وأقبيتها قد تؤدي إلى بعض العلم بالنفس كان من حسن المجاملة التي يجب على علماء النفس اصطناعها أن يسكتوا عنه - إذا تكبروا عن متابعته - كما سكت عنهم وتركهم يقيسون ويزنون بما يستحدثون ويصنعون ما لا يعرفون ولا يعلمون ويقولون مع هذا إنهم علماء، وإنهم ينهجون في علمهم النهج القويم الوحيد

فإذا أرادوا أن يدافعوا عن أنفسهم وقالوا إنهم لم يستحدثوا حدثاً، ولم يبتدعوا بدعة وإنهم لم ينهجوا في علم النفس إلا النهج الذي ينهجه العلماء في بقية العلوم، وإنهم لا يطلبون شططاً من الناس ولا يحملونهم فوق ما يطيقون حين يسألونهم الإيمان بعلمهم كما يؤمنون بأمور الكهرباء التي يذيعها علماء الطبيعة فيقبلها الناس ويستغلها المخترعون من غير أن يطالبوا علماء الطبيعة بإدراك كنه الكهرباء. . . إذا قالوا هذا قلنا لهم: وعلماء الطبيعة مثلكم أيضاً يكتشفون ويخترعون ولكنهم لا يعلمون، وهم إذا جاز لهم أن يقعدوا عن فهم أسرار الطبيعة الصماء وقنعوا باستغلال قواها مستفيدين آكلين شاربين، فإن لهم عذرهم في هذا ما داموا يرون الطبيعة التي يقيسونها ويزنونها بأجهزتهم شيئاً خارجاً عن أنفسهم بعيداً عنهم، أما أنتم يا علماء النفس فتستطيعون أن تجولوا في أنفسكم بأنفسكم ولكنكم تزدرون أنفسكم زراية ما بعدها زراية حين تأبون إلا أن تسألوا عنها أجهزتكم، وأجهزتكم وحدها كالمبصر المفتوح العينين الذي يسير في وضح النهار ويأبى إلا أن يتحسس الأرض بعكازة لها

وحدها الأمر في خطواته، وهي وحدها التي تأذن له بالتقدم، وتشير عليه بالتريث، وتميد به ذات الشمال وتميل به ذات اليمين

ولعل واحداً من علماء النفس الطبيعيين يتواضع ويسألنا عما يمكن أن يسلكه علم النفس من السبل التي قد تصل به إلى العلم الصحيح والتي لا تقف به عند الباب موقف التجسس المريب. هذا ندعوه إلينا، أو نتطفل عليه فنأتمّ به ونرجوه أن يقودنا بعلمه وأجهزته ونحن من ورائه تابعون، ولكن متيقظون

سنسأله أول ما نسأله: أين هي النفس؟ فإننا لا نستطيع أن نتجه إلى شيء من غير أن نعرف مكانه

وهو عندئذ سيقول: النفس في الإنسان وفي الحيوان

فهو رجل طيب متواضع يعترف للحيوان بالنفس بينما غيره من العلماء يجهده هذا . . . الاعتراف، ولا شك أن حظنا السعيد هو الذي هدانا إلى هذا العالم الطيب المتواضع، فعلينا إذن أن نشكره كل الشكر لأنه لم يترفع بجنسه على الحيوان، ثم أن علينا بعد ذلك أن نمضي في البحث عن العلم فنوجه إليه السؤال الجديد

- أليس هناك فرق بين نفس الإنسان ونفس الحيوان؟

وهنا سيطرق أستاذنا قليلاً ثم يقول:

- إن هناك فرقاً من غير شك. فالإنسان عاقل والحيوان غير عاقل. . . ونحن نفرح بالحق، فلا نملك إلا أن نعترف لأستاذنا بأن ما يقوله صحيح، ولكننا ملحون نريد أن نمضي في الطريق ما دمنا نستطيع أن نمضي فيه، فنخطو وراء أستاذنا خطوة جديدة لنقف به أمام سؤال جديد فنقول له:

- إن الطبيعة حين تودع كائناً ما قوة من القوى فإنها تقصد من هذا أن ينتفع هذا الكائن

بهذه القوة، والذي لا شك فيه هو أن الإنسان انتفع في حياته بعقله، ولكننا لا نشك أيضاً في أن هذا العقل يلتوي على الإنسان في كثير من الأحوال فيضره بل إنه يبسط أذاه على الآخرين، كما أنه يحار أحياناً في تصريف أمور صاحبه فيرتبك ويضطرب ويصيب أحياناً ويفشل أحياناً، بينما نرى الحيوان يقضي طول حياته لا يؤذي نفسه، ولا يلحق الضرر بفصيلته، ولا يعجز عن حفظ حياته، ولا يضطرب ولا يرتبك إلا عندما يدهمه ظرف
خاص غريب على الطبيعة فلا بد إذن أن يكون في الحيوان شيء آخر غير العقل هو الذي يصونه هذه الصيانة، ويحفظه هذا الحفظ ويقوده إلى السلامة، ولا بد أن يكون هذا الشيء أنفع من العقل. . . فهل هو موجود عند الإنسان أو مفقود؟ فإذا كان موجوداً فلماذا يغفله الإنسان ولا ينتفع به؟
ويهتز أستاذنا حينئذ طرباً لأنه تمكن من مغمز في كلامنا فهو يأخذ بخناقنا ويقول: إن الإنسان أيضاً لا يرتبك ولا يضطرب ولا يعجز عن صيانة نفسه وحفظها إلا إذا دهمه طارئ غريب على الطبيعة
فنبتسم نحن في دورنا ونسلم له بهذا جدلاً مع أنه كلام مبتور ولكننا نسأله:
- ما بال الإنسان إذن يكثر من صناعة العجائب والغرائب بعقله، وما باله يتعمد الحيدة عن الطبيعة، وفي هذه الحيدة الأذى والضرر. . . لا بد أن يكون العقل إذن هو الجنون
ويزور أستاذنا عن هذه النتيجة فيعبث بلحيته قليلاً ثم يسعل سعلتين، ومع أنه رجل طيب متواضع إلا أنه عالم يعتمد في علمه على العقل، وعلى العقل وحده، فإذا آمن معنا بأن العقل مجنون كان عليه أن يغيب عنا ساعة يمزق فيها كتبه، ويحطم فيها أجهزته ثم يعود ألينا نحن الجهلاء ليجلس إلى جانبنا معتمداً رأسه بكفه ينتظر الفيض من الكريم. . . عز على أستاذنا الطيب المتواضع أن يغيب عنا هذه الساعة لأنه فيما يظهر أحبنا ولم يعد يطيق البعد عنا. . . ونحن قوم نستجدي الله عطف المحبين
انتصب الرجل، وتحجرت عضلاته - فتحجرت نفسه - ووضع يديه في وسطه وهز لنا رأسه وقد ركبته كبرياء العلم وزجرنا متسائلاً، أو سألنا زاجراً:
- والآن ماذا تريدون؟
فخفضنا الرؤوس ذلاً ورجاء، وزفرناها جميعاً قائلين:
- اللهم إنا لا نطلب إلا الهدى فاجعلنا من المهتدين
فسألنا ساخراً:
- ومن يهديكم غير عقولكم؟
فقلنا: - قد رأينا العقلاء مجانين
فقال: - وكيف إذن تهتدون؟
فقلنا: - لا بأس في أن نتعلم من غير العاقلين، هذا هو الحيوان يجوع فيسعى إلى الطعام، ويظمأ فيطلب الماء، ويحن إلى الأنثى فيدلونه إليها، ويزيد نشاطه فيلعب ويتعب فينام، ويطمئن فيهدأ، ويخاف فيتقي ما يخاف، ويستطيب فيألف، ويستنكر فينفر، ويصح فيعتدل، ويعتدل فيصح، فإن مرض عالج نفسه بنفسه، وهو لا يمرض إلا إذا ألم به ما هو غريب على الطبيعة، وحياة الحيوان بهذا كحياة الإنسان فيها كل مظاهر الحياة، وفيها كل معاني الحياة، وليست تنقص عن حياة الإنسان إلا هذه العقد التي أنشأها العقل. فهي لا يمكن أن تعاب بهذا النقص لأن فيه سلامتها؛ فما الذي يدبر هذه السلامة لها. . .
هذا يا أستاذنا هو السؤال الذي نحب أن نبدأ به جدلنا. . .
وأصاب أستاذنا الرد سريعاً فأجاب: إنها الغرائز، أي نعم الغرائز. فالحيوان ينقاد لغرائزه في حياته فيسلم ما دامت حياته طبيعية لا تمتد إليها المؤثرات المصطنعة. . . وهذا كلام طيب لا نستطيع نحن الجهلاء أن ندفعه. فعلماء النفس عندهم مقاييس وموازين وأجهزة أثبتوا بها أن الحيوان يعيش بالغرائز، ويحفظ نفسه طول حياته بالغرائز؛ ثم يموت أيضاً بالغرائز. . ولكننا نرى في حياة الحيوان أعاجيب تشهد بأن الحيوان يدرك من أسرار الطبيعة ما لا يدركه العقلاء بعقولهم، ولما كان علماء النفس لا يقولون إن غرائز الحيوان تزيد على غرائز الإنسان شيئاً لم نر بداً من أن نسأل أستاذنا سؤالاً رأيناه يرتعش قبل أن نسوقه إلى مقام الأستاذ، ولكننا سقناه فسألناه:
هل في غرائز الحيوان ما يدعى (غريزة الغيب)؟!

فأسرع أستاذنا ولطمنا معترضاً: وهل ترون الحيوان يدرك الغيب؟
فقلنا والخجل يكاد يخنقنا: نعم. فالحيوان يبدر منه أحياناً ما يدل على أنه يدرك ما يشبه الغيب، أو أنه يشبه أن يدرك الغيب عندئذ نفخ أستاذنا وقال: مثال ذلك؟
فحمدنا الله لأنه لم يتعجل فينكر علينا دعوانا قبل أن نحاول إثباتها، فقد تعودنا من كثيرين من العلماء الذين يشغفون بالمقاييس والموازين والأجهزة أن ينكروا كل ما يعتصم على مقاييسهم وموازينهم وأجهزتهم. . . استبشرنا وتوقعنا الخير، وقلنا عساه يريد أن ينزل عن علمه وأن يسلك معنا طريق الفن أو طريق الجهل، وأسرعنا فضربنا له المثل قائلين:
- يحدث في ليلة العيد الكبير في مدن المسلمين أن يرتفع ثغاء الأضاحي أكثر من ارتفاعه
في الليالي السابقة، وأكثر بيوت المسلمين تختزن أضاحيها قبل ليلة العيد بليال عدة ليلعب الأطفال معها قبل أن يأكلوا منها. . . فلماذا يتزايد ثغاء الأضاحي ليلة العيد، ولماذا تلمس فيه الأذن الحساسة معاني الاستغاثة والشكوى والفزع واليأس؟
وطلب هذا السؤال لأستاذنا نكتة فراح يضحك ويقهقه ويقول . . .:
- وماذا أيضاً؟!
وجدنا نحن سنداً لملحوظتنا هذه في ملحوظة أخرى فرضناها هي أيضاً عساها ترد . . . سخريته واستهزاءه فقلنا:
- ويحدث أن يموء القط وأن يعوي الكلب في بيت المحتضر قبيل الوفاة بزمن قليل. فلماذا يموء القط وقتئذ، ولماذا تلمس الأذن الحساسة معاني الموت والإنذار، في مواء القط وفي عواء الكلب؟
فلما رأى أستاذنا أننا مصرون على المضي في سبيلنا عدل عن التهكم بالضحك . . . إلى التهكم بالكلام فقال:
- كأني بكم كأولئك المخرفين الذين يلصقون ببعض الحيوان الشؤم، فيتطيرون منه جرياً وراء الذي روجه القدماء الجهلاء عن هذا الحيوان من حديث الشؤم والسوء.
ولم نر نحن في هذا عيباً، فنحن لا نشك في أن حضارتنا زادت على حضارة . . . القدماء، ولكننا نرى في هذه الحضارة تنائياً عن الطبيعة، فالمتحضرون لا يمارسون الاحتكاك بالطبيعة والتفاعل معها مثلما يفعل الهمج والبدو، وهذه المسألة التي نحن بصددها من مسائل الطبيعة المحضة لا من مسائل الحضارة، فلا يبعد أن يكون الأقدمون الأقربون من الطبيعة قد اهتدوا إلى سرها بينما ابتعدنا نحن عن هذا السر بحضارتنا التي أضرمت الغرور في عقولنا فلم نعد نكلف أنفسنا مؤونة البحث في علوم القدماء وقنعنا باتهامهم بالتخريف لأننا رأيناهم تخبطوا أمام بعض الحقائق وعجزوا عن الوصول إليها بينما أتيح لنا نحن أن نكشفها، فساقنا هذا إلى أن نتهم علومهم جميعاً بهذا التخريف مع أننا عاجزون إلى اليوم عن إدراك بعض ما اهتدى إليه الأقدمون
أما نحن الجهلاء فإننا لا نزدري الأقدمين كما أننا لا نزدري المحدثين، وإنما نطلب الحكمة عند هؤلاء كما نطلبها عند هؤلاء، ونكتفي بالتحنيط الفرعوني شاهداً على اهتداء الأقدمين
لنخفض الرؤوس أمامهم بالاحترام والتقدير.
فقلنا لأستاذنا: فلندع هؤلاء المخرفين وغربانهم تنعق فوق رؤوسهم أو فوق رؤوسنا حيثما طاب لها النعيق، ولنحاول تعليل هذا الذي نراه في أضاحي العيد، وهو شيء لا يمكن أن ينكر، ولنحاول معه تعليل هذا الذي نراه من القط والكلب في بيت المحتضر قبيل وفاته. . . هل في علمكم هذا التعليل؟ وهل هي أيضاً غريزة تنذر الحيوان بالغيب، أو ماذا تقولون؟!
فلم يهن على أستاذنا أن يكف عن القول. . . قال:
- إن الأضاحي تثغو ليلة العيد، ويزيد ثغاؤها مصادفة، وبالمصادفة أيضاً يموء القط، ويعوي الكلب في بيت المحتضر قبيل الوفاة.
وهكذا العلماء. كلما حيرتهم ظاهرة من الظواهر عللوها بالمصادفة، ولم يفكر . . . واحد منهم أن يبحث للمصادفات عن قانون! ولماذا لا يكون للمصادفات قانون، ولكل شيء في هذا الوجود قانون؟ الهم هديك! على أننا مؤمنون بأن الظاهرتين اللتين

أوردناهما لسيدنا العالم ليستا مما يخضع لقانون المصادفات، فليس الذي يتكرر في ملابساته تكرارا متواصلاً مستمراً بالذي يدخل في حساب المصادفات مهما أصر سيدنا الأستاذ على ما يقول. . . ومع هذا فقد أمسكنا عن مناقشته فيه فنحن لا نستطيع أن نقنع المكابر بأن البيضة من الدجاجة وأن الدجاجة من البيضة إذا أصر على أن يقول إنها المصادفة وحدها هي التي تخرج إحداهما من الأخرى، فانتقلنا به من هذا إلى ما ذكرناه من تعبير ثغاء الأضاحي الهاتفة مصادفة فقط ليلة العيد بالاستغاثة والفزع والشكوى وغير ذلك من المعاني التي يمكن أن تضطرب في نفس المسوق إلى الموت، سألناه عن هذه المعاني: ألا يستشعرها، فضحك وقال:

- وهل تشعرون أنتم بها؟

فقلنا: نعم والحمد لله، وإنك أيضاً تستطيع يا أستاذنا الجليل أن تستشعرها إذا أردت، وإن كنت تأبى أن تشعر إلا بمقاييس وموازين وأجهزة فإنك تستطيع أن تكتب ما شئت من ثغاء هذه الأضاحي بالنوتة الموسيقية، وتستطيع أن تطلب من عازف فنان أن يعيدها على سمعك بآلة يشبه صوتها صوت الخراف، ولعل الفيلونسيل هو أقرب الآلات الموسيقية إلى

تقليد هذه الأصوات، فإذا لم يشعرك الفيلونسيل بهذه المعاني التي نحدثك عنها، فإنه عجز المادة عن قياس النفس ووزنها، ولا بد لك إذن من الاستعانة بجهاز يشبه الحيوان من حيث وجود النفس فيه، وليكن هذا الجهاز إنساناً مغنياً؛ أو إنساناً ممثلاً تطلب منه أن يقلد لك أصوات الخراف ليلة العيد تقليداً أميناً فيه الصوت وفيه ما يبعث الصوت من الشعور.

وهنا تعجل أستاذنا وقطع علينا الطريق متسائلاً . . .:

- فإذا لم أشعر بما تشعرون؟

فقذفنا بها عندئذ مجبرين وقلناها محرجين:

- لا يمكن أن يكون هذا إلا إذا كان في الناس فريق يشعرون وفريق لا يشعرون وإن كانوا يعقلون.

وعادت إلى الأستاذ طيبته، وعاد إليه تواضعه فسألنا كمن يريد أن يعرف . . .:

وهل في الناس حقاً من يشعرون؟

ولم ندهش لهذا السؤال، فقد صدر من عالم، فقلنا له: نعم يا سيدنا الأستاذ. نقسم لك بالله أن في الناس من يشعرون بأضاحي العيد. بل أن فيهم من يشعر كأضاحي العيد.

فذعر الأستاذ لهذا، وضاق عقله عنه، وسأل من فمه سؤال أبله معتوه وقال: إذا . . كان هذا حقاً. . . فكيف يحدث. . . هل تعرفون؟!

فتبادلنا فيما بيننا النظرات لأننا كنا نظن أن العلماء مهما جمدوا بعقولهم دون الحق فإنهم يستطيعون أن يستنبطوا أسباب المظاهر التي يلمسونها ما دامت ظاهرة لهم، وما داموا يلمسونها، وما دامت لهم عقول، وما داموا يقولون إن عقولهم تكفيهم وتهديهم وتلبي مطالبهم وحاجاتهم. . . وكنا نظن هذا لأننا نسينا أن سادتنا العلماء ينفضون أيديهم من العلم ما انفلتوا من معاملهم وما نفضوا أيديهم من مقاييسهم وموازينهم وأجهزتهم. . . وجل من لا ينسى. . . ولكننا عدنا فذكرناه وقلنا لسيدنا الذي هجر الشعر رأسه إلى لحيته:

- أنتم صدقتم داروين حين قال لكم إن بدن الإنسان تطور من بدن الحيوان، ثم صدقتم علماء آخرين قالوا لكم إن جنين الإنسان يمر في بطن أمه بالأدوار التي مرت بها الإنسانية في سلسلة رقيها، فهو يبدأ خلية ثم دودة ثم زاحفة حتى يتم تكونه الإنساني فينقذف إلى الحياة إنساناً ولكنه يمشي على أربع، إنساناً ولكنه أبكم، إنساناً ولكنه بلا عقل. فلماذا لا

تتأملون هذا الإنسان العجيب، ولماذا ترضون أن يكون الجنين تلخيصاً للرقي البدني البشري، ولا يخطر في بالكم أن حياة الطفولة تلخيص هي أيضاً للرقي الروحي البشري، وأن الطفل فيها يتخلص من بعض الخصائص ويستكمل خصائص أخرى غيرها، ولماذا لا تدرسون المرحلة الأولى التي يتجلى فيها العقل عند الطفل وترون على حساب أي شيء يتجلى هذا العقل، وما الذي يستره من نفس الطفل كلما ازدهى وازدهر وساير الحياة العاقلة؟ ولماذا لا تتابعون في الطفل ائتلافه بالطبيعة لتروا كيف يضمحل هذا الائتلاف عن بعض الأطفال وكيف ينمو عن الآخرين؟ ولماذا لا تحاولون أن

تفسروا ما يتاح لبعض الناس من القوة على إدراك أسرار الطبيعة بشعورهم بينما لا تتاح هذه القوة لغيرهم؟
. . .!أليس هذا كله مما يصلح للدرس؟
ثم ألا تلحظون أن الأطفال يهجمون على حقائق الحياة الطبيعية غير محاذرين ولا مشفقين لا لشيء إلا لأنهم لا يعقلون، وأنهم يقيسون الأشياء ويزنون الناس بشعورهم (لا بعقولهم) فيصدق قياسهم ويصدق حكمهم أكثر مما يصدق قياس الكبار العقلاء وحكمهم. لا لشيء إلا أن الكبار يزحمون أنفسهم بمعايير مصطنعة يقدرون بها الحقائق ويزنون بها الأشياء، وكثرة هذه المعايير واضطرابها هما اللذان يورثان أحكامهم وتصرفاتهم الغلط والشطط
!لماذا لا تفكرون في هذا يا سادتنا العلماء؟ ولماذا تغفلون شعوركم وشعور الناس؟
فأطرق الأستاذ مرة أخرى. ولكن إطراقته طالت هذه المرة ما شاء علمه وتفكيره أن تطول. . . ثم رفع رأسه وقال:
- وهل هناك من يجول في ميادين الشعور؟
فقلنا غير مفاخرين:
- نعم إنهم أهل الفنون وهم الذين يرقى شعورهم كما يرقى عقلهم فيحتفظون بتوازنهم الإنساني ولا يعطلون بإرادتهم ولا بالجشع المادي قوة يرونها تحفظ حياة الحيوان وتصونه وتهديه. فما بالك لو صاحبها العقل والتفكير السليم. . .
عزيز أحمد فهمي
رسالة العلم
نحو فلسفة جديدة
للدكتور محمد محمود غالي
الحركة (البراونية) - عمل كوتون وموتون - مشاهدات بيران - المجهودات الأولى لأينشتاين - توحيد الظواهر الطبيعية - غاية العلوم
حدثنا القارئ عن فلسفة ليبنز بأن الحرارة عنده هي الحركة، وذكرنا أن جزيئات جميع الأجسام في حركة مستمرة وهي الظاهرة المعروفة بالحركة (البروانية) نسبة إلى العالم (براون)، وعند ظني أن الذين يبحثون عن الحركة الدائمة يجدونها في جزيئات أية مادة تقع عليها العين، فهي في حركة دائمة لا تعرف للسكون سبيلاً، وهذه الحركة تُحدث فينا شعوراً نسميه الحرارة، وهو حركة جزيئات الجسم لا أكثر ولا أقل، وكما أنه لا يوجد جسم دون أن يكون له حرارة معينة كذلك لا يوجد جسم لا تتحرك جزيئاته بسرعة معينة، وعندما نصف أي جسم بالبرودة الشديدة فإنه على درجة من الحرارة مهما انخفضت عن الصفر الحراري العادي فإنها تفوق الصفر المطلق
وهكذا عندما تحقق للعالم المعروف (دي باي) في السنين الأخيرة الحصول على درجة - 271°، أي درجتين فوق الصفر المطلق فإنه بقي لجزيئات المادة عند هذه الدرجة الخفيضة نوع من الذبذبة لازمها دائماً على ضعف مقداره
قد يقسو علينا الشتاء وتبرد الكائنات وتحرمنا الشمس الجزء الأكبر من حرارتها لبعدنا عنها في هذه اللحظة المعينة من السنة، وقد يتجمد معظم حاجاتنا. . . أجل أذكر في شتاء سنة 1929 وكنت أقطن ضاحية (مونت روج) من ضواحي باريس - أن تجمد كل ما نحتاج إليه مما يباع عند البدال، فاللبن والزيت وكل ما يباع سائلاً تجمد وأضحى في عداد الأجسام الصلبة حتى مياه المنزل داخل المواسير ومياه نهر السين تحولت وباتت جسماً صلباً لا يتحرك، ولكن جزيئات هذه الأجسام على برودتها الشديدة التي بلغت في بعض الأيام عشرين درجة تحت الصفر احتفظت بنوع من الذبذبة هو دليل حرارتها مهما كانت منخفضة
هذه الحركة الدائمة في الغازات والسوائل والذبذبة المستمرة في الأجسام الصلبة أصبحت من الأمور التي لا تقبل الجدل، وقد سألني بعض القراء الذين تابعوا مقالاتي هل توصل العلماء إلى رؤية حركة الجزيئات داخل الأجسام أو أنهم اعتبروا هذه الحركة موجودة لأنها حققت الكثير من الظواهر الطبيعية؟ وبعبارة أخرى، هل هذه الحركة مجرد فروض علمية أو هي حقيقة واقعة يمكن أن ترى أثرها العين؟ هل من سبيل أن

نرى مثلاً حركة الجزيئات في نقطة من الماء؟
وجوابي أن هذه الحركة بين الجزيئات حقيقية يمكن أن نرى أثرها، وأنه من الأمور العادية أن تقوم داخل المخبر ببعض التجارب التي ترى خلالها أثر حركة الجزيئات داخل السوائل وتصادمها مع غيرها، وهكذا عندما ذكرنا في مقال سابق نقطة الماء على ورقة من الشجر داخل حديقة ساكنة، وقلنا أن هذه النقطة بعيدة جد البعد عن السكون وأنها مكونة من ملايين العوالم وأن كل عالم منها في حركة دائمة، كنا رأينا كغيرنا الحركة الناتجة من اصطدام هذه العوالم بعضها بالبعض وما على الذين يريدون أن يستمتعوا برؤية أثر هذه الحركة الداخلية بين الجزيئات إلا أن يمزجوا بهذه النقطة من الماء نقطة من سائل كولويدي أي مكون من الجسيمات الصغيرة المعلقة كمحلول البرمنجانات أو الحبر ويفحصوا المخلوط الجديد تحت الألتراميكروسكوب. إن هذه الجسيمات الغريبة من البرمنجانات أو الحبر تقع بين ملايين العوالم المكونة لنقطة الماء، تلك العوالم التي تتحرك دائماً حركة لا يؤثر عليها سكون الحديقة ولا يغير فيها تعاقب الليل والنهار، وهي بهذا تصطدم مع الجسيمات الداخلة بينها والتي نرى حركتها بشكل واضح
أذكر يوماً تقدمت فيه للأستاذ كوتون رئيس المجمع العلمي الفرنسي لأقوم بأبحاث طبيعية في مخبره بالسوربون. قدمني الأستاذ الكبير لزميله موتون واقترحا عليّ في ذلك الحين أن أستغل قليلاً ببعض العمليات الألتراميكروسكوبية، وهكذا ظللت أعمل بضعة أيام بذلك الألتراميكروسكوب التاريخي الذي كان من اكتشافهما. كل من يطالع اليوم التاريخ المجيد الذي حازته العلوم الطبيعية في القرن الحالي يعلم أن في أوائل هذا القرن نشر الشابان كوتون وموتون طريقتهما الجديدة في رؤية الأشياء الصغيرة التي لا يراها الميكروسكوب
العادي وأن لهما في ذلك أبحاثاً هامة
إن العين تتأثر بأشعة الضوء عندما تقع طول موجاته بين
حدود معينة هي من 100004 إلى 100008 من المليمتر،
بحيث أنه يمكن للعين أن ترى الجسيمات الصغيرة بواسطة
الميكروسكوب ما دامت لا تصغر هذه الجسيمات عن حد معين
مرتبط بطول موجة الضوء المرئي، ولكن كثيراً من
الجسيمات التي نصادفها تقل عن هذا الحد من الصغر، لهذا
وقف في بادئ الأمر التقدم الطبيعي عند هذه الحدود
إن جسيما يقل في العادة عن 101 أو 201 من الميكرون
لا يعطينا بالميكروسكوب (الميكرون 10001 من المليمتر)
صورة واضحة للجسيم، ولا يمكن بمجرد النظر فصل أجزائه
المختلفة، ولكن كوتون وموتون فهما أننا لا نرى في المساء
الكواكب بذاتها وإنما نرى مواضعها، وهكذا استطاعا بإنارة
معينة أن يريا في مجال الميكروسكوب الجسيمات المتناهية في
الصغر، وأدركا أن هذا الجسيم الذي لا نراه بالميكروسكوب
إذا أضيء إضاءة جانبية مماسة يرسل في كل الجهات أشعة
مبعثرة بحيث يظهر في الميكروسكوب بقعة مضيئة لا تشبه
الجسيم، ولكن تدل على وجوده.
وتتلخص تجربتهما في أنهما وضعا نقطة من السائل المراد فحصه، والحامل للجسيمات الكولويدية على كتلة من الزجاج ووضعا عليها شقفة رفيعة من الزجاج، وقد استعملا لإنارة السائل قوساً كهربائياً من الفحم بحيث كونا صورة طرفي الفحم المضيء داخل نقطة السائل المراد فحصها، والموضوعة على كتلة الزجاج، وتحت الشقفة في محور الميكروسكوب.
على أن الجزء الهام في تجارب كوتون وموتون هو أن الأشعة
مائلة للدرجة التي يحدث فيها الانعكاس على السطح
الفاصل بين الهواء والشقفة الزجاجية بحيث لا يصل إلى
الميكروسكوب إلا الضوء المنبعث من الجسيمات
الألتراميكروسكوبية التي نراها في هذه الحالة كما نرى

النجوم، ويعتقد زيجموندي أنه استطاع أن يعرف وجود
جسيمات من الذهب يبلغ قطرها 100006 من الميكرون أي
أصغر بكثير من واحد على مليون من المليمتر
إنه لمشهد رائع أن ترى هذه النجوم تروح وتجيء وترتفع وتهبط ويطول سيرها طوراً
ويقصر تارة أخرى وهي بهذا تذكرنا بالمناورات الليلية البديعة التي يقوم بها سلاح
الطيران المصري خاصة بالكشف عن الطائرات، فهذه النقط المضيئة في السائل
تشبه الطائرات المرتفعة ليلاً في كبد السماء عندما يقع على إحداها أنوار الكشافات
من كل صوب، فإننا نرى جسماً ساطعاً في السماء يتحرك جيئة وذهاباً وهي تسطع
كالنجوم في الليل الدامس
وهكذا عندما صعدت إلى تلك الغرفة أول مرة لأقوم فيها ببعض التجارب على هذا
الجهاز التاريخي رأيت في نقطة من المحلول الكولويدي السماء كأنها ترتسم أمامي. .
. رأيت في النقطة الصغيرة الجسيمات كالنجوم الساطعة في ليلة حالكة مع هذا
الفارق وهو أن الأجرام
الصغيرة داخل النقطة في حركة دائمة شاءتها أسباب طبيعية كما شاءت أسباب
فوتوكيميائية (الهابوش) المسكين أن يجتمع مجبراً ويدور قسراً ويتصادم عفواً طول
الليل حول المصباح المتألق
على أن ما يجعل لهذه التجارب أثراً في نفسي أنني لم أقم بها على
الألتراميكروسكوب التاريخي فحسب، بل في ذات الحجرة المتواضعة التي أجرى فيها
(جان بيران) تجاربه الخالدة، تلك التجارب الخاصة بالحركة البراونية، والتي استعمل
فيها الجهاز الألتراميكروسكوبي المتقدم الذكر، ففي هذه الحجرة المتواضعة الواقعة
في الطابق الثالث من السوربون، والتي تطل على مكتب بريد الحي اللاتيني في
شارع كيجا، استطاع جان بيران أن يعين بطريقة تدعو للإعجاب شحنة الإلكترون، وهي
الطريقة التي سنشرحها للقارئ عندما ننتهي من الكلام عن الجزيء والذرة ونشرح
الإلكترون
وقد تتبع بيران حركة الجزيئات أياماً طويلة واستطاع بالاستعانة بقوانين وضعها العالم
الكبير أينشتاين، قوانين كانت باكورة أعماله في سنة 1906، أن يعطي أهم النتائج
التي نعرفها عن الحركة البراونية أو الداخلية للأجسام، تلك الحركة التي اكتشف فيها
توزيعاً لوغاريتمياً يشبه التوزيع الذي اكتشفه لابلاس لجزيئات الهواء، وهذه التجارب
الأخيرة جزء من الأعمال التي أتمها بيران في سنة 1909 والتي منحه من أجلها
المجمع السويدي جائزة نوبل للطبيعة لعشرين عاماً بعد ذلك التاريخ
وهكذا يستطيع اليوم أي طبيب بعيد عن المختبرات أن يعيد تجارب كوتون وموتون بأن
يكوّن داخل النقطة المراد فحصها صورة مصباح على طريقتهما، ويتأمل الحركة الأبدية
داخل أصغر نقطة من رذاذ الماء
وهكذا نجحت طريقة كوتون وموتون اللذين فهما من أول لحظة أنه لا بد في فكرة
إنارة الجسيمات من وجود طريقة لرؤيتها، وهكذا يتعلق النجاح في الأعمال على درجة
فهم الإنسان لأصول الأشياء ودرجة إدراكه للحقائق، وعند ظني أن شيلز وشيل،
وودجود الذين مهدوا لاكتشاف جهاز التصوير الشمسي بأبحاثهم الخاصة بأثر الضوء
على نترات الفضة، أدركوا قبل كل شيء أن في أشعة الشمس أسراراً تمكننا من أن
نرى الأشياء مرة أخرى بل أن ليبمان أستاذ السوربون لم يكتشف فيما بعد التصوير
الشمسي بالألوان إلا لأنه فهم
بدرجة دقيقة فكرة التداخل الموجي للضوء
نعود الآن بالقارئ إلى فكرة ليبنز من أن الحركة بين جزيئات السائل التي ذكرت
للقارئ إمكان رؤيتها عملياً، لا تسبب الحرارة بل إنها هي الحرارة نفسها، فنقرر أن
اختلاف إحساسنا للحرارة عن إحساسنا للحركة لا يدل على أن الظاهرتين مختلفتان،
والواقع أن بين أعصابنا ما يجعل شعورنا يختلف إزاء الحركة أو الذبذبة المستمرة
للجزيئات، فلا نسجلها كشعور للضغط ولكن كشعور لكمية جديدة نسميها الحرارة
هذا الجمع بين الظاهرتين في ظاهرة واحدة يعد تقدماً كبيراً للعلوم وللإنسان وريث
هذه العلوم، ولا شك أن النجاح العلمي معقود اليوم على ربط الظواهر الطبيعية بعضها
ببعض وإزعاجها ما أمكن إلى أصل واحد، وعند ظني أن ليبنز وبيران وغيرهما يقدمون

بهذا النوع من التوحيد في الظواهر الطبيعية من الخدمات للإنسان أكثر من هؤلاء الذين اخترعوا لنا القاطرة أو الطائرة
أن نترك على جريدة موضوعة على منضدة كوباً من الماء فيهب النسيم بشدة على هذه الجريدة فيرفعها بعنف ويرفع معها الكوب فيقع على الأرض ويتدفق منه الماء - أمر لا يدهش. ولكن أن نعرف حركة ما بداخل الكوب من جزيئات ونعرف أن هذه الحركة هي ظاهرة الحرارة - أمر يعتبر في صميم تقدم معارف البشر
كذلك أن ترفعنا قطعة من الألمونيوم، رتبنا فيها مقاعد للجلوس، من الأرض إلى طبقات الهواء، وأن نجعل الظروف الطبيعية التي وقعت على الجريدة والكوب من رفع الهواء لهما ظروفاً مستمرة بالنسبة لقطعة الألمونيوم فنسافر على هذه القطعة من القاهرة إلى الإسكندرية أو من القاهرة إلى لوندرة وذلك بالسيطرة على عاملين: العامل الأول دائرة كارنو واحتراق البنزين، والعامل الثاني دوران المروحة لدفع الهواء - مسائل يجب ألا تدهشنا ولا نعتبر أنها ذهبت بنا بعيداً في التقدم - وأما أن نعرف ما يدعونا إليه ليبنز وأمثاله، وأما أن نعرف طبائع المسائل ونرجع بالظواهر إلى صورها الحقيقية، وأما أن نحاول توحيداً في ظواهر الكون، فإن هذه خطوات جريئة إلى الأمام.
وعند ظني أنه في اليوم الذي يُرجع فيه العلماء كل مظاهر الكون إلى قليل من الظواهر، وكل جزيئاته إلى قليل من العوامل والمكونات الأولى، نكون قد صعدنا أرفع الدرجات في
سلم المعرفة
أجل: أن في اليوم الذي نرجع فيه كل ما في الكون من مادة حية وأخرى عديمة الحياة من إنسان وحيوان ونبات وجماد، من كل مظاهر الضوء والمادة والكهرباء بل والقوى، إلى حوادث زمنية مكانية - يلعب على مسرحها عدد قليل من المكونات التي يغلب على ظني أنها لا تتعدى الإلكترون والبوزيتون والفوتون والنيترون نكون قد سرنا بالعلوم إلى لأقصى الدرجات وبالفلسفة إلى أعلى المراتب بحيث يصبح كل ما نراه ونسمعه ونشعر به، وكل ما يخطر على بالنا ويجول بأنفسنا يجد تفسيراً مادياً في اختلاف موضعي وزمني لهذه المكونات وما يتفرع منها
عندئذ نكون قد فهمنا من الكون أكثر مما نفهمه اليوم. ولو أننا وُفقنا بعد ذلك إلى التغلغل في معرفة حقيقة الزمن والحيز فإن التقدم عند ذلك يفوق كل قدر
لا شك أن ليبنز وبيران وغيرهما خطوا بنا في هذا السبيل. لقد أردت أن أتحدث إلى القارئ عن نتائج فلسفة ليبنز فأحدثه عن عمل (ماير) و (بولتزمان) ولكن تجارب كوتون وموتون الإيجابية وأسئلة القراء التي تكرموا بتوجيهها إلينا والرد عليها بذكر تلك التجارب التي تعد آية في العلم التجريبي طغت على كل تفكير، لذلك آخذ العدة لمل فاتني في مقال آخر.
محمد محمود غالي
دكتوراه الدولة في العلوم الطبيعية من السوربون
ليسانس العلوم التعليمية. ليسانس العلوم الحرة. دبلوم المهندسخانة
من هنا ومن هناك
نابليون العرب - عن مجلة (في الباريسية
ابن السعود، وهو يحكم منطقة تعادل المناطق المجاورة له جميعها، ويملك جيشاً كبيراً مجهزاً بالأسلحة الحديثة، ويستمتع بشهرة عظيمة بين الممالك الإسلامية بمقدرته على حماية الأماكن المقدسة، سيكون له تأثير كبير ونفوذ دائم على الشرق الأدنى
لذلك يلجأ إليه كل من تحدثه نفسه بالشئون السياسية في تلك البلاد
وهو رجل قوي رزين لا يطلع أحداً على أسراره، حتى أخص أصدقائه ومعاونيه أمثال عبد الله الفادي وحافظ وهبة
وابن السعود مسلم محافظ يحكم بقواعد القرآن وتعاليمه. وهو لا يشرب الخمر ولا يدخن، ويؤدي فروضه الدينية خمس مرات في اليوم. ويزيد طوله قدماً على المستوى المألوف في الرجال. جميل الطلعة ذو لحية وأنف طويل، وفم عريض يدل على القوة والمرح

وقد مرض مرضاً طويلاً أصاب إحدى عينيه، حتى لا يكاد يبصر بها. أما فيما عدا هذا فهو قوي صحيح لم يؤثر فيه الكفاح بحال من الأحوال
وهو رجل ثابت كالطود يطيل التفكير فيما يعرض عليه، ويتكتم أموره عن كل إنسان حتى ليتساءل الناس ماذا عسى أن تكون نياته في مشكلة فلسطين
ومن المعروف عنه قوله: (إنني مسلم أولاً وعربي ثانياً) وحياة ابن السعود جهاد مستمر في توجيه قوى العرب نحو المصلحة العامة. وهو يعمل بجد لإزالة العراقيل التي يضعها الشيوخ في سبيل تنفيذ مبدأ ضم الدول الصغيرة في الشرق الأدنى
ويبلغ الملك ابن السعود الآن الثامنة والخمسين من عمره، وينحدر من سلالة سعود العظيم الذي أحرز ملك العرب في أواخر القرن الثامن عشر. وقد تبع والده في منفاه بالكويت حين أمر بنفيه ابن رشيد حاكم الكويت
وما كاد يبلغ ابن السعود العشرين حتى ترأس فريقاً من البدو وهاجم الرياض واحتل حصونها. وبضربة واحدة استطاع أن يضع نصف نجد تحت إمرته. . . وقد كان هذا في أوائل القرن العشرين!
وما زال ابن السعود ينال انتصاراً يتلوه انتصار في ميادين الحرب والسياسة حتى تغلب على منافسيه وأنداده وأصبح أمير العرب
وقد نجح في تطهير بلاد العرب من اللصوص والقتلة، وأصلح الحالة المالية وألف في بلاده أقوى جيش عرف في الشرق الأدنى
ولابن سعود كل الخصائص التي تجعله يقود أمة عظيمة؛ فهو على ما هو عليه من المهابة يجمع بين قوة القائد العربي والرجل السياسي. ومع أنه رجل محافظ متدين لا يأبى أن يفكر في الواقع ويساير المدنية بقدر الإمكان
وقد استحدث في بلاده العربات الضخمة والسيارات الحربية التي تطوي الأرض من نجد إلى الحجاز. وأنشأ محطة للإذاعة بالرياض ووضع خطوط التليفون التي تصله بجميع أنحاء العالم. واستنبط الآبار الارتوازية تتفرع منها الجداول والغدران لري الأرض. ويقال إن ابن السعود أمر بقتل أحد ضباطه لارتكابه جرماً يخالف الدين، وإنه عرض حياته للخطر لإنقاذ طفل صغير.
هل تستطيع إيطاليا أن تهاجم تونس - عن الديلي تلغراف
تسعة أعشار سكان تونس من العرب المسلمين لا ينظرون إلى إيطاليا بعد تلك الكارثة التي أوقعتها بألبانيا بعين الراحة والاطمئنان
وقد استطاعت فرنسا أن تهيمن عليها، وتخمد كل حركة من شأنها أن تغل من يدها، أو تقلل من نفوذها. وقد كان فتح إيطاليا لألبانيا من أقوى المحرضات للعرب وعددهم 2250000 نفس على كراهية الحكم الإيطالي. وقد بدأت الدعايات تبث في تونس ضد الحكم الإيطالي، والألسنة تلهج بشرح مبادئ حامي الإسلام!
وقد تحمل هذه الدعايات كثيراً من المبالغة في شرح وحشية الإيطاليين. فقصة رمي الناس من الطائرات قد تكون من اختراع الخيال؛ إلا أن مثل هذه السير تنتشر في تونس ولها أثر غير قليل في تسوئ سمعة الإيطاليين
وتؤلف الآن في تونس بعض الفرق من الجنود غير النظاميين، بقيادة بعض الضباط الفرنسيين، وهمها أن تهاجم طرابلس في وقت من الأوقات
أما باقي السكان وقدرهم مليونان فهم يميلون إلى الفرنسيين ويفضلونهم كثيراً على الإيطاليين الذين يسكنون تلك البلاد. فالإيطاليون يزاحمون السكان في شئون الحياة والمعيشة وينافسونهم في الأعمال الصغيرة مما لا يقبله الفرنسيون
ومن الإحصاءات الفرنسية لسنة 1936 المعدلة في 1939
أن عدد السكان الفرنسيين في تونس يبلغ 108000 فرنسي وعدد الإيطاليين 98000 إيطالي وقد تجنس بالجنسية الفرنسية من السكان الإيطاليين 16000 نفس
وقد اتخذت فرنسا تدابير قوية ضد الأعمال السرية التي تقوم بها إيطاليا، فوضعت الحراسة الحربية على الطرق والكباري والمرافق العمومية، وقد قامت بعدة تجارب لصد أية محاولة من قبيل إيطاليا في صقلية وفي ألبانيا أخيراً، وقد زرع خليج تونس بالرجال والمعدات الحربية على طول الطريق ووضعت مضادات الطيارات في جميع الأنحاء
وبدأت فرنسا تحصي عدد العمال الإيطاليين في تونس وتراقبهم. وقد استبدل

بالإيطاليين الذين كانوا يشغلون مراكز كبيرة غيرهم من الفرنسيين. إذ أن الإدارة الفرنسية تعتقد أن عشرين ألفاً من الإيطاليين أي 20 % منهم فاشست عاملون. أما الباقي فينتسبون إلى صقلية ويعيشون في تونس منذ أربعة أو خمسة أجيال ولم يحدث منهم ما يكدر السلام؛ وهؤلاء سيبقون مدة الحرب على ما هم عليه وما زالت فرنسا تزيد في استعدادها، وقد أنشأت خطاً حديدياً يمر من الجزائر إلى تونس وهي على استعداد وتأهب لمقابلة الحرب في أي وقت فمهاجمة تونس على هذه الحالة تعد نوعاً من المجازفة والجنون

بحث في مشكلة المستعمرات

(عن (ذي جورنال أوف رويال سوسايتي أوف أورتس))

مسألة المستعمرات من المسائل التي تتعارض فيها رغبات الأمم الديمقراطية: إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة، مع رغبات الدول الثلاث المتحدة: ألمانيا وإيطاليا واليابان. وحجة هؤلاء هي أن دول الديمقراطية تملك من المستعمرات ما يكفيها ويفيض عن حاجتها، بينما هي لا تملك ما يسد عوزها

فالمشكلة في هذا الموضوع هي المشكلة الأبدية بين الذين يملكون والذين لا يملكون، مشكلة الراضين المكتفين والمحتاجين المتبرمين

فماذا يجب أن تفعل الدول ذوات المستعمرات العظيمة الشاسعة؟ لقد مضى الوقت الذي كان يتمتع فيه أصحاب الثراء ولا يجدون من ينازعهم هذه المتعة ويحقدها عليهم إن ضريبة الثراء موجودة منذ أقدم العصور. ولعل مما يزيدها ويضاعف أثرها نظرة إلى المال الذي يكتسبه أصحابه بالجد والعمل المضني، والمال الذي يئول إلى أربابه دون أن يبذلوا في سبيله أي جهد، فإما أن يكون قد آل عليهم عن طريق الاغتصاب والظلم أو عن طريق الميراث

ولقد أخذ الناس يفكرون في أصحاب الثروات الكبيرة، ويفرضون رقابتهم عليهم حتى يتحققوا من أن هذه الثروات لا تنفق في سبيل الملذات والأهواء الشخصية، دون أن يكون للمواطنين نصيب من الانتفاع بها. وقد تقدم هذا المذهب فأصبح يشمل الدول كما يشمل الأفراد. وليس لهذا المذهب من سلطة غير قوة الرأي العام التي تفرض إرادتها على الأفراد.

ونحن الآن نرى حركة جديدة بين الأمم، لإلزام كل أمة مراعاة ذلك: وهذه الحركة ترمي إلى مطالبة الأمم التي تملك المستعمرات بأن تكون وفية أمينة لأبناء تلك المستعمرات من ناحية، وأن تراعي المصلحة العامة في استغلالها

يقال أن الاستعمار طريقة لتخفيف ازدحام السكان، والواقع خلاف ذلك؛ فعدد الأوربيين في أواسط أفريقيا يدل على أن الدول الأوربية لا تستفيد من هذه الناحية. فمن الواجب ملاحظة الجو في تلك المستعمرات، وإعداد رأس المال لإصلاح تلك البلاد، وملاحظة حقوق الأهلين.

مما لاشك فيه أن لكل أمة تقاليدها وأحوالها الاقتصادية؛ ومعنى هذا بالبداهة أن الأمم التي لا تستطيع أن تعيش على غير الصناعة، يجب أن تستولي على أرض تستخرج منها المواد التي تتطلبها.

إن الطبيعة قد حرمت الأمم كافة من أن يكون لديها الأرض التي تغلها جميع المواد التي تحتاجها. فالولايات المتحدة تعتمد على المصادر الخارجية لاستكمال ما تحتاجه من المواد؛ وكذلك بريطانيا وألمانيا واليابان. ولا توجد أمة واحدة تملك الأرض التي تغلها كل ما تريد إلا إذا كانت تملك العالم أجمع

فيجب والحالة هكذا أن يكون الموقف متعادلاً بين الذين يملكون والذين لا يملكون. ولا يكون ذلك بالتنازل عن المستعمرات، ولكن بمراعاة مصالح الدول المحرومة منها وإيجاد الطرق الودية التي تكفل لها الراحة والسلام

البريد لأدبي

المرأة القارئة - 1

في الأعداد السابقة من (الرسالة) دارت بيني وبين الصديق الأستاذ زكي طليمات، مناظرة محدودة الأطراف، على جمهور القراء. والمتحصل مما أذهب إليه أن اعتقادي أن في مصر طائفة من المهذبين الذين يميلون إلى الأدب الرفيع والإنشاء الجد. ولا شك أن الجانب الأكبر من تلك الطائفة من الرجال. وإذا أنت وازنت بين جمهور قرائنا

وجمهور قراء البلدان الأوربية الراقية تبين لك أن النساء هنالك يقرأن بقدر ما يقرأ الرجال. ولقد رأيت في ألمانية نساء يسرن في الطرق ويجلسن في القهوات والكتاب رفيقهن. وعرفت في فرنسة نساء يرشدن أزواجهن وأصدقاءهن إلى نفاسة الكتب الخارجة. وكثير من نساء الفرنجة يقبلن على قراءة ما يقال له في مصر: (الأدب الدسم) (كأننا نعني الأدب الذي يكلف القارئ مشقة حتى إنه ينفّره. والغريب أن الطعام المصري - في غالب الأمر - ذو دسم شديد. فلم نخشى على أذهاننا ولا نخشى على بطوننا؟!)

إن جمهور القراء لن يزالوا على حالهم من الخدر والنعاس حتى ترغب المرأة عن القراءة المسلية: عن روايات الجيب، والمجلة المشحونة بالصور، والكتاب الذي يكثر فيه البكاء ورسائل الغرام الشاحب؛ وحتى تكشف للرجل عما وراء الحس المباشر من خلجات وبدوات ولوامع هي أقدر منه على الشعور بها والانتفاض لها

المرأة هي المهذبة الأولى والقارئة الوفية

تاريخ الأدب العربي - 2

وصلني الجزء الثالث من المجلد الثالث لتكملة (تاريخ الأدب العربي) لصاحبه المستشرق العلامة كارل بروكلمن الألماني. وقد سبق لي أن خبّرت قراء هذا الباب من (الرسالة) بمجمل ما في الجزء الأول والثاني.

أما هذا الجزء فيتم الكلام على الشعر في مصر لهذا العهد؛ ومن الشعراء الذين نظر المؤلف في شعرهم: أحمد رامي، والهراوي، وعماد، وعثمان حلمي، وخليل شيبوب، وإبراهيم ناجي، والعقاد، والمازني، وحسن كامل الصيرفي، وعلي محمود طه، وصالح جودت، والهمشري، وعلي الجارم، ومحمود حسن إسماعيل، وسيد قطب، ومختار الوكيل،

وبشر فارس. على أن العقاد والمازني شغلا ما يقرب من ربع الجزء (وهو يقع في ثلاثة وستين صفحة).

ومما حاوله المؤلف الفحص عن مصادر الأخذ والاستلهام. فجاءت المصادر على نوعين: عربي وإفرنجي. أما العربي فالشعر الاتباعي القديم؛ ثم شعر شوقي وصبري؛ ثم شعر خليل مطران؛ ثم شعر مدرسة أبوللو، وعلى رأسها أبو شادي؛ ثم شعر العقاد. وأما الإفرنجي فالابتداعيون الفرنسيون، وطائفة من الشعراء الإنجليز؛ ثم فرلين وبودلير.

وجاء الكلام بعد هذا على الشواعر، فذكر المؤلف عائشة التيمورية وأمينة نجيب وجميلة العلايلي ومنيرة طلعت.

وختم المؤلف الكلام على الشعر بفصل في الزجل، فذكر خليل نظير ومحمد عبد النبي وعزت صقر ومحمود رمزي نظيم. ثم انتقل إلى الشعر في السودان

هذا وإن المؤلف أجرى الكلام على غير الشعر إذا كان الشاعر ممن يعالج صناعة النثر. من ذلك فصوله في كتب العقاد والمازني وبشر فارس

وأما مراجع المؤلف فالدواوين والمؤلفات المطبوعة ثم المقتطف والهلال والرسالة وأبوللو والحديث. بقي أن هذا الجزء يستهل في آخره باباً جديداً موقوفاً على القصص والاسترسال في مصر أيضاً، وفيه تناول المؤلف بالبحث المتصل: جميل نخلة المدوّر وجرجي زيدان وأحمد حافظ عوض وفرح أنطوان

وبعد، فلي فيما ذهب إليه الأستاذ بروكلمن من الفحص عن مصادر الأخذ والاستلهام نظر سأبسطه يوم يخرج المجلد الثالث كاملاً

في اقتباس الكتّاب

كتب الدكتور إسماعيل أحمد أدهم رداً طويلاً في العدد الماضي من الرسالة على كلمتي في بحث له. وإني أكره أن أطلق قلمي في مناظرة تنحرف فيها القضايا وتجتلب الحجج وينبو القلم

إلا أن هنالك أمراً محسوساً لا أستطيع إهماله. وقصة ذلك أني قلت في كلمتي (الرسالة رقم 310 ص 1176) (. . . وكأني بالدكتور أدهم اقتبس مني (انظر (مباحث عربية) ص 76) هذا التعبير: (جملة صلات اجتماعية) مع ما ينظر إليه باللغة الفرنسية أي (. . .

وفي رد الدكتور أدهم: (رأي الكاتب (يعنيني) أننا استعرنا اصطلاح (خلق جملة صلات اجتماعية) من كتابه (مباحث عربية) والواقع عكس ذلك. إن هذا الاصطلاح قد دار على قلمنا من قبل صدور كتابه هذا وتجده في دراستنا عن إسماعيل مظهر حين تكلمنا عن آرائه الاجتماعية في م 36 ص 411 هذا فضلاً عن أن هذا الاصطلاح من جملة ما يجري على أقلام كتاب عصرنا هذا، وإذن فلا يمكن القول بأنه من الاصطلاحات التي استحدثها الكاتب)

على أن الدكتور أدهم لم يثبت الجملة التي ورد فيها ذلك التعبير في دراسته لإسماعيل مظهر، ولم يستشهد بما (يجري على أقلام الكتاب)، حتى أتبين على أي وجه ورد التعبير. ثم إن المجلة التي نشر فيها دراسته لإسماعيل مظهر لا أعرف كيف يكون الاهتداء إليها حتى أراجعها (وأرجو منه أن يبعث بها إليّ) وسواء استعمل الدكتور أدهم ذلك التعبير قبل ظهور كتابي أم لم يستعمله، فالمهم أن يقول لي هل كتب إزاءه التعبير الفرنسي: كما صنعت في كتابي؟ وأنا أدري من باب التجربة العملية أن علم الدكتور أدهم باللغة الفرنسية لا ييسر له ذلك.

وبعد فإن الدكتور أدهم قد اقتبس مما جرى به قلمي غير هذا التعبير. وحسبك الموازنة بين ما جاء في بحثه في توفيق الحكيم، إبريل 1939 (ص 361 س 6 و7؛ ص 368 س 19 - 21) وما جاء في صدر توطئة (مفرق الطريق) (مارس 1938) وفي نقدي لكتاب شهرزاد (المقتطف يونيه 1934 ص 733)

هذا وكأن الدكتور أدهم شاء أن يبذل لنا الدليل على ذلك، إذ كتب في بحثه في توفيق الحكيم ص 361 ما حرفه (وازن أيضاً بين هذا الفصل وما جاء في ردّ الدكتور أدهم في العدد الأخير من الرسالة ص 1226): (وكان كلف توفيق الحكيم باستنباط ما وراء الحس من المحسوس وإبراز المضمر أن اضطراب عقله (؟). . . ومن هنا جاءت اليقظات الرمزية في فنه. . . ولقد قوى من الاتجاه الرمزي في فنه أنه نتيجة لإعيائه عن معرفة حقيقة النفس ولوامعها وبوادرها (كذا) جعلته يلتفت لعلم النفس الحديث ويخلص من دراسة تجارب (شاركو) في التنويم والإيهام و (ريبو) في الأمراض النفسية و (فرويد) في أحوال اللاواعية و (برجسون) في تغليب المضمر الذي في النفس على البارز. . .)

والآن خذ ما سطّره قلمي في الرسالة رقم 251 ص 712 (25 إبريل 1938): (إن المسرح الحديث وإن سماه أهل الفن: المسرح الرمزي، من باب الاصطلاح، لينهض على عناصر تزيد على التي عرفتها الرمزية الأولى: ينهض على نتائج علم النفس الحديثة (تجارب شاركو في التنويم والإيهام، وريبو في أمراض الذاكرة والإرادة الشخصية، وفرويد في أحوال العقل الباطن، وبرجسون في تغلب المضمر الذي في النفس على البارز. . .)

هل رأيت كيف يكون النقل مع استبدال لفظة مكان أخرى أحياناً (هنا: (العقل الباطن)، وهناك: (اللاواعية)؛ ثم هنا: (أمراض الذاكرة والإرادة الشخصية)؛ وهناك: (الأمراض النفسية)؟

أما هذان التركيبان: (استنباط ما وراء الحس من المحسوس وإبراز المضمر) فمأخوذان أخذاً من مسرحيتي (مفرق الطريق) (ص6 س 7، 8) حيث يجري الكلام على عرض طريقتي الرمزية. وكذلك هذا التركيب: (لوامع النفس وبوادرها)؛ إلا أن الدكتور أدهم قرأ: (بوادر)، وفي الأصل (بواده)، وهو الوجه هنا. واللوامع والبواده من اصطلاحات الصوفية، وقد شرحهما القشيري في رسالته، وعلى الدكتور أدهم التفتيش وبعد: فهذه كلمة كتبتها مكرهاً لأني غير ميال إلى مثل هذا اللون من (وضع الشيء موضعه). ففي شؤوننا الثقافية ما هو أجل شأناً. غير أن القلم ربما حركه ما لا يرضيه. وعليّ عهد أني غير عائد إلى مثل هذه الكلمة مهما كتب الدكتور أدهم

بشر فارس

التبادل الثقافي بين مصر والسودان

عقدت في وزارة المعارف لجنة لدراسة المقترحات التي قدمت في موضوع التبادل الثقافي بين مصر والسودان.

وقد اتخذت هذه اللجنة قرارات علمنا أن من بينها ما يأتي:

إيفاد خبير تعليمي إلى السودان، وإسناد هذا المنصب إلى ناظر مدرسة الخرطوم

الثانوية المزمع إنشاؤها في العام القادم على أن يكون متصلاً بخبير مصر الاقتصادي في السودان.
وضع سياسة لتبادل البعثات العلمية، فتفد إلى مصر بعوث الأساتذة والتلاميذ السودانيين في
الإجازات الدراسية، وتزور السودان مثل هذه البعوث. وأن يكون تبادل الرحلات العلمية بين البلدين في نطاق أوسع، وأن تنشأ مكتبة تلحق بمكتب الخبير الاقتصادي.
وذلك رغبة في نشر الثقافة المصرية في السودان، على أن تهيئ مصر للسودان نظاماً يقف المصريون به على الإنتاج الفكري لإخوانهم السودانيين
وهناك اقتراح بتبادل الأفلام السينمائية الثقافية بين البلدين ومعاونة النادي المصري في السودان على التوسع في الغايات التي قام من أجلها. وكذلك أقترح توفير العناية بالثقافة الدينية، والعمل على إنشاء فرق لحفظ القرآن الكريم، أسوة بما هو متبع في مصر.
وقد درست اللجنة مسألة تنظيم قبول التلاميذ السودانيين في المدارس المصرية، وخاصة بعد إنشاء المدرسة الثانوية الجديدة في الخرطوم، وانتظار زيادة المتخرجين فيها، ورغبتهم في الالتحاق بكليات جامعة فؤاد الأول في مصر.

إلى ناقد تصحيح البخلاء ومنه

حضرة الفاضل المحترم الأستاذ محمود مصطفى

جاء في نقدكم لتصحيح كتاب البخلاء المنشور في العدد 309 من الرسالة في الصفحة الأخيرة ما يلي:
(ونحن نعترض على ضبط العبارة وشرحها. فأما الضبط فنرى أنه ينبغي أن يكون هكذا:
إذا حبس زف السحاب، وأما المعنى فهو: لو قدم إليه من الطعام مقداراً إذا جمع بعضه فوق بعض. . . الخ)
وأنا أعترض عليكم جميعاً، فإن في العبارة تصحيفاً، وصحة العبارة هكذا:
(إذا حيس . . .) بالياء المثناة من تحت لا بالباء الموحدة.
أي خلط وعجن. والمعنى: لو قدم إليه من الطعام مقدار إذا عجن نزف السحاب
وهذا خير من تفسيركم حبس بجمع بعضه فوق بعض، فإنه تفسير بعيد
أرجو أن تدفعوا هذا للرسالة لتنشره ما دام الغرض تصحيح الكتاب، ولا يهمكم بعد ذلك أن تعرفوني. ويكفي أن تعرفوا أني من المعجبين بنقدكم وجرأتكم، وسداد رأيكم (؟)

حضرة الأديب الجليل الأستاذ الزيات صاحب (الرسالة):
ورد لي هذا الخطاب من مرسله الفاضل الذي ضن بذكر اسمه، وله رأيه في ذلك.
وقبل أن أعلق على كلامه أشكره أجزل شكر على حسن ظنه بي، واستكثر على نفسي وصفه لي بالجرأة و. . . فليس ما قمنا به إلا زكاة يجب على من ملك نصابها أن يؤديها خالصة لوجه الأدب برّاً به واعترافاً بحقه على خدامه.
أما رأي الأستاذ في أن تكون كلمة حبس (بالباء) محرفة عن حيس (بالياء) وتفسيرها بمعنى عجن، فهو رأي لا بأس به، وإن اتجه إليه النقد أيضاً، لأننا في سبيل الأخذ به سنتكلف أن نحمل الحيس معنى العجن مع أن أصل معناه الخلط. ثم إذا راعينا الدقة اللغوية كان خلطاً خاصاً، لأنه كما ذكروا خلط الأقط بالسمن والتمر، والعجن، كما نعلم، إنما يكون عادة للدقيق والماء. ويساعدنا على هذا أننا لم نر (في حقيقة ولا مجاز) من قال حيس الدقيق أو الخبز.

محمود مصطفى

الاعتماد على المصريين في علم الاستشراق

دعت اللجنة القائمة على نشر (الكنز العبري) الدكتور مراد كامل إلى معاونتها على إخراج ذلك المعجم الضخم للغة العبرية وهو الأول من نوعه. وهذه اللجنة أعضاؤها من كبار المستشرقين وعلماء العبرية. ولا شك أن الذي حملهم على دعوة الدكتور مراد كامل إلى معاونتهم ما ألفه الدكتور في اللغات السامية المختلفة. من أعماله العلمية نشرة (تاريخ اليهود) ليوسف بن كريون باللغة الحبشية مع موازنته بالنص العبري والنص العربي

واشتراك عالم مصري في ذلك المعجم الجليل إيذان برفعه قدر الاستشراق عندنا
أبو تمام والرمزية (تأخرت سهواً)
جرى قلم الأستاذ الكبير عبد الرحمن شكري في رمزية أبي تمام حين عالج البحث فيه بالرسالة فتنكر لهذه الرمزية ورمى بها من حالق غير متلبث ولا وان. وقال فيما قال: (وأستطيع أن أفهم سبب عد أبي تمام من شعراء الرمزية وإن لم يكن كذلك فإنه يكثر من استخدام التشبيه والاستعارة والمجاز، والاستعارة رمز والكتابة رمز، ولكن شعراء الرمزية
في أوربا تخطوا منزلة الاستعارات والكنايات وصاروا يرمزون إلى حالات نفسية بأشياء مادية وبألفاظ أو جمل ويقطعون الصلة بين الرموز التي يرمز لها اعتماداً على خيال القارئ وإحساسه وأحلامه وهواجس نفسه الغامضة الخ. . .) ولعمري لو طلبنا من أبي تمام أن يستخدم تلك الرمزية الأخيرة لأقلقنا ترابه الصامت في برزخه إذ تلك الرمزية التي عناها الأستاذ الكبير إنما هي الرمزية الناضجة التي استحصدت قواها في أواخر القرن التاسع عشر في أوربا وبالأخص في فرنسا وقامت على أسس لم تعرفها الرمزية في عهدها الأول ومن تلك الأسس التجاريب النفسية كأحوال العقل الباطن والتنويم وسوى ذلك، وقد برز في هذه الرمزية أبطال منهم بريستلي، وهنري باتاي، وطاغور شاعر الهند الأكبر، وجبران خليل جبران. فليس من الإنصاف أن تقاس رمزية أبي تمام على رمزية هؤلاء المتأخرين وإلا تبخرت الأولى بلا مراء، إذ لا بد أن تقام المفارقات التاريخية على أصول بعضها الزمان والمكان؛ وأبو تمام عربي تنبسط أمامه الصحراء وتنسدل حوله آفاق السماء فلا يمكن بحال أن تطلب نفسه الرمزية بهذا اللون وتؤدي بها إلى الحد الذي أدت بهم إليه، وأما في عهدها الأول فهي بلا ريب تبسط أجنحتها على أبي تمام لتضعه إلى أعلامها. وما الرمزية إلا اتجاه نفسي يسلك للتعبير عما في متاهات النفس من الأشباح العصبية المتغلغلة في الإبهام والغموض فتبدو مرموزاً إليها فقط كي يدل الرمز على المعنى المقصود من قريب أو بعيد، وفي ذلك جهد الشاعر. وإذا ما بسطنا بين أيدينا ديوان أبي تمام وجدناه حالياً بكثير من الشواهد الرمزية على هذه الطريقة وأسوق منها طاقة صغيرة فيما يلي:
بصرت بالراحة الكبرى فلم أرها ... تنال إلا على جسر من التعب
بخديه دقائق لو تراها ... إذاً لسألت عنها في المعاني
وقديماً ما استنبطت طاعة الخا ... لق إلا من طاعة المخلوق
لي عبرة في الخد سا ... ئرة وبيت سائر
وبوجنتيه بدائع ... للجلنار ضرائر
نقشت كف الملاحة في ... وجنتيه أظرف النقش
يعيش المرء ما استحيا بخير ... ويبقى العود ما بقي اللحاء
تفاحة جرحت بالدر من فيها ... أشهى إليّ من الدنيا وما فيها
حمراء في صفرة علت بغالية ... كأنها قطفت من خد مهديها
وفي الديوان انتزاعات نفسية وألوان حسان تؤيد ذلك وبالأخص في قصاره التي دبجها في الغزل والنسيب.
أحمد عبد الرحمن عيسى
كتاب الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة عل الصحابة
أرسل إلينا الأستاذ الجليل (القارئ) مقالاً عن هذا الكتاب قبل أن يصدر العدد (311) بيومين، وقد ضاق عنه هذا العدد أيضاً؛ فنعتذر للأستاذ من هذا التأخير، وسننشره شاكرين في العدد التالي.
رسالة النقد
مباحث عربية
تأليف الدكتور بشر فارس
للدكتور إسماعيل أحمد أدهم
(بقية ما نشر في العدد الماضي)
أما المبحث الثالث ففي (المروءة) وقد نشر في الأصل بالفرنسية في (تكملة دائرة المعارف الإسلامية). وفي هذا المبحث يبرز الباحث رجلاً مدققاً عرض للموضوع في إحاطة عجيبة. ولكن الحقيقة رغم كل هذا جانبته. ذلك أن الباحث دخل الموضوع وهو

يعتقد أن لفظ المروءة من الألفاظ التي ذهبت بذهاب العصر الجاهلي. والحقيقة أن استعمالات اللفظة في أوضاع متباينة هي التي خلعت على اللفظة معاني متباينة وألقت شيئاً من اللبس على أصلها. على أننا نلاحظ أن اللفظة في الأصل تفيد معنى الفرد الإنساني (الهوامش 10، 11، 12 من المبحث) واتسع معناها من الفرد إلى أن حملت معنى الإنسان الاجتماعي. وشاهد هذا استعمال اللفظة في هذا المعنى في بعض مواضع القرآن وفي بعض ما تنوقل عن العصر الجاهلي من الشعر في أعمال معهد الدراسات الإسلامية بموسكو: م 31 ج 10 ص 914 - 916) ومن هنا أصبحت اللفظة تشتمل على معنى الفضائل الاجتماعية، وأصبحت تدل على معنى الإنسانية في عصرنا الراهن. ونزول المروءة منزلة الفضيلة هو الذي جعلها جامعة كل الفضائل والأخلاق الكريمة. ومن هنا دارت عليها الآداب الجاهلية في م1 ص1 - 40)

فإذا أخذنا هذا موضعاً للنظر لم نجد معنى للإشكالات التي يثيرها الباحث والتي إن أورثت بعض الحيرة فهي لا تقنع الإنسان بوجهة نظر، ولا تجعله يرفض الأصل الذي ذهب إليه (جولد زيهر). ومن الإشكالات التي تصادفنا في هذا البحث ما ينقله الباحث عن العقد الفريد من تساؤل معاوية عن معنى المروءة - ج 1 ص 221 - وهو يستدل بذلك على التباس معنى اللفظة. غير أنه من الملاحظ أن مثل هذه الأسئلة التي ترد في كتب الأدب وفي كتب اللغة منحولة لأغراض واضحة ظاهرة منها، وإذن يكون الاستدلال بهذه

الروايات في حدود دائرتها الحقيقية، لا تحميلها وجهاً لا تدل عليه. ثم عندك الروايات التي يأتي بها الباحث محملاً كل رواية دلالة خاصة للفظة (المروءة) التي ترد فيها، وهو بهذا يريد أن يقرر أن معنى المروءة كان ملتبساً على الناس. على أنه لو لاحظنا التفسير الذي قدمناه والذي يسير عليه أعلام الاستشراق في أوربا فإن كل هذه الروايات تتسق معانيها وتتوضح من أصل جامع للفضائل التي تقوم على الصلات بين الفرد والجماعة، والتي يتقوم بمفهوم فضائلها لفظ السيد. وإذا كان الباحث لا يجد غير قول واحد ينزع فيه معنى المروءة إلى السيادة في العربية، فلا أظنه جمع شوارد العربية وأوابدها واستعمالات ألفاظها في كل النصوص التي انتهت إلينا حتى يحكم بهذه الدعوى. هذا ولولا حظنا أن دعوى الباحث تستند إلى أن ابن قتيبة لم يثبت في باب (المروءة) غير وجه واحد تنزع فيه اللفظة لمعنى السيد، فإننا نجد استنتاج الباحث أكثر مما يساعد عليه النص.

ومما يحسن بي الإشارة إليه أن كلمة (المروءة) وردت في اللغة العبرية وهي من أخوات اللغة العربية نازعة فيها لمعنى السيادة (دانيال 14 - 19 ومراد فرج في ملتقى اللغتين ج1 ص 89 - 91)

والبحث الرابع وقف على (التفرد والتماسك عند العرب) وهو في عمومه مراجعة - فيها نظر - لأقوال المستشرقين. وفي هذا البحث ينكر الدكتور بشر فارس نظرية التفرد المنسوبة للعرب، ويرى للعربي صلات اجتماعية في حدود الحي والقبيلة. وفكرة الباحث وجيهة، ولكن ما رأيه في كون التحاق العربي بقبيلته أو حيه مظهر من الأصل الطوتمي - عند العرب القدماء، والطوتمية مصدرها فردية صرفة؟ (أنظر عن طوتمية العرب 23 وماكلينان 53 - 56 ولنا علم الأنساب العربية ص 12)

ولنا أن نتساءل هنا: هل يرى الباحث أن صلات العربي تتجاوز جماعته ممثلة في الحي أو القبيلة؟ وإذا كان لا يرى ذلك كما يستفاد من مضمون كلامه، فلماذا؟ وإذا كان يرى سبب ذلك - كما يبدو من كلامه - العصبية، فما منشأ العصبية عند العربي؟ سيعود بها الباحث إلى الأسرة، ولكن لماذا تدفع الأسرة العربي للعصبية؟ أليس في ذلك شعور بالانعزال يقوي رأي الذين ينسبون التفرد للعربي؟ . . .

والبحث الخامس يتكلم فيه عن (البناء الاجتماعي عند عرب الجاهلية) وهو بحث قيم مستخلص من كتاب الباحث (العرض عند عرب الجاهلية)) ومما نلاحظه على هذا البحث أن الكاتب يقول: (ولا شك أن القبيلة بنو أب واحد من حيث تحتمل تجمع أسر أرومتها واحدة - ص 85 - وهو في هذا الكلام يستند إلى المخصص لابن سيده. ولكنا على الرغم من ذلك نلاحظ جواز أن تكون القبيلة منشؤها اجتماع عدة بطون وأفخاذ من قبائل مختلفة (ابن حزم نقلاً عن الفهرست لابن النديم ج 3 ص 187) والمراجع العربية تروي أن قبائل تنوخ وغسان والعنق تكونت من شتيت البطون التي تناثرت في

الصحراء من القبائل العربية التي تفرقت بعد تركها مواطنها في الجنوب (الفهرست ج 3 ص 187 وكذا لنا علم الأنساب العربية ص 13 - 14)

أما المبحث السادس فوقف على (تاريخ لفظة شرف) ومطالعات الباحث في هذا المبحث جديرة بالنظر فيها والتأمل في مواطنها لقيمتها. والبحث السابع والأخير فمن تحقيق في (بعض) الاصطلاحات) وملاحظاته في هذا المبحث قيمة

هذا هو كتاب (مباحث عربية) وهو كتاب فريد في موضوعه وفي نهج بحثه وفي منحى تحقيقه؛ يدل على أن صاحبه صاحب ذهنية علمية متزنة يتصدى للموضوعات على أساس من التقصي للأصول والفروع مع دراية تامة بأساليب البحث. والمآخذ التي أخذها على أهميتها لا تنال من قيمة البحوث ولا من الجهد العلمي المبذول فيه.

والواقع أن الدكتور بشر فارس حمّل اللغة العربية بكتابة هذا بحثاً جدياً في مسائل اجتماعية وأخرى لغوية على أساس من التحقيق العلمي ومن الطريقة العلمية الصحيحة. وتنظيم الكتاب يدل على ذوق فني وعلى تمكن من أساليب التنظيم العلمي والأخذ بسبل التبويب الصحيحة، ولا شك أن الدكتور بشر فارس بكتابه هذا شق الطريق للبحث العلمي الجديّ ولو لم يكن له غير هذا الجهد لكفى ذلك التقدير

إسماعيل أحمد أدهم

في سبيل العربية

كتاب البخلاء

للأستاذ محمود مصطفى

(تتمة)

ص 158 عند الكلام على أن تثمير المال في بناء البيوت يعود على أصحابها بالضرر بسبب مماطلة السكان وتقطيع الأجرة عند الدفع قال:

فصارت لذلك غلات الدور - وإن كانت أكثر ثمناً ودخلاً - أقل ثمناً وأخبث أصلاً من (سائر الغلات)

وإن نظرة عارضة إلى العبارة توجب علينا مراعاة المقابلة التي أراد أن يعقدها القائل للعبارة فإنه يقول إنها وإن كانت في الأصل أكثر ثمناً ودخلاً صارت الآن بمعاملة السكان لأصحابها أقل ثمناً وأخبث دخلاً) ومن هنا ظهر خطأ الشارحين في إثبات كلمة أصلاً بدل دخلاً، ومحاولتهما ما لا يستقيم من الشرح على هذا الاعتبار حتى اضطرا أن يقولا: (في العبارة شيء من التجوز يظهر للمتأمل) والواقع أن الذي يظهر للمتأمل هو تحريفهما أو قبولهما لتحريف كلمة دخل إلى أصل

في ص 160 يرد في الحديث عن إساءة السكان إلى صاحب المنزل (إن عفا عفا على كظم ولا يوجه ذلك منه إلا إلى العجز، وإن رام المكافأة تعرض لأكثر مما أنكره) فيعلق الشارحان بقولهما: (وإن أراد أن يكافأ بالمعروف على معروفه وبالإحسان على إحسانه كان عرضة لأن يلحق به من الأذى أكثر مما أنكر هو منه واستفظعه. ولا شك في أن الشارحين لا يفهمان المكافأة إلا على أنها المقابلة الحسنة، وهو المعنى الذي يفهمه منها صغار التلاميذ حين يسمعون من معلميهم أسماء المكافآت ومنحها عقب الامتحان أو القيام بعرض ألعابهم في حفلات آخر العام.

فأما المكافأة بمعنى المقابلة مطلقاً أو المجازاة بخير أو شر فهي في كتب اللغة فحسب، لم تخرج بعد إلى خير الموجود ولم يسمح لها بطروق آذان الشارحين؟!

وغريب جداً من أمر الشارحين أن يدورا في كلامهما ويتجنبا الوقوع في هذا المعنى كأنما

هو منكر لا يريدان أن يقعا فيه مع أن استقامة الكلام تستلزمه ولكنهما يحيدان عنه عملاً بالأمانة اللغوية التي في عنقهما لمعنى المكافأة!

في ص 165 وردت هذه العبارة: فمدحتم من جمع صنوف الخطأ وذممتم من جمع صنوف الصواب. فاحذروهم كل الحذر ولا تأمنوهم على حال

وفي الشرح يقول الأستاذان الفاضلان: (من جمع صنوف الصواب) أي وهو من سميتم (بخيلاً) و (من جمع صنوف الخطأ) أي وهو من سميتم (جواداً) ثم يعلقان على عبارة (فاحذروهم) بقولهما الضمير يرجع إلى الذين تسمونهم أجواداً وهو التفات من صيغة المفرد إلى الجمع.

ومعنى ذلك في رأي الشارحين أن القائل للعبارة استعمل اللفظ مفرداً ثم أعاد عليه

الضمير جمعاً لأن لفظ (من) في نظرهما مفرد بدليل تفسيرهما بقولهما (أي وهو من سميتم بخيلاً) فقوله بعد ذلك فاحذروهم يكون خروجاً عن مقتضى الظاهر إذ الظاهر في رأيهما أن يقول فاحذروه ما دام الضمير عائداً على (من)

وفي هذا الكلام خطآن ظاهران: أما أولهما فبلاغي وهو اعتبار مثل هذا الخروج عن الأصل (إن كان) التفاتاً، والالتفات لم يعهد إلا في العدول عن الخطاب إلى الغيبة أو عكس ذلك أو ما أشبهه مما لا نطيل به، فأما إرجاع الضمير جمعاً إلى لفظ مفرد فلم يدخل في حساب البلغاء أن يعقدوا له هذه التسمية أو غيرها

وأما الخطأ الثاني فهو عدم تنبه الشارحين إلى أن لفظ (من) من الألفاظ التي يصح اعتبارها مفرداً وغير مفرد فيعاد عليها الضمير على حسب ذلك الاعتبار وهنا اعتبرها القائل جمعاً فأعاد إليها الضمير كذلك. ونرى أن هذا الكلام من الوضوح بحيث نعد أنفسنا مسرفين إذا توسعنا فيه أكثر من ذلك

في ص 178 في الحديث عن آداب السلف على الطعام وأنهم كانوا لا يمدون أيديهم إلى الجدي الذي يقدم آخر الطعام لعرفانهم أنه إنما يقدم ليجعل علامة الختام والفراغ، حتى قال أبو الحارث جمين حين رآه لا يمس (هذا المدفوع عنه) ويعلق الشارحان على هذه العبارة الأخيرة من كلام جمين بقولهما: أي هذا الذي لا تناله الأيدي بالأذى. والمراد التعجب

والذي نقوله: إنه لا تعجب ولا شبه تعجب، بل هو إخبار بالواقع لأنه لما رآه لا تمد إليه الأيدي لأنه جاء بعد الشبع وصفه بهذا الوصف فأين التعجب الذي في كلام الرجل؟

في 183 يحكي الجاحظ حال ابن أبي المؤمل في معاملة ضيفانه وذيادهم عن طعامه، فإنه كان إذا قدم عليه زائر ابتدره قبل أن يستقر في مجلسه وقبل أن تذهب عنه وحشة المكان بقوله لخادمه هات يا خادم شيئاً لفلان ينال منه. فإذا قال الضيف قد فعلت سجل عليه تلك الكلمة ثم يقول الجاحظ:

فإذا استوثق منه رباطا وتركه لا يستطيع أن يترمرم لم يرض بذلك حتى يقول في حديث له: كنا عند فلان فدخل عليه فلان فدعاه إلى غدائه فامتنع ثم بدا له فقال: في طعامكم بُقيلة أنتم تجيدونها

وهنا يضع الشارحان علامة الاستفهام بعد كلمة تجيدونها ووضع الاستفهام هنا خطأ لأن الجملة خبرية والمعنى أن الضيف بدا له أن يعدل عن الاعتذار من الأكل فأحب أن يتطرق إليه بقوله إنكم تجيدون عمل هذه البقيلة التي أراها على المائدة أي فهو يقدم لقيامه إلى المائدة بهذه المقدمة، وابن أبي المؤمل إنما يحكي لضيفه هذه الحكاية ليأخذ عليه طريق هذه الحيلة فالكلام خبر على وجهه ولا رائحة للاستفهام فيه

وفي ص 185 يرد كلام ابن أبي المؤمل:

ومن لم يشرب على الريق فهو نكس في الفتوة دعي في أصحاب النبيذ وإنما يخاف على كبده من سورة الشراب) فيذكر الشارحان في معنى النكس أنه المقصر عن غاية المجد والكرم وأنه الرجل الضعيف ثم يقولان يعني أن من لم يشرب على الريق فهو ضعيف الكرم مقصر فيه، وهذا خطأ وإنما المراد أن من لم يشرب على الريق فهو ضعيف في فتوته ناقص الصلابة في جسمه بدليل قوله بعد ذلك وإنما يخاف على كبده من سورة الشراب.

ولا ندري السبب الذي من أجله حشد الشارحان في شرحهما معاني النكس من غير أن يكونا بحاجة إلا إلى معنى واحد منها على حسب ما رأيا في شرحهما. وما نرى ذلك إلا تضليلاً للقارئ وترددا من الشارح. وإنما الواجب تلمس ما يناسب المقام ثم المضاء في القصد إليه وحده. فأما هذا الاستكثار من أقوال أصحاب المعاجم فليس فيه كبير فائدة لمن أسلم ذهنه إلى شارح وثق به واعتمد عليه في هدايته إلى الصواب

قد انتهينا وما انتهينا من التعليق على شرح أستاذينا الفاضلين، ذلك أننا تركنا كثيراً من القول رأينا أن فيه تطويلاً، وأنه لا يتضح فيه الصواب إلا ببسط كثير وتعليل واسع، ولكنا نكتفي بما أثبتنا معتقدين أننا أدينا الخدمة خالصة لكتاب الجاحظ ولقرائه ولشارحيه، والسلام

محمود مصطفى

العدد 313 - بتاريخ: 03 - 07 - 1939

. . .من هذيان الحر
نحن يا صديقي القارئ من سموم تموز على حالٍ سواء: أنا لا أحسن الكتابة، وأنت لا تحسن القراءة؛ فتعال أهذِ أنا وتسمع أنت؛ فإن الهذيان في الحر كالهذيان في الحمى تنفيس عن الروح المكروب، وتخفيف عن الدم الفائر، والهذيان كلام كفورة الإناء ليس له نظام ولا فيه عقل؛ ولكنه كحلم النائم لا تغلب فيه جملة على جملة، ولا تظهر به صورة دون صورة، إلا لأن لهما في العقل الباطن أثراً، وبالروح اليقظان صلة. ولعلك واجد في لواغي المحموم والملموم والنشوان والنائم من ومضات الحق ما لا تجده أحياناً في بعض الكلام. ولقد كان في قرى الريف جماعة من الممسوسين المستهامين يعتقد الناس أن وسوستهم من كشف الغيب وإنذار القدر؛ وربما أصابوا في لحونهم توجيهاً إلى منفعة أو تنبيهاً إلى مضرة!
يقولون: في شهر تموز، يغلي الماء في الكوز، ويجري الشر على البوز! فهل صمم الفوهرر أن يفتح في (دانزيج) طاقة من جهنم تجعل البحر حميماً على كل مستجم، والجبل جحيماً على كل مصطاف؟ ما ضر هتلر أن يمهل الأغنياء المدللين حتى يبذروا الذهب في مدن المياه، كما أمهل الفقراء المساكين حتى حصدوا الحنطة في قرى اليابسة! ماذا يصنع ذلك الأمير أو ذلك الكبير الذي وقف دخل العام كله على هذا الشهر، فقسم أمواله بين موائده الخضر في كل ساحل، وفرّق آماله على مواخيره الحمر في كل حضيض؟ أيجوز أن يحرمه هتلر غدوات القمار وأصائل الغزل وأماسي الرقص وأسحار الفتون، لأنه يريد أن يتسع وطنه، ويرتفع شعبه، وينتشر سلطانه؟ هل هانت الأرستقراطية على الناس إلى هذا الحد؟
لو كنت ذلك الأمير أو ذلك الكبير لصحت ملء فمي: لعن الله الديمقراطية والدكتاتورية! فإنهما منذ رفعتا كلمة الشعوب فوق إرادة السادة، ونقلتا سلطان الملوك إلى الساسة والقادة، هوت الأرستقراطية إلى الدرك الأسفل من بناء المجتمع، وأصبح أهلها كدُمى الأثاث توضع للزينة، أو كذلاذل الثياب ترسل للحلية. لقد كانت الحرب في عهد العزة الأرستقراطية لا تقوم بين إمارتين أو مملكتين إلا لأن الأمير أو السيد أراد أن يصيد فصُدّ عن الأرض، أو يخادن فدُفع عن المرأة، أو ينفق فعجز عن المال. أما اليوم فمن مهازل الدهر أن تشب الحرب بين دولتين أو قارتين لأن عاملاً فقيراً أراد ليده عملاً فلم ينل، أو تاجراً حقيراً طلب لبضاعته سوقاً فلم يجد!!ـ وفساد الأمر كله إنما جاء من وضع الحكم في أيدي المتعلمين من أبناء الصناع والزراع والعملة!
آمنت أن الله خلق في الناس العُلّيق والعلق. فالعلّيق نبات يتسلق ما يقربه من الشجر فيعلوه ويلتف به ويعرش عليه حتى يحرمه نسم الريح وضوء الشمس وجلال الرفعة. والعلق دود يتعلق بمن يمسه من الحيوان فينشب فيه خرطومه، ثم يمتص دمه ويستلب حياته.
فهؤلاء الأتباع والأوزاع الذين يلتفون حول (أبناء الذوات) يهرّجون لهم في الحديث، ويروجون لهم المنكر، ويتطالون من وراء أكتافهم إلى فخفخة الحياة، هم علّيق.
وهؤلاء (البلطجية) الأوشاب الذين يلقون أبدانهم الثقيلة على عواتق البغايا الضعاف والتجار المساكين فيفرضون عليهم بالقوة ملء البطون والجيوب من السحت والأثم، هم علق.
وأولئك المتزعمون المتبطلون الذين قصروا جهدهم في الحياة على أن يتخاطفوا عصا القيادة ويتنازعوا كراسي الحكم، ووسيلتهم إلى ذلك أن يقوموا على هامش الطريق أبواق فتنة، أو يقفوا في سوائه أحجار عثرة، هم علّيق.
وأولئك المترفون المسرفون الذين استولوا على الأرض من غير ثمن، وتسلطوا على الفلاح من غير سلطان، فأكلوا ثمرة الزرع حتى انتفخوا وشربوا عرق الزارع حتى طفحوا، هم علق.
وأولئك النقاد المتخرصون الذين يتهجمون على أعيان العلم والأدب باللغو والجهل والسفه، ليدركوا نباهة الذكر من بلاهة العامة، هم علّيق.
وأولئك المؤلفون المزيفون الذين يستغلون ضعف المعلمين وفقر الأدباء فيكلفونهم أن

يكتبوا المقالات وهم يمضونها، ويضعوا الكتب وهم يستلحقونها، ويربحوا الأموال وهم يقبضونها،
هم علق.
وأولئك الرؤساء البلداء الذين يحملون على الموظف الصغير بالإعنات والقهر حتى يكفيهم كل رأي في التقارير، وكل نظر في الأضابير، ولا يدع لهم إلا نفخة الشدق بالأمر، ولطعة الإمضاء بالخاتم، هم علّيق. وأولئك الموظفون المخادعون الذين يسرقون جهود زملائهم بالمكر، ويكسبون رضى رؤسائهم بالملق، ويلقون التبعات عن كواهلهم بالحيلة، هم علق
ولو شئت لحدثتك عن العليق والعلق في كل طائفة؛ ولكن مالنا نبغّض الهابط إلى الصاعد، ونحرض الساعي على القاعد، ولا نترك شؤون الخلق للخالق؟
إن عقرب الساعة يهدف إلى السابعة في خُطى غير منظورة؛ وإن أنفاس المساء الندية قد أخذت ترف بطراءتها على الغرف المحرورة. وهأنذا أشعر شيئاً فشيئاً بحمّاي تذهب، وبرشدي يثوب، وبدمي يسكن، وبذهني ينتعش، وبفكري يتجمع، وبقلمي يجري على الورق بكلام لا أدريه، وبالغلام يطلب المقال للجمع فلا أستطيع أن أصرفه لأعيد النظر فيه!
بيلاطس (باشا)
للأستاذ عباس محمود العقاد
بيلاطس هو الوالي الروماني الذي حكم البلاد اليهودية من قبل الإمبراطور طيبريوس عشر سنوات ظهر في أثناءها السيد المسيح وسيق إليه متهماً بما نسميه اليوم (الخيانة العظمى) والانتقاض على النظام القائم والدولة الحاكمة. فخشي بيلاطس أن يطلقه وأشفق من الحكم عليه وهو لا يدينه بجريمة، فأسلمه إلى قومه يدينونه بما عندهم من شريعة، ويجزونه بما اصطلحوا عليه من عقاب
وكان بيلاطس رجلاً حاذقاً أريباً ولكنه في بعض الأمور معوج الأساليب معرض للريبة والشكاية إلى (المراجع العليا) كما نقول اليوم
فمن أساليبه أن اليهود ثاروا عليه بتحريض الكهنة والرؤساء فلم يقمعهم بقوة القانون، ولم يرسل عليهم الجند ظاهرين، ولم يحمل أمام الناس وأمام المراجع العليا تبعة القمع والقسوة في علاج هذه الثورة، بل ألبس الجند ثياب الشعب وسلحهم بالمدى والخناجر وأمرهم أن يندسوا في غمار الشعب الهائج فيمنعوا فيه تجريحاً وتقتيلاً حتى يتفرق الجمع وتثوب المدينة إلى السكينة، ولا جناح عليه فيما زعم، فإنما هي مشاجرة جامحة بين يهود ويهود!
أمثال هذه الأساليب مع شيء من الطمع وشيء من الترف هي التي أخافته من اليهود ومن رفعهم أمره إلى عاهل الرومان فأسلمهم السيد المسيح وهو يقول في ضميره كما هو رأيه: يهود في يهود!
هذا هو بيلاطس. فمن أين جاءته الباشوية التركية ولم تظهر لها دولة في أيامه، ولم يكن لها معنى في ذلك العهد معروف؟
لم تجئه الباشوية التركية ولكنها جاءت إلى رجل يشبهه أقرب الشبه في العصر الحديث، وهو حاكم الإقليم المعروف ببحر الجاموس من أقاليم السودان في أعالي النيل، وهو كسائر الحكام هناك إنجليزي صميم لعله لا يحمل اللقب من الترك ولا من المصريين، ولكنه (وال) والوالي هناك لا يكون إلا (باشا) في لسان رعاياه، مجاراة للعرف الذي شاع في تلك الأقاليم النائية منذ سمعوا بالولاة العثمانيين
ولم يكن اسمه بيلاطس ولكنه عرف باسم بريدج، أو قد شاء المؤلف أن يعرفه لنا بهذه
التسمية، وقد عالج مسألة كالتي عالجها الوالي الروماني على نحو كالذي انتحاه ذلك السلف القديم، فهو من ثم بيلاطس حديث!
وبيلاطس باشا هو اسم الرواية التي تقص لنا نبأه مع مسيحه عيسى بن النجار، وتشرح لنا من أحوال السودان الأعلى ما يغني عن مطولات في السياحة والتاريخ، وتتمثل لنا بقلم مؤلفها ميكائيل فوسيت صحيحة من وثائق الاستعمار البريطاني في القارة الأفريقية
أول فائدة تستفاد من قراءة هذه الرواية أن يأتي عليها القارئ الذي له معرفة يسيرة

بأهل السودان فلا يلبث أن يقول: نعم! هذا يحصل!
ثم يرجع إلى تاريخ السيد المسيح فيرى من الموافقة والمخالفة ما يدله على الجائز وغير الجائز من ذلك التاريخ، ويقول على بصيرة: نعم هذا محتمل الحصول، وهذا لا يقع في الاحتمال
ولا ريب عندنا في أن المؤلف قد جهد بعض الجهد لتقريب الموافقة والمشابهة بين التاريخين
فاسم المهدي السوداني الذي تحدث عنه (عيسى)، واسم أمه (مريم)، واسم الخاطئة التي صبت على رأسه الطيب مريم المغربية، وصناعة الرجل الذي دل عليه الصرافة، وكراماته أو الكرامات المنسوبة إليه شبيهة بمعجزات السيد المسيح، والحوار بينه وبين المدير بريدج كالحوار بين المسيح عليه السلام وبيلاطس، ولأسباب التي أثارت الجمهرة ورجال الدين على مهدي السودان الأعلى هي الأسباب التي أثارت الجمهرة والأحبار على رسول الناصرة، والموعد يوم عيد، وكل شيء متفق متقارب حتى رجاء الشعب من الحاكم أن يطلق لهم نخاساً سفاكاً للدماء كعادته في العفو عن بعض المسجونين في أيام الأعياد
ولكن العجيب من أمر الرواية أن من يجهل تاريخ المسيحية يقرأها فلا يستغربها ولا يشعر بجهد المؤلف في ذلك التقريب والتوفيق لأنها إذا حصلت فأغلب الظن أن تحصل هكذا بغير اختلاف كبير
وقد سمعنا نحن بأنباء مهديين متعددين ظهروا في تلك الأقاليم، وسمعنا عن واحد منهم أباح بعض المحرمات ورفع بعض التكاليف، واحتج لذلك بما شاء من التعلات والتأويلات. ويخيل إلينا أنه هو هذا الذي عناه صاحب الرواية لقربه من مكانها، وقربه كذلك من
زمانها، وهو حوالي مقتل (لي ستاك) حاكم السودان، فإن كان في الرواية توفيق مقصود فليست فيها مبالغة ولا شذوذ عن المعقول
على أن القارئ لا يستفيد هذه الفائدة وحدها من قراءة الرواية لأنه يعرف منها أشياء شتى عن أساليب الإنجليز في استعمارهم لأمثال تلك الأرجاء، وسياستهم لأمثال تلك الشعوب، واضطلاعهم بتصريف الأزمات وهم بعيدون عن الرؤساء كلما طرأ من الحوازب ما يدعو إلى تصريف سريع
فالحاكم (بريدج) يعرف العربية معرفة جيدة، وهو ومساعدوه يقرءون تاريخ النوبة وتاريخ الإسلام وسيرة النبي عليه السلام ومذاهب العلماء في الظواهر النفسية والنقائض الاجتماعية، ويتتبعون أخبار الاستعمار في الدول الأخرى فيعتبرون بها أو يقيسون عليها ويأخذون بصوابها ويجتنبون أخطاءها
فإذا شغلوا الناس بالألعاب والمسابقات في المواسم الوطنية أو المواسم الإنجليزية فلعلة يصنعون ذلك لا لمجرد اللهو وتزجية الفراغ. أو كما جاء على لسان واحد منهم وهو يتكلم عن الحاكم: (لقد تعلم مما قرأ عن مجرى الأمور في ميلانيزيا وغيرها من جزائر المحيط الهادي، فإن المبشرين هنالك قد غيروا من عقائد أبناء البلاد، فأعرض هؤلاء عن العراك فيما بينهم وزهدوا في الرقص وليالي السرور، وضعفت في نفوسهم حمية الحياة وشهوة البقاء. إنهم لا يعيشون أو لا يرسلون شعلة الحياة إلى ما بعدهم من الأجيال فهم على وشك الانقراض. وهكذا يحدث هنا فيوشك أن ينقرض القوم أو هم على الأكثر متماسكون لا ينمون مع الأيام. لقد منعنا العراة أن يقتتلوا، ومنعنا العرب أن يغيروا على العراة، فشق على هؤلاء وهؤلاء أن يشغلوا أنفسهم وأن يفثأوا ما في طبائعهم من شوق إلى الصيد والنضال، وفارقتهم حماسة العيش. فهذا الذي جعل الحاكم بريدج مهموماً بإيقاظ تلك الطبائع وتوجيهها بعد تهذيبها إلى حب الرياضة والمغالبة في هذا المضمار.
وجاء على لسان أحدهم: (من هم المسلمون حق الإسلام في زماننا هذا؟! إنهم لنحن نحن طلاب الحقائق العلمية. إنهم لنحن نحن أصحاب الإيمان بالتوحيد الشامل لأبعد الكواكب وأصغر الذرات، وعلى ديننا هذا يدور العمل وتأتي الأعاجيب من اليابان إلى فلباريزو، ومن رأس الرجاء إلى سبتزبرجن، إلى ماوراء هذه وتلك من أرجاء القطبين. نحن نطلب

الحق وليس غير الحق نطلب. ونحن لا نتبع نبياً واحداً ولكننا نستقصي كل شيء، ونمحص كل شيء، وننبذ كل باطل، ونرفض كل ضلال)
ومع عناية هؤلاء الحاكمين بالخفايا النفسية في الرعايا الفطريين أو ذوي النصيب المحدود من الحضارة تراهم لا ينسون العناية بإرضاء القوم ومجاراتهم فيما يشتهون مما لا ضرر فيه
فيبعث الزعيم من الزعماء البدويين إلى الحاكم في طلب طبيب يشفيه من عرج مزمن فلا يرده الحاكم ولا ييئسه من الشفاء، بل يكلف خير أطبائه أن يحمل معه الجهاز الكهربائي والبلاسم الضرورية ويزوده بالنصائح التي تنفعه عند الرجل وذويه. . . ثم لا ينسى أن يهمس في أذنه وهو منصرف: ولا تنس أن تأخذ معك شيئاً من عقاقير الباه فإنهم سائلوك عنها لا محالة وفي مقدمتهم المريض!
وإذا حسن لديهم أن يتوخوا مظاهر الهيبة بين المحكومين فليس ذلك بمانعهم أن يحتالوا على تمليقهم ومجاملتهم كأنهم خدم مسخرون في طاعة السادة ذوي الأهواء والبدوات. وهكذا يساس الملك في جميع الأقطار، ولا سيما في أقطار يلخص حاكمها مشاكلها كلها فيقول: إنها تنحصر في مشكلة واحدة وهي: (مسافات الأماكن ومسافات الأحوال)

عباس محمود العقاد
جناية أحمد أمين على الأدب العربي
للدكتور زكي مبارك
- 4 -

عجب ناسٌ حين رأونا نقول بأن الأستاذ أحمد أمين ينظر إلى الأدب وإلى الوجود نظرةً عامية، واستكثروا أن نحكم هذا الحكم على رجل من أساتذة الجامعة المصرية ونجيب بأننا لم نظلم هذا الصديق، وإنما نفسه ظلم، فهو الذي يبني أبحاثه على قواعد المسلّمات والمقررات عند عوامّ الباحثين، وذلك يشهد بأن الابتكار والابتداع بعيدان كل البعد عن ذهن هذا الباحث المفضال
يعلن الأستاذ أنه يحتقر المعدة ليصح له التطاول على ماضي الأدب العربي؛ واحتقار المعدة لا يقوم على أساس من الواقع ولا من المنطق، وإنما هو مجاراةٌ للعوامّ الذين يصعب عليهم أن يدركوا أن النفس تتبع الجسم في الصحة والمرض، والقوة والضعف، والنشاط والخمول، ويعسر عليهم أن يفهموا أن الإنسان يرى المعنويات والمحسوسات بأشكال مختلفة في وجوه متباينة تبعاً لاختلاف الذوق والحسّ والمزاج والواقع أننا عبيد لحواسنا وأعصابنا، وأن جمهورنا مدين في تكوين ذوقه وحسه وعقله إلى ما يأكل وما يشرب وما يلبس وما يرى وما يذوق. وقد راعى ذلك فقهاء الشريعة الإسلامية حين وضعوا آداب القضاء، فقد استحبوا للقاضي أن يمتنع عن الحكم إذا شعر ببعض عوارض المرض أو الظمأ أو الجوع
قلنا من قبل إننا لا نهجم على هذا الرجل بلا تأثّم ولا تحرّج، فالله وحده يعلم أننا نهجم عليه كارهين، لأنه صديق لم نر منه غير الجميل، ولأن له أصدقاء كنا نحب أن لا نؤذيهم بالهجوم عليه، فلنا فيهم إخوان أعزاء
ولكن هل يجوز أن يكون أحمد أمين وأصدقاؤه أعز علينا من الحق؟
هل يجوز أن نترك هذا الرجل يتحذلق ذات اليمين وذات الشمال مراعاةً للأخوة الغالية التي جمعت بيننا وبينه منذ نحو عشرين عاماً؟
إن أحمد أمين يجور على ماضي الأدب العربي بلا تحفظ ولا احتراس، وأغلب الظن أنه ما كان ينتظر أن يقول له أحد: (قف مكانك، يا أحمد أمين، حتى تدرس الأدب العربي دراسة تمكنك من الحكم له أو عليه)
وساعده على الاطمئنان إلى السلامة من عواقب ما يصنع أنه يصدر أحكامه الخواطئ في وقت خمد فيه النقد الأدبي. فهو يظن أنه لن يجد من يرشده إلى التصدر لأستاذية الأدب العربي يوجب حتماً أن يكون ذلك المتصدر أديباً يتذوق المعاني ويدرك الفروق بين أساليب البيان.
فإن كان القراء في ريب من ذلك. فإنّا ننقل إليهم أحكامه على مقامات بديع الزمان، ومقامات الحريري؛ ننقلها بالحرف ليستطيعوا متابعتنا في تبيين ما فيها من خطأ وضعف.

قال الأستاذ أحمد أمين:
ثم انظر بعدُ إلى الفن المبتكر في العصر العباسي، وهو فن المقامات، فقد ابتدعها) بديع الزمان الهمذاني، فلم يجعل محورها حبّاً ولا غراماً كما يفعل الروائيون اليوم. ولم يجعل محورها شيئاً يتصل بأدب الروح، ولكنها كلها (أدب معدة). فأبو الفتح الإسكندري بطل المقامات كلها، رجل مكر واحتيال، يصطنع جميع المهن لابتزاز الأموال. نراه مرة قرّاداً يسلي الناس ويضحكهم، ومرة واعظاً مزيفاً يعظ وينصح؛ ثم تنكشف حيلته فإذا هو مهرج؛ ومرةً مشعوذاً يحتال على الناس بشعوذته ليفتحوا كيسهم ويغدقوا عليه من مالهم، وهو في كل ذلك مستجد سائل محتال. وجاء الحريري فجعل مكان أبي الفتح الإسكندري أبا زيد السروجي، وهو كصاحبه دناءة نفس، وخساسة حرفة. يشحذ ثمن كفن لميت يدّعيه، ويتعامى فتقوده امرأته إلى المسجد ليبتز أموال المصلين، ويجمّل غلامه ليوقع الوالي في شركه فيسلبه ماله وهكذا، ويتخذ الفصاحة والبلاغة وسيلة (للتكدي والسؤال. . . أليس هذا كله أدب معدة؟
ذلك كلام الباحث المفضال أحمد أمين نقلناه بحروفه لئلا نتّهم بالتجنّي عليه حين نحكم بأنه رجل لا يدرك أسرار الحروف، أبهذه الجرأة يحكم أحمد أمين على فن المقامات؟
لن نقول شيئاً يمس أحمد أمين، ويكفي أن نقف عند الملاحظات الآتية:
1 - نلاحظ أولاً أن أحمد أمين لم يفهم أغراض الحريري وبديع الزمان، فهو يتوهم أنهما يحاولان إغراء الجماهير بالإقبال على ما في تلك المقامات من شمائل وخصال، ومن هنا جاز له أن يضيف أدب المقامات إلى أدب المعدة، ولو كان أحمد أمين درس مقامات
الحريري ومقامات بديع الزمان لأدرك بلا شك أن لهذين الرجلين غاية ما كان يصح أن تخفى على رجل يؤرخ الأدب بالجامعة المصرية.
فما هي تلك الغاية؟
هي غاية واضحة لمن يقرأ ويفهم، وهو بحمد الله ممن يقرءون ويفهمون، ولكنه لم يقرأ المقامات
الغرض من نظم المقامات عند بديع الزمان هو نقد الحياة الاجتماعية والأدبية في القرن الرابع. وفي سبيل هذا الغرض تعرض بديع الزمان لوصف ما رآه في زمانه من مثالب وعيوب، واهتم بتدوين ما عاناه الناس في تلك الأيام من حيل الدجالين والمشعوذين. وقد وصل إلى أبعد حدود الإجادة حين حدثنا عما كان يعرف أهل ذلك العصر من فنون الأدب ومذاهب المعاش، ولم يفته أن يقيد حيل اللصوص في تلك الأيام، بحيث صارت مقاماته سجلاً صادقاً لبعض أحوال المجتمع في القرن الرابع بأقطار فارس والعراق
وكذلك كان الغرض عند الحريري، فقد أراد أن يصور ما عرف الناس لعهده من ألوان الحياة، وأن يبين كيف كانوا يجدون وكيف كانوا يمزحون
وهناك غاية ثانية عند الحريري لم يفطن لها الأستاذ أحمد أمين وهي تقييد ما شاع في زمانه من ضروب الرموز والكنايات
ولا موجب لإيراد الشواهد، فسيعرف ذلك أحمد أمين حين يقرأ تلك المقامات
2 - ونلاحظ ثانيا أن أحمد أمين غفل عن نظرية تعد من البديهيات، وهي أول ما يدرس طلبة الكليات، وهي النظرية التي تقول بأن للفن والأدب غاية أصيلة هي الصدق في وصف ما ترى العيون، وما تحس القلوب، وما تدرك العقول؛ وليس من الحتم أن يكون الأدب والفن جنديين في جيش الأخلاق، فبعض أشعار ديك الجن وأبي نواس أرفع قيمة من بعض ما كتب ابن مسكويه والغزالي، أرفع من الوجهة الأدبية والفنية، وأن كانت أضعف من الوجهة الدينية والخلقية
3 - ونلاحظ ثالثاً أن أحمد أمين ينظر إلى الأخلاق نظرة سطحية، فلو أنه كان تعمق في دراسة الأخلاق لعرف أن الأخلاق تغلب عليها الصفة الاعتبارية، فما نعيبه اليوم من طرائق التعبير لا يجب أن يكون كذلك في أذهان من سبقنا من الأدباء في الأعصر السوالف
4 - ونلاحظ رابعاً أن أحمد أمين توهم أن فن المقامات وقف عند الحدود التي رسمها الحريري وبديع الزمان، ولو كان أحمد أمين من المطلعين على تاريخ الأدب العربي لعرف أن فن المقامات اتسعت آفاقه فشمل الزهديات والفقهيات، وتحول مع الزمن

إلى أن صار من الأساليب التعليمية، ولذلك تفصيل سيهتدي إليه حين يقرأ تاريخ المقامات، وهو سيقرأ ذلك التاريخ لأنه يؤرخ الأدب بكلية الآداب

5 - ونلاحظ خامساً أن أحمد أمين لم يعرف أن فن المقامات الذي ابتكره الهمذاني وأجاده الحريري قد انتقل إلى اللغة الفارسية واللغة العبرية واللغة السريانية، فهو من الفنون العربية التي وصل تأثيرها إلى ما جاورها من اللغات، وأدب المعدة لا يؤثر كل هذا التأثير

6 - ونلاحظ سادساً أن الأستاذ أحمد أمين الذي أساء الأدب مع الحريري فجعل راويته مثالاً في (دناءة النفس وخساسة الحرفة) لم يعرف أن مقامات الحريري خدمت الأدب واللغة خدمة عظيمة جداً، فقد شُرحت تلك المقامات مرات كثيرة وشغلت الأدباء واللغويين في المشرق والمغرب، وكتبت بالذهب مئات المرات، وتهاداها الأمراء والملوك، وكان لها تأثير شديد في النهضة الأدبية الحديثة لأنها من أقدم ما نشرت مطبعة بولاق. وحديث عيسى بن هشام وهو أول كتاب مبتكر في الأدب الحديث له صلة بأسلوب المقامات

7 - ونلاحظ سابعاً أن أحمد أمين لم يخطر بباله أن في مقامات بديع الزمان تحفة فنية نستطيع أن نباهي بها أدباء العالم في الشرق والغرب، وهي المقامة المضيرية، فقد بلغت من الروعة مبلغاً لم يصل إليه كاتب في قديم ولا حديث، ولو ترجمت إلى اللغات الأجنبية لعدها الأجانب من الأعاجيب

8 - ونلاحظ ثامنا أن الجانب التعليمي في مقامات الحريري خفيت دقائقه على فطنة أحمد أمين، وما أحب أن أزيد!

9 - وألاحظ تاسعاً أن أحمد أمين لم يدرك أن للكاتب حرية ذاتية في طريقة التأليف، فهو كان ينتظر أن يكون في المقامات حب وغرام كما يصنع الروائيون في هذه الأيام، وهو أيضاً يجهل أسلوب الروايات بعض الجهل، فالحب ليس ركناً أساسياً في تأليف الرواية كما يتوهم الناقد، وإنما هو وسيلة لدرس الشخصيات وللمؤلف الروائي أن يغفله حين يشاء

10 - ونلاحظ عاشراً أن أحمد أمين لم يبتكر الهجوم على المقامات، وإنما نقله عن الأستاذ سلامة موسى، وسلامة موسى له عذر مقبول هو بعده عن التغلغل في أسرار الأدب العربي. فما عذر أحمد أمين وهو يتصدر لتدريس الأدب بالجامعة المصرية؟ ألم أقل لكم أن أحمد أمين يعتمد على ما يقرأ ويسمع بلا نقد ولا تمحيص؟ إن أحمد أمين يتوجع فيقول:

(أصبحنا إذا قرأنا ما يقوله الإفرنج عن تعريف الأدب بأنه (نقد الحياة) عجبنا من هذا التعريف، لأنا لا نرى الأدب العباسي ينقد الحياة، وإنما يصف نوعاً من حياة القصور، فأما الشعب فلم يوصف إلا قليلاً)

ولو كان أحمد أمين يدقق لعرف أن مقامات الهمذاني والحريري هي من الصميم في (نقد الحياة)

وكيف يكون وصف القصور بعيداً عن (نقد الحياة) يا أحمد أمين، وأنت تعرف أن القصور في تلك الأزمان كانت محور الحياة؟

وهل يستطيع الأدب أن يخرج على واجبه في (نقد الحياة) حين يتحدث عن الوزراء والملوك والخلفاء؟

وهل كانت المدائح والأهاجي إلا دساتير لحياة الناس في تلك الأزمان. . .؟

و (الشعب) الذي يتحدث عنه أحمد أمين هو نفسه الذي كان يتلقى المدائح والأهاجي بالقبول، وهو الذي كان يروي ما يقوله الشعراء في الرؤساء والملوك، فهو قد اشترك فعلاً في مسايرة الاتجاهات الأدبية في العصور الخالية

أحب أن أعرف رأي الأستاذ أحمد أمين في التصحيحات التي قدمناها إليه

ألا يزال يعتقد أن الهمذاني والحريري كانا يضعان دستوراً لحياة الصعلكة والتشرد والاحتيال؟

أيكون انتفع بهذا الدرس فعرف أن فن الهمذاني والحريري يقوم على أساس السخرية من بعض أخلاق الناس في تلك الأزمان؟

أحب أن أعرف كيف يحرم على أمثال الهمذاني والحريري أن ينقدوا المجتمع

بالرسائل والقصائد والأقاصيص، وهو مذهب استحله كتاب الإنجليز والفرنسيين والألمان؟
لو كان أحمد أمين من المطلعين على تاريخ الأدب العربي لعرف أن أدباء العرب فهموا أن فن المقامات ليس إلا وسيلة للتعبير عن طوائف من الأغراض، ومن أجل ذلك تصرفوا فيه فنقلوه من ميدان إلى ميادين، وحمّلوه ما شاءوا من المذاهب والآراء وما فهمه أدباء العرب فهمه أدباء الفرس حين اتخذوا المقامات وسيلة لشرح المذاهب الدينية والفلسفية، وعرض الصور الفنية والأدبية، وكذلك فعل بعض اليهود وبعض السريان فضمنوا المقامات طوائف من العضات والأخلاق
ثم ماذا؟ ثم ماذا؟
ثم يقول الأستاذ أحمد أمين:
وانتشر بجانب أدب المقامات نوع آخر من أدب المعدة بمعناه الحقيقي هو أدب (التطفيل. . . وخلف لنا الأدب وصيتين طويلتين يوصي بهما نقيب الطفيليين ولي عهده: إحداهما من إنشاء أبي اسحق إبراهيم بن هلال الصابي الأديب المعروف، والثانية من إنشاء المولى تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني)
ذلك ما قال أحمد أمين، وهو بما قال رهين
فهل يفهم هذا الرجل أن الصابي كان يجّد حين أنشأ تلك الوصية؟
لو كان أحمد أمين قرأ كتاب النثر الفني لرأى المؤلف يقول:
ومن أظرف ما كتب على طريق الهزل والفكاهة (عهد التطفل) وهو عهد أنشأه أبو) اسحق الصابي على لسان طفيلي اسمه (عليكا) كان يقع على مائدة معين الدولة بن بويه، والطريف في هذا العهد أنه يجري على نمط العهود السلطانية فيبدأ بعرض خصائص العهود إليه، ثم يعيّن المهمات التي كُتب من أجلها العهد)
إن الأدب هو (نقد الحياة) كما يقول الإفرنج، فهل يكون من الفضول في (نقد الحياة) أن يعمد كاتب مثل الصابي إلى السخرية من طائفة طفيلية كانت تعيش على هامش المجتمع في القرن الرابع؟
وهل يطلب من الكاتب أن يغفل وصف الطفيليين لئلا يقال إن أدبه أدب معدة؟
وما قيمة الأدب إن سكت عن وصف عيوب المجتمع؟
إن العصر العباسي هو من العصور التي اشتبكت فيها النوازع الإنسانية فكثر فيه الجدل
والهزل، والعفاف والمجون
فكيف يجوز أن يقف الأدب عند غاية واحدة هي وصف الجانب الرزين من المجتمع؟
إن ذلك لا يجوز إلا في ذهن رجل يجهل أن غاية الأدب هي (نقد الحياة)
أتحبون أن تعرفوا من أين وصل الخطأ إلى الأستاذ أحمد أمين؟ وصل إليه الخطأ من التلمذة للأستاذ الكبير الدكتور طه حسين، فقد حكم الدكتور طه بأن العصر العباسي عصر شك ومجون، لأن فيه عصابة مشهورة بالزيغ والفسق، وهي جماعة أبي نواس ومطيع بن إياس، مع أن العصر الذي عرف أمثال هذين الرجلين هو نفسه العصر الذي نبغ فيه كبار الفقهاء والنساك والزهاد، وهو الذي بلغ فيه الفكر العربي غاية الغايات في فهم أصول الفلسفة وأصول الأخلاق
فهل خطر في بال أحمد أمين أن العصر العباسي لا يصح الحكم عليه بإيثار المعدة وإغفال الروح من أجل كلمة أو كلمات في وصف الاحتيال على الطعام والشراب؟
تذكّر يا أستاذ أمين أنك أستاذ مسئول، وتذكّر أنك بالفعل رجل محترم، ولأغلاطك تأثير سيئ في تلاميذك، وفيمن يثقون بك فيأخذون عنك بلا مراجعة ولا تدقيق.
تذكر، يا أستاذ، أن للدنيا آفاقاً أوسع مما تظن، وأن من واجب الأديب أن يتعقب بالوصف تلك الآفاق.
تذكّر أننا قد نطالبك بوصف زمانك، وفيه (طفيليون) يتقربون إليك بتجريح الرجل الذي يواجهك بكلمة الحق، وأنت تعرف ما أعني ومن أعني.
تذكّر، أن من العيب أن تقول إنك نظرت في الأدب العربي فوجدته (ينحدر مع التاريخ شيئاً فشيئاً ليكون أدب معدة)، وأنت تعرف بلا ريب أن من ذكرتهم من الأدباء لم يكونوا يصورون إلا بعض الجوانب من الحياة الاجتماعية.
وهل غاب عنك أن العصر الذي جعلته يعيش من أجل المعدة هو نفسه العصر الذي

نشأ فيه أبو طالب المكي وأبو حامد الغزالي وجار الله الزمخشري، وهو نفسه العصر الذي نبغ فيه ابن مسكويه والحلاج والجيلي إخوان الصفاء؟

أنت رجل فاضل فيما أعتقد وفيما يعتقد عارفوك، فأنت أستاذ على جانب عظيم من أدب النفس، وقد أنصفتُك مرات كثيرة في مؤلفاتي، فمن جنايتك على نفسك أن ترتجل في مواطن لا ينفع فيها الارتجال.

أما بعد فقد دعانا كثير من الزملاء إلى نقض ما كتبه الأستاذ أحمد أمين عن جناية الأدب الجاهلي على الأدب العربي.

ونجيب بأننا سنؤدي هذا الواجب بعد أن نشرب معه فنجاناً من قهوة أبي الفضل على شوا طي الإسكندرية، الإسكندرية الجميلة التي لم يخلق الله مثلها في البلاد.

وهنالك، على شاطئ البحر، وفي رعاية الألوف من أسراب الملاح، سأصاول صديقي أحمد أمين

(للحديث شجون)

زكي مبارك

التجني على أحمد أمين

للأستاذ نديم الجسر

لقد استوقفت نظري في العدد 311 من الرسالة الغراء عنوان الكلمة التي كتبها الأستاذ العلامة الدكتور زكي مبارك عن الأستاذ العلامة أحمد أمين، فحسبت أن قول الدكتور في العنوان (جناية أحمد أمين على الأدب العربي) يطوي وراءه معنى غير المعنى الصريح؛ لأن الأستاذ أحمد أمين، إن لم يستأهل أن يسمى أديباً بكل ما في الكلمة من معان، فهو، بلا ريب، من أعاظم العلماء الذين خدموا العلم والفلسفة والأدب العربي بدراسات لا مثيل لها في لغة العرب؛ فأسدى بذلك إلى كل أديب ومتأدب عربي لا يحسن الاستقاء من معين الفرنجة خدمة لم يسبقه إليها سابق بمثل الطريقة التي سلكها. فكيف يكون من هذا شأنه في خدمة العلم والفلسفة والأدب جانياً على الأدب جناية يستحق عليها التشهير بين الناس؟

لو قرأت هذا العنوان في جريدة سياسية أو كانت الكلمة لغير الدكتور زكي مبارك ما حملت نفسي عناء مطالعتها، لأني كنت أذهب إلى أنها كلمة عدو أو حسود أو جاهل؛ ولكن المجلة مجلة (الرسالة) وما أدراك ما الرسالة، والكاتب هو الدكتور زكي مبارك فماذا أقول؟

إن الدكتور زكي مبارك هو أحق الناس بعرفان فضل أحمد أمين، وإن الدكتور زكي مبارك لأولى الناس بالدفاع عن أحمد أمين لو حاول هدمه شخص آخر. هكذا رأيناه قد فعل عندما غضب لكرامة الأدباء في مصر يوم حاول النيل منهم ناشئة الأدب في لبنان.

قد لا تكون كلمة الدكتور في حقيقة أمرها تطوي الشيء الكثير من الظلم لأحمد أمين، ولكن الظلم والقسوة يبدوان في العنوان؛ وطالما كانت ضخامة العناوين أشد أثراً في تحويل أفكار المتأدبين الناشئين وتضليلها مما وراء العناوين. فهل يرضي الدكتور مبارك أن يستقر في أذهان هؤلاء أن أحمد أمين من الجناة على الأدب العربي؟

لا ريب في أن الأستاذ أحمد أمين لم يكن موفقاً في المقالات التي كتبها في (الثقافة) مؤخراً: لا أقول هذا مجاراة للدكتور مبارك بل هو شيء لاحظته منذ شهرين، وقلته لبعض عشاق أحمد أمين، وأنا منهم. فكل من قرأ مقالاته التي كتبها بعنوان (جناية الأدب الجاهلي على الأدب العربي) أدرك أن العلامة الكبير لم يأت بشيء في هذا المضمار: لأن التأثر بالأدب القديم ليس مما يستطيع الأديب التفلت منه كما يتفلت من اللفظة الوحشية عند صوغ الكلام؛

بل هذا التأثر نتيجة لازمة للعناصر التي تتكون منها نفسية الأديب بحكم الوراثة والتقاليد والذوق والثقافة. وظهور القليل منه في أدب اليوم برهان على أننا نجاري طبيعة التطور بالتدريج.

ونظن أن أستاذنا الكبير أحمد أمين الذي يحدثنا في (ضحى الإسلام) بحديث دونه السحر عن تطور العقلية العربية في مضمار العلم والأدب، لا ينكر أن أثر الأدب الجاهلي قد ضعف في شعر بشار وأبي نواس وأبي العتاهية، وكاد يتلاشى في شعر

شوقي وحافظ. وهكذا سوف يسير الأسلوب الأدبي مع الزمن ويستقي من تطوراته عناصر جديدة تحل محل القديمة حتى لا يبقى من القديمة إلا ما يتخذ أمثلة لدراسة تاريخ الأدب.

وبعد فأي بأس في بقاء ذلك الأثر الضعيف من الأدب الجاهلي؟ ألسنا نجد لذة وطرباً ونشوة في هذه الصلة الحلوة بين القديم والحديث؟

ثم أليس من جملة أعمال الأدب أن يحفظ شخصية الأمة يربط حاضرها بماضيها، وتوجيه عواطفها نحو قبلة واحدة تجتمع عندها أحزان تلك الأمة وأفراحها ومفاخرها وتقاليدها وأساطيرها؟

وهل يجوز لنا أن نترك كل ذلك الماضي ونتجرد منه كما نتجرد من الثوب الخلق لنكوّن لأنفسنا أدباً جديداً تزعق فيه السيارة بدلاً من حداء الحادي، وتهب فيه نسمات الخرطوم أو مالطة بدلاً من صبا نجد؟

إن هذا سوف يكون مع الزمن كما حصل حتى اليوم؛ وأما التخلي دفعة واحدة عن أذواق وعواطف داخلية كونتها الأجيال فينا فهو عمل يتم بقوة الجيش إذا شاءت الحكومة، ولكنه عندئذ لا يسمى أدباً تخاطب به الأرواح، بل يسمى (أوامر عسكرية) تنفذ بقوة السلاح. . .

وبعد فإنك إذا أردت أن تجد في كلمة الدكتور زكي مبارك شيئاً من الإنصاف فاطلبه في قوله في صدر مقاله الأول:

(إن الأستاذ أحمد أمين من كبار الباحثين في العصر الحديث ولكنه على أدبه وفضله لا يجيد إلا حين يصطحب الروية ويطيل الطواف في الموضوع وذلك سر تفوقه فهذه كلمة الحق وأما ما تلاها من لواذع فهو ظلم)

ونريد أن نرجح أن المقالات التي كتبها الأستاذ أحمد أمين في الثقافة بعنوان (جناية الأدب الجاهلي على الأدب العربي) هي التي حملت الدكتور مبارك على أن يسمي قلة توفيق الأستاذ أحمد أمين في مباحثه هذه (جناية على الأدب العربي). ونحن لا نقول عن هذه التسمية إنها (جناية) على أحمد أمين بل نسميها (تجنياً على أحمد أمين). ولعل الدكتور يبدل عنوان هذه السلسلة بعنوان آخر يستحسنه، فإنه إن لم يفعل ذلك من باب الإنصاف والرقة في النقد فليفعله من باب الكياسة، كيلا يمنح أحمد أمين، من حيث لا يشاء، زعامة قوية في الأدب العربي، فأن من يستطيع بمقال أو بمقالين أن يجني على الأدب العربي لا بد أن يكون زعيماً من زعماءه إن لم يكن كبير زعمائه.

(طرابلس الشام)

ندیم الجسر

مدينة قونية

(يا حضرة مولانا)

للدكتور عبد الوهاب عزام

فصل من رحلات الدكتور عبد الوهاب عزام التي تطبع الآن في مطبعة الرسالة ننشره بمناسبة ذكرى انتصار الجيش المصري في قونية على الجيش التركي.

- 1 -

من أسكيشهر إلى قونية

أمضيت يوم الأحد في أسكيشهر ثم ركبت قطار المساء والساعة ست ميمّماً قونية؛ وكانت زيارة قونية منية في النفس حاولتها حينما سافرت إلى استانبول من قبل فحال دونها بُعد الشقة؛ وبينها وبين استانبول أكثر من عشرين ساعة بالقطار.

وكنت حينئذ أهاب اختراق الأناضول، فلما اخترقته في هذه السفرة وأنست بالسفر فيه عزمت على الرجوع إلى الشام من الطريق الذي أتيت منه؛ وكانت قونية أحبّ بلاده إليّ وكانت نفسي على رؤيتها أحرص. وإنما أربي من قونية زيارة مولانا جلال الدين كان معي في القطار شاب من قونية معه زوجه فحدثني عن الترك وتمسكهم بدينهم وما فعلوا في الحرب، وكيف توغل اليونان في الأناضول حتى قذفهم أبطال الترك في البحر. وقال: إنهم قاربوا قونية ولكن مولانا جلال الدين ردّهم عنها. قلت في نفسي: هذه كلمة ظاهرها خرافة وباطنها حق؛ فإن ما يبثه جلال الدين في النفوس من قوة

وإيمان وجهاد وحرية جدير أن يرد كل عدوّ عن حماه

بلغ القطار قونية والساعة ست ونصف من الصباح فمضيت إلى فندق اسمه فندق سلجوق فاسترحت بمقدار ما حال التعب الشديد بيني وبين مشاهدة المعاهد التي طال اشتياقي إليها.
ثم خرجت إلى المكتبة (ملت كتبخانه سي) فألقيت نظرة على فهارس المكتبة ولا سيما العربية منها فلم أجد فيها من نفائس الكتب أو غرائبها ما يستوقف الباحث.
وأرسل معنا قيم المكتبة رجلاً من الموكلين بالآثار فذهب بنا إلى حيث يدفعنا الشوق ويدعونا الحب إلى البقعة التي ترسل الشعر والحكمة والتصوف في آفاق الإسلام منذ ستة قرون، إلى المزار الذي استبدل به صاحبه قلوب العارفين:
فلا تطلبن في الأرض قبري فإنما ... صدور الرجال العارفين مزاري
إلى الذكرى العظيمة التي لا تزال تدوي في القلوب تقي وشعراً، وفي العقول حكمة وإيماناً، وفي الآذان موسيقى وغناء؛ إلى النبوغ الذي مزج الحكمة والتصوف والشعر في أحسن تقويم؛ إلى الرجل الذي أنبته بلخ وظفرت به قونية ولكن لم يسع قلبه وعقله مكان؛ إلى الحكيم البكري الذي لا تحده الأنساب والأوطان؛ إلى صاحب المثنوي والديوان مولانا جلال الدين الرومي الذي تنسب إليه الطائفة المولوية المعروفة في مصر والأقطار الإسلامية، وقد اشتهرت مجالسهم في السماع، يجتمعون على نظام خاص ويدورون بترتيب محكم على نغمات الناي وإنشاد المثنوي؛ والناي عند المولوية رمز إلى الحنين الدائم إلى العالم الروحي وقد بدأ مولانا جلال الدين كتاب المثنوي بنشيد الناي وأوله:
استمع للناي غنى وحكى ... شفّة البين طويلاً فشكا
مذ نأى الغاب - وكان الوطنا - ... ملأ الناس أنيني شجنا
من تشرده النوى عن أصله ... يبتغي الرجعى لمغنى وصله
أين قلب من فراق مُزّقا ... كي أبثّ الوجد فيه حُرّقا
كل نادٍ قد رآني نأدباً ... كل قوم تخذوني صاحبا
ظن كلٌّ أنني نعم السمير ... ليس يدري أي سر في الضمير
إن سري في أنيني قد ظهر ... غير أن الأذْن كلّت والبصر
إن صوت الناي نار لا هواء ... كل من لم يَصْلَها فهو هباء
هي نار العشق في الناي تثور ... وهي نار العشق في الخمر تفور. الخ
وكان للمولوية في تركيا شأن عظيم وكان رئيسهم (جلبي قونية) يقلد سلاطين العثمانيين السيف حين يتولون الملك
وكذلك كان لهم أثر عظيم في الأدب، وحسبك من شعرائهم الشيخ غالب
هذه دار المولوي ولكن لا أري الوفود متزاحمة على بابها، ولا أرى الدار آهلة بنزّالها، قد أقفر الندىّ، وخلا السامر، وعدت الدار من الآثار، يدخل إليها بالمال الصالحون والفجار
يلقى الداخل سور يتوسطه باب عتيق فوقه ظلة وعليه ثلاثة أبيات بالتركية تدل على أن السلطان مراد خان بن سليم خان بنى هذه الخانقاه سنة 992 هـ. ومراد هذا هو مراد الثالث ابن سليم الثاني ابن سليمان القانوني (982 - 1003 هـ) فإذا ولج رأى فناء ينتهي إلى الشمال بحجرات كانت مساكن المولوية ومجالسهم ومطابخهم ومأوى ضيوفهم. وإلى اليمين حجر رفيعة اتخذت الآن مكتبة. وأمام الداخل بناءٌ كبير تعلوه في الجهة اليمنى قبة خضراء مخروطية تحلّق فوق قبر جلال الدين، وفي الجهة اليسرى مأذنة وقبتان كبيرتان، ويُدخل إلى البناء من باب جميل مصنّع تعلوه كتابة فيها هذا الشعار الذي يرى على كثير من أبنية المولوية: (يا حضرت مولانا) ويفضي الباب إلى حجرة فيها آثار للمولوية فيها كتب ونسخ من المثنوي هي أقدم نسخة وأنفسها، ثم باب آخر يفضي إلى قبور المولوية والمصلى ودار السماع (سماعخانة): إلى اليمين رواق عليه قبة ويفصله سياج وسُتُر تمنع الناس أن يدخلوا إليه أو يروا ما فيه إلا أعالي ضريحين كبيرين أحدهما لجلال الدين والآخر لأبيه بهاء الدين ويبدو ضريح الأب من وراء السياج مستطيلاً رأسياً فيقول العامة: لقد قام بهاء الدين في قبره إجلالاً لأبنه وفي وسط البناء رواق بناه السلطان الفاتح، وإلى اليسار مصلى ودار للسماع من آثار

السلطان سليمان القانوني
وفي البناء من عجائب الخط والنقش والتذهيب والكتب والبسط ما يبهر الناظر، وفيه من ملابس مولانا وآثاره وآثار بنيه
رأيت أربع قلانس قيل إن إحداها قلنسوة مولانا، وأخرى لابنه سلطان ولد، والثالثة لشمس الدين التبريزي، والرابعة لحسام الدين جلبي من كبار أصحاب جلال الدين
ورأيت ثلاثة مصاحف كتبت في أواخر القرن التاسع فيها ترجمة تركية ومصحف سلجوقي بين سطوره ترجمة فارسية ونسخا من شروح المثنوي، ونسخة من الفتوحات يقال إنها بخط الشيخ الأكبر
ورأيت سجادة عليها صورة الكعبة قيل أنها كانت لأم جلال الدين مؤمنة خاتون بنت السلطان جلال الدين خوارزمشاه، وسجادة أخرى يقال أن السلطان علاء الدين السلجوقي أهداها لجلال الدين يوم عرسه، عليها الآية: (أقم الصلاة لدلوك الشمس). . . الخ
وقناديل صنعت في مصر. . . الخ الخ
أطفنا بجوانب المكان نستمع إلى الدليل، وللذكرى في نفوسنا صوت أبين من صوته وأصدق وأجّل، ولكني أستعيذ بالله من قول القائل:
يك طواف مرقد سلطان مولاناي ما ... هقت هزار وهفصد وهقت وحج أكبر ست
(طوفة بمرقد مولانا سبعة آلاف وسبعمائة وسبعون حجا أكبر)
ثم خرجت وفي النفس حنين إلى البقاء وعزم على العودة:
خرجت أمشي يقول قلبي ... للرِّجل بالله أنظريني
وعدت في اليوم التالي فلقيت أمين الدار وكنت واعدته اللقاء لاشتراء بعض الصور، فقلت: أريد تجديد العهد بالمزار فدخل معي يطوف في أرجائه ويصف ما يرى ويروي من التاريخ.
وخرجت ولم أقض حاجات الفؤاد من رؤية ما وراء السياج.
ونعوذ بالله من الحجاب! إن شرّ ما يلقى الصوفيّ أن تسدل الحجب دون آماله ويحال بينه وبين مقصوده. خرجت كارهاً أتثاقل لأمضي مع الرجل إلى داره فيعرض عليّ ما صوّر من آثار قونية.
قال: أأنت أستاذ؟ قلت نعم. قال: انتظر، ثم أشار إليّ فتبعته فرجع إلى المزار وتلفت ثم أشار إليّ وفتح باب السياج فتبعته. قال: نحن نمنع العامة من الدخول ونمكّن الأساتذة الباحثين من رؤية ما يشاءون. فشكرت له وسرت إلى ضريح جلال الدين بين قبور كثيرة لشيوخ المولوية من أولاده. وقفت وقفة أناجي الروح العظيم وأستلهم حكمته وعظمته؛ ثم خرجت وفي النفس ما فيها من جلال الذكرى وثورة الشوق

ورأينا من آثار قونية مسجد علاء الدين وقصره وهما من أعظم آثار السلاجقة هناك؛ يقومان على ربوة في المدينة تسمى ربوة علاء الدين (علاء الدين تبه سي)
ورأينا على مقربة من الربوة مدرسة قرة داي وزير السلطان علاء الدين ولا يزال فيها من عجائب الصنعة، ولا سيما الكاشاني ما يخلّدها على رغم الزمان الذي ذهب برونقها وكثير من نقوشها
وعلى باب المدرسة آيات وأحاديث وكلمات عربية منها: رب أوزعني أن أشكر نعمتك. إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى. السماح رباح. العسر شؤم. الحزم سوء الظن. الولد مجبنة مبخلة
وفي المدرسة بهو عليه قبة، وإيوان وحجر قليلة كانت للطلاب، وحجرة فيها ضريح صاحبها
وزرنا مدرسة خربة تسمى صرجه لي مدرسة بنيت سنة 640 هـ ومدرسة صغيرة لحفظ القرآن كتب على بابها:
أنشأ هذه البقعة في أيام دولة السلطان محمد بن علاء الدين خلد الله مملكته صاحب الخيرات والحسنات محمد بن الحاج خاصبك الخطيبي أعلى الله شأنه وجعلها دار الحفاظ سنة أربع وعشرين وثمانمائة
وهذا تاريخ محرّف فيما أظن فقد انتهت دولة السلاجقة قبل هذا التاريخ. والظاهر أن البناء شيد سنة أربع وعشرين وستمائة في عهد علاء الدين كيقباد الأول (616 - 634)

إلا أن يكون السلطان المذكور هنا من سلاطين بني قرمان الذين خلفوا السلاجقة في قونية

(البقية في العدد القادم)

عبد الوهاب عزام

لجاجة الجدل

للأستاذ عبد الرحمن شكري

قد ترى إنساناً يسخر من إنسان آخر لأنه في حديثه معه يذكر حقائق مبتذلة يعرفها كل الناس؛ وهذا الساخر قد يعرف أن أحاديث الناس في جملتها من هذا النوع الذي يسخر منه، وأن كونها من هذا النوع يسهل الحديث بين الناس على اختلاف ما يؤهلهم للحديث من علم وفطنة، أو ما لا يؤهلهم له من جهل وغباء. فهذا النوع المبتذل من الحديث الذي يسخر منه الساخر يؤلف بين الناس في مجالسهم ويساعدهم على أن يقضوا وقتاً يريدون إفناءه، ويمنع من انقطاع الحديث زمناً للبحث عن فكرة صائبة غير مبتذلة، كما قد يمنع من الحقد الذي ينشأ بسبب الخلاف على فكرة غريبة غير مبتذلة، أو بسبب حسد جليس لجليسه إذا ظهر عليه بفكرة جليلة. والساخر من الحديث المبتذل قلما ينقم في سريرة نفسه على محدثه إذا كانت آراؤه سخيفة أو مبتذلة قدر ما قد ينقم عليه إذا بذه بالحجة وفاقه بأصالة الرأي. فليس شر الحديث المبتذل، وإنما شر الحديث ما كان لجاجة وحبّاً للظهور بالعظمة وأثرة ورغبة في الانتصار وفي إرغام الناس على إجلال فكر. فان بعض الناس - حتى بعض أفاضلهم وعلمائهم - يرتاد المجالس كي يزهى بعلمه وينتصر بالجدل. وبعض الذين لم ينالوا قسطاً كبيراً من التعليم يشعر بنقص إذا جالس الناس فيعمد إلى إخفاء ما يشعر به من نقص بما يظهر ذلك النقص، فتراه يحول الحديث من الموضوعات الشائعة المبتذلة إلى الأمور العلمية ويحاول أن يسيطر على الحديث باللجاجة وادعاء العلم والإصرار والتهجم على مخالفه، وقد ينفعل انفعالاً نفسياً شديداً، وليس انفعاله من شدة انتصاره للحق ولا من ذعره أن يسود الباطل العالم، وإنما انفعاله من غيظه إذا لم يُمكّن من الانتصار في الحديث ومن إسكات مجادله كي يوهم نفسه وكي يوهم جلساءه أنه لا يشعر بنقص علمه، وقد يفطن جلساؤه إلى أن باعثه على اللجاجة والانفعال شعوره بنقص تعلمه ولا يفطن هو إلى فطنتهم لنقصه فيضع نفسه في منزلة الخزي من غير داع

وتشبث المرء بالحق في المجالس واجب، أما إعلان هذا التشبث بالجدل الذي يؤدي إلى الخصومة والعداوة والبغضاء والتضارب أو التقاتل فمن الضعف وقلة كبح النفس والعجز عن ضبط اللسان. وهذا العجز ليس من الحكمة في شيء بل هو من الطيش الذي قد يندم المجادل عليه ولو كان الحق في جانبه، فإن أحاديث الناس في مجالسهم ليس فيها ما يزكي اللجاجة التي تدعو إلى الخصومات. ويستطيع الجليس إذا خشي أن يُعدّ سكوته عن الجدل واللجاجة مشاركة في خطل الرأي أو إثم الغيبة أن يترك ذلك المجلس وأن ينصرف عنه إلى غيره بعد إعلان رأيه في رفق وتؤدة وحلم

وبعض الناس قد طُبع على أن يجادل لنصرة ما يراه حقاً حتى ولو أدت المجادلة إلى المهاترة أو المضاربة، وكأنما يشعر شعوراً غامضاً أن مصير الدنيا وبقاء الكون موقوف على انتصاره لما يراه حقاً، وقد يكون هذا المجادل اللجوج صادق النية مخلصاً في شعوره كأنه لم ير كيف أن العلماء والفلاسفة يأتون كل جيل أو كل عصر بآراء تخالف ما أتى به أسلافهم، والحياة قائمة بالرغم من خطأ السابقين أو اللاحقين، والسماء لم تنهد ولم تسقط على الأرض والدنيا على حالها يخالطها كثير من الخطأ، فلأي أمر إذاً يتضارب الناس في مجالسهم أو يتخاصمون من أجل اللجاجة والجدل

على أن في الناس من يحترف الجدل مكراً ودهاء كي يكون اعترافه بأصالة رأي مجادله أوقع وكي يكون انهزامه في الجدل أحب إلى جليسه الذي يجادله، وكي يفهم ذلك الجليس أن قوة بيانه ورجاحة حجته وفرط ذكائه هي الصفات العالية والهبات النفيسة النادرة التي مكنته من إقناع ذلك المجادل الذي إنما يجادل كي ينهزم وكي يمدح صفات جليسه العقلية تقرباً إليه لحاجة في نفسه، وهذه وسيلة من وسائل الدنيويين الذين يريدون النجاح في الحياة، وقد شاهدنا مثل هذا الجدل والاقتناع الكاذب في حديث الرؤساء والمرءوسين وفي حديث الوجهاء ومن هم أقل منهم منزلة

وهناك نوع آخر من الجدل يثيره خبيث يعرف أن جليسه عصبي المزاج ينفعل إذا جادل فيحب أن يعبث به وأن يضحك من انفعاله، وأن يتخذه لهواً وقد يكون رأيه في الأمر الذي يجادل فيه مثل رأي ذلك العصبي المزاج ولكنه يخالفه كي يتفكه بضجيجه وصراخه وحركاته حتى إذا نال بغيته من الفكاهة أقرّ برجحان رأي ذلك العصبي المزاج فينال نوعاً آخر من الفكاهة إذا رأى عظم سروره وخمود ثورة أعصابه.

وقد شاهدنا نوعاً آخر من الجدل إذ يرى أحد الجليسين أن جليسه سفيه لا يريد توضيح الحق بالجدل وإنما يريد الظفر في الحديث بأية وسيلة، ولا يترك جليسه إذا سكت بل كلما طال سكوته أحس ذلك السفيه أن سكوته إنكار لرأيه فيلج في الجدل كي يرغمه على الخروج من صمته وصاحبه لا يرى فائدة في الخروج من صمته فيكتفي بأن ينطق بمقاطع لا تدل على مخالفة أو موافقة كأن يقول: أومْ. إيمْ. آ. إمْ. وهذا على أي حال خير من التقاتل أو التضارب من أجل الجدل

ونقرأ في الجرائد عن تضارب يؤدي إلى قتل وكان سببه نزاعا على مليم أو على قطعة من البطيخ، ومثل هذا التقاتل يرجع إلى اللجاجة في الجدل أكثر مما يرجع إلى شدة الفقر إلى المليم أو إلى قطعة البطيخ. ومثله مثل اللجاجة في الجدل وفي النزاع على رأي سياسي أو في التنافس في البر وعمل الخير، فهذا أيضاً قد يدعو إلى التقاتل كما حدث بين شابين تجادلا في أيهما أحق بالتأذين والدعوة إلى الصلاة فانقلبت لجاجة الجدل إلى تشاتم ثم إلى تضارب فتقاتل. ونقرأ في الجرائد أن اللجاجة في الجدل قد تؤدي إلى الخصومات والتقاتل بين الأسر أو بين البلدان المتجاورة

واللجاجة في الجدل عند بعض الناس مرض يظهر خبث النفوس فترى بعض الناس يحقد على من يجادله ويسعى في أذاه إما سعياً ظاهراً وإما في الخفاء. ويخيل للرائي أن بعض المجادلين يكاد يجن إذا لم ينتصر في الجدل، وقد يكون هذا المجادل طيب القلب سمحاً إذا وافقه الجلساء على رأيه وهواه، وقد يمدح من يوافقه في حديث المجالس على رأيه فيقول: - فلان رجل ذكي لا يجادل بالباطل ويدرك الصواب إدراكا سريعاً. . . وقد يكون هذا الممدوح مخفياً غير ما وافقه عليه وساخراً برأي المادح في سريرته وهازئاً بلجاجته

والطوائف والأمم مثل آحاد الناس فإننا نقرأ في تاريخ الإنسانية عن تقاتل الطوائف من الناس على ألفاظ لا طائل تحتها وعلى أخيلة وأوهام بعيدة عن العقل فنعجب هل كانوا حمقى أم مجانين

وستأتي عصور يتساءل أهلها عن تقاتلنا على الألفاظ والأوهام، ويتعجبون من حماقة هذه الأجيال كما تتعجب هذه الأجيال من حماقة أهل العصور القديمة، ولم يعظنا ما رأيناه من عبث التقاتل على الألفاظ والأوهام والآراء التي تتبدل في كل عصر حتى كأن العقل البشري من قلة اتعاظ النفوس لا أثر له في الحياة وحتى كأن الحياة لا تستقيم إلا بأن يجد الناس لذة في خلق أسباب الألم والعذاب لأنفسهم بخصومات الجدل وعداواته كما يجد بعض المتدينين لذة في أكل النار وطعن أنفسهم بالخناجر في بعض الحفلات الدينية. والجدل في مناظرة الكتب والصحف والمجلات كالجدل في مناظرة الكلام فمنه ما يكون من العبث المضي فيه، ولعل أشد المناظرة عبثاً وضيعة ما يدعو إلى مجادلة الذي يزكي بالمصطلحات قلة خبرته بالحياة، وهي مصطلحات لا يستقيم مذهبها إلا في الأمور النظرية التي لا تتصل بأمور الحسّ، أو مجادلة من يشبه المؤرخ الذي لا ينتقد مصادر تاريخه كما ينتقد الصيرف نقوده وتطغى حماسة الشباب في قوله وتطغى الثقة بالأصدقاء على الرغبة في الإنصاف وفي تخليد حكمه وصيانته من أن ينقضه بحث باحث

وقد يكبر الوهم للمشتغلين بالسياسة قيمة جدلهم ومناظراتهم في الصحف، ويحسب كل فريق أن خراب الوطن رهن بانخذاله في أية مناظرة مهما يكن سببها فيستبيح ضمير كل فريق من الوسائل في خصومات الجدل ما كان يعده إجراماً لو نظر إلى الأمور بعين المؤرخ الذي يرى زوال الجهود البشرية وغثاثة أمر الكثير منها وتفاهة ما كان الناس يعدونه جد جليل خطير

ولما كانت السياسة شغل الناس الشاغل في العصور الحديثة فإن الأخلاق التي

يستبيحها الجدل في شؤونها، وما قد يظن معينا على هذا الجدل، تتفشى وتفسد أمور الحياة التي يراد إصلاحها بهذا الجدل فيأتي فساد الأمور من سبيل إصلاحها، ويأتي سقمها على يد طبيبها. ولا يقتصر هذا الفساد على المشتغلين بالأمور السياسية؛ فإن كل إنسان وكل قوم يبيح فيمن يعدهم من خصومة وإن لم يكونوا خصوماً في أمور المعاش، ما تبيحه السياسة من الكذب والخساسة في العداوة والإجرام؛ فإن الرجل من عامة الناس أو أشباه العامة يرى بين الخاصة والعظماء المشتغلين بالسياسة من يستبيح كل وسيلة مهما كانت مرذولة، فيبيح لنفسه في أمور المعاش واللهو والتلذذ بالكيد ما تبيحه السياسة في الأمور العامة، ويصير نشر الدعوة الكاذبة في أمور السياسة خطة يتأثرها الناس في أمور المعاش أو اللهو أو الغرور، ويصير التحزب ونصرة الجماعة بالحق وبالباطل في أمور السياسة عادة يتبعها الناس ويغالون في باطلها في أحقر الأمور وأصغرها أو في أبعد الأمور عن تلك الخطط والعادات وأقلها حاجة إليها وأكثرها فساداً بها، ويكون فسادها أعظم والمغالاة بها أشد في البيئات التي تعودت في تاريخها التخاذل في الحق والتحزب والتقاتل في أتفه الأمور أو أجلها وأبعدها عن التحزب بالباطل.

عبد الرحمن شكري

دراسات إسلامية

كبار الزنادقة في الإسلام

للأستاذ عبد الرحمن بدوي

رجحنا في العدد الماضي من الرسالة أن تكون الزندقة التي عناها المهدي والهادي في هذه الاضطهادات العنيفة التي قاما بها بين سنة 163 وسنة 170 هي المانوية، وأن يكون هؤلاء الذين اتهموا بالزندقة ممن كانوا يقولون بأن للعالم أصلين قديمين هما النور والظلمة ويحرمون ذبح الحيوان واللحم إلى آخر هذه المبادئ التي أعلنها ماني مؤسس مذهب المانوية.

ولكن هذا لم يمنعنا أن نقول كذلك أن معنى الزندقة قد اتسع وامتد حتى أصبح يشمل أشياء أخرى لم يكن للمانوية بها صلة ولا سبب. ولم يكن هذا الاتساع وليد السنوات التالية والقرنين الثالث والرابع فحسب، بل بدأ من قبل، في هذه الفترة عينها التي مضت فيها السنوات الأخيرة من خلافة المهدي وسنوات خلافة الهادي كلها.

ولا سبيل لمعرفة نواحي هذا الاتساع، وكيف تشعب وتنوع، فكانت فيه فروق ودقائق، إلا بدراسة كبار الزنادقة والتحدث عنهم.

والزنادقة طوائف وأنواع، والدوافع التي حدت بهم إلى الزندقة كثيرة متعددة. أما طوائفهم فنستطيع أن نحصرها في ثلاث: الأولى طائفة هؤلاء الذين يسميهم صاحب (الفهرست) رؤساء المنانية في الإسلام؛ والثانية طائفة المتكلمين؛ والثالثة طائفة الأدباء من كتاب وشعراء. والدوافع تكاد ترجع كلها إلى ثلاثة أيضاً: فمن هؤلاء الزنادقة من كانوا يؤمنون بالزندقة (ونقصد بها هنا المانوية) إيماناً صحيحاً صادراً عن رغبة دينية صادقة، فكانوا مخلصين في اتخاذها مذهباً، حريصين عليها كأشد ما يكون الحرص ومنهم من وجد في الزندقة (بمعنى المانوية أيضاً) تراثاً قومياً خلفه الآباء فيجب الحرص عليه وتعهده؛ لا لصلاحيته في ذاته، ولا لأنه يستحق الإيمان به كما هو، وإنما لأن في هذا الحرص وذلك التعهد نوعاً من الإرضاء للنعرة القومية، والإشباع للنزعة الشعوبية. وفيها أيضاً موضع للمفاخرة ومجال لكي يقارنوا به تراث العرب ودين العرب بما خلفه لهم الآباء من تراث ودين.

ومن أجل هذا كان جميع هؤلاء من الموالي الفرس. وبين هؤلاء وهؤلاء وجدت طائفة من الزنادقة كانت تتخذ من الزندقة وسيلة من وسائل العبث الفكري التي يلجأ إليها الشكاك دائماً، يرومون من ورائها أن يعبثوا بعقائد الناس، بأن يعقدوا حلبات النضال بينها، ويساعدوا الضعيف منها على القوي السائد، ويظهروا ميلهم إلى الأول؛ وكل هذا لا شيء إلا ليجدوا السلوى حيث لا سلوى، ويعثروا على العزاء وليس ثم عزاء. فهي حالة نفسية عنيفة تتملكهم فتدفعهم إلى ما هو أشبه باللهو الفكري والمجون الشكي منه إلى شيء آخر.

وتكاد الطوائف والدوافع يقابل بعضها بعضاً تمام المقابلة. فالطائفة الأولى، ونعني بها طائفة رؤساء المانوية (أو المنانية فالمعنى واحد)، يغلب على دوافع أصحابها الإيمان

بها إيماناً صادقاً، وهذا هو الأليق بأن يكون عليه الرؤساء. والطائفة الثانية يغلب على أصحابها الدافع الأخير، دافع الشك الفكري والفكر المتشكك، ولا عجب فهم متكلمون أي أنهم رجال فكر وأصحاب مذاهب ومقالات يعتمدون على الأفكار والعقل، دون المصالح أو الإيمان. والطائفة الثالثة، وإن كان للدافع الثاني أثر كبير في اتخاذها الزندقة، إلا أن أعظم دافع أثر فيها كان نزعة الشعوبية. وليس هذا بغريب فالشعراء والكتاب لا يستهويهم الإيمان، ولا قبل لهم بالإمعان في الشك الفكري، وإنما تستهويهم الأحداث العنيفة التي تلهب عواطفهم وتثير ثائرة خيالهم، وليس أدعى إلى إلهاب العاطفة وإثارة الخيال من نزعة الشعوبية؛ أولاً لأنها تتصل بالسياسة وأحداثها، والنزاع القائم بين طائفة وطائفة أخرى. وثانياً لأن الشعوبية تذكرهم بمجد تالد يعتزون به، ويتغنون بعظمته. والشعراء يميلون دائماً إلى التغني بالماضي سواء بالافتخار به أو البكاء عليه، لأن الماضي زمن قد فات ولم يعد له وجود إلا في الذاكرة التي تعيه، فيستطيع الخيال أن يشكله على النحو الذي يبغيه، وأن يتصرف فيه كما أراد وحيثما شاء، وهو مطمئن آمن. بينما الحاضر يحدق في عينه فلا يستطيع أن يزور فيه أو يكذب عليه في أثناء وجوده!

والآن فلنتحدث عن أشهر رجال هذه الطوائف

أما الطائفة الأولى فأشهر رجالها أبو علي سعيد، وأبو علي رجاء، وأبو يحيى ويزدانبخت. وقد استطاع الأستاذ فيدا صاحب المقال الذي أشرنا إليه والذي نعتمد عليه كثيراً في مقالنا هذا، أن يعثر على اثنين منهم في المصادر الأخرى في يقين. ثم حاول أن يتعرف إلى آخر

ثالث

فأبو علي سعيد ذكره الشهرستاني الذي يقول عنه إنه كان في أيام خلافة المعتمد وكان يكتب في سنة 271 هـ

ويزدانبخت ذكره أحمد بن يحيى المرتضى، كمؤلف لكتاب أخذ عنه المرتضى نظرية تتابع الأنبياء. ويحاول فيدا أن يجد أبا علي رجاء في شخص ذكره الجاحظ في كتاب الحيوان حينما أشار إلى أنه جرت مناظرة في حضرة المأمون بين محمد بن الجهم والعتبي والقاسم بن سيار من جهة وبين أبي علي الزنديق. فلما لم يفلح هؤلاء في مناظرة الزنديق قام المأمون نفسه بمناظرته فألقى عليه سؤالاً أفحمه ولكن الزنديق لم يرجع عن خطئه ومات على دينه. ولكي يثبت فيدا صحة هذا الافتراض، ونعني به أن أبا علي المذكور في رواية الجاحظ هو أبو علي رجاء. قال إن هذا الزنديق لا يمكن أن يكون أبا علي سعيداً، الذي ذكرناه آنفاً لأن أبا علي سعيداً كان يكتب وكان حياً في سنة 271، بينما الجاحظ الذي مات سنة 255 يتحدث عن أبي علي صاحبنا، باعتباره ميتاً. وعلى ذلك فليس هناك من مانع، اللهم إلا إذا ورد دليل مخالف، أن نفترض أن الزنديق الذي ذكره الجاحظ هو أبو علي رجاء الذي ذكره ابن النديم

أما الزنادقة من المتكلمين فأشهرهم ابن طالوت ونعمان، اللذان كانا أستاذي ابن الراوندي الزنديق المشهور، كما كان من أساتذته أيضاً أبو شاكر الذي يذكر عنه الخياط أنه كان متصلاً بهشام بن الحكم، المتكلم الشيعي المعروف. ويرى فيدا أن الرابطة بين أساتذة ابن الراوندي الثلاثة هؤلاء يظهر أنها كانت التغالي في التشيع. وهذا كان كافياً لكي توضع أسماؤهم بين أسماء الزنادقة. ويضاف إلى هؤلاء جميعاً صالح بن عبد القدوس. وقد أشرنا من قبل إلى البحث الذي كتبه جولد تسيهر وعسى أن تتاح لنا فرصة قريبة للتحدث عن هذا البحث

وهم جميعاً إما بعيدون عن المانوية أو أن معلوماتنا عن مبادئهم الدينية ضئيلة جداً. ولكن هناك شخصية أخرى بين الزنادقة من المتكلمين نعرف عنها بعض الأشياء ونعني بها شخصية عبد الكريم بن أبي العوجاء. ولا نتعرض هنا للكلام عنه كمحدث أسرف في اختراع الأحاديث ووضع المكذوب منها، ولا عن صلته بحسن البصري وجعفر الصادق، وإنما يعنينا هنا أن نقول عنه شيئاً يتصل بزندقته فنقول إنه كان كما يقول البغدادي مانوياً يؤمن بالتناسخ ويميل إلى مذهب الرافضة ويقول بالقدر. ويتخذ من شرح سيرة ماني وسيلة للدعوة وتشكيك الناس في عقائدهم ويتحدث في التعديل والتحوير، كما ذكر البيروني في كتاب (الهند)

ولكن أظهر شخصية في هؤلاء المتكلمين الزنادقة بعد شخصية ابن الراوندي (الذي

نؤجل الحديث عنه إلى أن نفرد له فصلاً خاصاً إن كان هناك ثم مجال)، هي شخصية أبي عيسى الوراق وقد كان هو أيضاً أستاذاً لابن الراوندي
كان أبو عيسى الوراق معتزلياً في البدء ولكن المعتزلة طردته لآراء له ذكرها خصومه ولسنا نعرف مبلغ صحتها على وجه التحقيق فيذكرون عنه أنه كان شيعياً رافضياً، ويقول عنه الخياط إنه كان مانوياً يقول بأزلية المبدأين (النور والظلمة) ويعتقد في خلود الأجسام؛ والخياط معتزلي فهو خصم لأبي عيسى. ومن هنا لا نستطيع أن نؤكد تماماً أنه كان مانوياً. ولذلك فإن الأستاذ ماسينيون يميل إلى وصفه بالناقد المستقل الفكر)
وهنا ننتهي من الكلام عن الطائفة الثانية وننتقل إلى الطائفة الثالثة ونعني بها طائفة الأدباء والشعراء
وأول هؤلاء وأشهرهم من غير شك بشار بن برد، ولكنا لا نستطيع هنا أن نفصل القول في زندقة بشار، ويكفينا الآن أن نقول إن نزعة الشعوبية عند بشار كانت أكبر دافع له على الزندقة كما كان للعبث والمجون الذي طبع عليه بشار، وروح التشاؤم والسخرية من الناس أثر في هذه الزندقة غير منكور.
وهنا نلاحظ بإزاء بشار ما لاحظناه من قبل عند الكلام عن ابن أبي العوجاء وأبي عيسى الوراق من أن الاتهام بالزندقة كان يسير جنباً إلى جنب مع الانتساب إلى مذهب الرافضة كما لاحظ الأستاذ فيدا بحق، ومن هنا كان الشك في معنى هذه الزندقة التي تنسب إلى بشار؛ ولذلك يميل الأستاذ فيدا إلى أن يرى في بشار شاكاً من الشكاك فحسب
ولكن زندقة خصم بشار، ونعني به حماد عجرد، أظهر بكثير من زندقة بشار. وعلى الرغم من أنه لا يمكن القطع بشيء فيما يتصل بعلاقته بالمانوية إلا أنه يمكن اعتباره ممن كانت لهم نزعة مانوية واضحة، خصوصاً إذا لاحظنا أن شعره وقصائده كان يتغنى بها في دوائر
أتباع ماني وتستعمل في الصلوات
أما حظ النزعة الشعوبية في تكوين الزندقة فلم يكن كبيراً في شاعر من الشعراء أو كاتب من الكتاب بقدر ما كان عند إبان بن عبد الحميد اللاحقي. فقد كان يعرف الفارسية ويترجم عنها؛ وكان على اطلاع وسعة علم بأدب الفرس القديم، فكان ذلك داعياً له إلى التعلق بتراث الفرس والتغني به في جميع مظاهره. ولكن هذا ليس دليلاً قاطعاً على أنه كان مانويا حقاً، أو أنه أعتنق المانوية كدين أخلص (؟) على الرغم مما ذكره أبو نواس عنه في إحدى القصائد التي هجاه بها فاتهمه بأنه كان حسياً لا يؤمن إلا بما يراه فلا يعتقد إذن بالجن ولا بالملائكة. وهذه التهمة عينها قد وجهت إلى بشار من قبل. واتهمه أيضاً بأنه أشاد بماني وسخر من المسيح وموسى. وهنا يبدو الخلط والاضطراب في كلام أبي نواس لأنه إذا كان مانوياً فلن يسخر من المسيح. والصلة بين المانوية والمسيحية كبيرة واضحة لا تسمح بهذه السخرية. ونرجح نحن أن السبب الأكبر في اتهام إبان بالزندقة كان نزعته الشعوبية الواضحة فاتخذ أنصار العربية من اتهامه بالزندقة سلاحاً يستعملونه ضده في الخصومة الحضارية بين الشعوبية والعربية وهؤلاء الشعراء الثلاثة قد اتفقوا جميعاً في غلبة روح الاستخفاف والعبث فيهم. ولذلك فإن أبا نواس كان صادقاً حقاً في تسميتهم (بعصابة المجّان) ولو أنه كان فرداً من أفراد هذه العصابة! فهم أقرب إلى الشك والمجون إذن من الإيمان والجد وهم أولى باسم الشكاك العابثين من اسم الزنادقة المخلصين
وأكثر من هؤلاء جداً وأبعدهم عن العبث والمجون أبو العتاهية. وقد لخص الأستاذ فيدا آراء أبي العتاهية أحسن التلخيص فقال: إن أول ما نلاحظه في معتقدات أبي العتاهية أنه كان يؤمن بالأثينية بكل صراحة. فالعالم الظاهر مكون من جوهرين متعارضين، والوجود تنازعه طبقتان إحداهما خيّرة والأخرى شريرة. وهو يرجع الوجود كله في النهاية إلى الجوهرين المتعارضين اللذين نشأ عنهما العالم وتكوّن. غير أن أبا العتاهية صاغ نظرياته الأثينية في صيغة واحدية، إذ جعل الله الواحد عند بدء الأشياء وقال: إنه خالق الجوهرين وأن العالم ما كان له أن يوجد بدون الله وحده. طارحاً بذلك أسطورة الخليط الأزلي بين الجوهرين أو المبدأين ونعني بهما النور والظلمة

وهنا نقف قليلاً بعد أن استعرضنا كبار الزنادقة وشرحنا كيف كانوا موضعاً للاضطهاد في أيام الخلفاء العباسيين الأول لكي نتبين ما وصلنا إليه من نتائج
فنلاحظ أولاً أن الزنادقة الذين وجه إليهم الخلفاء ما وجهوه من اضطهاد كانوا مانوية إما بتحولهم عن الإسلام أو منذ ولادتهم في الفترة ما بين سنة 163 و170. أما بعد ذلك فإنا لم نستطيع أن نثبت المانوية لواحد ممن اتهموا بالزندقة، اللهم إلا لعبد الكريم ابن أبي العوجاء. أما الآخرون فلم نستطع أن نفصل في أمرهم فصلاً أخيراً ثم نلاحظ كذلك أن الزنادقة كانوا في أماكن عديدة فكانوا في بغداد وفي حلب وفي مكة، ثم في البصرة والكوفة على وجه الخصوص.
وإن أشهر ما كان يوجه إليهم من تهم هو ترك الفرائض (كالصوم والصلاة والحج)، ثم ادعاء الشعراء منهم والكتاب أنهم يستطيعون أن يكتبوا خيراً من القرآن؛ وأخيراً موقفهم بإزاء وحدانية الله
وأنه كانت هناك رابطة بين الزندقة والشيعة، قد رأينا كيف كان الانتساب إلى الشيعة الرافضة دليلاً على الزندقة وداعياً إلى الاتهام بها
ونلاحظ أخيراً أن الكثير من كبار الزنادقة قد قضوا شبابهم وأوائل حياتهم في أواخر أيام الدولة الأموية. فيجب أن نستنتج كما يقول الأستاذ فيدا: (أنه للكشف عن أصل التأثيرات الإيرانية التي لعبت دوراً خطيراً منذ ظهور الدولة الجديدة (أي الدولة العباسية) فلا بد من البحث في الأوساط العلمية العقلية في داخل خراسان وبين أعوان أبي مسلم الخراساني السريين كما نبحث عنه في البصرة والكوفة) ففي منطقة خراسان التقت جملة حضارات مختلفة في طابعها. فكان فيها في أواخر الدولة الأموية حركة صراع فكري بين عدة حضارات. وكان لهذا الصراع الفكري أكبر الأثر في تكوين العقلية الجديدة التي سادت العصر العباسي أو الجزء الأول منه على أقل تقدير.
ولن نستطيع أن نفهم هذه العقلية الجديدة وتطورها طوال ذلك العصر إلا إذا درسنا هذا الوسط الذي اصطدمت فيه العقليات المختلفة واختمرت فيه بذور الحياة العقلية التي جعلت من العصر العباسي الأول عصراً من أخصب العصور الفكرية في تاريخ العالم كله.

عبد الرحمن بدوي
الحب العذري في الإسلام
للأستاذ عبد المتعال الصعيدي
- 2 -

قال ابن الكلبي: لما استخلف عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وفدت إليه الشعراء، كما كانت تفد إلى الخلفاء قبله، فأقاموا ببابه أياماً لا يأذن لهم بالدخول، حتى قدم عديُّ بن أرطاة على عمر ابن عبد العزيز، وكانت له منه مكانة، فقال جرير:

يأيُّها الرجل الْمزْجِي مَطِّيتهُ ... هذا زمانُكَ إني قد مضى زمني
أبلغْ خليفتنا إن كنت لاقيَهُ ... أني لدى الباب كالمصفود في قَرنِ
وحْشُ المكانة من أهلي ومن ولدي ... نائي المَحلَّة عن داري وعن وطني

قال: نعم أبا حزرة ونُعمى عين. فلما دخل على عمر قال:
يا أمير المؤمنين، إن الشعراء ببابك، وأقوالهم باقية، وسنانهم مسنونة، قال: يا عدي، مالي وللشعراء! قال: يا أمير المؤمنين، إن النبي صلى الله عليه وسلم قد مدح وأعطى، وفيه أسوة لكل مسلم. قال ومن مدحه؟ قال: عباس بن مرداس. فكساه حُلّة قطع بها لسانه، قال: وتروي قوله؟ قال نعم:

رأيتك يا خير البريَّة كلّها ... نشرت كتاباً جاء بالحقِ مُعلَمَا
ونورت بالبرهان أمراً مُدَمَّساً ... وأطفأت بالبرهان ناراً مُضَرَّما
فمن مبلغٌ عني النبيَّ محمداً ... وكلُّ امرئ يجْزي بما قد تكلما
تعالى عُلُوًّا فوق عرش إلهنا ... وكان مكانُ الله أعلى وأعظما

قال: صدقت، فمن بالباب منهم؟ قال: ابن عمك عمر بن أبي ربيعة قال: لا قرب الله قرابته، ولا حيّا وجهه، أليس هو القائل:

ألا ليت أني يوم حانتْ مَنِيَّتي ... شَممت الذي ما بين عينيك والفم
وليت طهوري كان ريقك كله ... وليت حنوطي من مشاشك والدم
ويا ليت سلمى في القبور ضجيعتي ... هنالك أو في جنة أو جهنم

فليته والله تمنى لقاءها في الدنيا، ويعمل عملاً صالحاً، والله لا دخل عليّ أبداً، فمن بالباب غير من ذكرت؟ قلت: جميل ابن معمر العذري، قال: هو الذي يقول:

ألاَ ليتنا نحيا جميعاً وإن نُمتْ ... يوافي لدى الموتى ضريحي ضريحها
فما أنا في طول الحياة براغب ... إذ قيل قَد سوى عليها صفيحها
أظلّ نهاري لا أراها ويلتقي ... مع الليل روحي في المنام وروحها

أعزب به، فوالله لا دخل عليّ أبداً. فمن بالباب غير من ذكرت؟ قال: كُثير عزّة، قال: هو الذي يقول:

رهبانُ مدَيْن والذين عهدتهمْ ... يبكون من حَذَر العذاب قعودَا
لو يسمعون كما سمعت حديثها ... خَرُّ والِعَزَّةَ راكعين سجودَا

أعزب به. فمن بالباب غير من ذكرت؟ قال: الأحوص الأنصاري، قال: أبعده الله وأمحقه، أليس هو القائل وقد أفسد على رجل من أهل المدينة جارية هربت منه:

الله بيني وبين سيدها ... يَفرُّ عني بها وأتَّبعُ

أعزب به. فمن بالباب غير من ذكرت؟ قال: همام بن غالب الفرزدق، قال: أليس هو القائل يفخر بالزنا:

هما دلَّتَانِي من ثمانين قامةً ... كما انقضَّ باز أقتم الريش كاسره
فلما استوتْ رجلايَ في الأرض قالتا ... أحيٌ يُرجَىَّ أم قتيلٌ نحاذره
وأصبحتُ في القوم الجلوس وأصبحت ... مُغَلَّقَةً دوني عليها دساكره
فقلتُ ارفعوا الأسبَاب لا يشعروا بنا ... ووليْتُ في أعقابِ ليلٍ أبادره

أعزب به. فوالله لا دخل عليّ أبداً. فمن بالباب غير من ذكرت؟ قلت: الأخطل التغلبيّ، قال: أليس هو القائل:

فلستُ بصائمٍ رمضانَ عمري ... ولستُ بآكلٍ لحم الأضاحِي
ولستُ بزاجرٍ عَنْساً بَكوراً ... إلى بطحاء مكة للنجاح
ولست بقائم كالْعَيْرِ يدعو ... قبَيل الصبح حَيِّ على الفلاح
ولكنِّي سأشربها شَمولاً ... وأسجد عند مُنْبلَج الصباح

أعزب به. فوالله لا وطئ لي بساطاً أبداً وهو كافر. فمن بالباب غير من ذكرت؟ قلت: جرير بن الخطفي، قال: أليس هو القائل:

لولا مراقبةُ العيون أرَيْنَنا ... مُقَلَ المها وسوالفَ الآرامِ
هل يَنهيَنَّك أن قتلن مُرقَّشاً ... أو ما فعلن بعُروة بن حِزَامِ
ذُمَّ المنازلّ بعد منزلة اللّوى ... والعيش بعد أولئك الأيامَ
طرقتك صائدة القلوب وليس ذا ... وقت الزيارة فارجعي بسلام

فإن كان ولا بد فهذا. فأذن له، فخرجت إليه فقلت: أدخل أبا حزرة، فدخل وهو يقول:

إن الذي بعث النبيَّ محمداً ... جعل الخلافة في إمام عادلِ
وَسِعَ الخلائقَ عدلُهُ ووفاؤه ... حتى أرعوي وأقام مَيلَ المائلَ
والله أنزل في القرآن فضيلةً ... لابن السبيل وللفقير العائل
إني لأرجو منك خيراً عاجلاً ... والنفسُ مولعةٌ بحب العاجل

فلما مثل بين يديه قال: اتق الله يا جرير، ولا تقل إلا حقاً، فأنشأ يقول:

كم باليمامة من شعثاَء أرملةٍ ... ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر
من يَعُدُّك تكفي فَقْدَ والده ... كالفرخ في العيش لم ينهض ولم يطر
يدعوك دعوةَ ملهوف كأنَّ به ... خبْلاً من الجن أو مساً من البشر
خليفةَ الله ماذا تأمرَنَّ بنا ... لسنا إليكم ولا في دار مُنْتَظَر
ما زلتُ بعدك في هّمٍ يؤَرِّقُنِي ... قد طال في الحيِّ إصعادِي ومنحَدَري
لا ينفع الحَاضرُ المجهودُ بادِيَنَا ... ولا يعود لنا بادٍ على حَضَر
إنا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا ... من الخليفة ما نرجو من المطر
أتى الخلافة إذ كانت له قَدَراً ... كما أتى رَّبُه موسى على قدر
هذى الأرامل قد قُّضيت حاجتها ... فمن لحاجة هذا الأرمل الذكر

فقال: يا جرير، والله لقد وليت هذا الأمر وما أملك إلا ثلاثمائة درهم، فمائة أخذها عبد الله، ومائة أخذتها أم عبد الله؛ يا غلام، أعطه المائة الباقية. فقال: يا أمير المؤمنين، إنها لأحب مال كسبته إلى. ثم خرج، فقالوا له: ما وراءك؟ قال: مايسوؤكم، خرجت من عند أمير المؤمنين يعطي الفقراء ويمنع الشعراء وإني عنه لراض. ثم أنشأ يقول:

رأيتُ رُقَي الشيطان لا يستفزُّه ... وقد كان شيطاني من الجن رَاقيَا
ولا شك أن وجهة عمر رضي الله عنه ظاهرة في منع ابن أبي ربيعة لأنه كان لا يتورع في شعره عن التشبيب بالنساء من يعرفها ومن لا يعرفها، ويتعرض للمحصنات المتعففات
ويترقب خروجهن للطواف والسعي، ويصفهن وهن محرمات حتى صرن يخفن الخروج إلى الحج. وقد نفاه عمر بسبب هذا إلى دهلك، وهي جزيرة ببحر القلزم أمام مدينة مصوع. أما أبياته المذكورة فهي وإن كانت محمولة على المبالغة لا تليق برجل يحافظ على أمور دينه لأن فيها شيئا من الاستهتار بعذاب الله، وما كان لمثل عمر رضي الله عنه أن يقبل هذا منه وأن تنسيه رقته الشعرية ناحيته الدينية، كما أنست قبله عمه عبد الملك بن مروان وقد اجتمع ببابه ابن أبي ربيعة وكُثير عزّة وجميل بثينة، فقال لهم: أنشدوني أرق ما قلتم في الغواني، فأنشده جميل:
حلفتُ يميناً يا بُثَيْنَةُ صادقاً ... فإن كنت فيها كاذباً فَعمِيتُ
إذا كان جلدٌ غير جلدكَ مسَّني ... وباشرني دون الشِّعار شَرِيت
ولو أن راقِي الموت يَرْقِي جنازتي ... بمنطقها في الناطقين حيِيت
وأنشد كُثير:
بأبي وأمِّي أنتِ من مظلومة ... طَبِنَ العدوُّ لها فغيَّر حالَها
لو أن عَزَّةَ خاصمت شمس الضحى ... في الحسن عند مُوَفّق لقضى لها
وسعى إليَّ بصَرْمِ عزة نسوةٌ ... جعل المليك خدودهن نعالها
وأنشد ابن أبي ربيعة:
ألا ليت قبري يوم تُقضى منيَّتي ... بتلك التي من بين عينيك والفم
وليت طَهوري كان ريقك كله ... وليت حنوطي من مشاشك والدم
ألا ليت أم الفضل كانت قرينتي ... هنا أو هنا في جنة أو جهنم
فقال عبد الملك لحاجبه: أعط كل واحد منهم ألفين، وأعط صاحب جهنم عشرة آلاف
وكذلك الأمر في منع عمر رضي الله عنه الأحوص والفرزدق والأخطل من الدخول عليه، فأما جميل وكثير فالأمر في منعهما غير ظاهر، لأنهما كانا من أصحاب ذلك الحب العذري السابق، ولم يكونا مثل ابن أبي ربيعة والأحوص والفرزدق والأخطل، وإن كان في بيت كثير ما يمكن أن يؤخذ عليه من الناحية الدينية ولكنها مؤاخذة ضعيفة لا يلتفت إليها، لأنه أسند السجود لعزة إلى أولئك الرهبان، وهم يدينون بعبادة الأيقونات والتماثيل، فلو أنهم سجدوا لعزة إذا رأوها لكان لهم في هذا شأنهم، ونحن لا نسأل في ديننا عن شأن غيرنا،
وهذا إلى أن الأمر محمول على المبالغة، والمبالغة ضرب من التجوز
وهذا ليس له محمل عندي إلا أن عمر رضي الله عنه كان لا يرى التساهل في شأن ذلك الحب العذري، وإن كان أخف ضرراً من الحب المستهتر، فهو في ذلك يأخذ جميلاً وكُثيراً بحب واقع قد شغلا به، وأمعنا فيه، وملآ بذكره أشعارهما، وصرحا فيها للناس باسم محبوبتهما، ومثل هذا لا يقبله أدب الإسلام وإن كان يحمد لأصحابه ما يأخذون به أنفسهم من العفاف
أما جرير فكان يتعاطى الغزل في الشعر قضاء لحق الصناعة الشعرية، ولم يكن يشتغل بالحب كما اشتغل به ابن أبي ربيعة وغيره من فساق الشعراء، ولا كما اشتغل به جميل وغيره من العشاق العذريين، ولا شيء أصلاً في تعاطي ذلك الغزل على ذلك النحو الصناعي، كما يفعل الآن في الروايات الغرامية، بشرط ألا يكون في ذلك شيء من الفحش الذي لا يبيحه دين ولا خلق. وقد مدح النبي صلى الله عليه وسلم بالشعر وفيه كثير من ذلك الغزل ومن ذلك غزل كعب بن زهير في قصيدته (بانت سعاد) وقد بلغ من أمره أن يقول فيها:
هيفاءُ مقبلةً عجزاءُ مدبرةً ... لا يُشْتكى قِصَرٌ منها ولا طولُ
تجلو عَوَارِضَ ذي ظَلْمٍ إذا ابتسمتْ ... كأنَّهُ مَنْهَلٌ بالرَّاحِ معلول
وقد سمع النبي صلى الله عليه وسلم من كعب ذلك الغزل على ما فيه من ذكر الأعجاز، والتشبيه بالخمر المعلول، لأن كعباً قال ذلك قضاء لحق الصناعة، ولم يصف فيه أمراً واقعاً، ولم يتحدث عن اشتغاله بالنساء أو بالخمر على مثل ما تحدث به الشعراء الفساق

وكذلك لا حرج في رواية ذلك الشعر بالغاً أمره ما بلغ، لأنه قد يكون في حفظه وروايته فوائد لغوية أو تاريخية، ومهما بلغ أمره فإنه لا يبلغ ما أجازه الإسلام من حكاية الكفر على طريق النقل؛ إذ حكم بأن ناقل الكفر ليس بكافر، وقد كان أبن عباس رضي الله عنه يروي شعر عمر بن أبي ربيعة على ما فيه من ذلك الحب الفاجر، والفسق الظاهر، ولا يعبأ بانتقاد الخوارج المتشددين في الدين عليه، لأن دين الله يسر ولا عسر، واعتدال محمود بين الجمود والتفريط

وإني أرى في الحب العذري رأي عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فهو عندي من الأمور التي لا ينبغي الاشتغال بها، ولكن لا بأس به إذا كان يراد لغاية حميدة كالزواج، فإذا لم يظفر صاحبه بزواج من يحبها فليقلع عن ذلك الحب، وليشتغل بما يفيده في هذه الحياة لأنه لم يخلق لذلك العبث الضاربة في نفسه، والضار بالمجتمع في أخلاقه وصيانة أعراضه، وإنما خلق للعمل النافع، وإيثار مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد؛ فإذا لم يمكنه أن يتغلب على نفسه في حبها، فليكتم فيها ذاك الحب، وليحفظها عن آثامه، وليصبر على تلك البلوى صبراً جميلاً ولو أدى به ذلك إلى إهلاك النفس، لينال في أخراه من الأجر ما يعوض عليه ذلك الحرمان في الدنيا، ولا يكون جزاؤه الحرمان فيهما معاً.

أما الذي قد يقترن بذلك الحب من شكوى الصبابة والتصريح باسم المحبوبة والخلوة بها وغير ذلك مما يفعله العشاق العذريون ولا يصل بهم إلى مجاوزة حد العفاف، فقد تساهل فيه بعض العلماء كما سبق ولم ير فيه بأساً. ومن ذلك ما يحكي أن ابن سحنون دخل على مالك فقال: يا إمام، اجعلني في حل من أبيات قلتها فيك، فقال وقد ظن أنه هجاه: أنت في حل من ذلك، فأنشده هذه الأبيات بين يديه:

سَلُوا مالك المُفتي عن اللهو والغِنَا ... وُحبِّ الحسان المعجباتِ الفَوَارِكِ

يُنَبِّئْكُم أني مصابٌ وإنما ... أُسَلِّي همومَ النفس عني بذلك

فهل في مُحِبٍ يكتم الحبَّ والهوى ... أثامٌ وهل في ضَمَّةِ المُتهالِكِ

فضحك وقال: لا إن شاء الله

وإني أشك في صحة هذه القصة، ولعلها كانت مع مالك من غير ابن سحنون، أو كانت مع غير مالك منه، لأن ابن سحنون لم يدرك مالكا، وأبوه سحنون هو الذي أدركه، ولكنه لم يجتمع به، وكان قد نشأ بالقيروان وأخذ عن علمائها، ثم رحل إلى مصر وسمع من ابن القاسم وابن وهب وأشهب وغيرهم، ثم رحل إلى المدينة ولقي علماءها بعد وفاة مالك رضي الله عنه.

والحق أن بعض تلك الأمور كالخلوة مما لا يصح التساهل فيه أيضاً، لأنها تعد من وسائل الزنا، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ولكنها لا تصل في الحرمة إلى حد الزنا، لأنه من الكبائر، أما هي فمن الصغائر. نعم قد تنفع عفة أولئك العشاق في تكفير تلك الصغائر عنهم، لأنه قد ورد أن اجتناب الكبائر مما يكفر الصغائر، كما قال تعالى (إن

تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريما)، ولعل هذا هو مراد من أفتى برفع الحرج عن تلك الأمور، فيكون مرادها أن إثمها يكفر عنهم، لا أنه لا إثم فيها، وفرق كبير بين الأمرين، لأن في رفع الإثم عنها إذناً بفعلها، أما تكفيرها بذلك فيبقيها على حرمتها، وليس فيه إذن بذلك الفعل، لأنه لا يصح لأحد أن يفعل ما حرم عليه اعتماداً على الوعد بتكفيره، وهذا إلى أن الإصرار على الصغائر قد يجعلها من الكبائر، فلا ينفع فيها ذلك التكفير، ولا يفيد فيها إلا التوبة عنها

وهذا هو رأيي في ذلك الحب العذري، وإذا كان فيه بعض القسوة على أولئك العشاق، فهو غاية ما يمكن أن يتساهل فيه معهم. وإني أرى أن هناك قوماً قد يقع ما يكون في ذلك الحب من الإثم عليهم أكثر مما يقع على ذلك العشاق أنفسهم، وهم الآباء أو الاخوة الذين يرون في زواج أولئك العشاق فضيحة أو عاراً، فيحولون بين زواجهم، ويعملون على إذكاء نار الحب بذلك المنع، وعلى وجود الفضيحة والعار من حيث يريدون الفرار منهما. وقد كان زواج أولئك العشاق هو السبيل إلى إطفاء نار ذلك العشق، وصيانة المجتمع من الاشتغال بأخباره وأحاديثه، وما فيها من هتك العرض، والاستهتار بتلك الصغائر. وإني أرى أن ما كانوا يفعلونه من ذلك ليس إلا من بقايا عوائدهم في الجاهلية فلا يقره الإسلام، ولا يأذن بتلك القسوة التي يدعو إليها الجهل،

بل يندب إلى ذلك الزواج، ويثيب كل من يعمل على إنصاف أولئك العشاق، وهذه هي أصوله وفروعه بيننا، وليس فيها ما يمكن أن يستند عليه في تلك العادة الآثمة؛ ومما يؤيد رأينا في ذلك ما نسوقه من هذه الرواية

روى المسعودي أنه كان بالمدينة فتى من بني أمية من ولد عثمان وكان طريفاً يختلف إلى قينةٍ لبعض قريش، وكانت الجارية تحبه ولا يعلم، ويحبها ولا تعلم، ولم تكن محبة القوم إذ ذاك لريبة ولا فاحشة، فأراد يوماً أن يبلو ذلك، فقال لبعض من عنده: امض بنا إليها، فانطلقا، ووافاهما وجوه أهل المدينة من قريش والأنصار وغيرهما، وما كان فيهم فتى يجدُ بها وجدهُ، ولا تجد بواحد منهم وجدها بالأموي، فلما أخذ الناس مواضعهم قال لها الفتى، أتحسنين أن تقولي:

أُحُّبكم حُبّاً بكل جوارحي ... فهل عندكم علم بما لكم عندي

أتجزون بالودِّ المضاعَفِ مثله ... فإن كريماً من جزى الودَّ بالودِّ

قالت: نعم، وأحسنُ أحسنِ منه. وقالت:

لِلَّذِي وَدَّنا الموَدَّة بالصِّعْ ... فِ وفضْل البادي به لا يُجازَى

لو بَدَا ما بنا لكم ملأ الأرْ ... ضَ وأقطار شامها والحجازا

فعجب الفتى من حذقها وحسن جوابها وجودة حفظها، فازداد كلفاً بها وقال:

أنت عذْرُ الفتى إذا هتك السِّ ... تْرَ وإن كان يوسف المعصوما

فبلغ ذلك عمر بن عبد العزيز، فاشتراها بعشر حدائق، ووهبها له بما يصلحها، فأقامت عنده حولا ثم ماتت، فرثاها، وقضى في حاله تلك، فدفنا معاً، وكان من مرثيته لها قوله:

قد تمنَّيْتُ جنة الُخْلدِ للخلْ ... دِ فَأدْخِلْتُها بلا استئهالِ

ثم أخرجت إذ تطمعت بالنع ... مة منها والموت أحمد حالِ

فقال أشعب الطامع: هذا سيد شهيد الهوى، انحروا على قبره سبعين بدنةً، وقال أبو حازم الأعرج المدني: أما محبٌّ لله يبلغ هذا؟

وأنا أقول: جزى الله عمر بن عبد العزيز عن ذينك المحبين خير الجزاء

عبد المتعال الصعيدي

على منهج الأغاني

بقلم أبي الفرج الإسكندراني

صوت

بأبي من حرَّم النوم على عيني وناما

بأبي من أضرم القلب اشتياقاً وهياما

فقضى الله علينا فنزحنا وأقاما

أذكري من ليس ينساك وإن لاقى الحماما

إن من نام لعمري يحسب الناس نياما

حدثنا الأستاذ أحمد رامي قال: إن هذا الشعر للدكتور ناجي، وفيه لحن للأستاذ محمد عبد الوهاب يضرب بكل أصابع اليدين على البيان. .

وحدثنا الدكتور زكي مبارك قال: إن الشعر ليس للدكتور ناجي، وإن للأستاذ رامي عذره الجلي في نسبته إليه؛ فالنفس الشعري متقارب بينه وبين العباس بن الأحنف. فكلا الشاعرين من شعراء اللهفات، تحس في أبياته حرارة أنفاسه، ورقة عواطفه. ولو أني كنت قد وضعت كتاباً عن شعراء القرن الثاني، لكان ذلك أجدى على القراء وأليق بي من كتاب (النثر الفني) في القرن الرابع، ولكن الفرصة لم تفت على كل حال. وإنّ من بدأ حياته الأدبية بالكتابة عن عمر بن أبي ربيعة، لجدير بأن يجعل للعباس بن الأحنف موضعاً في حياته الطويلة المباركة، إن شاء الله.

قال أبو الفرج: وهذا وعد ننتظر من الدكتور زكي مبارك وفاءه. ولقد عجبنا من إيثاره (الشريف الرضي) على العباس بتصنيفه كتاباً عنه أثناء إقامته في بغداد! فالشريف وإن جلّ قدره شاعراً , وسمت مكانته رجلاً، فإن العباس أشبه بأن يكتب عنه الدكتور زكي مبارك طبيب (ليلى المريضة في العراق). أو لعل اسمها ليلى العريقة في المراض، كما يزعم بعض الناس.

الدكتور إبراهيم ناجي وأخباره:

حدثنا الأستاذ صالح جودت قال: إن الدكتور ناجي غضب من نسبة رامي إليه هذه الأبيات
وقال: إن فيها تحريفاً، فصحة البيت الثاني:
بأبي من أضرم القلب اشتياقاً واهتياما
وصحة البيت الثالث:
فقضى الله علينا ... فشحطنا وأقاما
قال الدكتور ناجي: ولست أنا بالذي يقول: (اهتيام) و (شحط)؛ ولا بالذي يبدأ البيت بقول (بأبي) فهذه لغة أستسيغها منسوبة إلى أبناء عصرها، ولكني لا أقبلها من أبناء عصري. ولقد كان العباس رقيقاً دمثاً لما قال شحط، ولم يقل افرنقع؛ وقد كانت الكلمة الثانية تقال في عصره، فعمد إلى أرق الكلمتين. ولكن عصرنا فيه ما هو أرق وأعذب وأصدق في التعبير عن خوالجنا المهذبة؛ ولكن رامي (عفا الله عنه) ينسب لي من شعر القدماء ليرميني بالعدول عن مذاهب المجددين، وسأحاربه هو وأمثاله بمثل هذا السلاح حتى يستقيموا. ثم أنشد:
لأروين لهم من غير قولهم ... حتى أجدد فيهم عهد حماد
قال أبو الفرج الأسكندراني: والغريب أن الدكتور ناجي يذكر أحد الحمادين، ويتهدد بأن يسلك مسالكهم، ولا يرى أنه بذلك قد (شحط) عن التجديد. وقد همّ أبو الفرج بأن يبدي هذه الملاحظة، ولكنه خشي أن يؤخذ بها لو أذاعها. فإنه هو أيضاً يعارض كتاب الأغاني وينتحل لنفسه لقب: (أبي الفرج)
قال الدكتور زكي مبارك، وقد أدرك لفطنته ما جال بخلد الأسكندراني وإن لم يقله: لا عليك من ذلك، فالتجديد لا يكون إلا من الراسخين في العلم بالقديم. وهذا مارتن لوثر ما استطاع إنشاء المذهب البروتستانتي إلا لأنه كان قسيساً كاثوليكياً، وإنني ما أنشأت مذهب البروتستانتية في الأدب العربي إلا لأني أزهري
حدثنا الدكتور زكي أبو شادي. . . بل لم يحدثنا بشيء لأنه صاحب مجلة تتعرض للناس بالسوء.
وحدثنا صالح جودت قال: إن حماداً الذي يذكره الدكتور إبراهيم ناجي في قوله:
لأروين لهم من غير قولهمو ... حتى أجدد فيهم عهد حماد
ليس أحد الحمادين الذين يشير إليهم الدكتور زكي مبارك، ولكنه الأستاذ محمد علي حماد
محرر مجلة (الشعلة) فهو أقرب إلى خيال ناجي من هؤلاء الذين علت ذكرياتهم طبقات من غبار القرون. وما كان لناجي ولا لأحد منا نحن المجددين أن يلتفت هذا الالتفات، فنحن إنما نستمد الوحي الشعري من الحياة لا من الكتابة عن الحياة، ولا من الكتابة عن الكتابة عن الحياة. نحن نذكر حماد الشعلة لأننا نراه ونتصل به عن طريق الحواس، وهي صلة الفنان بالحياة؛ ولكننا لا نكتب عن العباسين لأننا لا نتصل بهم إلا عن طريق الكتب. . . والكتب نؤلفها نحن ويقرؤها غيرنا. . . إلا أن تكون بالطبع كتباً أجنبية، فدراسة ناجي لشكسبير أمر معقول، وليس كذلك ما كان قد يفعله لو لم يكن مجدداً فيدرس من يقولون إنهم أشباهه كابن الدمينة والعباس بن الأحنف.
قال الدكتور زكي مبارك: هذا بعض الفوارق بيني وبين ناجي ومدرسته الحديثة. فأنا منطيق ولا أرى كلام صالح يتمشى مع المنطق. أنا أدرس الحياة في حاضرها عن طريق الحس، وأدرس ماضيها عن طريق الدرس والخيال، وأدرس مستقبلها عن طريق التنويم المغناطيسي. ولقد أفدت من التنويم وما يتصل به من الدراسات أن صار في وسعي تعرف ما يجول بنفس محدثي من الأفكار والخواطر. وليس ذلك مجرد ذكاء، وإن كنت ذكياً وزكياً بالذال والزاي، ولكن عن طريق العلم والدرس. ولن تمر غير أشهر قلائل، فأجوز امتحان الدكتوراه للمرة الرابعة ولكنها ستكون في هذه المرة في (المازمارتيرم) وسيكون في استطاعتي أن أتعرف ما في الكتب دون أن أقرأها. فأكتب عن الشافعي مرة أخرى دون أن أعيد قراءة كتاب الأم، وأنقد شعر السيد الحميري، وإن كان شعره قد ضاع.
عود إلى حياة الدكتور ناجي
هو زعيم المدرسة الحديثة؛ ولهذه المدرسة طلبة وفيها مدرسون ولكن ليس لها دراسة ولا موضوع قابل للدرس. ولكن في التعليقات الشفوية المتفرقة على قصائد

الشعراء المعاصرين مادة لو جمعت لكانت موضوعاً طريفاً لها. وهذا بعض ما سنتناوله في هذا الكتاب
وسنتبع طريقة أبي الفرج الأصفهاني في تحقيق الرواية والإسناد. ولن نخترع ولن نلفق إلا أن يكون ذلك من مستلزمات الكتابة. وكذلك كان يفعل الأصفهاني
ولقد ننسب إلى شاعر من غير شعره لأنه كان الواجب أن يقول هذا، فإن حاد عن هذا الواجب فالذنب ذنبه هو ولا علينا أن نؤكد صدق الرواية. وسنضرب المثل المقنع بأن لنا الحق كله في ذلك
تتلخص الفكرة العامة لآراء المدرسة الحديثة في هذه النظرية: ما دمنا مجددين في اللغة العربية فالاقتباس عن الغرب تجديد لأنه في لغتنا سيكون جديداً. ولكن محاكاة العرب محرمة لأنها تكرار لما في هذه اللغة
إنهم لا يقولون ذلك ولكن أحسب هذا هو الذي يجب أن يقولوه. أما وقد قالوا غيره فالذب عليهم، وما دمت أدون آراءهم فهذه هي آراؤهم. أما الذي يقولونه فهو أنهم إنما يرون الجديد جديداً بصدوره عن انفعال نفسي جديد، وهم لذلك يزعمون أنهم ينكرون الاقتباس من الأدب الغربي كما ينكرون محاكاة العرب الأقدمين
ولكن الأمر لا يقف عند هذا بل حياة هذا الجيل مقتبسة من الحياة الغربية إلى حد كبير؛ فالاقتباس عن الغرب في الحياة ينشئ في الأدب اقتباساً أصيلاً لا يتنافى مع التجديد. وبذلك لا يختلف ما قلته عنهم في حقيقته مع ما يقولون، ولكن الذي ينكرونه من الإعراب عن الرأي الذي يدينون به يبيح محاكاة العرب والاقتباس من الغرب وعليهم القول وعليّ التوضيح
استطراد في الغرض من هذا الكتاب
وقبل أن نستأنف التحدث عن حياة الدكتور ناجي وشعره نقول إن أبا الفرج الأصفهاني كان يذكر شاعراً والموسيقار الذي لحن له. هذا في بعض العصور، وفي عصر آخر يذكر شاعراً ومن وقف الشاعر نفسه على مدحه أو هجوه، وفي عصر ثالث يذكر شاعراً وراويته، وفي عصر رابع يذكر شاعراً والأمير الذي يتولى رعايته أو يتولى خصومته
هذا بأن الشاعر في بعض هذه العصور كان يخشى على شعره من النسيان فيتخذ راوية. وفي عصر آخر كان لا يستطيع الحياة إلا في كنف أمير، وفي عصر ثالث لا يستطيع الحياة إلا مناوئاً مشاغباً، وهو في كل العصور على السواء محتاج إلى من يضع له ألحاناً لشعره، لأن الشعر غناء قبل كل شيء.
من أجل ذلك رأيت أن الشعراء المعاصرين ليسوا في حاجة إلى راوية فحسبهم من الرواية المطابع، وليسوا في حاجة إلى من يحميهم فللشعوب الآن ما كان للأمراء في سالف الزمان،
ولكن الذي يحتاج إليه الشاعر المعاصر هو الناقد النزيه.
ولقد وجدت بحمد الله هذا الناقد فسأذكر تاريخ شعرائنا وشعراء الأقطار العربية مشفوعاً بتاريخ ناقده وبنقده إياه. ومشفوعاً كذلك بتاريخ الموسيقار الذي لحن له.
عود إلى حياة الدكتور ناجي
هو طبيب متأثر بالثقافتين الإنكليزية والفرنسية عصبي المزاج ثائر الأعصاب مرهف الحس يكلمك فيهتز جسمه كله حماسة وشدة اقتناع
قضت حرفته بأن يكافح الموت في كل مريض وهو واسع الرجاء واسع الأمل. فرسالته في الأدب لا يمكن أن تكون كرسالة أدباء الهند في العصر الحاضر رسالة إذعان وتسليم. وعلى رغم الأمل والرجاء المستفادين من حرفة الطب فلا يستطيع أن يخلص من أثر المشاهدة للمريض والمكافحة للمرض. وإذا كان السيد يحاكي المسود كما يقول الاجتماعيون فشعر الدكتور ناجي في ساعة إخلاده إلى نفسه واستجماعه ألوان تأثره - شعره هذا يحاكي أنين مرضاه وتوجعهم
نوع الشعور الذي يبشر به هذا الطبيب الشاعر هو التفريج عن الهم بالتعبير عنه لذلك يعنيه صدق التعبير وهو من أدق الشعراء المعاصرين إبرازاً للفكرة محدودة بحدودها في تصوره، فليس في شرح شعره مجال للتأويل وليس فيه شيء من الغموض. ولكن مجال الحياة التي ينظر إليها وينقدها مجال شديد الضيق؛ وفي نفس ناجي ثورة مكبوتة منشؤها أنه لم يقل كل ما يريد أن يقول. فهو مع أمانته في الإفضاء

عما شعر به فيما قال لا يزال يختزن الكثير من التجاريب والمشاعر وبمنعه حرصه على صدق الأداء أن يقول اللفظ حائماً حول معناه أو قريباً منه أو شبيهاً به فيفرج عن نفسه بوسيلة ما بالتعبير عنها. وسيظل هذا الكبت ما دام محترفاً الطب التي تشغل الوقت كله والفكر كله، ولكنها لا تشغل كل المشاعر

هذا ما يقوله ناقده عنه وناقده هو الدكتور زكي مبارك فإن لم يكنه فقد كان الواجب أن يكونه

أما ملحنه فهو الشاعر الموسيقار صالح جودت

صوت

ليلى العريقة في المراض ... بيضاء شاحبة البياض
مصفرة العينين تت ... قل بالدلال وبالتغاضي
مكنونة ليست تعد ... من الطوال ولا العراض
فإذا رأيت ذبولها ... أبصرت نرجسة الرياض
وإذا سمعت أنينها ... شاقتك ضفدعة الحياض
أصغى فيبعث صوتها ... كل انشراحي وانقباضي

الشعر للدكتور ناجي وفيه لحنان أحدهما لم يسمع قط، والآخر لم يصنع بعد: وكلاهما من صنعة الأستاذ صالح جودت.

(يتبع)

عبد اللطيف النشار

التاريخ في سير أبطاله

أحمد عرابي

أما آن للتاريخ أن ينصف هذا المصري الفلاح وأن يحدد له مكانه بين قواد حركتنا القومية؟

للأستاذ محمود الخفيف

في مثل هذا الجو الذي كدرته دسائس الماكرين والطامعين، راحت وزارة البارودي تعالج ما كانت تشكو منه البلاد، ومن ورائها نواب الأمة يشدون أزرها، وإنهم ليعلمون ما كان يحيط بوطنهم من الكيد والإعنات.

وأحسن البارودي من أول الأمر بتزايد الجفاء بينه وبين الخديو. فما كان ليسيغ توفيق أن يصبح الأمر بينه وبين الوزارة قائماً على أساس غير ما ألف من مبادئ السيطرة ونوازع الاستبداد؛ ولكن الوزارة استعاضت عن معاونة الخديو بمؤازرة البلاد. . .

وكان أول ما واجهته الوزارة من الصعاب بطبيعة الحال هي مسألة الميزانية؛ أو بعبارة أخرى لائحة المجلس التي بسببها استقالت وزارة شريف؛ أو على الأصح أجبرت على الاستقالة.

ويجمل بنا أن نأتي بالحديث على سرده في هذه المسألة لنتبين إلى أي حد كان افتيات الدولتين على البلاد، وليرى الذين رموا حركتها الوطنية ورجلها بمختلف التهم مبلغ ما في مزاعمهم من جهل أو عدوان.

جاء في خطاب شريف باشا الذي تقدم به إلى المجلس بعد انعقاده؛ وقد خطت الحركة الوطنية خطوة واسعة بعد يوم عابدين قوله: (فإنه لم يحجر عليكم في شيء ما، ولم يخرج أمر مهم عن حد نظركم ومراقبتكم. إنما لا يخفاكم الحالة المالية التي كانت عليها مصر مما أوجب عدم ثقة الحكومات الأجنبية بها، ونشأ عن ذلك تكليفها بترتيب مصالح، وتعهدها بالتزامات ليست خافية عليكم، بعضها بعقود خصوصية، والبعض بقانون التصفية. فهل يتيسر للحكومة أن تجعل هذه الأمور موضعاً لنظرها أو نظر النواب؟ حاشا لأنه يجب علينا قبل كل شيء القيام بتعهداتنا وعدم خدشها بشيء ما، حتى نصلح خللنا، وتزداد ثقة العموم بنا، ونكتسب أمنية الحكومات الأجنبية. ومتى رأت منا تلك الحكومات الكفاءة لتنفيذ تعهداتنا بحسن إخلاص بدون مساعدتها. فنتخلص شيئاً فشيئاً مما نحن فيه).

بهذه الكلمة مهد شريف لخطته فيما يتعلق بلائحة المجلس، أو ما نسميه نحن دستوره، وعلى الأخص فيما يتعلق بالميزانية. ثم جاءت اللائحة تنص على أن: (لمجلس النواب أن ينظر في الميزانية ويبحث فيها، وتعتمد بعد إقراره عليها وعلى رئيس المجلس أن يبلغ ذلك إلى ناظر المالية لغاية اليوم العشرين من شهر ديسمبر بالأكثر).

ولا يجوز للمجلس أن ينظر في دفعيات الويركو المقرر للأستانة أو للدين العمومي، أو فيما التزمت به الحكومة في أمر الدين بناء على لائحة التصفية أو المعاهدات التي حصلت بينها وبين الحكومات الأجنبية).

هاتان هما المادتان: الثالثة والثلاثون، والرابعة والثلاثون؛ من لائحة المجلس. وبمقتضى أخراهما يحرم المجلس من النظر في نحو نصف الميزانية، لأن هذه الأبواب المستثناة من الميزانية كانت تقرب من نصفها.

ولقد كان المجلس يطمع في أن ينظر في الميزانية دون أن يستثني منها شيئاً ما دام هو القيم على حقوق البلاد. ولكن الحكمة قضت عليه أن يتواضع فيقبل لائحة شريف على ما بها من نقص.

ففعل ذلك ولكنه لم يفد من حكمته وا أسفاه شيئاً. . . فقد كبر على الدولتين أن ينظر المجلس في أي جزء من الميزانية، فرمتاه بالمذكرة المشؤومة التي كان من نتائجها ما رأينا من تطرف المعتدلين وثورة المتطرفين، والتقاؤهما جميعاً، وتمسكهما بالنظر في الميزانية مهما يكن من العواقب. الأمر الذي طاح بوزارة شريف، وأحل محلها وزارة البارودي. . .

وجاءت وزارة البارودي. فلم يكن أمامها إلا طريق واحدة: هي السير وفق رغبة النواب، والرأي العام الوطني في البلاد. فخطت تلك الخطوة مستندة إلى مؤازرة الأمة لها معتمدة على حقها. فكان ما قررته في مسألة الميزانية ما يأتي: (لا يجوز للمجلس أن ينظر في دفعيات الويركو المقرر للآستانة أو الدين العمومي أو فيما التزمت به الحكومة في أمر الدين بناء على لائحة التصفية أو المعاهدات التي حصلت بينها وبين الحكومات الأجنبية)

وترسل الميزانية إلى مجلس النواب فينظرها ويبحث فيها (بمراعاة السند السابق)، ويعين لها لجنة من أعضائه مساوية بالعدد والرأي لأعضاء مجلس النظار ورئيسه، لينظروا جميعاً في الميزانية ويقرروها بالاتفاق أو بالأكثرية).

ووافق المجلس على اللائحة الجديدة التي تقدمت بها إليه وزارة البارودي، وكان هذا الرأي الأخير، أعني تكوين لجنة من أعضاء المجلس مساوية في العدد لأعضاء مجلس النظار قد عرض كحل من الحلول على وزارة شريف. فأبت الدولتان قبوله؛ فلما قضت وزارة البارودي في الأمر حسب مشيئة النواب، ثارت ثائرة الدولتين اللتين جاءتا لنشر روح المدنية والحرية في الشرق!

ولقد جعلت الوزارة الأمر للأمة فيما إذا وقع خلاف بين المجلس والوزارة. فنص في دستور المجلس أو ما سماها اللائحة على ما يأتي:

(إذا حصل خلاف بين مجلس النواب ومجلس النظار، وأصر كل على رأيه بعد تكرار المخابرة وبيان الأسباب، ولم تستعف النظارة فللحضرة الخديوية أن تأمر بفض مجلس النواب وتجديد الانتخاب على شرط ألا تتجاوز الفترة ثلاثة أشهر من تاريخ يوم الانفضاض إلى يوم الاجتماع. ويجوز لأرباب الانتخاب أن ينتخبوا نفس النواب السالفين أو بعضهم).

وإذا صدق المجلس الثاني على رأي المجلس الأول الذي ترتب الخلاف عليه ينفذ الرأي المذكور قطعياً).

هذا هو الحل الذي عالجت به وزارة البارودي مشكلة الميزانية والذي من أجله حقت عليها لعنة الدولتين، وحق عليها عقابهما. مع أنه لا يمكن أن يكون هناك تساهل في مثل هذا الأمر، وفي مثل تلك الظروف من هذا الذي جرت عليه الوزارة.

هؤلاء نواب شعب يجتمعون باسمه للنظر في صالحه، فكيف يتسنى لهم ذلك إن لم يكونوا قوامين على ماليته وهي أساس كل شيء ودعامة كل إصلاح؟ وكيف يكون الحكم قائماً على أساس ديمقراطي إذا حيل بين نواب الأمة وبين النظر في الأموال التي تجبى من أفرادها؟

وإذا كانت لمصر ظروف خاصة ناشئة من ديونها التي لم يكن لأهلها يد فيها، فأي شيء كان يطمع فيه من نوابها أكثر من أن يتركوا ما يتعلق بالدين دون تدخل فيه؟

ولكن الدولتين كانتا تحاربان المجلس فحسب مهما بلغ من اعتداله وحكمته. كانتا تحاربانه، فتحاربان فيه الوطنية المصرية والقومية المصرية، لأنهما إن نمتا وازدادتا

قوة، ضاعت الفرصة، وخرجت مصر سالمة مما كان يدبر لها! أنظر إلى الاحتجاج الذي كتبه المراقبان الأجنبيان في 12 يناير سنة 1882 عندما علما نية النواب في وزارة شريف، قالا: (يظهر أن مجلس شورى النواب يتهيأ لأن يطلب حق تقرير الميزانية، ولهذا نرى من واجبنا أن نقول: إن إعطاء النواب هذا الحق ولو اقتصر على الإدارات والمصالح التي لم تخصص إيراداتها للدين يفسد الضمانات المعطاة للدائنين. لأنه سيكون من نتائجه الضرورية أن تنتقل إدارة البلاد من يد مجلس النظار إلى يد مجلس النواب).

ولا تسل عن مبلغ غضب هؤلاء الطامعين الكائدين لمصر من وزارة البارودي حينما حلت المشكلة على النحو المتواضع الذي بيناه، فلقد انطلقت ألسن الساسة منهم مع ألسن السفهاء من مراسلي الصحف بكل فاحشة وجارحة في الوزارة والنواب جميعاً على نحو خليق بأن تخجل منه الإنسانية. فهذا نظام موضوع بأسره تحت سيطرة جيش ثائر كما صوره كلفن في تقاريره؛ وهذه وزارة جامحة تسوق مصر إلى الخراب، وهؤلاء نواب لا يعرفون من معاني الوطنية إلا التعصب الأعمى فضلاً عن جهلهم وضيق عقولهم.

كتب ماليت يصف النواب: (إن ما يتظاهرون به من طموح إلى العدل والحرية قد انتهى بأن حلت سلطة الجيش الغاشمة محل كل سلطة مشروعة).

وقال كوكسن يصف قانون الانتخاب الذي وضعته الوزارة السامية: (إن الغرض منه في هذا البلد أن تكون كل المزايا الانتخابية لمن رشحتهم السلطة الحاكمة، والسلطة الحاكمة الآن هي سلطة الجيش).

وأوعز ماليت إلى وكلائه في الأقاليم أن يكتبوا تقارير عن مبلغ ما وصلت إليه الحل من سوء في البلاد، وأرسل تلك التقرير إلى حكومته، وبلغ من الجرأة على الحق، بل بلغ من صفاقة أحد هؤلاء الطامعين لتغلب الجشع الاستعماري على لبه أن يكتب يندد بإلغاء الكرباج. فقال وما أعجب ما قال: (إن الحاكم الشرقي إذا حرم كرباجه، وحظر عليه أن يسجن من يشاء عجز عن سياسة قوم اعتادوا منذ القدم أن يخضعوا لحكومة فردية قوية. إن الطريق الذي سارت فيه الحركة منذ عام، جعل الفلاح يعتقد أنه يستطيع الوصول طفرة إلى ما يسمونه له حرية، في حين أن ما اكتسبته هذه الحركة من قوة جديدة بإسلام أزمة الأمور إلى طائفة من الخياليين النظريين جعل أثرها في السلطة على وجه العموم أثر الماء تصبه على قطعة من السكر).

هذا هو ما قاله ذلك الإنجليزي الذي تفتخر دولته بأنها سبقت الدولة إلى الحرية، والتي ما فتئت منذ عهد كرومر في مصر تفاخر بأن معتمدها هذا هو الذي أبطل الكرباج في هذه البلاد!

وإنا لنسأل الذين يقرءون هذه المفتريات، والذين يتتبعون أساليب إنجلترا وفرنسا في الكيد لمصر - نسأل هؤلاء السادة - الذين يعلمون هذا، ومع هذا يعيبون على عرابي وزملائه تطرفهم: أكانوا يفعلون غير ما فعل عرابي وأصحابه إذا كانوا يحبون أوطانهم حقاً، وكانوا يعيشون في مصر في تلك الأيام؟

أما الذين كانوا يجهلون تاريخ هذه الدسائس التي كانت تبثها إنجلترا في مصر، وحملوا لجهلهم بها على عرابي ما حملوا مجاراة منهم لما أشيع عنه، فحسبنا أن نريهم حقيقة الأمر ونكل المسألة بعد هذا إلى فطنتهم وضمائرهم.

وما ندافع عن عرابي إلا لأننا نعتقد أنه ظلم، وأن الذين ظلموه هم أعداء البلاد الذين استباحوا ذمارها وألحقوا بها الذل والهوان، وما يجدر بمصري وبلاده فقيرة في الأبطال أن يشايع الذين حاولوا أن يمسوا بالباطل تاريخ رجل كانت البطولة في مقدمة صفاته.

على أنه ما كان لباطل أن يطمس نور الحق إلا أن يطمس ظلام الليل نور النهار؛ وهيهات أن يتفجر نور النهار ولا تذوب في أمواجه الوضاءة المشرقة ظلمة الليل، وإن تراكمت من قبل بعضها فوق بعض. . .

ولقد جعل الكائدون لمصر الجيش هدفهم فيما راحوا يشيعونه من مفتريات. أنظر إلى قول ماليت في تقرير له عن: (تزايد اختلال الأمن في البلاد لقلة اكتراث الأهالي بأولياء الأمور الملكيين، ويعزى ذلك إلى سلوك رجال الحزب العسكري الذين لا يعاملون زملاءهم الملكيين بالاحترام الضروري لإدارة البلاد، وقد أخذت الرشوة تعود إلى سابق

عهدها بين الموظفين، ومما يساعد على انتشارها كثرة التغيير والتبديل في كبار الموظفين). . . ثم يقول في وصف ما زعمه من الضيق الذي وقع فيه الفلاحون في سبيل الحصول على
المال: (ويعزو الملاك قلة رؤوس الأموال وما هم فيه من الضيق إلى سياسة الحكومة الحاضرة التي لا تبعث على الثقة بها، ويجهرون بأنهم إذا عجزوا عن دفع الضرائب فالتبعة واقعة على الوزارة).
وليس عجيباً أن يسلك كلفن وماليت وأشياعهما هذا المسلك في الطعن على الوزارة، وقد أدركا ما كانت تنويه حكومتهما من العمل على تمهيد السبيل للتدخل المسلح بعد هذا التدخل السياسي
ولقد كانت تلك المذكرة المشؤومة خطوة واسعة نحو هذا الغرض المرسوم. فبسببها كان لا بد أن تتفاقم الحوادث لتصل بالبلاد إلى كارثة الاحتلال. كتب قنصل فرنسا إلى حكومته يوم 29 يناير يقول: (إن الرغبة البادية على مجلس النواب من جانب في أن يصير برلماناً، والخطة القوية التي رأت الدولتان من جانب آخر أن تختارها، والتي كانت مذكرة (7 يناير) تعبيراً عنها، هما السببان الجوهريان اللذان اصطدم كل منهما بالآخر. فأوجدا الموقف الحالي). وكتب في يوم 6 يناير يقول: (يمكن أن يقال إن الانقلاب الذي أحثه مجلس النواب المصري جواب منه على مذكرة (7 يناير). فلقد أعلنا في هذه المذكرة أننا نحتفظ بالنظام الحالي ضد الجميع. فأجاب المجلس على ذلك بأن غيّر هذا النظام تغييراً جوهرياً. وبذلك وضعنا أنفسنا في موضع صارت الضرورة قاضية علينا فيه بأن نتدخل أو نعدل سياستنا).
وهذا الذي ذكره ذلك القنصل يصور الحال تصويراً صادقاً، وما كان موقف الدولتين يخفى على أحد من الوطنيين، وعلى ذلك يقضي الأنصاف على الذين يحكمون على أعمال رجال ذلك العهد، وفي مقدمتهم عرابي أن يضعوا في أذهانهم قبل كل شيء أطماع هؤلاء الساسة، وأن يصوروا تلك الأعمال على هذا الأساس.
(يتبع)
الخفيف
رسالة الفن
الرقص قديما وحديثا
للأستاذ محمد السيد المويلحي
ينظر الشرق في هذا الزمن إلى فن الرقص نظرة احتقار واستنكار لأنه لا يعلم عنه أو لا يحب أن يعلم عنه إلا أنه مجلبة اللهو والسرور، وإرضاء للغرائز الحيوانية، ثم هو يعتقد اعتقاداً يبلغ حد الإيمان - ولعله صادق - أن جميع محترفات الرقص من الطبقة الفقيرة التي لا تكترث لعوامل الشرف والتقاليد لا كثيراً ولا قليلاً. . . أولئك اللائى لا يرقصن لأنهن يجدن فن الرقص ويلممن بأنواعه الكثيرة، بل لأنهن يرقصن لملء البطون وستر الجسوم وإرضاء الرجال ليس إلا. . .!
هو لا يعلم أو لا يحب أن يعلم أن الرقص من أروع الفنون وأبدعها إن لم يكن أروعها وأبدعها جميعاً، فقد ظهر مع الإنسان الأول (على الأرض) من غير تعليم أو تدريب، ومن غير قواعد مرسومة أو أصول موضوعة، ومن غير أن يعرف أن هذا الذي يقوم به ويؤديه سيصبح مع مرور الزمن وكر الدهور فنّاً ككل فن آخر له قواعده وأصوله، وقيوده وحدوده. . .
فالطفل الصغير الذي لا يفرق بين الجمر والتمر، تراه إذا صفا ناغى وناجى وأخذ يهز جسمه، ويحرك رأسه، ويلعب بيديه في حركات بريئة منتظمة تعطي للناظر صورة بديعة (للرقص) الساذج الفطري الذي يجري مع الدم ويتحرك مع كل حركة للطفل حركات مضبوطة (موزونة) كأنما تعلمها وتلقنها عن مدرس ماهر!
والعجيب في الأمر أن تلك الحركات الطبيعية التي تصدر عن الطفل لو وزنت (فنيّاً) وقدر لها مثلاً (نواراً) زمنياً لكل حركة لرأينا أنها تجري على هذا النمط، وعلى هذا التقدير دون أن تزيد أو تنقص أو تخل بهذا الحساب الدقيق!
هذا الطفل بذاته لو غضب، أو خاف، أو تألم لعبر عن غضبه وخوفه وألمه بحركات تختلف تمام الاختلاف عن أختها، ولأعطانا صوراً مختلفة صادقة لهذا الفن الطبيعي

الذي يجري مع دمه كما قلنا والذي يسجل خلجاته تسجيلاً دقيقاً لأنه يقوم في هذا الدور مقام الكلام ومقام التعبير. . .
والصبي الصغير الذي لا يفهم من الدنيا إلا أنها أكل وشرب ولعب ولهو ويقظة ونوم تراه إذا سمع لحناً أو عزفاً (رقص) معه وتابع موسيقاه وتنقل معه من نغم إلى نغم ومن مقام إلى مقام بإتقان يثير الدهشة ويبعث على العجب والحيرة عند من لا يعلمون أن الصبي لم يفعل شيئاً أكثر من أنه أسلم حواسه وأدمج خوالجه حتى نسي نفسه ونسي كل شيء يحيط به إلا هذا اللحن الذي حرك هذا الشيء الخفي الذي يجري في دمه وهو الرقص. . .!!
والمرأة والرجل، والفتاة والشاب!! ما بال الجميع عندما يسمعون (الموسيقى) التي تلائمهم وتوافق ميولهم يتمايلون برؤوسهم ويضربون الأرض بأرجلهم ويحركون أصابعهم وأيديهم في حركات منتظمة مستمرة؟؟ إنه الرقص الذي يجري مع الدم والذي تؤديه الأجهزة العصبية في حركات غير إرادية!!
الذي يقولون عنه إنه ترضية للجن حتى تترك الأجسام أو تعفو عن أصحابها (والزار) فيبرءون من أمراضهم (وكساحهم)
لو أسقطنا من حسابنا الدجاج الأبيض (أبو منقار أحمر وذيل أصفر) والخروف البني الذي لا شية فيه، والحمام اليمني الذي يرضى عن صوته الجن، والدم الذي يشربه المريض ويلوث به ملابسه وجسمه. . . لو أسقطنا من حسابنا هذا والبندق والفستق والفطير والبلح، ألا يبقى غير الطبل والرقص المنتظم تتثنى له المرأة وتنقبض وتنبسط في حركات إيقاعية سليمة؟؟
قلنا إن الرقص فن فطري نشأ مع الإنسان من يوم أن خلقه الله وقد كان قدماء المصريين يستخدمونه في لهوهم وحزنهم، وحروبهم وقرابينهم، وعبادتهم لآلهتهم لأنه كان عندهم في منزلة التقديس. . . تحترمه الكهنة وتعتقد أن الآلهة لا تقبل الصلاة ولا القرابين إلا إذا سبقها، الرقص لذلك كانوا يسمحون به ويشجعون عليه. وقد بلغ أنواعه في الدولتين القديمة والحديثة أكثر من عشرة أنواع كل منها يقوم على أساس مكين من الفن الصحيح الذي نقلته أوربا عن أوائلنا وأهم الأنواع:
1 - الرقص الجميل، وكانت تقوم به النساء شبه عاريات إلا ما يستر عورتهن وكن يحلين صدورهن ونحورهن بالحلي والأربطة، ويرتدين بعد ذلك ثوباً شفافاً طويلاً وإن كان لا يستر شيئاً إلا أنه كان يزيدهن فتنة وسحراً، وكان رقصهن رقصاً مهذباً بديعاً راقياً يمتاز
بالبطء والرشاقة، وكان على شكل جماعات تتجه اتجاهاً واحداً الواحدة خلف الأخرى كما يتضح من الشكل رقم (1) وكان بعضهن يصفق ليحفظ الإيقاع الموسيقي.
2 - الرقص السريع، وكان يقوم به الرجال في حركات سريعة منتظمة قابضين بأيديهم على قطعتين صغيرتين من الخشب تقرع في أثناء الرقص قرعاً متتالياً سريعاً يتمشى مع حركاتهم ش (2)
3 - الرقص الفني (الكلاسيك)، ويمتاز بنشاطه ولونه الفني البديع وجماعاته المنتظمة. وهذا الرقص الذي ابتكره قدماء المصريين من آلاف السنين هو الذي نقلته أوربا الحديثة عنهم واستعملته في أوبراتها وسمته. .! ش (3)
4 - الرقص الحي، وهو أبدع أنواع الرقص القديم لأنه كان ترجماناً صادقاً للتفاعيل الطبيعية والخوالج النفسية فكان يمثل الانتصار والاندحار فيجثو المغلوب خاشعاً خاضعاً تحت قدمي الغالب كما ترى في الشكل رقم (4) الجزء الأيمن، وكان يمثل زقزقة العصافير، وتغريد البلابل ومداعبة النسيم للأغصان كما ترى في الشق الثاني من الشكل (4). . .!
5 - وهناك أنواع مختلفة عرفها قدماء المصريين، منها: رقص الحصاد وكان يقوم به الرجال وهم يصفقون بالأذرع المصفقة الواحد خلف الآخر في اتساق ونظام، والرقص بالآلات الإيقاعية كانت تقوم به نساء ذوات دل، وكن لا يرتدين إلا غلالات شفافة تنم عن جسوم غضة بضة يرقصن ويعزفن في آن واحد، والرقص بمتابعة الصاجات والرءوس المصفقة وكان الراقص غير العازف كما ترى في شكل (6) ضارب بالصاجات (الأول من اليمين) ثم راقص ومصفق وضارب بالرءوس المصفقة. . .
والرقص الحربي وتتمثل فيه القوة والعظمة، ويظهر فيه الجبروت

هذه هي أهم أنواع الرقص المصري القديم أما أهم أنواع الرقص الأوربي والأمريكي فهي:

الفالس، سلوفالس (بوستون) التانجو، الرومبا، الكاريوكا، الفوكس تروت، سلو فوكس، اللامبتوك، الشارلستون، الشّيمي، سونج، بج آبل، جافا، وان استب، توستبس (بازودوبل)، فايف ستبس، جيج، لانسبيه، كادرييه، بلوز، مازوركا، كلاسيك دانس، دانس سور بوانت، كونتننتال. . .!

وفيها القديم والجديد فيها المنقول عنا كما قلنا وفيها المنقول عن زنوج أمريكا كرقصة (الرومبا) وهي قريبة جداً من رقصة (شنجا) التي يرقصها العبيد والتي يسميها العامة من المصريين (شنجه رنجه). . .!

وأهم ما يلاحظ في هذه الرقصات كثرة اللف، والدوران، والحركة. والطابع الذي تمتاز به هو طابع النشاط والرياضة العنيفة أحياناً كرقصة الدانس سوربوانت وتقف فيها الراقصة طول الوقت على أصابع القدمين. . .!

على أن هناك رقصات داعرة ماجنة تشمئز منه الأخلاق، وتنفر منها التقاليد كرقصات البج آبل. اللانسييه والكارديه وتكون فيها البطن فوق البطن والصدر فوق الصدر والفم قرب الفم وتلعب فيها الحيوانية دوراً كبيراً ولا يقوم بها إلا الشباب والشواب الذين يفيضون بالحيوية الكاملة، وبالجرأة المستهترة وبعدم الاكتراث بما يقال أو يثار وتحرم هذه الرقصات بعض الشعوب الأوربية كالإنجليز

أما الرقص الشرقي والمصري الحديث ونعني بالحديث الذي نراه في هذا العصر فلا يخرج عن الرقص الإيقاعي الذي أدخلته وزارة المعارف في برامج مدارس البنات ورياضة الأطفال وهو رقص بديع أشبه بالألعاب الرياضية منه بالرقص، والرقص البلدي ويقوم به عامة الشعب وبخاصة من طبقة الصعايدة (والفتوات) وهو أشبه الأشياء برقص الحصاد الذي كان يؤدى في الزمن المصري القديم ويمتاز بعزف (الوحدة الثابتة)

وأما رقص الراقصات المصريات والشرقيات فلا شيء فيه من الفن أبداً، ولا غاية من ورائه، ولا غرض من أدائه إلا إرضاء الرجال والاستحواذ على (جيوبهم وقلوبهم)!

فالجمهور لا يصفق للراقصة ولا يشتد ويغالي في تحيتها والإشادة باسمها إلا بقدر ما وُهبت من جمال، وبقدر ما تتمتع به قامتها السمهرية من اعتدال، وبقدر ما توزع من بسمات، وبقدر ما تمنح من لثمات. . .!

فالرقص هنا لا يعتمد على فن أو ذوق أو رياضة، وإنما يعتمد على هز الصدور، ورج البطون، واستفزاز أحط الغرائز، وتنبيه (الحيوانية) تنبيهاً عنيفاً صاخباً يدفع الموظف الفقير إلى سرقة مال الحكومة ليتمتع ولو على حساب مستقبله وبيته وأولاده، ويحمل الفلاح الذي حصل أمواله أن يبددها ويصرفها ولو خرب بيته وطلقت زوجه، وشرد بنوه وبناته!

ويرمي إلى هاوية الخراب والدمار شبابنا الذي لا يعرف قيمة مال أتاه من غير كد أو جهد. . .

ويحفر حفرة الخيبة لكل طالب يسمح له والده بالتردد على هذه المباآت التي لا تعلمه إلا التفكير. . . لا في الدرس والفحص ولكن في حلاوة العينين، وسحر الشفتين ونار القلب والحب!

هذا هو رقصنا (الآن). وهو الذي تحميه الحكومة، وتحافظ عليه وتتغاضى عن صيحات العقل التي طالبت بإلغائه. . .

وهذا هو رقصنا الذي يستنزف أموالنا ويخرب بيوتنا ويدفع شبابنا إلى التخنث والتزين ثم الهلاك. . .

الحكومة تطارد الباعة الذين يكسبون (الملاليم) بعرق جبينهم ليصرفوها على أولادهم وزوجاتهم، ولا تطارد الراقصات اللاتي لا عمل لهن إلا الخراب لكل من يحتك بهن.!

الحكومة تحذف بعض المناظر الهينة اللينة من روايات بعض المصريين المساكين ولا تحذف هذه الدعارة وهذا الطاعون الذي يفتك بصغار تلاميذنا ومجانين وارثينا، والساذجين من عمدنا وفلاحينا. . .!

هذا هو الرقص عندنا ويا له من رقص لم يعلمه أو يلهمه إلا الشيطان!!

محمد السيد المويلحي

القصص
وحي نفرتيتي
معجزة الإيمان والحب
للأستاذ عزيز أحمد فهمي
مع الربيع - 1
في إبريل من إحدى السنين ولد أدولف، فانساق إلى الحياة مع الربيع
أول نسمة أنعشت رئتيه كانت مشربة بروح من العطر والطيب، وأول صورة وقعت على عينيه كانت مزركشة بزخارف صاغتها يد المبدع البديع، وأول صوت طرق أذنيه كان تنهيدة من نسمة رشيقة حنون، وأول ما رشف من عصير الحياة كان رحيقاً من روح الثمر الطيب الذي تتبرج به الدنيا في الربيع
ويا شقاء الذي يهبط الأرض في الربيع. . . أو. . . يا سعده؟ يتدلى إلى الدنيا فيراها أول ما يراها: باسمة راقصة، مرتلة فرحة، قد أسكرتها نشوة التسبيح. وهو ينطلق إليها وكله روح وكله شعور: لم يعشش فيه العقل، ولم يعفّن نفسه الحذر. . . فلا عجب إذا صدّق الدنيا وأحبها، ولا عجب إذا اطمأن لها، ولا عجب إذا بادلها تسبيحاً بتسبيح
وإن هو إلا حين، ثم يعقب الربيع صيف، ومع الصيف لفحات من سعير؛ ثم يتلو الصيف خريف، ومع الخريف أشباح من فناء معتم مخيف؛ ثم يعقب الخريف شتاء، ومع الشتاء صقيع من موت معربد ينخر الصدور
ولكن وليد الربيع يحتضن صورة الربيع، فمهما تلونت الحياة بين ذراعيه، ومهما أفاق لهل مع الحادثات فرآها الحرباء التي لا تثبت على لون. . فهو لا يزال يرجو منها الخير ويأمل أن تعاوده صورة الربيع
وإنها لتعاوده. توافيه وتبارحه؛ وعلى أمل لقياها وفي ذمة فرحتها يصبر على شقوتها وعلى وحشة ظلمتها
أحبها. ومن حبه لها استشف الحسن في قبحها، والخير في شرها، وما فيها من شر! وإن هي إلا صور!
ولكن الناس يعقلون! يعقلون أنفسهم وأرواحهم! وهم من شدة تعقلهم يتعثرون يا ليتهم حنوا كما جن وليد الربيع!
فنان - 2
في معسرة أحب أدولف أن يستكمل من لوازم العيش حاجته، وأن يصارع على صدر الزمان فاقته، فلم يمتشق إلا ريشته. . .
طرق أقرب الأبواب منه ولم يكن إلا باب الجمال والفن. . .
فرحب به الجمال، وأكرم الفن وفادته
حقاً إنه لم يكن في المصورين بارعاً مبرزاً. . . ذلك أنه روى من الفن سجعته وقوت صنعته، وما كان الفن إلا فطرته
محارب - 3
وزلزلت الأرض زلزالها، وأخرجت الأرض أثقالها، وصبت الأقدار أهوالها، فخف صاحبنا لها مشدوهاً يلاطم أوحالها، يغربل بالفن أشكالها ويلقف بالصبر أحمالها، فلانت ونامت وقد نال منها مضاعف ما قد أهدي لها
شرير - 4
صهره الزمن حتى لتكاد نفسه تسيل حسا، وتراكمت تحت قدميه التجارب فرفعته ورفعته حتى لتكاد تخرق السماء هامته.
حلق في جو يقصر عنه الترف والرغد. فلم يعد يرضى أن يعيش كما يعيش الناس، ولم يعد يطيق الحياة مستنقعاً بين جنتين، وإنما أرادها ساحة زاهية نيرة باسمة كالربيع، راقصة مرتلة مسبحة. فسالم الناس وسالم الأرض وسالم السماء
ما كان يبغي من هذه الدنيا غير ما يمسك به الرمق فما ملأ جوفه حتى سعى ليملأ سمعه بالنغم، وليملأ بصره بالصور. تدثر بالفن، وأغمض عينيه ونام على الصخب يسترجع الربيع إذا غاب عنه، ويستجديه الراحة إذا حضره
ولكنه لم يعتزم أمراً، ولم يخلبه هدف. فراح يخبط في الشرق وفي الغرب راضياً آمناً، ولكن رضاءه وأمنه شابتهما حيرة إذ كان يحس هتافاً يتلوى في نفسه غامضاً مبهماً مبعثراً

في جوانحه تعجز اللغة عن حشده وجمعه وإنشاده كلاماً ولفظاً، ولم يكن يحس شيئاً أهنأ من هذا الغموض البنفسجي الشفاف، فاستسلم له يداعبه ويناغيه متلمساً إفصاحه ودعوته

دعوة الحب - 5

كان الجمال يستهويه فيستقصيه في مجال السمع ومجال البصر ومجال الحس ومجال الوعي. فكان يتردد على رياض الجمال ما يغفل روضة، وكان يتعطف على معارج الحسن يُسري به فيها فيلمس من أسراره مالا يراه غيره، فكانت له عند كل جميل وقفة

والتقى هذا المستعشق في جولة من جولاته بتمثال رصد فيه فنان حساس لمعة من لمعات روح نفرتيتي فلم يملك إلا أن يسكن أمام التمثال وقد اختبل حسه وتذبذب بين نزعة الرقص للفنان والسجود لنفرتيتي ومبدع نفرتيتي

رآها أنثى قائدة موجهة فوقف بين يديها وقفة مرن عليها في الجيش. . . وسمعها تسأله:

- وماذا تريد أن تصنع؟

فقال: لا أدري

فعادت وسألته: ألست تحس شيئاً؟

فأجابها: إني أحس

فأمرته: أن لبّ نداء حسك

وسكتت، وشعر بها وكأنها تنصرف عنه أو تنخطف من تمثالها فاستأذن وانفرد

في الوحدة - 6

راح يقول لنفسه:

- أما أنها حدثتني وأني حدثتها، فقد حدثتني وحدثتها، وأما أن هذا المعروض للناس تمثال، فإنه تمثال لم يحدث أحداً ولم يحدثه أحد. فلا بد أنه تعرفني، ولا بد أنه اختارتني من بين زوارها، ولعلها تسللت من وطنها المستحي لتلقاني دون غيري، (هي) قطعت إليّ آفاقاً وآباداً فكيف أغفل عنها و (هي) تنتقل بين أعطاف الوجود باحثة عني. لابد أنها المكتوبة لي. . .

وإلا فما لي لم تعجبني امرأة. . . وما لي قد آمنت قسراً عني أنه لن تعجبني بعدها امرأة؟

إذن. . . فيا لقرب الحبيبة!

واللقاء بيدها. . . فيا رحمة الحبيبة!

عليّ أن أسترضيها. إنها طلبت مني أن ألبي حسي، فإلى أي شيْ قصدت. . . وأنا. . . بماذا أحس؟ وأي حس هو الذي تفيض به نفسي حتى ليخفى ما عداه من الأحاسيس؟ أما أنا. . . فإني محروم. إني أرى نقائص كثيرة ويخيل إليّ أني أملك إصلاحها ولكني غير متمكن من شيء أصنعه

ولست وحدي المحروم، فإني أشعر أن حولي كثيرين محرومون، منهم المحروم من قوته. بل إني محاط بجمع. . . بحشد. . . بجيش. . . بشعب من المحرومين. . . إني أعيش في وطن محروم. . . بل في جيل محروم مظلوم. واحتمال الظلم والحرمان نقص. . . ولعلها لا ترضى عن منقوص

فمن هو الظالم؟ أين هو؟. . .

وخرج أدولف من حديثه مع نفسه بأن عليه عبئاً ألقاه على كتفيه أهل جنسه من . . . الجرمان يريدون أن يتوحدوا. . .

وما أكبره من عبء!

معها مرة ثانية - 7

ودلف إليها مرة أخرى فوجدها تنتظر منه إشارة تعرف بها أنه قد حدد في ذهنه قيمة مهرها من مادة ومعنى. فأطرق خجلاً وقال:

- أليس عسيراً توحيد جرمانيا؟

- ما من شيء في الحياة عسير. وكل ما أردت ميسور. كان لي صهر، وكان يحب المال. . . ومع هذا فقد استطاع أن يوحد الله. . . وأنا. . . وقد كنت وثنية استطعت أن أعبد الله. . .

- وما لله ومالي؟ أترين أني جدير بصنع المعجزات؟ لقد مضى زمان المعجزات يا سيدتي
- إنك كسلان!
- كلا
- أثبت!
وانطفأ التمثال. . .
8 - مؤمن ونائمون
وبدأ أدولف الكفاح. فجمع حوله الشباب. . . وجاهد ما جاهد حتى استولى على ألمانيا. . .
وقضى هذا الدهر وهو يتردد على محبوبته فلا ينعم منها إلا بومضة وبسمة من علامات الرضى
حتى اشتاقت حكومة مصر إلى تمثال الملكة فطلبت من حكومة ألمانيا أن تعيده . . . إلى وطنه. . . يومئذ زارها فإذا هي ضاحكة تسائله:
- مالك؟
- إنهم يريدونك في مصر
- وما مصر؟
- وطنك
- وطني أنا؟ أنا وطني أينما كنت وإذ ما أكون. لست أحل أرضاً ولا أشغل مكاناً
- ولكنك كنت ملكة مصر
- ومصر الآن في زاوية من ملكي
- أي إنسان أنت؟
- كان الإنسان بعض أزيائي!
- فأي كائن أنت؟
- إنه كائن واحد!
-وهل يفهمونك في مصر. . . هل يحسونك؟ واضمحل أدولف وتخاذل. . . وقال !!. . .:
- لا يمكن. . . فلتبق هنا أيها التمثال فإني أرى فيك عجباً. . . واعتذر (هتلر) لحكومة مصر وقال إنه يحب الملكة المخلدة. . .
9 - الناس يسخرون
وطابت للناس سخرية وأضحوكة. . . وما أكثر المآسي التي يضحك منها الناس ويسخرون، وما أكثر العبر التي يمرون بها غافلين متجهلين!
فن نبع من فن وأفرغ في فن
درة من منح الله سجلها مؤمن يتعبد بالنحت، وتلقاها عاشق متيم بالجمال والحسن فاندلع رجلاً يبهر المتعقلين والمتفلسفين! إنه اندلع. . . وقال: إنه يحبها ولم يزد فسخروا منه. . . فما باله لو قال: إنه يحادثها. . .
منذ إذ أسرها!
10 - توت عنخ آمون
احتل الألمان (الرين) وعاد أدولف ليلتها إلى مخدعه متعباً مضني. وكان يحن إليها. وكان صادقاً في حنينه. فناداها فلبته فإذا هو معها، وإذا هي تسأله:
- أحسبك ارتحت الآن قليلاً؟!
- الحمد لله
- وأحسبك تريد جزاء؟
- لا. فقد تعلمت منك تناسي الجزاء
- إذن هيا معي
- إلى أين؟
- إلى وليمة صغيرة. . . ألا تحب أن تعرف توت عنخ آمون؟
- قد أتساقط بين يديه
- لماذا؟
- لأنه صاحب الحق فيك
- وهل مسست أنت حقه؟. . . تعال. . . فهو يريد أن يراك. . . وقادته إلى العرش

وقدمته إلى الملك
- هذا هو أدولف
- مرحباً. . . هل تشرب خمراً من خمرنا؟
- قد تروقني. . . ولكنكم قد تحسنون إلى لو أسمعتموني ترنيمة من ترانيم صلاتكم
- وماذا لو حيتك الملكة برقصة أو أغنية؟!
- قد تكون متعبة
- أظنه لا يتعبها ما يرضيك. . . أليس كذلك أيتها الملكة؟ ورفعت المائدة. . . ورفع الملك والملكة. . . وهبط أدولف وعاد إلى مخدعه محزوناً. . .
لقد كان يحسن أن يتقي هذه المقابلة. إنه لم يربح منها شيئاً إلا غيرة خاطئة صوبها إليه قلب صاحب حق
ولكن. . . لا. . . أو هل يمكن أن يكون قد طاب لها أن تعبث به. . . ولماذا لا تكون . . .
هذه الصلة كلها من أولها إلى آخرها مؤامرة دبرتها مع نفسها، أو أغرتها بها شيطانة عابثة. أو دبروها معاً
بدأ الشك والقلق يخزان نفسه
11 - يتخبط
إنهار المسكين!
كان قد أحس حبه المتجرد قد رسا به في مرفأ جديد من مرافئ الوجود: كله ربيع!
رسا فيه. وهم أن ينزل إليه فإذا به يضع قدمه في هذه الدنيا من جديد وفي بقعة من بقاع برلين.
إنه يحب برلين، ويحب ألمانيا. إنه وطني عنيف. ولكن حبه لوطنه لا يزيد على حبه لتمثاله. . . فهل التمثال هو المقصود بالحب؟
و (هي). . . قد قالت إن وطنها القديم لم يعد اليوم إلا جانباً من مسرحها الجديد. وهو لا بد أن يكافئها. . . ولا بد أن يضم إلى ملكه هذا المرفأ البعيد الذي رأى نفسه قد رسا فيه. . .
فما الطريق إليه؟. إلى أين؟. إلى المرفأ البعيد؟ أي مرفأ؟ وأين هو؟!
ويل أو طوبى لمن طلب البعيد!
12 - عتاب
في هذا الاضطراب الموجع القاسي أخطأ بعض أصحاب أدولف في حقه وفي حق كفاحه فقتلهم بيده. . .
وليس القتل بالفعلة التي يرتكبها الإنسان ثم يسهل عليه النوم. انتابه الأرق ليلتها وثارت به نفسه. كان صرعاه يحبونه، وكان هو يحبهم. حقاً إنهم أخطئوا، ولكن من في الناس
المعصوم؟ ثم من ذا الذي منحه السلطان على الأبدان والنفوس؟
أولا يمكن أن يكون هؤلاء الضحايا أبرياء. . . من يدري؟!
وكيف يقتل المتطهر البريء؟!
العين بالعين. والسن بالسن. وإذا كان في الغفران فضل ففضله للباذل الواهب.
فهل يغتفرها لنفسه؟. كلا. . . كلا. . . فهو إذن منقوص معيب، و (هي) لا تحب المنقوص المعيب. . .
هاهي ذي! تمد يدها بالمسدس إلية. . . مد هو أيضاً يده. تناول المسدس، ورفعه إلى رأسه، وأطلقه. فقد أرادت (هي) أن
يموت مكفراً عن خطيئته.
ولكنه كان قد استنفد الرصاص في رؤوس صرعاه. وكانت الطلقة كاذبة. نظر إليها يعتذر عن جرأته على الحياة بعد ما أرادت فإذا هي تقول:
- هل رأيت. . . ما كانت بك حاجة إلى قتل إخوانك بيدك. فالشر وحده كفيل أن يقتل المخطئين. . . لا تلطخ يدك بالدم بعد اليوم، ولا بالدنس. وليكن منذ اليوم سلاحك الصدق ودرعك الإيمان. . .
- ما هذا؟ كأني سأكف عن المضي في كفاحي. . . فأنا أناضل خصوماً كل منهم جبار عنيد. ولن أصل إلى ما تريدين مني إلا بعد مجزرة أردم بأشلاء قتلاها هذه الهوة التي تفصل ما بيني وبينك

- إذن فأنت لم تبلغ ما أريدك أن تكون. ولست إذن إلا كغيرك من المفتونين!
وغادرته يرتجف وهو يقول:
- كأنها تريد مني أن أقول للشيء كن. . . فيكون
تجربة - 13
وخانه خائن جديد من اخوته المقربين. . . فانطلق إليه. . . ولكنه أحسها تنطلق إليه معه. . . حتى إذا جاءه ربض أمامه، ومد إليه بالمسدس يده. فتناول المسدس الصديق الخئون وأفرغ رصاصه في رأس بدنه، وخر أمام صاحبه رمة لوثتها الخطيئة، وجثت روحه عند قدميها (هي) باسمة شاكرة إذ هونت عليها سكنى الرمم فاشترت بها براح الخلود. . .
فآمن أدولف بما هدته إليه صاحبته
ومع هذا فقد يحسبه حتى حواريوه من هواة الحروب
سر نحو الخاتمة - 14
إذن فالحق لا يقف أمامه شيء. والإيمان به هو الطريق إليه. ضمت ألمانيا النمسا. استولت ألمانيا على أراضي السوديت. . . وحدث وحدث، وأمم الأرض كلها كانت مشفقة مما حدث، ولكن أدولف أحدثه ولم يرق قطرة دم
وهو الآن لا يزال يغربل حقائق الحياة وحقوق الناس. وهو مشرف على الدنيا من صومعته المترفعة. . . أما إذا أقر كل حق في موضعه (فهي) راضية عنه. أما إذا طغى فقد تزوره مرة أخرى في مخدعه تعاتبه أو تعاقبه. . .
نفرتيتي ملكة مصر الخالدة لا تسمح أن يصيب بلادها السوء!. . .
(القاهرة في أول يونية سنة 1938)
عزيز أحمد فهمي
رسالة العلم
فلسفة ليبنز
إرجاع الحرارة والحركة إلى أصل واحد
للدكتور محمد محمود غالي
بقاء الطاقة يجد تفسيراً في حركة الجزئيات - عمل روبير ماير - المبدأ الثاني في الترموديناميكا - هذا المبدأ يقرر استحالة الحياة في مستقبل الزمن - كيف فسر بولتزمان المبدأ المتقدم - أول دعامة في فكرة الاحتمال والمصادفة.
قدمنا كلمة عن فلسفة جديدة يحاولون بها توحيد الظواهر الطبيعية في الكون والرجوع بها إلى قليل منها، وذكرنا أن كل محاولة في هذا السبيل تُعد تقدماً للإنسان يفوق العديد من الاختراعات التي تبهرنا أحياناً ولا يمكن أن نعتبر الكثير منها خطوة حقيقية في سبيل التقدم، وذكرنا حالة خاصة باكتشاف ليبنز من توحيد ظاهرتي الحرارة والحركة والرجوع بهما إلى ظاهرة طبيعية واحدة، وقد ذكرنا ذلك في معرض الكلام عن النظرية السينيتيكية للغازات والسوائل التي استعرضناها لنثبت للقارئ فكرة الجزيء، وشرحنا تجارب كوتون وموتون واكتشافهما للألتراميكروسكوب الذي نرى به رأى العين أثر ما تحدثه جزيئات السائل على الجسيمات الصلبة الكولويدية التي تتصادم مع هذه الجزيئات، فترى حركة الجسيمات مضاءة داخل نقطة من الماء كما نرى الطائرات في الليل تُضيئها أشعة قوية، وذكرنا أن العلماء توصلوا إلى تفسير هذه الحركة غير المنتظمة والدائمة للجسيمات الصلبة الموجودة داخل السائل، وحسروا الستار عن مشاهدة قديمة للعالم النباتي براون الذي شاهد هذه الحركة منذ سنة 1827 والتي يُروى أن الطبيعي الإيطالي سبالانزاني شاهدها من قبله
ونعود الآن إلى فكرة ليبنز، فللقارئ أن يطالبنا حتى كتابة هذه السطور بأن نقيم الدليل على فلسفته في إرجاع الحرارة إلى الحركة، هذه الفلسفة التي تقدمت اكتشاف براون وسبالانزي بأكثر من قرن، وتقدمت أعمال كوتون وموتون وبيران بقرنين
لقد أقامت العلوم الطبيعية على إثبات وحدة الظاهرتين والرجوع بهما إلى أصل واحد، من
الأدلة مالا يقبل اليوم جدلاً. وقد كان أول هذه الأدلة عن طريق أحد المبادئ الأساسية للعلوم وهو المبدأ القائل ببقاء الطاقة وعدم فنائها، هذا المبدأ يعزز أيضاً النظرية

السينيتيكية للحرارة بحيث أصبحت نظرية بقاء الطاقة دليلاً على فكرة ليبنز فضلاً عن إثباتها للنظرية السينيتيكية. ولقد كان ثاني هذه الأدلة تفسير بولنزمان لما يسمونه المبدأ الثاني للترموديناميكا وهو ما سنتكلم عنه فيما يلي، وهو أيضاً عمل على تحقيق النظرية السينيتيكية

أما القانون القائل ببقاء الطاقة الذي يعممه العلماء الآن في كثير من الظواهر الطبيعية فقد وجد أساسه في بادئ الأمر في الظواهر الميكانيكية حيث كان لروبير ماير الفضل في الكشف عن تحول الطاقة الحرارية إلى طاقة ميكانيكية تحولاً حقق وجود علاقة عددية بينهما بحيث تُعيّن دائماً كل كمية من الشغل الميكانيكي كمية من الحرارة تتناسب معها

يذكر كل الذين تخرجوا من كلية الهندسة التجربة المعروفة لتعيين المعادل الميكانيكي للحرارة المعروفة بتجربة جول ويذكرون أن طاقة ميكانيكية معينة ممكن قياسها بعجلة محملة تدور، ترفع حرارة مسعّرٍ وتنقل إليه كمية معينة من الحرارة تتناسب مع الطاقة الميكانيكية بحيث يكون بين الطاقتين نسبة ثابتة هي معامل جول المتقدم الذكر

هذا التحول من طاقة إلى طاقة كان انتصاراً لماير، إذ أصبحت الحرارة مظهراً من مظاهر الشغل الميكانيكي. على أن هذا التحول يجد تفسيره في النظرية السينيتيكية إذا اعتبرنا أن الحرارة هي هذه الكمية من الشغل الموجودة في الحركة غير المنتظمة للجزيئات الداخلية للسائل، أي هذه هي الطاقة الموجودة في بلايين المصادمات الصغيرة، بحيث أن الشغل الميكانيكي هو نتيجة حركة موحدة الاتجاه للجسم، معتبراً وحدة، أي نتيجة حركة جزيئاته متجهة اتجاهاً واحداً

وعلى هذا فتحويل الطاقة الميكانيكية إلى طاقة حرارية هو انتقال من حركة منتظمة إلى أخرى غير منتظمة والعكس صحيح، بحيث أن بقاء الطاقة وعدم فنائها دليل جديد على صحة النظرية السينيتيكية التي يصح أن نطلق عيها النظرية الميكانيكية للحرارة

أما عن الدليل الثاني لفكرة ليبنز من أن الحرارة والحركة أمر واحد فقد أتى عن طريق فكرة استحدثت في العلوم الطبيعية كان لها خطرها وأهميتها وكانت فوزاً جديداً للسينيتيكية،

هذه الفكرة خاصة بما يسمونه المبدأ الثاني في الترموديناميكا وهو المبدأ الذي يعين اتجاه الحوادث الطبيعية

كم من حوادث نعتبرها عادية لأننا اعتدناها فلا نسائل أنفسنا عن أسبابها. عندما تنفصل تفاحة عن شجرة فإنها تقع على الأرض بدل أن ترتفع إلى أعلى، ولقد كان الحادث عند نيوتن رغم بساطته لافتاً النظر وسبباً لأن نرث عنه اليوم مسائل من أعظم ما عرفه الإنسان من تفكير منظم، أجل، مسائل إن تزعزعت أركانها اليوم قليلا بعبقرية أينشتاين وغيره فما زالت لها مكانتها من الصحة فيما يخص الكثير من ظواهر الكون.

وهكذا عند السؤال عن سبب بعض المظاهر الطبيعية تتعين أمامنا معارف لها من الخطر والأهمية مالا يخطر ببال، فماذا يحدث مثلاً عندما تضع يدك على جسم ساخن؟ إن ثمة نتيجة حتمية هي ارتفاع في درجة حرارة اليد وانخفاض في درجة حرارة الجسم الساخن، فهل تساءلت مرة لماذا يحدث هذا؟ إننا نعلم جميعاً أنه عندما نضع جسماً ساخناً جداً على منضدة فإنه ترتفع حرارة الجزء من المنضدة الملامس لهذا الجسم ويقابل ذلك انخفاض هين في حرارة الجسم الساخن، ونعلم جميعاً أنه لم يحدث بتاتاً أن تفقد المنضدة شيئاً من حرارتها الأصلية لتزيد هذا الجسم الساخن حرارة على حرارته

هذا الموضوع، على بداهته، الذي يتلخص في انتقال الحرارة من جسم ساخن إلى جسم بارد، يعود بنا إلى فكرة أساسية في العلوم الطبيعية، وهي خاصة بتقسيم الظواهر إلى ظواهر عكسية أي ممكن تحولها من حالة إلى حالة كما يمكن العودة من الحالة الثانية إلى الحالة الأولى، وظواهر غير عكسية أي إن قبلت التحول من حالة إلى حالة فهي لا تقبل الرجوع إلى الحالة الأولى

ولزيادة الإيضاح نقول: يحوي الجسم البارد مهما بلغ من البرودة كمية من الحرارة، ومن الجائز أن نزيد في برودته باللجوء إلى وسائل طبيعية مختلفة، بحيث يفقد شيئاً من حرارته، وعليه فليس ما يمنع أن نتصور أن ينقل هذا الجسم البارد جزءاً من

حرارته إلى جسم حار، بحيث يرفع الجسم البارد حرارة الجسم الحار على حساب أن يزداد هو في برودته، ولا يتنافى هذا بحال مع مبدأ بقاء الطاقة السالف الذكر؛ ولكن مما يلفت النظر أنه لا بد من عملية خاصة وطاقة أخرى جديدة نصرفها ليكون هذا الانتقال جائزاً، فهو ليس
أمراً طبيعياً يحدث من تلقاء نفسه.

وهكذا لم يحدث أبداً أن فكر إنسان في أن يضع قطعة من الثلج ليرفع بها حرارة فنجان ساخن من الشاي، أو يضع عموداً ساخناً في وعاء به ماء بارد ليزيد في برودة الماء ويرفع حرارة العمود.

إن الذهن العادي لا يستسيغ ذلك، وهو يدرك بالبداهة أن عملاً كهذا ضرب من المحال، وهو يعلم بدون حاجة للرجوع إلى المعادلات الرياضية الصعبة أن قطعة الثلج تعمل على تبريد الفنجان الساخن، كما أن العمود الملتهب يعمل على تسخين الماء ويطفأ عادة فيه، بحيث لم يحدث أبداً لصانعي العجلات الذين يلجئون إلى تسخين الأطواق الحديدية قبل وضعها حول أجزاء العجلة الخشبية أنه عند وضع هذه المجموعة في الماء لتقلص الطوق الحديدي ويشد العجلة، أن برد الماء وازدادت حرارة الطوق، وإنما المشاهد أن يبرد الطوق ويسخن الماء وقد يبلغ الغليان

وهكذا تحتم المشاهدات البسيطة قبل أن تحتم العلوم والمعادلات العويصة أن ثمة نزولاً حتمياً واقعاً من الحرارة العليا إلى الحرارة المنخفضة وأن هذا السير وهذا الاتجاه موجودان في جميع العمليات الحرارية، ولا يتغير ما دمنا لا نلجأ إلى وسيلة خارجية وإلى استعمال طاقة أخرى. ولقد وضح الطبيعيون ذلك بإدخال فكرة يسمونها (الأنتروبي) وهي بالتعريف مجموع تكامل كميات الحرارة الصغيرة الحادثة أثناء الانتقال مقسومة على درجة الحرارة المطلقة، وقرروا أن (الأنتروبي) تزداد دائماً في كل العمليات الحرارية. وأود ألا يشغل القارئ نفسه بموضوع (الأنتروبي) فهي في الواقع طريقة رياضية للتعبير عن القانون الثاني للترموديناميكا هذا القانون الحراري البسيط الذي يلاحظه القارئ في كل مشاهداته اليومية والذي يحتم انتقال الحرارة من جسم عالي الدرجة إلى جسم خفيضها، تقرر كمبدأ عام يربط العلوم الحرارية بمعارفنا الطبيعية، ويقرر أن العمليات الحرارية تتم جميعها في الكون على طريقة التوزيع المتساوي لكل الكميات الحرارية المستعملة. ولئن كانت الشمس التي هي في الواقع المصدر البارز في حياتنا تفقد بالأشعة من وزنها ما يبلغ أربعة آلاف مليون طن في الثانية الواحدة فهي في طريق الفناء كما يعتقد الكثيرون من العلماء أو أنها تزيد حرارتها كما ذكر ذلك حديثاً في النشرات الأمريكية الأستاذ جاموه أي أنها في دور النمو، فإن حوادثها في كلتا الحالتين تسير وفق المبدأ الثاني للترموديناميكا - هذا المبدأ الذي يعين الاتجاه الحراري من الدرجات المرتفعة إلى الدرجات المنخفضة، ثابت لا يتبدل.

إنما يهمنا من هذا المبدأ الثاني أمران: الأمر الأول خاص بفلسفة الوجود والتطور ولا نتعرض أكثر من أن نقول إنه موضوع يدعو التأمل فيه إلى شيء من الأسف، إذ يدلنا هذا المبدأ الثاني على طريق السير الحراري فيما يتعلق بالكون الذي يسير وفق هذا المبدأ نحو نهاية محتومة، نهاية يسميها العلماء الموت الحراري وتفسير ذلك أنه عندما تتوزع الطاقة الكلية للكون توزيعاً متساوياً تصبح حرارة المادة المكونة لأجزاء الكون المختلفة متساوية. والذين تابعوا مقالاتنا الأولى في وصف الكون والحيز المتمدد وقلة ما به من مادة، يفهم أن هذه الحرارة تكون منخفضة بحيث لا تسمح لأي نوع من الحياة بالبقاء، على الأقل على الصورة التي نفهمها من الحياة والحركة.

والأمر الثاني خاص بعلاقة هذا المبدأ الثاني بالنظرية السينيتيكية. والواقع أنه لم يكن عسيرا أن يتوصل الطبيعيون إلى هذا المبدأ الثاني الذي يشترك في مشاهدة نتائجه اليومية الشخص العادي بقدر العالم الطبيعي، ولكن كان على الطبيعيين أن يجدوا لهذا المبدأ تفسيراً يلتئم مع بقية المعارف الطبيعية، وقد كان لبولتزمان الفضل في أن يجد هذا التفسير الخاص بانتقال الحرارة من جسم حار إلى جسم أقل منه حرارة وعدم إمكان العملية العكسية باللجوء إلى النظرية السينيتيكية، وبذلك وجد بولتزمان مرة أخرى وبطريقة غير مباشرة دليلاً جديداً على فلسفة ليبنز. وها نحن أولاء نسرد في هذه الأسطر لمحة من تفكير بولتزمان وأثره على النواحي الطبيعية الأخرى:

عندما نقول أن لهذا الجسم حرارة معينة فإننا نعني أن لجزيئاته سرعة معينة، هذه السرعة للجزيئات ليست متساوية فمنها ما هو سريع ومنها ما هو بطيء. إلا أن ثمة متوسطاً عاماً لسرعة جميع الجزيئات تمثل حركته المتوسطة، وهذا المتوسط العام يدل على حرارة الجسم، هذه السرعة المتوسطة تزيد كلما زادت حرارة الجسم وعندما يتلاصق جسمان حرارتهما مختلفة فإن جزيئاتهما تتصادم وتختلط - على أن كل أنواع الحوادث جائزة وقوعها في كل تصادم فردي، حتى أنه من الجائز أن يصطدم جزيء بطيء مع آخر سريع وينقل إليه سرعته الخاصة به كما يحدث هذا بين كرتين من كرات البلياردو، ولكن مثل هذا الحادث نادر وأكثر شيوعاً منه مصادمات من نوع آخر تتساوى فيها السرعات على قدر الإمكان بحيث أن التعادل الحراري يحدث من تعادل سرعات غالبية الجزيئات المختلفة، وهكذا تكون نتيجة التلاصق نزولاً حتمياً في حرارة الجسم الحار وارتفاعاً حتمياً في حرارة الجسم البارد

على أن أعظم ما في هذا التفسير وهذا القانون الثاني للترموديناميكا أنه يحول هذا الاقتراح السابق إلى قانون إحصائي، ويتساءل القارئ كيف يصبح قانون أساسه إحصاء مبني على المصادفة قانوناً طبيعياً ثابتاً؟ ولكن لم يعد لهذا السؤال محل بعد أن انتصر منطق المصادفة في معظم فروع العلوم الطبيعية ولا سيما بعد (الكوانتا) وما أدخلته من تعديلات جوهرية على معارفنا، وكما يقول ريشنباخ في محاضراته التي أذاعها في برلين: عندما ندخل في حجرة فإننا لا نسائل أنفسنا بتاتاً عن الخطورة التي قد تحدث من اجتماع جميع جزيئات الأكسجين الموجود في الحجرة في ناحية منها واجتماع جزيئات الأزوت في الناحية الأخرى، بل إننا على ثقة دائماً ومهما طال الزمن أن الهواء داخل الحجرة خليط من الأكسجين والأزوت وأن اختلاطهما نتيجة لمصادمات فردية بين جميع جزيئات الأوكسجين وجميع جزيئات الأزوت، ولا شك أنها حادثة نادرة جداً لا يجيزها العقل أن يجتمع في ناحية من الحجرة كل الجزيئات المكونة لأسرة الأوكسجين وفي الجزء الآخر الجزيئات المكونة لأسرة الأزوت، بحيث يصبح جزء هام من الحجرة خانقاً الآخر مساعداً على الاشتعال

ومهما يكن من الأمر فإنه عندما تكون حادثة ما جائزة ولكنها قليلة الاحتمال فإننا لا نأخذها في محل الاعتبار في تسيير حياتنا اليومية - وهكذا نسافر للاصطياف في جبال لبنان العليلة الهواء أو حول بحيرة ليمان في سويسرا المعروفة بمناظرها الخلابة، رغم ما يدل عليه الإحصاء من أنه في مجموع ألوف البواخر المسافرة في العالم يتعرض حتماً بعضها للغرق أو الحريق. وهكذا تراني على استعداد لتكوين ابني ضابطاً بحرياً، لو وجدت لدينا مدارس بحرية منظمة تدرس العلوم الصحيحة، وذلك لأجعل منه شخصاً نافعاً يعتمد عليه، رغم أن الحوادث سجلت في هذا الشهر ثلاث حوادث تأسف لها الإنسانية، وهي غرق ثلاث غواصات لأمريكا وإنجلترا وفرنسا، بحيث أنه يعد ضرباً من السخف أن أمنعه من تعلم البحرية وأسمح له في نفس الوقت بالخروج من المنزل لشراء حاجياته أو للتوجه إلى المدرسة، لأنه في هذا أيضاً معرض ليلقى حتفه بطريقة أسرع من احتمال غرقه في غواصة قد تغرق في كل بضعة آلاف من الغواصات

وهكذا نغادر جميعاً منازلنا في الصباح بشيء من التفاؤل يملأنا ثقة أننا سنلتقي بأطفالنا في المساء، ولو أن بين مئات الألوف الذين يخرجون كل صباح من مدينة القاهرة يوجد دائماً وكل يوم واحد أو اثنان يُصاب بحادث يحرمه من هذا الاجتماع إن فهمنا للطبيعة انقلب رأساً على عقب بهذه الفلسفة الجديدة التي أدخلها بولتزمان، فلأول مرة دخل في العلوم الطبيعية قانون إحصائي مبني على مجموع الحوادث الفردية واحتمال حدوثها بدل القوانين القديمة التي كانت لا تستند على هذا النوع من التفكير

من هنا بدأ مجال جديد في جميع المسائل؛ ومن هنا تغلغلت فكرة بولتزمان في النواحي الأخرى للعلوم الطبيعية. ولا شك أنني عندما فكرت يوماً أن أحصل على حالة الماء المشبع بالطمى من دراسة فوتو كهربائية للماء الحامل للطمى كنت متشبعاً بنوع من التفكير الإحصائي لبولتزمان، على رغم أن كل العوامل كانت تؤول بنا إلى الابتعاد عن الطرق النيفولومترية وهكذا رغم العوامل المنفرة استعملت الطرق الضوئية بنجاح

لمعرفة كمية ما بالنيل من طمى ووضعت مع العالم بيروه أخيراً أساساً لمعرفة كمية الطمى عن بعد وبدون الالتجاء لاستعمال الأسلاك الكهربائية على أن هذا النجاح مرتبط بوجود متوسط عام لملايين الجسيمات من طمى النيل، متوسط يدل على كمية هذا الطمى ونوعه

وهكذا باتت العلوم كلها مسرحاً لنتائج الإحصاءات الفردية وحساب الاحتمالات، والذين يستطيعون اليوم أن يتتبعوا (الكوانتا) وما أحرزته من نجاح ويفهمونها كما فهمها (بلانك) يدركون أن التقدم الإنساني آتٍ من هذه الناحية الجديدة الخاصة بالاحتمال والمصادفة والتي يظل اسم بولتزمان علماً فيها

ونختم هذا البحث الخاص بالجزيء بأن نذكر للقارئ أن النظرية السينيتيكية قد ساعدت جدياً على فكرة الجزيء وأفهمتنا كنهه وطبيعته بدرجة بلغت الآن اليقين، بحيث أن ترك السينيتيكية يجعلنا عاجزين عن تفسير أحد قوانين الطبيعة وهو قانون بقاء الطاقة وعدم فنائها، ونكرر للقارئ أن السينيتيكية ساعدت أمثال بولتزمان على تفسير بعض مظاهر

الكون مما جعلتهم يتوصلون إلى نوع جديد من التفكير الطبيعي بات أساساً لمعظم معارفنا

وهكذا انتصرت فكرة ليبنز هذا الفيلسوف الألماني الذي طالع في سن صغيرة جدا أعمال كيبلير وجاليليو واستوعب ديكارت، والذي درس الرياضة في جامعة أينا

وسنقيم الدليل بعد الذي كتبناه عن تقسيم الجزيء إلى ذرات ونرى كيف مهدت الكيمياء وانتصرت في هذا الباب وسندخل بالقارئ بعد حين في الذرة ليرى هذا العالم العجيب، والعظيم نسبة لما يحدث في داخله، وبهذا يلمح طرفاً من أعظم ما نعرفه عن الكون.

محمد محمود غالي

دكتوراه الدولة في العلوم الطبيعية من السوربون

ليسانس العلوم التعليمية. ليسانس العلوم الحرة. دبلوم المهندسخانة

البريد الأدبي

وفاة العلامة الشيخ محمد شاكر

في صباح الخميس الماضي نُعي الإمام الجليل والعالم المحقق الشيخ محمد شاكر، فشق نعيه على المسلمين والعلماء وأهل الأدب؛ فقد كان - رحمه الله - رجلاً من رجال الجيل، وعلماً من أعلام الدين، وداعية بعيد الصوت صريح القول قوي البرهان.

ولد المرحوم الشيخ محمد شاكر في مدينة جرجا، في منتصف شوال سنة 1282 (مارس 1867)؛ وحفظ بها القرآن، وتلقى مبادئ العلم؛ ثم رحل إلى الأزهر فتلقى العلم عن كبار الشيوخ في ذلك العهد، وعين أميناً للفتوى مع الأستاذ الجليل المرحوم الشيخ العباسي المهدي في مارس سنة 1890. وفي فبراير سنة 1894 تولى منصب (نائب محكمة مديرية القليوبية، ومكث به حتى اختير قاضياً لقضاة السودان في سنة 1900؛ وهو أول من ولي هذا المنصب، وأول من وضع نظم القضاء الشرعي في السودان على أوثق الأسس وأقواها، وله في هذه الفترة تاريخ عجيب لا يُذكر مثله لغير علماء الصدر الأول في الدولة الإسلامية.

ثم عين في سنة 1904 شيخاً لعلماء الإسكندرية فوضع الأساس لتنظيم المعاهد الدينية الإسلامية كي تؤتي ثمرها وتخرج للمسلمين رجلاً هداة يعيدون للإسلام مجده في أنحاء الأرض.

وفي إبريل سنة 1909 صدرت الإرادة السنية بتعيينه وكيلاً لمشيخة الجامع الأزهر فبذر فيه بذور الإصلاح، وتعهد غرسه حتى قوى واستوى، أو كاد. . .

ولأمر ما لم يستمر في منصبه ذاك فاختير عضواً في الجمعية التشريعية في سنة 1913، واعتزل منصبه في مشيخة الجامع الأزهر

ومن يومئذ خرج المرحوم الشيخ شاكر من قيد الوظيفة إلى ميدان الجهاد الحر - في سبيل الله وفي سبيل مجد الإسلام.

فكانت له في الصحف مقالات رنانة ما يزال صداها يتردد بين أقطار العربية.

ولما نهضت الأمة المصرية نهضتها الكريمة في سنة 1919، كان من دعاتها الأولين

ومن أشهر قوادها فكتب في الشئون السياسية عشرات من المقالات في الصحف المصرية، دلت
على بعد نظره وصدق فراسته. على أنه إلى ذلك لم يكن له ضلع مع حزب من الأحزاب السياسية في مصر، مؤثراً أن يكون قياده في يده لا يُصدر إلا عن رأيه.
وبجانب ذلك لم يدع مسألة شرعية أو اجتماعية مما يصطرع الرأي حوله إلا قال فيها قالته، صادعاً بما أمر الله، معرضاً عن المنكرين. وكان من أبرز صفاته: صلابته في الدين، وشجاعته في الرأي. واستمر - رحمه الله - على النهج، مجاهداً لإعلاء كلمة الله؛ لا يرى لأحد عيه سلطاناً، ولا لنفسه عليه حقاً، حتى أصابه الفالج فألزمه فراشه منذ ثماني سنوات، يعاني ألام المرض صابراً محتسباً راضياً عن ربه، حتى غاله الموت فذهب إلى جوار الله راضياً مرضياً.
ولقد نشأ أولاده نشأته؛ فما منهم إلا له مقام معلوم بين المجاهدين لمجد الإسلام والعرب. فإلى أولاده الأساتذة: الشيخ أحمد شاكر، والشيخ علي شاكر، وإلى صديقنا الأديب الأستاذ محمود محمد شاكر، ومحمد محمد شاكر؛ وإلى سائر أسرته والمسلمين عامة، تتقدم أسرة (الرسالة) بالتعزية، راجية ألا يُخلي الله مكان الفقيد العزيز بجهاد أبنائه، وتولاهم الله بتوفيقه وبره. . .
وفاة الأستاذ فليكس فارس
تنعى أسرة الرسالة إلى قرائها عضواً من كرام أعضائها كان له في كل ميدان من ميادين الأدب جولة وفي كل باب من أبواب الإصلاح مدخل؛ ذلك هو المحامي المدره والسياسي الخطيب والكاتب الشاعر الأستاذ فليكس فارس. توفاه الله في منتصف الساعة الثامنة من صباح يوم الثلاثاء الماضي في مستشفى المواساة بالإسكندرية عن سبعة وخمسين عاماً وهو أنشط ما يكون عملاً لأسرته ولقومه
ولد الفقيد الكريم في المريجات من قرى لبنان العليا من أب عربي وأم فرنسية؛ ثم درس الحقوق وثقف الأدب في اللغتين العربية والفرنسية؛ ثم زاول المحاماة وجاهد في سبيل استقلال بلده وحريته بلسانه وقلمه، فكان حيناً من الدهر موضع الخشية للسلطان ومعقد الرجاء للشعب. ثم اختلف الزعماء بينهم في وجهة النظر، ونبا العيش بالزعيم الكريم فوفد على مصر منذ ثماني سنوات وفادة الغائب على أهله، فأكرمت مصر مثواه وجعلته كبير المترجمين في بلدية الإسكندرية بمرتب قدره خمسون جنيهاً مصرياً في الشهر، فعاش
الأستاذ هو وأمه الحنون وزوجه المخلصة وأطفاله الثلاثة عيش الخفض والدعة.
وتوثقت صلاته بأدباء الإسكندرية والقاهرة فكان من عوامل الإذكاء في نهضة الأدب والفكر فيهما. ثم اتصل سببه بأسرة الرسالة والرواية فأختصهما بمترجماته ومساجلاته وخطراته، حتى اشتدت عليه في الأشهر الأخيرة وطأة مرضه الدخيل وهو تضخم الكبد فذهب كما يذهب النور من العين والسرور من القلب والأمل من الحياة. والله وحده يعلم مقدار ما خلف من الأسى المسعور في نفوس أهله وأصدقائه وقرائه
كان الأستاذ فليكس فارس من أنبل الناس خلقاً وأنقاهم ضميراً وأوفاهم ذمة؛ وكان مفطوراً على الخلال العربية النبيلة والروح الشرقية السامية؛ يدعو لها ويدافع عنها ويفخر بها. وكانت الأديان السماوية الثلاثة قائمة في نفسه مقام الوحدة المتصلة لا يرى بينها فرقا ولا حداً ولا معارضة؛ فهي في رأيه ثلاث طرق تؤدي إلى غاية واحدة. لذلك كانت كتابته في الإصلاح الديني والاجتماعي ترضى كل نفس وتساير كل مذهب. وكانت صلته بالرافعي رحمه الله تشبه أن تكون صلة عقيدة لا صلة مودة. والناظر في كتاب (رسالة المنبر) يجد الأستاذ فليكس فارس بروحه وأدبه ورأيه وفلسفته. رحمه الله رحمة واسعة، وألهم أهله وصحبه الصبر على فقده
مجلة الدراسات الإسلامية
بعث إليّ أستاذي وصديقي المستشرق لويس ماسينيون بالمجلد الرابع لسنة 1938 من المجلة التي يخرجها في باريس على أربع دفعات في السنة. وهذا المجلد نفيس جداً، لأنه موقوف على إثبات المؤلفات المختلفة التي ظهرت في السنوات الأخيرة وموضوعاتها فنون إسلامية ومسائل عربية. وهذا المجلد يتم ما عرضت له مجلدات سابقة. وهكذا يقف المطلع والباحث على مجرى التأليف الخاص بالمشرقيات سواء في الغرب أو في الشرق. . . وأين هذا في مصر ونحن ندعي زعامة؟!

وثبت تلك المؤلفات على هذا الترتيب: تاريخ العلوم في البلدان الإسلامية - الفلسفة والكلام - فقه اللغة والتربية (وفي فقه اللغة ما يتعلق بالعربية والبربرية والفارسية والتركية) - الاجتماع وأحوال الأمم (وفيهما ما يتصل بتحول البلدان الإسلامية، والمرأة، والزواج، والمسكن، والبداوة، والنظام، والعرف، والاقتصاد السياسي، ثم العادات والعقائد الشعبية، ثم
الجغرافية البشرية) - الأدب العربي والفارسي والتركي واليهودي: العربي - القانون والتشريع والتدبير - العقائد والتصوف والفرق - الاستعمار الأوربي وسياسة العصر - الفهارس والسير
وقد ذُيّلت طائفة من المؤلفات بتعليقات موجزة مفيدة من حيث إنها ترشد القارئ إلى أوجه النفاسة والطرافة وتنبهه إلى مواطن الذلل أو الضعف. وفيمن قاموا بالتعليقات لويس ماسينيون، ور. بلاشير صاحب كتاب (المتنبي)
ومن المؤلفات العربية المثبتة: (نشوء اللغة العربية ونموها وابتهالها) للأب أنستاس ماري الكرملي، و (إحياء النحو) لإبراهيم مصطفى و (زاد المعاد) لميخائيل نعيمة (لا نعجة كما ورد خطأ) و (مع المتنبي) لطه حسين. (وقال المستشرق بلاشير في هذا الكتاب إنه مقتبس مما ألف في المتنبي حديثاً في أوربة)
بشر فارس
الرمزية وأبو تمام
تفضل الأستاذ أحمد عبد الرحمن عيسى فأشار إلى ما ذكرته عن أبي تمام والرمزية، وأرجو أن يثق الأستاذ أني لم أقصد الانتقاص من الرمزية فإني أعرف أنها ضرورة من ضرورات النفس البشرية في بعض حالاتها ومظاهرها ويستوي في الالتجاء إليها العالم والجاهل، ويستوي الفيلسوف والشاعر والرجل من عامة الناس. ولعل من ألذ التجارب السيكولوجية أن يدرس الباحث مظاهر الرمزية في أفكارهم اليومية وأقوالهم وآرائهم التي يرجعونها إلى العقل والتفكير، وقد لا تكون من مظاهر العقل الظاهر، فإن بعض المبادئ والآراء ولأقوال إنما هي رموز تؤثر في إحساس كثير من الناس وتدعوهم إلى أعمال الخير والشر من غير إدراك لها بالعقل الظاهر. والرمزية في الأدب الحديث في أوربا في بعض نتاجها محاولة دراسة ما في أعماق النفس مما لا يصل إليه التفكير المعتاد. ولكن هذه الدراسة ليس لها طريق سلطاني معروف، فهي قد تكون إبعاداً في بحر الظلمات على غير هدى. وليست كل الرمزية محاولة الفنان المسيطر على فنه وإرادته في عمله، بل لها أسباب كثيرة، وقد تكون أشبه بإشارات الثقافة التي تشير إلى حقائق ثقافية معروفة، أو
أشبه بمصطلحات الفلاسفة أو رموز الكيميائيين، وقد تكون مزاجاً في النفس ناشئاً عن مزاج الجسم. وهي قديمة جد القدم لجدها في أقوال كهان المعابد وكاهناتها ونجدها في الأحلام المشهورة. وقد استخدم الرمزية أدباء كثيرون، فجيتي يستخدمها وشلي يستخدمها وإبسن القصصي يستخدمها، وكل منهم يستخدمها أكثر من أبي تمام ولكنهم لا يحسبون في حساب أدبائها. ولا مانع عندي من عد أبي تمام من أدبائها، ولكنا إذا فعلنا ذلك عددنا خلقاً كثيراً من أدبائها وسلكنا في زمرتهم من لم يتفق الأدباء على عدهم من أدبائها. ويستطاع عد كتاب الرؤيا في الإنجيل من كتبها وهو أقدم من زمن أبي تمام. ومعاذ الله أن نطالب أبا تمام بغير ما قال. وقد كان شكسبير وشعراء عصره يكثرون من استخدام رموز التشبيهات والكنايات والاستعارات كما فعل أبو تمام ولكنهم لم يعدوا من شعرائها. وقد وجدت أن أحسن استعمال للرمزية هو استعمال كبار الشعراء الذين لم يعدوا من مذهبها. وقد كان أحسن استعمال لأنهم لم يقطعوا الصلة بين فنهم وبين العقل الظاهر كل قطع، فإن استخدام العقل الظاهر ألزم وأوجب عند بحث ظلمات النفس، كما أن استخدام الملاح لفنه وعقله وعلمه ألزم وأوجب في بحر الظلمات. فإذا كان هذا أيضاً هو رأي الأستاذ أحمد عبد الرحمن عيسى فلا مانع عندي من عد أبي تمام من شعراء الرمزية
عبد الرحمن شكري
بشر فارس ومصطلحاته
صديقي بشر أديب جليل وبحاثة قدير في الموضوعات التي يديرها سنين في ذهنه ويستقصيها على وجوهها بالبحث والتمحيص

على أن الدكتور بشر فارس بعد ذلك لا ينجح في الكتابات الارتجالية ولا يصلح كاتباً ناقداً ولا يفلح في أن يكون صاحب مطالعات ونظرات تفيد (البوادر واللوامع) التي تطوف بالنفس من حين إلى حين. ولا أدل على ذلك مما تجده من التهافت في الكتابات من المرتجلة التي يكتبها

نقول هذا بمناسبة ما كتبه في العدد الأخير من (الرسالة) تعليقاً على ردي على نقده لدراستي عن (توفيق الحكيم)؛ وأنت إذ تقرأ كلمته هذه تجده قد انصرف عن الردّ على الإشكالات التي أثرتها حول صميم نقده والمآخذ الجمة التي أخذتها على كلمته إلى بحث شكلي يدور حول افتراض اقتباسي لبعض المصطلحات الفنية التي يرى هو أنه استحدثها في اللغة العربية؛ على أنني ألاحظ على هذا الكلام الجديد الذي خرج به ناقدنا المفضال أشياء أجملها فيما يلي:

أولاً - يعتقد صديقي بشر وحده دون كل المشتغلين بصناعة القلم في الشرق والغرب أن المصطلحات الفنية التي يضعها كاتب ملك لهذا الكاتب وحده.

ثانياً - هذا الاعتقاد الخاطئ الذي يدين به صاحبنا يتناقض مع الفكرة العلمية التي ترى أن قيمة المصطلحات الجديدة ليس في وضعها وإنما هو في جريها على أقلام الكتاب.

والدكتور بشر فارس واقع في هذا التناقض حين يقول: (إني فرحت فرحاً شديداً لما أصبته يستعمل في مقاليه بعض تراكيب جرت على قلمي. . . وما فرحي إلا لأني أرى تراكيب اجتهدت في سياقتها تنطلق على الأقلام، وكنت أخشى أن تموت يوم ولدت).

ثالثاً - إذا كان الدكتور بشر فارس يرى حياة المصطلحات في جريها على الأقلام، فهل هو يرى من المحتم أن يشير الكاتب فيما كتب إلى مواضع الاصطلاحات التي استحدثها والتي أخذها عن غيره والتي دارت على الأقلام فجاءت على قلمه؟ وإذا كان لا يرى ذلك بدليل أن كثيراً من الاصطلاحات تجري على قلمه وهي ليست له وهو لا يشير إلى أصحابها فيما يكتب، فما معنى ما كتبه في نقده لكتابنا (بعدد الرسالة 310 ص 1176) من أن التعبير (جملة صلات اجتماعية) الذي جرى به قلمنا في بحث لنا عن (خليل مطران) أصلاً في كتابه (مباحث عربية؟) وما معنى ما كتبه في العدد الماضي من الرسالة؟

رابعاً - نسب إلينا الدكتور بشر فارس أننا اقتبسنا تعبير (جملة صلات اجتماعية) منه وأننا لم نحسن استعماله في مجرى حديثنا. وقد رددنا على الوجه الأول فقلنا إن هذا التعبير قد دار على قلمنا قبل صدور كتابه. ورددنا عليه في الوجه الثاني من اعتراضه فبينا وجه اتساق التعبير وموضعه من الكلام.

خامساً - خرج الناقد في رده بسؤال عجيب عما إذا كان ورد في كلامنا في المصدر الذي أشرنا إليه، وهو مجلة المعهد الروسي للدراسات الإسلامية، ما ينظر لتعبير (جملة صلات اجتماعية) في الفرنسية، وهذا تعنت لا معنى له خصوصاً وإن الجملة الفرنسية التي تنظر

إليها العبارة العربية ليست من خلقه فقد تكرر ذكرها في كتابات العالم الاجتماعي (دوركايم)، وخصوصاً في مجموعة محاضراته عن علم الاجتماع في السوربون (ص 11، 13، 24، 26 مثلاً) ومن الأعاجيب التي أتى بها الدكتور بشر فارس أنه ذهب يتحدث عن درايتنا بالفرنسية وهل هي تمكننا من الإيمان بمثل هذا التعبير كأن اللغة الفرنسية وقف عليه، وكأن محاضرات (دوركايم) لم يطالعها سواء من الذين لم يرحلوا إلى باريس، ولم يدرسوا في السوربون!

سادساً: قال الدكتور بشر فارس إن عبارة: (توفيق الحكيم يحكم سرد الرواية ويحكم الحوار ويحكم تهيئة البيئة؛ فهو صاحب فن حقاً) التي وردت في موضعين من دراستنا عن (توفيق الحكيم) (ص 357 من العدد ص 368 س 19 - 21 من طبعة مجلة الحديث وص 65 من العدد وص 76 س 19 - 21 من الطبعة الخاصة) مقتبسة منه. ولكن هل اقتبسناها منه ولم نشر إلى مصدر الاقتباس؟ هذا هو الموضوع في الواقع. وأنا اترك الرد على الدكتور بشر فارس في هذه النقطة لنفسه؛ فهو يقول في نقده لدراستنا عن (توفيق الحكيم) في الرسالة (عدد 310 ص 1175 س 25) بعد أن يذكر هذه الجملة: وقد استشهد الدكتور أدهم فيما كتبه بهذه الجملة ص 357) فما معنى الاستشهاد؟ معناها أن العبارة أسندت إلى الدكتور بشر فارس، وإذاً فلا معنى لتعنت الدكتور بشر فارس واتهامنا بالاقتباس الذي يغفل الاستشهاد بالمصدر وإثارة المظنة

بكتاباتنا
سابعاً: ارتأى الدكتور بشر فارس أن عبارتنا التي جاءت في الكلام عن الرمزية عند توفيق الحكيم (ص 361 من طبعة مجلة الحديث وص 19 من الطبعة الخاصة) ذات أصل من مسرحية (مفرق الطرق) ومن مقال له عن الرمزية في الرسالة وقد يكون هنا له بعض الحق - لا كله - فليس يبعد أن تكون عبارته عن الرمزية قد علقت بذهننا فجرت على قلمنا ونحن نعرض الفكرة الرمزية عند الأستاذ توفيق الحكيم وذلك بحكم قاعدة التداعي. ومما يدل على صحة هذا التفسير ما يرى من التغيير والاستبدال في بعض المصطلحات التي تضمنتها العبارة المذكورة مما يدل على التمثيل من حيث إدارة العبارة في ذهننا وتصحيح بعض المصطلحات فيها
وأنا إذ أختم هذه الكلمة لا يسعني - وأنا أردّ الأشياء إلى مواضعها - إلا أن أذكر الدكتور بشر فارس بأنني حين أكتب بالعربية فأنا أكتب بلغة غير لغتي الأصلية، ومن هنا بعض ما يجيء على قلمي من التعابير الخاصة لكتاب اليوم استدراكاً للمعنى الذي في ذهني من تعابيرهم، ولعل في ذلك بعض ما يعتذر عني في بعض ما رأى وارتأى والسلام
إسماعيل أحمد أدهم
الكتب
الإجابة
لإيراد ما استدركة عائشة على الصحابة
(ألفه الإمام الزركشي وحققه الأستاذ سعيد الأفغاني)
لأستاذ جليل
الأستاذ سعيد الأفغاني - العربي الشامي - مسلم مؤمن، وفاضل مهذب، وأديب محقق. ومن رافقه وقرأ أقواله ظهرت له هذه السجايا والمزايا ظهوراً. ومن خطط هذا السيد أن يُطرف فيما يؤلفه أو ينشره من كتب السلف الصالح. فمصنفه (أسواق العرب في الجاهلية والإسلام) مباحثه طريفة ذات جدة. وكتاب (الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة تأليف الإمام بدر الدين الزركشي) الذي أظهره اليوم - من أدلة هذا الإطراف. وترجمة الكتاب تنبئ عن غرابته وطرافته
وإن نشر الباحث مؤلفاً قديماً محقَّقاً إياه تحقيق الأستاذ الأفغاني كتاب الإجابة - تأليف وزيادة
وعملُ العرب الحق في هذا الوقت - كما يرى اكثر الفضلاء - إنما هو نشر مصنفات الأقدمين ونقل مقالات الغربيين ليس غير. وحجتهم في ذلك أن (البعث) حديث وأن ليس عند العرب اليوم شيء، والمفلسون المساكين لا يكلفون إنفاقاً ولا جوداً. على أن حاجة العرب العظيمة إلى ذينك النشر والنقل لا تصدعن التأليف فلينشر الناشرون، ولينقل الناقلون مكثرين. وليؤلف - بعد البحث الطويل، والتفكير الكثير، والمراجعات المديدة - المؤلفون مقلين، مقلين
الحديث والمحدثون في الإسلام عالم عجيب. وليس في الدنيا أمة عنيت بما يعزى إلى صاحب نحلتها عنايتنا بأحاديث النبي الأعظم (صلى الله عليه وسلم). ومما بعث على هذه العناية الكبرى أن أقواله (صلوات الله وسلامه عليه) لم تقيد بالكتاب في أيامه، ولا أيام صحابته (رضوان الله عليهم أجمعين)، ولم يكن إلا الألسنة تنقل أو تروى (وكان علم الشريعة في مبدأ هذا الأمر نقلا صرفا) وعند أهل السنة أحاديث غابت عن الأمامية، ومع
هؤلاء مالا تعرفه الجماعية، السنية؛ وعند الصوفية والإسماعيلية، وسائر الباطنية غرائب تنكرها تانك الفرقتان. وقد بذل الأئمة (رحمهم الله) المجهود بل فوق المجهود في أمر الحديث ورجاله. وأبدعوا في مؤلفاتهم وتفننوا، وأفردوا كل نوع منه ومن رواته بالتصنيف المجوّد (لقد كانوا في دقتهم وتحريهم وإحاطتهم وإتقانهم معجزة الله في المؤلفين)
ولقرأ من أراد الإلمام باهتمام القوم (مقدمة ابن الصلاح) في علوم الحديث. ففيها إشارات مبينات؛ وهي في هذا الفن مثل مقدمة ابن خلدون في بابها كما قال فقيه الشام كله العلامة الأستاذ الشيخ محمد بهجة البيطار.
ومن أدلة الإحفاء أو الاستقصاء في شأن الحديث، ومن بدائع التنويع والتخصيص فيه كتاب (الإجابة) الذي صنفه الإمام الزركشي، وحققه وأنشأ مقدمته وعلق عليه وفهرسه

الأستاذ سعيد الأفغاني.
يبدأ الكتاب بمقدمة الأستاذ الأفغاني، وقد نشر شيئاً منها في الجزء (304) من (الرسالة) الغراء. ذكر فيها مطنباً موضحاً مكانة أم المؤمنين (رضي الله عنها) وسيرة المؤلف وأسماء مصنفاته الثلاثة والثلاثين.
وتجيء بعد ذلك مقدمة المؤلف وقد أشار إليها محقق (الإجابة) في مقالة له في الجزء (19) من (الثقافة) الغراء.
ويليها الباب الأول في سيرة (السيدة): (رضي الله عنها) وخصائصها وفيه فصلان:
الفصل الأول في ذكر شيء من حالها؛ وقد جاء فيه:
(رُوى لها عن النبي (صلى الله عليه وسلم) ألفا حديث، ومئتا حديث، وعشرة أحاديث)، (2210).
وفي هذا الفصل: (. . . عن أبي يونس مولى عائشة أم المؤمنين أنه قال: أمرتني عائشة أن أكتب لها مصحفاً، ثم قالت: إذا بلغت هذه الآية فآذني (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) فلما بلغتها قالت: (وصلاة العصر) سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم)
قلت: وفي (كتاب المصاحف) للسجستاني نحو من هذا. وعزا الزمخشري هذه الحكاية إلى حفصة (رضي الله عنها) وقال في كتابه أيضاً: (روي عن عائشة وابن عباس (رضي الله عنهم) والصلاة الوسطى وصلاة العصر بالواو، وقرأت عائشة (رضي الله عنها) والصلاة
الوسطى بالنصب على المدح والاختصاص) وعزتها رواية في الطبري إلى أم سلمة (رضي الله عنها) وذكرت رواية فيه حميدة ابنة أبي يونس لا أبا يونس. وقد أورد الإمام الطبري في تفسيره (جامع البيان) روايات كثيرة، كلها تبين للصلاة الوسطى فقط منها هاتان الروايتان:
(قتادة عن أبي أيوب عن عائشة أنها قالت: الصلاة الوسطى صلاة العصر. . . عن . . . سليمان التيمي عن أبي أيوب عن عائشة مثله)
فالسيدة (رضي الله عنها) مفسرة. وفي الجزء 211 من (الرسالة) الغراء كلمة أشارت إلى ما أشارت إليه، وجاء في ختامها هذا: (إن كان كتاب كل أمة أو ملة فيه تبديل وتحريف وفيه زيادة ونقصان، وفيه الخطأ والخطل، وكان كاتبه غير صاحبه. ف (ذلك الكتاب لا ريب فيه) (إنّا نحن نزّلنا الذكرَ وإنّا له لحافظون).)
الفصل الثاني في خصائصها (رضوان الله عليها) وهي اثنتان وأربعون، وقد بين المؤلف كل خاصية من هذه الخصائص أو الخاصيات. قال في السادسة عشرة: (اختاره صلى الله عليه وسلم أن يمرض في بيتها. قال أبو الوفا عقيل (رحمه الله): انظر كيف اختار لمرضه بيت البنت، واختار لموضعه من الصلاة الأب، فما هذه الغفلة عن هذا الفضل والمنزلة؟!)
وقال في السابعة والعشرين: (جاء في حقها (خذوا شطر دينكم عن الحميراء) سألت شيخنا الحافظ عماد الدين بن كثير عن ذلك فقال: كان شيخنا حافظ الدنيا أبو الحجاج المزي (رحمه الله) يقول: كل حديث فيه ذكر الحميراء باطل إلا حديثاً في الصوم في سنن النسائي)
قلت: بطلان ذلك المقول ظاهر مثل الشمس، وقد قال الإمام العلامة الكبير (علي القاري) في رسالته في (الموضوعات): (ونحن ننبه على أمور كلية يعرف بها كون الحديث موضوعاً) وذكر أموراً كثيرة: (منها أن يكون الحديث باطلاً في نفسه فيدل بطلانه على أنه ليس من كلامه كحديث (إذا غضب الرب أنزل الوحي بالفارسية، وإذا رضي أنزله بالعربية) وحديث (خذوا شطر دينكم عن الحميراء)، وحديث (من لم يكن له مال يتصدق به فليلعن اليهود والنصارى)، فإن اللعنة لا تقوم مقام الصدقة أبداً)
ويلي هذا الفصل الباب الثاني والباب الثالث في استدراكاتها (رضي الله عنها) على أعلام
الصحابة (رضي الله عنهم). وهذان البابان هما معنى الكتاب. وفي الأول أربعة وعشرون استدراكا، وفي الثاني أحد عشر استدراكا. وقد ذيلهما محقق الكتاب بأربعة استدراكات، قطفها من (مسند أحمد) - رحمه الله - وهي تدل على عظم تفتيشه واحتفاله في البحث.

جاء في الباب الثاني من الاستدراكات على عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما): (أخرج البخاري ومسلم من طريق عمرة بنت عبد الرحمن أن زياد بن أبي سفيان كتب إلى عائشة. . .)

فهذا الإمام المهذب المحقق يذكر أخا سيدنا معاوية (رضي الله عنه) كما ترى، ونابتة في هذا العصر تغبى عن النسبة الحق وتضلها أساطير في أمثال كتاب (العقد).

إن زياد بن أبي سفيان (رضى الله عنهما) من أبطال العرب ومن رجال الإسلام الكبار؛ فيعلم ذلك من يجهل.

ومن استدراكاتها على ابن عباس (رضي الله عنهم): (ردت على ابن عباس قراءته قوله تعالى (وظنّوا أنهم قد كُذبوا) بالتخفيف فأخرج البخاري في التفسير عن أبي مليكه قال ابن عباس (حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم كذبوا) خفيفة ذهب بها هنالك، وتلا (حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله؟) فلقيت عروة بن الزبير فذكرت له ذلك، فقال: قالت عائشة: معاذ اللّه! والله ما وعد الله رسوله في شيء قط إلا علم أنه كائن قبل أن يموت، ولكن لم يزل البلاء بالرسل حتى خافوا أن يكون من معهم يكذبونهم، فكانت تقرأها (كذّبوا) مثقلة)

قلت: القراءة بكسر الذال والتخفيف هي المشهورة، ولها معنى غير الذي خمنه ابن عباس وقرى بكسر الذال مشددة وبفتحها مخففة ومشددة

وفي (جامع البيان) للطبري (الجزء 13 الصفحة 47) روايات ذوات فوائد في قراءات هذه الآية وتفاسيرها.

وقال (الكشاف) في قراءة ابن عباس وتفسيره: (وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) وظنوا حين ضعفوا وغلبوا أنهم قد أخلفوا ما وعدهم الله من النصر، وقال: كانوا بشرا، وتلا قوله (وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله) فإن صح هذا عن ابن عباس فقد أراد بالظن ما يخطر بالبال ويهجس في القلب من شبه الوسوسة وحديث النفس

على ما عليه البشرية. وأما الظن الذي هو ترجح أحد الجائزين على الآخر فغير جائز على رجل من المسلمين، فما بال رسل الله الذين هم أعرف الناس بربهم وأنه متعال عن خلف الميعاد منزه عن كل قبيح)

ومن استدراكاتها على أبي هريرة (رضي الله عنهما): (. . . عن أبي هريرة قال: (لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً ودماً خير له من أن يمتلئ شعراً) فقالت عائشة رضي الله عنها: لم يحفظ الحديث؛ إنما قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً ودماً خير له من أن يمتلئ شعراً هجيت به)

قلت إن من يجتزئ بحديث أبي هريرة (رضي الله عنه) ليدهاه ما يدهى من يجهل السبب في وحي آية الشعراء

قال الإمام الطبري في (جامع البيان): (قال عبد الرحمن ابن زيد: قال رجل لأبي: يا أبا أسامة، أرأيت قول الله (جل ثناؤه): والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون. فقال أبي: إنما هذا لشعراء المشركين وليس شعراء المؤمنين. ألا ترى أنه يقول: إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات إلى آخره. فقال: فرّجت عني يا أبا أسامة فرّج الله عنك!)

وقال الكشاف في تفسير الآية: (هم شعراء قريش عبد الله بن الزبعرى وهبيرة بن أبي وهب المخزومي ومسافع بن عبد مناف وأبو عزة الجمحي، ومن ثقيف أمية بن أبي الصلت، قالوا: نحن نقول مثل قول محمد، وكانوا يهجونه ويجتمع إليهم الأعراب من قومهم يستمعون أشعارهم وأهاجيهم)

وروى الزمخشري عن الخليل: (كان الشعر أحب إلى رسول الله من كثير الكلام، ولكن كان لا يتأتى له)

وجاء في (الإجابة) في باب الاستدراكات: (نقل أهل التفسير في قوله تعالى: (والذي قال لوالديه) إن معاوية كتب إلى مروان بأن يبايع الناس ليزيد، قال عبد الرحمن بن أبي بكر: لقد جئتم بها هرقلية، أتبايعون لأبنائكم؟! فقال مروان: يا أيها الناس هذا الذي قال الله فيه (والذي قال لوالديه أف لكما) فسمعت عائشة فغضبت وقالت والله ما هو به، ولو شئت أن أسميه لسميته، ولكن الله لعن أباك وأنت في صلبه، فأنت قضيض من لعنة الله)

قلت: روى فضيض وفظاظة وأنكرها الخطابي، وفي أكثر كتب الحديث وغريبه وكتب اللغة التي روت هذا الخبر أو شيئاً منه - (فضض) بالفاء.
وهذا الحديث في (البخاري) وقد أشار إليه الزركشي ولم يورده، وهذه رواية أبي عبد الله (رحمه الله):
عن يوسف بن ماهك قال: كان مروان على الحجاز، استعمله معاوية فخطب . . .) فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه، فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر شيئاً، فقال: خذوه. فدخل بيت عائشة، فلم يقدروا، فقال مروان: إن هذا الذي أنزل الله فيه: (والذي قال لوالديه: أف لكما أتعدانني) فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن إلا أن الله أنزل عذري)
ومن استدراكاتها (رضي الله عنها) على أزواجه (صلى الله عليه وسلم) ورضى عنهن: (أخرج البخاري ومسلم عن عروة عن عائشة أنها قالت: إن أزواج النبي (صلى الله عليه وسلم) حين توفى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أردن أن يبعثن عثمان بن عفان إلى أبي بكر يسألنه ميراثهن من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقالت عائشة لهن: قد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): لا نورث، ما تركناه صدقة)
ويتبع هذين البابين والذيل في الاستدراكات الفائقات فهارس الكتاب: فهرس الأعلام، فهرس الجماعات، فهرس الأماكن، فهرس الكتب، فهرس الموضوعات
إن هذا الذي خططناه إنما هو إشارة إلى كتاب الإجابة لا تبيين ولا توضيح. ومن شاء من الفضلاء أن يعرفه ويستفيد منه اشتراه وقرأه، ودعا للمؤلف، وأثنى على (السعيد) المحقق
بارك الله فيه، وأكثر في شباب العرب والمسلمين من أمثاله.
القارئ
العدد 314 - بتاريخ: 10 - 07 - 1939
من فكاهات العهد التركي في بغداد
. . . حدثني المرحوم الزهاوي
تركية القديمة - غفر الله لها - كانت في دول الأرض معنى من معاني الإرهاب حروف لفظه السُّم والَيُّم والسجن والسيف والسوط! جمعت في يدها القوية أطراف الشرق والغرب، ثم أدارت حول تاجها الرهيب هالة من خلافة الرسول فعنت لجلالها الوجوه، وخشعت لسلطانها الأفئدة؛ ولكنها لم تستطع أن تثبت ملكها بقوة الروح وبراعة الذهن وعبقرية البيان كما فعل العرب، فظلت واقفة أمام شعوبها الثائرة عابسة الوجه معقودة العنق منشورة الشارب مشهورة السيف، فحرمها ذلك الموقفُ نصيبها من طمأنينة السلم ومدينة العلم ونعمة الثقافة. وكان ولاتها على الأمصار الخاضعة يحكمون الناس بهذه العقلية الجهول، فيظهرون الأبهة وينشرون الرهبة ويحصدون الأموال والأنفس بالضرائب والرُّشى والمصادرة والقتل. فإذا طالت الولاية واكتظ الوالي ورضى (المابين) وأراد الباشا أن يفكر في الدين أو في العلم أو في الإصلاح دل على فهم بليد وغفلة عجيبة!
كنا ذات يوم نتحدث في هذا وفيما جره على الأمة العربية من الجهل والذل والفقر ونحن جلوس في ندوة السيد صبحي الدفتري محافظ بغداد يومئذ؛ وهي ندوة تقوم في داره المضياف ضحى يوم الجمعة من كل أسبوع فيندو إليها الوزراء والزعماء والأدباء والقادة، فيكون لكل طائفة منهم حلقة وحديث. ولكن الزهاوي إذا تكلم أصغت إليه الدار وتحلقت علية الندوة؛ لأن جميلاً كان آية الله في فكاهة الطبع وظرف المحاضرة وحلاوة الدعابة ورقة العبث. وكان له في إلقاء النادرة لهجة وإشارة وهيئة لا يبرح سامعها مستطار اللب نشوان المشاعر من غرابة ما يرى وطرافة ما يسمع
كان الحديث أول ما بدأ دائراً بيني وبين السيد ناجي الأصيل على أن الحرب وأوزارها استقلت بمواهب الترك فلم تدع لهم كفاية للسياسة والثقافة؛ وأخذنا نضرب الأمثال على ذلك مما جرى في العراق ومصر. وكان المرحوم الزهاوي بجانبي، ولكنه كان مشغول الأذُن بكلمة منافقة في العقاد والرصافي أُلقيت إليه في خفوت وخبث. فلما تشربها سمعه وأجاز عليها القائل ببسمة وهزة وسيكارة، أقبل علينا فسمع طرفاً من الحديث نبض له نابضة فقال: هُوهُوه! إذا حدثتك مولانا عن حمق الولاة من الترك لا ينتهي الحديث ولا ينقضي

العجب!
ثم أرسل نكتته الحاضرة وضحك ضحكته الساخرة فتنبه المجلس إلى أن الزهاوي سيتحدث، فسكت المتكلم وأصغي المستمع وتهيأت النفوس للسرور الشديد والضحك المتصل؛ وأخذ الشاعر يقول:
أرسلت إلينا الدولة العلية بعد جفاف الريق والمداد من شكوى الجهل والفساد، والياً يسير بالعراق في طريق العمارة والعلم، فقابله البغداديون باحتفال عظيم وفرح شامل. وكان لي يومئذ يد في إدارة التعليم كما تريده الدولة، فقال لي الوالي ذات يوم: أنا نريد أن ننشئ مدرسة للبنات فابحثوا عن دار تصلح أن تكون لها مكاناً. وكان تعليم البنت في ذلك العهد أملاً من آمال المصلحين تتقارع حوله الأقلام بالحجج في غير طائل. فقلنا إن الرجل رحب الباع في الإصلاح، ودللناه على جملة من الدور الكبيرة الصالحة، فكان كلما دخل داراً قال إن الأبصار تجرح البنات من هنا، والأسماع تسرق الأصوات من هناك؛ حتى لم يدع في بغداد داراً إلا عابها هذا العيب من طريق التوهم أو التخيل! وظهر من تصرف الرجل أن به بلاهة وغفلة، فخطر لي أن أتداعب عليه لأكشف حاله للناس فلا يستنيموا لحكمه. فقلت له: أفندم! لم يبق في البلد كله إلا مكان واحد أرجو أن يقع من هواك موقع الرضى. فقال: امض بنا إليه. فذهبت به إلى (منارة سوق الغزل) وصعدنا فوقها، فلم تكد قدمه تستقر على شرفتها العليا، وعينه تقع على سطوح بغداد وهي متطامنة تحت المأذنة العالية، حتى شهق من الفرح وصاح بملء فيه: نعم! نعم! هذا هو المكان المناسب!
ثم نزل وفي نيته أن يتخذ الأهبة من المقاعد والأدراج ليفتتح المدرسة! فقلت له: مولانا! لا بد أن تجمع الناس قبل الافتتاح لتقنعهم بتعليم بناتهم فإنهم سيئو الرأي في ذلك التعليم. ونجاح الأمر موقوف على أن يعتقدوا فيك التقى والورع. وسأدلك على أقرب الطرق لتحقيق هذا الاعتقاد:
إذا اجتمع الناس واكتظ بهم الديوان جلست أنت في الصدر، وجلس عن يمينك وعن يسارك رجال المعارف؛ ثم تشعل (شبقك) وتأمر كلا منهم أن يفعل فعلك؛ ثم تبتدئ فتذكر الله بصوت موقَّع على ضربات كفي وأنت تُميل رأسك من الشمال إلى اليمين تارة، ومن الخلف إلى الأمام تارة، وأنا والحافُّون من حولك نتابعك في كل كلمة وفي كل حركة. ثم
حاول أن تأخذك الحال ويستخفك الذكر؛ فكلما أزبد الفم وأرعد الصوت وتشنج الجسم وهاج الدم، كان ذلك أحمل للناس على أن يعتقدوا فيك الولاية فتقودهم صاغرين إلى ما تريد
وصدق الوالي كل ما قلته له تصديقاً لا تتخالجه فيه شبهة. وجاء يوم الجمع واحتشد الأعيان والوجوه يسمعون ماذا يقول الوالي. وجلس الباشا وأنا بجانبه وشيوخ المعارف من حوله، وأمر فأشعلت (الغلايين) الطويلة، وأخذ يذكر ويترنح وأنا أرسم له، والشيوخ يذكرون معه. ثم غمزته بعد حين فتهور و (تطور) وأرغى. وتظاهرت أنا بجذبة الوجد وسكرة التجلي فقرعت غليونه بغليوني، ثم أخذت بلحيته البيضاء ورأسه الأصلع، ففعل بي مثل ما فعلت به، وأخذنا نتدحرج على البساط، فمرة أكون فوقه، ومرة يكون فوقي، والشيوخ يعجون بالذكر، والناس يضجون بالضحك، وأنا والوالي قد ملكتنا حميا الولاية فدخلنا في صراع عنيف لم يخرجنا منه إلا انقطاع النفَس. فجلسنا مسترخيين نلهث من الإعياء وكلانا ينظر إلى صاحبه نظر الديك المنتوف إلى الديك المهيض. وذلك يا مولانا هو الوالي الذي اختير لتعليم الجاهل وتصحيح المريض!

احمد حسن الزيات
جناية أحمد أمين على الأدب العربي
للدكتور زكي مبارك
- 5 -

رأينا أن نقف وقفة قصيرة نحادث فيها القراء قبل أن نأخذ في محاسبة الأستاذ أحمد أمين على الأغلاط التي وقعت في مقالاته السالفة وهو يحاول تزهيد الناس فيما ورثت اللغة العربية من ألفاظ الشعراء والخطباء
فماذا نريد أن نقول اليوم؟
نريد أن نؤرخ الظاهرة العقلية التي بدت شواهدها حين واجهْنا الجمهورَ بعيوب

الطريقة التي يفكر بها الأستاذ أحمد أمين، فقد انقسم ذلك الجمهور إلى فريقين: فريق راضٍ، وفريق غضبان

والفريق الأول يستأهل اللوم قبل أن يستحق الثناء، لأن هذا الفريق يمثل جمهور المشتغلين بتدريس اللغة العربية؛ وهؤلاء قد ركنوا في الأعوام الأخيرة إلى التغاضي عن نقد ما يُكتب أو يقال في السخرية من ماضي اللغة العربية. وقد يكون لهذا التغاضي أسباب: فهم في كدح موصول بفضل ما يحمل المدرس من ثقال الأعباء؛ وهم قد رأوا المجادلات السياسية شغلت الناس عن المجادلات الأدبية؛ وهم قد سمعوا أن كلية الآداب صار إليها الأمر كله في توجيه التلاميذ والمعلمين إلى قواعد الدراسات الأدبية، فلا حرج عليهم إن انسحبوا من الميدان

تلك جملة الأسباب التي صرفت أساتذة اللغة العربية عن المشاركة في النقد الأدبي

فهل يعرفون أن سكوتهم هو الذي أطمع بعض الناس في أن يبغي ويستطيل؟

لو كانت كلية الآداب تعرف أن في مصر رقابة أدبية لما وقعت في المضحكات حين قررت أن تدرس لطلبة السنة الأولى أسلوب أحمد أمين وأن تمتحنهم في أسلوب أحمد أمين

ومن المحنة جاء الامتحان!

أحمد أمين له أسلوب؟

آمنت بالله!

ومن هم المدرسون الذين يدرسون لطلبة كلية الآداب ذلك الأسلوب (الأحمدي)؟

هم شبان تخرجوا في كلية الآداب وموقفهم في هذه القضية أحرج المواقف، لأنهم يعرفون أن أحمد أمين من أساتذة الكلية، ولأنهم يعرفون أنه رجل سريع الغضب والاكتئاب. وهم أيضاً يعرفون - وا أسفاه! - أن كلمة الحق في أحمد أمين قد تحمل بعض المتملقين على وصفهم بالجهل!

ولم يقف الأمر عند كلية الآداب بجامعة القاهرة - جامعة فؤاد الأول - بل تعداه إلى كلية الآداب بجامعة الإسكندرية - جامعة فاروق الأول - فهنالك الأستاذ أحمد الشايب وهو الأديب الفاضل الذي ألف كتاباً لطيفاً سماه (الأسلوب) وفيه يقرر أن أسلوب أحمد أمين له مزايا وخصائص

فهل لأحمد أمين أسلوب حتى تخلق لأسلوبه مزايا وخصائص؟

أشهد مرة ثانية أن الجامعة المصرية أمرها عجب!

فالدكتور طه حسين الذي وقف بقصر الزعفران في ربيع سنة 1927 يلقي كلمة الجامعة في مهرجان شوقي، ثم رأى أن تكون خطبته في الأخطل لا في شوقي بحجة أن الجامعة لا تؤرخ الأحياء، هو نفسه الذي ارتضى أن يدرس أسلوب أحمد أمين بكلية الآداب!

فكيف يكون الحال لو اعتدل الزمان وقيلت كلمة الحق في التدريس بكلية الآداب؟

أيستطيع إنسان أن يفرض على مدرس أن يعترف بأن أحمد أمين له أسلوب؟

وماذا نقول للشبان الذين يفدون من أقطار الشرق وقد عرفوا من قبل أن أحمد أمين قد يكون من الباحثين ولكنه لن يكون من الكتاب ولا الأدباء؟

وكيف تكون حجتنا أمام الأقطار العربية إذا سمعت أننا ندرس أسلوب أحمد أمين كما ندرس أساليب العقاد والمازني وهيكل وطه حسين والزيات؟

أتريدون الحق؟

إن أحمد أمين لم يكن له أسلوب يدرس في كلية الآداب إلا لأنه أستاذ في كلية الآداب، وإلا فكيف غابت قيمة أسلوبه عن أساتذة الأزهر وأساتذة دار العلوم وهم لم يلتفتوا إليه حين التفتوا إلى أساليب الكتاب في العصر الحديث؟

إن الرجل لا يكون له أسلوب إلا يوم يصح أنه يحس الثورة على ما يكره، والأنس بما يحب، فعندئذ تعرف نفسه معنى الانطباعات الذاتية ويعبر عن روحه وعقله وقلبه بأسلوب خاص

لقد اشتغل أحمد أمين بالقضاء الشرعي بضع سنين، فهل قرأتم له مقالاً أو قصة تدل على أنه توجَّع مرةً واحدةً للمآسي الإنسانية؟

لقد عاش أحمد أمين مدة بالواحات، فهل سمعتم قبل أن تسمعوا مني أنه عاش

بالواحات؟
لو كان أحمد أمين أديباً لحدثكم عن تلك المروج التي يجهلها المصريون
ولكن أحمد أمين لم يكن أديباً، وإنما كان موظفاً مخلصاً لواجب الوظيفة لا يرى ما عداها من الشؤون، ثم قال له طه حسين كن أديباً فكان!
وهنا أوجه القول إلى من أغضبهم هجومي على الأستاذ أحمد أمين فمن هم أولئك الغاضبون؟
منهم محام فاضل ألف عدة كتب في الحياة الأدبية والاجتماعية وقد كتب إليّ مرتين يدعوني إلى الترفق في الهجوم على هذا (الأديب)
وهذا المحامي الفاضل يعجب من أن نصحح رأي الأستاذ أحمد أمين في القرآن، وهو يظن أن اللذات الحسية التي سينعم بها المؤمنون في الجنة إنما هي لذات روحية
وأقول إن القرآن وعد المؤمنين بأن سيكون لهم في الجنة لحم طير مما يشتهون، وحورٌ عِين كأمثال اللؤلؤ المكنون، وسيقال لهم: (كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية)
وظاهر النصوص هو الأصل، فهل يرى هذا المحامي الفاضل أن نؤول كلام الله ليصح كلام أحمد أمين؟!
ومنهم كاتب مشهور أخذ يوسوس ذات اليمين وذات الشمال بأن زكي مبارك مولع بهدم الرجال، وأنه لو عدم مجالاً للخصومة لخاصم نفسه بلا ترفق!
وأنا أترك الرد على هذه التهمة لمن يعرفونني معرفة شخصية من أمثال العقاد والمازني وهيكل والزيات، بل أترك الرد على هذه التهمة لحضرة الأستاذ أحمد أمين كيف تشيع عني هذه المقالة السيئة وأنا الكاتب الوحيد التي احترم معاصريه فتحدث عنهم في مقالاته ومؤلفاته بما يحبون، وسجل آراءهم في الأدب بنزاهة وإخلاص؟
ما هو الشر الذي تنطوي نفسي عليه حتى يستبيح الزملاء اتهامي بحب المناوشات والمشاغبات؟
لقد تأدبت منذ أعوام طوال بأدب أبي منصور الثعالبي رحمه الله فتحدثت في رسائلي ومؤلفاتي عمن عاصرت من الرجال كما تحدث الثعالبي عن معاصريه من الكتاب والشعراء
فأين تكونون يا أدباء الجيل من هذا المسلك النبيل؟
إن أدباء العراق والشام ولبنان ينكرون عليكم ما تتهمونني به من حب الشغب والصيال، ففي جرائدهم ومجلاتهم وأنديتهم تحدثت عن أدباء مصر بالخير والجميل بل أذهب إلى أبعد من ذلك فأصرح بأني عاديت كثيراً من الناس في سبيل الدفاع عن أعدائي من أهل الأدب والبيان. ولو شئت لأقمت الشواهد على صحة ما أقول
فكيف يصح أن يتهمني أدباء مصر بالتحامل عليهم وأنا الذي أحسنت السفارة عن الأدب المصري في كل بلد حللت فيه؟
الحق أن أكثر أدباء مصر يحبون أن يعيشوا مدلّلين في زمن لا ينفع فيه الدلال!
الحق أنهم استمروا العافية من مكاره النقد الأدبي، فهم يصرخون كلما هجمنا عليهم لنعود إلى مهادنتهم من جديد
ولو أنهم فكروا قليلاً لعرفوا أني أؤدي الزكاة عن النشاط المصري. فقد شاع في كل أرض أن الأدباء المصريين تنكروا للنقد الأدبي ولم يعودوا يعرفون غير مقارضة الحمد والثناء
وأوجه القول مرة ثانية إلى من أغضبهم هجومي على الأستاذ أحمد أمين فأقول:
إن هذا الرجل أراد أن يؤرخ العصر العباسي من الوجهة الأدبية فجعله عصر معدة لا عصر روح، وشاء له أدبه أن يختص البصرة بحكم من أحكامه القاسية فزعم أنها عرفت (نقابة الطفيليين)
فهل خطر في بال هذا الباحث المفضال أن البصرة عرفت أكرم نوع من نكران الذات حين كانت مهداً لإخوان الصفاء؟
هل خطر ببال أن البصرة حين آوت هؤلاء الباحثين العظماء قهرت التاريخ على أن يشهد لها بقوة الروحانية؟
ومن الذي يصدق أن رسائل إخوان الصفاء وهي أعظم ذخيرة أدبية وفلسفية وضعت أصولها في البلد الذي زعم أحمد أمين أنه أنشأ أدب التطفيل؟

هل يعرف أحمد أمين من هو مؤلف (رسالة الطير والحيوان) وهي رسالة لم يكتب مثلها في مشرق أو في مغرب؟
إن هذه رسالة وضعت في البصرة، أو ألفها رجل استوحى أهل البصرة، أفما كانت تصلح هذه الرسالة شفيعاً للبصرة فتنقذها من قالة البهتان على لسان أحمد أمين؟ ثم ماذا؟
ثم استطاعت البصرة أن تنشئ مذهباً في النحو شغل الأمم الإسلامية نحو اثني عشر قرناً
ولو أن أحمد أمين كان يدقق لعرف أن البصريين لم يصلوا إلى ذلك إلا بقوة الروح، فكيف شاء له هواه أن يجعلهم أصحاب معدات؟
لو أن معدتي كانت كما أحب من القوة والعافية لأكلت لحم الأستاذ أحمد أمين وأرحت الدنيا من أحكامه الجائرة في الأدب والتاريخ
ولكن الدهر حكم بأن أكون من أصحاب الأرواح فلم يبق لي في محاسبته غير شيطنة الروح، وفي الأرواح شياطين!
وتحامل أحمد أمين على البصرة وعلى العصر العباسي هو الذي أثارني عليه، فإن كان في الناس من يتوهم أن بيني وبينه ضغينة وأنني أشفي صدري بتنغيصه، فهو من الآثمين وسيلقى الجزاء يوم يقوم الحساب
ولن ينقصني عجبي من أهل هذا الزمان
فما كنت أظن أن أهل مصر يستكثرون على رجل أن يقول كلمة الحق لوجه الله؟
ما كنت أظن أن من واجبي أن أكف قلمي عن رجل يتطاول على ماضي الأدب العربي وهو بشهادة نفسه غير أديب!
أليس من المزعج أن يكون من تقاليد الصحافة الأدبية في مصر أن تمجد رجال الغرب وتنتقص رجال الشرق؟
أليس من المزعج أن تكون عيوب الناس في الأعصر الماضية مقصورة على أسلافنا وهم الذين احيوا الثقافة الأدبية والعقلية في عصور الظلمات، وبفضلهم حُفِظ أكثر تراث الهند والفرس والروم؟
أليس من المؤلم يقال لمن يغار على ذلك الماضي المجيد (إنك ذو ضغينة وإنك تشفي صدرك بتكلف الغيرة على ماضي اللغة العربية)؟
إن الرجل الذي يملك الفصل في هذه القضية هو الأستاذ أحمد أمين، فليذكر متى عاديته؟ ومتى حقدت عليه؟ ومتى وقع بيني وبينه ما يورث الشحناء؟
إن أحمد أمين لم يوجه إلي أية إساءة، وربما جاز أن يقال إنه لم يؤذ أحداً من معاصريه، فقد كان ولا يزال مثال الطيبة واللطف
ولكن أحمد أمين الذي كف شره عن الأفراد وجّه شره إلى التاريخ، فهو يدوس ماضي اللغة العربية بلا تحرز ولا رفق، ولو تركناه شهرين اثنين يؤرخ الأدب على هواه لجعل الأمة العربية أضحوكة بين العالمين.
فإن كان هناك شيء يكتب لوجه الله فهو ما أكتب عنك يا صديقي أحمد أمين
أما بعد فقد بقيت معركة حامية حول ما سماه أحمد أمين (جناية الأدب الجاهلي على الأدب العربي) فإن اتسع صدر (الرسالة) لتلك المعركة فسأخدم الأدب العربي خدمة باقية. وإن ضاق صدر (الرسالة) عن هذه المعركة فسأنقل الميدان إلى مجلة أو مجلتين أو مجلات في مصر والشام والعراق، وحسبنا الله وهو نعم الوكيل.
(مصر الجديد.)
زكي مبارك
الصديق الراحل
فليكس فارس
1886 - 1939
للأستاذ كامل محمود حبيب
حملتك الأمواج غصنا من الأر ... ز كسيراً يفوح منه العبير
فتعاليت في الجلاد صبوراً ... علم الناس كيف يحيا الصبور
وترامیت من سما المجد صقراً ... علم الدهر كيف تفضي الصقر
فليكس فارس

عزيز على النفس أن تتحدث عنك ميتاً، وقد كنت (بالأمس) ملء القلب، ملء الفؤاد، ملء السمع والبصر ملء هذه الحياة الفارغة. . .
انطوى هذا الفكر الوقاد، وانطفأ هذا القبس اللامع، وانحبس هذا الصوت الرنان، وثوى العبقري الثائر في رمسه، وفي قلوب صحابه آهة عميقة وفي أعينهم عبرات حرى
هذا النغم الحادي كان حلواً تتطرب له النفس!
هذه النفس العالية كانت طيبة رفافة لم تشبها نزوة من نزوات الكبرياء!
هذا القلب كان كبيراً. . . كبيراً لم تفسده ثرهات الحياة!
ففي ذمة الله أيها النغم الحادي، وأيتها النفس العالية، وأيها القلب الكبير!
فليكس فارس! هذا هو الرجل!
أخ العلم من كتاب الحياة فما تشرّب روح المدرسة، وفي المدرسة عسف وظلم، وفيها إغضاء عن النبوغ الفطري، وفيها كَبْت للمواهب المتأججة، فسما بنفسه، وعلا بروحه، وتفتح الكمْ عن زهرة يانعة وهو ما يزال عند التاسعة عشر، شاباً ريْق الشباب وفتى غضّ الفتوة؛ فدخل المدرسة - أول ما دخل - أستاذاً للبيان العربي في مدرسة عبية؛ ثم لمعت أول مقالاته الأدبية في جرائد سوريا ولبنان.
وأعلن الدستور العثماني سنة 1908 فتدفق البيان على لسانه، وتراءى خطيباً تتقطع دون بلاغته ألسنة الخطباء، فتألق نجمة. ثم ألقى عن نفسه عبء التدريس ليخوض غمار
السياسة عضواً فذاً في جمعية الاتحاد والترقي العثمانية، واختارته لجنة سالونيك - بعد حين - ليكون عضواً عاملاً فيها يؤسس الجمعيات الدستورية في أرجاء البلاد.
وجرفته السياسة في تيارها فأصدر جريدته (لسان الاتحاد) تتحدث عن نوازع نفسه، وآمال قلبه في السياسة والأدب جميعاً. ثم. . . ثم عُيّن أستاذاً للخطابة والأدب الفرنسي في المدرسة السلطانية بحلب.
واستعرت نار الحرب العظمى فما برح مكانه حتى دخل الجيش العربي البلاد فتخيرته الحكومة الهاشمية سكرتيراً لحكومة حلب، ثم مديراً عاماً لإدارة حصر الدخان، فما شغله المنصب عن أن يقوم - بين الفينة والفينة - خطيباً يدعو إلى الوحدة العربية وإلى رفض الانتداب الأوربي
وفي سنة 1920 أبحر إلى أمريكا يطلب إلى المهاجرين من بنى وطنه العودة إلى بلادهم، وقد عزّ عليه أن ينأى جماعة من أفذاذ قومه عن ديارهم أحوج ما تكون إليهم، وفيهم العالم والصانع والتاجر، فقضى سنة يضرب في أنحاء أمريكا يخطب المهاجرين بالعربية مرة وبالفرنسية أخرى، علّهم يثوبون؛ وهناك تعرّف إلى أعضاء الرابطة العربية جميعاً ووصل بينه وبينهم برباط من المحبة، وتوثقت بينه وبين جبران خليل جبران العبقري الفنان صلات من الهوى والصداقة.
وعاد إلى لبنان وفي خياله أن يستطيع أن يقنع الجنرال بيرو المندوب السامي الفرنسي بوجوب التفاهم مع العناصر الوطنية، وتشجيع المهاجرين على العودة إلى وطنهم. ومال الجنرال بيرو إلى رأي الأستاذ غير أن الحكومة الفرنسية رأت أن ترسل الجنرال فيجان ليشغل منصب الجنرال بيرو. . . فانفجرت الثورة وتطاير شررها هنا وهناك، ولكن اليأس لم يجد طريقه إلى القلب الكبير. . . قلب الأستاذ فليكس، فراح يكتب إلى صديقه المسيو جوسران سفير فرنسا في واشنطن، وإلى ذوي المكانة العليا في فرنسا، يكشف لهم جميعاً عن خطل السياسة الفرنسية في بلاده؛ غير أن صرخاته ذهبت نهب الرياح، فكبر عليه أن يعمل مع حكومة تسير على مبدأ لا يقره، فنبذها جانباً، ولبس ثوب المحاماة.
وفي أواخر سنة 1930 عين رئيساً للتراجمة في بلدية الإسكندرية فترك بلاده ومهنته ليستقر في الوطن الثاني الجميل. . . في مصر، وليجد هنا أصدقاء أحباء يعوضونه ما فقد
في وطنه الأول
تلك لمحة عاجلة عن حياة الأستاذ الفقيد فيا عظة وحكمة
لم يكن للأستاذ فليكس أن يكبح جمحات نفسه، بعد إذ لمس الإخفاق في وطنه الأول، وهو قد هبط وطنه الثاني شعلة من نشاط تتقد، فاندفع يتعرف على جماعة من أدباء هذا المصر. . . ثم قرأ للأستاذ الزيات - أطال الله عمره - وجمع أعداد (الرسالة) لا

تفوته فيها شاردة ولا واردة؛ وعكف دراسة أدب الرافعي - رحمه الله - حين استهوته مقالاته في (الرسالة)؛ وترجم له مقالته (رؤيا في السماء) إلى الفرنسية وعلق عليها، ونشرها هي والتعليق في غير واحدة من الجرائد الفرنسية، وأعجب بعاهلي الأدب العربي الحديث وتمنى لو رآهما

وفي صيف سنة 1936 تعرف إلى الأستاذ الرافعي - رحمه الله - وطلب إليه أن يزوره في داره في كامب سيزار برمل الإسكندرية فلبى الدعوة وأنا برفقته. . . فألفيت رجلاً هادئ الطبع، طلق المحيا، كريم الخلق، جميل الصحبة. وكان وجهه - ونحن في داره - يتهلل بشراً وسروراً. . . وهكذا ابتدأت أول وشيجة بينه وبين أسرة (الرسالة) الغراء، ومضت أيام فإذا صوت صرير قلمه يرن على صفحات (الرسالة)

ثم انطلق يتلمس الطريق إلى الأستاذ الزيات ويستزيره في إلحاح. وفي صيف سنة 1937 دخل الأستاذ الزيات دار صاحبه فليكس - لأول مرة - وأنا إلى جانبه. يا عجبا. يا عجبا! إنني أرى صاحب الدار يهتز من فرط الفرح كأنه يلاقي حبيباً طال اغترابه؛ وإنه ليتراءى لي أنه يهم أن يضم الأستاذ الزيات إليه لولا هيبته. وتقدمت الأيام وفي قلب كل منا لصاحبه المحبة والإخلاص والوفاء

عرفنا الأستاذ فليكس فعرفنا فيه الأديب الفذ والشاعر الرقيق، وفقدناه ففقدنا فيه الأخ الوفي والصديق الصادق

ففي ذمة الله، وفي رحمة الله. . . يا صديقي!

كامل محمود حبيب

في بلاط الخلفاء

حماد وهشام بن عبد الملك

للأستاذ علي الجندي

ضمت الكوفة في وقت واحد ثلاثة نفر يُقال لهم: الحمادون، وهم حماد عَجْرد، وحماد الراوية، وحماد الزِّبرِقان أو أبن الزبرقان. كان هؤلاء الثلاثة يتعاشرون بثلاثة أجساد تُصرَّفها روح واحدة. ولم يكن غريباً أن يجتمعوا على هذا الود الوثيق، فقد ألفت بينهم رابطة الأدب، ولحمة الزندقة، وأصرة أخرى تُسامي رضاع الثدي وهي رضاع الكأس! ولله دِعْبل إذ يقول

أذكرْ أبا جعفر حقًّا أمتُّ به=أني وإياك مشغوفان بالأدب

وأننا قد رضعنا الكأس دِرَّتها=والكأسُ درتها حظ من النسب

والذي يعنينا من هذا الثالوث العجيب المتّحد في الاسم والنزعة والهوى والنَحلة، حماد بن ميسرة الديلمي مولى بكر بن وائل. كان هذا الرجل آية دهره في العلم بأنساب العرب وأيامها وحفظ لغتها وأخبارها وأشعارها، فخلع عليه معاصروه - على بخل المعاصرة وحقدها - لقب الراوية؛ وهو لقب فخم رفيع لم يمنحه جزافاً بل انتزعه انتزاعاً عن استحقاق وجدارة

يتحدثون أن الوليد بن يزيد سأله: بم استحققت هذا اللقب فقيل لك الراوية؟ فقال: لأني أرْوي لكل شاعر تعرفه - يا أمير المؤمنين - أو تسمع به، ثم أروي لأكثر منهم ممن أعرف أنك لم تعرفه ولم تسمع به، ثم لا أنشد شعراً لقديم ولا محدث إلا ميزت القديم منه من المحدث. فقال الوليد: إن هذا لَعلم - وأبيك - كبير. فكم مقدار ما تحفظ من الشعر؟ قال: كثير. ولكنني أنشد على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة طويلة، سوى المقطعات من شعر الجاهلية دون شعر الإسلام!

وكأن الوليد استراب بحفظه فقال: سأمتحنك في هذا، وأمره بالإنشاد، فأنشد حتى نال منه الضجر! فوكل به من يسمع منه واستحلفه أن يصدقه عنه ويستوفي عليه، فأنشده ألفين وتسعمائة قصيدة جاهلية، ورفع الأمر إلى الوليد، فأجازه بمائة ألف درهم ولكن مما يحزّ في النفس أن حماداً لم يكن متحلّياً بتلك الشرائط التي تعدّ قوام الرواية من أمانة وصدق وإخلاص!

فقد شاء ألا يقنع بما أفاء الله عليه من مواهب عالية، وبما حصّله بجهده من ثروة أدبية ضخمة تتقطّع دونها أعناق الفحول! فاستغلّ حفظه للشعر وبَصارته بمنازع الشعراء، وقدرته على النظم، ودقة مسلكه في التقليد، وَغرامه بالتزيّد في الوضع والتلفيق والتدليس! فكان يقرض الشعر ويَنْحَلُه من يشاء من شعراء العرب، ويجوز ذلك على

أكثر الناس لفرط المشابهة بين الأصيل والدخيل!
ومن السهل على من رُزق علم حماد وقوة طبعه وحدة قريحته وبارع زكانته، أن يفعل مثل فعله لا فرق بين متقدم ومتأخر!
يقول الثعالبي: إن الصاحب يوماً قال لجلسائه - وقد جرى ذكر أبي فِراس الحمداني -: لا يقدر أحد أن يزوّر عليه شعراً. فقال البديع الهمذاني: ومن يقدر على ذلك وهو القائل:
رويدَك، لا تصِلْ يدَها بباعك ... ولا تُغْرِ السباع إلى رباعك
ولا تُعِنِ العدوَّ عليّ إني ... يمينٌ إن قطعتَ فمن ذِراعك
- فقال الصاحب: صدقت! فقال البديع: أيد الله مولانا قد فعلت! - أي زوّرت عليه والغريب في أمر حماد أنه لا يستحي أن يتبجّح بهذا الضلال البعيد! فكان يقول: ما من شاعر إلا أدخْلت في شعره أبياتاً حملت عنه إلا أعشى بكر فإني لم أزد في شعره قط غير بيت واحد. فقيل ما هو؟ قال:
وأنكرتْني وما كان الذي نَكِرتْ ... من الحوادث إلا الشّيْب والصلَعا
وأغرب من هذا أن جرأته كانت تطوّع له الكذب على الخلفاء المعروفين بدقة الفطنة وسعة المعرفة! فقد روَي صاحب الأغاني بسنده عن جماعة ذكر أنهم كانوا في دار الخليفة المهدي إذ خرج بعض أصحاب الحاجب فدعا بالمفضل الضبيّ الراوية، فدخل فمكث ملياً ثم خرج ومعه حماد الراوية وحسين الخادم، وقد بان وجه حماد الانكسار والغم، وفي وجه المفضل السرور والنشاط. ثم نادى الخادم: يا معشر من حضر من أهل العلم، إن أمير المؤمنين يُعلمكم أنه قد وصل حماداً الشاعر بعشرين ألف درهم لجودة شعره، وأبطل روايته لزيادته في أشعار الناس ما ليس منها. ووصل المفضّل الضبي بخمسين ألف درهم لصدقه وصحة روايته. فمن أراد أن يسمع شعراً مُحدَثاً فليسمع من حماد، ومن أراد رواية صحيحة فليسمعها من المفضل
- وقد كان السبب أن المهدي قال للمفضل - لما دعا به وحده إني رأيت زهير بن أبي سُلمى افتتح قصيدته بأن قال:
دع ذا، وعدِّ القولَ في هَرِم ... خير البُداة وسيد الحَضْر
ولم يتقدم له قبل ذلك قول، فما الذي أمر نفسه بتركه؟ فقال المفضل: ما سمعت يا أمير المؤمنين في هذا شيئاً، إلا أني توهمته كان يفكر في قول يقوله، أو يُروَّى في أن يقول شعراً فعدل عنه إلى مدح هرم وقال: دع ذا. أو كان يفكر في شيء من شأنه فتركه وقال: دع ذا. أي دع ما أنت فيه من الفكر وعد القول في هرم. فأمسك عنه المهدي ودعا بحماد فسأله في ذلك. فقال: ليس هكذا قال زهير يا أمير المؤمنين. قال: فكيف قال؟ فأنشده:
لَمِن الديارُ بقُنَّة الحِجْر؟ ... أقْوَيْنُ مُذْ حِجَج ومذ دَهْر
لعب الزمان بها وغيّرَها ... بعدي سوَافي المُور والقطر
دع ذا. . . الخ
فأطرق المهدي ساعة ثم أقبل عليه فقال: قد بلغ أمير المؤمنين عنك خبر لا بد من استحلافك عليه! ثم استحلفه بأيْمان البيْعة - وكل يمين مُحْرجة - ليَصْدقَنَّه عن كل ما يسأله عنه. فحلف بما توثق منه. فقال له: اصدقني عن حال هذه الأبيات ومن أضافها إلى زهير. فأقرّ له أنه قائلها. فأمر فيه وفي المفضل بما أمر به من شهرة أمرهما وكشفه
هذا الضعف الخُلُقي الذي عُرِف به حماد هو ما حدا الأصمعي أن يقول فيه: كان حماد أعلم الناس إذا نصح (يعني إذا لم يزد وينقص) وكذلك قال فيه المفضل الضبي: قد سُلَط على الشعر من حماد الرواية ما أفسده فلا يصلح بعده أبداً! فقيل له: وكيف ذلك؟ أيخطئ في الرواية أم يَلحن؟ قال: ليته كان كذلك، فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم، فلا يزال يقول الشعر يُشَبه به مذهب رجل ويدخله في شعره، ويُحمَلُ عنه ذلك في الآفاق، فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد، وأين ذلك؟)

وقد هجا حماداً أحمد بن يحيى هجاء طريفاً يمكننا أن نقف منه على شكله وهيئته وزيه ورأى الناس فيه. قال:

نعم الفتى لو كان يعرف ربَّه ... ويُقيم وقت صلاته حّمادُ
بسطَتْ مَشافرَه الشَّمولُ فأنفُه ... مثلُ القَدوم يَسُنُّها الحدّاد
وأبيضّ من شرب المُدامة وجهُه ... فبياضُه يوم الحساب سواد
لا يُعْجبنّك بَزّه ولسانُه ... إن المجوسَ يُرَى لها أسباد

وقد نشأ حماد في العهد الأموي سنة خمس وتسعين هجرية، وكان أثيراً لدى خلفاء بني مروان، يستزيرونه فيفد عليهم ليحدثهم عن أيام العرب وأخبارها وينشدهم أشعارها، فيظهرون إعجابهم به وينفحونه بالأعطيات السنية

وقد خفّ على قلب يزيد بن عبد الملك منهم فانقطع إليه واختص به ونادمه، فحصّل منه دُنيا عريضة وعاش في حال رافهة

ولكن هذه النعمة السابغة كادت تحوُل جائحة مستطيلة لولا ما قُدَّر له من طول السلامة! فقد كان بين راعيه يزيد وأخيه هشام جفوة شديدة مردها إلى أنهما من أبناء العلاَّت، فأم يزيد عاتكة بنت يزيد بن معاوية الأموية، وأم هشام عائشة بنت إسماعيل المخزومية، وأهم من ذلك أن يزيد كان يريد أن يبايع لابنه الوليد القاصر، فصرفه أخوه مسلمة بلباقة وكياسة إلى مبايعة أخيه هشام الراشد، ولكن يزيد ندم بعد أن تم الأمر، فاستشرت العداوة بين الخليفة وولي عهده حتى اضطر هشام أن يعيش خارج دمشق، وتبع ذلك أن حقد على حاشية أخيه وبطانته، ومنهم حماد زينة البلاط ونجمه اللامع!.

فلما آلت الخلافة إلى هشام خافه حماد على نفسه خوفاً شديداً فانزوى في كسر بيته مدة عام في خلالها - إذا ضاق صدره - ينسل في سر من الناس إلى الثقات من إخوانه خائفاً يترقب؟ ولما انقضت هذه الفترة ولم يتوجه إليه طلب، ظن أنه قد بلغ مأمنه، فبرز من مخبئه وصلى الجمعة في الرُّصافة، ولم يقنع بذلك حتى جلس عند باب الفيل، وإذا شرطيان كأنما نبعا من الأرض قد وقفا عليه وقالا: يا حماد، أجب الأمير يوسف ابن عمر (والي العراق) فانخلع قلب حماد من الرعب، وقرع سِنّ الندم على خروجه، وتوسل إليهما أن يستأنياه حتى يأتي أهله فيوصي بهم وإليهم، ثم يصير معهما إلى حيث يريدان. فأجاباه في خشونة الزبانية: ما إلى ذلك من سبيل! وأخذا بعضديه، فاستبسل للموت واستقاد لهما حتى بلغا به الأمير وهو جالس في الإيوان الأحمر، فسلم عليه حماد بصوت مصحول فكان رد السلام أن ألقي إليه كتاباً فيه ما يأتي:

بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله هشام أمير المؤمنين إلى يوسف بن عمر. أما بعد، فإذا قرأت كتابي هذا فابعث إلى حماد الراوية من يأتيك به غير مُروَع ولا مُتعتع وادفع إليه خمسمائة دينار وجملاً مهرياً يسير عليه اثنتي عشرة ليلة إلى دمشق

ففاضت بشاشة الطمأنينة على قلب حماد، وقبض الدنانير الصفر وقد امتزج لألاؤها ببريق السرور الخاطف على وجهه!

وفي الحق أن حماداً كان مسرفاً في خوفه من هشام، فقد كان هذا الخليفة غزير العقل راجح الحلم عفيف النفس جامعاً لأدوات الرياسة، حتى كان الأشياخ يقولون: أُدِيل من الشرف وذهبت المروءة بموت هشام! ومن كانت هذه صفاته فكثير عليه أن ينكل بأديب مستضعف كل جريرته أنه كان متصلاً بسلفه

وقد هيئ لحماد جمل مرحول فركبه من ساعته، وسار يُغذّ في السير اثنتي عشرة ليلة حتى وافى دمشق ووقف بباب هشام مستأذناً في الدخول إليه، فأذن له.

(البقية في العدد القادم)

علي الجندي

وسائل الاغتياب

للأستاذ عبد الرحمن شكري

كل إنسان من الناس لا يعد الاغتياب اغتياباً إلا إذا كان قد أتى من غيره في حقه أو في حق عزيز عنده أو مرضيٍّ عنه لديه. أما إذا أتى الاغتياب من غيره وقُصد به انتقاص غير عزيز عنده ولا مرضيٍ عنه؛ أو إذا كان هو الذي يغتاب فإنه لا يعد الاغتياب في هذه الحالات اغتياباً بل يعده مكرمة وفضيلة، فيعده انتصاراً للحق وهداية إلى الفضيلة وإظهاراً للنقص ومحاربة للرذيلة وتحذيراً للسامع من الشر. وهكذا تتغير حقائق الأمور

حسب أهوائه، وبذلك يسيطر على ضميره ويخدع ضمائر الناس. فالاغتياب منه فضيلة ليس بعدها فضيلة؛ أما من غيره فالاغتياب دليل على لؤم النفس وخساستها. وهو إذا اغتابه أحد الناس لم يعد اغتياب المغتاب له فضيلة وهداية إلى الفضل ومحاربة للنقص كما يعد الاغتياب الذي يجيء من نفسه في حق الناس. وكثيراً ما يلجأ المغتاب إلى أساليب عجيبة كي يقبل اغتيابه فيقول: إني لا أريد أن أنتقص فلاناً أو أن أذمه فإنه رجل فاضل، ثم يغتابه بما لا يترك له فضلاً ولا فضيلة. وقد يمدح عمل الرجل في صنعته كي يقبل الناس ذمهُ له في أخلاقه؛ وذلك لأن الفضل في العمل قد لا يخفى على البصير الحاذق الذي يستطيع أن يزن فضل القول أو العمل في الصنعة أو المهنة. أما فضل الأخلاق فأكثره غير مكتوب في طرس ولا مرصوف في بناء ولا منحوت في تمثال حتى يزن الوازن فنه ولونه وحقيقته، بل أكثره وديعة في نفوس الخلطاء أو من ليسوا بخلطاء ولا عشراء إذا كان المرء معروفاً بالذكر عند من لا يعرفه في حياته الخاصة. والخلطاء قد لا يؤدون الأمانة وافية ولا الوديعة غير منتقصة وغير الخلطاء إنما يحكمون بالصدى

وكثيراً ما يرشو المغتاب سامعه بالمدح إذا كانت إثارة شره وحقده على من يعرفه أو لا يعرفه تحتاج إلى مدح المغتاب لسامعه الذي يريد إثارة شره، أو قد يهدد المغتاب سامعه بالذم إذا لم يقبل أن يُستشار شره وحقده على ذلك الغائب الذي يغتابه المغتاب، وقلما يجرؤ أحد الناس إذا سمع ذماً لغائب أو شبه غائب على رفض الذم وتزكية المذموم خشية أن يعد الناس مدحه للمذموم مشاركة له في نقصه الذي ذمَّ به، فترى أكثر الناس إلا من ندر إذا اغتاب إنسان إنساناً يسرعون إلى إظهار تصديقهم قوله خشية أن يعدوا مشاركين للغائب

المذموم إذا كذَّبوا مغتابه. وهم يسرعون إلى هذا التصديق وإن كانوا من أهل الخير، وإن كانوا من أبعد الناس عن التلذذ بالحقد من غير سبب للحقد، وإنما يصدقون المغتاب وقاية لأنفسهم، وكل إنسان به شيء قليل أو كثير من الجبن أو الخوف أو الحذر فيخاف إذا لم يعاون المغتاب على اغتياب الغائب - وأقل المعاونة المعاونة بالسكوت والإنصات والابتسام والإقبال - أن يُعدَّ مشاركا للغائب فيما اغتيب به. وإذا كان هذا شأن أهل الخير فما ظنك بغيرهم من الناس وأكثر الناس يجدون في أنفسهم لذة ومسرة - إما قليلة تكاد تكون خفية غير ملحوظة وإما لذة عظيمة - إذا سمعوا ذماً لإنسان. وأقل أسباب هذه اللذة وأطهرها أن الذم لم يقع بهم بل بغيرهم فَيُسرون لنجاتهم من الذم بوقوع الذم بغيرهم كما يسرون من أجل أنَّ ذم غيرهم بالحق أو بالباطل إذا سمعوه أو قالوه يزيدهم عظمة عند أنفسهم فيشعرون أنهم صاروا أعظم من المذموم حتى ولو كان ذمه بالباطل، فالذم كالجمر كل يريد أن يلقيه على غيره. فإذا أحس السامع في نفسه أنه أحق بذلك الذم الذي اغتاب به المغتاب غائباً أسرع في معاونة المغتاب على الغيبة كيلا يفطن المغتاب وكيلا يلحظ من عينيه أنه أحق بالذم من الغائب. ومن أجل ذلك يكون الاغتياب أشيع ما يكون بين أهل النقص الحقيقين بالذم الذين يخفون من أسرار أنفسهم ما هو حقيق بالذم فيرتعدون خوفاً من ظهوره فيندفعون إلى الغيبة من الخوف، كما قد يُقبِلُ الأرنب من خوف إلى الثعبان، أو كما قد يُقبِلُ الهِرُّ من خوف إلى الأسد. وهم قد يندفعون في نقصهم ويُهونون على أنفسهم النقص بذلك. وقد يُصَرِّحُ المغتاب للسامع بالتهديد ولا يكتفي بالتلميح في تهديده فيقول: لا يدافع عن أهل الرذيلة إلا من كان من أهل الرذيلة، فيسرع السامع إلى تصديق المغتاب، وربما صار من خوفه أشد شَرَهاً في الاغتياب من ذلك المغتاب الذي هدده إذا لم يقبل منه قوله. وقد تجتمع في نفس السامع أسباب الاغتياب كلها، بل إن الخوف من مشاركة الغائب المهجو في الذم قد يجعله السامع عذراً لنفسه إذا وجد لذة في الشر والانتقاص، وإيقاع الأذى بغيره بمعاونة المغتاب؛ فبعد أن يكون قبوله الاغتياب والمعاونة عليه خوفاً يصبح القبول وتصبح المعاونة لذة في إيقاع الأذى وتعاظماً بانتقاص غيره، فترى أن أقل أسباب قبول الغيبة إثماً وأطهرها شكلاً يسوق النفس إلى أكثر أسباب قبول الاغتياب والمعاونة عليه إثماً، وإلى أخبثها أصلاً في النفس. وهذا من عجائب النفس الإنسانية التي في أول أمرها قد تتحرج من أقل الخبث والشر؛ فإذا قبلته مُكرَهةً كارهة قد لا تتحرج في أن تجد لذة في أشد الشر والخبث. والخوف من مشاركة المذموم في الذم سنة عامة قد تتخذ

شكلاً مضحكاً. فقد ترى جماعة من الناس يتحدثون في مودة وصفاء ثم يرون على قرب منهم اثنين يتضاحكان، وقد يكون تضاحكهما لأمر لا صلة له بهم، ولعل ذكرهم لم يمر على لسان المتضاحكين، ولكن شدة الذعر من السخر والذم قد توهم تلك الجماعة التي تتحدث في مودة وصفاء أن تضاحك المتضاحكين منهم أو من أحدهم فيبتسم كل منهم كي يوهم أصحابه وجلساءه أنه واثق في سريرة نفسه أنه غير مقصود بضحك المتضاحكين. وقد يكون ابتسامه مخلوطاً في شكله بمظاهر الخوف والارتياب فيتخذ ابتسامه شكلاً مضحكاً حقاً. أما إذا استطاع أن يخفي ما في سريرة نفسه من الارتياب والخوف فإنه قد يقنع جلساءه أن تضاحك المتضاحكين على مقربة منهم ليس سخراً به بل بأحدهم وقد ينظر مبتسماً إلى جليس كي يوهم جلساءه أن المتضاحكين إنما يسخران بهذا الجليس الذي ينظر إليه فهو يتوقى السخر الموهوم بإلصاقه بجليسه كي يقي نفسه من أن يُظَنّ موضوع اغتياب المتضاحكين. وهذه ظاهرة مشاهدة في الناس وقد قال أحد الأدباء الماكرين:

إذا رأت إنساناً في جماعة على مقربة منك وارتبت في أنه يغتابك فما عليك إلا أن تختار صديقاً أو جليساً يجيد الضحك ثم حدثه حديث فكاهة يثير ضحكه ولا علاقة لحديثك بالإنسان الذي ترتاب في أنه يغتابك فإذا أكثرتما من الضحك وجعلت تنظر غليه أثناء الحديث ارتاب ذلك الإنسان أيضاً في أنك تذكره بسوء. بل قد ينذعر بعض جلسائه خشية أن يكون هو المقصود بالضحك. فينصرفون عنه، وقد يسعون إليك مبتسمين إذا كانوا يعرفونك كي يوهم كل منهم الآخر أنه واثق في سريرة نفسه أنه ليس مدعاةً للسخر والضحك، وإنما يكون انفضاضهم عن ذلك الإنسان على صوت ضحككما كانفضاض قوم عند سماع صوت إطلاق قذيفة من مدفع غير مُعَبأ بما يميت. وهذه الحيلة ليست من مكارم الأخلاق وربما ألجأ إليها الظن المخطئ وربما لا تستطاع إلا بشيء من الصفاقة لا يملكه كل إنسان ولكنها على أي حال من أخلاق الناس ومشاهد الحياة.

والمغتاب الذي لا يستطيع الناس أن يجدوا سبباً لحقده على من يغتابه أكثر المغتابين نجاحاً في الاغتياب، ومن أجل ذلك يحاول المغتاب الماكر أن يخفي سبب حقده وكرهه، وقد يكون السبب بطبعة بعيداً عن الأذهان، وقد يكون المغتاب نفسه غير فاهم سبب حقده الذي يخامر نفسه كل الفهم، وأخلق بهذا السبب ألا يفهمه الناس إذا كان صاحبه لا يفهمه.

عبد الرحمن شكري

كتاب في (الدين الإسلامي)

للأستاذ علي الطنطاوي

كان الأعرابي الجلف الجافي، يقعد بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ساعة من الزمان يستمع فيها إليه، فلا يقوم إلا وقد فهم الإسلام وعرفه، وصار من المبشرين به والداعين إليه. وكان يصحب النبي أياماً فلا تنقضي حتى يغدو عالماً، يبعثه النبي إلى قومه معلماً ومرشداً، فيعرفهم الحدود، ويبيِّن لهم الحلال من الحرام. . .

كان هذا يوم لم يكن تدوين، ولم تصنف المصنفات، ولم تجمع الأحاديث. . . وهانحن أولاء نملك أكثر من مائة ألف كتاب ورسالة في التفسير والحديث والفقه والأصول والتصوف والسيرة والخلاف وكل ما يخطر على بال باحث من المسائل المتصلة بالإسلام، ولكنا لا نجد فيها كتاباً واحداً لخص الإسلام كله تلخيصاً وافياً، وعرضه عرضاً واضحاً، يقرؤه الشاب فيفهم، فيفهم فيه الدين كله كفهم الوافدين على النبي الدين، حين دخلوا فيه أفواجاً. . .

ولقد أحسست بهذا النقص منذ ابتداء عهدي بالطلب، وعرضت له في رسائل (في سبيل الإصلاح) التي نشرتها في دمشق (أثر عودتي من مصر سنة 1929). بيد أني لم أعرف خطره إلا أمس، حين درست الدين في مدارس العراق، وشرحت للطلاب مزاياه، وكشفت لهم عن عظمته، فكانوا يتشوقون إلى زيادة الاطلاع، ويرغبون في متابعة الدرس. فيسألونني عن الكتاب الذي يجدون فيه خلاصة الدين، كما يجدون خلاصة الطبيعة أو الهندسة في كتاب واحد، فأفكر فيه فلا أجده، ولا أجد إلا علوماً كثيرة من كلام وفقه وحديث وتفسير فيها آلاف من الكتب، يعتدها المؤرخون أثمن تراث للعقل البشري وأغناه، ولكنها أصبحت اليوم بالية الأسلوب، قديمة الطراز، كحلية

من الذهب، ما نقص الذهب ولا خاس، ولكن أنكر الشكل وتغيرت الأذواق، والصائغ الماهر يحول الحلية من حال إلى حال. . . وكنت أخاف أن ينصرف الطلاب عن دراسة الإسلام، وتموت في نفوسهم الرغبة فيه، إذا أنا دللتهم عليها وأردتهم على قراءتها. وليت شعري أأقول للطالب الذي تدع له دروسه الكثيرة، إلا بقية من وقت، آثر أن يشغلها بدراسة الدين عن أن ينفقها في حق نفسه وراحتها، أأقول له، إنك لا تفهم الإسلام حتى تقرأ (النسفية) و (السنوسية) وأشباهها

وتدخل في كل باب من أبواب الفلسفة الفارغة. . . والجدل العقيم. . . وتدور مع المذاهب الباطلة والرد عليها، والآراء الخاطئة ودفعها، وتحفظ كفر أقوام انقرضوا وانقطع دابرهم، كل ذلك لتفهم التوحيد الذي جاء به النبي صلى الله عليه واضحاً سهلاً لا فلسفة فيه ولا جدال. . . وتقرأ (الطخطاوي) والشرنبلاني أو (الباجوري) أو غيرهما من كتب الفروع، وتملأ الرأس منك فروضاً مستحيلة، واحتمالات بعيدة، تتخلل الأحكام، وتجئ مع قوانين الشريعة، كل ذلك لتعرف كيف تصلي وتصوم، وقد كان البدوي يتعلم الصلاة والصيام في ساعة واحدة ويؤديها من بعدها على وجه الكمال. . . وتقرأ (شروح النار) أو (جمع الجوامع (وتكسر دماغك في كلام هو (والله العظيم) أشبه بالطلاسم والأحاجي منه بالعلم وأسلوبه المبين، لتفهم أصول الفقه، والأصول في هذا الدين ثابتة ثبوت الجبال، واضحة وضوح الشمس، مستقيمة كخيوط النور لا عوج فيها ولا التواء، ولا غموض ولا إبهام. . . وتقرأ (النخبة) أو (مقدمة ابن الصلاح) لتفهم مصطلح الحديث، وتقرأ بعد ذلك شيئاً كثيراً. . . ثم لا تنجو بعده من أن يتهمك الحشويون بأنك وهابي، والسلفيون بأنك قبوري، ولن تعدم من يتبرع بتكفيرك من أجل بحث في كرامات الأولياء، أو كلام في السفور، أو رأي في ابن عربي. . . فأين الشاب المشغول بدروسه المتهيئ لفحصه من هذا الخضم الذي يغرق فيه لو خاضه؟ أو لا يعذر الشبان إذا لم يقدروا على درس الدين في كتبه، ولم يجدوا من يفهم عنهم أو يفهمون عنه من علمائه، فآثروا السلامة، وابتغوا من العلوم والدراسات ماله كتب مفهومة، وخلاصات واضحة؟

أحسست بهذا النقص البين، فكتبت في وصفه وخطبت مراراً وسألت من توسمت فيه من العلماء سده وإكماله، فوجدت من (علمائنا) والجمهور منهم لا يحسن شيئاً إلا إقراء الكتب التي كان قرأها على مشايخه من قبل، وشرحها كما شرحت له، فإن خرجت به عن الحواشي والشروح، عاد عاميَّاً لا يكاد يصلح لشيء , ووجدت أكثرهم بعيداً عن الأدب ليس من أهل البيان، ومنهم من لا يزال يظن (جهلاً) أن الإسلام كره الشعر وحرمه ويحتج بحديث: لأن يمتلئ جوف أحدكم. . . ولقد ثبت أن الذي يروونه جزء من الحديث رواية ويل للمصلين. ومن ابتعد عن الأدب، ولم يتمرس بأساليب البلغاء، لم يأت منه خير لأن علمه يقتصر عليه، فلا يقدر على بثه بقلم ولا بلسان. . . ووجدت أكثر (علمائنا) يعيش في

دنيا أهل القرن التاسع، ويفكر بعقولهم. ومنهم من شغله منصب يحرص عليه، أو مال يبالغ في جمعه وادخاره؛ ومنهم من أخلد إلى الراحة، وابتغى الجاه والغنى من شر الطرق وأقصرها، فمخرق على العامة وأظهر الورع فيهم والتواجد. فإن قلت له: صباح الخير، أو سألته عن مسألة. . . أجابك بـ (لا إله إلا الله) أو بالحوقلة والاستغفار، يقلب سبحته في يده، ويغمض عينيه، ويصمت حيناً خاشعاً مراقباً، ثم يصرخ في وجهك صرخة من أفلت من (العصفورية) أو (العباسية). ورأيت من هؤلاء من العجائب ما لو قصصته لخفت أن أكذب فيه لغرابته. . . فأيست منهم أو كدت، ودفعني هذا اليأس إلى محاولة الكتابة في هذا الموضوع، على قصر يدي فيه، وقلة بضاعتي، وأعددت (في نفسي) أكثر مباحثه، ثم رأيت أن أفتح هذا الباب في الرسالة (بإذن الأستاذ الزيات) لكل من أراد أن يكتب فيه وارتضي الأستاذ ما كتب، ورجوت أن يقبل على الكتابة العلماء والباحثون، ينشئ كل منهم فصلاً من الكتاب ينشر اليوم في الرسالة. ثم إذا اجتمعت الفصول ونقحها أصحابها وأعادوا النظر فيها أودعت صفحات كتاب يبقى إن شاء الله وينتفع به الناس. . . ولعل الذي يمنع تحقيق هذا الرجاء أن أكثر من يكتب من الشباب ويملك الأسلوب المشرق المبين لا اطلاع له على كتب الدين، ولا إلمام له بها. وأكثر العلماء (كما قدمت القول) غير مشتغلين بالكتابة. وعلاج ذلك أن يشترك في البحث عالم مطلع، وأديب كاتب، فيمشي الشاب الذي يحسن الكتابة إلى عالم يدلّه

على المراجع، ويبيّن له الأحكام، وينشئ هو الفصل بعد ذلك، فيجتمع له فوائد، منها أن البحث قد كتب وتم، ومنها أنه اطلع على نواحٍ من العلم جديدة، ومنها أنه ألف هذه الكتب القديمة وعرف أسلوبها. . .

ولنأت الآن إلى الموضوعات التي ينبغي أن يشتمل عليها الكتاب، ما هي وما حدودها.

ولست أحب أن أحددها وحدي بل أبين المراد إجمالاً. والمراد أن يلخص الدين الإسلامي في كتاب يضم بين دفتيه الإسلام الذي جاء به النبي محمد خالياً من الحشو والزيادات والبدع والخلافات، يقرؤه الشاب المسلم الذي لا يعرف الدين، فلا يحتاج بعده إلى شيء، ويقرؤه العامّي فيفهم منه دينه، ويقرؤه الغربي (مترجماً) فيحصل له عن الإسلام فكرة واضحة صحيحة

وإذا كان المسلم الكامل هو الذي أخذ الإسلام علماً وعملاً واعتقاداً؛ وإذا كان حديث جبريل

المعروف قد قسم الدين إلى إيمان وإسلام وإحسان، وشرح الأول بأنه التصديق الجازم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، وشرح الثاني بأنه النطق بالشهادة، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت، وفسر الإحسان بأنه عبادتك الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، فإن من المستطاع تحديد موضوعات كتاب (الدين الإسلامي) بأنها:

الإيمان وما يتصل به - الإيمان بالله (التوحيد) - الإيمان بالملائكة والجن والشياطين - الإيمان بالكتب - القرآن، وما يتصل به من نزول، وجمع وإعجاز - الرسالة والرسل - حياة النبي محمد ورسالته - اليوم الآخر - القضاء والقدر - الصلاة: حكمتها وفائدتها وكيفيتها وبيان المتفق عليه من أحكامها - الصوم - الزكاة - الحج - الأخلاق الشخصية في الإسلام - الأخلاق الاجتماعية في الإسلام - الإسلام من الناحية التشريعية - الإسلام من الناحية السياسية - فكرة عامة عن العلوم الإسلامية - المذاهب الأربعة والكلام عليها الخ. . .

هذه هي المباحث المهمة، وأهم منها أن تكتب بأسلوب لا هو بالأسلوب العلمي الجامد، ولا هو بالأسلوب القصصي الخيالي، وأن تكون تعليمية قبل أن تكون علمية، وأن ترتفع عن كل خلاف أحدثه المتأخر ون، وتعود إلى المنبع الصافي الذي استقى منه المصدر الأول خير القرون.

هذا وفي الموضوع مجال للإيضاح والنقد والتعديل، ولعل صفحات الرسالة لا تخلو من ذلك.

(دمشق)

علي الطنطاوي

مدينة قونية

(يا حاضرة مولانا)

للدكتور عبد الوهاب عزام

(بقية ما نشر في العدد الماضي)

من عجائب الآثار وبدائع الصنعة مدرسة إينجه منارة (مدرسة المنارة اللطيفة) وأنا أعفي القارئ من وصفها وأكتفي بما تنطق به الصورتان المثبتتان هنا

ولا يسعنا أن نغفل جامع صاحب عطا (صاحب آتا) بناه أحد وزراء السلاجقة الكبار فخر الدين علي بن الحسين بن أبي بكر المتوفى سنة 684، وقبره في إيوان داخل المسجد ومعه خمسة قبور. وتدل الكتابة على مدخل الإيوان أنه بني في مفتتح المحرم سنة 682

وفي أطراف المدينة على مقربة من المزارع جامع صغر فيه قبر العالم الكبير صدر الدين القونوي المتوفى سنة 671؛ وكان من الأساتيذ في علوم الدين والتصوف. وكان واسطة بين الشيخ الأكبر محي الدين ومولانا جلال الدين. تزوج محي الدين أمه ورباه وعنه أخذ جلال الدين فيما يقال. وله مؤلفات في التفسير والحديث والتصوف

ذهبت إليه وحيداً قبيل الغروب فما زلت أسأل حتى اهتديت إليه فألفيته مقفلاً فسرت قليلاً وعدت فإذا رجلان جالسان بجانب الباب أحدهما ضرير. فلما اقترب المغرب قلت: ألا يفتح المسجد؟ ففتحا الباب فدخلنا إلى مسجد صغير عطل من جمال الصنعة والزينة فتقدم أحد الرجلين فألقى قبعته ووضع العمامة فعرفت أنه الإمام، وتقد الآخر

وعلى رأسه (كاسكت) فأداره وأقام الصلاة فصلينا المغرب وحدنا. وسألت عن ضريح صدر الدين فأشير إلى نافذة تطل إلى الحديقة صغيرة فنظرت فإذا قبر بجانب النافذة فوقه عريش من الكرم وبجانبه أشجار
ولم تقر نفسي دون أن أرى مثوى الصوفي العجيب الغريب الذي اتصل بجلال الدين فحوله من الدرس إلى الخلوة، ومن أستاذ درس إلى مريد طريقة، الرجل الذي أثار حوله الظنون والأيدي حتى قتل في إحدى الثورات عليه، فما زال جلال الدين يشيد بذكره ويهيج به في شعره حتى سمى ديوانه الكبير باسمه. ذلكم شمس تبريزي (شمس الدين محمد بن
على التبريزي) الذي يقول فيه جلال وما أكثر ما قال فيه:
نه من تنها سرايم شمس دين وشمس دين ... مي سرايد عندليب أزباغ وكبك أزكو هسار
باسمه الوُرْق والعنادل تشدو ... لست وحدي أنوح: (شمس الدين)
عزمت على زيارته فقيل إن المزار مغلق لا يفتح لأحد. فاكتفيت بمشاهدة البناء على بعد. ثم لجّ بي التطلع فسرت إليه ليلاً فجارت بي طرق متعرجة ضيقة فرجعت آسفاً وأعجلنى السفر المبكر عن المسير صبحاً، وإن قدر لي الرجوع إلى قونية كانت زيارة شمس الدين أول ما أفعل

وقونية مدينة كبيرة في ولاية واسعة تسمى باسمها، وهي على حافة صحراء كبيرة يمر بها نهر صغير ينتهي إلى بحيرة غربيها. وهي على 450 كيلاً من استنبول إلى الجنوب الشرقي منها ويتصل بها سهل خصب جداً تكثر خيراته إذا أصابه مطر جود، لأن نهرها وينابيعها لا تفي بإروائها. وصناعة النسيج بها رائجة
وهي كثيرة المساجد بها زهاء 150 مسجداً و50 جامعاً. وأهلها معروفون بالدين والتقوى
وبها كثير من آثار السلجوقيين إذ كانت حاضرة دولتهم في آسيا الصغرى
وهي مدينة قديمة عرفت أيام اليونان والرومان. ومن الأساطير التي تروي أن تنّيناً سلط عليها فكان يبلع النساء والصبايا حتى قتله برسبوس بن جوبيتر (المشتري) فوضع أهلها على أحد أبوابها تمثالاً لهذا البطل الذي نجاهم من التنين فسميت المدينة ايكونيوم أخذاً من كلمة ايقون أي الصنم أو التمثال
إذا وقف الإنسان على ربوة علاء الدين رأى أمامه ميداناً كبيراً فيه أنصاب حديثة للجمهورية التركية، وأبنية ومساجد، وينتهي النظر إلى قبة مولانا جلال الدين تبدو من وراء الأبنية وبها شوارع مديدة واسعة. منها الجادة التي تمتد من الربوة إلى المحطة
وفيها تمثال عظيم للغازي ويرجى لها مستقبل عظيم. ولا ريب أنها كانت أيام السلاجقة أعظم عمراناً وأكثر سكاناً
وقد زارها ابن بطوطة بعد زوال دولة السلاجقة واستيلاء أمراء بني قرمان عليها فقال:
مدينة عظيمة حسنة العمارة كثيرة المياه والأنهار والبساتين والفواكه وبها المشمش) المسمى
بقمر الدين - وقد تقدم ذكره - ويحمل منها أيضاً إلى ديار مصر والشام. وشوارعها متسعة جداً وأسواقها بديعة الترتيب. وأهل كل صناعة على حدة. ويقال إن هذه المدينة من بناء الاسكندر، وهي من بلاد السلطان بدر الدين بن قرمان وقد تغلب عليها صاحب العراق في بعض الأوقات لقربها من بلاده التي بهذا الإقليم
نزلنا منها بزاوية قاضيها ويعرف بابن قلم شاه، وهو من الفتيان وزاويته من أعظم الزوايا. وله طائفة كبيرة من التلاميذ ولهم في الفتوّة سند يتصل إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. ولباسها عندهم السراويل كما تلبس الصوفية الخرقة وكان صنيع هذا القاضي في إكرامنا وضيافتنا أعظم من صنيع من قبله وأجمل، وبعث ولده عوضاً عنه لدخول الحمّام معنا
وبهذه المدينة تربة الشيخ الإمام الصالح القطب جلال الدين المعروف بمولانا وكان كبير القدر. وبأرض الروم طائفة ينتمون إليه ويعرفون باسمه فيقال لهم الجلالية كما تعرف الأحمدية بالعراق، والحيدرية بخراسان. وعلى تربته زاوية عظيمة فيها الطعام للوارد والصادر)

ولا أنس مسيري في قونية ليلة الوداع وانتحائي منتدى قرب المحطة وجلوسي تحت أشجار هناك إلى نافورة كأن وسوستها في صمت المكان مناجاة أو حديث النفس وبيننا يجول الفكر في مشاهد قونية وتاريخها، ويطير بيني وبين الوطن والأهل في لمحات، انبعث المذياع مبلغاً رسالة مصر كأنها جواب النجوى. ولست أدري أعرف صاحب المنتدى أني مصري فآنسني، أو كان اتفاقاً أجاب حديث الضمير. وكثيراً ما سمعت في استنبول وقونية صوت مصر، لا سيما حين تلاوة القرآن

عبد الوهاب عزام

من تاريخنا النسوي

عائشة والسياسة

للأستاذ سعيد الأفغاني

لم يتح للسيدة عائشة أن يكون لها أدني أثر في السياسة على عهد الخليفتين العظيمين أبي بكر وعمر؛ بل كان شأنها شأن بقية أمهات المؤمنين أزواج النبي صلى الله عليه وسلم: يُستفتيْن في المسائل من أمور الدين، وخاصة فيما لا يعانيه إلا النساء. فبقين بعد وفاة الرسول مثابة لرواد الفقه وحملة الشريعة، وهذا من حكمة الله ورحمته بهذه الأمة، إذ جعل من أزواج صاحب الرسالة من تعيد سيرته المطهرة خمسين سنة تنشر تفاصيلها للناس، كأن الوحي لم ينقطع، وكأنهم من أنواره في شمس لا يلم بها أفول ولا تحجبها ظلمة. وليس كل السنة يتسنى للرجال معرفتها، ولولا ما نشرن منها لضاع علم كثير، فكان أبو بكر وعمر وعثمان وغيرهم من كبار الصحابة، كثيراً ما يسألونهن في دقائق المسائل وجلائلها وعلى هذا اقتصر عمل عائشة لهذا العهد. وكان في ذكائها (رحمها الله) وفي علمها ما جعلها مقدمة على عامة أزواج النبي (ص): يعرفن ذلك من حقها، ويرجعن أمورهن إليها. . . وكان الناس . . .حين يفزعون إلى أزواج النبي لا يبدؤون إلا بها. . . فمكانها فيهن مكان الزعيم فلما كان عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان، سارت السيدة في الشطر الأول من خلافته (سيرتها على زمن صاحبيه): تفتي وتحدث وتنشر العلم. . . لكنه لم يكد لين عثمان يجرئ الناس عليه، ولم تكد القالة تفشو ناقمة على بعض تصرفاته، حتى انقلب الأمر، ورأينا السيدة عائشة تقود حركة المعارضة، ورأينا عثمان يتبرم بموقفها كل التبرم ولم تزل السيدة توغل في تدخلها السياسي حتى أدى إلى ما لم تكن تحب، وحتى خرج الأمر من يدها في النهاية إلى يد الغوغاء، فكانت أشد الناس ندماً على ما قدّمت. . .

كان مما أخذ الناس على عثمان عزله من ولاية الكوفة القائد المغوار صاحب رسول الله سعد بن أبي وقاص، وتوليته الوليد ابن عقبة أخاه من الرضاعة. فلما حضر وفد أهل الكوفة متذمرين إلى عثمان من عاملهم الجديد انتهرهم وأوعدهم. . . فلجئوا إلى أم المؤمنين عائشة الصديقة مستجيرين. وأصبح عثمان، فصلى بالناس الفجر في مسجد

رسول الله (ص)، فسمع من حجرة عائشة صوتاً وكلاماً فيه بعض الغلطة. فقال: (أما يجد مُرّاق أهل العراق وفساقهم ملجأً إلا بيت عائشة؟!). فسمعت عائشة فغضبت. ورفعت نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت: (تركت سنة رسول الله صاحب هذه النعل). فتسامع الناس فجاءوا حتى ملئوا المسجد. فمن قائل: (أحسنت)؛ ومن قائل: (ما للنساء ولهذا) حتى تحاسبوا وتضاربوا بالنعال. ودخل رهط من أصحاب رسول الله على عثمان فقالوا له: (اتق الله ولا تعطل الحد، واعزل أخاك عنهم). فعزله عنهم! وهكذا استطاعت السيدة بما لها من المكانة والذكاء أن تهيئ لمعارضتها نجاحاً باهراً. فغيرت هذا العامل على رغم الخليفة. وخير ما نطلقه عليها أنها كانت: . . .(زعيمة المعارضة) - على اصطلاح هذا العصر - مدة الخليفتين عثمان وعلي

ثم جاءت شكوى المصريين من عاملهم ابن أبي سرح على نحو شكوى أهل الكوفة من عاملهم. وقامت السيدة في ذلك مقاماً حميداً كما قام غيرها من مشيخة الصحابة مثل علي وغيره. إلا أن ابن أبي سرح لم يعمل بكتاب عثمان، وقتل أحد الذين كانوا شكوه؛ فرجع المصريون إلى المدينة، وشكوا إلى أصحاب النبي وأزواجه ما صنع ابن أبي سرح. فقام طلحة؛ فكلم عثمان بكلام شديد. وأرسلت إليه عائشة: (قد تقدمت إليك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وسألوك عزل هذا الرجل؛ فأبيت أن

تعزله؛ فهذا قد قتل رجلاً منهم فأنصفهم من عاملك. . .)
ولما رجع المصريون بكتاب عثمان المزور، وضج الناس، كانت عائشة تذمه كثيراً، وكانت هي نفسها تقول (فيما بعد): (إنا نقمنا عليه ضربه بالسوط، وموقع السحابة، وإمرة سعيد والوليد. فغضبنا لكم من سوط عثمان. . .)
ومواقف عائشة هذه من عمال عثمان وإرغامها إياه على تغييرهم، قد آذته كثيراً حتى خرج مرةً عن وقاره واعتداله، وما يليق به من الاحتمال والحلم. قال صاحب (البدء والتاريخ):
كان أشد الناس على عثمان طلحة والزبير ومحمد بن أبي بكر وعائشة. وخذله) المهاجرون والأنصار، وتكلمت عائشة في أمره وأطلعت شعرة من شعرات رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونعله وثيابه وقالت: (ما أسرع ما نسيتم سنة نبيكم!) فقال (عثمان في آل أبي قحافة أسرة عائشة ما قال، وغضب حتى ما كان يدري ما يقول هـ.
هذا ما كان من آثارها، ودع لنفسك أن تقدر ما يبلغ مثل ذلك من نفوس الناس، وهم حينئذ أولو الحمية للإسلام، وأقرب الناس عهداً بالرسول وصاحبيه - كم يبلغ من نفوسهم الوجد على عثمان حين فرّط حتى بلغ السيل الزبى، وحتى تغير عليه امرأة - ثم لا تكون تلك المرأة إلا أم المؤمنين عائشة: ترفع عليه في المسجد صوتها وتبرز للمسلمين نعل الرسول مرة، وشعره مرة، وثوبه مرة، تنصبه في حجرتها وتقول للداخلين عليها: (هذا ثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يَبلَ، وقد أبلى عثمان سنته). وكان عثمان مرة يخطب فدلّت عائشة قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقالت: (يا معشر المسلمين! هذا جلباب رسول الله لم يبل، وقد أبلى عثمان سنته). فقال عثمان: (رب اصرف عني كيدهن، إن كيدهن عظيم!).
إن الأثر الذي أثرته في قلوب الناس لجد بليغ. ولست أغلو إن قلت: إن هذا التغير في النفوس يكمن؛ ثم هو لا يزداد على الأيام إلا شدة. وهذا يفسر لنا بجلاء سبب تقاعس أهل المدينة عن نصرة عثمان حين حزبه الأمر واغتاله أهل الأمصار.
وزعم بعض الرواة أنها أول من سمته (نعثلاً) و (نعثل) اسم يهودي أو نصراني طويل اللحية، لقب به عثمان تشبيهاً له به. وأنها كانت تقول: (اقتلوا نعثلاً. قتل الله نعثلاً). وكان الناس يسبون عثمان حول فسطاط عائشة بمكة، وعثمان يمر، ولم ترث السيدة له ولم تغير شيئاً.
ولقد تضافرت روايات من طرق مختلفة على سعي عائشة على عثمان. ولما آلت الخلافة إلى علي ونهضت هي تطالب بدمه. قال لها عمار: (أنت بالأمس تحرضين عليه واليوم تبكين عليه!) وقال لها ابن أم كلاب: (والله إن أول من أمال حرفه لأنت، ولقد كنت تقولين، اقتلوا نعثلاً فقد كفر).
وإذا علمت أن أشد الناس على عثمان - وهو طلحة - يرجو أن تكون إليه الخلافة بعده، وأن طلحة ابن عم أبي بكر (رحمه الله)، وأمعنت في الحوادث التي حفت بهذا العهد، وجالت بنفسك الخواطر، وجدت في رواية الطبري الآتية (وهي مصنوعة بإتقان) حل المسألة فاسترحت إليه:
خرج ابن عباس إلى موسم الحج بكتاب عثمان، فمر بعائشة في (الصُلصُل) فقالت:) (يا بن
عباس أنشدك الله فقد أعطيت لساناً إزبلاً (نشيطاً) أن تخذل عن هذا الرجل وأن تشكك فيه الناس، فقد بانت لهم بصائرهم وأنهجت ورفعت لهم المنار، وتحلبوا من البلدان لأمر قد حُمّ. وقد رأيت طلحة بن عبيد الله قد اتخذ على بيوت الأموال والخزائن المفاتيح، فإن يل يسرْ بسيرة ابن عمه أبي بكر). فقال ابن عباس: (يا أمه، لو حدث بالرجل (يعني عثمان) حدث، ما فزع الناس إلا إلى صاحبنا (يعني علي).
فقالت عائشة وقد يئست منه: (أيها عنك، لست أريد مكابرتك ومجالدتك)). أهـ
وعلى هذا تكون السيدة لم تكتف بزعزعة مركز عثمان، بل تطمح إلى فرض رأيها في تنصيب الخلفاء أيضاً
وزعم ابن أبي الحديد أن عائشة لما بلغها قتل عثمان قالت: (بعداً لنعثل وسحقاً! أبعده الله، ذلك بما قدمت يداه) وكانت تطمع أن يكون الأمر إلى طلحة وتقول: (إيه ذا الإصبع (تعني طلحة لأن إصبعه شلاء) إيه أبا شبل، إيه يا ابن عم! لكأني أنظر إلى

إصبعه وهو يبايع، حثوا الإبل، لله أبوك، أما إنهم وجدوا طلحة كفواً. . .) ولما بلغها بيعة علي قالت: (تعسوا، تعسوا، لا يريدون الأمر في تيم (قومها وقوم طلحة) أبداً. . .) ثم أمرت برد ركابها إلى مكة وتقول: (قتلوا ابن عفان مظلوماً) فقال لها قيس بن أبي خازم: (يا أم المؤمنين ألم أسمعك آنفاً تقولين: أبعده الله؟ وقد رأيتك قبلُ أشد الناس عليه وأقبحهم رأياً فيه!) فقالت: (لقد كان ذلك، ولكني نظرت في أمره وأمرهم فرأيتهم استتابوه، حتى إذا تركوه كالفضة البيضاء أتوه صائماً في شهر حرام فقتلوه) أهـ

وهي رواية أسخف من التي تسربت إلى الطبري رحمه الله. وهذا موضوع لفق له بعض الناس من الأخبار ما يرضي أهوائهم على ما نرى اليوم من الأحزاب السياسية. بل إن بعضهم كان يتعبّد بوضع الروايات التي تنصر صاحبه وتدين خصمه. وما نسب إلى السيدة - في رواية ابن أبي الحديد خاصة - لا يصدر عن الأطفال، بله من كان في مثل عقل السيدة ودينها وحصافتها

سعيد الأفغاني

د. هـ. لورنس

للأستاذ عبد الحميد حمدي

ترجمة حياته - 2

كان الأبوان على طرفي نقيض. ولقد كان لذلك كل الأثر على حياة لورنس الأولى وبعضه على الجزء الثاني منها، فضلاً عن أن هذا الاختلاف هو الذي طبع أولى كتبه بطابع خاص

فبينما كان الأب لا يكاد يجيد القراءة والكتابة إذا بالأم وقد نالت حظاً وافراً من التعليم. وبينما كان الأب يعمل كعامل بسيط في أحد المناجم إذا بالأم تنحدر من سلالة أسرة عريقة في المجد والنبل. ولكن كان الأب وسيم الشكل تبدو عليه كل إمارات الرجولة. يفخر دائماً أن الموسى لم تمس لحيته في يوم من الأيام. وكان هذا مما جذب الأم وأوقعها في حب الأب برغم ما بين طبقتيهما من فوارق. وكان كل منهما يرى في هذه الزيجة ما لا يراه الآخر، فكانت للأب وسيلة حصل بها على زوجة شابة فتانة. أما الأم فكانت ترى فيها سبباً في زجها في بيئة لم تتعودها أو تألفها طول حياتها. وكانت نظرتاهما إلى مستقبل أولادهما أبعد ما تكون عن الاتفاق، فاقترح الأب أن يذهب الأولاد إلى العمل في المناجم بينما تخدم البنات في البيوت، وهذا ما حاربته الأم بكل قواها، لأنها كانت تربأ أن يعيش الأولاد عيشة أبيهم أو أن تحيا البنات حياة أمهن البائسة

ظل هذا النضال قائماً بين الأب والأم حتى أتت الأطفال فأولتهم الأم كل عنايتها وصاروا سلوتها الوحيدة فعاشت لهم ومن أجلهم. أما الأب فقد شعر أن عاطفة زوجته كانت منصبة على الأطفال دونه، فصار لا يرتاح إلى البقاء طويلاً في المنزل، وأصبح يفضل عليه المقاهي والحانات حيث يجتمع بمن هم على شاكلته وبمن يفهمهم ويفهمونه حتى أتى الوقت الذي صارت له فيه الحانة منزلاً ثانياً. كانت زوجته تعد له طعامه وتنتظر الساعات الطوال حتى يحضر قبيل طلوع الفجر وهو ثمل لا يكاد يعي كلمة مما يقول، حتى إذا عاتبته أو أنبتته بكلمة أو عبارة انقلب وحشاً ضارباً وعاملها بمنتهى القسوة حتى إنه لم يتورع مرة أن قذفها بأحد الأدراج فشج رأسها

كان (أرنست) أول أطفالها وقد صوره لورنس صورة ناطقة في روايته (الأبناء والمحبون) تحت اسم ويليام. كان متفوقاً على كل إخوانه في المدرسة وكان لا يضيع دقيقة من وقته،

فكان يدرس اللغات في بعض المدارس الليلية في أوقات فراغه، وبهذه الطريقة حصل على وظيفة رفيعة في إحدى شركات الملاحة بلندن. وكان المستقبل يبدو أمامه زاهراً، حتى عالجته المنية وهو لا يزال في العقد الثاني من عمره، فكان موته ضربة قاضية على قلب الأم، حتى كانت ما تفتأ تكرر مقدار شوقها إلى ذلك اليوم الذي تموت فيه حتى تقابل أرنست

بعد أرنست أتت إميلي ثم أدا، وأخيراً دافيد هربرت لورنس في 11 سبتمبر سنة 1885. وكان في طفولته لا يميل إلى الألعاب التي كان يغرم بها من هم في سنه لأنها كانت من ابتكار غيره، وكان يفضل عليها الألعاب التي يبتكرها هو، لأنه ما كان يكره

شيئاً قدر كراهيته للتقليد. ولما بلغ السادسة عشرة تعرف إلى عائلة تشمبرز حيث قابل حبيبته الأولى التي وصفها في كتابه (الأبناء والمحبون) تحت اسم ميريام. جذبته الفتاة بعينيها العسليتين الواسعتين، وشعرها الأسود المموج، وميلها إلى الرزانة والجد على خلاف بنات حيها، فضلاً عن أنها كانت توليه أذناً صاغية عندما يتكلم معها عن آرائه الغريبة. لذلك كانت زياراته لبيت حبيبته تزداد يوماً بعد يوم لدرجة أقلقت بال الأم وأقضت مضجعها حتى إنها لم تتمالك نفسها ذات يوم أن قالت له في تهكم وغيظ: إن الأولى به أن يجمع ملابسه ليقيم مع حبيبته دواماً

وعلى رغم أن لورنس لم يعترف لحبيبته بحبه لها في صراحة إلا أنه كثيراً ما كان يردد نظريته التي تقول: إن كل عظيم خلقته امرأة؛ وأنه كان يرى فيها المرأة التي سوف تخلق عظمته. ولكن كان لورنس حساس القلب إلى أقصى درجات الحساسية لم يفته ما عانته الأم المسكينة من زوجها القاسي فتعلق قلبه بأمه وفاض بحبها، وعلى العكس من ذلك كان شعوره تجاه أبيه. وقد بادلته أمه حباً بحب حتى تعوض ما فاتها من حب زوجها. ولقد كان هذا الحب هو علة لورنس الأولى وداؤه الذي ذاق من أجله الأمرين، ولكنه في الوقت نفسه كان سبباً في توجيه تفكيره إلى درس موضوع لم يسبقه إليه أحد. كان لورنس يشعر في قلبه بحبين ينازع أحدهما الآخر ويعمل على استئصاله، وكان كل منهما من القوة بحيث بات لورنس ضحيتهما ردحاً من الزمن. فهو يحب أمه، وفي الوقت نفسه يحب ميريام. ولما كان حبه لأمه هو أول حب طرق قلبه فقد كانت حاجته شديدة إلى امرأة تحبه حباً قوياً

جارفاً يخلصه من الأغلال التي كان يرسف فيها، ولكن للأسف كان حب ميريام من ذلك النوع الروحي مما كان سبباً في تغلب الأم في النهاية.

وكانت ميريام قد أرسلت خمساً من قصائده إلى أحد الناشرين فنشرها له، وشجعه هذا على أن يرسل إليه أولى رواياته (الطاووس الأبيض) وقد ظهرت الرواية في يناير سنة 1911 أي بعد وفاة أمه بشهر واحد

وبموت أمه وفشل حبه ينتهي الجزء الأول من حياة لورنس وفي أحد أيام أبريل من عام 1912 قصد لورنس إلى منزل الأستاذ أرنست ويكلي كي يتوسط له لدى إحدى الجامعات الألمانية بغية الحصول على إحدى وظائف التدريس بها. وفي هذه المقابلة الأولى وقع لورنس في حب زوجة الأستاذ الألمانية. ولدهشته شعر أنها قد بادلته حباً بحب فكتب إليها يبثها غرامه ويطلب منها أن تطلع زوجها على ما بينهما فلم تتردد أن تفعل ذلك برغم شدة تعلق زوجها بها وبرغم أنها قد أنجبت منه ثلاثة أطفال

سافرت فريدا بعد ذلك مع لورنس إلى متز حيث قابل لورنس والدها البارون فون رتشتوفن حاكم الألزاس واللورين بعد الحرب البروسية، وكانت مقابلة جافة بين الأب الأرستقراطي وبين لورنس الذي ينحدر من طبقة الدهماء. بعد ذلك سافر لورنس وحده إلى أرض الرين. ثم قابلته هي في ميونيخ، وهناك تحت سفح جبال الألب وعلى ضفاف نهر الإيزر بدأ حياتهما معاً. ومن هناك ذهبا إلى بحيرة جاردا حيث نقح روايته (الأبناء والمحبون) ثم أرسلها إلى أحد الناشرين فردها هذا إليه ثانية بحجة أنها أقذر كتاب وقعت عين الناشر عليه. ومن غريب الأمر أن الرواية نفسها نالت تقريظ الكتّاب بعد نشرها وأجمعوا على أنها من أروع ما كتب في الأدب الإنجليزي. وفي هذا المكان كتب (الشفق في إيطاليا) وكذلك مجموعة من أشهر قصائده

وعادا إلى لندن دون أن يمكثا بها طويلاً. فذهبا إلى بافاريا حيث كتب لورنس قصة (الضابط البروسي) التي تنبأ فيها بالحرب العظمى مع أنه كتبها عام 1913

وفي الشتاء التالي ذهبا إلى إيطاليا حيث كتب روايته (قوس قزح) وأرسلها إلى جارنت - أحد الناشرين - فلم تصادف هوى في نفسه. فكان يأس لورنس لا يوصف، لأنه كان يعتقد أنه إنما يحاول أن يعلم الناس كيف يعيشون فكان ينتظر منهم الحمد والثناء فلم يجد سوى

الجحود والنكران

وفي ربيع عام 1914 ذهبا إلى لندن حيث عقدا زواجهما وتعرفا هناك إلى الشاعر الشاب روبرت بروك الذي راح ضحية الحرب. وكان لورنس من أعدي أعداء الحرب لا يني عن مهاجمة مبدئها وإظهار سخطه عليها. وفي ذلك الوقت ظهرت روايته (قوس قزح) فقال الناس عن كاتبها إنه مجنون يشكو من عقدة جنسية، وأمرت الحكومة

بمصادرة الكتاب وإحراق كل النسخ التي ظهرت منه، وحتى أصدقاؤه الذين كان ينتظر منهم أن يؤازروه في محنته ويقفوا إلى جواره انفضوا من حوله وانهالوا عليه نقداً وتجريحاً. عند ذلك أقسم لورنس أنه لن يكتب رواية أخرى بعد ذلك، وقد بر بقسمه خمس سنوات، وكان يعتقد أنه رجل سابق لعصره، يراه الناس بعيداً عنهم فيبدو في نظرهم صغير الجسم ضئيل الحجم، ولو أنهم أوسعوا خطاهم واقتربوا منه لرأوا فيه رجلاً أعظم منهم وأكبر حجماً

وذهب بعد ذلك إلى مقاطعة كورتوول يقضي بها سني الحرب، ولكن كانت زوجته الألمانية سبباً في خلق كثير من الصعاب في طريقهما فظن مواطنوه أنه يتجسس للألمان فكانوا يقتحمون منزله كل يوم ويقلبون أثاثه ويبعثرون أوراقه حتى يتأكدوا من حسن نياته. وحدث مرة أن كان عائداً مع زوجته وهو يحمل حقيبة على ظهره، فلم يكد يراه حرس السواحل حتى انقضوا عليه بحجة أنه يحمل آلة تصوير في الحقيبة، وتسابقوا إلى فتحها ولخيبتهم لم يجدوا بها سوى رغيف من الخبز. وكان لورنس يصبر على كل هذه المكاره على مضض حتى زاره ضابط في منزله ذات يوم وقرأ عليه أمراً حكومياً يقضي بأن يغادر مقاطعة كورتوول في بحر ثلاثة أيام على الأكثر. استشاط لورنس غضباً عند سماع هذا الاتهام الصريح في أعز شيء لديه، فهو الذي كان يفني نفسه حتى يرفع من شأن مواطنيه ويدلهم على طريق الحياة الصحيح ويعلمهم ما لا يعلمون، ثم يتهم في وطنيته وإنجليزيته. كانت هذه أقسى ما ناله من الطعنات

وصل لورنس إلى لندن إبان شن الغارات الألمانية الجوية عليها فكان جميع أهل لندن يلجئون إلى الأقبية والمخابئ فراراً من هذه الغارات، ما عدا لورنس الذي كان يرفض أن يترك فراشه أثناءها

وبعد أن وضعت الحرب أوزارها ذهب وزوجته إلى فلورنسه ومنها إلى جزيرة كابري حيث كتب مجموعة قصائده المسماة (الطيور والحيوان والزهور) وكتب كذلك روايته (الفتاة المفقودة) وأخيراً كتب الكتاب الذي لم يغير فيه حرفاً واحداً وهو (البحر وسردينيا)

ثم ذهبا بعد ذلك إلى استراليا واستقلا القطار من سدني على أن ينزلا في أية مدينة يروقهما منظرها من نافذة القطار. فنزلا في ثيرول حيث كتب روايته الشهيرة (القنغر) التي ضمنها كل آرائه في استراليا وما لاقاه في كورنوول من اضطهاد أثناء الحرب العظمى.

وهناك وصلته دعوة من مابل رودج للذهاب إلى تيوس في المكسيك كي يتعرف إلى الهنود الحمر الذين كثيراً ما كان يظهر إعجابه بهم. فلم يتردد في قبول الدعوة، وكان هناك بعد وقت قصير. ثم انقل من تيوس إلى مدينة المكسيك على أثر خلاف قام بينه وبين مابل رودج. وعلى بحيرة تشبالا كتب روايته الفلسفية (الثعبان ذو الريش) وفي الخريف التالي كتب (الصباح في المكسيك)

ثم اشتدت عليه وطأة المرض فجأة، ولما عاده الطبيب قرر أنه مريض بذات الرئة وفي الدرجة الثالثة. ولكن لم يمنعه هذا أن يكتب وهو مريض مسرحيته المسماة (داوود) وقصته الطويلة (المرأة التي رحلت)

وفي الصيف التالي عاد إلى أوربا واستأجر فيللا بالقرب من جنوا، وكان وهو في فلورنسا قد كتب رواية أسماها (عشيق لادي تشاترلي) ولكنه تركها مهملة في أحد أدراج مكتبه خشية أن تثير عليه ضجة من جديد، لأنه كان فيها صريحاً إلى أقصى حدود الصراحة. ثم قر رأيه أخيراً أن يخرجها إلى عالم الوجود. فأرسلها إلى أحد الناشرين فردها إليه مظهراً استهجانه لما جاء بها ثم أرسلها لورنس إلى آخر فرفضها هذا بشدة. وأخيراً لم ير لورنس بداً من أن يأخذها إلى مطبعة إيطالية لا يعرف صاحبها من الإنجليزية حرفاً واحداً. فوافق هذا على طبعها دون أن يدري مما يطبع كلمة واحدة. وظهر الكتاب عام 1928 ولكنه صودر لتوه. وفي العام التالي صودرت أيضاً مجموعة قصائد له. وزاد الطين بلة أن بلغه خبر مداهمة البوليس لمعرض صوره في لندن، وتحطيم جل صوره. فزادت وطأة المرض عليه ونقل إلى مصحة في فنس حيث التف حوله كل أصدقائه يبذلون قصارى جهدهم لإنقاذه، ومن بين هؤلاء الأصدقاء عائلة بروستر وهكسلي وإيدا رانه وهـ. ج. ويلز وأغا خان وزوجته. ثم نقلوه بعد ذلك إلى الفيللا على مقربة من المصحة، ولكن كان قد سبق

السيف العذل، فما كاد يصل إلى هذه الفيلا حتى ساءت حاله وفاضت روحه إلى بارئها في يوم الثاني من شهر مارس سنة 1930

(يتبع)

عبد الحميد حمدي
مدرس بشبرا الثانوية
خريج جامعة اكستر بإنجلترا

التاريخ في سير أبطاله

أحمد عرابي

أما آن للتاريخ أن ينصف هذا المصري الفلاح وأن يحدد له مكانه بين قواد حركتنا القومية؟

للأستاذ محمود الخفيف

ولقد ارتخص هؤلاء الساسة من دعاة المدنية الناقمين على أهل الشرق ما كانوا فيه من تأخر، كل كرامة بغية الوصول إلى أغراضهم، وانقلبت عندهم الأوضاع التي تعارف الناس عليها، وشهد التاريخ على مسرح السياسة من المضحكات ما يبكي، ومن المبكيات ما يضحك؛ فلقد عز على هؤلاء السادة الذين راحوا يُدِلون بمدنيتهم ويتطاولون بما فعلوا في سبيل الحرية الإنسان أن يروا أهل مصر ينزعون حقاً من الحرية، ويعملون على الرقي بوطنهم جادين غير متوانين، يتعاونون على الحق ويتناسون ما بينهم من دواعي الخلاف، ويطرحون الأثرة بل ويحرمون على أنفسهم الطيبات حتى يتم لهم ما أرادوا

وذعر هؤلاء الكائدون لمصر الطامعون فيها أن أفاق أهلها على هذا النحو وقد كانوا يظنونهم أمواتاً أو كالأموات، وهالهم أن يروا فريقاً من هؤلاء الفلاحين يستلبون سلطة الخديو تدريجياً ويحاولون أن يضعوا أنفسهم بحيث تكون الأمة وهم نائبون عنها مصدر كل سلطان، وأدركوا أن هذا البعث الذي أفاقت عليه مصر من نومها الطويل هو الصبح الذي يهتك أسدا لهم ويبدد آمالهم، فما ونوا يوماً كما بينا عن محاربة مصر وزعماء مصر ورميهم بكل فاحشة، وفي مقدمة هؤلاء جميعاً ذلك الرجل الذي خطا نحو الحرية الخطوة الأولى وصرخ في وجه الظلم الصرخة الأولى. . .

ولم ير هؤلاء لوزارة البارودي حسنة واحدة. وكيف كانوا يرون لها حسنة ووجودها في الحكم كان ذاته عندهم أقبح السيئات وأكبر الأوزار، وإنهم ليفترون الكذب عليها وينسبون إليها من السيئات والأخطاء ما ليس لها به من علم

ولكن هذه الوزارة - وتلك عندي أكبر حسناتها - كانت لا تعبأ بما يرجف المبطلون فتمشي إلى غايتها على الشوك وقد عقد أعضاؤها النية على إنقاذ بلادهم من طمع الطامعين وكيد الكائدين، وعلى تعهدها بضروب الإصلاح في شتى مرافقها حتى تقوى فتعز على كل باغ ظلوم من خصومها

وما كان في الوزارة من عوامل الضعف سوى جهل رئيسها وأعضائها باللغات الأوربية، إلا وزير الخارجية مصطفى فهمي باشا؛ ولقد ضم إلى الوزارة ليكون لسانها في الصلة بالأوربيين، ولكنه كان من رجال العهد القديم على حد تعبير مؤرخي الثورة الفرنسية، فلم يكن ينظر إلى الوطنيين نظرة الاحترام والتقدير، وإنما كان يرى فيهم فريقاً من الفلاحين يتطلعون إلى ما ليسوا أهلاً له، شأنه في ذلك شأن الجراكسة وأشباههم من سادات مصر وكبرائها في ذلك العهد. وعلى ذلك فقد كان وجود هذا الرجل في وزارة الخارجية عبئاً يضاف إلى أعباء الوزارة، وذلك أمر لم تفطن إليه إلا بعد فوات الوقت وفيما عدا ذلك كانت وزارة البارودي وزارة وطنية حقاً تعمل صادقة مؤمنة على تحقيق آمال البلاد والنهوض بها على الرغم مما كان يحيط بها من دسائس وما كان يملأ أسماع رجالها من نباح وعواء

انتهى دور انعقاد مجلس النواب في 26 مارس فقضى بذلك في العمل نحو ثلاثة، أشهر وهي مدة وجيزة كان يشغل بال الأعضاء فيها ترتيب أعمالهم، ولكن المجلس على الرغم من ذلك قسم أعضاءه إلى لجان مختلفة أخذت تتصل بالوزارات وتبحث معها الشؤون العامة التي تهم البلاد، وجدَّ المجلس في دراسة نصوص المعاهدات والمعاقدات العامة والخاصة المبرمة بين الحكومة المصرية والحكومات الأجنبية

ورعاياها
وأخذت الوزارات تعد مشروعات الإصلاح المختلفة لعرضها على المجلس في دور انعقاده القادم؛ فكانت تنظر فيما يتطلبه التعليم وتفكر في إنشاء مصرف زراعي ينتشل الفلاحين من وهدتهم، وتعمل على إصلاح المحاكم المختلطة واختصاصاتها كما تناولت قانون الانتخاب وراحت تدرسه لتعد قانوناً جديداً يجعل للمحكومين الرقابة الفعلية على الحاكمين
ولكن حدث أنه كانت كلما تقدمت وزارة في خطى إصلاحاتها ازدادت لهجة الصحف الأوروبية في العيب عليها والطعن فيها، واشتدت وطأة الساسة في نقد أعمالها، وتزايدت دسائسهم من حولها، وعلى رأس هؤلاء كلفن ومالت اللذان أدركا الآن، أو على الأصح وجّها، إلى أن مهمتهما في مصر أصبحت استعجال الحوادث تمهيداً للتدخل العسكري
وقد جد عرابي بنوع خاص في إصلاح نظارته التي كانت في منتهى الفوضى والخراب) وذلك ليستعد للطوارئ كلها فأظهر همة فائقة في إصلاح حصون السواحل ونظم احتياطي المدفعية ووزعه على تلك الحصون)
والحقيقة التي لا يمارى فيها إلا المغرضون المبطلون أن البلاد كانت تشيع فيها روح الوطنية الصادقة التي تبرهن على صدقها بالأعمال لا بالأقوال. ولو أنه قدر للوزارة السامية أن تسير على هذا النهج لكان أثرها بعيداً في تاريخ مصر بل وفي تاريخ القرن التاسع عشر كله، فلقد كانت المسألة المصرية تعتبر من كبريات المسائل في ذلك القرن
وليس أدل على وجود الروح الوطنية في مصر يومئذ من هاتين العبارتين اللتين نوردهما في هذا المجال، وأولاهما ما كتبه دي فريسنيه في كتابه (المسألة المصرية) حيث يقول في تعليقه على مجلس النواب واختصاصاته: (إن كتاب ذلك العصر اجتهدوا في أن يسخروا من طلب الذين كانوا يطلبون توسيع اختصاص المجلس، حتى ليخيل إلى الذي يقرأ خطابات بعض الخطباء أن الوطنية المصرية كانت في ذلك الوقت تلفيقاً، وأن وادي النيل لم يكن يحتوي إلا على الفلاحين تحني العصا ظهورهم. فكل ما نرد به على هؤلاء الكتاب والخطباء، هو أن آباءنا كانوا أقل من هذا امتهاناً للوطنية المصرية في عهدهم؛ وذلك أن نوابنا في سنة 1840 لم يترددوا في أن يتكلموا في خطبهم عن الرعاية الواجبة للوطنية المصرية الناشئة. فقد كانت هناك إذاً وطنية مصرية ناشئة تستحق الرعاية في سنة 1840. ولست في هذا مبالغاً، ولا أنا ممن يحبون المبالغة، ولكن لا ريب في أنه كانت توجد في قلوب المصريين من أربعين سنة مضت مطامح كان من الممكن أن تراعي في حدود معتدلة. تلك حقيقة لا تحتمل جدلاً؛ غير أن الذين كانوا يقبضون على خط مصر لم يكونوا يرون في المصريين غير قوم مدينين. فلم يكونوا يعرفون في معاملتهم إلا مصلحة واحدة: هي مصلحة الدائنين الأوربيين التي يجب أن تقدم على ما عداها. وبذلك لم ينتبهوا إلى أن مثابرتهم على اعتبار مصر رهنا، وتدخلهم في شؤونها تدخلاً أدى بحكومتها إلى أن تصير في أيدي الأجانب، كانا قد انتهيا على طول الأيام بأن يجرحا شعور الشعب المصري الذي هو شعب حي مهما يقل القائلون في تعوده الطاعة والخضوع من أجيال).
وأما ثانية العبارتين فهي ما كتبه من باريس سنت هيلير إلى قنصل فرنسا العام في مصر
أكتوبر سنة 1881 قال: (ليس من السهل علينا أن نقدر من هنا قوة هذه المطامح 17 الشرعية ولا كيف يمكن إرضاؤها، ولكن هذه المطامح حقيقية إلى أعظم حد، ومبررة من بعض الوجوه إلى أعظم حد أيضاً، فلا يمكن إهمالها ولا يمكن على الخصوص التفكير في خنقها)
من هاتين العبارتين يتبين لنا أنه كان في مصر يومئذ حركة وطنية، فليتدبر ذلك أيضاً من يريد أن يحكم على رجال ذلك العهد وفي مقدمتهم عرابي، وليشفق على أنفسهم الذين يرمون عرابياً ورجاله بالفوضى والجهل والأنانية. ليشفق هؤلاء على أنفسهم فلن يجدر بهم أن يظلوا يجهلون تاريخ هذا الرجل فيحملون الذين يعلمون حقيقة هذا التاريخ على الزراية بهم والاستخفاف بعقولهم، إذ ليس أدعى إلى الاستخفاف بعقل رجل من أن تراه يجهل أمراً من الأمور ثم إذا هو يدلي فيه برأي قاطع في لهجة يتردد في

. . .إتباعها الراسخون في العالم
ما كان عرابي طائشاً ولا داعية فوضى، ولكن كان زعيماً مخلصاً يعمل بوحي من وطنيته ويصيب ويخطئ كما يصيب الزعماء غيره ويخطئون كل على قدر ما اجتمع له من الكفاية والمقدرة! والخطأ والصواب من خواص البشر ومردهما إلى العقل وسعته أو ضيقه؛ أما الصدق والإخلاص وما إليهما من صفات الزعامة والبطولة فلا تسامح فيها ولا تهاون، بل لا يصح أن تكون هذه أموراً يجوز فيها التفاوت إذا عقدت المقارنة بين زعيم وزعيم وبين بطل وبطل! وكيف يجوز في عقل أن يكون هناك صدق ونصف صدق وإخلاص ونصف إخلاص؟ إن هذه أمور جلالها وجمالها بل وجوهرها في أن تكون غير قابلة لزيادة أو نقص؛ وعلى الذين لا يزالون يخاصمون عرابياً أن يأتوا بدليل واحد عللا كذبه أو مروقه. أما الخطأ والصواب فليقولوا فيهما ما شاءوا وبيننا وبينهم حوادث هذه الثورة الوطنية على قدر ما وصل إلينا منها ترينا مبلغ ما في مزاعمهم هم من خطأ أو صواب

زار مستر بلنت قبل سفره إلى إنجلترة عرابياً في وزارة الحربية زيارة وداع، ويجدر بنا أن نثبت هنا بعض ما كتبه ماليت عن عرابي في هذه الزيارة قال: (تناقشنا في كل الموضوعات التي كانت محل الكلام في الدوائر الوطنية بما فيها من مشروعات للإصلاح وأمان ومخاوف في الداخل والخارج، وكانت بضعة الأسابيع التي قضاها عرابي في مركزه الجديد قد أنضجته وقوته؛ فناقشني في كل الموضوعات برصانة واعتدال عظيمين سواء في التفكير أو في اللهجة! وقد أكد لي أنه هو وزملاءه الوزراء يرغبون كثيراً في أن يصلوا إلى تفاهم ودي مع الحكومة البريطانية في كل المسائل التي يختلفون فيها مع الوكالة البريطانية في القاهرة، وطلب إلى أن أبلغ رسالته هذه بصفة رسمية إلى غلادستون! وقد شكا شكوى مرة من كلفن وماليت اللذين ظهر مسلكهما العدائي من الخطة التي جريا عليها فيما يختص بتشويه سمعة الوطنيين في الصحف البريطانية وقال لي: (إن السلام لا يمكن أن يوطد في القاهرة ما بقى هذان، وما بقيت علاقتنا مقصورة عليهما، فإننا نعرف أنهما يعملان لإيذائنا سراً أن لم يكن جهراً، وسنقف بمعزل عنهما جميعاً، ولكننا لا نريد أن نختلف مع إنجلترة كرامة لها. دع المستر غلادستون يرسل لنا أيا كان خلافهما لنتفاهم معه ونحن نستقبله بأذرع مفتوحة)

هذا هو جانب من حديث عرابي مع بلنت نضعه تحت أعين اللذين اتهموه بالنزق وعدم التبصر في عواقب الأمور ليقولوا لنا: هل فيه كلمة واحدة في غير موضعها؟ هل يتهدد فيه عرابي الإنجليز، ويتوعد كما كان حرياً أن يفعل لو كان كما وصفه أعداؤه؟ إنه يشكو من كلفن وماليت ويطلب غيرهما حتى يتسنى لمصر أن تتفاهم مع إنجلترا وإنك لتراه بذلك يلقي تبعة اضطراب السياسة الإنجليزية على كاهل هذين الرجلين فيرمي الإنجليز جميعاً رمية ماهرة كيسة في شخصهما، فهو يعلم أنهما يمثلان نيات حكومتهما، ثم هو يفتح الباب بذلك للتفاهم فلا يدع في مسلكه مجالاً لأعدائه؛ كل ذلك دون أن يفرط في حقوق بلاده أو يشتري بها ثمناً قليلاً وهو الذي جعل خصومه الخيانة في أوائل ما اتهموه به

(يتبع)

الخفيف

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

أرى الدعوات قد صارت قروضا - 460

في (محاضرات الراغب): ذكر بعض الكتاب أنه كان يعاشر سوقياً. فاتفق أن دعاه يوماً، قال: فلما تمكنت اشتغل عني صاحب الدعوة فعثرت على رقعة بخطه فيها: (فلان دعاني مرتين ودعوته ثلاث مرات فعليه دعوة، وقد ذكرنا على هذا أسامي كل من يعاشرنا). فلما انتهيت إلى اسمي فرأيته قد حصل له على دعوات - خرجت وقلت له: لا أتناول طعامك حتى أرد ما علي، وقلت في ذلك:

أرى الدعوات قد صارت قروضا ... وديناً في البرية مستفيضا

فأكره أن أجيب فتى دعاني ... ولا أدعو فيلقاني بغيضا

461 - لا لباس للرأس . . .
قال ابن سعيد في (المُغْرب): الغالب على أهل الأندلس ترك العمائم ولا سيما في شرق الأندلس. وقد رأيت عزيز بن خطاب أكبر عالم بمرسية حضرة السلطان في ذلك الأوان وإليه الإشارة وقد خطب له بالملك في تلك الجهة وهو حاسر الرأس، وشيبه قد غلب على سواد شعره. وأما الأجناد وسائر الناس فقليل منهم من تراه بعمة في شرق منها أو غرب. وابن هود الذي ملك الأندلس في عصرنا رأيته بجميع أحواله ببلاد الأندلس وهودون عمامة، وكذلك ابن الأحمر الذي معظم الأندلس الآن في يده.
462 - أخاطب بالتأمير وإلى منبج
كان البحتريّ مقيماً في العراق في خدمة المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان، وله الحرمة التامة، فلما قُتلا رجع إلى منبج وكان يحتاج للترداد إلى الوالي بسبب مصالح أملاكه، ويخاطبه بالأمير لحاجته، ولا تطاوعه نفسه إلى ذلك، فقال:
مضى جعفرٌ والفتحُ بين مُرَمَّل ... وبين صبيغٍ بالدماء مضرَّج
أأطلب أنصاراً على الدهر بعد ما ... ثوى منهما في الترْب أوسي وخزْرجي؟
مضَوْا أمَماً، قَصْداً، وخُلّفتُ بعدهم ... أخاطب بالتأمير وإلىَ مَنْبِج!
463 - شكوى في الصحف
لما اشتد بلاء عبد الرحمن بن أم الحكم على أهل الكوفة قال عبد الله بن همم شعراً، وكتبه في رقاع، وطرحها في مسجد الكوفة:
إلا أبلغْ معاوية بن صخر ... فقد خرب السواد فلا سودا!
أرى العمال قد جاروا علينا ... بعاجل نفعهم ظلموا العبادا!
فهل لك أن تدارك ما لدينا ... وتدفع عن رعيتك الفسادا؟
وتعزل تابعاً أبداً هواه ... يخرب من بلادته البلادا!
إذا ما قلت أقصر عن هواه ... تمادى في ضلالته وزاد!
فبلغ الشعر معاوية فعزله.
464 - فأين الرعاية والتذمم؟
لابن أبي الحديد: قال عمر لرجل همّ بطلاق امرأته: لَم تطلقها؟ قال: لا أحبها! (شرح النهج)
قال: أو كلّ البيوت بُنيت على الحب، فأين الرعاية والتذمم؟؟!!
465 - دعوة قبل ألا تنتفع به
ابن مزروع عن أبيه: كنت أسير في موكب يحيى بن خالد. فعرض له رجل من العامة، ومعه كتاب فقال: أصلح الله الأمير! أختم لي هذا الكتاب. فبادر إليه الشاكرية يزجرونه من حوشي موكبه. فقال: دعوه قبل ألاّ ننتفع به (يعني خاتمه) واستدناه فختمه له، وتعجب مسايروه من اغتنامه المعروف، وعلمه بأفعال الرجال. (محاسن البيهقي)
466 - التوءمون العراقيون
في (الحوادث الجامعة في المائة السابعة) لابن الفوطي: في سنة (645) ولدت امرأة فقيرة أربعة في بطن، فشاع ذلك وأنهى خبرها إلى الخليفة، فأمر بإحضار الأولاد، فأحضروا في جونة، فتعجب من ذلك، وأمر لهم بست مائة دينار وثياب، وكانت المرأة وزوجها في غاية من الفقر لا يملكان حصيراً!
قلت: نعش خليفة ذاك العصر التوءمين العراقيين نعشاً عظيماً وقد أخبرتنا الصحف في هذه
الأيام أن كندية أمريكية قذفت بتوءمات خمس، فكفلتهن الدولة كفالة بليغة، ووظفت للناجلين في كل شهر وظيفة، وقد أمست مدينتهن بهن محجا، وأخبارهن في صحف العالمين مستفيضة. ولما زار ملكا البريطانيين ذاك الإقليم في هذا الوقت شاهداهن وناغياهن، وتعجبا من التوءمات تعجب آخر الخلفاء في بغداد من التوءمين
467 - اتحدا روحاً وجسداً
في (شذرات الذهب): في سنة (352) بعث صاحب أرمينية إلى ناصر الدولة رجلين ملتصقين خلقة من جانب واحد فويق الحقو (الخاصرة) إلى دوين الإبط ولدا كذلك، ولهما بطنان وسرتان ومعدتان، ولم يمكن فصلهما، وكان ربما يقع بينهما تشاجر فيختصمان، ويحلف أحدهما لا يكلم الآخر أياماً ثم يصطلحان، فمات أحدهما قبل الآخر فلحق الحي الغم من نتن الرائحة فمات

468 - ودنيا تناديك أن ليس حر
ابن مقلة:
زمانٌ يمرُّ، وعيشٌ يمرُّ ... ودهر يكرُّ بما لا يسرُّ!
وحالٌ يذوبُ، وهَمٌّ ينوبُ ... ودنيا تُناديك أن ليس حرُّ!!
469 - صحبة الأكابر تورث السلامة
حكى عن شيخ العارف أبي العباس المرسي أن امرأة قالت له: كان عندنا قمح مسوس فطحناه السوس معه، وكان عندنا فول مسوس فدششناه فخرج السوس حياً فقال لها: صحبة الأكابر تورث السلامة
470 - من قبل أديس
قال يا قوت: من عجيب ما مر بي من الكذب حكاية أوردها غرس النعمة قال: كان لوالدي تاجر يعرف بأبي طالب، وكان معروفاً بالكذب. فأذكر وقد حكى في مجلسه والناس حضور عنده أنه كان في معسكر محمود بن سبكتكين صاحب خراسان ببخارا معه، وقد جاء من البرد أمر عظيم، وأن الناس كانوا ينزلون في المعسكر، فلا يسمع لهم صوت ولا حديث ولا حركة؛ حتى ضرب الطبل في أوقات الصلوات. فإذا أصبح الناس وطلعت الشمس
وحميت ذاب ذلك الكلام؛ فسُمعت الأصوات الجامدة منذ أمس من أصوات الطبول والبوقات، وحديث الناس، وصهيل الخيول، ونهيق الحمير، ورغاء الإبل. . .
وحي الشاعرية
نفسيَّاتٌ
للأستاذ حسن القاياتي
خطَراتُ لاهٍ في تفجُّع باكي ... لا راحمي ألمي ولا أنا شاكي
كيف الصدود عن ابتسامة واجدٍ ... خُضِبت بدمع الناظر السَّفاك؟
آسٍ كما أعطشْتَ ورد خميلةٍ ... فسما إليك بثغره الضحَّاك
اللاعجُ البسَّامُ تُرْمض نارُهُ ... في الخدِّ مثْنى النور في الأسلاك
دَهرى متى يُوحي إلى أفلاكه ... ألاّ نُباح لدورة الأفلاك؟
حرٌّ كوردات القفار مُضيِّعٌ ... لا النُّبل سادَ ولا الأريجُ الذاكي
يا سبورة ما كنتُ أصدُق وصفَها ... إلا كما صدق الصبابة (حاكي)
رقّ الشبابُ على حُلّة ناسكٍ ... طَرّزتُها بحلاوة الفُتّاكِ
مُلكُ الجمال على رشاقة جوره ... كم رُعتُهُ بتصلُّف الأملاك
أقنى لدى الحسن الحياء فأنثني ... والحسنُ حظ اللاهج الفتاكِ
أهلاً بكاسيةِ الدلال بشاشةً ... هات الحديث عن الصدود وهاك
تِيهي كما أمَرَ الدلالُ فإنه ... أغرى فؤاديَ بالأسى ونهاك
أهواك مِلْء جوانحي وكأنني ... من فرط ما أخشاك لا أهواك
يشتاق طرفي أن يراك قريبةً ... يا قُرّة الأبصار حين تَراك
رُدِّي لي الليلَ البهيِّ كأنما ... كُحلت بطيب سواده عيناكِ
أخلو إلى زهر الرياض كأنني ... أخلوا إلى مَرْآكِ أو ذكراكِ
وأدير سَمعي للطيور فصيحةً ... فكأنما أصغي إلى نجواك
للهِ من شادٍ أطلّ بسجعه ... كالشاديات نظرن من شُبّاكِ
في الروضة المعطار منك شمائلٌ ... رياكِ في زَهرتها وحُلاكِ
وَرْدٌ يميل مع النسيم كأنما ... أقبلت باسمةً لألئم فاكِ
عطفاً حياة الفاضلين مريرةً ... إن رُعتِ فاتنةً فما أحلاكِ
(السكرية - دار القاياتي)
حسن القاياني
لي. . .!
(تذكار لجلسة في شرفة كان يضيئها نور النجوم)
للأستاذ العوضي الوكيل
لي سحرُ وَجهِكِ دُونَ الناسِ أُقبِسُهُ ... وَلِي جمالُكِ تَسْبيني مَرائيهِ
ولي جَبينُكِ حُلواً عاطراً نَضِراً ... وَلِي التفاتُكِ في شَتَّى معانيهِ
ولي قوامُكِ، لا الأغصانُ تُشْبِهُهُ ... حسناً، ولا الأسْيُفُ البيضاءُ تَحْكيهِ

ولي خَيالُكِ ما باتَتْ شوارده ... تَخُوطُني بين إخفاءٍ وتَنْويهِ
يا سوسْنَ الرَّوضِ مالي فيكِ منْ غَزَلٍ ... إلاّ جمالك بالأنغام أرْويهِ
لم أنسَ ليلةَ رقّ الجوّ رقّتَنا ... ورفّهَ اللثم عنّا أيّ تَرْفيهِ
وللسماءِ هدوءٌ في تَطَلُّعِها ... وللنسيم خُفُوقٌ في مَساريهِ
وللأحاديث سحرٌ في تَبَلْبُلِها ... ومجلسُ الحبّ قد رقّت حَواشيهِ
وازدانَ وْجهُك بالنورين: نورِ هَوىً ... فيه، ونورِ النجوم الزُّهرِ تُزْجيهِ
قد كان يبهجني فيما أشاهده ... نورٌ على وجهك السحريِّ بل فيهِ
وجاذبيّةٌ فنٍّ لا شبيهَ لها ... وربَّ فنٍّ سما عن كل تَشبيهِ
حينُ أطالَ حياتي فهي خالدةٌ ... بما ارتوت - فتسامت - من مساقيهِ
(دماس - دقهلية)

العوضي الوكيل

رسالة الفن

دراسات في الفن

متابعة العلم ليست فناً

على ذكر الفن الرمزي الحديث

للأستاذ عزيز أحمد فهمي

كنا نعرف الفن الرمزي فيما مضى على نوعين: إما أن يكون تجسيداً للمعاني يتدلى به الفنان إلى جمهور الأذهان، وإما أن يكون على العكس من ذلك تلويحاً بالبعيد دون القريب يتعالى به الفنان على جمهور الأذهان. ولم يكن هذا لينتزع من الفن الرمزي طبع الفن ولا خواصه، فقد احتفظ بكيانه كاملاً، فهو سابق وهو حر، وهو صادق وهو شاعر

واليوم يراد بنا أن نعرف نوعاً ثالثاً من الفن الرمزي هو - فيما يقول أهله - تابع يمشي وراء العلم، علم النفس، يشرح نظرياته وقواعده وما يثبت عنده من طباع النفس وأحوال حياتها. فهل يجوز لنا أن نقبل هذا النوع الثالث على أنه فن صحيح؟

إننا إذا فعلنا ذلك جرَّأنا كثيراً جداً من الأعمال العقلية على المطالبة بالارتفاع إلى مستوى الفن، وقد يجرنا هذا إلى نوع من البلشفية الروحية التي تسوي ما بين الحق والزيف؛ فتصبح ألفية ابن مالك فناً شعريا لأنها نظم يشرح النحو، كما أصبح الخشب في هذه الأيام حريراً، وكما خرج السمن في هذه الأيام من زيت جوز الهند.

وكي ندفع عن رأينا هذا، فإنه يلزمنا أن نتعرف في الفن بعض النواحي التي لو فقدها لفقد طبيعته فأصبح شيئاً آخر قد يكون حلواً لذيذاً، ولكنه لن يكون بحال من الأحوال فناً صحيحاً.

فما هي هذه النواحي التي يتحتم على الفن أن يستوفيها كي يكون فناً صحيحاً؟

أولها من غير شك هذا الحس الصادق الذي تبعثه الحياة نفسها. وهذا الحس هو الذي يملأ نفس الفنان حتى يفعمها، ثم يفيض منها فناً يتلقاه الناس فيشعرون أنه نبع من نفس صاحبه رغم أنفه، لأنه لم يكن يملك من يكتمه بعد أن ازدحم في نفسه وكثف.

والفنان الحق لا يبحث عن الأحاسيس ولا يتكلفها، وإنما هو منطلق في الحياة كما ينطلق بقية الناس، أو كما تنطلق بقية المخلوقات لا يعتزم أن ينتج فناً، ولا يتهيأ لذلك، ولا يتعلم من الناس طريقة التعبير عن نفسه.

ومع هذا الحس الصادق سبق يطير بالفنان إلى حقائق الكون على جناحين من هذا الحس نفسه. فالفنان الحق لا يمكنه أن ينتظر حتى يقول له المعلم إنه ثبتت لديه حقيقة من الحقائق على وجه من الوجوه، وإنه يأذن له على أساس هذا الثبوت أن يتخذ من هذه الحقيقة مادة لفنه. هو لا يمكنه أن ينتظر حتى يحدث هذا وإنما هو يصل من تلقاء نفسه إلى هذه الحقائق فيعلنها والعلم لا يزال يحبو في الطريق إليها مثاقلاً متلكئاً؛ وقد يصيب الفنان هذه الحقائق، وقد يخطئها، ولكنه على أي حال يصل إلى شيء ما، - بعيد عنها أو قريب منها - على أنه هو نفسه لا يعنيه من هذا كله إلا أن ينطلق، وأن ينطلق فقط.

ومع هذا الحس، ومع هذا السبق به، فإنه لابد للفنان أن يدفعه إلى إنتاجه الفني دافع نفساني من العواطف التي ينفثها في فنه رضي أو سخطاً أو غير ذلك، وإلا كان الفن

بارداً برودة الموت، لأنه خلا من العاطفة وهي روحه وباعثة الحياة فيه
ومع هذا وذاك فلا بد أن يكون الفن حراً لا يرضى لنفسه أن خضع في الأغلال والقيود، ولا يقبل أن يتحكم فيه شيء، وإن رضخ له كل ما ينتجه العقل البشري من علم وصناعة.

هذه (أوليات) لا يمكن أن يكون الفن فناً بدونها. فهل تتوفر هذه (الأوليات) في هذا النوع الثالث من الفن الرمزي الذي يطالعنا به هذا العصر الحديث؟

أما الحس الصادق فهارب من أهل هذا الفن، وليس هو وحده الذي هرب منهم وفر، وإنما تسلل من نفوسهم معه كل حس فلم يعودوا يحسون إحساساً صادقاً ولا إحساساً كاذباً. وليس هذا لأن الله خلقهم هكذا (مبرشمين) بل لأنهم هم أنفسهم أرادوا أن يكونوا هكذا. فلم يقبلوا أن يكون في الناس من يزيد عليهم علماً، ولا من يزيد عليهم اطلاعاً، ولا من يزيد عليهم إلماماً بما يكتب وبما في الكتب، ولا من يزيد عليهم إحاطة بما يحدث في هذه الدنيا من اختراعات واكتشافات ونظريات ومعلومات، فأدمنوا القراءة، وأدمنوا التعلم، وأدمنوا الاطلاع، وهذا كله يشغل العقل ويجهده، ويأخذه بالمران على سلوك نهج الناس في التفكير. والذي لا شك فيه هو أن هذا العصر الحديث قد اختلط لنفسه نهجاً خاصاً في التفكير ربما تكون الإنسانية قد اصطنعته في يوم ما، ولكنها على أي حال لم تقطع فيه شوطاً بعيداً كهذا الذي قطعته فيه هذه الأيام، ذلك هو طريق المادة، فلإنسانية اليوم تحشد مواكبها جميعاً في هذه الطريق، والقوي القادر هو من تقدم إلى الطليعة يتلقط الثمر الذي يبعثره الشيطان أمام هذا القطيع البشري، والضعيف الهزيل هو من تأخر إلى آخر الموكب يتلقط القشور والنوى في الطريق خاطئ كله رذيلة وكله شر. ومهما ادعى الفنان المشغوف بالعلم اللاهث من الجري وراءه أن في استطاعته الاعتصام بنفسه عن نزوات العقل والعلم والحضارة الحديثة، فإنه إما مخادع في هذه الدعوى وإما مخدوع، لأن طابع العقل والعلم والحضارة في هذا العصر هو طابع المادة، فالعقل لا يقر من الحقائق إلا ما ثبت ثبوتاً ماديا، وأول ما ينكره إذن هو الحس والروح. والعلم لم يعد الناس يطلبونه ليجدوا فيه المتعة الروحية أو ليصلوا عن سبيله إلى ما هو أكبر وأعز وأنفس من هذه الحياة. . . وأما الحضارة فها هي ذي: عمارات، وطيارات، وبوارج، وغازات سامة! وكفى هذا القرن العشرين سبة أنه عند ما قال له فرويد: (إن الإنسانية تحركها في حياتها قوة الغريزة الجنسية) اطمأن إلى هذا اطمئناناً ثبت في النفوس وتأصل وتفرع وتسلقت منه أغصان سامة هاصرة التفت حول كل شيء حتى أعناق الفنون تريد أن تعقها لتتفرد البهيمية في نفوس الناس على أساس من العلم وليجئ يوم تنضم فيه مستشفيات المجاذيب وحدها على الذين يؤمنون بالحس والروح، وليجئ بعده يوم تبرأ فيه الإنسانية من الحس والروح ويكون أمرها إلى الغريزة الجنسية أولاً وأخيراً

وياله من يوم. . .! يوم يقول فيه الناس: عاش على هذه الأرض فيما سبق مجنون كان يدعى غاندي وقد كان تلميذاً لمجانين من أساتذته السابقين! فهل يرضي الفن عن هذا وهو المسكة من روح الله في نفوس الفنانين. . .؟

لا! إنهم سيثورون على هذا العقل وعلى هذه الحضارة، وسترى الإنسانية عن قريب يوماً يكون الهداة فيه كتاباً، ورسامين، وموسيقيين، وممثلين، وشعراء، ومغنين وسيصرخ هؤلاء في وجوه الذين يدحرجون الإنسانية إلى الهاوية ليبيعوا لها الحديد والنار للقتال، وليبيعوا لها الخبز والماء لإمساك الرمق من أجل القتال وحده. وستكون أهون صرخاتهم كتلك التي صاح بها شارلي شابلن في وجه (العصر الحديث) بقصته الأخيرة. . .

ولعل العالم لما ينس قصة (كل شيء هادئ في الميدان الغربي) وغيرها من قصص السينما والمطبعة التي كشفت الستر عن مآسي الحرب وما بعثها من جنون العقل، وما ألهبها من هوس العلم، وما غذائها من اختبال الحضارة وجشع المادة. كانت هذه القصة كما كانت غيرها من القصص الداعية إلى الروح والسلام فناً، وكانت حية، وكانت حارة. وقد خلقتها جميعاً في نفس منشئها عاطفة واحدة هي الاشمئزاز من العقل والعلم والحضارة الحديثة، لأن الفنان الحق لا يملك أن يقف من العقل والعلم والحضارة

الحديثة إلا موقف المشمئز الكاره لا موقف المحب التابع، أو العبد الخاضع، ما دام يرى هذا اللون الأحمر الذي تصطبغ به الحضارة القائمة على أساسين من العقل والعلم والخالية من الحس والروح

أما القول بأن علم النفس لا يدعو إلى الحرب فلا تصح كراهيته، وإنه من الجائز للفنان أن يتبع وأن يجني الحق من فضله فهو قول يلجأ إليه المكتوف المعصوب العينين، ولا يقبل أن يقول به فنان منطلق لا يشعر بحاجته إلى العلم كي يرى ويسمع لأنه بعينيه يرى وبأذنه يسمع. . . وإلا فعليه أن يطمس عينيه، وأن يسد أذنيه وأن يقنع بقراءة الكتب التي تؤله الغريزة الجنسية، وأن يجرى وراءها.

سيقولون إن أسمى الفنانين هو الذي ينتج فناً إنسانياً عاماً تتذوقه النفوس جميعاً. وسيقولون إن القواعد التي يقررها علم النفس قواعد عامة تنطبق على النفوس جميعاً انطباقاً تاماً سليماً، وهذا وحده يكفي - عندهم - أن يغري الفنانين بالإقبال عليها والتعلق بها. وردنا على هذا أن هذه الطريقة التي يصطنعونها طريقة عقلية تجارية ليس فيها من خير إلا أنها مريحة جداً للفنان الذي يسلكها إذ يستغني فيها بكتاب يشتريه بدراهم معدودة فيقرأه فيتخذ منه مادة الفن. . . عن سنوات أو أشهر أو أيام ينفقها من عمره في هذه الحياة تأكل من أعصابه وتشرب من دمه لتجود عليه بعد ذلك بمثل ما جادت به على من أخرجوا البؤساء، وآلام فرتر، ومتروبوليس، وفاوست، وسائر هذه الجمرات الخالدة التي التهبت جهنمات في نفوس أصحابها لا كتلاً من الثلج المصنوع من الماء والأحماض والأملاح لم يكن العلم يوماً من الأيام هادياً للفن، وإنما استطاع في كثير من الأحوال أن يهدي الصناعة والتجارة

فإذا كان أتباع العلم هؤلاء فنانين حقاً فلماذا لا ينشرون إحساسهم على العالم فيحيطون به ثم يطالعوننا بما ينطبع في حسهم وهم يرون العالم على ما هو عليه، وهم يعرفون ما هو عليه؟

لم يكن العلم يوماً من الأيام هادياً للفن، وإنما كان الفن على مر الزمان سباقاً وغني أريد أن أتصور واحداً من هؤلاء الذين يتبعون العلم في فنهم وهو يريد أن يضع قصة مثلاً، كيف يضعها؟ إنه يقرأ في كتاب من كتب علم النفس أن الذاكرة تغيب عن الإنسان أحيانً فيبتلعها العقل الباطن، ويعيش الإنسان مدة طويلة أو قصيرة وهو بغير ذاكرة فتصدر منه أقوال وأفعال لا تستقيم مع حياته الظاهرة. وقد يحدث بعد ذلك حادث يعيده إلى ذاكرته أو يعيد إليه ذاكرته، أو قد لا يحدث له هذا الحادث عفواً، فهو إذن محتاج إلى التنويم المغناطيسي يرد إليه ذاكرته

يقرأ الكاتب المثقف هذا فيقول في نفسه: والله إن هذا الموضوع يصلح قصة؛ فلأركبها إذن من رجل وزوجته فتغيب عنه ذاكرته فتشقى هي لهذا، وأخيراً يسعدان بشفائه، ثم يعود فيقول لنفسه: وما هي الحوادث التي سأوقع بهذا الرجل فيها، على أن تكون حوادث مسلية لذيذة، وعلى أن تكون في الوقت نفسه غامضة حتى يثبت للقراء أنني من أدباء الرمز الذين يستغلق فهمهم على عامة الناس. . . آه. . . فلتكن هذه الحوادث كيت وكيت وكيت. . . وعلى هذا النمط الكيميائي الصناعي يسير صاحب الفن العلمي في فنه فيؤلف قصته أو يركبها فيقرأها القارئ وينفق فيها وقته وهو لا يشعر مطلقاً بأن الفنان الذي (عمل) هذه القصة يختلف في كثير أو قليل عن العالم الذي كتب التقرير العلمي صاحب الفضل الأول في تأليفها.

فهل من طبع الفن أن يسبه طبع العلم؟ لا. . . ليس الفن هكذا ولا إنشاء القصة هكذا. . .

هوجو ابتأس فأخرج البؤساء. هوجو شقي فخلد الشقاء، وعرض منه صوراً لا يقول أحد إنه رآها جميعاً، أو أن كتاباً دله إليها، ولكنه هو أحسها لأن روحه طافت بها. روحه كانت تغادره وتحل في البؤساء على اختلاف ألوان بؤسهم فتتوق للبؤس طعوماً مختلفة ليس أقساها بؤس (جان فلجان) اللص الذي سرق رغيف الخبز، وإنما قد يكون أقساها بؤس (جافير) رجل البوليس الذي كان يتنطع في مخاصمة (جان فلجان) وتتبعه وإحراجه لا لأنه يمقته ولكن لأنه كان يخشى أن يقصر في واجبه، فيكون في نظر القانون مجرماً وهو ما لم يكن يحب أن يتردى إليه بعد أن أحسن المجتمع تنشئته وقد كان لقيطاً رباه المجتمع ليكون حامياً من حماته

ما أعجب هذه النفس التي عرضها هوجو في بؤسائه. نفس أصابتها العقد - على حد تعبير العلماء - فأصبحت تتحجر دون الرحمة لأنها كانت تخشى ألا يرحمها أحد، كما لم يرحمها أب ولا أم وهذه نفس قد يحللها فرويد، وقد يحللها سبيرمان أو غيرهما من علماء النفس ولكن تحليلهما وتحليل غيرهما ليسجد أمام هذا الجلال الذي أسبله عليها هوجو الفنان الذي لم يقرأ علم النفس ولا نظريات علم النفس، والذي كان يعيش بروحه فيحس ويشعر، والذي لو لم يكن أديباً بطبعه لما أنشأها هذا الإنشاء الرائع، والذي لو كان موسيقياً لأرسلها باكياً

الفنون يا أصحاب الفنون يمكن أن يترجم بعضها إلى بعض، لأنها لا تكون فنوناً إلا إذا كانت من وحي العواطف، والعواطف لا تستعصي على أي فن. فما هي العواطف التي تتحرك في نفوس الذين يجرون وراء العلم العاقل والتي تصلح للترجمة إلى بقية الفنون؟. لا شيء إلا عواطف مصنوعة مركبة. أما العاطفة الصادقة في نفوسهم فهي لا تتحرك إلا نحو غرض من أغراض الطبع والنشر والإذاعة

لا. ليس هذا فنًّا

. . .وأخيراً- ما الذي يقبل من الفنان أن يكون عليه؟

لا شيء أكثر من أن يعيش وهو لا يدبر في نفسه أنه سيخرج فنًّا. . . فليترك نفسه للحياة، وليسع إلى الصدق ما أمكنه السعي. وليبحث عن الجمال ما أمكنه البحث. ليقرأ، ولكن عليه أن يقرأ في صفحات الوجوه قبل أن يقرأ في صفحات الكتب. عليه أن يلتفت إلى الناس وإلى الحيوان وإلى النبات وإلى الجماد. فليعط كل نفسه لكل ما يحيط به من مظاهر الوجود. . . فليعاشر هذه الحياة، وليبادلها الحس، وليغتبط بكل ما تؤاتيه به سعادة أو محنة، وبكل ما يراه الناس من خير أو شر، وبكل ما يطالعه في الطبيعة من أحسن الصور وأقبحها فهذا وحده هو سبيل الفن، وليس من الضروري بعد ذلك أن يكون الفن كتابة أو ألحاناً أو صوراً. . . وإنما الفن هو حياة الهدى. . . ى وكم في جماهير الناس من ثقاة فنانين، وكم في الفنانين من مرتزقة أو - على الأقل - حائدين!

عزيز أحمد فهمي

من الجزيء إلى الذرة

للدكتور محمد محمود غالي

مستقبل الكون والمبدأ الثاني للترموديناميكا - هذا المبدأ شيء ورجوع الحياة شيء آخر - اختلاط الجزيئات عملية طبيعية واتحاد الذرات عملية كيميائية - ملاحظة (بروست) - الفكرة الذرية عند (دالتون)

إن ما يستشعر القارئ أحياناً من الصعوبة بينا يتابع هذه الأحاديث عن وصف الكون وما يكتنفه من مظاهر لأمر هين، بجانب معرفته في النهاية شيئاً جديداً عما يحيط به من أسرار فهذه غاية تكون بلا شك مدعاة لارتياحه

أذكر أن في مارس الماضي عندما كنا نواجه القارئ بأحدث ما نعرفه عن الكون وعن تمدده وأبعاد ما فيه من عوالم بعضها عن بعض - حدث أن اضطررنا عند الكلام عن حيز (ريمان) وحيز (لوباتشفسكي) وعند الكلام عن الحيز الطبيعي وفق رأى (أينشتاين) ووفق رأى (دي سيتير) إلى اللجوء إلى مناقشة مسائل لا شك في أن القارئ وجد في إدراكها شيئاً من الغموض - هذا الغموض الذي اضطررنا إليه اضطراراً كان لزاماً علينا أن نذهب إليه كما كان لزاماً علينا أن نخفف على القارئ بعض الشيء فيما تبع ذلك في مقالاتنا عن الكون الممتد، ولم يكن في طوقي أن ألج موضوعاً دقيقاً كهذا وأخطو بالقارئ فيه خطوات أخرى دون أن يتخلل حديثي فيه فترة من الراحة كذلك كان مقالنا الأخير عن الجزيء الذي لجأنا فيه إلى تفسير بعض القضايا التي يلاقي فيها القارئ بعض الصعوبة، ولم يكن هناك بُد، وقد أخذت على عاتقي أن أقص عليه أهم ما وصل إليه الإنسان من تفكير مُنَظَّم، من أن نذكر فلسفة ليبنز وألا نغفل رأيه القائل بأن الحرارة هي الحركة، وألا نغفل أيضاً كيف فسَّر بولتزمان انتقال الحرارة من جسم حار إلى جسم أقل منه حرارة، وكيف بين عدم إمكان العملية العكسية.

لقد طالعت المقال السابق بعد نشره أكثر من مرة وأعتقد أن الكثيرين من القراء قد فهموا هذا التفسير لبولتزمان وأدركوا هذا النزول الحتمي في الحرارة كنتيجة حتمية

لما يحدث من تعديل في حركة جزيئات الجسمين المتلاصقين، بحيث لو تصورنا فريقين مزدحمين من لاعبي كرة القدم، فريقاً سريع الحركة وآخر بطيئها، اختلطا في فناء واحد فإن النتيجة
الحتمية لتصادم الفريقين في أثناء اللعب أن يكتسب الفرق البطيء شيئاً من السرعة ويفقد الفريق السريع جانباً منها، ولا يمنع هذا وقوع بعض الحوادث الفردية التي تشاهد أثناء اللعب من أن ينقل لاعب بطئ سرعته إلى لاعب سريع الحركة، إنما النتيجة الحتمية للمجموعة هو اقتراب من تعادل سرعتهما ما دام الصدام مستمراً بينهما.
هذا التفسير البولتزماني مفهوم للقارئ، ولكن مما قد لا يستوعبه بالدرجة التي أرغبها هو النتيجة المرتقبة لمصير الكون من أثر هذا القانون الحتمي القائل بالتعادل الحراري، أي التعادل في حركة جزيئات المادة، وهي النتيجة التي لخصناها في أن الكون في مجموعة - الكون الذي فيه نسمع ونرى - سائر حتماً إلى خاتمة يسمونها الموت الحراري، أو الاقتراب من السكون، أو - عند ظن بعض العلماء - عدم إمكان عودة أي شكل من أشكال الحياة بالنسبة لمجموع الحيز. هذه الخاتمة التي تتلخص في التساوي الحراري مع مرور الزمن نتيجة الانخفاض في الدرجات المرتفعة، والارتفاع في الدرجات الخفيضة، يجعل من الكون في مستقبل العمر وعاء لا تصلح الحياة فيه.
وإنما ذكرت للقارئ هذه النتيجة التي يحتملها المبدأ الثاني للترموديناميكا مما يبعث الأسف في نفوسنا ليعرف شيئاً عن تفكير العلماء - هذا التفكير الذي يلجأون إليه نتيجة للمشاهدات والحوادث
كل ما أريد أن أطمئن إليه: هو ألا تؤثر هذه النتائج العلمية على القارئ، فتزعزعه عن بعض عقائده الموروثة والخاصة بعودة الحياة. تلك الفكرة التي لا تتعارض عندي والمبدأ الثاني للترموديناميكا، لأنني كما قدمت لم ألجأ في تعريف الحياة بالحركة بل أعتقد أن ثمة اختلافاً جوهرياً، وغير مفهوم لنا، بيننا وبين التفاحة التي نأكلها، أو المحبرة التي نُملي منها هذا المقال. . .
إنما أردت في مناقشة علاقة المبدأ الثاني للترمودينا ميكا بمستقبل الكون أن أوجه نظر القارئ إلى ناحية م نواحي تفكير العلماء: كيف يتسنى أن تكون لمسائل نعتبرها طفيفة نتائج خطيرة على تفكيرنا وفهمنا للكون. . . وله أن يتأمل الآن قليلاً: كيف، من حقيقة يلمسها كل يوم تتلخص في أن الجسم الحار يعمل دائماً على تسخين الجسم البارد، وأن العكس غير صحيح، يجد العلماء من هذا الموضوع على بساطته منفذاً للحكم على مستقبل
الكون؟
ألان قطعة من الثلج تعمل على تبريد فنجان من الشاي الساخن بوضعها فيه يسير الكون في مجموعة إلى نوع من الموت بلا رجعة؟! هذا ما يقرر العلم، فهو يقرر أن من اختلاط وتصادم مجموعتين من الأفراد، مجموعة دأبها السرعة وأخرى ديدنها البطء، تنشأ مجموعة جديدة لا هي بالسريعة وهي بالبطيئة بل لمجموعة أفرادها سرعة متوسطة واقعة بين سرعة المجموعتين
أود أن يستشعر القارئ أنه إذا كانت المشاهدات تدل على هذا التعادل في الحركة أي هذا التساوي في الحرارة، وإذا كانت الرياضة والمنطق يحتمان هذا النوع من التعادل نتيجة لحساب دقيق، فإن جسيمات الكون في مجموعه مصيرها الهدوء وأن الكون مصيره الموت الحراري. أما أن نقرر أن الحياة مصيرها فناء بلا عودة فهذا أمر آخر لا نستطيع في سهولة أن نقبله أو أن نساير العلماء فيه
أجل إنما أردنا أن ندل القارئ على طرائق التفكير الحديث، كيف نتسلسل المسائل، وكيف يرتبط بعضها ببعض، وكيف يتعلق المعقد منها على البسيط، وكيف يقسمون الظواهر في منطق العلم إلى ظواهر حتمية وأخرى احتمالية، وكيف يفرق القارئ بين الظواهر العكسية والأخرى غير العكسية، وكيف، من أبسط المعارف والمشاهدات، نجد سبيلاً للتحدث عن أروع المسائل المعلقة بعميق الفلسفة ومستقبل الكون؟
والآن ننتقل من الكلام عن الجزيء إلى الكلام عن الذرة قدمنا عند الكلام عن الجزيء أن فكرة تقسيم المادة إلى جزيئات لم تكن حاصل المشاهدات المباشرة بقدر ما كانت حاصل البحث العلمي العميق والوسائل الطبيعية الدقيقة. لئن تكن المادة

منفصلة غر متصلة، أو بعبارة علمية لئن تكن مكونة من جزيئات منفصلة ومستقلة فهذا أمر لم نكن نعرفه بداهة أو مشاهدة، وإنما كان لدراستنا للتطورات الحرارية أكبر الأثر في معرفته
كذلك لا يمكن بالعين المجردة أن نُقيم الدليل على تقسيم الجزيء إلى ذرات. وكما أن نظرية الجزيئات والاستدلال عليها جاء عن طريق العمليات الحرارية كذلك صادفت النظرية الذرية أي تقسيم الجزيء إلى ذرات مستقلة نجاحها في العمليات الكيميائية ففي هذا العلم - الكيمياء - شبت النظرية الذرية وترعرعت، ولقد كان ذلك في بادئ الأمر
راجعاً إلى قانون معروف بقانون النسب الثابتة ظل الأساس الذي بُنِيت عليه النظرية الذرية، وهو يعلمنا الفرق بين المخلوط والمركب الكيميائي:
عندما نشرب الماء ممزوجاً بقليل من ماء الورد فإنه ليس ثمة حدود تقف عندها درجة المزج للحصول على المزج. إننا نستطيع أن نحصل على المزيج من الماء وماء الورد بنسب مختلفة فنستطيع أن نجعل النسبة من ماء الورد 1 إلى 10 من ماء أو 1 إلى 100 وهكذا. كذلك عندما نصنع لوحاً أحمر من الزجاج فإنه بقدر كمية اللون التي نضعها في مواد الزجاج، وهو في حالته السائلة وقبل أن يتجمد، نحصل على لوح تتعلق درجة احمراره بنسبة ما وضعناه من مادة ملونة، ولنا حرية مطلقة في الحصول على مئات بل وألوف الأنواع من الأنواع من الألواح الزجاجية كلها حمراء ولك تتفاوت في درجة الاحمرار. هذه العمليات اختلاط طبيعي بين جزيئات المادة.
ولكن عندما تتحد كمية من الهيدروجين بكمية أخرى من الأكسيجين اتحاداً كيميائياً تحت تأثير شرارة كهربائية ليتكون الماء جرامين اثنين من الهيدروجين يتحدان مع 16 جراماً من الأكسيجين، بحيث لو تعمدنا أن تكون كمية الهيدروجين الموجودة مع كمية الأكسيجين السابقة خمسة جرامات فإن جرامين اثنين يتحدان منها فقط الـ 16 جراماً من الأكسيجين الموجودة لدينا وتبقى الثلاثة الجرامات الأخرى من الهيدروجين حرة لا تتحد هذه النسبة الثابتة في المركبات الكيميائية تختلف كما يرى القارئ عن موضوع مزج الجزيئات الطبيعي الذي يمكن أن نحصل عليه بأي نسبة في أنواع المعادن المختلفة (فالبرونز) مثلاً نحصل عليه من الهيدروجين والأكسيجين بالنسبة التي تعينها لنا الطبيعة والتي لا تتغير
هذه الأجسام البسيطة كالأكسيجين والهيدروجين التي تدخل كيميائياً في المركبات المختلفة والتي يمكن بوسائل كيميائية الحصول عليها منفردة مرة أخرى، عرفها العلماء بالعناصر حيث كان من المشاهد منذ لافوازييه أن كمية معينة من عنصر معين يمكن إدماجها في عشرات التركيبات الكيميائية كما يمكن الحصول عليها مرة ثانية بحيث لا يزيد وزنها أو يقل مهما كان نوع التركيبات الكيميائية التي دخلت فيها. فإذا كانت الكمية من الأكسيجين التي اتحدت في المركبات في بادئ الأمر 16 جراماً فإنه من المعروف أننا نحصل دائماً وبالطرق الكيميائية المختلفة على 16 جراماً من الأكسيجين وأن هذه الكمية غير قابلة بأي
حال للزيادة أو النقصان
كذلك يتكون الغاز الكاربوني من احتراق الفحم في الأكسيجين بنسبة 3 جرامات من الأول إلى 8 جرامات من الثاني، وظلت هذه النسبة هي الأساس في تركيب الغاز الكربوني بحيث لم يتسن للكيميائيين بوسائل مختلفة وأساليب متباينة (مثل وضع هذه المجموعة من الكاربون والأكسيجين تحت ضغط شديد أو غير ذلك) أن يتحد ثلاثة جرامات من الكاربون مع 1. 8 جرامات من الأكسيجين مثلاً. وليس معنى هذا أن الكاربون والأكسيجين يتحدان دائماً بنسبة 3 إلى 8 فإنه يصح للحصول على مركب غير الغاز الكاربوني أن يتحد ثلاثة جرامات من الكاربون بأربعة جرامات من الأكسيجين، ولكن الفارق بين الحالتين عظيم. فثمة حالة غير متصلة تختلف عن حالة الخلط والمزج المعروفة في اختلاط الجزيئات
كان لا بد تحت هذه العوامل والمشاهدات من أن يُعمم العلماء هذه الوقائع المقدمة ويحصونها ويدرسونها، وهكذا توصلوا إلى قانون النسب الثابتة الذي يحدد النسب التي تتحد بها العناصر الكيميائية المختلفة، هذا القانون المعروف منذ العالم (دالتون والذي كان الفضل الأكبر فيه للعام (بروست يتلخص في أن النسبة التي يتحد به عنصران لا

يمكن أن تتغير بحالة مستمرة
وهكذا كان من الصعب ألا نفترض أن هذا الأكسيجين المتحد مع الهيدروجين ليكون الماء استقل دائماً بنفسه وحافظ على استقلاله في أثناء هذه العملية الكيميائية ما دمنا نستطيع أن نعيده سيرته الأولى وهكذا أمكننا أن نرجح أن هذا الذي نسميه عنصر الأكسيجين كان مستقلاً في كل المركبات الأكسيجينية التي يمكن أن تدخل فيها مثل الماء والماء الأكسيجيني والأوزون وثاني أكسيد الكاربون والسكر الخ بحيث إذا كان السكر مركباً من جزيئات مشابهة تمام التشابه فإنه من المتعين أن في كل جزئ من هذه الجزيئات قد دخل الأكسيجين كشخصية مستقلة كما دخل الكاربون والهيدروجين اللذان هما المركبان الآخران للسكر شخصيات أخرى مستقلة. من هنا ومن أمثال ذلك حاول العلماء أن يعرفوا الصورة التي يجب أن تكون عليها هذه المواد الأولية أو العناصر البدائية التي تتفق أجزاء منها تحت عوامل لا محل لذكرها وتتقارب لتكوين جزئ من السكر، هذا المولود الجديد
والمركب من هذه العناصر المتقدم ذكرها
هذه الملاحظة من جانب (بروست) الفرنسي في وجود نسب ثابتة بين العناصر عند اتحادها أدت بالعالم الإنجليزي (دالتون) إلى أن يفرض فرضاً ذرياً يمكن أن يجيب على هذه الحالة المتقدمة:
كل العناصر مكونة من ذرات، ويحدث في مختلف العمليات الكيميائية المتباينة أن تجتمع ذرات الأجسام وتكوَّن كل مجموعة جديدة جزيئات من جزيئات المركب الجديد، بحيث يجوز لذرة من مادة معينة أن تلتصق أو تجتمع بذرة واحدة من مادة أخرى كما يمكن أن تجتمع باثنتين أو أكثر، فالماء مثلاً يتحد فيه ذرتان من الهيدروجين بذرة واحدة من الأكسيجين (إن اجتماع جرامين من الهيدروجين مع 16 جراماً من الأكسيجين راجع إلى وزنهما ذلك أن قوة الكائنة بين هذه الذرات وبعضها هي بحيث أن اجتماعهما في هذه الحالة اجتماع واحد باثنين، وإذا اجتمعت ذرة واحدة من الهيدروجين مع ذرة واحدة من الأكسيجين تكون الماء الأكسجيني الذي نستخدمه في الجروح بدل الماء العادي الذي نشربه.
هذه الخطوة الموفقة من جانب العالم الكبير دالتون التي مهد لها (بروست) ظلت أساساً للعلوم الكيميائية، وفي آلاف المواد التي نستخدمها والتي هي في الواقع مركبات من عناصر مختلفة متحدة بنسب ثابتة أو ممزوجة أمكن تقسيم العالم المادي إلى 91 عنصراً تبدأ بالهيدروجين والهيليوم وتنتهي بالبروتوكتينيوم والإيرانيوم. هذه العناصر تقوم لنا كمرجع دائم يدلنا على هذه المركبات المكونة لكل ما نراه ونعثر عليه من مادة في الكون، كما تدلنا الشمس والنجوم الثابتة بمواضعنا المختلفة في الأفق بالنسبة لها على معرفة الوقت نهاراً أو ليلاً
وسنرى فيما سيأتي ما استفاده العلماء من هذا الفرض الذري ونحاول أن ندرك كنه الذرة وما يجري بها ونستخلص من أعمال العلماء سيرة ما يحدثونه اليوم فيها من تهدم، ما سيكون له أكبر الأثر في تقدم معارف الإنسان
محمد محمود غالي
دكتوراه الدولة في العلوم الطبيعية من السوربون
ليسانس العلوم التعليمية.
ليسانس العلوم الحرة.
دبلوم المهند سخانة
القصص
لصوص الفيء
للأستاذ نديم الجسر
ذكرني وصف أستاذنا الزيات لصورة من (صور الماضي) في مصر بصورة من هذا الضرب المضحك المبكي، حُدثت بها من عهد غير بعيد. فأخذت بمجامع قلبي لما فيها من روعة، ولأنها تكاد تكون حقيقة لا أثر للخيال فيها، ولأنها تصدق عندنا على الماضي والحاضر. . . ويا للأسف
كنا في صيف عام 1933 في قرية سيْر، ذلك المصيف الذي عشقه الدكتور فارس نمر، وأعجب به الباشا سيد البنك المصري وسيد الأعمال المالية في بلاد العرب، حتى

كاد يفكر في إمداده وتمْصيره. وقد اجتمعنا ليلةً على جاري عادتنا في شرفة الدار التي يتطأ من تحتها وادي سير الفتان، ومن ورائه ينبسط البحر ساجياً وقد ازدان منه (خليج عَرْقَة) الفينقي بطائفة من قوارب الصيادين تحمل في مقاديمها مشاعل تبهر الأسماك وتستهويها. فليساعد تجمعها حول القوارب على صيدها. وكانت تلك القوارب تختفي في الظلمة الليل فلا يبدو منها إلا أنوار المشاعل كصفّ من مصابيح نُصبتْ في شارع طويل؛ حتى كنا نوفَّق في دعاباتنا أحياناً إلى أن تخدع بها طائفةً من زوارنا فنوهمهم أنها أسكلة (ميناء) طرابلس، على حين أن الأسكلة تحتجب وراء الجبل، فإذا عادوا إلينا في النهار سألوا عن الأسكلة! فقلنا لهم: سرقها الصيادون. . .

وكنا نتحدث، كما يتحدث المصطافون في هذه القرية الهادئة المحرومة مرح المصايف الأخرى في لبنان بأحاديث تشوبها كآبة الضجر الذي يلازم المكرر الوحيد النغم المملول من كل شيء. وساقنا الحديث إلى ذكر أحوال القضاة ومظالمهم، وندرة (قضاء الجنة)، وكثرة (قضاء النار)؛ وكان معنا في هذه الجلسة سيد القرية، وهو رجل كثير الصمت طويل الروية، سليم المنطق بالفطرة الموهوبة لا بالقوة المكسوبة، رقيق الحاشية، لين العريكة، شديد الحذر من إطالة اللسان، والخوض في أحوال الناس. لا نشكو من طيب عشرته إلا أنه يتركنا الساعات الطوال نتحدث، وهو معتصم بالصمت يسمع. فإذا سكن الحوار، وخمد الجدل، ألقى بكلمة أو كلمتين فيهما زبدة الفول وفصل الخطاب. . .

وطال حديثنا عن قضاة النار وأحوالهم فقال صاحبنا بعد صمت طويل: هؤلاء يسمونهم عندنا في الجبل (لصوص الفيء). قلنا: وما لصوص الفيء؟ فأغرب في الضحك وتشبث على عادته بصمت المحترز فما زلنا به حتى رضي أن يحدثنا فقال:

يحكي أن مكاريا من أهل القرى كان يملك من وسائل العيش بغلاً يكاريه الناس) ويعيش من كرائه مع زوجه وأطفاله، فمرض البغل يوماً مرضاً أقعده وأقعد صاحبه عن العمل، فقام مع عياله في الجانب البغل يداوونه ويدعون له بالشفاء. ولما اشتدت وطأة الداء نذر الرجل على نفسه أن يعطي رجلاً مشهوراً عندهم بالصلاح والتقى والولاية مائة قرش إن شفى الله بغله. ولكن الله لم يقبل نذره ومات البغل، فبكاه الصغار والكبار ما شاء الله أن يبكوه. وفي اليوم الثاني أخذ الرجل ما يستغني عنه من متاع البيت فباعه واشترى بثمنه بغلاً آخر. فما كاري عليه أياماً حتى سرت للبغل من المعلف عدوى المرض فقام بجانبه الليل والنهار يصلي ويبتهل وينذر النذور لأكبر الأولياء وأعظم الأبرار، ولكن البغل مات ولم تنفع فيه النذور للصالحين. فبكاه أصحابه المساكين الثكالى ثم جمعوا بقية ما في البيت من متاع فباعوه واشتروا بثمنه بغلاً ثالثاً. وما مضت عليه أيام حتى سرت إليه العدوى، فطاش لب لبرجل وضاع صوابه ورأى أن نذوره للأولياء الأبرار الأطهار لم تشفع ولم تنفع، فأصابه ما يصيب كل مفجوع عند هول الكارثة من ذهول وسخرية واستخفاف، فبدا له هذه المرة أن يجعل نذره لأشد الناس شراً؛ وعظم النذر فجعله ألفاً.

وشاءت حكمة الله أن تكون عدوى المرض خفيفة وأن يقوي عليها البغل الجديد فشفى. وعاد الرجل إلى عمله، فما زال يشتد في طلب الكسب حتى اجتمع لديه النذر فحمله وهبط به المدينة يتلمس فيها من يستوجبه فعمد إلى أشهر بيت للفسق والفجور وانتحى ناحية يراقب منها الناس حتى اختار أشدهم تهتُّكاً وأشنعهم فسقاً فاقترب منه وحدثه بحديث نذره ثم قال له والخوف يعقد لسانه: (لا تغضب يا هذا وارحم ضعفي وذلتي فإني أردت وفاء نذري فلم أجد من هو أعظم منك شراً فحق علي أن أوفيكه)

فما سمع الرجل مقالته حتى أغرب في الضحك؛ ثم أطال الصمت حتى أوجس القروي من طول صمته وكآبته شراً. ثم استعبر حتى وجمت القاعة الصاخبة لنحيبه، ولما سكنت نفسه قال: (لقد ضللت يا صاح والله بغيتك؛ وكدت تعطي نذرك من لا يستحقه. فما أنا بأعظم الناس شراً، وإنما أنا رجل ابتلاني الجبار بذُلَّ الشهوات فلا أستطيع إلى فكاك نفسي من أسرها سبيلاً. ولو رأياني كيف أصحو نادماً ذليلاً لرثيت لي ولرجوت أن يغفر الرحمن ذنوبي. . . فإليك عني، وعليك باللصوص وقطاع الطريق فهم أحق بنذرك مني)

فخرج القروي من الحانة وقد سره أنه وجد ضالته واسترشد برأي (سوقيّ) يعرف حقائق الأمور، وما زال يسأل عن قطاع الطريق أين مكمنهم ومن أشدهم فتكا وبطشاً، حتى استرشد. فركب بغله وسار في حلك الليل حتى أشرف على الكمين الذي يقطع الشرير منه الطريق مع عصبته؛ فما شعر اللصوص بالرجل حتى اكتنفوه فقال لهم: على رسلكم فإنما إليكم قصدت. أين رئيسكم؟ فدلوه عليه فحدثه بحديث نره فأطرق اللص إطراق الحزين، ثم استعبر حتى ابتلّت لحيته ثم قال: (إنك يا هذا ضللت بغيتك فما نحن إلا فقراء عضتنا الفاقة وضاقت بنا سبل العيش فتخذنا السلب حرفة نكسب بها قوت عيالنا، ولو وجدنا إلى الرزق سبيلاً غير هذا لسلكناه. ولو كشف الله لك قلوبنا لرأيت ألماً وندماً، ولرجوت لنا عند الرحمن عفواً وكرماً. إذا أردت يا صاح الوفاء بنذرك فدعنا نحن (حرامية الشمس)، ولصوص التعب والنصب والخوف والخطر واذهب إلى (حرامية الفيء)؛ فإنهم أحق بنذرك. . .)

فقال القروي: ومن هم حرامية الفيء لأذهب إليهم؟

فقال له شيخ العصابة:

أولئك هم القضاة الذين ولاهم الله أمور عباده وحكمتهم في الدماء والأعراض والأموال ليقضوا فيها بالحق وجعل كلمتهم هي العليا، وأنعم عليهم بجاه كبير ورزق كثير وعيش غزير فما رعوا الله في عباده ذمة، ولا في حقوقه وحدوده حرمة، فلا ظالم إلا نصروه، ولا مظلوم إلا خذلوهن ولا عرض إلا انتهكوه، ولا مال ولا وقف إلا أكلوه. . .

أولئك هم حرامية الفيء وأولئك هم شر البرية. . .

فرجع القروي المسكين بذل الخيبة وقصد إلى قاضي المدينة فرأى شيخاً يفيض الجلال عن جوانب عمامته، ويتفجر النور من قسمات طلعته، ويتقطر التقى من أطراف لحيته، فقال: يا سبحان الله كيف يكون هذا شر البريّة وكيف تتحرك شفتاي بحديث النذْر إليه؟

وما زال واقفاً حتى انتهى القاضي من القضاة (على) حقوق العباد، فرآه في جانب القاعة

فدعاه إليه وسأله عن حاجته فقصّ عليه قصة نذْره والحياء يعقد لسانه، فقال له القاضي:

(على المستحق سقطت. . . ولكن يا بني نحن لا نستحل أخذ أموال الناس بلا سبب شرعي. والوجه الشرعي الذي يحل لنا به أخذ هذا النذر منك هو أن نقلبه إلى مبايعة. . .)

فانتفض الرجل وقال: أستجير بك يا مولاي. إني أخشى إن أخذت منك لقاء النذر شيئاً ألا يتقبل الله نذري، فقال القاضي: (نحن لا نبيعك شيئاً مذكوراً بل هي صورة نحلل بها أخذ المال منك. . . هاك في جانب الباب كوْمة من الزبل هل اشتريتها مني بالألف الذي نذرته؟) فقال الرجل:

سمعاً وطاعة. وتم التعاقد بالوجه الشرعي. . . وقبض القاضي الألف وذهب الرجل إلى قريته فرحاً مطمئناً

وبعد يومين أفاق المسكين على صوت طارق يوالي قرع الباب ويستفتح، فإذا جندي يبادره بالشتم ويقول: (أيها الرجل المخادع الماكر الخبيث الشرير! أتشتري المزبلة من مولانا القاضي وتتركها في مكانها فتصبح مجمعاً للذباب ومبعثاً لكريه الروائح. . .؟ لقد حكم عليك مولانا القاضي بنقل المزبلة وبغرامة مقدارها ألف قرش جزاء تركك إياها بعد شرائها وبأن يصادر بغلك لقاء الغرامة. . .)

قال الجندي قوله هذا ودخل الدار فاقتاد البغل من مربطه وسار به إلى المدينة. فوجم الفلاح المسكين وجوم من خولط في عقله وما زال يشيع بغله بعينين دامعتين حتى توارى عن بصره ثم رجع وهو يدمدم قائلاً:

- حقاً إن حرامية الفيء هم شر البرية؛ وقد أصاب نذري أعظمهم شراً

(طرابلس)

نديم الجسر

من هنا ومن وهناك

هل يظفر الأمير عبد الله بملك فلسطين؟

(عن مجلة الباريسية)

لا يستطيع الناظر المتأمل مهما أوتي من قوة الفراسة والمقدرة على
تحليل النفوس واستنباط ما وراء الوجوه من المعاني والأفكار، إذا نظر
إلى وجه الأمير عبد الله أمير شرق الأردن، أن يحكم لأول وهلة أن
صاحب هذا الوجه، على الرغم مما يبدو عليه من الهدوء والاتزان،
يحمل حملاً ثقيلاً منذ عشرين عاماً
فإذا جلست إليه ورأيته يمسح بكفه على لحيته الصغيرة المنسقة ويتكلم بصوته
المهذب الرقيق، لا تصدق أن هذا الرجل بعيد عن الاستمتاع بالراحة
وإذا كانت الدودة الصغيرة تغادر أثراً ما على السنديانة العظيمة، فلا غرابة أن تترك
المطامع البائدة، والأحلام الضائعة، أثرها العميق في نفس الأمير
لقد كان الأمير عبد الله يحلم في شبابه - وهو ابن شريف مكة في ذلك الوقت - بحياة
ذات مجد حربي عظيم؛ ولكنه خسر أول معركة قادها بجنود أبيه. وإذا كنت ممن
يعرفون قونين الصحراء غير المسطورة، أمكنك أن تعرف مقدار تأثير هذه الهزيمة
إن العرب قد يغتفرون للسارق؛ وقد يتسامحون مع الرجل الذي يقتل أباه، ولكنهم لا
يغترون جريمة القائد المنهزم بحال من الأحوال
ومما يستحق الذكر أن الأمير عبد الله في ثورة الصحراء، والحملة التي يقودها
لورنس، لم يكن سوى ظل بسيط في مجرى الحوادث على الرغم مما هو معروف
عنه من الشجاعة والذكاء
وإذا كان قد حكم على الأمير بأن يحيا حياة مدنية وإخوانه يخوضون غمار الحروب، فقد
وضع آماله في شيء واحد وهو عقيدته الثابتة بأنه إذا جد الجد وجاء يوم الانتصار
سيدعى ولا محالة للجلوس على عرش من العروش التي تقسمها بريطانيا العظمى
بعد زوال
الإمبراطورية التركية
وما كادت الحرب تضع أوزارها حتى تولى والده الحسين ملك مكة والحجاز، وتولى
أخوه الأكبر ملك جدة، وتولى فيصل أخوه الأصغر ملك سوريا ثم ملك العراق؛ وبقى
عبد الله وحده بغير تاج حتى أتيحت له إمارة شرق الأردن بعد جهد شديد
وتبلغ مساحة شرق الأردن مقدار مساحة إيرلندا، ويبلغ سكانها 300000 نفس يعيش
ثلثاهم معيشة الصحراء
وإذا كان قد انقضى عشرون عاماً منذ اتخذ الأمير ذلك الطريق المقفر نحو عمان بدً
من دخول دمشق وبغداد دخول الفاتحين، فإنه لم يعلن أمنية واحدة من أمانيه التي
كان يفكر فيها ولورنس يخترق الصحراء، وهو منذ عشرين عاماً يري الطعم لملك
فلسطين
وقد أدرك بذكائه وقوة استنتاجه أن العرب واليهود لا يمكن أن يتفقا، وأن هذين
الشعبين لا يمكن أن يعيشا معيشة أمان وسلام، وأن بريطانيا لا تستطيع أن تجد حلاً
لمشكلة فلسطين يتفق ومصلحة الإمبراطورية
وعلى الرغم من الانتظار الذي طالت مدته لم يزل الأمير مصراً على أمنيته العزيزة.
وكثيراً ما حرضه أصدقاؤه وأقرباؤه على أن يعبر الأردن ببدوه، ولكنه كان على الدوام
يأبى أن يستبق الحوادث. . .
وعقيدته أن الحالة في فلسطين كلما ازدادت تحرجاً كان ذلك في مصلحته وأدعى إلى
تحقيق أمانيه
وإذ كان الأمير قد استطاع أن يكبح جماح نفسه عشرين عاماً، فنحن نعتقد أنه لا يوجد
واحد من المشتغلين بالسياسة في الشرق الأدنى يظن أن شخصاً في حالة تقسيم
فلسطين سيكون أولى منه بالجلوس على عرشها
ويقال إن هذه الولاية في تلك الحال سوف تكون مرتبطة بشرق الأردن، وبارتباطها
تجد بريطانيا حليفة قوية في شرق الأدنى. . .
هل تحتفظ السويد بحيادها - عن باري سوار
إن أصوات المدافع التي تدوي في استكهلم، وتنقلات الجنود وتدريبها في عاصمة البلد
التقليدي في الحياد، مما يدل على أن الثقة بالنازي قد تزعزعت في تلك البلاد
لماذا تشتغل السويد بتلك التدريبات الحربية، وقد احتفظ بحيادها مدة الحرب السابقة؟
هل هي تتوقع أن تكون عرضة للهجوم في الحرب القادمة؟

إن الذين لا يتتبعون السياسة السويدية، قد يذكرون حياد السويد نحو ألمانيا القيصرية في حرب 14 - 18، ويظنون أن الآريين من السويد يحتفظون بشعورهم نحو المدنية والثقافة الألمانية، والحقيقة أن تغيراً عظيماً قد حل في نفوس الرأي العام!
أما المسئول الأول عن هذا التغيير فهو أولدف هتلر. فقد كانت خطة النازي من البدء مثيرة لشعور الحرية والتقدم الاجتماعي في نفوس السويديين.
وإذا كان الملك جوستاف على الرغم من بلوغه سن الثمانين يعد من رجال أوربا الملحوظين، فإن السويد الآن يحكمها الاشتراكيون. وقد تقدمت تلك البلاد تقدماً محسوساً ووصلت الصناعة الحديثة فيها إلى درجة لم تصل إليها الولايات المتحدة.
لقد وصل صدى تهديد هتلر إلى تلك البلاد. وقد أشار القائد الألماني هانشوفر في إحدى محاضراته باستكهلم إلى أن عدد السكان في السويد قليل بالنسبة إلى مساحتها، وأنها تستطيع أن تمنح الأماكن الفسيحة لسكنى ملايين من الناس.
وقد كان في السويد بعض الفرق النازية، وكان بها الكثير ممن يعتمد عليهم الفوهرر، وقد أرادت ألمانيا أن تجعل تلك الفرق فرقة واحدة تحت إمرة رجل واحد يدعى (لندهولم)، ولكن خاب مسعاها، إذ تبددت تلك الفرق ولم تبق للنازي فرقة واحدة على الإطلاق.
إن إخفاق الهتلرية في السويد لم يكن في الحقيقة تعبيراً عن كراهية للألمان، فإن الارتباطات الجنسية والتعليم يجعلان لألمانيا منزلة في تلك البلاد، وإن كان لفرنسا تأثيرها الثقافي الملحوظ.
ولكن الشعور السائد قد انقلب على ألمانيا الآن. وإذ كان للسنما أثرها الكبير في اسكاندينافيا فقد بدأ الألمان يستأجرون كواكب السنما من السويد لنشر دعايتهم تحت أسماء هؤلاء الكواكب ولكن ذهب مجهودهم هباء. فالأفلام الألمانية لا تقابل باستحسان بينما تنجح الأفلام الفرنسية على الدوام
على أن هذا جميعه لا يدل على أن السويد قد فقدت رغبتها في الحياد، ولكن من السهل أن يقال إن السويد لا يبعد أن تساق إلى الحرب ضد ألمانيا
ويقول رجال السياسة بها من الاستعداد الحربي الذي تقوم به الدول الآن يمنعهم من المهادنة. وأكثر من هذا طلب الذهب والحديد؛ فالسويد تستخرج كميات عظيمة من هذين المعدنيين، وإن حديدها النادر أليق من غيره لآلات الحرب. فألمانيا ولا شك تحتاج إلى حديد السويد لعمل السلاح، وإنجلترا وفرنسا تريان من الواجب عليهما أن تمنعا توريده إليها
فإذا هوجمت السويد فسوف تحارب. وكل فرد فيها على أهبة لعمل ما يجب عليه. وإذا كان جيشها ليس بالجيش العظيم فإن لديها ثلثمائة طائرة، وقد خصص أكثر من ضعف ميزانيتها للتسليح
البريد الأدبي
موسى (عليه السلام)
للغربيين أقوال غريبة في موسى وعيسى (عليهما السلام)، وفي كونهما. وقد اطلع قراء (الرسالة) الغراء على ما رواه الأستاذ العقاد من مقالة (فرويد)، وللعالم (سلمون ريناك) في كتابه: أرفيوس الذي ألفه منذ أكثر من ثلاثين سنة بحث عن موسى (عليه السلام) أروي منه هذه الأسطر مضافة إلى ما سطره الأستاذ من كتاب (فرويد) وكلا الرجلين من يهود. قال:
' , , ' ' ; ' ; ' ' ' ' ; ; ' ' ' ' , ,
وترجمتها: (إن وجود موسى (ولعل موسى مأخوذ من الكلمة المصرية ميزو بمعنى طفل) لا تؤيده أسفار التوراة التي عزيت إليه خطأ. وليس من حقنا أن نذهب إلى إنكاره. إنه موجود؛ ولكن وجوده سيظل موضع الشك فقط. ليس الدين من صنع الإنسان؛ ولكنا لا نستطيع أن نتصور انتشار دين من غير نفوذ إرادة قوية لرجل من رجال العبقرية أمثال: موسى وبولس ومحمد)
قلت: يشك علماء غربيون في كثير من أصحاب النِّحل. بيد أنهم لم يتجاسروا أن يطوروا (أن يحوموا) في شكهم بحضرة سيد الوجود (صلوات الله وسلامه عليه). والإسلامية الصحيحة موحيها واحد أحد، لا كما قالت عبارة ريناك في سائر الأديان.

* * *

!لم ينجح أحد

أعلنت مدرسة الفنون الجميلة العليا هذا العام فضيحة كان يجب عليها أن تتدارك أسبابها أو أن تسترها على الأقل

أما هذه الفضيحة فهي أنه (لم ينجح أحد) من طلبة قسم النحت في هذه المدرسة هذا العام

وفي قسم النحت بمدرسة الفنون الجميلة العليا أربعة طلاب فقد موزعون على سني الدراسة المختلفة. ومعنى هذا أن هؤلاء الأربعة هم عدة هذا الجيل للنحت في مصر. ويلحظ إلى جانب هذا أن المدرسة وقفت عليهم أساتذة أكثر منهم عدداً. فإذا لم تكن مدرسة الفنون الجميلة العليا تستطيع أن تتعهد أربعة طلاب نحاتين فماذا تستطيع أن تصنع؟!

يقال إن هذه الكارثة الفنية يرجع سببها إلى تنافر بين أستاذ النحت في المدرسة (وهو سويدي) وبين ناظر المدرسة وصديق له مدرس بها. والناظر وهذا الصديق المدرس مصريان. ويقال إن هذه النتيجة لم تحدث عفواً وإنما أريد بها أن تحجم وزارة المعرف عن تحديد عقد الأستاذ الأجنبي هذا العام، وأن ترفع المدرس المصري إلى درجة الأستاذية

وإذا كان مما يسعد كل مصري أن يرى قسم النحت في مدرسة الفنون الجميلة العليا يرأسه أستاذ مصري فإنه مما تشمئز منه الإنسانية أن يُبعث في سبيل الوصول إلى هذه النتيجة بمستقبل أربعة من الطلاب هم كما قلنا عدة الجيل في هذا الفن

زد على ذلك أن ناظر الفنون الجميلة العليا وصاحبه المدرس المصري متهمان في مقدرتهما الفني. فالناظر لا يحمل شهادات فنية مطلقاً وليس لديه من المؤهلات الفنية إلا أنه رحل إلى الحبشة في زمن ما ورسم بعض الصور لنجاشيها السابق ورؤوس دولته. ومظاهر (العصبية) التي تبدو عليهم والتي استطاع بها أن يقنع أهل الحكم في الوزارة السابقة بأنه يصلح لأن يكون ناظراً لأكبر معهد فني في مصر

أما صاحبه المدرس فهو رجل من رجال الصناعة أعدته ثقافته وأهله تعليمه لأن يكون مدرساً للصناع في مدرسة الفنون التطبيقية لا أستاذاً للفنانين في مدرسة الفنون الجميلة العليا وشتان ما بين الصناعة والفن

وأنا أكتب هذا وقلبي يتمزق لأني أنصر به أجنبياً على مصريين، ولكنني أفضل هذا على التدليس باسم الوطنية الشفوية. ولا ريب أن الاعتراف بالضعف مع السعي إلى استكمال أسباب القوة خير من المغالطة والادعاء وإنكار الحق

. . .والآن، ماذا تصنع وزارة المعارف في مدرسة الفنون الجميلة

. . .إنه يحدث فيها أكثر مما ذكرناه

ع. ا. ف

الفن المنحط

تألفت في مصر جماعة من الفنانين سمّت نفسها (جماعة الفن المنحط) وهي اليوم في طريقها إلى التفرق والتحلل لأنها لم تجد عند الفنانين والصحافة والجمهور ما كانت ترجوه من تشجيع، إذ لم يزرها في دارها بشارع المدابغ كاتب ولا صحافي ولا زائر عادي يستمع إلى دعوة أفرادها

(والفن المنحط) الذي تدعو إليه هذه الجماعة لا يمكن أن يقال إنه منحط فعلاً ما دام يجد من يقول عنه إنه فن. إذ أنه لا يمكن أن يكون الفن فناً ومنحطاً في الوقت نفسه إلا إذا كان كاذباً. فالفن هو نتاج الحس لا الفكر. ومتى توفر فيه الصدق فإنه سام رفيع، ولا يفسده شيء ولا يخفض من شأنه شيء إلا أن يكون تكلفاً، فهو عندئذ ليس فناً وإنما هو تهريج وتجارة. وإذا دعا شاعر إلى الفسق في شعره وحسّنه للناس وزينه لأنه يحبه ويجد فيه لذته النفسية، ولأنه يعبر عن هذا الذي يجده تعبيراً صادقاً فلا ريب أن فنه يبهر القارئين لأنه ينفذ من نفسه إلى نفوسهم فإما أن يرضيها وإما أن يؤلمها ويسخطها. وكذلك الرسام المعجب بالأجسام الذي يصور محاسنها ولو في أوضاع يستقبحها العرف وتزورُّ عنها التقاليد والآداب العامة فهو عند الفن ناجح وقادر وعال ما دام يتذوق هذا الذي تستقبحه التقاليد والآداب ويعبر عنه صادقاً في تذوقه وتعبيره فإذا تصدى شاعرنا للمعاني الروحية المجردة التي لا يحبه هو ولا يتذوقها وأراد بتعرضه

لها أن يجاري أصحابها وأن يقال عنه إنه مثلهم روحاني متصوف فإن فنه سينحط ويضعف لأنه سيحتاج في إخراجه إلى الكذب والتزييف والتزوير. وكذلك رسامنا إذا انحرف عن مزاجه الخاص إلى التكلف ما لا تلتفت إليه نفسه من الجمال الروحي لغرض من الأغراض فإنه يكون عندئذ كاذباً ومنافقاً ويكون رسمه منحطاً حقاً فإذا كانت جماعة الفن المنحط قد تألفت من أفراد صادقين في شعورهم وتعبيرهم ففنهم رفيع من غير شك مهما تواضعوا وقالوا إنه منحط. أما إذا كانوا يتكلفون هذا الانحطاط ففنهم منحط حقاً لا لشيء إلا هذا التكلف. . .

ع. ا. ف

اختصاص المجمع اللغوي في رأي المكتب الفني

كانت وزارة المعارف قد وكلت إلى مكتبها الفني دراسة اختصاص مجمع فؤاد الأول للغة العربية والنواحي التي يتناولها هذا الاختصاص، فدرس المكتب هذا الموضوع من مختلف وجوهه، ورفع مذكرة وافية بشأنه إلى معالي الوزير تحدث في بدايتها عن المجامع العلمية اللغوية فقسمها ثلاثة أقسام هي: المجامع العلمية، والمجامع اللغوية والأدبية، ومجامع الفنون؛ وأشار إلى ما تؤديه كل طائفة من هذه المجامع في مختلف الممالك في العصور الحديثة، فتكلم عن مهمتها في إيطاليا، وبلجيكا، والدنمارك، وإنجلترا، وأيرلندة، وأسبانيا، والبرتغال، وروسيا، وعن طبيعة الأعمال التي تنهض بها. ثم انتقل إلى المجمع المصري فأتى بنبذة عن نشأته وأغراضه التي حددها مرسوم إنشائه، وعرض بعد ذلك آراء كبار الكتاب الذين طرقوا هذا الموضوع في الصحف السيارة وفي داخل البرلمان

وقد رأى المكتب الفني أن مثار الخلاف في الرأي هو اختصاص المجمع اللغوي المصري، مع أن اختصاص أي مجمع قد يتسع فيشمل الكثير من النواحي العلمية واللغوية، وقد يضيق هذا الاختصاص فينحصر في علم أو فن أو ناحية من أحدهما؛ وذكر أن اختصاص المجامع اللغوية مركز في وضع المعاجم اللغوية والتاريخية في وضع الاصطلاحات العلمية والفنية، وأنه يجب ألا يقتصر عمل المجمع على تسجيل الألفاظ التي تستقر في التداول، كما أنه لا ينبغي أن يعهد إلى الهيئات العلمية والفنية بالانفراد في وضع الاصطلاحات، وإنما يجب أن يتعاون المجمع مع العلماء والفنيين في الوصول إلى تحقيق هذا الغرض، بأن يطلب إلى كل منهم - كل دائرة اختصاصه - أن يقدم إنتاجه اللغوي، ثم يجتمع اللغويون في مؤتمرات سنوية أو نصف سنوية لفحص هذا الإنتاج ودراسته رغبة في الوصول إلى اختيار الألفاظ الصحيحة والتراكيب السليمة التي تقابل، في دقة ووضوح، المعاني المطلوبة مع موافقتها لروح اللغة وأصولها وكذلك يتركز اختصاص المجامع في دراسة اللهجات القديمة والحديثة، إذ هي أساس اللغة وقوامها، فلا غنى عن دراستها

وأشار المكتب في مذكرته إلى ضرورة الاقتصار في الوقت والمجهود من هذه الدراسة. أما

الدراسة الواسعة المستفيضة بلهجات قديمة فإنها من شأن هيئات أخرى تتولاها وقال في صدد دراسة اللهجات الحديثة: إن أهميتها تقوم على أنها تتصل بالحياة مباشرة، فهي لغة الكلام والتفاهم، وإنه مما لا شك فيه أن هذه اللهجات أقوى من حيث استعمالها وانتشارها وقربها إلى الأذهان، فلا يجوز إذن إهمالها أو التجاوز عنها، لأن دراستها توضح ما طرأ على اللغة الصحيحة من التغييرات والانحرافات في كثير من الألفاظ والتراكيب.

ثم ذكر أن إحياء الأدب العربي أو التشجيع عليه يحسن أن تتولاه هيئات أخرى غير المجمع اللغوي مثل الجامعة ووزارة المعارف ودار الكتب والجمعيات وهيئات الترجمة والنشر. وأشار إلى أهم التعديلات التي يجب أن يؤخذ بها، وهي أن يزاد عدد أعضاء المجمع العاملين إلى ثلاثين عضواً من العلماء المعروفين على ألا يزيد الأجانب منهم على عشرة؛ وأن يتألف المجمع من هيئتين إحداهما مؤتمر المجمع ويتكون من كامل الأعضاء، والأخرى مجلس المجمع ويتكون من الأعضاء المقيمين في مصر.

عناية مدير بلدية الإسكندرية بأسرة المرحوم فليكس فارس

عرض صاحب السعادة مدير بلدية الإسكندرية العام على لفومسيون الإداري في جلسة 5 يوليه مسألة مكافأة المرحوم الأستاذ فليكس فارس كبير مترجمي البلدية،

فذكر أنها ضئيلة نظراً إلى أن مدة خدمته كانت قليلة، ولكنه خدم البلدية بإخلاص ونشاط، كما كانت له خدمات صادقات للأدب والعلم. وقد ترك أسرة مؤلفة من أرملة وثلاثة أطفال صغار. ثم اقترح المدير منحهم معاشاً شهرياً عدا المكافأة التي كان يستحقها. فوافق القومسيون على ذلك وقدر هذا المعاش بعشرة جنيهات في كل شهر. وهذا العمل من صاحب السعادة المدير يستحق أجزل الشكر وأجمل التقدير.

اللورد لويد والإسلام

ألقى اللورد لويد خطبة في اجتماع عقد بلندن في الأسبوع الماضي قال فيها: يجب على الحكومة، حينما تبحث المسألة الفلسطينية أو مخاوف مسلمي الهند من الاضطرابات التي يثيرها الهندوكيون، أن تبحثها على ضوء الاعتبارات التي شهدناها في العشر أو الخمس

عشرة أو العشرين سنة الماضية والتي على أن العالم الإسلامي دخل في مرحلة جديدة بقوته المتزايدة وبكل ما يتضمنه الدين الإسلامي العظيم من قوة، مضافاً إلى التعاليم الحديثة.

وختم اللورد لويد خطبته قائلاً: (إن تطوراً جديداً قد طرأ على العالم الإسلامي وهو تطور يجب أن نحسب له حساباً دقيقاً)

حول الجناية على الأدب العربي

حضرة الأستاذ الجليل صاحب (الرسالة)

تحية وسلاماً. وبعد. فإنني على فرط إعجابي بالدكتور زكي مبارك وتقديري لآثاره الأدبية لم أرض منه هذا الضرب من النقد الذي يتناول الشخصيات دون الآثار، ويدافع عن الأدب من طريق الجناية على الأدباء. ولو أن نقاد الأدب العربي اتبعوا الطريق التي اختطها الدكتور إسماعيل أحمد أدهم في رده على الدكتور بشر فارس (عدد الرسالة 311)، أم النهج الذي سلكه الأستاذ عبد المنعم خلاف في مقاله (النبوة - الوحي - المعجزة) رداً على مقال نشرته مجلة (الأماني) (العدد 310 من مجلة الرسالة) لكان النقد - كما يرضاه الأدباء - أداة صالحة لتوجيه الأدب الصحيح ولتنقيته من أدران الضعف وشوائب الخطأ

ولعمر الحق إن هذا الطريق التي سلكها الدكتور زكي لملتوية شائكة. بل هي ضرب من الجناية على الأدب ما كان أجدره أن يتحاماه.

إن من أهم مميزات النقد الذي يجعل الإصلاح الأدبي هدفه ومرماه، اللفظ اللين والنقاش الهادئ والحجة الدامغة مع احترام صاحب الرأي المنقود وعدم التعرض لشخصه. فإن كان صاحب الرأي صادق النية نزيه القصد فيما كتب فليس عليه من ضير أن يُنْقَد؛ أما إن كان سيئ النية نفعي القصد، والنقد كفيل بإظهار كل خبيثة، فحسبه ما يجر على نفسه من تفنيد الرأي وتسفيه الحلم وما يتبع ذلك من هبوط سعره في سوق الأدب وأوساط المجتمع (وعلى نفسها جنت براقش)

(الخرطوم)

محمود أحمد عبد الحميد

هل في الحيوان غريزة الغيب؟

قرأت في الرسالة رقم 312 المقال الممتع الذي كتبه الأستاذ عزيز أحمد فهمي فكان أعجب شيء التفت إليه نظري وامتلأ به تفكيري هو ما أورده من تلك الظواهر التي تميل إلى القول بوجود إدراك الغيب عند الحيوان. فقد عاد بي قوله هذا إلى ذكر ليالٍ خلت، أيام كانت فلسطين تتهيأ لتقوم بثورتها الكبرى. ويالها من ليال كانت تملأ قلبي فزعاً وهماً!

حينما يسجو الليل، ويهجع السامر، ويخشع كل جرس، كانت تقوم (وهوهة) حزينة في جبل النار يرجعها بنات آوى كترجيع النائحات، فما كان يخيل إلي ساعتئذ إلا أن في كل بيت من بيوت البلدة مناحة قائمة. وشد ما كنت أتشاءم من ذلك الشعور الذي ينتابني لدى ظهور تلك الأصوات الكئيبة الباكية! فقد كان يذهب بي خيالي إلى أن هذه الأصوات طبيعية بالنسبة إلى ذلك الحيوان، ولكن أذني تحولها إلى تلك الصورة الكئيبة إيذاناً بمصيبة ستلم بي لا قدر الله

وهكذا لم تكن بنات آوى لتخطئ مواعيدها في كل ليلة؛ ولم يكن خيالي ليخطئ في تصوير أبشع ما يتوقعه المرء من شر وسوء

وكانت الثورة، وما أدراك ما الثورة! فطاحت رؤوس، وتمزقت نفوس؛ وإذا البلدة لا تمضي عليها ساعات معدودة في كل يوم دون أن تفجع بحبيب إليها أثير لديها. وكان القوم يوارون الضحايا في سفح جبل النار مثنى وثلاث

ونظرت. . . وإذا الله يستبدل مناحات الأمهات، والزوجات، والأخوات بمناحات بنات آوى. فالأصوات هي هي بعينها، والوحشة تملأ البلدة في وضح النهار فضلاً عن الليل. وذهبت نفسي حسرات، وتصاعدت آلامي المكبوتة زفرات. وما كانت لتطلع الشمس أو تغيب في كل يوم إلا على مأساة من هذه المآسي

وها قد انتهى أمر الثورة. وهاأنا أصيخ بسمعي في كل ليلة عساي أسمع تلك الوهوهة الباكية، أو قل تلك المناحات التي كانت تقيمها بنات آوى فما أسمع صوتاً ولا ركزاً. (نابلس)

فدوى عبد الفتاح طوقان

قواعد العربية الفصحى

هذه ترجمة عنوان الكتاب الذي أخرجه في الشهر الماضي الأستاذان (جودفروا دومامبين) من أساتذة اللغة العربية في السوربون سابقاً، و (بلاشير) أستاذ اللغة العربية في المدرسة الوطنية للغات الشرقية في باريس. والكتاب يتناول في نحو خمسمائة صفحة، الصرف والنحو بالتفصيل والتمثيل. ومزيته أنه مؤلف على أسلوب حديث مغاير لكتب قواعد العربية المنشورة باللغات الإفرنجية ولا سيما الفرنسية. وبالأسلوب الحديث نعني ما وصل إليه علم اللغة في هذا العهد من طريق مراجعة أصول فقه اللغات الهندية - الأوربية، ومن طريق النظر في مذاهب اللغات السامية ' والكتاب مطبوع في باريس واسم

رسالة النقد

حول مناظرة وكتاب

نقد ومراجعة

للدكتور بشر فارس

شيء واحد لفت نظري فيما كتبته - في العدد الماضي من الرسالة - الأستاذ إسماعيل أحمد أدهم خريج جامعة موسكو لسنة 1933 كما جاء في مجلة الحديث، حلب 1938 وأما الذي يكتنف ذلك الشيء من الكلام المرتجل ارتجالاً فلا شأن لي به. وقد أخبرت القارئ من عددين أن قلمي لا يقوى على مجاراة غيره في ذلك الضرب من الكلام.

ولولا غضبي للعلم الحق وغيرتي على النقد الصحيح ما كتبت هذا الفصل

قال الأستاذ أدهم: (إن الجملة تنظر إليها العبارة العربية ليست من خلقه (يعنيني)، فقد تكرر ذكرها في كتابات العالم الاجتماعي دوركايم وخصوصاً في مجموعة محاضراته عن علم الاجتماع في السوربون: ص 11، 13، 24، 26 مثلاً)

بهذه العبارة يريد الدكتور أدهم أن يقيم البرهان على أن تلك الجملة الفرنسية التي (ليست من خلقي) قد وصلت إلى علمه قبل قراءة كتابي (مباحث عربية). وأني لأرى الأستاذ أدهم يتقول عليَّ: فإني لم أقل قط إني (خلقت) تلك الجملة الفرنسية، إذ أني في (مباحث عربية) (راجع ص 16) أضع الاصطلاحات العربية - من طريق المطالعة أو الاجتهاد - ثم أثبت إزاءها ما ينظر إليها في اللغات الإفرنجية، وذلك رغبة في إغناء لغتنا (وهل أنا أغني لغات الفرنجة؟). وعندي أنه كان يغني الأستاذ أدهم عن عبارته المذكورة أن يثبت لنا الجملة التي استعملها في (مجلة المعهد الروسي للدراسات الإسلامية) - وذلك على وجهها - ولكنه لم يفعل بل لم يبعث إلى بالمجلة كما رجوت منه. وكان بودي أن أرى كيف استعمل المصطلح العربي الخاص بعلم الاجتماع دون غيره، الموضوع في كتابي وضعاً فلسفياً

ومن الظريف أن يذهب الأستاذ أدهم في إقامة برهانه إلى ما لا نرضاه له. فقد استشهد على وجه التخصيص بـ (مجموعة محاضرات دوركايم عن علم الاجتماع في السوربون)

ثم عين فقال: - ص 11، 13، 24، 26) ثم تلطف فقال: (مثلاً)

والذي في الحقيقة أن دوركايم استعمل هذه الجملة غير مرة، وكذلك تلامذته وتلامذة تلامذته، وعلى الأستاذ أدهم التفتيش. غير أن دوركايم لم يستعمل هذه الجملة في (مجموعة محاضراته عن علم الاجتماع في السوربون)، وذلك بالرغم من الحكمة:

(مثلاً) التي جرت على قلم الأستاذ أدهم، وفيها ما فيها من قوة الإيهام
إني لم أسمع قط بـ (مجموعة محاضرات دور كايم عن علم الاجتماع في السوربون)،
مع أني قرأت كتب دوركايم - وهي غير كثيرة - راضياً أو كارهاً، وأنا أحصل علم
الاجتماع على ألوانه - فيما أحصل من فنون الفلسفة - في السوربون نفسها، وذلك
زهاء سبع سنين. وقد سألت اليوم زميلي في التحصيل في السوربون، الصديق الدكتور
علي عبد الواحد وافي - مدرس علم الاجتماع بكلية الآداب لجامعة فؤاد الأول - هل
يعرف تلك (المجموعة)؟ فأخبرني قال: (لا وجود لها). أضف إلى هذا أن بين يدي الآن
كتاباً فيه ثبت المؤلفات في علم الاجتماع (ولا سيما التي تهم الطالب، وأي شيء يهم
الطالب مثل المحاضرات، بل محاضرات دوركايم وهو إمام مدرسة علم الاجتماع
الحديث في فرنسة؟). وهذا الكتاب عنوانه: ' وليس فيه ذكر لتلك (المجموعة). واعلم
أن هذا الكتاب مطبوع في باريس ثماني سنين بعد وفاة دوركايم فضلاً عن أن أحد
صاحبيه من تلامذة دوركايم نفسه، واسمه فهو أعلم منا بما أخرج أستاذه لطلاب علم
الاجتماع
هذا إلا إذا خرجت تلك (المجموعة) في موسكو حيث تلقى الأستاذ أدهم شتى العلوم.
فرجاني منه إذن أن يعين لي (المجموعة) بحيث يثبت العنوان الفرنسي وتاريخ الطبع
ومكانه. فإني جد حريص على أن أخبر أساتذتي وزملائي من علماء الاجتماع بوجود تلك
(المجموعة)؛ وما أظنهم إلا ناشطين لها، وما أخالها إلا واقعة موقع الحدث
ولعل تلك (المجموعة) - وكلها سر - موجودة على خلاف ما أقوله وما يقوله صديقي
الدكتور علي عبد الواحد وافي، وعلى خلاف ما جاء في الكتاب المتقدم ذكره. فتكون
القصة أن الأستاذ أدهم لم يحسن نقل عنوان الكتاب من الفرنسية إلى العربية، وذلك
لسببين:
أما الأول فلأن العربية ليست (لغة الأصلية)، كما قال في العدد السابق من الرسالة
حين أخذ يعتذر إليّ من اقتباس تعبيرات لي.
وأما السبب الثاني فلأن علمه باللغة الفرنسية لا ييسّر له مثل ذلك النقل. وقد ذكرت
هذا وعللته مكرهاً، لعددين مضيا، فردّ الأستاذ أدهم قال: (إن اللغة الفرنسية ليست
وقفاً عليّ)
معاذ الله أن تكون الفرنسية وقفاً على! غير أني ماذا أصنع وفي نقد الأستاذ أدهم
لكتابي (مباحث عربية) ما يؤيد ما ذكرته من عددين؟ ففي رأي الأستاذ أدهم (راجع
الرسالة العدد 311 ص 1229) أن استعمالي لفظ (السلوك) لأحد مشتقات المصدر
الفرنسي تارةً، ولفظ (الأخلاقيات) لمشتق آخر للمصدر نفسه (وهو بمعنى تارةً أخرى
مما (يوقع في اللبس والاختلاط). والواقع الذي أثبته على كُرهٍ أن الأستاذ أدهم لم
يدرك الفرق القائم بين اللفظين الفرنسيين: (راجع (مباحث عربية) ص 36، 56
خاصة)، فالأول يدل على أعمال المرء من الناحية (الأخلاقية)، والثاني يفيد (علم
الأخلاق). وحسب الأستاذ أدهم أن يستفسر معجماً فرنسياً للمدارس ذينك اللفظين.
ولك أن تقول: فإذا شقَّ على الأستاذ أدهم أن يحسن النقل من الفرنسية إلى العربية
فكيف ارتجل مصدراً ارتجالاً ثم استشهد به وأثبت بضع صفحات (على جهة التمثيل)؟
الحق أني أود أن أعجب عجبك، ولكن ما قولك في هذا الاختلاق:
قال الأستاذ أدهم في نقده لكتاب (مباحث عربية) (الرسالة العدد 31 ص 1229):
(يعتبر الباحث (يعنيني) كلمة البصيرة مقابلاً (كذا) ص 2257، والغريب أني لم أثبت
كلمة إزاء كلمة البصيرة الواردة في ص 57 من كتابي ولا في صفحة غيرها. فمن أين
جاء الأستاذ أدهم بكلمة وكيف جعلني (أعتبر) ما يجهل هل أنا (معتبره)؟
ثم لم لا يترجل الأستاذ أدهم المراجع ويبتدع المصادر، وهو الذي استشهد بالإصحاح
الرابع عشر من (سفر دانيال) من المعهد القديم (الكتاب المقدس) ثم بالجزء الثالث
من (الفهرست) لابن النديم، يوم نقد (مباحث عربية) (الرسالة العدد 312 ص 1274
ثم ص 1275)؟ وإليك بيان ذلك:
أولاً - قال الأستاذ أدهم: (ومما يحسن بي الإشارة إليه أن كلمة المروءة وردت في
اللغة العبرية، وهي من أخوات اللغات العربية، نازعةً فيها لمعنى السيادة (دانيال 14 -
19 ومراد فرج في ملتقى اللغتين ج1 ص 89 - 91)
والذي في كتاب (ملتقى اللغتين: العبرية والعربية) للأستاذ مراد فرج: (مرا: فتح فكسر

ممال ممدود بمعنى السيد وولي الأمر - دانيال 14 - 19 والأصل العبري 16) (يريد، على أسلوب جمهور العلماء: الإصحاح 14 والآية 19 في الأصل العربي والآية 16 في الأصل العبري)

ومن المستحيل أن يكتب الأستاذ فرج: الإصحاح 14 (الرابع عشر)، لأن (سفر دانيال) اثنا عشر إصحاحًا فقط ومن هنا تبين لي أن الإصحاح 14 من غلطات الطبع. فسألت في ذلك زميلي الدكتور مراد كامل - مدرس اللغات السامية بكلية الآداب لجامعة فؤاد الأول - فأخبرني بعد المراجعة قال: (إن الصواب هنا: الإصحاح 4 (الرابع) والآية 16 و 21)

وهكذا ترى كيف جاء الأستاذ أدهم ونقل ما في كتاب الأستاذ فرج من غير تحقيق ولا روية. والظريف أنه استشهد بسفر دانيال أول ما استشهد، إذ قال: (كيت وكيت: دانيال 14 - 19 ومراد فرج في ملتقى اللغتين ج1 ص 89 - 91) كأنه اطلع على سفر دانيال قبل (ملتقى اللغتين) لفرج

ثانياً - قال الأستاذ أدهم - عند الكلام على أنساب العرب -: (ولكنا على الرغم من ذلك، نلاحظ جواز أن تكون القبيلة منشؤها اجتماع عدة بطون وأفخاذ من قبائل مختلفة: ابن حزم نقلاً عن الفهرست لابن النديم ج3 (كذا) ص 187. والمراجع العربية تروي أن قبائل تنوخ وغسان والعنق تكونت من شتيت البطون التي تناثر في الصحراء من القبائل العربية التي تفرقت بعد تركها مواطنها في الجنوب: الفهرست ج3 (كذا) ص 187 وكذلك لنا (يعني كتاباً له): علم الأنساب العربية ص13 - 14)

على هذا النحو ترى الجزء الثالث (؟) من (الفهرست) لابن النديم يثبت مرتين على سبيل المرجع. وليس للأستاذ أدهم أن يستنجد بغلط الطبع، إذ في كتابه الذي ذكره: (علم الأنساب العربية): (مجلة الحديث، حلب 1938 ص14) ما جاء في نقده حرفاً بحرف.

هذا والمعلوم أن (الفهرست) لابن النديم طبع مرتين: مرةً في 1872، ومرة في مصر سنة 1348 للهجرة. وفي كلتا المرتين خرج (الفهرست) في جزء واحد والذي حدث في هذا الموطن أن الأستاذ أدهم اقتبس المرجع إلى (الفهرست) من كتاب من الكتب الحديثة من غير أن يراجع المظنَّة، دأبه مع (سفر دانيال). ولو راجعها لعلم أن الكلام على الأنساب يقع في (المقالة الثالثة) (الفن الأول: في أخبار الإخباريين والنسابين. . .) من كتاب

الفهرست، لا في الجزء الثالث منه. ومن هنا يتبين أنه ظن المقالة جزءاً لحظة اقتبس المرجع. وأما الصفحة التي يعينها (ص187) فلا أثر فيها لما يذكره. بل إني قرأت الفن الأول من (الجزء الثالث) كله (طبعة مصر، وهكذا للأستاذ أدهم أن يقول أن حديثه في طبعة ليبتسج!) ولم أعثر على حديث الأستاذ أدهم.

وأما قوله في مرجعه: (ابن حزم نقلاً عن الفهرست. . .) فغاية الاشتباه. لأنه إذا قال ابن حزم من غير تعيين أراد صاحب (الفصل في الملل والأهواء والنحل). وعليه فلنا أن نسأل الأستاذ أدهم أي كتاب لابن حزم يعني، ولابن حزم المولود سنة 383 (أيَّ ست سنوات بعد تصنيف الفهرست) ستة وثلاثون مؤلفاً؟ راجع: بروكلمن (تكملة تاريخ الآداب العربية) ليدن 1937 جـ1 ص694 - 697. ثم إني أعلم أن لابن حزم كتاباً لا يزال مخطوطاً، عنوانه: (جمهرة النسب)، وقد نشر جانباً منه في كتابه: فهل يعني الأستاذ أدهم في مرجعه ذلك المخطوط؟ وإذن فأين اسم الكتاب وأين الصفحة، كما يصنع الناقد الثبت والباحث الثقة؟

وغاية القول هنا: أين الجزء الثالث من الفهرست، وأين النص المستشهد به في ص 187، بل في الفن الأول من المقالة الثالثة من الفهرست؟ ثم من ابن حزم هذا، وما كتابه؟

إني والله ليحزنني أن لأثبت كل ذلك، وليزيدنَّ في حزني أن الأستاذ أدهم حدثته نفسه بأن يكتب: (وأظن أن الدكتور بشر لا ينكر علينا أننا أكثر الكاتبين في العربية استقصاءً للمصادرة) (الرسالة العدد 311 ص1225). فليطمئنَّ الأستاذ إلى أني لا أنكر عليه ذلك، وليطمئن أيضاً إلى أن (الكاتبين في العربية) لن ينازعوه الغلبة في استقصاء المصادر على طريقته. إنما العلم دقة وأمانة. . .

وإذا امتد الحديث إلى استقصاء المصادر فما ضرَّ الأستاذ أدهم لو راجع معجمات

الفلسفة وكتبها حين تكلم على كلمة في نقده لمباحث عربية كما تقدم. فقد قال:
(وهذا (أي: الانتقال دفعة واحدة من المبادئ إلى النتائج) ما يفيد معنى لفظة اصطلاحاً
ولغوياً كما يستفاد من مراجعة معاجم اللغة الفرنسية)
فهل يصاب المصلح الفلسفي على وجهه التام والخاص جميعاً في (معاجم اللغة)؟ إني
هنا أرشد الأستاذ أدهم إلى (المعجم الاصطلاحي والنقدي للفلسفة) للأستاذ (باريس
1932)
فثمة يدري كيف يذهب الإصلاح الفرنسي إلى أبعد مما يظن. وله أن يقرأ أيضاً - ليحكم
معرفة المصطلح لهذا العهد مثلاً - كتابين للفيلسوف برجسون وهما ' (الباب الثاني) ثم
كتاباً للعالم بوانكاريه (الفصل الأول من الباب الثالث
وإذا أراد الأستاذ أدهم أن يعرف ما تحت مصطلح قبل هذا العهد فعليه ببعض ما كتبه
خاصةً في (نقد العقل الصرف) ثم شوبنهاور
هذا من جهة المصطلحات الفلسفية، وأما من جهة المواضعات العربية فما ضر الأستاذ
أدهم لو راجع معجمات اللغة ونظر في دواوينها قبل أن يكتب في نقد (مباحث عربية)
(الرسالة، العدد 311 ص1229): (ثم عندك قول الكاتب (يعنيني) إن للفظة الشرف
مفادات متجاورة تارة، متباينة أخرى). ثم يزيد: (ففي هذا التعبير لفظة المتجاور تفيد
إفرنجياً معنى والقصور واضح في التعبير العربي (كذا!) فضلاً عن أن التعبير غير
مستقيم من جهة البناء اللغوي (كذا!) ولكي تتسق مفادات العبارة لا بد من إبدال
لفظة: المتجاورة من الجملة بالمتشابهة لأنها أدل على المعنى وأكثر اتساقاً في
الجملة)
على أني لا أحب أن أسأل الأستاذ أدهم كيف يناقشنا في لغتنا وهو لا يزال يأخذها عنا،
كما اعترف بذلك في خاتمة مقاله المنشور في العدد الماضي. إن كل ما أبتغيه أن
أرشده إلى كتب اللغة العربية ليتبين أن معنى لفظة تؤديه في العربية الفصحى لفظة
(المترادف) (وما هذه اللفظة عنيت في جملتي المذكورة قبل). وأعلم أن كلمة في
الإفرنجية هي الألفاظ المفردة الدالة على معنى واحد (أو متقارب). وإلى الأستاذ أدهم
(مثلاً) فصلاً قريب المنال في (المزهر) للسيوطي (النوع السابع والعشرون)
العلم في مصر أمسى شيئاً مقدساً له سدنته وله حراسه. فكيف يأخذنا القول بالظن
. . .والكلام المتحدي والجدال المتحكم والتظاهر بالتثبيت والدراية؟
فالرؤية الروَّية عند الإقبال على الاشتغال بالعلم أو على نقد من توفر عليه. والنقد أمر
لا ثمرة فيه إذا حاد عن خدمة العلم وحده. والنقد للعلم مصباح على أن يكون الزيت لا
دخل فيه!
بقى أن أودع القارئ، وأنا راحل إلى أوربة بعد أربعة أيام. وإني لشاكر له صبره، فقد
أطلت الكتابة في سبيل (وضع الشيء موضعه). ورجائي منه أن يتحقق ما جاء في
هذه
الكلمة: فكتاب (الفهرست) و (سفر دانيال) - مثلاً - مبذولان لكل أحد. وإني لمطمئن
إلى أن القارئ سيعرف - من طريق المراجعة والتحقيق - كيف ينظر عني فيما يبدو
لهذا أو لذاك أن يكتب ويكتب والسلام، وإلى اللقاء بعد أربعة أشهر
بشر فارس
دكتوراه في الآداب من السوربون
العدد 315 - بتاريخ: 17 - 07 - 1939
بين بطء الماضي وسرعة الحاضر
. . .من الأحاديث العابرة
- اجلس قليلاً يا صديقي نتحدث! لقد أصبحت كالطيف النافر لا نسمعك هُتافاً إلا لمحاً
ولا نجالسك إلا لماماً
- عصر السرعة يا صديقي! لقد اشتد سائق الركب وأسرع في النغم حاديه! فمن
تخلف عن قافلة الحياة افترسه الجوع وتخطفه العدم!
- أوه! أجل يا صديقي! عصر السرعة، أو عصر الآلة، أو عصر الإنسان ذي الزمبلك!
أسماء مختلفة لمرض واحد: هو كَلَب هذه الحضارة الغربية!
- أتسمى نشاط الحياة وسرعة العمل ومساورة الرزق مرضاً؟ وأين تكون الصحة إذن؟
أفي الخمود أم في القعود أم في التخلف؟

رويدك يا صديقي! هل تستطيع أن تقول لي: لماذا يسرع الناس؟ أليقطعوا العمر في - أعوام؟ أليفنوا الشباب في أيام؟ أليقضوا اللذة في ساعات؟ وما قيمة كل ذلك في دَرَك السعادة؟ لقد كنا نشتغل بعض اليوم، فأصبحنا نشتغل كل الليل؛ وكنا نعمل باليد، فأصبحنا نعمل بالآلة؛ وكنا ننتقل بالجمل، فأصبحنا ننتقل بالطيارة؛ وكنا نأكل مطمئنين في البيت، فأصبحنا نأكل مضطربين في الشارع؛ وكنا نقيم العرس أربعين يوماً والمأتم سنة، فأصبحنا نقتصر من الفرح على ساعة العقد، ومن الحزن على تشييع الجنازة؛ وكنا نخلق الكائن الفني في دهر طويل من العمر ليكون متعة الذوق والذهن والعاطفة طول الأبد، فأصبحنا نصوره في ليلة ليفرغ الناس من تقديره في لحظة. فهل وجدنا من رخاء الصدر وسكينة الروح مقدار ما فقدنا من راحة البدن وفسحة الأجل؟

- وما يدريني؟ لو أنني أدركت العهدين لجاز أن أحسن الموازنة وأصيب الحكم؟

- أنا الذي أدركت العهدين، وأستطيع أن أقول لك إني أشعر بالفرق بين بطء العيش وسرعته، كما يشعر الظامئ الآمن بالفرق بين الرشيف والجرع، وأدركه كما يدرك المتنزه الشاعر الفرق بين اجتياز الروض على القدم واجتيازه في السيارة. لا ريب أن الشارب إذا ترشف وتمززه كان ذلك أنضج لغليله وأبرد على كبده من العَب الذي يعجل الري ولكنه يؤجل الهناءة. كذلك المتنزه على قدميه يجد في كل خطوة عالماً من الجمال، وفي كل وقفة فيضاً من اللذة؛ على حين لا يجد راكب السيارة إلا الخوف في كل نظرة، وإلا الخطر في كل كرَّة!

أنظر! هذا الذي تراه واقفاً بعربته أمام الدار عامل من عمال (أورزدي باك). طلبنا من هذا المتجر بالتليفون بعض متاع البيت وحاجة العيش، فأرسله بالسيارة، وتسلمه الخدم، ولم نجد نحن الذين كلفتنا هذه الصفقة عشرة جنيهات ما كان يجده المشترون المتذوقون من لذة الانتقاء وفرحة الاقتناء وغبطة القدرة

هذه (العملية) التي لم تستغرق غير ساعة من النهار كانت في حياتنا القروية الذاهبة تقتضي من الزمن أسبوعاً ينقضي بين سوابق اللذة وآثارها مذهَّب الأطراف بالأحلام، مطرز الحواشي بالصور، لا تكاد الأسرة تفيق من نشوته ولا تنتهي من حديثه!

دعني أَعُد بالذاكرة إلى حدود الماضي البعيد فأذكر لك كيف كان رجال القرية يشترون حاجة عامهم من السوق. كان بين القرية والمنصورة ساعة ونصف بالحمارة السريعة، فأصبح بينهما اليوم ربع ساعة بالسيارة البطيئة! وكان القوم متى باعوا القطن أكثروا الحديث عن المتاع والكسوة والمنصورة، فتتهيأ الأذهان من قبلُ للسوق كما يتهيأ قلب المؤمن في رمضان للحج، وفكرُ (المتمدن) في أبريل للاصطياف. فإذا جاء يوم السوق الذي تواطأ رجال (الحارة) على الامتياز فيه، كان كل شيء على تمام الأهبة: فالبرادع المنجدة على الحمير، والإخراج المخططة على البرادع، والعصيُّ الدقيقة في الأيدي الغليظة، والدنانير الذهبية في الأكياس العميقة، والفطائر الدسمة في المقاطف الوعيبة، وكبير (الحارة) قد تنفس عليه الصبح وهو على حماره في جرن القرية يحبس المتقدم ويستحث المتأخر؛ حتى إذا اجتمعت العِير واكتمل العدد ساروا في سكة السوق سطراً منضوداً يتناسق على نظام المقام والسن. وتسمع ضوضاءها من بعيد فتحار أذنك بين الكلام والضحك والنهيق وحث المطايا بالزجر والضرب، واصطكاك الحوافر بالتراب والحصى. فإذا بلغوا (طلخا) أودعوا حميرهم في (الوكالة) وهي (الجراج) بلغة اليوم، ثم وضعوا الإخراج على المناكب ومضوا صامتين إلى المعبر يركبون منه الفُلك إلى شاطئ المنصورة

وهنا يرفضُّ عن القوم النشاط والزياط والجرأة فيخشعون خشوع الطائر المهيض، لأن النيل غير الترعة، والسفينة غير النورج، والمدينة التي يسكنها الأفندية غير القرية التي يخيفها كلها أفندي واحد! هاهم أولاء يخرجون من ضيق القارب إلى زحمة الشارع فيمشون في سَواء الطريق أو على إفريزه سلاسل سلاسل يتماسكون عند الخوف، ويتكومون لدى الهلع، ويتصايحون عند الشتات، ويقفون اللحظة بعد اللحظة ريثما يعود الشارد ويلحق المتخلف، حتى ينزل بهم الدليل على (الخواجة) المقصود، ننزل الغيث على الثرى المجهود، فيجلس الكهول على الكراسي، والشباب على الأرض؛ وينشر تاجر القماش وعماله الأثواب المختلفة على عيونهم الشاخصة وأيديهم الفاحصة، فيختلفون على النوع أو على اللون أو على السعر، فتعلو الأصوات، وتعنف الحركات،

وتطول المساومة، حتى تخور القوى وتصحل الحناجر ويذهب الوقت فيقبلون أخيراً كل نوع يُعرض، ويرضون كل ثمن يُفرض!

ثم يقومون للغداء فيتخيرون شارعاً غير مطروق يجلسون حلقاً على حاشيتيه ويأكلون فطائرهم بالحلاوة والعنب والبلح وهم فرحون مبتهجون، ثم يعودون إلى البدال والعطار فيستأنفون النزاع على الصنف والسعر حتى يغشاهم الليل فيخرجون من سوق (الخواجات) بُجْرَ الإخراج والغرائر لا يهتدون في النور، ولا يأنسون بالناس، ولا ينتبهون للدليل، فينقطع الضعيف، ويضل الغافل، ويكون عند المعبر افتقاد ونشدان وضجة!

فإذا خلصوا بما معهم من المدينة والنهر واقتعدوا ظهور المطيّ ونشقوا نسيم الحقول انبسطت المشاعر وانطلقت الحناجر فخاضوا في أحاديث السوق، وأفاضوا في أعاجيب البندر، وادعى كل منهم أنه كان أبصر بالبضاعة وأخبر بالسعر وأقدر على الخواجة!

وكان شباب القرية قد انتشروا مع الظلام في طريق العودة يلقون العير ويكفونها مخاوف الليل. وكان نساء الغائبين وأطفالهم يتراقصون على أنغام المنى، ويتسمعون على السطوح لجب القافلة. فإذا دخلت البلد قابلوها بالزغاريد والأناشيد، وقضت (الحارة) معظم الليل في أكل البلح ومص القصب وتساقي الحديث. ثم يصبح الصباح فتفتح الحقائب وتوزع الكُسى وتفرق الهدايا، وتغرق هذه الأسر في فيض من الفرح والمرح مدى أسبوع!

الواقع يا صديقي أن السرعة محنة هذه الحضارة. وذلك أنها وفرت على الناس الصحة وأخرت عنهم الموت حتى نموا وكثروا، فمنهم يتزاحمون على موارد الرزق، ويتسابقون

إلى مظان القوت، فأصبح من لا يجعل جناحيه في رجليه لا يسبق، ومن لا يصل بالعمل يوميه لا ينال!

احمد حسن الزيات

ضريبة الجمال

للأستاذ عباس محمود العقاد

الشاطئ عامر ولكنه ليس بالمزدحم، والبحر مائج له زئير، والهواء هائج له صفير، والراية السوداء كالقافية المحزنة تتكرر على مسافات متساويات أو متقاربات؛ قافية محزنة والقصيدة مفرحة تضج بالحركة والحياة!. . . وهذا من عجيب النظم في شعر البحار والحمامات!

وإذا اتسع الأفق أمام العينين حتى كأنهما تنظران إلى مكان واحد، وتجاوبت الأصداء على الأذنين حتى كأنهما قد كفَّتا عن السماع بعد طول التكرار، فهنالك تنطلق الخواطر شتاتاً كما تنطلق خواطر الأحلام بعد تعطيل السمع والنظر، فهي تارة تستقصي إلى ما وراء الأعماق، وتارة تستقرب فلا تتجاوز أدنى المحسوسات، مما علق بالذهن قبيل لحظات معدودات

وهكذا جلست أرقب الشاطئ وكأنني أحلم بما أراه. ومن حق الشاطئ وايم الله أن يحسب في عداد الأحلام

هاهنا وهاهناك تماثيل من خلق الله في المعرض الحافل المتجدد: بعضها ولا ريب تحفة من تحف الخلق والتكوين، وبعضها ولا ريب لازم للمناوبة بين شعور الإعجاب وشعور الرثاء، أو للمناوبة بين إبداء المحاسن وإبداء العيوب

نعمة جزيلة وأي نعمة هذا الجمال الذي لا يقوم بمال

نعمة يستمتع بها أصحابها وغير أصحابها، وربما كان نصيب لابسيها دون نصيب الناظرين إليها، لأنهم يعرضونها ويعطونها والناظرون هم الآخذون

بل هم حريصون على عرضها وإعطاء العيون منها كل نصيب تشتهيه

وإلا فما بال هؤلاء العارضين قد تهيئوا لنزول الماء والماء لا يقبل النازلين فيه!

سيقولون: للشمس لا للبحر!. . . لا تصدقهم!. . . فالشمس أيضاً من وراء سحاب، قلما تسفر من ذلك الحجاب

إنما يتهيئون لحمام من أشعة النظر لا من أشعة الشمس ولا من أمواج الماء، ويا له من حمام مريء على الجمال

وكنت حديث عهد بالضرائب ولجاج الموازنة بين الموارد والمصروفات
ويشاء الحلم أن يستقرب في هذه المرة فيسنح لي خاطر كأسرع ما يكون وأقرب ما يكون:
ما للدولة لا تشارك الجميل في نعمة جماله كما تشارك الغني في نعمة ثرائه والصانع في نعمة ذكائه أو عضلاته!
كل نعمة فللدولة منها حصة. فما بال الجمال لا يحسب من النعم عند مصلحة الضرائب الأميرية؟ أو ما باله يحسب من النعم ولا يدخل في الحساب؟
علم الله لو فرضت ضريبة الجمال لجمعت الدولة الملايين واستراحت من المحصلين، لأن أصحاب الضريبة يؤدونها عن يد وهم شاكرون، ويشكون إن قل نصيبهم منها. . . ويحمدون الله أن خرجوا بها مثقلين مرهقين
وخطر لي قلم المراجعة والمظالم وما يتوالى عليه من الشكايات والمراجعات
أفلانة تطالبها الدولة بألف جنيه ضريبة جمال ولا تطالبني أنا بأكثر من بضع مئات؟ من هو هذا الأعمى الذي ترتضيه الحكومة عاملاً لها في لجنة التقدير؟ ومن هي هذه (الضعيفة الذليلة) التي تذعن لهذا الحيف وتصبر على هذا الظلم المبين؟
وخطر لي ما قبل الشكاية وقبل الرجوع إلى لجنة المراجعة
خطر لي الزوج المسكين وهو داخل على الزوجة العابسة المتحفزة للشجار: تشاجره هو لأنها لا تجد بين يديها الموظف (الأعمى) الذي ظلمها بذلك النصيب من الضريبة، ولا تأمن العقبى من (التعدي في أثناء تأدية الوظيفة) والإصرار على تطفيف ذلك النصيب المنزور
- ما بالك يا عزيزتي مهمومة البال؟
- مالي أنا؟ بل قل مالك أنت بين الأزواج؟ قل مالك أنت بين الرجال؟ قل مالك أنت بين خلق الله؟
- أنا؟ وما خطبي يرحمك الله يا أمة الله؟
- نعم أنت!. . . أنت دون غيرك!. . . أنظر إليّ! افتح عينيك في وجهي. افتحهما جيداً وقل لي: هل أنا دون فلانة في الحسن والرشاقة والفتنة والأناقة؟ هل أنا دميمة ذميمة أم هي خيبتي فيك - وا حسرتاه - هي التي خيبتني بين النساء؟
وبعد بكاء واستغراق في البكاء
وبعد جفاء وإمعان في الجفاء
وبعد مائة سؤال ومائة جواب تظهر الحقيقة فإذا هي (تظلم من قلة الضريبة) وإرغام للزوج المسكين على المطالبة بمضاعفاتها في غمضة عين، وهو هو الذي (يغرمها) ويكتوي بنارها. . . وإلا فليس هو برجل بين الرجال، وليست هي بزوجة ترضاه بهذه الحال!
ويخيل إلى صاحبنا أنه يخدعها عن هذا الطلب ببعض الوعود وبعض الهبات، فيعود إلى المراوغة والإغراء:
- يا عزيزتي! يا زينة النساء. . . يا أجمل من خلق الله: أتهمك هذه الفلانة وهي لا ترتقي إلى مقام الجارية تحت قدميك؟ أليس أولى من بذل المال في الضريبة المضاعفة حلية تزيدك جمالاً عل جمال، وحلة تنفردين بها بين الأتراب والأمثال، وشارة تغار منها فلانة، وقُنية بعد ذلك باقية للحفظ والصيانة؟
ثم تشتد الحيرة بالمباركة فلا تدري أي الحسنيين تختار، ولا بد أن تستقر ولا سبيل إلى قرار
هنا الحلية والحلة وما رفضتهما قط بنت من بنات حواء
وهنا الجمال بشهادة الحكومة واعتراف القانون وتسجيل الأوراق الرسمية، وهي حجة تخرس اللسان، ولا تدفع بالبرهان مشكلة!
ولا طاقة للمباركة بحلها
فليحلها الزوج المسكين، بالجمع بين الحسنيين!
خطرت لي هذه الخواطر، وتمثلت القائمين على خزانة الدولة بين إغراءين كاللذين حارت فيهما المباركة صاحبة المظلمة من تطفيف الضريبة
فماذا يصنعون؟
هل ينتفعون بإقبال الناس على البذل والإعطاء فيقبلون من كل باذل، ويستجيبون لكل

طلب، ويشهدون لكل راغبة في شهادة؟
أو يؤثرون أمانة الذوق وصدق النظر ونصفة الفن على ضخامة المورد وموازنة الأبواب؟
مشكلة!
لكنها ليست بالمشكلة العويصة فيما أحسب، وليست بالمشكلة التي تحل بالجمع بين الأمرين فيما أعتقد. . . لأن الأمانة في تقويم الجمال، سر قابل للاستغلال، وباب جديد لفرض الضرائب على الخاطبين السائلين، وعلى مسابقات الجمال في غير حاجة إلى محكمين. وعلى أفانين شتى قد تظهر بعد حين، فإن فات الخزانة ربح الطمع فلن يفوتها الربح من هذه الأفانين.
عباس محمود العقاد
حول الوحدة العربية
إلى الدكتور طه حسين
للأستاذ أبي خلدون ساطع الحصري بك
أيها الأستاذ:
لقد مضى نحو ستة أشهر على نشر الانتقادات التي وجهتها إليهم - في مجلة (الرسالة) - بمناسبة حديثكم المنشور في مجلة (المكشوف) البيروتية، حول (الوحدة العربية وموقف مصر منها)، وعلى نشر (الفصل الجوابي) الذي أرسلتموه إلى (الرسالة) رداً على تلك الانتقادات
لم أكتب إليكم شيئاً حول هذه القضية خلال هذه المدة لأسباب ستظهر لكم من الأسطر التالية، ومع هذا أشعر الآن بدافع قوي يدفعني إلى مخاطبتكم في هذه المسألة، بالرغم من مرور هذه الأشهر الطويلة، لمواصلة البحث فيها والمناقشة عليها كنت غادرت بغداد إلى المغرب الأقصى قبل وصول عدد الرسالة الذي نشر فيه ردكم، فلم أطلع عليه إلا في بيروت قبل سفري منها بالطيارة. قرأت الرد هناك فوقعت في حيرة عميقة، لأنني انتهيت من قراءته دون أن أجد فيه كلمة واحدة يصح أن تعتبر رداً على ملاحظاتي الاعتراضية، أو جواباً على أسئلتي الانتقادية. . . لأن الآراء المسرودة في الفصل كانت تحوم حول قضية (وحدة الثقافة) و (واجب مصر في أمر هذه الوحدة) في حين أن هذه القضية لم تكن في القضايا التي اختلفت معكم فيها، بل كانت في القضايا التي شكرتكم عليها! فإنني ختمت مقالتي الانتقادية بالعبارات التالية: (هذا، وأرى ألا أختم اعتراضاتي، دون أن أتوجه إليكم بكلمة شكر؛ فإني أشكركم من صميم فؤادي على مناداتكم بتوحيد الثقافة بين البلاد العربية، لأنني أعتقد أن توحيد الثقافة من أهم العوامل التي تهيئ سائر أنواع التوحيد. فأقول بلا تردد: اضمنوا لي وحدة الثقافة، وأنا أضمن لكم كل ما بقى من ضروب الوحدة. . .)
فكان من الطبيعي أن أقع في دهشة عميقة من قراءة الفصل الذي نشرتموه في الرسالة تحت عنوان (الرد)
وأخذت أفكر - وأنا أقطع الفضاء فوق أجواء البحر الأبيض المتوسط - في تعليل الخطة التي انتهجتموها في هذا الباب: (كيف سوغ الدكتور طه حسين لنفسه أن يسمى هذا الفصل ردا؟)
قلت في بادئ الأمر: يظهر أن الأستاذ قد شعر بالخطأ الذي وقع فيه فلم يجد مجالاً للرد على الانتقادات التي وجهت إليه، ولم يرد مع هذا أن يعترف بذلك، فأراد أن يتظاهر بالرد بنشر فصل لا علاقة له بموضوع الانتقاد والاعتراض
غير أنني لم أرتح لهذا التفسير والتعليل، لأنني استبعدت منكم أن تسلكوا مثل هذا المسلك في مناقشة قضية هامة مثل قضية الوحدة العربية، فواصلت التفكير في الأمر إلى أن خطر على بالى تعليل آخر أقرب إلى العقل من التعليل الأول. يقول الدكتور طه حسين: إن الرد هو فصل من كتاب تحت الطبع؛ أفليس من الممكن أن يكون قد حدث سهو في نقل الفصل من الكتاب؟ قد يكون في الكتاب فصل يتضمن الرد؛ غير أن الدكتور قد سها في رقم الفصل؛ فالمطبعة أرسلت إلى (الرسالة) فصلاً آخر غير الفصل المقصود
عندما لمحت هذا الاحتمال، ركنت إليه كل الركون وقلت في نفسي: قد ينشر الدكتور في العدد التالي من الرسالة تصحيحاً لما حدث؛ غير أن سفراتي السريعة سوف لا

تترك لي مجالاً للاطلاع على ذلك قبل عودتي إلى بغداد. . فلابد لي من الانتظار إلى ذلك الحين للوقوف على التصحيح، أو لقراء الكتاب

ولهذا السبب، عندما عدت إلى بغداد بعد إتمام رحلتي في المغرب الأقصى والجزائر وتونس وصقلية - أسرعت إلى تصفح أعداد الرسالة التي صدرت في غيابي؛ ولما لم أجد فيها شيئاً يتعلق بالموضوع الذي نحن بصدده، طلبت نسخة من كتاب (مستقبل الثقافة في مصر)؛ وأخذت أقرأ بانتباه شديد باحثاً فيه عن (الرد). . . غير أنني وقعت في دهشة أشد من دهشتي الأولى عندما انتهيت من قراءة فصول الكتاب بأجمعها، دون أن أصادف فيها أيضاً ما يصح أن يعتبر جواباً على أحد أسئلتي الانتقادية. . . فقلت في نفسي: لم يبق مجال لتعليل الأمر بغير الملاحظة التي كانت وردت على ذهني عقب مطالعة الرد المنشور في مجلة الرسالة

مع هذا لم أشأ أن أكتب شيئاً حول هذا الموضوع، للملاحظتين التاليتين: أولاً، كان قد مضى على نشر ردكم مدة تناهز ثلاثة أشهر بسبب ظروف رحلتي. ثانياً، إن (تباعد الرد عن موضوع البحث والمناقشة) كان من الأمور الجلية التي لا تحتاج إلى التوضيح والتنبيه؛ كما ظهر لي ذلك من أقوال الشبان الذين حادثتهم خلال رحلتي في باريس، وتونس، وسورية

فقلت في نفسي: لا داعي إلى كتابة شئ في هذا الموضوع بعد انقضاء هذه المدة، ما دام رد الدكتور طه حسين لم يكن من النوع الذي يستطيع أن يخدع أحداً من القراء الأذكياء

ولذلك لم أعد إلى هذا البحث منذ ذلك الحين

غير أنني اطلعت أخيراً على مقالكم المنشور في العدد الممتاز من مجلة الهلال، عن (العقل العربي الحديث). ورأيت أنكم عرضتم في ذلك المقال لمسألة (الوحدة العربية) بطرق ملتوية: بعد أن سردتم بعض الآراء حول (تطور العقل البشري) بوجه عام، وتطور (العقل الأدبي الحديث) بوجه خاص، بحثتم عن وجوب (تجديد العقل العربي)، وذكرتم ما تعتقدونه في وسائل هذا التجديد. . . وفي الأخير، انتقلتم إلى مسألة (الوحدة العربية) بطريقة (ظريفة وطريفة) إذ قلتم ما يلي:

وربما كان من الأمثلة الظريفة الطريفة التي تبين الفرق بين العقل العربي القديم،) والعقل العربي الحديث في هذا العصر الذي نعيش فيه، مسألة الوحدة العربية أو الوحدة الإسلامية التي يكثر فيها الكلام وتشتد فيها الخصومة؛ فما أظن أن الناس يختلفون في أن هذه الوحدة نافعة للشعوب العربية وللشعوب الإسلامية أشد النفع، وفي أن مصالحهم تدعوهم إليها وتدفعهم إليها دفعاً، ولكنهم مع ذلك يختلفون ويختصمون لا لشيء إلا لأنهم يختلفون في تصور هذه الوحدة حسب ما يتاح لهم من العقل القديم أو العقل الحديث. فأما أصحاب القديم فيفهمون هذه الوحدة كما فهمها القدماء في ظل سلطان عام شامل يبسط عليها جناحيه ويحوطها بقوته وبأسه، وليسمَّ هذا السلطان خلافة، وليسمَّ ملكاً كما كان يسمى قديماً، ويجوز أن يسمى إمبراطورية ليكون له حظ من الطرافة، فقد عرف القدماء الإمبراطوريات واحتفظ بها المحدثون من الأوربيين. وكذلك يخدع العقل القديم نفسه فيظن أنه أصبح حديثاً. وأما أصحاب العقل الحديث فيفهمون هذه الوحدة على نحو ما تفهم عليه في البلاد المحتضرة بالحضارات الحديثة الأوربية. يفهمونها على أنها لا تنفع ولا تفيد إلا إذا احتفظت بالقوميات والشخصيات الوطنية والحريات الكاملة لأعضائها والسيادة العامة لهم

في حياتهم الداخلية والخارجية وقامت على الحلف الذي لا يفنى أمة في أمة، ولا يخضع شعباً، وإنما يمكن الأمم من أن تتعاون على أساس ما يكون بين الأنداد من المساواة. فإذا قال صاحب العقل الحديث مقالته هذه ضاق به صاحب العقل القديم أشد الضيق، لأن عقله لم يتطور بعد، ولم يستطيع أن يكون من أهل العصر الذي يعيش فيه، وإنما هو محتفظ بكل مشخصات القرون الوسطى، وهيهات لمشخصات القرون الوسطى أن تسيغ ما يقع في القرن العشرين. . .)

يظهر لي من كلماتكم هذه أنكم بعد أن تهربتم من مناقشة مسألة الوحدة العربية مناقشة مباشرة - حين دُعيتم إليها - أردتم أن تعودوا إليها عن طريق التعريض والتلويح، كما وددتم أن تستهووا أذهان قرائكم عن طريق اتهام معارضيكم بالتمسك بـ

(مشخصات القرون الوسطى)، وإلباس رأيكم حلة قشيبة من (مقتضيات العقل العربي الحديث).

فاسمحوا لي إذن أن أتبعكم في هذه الطرق الملتوية، وأن أزن ملاحظاتكم بميزان (العقل العربي الحديث) الذي تشيرون إليه.

لا أدري إذا كان الانصراف عن مناقشة المسائل مناقشة مباشرة، والالتجاء إلى طرق (التعريض والتشويش) في أمرها مما يفيد - في عرفكم - في مقتضيات العقل الحديث. غير أنني أعتقد أنكم تسلمون معي - على كل حال - بأن العقل العربي الحديث يجب أن يكون على غرار العقل الأوربي الحديث، ولا تنكرون - بالطبع - أن (العقل الأوربي الحديث) يتطلب السير على مناحي الأبحاث العلمية، على أساس استنطاق الوقائع والحادثات واستقرائها متجرداً عن تأثيرات الميول النفسانية والآراء القبلانية. . .

فلننعم النظر في الملاحظات التي نقلتها آنفاً عن مقالكم لنرى مبلغ ملاءمتها لمقتضيات (العقل العربي الحديث) الذي تدعون إليه:

أولاً، إنكم تبحثون في كلامكم هذا عن الوحدة العربية والوحدة الإسلامية كأنهما مسألة واحدة، في حين أن إحداهما تختلف عن الأخرى اختلافاً كلياً. فإن فكرة (الوحدة العربية) ترمي إلى توحيد الشعوب التي تتكلم بلغة واحدة، في حين أن فكرة (الوحدة الإسلامية) ترمى إلى توحيد الأمم التي تتكلم بلغات مختلفة، بالرغم من تدينها بدين واحد؛ فالبون بينهما شاسع جداً، فإن الدعوة إلى (الوحدة العربية) لا تتضمن الدعوة إلى الوحدة الإسلامية

الشاملة؛ كما أن عدم الإيمان بإمكان تحقيق (الوحدة الإسلامية) لا يستلزم إنكار إمكان تحقيق (الوحدة العربية). ولذلك أقول بلا تردد إن خلط هاتين المسألتين، والنظر إليهما بنظرة واحدة، يخالف أبسط حقائق علم الاجتماع، وأبرز وقائع تاريخ السياسة، ولا يتفق مع الحقائق الراهنة بوجه من الوجوه

ومن الغريب أنكم لا تكتفون بالخلط بين هاتين المسألتين، بل تحشرون بينهما مسألة الخلافة أيضاً بصورة غريبة، وتنظرون إلى هذه المسائل كلها بنظرة واحدة. لقد تعودنا أن نرى آثار مثل هذا الخلط، في كتابات بعض الساسة من الأوربيين المستعمرين، لأنهم ينظرون - عادة - إلى هذه المسألة كلها من وجهة نظر أطماعهم الاستعمارية، ويسعون إلى وصم جميع الحركات القومية والوطنية بوصمة (التعصب الديني) ليثيروا الرأي العام الأوربي عليها. . . غير أننا ما كنا ننتظر منكم أن تقتفوا أثر هؤلاء الساسة من حيث لا تشعرون، وأن تخلطوا بين هذه المسائل بهذا الشكل الغريب.

فأرى من واجبي أن أصرح لكم في هذا المقام، بأنني مع عدد كبير من المفكرين القوميين الذين أعرفهم وأتصل بهم على الدوام أنظر إلى قضية (الوحدة العربية) كقضية مستقلة عن قضايا (الوحدة الإسلامية) و (الخلافة الإسلامية) كل الاستقلال. وأؤكد لكم أنني - بقدر ما أومن بفكرة العروبة، وبقدر ما أعتقد بإمكان الوحدة العربية، وبقدر ما أقول بوجوب السعي وراء تحقيقها - أعتقد باستحالة (الوحدة الإسلامية)؛ وأقول إن (إثارة فكرة الخلافة) مضرة بـ (قضية الوحدة العربية) و (فكرة التضامن الإسلامي) في وقت واحد

هذا ومن جهة أخرى ألاحظ أنكم تسلمون - في مقالكم هذا - بأن (الوحدة) نافعة لـ (الشعوب العربية والإسلامية) أشد النفع؛ وتقولون بأن الناس لا يختلفون في منافع هذه الوحدة، إنما يختلفون في (تصورها حسب ما يتاح لهم من العقل القديم والعقل الحديث). . . كما تصفون لنا نوعي هذا التصور وصفاً بارعاً: بالنوع الذي يقول به (صاحب العقل القديم)، وهو الذي (يتصور الوحدة تحت ظل سلطان شامل)؛ والنوع الذي يقول به (صاحب العقل الحديث)، وهو الذي يتصور الوحدة على أساس ما يكون بين الأنداد من المساواة. . .)

أنا لا أود أن أبحث عن مبلغ مطابقة وصفكم هذا للحقائق الراهنة؛ غير أني أرى من الضروري أن أقول لكم في هذا المقام إنني قد اطلعت - قبل مدة - على رأى في (الوحدة العربية) يختلف عن هذين الرأيين في وقت واحد: فإن صاحب ذلك الرأي، كان لا يقبل (الوحدة)، (ولو كانت على أساس المساواة)، ولا يرضي بالوحدة، (ولو كانت على نمط اتحاد يشابه الاتحاد الأمريكي أو السويسري). . . فهل تسمحون لي أن

أسألكم: أتعتبرون موقع هذا الرأي في العقل القديم أم العقل الحديث؟
لا أشك في أنكم لن تطلبوا مني أن أذكر لكم اسم صاحب هذا الرأي؛ غير أني أظنكم سوف تعذرونني إذا ذكرت ذلك تنويراً للقراء:
إن صاحب هذا الرأي - الذي يخالف مقال صاحب العقل القديم ومقال صاحب العقل الحديث في وقت واحد - هو صاحب (الحديث) المنشور في مجلة (المكشوف)!. . . ذلك الحديث الذي كان مبدأ ومنشأ لجميع هذه المناقشات!
فقد قرأت في ذلك الحديث، العبارة التالية، بحروفها:
(مصر لن تدخل في وحدة عربية، حتى ولا اتحاد عربي، سواء أكانت مساوية فيه للأمم العربية الأخرى أو مسيطرة عليها. . .) (المكشوف - العدد: 175 - الدكتور طه حسين يتحدث عن العروبة. . .)
كما قرأت في مكان آخر من ذلك الحديث العبارة التالية، بنصها:
(الوحدة العربية، كما يفهمها ذووها يجب أن تتحقق بشكل إمبراطورية جامعة أو اتحاد مشابه للاتحاد الأمريكي أو السويسري. . .) (المكشوف - العدد: 175 - الدكتور طه حسين يتحدث عن العروبة)
ترون من كل ذلك أيها الأستاذ أن مسألة الوحدة العربية ليست من القضايا التي يمكن أن تناقش وتعالج بالصناعة الكلامية والاندفاعات الارتجالية. . . كما ترون أن الخطة التي سلكتموها في معالجة هذه القضية تجركم دائماً إلى مواقف تخالفون فيها الحقائق الراهنة مخالفة صريحة، كما جرّتكم في بعض الأحيان إلى مواقف تناقضون فيها أحاديثكم الذاتية أيضاً. . .
إنكم تدعون المفكرين إلى بذل الجهود في سبيل (تجديد العقل العربي). . . وكم كنت أود أن أراكم تعملون بهذه الدعوة في المناقشات التي تخوضون فيها، ولا سيما إذا كان موضوع المناقشة من الموضوعات الهامة مثل (فكر العروبة) و (الوحدة العربية). . .
(برمانا)
أبو خلدون
جناية أحمد أمين على الأدب العربي
للدكتور زكي مبارك
- 6 -
أرى من الواجب في مطلع هذا المقال أن أوضّح مسألتين خفيتا على بعض القراء فجرت ألسنتهم بالعتب والملام.
المسألة الأولى، هي الحكم بأن أحمد أمين ينظر إلى الأدب، وإلى الوجود نظرة عامّية؛ فقد ظن فريق من الناس أننا نقول بأنه من العوامّ في حدود الاصطلاح المألوف، على معنى أنه بعيد عن الجو الذي يعيش فيه العلماء.
وذلك غير ما نريد. فأحمد أمين تلقى العلم في مدرسة القضاء الشرعي وظفر بإجازتها العالية، وجلس للقضاء في المحاكم الشرعية بضع سنين. ثم اشتغل بالتدريس في الجامعة المصرية. فهو ليس عامّياً بالمعنى المعروف، وإنما نريد أن نقول إن أحمد أمين على كثرة ما قرأ في الكتب وما سمع من العلماء لا يزال يفكر كما يفكر العوام.
ولتوضيح ذلك نقول: إن في أهل العلم من يكون أقل اطلاعاً من زملائه، ولكنه قد يكون أقوى منهم في صحة الفهم وسلامة التمييز وقوة الإدراك، فيكون محصوله القليل أجدى وأنفع، ويكون له في أحكام العقل مجال
وفي مقابل ذلك نرى بعض العلماء المزودين بكثير من الثقافات ينظرون إلى الوجود نظرات عامية لا تمتاز بشيء عن نظرات العجائز من قعائد البيوت.
وأحمد أمين قليل الاطلاع في ميدان الأدب العربي بلا جدال، وهو مع قلة اطلاعه يحكم على الأدب أحكاماً عامية، بعيدة كل البعد عن أحكام الخواص، وقد أسلفنا الشواهد التي تؤيد رأينا فيه، وسنسوق شواهد جديدة.
المسألة الثانية، هي التعرض لأعماله المعاشية: فقد استنكر بعض القراء أن نقول إنه يكسب كيت وكيت، وعدوها مسألة شخصية
ونقول إننا تعرضنا لذلك لغرضين: الأول هو النص على أن أحمد أمين مشغول عن الفكر والقلم بشواغل تصرفه عن التجويد في البحث والتفكير والإبداع، والغرض الثاني

هو تذكيره بأنه لا يجوز لمثله أن يعيب على أدباء العرب أن يشغلوا بمعاشهم وهو يقتل وقته
بتدبير المعاش
ولو شئت لقلت إن الرجل الذي يدعو إلى هجر الأدب الجاهلي جملة واحدة بحجة أنه يشل التفكير هو نفسه الرجل الذي اشترك في تأليف الكتاب (المجمل) والكتاب (المفصل) والكتاب (المنتخب) بأجر معلوم تعرفه خزينة وزارة المعارف
فإن كان أحمد أمين صادقاً في حكمه على الأدب الجاهلي فكيف جاز عنده أن يشترك في تلك المؤلفات وفيها مكان ظاهر للأدب الجاهلي وهي خليقة بأن تشل عقول التلاميذ؟!
وكنت قلت إن الأستاذ أحمد أمين لا يستطيع أن يخدم الجامعة المصرية بالمجان، وإنه يأخذ منها في كل شهر ستين ديناراً، فكتب إلينا أحد المطلعين يقول إنه يأخذ من الجامعة في كل شهر خمسة وثمانون لا ستين
فهل يجوز للرجل أن يأخذ هذا المبلغ بطمأنينة خلقية في تدريس الأدب العربي وهو يعتقد أنه أدب لا يستحق العناية وأنه كان في ماضيه الطويل أدب تسوُّل واستجداء؟
وبعد توضيح هاتين المسألتين أرجع إلى هذا الرجل رجعة قاضية.
لقد دل على مبلغ فهمه للأدب حين ساق هذين البيتين في مقاله الثالث في جناية الأدب الجاهلي:
فما روضة زهراء طيبة الثرى ... يمج الندى جثجاثَها وعرارَها
بأطيب من أردان عزة موهناً ... إذا أوقَدَتْ بالمندل الرطب نارَها
فقد ضبط هذين البيتين على نحو ما يرى القارئ: فجعل الندى في البيت الأول فاعلاً وجعل الجثجاث والعرار مفعولين، وجعل (أوقدت) في البيت الثاني مبنياً للمعلوم ونصب النار على المفعولية
فهل سمعتم قبل ذلك أن الندى يمج الزهر والنبات؟
لو كان أحمد أمين يتأمل ما يقرأ لعرف أن الندى في البيت الأول من هذين البيتين لا يمكن أن يكون فاعلاً، ولعرف أن (أوقد) في البيت الثاني فعل مبني للمجهول ليجعل الشاعر معشوقته عقيلة تخدمها الوصائف
فهل يستطيع أحمد أمين أن ينكر أنه أخطأ في ضبط هذين البيتين؟
وهل يمكن لمن يثقون بكفايته الأدبية أن ينكروا أن لمثل هذا الفهم الخاطئ دلالة على مبلغ
إدراكه لدقائق المعاني؟
نترك هذا وننتقل إلى أحكامه على الشعر العربي في العصر الإسلامي، وهو يراه لم يتغير من حيث الموضوع فظل كما كان محصوراً في المديح والهجاء والفخر والحماسة والغزل والرثاء
والظاهر أن أحمد أمين لم يدرس الشعر الأموي دراسة تمكنه من فهم الفرق بينه وبين الشعر الجاهلي، فليس بصحيح أن الموضوعات لم تتغير، وليس بصحيح أن الشعراء الأمويين كانوا يتناولون الأغراض الشعرية على نحو ما كان يتناولها الجاهليون
وإذا صح أن الشعر الجاهلي والإسلامي متحدان في الموضوعات فهناك فرق ظاهر جداً بين العصرين في تصور تلك الموضوعات
فالغزل في العصر الأموي فن جديد لا يعرفه العصر الجاهلي، وهل يتصور أديب أن أشعار عمر بن أبي ربيعة كانت لها سوابق عند الجاهلية؟
هل يتصور أديب أن تائية كثير في أغراضها ومراميها كانت لها نظائر في الشعر الجاهلي؟
وهل يصح لأديب أن يقول بأن غزليات العرجي وجميل والحارث بن خالد كانت لها أشباه قبل العصر الإسلامي؟
إن الأمويين تغزلوا كما تغزل الجاهليون، ولكنهم تفردوا بابتكار فن جديد هو القصص الغرامي، فهل فطن لذلك أحمد أمين؟
وهل يمكن نكران ما وصل إليه الأمويون من الرقة والظرف في النسيب؟
أليس فيهم الذي يقول:
إن لي عند كل نفحة بستا ... نٍ من الورد أو من الياسمينا

نظرةً والتفاتةً أترَّجى ... أن تكونِي حللت فيما يلينا
أليس فيهم الذي يقول:
يا أم عمران ما زالت وما برحت ... بنا الصبابة حتى مسَّنا الشفقُ
القلب تاق إليكم كي يلاقيكم ... كما يتوق إلى منجاته الغَرق
تعطيك شيئاً قليلاً وهي خائفة ... كما يمس بنظر الحية الفَرق
أليس فيهم الذي يقول:
وإني لأرضى من بثينة بالذي ... لو أبصره الواشي لقرت بلابله
بلا، وبألا أستطيع، وبالمنى ... وبالأمل المرجوّ قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى، وبالحول تنقضي ... أواخره لا نلتقي وأوائله
أليس فيهم الذي يقول:
ولو سلك الناس في جانب ... من الأرض واعتزلت جانباً
ليمعتُ طِيتها إنني ... أرى حبها العجب العاجبا
أليس فيهم الذي يقول:
وإني لأستحييك حتى كأنما ... عليّ بظهر الغيب منك رقيب
ولو أنني أستغفر الله كلما ... ذكرتك لم تكتب عليّ ذنوب
إن تفصيل ما امتاز به شعراء العصر الأموي في النسيب يحتاج إلى كتاب خاص سيؤلفه أحمد أمين يوم يعرف أن الأدب لا يكال بمكيال ولا ينظر إليه بالعد والإحصاء
إن من أعجب العجب أن يقال إن الشعراء الأمويين لم يبتكروا شيئاً في التشبيب، وهم الذين أمدوا لغة العرب بثروة وجدانية ستعيش ما عاشت لغة القرآن
ألا يكفي أن يكون العصر الأموي قد ابتكر الاستشهاد في الحب؟
ألا يكفي أن يكون ذلك العصر هو الذي خلق شخصية مجنون ليلى، وهي شخصية شرَّق سحرها وغرب، فكانت لها أصداء عند الشعراء من أهل الشرق وأهل الغرب؟
ألا يكفي أن يكون العصر الأموي هو الذي فهم أن الحج من المعارض الدولية للصباحة والملاحة والجمال؟
ألا يكفي أن يكون شعراء العصر الأموي هم الذين أذاعوا بين الناس فتنة الهيام بأسرار الوجود؟
ثم ماذا؟
ثم جهل الأستاذ أحمد أمين أن العصر الأموي هو العصر الذي تفرد بإجادة الأراجيز، ولكن هل فكر أحمد أمين في الأراجيز الأموية؟
الحق أن العصر الأموي يحتاج إلى أدباء عظام يسجلون فضله على اللغة العربية، ففي ذلك
العصر ظهر الشعر السياسي، وهو فن من الأدب يختلف عن التعصب للقبيلة كل الاختلاف، وله مزايا وخصائص تنتظر أديباً له نظرة خاصية لا عامية
فمتى تعرف كلية الآداب ذلك الأديب؟
إن من العار أن يقول أستاذ من كلية الآداب بأن الأدب في العصر الأموي ليس إلا صورة من الأدب في العصر الجاهلي
وهل يستطيع إنسان أن يقول بأن الكميت بن زيد الأسدي كان له نظير بين شعراء الجاهلية؟
إن العصر الأموي ينتظر أديباً يفهم أنه كان صلة الوصل بين العصر الجاهلي والعصر العباسي، ويدرك أنه تحرر كل التحرر من العقلية الجاهلية
فمتى تعرف كلية الآداب ذلك الأديب؟
إن عميد كلية الآداب اليوم هو الأستاذ محمد شفيق غربال، وهو مؤرخ جليل يفهم أن دراسة تاريخ القرون الوسطى أمر واجب، لأن ذلك التاريخ كان الصلة بين القديم والحديث، فهل نستطيع أن نشير عليه بأن ينشئ في كلية الآداب كرسيا للعصر الأموي الذي جهله أحمد أمين؟
!!ليت، ثم ليت
إن المسافة بين العصر الجاهلي والعصر العباسي طويلة جدّاً، لأنها تقع في نحو خمسين ومائة سنة، وهي المدة التي انتظمت عصر النبوة وعصر الخلفاء وعصر الأمويين، وفي تلك المدة كانت الشخصية العربية هي الشخصية التي تهدد ممالك

الأرض، والتي تسنّ شرائع الفتوّة وقوانين المجد، والتي تلوّن العالم بألوان مختلفات، والتي مكنت العرب من أن يكون لهم صوت مسموع في أقطار المشرق والمغرب
فهل يُعقل أن يكون أدب العرب في ذلك العهد صورة ثانية من أدبهم في أيام الجاهلية؟
ومن الذي يصدق أن الشعراء المسلمين كانوا يتهاجون على نحو ما كان يصنع الجاهليون؟
وهل خطر ببال أحمد أمين أن العصبية السياسية في العصر الإسلامي كانت لها ألوان لم يعرفها شعراء القبائل في الجاهلية؟
هل فكّر في تحديد الخصائص الشعرية للمدح والهجاء في العصر الأموي؟
وهل تنبه إلى ما ابتكره الشعراء الأمويون حين أوقدوا نار العصبية الجاهلية؟
يعزّ عليّ والله أن يقع في هذه الأخطاء أستاذ فاضل من أساتذة الأدب بالجامعة المصرية، وهي اليوم معهد عظيم يحج إليه طلبة العلم من أقطار الشرق
يعزّ عليّ أن يكون في رجال الجامعة المصرية من يفهم أن العصر الإسلامي صورة من العصر الجاهلي في التفكير، وطرائق التعبير مع أن ذلك مستحيل
وهل يتصور عاقل أن خطب علي بن أبي طالب صورة من خطب أكثم بن صيفي مثلاً؟
هل يقول مفكر بأن رسائل عبد الحميد صورة مكررة لما كان يكتب الجاهليون؟
وهل يمكن القول بأن معاوية كان يكتب بأسلوب عمر بن الخطاب؟
إن التطور شريعة طبيعية يا صديقي، فكيف تتوهم أن يكون العرب خرجوا وحدهم على تلك الشريعة؟
إن العرب في أدبهم وتصورهم وعقليتهم قد انتقلوا من حال إلى أحوال، وإن غاب ذلك عن فطنتك الواعية
وأين أنت من القصص الرائع الذي عرفته المساجد في العصر الأموي؟
أين أنت من الشعر الرقيق الذي ابتكره الأمويون في وصف مجالس الأنس والشراب؟
وهل تعرف يا حضرة الفاضل أن العصر الأموي ظلم أقبح الظلم حين اعتدى عليه خلفاء بني العباس بالمحو والتبديل؟
هل مرّ في خاطرك أن العصر الأموي رُزِئ بمؤامرة سياسية حَرَمتْ تاريخه الأدبي من نعمة الوجود؟
ثم ماذا؟
ثم يتحذلق الأستاذ أحمد أمين فيقرر أن الخضوع للأوزان الجاهلية والقوافي الجاهلية جنى علينا جنايات كبرى، لأنه (حرمنا من الملاحم الطويلة التي كانت عند الأمم الأخرى وحرمنا من القصص الطويلة الممتعة)
وهذا الحكم يشهد بأن أحمد أمين يجهل طبيعة الأمة العربية بعض الجهل، ويجهل طبائع الأمم الأخرى كل الجهل
إن أحمد أمين لا يعرف أن العرب ليس في طبيعتهم أن يأنسوا بالمنظومات المطولة في
القصص والتاريخ، وهو يتوهم أن العرب كان يجب عليهم أن يسلكوا في الشعر مسالك اليونان، وذلك خطأ فضيع
إن عبقرية العرب ليس في القصص، وإنما عبقرية العرب في الغناء والتعبير عن الأنفاس الروحية. وفي بلاد العرب نشأت الديانة الموسوية والديانة العيسوية والديانة المحمدية، وفي بلاد العرب نشأت أحاديث القلب والوجدان، وهم بلا جدال أصدق من تحدث عن الأرواح والقلوب
فإن امتازت لغات الشرق والغرب بالمنظومات الطويلة في القصص والتاريخ فقد امتازت لغة العرب بأكرم أثر عرفه الوجود وهو القرآن، وهو حجة اللغة العربية يوم يقوم التفاخر بين اللغات بالأحساب
والى الأستاذ الجسر أوجه الكلمة التالية:
أنت تعجب أيها السيد من أن نمنح أحمد أمين (قدرة الجناية على الأدب العربي) وأجيب بأن أحمد أمين ليس من النكرات حتى نتركه يتحذلق كيف شاء. إن أحمد أمين أستاذ بكلية الآداب يا حضرة السيد، وكلية الآداب من أكبر معاهدنا العالية، وما يصدر عن أساتذتها الأفاضل قد يتلقاه أكثر الناشئين بالقبول

وما الذي تخشاه من منح أحمد أمين ما لا يستحق؟
إن كان هجومنا عليه يعطيه فرصة جديدة من فرص الشهرة فلا بأس، فهو صديق عزيز، والتنويه بشأنه من أوجب الفروض
المهم (يا حضرة السيد) أن يعرف أحمد أمين أن في مصر رقابة أدبية تزجر المتطاولين على ماضي الأدب العربي وتصرفهم عن اللجاح فيما لا يفيد
ونحن لا نحارب أحمد أمين بالذات، وإنما نحارب الآراء التي نقلها نقلاً عن خصوم اللغة العربية، وسنرى في المباحث الآتية ما يشفي صدور قوم مؤمنين
(للحديث شجون)
زكي مبارك
في اللغة
إخوان الفوارس
لأستاذ جليل
إخوان الفوارس (أي هذا الجمع الشاذ) هم أكثر من السبعة اللذين ذكرهم الصحاح والتاج، وجئبهم في جزء سابق من (الرسالة الغراء) والسبعة هم: الفوارس، والهوالك، والنواكس والخوالف، والفوارط، والغوائب، والشواهد
فهناك ستة غيرهم أظهرهم موهوب بن أحمد الجواليقي في (شرح أدب الكتاب) وأودعهم البغدادي (خزانته) وهناك اثنان ذكرهم التبريزي في (شرح ديوان الحماسة) وهذه جريدة الثمانية:
1 - الحوارس جمع حارس
2 - الحواجب جمع الحاجب، من الحجابة
3 - الخواطئ جمع الخاطئ، من ذلك ما جاء في المثل: مع الخواطئ سهم صائب قال التاج. يضرب لمن يكثر الخطأ ويصيب أحياناً، وقال أبو عبيدة: يضرب للبخيل يعطى أحياناً
4 - الروافد جمع الرافد
قال ضمرة بن ضمرة النهشلي:
وطارق ليل كنت حَم مبيته ... إذا قل في الحي الجميع الروافد
قال الأنباري شارح المفضليات: الروافد جمع الرافد كقولك فارس وفوارس، وهي أحرف (يعني كلمات) يسيرة. والرافد المعونة، وحم مبيته: قصد مبيته
5 - الحواج: جمع الحاج
6 - الدواج: جمع الداج
ومن أيمانهم - كما جاء في اللسان -: أما وحواج بيت الله ودواجه لأفعلن كذا وكذا.
والداج - كما يقول الأساس - هم الذين يمشون مع الحاج من أجير أو جمال أو نحوهم من دج دجيجاً بمعنى دب دبيباً، ومنه الدجاج، وفي التاج: الداج التباع والجمالون، والحاج أصحاب النيات
وفي الفائق: رأى ابن عمر قوماً في الحج لهم هيئة أنكرها. فقال: (هؤلاء الداج وليسوا بالحاج). قالت النهاية: أي هؤلاء لا حج لهم إلا أنهم يسيرون ويدجون:
7 - الخوارج: جمع الخارج
8 - البواسل: جمع الباسل
قال التبريزي في شرح بيت الحماسي:
وكتيبة سفع الوجوه بواسل ... كالأسد حين تذب عن أشبالها
بواسل رده إلى الكتيبة، وفواعل في صفة الرجال قليل. يقال: فارس وفوارس، (وهالك وهوالك، وناكس ونواكس، وخارج وخوارج). . .
وممن لم يذكروهم (عواذل) دعبل و (لواحي) علي بن الخليل من شعراء الأغاني.
يقول الأول في قصيدة زواها أبو علي في (أماليه):
قال العوازل: أودي المال. قلت لهم: ... (ما بين أجرٍ وفخرٍ لي ومحمدة)
أفسدت مالك. قلت: المال يفسدني: ... (إذا بخلت به والجود مصلحتي)
ويقول الثاني، وعنده العوازل واللواحي:
إذا ما كنت شاربها فسرا ... ودع قول العواذل واللواحي
وفي التاج: اللواحي: العذال، والعذال من جموع العاذل. وفي اللسان: اللواحي:

العواذل
وقال الجوهري في (صحاحه): قول الراجز:
لقد علمتُ والأجلِّ الباقي ... أن لا تردُّ القدرَ الرواقي
كأنه جمع امرأة راقية أو رجلاً راقية بالهاء للمبالغة. أو رجلاً راقياً بغير هاء حتى ينضوي هذا الجمع إلى ذاك الجيش. . .
هذه جريدة ما وجدناه، وقد يكون هناك ما ذهب علينا، وهي العربية المتبحبحة في كلماتها ولغاتها. قال الإمام محمد ابن إدريس الشافعي في رسالته في أصول الفقه: (لسان العرب أوسع الألسنة مذهباً، وأكثرها ألفاظاً. ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي)
(ق)
دمعة على الصديق الراحل
فليكس فارس
للدكتور إسماعيل أحمد أدهم
(دمعة عل جثمان الصديق الراحل فليكس فارس المسجى بين الورود ألقيت في الحفل الكنائسي الذي أقيم للصلاة على روحه عصر الأحد 2 يوليه 1939 ببهو الكنيسة المارونية)
هناك من الناس من تعرفهم فتشعر كأن لك بهم معرفة من قبل. ذلك لأنهم لا يعرفون عن طريق الصلات الزمنية، وإنما هم يعرفون عن طريق الجو الذي يخلقونه حولهم. وما كان الصديق الراحل فليكس فارس إلا واحداً من هؤلاء. عرفته صيف عام 1936 فسرعان ما تآلفنا وتآخينا. ولم يمض القليل من الزمن حتى أصبحنا آلفين لا ينقضي الأسبوع دون أن نتقابل فنتجاذب الحديث في شأن من شئون الحياة التي نحياها. وكثيراً ما كان يدور هذا الحديث على عوالم الفكر والشعور. وظلت صلتي بالراحل الكريم قوية حتى آخر لحظاته. فقد كنا حوله في الأيام الأخيرة وهو يجود بأنفاسه الأخيرة. لهذا كان نبأ نعيه لنا معشر أصحابه وخلانه صدمة أليمة. وكان قاسياً علينا أن نراه أمس حيّاً بيننا يملأ جونا بروحه حياة وأنساً، وإذا به اليوم قد همد فيه عنصر الحياة الذي كان يطوف على شفتيه ابتسامة وعلى شغاف قلبه حنواً وعطفاً. . .
إن هول فجيعتنا في فليكس فارس كبيرة، جعل الدموع تجمد في أعيننا فظللنا بسحابة قاتمة أرسلت سوداها على صفحات قلوبنا فغمرتنا موجة من الكآبة، فإذا لم تظهر على صفحات وجوهنا - نحن معشر خلانه - فداحة المصاب دموعاً. . . فذلك لأن مصيبتنا بموت الصديق أقوى من أن يظهرها بكاء أو دموع. . .
إيه أيها الرجل الكريم!. . . إن تلك الدموع التي جرت من عينيك وتجمعت في مآقيك ثم سالت على صفحات وجهك يوم زرتك للمرة الأخيرة؛ وإن كلماتك التي خرجت من أعماقك مختلطة بنشيجك توصيني خيراً بفلذات كبدك، كل هذه دخلت في عالم ذكرياتي ولن تذهب من نفسي، فلقد دلت كلماتك وعبراتك على أن في الحياة عنصراً أقوى من كل القيود
والسدود التي يقيمها البشر أبناء الحياة الواحدة للتفرقة فيما بينهم، هذا العنصر يتجلى ساعة يأخذ الإنسان في الانحدار من عالم الحياة، وساعة يحس بانحسار عنصر الحياة عن جسده؛ في ذلك الحين يحس بشعور أقوى من كل إحساس بعوامل التفرقة بين أبناء الحياة الواحدة، أقوى من الإحساس بالدين والوطن والجنس. وهذا الشعور يدفعه إلى أن يمد نفسه على رحاب الحياة وينسحب عليها متعلقاً بمظهرها الخالد المتأجج ناراً والمتجدد في أبناء الحياة من جيل إلى جيل، فيرى في كل إنسان أباً لأولاده.
إيه يا أبا حبيب!. . إن آخر الكلمات التي تزودتها منك دارت حول الأيمان والحياة، وهي كلمات لن تذهب معانيها وصورها من رأسي لأنها تدل على إيمانك العميق بالحياة، ومن هنا كانت رحابة اعتقادك التي تجوّز أن تكون الحقيقة حتى في كلام خصمك. . . خصمك في الاعتقاد والرأي، ومن هنا أيضاً فهمت سرّ اتساع أفق اعتقادك لآرائي التي كانت تقف على نقيض آرائك.
إيه يا أبا أديب!. . . لقد فقدْتُ بارتحالك شيئاً من نفسي كُنتَ ترده عليَّ حين ألقاك. وفقد أصدقاؤك بارتحالك إنساناً ودوداً براً. . . وما أقل الأناسي في هذا الزمان!. . . أنظر أيها الراحل الكريم من وراء أكفانك تجدنا جمع أصدقائك قد بلبلت أذهاننا فداحة

مصابنا فيك. ها هو ذا صديقك (خليل) وأخوه (صديق) أنظرهما يبكيان فقدك. وهاهو (أدهم) الحبيب إلى نفسك الذي كنت تداعبه باسم (الحكيم) فقد اليوم حكمته؛ فقد تبلبل منه الذهن واختلطت في صدره المشاعر. لقد صدم الكل بارتحالك فذرفوا الدموع سخينة من أجلك. . .

إيه يا أبا سلوى!. . . لقد كنت باتساع أفق شعورك ورحابة مدى نفسك تغمرنا بروحك وترتفع بنفوسنا وتضرب لنا مثل الإنسان كما يجب أن يكون في هذه الحياة. ولو لم يكن لك غير هذا الأثر في نفوسنا معشر أصحابك لكفى أثراً لا تزول ذكراه

أما عن الأثر الأدبي الذي تركته للغتك فأغنيتها بأسلوبك الحي وبيانك الرفيع فإنه باق ما بقيت العربية. وأما عن الحياة التي حييتها نموذجاً لأصحابك فإنها باقية ما بقى أصحابك.

فارقد في ظلال الأبدية تحت أشجار الأرز الخالد التي كنت تتمنى أن ترقد تحتها أيها الصديق الكريم. ولتنزل على روحك السكينة فإن أصدقاءك الذين تركتهم يبكون فقدانك سوف يؤدون دينهم نحوك وسيقومون بالعمل في الميدان الذي كنت تعمل فيه لتحرير هذا

الشرق النائم

إسماعيل أحمد أدهم

في بلاط الخلفاء

حماد وهشام بن عبد الملك

للأستاذ علي الجندي

(بقية ما نشر في العدد الماضي)

كان هشام بن عبد الملك من الخلفاء الذين يُؤثرون أن يتمتعوا بالطيبات من الرزق، ويظهروا نعمة الله عليهم، ويوفّروا الأبهة والجلال لمقام الخلافة! فلم يكن في آل مروان من كان أسرَى منه ثوباً، ولا أعطر رائحة، ولا أكثر زينة، حتى إنه حين خرج حاجا حُمِلت ثيابه على ستمائة جمل!

فماذا رأى حماد حين دخل إليه؟

رأى داراً قوراء مفروشة بالرخام، تضم مجلساً فرش كذلك بالرخام بين كل رخامتين قضيب من ذهب!

وفي بُهْرة المجلس فوق طِنْفِسة حمراء جلس هشام عليه ثياب من الحزّ الأحمر، وقد تضمّخ بالمسلك الأحمّ والعنبر الأشهب! وبين يديه آنية من ذهب فيها مسك مفتوت يقلبه بين يديه فتعِجّ رائحته في المكان فتفَغم الأنوف!

فاستطير عقل حماد، واعتاقت الهيبةُ جنانه، فثقُلت خُطاه ورَبا لسانه في فمه! ولكنه استنجد بكل قواه، وسلّم على هشام بالخلافة، فرد عليه السلام واستدناه منه، فدنا حتى قبل رِجْله!

ثم نظر بِمُؤْخِر عينه فإذا جاريتان كأنما التمستا غِرّة من رضوان، فهبطتا من فراديس الجنان! في أذنيْ كل منهما حَلْقتان تُطِلّ منهما لؤلؤتان لامعتان يَرِفّ سناهما على تلك الوَجَنات البضّة رفيفَ سقيط الطَلّ على أكمام الورود!

فأخذ حماد يُسارقهما النظر وهو مشتَرك اللب موزَّع الفؤاد! ولكن الخليفة لم يلبث أن هتف به: كيف أنت يا حماد وكيف حالك؟

فاسترجع عازب عقله، وأجاب ومتلعثماً: إني بخير يا أمير المؤمنين

- أتدري لم بعثت إليك؟

- لا يعلم الغيب إلا الله

- بعثت إليك بسبب بيت خطر ببالي لا أعرف قائله

- ما هو يا أمير المؤمنين

- قول القائل:

ودَعوْا بالصَّبُوح يوماً فجاءتْ ... قَيْنةٌ في يمينها إبريقُ

- هذا يقوله عَدِيّ بن زيد العِبادي من قصيدة له

- أنشِدنيها

فأنشد حماد:

بكَر العاذلون في وَضح الصُّبح (م) ... يقولون لي: ألا تستفيقُ

ويلومون فيك يا ابنةَ عبدِ الله (م) ... والقلبُ عندكم موثوق

لستُ ادري إذ أكثروا العَذْلَ فيها ... أَعَدُوٌّ يلومني أم صديق
زانَها حُسنها وفَرعٌ عَميم ... وأَثِيثٌ صَلْتُ الجبين أنيق
وثَنَايَا مُفَلّجاتٌ عِذَابٌ ... لا قِصارٍ تُرى ولا هنَّ رُوق
ودَعوْا بالصَّبُوح يوماً فجاءت ... قَيْنَةٌ في يمينها إبريق
قدَّمَتْه على عقارٍ كعين الدِّيك (م) ... صَفّي سُلاَفَها الرَّاوُوق
مُرَّةٌ قبل مَزجِها فإذا ما ... مُزِجت لَذَّ طعمَها مَن يَذوق
وطَفَت فوقها فقاقيع كالدُّرِّ (م) ... صِغارٌ يُثيرها التصفيق
ثمَّ كان المِزاجُ ماَء سحابٍ ... لا صَريَّ آجنٌ ولا مطروق

فاستخفّ الطرب هشاماً! فصاح بإحدى الجاريتين: اسقيه فسقته شَرْبة ذهبت بثلث عقله!

ثم قال هشام: أَعِدْ يا حماد؛ فأعاد الأبيات. فازدهاه السرور حتى نزل عن فراشه! وصاح بالجارية الأخرى: اسقيه!

فسقته شربة طاحت بثلث عقله الباقي! فقال في نفسه: إن سقتني الثالثة حقت عليَّ الفضيحة!.

ثم التفت إليه هشام قائلاً: سل حاجتك يا حماد. فأجاب: كائنة ما كانت؟ قال: نعم.

وهنا نحبّ أن نقول: إنه كان من عادة الخلفاء والملوك إذا استطاع النديم الظريف أو المسامر البارع أن يحرّك فيهم ساكن الطرب، ويهزّ كامن الأريحية، أن يعلنوا رضائهم عنه بالاقتراح عليه أن يسأل ما يشاء، وهي على كل حال فلتات نادرة يسوقها الحظ لمن أراد الله أن يرزقهم من حيث لا يحتسبون!

ولهذه التمنيات آداب معروفةٌ يعدّ تجاوزها سفها وحماقة وسوء أدب تلحق أصحابها بالسوقة والإغفال، فلا يصح لمن واتته هذه الفرصة الغالية أن يتمنى على الخليفة ما يحرج به أو يندم عليه أو يقدح في مروءته، فإن ذلك جرأة قد يكون من ورائها رَدى النفوس واستئصال النعم ولو بعد حين!.

فمن أمثلة ما حدّثوا به: من أن الهادي كان عنده يوماً ابن جامع وإبراهيم الموصلي ومعاذ بن الطيب، فقال: مَن أطربني منكم اليوم فلهُ حكمه! فغنّاه ابن جامع غناء لم يحركه؛ وكان الموصلي قد فهم غرضه فغناه في هذا الشعر:

سُلَيمى أجمعتْ بَيْنا ... فأين تقولها أيْنا

فطرب الهادي حتى قام عن مجلسه! ورفع صوته: أعد بالله وبحياتي. فأعاد. فقال الهادي: أنت صاحبي فاحتكم! فقال الموصلي: حائط (بستان) عبد الملك بن مروان، وعينه الحرارة بالمدينة! فغضب الهادي حتى اتقدت عيناه! وقال: يا ابن اللخناء أردت أن تسمع العامة أنك أطربتني وأني حكمتك فاقتطعت! أما والله لولا بادرة جهلك التي غلبت على صحيح عقلك وفكرك، لضربت الذي فيه عيناك! وعبرت فترة قال فيها الموصلي: لقد رأيت ملك الموت قائماً بيني وبينه ينتظر أمره!

ولما سكت عنه الغضب دعا بالقيم على خزائن الأموال، فقال: خذ بيد هذا الجاهل ودعه يأخذ ما يشاء! فلما بلغ بيت المال قال له القيم: كم تأخذ؟ قال: مائة بدرة! قال: حتى أؤامره. قال: تسعين. قال: حتى أؤامره. قال: ثمانين. قال: لا. فعرف إبراهيم غرضه. فقال: آخذ سبعين، ولك ثلاثون! قال: شأنك. قال الموصلي: فانصرفت بسبعمائة ألف درهم وانصرف ملك الموت عن الدار!

ومن ذلك أيضاً: أن دجمان المغني غنى الرشيد يوماً:

إذا نحن أدْلجنا وأنتِ أمامَنا ... كفى لمطايانا برؤياكِ هاديا
ذكرتك بالدَّيرين يوماً فأشرفت ... بناتُ الحشا حتى بلغن التراقيا
إذا ما طواك الدهر يا أمَّ مالك ... فشأن المنايا القاضيات وشانيا

فطرب الرشيد طرباً شديداً واستعاده مرات! ثم قال له: تمنّ عليَّ. فقال: الهنيء والمريء، وهما ضيعتان تُغِلان أربعين ألف دينار في السنة. ولم تكن للرشيد شراسة الهادي وشكاسة خلقه وضيق صدره، فأمر له بهما على كره منه!

فقيل له: يا أمير المؤمنين، إن هاتين الضيعتين من جلالهما ما يجب ألا يُسمح بمثلهما! فقال: لا سبيل إلى استرداد ما أعطيت. فاحتالوا في شرائهما منه بمائة ألف دينار! فأمر الرشيد له بها. فقالوا: يا أمير المؤمنين، إخراج مائة ألف دينار من بيت المال

طعن. فدفعوها له منجمة خمسة آلاف وثلاثة آلاف حتى استوفاها
ونعود إلى حماد فنقول: لقد فتح له هشام باب التمني على مصراعيه فهل يقع في السفه والجهل؟
لقد كان الرجل زنديقاً، والزنادقة في هذا العصر كانوا مضرب المثل في الظرف حتى كان الرجل يتعمّل الزندقة ليوسم بهذه السمة المستملحة!
ثم هو بعد ذلك يعرف جيداً أنه لم يأت خليفة مثل هشام الأموي والمنصور العباسي في ضبط المال وحسن القيام عليه والضن به إلا في حقه. بل لعله لا يجهل أن هشاماً رمى بالبخل الشديد إن صدقاً وإن كذباً، وأنه كان أبغض الأشياء إلى نفسه أن يبتدئه إنسان بمسألة، فمن فعل ذلك فأدنى جزائه الحرمان!
أترى أيستطيع الظرف أن يعصم حماداً من الانزلاق إلى الطماعية المردية؟
لم تخُنَّا فراستنا في الرجل! فالحق أنه كان مهذباً وكان قنوعاً
لقد رفع رأسه إلى الخليفة وعلى فمه ابتسامة حيية حائرة فقال: إحدى الجاريتين يا أمير المؤمنين
وكأنّ هشاماً أُعجب بهذه القناعة التي لا تنتظر في مثل هذه المواقف! ولعله أعجب أكثر بهذا الذوق الرقيق الذي شاء أن يمنحه نصيباً من هذا الجمال الفريد!
فضحك وقال: هما جميعاً لك يا حماد بما لهما وما عليهما!
وأراد أن يتوّج ذلك بعطفه عليه ورضائه عنه! فهتف بالجارية الأولى: أن اسقيه!
فمشت إليه الجارية بكأس دهاق، وعيناها الساجيتان تفعل بنفسه ما لا تفعل الخمر والسحر! فطار ما كان باقياً من عقله، وخر لليدين وللفم صريع الكأس والأعين النُّجل
وحُمل - وهو ما يَبتُّ سكراً - إلى دار أعدت له. فلما تنفس الصبح أفاق من غشيته الطويلة! فإذا الجاريتان عند رأسه تمسحانه وتروّحانه، فيصافح وجهه النسيم الرطب مشوباً بأنفاس الغالية والملاب!
وإذا عدة من الخدم يحمل كل واحد منهم بَدْرة وهم وقوف ينتظرون صَحْوته من خُماره!
فتقدم أكبرهم في أدب واحتشام فقال: أمير المؤمنين - أطال الله بقائه - يقرأ عليك السلام! ويقول لك: خذ هذه البِدَر فأصلح بها شأنك
فبالغ حماد في الدعاء! وأستنفد الوُسْعَ في الثناء! ثم قفل راجعاً إلى بلده بثلاث غنائم: بالأمان والجمال والمال! وقد أدركته المنية سنة خمس وخمسين ومائة، فرثاه ابن كِناسة الشاعر يقول:
لو كان يُنجي من الرّدى حذَرٌ ... نجّاك مما أصابك الحذرُ
يَرْحُمك الله من أخي ثقة ... لم يك في صفو ودّه كدر
فهكذا يفسد الزمان ويفنى العلم (م) ... فيه ويدرُس الأثر

علي الجندي

ضرب من الفروسية في اليابان

للأستاذ صلاح الدين المنجد

يجد الباحث في فروسة اليابان وتقاليدها أفانين لذيذه تفيض بالبطولة والنبل والإباء، تهز المرء حتى ليحسب أنها من عمل الخيال الرائع والتصوير البارع والوصف الجميل. فإذا تأملتها علمت بأن اليابانيين قوم قدسوا الشرف في مغالاة ومقتوا الذل بأنفة، ولم يصبروا على ضيم يراد بهم أو هون يساق إليهم. وحسبك أن تعلم بأن الفروسة عندهم معناها الشرف والذود عنه والموت في سبيل بقائه طاهراً، ودفع كل ما يشين المرء ويعيبه؛ فلضربة بسيف في عز خير عندهم من لطمة أو شتيمة في ذل. فإذا طعن الياباني في شرفه، فلديه أمران لا مَدْفع لهما: قتل من أهانه، أو قتل نفسه
ولعل أروع مثال لذلك أمر القائد العظيم (نوجي) الذي كان له - كما يقولون - روغان الثعلب وختل الذئب ووثبة الأسد، والذي أوتي النصر في موقعه (بور - آرثر) على الروسيين ففض حرمتهم وأوهن بأسهم وظهر عليهم، فأدهش الغرب ورجاله، وملك على فتيان اليابان قلوبهم، والذي يسمونهم (بصاحب الربع ساعة) لقوله: (الحرب صبر ربع ساعة)
وقصة هذا القائد طريفة غريبة فيها بطولة وشمم، وفيها إباء وشجاعة، فلقد استيقظت اليابان ذات يوم على تذراف الدموع وتصعيد الزفرات، وقد وجم الناس وانتشر الأسى

وأعلن الحداد لموت ابن الآلهة الميكادو (موتزو - هيتو) الذي دفع باليابان الحديثة إلى ذروة المجد وجعلها أمة ذات بأس وقوة، يخشاها الغرب ويفرق منها. وبينما الناس في حزنهم غارقون، فوجئوا بنبأ آخر كان على الشباب والجنود أشد هولاً. فلقد أعلنت الصحف أن الجنرال (نوجي) منقذ اليابان من الروسيا قد قتل نفسه. . فطفق الناس يسأل بعضهم بعضاً عن سر انتحاره، وهو ازدهار مجده وتألق سعده، وحسبوا يومئذ أن ذلك كان حزناً على الميكادو

على أن بعضهم ما زالوا يتسقطون أسراره ويستطلعون أخباره حتى علموا بأن (نوجي) كان في ماضيات أيامه تلميذاً في مدرسة حربية، فكلمه أستاذ له ذات يوم بما يهينه ويشينه. . . وما هي إلا ساعات حتى عزم على قتل نفسه ليتقي العار وسوء المقالة، لأن نظم

المدرسة تمنع الانتقام من أساتيذها، وكان له صديق من العائلة المالكة، أخلص له وأحله من نفسه محلاً رفيعاً، فأخبره بما عزم عليه وطلب منه أن يشهد الانتحار وللانتحار في اليابان طرائق وتقاليد. فالرجل الذي يريد قتل نفسه يطعن صدره إلى جانب القلب بخنجر حاد، فإذا تدفق الدم تقدّم منه صديق مخلص له ممن أوتوا النبل والشرف، فيضرب عنقه أمام المذبح بين روائح البخور الشذيّ

وطلب (نوجي) من الأمير أن يضرب عنقه إذا طعن صدره؛ وكان الأمير ذا شأن وسلطان فمنعه عن الانتحار. وكان مما حدّثه به يومئذ: (عش لليابان يا صديقي. . . فما ينبغي لك أن تقتل نفسك ووطننا بائس يعوزه الشباب. لقد أهنت وعليك أن تموت، ولكني أقبل الإهانة، أنا الأمير ابن الآلهة، لنفسي وما عليك بعد ذلك. ابق يا صديقي وعش لليابان!)

وصدع نوجي بالأمر. وتصرمت أعوام فأضحى الأمير إمبراطوراً وأصبح (نوجي) أعظم قائد عرفته اليابان الفتاة، فيشتهر بالمغامرة والبطولة ويذيع صيته ويتردد على الأفواه اسمه وتستفيض شهرته ويدحر جيوش الروسيا ويكسب المعارك ويصبح المثل الأعلى للفتيان

وظلت الإهانة عالقة بالإمبراطور طوال حياته. . . ولا بأس عليه منها وهو ابن الآلهة التي تغفر لمن تشاء، وتعذب من تشاء وترضى عمن تشاء، فلما قضى الميكادو نحبه عادت الإهانة إلى (نوجي) فلم يطق العيش ذليلاً. . . فأمر أن تشعل الشموع، وأن يحرق البخور، وجثا تحت قدمي الإله، وأغمد الخنجر في قلبه على مهل، فتدفق دمه الفوار. . . وتقدم صديق له فضرب عنقه، وهو يبتسم راضياً مطمئناً؛ فقد أنقذ الشرف، وابتعد عن العار.

ومات (نوجي) بعد أن تخطى الستين من العمر، رضي البال مثلوج الفؤاد لأن ذلك أدعى لطيب الذكر، وخلود الاسم

صلاح الدين المنجد

من تاريخنا النسوي

عائشة والسياسة

للأستاذ سعيد الأفغاني

(بقية ما نشر في العدد الماضي)

ولا يقعنّ في وهم أحد أن السيدة عائشة كانت تود أن يقتل عثمان، فالصحيح أنها لم تكن تتوقع كل هذا. ولعلها كانت تقنع باعتزاله، على رغم تصريح الكثيرين بأنها سعت في قتله. ومن هؤلاء المغيرة بن شعبة، فإنه دخل على عائشة بعد حادثة الجمل فقالت له: (يا أبا عبد الله، لو رأيتني يوم الجمل قد أنفث النصل هودجي حتى وصل بعضها إلى جلدي.) قال لها المغيرة: (وددت والله أن بعضها كان قتلك.) قالت: (يرحمك الله، ولم تقول هذا؟) قال: (لعلها تكون كفارة لك في سعيك على عثمان.) قالت: (أما والله لئن قلت ذلك لما علم الله أني أريد قتله. ولكن علم الله أني أردت أن يقاتل فقوتلت (تعرض بما وقع لها يوم الجمل) وأردت أن يرمى فرميت، وأردت أن يعصى فعصيت؛ ولو علم مني أني أردت قتله لقتلت.)

وهي الصادقة فيما قالت، ولعل الله أن يرضى عنها ويرضى خصومها بما ندمت وكفّرت. ولئن قال سعد بن أبي وقاص وقد سأل من قتل عثمان؟ -: قتله سيف سلته عائشة وشحذه طلحة وسمه عليّ -، فما كان يريد سعد بقولته هذه إلا بيان الأثر غير

المباشر لكل منهم؛ فإن من تتبع مجرى الحوادث بإمعان علم بعد الجميع عن هذه الظنة
وليس أدلّ على ترفع السيدة عن مثل هذه الخواطر من دعوتها على قتلة عثمان، الدعوات البليغة الصادرة عن نفس متأثرة ملتاعة (واعلم أن في القتلة أخاها محمداً) قالت: (قتل الله مذمّماً (تعني أخاها) بسعيه على عثمان، وأهرق دم ابن بديل على ضلالته، وساق إلى أعين بن تميم هواناً في بيته، ورمى الأشتر بسهم من سهامه) فما منهم من أحد إلا أدركته - على رواية الطبري وابن عبد ربه - دعوة عائشة
وذكر صاحب العقد أنها لما قالت بعد مقتل عثمان: (مصصتموه موحى الإناء (الموحى: الغسل اللين) حتى إذا تركتموه كالثوب الرحيض (الغسيل) نقياً من الدنس، عدوتم عليه
فقتلتموه). قال لها مروان: (هذا عملك؛ كتبت إلى الناس تأمرينهم بالخروج عليه). فقالت: (والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون، ما كتبت إليهم بسواد على بياض حتى جلست في مجلسي هذا) فكانوا يرون أنه كتب على لسان عليّ وعلى لسانها كما كتب على لسان عثمان مع الأسود إلى عامل مصر. فكان اختلاق هذه الكتب كلها سبباً كبيراً من أسباب الفتنة
وغاية ما يؤخذ عليها عدا أقوالها السابقة الشديدة في عثمان أنها تركته (حين بلغ الحزام الطُبْيَيْن، وحين طمع فيه من لا يدفع عن نفسه) - كما وصف هو نفسه - في أشد الحصار وأحر الظمأ وخلصت إلى مكة. وقد كان راسلها عثمان في أمرها وطلب نجدتها وجاءها مروان بن الحكم فقال: (يا أم المؤمنين لو أقمت كان أجدر أن يراقبوا هذا الرجل). فقالت: (أتريد أن يصنع بي كما صنع بأم حبيبة ثم لا أجد من يمنعني؛ لا والله ولا أُعيِّر، ولا أدري: إلام يسلم أمر هؤلاء؟)
كان طلب مروان في محله، وكان مقامها - لو هي أقامت - ربما نفع وردّ عن عثمان، ولكنها استسلمت رحمها الله لموجدتها، واكتفت أن استتبعت أخاها محمداً أكبر المحرضين على عثمان فأبى
لقد وضح من كل ما تقدم أن أثرها لم يكن ضئيلاً في الحوادث التي انتهت بشهادة عثمان: هذه الفاجعة المشؤومة، بل كان بعيداً بليغاً. وليتها وقفت عند هذا الحد فلم تؤلب الناس على علي وتنغص عليه ولايته. فإن طلحة والزبير لما آلت الخلافة إلى عليّ - وكانا يرجوانها كل لنفسه - وعقدا النية على المطالبة بدم عثمان وتسليم قتلته الذين انضموا إلى جند علي، وهماّ بما هماّ به؛ رأيا أن أمرهما لا يتم إلا بالسيدة عائشة فكانت فتنة ثانية أشأم على المسلمين من سابقتها
طالبت عائشة بدم عثمان واندفعت في هذه السبيل - على رغم تحذير المحذرين، ونصح أمهات المؤمنين - اندفاع الأتيّ الجارف، حتى جمعت الجموع وأحاط بها كل طامع وكل ذي ثأر من أصحاب علي وكل كاره لعلي وخلافته، مع آخرين خرجوا معها عن عقيدة بريئة مغيرين منكراً أو مطالبين بإقامة الحدود. ثم خرجت بهذه الجماهير من الحجاز حتى وافت بها العراق. فلم يكن من محيص دون القتال، ومؤرثوا الشر منتشرون في جماعتها
وجماعة علي، فكان ما كان مما لا نتعرض له في هذه الكلمة لأن أمره مشهور معروف. وسميت هذه الحرب الجمل لأن عائشة كانت فيها في هودج على جمل؛ وانقشعت هذه النكبة المؤلمة عن عشرة آلاف قتلوا على أقل تقدير.
رحم الله عائشة، لقد كانت المرأة الوحيدة في التاريخ التي قوضت مركز خليفة وحاولت نصب خليفة، وأعلنت حرباً وقادت جموعاً ثم أرادت تحاشي القتال؛ فخرج الأمر من يدها إلى يد غوغائها شأنها في ذلك شأن علي رضي الله عنه، فكان ما ترتعد له فرائص كل مسلم، كلما ذكر فتنة الجمل وما استتبعت من ويلات.
فلنطو أمر هذه الحرب، ولنذكر أن عائشة نفسها صارت كلما ذكرتها بكت حتى تبل ثيابها ندماً وتوبة. ولننظر كيف كان معاوية الداهية الحليم يداريها ويخشى بأسها
بقى الناس ينظرون إلى السيدة عائشة وسائر أمهات المؤمنين نظرهم إلى الموئل الذي يسعهم كلما نزلت بهم نازلة. هذا إلى نظرة التقديس والإجلال التي كانت تزداد كلما امتد الزمن وبعد عهد الناس بزمن الرسول. فكانوا - زيادة على قصدهن للتعليم والاستفادة - يشكون إليهن ما يلقون من عنت الأمراء وحيف الحكام، وكن يتوسطن

لهم بما لهن من النفوذ والطاعة على جميع المسلمين: الخلفاء فمن دونهم. سألها رجل كتاباً توصى به زياداً في العراق، فلما قرأه زياد قضى حاجة الرجل وأكرمه، وكان أهم ما دفعه إلى التلبية أنها نسبته فيه إلى أبي سفيان، فجعل زياد يعرض الكتاب على كل زائر مزهوّاً به فرحاً. وقد حسب لها معاوية أكبر الحساب فجعل يداريها ويلاطفها ويكتب إليها يسألها مرة عن حديث، ومرة طالباً موعظة وما به من حاجة إلى سؤال ولا طلب، وكان جانبها أعظم ما يخشاه. أحرق قائده معاوية بن خديج جثة أخيها محمد في مصر؛ فبلغها فجزعت أشد الجزع، وصارت تقنت على معاوية وعمرو بن العاص دبر كل صلاة ولما أراد معاوية البيعة ليزيد كان صوت أخيها عبد الرحمن أقوى صوت ارتفع بالمعارضة فجبه والي معاوية على المدينة مروان بن الحكم بقوله الصادع: (جئتم بها هرقلية كسروية كلما مات كسرى قام كسرى) ولما نال مروان من أخيها بالكلام لقي من السيدة ما لم يكن في حسبانه حتى تذلل لها وخاف بأسها ثم تكفل دهاء معاوية بالباقي حتى غاب صوت الحق في إنكار هذه البدعة التي ابتدعها معاوية في أصول الحكم. ولم تتنح السيدة عن معالجة الشؤون العامة، ولولا أن يوم الجمل هد منها ومن قوة نفسها لرأينا لها في عهد معاوية صولات وجولات ومع هذا فإليك مثلاً حادثة حجر بن عدي:

كان حجر من سادات أهل العراق ذوي السطوة والمكانة، ممن كانوا مع علي وبقوا على عهده بعد مماته، وقد تحدى سلطة الخلافة مراراً عديدة، وعبث بالأمراء الذين يرسلهم معاوية حتى ضاق به وبرهطه ذرعاً، فأمر بحمل حجر وأصحابه، ثم أشهد عليهم وقتلهم، بعد أن كثر الوسطاء في أمره نظراً لمكانته، ولكن ذلك لم يشف ما في نفس معاوية من الغيظ، وكانت عائشة أرسلت رسولاً إلى معاوية في ذلك، ولما وصل الرسول كان حجر قد قتل، فقال الرسول - وهو عبد الرحمن بن الحارث بن هشام - لمعاوية: (أين غاب عنك حلم أبي سفيان؟) قال معاوية: (حين غاب عني مثلك من حلماء قومي، وحملني ابن سُمية (يعني زياداً عامله) فاحتملت) وبلغ عائشة الخبر فحزنت أشد الحزن، وليس مثلها من يسكت لمعاوية، ولكن نكبة الجمل زعزعت عزائمها فصارت تخاف أن يجر الأمر إلى فتنة تراق فيها الدماء وهو ما لا تستطيع أن تتصوره، وقد أشارت إلى ذلك حين قالت: (لولا أنا لم نغير شيئاً إلا آلت بنا الأمور إلى أشد مما كنا فيه لغيرنا قتل حجر. أما والله إن كان - ما علمت - لمسلماً حجاجاً معتمراً)

ولما حج معاوية أستأذن على عائشة فأذنت له، فلما قعد قالت: (يا معاوية، كيف أمنت أن أخبأ لك من يقتلك؟) قال: داهية الأمويين (بيت الأمن دخلت!) قالت: (يا معاوية، أما خشيت الله في قتل حجر وأصحابه!) قال: (لست أنا قتلتهم، إنما قتلهم من شهد عليهم.)

وهكذا نال الخليفة العظيم ما يستحق من التأنيب في حجرة الرسول على لسان زوجته أم المؤمنين

هذه هي المرأة في صدر تاريخنا المجيد ولكم هو مقامها، فلننتفع بسيرتها ولنأخذ لزماننا من كل شئ أحسنه. أما عبرة هذه الحوادث: فهي أن المرأة لم تخلق قط لتدس أنفها في الخلافات السياسية. وكأن الله الذي جعل النساء لتربية الرجال وتدبير البيوت أراد أن يعظ المسلمين عظة عملية كلفتهم كل تلك الدماء المهراقة؛ ليعلموا: أن لو كان أمر من أمور الرجال يقوم بامرأة لقام بهذه السيدة الحصيفة التي أوتيت من المواهب الذكاء والعلم والصلاح ما لم يؤته رجال كثيرون. وبقية حرب الجمل مناراً في تاريخ المسلمين كلما نزغ

بهم من الشيطان نزغ فهموا أن يخرجوا بالمرأة عما خلق لها وخلقت له، قالوا لأنفسهم: أخفقت هذه التجربة في أول تاريخنا فما بنا من حاجة إلى أن نهرق في سبيلها دماء جديدة؛ ومن لنا مع هذا بمثل السيدة عائشة

(دمشق)

سعيد الأفغاني

تلك سبأ!

للأستاذ محمد عبد الله العمودي

هناك نحو الشرق من صنعاء عاصمة اليمن، على بعد خمسة أيام فوق متون المطايا؛

تمتد منطقة واسعة الأطراف، مترامية الأكناف، عامرة بأسرار تاريخ، وفيرة بخبيئة ماض بعيد، يجد فيها عالم الآثار مادة خصبة ومجالاً واسعاً فسيحاً لاختباراته وأبحاثه في تلك البقعة الساحرة المسحورة التي فاضت عليها أنفاس الرياح الغرائب فطمرت معالمها، وأخفت ما شخص منها، ونسجت عليها أثواباً رقيقة شفَّافة من الطمي الأملس، تَلبد في ذمة التاريخ وتحت أنقاض العصور خرائب سبأ، مدينة الملكة العظيمة بلقيس عروسة سليمان ابن داود. . .

هذه بقاع منسية في جزء مهم من بلاد العرب، لعبت أدواراً خطيرة في مجال التاريخ القديم؛ تدل الآثار الضئلية التي قذفتها هذه الأراضي الضنينة التي جاءت من قبيل الصدف بأن ما تحويه في أحشائها يفوق الوصف، ويثير التاريخ!

ومعلوماتنا عن هذه البلاد السبئية ضئيلة؛ فبالرغم من كثرة الرواد الذين اجتاحوا هذه البلاد فإن خطراتهم بين خرائبها كانت سريعة خاطفة، فلم يعرف عنها إلا أشياء مقتضبة مشوَّهة لا تقوم على إسناد علمي يركن إليه الباحث، وتطمئن له نفس المنقِّب؛ وهذا عائد إلى طبيعة الأرض وجفوة سكانها وقساوتهم ضد الأجنبي. . . وما عرفنا أحداً تغلغل في صميم هذه البقاع سوى ثلاثة من الأوربيين أتاحت لهم الظروف الوصول إلى قلب مدينة سبأ فجمعوا كتابات كثيرة جداً منقوشة على الصخر الأصم!

هؤلاء الأشخاص هم أرنود (1843) وهاليفي (1860) ثم (1888). وبعد هؤلاء الباحثين لم يتقدم أحد من الأوربيين مطلقاً. فبقيت أرض سبأ إلى هذه الساعة محتفظة بأسرارها الرهيبة الهائلة. . .

هناك في الناحية الغربية من مدينة بلقيس؛ بنى السبئيون في أحد الأودية العظيمة سداً عظيماً، متين البنيان، وطيد الأركان، مشمخر الأنف، تتجمع فيه أمواه السيول المنحدرة من أعالي الجبال فتسقي الأرض، وتحيي الضرْع؛ حتى غدت هذه البلاد مثلاً سائراً في خصوبة الأرض؛ وكرم التربة!

أما أبرز المظاهر الاقتصادية التي كان يتداولها سكان هذه البلاد مع الأمم التي تناوحهم فهي تلك الأعواد العطرية الفواحة، والنباتات الكريمة التي تتفوغ بها أوديتها العميقة وشعابها المشجرة المعطرة

وبناؤهم في غاية الفخامة والجلال؛ قصور شاهقة، وبناء محكم، وحيطان وسقف مموَّهة بالأحجار الكريمة، مرصعة بالعاج؛ وآنيتهم من الذهب والفضة الخالصين!. . .

ولكن السبئيين كانوا يعبدون الشمس والقمر والوعل والعجل؛ ولهم معابد فخمة واسعة منتشرة في كل الأنحاء؛ ثم لما بطروا بأنعم الله عاقبهم الله بانهيار السد، فغشى المدينة من الماء الجارف ما غشيها فجعل عاليها سافلها، وأهلك سكانها وأباد ضرعها وزرعها فكانت مثلاً

ويعدُّ انهيار السد حديثاً عظيماً في تاريخ الشعب العربي؛ ذكره (القرآن الكريم) في جملة ما ذكر من القصص؛ ومع كل هذه الحقائق التاريخية الثابتة أصلاً فإنها لم تؤثر في تفكير اليمنيين وتغير مجرى اعتقادهم في أن يعيدوا إلى الوجود وإلى ضوء الشمس آثار ذلك الماضي اللمّاع المجّسم في خرائب هذه المدينة ذات الجلال والإبداع، ولم يفكروا مطلقاً في استنطاق هذه الألواح الصخرية المنقوش عليها حرف (المسند) ليعرفوا حقيقة الماضي البعيد

أما علماء الآثار الذين مكنتهم الظروف فاخترقوا هذه الآفاق واستهدفوا لضروب من المتاعب والأخطار، فما استطاعوا أن يقدموا لنا عن هذه البلاد إلا معلومات ضئيلة لا تشفي غلة الباحث الصادي

نعم، إن إدوار غلازر نجح في مهمته، وتنكر في شخصية مسلم واستطاع إبان وجوده بصنعاء أن يتفق مع أحد أشراف مأرب ليكون له قائداً ودليلاً إلى حيث السد

فمن صنعاء أخذ الاثنان طريقهما في واد عميق يقع بين ذُرى بلاد نِهْم وخولان؛ ثم انحدرا إلى وادي شبوان فأخذا طريقهما إلى خرائب السد ومن هنا تابعا سيرهما في ثلاث ساعات إلى مركز الحضارة السبئية: مدينة بلقيس!

وترامت أخبارهما بين القبائل المتعصبة المتحمّسة فعقدوا العزم على ذبحه وذبح دليله. ولكن غلازر درى بحقيقة الأمر فاحتاط لنفسه كثيراً فكان يقوم ليلاً ويختفي نهاراً. . . ولما

انتهى من أبحاثه وهم بالرجوع هاجمته جماعة من البدو المسلحين ولكنه نجا بأعجوبة!
وبالرغم من هذه المتاعب الكثيرة التي صادفت هذا المغامر، وبالرغم من افتقاره للآلات العلمية المتممة لأبحاثه فقد نجح هذا العالم الأستَرْبِي في طرق اختباراته فجمع ما يناهز 850 نقشاً حِمْيرياً وبان لعلماء الآثار أن هذه المنطقة، من أرض سبأ، غنية بآثارها عميقة في أسرارها!
أما الإمام يحيى فقد توعد بالعقاب الصارم كل من تحدثه نفسه ببيع هذه الحفريات للأجانب؛ كما أنه أقفل أبواب سبأ في وجوههم ولكن أحد هؤلاء المجازفين حاول الوصول إلى مأرب من حضرموت فاكتشف أمره وقبض عليه، ودفع إلى ما وراء الحدود!
ودفعت المغامرة غيره في وقت قريب، فوصل هذه الأرجاء فعثر على شظايا أثرية، وتماثيل عجيبة لدى جماعات من البدو فابتاعها منهم وشحن منها صناديق. . .
وكل من لاقيته في هذه البلاد وسألته عن أسباب هذه المتاعب الجسيمة التي يلاقيها الرحالة في أرض سبأ راح يشرح لي أسباباً كثيرة، وأموراً غريبة!
أخبرني أحد العلماء قال: (هناك في أرض سبأ تعيش قبائل مخيفة من البدو لا يعلمون عن العالم شيئاً، بل يجهلون كل الجهل من حولهم؛ يعبدون الله ولكن على صورة تخالف ما عندنا، ويأكلون اللحم النيئ؛ وفي قبائلهم تعيش جماعات من النبلاء والأشراف يستبدُّون بالضعيف، ويسخرونه في حرث الأرض، والدفاع عن الحوزة؛ لهذا ترى من الحكمة، وسداد الرأي، أن الإمام مصيب في منعه الأجانب من دخول هذه الأقاليم الرهيبة التي لا تعرف من سلطة الإمام إلا القليل. . .)
وتشرفت بالمثول بين يدي الإمام، وبما أنه معروف عن جلالته الطبع السمح. والخلق اللين؛ فقد بادهته بهذا السؤال:
- هل يأذن لي صاحب الجلالة في زيارة بلاد سبأ؟
ولشد ما كانت دهشتي عظيمة عندما رأيت ابن حميد الدين يستوي في جلسته ثم يصيح بي قائلاً:
- سبأ؟ أرى أن مشاهدتك واستكشافك هنا خير وأولى! أمكث في صنعاء إلى ما تشاء! وإذا لم يعجبك هذا فدونك ما حوالينا من القرى الجميلة، والأودية النضرة، فانهب من الجمال ما
شئت واملأ ناظريك من محاسن الطبيعة اليمنية!
- ولكن يا مولاي، أريد سبأ، فهل تتركني أذهب إليها؟
- لا! إن سبأ بعيدة المنال، صعبة الوصول، فأنا لم أرها منذ سنين، وزيادة على ذلك فما هناك طريق واضح؛ فهل من المعقول أن أتركك تذهب حيث لا طريق معبد؟ أنا أريد أن أراها ولكن لا سبيل إلى الوصول إليها. . . هناك حتى يومنا هذا لا يزال جزء عظيم من بقايا السد قائماً في شكل يثير الإعجاب! تصور جيداً أنه شيد كله من الصخر الأصم؛ وهذه الصخور تتألف من ثلاثة ألوان: خضراء وحمراء وشهلاء. . . وعلى مقربة من السد تقوم نقرة عظيمة حفرت جداول توزع منها المياه إلى الحقول والبساتين التي جمع منها السبئيون كل غناهم وجاههم!
- والمدينة يا مولاي؟
- حطمها السدّ وغزتها المياه من كل جانب فغمرتها رواسب كثيرة شفافة، وما زالت أطرافها شاخصة في عظمة واستكبار. . . فهناك على مساحة عظيمة تطفو على وجه الأرض أعمدة وأحجار؛ وأجل هذه الآثار شخوصاً (عرش بلقيس) ذلك المعبد العظيم الذي شيده سليمان لملكة سبأ. . . واليوم عزمت على تعبيد الطريق من صنعاء إلى مأرب فتخترقها السيارات بسهولة!
إن الآثار المدهشة التي تكشفت عنها بلاد العرب الجنوبية تراها اليوم موزعة بين متاحف أوربا؛ وليس لها أثر كبير في بلاد اليمن اللهم إلا أشياء ضئيلة في متحف صنعاء مجموعة في نظام يستدر الشفقة، ويبعث الحسرة!
ففي متحف تِرْمى بروما يمكنك أن تتمتع بمشاهدة آثار سبأ وحْمير وسائر ممالك اليمن القديمة. . .
فهناك نقوش كثيرة وقطع من الفن الهندسي الرائع، وتماثيل ضخمة منحوتة من الصخر جمعها الدكتور أنسالدي أثناء رحلته إلى بلاد اليمن أخيراً واستطاع أن يأخذها

إلى إيطاليا بموافقة الإمام!
أما المتحف الذي أنشأه الإمام يحيى في العاصمة اليمنية فهو عبارة عن (غرفة!) من قصر خصِّص لنزول البعثات الأجنبية تتكدس في هذه الغرفة آثار اليمن القديمة!
ولما كانت هذه الغرفة محروسة من المساند والمناضد فقد طرحت أرضاً هذه النقوش والقطع الأثرية؛ وبعضها مرصوص على جوانب الجدران؛ والجزء الأعظم من الآثار الصغيرة محشوٌ في أجواف صناديق النَّفْط. . .
والزائر الذي يأتي لمشاهدة هذه الآثار لا يسمح له بدخول هذه الغرفة بل يقوم الحارس بعرض بضاعته من الداخل فيطرحها على أرض الشباك بحيث يتمكن الزائر من المشاهدة والملاحظة وهو في الخارج؛ وفي أغلب الأحيان تَمْلُص من يدي الحارس بعض التماثيل فتهوي إلى الأرض محطّمة؛ وفي جلافة وعدم مبالاة، يركلها برجليه إلى إحدى الزوايا!
إن الله وحده الذي يعرف كم تحوي هذه البقاع اليمنية من الآثار والتماثيل ذات الجلال والسموّ. وما ذلك الفن السامي الذي ازدهر في هذه الربوع المتمثل في هذه الخرائب الأبدية وفي هذه التماثيل العديدة للنساء والرجال المفرغة في المرمر الحرّ والرخام المجزع، إلا صورة حية ناطقة لذلك الفن الرفيع العريق في هذه البلاد منذ أقدم العصور! يدلنا على هذا كله وجود تمثالين في متحف صنعاء بلغا حد الإتقان والإبداع.
أولهما (ش1) يمثل رأساً من البرنز لشاب أو شابة من أبناء تلك البلاد على وضع فني جميل يشبه إلى حد ما أحسن التماثيل الإغريقية القديمة، وقد وجد في غيمان
والثاني (ش2) تمثال عظيم مصوغ من البرنز وجد في خرائب النخلة الحمراء يمثل بطلاً عارياً منسجم الأعضاء جليل الصورة. ومما يدعو للأسف أن العمال الأغرار أثناء الحفر تناولوه بالتهشيم فذهب شئ كثير من روعته، ولكن الآن لحسن الحظ أعيدت صورته الأولى، وأجبرت كِسْراته وصقلت حواشيه، واستقام على قدميه بقوة أسلاك معدنية
والحق أن مثل هذه الآثار كثيرة الوجود تحت الأنقاض وفي بطن الأرض ولكنها تتطلب مجهوداً عظيماً يكلف كثيراً في بلد يقوم على هذا الوضع من الحياة والعزلة
(القاهرة)
محمد عبد الله العمودي
كتاب الأغاني
بقلم أبي الفرج الإسكندراني
رواية الأستاذ عبد اللطيف النشار
صوت
وأطلس عسال وما كان صاحباً ... رأى ضوء ناري موهناً فأتاني
فقلت ادن دوني أيها الذئب إنني ... وإياك في زادي لمشتركان
البيتان من قصيدة للفرزدق، والفرزدق ليس من الشعراء المعاصرين بالطبع؛ ولكن اللحنين اللذين صنعا فيهما عصريان. أما أحدهما فللأستاذ أحمد أمين على نغمة مصرية هادئة، وأما الآخر فللدكتور زكي مبارك على نغمة باريسية ثائرة
حدثنا الأستاذ أحمد الشايب قال: أو لم أقل لكم إن أفضل تقسيم للأدب أن يكون على أساس من اختلاف الثقافات؟ فالأستاذ أحمد أمين مثال للثقافة المصرية المشبعة بالروح الإنكليزية. والدكتور زكي مبارك مثال لثقافة المصرية المشبعة بالروح الفرنسية؛ ومن ثم كان الفارق بينهما؛ فهذا هادئ رصين والآخر ثائر صاخب
قال الأستاذ الشايب: وسأحدثكم عن مثل يبين اختلاف الثقافتين. قيل إنه قد طلب إلى ثلاثة من الأدباء أحدهم إنكليزي والثاني فرنسي والثالث ألماني أن يكتبوا شيئاً عن الجمل، أما الفرنسي فذهب إلى حديقة الحيوانات وكتب في وريقة ما معناه:
(يا لله! ما أعجب وما أغرب! خف لين، وصبر بين، ووسادة تحت الصدر، وسنام فوق الظهر! يا لله!)
وعدداً آخر من النثر المشعور أو الشعر المنثور، ثم عاد أدراجه ودفع بما كتبه ارتجالاً إلى من ألقى عليه السؤال.
وأما الإنكليزي فارتحل إلى بلاد العرب، وأقام فيها سنين اشترى في خلالها جمالاً ونوقاً وراقبها من يوم مولدها إلى يوم موتها وأحصى مقدار ما تأكل كل يوم، ومقدار ما يؤخذ

من لبنها، ومن وبرها، وعدد ما تنتج. فلما انقضت الأعوام عاد فوضع كتاباً عن تاريخ الجمل.

قال الأستاذ الشايب: ولا علينا الآن أن نقول شيئاً عما فعل الألماني، ولكنني أكتفي بهذا القدر من المثل لأن الأستاذ أحمد أمين مثقف ثقافة إنكليزية فهو يؤرخ الأدب العربي على طريقة تربية الجمال وملاحظتها وتدوين الملاحظات. والدكتور زكي مبارك يتناول الأدب العربي على طريقة (يا لله ما أعجب وما أغرب!)

قال أبو الفرج الإسكندراني: هذا ما يقوله الأستاذ الشايب ولولا أن الشايب مثقف بالثقافة الإنكليزية دون الفرنسية، لولا ذلك لعددناه شاهد عدل في خصومة بين هذين الأديبين الكبيرين. ولكن لا شهادة لمن له ضلع مع أحد الخصمين

حدثنا الأستاذ أحمد أمين قال: لقد صنعت لحناً لهذه الأبيات الرائعة من شعر الفرزدق وإن كنت أعلم موضع الضعف فيها فهي بعض الشعر الإسلامي الذي جنى عليه أدب الجاهلية

قال امرؤ القيس الجاهلي:

وواد كجوف العير قفر قطعته ... به الذئب يعوي كالخليع المعيل

فقلت له لما عوى إن شأننا ... قليل الغنى إن كنت لما تمول

كلانا إذا ما نال شيئاً أفاته ... ومن يحترث حرثي وحرثك يهزل

فكان في وصفه هذا اللقاء للذئب معرباً عن إحساس صادق وماذا قال امرؤ القيس؟ لقد وازن بين شروده في القفار وبؤسه وهو مطرود حائر محروم، وبين الذئب في مثل هذه الحالات فعوى عواءه

وكثر الدخيل على اللغة بإسلام من أسلم من أهل اللغات الأخرى فكان للشعر الجاهلي أثر غير أثره الطبيعي: ذلك أنه عماد هذه اللغة التي أصبحت عماداً للدين الجديد. فوقف شعراء الإسلام أمام أسلافهم من شعراء الجاهليين موقف العابد من المعبود لاقتران حاجتهم إليه بحاجتهم إلى المحافظة على اللغة واقتران محافظتهم على اللغة بحاجتهم إلى المحافظة على الدين، فمن أجل ذلك وضع الفرزدق قصيدة يصف فيها لقاء الذيب ووضع الشريف الرضي والبحتري قصيدتين في نفس الغرض ولكن وصف الثلاثة الإسلاميين للقاء الذيب كان وصفاً غير طبيعي لأن همهم الأول كان أن يفعلوا كما فعل شاعر جاهلي يقدسونه

قال الفرزدق إنه قابل الذئب ولكن بماذا أحس؟ بماذا شعر؟

يقول إنه أحس بأنه يريد أن يعطيه زاده فهل كذلك يشعر الناس عند لقاء الذئاب

فلما دنا قلت ادن دونك إنني ... وإياك في زادي لمشتركان

فبت أقد الزاد بيني وبينه ... على ضوء نار مرة ودخان

تعش فإن عاهدتني لا تخونني ... نكن مثل من يا ذئب يصطحبان

على أن مجال التفكير كان حول الطعام، كان في شأن العشاء والشاعر لم يتجه هذه الوجهة إلا لأنه مداح أكثر شعره في مدح الملوك لنيل الجوائز. أفلا يحق لي أن أصف هذا الأدب بأنه أدب معدة وبأن الشعر الجاهلي قد جنى عليه؟

قال الأستاذ أحمد أمين بك: والبحتري مادح آخر يتناول الهبات مكافأة على المديح وقد وصف الذئب وإن لم يلقه متأثراً بامرئ القيس فماذا قال وإلى أية ناحية كان اتجاهه؟

إنه اتجه أيضاً وجهة غير طبيعية في الإعراب عن إحساس من يقابل الذئب فقد قال:

عوى ثم أقعى فارتجزت فنهجته ... فأقبل مثل البرق يتبعه الرعد

إلى أن قال:

وقمت فجمعت الحصى فاشتويته

فهل عرفت الآن ماذا فعل بالذئب لقد أكله الشاعر البحتري بعد أن شواه على الحصى!

أو ليس هذا أدب معدة؟ أو ليس هذا مما جنى عليه الشعر الجاهلي؟ على أنني أترك التحدث عن وصف الشريف الرضي للقاء الذئب إجلالاً للشريف

لكن في بيتي الفرزدق مع ذلك روعة وجلالاً وقد صنعت فيهما لحناً هادئاً يضرب بالشوكة والسكين الفضيتين على طبق من أطباق الذهب قبيل الطعام

حدثنا الأستاذ عبد العزيز البشري قال وقد سمع هذا الحديث: أما إنه للحن عذب يفتح

الشهية لكن على ألاّ يكون الطعام من لحم الذئب الذي شواه البحتري
وحدثنا الدكتور زكي مبارك قال في صخب وضجة: لقد والله ظلموا البحتري وظلموا شعراء الإسلام. أو لم يقرءوا بقية القصيدة؟
قال البحتري:
وقمت فجمعت الحصى فاشتويته ... فلم يبق إلا اللحم والعظم والجلد
فماذا أكل البحتري وقد استبقى اللحم والعظم والجلد؟ إنه لم يأكل إلا الرأس والأكارع، وهل في أكل الرأس والأكارع ما يستحق اتهام البحتري بأنه من أدباء المعدة؟ هذا والله هو الإجحاف والجحود لمآثر الأسلاف! ولماذا يكون الفرزدق محاكياً لامرئ القيس في وصف
الذئب؟
إنه إنما قال ما قال في وصف ذلك اللقاء معرباً عن شعور أصيل في نفسه هو شعور الكرم والنخوة فهو يطعم حتى الذئاب. وهو يعني ذئاب الإنسانية؛ فالأمر لا يعدو المجاز
حدثنا الدكتور بشر فارس قال: هذه الأبيات من الشعر الرمزي ولا شأن للذئب فيها سوى أحرف اسمه
وحدثنا الأستاذ عبد العزيز البشري قال: وأي كرم ونخوة في إطعام ذئب سواء أكان ذئباً حقاً أم كان مكنياً به عن الإنسان؟ إنه ليس في مصر كلها رجل واحد لا يطعم الذئاب دون أن يجد في ذلك مجالاً للفخر، ففي كل مكان فيه ذئب يخرج مصري معمم أو مطربش فيقول:
أيها الذئب إنني ... وإياك في زادي لمشتركان . . .
. . . . تعش فإن عاهدتني لا تخونني
ألا إنه لا كرم ولا نخوة في أمر شائع بين الجميع، وإنما الكرم والنخوة أن تفعل ما لا يفعله خاصة الخاصة من الناس
أخبار الفرزدق وشعره
حدثنا الأستاذ على الجارم بك قال: كان الفرزدق مفتشاً أول للغة العربية في حكومة بني مروان وكان من أصحاب العزة الجاهلية ففيه عجرفة يغتفرها له ما أفادته اللغة العربية من ثروة في شعره. وليس وصفه للذئب محاكاة لأبيات امرئ القيس ولا الذئب الذي وصفه من ذئاب الصحراء وأنشد:
صوت
وأنا الفرزدق غير أني ... لا أسف إلى الهجاء
يا جارة الوادي ... عففت فصنت أعراض النساء
لا كالفرزدق إنه ... قد كان مفقود الحياء
الشعر للأستاذ على بك الجارم وقد اشترك في تلحينه كل مدرسي اللغة العربية بوزارة المعارف
(يتبع)
عبد اللطيف النشار
التاريخ في سبر أبطاله
أحمد عرابي
أما آن للتاريخ أن ينصف هذا المصري الفلاح وأن يحدد له
مكانة بين قواد حركتنا القومية؟
للأستاذ محمود الخفيف
ولنعد إلى حديث بلنت مع عرابي، ولما كان هذا الحديث يكشف لنا عن نواح كثيرة من تلك الشخصية التي نعنى بدراستها نرى الخير في أن نورده على تمامه كما جاء في مذكرات مستر بلنت قال: (وقد نفذ كثير من تلك الإصلاحات بعد أن عزى للموظفين البريطانيين في عهد الاحتلال، وادعى لورد كرومر أنه مبتكر كثيراً منها. فمن ذلك إلغاء السخرة التي كان يضربها الباشوات الترك على الفلاحين، واحتكار بيع الماء في مدة الفيضان، وحماية الفلاحين من المرابين اليونانيين الذين انشبوا فيهم الأظفار بسبب فقدان العدل في المحاكم المختلطة. ومن هذه الإصلاحات أيضاً إنشاء بنك زراعي تشرف عليه الحكومة، وهذا هو البنك الذي باهى به كثيراً المرحوم اللورد كرومر. . .
كذلك تناقشنا في الإصلاحات القضائية، وكانت دوائر القضاء يعمها الفساد؛ وكذلك

تكلمنا في نظم تربية الذكور والإناث، وفي طريقة الانتخاب للبرلمان الجديد ومسألة الرقيق، وقد أطال عرابي الكلام في هذه المسألة الأخيرة، وكان الموظفون الأجانب في مصلحة الرقيق قد خشوا أن يتناول الاقتصاد في المرتبات مراكزهم، ومن ثم كانوا يزعمون أن إحياء الإسلام معناه إحياء الاسترقاق. وقد أظهر لي عرابي ضعف هذا الزعم وما فيه من الافتراء، وبين لي أنه ليس في مصر من يود أن يكون له عبيد غير أمراء البيت الخديو والباشوات الأتراك الذين تعودوا استعباد الفلاحين، وأن الإصلاحات الجديدة سوف توطد المساواة بين الناس مهما اختلفوا في الجنس واللون والدين، وليس مع هذا الإصلاح محل للاسترقاق. أما فيما يختص بضرورة الاستعداد لحرب محتملة - ذلك الاستعداد الذي يجب أن يشغل ذهن وزير الحرب فقد تكلم عنه بصراحة وقوة فقال إن الحكومة الوطنية لا تنزع سلاحها ولا تخفضه حتى يوطد الحكم الدستوري وتعترف أوربا به. وكان يرجو ألا يتجاوز مربوط وزارة الحرب الذي اتفق عليه مع كلفن وإلا يضطر إلى زيادة عدد رجال الجيش على ثمانية عشر ألفاً. أما إذا استمر التهديد بالتدخل فلا مناص له من اتباع الطريقة البروسية أي التجنيد العام لمدة قصيرة ليتمكن من إنشاء احتياطي كبير، وقد سأل عن رأيي في احتمال وقوع الحرب فقلت له صراحة إني بما علمته من اجتهاد كلفن في إحداث التدخل وبما أراه من الهياج الذي بثه في الصحف أعتبر أن الخطر حقيقي. وإني ذاهب إلى إنجلترا لا لشيء إلا لأضع حداً لحملة الكذب التي ثارت في الصحف، وستكون مهمتي هناك نشر الدعوة للسلام وحسن النية، وفي الوقت نفسه لم أستطع أن أنصح له إلا بالثبات والحزم في موقفه وبأن أفضل وسيلة لضمان السلم إنما هي الاستعداد للدفاع. وقلت إن شر أعداء مصر ليس الحكومات الأوربية بل الماليين الأوربيين وإن هؤلاء لابد أن يفكروا طويلاً قبل أن يعرضوا مصالحهم للخطر بالحض على إثارة حرب طويلة ذات نفقات طائلة، وقل أن يسئ أحد إلى أمة مسلحة مستعدة للدفاع عن حقوقها. وأذكر أني اقتبست من شعر لورد بيرون قوله: (لا تأمن الفرنج عل الحرية) فوافق عرابي على ذلك، وكانت هذه فيما أظن آخر كلماتنا، وقد وعدته أن أعود وأنضم إلى الوطنيين إذا شاء القضاء ووقع السوء)

وهذا الكلام من جانب ذلك الفلاح الذي تمخضت عنه مصر في تلك السنين السود في غنى عن كل تعليق. وما ندري ماذا يرى فيه أولئك الذين أرادوا ألا يجعلوا لذلك الرجل مكاناً بين أبطال قومهم، بل أولئك الذين يسلكونه في المجرمين الخائنين لوطنهم فيرتكبون بذلك من ضروب الإجرام ما لن يزال عالقاً بأعناقهم حتى يروا الحق فيصدعوا به وهم راضون؟

ماذا يرى في هذا الحديث أولئك الذين تنفر أسماعهم من اسم عرابي، وأولئك الذين يضحكون من جهله ويسخرون من تطاوله؟ على أننا لا نعبأ بما يقولون وما يهزءون فإنا لنستشف من هذا الحديث وطنية رجل ونلمس فيه عزيمة رجل على خير ما تكون الوطنية وأحسن ما تكون العزيمة. ولئن كان لرجل من ذوى الجاه والثراء أن يفخر بصنيع أداه إلى بني قومه، فأجدر منه بالفخر كل الفخر رجل درج من عش الفاقة وبرز من عامة الناس ففعل ما لم يفعله غيره من أكابر الناس! وإن هذا الرجل الذي يستشرف القلم في غبطة

وفخر إلى تاريخه ليقدم لنا بما فعل الدليل الناصع والبرهان القاطع على أن تربة هذا الوادي الذي أنبتت بالأمس الفراعين لا تزال تنبت أولى العزم والبأس من الرجال؛ وأن بين هؤلاء الذين يجيلون الفؤوس في غيطانها ويعملون صامتين صابرين في الهجير والزمهرير رجالاهم كالدر المخبوء لو أزيح عنه ما يطمره من تراب لتلألأ وسطع وسحر بريقه المتوهج القلوب والأبصار.

مضت الوزارة في سبيلها غير عابئة بصراخ أعدائها لا تتخاذل من دون غايتها ولا تستبعد الشقة، وذلك على الرغم من أنها كانت لا تجاوز عقبة إلا قام في سبيلها عقبات ولقد قبع الخديو في زوايا العزلة، وجعل الغدارون الخوانون بينه وبين وزرائه حجاباً من الأباطيل التي أحكموا نسجها. والواقع أن الخديو لم يكن على شئ مما كان يجب أن يتصف به من يضطلع بأعباء الحكم في مثل هاتيك الظروف، فلقد كان مستطار القلب حائر اللب مما يجري حوله، فهو لا يسيغ الحركة الوطنية ولا يستطيع أن يصالح عليها طبعه؛ وهو مستريب في نيات الحكومة العثمانية نحوه ونحو عرشه؛ وهو فزع مما

يشاع من دسائس الأمير عبد الحليم، بل ودسائس أبيه ومساعيه في مصر والآستانة على يد أعوانه؛ ثم هو فضلاً عن هذا كله قد بات تحت سيطرة الأجانب وعلى الأخص الإنجليز منهم فما يقطع أمراً حتى يوافقون عليه بل لا يخطو خطوة حتى يرى رأيهم فيها

ومن كان هذا شأنه في موقف كهذا الموقف الدقيق الذي كانت تقفه مصر من أعدائها يومئذ كان مثل الراعي أحاطت الضواري بقطيعه فما يرجو أكثر من أن ينجو هو بنفسه ولو هلك القطيع جميعاً.

وكانت الدولتان كما سلف القول تراوغ كلتاهما الأخرى، وتغافلها بغية الظفر بالفريسة وحدها؛ وهذه هي حقيقة السياسة الخارجية التي لا تفهم على وجهها الحق دون الانتباه إليها، وإن كان كرومر ينفي هذا في كتابه نفياً قاطعاً قائلاً إنه كان ذا صلة وثيقة برجال ذلك العهد جميعاً. ولو أن هذا كان موقف إنجلترا ما منعه شئ عن الاعتراف به.

ولكن نفي كرومر هذا لا يغير الحقائق. وحسبنا أن نذكر في هذا الصدد ما كتبه ريناخ أحد أصدقاء غمبتا عن سياسة الدولتين قال: (إن الرأي العام في انجلترة قد وقع تحت تأثير بعض رجال حزب الشورى الذين اعتقدوا أن خير ما يعمل هو استعجال الحوادث جهد الطاقة أملاً في إيجاد فرصة لدخول وادي النيل دون فرنسا)

حسبنا تلك العبارة التي حاول كرومر أن يفندها بما ذكرنا من نفي فلم يستطيع أن يأتي بدليل أو شبه دليل على صحة رأيه فلن يكون النفي المجرد مما ينهض دليلاً يؤخذ به أمر من الأمور

وكان غمبتا من أشد أعداء مصر بل من أشد أعداء الإسلام قاطبة، وكان هذا الرجل يهودياً على صلة برجال المال من الدائنين؛ وكان يحيط به في باريس ريفرز ولسن ونوبار يوحيان إليه بما يريان؛ وكان بطبعه ممن يميلون إلى اللجوء إلى القوة في كل ما يتعلق بالشرق والشرقيين

وكان هذا الوزير يحاول أن يدفع إنجلترا لتأخذ بسياسته ولكن جرانفيل راح يراوغه مظهراً له أن خيرهما في أن يتفقا، وفي الوقت نفسه كان يحذره عاقبة التدخل المسلح في شؤون مصر سواء أكان ذلك من جانب إحدى الدولتين أم من جانبيهما معاً لأن ذلك العمل كان من شأنه أن يجر في أعقابه كثيراً من المشاكل

ولقد رأينا مبلغ تشدده في وجوب إرسال المذكرة المشتركة المشؤومة، ثم إصراره بعد ذلك على عدم تخفيف وقعها بأي وجه من الوجوه. ولقد كانت كل من الدولتين تحرص على ألا تنفرد فتنكشف، لذلك كانت تجارى إحداهما الأخرى وإنها لمستكرهة أشد الاستكراه وأقبحه. . . وكانت إنجلترا تأخذ نفسها بالصبر حتى تحين الفرصة فتقتنصها

على أن غمبتا لم يلبث في الحكم طويلاً فسقطت وزارته في أول فبراير عام 1882 أي قبل تأليف وزارة البارودي بخمسة أيام وحل محله في الوزارة دي فريسنيه. وكان هذا من أول الأمر يرى في المسألة المصرية ما لا يتفق وسياسة غمبتا

ولكن الأمور كانت قد تحرجت في مصر بما فعل غمبتا، وفقدت العناصر الوطنية في البلاد كما أشرنا كل ثقة في الدولتين جميعاً حتى أصبح من أصعب الأمور التفاهم في السياسة العامة

وكان الإنجليز في مصر يعملون جهد طاقتهم لحساب دولتهم حتى إذا حانت ساعة العمل لم يكن بينهم وبين فريستهم حائل؛ ولقد ظلوا متربصين بمصر بعد أن نجحت وزارة البارودي في حل مسألة الميزانية ينتظرون أن تواتيهم فرصة فيعملوا على تنفيذ ما بيتوا

وأخيراً وقع في مصر حادث ما نظن في تاريخ الاستعمار الأوربي كله أن استغل حادث كما استغل - في قبح ما بعده قبح - ذلك الحادث على بعد ما بينه وبين السياسة العامة للبلاد، وذلك هو حادث المؤامرة الجركسية المشؤوم

نمى إلى عرابي وزملائه أن فريقا من الضباط الجاكسة في الجيش يأتمرون به وأصحابه ليقتلوهم! فكان أن ألقت الحكومة القبض عليهم كما يقضى بذلك واجبها وساقتهم إلى المحاكمة فقضت فيهم قضاءها. وليس في هذا الحادث في ذاته ما يتصل بالسياسة العامة للبلاد بسبب من الأسباب. وما كانت أية وزارة تستطيع أن

تسلك فيه سبيلاً غير التي سلكته وزارة البارودي، ولكن الكائدين المفترين ما لبثوا أن ملئوا الدنيا صياحاً وتنديداً وتهديداً ووعيداً، ونسوا كل شئ إلا تحقيق أطماعهم من وراء هذا الحادث، فكان من أقوالهم وأفعالهم ما هو حقيق بأن يسم تاريخ أي شعب من الشعوب بميسم العار والخزي؛ بل ما هو خليق بأن يساق ين أقوى الأدلة وأنصعها على صحة مبدأ القائلين بأن هذه المدنية المزعومة قد أفسدت بني الإنسان فزادتهم قرباً إلى الحيوانية بقدر ما باعدت بينهم وبين ما كان يرجى للآدمية من سمو روحي ظل أمل الفلاسفة منذ أن أخذوا يحاولون التخلص من هذا الطين وينزعون بأبصارهم وأرواحهم إلى السموات

والحق لقد دل مسلك دعاة المدنية الأوربية على مبلغ ما يمكن أن يصل إليه غدر الإنسان بأخيه الإنسان في عصرنا هذا، وما برح مثل عملهم هذا يوحي إلى ذوي الأحلام والآمال من البشر أن الإنسان لا يزال هو الإنسان، وأنه إذا كان ارتقى في شئ ففي وسائل الكيد والبطش. أما غرائزه الأولى: غرائز السيطرة والأنانية وحب التملك، لا زالت بحيث لم يطرأ عليها أي تعديل، أو سمو على الرغم مما يتبجح به المثاليون والخياليون من حماة الإنسانية. وإنا لنجد في بيان مدى ما وصل إليه هؤلاء الساسة من انحطاط خيراً من أن نعرض المسألة في وضعها الطبيعي البسيط وما كان من أمرهم إزاءها مكتفين بذلك عن كل تعليق عليها، فما كان لكلام أن يبين عما يتحرك في الذهن ويعتلج في أطواء النفس أو يشفي القلب مما يحس من ألم وضيق أمام مثل ذلك العدوان الشنيع.

(يتبع)

الخفيف

استطلاع صحفي

جولة في مصلحة الكيمياء

معمل للأمة وللحكومة

لمندوب الرسالة

انتقلت مصلحة الكيمياء من مبناها القديم الضيق في فناء وزارة الأشغال إلى عمارتها الجديدة بشارع الملكة نازلي وبذلك فتحت أبوابها لكل ما يطلبه منها الجمهور من اختبارات كيميائية تكشف عن صلاحية المواد والمنتجات للحياة العملية، وبهذه الخطوة يستطيع الصانع أن يختبر مواده هناك كما يستطيع أن يحصل لمنتجاته على شهادات حكومية بصلاحيتها ولن يكلفه ذلك المال الكثير فأن المصلحة تشجع على ذلك ولا تأخذ عنه إلا أجراً زهيداً؛ ولذلك رأينا بعد استئذان مراقبها الدكتور أحمد زكي بك أن نقدم لقراء الرسالة صورة مما يحدث في ذلك المعهد وإن تكن صورة مقتضبة لأن عمل المصلحة متشعب والصفحات محدودة

مهارة الصانع

قال الدكتور محمد سعيد سليم رئيس قسم تحليل مواد البناء في مصلحة الكيمياء: نقوم بتجاربنا هنا على مواد رخيصة القيمة ولكنها خطيرة المسئولية. فقد يكون ثمن (مواد الأسمنت أو الجبس أو المصيص زهيداً، ولكن الخطأ في تقدير قوة مقاومتها يؤدي إلى ضياع كثير من الأنفس والأموال. فتصور عمارة تشيد بالأسمنت المسلح لم يراع في خلط مواده النسب القانونية أو زادت على المخلوط كميات الماء حتى ذاب الأسمنت وسال وبقى الرمل وحده ليسند البناء. فلما تمت العمارة أتى الناس من كل جهات القاهرة ليجدوا فيها السكن الموافق؛ فلما نقلوا أثاثهم ونظموا غرفهم ثقل وزنهم على قوة مقاومة تماسك الرمل وقليل الأسمنت فسقطت السقوف وقتلت البنين والبنات، وترملت الأزواج والزوجات)

ثم وضع الدكتور قالباً مصنوعاً من الأسمنت المسلح بين فكي آلة ليختبر قوة الشد الذي تتحمله البوصة المكعبة منه؛ ثم فتح صنبوراً تساقطت منه كرات من الرصاص في وعاء يقع ضغطه على ذراع يجذب أحد أطراف قالب الأسمنت إلى أعلى بينما الطرف الأسفل

ثابت. وبعد برهة انكسر قالب الأسمنت وفي الوقت نفسه هبط ثقل الرصاص على يد معدنية وقفت تساقط كرات الرصاص في الوعاء. فلما وزن الوعاء ومحتوياته قال: (البوصة المكعبة من هذا المخلوط تتحمل شداً قدره 620 رطلاً)

وأثبت في جدول أمامه رقم القالب وقوة مقاومته فلاحظت أنه القالب السادس فأوضح ذلك قائلاً: إننا نتبع في اختباراتنا عدة تجارب من نفس النوع وعلى نفس المادة ثم نأخذ متوسط النتائج، فلا يخفى عليك ما ليد الصانع من تأثير على متانة البناء. بل يمكنك أن تلاحظ اختلاف الصناعة من هذه العينات الست التي قام بها عامل واحد وهي مخلوطة من مادة واحدة، فأنت ترى أنها تختلف بين 530 رطلاً و620 رطلاً. ويرجع هذا الاختلاف إلى عنايته ببعض النماذج ثم قلة هذه العناية في غيرها بسبب تعب يده أو سرعته. ولكن في البلاد التي تقوم بعملية صب العينات آلات حركاتها منتظمة تظهر النتائج للعينات المتماثلة ثابتة

معمل الأمة والحكومة

ومصلحة الكيمياء في مقرها الجديد بشارع الملكة نازلي معمل أبحاث يختبر كل المواد من حيث مدى صلاحيتها للعمل، كما يقرر المواصفات التي يجب توفرها في تلك المواد حتى تكون متينة التركيب فتتحمل الاستعمال مدة طويلة. وكذلك يجب أن تكون رخيصة حرصاً على أموال الحكومة. ففي معمل القاهرة (للمصلحة معامل أخرى في الإسكندرية) تختبر جميع مواد المناقصات ويوضع الحد الأدنى لقبول متانة المواد. فإذا أرادت إحدى المصالح أن تعلن عن مناقصة وضعت المبادئ المطلوبة ثم تركت لمصلحة الكيمياء مهمة بحثها وقبول العطاءات التي يتوافر فيها الرخص والمتانة معاً. فهذه المصلحة هي في الواقع معمل الدولة وقريباً تصبح معمل الأمة أيضاً. إذ أن التوسع الحديث في مبانيها أتاح لموظفيها أن يزيدوا ميدان عملهم فسمح للجمهور أن يطلب إلى المصلحة اختبار المواد التي يريدها بأجر زهيد

والعمل الأساسي لهذا المعمل هو اختبار المواد والمنتجات في أي شكل من أشكالها وتعيين مدى صلاحيتها وتركيبها الكيميائي. وهي بهذا تراقب بطريق غير مباشر تنفيذ عقود الحكومة مع مقاوليها في بناء عماراتها أو مورديها عندما يبيعون للحكومة أو لإحدى

مصالحها بعض المنتجات الصناعية أو الزراعية أو الكيميائية من أي صنف كانت؛ فعندما تطرح مناقصة في السوق يتقدم التجار بعينات وبأثمان الوحدات التي تتخذها الحكومة قاعدة لمعاملاتها فتتولى المصلحة اختبار تلك المواد وتحديد نوعها ثم تشير بقبول أحد العطاءات

فإذا بدأت العملية الثانية وورد المتعهد منتجاته فعلى المصلحة أن تختبر تلك المواد الموردة لترى إذا كانت مطابقة للعينات الأولى أم أدخل عليها تعديل أو غش. فإن الغش في المسائل الصناعية كثير وخطير ويعرض أموال الدولة وأرواح أفرادها للضياع

ثمانية معامل

ومصلحة الكيمياء ليست مجموعة من المكاتب يجلس خلفها عدد من الموظفين بل هي عدة معامل يقوم فيها الأخصائيون بمختلف التجارب العلمية اللازمة لاختبار المواد التي نستعملها في حياتنا العامة. وتتكون المصلحة من ثمانية معامل أولها لاختبار مواد البناء من أحجار وملاط؛ والثاني خاص بالمنسوجات على اختلاف أنواعها وبه فرع لفحص متانة الورق؛ وقسم ثالث لفحص الأصباغ بأنواعها؛ واختص قسم رابع بفحص الزيوت النباتية والمواد التي تدخل فيه كصناعة الصابون والشمع والجليسرين. ويمتاز معمل المعادن بما يحتويه من أفران ترتفع حرارتها إلى درجة عالية تكفي لصهر أي معدن. وهذه الأفران مصنوعة من مواد تمنع نفوذ الحرارة إلى باقي أجزاء الحجرة. ففي استطاعتك أن تجلس إلى جوار الفرن دون أن تشعر بأن حرارته 500 أو 600 درجة مئوية. واختبار المعادن مسألة دقيقة فمنها الثمين ومنها الرخيص ووسائل الغش فيها كثيرة

ولمواد الوقود قسمان: أحدهما خاص باختبار المواد السائلة كالنفط والبنزين، والثاني خاص بالمواد الصلبة كالفحم. وقد انضم إلى معمل القاهرة أخيراً معمل الدخان الذي كان في الإسكندرية ويقوم بعمل الأبحاث اللازمة لفحص المنتجات، سواء أكان لمعرفة جودتها وصلاحيتها أم لإجابة مصلحة الجمارك إلى طلباتها.

بين المخبار والمجهر

ويمكن تلخيص عمليات الفحص التي تتبع في هذا المعمل بتقسيمها إلى ثلاثة أنواع وهي

التحليل الكيميائي والميكروسكوبي والاختبار الطبيعي. ويكاد النوع الأول يسود جميع غرف المعمل فلم أدخل غرفة واحدة إلا شاهدت فيها أنابيب الاختبار وزجاجات المواد الكيميائية. فإن الفحص الكيميائي يبين تركيب المواد فينكشف ما فيها من مواد غريبة ضارة. فإذا قدم لنا البائع قطعة قماش وقال إنها صوف نقي يمكننا أن نعرف مقدار صحة كلامه بأن نضع قطعة من هذا القماش في صودا بدرجة 5 % ثم نغليها على النار فيذوب كل الصوف. فإذا كان القماش يحتوي أي مادة غريبة كالقطن مثلاً فإنها تبقى، وبعملية حسابية بسيطة يمكننا أن نعرف كمية القطن الموجودة في القماش.

ويستعمل التحليل الميكروسكوبي غالباً في قسمي المنسوجات والزيوت النباتية. فالفحص تحت المجهر يمكننا أن نعرف عدد الخيوط في البوصة المربعة فيحدد الفاحص طول البوصة على القماش ثم يضعه تحت المجهر الذي أعد لتسهيل هذه العملية الدقيقة ويقدر أخصائيو المصلحة عدد خيوط القماش الجيد بخمسين فتلة في البوصة سواء أكان ذلك في اللحمة أم في السدى.

وبالمجهر أيضاً يمكننا أن نعرف نوع النسيج إذا كان قطنيَّاً أو صوفيَّاً أو تيليَّاً فلكل فتلة مميزاتها، ففتلة القطن معتدلة بينما فتلة التيل ملتوية إلى غير ذلك من الصفات التي درسها الأخصائيون وشاهدوها في اختباراتهم وتجاربهم

وإذا مر الضوء في سائل فإنه ينكسر بزاوية خاصة تسمى معامل الانكسار ولذلك تختبر الزيوت بمراقبة معامل انكسار الضوء فيها داخل مجهر خاص قسمت زواياه بطرقة خاصة تبين معامل انكساره وبالتالي توضح جودة الزيت أو رداءته

شد وضغط وتماسك

وللتحليل الطبيعي عدة طرق يختبر بواسطتها قوة مقاومة المادة للطبيعة، ويكاد هذا النوع يسيطر على كل الاختبارات في معامل مصلحة الكيمياء. فمواد البناء مثلاً تتعرض في الطبيعة للشد والضغط والتماسك، ولذلك يجب أن تختبر من هذه النواحي الثلاث.

وقوة التماسك من العوامل المهمة في تقدير صلاحية مواد البناء. فالأسمنت تبعاً للمبادئ المعمول بها في المصلحة يجب أن يبدأ تماسكه بعد نصف ساعة من بنائه، وأن يتم بعد عشرة ساعات. ويقول الفنيون إن كمية الماء التي تخلط بالأسمنت لا يجوز أن تزيد على 8 %

من حجم المخلوط وإلا ضعفت قوة مقاومة الأسمنت وسالت مواده فتركت المخلوط رملاً وزلطاً فقط

وتتأثر الملابس بأشعة الشمس، ولذلك تختبر المصلحة تأثير هذه الأشعة على القماش فتعرض جزءاً منه مدة 5 إلى 7 أيام تبعاً لحالة الجو ثم تلاحظ ما يبدو عليها من تغيير.

وتؤثر الرطوبة على المنسوجات فتقوى القماش وتزيد ثقله، ولذلك يحتفظ قسم المنسوجات بغرفة لها درجة رطوبة ثابتة. فلاختبار عينات من القماش تبيت العينة ليلة في تلك الغرفة لتأخذ درجة رطوبتها. ووزن القماش من الاختبارات المهمة فقد يكون عدد الفتل كبيراً ولكنها رفيعة ضعيفة. وتعتبر البفتة السمراء جيدة إذا كان وزن الياردة المربعة منها 160 جراماً وقوة الشد على طولها أو عرضها 350 رطلاً

ويعتبر زيت النفط (البترول) من أحسن أنواع الوقود ويكفي جرام واحد منه لإنتاج 10 آلاف كالورى وهو الوحدة المستعملة لرفع درجة حرارة جرام واحد درجة واحدة سنتيجراد. ويمكن غش النفط بإضافة المازوت أو النفط الوسخ إليه. ويمتاز البترول عن الفحم الحجري بأن الأخير يترك رماداً. ولذلك يضع قسم الوقود أكبر كمية يمكن قبولها للرماد في الفحم وهي 5 % وهو يتأثر أيضاً بالرطوبة ولذلك يجب ألا تزيد درجة رطوبته على 5 % وتختبر مواد الوقود بمعرفة القيم الحرارية الناتجة من المادة

ثلاث أنابيب

ويلاحظ الزائر لهذه المعامل ثلاث أنابيب ملونة تسير في جميع الغرف تقريباً. فأما الأنبوبة البيضاء فهي خاصة بتوصيل الهواء المضغوط إلى أجهزة خاصة تحضر فيها الغازات. فإذا أريد تنقية المكان من هذا الغاز فتحت هذه الأنبوبة فطردت الغازات الغريبة وتستطيع هذه الأنبوبة أيضاً أن تقدم لمن يشاء هواء نقياً

الأنبوبة الحمراء خاصة بغاز الاستصباح الذي يشعل في التجارب المختلفة وقد صنع من اللون الأحمر ليكون إنذاراً للعمال على أنها أنبوبة خطرة. والأنبوبة الثالثة خضراء وهي خاصة بالماء. ويسيطر على هذه الأنابيب عدة محابس كما أن استعمال أنبوبتي الهواء

أو الغاز يضاء له مصباح أحمر إلى جوارهما
وللمصلحة مكتبة كبيرة فخمة على أحدث طراز يتبع أمينها أسهل الوسائل لتبسيط إجراءات
البحث عن المراجع المطلوبة وصرفها. وقد استعمل لذلك تنظيم الكتب على أحدث طريقة أمريكية، فرتب فهارس الكتب في لوحات طويلة من الحديد مما يسهل على الباحث العثور على كتابه بسرعة. والمجلات هي أكثر المجلدات الموجودة في المكتبة. فإن العلم سريع التجدد والتغير. ولذلك كان الاطلاع على المجلات العلمية الدورية خير من الكتب للباحث المطلع

فوزي جبر الشتوي

رسالة الشعر

الشاطئ الخالي

للأستاذ خليل شيبوب

الشاطئ اليوم خال لا قطين به ... إلا بقايا من الأشباح ترتفق
أما الألي مرحوا فيه فإنهم ... سرعان ما اجتمعوا فيه وما افترقوا
كانوا جماعات لهو جد جدهم ... حيناً ولكنهم في العيش ما اتفقوا
لم يمنحوه هواهم مثلما فعلت ... نفسي التي برشاش الماء تعتلق
أخليته لهمُ حتى إذا ارتحلوا ... عنه إذا بي إليه الآن أنطلق
تبسط الرمل فيه اليوم وانتعشت ... فيه الصخور عليها الموج يندفق
وعاد ما كان من أمن ومن دعة ... إليه مذ زال عنه الطيش والنزق
العين آخذة في سمته رَتَلاً ... من التعاريج تبدو ثم تنغلق
والصخر يصغي إلى الأمواج تنشده ... لحن الطبيعة فيه الحب متسق
حلته مسترسلات العشب مسبلة ... غدائراً تلتقي فيه وتفترق
والأفق غشته أستار وأعمدة ... حمراء ماج عليها غيمه البقق
قصر من الفتن الكبرى تيممه ... شمس الأصيل بها الأكوان تأتلق
كأنما الريح لما رف ناسمها ... سالت حنينا بها أرواح من عشقوا
حملت حبي إليه واعتزلت به ... عن كل سامعة تصغي وتسترق
وفي فؤاديَ رسم ليس يبصره ... سواي والكون حولي صامت فَرق
كأنني عابد حانٍ على صنم ... أخفاه بين الضلوع الحب والفرق
إني تحدثني عن مقلتيك هنا ... هذى البحار وهذى الشمس والأفق
وعن جبينك مرفوعاً تضئ به ... طهارة الحسن مزهواً بها الخلق
أراك في قسمات الغيب سابحة ... يفج حولك فجر الحب والشفق
في واهج من هيولى النور منعكس ... منى بها شهداء الحب قد صعقوا
مجلوة بنشيد السعد لحنه ... معنى الرجاء الذي في الغيب يصطفق
يا جنة فقدت عيني مباهجها ... وفي يدي لم يزل من نشرها عبق
هل ساعة ومضت بالسعد راجعة ... أم انقضت وتقاضي نورها الغسق
صبرت لكن هذا الصمت أقلقني ... حتى تناهب عمري الصبر والقلق
إن الأماني في صدري قد انتحرت ... فأين أدفنها والصدر مختنق
لم يبق من مهجتي الحرى سوى رمق ... ينحل فيها ولن يستمسك الرمق
فليتني لم أكن حياً وتأكلني ... نار لعينيك فيها بت أحترق
يا أيها الشاطئ الخالي رحبت مدى ... ولا أطاف به التكدير والرنق
أراك منى أدنى من عرفت لذا ... عمري عليك بما لاقيت ينطبق
كم اجتنبت الورى ما لي ومالهم ... وكم تمنيت أن الناس ما خلقوا
إني قطعت مسافات وصلت بها ... إلى مساء حياتي وهي تستبق
أرى الظلام بما فيه يهددني ... وفي الظلام يطول الهم والأرق
وشاطئ النفس مهجور قد انطمست ... معالم الأنس فيه وأمحى الأفق
والحب بحر صفا لي برهة فإذا ... وراء ذاك الصفا التيه والغرق
يا أيها الشاطئ الخالي هنا وقفت ... بي الحياة على آثار من سبقوا
ما عاد غيرك لي من أستريح له ... وليس غيري قطين فيك يلتحق
مخضتك الود صرفاً فاجزني مقة ... فإنني بك قلبي مولع ومق

(الإسكندرية)
خليل شيبوب
النسمات. . .
للأستاذ حسن كامل الصيرفي
خبِّريني يا نُسيْمات الأصيلْ ... ما الذي نِلتِ من النهر الطروب؟
قد لَثمتِ الماء في رفقٍ الخليل ... ولَثمتِ الزورق الجاري اللَّعوبْ
فارتمى الموج على الشاطئ من فَرْطِ الهوى
وتهادى الزورقُ السبَّاقُ حيناً والتوى!
ومَرَرْتِ الآن بالأزهار مَرَّا ... فنفحْتِ الجوَّ من طيبِكَّ لِينَا
ولَثمتِ. كم لَثمتِ الآن زهرَا ... فانثنى خجلان أو فرحان حينا
فزعَ الطيرُ لِمَا يَعْرُو الفَنَنْ
فمضى يشدو بألحان الشَّجنْ
أنتِ ما ألطفكِ الآن! وما أعذب لَثْمكْ!
أَلْثُميها في حنانٍ، ليتني رُوحٌ للَثْمكْ!
تتلقَّاك بأنفاسٍ طروبهْ
وتحيِّيكِ تحياتٍ غريبهْ
وهي تصغي لحديثي في سكون ووداعَهْ
مثل طفلٍ مطمئنٍّ بين أحلام الرضاعَهْ
فإذا ما حَدَّثْتِني فهي كالجدول في الروض الأريضْ
والمراعى
نَغَمُ القلبِ لدى الحُلْمِ وأنغامُ القريضْ
في سماعي
خبِّرينى! خبِّرينى يا نُسَيْماتِ الأصيلْ ... ما الذي نِلْتِ من الزهر ومِنَّا؟
هل سَلَبْتِ الزهرَ شيئاً بينما كان يميلْ ... واختطفتِ يا تُرَى لما ابتسمنا
بعضَ أغراضِكِ؟ ماذا
نِلْتِه من كلِّ هذا؟
هزأتْ بي النسماتْ ... فسألتُ المَوَجاتْ
وسألتُ الزَّهَرات ... كلَّها بي هازئاتْ
خبِّريني أنت يا مَنْ ... سبَّحَ القلبُ بحُبِّكْ
ما الذي نالتْهُ هاتيك النسائمْ
منكِ؟ ها ثَغْرُكِ وضَّاءٌ وباسِمْ
خبِّرينى في صفاءٍ ... خبِّرينى إيْ وربِّكْ!
لم تَنَلْ شيئاً، ومَنْ منَّا ينالْ!؟
كلُّ ما في الحبِّ أطيافُ خيالْ. . .!
حسن كامل الصيرفي
على الشاطئ
للأستاذ مصطفى علي عبد الرحمن
يا حبيبي أنا في الثغر غريبُ ... قست الأيام لو تدرى عَلَيْهِ
قلبه من حرقة الوجد يذوب ... وتوارت بَسمةٌ في شفتيه
ذاهلٌ تلقاه كالطير الجريح ... ماتت الأنغام في أوكارهِ
ذابلٌ كالعود يغدو ويروح ... عطّلته الريحُ من أزهارهِ
أين ما لاقيت من صفو الليال؟
في ربيع العمر والدنيا ابتسامْ
والأماني الزهر في دَلٍّ حيالي
ضاحكات راقصات للغرامْ
وأنا في دوحة الحب أغنى ... أسرق الألحان من سحر العيون
بين صفو ونعيم وتمنى ... آهِ. قد طال إلى الماضي حنيني
يا حبيبي ها هنا فوق الرمالِ ... مسرح للغيد يَسبى الناظرينْ
فوقه يرتع أرباب الجمالِ ... في ظلال الصفو في رفقٍ ولينْ

بيد أني لمْ أجد فيه لعيني
في معاني الحسن من معنى حبيبِ
طالما أنت غريب الدار عنى
فأنا الظامئ في قفر جديبِ
أتغنى بك إذا أنت نشيد ... تتمشى في دمي أنغامهُ
وأُمني النفس بالماضي يعود ... أتُرى تهفو لنا أيامه؟
(الإسكندرية)
مصطفى علي عبد الرحمن
رسالة الفن
دراسات في الفن
هي مرة واحدة
للأستاذ عزيز أحمد فهمي
لي صديق نحات انكسر له تمثال فحزن عليه، فأردت أن أواسيه فقلت له: ألا تستطيع أن تعوضه بغيره؟ فقال لي: قد أوفق إلى ما هو خير منه، ولكني يائس من التوفيق إليه هو. وحدثت بذلك صديقاً لي آخر شاعراً فقال لي: إني مثل صاحبك لو فقدت قصيدة عجزت عن إعادة إرسالها. فاستطلعت الرأي عند صاحب لنا صحافي فنصحني بالخمود عنها لأنها مسألة مغربة. فأهملتها ثم نسيتها ولم أذكرها في جد إلا حين توكلت على الله لأعد لقراء الرسالة حديث هذا الأسبوع. فقد نادتني إليها من جديد وهي تسألني: أما وجدت مخرجاً لصديقك الذي وقع من التمثال فانكسر؟ فأطرقت أبحث عن المخرج فإذا بصديقي الشاعر يتهادى أمام خيالي وعلى شفتيه الساخرتين ابتسامة أعرفها وأستطيب مراقصتها بروحي التي تستجيب إلى صفائه تراحماً وحناناً. قال لي: كنت بالأمس نشوان استخفتني وحشة ذات بهجة فانطلق لساني بشعر طربت له بالأمس كل الطرب ولكني لم أسجله، ولما أصبحت وأردت أن أستعيده لم أسترجع منه إلا أشباحاً فكيف السبيل إليه؟ أو أنت لا تزال عاجزاً مع صديقك النحات لما تجمعا حطام تمثال؟
وصديقاي الشاعر والنحات عزيزان علي معزة كل فنان فلا أقل من الترحيب أستقبل به مسألتهما هذه فهي مما يعرض للفنانين جميعاً، ولا ريب أن استعراضها وتفتيقها سيظهران لنا بعض ما نحب أن نقف عليه من أسرار الفن ومراحل تخلقه في نفوس الفنانين
ولنبدأ إذن بتجديد هذه المسألة حتى لا نتيه فيها كما نتيه أحياناً في تلافيف هذا الفن وثناياه المتكسرة أنوارها بعضها على بعض والتي قد تضل من يجوس خلالها، ولكنه على أي حال الضلال المأمون المعجب
مسألتنا هي: هل يمكن إنتاج القطعة الفنية نفسها مرتين؟
ولكي نقرب هذه المسألة من أذهان المتباعدين عنها، والذين يستغربونها نطرحها هي نفسها، ولكن من ناحية لينة لا يعسر هضمها على ذهن من الأذهان. فنقول: هل تستطيع المرأة أن تلد طفلها نفسه مرتين؟! وسيجزع المستغربون حين يروننا قد قلبنا مسألتنا هذا القلب، وسيستطيع واحد منهم إذا أعانه الله أن يطبق فمه الذي انفتح لتتفجر منه الدهشة منزاحة عن صدره، وسيفتح فمه بعد ذلك ليسيل منه سؤال من أسئلة المستغربين فيقول: وما للولادة والفن؟ وما أطيب عندنا من رد لهفته إذ نقول إن الإنتاج الفني ليس شيئاً غير النسل الروحي كما أن الولادة إنجاب حيواني. . . وكما أن الولادة لا تكون إلا باتحاد عنصري الجنس المختلفين وهما الذكر والأنثى، فإن الإنتاج الفني لا يكون إلا باتحاد عنصري الجنس الفني وهما نفس الفنان والحياة نفسها. وكما أن الولادة لا تحدث إلا بعد وقت يقضيه الجنين في بطن أمه، فإن الإنتاج الفني لا يحدث إلا بعد وقت يقضيه الجنين الفني في نفس الفنان، وكما أن الولادة إذا حدثت قبل أن يكتمل تخليق الجنين في بطن أمه لم تكن إلا إجهاضاً، ولم يكن الوليد إلا سقطاً ناقصاً مشوهاً مضطرباً، فإن الإنتاج الفني إذا حدث قبل أن يكتمل تخليق الجنين الفني في نفس الفنان لم يكن إلا إجهاضاً، ولم يكن الفن إلا سقطاً ناقصاً مشوهاً مضطرباً. وكما أن الطفل بعد ولادته قد يعيش وينمو برعاية أمه أولاً، وبقدرته على الحياة. ثانياً؛ وقد يموت لضعفه بعد قليل أو كثير، فإن الفن قد يعيش وينمو برعاية

صاحبه أولاً، وبقدرته على الحياة ثانياً؛ وقد يموت لضعفه بعد قليل أو كثير. وكما أن المولود إذا نما وترعرع أنجب هو أيضاً مواليد ومواليد، فإذا مات خلد في أبنائه وأحفاده، فإن الفن إذا نما وترعرع أنجب هو أيضاً مواليد ومواليد، فإذا مات خلد في أبنائه وأحفاده. وكما أن هناك أمراضاً تناسلية تصيب الأجنة وتظهر في المواليد، فإن هناك أمراضاً روحية تنحرف بالفنون وتنفث فيها السموم؛ وكما أن هناك أمهات خبيثات النظر ينسلن لأزواجهن أبناء غيرهم، فإن هناك نفوساً فنية خبيثة النظر تذل لغير الروح ودواعيها، فتنسب للفن ما ليس من الفن وما يصرخ الفن بإنكاره صراخاً له آذان خاصة تسمعه. وكما أن في الأمهات مزواجات، فللواحدة منهن ولد من كل أب، ولكل ولد من أولادها شبه، فإن من الفنانين من يتنقلون بين الأحاسيس والفكر فيتشكل إنتاجهم ويتلون. وكما أن في الأمهات ذات عصمة وقناعة بالتجربة الواحدة، فلأفراد نسلها ملامح مميزة متشابهة، فإن من الفنانين من ينحصر اتجاههم إلى ناحية واحدة يضربون فيها بجُمّاع
أرواحهم، فلإنتاجهم طابع هذا الاتجاه وملامحه المميزة المتشابهة. وكما أنه لم يحدث إلا مرة واحدة أن أنجبت عذراء وليداً مرتجلاً ملهماً، فكان مسيحاً ولم يمت كما يموت الناس وإنما رفع؛ فإنه لم يحدث إلا مرة واحدة أن ارتجل نبي فناملهما فكان قرآناً وخلد. وبما أن هذه الظواهر جميعاً قد تماثلت وتعادلت في الولادة وفي الإنتاج الفني، فإنها لابد أن تتشابه وتتعادل فيهما من حيث أنها لا يمكن أن تحدث في كل دفعة إلا مرة واحدة.

ونسكت نحن بعد أن نقول هذا كله، وننتظر في سكتتنا أن نرى شيئاً من علائم الفهم يتبدى على وجه صاحبنا المستغرب فإذا به مصغ إلينا في صمتنا كما كان مصغياً إلينا أثناء كلامنا فلا نستطيع أن نملل هذا إلا بأنه يفهم من الصمت ما يفهمه من الكلام. ولما كنا مؤمنين بأنه يمتنع عليه فهم الصمت امتناعاً لوجود كما يقول النحاة فهو من غير شك لم يفهم من كلامنا شيئاً. . . أمرنا إلى الله! لنستفهمه مقدار إدراكه لعله يوفر علينا الإعادة من جديد ولنسأله: ما رأيك يا مولانا فيما كنا نقول؟ ها هو ذا (يا فرحتنا) يسألنا: ماذا كنتم تقولون؟

- استعنا عليك وعلى أنفسنا بالله. . . اسمع؟ هل أنت فنان؟

- نعم.

- وما فن حضرتك؟

- الكتابة. . .

- حسن. قل لنا الآن ما الذي يحدث لك قبل أن تكتب؟ ألا تشعر بأعراض الحمل والوضع؟. .

- هه؟ ماذا جرى لعقولكم؟. أنكم مجانين

- هذا شئ لا نستطيع أن ننكره، وإن كنت لا تستطيع أن تثبته، وهو على أي حال ليس يعنينا الآن قدر ما تعنينا هذه الأعراض التي نسألك عنها والتي نريد أن نعرف إذا كنت تشعر بها قبل (إحداث) إنتاجك الفني، أو أنك تنتجه هكذا، فهو إما أن يكون وحياً، أو لا يكون فناً على الإطلاق

- أنا لا أشعر بأعراض، ولا يمكن أن تكون للكتابة أعراض إلا إذا كانت مرضاً

- كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا تنزل عليه الوحي ارتجف وتصبب عرقه وغاب. فكانت هذه هي أعراض الوحي: الارتجاف وتصبب العرق عارضان بدنيان، والغياب أو (الانئخاذ) عارض روحي، وقد كان في هذه الأعراض من العنف وحدة المفاجأة ما يناسب الإعجاز الذي يميز القرآن، ولكل فن بعد ذلك ما يناسب قدره من الأعراض، فكم ترتجف حضرتك قبل أن تكتب وكم تتصبب عرقاً، وكم تغيب عن هذه الدنيا؟

- إن شيئاً من هذا لا يحدث لي.

- إذن فأنت لست فناناً، فالفنانون يحدث لهم هذا. كلهم: الكاتب، والشاعر، والموسيقي، والرسام، والنحات، والممثل حين يرسم حدود دوره، ويفصل ملامحه. فالكاتب، إذا رضينا به مثلاً يعيش وهو مرهف الحس مشحوذ العقل كغيره من الفنانين فيرى في الحياة ما يؤثر فيها تأثيراً خاصاً يحدث انفعالاً نفسياً خاصاً، فإذا توالى عليه حدوث هذا الانفعال النفسي تربى عنده ما يسميه علماء النفس بالوجدان، وهم يعرفونه بأنه استجابة باللذة أو بالألم لما يحدث في النفس من الشعور، فإذا تجمعت

عدة مؤثرات حول هدف نفسي واحد ولوّنها وجدان واحد بلون واحد فقد تخلقت في النفس عاطفة تحيط بهذا الهدف، ولا تلبث هذه العاطفة تنمو في النفس وتنمو حتى لا يعود حبسها ميسوراً فتتفجر إما فناً منظماً منسقاً، وإما دوياً روحياً لا نظام فيه وإن كان فيه كل ما في الفن أو ما يزيد على الفن بلاغه في التعبير. ففصول الألم والحزن التي كتبها كتاب الأرض جميعاً تخفض الرأس أمام أي دمعه صادقة خشوعاً وإجلالاً. . . فهل كتبت يوماً يا أستاذ ما كان بعض دموعك؟ . . .

- وماذا يصنع الموسيقي؟

- ما يفعله الأديب، وكل ما بينه وبين الأديب من فرق أن الأديب يعبر عن نفسه بالكلام، والموسيقي يعبر عن نفسه بالنغم، ولعلك سمعت أنه كان للشاعر من شعراء الماضي راوية.

- نعم. وأحسب الشعراء كانوا يختارون رواتهم ممن قويت حافظتهم.

- كلا. وإنما كان الأمر على العكس من ذلك، فقد كان الرواة هم الذين يختارون شعرائهم، فالرواة لهم من الاستعداد الفني حظ كبير، وهم هواة حقيقيون. لعل الواحد منهم كان يعين شاعره على الحياة. ولقد كان الواحد منهم يشتري صاحبه بالدنيا وما فيها ويلزمه ويتابعه لا لشيء إلا أن ينعم منه بساعات الصفاء التي يتيحها له الزمن. وهو من شدة لهفته وحبه لصاحبه يحفظ عنه ما يقول لا يدفعه إلى ذلك إلا حرصه على هذا الكنز وخشية أن يضيع أو يندثر. وقد كان يمر الوقت الطويل أو القصير فينسى الشاعر شعره ويعجز عن إعادته. أما الراوية فذاكِرُهُ ومعيده كُلما أراد إعادته، فهو من الشاعر كالجارية، ومن الشعر كالمربية يصونه ويدلله. ولعلك سمعت أن من المغنين من كان لهم أيضاً رواة، فكان المغني يطلق ما يهتاج في نفسه من الأحاسيس غناء لا يعبأ بأنغامه، ولا يرتب ألحانه، وإنما هو ينفث الزاخر في نفسه من العواطف، وكان الراوية يلقف منه فنه هذا ويرصده في نفسه ويثبته تثبيتاً، فإذا نزع المغني بعد ذلك إلى اللحن وجده عند راويته ولم يجده عند نفسه، ذلك أن الفن أَنَّهُ لا تصدر إلا مع الموجدة، فمتى صدرت لم يكن بد لترجيعها من موجدة جديدة، وإلا كانت في حرارة الذكرى ولم تكن في استعار النازلة

- إذن فأنت تنكر على الفنانين استلهام ماضيهم

- لست أنكر هذا ولا أستقبحه، ولكني أحفظ للفن المرسل مكانه المتسامي على مكان الفن المختزن، على أني لا أستطيع أن أخفض من قدر هذا الفن المختزن فقد يكون فيه من العنف والقوة ما في غضبة الحليم من الشدة والسعة. ومهما يكن الأمر فإن هذا خارج عن بحثنا، ومن الخير لنا أن نعود إلى ما كنا فيه. فهل هناك شيء تريد أن تستوضحه؟

- إنك قلت إن الفن إذا أخرج قبل أن يكتمل في نفس الفنان تخليقه لم يكن إلا سقطاً. فماذا تقصد بهذا؟

- لا ريب أنك قرأت لكتاب محببين إليك فصولاً أنكرتها عليهم. هذه الفصول كتبوها وهم كارهون لأنهم لم يكونوا استكملوها في نفوسهم ولكنهم لأسباب يعلمونها هم أخرجوها فكان هذا منهم إجهاضاً، وكذلك الأمر مع الشعراء والموسيقيين والنحاتين والرسامين وغيرهم من أصحاب الفنون

- هذا حسن. وكيف تتوالد الفنون بعد ذلك؟

- هذه الفنون مخلوقات حية لا أجسام لها، وهي تعيش فيما بين النفوس والأرواح تغازلها وتعاشقها، فإذا طاب فن لروح تزاوجا وكان من نسلهما بعد ذلك فن ونفس جديدان في كل منهما ملامح من الفن القديم وملامح من النفس الأولى. ألم تسمع بالمدارس الفنية والمذاهب الفنية يا أخي؟. . . هذه هي ولكنا نقول عنها أسر وقبائل وشعوب

- يا سلام. . . وما هي هذه الأمراض الروحية التي تنحرف بالفنون وتنفث فيها السموم؟

- للروح أمراض كثيرة كما أن للبدن أمراضاً كثيرة. وأقسى أمراض الروح وأشدها فتكاً والعياذ بالله المرض الأصفر

- وهل تصاب الأرواح بالكوليرا أيضاً كالأجسام؟

- وما من فرق غير أن كوليرا الروح معنوية لا يعرفها الأطباء!

- وكيف عرفت أنت وكيف ميزت لونها؟
- لست أدري. ولكني ساءلت نفسي يوما عن حكمة الله في الصفرة يلون بها الموت والذهب وما بينهما من الخبث والشر. ألم تر صفرة الذهب؟ أو لو تر صفرة الموت؟ أو لم تر مسكيناً خبيثاً خداعاً منافقاً يصفر وهو يغش الناس ويكذب عليهم؟ أو لم تحاول يوماً أن تلمح بين كل صفرة وصفرة من هذه. . . رابطة؟
- أوه! أنا فاهم. أنت تريد أن تقول إن بعض الفنانين تنتابهم هذه الصفرة فتنتاب فنونهم بالوراثة
- آه لو أن لي حق الإشارة بمنح النياشين!
- أشكرك واحسبني أستطيع بعد ذلك أن أجري في الموازنة بين الفن وهو المخلوق الروحي كما قلت، وبين الناس وهم المخلوقات المجسدة، على هذا القياس الذي رسمته لي
- وأحسبك بعد ذلك ستقول معي إن الفن لا يمكن إنتاجه إلا مرة واحدة
وعدت إلى صديقي النحات والشاعر وقلت لهما: يا صاحبيّ أطلبا العوض من الله فأنتما عاجزان عن استرجاع ما ضيعتما، فلا أنت معيد تمثالك ولا أنت معيد قصيدتك

عزيز أحمد فهمي

القصص

من الأدب الرمزي

ورقة من السماء

للقصصي الدانمركي أندرسن

بقلم السيد عارف قياسة

في أوج السماء الرفيع، في الهواء النقي الندي، طار ملاك بزهرة من رياض الفردوس. ولما لثمها أسقط ورقة منها على الثرى وسط الغابة، فما لبثت أن اتخذت جذوراً، ونمت وترعرعت بين الحشائش الأخرى. ولكن أنواع النبات لم تشأ أن تعترف بأنها واحدة منها. . . فكانت تقول: (ما أغرب هذا الغرس. .!) وكان الحَسَك والقُرَّاص أول من رقص على ثغره الهزء، ولمع في عينيه السخر. كان الحسك يقول باحتقار: (من أين أتى هذا. . .؟ هذه بذرة ضئيلة من البقول لم نر أسرع منها نمواً. . . أمن اللائق ذلك. .؟ وهل يدور في خلدها أنا نسندها حين تلويها كف الهواء. . .؟)

وجاء الشتاء، وغمر الثلج محيا البسيطة، ونفض الغرس السماوي على الثلج بهاء رائعاً، ورواء ناصعاً، كأن شعاعاً زاهياً من الشمس رقص تحت حواشيه، فأنارها بفيض من لألائه. . .

وأتى الربيع الضحوك، وحمل الغرس زهرة ما رأت العين أنصع منها بهجة، ولا أبرع فتوناً. . .

وسمع عنها أستاذ علم النبات الذائع الصيت في البلاد، فخف إليها وشهادته الرفيعة تشهد بعلمه الجم واطلاعه الرحيب ومعرفته الغزيرة. وتأمل الغرس بإعجاب، وحلله وذاق من أوراقه

لم يكن ليشبه ما أبصرته عيناه من أعاشيب؛ وما كان في مقدوره أن يرده إلى فصيلته أو نوعه. فلم يتمالك أخيراً أن قال: (هو غرس هجين. . . هو نبات فذ غريب؛ ذلك لا يطَّرد على قاعدة، ولا يجري على قياس). وردد الحَسَك والقُرَّاص: (ذلك لا يطَّرد على قاعدة، ولا يجري على قياس). ورأت الأشجار الفارعة الغليظة وسمعت ما كان، فلم تفه بخير ولا

شر، وذلك عين الحكمة حين ترين الغباوة على الأذهان

ودلفت إلى الغابة فتاة فقيرة، عفة الضمير، طاهرة الأذيال، نقية الفؤاد، عامرة القلب بالإيمان، لا تملك من دنياها غير إنجيل عتيق يخيل إليها أن الله يحدثها من خلاله. . . علمت منه شرور الناس، وخبثهم السافل، ولكنها عرفت أيضاً أن علينا - حين نتلقى جورهم وعذابهم، ونقاسي سخطهم وسخريتهم - أن نذكر يسوع الطاهر، وأن يكون لنا فيه أسوة حسنة، وأن نردد معه قوله: (اللهم اغفر لهم، فإنهم لا يعلمون ما يصنعون)

ووقفت الفتاة أمام الغرس العجيب، وقد كانت زهرته تضمخ الهواء بأريج عذب لذيذ يترقرق في الأرواح، وتمض في الشمس كطاقة من النيران الصناعية

وعندما دغدغ النسيم أوراقها رنت في أذنها ألحان علوية، وأنغام سماوية

وظلت الفتاة في نشوة من اللذة، وغمرة من الذهول البهيج أمام هذه الأعجوبة. . . .ومالت برأسها نحو الغرس. . . لتتأمله عن كثب. . . وتنشق أنفاسه الندية العطرة وشعرت بقلبها ينتعش ويتفتح. . . وبذهنها يستضيء بنور الحكمة الإلهية. ومدت يدها، وقطفت الزهرة، وفؤادها خافق بالسرور. ولكنها فكرت في أن في ذلك بعض السوء، وأن نضرت الزهرة ستذوى، وجمالها سيمَّحى. فلم تأخذ غير وريقة خضراء وضعتها بين إنجيلها، حيث ظلت رفافة الطراوة، بديعة الاخضرار

وتعاقبت الأسابيع، ووضع الإنجيل والورقة تحت رأس الفتاة في تابوتها واستراحت الفتاة فيه بسكون، وفي قسمات محياها البديع الوديع تلوح سعادة خلاصها من الغبار الأرضي، ودنوها من الخالق

وفي أثناء ذلك طفق الغرس ينمو ويزهر، والعصافير العابرة تنحني أمامه بتجلة واحترام

وهمس الحسك والقرامي: (انظروا جيداً هذا الأجنبي. . . وهل يدرون لماذا يسفحون عبرة أعينهم ويريقون ماء أوجههم؟ أبداً لا نحذو حذوهم الغبي)

حتى دويبات الغابة السمجة، فقد كانت تبصق أمام الغرس الساقط من أوج السماء.

واقتلع راعي الخنازير، وهو يضم حِزم العوسج ليشعل ناره، عُلَّيْقاً وحسكاً وقُرّاصاً، وكذلك الغرس الوسيم بجذوره وقال في نفسه: (كل ذلك لا يصلح لغير طهي الطعام.)

وكان ملك البلاد تغشي روحه كآبة سوداء، ما كان شيء ليقشع دياجيرها، ويبدد ظلماتها

فانطلق يلهو منهمكاً في مشاغل شعبه، ومطالعات آيات العباقرة المؤلفين، ثم آثار الكتاب التافهة الهزيلة. وما أجدى ذلك ولا عاد عليه بطائل.

حينذاك أحضر أحكم من في الكون، فأجاب أن لديه وسيلة لشفاء الملك وتنفيس كربه! ذلك أن يأتيه بزهرة سماوية نبتت في غابة من مملكته. وطفق يعرض أوصافها، ويسرد خصائصها. وعرف الغرس الذي أثار حب الاطلاع منذ هنيهة.

وقال الراعي في نفسه: (لقد اقتلعته وايم الحق منذ أمد بعيد، ولم يبق منه هشيم. وإلى هذا يقود الجهل)

وخجل الراعي من نفسه واحترس من أن يميط اللثام عما صنعت يداه. واختفى الغرس، ولم يبق منه غير ورقة ترف على رأس الفتاة الراقدة في قبرها، ولكن أحداً لا يعلم بذلك.

وجاء الملك بنفسه إلى الغابة ليتحقق من زوال الغرس. وقال: (هنا إذن قد ترعرع الغرس، فسيقدس المكان منذ الآن)

وأحاط المكان بسياج من الذهب، ووضع حراساً عليه. وكتب أستاذ علم النبات النابه عن صفات الغرس الإلهي بحثاً مطولاً بين فيه كل ما فقد بفقده. وغمر المليك بالذهب كل صفحة من صفحات المؤلف. ولكن المليك ما يزال محزون القلب ولم يجد لشجنه دواء، والحراس المساكين كان يلوي الألم بأفئدتهم في الغابة. . .

(حماه - سوريا)

عارف قياسة

من هنا ومن هناك

الفوهرر (فوزي القاوقجي)

(عن مجلة الباريسية)

نشرت مجلة الباريسية عدة فصول ممتعة عن بلاد العرب والرجال الذين يقودون الحركة العربية في هذه الأيام. وقد قدمت تلك الفصول بكلمة قالت فيها: إن هذه الحركة ذات الأثر الفعال في مركز الإمبراطورية البريطانية يقودها سبعة أشخاص كل منهم يعد نفسه أولى بالملك والزعامة في بلاد العرب. وقد نقلنا عنها في عددين سابقين ما كتبته عن الملك ابن السعود بعنوان (نابليون العرب). وما كتبته عن الأمير عبد الله بعنوان (هل يظفر الأمير عبد الله بملك فلسطين؟). واليوم ننقل عنها كلمة عن الثائر العربي فوزي القاوقجي حتى تكون لدى القارئ فكرة وافية عن هؤلاء الرجال الذين يتطلع إليهم العالم كلما ذكرت المشكلة العربية:

ليس في فلسطين من يجهل اسم فوزي القاوقجي. فهذا الرجل الذي تروى عنه القصص والأخبار العجيبة يعرفه كل عربي وكل يهودي، بل وكل بريطاني يمشي على

أرض فلسطين، بأنه ذلك البطل الوطني والثائر العربي الذي يخشى بأسه في تلك البلاد
وتدل الأخبار المستقاة من قسم المخابرات البريطانية على أن فوزي القاوقجي يقود جيشاً يتراوح عدده من ثلاثة إلى أربعة آلاف رجل. وهذا الجيش يهدد مواصلات الصحارى والجبال في فلسطين، ويقطع الطريق على من تحدثه نفسه بعبورها
ويعد أتباع هذا القائد من أشجع الرجال وأصبرهم على تحمل المشقات، وهم يستميتون في مقاومة عدوهم اللدود ما دام القاوقجي يشعل في نفوسهم نيران الحقد، ويتجنب كل موقعة مع القوى البريطانية من شأنها أن تؤدي إلى هزيمة
وقد استولت على نفسه عقيدة بأن القوة التي يقودها في فلسطين سيكون لها أثر في يوم من الأيام في رفع شأن الأمة المحمدية، أو إحياء مجد العرب، لذلك لا تطاوعه نفسه على استباق الحوادث والمخاطر بالظروف التي هي في انتظاره يوماً من الأيام.
ويعد القاوقجي مسئولاً عن إثارة حرب العصابات في فلسطين فيتسلل هؤلاء البدو الذين يقودهم في ظلام الليل إلى المدن، ويختفون كالأشباح عند ظهور الفجر تاركين ورائهم
المنازل المشتعلة بالنيران والأراضي المخربة، والجثث المضرجة بالدماء. وتعد هذه المظاهر المرعبة شاهداً صامتاً على أن القاوقجي ورجاله قد مروا بهذه المنطقة في المساء.
والقاوقجي رجل متوسط الطول عريض الأكتاف ملتف الساعدين جميل الصورة في كوفيته البيضاء والعقال الذي يلفه على رأسه هو وأتباعه، ولكن الملابس الإفرنجية قد تقلل من مظهره وتعطيه صورة أخرى.
ولقد قضى القاوقجي أيام شبابه في سوريا، وأرسل منها إلى القسطنطينية ليتدرب على الأعمال العسكرية بها. ولقد كان نشاطه وأعماله الحربية في إبان الحرب العالمية من الأعاجيب. ويقال إنه كان يقود فيلقاً من الجيش التركي. ويقال كذلك إنه انضم إلى الحلفاء وحارب مع الكولونيل لورنس. وسواء أكان هذا صحيحاً أو غير صحيح، فمما لا شك فيه أنه ما كادت الحرب تضع أوزارها حتى كان زعيم ثورة في تلك البلاد. وقد قبض عليه الفرنسيون ووضعوه في سجن جبل الدروز وقد حكمت عليه المحكمة العسكرية بالإعدام، ولكنه فر بأعجوبة قبل التنفيذ بساعات معدودات.
والقاوقجي يؤلف قوة منظمة تمثل الجهة الشمالية من فلسطين. وهو يعتقد ككل فوهرر في الشرق والغرب أنه وحده من دون ملوك العرب وأمرائها وشيوخها أحق الناس وأقدرهم على أن يكون الحاكم الأعظم للعرب بل ولعامة المسلمين
هتلر ليس نابليون
(بقلم المؤرخ الإنجليزي فيليب جواديللا)
في هتلر بعض مظاهر وصفات تدعوا إلى المقارنة بينه وبين نابليون. ولكن هل تصح المقارنة بين هتلر ونابليون؟
لقد كانت مواهب ذلك القائد الكورسيكي وانتصاراته الحربية جديرة بأن ترفعه إلى حيث يسود الأمة الفرنسية. ولم يظهر هتلر بعد شيئاً من مواهبه الحربية إذا كانت له مواهب في هذا الشأن. وهو ولا شك سيكون القائد المسئول في ألمانيا إذا نشبت نيران الحرب.
إن هذا الرجل الذي يتظاهر أمام العالم بعبادة القوة، لم يظهر كفاية حربية من أي نوع في أيام الحرب العظمى التي يمتحن بها الرجال. وكل ما هنالك أنه ارتقى فجأة إلى رتبة
جاويش
إن مواهب هتلر ولا شك تظهر في كثير من الشئون الاجتماعية والمدنية. ويزعم الألمان أنه خطيب لا يشق له غبار وأن لديه مقدرة عظيمة على استهواء الجماهير، وإن كان غيرهم لا يطيق تلك الخطب التي تبدو فيها صرخاته العصبية المزعجة وهو يتكلم عن معاهدات السلم أو يتعرض للاشتراكية أو اليهود
لم يكن نابليون فرنسياً خالصاً، وهو ولا شك من عنصر أقوى صلابة من العنصر الإيطالي، إلا أنه عاش لاتينياً طول حياته. لقد كان سريعاً نحو غايته طموحاً مدرباً على الحروب، منطقياً إلى أبعد حد، ميالاً إلى الانتقام، عصبيًّاً في بعض الظروف ولكنه على

الرغم من ذلك كان مسلحاً بدروع سميكة من الصبر وضبط النفس عند الملمات -
فهل توجد فروق أكثر من هذه بينه وبين ذلك الرجل المفتون بطبيعته، الذي يتولى
زمام الأمور في ألمانيا؟ وشتان بين خيالات العزلة والانفراد على القمم والجنون
العجيب بمسألة الدم والنشأة وحياة العزوبة - وبين تلك الحياة التي أخرجت قانون
نابليون العتيد، وقادت الجيوش المنتصرة في شتى الميادين، ولم يشغلها كل ذلك عن
الحب والمرح في أخطر الظروف
إننا لا نجد وسيلة للمقارنة بين تينك الشخصيتين المتناقضتين إلا في شئ واحد: وهو
استعمال القسوة التي تفرضها الضرورة على كل مستبد يساق إلى معاداة العالم. لقد
محا هتلر تشيكوسلوفاكية واجتاحها بغير رأفة، وذلك يذكرنا بما فعله نابليون في
أسبانيا، ولكن أسبانيا قد عاشت بعد نابليون
الحق أن نابليون أزعج العالم بمحاولته التوسع في الامتلاك ولكنه وقف عند حده. وهذه
نتيجة تنتظر كل من تحدثه نفسه بمثل ذلك العمل. لقد كانت جميع الأمم تنظر إلى
نابليون بعين الاحترام وهو إمبراطور لفرنسا؛ إلا أنه حينما أراد أن يضع يده على الأرض
الأوربية أخذت أوربا تجمع قواها شيئاً فشيئاً واستعدت لأن تقهر أكبر جيش في العالم
وأقدر جندي عرفه التاريخ. وعبر الأيام تحثنا بأن كل من تحدثه نفسه بأن يلعب دور
نابليون لابد أن يلاقيه في النهاية حظ نابليون.
لا جديد تحت الشمس - العالم منذ ألفي سنة
(عن مجلة دتش أندشو التي تصدر في برلين)
كان للإغريق والرومان مدفعية يرجع عهدها إلى أربعمائة سنة قبل الميلاد، وقد تقدموا
في رمي القذائف والنبال، فأصبحت تلقى إلى مئات الأمتار، واخترع ديونسيس آلة
لرمي النبال تستطيع أن تدور باستمرار فتلقي ما فيها بغير انقطاع.
واستطاع البيزنطيون أن يخترعوا طريقة لقذف النار، ولم يكن البارود قد اخترع بعد،
ولكنهم استطاعوا أن يسخروا القوى والآلات الموجودة في ذلك العهد لهذا الغرض،
وقد صنع قدماء الإغريق والرومان كل ما صنعوه في آماد طويلة، إذ أن السرعة التي
هي من سمات هذا العصر لم تكن معروفة في تلك العهود. ولم يكن أهلوها يعرفون
المثل القائل إن الوقت من ذهب، ولم يكن عندهم عمال ومصالح كما هو معهود الآن
وإذا كان القدماء لم يعرفوا الساعة كما نعرفها الآن فإنه كان لديهم الذكاء الكافي
لتقدير الوقت، ومع ذلك فقد استعمل قدماء المصريين ساعة الرمل والماء، وكان
الأطباء يحملونها عند فحص المرضى ليقدروا دقات القلب وسرعة النبض. واستطاعوا
كذلك أن يخترعوا ساعة تدق ساعات النهار جميعها مبتدئة من الساعة السادسة في
الصباح إلى السادسة بعد الظهر
وقد ألف كتاب في الجراحة لأطباء الجيش في مصر منذ ألفين وثمانمائة سنة قبل
الميلاد. وعرف الهنود في طب العيون عمليات القدح (إزالة الماء)، وعرفوا خياطة
المصران وإزالة الحصوة وذلك منذ سنة ألفين قبل الميلاد
وفي سنة ألفين قبل الميلاد وضع حمورابي قانوناً لتقدير أجر الأطباء وتحديد
مسئولياتهم. وكانوا يعرفون كثيراً من الكلمات المألوفة الآن مثل فن تدبير الصحة
والفيزيقيا والصيدلة والباثولجي والجراحة والسوداء والإسهال والروماتيزم وكثيراً غير
هذه الأسماء
أما أسماء العقاقير والأدوية فقد أخذنا أكثرها عن اللاتينيين كما هو معروف
وإلى اليوم يعتبر هيبوقراط رمزاً لعلم الطب. وإذا كان القدماء لا يعرفون
الميكروسكوب فقد كانوا يهتدون إلى كل شئ بفطنتهم ودقة حسهم
أما الأطعمة فقد كان ينقصهم الكثير من الأصناف المعروفة الآن كالبرتقال والليمون
والموز
والشاي والقهوة والسكر، وكانوا يستعملون عسل النحل بدل السكر ويستعملون
الزيت عوضاً عن الزبد. لكن قدماء المصريين كانوا يعرفون صناعة الجعة (البيرة)
ويشربونها ومن العادات المألوفة عند القدماء الاهتمام بحديث المائدة، حتى أن أغنياء
روما كانوا يدعون العلماء والكتاب إلى موائدهم لتوجيه الحديث إلى ناحية الصواب
هل نحن عرب؟
محاضرة ألقاها السيد فؤاد مفرج في أحد الأندية العربية)

(بمدينة نيويورك
الأمة مجموع من الناس مرتبطون بشعور واحد، ويجمعهم تاريخ مشترك، ومطمح مشترك غايته إيجاد دولة واحدة والاحتفاظ بها ليعيشوا في ظلها ويحققوا أفضل ما ينطوون عليه. . .
وهكذا فإن كل من يشعر بإخلاص أنه عربي، وفي صدره ولاء صادق للمثل العربية العليا، فهو عربي بقطع النظر عن الدم والعنصر. . .
ثم إنه ليس في العالم أمة لم تختلط أصولها. فإنكلترا مؤلفة من النورسيين، والأنجلو، والسكسونيين، والنورمنديين. ومثلها فرنسا. وناهيك بأمريكا. . .
ونحن مثل هؤلاء لا فرق عندنا بين السوري والعراقي والمصري واللبناني والفلسطيني والنجدي
لا جدال في أن شعوباً كثيرة مرت بسورية والعراق ومصر، وتركت في هذه الأقطار آثارها العنصرية. ولكن جميع هذه البقايا البشرية صهرت في بوتقة العروبة، وذابت في الأمة العربية الحديثة. . .
فالأمة العربية - ككل أمة سواها على وجه الغبراء - أصابها الامتزاج، ولكن هذا المزيج عربي، لأن لسانه عربي، وثقافته عربية، وعنصره الغالب السائد عربي. . .
وجميع أجزاء الأمة العربية مترابطة المصالح والفوائد اقتصادياً وسياسياً، وثقافياً، ودفاعياً: -
فاقتصادياً، ليس كاتحاد هذه الدول ما يوفر لها التبادل الحر، وإزالة الفواصل الجمركية، ومنع الإنتاج الصناعي المستغني عنه والحماية السياسية الكافية التي هي شرط جوهري للفلاح والرخاء
وسياسياً، فالاتحاد وحده هو الذي يمنع الاحتكاك بينها، ويغنيها عن الإكثار من المصالح والنفقات التي لا لزوم لها. . .
ودفاعياً، نحن في غنى عن القول بأن الاتحاد العربي، على غرار الاتحاد الأمريكي، هو وحده يحمي ويضمن بقاء الأجزاء التي تؤلفه، والوحدات التي تكونه، ونظرة واحدة إلى حوادث السنين - بل الشهور - الأخيرة تدلنا دلالة كافية على أنه لا أمان للأمم الصغيرة. . .
إن كثيرين منا لم يتح لهم الإلمام بتاريخ العرب المجيد. ألا إنه لولا ثقافة العرب العالية وتراثهم العلمي لكان وجود الحضارة الحاضرة مستحيلاً. . .
إنه لشرف أن ننتمي إلى العنصر العربي
ويبدأ عمل الحركة العربية في القلوب والأرواح، فمتى تم اتحاد القلوب والأرواح، أصبح الاتحاد السياسي والجغرافي نتيجة طبيعية. . .
فالعروبة حركة قومية فيها الأمن والرخاء والفلاح لجميع العرب وبواسطتهم للإنسانية جمعاء!
البريد الأدبي
مصر والأمم العربية
أخي الأستاذ الزيات:
أقدم إليك أصدق التحيات، ثم أذكّرك بما تعاهدنا عليه من أن نكون جنوداً في جيش الأخوّة العربية إلى أن نموت
وأنا من جانبي أذكر مع الأسف أن الحكومة المصرية لن تستجيب بسرعة إلى المطالب التي اقترحتها في كتاب (ليلى المريضة في العراق)
فلم يبق إلا أن ننوب عن الأمة إلى أن تستجيب الحكومة لما اقترحناه، والأمم في كل أرض أسبق من الحكومات إلى الخير والجميل
والذي يهمني هو تذكيرك بما صنع إخواننا العرب هذه السنة في تمجيد مصر: فمجلة الحديث التي تصدر في حلب أصدرت عدداً خاصاً عن وادي النيل، ومجلة العرفان التي تصدر في صيدا أصدرت عدداً خاصاً عن وطن شوقي وحافظ وصبري والبارودي، ومجلة المكشوف التي تصدر في بيروت أصدرت عدداً خاصاً عن الوطن الذي كابد في سبيله الملك فؤاد، وجريدة الهدف التي تصدر في بغداد تستعد لإصدار عدد خاص عن جورجي زيدان وهو لبناني احتضنه وادي النيل
فما رأيك إذا اقترحت عليك أن تصدر الرسالة أعداداً خاصة عن سورية ولبنان

والعراق؟
وما رأيك إذا اقترحت عليك أن تصدر الرسالة أعداداً خاصة عن الحواضر المشهورة في البلاد العربية مثل تونس والجزائر ومراكش واليمن والحجاز؟
تأكد، أيها الأخ، أنك لن تجد أية صعوبة في تنفيذ ما أقترحه عليك، وتأكد أن هذه الخدمة الأدبية ستحفظها لك مصر، لأن مصر يهمها أن تتعرف إلى سائر الأقطار العربية تعرف الشقيق إلى الشقيق
وفي انتظار جوابك بالقبول أرجو أن تتقبل تحية أخيك المخلص
زكي مبارك
(الرسالة):
اقتراح الصديق سديد مفيد. وسنعمل على تنفيذه بعون الله بعد شهور الصيف.
الروحيات والمعنويات في الإسلام
أستاذنا العزيز الزيات:
تحية وبعد فقد كتب أستاذنا الدكتور زكي مبارك في العدد (314) من (الرسالة) الغراء مشيراً إلى ما كتبنا إليه ذاكراً ما ذكرناه من إنّا نرى أن اللذات التي سينعم بها المؤمنون في الجنة لذات روحية، وأن اللذات التي ذكرها القرآن الكريم ليست كلها لذات حسية، وأن القرآن الكريم عندما ذكر النعيم المادي إنما ذكره كجزاء لما قدّم العباد من حسنات تتصل كلها بالروحانيات والمعنويات. فرأينا كلاماً أن أستاذنا أحمد أمين صادق كل الصدق في نظرته إلى أن القرآن كتاب روحانيات وكتاب معنويات، وأنه عند ذكره الأشياء المادية لا يريد بها لذات مادية، وأنه إن أراد بها أو ببعضها أشياء حسية إنما هي نتيجة اتباع لروحانيات، واتصال بمعنويات. هذا هو الرأي الذي يستقيم مع أصل النصوص ويستقيم مع الفكر الإسلامي السليم. وإلا لو أراد أستاذنا الدكتور زكي مبارك منا أن نفهم فهمه لأخذنا بالرأي المضحك السقيم الذي ذكره مثلاً ابن عابدين في الجزء الثالث من حاشية (المختار) الدر المختار ص315 فيما ذكره (من مطلب لا تكون اللواطة في الجنة من أنه قد قيل إنها سمعية فتوجد، وقيل يخلق الله تعالى طائفة نصفهم الأعلى كالذكور والأسفل كالإناث وأن الصحيح الأول. وفي البحر حرمتها أشد من الزنا لحرمتها عقلاً وشرعاً وطبعاً. . .). فلو أخذنا بالرأي الذي يقول به أستاذنا الدكتور لقلنا: إن المراد بالولدان أن يفهم ذكرهم هذا الفهم السقيم، وحاشا لله أن يكون كذلك. والأقرب إلى العقل أن يكون ذكر الولدان التمتع بالفكرة الروحية التي يبعثها الجمال الحسي، وإنه إن جاز إن نأخذ في ذكر الحور العين باللذة الحسية، فإنه لا يجوز أن يفهم هذا عن ذكر الولدان. على أن ما ذكره القرآن الكريم من حور عين ومن ولدان ولحم طير ورحيق وأباريق وفاكهة، لا يجوز بحال أن نفهم أن ذكرها يؤيد أن القرآن يعنى بالحسيات، أو أنه كتاب حسيات، لأنه كما قلت إنما عنايته موجهه للمعنويات وذكرها يراد به اللذات المعنوية. وإن أريد من بعضها أو من ذكر بعضها اللذات الحسية فعلى أنها تابعة للذات المعنوية ويراد من ذكرها تقوية معاني الروحانيات عند المؤمنين لأنها جزاء من عمل صالحاً وجزاء من اتقى
والغريب أني عند صدور عدد (الرسالة) الأخير قابلني في الترام أحد المبشرين الأمريكان يجادلني في هذه الفكرة التي يريد دكتورنا أن يأخذ بها المسلمون. وبعد فالدكتور زكي مبارك عزيز علينا ولكن أعز منه كتاب الله والفكرة الإسلامية السليمة التي يجب أن ندافع عنها، وهي أن الإسلام دين روحانيات ومعنويات وأن ليس معنى هذا أنه لا يعنى بالحسيات والماديات، بل هو يعنى بها وبتنظيمها التنظيم الذي يتصل بأن يرقى بالإنسان إلى الروحانيات، وأنه عند ذكر الماديات الأخروية لا يريد بها جزاءها الحسي، بل يريد بها جزاءها المعنوي الروحي، وأنه إن أراد ببعضها اللذة الحسية، فإنه لا يريدها حقيرة متواضعة، كما هي في دنيانا، بل يريدها عزيزة تتصل أكبر ما تتصل بالروحانيات والمعنويات، والسلام عليكم ورحمة الله.
محمود علي قراعة
جماعة الفن والحرية
قرأنا في عدد (الرسالة) رقم (314) الصادر في 10 يوليو سنة 939 كلمة جاءت في صفحة البريد الأدبي تحت عنوان (الفن المنحط) وقد ورد في هذه الكلمة أنه بهذا الاسم قد تكونت جماعة من الفنانين هي اليوم في طريقها إلى التفرق والتحلل لأنها

لم تجد عند الفنانين والصحافة والجمهور ما كانت ترجوه من تشجيع، وأن الفن المنحط الذي ندعو إليه هذه الجماعة لا يمكن أن يقال عنه أنه منحط فعلاً ما دام يجد من يقول عنه إنه فن، إذ أنه لا يمكن أن يكون الفن فناً ومنحطاً في الوقت نفسه إلا إذا كان كاذباً. فالفن هو نتاج الحس؛ ومتى توفر فيه الصدق، فإنه سام رفيع، ولا يفسده شيء، ولا ينقص من شأنه شيء إلا أن يكون تكلفاً فهو عندئذ ليس فناً، وإنما هو تهريج وتجارة.

وقد جاء في هذه الكلمة أيضاً أنه إذا كانت جماعة (الفن المنحط) قد تألفت من أفراد صادقين في شعورهم وتعبيرهم ففنهم رفيع من غير شك مهما تواضعوا وقالوا إنه منحط؛ أما إذا كانوا يتكلفون هذا الانحطاط ففنهم منحط حقاً لا لشيء إلا لهذا التكلف.

وكل ما جاء في هذه الكلمة صحيح من غير شك في نظر كاتبها فقط بل نظرنا أيضاً، لأننا

لا نعتقد أبداً أن جماعة من الجماعات يمكن أن تقوم باسم (الفن المنحط) لتدعو الناس إلى الانحطاط في الفن

لقد تكونت جماعتنا باسم (الفن والحرية) وأعراضها تنحصر في الدفاع عن حرية الفن والثقافة وفي نشر المؤلفات الحديثة وإلقاء المحاضرات وإقامة المعارض الفنية العامة، ثم هي تعمل في نفس الوقت على إيقاف الشباب المصري على الحركة الأدبية والاجتماعية في العالم

هذه هي أغراض جماعة (الفن والحرية) فإذا كان فيها ما يدل على أنها تدعو إلى الانحطاط في الفن فنحن نغتفر للكاتب ما ذهب إليه في أمرها. أما أن يتصدى لنقد جماعة من الجماعات كاتب لا يعرف حقيقة اسمها ولا يعرف حقيقة أغراضها معتمداً في هذا على الإشاعات والأقاويل فهذا ما ننزه كاتباً في (الرسالة) عن خطأ الوقوع فيه

أنور كامل

عن اللجنة الدائمة لجماعة (الفن والحرية)

انحطاط الطاقة ونهاية الكون؟

إلى عالمنا المصري الدكتور محمد محمود غالي:

أقرأ بإعجاب المقالات العلمية العظيمة التي يجود بها يراع العالم الطبيعي المحقق الدكتور محمد محمود غالي على صفحات الرسالة فأشعر بحنين نحو السوربون لأنه يخيل إلى وأنا أطالعها أني أستمع إلى أولئك العلماء الأعلام أساتذة تلك الجامعة الكبيرة التي تلقيت فيها العلم أيام الصبا

وتتبعت على الأخص بإمعان مقالات الدكتور الأخيرة عن موضوع انحطاط الطاقة وتدهورها المستمر المحتم من صورها العليا كالكهرباء والطاقة الميكانيكية إلى صورتها السفلى وهي الحرارة، وكيف أن الكون سائر نحو ما يسمونه (الموت الحراري) على حد تعبير الدكتور العالم أي السكون التام الذي سينتهي إليه في جميع أبحاثه بجميع أجزائه وجزيئاته وذراته ومحتوياتها على النحو الذي شرحه الدكتور بما أوتي من علم وبلاغة، فلا كواكب تدور ولا شموع تسطع، ولا سيارات تُضاء، ولا حركة من أي نوع ولا كهرباء ولا

جاذبية ولا ضوء ولا حرارة مرتفعة الدرجة الخ. وبطبيعة الحال لا حياة على الأرض ولا على غيرها بل إن الحياة تكون قد اندثرت من الكون قبل ذلك بملايين وملايين السنين لزوال أسبابها وعدم توفر شروطها وعواملها، وما هي إلا حلقة من تطورات الطاقة تنتج من تحول الطاقة الكيميائية الناتجة من احتراق المواد الغذائية داخل الأنسجة إلى طاقة ميكانيكية كحركة الجسم وحركة أعضائه الداخلية وتفاعلاته الكيميائية البيولوجية وفي النهاية إلى حرارة شأن جميع صور الطاقة أثناء تحولها في الطبيعة

فعاودني حين قرأت هذه الصورة المقبضة لنهاية الكون اعتراض قديم قام في ذهني حين سمعت هذا الرأي لأول مرة فيما مضى عند درس الطاقة البيولوجية، وقد أشار فعلاً إلى هذه النهاية المحزنة أستاذي العالم الفسيولوجي الكبير المأسوف عليه (داستر) في دروسه بالسوربون وفي كتابه النفيس (الحياة والموت)

وإني أطرح هنا هذا الاعتراض على الدكتور غالي لأستقي من بحر علمه الواسع راجياً منه أن يتحفنا بكلمة في هذا الموضوع من كلماته الفياضة تروي غليلي.

أقول إنه لو كانت نهاية الكون هذه تحدث للأسباب المذكورة لحدثت من زمن. ذلك

لأنه لو فرضنا أنه يلزم مثلاً مليار أو أكثر من السنين لتحول جميع صور الطاقة العليا في الكون إلى حرارة غير مرتفعة الدرجة لتم ذلك من زمن بعيد لأن المادة (أو مجموعة المادة والطاقة) قديمة، ولأنه مضى على الكون أضعاف أضعاف أضعاف هذه المدة. وهل يمكن أن يتصور العقل أن للكون بداية؟ أليس هذا مخالفاً لأبسط الحقائق العلمية وللنواميس الطبيعية الأساسية، وعلى الأخص لناموسي بقاء المادة وبقاء الطاقة وعدم تلاشيهما؟ فَكل من المادة والطاقة ثابت لا تخلق منه ولا تنعدم منه ذرة واحدة، وإن كانت صورهما في تحول مستمر من الواحدة إلى الأخرى. وإذا كان العلم الحديث أوشك أن يوحد بين المادة والطاقة فيمكن أن يقال إن مجموعهما ثابت لا يخلق منه شيء، ولا ينعدم منه شيء.

وبالجملة فإنه إذا كانت تلك الأسباب (انحطاط صورة الطاقة العليا وتحولها شيئاً فشيئاً إلى حرارة منخفضة الدرجة) من شأنها أن تقضي على الكون بالسكون التام المطلق لحدث ذلك من قديم الزمان

فإذا صح هذا الاعتراض ألا تكون النتيجة الطبيعية المنطقية أن هناك إذا عوامل أخرى مجهولة الآن لم تدخل في حساب العلماء والرياضيين قد يكشف عنها العلم في المستقبل فتغير وجه المسألة ويطمئن حينئذ رجال الغد على مصير الكون؟

نصيف المنقبادي المحامي

عدد المكشوف الخاص عن مظاهر الثقافة في مصر

أصدرت زميلتنا المكشوف البيروتية عدداً خاصاً عن مظاهر الثقافة في مصر في 56 صفحة مزدانة بالصور المختلفة، حافلة بالفصول الممتعة والبحوث المستفيضة في شتى مناحي الأدب المصري، دبجه أكثر من 40 كاتباً وشاعراً مصرياً، وبه حديثان أحدهما لمعالي هيكل باشا، والآخر لسعادة العشماوي بك

وقد وُفق أكثر الكتاب كل التوفيق فيما عالجوه من الموضوعات، ولكن أقلهم غلبت عليه نزعته الخاصة فلم يفطن إلى الحكمة من إصدار هذا العدد فخرج فيما كتب عن أسلوب المؤرخ المقرر الذي تقتضيه هذه الحال

والعدد يباع بمصر في المكتبات التالية: التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي، النهضة المصرية - 15 شارع المدابغ، الهلال بشارع الفجالة، زلزل - 3 ميدان سليمان باشا.

رسالة النقد

على هامش كتاب

حياة الرافعي

تأليف الأستاذ محمد سعيد العريان

للأستاذ محمود أبو ريه

أقبلت على قراءة كتاب (حياة الرافعي) لا كما يقبل عليها غيري من أهل الأدب ومحبي الرافعي، وذلك لما كان بيني وبين الرافعي رحمه الله من صداقة امتدت أكثر من ربع قرن فعرفت من أحواله وأنبائه شيئاً كثيراً، فما فتحت عيني على هذا السفر النفيس الذي تحث عن هذه الحياة المباركة حتى رجعت إلى ذاكرتي من ناحية، وإلى كتب الرافعي الخاصة التي لدي من ناحية أخرى، لأرى إن كان صديقنا سعيد العريان قد صدق فيما روى وحقق فيما أرّخ، أو هو قد سلك تلك السُبل التي يتبعها أكثر المؤرخين من العناية بكثرة الحشد، والتلفيق في الرواية من ههنا وههنا بلا تمحيص في ذلك ولا تحقيق، كأن التاريخ لا حرمة له عندهم، والحق لا رعاية لجانبه في قولهم

جعلت ذلك همي من قراءة كتاب (حياة الرافعي). أما البحث في قيمته وأثره في عالم الأدب، وفضل صاحبه في السبق إلى اقتراع هذه الطريقة من الترجمة، وما إلى ذلك من المزايا التي امتاز بها هذا الكتاب، فقد تركت ذلك كله لغيري ممن يعرضون لنقده أو تقريظه حتى لا يقال إن صديقاً يقرظ صديقه

قرأت الكتاب من ألفه إلى يائه قراءة تدبر ودرس فخلص لي منه أن أخانا الأستاذ سعيد قد فاز بالحسنيين: حسنى الوفاء للرافعي - والوفاء في زمننا قد أصبح غريباً بل صار جريمة ومنكراً - وحسنى إحسان العمل من حيث التحقيق في الدراسة واستيعاب كل ما يتصل بحياة الرافعي حتى خرجت هذه الشخصية الجليلة في هذا السفر صورة حية. ذلك بأنه لم يدع صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ولم يذر شاردة ولا واردة إلا قيدها.

بيد أن هناك أمرين ما أظن إلا أن اطراد البحث قد أعجله عن استكمال درسهما ولأني أعرف الحق في هذين الأمرين فقد رأيت إحقاقاً للحق وإنصافاً لمن يتصل بهما أن
أستعلن بما أعرف على صفحات الرسالة الغراء ليكون من علم قرائها الذين هم صفوة أهل الأدب في العالم العربي، ومنهم ولا ريب قراء كتاب (حياة الرافعي) لكيلا يفوتهم من أمر هذه الحياة الجليلة شئ
تحدث الأستاذ سعيد في هامش الصفحة 13 من هذا الكتاب قال: (كان للرافعي صلة روحية بالسيد البدوي ترتفع عن الجدل والمناقشة وله فيه مدائح وتوسلات شعرية كثيرة. . .) وهذا القول لو أخذ على إطلاقه لبدا منه أن الرافعي رحمه الله كان من الذين يعتقدون بالتوسل بأصحاب القبور، فيتخذونهم وسطاء بينهم وبين الله يفزعون في كل ما يهمهم إليهم، ويستعينون بهم في قضاء مآربهم. وإذا صح ذلك كان مغمزاً في أعظم جانب من حياة الرافعي، وهو الجانب الديني؛ لأن التوسل بأصحاب القبور عند المحققين وأهل البصر بالدين إنما هو شرك بالله يبرأ منه كل مسلم صحيح الإيمان. والرافعي رحمه الله كان إماماً في الدين كما كان إماماً في الأدب؛ وكان من دعوته في الحياة أن يعتصم المسلمون بعروة دينهم الوثقى، وأن يرجعوا من وثنيتهم إلى الدين الخالص الحق الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم
على أن هذا الأمر الذي أشار إليه أخونا سعيد لا يعرف غيري وجه الحق فيه، ذلك أني كنت في إحدى زياراتي للرافعي بطنطا في سنة 1918 وما كدت أجلس إليه حتى قال لي: (أبشر يا أبا رية، لقد اقتربت ساعة شفائي من علتي إن شاء الله (وهي العلة التي كانت بأذنه). ولما سألته عن مرجع هذه البشرى قال: (لقد رأيت السيد البدوي في المنام ليلة الأمس قد جاءني وبشرني بالشفاء فنهضت من نومي وأنشأت فيه هذه القصيدة) ودفعها إليّ فقلت له إن هذه القصيدة لو نشرت لكانت فتنة للمسلمين، فخير لك أن تطويها حتى نرى تأويلها. ولأنه رحمه الله كان يعتقد في عالم الروح اعتقاداً غريباً وكان يأخذ بالحديث الشريف في أن دعوة المؤمن على ظهر الغيب تنفع، وكان يحسن ظنه يستعين من إخلاصي له حتى كان لا يكتب لي خطاباً إلا ويطلب في آخره ألا أنساه من الدعوات الطيبة، فقد كتب لي في ورقة صغيرة هذه العبارة (أريد أن تذهب الآن إلى جامع السيد وتتوضأ وتصلي بعض ركعات ثم تقرأ ما تيسر من القرآن على نية أن يعجل الله بشفائي ثم تدعوا لي بذلك فإن دعاء المؤمن لا يعدله شيء في سرعة الإجابة مع خلوص النية.
(وأمس رأيت السيد البدوي في الرؤيا وبشرني بالشفاء ولهذا طلبت منك هذا الطلب وعلى أن ما طلبه مني ليس فيه شيء من التوسل بالسيد البدوي وإنما هو صلاة لله وقراءة لما تيسر من كتاب الله ودعاء خالص يَصْعَد إلى الله ليعجل بشفائه وهذا كله عمل خالص لله وحده فقد حاك بصدري شيء من الشك في عقيدته، ورأيت من أجل ذلك أن أتلطف لمعرفة حقيقة ما يعتقد في التوسل بالمشايخ، فسألته في خطاب بعد ذلك بقليل عما يقوله رجال الصوفية من أنه لابد لكل مسلم أن يتخذ (واسطة) من مشايخهم يصل به إلى الله، وهل هو قد اتخذ هذه (الواسطة) فأجابني في كتاب تاريخه (15 يولية سنة 1918) بما يلي:
(. . . وأنا ألتجئ دائماً إلى الاستمداد من رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه واسطة الجميع، ولا أدري إن كان فِيَّ استعداد للتلقي عن هذه الغاية البعيدة أم لا وبعد أن انقضت شهور على هذه الرؤيا ولم تتحقق البشرى حدثته في ألا ينشر ما وضعه من شعر في السيد البدوي وأن يُبْعِدَه عن ديوانه، فقال: إن هذا ما سأفعله إن شاء الله وسأجعله مما أهمله من شعري
هذا هو نبأ توسلات الرافعي بالسيد البدوي الذي تحدث عنه الأستاذ العريان ومن يقرأ ما كتبه الرافعي في الدين ووصفه لإسلام المصريين بأنه إسلام فرعوني بما شابه من ذرائع الوثنية، وما اختلط به من البدع الشركية، يتبين له صدق ما قلنا وصحة ما روينا وأنه كان طوال حياته حرباً على الدجل والخرافات، والشعبذة والتوسلات، تلك التي لا يعرفها دين الإسلام؛ وأنه نذر كما يقول الأستاذ سعيد (أن يموت في الجهاد وفي يده الراية ينافح بها الشرك والضلال، ويدعو إلى الله ويواصل حملة التطهير)
والأمر الثاني في قول أخينا سعيد، من أن السيد رشيد رضا رحمه الله، لما قرأ مقدمة

النسخة الأولى من مجلة البيان المنسوبة إلى الأستاذ الإمام محمد عبده قال: (. . .
لقد كنت حاضراً مجلس الشيخ وسمعت منه هذا الحديث، ولكن لم أجد له من القيمة
الأدبية ما يحملني على روايته)
وهذا القول لو ثبت على ما رواه صديقنا سعيد من أن مقدمة البيان من وضع الرافعي
لكان ذلك طعناً في خلق إمام كبير من أئمة الدين يذهب بالثقة به ويلقي الشك في
الأخذ عنه،
ولكن الذي جرى على وجه التحقيق أنه لما ظهرت مجلة البيان التي أصدرها الأستاذ
الكبير عبد الرحمن البرقوقي قابلها حجة الإسلام السيد رشيد رحمه الله بالترحيب
والتقريظ، وكتب عنها كلمة طيبة في مجلته (المنار) ولما تحدث عن حديث الأستاذ
الإمام مع الأستاذ البرقوقي لم يقل إنه كان حاضر مجلس الشيخ، ولا إنه سمع هذا
الحديث، وإنما قال عن الأستاذ البرقوقي إنه (نقل كلام الأستاذ الإمام بمعناه لا بحروفه
قطعاً)
وهذا لا يعني أن الحديث من غير كلام الإمام أو أن الإمام قد تحدث به أمام السيد
رشيد
هذا أهم ما رأيت أن أنشره في الرسالة. ولقد وجدت فيما بين يدي من كتب الرافعي
رسائل في الأدب والدين واللغة تستأهل النشر لانتفاع الناس بما فيها ولعل الله يقيض
لي - إذا وجدت من صدر الرسالة سعة - أن أنشر ما فيه الخير من هذه الرسائل.
ورحم الله الرافعي رحمة واسعة.
محمود أبو رية
قصص العرب
للأساتذة
جاد المولى بك، علي البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم
للأستاذ أحمد التاجي
أُثِرت عن العرب قصص يرجع أقدمها إلى الزمان الأول، كانت صدى لحياتهم ومرآة
لأذهانهم، وجُماعاً لمعارفهم وأساطيرهم ولكنها تحتاج إلى إحياء وتجديد
أما إحياؤها فباختيارها من أسفارها ورفع الأنقاض عنها، وجمعها في كتاب واحد،
وبتصحيح عباراتها، وتحقيق حوادثها، ثم يعرض كما قاله العرب، ليتأدب به الناشئون
وليتخذوا منه مادة لإنشائهم، وغذاء لأفكارهم. وأما تجديدها فهو الخطوة الثانية وذلك
بأن تطعّم بالأدب الحديث، وتسقى من المعارف التي وصلت إلينا، لتناسب أبناء جيلنا
ولا تنبو عن أذواقنا
والكتاب الذي نعرض له الآن يخطو الخطوة الأولى، فيجمع قصص العرب كما حكوه
وحدثوا به، ويفصّله في أبواب فيضع تحت كل باب ما ورد فيه من القصص
فقصص تدل على عقيلة القوم واعتقاداتهم في الآلهة، وقصص تستبين بها مظاهر
حياتهم وأسباب مدنيتهم، وقصص تجلو علومهم ومعارفهم، وأخرى تظهر أخلاقهم من
وفاء وكرم وحلم. وهكذا ينتقل من باب إلى باب، والذي يربط بين القصص أغراضها،
وكنا نود أن ترتبط بعصورها، فتنفع مؤرخ الأدب وليرى فيها أحوال كل عصر وآدابه
ماثلة في قصصه
وكنا نود أيضاً أن تبرأ من الأخبار البعيدة عن القصص فإن ذلك قد تكفلت به كتب
الأدب، وما هي بقليلة
على أن للأساتذة جهداً مشكوراً إذ أتاحوا الفرصة لمن يدرس القصة العربية وتدرجها،
وعرضوا لنا مادة زاخرة تصلح هياكل لقصص عربي حديث
وقد لاقوا عناء شديداً في تصحيح النصوص وتقويم الأشعار والتنقيب عن أصح
الروايات، يشهد بذلك من اطلع على ذلك السفر الجليل الذي ظهر آية في إخراجه -
عدا بعض هنات
مطبعية - وهذا عمل يقدره من يكابد القراءة في الكتب القديمة، وطبعاتها السقيمة
فلهم ما يستحقون من الشكران
أحمد التاجي
العدد 316 - بتاريخ: 24 - 07 - 1939

حلم ليلة صيف

غربت الشمس في الرمال اللوبية المرمضة ومن ورائها في الجو والأرض وهيج كزفير جهنم. وكان القاهريون قد احتشدوا فوق الجسور وعلى الشواطئ وفي الحدائق يَنْسمون نَفَس الماء ونفح المساء وأرج الزهر، فكأنما لم يبق في البيوت والقهوات والطرقات أحد. وكنت أنا في زحمة الناس أسير هَوناً على جسر إسماعيل والذكريات العذاب تنثال على خاطري انثيال الشعاع السينمائي بالأخيلة المتحركة على الشاشة، فأذكر فيما أذكر كيف كان ذوو السراوة والنعمة يخرجون قبل أن يعرفوا أوربا إلى الجزيرة آصالَ الربيع والصيف في زينتهم الفاخرة ووضاءتهم الباهرة ومركباتهم الفخمة تتراقص بها الجياد المطهمة العتاق، فيكون للفقراء من عَرْضها منظر فتان من زَهرة العيش يشغل الهم عن القلوب ساعة. ثم أبصر فيما أبصر كيف أصبح الجسر والجزيرة - بعد انتجاع المترفين المرفهين فيشي وكرلسباد، ومونت كارلوونيس - مَرَاداً لذوي الفاقة والعاهة والكرب، لا ترى حولهم إلا بؤساً ولا تسمع بينهم إلا شكوى! ثم انتهى بي هذا السير البطيء الحالم إلى (كازينو الكُبرى) فجلست وحدي في مكان مظلم، وجعلت وجهي وعيني للنيل المزدان بالقوارب؛ وللشاطئ المزدهر بالمصابيح، وأخذت ذاكرتي تغوص وتطفو بين جوف الماضي ووجه الحاضر، فلا أرى فيما خلَّفه الزمان والإنسان إلا مآسي داميةً ألّفها الطمع والأثرة، ومثَّلها الضعف والقوة. وكان عقلي القاصر يعلِّق أحياناً على ما تعرض الحافظة من هذه الصور، فيعجب كيف عجز إلى اليوم دين السماء وعلم الأرض عن التوفيق بين القوة والضعف ما داما متلازمين في الحياة! أليس منشأ الصراع الأزلي بين المرأة والرجل والعبد والسيد والفقير والغني والمظلوم والظالم والمستعمَر والمستعمِر إنما هو القوة في جهة، والضعف في جهة أخرى؟ لا يحق لنا أن نسأل لأيَّة حكمةٍ كانت القوة هنا وكان الضعف هناك، ولكن من حقنا أن نقول: لماذا أعضل على المصلحين أن يحملوا القوي على أن ينزل للضعيف عن بعض القدرة فيستقيم الأمر بالاعتدال ويتحقق السلام بالعدل؟

كانت ساعة الحرس تعلن بدقاتها المدوية انتصاف الليل حين تهالكت على الفراش وأنا من إدمان الذكر والفكر على حال شديدة من الجهد. فلم تكد عيناي تُغفيان حتى رأيت فيما يرى النائم أن دور الفقراء وأكواخ المساكين في بولاق أمست كالتنانير الموقدة تلفح جدرانها باللهب، وتسيل سقوفها بالبق، ويخنق هواؤها بالنتن، فتركها أهلوها هاربين في عتمة الليل

إلى الشوارع والميادين، فظنهم الحراس والعسس (متظاهرين) فطاردوهم بالعصيِّ مطاردة الجراد، فهاموا في الشارع من الذعر هيام القطيع حتى وجدوا قصراً من قصور الأمراء، غريقاً في الأضواء والضوضاء، فلم يتمالكوا أن تدفقوا فيه من أبوابه، على الرغم من دفاع حراسه وحجَّابه. ثم انساب هذا الجمع الفزع في حديقة القصر الأفيح حتى أحدقوا ببؤرة الضوء، ثم أخذوا يستفيقون من الذهول والرعب على شذا العطور وسطوع النور ونغم الموسيقى، واستطاعوا أن ينظروا فماذا رأوا؟ رأوا حفلة راقصة تحت السماء على بِرْكة الحديقة الواسعة، وأربابُ النعمة وربات النعيم متقابلون على الأرائك، أو متعانقون على الأعشاب، أو متخاصرون في المرقص، أو متنادمون حول المقصف؛ وشموس الكهرباء تسطع على الظهور البلورية والصدور العاجية وقد انشقت أطواق الفساتين من أمام ومن خَلف إلى تحت الخصور فلم يمسك الثوب عن النزول إلا شريطان على الكتفين رُصعا بالماس وعُقدا بالذهب. وكان الجو البليل مشبعاً بريَّا العطر وعبَق الخمر وأنفاس الغواني وشدْو القيان وهزج المزامير وعزف الاوتار، فلا يدخل فيه ذو حسٍّ إلا هاج واشتهى، ولا ذو وقار إلا عبث والتهى. وكانت البِرْكة المسجورة بماء الورد واللاوندة تموج بالحور والولدان سابحين أو متشابكين، يتواثبون من النشوة، ويتجاذبون من الشهوة؛ وعلى حِفافيها المرمريين يتراقص القوم أزواجاً على أنغام (الجاز) والسواعد ملتفة على القدود، والشفاه مُطبَقة فوق الخدود، والأثداء رجراجة بين الصدور والنحور، والأنظار جوّالة بين البطون والظهور؛ وفوق نافورتها الوسيعة البديعة ترقص حول رشاشها الطائر الوهاج جوقة من عرائس عبقر، في غلائل عسجدية من نسج الجن، وأوشحة مصبغة من صنع السحرة. وكلما ماست الحوريات الرواقص تقلَّب عليهن الوشى، واختلف فوقهن اللون، وانبثق عنهن شعاع من الفتنة يبهر العيون ويضل الأفئدة!

كان القوم في سورة اللهو وسكرة اللذة وحميا الطرب حين أحاط بهم مساكين بولاق في بزتهم الزريَّة وهيئتهم المخيفة؛ فانفغرت أفواه هؤلاء من الدهش، وقَفَّت رؤوس أولئك من الخوف، والتقى الشقاء والسعادة وجهاً لوجه!

ولكن الله لم يشأ أن يصطرع الغني والفقير في هذه اللحظة الرهيبة فرأيت أفواجاً من البق والبراغيث لها أجنحة كالفَراش وخراطيم كالبعوض قد خرجت من ثياب الفقراء وأخذت

تلسع الأجسام الغضة والوجوه الناضرة لسع النحل المُهاج! فتراكض الداعون والمدعوون هاربين في الحديقة وهذا الطير الأبابيل في ظهور النساء وأقفية الرجال يخِزُهم بالسم حتى أخرجهم إلى الشارع. وهناك كان الجند يترقبون خروج (المتظاهرين) فلم يكادوا يرون هؤلاء حتى أعملوا فيهم العصيَّ وساقوهم سوق الأنعام إلى القسم فقضوا ليلهم الباقي على الإسفلت. وخلا المقصف والمرقص والقصر لطرائد البؤس والشرطة فأكلوا مريئاً وشربوا هنيئاً وناموا ملء الجفون على الأسرة المذهبة!

ثم كرَبني الحر فصحوت من النوم، قبل أن يريني الحلم في ضوء الصباح فضيحة القوم!

أحمد حسن الزيات

حول كتاب:

مستقبل الثقافة في مصر

نظرة انتقادية عامة

للأستاذ أبي خلدون ساطع الحصري بك

(مستقبل الثقافة في مصر)

هذا العنوان الذي عنون به الأستاذ الدكتور طه حسين الكتاب الذي نشره قبل بضعة أشهر في مجلدين. . . ذكّرني بعنوان (المطارحات) التي نشرها (المعهد الأممي للتعاون الفكري) التابع لعصبة الأمم بعد الاجتماع الذي عقده في مدريد سنة 1933: مستقبل الثقافة.

وعندما أسجل هذه المشابهة في مستهل مقالي هذا، أرى من الواجب عليّ أن أصرح - في الوقت نفسه - بأن المشابهة بين الكتابين لا تتعدى حدود العنوان. فإذا كان من البديهي أن المؤلف الفاضل اقتبس عنوان كتابه من المطارحات المذكورة، فمن الواضح أيضاً أنه لم يستلهم شيئاً من موضوعاتها أو من مناحي التفكير المنجلية فيها. . .

وأما كيفية تأليف الكتاب، فالمؤلف يشرحها لنا بكل وضوح، في المقدمة القصيرة التي صدّره بها:

إن (فوز مصر بجزء عظيم من أملها في تحقيق استقلالها الخارجي وسيادتها الداخلية) حمل (المفكرين المصريين) على أن يشعروا بأن (مصر تبدأ عهداً جديداً من حياتها). . . (إن كسبت فيه بعض الحقوق، فإن عليها أن تنهض فيه بواجبات خطيرة وتبعات ثقال). إن هذا الشعور شمل الشباب، ودفع فريقاً منهم إلى (أن يسألوا المفكرين وقادة الرأي عما يرون في واجب مصر بعد إمضاء المعاهدة مع الإنجليز. . .) وهذا قد جعل كل واحد من المفكرين المسؤولين (يتحدث إليهم في ذلك حديثاً سريعاً مرتجلاً، بقدر ما كان يسمح له وقته وعمله وتفكيره السريع في حياة سريعة) تمر بهم أو يمرون بها (مرَّ البرق). . . فقد تحدث الدكتور طه حسين نفسه إلى هؤلاء الشبان فيمن تحدث؛ غير أنه لم يقتنع بكفاية ما تحدث إليهم به، ولم ير أنه (قد دلهم على ما كان يجب أن يدلهم عليه، وهداهم إلى ما كان يجب أن يهديهم إليه). واستقر في نفسه أن واجب المصريين (في ذات الثقافة والتعليم بعد الاستقلال أعظم خطراً وأشد تعقيداً) مما تحدث به إليهم (في ساعة من ليل أو في ساعة من نهار، أو في قاعة من قاعات الجامعة الأمريكية. . . وأنه يحتاج إلى جهد أشق وتفكير أعمق وبحث أكثر تفصيلاً) ووعد نفسه بأن يبذل هذا الجهد، وأن يفرغ لهذا البحث، وأن ينهض بهذا العبء. . . ولكنه لم ينبئ هؤلاء الشباب بشيء مما قرره، لأنه أشفق أن تحول ظروف الحياة بينه وبين إنجاز هذا الوعد. وليس أشق عليه من وعد يبذله للشباب ثم لا يستطيع له إنجازاً. . .)

إن كتاب (مستقبل الثقافة في مصر) كتب (لإنجاز ذلك الوعد الذي قدمه الأستاذ إلى الشباب الجامعيين ولم يظهرهم عليه. . .)
إن هذه المقدمة تدل دلالة واضحة على أن الدكتور طه حسين قد شعر بخطورة هذه المباحث حق الشعور، وقدّر عواقب التسرع والارتجال فيها حق التقدير. . . كما تعلن إعلاناً صريحاً أنه لم يكتب الكتاب إلا بعد أن بذل (الجهد الأشق) الذي قال بضرورته، وقام (بالتفكير الأعمق) الذي نوه به، و (فرغ للبحث لينهض بالعبء) الذي أشار إليه. . .
غير أن من ينعم النظر في الكتاب - بعد مطالعة هذه المقدمة - يشعر بشيء كثير من خيبة الأمل؛ لأنه لا يجد فيه من الآراء والملاحظات ما يتناسب مع وعود العنوان وتصريحات المقدمة. فالكتاب يتألف في حقيقة الأمر من مجموعة أحاديث ومقالات قليلة التناسق كثيرة التداخل، يبدو على جميع أقسامها آثار الارتجال والاستعجال، ويتخلل معظم أقسامها أنواع شتى من الاستطرادات والاستدراكات. . .
فكثيراً ما يقع النظر في صفحات الكتاب على فكرة صائبة - معروضة بأسلوب جذاب - غير أنه يلاحظ في الوقت نفسه كثيراً من المآخذ في المقدمات التي سبقت تلك الفكرة والملاحظات التي تلتها فيبقى حائراً متردداً بين مواقف الاستساغة والاستنكار.
إن نظرة إجمالية إلى أولى المسائل المشروحة في الكتاب تكفي للبرهنة على كل ذلك في وضوح وجلاء.
- 1 -
إن المسألة التي يفتتح بها الدكتور طه حسين أبحاث كتابه تتلخص في السؤال التالي:
هل يوجد فرق جوهري بين العقل المصري والعقل الأوربي؟
والمؤلف يناقش هذه المسألة في أكثر من ثلاثين صفحة من الكتاب مناقشة مباشرة ثم يعود إليها عدة مرات - بوسائل شتى - في نحو ثلاثين صفحة أخرى. . وأما الحكم الذي يصل إليه من أبحاثه ومناقشاته هذه فيتلخص في العبارات التالية:
(فكل شيء يدل على أنه ليس هناك عقل أوربي يمتاز من هذا العقل الشرقي الذي يعيش في مصر وما جاورها من بلاد الشرق القريب (الصفحة: 28)
فمهما نبحث ومهما نستقص فلن نجد ما يحملنا على أن نقبل أن بين العقل المصري والعقل الأوربي فرقاً جوهرياً) (الصفحة: 29)
إنني أشارك الدكتور طه حسين في هذا الحكم الصريح مشاركة تامة. . . فلقد درست وناقشت هذه المسألة فيما مضى مراراً بوسائل مختلفة؛ وانتهيت في جميع تلك الدراسات والمناقشات إلى نتيجة مماثلة لهذه النتيجة، لا بالنسبة إلى المصريين فحسب، بل بالنسبة إلى أمم الشرق الأدنى بوجه عام، والأمة العربية بوجه خاص. . .
ولهذا السبب، يسرني كل السرور أن أتفق مع المؤلف في هذا الحكم اتفاقاً تاماً (ومع هذا يؤلمني جداً) ألا أستطيع موافقة على سلسلة الآراء والأحكام التي سردها حول هذه المسألة وأن أراني مضطراً إلى مخالفته في معظم المقدمات التي بنى عليها حكمه هذا، وفي بعض النتائج التي استخرجها منه. . .
أولاً، يكرر الدكتور طه حسين الحكم الذي ذكرناه آنفاً عدة مرات - جرياً على عادته العامة - ويعبر عنه في كل مرة بشكل جديد، وكلمات جديدة - حسب أسلوبه الخاص -؛ غير أنه لا يتقيد - خلال هذا النكران - بمعاني الكلمات، وحدودها (التقيد العملي) الذي يتطلبه مثل هذه الأبحاث. . . فينزلق إلى مهاوي الغلو والمبالغة انزلاقاً غريباً، فيبتعد عن (الحقيقة) التي كان توصل إليها ابتعاداً كبيراً. . .
مثلاً، يسترسل مرة في الحديث حتى يضيف كلمة الثقافة إلى كلمة العقل، فيقول:
(كلا، ليس بين الشعوب التي نشأت حول بحر الروم وتأثرت به، فرق عقلي أو ثقافي ما. . .) (الصفحة: 25)
أفلا يحق لي أن أسأل الأستاذ في هذا المقام: هل يدعي - عن جد - أنه لا يوجد (فرق ثقافي ما) بين المصري، والفرنسي، والسوري، والإيطالي؟ إن القول بعدم وجود (فرق جوهري) بين (العقل المصري، والعقل الأوربي) شيء، والقول بأنه لا يوجد بين المصري والأوربي (فرق ثقافي ما) شيء آخر. . . فمهما آمنت بالقضية الأولى إيماناً عميقاً، لا يمكنني أن أسلم بالقضية الثانية أبداً. . . وأعتقد اعتقاداً جازماً أن إنكار وجود (الفرق الثقافي) بين الشعوب التي نشأت حول بحر الروم، لا يختلف عن إنكار وجود

. . .الشمس في رابعة النهار
كما أرجح أن المؤلف نفسه لم يكتب ذلك عن (تأمل واعتقاد)، بل كتب ما كتبه في هذا المضمار مدفوعاً بدوافع الاستعجال والارتجال - بالرغم من تصريحات المقدمة - ومجروفاً بتيار الألفاظ والكلمات. وربما كان من أبرز الأدلة على ذلك ما قاله في أواخر الكتاب حيث يختم أبحاث الكتاب بسؤال عام: (أتوجد ثقافة مصرية؟) ويجيب على هذا السؤال بالعبارة التالية:
(هي موجودة)، متميزة بخصالها وأوصافها التي تنفرد بها من غيرها من الثقافات. . .) (الصفحة - 525)
ولا أراني في حاجة إلى البرهنة على أن مضمون هذه العبارة، يناقض القول الذي أشرنا إليه آنفاً، مناقضة صريحة. . .
ومما يجدر بالملاحظة أن مغالاة المؤلف في تشبيه المصريين بالأوربيين - وإنكار وجود الفروق بينهما - لا تنحصر في هذه القضية وحدها، بل تتعداها إلى أمور أغرب منها: إذ أننا نراه يدعي - في محل آخر من الكتاب - عدم وجود فرق بينهما من حيث الطبع والمزاج أيضاً. فهو عندما يصرح بأنه (لا يخاف على المصريين أن يفنوا في الأوربيين) يبرهن على ذلك بقوله:
(. . .ليس بيننا وبين الأوربيين فرق في الجوهر ولا في الطبع ولا في المزاج . . .) (الصفحة36)
ليس بين المصريين والأوربيين فرق لا في الطبع ولا في المزاج! لا أدري كيف يستطيع أحد أن يدعي ذلك بصورة جدية؟ فإن الفروق في الطبع والمزاج من الأمور التي تشاهد على الدوام بين الأمم الأوربية نفسها، وهي تبدو للعيان بين الإنكليزي والفرنسي والألماني والإيطالي. . . حتى بين الشمالي والجنوبي من الفرنسيين، والشرقي والغربي من الألمان،
والسهلي والجبلي من الطليان. وبين الريفي والمدني والصانع والتاجر، والمثقف والعامي من جميع هؤلاء. . . فكيف يعقل مع هذا ألا يختلف طبع المصريين ومزاجهم عن طبع الأوربيين ومزاجهم بوجه من الوجوه؟
إنني أميل إلى الحكم بأن الدكتور طه حسين لم يكتب هذه العبارة أيضاً عن تأمل واقتناع. بل كتبها بدافع الاستعجال وتحت تأثير توارد الكلمات.
إني لا أكون من المغالين إذا قلت: إن (نزعة التسرع في الحكم والإسراف في الكلام) من النزعات المستولية على معظم مباحث كتاب (مستقبل الثقافة في مصر)، وهذه النزعة هي التي ورَّطت المؤلف في مآزق غريبة، وأوقفته مواقف لا تخلو من التناقض في بعض الأحيان.
وللبرهنة على ذلك أود أن أستعرض - علاوة على ما ذكرته آنفاً - ما جاء عن الأزهر في الأقسام المختلفة من الكتاب.
يذكر الأستاذ الدكتور طه حسين الأزهر - في كتابه هذا - أولاً عندما يبحث عن اتصال مصر بالحضارة الأوربية فيتوسع كثيراً في وصف هذا الاتصال، لأنه يعتبره دليلاً على عدم وجود فرق جوهري بين العقلية المصرية والعقلية الأوربية إذ يقول: (إننا لا نجد في هذا الاتصال من المشقة والجهد ما كنا نجده لو أن العقل المصري مخالف في جوهره وطبيعته للعقل الأوربي) (الصفحة 35).
وعندما يتطرق المؤلف إلى حالة الأزهر - خلال هذا البحث - يعرضه لنا كمعهد مسرف في التجديد إذ يقول حرفياً ما يلي:
(كل شيء يدل، بل كل شيء يصيح بأن الأزهر مسرف في الإسراع نحو الحديث، يريد أن يتخفف من القديم ما وجد إلى ذلك سبيلاً. . .) (الصفحة 34).
غير أننا نراه في محل آخر من الكتاب، يتراجع قليلاً عن تعبير (الإسراف) الذي استعمله في هذا المقام؛ لأنه يقول:
(إن أصبح الأزهر مسرعاً إلى هذه الحضارة، يدفعه إسراعه إلى شيء يشبه الإسراف (لم يكن هو الإسراف) (الصفحة 61)
كما أنن نراه في محل آخر يتناسى كل ذلك فيقول:
(إن الأزهر بحكم تاريخه وتقاليده وواجباته الدينية بيئة محافظة تمثل العهد القديم والتفكير القديم أكثر مما تمثل العهد الحديث والتفكير الحديث. . .) (الصفحة 91).

ثم نراه يضيف إلى ذلك ما يلي:
(شيء آخر لابد من التفكير فيه والطب له؛ وهو أن هذا التفكير الأزهري القديم قد يجعل من العسير على الجيل الأزهري الحاضر إساغة الوطنية والقومية بمعناها الأوربي الحديث. . .) (الصفحة 92).
وفي الأخير عندما ينتقل إلى بحث المنافسة القائمة بين الأزهر وبين الجامعة لا يتحرج المؤلف من إبداء رأي يناقض رأيه الأول مناقضة صريحة إذ يقول:
(يقتضي أن يعدل الأزهر عدولاً تاماً عما دأب عليه من الانحياز إلى نفسه والعكوف عليها والانقطاع عن الحياة العامة. وقد يقال: إن الأزهر قد أخذ يترك هذه السيرة ويتصل بالحياة العامة ويأخذ بحظوظ حسنة من الثقافات الحديثة على اختلافها. وهذا صحيح في ظاهره، لكنه في حقيقة الأمر غير صحيح. فالأزهر مازال منحازاً إلى نفسه متمسكاً بهذا الانحياز حريصاً عليه. . .) (الصفحة 475).
أنا لا أود أن أبدي رأياً في الأزهر في هذا المقام؛ غير أني أريد أن ألفت الأنظار إلى الاختلافات الموجودة بين هذه الآراء التي صدرت من قلم واحد في موضوع واحد في كتاب واحد!
غير أن هناك شيئاً أغرب من كل ذلك أيضاً: فإن المؤلف لا يكتفي بالبرهنة على عدم وجود فرق جوهري بين العقل المصري والعقل الأوربي، بل يحاول أن يبرهن على أن مصر ليست جزءاً من الشرق، ويسير بين سلسلة آراء وملاحظات - يكتنفها الغموض والتضارب من كل الجهات - ويلوم الأوربيين الذين يقولون إن مصر جزء من الشرق، وأن المصريين فريق من الشرقيين؛ ثم يقول:
(إن من السخف الذي ليس بعده سخف اعتبار مصر جزءاً من الشرق). . . (ص 18).
غير أنه لا يلبث أن يتناسى قوله هذا، ويدخل المصريين في عداد الشرقيين، في عشرات المواضع من الكتاب. . . لا أرى حاجة في هذا المقام - لتعدادها، فأكتفي بذكر ما يقوله المؤلف في هذا الشأن في أواخر الكتاب، عندما يشرح اقتراحه في صدد فتح مدارس
مصرية في الأقطار العربية. فإنه يقول إذ ذاك:
(ما أظن أن السياسة الوطنية لهذه الأقطار تكره أن تنشأ فيها مدارس مصرية، تحمل إلى أبنائها ثقافة عربية شرقية، ويحملها إليهم معلمون شرقيون مثلهم. . .) (ص 522).
(يتبع)
ساطع الحصري
جناية أحمد أمين على الأدب العربي
للدكتور زكي مبارك
- 7 -
يشهد الأستاذ أحمد أمين على نفسه فيقول:
(أين الشعر العراقي الذي تجد فيه الشعراء يتغنون بمناظر العراق الطبيعية، ويصفون فيه أحداثهم الاجتماعية؟ وأين الشعر الشامي أو المصري أو الأندلسي الذي يشيد بذكر مناظر الطبيعة وأحوال الاجتماع للشام ومصر والأندلس؟ إنك تقرأ الشعر العربي فلا تعرف إن كان هذا الشعر لمصري أو عراقي أو شامي إلا من ترجمة حياة الشاعر. أما القالب كله فشيء واحد، والموضوع كله واحد: مديح أو رثاء أو هجاء أو نحو ذلك ما قاله الجاهليون).
ذلك كلام أحمد أمين، نقلناه بالحرف حتى لا نُتهم بالتزيد عليه فهل رأيتم أغرب من هذا الكلام؟ يعتقد أحمد أمين أن شعراء العراق لم يصفوا مناظر بلادهم الطبيعية ولم يصفوا أحداثهم الاجتماعية.
ولو أنه كان اطلع على الشعر العراقي في عهوده الماضية، وهي التي تعنيه، لعرف أن شعراء العراق لم يفرطوا في الحديث عن أنهارهم وبساتينهم، ولم يتركوا صغيرة ولا كبيرة من شؤون المجتمع إلا أفردوها بحديث خاص، وأخبار الفتن والثورات تشهد بذلك.
لو كان أحمد أمين اطلع على الشعر العراقي لعرف أن العراقيين فُتنوا بمناظر بلادهم أشد الفتون. وهل يعرف قراء العربية نهراً أسير ذكراً من الفرات؟

ألا يكفي أن يكون الشاعر الذي قال:
يا ليت ماء الفرات يخبرنا ... أين استقلت بأهلها السفنُ
وقد فُتن العراقيون بطبيعة العراق فوصفوا الحمائم السواجع وتفننوا في وصف الليل، وأجادوا في وصف الأزهار والرياحين، وأسهبوا في وصف الملاحة والصباحة والجمال، وكادوا يتفردون بالتفوق في وصف مجالس الأنس والشراب.
وكلِف شعراء العراق بوصفهم بواديهم وحواضرهم، ولهم أوصاف كثيرة في الديارات وحيوات الرهبان، وهل أقيم في أديم العراق دير غفل عن وصفه الشعراء؟
لو كان أحمد أمين من المطلعين لعرف أن العراقيين أحبوا الطبيعة أصدق الحب، فهم الذين أذاعوا في الناس معاني الشغف بالوجود، وهم أصدق من وصف الجآذر والظباء، وكانوا ولا يزالون أقدر الناس على تذوق ما في الحياة من بؤس ونعيم
هل نسي أحمد أمين أن طبيعة العراق هي التي أنطقت من يقول:
عيون المها بين الرصافة والجسر ... جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري
إن العراق الشاعر لا ينتظر حكم أحمد أمين، فقد رقم أمجاده الشعرية فوق جبين الزمان. وهنا أستشهد بقول الشاعر علي الجارم في خطاب دجلة:
نبت القريض على ضفا ... فِك بين أفنان الورودِ
وهي كلمة صدق في شاعرية العراق.
لقد وصف العراقيون كل شيء من مظاهر الطبيعة في العراق حتى الحيات والثعابين والعقارب والزنابير والبراغيث!
وأحمد أمين هو المسؤول عن إيراد الشواهد لأنه من أساتذة الأدب بالجامعة المصرية.
ويقول هذا الرجل إن العراقيين لم يصفوا أحداثهم الاجتماعية
وأقول إن شعراء العراق يمتازون بالجرأة في وصف أحداث المجتمع، وفي العراق مات مئات من الشعراء مسمومين أو مقتولين بسبب الجهر بكلمة الحق في وصف الأحداث الاجتماعية، وما قامت في العراق دولة أو سقطت دولة بدون أن تظفر بقصيدة أو قصائد من أولئك الشعراء الذين كانت أشعارهم موازين في الحياة السياسية.
وهنا أذكر مسألة سيحتاج إليها أحمد أمين حين يؤرخ الحياة الأدبية في العراق لعهد بني العباس
يجب أن يكون مفهوماً عند كل أديب أن الدواوين التي تحفظ أشعار أهل العراق لا تمثل الحياة الشعرية لأهل العراق تمثيلاً صحيحاً، فالذي بقي من أشعار أهل العراق هو الجزء الذي سمحت له السلطات السياسية أن يعيش. وأكاد أجزم بعد أن خبرت حياة العراق أن الثروة الشعرية هناك ضاعت منها أشياء كثيرة جداً بسبب الخوف من المسيطرين على الحياة السياسية والاجتماعية.
وقد اهتديت إلى ذلك، وأنا أدرس العصر الذي عاش فيه الشريف الرضي: فقد تبينتُ أن
العراق في ذلك العصر عرف لونين من الحياة: حياة السر وحياة العلانية. وتيقنت أن الشريف ضاع من حياته الشعرية نحو عشرين سنة بسبب التخوف من عواقب الجهر بكلمة الحق.
وقد صح عندي أن الشريف الرضي هو شاعر الثورة على الاستبداد
ولكن شواهد هذا الجانب من حياته الشعرية قد ضاعت
وهل بقيت أشعار بشار في الثورة على رجال السياسة وأقطاب المجتمع؟
هل بقيت أشعار ابن الرومي في الحقد على معاصريه من الحكام والوزراء؟
لقد بقي منها ما جازت روايته، وذهب شعره اللاذع إلى غير معاد؟
وكيف غاب عن أحمد أمين أن فقهاء العراق أنفسهم قد اشتهروا في آرائهم بإيثار الرموز والكنايات؟
إن كان أحمد أمين ينكر أن شعراء العراق وصفوا الأحداث الاجتماعية فليشرح لنا كيف اتفق أن يموت كثير من شعراء العراق بالقتل والاغتيال
وهل يقتل الشاعر أو يغتال إلا بسبب الحرص على الجهر بكلمة الحق؟
وهل في آداب الأمم كلها أبرع سخرية من الشاعر الذي قال:
أنفوا المؤذن من دياركم ... إن كان ينفي كل من صدقا

وهو شاعر قد تأدب بأدب أهل العراق.
إن ديوان الشريف يصور أكثر ما وقع في العراق من الأحداث السياسية والاجتماعية في الشطر الأخير من القرن الرابع، ففيه نرى ما وقع لأقطاب الكتاب من الكوارث والخطوب، وفيه نرى كيف انتهت حياة الخليفة الطائع، وفيه نرى أخبار القتال الذي دار بين السنة والشيعة، وفيه نرى عدوان بني تميم على بعض أصدقاء الشاعر من الزعماء.
وما يقال عن ديوان الشريف الرضي يقال عن ديوان المتنبي فهو سجل لأكثر الحوادث التي وقعت في الشطر الأول من القرن الرابع. وهو تصوير لأكثر ما عرف من الأقطار العربية والإسلامية. وهو تاريخ لأكثر من اتصل بهم من الوزراء والرؤساء والملوك.
وهل يمكن أن يقال إن أشعار المتنبي وهو في حلب تشابه أشعاره وهو في مصر؟
إن القول بذلك لا يقع إلا من رجل مثل أحمد أمين يستدل بوحدة القوافي والأوزان على
وحدة المعاني والأغراض.
وما رأي هذا الباحث المفضال في أشعار مسلم بن الوليد؟ هل خطر بباله أن عند هذا الشاعر قصائد تؤرخ بعض الوقائع الحربية؟
وهل توجّع الناس لمصرع المتوكل إلا بفضل رائية البحتري؟
وهل عرف الناس عزيمة المعتصم يوم عمورية إلا بفضل بائية أبي تمام؟
وبمناسبة هذين الشاعرين اللذين خدما الخلفاء في العراق ننتقل إلى شعراء الشام:
فهم عند أحمد أمين لم يصفوا بلادهم ولم يصوروا ما وقع فيها من أحداث اجتماعية.
فهل يعرف أن شعراء الشام كانوا من أحرص الناس على وصف الطبيعة وأقدرهم على تعقب أحداث المجتمع؟
هل سمع أحمد أمين باسم شاعر يقال له الصنوبري أجاد كل الإجادة في وصف المناظر الطبيعية؟
هل يجهل أحمد أمين أن أبا فراس الحمداني سجل الصراع بين العرب والروم أروع تسجيل؟
هل ينكر أحمد أمين أن المعري وصف أحداث زمانه وصفاً نادر المثال؟
هل يعرف أحمد أمين أن شعراء الشام تغنَّوا بمحاسن بلادهم وأسرفوا حتى قيل إن الشام جنة الأرض؟
هل يعرف أحمد أمين أن اسم الغوطة شرق وغرب بفضل ما تغنَّى به أولئك الشعراء؟
هل يذكر أن الهيام بالوصف كاد يصير طبيعة شامية يشهد لها ما صنع البحتري حين وصف إيوان كسرى بالعراق؟
وهل يذكر أن قصيدة أبي تمام في وصف الربيع لا تقل روعة عن أعظم ما قال الأوربيون في الربيع؟
وهل يذكر أن مصاولة الذئاب والأسود لم توصف بأجمل مما صنع البحتري والمتنبي؟
وما رأي أحمد أمين في الصحراء؟
أليست الصحراء من الطبيعة يا حضرة الأستاذ؟
هي من الطبيعة بلا ريب. فهل تستطيع القول بأن شعراء الشام والعراق لم يصفوا الصحراء؟
وما رأي أحمد أمين في حيوان الصحراء؟
أليس من الطبيعة؟ هو من الطبيعة بلا ريب، وقد تعقبه شعراء الشام والعراق بالوصف والتحليل
إن أحمد أمين لا يرى الطبيعة إلا في الشجرة والزهرة، ولو قال هذا رجل غيره لقلنا إنه ينظر إلى الوجود نظرة عامية.
فهل يتفضل الأستاذ أحمد أمين فيدلنا عمن أخذ هذا التعريف؟
إن الطبيعة لها مظاهر كثيرة جداً، فهي تشمل الإنسان والحيوان والنبات والجماد، وهي تشمل كل ما تراه العيون، أو تحسه القلوب، أو تدركه العقول
فكيف جعلها مقصورة على الشجرة والزهرة؟
ومع ذلك هل قصر شعراء الشام والعراق في وصف الأشجار والأزهار؟
وكيف وهم الذين أذاعوا بين الناس أن النظر إلى الخضرة يزيد في نور العيون؟

هل يذكر أحمد أمين كم ألوفاً من المرات ذكرت الأشجار والأزهار والرياحين في أشعار أهل الشام والعراق؟
هل يستطيع أن يدلنا على شاعر واحد لم يوجه قلبه وشعوره إلى المظاهر الطبيعية؟ وهل يصير الرجل شاعراً إلا بعد أن ينطبع إحساسه بمظاهر الوجود؟
أترك هذه الجوانب وأنتقل إلى حكمه على الشعر المصري، فالشعراء المصريون في نظره لم يكونوا إلا مقلدين لشعراء الشام والعراق. . .
ولأحمد أمين في هذا الحكم الجائر عذر مقبول، لأنه لم يدرس الشعر المصري دراسة تمكنه من الحكم له أو عليه، فلو كان من المطلعين لعرف أن الشعراء المصريين وصفوا بلادهم وتحدثوا عنها بأقوى العواطف، وتغنوا بمحاسن بلادهم أجمل غناء.
وهل رأيتم شاعراً أحس الطبيعة كما أحسها ابن النبيه إذ يقول:
إذا نُشرتْ ذوائبهُ عليه ... حسبتَ الماَء رفَّ عليه ظلُّ
وهل في العربية شاعر صور أوهام بلده وما فيها من مختلف الأحاسيس كما صنع البها زهير؟ وهل عرفتم شاعراً شرب من كوثر الوجود كما شرب ابن الفارض؟
اسمع، يا صديقي أحمد أمين، فقد تواترت الأخبار بأنك ستدرس الأدب المصري في كلية الآداب، وليس من الكثير عليك أن تسمع النصيحة من رجل مثلي، فأنت تعرف منزلتك في قلبي، وتدرك جيداً أني أتمنى أن تكون من الموفَّقين!
إن الشعر المصري طراز خاص، وله مزايا تفرد بها بين الأشعار المعروفة في اللغة العربية؛ ولو أُلقيت قصيدة مصرية بين ألوف من القصائد، لعرف السامعون أن أزهارها تفتحت فوق شواطئ النيل. . .
وهل يستطيع - أحمد أمين - أن يقول بأن ديوان ابن نباته المصري تمكن إضافته إلى البحتري أو ابن الرومي أو مسلم ابن الوليد؟
إن أحمد أمين يصرح بأن الشعر العربي لا يدل على مواطن أصحابه إلا بعد النظر في تراجم الشعراء!
فهل يصح هذا القول في أشعار ابن نباته والبها زهير؟
وهل يصح ذلك في أشعار تميم بن المعز؟
وهل يصح ذلك في أشعار ابن النحاس وأشعار البوصيري؟
وهل يصح ذلك في أشعار عمارة اليمني، وقد عاش في مصر حيناً من الزمان؟
إن مصر قهرت من زارها من الشعراء على وصف ما فيها من طبائع وأخلاق، ولعلها كانت السبب في شهرة من زارها من الشعراء، فكيف يصح القول بأنها لم تتفرد بين الأمم العربية بخصائص شعرية؟
وهل يمكن القول بأن أغاريد صفي الدين الحلي وهو في مصر تشبه أغاريده وهو في العراق، أو أن أشعار ابن سناء الملك لا تدل دلالة صريحة على الوطن الذي عاش فيه إلا بعد الاطلاع على ترجمته؟
إن البارودي - وهو شاعر اصطنع مذاهب القدماء في الأخيلة والتعابير - تدل على مصريته لأول نظرة! فما بالك بالشعراء المصريين الذين استوحوا فطرتهم ولم يتابعوا شعراء بني أمية أو شعراء بني العباس؟
بقيت مسألة مفصلة بهذا المقال، ونحب أن نوفيها بعض ما تستحق من الشرح قبل أن نتكلم عن أحكامه على الأدب الأندلسي، وهي أحكام سيحاسَب عليها أشد الحساب!
ما رأيُ حضرة الأستاذ في الأشعار العراقية والشامية والمصرية التي صورتْ ثورة أصحابها على الدنيا والناس؟
أيظن أن شعراء العصر الأموي والعباسي في تلك الأقطار تحدثوا عن زمانهم ودنياهم، كما تحدث الجاهليون؟
لقد نشأ في الشعر فنٌ يسمى (شكوى الزمان) فهل يراه من وصف المجتمع؟ أم يراه من الثورات النفسية؟
إن كان من وصف المجتمع؛ فهو ثروة عظيمة تنقض رأي أحمد أمين، وإن كان من الثورات النفسية فهو أيضاً من وصف المجتمع لأنه شرح لأسباب الثورة على الدنيا والناس
لو كان أحمد أمين كلف نفسه عناء الاطلاع على ديوان أو ديوانين قبل أن يصدر تلك الأحكام الخواطئ، لعرف أن من المستحيل أن تكون تلك الثروة الشعرية من لغو

القول. فقد حفظ التاريخ الأدبي أكثر من مائة شاعر من الفحول في مصر والشام والعراق، وهؤلاء المائة - ولا نقول المئات - كانت لهم مذاهب في وصف الطبيعة، والتحدث عن المجتمع، والأنس بالحياة أو التبرم بالوجود

وكانت لهم بجانب الشعر فقرات نثرية صوروا فيها آرائهم في حياة المجتمع. وهل كانت رسائل الخوارزمي وبديع الزمان وابن وشمكير إلا صوراً للأحداث الاجتماعية والسياسية؟

وهل يحتاج الباحث إلى النص على أن الشعراء والكتاب كانت تراجمهم فرصة لدرس مشكلات السياسة والمجتمع؟

من الذي يقول بأن شعراء مصر والشام والعراق لم يشتركوا في توجيه بلادهم إلى الأغراض السياسية والاجتماعية؟ وهل كان الشعراء في تلك العهود إلا ألسنة السياسة والمجتمع؟

قد يقال: وأين تقع الأشياء التي تجافت عن السياسة والمجتمع؟

وأجيب بأنه ليس من المحتم أن تكون الأشياء كلها في السياسيات والاجتماعيات، إن صح أن وصف الدقائق الذوقية والوجدانية لا يمس المجتمع

ومن الذي يوجب أن تكون صورة المجتمع مقصورة على الصلات بين الفقراء والأغنياء، والحاكمين والمحكومين؟

إن الأمر في الشعر يرجع إلى عنصر واحد هو الصدق، وإذا صح أن الشاعر صادق الحس والعاطفة فمن حقه أن يتكلم كيف شاء وأن يصف من الأغراض ما يريد.

لقد اتفق لعمر بن أبي ربيعة أن يقف أشعاره على أهوائه الذاتية فهل يمكن القول بأن أشعار ابن ربيعة لا تمثل جوانب من المجتمع الذي عاش فيه؟

وكيف وهي تصويرٌ لثورة العواطف في موسم الحج، وتسجيل لبعض أهواء الناس في ذلك الحين؟

واتفق لأبي نواس أن يقصر أكثر شعره على الخمر والمجون، فهل كان ذلك إلا تمثيلاً لبعض أحوال المجتمع العراقي في ذلك العهد؟

واتفق لأبي العتاهية أن تكون أكثر أشعاره في الزهديات، فهل كان ذلك إلا تخليداً لمظاهر النزعات الروحية في ذلك الزمان؟

وما رأي الأستاذ أحمد أمين في أشعار الزهاد والنساك، وأشعار الماجنين والخلعاء؟ وما رأيه في أشعار الزنادقة والمرتابين؟

أليس ذلك كله تصويراً لأحوال المجتمع؟

وما رأيه في الأشعار التي قيلت في وصف الإخوان والأبناء والأزواج؟

أيراها أجنبية عن المجتمع؟

الحق أني أجاهد في غير ميدان، وأعارك في غير معترك، لأني أشرح البديهيات، وأقيم الأدلة على أن الجزء أصغر من الكل وأن الواحد نصف الاثنين!

ولكن هل كنت أملك أن أصنع غير الذي صنعت؟

إن جمهرة القراء لم تكن تعرف أن الأستاذ أحمد أمين يخطئ ثم يصرّ على الخطأ؛ ولم تكن تنتظر أن أهجم عليه وأنا الذي دافعت عنه في مجلة الرسالة يوم تجنى عليه بعض أدباء لبنان

وقد تفضل بعض أدباء العراق فدعاني إلى أن أنبه الأستاذ أحمد أمين إلى اهتمامه في الأيام الأخيرة بالدعوة إلى تعزيز اللغة العامية

فهل يظنون أني موكَّل بتقويم الأستاذ أحمد أمين؟

إن المهم هو تذكيره بعواقب ما يصنع في التجني على الأدب العربي وتخويفه من غضبة من وثقوا فيه يوم رأوه مشغولاً بالدراسات الإسلامية، وكان يستحق الثقة قبل أن يصنع بنفسه وبماضيه ما صنع

وتفضل فريق من الباحثين فقدموا إليَّ شواهد من أغلاط أحمد أمين في مؤلفاته ودعوني إلى عرضها في هذه البحوث النقدية

فليعرفوا - مشكورين - أني لا أستطيع ذلك، لأني لا أحب أن يسوء رأى الناس في مؤلفات أحمد أمين، برغم ما فيها من أغلاط، فقد عانى مثل الذي نعاني من أقذاء العيون تحت أضواء المصابيح

ليس من المهم أن نهدم الأستاذ أحمد أمين - فتلك غاية صغيرة - ولكن المهم أن نكف

شره عن الأدب العربي وأن نزجر من يتطلع إلى مثل غرضه من عوام الباحثين
المهم أن يعرف الأستاذ أحمد أمين أن في مصر رقابة أدبية تصد الجامحين، وتهدي الحائرين، وهو يعرف في سريرة نفسه أني لا أهجم عليه إلا وأنا آسف محزون، لأنه كان مثالاً للصديق الأمين
وبعد مقال أو مقالين أو مقالات سأتركه ليتنسم هواء البحر وهو آمن بشواطئ الإسكندرية بين رفيف القدود وهدير الأمواج
(للحديث شجون)
زكي مبارك
بين جناية الأدب الجاهلي والجناية عليه
للأستاذ عبد الجواد رمضان
أنا من أزهد الناس في الكتابة وأقلهم رغبة في المناقضات الصحفية الأدبية والعلمية، على لَذة جامحة في مطالعتها، ورغبة ملحة في تتبعها، وشوق عنيف إلى ما يتخللها من حيلة بارعة وسرعة خاطر، وصراحة مكشوفة ومداورة خادعة، وحجة مصيبة أو خاطئة. . . الخ
ولعل مشهداً من المشاهد لم يثر في نفسي شهوة التدخل بين طرفيه ما أثاره موضوع الموسم بين الدكتورين: زكي مبارك وأحمد أمين، أو الأستاذين العظيمين: أحمد أمين وزكي مبارك (على التغليب يا دكتور). وأعوذ بالله من شهوة الكلام فقلما فصلت خطة أو حسمت موقفاً أو أصابت مقطعاً يحسن السكوت عليه وينتهي على حده الخصام؛ ولولا ما في أمثال هذا الحوار من استعراض الآراء واستثارة شتى المذاهب والبحوث وجلوة القوى العلمية بين المتحاورين مما يعود بالخير على العلم والأدب، ويفتح إغلاق النظر أمام الباحثين لكان في إثارتها جناية أي جناية، وإجرام أبلغ إجرام
المتحاوران في موضوع الموسم عظيمان ما في عظمتهما مطعن، جليلان ما في جلالهما مغمز؛ ولئن اختلفت جهات الجلال والعظمة فيهما، إنهما ليلتقيان في أنهما قطبان ينفرج عن جهودهما في البحث والنظر فضل كبير وخير وفير
عرفنا الأستاذ الكريم أحمد أمين رجلاً رزين المجلس، رصين العقل، حصيف الرأي، بعيد الأناة، عفَّ القلم واللسان. يطالع الناسَ في آثاره سمت العلماء وجلال المتواضعين، ونظرات المجربين وثبات المستقيمين، لا يزهاه النجاح وإن أعجب وبهر، ولا يثيره اللجاج وإن احتدم وزخر، بل يمضي قدماً إلى الهدف الذي قصد، والغاية التي نشد. ذلك أحمد أمين لمن لم يعرفه
وأما دكتورنا زكي مبارك، فذلك الأديب الثائر الشاعر الناثر السنتريسيِّ الباريسيَّ، الأزهري الفرنجي الذي خلص له في هذا الجيل أن يجمع بين أدب الزنادقة، وإخلاص المتصوفة، ويؤاخي بين الإيمان والتمرد، ويوفق بين الأناقة والهرجلة و. . .
ليس على الله بمستنكر ... أن يجمع العالم في واحد
ترجع معرفتي بالدكتور إلى عهد الصبا، وهو تلميذ للمغفور له الأستاذ السيد مصطفى القاياتي، يختصه بفضل عنايته، ويضفي عليه من أبراد الكرامة، والثناء والإعجاب، ما يبعد في غور الحب بينهما، ويبالغ في تعلق كل منهما بالآخر، تعلقاً يفرع به الأقران ويزهي على كل إنسان؛ ولئن حالت ظروف الحياة دون اتصالي بالدكتور، إنني لأشهد في ثورته - كلما ثار - تلك الروح الجريئة الثائرة، روح أستاذه الكريم حية تتوثب، لا يكبتها ملام، ولا ينهنهها وعيد، ولا تكبحها مخافة، فليت شعري، على أيّ باقعة وقع الأستاذ أحمد أمين؟!
لا جرم أن الأستاذ أحمد أمين كان في جُنة من نبل نفسه وكرم أخلاقه، ومن آثاره القيمة التي لا تدفع عن موارد الخلد، لو أنه جرى على سننه وأخلد إلى غيله الذي لا يقتحم واستخدم تلك الأذن الذي سكّها - قديماً - ما كتبه الدكتور زكي ناقداً به الدكتور طه حسين بك، فجعله يرسل حكمه على أولهما في حثيثته المأثورة: إن الدكتور زكي يلقى مجادلة كما يلقى المصارع المصارع، لا كما يلقى العالم العالم. . . أو كما قال بيد أني أرى الأستاذ أحمد أمين في عهده الأخير، أغفل من خلاله، ما فتح به للدكتور ثغرة ينفذ منها إلى إدراك ثأره القديم؛ والدكتور - ولا نكران للحق - لَماح يقظ؛ ما لبث أن انتهزها فرصة سنحت، فشفى بها نفسه، بلا ثمن ولا استكراه

مازلت أعرف للأستاذ أحمد أمين فضله ونبله منذ تصورت معنى النبل والفضل، حتى قرأت له عام أول رده على فضيلة الشيخ اللبان في جريدة الأهرام؛ ذلك الرد الذي كان عنوانه: (أدب الخطاب)!! والجواب يقرأ من عنوانه؛ والشيخ اللبان - وإن جردناه من جميع مميزاته - لن نستطيع أن نجرده من جلال السن، ومن الشيب في الإسلام؛ فليس مما يليق في أدب ولا عرف أن يعلم أدب الخطاب

أضحى يمزق أثوابي ويضربني ... أبعد شيبي يبغي عندي الأدبا؟!

من حق الأستاذ ومَنْ دون الأستاذ أن يردَّ على مخالفه، ولكن من حق المخالف ألا يشتم؛ ولم تكن خشونة الكلام وسيلة من وسائل الإقناع المنطقي، إلا في المواطن التي تنكرها الحجة، ولا يعترف بها العلم؛ والأستاذ في علمه وفضله، لا تعوزه حجة، ولا يعجزه برهان

كانت هذه عندي أول زلة للعالم الجليل. فأما الأخرى، فهي إنشاؤه لمجلة الثقافة التي أزالته

عن مكانه بين العلماء، وعدلت به إلى صف الصحفيين؛ فأصبح وهدفه أن تروج مجلته وتنشر بين القراء، وتحثو في وجه كل مجلة سبقتها أو لحقتها؛ ولا تروج المجلة إلا بجديد؛ فليجدد مولانا الأستاذ في: أدب المعدة، وأدب الروح؛ وفي: الدين الصناعي والدين الطبيعي؛ وفي: جناية الأدب الجاهلي على الأدب العربي. الخ الخ الخ

لقد بدأ الأستاذ فكتب ما كتب؛ وأخذ الكتاب بعده طريقهم، بين خاذل وناصر؛ وكان أجرأ الكاتبين (بلا ريب) الدكتور زكي مبارك، ولا فخر. وكان ضرورياً أن ينافح الأستاذ عن آرائه، وأن يذود عن حياضه، وهو صاحب القلم الجوال والرأي الصوّال؛ ولكن الأستاذ سكت؛ ولا أدري: أسكوت مؤقت أم مؤبد، فإذا كان سكوتاً مؤقتاً، فأنا أشوق الناس إلى رده، وذلك ظني به؛ وإن كان سكوتاً مؤبداً، فهل تراه ارتاح إلى الأثر الذي أحدثته آراؤه في رواج مجلته، أو أنه رأى أن يعامل الدكتور زكي على سنن ما كان يعلمنا سيدنا في الكُتَّاب:

إذا نطق السفيه فلا تجبه ... فخير من إجابته السكوت

فإن كلمته فرجت عنه ... وإن خليته كمداً يموت؟!

وإذا كان رأيه هو هذا، فإني أعجل له الجواب، فأقول: ذاك لو بقيت على حلمك، واحتفظت بمقامك القديم، فأما الآن فقد تساوت الكفتان، والفلج لمن برّز . . .

على أن الخبيث الدكتور زكي مبارك لن يموت قريباً، فإنما يعجل بالخيار.

أما بعد، فلقد علم الله أني أحب الأستاذ أحمد أمين وأجلّه، أكثر مما أحب الدكتور زكي وأجلّه؛ وكنت قمينا أن أغضب للأستاذ وأتحمس له، على قدر حبي له، وإجلالي إياه؛ ولكني - ولا أكذب الله - أشعر لعمل الدكتور معه بشيء من الارتياح. ذلك لهذه الطعنات الدوامي، التي حشا بها مقاله: الدين الطبيعي والصناعي، ليصيب بها قوماً غافلين، لم يعرضوا له إلا بكل خير، ولم تغفل عين الله عن الثأر لهم.

ثم لهذه الدعاوى العريضة التي أصبحت ديدن كل من أحس شهرة بحق أو بباطل في هذا البلد، فلا يقنع الباحث منهم بما دون قلب الأوضاع، ومحو التاريخ، وتغيير خلق الله؛ وهو أعجز من أن يغير وضع الزقاق الذي ولد فيه، ودرج بين صبيانه.

ولا يسعني أن ألقي القلم قبل أن أوجه تهنئتي إلى الأستاذ أحمد أمين بما يكون قد أصاب

من نجاح صحفي، لست أدري أمن قبيل أدب المعدة هو أم من قبيل أدب الروح؛ لأن النوعين لا يزالان في حاجة إلى مزيد تحديد.

فأما أنت يا دكتور زكي، فإني أهنيك بأن ظفرت على سِفاهك هذه المرة، ببعض رضاي. ورحم الله حكيم الشعراء:

سِفاهٌ ذاد عنك الناس حلم ... وغى فيه منفعة رشاد

عبد الجواد رمضان

المدرس في كلية اللغة العربية

في طرسوس

على قبر الخليفة العظيم

للدكتور عبد الوهاب عزام

هذه مدينة أذنة (أطنة) قدمتها البارحة وسيمر بها اليوم قطار طوروس السريع ذاهباً

إلى الشام، وهو يمر بها ثلاث مرات في الأسبوع. فإن فاتني قطار اليوم فلا مفر من الانتظار في آذنة إلى السبت. إن هواء آذنة حار، وليس فيها ما يشغل الزائر ثلاثة أيام ففيم التلبث؟ إن لي في طرسوس أرباً ولابد لي أن أزور طرسوس. إنها قريبة بينك وبينها مسيرة ساعة للقطار. ولو كانت بعيدة لما ترخصت في القعود عنها. إن لم يتيسر لي العودة منها قبل موعد القطار فليذهب قطار الأربعاء وليذهب قطار السبت فما عن زيارة طرسوس معدي. إن في القلب لحنيناً إليها ومنيتي وقفة فيها:

وقفة بالعقيق نطرح ثقلاً ... من دموع بوقفة بالعقيق

أأجاوز آذنة صوب الجنوب دون أن أرى طرسوس؟ أعظم به من عقوق، وحرمان للنفس مما تمنيت سنين طوالاً

ما شأن طرسوس؟ ما الذي يشوقني فيها؟ إنها مدينة صغيرة كئيبة المنظر فما حببني إليها؟ لله أي كنز في طرسوس دفين! وأي تاريخ كبير في تراب هذه المدينة الصغيرة!

حاولت أن أبكر إليها فأعود فأدرك قطار طوروس، ولكن فاتني قطار ست ونصف من الصباح وكان عليَّ أن أختار إحدى النيتين: إما قطار طوروس وإما طرسوس أخذت القطار إلى طرسوس والساعة ثمان ونصف

هذه طرسوس أحد الثغور القديمة بين المسلمين والروم. طرسوس التي فتحها الرشيد ومات فيها ابنه المأمون غازياً كما مات الرشيد في طوس ومات ابنه في طرسوس. لله همة أبعدت بهذين السهمين من بغداد إلى طوس وطرسوس. من كان يفطن أن الرشيد والمأمون كانا مترفين من أبناء النعمة وأخدان القصور فليعلم أن الرشيد كان همة لا تفتر بين الحج والغزو:

فمن يطلب لقاءك أو يرده ... ففي الحرمين أو أقصى الثغور

وأن المأمون لم يقعد عن قيادة الجيش إلى ثغور الروم، وأنه لقي حتفه غازياً في هذه المدينة النائية طرسوس:

ما رأينا النجوم أغنت عن المأ ... مون في ظل ملكه المحروس

غادروه بعرصتي طرسوس ... مثلما غادروا أباه بطوس

يقول ياقوت:

وبينها وبين آذنة ستة فراسخ، وبين آذنة وطرسوس فندق بُفا والفندق الجديد. وعلى (. . .طرسوس سوران وخندق واسع ولها ستة أبواب. ويشقها نهر البردان

وما زالت موطناً للصالحين والزهاد يقصدونها لأنها من ثغور المسلمين، ثم لم تزل مع المسلمين في أحسن حال؛ وخرج منها جماعة من أهل الفضل إلى أن كان سنة 354 (الخ

كانت طرسوس ثغراً تتكسر عنده زفرات الروم وفي إقليمها غزا أمير العرب وشاعرهم سيف الدولة وأبو الطيب المتنبي

واستولى عليه الروم سنة 354 حين مرض سيف الدولة فخربوا مساجدها وجلا كثير من أهلها. يقول ياقوت: (وملك نقفور البلد فأحرق المصاحف وخرب المساجد وأخذ من خزانة السلاح ما لم يسمع بمثله مما كان جمع من أيام بني أميّة إلى هذه الغاية. . .)

ثم دخلت في حوزة المسلمين حينما امتد سلطانهم على بلاد الروم من بعد وبعد الحروب الصليبية استولى عليها المصريون، ثم استولى عليها بنو رمضان الذين حكموا آذنة وما حولها في القرن الثامن الهجري إلى أن أديل منهم للعثمانيين

ذكرت كثيراً من وقائع الدهر في طرسوس وذكرت الرشيد والمأمون وسيف الدولة والمتنبي وقصيدته السينية التي مدح بها محمد بن زريق في طرسوس:

هذي برزتِ لنا فهجت رسيسا ... ثم انثنيت وما شفيت نسيسا

ورثيت للشاعر حين ذكرت أن الممدوح أعطاه عشرة دراهم. فقيل له: إن شعره حسن. فقال: ما أدري أحسن هو أم قبيح ولكن أزيده لقولك عشرة دراهم

ركبت في طرسوس عربة ومعي رفيق من اسكيشهر، وكان الحوذي يعرف العربية، ولا تكلم أحداً في هذه النواحي بالعربية إلا أجابك

قلت: أين منسج راسم بك؟ فذهب إلى معامل عظيمة للنسج لمحمد بك المصري. ولم أجد البك هناك ولكني رأيت المناسج العظيمة وسرني ما رأيت فيها وما سمعت

وسألت رجلاً هناك: أتعرف قبر الخليفة المأمون؟ المأمون ابن الرشيد مات هنا ودفن، فهل عندكم علم عن قبره؟ قال: لا. ولكن هنا شيخاً خبيراً بالآثار، لعل عنده علما. غاب عني قليلاً، وعاد يصف للحوذيّ الموضع! انتهى السائق إلى جامع كبير له سور عال ضخم كأنه أعد للقتال، وعلى مقربة منه خانات كبيرة، وبجانبه تكية مغلقة. دخلنا الجامع إلى صحن واسع يحيط به أروقة تمتد على جدار الباب، وعن اليمين والشمال، وفي وسطه حوض مظلّل؛ ويفصل الصحن والمسجد جدار دخلناه من باب، ومنه إلى مسجد مستطيل فيه ثلاثة عقود تقوم على صفين من العمد.

وفي الجدار الشرقي من المسجد كوة تطل على التكية المغلقة. نظرت منها فإذا مصلى مسقوف، وإذا ثلاثة قبور، أشار خادم المسجد - وهو حلبيَّ الأصل - إلى أقربها إلى الكوة. وقال: هذا قبر المأمون. قلت: أرأيت عليه كتابة؟ قال: أجل! وقد سألت ناساً في طرسوس وأذنة؛ فاتفقت كلمتهم على وصف القبر وموضعه! وأما المؤرخون، فقد أجمعوا على أن المأمون دفن في طرسوس. وأخبرني بعض العلماء العرب والترك أنهم رأوا القبر وقرءوا عليه اسم الخليفة المأمون!

هنا الخليفة العظيم!. . هنا الرجل العالم المحب للعلم والعلماء!. . هنا الملك العفوَّ الذي قال: لو علم الناس حبي للعفو لتقربوا إليَّ بالذنوب!. . . هنا عبد الله المأمون بن هرون الرشيد!. . .

(رحم الله أبا العلاء):

أنتم بنو النسب القصير فطولكم ... باد على الكبراء والأشراف

والراح إن قيل ابنة العنب اكتفت ... بأب عن الأسماء والأوصاف

هنا أمير من أمراء المؤمنين يفتخر به تاريخ الإسلام، وحق على الأمم الإسلامية كلها على اختلاف أجناسها أن تشيد بذكره، وتعظمه في قبره!. . .

لقد رست قبور الخلفاء والعباسيين في بغداد وسامرّا. فلا يُعرف لواحد منهم قبر اليوم حاشا قبر هرون الذي طمس عليه عصبة الشيعة في طوس؛ وحاشا قبر المأمون الذي طمس عليه النسيان في طرسوس أو كاد.

تمنيت أن أجلس إلى قبر المأمون ساعة فأسجل ما توحيه إلى نفسي عظمة الماضي ومصائب الحاضر، وغير الزمان، وتقلب الأيام، وما يبعثه في النفس ذكر المأمون وجواره من عظمة وإعجاب، وفخار وعبرة!

ثم جلست في طرسوس فرأيت مساجد عتيقة، ولكني أصغرت كل شيء فلم أبال بعد أن وقفت على قبر الخليفة الكبير المأمون بن الرشيد رحمهما الله!. . .

عبد الوهاب عزام

ذكريات سني التعليم

للأستاذ عبد الرحمن شكري

دخلت مدرسة المعلمين كطالب سنة 1906 وطلبت الإحالة على المعاش سنة 1938 وكانت مدة اشتغالي بالتعليم كطالب ومدرس وناظر ومفتش اثنتين وثلاثين سنة وهي ليست بالزمن القليل. وربما كان منصب الناظر أشق مناصب التعليم التي وليتها بالرغم من وجاهة مظاهره. وقد كنت ناظراً لخمس مدارس ثانوية وقبلها لثلاث مدارس ابتدائية، وكانت مدة نظارتي للمدارس الثانوية تسع سنوات وللمدارس الابتدائية ثلاثاً أي كانت نظارتي للمدارس اثنتي عشر سنة، وهي أيضاً ليست بالزمن القليل. وقد لبثت في نظارة المدار الثانوية في عهود وزارات وأحزاب مختلفة، وفي عهد كانت المدار الثانوية فيه مضطربة جد الاضطراب بسبب قلة الاستقرار السياسي.

وأعترف أن بقائي في نظارة المدارس تلك المدة الطويلة لم يكن بحسن لباقة في معاشرة آباء الطلبة ومخالطتهم واكتساب معونتهم، فإن ميلي الطبيعي إلى الوحدة منع من ذلك حتى أساء أناس فهم هذا الميل إلى الوحدة وعدوه تكبراً وهو ضعف في البنية يتطلب الراحة بالانقطاع عن الحديث وعن تكاليف المجالس وأعني ما تكلفه من تعب. ولم يكن بقائي في النظارة بسبب مكر ودهاء وخلابة تحبب الناظر إلى تلاميذه لأن المكر إذا تكلفه الإنسان يتعبه ويكلفه جهداً ربما كان لا طاقة له به، وإنما كان بقائي بها أولاً لأني آثرت تصريف الأمور بنفسي بدل الرجوع إلى الوزارة في أمور كثيرة وبدل خلق مشكلات لها، ولا تكره الوزارة أمراً قدر كرهها أن يُرجع إليها في أمر كان لا يستطيع الناظر ألا يكبِّر أمره حتى يصير لا مناص من الرجوع إليها فيه، وثانياً

لأني اتخذت في خطط التعليم ما اتخذه نابليون في خطط حروبه إذ كان يعبئ أكثر قوته لمواجهة موطن الضعف في العدو فيهزمه، وكذلك كنت أنا والأساتذة نعبئ عنايتنا وجهدنا لمعالجة التلاميذ الضعاف ولمعالجة أماكن الصعوبة في المناهج وأماكن الخطأ والضعف في التلاميذ الضعاف، وهذه خطة تحتاج إلى تفصيل ولكنها الخطة الوحيدة التي يستطاع بها جعل نسبة النجاح في الامتحانات حسنة مرتفعة، وقد استطعنا في الواقع أن نجعل بهذه الخطة نسبة النجاح حسنة، وهذا كان يسر بعض رؤسائنا عند ظهور النتائج

ومنصب ناظر مدرسة من المدارس الثانوية المصرية منصب كانت تحوطه العداوات. فذا

أراد أن يهيئ أسباب النظام قيل متشدد مرهق مجرم، وإذا تسهل وترك الأمور تجري في مجاريها قيل ضعيف كسول، وإذا كان بين بين اتهم تارة بالإرهاق والإجرام، وتارة بالضعف والكسل، واتهم علاوة على ذلك بالتذبذب. وقد خرجنا والحمد لله من هذا المنصب ومن غيره من المناصب وليس في ملف خدمتنا مؤاخذة ولا سؤال ولا تحقيق في مؤاخذة، ولم تكن هناك حتى ولا مخاطبة شفوية في أمر مؤاخذة مالية أو أدبية أو علمية أو خلقية إلا مؤاخذة على رفع صوتنا في حضرة علي بك حافظ رحمه الله كنت مدرساً وهو ناظر، وهذا أمر ربما استثار تعجب الأساتذة المدرسين في هذا الجيل وقد كانت خطتي في معاملة الأساتذة المدرسين على العموم خطة معاوية في قوله (ولو كانت بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت إذا أرخوا شددت وإذا شدوا أرخيت) وربما أفادني ميلي الغالب إلى الوحدة من ناحية وإن أضر بي من ناحية أخرى، فإن أضر بي من ناحية جهلي بما يدبر في الخفاء ومن ناحية إساءة بعضهم فهم ذلك الميل إلى الوحدة وعده تكبراً، فقد أفادني من ناحية أخرى إذ لم يخلق أسباب الانقسام والتحزب والمشاحنة بين الموظفين بمناصرة بعضهم على بعض. وكانت خطتي نحو الطلبة إعزاز الطالب الكريم الأخلاق واحترامه إذا كان ممن لا يطغيه الإعزاز والاحترام، وإفهام المقصر أو الخارج على النظام أن العقاب ضرورة لا إهانة فيها وأن الشهامة تقتضي أن يرحب مستحق العقاب بالعقاب. وقد حاول بعضهم أن يذيع في مدرسة أني أتشدد تشدداً مسيئاً في معاملة الموظفين فلم يفلح بالرغم من الإلحاح في هذا المسعى لأن هذا المسعى كان مهزلة حقيرة، ولا يقبل الموظفون في هذا الجيل إساءة في المعاملة لا إلى الحد الذي حدده هذا المسعى ولا إلى أقل منه. وكبار رجال الوزارة يعلمون أنه ليس في استطاعتي أفعل ذلك حتى لو حدثتني نفسي بإساءة معاملة أحد. ولكنه مسعى يدل القارئ على المتاعب التي يتعرض لها حتى أقل النظار طلباً للمتاعب وأبعدهم عن مظانها. وقد حاول أيضاً أصحاب ذلك المسعى إفهام الطلبة أني أتشدد تشدداً مرهقاً للطلبة، وهم يعرفون أني قلما كنت أوقع إلا العقوبات المدرسية المفروضة ولم أكن أوقعها إلا بمقدار ما يستقيم معه التدريس. وقد كنت أتعجب من الخبث والشر في نفوس أصحاب ذلك المسعى، ولكن مما هَوَّنَ الأمر عليَّ أن بعض الطلبة الذين كنت أضطر إلى معالجتهم بشدة كانوا بعد نجاحهم وتخرجهم يرسلون إليَّ

الخطابات ينسبون فيها نجاحهم إلى ما عالجتهم به أو كانوا يفعلون ذلك إذا قابلتهم بعد تخرجهم. وقد عَلَّمْتُ آلافاً من التلاميذ بمدارس الإسكندرية ودمنهور والمنصورة والزقازيق والقاهرة وحلوان والفيوم الأميرية. وكثير منهم قد صادفوا نجاحاً كبيراً في حياتهم بعد أيام التلمذة، وهم يعرفون أن الخشونة والعجرفة أبعد الطباع عن طبعي ويعرفون أني كنت أعامل أكثرهم معاملة الأخ الكبير للأخ الصغير. وقد كنا نتبع خطة التعبئة لمعالجة الضعف في جميع سني الدراسة لا في السنة الأخيرة وحدها، ومن أجل ذلك كانت تأتي نتائج امتحانات النقل للفرق حسنة مرضية في جملتها إلا ما شذ بسبب ضعف شديد في فرقة أو فصل وعجز في الأستاذ عن معالجته مما يحدث مثله في جميع المدارس. والوزارة إنما تأخذ بمتوسط نسبة النجاح للمدرسة كلها، وتنظر في أسباب تخلف الفرقة الواحدة أو الفصل الواحد. ولا أذكر أن الوزارة آخذتنا حتى ولا مرة واحدة بسبب تلك النتائج. ومما يؤسف له أن بعض كبار آباء التلاميذ كانوا إذا رسب ابن أحدهم حقد حقداً شديداً، ولا أعرف إذا كانت هذه الصفة لا تزال في الآباء. ولو أنهم سألوا الوزارة عن مستوى النتائج لأراحوا أنفسهم وأراحوا النظار من عواقب

حقدهم الذي لا يتفق وتربيتهم العالية ومنزلتهم الكبيرة. والمدرسة دنيا مصغرة: ففيها العالم والجاهل والذكي والغبي والوديع والشرس الطباع والكريم والحقود، والذي يغلب على طبعه الخير، والآخر الذي يغلب على طبعه الخبيث والشر وحب الأذى. ولا يستطيع أستاذ مدرس ولا ناظر أن يعجن جِبِلَّةَ هؤلاء وأن يجعلهم كلهم على طبيعة واحدة من العلم والذكاء والكرم وسمو الشمائل، ولا أن ينال إخاءهم وإنصافهم جميعاً. ومهنة المدرس والناظر من أشق المهن، ولا يهون متاعب التعليم غير إنصاف الوزارة من ناحية وإنصاف الآباء من ناحية أخرى وحسن مؤازرتهم؛ وهذا الإنصاف لا يغني عنه لإنجاح التعليم تغيير الوسائل والأنظمة. ولسنا نقول هذا القول لأننا نطلب أو نرجى نفعاً فقد انتهت حياتنا العملية وانتهت مطامعنا وآمالنا إلى غير عودة، ولكنا نقوله ونحن نعلم أن المعلم والناظر يعملان في سذاجة الشباب أو عادات الشباب والمشيب حتى وإن لم يجدا عطفاً من بعض الآباء أو من الوزارة؛ ولكن صعب على النفس ألا تجد ما يعينها على تحمل مشقة التعليم، واستخراج حلاوته، والتعليم شيِّقٌ حلو إذا انتظمت أموره، وامتنعت عنه الأحقاد، والمعاداة على كل أمر تافه. ولا أذكر أني تأثرت مرة من حسن عطف ومودة قدر تأثري عندما نُقِلتُ من نظارة مدرسة المنصورة، وجاء تلاميذ لتوديعي، ووقف باقي الطلبة في الفناء يحيونني وأنا في القطار، وقد دمعت أعين بعض الطلبة المودعين ولم أكن أتعمد اللين معهم، ولا التراخي، حتى أنال عطفهم! ولم يكتفوا بذلك بل أظهروا وفاءً عندما صاروا إلى المدرسة الثانوية بالمنصورة، وجاء إليهم تلاميذي من مدرسة الزقازيق الثانوية لمباراتهم، وقد جعلني وفاؤهم هذا أندم على أني لم أكن أكثر ليناً في معاملتهم، وإن كنت لم أنقطع عن مشاركتهم في سرورهم ومباسطتهم والعمل على راحتهم ولإنجاحهم، وتعهد مرضاهم، والسهر على صحتهم إذ لم تكن شدتي قسوة بل رحمة.

عبد الرحمن شكري

النبوة - الوحي - المعجزة

للأستاذ عبد المنعم خلاف

- 2 -

معذرة من طول الفترة بين مقالي الأول - في هذا الموضوع ومقالي هذا؛ فان أعمال الامتحان في المدارس وشواغل - السفر من بغداد إلى القاهرة أمور لا يستقيم معها فكر ولا يصفو فيها خاطر.

كلما فكرت في صمت الطبيعة المطبق تجاه الإنسان، وثبات السماء والأرض أمام حواسه، وعدم اكتراث الأشياء له، وعدم وجود ثغرة ينحدر منها إلى أفق آخر غير هذه المناظر الهائلة الثابتة. . اعترتني رهبة من وضع الإنسان هذا الوضع المغلق عليه فيه كل شيء! وأقامني الفكر بين العجز والتعب كما يقول المتنبي:

ومن تفكر في الدنيا ومهجته ... أقامه الفكر بين العجز والتعب

ولكني أفرض في بعض الأحيان أن الإنسان استطاع أن يرقى أسباب السماء بسلم، وأنه طار كالريح، وانتقل كالبرق، وصار الكون كله مَرْويّاً بين عينيه. فهل يفيده ذلك شيئاً في حل شيء؟ كلا! فيما أتخيل. . لأن الذي ينتقل من متحف أعاجيب صغير إلى متحف أعاجيب كبير، لا يزيده ذلك إلا دهشة ورغبة في معرفة الأسباب!

وهبوا الإنسان حلل كل شيء في الطبيعة وركبه. . . فهل تذهب قدرته تلك من حيرته ودهشته في إدراك العلاقة بين فكره وبين الأشياء، وفي إدراكه نفسه وقدرتها؟ كلا! فيما أتخيل. . . فهو سوف لا يدرك من نفسه إلا أنه آلة خالقة تفعل الأعاجيب. فنحن مهما أدركنا ومهما فعلنا فسنظل حائرين في معرفة كيف ندرك وكيف نفعل ما نفعل. . . . !!. ويبقى وجود كل شيء بعد ذلك لغزاً مغلقاً كما هو.

ومن هذا المدخل أدخل إلى بحث (المعجزة الحسية)، التي هي أعظم عقبة يصطدم بها أكثر الباحثين المتشككين في طريقهم إلى الإيمان بالنبوة. لأنهم يرون في إيجادها خرقاً للناموس العام الذي ينتظم الطبيعة، وخروجاً على سنن اطرادها؛ ويرون أن الإيمان بالنبوة لا يكون إلا بالإيمان أيضاً بهذا النوع من الأفعال الخارقة لسنة الطبيعة. فيقفون مترددين محجمين عن الإيمان بالنبوة والوحي، إذ يجدون في منطقة الإيمان بهما عقبة

المعجزات الحسية. فيذهبون إلى تأويل النبوة والوحي بتخريجات لا تتفق مع الإيمان الصحيح ولا مع نصوص القرآن الصريحة، ولا مع منطق النبي نفسه؛ ومعنى النبوة التي أدركها هو في روحه وفكره، وحدثنا عنها، ووصفها لنا. فهم يحاولون أن يفهموا الوحي على أنه فيض ذاتي في النفس الإنسانية، وحالة إلحاح من فكرة الصلاح والحق على قلوب بعض محبي الإصلاح من البشر بعد إدراك تام للاتجاه العام في الطبيعة. فيخيل إليهم حين يدركون ذلك أن إرادة رب الحياة معهم ومنطقه في أفواههم وعقولهم؛ فيصدعون بالدعوة، وليس هناك وراء هذا اتصال بينهم وبين الله ولا حديث ولا شيء. وأما الخوارق التي كانوا يجرونها فهي أعمال ناشئة من يقظتهم وإدراكهم علماً من الطبيعة لم يدركه غيرهم. فيستخدمون ذلك في إقناع الناس.

هذه هي خلاصة مقالة منكري النبوة في العصر الحديث. وقد ألححت في مقالي الماضي في بيان النبوة كقانون من قوانين النشأة العقلية والروحية، وأنها أشبه بالعلاقة بين الأبوة والبنوة في الترتيب والإرشاد، وأنه ليس من المعقول أن تمضي الحياة الإنسانية من أول رجل إلى آخر رجل من غير سماع كلمة غير إنسانية مما وراء الطبيعة، وإلا لزم أن تهدر قيمة الإنسان أمام نفسه لأنه لم يسمع حديثاً من الحياة يحدد له قيمته ومكانه. . .

أما المعجزات الحسية فلو لم يحدثنا عنها القرآن حديثه القاطع بوجودها لكان لنا معها موقف آخر. ولكن القرآن المعجز الدائم يحدثنا عن ناقة خرجت من صخرة، وعصا انقلبت حية، وطير خرج من طين، وعن كثير من الآيات بحديث صريح لا يقبل تأويلاً ولا تخريجاً غير ما يحتمله لفظه. ولم يشر القرآن بأي إشارة إلى أن الأنبياء الذين جرت على أيديهم هذه الخوارق كانوا على علم بأسرار ما يفعلون، بل بالعكس يحدثنا أن موسى خاف وفر وولى مدبراً حين رأى عصاه تنقلب إلى ثعبان مما يدل على أنه ما كان يدري بسر ما يجري أمامه

إذاً فقد حبط قولهم إن تلك الخوارق ناشئة من إدراك النبي سراً من الطبيعة لم يدركه غيره

وينبغي أن نتذكر دائماً أن كل شيء في الطبيعة معجز ومحير. وأن إضافة شيء إلى الطبيعة من أعمال الإيجاد والخلق في ظروف استثنائية تقضي الضرورة بإحداث حجة حسية دامغة فيها، تلك الإضافة لا تزيد عجباً ولا تستحق دهشة أكثر من غيرها من الموجود قبلها

وينبغي أيضاً أن نمنع خيالنا من تصور الله تعالى خاضعاً لطرق صناعتنا. . . فهو لا يحتاج إلى مخابير ومعايير ومنافيخ وآلات ومعامل حتى يخرج شيئاً وإنما المسألة بالنسبة إليه بسيطة هينة. وقد وهم إبراهيم عليه السلام حين قال له: (رب أرني كيف تحيي الموتى) إذ أنه ظن أن هناك كيفية وأسلوباً محسوساً لإيجاد الله للأشياء فقال له الله: (أولم تؤمن؟ قال: بلا، ولكن ليطمئن قلبي. قال: فخذ أربعة من الطير فصُرْهُنَّ إليك (أي اذبحهن)، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً، ثم ادْعُهُنَّ يأتينك سعياً) فلم ير إبراهيم من كيفية الخلق أكثر من هذا. وهو هو نفسه الأسلوب الذي نراه كل يوم وكل ساعة في وجود الأشياء من نبات وحيوان، وفي تجدد المادة والقوة والطاقة

فالأمور والأشياء من أولها إلى آخرها معجزات وآيات محيرات. ولو خلقناها بأيدينا لم يذهب ما بنا من حيرة ودهشة كما قدمت في أول هذا المقال

أقول هذا وأطيل فيه لأبين للذين تصدمهم المعجزات الحسية المنسوبة إلى الرسل السابقين قبل محمد وتصدهم عن الإيمان بالنبوة بمعناها عند جمهور الناس أن أمرها أهون في التقدير مما يتصورون وأنها لا تستلزم هذه الحيرة والدهشة لأن الله يفعل مثلها في كل دقيقة ملايين الملايين

ثم إن الله تعالى لم يضع قوانين الخلق ليتقيد بها كالأغلال والأصفاد فلا مانع أن يحطمها في جزئياتها التي يدركها الناس عن قرب في ظروف استثنائية حتى لا نتوهم - كما توهم بعض فلاسفة اليونان - إن الله لا يقدر على مخالفة سنن الطبيعة

ما قدمناه من الحديث يدور حول علاقة المعجزة بالطبيعة وسننها المطردة وحول علاقتها بالله موجد الطبيعة. ويبقى حديث حول علاقتها بالناس وعقولهم وآثارها في الدعوة

هل هناك ضرورة قاهرة على أحداث المعجزة؟

للجواب على هذا ينبغي أن نستحضر صور المجتمع الإنساني في عصوره الأولى البدائية
الجاهلة المحدودة الإدراك الواقفة عند المحسوسات الغارقة في الجهالات الموزعة عقليها بين السحر والمخرقة. كل أمة في عزلة عن الأخرى لا ترى إلا قطعة محدودة من الأرض وأفقاً ضيقاً من السما. . . ترى ظواهر الطبيعة ولا تستطيع لها تعليلاً، تأكلها الفواجع وتحصدها الأوباء ويستبد بها الكهنة والرؤساء وتسير كقطعان سائمة هائمة في بيداء الحياة ليس لها علوم وآداب إلا ما هو في نطاق ضرورة العيش والارتفاق
ثم يفاجئ أحد هذه المجتمعات رجل يحاول أن يحطم كل وثن معبود ويذب كل شر ويحمل على كل خير ويخلع أمته من ماض وتاريخ وسيرة آباء ويقول - وهنا الهول والدهشة - أنا رسول من الله رب السماء والأرض اختصني الله من بينكم وألقى عليَّ روحاً من أمره وكلمني! نعم كلمني! وهذا الرجل في الغالبية المطلقة من الأحيان يكون فقيراً لا مال ولا جاه له مما يفتن العامة ويدعوا إلى احترام الخاصة
فمن ذا عساه أن يؤمن مع هذا الرجل من مثل هذا المجتمع المنحط الخاضع لمنطق الطفولة، الذي لم يدرك الحق بنفسه؟
أظن أنه لا جدال في أن من يستجيب سريعاً لهذا الرجل هم العدد الأقل ممن يلبي كلمة الحق لأول سماعه بها، وهؤلاء حتى في زماننا زمن العلم والحرية والديمقراطية لا يكادون يبلغون عدداً تصلح معهم شؤون الأرض ويستقر العمران ويتحقق نمو حركة الفكر والخلق. فلابد لصلاح الأرض من صلاح جماهير العمال والزراع وهؤلاء هم القطيع الذي يملأ بقاع الأرض ولا يستطيع المصلحون أن يحققوا مثلهم العليا إلا إذا تسلطوا عليه وملكوا قياده، وهؤلاء هم موضع عناية الله ووصاياه لأنهم لا يستطيعون أن يتفرغوا لإدراك كماله وجلاله إذ أنهم مشغولون بالسعي إلى الرزق والضرورات المادية ويخيل إليَّ أن الله تعالى لاحظ في وضع النبوات الأولى منطقهم ووجدانهم أكثر من غيرهم من الخواص لأنهم هم جمهور الإنسانية لا تستقيم أمورها إلا بإرضائهم وإصلاحهم أما الفلاسفة والحكماء فقليلون كما قدمنا. ولو راعى الله منطقهم المعقد وإدراكهم المتشعب فأرسل الرسالات بأسلوبهم وحدهم فجاءت كتب الدين ككتبهم إذا ما استجاب للإيمان غيرهم وهم في جسم الإنسانية كنسبة شعرة في جسم فيل فلابد أن نفهم هذا لنفهم أنه كان لابد من وسيلة أخرى غير وسيلة المنطق والعقل لإخضاع
جماهير الناس في تلك الأزمان التي كانت أغلب علومها تدور حول البحث في قلب أشياء الطبيعة كقلب الرصاص إلى ذهب وحول علوم التخييل كالسحر والسيميا وكيفية شفاء المرض بالتمائم والتعاويذ وتحضير الجن والاستهواء وراء القوى الخفية والتحايل على تزويق الأصنام وإنطاقها وخلع معاني الحياة وحركاتها عليها إمعاناً من الكهنة في بسط سلطانهم وسعياً من العامة وراء غيبوبة الأحلام وبدوات الأماني والأوهام
ولا تزال بقايا كبيرة من السحر والمثنوية راسبة في أذهان الجماهير في عصرنا هذا (فعيادات) كثير من الدجالين والمشعوذين أحفل بالزائرين من عيادات كثير من الأطباء الذين يعتمدون على العلم والاختبار، وقبور كثير من المشايخ تقصد الاستشارة والاستخارة أكثر مما تقصد مجالس العقلاء المجربين الذين يعطون الرأي والمشورة التي لا تخطيء. فكيف يهمل الله هذه النزعات الطفلية في نفوس أكثر القطيع الإنساني من غير أن يحملهم على الإيمان به من طريق الحس وإقامة الحجة الدامغة - في رأيهم - حسب ما يقترحون! وإذا علمنا أن الغاية من المعجزة غاية عظيمة بل أعظم غايات الحياة وهي حمل كثير من الناس على الإيمان بالله وإنقاذهم مما يهدر كرامتهم ويسفل بهم إلى أقل من درجة البهائم وهو السجود لصنم واللياذ به وبيع الحرية الفكرية والشخصية. . إذا علمنا ذلك تبين لنا أن المعجزة أمر محتم لتكملة السعي في سبيل إنقاذ الإنسان
وإذا لم يهتم رب الحياة بأمر الفصل بين أكبر الحق في الحياة وهو الإيمان به وأكبر الباطل فيها وهو الكفر به فمتى يهتم؟ وما هي غايته من خلقنا إذاً؟ فلقاصري الإدراك أن يطلبوا ذلك ممن يتحدث باسمه تعالى حتى تقوم الحجة الحسية أمامهم
(البقية في العدد القادم)
عبد المنعم خلاف

خليل مردم بك
وكتابه في الشاعر الفرزدق
لأستاذ جليل
- 1 -
العلامة الأستاذ خليل مردم بك (عضو المجمع العلمي العربي) كاتب وشاعر وباحث، وبراعته في نثره ونظمه وبحثه بينة مستعلنة وأقواله المحكمة المنثورة والمنظومة في مجلتَيهِ (الرابطة الأدبية والثقافة) وفي (مجلة المجمع العلمي العربي) وغيرها.
ومصنفاته: شعراء الشام في القرن الثالث، والجاحظ، وابن المقفع، وابن العميد، والصاحب بن عباد، والفرزدق، وغيرها، فيها الدليل على فضل (الخليل) وهو مُجَلٍ في الأدبين: أدب النفس، وأدب الدرس. ومستول على الملكتين في الفنين المنظوم والمنثور اللذين (لا تتفق الإجادة فيهما معاً إلا للأقل) كما قال ابن خلدون.
وقد كان هذا السريّ المردميّ الفاطمي قدم الإسكندرية سنة (1344) فعرفناه، وشاهدنا من فضله وعلمه ونبله ما شاهدناه. وفي بحرتنا هذه نظم قصيدته (صلاة الشاعر) وقصيدته (البحر) وقد أملاها عليّ متفضلاً. وبدْءُ الصلاة:
هَبْ للذكر وصَفَّ القدما ... ثم ولّى وجهه شطر السما
بات في حيرته مستسلما ... وله دمع على النحر يفيض
لا يغيض
وفي (البحرية) في البحر يقول:
السما منه استمدت غيثها ... فهو أن يفخر بالجود قمين
أترى أمواجه أنفاسه ... رُددت بين شهيق وأنين
لم تكن إلا كشعب ثائر ... شنها حرباً على (المستعمرين)
جحفل يركب منها جحفلاً ... يتعادى كجنود زاحفين
وليت شعري، ليت شعري ماذا يقول اليوم لو زار الإسكندرية وقد ظهرت عرائس الدأماء، وعم البلاء، وكاد (أبو العيون. .) يبخع نفسه مما يرى ويسمع، أو ينقلب مثل المجنون
إنه (أعني الخليل) ليقول عجباً، وينشئ صاحب القصيدة المرقصة (الرقص) للأدباء المتفتين الشياطين الملاعين - طرباً
اللهم، إن في السِّيف في الصيف في هذه البحرة لفتنة! فاحفظ - يا رب العالمين - عبيدك وإماءك الصالحين والصالحات، وأظهر اللهم عبديك المجاهدين: شيخ المدينة (حامداً) والشيخ محموداً أبو العيون على الفاتنين والفاتنات؛ إنك القوي القدير، ولا حول ولا قوة إلا بالله
أقام الأستاذ المردمي، هذا الأدب الجم والفضل المحسم في الإسكندرية برهة، وزمن لقائه هو الذي عُدّ من العمر. ثم عاد إلى داره، دار الإسلام دمشق
سقى دمشقَ الشام غيث مُمرعٌ ... من مستهلّ ديمة دفاقها
مدينة ليس يُضاهي حسنها ... في سائر الدنيا ولا آفاقها
فأرضها مثل السماء بهجةً ... وزهرها كالزهر في إشراقها
نسيم ريّا روضها متى سرى ... فك أخا الهموم من وثاقها
لا تسأم العيون والأنوف من ... رؤيتها يوماً ولا انتشاقها
وإن كان (أبو عدنان) لم يبرح يقول:
يا ساكني مصر، فيكم ساكن الشام ... يكابد الشوق من عام إلى عام!!
فالقوم لم يزالوا يرددون في كل وقت بيتي مهيار
دمشق، إن في دمشق شموس فضل وأدب، أضواؤها مشعة وباهرة، يراها الناظرون من المشرق الأنأى والمغرب الأقصى
هذه مقدمة أمام القول في كتاب الأستاذ المردمي الذي أتحف الناس به في هذه الأيام، وهو في الشاعر الإسلامي العظيم (الفرزدق) همام بن غالب
جاء في كتاب (الفرزدق): (قال الجاحظ: كان الفرزدق راوية الناس وشاعرهم وصاحب أخبارهم. وقال ابن قتيبة: كان الفرزدق مِعَنّا مِفَنّا)
وقد بين الأستاذ أفانين أبي الفراس في القول في (كتابه) ومن فنونه في شؤونه ما أورده في سيرته: (ذكر لنا الرواية أن غالباً أبا الفرزدق دخل على عليّ بالبصرة، ومعه

ابنه الفرزدق بعد عام الجمل، فقال: إن ابني هذا من شعراء مضر، فاسمع منه فقال عليّ: علمه القرآن
فهو خير له، فكان ذلك في نفس الفرزدق حتى قيد نفسه في وقت، وآلى ألا يحل (قيده حتى يحفظ القرآن
وهذه سنة صالحة سنها (همام) وقد استن بها الأديب الشاعر الوشاح أبو بكر محمد بن أحمد الأنصاري المعروف بالأبيض جاء في (نفح الطيب): (سئل الأبيض عن لغة فعجز عنها بمحضر من خجل منه فأقسم أن يقيد رجليه بقيد حديد، ولا ينزعه حتى يحفظ (الغريب المصنّف)؛ فاتفق أن دخلت عليه أمه في تلك الحال فارتاعت فقال:
ريعت عجوزي أن رأتني لابسا ... حلق الحديد ومثل ذاك يروع!
قالت: جننتَ؟! فقلت: بل هي همة ... هي عنصر العلياء والينبوع!
سنّ الفرزدق سنة فتبعتها ... إني لما سن الكرام تبيع
وإن أدباء هذا العصر جلهم أو كلهم لمحقوقون أن يتبعوا السنة الفرزدقية فيقيدوا أنفسهم طوعاً أو يقيدوا قسراً حتى يحفظوا ما يجب حفظه. . .
وكان الفرزدق على جفائه ذا دعابة ونكتة وجواب حاضر - كما يقول الأستاذ - روى له في الكتاب هذه النكتة: (مرّ الفرزدق يوماً بمجلس بني حرام فقال له عنبسة مولى عثمان بن عفان: يا أبا فراس، متى تذهب إلى الآخرة؟
قال: وما حاجتك إلى ذاك يا أخي؟
قال: أكتب معك إلى أبي. . .
(قال: أنا ذاهب إلى حيث أبوك في النار؟ أكتب إليه مع ريالويه واصطفانوس
أما هوى الفرزدق السياسي فشعره يدل على أنه مع بني أمية ولكن في الواقع أنه مع (القول الغالب من قريش) ثم يقول الأستاذ بعد أن أوضح ذلك: (ولعل أدنى الآراء إلى الصواب أن نقول: إن الفرزدق يقول بالعصبية العربية وبالمضرية على القحطانية)
وقد ردّ الأستاذ المردمي قولاً أشار إليه بعض من كتب سيرة الفرزدق، معتمداً - إن كان من أهل العصر - على (المرتضى عليّ بن الطاهر) في أماليه. وقد أملى الرجل كما أحب وهوى.
وبحث الأستاذ عن أبيات الحزين الكناني التي اختلطت بأبيات نُسبت إلى الفرزدق يمدح بها (الإمام علياً الأصغر) أحد الأئمة عند إخواننا الإمامية في خبر ظني أنه مصوغ وجبن
الفرزدق المعلوم لا يحقه. وهل شرد الكميت طويلاً إلا مثل هذا؟
وأبيات الحزين هي في عبد الله بن عبد الملك - كما قال الأستاذ وروي عن الأغاني - وقد أخطأ صاحب (العقد) في قوله إنها قيلت في بعض خلفاء بني أمية. ويؤيد قول الأستاذ وأبي الفرج فيمن قيلت فيه ما جاء في (معجم الشعراء) للإمام المرزباني: (كان الحزين شاعراً محسناً متمكناً، وهو القائل في عبد الله ابن عبد الملك ووفد إليه إلى مصر وهو واليها يمدحه في أبيات) أورد منها المزرباني أربعة وأبو تمام ستة منسوبة إلى الحزين الليثي، وهو الكناني هذا، واسمه عمرو بن عبد وهيب. وقد أخطأ ناسخ الحماسة في كتابته أنها قيلت في غير من قيلت فيه كما أخطأ التبريزي في شرحه في قوله: (ويقال إنها للفرزدق). وهذا ما اختاره منها أبو تمام:
هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحل والحرم
إذا رأته قريش قال قائلها ... إلى مكارم هذا ينتهي الكرم
يكاد يُمسكه عرفانَ راحته ... ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم
أيّ القبائل ليست في رقابهم ... لأولية هذا أوله - نِعَم
بكفه خيزران، ريحها عبِق ... من كفِ أروع في عرنينه شمم
يُغِضي حياءً ويغَضي من مهابته ... فما يُكلم إلا حين يبتسم
يقول كتاب الأستاذ في الفرزدق: (كان الفرزدق فاسقاً ماجناً خليعاً يشرب الخمر إن وجد إليها سبيلاً) نزل على الأخطل ذات يوم فقال له: أنتم معشر الحنيفية لا ترون أن تشربوا من شرابنا. . . فقال الفرزدق:
خفّضْ عليك قليلاً ... وهات لي من شرابك
ويقول الأستاذ: (لكنه مع ذلك كان حسن الإيمان بالله يقيم الصلوات، ويعجبه من قومه أن يتدارسوا القرآن ويكثروا من تلاوته، يقر بذنوبه ويستغفر الله لها، ويخشى عذاب

الآخرة ويهجر إبليس الذي يزين له المعاصي ويطغيه. قال المبرد في الكامل: التقى الحسن البصري والفرزدق في جنازة فقال الفرزدق للحسن: أتدري ما يقول الناس يا أبا سعيد؟ قال: وما يقولون؟ قال: يقولون اجتمع في هذه الجنازة خير الناس وشر الناس. فقال الحسن: كلا! لستُ بخيرهم ولستَ بشرهم، ولكن ما أعددت لهذا اليوم؟ قال: شهادة أن لا

إله إلا الله وخمس نجائب لا يُدركن - يعني الصلوات الخمس - وقال: كان الفرزدق يخرج من منزله، فيرى بني تميم والمصاحف في حجورهم؛ فيسر بذلك ويجذل به. ويقول: إيهٍ فدىً لكم أبي وأمي! كذا والله كان آباؤكم. وقال: والفرزدق يقول في آخر عمره حين تعلق بأستار الكعبة وعاهد الله ألا يكذب ولا يشتم مسلماً:

ألم ترني عاهدت ربي وإنني ... لَبين رتاج قائماً ومقام

على حلفة لا أشتم الدهر مسلماً ... ولا خارجاً من فيّ زور كلام

(الإسكندرية)

(* * *)

مشكلة البحر الأبيض المتوسط

مصالح بريطانيا وفرنسا فيه

تلخيص مقال للسر ارشيبالد سنسكلير

زعيم حزب الأحرار بمجلس العموم

نجتاز الآن مرحلة جديدة من مراحل النزاع الأبدي بين القانون والقوة، فهذه هي الدولة الدكتاتورية التي لا تعترف بغير حق الأقوى، وتسخر من إيماننا بنظام دولي قائم على احترام استقلال الشعوب، وترفض كل مفاوضة مخلصة حبية لتسوية المشاكل الدولية، مفضلة عليها فرض إرادتها بالتهديد، وهذه هي الدول الديمقراطية، دول الماجنا كارتا وإعلان حقوق الإنسان التي يسود فيها الاعتقاد بأن للدول - كالأفراد - حقوقاً متساوية في الحرية، بغض النظر عن درجة قوتها، وبأن السلام قائم على احترام القانون، وأن الوسيلة الوحيدة للعمل على احترامه هي مقاومة العدوان.

وتقوم منذ سنوات علاقات متوترة أقرب إلى الحرب منها إلى السلام بين هاتين المجموعتين من الدول، فنحن في حالة حرب من الوجهة العملية في شؤون الرأي والمال والاقتصاد والصناعة، والدعاية، وقد زادت أخيراً هذه الحالة سوءاً، فاستغلت الدول الدكتاتورية غفلة حكوماتنا وترددها، فلم تتوان عن اللجوء إلى العنف عندما أحست بالقدرة على استعماله، فاستطاعت بذلك أن تستولي في أوربا الوسطى وأسبانيا على مراكز ذات أهمية عظمى لها من الوجهة الحربية والاقتصادية.

ومن الضروري، لنتجنب اليوم الذي نخير فيه بين الخضوع للمعتدين وتعجيل النكبة العالمية، أن نكون جبهة عامة من الشعوب التي تفضل القانون على العدوان، ويجب أن نكونها قوية لتستطيع تحويل هتلر الذي يبقى بعد دكتاتور ألمانيا وحدها، بل إيطاليا كذلك، عن المنحدر الذي يجذب العالم نحو الحرب

مساهمة بريطانيا في الدفاع عن السلام

يعلم الناس مساهمة بريطانيا في تدعيم السلام، وهذه المساهمة ذات وجهين، العسكرية والسياسية، ويمكن أن تعتبر أسبق الدول في الحالتين

فقد قمنا من الناحية العسكرية بما لم نفعله قط في تاريخنا من قبل: لقد أدخلنا نظام التجنيد وقت السلم، ويجدر بي أن أسوق كلمة موجزة في هذا الموضوع الذي كان محلاً لتعليقات عديدة في فرنسا، لست أقول إننا فعلنا هذا عن طيب خاطر، ولكن نفورنا لم ينشأ عن أنانية أو جهل قد يصل إلى مرتبة الغباء، فإن الرجال في إنجلترا كما يجب أن تعرفوا، قد جاءوا وما زالوا، ليجودوا بأنفسهم بكثرة، ولقد بلغ عدد من قيد اسمه في البحرية أو الطيران أو الجيش ستة آلاف إلى ثمانية آلاف في اليوم، والتفسير العميق لهذا أن التجنيد في وقت السلم ضد تقليد ذي وجهين، حربي وأدبي، دام منذ مئات السنين، وليس من الهين أن نتحرر بسهولة من هيمنة القرون النفسانية.

أما التقليد الأدبي فهو مذهب التطوع الساري في جميع النواحي، فانظروا مثلاً إلى مستشفياتنا التي تعيش بفضل جود الأفراد. وأما التقليد الحربي، فلأننا من سكان الجزائر قد اعتدنا أن نعتبر أن حماة أرض الوطن هم بحارتنا لا جنودنا. وأرجو أن تقدروا فيما عدا الذين سيعملون في دفاع الطيران أن مجندينا سيحاربون في بلاد

أجنبية وفي مناطق بعيدة في بعض الأحيان، وأن رجل الشارع لا يرى دائماً كيف ولماذا تكون هذه المناطق الأجنبية مرتبطة بطريق غير مباشر بسلامة ونجاح الجزر البريطانية. فإذا ثبت في الأذهان هذه الاعتبارات النفسانية فهمتم ووافقتم على أن اعتناق مبدأ التجنيد هو انقلاب حقيقي عند الإنجليز، وأن سبباً واحداً استطاع أن يخرجنا عن مقتنا التقليدي للتجنيد: هو الرغبة في ألا ندع أدنى شك يتسرب إلى أصغر بقعة في أوربا عن إرادتنا في تقديم أكبر ما يمكن في المساهمة التي نستطيعها.

وليست مساهمتنا في الميدان السياسي بأقل انقلاباً من المساهمة العسكرية. ففي إعطائنا الضمانات لدول مختلفة في شرق أوربا ارتبطت إنجلترا بالقارة كما لم تفعل من قبل هذه الضمانات التي تخص غير بولونيا رومانيا واليونان وتركيا، وهذه تسوقني إلى الكلام على مشكلة البحر الأبيض:

شرق البحر الأبيض

من الجلي أن الضمانات التي أعطيناها دول البلقان تجبرنا على الاحتفاظ بالسيادة البحرية التي للتحالف الفرنسي الإنجليزي في البحر الأبيض، ومن العبث أن نبين تفوق أسطول هذا الحلف الساحق على أي عدو في كل ما يختص بالسفن؛ ولكن هناك وهذا صحيح،

تهديد الطيارات والغواصات، وهو ما يجدر بنا أن نحسب حسابه، ولكني أظن أنه قد بولغ كثيراً في تقدير هذا الخطر. ولعلكم تذكرون ما حدث في شتاء العام الماضي عند ظهور غواصات قراصنة من جنسيات مجهولة في البحر الأبيض فإنها لم تلبث بعد إعطاء السلطات الفرنسية والإنجليزية أوامرها إلى وحداتها بمهاجمة وإغراق كل غواصة تقابلها على بعض طرق المواصلات البحرية حتى اختفت بفعل السحر، مما يدل على أنه توجد أميرالية في أوربا تشاركنا يقيننا في قوة وسائلنا الدفاعية الفعالة ضد غارة الغواصات

ومن المفهوم أن هذه الثقة المطلقة في تفوق الأسطول الفرنسي الإنجليزي في البحر تقوم على أمرين أساسيين: الأول هو التعاون الصادق التام بين القيادتين، والثاني هو الاستحواذ على قواعد عظيمة القوة. ومن هنا كانت هذه الأهمية ذات الدرجة الأولى للمسألة المعقدة في علاقتنا بمصر وتركيا واليونان في الشرق، وبفرنسا وإيطاليا في الوسط، ثم علاقتنا المشتركة في الغرب، والتعهدات التي التزمنا بها أخيراً في البلقان تنسجم مع تعهداتنا التي تربطنا بمصر ومع ضرورة تأمين حرية المواصلات الإمبراطورية في قناة السويس.

هذه الالتزامات والمصالح التي لا تحتاج إلى التنويه بأهميتها تفسر الاهتمام الذي يبديه الرأي العام الإنجليزي في مراقبة تزايد القوات الإيطالية في ليبيا، كما تفسر قرار الحكومة الخاص بتكوين احتياطي جديد في الشرق الأدنى والأوسط، والقواعد الفرنسية في تولون وأجاكيو وبيزرته وأوران والجزائر لا تقل شأناً في خدمة القضية المشتركة عن القواعد الإنجليزية في شرق البحر الأبيض، كما أنه لا يخفى أن تفوق الأسطول الفرنسي الذي لا يمكن إنكاره في أفريقيا الشمالية هو من أكبر الضمانات الأكيدة التي يمكن أن يرجوها الإنسان في تدعيم السلام في البحر الأبيض

غرب البحر الأبيض

ولنأت الآن إلى غرب البحر الأبيض، فبريطانيا العظمى تعلق أكبر أهمية على تحالفها التقليدي مع البرتغال. هذا التحالف المكين المؤسس على المصالح المشتركة والذي حافظت عليه الأمتان بإخلاص وصدق منذ ثلاثة قرون بغير أن يمس شيئاً من كبريائهما واستقلالهما الشرعي

وعلينا أن نكسب صداقة الأسبان وحيادها في حالة الحرب إذا أمكننا. ولقد كانت من جهتي

أحد الدعاة المخلصين لعدم التدخل في شؤون أسبانيا الداخلية كما هو حالنا مع أية دولة أخرى. ويبدو لي من المحزن - لهذا السبب نفسه - أن ظنت الحكومتان الإنجليزية والفرنسية أنه من الواجب ترك الحكومتين الألمانية والإيطالية تؤثران في مستقبل الحرب الأهلية الاسبانية، ويكاد هذا الضعف الجنوبي يكلفنا غالياً

من العبث أن نضيع الوقت في الأسف على أخطاء الماضي، وفي عدم الاعتراف بأن الجنرال فرانكو هو سيد أسبانيا اليوم، ولكن هذا يجب ألا ينسينا أن ألمانيا قد ضمنت

مراكز اقتصادية وحربية هامة، وأن بواخر الأسطولين الألماني والطلياني تغشى موانئ أسبانيا
ولا أراني في حاجة إلى القول بأنه لا يوجد في إنجلترا شخص واحد لا يريد العيش في صداقة وسلام مع إيطاليا، وإننا مستعدون للاعتراف لإيطاليا بمصلحتها بالاشتراك مع فرنسا وإنجلترا في نظام البحر الأبيض وحرية المرور لتجارتها فيه، ولكننا لا نستطيع مع ذلك ألا نلاحظ أن جميع مساعينا في تسكين إيطاليا لم تفد إلا في تحريض هذه الحكومة على ارتكاب أعمال شديدة الخطورة على السلام
وكما أبان إيدن في خطبة استقالته في البرلمان، قد صحب اتفاق الجنتلمان في أول يناير سنة 1937 إرسال أول نجدة هامة من الجنود الإيطالية إلى أسبانيا، وأن إمضاء اتفاق 16 أبريل سنة 1939 تبعه ازدياد إلقاء القنابل المدمرة من الطيارات الإيطالية التي تعمل مع فرانكو، وأن التصديق على هذا الاتفاق قد تبعه تضاعف عدد الجنود العاملة في الجيش الإيطالي في ليبيا
وتدل جميع هذه الوقائع على أن سياسة التسكين لم يكن لها من أثر إلا إهاجة شهوة موسوليني وإضعاف مراكزنا في البحر الأبيض المتوسط
كما أن وجود القوات الإيطالية في ألبانيا قد يسبب تهديداً ضد أمن وسلام البحر الأبيض أكثر خطراً من هذه القوات في أسبانيا، فعددها مائة ألف على الأقل مزودة بالدبابات والطيارات ولا تبعد عن سالونيك إلا بمائة وخمسين كيلو متراً، وخطر هذا التهديد هو الذي ألجأنا إلى إضافة ضمان اليونان إلى ضمان رومانيا واتفاقيتنا مع تركيا
وهناك دولة كبيرة يهمها مباشرة استقرار الأمر في شرق أوربا وجنوبها الشرقي، وهي على استعداد لتضع تحت تصرفنا موارد لا نعرف في الواقع معلومات دقيقة عنها، ولكنها مع ذلك محل تقدير لا يمكن إنكاره، وموقعها يسمح بالتدخل عند الحاجة، سواء في الأرض أو في البحر، أسرع من فرنسا أو بريطانيا، وهذه الدولة هي روسيا.
وإنني أوافق من جهتي مستر تشمبرلين عندما قال إن النظام الداخلي في ألمانيا أو إيطاليا يجب ألا يؤثر على سياستنا الخارجية. فكذلك يجب تطبيق هذه القاعدة الحكيمة مع روسيا. فإذا أحبت إيطاليا أو ألمانيا أو روسيا نظامها الحالي، فليس لنا أن نحاول أن نفرض عليها نظاماً غيره، وإنما الأمر الوحيد الذي يعنينا هو سياسة هذه الدول الخارجية، وإذا كنت قد نهضت لمقاومة حركات ألمانيا أو إيطاليا فلأن هذه أو تلك تحاول فرض طغيانها على غيرها من البلاد، وهذه هي مساعدة روسيا تحت تصرفنا، وهي لابد منها إذا أردنا أن نضع حداً للاعتداء بدون أن نلجأ إلى الحرب.
وقد تساءلوا في باريس ولوندرة أخيراً عما إذا كان من اللازم أن نطلب إلى الفرنسيين أو الإنجليز أن يموتوا في سبيل دانزيج؟ يبدو أن الجواب الظاهر (كلا)!
ولكن إذا كان الأمر كذلك فكيف يمكن أن نظن أن البولونيين قبلوا أن يموتوا في سبيل باريس أو لوندرة، أو يقبل الفرنسيون أن يموتوا في سبيل جبل طارق، أو يموت الإنجليز في سبيل تونس؟ فالمهم تخطي ستار الجدل الخادع الذي يقف عند حد هذا الأمر الذي لا أهمية له في ذاته، أو عند معرفة لمن تكون هذه المدينة أو هذه الولاية لتقدير حقائق هذه الأمور الصحيحة. فإن الأمر أكبر اتساعاً وعمقاً من هذه الحدود.
ولقد سرني أن أعدت منذ أيام قراءة خطبة بريكليس في شعب أتينا في موضوع اقتراحات كان الإسبارطيون قد عرضوها عليه، وأحد هذه الاقتراحات خاص بقانون أتينا حظر على بواخر ميجارا دخول موانئ أتينا، ولابد أن أحداً سأل عما إذا كان يستأهل مثل هذا الأمر التافه الموت في سبيله، فكان جوابه:
أكرر لكم أيها الأثينيون أن انزعوا هذا الوهم بأنكم قد تدخلون الحرب في سبيل أمر) تافه، فإن تفاهة الأمر الذي نحن بصدده لا تقل عن امتحان يقينكم، فلو تخليتم عن هذه النقطة، فسيسألونكم فوراً أن تتخلوا عن غيرها، لأنكم قد خفتم.
وسواء أكان المطلوب جليلاً أم لا فإنه إذا سعى شخص إلى نيله من جاره بالقوة أو بالتهديد
(بالقوة لا بالاتفاق الودي، فإن الأمر في الواقع يكون هل سنصبح أحراراً أم عبيداً
وأقول لكم بالمثل: (لنعمل على منوال يفهم منه مواطنونا والشعبان الإيطالي والألماني أننا لن ندخل الحرب مطلقاً من أجل أمر تافه ولكن يجب أن نكون مستعدين

إلى أقصى درجة لقبول امتحان يقيننا، ولمقاومة التهديد والقوة وإنقاذ هذه القيم الأخلاقية التي تكوّن ثروة مدنيتنا والتي تعرف باسم التسامح والحرية والعدل)

التاريخ في سير أبطاله

أحمد عرابي

أما آن للتاريخ أن ينصف هذا المصري الفلاح وأن يحدد له مكانه بين قواد حركتنا القومية؟

للأستاذ محمود الخفيف

اختلفت الآراء في هذه المؤامرة الجركسية من حيث تدبيرها ومن هذه الآراء ما يذكره مستر بلنت في كتابه حيث يعزوها إلى الخديو إسماعيل، الذي وكل بها رجلاً عرف بعداوته القاسية للحركة الوطنية ووجوهها يدعى راتب باشا. وكان إسماعيل يطمع أن يصل بهذه المؤامرة إلى العودة إلى عرشه للقضاء على القلاقل والفتن المزعومة التي عجز توفيق عن القضاء عليها كل العجز؛ وكان يمني نفسه بأن توافق إنجلترا على ذلك فتقنع تركيا به أو تجبرها عليه

ويؤكد مستر بلنت هذا الرأي قائلاً إنه عرفه من جملة مصادر منها إبراهيم بك المويلحي سكرتير إسماعيل؛ ولقد أيد الشيخ محمد عبده هذا الرأي بما جاء في خطابه إلى بلنت عن هذه المؤامرة قال: (هذا، وبخصوص المؤامرة الجركسية لاغتيال عرابي أخبركم أنها ليست بذات خطر فإن الخديو إسماعيل قد مضت عليه مدة طويلة وهو يضع الألغام لكي يدمر حكومتنا وهو يعتقد أن هذا العمل يرجعه إلى مصر)

ولقد بدأت المؤامرة بتذمر الضباط الجراكسة في الجيش مما اتخذه وزير الحربية الجديد أحمد عرابي باشا من إجراءات الترقية، زاعمين أنها إجراءات ظالمة تنطوي على الكيد لهم والانتقام منهم، لا عن جريرة ارتكبوها، ولكن لأنهم ليسوا مصريين. . . والذي يقف على أساليب السياسة الإنجليزية الماكرة في تعكير كل جو ترى مصلحتها في تعكيره لا يستبعد أن يكون للإنجليز الذين كانوا يقيمون في مصر يومئذ أثر كبير في الإيحاء إلى هؤلاء الجراكسة بهذه الآراء لكي تشيع فيهم الفتنة ثم تجاوزهم إلى المصريين فلا تصيب الذين ظلموا خاصة

ومما يجعلنا نميل إلى الاعتقاد في صحة هذا الذي نقول فضلاً عما نشير إليه من سوابق

السياسة الإنجليزية ما رمى به الوزارة الوطنية الإنجليز على ألسنة صحفهم ومندوبيهم في مصر من التهم وبخاصة ما ذكروه من الإفك حول الجيش وسيطرته على كل شيء والواقع أنه لم يكن فيما فعل عرابي إلا ما يقتضيه تطبيق القوانين العسكرية الجديدة التي وافقت الحكومة السالفة عليها، فإن تلك القوانين تنص على وجوب إحالة المرضى والذين بلغوا سناً معينة على الاستيداع. ولقد دافعت الوزارة عن عملها بهذا ولكن الخراصين المناوئين لم يحملوا هذا العمل إلا على الكيد والانتقام. . .

وإذا نحن جارينا هؤلاء الكائدين لمصر وحركتها فيما زعموه من أن الوزارة متهمة فلا تصدق فيما تقول دفاعاً عن عملها، فإن فيما كتبه الشيخ محمد عبده إلى صديقه مستر بلنت في خطابه السالف ذكره لأقوى دليل على براءة عرابي والوزارة السامية مما اتهمت به، وذلك لأن الإمام رحمه الله كان رجل صدق وفطنة فلا يقول إلا ما يعتقده عن تحر وتمحيص قال: (أما عن ترقية الموظفين التي تلغط فيها الصحف الأوربية فاسمحوا لي بأن أوضح الحقائق فأقول: أولاً إن هذه الترقيات لم تعمل بناء على أمر عرابي باشا وحده، ولم تكن بمثابة الرشوة للضباط لاكتساب عطفهم نحو عرابي. كلا فالواقع أن هذه الترقيات عملت بناء على القانون الحربي الجديد الذي يأمر بإحالة الضباط الذين يبلغون سناً معينة أو يمرضون ويصابون بعاهة على المعاش؛ وقد نفذ هذا القانون في عهد شريف باشا، وأحيل على المعاش ثمانية وخمسون وخمسمائة ضابط ثم أرسل ستة وتسعون إلى حدود الحبشة وزيلع وأماكن أخرى، بينما أخرج من الجيش نحو مائة ضابط توظفوا في الوظائف المدنية. فعدد جميع هؤلاء أربعة وخمسون وسبعمائة ضابط، فكان إذا من الطبيعي أن تحصل ترقيات لملء الوظائف الخالية. ولا يزال في الجيش خمسون وظيفة قد حفظت لخريجي المدرسة الحربية)

هذا ما ذكره الشيخ محمد عبده، ومنه يتبين الحق في هذه المسألة. على أننا لو فرضنا أن عرابياً قد آثر المصريين بالترقيات وتخطي بذلك الجراكسة في الجيش، فلن يكون

فيما نرى حتى في هذا العمل مخطئاً، فحسب هؤلاء الجراكسة ما نالوه من حظوة طوال العهود السابقة وبخاصة في عهد رفقي، وذلك على ما كانوا يضمرونه من حقد وكراهة لمصر والمصريين، وحسب المصريين وهم أبناء البلاد الذين تجبى منهم الضرائب ما ذاقوا من
هوان ومذلة عل يد هؤلاء السادة الذين استنزفوا دماءهم، واتخذوا منهم عبيداً وإماء.
وماذا كان ينتظر من عرابي غير أن يطبق القانون وهذا أقل ما يفعله رجل هو زعيم ثورة كان هذا القانون ثمرة من ثمارها؟ ماذا كان ينتظر من ذلك الذي ظل طول عمره ناقماً على الجراكسة في الجيش، فلم يكف عن الشغب عليهم وهو لم يزل بعد جاويشاً لا حول له ولا قوة، ولم ين عن مقاومتهم ومصاولتهم في كل خطوة خطاها في سلك الجيش حتى انتهت إليه زعامته؟
أجل، ماذا كان ينتظر من ذلك الرجل، وما كان حقده على هؤلاء في يوم ما صادراً عن أنانية أو عن صغار، وإنما كان مبعثه ما يحس في أعماق نفسه من حماسة وطنية، وغيرة قومية هما في مقدمة ما يتصف به ذوو الكرامة والعزة من الرجال.
ومهما يكن من الأمر فما كان عمل عرابي في أي صورة له مما يقابل بالقتل! ولا كان تقديم المتآمرين إلى المحاكمة مما يستأهل ذلك السباب الذي راحت تنبح به جوقات الاستعمار؛ وهل نسى هؤلاء أن عرابياً وصاحبيه قد ألقي عليهم القبض من قبل لمجرد أنهم تقدموا ليرفعوا شكواهم إلى أول الأمر مما كانوا يحسونه من إجحاف بحقوقهم؟ وكيف لا يستحي دعاة الاستعمار أن يلوموا ذلك الرجل بالأمس ويتهموه بالفوضى لأنه شكا أمره إلى رؤسائه حتى إذا ألقي عليه القبض عدوا ذلك من الحكومة عين الصواب ثم يعودون اليوم فينددون به ويستصرخ عليه بعضهم بعضاً لأنه يقدم إلى المحاكمة فريقاً يتآمرون على قتله؟!
عول المتذمرون من الضباط على قتل عرابي وأصحابه من كبار رجال الحركة الوطنية، وقد عمل الدساسون من عصابة راتب على دفعهم في هذا السبيل الوعرة وزينوا لهم الفعلة وهونوا شأنها في قلوبهم، ولكن ضابطاً جركسياً يدعى راشد أنور أفندي فوت على المتآمرين قصدهم إذ كان قد خالفهم لأمر ما فبادر إلى عرابي وأفضى إليه بما يعلم. . .
وفي اليوم الثاني عشر من أبريل عام 1882 قبض على تسعة عشر ضابطاً وسيقوا إلى المجلس العسكري، وبعد ذلك بعشرة أيام بلغ عدد المقبوض عليهم ثمانية وأربعين، وكان من بينهم عثمان رفقي باشا نفسه؛ وقضى المجلس بإدانة أربعين رجلاً منهم رفقي هذا فحكم بتجريدهم جميعاً من ألقابهم ونفيهم إلى أعالي النيل الأبيض في ربوع السودان
واتت الفرصة كلفن وماليت وهيهات أن تواتي الإنجليز فرصة فيضيعوها؛ لذلك ما كان أسرعهم إلى استغلال الحادث فبدءوا أولاً يذكرون التعصب الأعمى ثم انتقلوا إلى الفوضى الحكومية واعتبروا ترقية الوطنيين مظهراً من مظاهر الرشوة التي أريد بها التأثير في رجال الجيش كي يكونوا على استعداد عند أول صيحة؛ ثم رأوا في محاكمة الجراكسة مظهراً من مظاهر الظلم والاستبداد الغاشم قائلين في منطق عجيب إن المؤامرة وهمية لم توجد إلا في رأس عرابي، وإن الغرض منها لم يكن سوى التخلص من الجراكسة بأية وسيلة، وإن المحكمة العسكرية التي فصلت في الأمر كانت جلساتها سرية فكانت تعمل بما يشير عرابي، لذلك جاء حكمها في منتهى القسوة بحيث لا يقل عن الإعدام. ولم يكفهم ذلك فبلغ من جرأتهم وإيغالهم في القحة أن ادعوا أن عرابياً كان يذهب إلى السجن فيعذب هؤلاء الجراكسة أيام المحاكمة ويشفي غليل نفسه بمنظر ذلتهم وخضوعهم!
ولقد جعل المستعمرون هذه المحاكمة من أكبر سوءات ذلك العهد ومن كبائر خطيئات عرابي؛ وحذا المؤرخون من الإنجليز حذو الساسة في موقفهم من هذه المسألة، ومن هؤلاء كرومر، وهو رجل كان بحكم صلته برجال ذلك العهد جميعاً يعلم حقيقة الأمر، ومع ذلك طاوعه ضميره في أن يقول في كتابه: (لم يظهر دليل جدير بالتصديق ولا ظل دليل على أن تهمة المؤامرة كانت تهمة حقيقية؛ وكان حكم المحكمة العسكرية وثيقة وحشية تحمل طابع المظاهر السياسية أكثر مما تحمل طابع الحكم القضائي؛ وكان عرابي كثير الظن شأنه في ذلك شأن كل جاهل من الرجال، ولم تعش المؤامرة

على قتله إلا في خياله هو فحسب).
وأخذ فريق من المصريين هذا الكلام كما أرسل على عواهنه وشايعوا الإنجليز وا
أسفاه في رأيهم هذا في عرابي كما شايعوهم في غير هذا من الآراء، الأمر الذي
يؤلمنا أشد الألم! فليس يعنينا ما يقول وخصوم الوطن وخصوم عرابي، ولكننا نضيق
كل الضيق أن تجوز الأباطيل على المصريين في رجل منهم جدير بأن يفتخروا كل
الفخر أن كان ينتمي إليهم، ومن هنا ضاع تاريخ عرابي وأنكره بنو قومه، فأضافوا إلى
عيب خضوعهم للدخيل فضيحة مشايعته فيما يسبهم به من شخص رجل من رجالاتهم.
ويجدر بنا أن نضع تحت عيني القارئ ما كتبه الشيخ محمد عبده تعليقاً على المؤامرة
ليقارن بين كلامه وكلام كرومر. قال في كتابه إلى بلنت: (وكانت الوزارة تعرف منذ
زمن
شيئاً عن هذه الحركات. فمنذ مجيء راتب باشا إلى مصر كان محمود سامي رئيس
الوزراء الآن - وزيراً للحربية - فطلب من شريف باشا أن ينفيه إلى خارج القطر. ولكن
شريف على الرغم من تحذير محمود سامي رفض أن يأمر بنفيه، وسبب ذلك أن راتباً
تزوج ابنة شريف باشا، والبعض يظن أن الاثنين متواطئان على رجوع إسماعيل). ثم
قال: (وقد أحدثت هذه الحادثة قليلاً من التهيج بين العامة. والجميع يعرفون أن حياة
عرابي مثل حياة أي إنسان آخر، وليس بين الناس مهما كان عظيماً يستطيع أن يجذب
إليه قلوب الجميع دون أن يكون بينهم من يريده بسوء، ولكننا جميعاً نضحك إذا قيل لنا
. . .إن إنجلترا على وشك الفوضى لأن أحد المجانين قد حاول قتل الملكة)
وليت هؤلاء الكاذبين المغرضين قد اقتصر أمرهم على الكذب والاتهام ولم يخطوا بعد
ذلك تلك الخطوة النكراء التي أكدت القطيعة بين الخديو والوزراء وعجلت الكارثة
للبلاد! وما كانت ادعاءاتهم إلا مقدمة بدءوا بها ما كانوا ينتوونه من المكر السيئ. يقول
في ذلك مستر بلنت: (وفي أثناء ذلك دخلت المسألة المصرية في طور خطير وذلك
بسبب المؤامرة الجركسية التي وصلت أخبارها إلى لندن في الأسبوع الثالث من شهر
أبريل، ولم أعن العناية الكبيرة بهذه المسألة عند أول ظهور أخبارها معتقداً بأنها إحدى
المفتريات التي تنشر عن مصر، ولكن الأحوال أثبتت أنها خطيرة تستدعي الالتفات،
ولم تكن خطورتها متوقفة على حدوثها من حيث هي بل من حيث إنها كانت فرصة
لحكومتنا تترقبها لكي توقع الخلاف بين الخديو ووزرائه، وكان ماليت قد خضع تمام
الخضوع لكلفن في هذا الوقت وصار ينتصح بنصحه ويسير على هواه)
عرض قرار المحكمة العسكرية على الخديو فأسقط في يده أيوافق على هذا الحكم
فيظهر أمام الإنجليز أنه يظاهر وزراءه فيخسر الذين يظاهرونه هو، أم يرفض التصديق
عليه فيرضى الإنجليز ويقضى على كل أمل في إرضاء عواطف الوطنيين؟
وكان ماليت قد أشار عليه برفض هذا الحكم الذي ينطوي على القسوة والظلم؛
وللقارئ أن يقدر مبلغ ما في هذا التدخل من تطفل وقحة! ما شأن الإنجليز وحكماً
كهذا مهما كان ظالماً كما يزعمون؟ وإنهم ليعلمون أن جلسات المحاكم العسكرية
كانت سرية حتى في عهد المراقبة، وأن الخديو لا يملك رفض أحكامها، وكل ما له في
هذا الصدد هو تخفيف تلك
الأحكام بعض الشيء بعد التصديق عليها.
حار توفيق واشتدت حيرته ورأى الأمر جد خطير؛ وأي شيء أخطر من أن يتحدى
وزراءه في غير حق وفي موقف كهذا تحيط فيه بهم الدسائس من كل جانب وتعترض
طريقهم الصعاب التي يتطلب تذليلها جهوداً متواصلة. لذلك وقف الخديو أول الأمر
موقفاً مبهماً، وسرعان ما شاعت الشائعات عنه من جهة وعن الوزارة من الجهة
الأخرى، وكلما مر يوم ازدادت ريبة الوطنيين وتعاظم غيظهم وغضبهم، ووجدت
الدسائس الجو الصالح لنجاحها فنشطت نشاطاً كبيراً، ولازم ماليت الخديو يوحي إليه
ويوسوس له
(يتبع)
الخفيف
عيناك - 1
للأستاذ حسن كامل الصيرفي
عيناكِ حَوَّلتا حياتي جدولاً ... تهفو إليه حمائمُ الوديانِ

تتمايل الأزهارُ عند ضفافهِ ... متجددات العطر والألوانِ
وتمرُّ بي النسماتُ تلثم صفحتي ... في مثل هَمْسِ الوحي في الوجدانِ
تحنو عليّ الناشراتُ غصونَها ... فأُقَبِّلُ الأغصانَ وهي دَوانِ
عيناكِ حَوَّلتا حياتي جدولاً ... يجري مع الأيام دون تَوانِ
أشدو وأشدو والحمائمُ هُتَّفٌ ... تتناقلُ المنشودَ من ألحاني
صوَرُ الوجودِ جَعلتِها لي لوحةً ... فإليكِ ترجعُ تُحفةُ الفنّانِ
شفتاك - 2
شفتاكِ حَوَّلتا حياتي نغمةً ... تسري مع النسماتِ للآذانِ
الليلُ يسمعُها فينقل لَحْنَها ... للفجرِ بين شواردِ الألحانِ
فأرى حياتي فوق أحلام النُّهَى ... خَلَدَتْ على رغم الزمانِ الفاني
ومضتْ تجرِّر ثوبها في رقصة ... منظومةٍ، وزمانُها مُتَوانِ
شفتاكِ قيثارُ الخلودِ، فَوقِّعي ... لحْنَ الخلودِ، وجدّدي أوزاني
إني خلصتُ من الشجونِ برحمةٍ ... أَلْهَمْتُها في ساعةِ الإيمانِ
طالت عليّ ضلالتي وتحيُّري ... في عالمٍ آمالهُ إحزاني
حسن كامل الصيرفي
نبرات صوتك في المسرة
للأستاذ العوضي الوكيل
نبرات صوتك في المسرة جددت ... لَهفي عليكِ وضاعفت أشجاني
تنسابُ في الأسماع وانيةَ الخُطى ... فتشيعُ في نفسي وفي ألحانِي
طَرِبَ الحديدُ لها وهشَّ لوقعها ... لو كان ذا حَرَك وذا وُجْدانِ
ولقد هممت بأن أُجاذبَه الهَوى ... وأبثُّه غَزَلي وصفْوَ حناني
نبرات صوتِكِ؟ ما المزاهرُ كلها ... ما رنّةٌ نَشْوَى من العيدانِ؟
ووهبتك الآمال ملَء خواطري ... وعلى سناكِ حبستُ حرَّ بياني
وسهرت فيك وأنت هانئة الكرى ... ومنحتُ حبك غابري وأواني!
وأريتُكِ الإيمان تنطق مُقلِتي ... بدليله فسموتُ بالإيمانِ
وذَخرتُ في نفسي حديثَكِ كله ... ووعيته في السر والإعلانِ
وخلقتُ فيكِ جلالةً أبدّيةً ... تسمو على الأزمان والأكوانِ
هذا رداؤك من نسيج مشاعري ... المهجتانِ عليه تَتَّفِقانِ
ما كان من حُسنٍ عليك فإنه ... لي دون غيري من بني الإنسان
(الزقازيق)
العوضي الوكيل
صلاة في محراب النيل
للشاعر السوداني المرحوم التيجاني يوسف بشير
أنت يا نيل يا سليل الفرادي ... س كريم موفق في مسابكْ
ملء أوفاضك الجلال فمرحى ... بالجلال المغيض من أنسابك
حرستك الأملاك في جنة الخل ... دِ ورفّت على وضئ عبابك
وأمدّت عليك أجنحة خض ... راً وأضفت ثيابها في رحابك
فتحدرت في الزمان وأفرع ... ت على الشرق جنة من رضابك
بين أحضانك العراض وفي كف ... يك تاريخه وتحت ثيابك!
مخرتك القرون تشمر عن سا ... ق بعيد الخطى قوي السنابك
يتوثبن في الضفاف خفاقاً ... ثم يركضن في ممر شعابك
عجب أنت صاعداً في مراقي ... ك لعمري أو هابطاً في انصبابك
مجتلى قوة، ومسرح أفكا ... رٍ، وموحى عجيبة كل ما بك
كم نبيل بمجد ماضيك مأخو ... ذ، وكم ساجد على أعتابك
عفروا نضرة الجباه ببرا ... قٍ سنيٍ من لؤلؤيِّ ترابك
سُجداً ذاهلين لا روعة التا ... جٍ ولا زهو إمرة خلف بابك!
وصقيل في صفحة الماء فضفا ... ض ندى منضر من إهابك
وحروف ريانة في اسمك (النيـ ... ـل) ونُعمى موفورة في جنابك
فكأن القلوب مما استمدت ... منك سكرى رقاصة من شرابك

أيها النيل في القلوب سلام ال ... خلد وقف على نضير شبابك
أنت في مسلك الدماء وفي الأن ... فاس تجري مدوِّياً في انسيابك
إن نسبنا إليك في عزة الوا ... ثق راضين وفرة عن نصابك
أو رفلنا في عدوتيك مدلي ... ن على أمة بما في كتابك
أو عبدنا فيك الجلال فلما ... نقض حق الذياد عن محرابك
!أو نعمنا بك الزمان فلم نب ... ل بلاء الجدود في صون غابك
التيجاني يوسف بشير
رسالة الفن
دراسات في الفن
نحو دنيا الروح
للأستاذ عزيز أحمد فهمي

يقول علماء التربية وعلماء النفس فيما يقولون من الحق: إنه يمكن التخفيف من حدة الغريزة الجنسية عند المراهقين بصرفهم إلى الفنون الجميلة. وهم لهذا يوصون المربين بأن يعلموا المراهقين الموسيقى والتمثيل والرسم والأدب. وقد استجاب لهم المربون فأنشئوا في المدارس الثانوية وبخاصة جمعيات الفنون الجميلة إلى جانب فرق الألعاب الرياضية التي سبق أن أثبت دعاتها أن من يمارسها من المراهقين يبذل فيها من نشاطه البدني ما يحتاج بعده إلى الراحة بعيداً عن التفكير في الاستجابة لهتاف الغريزة الجنسية.

فهل أثبت دعاة الفنون الجميلة من علماء التربية وعلماء النفس دليلاً على أن من يمارسها من المراهقين يبذل فيها شيئاً من نشاطه يحتاج بعده إلى الراحة بعيداً عن التفكير في الاستجابة لهتاف الغريزة الجنسية لتطمئن بهذا الدليل عقولنا. ولتؤمن بأن الذي يدعون إليه قائم على أساس من الحق يرتكز على صلة مؤكدة بين الفنون الجميلة والغريزة الجنسية، أو أنهم رأوا الفنانين أكثر الناس انصرافاً عن نزعات البدن فخطر لهم أن يتصيدوا المراهقين بالفنون يشغلونهم لبها عما تتلهف إليه أبدانهم الحارة الملتهبة. فهي إذن مؤامرة من الخداع والتضليل اتفق عليها علماء التربية وعلماء النفس، وجازت على من وقع في أيديهم من المراهقين أو جازت - في القليل - على بعضهم؟

ولكني إذ أقول هذا أرجو علماء التربية وعلماء النفس أن يمضوا في مؤامرتهم هذه إلى أبعد حد، وأن يأخذوا بها المراهقين وغير المراهقين من كل من تسوقه إليهم الحياة ليربوه. فليس أشرف من هذه المؤامرة شيء، وسيجيء قريباً أو بعيداً ذلك اليوم الذي توفق فيه أساليب العلم إلى كشف ما بين الغريزة الجنسية والفنون الجميلة من صلة حقيقية مؤكدة. ولست أريد بهذا الادعاء بأن العلم غائب عن هذه الصلة، ولكني أريد أن أقول: إنه لا يزال يحوم حولها، ولما يجرؤ على غزوها لأنها ميدان جديد عليه، ولأنه لما يستنبط الميزان والمقياس، والأنبوبة والمخبر، والأملاح والأحماض التي يستطيع أن يحول بها الغريزة الجنسية إلى الغريزة الفنية، والغريزة الفنية إلى الغريزة الجنسية ليصدق بعد هذا عقله الثقيل المتشكك أن هناك وحدة تجمع بين الاثنين.

والى أن يصل العلم إلى استنباط هذه الأدوات التي لا يفهم شيئاً إلا بها يستطيع المتحررون من أغلاله وقيوده أن يضربوا في السماء بحثاً عن هذه الصلة، وأن يتركوه في معمله يتخبط بين الشك والخور لعله مهتد يوماً إلى تركيب (حقنة) من الشعر، أو (برشامة) من النغم! فليبق العلم في معمله، وليدع العلماء المراهقين إلى الفنون الجميلة، وليعللوا دعوتهم هذه بأن الفنون الجميلة تبعث في النفس الخيال، وتلهب فيها العاطفة، أو فليقولوا على العكس من هذا إن الخيال والعاطفة هما اللذان يبعثان في النفس الفنون الجميلة، أو فليقولوا ما شاءوا من أمثال هذا القول المخلخل الذي لم يضغطه الإيمان ولم تتماسك به الثقة.

لندع العلماء إذن يترددون ما طاب لهم التردد، ويتوجسون ما حلا لهم التوجس، ولنمض نحن مع أولئك المتحررين من الأغلال والقيود، ولنرهم كيف يدركون الصلة بين الغريزة الجنسية والفنون الجميلة.

وقد عودنا هؤلاء المتحررون المتطايرون أن يلتووا على عقولنا قبل أن يهدونا إلى ما

يعلمون من الحق، كأنما يأبون إلا أن يعابثوا العقل وأن يذلوه قبل أن يقودوه إلى النور ويلهموه. ولكنهم على أي حال أحب إلى النفس وأرحم من الأنابيب والأملاح. . . فلنحتمل معابثتهم إذن ولنسألهم:

- كيف تجدون الصلة بين الغريزة الجنسية والفنون الجميلة؟

ولكنهم يسألوننا: وكيف تجدون الصلة بين الشحم والنبوة؟

- وهل هذا سؤال بالله عليكم؟ إننا لا نجد شيئاً.

- إن هناك أشياء. فلو أنكم عدتم إلى سير الأنبياء لوجدتموهم يكثرون من الصوم، ويخففون من الطعام. ولو أنكم عدتم إلى سيرة النبي الأكمل محمد لرأيتموه يصوم كلما اعتزم أمراً جللاً، وكلما هم بغزوة أو حرب. وإذا اعتبرتم (غاندي) الهندوكي التقي الخارق المعجب وليّاً من أولياء الله كما نعتبره نحن فإنكم لابد معتبرون بحرصه على الصوم كلما احتاج إلى التجلد والتعزز في قيادة أنصاره ومقاومة خصومه. أفلا ترون في هذا كله صلة

بين الشحم والنبوة؟ أو بين الشحم والسمو الروحي على الأقل؟

- الآن رأينا، وهي كما تبدو على هذا النحو صلة عكسية.

- نعم. إنها صلة عكسية. فكلما غذى الإنسان بدنه شغله هذا عن غذاء روحه، وكلما جوع بدنه سهلت عليه تغذية روحه.

- إنكم إذاً تعدونه شهيداً ذلك الذي ينتحر جوعاً

- لا شهادة في إتلاف، وإنما الشهادة في التقويم. فإذا استلزم التقويم الموت فإنه إذاً تخريب ما بين المتساكنين: البدن والروح. عودوا إلى ما كنا فيه، وحدثونا عما يصحب انفجار الغريزة الجنسية عند المراهقين من شدة ميلهم إلى الإكثار من الطعام والإكثار من وجباته.

- إنها أجسام يزيد نزوعها إلى النمو فهي تحتاج إلى ما يعين على بنائها وما يسعف نموها

- لا. فإن أجسام المراهقين لتنمو وتفرع ولو لم تستزد من قوتها، فهذا النمو سيل من الحياة يتدفق من غدد ظلت تجمعه وتخزنه ما عاشت وواصلت العمل

- إذن فماذا تقولون؟

- الحياة ماضية في سبيلها. وسبيلها هو الأحياء أنفسهم، فهي تسلكهم، وقد تنقلت فيهم من ماضيهم حتى انتهت إلى حاضرهم، وهي منتقلة فيهم من حاضرهم إلى مستقبلهم. وهي في سيرها هذا تعطي أولئك الأحياء ثمن ما سمحوا بالمرور فيهم وتأخذ منهم ثمن ما عمرتهم. ويقول ناس مؤمنون بالعدل: إن ما تأخذه الحياة من مثقال ذرة لا تأخذه إلا بعد أن تكون أعطته مثقال ذرة

- هذا حسن. ولكن ما قصة الأخذ والعطاء عند المراهقين؟

- عند المراهقة تبدأ الحياة في الاشتداد بمطالبة المراهق بما أعطته. وهي إذ تطالبه تستمر تعطيه. وهو إذ يستشعر نفسه في هذا الموقف الجديد يقبل على الحياة إقبالاً جديداً فيه عنف وفيه جشع. فهو يستطعم الحياة مادتها ومعناها بنهم العائل المكلف بالنفقة يتكالب على موطن رزق. وفي سن المراهقة تصارح النفس الحياة بحقيقتها وتكشف لها القناع عن وجهها. وكل نفس تستجمع خصائصها ومقوماتها مما سبق أن أعطته الحياة إياها من طريق الوراثة، ومن طريق البيئة، ومن طريق التربية ومن سائر تلك الطرق التي تنفذ منها الحياة إلى الأحياء. عندئذ ترى الحياة مراهقاً مقوس الأنف يمد لها كفيه ويقول: هات؛ ومراهقاً

آخر مسحور العينين يمد لها شفتيه ويقول: هات؛ ومراهقين آخرين ما بين هذا وذاك يريدون مما يطلبه هذا ومما يطلبه ذاك. والحياة أمام هؤلاء جميعاً تعطي وتأخذ مثلما تعطي، مثقال ذرة بمثقال ذرة. وهي كما تكمن في هؤلاء الأحياء، تلبد في غيرهم من الأحياء المتجسدة، والأحياء المتجردة، وهي تعرض نفسها في مظاهرها المختلفة أما النفوس فلكل نفس منها ما تحب وما تشاء. فمن أخذ منها مادة لم يستطع أن يعطيها إلا مادة، ومن أخذ منها معنى أعطاها معنى، ومن أخذ منها معاً أعطاها منهما معاً. والمراهق قد تكوَّن مما أخذه من الحياة وهو ليس مادة فقط لأن الناس ليسوا مادة فقط فهم مادة وشيء آخر نقول عنه نحن إنه روح ويقول عنه ناس آخرون إنه نفس، ونحن وهم نقول إنه شيء متجرد عن المادة التي تتزيا بها الكهرباء في أزياء مختلفة.

فلابد إذن أن يأخذ المراهق (كغيره) من مادة الحياة ومعناها ليعطيها مادة ومعنى، وأيهما أكثر الأخذ أكثر العطاء. ومن الناس من يقنعون في هذه السوق بالضروري اللازم لإقامة إحدى ناحيتيهم ويلحون في طلب مكملات الناحية الأخرى؛ ومنهم من يتوسطون فيطلبون من هذه مقدار ما يطلبون من تلك، وهذه الأرض تستطيع أن تمد الناس بحاجتهم من المادة وزيادة؛ وسماء المعاني تستطيع أن تهب الناس حاجتهم من المعاني وزيادة؛ والناس في التنازع على المادة يتخاصمون ويتعادون، بينما هم حين يتناهبون المعاني يزدادون تقارباً وتفاهماً وتحبباً وتعاطفاً وتوحداً. فكلما اهتمت البشرية بالناحية المادية أمعنت في التبعثر والتفوق والتشتت، وكلما توغلت في الناحية الروحية أمعنت في التماسك والانسجام. ونحن إذا رجعنا إلى تواريخ الأفكار والدعوات الروحية رأينا أخلصها روحاً أكثرها تعاوناً بين أنصارها، ولم نر الاختلاف يدب إلى هؤلاء الأنصار إلا حينما تنزلق إلى فكرتهم دواع مادية فتلوثها. فالواجب إذن على البشرية إذا كانت تريد أن تستخدم عقلها في الخير أن تقنع من المادة بما يقوم الحياة البدنية فقط لا أكثر ولا أقل، وأن تنقذف بالوافر الباقي من نشاطها إلى حيث يمكنها أن تتوحد. وهذا هو ما دعا الأنبياء إليه، وحاشا أن يكونوا مجانين، وإنما هم أنبياء وقد أرشدوا البشرية إلى طريق الخير ومضوا، فاتبعهم أولياء أقنعت الدعوة إحساسهم وعقلهم، وانساق في طريقهم فنانون يتعشقون في هذا الكون جماله، ويطلبون كماله وكمال أنفسهم معه.

- ولكن البشرية إذا اتبعتكم في هذا عادت كما كان يعيش أهل الكهوف، أو كما يعيش أهل الغابات

- وهل تحسبون الحال اختلفت؟ الكهوف باقية ولكنها اليوم عمارات من ناطحات السحاب. وفي الغابات يصيد الناس الحيوان ليأكلوه، وفي هذه العمارات يصيد الناس بعضهم بعضاً ويأكل بعضهم بعضاً، وقد عافت البشرية أن تأكل لحمها فأكلت في العمارات ضميرها وشرفها وروحها. إن أهل الكهوف كانوا أقرب منا إلى السماء، وإن أهل الغابات لا يزالون أقرب من أهل العمارات إليها.

- ولكن هذا العلم الذي علمناه، وهذا العقل الذي نما فينا. . . أنلقيهما في الفضاء لنعود إلى حياة العراء؟

- لم يقل أحد هذا. وإنما نستطيع أن نجند علومنا وعقولنا لتنظيم أرواحنا لا للترفيه عن أجسادنا، وسنرى عندئذ أن أكثر ما نعمله لغو لا يغذي الروح، وسنرى عقولنا قد اسودت من كثرة ما كذبت علينا وأضلتنا طريقنا

- وعندئذ ماذا نصنع؟

- عندئذ ينتعش إحساسنا. عندئذ يبدو لنا الكون في آلاف الصور وكلها محببة. وقد يعيننا صوم الأنبياء على تذوق الحب واستساغته، وقد يصرفنا هذا العشق الشفاف عن تهافت الأبدان وتجاذبها. . .

- وبعد ذلك تنتهك قوى البشرية فتتخاذل وتهزل ويقل نسلها وتموت

- من أين جئتم بهذا؟ سيأكل الناس من الأرض ما يعيشون به، والطبيعة لا تريد منهم أكثر من أن تعيش أبدانهم. فإذا أخذوا منها أكثر ما يلزم لها خالفوا قانونها وظلموها وظلموا أنفسهم، وسينجب الناس بقدر ما يحفظون نوعهم وبقدر ما يسمح للحياة المادية أن تسلك أبدانهم إلى مرحلتها الجديدة. وليست الحياة تريد أكثر من هذا. والحياة بعد ذلك تطلب الإنجاب الروحي الذي يؤديه الإحساس. الحياة تطلب الفن طلباً طبيعياً واجب الأداء؛ فأين هو في هذه الحضارة!

- إن الحياة هي التي حبست عرائسها الروحية عن البشر في هذا العصر!

- بل هن معروضات أمام الأرواح النابهة، ولكن ما أقل هذه الأرواح النابهة الآن؟ لقد استغلق الناس على أنفسهم، ختمهم العلم والعقل بخاتم أصفر من الذهب.

- ولكن هاهو ذا العلم يدعو المراهقين إلى الفنون الجميلة ليصرفهم عن شهوات أبدانهم.

- أو لا يملك إلا هذه الدعوة؟ إن الفنون الجميلة لها الذين يحبونها لا ينصرفون عنها. أما الذين يزدرونها فلا يقبلون عليها إقبالهم على نوع من العبث.

- فما الذي تطلبونه من العلم إذن؟ إنه لا يستطيع غير هذا.

- نريد أن يزف المراهقين وغيرهم إلى العرائس من المعاني والفكر، فإذا عشقوها عطروا لها أرواحهم؛ فإذا ساكنوها أعقبوا فيها فنوناً تسلكها الحياة الماضية إلى الأمام

في سبيلها.
- وكيف يحدث هذا؟
- إن هذه العرائس تياهة مدللة لا تلين إلا أمام حس يرهف نفسه لها، فهل يستطيع العلم أن يرهف إحساس الناس؟
- لا. ولذلك يعمد في هذا إلى الفن مستعيناً به.
- ولكن استعراض الفن لا يخلق فناً، وإنما يخلق الفن الإحساس بالحياة نفسها، وما دمنا ننزع إلى تحويل إنتاج البشرية بقدر ما نستطيع من الإنتاج البدني إلى الإنتاج الروحي فلابد أن نعنى بخلق الفنون وإنتاجها لا دراستها واستعراضها، وهذه العناية هي التي تنتهي مع الدأب إلى دنيا الروح.
- وهل يمكن أن نقيم دنيا من الروح؟
- نعم كما قامت دنيا من كهرباء موجبة وسالبة!

عزيز أحمد فهمي

محمود صبح

من الوجهة الفنية

للأستاذ محمد السيد المويلحي

قد يحمد الفنان إذا اعتز بنتاجه وسما به عن الابتذال والعرض والمقارنة؛ وقد يحمد إذا عرف لنفسه قدرها لأنه أدرى الناس بعبقريته وقوته، وأشدهم إيماناً بإلهامه وتوفيقه ولكنه لا يحمد ولا يثنى عليه إذا تدرج اعتزازه وإيمانه بقدرته إلى الأنانية التي تحمله على تقديس نفسه وإنكار الجميع. . . الجميع دون استثناء. . .!

ومحمود صبح موسيقي مرهوب موهوب يلم بفنه إلماماً تاماً ويجيد العزف على العود والناي والبيان، وله لون خاص ينفرد به ويعجب جمهرة كبيرة. . . ولكنه يعتقد بل يؤمن إيماناً عميقاً أنه مبعوث العناية الإلهية لإنهاض الرسالة الموسيقية. فعلى كل من ينتمي إليها بوشيجة أن يؤمن به إيمان العجائز فلا نقاش ولا جدال (لأن الذي يستطيع أن يناقشه أو يجادله لم يخلق بعد، ولأن الله سبحانه لا يخلق رسولين في عصر واحد وإلا فسدت الرسالة). هكذا يقول الرسول (محمود صبح) الذي يذكرني (بروبسبيير) الذي آمن بعصمته فكان يعدم كل من يظن فيه المعارضة لآرائه ومبادئه لا لشيء إلا لأنه كافر بالعصمة والفضيلة!

قامة ربعة وإن كانت تميل إلى القصر، تشبه (شوال) الملح لوناً وشكلاً وثقلاً، وإن كانت تمتاز بظرف عجيب. قامة وإن حرمت نور البصر، فقد وهبت قوة هرقلية تستطيع (بفضل الله) أن تجندل من تشاء بضربة فنية قاضية. قامة تجيد كافة الألعاب الرياضية من ملاكمة ومصارعة وحمل أثقال. . .

رأس أودع الله فيه كنزاً غنياً من الفن الأصيل المكين المقتدر المبتكر. حاجبان كثيفان لو وزع شعرهما على عشرة رؤوس (صلعاء) لأصبحت غنية بالشعر القوي. أنف كأنف (هلب كبير) الصقر يهبط في هدوء وتقوس حتى يستقر عل شكل. . .!!

وجه ممتلئ طالما زينته العمامة حتى ثار عليها وأبى إلا أن (يتطربش) لتكمل أناقته ورشاقته. . . فم وإن كان يذكر الله كثيراً ويجيد تلاوة كلامه. . . إلا أنه لا يحب أن يغضب الشيطان فيهجر أوامره وإغراءه بل يندفع في سبيل ترضيته فيصف (إخوانه) وزملاءه بوصف (مزخرف) مصنوع في معامل (بولاق) وحوش بردق. . .

أذنان حادتان صارمتان لا تعترفان إلا بنتاج صاحبهما، أما غيره. . . ف (صوء. . . صوء أعوذ بالله، يا ستار العيوب، إيه ده؟؟)

يدان قديرتان ساحرتان إذا صفا صاحبهما أسرتا وسحرتا، وخلقتا قوة وقدرة وفناً أصيلاً نبيلاً. يدان تسجد لهما الموسيقى العربية (البحتة)، ويخضع لهما الفن العالي الذي لا يخضع إلا للقليلين.

صوت هائل كامل شهد له الجميع بالقدرة والقوة والعذوبة وقوة التأثير. أروع من يؤدى (الباص) وأبدع من يحسن (البريتون)، وأرفع من يجيد (التيتور). يتكون من ديوانين ونصف تقريباً لا عيب فيه إلا خلوه من العيب. . . صوت لو استطاعت محطة الإذاعة أن تهيئ له الجلسة الفنية المضبوطة أمام (الميكروفون) لكان آية، ولخلا من تلك العواصف التي تكاد تصم الآذان.

صوت يقلد القطار أدق تقليد، ويحاكي صوت (القلة) أنم محاكاة. ومن ظرف محمود

أنه إذا صفا أسمعك بفمه صوت العجين عندما (يلت) حتى لتخاله امرأة منهمكة في (ماجورها). . . أقدر من يلحن الموشحات، ويكفيه فخراً وسمواً وخلوداً أن أعظم مغن بالغاً ما بلغ من القوة والقدرة لا يستطيع أن يحاكيه بواحد من موشحاته لتشعبها، وكثرة أنغامها، ووفرة حركاتها، ودقة تركيبها، وإن حاول فالفشل له بالمرصاد. . .!
فنان موهوب مبتكر بصير بما يصنع، خبير بفنه لا يحاكى ولا يقلد بل له لونه الخاص المعروف لأنه كما قلنا قبلاً لا يؤمن إلا برسالته. لا يعرف شيئاً في القواعد الغربية مع أن علم (التحسيس) قد تقدم وأصبح يدرس في كل مكان
يجيد العزف على العود، واللعب على البيان والنفخ في الناي. إذا سألته عن (فلان) المشهور قال: (طز) وعن فلانة المعروفة قال: (طزين يا سيدي).
الويل لك إذا سمعته وأعلنت سرورك وتقديرك بقولك (يا سلام يا شيخ محمود! الله يزيدك) لأنه يلتفت إليك متهكماً متحفزاً صارخاً (هو لسة يا أخينا حيزيدني. . . حيخليني إيه أكثر من كدة؟) والويل لك أكثر وأكثر إذا أخذتك النشوة فنسيت أن تحييه لأنه يسكت فجأة ويخاطبك:
- حضرتك مش سامعني يا فندي؟
- سامع يا أستاذ دي حاجة عظيمة جداً
- أمال ساكت ليه؟ ساكت ليه يا فندي؟ ودانك بتوجعك؟ والله مانا قايل حاجة إلا لو خرجت من هنا. أتفضل يا فندي وخدها وهيّ حلوة. . .!
كان في الحسينية من خمس عشرة سنة يعزف بعوده أمام حشد من مريديه ومحبيه فلما أخذته النشوة رمى (بعوده) وصرخ متمدداً قائلاً:
- أدركوني. . . أغيثوني. . .!
- مالك يا مولانا. . . مالك يا مولانا. .؟
- أدركوني. . . أغيثوني. . .! أمسكوني جيداً. . . سِدُّوا (وداني). . . سِدُّوا (وداني)
هرع إليه هذا الجمع الحاشد وكله لهفة وإشفاق فإذا بالشيخ محمود يقول:
الجن عاوزة تخطفني، رئيسهم كلمني في (أذني) وقال: احنا عاوزينك يا محمود عشان بنتي حتتجوز. . . امسكوني ليخطفونني!
عصبي إلى درجة بعيدة. لا يطيق النقد. ومن ظريف أمره أيام كان يذيع في المحطات الأهلية أنه كان يجلس في محطة (فؤاد) قائلاً لهؤلاء الذين يكتبون عنه أو يتكلمون بما لا يحب:
يا ليل، يا ليل، سامع (يا فلان) يا ابن. . . شايف الشغل ازاي. . . يا ليل، يا عيني يا ليل، (فلان) نحن محمود صبح، اتائب يا بن الـ يا ليل يا عيني، لاح بدر التم أمان. أمان دوس يا لاللي. . . يا بتوع (. . .) يا أولاد. . . اتعلموا وخلوا عبد الوهاب بتاعكم يتعلم!؟
وبعد فمحمود صبح شخصية عظيمة ظريفة انحدرت من بيت عريق؛ ومن أصل طيب. لا يعتمد في معيشته على فنه بقدر ما يعتمد على إيراده الخاص الذي يكفل له عيشه رغداً، ولولا مغالاته بقدره واعتداده بنفسه لكان عظيماً نافعاً

محمد السيد المويلحي

رسالة العلم

نهاية الكون

تعذر الامتداد في الظواهر وصعوبة الحكم على مستقبل الزمن

للأستاذ محمد محمود غالي

اطلعت في العدد الأخير من الرسالة على ما وجهه إليّ الأستاذ نصيف المنقبادي وعل أسئلته الخاصة بتطبيق نظرية بولتزمان في الحكم على مستقبل الكون، وقد تتبعت مقالاته القيمة التي نشرها هذا العام في الرسالة، وتتبعت منذ أكثر من عام مقالاته على صفحات الأهرام التي ناقش فيها الأستاذ الفاضل محمد فريد وجدي. ولو وصفنا الأستاذ فيمن نعرفهم من الكتاب المصريين بأنه من الذين عرفوا بالجرأة في كتاباتهم لما ابتعدنا عن الصواب كثيراً، إذ لاشك في أنه من هؤلاء المطبوعين على حرية الفكر، ولا خلاف في أن لمثل كتاباته فائدة كبرى يجنيها النشء ويفيد منها المطلعون للموضوع الذي يسألني عنه مساس بفلسفة كل علم إذ يجب التفريق بين ما هو جائز وبين ما هو محتوم - قلنا إن التفسير البولتزماني للمبدأ الثاني للترموديناميكا يدلنا على نوع من الموت الحراري للكون، ولكن لم نقل إلى أي حد يجوز لما الامتداد والتوغل

في قبول هذه النتائج في مستقبل الأحقاب والعصور
يحدثني عن ملايين الملايين من السنين التي خلت ويتساءل لماذا يحدث الاقتراب من السكون المرتقب وفق بولتزمان، وقد مضى على الخليقة ملايين ملايين السنين. ومن ذا الذي قال إن هذه الملايين الخالية كافية للوصول بالكون إلى الحالة التي يدل عليها تفكير بولتزمان والتي تحتمها الزيادة الحتمية والمستمرة (للأنتروبي)؟
وهب أننا وصلنا إلى نوع من السكون النسبي فمن ذا الذي قال إن هذه هي أول مرة يصل فيها الكون إلى السكون والموت؟ ومن ذا الذي يَقْسِرُ إفهامنا على أن الحركة لا تُستأنف من جديد بعوامل لا نعرفها تَمُتُّ إلى الأصل في معرفة الخليقة ووجود الكون؟ هنا نقطة حساسة أعتقد أن آرائنا تفترق عندها، فإنك تميل إلى تفسير كل شيء بعلمنا الميكانيكي ومعرفتنا المحدودة لظواهر الطبيعة، وأميل من ناحيتي إلى اعتبار ما نعرفه لا
شيء بجانب المجهول. ومع ذلك فإن جُلَّ ما نعرفه من الظواهر الطبيعية ظواهر دورية، ألا يكون الكون في مجموعه، الكون المحدود بحيز ريمان أو حيز لوباتشفسكي أو ما يشاء العلماء من الحيزات، ظاهرة دورية وأننا الآن في مرحلة من مراحل الانتقال والدوران؟ بمعنى أنه ليس ثمة بداية للكون وليس ثمة نهاية له
في نشرة للعالم (سان) اطلعت عليها حديثاً في محاضر الجمعية الملكية الإنجليزية يناقش فيها هذا الرياضي الطبيعي بعض النظريات الخاصة بمبدأ الكون وما وصل إليه الحيز من تمدد وما يحدث الآن من ابتعاد كل العوالم بعضها عن بعض - هذه النشرات وأمثالها التي يناقش العلماء فيها (كون إنشتاين) أو (كون دي ستير) وهما كونان معروفان لدى العلماء توحي إلينا بهذه الفكرة الدورية للكون
لم يقل (سان) بتغيير قوانيننا الطبيعية في مستقبل الزمن، ولكن كل شيء يجوز أن يتغير ما دمنا نعتبر أحقاباً طويلة من الزمن مثل الأحقاب التي نتكلم عنها
على أن الزمن نفسه يحمل في طياته عدم التعيين عندما نتوغل فيه إلى حد كبير. ثمة فارق كبير في معرفة فترات الزمن التي اعتدناها ومعرفة الأحقاب الطويلة التي لا نجزم بمعرفتها أو تحديدها؛ فإذا تحدثنا عن عمر الإنسان أو عن الزمن الذي مر من الثورة الفرنسية حتى يومنا هذا، أو عن عمر أحد الأفيال الأفريقية الكبيرة، وبينها ما عاش بلا شك قبل الثورة الفرنسية، فإنني أفهم لذلك معناه، وأفهم نوع الدقة المطلوبة فيه، حتى إذا تكلمنا عن الزمن الذي مر منذ أن كتب هومر إلياذته المشهورة أو منذ أن بنى خوفو هرمه أو نحت الأقدمون (أبو الهول) فإن هذا، وذاك ممكن أن يكون أمره معروفاً، أما إذا أردنا أن نتكلم عن عمر الرجل الأول أو الزمن الذي يمر لتدوير المجرة دورة كاملة أو الزمن الذي خلا منذ ظهور الحياة على الأرض فإن شيئاً من الاحتمال يدخل في تقديرنا لهذه العصور الطويلة. وما بالنا لو أردنا بعد ذلك أن نتكلم عن عمر عنصر التوريوم أو عمر النجوم أو العوالم أو التوغل حتى مبدأ الخليقة، فإننا لا نستطيع الجزم بمقدار هذه المدد الطويلة، ولا نستطيع أن نستوعب معنى الزمن إذا نظرنا إليها.
هذا من ناحية الأحقاب الطويلة، وإننا نجد نفس الصعوبة إذا نظرنا إلى الطرف الآخر واعتبرنا الفترات القصيرة. فإذا تحدثنا عن فترة الزمن التي تقدر بثانية أو فترة تردد الموجات اللاسلكية الطويلة منها والقصيرة أو فترة حياة (الراديوم فإن حديثنا عنها يختلف عن فترة تردد الموجات المصاحبة للبروتون في ميكانيكية (دي بروي) الموجية أو ربما عن فترات أقصر من ذلك يحدثنا عنها العلماء في مستقبل العمر.
ومع ذلك فإن هناك عاملاً آخر يتصل بسر الوجود وما يحدث فيه من تطورات. وكنت لا أرغب أن أتعرض بالبحث عنه لولا أن أسئلة الأستاذ تحتم عليّ اللجوء إلى هذا الطريق. ولعلي أُوَفَّق في أن أشرح هذا العامل الخارجي، وأن أكشف عن رأيي في المثال الآتي:
إن من الصعب أن نضع على الأرض عصا طويلة مدببة الطرف في وضع رأسي ونتركها على طرفها هذا وفي هذا الوضع دون أن تقع العصا على الأرض. ولو أننا وفقنا بصعوبة إلى ذلك فإنه لن تمضي لحظة حتى تقع العصا على الأرض وفق اتجاه لا نستطيع تحديده. ولو أننا تساءلنا عن مساق (مصير) العصا وهي في وضعها الرأسي لا تستند إلى شيء لقررنا أنها حتماً واقعة على الأرض. لنفترض بعد ذلك أن هناك كائناً حياً يرفع

العصا طوراً ويدعها تقع على الأرض تارة أخرى
ثمة مجموعتان واحتمالان لمواضع العصا وما يخبئه لها القدر:
المجموعة الأولى تتكون من العصا والأرض. هنا نحتم أنها تقع على الأرض وأنها لن تقوم رأسية من تلقاء نفسها كما كانت
والمجموعة الثانية تتكون من العصا والأرض والإنسان اللاعب بها. هنا تقع العصا ولكنها تعود رأسية كما كانت ويصح أن يتكرر ذلك ما دام الكائن موجوداً
ولو افترضنا أننا مخلوقات نعيش على سطح العصا، وأن فترة آجالنا محدودة جداً بنسبة الزمن الذي تقع فيه عصانا هذه فإننا الآن في مرحلة نشاهدها وهي تقع، ولكننا لا نستطيع أن نجزم بأنها لا تقوم بنا كرة أخرى، فقد يكون هناك لاعب ماهر يلعب بالعصا ولا نعرف من لعبه شيئاً، وقد تكون هذه إحدى المرات العديدة التي وقعت العصا فيها على الأرض
فلا تخش أيها الكاتب على الكواكب انقطاع دورانها وعلى النجوم وقوف حركتها وعلى الكهرباء انعدامها وعلى الجاذبية نهايتها وعلى الأرض فناءها وعلى الأحياء موتها، فإننا عاجزون عن أن نعرف الأصل في كل هذا وأن نستوعب للكون مبدأ وللحياة نهاية، لهذا لا يجوز لنا دائماً أن نقول إن الذي ترك العصا تميل وتقع يستطيع أن عيدها سيرتها الأولى،
كما نستطيع أن ندرك أن الأرض والعصا واللاعب مجموعة تختلف عن الأرض والعصا بلا لاعب
حدثت القارئ فيما تحدثت به إليه عن نملة تجولت في سرادق فسيح في ليلة عزاء، وقلت إنها فهمت أن الدنيا كلها سرادق تضيئه أنوار ونادل يسقي قهوة وفقيه يرتل الآيات، وقلت إنها بهذا أخطأت صورة الدنيا، كذلك نحن والكون وما يحدث له في المستقبل البعيد من تطورات؛ فقد تعلمنا كثيراً وزادت معارفنا ولكننا فضلاً عن ذلك قد تعلمنا شيئاً أجدى وهو أننا لا نعرف عن الأصل في الكون والمستقبل في التطور أكثر من معارف النملة التي لم تفارق السرادق والتي لا تعرف ما بخارجه
فلتكن مثلي. لا تجادل في الغيب بهذه السهولة ولا تتحدث عن الحياة والمادة والروح بهذه الطريقة من التوكيد التي تحدثت بها. إن الشك أجدر بالعلماء عندما ينزلون إلى ميدان أصل الوجود ويحاولون معرفة سر الخليقة. لذلك عندما ذكرت أنني أفترق عن التفاحة التي نأكلها وعن المحبرة التي أملئ منها هذه الأسطر كان عندي إيمان قوي بما أقول، وإن لم يكن لدي ولا عند غيري الدليل العلمي للتدليل على ذلك بما لا يقبل الجدل
ومع ذلك وبعد الذي ذكرت أرجو ألا تنسى أيها الأخ أنني من الذين يؤمنون بالعلم التجريبي فيعيرونه كل تقدير ولا يؤمنون كثيراً بالعلم النظري فلا يولونه من الوقت إلا اليسير، وإنني لا ألجأ إلى التعمق في العلم إلا بالقدر الذي أعتبره طريقاً لمراهن الذهن والتعود على الفهم. فإذا رأيتني لجأت إلى النظريات تارة فإنما أشرح للقارئ طرائق التفكير الحديث وأستعرض بإخلاص قصة الخليقة وفق أحدث ما يقوله العلماء وما يتراءى للمفكرين
أما إذا خاطبتني كرجل تَخرَّج من المعامل، ويود أن يقضي البقية من العمر فيها، فإنني ممن لا يجيزون البت في مستقبل الكون بهذه السهولة، وعلى هذه الصورة. وعلى ذلك فلست ممن يؤمنون بالبولتزمانية إن صح أن نعطي التفسيرات الحرارية الأخيرة هذه التسمية إلا بقدر أنها صحيحة في مرحلة انتقالية للكون هي المرحلة التي نجتازها؛ وهذه المرحلة قد يتبعها مراحل لا تكون البولتزمانية موضوع الحديث.
وبعد فتراني أصبو إلى الطرف الإيجابي من المسائل والظواهر عامة. لقد درست على كوتون، وتتلمذت على موتون، وصاقبتهما عشرة أعوام أو يزيد - ولقد كانا بنائيين ينظران إلى المسائل ويسائلان أنفسهما: هل من وقائع حقيقية وراء ما نرى أو ما نقول؟ وإني أضرب لك مثلاً:
عندما فصل مليكان جسيماً واحداً يحمل إلكتروناً حراً واحداً كنا واثقين بعمله. فقد كانت نتائجه التجريبية تُحتم شحنة الإلكترون بالقدر الذي أعطاه مليكان ما دام منطق الحساب البسيط صحيحاً. هذا الحساب الذي تعلمناه كلنا بالمدارس - وبالمدارس الابتدائية على الخصوص - فقد كان الحديث عند مليكان عندما استطاع أن يرى هذا

الجسيم واقفاً بلا حراك بين كفتي المكثف الكهربائي حادثاً خاصاً بقاعدة حسابية بسيطة معروفة لدى طلبة المدارس الابتدائية، وهي قاعدة القاسم المشترك الأعظم.
عندما نتساءل عن العدد الذي يقسم الأعداد: 14، 21، 28، 35، 42، فإن الجواب معروف. فالعدد 7 يقسم كل هذه الأعداد. ولقد كانت تجارب مليكان المعروفة التي عين فيها شحنة الإلكترون لا تخرج في فكرتها الأساسية عن العملية السابقة بالذات. لذلك كان إيماننا بها بقدر يقينا في جواب المسألة الحسابية السابقة ولكن عندما نتحدث أيها الأخ عن ملايين ملايين السنين فإن للقوانين اعتباراً آخر، وللظواهر تطورات نجهلها.
وبعد الذي ذكرت كم أكون سعيداً لو استوثقت يوماً أنك تنظر إلى المسائل نظرنا إليها وتعالج الأمور معالجتنا لها - قد أكون مخطئاً فيما ذهبت اليه، ولكن هكذا تكونت وهكذا دَرَسْت. ولا تصفني إن سمحت بعد اليوم بالعالم المدقق والطبيعي المحقق، ولا تذكرني كما تذكر علماء السوربون وأساتذتهم الأعلام فإن هذا شرف لم أنله ومرتبة لم أرتفع إليها. ولابد من أن يتسع العمر كثيراً لنطالع عشرات ما طالعناه، ولابد من أن تمر سنون عديدة لنستوعب الكثير مما لا نعرف.
وفي الختام أشكر لك كلماتك السابقات التي لا أستحقها، وأعدك وقراء الرسالة بأنني سأتم كلامي عن الذرة والإلكترون وسأخص تجارب مليكان وبيران عن الإلكترون بشيء من العناية. فإذا ما انتهيت من هذا فسأتناول أربعة موضوعات رئيسية تتصل كلها بالتفكير الحديث ومستقبل البشر: الْكَم أي (الكوانتا) لمؤسسها العالم الكبير بلانك، وربما تكلمت عن علاقتها بالقضاء والقدر. والنسبية (لإينشتاين). والموجية للعالم الشاب (دي بروي).
والتفتت الذري لكل هؤلاء الشبان من أرجاء المعمورة الذين يعملون داخل المختبرات على تقدمنا والذين يواصلون الليل بالنهار ليضعوا حجراً جديداً وأساسياً في مستقبل المعرفة.
وتراني سعيداً لأرقب ملاحظاتك وأرد على أسئلتك وأشترك في خواطرك وأتعرف إليك مع أصدق التحيات.
محمد محمود غالي
دكتوراه الدولة في العلوم الطبيعية من السوربون
ليسانس العلوم التعليمية. ليسانس العلوم الحرة. دبلوم المهندسخانة
من هنا ومن هناك
الثالوث البريطاني في البلاد العربية
عن مجلة (في الباريسية))
منذ بدأت إنجلترا تتبع سياسة الحكم غير المباشر في البلاد العربية، لم تكتف بجنودها البواسل وطياراتها ودباباتها تذرع تلك البلاد، فبثت في رجالاً ذوي مقدرة نادرة وكفاية عالية للسير بسياستها في طريق النجاح. وذلك أن أعمال (لورنس العرب) قد أصبحت تقليداً يتبع ومثلاً يحتذي عند الإنكليز.
وقد تبدو مهمة هؤلاء الرجال على جانب من البساطة، ولكنها في الحقيقة على خلاف ذلك. فهم في حاجة إلى التدخل بين العرب واكتساب مودة الأمراء وثقتهم فضلاً عن البدو والدهماء. فلا تمر صغيرة ولا كبيرة في العروش الشرقية إلا كان لهم شأن فيها. وهم يحاربون أعداءهم في صمت وهدوء
ويتبين مما كتبناه عن الإمبراطورية العربية - يرمي إلى المقالات التي لخصتها الرسالة في أعداد سابقة - أن النضال في البلاد العربية يدور في ثلاث مناطق هي محور الدائرة في الشرق الأدنى. وهذه المناطق هي: الرياض عاصمة مملكة ابن السعود، وعمان عاصمة الأمير عبد الله، والقفار التي يشغلها فوزي القاوفجي ورجاله الذين لا يهابون الموت ولا تقف جرأتهم عند حد. فمن الطبيعي أن نجد خدام الإمبراطورية البريطانية الصامتين في تلك البقاع
وأول (الثالوث البريطاني العربي) هو (فردريك جيرارد بيك) ويعرف في الشرق الأدنى باسم بيك باشا. وقد كان هذا المارد الذي يبلغ طوله ستة أقدام، الذراع اليمنى للورنس مدى ثورة الصحراء

وقد كان بيك متصلاً كل الاتصال باللجنة التي نظرت في تقرير مصير الولايات العربية بعد اندحار الإمبراطورية التركية. واشتغل برهة مع الملك فيصل في العراق. ولم يلبث أن رحل إلى الرياض لمفاوضة ابن السعود، وجاءت فترة بعد ذلك كان فيها ضيفاً كريماً على شيوخ العرب الذين يرأسون القبائل الثائرة في الصحراء، ثم اتصل أخيراً بالأمير عبد الله أمير شرق الأردن وصار أحد مستشاريه المخلصين، وقد عين مديراً للأمن العام في عمان

حين صارت العاصمة لتلك البلاد. وهو على الرغم من وضعه أحسن النظم لاستتباب الأمن في عمان، يؤدي لدولته أعظم الخدمات

أما العضو الثاني من هذا الثالوث فهو (جون باجوت جلاب) ويعرف عند العرب باسم (أبو الحنك) لجرح كان قد أصاب ذقنه واستمر أثره إلى اليوم. وتنحصر مهمة جلاب في اجتياز الصحراء شرقاً وغرباً والاتصال بالبدو والأعراب في كل مكان. وهو يستعمل كل وسائل الانتقال وتحمله الطائرات إلى أواسط الصحراء حيث يأوي إلى أقرب الخيام. وقد تمضي أشهر عديدة لا يسمع به أحد أو يعرف له مستقرا. وهو يتكلم اللغة العربية الفصحى ويعرف لغات القبائل المختلفة وعادات العرب في كل منطقة. وهو يجيد الرماية إجادة عجيبة. وله مقدرة فائقة في معرفة النفوس. أما الغاية التي يرمي إليها فهي اكتساب ثقة الأعراب الذين يجوبون الصحراء. وقد نجح في حجزهم عن الاتصال بالثورة في فلسطين على الرغم من المجهودات التي بذلها المهيجون لإثارة هؤلاء البدو إلى حرب عامة للجهاد باسم الدين

ويقيم العضو الثالث من الثالوث البريطاني في الرياض عاصمة ابن السعود، ويدعى سان جون فيلبي. وله فضل كبير في اكتشاف الصحراء العربية وحضر موت ووضع كتب قيمة عنها

وسان جون فيلبي فوق ذلك صديق حميم لابن السعود، وقد اتصل به منذ وجه أول حملة ضد الأتراك. وهو جد مفتون ببلاد العرب وقد اعتنق الدين الإسلامي فيما بعد وكان يناقض لورنس في زعمه أن بلاد العرب يجب أن تقسم إلى إقطاعيات تحت حكم الحسين وأبنائه، ويقول: إن لورنس يستبق الحوادث ولا ينظر نظرة عميقة إلى القوة التي وراء ابن السعود والوهابيين. وقد دلت الحوادث على أن فيليبي كان على صواب. فلم تمض بضعة سنين بعد هزيمة الأتراك حتى نجح ابن السعود في التغلب على الحسين ونشر لواءه على نجد والحجاز. وقد استمر حليفاً مخلصاً للدولة البريطانية بفضل سان جون فيليبي

هؤلاء الرجال الثلاثة يقومون بخدمة بريطانيا في بلاد العرب، فإذا زالوا خلفهم آخرون وهكذا. وما دام لدى بريطانيا رجال على هذا الطراز فيحق لوزارة المستعمرات في هوايت

هول أن تنام ملء عينيها. وسواء بعد ذلك صبر الأمير عبد الله، وشجاعة فوزي القاوقجي، ودهاء الحاج أمين الحسيني، فليس في مقدور أحد منهم أن يؤسس إمبراطورية عربية

وإذا ساعدتهم الظروف على ذلك، فلن يكون هذا إلا برضا وزارة المستعمرات، ما دام لديها هؤلاء الرجال الذين يعرفون أغراضها ولا يجهلون الطرق التي توصلهم إليها

الطرق تحكم أوربا

(ملخصة عن تايم آند)

أصبحت الطرق تحتل المكان الأول من اهتمام الدولة الأوربية حتى لقد صار من المحتمل أن تقع حرب عالمية من أجل طريق تمتد بضعة أميال في بولندا

ويرجع ذلك الاهتمام العظيم بأمر الطرق إلى إدخال السيارات في أنظمة الجيوش والاعتماد عليها في الحروب. ومن المعروف عند رجال الحروب أن النجاح فيها موكول إلى سرعة الانتقال. فالجيش الذي لديه الوسائل لنقل الرجال والأسلحة قبل غيره معقود له النجاح، ومن هنا جاءت أهمية الطرق، وصح القول بأن من يستولي على الطرق الحربية في أوربا هو الذي سيحكمها ولا محالة

وقد اشتد اهتمام ألمانيا في الأيام الأخيرة بتعزيز جبهتها بالطرق التي تحتاجها وقت الحروب، فتم منذ استولى هتلر على ذمامها ما لا يقل عن أربعة آلاف ميل من الطرق المعبدة لسير السيارات، وأصبح من السهل على ثلاثين ألف عربة من سيارات

الانتقال، ومليون رجل من رجال الحروب أن ينتقلوا إلى أقصى الجهات في جهة ألمانيا في وقت لا يزيد على أربعة وعشرين ساعة

وقد أصبحت برلين الآن محاطة بأنسجة من الطرق الحربية من كل الجهات وهذه الطرق توصل بين جبهتها وبين الطرق الهامة في أوربا، فلا يكاد الإنسان يتأملها حتى يتساءل، من أي هذه الأنسجة تقفز الرتيلاء؟!

والطريق من برلين إلى وارسو (وموسكو) هي الطريق المؤدية إلى سهول شمال أوربا الشاسعة. وهذه السهول منبسطة في أكثر الجهات، وقد لا يزيد ارتفاع الجهات العالية بها على 600 قدم، وتمتد هذه الطريق من برلين إلى جبهة بولندا إلى بروبرج إلى سهل

الفستيولا، ثم إلى وارسو، وقد تؤدي إلى موسكو

وقد عبر نابليون سنة 1812 هذه السهول، فاحتل وارسو وخط الفستيولا ثم تقدم منها إلى عاصمة روسيا. ومن هنا يتبين أهمية الطريق التي تطلبها ألمانيا إلى دانزج وشمال

بروسيا داخل حدود بولونيا. فدانزج وشمال بروسيا مازالا كما كانا بالأمس المركز الممتاز الذي تتطلع إليه الأنظار لاقتحام وارسو وشرق بولندا. وكل ما تطلبه ألمانيا أن تضع يدها عليه - لا من أجل الطريق الذي تزعمه - ولكن لتصوب منه الضربة القاضية!

هتلر أو المسيح؟

(عن ذي لتراري جايد)

تدل الحوادث التي تتكرر في ألمانيا كل يوم على أن حكومة النازي تعمل على محو أثر الكنيسة في الحياة الألمانية. وقد ظهر حديثاً كتاب بعنوان (أزمة المسيحية) بيّن مؤلفه مستر وليم تيلنج ما يحدث في الكنائس الألمانية على اختلافها في العهد الحاضر. وماذا

عسى أن يحدث في الكنيسة الألمانية؟ الجواب لا يحتاج إلى تفكير إذا ما نظرنا إلى النظام الذي يشمل ألمانيا الآن، فما يحدث للكنيسة هو جزء من السياسة العامة التي

ترمي إلى محو كل نظام قائم إلى جانب النظام العام الذي وضعه النازي للبلاد

ويتبين مما جاء في هذا الكتاب أن هناك حملة مدبرة لمهاجمة آراء الكنيسة وفلسفة

الكنيسة ومالية الكنيسة. والقول بأن العقيدة في هتلر تعادل العقيدة في السيد

المسيح، والثقة بأعضاء النازي كالثقة بالقديسين الأكرمين، وهذا أمر لا يقبله رجل مسيحي بالطبع لأنه كفر وتجديف، ولكنه هو الواقع بكل أسف! فالطريقة التي يحيا بها

هتلر غب انتصاراته تتخذ المراسم التي كان يستقبل بها رجال الدين في العصور الغابرة، ومذهبه الفلسفي الذي يلغي إلى جانبه كل تفكير وكل علم من رؤوس الناس هو مذهب ديني كما يظهر لا مذهب سياسي. وقد قبلت الكنيسة تلك المظاهر خاضعة، ولم تحاول أن تعارض هذه الديانة السياسية إلا في أحوال عارضة

ويقول مستر (تيلنج) إن شباب الجيل الحديث الذين انتزعهم النازي من أيدي القساوسة، وأسلمهم إلى النظام السياسي الذي يسود ألمانيا الآن، سيفقدون على التدريج عقيدتهم في كل

شيء، حتى اعتقادهم في ديانتهم الجديدة. فإذا تيقظت الكنيسة إلى ذلك، تسنى لها

أن تضم إليها هؤلاء الشباب، وتقودهم إلى حركة تقضي لا محالة على ذلك النظام

إن القوة التي تعارض النازي لا يمكن معرفتها الآن بجانب الضغط الذي يسود ألمانيا، إلا أن التاريخ قد علمنا أن كل قوة تقوم على محو العقائد من النفوس، لابد أن تتجرع من الكأس التي تقدمها لها

حذار من الأذكياء المتعالين!

(بقلم دكتور جوبلز وزير الدعاية الألمانية)

لا نقصد بهذه الكلمة أن نمس الرجل المفكر المخلص الذي يخصص علمه وكفايته وتجاربه لخدمة أمته، فإن الفكر الألماني يتألف من هؤلاء الرجال المفكرين؛ ولكن مما

لاشك فيه أن هناك فرقاً شاسعاً بين المفكرين الذين على هذا الطراز وغيرهم من

أدعياء الفكر. فليس كل من يحظى بنصيب من التعليم، وشيء من المقدرة على

الظهور ممن يسمونهم بالمتعلمين، هو في الحقيقة من الأذكياء أو المفكرين. إن مثل هذا الرجل من بقايا متعلمي الجيل الماضي قد أخطئ في توجيهه، ونشأ على طريقة عقيمة في التعليم؛ فهو في الحقيقة لم يكن سوى مجموعة من العلوم نمت في ظل

نوع من الذكاء الزائف. أما تأثير هذا الرجل في المجتمع فهو أشد وأنكى من تأثير

الجاهل البسيط، إذ أن اكتشافه للناس ليس بالأمر اليسير.
والرجل الذي على هذا الطراز يريك الجبن حكمة، والنزق حزماً، والكبر شجاعة، والذبذبة قوة وثباتاً. . .
فإذا عرف خطره على المجتمع، فإن خطره على المجتمع الألماني أشد وأعظم؛ لأن الألمان بطبيعتهم لهم غرام خاص بتلك الفضائل في عنصرها الأصيل. أما الرجل المفكر المتعلم الذي يعمل ويناضل لإحياء وطنه وحرية بلاده، فهو ومن على شاكلته يتبوءون الآن مراكزهم في الحكومة الاشتراكية الوطنية، أو يسيرون خلفها متحمسين مزهوين
إن الفكر التقليدي الذي يصد عن المثل العليا أو يصدف عن الحكمة والمنطق، ثم يستخف بهذا المسلك المعيب، هو في الحقيقة جبان قصير النظر. فلا يزال يرى أن العلم والتربية والمكانة لم تخلق جميعها إلا لما يريده هو ويراه. وكل من تحدثه نفسه بأن يسلك سبيلاً
غير سبيله فهو خارج على العرف، ومن ثم يجب أن يكافح وتعارض أعماله وتوجه إليها حملات النقد والتفنيد
ولا ضرر من هذا الرجل في أيام السلم إلا أنه قد يكون محقق الضر حين تشتد الأزمات السياسية، فيجتمع هو وأمثاله زمراً تنقصها ملكة الفهم والحكم على المواقف الدقيقة ليظهروا مخاوفهم ومخاوف الآخرين باسم العلم الزائف الذي يدّعونه
إن هؤلاء المفكرين التعساء لا يزالون يقابلون كل عمل من أعمال الحكومة الاشتراكية الوطنية وأعمال الفوهرر بكلمة (لا) ومن المحتمل أن يظلوا كذلك إلى الأبد. وليس في نيتنا أن نضم أحداً منهم إلينا لا لأننا لا نستطيع ذلك، ولكننا لا نريد أحداً منهم على الإطلاق، إذ أنهم حمل لا فائدة فيه
البريد الأدبي
حول جناية الأدب الجاهلي
تحت هذا العنوان كتبت (الثقافة) في عددها الأخير كلمة بدأتها بهذه الجملة:
أتتنا مقالات عدة من مختلف الأقطار العربية، بعضها في مناقشة الفكرة تأييداً أو رداً. (. . . وبعضها في سب ناشر مقالات (الرسالة) (لعله يريد (كاتب)) والتعريض بصاحب المجلة وتحليل الأسباب الداعية إلى ذلك. . .)
ولو كانت الثقافة من مواليد العام الماضي لشهدت في الرسالة معركة من أعنف المعارك الأدبية وأحماها بين الأستاذ سيد قطب وبين روح الأستاذ الرافعي. وكان الأستاذ قطب أمض أسلوباً وأشد لهجة من الدكتور زكي مبارك؛ وكان يأبى علينا أن نخفف من حدته أو نلطف من ألفاظه؛ ولكن الدكتور زكي يسمح لنا أن نسكن من سَوْرته بالحذف والتغيير حتى لتنخفض حرارته في بعض المقالات إلى النصف!
وكان الرافعي عضواً عاملاً في أسرة الرسالة وصديقاً حميماً لصاحب المجلة إلى أن استوفى آخر أنفاسه. وكان حين شبت هذه المعركة قد انتقل إلى جوار الله فلم يعد له لسان ولا قلم ولا صحيفة، فكان من الجائز حينئذ للذين لا يفهمون النقد إلا أنه انتقام وخصومة أن يكتبوا في (التعريض بصاحب المجلة وتحليل الأسباب الداعية إلى ذلك. . .). ولكن صديقنا الأستاذ أحمد أمين - متعه الله بطول العمر - له قلم ومجلة وأنصار؛ وهو صاحب رأي جديد في الأدب الجاهلي لم ينشره إلا بعد أن وطن النفس على مكروهه. وناقده أستاذ معروف له استقلاله في الرأي وأسلوبه في النقد ومكانته من الصحافة، فلا يمكن أن يوجه إلى خطة أو يحمل على رأي. إذن يكون من المجازفة والاعتساف أن يظن ظان بعدما عرف من مثل الرافعي ورأي من نشرنا النقد والرد عليه أن هناك أسباباً دعت إلى هذه المعركة غير خدمة الأدب في ذاته. وللرسالة والحمد لله قلم يستطيع متى شاء أن يدافع ويهاجم وينقد في حدود الأدب والحق والمنطق من غير حاجة إلى استخفاء أو استعداء
(الرسالة)
النعيم الحسي والروحي في الإسلام
قرأت في (الرسالة) كلمة طيبة لحضرة الأستاذ محمود علي قراعة في مراجعة ما قررت في أحد الأبحاث الماضية من اعتراف القرآن بالنعيم الحسي في الفردوس.
والظاهر أن الأستاذ قراعة يرى أن القول بالنعيم الحسي ينافي القول بالنعيم الروحي

لمن يرضى الله عنهم من المؤمنين.
وأقول بصراحة جلية: إن الإسلام يقوم على أساس القول بأن الإنسان مكوَّن من جسد وروح، وهو كذلك في الحياة الأخروية؛ فسيكون بعد الحساب جنة أو نار، جنة فيها أنهار وأشجار وأزهار، وقصور، وحُورٌ عِين كأمثال اللؤلؤ المكنون، ونار فيها جميع صنوف العذاب!
جنة حقيقية لا مجازية، ونار حقيقية لا مجازية.
تلك هي الحال التي سيصير إليها المؤمنون أو الكافرون بعد الحساب.
أما القول بأن الجنة والنار رموز لا حقائق، وأن الثواب والعقاب سيكونان مقصورين على الروح، فذلك قول وصل إلى بعض الصوفية من التأثر بالمسيحية.
والنظرية الإسلامية الصحيحة التي تعترف باللذات الحسية في الآخرة لا تمنع من القول بأن سيكون في المؤمنين من يكون نعيمهم برضوان الله أطيب من نعيمهم بما في الجنة من ثمرات وطيبات
وليت أمثال هذا الصديق يعرفون أن اللذات الحسية من طعام وشراب وعافية هي من نعم الله ذي الجلال، وهي مشتهاة في الدنيا والآخرة؛ وما كانت كذلك إلا بمشيئة بارئ الأرض والسموات
أنا يا صديقي راض بأن يكون حظي في الآخرة عند الحد الذي تقول فيه الآية الكريمة: (فمن زُحْزِح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز)
أما قضاء الأبد الأبيد بالتسبيح والتكبير والتهليل، فهو غاية سيطلبها رجل غيري؛ فقد قضيت حياتي في أكدار وأشجان، وقضاء الأبد في الفردوس هو الواحة التي أستظل بها من هجير هذا الوجود.
اشغلني عنك، يا رباه! بما سيكون في الجنة من أطايب النعيم. فإن بصري أضعف من أن يواجه نورك الوهاج، ولك الرأي الأعلى في التجاوز عن ذنوبي وآثامي.
زكي مبارك
توضيح مسألة
سيدي الأستاذ الجليل الزيات
تحية وسلاما، وبعد. فقد قرأت المقال القيم الذي كتبه الأستاذ كامل محمود حبيب في عدد الرسالة (314) عن المرحوم الأستاذ فليكس فارس، وقد وجدت في المقال أشياء استوقفت نظري وأرى من الواجب أن أنبه عليها بياناً للواقع.
وأول شيء استرعى بصري أن الأستاذ كامل حبيب وضع رقماً يدل على تاريخ مولد الأستاذ فليكس فارس، وتاريخ وفاته، والرقم هكذا (1886 - 1939)، ولكن الحقيقة أن الفقيد ولد عام 1882 في بلدة (صليما) بلبنان، وقد أخطأ في ذلك أيضاً الأستاذ صديق شيبوب إذ كتب في جريدة البصير في العدد الصادر في يوم الجمعة 30 يونيو سنة 1939 أنه ولد عام 1881 في بلدة (المريجات)، والذي نعرفه نحن شخصياً من الأستاذ فليكس فارس أنه ولد في 27 كانون الأول (ديسمبر) سنة 1882، وقد أعلنت أسرة الفقيد أنه توفي عن سبع وخمسين سنة، وعلى هذا يكون تاريخ ميلاده موافقاً للسنة التي ذكرناها.
هذا والأستاذ كامل حبيب ذكر أن الفقيد سافر إلى أمريكا عام 1920، والذي نعرفه أن الفقيد لم يرحل إلى القارة الأمريكية إلا عام 1921. ومما يؤيد هذا الكلام آخر ما كتبه الفقيد والذي جاء في العدد الخاص من مجلة (المكشوف) عن مظاهر الثقافة في مصر، وكما جاء أيضاً في أكثر من مكان في كتابه (رسالة المنبر إلى الشرق العربي) ص 26 مثلاً.
هذا ومما نذكره للتاريخ عن سفره إلى أمريكا أنه اعتقل في (لونج أيلند) مع زميله الفنان جان دبس ستة عشر يوماً لسعايات سياسية وأفرج عنه بمساعدة صديقه الأستاذ أمين الريحاني
ويذكر الأستاذ كامل حبيب أن الفقيد تعرف على جبران وعلى أعضاء الرابطة العربية في نيويورك. والحقيقة أنها الرابطة القلمية التي كان عميدها جبران ومستشارها ميخائيل نعيمة (كتاب جبران خليل جبران لميخائيل نعيمة ص 171). وأما الرابطة العربية فمقرها في

القاهرة على ما نعلم ورئيسها هو الأستاذ محمود بسيوني رئيس مجلس الشيوخ السابق.

إبراهيم أدهم

سؤال إلى (المفكرين) من علماء المسلمين

أنا لست من الفقهاء ولا المحدثين ولكن لي من المشاركة في هذه المباحث ما يطوّع لي عرض هذا السؤال وتوجيهه توجيهاً قد لا يرضي المتمسكين بحرفية النصوص الشرعية، الواقفين عندما جاء في الشروح والحواشي، معترفاً بأن مستندي في الذي أقوله على الأحكام العامة والرأي والاجتهاد، لا على الدليل الأصولي والحجة الشرعية، وهذه الأحكام العامة التي أرجع إليها وأستند عليها هي:

1 - أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان، وأن مبادئه لا يعتريها البلى ولا تفسدها الأيام

2 - إن الإسلام يجعل من المتمسكين به أرقى مجموعة بشرية في العلم والقوة والمال والحضارة

فكيف يتفق مع هذين الأصلين وجود أحكام في الفقه لا تصلح لهذا الزمان، وأحكام تجعل المسلمين دون الأمم الأخرى في مرافق الحياة؟ مثال الأولى أحكام البيع والشراء في فقه الشافعية مثلاً؛ فإن فيها ما يتعذر تطبيقه في التجارات الواسعة وما يخالف كثيراً من المتعارف عليه بين التجار، كأن يشتري التاجر المصري بضاعة من إنكلترا ويبيعها في سوريا من غير أن يتسلمها أو يراها، أو يشتري من المعمل أشياء لم تصنع بعد وتم العقد عليها. ومثال الثانية ما قام عليه الدليل الحسي من أن أمة متمدنة لا تستطيع اليوم الاستغناء عن المصارف (البنوك) ومعاملاتها وما قدر أن يقوم به بنك مصر من الأعمال العظيمة القائمة في الأساس على شيء من الربا. . .

أفنقول للتجار إن الإسلام يحول بينكم وبين اتباع الأسلوب السهل المعروف في التجارة ويعرقل أعمالكم؟ أو ندع أعمال البنوك مع ما هي عليه من اللزوم وما لها من الفوائد والمزايا؟ وكيف يكون التوفيق حينئذ بين هذه النتيجة التي تنتهي إليها وبين الأصلين الثابتين المتقدمين؟

أولا يصح القول بأن من أحكام الفقه ما هو مبني على أصل ثابت من كتاب أو سنة فهذا ما لا سبيل (فيما أعلم) إلى تبديله أو تغييره، ومنها ما هو مبني على عرف كان سائداً في عصر الفقهاء المجتهدين، وقد تغير العرف فيجب أن تتغير الأحكام المبنية عليه. أذكر أنه مر معنا عند درس (المجلّة) في كلية الحقوق أنه إذا باع الرجل دابة له واشترط على المشتري ألا يركبها في البلد مثلاً فالشرط لغو لا قيمة له، وقد بني هذا الحكم على اعتبار هذا الشرط ضاراً بالمشتري في حين أنه لا ينفع البائع، فألغوه على قاعدة (الضرر يزال). . . فإذا وجدنا فيه نفعاً للبائع كأن يكون البائع للسيارة سائقاً يشتغل بنقل الركاب على طريق معين، وأن يكون استعمال المشتري للسيارة على الطريق عينه مضراً به. . . فإنه يجب في هذه الحالة اعتبار هذا الشرط صحيحاً، فما هو قول علمائنا الأعلام؟

والربا؟ أليس الربا المحرم هو استغلال صاحب المال حاجة المستقرض وإرهاقه بالزيادة، وضم الزيادة إلى رأس المال عند عجزه عن الدفع (على طريقة الفائدة المركبة) حتى تستغرق الفائدة رأس المال أو تزيد، وأنه حرم لما ينشأ عنه من خراب للبيوت وتنازع بين الناس وتسرب البغضاء إلى النفوس؟ أو ليس هنالك فرق (عظيم) بين هذا الربا وبين معاملات المصارف. فأنت حين تعامل المصرف لا تستغل حاجته، ولا ترهقه بالفائدة بل هو الذي يعرضها عليك. فهو أشبه بشركة المضاربة ولا يشترط (فيما أظن) تقسيم الربح بالتساوي بين الشريكين، ولا مانع من أن يساهم المضارب ببعض المال. فإذا صح هذا أمكن أن نعد القائمين على أعمال البنك بمثابة الشريك المضارب، والمساهمين بمثابة صاحب المال، والخسارة تكون بالطبع على أصحاب رؤوس الأموال بنسبة أموالهم. بقي أن البنك لا يستعمل المال في التجارة ولكن يستثمره بطريق الربا أيضاً، وهي التي لا وجه لها عندي. فما هو قول علمائنا الأعلام؟

إن الإسلام إذا كان لكل زمان، فإنه يجب أن يكون لكل زمان فقهه، والفقه الذي يقرؤه الطلبة في الأزهر وغير الأزهر لم يوضع لزماننا، وإنما وضع لأزمان مضت. وأنا معجب أشد الإعجاب بالفقهاء المتقدمين، فإنهم لم يدرسوا وقائع أزمانهم ويضعوا لها

الأحكام فقط، وإنما فرضوا الفروض وبحثوا عن أحكامها. فأين فقهاؤنا الذين بحثوا في المسائل الفقهية الناشئة عن الراديو مثلاً وحكم سجود التلاوة عند سماع القارئ فيه، وحكم الاقتداء بالإمام الذي تسمع قراءته في الراديو والمسائل الناشئة عن وسائط النقل الحديثة والسفر بها.

والمسائل التي حدثت في العرف التجاري وغير ذلك مما تشعر بالحاجة إلى معرفة حكم الله فيه. على أنني أذكر هنا بإكبار بحث فضيلة الأستاذ الشيخ أحمد شاكر في الطلاق فإنه يعد مثلاً كاملاً في هذا الباب. فمتى يعمد العلماء إلى الكتابة في مشكلات المسائل على هذا النمط، ومتى يلغى من الأزهر الفقه الموضوع للقرن التاسع والعاشر ليحل محله فقه القرن الرابع عشر. مع العلم بأن منبع الاثنين الكتاب والسنة عماد الإسلام. هذا الدين المرن الصالح لكل زمان ومكان؟

هذا سؤال أوجهه إلى (المفكرين) لا الحافظين من علماء المسلمين!

(دمشق)

علي الطنطاوي

حول الروحيات والمعنويات في الإسلام

أستاذنا العزيز الزيات:

وبعد فقد أساء بعضهم فهم ما ذكرناه عن ابن عابدين ج 3 ص 215؛ ولذلك يجب ذكر ما قاله كاملاً: (قال السيوطي قال ابن عقيل الحنبلي جرت مسألة بين أبي علي بن الوليد المعتزلي وبين أبي يوسف القزويني في ذلك، فقال ابن الوليد: لا يمنع أن يجعل ذلك (يريد اللواط) من جملة اللذات في الجنة لزوال المفسدة لأنه إنما منع في الدنيا لما فيه من قطع النسل وكونه محلاً للأذى، وليس في الجنة ذلك، ولهذا أبيح شرب الخمر لما ليس فيه من السكر وغاية العربدة وزوال العقل. فلذلك لم يمنع من الالتذاذ بها. فقال أبو يوسف الميل إلى الذكور عاهة وهو قبيح في نفسه. . . ولهذا لم يبح في شريعة بخلاف الخمر، وهو مخرج الحدث، والجنة نزهت عن العاهات. فقال ابن الوليد: العاهة: هي التلويث بالأذى؛ فإذن لم يبق إلا مجرد الالتذاذ. . والظاهر أن المراد بالحرمة هنا القبح إطلاقاً لسم المسبب على السبب أي قبحها عقلي بمعنى أن يدرك بالعقل وإن لم يرد به الشرع كالظلم والكفر. لأن مذهبنا أنه لا يحرم بالعقل شيء أي لا يكون العقل حاكماً بحرمته، وإنما ذلك لله تعالى بل العقل مدرك لحسن بعض المأمورات وقبح بعض المنهيات. فيأتي الشرع حاكماً يوفق ذلك. فيأمر بالحسن وينهى عن القبيح، وعند المعتزلة يجب ما حسن عقلاً، ويحرم ما قبح، وإن لم يرد الشرع بوجوبه أو حرمته. فالعقل عندهم هو المثبت، وعندنا المثبت هو الشرع والعقل آلة لإدراك الحسن والقبيح قبل الشرع. وعند الأشاعرة لاحظ للعقل عبد الشرع بل العقل تابع للشرع فما أمر به الشرع يعلم العقل أنه حسن، وما نهى عنه يعلم أنه قبيح. . . فلا تكون اللواطة في الجنة على الصحيح لأنه تعالى استقبحها وسماها خبيثة والجنة منزهة عنها، وفي الأشباه حرمتها عقلية فلا وجود لها في الجنة، وقيل سمعية فتوجد. . .)

هذا ولقد ظن بعض القراء أن معنى وجود خلاف في الرأي فيما يتصل بوجود هذا الفعل في الجنة أو عدم وجوده، أن الشريعة الإسلامية، لم تنكر هذا الفعل لأنها لم تقرر الحد عنه، وفاتهم أن عدم الحد عنه لا لخفته بل للتغليظ حتى رأى الجمهور تكفير مستحلها، وأن بعضهم يرى حد الفاعل والإحراق بالنار، وهدم الجدار والتنكيس في محل مرتفع باتباع الأحجار والجلد والتعزير والسجن حتى الموت أو يتوب، ولو اعتاد هذا الفعل قتله الإمام سياسة.

هذا وقد قال لما بعض العلماء إن الذين يرون رأيننا في روحية اللذات في الجنة يجب تكفيرهم أو على الأقل رميهم بالضلال والعياذ بالله، لأن رأي الروحانية يتنافى في رأيهم مع أصل النصوص، والواقع أن هؤلاء يتجاهلون ما يجب أن يعرفوه من أن اللذة سواء أكانت حسية أم معنوية تتصل أكبر ما تتصل بالتفاعلات النفسية وتقرب كل القرب من الروح، فالسمع والبصر والشم واللمس والذوق حواس الإنسان الخمسة يمكن أن تضم إليها الحاسة الفنية التي يضمها بعض الكتاب وبذا نكاد نتفق في إعزاز الجزء الروحي في كل حاسة وإكبار شأنه وفهمه أنه أسمى جزئياتها. فأنت إذا رأيت منظراً جميلاً هل تستطيع أن تقدر لطربك الروحي من رؤية هذا المنظر أقل من تسعة

أعشار ما يشع عليك من سرور. ولقد كان جمال يوسف الصديق شاغلاً لأهل مصر عن الإحساس بألم الجوع، حتى أنهم كانوا إذا جاعوا (كما ذكر الغزالي في إحياء علوم الدين الجزء الرابع) نظروا إلى وجهه فشغلهم جماله عن الإحساس بألم الجوع، وحتى قطع النسوة أيديهن لاستهتارهن بملاحظة جماله حتى ما أحسسن بذلك كما قص لنا للقرآن الكريم. وكذلك يمكن القول عند ذكر الحاسات جميعاً. فليطمئن هؤلاء العلماء الذين أسرعوا فكفروا مع أن التكفير إثم عظيم لا يكفره إلا عفو من ظلموه ليطمئنوا لأنا نفهم أن الإنسان كما يمكنه أن يسمو بلذاته الحسية إلى حيث مرقاة الروح، يستطيع أن ينزل بها إلى حيث يريد من النزول. فعند سماعك لغناء تستطيع أن ترقى به وتستطيع أن تجعله ينزل بك، فإذا سمعت غناء من ذي صوت جميل لتقديس الله بالتفكر في جمال الحناجر التي خلقها فأنت رجل روح تتمتع بلذة السماع وهي لذة حسية وترتفع بها إلى جعلها ترقى بروحك وبنفسك، وأما إذا كنت تسمع صوتاً جميلاً من جميل وتريد بسماعك ومن حركات المغني تحريك شهواتك، فأنت نازل بلذتك الحسية إلى الحضيض، ولذا قرر السهروردي حل الغناء في الأولى وحرمته في الثانية

ثم ما قال هؤلاء العلماء في لذة النظر إلى وجه الله الكريم؛ وهي لذة روحية بحتة تفوق كل اللذات. . . الحق أنهم ظنوا بجهلهم لروح الإسلام وتعاليمه الصحيحة، أن حسية اللذات تمنع من روحانيتها، وفاتهم أن اللذة معنى لا يحس وأنها إذا نسبت لما ينتجها فليس هذا إنزالاً لها من عالمها إلى عالم المادة أو الحس. ولكن الذي نؤمن به كمسلمين صادقين أن في الجنة لذات روحية وحسية، وإنا كمؤمنين صادقين نرى أن لذات الجنة الحسية لذات راقية تسمو بالروح، إذ لا لغو في الجنة ولا تأثيم، وأن أكبر لذات الجنة التي سينعم بها المؤمنون روحية. هذه عقيدتنا التي يجب أن يؤمن بها كل مؤمن صادق.

محمود علي قراعة

فن منحط برغم ذلك

كتب الأستاذ أنور كامل في بريد العدد الماضي من الرسالة كلمة عن جماعة الفن والحرية بعد أن شعر أن الكلمة المنشورة في العدد الأسبق تحت عنوان الفن المنحط تمس الجماعة التي ينتمي إليها رغم أن الكاتب لم يشر بتاتاً إلى جماعة (الفن والحرية) وهذا التصرف من الأستاذ كامل له مغزاه. . . وقد أتيح لي أن أطلع على بعض ما كتبه ورسمه بعض المنتمين إلى تلك الجماعة وأرسلت بعضه لمحرر الرسالة، ولعله المعنى بالذات في تلك الكلمة التي أثارت الأستاذ كامل ودفعته إلى كتابة كلمته. . .

وإني أقول للأستاذ إن الفن الذي يبشر به ويروج له فن منحط رغم كل ما يقال فيه، وإن الجماعة التي تتسمى باسم الفن والحرية لا تفهم الحرية إلا على أنها فوضى لا ضابط لها

ولا قانون - كما أن مسايرة الفن الأوربي في تخبطاته الأخيرة ليست حرية بحال من الأحوال. بل هي عبودية عمياء، وهذا هو ما تفعله جماعة الفن والحرية!! فليشرح لنا الأستاذ على أي أسس تقوم آراء جماعته - وإني على استعداد تام لمناقشة كل ما سيدلي به الأستاذ في الدفاع عن آراء جماعته. ولعل صفحات الرسالة تتسع لكل ما سيكتب في هذا الموضوع والكسب للفن على كل حال.

نصري عطا الله سوس

للحقيقة والتاريخ: بيان وتصحيح

لما قرأت ما نشرته الرسالة منذ أعداد من نبأ (المجلة الأدبية) التي ستصدر في دمشق، والمحاضرة التي ألقيت في بعض النوادي عن (التأليف والمؤلفين) وأحاديث (الراديو) عن شعراء دمشق، ورأيت ذلك كله مجتمعاً في عدد واحد، والى جنبه ذكر كتاب نشر حديثاً ووصفه بأنه (آية في التحقيق والتدقيق)، ظننت أن الله قد (بعث) الحركة الأدبية في الشام، واستخفى الطرب حتى حدا بي إلى الإسراع بالعودة إلى الديار، لأشارك في جَنْي بواكير هذه الثمرة الطيبة. . . وعدت فإذا المجلة (مشروع) من هذه المشروعات التي يطيب لبعض الشيوخ المتقاعدين وبعض الشبان المتبطلين الكلام فيها ليوهموا أنفسهم أنهم (يشتغلون) ولم يتحقق منه إلا اجتماع دعا إليه أحد

الأدباء، وخبر لا أدري من بعث به إلى الرسالة، ذكر فيه أشخاص متماثلون متقاربون في شهاداتهم ومنازلهم زملاء في التدريس، فرفع بعضهم إلى المنزلة العليا وقيل عن بعض إنهم (متأدبون ناشئون) فحقدوا على الرسالة، والرسالة لا ذنب لها. . . وإذا المحاضرة التي ألقيت ونشرت كاملة في صدر (الهلال) تشتمل على دعوة (قوية) إلى ترك الثناء بالباطل، والى النقد الصريح. ونحن اتباعاً لهذه الدعوة، وامتثالاً لأمر صاحبها، نعلن أن المحاضرة أرقى بقليل من كتاب (الوسيط) الذي يدرس للطلاب، وأنها خالية من الإحاطة بالموضوع، ومن التحقيق العلمي، ومن (الشيء الجديد)، وأنها عبارة عن نتف من هنا ونتف من هناك، جمعت بأسلوب خطابي يثب فيه المؤلف من عصر إلى عصر، فيذكر أشياء لا ندري لماذا يذكرها، ويهمل أشياء لا ندري فيم أهملها، ثم يختمها بكلام طويل في وصف المؤلف الذي (يريده). وأما

أحاديث الراديو، فلم تلق بعد، وأظن أن هذا الشاب العامل المد سيكون أدنى إلى التوفيق من سادتنا الكهول الذين أخذوا شهرة من الدهر فناموا عليها، واطمأنوا اليها، وأهملوا الإنتاج القيم، وإذا الحركة الأدبية (لا تزال) ميتة أو مغشياً عليها قد صرعتها السياسة وأحداثها، فأحببت أن أنشر هذا البيان في الرسالة لا بغضاً لدمشق فما يدعي محبتها أكثر مني إلا كاذب، ولكن حفزاً للهمم وإظهاراً للحقيقة، ولئلا يسجل في الرسالة غير الحق. وأنا أتمنى والله أن يكون الأمر غير ما أقول ولو عدت كاذباً. . .

ع. ط.

فرقة تمثيلية من المشايخ

شهدنا في دار الأستاذ علي الطنطاوي اجتماعاً تمهيدياً لتأسيس فرقة تمثيلية تضم كبار المشايخ المشتغلين بالعلم والأدب؛ الغاية منها إرشاد الناس إلى المنهج الأخلاقي والعمل للإصلاح عن طريق التمثيل. وقد حضر الاجتماع الأستاذ الكبير الشيخ عبد القادر المبارك والأستاذ الشيخ عبد القادر الطنطاوي. وقد تبرع أحد الوجهاء الذين حضروا الاجتماع بأرض واسعة يبنى فيها مسرح عظيم، وبالنفقات اللازمة للتمثيل. وسيقوم حضرات الأساتذة بالتمثيل فعلاً، في الرواية الأولى التي يعدها الآن الأستاذ الشيخ علي الطنطاوي.

(دمشق)

(ص. م)

المرحوم فليكس فارس

ستقام حفلة تأبين كبرى للمرحوم الأستاذ فليكس فارس بدار المحفل الأكبر الإقليمي بشارع يونج رقم 2 بالإسكندرية وذلك في تمام الساعة السابعة والنصف من مساء الاثنين 24 يوليو سنة 1939 والدعوة عامة.

عائشة والسياسة

وقع في هذا المقال المنشور بالعدد (314) من (الرسالة) سهو، وهو أن الحاشية (الأغاني 5 - 130 طبع دار الكتب) موضعها آخر العمود الثاني (ص 1350) لأنها تعين مصدر الحادثة المذكور ثمة، ولا علاقة لها بالعنوان.

رسالة النقد

سمو المعنى في سمو الذات

أو أشعة من حياة الحسين

تأليف الأستاذ عبد الله العلايلي

للأستاذ علي الطنطاوي

تفضل الأستاذ عبد الله العلايلي فأهدي إليّ كتابه الذي سماه (سمو المعنى في سمو الذات)، وجعله الحلقة الأولى من سيرة الحسين بن علي بن أبي طالب، فطالعت أكثره والقلم في يدي فكنت أكتب بعض التعليقات على ما أنكر منه فاجتمع لي في نقده مسائل (مهمة جداً) أحببت أن أنشرها، وما أشك في أن الأستاذ يتقبلها بقبول حسن، فيقرّها إذا رآها حقاً، ويناقشني فيها إذا رآها غير ذلك. ولست أعرض في هذا النقد للخلاف بين السنة والشيعة، أو أثير غبار النزاع على القضايا المذهبية، وإنما أنقده من الناحية التاريخية العلمية، للوصول إلى الحقيقة التي أنشأ الأستاذ العلايلي كتابه للبحث عنها

والملاحظة العامة على هذا الكتاب هو أنه يدرس خلافاً بين فئتين، فيسبغ على إحداهما ثوب التقديس والإجلال، ويكتب عنها بروح إكبار واحترام، وينزل بالثانية إلى حيث يتمكن من النزول بها، ويلصق بها التهم والعيوب، ويتكلم عنها بلغة لا تخلو أحياناً من كلمات وعبارات لا يليق بالمؤرخ المنصف المهذب أن يقولها. وقد تكون هذه التهم صادرة عن (الخيال. . .) وحده، ليس لها سند من رواية أو نص؛ وقد يعترف بذلك المؤلف، ولكنه لا يمتنع عن ذكرها. كقوله وهو يتكلم عن الأمويين صفحة (33): (الحزب الأموي كاد للنبي ولدعوته، وعرفنا كيف أسلم زعيم الأموية أبو سفيان، وعرفنا كيف لم يبق للأمويين أي مقام اعتباري في محيط الإسلام الذي كان ظهوره فوزاً وغلبة للهاشميين. . . ووجدوا في ولاية يزيد بن أبي سفيان وولاية معاوية من بعده فرصة سانحة للقيام بعمل خطير، ففكروا في اغتيال عمر بن الخطاب (!) وكذلك اغتالوه بيد فارسي. . .) إلى أن قال: (وإنما أقول في جملة ما أودّ إثباته إن قتل عمر لم يكن وليد فكرة فارسية مدبرة، وإنما كان فكرة موضعية خالصة وأموية بحتة. هذا رأيي وعسى أن أجد (انتبه) في منثور الروايات والأخبار ما يوضح الواقع!)

فإذا كان المؤلف يستند في تاريخ الماضي إلى (رأيه. . .) ويضع النتيجة قبل أن يجد المقدمات، أي أنه إذا كان يرتجل التاريخ ارتجالاً فليس عجباً أن يكون في الكتاب تُقول عن المسعودى في الطعن على بني أمية والمسعودى لا ينقل عنه (وحده) في هذا الباب كما هو معروف، وأن يكون فيه نقول عن مثل الأب لامنس عدوّ العرب والإسلام، المتعصب الذي يضعفّه كثير من المستشرقين ولا يرون الأخذ عنه والمؤلف يقول في صفحة (13): (والحق أنا لا نزال من فهم عصر الحسين على غموض وخفاء، وذلك لأن الأقلام التي تناولته منذ أول عهد العرب بكتابة التاريخ لم تكن بريئة على إطلاق القول، بل دارت عل خدمة أغراض شتى بين النزعة المذهبية، والزلفى من السلطة الغالبة). ثم يأتي في صفحة (49) فيقول في عنوان مكتوب بحروف كبيرة: (أسباب فشل سياسة علي عليه السلام ونجاح السياسة المعادية) ويصف الأمويين بأنهم أداة إفساد وفي طبيعتهم بعث الحياة الجاهلية صفحة (28). ويقول في صفحة (42): (علي بن أبي طالب مظهر فذ من مظاهر التكامل الإنساني، ونموذج بارع من نماذج التفوق البشري، ومثال لبلوغ الاستعداد الكامن في النسم الخ) في صفحة كاملة كلها خطابيات ومبالغات على هذا النمط. وحينما يتكلم عن الخلفاء الأربعة يتكلم عنهم ص (12) بما نصه: (الخليفة الأول والثاني والثالث ثم علي عليه السلام)

ولنأت الآن إلى عرض نماذج من المسائل التي أنكرتها في الكتاب بقصد التمثيل لا الاستقصاء

1 - يقرر في صفحة (10) أن نظام الحكم في عهد الأمويين (لم يكن إلا ما نسميه في لغة العصر بالأحكام العرفية، هذا النظام الذي يهدر الدماء، ويرفع التعارف على المنطق القانوني (كذا) ويهدد كل امرئ في وجوده. وفي هذا العصر إذا كان يتخذ في ظروف استثنائية ولحالات خاصة فقد كان في العهد الأموي هو النظام السائد) وكان هذا في رأيه (وضعاً احتكم في كل التاريخ الأموي وصبغه بصبغة وبيلة، فتنافى مع المبادئ الدينية والمدنية) وكل ما أورد المؤلف من الأدلة على هذه الدعوى التي لا يدعيها أشد الغلاة من أعداء التاريخ الإسلامي وخصومه، كل أدلته أنه أشار إلى (المرسوم الملكي أو المذكرة الإيضاحية (كذا) الصادرة في بيان الأسباب التي بررت قتل أبي جعفر الشلمغاني) وذكر أنها في الجزء الأول ص (238) من معجم الأدباء - وهكذا ثبتت هذه التهمة الخطيرة، وسوَّدت صفحة من أنصع صفحات التاريخ العربي، وانتهى الأمر بسلام، وقيل الحمد لله رب العالمين.

ورحمة الله على العدل أيام بني أمية، ورحمة الله على التحقيق التاريخي في أيامنا هذه

2 - يقرر في ص (12) أن معاوية اقتبس النظام البيزنطي (وانفعل به إلى أبعد حد. فانتقل طفرة واحدة إلى نظام يبعد كثيراً عن النظام النبوي من كل الأطراف) إلى أن قال: (إلى حد نتمكن معه من القول بأنها حالت دون أزكى ثمار الإسلام، وحالت دون

حكومة القرآن، ومسخت تعاليم النبي، وشوهت تقاليد حكومة الخلفاء). اهو الذي نفهمه أن موضوع اقتباس الأمويين النظام البيزنطي يحتاج إلى درس شامل لكلا النظامين، وأدلة ثابتة، ولا يمكن شرحه فيما دون الرسالة الكبيرة أو الكتاب المستقل. أما مجرد الادعاء وإرسال النظريات فلا يقدم في التاريخ ولا يؤخر ولا يكون له قيمة علمية

3 - ذكر في صفحة (17) أن من الأسباب (التي يظن أنها مهدت إلى عمل الاضطراب (كذا) وإثارة الخواطر وقدمت مادة الانقلاب الكبير، الاختلاف على البيعة يوم السقيفة وامتناع فاطمة منها وآل هاشم عموماً) وذكر أن هذا الخلاف (كان له صدى عكسي - كذا - ولد عند البعيدين شيئاً من الشعور بالاستهانة وجرأهم على الانتقاض والخروج والتمرد). وجعل المؤلف هذا الخلاف من الأسباب المؤدية إلى ارتداد العرب، مع أن انتخاب الرئيس في أي بلد من البلدان الجمهورية يتقدمه في عصرنا نزاع وخلاف لا يقاس به اختلاف أهل السقيفة، ولا يؤدي إلى خروج ولا تمرد. ثم إن خلافة أبي بكر كانت إجماعية فلم يشذ عن بيعته إلا رجل واحد هو سعد بن عبادة. وتأخر علي ومن معه لأسباب أخرى ذكروا أن منها اشتغاله بكتابة المصحف. وعلى كل فقد بايع أخيراً. أما ارتداد من ارتد فقد كانت له أسباب معروفة (غير ما ذكر)

4 - ويذكر في صفحة (23) أن من هذه الأسباب: (عدم عناية حكومة الخلفاء ببث الدعوة وغرس التربية الدينية) وهذا كلام لا يقبله أحد، لأن المؤلف لم يقم عليه الدليل العلمي أولاً، ولأن هذا الادعاء طعنة موجهة إلى صميم التاريخ الإسلامي. وإذا كان أبو بكر وعمر
وعثمان وعلي لم يعنوا ببث الدعوة وغرس التربية الدينية، فمن ذا الذي عني بها؟ ومن ذا الذي بث الدعوة إلى الدين حتى شملت مشارق الأرض ومغاربها؟ ومن غرس التربية الدينية حتى في صدور الفرس والروم وأهل خراسان وأرمينية حتى صاروا مسلمين يشتغلون بدرس الدين ويتبعون هديه، وحتى نشأ فيهم علماء فحول وأئمة هادون؟
أتردّ هذه الحقائق كلها بتسعة أسطر جاء بها المؤلف، خاليةً من أي دليل: من نصٍّ ثابت أو استنتاج منطقي؟

5 - وذكر المؤلف أن (مسحة الحكم إلى عصر علي لم تزل خاضعة للنظامات القَبلية، وأن حكومة (تقوم على نظم البداوة لا يرجى لها بقاء، لأنه ليس بين عناصرها وحدة حقيقية) والرد على هذا الكلام من وجهين: أولهما أن الإسلام قد محا عصبية القبيلة ودعا إلى الأخوة الإسلامية، وفهم ذلك الصحابة ونشأ عنه وحدة عربية استطاعت أن تعمل أكبر عمل في سبيل الدعوة إلى الله. وثانيهما أنّ هذه النزعة القبلية إذا كانت قد ظهرت بعض الظهور، فإنما ظهرت أيام علي. واستثناء المؤلف عصر علي من الحكم الذي أطلقه وعمّمه قلبٌ للحقيقة وتبديل للواقع

6 - ويقول في صفحة (26): (إن للأنصار حقاً أكيداً وشبهة قوية في السلطة على أنهم فهموا في آخر الأمر أنهم أنصار الدين وأنصار محمد وأنصار بيته (كذا) ولذا ظل ميلهم إلى الداعي القائم من آل البيت). . . وقرّر في حاشية الصفحة أن الأنصار: (يعتبرون وصول بني أمية إلى الحكم إنما هو انتصار لأعدائهم القدامى من مشركي مكة). ودليل هذا كله أن (فْلُوتِنْ) ذكره في كتاب (السيادة العربية). فانظر هذا التحقيق!

7 - ويقرر في صفحة (27) أن الأمويين أرادوا (أن يخضدوا من شوكة المدنية ويقضوا على الطبقة الدينية المحترمة) وأنهم (استأجروا طوائف من الشعراء والمغنين والمخنثين من بينهم عمر بن أبي ربيعة لأجل أن يمسحوا عاصمتي الدين: مكة والمدينة بمسحة لا تليق بهما. . .) إلى أن قال: (ويتمادى بنا الظن إلى أن المروانيين فكروا بصرف الناس عن المقدسات الإسلامية التي تنزل من الإسلام منزلة الشعيرة، بإنشاء المسجد الأموي بأبهته العظيمة بدمشق. ولقد ظن بعض المستشرقين (كالأب لامنس اليسوعي) بأن هذه نية عبد الملك بن مروان بأناقته في تشييد المسجد الأقصى. ونحن وإن كنا نظن ونوافق من
يظن نرسل ما نقول في تحفظ حتى تتناصب عليه الشواهد والروايات) آه وما دام هذا كله ظناً من المؤلف، وما دام قد أقر بذلك فنحن نعلن أن الظن لا يغني من الحق شيئاً، وأن التاريخ لا يُكتب على هذا الشكل الذي عمد إليه المؤلف، وإنما يكتب التاريخ

رجل خالي النفس من الهوى لا يبغض ولا يحب؛ وإنما يدرس المقدمات ويسير فيها بهدى المنطق وينتهي حيث تنتهي به، وما عدا هذا وجاوزه لم يكن تاريخاً ولا شبه تاريخ
ومن أعجب ما يأتي به هذا المؤلف الذي يرتجل التاريخ وينشئ من خياله حوادث - 8
لم تكن - أنه يجعل في صفحة (66) نشأة يزيد بن معاوية، نشأة مسيحية! ويستدل على ذلك بأن أخواله بني كلب كانوا يدينون قبل الإسلام بالمسيحية! والى أنه يعرف طرفاً من الهندسة!! والى أن يزيد أمر الأخطل (لمسألة خاصة معروفة) بهجاء الأنصار.
ويقول في صفحة (68) بعد سرد هذه الأدلة المضحكة: (إذن كان يقيناً أو يشبه اليقين أن تربية يزيد لم تكن إسلامية خالصة؛ أو بعبارة أخرى كانت مسيحية خالصة، فلم يبق ما يستغرب معه أن يكون مستهتراً مستخفاً بما عليه الجماعة الإسلامية لا يحسب لتقاليدها وعاداتها أي حساب ولا يقيم له وزناً، بل الذي يستغرب أن يكون على غير ذلك)
هذا قليل جداً من كثير جداً، مما في هذا الكتاب العجيب من المسائل.
أما لغة الكتاب فلا تخلو مواضع منها كثيرة من ضعف في التأليف، أو استعمال للكلمة على غير وجهها أو في غير معناها. قال المؤلف في الصفحة (9): (ثم هذه الجوانب التي نلمح إليها ليس من السهل استيعابها على وجه الدقة إلا إذا انتشرنا على مسائل الخ. . .) فافتتح الكلام بقوله: (ثم هذه الجوانب) وكان الأولى أن يقال: (ثم إن هذه الجوانب)، واستعمل كلمة (انتشرنا على) بمعنى (اطلعنا على) وليس لها وجه. وقوله في ص (11): (وكذا يبدو الدرس متصعباً غامضاً حتى نقف من تاريخ الحسين موقف الحيرة المطلقة لشدة خفاء الجانب التعليلي (؟) في كل مراحل حياته التي كانت أشبه بالبعثرات). وقليل من يفهم ما المراد بالجانب التعليلي، أو يقر كلمة (البعثرات) في هذا الموضع، ولذلك أمثال في الكتاب
هذا وأنا أشكر للمؤلف الفاضل هديته، وأرجو أن يحمل نقدي على المحمل السهل، وأن يثق بأني لولا احترامي إياه، ما نقدته ولا عرضت لكتابه
علي الطنطاوي
العدد 317 - بتاريخ: 31 - 07 - 1939
لجنة التقدير
للأستاذ عباس محمود العقاد
ثم تقررت ضريبة الجمال
وجاء دور اللجان التي تقدر الجمال بالخبرة والنظرة الصادقة، وتقدر الضريبة عليه بالعدل والقسطاس المستقيم
فمن هم الخبيرون بالجمال؟ وممن تتألف اللجنة أو اللجان التي تفرض (مقداره) ثم تفرض مقدار الضريبة الواجبة عليه؟
زعموا أنهم ندبوا لذلك لجنة من فلاسفة (الاسطاطيقا) أو فلسفة الجمال كما عربها الأستاذ الأكبر أحمد لطفي السيد باشا
واعتقدوا أن هؤلاء الفلاسفة هم أحق الناس بعرفان المعاني الجميلة والصور الجميلة، كما أنهم أحق الناس باستخلاص كنه الجمال في جوهر الجواهر ولب اللباب
قالوا: فمضت برهة قبل أن يتفق هؤلاء الفلاسفة الأخيار على التعريف المختار
هل الجمال هو الحرية؟ وهل الجمال هو التنسيق والنظام؟ وهل الجمال هو غلبة الفكرة على المادة؟ وهل الجمال في تمثيل الغريزة الجنسية؟ وهل الجمال في تمثيل النزعة الكمالية؟ وهل الجمال عميق عمق البشرة، أو هو عميق عمق الروح وعمق أسرار الغيوب؟
وجيء إلى الحكومة بمحاضر الجلسات فإذا هي ألغاز ومعميات، وشعاب ومنعرجات، ومتاهة تلتقي فيها الخواتيم والبدايات، وتنقضي الأعوام قبل أن تسعف الخزانة ببضعة دريهمات
وزعموا أن الحكومة تركت هذه اللجنة توغل في متاهاتها وندبت للأمر لجنة أخرى من رجال المسارح والمراقص ومدربي اللاعبين واللاعبات والراقصين والراقصات
ثم جربتها في مدينة واحدة، وانتظرتها برهة أخرى فإذا هي تعود إليها بأسماء لا تتجاوز العشرات، وأرقام لا تتعدى المئات، لأنها قضت برهتها في قياس الوجوه والأجياد، وقياس الأنوف والآذان، وقياس الصدور والظهور، وقياس الجذوع والأطراف، فما

استحسنته من هنا عابته من هناك، وما زادته من الساعد نقصته من الساق، وما أضافته عادت فحذفته،
وما أوشك أن يؤول إلى ثروة تراجع فأوشك أن يؤول إلى إفلاس!
وبلغت الشكايات إلى مسامع الحكومة قبل أن يبلغ التقرير إلى مراجعها، ثم نظرت في التقرير بعد انتهائه إليها فإذا هو اضطراب في الأهواء، واضطراب في الآراء، واضطراب في الأرقام والأسماء، فقالت: عليه وعلى كاتبيه العفاء!
زعموا هذا وزعموا أن أديباً كيِّساً نصح إلى الحكومة جهد نصيحته فأشار عليها بالتعويل في أمر الضريبة على أناس غير الفلاسفة وغير خبراء الفنون
ماذا عليها مثلاً لو عمدت إلى طائفة من هواة السهر، وعشاق الحسان في باحات السمر، فناطت بهم تقدير الجمال، وتقدير جباية الأموال؟
هؤلاء أناس من أوساط الناس ليسوا بأصحاب إمعان في الحقائق والأسرار، ولا بأصحاب تصعيب في القياس والاختبار؛ وهم مع هذا يعرفون النساء، ويحبون الشمائل الحسناء، فلجنة منهم هي أصلح الأكفاء لتقويم الجمال كما يقومه عامة الرجال والنساء
وإن الحكومة لتهم بالموافقة والتصديق، إذا بصديق يأخذ عليها الطريق، وينهاها عن هذا الفريق، لأنه أعجز فريق عن التوفيق في هذا العمل الدقيق!
سألوه: لماذا؟
فأجابهم: لهذا. . .
وهذا عنده هو دعواه أن رواد المراقص والملاعب لا يحبون الحسناء لأنها حسناء، ولكنهم يحبونها لأنهم يحبون المغالبة والرهان، والمفاخرة والشنآن. . . فشأن المرأة عندهم كشأن كل علامة يتحقق بها الغلب والظهور، وما يبذلون من مال في هذا المجال فإنما يبذلونه بذل المراهن أو بذل المقامر أو بذل المتحدي في أمر من أمور العناد والإصرار، ولا يبذلونه تقويماً للحسن ولا للمتعة ولا لإرضاء الذوق السليم والفن الجميل
ويتفق كثيراً أن تغلب خلاعة المرأة جمالها في هذا القمار أو هذا السباق
ويتفق كثيراً أن يغلب الكيد الخلاعة، وأن تبقى بعد الخلاعة والكيد وشهوة الفوز والغلبة حصة صغيرة للجمال الصحيح
حيرك الله يا جمال كما أنت حيرة الناظرين والباحثين والمشترعين والمحصلين!
إذن لا ينفع الفلاسفة ولا ينفع خبراء الفنون، ولا ينفع عشاق الحسان أو غير الحسان. . .
فمن الذين ينفعون؟ ومن الذين يقدرون؟ وكيف يقدرون ويحصلون؟
رأي أخير، فلعله ليس بفطير
قالوا: نعهد في أمر التقدير والتحصيل إلى لجان من عامة خلق الله، لا هم بأصحاب فلسفة ولا هم بأصحاب فن ولا هم بأصحاب سهر ومجون
بل زيد وعمر وبكر وخالد وفلان من جملة بني الإنسان
وجمعوا اللجان من عامة السكان
فعادوا قليلاً وهم بين مكسور ومجبور وولهان وغضبان
عند البيت الأول قال شيخ من ذوي الوقار بين الأعضاء: مائة دينار لا تنقص درهماً واحداً على هذه الحسناء
قال فتى أنيق: وأين هي تلك الحسناء؟
قال الشيخ: تلك التي تراها
قال الفتى: أتلك السمينة البدينة التي تشبه الغرارة؟
فما أتمها حتى سقط تحت أربعة أو خمسة من الضاربين: أحدهم الشيخ والآخرون أو الآخرات، ما شئت من سامعين وسامعات
وفي لجنة أخرى تغير الاقتراح فكانت الضريبة الراجحة من نصيب النحيفة العجفاء، فلم تتفق اللجنتان في غير الضرب والتجبيه والإيذاء
وكانت اللجنة من اللجان تشتمل على الحضري والقروي والشيخ والشاب والجاهل والمتعلم والزوج والأعزب ومن يعرف نساء الحي ومن ليست له معرفة بهن ولا قرابة. فإذا أُخذت الآراء، فهناك ابتداء ولا انتهاء، ومتهمون ولا أبرياء، ومغرضون ولا نزهاء، في عرف جميع الرجال وجميع النساء

وكثرت الرشوة، وعمت الوشاية، واستفاضت الأقاويل، وتبدلت اللجان، فما كان من أهل قرية فلينقل إلى غيرها لدفع المظنة ومنع الشبهة، وهي لا تمتنع ولا تندفع بحال قال كاتب هذه السطور: فلما علمت بهذه الورطة وعلمت أنني جنيتها وأوقعت من أوقعت فيها علمت كذلك أنني مطالب (بالتخليص) كما قد تبرعت بالتوريط، وأنني فتحت باباً ولا مناص له من إغلاق، وبدأت أمراً ولا بد له من ختام

قلت لمن سمع ما قلت: إياكم واللجان، وإياكم والتقدير، واجعلوها كما هي في الحقيقة ضريبة فذة بين ضرائب العصور، فلا يقدرها مقدر ولا يجبيها جاب ولا يسأل عنها سائل، وإنما يترك الرأي فيها لمن يبذل بذله ويسوّم تسويمه، وما على الحكومة إلا أن تعلن بالمذياع وبالصحف وبالنداء في أرجاء البلاد أسماء كل مائة راجحات في كل يوم من الأيام، ولا عليها من نشر الصور والأوصاف إلا أن يشاء ذلك من يشاء

وسنرى كيف تمتلئ الخزانة، وينقلب معنى الخيانة إلى إفراط في الأمانة، فيؤديها الناس أضعافاً مضاعفات، ويبذلونها مرات بعد مرات، كلما فاتهم الإعلان مرة فاستدركوا ما فات!

عباس محمود العقاد

حول كتاب:

مستقبل الثقافة في مصر

نظرة انتقادية عامة

للأستاذ أبي خلدون ساطع الحصري بك

- 2 -

وأما مآخذ المقدمات والبراهين التي بنى عليها مؤلف الكتاب (الحكم) الذي ذكرناه آنفاً، فهي كثيرة ومتنوعة؛ سأكتفي بذكر ثلاثة منها، لإعطاء فكرة عامة عنها:

1 - عندما يسأل المؤلف: (أمصر من الشرق أم من الغرب؟) يوضح قصده من هذا السؤال بقوله: (أنا لا أريد بالطبع الشرق الجغرافي والغرب الجغرافي، وإنما أريد الشرق الثقافي والغرب الثقافي) ثم يعقب قوله هذا بالعبارات التالية:

(فقد يظهر أن في الأرض نوعين من الثقافة يختلفان أشد الاختلاف، ويتصل بينهما صراع بغيض، ولا يلقى كل منهما صاحبه إلا محارباً أو متهيئاً للحرب: أحد هذين النوعين هذا الذي نجده في أوروبا منذ العصور القديمة، والآخر هذا الذي نجده في أقصى الشرق منذ العصور القديمة أيضاً. . .) (ص: 7)

يصعب عليَّ جداً أن أوافق المؤلف على ما جاء في عباراته هذه: لا أدري ما هي الثقافة التي كانت موجودة في أوربا منذ القرون القديمة؟ وما هو الصراع البغيض الذي اتصل بين هذه الثقافة وثقافة الشرق الأقصى المخالفة لها؟ ومتى وكيف حدث هذا الصراع، وبأي شكل انتهى. ما هي الحروب التي حدثت بين هاتين الثقافتين، كلما التقتا؟ ما هي تواريخ التقاء هاتين الثقافتين المتخاصمتين؟ وما هي تفاصيل الحروب التي نشبت بينهما كلما حدث هذا الالتقاء؟

إن كل ما أعرفه عن التاريخ بوجه عام، وتاريخ الحضارة، وتاريخ الفلسفة وتاريخ العلوم بوجه خاص. . . لا يساعدني (مع الأسف الشديد) على إعطاء أجوبة مثبتة على هذه الأسئلة. . . وبعكس ذلك، كل ما أعرفه في هذا المضمار، يحملني على القول بخلاف ذلك تماماً. . . كل ما أعرفه في هذا المضمار يحملني على القول بأن الصراع الذي حدث بين الثقافات والحضارات التي نشأت وترعرعت حول بحر الروم نفسه، كان أشد وأعنف وأطول من الخصام الذي حدث بين هذه الثقافات والثقافات الهندية والصينية بدرجات كبيرة. . .

مع هذا أتساءل حائراً: ما الفائدة من هذه الأبحاث في هذا المقام؟ ما شأن هذه القضية بشرقية مصر أو غربيتها؟ وهل من علاقة منطقية بين هذه القضية وبين مسألة وجود أو عدم وجود فروق جوهرية بين العقل المصري والعقل الأوربي؟

يتساءل المؤلف في هذا المقام:

- أيهما أيسر على العقل المصري: أن يفهم الرجل الصيني أو الياباني، أو أن يفهم الرجل الفرنسي أو الإنكليزي؟

(هذه هي المسألة التي لا بد من توضيحها وتجليتها قبل أن نفكر في الأسس التي

(ص7) (ينبغي أن نقيم عليها ما ينبغي لنا من الثقافة والتعليم؟
وهل من مفكر يقول - في مصر أو في غير مصر - بوجوب إقامة الثقافة والتعليم على أسس ثقافة الصين أو اليابان؟
إنني أعتقد أن هذه الأبحاث كلها من الأمور الاستطرادية التي لا ضرورة لها ولا فائدة منها: فلا الاتفاق في أمرها يكون سبباً كافياً لقبول الحكم المتعلق بعدم وجود فرق جوهري بين العقل المصري والعقل الأوربي، ولا الاختلاف في شأنها يكون سبباً مبرراً لرفض ذلك الحكم
كما أن الاتفاق أو الاختلاف عليها لا يستلزم الاتفاق أو الاختلاف في تثبيت الأسس التي يجب أن تقام عليها الثقافة والتعليم، في مصر وفي سائر البلاد العربية
2 - قبل أن ينتهي المؤلف من مناقشة قضية (الشرق والغرب) يتطرق إلى مسألة أخرى، فيثير قضية (تأثير وحدة الدين ووحدة اللغة في تكوين الدول) إنه يقول في هذا الصدد ما يلي:
من المحقق أن تطور الحياة الإنسانية قضى منذ عهد بعيد بأن وحدة الدين ووحدة) (الصفحة 16) (. . .اللغة، لا تصلحان أساساً للوحدة السياسية، ولا قواماً لتكوين الدول فقد تخففت أوربا من أعباء القرون الوسطى، وأقامت سياستها على المنافع الزمانية،) لا
على الوحدة المسيحية، ولا على تقارب اللغات والأجناس. . .) (الصفحة 18)
إن هذه الآراء تستوقف النظر، وتستوجب المناقشة في عدة وجوه:
أولاً - يستعمل المؤلف في الفقرة الأولى تعبير (وحدة اللغة)، وفي الفقرة الثانية تعبير (تقارب اللغات). ولا أراني في حاجة إلى الإيضاح بأن الفرق بين مفهومي التعبيرين المذكورين كبير جداً
ثانياً - يسوي المؤلف - في كلماته هذه - بين وحدة الدين ووحدة اللغة في وجهة التأثير السياسي؛ ويدعي أن تأثيرهما في السياسة كان من خصائص القرون الوسطى، وأن أوربا تخلصت من تأثير هذين العاملين منذ عهد بعيد. . .
إنني أعتقد أن كل ذلك مخالف لحقائق التاريخ وقوانين الاجتماع مخالفة صارخة: فإن عمل وحدة اللغة في الحياة الاجتماعية والحوادث التاريخية، يختلف عن عمل وحدة الدين اختلافاً كلياً: يذكر التاريخ - بين حوادث القرون الوسطى والقرون التي تلتها - أمثلة كثيرة لعمل الدين في السياسة؛ كما يسجل وقائع عديدة تظهر تأثيرات مبدأ (حقوق الملوك) في تكوين الدول وتوحيدها؛ ويذكر أمثلة كثيرة لانضمام بعض الأقطار إلى أخرى، بسبب وقائع التزاوج والتوارث التي حدثت بين الأسر المالكة. ولكنه لا يذكر - بين حوادث تلك القرون - مثالاً واحداً عن تكوين دولة على أساس (وحدة اللغة)
إن وحدة اللغة لم تصبح من القوى الفعالة في تكوين الدول وتوجيه السياسات إلا في القرن الأخير، وإلا بعد أن فقدت (وحدة الدين) قوتها وتأثيرها في هذا المضمار. . . كما أن تأثير (وحدة اللغة) في السياسة لم ينته بانتهاء الفرق المذكور، بل أزداد شدة في القرن الذي نعيش فيه، وهو لا يزال مستمراً وشديداً. . .
ولهذه الأسباب أقول: إن قياس (وحدة اللغة) على (وحدة الدين) في هذا المضمار، والادعاء أنها فقدت تأثيرها السياسي وعملها التكويني منذ عهد بعيد. . . لا يتفق مع حقائق التاريخ، بوجه من الوجوه. . .
يقول المؤلف إثباتاً لمدعاه: إن السياسة شيء والدين شيء آخر. إني أوافقه على قوله هذا، ومع هذا أستغرب كيف يسوغ لنفسه أن يحشر اللغة مع الدين في الفقرات التي تلي هذا الكلام! فلنقل ولنصح مع المؤلف: إن السياسة شيء والدين شيء آخر، ولكننا هل نستطيع
أن نقول: إن السياسة شيء واللغة شيء آخر؟ لا شك في أننا نستطيع أن نقول للناس: ليحتفظ كل منكم بمعتقده الديني لنفسه؛ ولكن هل نستطيع أن نقول لهم: ليحتفظ كل منكم بلغته لنفسه؟
يقول المؤلف: إن أوربا أقامت سياستها على المنافع الزمانية؛ فهل يستطيع أن يدعي أن اللغة لا تدخل في نطاق المنافع الزمانية؟ إذا شك في ذلك رجوت منه أن يتصور نفسه - لحظة واحدة - فرداً في رعايا مملكة أجنبية، لا يعرف شيئاً عن لغتها الرسمية؛ ويستعرض أنواع المشاكل التي يقع فيها في كل خطوة من خطوات حياته اليومية؛

فليقل عندئذ هل اللغة خارجة عن نطاق الأمور الزمانية؟
لننعم النظر في سياسة الدول التي قطعت أبعد الأشواط في فصل الدين عن السياسة، وغالت أشد المغالاة في حصر أعمال الدولة في نطاق الأمور الزمانية: هل هي أقدمت على فصل اللغة أيضاً عن السياسة؟ وهل تركت مسائل اللغة خارجة عن ساحة أعمال السلطات الزمانية؟
إنني أعتقد اعتقاداً جازماً أن اللغة تختلف عن الدين في وجوه الطبيعة الذاتية، والتأثير النفسي، والعمل الاجتماعي. إن عدم ملاحظة هذا الفرق الجوهري - الموجود بين اللغة والدين - في هذه الوجوه المختلفة، قد عرّض المؤلف لأخطاء كبيرة، وأوقفه مواقف يخالف فيها أثبت وقائع التاريخ، وأظهر حقائق الاجتماع مخالفة صريحة يحاول المؤلف أن يستشهد على أقواله الآنفة بتاريخ الإسلام أيضاً. غير أن محاولاته هذه لا تزيده إلا تغلغلاً في الأغلاط وتباعداً عن حقائق التاريخ. . .
3 - يتحدث المؤلف عن اتصال مصر بأوربا، وعن اندفاعها في اقتباس الحضارة الأوربية معتبراً سهولة هذا الاتصال، وسرعة هذا الاندفاع من الدلائل التي تبرهن على عدم وجود (فرق جوهري بين العقل المصري والعقل الأوربي)
غير أنه خلال ذلك يتطرق إلى (نظم الحكم وأشكال الحياة السياسية) في مصر، ويبدي رأياً غريباً في هذا الصدد إذ يقول:
(إن الذين أرادوا أن يستبدوا بأمور مصر في العصر الحديث كانوا يذهبون مذهب لويس الرابع عشر وأشباهه، اكثر مما كانوا يذهبون مذهب عبد الحميد وأمثاله (الصفحة 32)
في اعتقادي أن هذا الرأي لا يستطيع أن يقاوم أبسط المناقشات
فلنفكر أولاً: ماذا يقصد المؤلف من تعبيرات (مذهب لويس الرابع عشر وأشباهه ومذهب عبد الحميد وأمثاله)؟ إن ذلك يظهر بوضوح في العبارات التي سبقت الفقرة الآنفة الذكر والتي تلتها. فقد قال المؤلف، قبل الفقرة المذكورة: (إن نظام الحكم المطلق عندنا في العصر الحديث كان متأثراً بنظام الحكم المطلق في أوربا قبل انتشار النظام الديمقراطي. . . وإن نظام الحكم المقيد عندنا كان متأثراً بنظم الحكم المقيد في أوربا أيضاً. . .)
كما قال بعد الفقرة المذكورة: (والذين أرادوا أن يحكموا مصر حكماً مقيداً بالعدل، دون أن يشركوا الشعب معهم في الحكم كانوا يتخذون لحكمهم قيوداً أوربية لا شرقية) لأنهم نقلوا نظم الإدارة والحكم من أوربا، (ولم يستمدوه مما كان مألوفاً عند ملوك المسلمين وخلفائهم في القرون الوسطى. . .)
بعد أن فهمنا بهذه الصورة ما يقصده المؤلف من هذه التعبيرات يقتضي أن نتوجه إليه بالأسئلة التالية:
هل يستطيع أن يدعي أن عبد الحميد لم يستند في حكمه واستبداده إلى نظم أوربية؟ وهل يستطيع أن يقول بأن بلاط القاهرة لم يتأثر ببلاط الآستانة؟
أما أنا فأستطيع أن أبرهن بكل سهولة أن حكم عبد الحميد أيضاً لم يكن من النوع الذي كان مألوفاً عند ملوك المسلمين وخلفائهم في القرون الوسطى)، وعلى أن استبداده أيضاً كان متأثراً إلى حد بعيد (بنظام الحكم المطلق في أوربا) كما أستطيع أن أبرهن على أن تأثيرات الآستانة في القاهرة كانت واضحة جداً.
مع هذا أرى من الضروري أن أسأل: ما الفائدة من إثارة هذه المسائل في هذا المقام؟ وهل من علاقة منطقية وعلمية بينها، وبين المسألة الأصلية التي يعالجها المؤلف في الصفحات التي ذكرناها؟
هذه ثلاثة نماذج واضحة على (المباحث الاستطرادية) التي كثيراً ما يحشرها المؤلف بين مباحثه الأصلية، يورط نفسه من جرائها في أغلاط كبيرة. . .
من المعلوم أن (التفكير العلمي) يتطلب تحليل المسائل، وتجزئة المشاكل، ليسهل معالجة كل جزء منها على حدة. وأما الخطة التي يسير عليها الدكتور طه حسين في أبحاثه هذه - في أكثر الأحيان - فمعكوسة لذلك تماماً: لأنه كثيراً ما يخلط المسائل بعضها ببعض، ويدخل بعضها في بعض، فيزيدها بذلك تعقيداً وإشكالاً. . . وكثيراً ما يحاول أن يبرهن على كل قضية بمجموعة قضايا أخرى أكثر حاجة إلى البحث والبرهنة من القضية الأصلية نفسها.

بعد الانتقادات التي سردتها آنفاً، اعتراضاً على بعض الآراء التي دونها الدكتور طه حسين في الصفحات السبعين الأولى من كتابه، خلال درسه للمسألة المبحوث عنها - أعني مسألة العقل المصري، والعقل الأوربي - لابد لي من أن أنقل البحث إلى وجهة نظر أخرى، فأقول كلمة في بعض النقائص التي ألاحظها على بحوث المؤلف في هذا الباب، من جراء عدم التفاته إلى بعض الأمور المهمة، بالرغم من شدة علاقتها بالموضوع، وبالرغم من ضرورة ملاحظتها لإتمام بحث المسألة من جميع وجوهها.
لا شك في أن الطريقة المثلى لدرس مثل هذه المسائل درساً علمياً، وحلها حلاً منطقياً، هي طريقة الاستقراء والمقارنة: إجراء مقارنة مباشرة بين الشرق والغرب - بين مصر وأوربا -، من حيث العقل والثقافة والطبع والمزاج، واستعراض الفروق والمشابهات التي تتجلى بينهما من هذه الوجوه المختلفة؛ ثم البحث عن جوهرية وعدم جوهرية الفروق المذكورة، وذلك على أساس مقارنتها بالفروق التي تلاحظ بين الأمم الأوربية المختلفة من جهة وبين ماضي تلك الأمم وحاضرها من جهة أخرى. . .
إن الدكتور طه حسين بقي بعيداً عن هذه الطريقة من أول أبحاثه هذه إلى آخرها.
وقد نجم عن هذا الابتعاد نقصان خطيران:
أولاً: لم يلتفت المؤلف إلى أهم الفروق الموجودة بين الشرق والغرب، وهي التي تشاهد بينهما من وجهة نظم الأسرة وأوضاع المرأة، والأوصاف النفسية - الخلقية والعقلية - التي تتبع تلك النظم والأوضاع. . .
ثانياً: لم يذكر المؤلف شيئاً عن الآراء المستندة إلى الاختبارات العقلية ومقاييس الذكاء. . .
ومما يزيد في خطورة هذا النقص الأخير هو أن بعض هذه الآراء كانت حامت حول مصر مباشرة، واستندت إلى الاختبارات التي أجريت في مصر على جماعة من المصريين،
بمساعدة جماعة من كلية الآداب المصرية نفسها، كما سيظهر للقارئ من التفاصيل التالية:
كانت الحكومة المصرية قد استدعت الدكتور كلاباريد - أستاذ علم النفس في جامعة جنيف، وأحد أساطين هذا العلم في العالم - قبل نحو عشر سنوات؛ وطلبت منه أن يدرس المدارس المصرية، ويبدي لها آراءه في بعض المسائل المتعلقة بوجوه إصلاحها. فأراد الأستاذ المشار إليه أن يستفيد من وجوده في مصر لهذا الغرض، لدرس (العقل المصري) درساً علمياً. وقام بسلسلة اختبارات عقلية بمساعدة جماعة من المعلمين والطلبة؛ وتوصل من اختباراته هذه إلى نتيجة تستلفت الأنظار: فقد لاحظ أن معادل الذكاء في مصر يكون سويًّا عند الصغار؛ غير أنه يأخذ في التأخر والهبوط عن المستوى الطبيعي المعروف في أوربا بسرعة غريبة بعد سن الطفولة. . . اهتم الدكتور كلاباريد بهذه النتيجة وأعلم بها زملاءه في معهد جان جاك روسو في جنيف قبل أن ينتهي من مهمته في مصر؛ وهؤلاء نشروا رسالته هذه في مجلة (المربي) التي تصدر في لوزان. . . هذه المسألة عكست بعد مدة على الصحافة المصرية فنشرت مجلة الهلال مقالة لأحد الأساتذة يشرح فيها الاختبارات المبحوث عنها ويحاول تعليل النتيجة المذكورة بفرضية يراها (الدكتور منصور فهمي - الهلال ديسمبر سنة 1929)
أفليس من الغريب ألا نجد أية إشارة كانت إلى هذه المباحث في كتاب الدكتور طه حسين بين صحائفه الكثيرة المخصصة لدرس مسألة (وجود وعدم وجود فرق جوهري بين العقل المصري والعقل الأوربي)؟ يتطرف الدكتور في كتابه هذا - خلال بحث هذه المسألة - إلى أمور متنوعة جداً. . . في مباحث التاريخ القديم إلى مسائل السياسة والدين. . من ثقافة الصين إلى مدرسة الإسكندرية. . . من حكم لويس الرابع عشر إلى استبداد عبد الحميد. . . من أسباب انحلال الدولة الإسلامية في القرون الوسطى إلى أساليب الحكم المقيد في مصر. . . من تأثير الديانة المسيحية في تكوين العقلية الأوربية إلى نظر الإسلام إلى المسيحية. . . من انقطاع التجارة بين الشرق والغرب في القرون الوسطى إلى دخول الراديو إلى الأزهر الشريف في العصر الحاضر. . .

يتطرف الدكتور إلى مسائل لا تعد ولا تحصى. . . ولا يشير إلى البحث العلمي الذي ذكرناه آنفاً مع أنه يتعلق بموضوع درسه مباشرة!

إنني لا أذكر اختبارات كلاباريد وآراءه في هذا المقام اقتناعاً بها أو تصويباً لها، بل أصرح بهذه المناسبة بأنني كنت من المعترضين عليها، فقد انتقدت تلك الاختبارات في حينها، وأظهرت مواطن الخطأ فيها، واعترضت على ما نشر في الهلال في شأنها، واستندت في ذلك إلى الاختبارات العقلية المتنوعة التي قمت بها بنفسي في مدارس بغداد (مجلة التربية والتعليم الجزء 24 ص 154 - نيسان 1930 الجزء 27 ص 399 - كانون الأول 1930)

كما أصرح بأن الاختبارات الأخيرة كانت أعطتني نتائج مماثلة لنتائج الاختبارات التي جرت في أوربا وأميركا تمام المماثلة (مجلة التربية والتعليم - الجزء 19. ص 303. حزيران 929)

فلم أذكر اختبارات الدكتور كلاباريد هنا، لأردَّ بها على رأي الدكتور طه حسين. وإنما ذكرتها لأظهر للعيان (بمثال آخر بوضوح أكبر) ما في خطة البحث التي سار عليها الدكتور من الغرابة والنقص. . .

أعتقد أن الانتقادات التي سردتها آنفاً عن المسألة الأولى في المسائل التي حاول الدكتور طه حسين درسها ومعالجتها في كتابه (مستقبل الثقافة في مصر) تكفي لإعطاء فكرة عامة عن حظ الكتاب المذكور من القيمة العلمية. . .

واستناداً إلى كل ذلك، أكرر ما قلته في مقدمة هذا المقال:

إن كتاب مستقبل الثقافة في مصر، يتألف في حقيقة الأمر من مجموعة أحاديث ومقالات، قليلة التناسق وكثيرة التداخل. يبدو على جميع أقسامها آثار الارتجال والاستعجال، ويتخلل معظم أقسامها أنواع شتى من الاستطرادات والاستدراكات. . . (برمانا)

أبو خلدون

مشكلة اليهود في العالم

للأستاذ عبد الرحمن شكري

إن الذي يدرس تاريخ اليهود من قديم الزمن يعرف أن العوامل التي تتنازع سياستهم ليست حديثة العهد، وأن مواقف الأمم الأخرى منهم في هذا العصر كانت لها أشباه ونظائر في عصور التاريخ المختلفة في عهد قدماء المصريين والبابليين والآشوريين والفرس والإغريق والرومان. فمسألة اليهود كانت موجودة حتى قبل أن يفقدوا استقلال شعبهم وقبل أن يخرب طيطوس ابن الإمبراطور الروماني فسباسيان معبدهم وقبل أن يقضي على أورشليم، وقبل أن يتشتت اليهود في العالم. بل هي كانت موجودة قبل ذلك عند أسرهم، ونقل الكثير منهم إلى بابل وهو المعروف في التاريخ باسم أسر بابل وكانت موجودة عندما سمح لهم قورش ملك الفرس بالعودة وإعادة بناء أورشليم، وعندما شجعهم في أعمالهم المالية كي ينشط التجارة في دولته. ويتنازع نفوس اليهود من قديم الزمن عاملان: النزعة العالمية، والنزعة الشعبية المصطبغة بصبغة دينية. وقد كانت متاعب اليهود قديماً وحديثاً ناشئة من استفحال النزعتين وتنازعهما نفوسهما؛ فتارة يوقعهم الغلو في المحافظة على تقاليد النزعة الشعبية الدينية في نزاع مع الدول الأخرى، وتارة يوقعهم الغلو في النزعة العالمية في ذلك النزاع. وقد كانت النزعة العالمية تظهر في نفوسهم في بعض الأحايين بمظهر اقتصادي مالي فيحاولون السيطرة على أسواق العالم المالية، وتارة تظهر النزعة العالمية بمظهر الدعوة إلى مُثُل عليا. وكان بعضهم يريد قصر تحقيق هذه المثل على اليهود، وهؤلاء هم الذين كانوا يناصرون النزعة الشعبية الدينية، وبعضهم لا يريد قصرها على اليهود بل تعميمها في العالم. والغريب في أمرهم أنه بالرغم من المشاحنات والاقتتال الذي كان يحدث قديماً بين اليهود من أنصار المحافظة على تقاليد النزعة الشعبية الدينية وبين أنصار النزعة العالمية، وبالرغم من أن النزعة العالمية في نفوس بعضهم كانت تتخذ مظهر الأثرة المالية والطباع الدنيوية الراغبة في الربح المالي قبل كل شيء، وهي طباع تخالف نزعة المثل العليا وتخالف التضحية في سبيل تحقيقها، فإن كثيراً منهم كان يحاول التوفيق في نفسه بين النزعتين المتناقضتين أو يحن تارة

إلى هذه وتارة إلى تلك، كما أن بعضهم كان يحاول الاستفادة لنفسه أو للشعب اليهودي من النزعتين المتناقضتين معاً.

فاليهودي الذي يميل إلى المثل العليا أو الذي يميل إلى المحافظة على تقاليد النزعة الشعبية الدينية لا يرى حرجاً في أن يلتجئ إلى صاحب النزعة العالمية المالية والطباع الدنيوية لاستخدام ماله وسلطته في سبيل تحقيق مثله العليا أو في سبيل المحافظة على التقاليد الشعبية الدينية لضيقة التي ترفض النزعة العالمية، كما أن صاحب الطباع الدنيوية والأثرة المالية لا يرى تناقضاً في خطته إذا حن إلى المثل العليا التي قد تخالف نزعة أثرته الدنيوية، أو إذا ساعد في المحافظة على تقاليد النزعة الشعبية الدينية الضيقة التي تخالف نزعته العالمية الدنيوية، وربما حن إلى المثل العليا ذلك الحنين الذي يدعو إلى التضحية في سبيلها في الوقت الذي يستثمر الدعوة إلى تلك المثل العليا لكسب المال وزيادة نفوذه الاقتصادي. واجتماع هذه النزعات المختلفة في النفس الواحدة ليس مقصوراً على اليهودي فهي طباع النفوس البشرية عامة، ولكن هذا التناقض أظهر ما يكون في اليهود لغلوهم في النزعتين المتناقضتين غلواً يظهر الفرق بينهما في نفوسهم أكبر منه في نفوس غيرهم. وقد ظهر اليهود قديماً وحديثاً ظهوراً كبيراً في مناصرة النزعتين المتناقضتين، وهذا أدى كما ذكرت إلى مشاحنات بين طوائفهم وإلى مشاحنات بينهم وبين الأمم. وقد ظهرت النزعة العالمية في حياة اليهود على اختلاف مظهري تلك النزعة أي المظهر المالي الاقتصادي ومظهر المثل العليا قبل أن يفقد اليهود كل سلطة سياسية في حكم فلسطين. فظهرت في دولة الفرس وظهرت في دولة الرومان

على أن فقدانهم كل سلطة سياسية في حكومة فلسطين لم يوهن النزعة الشعبية الدينية في نفوسهم وإن كان قد ساعد على استفحال النزعة العالمية. وتحريم الكنيسة المسيحية على المسيحيين تقاضي الربح عند تسليف النقود واعتباره ربا أدى إلى ما يشبه احتكاراً من اليهود للمعاملات المالية وإلى سيطرتهم على الأسواق المالية في أوربا، وهذا قوى النزعة العالمية في نفوسهم كما أدت النزعة الشعبية الدينية إلى مناصرة بعضهم بعضاً؛ وزادت هذه المناصرة إذ وجدوا أنفسهم قلة يهودية في وسط كثرة غير يهودية من الشعوب التي هاجروا إليها. وشأن القلة من الطوائف التعاون حتى لا تغمرها الكثرة ولا سيما إذا كانت الكثرة كثرة تبغض القلة. وزاد البغض الديني في نفوس الكثرة أولاً استيلاء اليهود على الأسواق المالية بالتسليف؛ وثانياً عواقب مناصرة اليهود بعضهم لبعض من استيلائهم على كثير من المهن التي تحتاج الأعمال الفكرية والاستعداد العلمي والفني. وبالرغم من أن بعض اليهود حاول معالجة هذا البغض والقضاء على الكره الذي كان غير اليهود يشعرون به نحوهم بالاندماج في الأجناس الأوربية اندماجاً تاماً، فإن الكثرة من اليهود بقيت محافظة على تقاليد النزعة الشعبية الدينية. ولو أن النزعة العالمية غلبت على نفوسهم كل الغلبة لتمكنوا من الاندماج في الشعوب التي استوطنوا أرضها. وهذا الاندماج كان ينسي تلك الشعوب أن اليهود في أصلهم أجانب، وهذا كان يزيل البغض الذي كانت آحاد تلك الشعوب تشعر به نحوهم، وكان يستطيع اليهود أن ينعموا بميزة القدرة على كسب المال، ولكن ربما كانت تلك القدرة تقل لو تم ذلك الاندماج لأنه كان ينسيهم اختلاف جنسهم عن الأجناس الأخرى؛ فكان يقضي على مناصرة بعضهم لبعض، وعلى تعاونهم للسيطرة على الأسواق المالية، وعلى المهن الفكرية والعلمية.

وبقاء النزعة الشعبية الدينية في نفوسهم أدى إلى فكرة الصهيونية التي تدعو إلى العودة إلى حكم فلسطين. وهذه الفكرة كانت في أول أمرها مثلاً أعلى كالمثل العليا تحلم بها الإنسانية ولا تحقق. وهذه الفكرة الصهيونية زادت اعتقاد آحاد الشعوب الأوربية أن اليهود بينهم - وإن تجنسوا بجنس غير جنسهم، وإن ضحوا في الحروب وفي غير الحروب لمناصرة الجنس الجديد الذي تجنسوا به - إنما هم أجانب بالرغم من ذلك، وأنهم يعدون أنفسهم أجانب.

وهذه الفكرة الصهيونية مخالفة لمصالح اليهود الاقتصادية؛ فإن قطراً كفلسطين ربما كان يصلح لاستيطانهم قديماً عندما كانوا قليلين وعلى حالة قريبة من البداوة، وعندما كانوا هم الكثرة الغالبة فيه. أما الآن فقد زاد عددهم في العالم وتعددت فوائدهم ومنافعهم العالمية، وصار في هذا القطر كثرة غير كثرتهم من العرب الذين وراء

كثرتهم في فلسطين كثرة عربية أخرى في الأقطار المجاورة. ولو خلت فلسطين لليهود لما استطاعت أن تؤوي غير عدد قليل من الملايين العديدة من اليهود. وفي العالم بقاع شاسعة أكثر خصباً تحكمها إنجلترا وغيرها من الأمم المناصرة لليهود. فلا يمكن أن يقال إذاً إن الضرورة والأسباب الدنيوية هي التي تقضي بإسكان المهاجرين اليهود في فلسطين. . . لا، بل تشبث اليهود بفلسطين هو تشبث بتلك النزعة الشعبية الدينية التي تفضل التقاليد القديمة والتي تحاول أن
تعكس دورة الزمن وأن تعيد العالم كما كان في بدايته وأن تتجاهل حقائق الحياة. وهذا من قبيل التشبث، في أمور الحياة لا في عواطف النفس وحدها، بمثل أعلى لا يمكن تحقيقه. وهذا التشبث كما قلنا طالما أوقع اليهود قديماً وحديثاً في قتال ونزاع مع الأجناس المجاورة، وطالما أدى إلى ضياع فائدة اليهود الدنيوية الحقيقية. ولكن حقائق الحياة والضرورة قد تغري اليهود بقبول الاستيطان في بقعة أخصب من فلسطين وأقل سكاناً وأوسع رقعة. ويمكن إرضاء العاطفة الشعبية بأن يسمي ذلك الوطن الجديد (فلسطين الجديدة) أو (صهيون) وأن ينشئوا فيها مدناً تسمى بأسماء المدن القديمة في فلسطين القديمة. ويمكن إرضاء النزعة الدينية بأن ينقلوا من الأحجار والآثار المقدسة، ومن تربة أرض فلسطين القديمة إلى فلسطين الجديدة ما يقدس به الهيكل الجديد وما هو ضروري للدفن الديني المقدس. وهذا الحل يجمع بين إرضاء العاطفة وبين الفائدة الاقتصادية

عبد الرحمن شكري

جناية أحمد أمين على الأدب العربي

للدكتور زكي مبارك

- 8 -

عرف الناس ما كان من انزعاج الأستاذ أحمد أمين من كلمة الحق، وفهموا أنه تجلد وتصَّبر إلى أن عجز عن التجلد والتصبر، وللطاقة الإنسانية حدود

وما كنت أحسب أن الأيام ستقهر الأستاذ أحمد أمين على أن يهددني بأبيات فيها لوثة جاهلية، وهو الذي دعا الأمم العربية إلى وضع آثار الشعر الجاهلي في (متحف) لا يدخله الناس إلا بعد استئذان!

ويعز عليَّ والله أن ينزعج الأستاذ أحمد أمين وأن يدَّعي أنه لقى رسائل من مختلف الأقطار العربية فيها سباب موجه إلى من هجم عليه في مجلة (الرسالة). فهذا الادعاء يشهد بأنه يعجز عن الصدق في بعض الأحيان

لو كان الأستاذ أحمد أمين يعرف عواقب ما يصنع لفهم أن الأمر كان يجب أن يكون بالعكس: فهو يجني على ماضي الأدب العربي بأحكامه الخواطئ، ويحتال لإفهام الجمهور أن أدباء العرب لم يكونوا أصحاب أرواح، وإنما كانوا أصحاب معدات. وأنا أدفع تلك التهم وأصحح ما وقع في كلامه من أغلاط

فمن الذي يستحق اللوم والسباب في هذه القضية؟

لو فرضنا جدلاً أني أشاغب الأستاذ أحمد أمين لكان من الذوق أن يتلقى العرب هذه المشاغبة بالقبول، لأن فيها تمجيداً لماضي الأمة العربية

ولو فرضنا جدلاً أن الأستاذ أحمد أمين على حق في السخرية من ماضي الأدب العربي لكان من الطبيعي ألا يستريح العرب إلى ذلك الحق، لأن الأبناء الأبرار يجسّمون محاسن آبائهم ويتغاضون عما قد يكون فيهم من عيوب

والأمر ليس كذلك في هذه القضية: فالأستاذ أحمد أمين لم يكن في جانب الحق حين قال في الاستهزاء بالأدب العربي ما قال، وأنا كنت وما زلت في جانب الحق حين حكمت بأن الأدب العربي أدب أصيل، وأنه خليقٌ بالخلود

الأستاذ أحمد أمين يروّح عن نفسه بذلك الادعاء الطريف ليوهم القراء بأن أدباء العرب في

مختلف الأقطار قد توجعوا له أشد التوجع، وتعرضوا لخصمه بالشتم والسباب، كأن أدباء العرب لم يبق لهم مأرب يحرصون عليه غير حماية أحمد أمين من كلمة الحق!

ولنفرض جدلاً أن أدباء العرب جميعاً وقفوا في صف هذا (الأديب) فهل يتوهم أنه سينجو من قلمي حين ينحرف عن الصواب؟

لقد سرني والله أن يتطاول على صاحب (الرسالة) وأن يتهمه بسوء النية في نشر

هذه المقالات؛ فصاحب (الرسالة) قد آذاني أشد الإيذاء حين استباح أن يحذف من المقالات الماضية بعض الفقرات، ليظل مهذَّباً مؤدَّباً كصديقه المهذَّب المؤدَّب أحمد أمين!

كم تلطفتُ وترفقتُ في موطن لا يجوز فيه لطفٌ ولا رفق، ثم كان جزائي أن يقال إن أدباء العرب غضبوا عليّ وسبُّوني لأني جهرت بكلمة الحق!

ومع ذلك فما الذي يؤذيكم مني يا أحفاد يعرُب وقحطان؟

أليس في مقدوركم أن تحتملوا أديباً جنى على نفسه وعلى معاشه ليرفع راية النقد الأدبي؟

أليس في مقدوركم أن تحتملوا أديباً يقتل أعصابه في أوقات القيظ ليردّ عادية العادين على اللغة العربية؟

ألا تستطيعون أن تغفروا زلة رجل جهل أخلاق الزمان فاعتصم بالحق والعدل؟

لقد حدثني عنكم أحمد أمين بما لا أحب ولا تحبون

فإن كان صدق فيما حكاه فغفر الله لكم! وإن كان تزيّد فعفا الله عنه!

وسبحان من لو شاء لهدانا جميعاً إلى سواء السبيل

أما بعد فقد كان السياق يوجب أن تكون كلمة اليوم في نقض ما ادعاه أحمد أمين على الأدب الأندلسي من الجمود أمام الطبيعة الفاتنة في تلك البلاد

ولكني أحببت أن أقف وقفة قصيرة عند إحساس العرب بالطبيعة وبالوجود

يعرف كل من اطلع على كتب الأدب أن الشعراء كانوا يتواصون عند خمود القريحة بالنظر إلى المياه الجارية، والرياض الحالية.

ومعنى ذلك أنهم كانوا يفهمون أن النظر إلى جمال الوجود يوقظ العواطف ويُرهف الأحاسيس

وهذا يشرح السبب في غرام العرب بافتتاح القصائد بالنسيب لأنهم كانوا يدركون أن تأثر

الشاعر بأقوى مظاهر الطبيعة وهو الجمال يوجه إحساسهم إلى مختلف الأغراض

ومثل الشاعر في ذلك مثل المغني. فالمغني يجلس في هدوء ثم تصدح حوله الموسيقا بأصوات مختلفات، ويظل كذلك إلى أن يستيقظ ما كان غفا من أحلام القلب والروح فينطلق في النشيد

وكذلك كان شعراء العرب: كانوا يهيمون بالرياض الحالية، أو الديار العافية، أو المياه الجارية، قبل أن يشرعوا في نظم القصائد. فإذا أخذوا في النظم بدءوا بالجوانب الدقيقة من ذوات أنفسهم وقلوبهم ليواجهوا الأغراض المنشودة وهم في فورة من طغيان العواطف وعنفوان الأحاسيس

ألا يشهد ذلك بأن شعراء العرب كانوا يدركون قيمة الطبيعة في إذكاء الأرواح وإرهاف القلوب؟

وهل فكر أحمد أمين في شيء من ذلك؟

هل خطر في باله أن شعراء العرب في الأعصر الخالية كانوا تعلقوا أشد التعلق بالسياحات والرحلات حتى صار من النادر أن يقر شاعر في بلده إلى أن يموت؟

قد يقال إن ذلك كان سعياً في طلب الرزق

ونجيب بأن الشعراء كانت لهم غايات أعظم من طلب الرزق، فقد كانوا يستأنسون بالبلاد والبحار والأنهار والجبال حتى ليمكن القول بأن دواوينهم في بعض مناحيها تشبه الخرائط الجغرافية. وهل نسيتم قصيدة المتنبي في شعب بوان؟ هل نسيتم قصيدة البحتري في إيوان كسرى؟ هل نسيتم قصائد الأندلسيين في أهرام مصر؟ هل نسيتم قصائد الشريف الرضي في أطلال الحيرة؟ هل نسيتم قصيدة الأنطاكي في ليالي الجزيرة والنيل؟ هل نسيتم ألوف القصائد التي سجلت أهواء الشعراء في الحنين إلى معاهد الأنس والوصال؟

لقد هجر ابن زريق وطنه في طلب الرزق، فهل عرفتم كيف اكتوى بالتشوق إليه يوم مات؟

إن الذي يحكم بأن شعراء العرب لم يحسوا الطبيعة ولم يتغنوا بأفانين الوجود لا يكون إلا رجلاً حرمه الله نعمة الفهم العميق لأسرار الشعر والبيان

لقد أراد الأستاذ أحمد أمين أن يحكم بأن الشعراء في العصر الأموي والعباسي قلدوا شعراء
الجاهلية في وصف الرسوم والطلول
فهل نستطيع أن ندله على أن هيام أولئك الشعراء بوصف الرسوم الهوامد، والطلول العافية، ليس إلا تعلقاً بالطبيعة في جانبها الباكي الحزين؟
إن صديقنا أحمد أمين لم يفهم كيف وقف أبو نواس على الطلول، بعد أن سخر ممن يقفون على الطلول وهو يرى ذلك رجعة إلى التقاليد الجاهلية. فهل يظن أن الطلول كانت انقرضت لعهد أبي نواس ولم يبق إلا العمران الباقي على الزمان؟
فما رأيه إذا حدثته بأن صور الطلول لا تزال باقية إلى اليوم!
أشهد صادقاً أني ما مررت بشارع الرملة في مصر الجديدة إلا خفق القلب لرسم كان لي فيه صديق أضاعه القلم الجموح
أشهد صادقاً أني أتلفت من حين إلى حين وأنا أخترق شوارع مصر الجديدة عساني أرى الصديق الذي كنت أسايره لحظات أو ساعات ونحن نتعقب بالنقد اللاذع أحوال الدنيا والناس
فكيف يكون حالي لو نظمت قصيدة في التوجع لتلك الدار التي صارت رسماً بعد أن صنعت في تجريح صاحبها ما صنعت؟
وهل يمكن القول بأن ابن المعتز كان يقلد شعراء الجاهلية حين قال:
لا مثل منزلة الدويرة منزلٌ ... يا دار جادك وابل وسقاكِ
بؤساً لدهر غيرتكِ صروفه ... لم يمح من قلبي الهوى ومحاكِ
لم يحل للعينين بعدك منظرٌ ... ذُمّ المنازل كلهن سواكِ
أي المعاهد منك أندب طيبهُ ... ممساك بالآصال أم مغداكِ
أم برد ظلك ذي الغصون وذي الجنى ... أم أرضك الميثاء أم رياكِ
وكأنما سُعطت مجامر عنبر ... أو فُتّ فار المسك فوق ثراكِ
وكأنما حصباء أرضك جوهرٌ ... وكأن ماء الورد دمع نداكِ
وكأن درعاً مفرغاً من فضة ... ماء الغدير جرت عليه صباكِ
وقد ترجمت هذه الأبيات إلى الفرنسية في النسخة الفرنسية من كتاب النثر الفني فعدّها الفرنسيون من أصدق ما تحدثت به القلوب
فهل يرى صديقنا أحمد أمين أن هذه القصيدة لا تمثل إحساس الشعراء بالوجود؟
وهل يمكن الشك في قول ابن سنان الخفاجي:
ولما وقفنا بالديار وعندنا ... مدامع نسديها لكم ونثيرها
شكونا إليها ما لقينا من الضنى ... فعرفَّنا كيف السقام دثورها
وقد درست إلا أمارة ذاكر ... تلوح له بعد التمادي سطورها
خليليّ قد عمَّ الأسى وتقاسمت ... فنون البلى عشاق ليلى ودورها
فلا دار إلا دمنة ورسومها ... ولا نفس إلا لوعةٌ وزفيرها
لعمر الليالي ما حمدت قديمها ... فيوحشني ذهابها ومرورها
وقالوا عطاء الدهر يبلى جديده ... ومن لي بدنيا لا يزول سرورها
فهذا شاعر لا يكتفي بأن يقول إنه يحسّ الطبيعة، وإنما يؤكد أن الطبيعة توجعت لمن يهواه، وذلك غاية الغايات في الإحساس بالوجود
وكذلك صنع الشاعر الذي قال:
تعفو المنازل إن نأوا ... عنها وتغبرّ البلادُ
والحيُّ أولى بالبلى ... شوقاً إذا بلى الجمادُ
فمن الذي يستطيع أن يحكم بعد هذه الشواهد بأن شعراء العرب لم يحسوا معاني الوجود؟ ومن الذي ينكر صدق اللوعة على ابن الخياط إذ يقول:
وقفت أداري الوجد خوف مدامع ... تبيح من السر الممنَّع ما أحمي
أغالب بالشك اليقين صبابةً ... وأدفع من صدر الحقيقة بالوهم
فلما أبي إلا البكاء لِيَ الأسى ... بكيتُ فما أبقيتُ للرسم من رسم
كأني بأجزاع النقيبةُ مُسْلمُ ... إلى ثائر لا يعرف الصفح عن جُرم
لقد وجدت وجدي الديار بأهلها ... ولو لم تجد وجدي لما سقمت سقمي
عليهنّ وسمٌ للفراق وإنما ... عليّ له ما ليس للنار من وسم

وكم قسمَّ البين الضنى بين منزل ... وبيني ولكن الهوى جائر القسم
منازلُ أدراسٌ شجاني نحولها ... فهلاَّ شجاها ناحل القلب والجسم؟
فما رأي الأستاذ أحمد أمين في هذا الشعر النفيس؟ وهل خطر في باله أن شعراء العرب
لهم أمثال هذه المعاني؟
أنا أخاطب رجلاً من أساتذة كلية الآداب، ولولا ذلك لشرحت ما في هذه القصيدة من شواهد الإحساس بقدرة الطبيعة على تذوق البؤس والنعيم
وهل اتفق لشاعر في شرق أو في غرب أن يصل إلى قول بعض الأعراب في توديع نجد:
أقول لصاحبي والعيس تهوى ... بنا بين المنيفة فالضمار
تمتع من شميم عَرار نجدٍ ... فما بعد العشية من عرار
ألا يا حبذا نفحات نجد ... وريّا روضه بعد القطار
وأهلك إذ يحل الحي نجداً ... وأنت على زمانك غير زار
شهورٌ ينقضين وما شعرنا ... بأنصاف لهن ولا سِرار
ولكن الأستاذ أحمد أمين قد يتهمنا بالتعصب للأدب العربي ويقول إننا ننظر إليه بعين المحب، فهل يستطيع أن يدلنا على شاعر أوربي توجع لفراق النعيم في وطنه مثل هذا التوجع؟
إن العرب لم يسودوا من باب المصادفات، وإنما سادوا لأن لهم عبقرية ذاتية قضت بأن يسيطروا على العالم زمناً غير قليل.
وقد دالت دولة العرب أكثر من عشرة قرون، ومع ذلك بقيت سلطتهم الأدبية والروحية. فهم سادة لمئات من الملايين وإن لم يبق لهم عرش ولا تاج
وقد تحذلق المتحذلقون فقالوا إن الفقه الإسلامي صورة من الفقه الروماني، فهل هذا صحيح يا بني آدم من أدعياء العلم بأصول الشرائع؟
إن العرب سادوا بحق، وقد تركوا ثروة أدبية وفلسفية وتشريعية لا يغض من قدرها إلا حاقد أو جهول
فمتى نرجع إلى أنفسنا لنبحث عن الميراث النبيل الذي ورثناه عن أسلافنا النبلاء؟
لقد سمعتم وسمعنا كيف بغى الأسبانيون بعضهم على بعض، وكيف فصل في تلك المعارك الدامية بعد نحو ثلاث سنين
فهل تذكرون أن أسلافنا صبروا على المعارك الأسبانية نحو ثمانية قرون؟
وهل كان ذلك إلا لأنهم شعروا بأن الأندلس قطعةٌ من أرواحهم وقلوبهم؟ فكيف تحكمون
بأنهم لم يحسُّوا الطبيعة ولم يتشبثوا بالوجود؟
إن العرب في أغلب أحوالهم عاشوا عيشة جافية قضت عليهم بأن يتلمسوا مساقط الغيث، فكيف يقال إنهم لم يحسُّوا الطبيعة إلا بطريق سطحية؟
أكتب هذا وأنا أعرف أن الأستاذ أحمد أمين سيهزّ كتفيه ويقول: (هذه خطابيات يراد بها اكتساب عواطف الجمهور!)
إن قال ذلك فسأحيله على تاريخ يحيى بن طالب
فهل يعرف من هو يحيى بن طالب؟
وكيف يجهله وهو يتصدر لتدريس الأدب العربي بكلية الآداب؟
إن يحيى بن طالب أحس الطبيعة وأحس الوجود إحساساً نادر المثال، وهو وحده كاف للزكاة عن الأدب العربي، وقد اتهمه من لم يعرفوه بأنه خالٍ من وصف مظاهر الطبيعة وأشكال الوجود
فهل ننتظر أن يظفر هذا الشاعر بفصل نفيس من (فصول) أحمد أمين؟
لو كان صديقنا العزيز أحمد أمين قد اطلع على الأدب العربي لتذكر نخلتي حلوان في شعر مطيع بن إياس، وكان لهما في حياة الخلفاء أحاديث يذكرها بالدمع من قرأ معجم البلدان. ولكن أين أحمد أمين من هذه الشؤون وهو مفتون بالحذلقة والأغراب؟
إن أحمد أمين لا يجني على الأدب العربي، وإنما يجني على نفسه حين يزعم أن التشبيهات ليست إلا ألاعيب
ولو كان من أهل الخبرة بدقائق الأشياء لعرف أن التشبيهات من أصدق الشواهد على

تعلق العرب بالطبيعة وبالوجود
ولن أشرح له هذا المعنى إلا يوم يعرف أن من واجب المرء أن يطلب العلم من المهد إلى اللحد. وقد تلوح فرصة قريبة فأشرح هذا المعنى لمن يهمهم أن يعرفوا كيف تغيب حقائق الأدب عن هذا (الأديب) وهل نكتم ما نعرف مكايدةً للصديق أحمد أمين؟
لقد استطعنا بحول الله وقوته أن نبدد الشبهات التي أثارها حول الأدب العربي من يجهلونه كل الجهل أو بعض الجهل
فلنأخذ بعد ذلك في رفع التهمة عن الأدب الأندلسي ليعرف من لم يكن يعرف أنه خليق بأن
ينصب له كرسي خاص في كلية الآداب.
والأمل كبير في أن يغفر الأستاذ أحمد أمين جنايتنا عليه حين أفهمناه أن في مصر ناساً يقرءون ويحكمون
فإن كان قد استمرأ العافية من سكوت النقاد بضع سنين فليعرف أن ذلك حلم تبدد، ونعيم ضاع، وعليه أن يستقبل المكاره بعزائم الرجال
والله وحده يعلم أني لم أُرد بهذا النقد غير وجه الحق، ومنه وحده أنتظر حسن الجزاء
(للحديث شجون)
زكي مبارك
النبوة - الوحي - المعجزة
للأستاذ عبد المنعم خلاف
(تتمة ما نشر في العدد الماضي)
نعم! إن المعجزة الحسية لا علاقة لها بالإقناع عند أكثر من لم يقتنع بالحجج الفكرية، وأغلب ظني أنها ما أجريت للإقناع، بل لتعجيز المكابرين وأخذ طرق الإنكار عليهم، حتى لا يفلتوا إلى عذر بعدها، وحتى يحملوا حملاً على الإيمان. ولذلك كانت هي الدور الأخير من حجج الرسل بعد أن تعيبهم لجاجة الناس. فموسى مثلاً كما حكى القرآن: دعا فرعون للإيمان بالله عن طريق العقل في أول الأمر، فلما كذبه وهدده بالسجن. قال: (أولو جئتك بشيء مبين) وألقى عصاه. . . إلى آخر القصة. وكذلك سلك كل رسول من أصحاب المعجزات. فهي كانت آخر سهم في كنانة الرسول أمام المتعنتين. ولم تكن ذات أثر كبير في حمل بقية الناس على الإيمان كما حكى القرآن. قال: (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون، وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها، وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً). . . والجملة الأخيرة من الآية تدل على أن المعجزة لم يكن ورودها للإقناع، فهي إنما أجريت لإتمام الحجة وابتذال كل شيء، حتى قوانين الفطرة في سبيل غاية الحياة العظمى - وهي الإيمان - فالذي لا يقنع عن طريق التفكير والمحاكمة العقلية - بقضية من قضايا الحق - لا يقنعه أن تقلب له العصا حية، أو الصخرة ناقة؛ وإنما هو سيتعجب فقط من فعلك، ويبقى في نفسه الإنكار للقضية التي سقت دليلك الحسي من أجلها.
ولذلك جعل الله الرسالة الأخيرة معتمدة على حجة عقلية دائمة - هي القرآن - الذي هو الرسالة، وهو المعجزة المثبتة لتلك الرسالة. . . وهذا أمر ذو قيمة كبرى تفرد به الإسلام!
وقد أراد مشركو مكة أن ينهجوا مع رسول الله (ص) طريقة من قبلهم من الأمم في طلب الآيات الحسية؛ فأبى عليهم القرآن ذلك، وقال: (أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم). . . (كذلك قال الذين لا يعلمون - مثل قولهم - تشابهت قلوبهم: قد بينا الآيات لقوم يوقنون، إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً). . . (ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون، لقالوا إنما سُكِّرت أبصارنا. بل نحن قوم مسحورون). . . (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة، وكلمهم الموتى، وحشرنا عليهم كل شيء قُبُلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله)
إلى آخر الآيات التي تبين أن المعجزة الوحيدة التي تحدى بها رسول الله إنما كانت القرآن وحده. . .
وبعد هذا أقول للذين يرون المعجزات الحسية عقبة في سبيل الإيمان بالنبوة: أليس الناس متنوعين في التفكير وطرق الاقتناع؟ فلا بد إذن أن تُنوع وسائل إقناعهم. فمنهم العقليون الذين يسيرون - على أسلوب الله - ولا يدركون كلماته في الطبيعة! ولو لم

يتحدث إليهم بصوت ولا نبرات، وهؤلاء قليلون جداً! ومنهم الأطفال المحدودون الذين لا يصدرون إلا إذا رأوا تمرة أو جمرة. . . درهماً أو سوطاً. . . وهؤلاء هم الأكثرية العاملة الناصبة. . .

لماذا تنسون طرائقكم في التدريس أيها الفلاسفة المعلمون؟ ألا تنوعون أساليب التفسير والشرح تبعاً لعقول تلاميذكم؟ وهذا أيضاً هو منطق الله مع الناس. . .!

وبعد فحديث (الوحي والنبوة) كان يجب أن يكون مفروغاً منه عند المتأملين بعمق في الطبيعة. . . الذين يدركون عمق الحياة وتزاحم تياراتها على القلب الإنساني مما لا بد معه من وجود حبل للنجاة فيها، والطمأنينة على قيمتها وقيمة الإنسان فيها.

إن وراء الحياة ربها الحكيم الذي يحتم العقل الإنساني وجوده ولن يخلي الطبيعة منه إلا إذا جن واختلط. . . وقد وُضع الإنسان في قمة الحياة الأرضية، وصار له اقتراحات وأعمال في تنقيح الطبيعة والتصرف فيها تبين أنه ليس شيئاً تافهاً يعيش على هامش الحياة. فكيف بعد هذا كله يترك هذا الصنف المكرم من غير خطاب من الله من أول الحياة إلى آخرها؟. . .

إن هذا الخطاب يحكم العقل والوجدان بأنه لا بد منه حتى ولو كان للترف والأنس الروحي بين الله والمخلصين له. . . دع عنك الضرورة الاجتماعية الحادة التي تحتمه ليستطيع الإنسان الرسول أن يحمل العبء مطمئناً متشجعاً صبوراً حمولاً. . . لأنه يسمع صوت الله قائلاً له: احمل واصبر لأني معك. . .

كتب الأستاذ العقاد في (الرسالة) عدد 285 أو 286 مقالاً بعنوان (المذياع الآدمي) هو ذو قيمة كبيرة في تحليل النفس الآدمية، وبيان آفاقها، وعمق سريرتها، وقدرتها على التقاط المعاني، والسيالات من جوف الكون!. . .

كان بودي أن يكون هذا المقال أمامي الآن لأنقل منه فقرة تقرب معنى الوحي ببيان عصري إلى العقول التي تأبى أن تصدق شيئاً خارجاً عن نطاق الحس. . . ولكني آسف لأن المقال ليس في متناول يدي الآن!

ويحضرني من معانيه هذا المعنى: إن الكون مليء زاخر بكل معنى من معاني الحياة. فهو كمصدر الإذاعة اللاسلكية، والقلوب لها خاصة الالتقاط كآلات الراديو التي تستقبل. وبعض القلوب قوي يستطيع أن يأتي بمعان صادرة عن أفق بعيد، كما أن بعض آلات الراديو له قوة على التقاط الموجات البعيدة. . .

وهذا مدخل نستطيع أن ندخل منه إلى فهم معنى الوحي. فقلب النبي وعقله أعدا إعداداً خاصاً لسماع ما وراء الطبيعة. . .

وهما في قوتهما يعتبران قمة الرقي الإنساني الذي يستطيع الإنسان أن يصل إليه في الاتصال بخفايا الكون!

وما دام العصريون يسلمون بمذهب النشوء والارتقاء في الأجسام فلم لا يسلمون به في العقول والأرواح؟

وإذا كان الله لا يظهر بعض نوره للروح الإنساني الذي هو نفخة منه فلأي شيء يظهره؟. . .

ولا بد من باب ينفذ منه العقل الإنساني إلى ما وراء الطبيعة. وهذا الباب هو عقل النبي وروحه؛ ولن يقنع الإنسان بانقطاع الصلة بينه وبين ما وراء الطبيعة إلى هذا الحد الذي تراه من الإغلاق في الطبيعة، وعدم سماحها بأي ثغرة تنفذ منها.

ولو كان منكرو النبوة والوحي يتبعون الأسلوب العلمي في بحثهم حول النبوة والوحي كما يتبعونه في بحثهم في المادة، ما أباحوا لأنفسهم أن يرفضوا شيئاً لم يقم دليل علمي على بطلانه، بل ما أباحوا لأنفسهم أن يجادلوا فيه عارفيه من الأنبياء والأصفياء إلا على سبيل الاستفسار لا الإنكار. فكما لا يباح لرجل الشارع الجاهل أن يجادل (ملكن) أو (مركوني) أو (أديسون) وغيرهم من أساطين العلم المادي، كذلك لو أنصفنا ما أبحنا لأنفسنا أن ننكر على الأنبياء ما رأوه في آفاق الحياة والروح إلا إذا كنا على قرب منهم في الصفاء والرياضة الروحية التي كانوا يزاولونها. فالأسلوب العلمي يحتم على من يريد الإنكار عليهم أن يقارب منهم ويزاول ما يزاولون، وهم يقولون إننا نرى أشياء ونصل إلى درجة

نخاطب معها أرواح الملائكة والأنبياء

قال الغزالي أبو المعرفة ومحصل علوم زمانه في كتابه (المنقذ من الضلال): (ومن

أول الطريقة تبتدئ المكاشفات والمشاهدات حتى إنهم (الصوفية) في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتاً ويقتبسون منهم فوائد ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق ولا يحاول معبر أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الاحتراز عنه.
وعلى الجملة ينتهي الأمر إلى قرب يكاد يتخيل منه طائفة الحلول وطائفة الاتحاد وطائفة الوصول. وكل ذلك خطأ. . .) إلى أن يقول (وبالجملة فمن لم يرزق منه شيئاً بالذوق فليس يدرك من حقيقة النبوة إلا الاسم. وكرامات الأنبياء على التحقيق بدايات الأنبياء وكان ذلك أول حال رسول الله عليه السلام حين أقبل إلى جبل حراء حين كان يخلو فيه بربه ويتعبد حتى قالت العرب: إن محمداً عشق ربه.
وهذه حالة يتحققها بالذوق من يسلك سبيلها). ثم بين الغزالي أطوار نمو العقل البشري من إدراك المحسوسات إلى إدراك المعقولات وبين أن وراء هذه المنطقة (عيناً أخرى يبصر بها الغيب وما سيكون في المستقبل وأموراً أخرى العقل معزول عنها)
فعلى منكري هذا من الباحثين الشاكين أن يتبعوا الأسلوب العلمي في الإنكار والإثبات فيسلكوا سبيل أبي حامد الغزالي وأشياعه ليروا أهم على حق أم على باطل. فلقد كان أبو حامد شاكا ودرس وسلك حتى أتاه اليقين

إلى الدكتور الفاضل عمر فروخ ببيروت

إن الكاتب الفاضل الذي استعداني على مقالك (المعجزة) المنشور بمجلة الأمالي (عدد 37 ص 1) أرسل إلي العدد الذي فيه المقال، وقد قرأته بإمعان وفهمت منه ما أشرت إليه في مقدمة مقالي الأول عن النبوة والوحي والمعجزة فأنا أصرف إلى نفسي تعريضك به في مقالك الذي علقت به على مقالي، وإلا كنت أنا ظالماً له ومسيئاً إليه، وأرجو أن ترتاح للذين يتحمسون في الدفاع عن عقيدتهم التي هي أثمن شيء لديهم ما دام الدفاع خالياً من السباب والمهاترة فإن هذا هو شأن الباحث الذي يقدر عقائد القلوب.
فالكاتب الذي كتب إليّ من بيروت إنما صدر عن إخلاص حين أرادني أن أجادل رأيك في
المعجزة. أما ذكره اسمه ناقصاً فله عدة وجوه لا تقدح فيه غير ما أشرت إليه أنت وأنا قد فهمت من تفسيرك للمعجزة أن في ذهنك صورة عن النبوة غير ما في أذهان الواقفين عند نصوص القرآن في معجزات الرسل السابقين. فالقرآن يثبت أن معجزات الرسل لا دخل فيها للإنسان الرسول، وهو ذاته لا يفهمها ولا يدري سر إجرائها كما يدل على ذلك فرار موسى حين رأى عصاه حية تهتز كأنها جان. . . وأنت تعرف المعجزة في فهم الخاصة بأنها (عمل إنساني محض فيه إدراك بالغ لقوانين الطبيعة ووزائع الاجتماع، فكلما كان فهم الإنسان للطبيعة والبيئة أدق وأعمق كانت معجزته أجل وأثمن (هذا كلامك بالحرف. فأنت ترى من كلامك أنه صريح في جعل المعجزة عملاً إنسانياً، مع أن القرآن ينعت هذا النوع بأنه آيات إلهية لا دخل للإنسان الرسول في إجرائها إلا ما يتعلق بتحديد مواعيدها ومواضعها
ثم إنك جعلت توحيد رسول الله محمد للعرب معجزته الكبرى وقد تم ذلك لغيره في عصور مختلفة أحدها عصر الملك
الحالي عبد العزيز بن سعود. وقد كان مثل هذا التوحيد في غير العرب من الأمم. أفنجعل ذلك كله معجزات بالمعنى الديني؟
من أجل هذا فهمت أنك تريد أن تسلك محمداً في سلك الأبطال المصلحين الذين لا يعتمدون على مدد من السماء وأنك تريد أن تجعل كل ما فاض عنه من الأفكار والأخلاق في الإصلاح، والإرشاد والتشريع، إنما كان كله فيضاً نفسانياً بشرياً صادراً عن ذاته هو. وهذه مقالة شاعت في هذا الزمان وهي رفض للنبوة بمعناها عند المؤمنين.
ولكني بعد ما قرأت مقالك الذي تعلق به على مقالي ووجدتك تقول: إنني رجل أؤمن بالنبوة على ما وردت في القرآن الكريم لا أحيد عن رأيي في ذلك: (قل إنما أنا بشر مثلكم يُوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد) إلى آخر الآية. أراني مضطراً إلى تصحيح رأيي في آرائك تلك في النبوة فقط. أما رأيك في المعجزة فهو بعيد عن قول القرآن فيها؛ وفيما أوردته حولها سابقاً في هذا المقال خلاصة رأيي فيها. ولك التحية

(القاهرة)
عبد المنعم خلاف
خليل مردم بك
وكتابه في الشاعر الفرزدق
لأستاذ جليل
- 2 -
أورد الأستاذ المردمي قول الفرزدق في هذه الرواية في الأغاني في أثناء بحث اجتزأ به، وقد رأيت سوق القصة بتمامها في هذا المقام:
(نزل الفرزدق على الأحوص حين قدم المدينة فقال الأحوص: ما تشتهي؟)
قال: شواء وطلاء وغناء. قال: ذلك لك، ومضى به إلى قينة بالمدينة، فغنته
ألا حيِّ الديار بسُعدَ إني ... أحب لحب فاطمة الديارا
إذا ما حلّ أهلك يا سليمى ... بدارةُ صلصل شحطوا مزارا
أراد الظاعنون ليحزنوني ... فهاجوا صدع قلبي فاستطارا!
فقال الفرزدق: ما أرق أشعاركم يا أهل الحجاز وأملحها!
. . .قال: أوَ ما تدري لمن هذا الشعر؟ قال: لا والله. قال: فهو (والله) لجرير يهجوك به فقال: ويلُ ابنِ المراغة! ما كان أحوجه مع عفافه إلى صلابة شعري، وأحوجني مع شهواتي إلى رقة شعره)
وأملى أبو العباس في (كامله) الحكاية مطوّلة، وجاء في ختامها: (فقال الفرزدق ما أحوجه مع عفافه إلى خشونة شعري، وأحوجني مع فسوقي إلى رقة شعره)
فالفرزدق وجرير في الإسلاميين يحسبان مثل حبيب والوليد في المحدثين: (ترى ألفاظ أبي تمام كأنها رجال قد ركبوا خيولهم واستلأموا سلاحهم، وتأهبوا للطراد، وترى ألفاظ البحتري كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات، وقد تحلين بأصناف الحلي)
وهي طبيعة المرء، وهو مزاجه: (كان القوم يختلفون في ذلك، وتتباين فيه أحوالهم، فيرق شعر أحدهم، ويصلب شعر الآخر. وإنما ذلك بحسب اختلاف الطبائع وتركيب الخلق)
وقد قلت في بحث قبل: ما اختلف الطائيان الأكبر والأصغر في الطريقة، إلا لاختلاف الخليقة، فمن تشددت خليقته استفاد للجزالة ومتنت عبارته. ومن سجحت ضريبته رقت
كلمته؛ فالأمر عائد إلى الطبائع. وقول الإفرنج في هذا المعنى معروف
والفرزدق وجرير والأخطل أشعر العرب أولاً وآخراً، ومن وقف على الأشعار ووقف)
على دواوين هؤلاء الثلاثة علم ما أشرت إليه. وأشعر منهم عندي الثلاثة المتأخرون، وهم أبو تمام وأبو عبادة وأبو الطيب المتنبي، فإن هؤلاء الثلاثة لا يدانيهم مدان في طبقة الشعراء)
وللثلاثة الإسلاميين فضيلتان، وللثلاثة المحدثين الذي هو لهم. وقد تخرج الآخرون على الأولين وأمثالهم التخرج التام. وثقفتهم تلك الحضارة، ورأوا دنيا لم يرها سالفهم في الزمن، وأوثروا بما أوثروا به، فتفوقوا على غيرهم، ولم يجيء من بعدهم أشبابهم
ومن الأسباب التي برع بها الإسلاميون الجاهليين: (أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية في القرآن والحديث اللذين عجز البشر عن الإتيان بمثليهما لكونها ولجت في قلوبهم، ونشأت على أساليبها نفوسهم، فنهضت طباعهم وارتقت ملكاتهم في البلاغة على ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية وممن لم يسمع هذه الطبقة ولا نشأ عليها)
والفرزدق أفضل الثلاثة الإسلاميين، وقد وصفه وصاحبيه خالد بن صفوان في خبر في الأغاني، وفي قوله حق كثير، وأسلوبه يحكي وصف (الهمذاني) الفرزدق وجريرا في المقامة القريضية. وهذا ما نسب إلى خالد: (أما أعظمهم فخراً، وأبعدهم ذكراً، وأحسنهم عذراً، وأسيرهم مثلاً، وأقلهم غزلاً، وأحلاهم عللاً، الطامي إذا زخر، والحامي إذا زأر، والسامي إذا خطر، الذي إن هدر قال، وإن خطر صال، الفصيح اللسان، الطويل العنان - فالفرزدق. وأما أحسنهم نعتاً، وأمدحهم بيتاً، وأقلهم فوتا، الذي إن هجا وضع، وإن مدح رفع - فالأخطل. وأما أغزرهم بحراً، وأرقهم شعراً، وأهتكهم لعدوه ستراً، الأغر الأبلق، الذي إن طلب لم يسبق، وإن طلب لم يلحق - فجرير)

وقال أبو الفرج: (الفرزدق مقدم على الشعراء الإسلاميين هو وجرير والأخطل. ومجاله في الشعر أكبر من أن ينبه عليه بقول، أو يدل على مكانه بوصف؛ لأن الخاص والعام يعرفانه بالاسم، ويعلمان تقدمه بالخبر الشائع علماً يستغني به عن الإطالة في الوصف (وقد) اختلف (الناس) بعد اجتماعهم على تقديم هذه الطبقة في أيهم أحق بالتقدم على سائرها. فأما قدماء أهل العلم والرواة فلم يسووا بينهما وبين الأخطل لأنه لم يلحق شأوهما في الشعر، ولا له
مثل ما لهما من فنونه. وهما في ذلك طبقتان: أما من يميل إلى جزالة الشعر وفخامته وشدة أسره فيقدم الفرزدق. وأما من كان يميل إلى أشعار المطبوعين وإلى الكلام السمح السهل الغزل فيقدم جريراً).

والفرزدق عند الشعراء الحذاق الكبار والعلماء العارفين أعظم من جرير. روى الأستاذ المردمي في (الكتاب) عن (الموشح) للإمام المرزباني: (قال أبو الغوث يحيى بن البحتري: كان أبي يقول: لا أرى أن أكلم من يفضل جريراً على الفرزدق، ولا أعده من العلماء بالشعر. فقيل له: وكيف؟ وكلامك أشد انتساباً إلى كلام جرير منه إلى كلام الفرزدق. فقال: كذا يقول من لا يعرف الشعر. لعمري إن طبعي بطبع جرير أشبه، ولكن من أين لجرير معاني الفرزدق وحسن اختراعه؟ جرير يجيد النسيب ولا يتجاوز هجاء الفرزدق بأربعة أشياء: باليقين، وقتل الزبير وبأخته جِعثِن، وامرأته النوار. والفرزدق يهجوه في كل قصيدة بأنواع هجاء يخترعها ويبدع فيها)

وقد عرف الأستاذ المردمي من نبوغ الفرزدق ما عرفه البحتري، بل تنبه على من لم يتنبه عليه. وظني أن هذا ما بعث الأستاذ على أن يخص أبا فراس بكتابه، وإن كان طبعه - كطبع البحتري - لطبع جرير أشبه، وشاكلت رقَّتُهُ رقَّتَهُ

وقد نقد ضياء الدين بن الأثير رواية الموشح نقداً غير صواب، ومما قال: (إن البحتري عندي ألب من ذلك، وهو عارف بأسرار الكلام، وكيف يدعي على جرير أنه لم يهج الفرزدق إلا بتلك المعاني الأربعة التي ذكرها، وهو القائل:

لما وضعت على الفرزدق ميسمي ... وعلى البعيث جدعت أنف الأخطل

فجمع بين هجاء هؤلاء الثلاثة في بيت واحد.

وإعجاب ابن الأثير بمثل هذا البيت أمرٌ إمْر. وهل هذا من درجة الاجتهاد التي بلغها وذكرها في قوله في مقدمة كتابه: (ومنحني درجة الاجتهاد التي لا تكون أقوالها تابعة وإنما هي متبعة) وقال ابن الأثير: (ولو سلمت للبحتري ما زعم من أن جريراً ليس له في هجاء الفرزدق إلا تلك المعاني الأربعة لاعترضت عليه بأنه قد أقر لجرير بالفضيلة؛ وذاك أن الشاعر المفلق أو الكاتب البليغ هو الذي إذا أخذ معنى واحداً تصرف فيه بوجوه التصرفات، وكذلك فعل جرير فإنه أبرز من هجاء الفرزدق بالقين كل غريبة) وأورد ابن
الأثير من (هذه الأساليب التي تصرف فيها جرير)
سبعة أبيات، منها:
قال الفرزدق:
رقِّعي أكيارنا ... قالت: وكيف ترقع الأكيار؟
وسيف أبي الفرزدق فاعلموه ... قدوم غير ثابتة النصاب
ولو لم يرو مثل هذا لكان خيراً لابن الأثير ولصاحبه جرير
قال جرير لرجل من بني طهية: أينا أشعر أنا أم الفرزدق؟)
فقال له: أنت عند العامة والفرزدق عند العلماء. فصاح جرير: أنا أبو حزرة! غلبته ورب الكعبة! والله ما في كل مائة رجل عالم واحد)

فإن أصبر قول الطهويّ جريراً وازدهاه فهل يرضى صاحب أبرع كتاب في العربية في بابه أن يكون من العامة؟

وما نقصد بهذا القول إزراء بابن الخطفيّ، فجرير ما جرير؟! وهو الثاني في الثلاثة، هو الابن في الثالوث الإسلامي. . . وقد قال الفرزدق: (إني وإياه - يعني جريراً - لنغترف من بحر واحد وتضطرب دلاؤه عند طول النهر)

وإذا كان ضياء الدين يرى (الشعر كله في ثلاث لفظات فإذا مدحت قلت: (أنت) وإذا هجوت قلت: (لست) وإذا رثيت قلت: (كنت)) فقد غمز في نفسه، وأقبل مقلداً من المقلدين لا مجتهداً - كما يصف نفسه - من المجتهدين

(يتبع - الإسكندرية)
* * *

في بلاط الخلفاء
سعد وسعاد في حضرة معاوية
للأستاذ علي الجندي

فوق بسيط الصحراء المترامي الأطراف، المنَّضر بتلافيف العشب الأخضر، وعلى كثب من أخبية هذا الحيّ الذي تخصص في الحب حتى ضُربت به في ذلك الأمثال! كانت سعاد أو سعدى العذريّة ترعى البهم مع ابن عمٍّ لها يُدعى سعدا في مثل سنها أو يجاوزها قليلاً

ورعى الشاء والنّعم - كما يعرف الملمون بالأدب العربي - أخصب مراتع الحب في البادية وأغزر ينابيعه، ففي ظل تلك الوحدة الصافية والخلوة المطمئنة، وبين كثبان الرمل الأعفر ولُعاب الشمس الضاحية بنجوة من فضول الرقباء ولجاجة العُذّال، انسكب هذا الفيض العلوي على القلوب، وانقدحت شرارته السحرية الأولى، وانفسح المجال - في كلاءة العفاف والتصوّن - للتعارف والتآلف والتشاكي والمناجاة! بل خُطت مصارع العشاق المتيّمين من أمثال ابن حزام وابن ذريح وابن الملوّح، واستطارت أناتهم الدامية وآهاتهم الحِرار! التي يسميها - من لم يُدلّهه الهوى وتُدنفه الصبابة - أشعار الغزل والنسيب!

ولم يكن بدّ لسعد وسعاد أن يتحابّا جرياً على هذا العِرق الأصيل في القبيلة. وقد يقال: إنهما في بَلَه الطفولة وغرارة الحداثة؛ أجل، ولكن الحب كالسياسة ليس له قلب! فهو كما لا يوقر الكبير لا يرحم الصغير! بل لعل أبرحه وأشجاه ما ساور الأفئدة الغضة، وخامر الأكباد الرِّطاب!

وأخذ الهوى الطفل يتدرج في النمو بتدرج الحبيبين الصغيرين في العمر، حتى شارف المدى في الوقت الذي بلغت فيه سعاد سن القمر البدر! حيث خنقت الرابعة عشرة، فتفلك ثديها وتمت أنوثتها، وتحير في محياها ماء الشباب! وإذا هي أروع مثال للجمال صاغته يد البادية العبقرية الصَّناع!

كانت الفتاة فارعة القوام، مُهفهفة الأعطاف، أدناها كثيب مَهيل، وأعلاها خوط بان! لها شعر فاحم وارد تنُوس ذوائبه على وجه أبيض مسنون مشوب بسمرة رقيقة كما يشاب الكافور بالمسك! وعينان دعجاوان مكحولتان بالسحر البابلي، يحرسهما حاجبان مُهلَّلان كأنهما نونان من خط ماشق! وخدان أسيلان أنضجت تفاحتيهما شمس الصحراء، نبت بينهما أنف كقصبة الدرّ أو حدّ السيف لم يَخنُس به قصر ولم يمض به طول. شُق تحته خاتم عَطِر كالأقحوانة الغضة، يلتمع فيه سمطان من اللؤلؤ المنضود تجري عليهما شُهدة العسل وسُلافة الرحيق!

وكانت تحلي جيدها العاجي الأتلع، بعقد من الجزع الظَّفاريّ، وسخاب من القرنفل والمحلب، واسطته عقيقة حمراء قانية، تتوهج في ثغرة نحرها، وفوق ثمرتي صدرها توهج الذهب الذائب في بوتقته

وإلى هذا الإثراء من الحسن المطبوع، أوتيت مزماراً من مزامير آل داود! فكان صوتها نديا رخيماً، عذب الجرس حلو الرنين! إذا حدت به في أعقاب الإبل، أو تغنت وراء الغنم، أو أخذت بأطراف الحديث في التسامر، صبت في الآذان ما يشبه وسواس الحلي أو زجل الحمام!

وبرح الحب بالفتى والفتاة، وفعلت الصبابة فيهما أفاعيلها! ولكن حياء الفتيان وخفر العذارى العواتق في هذه الأيام، حالا دون المكاشفة بهذا الجوى الدفين! فكانا يتناجيان بلغة العيون، والعيون أقدر على أداء رسالة الغرام، وأجلى إعراباً عن لواعج الشوق السّاعر من لسان المقال!

تَكلَّمُ منا في الوجوه عيوننا ... فنحن سكوت، والهوى يتكلّم

وفي صبيحة يوم شديد القُرّ لاذع الشفيف، جلس العاشقان حول نار يصطليانها التماساً للدّفء، وقد علق بصرهما بالشرر المتطاير هنا وهناك كأنه قُراضة الذهب، ذاهلين عن كل شيء حولهما غارقين في صمت عجيب! وإذا الفتى تمتد يده - دون أن يعي - إلى حزمة من يابس العرفج طرحها في النار، فذكا لهيبها واندلعت ألسنتها الحُمر تترقص

على وجه الفتاة البضّ فتشبّ لونه، وتجلو فتنته، وتزيده سحراً على سحر!
وأحست سعاد - بعد لأي - بلفح الأوار، فصحت من ذهولها، وازوّرت عن الموقد قليلاً متقية الوهج بإسبال جفنيها المنكسرين، فاستقرت أهدابها الوُطف على ورد خديها، فكان منظراً أخاذاً يقرح قلب الخليّ، ويحثّ الناسك على الصبوة!
أخذت عينُ الفتى هذه الصورة الفاتنة، فعيل صبرهُ، وتدلّه عقله، وخفق قلبه خفوقاً متداركا، وربا سحره حتى ما يكاد يتنفس! ثم شعر كأن نفسه تتنزى من داخل إهابه، وأن أكمام
عواطفه تتفتق عن نفحات عبقة ندّية، لم تلبث أن تخالجت في صدره، ثم ارتقت إلى لهاته، ثم سالت على عذبة لسانه، فإذا هي هذا الشعر يهتف به أول مرة في حياته:
بأبي! كرهت النار لما أوقدت ... فعرفتُ ما معناك في إبعادها
هي ضرّة لك بالتماع ضيائها ... وبحسن صورتها لدى إيقادها
وأرى صنيعك في القلوب صنيعها ... بسيالها وأراكها وعرادها
شَرِكَتْك في كل الأمور بحسنها ... وضيائها وصلاحها وفسادها
فتظاهرت سعاد بأنها لم تسمع - وهي جدُّ سامعة - فخيل إليه أن شعره لم يند على قلبها، ولم يقع منها بموقع، فاتحه شطر النار يؤرثها بعود من الحطب - وهو يترنم بهذه الأبيات -:
وما عرضت لي نظرةٌ مذ عرفتها ... فأنظر، إلا مُثِّلت حيث أنظرُ
أغارُ على لحظي لها فكأنني ... إذا رام لحظي غيرها ليس يبصر
وأحذر أن تُصغي إذا بُحت بالهوى ... فأكتمها جهدي هواي وأسْتُر
فنصت إليه سعاد جيدها الناصع، ورمته بنظرة فاترة منكسرة ملؤها عتب رفيق! فاضطرب الفتى وصبغت وجهه حمرة الخجل، وأطرق ينكت الأرض بعود في يده، وأراد أن يذهب بالحديث مذهباً آخر، فعصب ريقه، وانعقد لسانه؛ فعاذ بالصمت مكرهاً كما عاذت هي به من قبل، وظلا بقية يومهما جامدين كالأنصاب
ولما كان من الغد بكر الفتى إلى المرعى تبكير ابن دأية، بعد أن قضي ليلة نابغية بجفن مؤرق ودمع مرقرق!
ولبث يرقب سعاد رقبة الهلال ليلة الشك ساعات ممضة فلم تحضر! فساوره القلق، ومالت به الظنون كل مميل! وكان أخوف ما يخافه أن تكون ابنة عمه قد اعتقدت فيه أنه خضع لبعض الأمر. فطفق يذرع الوادي إقبالاً وإدباراً، ويبلل رداءه بعبرات سخينة، حتى نال منه اللغوب، فسقط رازحاً بين طيات الرمال، ينشد:
مُتْ شوقاً، وكدت أهلك وجْداً ... حين أبدي الحبيب هجراً وصدا
بأبي من إذا دنوت إليه ... زادني القرب منه نأياً وبعدا
كيف لا كيف عن هواه سُلُوّى ... وهو شمس الضحى إذا ما تبدّى؟!
ولم يكن سعد مصيباً في ظنه، فقد كانت سعاد مطمئنة إلى حسن نيته، وصفاء سريرته، غير ناسية شعار العذريين (إن في فتياتنا صباحة وفي فتياننا عفة)، ولم تكن كذلك ناقمة منه نسيبه بها، بل نزل على قلبها برداً وسلاماً! وأي فتاة لا تستروح إلى حديث الحب البريء، ولا تهفو إلى رؤية محاسنها مفرغة في قوالب الشعر المذهبات؟!
ولكن الفتاة كانت عاقلة أريبة بعيدة النظر، فخشيت أن يستحلي الشاعر هذا المرعى المؤنق، ويتمادى في إعلان صبوته، وتجري مقطعاته ورقائقه على ألسنة الرواة فتفتضح بها، ويقف ذلك عقبة في بلوغ أمنية تعدل عندها الحياة! وهي زواجها من ابن العم الحبيب الذي ينزل منها في سواد العين والفؤاد! فأرادت أن تتخلف عن لقائه أياماً تتصنع فيها المرض عل ثورته تهدأ وشقشقته تقر! وما درت سعاد - عفا الله عنها - أن ما حسبته دواء هو الداء الأكبر بل الموت الأحمر!:
بكل تداوينا فلم يشف ما بنا ... على أن قرب الدار خير من البعد
وبينما كان الفتى متوّحداً في الصحراء تتوزّعه الهواجس، ويخبط من حيرته في مثل قطع الليل المظلم! لمعت في ذهنه خاطرة استنار منها وجهه وثلج لها فؤاده، فصكّ جبهته وصاح: الحمد لله لقد اهتديت!
وما عتّم أن انكفأ بالرّاغية والثّاغية إلى مضارب الخيام، ثم عطف على طِراف ممدّد فدخل إلى عمه الشيخ، فإذا هو مُحتب فوق لبدة يمشّط لحيته اللّيفانيّة
حيّا الفتى عمه الشيخ فرد عليه بأحسن منها، ودعاه إلى الجلوس فجلس قُبالته

محتشماً وانقضت فترة كان فيها زائغ البصر شارد العقل جمّ البلابل! ثم تغلب على وساوسه وقال بصوت متقطع النبرات:
- عمي وأبي بعد أبي!
- لبيك ولدي وَوَصَلتك رَحِم!
- جئت أخطب إليك سعاد
فحل الشيخ حبوته وابتسم قائلاً: سعد يخطب سعاد! هو الفحل لا يُقدع أنفه!
فنكّس الفتى رأسه مستحيياً وفي منبت كل شعرة من وجهه ثغر ضاحك!
وكان لسعد صِرمة من الإبل وثلة من الضأن والمعِز ورثها عن أبيه الذي مات عنه - وهو طفل - فأصدق سعاد عشرين ناقة عُشراء
وما هي إلا أيام قلائل حتى أُهديت الفتاة إليه في ليلة أضحيانية قمراء، تحف بها كوكبة من أترابها يتغنين ويضربن بالدفوف، وأمامهن الجواري الصغيرات يعزفن ويرقصن، ومن حولهن فتيان الحي يتشاولون بالسيوف ويتناضلون بالسهام، ويتسابقون على صهوات الخيل العراب! فبلغوا بجاداً من الوبر ضُرب لها خاصة على مسافة غلوة من الحي، فأدخلوها فيه وجلس إلى جانبها الزوج، وأفرغ على رأسهما نثار التمر عملاً بسنة البدو! وبقي أهل الحي نساء ورجالاً في لهو وسمر حتى انفجر الفجر، فودعوهما داعين لهما بالرِّفاء والبنين!
ومضى عامان أجردان نعم فيهما العروسان بما جاوز قدر الأمل؛ من حياة لينة هنيئة وعيش ألمى الظلال، وحب على الأيام يزداد حِدّة وجدّة! ولكن صدق من قال: (وعند صفو الليالي يحدث الكدر)!
فإن كلف الزوج بعرسه وابتغاءه مرضاتها، جعله يبسُط يده كل البسط في الإنفاق عليها، فكان يرد الحواضر وأسواق العرب يبتاع لها الطرائف: من عصب اليمن وريط الشام ومناديل مصر وعطور الهند وزعفران البلقاء مبالغة في ترفيهها وتدليلها، مع نصحها له بالقصد والاعتدال، ونفورها من هذا التَّرف الذي يجرّدها من وسم البادية وشارتها المحبوبة
فلم يرعو الزوج العاشق، وسدر في غُلوائه حتى أتلف ماله، ولم يبق له سبد ولا لبد! فتلقت سعاد هذه الجائحة بالصبر الجميل! وضاعفت من حبها للفتى وحدبها عليه لترّفه عنه حرّ المصاب!
ولكن الأمر لا يعنيها وحدها، فهناك أبوها وهو وإن كان من قوم جُبلوا من طينة العواطف، ووسموا برقة الشعور، وسنُّوا للناس سنن الموت في الحبّ! إلا أنه كان أعرابياً جافي الخليقة غليظ الكبد! لا يفهم من الحياة غير رُغاء الإبل وثُغاء الشاء والصَّرَّ والحلاب، فأنف لابنته خشونة العيش، وتعاظمه أن تلفحها سموم الفاقة في طراءة السن وغضارة الشباب!
فقطع صلتها ببعلها واحتجزها عنده وسعى في خلاصها منه! فرفع الزوج الأمر إلى والي تلك الجهة الأموي المفتون المدل بمكانه من قريش وبمكانه من الخليفة مروان ابن الحكم. وكانت سعاد قد وصفت له في بعض قدماته إلى البادية، فعشقها على السماع - والأذن كالعين تعشق - فاهتبلها فرصة يتقنص فيها هذا الشادن العذري المريب الذي ما برح يرتعي حبة قلبه! فأكره سعدا على مفارقة زوجه، وضمها إليه - بعد انقضاء عدتها - وفي عينها دمعة جارية، وفي قلبها لوعة ذاكية!
حزب الزوج الأمر، وضاقت عليه الأرض بما رحبت، ولا عجب فقد أصيب بطعنتين نجلاوين في قلبه وكرامته. ولكن إذا جار الوالي أليست هناك يدٌ أعلى من يده، هي يد الخليفة! ومن فوقها يد الله!
لم يجد الفتى بدّا أن يعتسف الصحراء إلى دمشق، حيث يتربع على دست الخلافة آدم قريش، ووارث حلوم آل حرب، وكسرى العرب وأدهى دهاتها معاوية بن أبي سفيان، ليستعديه على ابن عمه الحاكم المتسلّط!
(البقية في العدد القادم)
علي الجندي

كتاب الأغاني
لأبي الفرج الإسكندراني
رواية الأستاذ عبد اللطيف النشار
صوت
راهنت بالروح على نهروان ... لو إنني أملك هذا الرهان
هذى هي الخيل التي تشترى ... لا كوكب الشرق ولا كوكبان
الشعر للأستاذ علي الجارم بك وفيه لحن من نغمة (النشازكار) من صنعة الأستاذ محمود مصطفى
حدثنا الأستاذ محمد شعراوي بك قال: إن (كوكبان) و (نهروان) جوادان من جياد السباق، وإن الجواد الذي أراد الأستاذ الجارم بك أن يثنى عليه هو (كوكبان) ولكنه من أجل الجناس اللفظي بين كلمة (راهنت) وبين كلمة نهروان قد أبدل اسمي الجوادين فجعل الممدوح هو المذموم والعكس بالعكس
قال الأستاذ شعراوي بك: وأعجب من ذلك أن كوكب الشرق ليس جواداً ولكنه صحيفة كان يصدرها الأستاذ حافظ عوض بك ولكن الجناس اللفظي قد حمل الجارم بك على اعتبارها جواداً، وجواداً من جياد السباق وذلك ليقال كوكب وكوكبان
وانتهى شعراوي بك من حديثه إلى أنه لن يراهن على بيت واحد من الشعر ما دام الشعراء يبدلون الحقائق من أجل تلك الكلمة المدرسية العتيقة: (بين وجوه البلاغة فيما تحته خط)
وحدثنا الأستاذ عبد الغني جبرة قال إن في خيول السباق جواداً اسمه شكسبير وأنه عرض على شعراوي بك بثمن مناسب ولكنه رفض شراءه لأنه باسم شاعر. قال وقد تحامل شعراوي بك على الجارم بك تحاملاً شديداً لأن الجواد كوكبان من خيول شعراوي بك وقد كان يود أن يكون هو الممدوح لا الجواد نهروان
قال أبو الفرج: وهذا القول جائز ولكن كيف استحالت جريدة كوكب الشرق إلى جواد من جياد الرهان؟
حدثنا الأستاذ أحمد أمين قال: وهذا الباب من أبواب الشعر أثر من آثار الجناية التي جناها
الأدب الجاهلي على أدب العصر الحاضر. فقد كان الجواد عند العربي بمثابة الأسطول والطيارة في العصور الحاضرة. فإذا وجد الآن شاعر في إنكلترا يباهي بالأسطول ويصفه ويتغنى بمحاسنه فلا غضاضة عليه في ذلك؛ وإذا وجد شاعر في مصر يتغنى بالدبابات الجديدة والطيارات ذات الأزيز المثير للدوافع الوطنية فهو شاعر حقاً، كما كان العربي شاعراً في وصفه الجواد وحبه إياه وقد شاركه في أخطار الموت ودخل وإياه الدول المفتوحة وجرح وإياه في الميدان، ولكن ما بال الشاعر المصري العصري يركب السيارة ويأنف من ركوب الجواد ثم يتغنى بذكر الخيل؟ وما له يذكر الرهان والسباق وهو لم يعالجهما قط، وإنما يجعل منهما وسيلة لذكر الخيل لأن العرب كانوا يذكرونها - أليس هذا مما جناه الأدب الجاهلي على أدب العصر الحاضر؟
حدثنا الأستاذ أحمد الشايب قال: لما سمعت رأي الأستاذ أحمد أمين في السيارة والجواد نظمت قصيدة أتغنى فيها بعربة (ناش) التي اشتريتها حديثاً وأنكرت ما كنت أنظمه عن الخيول التي لم أركبها قط. ومن قولي في تلك القصيدة:
صوت
ألثمانون سرعة (الفُردِ) فاذرع ... بي عرض البلاد يا ناش وثبا
أطلقت قيدها الفرامل وانسا ... ب بي (الناش) ينهب الأرض نهبا
حدثنا الدكتور زكي مبارك قال: ما رأى الناس قط تعسفاً مثل هذا. فالخيل ما تزال من عدة الحروب. وما أنكر على شاعر أن يصف ما يراه من المخترعات الحديثة، ولكن كيف جاز للمؤمنين أن يحرموا على أنفسهم ما أحله الله لهم؟ وكيف يزعم الزاعمون أن الخيل قد زالت محبتها فيجب أن يزول التغني بها؟ إن ميادين السباق في الحواضر تستنفد من الثروة ما يكفي لبناء أسطول. هذا في الحواضر وما يزال في الريف من يباهون باقتناء الخيول ويعدونها من علائم الأصالة والنبالة. وقد كان عندي جواد في سنتريس اعتدت ركوبه كلما طفت بمنازل الصبايا. وبارك الله في صبايا سنتريس! لقد أنكرت الوجاهة منذ كففت عن ركوب الجياد واستبدلت بها الطيارة والسيارة. ثم ما

لهذا كله وما لأبيات الجارم بك؟ إن تربية الخيل ضرب من الفروسية التي يجب الاحتفاظ بها في كل مكان وكل زمان، وهي تقليد من تقاليد الخلفاء. وقد قال الوليد بن يزيد:

تمسك أبا قيس بفضل عنانها ... فليس عليك إن رمتك أمان

فهل قرأ هؤلاء أدب الأمويين؟

قال الدكتور زكي مبارك: ولهذا البيت قصة ظريفة فقد أشفق أمير المؤمنين الوليد بن يزيد على (الجوكي) من ركوب الفاره من الجياد فأمر بتدريب طائفة من القرود وكون منها فرقة من (الجوكية) كما أمر بصيد عدد كبير من حمر الوحش فجعل منها فرقة من (البواني الغشيمة) وأبو قيس هذا الذي يذكره في شعره ليس إلا قرداً من هذه القرود

ليت المدنية التي يتغنون بها تبلغ من الرفاهية ما بلغته في العصر الأموي الذي لم يقرءوا شيئاً عنه

لم تحب الحياة زهدَ عليّ ... فجفته إلى بني مروان

ثم ضحك الدكتور زكي مبارك وقال: وسيأتي اليوم القريب الذي يعود شعراؤنا فيه إلى التغني بالخيول ولو غضب الأستاذ أحمد أمين وأنشد:

يقول بشعب بوان حصاني ... أعن هذا يسار إلى الطعان

أبوكم آدم سن المعاصي ... وعلمكم مفارقة الجنان

هكذا قال حصان أبي الطيب فليسمعنا الأستاذ أحمد الشايب ما قالته سيارته ولو أنها من طراز (ناش)

حدثنا الأستاذ عبد الغني جبرة قال: دخلت ميدان السباق فرأيت بين المشاهدين الدكتور زكي مبارك، ورأيت طائفة عظيمة من الوجهاء والأعيان وكلهم معقود النظر بالخيل التي تجري دون أن ينظر بعضهم إلى بعض. وسمعت الدكتور زكي مبارك ينشد في هذا المعنى أبياتاً لم يعلق بذهني منها غير هذا البيت في وصف ميدان السباق.

ويكون أغنانا وأعلمنا ... فيه وملء عيوننا البهم

عود إلى أبيات الجارم بك

حدثنا الأستاذ محمود مصطفى قال: إنني وإن حملت على الجارم بك في شرحه لكتاب البخلاء فما أنكر فضله في الشعر فقد جدد به مفاخر العرب وتغنى بآثارهم وبعث أمجادهم، وصان لغتهم. ومن أروع المفاخر العربية عندي العناية بالخيل فما تعني بها الأمم المحاربة، ومهما استحدث من أدوات الدفاع فسيلجأ المحاربون في النهاية إلى إيثار الخيل بالعناية. وأنشد بيت أبي الطيب:

وما الخيل إلا كالصديق قليلة ... وإن كثرت في عين من لا يجرب

وحدثنا الشاعر جبريل دننزيو قال: حدثنا السنيور موسوليني قال: ليس في نيتي أن أثير الحرب؛ ولكنها إن ثارت فسيكون المسئول عنها هو جوادي، فإن رؤية الخيل تحفز إلى الرغبة في القتال وأنشد:

صوت

وأقبل بالتصهال مهري يقول لي ... أأبقى كذا لا في اطراد ولا طرد

علام انتظاري أنجم النحس والسعد ... وحتام صمتي لا أعيد ولا أبدي

الشعر لجبريل دننزيو وفيه لحن يضرب على نغمة المترليوز من صنعة الشاعر نفسه (يتبع)

عبد اللطيف النشار

التاريخ في سير أبطاله

أحمد عرابي

أما آن للتاريخ أن ينصف هذا المصري الفلاح وأن يحدد له مكانه بين قواد حركتنا القومية؟

للأستاذ محمود الخفيف

ولندع الآن ما ليت يسعى سعيه الأثيم، ولندع كذلك الخديو في حيرته وارتباكه؛ ولنعد إلى أوربا لننظر ماذا آل إليه موقف الدولتين من المسألة المصرية.

وجدير بنا ألا ننسى ما أسلفنا الإشارة إليه أكثر من مرة، ألا وهو موقف الدولتين

إحداهما من الأخرى، موقف المراوغة والمداراة، ذلك الذي كان طرفاه أول الأمر غمبتا وجرانفل.

ولقد تغير هذا الموقف تغيراً أساسياً من جهة فرنسا حينما حل دي فرسنيه في الحكم محل غمبتا؛ وذلك أن هذا الرجل قد انتهج في المسألة المصرية نهجاً جديداً ما لبث أن بينه لإنجلترة حين ولي الحكم.

وقد ألقيت إلى المسيو فرسنيه مقاليد الأحكام كما ذكرنا قبل أن يخلف البارودي شريفاً في مصر بنحو خمسة أيام. فكتب إلى الحكومة الإنجليزية أنه لا يميل إلى أي تدخل عسكري في مصر سواء أكان هذا التدخل من جانب إنجلترا وفرنسا مجتمعتين، أم من جانب كل منهما على حدة؛ وأنه كذلك يرفض كل الرفض أن يقر أي تدخل من جانب الباب العالي. . .

ولعل جرانفل قد رأى في سياسة فرسنيه ما يسهل عليه الوصول إلى غرضه مع ما قد يبدو لأول وهلة من أنها تؤدي إلى عكس ذلك؛ وذلك لأنه يستطيع الآن أن يلزم دي فرسنيه بسياسته بينما يتلمس هو الأسباب لتتدخل حكومته بمفردها، ولن يعدم أن يجد من الحوادث تافهة كانت أم كبيرة ما يتخذ منه مبرراً لتدخله. ولئن لم تواته الحوادث فما أيسر أن يخلقها خلقاً أعوانه في مصر، حتى إذا سنحت الفرصة أفلت من فرنسا وانقض على الفريسة وحده؛ وإذا بدا لتركيا أن تتدخل في تلك الأثناء فلتستتر إنجلترا خلف فرنسا لأنها هي التي تعلن أنها تمانع في تدخل الباب العالي. وإن إنجلترا لتمانع في الواقع أكثر مما تمانع فرنسا

حتى لا تعود مصر إلى حوزة صاحبها الشرعي، فيضيع على إنجلترا كل آمالها، ولكنها تلقي ذلك على عاتق فرنسا فتزداد نياتها خفاء وتزداد في نفس الوقت قرباً من غايتها. . .

وكان غمبتا يشير كما بينا بالالتجاء إلى القوة أبداً ضد الوطنيين في مصر، ومن هنا جاءت المذكرة المشتركة؛ وكان من اقتراحاته أن تقوم الدولتان معاً بالتدخل العسكري في مصر؛ ولكن جرانفل لم يشايعه في هذا الاقتراح مبيناً له ما ينطوي عليه تنفيذه من أخطار، ولقد جاء كلام جرانفل هذا إلى غمبتا في رسالة وصلته قبل سقوط وزارته بيوم واحد. وجاء في خاتمة هذه الرسالة قوله: (إن حكومة جلالة الملكة توافق على أن للدولتين مركزاً خاصاً في مصر وذلك بناء على الظروف القائمة والاتفاقات الدولية؛ وإنها كذلك تعتقد أنه قد تنجم بعض المتاعب من دعوة عدة دول في مسألة حكومية ولكن حكومة جلالة الملكة تكل إلى الحكومة الفرنسية أن تنظر ما إذا لم يكن الأمر في حاجة إلى الاتصال بالدول الأخرى كخير وسيلة لتناول حالة من الحالات يظهر أنها ذات مساس بالفرمانات السلطانية وعلاقات مصر الدولية). . .

ولم يكن جرانفل بالضرورة متعففاً عن التدخل العسكري في مصر، وإنما كان يود التخلص من مشاركة فرنسا لإنجلترا في هذا، وقد كانت السياسة الإنجليزية تدور منذ حملة بونابرت على مقاومة نفوذ فرنسا في وادي النيل. ثم الاستيلاء عليها متى أمكن ذلك دون مراعاة شيء في سبيل الوصول إلى هذا الغرض

واستفهم المسيو فرسنيه الحكومة الإنجليزية ماذا أرادته لذلك الاحتياط الذي أبلغته المسيو غمبتا بعد موافقتها على المذكرة المشتركة، فكان الجواب أن الحكومة البريطانية تحتفظ لنفسها بتعيين نوع العمل إذا لم يكن من العمل بد وفي تقرير وجوب العمل أو عدم وجوبه على وجه العموم

ثم أراد جرنفل أن يخفف من وقع هذا الكلام في نفس فرسنيه فذكر أنه ليس في مصر ما يدعو إلى القلق فإن الوزارة الجديدة تجهز برغبتها في المحافظة على تعهدات مصر الدولية؛ وإذا وقع ما يقتضي التدخل فإن الحكومة الإنجليزية تجعل أساس ذلك تضامن أوربا مع وجوب اشتراك السلطان في كل خطوة وفي مفاوضة يؤدي إليها هذا التدخل

وفي تلك الأثناء كان كلفن ومالت يحكمان دسائسهما في البلاد ويباعدان بين الخديو ووزرائه، لا يتوانيان عن خلق (الضرورة) التي تقضي بالعمل

وكانت الحكومة الإنجليزية التي تقف من فرنسا ذلك الموقف الذي أشرنا إليه تفكر في ذلك الوقت في إعداد حملة على مصر، ففي الخامس عشر من شهر مارس أي بعد استلام البارودي أزمة الحكم بأربعين يوماً زار مستر بلنت السير جارنيت ولسلي

الذي سوف يكون قائد الحملة على مصر عما قريب، فدار بينهما الكلام على هذا المشروع. يقول مستر بلنت: (فبعد أن تكلمنا عن قبرص انتقلنا إلى موضوع مصر وإمكان مقاومة الوطنيين في حالة التدخل، وسألني رأيي في ذلك فقلت له: إنهم بالطبع سيقاتلون والقتال لن يقتصر على الجنود لأن الأمة ستنضم إليهم وربما استعملوا طرقاً أخرى بعد ذلك. وقد أبى أن يصدقني في قولي بأن الجنود ستقاتل، ولكني ثبت على رأيي وقلت له: إنه إذا كلف بأن يذهب لغزو مصر فعليه أن يأخذ معه على أقل تقدير ستين ألف جندي. وقد بالغت بلا شك في هذا التقدير لأني كنت أرمي إلى جعل هذه المهمة شاقة في نظرهم حتى لا تقدم عليها الحكومة إلا بعد تردد ومراجعة. وقد تطوع بإخباري بأنه قد استشير مرتين أو ثلاثاً مدة الشتاء بصدد الغارة على مصر والاحتلال. وقد أكد لي أن ليس هنا من يريد التدخل وأن احتلال مصر سيكون مكروهاً عند الجنود، وأنه هو نفسه يكون آسفاً جداً إذا اضطر إلى الذهاب إلى مصر. ومن رأيه أنه يجب على المصريين أن يسرحوا جيشهم ويثقوا بحماية أوربا. ولكني أخبرته بأنه ليس من المستطاع لي أن أنصح لهم بذلك وأن الأمة التي تنوي القتال بنية صادقة قل أن يهاجمها عدو. فقال لي: إنه ليس هناك شيء يدعى الشرف في الحروب، وإذا كانت المسألة مسألة حرب فلا يجب عليهم أن يثقوا بنا ولا بأي دولة أخرى

ثم أخذ في الكلام عن الطرق الحربية المؤدية إلى القاهرة فذكر بونابرت وطريقه على الشط الأيسر بين فرع النيل وطريق الصحراء بين قناة السويس والدلتا حتى شعر بأنه إذا ذهبت الجيوش فستتخذ هذه الطريق، ولكني احترست من أن أعطيه أي معلومات تفيده أقل فائدة، واكتفيت بالضحك عندما سألني عما إذا كنت أرافقه لأدله على الطريق عندما ترسل الحملة

وبينما كانت الدسائس تدبر لمصر في الداخل والخارج على هذا النحو لم يكن للوزارة المصرية من وسائل الدعاية شيء ما، فكان أعداؤها يتقولون عليها ما شاءوا وما شاءت لهم

أطماعهم حتى لقد صور عرابي زعيم الحركة الوطنية صوراً بلغت أقصى حدود الغرابة، فهو تارة رئيس عصابة من المتمردين الخوارج على القانون والنظام، وهو طوراً داعية إسماعيل اشتراه بالمال ليعمل على إعادته إلى مصر، وهو بالإضافة عند بعض الإنجليز فرنسي أو أسباني في زي مصري، إلى غير ذلك من الأقاويل التي لا ندري أنقابلها بالألم أم بالسخرية

وانطلقت الصحف تذيع في الناس الأكاذيب في غير حياء أو فتور وليس لمصر لسان يدافع عنها إلا لسان مستر بلنت فلقد سافر هذا الرجل الحر ليقابل كل من لهم صلة بالمسألة المصرية ليريهم وجه الحق في هذه القضية وليصحح ما جاز على عقول الساسة من خدع

ولقد قابل مستر بلنت جماعة من النواب ومن رجال المال وما زال يسعى حتى ظفر بمقابلة جرانفل فتحدث إليه بما لديه من المعلومات ودافع عن قضية الأحرار في مصر بكل ما وسعه من وسائل الدفاع. ولكن شد ما كانت دهشته عندما انطلق جرانفل نفسه يخبره أن لديه من المعلومات الأكيدة ما يؤيد أن عرابياً ما هو إلا صنيعة إسماعيل وأن المسألة من أولها إلى آخرها ما هي إلا سلسلة من الدسائس لإرجاع الخديو السابق إلى عرشه!

وعول بلنت بعد ذلك على مقابلة غلادستون وقد كانت شهرته قائمة على أساس ميله إلى الحرية، والأخذ بيد الشرقيين جميعاً لينهضوا من سباتهم، فلما مثل بلنت بين يديه اندفع يتحدث عن الحركة الوطنية في مصر في طلاقة وحماسة، وظل غلادستون صامتاً ينصت إليه كأنه مقبل عليه مؤمن بما يقول مقدره حق قدره يقول مستر بلنت: (ثم سألني عن موقف الجيش والسبب في ظهوره في المسائل الوطنية؛ فإنه توجس من هذا الظهور فأوضحت له تاريخ الحركة وأكدت له أن ما قيل عن تدخل الجنود قد بولغ فيه، وأن تلك الرواية القائلة بأن الجنود كانوا يتوعدون النواب ويرهبونهم من الروايات المختلفة وقلت له إن الاستعدادات الحربية الحاضرة ليس لها من غرض سوى الخوف من الاعتداء والتدخل).

ولكن ماذا كان ينتظره بلنت من جرانفل وغلادستون، ولم تكن المسألة مسألة إقناع

وحجة؟ ماذا كان يأمل بلنت ولم تكن المسألة ماذا يجب أن يعمل، وإنما كانت متى ينفذ ما انعقدت النية عليه؟

وإني لأحس من قراءة ما كتبه بلنت عن مقابلته لجرانفل وغلادستون أنهما كانا ينظران إليه نظرتهما إلى غر لا يفهم ما يجب أن يسير عليه الإنجليزي في معاملة الشعوب الشرقية أو إلى ناشئ في السياسة لا يدري أن الكلام شيء والخطط المرسومة شيء آخر. ولقد علق كرومر في كتابه على مساعي مستر بلنت فقال: (ومن هؤلاء الذين عطفوا على القضية نرى أبرزهم هو مستر ولفرد بلنت ولقد عاش مستر بلنت زمناً بين المسلمين وكانت له لذة شديدة في كل شيء يتصل بهم وبدينهم؛ ويظهر أنه كان يعتقد في إمكان إحياء الإسلام على قواعده الأصلية وقد تصادف أن كان في مصر في شتاء عام 1881 - 82؛ فألقى بنفسه بكل ما تبعثه الطبيعة الشاعرية من حماسة في جانب القضية العرابية وأصبح مرشدها وفيلسوفها كما أصبح الصديق لعرابي وأتباعه؛ ورأى مستر بلنت أنه كان يعني بحركة هي إلى حد معين حركة قومية بلا نزاع؛ وفشل في أن يفهم فهماً كافياً تلك الحقيقة وهي أن سيادة الحزب العسكري كان فيها القضاء على العنصر القومي في الحركة! وكان في وقت ما يعمل وسيطاً بين السير ادوارد مالت والقوميين

ولكن هذا الاختيار لم يكن موفقاً؛ لأنه يتبين بأجلى وضوح مما ذكره بلنت في كتابه عن مساعيه أنه فيما عدا بعض المعرفة باللغة العربية لم يكن على شيء من الصفات اللازمة لتحقيق النجاح في مسألة لها ما لهذه المسألة من صعوبة ودقة. ولقد نصح القوميين أن يعنوا بالجيش وإلا غالتهم أوربا، وكان يعني النصيحة بلا ريب ولكنها كانت في غير وقتها كما كانت خبيثة، فلئن كان ثمة من خطر من جهة الغزو الأوربي فإن موطن هذا الخطر كان في انضمام الحزبين الوطني والعسكري أكثر مما كان في انفصالهما؛ ولقد كان من السهل على السياسي المجرب أن يدرك هذا، ولم يكن للمستر بلنت تجربة سياسية ذات قيمة ما وإنما كان رجلاً متحمساً يحلم أحلاماً عن يوتوبيا عربية)

هذا هو ما يراه كرومر في بلنت. وليس عجيباً أن يكون هذا رأي كرومر وهو من أساطين الاستعمار في رجل كمستر بلنت كان بلا ريب من كبار الأحرار؛ وإنما أوردنا رأي كرومر هذا لأنه يكشف عن جانب من أساليب المستعمرين الإنجليز في محاولة طمس الحقائق في سبيل الوصول إلى ما يطمعون فيه من أغراض؛ وهو من ناحية أخرى يشف عما كان يمكن أن يقابل به مسعى رجل مثل مستر بلنت في دوننج ستريت إبان تلك الأزمة التي

نحن بصددها: أزمة مقاومة الوزارة الوطنية في مصر

ولم يكن ينتظر أن يصيب بلنت غير الفشل، وقد رغبت وزارة جلادستون في تعجل الحوادث، لتفلت من فرنسا وتنفرد في وضع يدها على مصر حتى تخلص من الموقف الحرج الذي وضعها فيه مسلك فريسنيه. فإن هذا الوزير قد ذهب في تجنب العدوان على مصر إلى حد أنه كتب إلى قنصل فرنسا في القاهرة يأمره أن (يلتزم خطة التحفظ والحذر، وإن كان ذلك لا يمنعه من أن يحسن صلته بكل حكومة في مصر تحترم الاتفاقات الدولية وتحافظ على النظام).

ولقد زاد فريسنيه على هذا أن استدعى المسيو بلنير العضو الفرنسي في المراقبة لما كان يعلم من مسلكه نحو الحركة الوطنية في مصر، وباستدعاء بلنير خلا الجو لكلفن ومالت فراحا ينفثان سمومهما ويتعجلان الحوادث في غير وناء ولا استحياء . . .

وبعد شهرين من هذا وقع في القاهرة حادث المؤامرة الجركسية؛ وللقارئ أن يصور لنفسه أية فرصة كانت تلك الفرصة التي أتيحت للسياسة الإنجليزية وعلى أي صورة راحا يستغلانها لصالح دولتهما دون أي وازع من ضمير أو قانون أو عرف. ولننظر بعد ذلك ماذا كان من أمرهما وأمر الخديو في هذا الحادث العادي الذي لولا أطماع السياسة وتربص القوي بالضعيف جرياً على سنة تنازع البقاء في هذا الوجود ما كان ليعتبر شيئاً مما أثاره من قلاقل خطيرة، أو ليلد ما ولد من أحداث جسيمة

(يتبع)

الخفيف

نقل الأديب
للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي
471 - المرأة
سئل الفيلسوف سيافيدس السكيت عن المرأة فقال: همُّ الرجل، :(الكلم الروحانية)
سرّ لا يوصف، سبع معاشر، لبوة في شعارك، أفعى مستورة بالثياب، حربٌ لا سِلمَ
معها، راقدة تنبهك، حزن دائم، هلاك السخيف، آلة الفحشاء، غول إنسية، آلة لبقاء
الصورة.
472 - هذا المصير. . .
حضر الفقيه الشاعر ابن أبي الصقر الواسطي عزاء صغير، وهو يرتعش من الكبر.
فتغامز عليه الحاضرون: كيف مات الصغير وبقي هذا الشيخ في هذه السن؟ فقال:
إذا دخل الشيخ بين الشباب ... عزاءً وقد مات طفلٌ صغير
رأيتَ اعتراضاً على الله إذْ ... توفى الصغير وعاش الكبير
فقل لابن شهر وقل لابن ألف ... وما بين ذلك: هذا المصيرُ
473 - أطعمة الكسكسون
نفح الطيب: قال القاضي محمد القرشي المقري: حكى لي القاسم ابن محمد اليمني
مدرس دمشق ومفتيها أنه قال له شيخ صالح برباط الخليل (عليه السلام): نزل بي
مغربي فمرض حتى طال على أمره فدعوت الله أن يفرّج عني وعنه بموت أو صحة. .
. فرأيت النبي (صلى الله عليه وسلم) في المنام فقال: أطعمه الكسكسون - قال
يقوله هكذا بالنون - فصنعتُه له فكأنما جعلتُ له فيه الشفاء. وكان أبو القاسم يقول
فيه كذلك، ويخالف الناس في حذف النون من هذا الاسم، ويقول: لا أعدل عن لفظ
رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ووجهُ هذا من الطبّ أن هذا الطعام مما يعتاده
المغاربة ويشتهونه على كثرة استعمالهم له، فربما نبه منه شهوة، أو رده إلى عادة.
474 - بين خالد الكاتب ومليح فطن
- ما آن أن يرحمني قلبك؟!
- لا.
- حتى متى يلعب بي لبك؟!
- إلى آخر الدهر. . .
- لا أعدم الله فؤادي الهوى!
- آمين!
- يوماً ولا جربه قلبك!
- قد تقبل الله ذلك
- إن كان ربي قد قضى بالضنى!
- ماذا يكون؟
- وشدة الحب فما ذنبك؟
- سل نفسك. . .
475 - صدقك والله أعجب إليّ
قال الرشيد يوماً لأبي حفص عمر الشطرنجي: يا حبيبي، لقد أحسنت ما :(الأغاني)
شئت في بيتين قلتهما، قلت: ما هما يا سيدي، فمن شرفهما استحسانك لهما، فقال:
قولك:
لم ألق ذا شجن يبوح بحبه ... إلا حسبتكِ ذلك المحبوبا
حذراً عليك وإنني بك واثق ... ألاّ ينالَ سواي منك نصيبا
فقلت: يا أمير المؤمنين، ليسا لي، هما للعباس بن الأحنف، فقال: صدقُك (والله)
أعجب إليّ
محمد بن الجهم البرمكي: رأيت أبا حفص الشطرنجي الشاعر فرأيت منه إنساناً يلهيك
حضوره عن كل غائب، وتسليك مجالسته عن هجوم المصائب. قربه عُرس، وحديثه
أُنس، جده لعب، ولعبه جد. ديّن ماجد، إن لبسته على ظاهره لبست موموقاً لا تمّله،
وإن تتبعه لتستبطن خبرته، وقفت على مروءة لا تطور الفواحش بجنباتها، وكان ما
علمته أقل ما فيه الشعر
476 - أفسر آية من القرآن

روى أن عمر بن الحسام كان يقرأ كتاب المجسطي على عمر :(مفاتيح الغيب) الأبهري.
فقال بعض الفقهاء يوماً: ما الذي تقرءونه؟ فقال: أُفسِّر آية من القرآن، وهي قوله تعالى: (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها) فأنا أفسِّر كيفية بنيانها ولقد صدق الأبهري فيما قال، فإن كل من كان أكثر توغلاً في بحار مخلوقات الله كان أكثر علماً بجلال الله وعظمته.
477 - النبع يقرع بعضه بعضاً
مجمع الأمثال: هذا المثل: (النبع يقرع بعضه بعضاً) يروي لزياد، قاله في نفسه وفي معاوية؛ وذلك أن زياداً كان على البصرة، وكان المغيرة بن شعبة على الكوفة، فتوفى بها. فخاف زياد أن يولى مكانه عبد الله بن عامر، وكان زياد لذلك كارهاً. فكتب إلى معاوية يخبره بوفاة المغيرة ويشير عليه بتولية الضحاك ابن قيس مكانه، ففطن له معاوية فكتب إليه: (قد فهمت كتابك فليُفرخ روعك أبا المغيرة، لسنا نستعمل ابن عامر على الكوفة وقد ضممناها إليك مع البصرة).
فلما ورد على زياد كتابه قال: (النبع يقرع بعضه بعضا). فذهبت كلمته مثلاً. يضرب للمتكافئين في الدهاء والمكر.
1 - لحن الذكرى
(سمع الشاعر أغنية ألفها منذ عهد فطرب لها وبعثت له كوامن الذكريات. . .)
للأستاذ صالح علي الحامد العلوي
قَدْكَ يا شادي! ورفقاً يا وتَرْ! ... لستُ فولاذاً، ولا قلبي حجرْ!
لستُ إلا شاعراً تهفو به ... نُوَبُ الشوْق وأحلام الذكَر
كلما رَنَّتْ بسمعي نَغْمَةٌ ... فصمتْ عِقْدَ دموعي فانتثر!
رُبَّ لحنٍ ناطقٍ من وتَرٍ ... خاطبَ النفس فأشجاها وسر
ومُغَنٍ صانع ما لم يُطِقْ ... شاعرٌ إن نطق الشعرَ سَحَر
لُغةَ الوجدانِ إن لم تدْرِها ... فاسأل القلبَ يُخَبِّرْكَ الخبر!
يالها أُغنيةً، في طيّها ... للهوى تاريخُ أُنسٍ قد غبر!
رَنَّ في نفسي صَداها مُوقِظاً ... ذكريات رقَدَتْ بين الفِكَر
يالهُ لحناً، على إيقاعهِ ... رقَصَ الدمعُ بعيني وطَفَر!
حبذا أيامُ أنسٍ، كم بها ... من برود اللهو مِسْنا في الحِبَر
فرصٌ جاءتْ كما شاء الصِّبا ... هشَّ فيها الحظُّ وافترَّ القدَر
يا ربوع اللهو! هل من عَوْدة؟ ... يا رعى اللهُ زماناً فيكِ مر!
كم جنيْنا فيه أثمار المُنَى! ... وبلغنا منه غاياتِ الوَطَر!
رجِّعِ الصوت، وبلبلِ أنفُساً ... كم بها من لحنك الساري أثر!
مُحْيِياً مني مواتاً، كم طغت ... مَوْجةُ الحبّ عليه فازدهر
فأراني سابحاً في عالَمٍ ... رَفَّ في غُرِّ المعاني والصوَر
بانِياً ما بين أنقاضِ المنَى ... بُرُجاً من دونها أوْجُ القمر!
بُلبل الفنّ! أماناً! قد شَجى ... صوتك الطير، فرفقاً بالبشر!
رأفةً بالقلب لا تَعْبَثْ به ... ولك السمعُ حلالاً والبصر!
2 - الأوبة
وَكر الصِّبا! كم صَلِينا البيْن أزمانا ... والآن عُدْتُ فَهوِّنْ ما بكَ الآنا
إني على العهد باق فوق عهدك بي ... لم أسْل عنك، ولا حاولت سلوانا
لا تَلحَني فكلانا بالبِعادِ شجٍ ... تُدْلي بشكواكَ أمْ ندلي بشكوانا؟
لم أنسَ فجر الصِّبا في جانبيك ولا ... عهداً مضى فيك بالأفراح فَينانا
ولا ملاعب لهْوى في حماك ولا ... مَراحنا جانب الوادي ومغْدانا
إذ ليس نفرغُ من لهوٍ ولا لعبٍ ... إلا حثثنا إلى لهْوٍ مطايانا
ولا يهلُّ لنا شهرٌ فَنُبلِيهُ ... إلا وزادَ صِبانا الغَضَّ رْيعانا
هنا نشأتُ فكم لاقيتُ مرفهةً ... وكم رضعتُ هنا بِرّاً وتحْنانا
هنا هفا القلبُ حولَ الحسنِ مُرتمياً ... مثل الفراش حيال النورِ هَيمانا!
هنا رَشفتُ كؤوس الحبِّ طافحةً ... مَعْ من أحبُّ وعينُ اللهِ ترعانا!

في هالةٍ من شُعاع الطُّهرِ قد جَمعتْ ... مُنى الهوى والصِّبا اللاهي وإيَّانا
لا ينطقُ الأنسُ إلا من أسرَّتنا ... ولا يُرى البِشرُ إلا من ثنايانا!
وكلما ضاقَ عنا الكونُ أجمعهُ ... بَنى الخيالُ لنا في الحبِّ أكوانا!
فالناسُ يحيَوْنَ في دنيا همومهمُ ... ونحنُ في معزلٍ عنهم بدنيانا!
نعيشُ كالطير وثَّاباً برَوضته ... يميتُ ساعاتِه حبّاً وألحانا
يلهو ويشدو على الأغصان مُزدَهياً ... مُرفرفاً في الفضاء الرَّحب نشوانا
سرح قضيتُ بها فجرَ الحياةِ فيا ... تُرى يعودُ بها عَهدي كما كانا؟ . . .
والآن - يا وطني - حالتْ بنا غيرٌ: ... تجاربٌ قد أرتنا الدهر ألوانا
محا الزمانُ أضاليلَ الصّبا فعفتْ ... لولا بَقيَّاتُ حبٍ في حنايانا
وفي الحشا ذِكَرٌ أنسَيْتها خَلَدي ... فلا أُحيلُ بها الأفراح أشجانا
ولستَ تنقمُ إلا أنني رجلٌ ... أختطُّ من تلعاتِ العزِّ أوطانا
ما اعتضْتُ بالأهل والإخوانِ من بدلٍ ... وإنْ أضفتُ لهمْ أهلاً وإخوانا
عُدْ للسرورِ تَعُدْ للهو ثانيةً ... وزِدْ نزِدْ بك في اللذات إمعانا!
(حضرموت - سيوون)
صالح بن علي الحامد العلوي
وداع الحمراء
(من ديوان (رجع الصدى))
للأستاذ حسن كامل الصيرفي
وقف أبو عبد الله آخر ملوك العرب في الأندلس على التلة التي أطلق عليها الأسبان (تلة الدموع) يودع غرناطة وهي تتوارى عن عينيه، وألقى النظرة الأخيرة على قصر الحمراء مغمورة بالدمع محفوفة بالتنهدات، وقد ودع بهذه النظرة الدامعة والحسرة اللاذعة مجد العرب الضائع وفردوسهم المفقود. . . وكأن دموعه تنظم في انحدارها هذه الأبيات:
وَدَاعاً جَنَّتي وقرار قُدْسِي ... ومظهر عِزَّتي وجلالَ أمسِي
لقد طَغَت الخطوب عليّ حتى ... فقدتُك بين ضَعضعتي ويأسي
وأسْلَمني العِثارُ إلى شقاءٍ ... يقودُ الحظَّ من تعسٍ لتعسِ
وما أنا غيرُ مخلوقٍ توالتْ ... عليه كواكبُ الدنيا بنحس
تغيبُ عرائس الدنيا أمامي ... وتغربُ في مواكِبهنَّ شمسي
وتَهْوِي كل آمالي حُطاماً ... تجرُّ إلى الفناءِ حُطامَ نفسي
وتغرق في دموعي ذِكْرَياتٌ ... تذوبُ كأنهنّ حَبابُ كأس
وأعتصرُ الفؤادَ عليك حزناً ... فلا أجِدُ العزاء ولا التأسي
دَفنْتُ بك العظائمَ خالداتٍ ... وملت أخطُّ في الآلام رَمسي
وما أنا غيرُ آدَمَ هامَ يبكي ... على فِرْدَوْسهِ في دارِ بُؤسْ
لقد باعَ الجِنانَ بغير ذُلٍ ... وبعت أنا الجنان بخفض رأسي
حسن كامل الصيرفي
دم عجيب
للأستاذ محمد العلائي
هاهنا الجرحُ يا طبيبُ فحاذرْ ... أن تهيجَ الدفينَ من بُرَحائِه
وامسسْ الجرحَ يا طبيب برفق ... فدم الجرح ثائر تحت دائِه
صُنْ دمَ الجرح يا طبيب وأبعدْ ... عن عيون الجريح لون دمائه
واحتفظ يا طبيب بالدم وأحذر ... أن يمسّ التُّرابَ بعد غلائه
ضمّد الجرح يا طبيب برفق ... ضل راميه في سبيل رجائه
رَمْيَةٌ يا طبيبُ من يدِ رامٍ ... عبد الظلمِ في دِمَا أبرِيائه
أرسلَ السهمَ يا طبيبُ وسَمّى ... فأصاب الكَمِيّ في كبريائِه
محمد العلائي
حيرة
للأستاذ فريد عين شوكة
سأهجرُهُ وأنساهُ ... ولا أهفو لذكراهُ
حبيبٌ، كلما أفضى ... له قلبي بنجواهُ

وضجّ إليه بالشكوى ... من الحبّ وبلواهُ
!!تبسّمَ ضاحكاً! وغفا ... عن الشاكي وشكواه
!سأهجرُهُ! وهل أقوَى ... على الهجر وطغواهُ؟
!وهل يرتاح لي قلبٌ ... سَقَتْهُ السحرَ عيناهُ
!!وهل ترتاح لي عينٌ ... يُنَوِّرها مُحَيّاهُ
!وكيف أُطيق أن تثْبَتَّ (م) ... عن دُنيايَ دُنياهُ
!!ويلقاني فأنكرُهُ!! ... ويحرمني تحاياهُ
كأنْ ليستْ لنا كالنا ... سِ آذانٌ وأفواهُ
أخافُ عليكَ يا قلبي ... حنينَكَ حين تلقاهُ
!أخاف عليك أن تسعى ... إليه قبل مسعاهُ
لكَمْ أقسمتَ: لن تغدو ... أسيراً من أساراهُ
وكم جافَيْتَهُ لمَّا ... جَفَاكَ، وكدْتَ تنساه
فلما جاء مُعتذراً ... غفرْتَ! وسامحَ اللهُ
فريد عين شوكة
طفل
(من ديوان (إشراقة) تحت الطبع)
للشاعر السوداني المرحوم التيجاني يوسف بشير
تبارك الذي خلقْ ... من مضغة ومن علقْ
!سبحانه مصوّراً ... من حمأة الطين حدق
شق الجفون السود واس ... تل من الليل الفلق
واستخرج الإنسان من ... محض رياء وملق
مفترعاً من فمه ... سر البيان فنطق
وجاعلاً بين حنايا ... هـ فؤاداً فخفق
بث القوي فيه دماً ... أحمر أو عظماً يثق
من عدم لعدم ... ومن عناء لرهق
ضج الثرى من رجم ... مشيد ومن نفق
سبحانه كم ألهم العقل ... جنوناً وحمق
يشك ما يحيا وإن ... أشفى على الموت فرق
وكم تعالى حميت ... عنه قلوب من خلق
!سبحانه قد وضحت ... آثاره فينا ودق
رمى بهذا الطفل في الأر ... ض ومن ثم رزق
رمى به في موكب الدن ... يا مثالاً للقلق
يدير عينيه ويستف ... سر عن سر الشفق
!كأنه يصرخ: إن المو ... ت بالشمس علق
التيجاني يوسف بشير
رسالة الفن
دراسات في الفن:
الفن علامة الإنسانية
للأستاذ عزيز أحمد فهمي
قال جاجاديز بوز العالم الهندي إن النبات يتألم ويئن وأثبت ذلك. وأغلب الظن أن جاجاديز بوز لو لم يكن شرقياً لكثر عليه أن ينسب الألم والتعبير عنه بالأنين إلى النبات، ولاكتفى بقوله إنه تبدو فيه اهتزازات واضطرابات تشبه انفعالات الألم عند الإنسان. فهذا هو نهج الغربيين من العلماء الذين يتصدون لدراسة الحياة: يؤثرون أن ينكروها أولاً ثم أن يبحثوا عنها ثانياً على خلاف ما يفعل الشرقيون الذين يشعرون بها أولاً ثم يتعرفونها ثانياً بادئين بأنفسهم غير منتهين إلى شيء، لأنهم يؤمنون بالروح ويحبون بطبعهم أن ينسبوها إلى الأحياء جميعاً ولا يسمحون لأنفسهم أن يقولوا ما قاله بعض علماء الغرب من أن الحيوان نفسه مسلوب الروح وأن كل ما يبدو عليه من إمارات الوجدان والعاطفة ليس إلا ردود أفعال لاهتزازات عصبية مادية تعتري الحيوان في ظروف خاصة وتبعاً لمؤثرات خاصة. وهم يذهبون في نكرانهم هذا إلى ابعد الحدود

حتى لينكرون هذا الفرح الذي يعتري الكلب في استقبال صاحبه الغائب، وهذا الحزن الذي يعتريه لوفاة صاحبه الوفي والذي يحمله على الإضراب عن الطعام والشراب حتى يموت موتاً. ينكرون العاطفة الروحية على الحيوان ويقولون إنه لا يفرح للقاء صاحبه وإنما هو يضطرب لأن مرأى صاحبه يثير في نفسه أو في أعصابه صور الطعام والنعم التي يغدقها عليه، ثم يقفون أمام الكلب المنتحر من الحزن والأسى، وقد طأطئوا رؤوسهم يفكرون في هذه القوة التي نقَّت الحيوان من أخص خصائص حيوانيته فأهمل الطعام والشراب والحياة نفسها. . . يخفضون الرؤوس أمام هذا الكلب طويلاً يبحثون في أذهانهم عن علة صيامه؛ فإذا قال لهم قائل إن الحزن والأسى هما السبب انتفضوا وقالوا: لا. نحن لا نعرف. ولكننا نأبى أن يكون في الحيوان روح وحياة. أما بقية الناس فمنهم من لا يرون في فرح الكلب وحزنه إلا اضطرابات واهتزازات وانفعالات وردود أفعال عصبية مادية لا روح فيها ولا حياة، وهؤلاء يقبلون أن يصدقوا هؤلاء العلماء لأنهم مثلهم، وأن يثبتوا معهم أمام الكلب ينكرون عليه فرحه وحزنه إلى أن يقول لهم بلغة من اللغات الأوربية: إني فرح وإني حزين. ومن الناس من يحسون ويشعرون ويبادلون الحياة الشهقات والزفرات وأولئك آمنوا من هدى أنفسهم أن في الحيوان روحاً وحياة، وهم يسارعون إلى جاجاديز بوز يصدقونه حين يقول: إن النبات يتألم وينفعل بوجدان، ويئن وينطلق بتعبير. ويخرجون من هذا بأن الحيوان أولى من النبات به.

ورضي الله عن جاجاديز بوز الذي استطاع أن يثبت رأيه إثباتاً علمياً استخدم فيه آلات المعامل وأحماضها وأملاحها فلم يعد هناك مجال لإنكار ما أثبت، بل لقد عد صنيعه هذا من كرامات البشرية الحديثة فمنحه الغرب جائزة نوبل التي يتعزز بها على الشرقيين أثبت الشرق إذن أن النبات يتألم وأنه يئن من الألم، وقد يكون الألم علامة الروح الوحيدة في النبات وقد يكون معه غيرها ولكنه على أي حال يكفي للتدليل على الروح، فهو يستطيع أن يشملها وهو الذي ينزع بها إلى الخلاص! وهو - أخيراً - حسبنا من علامات الروح في النبات

فإذا ارتفعنا من النبات إلى الحيوان في سلسلة التطور والارتقاء الحيويين رأينا الحيوان يمتاز على النبات في الظاهر بالحركة. ورأينا الحيوان في حركته واحداً من أثنين: إما خسيسا يتحرك في حياته حركات متشابهة متكررة لا تعديل فيها ولا تجديد ولا محاولة تدل على قدرة التلاؤم مع الحياة. وإما رفيعا يتحرك في حياته حركات مختلفة يطرأ عليها التعديل كلما تغيرت الأحوال، ويطرأ عليها التجديد كلما استدعت الظروف التجديد، وتتحور ويتزايد وضوح المحاولة التي تدل بها على قدرة التلاؤم مع الحياة أما خسيس الحيوان فقد يسهل تصوره محروماً من العقل إذا اعتبرنا أن العقل هو القوة التي تمكن الكائن الحي من الملاءمة بين نفسه وبين ظروف الحياة الطارئة المتجددة. ولكن هذا إذا سهل علينا تصوره، فإنه يتعذر علينا (بعد الذي أثبته جاجاديز بوز) أن نتصوره خالياً من القوة الروحية التي يثور بها في نفسه وجدان الألم على الأقل. فإذا كنا ممن يؤمنون بالتطور والارتقاء الروحيين إلى جانب التطور والارتقاء البدنيين، فإننا من غير شك نتوقع أن يكون في أدنى الحيوان من علامات الروح شيء إلى جانب الألم، لأنه قد

ثبت أن النبات يتألم، والحيوان مهما كان دنيئاً فهو من أرقى حياة وروحاً من النبات، إذ أنه كلما ارتقى الكائن الحي ارتقت روحه وزاد إحساسها وزادت قدرتها على التعبير عن نفسها

أما الرفيع من الحيوان الذي تتضح مقدرته على التلاؤم مع ظروف الحياة الطارئة المتجددة، فهذا يصعب تصوره محروماً من العقل لأن فيه من مظاهر العقل.

صحيح أننا نرى في سلوك الحيوان ما يدل على الغباء أحياناً وما يدل على الغفلة وما يدل على الجهل، ولكننا إذا تدبرنا هذه المواقف التي يظهر فيها غباء الحيوان وغفلته وجهله رأينا أكثرها مما تصطنعه ظروف غير طبيعية في الحياة. ولما كان الحيوان حيواناً وليس أستاذاً من أساتذة العلم الحديث فإنه المسكين يحار ويختبل أمام هذه الظروف الطارئة التي لم يسبق لأجداده الوقوع في مثلها وتجربتها ومعالجتها سبقاً متكرراً كان يمكن أن يهيئه للتغلب عليها، وهو في هذا لا يزال يشبه أساتذة العلم الحديث حينما يقعون أمام المشكلات الحديثة المستغلقة. . . أليسوا هم أنفسهم

يحارون ويختبلون؟ ألا يصدر عنهم من الأعمال ما يدل على الغباء والغفلة والجهل كما تصدر عن الحيوان أعمال تدل على هذى؟ إنهم هكذا من غير شك وإن في الحيوان عقلاً ولو تضاءل أمام عقل الإنسان وتواضع فإنه موجود لا يمكن إنكاره

فإذا اعترفنا للحيوان الراقي بوجود العقل، أو بوادر العقل فيه، فإننا لا نملك إذن إلا أن نعترف له إلى جانب هذا بوجود الإحساس والعواطف فيه أيضاً، وقد نستغني عند هذا الحيوان الراقي عن براهين جاجاديزبوز إذا كنا ممن يرون ويشعرون ويحسون ويدركون الأشياء من غير أجهزة ومقاييس وموازين فإذا لم نكن من هؤلاء فقد قال جاجاديزبوز العالم من الهند إن النبات يتألم ويئن، وأثبت هذا إثباتاً يقنع عقل الغرب كما يرضي عقل الشرق، وأصبح من المكابرة بعد هذا أن تنكر الأحاسيس والعواطف على الحيوان، خصوصاً الحيوان الراقي الذي يسلك في حياته سلوكاً يشبه سلوك الإنسان فيبحث عن طعامه بحثاً منطقياً، ويتقي عدوه اتقاء منطقياً، ويبني مسكنه بهندسة منظمة بل إنه يمكر أحياناً، ويتخابث ويحتال، مما يدل دلالة قاطعة على أنه حي يقظ يحاول أن يلائم بين نفسه وبين ظروف الحياة الطارئة فينجح أحياناً، ويفشل أحياناً، ولكنه لا يكف عن المحاولة ما دام حياً

فإذا تركنا حياة النبات والحيوان وقد تراءت لنا الروح فيها وعرجنا على حياة الإنسان رأيناها أنضج من حياتيهما في نواحيها الثلاث: النبات يحس ويعبر عن إحساسه، والحيوان يحس ويعقل ويعبر عن إحساسه وعقله، والإنسان يحس ويعقل ويعبر عن إحساسه وعقله

فهل يزيد الإنسان على الحيوان في شيء. . .؟

لا جاجاديزبوز ولا حتى أنا نرضى بهذا! ولا يرضى به شرقي

قد كان من الممكن أن يقال هذا لو لم نقل إن الإنسان حلقة جديدة هي أرقى الحلقات في سلسلة التطور والارتقاء في الخلائق. وما دمنا قد قلنا هذا، وما دمنا رأينا التطور والارتقاء الماديين يلزمهما تطور وارتقاء روحيان، فلا بد أن يكون في الإنسان ميزة روحية ترقى به على الحيوان إلى جانب رقيه البدني المادي.

فما هي هذه الميزة الروحية؟

لنعد مرة أخرى إلى النبات والحيوان نتتبع فيهما منطق التطور والارتقاء لنهتدي به فيما نريد أن نعرفه من علامة الإنسانية التي لو فقدها الإنسان لم يكون غير حيوان، وإن نطق! فليس النطق على أشرف صورتيه إلا محاولة عقلية. . . أما الصورة الأخرى فهي التي نعرفها من الببغاء التي أنطقها الله لأمر ما، والتي لعله سبحانه أراد حين أنطقها أن يدرك المبتصرون شيئاً من تشابه الخلائق، وبريقاً من التوحد يسطع منها جميعاً، وإن تفاعلت وتبدلت وتطورت وارتقت. . .

النبات يرتقي حتى ليشابه الحيوان في حلقة الإسفنج، والحيوان يرتقي حتى ليشابه الإنسان في القرد أو ما هو أرقى خلقاً من القرد وهو الحلقة المفقودة التي ذكرها العلماء. وقد رأينا الإحساس يبدأ في الحياة أولاً ومعه تعبير صامت عنه، ثم نرى العقل ينشأ في الحيوانات المحتالة ومعه تعبير غامض عنه لم يثبت بعد للعلم، ولكننا قبل أن نترك حلقة الحيوان إلى حلقة الإنسان نرى الحيوان يعبر عن إحساسه تعبيراً فيه تدليل على ذاته، وهو أشبه التعبير بالغناء البشري. فإذا تركنا حلقة الحيوان ومضينا إلى ما بعدها في سلسلة التطور والارتقاء وهي حلقة الإنسان رأينا هذا التعبير الذي يحاوله الحيوان في انحصار يتضح عند الإنسان وينفرج حتى ليسخر له الإنسان الأرقى حواسه جميعاً يجمع أصوله بها ويطلقه فيها، ثم يصدره معبراً عن ذاته كما يفعل البلبل والكروان ولكن في صور أكثر من صورهما، ثم معبراً بعد ذلك عن غيره، وهو مالا يفعله أحد من الحيوان، لا البلبل ولا الكروان.

ونحن إذا حاولنا أن نجد شيئاً ظاهراً يميز الإنسان مما عداه من المخلوقات في هذه الظاهرة لم نجد شيئاً. ذلك أنه إذا حسبنا النطق يميز الإنسان فالببغاء ناطقة، وإذا حسبنا الحياة الاجتماعية تميز الإنسان فالذئب والقرد والوعل حيوانات اجتماعية، وإذا حسبنا الإحساس يميز الإنسان فقد رأينا الحيوان بل والنبات يحسان، وإذا حسبنا العقل فالحيوان يعقل وإن أنكر العلماء، وهكذا فإننا نعجز في التفريق بين الحيوان والإنسان إلا باثنتين! هذه الظاهرة التي سجلناها، وظاهرة أخرى هي الدين. . . على انه يمكن بسهولة تامة أن نتصور النبات والحيوان والجماد معهما متدينين جميعاً إذا اعتبرنا أن

الدين هو الإسلام وهو نهج النظم الطبيعية التي تؤدي إلى السلامة، وإذا لحظنا أن الأديان لم تلزم الإنسان إلا بعد أن انحرف عن نهج النظم الطبيعية التي كان يجب عليه أن ينهجها لتسلم حياته من الأضرار وأمراض البدن والروح، لم يبق أمامنا من شيء يميز الإنسان على سائر الكائنات غير هذه الظاهرة التي ذكرناها

فما هي هذه الظاهرة؟

إنها الفن!

وهذه الظاهرة تسلك حين تسري في الإنسانية مسلك كل ظاهرة من ظواهر التطور والارتقاء. وقد رأينا ظواهر التطور والارتقاء تبدأ في الدنيء من الخلائق على صورة يسيرة غامضة، ثم تزدهر وتتضح وتتضح حتى تتميز تميزاً تاماً واضحاً ملموساً فيكون هذا التميز طابعاً لهذا الفريق من الخلائق ويكون هذا الفريق أنضجها وأرقاها في هذه الناحية

وكذلك الفن. نواته موجودة في البشر جميعاً لأنهم الحلقة الحيوية التي اختصتها الطبيعة به وهيأتها له. والدليل على ذلك أن الناس جميعاً يستجيبون للفن أو هم على الأقل يطربون للموسيقى. وما كانوا يملكون إلا هذا ما دام في الحيوان ما يغني كالكروان والبلبل، وما دام فيه ما يستجيب للصفير (وهو ضرب من الموسيقى) كالثعبان. وليس غناء الكروان والبلبل واستجابة الثعبان وطربه للصفير إلا بشيراً بالفن أو بأنغامه على الأقل بشرت به الحياة الخلائق في الحيوان، وحققته تحقيقاً تاماً في الإنسان؛ غير أن الناس ليسوا سواء في تكوينهم الفني، وليس في هذا عجب لأن الناس ليسوا سواء في شيء من الأشياء، ولأن

طبيعة الحياة أن تتشابه في العموميات، وأن تختلف في التفصيلات ليثبت لذوي الأبصار أن هذه الخلائق لا تصنع في مصنع فيه آلات وفيه قوالب وإنما تخرجها إرادة فنان يأبى أن يتكرر حين يتوحد سبحانه من فنان!

فإذا راق لنا أن نؤمن بهذا وأن نعتبر الفن علامة الإنسانية التي تسمو بها على الحيوانية والتي لا يمكن الإنسان أن يكون إنساناً إلا إذا اتصف بها. . . إذا آمنا بهذا لزم أن يكون أقرب الناس من الفن أنضجهم إنسانية. ولزم أيضاً أن نتوقع لهذه العلامة الإنسانية أن يتزايد وضوحها وتمكنها حتى تشمل البشر جميعاً، وعندئذ تبتدئ بشائر الميزة الجديدة التي يريد الله أن يطبع بها الحلقة المقبلة من حلقات التطور في الخلائق. . ومن يدري أي شيء سيكون هذا الطابع، وأي ميزة ستكون هذه الميزة؟! لعلها ميزة العقل الذي يطالبنا به الله لا عقل العلم الحديث

فإذا كان الأمر كذلك كان ما يسعد الفن هو ما يسعد البشرية، وكانت كل محاولة يراد بها التقليل من شأن الفن محاولة مجرمة تعرقل التطوّر البشري

فهل تنهج الإنسانية في حياتها الحالية نهجاً فنياً يسعدها ويرقى بها؟ أو هي قد انحرفت عن طريق الفن إلى طريق آخر لا يمكن أن يقيد بها مهما كان صالحاً ومهما كان فيه خير لنواح بشرية غير ناحية الحس الروحي؟

إن الإنسانية قد انحرفت إلى هذه الطريق منذ أمنت بالحضارة والعلم اللذين يحتضنان المادة

وإنه من الخير لها أن تفيق وأن تعود إلى حياة الحس الروحي فينتعش فيها الفن وتنتعش فيها الروح وترقى، وهذه سنة الله لو أردنا أن نتبع سنته

عزيز أحمد فهمي

كتاب الدين والعقل

أو برهان القرآن

تأليف الأستاذ أحمد حافظ هداية

هو في استنباط براهين عقائد الإسلام من القرآن الكريم على وجه الحصر والاستيعاب مثبتة بأحدث النظريات العلمية. يحتوي على مقدمة وسبعة أجزاء هي: (البرهان القاطع في وجود الصانع)، (الرسالة وبعثه الأنبياء عليهم السلام)، (البعث والميعاد)، (محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم)، (القرآن كلام الله)، (إن الدين عند الله الإسلام)، (ميزان الأديان). وهو في أربعمائة فصل مصدرة بدلائلها في القرآن على أسلوب جديد لعلم الكلام وقد اطلع عليه كثير من كبار العلماء فشهدوا بأنه وحيد في بابه لم ينسج على منواله كتاب من قبل

وحسبنا أن نقطتف منها هذه الكلمات:
قرأت المؤلف النفيس المسمى (الدين والعقل أو برهان القرآن) فألفيته مؤلفا . . .)
(نفيسا نافعا وأسأل الله أن ينفع به الخلق أجمعين
الأحمدي الظواهري شيخ الأزهر السابق
كتاب جمع بين المعقول والمنقول وألم بطريقة المتقدمين والمتأخرين فما . . .)
(أجدره بان يسمى (الدين والعقل) فقد أبان أنهما متآخيان، ولسعادة الدارين داعيان
يوسف الدجوي عضو جماعة كبار العلماء
(وجدته من خير ما يخرجه عالم في هذا العصر في أسلوبه وموضوعه وبحوثه . . .)
محمد زاهد الكوثري
وكيل المشيخة الإسلامية بدار الخلافة سابقاً
يفتتح الجزء بأدلة من القرآن العظيم ثم يفيض في الموضوع الذي هو بصدده . . .)
مستدلاً بأقوال أساطين العلم من المسلمين والأوربيين مطبقاً آيات القرآن على أحدث
نظريات العلوم. وبذلك قد سد هذا الكتاب النفيس فراغا في الناحية العلمية الدينية
كان يجب
(أن يسد قبل اليوم بقرون
عبد الوهاب النجار
وجدتك في هذا الكتاب تنحو نحو آيات القرآن في إثبات العقائد الدينية وتعول في . . .)
بحثك على ما ظهر من الكشف العلمي الطبيعي والروحي في الآفاق والأنفس وهي
(الطريقة المثلى التي يجب على الباحثين اتباعها في زماننا هذا وما بعده
طنطاوي جوهري
جاء هذا التأليف جامعاً للأدلة العقلية على صحة الشريعة المحمدية جمعا وفق . . .)
(فيه المؤلف إلى الغاية، وعزز كل دليل بآية
شكيب أرسلان
جلى فيه سمو الأصول الإسلامية وتعاليم الكتاب الكريم ودلل على أنها الغاية التي
ليس وراءها مطمح فكان فيما كتب موفقاً كل التوفيق
محمد فريد وجدي
والكتاب في ثلاثة مجلدات يطبع الآن بمطبعة الرسالة أحسن طبع وعلى أجود ورق.
وقيمة الاشتراك في المجلد الواحد قبل الطبع 10 قروش صاغ وفي المجلدات الثلاثة
25 قرشا. ويكون الثمن بعد الطبع 15 قرشا عن المجلد و45 قرشا عن الكتاب كله.
والاشتراكات ترسل باسم مجلة الرسالة بشارع المبدولي رقم 34 - عابدين القاهرة
رسالة العلم
عمل أفوجادرو ونجاح ماندلييف
للدكتور محمد محمود غالي
بساطة النسب الثابتة في التراكيب الذرية - كشف (جاي ليساك) - عدد (أفوجادرو) -
معلومات عددية عن الذرة - دورية (ماندلييف) - عمل ماندلييف في الكشف عن
العناصر يشبه عمل: (ليفيرييه) (وكلايد تومبلوج) في الكشف عن الكواكب الجديدة.
كان لا بد لنا ونحن نذكر قصة العلوم والطَّفرة التي حدثت في العالم في المائة
والخمسين سنة الأخيرة، تلك الطفرة التي لا يمكن أن يتكهن أحد بمدى ما تبلغه من
التقدم، أن نورد تلك الخطوة الموفقة للعالم الإنجليزي الكبير (دالتون) صاحب الفرض
الذري، ذلك الفرض الذي مهد له العالم الفرنسي (بروست) الذي لاحظ وجود نسب
ثابتة بين العناصر عند اتحادها. ومن العدل قبل أن نعطي القارئ صورة مما أفاده
العلماء من هذه الحالة الجديدة أن نذكر أن (دالتون) لم يستفد من ملاحظات
(بروست) فحسب، بل أيضاً من تجارب فريق من العلماء، تجارب كان لها أثر كبير في
تدعيم الفكرة الذرية عنده، ولا مشاحة في أن لتجارب التي لا ندخل في تفاصيلها، أثراً
عند (دالتون) للوصول إلى الفكرة الذرية التي كان من المحال بدونها أن نشهد هذا
العهد من التقدم العلمي، وأن نلحظ هذه الدعامة الكبرى التي قامت عليها العلوم
الكيميائية، فاتخذت في جوهرها وتفاصيلها طريقاً يختلف منذ (دالتون) عن الطريق
المموج الذي انتحاه كيميائيو القرون الوسطى.
ومن الفائدة أن نذكر القارئ مرة أخرى بمنشأ الفكرة الذرية التي نشأت عندما أراد

العلماء التفريق بين المزج الطبيعي والاتحاد الكيميائي. ففي الأول تمتزج مادتان بأية نسبة نريدها، وفي الثاني تتحد مادتان بنسبة محددة، وقد سبق أن قدمنا أنه للحصول على الماء من الأكسيجين والهيدروجين لا بد من مراعاة نسبة بينهما معينة، فإنه لا يتحد إلا وزن معين من أحدهما مع وزن معين من الآخر. هذه الحوادث وأمثالها أدت بدالتون إلى كشف قانون النسب الثابتة الذي كان الأساس في النظرية الذرية، وفي التعرف على شخصية الذرة.

على أن أهم ما في قانون النسب الثابتة لدالتون هو أن هذه النسب بسيطة وواقعة بين العددين 1 و 4 على أكثر تقدير بمعنى أن العناصر تتحد بنسب بسيطة واقعة بين 1 و 1

إلى 1 و 4. ولا نزاع أنه كان من حسن الحظ إن كان الاتحاد الكيميائي وفق نسب محدودة لا تتجاوز أربعة أضعاف، إذ لو كانت هذه النسب مرتفعة بأن تتحد مادتان بنسبة 1 إلى 200 أو 1 إلى 1000. لاختلاط الأمر على دالتون، ولشق على هذا العالم أن يجد خلال هذا النوع من الأبحاث الفكرة الذرية.

على أن النسب المرتفعة لم تُكشف إلا بعد مدة كبيرة عندما اكتُشفت في المركبات العضوية في زمن كانت الذرية قد تدعمت وأصبحت من الحقائق العلمية المسطورة التي يتناقلها العلماء ويتعمق في تطبيقها الباحثون.

لم يقف التقدم العلمي الخاص بالذرة على اكتشاف (دالتون) (1807). فقد كشف العالمان جاي ليساك - 1805 وإسكندر دي أن هذه النسب البسيطة الموجودة عند اتحاد العناصر بعضها ببعض لا تخص الأوزان فحسب، بل إن ثمة نسباً ثابتة موجودة في الغازات بين أحجامها أيضاً بمعنى أن غازين مختلفين لا يتحدان فقط بنسب ثابتة في الوزن، بل بنسب ثابتة في الحجم - هذا القانون لجاي ليساك صادف حرباً عواناً من جانب العالم دالتون ولكنه أدى إلى كشف حقيقة جديدة إذ قرر أفوجادرو أن في الأحجام المتساوية تحوي الغازات عدداً واحداً من الجزيئات، حقيقة أود أن يتأملها القارئ قليلاً ويتأمل بساطتها وعظمة ما تحمله في طياتها من أعجب ما نعرفه من حقائق الكون

هذا الكشف حدد عدد الذرات المتحدة بعضها مع بعض، إذ عندما ذكرنا أن جرامين من الهيدروجين يتحدان مع 16 جراماً من الأكسيجين ليتكون منهما الماء، أدرك بروست وفينزل وريشتر ودالتون وغيرهم أن ثمة عدداً معيناً من ذرات الهيدروجين اتحدت مع عدد معين من ذرات الأكسجين، ولكن هذه النسبة الثابتة في الأوزان لا تكشف هل اتحدت ذرة واحدة من الأكسيجين مع ذرة واحدة من الهيدروجين أو اتحدت ذرة واحدة من الأكسيجين مع ذرتين من الهيدروجين. ولكن عندما نعرف ما كشفه أفوجادرو من أن في الحجم الواحد يوجد العدد ذاته من الجزيئات، وعندما نعرف وزني حجمين متساويين من الغازين المتقدمين، يمكننا أن نعرف أمراً مؤكداً اليوم وهو أن ذرتين اثنتين من الهيدروجين اتحدتا مع ذرة واحدة من الأوكسجين ليكونا ذرة من الماء. هذا التحديد الذي كان لجاي ليساك وأفوجادرو الفضل الأكبر فيه كان الخطوة الثانية بعد عمل دالتون العظيم. بعد ذلك حسب

العلماء بدقة الوزن الذري لكل العناصر معتبرين وزن ذرة الهيدروجين كوحدة ونسبوا إليها ذرات العناصر الأخرى

هنا تنوع الفن التجريبي وأبدع العلماء في مختبراتهم بما رفع الكيمياء على حد قول ريشنباخ إلى مصاف العلوم الصحيحة، وبهذا التنوع في التجارب وما أحدثته الذرية من تقدم وما أحدثته معها السينيتيكية من تصحيح في معارفنا أمكن للعلماء الحصول على معلومات عددية عن الذرات غاية في الدقة وعظيمة الدلالة، هذه الذرات، هذه الشموس التي كشفوها في المادة يبلغ قطر الواحدة منها حوالي واحد على عشرة ملايين من المليمتر، ولكي نتصورها يجب أن نتصور كرة من الصلب يبلغ قطرها 3 , 5 من السنتيمتر من تلك الكرات التي يدور عليها عجل السيارات، والتي تبلغ كرويتها في المعتاد درجة عظيمة من الدقة، وعلى القارئ أن يتصور بعد ذلك أن النسبة بين حجم هذه الكرة الصغيرة من الصلب وبين حجم الذرة كالنسبة بين حجم الكرة الأرضية وحجم هذه الكرة من الصلب، وبعبارة أخرى إن الأرض وما عليها من قارات ومحيطات تكبر هذه الكرة الصغيرة بقدر ما تكبر هذه الكرة الذرة

أما عن وزن الذرة فإذا اتخذنا الهيدروجين مثالاً ليصور لنا
الحالة علمنا أن وزن ذرة الهيدروجين حوالي 10 241 من
الجرام أي واحد على مليون مليون مليون المليون من الجرام،
وإذا علمنا أن وزن الأرض يزيد قليلاً عن 5 2710 جراماً
فإن النسبة بين وزن الكوب الفارغ إلى وزن الأرض أكبر
بكثير من النسبة بين وزن ذرة الهيدروجين ووزن هذا الكوب.
وإذا كان يعيش في هذا الزمن على سطح الكرة الأرضية
حوالي ألفي مليون من البشر فإنه يوجد في ال س م3 من
الهواء 27 كانتيليون من الجزيئات أي ما يربو على ملايين
المرات عدد ما يدب على الأرض من إنسان وحيوان، ومع
ذلك فإن الفراغ الذي يوجد حولها يزيد بكثير من الفراغ الذي
يوجد حول إنسان في مسكنه، فإن المسافة بين جزيئين
متجاورين (في الحرارة والضغط العادي) تساوي مائة مرة
قدر قطر الجزيء، وبهذا يجوب الجزيء عالمه بسرعة عجيبة
تبلغ في الهيدروجين حوالي 1 , 7 كيلو متر في الثانية
الواحدة أي أنها تقطع المسافة بين مصر والإسكندرية في
دقيقتين في الوقت الذي يقطعها فيه أسرع قطاراتنا الحديدية في
ساعتين
هذه الأرقام صحيحة. وليس المجال هنا لنذكر الطرق العديدة والمختلفة التي اتبعها
العلماء توصلاً إلى النتائج ذاتها بطرق مختلفة
هذا موجز ما نعرفه عن الذرة التي تفترق عن الجزيء في أنه بينما نستطيع بالطرق
الكيميائية أن نجزئ الأخير إلى ذرات، فإننا لا نستطيع بهذه الطرق أن نجزئ الذرة إلى
جسيمات أصغر منها، ولم يتصور العلماء حتى عهد قريب أيا من العمليات العديدة التي
لا تمت للكيمياء في شيء، والتي يمكن بها اليوم القيام بهذه العملية الأخيرة من
تجزيء الذرة.
من هنا حدد العلماء تعريف العنصر الكيميائي أنه مادة أولية لا يمكن بالطرق الكيميائية
تقسيمها إلى عناصر أخرى، ومن ثم اتضح أن معظم المواد التي تصادفنا في الطبيعة
هي مركبات كيميائية تتطلب عملية خاصة لتحليلها إلى عناصرها الأولى. فالماء وهو
أكثر المواد شيوعاً على الأرض مركب من الأوكسيجين والهيدروجين، والهواء من
الأوكسجين والأزوت، وهكذا اضمحلت فكرة القدماء الذين اكتفوا بتقسيم الكون إلى
ماء ونار وأرض وهواء، وانتهى عصر الكيمياء القديمة وبدأ عهد جديد يرجعون فيه
المواد مهما تعددت إلى
عناصر معروفة، حتى المواد العضوية المكونة للأحياء ترجع إلى مركبات كيميائية
معروفة يغلب فيها عنصر الكاربون حيث يعظم فعله، وكما قدمنا يعزو فريق من
العلماء الحياة نفسها إلى أن مركبات هذا العنصر الأخير تتحد مع غيره من العناصر بما
يجعل الجزيئات الجديدة كثيرة الذرات كثرة من الصعب إحداثها بالطرق العادية، ورجح
هؤلاء أن هذا هو الفارق بين المادة الحية والمادة عادمة الحياة، ورجحنا من ناحيتنا أنه
لا بد أن تكون ثمة أسباب أخرى نجهلها تجعل فارقاً بين النوعين في التكوين
هذه المجموعة من العناصر الكيميائية، المبتدئة بالهيدروجين والمنتهية بالأيرانيوم ذلك
العنصر المشع الذي نبه على خواصه الإشعاعية بكارل في آخر القرن الماضي، لا تكون
مجموعة منتظمة، بل مجموعة تحمل نظاماً مستتراً، ففي سنة 1860 بين الباحثان
الروسي والألماني لوتر ماير أن العناصر مرتبة وفق نظام
والواقع أننا لو رتبنا العناصر وعددها واحد وتسعون عنصراً وفق وزنها الذري مبتدئين
بالعناصر ذات الوزن الذري الخفيف ومنتهين بالعناصر ذات الوزن الثقيل، فإن هناك
حالة تظهر في تتابع خواصها الكيميائية، بحيث يتخذ الهيدروجين أول مكان في هذه
العناصر فيكون مجموعة بمفرده يليه غاز الهيليوم مكونا طرف الدورة يتبعه الليتيوم،
والكاربون والأزوت، والأكسيجين حتى غاز أما الهيليوم فهو غاز ليس له أي اثر كيميائي
فهو غير فعال بينما لليتيوم خواص قلوية واضحة كما انه فعال من الناحية الكيميائية،
أما العناصر الوسطى من هذه المجموعة فلها خواص بين القلويات والحوامض؛ فإذا

وصلنا للفلور آخر المجموعة وجدناه يكوِّن في الواقع حامضاً شديداً؛ أما الدورة الثانية فتبدأ بغاز النيون يتلوه الصوديوم كأول عنصر قلوي ذي أثر ويتلو هذا وذاك المعادن الخفيفة كالملجنيزيوم والأليمونيوم حتى السيليسيوم، وبعيداً في نفس العائلة تجد الكبريت والكلور حيث العناصر الحامضية الشديدة. ونجد التتابع ذاته في المجموعات العليا التي تتلو ذلك بحيث تبدأ دائماً كل مجموعة بأجسام قلوية تتلوها أجسام بين القلوية والحامضية ثم أجسام حامضية، ولقد كان التدرج حتمياً والدورات منتظمة للحد الذي تنبأ فيه (مانديليف) بضرورة وجود عناصر أخرى في المجموعة الواحدة، عناصر غير معروف وجودها للعلماء في ذلك الوقت، عناصر أصر على وجودها في الكون (مانديليف) لا لشيء سوى انسجام مجموعة معينة

من المواد، وهذه العناصر وجدها الباحثون فيما بعد. ورأينا في تاريخ العلم المجيد (مانديليف) يعلن مثلاً عن عنصر يمت بعلاقة للسيليسيوم حيث يحدد هذا الباحث بدقة خواصه الكيميائية ووزنه الذري، وثقة منه في وجوده، يسميه أكاسيليسيوم ويكتشفه العلماء بعد ذلك بثلاث عشرة سنة ويسمونه جرمانيوم

عندما كشف (بكارل) أثر الأيرانيوم على اللوح الفوتوغرافي وأعلن للعالم أنه مادة مشعة لم يكن الكشف عن الراديوم بعد ذلك أمراً محتوماً فقد كان عمل مدام كيري الذي كشفته عملاً تجريبياً مضنياً يذكرنا بعمل وليم التجريبي عندما كشف في سنة 1781 الكوكب إيرانوس وهو الكوكب السادس في البعد عن الشمس في مجموعتنا الشمسية، ولكن عندما كشف (مانديليف) عنصراً جديداً كالجرمانيوم كان ذلك عملاً حسابياً يحتمه انسجام ضروري تراءى لهذا الباحث في قوانين الكون

تذكرنا هذه الحوادث العلمية بعمل الفرنسي وعضو المجمع العلمي عندما استأنف في سنة 1846 دراسة الحركة غير المنتظمة وغير المفهومة للكوكب إيرانوس المتقدم الذكر فحتم وجود الكوكب نبتون الذي يعادل حجمه 78 مرة قدر حجم الأرض، بل وتذكرنا هذه الحوادث بعمل (كلايد تومباوج في سنة 1930 عندما حتم وجود كوكب تاسع يدور في مجموعتنا الشمسية أسماه العلماء بعده بليتون. اذكر أن العالم الفلكي الذي حتم وجوده مات قبل أن يراه العلماء ببضعة شهور

وهكذا كان (مانديليف) يبحث في المادة عن شموس إذا غابت عنا شمس حتم وجودها وكان (ليفرييه) يبحث في الكون عن كواكب إذا لم نر كوكباً حتم وجوده، واستند كلاهما على انسجام القوانين الطبيعية، بحيث كنا أمام احتمالين: إما أن يكون مصدر الحساب عند (مانديليف) و (ليفرييه) مشكوكاً فيه، أو يكون الحساب عندهما صحيحاً؛ ولقد دلت الأيام أن حسابهما صحيح وأن العناصر كانت موجودة منذ وجود الأرض وقبل ذلك وأن الكواكب الجديدة على معارفنا كانت تدور في أفلاكها حول الشمس منذ دارت الدار التي نسكنها. . .

وهكذا مع دالتون وبروست وفينزل وريتشر وجاي ليساك، وافوجادرو وماندليف ولوتر ماير، كشف الإنسان عالماً هو الذرة فكشف بذلك من بادئ الأمر عن شموس طغى أثرها على كل ما عداها

ولكن كان لابد أن يكون لهذه الشموس سيارات وتوابع كالقمر تتبع الأرض، وهذه والمريخ يتبعان الشمس. وسنرى مع القارئ أن مليكان الأمريكي، وتومسون الإنجليزي، وبيران الفرنسي كشف الإنسان أمر هذه التوابع ودخل الذرة وعرف ما فيها.

محمد محمود غالي

دكتوراه الدولة في العلوم الطبيعية من السوربون

ليسانس العلوم التعليمية. ليسانس العلوم الحرة. دبلوم المهندسخانة

من هنا ومن هناك

في إيران دكتاتورية بلا أعداء

(عن (ذي أديلاد كرونيكل))

لعل أهم ما ترمى به الدكتاتورية أن الدكتاتور إذا مات لا يخلفه من يملأ الفراغ الذي يترك من بعده، ولكن إيران لا خوف على مستقبلها من هذه الناحية، فإن شعبها على ثقة دائماً بأن ولي عهده الذي تزوج

أخيراً من شقيقة ملك مصر، سوف يكون ما للملك الوالد من الصلابة والحزم في حكم البلاد
والأمير رضا شاهبور في التاسعة عشرة من سنه، وهو أكبر أبناء الشاه التسعة، وقد ورث عن أبيه قوة الجسم وسلامة البنية، وتدرب على الرياضة بأنواعها وعلى الأخص لعبة التنس وكرة القدم. ويعد في الطبقة الأولى في الرماية وركوب الخيل. وقد بدأ اهتمامه بالكشافة - التي أخذت تنتشر في إيران بسرعة عجيبة - في السنين الخمس التي قضاها بالمدرسة في سويسرا
فإذا دعي إلى عرش النسر الذي ادخره أبوه له بعد جهاد طويل، فسوف يجلس للحكم في القصر الذي كان والده في يوم من الأيام حارساً على أبوابه
فقد كان الشاه رضا خان بهلوي منذ خمس وثلاثين سنة، جندياً بسيطاً في حرس الشاه السابق. وفي سنة 1921 نزح إلى طهران العاصمة، فوجد الناس يتقاتلون فيها على الخبز، والفقر قد أنشب مخالبه في كل شيء، بينما يقيم الشاه في باريس منذ عدة سنين، والحكومة على أبواب انتخابات، والدين الأجنبي يزيد ويتضخم بسبب ما ينفقه الشاه من الأموال في عاصمة فرنسا
لم يطق رضا خان صبراً على هذه الحال ووطد عزمه على تغييرها، وكان يقتبس كثيراً من الإصلاحات عن مصطفى كمال أتاتورك. وفي سنة 1925 كان قد أدخل كثيراً من الإصلاح في بلاده وهيأ الشعب للحكم الصالح. أما الشاه الذي ظل في باريس بين الغواني
فقد فَقَدَ احترامه بين الجمهور وعلى الأخص بعد أن ورد على طهران تقرير من باريس يصف سلوكه في حانات مونمارتر. وقد وجد ليلة وسط خمس وعشرين امرأة من الراقصات ليس بينهن رجل سواه، وقد تبلل قميصه بالنبيذ الذي تساقط من الكأس، التي لم تقو يده على حملها لشدة السكر
فعزم رضا خان على أن يزيل هذا الشاه كما أزال حكومته منذ أربع سنوات فأعلن خلعه وولى نفسه مكانه شاهاً لبلاد العجم
ومما لا يختلف فيه اثنان أن إيران الحديثة وهي مملكة مساحتها 68000 ميل مربع وعدد سكانها عشرة ملايين كلها من صنع رجل واحد - هو الشاه
فالشاه يشرف على كل شيء في إيران بنفسه وله فيها الكلمة التي لا ترد، وإن كان رضا خان لا يبت في أمر ذي بال قبل أن يوافق مجلسه النيابي عليه. أما الوزراء فهم جميعاً ملحقون بخدمة الشاه ولا يقومون بعمل قبل موافقة الشاه
هذا الحاكم الشديد في غير ظلم، يعد من رجال الملك الجديرين بهذا اللقب على الرغم من منشئه. يحبه جنده إلى حد العبادة؛ ويعده شباب الجيل الحديث في إيران أباً لهم. وعلى الرغم من أنه يعطي نفسه سلطة لا حد لها في حكم البلاد، فهو يعمل لها بجد وتواضع واعتدال
هل يحل (العم سام) محل (جون بول)
(عن مجلة (باريد))
إذا قدر لبريطانيا العظمى أن تنهزم في حرب عالمية وتندحر قواها حقاً، فهل تخلفها الولايات المتحدة الأمريكية في الاحتفاظ بزعامة الجنس الأبيض على العالم؟
يقول (أندريه سيجفرييه) المؤلف الفرنسي المشهور: للإجابة على ذلك يجب أن نقدر الظروف التي ارتفعت فيها بريطانيا إلى مركز الزعامة والقوة في العالم، فقد اتجهت بريطانيا إلى التوسع والسيادة في وقت لم يكن يزاحمها فيه أحد
أما الآن فقد تغيرت الحال وأصبحت بريطانيا تشعر بتزعزع واضطراب في مركزها القديم؛ وقد زال من العالم ذلك النوع من الارتباط الدولي الذي كانت تقوم على حمايته
بريطانيا العظمى على مبدأ الأخذ والإعطاء، على ما كان له من الفوائد المحققة لسائر الأمم
وقد بدأت اليابان تطالب بمنطقة لا نعلم ماذا سيكون من أمرها بعد، إلا أنه مما لا شك فيه أن ذلك الموقف المريب في الصين، يضيف أزمة خطيرة إلى أزمات أوربا العديدة فإذا فقدت الهند من بريطانيا وفقدت إلى جانبها مستعمراتها في الشرق الأقصى، فقد زالت زعامة الجنس الأبيض من الوجود إذ أن ذلك سيتبعه ولا شك مطالب لا تحد

لسائر الأجناس في أنحاء العالم، فتعاني أوربا ما تعاني من جراء ذلك، ولا يخفى أثر هذه الصدمة على الولايات المتحدة
فإذا كان للمدينة البيضاء أن تحتفظ بمكانتها في العالم، فمن الواجب أن تقوم قوة دولية عظيمة بالاضطلاع بما يمليه هذا الموقف الخطير من الواجبات السياسية والحربية.
وقد قامت إنجلترا بواجباتها زهاء قرن ونصف قرن. وتبعتها فرنسا في شمال وغرب أفريقيا. وهاهي ذي ألمانيا تحاول السيادة الدولية منذ 1914 - 18، ولا يشك أحد ممن يتتبعون مجرى الحوادث في أوربا لحظة واحدة في أنها تعود ثانية إلى التفكير في تلك المحاولة.
إن عالما تسوده ألمانيا لابد أن يختلف كل الاختلاف عن العالم الذي نعيش فيه تحت نفوذ بريطانيا، وعلى ذلك يصح لنا أن نتساءل: هل الولايات المتحدة على استعداد لقبول مسئولية السيادة الدولية إذا احتاج الأمر إلى ذلك؟
وهنا يظهر موقفان: الأول أن الولايات المتحدة يجب أن تحمي القارة الأمريكية ولا تتجاوز هذا الحد. والثاني رغبتها الأكيدة في حماية الإمبراطورية البريطانية من الهزيمة إذ أن سقوط بريطانيا يؤثر تأثيراً سيئاً على مركزها في العالم.
ويصر الرأي العام في الولايات المتحدة على الرأي الأول. ولكن هناك حركة يقوم بها بعض رجالها السياسيين تجعل الأمل كبيراً في ترجيح الرأي الثاني.
إن الولايات المتحدة ليست على استعداد لأن تحل محل الإمبراطورية البريطانية في السيادة الدولية، ولكنها مع ذلك لا تسمح بتحطيم القوة البريطانية.
الحب يحفظ العالم
(عن (ذي سيكولجيست))
يقول علم النفس الحديث إن الحاجة إلى الحب هي في الحقيقة حاجة إلى حماية الآخرين ومساعدتهم
فالأسماك لا تعرف الحب. فإذا خرجت السمكة إلى عالم الوجود، لا تعرفها أمها ولا يحفل بها أبوها، وقد تفصلهما عنها أميال شاسعة. فالسمكة الصغيرة لا تعرف حماية الوالدين على الإطلاق، وحياتها معلقة على المصادفة والجهد المستقل
ولكن الطفل من بني الإنسان على نقيض ذلك. فيولد عاجزاً كل العجز، ولن يبلغ أشده إلا إذا لاقى عناية خاصة، ممن يهمهم أمره. فالطفل إما أن يجد الحب وإما أن يموت وهذا الحب الفطري لا تقابله منفعة خاصة للغير. فالطفل يلاقي العناية الفائقة من أمه أو مربيته أو من يضطلع بأمره ولا يجازيهم على ذلك أي جزاء، ولا ينتظر أحد منه شيئاً من الجزاء لأنه لا يقدر عليه
إلا أن هذا الموقف لا يستمر على الدوام، فإذا رأينا إنساناً في سن الرجولة يأخذ من الناس ولا يعطيهم مقابل ما ينال منهم، فإننا نعده إنساناً ما زال في دور حب الطفولة. وننتظر أن ينمو بدوره ويتقدم إلى المرتبة التي يتحمل فيها مسئولية حب شخص آخر يحتاج إلى رعاية بغير أمل في جزائه
وبمعنى آخر إن كل إنسان يجب أن يعبر الطريق الذي ينال فيه كل شيء ولا يعطي مقابله أي شيء، إلى الطريق الذي يعطي فيه كل شيء ولا ينال شيئاً. ولا يعد هذا العمل فضيلة بأي حال فهو ضرورية حيوية ورثها الإنسان منذ ظهر في هذا الوجود وليس في أنانية الطفل مأخذ عليه، فكأنه بعمله يقول: إنه عاجز وإنه عالة على محبة الآخرين وإنه يجب أن يأخذ منهم وإنه لا يستطيع الجزاء
فإذا لم يكن لدى الطفل الفرصة التي تخرجه من أحضان أمه إلى دائرة أكثر حرية واتساعاً، فقد تفوته فرصة التقدم من الرتبة التي يتلقى فيها الحب، ولكن الأمر على خلاف ذلك، فلا بد أن يتصل باخوته وغيرهم من الأطفال المقاربين له في السن؛ وهم مثله لم يتقدموا عن المرتبة التي يتلقون فيها حب الأباء والأمهات، ولا تقل أنانيتهم عن الأنانية التي يستمتع بها. فإذا اجتمع لفيف من الأطفال على هذا النحو فإن الاختلاف سرعان ما يدب بينهم إذ أن كل طفل مولع بنفسه مؤثر إرادته على إرادة الآخرين. إلا أن الألعاب
العديدة المنظمة التي قوامها التعاون تقضي على هذه الروح لأن الطفل في هذه الحالة يشعر بأنه ينال السرور الحق حينما ينظر إلى حقوق الآخرين بعين الاعتبار. فهو

يعتبر الآخرين لا عن طريق التضحية أو عن طريق المبادئ الأخلاقية، ولكن لأنه يجد راحته في هذه الحال.
وهذه مرتبة عظيمة من مراتب الحب، والذين لا يعرفونها لا يعرفون العواطف السامية في طور النمو.
الصحافة بعد ستين عاما
(عن مجلة الصناعة الأمريكية)
كيف تكون الصحافة بعد ستين عاماً أي سنة 2000 بعد الميلاد؟
هذا سؤال وجهته مجلة الصناعة الأمريكية في الأيام الأخيرة إلى بعض الصحفيين والمشتغلين بالسياسة. فورد عليها أجوبة مختلفة على هذا السؤال، إلا أنها تجمع على أن الصحافة بعد ستين عاماً ستكون مختلفة عنها اليوم
ومن الأجوبة الطريفة على هذا السؤال ما كتبه مستر هارولد سكرتير وزارة خارجية الولايات المتحدة، وقد مزج الحقيقة بالفكاهة فقال:
حينما أفكر في مستقبل الصحافة بعد ستين عاماً، تجري على خاطري رغبة سبقني) إلى شرحها توماس جيفرسن يوماً من الأيام. اقترح جيفرسن أن تقسم كل جريدة إلى أربعة أقسام:
1 - الحقائق
2 - الأخبار المحتملة الوقوع
3 - الأخبار التي تنتظر الإثبات
4 - الأكاذيب
فلو سارت الصحافة على هذا المنوال، فمن رأيي أن يكون الباب الأول خاصاً بنتائج المباريات الرياضية، والثاني خاصاً بتقارير الأرصاد الجوية، والثالث بأخبار السينما، والباب الرابع خاصاً بغالبية الأخبار السياسية
ومن رأيي أن هذه الطريقة تجعل من الصحافة هيكلا مقدسا للحقيقة، كمل تجعل منها مثالاً معلوماً للخيال فتعم السعادة ويظهر الإخلاص ويرفه عن قلوب الناس).
وقد تناول هذا الموضوع رجال الصحافة بما يستحقه من الجد والاهتمام
ومما قاله أحد الصحفيين: إن أصحاب الصحف الذين يرتاعون لمنافسة الإذاعة اللاسلكية قد يجدون شيئاً من الراحة والاطمئنان إذا لاحظوا أن اليوم، حتى سنة 2000 بعد الميلاد لا يمكن أن يزيد على أربع وعشرين ساعة.
وقد استطاعت الإذاعة أن تخترع طرقاً عجيبة للاستماع إلى الموضوعات والبرامج التي سبقت إذاعتها في الوقت الذي يشاؤه الإنسان. أما الإذاعة المصورة (تلفزيون) فسوف يتيسر لها أن تمدك بالصور والأصوات، وسوف يتيسر لها كذلك أن تحتفظ بها لأي وقت تريد، فتستطيع أن تستمع إلى البرنامج الذي يذاع في الساعة التاسعة وأنت بالسينما أو المسرح، في الساعة الحادية عشرة في منزلك أنت وعائلتك وترى كذلك الصور المذاعة.
وسوف يكون من السهل الاحتفاظ بالصور الملونة للرجوع إليها في المستقبل. وفي سنة ألفين يستطيع الرجل أن يقرأ الصحف في مكتبه في الصباح بينما تتلهى زوجه بسماع برنامج الموسيقى التي أذيعت في الليلة السابقة في باريس.
ومن المنتظر في ذلك الوقت أن يتلقى الإنسان أخبار العالم بواسطة محرك بسيط يلمسه بإصبعه، فإذا كل شيء قد نقل إلى أذنه لتسمعه، وإلى عينه لتراه.
وسوف ينتقل إليه بطبيعة الحال فيض من التقارير الرسمية الدقيقة من أنحاء قاصية كنيوزيلند والتبت منقولة نقلاً مطابقاً للأصل كل المطابقة
وكذلك صور الأوبرا: فيستطيع أن يلمس المحرك في أي وقت ليسمع قطعة من أوبرا تكون قد أذيعت من موسكو في الليلة السابقة واحتفظ بها ليسمعها في أي وقت يريد وسوف يكون لديه لفافات طويلة من الأوراق المنقولة بواسطة الراديو، تنقل إليه في أي وقت حديثاً يكون قد فاته سماعه في الليلة الماضية. . .
وقد لمس أحد الصحفيين الذين كتبوا في هذا الشأن ناحية أخلاقية في الموضوع.
فقال: إن العبقرية الإنسانية سوف تستطيع أن تصل إلى الغاية التي تيسر لذوي العقول والكفاية أن يصدروا الصحف دون حاجة إلى رؤوس الأموال الطائلة التي يحتاجها إصدار

الصحف الآن. حتى لا تكون هذه الصناعة وقفاً على أصحاب الثروات. فيتمكن الرجال ذوو الأخلاق والمواهب من إصدار الصحف بغير إرهاق
وسوف يكون من المستطاع إخراج الصحيفة الكبيرة بتكاليف زهيدة للغاية، وتصبح الآلات الضخمة التي تستعمل الآن شيئاً لا يذكر إلا على ألسنة المؤرخين
سوف تلقى العبقرية تلك الآلات الضخام وتجعلها موضعاً لسخرية الساخرين.
البَريدُ الأدَبيّ
الأب أنستاس ماري الكرملي والمنضدة
قال العلامة الأستاذ الأب أنستاس ماري الكرملي في كلمة عنوانها (مباحث عربية) في الجزء الأخير من مجلة (المقتطف) الغراء: (وجدناه (أي صاحب مباحث عربية) استعمل (المنضدة) ص 27 وقد شاعت على يراع كتبة هذا العهد، ناقلاً إياها عن (أقرب الموارد) للشرتوني، أو عن كاتب عثر عليها في المعجم المذكور، فهي لفظة لم ترد في كلام فصيح ولا ترد على أسلة مؤلف بليغ ثقة يعتمد عليه. وصوابها (النّضَد) كما ذكرها أرباب الدواوين اللغوية، وهي من باب تسمية الشيء باسم المصدر)
أقول: قالت (الجمهرة): (النضد متاع البيت وكثر في كلامهم حتى سموا السرير الذي ينضد عليه المتاع نضداً) وفي (اللسان): (سمي السرير نضداً لأن النضد عليه) ونحو من ذلك في (المصباح والتاج)
وقال الإمام الزمخشري في (أساس البلاغة): (المنضدة شيء كالسرير له أربع قوائم يضعون عليه نضدهم)
فسبب التسمية قد ذكروه، وفي اللسان العربي: النضد والمنضدة
الأب أنستاس إذا نقد أفاد، وإذا نقد لم تعدم الأدباء فائدة فله الفضل في كل حالة من هذيان الحر
تحت هذا العنوان كتبنا مقالاً في عدد مضى من الرسالة سخرنا فيه من الأرستقراطية سخراً أوضح من الصراحة؛ ولكن إفراط الحر على الإفهام في هذه الأيام جعل الأستاذ محرر (همسات الأندية الأدبية) في مجلة (زهرة الشرق) يقرأ المقال على ظاهره فظن أننا (نعرض بحكم الشعب وندعو إلى حكم الأرستقراطية ونتهكم بالعامل والزارع ونفتخر بالأمير والسيد) ثم أراد أن يدلل على صحة ما فهم فساق كلمة من المقال هي غاية التهكم فيه. ولولا رعايتنا لكرامة الكاتب لدللناه على السخرية في الفقرات التي نقلها على الأقل؛ ولكننا نرجو أن يعيد قراءة المقال ليعلم أنه جزء من سلسلة أولها (فلاحون وأمراء) وآخرها (حلم ليلة صيف) وكلها متساوقة الأجزاء إلى الاستهزاء بالأرستقراطية. وليت شعري إذا كان هذا مبلغ الأدباء من فهم الكلام، فكيف يكون حال الجهلاء والعوام؟!
جماعة الفن والحرية
حضرة الأستاذ الكبير أحمد حسن الزيات
نحن نعلن لأسرة (الرسالة) أن كلمتي (الفوضى) و (الفن المنحط) اللتين اتهمنا بهما لم تخرجا من وحي تفكيرنا، وإنما جاءنا من خلق طائفة من الناس ترى في كل حركة تجديدية خروجاً على التقاليد والأخلاق، وجموحاً بالحرية إلى حد الفوضى، وخطراً في الأنظمة الاجتماعية المعاصرة التي تهيئ لأفراد هذه الطائفة أكبر قسط من الكسب المادي.
إن جماعة (الفن والحرية) حركة اجتماعية بقدر ما هي حركة فنية تعمل للفن من أجل الفن. ذلك أن مظاهر الفكر البشري والعواطف الإنسانية بصورها المختلفة حتى صور الفلسفة العليا منها لا تخرج في نظرنا عن حدود التعبير الناشئ عن اصطراع التيارات المتعاملة داخل الهيئة الاجتماعية.
والمجتمع المصري بحالته الراهنة مجتمع مريض مختل، فقد الاتزان لا في مقاييسه الخلقية فحسب، بل في أوضاعه الاجتماعية والاقتصادية أيضاً. ومثل هذا المجتمع المقبل على النهوض يجب أن تترك فيه الحرية المطلقة للكتاب والمفكرين في نشر آرائهم الجديدة للانتفاع بالحلول التي يعرضونها لعلاج المشاكل المتعددة.
وجماعة (الفن والحرية) فئة من الشباب راعها ما رأت من انحلال عناصر القوة في مصر. فكرست جهودها لدراسة مسببات هذا الانحلال، ولإيجاد الحلول التي ترى أنها قد تعود بالخير على المجموع. فهي ليست متأثرة بحركة أجنبية، وإنما هي حركة مصرية

أكثر ما يمكن أن يقال فيها إنها ستكون مهداً لنضوج الأفكار الجديدة التي ستهيئ أسباب التطور لهذه البلاد.
أما إن كان الفن الذي تبشر به جماعة (الفن والحرية) منحطاً أو غير منحط فهذا أمر لا يمكن الوصول فيه إلى نتيجة حاسمة بنقاش يثار على صفحات مجلة من المجلات.
وخير من هذا الجدل أن تلبي أسرة (الرسالة) دعوة الجماعة لزيارة معرضها حتى تكون على بينة تدعمها المشاهدة من حقيقة الاتجاهات التي ترمي إليها
أنور كامل
الوحدة الإسلامية
إلى الأستاذ الفاضل ساطع الحصري بك
قرأت مقالكم (حول الوحدة العربية) الذي تردّون فيه على الدكتور طه حسين، في العدد (315) من الرسالة الغراء فلفتت نظري فيه الجملة الآتية:
(وأؤكد لكم أنني - بقدر ما أؤمن بفكرة العروبة، وبقدر ما أعتقد بإمكان الوحدة العربية، وبقدر ما أقول بوجوب السعي وراء تحقيقها - أعتقد باستحالة الوحدة الإسلامية)
فهل لي أن أسألكم سيدي الأستاذ، علام بنيتم اعتقادكم هذا؟ وعلى أي أساس أصدرتم حكمكم باستحالة تحقيق الوحدة الإسلامية؟ إن من المعروف لدى الخاص والعام أن رابطة الإيمان والعقيدة أقوى من روابط اللغة والعادات والمصالح، وأن التقارب بين الناس والتفاهم، يقوم - مع وحدة اللغة - على وحدة المبادئ والعقائد والغايات. وهاهي ذي مبادئ الشيوعية والاشتراكية والماسونية وغيرها تجمع بين أناس اختلفت لغاهم وأجناسهم وبلادهم وأقاليمهم، ولم يمنعهم هذا الاختلاف كله من أن يتفاهموا ويتقاربوا ويجتمعوا على خطة واحدة ومبدأ واحد، أفتكون مبادئ الإسلام مانعة من اتحاد المؤمنين بها واجتماعهم؟
يعلم الأستاذ أن العرب في الجاهلية كانوا متنافرين متخاصمين مع أن لغتهم كانت واحدة، وعنصرهم واحداً، وأن الإسلام قد آخى بين العربي وغير العربي وجمعهم على مبادئه السامية وألّف بين قلوبهم، وجعلهم أمة واحدة رغم اختلاف الأجناس واللغات، أفتكون هذه الوحدة التي أمكن تحقيقها في عصر صدر الإسلام وعصر الأمويين والعباسيين ومن أتى بعدهم، مستحيلة في عصرنا هذا؟ إن كل مسلم في سورية أو مصر أو العراق يعتقد أن المسلم الهندي أو الياباني أو الأوربي أخ له كأخيه المسلم الذي يعيش معه جنباً إلى جنب ففيم استحالة تحقيق الوحدة الإسلامية؟
أنا لا أنكر إمكان تحقق الوحدة العربية ولا أقول بمقاومتها ولكنني أعتقد - ويعتقد معي كل مسلم على وجه الأرض - أن الوحدة الإسلامية أقوى من كل وحدة سواها، وأن تحقيقها أسهل من تحقيق أية وحدة أخرى، فهل لكم أن تبينوا لي خطأ اعتقادي هذا، وأسباب استحالة تحقيق الوحدة الإسلامية؟
(دمشق)
ناجي الطنطاوي
تقريب الكتب القديمة وعرضها عرضاً حديثاً
كانت لجنة تقريب الكتب العربية القديمة إلى أذهان الناشئة وعرضها عرضاً حديثاً قد اجتمعت في تمام الساعة السادسة من مساء يوم الاثنين 12 يونية سنة 1939 برياسة حضرة صاحب العزة الأستاذ محمد العشماوي بك وكيل المعارف ونظرت في الكتب العشرة التي قررت الوزارة البدء بتقريبها كخطوة أولى لتنفيذ هذا المشروع الأدبي. ثم عرضت أسماء الأدباء الذين يختارون لهذا التقريب واستقر الرأي على أن تلحظ اللجنة في اختيارها لكل كاتب قوة التمكن من الثقافة العربية والاختصاص في الدراسات الأدبية واستغلال الثقافة الغربية ما أمكن ذلك عند بعض الأدباء المعاصرين للانتفاع بها في توجيه طرائق التقريب والعرض توجيهاً فنياً حديثاً
وبعد مراجعة الأسماء والمناقشة في كل كتاب بمفرده تقرر الاختيار وفقاً لهذا البيان.
ثم رفع إلى حضرة صاحب المعالي وزير المعارف فأقره بعد تعديل يسير. وإليك هذا البيان
الكامل للمبرد - 1
الأستاذ السباعي بيومي المدرس بدار العلوم (ا)

الأستاذ مصطفى السقا المدرس بكلية الآداب (ب)
2 - البيان والتبيين للجاحظ
الأستاذ محمد صفوت المدرس بدار العلوم (ا)
الأستاذ عبد الوهاب حمودة المدرس بكلية الحقوق (ب)
3 - الأمالي لأبي علي القالي
الأستاذ محمد شتا مدرس أول اللغة العربية بمدرسة الخديو إسماعيل الثانوية (ا)
الأستاذ إبراهيم مصطفى مدرس بكلية الآداب (ب)
الأستاذ عبد العزيز احمد بمجمع فؤاد الأول للغة العربية (ج)
4 - ديوان أبي تمام
عبده عزام أفندي معيد بكلية الآداب (ا)
خليل عساكر أفندي معيد بكلية الآداب (ب)
وسيضاف إليهما أستاذ من دار العلوم أو من كلية الآداب
5 - ديوان البحتري
الأستاذ عباس محمود العقاد (ا)
الأستاذ عبد الرحمن شكري (ب)
6 - ديوان شوقي
الأستاذ أحمد حسن الزيات (ا)
الدكتور زكي مبارك (ب)
الأستاذ أحمد الزين بدار الكتب (ج)
7 - تاريخ ابن خلكان
الأستاذ أحمد الشايب المدرس بكلية الآداب (ا)
الأستاذ محمد مأمون نجا المدرس بالتوفيقية الثانوية (ب)
الأستاذ حسن علوان المدرس بالتوفيقية الثانوية (ج)
8 - كتاب الروضتين في أخبار الدولتين
الأستاذ عبد الله عنان بالداخلية (ا)
الدكتور محمد مصطفى زيادة أستاذ مساعد بكلية الآداب (ب)
عبد اللطيف حمزة أفندي معيد بكلية الآداب (ج)
ولقد رأت اللجنة أن تعرض الكتب القصصية عرضين:
(1) عرضاً فنياً
وفيه يستلهم الكاتب روح الكتاب القديم وطريقته وفنه وينهج نهجه بطريق فني جديد
(2) عرضاً علمياً
وفيه تعرض دراسة علمية وافية عن الكتاب وتاريخه والترجمة لصاحبه وأثره في الأدب والثقافة العامة وكان اختيارها في القصص على هذا الأساس
9 - قصة عنترة
للعرض الفني
الأستاذ محمد فريد أبو حديد (ا)
الأستاذ محمد سعيد العريان (ب)
للعرض العلمي
الأستاذ حامد عبد القادر (ا)
توفيق الطويل أفندي (ب)
10 - ألف ليلة وليلة
العرض الفني
الأستاذ إبراهيم المازني (ا)
الأستاذ توفيق الحكيم (ب)
العرض العلمي
الأستاذ محمد خلف الله المدرس بكلية الآداب (ا)
الآنسة سهير القلماوي (ب)
حول نعيم الجنة
إن للدكتور زكي مبارك أسلوبه في الكتابة، وله أن يتظرف فيه أو يتمجن ما شاء مادام

يكتب في الأدب الذي هو دكتور فيه. لكن الذي ليس له والذي لا يمكن أن يقره أحد عليه هو أن يتظرف أو يتمجن حين يكتب في الدين أو حين يدعو لله سبحانه.
لقد رأى في مقالاته الأخيرة في الرسالة أن يستشهد بالدين فأتى باستشهادات خطأ كلها. لكن لا لهذا نوجه اللوم إليه الآن؛ إنما الذي نأخذه الآن به هو ما ختم به خطابه المنشور في العدد 316 من الرسالة تحديداً لرأيه في نعيم الجنة في الإسلام. هو رأي وافق شطره الصواب، ولو قد وقف عند الآية الكريمة (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز) في
موضعها من خطابه فختمه بها لكان خطابه ذلك من أحسن ما كتب. لكن شيطان المجون فيه أبى إلا أن يفسد عليه ذلك الجواب حين أوحى إليه أن يكتب فقرتين بعد ذلك قال في أخراهما خطاباً لله سبحانه: (اشغلني عنك يا رباه! بما سيكون في الجنة من أطايب النعيم)! فهل رؤى سوء أدب وسوء فهم للدين كالسوءين المتجسمين في دعاء زكي مبارك هذا؟ وهل يظن زكي مبارك أن أهل الجنة حين ينعمون فيها يشغلهم عن ربهم شاغل؟ إنهم لم يستحقوا ذلك النعيم إلا بأنهم لم ينسوا الله في الدنيا. فهل يظن هذا الماجن أنه سبحانه ألزمهم ذكره وعبادته في الدنيا ليأذن لهم في نسيانه والانشغال عنه في الآخرة؟
لو كان زكي مبارك يفقه في الدين شيئاً لعرف أن نعيم الجنة الحسي يصبح غير نعيم لو تجرد من رضوان الله أو شغل عن الله. ولو كان لدى زكي مبارك من روح الإسلام شيء ما اجترأ على الله في الخطاب هذا الاجتراء المتجسم في دعائه ذلك، ولأدرك أنه يأتي به كبيرة توشك إن لم يتب منها مخلصاً أن تكبه على وجهه حيث لا نعيم للبدن ولا اطمئنان للروح
محمد أحمد الغمراوي
كتاب في الدين الإسلامي
سيدي الأستاذ الجليل صاحب الرسالة
هنا في قلب الجزيرة السودانية حفنة طيبة من الشباب تربطهم بأسرة الرسالة رابطة الأدب والثقافة. وقد أصبح الفرد منهم يعرف أفراد هذه الأسرة الطيبة المباركة معرفة كلها تقدير وإعجاب
والأستاذ علي الطنطاوي من أولئك الشبان الذين نتخذهم قدوة حسنة لنا، ونرى في تتبع خطواتهم تحقيقاً لمثلنا العليا. والدافع لي إلى أن أكتب هذا هو ذلك المقال الممتع الذي قرأناه في العدد 314 من الرسالة، والذي يقترح فيه الأستاذ الفاضل تأليف كتاب في الدين الإسلامي على طريقة حديثة تكفل لنا الإلمام بتعاليم ديننا وتعيننا على تفهمه. والذي يهمنا هو أن يجد هذا الاقتراح كل عناية وتقدير من علمائنا وأدبائنا الأفاضل، ما دامت (الرسالة) الغراء قد فتحت لهم الباب على مصراعيه لبحث هذا الموضوع الديني القيم أملاً في تنفيذ
هذا المشروع، وإبرازه إلى حيز الوجود ليكون فاتحة عهد جديد لإحياء تراثنا الأدبي والديني إن شاء الله.
هذا - وللأستاذ علي الطنطاوي ولأسرة الرسالة المباركة منا كل شكر وتقدير.
(واد مدني)
سليمان بخيت
تصويب
سقط سهواً من مقال الأستاذ ساطع الحصري بك المنشور بالعدد 315 بالصفحة 1389 سطر في آخر العمود الثاني، ونعيد هنا نشر هذه الفقرة وفيها هذا السطر المنسي تحته خط:
الوحدة العربية كما يفهمها ذووها يجب أن تتحقق بشكل إمبراطورية جامعة أو اتحاد (مشابه للاتحاد الأمريكي أو السويسري)
ونحن لا نرضى بهذا ولا بذاك
استدراك
نشرت رسالة الأسبوع الماضي أبياتاً لي تحت عنوان: (نبرات صوتك في المسرة) وقد نسى بيت من أبياتها فنذكر هنا البيت المنسي مع سابقه ولاحقه:
نبراتُ صوتك؟ ما المزاهر كلها ... مارنةٌ نشوى من العيدان؟

روَّيتِ أحلامي وهجتِ قصائدي ... فنظمتُ فيك قلائد العقيان
ووهبتك الآمال ملء خواطري ... وعلى سناك حبست حرّ بياني
العوضي الوكيل
رسالة النقد
كتاب (توفيق الحكيم)
بيني وبين الدكتور بشر فارس
للدكتور إسماعيل أحمد أدهم
عندما كتب الدكتور بشر فارس كلمته الأولى في (الرسالة) عن دراستي عن (توفيق الحكيم) لم أكن راغباً من ردّي عليه إلا في فتح باب المناقشة بيني وبينه في مسائل دقيقة استوقفت نظري في مقاله يتصل بعضها بصميم الأدب الحديث ومناهج البحث والتحقيق، ويتصل بعضها الآخر ببعض الدقائق في الشؤون الفلسفية التي تدور حول فكرة ارتباط الزمان بالتاريخ والرغبة بالشهوة. كذلك لم أكن قاصداً بنقدي الذي نشرته لي (الرسالة) لكتاب (مباحث عربية) الذي أخرجه للناس أخيراًالدكتور بشر إلا التمحيص العلمي لوجه الحقيقة. ومن هنا جاء ما في ردي عليه ونقدي له من (التدقيق والمراجعة في بذل الملاحظات)، كما لاحظ الجميع. وأما صديقي بشر فارس، فقد آثر أن يدبر المناقشة معي حول المناحي الشكلية. ومن هنا وقف من ردِّنا على كلمة، ومن نقدنا لكتابه في الخارج - كما يقول العلماء - يطوف حول كلامي دون أن ينزل إلى تفاصيله ويناقش ملاحظاتي في صميمها. ومن هنا جاء أيضاً ما عبته على الصديق بشر من (أنه لا يصلح كاتباً ناقداً إلا في المواضيع التي يديرها في ذهنه ويستقصيها على أوجهها بالبحث والتمحيص). غير أنه يظهر أن ما قلته في صاحبي لم يرضه، وجعله يظن متوهماً أننا نداوره ونحاوره فذهب يغمرنا من كل جنب. ولاعتقادي بطيبة سريرة صاحبي، فإنني غير محتاج للتعليق على هذه الفراسة التي بدرت من قلمه (إننا صفينا الحساب فيما بيننا قبل سفره) وحسبي هنا مناقشة كلامه فيما يتعلق بدراستي عن (توفيق الحكيم) على أن أعود لمناقشة ما أثاره حول نقدي لكتابه (مباحث عربية) قريباً بعد صدور مقتطف أغسطس، ومناقشة ما كتب وعلق به على نقدي

1 - أدار الدكتور بشر فارس موضوع المناقشة في رده الذي جاء بالعدد 312 بالرسالة حول افتراض اقتباسي لبعض تعبيراته ومنها تعبير (جملة صلات اجتماعية) وما ينظر إليه في الفرنسية. وقد رددت عليه في هذا الموضوع بالنسبة لاقتباسي هذا التعبير عنه فقلت: إن هذا التعبير قد دار على قلمنا قبل صدور كتابه، فقد جاء في بحث لي عن (إسماعيل مظهر - الفكر المصري) ودللت على المصدر الذي جاء فيه هذا البحث فخرج الدكتور بشر يتساءل عن العبارة التي تضمنت التعبير ليرى موضعه منها، وهانحن أولاء نسوقها للفائدة:

(التناحر على البقاء في سبل المعادلة الضامية ويسميها مظهر (التناحر التعديلي) وذلك أن تعدل أفراد الأحياء حالاتها بما تتطلب مطاليبها. وإسماعيل مظهر استناداً إلى هذه الفكرة ينجح في الإجابة على كثير من المشكلات التي تتعلق بمذهب النشوء وما يتصل بمسائل علمي الاجتماع والآداب وظاهرات الدين والعقل والأخلاق، وخصوصاً ما يتصل من هذه الأصول بنشوء المشاعر الغيرية من المشاعر الذاتية (الأنانية) التي هي الأساس عنده في خلق مجموعة أو جملة من الصلات الاجتماعية التي تربط بين الناس. وهذه الصلات بدورها تسوق عنده لإيجاد المشاعر والأخلاق الاجتماعية. وقد توسع مظهر استناداً إلى هذه الفكرات فوضع مبحثه القيم. فلسفة اللذة والألم . . .)

وواضح إذن أن تعبير (جملة صلات اجتماعية) قد دار على قلمنا قبل صدور كتابه (مباحث عربية):

2 - قلت إن التي ينظر إليها تعبير (جملة صلات اجتماعية) ليست للدكتور بشر فارس وإنها قد جرت على قلم دوركايم عالم الاجتماع المعروف. وقد اعترف بهذا الدكتور بشر فارس في رده فقال ما نصه: والذي في الحقيقة أن دوركايم يستعمل هذه الجملة غير مرة وكذلك تلامذته وتلامذة تلامذته (الرسالة ص 1379 ع 2س 11 - 12)، فكأنني في استعمال هذا التعبير لم أنظر إلى ما كتبه الدكتور بشر لأن التعبير شائع من جهة ومستعمل في كتب علم الاجتماع الحديثة من جهة أخرى، وهذا الشيوع

والاستعمال ينفيان مظنة الاقتباس. ولكن الدكتور بشر فارس يعرف هذا، ولكنه رأى أنه على وشك خسارة القضية التي ثار من أجلها الأخذ والرد بيننا، فماذا فعل؟ خرج الموضوع تخريجاً يشهد له بالبراعة، ولكن أي براعة؟ براعة الرجل الشكلي فقال: إن المصدر الذي دللت عليه لم يقف عليه ولم يعثر له على أثر. . . وذهب يدير الكلام ويكرره للإبهام. وكأني به في

تخريجه هذا يحاول أن يشككنا في أن دوركايم أستاذ علم الاجتماع بالسربون طيلة عشرين سنة لم يلق حاضرات فيه، وأن هذه المحاضرات قد جمع بعضها في كتب أخرجت للناس. أما (المجموعة) التي قلنا إن دوركايم قد استعمل فيها فهي تلك المجموعة التي تحمل - والتي طبعت للمرة الأولى عام 1895 ضمن المجموعة الاجتماعية بباريس على ' طبعتها هذه المكتبة أكثر من مرة. والنسخة التي تحت أيدينا هي الترجمة الإنجليزية وفيها العبارة والترجمة بقلم ومكتوب عليها ' ' وقد راجعنا اليوم نسخة من طبعة عام 1912 في الفرنسية، والعبارة وجدناها ترددت أكثر من مرة أما التعبير نفسه فقديم في الفرنسية، وهو يتألف من شقين: الشق الأول يتضمن إنجليزياً ومجموعة أو جملة عربياً. وهذا الشق يعود استعماله إلى أواسط القرن السادس عشر، وقد وقفنا عليه عند بسكال ومالبرانش وغيرهما؛ وعلى وجه خاص في الكتب المسيحية اللاهوتية و (على الدكتور بشر التفتيش) أما الشق الثاني فيتضمن الذي ينظر إليه بالإنجليزية والتعبير الفرنسي كثير الاستعمال ورد في الكتب التي تحت أيدينا مئات المرات، وعلى سبيل المثال نذكر منها كتاب: , ' من طبع عام 1912، وقد ورد التعبير فيها أكثر من مرة في ص 160 و 162و 164و166 مثلا حيث يقول في هذه وكل هذه التعابير قريبة المدلولات في الفرنسية، وتقابل في العربية تعبير (جملة صلات اجتماعية)

3 - تحدث الدكتور بشر في هامش بمقاله فقال إني انتزعت الفقرتين الأوليين من فاتحة مقالي الأخير عنه من الدكتور زكي مبارك!. . . والذي أعرفه أن هنالك موضع تشابه ولكن لا يحمل على محل الانتزاع لأنه شكلي. ولو كنت الدكتور بشر لجاز لي أن أقول إن الدكتور زكي مبارك هو الذي انتزع مني في كلامه عن أحمد أمين كلامنا عن صاحبه الذي جاء في نقد كتابه (فيض الخاطر) الذي نشرته لي الرسالة في العدد 287 ص 43 - 44. بيان ذلك أن الدكتور زكي مبارك يتحدث عن الشكلية والتقدير عند أحمد أمين. تلك الشكلية وذلك التقدير اللذان تكلمنا عنهما من قبل في نقدنا لكتاب فيض الخاطر الذي أخرجه أحمد أمين. ولكنا نعتقد أن مثل هذا التشابه لا يحمل على محمل الانتزاع، وإنما على أن الموضوع الذي وقف منه الدكتور زكي مبارك يملي نفس الموقف الذي وقفناه من قبل

إزاءه. ثم يستقل بعد ذلك كل منا بنتائج خاصة به يخلص بها من الظاهرة التي يتلمسها في آثار أحمد أمين

نقول هذا معتقدين أن صديقي بشر لو رجع اليوم وألقى نظرة على ما كتب في هذا الشأن لما رضى ما كتبه. وهو معذور - على كل حال - فيما كتبه عنا بهذا الشأن، فيظهر أنه كان يكتب كلمته وهو في حالة انفعالية. على أن التشابه بعد ذلك بين ما كتبناه وبين ما كتبه زكي مبارك عن صاحبه أحمد أمين شكلي محض، لأن أحمد أمين عند زكي مبارك رجل تقديري النظر شكلي، ومن هنا جاء عدم نجاحه في تقييد الخطرات والسانحات التي تطوف بالنفس من حين إلى حين. وبشر عندي رجل بحاثة قدير في الموضوعات التي يديرها سنين في ذهنه ويستقصيها على وجوهها بالبحث والتمحيص. ومن هنا يجيء ما في أبحاثه من التحليل وما في الكتابات التي يرسلها من ذهنه دون أن يديرها وقتاً في رأسه من إخفاق راجع إلى فقدان العنصر الأساسي لقيام التحليل عنده والتقدير، وهو الزمن الذي يعطيه الفرصة على إدارة الشيء في ذهنه حتى ينزل لمقوماته وأسبابه

4 - تهكم صاحبي بشر في الهامش بتحقيقاتنا عن قضية ميلاد توفيق الحكيم. وعجب هو كيف أنكر على توفيق شيئاً يؤكده هو بنفسه. وكنت أظنه فاطناً إلى الأسباب الجوهرية الدافعة إلى ذلك، وهي مبثوثة في أكثر من موضع في دراستي (ص 79 مثلاً من الطبعة الخاصة). بيان ذلك أننا نرى طبيعة توفيق الحكيم مترددة تبعده عن الصراحة. أما الأسباب التي حدتنا إلى ذلك فبيانها موجود في كتابنا بالإسهاب. ولهذا

وقفنا موقف الحيطة مما ألقاه إلينا الأستاذ الحكيم بشأن ميلاده. وحققنا على طريقتنا تاريخ حياته، فكان من ذلك أن رفضنا التاريخ الذي قال إنه تاريخ ميلاده. . . ومن المهم أن تحقيقاتنا التي كانت للأمس عند الأستاذ بشر فارس موضع الاعتبار أصبحت في ثورة غضبه موضع الغمز والتهكم. ومع هذا فالكل وقفوا منها موقف التدبر. وقد كان من المستطاع أن أسوق الشهادات آخذاً بعضها برقاب بعض مما يؤيد تحقيقاتي من زملاء توفيق الحكيم وأصدقائه وبعض الذين اطلعوا على ملف خدمته بوزارة المعارف وفيها شهادة ميلاده، ولكن لأننا لم نستأذن أصحاب هذه الشهادات في النشر فقد اكتفينا بالتنويه. والدكتور بشر نفسه يعرف بعض هؤلاء وسمعه بنفسه منهم حينما مرّ بالإسكندرية في طريقه إلى أوربا.

هذه مراجعة لما قاله الصديق بشر فارس فيما يتصل بدراستي عن (توفيق الحكيم).

أما مراجعة ما أثاره حول نقدي لكتابه (مباحث عربية) موعدنا بها مقال تالٍ بعد أن ننظر فيما سيجيء له في مقتطف أغسطس من مراجعة لأقوالي. وأرجو ألا يبدر لذهن القارئ أن هنالك شيئاً بيني وبين الدكتور بشر كما ظن البعض ووهم. فهذا النقاش وهذه المساجلة مهما عنفت في أسلوبها شيء و (الصلات الاجتماعية) شيء آخر. وما في كتابة الدكتور بشر من الشدة إنما هو نتيجة الانفعال الذي سمح له أن يسيطر على ما يكتب، وهذا يرجع إلى أن صاحبنا تغلبه طبيعة الفنان، ولعل في ذلك بعض ما يخفف شدة كلامه لمثلي ويعتذر له والسلام

(الإسكندرية)

إسماعيل أحمد أدهم

العدد 318 - بتاريخ: 07 - 08 - 1939

اللغة والقوالب الموروثة

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

كنت ذات يوم أكتب رسالة إلى صديق فجرى القلم بهذه العبارة المألوفة: (ومما زاد الطين بلة. . .) وهممت بأن أمضي في الكتابة ثم رددت نفسي وألقيت القلم ونهضت إلى الشرفة ورحت أدخن وأنظر إلى الناس. ولكن النظر إلى الناس لم يكن همي ولا كان كل شغلاني؛ فقد كنت أحادث نفسي وأحاورها وأقول لها إن عبارة (زاد الطين بلة) ليست هي الوحيدة التي ورثناها في جملة ما ورثنا من لغتنا وقد صارت على الأيام (كليشيها) أو قالبا مصبوبا نستعمله في الحديث والكتابة من غير أن نفكر في الصورة التي يرسمها هذا (الكليشيه) الموروث الذي يغرينا به أن الجري على العادة أسهل وأقل عناء. وقد نبتت هذه العبارات المورثة في زمان كان زمانها - أعني أنها كانت في الزمن الذي أخرجها وثيقة الصلة بمظاهر الحياة، وكانت تحدث في ذهن مستعملها صورة تحصل بلا عناء وترتسم بغير جهد. ولكنها الآن قد امتد بها العمر إلى زمان آخر مختلف جدا ولم تبق لها تلك الصلة القديمة بحياة العصر ولسنا نحس حين نستعملها أنها ترسم لنا صورة ما.

وسألت نفسي: (وهل ثم ضرر من استعمال هذه القوالب المورثة؟) وهززت كتفي ومططت بوزي - فعل المتردد الذي يحاول أن يهتدي أو أن يتقي التورط في رأي يجزم به. وبدا لي - وأنا أفكر في هذا السؤال - أن الضرر لا يجئ من استعمال هذه القوالب، بل من الاقتصار على استعمالها، أي دون العناية بجعل لغتنا صورة لحياتنا. وأحسب أن لابد من اتخاذ هذه القوالب إلى حد ما. وكل لغة قديمة - ولاسيما إذا كانت قد ركدت زمنا ما - تصبح عبارة عن مجموعة من القوالب، ولكن اللغة الحية لا تزال تتسع بما يدخل فيها ويضاف إليها من العصور التي تتعاقب عليها. وحياة اللغة مستفادة من حياة أهلها ولا ذنب لها إذا جمدت وإنما يكون الذنب لهم: فإذا رأيت أناسا من أبناء عصر حديث له مظاهر حياة جديدة يكتبون بلغة قديمة في قوالبها - أي كالتي كان يكتب بها من سبقوهم بعشرة قرون أو عشرين قرنا بلا اختلاف ومن غير أن يحدثوا فيها جديدا يدل على أنهم تأثروا بعصرهم - إذا رأيت ذلك فاعلم أن هؤلاء أناس متخلفون وأنهم أشبه بالآثار الباقية منهم بالأحياء، وأن الأدب واللغة لا يكسبان شيئا بهم سوى زيادة الجمود إذا كان هذا مكسبا.

وغير منكور أننا لا نستطيع أن نفكر إلا بالألفاظ وقد يجيء زمان يستغني فيه المرء عن الاستعانة بالألفاظ على التفكير بل أنا أومن بأن هذا الزمان لا محالة آت وأن الإنسان

سيستغني عن الكتابة والكلام في نقل ما يدور في نفسه من المعاني والخواطر والآراء والاحساسات إلى آخر ذلك - إلى نفس أخرى، ويكتفي بإرسال موجات يتلقفها غيره ويترجمها كما ترسل محطات الإذاعة موجاتها فتتلقفها آلات الراديو. ولكن إلى أن يجيء ذلك الزمان الذي يتيسر فيه الاتصال اللاسلكي بين نفوس الأفراد لا يسعنا إلا أن نفكر بواسطة اللفظ. فاللغة لا تزال أداة التفكير الذي لا نعرف له سواها؛ فإذا ظلت لغة من اللغات جامدة لا تتغير قوالبها ولا تتجدد ولا يدخل عليها جديد ولا يحدث فيها طريف ولا يؤثر فيها كر العصور ولا يترك فيها مر هذه العصور آثارا من حياتها فإن معنى هذا يكون أن أبناء هذه اللغة يفكرون على نحو ما كان يفكر أبناء زمان متوغل في القدم فهم يعيشون بأجسامهم في عصر ولكنهم بعقولهم يعيشون في عصر مضى وانقضى وانقرض واندثر.

وقد يكون العصر الماضي جميلا ولعل كل ما فيه كان حميدا ولكنه زال وجاء غيره بمظاهر حياة وأساليب تفكير وآمال ومخاوف وآداب وعادات مختلفة، فكيف لا يظهر هذا في لغة الكتابة والكلام؟. . وكيف يعقل أن تظل القوالب لا تتجدد ولا تتغير ولا تطرأ عليها زيادة من العصر الحاضر المؤثر بوجوده؟؟ أيكون ذلك من الكسل؟ أم هو من ضعف التأثر بهذا العصر؟ أم ترى الأحياء فيه جثث محنطة لها وجود ولكن ليس فيها حياة؟

ورأيتني وأنا أفكر في هذا أسأل نفسي سؤالاً لا يخلو من غرابة (أتراني أشبه أبي؟) وضحكت لما قلت ذلك، وقلت بالطبع أشبه أبي!. ما هذه السخافة؟. . وكيف أستطيع أن لا أشبهه؟ على أني لم أكن أعني المشابه العادية التي تكون بين الآباء والبنين فإن معمل الطبيعة لا يدعي ما تدعيه مصانع السيارات من إخراج طراز جديد في كل عام لا شبه له ولا صلة بطراز العام السابق؛ وإنما أعني هل أنا أحور شيئاً فشيئاً حتى أصبح صورة طبق الأصل من هذا الأب الفاضل؟؟ وناديت زوجتي وسألتها (أين صورة الوالد المحترم؟) فقالت: (إيه؟. . الوالد المحترم؟. . أي والد؟).

فقلت وأنا أضحك: (وهل لي غير والد واحد؟. إن كنت تعرفين لي غيره فقولي، ولك الأمان، ورحم الله الوالد والوالدة جميعاً) فقالت: (لا تمزح هذا المزح. . . عيب. . . وإنك لتعرف أني أسألك عمن تعني - والدك أم والدي؟) فقلت: (كلا. لا حاجة لي بأبيك. . . ولا بأبي أيضاً في الحقيقة، ولكني أريد أن أراجع صورته أو على الأصح أن تراجعيها أنت) فجاءت بالصورة وهي غير فاهمة، فقلت: (تأمليها وتأمليني. إنهما منظران ليس فيهما سرور لأحد، ولكن تجلدي. . . فهل ترينني مثله؟. . هل لو لبست مثل هذه السترة الاستامبولية، وهذا الطربوش الطري، وتركت شاربي ينبتان، ويطولان، ويتهدلان، ودخلت عليك في ضؤ خافت، تظنينني أبي، نفض عنه كفنه وخرج من قبره، أو تحسبينني على الأقل عفريته؟).

فقالت: (لا أدري لماذا هذه المقارنة ولكني أقول إن فيك منه مشابهة. . . كثيرة. . . ولكنك مختلف. . حتى النظرة مختلفة. . . نظرته نظرة رجل حليم كريم وديع أما أنت. . .) فصحت بها: (احترسي!. . ليست هذه فرصة لبسط لسانك الطويل فيّ. . .) فقالت: (لا. . . ولكن الحقيقة أن نظرتك مختلفة. . . فيها شئ آخر. . . الشبه موجود ولاشك، والذي يراكما يعرف، وان كان لا يعرفكما، انه لابد أن يكون أخاً أكبر، أو أباً أو جداً، على التحقيق. . . ولكن هناك اختلافاً لا أدري كيف أصفه) قلت: (لا تتعبي نفسك. . . يكفي أني مختلف. . . ولو كان حيا لاستطعت أن أتبين في أي شئ من الحقائق المطوية تختلف، ولكنه تَسرَّع. . . على كل حال أحمد الله. . . لقد كنت أخاف. . . كيف أقول؟ أخاف أن أظل أرتد وأرتد، حتى أصير مثله تماماً بلا فرق) فسألتني: (ولماذا تخاف هذا؟) قلت: (لو حدث هذا لأصبحت صورة مكررة. . . نسخة معادة. . . طبعة ثانية لا تختلف عن الأولى إلا في زمن الصدور. . . أي زيادة لا داعي لها ولا مزية. . . ولكان وجودي تكلفاً لا مسوغ له، وإسرافاً غير جائز، وعناء باطلاً لا جدوى منه. . . وسبحان ربي عن ذلك. . . وكنت أخاف شيئاً آخر. . . أن يضطرني ما يحوجني إلى العجلة إلى ترك أسلوبي الكتابي يفسد وينحط بأن يفقد صلته بالحياة وبأن يصبح عبارة عن قوالب قديمة مرصوصة فأكون كالمقاول الجاهل الذي لا يعرف غير طراز واحد من هندسة البناء. . . أتعرفين أن عندنا في مصر (مقاولين) أخصائيين

في بناء المقابر؟ لو تركت أسلوبي يفسد بالإهمال والكسل لأصبحت كهذا الذي لا يبني إلا القبور وما إليها. . . ولكني تنبهت والحمد لله فسأكون من هذا بعد اليوم على حذر. . . ولو اتسع وقتي لراجعت ما كتبت أو كتبته من جديد، ولكن ما فات مات، والعبرة بما هو آت، وعليك يا امرأة أن تجديني، أو على الأقل أن تحثيني على التجدد، كلما رأيتني أهم بأن أجمد وأركد، وهذا خير ما تستطيعين أن تفعلي، إذا كنت تستطيعين شيئاً).

إبراهيم عبد القادر المازني

كتاب مستقبل الثقافة في مصر

الثقافة العامة

وتعليم اللاتينية واليونانية

للأستاذ أبي خلدون ساطع الحصري بك

يثير الدكتور طه حسين (في كتابه مستقبل الثقافة في مصر) مسألة (اللاتينية واليونانية) بشكل يستلفت الأنظار ويستدعي الاهتمام:

يستهل كلامه الطويل عن هذه المسألة (ص285 - 302) بقوله: (إن وزارة المعارف لا تريد أن تقف عندها ولا أن تفكر فيها، لأنها غريبة بالقياس إليها، بل هي غريبة شاذة بالقياس إلى الكثرة العظمى من المثقفين المصريين، مع أنها في نفسها، من أوضح المسائل وأجلاها. . .).

ثم يستعرض الأدوار التي مرت على هذه المسألة في مصر، ويشرح بإيجاز كيف (أن صاحب المقام الرفيع علي ماهر باشا كان قد شعر بخطر هذه المسألة وهم بحلها) عندما كان وزيراً للمعارف. فقد بدأ بإدخال اللاتينية واليونانية في بعض المدارس الثانوية، وأقر تعليم هاتين اللغتين في الجامعة - بالقياس إلى كليتي الآداب والحقوق - غير أنه لم يمض زمن طويل على ذلك، حتى ألغيت اللاتينية واليونانية من المدارس الثانوية، وقام (صراع عنيف حول إقرار اللاتينية بالقياس إلى كلية الحقوق، وانتهى هذا الصراع بانتصار خصوم اللاتينية. . .).

يصف الدكتور طه حسين (الحالة الحاضرة) التي نجمت عن ذلك بأشد أوصاف اللوم وأعنفها، فيبذل في حديثه كلمات (المضحك، المخجل، المخزي. . .) ويوصل الأمر إلى درجة استعمال ألذع التعبيرات وأقرصها، من (الرضاء بالهوان) إلى (الاستخدام أمام الأوربيين) و (الاطمئنان إلى الخزي المبين) . . .

وذلك لأنه يعتقد بضرورة اللاتينية واليونانية للثقافة العالمية، ويعبر عن اعتقاده هذا بكلمات باتة:

(أنا مؤمن اشد الإيمان وأعمقه وأقواه، بأن مصر لن تظفر بالتعليم الجامعي الصحيح، ولن تفلح في تدبير مرافقها الثقافية الهامة، إلا إذا عنيت بهاتين اللغتين، لا في الجامعة وحدها، بل في التعليم العام قبل كل شئ (ص 281).

لأن (اللاتينية واليونانية أساس من أسس العلم والتخصص) (ص 285) فيجب أن تفرضا على (كل من يريد العلم الخالص والتخصص فيه) (ص 276) و (لأن التعليم العالي الصحيح لا يستقيم في بلد من البلاد الراقية إلا إذا اعتمد على اللاتينية واليونانية على أنهما من الوسائل التي لا يمكن إهمالها والاستغناء عنها. . .) (ص 292).

ولهذا السبب، يوجه الدكتور إلى معارضيه السؤال التالي، ويجيب عليه بالملاحظات التي تليه:

(والسؤال الذي يجب أن نلقيه وان نجيب عنه في صراحة وإخلاص وفي وضوح وجلاء هو هذا السؤال: أنريد أن ننشئ في مصر بيئة للعلم الخالص تشبه أمثالها في البيئات العلمية في أي بلد من البلاد الأوربية الراقية أو المتوسطة أم لا نريد؟ فإن كانت الثانية فقد خسرت القضية، وليست مصر في حاجة إلى يونانية ولا إلى لاتينية، وليست مصر في حاجة إلى الجامعة وإلى كلياتها بل حسها أن تعود إلى عهدها أيام الاحتلال، وان تسير سيرة المستعمرات وتكتفي ببعض المدارس العالية لتخريج من تحتاج إليهم من الموظفين. وإن كانت الأولى فقد ربحت القضية، ولا بد من العناية بهاتين اللغتين لا في الجامعة وحدها، بل في المدارس العامة أيضا (288).

يظهر من هذه العبارات أن الدكتور يعتبر هاتين اللغتين من لوازم الجامعة الأساسية،

ويدعي أن عدم العناية بهما لا يختلف كثيراً عن طلب إلغاء الجامعة نفسها، ويرى بأن ذلك لا يجوز إلا إذا طُلب من مصر أن تعود إلى عهدها أيام الاحتلال وأن تسير سيرة المستعمرات. . .

وقد يخطر على بال القارئ أن يسأل مستغرباً: إذا كانت المسألة بهذه الدرجة من الوضوح والجلاء فكيف وجدت هذه المقاومة وهذا الازورار في دوائر المعارف ومحافل المثقفين؟ إن الدكتور يبدي هذا الاستغراب فيقول: (ومن اغرب الأشياء في نفسي وأبعدها عن فهمي ألا يفطن لها ولا يهتدي إليها الذين ينهضون بشئون مصر ويقومون على تدبير الأمور فيها، والذين يشرفون على التعليم فيها بنوع خاص. . .) (ص 281).

يبحث الدكتور - مع هذا - عن أسباب هذه المقاومة عدة مرات، فيعزوها مرة إلى عوامل عرضية مثل استياء الإنكليز من انتخاب معلمي هاتين اللغتين من الفرنسيين والبلجيكيين (ص 275)، أو كيد أستاذ من أساتذة كلية الحقوق للعميد الأول لكلية الآداب الحكومية (ص279)، غير انه يعزوها في المرة الثانية إلى عوامل أساسية تتلخص - من حيث الأساس - في نقص (ثقافة القائمين بشئون التعليم في مصر) (ص 281).

يقول المؤلف في هذا الصدد: (وأكبر الظن أن مصدر هذا إنما هو أن الجيل الحاكم والمرتقي إلى الحكم لا يتقن العلم بالشئون الثقافية في أوربا ولا يكاد يعرف منها إلا ظواهرها، وظواهرها الغريبة اليسيرة التي لا يحتاج فهمها ولا العلم بها إلى جهد ولا عناء) (ص 281).

إذ أن (منهم من تعلم في المدارس المصرية وانتهى إلى غاية التعليم العالي المصري أيام الاحتلال، ثم وقف عند ذلك ولم يتجاوزه فلم يعرف من حقيقة التعليم شيئاً أو لم يكد يعرف منه شيئاً. .) (ص 281) ومنهم (من اتصل بالجامعات الأوربية قبل أن يتم التعليم العالي في مصر أو بعد أن أتمه فدرس فيها وظفر ببعض إجازاتها، ولكنه درس فيها عجلاً وظفر بأيسر إجازاتها وأهونها وانتفع في هذا كله بنظام المبادلات التي تقره الجامعات الأوربية لتيسر على الأجانب الاختلاف إليها وترغبهم في الاتصال بها. . .) (ص 282)، ولذلك عاد من أوربا دون أن يعرف (من الحياة العقلية الأوربية إلا ظواهرها وأشكالها. . .) (ص283).

وإن (بين الذين ذهبوا إلى أوربا وعادوا منها وبين الذين أقاموا في مصر واتصلوا بأوربا بعض الاتصال، من ألمّ إلماماً يسيراً بل إلماماً ناقصا مشوها بهذه الخصومة التي قامت في أوربا منذ أواخر القرن الماضي بين الديمقراطيين والمتطرفين من جهة، وبين المعتدلين والمحافظين من جهة أخرى حول تعليم اللاتينية واليونانية. . .) (284) (إنهم فهموا هذه الخصومة على غير وجهها الصحيح، وظنوا أن التجديد يقتضي بغض هذه الأشياء القديمة). . . (ولم يخطر لهم أن يتعمقوا هذه الخصومة ولا أن يتبينوا موضوعها وغاياتها. . .) (ص 285).

إن المقاومة التي تلقاها اللاتينية واليونانية في مصر نشأت من هذا النقص الأساسي. فلو

خطر لهؤلاء أن يتعمقوا هذه الخصومة لعرفوا أن موضوعها (لم يكن ضرورة هاتين اللغتين للثقافة والحضارة، وإنما كان ضرورة فرضهما على جميع التلاميذ الذين يختلفون إلى المدارس الثانوية ويتصلون بالتعليم العالي على اختلاف فروعه وألوانه لا سيما بعد أن انتشر التعليم وطمعت فيه الطبقات كلها طبقات الأغنياء والفقراء وأوساط الناس. .) (ص 285).

يحاول الدكتور أن يصحح مزاعم هؤلاء فيؤكد أن (موضوع الخصومة كان في حقيقة الأمر هذه المسألة: أيجب أن يتهيأ الناس جميعا للعلم والتخصص ليصبحوا جميعاً قادة للرأي ومديرين للأمور العامة، أم يجب أن يتهيأ بعضهم لحياة العلم والتخصص، وأن يتهيأ أكثرهم للحياة العاملة التي تيسر لهم الاضطراب في طلب الرزق وكسب القوت؟ فإن تكن الأولى فلا بد من اللاتينية واليونانية لأنهما أساس من أسس العلم والتخصص؛ وإن تكن الثانية فكثرة الناس محتاجة إلى التعليم الفني من جهة، وإلى التعليم العام الحديث الذي يعرض عن اللاتينية واليونانية إلى اللغات الحية والعلوم التجريبية، بشرط أن تظل اللاتينية واليونانية مفروضتين على كل من يريد العلم الخالص والتخصص فيه. . .) (ص285 - 286).

مع هذا، يلاحظ الدكتور طه حسين - في محل آخر من كلامه - أن المقاومة التي تلقاها اللاتينية واليونانية في مصر، لا تنحصر في دوائر المعارف، بل تشمل معاشر المثقفين بأجمعها. . إنه يلاحظ ذلك أيضا، ويعلله (بالعادة لا أكثر ولا أقل) إذ يقول: (انهم لم يتعلموا اللاتينية واليونانية، ولم يسمعوا بهما أثناء اختلافهم إلى المدارس العامة؛ وقد رأوا مصر تعيش عيشتها الحديثة من غير هاتين اللغتين، فلم يترددوا فيما انتهوا إليه من الاقتناع بأن تعليم هاتين اللغتين تزيُّد لا حاجة إليه ولغو لا خير فيه. . .) (ص291).

وبعد ذلك، يكرر المؤلف دعوته إلى العناية بهاتين اللغتين اعتبارا من الدراسة الثانوية؛ فيقترح تنويع التعليم الثانوي إلى ثلاثة أنواع، على أن يستند النوع الواحد منها إلى تعليم اللغات القديمة. يفرض فيه (على الطالب درس اللاتينية ولغة أجنبية حية، ويترك له الخيار بين اللغة اليونانية ولغة أوربية أخرى) ويحتم الانتساب إلى هذا الفرع على (كل من أراد أن يهيئ نفسه بعد الثقافة العامة للدراسات الأدبية المختلفة) بما فيها الفلسفة والتاريخ والجغرافيا. . . (ص301).

لا يجهل المؤلف المقاومة التي ستلقاها فكرته هذه من مختلف المحافل والبيئات فيقول: (أنا أسمع في أثناء إملائي هذه الكلمات صياح الصائحين وأحس هياج الهائجين، وأشعر بما سيثور من سخط، ولكني مع ذلك مقتنع بما أقول، مذعن بصواب ما أدعو إليه، ملح في هذه الدعوة، غير حافل بالرضا ولا بالسخط، ولا مُعنى إلا بما أعتقد أنه يحقق المنفعة الثقافية للمصريين. . .) (ص300).

إن هذه الاقتباسات التفصيلية، التي لخصت فيها آراء الدكتور طه حسين - دون أن أبدي شيئا من موافقتي لها أو اعتراضي عليها - تبين بكل وضوح وجلاء أن مسألة (اللاتينية واليونانية في مصر) تطورات تطورا غريبا ووصلت إلى طور حاد يحتاج إلى قرار حاسم.

هذه المسألة لم توضع على بساط البحث في محافل المعارف والتربية في سائر الأقطار العربية؛ غير أن إثارتها ومناقشتها في مصر بهذه الصورة مما يجب أن يحمل المحافل المذكورة أيضا على التفكير في أمرها، لتكوين رأي صريح فيها، واتخاذ قرار معقول في شأنها. . .

ولهذا السبب، رأيت من واجبي أن أتدخل في هذا البحث الذي يثيره الدكتور في كتابه، وأبدى ما لديّ من الملاحظات حول هذه المسألة. . .

إنني أعتقد أن الطريقة المثلى لحل أمثال هذه المسائل هي:

أولا: درسها من وجوهها الأوربية البحتة درسا صحيحا مجردا عن كل فكرة قبلية مع ملاحظة العوامل التاريخية التي أثرت عليها في الماضي والمذاهب الفكرية التي تحوم حولها في الحاضر. . وبعد ذلك الإقدام على التفكير في المسألة من وجهة أحوال بلادنا وحاجات أمتنا، مع الاستنارة بالاختبارات التي تكونت والآراء التي تبلورت حولها في أوربا.

وإني عملاً بما تقتضيه هذه الطريقة أبدأ بحثي بإلقاء نظرة إجمالية على تاريخ مسألة تعليم اللاتينية واليونانية في البلاد الغربية فأقول:

من المعلوم أن اللغة اللاتينية كانت لغة روما في القرون الأولى غير أنها صارت بعد ذلك لغة الطبقة المديرة والمستنيرة في جميع أنحاء أوربا الغربية عند ما دخلت تحت حكم روما، كما أصبحت لغة الدين والصلاة في تلك البلاد عندما اعتنقت الديانة المسيحية؛ وأخيرا صارت من دعائم الكنيسة الكاثوليكية عندما تكونت الكنيسة المذكورة وأخذت تبسط سلطتها على جميع الدول والدويلات التي تدين بها. فقد تبنَّت الكنيسة اللغة اللاتينية واتخذتها واسطة لضمان وحدتها، ولذلك عملت على نشرها في جميع البلاد التي دخلت تحت حوزتها، حتى بعد تضاؤل سلطة الإمبراطورية الرومانية وزوالها بصورة نهائية. . .

وأما اليونانية فقد حافظت على كيانها في معظم البلاد التي انتشرت فيها بالرغم من استيلاء الرومان عليها، كما أنها أصبحت لغة الدولة بعد انفصال الشرق عن الغرب، وتكوّن الإمبراطورية الشرقية مستقلة عن إمبراطورية روما الغربية، كما أصبحت لغة الدين والصلاة في العالم الأرثوذكسي عندما اعتنقت الإمبراطورية المذكورة الديانة

المسيحية. . .
بهذه الصورة تقاسمت اللغتان اللاتينية واليونانية السيطرة على الحياة الدينية في أوربا المسيحية، فأصبحت الطقوس والصلوات المسيحية تحت احتكار اللاتينية في أوربا الغربية في جميع البلاد التي اعتنقت المذهب الكاثوليكي، وتحت احتكار اليونانية في أوربا الشرقية - في جميع البلاد التي اعتنقت المذهب الأرثوذكسي - واستمر الحال على هذا المنوال طوال القرون الوسطى حتى حلول عصر النهضة وظهور البروتستانتية. . .
وأما الحياة الأدبية العلمية، في القرون الوسطى، فمن المعلوم أنها لم تجد من يزاولها ويهتم بها إلا من بين رجال الدين؛ فعاشت وترعرعت تحت ظلال الكنائس وفي أروقة الأديرة وارتبطت لذلك - هي أيضا - باللغة اللاتينية. فأصبحت هذه اللغة لغة العلم والأدب في جميع بلاد الغرب علاوة على كونها لغة الدين والصلاة. . .
من المعلوم أن اللاتينية تغلغلت في بعض البلاد الغربية بين جميع طبقات الناس، فأصبحت لغة العوام، وأخذت تتطور من جراء ذلك بصورة تدريجية إلى أن ولدت اللغات التي عرفت فيما بعد بالإيطالية، والفرنسية، والإسبانية، والرومانية. مع هذا ظلت اللاتينية الأصلية لغة الدين والصلاة، ولغة العلم والأدب، حتى في تلك البلاد، وحتى بعد تكون اللغات المذكورة واستقلالها عن دوحتها الأصلية.
إن الجامعات الأوربية والمعاهد التعليمية التابعة لها، أخذت تتأسس - في القرون الوسطى
في دور سيطرة اللاتينية على الحياة الفكرية والدينية سيطرة تامة، ولذلك اعتمدت - على اللاتينية كلغة تعليم في جميع فروعها.
في الواقع كانت الجامعات المذكورة أدخلت في مناهجها مدة من الزمن تعليم اللغات العربية والعبرية واليونانية أيضاً. . . العربية لكونها مصدر العلوم في تلك القرون، والعبرية لكونها لغة الكتاب المقدس القديم، واليونانية لكونها لغة الأناجيل الأصلية. . .
غير أن العربية والعبرية خرجتا بعد مدة من ميدان مشاركة اللاتينية في التعليم؛ وظلت اليونانية اللغة الوحيدة التي تساعد اللاتينية في مهمتها العلمية والتعليمية؛ وقد رسخت قدماها في هذا الميدان - بمرور الزمن، ولا سيما بعد أن بدأ الاهتمام بخزائنها العلمية والأدبية.
إن معاهد التعليم الثانوي التي تأسست لتهيئة الطلاب للجامعات تأثرت بهذه الحالة العامة، فاعتبرت اللاتينية أساس كل شئ، ولم تشرك بها لغة غير اليونانية في بادئ الأمر.
إن تاريخ التعليم في فرنسا يقدم تفاصيل وافية عن أحوال تلك المدارس ومناهجها الدراسية وتعليماتها الإدارية. ونفهم من تلك التفاصيل أن المدارس الثانوية في القرن السادس عشر كانت بمثابة مدارس لاتينية بكل معنى الكلمة: لا يدرس في سنتيها الأوليين شئ غير اللاتينية؛ ثم يضاف إليها في السنة الثالثة مبادئ اللغة اليونانية، وفي السنة الأخيرة بعض المسائل الرياضية. وأما اللغة الفرنسية أو العلوم الأخرى، فلم تشغل أي حيز كان في مناهج الدراسة، حتى إن التكلم باللغة المذكورة كان يعتبر من الأمور الممنوعة على المعلمين والطلاب في خلال الدرس أو بعد الدرس، في داخل الصف أو في خارج الصف. . . وهذا المنع كان مؤيداً بعقوبات عديدة وشديدة. . .
(يتبع)
أبو خلدون
جناية أحمد أمين على الأدب العربي
للدكتور زكي مبارك
- 9 -
كتب إلينا أحد القراء يرجونا أن نترك السخرية من الأستاذ أحمد أمين ونكتفي في الرد بشرح ما خفي عليه من الحقائق الأدبية، ويستكثر أن نقول في السخرية من هذا الصديق:
إن الأستاذ أحمد أمين لن يفهم الفروق بين دقائق المعاني إلا يوم يعرف أن الأدب لا (يكال بمكيال).
ولكن ما الذي نصنع والأستاذ أحمد أمين هو نفسه الذي يثير غضبنا عليه؟

ألم يحكم بأن الشعر العربي في جميع عصوره تشابه بحيث لا يمكن تمييز شاعر من شاعر إلا بعد قراءة ترجمته؟ (ولو تأمل لعرف أن أشعار الشعراء أدل على أصحابها من الترجمات). وهل يقع هذا الحكم من رجل إلا وهو يعتقد أن الأدب يكال بمكيال؟

إنكم نسيتم أن أحمد أمين أستاذ بكلية الآداب، وهي في الصدر بين معاهدنا العالية، وأساتذة كلية الآداب لا يجوز عليهم الظن بأن الشعر العربي تشابه في مختلف عصوره وأقطاره تشابهاً يقضى بألا نستطيع التمييز بين ديوان إلا بعد مراجعة تراجم الشعراء.

وعند من نرجو تمييز العصور بعضها من بعض إذا خفي ذلك على أساتذة كلية الآداب؟ وقد حدثتكم من قبل أن حكم الأستاذ أحمد أمين في هذه القضية محال في محال، فما يجوز أبداً أن يخفى على الناقد أن هناك فروقاً كثيرة جداً بين العصور الأدبية؛ ولو شئت لقلت إن الشاعرين قد يعيشان في عصر واحد، ومع ذلك يختلفان اشد الاختلاف في طرائق التعبير وفي عرض المعاني. وهل يتشابه شعر مسلم بن الوليد وشعر أبي نواس وهما متعاصران؟ هل يتشابه شعر أبي العتاهية وشعر العباس بن الأحنف وقد نشئا في عصر واحد؟ هل يتشابه شعر أبي تمام وشعر البحتري وهما من عصر واحد ومن قبيلة واحدة؟ وهل يتشابه شعر الرضى وشعر مهيار وهما متعاصران وكان بينهما من الصلات ما بين الأستاذ والتلميذ؟

ومنذ عشرين سنة كان في مصر ثلاثة من الشعراء قد ائتلفوا في المشارب والأذواق اشد الائتلاف حتى صح لبعض النقاد أن يسميهم (الثالوث) وهم إبراهيم المازني وعباس العقاد

وعبد الرحمن شكري، وكانوا قد كوّنوا جبهة أدبية لنشر لواء الأدب الحديث، فهل يصح لناقد أن يتوهم أن هؤلاء الشعراء الثلاثة تشابهوا في الأغراض وفي تأدية المعاني؟

وكان حافظ وشوقي وصبري ومطران وعبد المطلب متعاصرين فهل تشابهوا في الخصائص الشعرية؟

وما يقال في الشعر يقال في النثر، فما يجوز لناقد أن يتوهم أن الصاحب وابن العميد والتوحيدي يكتبون بأسلوب واحد مع أنهم متعاصرون.

وما يجوز أن يقال إن المويلحي الصغير يشابه المويلحي الكبير في ألفاظه ومعانيه مع أن الأول ابنٌ للثاني وعنه اخذ، وبأدبه تثقف، وأفاد من صحبته ورعايته ما أفاد.

وكان علي يوسف ومحمد عبده وفتحي زغلول ومصطفى كامل متعاصرين، فهل يمكن القول بأنهم متشابهون في الخصائص النثرية؟

وكان محمد الخضري ومحمد المهدي قد تخرجا في معهد واحد وصارا في التدريس زميلين في مدرسة القضاء الشرعي وفي الجامعة المصرية، أفيجوز أن يقال إنهما في التدريس وفي الإنشاء متماثلان؟

وفي عصرنا كاتبان يحتفلان بالأسلوب اشد الاحتفال وهما: البشرى والزيات، فهل هما متشابهان؟ وقد تأثر عباس حافظ بالسباعي فهل هو صورة من السباعي؟ هيهات، فلكل منهما أسلوب خاص.

والأمر كذلك في سائر الفنون: فقد كان محمد عبد الوهاب من تلاميذ سيد درويش، وهما مع ذلك متباعدان اشد التباعد في الاتجاهات الموسيقية والغنائية.

فكيف جاز للأستاذ أحمد أمين أن يحكم بأن شعراء العرب على اختلاف عصورهم وأقطارهم قد تشابهوا بحيث لا يمكن تمييز بعضهم من بعض إلا بعد الاطلاع على كتب التراجم؟

إن هذا لا يقع إلا من ناقد يتوهم أن الأدب يكال بمكيال ولو كان أستاذا في كلية الآداب.

لو كان أحمد أمين قد عكف على دراسة الأدب منذ فجر حياته العلمية لعرف أن الناقد البصير يدرك جيداً أن الشاعر الواحد له في حياته الشعرية أساليب مختلفات.

ألم تسمعوا أن ديوان ابن الفارض يشتمل على فنون من التعابير ومن الأغراض بحيث يصح أن يقال هذا شعر الكهولة وذاك شعر الشباب؟

ألم تسمعوا أن بغداد نقلت شعر ابن الجهم من حال إلى أحوال؟

ألم تسمعوا أن أشعار المتنبي في مصر لها ألوان تخالف ألوان شعره في الشام والعراق؟

إن صديقنا أحمد أمين يتوهم أن وحدة القوافي والأوزان توجب وحدة المعاني والأغراض، فهو لذلك يعتقد أن ديوان ابن خفاجة صورة من ديوان ابن زيدون، ويؤمن

بأن شعراء مصر لم يكونوا إلا صورة من شعراء العراق.
ومثله في ذلك مثل من يظن أن الناس خلقوا جميعاً على طراز واحد لأنهم جميعاً لهم وجوه فيها أنوف وجباه وأفواه وعيون، وآذان. وهذا والله حق: فكل إنسان له عينان وشفتان وأذنان، وهو يمشي على اثنتين لا على أربع، ولكن هل يمكن القول بأن بنى آدم مع هذا التشابه خلقوا على طراز واحد؟
كيف يجوز هذا القول والتوأمان قد يختلفان اختلافاً بيناً في معارف الوجوه وفي خصائص الذاتية وفي فهم الأشياء؟
ما كنت أظن أني سأجتاح إلى توضيح الواضحات في الرد على الأستاذ أحمد أمين، ولكنه قهرني على سلوك هذا المسلك الشائك لأدفع أوهامه عن أذهان القراء وفيهم من يظن أنه أبعد نظراً من حزام حين يقول في أدب المعدة وأدب الروح ما يقول.
المهم أن يعرف القراء أننا لا نتجنى على الأستاذ أحمد أمين، وإنما نريد أن يفهموا أن للحقائق الأدبية وجوهاً مختلفة يدركها حق الإدراك من ينظر إليها نظر الفهم والاستقراء. أما الذين يواجهون الأدب بلا تأمل ولا تثبت فقد يخفى عليهم الدقائق الفنية ولا يظهر لأعينهم غير ما يحبون أن يدنوه من الهنوات ليقال إنهم مصلحون لا يهمهم غير التنبيه على العيوب.
وما نقول بأن الأدب العربي كان في جميع أطواره منزها عن الضعف، وإنما ننكر أن ينظر الرجل إلى الأدب العربي نظرة الاستخفاف ليهون من شأنه بلا بينة ولا برهان.
وفي أي عصر يستبيح بعض الناس هذه الألاعيب؟
في العصر الذي يريد فيه العرب أن يستوثقوا من أن لهم ذاتية أدبية ليقاوموا طغيان الآداب الأجنبية، وليقيموا مجدهم الأدبي على أصول ثوابت من عظمة أسلافهم في التاريخ.
ولو أن الكلام الذي قاله الأستاذ أحمد أمين وقع من رجل غيره لقلنا انه يشايع أعداء العروبة والإسلام، ولكن الأستاذ أحمد أمين بالتأكيد سليم الضمير من هذه الناحية، فهو لم يخطئ عن عمد، معاذ الله، وإنما أخطأ عن جهل، فكان تنبيهه من أوجب الواجبات. ولعله يراجع نفسه فيعرف أننا لم نقدّم إليه غير الجميل.
وهل نحتاج إلى إقامة الدليل على حسن النية فيما صنعنا مع هذا الصديق؟
لقد كان ناس يتوهمون أننا حاربنا الدكتور طه حسين لأغراض شخصية، وكان الدكتور طه يلوذ بظل هذا التوهم فلم ينبر للرد علينا غير ثلاث مرات، أو أربع مرات، بأسلوب واضح صريح؛ ثم شاء له الحذر والاحتراس أن يوهم قراءه وسامعيه بأننا نحاربه لغرض خاص وأنه يرى من العقل ألاَّ يقدم الوقود للأغراض الشخصية. ثم دارت الأيام واعترف الدكتور طه علانية أمام جمهور من أقطاب الرجال بأن زكي مبارك من أصحاب العقائد في حياته الأدبية ويجب أن ينظر المنصف إلى مصاولاته في النقد الأدبي بعين الرفق والعطف.
فكيف جاز للأستاذ أحمد أمين أن يهرب من الرد علينا بحجة أننا نشتمه ونؤذيه بلا سبب معقول، ثم يكتفي بأن يوجه إلينا أبياتاً فيها لوثة جاهلية لا تصدر عن رجل في مثل آدابه العالية، وهو يعرف في سريرة قلبه أننا أصدقاء منذ عهد بعيد، ويعرف أني احفظ له من الود ما لا يحفظه إلا الأقلون؟
وكيف جاز له أن يظن أني تآمرت مع صاحب (الرسالة) عليه، مع أن مقالاتي في الرسالة قد تنتهي بخصومة بيني وبين الزيات، لان الزيات سامحه الله قد حذف من مقالاتي فقرات كثيرة رعاية لصديقه العزيز أحمد أمين؟
أتريدون الحق أيها القراء؟
الحق أني أعيش في غربة موحشة بين إخوان هذا الزمان فالأستاذ أحمد أمين كان ينتظر أن أمتشق قلمي لتزكية أحكامه الخواطئ على الأدب العربي، والأستاذ الزيات كان ينتظر أن أرد على أحمد أمين بأسلوب رقيق شفاف يحاكي نسائم الأصائل والعشيات على ضفاف النيل!
فكيف غاب عن هذين الصديقين أني رجل له غضبات؟
كيف غاب عن هذين الصديقين أن الأدب العربي وصل إلى دمي وروحي وأني أزدري من

يستهينون به أشد الازدراء؟
إن الأدب العربي هو الصورة الناطقة من ماضي الأمة العربية وهو في الواقع أدب أصيل لا يستهين به إلا حاقد أو جهول، وهو كذلك صورة من العِرض المصون في عهود التاريخ، فكيف يجوز أن نسامح من يفترون عليه أقبح الافتراء ولو كانوا من كرام الأصدقاء؟
الله يشهد أني متوجع لما صنعت بالأستاذ أحمد أمين، وهو رجل له ماضٍ في خدمة الدراسات الإسلامية، وله مواقف في مؤازرتي سأذكرها وإن طال الزمان؛ ولكنه في الأعوام الأخيرة أصيب بمرض عضال هو السخرية من ماضي الأمة العربية، وأغرم بضرب من الحذلقة لا يقره عليه غير الأصحاب المتلطفين الذين لا يهمهم غير الاقتراب من روحه اللطيف!
والأدب القديم الذي يتنكر له أحمد أمين هو نفسه الأدب الذي لم يستنصر بغيره حين جاز له أن يشتمنا وهو ظلوم.
الأدب القديم يقول: (أمر مبكياتك لا أمر مضحكاتك) فإن توجع هذا الصديق مما أسلفنا في الهجوم عليه فمن واجبه أن يذكر أننا أدينا لمصر خدمة عظيمة حين واجهناه بالملام، فقد كان من المنتظر أن يشرب الكأس المرة من النقاد في الشام ولبنان والحجاز والعراق واليمن وتونس والجزائر ومراكش، وما إلى هؤلاء من الأقطار التي تساير الآداب العربية.
قد يقول قائل: وما معنى هذا الكلام؟ أيكون معناه أني أشفق على الأستاذ أحمد أمين بعد أن أصليته نار العذاب؟
هو ذلك، فما كان أحمد أمين إلا نباتاً مصرياً وإن عرّض مصر لأشنع ضروب المهلكات. أحمد أمين رجل فاضل وإن تردى في هاوية العماية والجهل حين حكم بأن أدباء العرب كانوا أصحاب معدات لا أصحاب أرواح.
وما كان لي أن أطيل في شرح هذه المعاني لولا أن عرفت أن رجالا لهم أقدار عالية دعوني إلى مسالمة هذا الصديق.
فليعرفوا - غير مأمورين - أني لا أهجم عليه إلا ابتغاء وجه الحق، ولن أتركه في أمان حتى يعرف أن الأدب العربي أقوى وأعظم من أن يتعرض له باحث بسخرية واستخفاف،
وسوف يرى عواقب ما يصنع إن تغطرس واستطال.
أما بعد فقد كان موضوع هذا المقال هو النص على خطأ هذا الصديق في السخرية من الأدب الأندلسي.
فهل اتفق لهذا الصديق أن يدرس أدب العرب في الأندلس؟
إني لا أزال أذكر كيف أحرجني تلاميذي بدار المعلمين العالية في بغداد، فقد حدثتهم مرة عن قيمة أحمد أمين فانبرى أحدهم يقول: إن أحمد أمين من ذيول المستشرقين.
فقلت: وكيف كان ذلك؟ فقدموا إليَّ مقدمة الجزء الثالث من كتاب ضحى الإسلام وفيها يصرح المؤلف بأن تصميم الكتاب كان يوجب أن يكون له جزء رابع خاص بالأندلس، ولكن أحد المستشرقين نبهه إلى أن الأندلس في ذلك العهد لم تكن فيه حياة عقلية تستوجب أن يفرد لها جزء من كتاب، فانصرف عن تأليف ذلك الجزء المنشود!
وفي مساء ذلك اليوم كان عندنا العشماوي بك والدمرداش محمد، ودار الحديث حول المؤلفين المصريين فانبرى الأستاذ الدمرداش يثني على الأستاذ أحمد أمين فقلت: ولكن أحمد أمين صرح في مقدمة الجزء الثالث من ضحى الإسلام بكيت وكيت، فقال: هذا مستحيل، هذا مستحيل. ولولا حضور العشماوي بك لثارت معركة بيني وبين الأستاذ الدمرداش!
والحق كل الحق أن الأستاذ أحمد أمين لا يعرف الأندلس إلا معرفة سطحية. وآية ذلك أن الأدب الأندلسي لم يدرس في كلية الآداب منذ عشر سنين.
فهل نستطيع مرة ثانية أن نتلطف فندعو الأستاذ شفيق غربال إلى إنشاء كرسي للأدب الأندلسي في كلية الآداب؟
قد يعتذر العميد الجديد بأن الدكتور طه حسين صرح مرة بأنه لا يجوز لأستاذ أن يتصدر لتدريس الأدب الأندلسي وهو لم يطلع على غير كتاب نفح الطيب.

ولكني أؤكد للأستاذ شفيق غربال بأن مصر لا تخلو من رجال درسوا الأندلس في المصادر العربية والمصادر الأجنبية، ولهم قدرة على تجلية ذلك الأدب بأسلوب رائع جذاب، وهو خليق بأن ينتفع بمواهبهم حين يشاء.

وبأي حق تكون كلية الآداب أعظم معهد أدبي في الشرق إذا عز عليها أن تحيط بتاريخ العرب في الأندلس من نواحيه الأدبية والفلسفية والتشريعية؟

وكيف يجوز أن يعجز علماء مصر عما قدر علية علماء الفرنسيين والإنجليز والأسبان؟

إن مصر هي بلا جدال أعظم الأمم الإسلامية والعربية في الشرق. فكيف تعجز عن درس تاريخ العرب والمسلمين في الغرب؟ وكيف يصح لأبنائها أن يكونوا عالة على المستشرقين في الشؤون العربية والإسلامية حتى يجوز لأحد أساتذة كلية الآداب ألا يتقدم في أبحاثه أو يتأخر إلا بعد أن يظفر من المستشرقين بإذن خاص؟

قد تقولون: وهل انحصرت التبعات العربية في كلية الآداب؟

وأجيب بأن كلية الآداب تأخذ من أموال الدولة أعظم مما تأخذ سائر المعاهد المشغولة بالدراسات الأدبية والفلسفية، فهي مسئولة عن درس فتوحات العرب والمسلمين في المشرق والمغرب، وإليها المرجع في توجيه الشبان إلى فهم ماضيهم المجيد في خدمة الحضارة والمدنية، وإقناعهم بأن أسلافهم سادوا العالم بضعة قرون، ولذلك تأثير كبير في خلق الجيل الجديد.

فهل يعترف بذلك صديقنا أحمد أمين؟

وهل تعترف به الجامعة المصرية؟

لقد قضيتَ نحو خمسة عشر عاماً وأنا أدعو إلى تدريس العلوم باللغة العربية في كليات الجامعة المصرية، فكان المتخلفون من أساتذة العلوم يعتلون بأن اللغة العربية تعوزها المصطلحات في كثير من الشئون، وظلوا على تهاونهم إلى أن كتب معالي الدكتور هيكل باشا إلى سعادة مدير الجامعة يقول: إنه لا يفهم كيف تعجز اللغة العربية عن تأدية المعاني العلمية. وكانت تلك الإشارة كافية لأن يعرف أساتذة الكليات أن تدريس العلوم باللغة العربية ليس بالمستحيل، وكانوا يرونه قبل ذلك أبعد من المستحيل!

لقد قضت الجامعة المصرية أعواماً طوالاً وهي تدرس العلوم باللغات الأجنبية، ولم تعرف وجه الحق في إعزاز اللغة القومية إلا بعد أن ينبهها وزير المعارف، أثابه الله وجزاه خير الجزاء!

فهل يعلم الذين قاوموا هذه الفكرة من قبل أن الجامعة العبرية بالقدس تدرس جميع العلوم باللغة العبرية مع أن لغة بني إسرائيل ليس لها ماض في خدمة العلوم، ومع أن النوابغ من اليهود كانوا يعبرون عن أغراضهم بلغات أجنبية، ولم يفكروا يوماً في خلق عصبية للغة العبرية قبل فكرة الصهيونية؟

اللغة العبرية تصلح لتدريس جميع العلوم وهي في فقر مُدقع؛ أما اللغة العربية فتعجز عن تدريس العلوم مع أنها كانت لغة دولية في مدة دامت نحو خمسة قرون، ومع أنها استطاعت أن تحفظ الذخائر مما خلّف الفرس واليونان!

صلحت اللغة العبرية لتدريس جميع العلوم لأن اليهود أرادوا أن يخلقوا لأنفسهم ذاتية قومية، وقد نجحوا في ذلك إلى حد بعيد أما اللغة التي يتكلمها أقوام يشارفون مائة مليون والتي أمدت بحيويتها كثيراً من اللغات الشرقية، والتي تنزل في أنفس الملايين منزلة التقديس، والتي تحتل أقطاراً حملت أعباء المدنية في مختلف عهود التاريخ، والتي خُدِمتْ خدمة لم تظهر بمثلها لغة من لغات الغرب، والتي عجز الدهر عن تبديد ما تملك من ذخائر ونفائس، والتي سخّر الله لخدمتها مئات من الأجانب في الجامعات الأوربية والأمريكية.

هذه اللغة الفنية - لغة العرب - هي اللغة التي يقال إنها تعجز عن تأدية الأغراض العلمية، بفضل حذلقة السادة الأفاضل الذين يرون في تجريحها بابا من الشهرة والنباهة وبعد الصيت!

وأعيذ القارئ من الاستهانة بقيمة هذا الاستطراد: فهو متصل بدفع سخرية أحمد أمين من الأدب العربي، وإنما عبنا عليه تلك السخرية لأنها من الشواهد على أنه غير موصول الأواصر بذلك الأدب الرفيع. فلو أن أحمد أمين كان تذوق أدب العرب لأصبح

مجنون ليلاه، ولكنه مر به مرور العابرين من أبناء السبيل، وقديماً قال الحكماء: (من جهل شيئا عاداه).

وهنا شبهة يجب تبديدها لينتهي أحمد أمين. فهذا الرجل يرد علينا قائلا: إن الأدب يخدم بالنقد أكثر مما يخدم بالتقريظ. وهذا حق، ولكن هل يدرك المراد من النقد؟

النقد هو في الأصل تمييز الزائف من الصحيح فيدخل فيه اللوم ويدخل فيه الثناء، ولكن أحمد أمين يتوهم أن النقد مقصور على التجريح، ويرى الكلمة الطيبة بابا من التقريظ، وهو عنده معيب. ونحن نقول بلا تردد إن الأدب العربي أدب أصيل والزائف منه لا يقام له وزن بجانب الصحيح، فكيف انحرف بصره عن المحاسن ولم يشهد غير العيوب؟

وهل في الأدب حُسنٌ وقبح؟

الأدب جِدُّه جِدٌّ وهزله جُّد، ولا يعاب عليه إلا ما غلب عليه التكلف والافتعال، كالذي يقع من بعض الناس حين ينشئون مقالات لم تخفق لها قلوبهم، وإنما ينشئونها ليقال إنهم خالفوا الجمهور في كيت وكيت، أو ليجعلوها وسيلة لاجتلاب مقالات الكتاب بالمجان لتخفيف أعباءهم في تحرير الجرائد والمجلات.

ماذا أريد أن أقول؟

إن الترفق بالأستاذ أحمد أمين يصرفني عن كلمة الحق.

ولو رزقني الله الشجاعة لقلت إن هذا الرجل يتجنى على الأدب العربي لأنه لم يعرفه معرفة صحيحة، ولو قد عرفه حق معرفته لأدرك أنه خليق بأن تبذل في سبيله نفائس الأعمار من أحرار الرجال.

ولو أن أحمد أمين كان تذوق الأدب العربي لأيقن أنه خليق بأن يتعصب له الباحثون، ففي هذا الأدب نفائس تغفر له جميع الذنوب.

ما رأي أحمد أمين في كتاب (لسان العرب)؟ وما رأيه في كتاب (الأغاني)؟ وما رأيه في كتاب (نفح الطيب)؟ وما رأيه في كتاب (عيون الأخبار)؟ وما رأيه في كتاب (إحياء علوم الدين)؟

إن كتابا واحدا من هذه الكتب كاف لأن ينتهب حياة طيبة مثل حياة أحمد أمين، وهو خليق بأن يرفع رأس العرب بين سائر الممالك والشعوب.

وما رأي أحمد أمين في (ألفية أبن مالك) وهي من المنظومات النحوية والصرفية؟

هل خطر بباله أن هذه المنظومة شغلت مئات من العلماء؟

وهل مرّ في خاطره أنها تُرجمت إلى التركية منذ أمد بعيد؟

وهل يعرف كيف تترجم مثل هذه المنظومة إلى اللغة التركية؟

وهل يعرف من الذي قرظ ترجمتها من علماء الأزهر الشريف؟

إن هذا الصديق كان يتوهم أن مصر خلت من المتبحِّرين في الدراسات الأدبية واللغوية، وكان ينتظر أن يشطح وينطح بلا رقيب ولا حسيب.

وما كان يهمني أن أصحح ما وقع فيه من أغلاط لو لم يكن أستاذاً بكلية الآداب، فتلك الكلية

هي أول معهد فرضته الأمة على الحكومة ورفعت قواعده بما تملك من أموال وقلوب.

وما أنكر أن أحمد أمين رن صوته في كلية الآداب وقد زاملته فيها نحو أربع سنين، ولكن يعزّ عليّ أن أراه يحبط أعماله بمقالات فطيرة لم تكن ثمرةً لسهر الليل وإقذاء العيون تحت أضواء المصابيح، وإنما كانت ثمرة لنزوة وقتية أراد بها أن يخلق حركة في بعض المجلات، والمجد كالرزق بعضه حرام وبعضه حلال.

أنا أريد أن أعرف كيف جاز للأستاذ أحمد أمين أن يحكم بأن أدباء الأندلس لم يحسُّوا الطبيعة، ولذلك حساب سيراه في المقالات الآتية؛ ولكن أرجوه قبل أن أشرع في هذا البحث أن يدلني على مراده من التهديد الذي خصني به في مجلة الثقافة الغراء!

وإنما أهمني ذلك لأني أحب أن أعرف مصيري بعد أن استبحتُ ما استبحتُ من الحرية في النقد الأدبي

إن الشاعر الذي أستنجد به أحمد أمين يقول:

فقل لزهير إن شتمت سراتنا ... فلسنا بشتامين للمتشتِّم

ولا بأس، فأحمد أمين لا يجازى على الشتم بالشتم، إن صح أننا شتمناه.

ثم يقول ذلك الشاعر الذي استنصر به أحمد أمين:

ولكننا نأبى الظِّلام ونعتصي ... بكل رقيق الشفرتين مصمم
أعوذ بالله! فهل أخشى أن يلقاني أحمد أمين بسيف مصمم رقيق الشفرتين؟
وكيف وهو الذي هرب مني حين ذهبت أبحث عنه بمشارب الإسكندرية؟ وكيف يلقاني أحمد أمين بسيف رقيق الشفرتين وهو الذي لم يستطع ملاقاتي إلا بلسان معقول وقلم مفعول؟
ثم يقول الشاعر الذي أستنصر به أحمد أمين:
وتجهل أيدينا ويحلم رأينا ... ونشتم بالأفعال لا بالتكلم
فهل أخشى أن يرميني هذا الصديق بالحجارة والطوب حين يلقاني في الإسكندرية أو في مصر الجديدة؟
ليتني أقدر على الجهر بكلمة الحق! ليت ثم ليت!
فلو كنت شجاعاً لقلت إن أحمد أمين لم يدرك المراد من تلك الأبيات الجاهلية. وكيف أشجُع
وأنا مهدَّد بالحجارة والطوب من أحمد بن أمين الجاهلي؟!
إن الأستاذ عبد الجواد رمضان يقول: إني لن أموت قريباً لأني من الأشرار، وهي تهمة لا أدفعها عن نفسي لأني أحب أن أعيش! أفي الحق أني شِرِّير؟
أنت يا ربي تعلم كيف خلقتني، وكيف سوّيتني رجلاً لا يغضب إلا في سبيل الحق، وقد شاء فريقٌ من عبادك أن يظلموني، فتجاوز عنهم واعف عني، فإنك أنت غفّار الذنوب.
ولك أن تنظر، يا صديقي أحمد أمين، فسترى في الأسبوع المقبل كيف ألقاك، وكيف أحوّلك إلى أديب يعرف كيف تكلم أدباء العرب في مصر والأندلس والشام والعراق.
وهداية رجل مثلك قد تكون كفارة عما اقترفت في حياتي من آثام وذنوب.
ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض، ولكن الله ذو فضل على العالمين).
(للحديث شجون)
زكي مبارك
ذكريات سني التعليم
الامتحانات والنتائج
للأستاذ عبد الرحمن شكري
عند ما يعلل كاتب سؤ نتائج الامتحان ينسبه إما إلى ضعف الطلبة وإما إلى المناهج أو نظم الامتحان وإما إلى المدرسين وإما إلى غير ذلك من الأسباب، ولكنهم ينسون أموراً هامة قلما يذكرونها فيأتي التعليل ناقصاً. وهذا هو سبب تكرر مأساة سوء النتائج بعد سنة بالرغم من استقرار حالة الطلبة نسبياً الآن عما كانت عليه أثناء الإضرابات المستمرة والأزمات السياسية الحادة، وبالرغم من تخفيف المناهج وتبسيطها، وبالرغم من تسهيل نظم الامتحان إما بجعل الامتحان في مواد أقل أو مواد سنين أقل. وقل عدد تلاميذ الفصول في المدارس الأميرية ذات الحجرات الكبيرة، وخفض عدد الحصص التي يدرسها الأستاذ المدرس في مواد المنهج ذاته - وإن كان قد وكل إليه عمل آخر في النشاط المدرسي - فكان ينبغي أن تتحسن نتيجة الامتحانات تحسناً كبيراً لو كانت هذه الأمور وحدها سبب حين النتيجة.
والحقيقة أن هناك أسباباً لم ينظر إليها. ولم تكن النتائج الحسنة التي حصلنا عليها بسبب إرهاق الطلبة في العمل، بل كنا بالعكس نحاول منع الطلبة من إرهاق أنفسهم بالعمل ليلاً ونهاراً في الشهر الأخير ومنعهم من إتلاف صحتهم من غير فائدة بهذه العادة العقيمة؛ أما التشدد في نتائج النقل فلا يعللها أيضاً، إذ كنا نحصل على مثل هذه النتائج في مدارس لم نباشر امتحان النقل فيها أو في فرق كانت نسب النجاح في امتحان النقل فيها حسنة مرتفعة. فالتشدد في امتحان النقل وحده لا يعللها إذاً.
ومجهود المدرس أو مادته لا تعلل وحدها حسن النتيجة، فقد تكون مادة المدرس كأحسن ما تكون المادة ومجهوده أكبر مجهود، وتأتي النتيجة سيئة نسبياً. وقد شاهدنا ذلك في نتائج أساتذة من أحسن المدرسين عملاً ومادة، بينما كانت نتائج مدرسين آخرين في فصول أخرى هي عماد نتيجة المدرسة الحسنة الطيبة مع أنهم لا يمتازون عن إخوانهم في المادة ولا في الشرح والتفسير وإن كان تفسيرهم أقرب إلى المحاضرة منه إلى التدريس؛ وهذا خطأ.

والعامل الأول في تحسين نتائج الامتحان في رأيي هو أن تحصي المدرسة التلاميذ الضعاف في كل فصل بالرجوع إلى درجات امتحان النقل في كل مادة وأن يوجه إليهم الأستاذ المدرس جهده أثناء التدريس والشرح، وفي الاختبارات الشفوية في أول كل حصة وفي توزيع الأسئلة أثناء خطوات التدريس للتأكد من التفاتهم وفهمهم ومذاكرتهم وبالاختصار يكون أكثر التدريس للضعاف أثناء الحصص. قد يقال إن الطالب الذكي المجتهد أولى بالرعاية والتشجيع كي يزيد علما وثقافة. وهذه فكرة مخطئة إذ أن المدرس غير مطالب بتخريج نوابغ قليلين، وأكثر النوابغ يستطيعون النبوغ بقليل من التفات المدرس وعنايته ولكنه مطالب برفع مستوى الضعاف ومن أجلهم أنشئت المدارس لأن حاجتهم إلى المرشد أعظم من حاجة النوابغ، ولا يصح أن يستزيد الطالب النابغة من العلم على حساب إخوانه الضعفاء أو الأقل ذكاء، ويستطيع الأستاذ إذا سبق النوابغ إخوانهم في الفهم والاستيعاب أن يعطيهم عملاً خاصاً في أثناء الحصة أو خارجها إذا خشي الملل من جانبهم، إذا سار على قدر فهم الضعاف واستيعابهم، ويستطيع أن يبادر الأذكياء من حين لآخر بالسؤال للتأكد من أن سيره مع الضعاف لم يثبط همة الأذكياء ولم يصرفهم عن المدرس ولا سيما الأذكياء الذين يعتمدون على ذكائهم في التحصيل في الشهر الأخير من العام الدراسي، على أن تتبع الأستاذ للخطأ والصعوبة في أذهان الضعاف مما يزيد النابغة معرفة لما يواجه الذهن الإنساني من الخطأ والصعوبة وإن كانت الصعوبة في ذهنه أقل، إذ لاشك في أن بعض الأذكياء قد يكتفون بنصف فهم بينما لا يَدَّعي الضعيف الفهم إذا لم يستكمله إلا حياء وخجلاً من الظهور بمظهر ربما ظُنَّ غباوة يضحك منها إخوانه الأذكياء وهو أمر ينبغي ألا يُسمح به. ولا فائدة مطلقاً من تقديم الأستاذ المدرس تقارير لناظر المدرسة يومية أو أسبوعية عن المقصرين في الاستذكار إلا إذا عمل على اتباع هذه الطريقة اتباعاً تاماً دائماً أي طريقة مناقشة الضعفاء أثناء الشرح للتأكد من التفاتهم ومتابعتهم إياه وفهمهم. وإذا كان في التدريس بطء بسبب هذه الطريقة استطاع الأستاذ أن يتلافى هذا البطء بوسائل أخرى، ويحسن بالوزارة أن تشجعه بوسائل العطف والقدر والمكافأة بهما إذا اضطرته هذه الخطة إلى الزيادة في عمله إلى تضحية وقته الخاص.

أما العامل الثاني في تحسين النتائج فهو أن يتعرف الأستاذ أماكن الصعوبة في المنهج ذاته والأغلاط والأخطاء الشائعة بين الطلبة عموماً سواء أكان الخطأ في اللغات أو في المواد الأخرى وأن يخصها بشرح أوفى وتمارين أكثر وأن يعاود الرجوع إليها حتى يقتلعها من

أذهان الطلبة اقتلاعاً ليس أساسه القهر وإنما أساسه الفهم. وكنا نحصي الأغلاط الشائعة بين الطلبة المصريين في اللغة الإنجليزية ونطبعها لهم ونعمل على استئصالها. فالعامل الأول هو التوجه بالتدريس إلى الضعفاء والسير معهم والعامل الثاني إحصاء الأغلاط الشائعة وأوجه الصعوبة وتلافيها.

أما العامل الثالث فهو أن الطلبة يؤجلون الاستذكار إلي آخر السنة وقد لا يكون التأجيل ناشئاً عن الكسل والبلادة بل قد يكون عن حسن نية لأن سبب هذا التأجيل فكرة سيكولوجية مخطئة فهم يحسبون أنهم إذا استذكروا شيئا في أول السنة ثم نسوه لم يستفيدوا من ذلك الاستذكار بسبب النسيان، وقليل من علم النفس يبرهن على خطأ هذه الفكرة إذ أنه يثبت أن صورة الأمر المنسي راسبة في أعماق الذهن والوعي الباطن وأنه لا يسهل استخراج المعقولات من أعماق الذهن عندما يشاء صاحبه تذكرها في أي وقت إلا إذا انطبعت الصورة في الذهن مرة بعد أخرى وفي كل مرة يعقب الاستذكار النسيان حتى يأتي على صاحب الذهن وقت لا ينسى بعد الحفظ، ولو فهم الطلبة هذه الحقيقة النفسية لاستطاعوا أن يفهموا السبب في أن الواحد منهم قد يجيد مذاكرة الدروس في الشهر الأخير من السنة فقط حتى إذا سألته فيها أجاب إجابة جيدة فإذا دخل الامتحان نسيها ولم يستطع الإجابة فإذا رسب أقسم أنه استذكرها جيداً وأنه سيئ الحظ. نعم إنه استذكرها جيداً قبيل الامتحان ولكن ينبغي أن يفهم أن محاولته تجنب النسيان في أثناء السنة بتجنب المذاكرة طول السنة هو الذي يوقعه في النسيان أثناء الامتحان مهما جاد المذاكرة آخر السنة، وأن نسيانه أثناء الامتحان بعض المعقولات أو كلها أكبر دليل على انطباع المعقولات في الذهن انطباعاً لا تُنْسى معه عند الحاجة يستلزم طبع صورتها في الذهن مرة بعد أخرى في أوقات

مختلفة. ومن الصعب أن يدرك الطلبة هذه الحقيقة كل الإدراك أو إذا أدركوها صعب عليهم التخلص من عادة تأجيل المذاكرة للشهر الأخير اعتمادا على احتمال النجاح بالرغم من هذا القانون السيكولوجي. وهذا مع أن إرهاق أنفسهم بالمذاكرة ليلاً ونهاراً في الشهر الأخير يتلف صحتهم وإذا تلفت الصحة تأثر العقل ولو تأثرا مؤقتا وصار أقل استعداد للإجابة أثناء الامتحان. وحسن نتيجة المدرسة في الامتحان يتوقف على الوسائل التي تتخذها لمنع تأجيل الاستيعاب إلى الشهر الأخير.

والأساتذة المدرسون يجدون مقاومة كبيرة في حمل الطلبة على الاستذكار من أول السنة، كما يجدون مقاومة إذا اتبعوا عامل النجاح الأول والتفتوا للطلبة الضعاف في كل حصة، ففي الحالة الأولى يعيد الطلبة مطالبتهم بالاستيعاب والمذاكرة من أول السنة تعنتاً وظلماً ومطالبة بعمل ضائع لا محالة في نظرهم لأن نسيانهم محقق بعد أول استذكار، وقد يكرهون المدرس أو الناظر إذا حاول حملهم على خطة العمل من أول السنة ويعدون خطته ووسائله في حملهم تقصدا ومضايقة لا مبرر لهما وشدة غير معقولة. وفي حالة الالتفات للطلبة الضعاف في كل حصة يعد الطلبة الضعاف هذا الالتفات الدائم إليهم تقصداً مكروهاً ومضايقة وإهانة لظهور عجزهم أمام إخوانهم.

والآباء وأولياء أمور الطلبة لا يدركون مقدار ما يلاقيه الناظر وما يلاقيه المدرسون من عناء للتغلب على ميول الطلبة وأفكارهم المخطئة من الوجهة السيكولوجية أي اعتقادهم أن العمل من أول السنة عمل ضائع لأنه يؤدي إلى النسيان واعتقاد الضعاف في المواد أن الالتفات لهم في كل حصة تقصد يراد به إهانتهم. وهذا هو السبب في أن أولياء أمور الطلبة قد يشكّون في نية الناظر أو المدرس أو على الأقل لا يحاولون معاونتهم فترى أحياناً أحد الآباء يقول إن الناظر أو المدرس يتقصد ابني، وقد يبلغ هذا الأمر حالة يشارك الأب فيها ابنه في كره الناظر أو المدرس. وهذه المقاومة من الآباء والأبناء تشتد إذا كانت هناك عوامل خارجية أو داخلية في المدرسة تزيد سوء الفهم وتشجيع الطلبة أو أولياء أمورهم على كره الوسائل التي يتخذها الناظر أو المدرس ومعاداتهما. وهي على أي حال مقاومة كبيرة. وتزيد إذا اضطر الناظر إلى رفض طالب أو إذا طلب المدرس من الناظر رفض طالب رفضاً مؤقتاً لأن بعض الطلبة قد يحرج المدرس إحراجاً كبيراً إذا حاول اتباع هذه الخطط والعوامل التي شرحناها. وينسى بعض آباء الطلبة أن حضور الطالب طول العام من غير رفض أيام قد يجعله حاضراً كغائب ولا ينتفع بحضوره وأن تضحية أيام في الرفض قد يزيد ذهنه واستعداده حضورا في الأيام الأخرى. ومن أجل هذه المقاومة قد يزهد الناظر أو المدرس في اتباع هذه الخطط التي شرحناها رغبة في تسهيل سير الأمور ومنعا للمشكلات، أو إذا اتبعت هذه الخطط قد تتبع اتباعا محدوداً حسب الظروف وبقدر الاستطاعة. وهذا يقلل بلا شك من حسن نتيجة الامتحان. والمدرسة معذورة مادامت هذه المقاومة موجودة ولا يستفيد الناظر ولا المدرس من اتباع خطط قد تجلب له عداوة شديدة وأحقاداً ربما تخطت منطقة المدرسة إلى الوزارة نفسها. والوزارة أيضا لها بعض العذر فإنها إذا ناصرت الناظر سنة قد لا يستطيع مناصرته دائماً. فالكاتب الذي يكتب في الجرائد ويطلب نتائج حسنة ينبغي أن يدرك المقاومة التي تمنع من الحصول على نتائج حسنة.

بقي أن نفند بعض الأخطاء الشائعة في التعليم والتي قد تؤدي إلى رسوب الطلبة؛ فمن هذه الأخطاء مغالاة بعض أساتذة اللغة الفرنسية في نظرية الشرح باللغة الفرنسية وحدها للطلبة المبتدئين الذين يستمرون أشهر اً غير فاهمين لأن التفسير يحتاج إلى تفسير. نعم إنه مبدأ حميد على شرط أن يكون الشرح مفهوماً، أما إذا كان التفسير الفرنسي مجهول الكلمات غير مفهوم فالواجب استخدام أية وسيلة لإفهام الطلبة سواء أكانت بالإشارة إلى الأشياء أو قي المعقولات غير المادية باستعمال اللغة الإنجليزية أو العربية. ومن الخطأ في تدريس اللغة الإنجليزية أن يقال للطالب هذا خطأ وصوابه كذا، ويكتفي بذلك، فهذه طريقة التدريس للشبان الإنجليز الذين يسمعون الصواب كثيراً. فلابد من أن يكون الأستاذ مدرس اللغة الإنجليزية خبيراً بفقه اللغة وقواعدها، ولا حرج عليه مطلقاً في شرح القاعدة أو الاصطلاح إذا كان الاصطلاح غير مبني على قاعدة، ولكن أكثر أخطاء الطلبة المصريين في اللغة الإنجليزية ترجع إما إلى الخطأ في قواعد اللغة، وإما إلى احتذاء الأساليب العربية، وقواعد اللغة العربية،

وهذه الأخطاء يمكن شرح سبب وقوع الطالب في الخطأ فيها، ومثل ذلك أن الصفة تجمع في اللغة العربية، ولا تجمع في اللغة الإنجليزية؛ فإذا فهم الطالب القاعدة وسبب الخطأ أمكن تجنبه. أما أن يقال له لا تقل كذا بل قل كيت وكيت لأن الأول خطأ فهذا شبيه في تدريس حل أسئلة الرياضة والعلوم بقول الأستاذ هذا الحل خطأ من غير تفسير سبب الخطأ، وهو تفسير يجب أن يتعهد به كل طالب في كل سؤال أو تمرين وإلا بقي الخطأ في ذهنه بالرغم من معرفة حل الأستاذ للمسألة. وهذا التعهد ببيان سبب الخطأ في كل تمرين يحتاج إلى وقت ولكنه السبيل الوحيد للنجاح. وقد رأيت بعض الأساتذة الإنجليزية يفضلون محاولة الطالب الأسلوب الأدبي العالي في الإنشاء بالرغم من تخلل الأغلاط الأولية له؛ وهذا يرجع إلى عدم التوطئة للأسلوب الأدبي يشرح الأغلاط الأولية الشائعة واستئصالها بكل وسيلة لأنها تعطي فكرة سيئة عن الطالب تؤدي إلى
رسوبه في الامتحان مهما حاول المصحح إنصافه في استعماله بعض الجمل العالية.

عبد الرحمن شكري

من كتاب الدين الإسلامي

مقدمة لبحث الإيمان

للأستاذ علي الطنطاوي

معناه اللغوي

إذا قال لك قائل إن جزء الشيء يساوي مجموعه، أنكرت ذلك عليه وكذبته فيه لأنك (تؤمن) بأن الجزء أصغر من الكل، ونقطع بذلك قطعاً، ولا ترى عنه معدلاً. وإذا وجدت من يبذل دمه في سبيل وطنه، ويفديه بنفسه وماله، ويحرص على خدمته قلت إنه من ذوي (الإيمان) الوطني، وإذا ألفيت المحبّ المولّه، يعصى العذول ويعرض عن الناصح، وصفت حبه بالإيمان وعبرت عنه، كما يقول التراجمة الناقلون، بالعبادة. فقلت: إنه يعبد حبيبته.

هذا كله من مظاهر (الإيمان) - والإيمان - بهذا المعنى - هو العقيدة الثابتة في النفس، أو العاطفة القوية الراسخة التي لا تتبدل ولا تتزعزع ولا يحتاج إلى التدليل عليها، لأنها من (البديهيات) بالنسبة لصاحبها المؤمن بها.

فالإيمان (في اللغة) التصديق وفعله آمن واصلها أأمن بهمزتين ليّنت الثانية.

أنواع الإيمان

يتضح لك مما مثلنا أن للإيمان نوعين: فإيمانك بأن الرغيف أكبر من نصفه، وأن الواحد ثلث الثلاث (إيمان عقلي) لا اثر لك فيه ولا عمل، وإنما هو من الفطرة التي فطر الله الناس عليها. أما (الإيمان الوطني) أو (الإيمان بالحبيبة) بالنسبة للعاشق المتيم فهو (إيمان قلبي)، لا دخل للعقل فيه، وهو فردي شخصي يختلف عن (الإيمان العقلي) الذي يتصف بكونه عاماً شاملا العقلاء جميعاً. وهذا التقسيم جديد استنبطته من الأمثلة المختلفة للإيمان ورأيت فيه نفعاً، لأنه يثبت جنس الإيمان، ولأنه بعد ذلك يساعد على تحديد البحث. أما الإيمان بأصول الدين، فهو من نوع الإيمان القلبي، ولكن للعقل دخلاً فيه من حيث إنه يقبل مبدأه ويقر نتائجه، ولا يناقضه وإن كان لا يفهمه تماما. وبيان هذه المسألة المهمة أن العقل (يؤمن) بادئ الرأي بوجود الله، وبأنه عادل، ولا يناقض نتائج الإيمان بالقدر إجمالا ولكنه لا يستطيع أن يفهمها ولا أن يعلّلها، ومنشأ ذلك أن العقل مقيد في أحكامه بالحواس والخيال
والاختبارات السابقة، لا يستطيع أن يتخلى عنها، أو يخرج عليها. فهو يحكم على عدل الله بما يعرف من حدود (العدل البشري)، وما لديه من الاختبارات. فيقع في الخطأ لاختلاف فكرة العدل البشرية النسبية، عن فكرة العدل الإلهية المطلقة.

فالعقل إذن لا يستطيع أن ينقض نتائج الإيمان ولكنه لا يؤمن تماماً، وإنما الذي يؤمن هو القلب.

الإيمان في الدين الإسلامي

عرفنا معنى الإيمان في اللغة. أما معناه في الدين فهو التصديق بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر (وسيأتي الكلام على ذلك كله إن شاء الله) فمن صدق بها تصديقا جازما فهو المؤمن حقاً. وقد جعل الله هذا التصديق أصل الدين وأساسه، وأقام الأدلة على هذه المسائل، وخاطب بها العقل، لكن الذي أفهمه أن العقل يقبل

مبدأ الإيمان إجمالاً، ثم يدع دقائقه للقلب، أي أنه كالملك في الدولة يوقع على المرسوم ولكنه يدع لغيره من الموظفين فهمه وتطبيقه ومراعاته دائما. فالعقل يؤمن بأن الله موجود، وأن القرآن كتابه الذي أنزله، وأن محمداً نبيه الذي لا ينطق عن الهواء. ثم يقف ويدع للقلب (الإيمان) لكل ما جاء في الكتاب، وما نطق به الرسول والاطمئنان إليه والتصديق به وقبوله بلا أدنى شك ولا ريب. . . وليس في أصول الإسلام ما يرفضه العقل، أو يتعذر عليه قبوله لمخالفته لبديهياته الثابتة، أو أحكامه الصحيحة، وهذه هي ميزة الدين الإسلامي عن كل دين.

العلاقة بين الإيمان والإسلام

الإسلام هو (إظهار) الإيمان، والتعبير عنه (عمليا) بالنطق بالشهادة عليه، والقيام بالعبادات التي تنشا عنه. وهو الأساس الذي يبنى عليه تقسيم الناس إلى متبع ومخالف، وما يتفرع عن هذا التقسيم من أحكام مدنية وحقوقية، لان الناس لهم (الظواهر) ولا يستطيعون أن يشقوا عن قلوب الناس ويعرفوا سرائرهم. وهذا معنى ما جاء في الحديث القائل (أمرت أن أقاتل الناس حتى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله. فإذا قالوها عصموا دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله).

فإن نطق الشهادة، وأدى الفرائض ولكنه غير (مصدق) بها، ولا (معتقد) وجوبها، ولا يفهم

إلا جسمها دون روحها، وشكلها دون معناها، فهو (غير مؤمن) وهو ما كان عليه بعض الأعراب الذين قال الله عز وجل فيهم: (قالت الأعراب آمنا، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا).

وإن (أظهر) الطاعة عن تصديق وجزم، وأدى الصلاة معتقداً بوجوبها مراقباً الله فيها، فهو المؤمن المسلم. نقل في اللسان عن ثعلب اللغوي قال: المؤمن بالقلب والمسلم باللسان (أي وبالجوارح) وقال الزجاج: صفة المؤمن أن يكون راجيا ثوابه خاشيا عقابه.

وقال الزمخشري في الكشاف، في المسلم الكامل: (هو من اعتقد الحق وأعرب عنه بلسانه وصدقه بعمله. فمن أخل بالاعتقاد، وإن شهد وعمل فهو منافق. ومن أخل بالشهادة فهو كافر. ومن أخل بالعمل أي بالعبادة من صلاة وصيام وحج فهو فاسق).

الإيمان ضروري ومفيد

بدا لك مما تقدم ذكره أن الإيمان ضروري لا يستطيع إنسان أن يعيش بدونه، وأن المرء إن زعم أنه لا يؤمن بأصول الدين لم يكن له بد من الإيمان بمبادئ عقلية، ومبادئ اجتماعية، وأخلاقية، ولا منجي له من الحب - والحب والإيمان من طبيعة واحدة في الأصل - فليس في الدنيا إذن إنسان إلا وهو (مؤمن) لأن (الإيمان) شيء مستقر في طبيعة البشر، ومن آمن بهذه الحقائق الصغيرة، أو الأباطيل التي يتوهمها حقائق، كما يتوهم المحب العاشق، لم يستطع الكفر بالحقيقة الكبرى، وهي وجود الله. وسنرى بعد أن وجود الله بديهية عقلية، وأن التأليه والتطلع إلى المجهول، والبحث عن الخالد الباقي، من الفطر الإنسانية.

ثم إن من مصلحة الإنسان أن يكون مؤمنا بالله، لأن الحياة مملوءة بالآلام، فياضة بالمكاره، فإذا لم يكن للمرء وَزَرٌ من إيمانه يلجأ إليه كلما حاقت به الشدائد، أو انتابته الأمراض، كانت حياته جحيما محرقا لا يحتمل، وربما أدت به إلى الانتحار كما يفعل الجاهلون، فلا سعادة إذن إلا بالإيمان ولا أنس بالحياة إلا معه.

ومن مصلحة المجتمع أيضا أن يكون الناس مؤمنين، لأن القوانين والقوى التي تؤيدها، والعقوبات التي تحميها، كل ذلك لا يؤدي إلى إنشاء مجتمع خيّر صالح إذا نقصه الإيمان. وكيف لعمري يصلح الرجل ويستقيم، وهو لا يجتنب السرقة إلا خوفا من الشرطي وهربا

من العقاب. فإذا أمن الشرطي ونجا من العقاب سرق وقتل وفعل الأفاعيل. فإذا كان (مؤمنا) بالله يخشى عقوبته، (مؤمنا) بمبادئ الأخلاق التي أمر بها الله ووعد بالثواب عليها استقام دائما، لأن الله مطلع عليه مراقب له دائما. وشيء آخر هو أن الدافع إلى كل ما يفعله الإنسان المنفعة أو اللذة؛ فالمؤمن يعمل الصالحات ولو لم يره أحد ولو لم يعلم به أو يشكره لاعتقاده أن الله يثيبه ويعطيه، فلماذا يعمل الصالحات غير المؤمن إذا لم يكن من يراه أو يشكره أو يذيع فضله أو يجزيه بعمله خيراً؟

الإيمان الكامل

والمؤمن الكامل الإيمان هو الذي يتصور في كل لحظة أنه بِسَمْعِ الله وبصره وأن الله مطلع عليه ناظر إليه، فإذا لم يمنعه من المعصية خوف الله منعه الحياء منه، ولذلك جاء في الحديث (إذا زنى الرجل خرج منه الإيمان فكان على رأسه كالظلّة، فإذا أقلع (أي تاب توبة صحيحة) رجع إليه) فلا يستطيع الزاني أن يزني وهو مؤمن إيمانا حقا، ومتصور أن الله ناظر إليه. بل هو لا يستطيع أن يزني إذا كان أبوه أو أستاذه يراه ويشرف عليه، فالإيمان إذا كان على هذه الصورة يمنع صاحبه من كل فاحشة، ويصرفه عن كل ذنب.

الصالحات بلا إيمان

فإذا عمل الرجل من الصالحات وهو غير مؤمن لم يكن له ثواب في الآخرة. وقد يبدو ذلك غريبا لأول وهلة ولكنه نهاية العدل من الله. وهل في العدل أكبر من أن تعطي المحسن المصلح كل ما يطلب. فإذا كان يقصد ثواب الآخرة، وكان (مؤمنا) بها أعطاه الله ما يطلب، وإن لم يطلب إلا الشهرة في الناس وخلود الذكر فيهم، أعطى الشهرة والخلود، ولم يكن له في الآخرة شيء (فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق. ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار).

هذه مقدمة موجزة جدا لبحث الإيمان سيعقبها فصل في الإيمان بالله للأستاذ العلامة الشيخ محمد بهجة البيطار ينشر في العدد الآتي.

علي الطنطاوي

خليل مردم بك

وكتابة في الشاعر الفرزدق

لأستاذ جليل

من القضاء الغريب بين الفرزدق وجرير ما رواه الأستاذ المردمي عن الأغاني: (تنازع في جرير والفرزدق رجلان من عسكر المهلب. فارتفعا إليه وسألاه، فقال: لا أقول بينهما شيئاً ثم دلهما على الخوارج. فلما تواقف الجيشان بدر أحد المتنازعين من الصف إلى عبيدة بن هلال اليشكري الخارجي فسأله عنهما ففضل جريرا. قال من الذي يقول:

وطوى الطراد مع القياد بطونها ... طي التجار بحضرموت برودا

فقال: جرير. قال: هذا أشعر الرجلين).

فالذي يلوح لنا في هذه الحكومة أن الخارجي رأى بيت جرير أمير شعره وأن ليس للفرزدق شبهه فقضى له، أو أن من يفرض مثل هذا البيت حقيق بالتقديم (ونذر في هذا المقام البحث عن قيمة هذا البيت وخطره) أو أن عبيدة التفت إلى الديانة ففضل المتقي على من فجر.

وإن تفضيل قائل على قائل لمعنى من المعاني المذكورة لهو الحيف المحض، وخروج على سلطان الحق، ألا (لا حكم إلا الله) ولا قضاء مقبول إلا من مقسط ذي نصفة.

ولولا أن يغضب أو أن يشرى صاحبنا الأستاذ أبو إسحق أطفيش نزيل القاهرة ومن علماء إخواننا الأباضية وفضلائهم - لشننا على (الشراة) غارات، وفندنا (مقالاتهم) الخارجية بمقالات في (الرسالة الغراء) متلاحقات . . .

وممن عادل الخارجيَّ في جنفه في حكمه، بل أربى على جميع الجَوَرة في القضايا الأدبية الحسن بن بشر الآمدي صاحب (الموازنة بين أبي تمام والبحتري) فقد ظهر في كتابه (أجور من قاضي سذوم) وأرانا كيف يكون الظلم العبقري (استعان الرجل بالله - كما قال - على مجاهدة النفس ومجاهدة الهوى وترك التحامل) وأقبل يوازن، فماذا صنع؟

يأخذ بيتا لحبيب قال في معناه الوليد وينصب ميزانه، وهواه الوازن.

ولأبي تمام أبيات عبقريات، كل بيت منها بديوان، وله قصائد باهرات مدهشات.

هذه لا توضع في الميزان، وقد كان قال: (أنا لست أفصح بتفضيل أحدهما على الآخر ولكني أقارن بين قصيدتين من شعرهما فأقول أيهما أشعر في تلك القصيدة ثم احكم أنت). ولكنه لم يفعل ذلك واجتزأ بإيراد أبيات لكل من الطائيين وجعل يلغو لغوه.

وإذا قال أبو تمام:

إن لله في العباد منايا ... سلطتها على القلوب العيون

وقال البحتري:

قال بطلاً وأفال الرأي من ... لم يقل إن المنايا في الحدق

. . .فهنا يتواري الوازن والموازنة ويرفع الميزان. وبيت الوليد شرح طويل، مَطمَطة وقد كان ابن الأثير انصف من الآمدي حين قضى بين حبيب والمتنبي في رثاء ولدين صغيرين لعبد الله بن ظاهر، وطفل لسيف الدولة؛ وبين البحتري وأبي الطيب في وصف الأسد. وقد شأى الكندي الطائيين في الرثاء والوصف.

وأني لموقن أن الآمدي فارق الدنيا ولم يعرف أبا تمام وعبقريته. وممن علم ذلك وأعلن فضل ابن أوس - أبو بكر بن يحيى الصولي صاحب كتاب (أخبار أبي تمام) الذي أفضل على العربية بنشره الفضلاء: خليل محمود عساكر، محمد عبدة عزام، نظير الإسلام الهندي - بارك الله في الهند - وقد أعطى الكتاب بعض حقه في مقالة في الجزء (225) من (الرسالة). وكانت مجلة (المقتطف) ذكرت كتاب الصولي، وحافت على حبيب فرُدّ عليها وليمت في مقالة في الجزء (235) من (الرسالة) وأغلب الظن أن الكتاب في المقتطف ما قرأ كتاب الصولي فيعرف ذلك الشاعر العظيم، فقال على المخيل أو على ما خيلت كما يقولون.

ألا إن الشعر لأكثر مما يرى ذاك الخارجي وهذا الآمدي وأعظم؛ وإن فضيلة الفرزدق فيما يبينه أديبنا الكبير الأستاذ المردمي في كتابه:

(لا تجد شعراً أكثر تأثراً بالإسلام، والعصبية العربية، ولا أصح لغة، ولا أجزل أسلوباً، ولا أجمع لشوارد العربية وفصَحها، وأخبار العرب وأيامهم - من شعر الفرزدق).

(والفرزدق على جفاء طبعه له مخيلة تفيض بالحياة، وتحسن الابتكار والابتداع ووضع الأقاصيص بأسلوب حسن).

(والفرزدق على أميته واسع الرواية كثير المحفوظ، ولم يقف عند حفظ أشعار العرب وأخبارهم بل حفظ القرآن، وروى الحديث النبوي. قال صاحب خزانة الأدب (البغدادي): (روى الفرزدق عن علي عليه السلام وعن غيره من الصحابة). وقال صاحب النجوم الزاهرة: (روى الفرزدق عن عليّ بن أبي طالب وغيره وكان يرسل، وروى عن أبي هريرة وعن جماعة) فثقافته أعلى ثقافة يبلغها شاعر في ذاك العصر).

(ويجمع الفرزدق إلى خصب المخيلة وسعة الرواية كثرة النواحي، فشعره سجل حياته ومرآة عصره).

(ونفس الفرزدق طويل، وقصائده التي تزيد أبياتها على المائة كثيرة، وله القصائد القصار، وهو في كلا القسمين لا يسف ولا ينزل عن طبقته).

(وقد استقام للفرزدق من الأبيات الجامعة بين شرف المعنى وشرف اللفظ ما لم يستقم لغيرة، فهو أكثر الشعراء الإسلاميين بيتاً مُقلّداً).

(وشعره في جملته يدل على قدرة الشاعر وبعد نظره وإحاطته بما يرمي إليه من الأغراض وسعة مخيلته وانفساح مجاله ولذلك كثرت فيه الصور).

هذه جمل من (الكتاب) في باب البحث عن شعر الفرزدق وهي تساند مقالة البحتري في (معاني الفرزدق وحسن اختراعه وبأبواب هجائه التي يخترعها ويبدع فيها) وتعلن من النبوغ الفرزدقي ما تعلن، وتقوى الظن الذي ظنناه في اختيار الأستاذ هماماً من بين الثلاثة الإسلاميين واختصاصه إياه بهذا الكتاب. وقد أوضح الأستاذ المردمي ما أوردته من أقواله أبلغ إيضاح، وأيدها بأبيات كثيرة للشاعر.

يقول الأستاذ في تضاعيف البحث عن شعر همام: (وأما تمثيله العربية في فصاحتها وشواردها، وتاريخ العرب في مناقبهم ومثالبهم حتى قيل (لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب) وقيل (لولا شعر الفرزدق لذهب نصف أخبار الناس) فذلك لكثرة مفرداته، وصحة تراكيبه، وجزالة أسلوبه، واشتمال شعره على الغريب، وأوجه التعابير الفصيحة، ووفرة ما تضمنه فخره وهجاؤه ومدحه من أخبار العرب وأيامها ومفاخرها، ومثالب من يهجوهم في الجاهلية والإسلام. خذ مثلاً لذلك نقيضة من نقائضه مع جرير تجد فيها صحة اللغة وفصاحة الأسلوب وجزالة التركيب ورصانة القافية وعراقة العربية مع شيء من الغريب كما تجد كثيراً من أخبار العرب في الجاهلية والإسلام، فلو جمع باحث مفردات

الفرزدق التي استعملها في شعره لكادت تكون معجماً، ولو توفر على ترتيب ما فيه من الأخبار والحوادث والمفاخر والمخازي والعادات والأساطير والخرافات لجمع تاريخاً

لحوادث الجاهلية وحياتها الاجتماعية. والشواهد على ذلك أكثر من أن تذكر نكتفي بإيراد قليل منها قال: نقائض ص189) وروى الأستاذ ثمانية أبيات من القصيدة التي مطلعها:

إن الذي سمك السماء بنى لنا ... بيتاً دعائمه أعز وأطول

ثم قال: (هذه الأبيات الثمانية فيها من الأخبار والحوادث والأيام ما استغرق عشر صفحات من كتاب النقائض، ولا سبيل لتلخيصها هنا) وأشار إليها، وروى وبيّن غير ذلك مما يحق مقالته في الفرزدق.

وممن يماثل هذا الشاعر من المولدين في اشتمال كلامه على أخبار كثيرة وإشارات ذات بال - حبيب (ففي شعره علم جم من النسب، وجملة وافرة من أيام العرب) وأبو بكر الخوارزمي الذي يستظهر رسائله كلها العلامة الأستاذ الأمير شكيب أرسلان.

والقول المتقدم في أبي تمام هو في (رسائل الانتقاد) لابن شرف القيرواني، وقد نشرها العلامة الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب الصمادحي في مجلة (المقتبس) للعلامة الأستاذ الرئيس محمد كرد عليّ.

ويقول الأستاذ: (ومن التعابير العربية التي حفظها لنا شعره قوله: نقائض ص283 أو بين حيّ أبي نعامة هارباً أو باللحاق بطّيء الأجيال حيّ أبي نعامة أي وهو حيّ نقول فعلت ذاك حيّ فلان أي وفلان حيّ).

وهذا القول قد هدانا إليه بيت الفرزدق. وفي العربية شئ كثير من مثل هذا التعبير خفي معناه أو أشكل ولم يكشفه لنا شرح أو تفسير. قال ابن فارس: (إنا نرى علماء اللغة يختلفون في كثير مما قالته العرب فلا يكاد واحد يخبر عن حقيقة ما خولف فيه بل يسلك طريق الاحتمال والإمكان)، وأورد في كتابه (الصاحبي) طائفة من الأقوال لم تستبن حقيقتها عنده، ومما ذكره: (يروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: (لا تقولوا دعدع ولا لعلع ولكن قولوا: اللهم، ارفع وانفع) فلولا أن للكلمتين معنى مفهوماً عند القوم ما كرههما النبي صلى الله عليه وسلم).

(الإسكندرية)

* * *

في بلاط الخلفاء

سعد وسعاد في حضرة معاوية

للأستاذ علي الجندي

(تتمة ما نشر في العدد الماضي)

وتربص سعد أسبوعاً بين يأس يطويه ورجاء ينشره، حتى إذا أذن معاوية للناس يوماً دخل في سرعانهم وغمارهم. فلما أخذوا مجالسهم، نهض بين السِّماطين وأنشد بصوت كحشرجة المحتضر:

معاوي يا ذا العلم والحلم والفضل ... وذا البرّ والإحسان والجود والبذل

أتيتك لمّا ضاق في الأرض مذهبي ... وأنكرت - مما قد أُصِبت به - عقلي

ففرِّج - كلاك الله - عني، فإنني ... لقيت الذي لم يلقه أحد قبلي

وخذ لي - هداك الله - حقِّي من الذي ... رماني بسهم كان أهونه قتلي

وكنتُ أرجّي عدله إن أتيته ... فأكثر تَردادي مع الحبس والكبْل

سباني سعدي وانبرى لخصومتي ... وجار ولم يعدل، وغاصبني أهلي

فطلّقتُها من جدّ ما قد أصابني ... فهل ذا - أمير المؤمنين - من العدل

وكان معاوية متكئاً فاعتدل في مجلسه - وقد اكفهرت على وجهه سحابة من الحزن - وقال: نعوذ بالله من طوارق السوء! لقد أسمعت يا أعرابي، إذن بارك الله عليك! ما خطبك؟ وما طرحك إلى هذه البلاد؟ فدلف إليه شاب في شملة الأعراب، ساكن الطائر، رابط الجأش؛ قد لوحه السفر وتضمر وجهه من الهزال! فقال: أطال الله بقاء أمير المؤمنين! إنني رجل من بني عذرة. تزوجت ابنة عم لي على حب ومقة، وكانت لي إبل وغنيمات فأنفقت ذلك عليها؛ ولبثنا معاً في حياة رافهة وعيش أبله غرير. فلما كلب علي الزمان، ومستني البأساء والضراء رغب أبوها عني، وكانت جارية فيها حياء وكرم. فانقادت له مكرهة خشية أن توصم بالعقوق!. . . فأتيت عاملك مروان بن الحكم مستجيراً به مؤملا نصرته، فأحضر أباها وشكم فاه بالإتاوة إذ دفع له عشرة

آلاف درهم! وقال: هذه لك، وزوجني بها، وأنا زعيم بتخليتها من الإعرابي! فمال أبوها إلى المال، وأصبح الأمير
لي خصما وعلي منكرا. فانتهرني وطرحني في السجن، وأمرني بطلاقها فأبيت. فبسط علي العذاب وأفتن في إيلامي! فلما اشتد علي الضيق، وأيقنت بالهلكة لم أجد بدّاً من طلاقها، فطلقتها، والعين عبري والقلب موجع!. . . فما انقضت عدتها حتى تزوج بها مروان، وأمر السجان بإطلاق سراحي. وقد أتيتك - يا أمير المؤمنين - صارخا فزعا، متغطيا من الدهر بظل جناحك! وأنت غياث المكروب وسند المسلوب! فهل من فرج؟!. . . ثم أجهش الأعرابي بالبكاء وأنشد:

في القلب مني نار ... والنار فيها استعار
والجسمُ مني نحيلٌ ... واللون فيه اصفرار
والعين تبكي بشجو ... فدمعها مدرار
والحب داء عسير ... فيه الطبيب يحار
حملت منه عظيما ... فما عليه اصطبار
فليس ليلي بليل ... ولا نهاري نهار

وكان لمرأى هذا الزوج الواله وشدة ضراعته وعظم تفجعه ورقة شكاته، أثر أي أثر في نفس معاوية!. . . فأطرق برهة؛ ثم رفع رأسه وقد ازمهر وجهه الأبيض كأنما نضح بالأرجوان فقال: ويلي على ابن الطريد! كيف عزبت عنه حلوم أمية؟ لقد تعامه في طغيانه، وتمادى في أضاليل هواه، وطرفت عينه الدنيا. فما إن يزال في طفش ورفْش، فلعمري لئن بقيت له لأقيمن من صعر خديه . . .!

ثم التفت إلى سعد فقال: طب نفسا وقر عينا - يا أخا عذرة - فقد سألتنا النَّصف، وستبلغ ما رجوته إن شاء الله!

ودعا من فوره بدواة وقرطاس، وكتب إلى مروان كتابا صدره بكلام أخشن من مس الحجر، وأزره بشعر أبرق له فيه وأرعد:

ركبتَ أمراً عظيماً لستُ أعرفه ... أستغفر الله من جور امرئ زاني!
قد كنت تشبه صوفياً، له كتب ... من الفرائض أو آيات قرآن
حتى أتانا الفتى العذري منتحباً ... يشكو إليّ بحقٍّ غير بهتان
أعطي الإله عهوداً لا أخيس بها ... أولاً، فبُرِّئتُ من دين وإيمان
إن أنت راجعتني فيما كتبتُ به ... لأجعلنّك لحماً بين عِقْبان
طلّق سعادَ وجهِّزها مُعجلة ... مع الكميت ومع نصر بن ذبيان
فما سمعت كما بُلِّغت من عجب ... ولا فعالك حقاً فعلُ إنسان

ثم طوى الكتاب وختمه ودفعه إلى الكميت ونصر ابن ذبيان، وأمرهما أن يذهبا إليه! فجد الرسولان في السير حتى بلغا مروان، وسلما إليه كتاب أمير المؤمنين. فلما قرأه عرته رعدة واصفر كأنه جرادة ذكر! ثم أرسل زفرة عميقة كاد يتفسأ لها حجاب قلبه. وقال: وددت أن - أمير المؤمنين - خلى بيني وبينها سنة ثم عرضني على السيف!

ولبث مدة يؤامر نفسه في طلاقها فلا يستطيع! فاشتد عليه الرسولان وأزعجاه، حتى طلقها وأسلمها إليهما بعد أن أحسن جهازها!

ولكنه أراد أن يثأر لنفسه من سعد، فلجأ إلى حيلة من حيله الشيطانية التي كانت سببا في قتل الخليفة الثالث، وشق عصا المسلمين!. . . فأرسل إلى معاوية كتابا يصف فيه مفاتن سعاد وصفا يثير صبوة الجماد! راجيا أن يقع الخليفة في شرك الحسن فيستبد بالفتاة ويرجع الزوج بخفي حنين! ثم تأسى بمعاوية في قرض الشعر فختم الكتاب بأبيات من الوزن والقافية:

لا تحنثَنَّ - أمير المؤمنين - فقد ... أُوفي بعهدك في رفق وإحسان
وما ركبتُ حراماً حين أعجبني ... فكيف سُمّيتُ باسم الخائن الزاني
أعذر! فإنك لو أبصرتها لجرت ... منك الأماني على تمثال إنسان
وسوف تأتيك شمس ليس يعدلها ... عند البرية من إنس ومن جان
حوراء يقصر عنها الوصف إن وصفت ... أقول ذلك في سرّ وإعلان

فلما ورد كتابه على معاوية وقرأه قال: لقد أحسن في الطاعة ولكنه أطنب في وصف الجارية. فإن صح أنها جمعت بين جمال الصورة وطيب النغمة فهي أكمل البرية طرّاً!

وعقد معاوية مجلسا من خاصته، ودعا إليه سعدا. ثم تقدم بإحضار سعاد، فطمح

الحضور بأبصارهم إلى الباب ليروا محيا البدر المنير على قامة الغصن النضير!
وبعد قليل أقبلت الفتاة تتأطر في مشيتها، ساحبة أذيال الأضريح وقد حف وجهها إطار من شعرها الفاحم، فبدا كأنه قمر يطل من فتوق سحابة دكناء، أو لآلاء فجر في بقية من غبش
الظلام!!
وسلمت على الخليفة من بعيد، فرد عليها السلام ثم استدناها منه واستنطقها فإذا بيان عذب جلي في صوت كأنه غنة الظبي أو خفق الوتر!
فسبح معاوية البارئ العظيم! وأراد أن يعجم منزلتها عند سعد فقال: يا أعرابي، هذه سعاد، ولكن. . . هل لك عنها من سلوة بأفضل الرغبة؟ فأجاب الأعرابي: نعم! وكأن معاوية شك فيما سمع فقال متثبتا: نعم يا أعرابي؟ فقال: نعم. نعم، إذا فرقت بين جسدي وروحي! فقال معاوية: أعوضك منها يا أعرابي ثلاث جوار أبكار حسان - مع كل جارية ألف دينار - وأقسم لك من بيت المال ما يكفيك في كل سنة ويعينك على صحبتهن!
فشهق الأعرابي شهقة ظن معاوية انه لفظ روحه فيها!. . . فارتاع وقال له: ما بك يا أعرابي؟ قال: شر بال وأسوأ حال! واستجرت بعدلك من جور ابن الحكم فعند من استجير من جورك؟ ثم أنشأ يقول:
لا تجعلنِّيَ - والأمثالُ تُضرَب بي - ... كالمستجير من الرمضاء بالنار
أردد سعاد على حيرانَ مكتئب ... يمسي ويصبح في هم وتَذكار
قد شفّه قلَق ما مثله قلق ... وأسعِر القلب منه أي إسعار
كيف السلوّ وقد هام الفؤاد بها؟ ... وأصبح القلب عنها غير صبّار
وكأن معاوية استخشن هذا الكلام فغضب، أو قل: إنه تظاهر بالغضب، فما كان للغضب عليه من سبيل! فقال: يا أعرابي الحق بيّن. أنت مقر بطلاقها، ومروان مقر بطلاقها. . . .ونحن نخيرها، فإن اختارتك أعدناها إليك بعقد جديد، وإن اختارت سواك زوجناها به ماذا تقولين يا سعدى؟ أيهم أحب إليك: أمير المؤمنين في عزه وشرفه ونعمته وترفه، أم مروان في عسفه وجوره، أم هذا الأعرابي في خشونة عيشه وسوء حاله؟
ألقى معاوية هذا السؤال وهو أعرف الناس بجوابه! فإنه لا يزال يذكر قول زوجه ميسون بنت بحدل الكلبية حينما نقلت إلية من البادية:
لبت تخفق الأرواح فيه ... أحبّ إليّ من قصر منيف
وخرْقٌ من بني عمي نحيف ... أحبّ إليّ من علْج عنيف
فقال: ما رضيت حتى جعلتني علجا؟!
وما أشبه الليلة بالبارحة! فلم تكد الفتاة تسمع قوله حتى ماست كالفنن المروح، وتخازرت إلى الخليفة حتى التقت أهدابها ثم أنشدت بصوت يشبه المناغاة:
هذا - وإن كان في فقر وإضرار - ... أعزُّ عنديَ من قومي ومن جاري
وصاحب التاج أو مروان عاهله ... وكل ذي درهم عندي ودينار
وكأنها أدركت أنها في حضرة ملك العرب وخليفة المسلمين. فافترت عن مثل وميض البرق! وقالت وهي تغطى وجهها بأطرافها المخضبة استحياء: والله يا أمير المؤمنين، ما أنا بخاذلته لحادثات الزمان وغدرات الأيام! وإن لي معه صحبه لا تنسى ومحبة لا تبلى! وإني لأحق من صبر معه على الضراء، كما نعمت معه في السراء! فقضى العجب كل من كان حاضرا! وضحك معاوية حتى انقلبت شفته العليا وشكر لها وفاءها وإخلاصها لأبي عذرتها! ثم أمر بها فأدخلت مقاصير الحرم، حتى انقضت عدتها من مروان. ثم أعادها إلى ابن عمها بعقد جديد، ووصلها بألف دينار.
وأخذ سعد بيد سعاد، ومضى يؤج في سيره أجه الظليم وهو يترنم بقوله:
خلّوا عن الطريق للأعرابي ... ألم ترقوا ويحكم لما بي؟
علي الجندي
الله في علاه!. . .
للأستاذ سيد عبده
خرج الملاح والليل عاصف. . .
يتلمس رزقه بين جرجرة البحر القاصف. . .
ومياه السماء تنزل مدرارا. . .

والرغبة في الحياة تدفعه للعمل ليلاً ونهارا. . .
وبسمة الأمل تثير في قلبه نارا. . .
فإذا بقاربه يرتطم بالصخر. . .
وإذا ببسمة الأمل تصبح صيحة الضر. . .
والرغبة في الحياة صرخة القبر. . .
ومع ذلك فقد نجا. . .
من أنقذه. . .؟؟
من نجاه. . .؟؟
هو الله في علاه. . .!!
خرج الشاب في رحلة إلى الصحراء. . .
يتلمس نزهة بين الرمال الصفراء. . .
يحمل القوت والأمل والرجاء. . .
ونسيم الربيع يهب عليلاً. . .
والشمس قد مالت فبدا الوقت أصيلا. . .
ونشوة النصر قد بدأت تدب في قلبه قليلاً قليلا. . .
فإذا به يضل الطريق. . .
وإذا بقلبه العاصر قد ملئه اليأس والضيق. . .
لأنه فقد الأمل في الحياة. . .
وقارب من أجله منتهاه. . .
ومع ذلك فقد نجا. . .
من أنقذه. . .؟؟
من هداه. . .؟؟
هو الله في علاه. . .؟؟
كان حاكما غشوما جبارا. . .
بذل قومه ويصليهم من عذابه نارا. . .
ويستعبد شعبه فلم يجدوا منقذاً منه إلا فرارا. . .
فهذه قطعة من جحيم. . .
والحياة في ظله بؤس وبلاء عظيم. . .
مضت الأيام فإذا عهده قد زال. . .
وإذا بالحال يصير غير الحال. . .
وأصبح الحاكم عبرة لسواه. . .
من أهلكه. . .؟؟
من أفناه. . .؟؟
هو الله في علاه. . .!
إنه عامل فقير انتبذ في المجتمع مكانا قصيا. . .
يحتقره القوم لأنه لم يك سريا. . .
ويجهله الخلق لأنه غداً نسيا منسيا. . .
يبذل الجهد ويتعب النفس كي يعيش ويحيا. . .
مضت الأيام فإذا به قد أثرى. . .
وتبدل ذله عزا. . .
وبؤسه سعدا. . .
وخموله ذكرى. . .
من أسعده. . .؟؟
من أغناه. . .؟؟
هو الله في علاه. . .!
سيد عبده
المدرس بالأورمان
كتاب الأغاني
لأبي الفرج الإسكندراني

رواية الأستاذ عبد اللطيف النشار
صوت
ولست بيهوف يرى رأى عرسه ... إذا أركبته مركباً فهو راكبه
يظل إذا ما نابه الأمر حائرا ... يخاطبها في شأنه وتخاطبه
الشعر للأمير علي بن المقرب من شعراء النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي ببلاد الأحساء في شبه جزيرة العرب. وفي هذا الشعر لحن من صنعة قاسم بك أمين على نغمة (فقئت عيناه فأبصر).
حدثنا الأستاذ عزيز أحمد فهمي قال: ولولا دفع الله الفنون بعضها ببعض لفسد الحسن. فاللحن الموسيقي والشعر يزدوجان ليكمل أحدهما نقص الآخر. ولقد كنت أقول مرة: إن كل فن يجب أن يترجم إلى فن آخر، وهذا كلام حسن؛ ولكني زدته حسنا لما فهمت أن التزاوج بين فنين يستدعى تشابها بينهما ولكنه كذلك يستدعى أن يكون أحدهما سالبا والآخر موجباً. فهذا شعر رامي تنشده أم كلثوم ليس لأن فنها كفنه ولكن لأن فنها يسد النقص في فنه. وهذا المخرج لرواية تمثيلية يتمم نقصها وسيد ثغراتها، وبين الفنين تشابه ولكن أحدهما لا يترجم الآخر بل يشرح الآخر على طريقته هو التي قد لا يدركها هذا الآخر.
قال: وهذا الشعر لعلي بن المقرب قد لحنه قاسم أمين فخلق منه ما خلقت أم كلثوم من شعر رامي.
قال أبو الفرج: وقد سألت الأستاذ عزيز ما الذي يعنيه بهذا الفقه الفني فلم يزد على أن قال: لقد فقئت عيناه فأبصر.
حدثنا الأستاذ خيري سعيد قال: حدثنا العلامتان هيجل وشليجل قراءة عليهما. وحدثنا الناقدان هردر وفيخت، ولم يقل بماذا حدثوه، وأغلب الظن انهم لم يحدثوه بشيء أو لعله آثر ألا يروي عن هؤلاء العلماء الألمان حتى يرى العالم ماذا ستصنعه ألمانيا في مشكلة دانزج.
وحدثتنا السيدة الجليلة هدى هانم شعراوي قالت: إن هذا الشاعر الذي أصبح يتغنى بترفعه عن أن يحدث زوجته في شئونه أو أن تحدثه زوجته في شئونه، يعد حديث الرجل وزوجته في الشئون المشتركة بينهما ضربا من (اليهفوفيه)؛ إن هذا الشاعر وأمثاله هم الذين مكنوا لقاسم أمين من السعي في تحرير المرأة الشرقية. ولو أن الشعراء في القرن التاسع عشر قد قبلوا أن يكونوا يهافيف فركبوا المركب الذي تختاره لهم أزواجهم لما استطاع قاسم وأعوان قاسم أن يلحنوا هذا الشعر تلحينا يبدو للجاهل أنه أخرجه عن معناه، ويبدو للمتأمل انه سد ثغره وأكمل نقصه وأنه لم يناقضه، ولا حاد به عن طبيعته، فطبيعة هذا التغني بالترفع عن الزوجة هي بعينها مقدمة التحرير. ولقد أطرب اللحن وأشجى وكان من أثره ظهور نهضتنا الأدبية النسوية ونشر هذه اليهفوفيه وأنشدت:
صوت
من أنت ماذا تكون يا رجل ... أظهر ما في طباعك البهل
في كل حين تقول يا امرأتي ... يا امرأتي. . . ما تريد يا رجل؟
الشعر لزوجة أديب كبير من شعراء العصر الحاضر اعتاد أن ينشر كل أسبوع مقالة يقول فيها: (وقلت لزوجتي أنت يا امرأة) فقالت هذه السيدة المحترمة:
يا امرأتي. . . ... يا امرأتي. . . ما تريد يا رجل . . . .!
ثم أتمت القصيدة.
حدثنا الأستاذ أحمد الشايب قال: حدثنا أحمد أمين قال: إن الأدب الجاهلي جنى على الأدب العربي في هذا الباب أيضا باب العلاقة الجنسية، فلولا تقديس أدباء العربية للجاهليين لنزع كل أديب نزعة شخصية صادقة كانت تقيهم على الأقل من سخرية المتنبي منهم في قوله:
إذا كان مدح فالنسيب المقدم ... أكل أديب قال شعراً متيم
ولكن الأمر لم يقتصر على استخفاف المتنبي بالأثر الذي تركه الجاهليون بتقديس العرب إياهم في شعر العرب بعد أن وجب زوال الأثر الجاهلي.
قال عروة:
فإن يأخذوا أسماء موقف ساعة ... فمأخذ ليلى وهي عذراء أعجب

وكان هذا القول طبيعياً ممن يئدون البنات خشية الإملاق ولكن تحدث طبيب ليلى المريضة
بالعراق عن ظفره بليلى وفضيحته إياها هذه الفضيحة الشنعاء ليست إلا أثراً من أثر الشعر الجاهلي فيه.
قال أحمد أمين: وهل نجد في الشرق رجلا ممن لم يقرءوا الشعر الجاهلي يستسيغ أن يفضح من يزعم أنه يحبها هذه الفضيحة؟ إلا رحم الله الأبيوردي حيث يقول:
وكم للغواني من يد قد جحدتها ... وشكر أيادي الغانيات جحودها
فهذا هو الشعور الطبيعي عند رجل متمدين. أما الذي يقول فيما يقول: إن زوجتي أطال الله عمرها لن تموت بداء غير داء الغيرة، فلا أستطيع تأدبا أن أصفه بغير التمدين ولكني أصفه بالتأثر الشديد بالشعر الجاهلي. وهل من حق إنسان أن يتحدث عن الأدب وهو لا يقدر أثر الإحياء الدائم المستمر في النفس؟
لقد نمنع أبناءنا عن الاتصال بالطبقات التي لا نرضى عن أخلاقها خشية كلمة تقال فتترك في النفس أثرها فكيف بشعر نعجب به ونمجده ونستظهره ثم نعيده ونستعيده سنين، ثم نعلمه بعد أن نتعلمه فإذا نسيناه رسب في عقلنا الباطن؛ ألا يترك هذا كله أثرا في النفس؟ وإذا لم يكن التكرار المقرون بالإعجاب ليترك أثرا في النفس فلماذا نؤمن بالأدب ولماذا نكتب؟ دعنا مما يقوله علماء النفس في الإيحاء ولننزل إلى مرتبة العامة. ألم نسمع قول العامة: (الدوي في الآذان أشد تأثيرا من السحر).
هؤلاء الجاهليون الذين يئدون البنات تركوا في القرن التاسع عشر من يقول:
ولست بيهفوف يرى رأى عرسه ... إذا أركبته مركبا فهو راكبه
يظل إذا ما نابه الخطب حائرا ... يخاطبها في شأنه وتخاطبه
وحدثنا الأستاذ فرويد قال: . . . ولكنني لا أذكر ما قال فقد كان يتحدث عن العقد وهذه عقدة العقد.
وحدثنا الدكتور محمد حسين هيكل باشا قال: أما أن لغة الجاهلية لغة سليمة فمما لا ريب فيه، لأنها إما أن تكون هي العربية الأصلية إن كان هناك شعر جاهلي، وإما أن تكون لغة أعلم الناس باللغة الجاهلية إن كان علماء الأدباء في العصر الأموي قد وضعوا ذلك الشعر نماذج كما ينبغي أن تكون عليه اللغة. ولكن كون الفكر الجاهلي يعرب عن الرأي الراجح فهو المحال بعينه. وكيف نستطيع التوفيق بين الإيمان بحياة محمد وبين الإيمان برأي إنما
بعث محمد لكي يهدمه؟ ولقد تلقينا الشعر الجاهلي لغة لها أسلوب يجب أن نرضاه؛ وفيها معان قصارى الرأي فيها أنها وليدة أفكار ومبادئ، وليس بالمقبول ولا المعقول أن تكون هذه المعاني خالية من الفساد وإلا فلماذا نشأ الدين؟ وما جدوى الحياة الإنسانية إن كانت هذه الآراء وتلك المبادئ لا تزال صالحة بعد خمسة عشر قرنا من الزمان؟ إنه ينبغي على من يعلم النشء لغة الجاهلية أن يحذرهم من قبول الفكرة الجاهلية فإن التكرار مع الاستحسان يورث العادة، وليس كذلك التكرار مع الاستهجان.
وإني لأعجب من معلم للغة العربية يعلم تلاميذه قول الشاعر الجاهلي
نسوق النساء عوذها وعشارها
ثم لا يقول لهم إن لغة هذا الشاعر سليمة ولكنه من حيث الأخلاق لا يمتاز شيئا عن البهائم. وإني لأعجب من معلم للغة العربية لا يقول لتلاميذه إن امرأ القيس وإن كان عبقرية معجزة في فنه فإنه كان في آرائه وشعوره نحو النساء كأي حمار في الطريق؛ وإن غزله لا يختلف شيئا عن النهيق وإن لنا منه اللغة. أما الشعور الإنساني الصحيح ففي قول الشاعر
وكم للغواني من يد قد جحدتها ... وشكر أيادي الغانيات جحودها
وقال الدكتور طه حسين إن إنكارنا للأدب الجاهلي لا يتنافى مع صحة الرأي الذي تحدث به هيكل باشا، فإن الذين لفقوا الشعر الجاهلي إنما لاحظوا طبائع الجاهلية وسجاياها.
وحدثنا الدكتور زكي مبارك قال: إن أبا الفرج الإسكندراني رجل منافق في علاقته النسوية ومثله في ذلك كمثل الأبيوردي سواء بسواء. وأنا لا أقول كما يقول الأبيوردي
وكم للغواني من يد جحدتها ... وشكر أيادي الغانيات جحودها
ولكنني أقول إن صبايا سنتريس سيقتل بعضهن بعضا غيرة علي وأقول كما يقول أبو

نواس الذي لم يكن بالجاهلي:
ولا تسقني سراً إذا أمكن الجهر
وأقول كما يقول كشاجم وليس بالجاهلي:
خوفوني من فضيحته ... ليته يدنو ونفتضح
صوت
دع عنك لومي فإن اللوم إغراء ... وداوني بالتي كانت هي الداء
الشعر لأبي نواس واللحن للدكتور زكي مبارك
(يتبع)
عبد اللطيف النشار
الجبرية والاختيار
في كتاب الفصول والغايات
(مهداة إلى الأستاذ محمود حسن زناتي)
للأديب السيد محمد العزاوي
- 1 -
وقول الحق أمثل من السكون، واستقامة العالم لا تكون، ولذة الدنيا مقطعة، . . .
وخبر الميت غير جلي، إلا أنه قد لقي ما حذر، فاسع لنفسك الخاطئة في الصلاح.
من المسائل التي واجهت الباحثين والفلاسفة منذ زمن بعيد مسألة الجبر والاختيار؛ تكلم فيها اليونان والفرس، ونقلها عن اليونان السريان، وخاض فيها النصارى حينما تفلسفت ديانتهم، وتكلم فيها الكلاميون من المسلمين. وكانت تتلون في مراحلها وتختلف باختلاف هذه المدارس. فإذا تكلم فيها الفلاسفة قصدوا إلى غرض فلسفي بحت: وهو تفسير الكون ومظاهره تفسيرا ما؛ وإذا تكلم فيها الأخلاقيون قصدوا إلى غرض اجتماعي: هو النظر في المجتمع ونقده، وإصلاحه أو محاولة ذلك؛ وإذا تكلم فيها أهل الدين فإنما يلتمسون من بحثها تخريجات تبرر مسئولية الفرد عن أعماله، وتقيم فكرة البعث والحساب والعقاب على أسس تختلف قوة وضعفاً.
والفلاسفة يعنيهم أن يتفهموا الكون وحركاته، كل ما يجرى فيه اهو ضروري ناتج عن إرادة مسيطرة متصرفة، أم هو نتيجة اتفاق بحت لا يربطه قانون أو تقيده قواعد. وهم بعد ذلك ينتقلون إلى الإنسان مظهر هذه المشكلة اهو مخير فيما يفعل، بمعنى أن لا شئ يمنعه من إتيان عمل ما، أو يدفعه إلى فعله، بمعنى أن أمره موكول إلى إرادته الخاضعة للمؤثرات الخارجية من ظروف وصدف. أم هو مجبر فيما يفعل بمعنى أن قوة تدفعه إلى أن يفعل ما يأتيه مجبرا، فهو كالعالم منضبط بتلك القوة التي تسيطر عليه، خاضع لنفس القوانين التي يخضع لها هذا الكون.
والأخلاقيون يعنيهم البحث في الأفعال الإنسانية من حيث هي صادرة عن التكوين الخلقي للإنسان فقط ولا أثر لعامل خارجي عليها، أو أن النظم الاجتماعية والظروف الطبيعية التي
يعيش الفرد تحت تأثيرها تعينان نوع الأفعال الصادرة عن الإنسان؛ وبأي معنى من المعاني يعتبر المرء حرا على هذا الأساس. وعلى أية فسواء اتفق الأخلاقيون في وجهات نظرهم إلى تلك المسألة أم اختلفوا فهم متفقون في الغرض، وهو إصلاح المجتمع وتهذيبه.
أما رجال الدين والكلاميون من المسلمين فقد خاضوا فيها وكان همهم الأول البرهنة على أن الإنسان إما خالق لأفعاله فهو مسئول عنها أمام الله في القيامة، ويحق عليه الجزاء ثوابا وعقابا؛ أو أن الإنسان وأفعاله من خلق الله فلا يكون ثمة حساب أو عقاب؛ وهمهم الثاني هو البحث في معرفة الله لما يحدث: أهي قبل الحدث أم بعده.
والكلام في القدر لم ينشأ إلا في الشام والبحرين على خلاف في اسبق القطرين إلى الخوض فيه. ثم إنه نشأ دخيلا على الإسلام: أعني أن أول من تكلم فيه كان نصرانيا وأسلم ثم تنصر، وأخذ عنه معبد الجهني وغيلان الدمشقي. كان هذا بدء الكلام في القدر. وقد أتاحت الخلافات السياسية حول الخلافة لهذه الأبحاث أن تروج وتتضخم، وأن تنقسم وتتكاثر. فإن الخلافة كانت مصدر القلاقل والفتن في أيام الخلفاء الراشدين، وإن الفتن أنتجت شيعة وخوارج ومرجئة ومعتزلة وأزارقة وأشاعرة إلى غير هذه الفرق التي تختلف فيما بينها بالرأي في الخلافة والخليفة غالباً. والذي يعنينا هنا

فرقتان من هذه الفرق العديدة: المعتزلة، والجهمية. فقد كانت آراؤهما أروج الآراء انتشاراً في هذا الباب.
أما الجهمية فقد كانت تقول بالجبرية المطلقة أي إن الإنسان كالجماد وأن الله يخلق فيه الأفعال كما يخلقها في الجماد، ويجبر عليه الحساب ثوابا وعقابا.
أما المعتزلة فقد تكونت على أثر خلاف في مرتكب الكبيرة اهو كافر خالد في النار. وقد قالوا بأن الله لا يخلق أفعال الناس بل هم يخلقونها، وبان الله لا صفات له غير ذاته. فشاركوا الجهمية في هذا الأصل، وقد أقروا بسلطة العقل وقدرته على الحكم بالحسن والقبح العقليين.
ولو كان الأمر في هذه الفرق قاصرا على حد الكلام والاستعانة بالفلسفة اليونانية وغيرها لما كان لها هذه الأهمية التي شغلتها. ذلك بأنها كانت تريد بسط تعاليمها على الواقع العملي. فالمعتزلة حين قرروا مبدأ حرية الإنسان كانوا يريدون من ذلك أن الناس مسؤولون عما يقومون به من حروب ومنازعات؛ وحين قرروا مبدأ السلطان العقلي كانوا يريدون
القياس في الحكم. وذلك أمر لم يقره أهل السنة وكان سبب خلاف كبير. وقد تمكنوا أن يسيطروا على الواقع السياسي مدة من العصر الأموي الأخير؛ فقد اعتنق مبادئهم يزيد الناقص ومروان بن محمد وأخوه إبراهيم.
والمهم أنه ما كاد يأتي القرن الثالث والرابع، حتى كان علم الكلام قد نضج نضجا، وحتى ترجم إلى العربية فلسفات كثيرة، وحتى اختلط ذلك كله بالدين والعقائد. وقد عملت أحداث السياسة وفتن الرأي على إضعاف الدولة واضمحلال الملك. وكان الشام هو مرجل فتن الرأي والدين والفلسفة والسياسة جميعا. كان هو والعراق فقط، أما ما عدا ذلك من أنحاء الدولة الإسلامية فقد كان مستقرا نوع استقرار.
في هذا الوسط المضطرب المحتدم نشأ أبو العلاء، وتنقل بين أرجائه ما بين المعرة وحلب وبغداد، فشارف ما كان بعصره من الفلسفات اليونانية والإسلامية والمسيحية واليهودية والمجوسية وكانت من عناصر ثقافته، هذا إلى نظراته الخاصة ولمحاته الشعرية العديدة.
ولم يحاول أبو العلاء في (الفصول والغايات) أن يسلك هذا المسلك الذي نراه من تقيد فني باللفظ ولزوم ما لا يلزم ونظام الفصول والغايات والنغم والموسيقى، إلى غير ذلك من الفنون النثرية ليدل على مقدرته الفنية، أو يبرهن على سعة اطلاعه ومعرفته بأخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم، وذكاء فؤاده اللماح، بل أنا أوشك أن أقول بأنه قد سلك ذلك حتى يصرف الناس إلى ظواهر الأشياء، حتى لا يصيبه أذى من السفهاء، وحتى يأخذ كل من معانيه ما يلائمه وما يستطيعه عقله ويقبله ذهنه. فهذا أمر يوجب الجذر حين نتلقى عن المعري آراءه. وأمر ثان هو أن المعري كان منعزلاً لا هم له إلا تقرّي نفسه وملاحظتها ملاحظة دقيقة. وقد يحتاج أحيانا إلى الترويح والتسلية، وكان يعمد إلى هذا النوع من اللهو بالمعاني والألفاظ، وذلك واضح جدا في فنه اللفظي على الأقل. فعندما نسمع قول المعري يجب أن نحتاط قليلا، فربما حمله العبث باللفظ على شئ من الاعتساف في المعنى، أو اندفع إلى معنى غريب غير مقصود في سبيل أن يستقيم له فنه اللفظي الذي أخذ نفسه به أخذا عنيفا، وكثيرا ما شط به المعنى عن اللفظ. يجب أن نحتاط إذن حينما نسجل على المعري آراءه، فنحن لا نعرف متى كان المعري هازلا، ومتى كان جادا في عبثه بالألفاظ والمعاني. وأمر ثالث يجب أن نلتفت إليه: فهو قد يرى آراء يحرص عليها فيدونها على
أنها من فلسفته، ويمكن أن تكون آراء لغيره دونها للتصوير والافتنان، ويمكن أن تكون بين بين: أعني أنها خواطر عرضت له كما تخطر الخواطر لأي شاعر سواء تعارضت مع مبادئه العامة أو اتفقت. فلا عجب إذا رأيته يحدثك بان الإنسان مجبور في كل أعماله وتصرفاته، ثم يأتي فيذكر لك أن للمخلوق في الأقدار تصريفا! فهذا لا مرد له إلا ما قلت من أمر عبثه بتلك الخواطر السوانح له في خلوته، وحرصه على تدوينها متفننا مبتدعا مستعينا على ذلك بما علم من شعر الأقدمين وأخبارهم وعلومهم.
وأبو العلاء يقول بالجبر المطلق في أفعال الإنسان وأعماله، ويرتب على ذلك نتائج اجتماعية خطيرة، وآراء فلسفية خطيرة كذلك.
ونحن إذا أردنا أن نلتمس نظرية الجبر عنده فلن نجدها مجموعة في مكان وأحد، ولا

هو يعالجها بأسلوب وأحد، وإنما أنت تقرا الكتاب جميعا فتجده ينطق جبرية، إذ لا يكاد فصل من الفصول يخلو من الجبر تلميحا أو تصريحا أو رمزاً. فهو ساخر مرة، ثائر أخرى، هادئ أحيانا، ممجد قنوع في اكثر الكتاب. على أن تقريره الجبر المطلق أوقعه في حيره وارتياب كبيرين، فمن الناحية الدينية لا تستطيع أن تستبين رأيه في التكليف ولا في البعث فهو مضطرب فيهما أشد اضطراب، ذلك لان الجبرية إما أن الله يقدر عليك العمل ويقدر عليك الجزاء كما تقول الجهمية، وهو عبث يأباه المعري على الله؛ وإما أن تقدر عليك العمل ولا جزاء، وهو ما يلائم المعقول حالة تقدير العمل، ولكنه يخالف الدين صراحة. والمعري في كل أحواله آخذ بما يرى العقل. والعقل هو الذي هداه إلى أن الجبر مسلم به، لأن كل شئ في هذه الحياة إنما هو نتيجة لشيء كان قبله ومقدمة لما يأتي بعده، وإلا إذا كان الأمر اختيارا فإما أن يكون متصلا بما قبله وما بعده، اتصال العلة بمعلولها فيكون الجبر بعينه، أو أن يكون الأمر فوضى واضطرابا وهو ما لا يثبته الواقع الخارجي.

ولست بسبيل أن أدافع عن نظرية الجبر، أو أتكلم عنها مطلقة، ولكني أثبت صفات الفلسفة العلائية صحت أو لم تصح. وأقرر أنه اعتمد على العقل في كل أحواله، وعلى العقل فقط؛ فما قام عليه دليل العقل احترامه واعتنقه، وما لم يقم عليه دليل أو خرج عن حيز العقل وقف منه المعري موقفا يختلف رفضا وشكا، لا يصلان إلى درجة الإنكار المحض، ولا الإيمان المسلّم، وخاصة إذا كان الأمر يمس الدين والقدرة الإلهية من قريب أو بعيد.

ولكن ذلك قد يدفع المرء إلى أن يتساءل هل أخذ أبو العلاء بهذا الأصل في كل فلسفته؟ قد يكون أخذ به في اللزوميات من بعد، ولكنه في (الفصول والغايات) يصرح بأنه (يدرك العلم بثلاثة أشياء: بالقياس الثابت، والعيان المدرك، والخبر المتواتر. فأما الحس فزجر طير هي خليقة بالكذب، وإن صدقت فباتفاق؛ والعلم لله كملا) وقد توفر للمعري اثنان من مدركات العلم، ولكنه أهمل المتواتر حرصا منه على الحقيقة، واحترازا مما قد يكون أصابها من خطا أو تحريف. فإذا خُبِّر خبر الجرادتين اللتين غنتا لوفد عاد تساءل: (ما قالت الجرادتان لوفد عاد؟ قالتا ما الله به عليم، طال الزمن فلم يعلم القيل. . .) فعلمها عند الله وحده؛ وسواء سلم بصحة الحادث، ورفض المروى، أو رفض الخبر أصلا فهو لا يعتمده في شئ مصدرا من مصادر العلم أو اكتسابه، فلم يبق له إلا القياس الثابت: حكم العقل، فهو يهتدي به ويتخذه نبراسه في كل أموره وشؤون فكره، وهو مع ذلك كثير الشك كثير التساؤل كثير الحيرة، يحس ذلك من نفسه فيعترف به اعترافا صريحا إذ يقول (أدلج وأدلج، وإذا سئلت فأنا ملجلج، والله للمنصف ظهير). . لا يجزم بشيء ولكنه مؤدب اشد الأدب، يتساءل في عجب بدل أن يعترض أو يثور. وهو منطقي النهج في التفكير يقدم المقدمات، ويستنتج النتائج ويقيس عليها قياسا منضبطا. فانظر إلى هذا القياس المنطقي الدقيق (المدمن على اللهو، خدن الغفلة والسهو، المنتقل من بهو إلى بهو، ملئ من الكبر والزهو، يسبح في عيش رهو، يسأل عن الطعام والطهو، أخسر صفقه من شيخ مهو) هذا قياس منطقي سليم؛ فهو يؤكد أن الشاب المرح خاسر، وهو لا يعفي الشيخ من الخسر كذلك، ولكنه لا يدري أتؤيد الحقيقة هذا القياس فيقول (فدلني ربي على الرباح).

وحين تتعارض وسيلته هذه مع الحقيقة أو الواقع يتحير فيقول: (هكذا يقول المعقول ولله نظر في العالم دقيق). وهو يوصيك بأنك (إن سمعت أن الرقيع أمطر جندلاً، وأنبتت البقيع حنظلا. فقل: أما في المعقول فلا، وأما في القدرة فبلى) فهو هنا يثبت بان الله حكمة وقدرة أعظم من أن يتصورها العقل أو يدركها، ويسجل أن الله قدير لا تتقيد قدرته بمعقول أو غير معقول، ولكن ذلك لم يمنعه أن يعمل عقله فينتهي به هذا إلى استحالة ذهنية، فهو يقر بهذا العجز المطلق عن إدراك أغراض القوة الخفية؛ وهو إذا ما فكر وأطال التفكير في الجبر والاختيار والثواب والعقاب فدان بالجبر وأنكر الثواب والعقاب كما يرشده إلى ذلك

عقله استدرك وكر متراجعا في حيطة وحذر (فسُبحان الخالقِ غافِراً ومُعذِّباً، آلرّشدُ دفينٌ، أمْ أنا أفينٌ؟ قَدْ عشتُ زمناً فما رِشتُ، ابْرِكي يا مَطِيّة فهذا المناخُ).

ولعل عجزه عن أن يقيم أقضيه العقل على حكمة الله قد دفعه في يسير من وقت أن يقر الخيرة للإنسان. فنجده يمجد الله تعالى (مَنْ خارَ لِعبادِهِ وهُمْ للخيرَةِ كارهون)

ويسأل الإنسان متعجبا أن (ما يَمْنعكَ أنْ تَتَّخذَ الْقِسِيَّ وأنتَ في بِلادِ الضَّالِ)، ويحض المرء أن (دَعْ ما ضَرَ وصَعُبْ عَلَى مَا نَفَعَ وَهانَ، وَخلِّ ما غَمَرَ إلى ما غَمَّرَ واتركْ المِضلَّة إلَى المرشدةِ، فَإن طُرَقَ الخيرِ كثيرٌ) ولكننا سنرى المعري في كل الكتاب يقرر ويقرر (أنَّ رَبَّنَا المُوَفِّقَ لجَمِيعِ السَّدَادِ) وأنك (لَنْ تَقْضِيَ أَمْراً إلاَّ بِالْقَضَاءِ). وحيرته هذه ناشئة من طبيعة وسيلته إلى العلم. ذلك بأنه مؤمن بان العقل وحده هو الموصل إلى العلم، وهو واثق من أنه ما دام قد أوصله العقل إلى الطبيعة فلا بد أن يصل به إلى ما بعد الطبيعة. وهو مؤمن كذلك بان الله خلق هذا الكون عن حكمة.
(للبحث صلة)
السيد محمد العزاوي
نقل الأديب
للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي
مثاقف - 487
يتيمة الثعالبي: سمعت عونا الهمذاني يقول: أتى الصاحب ابن عباد بغلام مثاقف. فلعب بين يديه. فاستحسن صورته وأعجب بمثاقفته. فقال لأصحابه: قولوا في وصفه، فلم يصنعوا شيئاً. فقال الصاحب:
ومثاقف في غاية الحذق ... فاق حسان الغرب والشرق
شبهته والسيف في كفه ... بالبدر إذ يلعب بالبرق
راقص - 479
قال ابن خروف في غلام جميل الصورة راقص:
ومنزّع الحركات يلعب بالذهى ... لبس المحاسن عند خلع لباسه
متأوّد كالغصن وسط رياضه ... متلاعب كالضبي عند كناسه
بالعقل يلعب مدبراً أو مقبلاً ... كالدهر يلعب كيف شاء بناسه
وبضم للقدمين منه رأسه ... كالسيف ضُمّ ذبابه لرياسه
وان غلبه العدو لم يغلبه حقير - 480
قال لسان الدين بن الخطيب: حضرت يوما بين يدي السلطان أبي عنان في بعض وفاداتي عليه، وجرى ذكر بعض أعدائه فقلت ما أعتقده في إطراء ذلك العدو، وما عرفته من فضله. فأنكر عليّ بعضَ الحاضرين ممن لا يحطب إلا في حبل السلطان. فصرفت وجهي وقلت: أيدكم الله! تحقير عدو السلطان بين يديه ليس من السياسة في شيء بل غير ذلك أحق؛ فإن كان السلطان غلب عدوَّه كان قد غلب غير حقير، وهو الأولى بفخره وجلالة قدره، وإن غلبه العدو لم يغلبه حقير فيكون أشد للحسرة وآكد للفضيحة. فوافق - رحمه الله - على ذلك واستحسنه، وشكر عليه، وخجل المعترض.
تفتضح العشاق وقت الرحيل - 481
قال ابن السكيت: عزم محمد بن عبد الله بن طاهر على الحج. فخرجت إليه جارية له شاعرة فبكت لما رأت آلة السفر. فقال:
دمعةٌ كاللؤلؤ الرّطْ ... بِ على الخدّ الأسيل
هطلتْ في ساعة البي ... نِ من الطرف الكحيل
فقال مجيزة:
حين همّ القمرُ البا ... هرُ عنّا بالأفول
إنما تفتضحُ العشّ ... اقُ في وقت الرحيل
تغافل كأنك واسطي - 482
في (معجم البلدان وخزانة البغدادي): شرع الحجاج في عمارة واسط سنة (84). ولما فرغ منها سنة (86) كتب إلى عبد الملك: (إني اتخذت مدينة في كرش من الأرض بين الجبل والمصرين وسميتها واسط)؛ ولذلك سمي أهل واسط: (الكرشيين) فكان إذا مر أحدهم بالبصرة نادوا: يا كرشي فيتغافل ويرى أنه لا يسمع أو أن الخطاب ليس معه. فقيل: تغافل واسطي، وتغافل كأنك واسطي. ولفضل الرقاشي:
تركت عيادتي ونسيت برى ... وقدماً كنت بي براً حفيا
فما هذا التغافل يا ابن عيسى ... أظنك صرت بعدي واسطيا
ولكن قذاها زائر لا نحبه - 483

في الأغاني: بينا الأخطل جالس عند امرأة من قومه، وكان أهل البدو إذ ذاك يتحدث رجالهم إلى النساء لا يرون بذلك باسا وبين يديه باطية شراب، والمرأة تحدثه وهو يشرب. . . إذ دخل رجل فجلس. فثقل على الأخطل وكره أن يقول له: قم، استحياء منه! وأطال الرجل الجلوس إلى أن أقبل ذباب فوقع في الباطية في شرابه. فقال الرجل: يا أبا مالك، الذباب في شرابك! فقال:

وليس القذى بالعود يسقط في الخمر ... ولا بذباب، نزعُه أيسرُ الأمر
ولكن قذاها زائر لا نحبه ... رمتنا به الغيطان من حيث لا ندري

فقام الرجل فانصرف:

484 - كلب البيت

ابن قتيبة: قال عُمارة بن حمزة: يُخبز في بيتي كل يوم ألف رغيف، كلهم يأكله حلالا غيري. . . (وكان يأكل رغيفا وأحدا). ويقولون: فلان رب البيت، وإنما هو كلب البيت.

485 - الأراجيف

في (تاريخ الأمم والملوك) لابن جرير الطبري: قال أحمد ابن اسحق بن برصوما: لما حصر محمد (الأمين) وضغطه الأمر قال: ويحكم! ما أحد يستراح إليه؟ فقيل: بلى، رجل من العرب من أهل الكوفة يقال له: وضاح بن حبيب بن بديل التميمي، وهو بقية من بقايا العرب وذو رأي أصيل. قال: فأرسلوا إليه. فقدم عليه. فلما صار إليه قال له: إني قد خُبّرت بمذهبك ورأيك فأشر علينا في أمرنا. قال له: يا أمير المؤمنين، قد بطل الرأي اليوم وذهب، ولكن استعمل الأراجيف؛ فإنها من آلة الحرب فنصب رجلا كان ينزل دجيلا يقال له: بكير بن المعتمر فكان إذا نزلت بمحمد نارلة وحادثة هزيمة، قال له: هات! فقد جاءنا نازلة. فيضع له الأخبار، فإذا مشى الناس تبينوا بطلانها.

ابنة العار

للأستاذ فؤاد بليبل

يا ابنةَ العارِ، والخنى، والرذيلَةْ ... أنا لولاكِ ما عرَفتُ الفضيلةْ
أنتِ كالليل، فيه قد كمَنَ النُّو ... رُ ومنه مدَّ الصباح تَليْلَةْ
ومن السمِّ ما يعلُّ ومنهُ ... ما تداوي به الحسومُ العليله
إنَّ في لحظِكِ الأثيم بريقاً ... طاهراً أخطأ الوزى تأويله
هو صحوُ الضميرِ من غفلةِ الإث ... مِ على مصرعِ الخلالِ النبيله
هو ومضُ الحياءِ في غيهبِ البغ ... ي وفيضٌ من المعاني الجليله
هو ذوبٌ من الشعور رقيقٌ ... لاحَ كالفجرِ في ظلامِ الرذيله
هو روحٌ ذابتْ أسى فاستحالت ... عبراتٍ بين الجفونِ الكحيله
أثقلتها الآثامُ فهي شرورٌ ... وَجَلَتْها الآلامُ فهي صَقيله
كلما دانت الحقيقةَ ألْفَتْ ... دونَ إدراكِها سجوفاً سديله
ونزاعاً طيَّ الضلوع عنيفاً ... بين قلبٍ صحا ونفسٍ ضليله
ومن العارِ ما يبرِّده الجه ... لُ وما يجهلُ الورى تعليله
يا ابنةَ العارِ أنتِ بالعُذْر أولى ... منكِ بالعَذْل جارِحاً والنميله
إنما النذْلُ من حداكِ على الرج ... س وأغراكِ بالوعودِ الجميله
زيَّنَ الوِزْرَ والمخازي لعين ... ك ولم يدَّخر لخدعِكِ حيله
وأراك المنيع حِلاًّ شهيّاً ... لا لشيءٍ إلا ليروي غليله
فإذا بالنكيرِ غيرُ نكيرٍ ... ساغَ حتى لم تنكري تحليله
فخلعتِ العِذَارَ ساعةَ لهوٍ ... ونَبَذْتِ الحياءَ إلا قليله
فضيَ الأمرُ، واستفقتِ على الخز ... ي فحاولتِ بالدموعِ غسيله
وأبى الشرعُ والتقاليدُ إلاّ ... أن تظلّي - وإن ندمتِ - نذيله
وتنحَّى عنكِ الجميعُ ولم تج ... دِكِ نفعاً تلك الدموعُ الطليله
قتلوا فيكِ كلَّ روحٍ شريفٍ ... وأحلّوا روحَ الفسادِ بديله
ثم أرادُوكِ أن تكوني بغيّاً ... وهُم أقْلَعوكِ ثَوْبَ الفضيله
فتردَّيتِ في النقائصِ والبُط ... لِ ولو أصلحوكِ كنتِ كميله
هفوةٌ بعد هفوةٍ بعد أخرى ... هفواتٌ كانتْ عليكِ وبيله
ليتَ شعري ماذا جنيتِ من الطي ... شِ سوى الغمِّ والحياةِ الذليله
وانهيارِ الآمالِ والندمِ المرِّ (م) ... وندبِ الرغائبِ المستحيله

وذبولِ الشبابِ دَارَت عليهِ ... برحاها أيدي المجونِ الثقيله
وغضونٌ تزدادُ يوماً فيوماً ... وعيونٌ كادتْ تكونُ كليله
وضميرٌ قد حجّرَتْهُ المعاصي ... وحياةٌ بالموبقاتِ حفيله
(دار الأهرام)
فؤاد بليبل $ 2
الإسكندرية
للأستاذ حسن كامل الصيرفي
يا فِتْنَةً سَحَرَتْني ... فيها الرُّؤَى تَتَجَسَّمْ!
ما أنتِ إلا خَيَالٌ ... في رأسِ وَسْنانَ يَحْلُمْ!
على ضفافكِ تمضي ال ... عصورُ لا تتكلّمْ!
المَوجُ يَصْخَبُ هُزْءاً ... والشطُّ جَذْلانُ يَبسِمْ
وأنتِ! أنتِ جلالٌ ... على البسيطةِ خَيَّمْ
للشعرِ قُدْسٌ ومَغنًى ... وللمفاتنِ مَوْسِمْ
يا فِتْنَةً تَتَجنَّى ... على الخِضَمِّ وتَعْظُمْ
حَمَلْتُ قيثارَ شِعْرِي ... وَجِئْتُ كي أتَرَنَّمْ
فما تَسَمَّعْتُ إلا ... قصيدةً لا تُترْجَمْ
منظومةً من حسانٍ ... على الشَّواطئ نُوَّمْ
هُنَّ المعاني ولكن ... أسرارُها ليس تُعْلَمْ!
وكأسُ حُسْنِكِ تُوحي ... بالمُبْدعاتِ وتُلْهِمْ
حَبَابُها سابِحَاتٌ ... من الكواكبِ عُوَّمْ
يَهَبْنَ في اليَمِّ ما لا ... يهبن في الأرض مُعْرَمْ!
عَجِبْتُ للشَّطِّ تَحمَى ... بهِ الرِّمالُ وَتُصْرَم
وقد تَرَامَتْ عليه ... هَياكِل الفنِّ جُثَّم
حِسانُه تَتعَرَّى ... ونَجمُهُ يَتَحَشَّم!
وفِتنةُ الحُسنِ تَطغَى ... على القلوب وتَحْكم
يا فتنةَ الصّيْفِ هَذِي ... مواكبُ الناسِ تُزَحم
فرُّوا إليك سِراعاً ... من عَالَمٍ كجَهنَّمْ
ومِنْ قُيودٍ ثقالٍ ... ومِن تقاليدَ تُسْأَمْ
إلى حياةِ مِرَاحٍ ... ومُتْعَةٍ وَتَنَعُّمْ
على ضِفَافِك تُثْنَى ... مُنىً. وفي الغدِ تُهدَم
طُفُولَةُ العمْرِ حُلْمٌ ... هُنا. وفي الصحْو تهرَمْ!
حسن كامل الصيرفي
قُبَيْلَ الوَدَاع. . .
للأستاذ العوضي الوكيل
لا تعذليهِ إذا انهلّت بوادرُهُ ... فَقدْ دَهاهُ وشيكاً ما يحاذِرهُ
دنا الفراقُ وفي ذكر اسمه أَلَمٌ ... القلبُ قد دَمِيتْ منه ضمائرهُ
وأقبلَ اليومُ لا كانت أوائلُهُ ... من الزمان. ولا كانت أواخِرُه
الصبحُ وهو بشير الحسنِ قد شَحَبتْ ... سِمَاتُهُ فهو جَهْمُ الوَجْهِ بَاسِرُه
لا الشمس في أفقه شمسٌ تنيرُ ولا ... شعاعها باسمُ التلْماح ناضِرُهُ
ما إن أطالعُ في الأكوانِ من بَهِجٍ ... يوماً ومسرحُ حبي انفضَّ سَامِرُهُ
هيهاتَ لا طربٌ يوماً ولا غَزَلٌ ... البشر في نَفسيَ اجْتيحَتْ مَشاعِرُه
يا غائباً ليس يدري أن غيبتهُ ... هي القضاءُ الذي تُخشَى مقادرُه
أدنيْت حَيْني وَرَوْض العمر ذو زَهَرٍ ... والهفتاهُ إذا جفّت أزاهِرُهُ!
حِرصي عليك وقد أغريْتني زمناً ... حرصُ البخيل إذا رنَّت دَنانِره
فكيف تَبْعُدُ عنّي أو تطيقُ نوىً ... إن لم أقل بِكَ هجرٌ ذي مَظاهِرُهُ؟!
أزوركم وكأني لستُ زائركمْ ... من لهفة الحب قد زادت سواعِره
والنفس تُزعم أني حين أشهدكم ... مخيّلٌ شَبحاً قد شط زائِرُهُ
وتزعمُ النفسُ أن العَيْن قد كذَبَتْ ... وكيف تكذبُ إنساناً نوَاظِرُهَ؟
يا أيها الريّ قد أظمأتني زمناً ... وإن يكنْ بك نهْرٌ فاض هادره

أنتَ الربيعُ وكم لي فيكَ من غَزَلٍ ... صاحت بلابلُهُ. . . غَنّتْ عَصافِرُهُ
عقّ الربيعُ فما رقّت جَوانِحُهُ ... وقد توسَّل بالأنغامِ شاعِرُه
والغُصنُ إن أهلكَ الطيرَ الصدوحَ بِهِ ... فحسبه أنه قد ماتَ طائِرُه
فالنفسُ تأنسُ بالأغصانِ شاديةً ... وتجتوي الروضَ إن ماتت شحارِرُه
يا سوسنَ الروضِ مجلوّاً مطالِعه ... من قال ذاكَ ظلومُ الحسنِ ناكِره
بل أنتِ للعين بستانٌ به زهرٌ ... قد ضمّه في سناكِ الحلو ناثِرُه
لا تسأم العينُ من مرآكِ ما نَظَرَتْ ... ولا الفؤادُ وإن طالت مَزَافِرُهُ
كفاكِ أنك في نفسي وفي أملي ... كونٌ من الفن لا تُحصى مفاخرُه
كونٌ رحيبٌ. . . رحيبٌ لا حدودَ لَهُ ... تكشّفت لي - من حبٍ - سَرائرُه
ما كان أضناني وأنْعسنِي ... النأيُ - ويليَ - جافي القلب جائِرُه (سعادُ)
واستمهلي القومَ أيّاماً نجمِّلها ... بالقرْب إني شرودُ اللبّ حائِرُه
وعشتِ لي يا رجائي في الحياة ويا ... حلاوةَ العيشِ إن فاضت مرائره
العوضي الوكيل
جمال وقلب
(من ديوان (إشراقة) تحت الطبع)
للشاعر السوداني المرحوم التيجاني يوسف بشير
وعبدناك يا جمال وصغنا ... لك أنفاسنا هياماً وحبا
ووهبنا لك الحياة وفجر ... نا ينابيعها لعينيك قربى
وسحرنا بكل ما فيك من ضع ... ف جميل، حتى استفاض وأربي!
وحبوناك ما يزيد يا لغ ... ز وضوحاً، وأنت تفتأ صعبا!
وذهبنا بما يفسر معنا ... ك بعيداً، وأنت أكثر قربا!
من ترى وزع المفاتن يا حس ... ن؟ ومن ذا أوحى لنا أن نحبا؟
من ترى علم القلوب هوى الحس ... ن وقال: اعبدي من الحسن ربا!
من ترى وثق العرى بين مسحو ... رين، أسماهما: جمالاً وقلبا؟!
التيجاني يوسف بشير
رسالة الفن
دراسات في الفن
الحب والفن والله
معراج غاندي الفنان
للأستاذ عزيز أحمد فهمي
يصف القرآن أهل الجنة فيقول: (دعواهم فيها سبحانك الهم، وتحيتهم فيها سلام، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين).
ويعرف الإنجيل الله فيقول: (الله محبة).
ويروي الأستاذ فتحي رضوان في كتابة عن غاندي أنه لما كان في جنوب أفريقيا يجاهد الإنجليز في سبيل الهنود وكرامة إنسانيتهم كان في اجتماع، وفيما هو يغادره مصطحبا سيدة إنجليزية ألفته السيدة يتسلل من جانبيها إلى ركن مضلم، ورأته في الركن يواجه شبحا ورأته يمد يده إلى يد الشبح يأخذ منها شيئا ذا نصل براق، ورأته يخفي ذا النصل، ثم يتأبط الشبح فيخرج به من الظلمة إلى النور يسايره ويحادثه ويبساطه ويوداعه، ثم يعاهده ويستوثقه أمراً جللاً ثم يحييه ويفارقه فينصرف الشاب الهندي مطمنا مؤمنا معتزاً بما فيه من كبرياء المستشهد بعد أن كان الشبح المتخفي المتلصص النازع إلى الجريمة. فراع السيدة هذا الذي رأته وسألت غاندي فقال لها: أحسست أن هنديا كامناً لي يريد القضاء عليّ لأنه حسب فيّ السوء والغدر وخيانة الهنود، فسعيت إليه، وأنا مملوء بحبه كما أحب كل الهنود. . اتجهت إليه وأنا في هذا الحب، فما مس حبي الغل في نفسه حتى نوره فتألق حبا، فتعارفنا وتفاهمنا فتآلفنا، وتفارقنا ونحن أخوان في حب الهند والذود عن الهند.
معجزة من معجزات الحب أيد الله بها غاندي ونجاه بها من كيد كان فيه الردى والهلاك، ولم تكن معجزة كهذه لتقع بين سمع إنسان وبصره من غير أن تفعم نفسه وتشغلها باستدراكها متحسسة متفهمة تواقة إلى تحصيلها بعد ما أعلن صاحبها أنها تيسرت له بتدريب روض عليه نفسه فكان هذا الإعلان إغراء بالمعجزات تباح لمن

يريده، فدار بين السيدة وغاندي حديث تقصت فيه السيدة الحب وتعلمته من أستاذه الجديد، فكان مما علمه
إياها أنه قضى زمناً ينام في مسارح العقارب والثعابين، وإنه كان يأمن عدواتها، يؤمنه حب لها كان يطوي نفسه عليه، وكانت تحسه نفاثات السم فتسالمه وتتجاوزه.
معجزات أخر تناسب من روح غاندي في نومه. فأي رجل هو؟
إنه من أولئك الذين تحيتهم سلام. . . وإنه من أولئك الذين يحققون في الأرض وصية الإنجيل ودعوته إلى الحب الذي يقول إنه هو الله. فأي رجل هو؟
ليس في تاريخه ما يدل على أنه عبقري العقل كما يعرف الناس العباقرة. كان في صباه تلميذاً متأخراً متهيباً منقبضاً عن الدرس واللعب. وكان في شبابه طالباً مجداً مثابراً شغالاً يعوض بالدأب والجهد ما تفوته عليه قلة الذكاء، وكان بعد ذلك في بدء اصطناعه المحاماة حيران متواضع الأمل، راضياً كل الرضا بأيسر النجاح لو يؤاتيه من أشق العمل، فهو يستفتي المجربين عن طرق النجاح كاليائس منه، ثم يطرب ويسعد عندما يبشره أحدهم بأن له التوفيق ما كد وانكب على عمله بالعناية والإخلاص.
فهل كان غاندي على هذا غبياً متراجع العقل حين كان في صباه التلميذ المتأخر المتهيب المنقبض عن الدرس واللعب، وهل كان في الحق قليل الذكاء حين كان في شبابه طالباً شغالاً لا يعرف فيه أساتذته ولا زملاؤه العقل المتألق الخطاف ويعرفون عنه الدأب والجد، وهل كان بعد ذلك المحامي الخائر الضعيف الجبان حين كان يسائل المجربين عن طريق النجاح في المحاماة وحين رضيت آماله أن تتواضع فتقعد عند تحصيل الرزق الهين والعيش التافه؟ هل كان غاندي هذا الإنسان الرخيص؟
الأدلة والدلائل من حياته تنفى عنه هذا. بل إنها تثبت له عكسه ونقيضه، فغاندي اليوم هو الرجل الأول بين رجال الإنسانية الروحية، وليس هو الرجل الخير بين رجال الإنسانية المادية. فلو كأنه ما حسبت له إنجلترا حساباً وما رهبت جانبه، فهي لا تخشى القسيسين ولا الرهبان بل إنها لو أمكنها أن تصرف الناس اللذين تنزل بلادهم عن الاشتغال بأمور دنياهم ما ترددت في ذلك وما تأخرت عنه، وما امتنعت عن الإنفاق على الأديرة والمعابد تحشر فيها الناس زاهدين حالمين، لتفرغ لها الأرض ترتع فيها تأكل وتشرب وتلعب وتعيث فيها تحضيراً وتمديناً. . . أما وهي تخشاه، وتتقيه، وتتملقه حيناً وتقسو عليه حيناً، فلا بد أنها تعرف فيه خطراً خطيراً تخاف أن يكتفها وأن يخنقها بهذه الخيوط الدقيقة التي
يغزلها من القطن والصوف بمغزله الصغير الذي لا يزيد ثقلاً ولا حجماً على لعب الأطفال. . .
لا يمكن أن يكون غاندي هذا قريباً من الغباء ولا الغفلة؛ وإنما هو ذكي يتسامى ذكاؤه على ذكاء الناس، وعاقل يتعالى عقله على عقولهم. وليس في هذا عجب ولا فيه خرق لنظم الطبيعة. فنحن إذا تأملنا نفس غاندي، رأينا الرفعة والسمو متحققين فيها مؤكدين في الناحيتين اللتين تكملان النفس الإنسانية إذا أضيفتا إلى العقل، وهاتان الناحيتان هما الخلق والحس. فسيرة غاندي تثبت أنه من أرفع الناس خلقاً، ومن أشدهم استساغة لمعاني الشرف والنبل والوفاء والبر والصدق والعطف والتضحية، وغير هذه من الفضائل. . . فقد كان في الهند وفي إنجلترا وفي إفريقيا الجنوبية، مثلاً سامياً للإنسان الفضيل الذي يأسر بالفضل أهله وذويه، والذي يعجز خصومه عن أن يتهموه بنقيصة خلقية، وعن أن يصفوه برذيلة. هذا على الرغم مما يرويه هو من عيوب نفسه وزلاتها. فقد اعترف على نفسه بأنه كان يسرق من أبيه ما يشتري به الدخان، كما سجل على نفسه أنه اقترف الزنا بإيحاء من صديق شقي كان يغريه بالفساد في أوائل أيام الشباب. . . فهذه الخطيئات العابرة لم تكن في الحق أكثر من محاولات صبيانية أراد غاندي أن يتذوق بعض الطعوم من لذائذ البدن عن طريقها فما تذوقها حتى عافها سريعاً، لأنه رأى فيها تعبداً لغير الطلاقة والانطلاق. فعاد وصلح؛ ومنذ أن صلح وهو - فيما يعلم الله وفيما تقول حياته المكشوفة الصريحة - لا يقترف من الذنوب إلا هفوات الأولياء الصالحين.
هذه هي أخلاق غاندي! فهو بها أقرب من نعرف من الأحياء إلى الكمال، وهو إلى ذلك بإحساسه أقرب من نعرف من الأحياء إلى الكمال أيضاً. فقد مكنه الله من أن يصفي نفسه، وأن ينقيها حتى ليبلغ من صفائها ونقائها أن تعكس على النفوس أنوار إحساسها

فتغيرها وتملأها بأمان النور وبهجته. وهذه مرحلة من الإضاءة الروحية يبلغها الإنسان بعد أن تتم له استضاءة نفسه هو بالإحساس الصادق والاستجابة لصدق الإحساس، وليس أدل على ما نقوله من هذا الحادث الذي طعن فيه غاندي بالحب ذلك الذي أراد أن يطعنه بذي النصل، فقتل فيه النزوع إلى الشر واعزم على الجريمة بعد أن جمع لها إحساسه وإرادته وإيمانه، وبعد أن دبر لها وقفته وخفيته وأعد لها سلاحه، وبعد أن هانت عليه فيها حياته وفرط لها
في شبابه!

غاندي إذن هو اكمل من نعرف من الأحياء خلقاً وأنضجهم حساً. فإذا صدق أنه قليل الذكاء ضعيف العقل لأنه احتسبه في التلاميذ من المتأخرين، ولأنه كان من الشبان الشغالين، ولأنه كان من المحامين الحيارى التائهين، فإن أكبر ما كان يمكن أن نتصوره يصل إليه من مراتب الرقي البشري هو أن يكون شيخاً لطريقة من طرق التعبد والتدين اللذين يتطلبان في الصالح من أشكالهما هذا الصفاء في الحس، وهذا الكمال في الأخلاق، وقد مهدت الحياة لغاندي أن يكون هذا الشيخ، ولكنه أباه، وإن أنكر عليه شعبه هذا الإباء، وإن قدسه أهل ملته ورفعوه إلى ما يطاول مرتبة الأنبياء. ذلك بأن شعبه إذا لم يكن مفطوراً على تقديس المصلحين الأتقياء، فهو على الأقل مأخوذ بهذا التقديس متدرب عليه، فلو أن غاندي شاء أن يكون زعيماً من زعماء الدين لكان هذا الزعيم، ولما أنكر عليه الزعامة أحد، ولكنه عدل عن هذا إلى ناحية أخرى من نواحي الحياة تستلزم الكفاح العقلي والانتصار فيه، كما يسعدها التفوق الحسي والسلطان الخلقي. ولقد تم لغاندي النصر في هذه الناحية بشهادة بعض الكبار من رجال الإنجليز الذين قارعوه في الهند والذين وصفوه فقالوا: إنه رجل يمتاز في تكوينه على غيره من الرجال. . . وليست مغالبة الإنجليز الكبار بالأمر الهين، ولا الانتصار عليهم بالأمر المتاح لكل إنسان، والإنجليز حين يغالبهم الناس وحين يكافحون هم هؤلاء الغالبون لا يكافحونهم بالإحساس ولا بالأخلاق وإنما لهم في المكافحة سلاح آخر هو العقل، ويكاد العقل الإنجليزي يكون في أرقى مراتب العقل البشري، فإذا غلبهم غالب بسلاح العقل فلا يمكن أن يقال إنه قليل الذكاء أو إنه متقهقر العقل، ولقد غلبهم غاندي في مواقع كثيرة فلا بد من أن يكون أقوى منهم عقلاً وأشد ذكاء.

وإنه كذلك! وعلى هذا يتم له الانسجام النفسي القائم على أساس من النسب النفسية الرفيعة المتألفة من الحس الأنضج، والخلق الأكمل، والعقل الأوفر.

وهذا النوع من العقل هو الذي أردت أن ألفت إليه نظر القارئ في حديث اليوم. فقد رآني القارئ في أحاديث سابقة نافراً من الزي الأوربي الذي يتزيى به العقل الحديث، والذي ينزع إلى العلم المادي والحضارة المادية نزوعاً يكبت في الإنسان إحساسه ويخمد أخلاقه. وقد رآني القارئ في حديث الأسبوع الماضي أرجو للإنسانية أن ترقى فيتحقق لها العقل

الذي يطالبنا به الله فتحله محل هذا العقل الأوربي الذي لا يصدق فيه أسمه إلا من حيث إنه غلل الحس البشري وكتف الأخلاق كتفاً لا يسمح لها بالسمو إن لم يهبط بها إلى الحضيض.

عقل غاندي هو بشارة من بشائر الرقي الإنساني التي تسارع إلى الظهور في بعض مراحل التطور البشري، ولو لم تتأهب الإنسانية لإحسان استقبالها وإحسان استنباتها.

فما هي ميزة هذا العقل وما هو طابعه؟

إنه العقل النافذ الهادئ المنطلق إلى هدف يناديه من السماء والذي يدرك حقائق الأشياء وما بين الأشياء من علاقات منذ أن تعرض له هذه الأشياء، والذي يلهمه الإحساس الصادق فلا يخطئ في تقديره ولا تكييفه إياها، والذي تقوده الفضيلة إلى إحسان الموزانة بين الحقائق وبين الأشياء فيعرف أيها يأخذ لنفسه وأيها يدع، وأيها جدير بالاهتمام وأيها حقيق بالإهمال، وأيها لازم لتقويم كيان الفرد، وأيها لازم لصلاح المجتمع، وأيها بعد ذلك حشو للعقل يتخمه ولا يغذيه.

هذا هو العقل الذي زان الله به غاندي، وهو عقل ممتاز سام يدل على غاندي كما يدل عليه إحساسه وكما تدل عليه أخلاقه فهو عقل خاص نادر لأن غاندي رجل نادر، وهو بطبعه غريب على هذه الحياة وهذه الحضارة، غريب على علومها وعلى الأجواء التي يجول فيها عقلها، ولذلك فإنه يكاد يصعب عليه أن يصاحب العقل العادي وأن يماشيه،

وإنما هو ينفر من ذلك العقل العادي بطبيعة تكوينه، والناس الذين يعتبرون الحساب، وعلوم الرياضة (المتسحلفة) مقياساً للذكاء يرون هذا الاختلاف بين عقل غاندي وبين عقلهم ويأبون أن يتلمسوا الضعف في أنفسهم، وينسبون الضعف والتأخر للعقل الخارق العجيب الذي يحيرهم والذي يرونه كالعاجز عن مجاراتهم، وهو في الحق مستقيم يتجه إلى هدف خاص ينزع إليه صاحبه بإحساسه وأخلاقه، فلا يلتوي على نفسه ولا يتعقد ولا يتعثر مثلما تتعثر العقول المتحضرة حينما تجمع علمها من المتناثرات من الحقائق لا يحدوها في هذا الجمع غرض ولا تريد من سبيله أن تصل إلى هدف ولا أن تؤدي به رسالة، ولا يهمها إذا كان هذا الذي تعلمه شيء يستحق أن يعلم أو أنه لا يستحق ذلك.

وهذا هو أشرف ما يدعيه العلماء لأنفسهم فهم يقولون إنهم يطلبون العلم للعلم، وهم حين يدعون هذا يحسبون أنهم يردون به على أولئك الذين ينتقصون قيمة علمهم ويتهمونه بأنه سعى إلى خدمة المادة في الحياة، أو أنه سعى إلى خدمة الشر. فإذا صح هذا الذي يدعونه ولم نقس عليهم قسوة من يتهمونهم بمختلف التهم لم يكن علمهم إذن إلا ضرباً من الفضول أو التجسس على قوى الطبيعة. والفضول سخف، والتجسس رذيلة.

أما العلم الذي يصل إليه العقل الفضيل الحساس فليس فيه من الفضول شيء ولا من سخف الفضول، وليس فيه من التجسس شيء ولا من رذيلة التجسس، وإنما هو علم يطلبه صاحبه لأنه يحبه، ويرفض ما عداه لأنه لا يريد شيئاً غيره، وهو يسعى إليه لأنه يشعر أن فيه كماله، وأن في الوصول إليه راحته وأنه قبل هذا وذاك يرضي إحساسه وأخلاقه وينسجم معهما.

وهذا هو العلم الذي يبدو حين يطالع الناس وفيه من نفس صاحبه إحساس صاحبه وأخلاق صاحبه، كما يكون فيه من عقل صاحبه. فأي شيء يشبه هذا العلم؟ إنه يشبه الفن. وهو يشبه الفن من حيث أنه تعبير عن نفس صاحبه، ومن حيث إنه يحقق حاجة من حاجات صاحبه الروحية، وقد تشمل هذه الحاجة مطالب مجموعة خاصة من المجموعات البشرية وقد تشمل مطالب البشرية بأسرها.

هي إذن رسالة علمية عقلية، وهي قائمة على أساسين من الحس والخلق إلى جانب ما تقوم عليه من أساس العقل. وليس كل العلم هكذا، ولا كل العقول التي تجري وراء العلم هكذا. وإنما هي نفوس الفنانين التي تنحرف لضرورة من ضرورات الحياة عن إنتاج ما اصطلح الناس على اعتباره من الفنون الجميلة إلى أداء رسالات هي في ظاهرها غير هذه الفنون، وهي في حقيقتها فنون جميلة بل إنها أجمل الفنون. ذلك أنه إذا كان جميلاً أن ينشئ إنسان لحناً أو قصيدة أو تمثالاً أو صورة فأجمل من ذلك أن ينشئ إنسان نفس إنسان آخر، والأجمل الأجمل أن ينشئ إنسان جيلاً من النفوس في جيل من الناس على صور من خياله. وليس أجمل من أن تقوم رسالة فنية على أساس من الحب يطوى المؤمنون بها نفوسهم عليه ويهبونه لأعدائهم كما يهبونه لأصدقائهم: فتحيتهم سلام وغايتهم محبة، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين.

عزيز أحمد فهمي

رسالة العلم

قوانين النشاط الحراري وتحول الطاقة

للدكتور إسماعيل أحمد أدهم

قرأت في عدد مضى من الرسالة ما كتبه الأستاذ نصيف المنقبادي المحامي، وقد راعني ما فيه من الخلط بين التحقيقات العلمية والنتائج التي وصل إليها العلم وبين بعض فكرات عتيقة في الكون مستمدة من التفكير الفلسفي، لا تجد مكانا اليوم في عالم العلم. وأي فكرة أدخل على العلم من القول بأن المادة (أو مجموع المادة والطاقة) قديمة والاستناد إلى مثل هذه المبادئ الفلسفية للاعتراض بها على نتائج انتهى إليها العلم في المعمل والمختبر وحققتها التجارب على مدى طويل من الزمان. والواقع أن التفكير العلمي الحديث يرفض مثل هذه الآراء المرتجلة (ولا يعرف من مفهوم المادة والطاقة إلا أنهما عقدتان في عالم الزمان - المكان) وقد سبق أن أشرت إلى بعض هذه الحقائق في البحث الرياضي الذي نشرته لي مجلة الرسالة

لأربع سنين خلت عن نظرية النسبية الخصوصية وقلنا في ذلك الحين ما نصه:
ليست المادة كما يعبر عنها العالم الطبيعي الكلاسيكي، بأنها كل ما كان لها امتدادات) ثلاثة في المكان، بل المادة مجموعة توالي الحادثات في نقطة واحدة من نقط عالم الزمان - المكان، وذلك بمعنى أن العالم ليس إلا مجموعة من الحادثات وتوالي عدد الرسالة السنة) (من هذه الحادثات في نقطة واحدة يلقى في روعنا معنى المادة الرابعة العدد 140. ص 387).

ومعنى هذا الكلام أن العلم الحديث يرفض فكرة المادة في مفهومها القديم الذي يعتبرها (الشيء الذي تتقدم به الصور) وهذا الرفض أقرب إلى إنكار المادة إذا أخذنا المادة على هذا المفهوم وهذا الكلام يمكن شموله أيضاً الطاقة ومفهومها وبعد ذلك تجد الصورة العلمية الجديدة للمادة والطاقة أقرب إلى - أعني الفلسفة التي لا تري شيئاً وراء المظاهر الطبيعية.

وإذن في مثل هذا التفكير لا يمكن التكلم عن القدم والحدوث، ومفهوم اللاتناهي في القدم لا معنى له في العلم الحديث.

أما الشيء الذي يعترض به في الواقع على ما جاء به الدكتور محمد محمود غالي، فهو أنه تعقيداً أكثر من اللازم بمبدأ النشاط الحراري الثامن الذي قال به العلامة ساري كارنو عام 1824 والذي ينص على أن الطاقة في تحولها تتنزل وأن ليس في المستطاع عكسها. لأنه من المعروف أنه من اليوم الذي أذاع كارنو فيه رأيه قد بذلت الجهود في سبيل إيجاد التلاؤم بين مبدأ تنزل الطاقة وعدم عكسها ونظرية القوى المركزية التي تفترض إمكان عكس أي شيء في الطبيعة. ومن هنا قامت جهود ماكسويل وبولتسان وجيبس في أن الحادثات لو كانت تقترب من حلة التجانس، فليس ذلك نتيجته لأن العناصر المتباينة تميل لعدم التخالف والتباين، وإنما يعود ذلك إلى الاختلاط، فالاختلاط إذا بلغ الحد الأعظم اللامتناهي، أو ما يقرب منه بدا وكأنه متجانس للنظر وهو في الواقع غير ذلك. وفي هذا وحده عدم إمكان تصور أن الأجسام الساخنة لا ترجع لحالتها الأصلية عن طريق العكس. وكما أننا لو فرضنا حبة من قمح أخفيت في كومة من الشعير واختلطت بها، فتصور هذا الحادث من السهولة بمكان، والنظر البشرى لن يميز وجود هذه الحبة ومن هنا سيحكم بأن الكومة كلها متجانسة مكونة من مادة الشعير. وهو لو عرف أن حبة قمح قد اختلطت مع الكومة وذهبت طي الكوم فإنه سيعتقد باستحالة استخلاص حبة القمح من الكوم. وفي هذا وحده كان تفسير لعدم إمكان العكس الذي يتظاهر بمبدأ كارنو.

إلا أنه من المهم أن نلاحظ أن هذه المحاولات تستند إلى قوانين الإحصاء وهي إن كانت صحيحة في عالم النظر، ولكن مبدأ كارنو كان بكل قوته في عالم الوقع كمبدأ تؤيده التجربة. ولكن الذي حدث أنه في أواخر القرن التاسع عشر لاحظ العلامة برون في المايعات التي يستحضرها تراقصاً غير منتظم في الجزيئات، وعرف هذا التراقص بالحركة البرونية وقد ظن بادئ ذي بدء أن هذه الظاهرة وقف على عالم الأحياء إلا إن بعضهم لاحظ وجودها في العالم الميكانيكي - الآلي - وافترض لتعليلها أن الضوء يتجمع ويتكاثف على هذه الجزيئات، ولما كان الضوء لا يفترق عن موجات الحرارة؛ فإن الحرارة تتخلف في ذلك الوسط من مكان لآخر ويكون نتيجة ذلك مجموعة من المجارى وهي تحدث هذه الحركات. غير أن البحاثة نقض هذا الفرض بأن بين أن هذه الجزيئات كلما كانت صغيرة كانت حركاتها المشهودة تدل على أنها أسرع، هذا إلى أن هذه الجسيمات لا
تتأثر بالنور الساقط عليها؛ فإذا صح أن هذه الحركات تحدث بدون أن تستند إلى مصدر من الطاقة خارجي، فماذا يكون الموقف؟

لا شك أنه لا يمكن التراجع عن مبدأ ماير في حفظ الطاقة؛ كما أنه يمكن أن ننكر أن الدلك والحركة يتحولان إلى حرارة، وبدون أن نبذل جهداً نرى الحرارة تتحول لحركة. وهذا ينافي مبدأ كارنو.

هذا ما تركنا فيه العالم في أوائل القرن العشرين والشك يحف بمبدأ حفظ الطاقة وقوانين النشاط الحراري وتنزل الطاقة.

حقيقة أن إينشتين وبيران وغيرهما قد أعادوا الثقة إلى هذه المبادئ والقوانين وإن عدلوها وأخرجوها عن مدلولاتها الأولى، ولكنا نعرف أن في الإمكان في ضوء الجهود

الجديدة أخذ مبدأ كارنو من جهة حسابات الاحتمال وربطها بالنظرية الاحتمالية التي يقول بها هيزنبرج وشرودغبر وديراك وغيرهم من الأعلام، وإن كان لي أن أذكر هنا شيئاً لي فهو مذكرتي عن (الحركة البرونية) التي قدمتها عام 1935 إلى أكاديمية العلوم الروسية ونشرتها مبسطة بمجلة - الطبيعية - الروسية عام 1931 ونقلتها عنها في نفس السنة أما الأصل العلمي للمذكرة فتجده في لأخبار الأكاديمية وأعمالها العلمية وتجده في النشرة التاسعة 1935 ص411 - 416 ويمكن أن ينظر عنها شيئاً 1935 , , 1938.

من هنا نرى أن مبدأ كارنو من ناحيته النظرية لا يمكن أن يسوق إلى فكرة الموت البطيء إلا إذا حملنا المبدأ في الصور الجديدة التي أخذتها اكثر مما يجتمل، وأظن أن هذه المسائل، لأنها أدخل في باب المسائل النظرية، لم يولها الدكتور غالي أهمية وهو الأخصائي في المسائل التطبيقية من العلوم الطبيعية.

ولنا بعد عودة لمراجعة بعض آراء الدكتور غالي العلمية وخطراته خصوصا فيما يتعلق بمبدأ الصدفة المنظمة ونظرية النسبية.

(الإسكندرية)

إسماعيل أحمد أدهم

دكتوراه في العلوم الرياضية والطبيعية النظرية وفي الفلسفة العلمية من موسكو

أجمل الكواكب

للأستاذ قدري حافظ طوقان

زحل أجمل الكواكب، وأكثر الأجرام السماوية بهاءً! سحر الناس بمنظره وخلبهم بحلقاته. ليس كمثله كوكب، فريد في شكله، وحيد في شذوذه. . . يحيط به ثلاث حلقات مستوية دائرية يختلف منظرها باختلاف موقعه. . .

فمن هالات بيضوية حوله. . . إلى خط منير يقطعه ويمتد على جانبيه!. . . ومن أغرب ما نرويه أن حقيقة هذه الحلقات عرفت من المعادلات الرياضية. فلقد بين العالم الشهير (ماكسويل) أن هذه الحلقات تتألف من أجسام صغيرة جداً كثيرة العدد، تدور حول الكواكب في أفلاك دائرية تقريباً. . . ولقد أثبت (مبين الأطياف) أن دوران أجزاء الحلقات البعيدة أبطأ من دوران القريبة، كما يرجح البحث العلمي: أن تكوّن هذه الحلقات يرجع إلى اقتراب أحد أقمار زحل نشأ عنه تمزيق ذلك القمر إلى قطع صغيرة تكونت منها هذه المجموعة من الحلقات الثلاث. . .

وهذا جزاء كل قمر يقترب كثيراً من أمه! فلو أقترب قمرنا من الأرض - وهذا سيجرى بعد ملايين السنين - فلا بد أن يجري عليه ما جرى على قمر زحل، فيتمزق إلى قطع صغيرة ينشأ عنها حلقات حول الأرض على الشكل الذي نراه في زحل.

وهذا سيزيد في جمال ليالي الأرض وما سيغمرها نوراً وسناءً تتجلى بهما القريحة وتفيض معهما المشاعر. ويقول جينز (. . . وعلى الرغم من أن هذا سيزيد في بهجة الحياة فلن تكون الأمور من بعض النواحي مريحة كما هي الآن إذ سيكثر تصادم بعض الأقمار ببعض وستتناثر أجزاء تقع على الأرض كالصخور الضخمة تسقط من السماء. . .) وزحل من الكواكب البعيدة عن الشمس بالنسبة إلى الأرض، يبلغ بعده (885 , 900 , 000) ميل، وطول سنته 29 سنة ونصف سنة من سنينا، أما معدل قطره فيقرب من (71 , 500) ميل وعلى هذا فحجمه يساوي (734) مرة قدر حجم الأرض.

وقد حسب الفلكيون كتلته بطريقة رصد أقماره وما يحدثه من تأثير جذبي على المشتري فكانت 95 % من كتلة الأرض. وما دام الأمر كذلك، وما دام حجمه أكبر من حجم الأرض بمئات المرات فهو من أقل الكواكب كثافة إذ لا تزيد كثافته على 72 % من كثافة الماء مما يدل على أن قسماً كبيراً منه لا يزال في حالة غازية.

ويوم زحل قصير لا يزيد على 10 ساعات وربع ساعة، ويحيط به جو مليء بالغيوم يمتد إلى آلاف الأميال. وعلى كل حال يمكن القول بأن معلوماتنا عن سطحه وما يجري عليه من تغييرات لا تزال في أولى درجاتها.

وهو غني بالأقمار يحيط به تسعة أقمار تبعد كثيراً عن الحلقات ويشذ أحدها (كما يشذ

اثنان من أقمار المشتري) فيسير من الشرق إلى الغرب بينما الأقمار الثمانية الباقة تسير من الغرب إلى الشرق.

ومما لاشك فيه أن هذه الأقمار بحجومها المتباينة وحركاتها المتنوعة، والحلقات بأقواسها الفضية الجملية، من أبهى المناظر التي تقع عليها العين، وأروع المشاهد التي يراها الإنسان.

(نابلس)

قدري حافظ طوقان

من هنا ومن هناك

لإنقاذ العالم من الحرب

(عن (سيرفس إن لايف أندورك))

ظهر في الأيام الأخيرة كتاب قيم لكلارنس ك. سترايت بعنوان الاتحاد الآن وقد كان المؤلف يمثل جريدة (نيويورك تايمس) في أوربا وقضى السنين القليلة الأخيرة في جنيف.

والمؤلف من المتحمسين في الأصل لعصبة الأمم، وهو في هذا الكتاب يبين العلل والأسباب التي قضت على الآمال العريضة التي بناها العالم في سنة 1920 لإنقاذ الديمقراطية والقضاء على فكرة الحرب، ويقدم إلى العالم الاقتراح الذي يراه لضمان السلم وتوطيد دعائم الوفاق ومن رأيه أن الحالة التي تهدد العالم الآن لا ترجع أسبابها إلى مبادئ الاشتراكية، أو الفاشية، أو الاشتراكية الوطنية، ولا ترجع أسبابها إلى مطامع الدكتاتورية وعنادها، ولا ترجع كذلك إلى إخفاق الدول الديمقراطية. فهذه كلها نتائج لا مسببات، ويرى أن السبب الجوهري لموقف اليأس الذي يقفه العالم اليوم، يرجع إلى الفوضى التي تسوق الأمم التي تضع له خطط السلام والراحة، إلى التفكير في أن يكون لها دون غيرها السيادة والسلطان.

هذا أساس الداء كما يشخصه المؤلف، أما العلاج الذي يراه لهذه الحالة، فينحصر في إيجاد نوع من السيادة الدولية على هيئة تحالف بين الخمس عشرة دولة الديمقراطية الموجودة الآن، كنواة لنظام عام تسوده حكومة عالمية.

وقد كتب لورد (لوثيان) سفير إنجلترا في الولايات المتحدة قبل تعيينه في هذا المنصب بأيام قليلة مقالا قيما في التعليق على ما جاء في هذا الكتاب قال فيه:

إن الحرب ضرورة ورثتها الأمم القوية لتحديد علاقاتها. فحيث يفشل الاتفاق الودي لا تجد الأمم القوية مفرا من الحرب للدفاع عن كيانها واسترداد حقوقها، فسواء حاولت هذه الأمم أن تعمل كل منها على انفراد أو فضلت التحالف أو الاتحاد الدولي تحت نظام خاص كعصبة الأمم فهذه الحقيقة لا تتغير.

إن قوة الأمم معناها أن الملجأ الأخير الذي تلجأ إليه، إذا لم تفلح سياسة الاتفاقات الودية مع الأمم الأخرى، هي سياسة القوة أو الحرب. ويترتب على هذه السياسة أن الحكومة ترى

نفسها مسوقة إلى تضحية حقوق أبنائها واستقلالهم لزيادة قوتها واستعدادها للدفاع عن كيانها كما هو ظاهر اليوم، ومن النتائج المحققة لسياسة القوة والسيادة انتشار الفقر بين جمهور الشعب وازدياد عدد العمال العاطلين، وانتشار الفساد واليأس بين السكان.

وتقود هذه السياسة إلى الحرب الاقتصادية بين الأمم حيث تحاول كل أمة أن ترعى مصالحها الاقتصادية بصرف النظر عن مصالح الأمم الأخرى، فترتفع الضرائب وتمتنع الهجرة ويوقف تصريف رؤوس الأموال.

وهذه القيود والحواجز الاصطناعية من شأنها أن تزيد في محصول كل أمة، فيضيع التوازن بين محصول الأطعمة والخامات والقوة الصناعية، لا في هذه الأمم فحسب ولكن في العالم أجمع.

صوت من مقبرة تشيكوسلوفاكيا

(عن (ليدوفي توفيني) براج)

الأمم كالأفراد يقابل سقوط بعضها بالأسف كما يقابل موت البطل في أسفار التاريخ.

ويدرك بعضها الفناء، فتنضب قواها، ويزول نفوذها شيئا فشيئا كما تتلاشى المياه وتزول في أعماق الرمال فلا يجد المؤرخ فرصة للتحدث عن مجدها وسلطانها الزائل.

ومما لا شك فيه أن تاريخ بريطانيا وفرنسا منذ انتهاء الحرب العظمى ينتمي للنوع الأخير.

ففي سنة 1918 كانتا تمثلان أكبر قوة على الأرض وكانت كلمتهما هي القانون. فماذا بقى اليوم من هذه القوة؟ كل إنسان يستطيع أن يجيب على هذا السؤال بسهولة، وعلى الأخص إذا كان من سكان أوربا الوسطى، فقد أصبحوا وكأنما فصلهم عن بريطانيا وفرنسا محيط مترامي الأطراف!

قال حكيم من حكماء الرومان: الإنسان لا يكون سيئا مرة واحدة. ومما لا شك فيه ألا يكون كذلك ضعيفا مرة واحدة ومن الصعب علينا أن نعرف بالتحديد اللحظة التي أخذت فيها قوى الديمقراطية الغربية في الانحدار. فمن المحتمل أن نعزو ذلك إلى ظروف كثيرة وأسباب عديدة. لقد كان الفيلسوف الألماني (فردريك نيتشة) قليل الثقة بالقيم الأدبية للانتصارات. فكان يقول: إن الانتصارات كثيرا ما تحيط الأمة بسياج من البلادة وقد نكون قريبين من الصواب إذا قلنا إن الانتصارات تصيب الأمم بالكسل على الدوام.

إن الهزيمة ولا شك هي التي ألهبت بسياطها نشاط الأمة الألمانية وحفزتها إلى العمل. وقد عرف زعيم ألمانيا قيمة الجيش للدولة فجعل همه إذكاء روح الرجولة والقوة بين أبنائها ودعوتهم ليكونوا على استعداد للموت في أي لحظة إذا احتاج الأمر. فهذا الموقف الجديد لم يقابل من فرنسا وبريطانيا العظمى بالاهتمام ولم تتيقظا له إلا بعد سنين من النوم والإهمال. وقد ظلت بريطانيا إلى اللحظة الأخيرة مكتفية بجيشها الصغير ولم تكن لتكلف أبناءها بشيء أكثر من دفع الضرائب. فكانت النتيجة الطبيعية أن خفت صوتها في هذا العالم الذي بدأت مظاهره من سنة 1933 وقد أصبحنا نسمع الشباب في إنجلترا يتحدثون بلسان السخر والاستهتار عن قيمة الإمبراطورية التي شادها آباؤهم وأجدادهم، ويعلنون أنهم لا يريدون لإمبراطوريتهم العظيمة إلا الهدوء والسلم. أما فرنسا فعلى الرغم من جيشها الكبير فقد وقفت جامدة إزاء الفوضى التي تعم كل مكان للمحافظة على جبهتها.

إن أزمة سبتمبر الخالي تبين مقدار ما وصلت إليه عزيمة بريطانيا وفرنسا من الانحدار. فالهمة التي أبدتها الأمتان تجاه هذه الأزمة، سرعان ما تبخرت تحت تأثير حب السلامة والكسل حينما أتيحت الفرصة إلى ذلك!! لن ينسى العالم هذا الموقف العجيب. ولن ينسى صورة مستر تشمبرلن رئيس الوزارة الإنجليزية وهو ينحني من عربته غب عودته من ميونخ، ملوحا للجماهير بوريقة كتب فيها بضع كلمات، ليقول: لقد استخلصنا السلم للعالم.

لماذا يكذب الأطفال

(عن مجلة (هيجيا) بشيكاجو)

يجب أن يعلم الأطفال أن مدنيتنا قائمة على الاحترام والثقة المتبادلتين بين الناس على أساس الأمانة والشرف. ويجب أن يعرفوا أن الصدق أمر حيوي في حياة الإنسان، وأن الكاذب لن يكسب احترام مواطنيه. ولكن هل العقاب المحض هو خير الطرق لإفهامهم ذلك؟ إذا عرف الآباء لماذا يكذب الطفل فمن المحتمل أن يستطيعوا إبعاده عن هذه الصفة الذميمة دون أن يلجئوا إلى العقاب العنيف. والكذب نوعان: كذب مقصود وهو الذي يحاول فيه الطفل أن يغش الآخرين، وكذب غير مقصود وهو الذي لا يدرك الطفل ما فيه من الزيف.

فإذا جاء إنسان لآخر وقدم إليه تفاحة حمراء وحاول أن يقنعه بأنها سمراء فإنه لابد أن يصمه بالكذب إذا لم يثبت لديه أن هذا الإنسان مصاب في نظره بآفة الألوان. وهكذا الشأن في الطفل الصغير فمن واجب الآباء ألا يصموه بالكذب بغير روية، يجب أن يعرفوا قبل كل شيء لماذا لا يرى الدنيا كما يرونها بالتحديد.

قد يكذب الطفل لأنه لا يستطيع أن يدرك تمام الإدراك، أو لأنه تعوزه الدقة في النقل وسلامة الفهم في الحكم على الأشياء فمن القسوة أن يعاقب على الأكاذيب التي من هذا النوع. وقد يقود العقاب الطفل إلى حالة سيئة للغاية فيفهمه معنى الكذب ويضلل لسانه البريء عند كل قول. قد لا يفهم الطفل معنى الكذب فمن واجب الآباء في هذه الحالة أن يعذروه ويبينوا له أسبابه حتى لا يعود للوقوع فيه.

أما الكذب المتعمد، وهو الكذب الذي يحاول فيه الطفل خداع الآخرين بقصد الاحتيال والغش، ألا يوجد علاج له غير الصفع والضرب؟
إن الأسباب التي تدعو الأطفال إلى الكذب على وجه العموم هي الخوف من العقاب فيجب على الآباء أن يحيطوا أبناءهم بجو من التفاهم والعطف والمساعدة.
فحيث يتورط الطفل ولا يجد مخلصاً، حيث يعاقب ولا يفهم تماماً السبب الذي عوقب من أجله، حيث يعامل معاملة لا يفهمها عقله الصغير، تضيق الدنيا في ناظره ولا يجد غير الخداع سبيلاً للدفاع عن نفسه، والخروج من المأزق الذي وقع فيه.
البريد الأدبي
حول نعيم الفردوس
لبعض القراء غرام بتعقب ما أكتب في الدين من حين إلى حين، لأنهم يتوهمون أن الذين في مثل حالي من المشغولين بالدراسات الفلسفية يغلب عليهم التطرف والخروج على المألوف من قواعد الدين.
وأنا أرحب بالنقد، وأراه علامة من علائم الحيوية العقلية فلا يضايقني أن يكون في القراء من يراقب ما أكتب في الشئون الدينية عساه يجد مجالاً للتعقيب أو التصحيح.
ولكن الذي أنكره على بعض القراء أن يحرِّف الكلم عن مواضعه ليصح له أن يصورني بصورة المسيء، كالذي وقع من الفاضل الذي زعم أني قلت:
ليجوز له أن يقول؛ (فهل رؤي (اشغلني عنك، يا رباه، بما في الجنة من أطايب النعيم) سوء أدب وسوء فهم للدين كالسوءين المتجسمين في دعاء زكي مبارك هذا)؟
وأنا لم أقل ما نسبه إلي هذا الرجل الفاضل، وإنما قلت:
(اشغلني عنك، يا رباه، بما في الجنة من أطايب النعيم، فإن بصري أضعف من أين يواجه نورك الوهاج).
وهذه العبارة هي غاية الغايات في الإيمان بعظمة الله ذي العزة والجبروت، ولكن ذلك الفاضل حذف الشطر الأخير ليجد الفرصة لادعاء الغيرة على الدين، فهنيئاً له ما ظفر به من التقول على رجل أعزه الله بالإسلام الصحيح، وعصمه من الاتجار بالدين.
ألا يكفي أن نسكت عن الأوهام التي يذيعها بعض الناس من وقت إلى وقت بحجة أنهم المرجع الأول لنشر التعاليم الدينية؟ وفي أي شرع يجوز تحريف الكلام عمداً ليتمكن من في قلوبهم مرض من تجريح الأصحاء؟
إن الكلمة التي قلتها لها معان لا يدركها غير صفوة المؤمنين.
ولو طُلب مني توضيحها لقلت: إن العبادة الصحيحة هي رؤية الله في نعمه المشكورة، وليست في دعوى النظر إليه، وهي دعوى أعرض من الصحراء.
وأنا دعوت الله بما دعوت، وأرجوه أن يتقبل ذلك الدعاء، فإن بصري على حدته أضعف من أن يواجه نوره الوهاج.
أحب أن أراك في نعمك، يا رباه! في الحدود التي تساميت إليها في كتاب (التصوف الإسلامي)، وكن وحدك الرقيب على عبدك الحافظ لفضلك ونعمتك، فليس له في الوجود نصير سواك.
زكي مبارك
الوحدة العربية
سيدي الأستاذ الزيات
لقد قرأت كما قرأ غيري ما جرى بين الأستاذ (ساطع الحصري بك) و (الدكتور طه حسين بك) من نقاش حول (الوحدة العربية) فرغبت في نشر حديث كان قد جرى بيني وبين أستاذ فرنسي يدور حول هذا الموضوع.
بدأ الأستاذ الفرنسي حديثه معي بالكلام على ما يسميه الناس بالحقائق فقال: ليس هناك حقيقة مطلقة.
قلت: نعم. لأنه ليس هناك نظر مجرد، فبقدر ما يكون امتداد النظر يكون اتساع الأفق.
فشجعه ذلك على الاسترسال فقال:
أراكم تلهجون كثيراً (بالوحدة العربية) في هذه الأيام. فهل ترى إمكانها؟ إن مقياس كل شيء في هذا العصر هو الفائدة منه، فما فائدة هذه الوحدة لكم؟ أتعتقد أنك عربي؟ أنت مصري قبل أن تكون عربياً، قبل أن تكون مسلماً. أليس كذلك؟
قلت: ألست تسأل لتعرف الحقيقة؟

قال: بلى!
قلت: حسن إذن. قد يكون الجواب على السؤال سؤالاً آخر، فما هي الدولة؟ وما الفائدة من وجودها؟
قال: إن تعريفها غير متفق عليه، ولم يصل أحد بعد إلى تعريف حاسم لها. أما فائدتها فما أظن أحداً ينكر الفائدة من وجودها؟
قلت: أمعنى ذلك أن الدولة لا توجد لأن تعريفها لم يُحدد؟
قال: من ذا الذي يقول بهذا؟ إنها موجودة رغم ذاك!
قلت: أنت تدري أن الدولة مكونة من عناصر هي: وحدة الدين، واللغة، والجنس، والتقاليد، والتاريخ، والأماني، والغايات. . . وكل هذه العناصر ينتظمها (روح معنوي) يسرى بين سكان الدولة - هو شعورهم - بأنهم يكونون دولة لها وجود، ولها حياة، ولها غاية تسعى إليها. . . الكل المجموعي لا الجميعي لكل هذه العناصر، تنتظمه هذه الروح، هو ما يسمى بالدولة. فماذا ينقص الشعوب العربية من ذلك؟ لا شيء البتة. بل أنا أنظر حولي، فلا أرى شعباً في العالم يضم منه هذه العناصر ما يضمه الشعب العربي. إن ألمانيا الحديثة تقوم على أكذوبة (الجنس) فلنفرض أن (الوحدة العربية) تقوم على أكذوبة من هذا النوع. . . هذا إذا أعوزنا التعلل، وعجزنا عن التعليل!
إن الصعوبة الكبرى في قيام الوحدة العربية، تنشأ من أن العرب شعوب متعددة تخضع خضوعاً تاماً - أو ناقصاً - لدول شتى. كما أن هناك اختلافاً على مدلول هذه الكلمة وتفاصيل هذا المدلول (الوحدة العربية) يفسره كل تبعاً لما يراه أنه الأفق لمصلحته، أو رأيه، أو هواه.
فلو كان العرب كلهم أحراراً، أو لو كانوا كلهم يخضعون لسيادة دولة واحدة لحفزهم الغرض من وجودهم إلى الاتحاد، أو لدفعتهم الغاية المتحدة في التخلص من نير الأجنبي إلى تكوين الوحدة المرتجاة، كما أنهم لو تفاهموا لاتحدوا في وجهة النظر، وسبيل الوصول.
لو لم تكن (الوحدة العربية) حقيقةً واقعة، لكانت أمراً واجباً. إن الوحدة العربية ليست هدماً للمزايا الجنسية للشعوب القديمة: كالمصريين، والآشوريين، والبابليين. ولكنها جمع لكل هذه المزايا لتكوين شعب وأحد، وحدته خير من تفرقه على كل حال. أما مزايا الجنس فلا تموت والتوحيد لها بمثابة التطعيم، والتطعيم خير سبيل: للتجديد والتخليد والبقاء. إن الكبرياء العنصرية جهل بمزايا الوحدة، وإذا كانت الوحدة العربية كذباً، فكم من كذب هو أنفس من الصواب عند ذوي الزكانة والبصيرة، والكذب في السياسة، صدق في النظر!
الوحدة العربية، حقيقة واقعة، لأنها عقيدة راسخة!
الله موجود لأنه واجب الوجود، والوحدة العربية موجودة لأنها واجبة الوجود!
هذا رأيي في الوحدة العربية. أما رأيي في الدكتور طه حسين فهو أن ديدنه أن يأخذ الرأي من طريق السماع والاتباع. فهو لم ينظر في نفسه باعتباره رجلاً موطنه الشرق، ولغته العربية، ودينه الإسلام، ومأمله العروبة. بل نظر فيما سمع من كلام الأوربيين واتبع ما قالوه بلا تمحيص، وكان خيراً له لو رجع إلى بيئته، وسار مع طبيعته، ونظر في نفسه واستوحى ما يمليه النظر المجرد والمنطق السليم؛ كما أن نظر الدكتور نظر جزئي لا يتسع للشمول والتعميم، وما ذلك بعيب فيه، ولكنه طبيعة مطبوعة، وإنما العيب أن يخرج الإنسان عن طبيعته، فيكون كمن يجرد نفسه من نفسه، ومن هنا كان خطؤه في فهم الأشياء. هذا إلى أنه من الأدباء وليس من العلماء.
محمد أبو الفضل حفني مسعود
سعد وسعاد ومعاوية بن أبي سفيان
ذكر صديقي الأستاذ علي الجندي فيما كتبه في مجلة الرسالة الغراء تحت هذا العنوان أن سعداً لما قطع أبو سعاد صلتها به رفع أمره إلى وإلى تلك الجهة الأموي المفتون المدل بمكانه من قريش، وبمكانه من الخليفة مروان بن الحكم.
ثم ذكر ما كان من أمر ذلك الوالي مع سعاد واغتصابه لها من سعد، وأن سعداً اعتسف الصحراء إلى دمشق عاصمة الخلافة ليشكو ذلك الوالي إلى ابن عمه الخليفة معاوية بن أبي سفيان.
ولا يخفى أن في سياق قصة سعد وسعاد على ذلك الشكل اضطراباً ظاهراً، لأن ما

ذكره الأستاذ الجندي في الأول من أن ذلك الوالي الأموي كان مدلاً بمكانه من الخليفة مروان بن الحكم يفيد بظاهره أن قصة سعد وسعاد كانت في عهد مروان ابن الحكم لا في عهد معاوية بن أبي سفيان، وما ذكره في الثاني من أن سعداً اعتسف الصحراء إلى دمشق ليشكو ذلك الوالي إلى ابن عمه الخليفة معاوية يفيد أن تلك القصة كانت في عهده لا في عهد مروان.

ولا يخفي على الأستاذ الجندي أن عهد معاوية بن أبي سفيان عبر عهد مروان بن الحكم، لأن معاوية ولي الملك بعد أن تنازل له عنه الحسن بن علي، فمكث فيه نحو عشرين سنة، وقد بايع من بعده لابنه يزيد، فمكث بعده ثلاث سنين وستة أشهر، ثم بويع بعده لابنه

معاوية، فمكث في الملك ثلاثة أشهر، ثم رغب عنه وزهد فيه، فتولاه بعده مروان بن الحكم، وهو فرع آخر من بني أمية غير فرع معاوية بن سفيان.

ورجائي بعد هذا إلى صديقي الأستاذ علي الجندي أن يرجع إلى مصدر هذه القصة ليحقق فيه ذلك الاضطراب، ويدلنا على العهد الذي وقعت فيه من ذينك العهدين.

والسلام على الأستاذ ورحمة الله.

عبد المتعال الصعيدي

هل الجزاء الأخروي حسي أم روحي؟

أخذ الأستاذ محمود قراعة على الدكتور زكي مبارك عده الجزاء الأخروي من قبيل الحسيات. والأستاذ قراعة يريد أن يكون جزاء روحياً معنوياً، فقد جزم في كلمته المنشورة في العدد 315 من الرسالة بأن الإسلام (عند ذكر الماديات الأخروية لا يريد بها جزاءها الحسي، بل يريد بها جزاءها المعنوي الروحي، وأنه إن أراد ببعضها اللذة الحسية، فإنه لا يريدها حقيرة متواضعة، كما هي في دنيانا، بل يريدها عزيزة تتصل أكبر ما تتصل بالروحيات والمعنويات) ولكنه في كلمته المنشورة في العدد 316 من الرسالة لم يبق مصراً على هذا فقد آمن بأن (في الجنة لذات روحية وحسية) ولكن الحسية راقية تسمو بالروح.

فإذا كان كذلك فماذا أخذ على الدكتور زكي مبارك؟ وهل أنكر الدكتور زكي مبارك أن في الجنة لذات روحية وحسية؟ وأن الحسية راقية تسمو بالروح؟

الواقع أن الأستاذ قراعة لم يأت بشيء يناقِش فيه أو يناقَش فيه، اللهم إلا كلمة ليست من موضوع الجدل ستأتي، والواقع أيضاً أنه لا سبيل إلى إنكار شيء مما ذكره الدكتور زكي، فإنه لو لم يكن الجزاء الحسي المذكور في القرآن الكريم حسياً على الحقيقة لا على المجاز لما كان هناك معنى للبعث والنشور. إن البعث والنشور هما مقدمة لتلقي الجزاء الحسي بالنعيم في الجنة أو العذاب في النار لا مناص من ذلك أبداً. ولو كان الجزاء روحياً لما كان هناك حاجة للبعث والنشور لأن الأرواح خالدة فتنعم أو تعذب. وما دامت الروح قد قضى عليها أن تكون في هذا اللباس (الجسم) في الدنيا والآخرة، فلا لذة هناك ولا ألم إلا عن

طريق الحواس، حتى أكبر النعم وهو رؤية الله تعالى في الآخرة (وإن كانت بغير كيف) حسي لأنه آت عن طريق الحواس، فهو حسي من جهة معنوي من جهة أخرى.

وبعد فماذا يرى المبشر الأمريكاني الذي ذكره الأستاذ قراعة من مطعن في كون نعيم الآخرة حسياً حتى ينقيه الأستاذ قراعة عن الإسلام؟

أما الكلمة التي يناقش فيها الأستاذ قراعة فهي قوله: (إن اللذات الحسية في الآخرة تسمو بالروح، فإذا هذا القول يفيد أن الروح في الآخرة تسمو باطراد عن تذوق كل لذة (وكلها لذات) وهذا أمر لا يتصور لأن الآخرة دار جزاء، فمتى وضع كل إنسان في مرتبة فقد حصل على مرتبة من السمو تناسبه فيبقى فيها إلى ما شاء الله. هذا هو المعقول. ولو كانت كل لذة تكسب الإنسان سمواً لاستحق بهذا السمو جزاء لذة أعلى، ثم تكسبه هذه اللذة سمواً، وهكذا. وهذا أمر لا ينتهي فلا يكون والله اعلم.

(فلسطين)

داود حمدان

ما رأى علماء اللغة

يقول ابن مالك في ألفيته عند الكلام على النسب:

وفَعَلى في فَعِيلة التُزم ... وفُعلى في فُعَيلة حتم

وما أردناه من هذا البيت هو الصدر وقد شرحه الصرفيون هكذا: إذا أريد النسبة إلى ما وازن فعيلة حذفت ياؤه وفتحت عينه إن لم يكن معتل العين ولا مضاعفاً وذلك مثل حنفية فيقال فيها حنفي. أما كان معتل العين كطويلة أو مضاعفاً كجليلة فلا يحذف منه شيء وعلى ذلك يقل في النسبة إليهما طويليّ وجليليّ. هذا ما قرره الصرفيون في فعيلة، ولكني أقول إذا تقرر هذا فكيف يسوغ لنا أن نقول في النسبة إلى الطبيعة والبديهة طبيعيٌّ وبديهيّ مع أن القياس كما علمت أن يقال طبَعيّ وبَدهي ولذلك عدوا ما ورد مخالفاً لذلك عن العرب شاذا لا يقاس عليه كقول الشاعر:

ولستُ بنحوي يلوك لسانُه ... ولكن سليقي أقول فأُعرب

وبيت القصيد هنا سليقي إذا كان القياس أن يقال كما علمت سلقيّ ولكنه قال سليقي فهو من باب الشواذ، وما أردته من ذلك البحث هو هل يجوز لنا إحياء شواذ اللغة والقياس عليها ونهجر القياس الشائع مع عدم وجود ما يمنعنا من استعماله - عندي أن القياس مع هذا أولى إن لم يكن واجب التقديم: وما عند علماء اللغة أريد أن أعرفه!

(معهد الزقازيق)

عبد الغني جمعة

النعيم الحسي والمعنوي في الجنة

خلقت مشكلة الجناية على الأدب مشكلة أخرى. وهي: هل نعيم الجنة حسي أم معنوي؟

وهاتان المشكلتان وأمثالهما من المشكلات الحبيبة إلى النفس لأنها في سبيل الأدب والعلم، لذلك نرجو الله أن يكثر من أمثالهما بقدر ما يريحنا من المشكلات السياسية العقيمة.

ولقد قرأت ما كتبه الدكتور زكي مبارك. وما كتبه الأستاذ قراعة في هذا الصدد فعنت لي بعض ملاحظات على رأى الأستاذ قراعة أسطرها فيما يلي:

أولاً: يتشبث الأستاذ بأن لذات الجنة لذات معنوية، ويذهب إلى وجوب تأويل النصوص التي يدل ظاهرها على أنها حسية. وهذا فضلاً عن أنه مخالف لإجماع أهل السنة فإن كثيراً من النصوص لا يمكن تأويلها إلا بتعسف شديد لا يحتمله. وكذلك قوله تعالى (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق. قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة) فقد دلت الآية الكريمة على أن أنواع الزينة والطيبات من الرزق. خالصة للمؤمنين في الآخرة لا من الرزق مباحة للمؤمنين والكافرين في الدنيا، يشركهم فيها أحد. ولا شك أن أكثر لذات الدنيا ونعيمها حسي محض. وسيكون في الآخرة بهذا الاعتبار نفسه. . .

وقال تعالى: (ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون. يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين) فإن في قوله تعالى فيها ما تشتهيه الأنفس مع ملاحظة اختلاف النفس والروح يشعر بأن النعيم الأخروي حسي في كثير من النعم. . .

وفي الصحيح عن حذيفة أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (لا تلبسوا الحرير ولا الديباج، ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافها. فإنها لهم في الدنيا، ولكم في الآخرة). أفليس المناسب أن يكون النعيم بالحرير والديباج، والذهب الفضة في الآخرة، نعيماً حسياً لأنه هو القريب في استعمالها؟

ولو تتبعنا نصوص الكتاب والسنة لوجدنا الكثير منها لا يمكن تأويله وصرفه عن وجهه.

ثانياً: مثل الأستاذ برؤية المنظر الجميل، وسماع الصوت الجميل من الجميل، وبين أنه بإضافة الحاسة الفنية إليهما يكون فيهما جهتان من اللذة: روحية، وحسية، وأن البحث عن الأولى ارتفاع بالروح إلى أوج الكمال، والبحث عن الثانية نزول بها إلى الحضيض. . وهذا التمثيل صحيح لا غبار عليه. ولكنه لا يظهر إلا في مثل هذين المثالين مما يمكن أن تضاف إليه الحاسة الفنية ويكون له جهتان!.

ولكن ماذا يقول الأستاذ في مثل قوله تعالى: (وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون - فيهما فاكهة ونخيل ورمان) إلى غير ذلك من الآيات التي يظهر فيها أن المقصود التذوق الحسي ولا تظهر فيها اللذة الروحية إلا إذا رأى الأستاذ أننا نأكل

طيبات العيش لنقوي أرواحنا لا أجسامنا.
على أني لا أنسي أن أشكر للأستاذ مجهوده القيم، وأطمئنه على عقيدته رغم ما يرميه به الغير من الكفر أعاذنا الله منه.
محمد علي حسنين جويق
كلية اللغة العربية
هل انتهت الثورة؟
. . .سيدي الأستاذ الجليل
تحية واحتراماً. وبعد فقد وردتني رسالة من طالب فلسطيني فاضل يعلن فيها احتجاجه - والنية حسنة - على عبارتي الواردة في كلمتي (هل في الحيوان غريزة الغيب) (الرسالة رقم 314) إذ أقول: (وها قد انتهى أمر الثورة) وهو يقول: إن سكون البلاد لا يعني انتهاء الثورة، وسوف لا يكون هذا إلا إذا نالت البلاد أمانيها.
وأجيب الطالب الفاضل بأنني حين قلت عبارتي تلك لم أكن اقصد هذا المعنى الذي ذهب إليه ومعاذ الله أن أقصده، وإنه من المحقق إن الثورة وإن أخمدتها القوة فليس معنى هذا أن
النفوس قد هدأت وقرت، أو أنها رضيت بالمصير الذي يوده لها (القوم) وكلنا يرى هذا ويحسه.
على أنني أجئ هنا بأبيات من قصيدة لي تلقي ضوءا على المعنى الذي ضمنته عبارتي، والخطاب في الأبيات موجه إلى الوطن العزيز.
وعلاك لم يخضع بنوك ولا ونت ... همم لهم كالراسيات عظامُ
هيهات، تأبى ذاك أخلاق لهم ... لا وهْيَ فيها، لا ولا استسلام
لكنّ من عنت القوى وكيده ... شُدت هناك شكيمة ولجام
هذا وإنني أشكر للطالب الفاضل حسن رأيه وأكبر فيه ذلك الروح السامي الذي يتجلى في رسالته.
(نابلس)
فدوى عبد الفتاح طوقان
رسالة النقد
معلقة الأرز
تأليف الأستاذ نعمة قازان
بقلم الأستاذ جورج سلستي
ليس (معلقة الأرز) ديواناً شعرياً بالمعنى الذي تؤديه لفظة ديوان - أي مجموعة قصائد تتفاوت فيها المعاني والمباني - وتتباين فيها الخلجات والنزوات، وإنما هو رسالة في الأدب شاء ذوق صاحبها الفني أن يحملها قصيدة واحدة دعاها معلقة الأرز - والأرز رمز لبنان الخالد مسقط رأس الناظم النازح - وأردفها بمقطوعة شعرية صغيرة دعاها (أنشودة الغريب) بث فيها حنينه إلى لبنان مهوى فؤاده، ومثار إلهامه.
وتحميل الشعر رسالة في الأدب بادرة مستحدثة في الشعر العربي، فقد كنا حتى اليوم نقرا رسالات الأدب نثرا لا شعرا، كما أننا نعرف الشعر مستودع النزوات العاطفية والخلجات النفسانية يعتلج بالخواطر والمرائي والصور.
وسيان عندنا أَحمِّل الشعر رسالات أو نزوات وحمِّل الفلسفة والتاريخ والعلم أم اقتصر على تصوير وبثّ خلجات الروح فجل ما يعنينا أن يحتفظ بسموه ومكانته وأن يستوعب الفن الرفيع ولا يضير الشعر أن يؤدي للناس رسالات في الأدب إن استطاع الشاعر أن يسمو فيه ويحلق، وإن تمكن فيه أن يقنع قارئيه بصحة رأيه وصواب فكرته.
والرسالة التي شاء الأستاذ نعمة قازان أن يدفعها للناس في معلقته يتلخص مرماها في إيثار المعاني على الألفاظ، وهي رسالة كثر فيها القول واشتد حولها الجدل.
والأستاذ قازان على كل حال لم يأت في قصيدته بشيء من الحجج الدامغة ليقنع قراءه بفكرته، أو في الأحرى بمذهبة هذا وإنما يعرض عليهم آراءه عرضا وهو يسخر من خصوم المذهب الأدبي الذي يعتنقه سخرية لاذعة فيها التهجم الكثير والتجني الكثير.
يقول حضرته: (لكم وزنات ولي وزنتي).
ولكن أية وزنة هي هذه التي يريد أن يتاجر بها.

إنها وزنة جد راجحة عنده وقد يبلو في سبيلها كل عناء إلا أنه لن يتخلى عنها مهما لاقى
من عنت وإرهاق، ولن يستطيع أن يثنيه عن إيمانه بها ثان على حد قوله: (وما تحرجوني فلن تخرجوني).
وسيبقى ذلك الصابر الذي لا يتزحزح عن عقيدته ولو رجمه الناس:
لئن ترجموني غفرت لكم ... وإن تتبعوني ففي ذمتي
فكأنه بطل من أبطال الإيمان الأولين يضحي في سبيل عقيدته حتى بالنفس، ومثل هذا السخاء يقدر ولكنه في غير الأدب، والصبر والإيمان محمودان ولكن في غير هذا الشأن لاسيما وهو لا يعود على الأمة أو على الأدب بخير، حتى ولا على صاحبه بشبه خير أو فائدة.
فالأدب ميدان تقرع فيه الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان ومن قويت حجته رجحت كفته ومشى وراءه تابعوه وإلا خذل وانفرط من حوله حتى عقد المقربين.
وإيثار المعنى مستحب ما في ذلك ريب ولكن الاستهتار باللفظ من اجل المعنى مجتوى مذموم، وإننا لنلوم الأستاذ قازان لوما شديدا عندما نراه يلجأ في أداء معانية إلى اللفظ السقيم لا عن جهل أو قصور ولكن عن سابق تعمد وتصميم، على تعبير أهل القانون، كما يؤكد ذلك صديقة الأستاذ توفيق ضعون عضو العصبة الأندلسية في البرازيل وواضع مقدمة (معلقة الأرز).
ونحن لسنا من المتزمتين ولا المتعنتين في تمسكنا بقواعد اللغة وأوزان الشعر، ولسنا من دعاة التقيد ولا الجمود إن أهبنا بالأدباء أن يلزموا في بيانهم وجه الصواب، ولكنا من دعاة التجدد مثله إلا أن الفرق بيننا هو في تحديد معنى التجديد. إننا من الأولي يطربهم المعنى الجميل ولكن في اللفظ الجميل، وتهزهم الفكرة الفذة ولكن إذا صيغت في قالب مصقول، لأننا نربأ أن تصبح اللغة فوضى في حين أن لها ضوابط وقواعد يتحتم على من يريد الإبانة فيها أن يتقنها.
إننا نضن بها أن تنحدر من سمتها الرفيع إلى حضيض اللحن الوضيع.
وماذا يحل باللغة لو ترك الحبل فيها للأدباء على غاربة يصوغ كل متأدب ألفاظه على هداه، وينظم كل شاعر أبياته على منحاه يخبط في ألفاظه وفي قوافيه، والألفاظ أكسية المعاني ترفل في المنمق منها وتتيه، وتسمج في السخيف وتشوه.
وإن كان الأستاذ قازان يحسب أن الاستهتار باللغة من دواعي التجديد، فقد أخطأ كل الخطأ.
إن مجال التجديد رحب، وإنه ليستطيع أن يزاوج بين ألفاظه كما فعل البحتري من قبل، ويأتينا ببيان مرموق فيه كل الجدة والطرافة دون أن يلجأ إلى الحوشي الغريب من الكلمات، والبيان نفسه يستنكر استعمال اللفظ غير المأنوس.
والمزاوجة بين الألفاظ وحدها منزلة عليا من منازل البيان ومرتبة سامية من مراتبه يستطيع الأديب أن يرقى إليها إذا جشم نفسه قليلا من التدقيق والتعمق والمران.
ويستطيع الشاعر إن كان من ذوي القدرة على التوليد والابتكار، ومن ذوي المواهب، أن يتعدى نطاق الأوزان المعروفة، على أن يأتينا بشعر سائغ موزون كما فعل بعض شعراء الأندلس من قبل. والشعر كالموسيقى تلزمه الأذن المرهفة، والحس الدقيق والخيال السمح، ومن أوتيها أوتي حظا كبيرا، وتمكنه من غير جهد ولا عنت أن يمهر الأدب بقصائد خالدة تبقى جدتها خالدة على الدهر.
ثم ليس من التجديد في كثير أو قليل، ولا من رعاية حق الأدب وحرمة الأدباء في شئ أن يطعن المعاصر أدباءنا الأقدمين وأن يقول الأستاذ قازان في (شوقي) ومريديه مثلا، وقد حسب فيهم أصنام الأدب:
دعاة الأمير سلام عليكم ... من الخارجين على الدعوة
لقد طلع الفجر من غمده ... وبان اللبابُ من القشرة
ومات الأمير عليه السلام ... فماذا لديكم سوى الجثة؟
عفا الله عنه عفا الله عنه ... فلا يستحق سوى الرحمة
فشاعر له مكانته الرفيعة في الشعر وله أياديه البيضاء على الأدب، شاعر كان من أترابه الشعراء في الطليعة بخياله الوثاب، وأسلوبه الرفيع، لا يجوز أن يقال فيه، وهو الذي مهر التراث الأدبي بحافل من روائعه التي خلفها للأجيال من بعده تنطق عنه،

مثل هذا القول!
إننا لا نستصوب الإمارة في الشعر ولا الملكية في الأدب، ولكن عدم مشايعتنا لهذا الرأي لا يمنعنا أن نثبت الحق لذويه ولا يحفزنا للطعن فيهم.
أما تحديد الشعر وكيف يجب أن نفهمه فيعرفنا إياهما الشاعر بقولة:
فلو كان معنى الحياة لعمري ... بخطٍ تآلفَ في صورةِ
وكان جمال الحسان الملاحِ ... بكحل العيونِ وبالزينة
وكان الشبابُ وعزمُ الشباب ... بحسنِ الوجوه وبالبزَّة
وكنتُ وكنتم بأجسادنا ... لقلتُ: هو الشعرُ باللفظة
ولكنه الشعر روحٌ بنا ... ولكنه الشعر في الخلجة
فما الشعر بالكأس براقةً ... ولكنه الشعرُ في الخمرةِ
وفي هذا بعض الحق لا الحق كله. وإننا لنسأل الشاعر: ألا يشين الجمال تستره بالأطمار ويحط من قدر الغانية الرائعة الحسن ارتداؤها الرث الخلق من الثياب؟
أجل، إننا لنجاريه في رأيه ولكن إلى حد، فليست الكأس هي التي تهزنا وإنما الخمر التي فيها.
ولكن ألا يعرض عن احتساء تلك الخمر إذا أديرت على الشاربين في كؤوس لا تهفو إليها النفوس وتتأبى منها الشفاه!
إننا لنميز الجمال حين يتشح بالأطمار ولكنه سرعان ما تصدر من قلوبنا لدى رؤيته آهة ملؤها التحسر والتمني، آسفين أن تدفنه تلك الأطمار متمنين لو يسبغ عليه كساء يلائم سناه ليبدو بما هو جدير به وأهل له، فتنة للناظر ومتعة للخاطر.
وإننا نود أن نحبس تلك الآهة ونكبت ذلك التمني لدى مرأى الحسن، ولن نستطيع ذلك إلا إذا كان رافلا في حلله الزاهية القشيبة.
والديباجة المشرقة لابد منها للشعر السامي؛ والديباجة المشرقة هي التي تعوز صاحب معلقة الأرز، وخلو القصيدة من الكبوات والهفوات هو ما يتطلبه الشعر العالي، والهفوات وقع فيها شاعرنا كذلك.
ولئن غفرنا له سناد التأسيس في قولة:
وبت ولي مقلة الجائعين ... كأعمى يفتش عن إبرة
فلا في القديم ولا في الجديد ... (مسكت؟) طريقي إلى غايتي
وسناد التأسيس من عيوب القافية. أو سناد الردف في قوله:
فلو كان معنى الحياة لعمري ... بخط تآلف في صورة
وكان الشباب وعزم الشباب ... بحسن الوجوه وبالبزة
وسناد الردف من عيوب القافية أيضا. أو الجوازات الشعرية المستهجنة كقطع همزة الوصل في قولة:
إذا صار أمسي ويومي غدا ... فيارب اضرب على مقلتي
أو الأخطاء في استعمال الألفاظ كقولة:
وسبحان ربيَ معين العطاءِ ... يخصُّ النباهةَ بالنملةِ
وصوابها: يخص النملةَ بالنباهة.
أو أخطاء اللغة كقوله:
ربيتُ طليقاً على فطرتي ... ويا ما أُحيلى طفوليتي
وصوابها: طفولتي، ومثلها ألوهيتي في قوله:
فترتُ وثارت أنانيتي ... فضعتُ وضاعت ألوهيتي
وصوابها ألوهتي. الخ
أجل، لئن غفرنا له هذه الأخطاء وأمثالها مما قد يقع فيه كل متأدب، فلن نغفر له تساهله في استعمال الأخطاء وحشرها في أبياته بين قوسين دلالة على معرفته لها وتعمده استعمالها.
وتعمد استعمال الأخطاء خطيئة مضاعفة يلام عليها صاحبها أشد اللوم وأعنفه وما نحسب أنفسنا مغالين في هذا أو مسرفين.
وإنه ليعز علينا أن يتجنى بعض المجددين على ما يعدونه قديما فتعمى بصائرهم لا عن جمال البيان وروعة الأداء فحسب، بل عن روعة الأفكار التي يريدون حمل لوائها؛ كما يعز علينا كذلك أن يتجنى بعض المحافظين على القائلين بالتجدد والآخذين بأسبابه.

وقول الأستاذ قازان إنه لم يعثر في قديم الشعر على معنى طريف يستوقفه، وإنه غاص فيه إلى أعماقه، فلم يرو نفسه العطشى:
(فكنت وبي عطش قاتلٌ ... كمن يشربُ المآء بالشوكة)
خطل ما في ذلك ريب بل ضلال عن وجه الحق والصواب.
ولقد وقع في مثل خطأه من قام بالأمس يجرد المنفلوطي من أدبه في إحدى المجلات الأدبية البيروتية. وصدور مثل هذه الآراء عن أدباء الجيل الطالع من الشباب تجن ما بعده تجن، ولا يقل عن هذا بعدا عن الحق قول الدكتور عمر فروج في (جبران خليل جبران) في
العدد 33 من مجلة (الآمالي) البيروتية الصادر في 14 نيسان في مقال (الخالدون في الأدب) حيث قال فيه بعد أن عدد مزايا الأديب وعناصر أدبه:
هذه هي العناصر الأولية التي لا يجوز لنا أن نطلق لفظة أديب على رجل إلا بها) (وجبران مجرد منها جميعا
وقوله في المقال نفسه: (للأدب كما قدمنا مقاييس مشهورة لا يتمتع جبران بواحدة منها)
فنفي الأدب عن أديب كبير كجبران كنفيه عن أديب كبير كالمنفلوطي. وإن ما فيه من التجني والظلم، إن وقع فيه الأدباء الناشئون فلا يصح أن يقع فيه أديب كالدكتور عمر فروخ له من ثقافته العالية وذوقه الأدبي الممتاز ما يعصمه عن مثل هذا الشطط.
ومعلقة الأرز ما عدا ذلك فيها شاعرية وثابة يحق لنا أن نستبشر منها بالخير فإن من يقول:
إذا الشعر سُخِّر في أمة ... فصلِّ ورّحم على الأمَّة
ومن يقول:
فلا لفني الليل في برده ... إذا لم أمرّق به بردتي)
(ولا طلعَ الفجرُ يوماً عليَّ ... إذا لم يلدني مع الطلعة
ومن يستشهد بقول النبي:
(إن تحت العرش كنوزاً مفاتيحها ألسنة الشعراء)
لشاعرٌ لن يكبل نفسه بأوضاع المناسبات، ولن يسخر ضميره لما لا يشعر به ولا يحس؛ شاعر طموح نأمل أن يأتينا بالعذب المبتكر من الشعر النابض الحي، وأن يفتتح بخياله الوثاب بعض الكنوز المغلقة تحت عرش السماء.
ومعلقة الأرز تزخر بعد هذا بالحنين، حنين المغترب إلى وطنه الحبيب، وله في ذلك أبيات رقيقة صادرة عن نفس صهرتها الأشواق، آثر فيها بلاده وأمته على بلاد العالم وأممه جميعاً.
أقول بقاع الدنى حلوة ... وأحلى بقاع الدنى بقعتي
فلا، أريد سوى موطني ... ولا، لا أحب سوى أمتي
وقوله في (أنشودة الغريب) وفيها رقة وعاطفة، يخاطب لبنان:
رويت من (دمي؟!) ... غذيت من لحمي
يا حاضناً أمي ... يا ثرى لبنان
هل يرجع الغريب ... للوطن الحبيب
وتهتف القلوب ... مرحباً لبنان
الأرز والوادي ... يا مهد أجدادي
يا أرض ميعادي ... يا ثرى لبنان
ثم لا أرى بدأ قبل أن أختم مقالي من أن أقول إن لشعر قازان ميزة أخرى هي الصدق في التعبير عن خلجات نفسه تعبيراً لا مداورة فيه ولا رياء وذلك عائد إلى ما يتراءى لنا من حبه الحق ولو كان عليه ولثقته بنفسه ثقة كبيرة، ومن ثم جاء شعره خالياً من كل بهرج وكل طلاء وتجلت فيه مزايا النفس الجريئة الأبية كقوله عن نفسه:
وليس التملق من شيمتي ... وليس التأنق من نزعتي
فإني ترعرعت بين الجبال ... على البأس والفقر والشدة
ومن عاش مثلي على جرأة ... فلا يستلذ سوى الجرأة
فإما نطقت نطقت بحق ... وإما سكت فعن عفة
وما نخاله فيما قاله عن نفسه إلا صادقاً، والصدق على ما نعتقد من أجل ميزات

الأديب؛ وصاحب معلقة الأرز عنده من المزايا الأدبية ما يفسح له في دولة الشعر مجالاً رحباً يمشي فيه إلى غايته المثلى، ولا يعوزه إلا صقل ديباجته وتهذيب بيانه، وليس ذلك على مثله بعزيز. فإن له من ملكته الفنية خير مسعف ومن خياله الوثاب خير معوان.

فليوطن النفس على إجادة مبانيه لتوافق معانيه إن كان يريد أن يتبوأ المنزلة الرفيعة التي تصبو إليها النفس الطموح.

(بيروت)

جورج سلستي

العدد 319 - بتاريخ: 14 - 08 - 1939

مطاعم الأغنياء

للأستاذ عباس محمود العقاد

مطاعم الأغنياء. . .؟

لعلك تقصد مطاعم الفقراء

كلا. بل مطاعم الأغنياء اقصد لأنهم، أو لان أكثرهم، في حاجة إلى مطاعم يتعلمون فيها كيف يأكلون، كاحتياج الفقراء إلى مطاعم يجدون فيها ما يأكلون

فمن البدائية في رأيي إن الفقير يجب إن يأكل، وأن أحداً من الناس في هذه الدنيا لا يعجز عن عمل يساوي بضعة أرغفة وقليلاً من الأدم في كل نهار. فأن عجز فذاك وزر الأمة بحذافيرها وليس بوزره الذي يجزي عليه بالجوع والموت، وعلى الأمة إذن إن تكفل له قوته بعمل تتولى تدبيره له ولأمثاله، أو بمطاعم تكفيه مؤنة الغذاء في انتظار العمل والصناعة

ذلك شأن الفقير المحروم، فما بال الغني الميسر الأرزاق تدبر له المطاعم ليأكل فيها وعنده المطبخ وعنده الطاهي وعنده المآكل والمشارب؟

في مصر أزمة طعام سفلية وعلوية في وقت واحد: فأما السفلية فتلك أزمة الفقير، وأما العلوية فتلك أزمة الغني الذي يجد الطعام ولكنه لا يجد الغذاء

إذا قيل في مصر: (فلان يعرف يأكل) فذلك على الأرجح الأعم رجل يجهل صناعة الأكل ولا يزال على خطر مما يأكل. لأن تعريف الطعام النافع عنده أنه هو الطعام اللذيذ أو الطعام الذي يثقل على الجوف، ويملأ الأحشاء

وقد يكون الطعام لذيذاً وهو ضار، وثقيلاً على المعدة وهو خفيف الوزن فيما يؤول إلى صحة الجسم وانتظام الأعضاء.

وقد يحسب انه يعوض جسمه مما فقد فإذا هو يضيف إليه خسارة على خسارة، وجهداً على جهد، ثم كلالاً على كلال، وفتوراً فوق فتور.

سمعت إن (محدثاً) تزوج، ثم سمعت بعد أشهر قليلة أنه أصيب بداء السكر، ثم سمعت حكايته فعلمت انه قد أصيب بالداء من حيث طلب السلامة، وأنه لولا طلبه السلامة من حيث طلبها لكان أقرب إلى العافية وابعد من الداء

ظن صاحبنا إن الزواج - أو الزواج الحديث على الأقل - عمل دائم لا يتخلله انقطاع، فمن لم يكن متزوجاً في الصبح وفي الظهر وفي الأصيل وفي المساء فهو أعزب أو نصف أعزب على اقل تقدير. وكيف يستطيع الإنسان إن يجمع بين الزواج وعدم الزواج في آن؟ هما نقيضان لا يجتمعان؛ وقد يكون في الجمع بينهما بعض معنى الطلاق إبان شهر العسل والعياذ بالله.

فتزوج وتزوج وتزوج، ولم ينس واجب الحيطة والوقاية لأنه رجل حازم بصير وقاك الله شر الحزم والبصر من هذا القبيل.

فمع الزواج الدائم شرب دائم من السمن والعسل على الريق وبين الطعام والطعام، وكلما وجد السمن والعسل وهما موجودان.

وهل غذاء أوفر من السمن والعسل؟ وهل انفع منهما للبدن وارد منهما للعافية أطيب منهما حلالا معيناً على حلال؟

هكذا قدر صاحبنا فجاءه الضرر من حيث قدر، لأن عناء الكبد في هضم كوب من السمن والعسل أشق عليه من عناء الزواج الدائم، فلم يكن عوضاً ما تعوض به واستعانه على حلاله، بل كان كما أسلفت كلالاً على كلال، وفتوراً فوق فتور.

وآخرون يبارى بعضهم بعضاً في (كلفة) المائدة و (تسبيك) القدور واصطناع (الجيد)

من الأصناف: عندهم الخفة على المعدة رديف التفاهة، والثقل على المعدة رديف المتعة والغزارة.
ولكل منهم صنف يشتهر به ويولم عليه؛ وهم بينهم متبادلون متعارضون، متسابقون في الكرم متساجلون، حتى لا تحرم المعدات نصيبها من الكظة والنصب يوماً أو بعض يوم، ولا يتخلف واحد منهم في مضمار السباق: السباق إلى القبور.
أفي البلد أمثال هؤلاء لا يزالون مع الاحياء، وتستغرب عنواني: مطاعم الأغنياء؟ ما أعجبه مطعما يساق إليه أصحاب الضياع والكراع شهراً من كل سنة يتعلمون فيه (الأكل) وينفقون عليه من أموالهم مكرهين!
وما أعجبه ديواناً من دواوين الحكومة يهجم على المطابخ الفاخرة كما يهجم على المحظورات والمهربات، ويصادر الدسم كما يصادر السم!! وهو السم بعينه وليس السم في
الدسم كما قال صاحب البردة رحمه الله.
على أن الآفة الكبرى أن يحرم المرء الغذاء لأنه لا يجده ولأنه لا يعرفه كما هو شأن الكثرة العظمى عندنا من سواد الفقراء.
فاكثر فقرائنا لا يفرقون بين التغذية وبين إسكات الجوع، وكأنما ينظرون إلى المعدة الصارخة نظرتهم إلى الكلب النابح الذي لا يراد منه إلا السكوت. . . فأن أسكتوه بعظمة فذلك حسن، وإن أسكتوه بحجر فذلك أحسن، ولا ضير عليهم بعد أن يسكت ويكف عن النباح.
أللبطن عيار أم خيار؟
ذلك جوابهم كلما (شبعوا) من طعام غث كثيف لا خير فيه، وكأنهم يحسبون من الصغار والمجانة أن يحفلوا بالمعدة الصارخة إذا استطاعوا أن يضحكوا منها بالقليل، فليس العجز عن خداعها والاحتيال عليها بالأمر الذي يليق بدهاء الرجال.
وربما رأيت هؤلاء المسكتين للمعدات بين أناس يعلمون الناس، ولا يعدون في مصلحة الإحصاء من زمرة الجهلاء.
كان لنا ولصديقنا صاحب الرسالة أيضاً زميل في التدريس يقبض ثمانية جنيهات في الشهر، ويشتري نصف فدان في العام، ويغمى عليه مرة أو مرتين في الأسبوع.
وعرضه ناظر المدرسة على طبيبها فاسر هذا إليه أن الرجل صحيح كأصح ما يكون الجسد السليم، وأن آفته كلها قلة الغذاء قلة الغذاء؟ كيف يكون هذا وهو يأكل ويشبع ولا يجوع؟
وأصر الرجل على طعامه، وخاف الناظر على تلاميذه أن يفوتهم من الحصص بمقدار ما يعتري الأستاذ من نوبات الإغماء. . فأذن له، بل آمره أن يأكل من طعام الغداء بغير ثمن، وفيه على الأقل ضمان وجبة نافعة في النهار. .!
كان القديس أوغسطين يقول إذا تكلم عن جسده: أخي الحمار. لأنه في حكمه حيوان كسائر فصائل الحيوان.
أما الجسد عند هؤلاء الذين يطعمونه وهم يسقمونه، ويسمونه وهم يحسبون أنهم يسمنونه، وينفقون المال ولا يعرفون كيف يأكلون، ويشبعون وخير لهم لو يجوعون، فهو الأحق بان
يقول وهو يتكلم عن صاحبه: أخي الحمار. . . فهما في الواقع حماران اثنان في جسم إنسان.
ولمثل هؤلاء تشرع مطاعم الجهلاء، من القراء والأغنياء!
عباس محمود العقاد
كتاب مستقبل الثقافة في مصر
الثقافة العامة
وتعليم اللاتينية واليونانية
للأستاذ أبي خلدون ساطع الحصري بك
عندما نبحث عن الأسباب التي تدعو إلى استمرار بعض البلاد الغربية على فرض تعليم اللاتينية ولو في بعض الفروع من الدراسة الثانوية، يجب علينا إلا نسهو عن تذكر هذا العهد الذي كانت تسيطر فيه اللاتينية على حياة العلم والتعليم في جميع مرافقها سيطرة تامة. . .

كان من الطبيعي إلا تستمر هذه السيطرة المطلقة على طول الزمن، كما كان من الطبيعي أيضاً إلا تزول هذه السيطرة المطلقة دون إن تترك أثراً عميقاً. . .
كان من الطبيعي أن ترتفع أصوات الاعتراض والاحتجاج على هذه السيطرة، مع بزوغ عصر النهضة؛ وكان من الطبيعي أن تقوى الأصوات المطالبة بتخفيف وطأة هذا (النير اللاتيني) - حسب تعبير (لابروبير) الشهير -؛ وكان من الطبيعي أن تصل هذه الأصوات - أخيراً - إلى درجة الدعوة إلى الثورة ضد اللاتينية للتخلص من سلطتها المطلقة -. . .
إن الخروج على سلطة اللغة اللاتينية بدأ أولا على شكل (انقلاب ديني) عندما طالب لوثير بترجمة الإنجيل إلى اللغات القومية، ودعا إلى إقامة الصلوات باللغات التي يتكلم بها الناس.
ثم جاء دور الانقلابات الأدبية، فخرجت الآداب - في الممالك الأوربية المختلفة - على سلطة اللغة اللاتينية المطلقة عندما تهذبت وتقدمت اللغات العامية، وأنتجت من الآثار الهامة ما رفعها إلى مصاف اللغات الأدبية.
وأخيراً جاء دور تخلص (العلم والتعليم) من سيطرة اللاتينية، فأخذت هذه اللغة تفقد سلطتها المطلقة في هذا الميدان أيضاً شيئاً فشيئاً.
إن الانقلاب الأخير لم يتم إلا بتدرج غريب، وبطأ عظيم؛ فمثلا اللغة الفرنسية لم تتمكن من دخول المدارس إلا باجتياز مراحل عديدة تتلخص فيما يلي: أولا إفساح المجال للتكلم
بها في أوقات الفرص. ثانياً: تسويغ استعمالها لتفهيم العقائد الدينية للصغار. ثالثاً: تخصيص ساعات لتعليمها كدرس خاص. رابعاً: تحميلها مهمة تعليم بعض الموضوعات الدراسية. وأخيراً زيادة هذه الموضوعات بصورة تدريجية.
كما أن (التاريخ) أيضاً لم يدخل المدارس إلا مجتازاً مراحل عديدة: أولاً على شكل (التاريخ المقدس) مرتبطاً بدروس الدين. ثانياً: على شكل (تاريخ اليونان) و (تاريخ الرومان) مرتبطاً بدروس اللاتينية واليونانية.
أنني لا أرى داعياً لاستعراض جميع التطورات التي طرأت على المناهج الأساسية في المدارس المذكورة، حتى أواسط القرن التاسع عشر. غير أنني أود أن ألخصها بكلمة مختصرة، وهي: إفساح المجال للعلوم المختلفة شيئاً فشيئاً، بجانب اللاتينية واليونانية، دون إخراج هاتين اللغتين من نطاق الدروس الإجبارية.
كان بعض المفكرين والمربين يدعون إلى أحداث انقلاب أساسي في مناهج التعليم من حين إلى حين. كانوا يظهرون ارتيابهم في فوائد تعليم اللغات القديمة، حتى انهم كانوا يصلون بانتقاداتهم هذه إلى درجة القول بضررها؛ غير أن هذه الآراء قلما كانت تجد آذاناً صاغية، فلم تستطيع أن توجد تيارات فكرية قوية تؤثر على الحالة الراهنة.
مع هذا اشتدت الحملات على اللاتينية في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر، أخذت الانتقادات تتغلغل في محافل المفكرين، من جراء انتشار روح الثورة واشتداد نزعة الإصلاح والتجديد من جهة، ومن جراء تقدم العلوم وتعقد الحياة الاجتماعية من جهة أخرى.
فازداد تساؤل المفكرين والمربين يوماً عن يوم: هل من ضرورة تدعو إلى الاستمرار على تعليم اللغات القديمة في المدارس الثانوية؟ ألم يكن هذا التعليم من آثار النظم البالية التي توارثتها المدارس المذكورة من عهد القرون الوسطى؟ ما الفائدة من تعليم هذه اللغات بعد أن لم يبق على وجه الأرض من يتكلم بها؟ وإذا قيل أنها لا تخلو من فوائد، فهل تعادل هذه الفوائد الجهود العظيمة والأوقات الثمينة التي تصرف وتبذل في هذا السبيل؟ ألا يمكن الوصول إلى الفوائد المذكورة من طرق أخرى بوسائط اقل عمقاً من تعليم اللغات الميتة؟
أن هذه الأسئلة فتحت ميداناً فسيحاً للأبحاث والمناقشات التربوية. وهذه الأبحاث والمناقشات، تناولت مسألة (التعليم الثانوي) من وجوهها العديدة، حتى أنها أثارت مسألة (التدريس التثقيفي) من أسسها العميقة. . .
انشطر المفكرون والمربون حيال مسالة اللغتين اللاتينية واليونانية إلى معسكرين متخاصمين: معسكر الذين يقولون بوجوب المحافظة على هاتين اللغتين القديمتين في المدارس الثانوية، ومعسكر الذين يعتقدون بوجوب تخليص المدارس المذكورة منهما.
بدأت المناقشات بين المعارضين والمدافعين منذ قرن تقريباً؛ وهي تشتد أحياناً وتفتر

أحياناً؛ وتضطر الحكومات إلى اتخاذ قرارات عملية جديدة، تحت ضغط هذه المناقشات، من حين إلى حين.

إن النزاع حول هذه المسألة صار أشد عنفاً واعمق أثراً في فرنسا مما كان في البلاد الأخرى. . . ولهذا السبب، أرى من الموافق أن نلقي نظرة عامة على الآراء التي استند إليها المعارضون والمدافعون، في المملكة المذكورة بوجه خاص:

يقول أنصار اللغات القديمة: إن في تعليم هذه اللغات فوائد عظيمة - مباشرة وغير مباشرة، قريبة وبعيدة، عملية ونظرية، تعليمية وتثقيفية - لا تضاهيها الفوائد التي يمكن الحصول عليها من تعليم أية لغة من اللغات الحية، وأي فرع من فروع الدراسة الأخرى. . .

وأما أنواع هذه الفوائد، فتتلخص في الأمور التالية:

(ا) إن اللاتينية أم اللغة الفرنسية ومصدر مفرداتها؛ فإتقان اللغة الفرنسية اتقاناً يضمن الأخذ بناصيتها، لا يمكن إن يتم بدون معرفة اللغة اللاتينية. . .

(ب) إن الآداب الفرنسية تأثرت بالآداب اللاتينية واليونانية تأثراً كبيراً. فمعرفة الآداب الفرنسية معرفة عميقة يتوقف على درس الآداب اللاتينية واليونانية دراسة كافية.

(ج) إن خزائن الأدب اللاتيني واليوناني مملوءة بالآثار الخالدة التي تصور أسمى نزعات الإنسان بأجمل الأساليب؛ فالاطلاع على هذه الآثار الخالدة من الأمور الضرورية لتكوين الثقافة السامية.

(د) إن الحقوق الفرنسية مؤسسة على الحقوق الرومانية، والتعمق في هذه الحقوق يتطلب معرفة مصادرها، وفهم هذه المصادر يتوقف على معرفة اللاتينية.

(هـ) لقد أصبحت اللاتينية واليونانية مصدر الاصطلاحات العلمية ولا سيما ما يتعلق منها بالتاريخ الطبيعي والطب والكيمياء وأنواع المخترعات الحديثة، ومعرفة معاني هذه الاصطلاحات العلمية - وصوغ أمثالها عند الحاجة - مما يتطلب معرفة هاتين اللغتين.

(و) إن تعليم اليونانية واللاتينية من احسن وأنجع الوسائل التثقيفية؛ فأن هذا التعليم يلعب دوراً هاماً في تكوين العقل وتقويمه وتعويده على التفكير الصحيح المستقيم ولا يوجد موضوع دراسي يضاهي هذا التعليم من وجهة هذا العمل التثقيفي. ولذلك يجب أن نعتبر تعليم اللاتينية واليونانية بمثابة حجر الزاوية في صرح التثقيف.

إن جميع العظماء الذين نعرفهم ونفتخر بهم - من أساطين الأدب إلى جهابذة الفقه والعلم - قد تثقفوا بهذه الثقافة واستفادوا منها فلا يجوز لنا أن نهملها. . . ويجب أن نعلم حق العلم أن إهمال هذه الثقافة التي أثبتت جدارتها بالثمرات الثمينة التي آتتها للامة الفرنسية يكون بمثابة تعريض مستقبل هذه الأمة إلى خطر عظيم، خطر انحطاط الثقافة العامة التي تفتخر بها: وخطر الدراس جيل أعاظم الأدباء والعلماء الذين نعجب بهم.

هكذا كان يقول أنصار اللاتينية واليونانية.

وأما معارضو هؤلاء فيقولون: أن اللاتينية واليونانية من اللغات الميتة التي ترجع إلى العهود البائدة؛ وإن الحضارات والثقافات التي تتمثل في هاتين اللغتين أصبحت مدفونة في أغوار التاريخ ولو كانت سامية وباهرة أبان حياتها. فليس من المعقول أن نصرف - في هذا العصر الذي نعيش فيه - كل هذه الأوقات، ونستنفد كل هذه الجهود في سبيل تعلم وتعليم مثل هذه اللغات البائدة. . .

وأما الفوائد الآنفة الذكر فيفندها المعارضون واحدة فواحدة كما يلي:

(أ) لا شك في أن اللاتينية هي أم الفرنسية ومصدرها الأصلي؛ غير أن ذلك لا يدل على أن إتقان الفرنسية يتطلب معرفة اللاتينية. فالفرنسية اليوم، أصبحت لغة مستقلة عن اللاتينية استقلالا تاماً؛ فيجب أن تدرس درساً مباشراً، حسب معانيها وقواعدها وأساليبها الخاصة بها، بقطع النظر عن مصادرها الأصلية وتطوراتها التاريخية. وأما درس تلك المصادر، وتتبع تلك التطورات، فمما يجب أن يختص به العلماء الذين يودون أن يتبحروا في فقه اللغة ويتعمقوا في تاريخها؛ ولم يكن من الأمور التي يجب أن تعتبر من أسس
دراسة الفرنسية دراسة عامة، حتى ولا من أسس دراستها دراسة أدبية.

(ب) إن الأدب الفرنسي أدب قائم بنفسه، وإن كان قد نشأ في أحضان الأدب اللاتيني وتأثر بالأدب اليوناني. إنه اتخذ أسلوباً خاصاً، فاكتسب كياناً مستقلاً. فدرس هذا الأدب

وإتقانه لا يتطلبان الرجوع إلى منابعه بوجه من الوجوه.
ومن أوضح البراهين على ذلك هذه الحقائق الواقعة: (أننا نعرف عدداً لا يحصى من المستنيرين الذين درسوا اللاتينية واليونانية، ومع هذا لم يصبحوا من الكتاب المجيدين في الفرنسية. ومقابل ذلك نعرف عدداً غير قليل من الأدباء الذين أحرزوا مكانة عظمى في تاريخ الأدب الفرنسي، مع أنهم لم يتعلموا اللاتينية، ولم يتثقفوا بآدابها. . .)
إن لاروشفوكو، وورنياك، وآلكساندر دوماس، وجورج صان. . . من جملة الأدباء الذين يذكرون في هذا الصدد. . .)
(ج) إن الآثار الخالدة المكتوبة باليونانية واللاتينية قد ترجمها إلى الفرنسية كبار الأقلام، فيمكن الاطلاع عليها من تلك الترجمات الجيدة، دون إضاعة الأوقات والجهود، في تعلم اللغات التي كتبت بها.
هذا. ومما يجب إلا يعزب عن البال أن معرفة اللاتينية واليونانية التي يمكن الحصول عليها خلال الحياة المدرسية لا تستطيع أن ترفع الطالب إلى درجة تمكنه من تذوق مضامين تلك الآثار الفكرية والأدبية ومزاياها - في لغاتها الأصلية - ولذلك نستطيع أن نقول: إن درس الآثار المذكورة في ترجماتها الجيدة اكثر ضماناً لتذوق مزاياها تذوقاً حقيقياً. . .
وزد على ذلك أن اللغات الحية الراقية أيضاً أوجدت آثاراً خالدة لا تقل أهمية وسحراً عن الآثار التي يشير إليها دعاة اللاتينية واليونانية، إن لم نقل بأنها تفوقها في هذا المضمار، على الأقل من وجهة قربها إلى حياتنا العصرية. . . فلا يحسن بالثقافة الإنسانية العالية أن تبقى تحت سلطان اللاتينية واليونانية القديمة؛ بل الأجدر بها أن تستفيد من الآثار الخالدة التي أنتجتها اللغات الحية في العصور الحديثة. . .
إن تعلم اللغات الحية - عوضاً عن اللاتينية الميتة واليونانية القديمة - يأتي بفوائد عظيمة، من هذه الوجهة أيضاً.
(د) لا ينكر أن الحقوق الفرنسية مستمدة من الحقوق الرومانية، والحقوق الرومانية مدونة باللغة اللاتينية. غير أن النصوص اللاتينية المتعلقة بالحقوق والقوانين - قد ترجمت بأجمعها إلى اللغة الفرنسية على يد اقدر العلماء والمتخصصين. فاصبح في استطاعة كل فرنسي أن يدرس الحقوق الرومانية دون أن يتعلم اللاتينية.
هذا، ويجب إلا يغرب عن البال أن الحقوق والقوانين العصرية لم تبق تحت سيطرة الحقوق الرومانية، وإن كانت قد استمدت - فيما مضى - أصولها منها. فأهمية الحقوق الرومانية في الثقافة الحقوقية آخذة في التضاؤل يوماً عن يوم، وسائرة نحو مطاوي التاريخ بخطوات سريعة.
ولهذا كله لا مجال لتبرير تعليم اللاتينية - بصورة منطقية - بحجة ضرورة ذلك لفهم الحقوق الرومانية.
(هـ) وأما مسألة الاصطلاحات العلمية الحديثة فأنها ليست من الأهمية بدرجة تستلزم صرف الجهود الشاقة لتعلم اللاتينية واليونانية، فان مصادر هذه الاصطلاحات وأساليبها محدودة، فليس من الصعب تعليمها مباشرة - مع ذكر وجوه اشتقاقها - دون التعمق في أغوار اللغتين القديمتين المذكورتين.
فضلاً عن أن المعاني الاصطلاحية قلما تنطبق على المعاني اللغوية؛ فمعرفة المعاني الأصلية قلما تساعد على فهم المعاني الاصطلاحية. ويمكننا أن نقول: إن عدم ضرورة التقيد بالمعاني الأصلية في الكلمات والتعبيرات المستخرجة من اللغات الميتة، كان من أهم العوامل التي سهلت وضع هذه الاصطلاحات الحديثة، ونشرها بين جميع الأمم العصرية (وذلك بجانب العامل الآخر، وهو ملاءمة عواطف الأمم التي لا تقبل عادة الاصطلاحات التي تستمد عناصرها من لغات الأمم المعاصرة لها). ولا نغالي إذا قلنا: إن هذه الاصطلاحات إنما أدخلت على اليونانية واللاتينية إدخالا، فلو أنها عرضت على أبناء اللاتينية أو آباء اليونانية في حياتهم، لما فهموا منها شيئاً، أو فهموا منها أشياء أخرى.
وعلى كل حال نستطيع أن نقول: إن معرفة المعاني الأصلية ليست ضرورية لفهم المعاني الاصطلاحية، كما أنها ليست مفيدة لها في اكثر الأحيان.
فمحاولة تبرير تعليم اللاتينية واليونانية بحجة ضرورة هاتين اللغتين لفهم الاصطلاحات

العلمية الحديثة، مما لا يتفق مع العقل والمنطق بوجه من الوجوه.
(يتبع)
أبو خلدون
جناية أحمد أمين على الأدب العربي
للدكتور زكي مبارك
- 10 -
سنواجه الأدب الأندلسي في مقال اليوم، وهو الأدب الذي اتهمه الأستاذ أحمد أمين بالعجز عن تذوق الطبيعة، والإحساس بالوجود.
ولكن لا بد من من كلمة قصيرة نبين بها بعض الخصائص التي امتاز بها الأدب العربي ليعرف أحمد أمين ومن لف لفه من المتحذلقين كيف تفرد ذلك الأدب بالصيغة العالمية بين سائر الآداب.
أسير الآداب في العصر الحاضر هو الأدب الفرنسي والأدب الإنجليزي والأدب الألماني، ولكن هذه الآداب على عظمتها لا تزال محصورة في العبقرية المحلية. ومعنى ذلك أن أقطاب الأدب الإنجليزي إنجليز، وأقطاب الأدب الفرنسي فرنسيس، وأقطاب الأدب الألماني ألمان.
والأدب الإنجليزي حين ازدهر في أمريكا لم يكن أقطابه هناك من السكان القدماء لبلاد الأمريكان، وإنما كان أقطابه من السلالات الإنجليزية التي احتلت تلك البلاد.
والفرنسيون لا يعترفون لأهل سويسرا وبلجيكا بالتفوق في الأدب الفرنسي، ويقولون أن أدبهم لا هو لحم ولا هو سمك، على حد تعبيرهم الطريف , مع استثناء أفراد قلائل رفعتهم العبقرية إلى التفوق في لغة هوجو وميسيه ولامرتين.
أما الأدب العربي فكان حظه من اغرب الحظوظ، لأنه تغلغل في كثير من البيئات الشرقية والغربية، وانتفع بعبقريات كثيرة في مختلف الأمم والشعوب، فكان فيه أقطاب بين ناس لم تكن لهم قبل الإسلام صلة بمهد اللغة العربية من ناحية الجنس أو الدين.
وعلى ذلك يمكن القول بان الأدب العربي هو الأدب المخضرم الذي انتفع بالأجواء المختلفة من طبائع البلاد وسرائر الرجال. وقد ظهرت عبقريته في لونين من ألوان التعبير: هما العلوم الشرعية والفنون الأدبية، وما يمكن لباحث منصف أن ينكر أن الفقه الإسلامي صورة من صور التعبير الدقيق، وهو من صميم الأدب عند من يعرفون أن شرح الشرائع فرع من الفروع الأدبية، وهو يمثل الشعور بما في المجتمع من معضلات
ومشكلات خلقتها ظروف المعاش.
وذلك الفقه لم تختص به أرض دون أرض، فكان من أهل الهند وأهل فارس وأهل مصر وأهل المغرب والأندلس رجال تفوقوا في الدراسات الفقهية أشد التفوق، وأمدوا الأدب بصور كثيرة تمثل الاتجاهات الذوقية والمعاشية.
وما يقال في الفقه يقال في التوحيد والتفسير والحديث، فهناك ألوف من المصنفات الجيدة التي وعت ضروباً من الحقائق الأدبية والفلسفية لا يستهين بها رجل حصيف.
ولو توجهت همم الباحثين إلى شرح ما في تلك المصنفات من مقاصد وأغراض لأتوا بالعجب العجاب. وقد نبهني إلى ذلك المسيو مرسيه يوم كنت مشغولا بشرح الرسالة العذراء، فاستطعت أن أجد شواهد أدبية من كتب الفقه عند المالكية. وكذلك استطعت بإرشاد المسيو ماسينيون استخراج بعض المعاني الصوفية من المؤلفات الفقهية.
حيا الله أساتذتي في باريس، فبفضلهم عرفت من مذاهب البحث ما لم أعرف.
وإنما مهدت لمقال اليوم بهذه الكلمات ليعرف الأستاذ أحمد أمين كيف أخطأ حين توهم أن الأدب مقصور على قصائد الشعراء، فما كان الشعر إلا صورة من صور التعبير، وهو لتقييده بالقوافي والأوزان لا يستطيع التعبير عن جميع الأغراض.
وأنا مع ذلك سأقف عند الأدب الصرف الذي يمثله الشعر والنثر الفني وأنا أتحدث عن الأندلس.
فهل من الحق أن الأندلسيين لم يحسوا الطبيعة ولم يتذوقوها كما قال أحمد أمين؟
إن المعروف عند جميع أدباء اللغة العربية أن الأندلسيين تفوقوا في وصف الطبيعة، فكيف تفرد أحمد أمين بنكران ذلك؟

أيكون أحمد أمين أعلم الناس بالأدب ولا نعرف؟ ذلك والله غاية العجب!
أيكون من طبع كلية الآداب أن تروض مدرسيها على اصطناع الحذلقة والأغراب؟
أغلب الظن أن أحمد أمين سمع أنه لم يأت بجديد منذ اتصل بكلية الآداب، والجديد عنده هو الخروج على ما اتفق عليه جمهور أهل الأدب في ميدان الحقائق الأدبية، فمضى يتكلف ويتعسف ليأتي بجديد يجعله في الطبيعة بين أساتذة كلية الآداب، فكان ذلك الجديد هو التجني على ماضي الأدب العربي حين زعم انه في اكثر أحواله أدب معدة لا أدب
روح، وأنه لا ينقد الحياة كما تصنع الآداب الإفرنجية، وأنه لم يصف الطبيعة ولم يتحدث عن المجتمع.
وقد فندنا هذه المزاعم فيما يخص مصر والشام والعراق.
وندفع اليوم ما وجهه أحمد أمين إلى الأدب الأندلسي وهو يرى أهله قصروا ابشع التقصير في تذوق الطبيعة وفي الإحساس بما تعرضوا له من الأحداث الاجتماعية.
ويجب أن يكون مفهوما قبل الشروع في التفاصيل أن الأدب الأندلسي تعرض للضياع منذ أجيال، فلو قلنا أن ذلك الأدب ضاع منه اكثر من تسعة أعشاره لما بعدنا عن الصواب، فقد عانى ذلك الأدب فتنة حمقاء هي ثورة الأسبان على مخلفات العرب في الأندلس وإصرارهم على تبديد ما ترك العرب والمسلمون من روائع الآداب والفنون.
وكان ما صنع الأسبان بآثار العرب في المغرب صورة مما صنع التتار بآثار العرب في المشرق، فكان حظ قرطبة صورة ثانية من حظ بغداد.
تبدد من آثار العرب في الأندلس ما تبدد، وضاع منه ما ضاع، ومع ذلك بقيت آثاره تشهد بان العرب في الأندلس أحسوا الطبيعة والوجود إحساساً قليل النظائر والأمثال.
وهل يدرك أحمد أمين قيمة الإحساس بالطبيعة في قول المعتمد بن عباد:
وليل بسد النهر آنسا قطعته ... بذات سوار مثل منعطف النهر
نَضَتْ بُردها عن غصن بان منعم ... فيا حُسن ما انشقَّ الكمام عن الزهر
أيقال أن هذا لعب بالتشبيهات، كما يتوهم احمد أمين؟
وما رأيه في قول عمرو بن فرج وهو يتحدث عن شرف العفاف:
وطائعة الوصال عففت عنها ... وما الشيطان فيها بالمطاع
بدت في الليل سافرة فباتت ... دياجي الليل سافرة القناع
وما من لحظة إلا وفيها ... إلى فتن القلوب لها دواعي
فملكت النهى حجاب شوقي ... لأجري في العفاف على طباعي
وبت بها مبيت السَّقب يظما ... فيمنعه العكام من الرضاع
كذاك الروض ما فيه لمثلى ... سوى نظر وشم من متاع
ولست من السوائم مهملات ... فاتخذ الرياض من المراعي
أينكر إن هذا الشاعر أحس الطبية أدق إحساس؟
وهل يستطيع إن يؤدي هذه الصورة بأفضل من هذا الأداء؟
وما رأيه في قول محمد بن سفر:
وواعدتُها والشمس تجنح للنوى ... بزَوْرتها شمساً وبدر الدجى يسرى
فجاءت كما يمشي سنا الصبح في الدجى ... وطوراً كما مرّ النسيم على النهر
فعطّرت أن حولي فأشعرتْ ... بمقدمَها والعَرف يُشعر بالزهر
فتابعت بالتقبيل آثار سعيها ... كما يتقصَّى قارئٌ أحرف السطر
فبتُّ بها والليل قد نام والهوى ... تنبَّه بين الغصن والحِقف والبدر
أعانقها طوراً والثم تارةً ... إلى أن دعتنا للنوى راية الفجر
ففضّت عقوداً للتعانق بيننا ... فيا ليلة القدر اتركي ساعة النفر
إلا يرى كيف كانت الطبيعة بشجارها وأزهارها وأنهارها وأقمارها تداعب خيال الشاعر وهو ينظم هذا القصيد؟
أيدرك قيمة الإحساس بالطبيعة في هذا البيت:
فجاءت كما يمشي سنا الصبح في الدجى ... وطوراً كما مرّ النسيم على النهر
قد يقول أن هذا لعب بالتشبيهات!
أن قال ذلك فسيأتي يوم قريب نبين فيه قيمة التشبيهات وما فيها من الدلالة على الأنس بمعاني الوجود

وما رأيه في قول أحد الأندلسيين:
أديراها على الروض المندّى ... وحُكم الصبح في الظلماء ماضي
وكأس الراح تنظر عن حَبابٍ ... ينوب لنا عن الحَدق المراضِ
وما غَربَتْ نجوم الأفق لكن ... نُقِلْن من السماء إلى الرياضَ
أيحسب هذه الأبيات من الكلام المزخرف الذي لا يدل على شيء!
اتقى الله في نفسك يا صديقي احمد أمين، فأنت لا تجني على الأدب، وإنما تجني على نفسك حين تنسب إليها الغفلة عن أقدار هذه المعاني:
وما بأفضل في قول الرصافي الأندلسي في وصف حائك جميل:
قالوا وقد أكثروا في حبه عَذَلي: ... لو لم تهم بمُذال القدر مبتذلِ!
فقلت: لو كان أمري في الصبابة لي ... لاخترتُ ذاك ولكن ليس ذلك لي
علقتُهُ حَبَيَّ الثغر عاطرهُ ... حلو اللمى ساحر الأجفان والمقل
غُزّيلٌ لم تزل في الغزل جائلةً ... بنانُهُ جوَلان الفِكر في الغزَل
جذلان تلعب بالمحواك أنملهُ ... على السَّدى لعب الأيام بالأجل
ضَّما بكفيه أو فحصاً بأخُمصهِ ... تخبُّط الظبي في أشراك محتَبِل
ألا تدل هذه القطعة على أن الشاعر قوي الإحساس بالوجود؟ وهل فكر أحمد أمين أن الأندلسيين لهم أمثال هذه المعاني؟
وهل عرف أن منهم من قال في وصف راقص مليح:
ومُنزّع الحركات يلعب بالنُّهى ... لبس المحاسن عند خلع لباسهِ
متأوِّداً كالغصن وسْط رياضه ... متلاعباً كالظبي عند كناسه
بالعقل يلعب مدبراً أو مقبلاً ... كالدهر يلعب كيف شاء بناسه
ويضم للقدمين منه رأسه ... كالسيف ضمّ ذبابه لرياسهِ
ألا تعد هذه القطعة من غرائب الشعر البديع الذي يمثل الإحساس بالوجود؟
وهل عرف أن في الأندلسيين من قال:
عاطيته والليل يسحب ذيلهُ ... صهباء كالمسك الفتيق لناشقٍ
وضممته ضمّ الكميّ لسيفه ... وذؤابتاه حمائلٌ في عاتقي
حتى إذا مالت به سِنة الكرى ... زحزحتُه شيئاً وكان معانقي
باعدتُهُ عن أضلع تشتاقهُ ... كيلا ينام على وسادٍ خافق
فهذا شاعر حي العواطف، مشبوب لأحاسيس، يدرك جمال الوجود في أوقات الصفاء، ويواجه الطبيعة بنظرٍ ثاقب، وقلب خفاق.
وما رأي صاحبنا في قصيدة ابن هاني:
فمن في مأتمٍ على العشاقِ ... ولبسن السواد في الأحداق
وهي قصيدة يحفظها أكثر الأدباء، وفيها من وصف الطبيعة ألوان.
وما قوله في أرجوزته القافية التي وصف فيها الساقي فقال:
يحّثها بِدَله المرموقِ ... أرقَّ من أديمه الرقيق
وبات سلطاناً على الرحيقِ ... يسلِّط الماء على الحريق
ويغرس اللؤلؤ في العقيق ... كأنَّ دُرَّ ثغره الأنيق
أُلِّف من حَبابها الفريق ... أو زَلّ عن فيه إلى الإبريق
وهل سمع الأستاذ أحمد أمين بأخبار ابن شهيد صاحب (الزوابع والتوابع) ولأدبه صلة شديدة بتذوق الوجود؟
هل قرأ أشعار ابن زيدون ورسائل ابن زيدون ليرى كيف فتن هذا الشاعر الكاتب بفهم الدنيا والناس؟
وهل نظر في نكبات ابن عمار الذي تذكر نفثاته بنفثات أبي فراس؟
وهل خطر في باله أن ينظر كيف برع الأندلسيون في الموشحات، وكانت أقباساً من الأضواء، وأنفاساً من الأزهار؟
هل عرف أن الأندلسيين بكوا بلادهم بكاء شهد بأنها قطع من قلوبهم الخوافق؟
هل مر بخاطره أن الأدب الأندلسي ترك في الأدب اللاتيني أخيلة وتعابير بقيت على الزمان؟
هل وصل إلى علمه أن عهد العرب في الأندلس هو أشرف ما عرضت أسبانيا من العهود؟

هل اتفق له أن يعرف أن تاريخ العرب في الأندلس كان مادة غنية سعدت بها حيوات كثير من الباحثين الذين تشرفت بهم الجامعات الألمانية والفرنسية والإنجليزية؟
هل طرق سمعه الخبر الذي يقول إن علماء الأندلس هم الذين عرفوا أهل أوربا بمعارف اليونان؟
فبأي حق يجوز التطاول على أهل الأندلس من رجل مثل أحمد أمين وهو يشهد على نفسه بأنه لا يكتب عن الأندلس إلا بعد أن يأذن له المستشرقون؟
آه، ثم آه!!
ما جزعت على وفاة الأستاذ مصطفى صادق الرافعي كما جزعت عليها اليوم!
فلو كان الرافعي حياً ورأى أحمد أمين يقول في ماضي الأدب العربي ما يقول لأصلاه نار العذاب وصيره أضحوكة بين أهل الشرق والغرب.
ولو كان احمد زكي باشا حياً ورأى هذا العبث في السخرية من أهل الأندلس لقدم أحمد أمين إلى مهاوي سقر (وأحمد زكي باشا أول من أذاع محاسن الأندلس في العصر الحديث، قبل الشيخ محمد المهدي والأمير شكيب أرسلان).
ومن يدري، فلعل أحمد أمين يلقى من الجزاء ما هو له أهل يوم يتنبه أساتذة الأدب إلى واجبهم في رد عادية العادين على ماضي اللغة العربية!
من يدري، فقد يقوم أحد المستشرقين بالانتصاف للتراث الذي غفل عن قيمته الشرقيون!
من يدري، فقد تستيقظ كلية الآداب فتنشئ كرسياً للأدب الأندلسي يرف شبان العصر الحاضر أن أسلافهم استطاعوا أن يروعوا الأدب اللاتيني في حصنه الأمين!
إن الشواهد التي سلفت قد انتزع أكثرها من الشعر، فكيف كان النثر عند أهل الأندلس وكيف دل على تذوق أصحابه؟
لا أريد أن أعيد ما قلت في كتاب النثر الفني حين تحدثت عن كتاب الأندلس، لأني أبغض الحديث المعاد، وإنما أنبه القراء إلى خصيصة ظاهرة من خصائص النثر الأندلسي: هي الهيام بالتشبيهات رغبة منهم في تجسيم المعاني، والتشبيهات تنتزع في الأغلب من صور الطبيعة والوجود، فهي من الشواهد على إحساس الكاتب بالطبيعة والوجود
ولم تقف هذه الخصيصة عند الرسائل القصيرة أو كتب العهود، وإنما شملت كتب التراجم وكتب التاريخ، وغلبت على الأبحاث الصوفية.
ومعاذ الأدب أن نفهم الطبيعة كما يفهمها أحمد أمين فنظنها مقصورة على الشجرة والزهرة، هيهات، إنما الطبيعة كتاب الوجود بما فيه من حجر ومدر، وشجر ونبات، وماء وجماد.
والطبيعة الشاملة تظهر بعظموتها وجبروتها ممثلة ناطقة في اكثر ما كتب الأندلسيون، ولو شئت لقلت إنهم بالغوا في ذلك حتى قاربوا الإسفاف، فهل كانوا يعلمون من وراء الغيب أن سيجيء في آخر الزمان من يتهمهم بالغفلة عن تذوق الطبيعة والوجود؟
أمن أجل تلك التهمة المحجوبة في ضمير الغيب كان الفتح بن خاقان يفتعل ويعتسف في الأوصاف والتشبيهات ليقيم الدليل على أن الطبيعة كانت تطالع الأندلسيين من كل جانب؟
أكان ابن زيدون وابن برد وابن شهيد وابن حزم يتوقعون أن سيتجنى عليهم ناس فيتهمونهم بالتبلد وضعف الإحساس فكان من احتفالهم بوصف الطبيعة ما كان؟
وهنا أستأنس بكلمة قرأتها للأستاذ العقاد منذ سنين وهو يفاضل بين البحتري وشوقي، فقد نص على أن شوقي وصف الطبيعة بعد أن صار وصفها من المذاهب الأدبية، أما البحتري فوصفها بوحي من الفطرة. وكذلك أقول في الحكم لأهل الأندلس: فهم لم يتعمدوا وصف الطبيعة ليقال انهم تذوقوها وأحسوها! وإنما وصفوها بوحي من الفطرة فكانت أوصافهم أبلغ في الدلالة على سلامة الذوق، وقوة الطبع، وأصالة البيان.
ويتحذلق أحمد أمين فيقول: أين الشاعر الذي رأى نفسه جزءاً من الطبيعة على حد قول الحلاج:
أنا من أهوى ومن أهوى أنا ... نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرته أبصرتني ... وإذا أبصرتني أبصرتنا
ونقول إن الحلاج بحمد الله شاعر عربي، وشعره زكاة عن العرب الذين اتهمهم أحمد

أمين، وأبيات الحلاج هي اندماج في الطبيعة، ولذلك تفصيل يراه من شاء في كتاب التصوف الإسلامي عند شرح نظرية وحدة الوجود، حتى لا يظن ظان أن أحمد أمين أول من التفت إلى هذه الشؤون.

ولكن ما بال صاحبنا يغفل عن أبيات الشاعر الأندلسي الذي منح الطبيعة خصائص النفس الإنسانية حين قال:

وقانا لفحةَ الرمضاء وادٍ ... سقاه مضاعَفُ الغيث العميم
نزلنا دوحه فحنا علينا ... حَنُوَّ المرضعات على الفطيم
وأرشفَنا على ظمأ زُلالاً ... ألذَّ من المدامة للنديم
يصدُّ الشمسَ أني واجهتْنا ... فيحجبها ويأذن للنسيم

وهل يعرف أحمد أمين أن نظرية وحدة الوجود وهي أعظم تقديس للطبيعة لم يشرحها أحد بمثل ما شرحها الصوفية في الأندلس؟

وهل عرف أن أبن عربي له في ذلك آيات بينات؟

وهل فطن إلى أن أبن زيدون جمع إلى روحه أطراف الوجود حين قال:

يُدنى خيالكِ حين شطَّ به النوى ... وهمٌ أكاد به أُقبِّل فاكِ

أما بعد فقد زعم أحمد أمين أن ابن خفاجة الملقب بشاعر الطبيعة لم يجد غير الصياغة، ولم يستطع أن ينفخ فيها الروح، إلا في النادر القليل.

فهل نترك هذا الزعيم بلا تفنيد رعايةً لهذا (الأديب)؟

وهل هان الأدب العربي على أهله حتى يتركوا زمامه لمن يتخيل فيخال؟

إن من حق ابن خفاجة علينا أن نجلو صفحة من حياته الشعرية والنثرية تبين كيف كان ذلك الرجل فناناً بارعاً تجري أنامله على أوتار الوجود، فهو من مفاخر اللغة العربية، وهو حجتها يوم يتطاول عليها من لا يدركون أسرار البيان.

وقبل الشروع في الكلام عن ابن خفاجة أرجو أصحاب الجرائد والمجلات في غير مصر أن يصححوا رأيهم في أسباب هذه المقالات، فليس من الصحيح أني انتهزت فرصة الأخطاء التي وقع فيها أحمد أمين لأشفي صدري منه أو لأشفي صدر صديقي صاحب الرسالة، فليس بيننا وبين الأستاذ أحمد أمين خصومة شخصية، وإنما هي مصر تروض أبناءها على مخاصمة أصدقائهم في سبيل الحق.

(للحديث شجون)

زكي مبارك

حول الوحدة العربية

بين الحصري بك وطه حسين

للأستاذ عز الدين التنوخي

عدت مساء إلى منزلي فاستقبلتني غادة (الرسالة) بثوبها الأحمر القشيب، وهي أبداً بين المجلات قيد ناظري، ومهوى خاطري. ولا غرو في ذلك، فان الدماشقة خاصة، وأبناء العرب عامة، يفضلونها لروحها العربية، وبما تعمله على (توحيد الثقافة العربية)، على سائر المجلات المصرية. وكلما ازداد الإيمان القومي في العرب، ازداد هذا الحب الطبيعي للرسالة، وازداد معه بمقدار ذلك الهجر والإعراض عن غيرها. واكتفى بالمثال الواقعي التالي دلالة على صحة ذلك! فلقد شاهدت غداة أمس فتى عربياً في الترام يحمل مجلات بينها (الرسالة). فقلت له:

- أية مجلة تحبها مما تحمل؟

- مجلة (الرسالة)!

- ولماذا آثرتها بالمحبة؟

- لان روحها المصرية تمتزج بروحنا العربية، ولأنها. - وهنا أشار إلى الغلاف - تجمع على وحدة الثقافة أبناء البلاد العربية!

وحينما رأيت مساء مجلة (الرسالة)، نظرت إلى فهرسها فوجدت فيه موضوعاً يهمني وأبناء العرب جميعاً - وهو رد الأستاذ ساطع الحصري على الفصل الجوابي الذي نشره الأستاذ طه حسين في كتابه (مستقبل الثقافة في مصر).

اجل! كنت انتظر بصبر غير جميل من مثل أبي خلدون أن يعيد الكرة على صاحبه الذي أحاله في نقض انتقاداته على الفصل الجوابي. ذلك بأنا - ولا نكتم الدكتور طه حسين -

كنا قد اعتبرنا هذه الإحالة يومئذ ضرباً من الفرار من معركة المناظرة، وقرأت اليوم كتاب الأستاذ أبي خلدون (إلى الدكتور طه)، فلا ادري ماذا عسى أن يراجع به هذا الأديب العربي الكبير ناقده بعد أن استشهد عليه بكلامه، وحصين منطقه؟

نعت الآن الدكتور طه حسين - بالأديب العربي - لا بالمصري، فحسب لان أدبه عربي بمصادره، عربي بلغته وألفاظه، عربي بمباحثه المبتكرة، وأساليبه المستعذبة! عربي على الرغم منه بروحه حينما يرسل نفسه على سجيتها، ويقول ما يقول غير منتصر للفرعونية، وغير مجامل لأنصارها!

أليس طه حسين هو الذي فضل أدبنا العربي القديم على معظم آداب أمم الحضارة القديمة في كتابه (حديث الشعر والنثر)؟ أليس طه حسين من اقدر العاملين على إحياء لغتنا العربية بإحياء آدابها بذلك الأسلوب العربي الرائع ببلاغته على سلاسته وبامتناعه على أطماعه؟ أو ليس هو المنادي بتوحيد الثقافة العربية التي إن ضمنها للأستاذ أبي خلدون، وضمنها لنا أيضاً، ضمنا له كل ما يبقى من ضروب الوحدة؟!

اجمل الدكتور طه حسين أن يكون أديب الأقطار العربية كلها من أن يكون في قطر واحد أديباً! وليته - أصلحه الله - جامل في المكشوف أدباء العرب الذين يتنافسون في اقتناء آثاره، ويتباهون بأنهم من أنصاره. أو ليته - وهو مسلم مصري - خاطب العرب بما خاطبهم به الأستاذ مكرم عبيد - وهو النصراني المصري - وهو لذلك اشد اتصالا منه بالفراعنة ذوي الأوتاد!

وليسمع الدكتور طه حسين ما يقوله الأستاذ مكرم عبيد في عدد الهلال الممتاز (العرب والإسلام):

(سافرت في رحلة صيفية إلى سوريا، وتفضل إخواني السوريون في الشام ولبنان وفلسطين، فشملوني بترحيبهم وتكريمهم، فوقفت يومئذ وتحدثت عن الوحدة العربية وقلت: (المصريون عرب). وأبديت رأيي في هذه النظرية التي يؤيدها التاريخ، فنحن معشر المصريين جئنا من اسيا، ونحن أدنى إلى الرب منذ القدم من حيث اللون واللغة والخصائص السامية والقومية) ويجب أن نذكر في هذا إلى أن يقول: (نحن عرب! وثقت روابطنا الكوارث والآمال، ووحدت بيننا الآلام والعصر دائماً أننا عرب قد والأشجان، وصهرتنا المظالم وخطوب الزمان. فأحدثت منا أمما متشابهة متماثلة في كل ناحية من نواحي الحياة).

ثم تكلم عن الوحدة العربية بقوله: (فالوحدة العربية حقيقة قائمة، هي موجودة لكنها في حاجة إلى تنظيم؛ والغرض من التنظيم إيجاد جبهة تناهض الاستعمار، وتحفظ القوميات، وتوفر الرخاء، وتنمي الموارد الاقتصادية، وتشجع الإنتاج المحلي، وتزيد في تبادل المنافع وتنسيق المعاملات. فكما أن أوربا خلقت شيئاً معنوياً ترتبط به وتلتف حوله أغراض سكانها على اختلاف أممهم، فكذلك نحن سيؤول مصيرنا إلى الالتفاف حول مثل أعلى يوفق بيننا فنصير كتلة واحدة وتصير أوطاننا جامعة وطنية واحدة، أو وطناً كبيراً بتفرع منه عدة أوطان - لكل منها شخصية لكنها في خصائصها القومية العامة متحدة متصلة اتصالاً قوياً بالوطن الأكبر).

وفي هذا البحث الممتع للأستاذ مكرم عبيد بشير آنفاً إلى رحلته الصيفية للديار الشامية وأنه كان يتحدث إلى المرحبين به قائلا: (المصريون عرب).

صدق والله، فقد كنت من جملة المرحبين بأخوته العربية في نزل أمية بدمشق، وسمعت هذه الكلمة الطيبة من فيه، لا فض فوه. ولا أزال اذكر ذلك يوم سألته عن تلك النعرة الفرعونية في مصر فقال لي ما معناه: نحن عرب في مصر ولا نمجد الفراعنة إلا لأنهم عرب!

الأستاذ مكرم عبيد فرعوني صميم، ومن نوابغ مصر في ثقافته وأخلاقه ووطنيته، والأستاذ طه حسين المسلم المصري يحكم والناس معه بالظن على فرعونيته، فلن يكون بذلك اصدق تفرعنا من مكرم عبيد، وإذا ما ادعى ذلك كان اشد فرعونية من فرعون نفسه، أو - اشد كما قيل - ملكية من الملك!

والأستاذ طه حسين الذي كان ينكر الوحدة العربية بأنواعها وشرائطها، ويعد من يقول بهذه الوحدة من أصحاب العقل القديم، قد اصبح ولله الحمد أخيراً قديم العقل

كالأستاذ مكرم عبيد لقولهما بالوحدة العربية على شكل إمبراطورية جامعة أو اتحاد مشابه للاتحاد الأمريكي أو السويسري!

وأظن أخانا العربي الزيات قديم العقل أيضاً لقوله بالوحدة العربية، فما اجمل ذلك العقل القديم الذي يصل بين الأرحام المتقاطعة والأرواح المتناكرة والقلوب المتنافرة، ولخير لنا ألف مرة أن يجمع شملنا العقل القديم من أن يمزق ويفرق بيننا العقل الحديث.

(دمشق)

عز الدين التنوخي

عضو المجمع العلمي العربي

كتاب في الدين الإسلامي

للأستاذ محمد بهجة البيطار

قرأت في الرسالة الغراء مقال نابغة الشام الأستاذ علي الطنطاوي في الإسلام وفهم الأصحاب والأعراب له من النبي صلى الله عليه وسلم في مجالس معدودة، وصدورهم عنه معلمين ودعاة إلى الله أيام كانت أوعية العلم الصدور لا الكتب؛ ثم وصف ما يلاقيه في عصرنا طلاب العلوم والفنون من عنت في معرفة هذا الدين السمح بعد أن صرنا نملك ألوف الألوف من كتبه، واقترح أن يؤلف كتاب في الإسلام - عقائده وعباداته وأخلاقه - يشرح فيه حديث جبريل عليه السلام الذي سال فيه النبي (ص) عن الإيمان والإسلام والإحسان بأسلوب شائق مؤثر (لا هو بالأسلوب العلمي الجامد، ولا هو بالأسلوب القصصي الخيالي) كما قال. ودعا الكتاب إلى البحث في هذا الموضوع الجليل، واقترح علي حفظه الله أن اكتب في مبحث الأيمان بالله تعالى على الأساس الإسلامي لا المذهب الكلامي (المشحون بالألفاظ المبتدعة كالجوهر والجسم والأعراض والأغراض والأبعاض والحدود والجهات وحلول الحوادث وغيرها) لينشر على صفحات الرسالة الغراء، فلبيت شاكراً للأستاذ الطنطاوي غيرته، ممهداً بوصف كتب العقائد المتداولة بين الأيدي.

كتب العقائد المتداولة

لا يخفى أن الإيمان بالله تعالى هو توحيده على الوجه الذي أثبته لنفسه في كتابه، أو ورد عن المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى في بيانه. وإذا نظرنا إلى كتب التوحيد الدراسية التي تداولتها أيدي الخواص والعوام في معظم الأمصار الإسلامية، وصارت عمدة المدرسين والدارسين في المدارس الحكومية الرسمية وفي المدارس الأهلية والمعاهد الدينية أيضاً نجدها نوعين:

1 - كتب العقائد التي وضعت على طريقة الخلف، وأولت فيها نصوص الكتاب والسنة تأويلا صرفها عن مداولاتها اللغوية والشرعية، ونفي معانيها الوجودية الثابتة، بتأويلات جاءت على خلاف الوضع والشرع.

2 - كتب الدفاع عن الإسلام وتوحيده، واثبات أنه دين العقل والفطرة، وحاجة البشر في كل زمان ومكان، وقد انتشرت في زماننا شبه وشكوك في دين الحق لأقوام وأصناف، كبعثات التبشير أو التنفير، ومروجي الإلحاد والفساد، وكتب التحريف والتخريف؛ وفي ردود دعاة الإسلام وحماة الفضيلة دفع لباطلهم، وكبح لجماحهم، ولكن هذه الكتب التي تضمنت فلسفة التوحيد وحكمة التشريع، هي سلاح علمي نشهره في وجوه أعدائنا، لحراسة عقائدنا، والدعوة إليها، والنضال عنها، لا لتلقي علم التوحيد وعقائده منها، فهي على نفاستها وضرورة دراستها وكونها لا يستغني عنها في مثل هذا الزمن، ليست كتباً موضوعة في علم التوحيد، ولا هي قواعد لعقائده المستمدة من نصوصه المبنية عليها، بل هي فلسفة تحوم حول التوحيد، وإيضاح لمحاسن الدين ومزاياه.

وهنالك نوع ثالث وهو الكتب التوحيدية السلفية التي أثبتت معاني النصوص وحقائقها الشرعية من طريق المنقول والمعقول، وردت كلام المعطلة والمؤولة رداً لم يبق حاجة في النفوس.

وقد كان حوار سلفنا الصالح مفحما للفرق التي ظهرت في عصورهم، وشاعت مقالاتهم في الناس كالقدرية والخوارج، والجبرية والجهمية، والمرجئة والوعيدية. وكتب علم السنة الإمام أحمد بن حنبل، والإمام عثمان بن سعيد الدارمي وغيرهما من أئمة

السلف اجل ما صنف في العقائد الصحيحة، وانفعها في النقض على هذه الفرق المنحرفة. وقد جدد عهدهم، وشرح مذهبهم، وبين أنه الأسلم والأعلم والأحكم شيخا الإسلام ابن تيمية، وابن قيم الجوزية في كتبهما، ثم من جاء بعدهما من أئمة الإسلام وأنصار العقيدة السلفية. ولكن كتب هؤلاء الأعلام الواسعة هي علمية تعليمية، لأنها في الغالب كتب حجاج ومناظرة، وتأييد لمداولات النصوص، ورد لشبهات الخصوم. فأنا أؤيد رأي أخي الطنطاوي فيما كتب، واقترح على حماة العقائد الصحيحة التي جاء بها القرآن أن يفتحوا باباً للتوحيد السلفي، وأن ينشروا فصولاً ملخصة مما كتبه الأئمة الثقات فيه، تكون تمهيداً لوضع سلسلة توحيدية تعليمية، مفرغة حلقاتها بأسلوب عصري مدرسي، تشرب القلوب حب السلف الصالح وأثارهم، وتطبع النفوس بطابع عقائدهم وأخلاقهم، وتغذي عقول النشء الإسلامي بلبان التوحيد الخالص المطهر من كل ما يخالطه من أدران البدع والزوائد، فتصح العقائد، وتزكو الأخلاق، وتتوحد المبادئ والغايات، فنضع هذا الاقتراح أمام أولي الكفاية والعزم من إخواننا السلفيين، لعله يجد مكاناً للاستحسان والتنفيذ إن شاء الله تعالى.

تعريف التوحيد

التوحيد في اللغة التفريد. تقول: وحدت الشيء وأحدته إذا فصلته عما سواه وأفردته. وفي الشرع: اعتقاد أن الله واحد احد، فرد صمد، لا ند له ولا ضد. والتوحيد أساس العلوم الدينية، وهو الذي نزلت به الكتب، وأرسلت به الرسل، وتوارثه المجددون في كل عصر، وقاموا عليه خير قيام. وهو الذي يجب أن يكون رأس الدعوة، ويجاهد في سبيله كل من عاداه، حتى يكون الدين كله لله، وتترك العبادة لما سواه من حجر وشجر وبشر، وشمس وقمر، وملك وجن، وسائر ما عبد من دون الله في الملأ الأعلى أو الملأ الأدنى، وهذا هو مناط النجاة في الآخرة، وليست الدنيا إلا دار سباق لها.

أنواع التوحيد

التوحيد ثلاثة أنواع (1) توحيد الربوبية (2) توحيد الألوهية (3) توحيد الأسماء والصفات (فالأول): الإقرار بان الله هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر لجميع الأمور. (والثاني) هو إفراده تعالى بجميع أنواع العبادة، والتوجه إليه وحده بالدعاء والطلب. (والثالث) هو أن يوصف الله سبحانه بما وصف به نفسه في كتابه، وبما وصفه به رسوله من الأسماء الحسنى، والصفات العليا. فمن الأسماء: الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، ومن الصفات: الرحمن على العرش استوى، بل يداه مبسوطتان، وكلم الله موسى تكليماً.

وقد دل القرآن وشهد التاريخ أن العرب قبل الإسلام كانوا مؤمنين بوجود الله، مقرين له بالوحدانية في الخلق والرزق، والتدبير والتأثير، والإحياء والإماتة، وتصريف جميع الأمور، وان ليس لآلهتهم شيء من ذلك. والنصوص في ذلك كثيرة وصريحة، قال تعالى: (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولون الله) وقال: (قل من يرزقكم من السماء والأرض، أمن يملك السمع والأبصار، ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، ومن يدبر الامر؟ فسيقولون الله، فقل أفلا تتقون؟) وقال: (قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه أن كنتم تعلمون؟ سيقولون الله: قل فأني تسحرون) وهذا هو المسمى بتوحيد الربوبية الذي كان عليه أهل الجاهلية، وهو توحيد الرب بأفعاله.

إنما كان شرك المشركين الأولين بتوحيد الألوهية أو توحيد العبادة، ومن مظاهره الدعاء والخوف والرجاء، والذبح والنذر، وغير ذلك من أنواع العبادة التي كان يصرفها المشركون لمعبوداتهم من الصالحين وغيرهم لتقربهم إلى الله زلفى، وكانوا يقولون في حجهم: (لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك) فهذا الشريك هو الذي كان يشرك مع الله في العبادة فحسب، لا في الإيجاد ولا في الإمداد كما قال تعالى: (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله).

كلمة التوحيد

أساس الدين وركنه الأعظم هو كلمة التوحيد: (لا إله إلا الله) فهي أصل الأصول، ودين الرسل من أولهم إلى آخرهم عليهم الصلاة والسلام (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون). فكلمة التوحيد هذه لابد من فهم معناها

والعمل بمقتضاها، وهو ما بعث به النبي (ص) ودعا إليه: أله إلاهة وألوهة وألوهية: عبد عبادة، ومنه لفظ الجلالة وكل ما اتخذ معبوداً إله عند متخذه كما في القاموس، فمعنى إله في لغة العرب وفي الشرع هو المعبود بحق أو بغير حق. ولفظ الجلالة على المعبود بحق وهو الله عز وجل فكلمة (لا إله) نفي لكل معبود في الوجود وإبطال لعبادته، وكلمة (إلا الله) إثبات لعبادة المعبود بحق وحده، ذلك بان الله هو الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل، وأن الله هو العلي الكبير) فكلمة التوحيد مسقطة لجميع آلهتهم، هادمة لأنواع عبادتهم، مثبتة العبادة كلها لله وحده الذي وحدوه بربوبيته ولم يوحده بإلهيته، فأقام عليهم الحجة بما أقروه على ما أنكروه، وبين أن من تفرد بالإيجاد والإمداد يجب أن يفرد بالعبادة، وهذه الحجة القاهرة من حجج الله على العالمين إلى يوم الدين

لما كان العرب في جاهليتهم يفهمون من كلمة (لا إله إلا الله) هذا المعنى الذي بيناه لغة وشرعاً كانوا يستكبرون عن النطق بها لأنهم علموا أن الإذعان لها كفر بالآلهة وإبطال لعبادتهم، كما قال تعالى: (إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون؛ ويقولون أإنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون) وقال: (وإذا ذكر الله وحد اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون) وقال: (قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض؟ أم لهم شرك في السموات؟ ائتوني بكتاب من قبل هذا، أو أثارة من علم إن كنتم صادقين) وقال: (ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا، فالحكم لله العلي الكبير)

أما دعاة غير الله فقد سهل عليهم الأمر لأنهم فهموا من كلمة التوحيد ما يخالف الوضع والشرع وفسروها بمعنى توحيد الله بأفعاله، وبالقدرة على الإبداع الاختراع، واخرجوا كل ما ذكرناه عن معناه اللغوي والشرعي، كالدعاء والخوف والرجاء، والحب والتعظيم، والاستعانة والاستغاثة والاستعاذة، والتوكل والذبح والنذر، والخضوع والخشوع والالتجاء، وغير ذلك من أنواع العبادة، وأجازوا فعله كله لغير الله، بعد أن نحلوه لقب التوسل والاستشفاع.

التوسل الجاهلي

ليس الكلام في التوسل الخلافي المشهور بين العلماء المحصور في دعاء الله وحده مع التوسل إليه بصالحي عباده، وإنما الكلام في توسل آخر لا يعرفه إلا الغلاة والجهال، وهو دعاء أهل القبور أنفسهم، والاستنجاد بهم، وطلب الغوث منهم لإنقاذ الغرقى وشفاء المرضى، ورد الغائبين وإغاثة الملهوفين، وإعانة المستعينين؛ وهذا لا يسمى توسلاً بهم لا دينا ولا عقلاً ولا لغة، بل هو دعاء لهم وطلب منهم وهو خارج عن موضوع التوسل وليس منه في شيء.

فان قلت إن الداعي لغير الله لم يرد بدعائه إلا الله، متوسلاً إليه بمن يدعوه، وإن قلبه منطو على عقيدة صحيحة لو كشف الغطاء لشهدت صحتها، وهلا شققت عن قلبه؟

(فالجواب) أن ما في القلب لا يعلمه إلا علام الغيوب، وأن الكلام منحصر في دائرة الأقوال والأفعال التي تناقض صحة العقيدة القلبية كل المناقضة، والشارع ناط الأحكام بالظاهر، والله يتولى السرائر. ولا يرد حديث: (هلا شققت عن قلبه) إلا على من يدعي معرفة الباطن، وأنه موافق أو مخالف للظاهر، وإنما البحث فيما يبدو للحس من قول أو عمل مصادم للشرع. وقد أنكر النبي (ص) على أسامة قتل من أتى بكلمة التوحيد ولم ينقضها بقول ولا عمل، فادعى أسامة (رضى الله عنه) أنه لم يأت بها عن عقيدة قلبية، فأنكر ذلك عليه صلوات الله عليه وقال: هلا شققت عن قلبه؟ وأين هذا من ذاك!

وصف القرآن أهل الجاهلية وفرعون الذي ادعى الربوبية والألوهية بأنهم كانوا إذا وقعوا في شدة كخوف الغرق في البحر مثلاً دعوا الله مخلصين له الدين، كما قال فيهم: (فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين، فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) وقال في فرعون: (حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أن لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، وأنا من المسلمين) أفيكون أولئك القوم وفرعون أولى بدعاء الله وحده في الشدائد ممن يتبجحون بالإسلام والتوحيد؟ وبدهي من عقيدة المسلمين أن

جميع المخلوقات لا يملكون لأنفسهم - ولا لغيرهم بالأولى - في الرخاء ولا في الشدة ضرا ولا نفعا، ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشورا) فكيف تتفق هذه العقيدة المستندة إلى النصوص القطعية المجمع عليها مع دعاء غير الله تعالى في الرخاء وفي الشدة أيضاً؟

وإذا أضيف إلى ما سبق دعوى التصرف في الكون التي يدعيها العوام وأشباه العوام لبعض الصالحين، أو تقسيم الدنيا إلى أربع مناطق، وتخصيص كل قسم منها بواحد منهم، ودعوى وجود الله تعالى بذاته - تقدست وعلت - في كل مكان، أو دعوى انه تعالى لا داخل العالم ولا خارجه، وما يضاف إليها من سلبه تعالى صفات كماله، ونعوت جلاله؛ فقد وقع الأشكال العظيم في التوحيد بأقسامه الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات. ونعوذ بالله من سوء الفهم والخذلان. الحق يقال:

إن هذه العقائد قد عظم ضررها، وقبح أثرها، وكان من نتائجها خروج جماهير المتعلمين على الطريقة الفنية عن دائرة دينهم، وافتتانهم بما عند غيرهم. فما هو العلاج الشافي من هذه الأدواء الفتاكة يا ترى؟ وكيف يعود الناس إلى عقيدة الإيمان بالله - على الوجه الصحيح الذي جاء به الإسلام وجرى عليه أهل الصدر الأول علماً وعملاً واعتقاداً؟

خاتمة

إني والذي جعل العلماء ورثة الأنبياء - لأعجب كل العجب ممن يقفون على تاريخ الإسلام وسيرة النبي عليه الصلاة والسلام وممن يعلمونها في المدارس، ثم يغفلون عن قضية من أهم قضايا التاريخ وأشدها ارتباطاً بعلم التوحيد وتأثيراً في تهذيب النشء الإسلامي بل الإنساني الحديث، وإنشائه صحيح العقل، سليم الفطرة، بعيداً عن كل لوثة وثنية أو جاهلية.

إن كل من أحاط بالسيرة النبوية وسيرة الصدر الأول للإسلام خبرا أنكر أشد الإنكار ما احدث الناس من البدع والجهالات والسخف والخرافات. وإني مورد طرفاً يسيراً من سيرة الصحب الكرام ولا سيما الخلفاء الراشدين الذين من تمسك بسنتهن نجا، ومن شذ عنها شذ في النار، لتكون لنا مناراً كمنار الطريق

بقى النبي - بأبي هو وأمي (ص) - قبل الدفن ثلاثة أيام والنزاع قائم بين الصحب الكرام على أمر الخلافة حتى بايعوا أبا بكر (رض) ولم يسألوا النبي (ص) عمن هو الأحق بها من بعده. وكانت وقعة الجمل بين أم المؤمنين وابن عمه أبي السبطين الشهيدين، وسفكت دماء عزيزة عليه (ص) ولم يستفتوه قبل القتال ولا بعده وهو دفين في بيت عائشة بين سمعهم وبصرهم. وجرت وقائع صفين بين علي ومعاوية، وكانت أعظم هولاً وأشد فتكاً، ولم ينقل أن أحداً منهم استنجد بالنبي أو استغاث به، أو سأله عن حكم هذه الحرب أو التي قبلها، كما انهم لم يسألوا شهداء أحد عليهم الرضوان شيئاً من ذلك وهم سادة الشهداء. وجمع القرآن في عهد الصديق، ووقع الخلاف أولاً في جمعه، ولم يستفتوه في ذلك، وكانوا يسألون النبي (ص) عن كل ما يعرض لهم من الأمور فصار يسأل بعضهم بعضاً، ولم يجيئوا فيسألوه في قبره (ص) وقال عمر: الهم كنا إذا أجدبنا نستسقي بنبيك محمد (ص) فتسقينا؛ والآن نستسقي بعمه العباس، فطلبوا الدعاء من عمه ولم يطلبوه منه كما كانوا يفعلون في حياته بينهم. وقال عمر: ثلاث مسائل وددت لو أني سألت رسول الله (ص) عنها، ولم يسأله عنها بعد وفاته. وكانوا يضربون أكباد الإبل من الشام إلى المدينة ليسألوا عائشة عن حديث سمعته من النبي (ص) فكانت تجيبهم ولم يسألوه وهو في بيتها. ومضت القرون الثلاثة المفضلة وكل طبقة كانت تسأل من فوقها وتسفتيهم، ولم يسألوا سيد الأنبياء ولا سادة الشهداء الأحياء عند ربهم (شهداء أحد) عن شيء.

هذه هي أعمال الصحابة (رض) حينما هاجمتهم الخطوب، واستعرت بينهم نيران الحروب، ووقعت لهم مناظرات كالمناظرة التي جرت بين الشيخين في قتال ما نعى الزكاة، وكالخلاف الذي وقع في إرسال جيش أسامة بن زيد الذي عقد لواءه النبي (ص) ليسير إلى بعض جهات الشام، ولم يسألوا النبي (ص) عن شيء من ذلك أحوج ما كانوا إلى سؤاله، وأحرص ما كانوا على العمل بمقاله، وكان (ص) هو الذي يقسم بينهم الأعطيات والمغانم، ويكون فيهم في الغزوات ويرسل منهم السرايا، ولم يقع

شيء من ذلك له بعد وفاته.
وجملة القول: أن النبي (ص) كان مرجعهم في الدين والدنيا في حياته، صاروا يرجعون إلى ما عرفوا من سنته بعد وفاته، وكل هذا معلوم من الدين والتاريخ بالضرورة، ومن العقل والحس والوجدان بالبداهة؛ ولكن مدرسي تاريخ المسلمين في الأمصار الإسلامية قد قصروا فيما يجب عليهم من البيان، وفي عدم الجمع بين حوادث التاريخ ومسائل الدين؛ والكتب الكلامية المذهبية المتداولة لم تبن العقائد فيها على قواعد الأدلة، ووصف ما كان عليه في القرون المفضلة أهل هذه الملة
وأنا قد أوردت في مقالي هذا شذرات من أعمال الصحب الكرام مقتبسة من هدى النبي الأمين ووحيه، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها كما قال مالك إمام دار الهجرة (رض)
قال رجال الدين والتاريخ والعلم الصحيح أوجه مقالي هذا راجياً أن يقرنوا العقائد الدينية بالشواهد التاريخية، رحمة بهذه الأمة، وليكون علم العقائد لدى الطلاب كسائر العلوم التي يطبق فيها العلم على العمل، لكي لا تضيع الثمرة المطلوبة من دروس العقائد والتاريخ التي يقضي الطالب في دراستها زمناً غير قليل، والله هو الموفق والمعين.
(دمشق)
محمد بهجة البيطار
خليل مردم بك
وكتابه في الشاعر الفرزدق
لأستاذ جليل
فخر الفرزدق
فخرنا فصدِّقنا على الناس كلهم ... وشر مساعي الناس والفخر باطله
وشعر الفرزدق في هذا الباب من حر الشعر وخالصه، ومن أحسن ما قال؛ يفحل) ويجزل، ويقوى ويشتد، ويطول نفسه ويتسع مداه، ويحسن التصرف ويجيد التأويل والاعتذار:
(ولا نقتل الأسرى ولكن نفكهم ... إذا أثقل الأعناق حمل المغارم
وللبيت حكاية رواها الأستاذ في الصفحة (20) من (الكتاب) ومما أورده له في هذا الباب:
إذا مت فابكيني بما أنا أهله ... فكل جميل قلتِ فيّ يُصدَّق
وكم قائل مات الفرزدق والندى ... وقائلة مات الندى والفرزدق
أولئك آبائي فجئني بمثلهم ... إذا جمعتنا (يا جرير) المجامع
وكنا إذا الجبار صعر خده ... ضربناه حتى تستقيم الأخادع
ورواية (المجامع) هي التي في الديوان وفي كتب اللغة والأدب، وذكر الزمخشري (الجوامع) في البيت، قال في الأساس: (وجمعتهم جامعة أي أمر من الأمور التي يجتمع لها، قال الفرزدق: أولئك آبائي. . .)
وأورد الأستاذ قول الفرزدق:
ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا ... وإن نحن أومأنا إلى الناس وقَّفوا
وروي عن أبي الفرج قصة تخبر بانتحاله البيت، وهو في شعر جميل، والظن أن شيطان الفرزدق الذي أوحى إليه (الفائية) أعطاه إياه. وفي هذه (العبقرية) يقول ابن غالب:
وما حل من جهل حُبا حلمائنا ... ولا قائل بالعرف فينا يعنف
وما قام منا قائم في نديِّنا ... فينطق إلا بالتي هي أعرف
وإني لمن قوم بهم تتقى العدى ... ورأب الثأى والجانب المتخوف
لنا العزة الغلباء والعدد الذي ... عليه إذا عد الحصى يتخلف
ولا عزَّ إلا عزنا قاهر له ... ويسألنا النصف الذليلُ فيُنصف
ومنا الذي لا ينطق الناس عنده ... ولكن هو المستأذن المتَنَصَّف
تراهم قعودا حوله وعيونهم ... مكسرة أبصارها ما تَصرَّف
وبنيان بيت الله نحن ولاته ... وبيت بأعلى إبلياء مشرف
لنا حيث آفاق البرية تلتقي ... عميد الحصى والقسوريّ المخندف

ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا ... وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا
وهذا البيت يبدو في أبيات الفرزدق أخاً حتماً لها وهو في أبيات جميل كأنه ابن عم كلالة. وروايته في شعر صاحب بثينة هي:
نسير أمام الناس والناس خلفنا ... فإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا
وإنه توارد الخواطر غير المستنكر، وإن كان قول الأخطل (نحن معاشر الشعراء أسرق من الصاغة. . .) لا ينكر
ومما يروى أفكوهة من الأفاكيه، وأضحوكة من الأضاحيك قول أبي هلال العسكري في كتابه (ديوان المعاني) وهو هذا: (وعند الناس قصيدة جميل أحسن وأسلس من قصيدة الفرزدق)
وأنا استعجب من أبي زيد محمد القرشي كيف لم يثبت فائية جميل مكان فائية الفرزدق في أول (الملحمات) في كتابه (جمهرة أشعار العرب)
الحق أن الأدباء قد يلفتون كلامهم وقد يهرئون بل قد يكفرون في الأحايين، وما قول العسكري هذا إلا من الكفر، والمختار من فائية جميل بثينة هو في الجزء الثامن من الأغاني، فليراجعه من شاء من الفضلاء ليرى كيف يجوز الحكم!
إن قصيدة جميل أحسن من قصيدة الفرزدق وأعظم منها وأفخم عند النسناس لا عند الناس. . .
ومن تخليط العسكري ما قاله في (كتاب الصناعتين) وقوله هو: (كان البحتري يفضل الفرزدق على جرير، ويزعم انه يتصرف من المعاني فيما لا يتصرف فيه جرير ويورد منه في شعره في كل قصيدة خلاف ما يورده في الأخرى، وجرير يكرر في هجاء الفرزدق الزبير وجعثن والنوار وانه قين لا يذكر شيئاً غير هذا. وسئل بعضهم عن أبي نواس
ومسلم فذكر (أن أبا نواس أشعر لتصرفه في أشياء من وجوه الشعر وكثرة مذاهبه فيه، ومسلم جار على وتيرة واحدة لا يتغير عنها) وأبلغ من هذه المنزلة أن يكون في قوة صائغ الكلام أن يأتي مرة بالجزل، وأخرى بالسهل، فيلين إذا شاء، ويشتد إذا أراد.
ومن هذا الوجه فضلوا جريراً على الفرزدق، قال جرير:
طرقتك صائدة القلوب وليس ذا ... وقت الزيارة فارجعي بسلام
تجري السواك على أغر كأنه ... بَرَد تجدر من متون غمام
فانظر إلى رقة هذا الكلام، وقال أيضاً:
وأبن اللبون إذا ما لُزَّ في قرَن ... لم يستطع صولة البزل القناعيس
فانظر إلى صلابة هذا الكلام!
وفحوى هذا الكلام أن ليس للتصرف في القول والتفنن فيه والإبداع قدر، وأن الشان كله في أن يلين القائل ويشتد أي أن ينسلخ العبقري من طبيعته التي فطره الله عليها ويتكلف الشدة أو اللين.
وقد روي ابن رشيق في (العمدة) قول البحتري الذي تهاون العسكري بجلالة خطره ثم قال: (فإذا كان هذا فقد حكم له (أي للفرزدق) بالتصرف، وبهذا أقول أنا وإياه اعتقد فيهما (أي في الفرزدق وجرير) وإذا لم يكن شعر الشاعر نمطاً واحداً لم يمله السامع.
وقول أبي هلال في لين القائل واشتداده أو في تليين الكلام وتصليبه ذكرنا بخطب في كتاب لا اسميه الآن كان صائغها يكد روحه وهو يصوغ كداً، ويزفر زفيراً، ويزحر زحير المرأة عند الولادة، ويدور ويجول ويقوم ويقعد. . . لكي تحاكي تلك الخطب المصوغة أقاويل الأولين السابقين فتجوز نسبتها إلى من عزبت إليه، وهيهات هيهات أن تجوز؛ إن تكلفها، إن تعملها، إن تصلبها، إن زخرفتها، إن فقدان الطبيعة فيها - فان كل ذلك ليصيح: قد صاغها صواغ. . .
هجا الفرزدق:
أني كذاك إذا هجوت قبيلة ... جدَّعتهم بعوارم الأمثال
وكنت إذا عاديت قوماً حملتهم ... على الجمر حتى يحسم الداء حاسمه
والفرزدق في هجائه واسع الفطن فسيح المدى كثير الفنون لا يقف عند حد في) مناضلة

خصمه، يذكر المخازي ويصرح بالمثالب، ويفحش ويتهكم ويختلق ويذكر العورات، ويخصب خياله فيحكم التشبيه ويجيد الاستعارة ويعرض على الأنظار صوراً شتى تمثل خساسة المهجو في نفسه وأهله وعشيرته من غير أن يزعه دين أو يردعه حياء.
وبراعة الفرزدق في هذا الباب وإحسانه - إن صح أن يسمى إحساناً - ومقدرته مجموعة في النقائض).
وقد اقتضى البحث أن يروي (الكتاب) شيئاً من هجاء الخبيث فأورد طائفة، منها هذه المقطوعة:
ولو تُرمي بلؤم بني كليب ... نجوم الليل ما وضحت لسار
ولو يُرمى بلؤمهم نهار ... لدّنس لؤمهم وضح النهار
وما يغدو عزير بني كليب ... ليطلب حاجة إلا بجارِ
ومن هجائه المشهور قوله في خالد بن عبد الله القسري حين ولي العراق، أورده (الكتاب) في سيرة الشاعر:
ألا قطع الرحمن ظهر مطية ... أتتنا تخطى من دمشق بخالد
وكيف يؤم المسلمين وأمه ... تدين بان الله ليس بواحد
أبلغ أمير المؤمنين رسالة ... فعجلْ هداك الله نزعك خالدا
بني بيعة فيها الصليب لأمه ... وهدَّم من بعض الصلاة المساجدا
قال الكامل: (كانت (أم خالد) نصرانية رومية. ويروي عنه فيما روي من عتوه أنه استعفى عن بيعة بناها لأمه، فقال لملأ من المسلمين: قبح الله دينهم إن كان شراً من دينكم. . .! وكان سبب هدم خالد منار المساجد حتى حطها عن دور الناس أنه بلغة شعر لرجل من الموالي موالي الأنصار، وهو:
ليتني في المؤذنين حياتي ... إنهم يبصرون من في السطوح
فيشيرون أو تشير إليهم ... بالهوى كل ذات دل مليح
وفي رسالة هشام إلى خالد يوبخه: (فيها زوال نعمة عنك وحلول نقمة بك فيما ضيعت وارتكبت بالعراق من استعانتك بالمجوس والنصارى وتوليتهم رقاب المسلمين وجبوة خراجهم وتسلطهم عليهم؛ نزع بك إلى ذلك عرق سوء من التي قامت عنك). ويروى أن
خالدا بني البيعة في ظهر قبلة المسجد الجامع بالكوفة، وكان يضرب لها الناقوس إذا أذن المؤذن. . .
(يتبع - الإسكندرية)
* * *
اورت (آلخَطَفَى) - في القسم الثاني - مشدد الياء، وهو مثل الجمزي كما ضبط ابن خلكان وكتب اللغة. وهناك (اجتزأ به) وهو: اجتزاء به. و (مجاله في الشعر) وهو ومحله. و (لطبع جريرا شبه) وهو: بطبع جرير و (فان اصبر قول الطهوى) وهو: فان أحبر
قد كان لي قلب!. . .
للأستاذ كامل محمود حبيب
هفت الشمس إلى المغيب، وخبا هجير الحر أو كاد، وأنا جالس في مقهى من مقاهي طنطا إلى نرجيلة أبسم لها وتبسم في هدوء، وبين يدي كتاب أنبذه بين الحين والحين، لأسرح النظر في هذا الناس، وهم يتدفقون زمراً إلى حيث يتنسمون روح الجنة بعد إذ هبت عليهم زفرات الجحيم تحبسهم في الدور ساعات طوالاً.
ما لهذا الفتى هنا في غير داره يمشي وحيداً، يثاقل في مشيته، مطرق الرأس، مقطب الجبين، ساهم النظر؟ أنه يتراءى لي كان وقدة الشباب التي كانت تتسعر في قلبه قد انطفأت وهو ما يزال عند الثلاثين، وكأن نزوات قلبه قد عبثت بها يد الأيام فاستحالت إلى ما أرى: إلى هم وكمد، أو هو يرزح تحت عبء ثقيل ينوء به.
عرفته وعرفني منذ سنوات وسنوات، وقضينا معاً عمراً من العمر كان لذيذاً حلواً، وكان هو - كدأبه أبداً - روح الجماعة الطروب، والضحكة الخالصة الرنانة، والنكتة الحاضرة الجميلة و. . . فما بالي أراه اليوم فيما أرى؟ لعل حدثاً من حوادث الأيام قد انحط عليه فسلبه رواء الشباب وبهاء الحياة.
وتعلق بصري به وهو يسير إلى غايته لا يرفع رأسه ولا يلتفت يمنة ولا يسرة، كأن شيئاً

في هذا الخضم المضطرب حوله لا يعنيه؛ وأنا على خطوات منه لا أستطيع أن أناديه، وفي الصوت بحة، والنفس إلى لقياه مشوقة بعد سنوات من فراق أرغمتنا عليه دواعي العيش.

!يا عجبا! لقد مستني روحه الحزينة، فوجدت لذع الأسى في قرارة نفسي وناديت الندل عله يرد صاحبي إلي.

ورآني الفتى فتبسطت أسارير وجهه هوناً ما. وأقبل فسلم وسلمت، ثم جلسنا في صمت أنا إلى نرجيلتي، وهو إلى خواطر نفسه. . .

وألح علي الأسى والعطف في وقت معاً. فاستلباني من لذاذات كنت أجدها في الكركرة وفي الكتاب وفي النظر إلى هذا الناس. فالتفت إليه أقول: (أهكذا أنت؟) قال: (نعم، يا صاحبي، قد كان لي قلب فضيعته!). . . وترقرقت في محجريه عبرات مكفوفة تريد أن تجد لها منفذاً. . . فشملني حزن عميق ودهشة، وأنا أعرفه زوجاً، وأعرفه في أيام لهوه لا يحجم في إباء، ولا يندفع في طيش. ثم قلت في لهفة: (وكيف. . . كيف)؟!

قال: (أما القصة فهي قصة قلبي. . . قلبي أنا، فهو قد القي بي في مضلات تتقاذفني، فلا أجد منها الخلاص). ثم سكت سكتة حزينة وكأنه يلم شعث تاريخ أيامه، أو كأنه يصارع في نفسه أمراً فيه الشجن والألم). . . ثم قال: (عرفتها فيمن عرفت، فتاة كطفلة بضة، فيها الجمال وفيها الأنوثة؛ ولمست فيها أشياء جذبتني إليها. فاندفعت إلى جانبها في طريق لا يثلم الشرف، ولا ينحط بالكرامة، وهي تبادلني غراماً بغرام، وعطفاً بحنان! وذهبت أتلمس السبيل إلى دارها، بين الفينة والفينة فلا تعوزني الحيلة. وكيف، وأخوها شاب في مثل سني؟!)

وتصرمت أيام وأيام، وشيطان الهوى يشب في قلبي وقلبها في آن. فلا نفترق إلا (وفي ذات صباح كتبت إلي: (أفرأيت بالأمس وأنا !(على ميعاد، ولا نتلاقى إلا على شوق أسير إلى جانبك في شارع. . . لقد رآنا واحد من أصدقاء أخي الأكبر الذين شبوا معه منذ الطفولة، وتعلقت حبال قلبه بدارنا. فحمل إليه خبر فضيحتي في غير تحرج. . . وأقبل أخي والشرر يقدح من نظراته، وهو يتوثب غضباً وحنقاً!. . . وراح يفرغ لعناته على رأسي أنا، فبت بأسوأ ليلة؛ وهكذا أصبحت غرضاً يتندر به القوم ويسخرون منه. . . هذه حياة نارية ضيقة تنذرني بويلات العيش وعار الفضيحة. . . لا أطيق الصبر عليها إلا أن تمدني بيد منك قوية، أو بلفظة رشيدة! أنت وحدك تستطيع أن تتفل على هذا السعير الملتهب فيحور رماداً. . .!)

!!(وانكشف أمامي ما أرادت، فرحت اقلب الأمر فما أهتدي إلى رأي)

وفي المساء جاءني حديثها: (. . . تلك أذن أنانية الرجل، يلهو ما انفسحت أمامه طرق اللهو، وعبث فنوناً من العبث؛ فإذا جد الجد خرج من إنسانيته، وألقى بالتي أحب في تنور يتلظى، وطار هو آمناً إلى حيث يلتقط الحب. . .!)

واضطرب قلبي لهذه الكلمات القاسية! فطرت إلى أخيها - في غير أناة ولا روية - أسر إليه بأمر، فبدت على وجهه سمات الهدوء والطمأنينة. ثم انطلقت وفي نفسي أن الأزمة قد تفرجت على حين لم أخسر أنا شيئاً.

وغدا أخوها إلي، وفي رأيه أن آصرة أخرى قد ربطت بيني وبينه، فدفعته في هوادة، وانطويت عنه في رفق.

وغبرت زماناً لا أوصد الباب دونه، ولا ألين لكلماته، والفتاة تستحثني إلى أمر، والقضاء من ورائهما يدفعني إلى غاية.

!وعلى حين غفلة مني ألقيت إلى أهلها السلم، فإذا أنا زوج للمرة الثانية

وتناهى الخبر إلى زوجتي الاولى، ففزعت إلى أهلها، وفي أحشائها بضعة مني، وخلفتني ونزوات قلبي.

ودخلت زوجتي الثانية داري ترف رفيف الأمل الحلو، تملأ الدار والقلب جمالاً وبهاء، فسكنت إليها وسكنت هي

وسيطر علي الهوى، فران على قلبي. فلم يدعني أفكر فيما اقترفت من جرم جرته الغواية العمياء على زوجتي الأولى وعلى أبني جميعاً. . . فاندفعت لا ألقي السمع إلى صيحات هذا الطفل، ولا أبالي بآلام الزوجة المسكينة، ولا أعبأ بوخزات الضمير.

وقابل أهل زوجتي الأولى حماقتي بلطف، وجهلي بحلم، وغوايتي بكرم، وجنايتي

بإحسان!. . . على حين كانت الزوجة الثانية تسعد إلى جانبي، وتبذل غاية الجهد في أن تسيطر على قلبي جميعه لتسدل بيني وبين زوجتي الأولى وأبني ستاراً كثيفاً من النسيان، وتستحث الأيام لتغريني بأمر.

وهب القلب من رقدته بعد سنوات ثلاث، فانطلقت أريد أبني وقد فقدته منذ زمان، فما أبت الزوجة ولا استعصى ذووها فإذا أبني بين يدي المح فيه أيام طفولتي: أداعبه فيبتسم، وألاطفه فيضطرب، وأضمه إلى صدري فيتعلق بي. وكأنه يقول: (أين كنت يا أبي؟ لا تذرني هنا يتيماً، فاستشعر الذل والمسكنة، وأنا ما أزال طفلا يحبو) فخرجت من لدنه وفي رأسي عاصفة هوجاء ما تستقر!

آه! لقد زعمت أن قلبي يطمئن حين أخلص إلى أبني وزوجتي وهأنذا قد طرحت التي أحب فطرحت معها قلبي. . . آه! يا صاحبي، لقد كان لي قلب فضيعته وأنا الآن - كما ترى - أضرب في أرجاء الأرض وحدي لا أجد القرار ولا استمتع بالحياة. لقد خيل إلي أن المرأة سلعة فإذا هي راحة القلب وبهجة الدار وجمال الحياة، فأين أجد السلوة يا صديقي؟

وأردت أن أرفه عن صاحبي بعض ما آلم نفسه فتدفقت عبراته وهو يقول: (لا تحدثني الحديث فتهيج من أحزاني. إن في النفس حسرة وفي القلب جرحاً ما يندمل، وفي. . . وفي عيني عبرة ما ترقأ. ويْ كأن القدر أراد أن يقتص مني مرتين مثل ما جنيت مرتين!)

كامل محمود حبيب

من الأدب الألماني

محاورة عن الألمان

لهاينرش كلايست

بقلم الدكتور جواد علي

الشاعر الألماني كلايست (1777 - 1811) من أشهر المجددين في عالم الأدب الإبتداعي ومن أساطين (الدراما) في عصره. أدخلت معظم قطعه الأدبية إلى عالم التمثيل والأوبرا. ولعل القراء الذين أتاحت لهم الفرص زيارة (دور الأوبرا) وخصوصاً الألمانية منها قد شنفوا أسماعهم واطلعوا على مغزى قطعه الخالدة مثل: أمير هومبرك (برنس فون هومبرك) و (هينا فون بارنهايم) وعائلة شروفنشتاين (فميليه شروفنشتاين).

على أن الحروب النابليونية الألمانية (البروسية منها والنمساوية) قد حولت اتجاه أدبه إلى اتجاه آخر هو الاتجاه الوطني السياسي الحماسي فاصبح شعره منذ هذا العهد من نوع الأخذ بالثار (راخة كقصيدة كرمانيا إلى أطفالها. ومعركة هيرمان (هيرمان شلاخت). وفي القطعة الخالدة (محاورة عن الألمان، التي الفت على الطريقة الأسبانية للأطفال والكبار) أمثلة محسوسة عن هذا الأدب الراقي والوطنية الألمانية. وقد ترجمت إلى لغات كثيرة لذلك رأيت ترجمتها إلى قراء الرسالة.

س - تكلم أيها الطفل من أنت؟

ج - أنا ألماني

س - ألماني؟ أنت تهزل. ولدت في مايسن. والأرض التي تتبعها مايسن تسمى زاكسن؟

ج - ولدت في مايسن. والأرض التي تعود إليها مايسن تسمى زاكسن. ولكن وطني، الأرض التي تتبعها زاكسن هي ألمانيا وولدك يا أبت هو ألماني.

س - أنت تحلم! أنا لا أعرف أرضاً تتبعها زاكسن، لعلك تعني حلف بلاد الراين. أين أجد ألمانيا هذه التي تتكلم عنها وأين تقع؟

ج - هنا يا أبت لا تشوش علي

س - أين؟

ج - على الخارطة

س - نعم على الخارطة (خارطة سنة 1805) هل تعلم ماذا حدث في سنة 1805 حين تم عقد صلح برسبرك؟

ج - نابليون، القيصر القورسيقي، خربه ودمره بعد الصلح بظلمه وجبروته.

س - والآن؟ ومع ذلك فهل هو موجود؟

ج - بكل تأكيد! ما هذا السؤال؟
س - مذ أي وقت؟
ج - مذ نهض فرانس الثاني قيصر الألمان القديم لبناء ما خرب، ومذ نادى الشعب قائده الشجاع للانضمام إلى لجيش الذي يقوده لإنقاذ الوطن وتحريره.
عن حب الوطن
س - تحب وطنك أليس كذلك يا ولدي؟
ج - نعم، يا أبت ذلك ما أحسه طبعاً
س - لم تحبه؟
ج - لأنه وطني
س - أنت تعني لأن الله بارك فيه بالأثمار الكثيرة وزينه بقطع نادرة من الفنون الجميلة، أو لأنه اظهر أبطالاً ورجالاً وأنجب حكماء زينوه ممن ليست لأسمائهم نهاية.
ج - لا يا أبت إنك تغويني.
س - أنا أغويك؟!
ج - إذاً فروما وريف مصر اللتان بوركتا كذلك بالأثمار وبالقطع النادرة من الفنون، وبجميع ما هو عظيم وكبير كما علمتني، أعظم بركة من ألمانيا. ولكن لو ساق القضاء والقدر ابنك إلى السكنى هناك لشعر بالانقباض وعدم الارتياح، ولما أحس بالحب لهما كما يحس لألمانيا.
س - إذاً فلم تحب ألمانيا؟
ج - لقد أجبتك يا أبت
س - أجبتني؟
ج - نعم لأنها وطني
عن تربية الألمان
س - ما هي حكمة الله يا بني في صب غضب نابليون على ألمانيا وإقلاق راحة الألمان؟
ج - لا علم لي بذلك
س - لا علم لك بذلك؟
ج - نعم يا أبت
س - وأنا أيضاً، ولكني أوجه سهام تفكيري نحو السماء فأن أصبت ربحت، وإن لم أصب لم أخسر. أتعيب ذلك علي؟
ج - كلا يا أبت
س - لعلك تقول ذلك لأنك تعتقد أن الألمان في قمة الفضيلة والمجد كما تكون الأشياء بعضها أرفع من بعض
ج - أبداً يا أبي
س - إذاً فقد كانوا على الأقل يسيرون دائماً في الطرق المستقيمة للوصول إلى ذلك؟
ج - لا يا أبت، ليس ذلك أيضاً.
س - عن أي الابتذال تحدثت إليك؟
ج - عن الابتذال؟
س - نعم عن الابتذال الذي يلتصق بأبناء هذا الجنس.
ج - كان إدراك الشعب الألماني كما ذكرت لي قد أزهر. وكان العلماء الأذكياء يعكسون ما ينعكس عليهم، وينتجون من ذكائهم، ولكن تلك القوة السحرية وتلك العاطفة القلبية قد ذهبتا
س - ألا تجد أن الابتذال ينطبق على أبيك الذي يجادلك أيضاً؟
ج - نعم يا والدي العزيز.
س - أين تكون الأثرة وأين تكون المحبة؟
ج - الأثرة تكون في حب المال والمتاع؛ أما المحبة فتكون في الاشتغال بالتجارة والحركة، حيث يتصبب العرق من الجبين، ويعيش المرء عيشة هادئة متزنة بلا هم ولا غم.
س - إذاً لم هذه المسكنة التي ضربها الله على هؤلاء الناس فخربت الأكواخ وتلفت

المزارع؟
ج - كي يحتقر هؤلاء متاع الدنيا ويهرعوا إلى الله فيتقربوا إلى أعظم سلطان مهيمن على العالم: وهو الله
س - ما هي أعظم مقدسات الإنسان؟
ج - الله والوطن والقيصر والحرية والحب والإخلاص والجمال والعلم والفن
عن الخيانة
س - ما هو ذنب من خالف أوامر الأمير كارل ونداءه الذي أذاعه على الشعب أو عارضه بالقول أو الفعل؟
ج - الخيانة العظمى يا أبت
س - لماذا؟
ج - لأن الشعب الذي ينتمي إليه هذا الخائن سيفسد
س - وما الذي يجب أن يفعله إذا أولئك الذين خانوا الوطن وانضموا إلى صفوف الفرنسيين لإذلال الألمان؟
ج - يجب عليهم إلقاء السلاح حالاً والالتفاف حول الرايات النمساوية
س - وإذا لم يفعل أحد منهم ذلك بل ظل يحمل السلاح فما يكون نصيبه؟
ج - الموت يا أبي
س - ولكن من يستطيع وحده أن ينقذه من هذا الموت؟
ج - عفو فرانس، قيصر النمسا وحامي الألمان
الخاتمة
س - أجبني يا ولدي. إن نهض قيصر ألمانيا النبيل إلى استعمال السلاح لينقذ حرية الألمان، ولكن الأقدار لم تساعده على ذلك: إلا تنهال عليه اللعنات والأصوات قائلة: لم قام القيصر بذلك؟
ج - لا يا أبي
س - لماذا؟
ج - لأن الله هو الحاكم المهيمن على العالم لا القيصر. فليس في يد القيصر ولا في يد أخيه كارل مشيئة تمكنهما من كسب المعارك متى يشاءون.
س - ودماء الآلاف من الناس، والمدن التي هدمت، والأرض التي خربت، تذهب كل هذه عبثاً؟
ج - نعم يا أبي مع ذلك؟
س - ما معنى مع ذلك؟ حتى ولو هلك جميع من في الأرض من رجال ونساء وأطفال. فهل تحبذ أنت الكفاح؟
ج - نعم يا أبي مع ذلك
س - لماذا؟
ج - لأن الله يريد ذلك. يريد الموت في سبيل الحرية
س - وما الذي يراه الله قبيحاً؟
ج - حياة العبودية.
جواد علي
خريج جامعة هامبرك بألمانيا
الجبر والاختيار
في كتاب الفصول والغايات
(مهداة إلى الأستاذ محمود حسن زناتي)
للأديب السيد محمد العزاوي
- 2 -
(وقول الحق أمثل من السكوت، واستقامة العالم لا تكون، ولذة الدنيا منقطعة، وخبر الميت غير جلي، ألا انه قد لقي ما حذر، فاسع لنفسك الخاطئة في الصلاح).
هذه الفكرة مسيطرة عليه في كل الكتاب. هو مؤمن بها إيماناً عميقاً جاء من تنزيهه الله عن العبث واللهو، وهو أصل يقرره في اللزوميات كثيراً:
أرى فلكاً ما زال بالخلق دائراً ... له خَبرٌ عنا يُصانُ ويُخبأ
وهو يبحث عنها بوسيلته هذه فلا يهتدي إليها، فكل ما كان للمعري من اضطراب أو

حدة فإنما منشؤه هذه الحكمة المعماة عليه. هو يقرر بأن الله (يقدر أن يجعل الإنسان ينظر بقدمه، ويسمع الأصوات بيده، وتكون بنانه مجاري دمعه، ويجد الطعم بأذنه، ويشم الروائح بمنكبيه، ويمشي إلى الغرض على هامته. . .) ثم هو يعترف بان (. . . ذلك في القدرة يسير) ولكنه يتساءل عن حكمة الله في هذا النظام، وهذا النوع من الخلق، ولم كان هذا ولم يكن ذاك؟ وهو يرى أن (مؤتي الملك ملكه قاصر الصعلوك على عدمه، وكاسي الجميل حلة الجمال، هو سالبها القبيح. . .، فبيد الله العطية والحرمان) وهو يرى (أن الفقير خص بالتوقير) ولكنه لا يدري لماذا فيقول: (والله العالم لم ذاك). فهو يتساءل على أي نظام كانت هذه العطية وذاك الحرمان، وعلى أي اعتبار خص الفقير بالعبء الثقيل، ما سبب هذا التفريق في المنزلة والرزق (والناس بنور رجل وامرأة) وينتهي إلى تلك الحال من استسلام الحائر: (ومن عند الله قسمت الحدود).

تواق لمعرفة هذه الحكمة المعماة عليه، يطلبها ويجد في الحصول عليها، فإذا ما ظن انه قد أوشك أخلفت ظنونه الحكمة الإلهية وخذلت عقله. وليس أدل على حاله تلك من وصفه نفسه: (إنما أنا كرجل بلي بالصدى، لا يجد ورداً ولا موردا، فهو ظمآن أبداً، أن ورد غروفاً، وجده مصفوفاً، وأن صادف نزوعاً أعوزته الآلة والمعين، فبينا هو كذلك هجم على رجل ينزع بغرب، فشكا إليه فرط الكرب. فقال: ريك إن شاء الله قريب فأعني على انتزاع المروية، فلما كان الغرب بحيث يريان غدرت الوذم، وخان العناج).

حائر والحيرة توجب عليه الحذر والاحتياط. فهو ليس على بينة مما يراد به وبالكون، فهو إذا قال: (ما أنشأك ربك لعبث)، واثق أنه لم يخلق لعبث، وإن لم يستبن وجه الحكمة في هذا الإنشاء، فهو يحتاط ويحذر مما قد يكون من أمر هذه الحكمة فيقول: (أنا عن القبيح والرفث، وسبح في النهار والملث) وهو يصرح بأن: (الحازم الذي لا يأبس، يمجد الله ويقدس، وبغير طاعته لا ينبس، لعل الأجل يدركه من أهل الصفاء). أما ما دون ذلك فهو لم يجزم بشيء أبداً. فطبيعته تقتضي إلا يكون هناك يأس، وهي كذلك تقتضي أن لا ثقة؛ وإنما هو يقول: (أحسنوا إملاءكم جماعة الملأ، فسوف ينفد العدد ولو أنكم الرمال، وتخبو النار ولو هجم على لهبها النجوم، وتخف بكم النوب ولو أنكم الجبال حلوماً، الظالم بئس ما فعل، والمظلوم ضعيف مهتضم. فسعد امرؤٌ لا ظالماً وجد ولا مظلوما). فهو لا يأمن لشيء ولا يثبت شيئاً، وإنما يأمرك بالحيطة والحذر لأنه لا يدري يقيناً مما يراد به شيئاً، ولا يشك فيه شكاً صريحاً. فإذا ما كان الله حكيماً، وهو ما يقرره المعري تقريراً، وإذا ما كانت حكمته خافية فالخير للإنسان أن يحذر ويحتاط. وهذا الحذر والاحتياط لن يحصلا إلا بالعبادة والنسك والتطهر والتحلي بالفضائل؛ ولكن ما هي هذه الحكمة؟ ما شأنها؟ لم أجرت أموراً على وجه دون آخر؟ لم تسخر من كفاح الإنسان وتفرض عليه ما تريد! لم لا تعدل بين المخلوقات: بين الإنسان والحيوان والجماد، بل بين الإنسان والإنسان، والإنسان والحيوان والحيوان؟ على أي أساس بنت أحكامها هذه؟ هو لا يدري من كل ذلك شيئاً فيحار حيرة تأتيه من رفضه رفضاً شديداً أن يكون العالم ليس بذي حكمة، وأن يسير إلى غير غاية والى غير غرض، ويرمي إلى غير قصد.

وأبو العلاء مؤمن بأن هذه الحكمة تنظم الكون، وتسيطر عليه سيطرة لا تدع لقوة ما أن تمد هذه السيطرة (فرب نطف. . . يعطف إلى الخير فلا ينعطف، وكيف ولم يأذن خالقه بانعطاف) أو تحول من حكمها شيئاً (فيأيها الجامح لا يغنيك الجماح، المالك اضبط لك من عائشة لما وقع في النزوع، جل عن التشبيه والقياس في لجامك أظراب كالظراب) وأنها تنظمه نظاماً آلياً قوياً لا يشذ، ولا يحيد؛ فإذا ما أدرك ذلك صرح: (قد فررت من قدر الله فإذا هو أخو الحياة، هل أطأ على غير الأرض، أو أبرز من تحت السماء؟! أد لجت فأصبح أمام المدلجين، وهجرت وهو مع المهجرين. قال وعرس مع القالة والمعرسين). فلا يمكن للمرء أن يحيد عما يراد به، فهو مجبور على ما يأتي من أفعال (والمرء يقدر ولغيره الأمور، يحسب انه يملك ويحوز، كذب! لله النفوس)، وليس أصرح من هذا النص ولا أدل في بيان فكرته: (إنما أنا فرير في ريق. قد أعدت له المدية، ينتظر به أمر الملك فتجري الشفرة على الأوداج) وإن ذلك ليزعجه، ويقلق

خاطره فيقول: (شغلني عن النسب، وقول في النسب، أني أسلك من الحمام نيسباً، أذهب النوم وأطال الأرق واقل رغبتي من الشرف أني لا أجد عن ذلك مذهباً (أينما تسيروا يصحبكم الله كما صحب من كان قبلكم، وله من العلم عين علنكم، وإن تصبحوا وراء شق الثعلب فالقدر معكم، لا فرار من قضاء الله) فهو يوصي بعد ذلك أن (اصطبروا على ما حكم إنه واعي الكلمات) و (دع الأقدار وما تريد فأنها لا تصرف على اختيار المخلوقين. واعلم أن رزيتك لا تهجم على أحد إلا عليك) و (من عند الله سعد المجدودين) و (الشر على جبهة فاعله موسوم) و (ربك أولوع بالأنفس غرامها) فهو يستكين، ويستسلم استسلاماً شديداً حين نضرب مثل القطاة التي (تنزل إلى شرك الوليد، وهي فرحى بما لاح لها من الرزق، فيؤول أمرها معه إلى أحد ثلاثة أشياء: سمطٍ مزعفٍ، أو سجنٍ حرجٍ، أو عذابٍ مبرحٍ، فأمس بما فعل ربك راضياً).

هذه الفكرة تقوم من فلسفة المعري في (الفصول والغايات) مقام الوزن في القصيدة. فهو خفي ولكنه يحكم القصيدة فلا يخرج عليه بيت أو جزء من بيت. وهي قطب تدور حوله الأفكار بمعانيها المختلفة وألفاظها المتباينة. فكل تفكير المعري إذن يدور حول هذه الفكرة أياً ما كانت صوره ومعانيه وألفاظه. فإذا ما نظر في المجتمع فمن وراء هذا المنظار؛ وإذا ما شمل الكون بتفكيره فعلى هذا الهدى. وهو قد يصطنع من الأساليب الغريب، ومن فنون الكتابة ما يصرف المرء إلى ظواهر الأشياء؛ ولكن الأمر لا يزال عندما قررت من قبل. فلو تخطينا حاجز الظاهر المختلف ألوانه وصوره، ونفذنا إلى ما وراء هذا الظاهر لألفينا الأمر منضبطاً يدور على ما وصفت، لا يكاد يشذ عن ذلك بشيء إلا ما أملته التقية حيناً، وفرضته الأهواء السياسية حيناً، وأوحى به عبث النفس حيناً آخر.

وتفكير أبي العلاء في الجبرية يتخذ صورتين غير متباعدتين إلا تباعد الشيء عن مظهره، فهما يبحثان في الكون وأحد مظاهره وهو الاجتماع.

وأول ما يشغله في الاجتماع الأرزاق (والأرزاق عجب يقسومها) إذ أن الرزق لو أن له (لساناً هتف بمن رقد، أو يداً لجذب المضطجع باليد، أو قدماً لوطئ على الجسد، لا يزال الرزق مرنقاً على الهامة ترنيق الطير الظماء على الماء المطمع، فإذا صفر من الروح الجثمان، صارت تلك الطير نباديد)، (فأرد من حيث شئت ولا تبل، أمن واد أتاك الرزق أم من جبل. فان ألطاف الله طارقتك من كل أوبٍ) وهو يدعوك إلا تحزن، ويؤكد لك أنه (ليأتينك رزقك ولو جمع من أشتات).

وهو يلاحظ إلى ذلك أن من الناس من لا يعمل ولا (وذلك بقدر الله لا بسعي الساعين) يجد ولكنه يظفر بما يظفر به ذلك العامل المجد (الله علم بعارٍ خرص، ضيق رزقه وإن حرص، وآخر تغدو عليه منعمة بيضاء، قطعت إليه الفضاء) فهو يرى أن كثيراً منهم يبذل جهداً كبيراً فلا يظفر بشيء (فالموفق أين اتجه غانم، والمجدود أين يقع لا يظفر بالنجاح) وأنه ربما عس جد، فأتاك بعسجد، وأنت هارج الأحلام.

فهو يلحظ في كل هذا أن الرزق ميسر لك (ما سعت فيه القدم ولا عرق الجبين) وهو يردد ذلك المعنى في اللزوميات كثيراً.

سبب الرزق للانام فما يُق ... طع بالعجز ذلك التسبيبُ

وهو يلحظ أن هذا التسيب يجري في عسره ويسره على قواعد خفية غير مفهومة:

جدَّ مقيمٌ وخابَ ذو سفرٍ ... كأنه في الهجير حرباء

أقضيةٌ لا تزال واردةً ... تحارُ في كونها الألِبَّاء

وهو يلحظ إلى هذا إرادة علوية تسخر من محاولات البشر وتقديرهم (فالمرء يقدر ولغيره الأمور، يحسب أنه يملك ويحوز. كذب! لله النفوس).

ولم يقتصر بفكرته هذه على الإنسان وإنما شمل بها الحيوان من ناحية الرزق والمقدور معاً. أما من ناحية المقدور فهو كالإنسان تجري عليه الأقدار - غامضة مبهمة - لا يدله فيها أو علم له بها فيدرأها. فالمخلوقون جميعاً (يحيدون من خطب إلى سواه والحمام ساقة جيوش الخطوب. ما ألطف صانع الظبية تنظر بجنحي ليل، وترفع هدال الشجر بقضيي

ظلام، وتلبس حلة الوبر وتطأ على مثل المحار، أغلقتها أمس الحبالة فخلصت بالجريض، وصادفتها في اليوم ضراء المكلب فكاد إهابها ينقذ عن قلب مروع، وسلمت بعد الشد المحيص، وفي الغد تنتظمها بعض سهام المرتمين، فلم يغنها الفرق من

الأحداث). وهو يسوي بين الحريص والأخرق من الحيوان والإنسان في المقدور (ما خشف ذو خرق وقع في حباله آبق، فنشق أشد النشق، أعيا بخلاصه مني بالخلاص).
ومن ناحية الأرزاق كذلك تجري عليه في نفس الغموض الذي تجري به على الإنسان: تيسر للظلم الحص وإن سعد فالهبيد، فينمو على الحص والهبيد؛ وتخص الإبل بالسعدان، فيغذو الإبل هذا السعدان، وكذا الخيل تنمو باليعضيض. ثم إن الحمار لا يكاد يصبر على عطش والظبي طويل صبر على العطش، فهو يسجل هذا جميعاً ويتساءل لم خصت الطبيعة هذا بذاك ولم تخصه بغيره، ولم لم ينتقل الظليم إلى المراعي والأرض (الغراء المتألقة) فيسعد بالعشب والنبات؟
أذن فالحيوان كذلك لا تسير عليه الأرزاق حسب قاعدة مفهومة. فنحن لا خيرة لنا أذن في تقبل هذا ورفض ذاك، لا خيرة لنا في كسبه وملاءمته للطبع والانتفاع به.
فهو يكل الأمر جميعاً إلى نظرية الجبرية والجبر المطلق الذي لا تقيده إلا هذه القيود التي لا يتبين أبو العلاء علام كانت وبأي حكمة بنت أحكامها في العطاء والمنع، في الخفض والرفع. وعلى ذلك فهو لا يلوم المجتمع من هذه الناحية، ما دام الناس ليس لهم بما يجري بهم يدان، وليس لهم في أرزاقهم تصريف. أذن فما يكون من فروق بينهم بنيت على هذه الأقدار والأرزاق فهي تافهة وليست بذات خطر ولا أهمية.
ونحن إذا وصلنا إلى هذه المرحلة من تفكير أبي العلاء نجد أنفسنا أمام رجل يثور دواماً على المجتمع ونظامه، يعدد آثامه وأخطاءه يائساً من إصلاحه والسير به إلى الخير والعدل والأمان، حامداً فلسفته التي ألهمته الاعتزال (فإن الوحيد في العالم لا يلحقه عيب من سواه)، ويدعو إلى إصلاح بالتعاطف والتراحم والمودة.
وثورته على النظام الاجتماعي نتيجة مباشرة لآرائه الجبرية. فهو كما قلت لا يريد أن يبني أحكاماً على أشياء سبق بها القدر فهي خارجة عن حدود تصريف البشر: لا يريد أن يرفعك المال أو فضل أتاك به الجد والمقدور، وهو لا يريد أن يحقرك لفقر لم تكن لك به يدان
واعيي الحيلة تحايلك عليه. هو لا يريد أن يسلك هذا المسلك الذي سلكه كل الناس وعليه بنى المجتمع أحكامه. فهذه المقادير تجري على نظم لو كانت بيد الخلق لغيرتها تغييراً يقلب من هذه الأوضاع التي جعلت الفاجر مجتبي والفاضل مهضوم الحق معدماً. ثم (إن الناس بنو رجل وامرأة، ما أدنى المؤتشب من اللباب). فأيا ما كان الاختلاف بين الناس فهو لن يخرجهم عن الجنس ولن يقوم بينهم وبين أن ينتسبوا جميعاً إلى صفات مشتركة عامة، و (الناس في عدل الله سواء، هم سواء رغم اختلاف طبقاتهم وأوضاعهم الاجتماعية وتقدير المجتمع لهذه الاختلافات والأوضاع. فمجيئنا إلى الحياة واحد، وخروجنا من الحياة واحد كذلك. وما دمت ستنتهي إلى غاية تستوي فيها الناس جميعاً، مهما تكن أوضاعهم الاجتماعية، فجدير بك أن تخفف من التغالي، وإلا تسرف فيما بينك وبين غيرك من فروق حكمت بها الأقدار وقدرتها تقديراً، وجدير بك أن تعطف على الفقير وأن ترأف به: (فمن ذخر جميلاً وحده عند الله) ولا أحد (بالشح أمرك وعلى الدنيا أمرك) من؟ (أخالقك الذي صورك؟ كلا. وعظمته لقد أنذرك!)
هذا نظر أبي العلاء في ظاهرة من ظواهر الكون، فأما نظره في الكون نفسه، فهو امتداد لتلك الفكرة أو أصل لها على وجه أصح.
(للبحث صلة)
السيد محمد العزاوي
التاريخ في سير أبطاله
أحمد عرابي
أما آن للتاريخ أن ينصف هذا المصري الفلاح وأن يحدد له مكانه بين قواد حركتنا القومية؟
للأستاذ محمود الخفيف
لم تطل حيرة توفيق فانه آثر جانب ماليت وخطا بذلك خطوة أخرى من خطواته التي كانت تعجل سير الحوادث أبداً نحو الغاية التي رسمها الإنجليز والتي كان الوصول إليها معناه التهام مصر وازدراد تلك اللقمة التي طالما منت إنجلترا نفسها بازدرادها.
ولعلنا نذكر من مواقف توفيق السالفة ما كان يدفع به الحوادث في طريق العنف والثورة دفعاً، فهو الذي أدى إلى انضمام الحزبين العسكري والوطني وتضافرهما يوم

تنكر للدستور وأخرج شريفاً من الوزارة وهو الذي تقع على عاتقه قبل غير مسؤولية مظاهرة عابدين ثم هو الذي قبل المذكرة المشتركة فأحبط أعمال شريف للمرة الثانية وصدم الوطنيين صدمة لم تدع لهم بعد رجاء فيه.

وليس بعجيب أن تكون خطى توفيق كلها مفضية إلى الاقتراب من الكارثة فإنما كان يعمل بوحي من الإنجليز وهؤلاء قد عينوا الهدف الذي يقصدون إليه بسياستهم؛ وكان الخديو قد دان بمبدأ نحسب أنه جرى في نفسه مجرى العقيدة، وذلك أن يؤثر جانب الإنجليز في كل شيء لأن في ذلك كما توهم منجاته من الصعاب التي كانت تحيط بعرشه.

رأى الخديو كما رأى ماليت أن حكم المجلس العسكري على المتآمرين من الجراكسة حكم جائر لا يسعه الموافقة عليه، ورأت الوزارة من جانبها أنها سلكت في المسألة منذ بدايتها مسلكا لا غميزة فيه فهي بذلك تتمسك بالحكم الذي أصدره المجلس، هذا إلى أن رفض الحكم من شأنه أن يضيع هيبتها وينتقص نفوذها ثم إنها فوق ذلك ترى التحيز واضحاً من جانب الخديو ذلك الذي كان يتشدد بالأمس أعظم التشدد يوم سبق عرابي وصاحباه إلى المحاكمة لمجرد أنهم شكوا إلى أولياء الأمر حالهم. . . ومن هنا قامت أمام البلاد مشكلة من أدق المشاكل وأخطرها.

وكان الذي يغضب الأمة والوزارة في الواقع أشد الغضب وآلمه تدخل الإنجليز في تلك المسألة التي لا صلة لهم بها ولا شبه صلة، وأحست الوازرة أن غرضهم هو إحراجها فحسب، ومن هنا اتخذت المشكلة مظهراً دقيقاً غاية الدقة خطيراً كل الخطر، فلقد وجد الوطنيون البلاد تلقاء موقف تمتحن فيه الكرامة الوطنية والعزة القومية، ورأوا الظروف تعود من جديد فتظهر للخديو أن لا سبيل له إلا سبيل الوطنيين لأنه بانحرافه عن هذه السبيل إنما يطعن البلاد طعنة نجلاء في صميم قوميتها.

ولقد فرح المستعمرون، لا ريب، أن تتعقد المشكلة على هذا النحو، وزاد فرحهم أنها من صنع أيديهم، لذلك كانوا لا يألون جهداً في العمل على تفاقمهما بكل ما وسعهم من مكر وخبث، وراحت صحفهم تزيد نار الخلاف اشتعالاً، لا تتورع ولا تتوانى ومن ورائها رجال السياسة ورجال المال يصورون مصر في أشنع حالات الفوضى والاضطراب، فلقد سيطر رجال العسكرية وسيطر زعيمهم عرابي على كل شيء حتى ما يقف في طريقه حائل من قانون أو التزامات حتمتها الديون والظروف على مصر.

وكان الخديو في الواقع تلقاء آخر فرصة يستطيع أن ينقذ بها مصر مما كان يبيت لها، ولكنه ألفى نفسه سليب الإرادة أمام إرادة الإنجليز، بل لعله فرح أن يلطم وزارة البارودي لطمة يتخلص بها منها ويتخلص بذلك من عرابي الذي بات يغار منه أشد الغيرة حتى ما يطيق أن يسمع اسمه. . . وليت توفيقاً تحرك من تلقاء نفسه، إذاً لهان الخطب وخفت وطأة البلوى على النفوس فقد كان يمكن أن يقال يومئذ إنه ارتأى رأياً، وإنه ينتوي الخير أو ينتوي الشر حسب ما يرى، ولكنه وا أسفاه كان يقوى على الوطنيين بضعفه فلم يك يريد شيئاً وإنما كان يراد له كل ما يأخذ أو يدع من أمر.

وبدا لماليت فأوعز إلى الخديو أن يتخلص من المأزق بعرض الأمر على السلطان، وحجته أن عثمان رفقي يحمل لقب الفريق، فلا يجوز لأحد غير السلطان أن ينزع منه هذا اللقب. وسرعان ما فعل توفيق كما أشار به ماليت فزاد الأمور ارتباكاً وتعقيداً.

ولقد أخطأ ماليت خطأ كبيراً فيما أشار به، فإنه جر بذلك تركيا إلى الدخول في ذلك النضال، الأمر الذي كانت تحذره الدولتان أعظم الحذر وإن كانت إحداهما تخفيه، بينما الأخرى لا تتحرج من أن تعلنه في كل مناسبة وتبديه.

أما الوطنيون فقد غضبوا لذلك أشد الغضب، ورأوا فيه ضرباً جديداً من لؤم ماليت، فاجمعوا أن يمنعوا تدخل تركيا مهما كلفهم ذلك من وجوه الصعاب والمشاق. وبلغ الغضب برئيس الوزراء أن يعلن في عزم مصمم (أنه إذا أرسل الباب العالي أمراً ينقض حكم المجلس العسكري على الجراكسة السجناء، فإنا لن نطيع هذا الأمر، وإذا أرسل الباب العالي من قبله مندوبين، فسوف لا نسمح لهم أن يهبطوا مصر، وسوف نردهم بالقوة إذا لزم الأمر).

وهذه لا ريب ثورة غضب من البارودي نعدها من أخطائه. فلقد أفضى بهذا التصريح إلى ماليت، وهذا أرسله إلى حكومته وإنه لشديد الاغتباط به إذ يسوقه دليلاً على أن الأمور قد بلغت غاية التحرج؛ ثم إنه يسوقه من الجهة الأخرى دليلاً على صحة ما ذكره

مراراً وهو تسلط زعماء الجيش واستهتارهم بكل سلطة. ولم ينج عرابي من حملات الكائدين له وحمل مسؤولية هذا التصريح كأنما كان هو قائله، وأرجف المرجفون أن البارودي إنما يعمل بوحي من عرابي الذي يعتبر الحاكم الحقيقي للبلاد!

الحق أن البارودي قد أساء إلى القضية إساءة كبيرة بهذا التصريح. فهو فضلاً عما ذكرنا، إنما يتحدى السلطان في ذلك الوقت العصيب فيضيف إلى أعدائه عدواً جديداً، وإن الذي يحيط به الأعداء من كل جانب لجدير به أن يحتال ليستل السخائم من صدورهم، أو ليكسب من الأعوان والأصدقاء من يكونون له في الشدة قوة وسنداً.

ولعل البارودي كما نفهم من المسألة المصرية يومئذ في جملتها، كان يكره تدخل السلطان العثماني كما يكره تدخل إنجلترا وفرنسا؛ ولم يك ذلك عن حب في استقلال مصر ورغبة في سيادتها، وإنما كانت لهذا الرجل أطماع جليلة الخطر. فكان يتطلع ببصره إلى عرش مصر، وكانت توسوس إليه نفسه أنه بهذا المركز جدير ففي عروقه دماء الحاكمين منذ القدم. فهو كما يزعم من سلالة الأشراف (بارسباي)، وعلى ذلك، فقد كان جده من زمن بعيد على ذلك العرش الذي تنزع اليوم إليه نفسه، والذي يخشى أن تشايع تركيا الأمير عبد الحليم فيتربع فوقه إذا أخلى من الجالس عليه.

وكانت النتيجة المباشرة لهذا التصريح استحكام الأزمة بين الوزارة والخديو. فلقد رأى توفيق انه أصبح في الواقع وليس له من الأمر شيء. فإذا كان البارودي يقف هذا الموقف
في وجه السلطان نفسه، فكيف به إذا وقف منه هو؟ وهذا هو المعنى الذي كان لا يفتأ ماليت وأعوانه يوحونه إلى الخديو في تلك الأزمة العصيبة.

ولو أن الوزارة أصرت يومئذ على موقف العناد والصرامة لحملت قسطاً كبيراً من المسؤولية عن تعقد الأمور وتحرجها، ولكنها ما لبثت أن خطت خطوة حميدة حقاً تنطوي على كثير من الكياسة وبعد النظر، فإنها تقدمت إلى الخديو تقترح أن يخفف هو الحكم من تلقاء نفسه دون الرجوع إلى تركيا أو غيرها، والوزارة ترضى في هذه المسالة أن ينفى المحكوم عليهم من مصر إلى أي جهة من الجهات دون أن تمس رتبهم أو ألقابهم وإنما تستبعد أسماؤهم من سجلات الجيش المصري.

وهذا المقترح لا ريب دليل صادق على حسن نية الوزارة ورغبتها في أن تنتهي تلك المسألة وتنجو البلاد من لؤم الأعداء، وهي فيما تقدمت به متساهلة أكبر التساهل، فما دام المجلس العسكري قد حكم بإدانة هؤلاء فإبعادهم من البلاد يقتضي حتماً إبعادهم من الجيش. . . ولكن الخديو وا أسفاه قد تنمر اليوم للوزارة وتنكر، فرفض أن يجيبها إلى هذا المقترح.

وكان ماليت من ورائه لا ينفك يوسوس له ويزين له فعل السوء؛ وكان جرانفل قد أنكر من ماليت ما أشار به على الخديو من دعوة تركيا إلى التدخل، فكتب إليه أن يسير على وفاق مع ممثل فرنسا، وفي هذا تلميح إلى ما كان في سياسته من خطأ، وكان ممثل فرنسا يسير بوحي من فرسنيه، ولكن ماليت قد عز عليه أن يتراجع بعد هذه الخطوات فينقض ما نسجه بيده من غزل، فانظر إليه كيف يخلع النقاب على صورة قل أن يوجد مثيل لها في سجل السياسة العام فيكتب إلى جرانفل قائلا: (اسمحوا لي أن ألاحظ أنه عند النظر في الخطة التي يجب أن يسلكها الخديو بازاء حكم المجلس العسكري يجب أن نلقي نظرة عامة على الحالة كلها، وأن نذكر أن الوزارة الحاضرة تسعى لتضييق نطاق الحماية الإنجليزية الفرنسية، وأن نفوذنا أخذ كل يوم في النقصان وقد يستحيل علينا أن نستعيد سلطتنا العليا حتى تخضد شوكة الحكم العسكري الذي يرزح القطر تحته الآن. وفي اعتقادي انه لابد من حدوث ارتباكات شديدة قبل الوصول إلى حل مرض للمسألة المصرية، وأن الحكمة تقضي باستعجال هذه الارتباكات لا بتأجيلها).

وأي كلام يمكن أن نعلق به على هذا الذي يقول ماليت وعلى الأخص تلك الحكمة التي يشير إليها؟ أهكذا تطغي المطامع على العقول والقلوب حتى لتجعل من الحكمة استعجال الارتباكات! ولكن خرافة الذئب والحمل لن تزال أبداً الأساس الذي يقوم عليه المنطق في كل ما يجري من كلام بين الضعيف والقوي في هذا الوجود.

وأي دليل أبلغ من هذا الدليل على صحة ما ذكرناه ويذكره كل منصف عن السياسة الإنجليزية تجاه مصر منذ كان لها في هذا الوادي أطماع؟ ألا إنا لنقرر في غير تردد أن

هذه السياسة اللئيمة كانت خليقة بان تقابل من جانب الوطنيين بكل مقاومة، بل إنها سياسة كان يغتفر في مقاومتها يومئذ كل عنف. . . ولكن بعض الناس لا يزالون يأخذون على عرابي وحزبه تشددهم وعدم مصانعتهم خصومهم ويعدون حسناتهم هذه من السيئات التي لا تغتفر ولا تنسى.

ورأى جرانفل أن يشايع فرسنيه في هذه المسألة وكان يرى فرسنيه أن يخفف توفيق الحكم كما ترى الوزارة فتنتهي هذه الأزمة؛ ولكن كيف يدع ماليت الفرصة تمر وهي من صنع يديه؟ وكيف يطيق أن تخرج الوزارة من الأزمة ظافرة فيكون ظفرها في الواقع هزيمة له؟ لذلك ما زال بتوفيق حتى وقع على أوراق الحكم بنفي المتآمرين إلى خارج البلاد مع عدم استبعاد أسمائهم من سجلات الجيش!

وتلقت الوزارة اللطمة وتلقتها معها البلاد، وآلم عرابي وضباط الجيش من الوطنيين هذا الترفق بالمتآمرين وهم الذين كانوا على وشك أن يفقدوا رؤوسهم بالأمس أو ينفوا إلى أقصى السودان لأنهم شكوا من سوء ما يصنع بهم رفقي. . .

وأعلنت الوزارة على لسان رئيسها أن لابد من قرار يلغي هذا القرار حتى تمحي تلك الإهانة التي وجهت إليها وإلى البلاد في شخصها، ولكن ماليت حذر الخديو أن يجيب وزراءه إلى ما طلبوا! ويستطيع القارئ أن يدرك خطورة هذا الموقف فلقد تأكدت القطيعة بين الخديو ووزرائه وانعدمت الصلة وتفاقم البلاء.

وصل كل من الطرفين إلى الموقف الذي يفسر به كل عمل حسب ما يجري في أطواء النفوس، ففي كل حركة ريبة وفي كل بادرة إهانة، وكل نية لن تكون إلا نية سوء، وكل جنوح إلى السلم لن يؤخذ إلا على انه ضرب من الهزيمة والتسليم، وكل كلمة نابية أو شديدة لن تفهم إلا على أنها ضرب من التحدي يراد به إعنات القلوب وإحراج الصدور. .

وفي هذا الموقف الخطير راح السير إدوارد ماليت يجني ثمار غرسه وإنه ليطفر من الفرح كما يطفر الشيطان. كتب إلى جرانفل في اليوم الثامن عشر من شهر مايو سنة 1882 أي بعد قرار الخديو بتسعة أيام يقول (لقد انقطعت العلاقة بين الخديو ووزرائه ووصل الموقف إلى أقصى الخطورة).

وتقدمت الوزارة لترد على الخديو فخطت خطوة جريئة بالغة الجرأة، فدعت مجلس النواب دون الرجوع إلى الخديو لتعرض عليه الأمر، فازدادت الأمور حرجاً على حرج، فلقد عد أعداء البلاد هذا العمل من الوزارة بمثابة خروج على الحاكم الشرعي لا يقل في مغزاه عن خلعه من عرشه، ونسوا أو تناسوا أن الخديو باتباع مشورتهم هو الذي دفع الوزارة حتى أوقعها في مأزق ضيق بحيث لم يبق أمامها إلا أن تقر الخديو على خروجه على الدستور ومشابته أعداء البلاد أو تستقيل، وفي كلا الأمرين تفريط منها في حقوق البلاد فضلا عن كرامة رجالها.

وانطلقت الشائعات من هنا ومن هناك، فالبارودي يريد أن يثب إلى العرش والجيش على أهبة لأن يتحرك إلى عابدين ليرغم توفيقا على قبول مطالب الوطنيين كما أرغمه على مثل ذلك في اليوم التاسع من شهر سبتمبر من العام الماضي، والخديو بعد العدة للمقاومة إلى غير ذلك من الأراجيف التي كان من طبيعة مثل ذلك الموقف أن يخلقها.

ولو كانت الروح العسكرية هي المسيطرة على الحكم يومئذ كما ارجف المرجفون لما وقف حائل أمام الجيش دون الذهاب إلى القصر وليكن بعد ذلك النصر أو الطوفان، ولكن الوزارة رأت أن تحتكم إلى نواب البلاد، ولما كانت واثقة أن الخديو لن يدعو المجلس دعته هي ليفصل في الأمر ولا عبرة بالشكل في سبيل تحقيق الجوهر.

(يتبع)

الخفيف

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

انو الخير - 486

في (الآداب الشرعية) لابن مفلح المقدسي: قال عبد الله ابن الإمام أحمد لأبيه يوماً: أوصني يا أبت.

فقال: (يا بني، انو الخير، فأنك لا تزال بخير ما نويت الخير) هذه وصية عظيمة سهلة على المسؤول، سهلة الفهم والامتثال على السائل، وفاعلها ثوابه مستمر لدوامها

واستمرارها، وهي صادقة على جميع أعمال القلوب المطلوبة شرعاً، سواء تعلقت بالخالق أو بالمخلوق وأنه يثاب عليها.

487 - فإنا بها نسلو

أبو الفتح علي بن محمد البستي:

يقولون: إن المرء يحيا بنسله ... وليس له ذكر إذا لم يكن نسلُ

فقلت لهم: نسلي بدائع حكمتي ... فإن فاتنا نسل فإنا بها نسلو

488 - السمر. . .

ياقوت في معجم (معجم البلدان): مرباط فرضة مدينة ظفار، وهي مدينة مفردة بين حضرموت وعمان على ساحل البحر، وأهلها عرب، وزيهم زي العرب القديم، وفيهم صلاح مع شراسة في خلقهم وتعصب، وفيهم قلة غيرة كأنهم اكتسبوها بالعادة؛ وذلك أنه في كل ليلة تخرج نساؤهم إلى ظاهر مدينتهم ويسامرن الرجال الذين لا حرمة بينهم، ويلاعبنهم، ويجالسنهم إلى أن يذهب أكثر الليل، فيجوز الرجل على زوجته وأخته، وأمه وعمته، فإذا هي تلاعب آخر وتحادثه، فيعرض عنها ويمضي إلى امرأة غيره، فيجالسها كما فعل بزوجته. وقد قلت لرجل منهم عاقل أديب: بلغني عنكم شيء أنكرته، ولا أعرف صحته، فبادرني وقال: لعلك تعني (السمر) قلت: ما أردت غيره. فقال: الذي بلغك من ذلك صحيح، وبالله اقسم إنه لقبيح، ولكن عليه نشأنا، ولو استطعنا أن نزيله لأزلناه، ولكن لا سبيل إلى ذلك مع ممر السنين واستمرار العادة به.

489 - فلا عجب

لابن أبي أصيبعة: حكى عن أبقراط أنه أقبل بالتعليم (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) على حدث من تلامذته، فعاتبه الشيوخ على تقديمه إياه عليهم. فقال: ألا تعلمون ما السبب في تقديمه عليكم؟ قالوا: لا، فقال لهم: ما أعجب ما في الدنيا؟ فقال أحدهم: السماء والأفلاك والكواكب. وقال آخر: الأرض وما فيها من الحيوانات والنبات. وقال آخر: الإنسان وتركيبه. ولم يزل كل واحد منهم يقول شيئاً وهو يقول: لا، فقال للصبي: ما أعجب ما في الدنيا؟ فقال: أيها الحكيم، إذا كان كل ما في الدنيا عجباً فلا عجب. فقال الحكيم: لأجل هذا قدمته لفطنته.

490 - الآن صدقت

في (مفتاح دار السعادة) لابن الجوزي: حكي أن امرأة أتت منجما فأعطته درهماً، فاخذ طالعها وحكم وقال الطالع. فقالت: لم يكن شيء من ذلك. ثم أخذ الطالع وقال: يخبر بكذا. فأنكرته حتى قال: إنه ليدل على قطع من بيت المال.

فقالت: الآن صدقت، وهو الدرهم الذي دفعته إليك. . .

491 - وترسل في زروعهم إذا يبست

في (صبح الأعشى): كان قوم من هذه المملكة (المصرية) مرتبون بالقرب من بلاد التتار يتحيلون على إحراق زروعهم بان تمسك الثعالب ونحوها وتربط الخرق المغموسة في الزيت بأذناب تلك الثعالب وتوقد بالنار وترسل في زروعهم إذا يبست، فيأخذها الذعر من تلك النار المربوطة بأذنابها، فتذهب في الزروع أخذة يميناً وشمالاً، فما مرت بشيء إلا أحرقته، وتواصلت النار من بعضها إلى بعض فتحرق المزرعة عن آخرها. وهذا الأمر قد بطل حكمه من حين وقوع الصلح بين ملوك مصر وملوك التتار.

492 - أرسطو، المتنبي

في (الرسالة الحاتمية): قال أرسطو: إن الحكيم تريه الحكمة أن فوق علمه علماً، فهو يتواضع لتلك الزيادة، والجاهل يظن أنه قد تناهى فيسقط بجهله فتمقته النفوس قال أبو الطيب:

وما التيه طبي فيهم غير إنني ... بغيض إليّ الجاهل المتعاقل

493 - دع اسمه وأعطنا جسمه

قال حسن بن جنادة الوشاء: انصرف أبو تمام من عند بعض أصحاب (زهر الآداب): السلطان فوقف علي. فقلت: من أين؟ قال: كنت عند بعض الملوك فأكلنا طعاماً طيباً، وفاكهة فاضلة، وبخرنا وخلقنا، فخرجت هارباً من المجلس نافراً إلى التسلي، وما في منزلي نبيذ، ولكن عندي خمر أريده لبعض الأدوية، فقلت: دع اسمه، وأعطنا جسمه، فليس يثنينا عن المدام ما هجنته به من اسم الحرام.

إلى دودة
للأستاذ ميخائيل نعيمه
تدبّين دبّ الوهن في جسميَ الفاني ... وأسعى بجدٍ خلف نعشي وأكفاني
فأجتاز عمري راكضاً متعثراً ... بأنقاض آمالي وأشباح أشجاني
وأبني قصوراً من هباءٍ وأشتكى ... إذا عبثت كف الزمان ببنياني
ففي كل يومٍ لي حياة جديدة ... وفي كل يومٍ سكرة الموت تغشاني
ولولا ضبابُ الشك يا دودة الثرى ... لكنت ألاقى في دبيبك إيماني
فأترك أفكاري تذيع غرورها ... وأترك أحزاني تكفن أحزاني
وأزحف في عيشي نظيرك جاهلاً ... دواعيَ وجدي أو بواعث وجداني
ومستسلماً في كل أمرٍ وحالةٍ ... لحكمة ربي لا لأحكام إنسان
فها أنت عمياء يقودك مبصر ... وأمشي بصيراً في مسالكِ عميان
لك الأرض مهد والسماء مظّلمة ... ولي فيهما من ضيق فكريَ سِجنان
لئن ضاقتا بي لم تضيقا بحاجتي ... ولكن بجهلي وادعائي بعرفاني
ففي داخلي ضدّان: قلب مسّلم ... وفكر عنيد بالتساؤل أضناني
توَّهَم أنَ الكون سِرٌّ وأنه ... يُنال ببحثٍ أو يُباح ببرهان
فراح يجوب الأرضَ والجوّ والسما ... يسائل عن قاصٍ ويبحث عن دان
وكنتُ قصيداً قبل ذلك كاملاً ... فضعضع ما بي من معان وأوزان
وأنت التي يستصغر الكل قدرها ... ويحسبها بعضٌ زيادة نقصان
تدُبّين في حضن الحياة طليقةً ... ولا هَمَّ يضنيك بأسرار كوأن
فلا تسألين الأرضِ مَنْ مدَّ طولهَا ... ولا الشمس مَن لظّى حشاها بنيران
ولا الريح عن قصدٍ لها في هبوبها ... ولا الوردة الحمراء في لونها القاني
وما أنتِ في عين الحياة دميمة ... وأصغر قدراً من نسور وعقبان
فلا التبر أغلى عندها من ترابها ... ولا الماس أسنى من حجارة صوّان
هل استبدلت يوماً غراباً ببلبل؟ ... وهل أهملتْ دوداً لتلهو بغزلان؟
وهل حقنت غدرانها من ضفادع ... وأوجدت الإبحار ملهى لحيتان؟
هل اطلعت شمساً لتحرقَ عوسجاً ... وتملأ سطح الأرض بالآسِ والبان؟
لعمركِ يا أختاه ما في حياتنا ... مراتب قدرٍ أو تفاوت أثمان
مظاهرها في الكون تبدو لناظر ... كثيرة أشكال عديدة ألوان
وأقنومها باقٍ من البدء واحداً ... تجلّتْ بشهبٍ أم تجلت بديدان
وما ناشد أسرارها، وهو كشفها، ... سوى مشترٍ بالماء حرقةَ عطشان
ميخائيل نعيمة
المعنى التائه
للأستاذ حسن كامل الصيرفي
أنت معنًى تائهٌ ... في ذات نفسي يا حياتي
كلما دَّققْتُ فيهِ ... طوّحتْ بي خَطَراتي
كان، قبل الحب، قلبي يتغنَّى هائماً
في رياضٍ طَلَعَ البدرُ عليها باسماً
وليالٍ رقدَ الكونُ عليها خالِماً
تتراءَى بَسْمةُ الثغرِ عليها دائماً
ثم طار القلبُ حيناً ... في وسيع الخَلَواتِ
وصداهُ لم يَزلْ يُسْ ... مَعُ حُلْوَ النَّغَماتِ . . .
لستُ أدري أين وّلى، حين وّلى ومضى؟!
هو في الأفق توارى وتلاشى في الفضا
مثل لحظٍ بَعَثَتهُ الغيدُ في ساعِ الرضى
أو كبرقٍ خطف الأبصارَ لما ومضا
واختفى عن مقلتي قَل ... بي، سريعَ النبضاتِ
وتلاشى الصوتُ في ... الآفاق إلاَّ الهمساتِ
هَمَساتٌ كُنَّ كالوحي سريعاتِ التَّخَفي
لم تكدْ تهبط حتى أسرعتْ في مثل خوفِ

وتلاشتْ، وأنا أبحث عنها مثل طَيْفِ
غير أن الزهر أفشى سرها في طيب عَرْف
فذكا. واستشعرتْ رو ... حي حديثَ الزَّهَراتِ
فنشقتُ العطرَ حتى ... أسكرتْني نَشَقاتي
ثَمِلَتْ روحي قليلاً، وغفتْ عيناي حينا
فتعرَّتْ ذكرياتي عن جلابيب السنينا
ومضت ترقص أحلاماً تهزُّ الحالمينا
وترامت فوق صدري فترَّفقْتُ حنونا
في احتضاني جسمها الر ... طب وكانت قُبُلاتي
. . .تستر الجسمَ المُعرَّي ... عن دنايا نظراتي
مَنْ هي الحسناءُ؟. . . ذكرى حبِّ روحي
نزلتْ من أوجها العالي لمعشوقٍ جريحِ
مَنْ هو المعشوقُ؟. . . يا أحلامُ بوحي!
لم تَبُحْ أحلامُ نومي ... ورنَتْ للذكرياتِ
فأفاقت ومضَتْ عني ... وَحلّتْ يَقَظاتي
وإذا بالحُلْم معنًى تائهٌ في ذات نفسي
أستمدُّ الوَحْيَ منهُ في خيالاتي وحِسِّي
وإذا في راحةِ النفسِ. وكوْنُ الله مُمْسِ
هتفتْ روحي بقلبي ... فإذا بالقلبِ آتِ
وإذا بالحُلْم يبدو ... مُحْيِياً لي ذكرياتي
حسن كامل الصيرفي
غرور الفنان وعقابه
للأستاذ علي أحمد باكثير
(يريد الشاعر أن يصور في هذا الغزل الفلسفي غرور الفنان في تصوره أنه خالق فيعاقب بتمرد خلقه عليه حتى أنه ليود أن يتنازل عن ربوبيته المزعومة لمن خلقه لكي ينال رضاه وحنانه، فإذا ما أبى عليه ذلك رجا منه أن يمسحه من لوح الوجود لأنه أصبح زوراً لا محل له في الوجود، وينتهي به الأمر إلى الرجوع إلى الله وأنه الخالق وحده لا خالق سواه فمن نازعه هذا الرداء لقي هذا العذاب الكبير).
فيم يا زهرةَ الجمال تنكّرْتِ ... لقلبي فارتدّ عنكِ كسيرا؟
أو لستُ الذي غرستُكِ في قلب ... ي وأسقيتك الزلال النميرا؟
وقضيتُ النهار والليل أرعا ... ك أقيك الهجير والزمهريرا
أنت حُلمي إذا أويتُ إلى النو ... م وشغلي إذا برحْتُ السريرا
تتلاشى روحي عليكِ حناناً ... وارتقاباً ولوعةً وحبورا
مُوقداً ذوب مهجتي لَكِ شمعاً ... يطرد الرَّوْعَ عنكِ والديجورا
ضارباً كلَّةً عليك من الأح ... لام تنفي عنكِ الأذى والشرورا
جاعلاً من شوقي إليكِ صلاةً ... محرَقاً من دمي عليكِ بخورا
في طريقي إليكِ تخطبني الأز ... هار شتى يعبقن عِطراً ونورا
يتمايلن معرضاتٍ مريدا ... تٍ وللّثم يرتعِشْنَ ثغورا
فتكبّرتُ أن أجود عليهنّ ... بطرفي بَلْهَ الهوى والشعورا
وتحملتُ مِنْ ملام ضميري ... في أذاهُنّ ما يهدُّ الضميرا
لا أبالي إذا رضيتِ رضى النا ... س جميعاً وودهم والنفورا
وْلتضع من يدي الحظوظُ فحسبي ... أنّ أنال الرضاء منك اليسيرا
هو رجواي في الحياة فإن أدْ ... ركه أدرك خُلْداً وملكا كبيرا
أنا قلّدتكِ الجمال وصوّرْ ... تُكِ ما شاءتِ المنى تصويرا!
وبفنّي خّلدتُ حُسنك في الكو ... ن وأسجدتُ في ثراكِ الحورا
وجعلتُ الزمان يشدو بلحْنَي ... ك فيحيى الأسى ويحيُى السرورا
أفترضَيْنَ بعد هذا لقلبي ... أن يكون المرزّأ المهجورا؟
أنتِ خَلْقي. . . وا رحمتاه لرب ... صار يوماً بخَلْقه مستجيرا!
أرديني خَلقاً وكوني إلهاً ... تشملي بالحنان قلبي الكسيرا!

وترىْ ما بهِ. . . فمن يكُ ربّاً ... يكُ طبّاً بخلقه وخبيرا
لا أبالي إذا غدوتِ لقلبي ... وحده كنتُ آسِراً أو أسيرا
فإذا ما أبيتِ إلا شقائي ... فامسحي من لوح الوجود الزورا!
أعدِميني فلا أطيقُ عذابين ... خلوداً قدّرتِ لي وسعيرا!
كنتِ في خاطري وكنت سعيداً ... قبل أن تظهري لعيني ظهورا!
آه، يا ليتني كتمتكِ سرّاً ... حيث كنتِ الدهور ثم الدهورا!
لكُيفِتُ الأسى إذاً والتباري ... ح ودُمْتُ المنعَّمَ الموفورا
ما توقعتُ إذ جبلتُكِ طيناً ... في يَدِي أن أصير هذا المصيرا!
إنَّ هذا جزاء من نازع الله ... عُلاه يلقى العذاب الكبيرا!

علي أحمد باكثير

رسالة الفن

دراسات في الفن

الفن والحرية

للأستاذ عزيز أحمد فهمي

مظاهر الحياة في الإنسان ثلاثة، يرجع إليها كل ما يصدر عنه من أفعال وأقوال وحركات وسكنات. وهذه المظاهر هي الحس والعقل والخلق. والإنسان الوسط يستطيع أن يلحظ في غيره بسهولة تامة النقص الذي يعتري ناحية أو اكثر من هذه النواحي الثلاث. فيحكم عليه بأنه بارد الحس، أو ناقص العقل، أو معوج الخلق. وليس يهمنا ما يقال من أن الحكم في هذه الأحوال لا يكون إلا تقديرياً، وإنما الذي يعنينا هو أن الحس والعقل والخلق موجودة في كل إنسان، وإن تفاوت وضوحها، ووضوح اتجاهاتها في الناس، وإن اختلفت معاييرها فليس ينفي وجود القمح أن يكيله ناس بالإردب، وأن يزنه ناس بالقنطار. . .

ولما كان الكمال البشري يستدعي رقي الإنسان في نواحيه جميعاً بحيث تنسجم هذه النواحي فيه وتتوازن وتتضافر فتخطو به خطوة جديدة في طريق التطور والارتقاء تلبية لنداء الطبيعة التي تريدهما، لزم أن يكون كل عمل من أعمال الإنسان صادراً عن حس مرتق، وعقل مرتق، وخلق مرتق. فإذا اختل التوازن بين الحس والعقل والخلق في أي عمل من أعمال الإنسان عاب هذا الاختلال العمل وأنقص قدره.

ونحن إذا نظرنا إلى هذه النواحي الثلاث رأينا لكل ناحية منها طريقاً خاصاً من طرق الرقي الإنساني تسعى فيه. فالحس طريقه الفن، والعقل طريقه العلم، والخلق طريقه الفضيلة.

وأكمل الناس من غير شك هو الذي يرقى في معراج التطور بحسه وعقله وخلقه، وأقل منه كمالا من يرقى في هذا المعراج بناحيتين فقط من نواحيه الثلاث، والأقل كمالاً من يرقى في هذا المعراج بناحية واحدة. وأغلب الناس غير متوازنين، بل إن أغلبهم تنصقل في نفسه ناحية واحدة فقط من هذه النواحي فتضيء ما حوله ولكن بلون نورها هي، بينما يتخافت إلى جانبها النوران المنبعثان من الناحيتين الأخريين. وهكذا كان في الناس فنانون

لا صلة لهم بالعقل ولا بالعلوم إلا ما يرد عنهم اتهام الناس إياهم بالجنون، وفنانون لا صلة لهم بالعقل ولا بالخلق، ومنهم من يرميه بالفسق إلى جانب الجنون. وهكذا أيضاً كان في الناس علماء لا صلة لهم بالحس فهم باردون، وعلماء لا صلة لهم بالحس ولا بالخلق، ومنهم من يرميه الناس بالجشع إلى جانب البرود. وهكذا أخيراً كان في الناس فضلاء تنبعث الفضيلة من أنفسهم فينالها من يكرههم كما تصيب من يحبهم لا يحبسونها ولو أوذوا، فلا هم عقلاء يحذرون كما يحذر غيرهم من العقلاء، ولا هم يحسون الشر فيما يحسون، وهؤلاء من بين أصحاب الفضيلة هم الأتقياء الزاهدون المضحون المظلومون.

وكل فرد من هؤلاء الأفراد الخارقين في نواحيهم الخاصة، والمتسامين فيها على مستوى الجمهور يعتبر عبقرياً في ناحية وإن أحصت عليه الإنسانية النقص في الناحيتين الأخريين، فما تزال العبقرية في نظر الناس ضرباً من ضروب الشذوذ، أو هي في الحق كذلك ما دامت تنحو إحدى نواحيه فقط.

فإذا أنكرنا على الإنسان أنانيته وطالبناه بان يرعى خير الإنسانية في كل عمل من

أعماله وعلى الخصوص في تلك الأعمال التي تتصل بغيره وتؤثر فيه فإننا لا نملك إزاء الفنانين إلا أن نطالبهم بأن تتضافر نواحيهم الثلاث في إنتاجهم الفني كما نطلب ذلك من العلماء، وكما نطلب ذلك من أهل الفضيلة. فالفن أو أكمل الفن هو ما أرضى العقل والخلق إلى جانب ما يرضي الحس، كما أن العلم أو أكمل العلم هو ما أرضى الحس والخلق إلى جانب ما يرضي العقل، وكما أن لفضيلة أو أكمل الفضيلة هي ما أرضى العقل والحس إلى جانب ما يرضي الخلق.

هذا إذا راعينا أن الفنون والعلوم والفضائل هي أهداف الإنسانية التي تلح في سبيل الوصول إلى استكمالها موحدة منسجمة متزنة. فإذا لم ندقق كل التدقيق في هذا، فإنه يجوز منا أن نبيح للفنان أن يحاول السير في طريقه بالحس وحده، وللعالم أن يسير بالعقل وحده، وللرجل الفاضل أن يسير بالخلق وحده.

ولكن للإنسانية مثلاً عالياً تنزع إليه وتريد أن تلحقه وإن اختلفت صوره في أذهان الناس. ونحن إذا ما حاولنا أن نستخلص من بين هذه الصور الصورة التي نعتقد أنها أصدق صور الكمال فإننا عندئذ سنستطيع أن نتصور إلى جانبها صورة للإنسانية تكون هي اقرب صور

الإنسان من الكمال، ويكون هذا تبعاً لمدى تحققه صورة المفرد من نواحي الكمال المطلوبة في صورة الإنسانية الكاملة. وسنرى كيف يمكن أن يتم التوازن بين حس الإنسان وعقله وخلقه في هذه الصورة العالية التي نكتشفها. وسنرى هل يتم هذا التوازن إذا كان للإنسان من حسه ومن عقله ومن خلقه مقادير متساوية، أو أن هذا التوازن يمكن أن يتم باختلاف في مقاديرها لدسم في بعضها وخفة في بعضها أو لضرورة تستوجب بعضها ولجواز يمكن به الاستغناء عن بعضها في بعض الأحيان. سنختلف.

فقد اختلف الناس في هذا منذ أحسوا، ومنذ عقلوا، ومنذ كانت لهم أخلاق، وسيظلون مختلفين في هذا إلى أن يشاء الله فيكونوا أمة واحدة، وهم الآن أمم. ولكل أمة منهم مثل، وكل أمة منهم تنزع إلى تحقيق مثلها جادة حيناً ومتكئة حيناً، ومتناومة في اغلب الأحيان.

فإذا سألني سائل عن أمتي، ومثلي الذي أنزع إليه مؤمناً به، فأنا من أمة محمد. الفن عندي ما يحقق المثل الأعلى الذي رسمه محمد بدينه للحياة، والعلم عندي هو ما يحقق هذا المثل، والخلق عندي ما يتفق وروح الإسلام.

ولست أقهر إنساناً على أن يدخل في أمتي، ولا على أن يتدله بمثلي الأعلى، ولكني أقولها بعد تأمل أعتقد أنه قد يكفي متعجلاً مثل من أبناء هذا العصر العجول. . . كلمة فيها من القدم رزانة الشيخوخة ومن الأبدية عنفوان الشباب، وهي أن المثل الأعلى الذي رسمه الإسلام للإنسان والصورة النقية التي رسمها للإنسانية هما صورة أرقى حي في أرقى صورة للحياة، فما كان عبثاً ما قال الله من أن محمداً هو خاتم النبيين والمرسلين، وأن الإسلام هو ختام الأديان. ونحن إذا أنعمنا النظر في الإسلام رأيناه يشمل كل الأديان الساعية إلى الله، وأنه يبرئ الله مما ألحقه به الناس من الباطل والزيف، وإذا صدق هذا اصدق معه أن أسمى المثل الإنسانية العليا ليس إلا بعض المثل الإسلامي الأعلى، وعلى هذا الأساس يمكننا أن نجعل الإسلام حكماً على أعمال الإنسان الروحية كلها سواء منها الحسية والعقلية والخلقية، فإذا لم يرض بعض الناس عن الإسلام حكماً فلهم أمثلتهم العليا يحكمونها كما يشاءون فيما يشاءون فكل ما يملكه عاجز ضعيف مثلي في مقام كهذا هو أن يقول لهم: قبل أن تستبعدوا الإسلام تدبروه.

فإذا تدبروه فهم معي مسلمون. فإذا أسلموا فهم أمة وسط، وما داموا أمة وسطاً فعليهم أن يراعوا العقل والخلق في فنهم فيجعلوا لهما فيه نصيباً، وعليهم أن يراعوا الحس والخلق في علمهم فيجعلوا لهما فيه نصيباً، وعليهم أن يراعوا الحس والعقل في فضائلهم فيجعلوا لهما فيها نصيباً. وهذا يحدث عفو خاطرهم بدون تدبر وبدون اختيار إذا كانوا مسلمين. فالإسلام هو دين الفطرة، كما أن الفن الصحيح السليم هو فن الفطرة، وكما أن العلم النافع هو علم الفطرة الذي يعلمه الله الناس سواء أكانوا أميين أم كانوا قارئين كاتبين، وكما أن الخلق القويم هو خلق الفطرة الذي يصدر عن الإنسان عفواً من غير تدبير ومن غير اختيار.

وبعد أن رأينا للفطرة هذا الجلال وهذا الخطر، فإنه قد يعارضنا هنا سؤال له محل من التفكير، فقد يقول لنا قائل: أليس من فطرة الإنسان أن ينزع أحياناً إلى ما تستنكره الأخلاق، والى ما يزور عنه العقل، فإذا لبى هذا النزوع بالفن كان فنه فطرياً، ولكنه مع هذا لم يكن متمشياً مع الإسلام الذي وإن كان دين الفطرة فهو يرسم قيوداً، ويقيم من الأخلاق حراساً على هذه القيود؟ وجوابنا على هذا السؤال هو أن النزوع بالفن إلى ما تنكره الأخلاق ما ينكره العقل ليس نزوعاً فطرياً، وإنما نزوع فيه شيء من النقص يعتري صاحبه إذ ينسى غيره، وإذ ينزع بالفن إلى تلبية إحساسه والتعبير عنه، فهو بهذا الفن يرضي نفسه وحدها، وفي ساعة عاجلة من ساعات حياته هو، فهو لا يحس بمستقبله ولا يفكر فيه، ولا يحس صلته بغيره ولا يفكر فيها، ولا يحس أثره في غيره ولا يفكر فيه.

ونحن لا نستطيع أن ننكر أن هذا الضرب من الفن. . . فن. ولكنه فن جامح ينظمه صاحبه من حبات نفسه ليرضى به هو وحده. ونحن إذا تأملنا ألوان الفن التي ينكرها العقل لم نجد غير الخرافات الفنية، وهي لا تؤذي الإنسانية في شيء إلا إذا حاول فنان خداع مقنع بالحيلة أن يحمل الناس على أن يؤمنوا بأنها حقيقة واقعة، ولم يظهر في الدنيا فنان من هؤلاء إلا وخرج بخداعه عن دائرة الفن إلى دائرة النصب والاحتيال. وإذا تأملنا ألوان الفن التي ينكرها الخلق لم تجدها إلا لمامات تعرض لنواح من الحياة يكاد يعرفها الناس جميعاً، ويكادون يتذوقونها جميعاً، ويكادون يستطيعون أن يعبروا عنها جميعاً تعبيراً لا يقل صدقاً ولا روعة عما يعبر به الفنانون عنها. فإن لم يتأت لجمهور الناس بالفعل التعبير عن

هذه النواحي المبتذلة من الحياة التي يتعفف الفن الإسلامي عنها، فهم يستطيعون هذا التعبير بالقوة. وهذا هو ما يغرينا بالمضي في الحرص على اتباع الإسلام حتى في الفن؛ فهذا الذي نخسره من الفن بهذا الحرص تافه وهين ما دام جمهور الناس يستطيعونه. والفنان يطلب منه شيء أكثر مما يطلب من عامة الناس، وهو الكائن الحي الناضج الحياة الذي يتوقع منه الناس أن يكشف لهم بإحساسه المرهف من حقائق الحياة ومباهجها وجمالها ما لا يستطيعون هم أن ينتهوا إليه بحسهم، كما أنهم يحبون من علمائهم أن يهدوهم من حقائق الحياة ومنافعها إلى ما يعجزون هم عن أن يصلوا إليه، وكما انهم يحبون من الهداة الأتقياء ذوي الفضل أن يرسموا لهم ما ينبغي أن يكون، وما ينبغي إلا يكون.

وما أجل هذا الذي يجتمع له هذا كله فيكون هادياً بفضائله وعلمه وفنه.

فإذا لم يتيسر هذا لرجال الإنسانية عفواً فان الإرادة كفيلة بتحقيقه. ولست اقصد بالإرادة أن يعتزم الفنان أن يحقق في فنه الأخلاق الفاضلة، ونفسه بعيدة عن الأخلاق الفاضلة. فيخرج فنه متكلفاً سخيفاً يشعر كل من يتصل به بأنه فقد ميزته الأساسية الأولى، وهي أن يكون تلبية لنداء الطبيعة والفطرة، وإنما الذي اقصده هو أن يبدأ الفنان بتحقيق الفضيلة في نفسه هو. فإذا أبدع فناً بعد ذلك كان الفن صورة نفسه، وكان الفن فاضلاً.

وطبيعة التطور والارتقاء تطالب الفنانين بهذا، كما أنها تطالب به العلماء، وكما أنها تطالب به أصحاب الأخلاق والفضائل. ذلك أن الحياة الروحية للإنسان تريد أن تسمو وأن تتقدم الخطى إلى الامام، وطريقها إلى هذا الرقي هو نفوس الناس أنفسهم، وما دام في الإنسان إرادة فلابد من أن يكون لهذه الإرادة لزوم في تحقيق التطور والارتقاء بدليل أنها لا تزال موجودة في نفس الإنسان، وأن لإنسان لا يزال يمارسها في كل أعماله تقريباً، وما دام الأمر كذلك فانه قد حق علينا أن نريد ترقية أنفسنا، ثم أن نعمل على هذه الترقية. أما الإرادة فأمرها بيدنا، وأما العمل فطريقه التدريب، وكما أن للعقل تدريباً يساعده على بلوغ العمل، وكما أن للخلق تدريباً يساعده على بلوغ الفضيلة، فإن للحس تدريباً يساعده على بلوغ الفن!

وقد ارتضى كل فنان لنفسه مثلاً أعلى يريد أن يرقى إليه وأنا اخترت الإسلام من هذه المثل لمن يعجبهم اختياري.

أما أولئك الذين لا يريدون أن يرقوا فلهم أن يعربدوا بفنهم وبعلمهم، وبأخلاقهم ما شاءت لهم حرية التائه الضال.

عزيز أحمد فهمي

من هنا ومن هناك

الحريم في نظر الغرب

إن حياة الحريم في قصور سلاطين آل عثمان لتمثل هذا الضرب من المعيشة الذي تصوره ألف ليلة وليلة، والذي تفنن الكتاب الأوربيون في وصفه ما وسعهم الخيال، ففيها الأجواء المفعمة باللذة وضروب المتع والتسلية المختلفة. ولقد ظل (الحريم) من الأسرار الغامضة التي تتضارب فيها الأفكار، حتى إذا زالت سلطة الخلفاء، وأبيح للجميع أن يدخلوا قصورهم الفخمة، كشف القناع عن الكثير مما كان يجري فيه. ولا شك أن رغبة الغربيين في تعرف أسرار (الحريم) في القصور العثمانية كانت أعظم من أية رغبة أخرى في إدراك أحوال الدولة أبان عهد السلاطين، وكان ذلك مدعاة لأن يكتب الكثيرون - آنا بالحق وآنا بالباطل - حول هذه الناحية، وتنافس الخيال والحقيقة في تصوير الحياة داخل (الحرملك) فكان نتاجهما هذه الكتب التي تطلع علينا بها - بين حين وآخر - دور النشر في الغرب. ومن الكتب القيمة الطريفة حول هذا الموضوع كتاب الذي وضعه المستشرق الإنجليزي بنزر، وكان ملماً باللغة التركية، عاش في الآستانة ردحاً طويلاً، وخبر الحياة التركية عن كثب. وقد وصف في كتابه هذا حياة القصور، لا سيما قصر سيراليو الذي كان يسكنه سلاطين آل عثمان من آلاف النسوة اللائى جيء بهن - أما بيعاً أو اقتساراً - ويصف منظر (الخصيان) وهم يرفلون في أزيائهم العجيبة، فلا عجب إذا اجتذب الغربيين هذا الوصف لحياة تكاد تكون من بنات الخيال، بل لقد يقصر الخيال في كثير من الأحيان عن أن يتطاول لبلوغ الحقيقة الماثلة في قصر سيراليون

يقول مستر بنزر في وصف الحرملك (إنه دنيا صغيرة، محكمة الإدارة، دقيقة السياسة، خلى إلا من النساء اللائى تعيش كل منهن من أجل واجب تؤديه. . . والحرملك، وإن كان مجتمع نسوة، إلا أنه كثيراً ما دبرت فيه المكائد، وشهدت جدرانه تدبير دسائس تقشعر لهولها الأبدان، كما كان حظ الكثير من نزيلاته الجميلات القتل بلا رحمة. وكم ضمت أمواج البسفور من فتيات غضب عليهن السلطان فأصبحن طعمة لحيتان البحر وأسماكه) أما الخصيان، فقد أخذ عددهم يزداد كلما اتسعت موارد السلطان. وكانوا في أول الأمر من البيض غير أنه سرعان ما حل محلهم السود لما طبعوا عليه من إخلاص لساداتهم، أما

البيض فكانوا أهل دس وغدر وفتنة. ومنذ القرن السادس عشر أصبح الحرملك يدبر أمور الدولة من وراء ستار. ولما نفى السلطان عبد الحميد إلى سلافيك عام 1909م، أذنوا له أن يصطحب معه في منفاه بعض المقربات إليه. أما الباقيات ويجاوزن بضع مئات فقد أصبحن بلا عائل. وقد وصف ذلك كله فرنسيس ماك كلاج في كتابه (سقوط عبد الحميد) فقال: (لقد جمعن في قصر (ثب كابو) في حشد عظيم، وإذ كان أغلب النسوة في حريم السلطان قوقازيات، وكن يؤثرن على غيرهن لجمالهن الرائع، فقد أبرقت الحكومة التركية إلى مختلف القرى القوقازية تعلن إليها أن لكل عائلة الحق في استرداد فتاتها من حريم السلطان سواء أكان أبواها قد باعاها أم اغتصبت من بين ذويها. ومن ثم وفد على القسطنطينية الكثيرون من جبلي القوقاز يخطرون في ثيابهم العجيبة، وحددت لهم الحكومة يوماً توافدوا فيه على قصر (ثب كابو) واستعرضوا محظيات السلطان سافرات بلا قناع. وكم كان منظر الفتيات وهن يرتمين في أحضان آبائهن أو أخواتهن مؤثراً، بعد أن حيل بينهم وبينهم، ويئسن من لقائهن. . . فهذا أب يقبل أبنته وقد اغرورقت عيناه بالدموع، وهذا أخ يعانق أخته بعد أن ظنا أن لا تلاقي بعد. ولشد ما كان التباين عظيماً بين لباس هؤلاء الجبليين ولباس بناتهم وهن يرفلن في غالي الثياب وأبهاها. وسرعان ما جمعت كل فتاة ملابسها، وغادرت القصر غير آسفة عليه، فبلغ عددهن يومئذ مائتين وثلاث عشرة انثى، اما الباقيات فقد اختار منهن الأمراء من اختاروا. . .)

هذا وصف شاهد عيان لمنظر من مناظر ألف ليلة وليلة. أما قصر سيراليو فقد خيم عليه الصمت كأنما استوحش من ساكنيه، حتى إذا كان عام 1924 جعلته الحكومة التركية من المنافع العامة، وطبعت من أجله دليلاً يشرح للزائرين ما يبهم عليهم إدراكه، وإذا كان الزائر لمصر لابد له من مشاهدة الأهرام وأبي الهول، فإن نزيل القسطنطينية اليوم ليهرع قبل كل شيء إلى قصر سيراليو فيمتثل صورة الحريم

والترف في قصور السلاطين ويرى روعة الفن وجلاله، وكم شهدت حجراته من مآس ومسرات!

النضوج وضبط النفس

إذا نظرنا إلى الطفل وجدناه اكثر من غيره تبرماً بالتعب. فإذا أصابه الجوع أو ناله قليل من البرد أو الحر أو شعر بتقييد حريته فلم يستطع أن يتحرك كما يشاء، أو اعترته هزة عنيفة بعامل من العوامل، فهو ولا شك عرضة للتهيج.

وإذا كان الطفل لا يعرف الأسباب التي تدعو إلى ما يشعر به من الألم، فإن احتجاجه عليه عادة يكون عنيفاً.

فإذا جاوز سن الطفولة وتعداها إلى سن النضوج، فإن شعوره بهذا التهييج يخف ويتغير. وليس معنى ذلك أن المراهق لا يشعر بالآلام إذا تعرض لها، ولكن شعوره بها يتغير كل التغير، حتى لا يبدو عليه شيء من مظاهرها.

فالشخص الذي لا يحتمل المشقات، ويضيق صدراً إذا لم ينل ما تصبوا إليه نفسه، ويهتاج لكل حادث، هو في الحقيقة شخص لم يصل شعوره إلى درجة النضوج. وكل إنسان ولا شك يكره أن يكون ذلك الرجل. فإذا أردنا أن نعرف حقيقة أنفسنا من هذه الناحية يجب أن نترك الحكم عليها للآخرين، وعلى الأخص هؤلاء الذين لا تجمعنا بهم روابط الصداقة.

فما مقدار الألم الذي يستطيع أن يحتمله عادة الرجل الكامل النضوج؟ إن نظرة بسيطة تدلنا على أن هناك اختلافاً كبيراً بين الأفراد من هذه الناحية. فقد رأينا أناساً يحتملون كسر العظام وقطع الأوصال، ورأينا بعضهم يقومون بإجراء العمليات الجراحية لأنفسهم وسمعنا بأشخاص تقطع أوصاله إرباً إرباً في بعض المحاكمات ليخونوا صديقاً أو يعترفوا عليه بما يؤذيه فلا يشكون ولا تتغير حالهم.

وعلى النقيض من ذلك نرى أناساً لا يطيقون أي نوع من أنواع الألم فيلجئون إلى العقاقير السامة كالكوكايين والمورفين لتخفيف آلامهم وكثيراً ما يعتادونها.

فهل هناك حد وسط بين هذين الحدين؟ هل توجد حالة طبيعية بين هاتين الحالتين؟ من المحتمل أن لا يوجد شيء من ذلك. وكل ما نستطيع أن نقوله: أن الرجل الصحيح يتجنب الألم بقدر الإمكان، فإذا ناله شر لابد منه فيجب عليه أن يتجلد له ويحتمله، ولا يفعل كما يفعل الطفل، وقد نستطيع أن نطبق هذا المبدأ على اوجه الحياة المختلفة، فنحن كثيراً ما نفعل أعمالاً لا نريد أن نفعلها، فبعضنا يرفعون عقيرتهم بالشكوى لأقل شأن، وبعضنا يتركون العمل الذي يشتغلون فيه بغير مبرر! فإذا فرضنا أنك أجبرت بحكم عملك على أن تكون مع شخص لا توده. فالرجل الناضج في هذه الحالة يحتفظ بشعوره نحو هذا الإنسان ويعامله بشيء من الحذر. أما شعور السرور الذي يتولانا في مجلس من المجالس، أو عند مشاهدة تمثيل إحدى الروايات، فقد يثير في نفوسنا شيئاً من الضحك أو الهياج، وقد لا نستطيع أن نتكتم هذا الشعور، إلا أنه من الواجب أن لا نشوش به على الآخرين كما يفعل الصبيان، فسواء كنا في حالة من السرور أو حالة من الألم فالواجب علينا أن نتعلم ضبط النفس وكبت الشعور وإلا كنا غير ناضجين.

تجنيد الكلاب في الحروب

تدرب الكلاب في جميع أنحاء العالم للخدمة في الحروب. ففي روسيا أنشئت مدرسة في موسكو للكلاب، وفي اليابان أعدت أماكن فسيحة لتدريبها منذ 1933، وقد أعدت ميادين خاصة في بولندا وإيطاليا لتدريب الكلاب على الأعمال الحربية على اختلافها، وفي أستنيا تلازم الكلاب طلائع الجيش، أما في فرنسا فهي تدرب مع الجنود في كثير من الميادين.

وتستخدم الكلاب في حمل الرسائل إلى الفرق الطبية، وفي توصيلها إلى الحرس، حيث تجتاز الأماكن الوعرة، وتعبر الأنهار الواسعة لتوصيل رسائلها. وهي تدرك الممرضين في الميدان بما يحتاجون لتضميد الجراح، وهي تستطيع أن تحمل المؤن على ظهورها وتسير بها إلى مسافات بعيدة.

وقد كانت الكلاب تستعمل في الهجوم والدفاع منذ أقدم العصور. ويقول هيرودتس إن (سيرس) كانت لديه كلاب يستخدمها في الحروب. وفي كتاب بلوتارك أن الكلاب

أبحث كتيبة (كورنيثيه) من الهلاك.
وكان فيليب المقدوني يستخدم الكلاب في حروب أرجول واستخدمها الرومان لحراسة الجيوش، وكان (السلت) يدربون الكلاب على مهاجمة الخيل، فتأخذها بخياشيمها وتسقطها في ميادين الحروب.
أما في القرون الوسطى فقد كثر استخدام الكلاب لهذه الأغراض، وقد كانت الفرق الأسكوتلندية تصطحبها على الدوام وكانت مدينة سان مالو تستخدم الكلاب في حراسة أسوارها إلى سنة 1770، وقد اتخذ نابليون الكلاب سنة 1799 لحراسة الجنود في مدينة الإسكندرية. واستخدم الألمان الكلاب لحماية الكتائب وحراسة الأقاليم والمعسكرات في سنة 1870.
وفي سنة 1895 قام كلبان بإمداد كتيبتين بالذخائر أثناء الحرب على أكمل وجه.
وفي سنة 1904 كان الجيش الألماني يستخدم 600 كلب من الكلاب المدربة على الحروب وآلافا من الكلاب الأخرى
أما فرنسا فقد بدأت تجنيد الكلاب في سنة 1916، وقد اجتمع في باريس 9000 كلب نظمت فرقا وأرسلت إلى الميادين للتدريب. وقد قامت تلك الكلاب بخدمات عظيمة مما كان ذكره موضع إعجاب المتحدثين.
آلة لقراءة الأفكار
اكتشاف عظيم سيحدث ضجة عظيمة في العالم! ذلك هو اختراع آلة لالتقاط الأفكار والخواطر التي تجول بذهن الإنسان! وليست هذه الآلة كالآلات المصورة التي يعرفها كل إنسان، ولا حلماً من أحلام رجال العلم. إنها مصورة تشتغل في كل مكان وليس إلا أن يرقد الإنسان على منضدة والآلة تسجل خواطره دون أي ألم أو ارتباك!
وللحصول على هذه المعجزة يكفي أن يكون عندك سلك موصل بآلة كهربائية وفلم نظيف وتحرك آلة تسجيل الخواطر. أنك لا تستطيع عند ذلك أن تخفي أسرار نفسك بحال من الأحوال.
قد تكون هناك بعض صعوبات في تسجيل خواطر بعض الناس ممن يفكرون في شئون مختلفة في وقت واحد، ولكن تلك الآلة تستطيع أن تركز ذهن الإنسان وتستخلص ما تشاء من أفكاره.
غير أنك عند تسجيل بعض الأفكار الهامة والمعلومات العلمية العظيمة، قد تصادفك خطوط مختلفة لعاطفة من العواطف الخاصة مما يستثير الضحك في بعض الأحيان.
ولا يستعصي على هذه الآلة إخضاع بعض العصبيين ومرضى الصرع والشواذ مما ينتظر أن يأتي بأجل الفوائد، ولا شك أن هذا الاختراع سيفتح أمام العلم باباً لا حد له من التفكير.
أي دنيا عجيبة سيلقى بنا فيها هذا الأكتشاف؟ وكيف نكون؟ وكيف تصبح حياتنا إذا كانت حتى خواطرنا لم تعد ملكاً لنا في هذه الحياة؟!
لقد مات جيتي وهو يقول: نور. . . نور! أين كانت هذه الآلة لترينا أي نوع من النور كان يريده الشاعر العظيم؟ أهو نور العبقرية ونور الروح، أم نور الشموع؟!
البريد الأدبي
حول جناية الأدب الجاهلي حديث لأديب مصري مصطاف في لبنان
نشرت زميلتنا المكشوف البيروتية في عددها الأخير هذه الكلمة وهذا الحديث بإمضاء (جوابة) فرأينا من فائدة الأدب في ذاته أن ننقلهما عنها لا مقرين ولا منكرين، فإن رأي الرسالة في الموضوع قد صرحت به في العدد 316 فلا تسأل إلا عنه. قال الكاتب الفاضل:
أطالع منذ أسبوعين في مجلة (الرسالة) المصرية سلسلة من المقالات للدكتور زكي مبارك ينقد فيها آراء للأستاذ أحمد أمين أبداها في الأدب الجاهلي وجنايته على الأدب العربي ونشرها في مجلة الثقافة. وقد أختار الدكتور مبارك عنواناً لمقالاته (جناية أحمد أمين على الأدب العربي). ولاشك أن التهمتين مبالغ فيهما؛ فلا الأدب الجاهلي جنى على الأدب العربي بقدر ما يتصور الأستاذ أحمد أمين، ولا الأستاذ أحمد أمين جنى على الأدب العربي بقدر ما يتخيل الدكتور زكي مبارك. فما هو السبب يا ترى في إثارة هذا النوع من النقاش، بل هذه المعركة الحامية الوطيس بين الرسالة والثقافة؟

مما لاشك فيه أن هذه الأبحاث طريفة في حد ذاتها على ما يرافقها من مبالغات وعنف في العرض والرد واللهجة. ومما لاشك فيه أيضاً أنها تحث قرائح الباحثين، فيتناولون هذا الموضوع ويعالجونه في جو بعيد عن غبار المعركة. ولابد أن يجني الأدب فائدة تذكر من درس الأدب العربي على ضوء (المعدة والروح) على أن يقارن بينه وبين آداب الأمم في عصورها المتشابهة أو المتقاربة، وعلى أن تسلم النيات وتطيب الإرادات.

وقد اتفق لي منذ يومين أن التقيت في أحد المصايف أديباً مصرياً قدم إلى لبنان ترويحاً للنفس، فجرى بيني وبينه حديث عن المعركة التي أثارها الدكتور زكي مبارك وعن أسبابها الظاهرة والخفية، فصارحني محدثي برأيه. ولما طلبت إليه الأذن لي بنقل هذا الرأي إلى قراء (المكشوف) أوصاني بإهمال ذكر اسمه، معتذراً بأنه يفضل أن يتفرج على أن يدخل شخصاً ثالثاً في نقاش قد يضطره إلى الدرس والمراجعة، وهو ما جاء لبنان إلا للراحة والسكينة. . .

ونزولاً على مشيئة محدثي أكتم اسمه وأكتفي بنقل خلاصة أمينة لما قال:

- لا جدال أن النقد في مصر قد خفت صوته، ولذلك أسباب لا مجال للخوض فيها الآن. ومن الخير للأدب أن يعود النقد إلى سابق عهده فتروج الكتب والمجلات. وقد يسعف الحظ بعض الأدباء الناشئين فتلمع أسماؤهم في سماء الأدب وتقوم شهرتهم على جثث ضحاياهم، وهذه سنة الحياة. . . أما الدكتور زكي مبارك فلم أعرف أديباً أشد اندفاعاً منه في ميدان النقد، فكأنه مفطور عليه يموت إن لم يتغذ به. إنه حركة دائمة؛ وإن هو لم يجد من ينقد مال على نفسه ينقدها. ولست أشك في إخلاصه لفنه، إلا إنني أعيب عليه ميلاً قد يكون مكتسباً، إلى حمل خصومه على مناقشته في مواضيع دقيقة وحساسة في شرقنا العربي. أضرب مثلاً على ذلك اتهامه الأستاذ أحمد أمين بشيء من الفتور في دينه، وإلصاقه به تحيزاً ضد الشام والعراق وغيرهما من الأقطار العربية.

على أن أسباب المعركة القائمة الآن بينه وبين أحمد أمين، أو بين (الرسالة) و (الثقافة) ليست ناتجة - فيما أظن - عن الأخطاء التي ارتكبها أحمد أمين في بحثه عن جناية الأدب الجاهلي على الأدب العربي، بل يرجح عندي أن هذه الأخطاء كانت فرصة اغتنمها الدكتور لشن الغارة على أحمد أمين. أما الأسباب الحقيقية فترجع إلى المناوشات التي قامت في وقت ما بين الزيات وأحمد أمين من أجل الكتب التي قررت وزارة المعارف وضعها بين أيدي التلاميذ، ولم يكن بينها كتب الزيات. فاحتج صاحب (الرسالة) على هذا الاحتكار، واتهم أحمد أمين بكونه لولبه. وكان أحمد أمين صريحاً، فاعترف بأنه لم يوافق على إدخال مؤلفات الزيات في قائمة الكتب المقررة لأن فيها ما يؤذي الأخلاق. . .

واستمر هذا الخصام بين الزيات وأحمد أمين تارة مستتراً، وتارة ظاهراً، حتى ظهرت (الثقافة) وكان هدفها الأول محاربة (الرسالة). وفي الواقع من هم قراء الأدب في مصر؟ هم طلبة الجامعة في أكثريتهم، فلماذا لا تستغلهم لجنة التأليف والترجمة والنشر بمجلة توجه أبحاثها إليهم بعد أن استغلتهم بالكتب؟ وأكثر أعضاء هذه اللجنة من أساتذة الجامعة، فصدرت (الثقافة) يؤيدها خصوم الزيات من طه حسين، إلى محمد عبد الله عنان، إلى أحمد أمين، إلى غيرهم ممن أغضبهم الزيات لسبب من الأسباب في وقت من الأوقات. وهذه نوازع بشرية لا غرابة فيها، وإنما الغرابة أن يستطيع أحمد أمين الانتقام من الزيات ولا يفعل!

وقراء الأدب في مصر محدودون، فكان بديهياً أن يتحول قسم كبير منهم من (الرسالة) إلى (الثقافة) وأن تحس الرسالة أنها لم تبق وحدها في الميدان. فاشتد النزاع واشتد. . . ورأينا الزيات يدخل على مجلته تحسينات وأبواباً جديدة، ثم لا يلبث أن يحاول اجتذاب طلبة الأزهر إليه فيجعل منهم حزباً يعضده على حزب الجامعة. ولا أدري أنجح في محاولته هذه أم أخفق. وكل ما أعرفه أن الثقافة راجت سوقها على ضعف مادتها، وعلى افتقارها إلى الروح الصحفية الحديثة.

فـ (المعدة) إذن كانت منشأ المعركة القائمة الآن بين أحمد أمين والدكتور زكي مبارك، أو بين الرسالة والثقافة. فإذا كان الأدب العربي أدب معدة في عصوره

القديمة لا أدب روح، فمعلوم أن حياة الأديب القديم لم تكن هينة الموارد، فما بال الأستاذ أحمد أمين يتمسك في أدبه بما يعيبه على الآخرين؟ . . .
انتهى كلام محدثي، وقد نقلته إلى قراء (المكشوف) بكل أمانة.
(جوابة)
بعثة عراقية إلى الأزهر
كان نوري باشا السعيد رئيس الوزارة العراقية قد كتب إلى رفعة علي ماهر باشا رئيس الديوان الملكي في صدد قبول الحكومة المصرية عدداً من طلبة العراق في الأزهر للتخصص في الوعظ والإرشاد، فتلقى نوري باشا من رفعته الرد التالي:
(تلوت بموفور السرور والارتياح خطابكم الكريم الذي ضمنتموه عزيز أمنيتكم أن تقبل الحكومة المصرية عدداً من طلبة القطر العراقي الشقيق للتخصص في مسائل الوعظ والإرشاد، وقد بادرت بعرض الأمر على جلالة مولانا الملك المعظم، ثم اتصلت بفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر في هذا الشأن، وقد اتفق على قبول عدد من الطلبة بقدر ما يستطاع توفيره له من أماكن، ستبلغ نحو العشرة.
ولا أراني في حاجة إلى أن أؤكد لدولتكم أن من أحب الأشياء إلي العمل ما أمكن على ازدياد روابط البلدين إحكاماً وقوة، وإننا جميعاً يسرنا أن نبذل أقصى الجهد في تحقيق هذه
الغاية الشريفة.
(علي ماهر)
الحمد لله على نعمة الإسلام
امتاز الإسلام من بين سائر الديانات بمزية جميلة جداً، هي رفع الوساطة بين الله والناس، فلكل مسلم الحق في أن ينظر إلى الله والوجود كيف شاء في حدود المنطق والعقل، ومن حقه أن يخاطب الله بلا وسيط من الأشياخ أو الأحبار أو الرهبان.
أقول هذا وقد قرأت في (الرسالة) كلمة يقول كاتبها إن من حقي أن أتكلم في الأدب لأني دكتور في الآداب، وليس من حقي أن أتكلم في الدين لأني لست دكتوراً في الدين.
وهذا الكلام يدل على أن قائله بعيد عن فهم الغرض من الرسالة الإسلامية. فالرسول عليه الصلاة والسلام بُعث لرفع الكلفة بين الناس وبين خالقهم، بعد أن كانوا يتوهمون أن بينهم وبينه حجاباً لا يرفعه غير الأحبار والرهبان.
ولو أني انتظرت الإذن من رجال الدين لكان من المحتوم أن تضيع الجهود التي بذلتها في الدراسات الإسلامية، وهي جهود سألقى بها الله وأنا مرفوع الرأس، لأنه عز شأنه لا يضيع أجر المحسنين.
والذين استكثروا أن أتكلم في الدين فاتهم أني صححت أشنع خطأ في تاريخ التشريع الإسلامي حين بينت بالأدلة والبراهين أن كتاب (الأم) لم يؤلفه الشافعي، وإنما ألفه البويطي المصري، وتصرف فيه الربيع بن سليمان.
وهم كذلك ينسون أني صاحب كتاب (التصوف الإسلامي) وهو كتاب سأدخل به الجنة وسأدخل معي على حسابه ألوفاً من الأدباء المحرومين، كما أوحى الله إلى الزيات أن يقول، وهو رجل صادق الإيمان، ورجاؤه في الله مقبول.
والحق أني أعجب من الذين يصرون على التشكيك في عقيدتي. فلو كانت قلوب هؤلاء عرفت معاني النور لعرفوا أن في مؤلفاتي نفحات هي أنفاس حرار من وهج الإيمان الصحيح.
وما يهمني أن أزكي نفسي، فالله يعلم ما بينه وبيني، وإنما يهمني أن يقلع بعض الناس عن اغتيابي في السر أو مهاجمتي في العلانية في أمور متصلة بالدين، فإني أخشى أن يغضب الله عليهم فلا يبوءوا بغير الخسران.
وإني لخليق بأن أرجو لهم المغفرة متمثلاً بالقول المنسوب إلى الرسول:
(اللهم اهد قومي، فإنهم لا يعلمون)
وإلى الله أرفع الرجاء في أن يصيرني من المعفو عنهم، وأن يجعلني بفضله من عباده الصالحين، وأن يمنحني من العافية ما أملك به الصبر على خدمة الأدب والدين.
زكي مبارك

سعد وسعاد
قرأت ما كتبه الصديق العلامة الأستاذ عبد المتعال الصعيدي وأبادر فأقول: إن مروان ليس بدلاً من الخليفة بل من (وإلى تلك الجهة) وبذا يرتفع الأشكال، وأحسب أن طول العبارة ألقى عليها ظلاً من اللبس.
ولا أكتم شيخنا الجليل أنني سررت بوقوعه في هذا الاشتباه فقد أغضب (سعاد) حين قسا على قومها في مقاله (بنو عذرة) وتابع الخليفة عمر بن عبد العزيز في نظرته إليهم، فكان من حقها أن تثأر منه لهم! فهل يؤمن بعد هذا بان للجمال (كرامات)؟
أما القصة فقد وردت مختصرة في بعض الكتب أذكر منها نهاية الأرب للنويري. وقد تكون صحيحة أو موضوعة لا أستطيع الجزم بشيء منهما، فوجدت فيها مجالاً واسعاً للتحدث عن البدو في حبهم وعفتهم وزواجهم وعاداتهم، فهي تخالف ما سبق من المقالات بان حظها عظيم من الخيال، ولكنه خيال يسامي الحقيقة في الصدق لأنه يتكئ عليها وينبثق منها. بل لقد توسعت في بعض المواقف فانطلقت سعداً بشعر لم يقله، لأن المقام يحتم ذلك وأدب القصة يبيح هذا التوسع.
وإني لأنتهز هذه الفرصة فأهدي إلى فضيلة الشيخ الصديق أزكى التحيات المباركات.
ملحوظة: ورد في المقال الثاني شطر بيت هكذا: أو صاحب التاج أو مروان عاهله، وصحته عامله.
علي الجندي
سعد وسعاد ومعاوية بن أبي سفيان
قرأت المقال الثاني لصديقي الأستاذ علي الجندي فرأيته يجعل ذلك الوالي الذي أغتصب سعاد من ابن عمها سعد، مروان بن الحكم، فزاد هذا تلك القصة اضطراباً.
وقد رأيت بعد هذا أن أراجعها في مظانها، ولم يحملني على هذا إلا استبعادي أن يقع مثل ذلك من مروان في مكانته وزعامته لبني أمية، وأن يظهر في تلك القصة بمظهر الوالي الذليل لمعاوية، وهو الذي كان يساميه في نسبه وزعامته لتلك الأسرة الحاكمة من قريش، وقد كان معاوية يلانيه ويداريه، ولا يعامله بتلك الخشونة التي عامله بها في تلك القصة، حتى إنه لما عهد لابنه يزيد كتب إلى مروان يأمره بأخذ بيعة قريش وأهل المدينة ليزيد، فأبى ذلك وأبته معه قريش، ثم ذهب إلى معاوية مغاضباً في نفر من أهل بيته، وأنكر عليه خروجه على ما سار عليه الخلفاء قبله من جعل ذلك الأمر شورى بين المسلمين، وتأميره الصبيان عليهم، فأهم معاوية أمره، واشترى رضاه بالمال، ففرض له ألف دينار في كل هلال، وفرض له في أهل بيته مائة مائة
ولم تخطئ والحمد لله فراستي في ذلك، فقد راجعت تلك القصة في كتاب تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق للشيخ الفيلسوف داود الأنطاكي الطبيب المعروف، فوجدته يذكر أن ابن عمها لما أملقت يده رفع أبوها أمره إلى ابن أم الحكم، فضيق عليه السجن والقيود حتى طلقها كارهاً، فأعطى أباها عشرة آلاف درهم وتزوج بها.
ولاشك أن ابن أم الحكم غير مروان ابن الحكم، لأن ابن أم الحكم هو عبد الرحمن بن عبد الله الثقفي وقد اشتهر بنسبته إلى أمه أم الحكم بنت أبي سفيان بن حرب الأموي، وكان خاله معاوية يوليه أعماله فيسئ السيرة فيها، وهو الذي يليق بأن ينسب ما حصل في تلك القصة.
على أني أرى أن تلك القصة من القصص الموضوعة الضعيفة في سبكها وشعرها، فقد جاء فيما نسب إلى معاوية من الشعر فيها هذا البيت:
قد كنت تشبه صوفيًّا له كتبٌ ... من الفرائض أو آيات قرآن
ومثل هذا لا يمكن أن يقال في عصر معاوية، لأن نظام التصوف لم يكن قد حدث في ذلك العصر، ولم يكن فيه كتب في التصوف يحملها المتصوفة أو غيرهم. وكل أشعار تلك
القصة على ذلك الشكل من الضعف الذي لا يتفق مع شعر عصر بني أمية في سائر فنونه، وإنما هي أشعار موضوعة في العصر الذي ألف فيه كتاب تزيين الأسواق، وهو العصر الذي وصلت فيه العربية إلى حالة الضعف في أدبها وأشعارها.
عبد المتعال الصعيدي
الدين والسياسة
جاء في مقال الأستاذ الجليل ساطع الحصري بك في العدد (317) من الرسالة: (من

أن السياسة شيء والدين شيء آخر) وإطلاق هذا القول في بلد دين دولته الإسلام، ودين شعبه الإسلام، لا ينصرف معنى الدين فيه إلا إلى إسلام.
ونحن نعلم أن الأستاذ ساطع بك من أكابر علماء التربية وأساطينها، وإنه أن قال فيها فقوله القول، ولكنا لا نعرفه عالماً بالدين الإسلامي، ولو اطلع على الإسلام لما أخذ رأي الأوربيين في وجوب فصل الدين (المسيحي) عن السياسة ولما أطلقه على الدين الإسلامي إذ أن معنى الدين عند القائلين بهذا المبدأ ما يحدد علاقة الإنسان بربه أو ما يسمى في فقهنا بالعبادات، وهذا الذي يريدون أبعاده عن السياسة، كما أنهم يريدون الخلاص من سلطة الكنيسة وسيطرة رجال الدين. وهذان الأمران لا يردان على دعاة السياسة الإسلامية لأنهم يسلمون بان الإسلام عبادات ومعاملات وتشريع. أما العبادات فبين المرء وربه لا تدخل في السياسة ولا تؤثر فيها، أما المعاملات والتشريع فلا يمكن فصلهما عن السياسة أصلاً، وفي القرآن نفسه آيات في السياسة الداخلية والخارجية وفيه سورة براءة، أفنفصل هذه الآيات كلها عن القرآن؟ أما سلطة رجال الدين فلا يعرفها الإسلام وليس فيه طبقات تتميز من طبقات، أو أناس هم وكلاء عن الله.
وأحسب أن الأستاذ الحصري لو اطلع على كتاب (السياسة الشرعية) مثلا للأستاذ الشيخ عبد الوهاب خلاف أو (الشرع الدولي في الإسلام) للدكتور الأرمنازي أو كتب العلماء المتقدمين من أمثال ابن تيمية وابن القيم قبل أن يكتب ما كتب، لكان له في الموضوع موقف آخر.
(دمشق)
ناجي الطنطاوي
كشف أثري في شمال الترنسفال
تلقت جريدة (السنداي تيمس) من مراسلها بيتروسبورج كتاباً قال فيه: إنه كشف في شمال الترنسفال أخيراً صورة ملونة يعتقد أنها من صور قدماء المصريين، فأثار هذا الكشف عناية العلماء هناك وكان موضع اهتمامهم.
فإذا صح ما زعمه مراسل الجريدة، وثبت أن الكشف مصري قديم، فمعنى ذلك أن كل ما دون عن أفريقيا الجنوبية في عصور ما قبل التاريخ ستعاد كتابته من جديد.
وقد عثر على هذه اللوحة في مغارة تقع فوق رابية من ربى مزرعة المستر (ج. جادا) التي تبعد اثني عشر ميلاً عن مدينة بوتجيتر ستراست.
وأرسل صاحب المزرعة كتاباً إلى الدكتور بروم، العالم الأثرى الشهير، يبلغه فيه نبأ الكشف الجديد، ويطلب إليه زيارة المزرعة ليرى تلك اللوحة التي أثارت في الأيام الأخيرة اهتماماً غير قليل، إذ المعروف حتى الآن أنه لم تكشف صور ملونة من أصل مصري قديم في بلاد تتعدى مواقعها جنوب منابع النيل.
ولاشك أن زيارة الدكتور بروم ستجلو الغموض الذي يلابس هذا الكشف الجديد، وخاصة أن المصريين القدماء كانوا يتخذون في رسومهم قاعدة خاصة لا يخطئ معها الإنسان في أن يعرف إذا ما كانت هذه المخلفات من آثارهم أم لا.
لقد أثبتت الآثار المصرية التي أمكن العثور عليها في مختلف السواحل الأفريقية أن قدماء المصريين تمكنوا بواسطة طرقهم الملاحية، من أن يصلوا إلى تلك الجهات، ولكن الكشف عن مثل هذا الأثر الجديد في بقاع داخلية متوغلة يعد ظاهرة جديدة يحتمل معها كثيراً أن يكون قدماء المصريين قد توصلوا في عصور ما قبل التاريخ إلى تأسيس مستعمرات لهم في أفريقيا الجنوبية. . .
إهداء أوراق خطية قبطية إلى مكتبة جامعة كمبردج
أعلن عميد جامعة كمبردج أن السر هربرت تومبسون الأستاذ السابق بكلية ترنيتي أهدى إلى مكتبة الجامعة عدداً من الأوراق الخطية القبطية القديمة، يتراوح بين ثمانين وتسعين
ورقة.
وترجع أهمية هذه الأوراق إلى أنها تمثل أشكالاً مختلفة للحركة الأدبية في العهود التي جاءت بين القرن الخامس إلى القرن الثامن، وقد وجدت هذه الأوراق في الدير الأبيض المشهور في جوار أخميم.
حول الفن المنحط - كلمة أخيرة
أساء الأستاذ أنور كامل فهم الروح التي أملت علي كلمتي المنشورة في العدد 316

من الرسالة تحت عنوان (فن منحط برغم ذلك) والتي أثارت الأستاذ والجماعة التي فوضت إليه أمر الكلام عنها - ومن حقي أن أعتقد أن الأستاذ على استعداد لمناقشة الآراء التي يستهدي بهديها بعد أن قال عن جماعته: (وأغراضها تنحصر في الدفاع عن حرية الفن والثقافة وفي نشر المؤلفات الحديثة وإلقاء المحاضرات. .) (الرسالة عدد 315 ص 1426) وقد أتحت له بكلمتي هذه فرصة طيبة للإعلان عن جهود جماعته في مجلة عالية كالرسالة؛ ولكن الأستاذ تخاذل ونشر في العدد 317 من الرسالة كلمة تختلف في روحها اختلافاً كبيراً عما نشره في العدد 315، وترك الفرصة تفلت من يده لا لشيء إلا لأنه لا يمكنه الدفاع عن الفن الذي يروج له، لا عن طريق الفكر المنطقي المقنع ولا عن طريق البيان الذي يلهمه الإيمان الحار الذي يتدفق من القلب ويتصل بالقلوب مباشرة فتقنع به. ومن الراجح (كما هو ظاهر لكل قارئ) أن الرسالة لم تنشر الرد الذي بعث به إليها الأستاذ كاملاً بل حذفت منه ما لا يتفق مع أدبها العالي ومستواها الرفيع. وأنا لا يهمني أن يسبني الأستاذ الفاضل ولن أتأثر لما ينال شخصي من الأحوال، وإني أؤكد للأستاذ ولأسرة الرسالة أني كتبت ما كتبت مؤمناً بأن الفن الحديث متاهة يضل فيها الكثيرون وأن المناقشة فيه ودرسه خير طريق لتمحيصه ومعرفة حقه من باطله فقد يدلني الأستاذ كامل على ما أجهل وقد أدله على ما يجهل. وأعيد هنا أني رأيت طرفاً مما رسمه بعض أعضاء الجماعة. وإني لأكرر بكل قواي أنه فن منحط؛ فرسومهم تستند إلى مذهب السير ريالزم وهذه حركة فرنسية محضة باعثها الأول نظريات العالم سيجموند فرويد. وللدلالة على طبيعة اتجاه هذه الحركة نقتبس قول أحد أقطابها وهو الأديب اندريه بريتون

إن نزوات الأفكار في الأشخاص المعتوهين تتفق اتفاقاً مقرراً مع بعض افتراضاتي) العزيزية. إن ظاهرة الكتابة الآلية قد تأتي بنتائج مدهشة. نحن لا نعترف بشيء مطلقاً. إننا نعتقد بقدرتنا على اختزال أو التغلب على العقل والاحساسات الجميلة. نحن نحس العطف على كل الأحزاب الثورية. نحن لا نؤمن بالتقدم الإنساني. إننا نريد أن ندعم كل حركة معارضة بعنف مجازفين بأعمارنا. الزمن لا وجود له، إني أفضل أن أحطم على أن أشيد. نحن نصر على مراجعة القيم الفنية مراجعة كاملة. نحن لا نؤمن بالنبوغ الأدبي؛ والصفة الأدبية ليس لها إلا قيمة ثانوية. إننا ننقم على الحقيقة الحاضرة). وأظن أن الحركات الفنية لا تنقل بمثل هذه السهولة من قطر إلى آخر. . . دعك عن حديث الشخصية والإلهام. . .

أما الشطر الاجتماعي من جهود الجماعة فإني أتمنى له الازدهار والأثمار المبكر وأقدم اعتذاري للأستاذ الذي ثار وهاج لأني وضعت فيه ثقتي ودعوته دعوة بريئة للحديث عن الفن.

وكان كاتب هذه المقالات قد وعد قراء (الرسالة) بسلسلة مقالات عن الفن. وقد قاربنا الانتهاء من إعداد هذه المقالات وسننشرها في الرسالة قريباً تحت عنوان (الفن كما أؤمن به) وبذلك نؤدي ما نعتقد أنه واجبنا المحتوم.

نصري عطا الله سوس

الكتب

فرعون الصغير

وقصص أخرى

تأليف الأستاذ محمود تيمور

للدكتور إسماعيل أحمد أدهم

يعتبر القاص محمود بك تيمور أشهر الكاتبين للأقصوصة في العالم العربي. وقد أصدر إلى اليوم نحو عشر مجاميع قصصية تحتوي على نيف ومائة أقصوصة تمتاز كل واحدة منها بطابعها المحلي، وقد ترجم بعض هذه الأقاصيص إلى الألمانية، والبعض الآخر إلى الفرنسية. كما ترجمت أقصوصة له إلى الإيطالية كنموذج من فنه القصصي. وقد نالت أقاصيص محمود تيمور شيئاً من التقدير في الدوائر الأدبية الغربية، ذلك أنه صاحب اقتدار على كتابة الأقصوصة، وهذا الاقتدار يجيء في الأصل من طبيعته الفنية التي دارت حول الحياة ومشاهدها ومجاليها، متأثرة من جهة بأجواء القصص الأوربي، ومن هنا ما في أقاصيصه من شدة الصلة بأقاصيص جي دي موباسان، وتشيكوف، وذاهبة من جهة أخرى تنقل عن المحيط المصري، ومن هنا ما في أقاصيصه من الطابع

المحلي.
وتيمور بك فنان يرتبط نظره بصور الأشياء، ومن هنا ترى ما في أقاصيصه من الرجوع إلى الحياة، والنقل المباشر عن مرائيها ومظاهرها. ولهذا كان إبراز مظاهر الحياة في أقاصيصه مرتبطاً بقدرته على الوصف، والوصف عنده هادئ، ومن هنا يغلبه بعض من التدقيق، وعلى هذا الوجه فقط يمكن فهم منحى تيمور بك الفني في أقاصيصه. وربما كان ما في طبيعته من الهدوء هو الأصل في غلبة النزعة الواقعية الساذجة التي تتراءى للنظر من آثاره. فالهدوء يفسح لعقله المجال للتداخل لتصفية ألوان الشعور وضبطها في نسب دقيقة مع الفكر، بحيث يسوق إلى خلق توازن بين العقل والمشاعر، وهذا التوازن يحمل الواقعية حين يتصل بموضوع أقصوصة. وهو عادة يدور من ناحية شكلية، فتجد نظرة محمود تيمور ترتبط بمظاهر الأشياء وسطوح الحياة، ومن هنا يمكن أن نقول بأن الأصل الواقعي في فن تيمور بك ساذج إذ هو نتيجة للوصف الحسي.
وخير ما يقال في أقاصيص تيمور بك أنها قطع من الحياة منتزعة في كل بساطة وصدق. فهي صفحة ساذجة من الحياة؛ إن لم تر موضوعاً فيها تدور حوله الأقصوصة، أو غرضاً ترمي إليه، فإنك تستشف من وراء أقاصيص الرجل صفحات من الحياة يعرضها عليك في دقة مشهورة بأسلوب الوصاف لا بريشة الرسام أو المصور.
وتعتبر (المجموعة) التي أصدرها في هذه الأيام من خير مجموعاته القصصية، وهي مصدرة ببحث عن المصادر التي ألهمته الكتابة. وهذا البحث في الأصل محاضرة ألقيت بقاعة يورت بالجامعة الأمريكية مساء 5 مارس سنة 1938. وقد وفق فيها تيمور بك إلى حد كبير في سبر غور الموضوع الذي يطرقه، كما نجح نجاحاً يذكر في الكشف عن العوامل التي اكتنفته فوجهته توجيهاً أدبياً صرفاً، وعملت على طبعه بطابع خاص. ومن رأي تيمور بك أن العوامل التي تحدد كل جانب وتكونه هي ثلاثة أمور أساسية: وراثة وبيئة وحوادث، تتدخل فتجري مجرى الحياة الباطنية من طريق إلى آخر. ويرى هو أن عامل الوراثة يتمثل معه فيما أورثه إياه والده من حب الكتابة، وشقيقه المرحوم محمد تيمور من حب الأدب القصصي. وهذا العامل قد ساقه بتداخله مع بيئته إلى الأدب، كما أنه يرى أهم العوامل التي أثرت فيه متصلة بأسباب مطالعته. وأهم الكتب التي تركت آثراً في ذهنه: هي ألف ليلة وليلة، وأقاصيص موباسان، وتشيكوف. على أننا نلاحظ على هذا الفصل أن الكاتب وقف في بسطه للموضوع وسبر أغوار نفسيته عند الجمل. فلم ينزل به إلى التفاصيل التي تعين على رسم صورة حقيقية دقيقة عنه.
وفي هذا الفصل مطالعات تستوقف النظر: أهمها رأي الكاتب في (ألف ليلة وليلة)، وتفسيره لقوة الخيال فيها بأنها ترجع إلى كونها - جاءت عن طريق الفرس - وهذه ملاحظة قيمة لها دلالتها القوية على بعد نظر الكاتب وعدم جريه وراء الأوهام التي يجري وراءها بعض الذين يكتبون في الأدب العربي من الكتاب المعاصرين.
أما المجموعة نفسها، فتحتوي على اثنتي عشرة أقصوصة، تستهل بأقصوصة (فرعون الصغير). وهي أقصوصة يبرز فيها اللون التخيلي من حيث يتغلب على بناء الأقصوصة الجو الخيالي. على أن هذه التخيلية عند الكاتب في هذه الأقصوصة تجعل فكرة الأقصوصة غير متسقة في أجزائها. ففي هذه الأقصوصة تجده يصور الشاب بطل الأقصوصة شاباً في
سن السابعة عشرة - مدفوعاً إلى ذلك بفكرة أولية، هو أن يخلق صلة شبه بين الشاب والفرعون الصغير توت عنخ أمون الذي مات في السابعة عشرة، أو الثامنة عشرة من عمره - وهذا التصوير الأنيق في بناء القصة مع الدور الذي يقوم به الشاب من أنه تخلف عن داره وبات خارجها مع الأمريكية الحسناء.
وفي الأقصوصة الثانية وهي (غريم) تجد تيمور بك يقيم هيكل أقصوصة على أساس من تنازع العواطف، وهذا ما تراه واضحاً في شخصية رشدية يسري. وهذا اللون الباطني وإن كان خفيفاً في هذه الاقصوصة، فهو يعود إلى علم النفس الحديث، والتأثر بالفريدوية واضح فيها. على أنه في وصفه لشخصية رشدية يسري تتنبه فيه ملكته الواقعية الساذجة؛ فتراه يعمد لتصوير شخصيتها في دقة وبساطة. وهي في تصويره لشخصيتها يبدو وبيده ريشة المصور من حيث يستخدم الألوان ويمزجها لخلق الأطياف

والظلال. على أنه في تصويرها يبدو لي وكأنه نظر لقصة بنت يزيد لرفيق خالد بك القصصي التركي الكبير حين عرض لتصوير (زليخا) بطل قصته.

وفي الأقصوصة الثالثة وهي (حزن أب) تجد تيمور بك يبرز شخصية (الشيخ عساف) في صورة إنسان قد توزع فيه الإحساس بعد أن صدم بوفاة أبنه، وهو ينتهي من تصويره بأن يريك الأب قد انتحر. . . وبهذا تخلص من توزع مشاعره واحساساته. وجو الأقصوصة يوحي بلون باطني، ولكن لا يكاد يستشف منها، وإن أمكن إدراك لونها، بأن تترك القصة توحي إليك بجوها ألوانها الباطنية. وهكذا يمكنك أن ترى من مجرى حوادث الأقاصيص أن التخيلية من جهة والباطنية من جهة أخرى أخذت تطغي على الواقعية الساذجة، ولكن بدون أن تغرقها. وهذا التطور عند تيمور بك طبيعي لأنه رجل فنان وفنه يستولي عليه، ويختار التعبير الذي يتسق مع الجو الذي يضطرب في طوايا نفسه.

والحق أن هذا التطور عند تيمور بك يعتبر تلطيفاً لجمود الواقعية. والأصل الواقعي ثابت من نفسه بعد ذلك، ولا أدل على ذلك من ظهوره بصورة خيوط تتعارض في نسيج أقاصيص الرجل. . .

هذه مجموعة أقاصيص (فرعون الصغير) وهي مجموعة طيبة من الأقاصيص تدل على تطور الفن القصصي عند تيمور بك ولكن مع استناده إلى الأصل الثابت من نفسه، وهي من هنا خليقة بالعناية والتدقيق والاعتبار من أدباء العربية.

إسماعيل احمد ادهم

وقع خطا في ردي الأخير على الدكتور بشر فارس وهو ورود كلمة الإنجليزية وكأنها تنظر إلى كلمة الفرنسية والصحيح أن الكلمة الفرنسية تنظر إليها في الإنجليزية كلمة أو وقد استعمل الوجه في ترجمته لكتاب دوركايم. كذلك جاء في المقال ص1524 س 1 كلمة الغمزات مكان الفراسة كما جاءت في أكثر من موضع كلمة التقدير مكان التقرير. كما ورد ص 1526س10 كلمة التقدير زائدة. ولهذا لزم التنويه.

1

1

العدد 320 - بتاريخ: 21 - 08 - 1939

الحلف العربي

وقضيتا فلسطين وسورية

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

منذ بضعة أسابيع نشرت لي مجلة (المكشوف) البيروتية في عددها الممتاز كلمة عن الوحدة العربية بينت فيها ما يتيسر من ذلك في الوقت الحاضر، وهو أن يكوّن الأمم العربية - أو التي لغتها العربية - فيما بينها حلفاً قوياً وطيد الدعائم يوحد نظم التعليم العام، ويزيل الحواجز الجمركية، ويلغي الجوازات، وينظم التبادل التجاري، ويوثق الروابط الاقتصادية، ويوحد النظام العسكري، ويعين على إنصاف الأمم العربية التي لم تفز إلى الآن بحقها في الحياة الحرة مثل: تونس والجزائر ومراكش، ويجعل من هذه البلاد كلها كتلة واحدة وصفاً متراصاً متعاوناً للدفاع عن وجودها وصون مصالحها والذياد عن كيانها. وقلت: إن هذا مطلب ليس فيه شطط، فإنا نرى فرنسا وبريطانيا تسعيان لمحالفة الروسيا الشيوعية على الرغم مما بين الدول الثلاث من تفاوت في الأصول واللغة والنظم الاجتماعية والسياسية والأغراض والمصالح والمواقع الجغرافية

وقد نقلت جريدة البلاد البغدادية هذا المقال، وعقبت عليه بقولها: إن الحلف الذي أدعو إليه قد فكر فيه العراق (وأوجد مشروعه فعقد معاهدته مع المملكة العربية السعودية ودخلت فيه مملكة اليمن، وبابه مفتوح لدخول كل دولة عربية أخرى)

وأنا أعرف ذلك وما نسيته ولا أنسيته يوم كتبت كلمتي إلي المكشوف. وقد كنت في بغداد لما كانت المفاوضة دائرة بين العراق والمملكة السعودية لعقد هذا الحلف، وقبيل الأوبة إلى مصر بشرنا السيد يوسف يسن مندوب الدولة السعودية، والمرحوم يسن باشا الهاشمي رئيس الوزارة العراقية يومئذ، بأن الاتفاق تم ولم يبق إلا التوقيع، فكان هذا أعظم ما سرنا وخير ما عدنا به من بغداد

ومازال الحلف قائماً ولا شك في فائدته للدول الداخلة فيه ولكني لا أعلم أن الفائدة

تجاوزت هذا النطاق المحدود. وإذا كانت العراق واليمن والمملكة العربية السعودية قد تعاونت على السعي لإنصاف فلسطين فقد اشتركت معها في ذلك مصر وهي غير داخلة في الحلف، وقد كسبت هذه الدول الأربع لفلسطين العدول عن الوطن القومي وحصر الهجرة اليهودية إليها

في نطاق الثلث، وهذا فوز له قيمته ولا ريب، ولكني أجترئ على القول بأن الفضل فيما كسبت فلسطين العربية، لأبنائها الأشداء الأبطال المغاوير قبل أن يكون لهذه الدول العربية، ولو لم يقم عرب فلسطين قومتهم الباهرة لما أجدى سعي البلاد العربية الأخرى منفردة أو مجتمعة. ومع ذلك أصبح هذا الكسب عرضة للضياع إذا اعتبرنا ما يحدث كل يوم من تهريب اليهود إلى فلسطين وإدخالهم فيها بكل وسيلة غير مشروعة لإحباط سياسة الكتاب الأبيض فيما يتعلق بتحديد الهجرة والعدول عن الوطن القومي، وهؤلاء اليهود يجيئون من بلاد لا تضطهدهم ولا تسومهم شيئاً من العذاب أو الظلم وإنما يُجمعون ويُرسلون إلى فلسطين ليقاوموا السياسة الجديدة كما صرح زعماء اليهود بذلك

وأنا أعلم أن الجنرال نوري السعيد باشا رئيس الوزارة العراقية هدد في لندن بسوء العاقبة إذا لم تعمل بريطانيا على إنصاف عرب فلسطين، وكان لوعيده هذا أثره يومئذ في المؤتمر

ولكن على الرغم من تعاون البلاد العربية في المؤتمر ودخولها فيه وخروجها منه كتلة واحدة، وعلى الرغم من تهديد نوري باشا لم يفز العرب بأكثر من خمسين في المائة من مطالبهم العادلة وحتى هذا القدر يمحوه التهريب اليهودي الآن

ودع فلسطين وانتقل إلى سوريا وانظر ما حل بها

هذه فرنسا عقدت معها معاهدة صداقة وتحالف على مثال المعاهدة العراقية البريطانية، وما نظن أن أحداً سيدعي أن فرنسا أرغمت على ذلك أو أن سوريا أملتها عليها بحد السيف، ومع ذلك راحت تماطل في إبرامها ثم نقضت سياسة المعاهدة جملة وتفصيلاً وقضت على الحكم الدستوري وقطعت البلاد إرباً، وزادت فاقتطعت الإسكندرون وتفضلت فأهدتها إلى تركيا. وليس ما صنعته ألمانيا بتشيكوسلوفكا بشر مما صنعت فرنسا، فما كانت تشيكوسلوفاكيا أمانة في عنق ألمانيا وإنما كانت شوكة في جنبها وضعتها هناك سياسة فرنسا - وليس هذا دفاعاً عن ألمانيا وإنما هو الحق. وإذا كان المرء لا يجد ما يصلح أن يكون دفاعاً عن ألمانيا في هذا الباب على الرغم من الحقائق المعروفة فأي دفاع يمكن أن يكون هناك عن فعلة فرنسا في سوريا من إهدائها الإسكندرون إلى تركيا، وتقسيمها ما بقى من البلاد السورية إلى محافظات مستقلة إدارياً وقضائياً ومالياً وحكمها جميعاً حكماً مباشراً، وإهمال المعاهدة التي عقدت في سنة 1936؟

والشعب السوري من أسبق الشعوب إلى اعتناق الفكرة العربية والدعوة إلى الوحدة ومن أرقاها وأخلقها بالحياة الحرة.

وإذا كانت سوريا لا تستحق الاستقلال فلا ندري من ذا يستحقه؟

وإذا كانت سوريا التي احتمل رجالها أثقل أعباء الثورة العربية في إبان الحرب الكبرى والتي كانت ولا تزال إلى هذه الساعة على الرغم من محنتها أقوى مؤيد للحركات الاستقلالية في كل بلد عربي - تقابل نكبتها بمثل هذا الفتور، ولا أحب أن أقول الجحود، فلا أدري أية أمة أخرى أولى بالمعاونة والنجدة؟

أنا أعرف كما قلت أن هناك حلفاً عربياً بين العراق والدولة العربية السعودية واليمن، ولكني أستأذن صديقي الأستاذ روفائيل بطي صاحب (البلاد) البغدادية في أن أقول إن هذا الحلف لا يمكن أن يؤتي الثمرة المرجوة منه ما بقيت فلسطين وسوريا ترسفان في الأغلال، فإن هذين البلدين هما قلب البلاد العربية

إن البلد العربي الوحيد الذي يسعه أن يدخل في الحلف العربي الآن هو مصر ولكن دخولها فيه لا يوجد معدوماً، ولا يضيف ناقصاً، ولا يزيد شيئاً على علاقات الود والتعاون بين مصر وبلاد الحلف (العراق والمملكة العربية السعودية واليمن) وإنما الذي يكسب الحلف وزناً جديداً وقيمة عملية من العسير أن تتيسر له الآن هو استقلال فلسطين وسوريا ودخولهما في الحلف وبذلك تصبح البلاد العربية (إلى آخر حدود مصر الغربية) كتلة واحدة حقيقية في وسعها أن تتعاون على مواجهة الطوارئ وملاقاة الأحداث ودفع

الأخطار. وليس ذلك لأن سوريا وفلسطين أكثر عدداً أو أوفر مالاً أو أقدر أو أكفأ بل لأن بقاء هذه البلاد خاضعة لسلطان دول أجنبية يشطر البلاد العربية شطرين ويجعل التعاون العملي بين الشطرين متعذراً ويحول دون القيمة التي يسهل أن تستفاد من اتصال الحدود وزوال الفواصل والعوائق

وإلى أن يتم استقلال سوريا وفلسطين لا يجوز الاكتفاء بالقول أن الحلف العربي موجود وقائم وأن بابه مفتوح لمن يريد الدخول فيه فما يتغير شيء حقيقي بدخول مصر فيه قبل استقلال سوريا وفلسطين. وإلى هذا ينبغي أن يتجه السعي قبل كل شيء. وما أظن إلا أن إخواني في العراق يقرون هذا الرأي.

إبراهيم عبد القادر المازني

كتاب مستقبل الثقافة في مصر

الثقافة العامة وتعليم اللاتينية واليونانية

للأستاذ أبى خلدون ساطع الحصري بك

أما الفوائد التي تعزى إلى (تعليم اللاتينية واليونانية) من وجهة خدمات هذا التعليم لـ (تثقيف العقل وتقوية المحاكمة)

فمن الأمور التي تحتاج إلى إنعام النظر من وجوه عديدة:

فإن نظم المعارف السائدة في أوربا، كانت جعلت (الدراسة الثانوية الممزوجة بتعليم اللاتينية واليونانية) السبيل الوحيد الذي يؤدي بالطلاب إلى الدراسات العالية. ولا حاجة للبرهنة على أن عدم وجود سبيل آخر يؤدي إلى ميادين الفكر والثقافة الفسيحة، لا يمكن أن يعتبر دليلاً على عدم إمكان أيجاد سبل أخرى أقصر وأحسن وأنفع من ذلك السبيل. . .

كما أن ذكر الأمثلة الكثيرة عن أعاظم العلماء الذين كانوا من النابغين والمتقدمين في دروس اللاتينية، لا يمكن أن يبرهن على أية قضية كانت في هذا المضمار. لأن التفكير العلمي الصحيح يتطلب التساؤل - تجاه مثل هذه الأمثلة - عما إذا كانت اللاتينية من عوامل نمو عقول هؤلاء العلماء، أم أن مواهبهم العقلية كانت من أسباب تقدمهم في اللاتينية؟

ونرى من المفيد أن نوضح هذه القضية بمثال مادي: لنفرض أننا أخذنا حفنة من الحبوب وغربلناها بغربال معين؛ من الطبيعي أن هذا الغربال سيسقط الحبوب الصغيرة، وسوف لا يحتفظ إلا بالحبوب الكبيرة. فهل يجوز لأحد أن يدعي - عند ما يشاهد هذه الحبوب الكبيرة - أن الغربال سبب (تنمية الحبوب)؟

هذا من جهة، ومن جهة أخرى هل يجوز لأحد أن يدعي أن هذا الغربال هو الواسطة الوحيدة لانتقاء البذور؟ أو أن الغربلة هي أحسن الوسائط لهذا الانتقاء؟ وهل لأحد أن ينفي احتمال سقوط بعض الأنواع من البذور الثمينة والنافعة - مع ما يتساقط من الغربال؟ أو ألا يسلم باحتمال بقاء الأنواع من البذور الرديئة والمضرة، بين ما يبقى في الغربال؟

أننا لا نقصد في سوق هذا المثال وإيراد هذه الأسئلة أن ندعي أن (عمل اللاتينية في العقول لا يختلف عن عمل الغربال في الحبوب) بل إننا نود أن نقول: إن هذه القضايا كثيرة التعقيد كما يظهر من المثال المادي البسيط الذي ذكرناه؛ فلا يجوز لنا أن نبت في مثل هذه القضايا قبل أن ندرسها من جميع وجوهها ونقوم بأبحاث دقيقة وشاملة في شأنها. . .

فلنفكر كيف يمكن أن يؤثر (تعليم اللاتينية) على القابليات العقلية. لا شك في أن هذا التأثير يجب أن ينجم عن ممارسة تمارين الترجمة التي تجري خلال هذا التعليم. فإن الترجمة تحمل الطالب بطبيعتها على القيام بأعمال ذهنية هامة: إنها تمرنه على نقل الفكرة الواحدة، أو المعنى الواحد من لغة إلى لغة أخرى؛ وذلك يضطره إلى تحليل المعاني والعبارات إلى عناصرها المختلفة، ويحمله على إجراء مقارنات دقيقة بين عبارات اللغتين ويعوده ملاحظة أصغر الفروق وأدق الألوان في معاني الألفاظ والعبارات التي تعرض عليه أو تخطر بباله. . . إن الفوائد التثقيفية التي ينتظر الحصول عليها من تعليم اللغة اللاتينية أو اليونانية، لا تخرج عن نطاق فوائد هذه التمارين من وجهة التأثير على القابليات العقلية. ولا مجال للشك في أن جميع هذه الفوائد لم تكن من خصائص تعليم اللاتينية أو اليونانية؛ بل هي مما يمكن الحصول عليها خلال تعليم أية

. . .لغة من اللغات الحية الراقية أيضاً
إن هذه القضية كانت من أهم المسائل التي احتدم النزاع عليها ودارت المباحثات والمناقشات حولها. . . وقد قام عدد غير قليل من علماء النفس ورجال التربية، يدرس هذه المسألة علمياً وتجريبياً. فقد قاموا باختبارات واسعة النطاق، وبرهنوا على أن اللاتينية لا تمتاز على سائر اللغات - من حيث القابلية التثقيفية - بوجه من الوجوه فلا يجوز لنا مع ذلك أن نتوسل بتعليم لغة ميتة إلى (تثقيف العقل)؛ بل الأجدر بنا أن نصل إلى التثقيف المذكور عن طريق تعليم لغة حية ليستطيع الطلاب أن يستفيدوا منها في الوقت نفسه طول حياتهم الفكرية والاجتماعية
وعندما فكرت أنا في هذا الموضوع - على ضوء الآراء والأبحاث التي أشرت إليها - تذكرت قصة صغيرة كنت قرأتها في كتاب مدرسي، بين موضوعات الإنشاء:
كان رجل يعتمد في تدبير معاشه على نتاج مزرعته. فلاحظ يوماً أن البركة أخذت تذهب عن مزرعته، وأن النتاج أخذ يقل عن حاجته، فشكا حاله إلى أحد أصدقائه، فوعده صديقه هذا بسؤال أحد السحرة، لتدبير مسألته. فأتى إليه - في اليوم التالي - بعلبة سحرية، قال
إنها كفيلة بإعادة البركة إلى مزرعته على أن يستصحبها معه كل ليلة إلى بعض أنحاء المزرعة - من الإسطبل إلى مخزن الحبوب - فأخذ الرجل يعمل بوصايا صديقه ويطوف بالعلبة السحرية في الأنحاء المذكورة. ولم تمض على ذلك مدة طويلة، إلا وقد رأى أن العلبة عملت عملها السحري، وأعادت البركة إلى مزرعته. غير أن هذه العلبة، كانت في حقيقة الأمر علبة اعتيادية فارغة؛ وأما سحرها، فقد نتج من اضطرار الرجل إلى الطواف بها ليلاً في مختلف أنحاء مزرعته؛ لأن هذا الطواف، ساعده على ملاحظة أحوال مزرعته، ومراقبة أعمال مأجوريه، ووضع حد لجميع الأسباب التي كانت تؤدي إلى تناقص موارده.
إنني أشبه عمل اللاتينية في حقل التفكير، بعمل (العلبة السحرية) التي ذكرتها. فإن السحر ليس فيها، بل في الأعمال الذهنية التي تجري بواسطتها. ولا حاجة للبيان أن هذه الأعمال مما يمكن أن تجري دون وساطتها، بل بواسطة أية لغة من اللغات الحية الراقية. . .
إن المناقشات التي ثارت حول مسألة تعليم اللغات القديمة لم تحمل وزارات المعارف في فرنسا على إحداث بعض الإصلاحات لمجابهة الحاجات إلا بعد انقضاء النصف الأول من القرن الأخير
وأما أول التدابير العملية التي اتخذت في هذا الباب فقد كان إحداث نوع جديد من الدراسة الثانوية في عهد وزارة (ديكتور دوروى). عرف هذا النوع الجديد باسم (التعليم الخاص) واستغنى عن تعليم اللغات القديمة، وجعل غايته إعداد الطلاب للمدارس العالية الاختصاصية التي تفتح أمامهم سبل الدخول إلى الحياة العملية
غير أن إحداث هذا النوع من التعليم أثار هجمات أنصار اللاتينية، كما أنه لم يحقق رغائب المجددين. فقد احتج عليه أنصار اللاتينية واليونانية قائلين (إن هذه الدراسة الجديدة ستجذب الشبان إليها من جراء قصر المدة التي تتطلبها والفوائد العملية التي تتضمنها، وذلك سيؤدي إلى انصراف الشبان عن سبل العلم الخالص، والى انحطاط الثقافة الفرنسية العالية). قالوا لذلك بوجوب تطويل مدة الدراسة فيها لإزالة أسباب الإغراء منها
وأما معارضو اللغات القديمة فإنهم قالوا بأن هذا الإصلاح غير واف بالمرام، لأنه أحدث سبيلاً جديداً للدراسات المهنية العالية وحدها، وترك سبل الدراسات الجامعية على حالها،
في حين أنهم كانوا يطالبون بإصلاح تلك السبل أيضاً؛ كانوا يعتقدون بوجوب إحداث نوع في الدراسة الثانوية لا يقصِّر في أهدافه السامية عن أهداف الدراسة الكلاسيكية الراهنة، ولا يهمل شيئاً من المرامي الثقافية التي عرفت باسم (الإنسانيات) منذ عصر النهضة. إنهم كانوا يدعون إلى إحداث (إنسانيات عصرية) تعوض اللغات القديمة باللغات الحية، دون أن تحيد عن أهداف العلم الخالص والدراسة الجامعية. . .
ولذلك ثابر هؤلاء على مطالبهم إلى أن جاءت وزارة (ليون بورجوا) وخطت خطوة جديدة في السبيل الذي كانوا يدعون إليه؛ إذ أنها حوّلت (التعليم الخاص) إلى فرع

ثانوي جديد عرف باسم (التعليم العصري). وأصبحت الدراسة الثانوية بعد ذلك متفرعة إلى فرعين متوازيين: كلاسيكي وعصري

بدأ هذا الفرع يشق لنفسه الطريق بين أنواع شتى من الموانع والمشاكل - من قلة الوسائط إلى خصومة المحافظين وعراقيل المعارضين - إذ أن أنصار اللغات القديمة والتعليم الكلاسيكي بذلوا كل ما لديهم من قوة لتحذير أولياء الطلاب من الاعتماد على نتائج هذه البدعة، وحرصوا حرصاً شديداً على إبقاء الجامعات موصدة الأبواب أمام متخرجي الفرع العصري من الدراسة الثانوية

واستمر النزاع والنقاش، ووصل الأمر - في أواخر القرن - إلى درجة من الحدة اضطر معها مجلس الأمة إلى القيام بتحقيق برلماني خاص؛ فألف لجنة لدرس مسألة الثانوية من جميع وجوهها دراسة واسعة النطاق. فاستمعت اللجنة لآراء عدد كبير من رجال العلم والأدب والتربية والتعليم، من رؤساء الكليات والجامعات إلى كبار رجال العمل في المهن المختلفة وخصصت في أبحاثها موقعاً خطيراً لدرس مسألة التعليم العصري والتعليم الكلاسيكي

وقد أظهر هذا التحقيق الشامل عدة حقائق مهمة حول مسألة تعليم اللغات الميتة في المدارس الثانوية

إن الدراسة الكلاسيكية المستندة إلى تعليم اللغات القديمة، كانت لا تزال تتمتع بشهرة عظيمة بين أولياء الطلاب. كان المثقفون منهم قد نشئوا نشأة كلاسيكية، فتعودوا أن ينظروا إلى أن معرفة اللاتينية - معرفة تمكن من ترصيع الكلام ببعض عبارات منها عند

الاقتضاء - من دلائل (الامتياز الفكري) ولوازم (الأرستقراطية المعنوية)؛ ولذلك قلما كانوا يرضون لأولادهم نوعاً من الثقافة تحرمهم هذا الامتياز، وتحط من منزلتهم الاجتماعية. وأما الذين كانوا نشئوا نشأة أبسط من ذلك - ومع هذا أخذوا يطمعون برفع منزلة أولادهم عن طريق تعليمهم تعليماً راقياً - فكانوا لا يرضون لأولادهم أن يفترقوا عن أولاد الفريق الأول في هذا الميدان. . . ولهذا ظلت رغبة الأكثرية متجهة نحو التعليم الكلاسيكي القديم. . .

وزد على ذلك أن معظم مديري المدارس الثانوية ومعلميها أيضاً كانوا متشبعين بفكرة تفوق الدراسة الكلاسيكية على العصرية؛ ولذلك كانوا لا يفتئون يشوّقون التلاميذ الأذكياء إلى اختيارها. . . حتى أن البعض منهم كان يغالي في هذا الاعتقاد أشد المغالاة، فيظهر الفرع الجديد بمظهر (ملجأ المتأخرين) من الطلاب، ويبذل كل ما لديه من قوة إقناع المتفوقين منهم للرغبة عن هذا الفرع. . .

وأخيراً كان في خدمة الدراسة الكلاسيكية جيش كبير من المعلمين المتمرنين المزوَّدين بأحسن الاختبارات وأطول التقاليد؛ في حين أن الدراسة العصرية كانت في حاجة شديدة إلى معلمين خبيرين، يحسنون القيام بالمهام المطلوبة من هذه الدراسة الجديدة. . .

ومع كل ذلك قامت الدراسة العصرية بأعباء التثقيف أحسن قيام وأعطت نتائج باهرة، لا تقل عن نتائج الدراسة الكلاسيكية

واللجنة قررت (بعد ما اقتنعت بذلك) إبقاء الفرع العصري في الدراسة الثانوية (مع العمل لتوسعه وترقيته) ومع هذا قررت في الوقت نفسه الاستمرار على اشتراط معرفة اللاتينية، للقبول في كليتي الطب والحقوق. غير أنه مما يلفت الأنظار، أن القرار الأخير لم يتخذه إلا أكثرية ضئيلة جداً لأن الأصوات التي التزمت جانب اشتراط اللاتينية للقبول في الكليتين المذكورتين لم تتغلب على مخالفيها إلا بصوت واحد فقط!

ولإظهار قوة الآراء المخالفة لذلك، أود أن أذكر بعض الفقرات المستخرجة من التصريحات التي أدلى بها ثلاثة من رجال العلم والفكر في هذا الصدد: وهم ليون بورجوا، وأرنست لاويس، وريمون بوانكاريه. . .

قال الأول ما مؤداه: نحن لم نعتقد أن الذين يتثقفون بالدراسات القديمة، هم وحدهم جديرون

بتكوين الأرستقراطية الفكرية؛ بل اعتقدنا بإمكان (إنسانيات عصرية)، مستقلة عن اللغات القديمة، اعتقدنا بأننا نستطيع أن نعطي نوعاً من الثقافة العامة، تختلف عن الثقافة الكلاسيكية، دون أن تكون أقل سمواً منها. . . فإن الدراسات الكلاسيكية

بطبيعتها (كلامية) فلا تسد حاجات عصرنا هذا، ومطالبه الفكرية والأدبية والاجتماعية. . . إن العالم قد تبدل تبدلاً أساسياً منذ عشرين قرناً؛ فالثقافة الكلاسيكية التي توارثت مكتسبات الحضارات القديمة وقيمتها، أصبحت بعيدة عن ملاءمة الحضارة الحالية. . .)

ثم جابه مخاطبيه بالسؤال التالي: (أيها السادة، لنستنطق أنفسنا بكل صراحة؛ من منا يستطيع أن يقول بأنه تذوق ما في مآسي (سوفو كليس) أو محاورات أفلاطون، من جمال فني، على طريف قراءة نصوصها الأصلية. . . إذا لم يكن قد أولع باللغات القديمة ولعاً شخصياً، فتعمق في دراستها بعد الانتهاء من الدراسة الكلاسيكية؟ أما أنا فأعترف - من جهتي - بكل إخلاص - بأنني لم أفهم عظمة (أوديب الملك) إلا في الكوميدي فرانسيز. . . مع أنني كنت من المبرزين في دروس اللغات القديمة وآدابها. . .)

وأما (أرتست لاويس) - الذي يعد من أشهر كتاب التاريخ في فرنسا، والذي ظل مديراً لدار المعلمين العالية مدة طويلة - فقد اعترف خلال تصريحاته بأنه كان مرتاباً في نجاح تجربة الدراسة العصرية - عند إحداثها - غير أنه تخلص من هذا الريب، بعد أن رأى النتائج الفعلية، فأصبح يعتقد بأن قيمة الثقافة التي تكتسب خلال مثل هذه الدراسة، لا تقل - بوجه من الوجوه - عن قيمة الثقافة التي تكتسب من الدراسة الكلاسيكية. وزيادة على ذلك فند الرأي القائل بضرورة اللاتينية لإجادة الفرنسية؛ وصرح باعتقاده الجازم في مساواة قيمة الثقافتين؛ وقال بأن (الحجج التي تذكر لتبرير إيصاد أبواب كليتي الحقوق والطب أمام خريجي الدراسة العصرية، ما هي إلا من قبيل الأوهام الباطلة التي لا تستند إلى تجربة وتفكير) وأظهر استعداده لمناقشة القضية، عند الاقتضاء.

وأما (بوانكاريه) الذي كان من كبار رجال الفكر والحقوق، والذي قام بأعباء وزارة المعارف، وتدرج بعد ذلك إلى رياسة الوزراء فرياسة الجمهورية - فهو أيضاً قد دافع عن الدراسة العصرية من وجهة قيمتها الثقافية دفاعاً حاراً؛ وردّ على آراء القائلين بضرورة اللاتينية للدراسات الحقوقية رداً عنيفاً:

فقد قال - في هذا الصدد - ما مؤداه:

(إنني لا أستطيع أن أسلم بضرورة معرفة اللاتينية لدرس الحقوق الرومانية بل أقول بإمكان درس هذه الحقوق بأساليب جديدة غير التي تعودناها إلى الآن، كما أعتقد بأنه لم يبق لهذه الحقوق من فائدة سوى متعتها التاريخية. فلست متأكداً من أن الاستعاضة عن دراسة الحقوق الرومانية بدراسة الشرائع المعاصرة، لا يكون أشد موافقة وأكثر ملاءمة لمقتضيات الثقافة الحقوقية العصرية)

(هذا، وإني سأذهب إلى أبعد من ذلك وسأزيد على قولي قولاً آخر - مع علمي بأن القول سيعتبر في نظر البعض من ضروب الكفر والإلحاد - فأقول بدون تردد: إن سيطرة الحقوق الرومانية على الفكر الفرنسي المعاصر، لا تخلو من مضار. . . فإننا إذا شاهدنا محافلنا البرلمانية تسترسل في المناقشات البيزنطية إلى الحد الذي نعرفه، يجب أن نعلم أن مصدر ذلك إنما هي الأساليب الرومانية التي تعودناها في تفهم وتصور المناقشات الحقوقية)

غير أن هذه الحجج القوية وأمثالها من التصريحات، لم تتمكن من زعزعة الاعتقادات القديمة كلها من أذهان جميع أعضاء اللجنة البرلمانية، ولذلك أيدت اللجنة - بأكثرية صوت واحد - النظام المتبع في اشتراط معرفة اللاتينية للدراسة الحقوقية. غير أن ضآلة الأكثرية التي أقرّت ذلك كانت دليلاً واضحاً على أن الحل المذكور لم يكن من الحلول التي تطمئن إليها الأفكار، وتستقر عندها الأمور. بل كان من الحلول المؤقتة التي تؤجل النتيجة النهائية، دون أن تضع حداً حاسماً للاختلافات. فكان من الطبيعي ألا تقف الأمور عند هذا الحد، فتستمر المناقشات إلى أن يتقرر (مبدأ المساواة) بين الثقافتين الكلاسيكية والعصرية

وهذا ما حدث فعلاً، فإن مناهج الدراسة التي وضعت بعد التحقيق البرلماني الآنف الذكر، حاولت أن توجد حلولاً متوسطة لكثير من المشاكل فأوجدت مثلاً نوعاً جديداً من الدراسة الثانوية، يحتفظ باللغة اللاتينية، ويضحي باليونانية لتعوضها بالعلوم أو اللغات الحية. ولا شك في أن هذا النوع كان يشغل موقعاً متوسطاً بين (الكلاسيكية

القحة) التي تتمسك باللغتين القديمتين في وقت واحد و (العصرية البحتة) التي تستغني عن هاتين اللغتين مرة واحدة. . .

غير أن الإصلاحات التي تقررت بعد الحرب العالمية، انتهت (بعد شيء من الجزر والمد) بتقرير حق المساواة بين الدراسة الكلاسيكية والدراسة العصرية، واتخذت عدة تدابير عملية لضمان هذه المساواة بصورة فعلية. . .

هذا هو ملخص الأطوار الأساسية التي مرت بها مسألة تعليم اللاتينية واليونانية في المدارس الثانوية والفرنسية.

(يتبع)

أبو خلدون

الحق جاهد

للأستاذ عبد الرحمن شكري

إن الإنسان كلما كبر علمته التجارب أن التقاتل على أكثر الآراء عناء زائل وأمر حائل، وأن ما يدعى تقاتلاً على الحق إنما هو تقاتل على المطامع التي تدعى حقاً. قال أحد الفلاسفة: من المقرر في علم الحساب أن جمع الاثنين والاثنين أربعة ولكن لو كانت هذه المسألة من مسائل الحياة التي تختلف فيها مطامع الناس ومطالبهم ومآربهم لكان بين الناس من يعتقد بإخلاص وحسن نية أن جمع الاثنين والاثنين خمسة أو سبعة أو تسعة حسب ما تقتضيه مطامعهم وفوائدهم. وكل منهم يعتقد بإخلاص أن جمع الاثنين والاثنين إذا كان في رأيه خمسة أو سبعة أو تسعة غير مؤسس على ما تقتضيه المطامع والفوائد الخاصة، وإنما وصل كل منهم في اعتقاده إلى هذه النتيجة بالتخلص من لوازم شخصه وبالفكر النظري الخالص من كل شائب. لكن اتفقوا على أن جمع الاثنين والاثنين أربعة لأن الجمع ليس من الأمور التي تختلف فيها مطالبهم أو فوائدهم. على أن الناس في الحقيقة يختلفون في جمع الاثنين والاثنين عند ما يخرجونه من حيّز المسائل الحسابية النظرية العارية وعندما يلبسونه لباساً من مطالب الحياة وفوائدها واختلاف أوجه النظر فيها حتى تصير المسألة الحسابية البسيطة مقنعة غير ملحوظة في أفكارهم ومطالب وكأنها غير موجودة

أذكر أني قابلت أثناء الحرب العظمى الماضية أحد أفاضل الأجانب ممن أتصف بالعدل وصدق النظر في الأمور والاعتدال في الرأي، وجرى بيننا الحديث عن الحرب والأمم المتقاتلة فيها فأطرى الفرنسيين وذم الألمان، وأوضح أسباب المدح والذم. ثم انقضت الحرب وحاولت فرنسا بعدها بمحالفة الدول الأوربية السيطرة على القوى البرية في أوربا وخشيت إنجلترا أن تخل بالتعادل الدولي. وقابلت صاحبنا فذم الإنجليز ومدح الألمان وقال هم أبناء عمنا، وذكر أسباب المدح والهجاء. ولو قابلته الآن بعد أن عادت إنجلترا وفرنسا إلى الوفاق وبعد أن قويت ألمانيا لعاد إلى رأيه الأول وصاحبنا هذا رجل عدل وإنصاف واعتدال في أمور الحياة، وهو في كل حالة كان يعتقد ما يقول، ويرى أنه الحق ولا حق غيره، وهذا الفاضل ليس ببدع، فهذه سنة الناس فيما يسمونه حقاً يحورونه ويحولونه بإخلاص وحسن نية إلى ما يناسب آمالهم ومطالبهم وأحاسيسهم، وهم لا يشعرون بذلك التحويل، وعدم فطنتهم إلى هذا التحويل هو سبب اندفاعهم في نصرة ما يسمونه حقاً وسبب إباحة كل وسيلة في نصرته؛ ومن هذا الطريق يدخل نفس الفاضل الحسن النية ما يدخلها من شر وقسوة ولؤم، فكل إنسان في الحياة يدخل في معنى الحق ما يتفق وحالات نفسه وخواطرها وآمالها ومسراتها وصداقاتها وعدواتها، وما يناسب نشأته وثقافته الخاصة وميوله، وهو يُدْخل ما يدخله في معنى الحق من غير أن يعمل عمل المنافق الذي يُخفي من رأيه غير ما يعرض على الناس، ولو سمينا طريقته في تحويل الحق إلى جانبه نفاقاً لكانت نفاقاً لا يحس صاحبه أنه نفاق

فإذا أضفت إلى هذا النفاق غير المقصود الشائع في كل نفس ما تقصده أكثر النفوس من تضليل العامد إلى النفاق المدبر، ظهر أن محاولة معرفة الحق أمر جاهد حقاً وظهر السبب في خطأ الناس في قدر مل يعرض عليهم من الأمور التي تسمى حقاً. إذ أن السعار والضراوة في نصرة ما يسميه كل إنسان حقا ليست مقصورة على صاحب النفاق المدبر الذي يعرف صاحبه أنه ينافق فيما يسميه حقا، بل إن الضراوة والسعار في نصرة الحق أمران قد يلفيان في نصرة صاحب النفاق غير المقصود لما

ينتصر له من الأمر الذي يسميه حقا. ومن أجل ذلك قلما يعنى الناس أنفسهم بفحص ما يعرض عليهم من الأمور للوصول إلى الحق. فهم أيضاً في حكمهم شأنهم شأن صاحب الأمر الذي يعرضه عليهم كي يقبلوه، فهم إما يقبلونه على أنه حق إذا وافق هواهم وإما يعرفون بطلانه ووجه تزييفه ويدعون أنهم انخدعوا لصاحبه. فإذا خالف هواهم قالوا إنه باطل وهم في كل حالة قد يغالطون أنفسهم ويدعون الفحص والتمحيص ويعتقدون ما يعتقدون أو ما يتظاهرون باعتقاده بحسن نية، وقد يجتمع حسن النية والتظاهر، إذ أن النفس تستطيع أن تخادع نفسها حتى في تظاهرها بغير ما تبطن. ومن أجل غلبة الأهواء يقول البحتري:

أخيَّ إذا خاصمت نفسك فاحتشد ... لها وإذا حدّثت نفسك فاصدق

فقال احتشد لها لأن النفس أغلب بالأهواء وأملك بميولها، وفي البيت إرشاد إلى ثقافة ولكن الثقافة نفسها قلما تخلو من أهواء النفوس وقلما يستطيع المرء أن يحتشد لنفسه إذا خاصمها بالحق وقلما يحاول أحد تلك المخاصمة وذلك الاحتشاد للحق ما دام يلون الحق كما يشاء، ويصنعه صناعة أو يصطنع في نفسه وهو لا يدري. والحق يختلف أيضاً باختلاف آراء المرء حسب حالات جسمه وأعصابه الناشئة من سقم أو صحة وقوة أو ضعف وحالات معدته ومطاعمه. ولو فكر المرء في اختلاف الحق حسب اختلاف مطالب المرء ونشأته وثقافته وحالات نفسه وجسمه فإنه قد يستطيع مع إدمان الفكر أن يقلل من ضراوته وأكاذيبه وحقده وغيرها من الوسائل التي يناصر بها الحق، على حد قول القائل إن الغاية تبرر الواسطة، فيبرر ضراوته وأكاذيبه وحقده لأنه يستخدم هذه الوسائل في نصرة الحق الذي هو أيضاً وليد أحاسيسه وحالات نفسه وجسمه واستعراض هذه الأمور العديدة التي تشكل الحق في نظره يسقط حجته في أن الغاية الشريفة تبرر الواسطة الدنيئة إذ أن شرف الغاية معدوم أو إذا كان موجوداً فقلما يكون بقدر ما يشرف الواسطة الدنيئة. بل إن الواسطة الدنيئة تقضي على بقية الشرف في حقه الذي خالط فيه الصدق حاجات نفسه وميولها

والعصبيات تتلف الحق وتمنع المرء من الاحتشاد الذي أراده البحتري عند محاسبة النفس كعصبية المودة أو القرابة أو المصاهرة أو المنفعة المتبادلة أو عصبية الجوار والبلدة الواحدة، وهذه العصبية الأخيرة قلما تكون إلا إذا اختلف أهل البلدة التي استفحلت عصبيتهم عمن حولهم من أهل البلاد الأخرى اختلافاً في الجسم أو النشأة، ولا عيب في تلك العصبيات إذا التزمت جانب الشرف والإنصاف والضرورة القصوى، أما إذا تعدته إلى جانب الإسفاف والجهل والظلم بغير داع ضاع الحق في مطالب تلك العصبيات. وعصبية المصاهرة على ما بها من عيوب قد تكون مصدر قوة لطائفة كبيرة هي قوام الأمة أو شبه قوام، ولكنها إذا دخل فيها من لا يمتاز إلا بقوة الجسم، وارتفع إلى المصاهرة أناس من السفلة وأهل الغباء نشروا عدوى خصالهم الذميمة وآرائهم المخطئة من ذوي الأناقة في الخُلُق والرأي، ومن ذوي الاعتدال في الحكم، فتنقلب المصاهرة متلفة للحق ولأمور الناس

والضراوة في مناصرة مطالب تلك العصبيات التي تسمى حقاً تشتد كلما قلت الثقافة في أمة وزاد الشعور بالنقص في نفوس أبنائها وكثر التهريج والمهرجون الذين يخلقون لأهل الغباء مبادئ سامية من أحط نزعات نفوسهم.

وأحقاد الناس في الحياة ليست عبيد حاجاتهم وضروراتها بقدر ما هي عبيد هواجسهم المهمة التي تحلق في أذهانهم ونفوسهم كما تخلق الخفافيش تحت قبة البناء المظلم المهجور، وذلك لأن الحاجات والضرورات تنقضي وتحد، ولكن الهواجس لا حد لها ولا انقضاء.

إن الإنسان لا يدهش كثيراً إذا وصف إمامه إنسان بالشر والمكر والسوء، وهو يعرف أنه أبعد الناس عن هذه الصفات قدر ما يدهش إذا كان هو الموصوف بهذه الصفات لأن دهشته في الحالة الثانية تعود على أمر يخصه ويؤلمه، والدهشة الممزوجة بالألم أشد وقعاً في النفس من الدهشة الخالية من الألم، ولأن كل إنسان يعرف من أسباب أقواله وأعماله مالا يعرف عن أسباب أقوال غيره وأعماله، ويعرف من حالات نفسه في تلك الأقوال والأعمال مالا يعرف عن أحوال نفس غيره، فهو بهذه المعرفة يستطيع أن يسوغ أقواله وأعماله، وبذلك الجهل لحالات نفس غيره لا يستطيع إلا إنكار

أقوال غيره إن كانت تستدعي الإنكار أو تحتمله، وهذا بالرغم من أن كل إنسان يعرف من هواجس السوء التي تتردد في نفسه أكثر مما يعرف من هواجس السوء في نفس غيره. فإن الإنسان لا يستخدم ميزاناً واحداً فيما بينه وبين الناس؛ فهو مثلاً يكذب كثيراً ويعد كذبه أمراً هيناً فإذا كذب غيره في حقه عده لؤماً ليس بعده لؤم.

كل هذه الحقائق حقيقية بأن تزهد المفكر المتأمل في سعاره أو ضراوته في مناصرة ما يسميه حقاً وأكثره ليس بحق، وهي حقيقة بأن تزهده في رأي من يرى أن الغاية تبرر الواسطة، إذ إن خطأه في قدر الغاية قد يكون عن حسن نية، ولكنه قد يسوقه حسن النية إلى أعمال اللؤم والإجرام في سعار مناصرته للحق المزعوم الذي في تلك الغاية التي أخطأ فيها وعدها نبيلة وهي ليست نبيلة، وحسن نيته في ذلك الخطأ لا يخليه من أثم ولؤم ذلك السعار وتلك الضراوة

أن الذين يُعنون أنفسهم بالبحث عن الحق قليلون ولا سيما البحث عن الحق في أمور حياة الناس التي تتحكم فيها الأهواء والأوهام، وقد يحسب الساذج أن الحق في حياة الناس كالحق في علم الحساب بمقدار معين لا شك فيه ولا تغير، ولكن الساذج إذا اختبر الحياة واستطاع أن يقضي بخبرته على سذاجته علم أن أحوج الناس إلى مظاهر الحق هم أهل الباطل، ومن هذه الحاجة نشأ سعارهم، ولم ينشأ ذلك السعار من شدة الإخلاص للحق بل من شدة شعورهم أنهم على باطل يحتاج إلى مظاهر الحق

عبد الرحمن شكري

جناية أحمد أمين على الأدب العربي

للدكتور زكي مبارك

لا يريد الأستاذ أحمد أمين أن يفهم أن النقد من علائم الصداقة للحقائق وليس من علائم العداوة للأشخاص، ولا يريد أن يفهم أن ما بيننا وبينه من صداقة لا يجب أن يتعرض للزوال بسبب هذه المقالات التي فرضها الضمير والواجب، وكان خليقاً بأن يفهم وحي الضمير والواجب

ولو قد فهم هذه البديهيات لما استباح لنفسه أن يقول:

(كل الصلات بيننا مفقودة، فلا صلة بين الأستاذ وطلبته إلا الدرس، ولا بين الأديب وقرائه ألا صلة القراءة إن كانت، ولا صلة بين الأدباء أنفسهم إلا صلة السباب، فإن لم يكن سباب فرياء . . .)

وهذه الكلمات تدل على أن صديقنا أحمد أمين قد ضاق ذرعاً بدنياه منذ اليوم الذي رأى فيه لأول مرة توضع منزلته الأدبية في الميزان

فالأساتذة عنده قد انقطع ما بينهم وبين تلاميذهم، والكتاب قد انفصم ما بينهم وبين قرائهم. أما الأدباء فيما بينهم فيتعاملون على أساسين اثنين: السباب والرياء وكذلك يرانا من السبابين، ويرى أصحابه من المرائين!

والأستاذ أحمد أمين متشائم إلى أبعد الحدود. ولو شئت لنبهته إلى خطأ هذا التشاؤم فأكدت له أن الأدباء عندنا أحسن حالاً مما يتوهم، فقد كتب إلى كثير من أصدقائه وتلاميذه يرجونني أن أترفق في النقد، وشهد ناس بأنه كان حسن النية فيما كتب عن الأدب العربي، ولم يكن إلا مجتهداً خانه التوفيق، وللمجتهد أجرُ حين يخطئ وأجران حين يصيب

وقد هممت بالتجاوز عن جناية هذا الصديق على الأدب العربي بقية هذا الصيف في هدوء وأمان، وليجد الفرصة لمناجاة (بحر العرب) وهو يقتعد صخرة المكس، ولكني تذكرت أن هذه المقالات لا تخلو من فوائد أدبية، وتذكرت أنه على كل حال من طلاّب الحقائق، وطالب الحقيقة قد يشرب من أجلها العلقم والصاب

وأرجع إلى حديث اليوم فأقول:

إن الأستاذ أحمد أمين يرى أن ابن خفاجة لم يتذوق الطبيعة وإن اشتهر بوصف الطبيعة وليس من المستغرَب أن يقف أحمد أمين من ابن خفاجة حيثُ وقف، لا يتذوق الشعر إلا في النادر القليل فكل أديب في الدنيا حدثته نفسه بأن ينظم من الشعر بيتاً أو بيتين، حتى الدكتور طه حسين، فقد كان له في مطلع حياته غرامٌ بصوغ القريض، وسنعرض للمجهول من حياته الشعرية بعد حين أما أحمد أمين فلم يفكر يوماً في نظم الشعر

والواقع أن عظماء الكتّاب في جميع البلاد كانت لهم نزعات شعرية، لأن للشعر مزية قوية في تكوين الأسلوب، وهو الذي
يروض الكاتب على خلق الصور والإحساس بالرنين
والكاتب الحق هو الذي يعاني من المكاره ما يعانيه الشاعر، وقد أخطأ أبو هلال حين توهم أن النثر كلام غير منظوم، مع أن أبا هلال كان من أهل البصر بأسرار البيان مالي ولهذا؟
أنا أريد أن أنصف ابن خفاجة الذي ظلمه الأستاذ أحمد أمين
كان ابن خفاجة يسمّى (الُجنّان) وهي تسميةٌ تشهد لأسلافنا بسلامة الذوق. وكان يسمّى (صنوبريّ الأندلس)
كان ابن خفاجة جَناناً، لأنه قضي دهرا في وصف الرياض والبساتين، وكانت جنته هي الأندلس وقد فضلها على جنة الخُلد، ومن أجل ذلك اتهمه بعض معاصريه بالمروق حين قال:
يا أهل أندلسٍ لله دَرُّكم ... ماءٌ وظلٌّ وأشجارٌ وانهارُ
ما جنّة الخُلد إلا في دياركُم ... ولو تخيرت هذى كنت أختارُ
لا تختشوا بعدها أن تدخلوا سقراً ... فليس تُدخَل بعد الجنة النارُ
والحق أن ابن خفاجة فُتِن بمناظر بلاده أشد الفتون، فكان يترصد الفرص لوصف ما ترى العيون أو تحسُّ القلوب بتلك البلاد
وكان شعره ونثره قيثارة تجود بأعذب الألحان في وصف الأشجار والأزهار والأنهار والسواقي والسحائب والبروق
وقد ظل ابن خفاجة مفتوناً بوصف الطبيعة نحو خمسين سنة فهل يسوغ لإنسان أن يقول
بأنه لم يتذوق الطبيعة في كل ذلك الأمد الطويل وهو يتغنى بها صباحَ مساء؟
وكيف وكان ابن خفاجة مُرهف الإحساس إلى حدّ الخيال؟
إن ابن خفاجة هو الشاعر الذي تفرّد بالحنان إلى الطبيعة في جميع المناحي الشعرية، حتى في قصائد الرثاء، فكيف يجوز القول بأنه وصف الطبيعة بلا وعي ولا إحساس؟
يضاف إلى ذلك أن ابن خفاجة عُرف بين معاصريه بالزهد في مدح الملوك والترفع عن جوائزهم السنيّة، في زمن كان فيه المديح مذهباً لا يغضّ من أقدار الشعراء، ولا يعرّضهم لسفاهة القيل والقال، فاتسع وقته لمناجاة عرائس الشعر في هدوء وصفاء
إن ابن خفاجة صاحب مذهب في الشعر العربي، ومنزلته في وصف الرياض لا تقلّ عن منزلة أبي نواس في الخمريات والشريف الرضي في الحجازيات
ومن الذي ينكر قيمة الشاعر الذي يقول:
لله نهرٌ سال في بطحاءِ ... أشهى وُروداً من لَمَى الحسناءِ
متعطفٌ مثل السوار كأنه ... والزهر يكنفه مجرُّ سماءِ
قد رقّ حتى ظُنَّ قرصاً مُفرغا ... من فضةٍ في بُرودةٍ خضراءِ
وغدتْ تحف به الغصون كأنها ... هدبٌ تحفّ بمقلةٍ زرقاءِ
ولطالما عاطيتُ فيه مدامة ... صفراَء تخضب أيديَ الندماءِ
والريح تعبث بالغصون وقد جرى ... ذهب الأصيل على لُجين الماءِ
وكيف يتهم في وصف الطبيعة من يقول:
حثَّ المدامة والنسيم عليلُ ... والظل خفَّاقُ الرواق ظليلُ
والنَّور طرفٌ قد تنبه دامعٌ ... والماء مبتسمٌ يروق صقيلُ
وتطلعتْ من برق كل غمامةٍ ... في كل أفقٍ رايةٌ ورعيلُ
حتى تهادى كل خوطة أيكةٍ ... ريّا وغصَّتْ تلعةٌ ومسيلُ
فالروض مهتز المعاطف نعمةً ... نشوان يعطفه الصبا فيميلُ
ريّان فضّضه الندى ثم انجلى ... عنه فذهّب صفيحته أصيلُ
وارتد ينظر في نقاب غمامة ... طرفٌ يمرِّضه النعاس كليلُ
ساجٍ كما يرنو إلى عوَّاده ... شاكٍ ويلتمح العزيزَ ذليلُ
وهذا شعرٌ يفسده الشرح والتفسير والتحليلُ
وهل تحتاج محاسن هذه الأبيات إلى من يقيم عليها الدليل؟
ومن الذي ينكر فراهة الفتون في الأبيات الآتية:

وأغيد في صدر النديّ لحسنهِ ... حليٌّ وفي صدر القصيد نسيبُ
من الهِيف أما ردفه فمنَّعمٌ ... خصيبٌ وأما خصره فجديبُ
يرفُّ بروض الحسن من نور وجهه ... وقامته نُوّارةٌ وقضيبُ
جلالها وقد غنّى الحمام عشيّةً ... عجوزاً عليها للحَباب مشيبُ
وجاء بها حمراء، أما مزاجُها ... فماءٌ، وأما ملؤها فلهيبُ
على لجة ترتجُّ، أما حَبَابُها ... فنوْرٌ، وأما موُجها فكثيبُ
تجافتْ بها عنا الحوادث برهةً ... وقد ساعدتنا قهوةٌ وحبيبُ
وغازلنا جفنٌ هناك كنرجسٍ ... ومبتسمٌ للأقحوان شنيبُ
فلله ذيلٌ للتصابي سحبتهُ ... وعيشٌ بأطرافِ الشباب رطيبُ
أرأيت كيف فَنىَ الشاعر في الطبيعة فجعلها أصل الحسن والفتون؟
أرأيت كيف غَرِق هذا الشاعر في بحار الصباحة والملاحة، وكيف رأى الزهر والماء أصلاً لكل مليح وجميل؟
وما رأى الأستاذ في الأبيات الآتية:
وصقيل إفرند الشباب بطرفهِ ... سقمٌ وللعضب الحسام ذُبابُ
يمشي الهوينا نخوةً ولربما ... أطَرْته طوراً نشوةٌ وشبابُ
شتى المحاسن، للوضاءةِ ريطة ... أبداً عليه، وللحياء نقابُ
وبمعطفيه للشبيبة منهلٌ ... قد شف عنه من القميص سرابُ
عَبَر الخليج سباحةً فكأنما ... أهوى فشقّ به السماء شهابُ
لقد احتللت بشاطئيه يهزني ... طرباً شباب راقني وشرابُ
وانساب بي نهر يعب وزورق ... فتحملتني عقرب وحُبابُ
وركبت دجلته يضاحكني بها ... فرحاً حبيب شاقني وحَبابُ
نجلو من الدنيا عروساً بيننا ... حسناء ترشف والمدام رُضابُ
ثم ارتحلتُ وللسماء ذؤابةٌ ... شهباء تخضب والظلام خضابُ
تلوي معاطفي الصبابة والصبا ... والليل دون الكاشحين حجابُ
حيث استقل الجسر فوق زوارق ... نسقت كما تتواكب الأحبابُ
فهل فكر صديقنا أحمد أمين في وصف السباحة وقد سبقه إليها ابن خفاجة بنحو تسعة قرون؟
إن الذي عجز عن وصف الطبيعة هو الذي يصطاف بالإسكندرية كل سنة ولم يفتح الله عليه بغير القول بأنه جلس على صخرة المكس ليأكل السمك المياس، وليفكر في مصير الشمس بعد الغروب، وليقول إنه تحاور مع هيان بن بيان!!
يقول أحمد أمين إن أبن خفاجة لم يتذوق الطبيعة، فهل استمع إليه حين يقول:
ربما استضحك الحَباب حبيبٌ ... نفضت ثوبها عليه المدامُ
كلما مرَّ قاصراً من خُطاه ... يتهادى كما يمرّ الغمامُ
سلم الغصن والكثيب علينا ... فعلى الغصن والكثيب سلامُ
وهل أستمع إليه حين يقول:
أبى البرق إلا أن يحن فؤاد ... ويكحل أجفان المحب سهاد
فبت ولي من قانئ الدمع قهوة ... تدار، ومن إحدى يدي وساد
تنوح لي الورقاء وهي خلية ... وينهل دمع المزن وهو جماد
وليلٍ كما مدَّ الغراب جناحه ... وسال على وجه السجل مداد
به من وميض البرق والليل فحمة ... شرارٌ ترامى والغمام زناد
سريتُ به أحييه لا حْية السُّرى ... تموت ولا ميْتُ الصباح يعاد
يقلب مني العزم إنسان مُقلةٍ ... لها الأفق جفنٌ والظلام سواد
بخرقٍ لقلب البرق خفقة روعة ... به ولجفن النجم فيه سهاد
سحيقٌ ولا غير الرياح ركائبٌ ... هناك ولا غير الغمام مزاد
كأني وأحشاء البلاد تجنني ... سريرةُ حبّ والظلام فؤاد
ولما تفرَّى من دجى الليل طحلبٌ ... وأعرض من ماء الصباح ثماد
حننت وقد ناح الحمام صبابةً ... وشُقَّ من الليل البهيم حداد
على حين شطَّتْ بالحبائب نيَّةٌ ... وحالتْ فياف بيننا وبلاد
ومن مزايا ابن خفاجة أنه يتمثل الطبيعة في حركة وحياة، فيراها ترضى وتغضب،

وتضحك وتعبس، كأن يقول:
عاط أخلاّءك المداما ... واستسق للأيكة الغماما
وراقص الغصن وهو رطبٌ ... يقْطرُ أو طارح الحماما
وقد تهادى بها نسيمٌ ... حيَّتْ سليمى بها سلاما
فتلك أفنانها نشاوى ... تشرب أكوابها قياما
وكأن يقول:
ألقي العصا في حيث يعثُر بالحصى ... نهرٌ وتعبث بالغصون شمالُ
وكأن ما بين الغصون تنازُعٌ ... فيه وما بين المياه جدالُ
وكأن يقول:
أخذ الربيع عليه كل ثنيةٍ ... فبكل مرقبةٍ لواءٌ شقيق
فهو في هذه الأشعار يمنح الطبيعة من الحياة والحركة ما يماثل شمائل الأحياء
وأريد أن أقول إن الطبيعة في نفس ابن خفاجة لها عزيمة وإرادة وقدرة وعبقرية،
فهي تصنع ما تصنع عن نظرٍ ثاقب وقلبٍ مشبوب، هي نفس حساسة، تشعر وتُدرك،
وتُفيض البؤس والنعيم على الأحياء بإرادة وعزم وإحساس
وقد وقع في كلام الشعراء ما يشابه هذه المعاني، ولكن ابن خفاجة أكثر منها إكثاراً
مّيزه بالتفوق والتفرد، فهو أوحد الناس في بابه بلا جدال
وكان ابن خفاجة يُقسم بما في الطبيعة من أنهار ورياض وأزهار وأنداء ومباسم
وعيون، فيقول:
أَما والتفات الروض من أزرق النهر ... وإشراق جيد الغصن في حِلية الدهر
وقد نَسَمتْ ريح النعامى فتنبَّهتْ ... عيون الندامى تحت ريحانة الفجر
وهي قصيدة طويلة امتزجت فيها نفس الشاعر بأسرار الطبيعة أشدَّ امتزاج
والطبيعة تواجه ابن خفاجة حيثما تلفَّت، فهو يراها في كل مكان، وانظر كيف يقول:
يا رُبَّ ليلٍ بِتُّهُ ... وكأنه من وَحفِ شَعركْ
تنهلُّ مزنة دمعتي ... فيه ويندَى نور ذكركْ
أتبعتُ فيه وقد بك ... يت عقيق خدك دُرَّ ثغرك
وشرقتُ فيك بعبرةٍ ... قد ورَّدتها نار هجرك
فكأنما ينفضّ عن ... حَبَبٍ لها رمان صدرك
ولَرُبَّ ليل قد صد ... عْت ظلامه بجبين بدرك
ولهوتُ فيه بدُرَّةٍ ... مكنونةٍ في حُقِّ خِدرك
تَنْدى شقائق وجنت ... يك به وتَنْفَحُ ريح نَشرك
وقد استدار بصفحتْي ... سوسانِ جيدك طَلَّ درَّك
حيث الحبابة دمعةٌ ... تجري بوجنة كأس خمرك
وتهزُّ منك فتنثني ... بقضيب قدِّك ريح سكرك
وهو في هذه القصيدة يخلع محاسن الطبيعة على الملاح، وقد يخلع محاسن الملاح
على الطبيعة فيقول:
وكمامة حدر الصباح قناعها ... عن صفحة تندى من الأزهار
في أبطحٍ رضعت ثغور أقاحهِ ... أخلاف كل غمامةٍ مدرارِ
نثرتْ بحجرِ الأرض فيه يد الصَّبا ... دُرر الندى ودراهم النُّوار
وقد ارتدى غصن النقا وتقلدت ... حَلْىَ السحاب سوالف الأنهار
فحللت حيث الماء صفحة ضاحك ... جَذِل وحيث الشط بدء عذار
والريح تَنفُض بكرة لِممَ الرُّبا ... والطَلُّ ينضحُ أوجه الأشجار
وأراكةٍ سجع الهديل بفرعها ... والصبحُ يسفر عن جبين نهار
هزَّت له أعطافها ولربما=خلعتْ عليه مُلاءة الأنوار
وهذا واللُّه أنفس ما قيل في اتصال الأحاسيس بغرائب الوجود وأشعار ابن خفاجه
تشهد بأنه كان يحتفل بالمعاني كل الاحتفال وكان يرى شعره نفحة من نفحات
الجمال، كأنْ يقول:
تعلقته نشوان من خمر ريقهِ=له رشفها دوني ولي دونه السكر
نرقرق ماء ووجهه ... ويُذْكى على قلبي ووجنته الجمر

وطبنا معاً شعراً وثغراً كأنما ... له منطقي ثغر، ولي ثغره شِعر
وقد توجُّع ابن خفاجة لضياع الشباب أشد التوجع ورأى في ملاحة الطبيعة عزاء عما ضاع من سماحة الملاح، فقال:
وكل امرئ طاشت به غرة الصِّبا ... إذا ما تحلى بالمشيب تحلّما
فها أنا ألقي كل ليل بليلَةٍ ... من الهم يستجري من الدمع أنجما
وأركب أرداف الرُّبا متأسفاً ... فأنشق أنفاس الصبا متنسِّما
وأرشف نثر الطل من كل وردةٍ ... مكان بياض الثغر من حوَّة اللّمى
وهو بهذه الأبيات يجعل الجمال الإنساني أجمل ما في الطبيعة من ألوان، وهي نظرة سليمة لا ينكرها غير الذين يرون الشجرة والزهرة أصلاً لكل جَمال
وكان ابن خفاجة في أيام توجعه على صباه يتمنى لو يعرف مصير النفس بعد الموت، كأن يقول في رثاء بعض الأصدقاء:
كنا اصطحبنا والتشاكلُ نسبةٌ ... حتى كأنا عاتقٌ ونجادُ
ثم افترقنا لا لعودة صحبة ... حتى كأنا شعلة وزناد
يا أيها النائي ولست بمسمع ... سَكَن القبور وبيننا أسداد
ما تفعل النفس النفيسة عندما ... تتهاجر الأرواح والأجساد
كُشِف الغطاء إليك عن سر الردى ... فأجبْ بما تندى به الأكباد
وهي لفتةُ فلسفية لاذ بها شاعرنا شوقي في أكثر قصائد الرثاء
أما بعد فقد كنا نحب أن نذكر شواهد من نثر ابن خفاجة تمثَل هُيامه بالطبيعة والوجود، ولكنا رأينا الدكتور ضيف سبقنا إلى ذلك في كتابه (بلاغة العرب في الأندلس) ونحن نبغض الحديث المعاد
وما الذي يوجب أن نلحّ في شرح مذهب ابن خفاجة وهو معروف لجميع الناس؟ لقد أردنا أن ننتهز الفرصة فنمتع أنفسنا بالنظر في ديوان ابن خفاجة من جديد، ونذكر به الشبان الذين شغلتهم عنه ملاهي العصر الحديث
ويدعوني الواجب في ختام هذا المقال إلى الثناء على أديبين فاضلين يهتمان بديوان ابن خفاجة ويعدان له دراسة أدبية تحفظ مكانه في التاريخ. أما الأديب الأول فهو عزيز عبد
السلام فهمي. وأما الأديب الثاني فهو جاسم محمد الرجب؛ وأولهما صديق عرفته بكلية الآداب في القاهرة، وثانيهما صديق عرفته بدار المعلمين في بغداد
فمتى تظهر جهود هذين الأديبين في إحياء ذلك الديوان؟
لقد ظهر ديوان ابن خفاجة بالقاهرة منذ اثنتين وسبعين سنة، فكيف جاز ألا يطبع مرة ثانية بعد ذلك الأمد الطويل العريض؟
إن اللغة العربية لغة حية وقراؤها يشارفون المائة مليون، فكيف زهدت تلك الملايين في ذلك الشعر النفيس؟!
إن ديوان ابن خفاجة وصل إلى أقصى بقاع الشرق الإسلامي قبل ظهور المطابع، فكيف يحجب اليوم بعد الانتفاع بالمطبعة السريعة والبريد المضمون؟
ومن أعجب العجب أن يتولى تزهيد العرب في آثار أسلافهم رجل تعرفه كلية الآداب التي توجب على أبنائها أن يتعرفوا إلى آثار القدماء من الرومان واليونان!
ولكن صبراً فستهتدي كلية الآداب بعد حين، وسترجع إلى سيرتها الماضية يوم كانت مثابة القلوب والعقول.
(للحديث شجون)
زكي مبارك
دمشقيات
من (الجادة الخامسة)!
للأستاذ علي الطنطاوي
آمنت بالله واستثنيت جنته ... (دمشق) روح وجنات وريحان
اللهم، إن كنت كتبت لي (برحمتك) الجنة، فاجعل جنتي في الآخرة على مثال (دمشق)، واجعل قصري فيها في (الجادة الخامسة)!. . .
ولكن كيف لي بتصوير (الجادة الخامسة) لقراء (الرسالة) وهم منتشرون في أقطار الأرض كلها؟. . . وكيف لي بإقناعهم، ولكل منهم بلده، وكلّ ببلده فخور!. . . إن الشام

درّة تاج الكون، وإنها بيت القصيد في (معلّقة) الوجود، وإنها اللذة الكبرى مجسمة، وإنها العاطفة السامية، والحب مصوّراً هضاباً وصخوراً ومروجاً وبساتين. . . وإن (الجادة الخامسة) درة دمشق، وبيت قصيدها، وإن الذي تشرف عليه منظر أقلْ ما يقوله الصادق فيه وأبعده عن المبالغة وألصقه بالحق الصراح أنه أجمل منظر على ظهر الأرض، وأن الله حين وزع الجمال على البقاع. . . فخص كل واحد منها - بنوع واحد منه - جمعه كله لدمشق، ووضع أفضل مجموعة منه في (الجادة الخامسة)!

ولقد كنت في البادية منذ أسبوع آيباً إلى دمشق، أحدق في الأفق علّي أرى خيال دمشق: بلد الحب، بلد اللطف، بلد الكرم، بلد الجمال. . . فلا أرى إلا الصحراء بوجهها الكالح الكئيب الصامت الرهيب، فأفرُ من مرآها وأغمض عنها عيني، أحاول أن أختلس من الزمان إغفاءة، فأقطع هذا الطريق المضني على مطية الكرى. . . فلا أرى في منامي إلا طيف دمشق البلد الحبيب، ولا أكاد أستمتع به حتى تقصيه عني سيارة (نيرن) بهديرها الذي يطرد الأحلام، ودويَّها الذي يطيِّر شياطين الشعر، وثقلها ورزانتها التي تشبه أحلام قوم الفرزدق. . . ولبثت على ذلك حتى جاوزنا (الضمير)، واستقبلنا دمشق من طريق حمص، وكنت في شبه غفوة. . . فما أحسست إلا إخواناً لنا من أهل بغداد كانوا معنا في السيارة ينبهونني ليسألوني. فانتبهت، فإذا أنا أرى حولي طلائع الخضرة تمتد إلى السفوح البعيدة. فقالوا: أهذه هي (الغوطة)؟ فضحكت وقلت: هذه سهول لها نظير في كل أرض. . . فكيف تكون هي الغوطة التي ليس لها في الأرض نظير؟ انتظروا تروا. . . وسرنا خلال

السهول ننعم فيها النظر فنرى من جمالها كل لحظة ما لم نكن رأينا. . . حتى بدت أوائل الكروم، كروم (دوما). . . منذا الذي لم يسمع بها؟ تلك التي طارت شهرتها في الآفاق، فأسكرت بمشهدها العشاق وذوي الأذواق، كما أسكرت برحيقها من كان من أهل الرحيق. فقالوا: هذه هي الغوطة؟ قلت: لا. بل هذه كرومها، فانتظروا الغوطة التي فتنت أجدادكم من قبلكم، وفتنت من قبلهم الروم والفرس، وتفتن كل ذي لبَّ إلى يوم القيامة!. . . وسرنا خلال (الكروم)، وهي تمتد عن أيماننا إلى حيث لا يبلغ البصر، و (المناطر)، قائمة على العيدان الرفيعة، منثورة في الأرض، ضاربة في السماء، لا يحصيها العدَّ، كأنها أعشاش العاشقين، أو منارات يؤذن فيها دعاة الغرام، تبعث في النفس ذكريات الحب الدفين (وفي نفس كل إنسان منه ذكريات)، فتعيد الحب حياً. وسرنا خلالها حتى بلغنا (الغوطة)، فسلكنا جانباً منها يحاذي دوما وحرستا.

فقلت: هذه هي الغوطة! وسكت فلم أعرفها لهم، ولم أقرظها، بل تركتها تقرظ نفسها. . . ففعلتْ وأربتْ على ما كان في الخيال منها؛ فذهب الإعجاب بالقوم كل مذهب، ونال من نفوسهم كل منال، فسكت اللسان، ونطق القلب، وقالت العينان، وشحّت اللغة، فما تبضّ إلا بقطرة ما فيها ري ولا بلل. . . وهل في اللغة إلا أن تقول: جميل ولطيف ومدهش وعظيم؟ أو ليس الجمال مائة ألف نوع؟ أو ليس للدهشة مثلها من الأسباب؟ فأين الكلمتان الجامدتان من هذا العالم الحيّ؟ إننا معشر البشر ما تعلمنا النطق إلى اليوم

وبلغنا دمشق، فقلت للقوم: إن في سفر الطبيعة صفحات مختلفات، في كل بلد صفحة منها. فسهل وجبل وواد وصحراء وبحر ونهر. . . فتعالوا أشرف بكم على صفحة فيها كل الصفحات. تعالوا أطلعكم على دمشق، وقد رأيتم منها سهلها وغوطتها، لتروا جبلها وصحراءها وواديها!. . . فأبوا عليّ، وجنحوا إلى الهرب، وتعللوا بالتعب، وأصررت وأبيت. . . فرأيتهم لانوا كارهين، فاغتنمت لينهم، ولم أبال كراهيتهم، لعلمي أن ما سيرون سيقع منهم موقع الرضا وفوق الرضا. . . وأخذنا سيارة من المرأب (الكاراج) الذي استودعناه حقائبنا، إلى (الدار) التي استأجرها لنا أخي. . . في (الجادة الخامسة).

فما انعطفت بنا السيارة نحو (طريق الصالحية)، وشاهد أصحابنا البيوت ترتقي في الجبل، وهو يجلسها في حجره، ويحوطها بذراعيه، وينحني عليها برأسه الهائل المتوج بالصخر،

حتى تبدَّل سخطهم رضا، وطفقوا يسألون!. . . فقلت: أما الذي إلى اليمين، حيث البيوت الواطية المتلاصقة، والمآذن الكثيرة السامقة، والقباب، فحيّا الأكراد والصالحية؛ وقد أنشأ حي الصالحية الجد الأعلى لآل قدامة، أو آل المقدسي حين نزح إلى دمشق منذ ثمانية قرون فراراً من فلسطين وما حاق بها يومئذ من المحنة. فأحيا الله به

وبأسرته العلم في تلك الديار، ونشروا فيها المذهب الحنبلي، وظهر من أسرته علماء فحول كالضياء المقدسي ويوسف بن عبد الهادي قريع السيوطي وشبيهه في سعة علمه وكثرة تصانيفه. . . ولكن الله قدر للسوطي من نشر علمه، وطوى علم يوسف في سجلات دار الكتب الظاهرية. . . ولا تزال آثار هذه النهضة العلمية العظيمة ظاهرة في المدارس الكثيرة القائمة في السفح وبين البساتين. . . ثم تتالى بناء المدارس في الصالحية، حتى أن شارعاً يدعى الآن: شارع (بين المدارس) في الشركسية يحوي أكثر من عشرين مدرسة باقية قبابها وأبوابها، فضلاً عما اندثر منها. وآخر هذه المدارس وأعظمها المدرسة العمرية، أنشأها الشيخ أحمد بن قدامة المقدسي - في منتصف القرن السادس الهجري - ونمت حتى صارت (جامعة)، ودعيت بالمدرسة الشيخة؛ ثم تضاءلت حتى رجعت اليوم خراباً كأكثر مدارس الشام، واختلس الجيران ما قدروا عليه من ساحاتها وأبهائها، فأدخلوها بيوتهم. . . وأما الذي إلى اليسار فحيّ المهاجرين، وقد كان قبل ثلاثين سنة جبلاً أجرد، فأسكن فيه ناظم باشا (المهاجرين) من (كريت) بعد عدوان اليونان عليها، وبنى لهم أكواخاً صغيرة؛ ثم حال الحال فصارت قصوراً للأغنياء، غير أنها لا تزال بقية من تلك الأكواخ خلال القصور، ولا تزال قطع جرداء من الجبل أو صخور ماثلة بين الدور. . .

وذهبت السيارة ترتقي في الطريق الصاعد إلى (المهاجرين)، وكلما علونا فيه شيئاً، بدت لنا من دمشق والغوطة أشياء، حتى إذا بلغنا نهاية الطريق الذي يمشي عليه (الترام) انكشف لنا أعظم منظر تقع عليه عيني: من ورائنا الجبل الفتان (قاسيون)، وهو في الجبال كالفتى الغرانق في الرجال، قوي ولكنه وديع، وحلو ولكنه عظيم؛ وعن أيماننا جبل المزة ووادي الربوة، ذاك الذي يجري فيه بردى في السبعة الأنهار: يزيد وتورا وبردى وبانياس وقنوات وعقربا والديراني؛ تتسلسل كأنها أطواق اللؤلؤ على أحلى جيد، تمتد من صلب هذا الجبل حيث يجري (يزيد) إلى سفحه، حيث يمشي (تورا) من تحته، إلى أسفل الوادي، إلى سفح الجبل الآخر، إلى صلبه؛ والأشجار على ضفاف الأنهار كلها، والشلالات تنحدر من الأعلى إلى الأدنى تتكسر على الصخور، وتنحط، تخالطها أشعة الشمس فيكون لها بريق ولمعان كلمعان الماس، وأين منها لمعان الماس؟. . . وعن شمائلنا الفضاء الرحب، تملؤه الغوطة كبحر ما له آخر، أمواجه خضر. . . وتقوم في وسطه دمشق، دمشق الجميلة، دمشق القديمة، دمشق الخالدة! والجامع الأموي في وسط البيوت تظلله قبة النسر، كأنه رجل طوال واقف بين صبية صغار؛ ومن الدور التي شبهناها بالصبية ما فيه سبع طبقات، ولكنه الأموي معجزة البناء الإسلامي. . . ومناراته الثلاث الهائلة. . . يا لدمشق ومناراتها السبعين والمائة، وغوطتها وبرداها!. . .

قلت: هل بقى من الطبيعة لون لم تحوه دمشق؟ هذا الجبل، وهذا الوادي، وهذه السهول، وهذه البساتين، والصحراء صحراء المزة. . . وأنت تجوز بهذا كله ماشياً على قدميك في نصف ساعة. . . وهنالك البحيرة تبدو لكم من وراء الغوطة. فهل بقى من الطبيعة لون لم تحوه دمشق؟

قالوا: لا والله، إلا أن يكون البحر، وهذا بحر من الخضرة شهدنا أنه لا إله إلا الله، وأن دمشق أجمل بلاد الله!

قلت: شهدتم وأنتم في (الجادة الأولى) فكيف إذا صعدتم إلى (الجادة الخامسة)؟ وبعد. . . فيا أسفي على أيامي التي قضيتها ساكناً في (البلد) ويا عجبا من قوم عندهم (حيّ المهاجرين) ويقطنون في غيره، وعندهم قاسيون ونيامون (تحت) في السهل! وكيف يؤم الناس المصايف، ويذهبون إلى بلودان ولبنان، وهنا (الجادة الخامسة) لو حلف رجل بأوثق الأيمان على أنها أجمل من لبنان، وأعذب ماء، وأطرى هواء، لما أثم ولا حنث؟

اللهم عفوك! فإني والله لا أستحق هذه النعمة، وما لي على أداء شكرها طاقة!

ينظر ساكن البلد فلا يرى حوله إلا قليلاً مما يُرى. فيحس أنه في دنيا صغيرة تافهة، فإذا قطن (الجادة الخامسة) تكشفت له الدنيا، وتعرت، فرآها في زينتها وفتنتها، فأحسّ انه مع رفيق يؤنسه وحبيب يسليه، حبيب تراه في الصباح كغادة جميلة في جمالها طهر، وفي عينها صفاء، توحي إليك التأمل، وتسمو بك فوق الشهوات، وتراه

في ضوء القمر كآنسة مغرية فتانة تهيّج في نفسك الحب، وتشعل في أعصابك النار؛ وتسمع من الجادة الخامسة:
كلمة الخلود في دنيا الفناء، تتجاوب بها مآذن الحيّ، وتبصر المنارات تضيء في الليل من كل جانب فيسمو بك النداء حتى تحسّ أن هذه (الدنيا) قد سمت كلها، حتى صارت هي (العليا) . . .
فما أعظم (الأذان) عند من يسمعه من (الجادة الخامسة)!
ينادى في الفجر الساكن الخاشع، لا يشغلكم سكونه وسحره عن عبادة الله والاتصال به!. . . وينادي في النهار الكادح العامل لا تصرفكم الدنيا عن صلاتكم ودعائكم!. . . وينادي والشمس تغيب من أعالي الجبل فيدرك ذروته المساء والبلد والغوطة سابحة في نور الشمس، وينادي حينما يعم الدنيا سحر الغروب، وينادي حين يبدأ الليل، وتستعد الفضيلة للنوم، وتتهيأ الرذيلة للسهر!. . .
في (الجادة الخامسة) يشعر الإنسان أنه يندمج بهذا الكون فيأنس به، ويطمئن إليه؛ ثم إذا هبط إلى البلد فكر فيه واشتاق إليه!. . .
كل شيء في (الجادة الخامسة) ساكن حالم، أما (البلد) فكل ما فيه مضطرب متوثب. هنا الشعر والتأمل؛ وهناك. . . هنالك تحت هذه السقوف التي تظهر خاشعة في ضباب الصباح، ووهج الظهيرة، وظلمة الليل. . . خلاف وتنازع على الرياسة، وانقسام وفشل. . . هنالك هبطت قيم الأخلاق وأمحى الإيثار، فالأخوان يصطرعان، والعدو - عدوهما معاً - واقف يصفق لهما ليهيجهما، لتخور قواهما ويسقطا من الإعياء، فيقبل ليفعل بهما ما يشاء. . . هنالك التاجر المفلس من أقطاب السياسة، والتلميذ الراسب من أقطاب السياسة، والعامل المطرود من أقطاب السياسة، وكل الناس من أقطاب السياسة وزعماء البلد. . . لم يبق تلميذ لدرسه، ولا تاجر لدكانه، ولا محام لمكتبه، ولا طبيب لعيادته، ولا رجل لما خلق له، لكنهم جميعاً للخلاف والتنازع، كل حزب يهدم الأحزاب فتنهدم جميعاً، ويبني العدو ما يبتغي. . . أرى هذا كله من (الجادة الخامسة) فأتألم ولكن لا أتكلم، لم يبق لمثلي مجال للكلام. . .
أرى هذا فأذكر بغداد، وما خلفت في بغداد. . . خلفت فيها النظام والاتحاد والطلاب الذين جعلهم نظام الفتوة جنداً، ونحن المدرسين الذين صرنا ضباطاً لهم شارات الضباط وحياتهم وقانونهم
خلفت الاستقلال الذي لا تشوبه شائبة، والشعب المتوثب، والجيش القوي، والاستعداد لنصرة كل قطر عربي. . .
أشهدوا أني أحب بغداد. . . أني أحبها، ولكن دون حبي دمشق. . .
أحب بغداد وأفخر بها، وأحب دمشق حبًّا أكبر آسي عليها، وأرجو لها مثل ما أعطيت بغداد على أن تتم لبغداد نعمتها
اللهم! إن تحت كل شجرة من أشجار الغوطة جثة شهيد مات دفاعاً عن هذه الأرض الطاهرة التي سقيت بالدم؛ ثم إنها لم تخلص لأهلها، ولم تنج من الغاصب الدخيل. . . اللهم كما جعلت دمشق درة الكون، ومنحتها ما لم تمنح بلداً، أكمل عليها نعمتك وهب لها الحرية والمجد، فالحرية والمجد أجمل من كل شيء!
اللهم! متى أطلّ من شرفة داري في (الجادة الخامسة). فأقول:
الحمد لله! كل هذا الجمال لنا، هذه ديارنا لنا، وهذه أمتنا متحدة ناهضة، تمشي في طريق العلاء. . .
متى يا ربّ. . . متى؟!. . .
علي الطنطاوي
خليل مردم بك
وكتابه في الشاعر الفرزدق
لأستاذ جليل
فخر الفرزدق
مدح الفرزدق (والفرزدق سمح بألقاب المدح وصفات التقريظ ولكنه حاذق يمدح الرجل بما يليق أن يمدح به، وينظر إلى خصائصه فيضفي عليها ثوباً من المبالغة) ومدح الفرزدق لخلفاء بني أمية فيه براعة ومقدرة يظهر عليها الطابع السياسي جلياً) واضحاً أكثر من كل ما مدحهم به الشعراء حتى أخص أنصارهم كالأخطل وجرير وعديّ

بن الرِّقاع فهو داعية لهم ولسياستهم، يجاهر بأنهم أجدر العرب بالملك، وأن الله اختارهم لخلافته)

وقد روى الأستاذ طائفة صالحة من أقواله المدحية منها قوله:

وجدنا بني مروان أوتاد ديننا ... كما الأرض أوتاد عليها جبالها

وقوله في يزيد بن عبد الملك:

وما وجد الإسلام بعد محمد ... وأصحابه للدين مثلك راعيا

ضربت بسيف كان لاقي محمد ... به أهل بدر عاقدين النواصيا

وقوله فيه، وقد عدا الفرزدق طوره في البيت الأول وكفر أو كاد:

لو لم يبشِّر به عيسى وبيَّنه ... كنت النبي الذي يدعو إلى النور

فأنت إذ لم تكن إياه صاحب ... مع الشهيدين والصديق في السور

في غرف الجنة العليا التي جعلت ... لهم هناك بسعي كان مشكور

فلن تزال لكم والله أثبتها ... فيكم إلى نفخة الرحمن في الصور

أبا فراس! (لم يلبثوا إلا عشيَّةً أو ضحاها)

من يأمن الدهرَ مُمساه ومصبَحه ... في كل يوم له من معشر جزرُ

بعد ابن مروان أودي بعد مقدرة ... دانت لهيبتها الأمصار والكوَر

ثم الوليد فسل عنه منازله ... بالشام والشام معسول له خِضر

تجبى إليه بلاد الله قاطبة ... أخلافُها ثرَّة لأمره دِرَر

وفي سليمان آيات وموعظة ... وفي هشام لأهل العقل معتبر

واذكر أبا خالد ولى بمهجته ... ريب المنون وولى قبله عمر

وفي الوليد أبي العباس موعظة ... لكل من ينفع التجريب والفكر

دانت له الأرض طراً وهي داخرة ... لا يدفع الذل من أقطارها قطر

بينا له الملك ما في صفوة كدر ... إذ عاد رنقا وفيه الشوب والكدر

كانوا ملوكا يجرون الجيوش بما ... يقل في جانبيه الشوك والشجر

فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم ... قفراً سوى الذكر والآثار إن ذكروا

ويظن بعضهم أن لو استمر ملك القوم قرناً آخر لتعربت الدنيا، وأحال أهلها

يقول الأستاذ في باب البحث عن شعر الفرزدق: (وإذا أردت أن تقف على الأسلوب العربي الصريح بجزالته وفخامته فاسمع قوله:

أحلَّ هُزيم يوم بابل بالقنا ... نذور نساء من تميم فحلت

فأصبحن لا يشرين نفساً بنفسه ... من الناس إن عنه المنية زلت

يكون أمام الخيل أول طاعن ... ويضرب أخراها إذا هي ولت

عشية لا يدري يزيد أينتحي ... على السيف أم يعطي يداً حين شلَّت

وأصبح كالشقراء تنحر إن مضت ... وتضرب ساقاها إذا ما تولت

لعمري لقد جّلى هزيم بسيفه ... وجوها علتها غبرة فتجلت

وقائلة كيف القتال ولو رأت ... هزيماً لدارت عينها واسمدرت

وماكر إلا أول طاعن ... ولا عاينته الخيل إلا اشمأزت

ويزيد المذكور في هذا الشعر هو ابن المهلب، وكان خلع يزيد بن عبد الملك ورام الخلافة لنفسه، وقال له مشعبذون إنه سيلي الأمر ويهدم دمشق. . .

يخبرك الكهان أنك ناقض ... دمشق التي كانت إذا الحرب حرّت

ولما واقعه جيش مسلمة في العقر عقر بابل ضرب هريم ابن أبي طحمة المجاشعي يد يزيد فقطعها، وقتله القحل بن عياش وضرب يزيد القحل فماتا جميعاً. قال الطبري: (انفرج الفريقان عن يزيد قتيلاً، وعن القحل بآخر رمق، فأومأ إلى أصحابه يريهم مكان يزيد يقول

لهم أنا قتلته ويومئ إلى نفسه أنه هو قتلني)

وفي هذه الوقعة يقول الفرزدق:

كيف ترى بطشة الله التي بطشت ... بابن المهلب إن الله ذو نقم

كم فرج الله عنا كرب مظلمة ... بسيف مسلمة الضراب للبُهَم

ولما ثار يزيد كان الحسن البصري يثبط الناس عنه، قال يوماً في مجلسه: يا عجبا لفاسق من الفاسقين، ومارق من المارقين غير برهة من دهره ينتهك لله في هؤلاء القوم كل حرمة، ويركب لهم كل معصية، ويأكل ما أكلوا، ويقتل من قتلوا حتى إذا

منعوه لماظة كان يتلمظها قال: أنا لله غضبان فاغضبوا، ونصب قصباً عليها خرق وتبعه رِجرجة رعاع هباء ما لهم أفئدة، وقال أدعوكم إلى سنة عمر بن عبد العزيز. فبلغ ذلك يزيد، فأتى الحسن هو وبعض بني عمه إلى حلقته في المسجد متنكرين فسلموا عليه ثم خلوا به، وصار الناس ينظرون إليهم فلاحاه يزيد، فدخل في ملاحاتهما ابن عم يزيد فقال له الحسن: فما أنت وذاك يا ابن اللخناء، فاخترط سيفه ليضربه به فقال يزيد: ما تصنع؟ قال: أقتله، فقال له يزيد: أغمد سيفك فوالله لو فعلت لانقلب من معنا علينا

يقول الأستاذ: (ومدح الفرزدق في جملته من أبواب شعره الجيدة، ومن أحسنه قوله:

إني أرى يزيد عند شبابه ... لبس التقى ومهابة الجبارِ
وإذا الرجال رأوا يزيد رأيتهم ... خضع الرقاب نواكس الأبصارِ

وروى له من هذا الجيد غير ذلك

رثي الفرزدق و (رثاء الفرزدق قليل، وهو إذا قيس ببقية أبواب شعره يقع مقصراً، وما قاله عن اضطرارٍ أو عن خوف ينم على قوة ومقدرة كرثائه للحجاج وأخيه وابنه)

يقول في الحجاج:

ليبك على الحجاج من كان باكياً ... على الدين أو شارٍ على الثغر واقفِ
وأيتامُ سوداء الذراعين لم يدع ... له الدهر مالاً بالسنين الجوالف!
ومهمِلة لما أتاها نعيه ... أراحت عليها مهمَلات التنائف
فقالت لعبديها: أريحا فعقّلا ... فقد مات راعي ذودنا بالطرائف!
ومات الذي على الناس دينهم ... ويضرب بالهنديَّ رأس المخالف!
يقولون لما أن أتاهم نعيه ... وهم من وراء النهر جيشُ الروادف
شقينا وماتت قوة الجيش والذي ... به تربط الأحشاء عند المخاوف!
له أشرقت أرض العراق لنوره ... وأومن إلا ذنبه كل خائف

ومقصدات الفرزدق ومقطعاته في هذا الباب تخبر بأنه يجيد حين يريد. ومن صالح رثائه أبياته في بشر بن مروان، وختامها:

وكنا ببشر قد أمنّا عدونا ... من الخوف واستغنى الفقير عن الفقرِ

وقد ذكر فيها أنه عقر فرسه على قبره، وقال غير أبي عبيدة: ادعى أنه عقر فرسه ولم يعقره. . .

يقول الأستاذ: (يدل على تخلفه في هذا الباب أنه لما ماتت النوار لم يفتح عليه بما يصح أن يناح به عليها. . .) وقال بشار: (كانت لجرير ضروب من الشعر لا يحسنها الفرزدق، ولقد ماتت النوار فقاموا ينوحون عليها بشعر جرير)

وقول الأستاذ المردمي فيه شيء من الحق، وقول بشار معه البُطل. وإذا كان الفرزدق لم يمل عليه شيطانه شيئاً حين هلكت مطلقته النوار التي أشقى صلاحُها طلاحَه الدهر الأطول. . . فهل يدل ذلك على أن لجرير ضروبا من الشعر لا يحسنها الفرزدق؟ وهل الشعر رثاء وبكاء؟ على أنا إذا جمعنا مراثي الخبيثين - ولجرير اثنتان وعشرون قصيدة ومقطعة، وللفرزدق خمسة وعشرون قصيدة ومقطعة - ووازنا بينها موازنة المقسطين، لم نر جريراً شأى صاحبه إلا برقته في مراثيه لا ببراعة معانيه، والأمر يؤول إلى لين العريكة وقساوة الخليقة. ثم إنه من قلة الإنصاف ألا ترى الرثاء إلا في أن يذكر الشاعر وجوهاً خمشت، وخدوداً لطمت، وشعوراً نفشت، وجيوباً شقت، ودموعاً همرت، والتياعاً وارتماصّاً وأنيناً. . .

إن للشعراء في الرثاء والهجاء والثناء لمجالاً في المقال، وإن البارعين هم المجتهدون المتفننون لا المقلدون المبقبقون. . .

يقول الأستاذ: (على أن له في الرثاء بعض بنيه شعراً يدل على أن الشجي خالط نفسه، والآن عاطفته فنفث حرقة صادقة تشجي السامع كقوله:

بني أصابهم قدر المنايا ... فهل منهن من أحد مجيري!
ولو كانوا بني جبل فماتوا ... لأصبح وهو مختشع الصخورِ!
إذا حنت نوار تهيج مني ... حرارة مثل ملتهْب السعيرِ!
حنين الوالهين إذا ذكرنا ... فؤادينا اللذين مع القبورِ!

وروى الأستاذ للفرزدق في وكيع بن أبي سود العداني:

فلو أن ميتاً لا يموت لعزه ... على قومه ما مات صاحب ذا القبرِ

ودفن ابناً له فالتفت إلى الناس فقال:

ما نحن إلا مثلهم غير أننا ... أقمنا قليلاً بعدهم وتقدموا
(يتبع - الإسكندرية)
* * *

قواعد النقد الأدبي في العربية
للأستاذ محمد ناجي

أتى على العصور الأدبية في اللغة العربية أزمان قويت فيها الروح المعنوية فسالت كما يسيل الماء الصافي، فلم تكترث للّفظ، وغطّتِ الفكرة على كل شيء فكانت قوية قاهرة وهّاجةً تعنو لها الجباه ويقدرها النقاد، وأتى على اللغة العربية حين آخر خبا فيه بصيص هذه الأفكار، فعمد الكتاب إلى المساحيق والطلاء ليخفوا ضعف أفكارهم بالمحسّنات اللفظية غير الطبعية. ومع أننا في النقد الحديث نحبّذ كلّ التحبيذ الفكرة القوية الساطعة التي هي نوع من الإلهام يتصل بالخلد، ولا يتقيد بزمان ولا بمكان، إننا - مع ذلك - نقدّر كل التقدير القالب الذي تتجّلى فيه الفكرة، إذ أن من توافقهما يخرج الأسلوب الحسن المناسب، ونعرف الأسلوب بأنهُ حسن تأدية اللفظ للفكرة التي يحتويها، وكلما كان الأسلوب محسناً في تأدية هذه الفكرة صمد لمعاول النقد الأدبي وهنالك عناصر كثيرة تكوّن ذاك الأسلوب وتطبعه بطابع خاص، فهناك شخصية الكاتب تفيض في أسلوبه، وهناك (ملامح) تلك الشخصية تتجلى في استعمال ألفاظ خاصة نتوقعها كما نتوقع الدقة الموسيقية دليل الانسجام الموسيقي. ومن يقرأ أسلوب الكاتب الإنجليزي د كنز يصادف ذلك النوع من خفة الروح تداعبنا من خلال ألفاظه ونكاد ننتظرها قبل أن يقولها، فهي تميز أسلوبه تمييزاً تاماً عما عداه

هناك إذن عوامل شتى تتجمع فيما نسميه الأسلوب وتتألف من شخصيه الكاتب ومن بيئته، ومن الأفكار المتعارفة في وقته، ومن مجرى الحوادث السياسية والاجتماعية.

لكن ما هي القواعد الأدبية والأقيسة التي يمكن أن نحكم بها الأسلوب كما عرفناه؟

لا شك أن لكل قطعة حسنة الأسلوب جيدة التعبير عن المعنى الكائن خلفها، روحاً خاصاً قد نفهمه؛ وقد لا يمكن مهما حاولنا بأقيستنا أن نعرف نوع الجمال والسحر اللذين فيه، فغاية ما يمكننا أن نقول عنه إنه جميل. ثم هناك الجثمان اللفظي الذي يحوي الفكرة المعنوية، وهذا الذي يمكن أن نطبق عليه أقيستنا الصغيرة. وقد نقف أحياناً مكتوفي الأيدي أما القطعة الشعرية فلا يمكننا أن نعبر عن الجمال الروحي الذي بها، إلا أننا قد نبسط هذا التأثير بأن نقول: إنه ملك علينا مشاعرنا فحسب وأنه حاز رضانا وإعجابنا. ولما كانت مشاعرنا

تنحصر في هذه الحواس الخمس وفي ذلك الشعور الباطن بالجمال الذي نملكه، وفي تلك الأفكار التي تحتوي نماذج خاصة نقيس عليها كل جمال نراه، فيمكننا أن نقول: إن القطعة الأدبية تدخل علينا السرور عن طريقين كبيرين: أحدهما عن طريق العين والمرئيات فهي ترسم لنا صورة بارزة وأخيلة قوية ناطقة، وثانيهما عن طريق الأذن بواسطة السحر الموسيقي. فانسجام القطعة الأدبية يعرضها لنقدنا فوق كل شيء عن طريق البصر والسمع، ثم عن طريق قوة العاطفة والفكرة. وعلى هذا الأساس يمكننا أن نضع قواعد بسيطة للنقد الأدبي

أولاها اختيار اللفظ الذي يحسن أداء المعنى المقصود. يقولون عن الشاعر أو الناثر المُجيد إنه لو انْتُزع لفظ من كلامه لما أمكن وضع بديل منه يؤدي نفس المعنى في نفس المكان؛ ونتبين مقدرة الكاتب من هذا الاختيار للفظ الذي لا يمكن العبث به ولا التبديل فيه. ومن هنا نتبين قوة أسلوب الكاتب ومرونة ذلك الأسلوب ليفي بالغرض المطلوب منه في كل قطعة على اختلافها، ولتأدية الأغراض المختلفة في القطعة الأدبية

يلي ذلك اختيار الكلمات وتنسيقها تنسيقاً موسيقياً، أو كما يرتب الرسام ألوانه ليخرج لنا الصورة الفنية. ولننظر في قوله تعالى: (اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً) فنرى الانسجام اللفظي البديع الذي لا يتأتى تنسيق سواه أن يرتفع إليه. فقوله (أكملت) تراه يتردد في لفظ (أتممت) وفي لفظ (الرضى) الإلهي، كما يتردد النغم الطيب، فهذا إكمال الدين من جانب البشر، يقابله (إتمام) النعمة من جانب اللّه، وينتج عنه الرضاء. ثم انظر إلى لفظ (الدين) في الأول و (الدين) في الآخر، ولفظ نعمة في الوسط وهي ترادف آخر للفظ (الدين). ولست أجد

أبدع في ترتيب اللفظ من آي القرآن
أما الناحية الثالثة فهي الوزن والقافية في الشعر. وليست أدرى لماذا أريد أن نتحرر من هذه القوافي التي تتحكم في أخيلتنا بلا مبرر والتي تلزم الشاعر ترتيباً من الأفكار قد يختل فيه الانسجام، ويضيع عنده الجمال. ولست أدري ما الذي يحول بيننا وبين أن نخرج على هذه البحور (الأثرية) التي قيدنا بها الخليل بن أحمد. ولست أدري لماذا نظل في الموسيقى الفردية ولا نخرج منها إلى الموسيقى الإجماعية التي يتكون فيها الجمال الفني من تضافر أنغام مختلفة لآلات كثيرة تساهم كل منها بنصيبها في تكوين القطعة. وليس من شك في أن
للبحور الشعرية موسيقى خاصة، ولكن كل بحر إنما هي موسيقى فردية، فلنجعل للقافية وللوزن مكانهما في الشعر ولكن يكون أوسع من مكان الترجيع الممل في الموسيقى الفردية. وهناك إلى جانب هذا تمثيل الصوت بحيث يؤدي المعنى ويسمى وقد نظم تنيسون مقطوعة شعرية عن البحر، لتخال وأنت تقرأها أنك تسمع صوت جرجرة البحر وصخب الأمواج، وقد تم لمشاعر ذلك بانتخاب أحرف خاصة.
ثم المجاز والتشبيه، وهمار كنان ينبغي أن نجعلهما يخدمان الفكرة لا أن تخدمهما، فهناك مواقف نحتاج فيها إلى التشبيه، ولا يمكن فهمها بدونه، خاصة إذا كان المعنى المراد تأديته إنما يقرب الذهن إن نحن ألبسناه صورة خاصة من الشبه.
أما الناحية الأخيرة من نواحي النقد فهي التأثير الفني الإجمالي
لكن ما هو هذا التأثير الفني؟ وأخالني أرى أولئك الذين ينتخبون ملكات الجمال، فيعمدون إلى قياس التناسب الجسديلمعرفة التناسق الجمالي، يسألون أنفسهم نفس السؤال: ما هو الأثر الإجمالي الذي يعطيه هذا التناسق الجسدي في مجموعه؟ وفي اعتقادي أن الإجابة على هذا السؤال تتوقف في النهاية على تميز هذا المجموع عن ذلك. إن لكل قوم ولكل زمان نماذج خاصة للجمال، وقد يفهم كل من الجمال بقدر ما توارثه من صور الجمال في ذهنه أو بقدر ما يصبو إليه في زمنه.
قد يقرأ القارئ قطعة ثم يعود إليها فيفهم منها غير ما فهمه في المرة السالفة. ولشكسبير بعض قطع كلما قرأتها تبين لك معنى جديد، فكأنما الكاتب قد ملك ناصية المعاني وهو يكتب إليك من علياء بيانه فتقرأ تعبيره يوماً ما ثم يذهب بك الزمن فتقع في نفس الظروف والملابسات التي عرضت لذلك الكاتب فتتذكر اللفظ الذي كتبه وترى معنى جديداً
حقاً ما أشق مهمة الناقد وما أوهن قواعد النقد!
محمد ناجي
كتاب الأغاني
لأبي الفرج الأسكندراني
رواية الأستاذ عبد اللطيف النشار
صوت
أصلحتُ ما قال سيبويه ... بما رآه (أوبر كرومبي)
قد أصبحت مصر في لغاها ... مصباح شرق وزيت غرب
وصرت في أمتي زعيماً ... كأنني طلعت بن حرب
الشعر للأستاذ أحمد الشايب، وفيه لحن لما يضربْ لصغر سنه
حدثنا الأستاذ أحمد الشايب قال: لما وضعت كتابي (الأسلوب) عمدت فيه إلى تهذيب المنهج في تعليم البلاغة. فراجعت كتاب المستر أوبر كرومبي، ومزجت ما يسميه الإنكليز بالـ (روتاريك) بما يسميه العرب (البلاغة)، وأخرجت من ذلك كتاباً في الأسلوب على طريقة
قال أبو الفرج: ولقد طالعت هذا الكتاب فوجدته بديعاً ولا عيب فيه غير أسلوبه
قال: واعتذر الأستاذ الشايب عن ذلك بالقاعدة الإنكليزية في أجرومية تلك اللغة قال وهذه القاعدة عند علماء البلاغة في كل اللغات أن يكون الحد اللفظي لها مخالفاً للمعنى الذي تضمنته كما يقال في البلاغة العربية: (قبيح أن تبدأ الجملة بلفظ قبيح).
قال وهذه القاعدة تصلح ترجمة للقاعدة الإنكليزية التي ذكرتها
قال أبو الفرج: والحق أن المركَّب الذي استحدثه الأستاذ الشايب للبلاغة مركب بديع، وقد خرج فيه عن الطريقة العربية للمركب المزجي وقارب الطريقة التي ذكرها

الأستاذ فرويد لمركباته المختلفة.
حدثنا الأستاذ سلامة موسى قال: إن مركب النقص ومشتقاته ليست هي كل المركبات وإنما ذكرت منها ما ذكرت في المجلة الجديدة على سبيل التمثيل لا على سبيل الحصر؛ فهناك مركب مثلاً اسمه مركب الدعاية العملية وهو يتعلق بالدعاية دون غيرها ومرده بالطبع إلى أشياء أخرى غير الغريزة. ومن أمثلة هذا المركب أن في الإسكندرية شاعراً جهيراً اسمه
الدكتور زكي أبو شادي وناقداً كبيراً اسمه الأستاذ إسماعيل أدهم، وهما يشتركان في تأليف كتب باللغة الإنكليزية ويوقعانها معاً بأسماء مستعارة، ولكن الدكتور زكي أبو شادي يوقع بلقبه العلمي فقط: (الدكتور) ويوقع الأستاذ أدهم باسم (ليونارد هاركر) ويرى الناس التوقيع هكذا: (الدكتور ليونارد هاركر) ويحسبونهما رجلاً واحداً بهذا الاسم والواقع أنهما اثنان أحدهما دكتور شاعر والثاني ناقد
قال الأستاذ سلامة موسى: (ولما عرفت هذه الحقيقة، وجدتني أنطق الشعر على الرغم من كراهيتي له، وقلت أهجوهما:
كم ناقد أبسط مِن شاعر ... وشاعر أمكر من ناقد
فكيف بالله ترى خلة ... قد ضمت الوصفين في واحد
قال: وواحد هنا لا تشير إلى فرد منهما وإنما تشير إلى المركب الذي مزجهما معاً.
حدثنا الأستاذ إسماعيل مظهر قال: إن نظرية فرويد مردها إلى النسيان. ولقد بوب كتابه عن الحياة اليومية على أساس من ألوان المنسات، فباب عن نسيان الأرقام، وآخر عن نسيان الوجوه، وثالث عن نسيان الأخبار وهكذا. وفي الحق أن الأستاذين إسماعيل أدهم أو الدكتور زكي أبو شادي لم يتجها قط إلى المزج، وإنما أرادا التوقيع بكامل اسميهما ولقبيهما، ولكن أحدهما نسى اسمه بعد أن كتب كلمة الدكتور، والثاني نسى لقبه قبل أن يكتب اسمه ليونارد هاركر، ولقبه هو البروفسور
حدثنا الأستاذ أحمد الشايب قال: أما المركب الذي استحدثه بمزج البلاغتين العربية والإنكليزية فليس من هذا النوع وليس منشؤة النسيان، وإنما وقع لي هذا الخاطر المبارك أيام كنت موظفاً في حكومة السودان وكان الحكم فيها ثنائياً فأنشأت كتابي (الأنجلو اجبشيان أسلوب) لمدارس الأنجلو اجبشيان سودان. أليس كذلك؟ أوريت!
وفي رواية أخرى أنه لم يقل: أوريت، وإنما قال: أوكيه
حدثنا الدكتور زكي مبارك قال: هذه والله بدعة قبيحة من المثقفين بالثقافة الإنكليزية. ولقد سمعت منذ أسابيع محاضرة أذاعها الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني من محطة لندن فنعى علينا نحن الفرنسيين المصريين أننا أدخلنا على الأدب المصري عنصر المغالاة وأننا بعد أن بشرنا بالرومانيكية سكتنا. سامحه الله! ومن الذي يزعم أني سكت أو أني سأسكت! على
أن الأستاذ المازني قد فاته أن يتحدث عن بدعة الأستاذ الشايب
وحدثنا الأستاذ المازني قال: لقد أذعت محاضرتي قبل أن يصدر كتاب الأسلوب وأنا الآن أتحدث قبل أن أقرأ الأسلوب فما للدكتور زكي يتعجلني قبل الأوان؟ أيحسب أنه يطيق مهاجمتي كما هاجم غيري من قبل؟
حدثنا الدكتور زكي مبارك قال: ما لهؤلاء يتهمونني جميعاً بالشغب؟ أتراني أفعل كما فعل قرقوش فأصدقهم وأكذب عيني! وحقهم جميعاً لا أشاغب ولا أحب من يشاغب ولولا أن الرهبنة ليست في الإسلام لو دعت الناس جميعاً وقضيت بقية العمر راهباً في مسجد نوتردام دي سنتريس!
ليت الصبايا يترهبن ويدخلن معي الدير! إذن لكنت أشهر من أحدب فكتور هيجو صاحب كنيسة نوتردام دي باريس! آه لو ترهبت الصبايا!
قال أبو الفرج: والحق أن أصدقاء الثقافة الفرنسية كانوا أقدر على الاختراع والابتكار حتى ظهر كتاب الأسلوب مازجاً بين البلاغتين فتم الانتصار في الابتكار لأصدقاء الثقافة الإنكليزية
حدثنا الأستاذ أحمد الشايب قال: وهل يحسب أحد أن التقريب بين مصر وبين حليفتها من حيث البلاغة ليس إلا ضرباً سامياً من ضروب الوطنية! أليس ذلك مؤدياً إلى حسن التفاهم بين الأمتين في المستقبل؟
قال أبو الفرج: أما وقد أشار الأستاذ الشايب إلى الوطنية فما سمعت في الشعر

المصري أروع وطنية من شعره، ولا رأيت في النقد المصري أقوى من تلك الوطنية في نقده.
قال: لقد نقد الأستاذ الشايب لبهاء الدين زهير فرأيته يهزه هزاً عنيفاً ويسأله: أين شعره في الحروب الصليبية، وأين وطنياته المصرية؟
ولقد قرأت نقده للمتنبي فرأيته يهزه كذلك هزاً عنيفاً ويسأله أين شعره في النيل؟
وهو على الرغم من سمو مكانته يلجأ بدافع الوطنية إلى التضحية ليكون قدوة ومثلاً لغيره من الناس، فكان أول أستاذ جامعي تطوع في فرقة الإنقاذ من الغارات الجوية.
قال: ولقد كنت وإياه وجماعة من المصطافين القاهرين بالإسكندرية عندما أطلقت صفارة الخطر على سبيل التجربة. فقام الأستاذ الشايب من فوره وارتجل هذه القصيدة، وليس أدل منها على وطنيته وإنسانيته:

صوت

صفيرٌ كصوت البوم ينعق ناعياً ... تُكلْتَ من المدعوُّ ويحك داعياً
فودعت أهلي واتخذت كمامتي ... وبَذْلتي الصفراء وانسقت باكياً
والبذلة الصفراء هي ثوب من المطاط يرتديه المتطوعون في فرقة الإنقاذ
أفتش بالأذنين عن صوتِ معولٍ ... ولا معول إلا المنون المناديا
أزيز نسور ترسل الموت مُلهَباً ... وروحاً بلا جسم وصلباً وجارياً
فخضت الردى جوَّا وماءً وخضتهُ ... لهيباً وأحسست الردى في كيانيا
وفوق يساري شارة تستحثني ... وتهتف بي أن لست وحدكَ فانيا
وتهتف بي من مات لم يعد عمرهُ ... ومن ماتَ لم يلقْ المنيةَ ثانيا
وفي عضلي المفتول محمل خائرٍ ... فإن لم يجدني منقذاً فمواسيا
وفاضت على صدري نفوسٌ كثيرةٌ ... ووكلت بالأخرى الطبيب المدوايا
فيا غارة ما كان أبشع خضتها ... وهوَّن منها أنها في مناميا
الشعر للأستاذ أحمد الشايب وفيه لحن من صنعة الأستاذ حمدي باشا الديب تضرب على نغمة صفارة الخطر
(يتبع)
عبد اللطيف النشار
الجبر والاختيار
في كتاب الفصول والغايات
(مهداة إلى الأستاذ محمود حسن زناتي)
للأديب السيد محمد العزاوي
- 3 -
(وقول الحق أمثل من السكون، واستقامة العالم لا تكون، ولذة الدنيا منقطعة، . . .
وخبر الميت غير جلي إلا أنه قد لقي ما حذر، فاسع لنفسك الخاطئة في الصلاح . . .)
ومن مظاهر هذا التفكير ما انتهى إليه من نظرته في الجبر.
وأول ما يمكن أن نصادفه من هذا التفكير مشكلة خلق الأعمال ومشكلة التكليف وأمر البعث. فإن المسألتين الأخيرتين نتيجتان مباشرتان لمشكلة خلق الأعمال تتأثران بها سلباً وإيجاباً. فإذا ما أثبت للإنسان خلق الأعمال صحت إذن تعاليم الأديان بشأن القيامة والحساب، وإذا أثبت ذلك لله سقط التكليف عن البشر وانهدمت في رأي العقل والعدل فكرة الحساب والعقاب. ويبدو أن هذا ما يميل إليه أبو العلاء، وإن لم يصرح به تصريحاً. وهو كما نعلم قد أسلم قيادة للعقل، وعقله أدان بالجبر المطلق فلم يكن من الحق في شيء أن يثبت بعثاً ولا تكليفاً ما دام قد أثبت الجبر في الأعمال. بل كان العقل يقضي صراحة بالرفض إلا إذا كان البعث والحساب جبراً كذلك، وهذا ما لم يفعله أبو العلاء منزهاً الله عما يراه من عبث
يرى المعري نفسه مجبوراً على أن يفعل ما يأتيه لا خيرة له والقدر من حوله (أخو الحياة) فيقول: (كذبتْ النحاةُ أنها تعلم لما رفع الفاعل ونصب المفعول، إنما القوم مرجمون، والعلم لعالم الغيوب، خالق الأدب والآداب) فهو لا يرى أن القائم بالفعل هو الفاعل الظاهر؛ وإنما الفاعل شيء آخر (بيده نواصي العباد، لا يخرج بما يقضيه الجمد ولا الحيوان، ولا يفعل إلا ما رِضي وشاء، وغير متعلق به الزيغ والخطأ، ولا شيء من

الدنيات) هذا الشيء يخشى أن يصفه بصفة ما (وإن فعلت خشيت التشبيه، وأشركتُ الضعفة العاجزين، مع القوي القادر في بعض المقال إذا قلت فعل الأول وفعل النعمان، وهيهات ما أبعد بين الفعلين) وقد يبدو هنا أنه أسند إلى النعمان فعلاً قام به ابتداء منفصلاً عن الأول كما يشعر بذلك قوله: (ما أبعد بين الفعلين) ولكن ما الرأي وهو يرى عكس هذا، ويصرح به في نصوص صريحة لا تحتمل الشك ولا التأويل نحو قوله: (وعملي مكتوب مكلوء، مقترى بالحفظ ثم مقروء، وثوب الحياة عني مسروء، وغير القدر هو المدروء، لا يبعد عني السوء، أهُّم بالخير وأهوء، والأقدار دونه معترضات) فهل رأيت إلى ذلك المكتوب؟ ومحاولته فعل الخير فلا تمكنه من ذلك الأقدار لأن الذي قدرها لم يقدر له أن يفعلها؟ فيغضب أبو العلاء لذلك ويصيح أن (لو كانت المناقشة في غير عالم المستودعات لتمنيت أن تُلقي إليَّ صحيفة العمل فأضرب على ما ضمنته رُجاة الإضراب) ولكنه يائس من ذلك؟ (هل يعصمني الاجتهاد وقد سبق حكمه أنى من أهل الخسار، أم يضرني التقصير وقد نفذ علمه أنى في درجة الأبرار)

وقد يعترض على ذلك بان أبا العلاء نصح بأن (اترك المضلة إلى المرشدة؛ فإن طرق الخير كثير) وقال: (ما يمنعك أن تخيَّر القسى وأنت في بلاد الضال؟) ولكنه رد فيما أوردت على ما يمنع المرء أن يترك هذا إلى ذاك أو أن يتخير القسى.

فالأعمال إذن حكم مقدر على المرء، لا يستطيع أن يحيد عنه، ولا أن يعدل إلى غيره. وما معنى أن يعدل المرء عن (حكم) إلى (حكم)؟ وهو يذهب إلى ما ذهب إليه في مسألة الأرزاق من أن الأحكام تجري على نهج غامض كذلك، لا يدرك أو يعلل، كما جرت الأرزاق على نفس الغموض والإبهام.

ولا يمكن أن تجد عند أبى العلاء علة يقنعك بها أو يقنع نفسه. وإنما العلة لديه أن (الناس أربعة نفر: مسعود نحس فهو المرحوم، ومنحوس سعد فهو المحسود، ومولود بالسعادة إلى أن يموت فذلك المكرم المرموق، وثابت على الشقوة فذلك المُطَّرَح المرفوض.)

وهو يمضي بعد ذلك إلى استخلاص الحكم في هذه القضية، وينظر ما يشير به العقل، فهو يتساءل ما دام كل شيء بحكم الله وقدره (فهل أثم قَيْنٌ فتق خشبة مشرفي كأنما درجت عليه بنات الجثل والدعاع. . . فلما تم وكساه الأديم ورواه يمثل ذؤاية الوليد وذلك بعلم الله. . . . . مرت رفقة من التجر في أعقابهم طالب رزق يقوم الليل ويصوم النهار، فوثب الداعر فضرب عنق جارمة عيال فما تطعم عيونهم من جثاث؟) وهو يعرض إلى تلك الفكرة في بيان جلي يزيدها تفصيلاً حين يقول: (وليس اللسان ذنب إنما الذنب لمحرك اللسان، كفارس طعن برمح فقتل غير مستحق للقتل، فالجاني الفارس، والرمح غنى عن الاعتذار. وإذا سمعت القدم إلى قبيح فالجريمة لناقلها. مثل رجل ركب فرساً فأخاف سبيلاً فاستجوب العقوبة الرجل دون الجواد. . .

وإذا خانت اليد فالباسط لها الخب الخئون. . .) ومن هو محرك اللسان ومن مسير الفارس؟ وهل كان في إمكان محرك اللسان ألا يحركه، والفارس ألا يطعن برمحه، وناقل القدم ألا ينقلها؟ كلا، لم يكن ليستطيع، إذن فلا لوم عليه ولا تثريب. ولكن ماذا نقول وأبو العلاء يأبى أن يقول ذلك صراحة؟ فهو لا يعرض لها في بيان أكثر مما نرى. فهو حذر يود ألا يتعرض صراحة لأمر ليس على علم به. ذلك هو أمر الموت وما بعده من الحياة الآخرة. فهو يجهل أمرهما جهلاً يتمنى معه أن يعثر (بمخبر يعتام نفائس ما أقدر عليه يعلمني بعد الموت كيف أكون) وهو نفسه يصرح تصريحاً بهذا الخوف والجهل ويلوم نفسه أنه لم يتخذ الحيطة والحذر حيال هذا الأمر الغامض (وقد سئمت الحياة (وأخاف) أن أنقل فأقدم على ما حزن وساء وأنا أغفلت الحزم. ملت عن الجدد ومشيت في الخبار)

ولكن ما دام لا يأتي أفعاله مختاراً فلم البعث والحساب؟ الواجب ألا يكون بعث ولا حساب إلا إذا كان جبراً هو أيضاً وهو عبث ينزه عنه الله. على أنه يرى أموراً مادية تحول عقلاً دون حدوثه إذ يصرح أن (لو غبرْتُ ألف حقبة ما ورد على منهم كتاب ولا رسول، وعندي خبر خبرٍ نيه المعقول: إن جلود القوم تمزقت، واللحوم بليت وتهالكت، وصارت الأعظم رماماً). وهو يسخر من أهل الدار الآخرة سخرية هادئة لاذعة في وقت

معاً (سلم الله عليكم أهل ديار لا يشعرون بتبلج الصبح، ولا ترجل النهار، اشتاق إليكم وإلى من أشتاق؟ الأرواح متكلمة، ولا الأجساد ملتئمة، ولا المنازل برحاب) على أنه يؤمن الإيمان كله أن مصيره هو نفس هذا المصير، (أما اللحاق بالقوم فقريب ولست من لقائهم على يقين فالقلب لذلك آسف حزين، أفتراني أوجر على ذلك وأثاب؟!) فهو حزين كما ترى لأنه لا يستطيع أن يتبين حال الأموات في الدار الأخرى، ولأنه لا يستطيع أن يؤمن بلقائهم. وهو يميل إلى أنه لن يلتقي بهم لما قدم من أسباب، فإذا ما أراد بعد ذلك أن يحيي أباه حياه (تحية رجل للقياس ليس براج) وغير هذا من النصوص كثير يدل على وجهة نظره في

البعث. وقد يقال بأنه يؤمن ببعث الأرواح دون الأجساد فقد قال: (عززت باعث الأرواح) ولكنه قال: (والله باعث الأرمام) وقال: (ولا يمتنع أن يكون (جسد) الصالح إذا قبر في نعيم، و (جسد) الكافر في عذاب أليم) فهو لم يجزم بشيء. فالأمر لديه أمر لا يمتنع. ثم هو يتساءل لماذا يعذب الله المسيء ويثيب المحسن وكل الفعلين قد صنع؟ ولكنه يتراجع متهماً نفسه (فسبحان الله غافر ومعذباً. آلرشد دفين أم أنا أفين؟) لا يركن إلى حال من الطمأنينة والثبات كما قلت: (فالدنيا فانية، والنفس لا تأمن التبعات) (ولي ينذر أن الحازم حذر وقد أمنت وأنا مسيء) لذلك فهو يرى أن (الحازم الذي لا يأبس، يمجد الله ويقدس، وبغير طاعته لا ينبس (لعل) الأجل يدركه من أهل الصفاء.)

وكل ما يمكن أن نأخذه عن أبي العلاء في أمر التكليف وشأن البعث إنما هو جهل لا يثبت شيئاً وتوقف ولا ينفي شيئاً، ولعلنا لو قرأنا الكتاب جميعاً لن نجد ما يمثل آراءه في صراحة أحسن من قوله: (وقول الحق أمثل من السكوت، واستقامة العالم لا تكون، ولذة الدنيا منقطعة. وخبر الميت غير جلي، إلا أنه قد لقي ما حذر فاسع لنفسك الخاطئة في الصلاح)

وأبو العلاء حين يتعرض (للفاسق) ومرتكب الكبيرة أهو خالد في النار، نجده يميل إلى التفاؤل تارة فيعتقد أن (غفران إلهنا مأمول ولكنك أيتها الحشاشة فرطت فأوبقت، فانظري هل لك من متاب) (أن لقيتِ شراً فما أجدركِ، وإن لَقيتِ خيراً فإن الله صفوح لا يعجز ولا يشبه العاجزين) وهو يتفاءل حين يقرر أنه (ما جنت السيئة فالحسنة تديه والله غافر ذنوب المنيبين) بل هو يذهب إلى أبعد حدود التفاؤل: (لا آيسُ من رحمة الله ولو نظمت ذنوباً مثل الجبال سوداً كأنهن بنات جمير ووضعتهن في عنق الضعيفة كما ينظم صغار اللؤلؤ فيما طال من العقود، ولو سفكت دم الأبرار حتى أستنَّ فيه كاستنان الحوت في معظم البحر، وثوباي من النجيع كالشقيقين، والتربة منه مثل الصربة؛ لرجوت المغفرة إن أدركني وقت للتوبة قصير ما لم يحل الغصص دون القصص، والجريض دون التعريض، ولو بنيت بيتاً من الجرائم أسود كبيت الشعر يلحق بأعنان السماء ويستقل عموده كاستقلال عمود الوضح، وتمتد أطنابه في السهل والجبل كامتداد حبال الشمس، لهدمه عفو الله حتى لا يوجد له ظل من غير كباث) فانظر إلى أي حد يطمع في عفو الله، ويؤمل مغفرته. على أن ذلك لا يمنعه ألا يسأل (هل من راق، لذي إيراق، بات شاكياً من الخيفة باكياً، يسأل ربه غفران الكبائر، والله القابل توبة التائبين؟) (ما أحسنت فأطلب الجزاء ولكن أسأت فمرادي الغفران. ومن لي بالوقفة بين المنزلتين لا أكرم ولا أهان وقد يؤديه هذا السؤال إلى اليأس أحياناً: (كيف أغسل الذنوب وقد صار لونها كسواد اللابة والفداف كلما غسل حجر هذه وريش ذاك ازداد سواداً بإذن الله). فهو يصف مجهوده في محاولة غسل الذنوب، ولكن هذا المجهود يذهب عبثاً لأن الله لا يريد: (ولو شاء لبعث مطراً تبيض تحته اللوب، وطيراً مثل النوب، ولكنه أجرى العادة بما تراه. . . ولكن ما هذا الذي تراه ويعتقد أبو العلاء أنك تراه معه؟ لاشيء إلا أن الله قدره يحتث المنية لتجتث وأنا جاِثم) أو جاِث فانظر إلى أي شيء اتجه ذهن أبي العلاء؟ اتجه إلى الآخرة كذلك والمنية، وهو يخشاها لأنه يجهلها ويفزع منها فزعاً يقرب من فزع الأطفال: فأينما ولى وجهه لم يجد إلا هذه المنية التي تجتث الناس، وهذا الميت ذو الحال المبهم، وتلك الحياة الأخرى الغامضة المرعبة، التي تجد في أمرها. أيثبت ما قالت به الأديان، أم يثبت ما أوحى به عقله؟

في تلك المسألة أيضاً - مسألة الخلود في النار - لا نجد أبا العلاء يثبت شيئاً، وإنما هو

!متزعزع مضطرب متفائل حيناً، متسائل حيناً، شاك متشائم حيناً آخر
غير أننا لو تأثرنا شبح الكلام في ذات الله لديه في فصوله والغايات لوجدنا صدى الكلاميين وغيرهم. على أنه يقول:
لا أعلم كيف أُعبر عن صفات الله وكلام الناس عادَةٌ واصطلاح، وإن فعلت ذلك) فهذا نص صريح لا يحتمل (خشيت التشبيه. . .،. . . كيف يوصف بشيء خالق الصفات الشك في أنه لا يثبت لله غير ذاته، فليس هو من الصفاتيين في شيء وإنما هو من المعطلة. وقد أثبت أنه (لا أعلم كنهك ولا أهوء) وأن (الله القديم الأعظم، وبحكمه جرى القلم، ألا يخلد عالم ولا علم) ولكنه إن اعترف بكون الله (شاهداً ما غاب ولن يغيب، وقديماً ليس لابتدائه وجود، تقاصر لأوليته طوال الأغمار، كالأخيلة إذا حدثتك عنها النظرة الأولى كذبتها الثانية) فإنه يقرر شيئاً خطيراً إلى ذلك. هو لا يتصور أن الله خلق المادة من العدم أو أنه وجد قبل الزمان والمكان وإنما هو (رأى ما يحدث في هرم الدهر، ولزمان في شرخ شبيبته أيام نعام الكواكب وضائع في الأدحى، ونسورها فراخ في الوكر، وأسدها شبل في
الغابة. . . إن كان ذلك فقد علمه، وإن امتنع فالله مؤقت الميقات).
(للبحث بقية)
السيد محمد العزاوي
التاريخ في سير أبطاله
أحمد عرابي
أما آن للتاريخ أن ينصف هذا المصري الفلاح وأن يحدد له
مكانه بين قواد حركتنا القومية؟
للأستاذ محمود الخفيف
وسئل رئيس الوزراء عن وجهة نظره في دعوة المجلس دون الرجوع إلى الخديو، فكان جوابه أن الخديو قد نشأ الخلاف بينه وبين وزرائه بحيث لا يمكن الاتفاق بينه وبينهم، ولذلك فقد دعي المجلس دون مراعاة سلطته في هذا، ثم قال: (إن شكوانا من سموه هي أنه سلك مسلكاً يقضي على استقلال مصر وكثيراً ما فعل ذلك دون مشاورة وزرائه)
والحق أن توفيقاً كان يود التخلص من هذه الوزارة بأي ثمن وفيها البارودي الطامع في عرشه، وعرابي زعيم الحركة القومية الذي يسير بطبيعة حركته في طريق تعتبر عند الخديو طريق الضلال والعصيان وتعد كل خطوة فيها ثورة وتكبر، وأي شيء آلم في نفسه من أن يرى فلاحاً من أبناء هؤلاء الذين ما خلقوا إلا للفأس والطاعة العمياء يتربع في كرسي الوزارة ويتكلم إذ يتكلم باسم الأمة ويقبل ما يقبل أو يرفض ما يرفض باسم الأمة؟
ولقد عاب كثير من الناس على البارودي وعرابي مسلكهما تجاه الخديو في تلك الأزمة، وحجتهم أن الواجب كان يقضي على البارودي أن يترك الحكم ما دام قد استحكم الخلاف بينه وبين الخديو، ولقد يبدو هذا الكلام وجيهاً لمن ينظرون في النتائج دون تمحيص المقدمات، أما الذين لا يصدرون حكماً إلا عن تقص وفهم فلا يذهبون مذهب هؤلاء، ولا يقيسون قياسهم
وليست المسألة دقيقة على الأفهام حتى تتشعب فيها وجوه الرأي، فحسب هؤلاء العائبين على الوزارة مسلكها أن يذكروا أن الخديو كان يعمل بوحي من الإنجليز وعلى ذلك فلإجابته إلى مبتغاه لن تكون إلا تسليماً لأعداد البلاد، الأمر الذي لن يقبله وطني؛ ولو أن الأمر كان خلافاً بين الخديو ووزرائه، وكان الخديو يريد وجه الوطن لكان من السهل جداً أن يحتكم إلى الأمة ممثلة في مجلسها النيابي ويجعل له، عن طيب خاطر، القول الفصل
في الخلاف
وهل كان يحمد من الوزارة أن يكون قصارى جهدها الاستقالة من الحكم وإنها لفي موقف جهاد ومقاومة لدسائس الدساسين ومطامع الطامعين؟ كلا. بل أنا لنرى استقالتها في تلك الظروف ضرباً من الفرار ومثلاً من أبلغ أمثله الضعف، وعلى الأخص إذا سلمنا بموقف الخديو من القضية كلها على النحو الذي نذكره، والذي لن نجد دليلاً على صحته أبلغ مما ذكره لورد كرومر في كتابه حيث يقول: (إنه بين للسير أدوارد

ماليت في يوم 6 مايو أنه يؤثر أن تفقد مصر بعض امتيازاتها على يد الباب العالي وتعود إليها السلطة المنظمة على أن تبقى في مثل تلك الفوضى) ومعنى هذا أنه كان يريد أن تطلق يده في مصر فيحكمها كما يشاء ولا عبرة في سبيل الوصول إلى هذا الغرض بمبلغ ما تفقد مصر مما حصلت عليه من امتيازات خطت بها خطوات واسعة نحو الاستقلال

وإن الذي يرى هذا الرأي لن يكون احتكامه إلى قواعد الدستور إلا ضرباً من المغالطة، فإذا كان الدستور يقضي باستقالة الوزارة إذا تعذر التفاهم بينها وبين الخديو فلن يكون ذلك إلا على أساس احترام الخديو لذلك الدستور في جملته وتفصيله. . . وما أخطر أن يتخذ الدستور أداة لطرف منهما بالتحايل عليه بما ليس فيه. . .

وقفت وزارة البارودي لا تتحول ولا تلين فكان موقفها هذا ثورة لا شبهة فيها، ثورة قومية كأروع وأجمل ما تكون الثورات القومية، وهو موقف نراه جديراً بالإعجاب والتقدير، وما نحسبه لو كان في بلد غير بلدنا إلا كان يعد من المواقف المشهودة التي تذكر في مواطن الفخر والمباهاة

وكانت الوزارة قوية بادئ الأمر لأنها كانت معتزة بالنواب وإجماعهم على الأخذ بناصرها، ولكنها نظرت فإذا بينهم تهامس وفي صفوفهم إسرار وإعلان، وإذا كبيرهم سلطان يدعوهم إلى الحكمة والروية. . . وكم تحمل على الحكمة والروية أعمال ليست منها بسبب من الأسباب. . . قال سلطان باشا يومئذ للسير أدوارد ماليت: (لقد أسقط المجلس شريفاً تحت ضغط عرابي، وإن نفس الأعضاء الذين ألحوا في ذلك أكثر من غيرهم - وقد استبان لهم أنهم خدعوا - يتوقون اليوم إلى إسقاط الوزارة). . .

ولو اطلع عرابي على الغيب يومذاك لرأى أن هذه أخف ضربة من ضربات سلطان هذا، تلك الضربات التي سوف يسددها إلى

قلب الحركة الوطنية في ضجيج الجهاد وسكرات الاستشهاد

وانحاز فريق كبير من النواب إلى جانب الخديو، وإن كانوا ليتظاهرون أنهم يظاهرون الوزارة. . . كتب في ذلك ماليت إلى حكومته في اليوم الثالث عشر من شهر مايو يصف الحال في مصر أو على الأصح يصف مبلغ ما أصابته من نجاح دسائسه الإجرامية، قال: يظهر أن رئيس المجلس والنواب يميلون إلى جانب الخديو، ولقد سألوا سموه أن يأخذ بالعفو فيصالح وزراءه، ولكن الخديو رفض ذلك. . . ويصر سموه على رأيه، فلن يصالح وزارة تحدته صراحة، وتهددته هو وأسرته، واعتدت على القانون بدعوة المجلس إلى الانعقاد دون الرجوع اليه، وفي القاهرة قدر غير قليل من القلق، وكثير من الناس يغادرونها. . .

إزاء ذلك انخلع عن رئيس الوزارة عزمه، وتزايل إصراره شيئاً فشيئاً، حتى رأت البلاد البارودي يرفع إلى الخديو استقالته فيرتكب بذلك إثماً نعيبه عليه أشد العيب. فقد كان عليه أن يستطلع رأي النواب صراحة في جلسة يعقدونها. فإذا ناصروه كان عليه أن يبقى في مكانه حتى يقال، فيحظى بشرف الإقالة، أو ينتصر، فيكون له فخر الانتصار. . .

لقد رفض النواب أن يجتمعوا في مجلسهم - أي أنهم رفضوا أن يشايعوا الوزارة في تحديها الخديو، واجتمعوا في منزل رئيسهم وهذه حقائق نسلم بها، ولكنها أمور شكلية لا تمس جوهر الموضوع. فالأمر الذي كان يهم الوزارة، هو معرفة رأي ممثلي البلاد، وسواء لديها اجتمعوا في مجلسهم أو في أي مكان.

فليس ثمة من فرق بين الاجتماعين، إلا أن هذا رسمي وذاك غير رسمي؛ ولم يكن المجال يومئذ مجال شكليات، وقد جرى الخديو في مضماره الذي اختاره رغم إرادة البلاد. وهل كان نواب الشعب الفرنسي الذين التقوا في ملعب التنس في مستهل ثورتهم الكبرى لا يعبرون عن رأي الشعب لأنهم لم يجتمعوا في قاعة مجلسهم؟

الحق أن البارودي قد هدم جميعاً باستقالته هذه، ولو أنه نال شرف الإقالة، لكان منطقه متسقاً، ولأضاف بذلك إلى نفسه وإلى وزارته معنى من معاني البطولة وحمل الخديو والموحين إليه وزراً جديداً يضاف إلى سابق أوزارهم!

وعجز الخديو أن يقيم في الحكم وزارة، فقد أشفق منها الرجال يومئذ، وأشفق منها مصطفى

فهمي باشا حين عرضت عليه رياستها عملاً باقتراح ممثلي إنجلترا وفرنسا اللذين صار لهما الآن حق إسناد الوزارة إلى من يرضيان عنهم في مصر.

وصرح الوزراء على الرغم من استقالة رئيسهم أنهم هم لا يستقيلون إلا إذا كان ذلك بأمر من مجلس النواب، وهنا يعود عرابي فيثب إلى الطليعة، وقد ضاق البارودي بالأمر ذرعاً؛ فهو الذي أوحى إلى الوزراء بما فعلوا، وقد عز عليه أن يبعد الوزراء عن مناصبهم بمشيئة غير مشيئة الأمة، وتلك خطوة أخرى نضيفها في غبطة وفخر إلى سالف خطواته.

ووقف عرابي في مكانه لا يتزعزع وما كان أصلبه وأشد مراسه إذا وقف في أمر في أمر يرى أنه الحق؛ ولقد صور المبطلون وقفته هذه أنها عودة إلى الثورة المسلحة وأنه يوشك أن يفاجئ البلاد بيوم آخر كيوم عابدين، فما حفل كلامهم ولا خشي تهديدهم؛ وكتبت الحكومات إلى ممثليها في مصر أن (يرسلوا إلى عرابي فيبلغوه أنه إذا أصاب النظام خلل فسوف يجد أوربا وتركيا كما يجد إنجلترا وفرنسا ضده، وأنهم يحملونه تبعة ذلك)

وأصر ذلك الفلاح الذي لولا ما هيأته الأقدار لكان يومئذ يجيل فأسه في حقل من حقول هرية رزنة ولا يدري من أمر الحكم والسلطان شيئاً؛ وظل على عناده يكشف عن طيب عنصره وكرم معدنه فيفهم من يريد أن يفهم أن ذلك الفلاح الذي يجيل الفأس في صبر وصمت في أنحاء هذا الوادي لا ينقصه إلا العلم والحرية ليبهر العالم بعبقريته وبطولته. . .

وصرح سلطان وقد أخذ يكيد للبارودي وعرابي معاً (أنه ليس من الممكن تغيير الوزارة ما دامت القوة الحربية مجتمعة في عرابي باشا) ولم يك يبدر سلطان أن وراء تلك القوة الحربية قوة أخرى لولاها ما قام غيرها. لم يك يدري سلطان باشا أن هذه القوة الحربية التي يشير إليها كانت قائمة في مصر من قبل فما ظهر أثرها إلا في يد عرابي وأنه بذلك يمتاز عن غيره من الرجال

وانتهت الأزمة بأن أشار ممثلاً إنجلترا وفرنسا على الخديو بأن يطرح المسائل الشخصية جانباً، وبما أن سموه لم يستطع أن يقيم وزارة جديدة فإنهم يطلبون إليه أن يجدد علاقته بالوزارة القائمة)

وبقيت الوزارة في كراسيها وانتصرت كلمة الأمة من جديد على يد ذلك الذي خرج من هرية رزنة وتلقى قسطاً من من العلم في الأزهر، ثم درج بعد مدارج الرقي فكان في نموه كالشجرة الطيبة في سموقها لا كالعليق الذي لا ينمو إلا على غيره من النبات

ولولا ذوو الأطماع من المتربصين بمصر وحرية مصر لجنت البلاد من هذا الانتصار أطيب الثمرات ولعزت بذلك كلمة الأمة حتى ما تذل بعدها؛ ولكن مصر وا أسفاه جنت من انتصارها هذا العلقم والحنظل

وكيف كان يتسنى لمصر السلامة ووراء الخديو الإنجليز يتربصون ويكيدون؟ لقد حق لماليت الآن أن يدعو حكومته إلى التدخل المسلح فقد حانت الساعة وواتت الحجة، ولن يهم إنجلترا أن تكون هي المدبرة لكل ما حدث فلن يكون احتجاج الضعفاء إلا صرخة ضائعة، ولن يكون منطقهم إلا ثرثرة وشكواهم إلا تبجحاً

لم تكن في البلاد ثورة ولا خاف فيها أجنبي على حياته أو متاعه ولكن أعوان السوء صورها يومئذ صورة منكرة انزعجت منها أوربا أشد الانزعاج، مع أن هؤلاء الكاذبين كانوا يعلمون حقيقة الأمر ويوقنون أن المسألة لا تعدو خلافاً بين الوزارة والخديو ما كان ليبلغ ما بلغه من الشدة لولا تدخلهم على ذلك النحو الأثيم

ولم تكن البلاد مثل تلك الحال من الفوضى التي ذكرها المبطلون. وحسبنا أن نورد هنا بعض ما جاء في خطابين كتبهما عرابي باشا إلى مستر بلنت وكان ذلك في أوائل شهر أبريل أي قبل الأزمة التي نحن بصددها بنحو شهر. قال عرابي: (ونحن نرجو لإنجلترا أن تكون أقوى الأصدقاء لمساعدتنا في إيجاد نظام حسن على أساس الحرية فنسير عندئذ على غرار الأمم المتمدنة الحرة. ونحمد الله فإننا سنرى قريباً نجاحك في جهودك ولهذا نعتبر وصولك سالماً لبلادك فألاً حسناً للنجاح المنتظر. . . أما بخصوص النصيحة التي زودتنا بها فنحن نشكرك ونخبرك بأننا لا نقصر في حفظ النظام والهدوء لأننا نعتبر هذا من أهم واجباتنا ونؤكد لك أن كل شيء هنا هادئ؛ فالهدوء والسلام يسودان البلاد ونحن وإخواننا الوطنيون ندافع بأقصى ما يمكننا عن حقوق جميع

السكان بصرف النظر عن الأمة التي ينتمون إليها؛ ونحن نحترم جميع المعاهدات والاتفاقات الدولية ولن نسمح لأحد بمساسها ما دامت أوربا تحفظ وترعى علاقتها الودية معنا. أما عن تهديدات الماليين وأصحاب المصارف في أوربا فإننا نتقبلها بالحكمة والثبات واعتقادنا أن هذه التهديدات
تعود عليهم وحدهم بالأذى وتغر الدول التي تنخدع بأقاويلهم. وغايتنا الوحيدة هي تخليص البلاد من العبودية والظلم والجهل وأن نرفع السكان إلى مركز لا يمكن فيه الاستبداد أن يعود كما كان في الأزمنة الماضية ينشر الخراب والدمار في مصر. وإن (هذا الذي أكتبه إليك هو ما يفكر فيه كل مصري عاقل يحب حرية بلاده
هذا ما يقوله عرابي وهذا ما كان يرجوه المصريون من إنجلترا من عهد يرجع إلى قبيل الاحتلال. وكم تكرر في مصر من أشباه ونظائر لهذا الموقف! وكم جاء مثل هذا الكلام على ألسن غير لسان عرابي ولكنا نحجز القلم عن الاتجاه إلى غير ما نحن فيه فالسياسة الإنجليزية في مصر هي هي وإن تغير الزمن واختلفت في موضع زعامة الرجال
وقد أكد عرابي هذه النيات في كتابه الثاني، ومما جاء فيه: (ونحن ميالون أشد الميل إلى التفاهم عن المصالح المتبادلة بيننا وبين الدولة المرتبطة بنا. وليس للدول ذوات المصالح في بلادنا من سبيل للانتفاع بعقودهم ومعاهداتهم إلا إذا كانت الصداقة التي بيننا وبينهم وثيقة. فإذا قطعت هذه الصداقة فالضرر لن يعود علينا وحدنا بل يعود على الدول أيضاً وبخاصة إنجلترا. وليس هناك سياسي كبير الإدراك إلا ويفهم قيمة المنافع التي تعود على إنجلترا من صداقتها لنا ومعاونتها إيانا في كفاحنا). . . وقال: (إننا قد نوينا نية صادقة على أن يكون لأمتنا مركز بين الأمم المتمدنة بنشر المعارف في البلاد والمحافظة على الاتحاد والنظام والقضاء بالعدل بين الناس أجمعين. ولا يمكن لشيء في العالم أن يردنا عن قصدنا قيد شعرة فلن نخشى الوعيد أو التهديد ولن نخضع إلا لحكم الصداقة التي نقدرها ونكبرها - أما عن الهدوء في مصر فنخبرك أنه ليس هناك أي قلق، ونحن الآن نحاول أن نمحو الآثار السيئة التي تركتها لنا الحكومة السالفة)
ويذكر مستر بلنت أن الشيخ محمد عبدة كتب إليه في ذلك الوقت مثل ما كتب عرابي يؤكد له قيام النظام والسلام في مصر يقول: (وإن الخلق العظيم الذي يمتاز به الشيخ محمد عبدة ثم هذا المركز السامي الذي يملأه الآن في مصر وهو منصب الإفتاء الشرعي، كل هذا يجعل لشهادته قيمة تاريخية لا يبلغ الإنسان مهما قال في مدحها، وهذه الشهادة يصح وضعها بجانب الكتب الزرق لإدحاض أكاذيبها المختلفة، وكان في ذلك الوقت رئيساً لتحرير الجريدة الرسمية ومديراً لقلم المراقبة الصحفية فكان مركزه هذا يجعله على علم بما
يدور في الوزارة الوطنية بحيث لم يكن ماليت أو كلفن أو أي أوربي آخر ليدعي مثل معرفته بهذه الشؤون)
(يتبع)
الخفيف
هتفات حب
من دموعي الضائعة!
إلى التي ضيعت عمري على أقدامها وما زال يحجب نورها)
(ظلام القصور
للأستاذ محمود حسن إسماعيل
أحزان الحيرة - 1
أعاشقٌ أنا! أم فانٍ. . . على جسدي ... من صرعة الحب أكفان الأسى الأبدي؟
وشاعرٌ أنا! أم شادٍ على وترٍ ... من الفجائع مشدودٍ على كبِدي؟!
ويائسٌ أنا! أم نَعْشُ المُنى حَمَلتْ ... تابوته لُترابِ الهالكينَ يَدي؟!
وبائسٌ أنا! أم دُنيا مُلفَّقةٌ ... من العذابات والأرزاءِ والنَّكَد؟!
. .إذا بكيْتُ فلا دَمعٌ يُعينُ. . ولا ... إذا تصابرْتُ نامتْ جذوة الكَمد
هنا جفونٌ كأحلام اليتيم بها ... خريفُ دَمعٍ طواهُ الحبُّ في خَلدي
أَهدَابها للهَوَى أَحْبارُ صَومعَةٍ ... طافَ المسيحُ بِهم في ليلة (الأحد)
صَلَّت لنوركِ، فاهتزَّتْ لِهيبَتِهِ ... في ذائبٍ كَطهورِ المحرِمينَ نَدِ

. .ورَفرفتْ وَجثتْ حتى يُخال بها ... من الكَرَى غفوةٌ في شاطئ الأبدِ
2 - عُقدة الله لن تَحلَّ
(إن العقدة التي تربطها يد الله لا تستطيع حلها يد المخلوق)
(بنجامان كونستان)
سَيبقى لنا الحبُّ حتى نموتَ ... ونَغْدوَ أُنشودةً لِلفنا
فلا تجزعي في ظلام الُخدورِ ... غداً من يديكِ يَهلُّ السَّنا
غداً تسكُبين كزهر الحُقول ... على الحبِّ عطرَ الهوَى والمُنى
غداً نلتقي. . . لا الصَّبا نائحٌ ... ولا زَوْرقُ الدَّمع يَجري بنا
ولا نحن جُرْحين طبُّ الهوى ... جَفانا، وَزَفَّ المآسي لنا
وخلَّفنا صَرخةً في الزمانِ ... وتأويهةً في شِعاب الدُّنى
غداً نلتقي. . لا ضباب السِّنين ... ولا لغطُ الدْهر في دهْرنا
فلا تذرُ في بَعدنا دَمْعةً ... ولا تندُبي في الهوى حَظَّنا
. . .فكم دوَّخَ الحبُّ أبطالهُ ... وَسقَّاهُمُ كأسه قَبلَنا
لقد عَصمَ اللهُ أحلامنا ... وأتْرعَ من قُدسه كأسنا
وألهمنا كيف نرْعى الهوى ... ونَبْني على نارِهِ عُشَّنا
ونسخر من هوله كلما ... تَرامى بِأرزائِه حولنا
نَمتْنا على الطُّهر أيامهُ ... ونَوَّرَ في ظِلِّه عهدنا
. .وأبصرتُ نبعَ المُنى في القتام ... فهاتي لي الكأس وامضى بنا
3 - لتحترق الأمهات
إذا كنَّ مثل التي أشعلَتْ ... ظِلالكِ في الحبِّ دنيا هَجيرْ
وطَنَّتك أُنثى تسيغُ الهوانَ ... وما أنتِ إلا صفاءٌ ونور
وترْنيمة من شفاه السماءِ ... شداها ولم يدْر نايُ الدُّهور
وسحريٍ وشعري ودنيا هوايَ ... وسُلوانُ روحي، وخمرُ الشُّعور
!فكيف تُنسِّيكِ أهوالُها ... عِباداتِ قلبي الوفيِّ الكسير
!وكيف التي من تراب وطين ... تُذِلُّ التي من صَفاءِ العبير
عفاءً على الحبِّ إن أوقَفَتْ ... تسابِيحَهُ أمَّهاتُ الشرور
مُذِلُّ الجبابر بين الورَى ... وصولجهم باللَّيالي يَدُور
!أَتُوقِفُ إعصارَهُ صَخْرَةٌ ... من الشرِّ بين ظَلام القصور
محمود حسن إسماعيل
في يوم رحيل
للأستاذ العوضي الوكيل
لقد قضى بشقائي بعدكَ اللهُ ... (يا راحلاً وضميرُ القلبِ مثواهُ)
قد كنت من هذه الساعات في حذر ... حتى أصابَ فؤادي ما توَّقاه
أطعنةٌ في شغافِ القلبِ موغلةٌ ... أم ذلك الموتُ يبدو لي محيّاه
العيشُ بعدك بؤسٌ لَا نعيمَ بهِ ... والبعدُ والبؤسُ أمثالٌ وأشباه
إن كان قد سرني في القربِ من رَغَدٍ ... فسوف تحزنني في البعدِ ذكراه
قلبي - وليس كقلبي في القلوب - غَدَا ... وخفقُهُ بعدَ هذا البُعْدِ أوَّاه
أوّاه لو تنفعُ المحزونَ أوّاهُ ... القول بعدك هانت ثم جدْواه
إني وإن كنت في أهلي وفي وطني ... أنا الغريبُ الذي آدتْهُ بَلواه
سأمانُ ينكرُ دنياهُ ويشنؤها ... بُغضاً كما نكرته اليوم دنياه
صُمَت مسامعه عن كل هاتفةٍ ... كما خلت من سوَى النائي حناياه
فأين رنّةُ صوتٍ ليس يُشبِهها ... شيءٌ من الصوتِ: أعلاه وأدناه؟
وأين لمحةُ عينٍ حدِّ ساحرةٍ ... أحييتْ من الوجد ما كنا نسيناه؟
وأين لفَتةُ جيدٍ زانَهُ جَيَدٌ ... وأين فرْع كغصن البان تيَّاه؟
!وأين ما يُفحمُ الأشعارَ واصفةً ... أكلُّ ذاك نعيمٌ قد حرِمناه؟
يومُ الرحيل وكم تؤذيك ذكرتُهُ ... يا قلبُ قد جآء كالأغوالِ مَرآه
ما أن تفيد الرّقي فيه ولو كثُرَتْ ... وليس تنفع من ذي البثِّ شكواه
الأربعاء. . . اذكروه واذكروا أملاً ... أصيله كان مثواهُ ومأواه
ما زلتُ أذكره عمري وأكبره ... وكيف لي - وأنا المشتاق - أنساه؟

هذي سويعاته في النفس خالدةٌ ... طوباهُ من يوم أنسٍ كانَ، طوباه
اليوم ما زال يدعوكم. . ولو نطقتْ ... أيام دهري. . . لقد قالت ثناياه
أهلاً بكم ما حللتمْ فيه آونةً ... ومرحباً ما أَظلّتْكُم عَشاياه
يا راحلين. . فؤادي في رِكابِكُم ... فما له بعدكمُ عزٌّ ولا جَاه
آليتُ ما ليَ في الأيام بَعْدَكُم ... من مأمَلٍ كان قلبي قد تمناه
فإن ذكرتم فؤاداً بات يذكُركم ... أرضيْتُمُ حبَّهُ الغالي ونجواهُ
العوضي الوكيل
رجعة
للأستاذ فريد عين شوكة
أَلقيتُ أعباء النَوى عن كاهلي ... ورحمت نفسي من جَواها القاتل
وسعيتُ شطرك والحنين يدُعُّني ... دَعًّا إليك، وما له من خاذل!
وحملتُ آلامي وكنتُ حفظتُها ... لأذيعها لك في اللقاء العاجل
حتى لقيتُك فامَّحي من خاطري ... ما كنت فيه من العذاب الهائل
وجمدْتُ وانعقد اللسانُ، كأنما ... أنا في لقائك صورة من (باقل)
يا مستريح البال ليت لمهجتي ... بعض الذي بك من قرار شامِل
هبْني شذذت! أليس عذري أنني ... نهبٌ لثوراتي وجمِّ بلابلي؟!
مالي عصيتُك يائساً فهجرْتني ... عَجْلانَ غير معاتِب أو سائل
غفراً فقد أخطأتُ فيما خلْته ... يشفى فؤاديَ من هواك الواغل
إني حسبتُ القلب يَّطرح الهوى ... ويُفيق من خبل الغرام الخابل
فإذا فؤاديَ جذوة مشبوبة ... طول النوى وإذا لقاؤك شاغلي
وإذا أنا هيمانُ حتى أهتدي ... بالبدر في ليل البعادِ اللائل
شهرُ حرمتك فيه ذقت به الجوى ... ناراً تَلظَّى في حشايَ الذابل
ونَزَتْ على قلبي جراحاتُ النوى ... كالموج ثار على سفينٍ جافل
شهر كأن اليوم من أيامه ... إن مرَّ يرجعُ فهو ليس براحل
يا طالما سألَتْك فيه رسائل ... وصْلِ المحب فلم تصحْ لرسائلي
وغفلتَ عن حزَني وشدة لهفتي ... ويلُ الشجيّ من الخليِّ الغافل!
سجلْتُ حالك في الخصام وفي الرضى ... فوقفتُ منك على سجلّ حافل
ترضَى فتعرض لي الحياة بهيج ... تهفو لفتنتها عيونُ الثاكل
وتذيقني نِعمَ الوصال هنية ... يا طيب مَنهلها لقلبي الناهل
فإذا غضبْتُ لقيتُ منك معانداً ... يُعيى بنفرته جميع وسائلي
ومضيتَ لا تُبقي على ما بيننا ... وقطعتَ من دنياك كل حبائلي
يا من أرى في وصله كل المنى ... حققْ وصالك للمحب الآمل
لا شيَء في دنيا الصبابةُ يشتهى ... مثل التمتع بالحبيب الواصل
فريد عين شوكة
رسالة الفن
دراسات في الفن
الفن هو الإنتاج الروحي
للأستاذ عزيز أحمد فهمي

يقول علماء البلاغة والتربية والمنطق وغيرهم من العلماء الذين يتصدون لدراسة العلوم المتصلة بالفنون أو العلوم التي من فوقها فنون: إن الفن هو التطبيق العملي للقوانين الخاصة بموضوع ما. فإذا كان موضوع البلاغة هو جمال الكلام فإن فن البلاغة هو التطبيق العملي للقوانين التي يحصل الجمال للكلام باتباعها. وإذا كان موضوع التربية هو تنشئة الأحداث على وجه من الصلاح أو على أوجه الصلاح كلها فإن فن التربية هو التطبيق العملي للقوانين التي يتم صلاح الأحداث باتباعها على وجه من الوجوه أو على أوجه الصلاح كلها؛ وإذا كان موضوع المنطق هو ربط الكلام على الحق الصادق حتى يطابقهُ فلا يزيد عليه ولا ينقص عنه ففن المنطق هو التطبيق العملي للقوانين التي يتحقق باتباعها هذا الربط وهذه المطابقة

وبهذا التفصيل وبهذا التيسير أباح العلماء لأنفسهم ولتلاميذهم أن يستضعفوا الفنون وأن يستسهلوها وأن يعدوها، ما داموا قد وجدوا هذا التعريف الذي استنبطوه لها شيئاً،

يمكن أن يحققه كل إنسان، وأن يمضي في تحققيه ما شاء له تهاون هذا التعريف الذي يمنع عن الفن ما يلزم لحدوثه، اللهم إلا أن يكون تطبيقاً عمليًّا للقوانين. . .
وبهذه الإباحة كثر الكتاب الذين يطبقون قوانين التربية، وكثر المجادلون وتفاقم عدد المحامين الذين يطبقون قوانين المنطق. ومع هذه الكثرة فلا يزال الكتاب المبدعون قليلين، ولا يزال المربون المثقفون نادرين، ولا يزال المجادلون والمحامون الساطعون يعدون في الجيل على أصابع اليد أو على أصابع اليدين
فلو كان الفن حقاً هو التطبيق العملي للقوانين لكان كل من يعرف الطريق إلى هذا التطبيق فناناً كما كان من يعرف الطريق إلى التطبيق الخاصة بالأعداد حاسباً، وكما كان كل من يعرف الطريق إلى تطبيق القوانين الخاصة بعناصر المادة كيميائياً.
ولكن الأمر ليس كذلك. فبعض ما يدرس على الناس في ثوب الفن ليس فناً، وبعض ما يساق إلى الناس مجرداً من ثوب الفن هو في الحقيقة فن. ولا بد أن يكون القارئ قد سمع لحناً من الألحان قال عنه صاحبه ومن يروجون له، إنه موسيقي وجعلوا دليلهم على قولهم أن فيه تطبيقاً عملياً لقوانين الأصوات والأنغام في الوقت الذي لم يستشعر حين سمعه إلا هذا التطبيق العملي وحده لهذه القوانين دون أن يدفع هذا اللحن إلى نفسه عاطفة ينقلها من نفس صائغه، أو خيالاً ينبعث من روحه، ويعبر عن إحساسه وذوقه وذاته. هذا بينما لا بد أن يكون القارئ قد راعه يوماً شراب أو عطر ألفه كيميائي ممن تنفذ نفوسهم وأذواقهم إلى تطبيقهم العملي لقوانين المادة وعناصرها. وكما أنه لا بد أن يكون قد سمع عن نسبة أينشتين، فأحس ما قيل عن غموضها وتعقيدها وتساميها أنها ليست تطبيقاً مجرداً لقوانين الأعداد وإنما هي حسبة فيها شيء من روح أينشتين نفسه لم يصل إليها إلا لأنه يتجه في تطبيقه لقوانين الأعداد اتجاهاً خاصاً به هو، مرجعه إحساسه الذي قاد تفكيره.
فإذا سلمنا بهذا استدعى الإنصاف أن نحكم على ذلك الموسيقي الذي لا يضع في لحنه إلا التطبيق العملي لقوانين الصوت والأنغام بأنه غير فنان. وعلى هذا القياس كان غير فنان كذلك كل من يتصدى لأي فن من الفنون وليس معه إلا ما اكتسبه من معرفة القوانين الخاصة بهذا الفن، ومعرفة طرق تطبيقها. كما أن الإنصاف يستدعي إلى جانب هذا أن نصف بالفن كل من ينتج إنتاجاً فيه من نفسه وذوقه كأينشتين الذي ابتدع النسبية وككل كيميائي يبتدع شراباً أو عطراً فيه من ذوقه.
والنتيجة اللازمة لهذا هي أن ينهار هذا التعريف الذي وضعه علماء البلاغة والتربية والمنطق وأمثالهم للفن. فهو تعريف غير جامع مانع كما يقولون هم، لأنه يسمح للأدعياء بالدخول في زمرة الفنانين، كما أنه يحرم فنانين صادقين من الاستمتاع بحقهم الطبيعي في الإنصاف بالفن بينما هم جديرون بأن يتصفوا به
وما دام هذا التعريف قد انهار فقد لزم أن نبحث عن تعريف آخر نقيمه مقامه ويكون فيه الجمع والمنع اللذان تتطلبهما صحة التعريف
أما أنا فأحب أن يكون تعريف الفن هو هذا العنوان الذي رصدته على رأس هذا الحديث وهو أن الفن هو الإنتاج الروحي. ولست أرى من عيب لهذا التعريف إلا أنه يسمح لكثير
من الأعمال البشرية التي اعتاد الناس ألا يحسبوها بين الفنون بأن تكون فنونا. فهو يسمح للنجارة إذا كان فيها من روح النجار وذوقه الخاص أن تكون فناً، كما يسمح لصيد السمك إذا كان فيه من وسيلة خاصة ترجع إلى ذوق الصياد وتلهمه إياها روحه أن يكون فناً. وهكذا فليس من عيب في هذا التعريف إلا إمكان تعميمه على الأعمال البشرية جميعاً
وقد لا يكره هذا التعميم إلا الفئة الخاصة من الفنانين الذين يبدعون تلك الفنون التي اصطلح الناس على تسميتها فنوناً جميلة. فهؤلاء وحدهم أو بعضهم هم الذين يحبون أن يقتصر الإنصاف بالفن عليهم فلا يكون النجار فناناً، ولا يكون صياد السمك فناناً، ولا يكون أحد من الناس فناناً إلا من كان أديباً أو موسيقياً أو ممثلاً، أو رساماً، أو واحداً من هؤلاء الذين يسبحون في (السموات العلى) لا لشيء إلا اعتادوا التعالي على البشرية بأدبهم وموسيقاهم وتمثيلهم ورسمهم
غير أن هذا في الواقع نوع من الأرستقراطية القاصرة، أو المقصورة يكرهه الفن الصحيح. والفن لا يكرهه لأنه ديمقراطي بطبعه أو لأنه بلشفي، وإنما يكرهه لأنه دون

الأرستقراطية التي يحبها لنفسه. فالفن متعصب كل التعصب لأرستقراطية الروح، وهو يفخر بأن ينسب إلى نفسه كل ما انتسب إلى الروح من أعمال البشر، حتى ولو كان نجارة أو صيد سمك، ولكنه يأبى أن ينسب إلى نفسه كل ما خلا من الروح حتى ولو كان لحناً أو شعراً أو رسماً.

والفن في هذا لا يحيد عن الحق. وأشرف للفن أن يحتضن النجارة وصيد السمك متى جمعنا الروح والذوق، من أن يحنو على كلام سخيف منظوم ولكنه ميت، ومن أن يدخل إلى حظيرته ألحاناً روعي فيها أن تكون تطبيقا عملياً لقوانين الصوت والنغم، ولكنها ما تزال جامدة كأنها الصوت ضغط وتركز حتى تحجر!. . .

ولا أظن أهل الفنون الجميلة إلا مقتنعين بهذا الرأي، وما أظنهم بعد اليوم إلا آخذين به، فهم مقربون إليهم كل من تنفذ روحه إلى عمله، وكل من يسري من نفسه إلى عمله لونه الخاص يطبعه ويلونه، فيكون عمله تعبيراً عنه يعرف به. وهم مبعدون عنهم كل أجرد النفس، قاحل الحس، مجدب الروح والشعور، وإن قضى حياته يعزف على الأوتار، أو يسود الصحائف بالحبر.

وقد يعنينا أن يؤمن الفنانون بهذا الرأي مثلما يعنينا أن يؤمن به الجمهور، وأن يأخذ به النقاد أخذاً شديداً، وأن يعدلوا عن قياس الفنون إلا بمقياسه، وأن يشيع قياسهم لبقية الأعمال البشرية بهذا المقياس. فإنهم إذا فعلوا هذا فإنهم سيبرئون الفنون من طفيليات كثيرة تلتصق بها وتدعى النسبة إليها، كما أنهم سيعودون بالحق فيعترفون لكثير من الأعمال البشرية الفياضة بالروح بأنها فنون.

صحيح أنه مقياس قاس، ولكنه في الوقت نفسه مقياس عادل، إذ يرد إلى كثيرين من أصحاب الجهاد الروحي اعتبارهم الإنساني بعد ما ظلوا الأحقاب الطويلة وهم لا يحصون بين الناس إلا على أنهم صناع أو عمال. زد على ذلك أنه سيكشف لنا الأقنعة عن وجوه كثيرة متنكرة: لها أرواح ولها فنون ولكنها تتكلف في الحياة فنوناً غير فنونها فتعيش فيها ميتة بدون أرواح لأن أرواحها منصرفة إلى ما تصبو أليه

وكي يتصور القارئ قسوة هذا المقياس فليطبقه على بعض الأعلام من الذين يقال عنهم في مصر إنهم فنانون

فلنأخذ في الأدب مثلاً الأستاذ أحمد أمين، ولنأخذ في الموسيقى مثلاً الأستاذ محمد عبد الوهاب، ولنأخذ في التمثيل مثلاً الأستاذ جورج أبيض، ولنأخذ في الرسم مثلاً الأستاذ محمد ناجي الذي كان ناظراً لمدرسة الفنون الجميلة العليا إلى عهد قريب

أما الأستاذ أحمد أمين فقد أثبت عليه الدكتور زكي مبارك في مقالاته الأخيرة بالرسالة أنه أستاذ يكتب ولكنه لا يسري من روحه شيء في كتابته، فأنت لا تعرفه حين تقرؤه إذا كان راضياً أو كان غاضباً، وأنت لا تشعر به إلا هادئاً دائماً وفاتراً. وحسبه هدوءاً وفتوراً ما سجل عليه الدكتور زكي مبارك مظهره وهو أنه عاش وقتاً طويلاً في الواحات فلم يعرف الناس انه عاش في الواحات إلا يوم أعلنت هذه الحقيقة الغريبة على صفحات الرسالة في الجدال الأخير. بل حسبه هدوءاً وفتوراً وبعداً بفنه عن الروح أنه كان قاضياً ومع هذا فإنه لم يكتب قصة واحدة من قصص الحياة التي عرضت له وهو في القضاء. وهذا دليل على أنه يعيش في دنيا، ويكتب في دنيا أخرى. وهذا يستدعي واحدة من اثنتين: فإما أن يكون الأستاذ أحمد أمين بروحين يعيش بواحدة ويكتب بالأخرى ولا صلة مطلقاً بين الواحدة والأخرى، وإما أن يكون كما هو الآن متنكراً يعيش ويكتب فلا تعرفه على حقيقته ما عاش أو كتب

والأستاذ محمد عبد الوهاب لا يخلو له لحن من نص موسيقي يستحسنه في موسيقى سيد درويش أو في الموسيقى الغربية؛ ولا معنى لهذا إلا أن يكون الأستاذ عبد الوهاب عاجزاً عن إطلاق روحه بالتعبير الموسيقي ذي العاطفة أو الخيال على وجه من الحسن يرضيه، أو أنه عاجز عن التعبير الموسيقي أصلاً. فإذا أضفنا إلى اضطرابنا هذا في أمره أنه كثيراً ما يخطئ في التصوير الموسيقي فيصور الفرح بأنغام الحزن، والحماسة بأنغام الخلاعة، والأنين بأنغام الطرب، عزز هذا لدينا سوء الظن به وقادنا هذا إلى الحكم على فنه بأنه مقطوع الصلة بالروح، وإلا كانت روحه مجنونة مختلطة الأحاسيس تضطرب إذ تشعر وإذ تعبر عن شعورها وهو ليس كذلك، وإنما روحه هي المنصرفة إلى شيء آخر غير الإبداع الموسيقي لأنها لم تخلق له. فالأستاذ محمد عبد

الوهاب فنان متنكر مثل الأستاذ أحمد أمين
والأستاذ محمد ناجي الذي يقنع في فنه بأن يرسم خطوطاً تشبه ما يراه من الخطوط في الخارج، وأن يصبغها بألوان تشبه ما يراه من الألوان في الخارج - لا يمكن أن يزيد في اعتبار الفن (الرسم) على أنه نقاش أمين - إذا كان أميناً - يغني الفنان الذي يحتاج إلى نسخ كثيرة من الصورة الواحدة على آلة من آلات الطباعة، زد على ذلك أنه يحتاج دائماً إلى شرح صوره بكلام وإشارات يتقنها أكثر مما يتقن التصوير، ويصل بها إلى إقناع جمهوره الذي يدعوه إلى مشاهدة صوره أو الذي يبيع له صوره، بجمال هذه الصور وروعتها، إذ يقعد هذا الجمهور عن إدراك هذا الجمال إذا اكتفى بالنظر إلى هذه الصور. فالأستاذ ناجي هو أيضاً مثل صاحبيه فنان متنكر: يحترف شيئاً لا يتقنه، ولا يتقن شيئاً لا يحترفه
أما الأستاذ جورج أبيض الذي لم يتقن إلى اليوم إلا الأدوار الثلاثة أو الأربعة التي تعلمها أيام كان طالب بعثة التمثيل المصرية في باريس وهي عطيل ولويس الحادي عشر والملك لير ومضحك الملك فيما أظن، وقد أتقنها جميعاً بالأسلوب الفرنسي التلحيني الذي تعلمه في فرنسا والذي يصرخ في مشاهديه بين كلمة وأخرى، وبين كل حرف وآخر بأنه تمثيل ليس فيه من الطبيعة ولا حتى من التطبع شيء. . . الأستاذ جورج أبيض الذي انحصر فنه في هذا وحده يحرجنا كثيراً إذا طالبنا بأن نعترف له بأنه فنان فيه روح نافذة معبرة. . .
تظهر في تمثيله. . .
وقد يسألنا سائل كيف نجح هؤلاء الأساتذة في حياتهم على الرغم مما تنكره عليهم جميعاً من صلة فنونهم بأرواحهم. ونحن نجيب عن هذا بأن ثلاثتهم: أحمد أمين ومحمد عبد الوهاب ومحمد ناجي قد نجحوا لأن لهم أرواحاً تسري في أعمالهم ولكن من طريق التجارة والإعلان لا من طريق الفن، وعلى هذا الأساس يتحقق رأينا ويصبح هؤلاء السادة الأفاضل فنانين تجاراً معلنين، وإن كانوا فنانين في هذه الفنون الجميلة التي تصدوا لها، والتي عرفهم بها الناس
أما سر نجاح الأستاذ جورج أبيض فلا شك أنه رضاء الله عنه، فهو رجل طيب ما كان الله إلا ليجبر خاطره.
وأخيراً، فهكذا يقسو مقياسنا، ولكنه هكذا يرحم حتى هؤلاء إذ يعتبر كلا منهم فناناً فيما يسر له. . .
عزيز أحمد فهمي
رسالة العلم
من الذرة إلى الألكترون
الكهرباء كالمادة ظاهرة ذرية
للدكتور محمد محمود غالي
تتبع الكهرباء التطورات ذاتها التي تتبعها المادة - الكهرباء تركيب ذري شبيه بالتركيب الذري للمادة - التحليل الكهربائي وقانونه لكاشفه (فراداي) أول دليل على التركيب الذري أو الحبيبي للكهرباء - الأشعة الكاثودية دليل ثان على هذا التركيب الحبيبي - نظرة للإلكترونات المهاجرة والمكونة للأشعة الكاثودية - تكبر ذرة الهيدروجين الإلكترون الذي يدور فيها أكثر ما تكبر الشمس المشتري الذي يدور حولها.
تُرى هذه الرمال الفسيحة، وهذا الخلاء الشاسع والسكون الرهيب، تُرى هذا القمر الساطع والمُشتري يتألق في الفضاء، والمرِّيخ تراه في هذه الليلة من السنة في أقرب مكان لجارته الأرض - تُرى في هذه الصحراء المجاورة لمصيف (سيدي بشر) بعيداً عن الضوضاء نستطيع أن نطلع القارئ على موضوع يُعد من أهم ما قدمه العلماء في السنين الأخيرة؟ - هذا الموضوع خاص بالتعرف على الإلكترون بعد أن تعرفنا على الذرة وهو من المكونات الأساسية في الذرة ومنه يتكون التيار الكهربائي.
كانت السنون تتتابع والاختراعات تتوالى، والاكتشافات آخذت طريقها في الازدياد، ولا يدري أحد ما يخبئه الغد من مفاجآت علمية، وما يحمله القدر في طياته من تطورات يتوقف عليها مستقبل الإنسان - تُرى ما بداخل الذرة؟ - هذا العالم الصغير الذي حدثنا القارئ أنه من الضآلة بحيث أن النسبة بينه وبين كرة من الصلب يبلغ قطرها حوالي 3. 5 سنتميترات كالنسبة بين حجم هذه الكرة والكرة الأرضية

أو يَسْبَحُ في هذا العالم المتناهي في الصغر عوالم أصغر منه، عوالم يسميها العلماء اليوم الكترونات؟ - أو تسبح هذه الإلكترونات تارة حرة طليقة في المادة أو في الفضاء بسرعة عجيبة هي سرعة الضوء وطوراً تسبح دائرة ومقيدة حول نواة وسطى في الذرة وتكون مع النواة الذرات السابقة الذكر، وهل توجد ظواهر طبيعية تدلنا على هذه العوالم الجديدة
المتناهية في الصغر - كل هذا نود لو نعرفه ونود أن نعرف المناسبات التي استدل بها العلماء على هذا التحليل الجديد للمادة. هذا التحليل الذي يذهب بنا بعيداً عن حدود الذرة ويدخل بنا فيها
لقد تكلمنا عن الزمن الذي يمر علينا وتتعين بمروره الحوادث وتكلمنا عن الحيز أي الفضاء الذي تحدث فيه هذه الحوادث، وشرحنا ما يفهمه العلماء من المادة وكيف تنقسم إلى عناصر وكيف تتكون العناصر من الذرات المختلفة، وحسبي أن الشخص العادي يدرك أن هناك ظواهر عجيبة تختلف عن المادة، من بينها ظاهرة الكهرباء، ويدرك أن ثمة فارقاً كبيراً بين أسلاك الترام المرفوعة على أعمدة في شوارع العاصمة معتبرة مادة مصنوعة من النحاس وبين الأسلاك ذاتها بعد مرور التيار الكهربائي فيها - كلنا يسمع عن ظاهرة الكهرباء ولا يراها، كلنا يعرف أنه يكفي مرور هذا التيار الذي لا نراه في الأسلاك المرفوعة لتسير مركبات الترام من محطة إلى أخرى - كلنا يعرف أن الكهرباء ظاهرة تختلف عن المادة وإن ظهرت فيها ومن العجيب أن تتبع الكهرباء في تطوراتها الطريق ذاته الذي تبعته المادة، إذ تنتهي هي أيضاً بالذرية الكهربائية كما تنتهي المادة بالذرية المادية، وقد استترت الكهرباء بادئ الأمر وراء نوع من الظواهر المستمرة والمنتظمة، وهو الوضع الظاهر الذي يبدو لنا في مختلف الظواهر الكهربائية، ومع ذلك فقد انتصرت في نهاية الأمر فكرة التركيب الأتومي أي الذري للكهرباء كمل انتصرت قبل ذلك الفكرة ذاتها في كل ما يُكَوِّن المادة في الكون
على أنه كان من الصعب تصور هذا التركيب الذري في حالة الكهرباء إذ لو جاز لنا أن نتصور للمادة تركيباً حبيبياً، كل حبة مستقلة ومماثلة للأخرى فإنه لا يجوز لنا بسهولة أن نذهب إلى تعميم هذه الحالة ذاتها في الكهرباء فنفرض لها تركيباً حبيبياً مماثلاً للتركيب المادي ونفرض بذلك ذرة كهربائية لا يمكن تجزئتها فإن الأمر الأخير يبدو غريباً ويتطلب منا براهين قوية على وجوده. ذلك لأننا نتصور الكهرباء في العادة حالة طارئة على الجسم أكثر ما نتصورها جسيمات تجري في أنحائه، بل إننا نتصورها مجموعة من القوى أكثر مما نتصورها مادة في الوجود، ومع كل ما تقدم ومع مخالفة حقيقة الكهرباء لخيالنا وتصوراتنا فإن الفكرة المادية للكهرباء قد ثبتت أخيراً ونجحت نجاحاً لا يمكن أن يضعها
أحد العلماء اليوم بسهولة محل الشك ولا يمكن أن يبعدها عن حظيرة اليقين.
لننتقل بالقارئ إلى إثبات الفكرة الذرية للكهرباء:
لقد كان الدليل الأول على وجود الذرة الكهربائية التي أسماها العلماء الإلكترون في قوانين (الإلكتروليس) وهي القوانين التي تخص انتقال الكهرباء في السوائل، هذا الانتقال المرتبط بتحليل كيميائي يقع في هذه المواد الموضوعة في السائل نذكر أن فراداي الإنجليزي هو الذي كشف القانون الأساسي في هذه الموضوع والذي يتلخص في أن كمية من أي مادة تتحلل كهربائياً ترتبط بعلاقة بسيطة مع قدر التيار الكهربائي ومع الوزن الذري للجسم الموضوع في السائل، بحيث إذا أرسلنا تياراً كهربائيا معينا في محاليل مختلفة فنرسل التيار مرة لنحصل على عنصر معين، ونرسل التيار ذاته مرة أخرى للحصول على عنصر آخر فإننا نحصل على التوالي على العنصرين بواسطة هذا التيار الكهربائي بكميات مختلفة ولكنها بالنسب التي تعينها المعادلات الكيميائية لهذه العناصر في جزئيات المحاليل الموجودة فيها
ولم يكن ثمة تفسير لهذه الحالة ولارتباط التحليل الكهربائي بالوزن الذري إلا أن كل ذرة من ذرات العناصر المختلفة تحوي عدداً معيناً من الوحدات الكهربائية وأن الكهرباء وحدات مستقلة غير متصلة كما أن المادة وحدات مستقلة ومنفصلة
وعلى هذا لا تتوزع الكهرباء بكميات اختيارية في الأجسام بل إن كل ذرة مادية تحوي عدداً معيناً من الوحدات الكهربائية فهي تحوي واحدة أو اثنتين أو خمسين مثلاً أي عدد

كاملاً ليس به كسور الوحدة المعتبرة شخصية لا تستطيع الوجود في المكان والزمان إلا كاملة. إنك تستطيع أن تدعو عدداً معيناً من الأصدقاء لتناول الغداء فتستطيع أن تجمع على مائدتك سبعة منهم أو ثمانية أو أكثر، بحيث إذا أردت أن تزيد عدد المدعوين فإن أقل ما تستطيعه أن تزيدهم فرداً واحداً ما دمنا نتكلم عن أصدقاء أحياء يسعون إليك بدعوة منك؛ وليس لك أن تفكر أن تدعو من الأصدقاء أكثر من السبعة وأقل من الثمانية فإن هذا غير موجود فالأصدقاء لا توجد إلا بالواحد وليس بجزء منه. كذلك اتجهت الفكرة في الكهرباء أنها لا توجد أو تزيد إلا بالوحدة الكهربائية التي لا تتجزأ بحيث اتجهت الفكرة في بادئ المر بأنه ليس هناك حالة كهربائية بل أن ثمة ذرات كهربائية تشبه الذرات المادية موجودة

في الذرات المادية أوعليها. ولقد لفت النظر إلى هذه الحقيقة (هلمولتز) في سنة 1881 وهو الطبيب الفيسيولوجي الألماني الذي منحته جامعة برلين كرسياً في الطبيعة سنة 1871 والذي رفعته أعماله في الضوء والكهرباء والصوت إلى مصاف علماء القرن التاسع عشر.

ويسمون (يون) وفق النطق الفرنسي أو (أيون) وفق النطق الإنجليزي وتكتب في اللغتين الذرة محملة بالكهرباء أو مجموعة معقدة من الذرات مجتمعة ومحملة أيضاً بعدد من الوحدات الكهربائية ويتكون (اليون) بانقسام أو تقطيع أوصال جزيء غير مشحون بالكهرباء فمثلاً تتحلل سلفات ذرات من النحاس محملة بالكهربائية الموجبة وبقايا من الكبريت والأوكسجين محملة بالكهربائية السالبة وتسمى الأولى باليونات الموجبة والثانية بالسالبة، ويحمل اليون الواحد ذرة واحدة أو أكثر من الذرات الكهربائية

وقد درس (لانجفان) العالم الفرنسي الذي انتخب أخيراً عضواً في المجمع العلمي الفرنسي ما نسميه اليونات الكبيرة واليونات الصغيرة وأتم في هذا دراسة معروفة قام بها منذ أعوام في أعلى برج (إيفيل) في باريس حيث نعرف أن هذا العالم الدائب اليوم في العمل للاشتراكية والمسائل الاجتماعية العامة، قضى نحو ستة أشهر في أعلى البرج للقيام بهذا البحث الذي يحمل اليوم اسمه والذي يذكرنا بدراسة (مارسيل بريلوان) لدراسة كروية الأرض بطرق ضوئية مدى أشهر طويلة في ست غرف موزعة في نفق سامبلون المعروف

وشأن الكثير من مجموع المعارف التي تكون ميراثنا العلمي اليوم لم يقف البرهان على هذه الحالة الذرية للكهرباء عند قوانين (الألكتروليس) المتقدمة والعلاقة بين الوزن الذري للعناصر وبين شحنتها الكهربائية عند ما نعمد إلى تحليلها كهربائياً، وإنما وجدت الفكرة الذرية الكهربائية برهاناً جديداً من طريق يختلف كل الاختلاف عن طريق التحليل الكهربائي المتقدم الذكر، ذلك أنه أمكن للباحثين فصل الكهرباء عن المادة التي تحملها، وبهذا أمكن البرهنة على أن الكهرباء مادة مستقلة في الحيز وأن لها صوراً منفردة في الفضاء. وإلى القارئ كيف توصل العلماء إلى ذلك:

عندما يحدث تفريغ كهربائي داخل (أمبول) مفرغ من الهواء وهو غلاف زجاجي كالغلاف المكوّن للمصابيح الكهربائية فإنه يتكون داخل (الأمبول) بثق من الضوء ضعيف وملون، وهذا الضوء ناتج من تصادم الألكترونات مع جزيئات الهواء المتبقي داخل (الأمبول) بعد تفريغها عند انتقال الإلكترونات السريعة من القطب الموجب داخل (الأمبول) إلى القطب السالب، بحيث يظهر أثر هذا التصادم القوي بهذه الإضاءة. ولو أننا عمدنا إلى تفريغ ما بداخل الغلاف الزجاجي من هواء فإن هذا الضوء يتضاءل لقلة عدد جزئيات الهواء التي تتصادم مع الإلكترونات المقذوفة ويبدأ أن يكون للغلاف الزجاجي لون أخضر تحت تأثير هذا القذف الألكتروني، وهذا اللون الأخضر حادث من تصادم هذه الإلكترونات مع جزيئات الزجاج. وتتضح هذه الحقيقة بأننا لو وضعنا أي جسم داخل الغلاف الزجاجي في طريق هذه الإلكترونات وليكن حلقة معدنية مثلاً فإن صورة هذه الحلقة ترتسم على الزجاج وسط اللون الأخضر. وتعين الصورة المواضع التي غابت عنها الصدمات بحكم الجسم الذي وضعناه في الطريق، ويمكن الاستدلال أيضاً على اتجاه هذه الإلكترونات ومسار هذه الأشعة الإلكترونية التي ثبت أنها تسير من القطب السالب إلى القطب الموجب، وقد أسمى العلماء هذا السيل من الإلكترونات الأشعة الكاثودي نسبة إلى القطب السالب الذي يسمى الكاثود

هنا تساءل العلماء عما إذا كانت هذه الأشعة داخل (الأمبول) أشعة موجبة أو أشعة ولقد ثبت أنها أشعة حبْبيّة أي جسيْميَّة، إذا قُّربنا مغناطيسياً من الأمبول فإن هذه الأشعة تنحرف عن طريقها تبع وضع المغناطيس. ويبدو لنا ذلك من انتقال البقعة الخضراء على الغلاف الزجاجي، وفي هذا دليل على أن الأشعة مكونة من جسيمات صغيرة يتجاذبها المغناطيس في مواضعه المختلفة الذي نعلم أنه لا يؤثر إطلاقاً على الموجات الكهربائية. ويقول ريشنباخ في كتابه (الأتوم) الذي ترجمه للفرنسية موريس إن هذه الكهرباء المادية جسيمات مهاجرة وإن التيار الكهربائي يُمثل مجموعة من الأفراد المهاجرين من قطب إلى قطب

وبالطريقة ذاتها التي يؤثر بها المجال المغناطيسي على هذه الأجسام المهاجرة يؤثر أيضاً المجال الكهربائي على طريقها، وقد وضع الباحثون كفتين معدنيتين في طرفي (الأمبول) بينهما فارق في الضغط الكهربائي، ولاحظوا انحراف الأشعة الكاثودية بنفس الطريقة التي

تنحرف فيها عند وجود مجال مغناطيسي ويزداد هذا الانحراف مع القوة الكهربائية المستعملة ولقد وجد العلماء في قياس درجة هذا الانحراف طريقة لقياس كتلة الألكترون أي كتلة واحدة من بلايين البلايين الأفراد المهاجرة، ذلك أنه يمكن معرفة القوة الجاذبية من معرفة شدة المجال الكهربائي أو المجال المغناطيسي كما أنه يمكن معرفة الشحنة الكهربائية لأحد هذه الإلكترونات، وذلك بالالتجاء إلى تجارب أخرى وعدنا القارئ بشرحها قريباً عندما نتحدث عن تجارب (بيران) الفرنسي (ومليكان) الأمريكي، ومن الجلي أن يدرك القارئ أن بهذه المعارف يمكن التوصل لمعرفة كتلة الإلكترون، لأن ثمة علاقة سهلة بين كتلة الجسيم وبين الدرجة التي ينحرف بها في مجال معروفة قوية.

وقد توصل الباحثون لحساب هذه الكتلة فوجدوا أنها حوالي
من كتلة أخف ما نعرفه من الذرات، وهي ذرة 12000
الهيدروجين. وبناء على ما تقدم فالإلكترونات جسيمات تصغر
كثيراً جميع الذرات الكيميائية المعروفة، وقد توصل العلماء
أيضاً إلى معرفة شحنة الإلكترون وهي تمثل كمية الكهرباء
تيار مقداره واحد على عشرة آلاف مليون من المللي أمبير
يستمر مروره مدة واحدة على مليون من الثانية.

وتذكرنا النسبة الخاصة بكتلة الإلكترون وكتلة نواة ذرة الهيدروجين النسبة بين كتلة الشمس وكتلة الكواكب الكبيرة التي تسير حولها، إذ تبلغ كتلة الشمس 1050 مرة تقريباً كتلة المشتري أما النسبة بين كتلة الشمس وكتلة إيرانوس وهو الكوكب التالي في الكبر للمشتري فتبلغ 3500 تقريباً، وعليه فإن كوكباً فرضياً يكون أصغر كتلة من المشتري وأكبر من إيرانوس، وتوازي كتلته كتلة الأرض 167 مرة تقريباً، تمثل النسبة بين كتلته وبين كتلة الشمس النسبة بين كتلة الإلكترون الحائر داخل ذرة الهيدروجين وكتلة هذه الذرة

ولا شك عندي أن ثمة شموساً غير شمسنا وكواكب أخرى غير كواكبها توجد فيها هذه النسبة صحيحة فإن قوانين المصادفة وتعدد الشموس وإمكان اقتراب بعضها من بعض وطول الزمن يحتم علينا أن نقبل وجود هذه النسبة في الكون. ومن يدري فربما يكون لهذه النسبة علاقة بالخليقة والوجود. . .

هذا الإلكترون الحائر، هذا الكوكب الصغير بالنسبة إلى الذرة لا يكفي في الكلام عنه هذه الأسطر التي نعتبرها مقدمة لموضوعه ودليلاً على وجوده. هذا الموضوع سنتناوله مع القارئ، ونأمل أن يساعدنا هذا السكون بعيداً عن الضوضاء على تتبعه

محمد محمود غالي
دكتوراه الدولة في العلوم الطبيعية من السوربون
ليسانس العلوم التعليمية. ليسانس العلوم الحرة. دبلوم المهندسخانة

من هنا ومن هناك

هل تقضي الحرب القادمة على المدنية؟

(عن مقال للكاتب العالمي (ج. ب بريستلي))

طالما تردد على أسماعنا أن العالم إذا ابتلى بحرب عالمية جديدة فمعنى هذه الحرب القضاء على المدنية. وقد يبدو هذا الكلام صحيحاً، وقد ينفعنا لتذكير بعض الناس بأن الحرب لم تعد ذلك الحادث الخيالي الذي يسمعون به من بعيد. ولكن هذا القول في الحقيقة لا يحمل نصيباً من الصحة. وهو في نظري قول بعيد كل البعد عن الصواب، فأنا لا أستطيع أن أتصور أن العالم أجمع يتفانى في هذه الحرب

فمن المحتمل كثيراً إذا وقعت الحرب أن تترك ألمانيا وإيطاليا وفرنسا وبريطانيا للخراب والإفلاس. ولكن من الخطأ أن نظن المدنية متاعاً موروثاً لتلك الدول فيقضي عليها إذا حل بها الدمار. فهذا قول ظاهر البطلان

إنني أرى مجرى المدنية يتحول عن أوربا الغربية. وأتوقع أنه إذا جاء مؤرخ بعد بضع مئات من السنين ليؤرخ هذه الفترة من الزمن، ويسجل التقدم الذي أحرزه العالم فيها سوف لا يقول إذن ماذا كانت تفعل بريطانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا

إنني أعتقد أنه سوف يرى بغير غموض أن حركة التقدم التي شملت العالم الحديث في هذا القرن، قد انتقلت من الأمم المعروفة بالأمم الصغيرة في هذا العصر إلى الأمم العظمى، ومن سكان الجزر الصغيرة إلى سكان القارات والممالك الكبيرة ولمعرفة ذلك يجب ألا ننظر إلى ما تم وانتهى ولكن إلى ما يتم. مما لاشك فيه أن انتشار التعليم من أقوى الدلائل على هذه المدنية الجديدة. فحيثما يحل العلم محل الجهل، تقوم دعائم المدنية

إنني حينما أسمع كلمة انتهاء المدنية يتجه نظري حول العالم أجمع فأتذكر تلك الجامعات والكليات التي عمرت بها أوربا الوسطى وقد كنت أحاضر بها في الخريف الحالي. كم من أمثال هذه الجامعات في العالم؟!

قد يكون من السهل نقد نظام التعليم في تلك الجامعات التي أشير إليها. وقد نستطيع أن نقول إنه سيمضي زمن طويل حتى تكون كجامعات كمبردج واكسفورد وقد نجد الحجة

أمامنا في ضعف المواد التي تدرس بها وعدم وصول طلابها إلى الدرجات العليا في التعليم

ولكننا إذا نظرنا إلى ماضيها المجدب وقسناه على تقدمها المحسوس نحو المدنية والرقي عرفنا كيف تأتي هذه الأمم بالمعجزات

إنني أجيل النظر حول العالم كما قدمت فأذكر الصين مثلاً وقد أنشئت فيها الجامعات وانتشرت في بلاد لا يكاد يسمع باسمها الإنسان. وإذا كانت اليابان قد دمرت بعضها في غزوها فإن تلك الجامعات تشاد في أماكن أخرى بعيدة عن أماكنها السابقة ولو أدى الأمر إلى بنائها وسط الكهوف والأحراج

وهكذا أصم أذني حينما أسمع كلمة الحرب وانتهاء المدنية. فهذا تشاؤم لا مبرر له ووهم لا أساس له من الحقيقة. إن المدنية تسير في طريقها. وهو على كل حال طريق ليس من السهل على القذائف والمدمرات أن تناله بسوء

الهند الطموح

(عن مقال للزعيم الهندي (جوهر لال نهرو))

إذا كانت الوطنية هي التي خلقت الأمم الأوربية منذ مائة سنة أو أكثر، وهي التي أقامت الدعائم للمدنية التي يكاد بناؤها أن ينهار في السنين الأخيرة، فمما لاشك فيه أن الوطنية هي القوة التي تحفز الأمم الشرقية التي تئن تحت نير الحكم الأجنبي للسعي وراء الحرية في هذه الأيام فألفت بين القلوب أبنائها وشدت من عزائمها وأطلقت روحها الحبيسة من عقالها، وتلك ناحية سامية في حياة تلك الأمم، تضيف نجاحاً جديداً إلى النجاح الذي نالته الحرية في تاريخ الإنسانية. ألا أنها على الرغم من ذلك لم تستطع الخروج بها عن تلك الدائرة الضيقة، إذ أن انشغال الأمم بالسعي وراء حريتها لا يترك لديها مجالاً للتفكير في شيء آخر، ولم تستثن الهند من هذه القاعدة. فالهند في كفاحها قد نسيت العالم برهة من الزمن ولم تفكر في غير شأنها. إلا أن القوة التي أحرزتها، والثقة التي أحياها النجاح في نفوس أبنائها، قد جعلتاها تفكر في دائرة أوسع وأعم

إن غزو اليابان لمنشوريا قد أوجد شيئاً من العطف على الصين، كما أن اغتصاب

إيطاليا للحبشة قوبل باستياء شديد، كذلك المأساة التي حلت بوسط أوربا قد قابلها العالم بالأسف
العميق، ونحن لطول تجاربنا للإمبراطورية البريطانية، لم نصدق شيئاً من وعودها للأمم الضعيفة، ولم نثق بمعاونتها في عصبة الأمم، لذلك كنا نتتبع سياستها الخارجية باهتمام، وقد أصبحت معارضتنا لنفوذ الإمبراطورية البريطانية جزءاً من سياستنا التي تعارض كل نفوذ إمبراطوري أو فاشي في أنحاء العالم
لذلك كانت بعثتنا إلى الصين، والمؤنة التي أرسلناها إلى أسبانيا باسم الهند، من الطرق التي اتخذناها لنبين سياستنا الخارجية، واستقلالنا بها عن بريطانيا. وأكثر من ذلك فقد اطرحنا جانب التفكير في أي مساعدة حربية إذا ثارت الحرب. أن الشعب الهندي وحده هو الذي سيقول إذا كانت الهند تدخل الحرب أولا تدخلها. وأي إرادة تملي عليه من الحكومة البريطانية ستقابل بالرفض. يجب علينا أن نقرر سياستنا الخارجية بأنفسنا، وكذلك سياستنا المالية والحربية، ولنا الحرية التامة في الارتباط بالأمم الأخرى
إن سلطان الإمبراطورية البريطانية يتلاشى أمام أعيننا، وليس لديها إزاء الهند غير طريقين: الطريق الطبيعي والمنطقي الذي يلزمها بالتنازل للهند عن حقها في تقرير مصيرها على قاعدة الحرية التامة وإلغاء المجلس الذي أقيم ليمثل إرادتها المطلقة والطريق الآخر هو الذي تستطيع الهند أن تملي فيه أحكامها القاسية عليها حيث تصطدم بالوطنية الهندية. وإذا كان هذا الطريق سيؤخر حريتنا قليلاً إلا أنه مما لا شك فيه أنه سيؤدي إليها ويظهرنا على أمور لم تكن في الحسبان. من أجل ذلك نرى الحكومة البريطانية تتجنب مع الهند أي حركة من شأنها أن تدعو إلى العنف إنها قد ترحب باتفاق ودي مع الوطنية الهندية يكون نتيجة إقامة المجلس الوطني، ولكن ذلك سيؤدي بلا شك إلى الطريق الذي ابتدأت منه، وذلك ما تخشاه
البريد الأدبي
حماية الملكية الأدبية
عنيت وزارة التجارة والصناعة بوضع تشريع لحماية الملكية الأدبية في مصر، إلى جانب ما أخذت في وضعه من تشريعات أخرى لحماية براءات الاختراع، وحماية الملكيات الفنية والموسيقية وغير ذلك مما تنتظم معه حياة استغلال المواهب، وتستقر به حقوق المؤلفين والمبتكرين.
وقد انتهت إدارة التشريع بوزارة التجارة من وضع أساس هذا التشريع وعرضته على معالي وزير التجارة توطئة لاتخاذ الإجراءات الخاصة بإصداره
وقد رؤي أن يشتمل هذا القانون على مادة خاصة بحماية حقوق المؤلفين الأجانب، أملاً في أن يمهد ذلك لاشتراك مصر في الجمعية الدولية لحماية حقوق المؤلفين، فيحفظ للمؤلفين المصريين عن طريقها حقوقهم في مؤلفاتهم في البلدان الأخرى.
مغالطة
قلت في الرسالة (العدد 314، باب رسالة النقد) إن هذا الكتاب: (مجموعة محاضرات دُرْكايمْ) لا وجود. وهي (المجموعة) التي استند إليها الأستاذ إسماعيل أحمد أدهم فذكر عدداً من صفحاتها (أجل!) رجاوة أن يدل على أنه قرأ فيها هذا التعبير ثم عاد الأستاذ أدهم (الرسالة العدد 317) يقول - غير هيَّاب -: إن هذه المجموعة موجودة وهي تحمل التي طبعت للمرة الأولى عام 1895، فمن المجموعة (كذا!) الاجتماعية لمكتبة بباريس على أنها ' ثن زاد فقال: (والنسخة التي (يريد: بين) أيدينا (يريد: يدينا) هي الترجمة الإنجليزية وفيها العبارة مترجمة والترجمة بقلم. . وراجعنا اليوم نسخة من طبعة عام 1912 في الفرنسية، والعبارة وجدناها (يريد: ووجدنا العبارة) ترددت أكثر من مرة (يريد: غير مرةٍّ)). اهـ كلام أدهم
والرد الواضح على هذا أن ترجمة عنوان الكتاب وما هو بمجموعة كما يدعى الأستاذ أدهم، فقد قرأته على أساتذتي في السربون غير مرة) هي: قواعد (أو أصول) المنهج الاجتماعي (أي منهج علم الاجتماع). فأين تعبير (مجموعة محاضرات)؟ وترجمة هذا التعبير الأخير:
وإن زاغ الأستاذ ادهم فذهب إلى أنه ترجم العنوان الشامل وهو ' (وماهو بعنوان الكتاب المذكور قبلُ) فترجمة هذا العنوان الأخير هي: أعمال (السنة الاجتماعية) (وهي

مجلّة). فأين تعبير: (مجموعة محاضرات. . .)؟
وهذا يدل على أحد أمرين كما قلت في مقالي السابق: فإما أن الأستاذ أدهم لا يحسن النقل من الفرنسية إلى العربية لرّقة معرفته باللغة الفرنسية، وإما أنه يبتدع المصادر على سبيل التهويل. وله أن يختار أحد الأمرين، وأنصح له أن يختار الأول فهو أهون شراً
ومن ذلك كله يتبين أن الأستاذ أدهم يحسن الإيهام من طريق المغالطة. وهو ممن لا يخشى أن يستكره الحجج على مواضعها فيجتلبها اجتلاباً. ثم إنه ممن ينحرف إلى ارتجال المصادر ارتجالاً؛ وقد بينت ذلك في المقال السابق من الرسالة وفي مقتطف أغسطس. ولم أنسى أن الأستاذ أدهم استند إلى الإصحاح الرابع عشر من سِفر دانيال (العهد القديم) وكل السفر اثنا عشر إصحاحاً، وأنه استند إلى الجزء الثالث من (الفهرست) لابن النديم، على حين أنه يقع في جزء واحد؛ ولعل القارئ لم ينس ذلك (راجع الرسالة العدد 314).
وبعد، فإني لم أكتب هذه الكلمة، متعقباً فيها قولاً للأستاذ أدهم (وقد والله سئمتُ تعقب أقواله كلها)، إلا ليعلمَ أني لا أزال أعده أجنبياً عن العلم الصرف، بعيداً عن مطارح الثقة والدقة. فليتروّ وليتحرّز قبل الكتابة وليفطن إلى أن في مصر وفيمن غاب عنها لأجلِ من له بالمرصاد، مهما لوَّي قلمه وكابر.
ولعله يقول إن هذا التعقيب (شكلي)، وهو قول طالما يفزع إليه ويستغيث به. فالذي أعرفه أن الدقة والأمانة في تدوين المصادر مما يعظم شأنه في جامعات فرنسة وإنجلترا وألمانية وإيطالية ومصر! وأما علمي بما يجري في جامعة موسكو - حيث تلقى الأستاذ أدهم صنوف العلوم، كما جاء في مجلة الحديث الحلبية - فجدّ قليل.
(تلال الفوج - فرنسة)
بشر فارس
حول نعيم الجنة
شددنا النكير على الدكتور زكي مبارك لقوله: (اشغلني عنك يا رباه، بما سيكون في الجنة
من أطايب النعيم) فكتب يقول: إنه لم يقل هذا وإنما قال: (اشغلني عنك، يا رباه، بما في الجنة من أطايب النعيم فإن بصري أضعف من أن يواجه نورك الوهاج) وزعم أننا حذفنا شطراً من كلامه ليجوز أن نقول عن شطر (فهل رؤى سوء أدب وسوء فهم للدين كالسوءين المتجسمين في دعاء زكي مبارك هذا؟)، في حين أن عباراته بشطريها (غاية الغايات في الإيمان بعظمة الله ذي العزة والجبروت)؛ هذا هو دفاع زكي مبارك. فهل يجد الدكتور زكي مبارك حين يقول هذا؟ وهل في الحق أن الجملة التي لم نذكرها ذلك الأثر الإكسيري في الجملة التي ذكرناها فتقبلها من غاية الغايات في سوء الأدب وسوء الفهم للدين إلى غاية الغايات في الإيمان بعظمة الله ذي العزة والجبروت؟
لننظر أولاً إلى غايات زكي مبارك في تعظيم الله والثناء عليه: إن بصر زكي مبارك (على حِدَّته) - كما يقول في رده - أضعف من أن يواجه نور الله (الوهاج) أهذا ثناء على الله أم على بصر زكي مبارك؟ وتعظيم لله أم تعظيم لزكي مبارك؟ إن بصر زكي مبارك أضعف من أن يواجه نور بعض ما خلق الله. فلو أطال التحديق في الشمس ضحىً لعمى؛ بل لو حدق في القوس الكهربائي لَكلَّ. فهل بلغت الغفلة بزكي مبارك أن يرى ثناء على الله ما لو أثنى به على بعض مخلوقاته لكان تقصيراً في الثناء، فضلاً عن أن يراه غاية الغايات في الإيمان بعظمة الله؟
ثم وصْف (الوهاج) في دعاء هذا الصوفي الذي لا يدرك معاني دعائه غير صفوة المؤمنين، ما معناه وما مغزاه حين يصف به نور الله سبحانه؟ إن الكلمة في اللغة توصف بها الأجسام المتألقة اشتعالاً، وقد وصف الله بها الشمس في سورة النبأ كما يعرف كل إنسان. فكيف غاب عن الدكتور المتصوف أن وصفاً كهذا - فيه من التكييف ما فيه - لا يليق أن يوصف به نور الله سبحانه؟ سيلجأ الدكتور إلى المجاز يلتمس فيه محملاً. فليلجأ، وليخبرنا على أي محمل يمكن أن يحمل هذا اللفظ حين يصف به نور الله رجل يرى أن دعوى النظر إلى الله أعرض من الصحراء
الواقع أننا هممنا حين كتبنا أول مرة أن نجعل هذه الجملة التي يدَّرِيء بها الدكتور الآن

هي أيضاً موضع نقد ولوم لولا أننا آثرنا أن ندع ما جاء منه على أي حال في صيغة ثناء، وأن نقصر الكتابة على ما لا يمكن أن يتصور فيه عذر مما جاء في صدر ذلك الدعاء على أننا سنفرض أن ليس في ثناء زكي كبارك هذا ما يمكن أن يكون موضع مؤاخذة أو استدراك، فما علاقة كلال بصره عن نور الله بما جاء في صدر دعائه من طلب الانشغال عن الله؟ أبلغت الدراسات الفلسفية بالدكتور زكي مبارك أن يرى أن ليس لما وراء البصر في عبادة الله مذهب، فإذا لم يستطع أن يبصر فلينصرف عن الله وليشتغل عنه بنعيم الجنة؟ أهذا هو حاله الذي تسامى إليه في (التصوف الإسلامي)؟ وهل معنى رؤية الله عنده في نعمة المشكورة الاشتغال بتلك النعم عن الله؟ أم هل في منطق فلسفته أن المؤمن بعظمة الله وجبروته يستطيع أن يجترئ على الله ذي العزة والجبروت فيسأله عن نفسه سبحانه بنعيم الجنة لأي سبب من الأسباب؟

لا. ليس من الممكن أن يكون الدكتور زكي مبارك جاداً حين يزعم للناس أن عبارته تلك قد بلغت غاية الغايات في الإيمان بعظمة الله لمجرد ذكره فيها أن بصره أضعف من أن يواجه نور الله. إنه يسخر وهو يصطنع الجد كبعض من قرأ لهم من أدباء العرب أو أدباء الفرنسيين. إنه يسخر من نفسه أو يسخر من الناس؛ لكنه يسخر في مجال لا ينبغي لمؤمن أن يسمح للسخرية أن تحوم حوله ولو من بعيد. وقد أهبنا بزكي مبارك مخلصين أن يتوب إلى الله من اجترائه عليه وأن يخلص التوبة. فلئن أصر ليوشكن أن يسخر منه الله.

محمد أحمد الغمراوي

سعد وسعاد

في أول كلمة كتبها شيخنا الجليل عبد المتعال الصعيدي، كان مثار الاضطراب عنده في القصة أن سعداً ذهب يبث شكواه إلى الخليفة مروان والخليفة معاوية في وقت واحد. وإنما سبق ذلك إلى ذهنه لأنه مر بالقصة خفيفاً فجعل (مروان) بدلاً من الخليفة في هذه الجملة (والى تلك الجهة الأموي المفتون المدل بمكانه من قريش ومكانه من الخليفة، مروان بن الحكم) مع أن سياقه القصة وما تقدم هذه الجملة من كلام لا يجعل مجالاً للشك في أن المراد بالخليفة: معاوية وبالوالي: مروان. هذا إلى أني أعتقد أن مكانتي عند العلامة الصديق لا تتدلى إلى قرار أجهل الفرق معه بين عهد مروان وعهد معاوية وهو لا يسع أن يجهله تلاميذنا في المدارس الابتدائية

وقد أردت أن أمهد العذر للأستاذ الكبير فيما ذهب إليه، لأن إغضاب جملة في مرضاة صديق ليس بالشيء الجلل، فقلت لعل طول الجملة ألقى عليها ظلاً من الغموض، قلت ذلك وأنا أعتقد أني ظالم لها، فليس فيها غموض ولا إبهام ولا تحتمل غير ما أراده منها كاتبها وغير ما فهمه القراء

ثم كان أن ظهر الشطر الثاني من القصة ووضح منه (أن المدل بمكانه من الخليفة) ليس إلا الوالي مروان بن الحكم، وكان ذلك جديراً أن يرفع هذا الاضطراب - إن صح وجوده - لأن الاضطراب كما يعرف العالم لم يتعد منطقة (دانزيج) إلى الآن، ولكن العلامة الصديق عاد فقرر في كلمته الثانية أن الاضطراب لم يرتفع بل ازداد، ومعنى ذلك: أنه لا بد من وجود الاضطراب سواء أكان مروان مشكواً منه أو مشكواً إليه! غير أن شيخنا وقد ظهرت له براءة الجملة مما رميت به رأى أن ينقل الاضطراب - بزكانته التي أعرفها له - إلى القصة نفسها، فرماها بالوضع كأن كل قصة موضوعة يجب أن تكون مضطربة! ولو أخذنا بهذا المنطق لحق العفاء على كل ثمرات الخيال

أما إن القصة موضوعة فقد أبنت رأيي فيها مع الحذر والحيطة، ولا يسعني إلا أن أحمد الله على أن فراستي لم تخني كما حمده الأستاذ الصديق، فقد ألقى في روعي أنه سيتدرج من رمي الجملة بالاضطراب إلى رمي القصة بالوضع، فبادرت بإعلان رأيي مقدماً لأوفر عليه العناء، ولكنه كما لم ينتظر الشطر الثاني من القصة ليتثبت من وجود الاضطراب، لم يتريث حتى يقرأ ردي على كلمته ليعرف رأيي في القصة والآن أود أن يتسع صدره للنقاش فيما يلي:

1 - رجح أن الوالي الظالم ابن أم الحكم، لا مروان ابن الحكم أخذاً برواية داود الأنطاكي في تزيين الأسواق. ويظهر أن أستاذنا الفاضل يقيم لهذا الكتاب وزناً كبيراً، بدليل استقائه منه جل ما كتبه عن (بني عذرة) وأن مثله كثيراً ما أعتمد عليه بل أني أحفظ أغلب أشعاره؛ ولكن رأيي أن الشيخ داود الأنطاكي كان في تصنيفه لهذا الكتاب

كحاطب ليل، وقد تكون ثقة ثبتاً عند الشيخ الفاضل، ولكنه ليس أوثق عندي من شهاب الدين النويري ولا من الإمام ابن الجوزي راوي قصة سعاد كما فصلتها

2 - يستبعد شيخنا أن يقع هذا الظلم من مروان بن الحكم وهو يعرف أنه كان مستشاراً لعثمان (رضي الله عنه) ففرق جماعة المسلمين! وكتب عن لسان الخليفة كتاباً مزوراً إلى والي مصر لولا انكشاف أمره لأريقت دماء بريئة! ويعرف أنه في موقعة الجمل تغفل طلحة وهو من أنصاره فرماه بسهم في أكحله أودي بحياته! فأين يقع اغتصاب سعاد من هذه الأفاعيل؟! ثم أين هو الاغتصاب؟ ألم يُملق سعد، وعجز أن يَمُون زوجته؟ والفتيا على أن إعسار الزوج سبب من أسباب الفرقة. ثم ألم يطلقها سعد على كل حال (وإن كان مكرهاً) وإذا صح أن الخلافة تثبت بالتغلب أفلا تثبت الزوجية؟ ثم ألم يتزوجها مروان بعد انقضاء العدة واستبراء الرحم على سنة الله ورسوله؟ فهذا الزواج لا ينافي الحِلَّ وإن باين التديُّن والورع ومكارم الأخلاق، ومروان ليس بمعصوم من النزوات

3 - لست أنكر أن (مروان) من زعماء بني أمية، ولكن أيظن شيخنا أن معاوية يغمض عن هفواته رعاية لهذه القرابة؟ وهو عاهل العرب الذي كان يتألفهم بسياسته الحازمة الرفيقة الصارمة، وهو خليفة المسلمين المسئول عن أبشارهم وأعراضهم وأموالهم. أيخشى معاوية أن يحاسب (مروان) على ذنب اجترحه وهو الذي بلغ من شكيمته أن ينازع عليًّا الخلافة. على قرابته وسابقته وفضله - ومن مروان إذا قيس بمعاوية؟ ألم يَعِده لأن يعهد إليه بالخلافة بعد يزيد فلم يف له بذلك ولم يقف عند هذا الحد فعزله عن ولاية المدينة؟ ثم ما هي الذلة التي ضربت على مروان في هذه القضية؟ أيكون ذليلاً لأنه ثاب إلى رشده واستجاب لداعي الحق ونزل على حكم الخليفة؟ وهل كان ينتظر منه أن يبسط لساناً أو يسل سيفاً والذنوب تخرس الألسنة وتغمد السيوف؟

4 - حكم شخنا بأن القصة ضعيفة في سبكها وشعرها، وأنا أوافقه في ذلك وأخالفه، أوافقه على أن بعض الشعر ضعيف بل سخيف، وقد أشرت في الهامش إلى أنه قد يكون وضع على لسان معاوية. وأخالفه في أن سائره جزل قوي محكم، وهو ما قاله سعد وسعاد أو قيل على لسانهما

أما سبك القصة فهو عمل خالص لي، وليست القصة إلا هيكلا عظميا كسوته اللحم وأجريت فيه الدم، فإن كان لا يزال مصرا على أن هذا السبك ضعيف، فلا يسعني إلا أن أحترم رأيه، ولكن ذلك لا يمنعني أن أقول: إن أدباء القصة لا يتفقون معه في ذلك، وهم بحمد الله كثير في هذا البلد الأمين

5 - بقي أنه يرى أن هذه القصة موضوعة، وأقول: أن هذا ظن لا يغني من الحق شيئاً! وأبرأ الذمة، وأبعد من الزلل أن يتابع صديقه الصغير في عدم الجزم بذلك، فراويها الإمام ابن الجوزي ومنزلته معروفة، ووقائعها ليس فيها ما يهول ويستغرب. أليست زبدتها أن والياً - وإن كان مروان - أكره زوجاً معسراً على طلاق امرأته الجميلة ليتزوج بها، وأن الخليفة رد الحق إلى نصابه، وأي عجب عاجب في أن يحدث هذا؟

هذا ما عنّ لي فيما كتبه شيخنا الفاضل. . . والسلام عليه ورحمة الله وبركاته

علي الجندي

أين علماء الأزهر؟

الأستاذ العالم علي الطنطاوي رجل مؤمن الروح، مشرق القلب، نير البصيرة. وهو بعد من أولئك الشبان الأخيار الذين يحرقون أنفسهم مداداً وبخوراً في سبيل حياة الإسلام وعزته، في عصر مزور أصبح فيه كل من يتكلم بالدين يرمى بالرجعية والجمود والغفلة وعدم مسايرة تيار الحضارة الحديثة والتطورات العلمية الجديدة

أقول هذا بمناسبة نداء الأستاذ الأخير الذي وجهه لعلماء المسلمين على صفحات الرسالة يحثهم على معاونته في تأليف كتاب في (الدين الإسلامي) (يضم بين دفتيه الإسلام الذي جاء به النبي محمد خالياً من الحشو والزيادات والبدع والخرافات، يقرأه الشاب المسلم الذي يعرف الدين فلا يحتاج بعده إلى شيء، ويقرأه العامي فيفهم منه دينه، ويقرأه الغربي (مترجماً) فيحصل له عن الإسلام فكرة واضحة صحيحة)

ويعلم الله أن نفسي انطلقت لهذه الفكرة النبيلة وانتظرت ماذا سيكون من أمر علمائنا، وخصوصاً سادتنا علماء الأزهر الشريف فهم أحق الناس لتلبيتها والنهوض لها

والاهتمام بها. . . ولكن ماذا كان؟ كان أن ذهبت دعوة الرجل هباء، فلا حس ولا حركة ولا حياة!

في الحقيقة أن أساتذتي علماء الأزهر مقصرون. وفي الحقيقة أنهم قوم لا يهمهم من الحياة إلا صفو أنفسهم وفخفختها، وإن تظاهروا بالرهبنة والزهادة، وضجوا بالحوقلة والحسبلة؛ أما رفعة الإسلام ومجده، فذلك شيء منسي على هامش حياتهم!

أين الدجوي والجبالي واللبان وأبو العيون والأودن والجزيري وأبو دقيقة؟ أين هؤلاء؟ وأين غيرهم وغيرهم من علماء الأزهر الذين لهم قلم وفكر وبيان! أنا لا أستطيع أن أفهم!

يا إلهي. . .! متى يستكمل شباب المراغي الحي عدته فيحمل المشعل ويتقدم القافلة؟!

عبد العليم عيسى

القومية العربية والوحدة الإسلامية

إلى الأستاذ ناجي الطنطاوي

خاطبتم الأستاذ العلامة (ساطع الحصري بك) في العدد 317 من الرسالة العزيزة في قوله: (أعتقد باستحالة الوحدة الإسلامية) وقلتم: (أفتكون هذه الوحدة التي أمكن تحقيقها في عصر صدر الإسلام وعصر الأمويين والعباسيين ومن أتى بعدهم مستحيلة في عصرنا هذا؟) وتقولون هذا وأنتم تعلمون أن الدين الإسلامي الحنيف لم تصن مبادئه وتحفظ قوانينه كما أمر الله ورسوله (صلى الله عليه وسلم) إلا في زمن صدر الإسلام. وفي عصر الأمويين إذ كان الدين الحنيف يسهر على مصالحه العرب الذين جالدوا ومنعوا دخول العناصر الغريبة عن العرب في صميم الحكم والقضاء، فلما أن جاء العصر العباسي وكثر فيه الغرباء عن العرب وانتصر السفاح بمساعدة الخرساني وهو فارسي أصبح الفرس يتدخلون في الحكم مجاهرين (أن الدولة لم تقم إلا على سواعدهم وازدادت هذه التدخلات بعد أن انتصر المأمون على أخيه الأمين بقوة جيش خراسان هذه العناصر أيضاً. ولم تزل هذه العناصر الغريبة تلح على الأمة الإسلامية حتى انحطت إلى ما هي عليه الآن. ولو قدر الله أن يبقى الحكم في يد العرب لازدهرت الأمة الإسلامية ولم انحطت إلى ما هي عليه اليوم

أن المسلمين العرب اليوم في حاجة قصوى إلى الاتحاد والاتفاق مع المسيحيين العرب الذين يشاركونهم لغتهم وعاداتهم وتقاليدهم. وليس من العقل في شيء أن نترك أخانا وجارنا المسيحي العربي من أجل هندي بعيد لا تربطنا به عادات ولا لغة ولا تقاليد! تقولون بعد: (إن كل مسلم في سورية أو مصر أو العراق يعتقد أن المسلم الهندي أو الياباني أو الأوربي أخ له الخ) وهذا صحيح، ولكن هل تعتقدون أن المسلم الهندي يفيد المسلم المصري أو السوري أكثر مما يفيده المسيحي المصري أو السوري؟ هاهي ذي فلسطين الذبيحة تكوى بالحديد وبالنار

فهل رأيتم هندياً أو يابانياً مسلماً تطوع للدفاع عنها حيث يتعانق الهلال والصليب وحيث يقف المسيحي إلى جانب المسلم يدفعان معاً شر المستعمر المغتصب؟

إن حلول الأمم الأجنبية في بلاد المسلمين العرب أكثره مسبب عما يسمونه (حماية الأقليات) وحين يأتي يوم تنطق فيه العقيدة العربية على لسان المسيحيين العرب المخلصين (إننا لسنا أقليات بل نحن من صميم الأمة) حين يأتي ذلك اليوم فإن الأمم المستعمرة لا تجد أمامها من هو محتاج إلى حماية فتنسحب

لقد أعطتنا (فلسطين) درساً وافياً في القومية وفي العقيدة فها هي ذي تكاد تتلاشى (لا سمح الله) والدولة التركية المسلمة ترفع صوتها باحتجاج واحد. قد تستطيع الأمم الإسلامية أن تعقد اتفاقاً تشكل منه دولة واحدة لها سيادة ولكن معنى ذلك هو ذَوَبان العرب في بقية الدول المسلمة القوية لم

في مقدور المسلم أن يوثق علائقه بإخوانه المسلمين أين كانوا وهو جاد في حقل (القومية العربية) ومخلص للقضايا الوطنية المشرفة

(طرابلس)

محمد على عكاري

الكتب
فوزي المعلوف وآثاره
للأستاذ فائز. ح. عون
بقلم الدكتور إسماعيل أحمد أدهم
وهذه دراسة جديدة عن علم من أعلام الأدب الحديث تظفر به المكتبة الإستشراقية في اللغة الفرنسية من أديب شرقي تقدم بها كأطروحة إلى جامعة باريس لينال عليها إجازة الدكتوراه في الآداب. والدراسة تمتاز بطابعها المدرسي في العموم وكونها أقرب إلى التثبت العلمي منها إلى التخيل والنظر في المنهج، ففيها رجوع إلى المصادر واستقصاء لها، ودلالة على مناحي أهميتها مم تجده مبذولاً في قائمة المصادر والمراجع، وبعد ذلك ترى الضم للعناصر المتفرقة من المراجع بلا تعديل ومناقشتها بإحكام، ثم بعد ذلك الرجوع إلى ما يتصل بها من آثار فوزي المعلوف، والخلوص من ذلك بأحكام تغلبها نزعة التقدير
تستهل الدراسة بمقدمة عن الشعر العربي الحديث في طليعة القرن العشرين، يتناول فيها صاحب الأطروحة بالبحث انبعاث روح النهضة في الشرق العربي وخاصة لبنان، مبيناً الأسباب التي كانت تعوقه عن أن يدور في آفاق الحياة الجديدة، التي أخذت منها سوريا بطرف، وهذه الأسباب تعود إلى النظام الحكم - عنده - وهو لهذا يرى أن الشعر العربي السوري لم ينهض إلا في المهجر سواء كان مصر أم أمريكا. وهو يرى فقدان زعيم المدرسة اللبنانية في الشعر، وقد تخرج على مذهبه الإبداعي جل المجددين في الشعر العربي، يذكر منهم جبران ورشيد أيوب، ويرى فوزي المعلوف منهم. على أنه يخطئ حين يقدر أن مطران هاجر إلى مصر عام 1884، والصحيح أنه نزلها صيف عام 1892 كما جاء في البحث السابع من دراساتنا عن مطران بمقتطف يوليه ينه 1939، كذلك لم يلاحظ الكاتب أن مطران وإن أثر على جبران ورشيد أيوب وفوزي معلوف، فقد كان تأثيره على جبران من جهة الطلاقة الفنية، ولجبران بعد طبيعته الخاصة وأخيلته وأجواؤه.
أما رشيد أيوب وفوزي معلوف فقد وقفا من مطران موقف التأثر التام بمعنى سوق أغراضه الشعرية، يظهر ذلك في وحدة القصيد وسلسلة المعاني وبث فكرة مطردة في القصيدة، وهذا ما فطن إليه الكاتب بالنسبة لفوزي المعلوف في أكثر من موضع من الدراسة. على أنه يعود في المقدمة فيشير إلى تأثر احمد شوقي بمطران في بدء شبابه، وما بدا من أثر مطران في النثر التوقيعي (الشعر المنثور). ويلج المؤلف في غمام هذه المقدمة المحيط العائلي والاجتماعي بالنسبة لفوزي المعلوف، وهو يقف من هذا المحيط عند المجمل منه دون أن ينزل إلى تفاصيله، أو يدل على روحه الشيء الذي تأثر به فوزي المعلوف فجاءت شخصية متأثرة بأربابه
والفصل الأول - من القسم الأول وهو عن الشاعر في لبنان - وقف على مولد الشاعر ونشأته. وفي هذا الفصل يقف المؤلف من طفولة الشاعر ونشأته عند حد النسيج الخارجي المربوط للزمان دون أن يحاول النزول إلى أعماق الطفل فيظهر بدرات روحه وخلجات نفسه، ومن هنا جاء عيب ملحوظ على الدراسة تكاد تراه في كل الفصول التي ترتبط بالترجمة عن حياة الشاعر. والفصل الثاني من هذا القسم وقف على الكلام عن آثار الشاعر الشعرية في الفترة الأولى من حياته ويجيء بعد ذلك الكلام عن المستر سلات تذهب منحى الفن المسرحي
أما القسم الثاني فيجيء عن الشاعر في البرازيل. الفصل الأول عن قصائده التي تذهب مذهب المقطوعات؛ أما الفصل الثاني فوقف على الكلام عن بساط الريح والفصل الثالث عن أسئلة الأدب، ويجيء بعد ذلك فصلان: الأول عن فكرة الشاعر

والثاني عن فنه وفي ختامهما ملخص يتألف من مجموعها القسم الثلث من الكتاب، وفي نهاية الكتاب ملحقان الأول يحصر آثار المعلوف والثاني يحمل النص العربي للشعر الذي استشهد به في الدراسة، ففهرس لأسماء الأعلام، فقائمة بمواد الدراسة وهذا العرض السريع لترتيب فصول البحث يبين مقدار تمكن المؤلف من الروح المنهجية في البحث التي جعلته يقسم بحثه تقسيماً معقولاً، على أن في الكتاب بعض هنات بسيطة جاءت في العموم في المواقف التي عرض فيها لفوزي المعلوف بالنسبة لشعراء آخرين، ويظهر أن سبب ذلك يرجع إلى آثار الآخرين الذين تتصل شخصياتهم أو آثارهم بشخص المعلوف أو فنه الشعري. من ذلك كلامه عن مطران ومقارنة فوزي المعلوف به. فهذه المقارنة خطأ من جهة المنحى الذي ذهب إليه المؤلف، فقد قرر أن مطران وقف عند حد التعبير عن احساسات الحب (عاطفيا) ' في حكاية عاشقين بعكس فوزي المعلوف الذي ارتفع في ملحق على بساط إلى آفاق فلسفية تتصل بعالم ما وراء الطبيعة، ومن هنا جاء ما عند فوزي المعلوف في بساط الريح - في نظر المؤلف - من الصراع بين الروح والجسد. وهذه الملاحظة وإن كانت صادقة ولكن إطلاقها بعد ذلك على الشاعرين فيه شيء

من الخطأ لأن المسألة ترجع في ذلك الحين إلى كل آثار الشاعرين والطابع العام لشعرهما، وفي ذلك الوقت لا أظن أن هذا الحكم يتسق خصوصاً وما يعرف عن شعر الخليل في ملحمته (نيرون) أو قصيدته (رعمسيس) أو قصة (الجنين الشهيد) مثلاً على أننا بعد ذلك لا ننكر ما قد أظهره المؤلف في دراسته من النظر، خصوصاً فيما أخذه على الناقد المعروف الأستاذ صديق شيبوب وما أبداه من مقارنة الشاعر موضوع الأطروحة، وبين رديارد كبلنج.

والدراسة في العموم غنم عظيم للمكتبة العربية، وللأدب العربي الحديث

إسماعيل أحمد أدهم

المسرح والسينما

من التاريخ

النهضة المسرحية في مصر

ونصيب الفرقة القومية منها وواجبها حيالها

على هذه الصفحات سنكتب تاريخاً موجزاً للنهضة المسرحية في مصر، تلك النهضة التي قامت على أكتاف أبطال وبطلات (فرقة رمسيس) منذ سبعة عشر عاماً حتى الآن. سنكتب تاريخاً لهذه النهضة على غير الطريقة التي يكتب بها التاريخ. هو ليس تاريخاً بالمعنى المفهوم والطابع المعلوم، بل مجرد خواطر وآراء علقت بالذهن ووعتها الذاكرة مدى هذه الأعوام الطويلة. وكان لا بد يوماً من إخراجها للناس، وفي وقتها المناسب، وليس أنسب من هذه الظروف، وقد تهيأت لنا أسباب النهوض بالمسرح، ثم لا نجد من ينهض به، أو يعمل مخلصاً في سبيله!

أليس محزناً للنفس وموجعاً للقلب أن تمنح الفرقة القومية خمسة عشر ألفاً من الجنيهات في كل عام، ثم لا يكون من عملها وإنتاجها إلا أن تسيء إخراج بضع روايات قديمة سبق أن أخرجت للناس في أبهى حلة وأتم نظام وأكمل ترتيب، وأن تسيء كذلك إخراج بضع روايات جديدة هزيلة: هي عناوين للتفاهة والغثاثة، ومفسدة للأخلاق، وموحية بأحط التعاليم وأقبح الآراء؟؟

مما يؤسف له حقاً أن يجد الكاتب لزاماً على نفسه أن يتحدث عن الفرقة القومية كلما تحدث عن المسرح في مصر، مع أنه لو أسقطها من حسابه، وأغفل ذكرها، لما خسر شيئاً يذكر في تقديره للأمور وفي حسابه للأرقام. أما المؤرخ فلن يستطيع هرباً من الحقيقة، وسيجد نفسه مضطراً لتدوين هذه الفترة المحزنة في حياة المسرح المصري. فمنذ كان المسرح في مصر لم ينعم أبناؤه بعهد ذهبي كهذا العهد، ولم تيسر الأمور مثلما يسرت لهم الآن ومع ذلك فأنهم لم يصيبوا من أعمالهم غير الفشل والخسران المبين! ومن العجيب أن يحدث هذا بعد سبعة عشر عاماً من وثبة المسرح المصري على يد فرقة رمسيس التي أنشئت لحساب فرد واحد، ومن غير معونة من هنا أو من هناك، وفي وقت خسر المسرح فيه سمعته، وكان لأهله حينذاك مسبة وعاراً.

يذكر الذاكرون أن المرحوم عبد الله باشا وهبي كان عزيزاً عليه أن يرى ابنه يوسف

وهبي ممثلاً، وكان عزيزاً على أي رجل آخر أن يرى ابنه (مشخصاً) على المسرح؛ فلم يكن التشخيص في نظر الناس مهنة وضيعة للذين فقدوا كل أمل في الحياة وكل أمل في الكرامة، وكل أمل في العمل الشريف. ولم تكن الحكومة لتعترف بوجود هذه الفئة من المهرجين أو تقيم لهم وزناً

أنشئت فرقة رمسيس وسط هذه العوامل وبين هذه الآراء؛ ومع ذلك فإنها سرعان ما اكتسبت ثقة الجميع: الأمير قبل الفقير والعظيم قبل الصغير. وأصبح مسرح رمسيس محط الطبقة الممتازة في مصر وملتقى الكبراء والعظماء وذوي الرأي والخطر في البلاد؛ ولم ينفض عنها جمهور ما، ولم ينصرف عن تشجيعها إلا منذ حادت عن طريقها المرسوم وتنكبت السبيل السوي!

أما الفرقة القومية التي ترعاها الحكومة بعنايتها، وتمنحها مالاً ومسرحاً، وتجلب لها جمهوراً راقياً، ويشرف حفلاتها ملك البلاد وكبار رجال الدولة وعظماؤها. أما هذه الفرقة التي تهيأت لها كل أسباب النجاح والفلاح فإنها لم تحظ حتى الآن بما حظيت به فرقة رمسيس من مجد، ولم تخط خطوة واحدة نحو مثل المكانة التي نالتها تلك الفرقة، ولم تكتب سطراً واحداً في تاريخها تستطيع أن تفخر به أو تطمئن إليه، وحتى أصحاب الشأن فيها يهزون رؤوسهم أسفاً وحسرة، ويقفون حيارى لا يدرون أين المفر من هذا المصير المحتوم الذي يطل عليهم من بعيد بعيونه البشعة ويقترب منهم رويداً رويداً.

وقد أردنا بكتابة هذا التاريخ الموجز، وسرد هذه الخواطر والآراء أن نضع أمام الرجال المسئولين جميع العوامل التي كانت من أسباب نهضة المسرح، وكذلك جميع العوامل التي كانت من أسباب سقوطه وانهيار بنيانه، ليكون لهم في النهاية مجموعة من الحقائق التي يسترشدون بها في تنظيم الفرقة القومية ووضع برنامج لها تسير عليه ولا تحيد عنه إلا في سبيل الكمال. والواقع أن الفرقة القومية لا تحتاج بعد ذلك الذي تهيأ لها من أسباب إلا النظام والتنظيم والخطط المرسومة التي تسير بمقتضاها وتسترشد بهديها. أما الطرق الارتجالية التي تأتي عفو الخاطر، وأما هذا العبث المحض في اختيار الروايات وإعدادها وإخراجها وتوزيع أدوارها وفق الأهواء والخواطر. أما كل هذا وغير هذا مما فعلته الفرقة القومية، أو أتاه أصحابها، فقد قضى على سمعتها، وهو وشيك أن يقضي على الفرقة نفسها القضاء الأخير.

ولا يتوهمن أحد أننا من أعداء الفرقة القومية إذ نحكم عليها هذا الحكم؛ فالحقيقة أننا من أنصارها والمتحمسين لها والداعين إليها، وما عداوتنا إلا النظام، أو قل الفوضى التي تسير عليها؛ وما نبغي إلا الإصلاح، ولا بغية لنا سوى هذا.

وكاتب هذه السطور بعيد عن التحيز كل البعد. وسيرى القراء أنه كما سيعطي فرقة رمسيس حقها من التمجيد ونصيبها من الفخار، كذلك سيخصها بنصيب من النقد اللاذع، لأنها كما نهضت بالمسرح، فإنها كذلك هبطت به إلى الحضيض. فحساب الجميع عندنا بالعدل المطلق، وهدفنا الأسمى المصلحة العامة وإنقاذ ما يمكن إنقاذه بعد الذي كان، ومخافة ما سوف يكون

صناعة السينما في مصر

إن الجهود الفردية التي وجدت الشجاعة لديها لتمزق الحجاب عن ذلك الفن الرفيع في وقت كان فيه الفن السينمائي في مصر لغزاً غامضاً يراود أحلامنا في كل صباح وكل مساء - إن هذه الجهود الفردية التي أدت مهمتها وراحت ضحية جرأتها لتستحق منا اليوم كل تمجيد وثناء. إنها تشبه في كثير طلائع الجيوش التي تعرض صدورها لرصاص العدو وتكشف أجسادها لسهامه، فتروح ضحية جهلها وعدم خبرتها. . . بيد أن من يأتي بعدها لا يقع في أخطائها، ويعرف كيف يحمي نفسه ويعبر على أشلائها إلى النصر والمجد!. . .

فإذا كنا ندين اليوم لطلعت حرب باشا بهذه النهضة السينمائية الشاملة، فيجب أن نذكر أولئك الذين سقطوا في الميدان منذ أعوام فكانوا الشهداء، والذين ألهموا من أتى بعدهم وحفزوهم لنشدان الكمال وجعلوهم يرفعون عيونهم إلى أسمى الغايات.

أما (أستوديو مصر) فقد أصبح بفضل طلعت حرب باشا يضارع أمثاله في أوربا وأمريكا، إذ فيه كل المعدات الحديثة، وفيه الرحابة وكمال الاستعداد ونخبة ممتازة من

الفنيين الذين في استطاعتهم إخراج أية رواية من أي نوع. وقد دل إخراج (لاشين) التي نجحت إلى حد ما، أن في مقدور هذا الأستوديو أن يخرج روايات ممتازة ترضى أطماع أمثال سيسيل دي ميل. . .

وليس يعيب الجهود الفردية اليوم إلا قصورها عن أن يشمل عملها كل العناصر المؤدية إلى النجاح الكامل. لهذا فإنا وإن كنا نؤيد حرية العمل وندعو إلى المنافسة الشريفة، إلا أننا ننصح بعض الأفراد أن يضموا جهودهم بعضها إلى بعض ليصلوا مجتمعين إلى ما تصل إليه الشركات الكبيرة والمؤسسات الضخمة

ونحن يسرنا أن يكثر عدد المنتجين السينمائيين، وبالتالي يكثر عدد الشركات. وحينئذ تصبح مصر هوليود الشرق وتطرد منتجاتها الفلم الأجنبي من أسواق الشرق جميعاً، وهذا غاية ما نرجوه

(فرعون الصغير)

العدد 321 - بتاريخ: 28 - 08 - 1939

ما رأيها؟

للأستاذ عباس محمود العقاد

نعم ما رأيها، والضمير إلى الفتاة العصرية؟

ما رأيها في تعدد الزوجات وفي أن تكون شريكة لفتاتين أو لثلاث فتيات في زوج واحد؟

أنني أبدا فأثير نخوتها فأقول: إنها أعجز من أن تمثل دور الضرة، لأنها لا تفقه من كيد النساء ومأخذ الرجال ما كانت تفقهه جدتها التي كانت تتزود للضر بسلاحه، وتصلح للضر بمقدار صلاحه

ثم أثني فاشهد لها فأقول: إنها أكرم على نفسها وأعرف بالأواصر النفسية بين المرء وزوجه من أن تقبل زواجاً تنقطع فيه الآصرة النفسية وتهبط فيه الكرامة

ثم أعقب على هذا وذاك قائلاً: إنني ما نويت في هذا المقال أن احتكم معها إلى حكم الدين، فقد عرفنا أن الإسلام يجيز تعدد الزوجات ولكنه لا يوجبه، بل يكاد أن يمنعه بحضه على العدل واستكثاره أن يعدل الرجل بين امرأتين ولو حرص عليه

إنما احتكم معها إلى آراء الساسة المحدثين والقادة المعاصرين، فربما كان من العبرة أن نعلم أن هؤلاء القادة لم يجدوا أنفسهم قط في حالة كالتي كانت عليها الأمة العربية صدر الإسلام إلا خطر لهم تعدد الزوجات وأجازوا ما أجازه القرآن، بل أوشكوا أن يوجبوه، وربما كان هذا العلم من دواعي تصحيح النظر إلى أتصول الشرائع والأخلاق التي عابها أناس ونسو ما كان لها من بواعث وأسباب

أقطاب (النازية) في ألمانيا الحديثة ينصحون بتعدد الزوجات لأنهم يطلبون النسل ويكاثرون بالجنود ويتأهبون لليوم الذي يملئون فيه بطاح أوربا الشرقية فاتحين ومقيمين

فالأستاذ أنست برجمان عميد قسم الفلسفة بجامعة ليبزج ينعى في كتابة: (روح الأمومة) الزواج المفرد، ويوجب تعدد الزوجات في سبيل بقاء النوع ومنع انقراضه فيقول: (إن الزواج المفرد طوال الحياة يناقض الطبيعة ويضر بالنوع، فيضمحل حيثما فرضت الزوجة الواحدة على الرجل. وإنما مثال الدولة الصالحة تلك الدولة التي تكون فيها المرأة بغير عقب وصمة عار. ولن يزال في الأمم عدد من الرجال كاف وقابل لإيلاد جميع الإناث. وما علينا إلا أن ننبذ سخافة الزواج المفرد فنعلم أن الطبيعة قد جعلت كل فحل كافياً لعشر

(أو لعشرين من البنات اللواتي لم يقتلن في نفوسهن غريزة الأمومة

والدكتور روزنبرج فيلسوف المذهب ومقرر (نظرياته) ومبادئه يوصي بالرجعة إلى آداب القبيلة الجرمانية في مسائل الزواج، ويقول إنه لولا تعدد الزوجات لما زخرت الشعوب الجرمانية في القرون الماضية؛ (ولولا تعدد الزوجات لبطلت مقدمات الثقافة الغربية، إذ كان عدد النساء في بعض الأزمان يربى كثيراً على عدد الرجال كما يوشك أن يكون الأمر في الزمن الحاضر. . . فهل يقضي على هؤلاء النساء أن يذهبن خلال أيام الحياة محرومات حقوقهن الطبيعية مستهدفات للسخرية المزرية التي يلقاها العانسات؟ وهل يؤذن للمجتمع المنافق القانع بما هو فيه أن يسلم هؤلاء البائسات لأضاحيكه؟)

ثم يتمادى فيبيح إنجاب الأبناء من غير الزوجات الشرعيات، تكثيراً للنوع وتعزيزاً لقوة الأمة الجرمانية!

ورأي المفكرات الألمانيات قريب من رأي المفكرين الألمانيين في هذا الباب. فإحداهن وهي السيدة (شولتز كلنك) تقول في خطاب لها بين الصحفيات: (إن البنات الألمانيات يرجعن في عصرنا الحاضر إلى غرائزهن الأصيلة ويصدعن بحكمها في خضوع واغتباط عارفات أن هذه الغرائز إن هي إلا عطية سماوية يملكن بها الدم والأرض ويصبحن بها نماذج للمرأة الألمانية الحديثة)

وقبل الفلسفة النازية بقرن كامل من الزمان كان نابليون يحتاج إلى الجنود كما يحتاج إليهم النازيون الآن، وكان يغري الأمة الفرنسية بالتناسل كما يغري النازيون أمم الجرمان، وكان يقول مثل ما يقولون اليوم كلما رأى عدد النساء في ازدياد وعدد الرجال في نقصان

فمن قوله في هذا الصدد: (إنني صنعت كل ما استطعت لإصلاح حال اللقطاء المساكين الذين يساقون للعار والمهانة، ولكن المرء لا يستطيع أن يغلو في هذه الناحية مخافة على نظام الزواج، وإلا لم تجد أحداً يقدم عليه)

وقد كان للرجل في الزمن القديم سريات إلى جانب الزوجة فلم يكن أبناء الزنى) محتقرين يومئذ كاحتقارهم في أيامنا. ومن المضحك ألا يباح للرجل اكثر من زوجة فإذا (هو كالأعزب كلما حملت أو مرضت

(إن الرجل لا يتسرى في العصر الحديث، ولكنة يخادن الخليلات وهن خراب لهن كلفة أفدح من كلفة الزوجات. ولقد درج الفرنسيون على إكبار المرأة وما ينبغي لها مساواة الرجال فما كانت بعد إلا آلة لإخراج الذرية. . .)

ويطيق الرجل أن يتزوج كثيرات من النساء ولا يبدو عليه أثر ذلك. أما المرأة، فإذا) اقترنت مرة بعد مرة فلا محالة يدركها الذبول!)

ويقول نابليون عن المساواة بين الجنسين: (لا مناص من سيادة أحد الجنسين على الآخر. . . فقد يختل نظام الأمة إذا اعتزلت المرأة مكانها المطبوع، وهو مكان الطاعة والخضوع!)

والآن لا أدري. هل أكسبت نابليون وخلفاءه الألمانيين نصيرات بين الجنس اللطيف، أو عصفت بمن لهم بينهن من النصيرات؟

لكن الحرب قادمة، أو يخشى أن تنفجر هنا وهناك من حيث لا نتوقع قدومها. فماذا يكون الرأي إذا خرجنا من الحرب وعندنا ثمانية ملايين امرأة، وليس عندنا من الرجال ألا سبعة ملايين أو سبعة ونصف مليون؟!

اليوم يتكفل الماء العفن بحصد الرجال وتلقيحهم بلقاح: (الأنكلستوما والبلهارسيا) حيثما انتشر ماء الري في إقليم جديد فيصاب الفتيان ولا يصاب الفتيات، ويضعف الرجال ولا يضعف النساء.

فإذا جاءت الحرب، فأتمت هذه البداية، فماذا يبقى من أناقة الجنس اللطيف؟ ومن ترف المتعاليات على الضر أمام هذه الضرورة التي لا تحسن الكلام بلغة (الندى)، ولا تنحني في رقة وابتسام كما ينحني رواد الصالون؟

نسوق النساء إلى الزراعة؟ نقسرهن على العمل؟ نستبدلهن بالرجال في مشاق الأشغال؟

على كل حال ذهبت الأناقة والترف، وذهبت معهما مزايا الجنس اللطيف، ولو كان المشتغلات بتلك المرهقات من بنات الكوخ والبيت الوضيع، ولم يكن من بنات الندى والصالون

ثم هو حل لمشكلة العمل، فأين الحل لمشكلة النوع ومشكلة الأسرة ومشكلة الأخلاق؟!

. . .!عمل عظيم بين يدي (وزارة الشئون الاجتماعية) أعانها الله علية

عباس محمود العقاد

كتاب مستقبل الثقافة في مصر

الثقافة العامة وتعليم اللاتينية واليونانية

للأستاذ أبي خلدون ساطع الحصري بك

(تتمة)

قد يخطر على بال الإنسان أن يتساءل عندما يلقي نظرة عامة على هذه الأطوار المتتالية: هل تقف يا ترى سلسلة هذه التطورات عند الحد الذي وصلت إليه أخيراً؟ أم ستستمر بعد الآن أيضاً؟ هل يجوز لنا أن نقول إن التطور الأخير سيكون خاتمة الأطوار؟ أم يجب علينا أن نتوقع حدوث تطورات أخرى بعد الآن أيضاً؟ . . .
أنا لا أرى لزوماً للتنبؤ عن مستقبل هذه التطورات، لأنني اعتقد أن ما عرفناه عن التي حدثت إلى الآن كافٍ لتوضيح وحل المسالة التي من أجلها خضنا غمار هذا البحث. . .
مع هذا أرى من المفيد أن انقل بعض الكلمات التي قرأتها أخيراً - في هذا الصدد - في إحدى المجلات التربوية:
(لقد فرقت بين الإنسانيات القديمة والمجتمعات الحالية هوة خطيرة لا تزال تزداد عمقاً وعرضاً، يوماً فيوماً. . . إن دور الإنسانيات المذكورة قد انتهى، ولم يعد في استطاعتها أن تدعي حق البقاء كمنبع للثقافة العصرية. . . إنها لا تعيش الآن إلا عيشة اصطناعية؛ فقد فقدت كل ما كان لها من قوة وحياة . . .)
كذلك أرى من الممتع أن اذكر ما كان قاله (لابيه دوسان بيبر) في هذا الصدد:
(سيأتي يوم نفهم فيه: أن حاجتنا (يعني حاجة الفرنسيين) إلى تعلم اللغة اللاتينية، أقل من حاجتنا إلى تعلم اللغة المالائية أو تعلم اللغة العربية . . .)
إنني أعتقد أن الحقائق والوقائع التي سردتها آنفاً، حول مسالة تعلم اللاتينية واليونانية في الدراسة الثانوية في أوربا بوجه عام وفي فرنسا بشكل خاص، تعين لنا بكل وضوح الموقف الذي يجب أن يقفه مفكرو العرب حيال هذه المسالة بالنسبة إلى معارف البلاد العربية. لا شك في أن هذا الموقف يجب أن يكون موقف الرفض والأعراض . . .
يجب علينا أن نتذكر - في هذا الصدد - الحقائق التالية على الدوام:
إن تعليم اللاتينية واليونانية في أوروبا لم يشغل الموقع الذي شغله في نظم الدراسة بناء على تأملات وملاحظات تربيوية؛ إنما شغل هذا الموقع تحت تأثير عوامل ووقائع تاريخية كلها خارجة عن نطاق الفوائد التربيوية. . . وأما الفوائد التعليمية والتربوية التي ذكرت فيما بعد لتبرير الحالة الراهنة - بغية إبقاء ما كان على ما كان - فلم تستطع أن تقاوم المحاكمات المنطقية والأبحاث العلمية مدة طويلة. . . ولهذا أخذ نطاق هذا التعليم يتقلص من جميع الجهات تقلصاً مستمراً؛ ولم يعد يمتد الآن إلا على جزء صغير من ساحة الدراسة الثانوية. . . كما أن بقاء هذا التعليم في هذه الساحة الأخيرة أيضاً لا يمكن أن يعلل ويبرر إلا بقوة الاعتياد والاستمرار من جهة وبرابطة الأدب واللغة من جهة أخرى
وأما فكرة اعتبار اللاتينية (واسطة ضرورية لتثقيف العقول) فهي من النظريات التي ثبت خطؤها كل الثبوت: إذ قد أصبح من المسلم في علم التربية أنة لا يوجد موضوع مدرسي (مثقف) في حد ذاته كما أنه لا يوجد موضوع مدرسي يحتكر قابلية التثقيف لنفسه. . . وأما (التأثير التثقيفي) الذي يحصل من الدروس فلا يتبع الموضوع الذي يدرس، وإنما يتبع الطريقة التي يتم بها التدريس. . . فعندما نود أن نجعل (الثقافة) هدفنا الأسمى في الدراسة الثانوية يجب علينا أن نعلم حق العلم أن الوصول إلى هذا الهدف، لا يتم إلا بالبحث عن أوفق (طرق التدريس) لضمان التثقيف والسير على تلك الطرق على الدوام. وأما إضافة لغة أو لغتين من اللغات الميتة إلى مناهج الدراسة، فلا يمكن أن يضمن لنا شيئاً من أهداف التثقيف بوجه من الوجوه
فليس من المعقول - والحالة هذه - أن نضيع أوقات طلابنا في المدارس الثانوية في سبيل تعليم اللاتينية واليونانية
هذا. . . ولا بد لنا من ملاحظة الحقائق الهامة التالية أيضاً في هذا الصدد:
(ا) إن تعليم اللغة العربية يستنفذ من أوقات وجهود أبنائها أكثر من الأوقات والجهود التي تتطلبها اللغات الأخرى من أبناء الناطقين بها؛ وذلك لزيادة تعقيد قواعد العربية من جهة وللنقائض السائدة على أساليب تدوينها من جهة أخرى
(ب) إن حاجة أبناء العربية إلى تعلم اللغات الحية اشد من حاجة الأمم الأوربية الراقية إلى تعلم تلك اللغات؛ وذلك لفقر خزانة الكتب العربية من جهة المؤلفات العلمية والأدبية
(ج) إن تعليم اللغات الأوربية الحية يتطلب من الناطقين بالضاد جهوداً أكبر من الجهود التي يتطلبها من سائر الطلاب الأوربيين؛ وذلك لاختلاف الحروف من جهة وتباعد

الأصول والقواعد والأساليب من جهة أخرى
ولهذه الأسباب إذا جاز للأوربيين أن يسرقوا قسما من أوقات بعض أبنائهم في سبيل تعليم اللغة اللاتينية - بأمل الحصول على بعض الفوائد ولو كانت ضئيلة - فلا يجوز لنا نحن أن نقتدي بهم في هذا الباب
وإذا جاز للأوربيين أن يخيروا أولادهم بين دراسة اللغات الميتة ودراسة اللغات الحية، فلا يجوز لنا نحن أن نفكر في مثل هذا التخيير
إذاً يجب علينا أن نتذكر دائماً أننا في حاجة قصوى للاقتصاد في أوقات طلابنا وجهودهم لكثرة الأشياء التي يحتاجون إلى تعلمها ولزيادة الأوقات التي يحتاجون إليها لأجل هذا التعليم
هذا من جهة ومن جهة أخرى يجب علينا أن نفكر في أمر أخر أهم من ذلك أيضاً: هذا الأمر هو ضرورة الاهتمام بمعالجة النزعة الكلامية على أفكارنا. . . إننا كثيراً ما نهتم بالألفاظ اهتماماً كبيراً، وقلما نسعى لتحديد معانيها تحديداً كافياً. . . وكثيراً ما ننخدع بالكلمات الفارغة، ونترك مجالاً واسعاً لتغلب الكلاميات على مناحي تفكيرنا. . فلا نغالي إذا قلنا بأننا مصابون - على الأكثر - بداء الكلاميات. . . إن أوربا أيضاً كانت مبتلاة بمثل هذا الداء؛ وقد صرف مفكروها ومربوها جهوداً عظيمة لمحاربة هذه النزاعات الكلامية، وتغليب روح التفكير الحقيقي ونزعة البحث العلمي عليها. . . ونحن الآن في حاجة شديدة إلى الاقتداء بهؤلاء في هذا المضمار. وأعتقد أن هذه الحقيقة يجب أن تبقى نصب أعيننا على الدوام عندما نفكر في وسائل ترقية ثقافتنا. . .
إنني أعتبر فكرة إدخال اللاتينية واليونانية في مناهج الدراسة الثانوية من الأفكار الخاطئة والمضرة من هذه الوجهة أيضاً لأنها تؤدي - بطبيعتها - إلى زيادة حصص اللغات في دراساتنا زيادة كبيرة، وذلك يزيدنا استغراقاً في الكلاميات ويبعدنا عن مناحي التفكير الصحيحة. . .
ولهذا الأسباب كلها أعارض هذه الفكرة معارضة شديدة
هذا ولا أراني في حاجة إلى إيضاح أنني لا اقصد من هذه المعارضة أن أعترض على كل من يود أن يتعلم اليونانية واللاتينية بل بعكس ذلك أتمنى أن يظهر بيننا من يولع باليونانية ويتخصص في آدابها ويسعى لترجمة مخلداتها؛ كما أتمنى أن يظهر من يتعلم اللاتينية ومن يتعلم الروسية وحتى من يتعلم اليابانية، ليتسنى لنا الاستفادة من نتاج تفكير جميع الأمم على اختلاف ثقافاتها. . غير أن إبداء التمني لظهور بعض الاختصاصيين من أبناء العرب في الآداب اللاتينية واليونانية شي واعتبار تعلم هاتين اللغتين من ضرورات الدراسة العالية قي الحقوق والتاريخ والجغرافيا شي أخر. . .
فأقول لذلك: أننا إذا أدخلنا اللاتينية واليونانية إلى مدارسنا الثانوية يكون مثلنا كمثل الخياط الغبي الذي تناقلت قصته بعض الأقلام: بذل الخياط المذكور جهوداً كبيرة في خياطة (بنطلون) لبحار إنكليزي شبيهاً (ببنطلونه) القديم الذي كان سلمة إياه. وأتقن الخياطة إلى درجة تقليد الترقيع الذي به أيضاً!
بعد أن شرحت رأيي في مسألة تعليم اللاتينية واليونانية شرحاً عاماً أرجع إلى آراء الدكتور طه حسين فيها، وأبين ما أعتقده في هذه الآراء على ضوء المعلومات التي سردتها:
إن أول ما يلفت الأنظار في ملاحظات الدكتور في هذا الباب، هو خلوها من الأدلة والبراهين، وتكونها من سلسلة دعاوى معروضة على شكل نصوص قاطعة يجب الاعتماد عليها بدون طلب برهان. كأن لسان حاله يقول على الدوام: (آمنت أنا، فعليكم أن تؤمنوا أنتم أيضاً)
فأنه عندما يذكر إيمانه العميق بضرورة اللاتينية واليونانية للثقافة المصرية يقول: (والأدلة على ذلك تظهر لي يسيرة هينة وجلية واضحة) (ص281) ولكنه لا يذكر شيئاً عن تلك الأدلة. فكل ما يكتبه بعد العبارة المذكورة لا يخرج عن نطاق بيان (جهل) معارضيه و (نقص دراساتهم) و (عدم إتقانهم الشؤون الثقافية في أوربا) و (عدم نظرهم إلى التعليم نظر التعمق والجد. . .) وما أشبه ذلك من تعبيرات التجهيل والازدراء
إنه عندما يتطرق إلى مسألة (تأثير هاتين اللغتين في تكوين العقل) تلك المسألة

الهامة التي تكون حجر الزاوية في دعاوى أنصار اللغات القديمة لا يكلف نفسه مشقة شرح المسألة،
لأنه يعتقد أن ذلك فوق مستوى فهم معارضيه! ويسجل اعتقاده هذا بصراحة كبيرة إذ يقول: (كل هذا ولم أتحدث ولن أتحدث عن أثر هاتين اللغتين في تكوين العقل وتقويمه وتثقيفه وإعداده للتفكير المستقيم فإن هذا الحديث إن ذهبت إليه لم يفهم عني، لأن فهمه يقتضي معرفة هاتين اللغتين وممارستهما وابتلاء آثار هذه المعرفة والممارسة، والذين يعرفون هاتين اللغتين في مصر يمكن إحصاؤهم على أصابع اليد الواحدة أو على أصابع اليدين) (ص297)
وأخيراً عندما يتطرق الدكتور إلى الحالة الراهنة في أوربا ويشير إلى الخصومة القائمة بين أنصار اللغات القديمة وخصومها، يتهم معارضيه (بالإلمام اليسير، بل بالإلمام الناقص المشوه) بهذه الخصومة (ص285) ثم يحاول أن يصف هذه الخصومة (على وجهها الصحيح)- غير أن من يقارن بين ما يقوله الدكتور في هذا الباب وبين التفصيلات التي سردناها آنفاً، يرى أن (الوجه) المذكور بعيد عن الصحة بعداً كبيراً. . .
يقول الدكتور طه حسين: (إن موضوع هذه الخصومة لم يكن ضرورة هاتين اللغتين للثقافة والحضارة) (ص285) في حين أن المؤلفات والمجلات التربيوية مملوءة بمباحث ومناقشات طويلة عن ضرورة أو عدم ضرورة هاتين اللغتين للثقافة والحضارة
يقول الدكتور: (كان موضوع الخصومة في حقيقة الأمر هذه المسألة: أيجب أن يتهيأ الناس جميعاً للعلم والتخصص، أم يجب أن يهيأ بعضهم لحياة العلم والتخصص ويهيأ أكثرهم للحياة العاملة؟) (ص285) في حين إن ذلك أيضاً بعيد عن حقائق الأمور بعداً كبيراً. . .
يقول الدكتور: (إن الخصومة حول تعليم اللاتينية واليونانية قامت في أوربا منذ أواخر القرن الماضي بين الديمقراطيين والمتطرفين من جهة، وبين المعتدلين والمحافظين من جهة أخرى) (ص284) في حين إن الخصومة كانت قائمة في عالم الفكر والتربية قبل إن تنتقل إلى ساحة السياسة بمدة طويلة. . .
وقد أسهبت أنفاً في تلخيص المناقشات التي دارت في أوربا حول هذه المسالة، فلا أرى حاجة للتوسع في تفنيد مدعيات الدكتور طه حسين في هذا الباب
أود إن اختم انتقاداتي هذه بملاحظة صغيرة: عندما يشرح الدكتور النظام الذي يقترحه لترقية الدراسة الثانوية يقول: (وكل من أراد إن يهيئ نفسه بعد الثقافة العامة للدراسات
الأدبية المختلفة كالتاريخ والجغرافيا والفلسفة والأدب الخالصة لإحدى اللغات فرضت عليه اللغة اللاتينية ولغة أجنبية حية وخيرته بين اللغة اليونانية ولغة أوربية أخرى) (ص 301) وإذا لاحظنا أن الطالب المذكور سيدرس - بطبيعة الحال - اللغة العربية وآدابها أيضاً؛ نجد أنه سيتحتم عليه درس أربع لغات مختلفة على إن تكون الواحدة منها اللاتينية على كل حال. .
إنني اعتقد بان إشغال الطلاب - خلال دراستهم الثانوية - بهذا القدر من اللغويات لا يهيئهم إلى الدراسات المذكورة، بل يجعلهم اقل قابلية لاستساغتها بالمعنى الذي يفهم الآن في دراسة الفلسفة والتاريخ والجغرافيا

!لا يعرف أحد كيف استباح الأستاذ احمد أمين ما استباح فصنع بنفسه ما صنع
وهل كان في مقدور ناقد مهما اعتسف إن يسيء إلى الأستاذ احمد أمين بمثل ما أساء إلى نفسه بلا ترفق ولا استبقاء؟
كنت أدعو الأستاذ احمد أمين إلى رعاية ماضيه فأصبحت ادعوه إلى رعاية مستقبله، فإني أخشى أن تضيع الثقة بكفايته العلمية فيصبح معدوم النصير والمعين، وهو لم يصل إلى ما وصل إليه إلا بمعونة الأصحاب والأصدقاء، والمرء بنفسه قليل
أقول هذا وقد كشف الأستاذ احمد أمين عن دفائنه المطوية فصرح بأنه يحتقر العقلية العربية في عهد الجاهلية ليتخذ من هذا الاحتقار وسيلة لتأييد دعواه في جناية الأدب

الجاهلي على الأدب العربي
والجاهليون قوم كانت لهم حسنات وهنوات، وكلمة الحق فيهم لا تؤذي أحداً من الناس، وقد قال فيهم القرآن ما قال فلم يتأذ أحد من إخلافهم، لأنه لم يقل فيهم غير الحق
أما التحامل على عرب الجاهلية، وتجسيم مساويهم وتضخيم عيوبهم، والتشهير بوثنيتهم، والقول بأنها كانت وثنية أرضية وضيعة - كما يعبر أحمد أمين - فذلك إثم منكر يراد به تحقير الأرومة العربية وتسوئ سمعتها في التاريخ، وذلك لا يقع إلا من رجل يمشي في الوعر من عقوق الأباء والأجداد
نحن لا ننكر أن العرب القدماء كان فيهم وثنيون، فقد كان الحال كذلك عند قدماء المصريين والفرس والروم والهنود، وإنما ننكر أن تكون وثنية العرب وصلت إلى الانحطاط الذي تصوره احمد أمين حين ارتضى السخف الذي تنطق به العبارة الآتية منسوبة إلى أحد الأعراب:
كنا نعبد الحجر في الجاهلية، فإذا وجدنا حجراً أحسن منه نلقي ذلك ونأخذه، فإذا لم) نجد حجراً جمعنا حفنة من تراب، ثم جئنا بغنم فحلبناها عليه، ثم طفنا به (
كذلك روى أحمد أمين، وهو في غاية من الطمأنينة عن بعض الكتب القديمة ليؤكد لقرائه
أن العرب أهل لأن يقول فيهم من الإفك ما يقول
وتصديق هذه الأخبار شاهد جديد على العقلية العامية التي يعيش بها بعض الناس، فليس من الصحيح أن العرب كانوا يعبدون الشاة البيضاء فإذا أكلها الذئب أخذوا شاة أخرى فعبدوها، كما حدث الفقيه الذي نقل عنه أحمد أمين
أيها القراء أسمعوا، وعوا، وإذا وعيتم فانتفعوا
أيها القراء أسمعوا تاريخ الوثنية الجاهلية، اسمعوها مني لا من أحمد أمين
كان في العرب وثنيون، بشهادة القرآن، ولكن أحمد أمين نسى حقيقة تاريخه ما كان ينبغي أن تغيب عن رجل يتصدر لتأريخ الحياة العربية. نسى هذا الرجل أن عصر النبوة شهد معركة عنيفة بين الوثنية والتوحيد، وفي تلك المعركة جاز لرجال الدين أن يلطخوا تاريخ الوثنية بالسواد ليندحر الوثنيون ولتنشرح صدور المؤمنين. فكل ما تقرءونه في الكتب التاريخية والدينية من وصف عرب الجاهلية بالغفلة والحمق، والطيش والخبال، وسوء الفهم، وبشاعة التصور، وخمود العقل، وبلادة الإحساس، كل أولئك الصفات الدميمة وضعت لغرض خاص هو تحقير الوثنية الجاهلية لتقوم على أنقاضها العقيدة الصحيحة عقيدة التوحيد
وكان من حق رجال الدين أن يصنعوا في تشويه الوثنية الجاهلية ما يشاءون، لأنهم كانوا يرونها زيغاً في زيغ وضلالاً في ضلال
أما أحمد أمين فلا يملك هذا الحق، لأن الإسلام قد استغنى نهائيا عن حرب الوثنية الجاهلية بالنصر المؤزر الذي ظفرت به عقيدة التوحيد
والموقف اليوم قد تغير بلا جدال، فهو ليس موقف الموازنة بين الجاهلية والإسلام حتى يستبيح ما يستبيح من تحقير الجاهليين، وإنما هو موقف المفاضلة بين الوثنية العربية والوثنية اليونانية، وهو موقف لا نخترعه أختراعاً، فقد صرح به الرجل الذي هداه فكره إلى القول بأن وثنية العرب كانت أرضية وضيعة وأن وثنية اليونان كانت سماوية رفيعة!
إن أحمد أمين يقول بأن الوثنية العربية وثنيه أرضية وضيعة، على حد تعبيره المهذب الجميل!
فهل يستطيع أن يقول من أين عرف أن وثنية العرب كانت أرضية وضيعة؟
أنه يجهل - وأنا أيضاً أجهل وسائر الناس يجهلون - كيف كانت الوثنية العربية، لأن تلك الوثنية طمست آثارها منذ أزمان طوال ولم تذكر في أي كتاب إلا بالتحقير والتصغير والتقبيح
وأنا أتحدى الأستاذ أحمد أمين أن يذكر كتاباً واحداً عني مؤلفه بشرح الوثنية الجاهلية شرحاً بين ما لها وما عليها بلا تزيد ولا بهتان
إن العرب ألفوا كتباً كثيرة عن الأصنام، ولكن الغرض من تلك الكتب كان غرضاً دينيا، وهو غرض شريف أرادوا به أن يجعلوا رجعة العرب إلى وثنيتهم من المستحيلات. ولو

كانوا يعرفون أن تلك الكتب ستكون حجة يعتمد عليها من يشاء له هواه تحقير الأرومة العربية وتمجيد الأرومة اليونانية لحفظوا لأسلافهم بعض ما كان لهم من حسنات في الجاهلية

والحق أن الخلفاء الراشدين كانوا في غاية من الحزم الصارم العنيف الشريف في حرب الوثنية الجاهلية، لأنهم كانوا يريدون أن يكونوا أمثله عالية في رعاية الميراث الذي خلفه الرسول الكريم، وهو ميراث التوحيد، فلم يسمحوا لأحد برواية الأشعار التي تمثل الوثنية الجاهلية، وخاف المسلمون على دينهم فهجروا ما خلفت الوثنية من أسماء وأحاديث، وبالغوا في التصون من تلك الآثار لئلا يقال إن فيهم نزعة وثنية كان للعرب صنم أسمه يغوث، فهل يعرف أحمد أمين مبلغ الأساطير التي صيغت حول يغوث؟ وهل يعرف ما صيغ حول اللات والعزى من أقاصيص؟ وهل يستطيع أن يقول بأن الوثنية العربية بقيت سليمة من التحريف والتبديل؟

لو بقيت الأساطير الجاهلية لاستطعنا أن نعرف شيئاً عن الوثنية العربية، ولكن تلك الأساطير ضاعت إلى الأبد، لأن روايتها كانت محرمة على المسلمين، والحكم على الغائب لا يخلو من تعسف واستبداد

لو أن الأستاذ أحمد أمين حين تحدث عن وثنية العرب بالتقبيح كان يريد إظهار فضل الإسلام على العرب لتلقينا كلامه بالقبول. فالإسلام نقل العرب من الظلمات إلى النور، ولكن أحمد أمين يحقر الوثنية العربية لغرض آخر هو قوله الصريح بسماوية الوثنية اليونانية وأرضية الوثنية العربية

كنت أحب أن أنقض كلام أحمد أمين بشواهد من التاريخ؛ ولكن أين أجد تلك الشواهد وقد تقرب العرب إلى الله بوأد الوثنية الجاهلية؟

وهل أملك اختراع الحجج والبراهين، وقد تلقيت عن أساتذتي في الجامعة المصرية وجامعة باريس دروساً كثيرة في تكوين عناصر الحجج والبراهين؟

الحق أني لا أملك إسكات أحمد أمين لأنه يعتمد في تحقير الوثنية العربية على ما رواه القصاص وأنا لا أقيم لتلك الروايات أي ميزان

فالعجز من جانبي تقضي به العقلية العلمية - ولا فخر - والقدرة من جانبه تقضي بها العقلية العامة من غير شك

إن العرب خلعوا وثنيتهم عامدين متعمدين طاعة لله الذي نهاهم عن التعلق بالوثنية، ولم يحفظوا من صور تلك الوثنية غير الصور التي قبحها القرآن ليروضهم على التوحيد، فمن حدثكم أن العرب في جاهليتهم كانوا يعيشون بعقلية أرضية وضيعة فاعلموا أنه يحكم على الغائب بلا بينة ولا برهان

وهنا مسألة دقيقة لا يمكن أن تخطر في بال الأستاذ أحمد أمين، لأنه على فضله بعيد كل البعد عن التعمق والاستقصاء

قلت لكم إن الرب بين الوثنية والتوحيد قضت باندحار الوثنية وتلطيخ سمعتها بالسواد، وأقول الآن إن هناك حرباً ثانية عانتها الوثنية العربية أيام فتنة الشعوبية، فقد أراد الشعوبيون أن يجعلوا العرب في جاهليتهم مثلاً في السخف والحمق والخبال، ولذلك تفاصيل يعرفها من يقرأ كتب الأدب والتاريخ بعقلية المؤرخ. . .

وكذلك نعرف أن الوثنية العربية عوديت مرتين: مرة بسبب العصبية الدينية، ومره بسبب العصبية الجنسية. وقد خفيت أسباب العداوة الثانية على كثير من الناس

وخلاصة القول أن الوثنية العربية حوربت بلا هوادة ولا رفق، ولم يبق من أصولها السليمة ما يعين الباحث على تصحيح العقلية العربية في العصر الذي نسخه الدين الحنيف، فمن حق أحمد أمين أن يتزيد على العرب كيف شاء، ومن حقنا أن نقول: إن إصراره على تحقير العرب في جاهليتهم (وهو لا يعرف شيئاً صحيحاً عن وثنيتهم) هو إصرار الرجل المحروم من نور المعرفة بأصول المباحث العلمية في العصر الحديث

بقيت فتنة أحمد أمين بالوثنية اليونانية التي ابتدعت أفروديت وأدونيس وإيروس، فهل يعرف كيف عاشت الوثنية اليونانية؟

لو أن اليونان كانوا أسلموا كما أسلم العرب لوجد في اليونان من يبدل آثار الوثنية اليونانية بحيث تصبح وتسمى وهي مثل في الرقاعة والسخف

ولكن اليونان عاشوا في جاهليتهم بعد ظهور الإسلام بأجيال طوال، وظلوا يتوارثون أوهام أسلافهم من عصر إلى عصر إلى أن جاء المتطرفون من شعراء الفرنسيس

والإنجليز فعكفوا على تلك الوثنية يعبدونها من جديد لأنها قامت على أساس براق هو التقديس لجموع الأهواء وطغيان الأحاسيس
وهنا تحل المشكلة التي حار في فهمها أحمد أمين، فهذا الرجل يعجب من سكوت العرب عن ترجمة ما كان عند اليونان من أشعار وأقاصيص
وأنا أتصدق عليه بحل هذا الإشكال فأقول: إن المسلمين الذين نهاهم دينهم عن أحياء الوثنية العربية قد انتهوا بفضل الدين عن أحياء الوثنية اليونانية
وهل يعرف صاحبنا متى استفحلت حماسة الأوربيين لوثنية اليونان؟
انهم انتصروا لتلك الوثنية يوم استحكمت العداوة بين اليونان والأتراك؟ وهل كان يمكن لشاعر مثل بيرون أن يشايع اليونان لوجه الحق؟
إن الغافلين يجهلون السر في تغني شعراء فرنسا وإنجلترا وإيطاليا بقلعة الأكروبول، فهذا التغني كانت له غاية أصيلة هي تمجيد الأمة التي جعلت عبادة الشهوات من الشرائع. ولو كانوا يريدون وجه الحق لوقفوا على (الكعبة) العربية التي يتوجه إليها الملايين من أهل المشرق والمغرب في أوقات الصلوات، والتي كانت مثابة للألوف من أقطاب التشريع
ولكن الكعبة ليست من هواهم: لأنها لم تمجد الشهوات ولأنها خلت من عبادة أفروديت وأدونيس وإيروس!
إن الشهوة من أهم العناصر في الحياة الإنسانية، وهي تستهوي الناس في كل عصر وفي كل أرض، ولكن العرب امتازوا بين الأمم بالتخوف من عواقب الشهوات، فكانوا لذلك موضع الغضب فلتسخريه من الشعراء الظرفاء الذين بكوا دماً على مصير اليونان أيام حرب الاستقلال
وهل يمكن القول بأن اليونان خدموا الشهامة والفتوه والرجولة كما خدمها العرب؟ هيهات! هيهات!
إنما هي وشائج من الشهوة والعصبية السياسية قضت بأن يقول الأوربيون إن وثنية اليونان كانت وثنية سماوية لتقوم لهم دولة تضايق بعض العرب والمسلمين في الشرق
وأحب أن أبين أوجه الحق في هذه القضية فأقول:
إن هيام الشعراء الأوربيين بالوثنية اليونانية له صلة وثيقة بما كان يكرثهم من مصاعب وأهوال. ذلك بأن الوثنية اليونانية تقوم على عبادة المرح والبهجة والإيناس، فأهواء الآلهة عندهم أهواء حادة من الوجهة الحسيه بحيث يمثلون ما في الطبيعة الحية ندمن غضب وبطش وجبروت؛ وأذواق الآلهة عندهم أذواق مترفة ناعمة تمثل ما في الطبيعة الحية من مرح وجذل وفتون
والشاعر الذي يعيش في رحاب الوثنية اليونانية يعيش عيش السعادة والنعيم، فهو محروس بقوات خفية في جميع الشؤون: فله عند الغضب إله ينصره هو إله الحرب، وله في أوقات السرور إله يرعاه هو إله الخمر، وله عند الصبوة إله يفتح له قلوب الملاح هو إله الحب
وهذا هو السر في أن شعراء أوربا وجدوا في الوثنية اليونانية ما لم يجدوه في الشريعة الإسلامية، مع أن الشريعة الإسلامية محملة بالطرائف من أصول الآداب والفنون
وتوضيح ذلك سهل: فلذي ينظر في الوثنية اليونانية يواجه اصطخاب الأهواء والأذواق والأحاسيس، أما الذي ينظر في الشريعة الإسلامية فيواجه بحراً هائجاً من الواجبات والتكاليف، ويشعر بأنه مسئول عن كل شي حتى خطرات القلوب
وهذه الخصيصة من خصائص الشريعة الإسلامية كان لها دخل في عدم ظفر الإسلام بغزو المشاعر في الممالك الأوربية، فالإسلام دين صارم عنيف لا ينظر للأهواء والشهوات إلا بعين الغضب والمقت، وهو ينذر المسرفين على أنفسهم بالويل والهلاك
وقد أستطاع الإسلام أن يؤثر في المسيحية فخلق منها مذهب البروتستانت، ولكن ذلك المذهب حول المسيحية إلى ميادين عقلية لا يتذوقها الجمهور الأوربي إلا بمشقة وعنت، وما عاش ذلك المذهب إلا لأن الذين اعتنقوه كانوا أصحاء وسيعودون إلى الكثلكة يوم يغلب عليهم الضعف

واليونان تنصروا بعد الوثنية، ولكن نصرانية اليونان نصرانية شعرية هي مذهب الأورثودكس، وهو مذهب جذاب براق ترف أجنحته بأرواح الشعر والخيال. وهو نفسه مذهب النصارى في مصر، لأن الوثنية المصرية لا تقل ألواناً وتهاويل عن الوثنية اليونانية

والإسلام الصحيح لم يعرفه العرب إلا في عهد الصحة والعافية، فلما ضعفوا خلعوا على إسلامهم أردية جديدة من أردية الوثنية. ولو قام باحث بتدوين الأساطير التي صيغت حول الأولياء والصالحين لأمد الأدب بثروة تفوق الثروة التي عرفها اليونان أيام الوثنية

قد يقول قائل: وما محصول هذا الاستطراد؟

وأجيب بأنه يفسر تلك الظاهرة الغريبة التي لم يقع مثلها في التاريخ: فظهور الإسلام في بلاد العرب لعهد ظهوره كانوا في عافية روحية وعقلية، ولذلك استطاع الإسلام أن ينسخ وثنية العرب إلى غير رجعة، ليحولهم إلى رجال يفكرون في عجائب الأرض قبل أن يفكروا في غرائب السماء، والأرض هي المزدرع الأصيل لطلاب السيطرة والجبروت من أصحاب العزائم الشداد

وأحمد أمين لا يفكر في هذه الحقائق لأنه رجل محترم، والرجال المحترمون يكتفون بما رضيه الناس من المنقولات والمرويات

ولكن أين نحن من جوهر هذا البحث؟

أنا أخشى أن يكون فيما عرضته من الحجج والبيانات شيء من الغموض، لأنني احترست في عرض بعض المشكلات احتراس من يمشي على الشوك لأسلم من تقول المرجفين

فما هو جوهر البحث بطريقة واضحة صريحة تؤكد صدق ما ذهبنا إليه؟

خلاصة القول أن أحمد أمين حكم بأن وثنية العرب كانت (أرضية وضيعة) وأن وثنية اليونان كانت (سماوية رفيعة)

وقد أثبتنا بالبرهان القاطع أن وثنية العرب محاها الإسلام، ولم تبق لها رسوم ولا أطلال، فالحكم لها أو عليها حكم على مجهول ونحن نتساجل بطريقه علمية لا تغني فيها الأحكام على المجهولات أي غناء

وقد تحدث الإسلام عن وثنية العرب في مواطن كثيرة من القرآن، ولكنه لم يشر إلى ما

كان في تلك الوثنية من نفحات الشعر والخيال، لأن الإسلام لا يرى الخير والحق والجمال في عقيدة غير عقيدة التوحيد

وما كان ينتظر أن يصنع الإسلام غير الذي صنع، فحكمه قام على أساس الصدق في تطهير العقلية العربية من أوضاع الأساطير والأباطيل

أما أحمد أمين فموقفه مختلف كل الاختلاف، فهو يعير العرب بوثنيتهم، وهي عنده أرضية وضيعة، مع أنه لم يعرف من تلك الوثنية غير وجهها الدميم، وذلك الوجه الدميم موضع شك وارتياب، لأنه لون بأصباغ جديده خلقتها العصبية الدينية والعصبية الجنسية

وأحمد أمين ينظر إلى الوثنية اليونانية بعين الإعجاب ويراها سماوية رفيعة

ومن المؤكد أنه لا ينضر إليها تلك النظرة إلا وقد جرد نفسه من النزعة الدينية، لأن الإسلام لا يرضى عن الوثنية في أي شكل من الأشكال

فلم يبق إلا أن يكون نظر إليها من الوجهة الأدبية، وعندئذ نقول إنه على حق في الإعجاب بتلك الوثنية، لأنها وثنية حية ولأنها لونت الأخيلة والأذواق في كثير من الممالك والشعوب

ولكن تلك الوثنية ظفرت بحظ لم تظفر بمثله الوثنية العربية فقد ظفرت بالإعزاز والتبجيل على حين لم تظفر وثنية العرب بغير التحقير والتقبيح

فالجميل من الوثنية العربية تناساه المؤمنون، والقبيح من الوثنية اليونانية تناساه المشركون. وكانت النتيجة أن لم يبق من وثنية العرب غير القبح، ولم يبق من وثنية اليونان غير الجمال

قولوا الحق أيها القراء!

ألا ترون أن الأستاذ أحمد أمين يجني على المنطق وعلى التاريخ حين يستبيح ما يستبيح في تحقير الجاهلية العربية وتمجيد الجاهلية اليونانية؟

أنا أحتكم إليكم أيها القراء لتفصلوا بيني وبين هذا الزميل

إن الوثنية العربية قد انقرضت تمام الانقراض، ولن تعود مصدر خوف على العقيدة الإسلامية، فلا حرج على الرجل المسلم من القول بأن العرب في جاهليتهم كانت لهم أوهام وأضاليل قد لا تقل جمالاً عما كان عند الفرس والروم والهنود من أوهام وأضاليل

إن الأساطير تخلق لغاية معروفة هي ملء فراغ الأفئدة والعقول، وكان العرب في جاهليتهم

كاليونان في جاهليتهم يحتاجون إلى تزجية أوقات الفراغ بطرائف الأسمار والأحاديث، فلم يكن بد من أن يبتدعوا ألوانا من الأقاصيص تصور أهواء الأصنام والأوثان، كما أبتدع اليونان، ألوانا من الأقاصيص تصور ما كان عند آلهتهم من نزوات وشهوات وأهواء

ولكن أين الأساطير العربية؟ أين؟ أين؟

لقد محاها الإسلام ليخلو الو للعقيدة السليمة عقيدة التوحيد. وأنا مع ذلك قادر على وضع خطوط للوثنية العربية إن سمح الزمن بأن أعيش في بلاد العرب عامين أثنين أدرس فيهما ما بقي في أذهان العرب من أساطير الأولين، ويومئذ نعرف بعض الفروق بين أحلام العرب وأوهام اليونان. فإن لم تتح هذه الفرصة فقد وجهت الأذهان إلى درس هذا الموضوع الطريف، وهو موضوع حاولت درسه منذ سنين لأقدم عنه رسالة إلى جامعة باريس تحت عنوان:

'

وقد صدني عنه رجال ثلاثة: أولهم الدكتور طه حسين وكانت حجته أن هذا البحث قد ينتهي إلى (الكفر الموبق) وثانيهم لطفي باشا السيد وكانت حجته أنه لا يحسن تعريض الجمهور لفتن جديدة، وثالثهم المسيو فيت وكانت حجته أنه لا يمكن لباحث أن يسبر أغوار هذا البحث إلا بعد أن يقيم في بلاد العرب بضع سنين

ولو أن المقادير كانت سمحت بالمضي في هذا البحث (وكنت شرعت فيه سنة 1927) لكان من المستحيل أن أعجز عن تقديم صورة من الوثنية العربية أقاوم بها السحر الذي تتمتع به وثنية اليونان. فهل أنتظر أن يكون بين طلبة كلية الآداب من يوجه همته إلى هذا البحث الطريف؟

هل أنتظر أن يكون فيهم من يؤرخ المدة التي غفل عنها مؤلف كتاب (فجر الإسلام)؟ إن من القراء من يذكر أني نبهت الأستاذ أحمد أمين إلى هذه النقطة بمقال نشرته في جريدة البلاغ، ومنهم من يذكر أن بعض تلاميذ الأستاذ أحمد أمين دافع عنه يوم ذاك والمشكلة مع ذلك باقية، وقد فصلتها في كتاب النثر الفني بعبارات تعجب منها الأستاذ احمد أمين، ودهش من سكوت الجمهور عما فيها من صراحة جريئة، أشار إلى انه تلطف بالسكوت عنها يوم نقد كتاب النثر الفني في مجلة الرسالة سنة 1934

أيها المولعون بالمباحث الأدبية والتاريخية

أنا أوجهكم إلى موضوع صدتني عنه ظروف الحياة، وهو درس ما بقي في أذهان العرب من أساطير الأولين لتعرفوا شيئاً من رسوم الوثنية العربية التي حاربها القرآن فان وفقتم إلى شيء فسنعرف كيف كان العرب يتصورون الدنيا والوجود قبل أن تظلهم راية الدين الحنيف، ويومئذ نعرف كيف كانت جاهلية العرب بالقياس إلى ما عرفنا من جاهلية اليونان

(للحديث شجون)

زكي مبارك

حول نعيم الجنة

بين الحسية والروحية

للدكتور محمود علي قراعة

نحن لم ننكر ما في وجوه أهل الجنة من نضرة النعيم يسقون من رحيق مختوم متكئين على أرائك منصوبة على أطراف أنهار مطردة بالخمر والعسل واللبن، محفوفة بالغلمان والولدان، مزينة بالحور العين، وان فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ولكنا إن آمنا بهذا كله، فإنا اكثر إيماناً بان لذة النظر إلى وجه الله تعالى تفوق كل اللذات، وأن لذة اللقاء والرضى أسمى نعيم. وإنا نرى أن اللذات الأخرى الثانوية لذات حسية تسموا بالروح أو لذات روحية معنوية تطربها، لذلك قال

مجاهد في قوله تعالى (وأزواج مطهرة) قال من الحيض والغائط والبول والبصاق والنخامة والمني والولد، فارتفع بلذة الأكل والشرب والنكاح من المستوى البهيمي إلى مرقاة الروح. وأنت في هذه الدنيا إذا جلست إلى مائدة فخمة، فتحركت فيك شهوة الطعام وسررت بألوانه المختلفة أمام ناظريك، تستطيع إن تضع على المائدة الأزهار والرياحين الجميلة، ووجودها لا يلهب الرغبة في الطعام، بل يجعلها شريفة ويوجد حولها جواً روحياً يسمو بها بعض السمو. ولذلك نرى الغزالي وهو حجة في الإسلام يجعل للأكل صفة اجتماعية منظمة، فيرى أن من آدابه إن يكثر الإنسان الأيدي على الطعام ولو من أهله وولده، وان يغسل اليد لان اليد لا تخلو عن لوث في تعاطي الأعمال فغسلها اقرب إلى النظافة والنزاهة، ولان الأكل لقصد الاستعانة على الدين عبادة، وان يبدأ باسم الله في أوله وبحمده في آخره. ولا ريب في إن القصد من هذا السمو بلذة الأكل وإحاطتها بأجواء روحية تخرجها بقدر الإمكان عن ماديتها. فإذا قلنا بروحية اللذات في الجنة وبان الحسي منها يعززه الإشعاع الروحي، فإننا إنما نعبر أصدق تعبير عن روح الإسلام (ولو كره الأستاذان جويق وحمدان). وكذلك يمكن القول عن الصلة بين المرء وزوجه، هل يمكن قصرها على الصلة البهيمية وأبعاد الصلة القلبية الروحية، أم أن الصلة القلبية الروحية هي الأصل، وما عداها تابع؟ ثم لماذا ننكر خطر الإشعاع الروحي؟ أما القول بأن السمو الروحي للذات الحسية يعترضه أن كل شخص لا يمكن أن يتعدى درجته من النعيم، فمردود بأنه لن يتعدى درجته لأن ما حوله من نعيم يهيئ له

السمو الروحي للدرجة المقدرة له. هذا إذا جاريناهم لنستدرجهم، لأنه لم يقل أحد بتحديد اللذة وإن كنا نختلف في درجات النعيم، فكما أنك في الدنيا لك أن تستعمل ملكك في كل أوجه الاستعمال إلا الاستعمال المنافي للقانون أو الذي فيه إساءة لاستعمال الحق أو التعدي على الغير، فأقل ما يتصور أن تكون كذلك في الآخرة لا يحد من استعمالك إلا بعد هذا الاستعمال عن جو السمو الروحي الذي يشع على المؤمنين.

ثم إن تحديد الدرجات لا يمنع أن أتمتع بكل ما أستطيع من النشوة الروحية، لأن الممنوع ليس الصعود في نشوتي بل الرقي عن درجتي. ثم إن الذي يحدد هذه الدرجة هو معرفة الله، فبقدر معرفته سبحانه ستكون درجات النعيم، وبقدر معرفته سبحانه ستكون اللذة. ولعل الذين ينكرون هذه الفكرة، يفهمون قول التلمساني إن من شئون النفس أنها كلما قل اشتغالها بالبدن انبسطت وأعطت قواها، وأنها كلما ازدادت علماً فعلمت به، ازدادت قوة على ما هو أغمض وأرفع، فلا هي تنحصر ولا الأمر ينتهي. ولذا رأى المناوي أنه على من أراد أن ينزع عن عالم الحس ويرجع إلى ذاته، أن يعمل على ركود حواسه الظاهرة ليقوى على أن يحس بما لا يقع عليه الحس. فإذا فهموا معنا أن النفس الإنسانية كما قال الغزالي ليست جسماً ولا جسمانية بل هي جوهر مجرد (أي ليست قوة جسمانية حالة في المادة ولا جسماً بل ولا مكانية لا تقبل الإشارة) متصرف في البدن تصرف التدبير من غير أن تكون داخلة فيه بالجزئية والحلول، استطاعوا أن يعرجوا مثل فيثاغورس إلى العالم العلوي (إذا سما جوهرهم) وأن يسموا مع أرسطو وأفلاطون إلى درجة الخروج عن البدن كأنهم مجردون لا أبدان لهم، فيرون أنفسهم داخلين في ذواتهم خارجين عن سائر الأشياء، ويروا في نفوسهم المتجردة من أثقال البدن أنواعاً من الحسن والبهاء، ما تعجب وتريهم أنهم من الجوهر الأعلى الأفضل الشريف وأنهم ذوو حياة فعالة كما قال العلامة مسعود التفتازاني فيفهمون مع الصوفيين أن كل المخلوقات بأسرها مظاهر صفات الله وطريق إلى القرب منه وزيادة معرفته. فإذا ما فهموا معنى هذا فإنا لا نبخل عليهم في أن نضرب لهم مثلاً لحسيات تسمو بأرواحهم، وأسمى مثل هو مثل الصور الجميلة الآدمية وهي حسيات تدعو الكثيرين إلى أحط أنواع اللذات الحسية، ولكنهم إذا أتبعوا السمو الذي ذكرنا، فأنهم واصلون إلى فهم أن هذه الصور موصلة إلى معرفة معانيها، وما معانيها إلا إدراك قدرة الله تعالى وعظيم شأنه

وجليل جماله، فإذا ناجى المخلوق صورة آدمية جميلة فهو لا يناجيها هي بالذات وإنما يناجي خلقه البادي جماله ومظاهر قوته في معانيها. ولذا نجد أبن الفارض يقرر في تائيته الكبرى أن حسن كل مليح ومليحة معار من حسن الذات الإلهية، وأن قيساً حينما هام بلبنى، وأن مجنون ليلى حينما هام بليلى، وأن كثير عزة حين هام بعزة، وأن كل

العشاق حين يهيمون بمعشوقيهم لا يهيمون بهم على الحقيقة، وإنما هم يهيمون بالذات الإلهية التي صورت تلك الصور فأحسنت خلقها، وأن الله مرئي وأن تلك الصور الجميلة المختلفة وإن تعددت إنما تعبر عن معنى واحد وهو الجمال الإلهي، وأن العشاق جميعاً ينضوون تحت لواء لأنهم جميعاً يعشقون معنى واحداً. وبعد أن ذكر في شعره شوقه اللذات الإلهية كلما رأى حسناً وكلما هاجه حب، فيشاهدها فكره بطرف تخيله، ويسمعها ذكره بمسمع فطنته، فينتشي في ظاهره ويطرب في باطنه، ويرقص قلبه وتشدو روحه، ويراها ماثله في معاني الحسن والجلال - خرج من ذلك إلى أن الإنسان يمثل الله على أرضه لأن فيه معنى من معاني جلال الرب. وكما أن من شاهد نفسه في مرآة بدت له صورتها، وأن من تكلم بأكناف القصور سمع صوت نداه، فكذلك كل مظاهر القوة والجمال في هذا العالم ليست غير المعنى الإلهي الذي أودعه فيها. فالعبد على هذا إذا ناجى ربه فإنما يناجي علة وجوده، والرب إذا ناجى عبده فإنما يناجي خلقه وصنعه، فالصلة بين العبد وربه إذن صلة موجود وموجد، وما دام الموجود أصل الموجود، والموجود لا يوجد إلا بهذا الموجد فالعبد عند معرفته نفسه ووقوفها على سموها ورفعتها إنما يعرف في ذلك ربه. والصورة الجميلة على ذلك إذا نوجيت وإذا عشقت وإذا هيم بها، فإنما يهام بها وتناجى وتعشق لهذا المعنى. هذا مثل نضربه للسادة الحسيين. وإذا أرادوا أمثله أخرى فليرجعوا إلى لكتابينا مملكة الجمال والحق والخير، ومناجاة الجمال، ليجدوا أنا نرى أن الذي يشوق هو الحياة في العيون، حياة بريقها وحياة سحرها، والحياة في الحديث والحياة في الابتسامة، وأن خفة الروح هي التي تحبب ألينا الجميل، تحبب ألينا حديثه فتجعله مغناطيسياً جاذباً لقلوبنا، وتبعث ألينا فتنته فتور عينيه، وترسل ألينا تحيته ابتسامته وأنها صلة روحية يعوزنا لتذوقها أن نتفهمها لتحول بينها وبين البهيمية ولنقدس بها المنعم علينا بها. وأحب بعد ذلك من هؤلاء الحسيين أن يجولوا معنا في كتاب تهذيب الأخلاق لأبن مسكويه جولة قصيرة ليقفوا أمام قوله: (وقد

ضن قوم أن كمال الإنسان وغايته هما في اللذات الحسية، وأنها هي الخير المطلوب والسعادة القصوى. وظنوا أن جميع قواه الأخرى إنما ركبت فيه من أجل هذه اللذات والتوصل إليها، وأن النفس الشريفة التي سميناها ناطقة إنما وهبت له ليرتب بها الأفعال ويميزها ويوجهها نحو هذه اللذات لتكون الغاية الأخيرة هي حصولها على النهاية والغاية الجسمانية. وظنوا أيضاً أن قوى النفس الناطقة أعني الذكر، والحفظ والروية كلها تراد لتلك الغاية، قالوا وذلك أن الإنسان إذا تذكر اللذات التي حصلت له بالمطاعم والشارب والمناكح، اشتاق إليها وأحب معاودتها، فقد صارت منفعة الذكر والحفظ إنما هي اللذات وتحصيلها، ولأجل هذه الظنون التي وقعت لهم جعلوا النفس المميزة الشريفة كالعبد المهين وكالأجير المستعمل في خدمة النفس الشهوية، لتخدمها في المآكل والمشارب والمناكح وترتبها لها وتعدلها اعدالاً كاملاً موافقاً. وهذا هو رأي الجمهور من العامة الرعاع وجهال الناس السقاط. والى هذه الخيرات التي جعلوها غايتهم، تشوقوا عند ذكر الجنة والقرب من بارئهم عز وجل وهي التي يسألونها ربهم تبارك وتعالى في دعواتهم وصلواتهم، وإذا خلوا بالعبادات وتركوا الدنيا وزهدوا فيها، فإنما ذلك منهم على سبيل المتجر والمرابحة في هذه بعينها، كأنهم تركوا قليلها ليصلوا إلى كثيرها، وأعرضوا عن الفانيات منها ليبلغوا إلى الباقيات , إلا انك تجدهم مع هذا الاعتقاد وهذه الأفعال إذا ذكر عندهم الملائكة والخلق الأعلى الأشرف وما نزههم الله عنه من هذه القاذورات، علموا بالجملة انهم أقرب إلى الله تعالى وأعلى رتبة من الناس وأنهم غير محتاجين إلى شيء من حاجات البشر، بل يعلمون أن خالقهم وخالق كل شيء الذي تولى إبداع الكل هو منزه عن هذه الأشياء متعال عنها غير موصوف باللذة والتمتع مع التمكن من إيجادها، وإن الناس يشاركون في هذه اللذات الخنافس والديدان وصغار الحشرات والهمج من الحيوان، وإنما يناسبون الملائكة بالعقل والتمييز. . .) وبذا نراه وضع لنا أساساً سامياً نبيلاً في تقدير اللذات، وأن أسماها ما كان ربانياً. ثم جل معنا إلى أن نصل إلى قوله: (إن الإنسان ذو فضيلة روحانية يناسب بها الأرواح الطيبة التي تسمى ملائكة، وذو فضيلة جسمانية يناسب بها الأنعام لأنه مركب منها، فهو بالخير الجسماني الذي يناسب به الأنعام مقيم في هذا العالم

السفلي مدة قصيرة ليعمره وينظمه ويرتبه حتى إذا ظفر بهذه المرتبة على الكمال أنتقل إلى العالم العلوي وأقام
فيه دائماً سرمداً في صحبة الملائكة والأرواح الطيبة). ثم تراه يقرر أنه ليس يعني بالعلوي المكان الأعلى في الحس، ولا بالسفلي المكان الأسفل في الحس، بل كل محسوس فهو أسفل وإن كان محسوساً في المكان الأعلى، وكل معقول فهو أعلى وإن كان معقولاً في المكان الأسفل. ثم نراه يذكر لنا أن للحسن لذة عرضية على حدة، وأن للعقل لذة ذاتية على حدة، وأن من لا يعرف اللذة الذاتية لا يعرف اللذة بالحقيقة ولا يلتذ بها. وهو يسمي اللذة الناقصة التي تشاركنا فيها الحيوانات لذة انفعالية، ويسمي التامة التي يختص بها الحيوان الناطق لذة فعلية أي فاعلة، وسمى اللذات الحسية المقترنة بالشهوات عرضية لأنها تزول سريعاً وتنقضي وشيكاً بل تنقلب لذاتها فتصير غير لذات بل تصير آلاماً كثيرة أو مكروهة بشعة مستقبحة، أما اللذة الذاتية فتسمى كذلك لأنها لا تصير في وقت آخر غير لذة ولا تنتقل عن حالتها بل هي ثابتة أبداً. وخرج من هذا الحكم بأن السعيد تكون لذاته ذاتية لا عرضية، وعقلية لا حسية، وفعلية لا انفعالية، وإلهية لا بهيمية. ثم يحدثنا بعد ذلك عن الجوهر الإلهي الذي في الإنسان وأنه إذا صفا من كدورته التي حصلت فيه من ملابسة الطبيعة ولم تجذبه أنواع الشهوات وأصناف محبات الكرامات، اشتاق إلى شبيهه ورأى بعين عقله الخير الأول المحض الذي لا تشوبه مادة؛ فأسرع إليه وحينئذ يفيض نور ذلك الخير الأول عليه، فيلتذ به لذة لا تشبهها لذة، ويصير إلى معنى الاتحاد، استعمل الطبيعة البدنية أم لم يستعملها، إلا انه بعد مفارقته الطبيعة بالكلية أحق بهذه المرتبة العالية، لأنه ليس يصفو الصفاء التام إلا بعد مفارقته الحياة الدنيوية. فترى من هذا كله إعزاز الجانب الروحي في الدنيا، وهو بلا ريب في الآخرة أعز، وفي الجنة أوفى، فأحب أنا إذا ذكرنا الحور العين مثلاً وأنهن كما ذكر الغزالي غنجات عاطرات آمنات من الهرم والبؤس مقصورات في الخيام، وإذا ذكرنا انه يطاف على المؤمنين وحورهم بأكواب وأباريق وكأس من معين بيضاء لذة للشاربين وأن الذين يطوفون خدام وولدان كأمثال اللؤلؤ المكنون في مقام أمين في جنات وعيون في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر (كما جاء في القرآن في سورة الرحمن والواقعة، وغيرهما) أحب إن يكون فهم لذة هذا كله ما ذكرنا من تقديس خالق هذه الصور وهذه الجنات وهذه الأنهار، وفهم أن اللذة الروحية التي يتمتع بها المؤمنون من كل هذا هي أسمى مما يصوره بعضهم من أن المقصود هو أن يباضع
المؤمن كل هذه الحور وأنه يؤتى قوه عجيبة إذ ذاك على الجماع. ولا أنكر أن يكون هذا في الجنة لأنه لذة وإن كانت لذة حسية إلا أنها لذة لها حبها والرغبة فيها. ولكن الذي أنكره وأنكره بكل قواي أن يكون هذا الأمر الثانوي هم أهل الجنة أو أن يفهم بعضهم من ذكر الوالدان الفهم السقيم الذي سبق أن ذكرناه وعارضنا فيه بعض العلماء، وأرى أن أسمى جزء في التمتع هو التمتع بالفكرة الروحية، وأن يكون المؤمنون في مقعد صدق عند مليك مقتدر ينظرون فيها إلى وجه الله الكريم وقد أشرقت في وجوههم نضرة النعيم، لهم فيها كل ما يشتهون، وأنهم كل يوم بفناء العرش يحضرون، وأنهم ينالون النظر من الله ما لا ينظرون معه إلى سائر نعيم الجنان. هذا وقد ذكر الأستاذ داود حمدان البعث والنشور، والرأي أنه سواء أخذنا بإعادة المعدوم في الكل أو جمع ما تفرق منه، فإنها إذا أعيدت في الآخرة فلا بد أن يجعلها الله تعالى في نشأة أخرى مستعدة للبقاء غير قابلة للفناء مهيأة لما تلقاه من النعيم أو العذاب، وتكون الأرواح فيها قوالب الأبدان والأبدان من جنس أرواحها كما ذكره أبن القيم، وإن جميع الإدراكات من سمع وبصر ولذة وألم لا تكون متفرقة في مواضع البدن كما هي في نشأة الدنيا بل يوصف كل جزء بأنه سميع بصير متلذذ متألم كما تقتضيه نشأته (وننشئكم فيها لا تعلمون) ومعنى (كما بدأنا أول خلق نعيده) أنا نعيد أول خلق ممثلاً للذي بدأناه؛ والتشبيه يقتضي المغايرة (كما ذكر أستاذنا المرحوم الشيخ محمد حسنين مخلوف العدوى في كتابه أحكام الروح ص 98) فهذا لا ينافي إعزاز اللذة الروحية. وكذلك ذكر الأستاذ جويق رؤية الله تعالى، والرأي أنه جل شأنه لا يرى ولا يحس إلا بعين مخلوقة له ومجلي لائق باستعداد الرائي كما نقله الألوسي عن بعض المحققين في تفسير قوله تعالى: (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناضرة) أنه إذا

رفع الحجاب بينه تعالى وبينهم ينظرون إليه وينظر إليهم وجل. وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية فيرونه سبحانه لكن لا من حيث عز ذاته البحت ولا من حيث كل تجل حتى تجليه بنوره الشعاعي الذي لا يطاق، بل بتجل مطاق لهم وملائم لاستعدادهم وأن هذا الحجاب (كما ذكر أستاذنا مخلوف في أحكام الروح ص 102) غير الحجاب المشار إليه في حديث (حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه (أنواره وجلاله وعظمته التي منها خر موسى صعقاً وتقطع الجبل دكاً لما تجلى عليه) كل شي أدركه بصره، فلا معنى

لرؤية ذاته تعالى عند المحققين إلا رؤية حجابه (حجاب التنزل والتجلي) كما أنه لا معنى لرؤية ذواتنا إلا رؤية ألوانها وأضوائها، وهذه لذة روحية عند من يفهمون الروحانيات. جعلنا الله رجال روح، ومتعنا في الجنة بحسياتها ومعنوياتها نعيم روح أبدى سرمدي.

محمود علي قراعة

خليل مردم بك

وكتابه في الشاعر الفرزدق

لأستاذ جليل

وصف الفرزدق (الفرزدق واسع المخيلة، حسن الملاحظة، جيد القصص؛ وهذه المزايا أهم عناصر الوصف في الشاعر، وهو أميل إلى الأسلوب القصصي في الوصف. ولو توسع في ما كان يتناوله من المعاني على سبيل التشبيه أو التمثيل أو الإشارة، لو توسع أو خصص، لخلف الأدب العربي صوراً من أروع الصور الشعرية)

ذلك مما قال الأستاذ في الشعر الوصفي الفرزدقي، وقد روى له في هذا الباب أشياء محكمة، وأشار إلى غيرها ذاكراً أماكنها في الديوان. ومما روى له قوله في السفينة:

وراحلةٍ قد عودوني ركوبها ... وما كنت ركاباً لها حين تُرحل

قوائمها أيدي الرجال إذا انتحت ... وتَحمل من فيها قعوداً وتُحمل

إذا ما تلقتها الأواذيّ شقها ... لها جؤجؤ لا يستريح وكلكل

إذا رفعوا فيها الشراع كأنها ... قَلوص نعام أو ظليم شمردل

وقوله في أسد:

وردُ السراة ترى سودا ملاغمه ... مجاهر القرن لا يكتن بالخمر

كأن عينيه والظلماء مسدفة ... على فريسته ناران في حجر

كأن عطارة باتت تَعلّ له ... بالزعفران ذراعي مخدر هصر

وقوله في شجّة يهدد بها جريراً - روى الأستاذ منه تسعة أبيات -:

بعيدة أطراف الصدوع كأنها ... ركيّة لقمان الشبيهة بالدَّحل . . .!

إذا نظر الآسون فيها تقلبت ... حماليقهم من هول أنيابها الثُعل!

إذا ما رأتها الشمس ظل طبيبها ... كمن مات تحت الليل مختلس العقل!

يود لك الأدنون لو مت قبلها ... يرون بها شراً عليك من القتل!

وقوله في الشيب:

تفاريق شيب في السواد لوامع ... وما خير ليل ليس فيه نجوم؟

وأبياته في الذئب مشهورة مستأسدة.

تغزل الفرزدق و (غزل الفرزدق على ما فيه من جفاء اصدق ما قال من الشعر. فهو الذي يكشف عن طبع الفرزدق الجافي ونفسه الماجنة الشرهة إلى اللذة. وهو غزل شهواني غير عفيف فيه فجور ومجون، وعاطفة الفرزدق فيه خشنة. وله غزل يقص فيه حوادثه الغرامية، وقد يصف الحوار الذي يدور بين أشخاص تلك الحوادث، ولاسيما النساء؛ وقصصه الغزلي أشبه بالقصص المروي لامرئ القيس).

وقد أورد الأستاذ أمثلة كثيرة من أقوال الفرزدق تبين أسلوبه في غزله - من ذلك خمسة وعشرون بيتاً - من القصيدة التي مطلعها:

ألا من لشوق أنت بالليل ذاكره ... وإنسان عين ما يغمض عائره؟!

والختام فيما أورده (الكتاب) هو:

فيارب، إن تغفر لنا ليلة النقا ... فكل ذنوبي أنت (يا رب) غافره

ومما روى الأستاذ:

يا أخت ناجية بن سامة، إنني ... أخشى عليك بنيّ إن طلبوا دمي

لو كنت في كبد السماء لحاولت ... كفاي مطلَّعاً إليك بسلم
هل تذكرين إذ الركاب مناخة ... برحالها لرواح أهل الموسم؟
إذ نحن نخبر بالحواجب بيننا ... ما في النفوس ونحن لم نتكلم
ولقد رأيتك في المنام ضجيعتي ... ولثمت من شفتيك أطيب ملثم!
منع الحياةَ من الرجال وطيبها ... حدقٌ تقلبها النساء مراض
وكأن أفئدة الرجال إذا رأوا ... حدق النساء لنبلها أغراض!
وفي (ديوان المعاني) في (ما قيل في شعبان وشهر رمضان وشوال): فمنه قول الفرزدق وأجاد في ذلك:
إذا ما مضى عشرون يوماً تحركت ... أراجيف بالشهر الذي أنا صائمه
وطارت رقاع بالمواعيد بيننا ... لكي يلتقي مظلوم قوم وظالمه
فإن شال شوال تُشل في أكفنا ... كؤوس تعادي العقل حين تسالمه
ومعاني هذه الأبيات كلها مبتكرة لم يسبق إليها الفرزدق.
وإذا لم تكن هذه الأبيات لمن نسبت إليه فمن قائلها؟
وروى البحتري له أبياتاً في الشيب والشباب في حماسته منها:
فلم أر كالشباب متاع دنيا ... ولم أر مثل جدته ثيابا!
ولو أن الشباب يذاب يوماً ... به حجر من الجبلين ذابا!
قال الفرزدق في الأدب والحكمة و (للفرزدق في الأدب والحكمة مقدار من الأبيات يشتمل بعضها على رأي صحيح أو حكمة حسنة، أو قول يتمثل به، وهذا الضرب يمثل الروح العربية في أدبها وحكمتها).
وروى الأستاذ للفرزدق جميع الأبيات الآتية:
لا يعجبنك دنيا أنت تاركها ... كم نالها من أناس ثم قد ذهبوا
يفنى أخوك، فلا تلقى له خلفاً ... والمال بعد ذهاب المال يكتسب
ألم تعلموا يا آل طوعة إنما ... يهيج جليلات الأمور دقيقها
قوارص تأتيني وتحتقرونها ... وقد يملأ القطر الإناء فيفعم
والإناء في طبعات الأغاني والكامل، وطبقات الشعراء للجمحي، والإيجاز والإعجاز للثعالبي. ورواية (الأتي) اقرب إلى الفرزدقية:
فكان كعنز السَّوْء قامت بظلفها ... إلى مدية وسط التراب تثيرها
وكنت كذئب السوء لما رأى دماً ... بصاحبه يوماً أحال على الدم
من هنا أخذ صاحب (اللزوميات) القائل:
وأفعلْ بغيرك ما تهواه يفعله ... وأسمع الناسَ ما تختاره مُسمعه
وأكثرُ الأنسَ مثل الذئب تصحبه ... إذا تبيّن منك الضعفَ أطعمه
وبيت الفرزدق من شواهد الصحاح واللسان والتاج وغيرها.
وفي اللسان: (تقول هذا رجل سوء بالإضافة، وتدخل عليه الألف والآم فتقول: هذا رجل السوء. قال الفرزدق. . .)
فقد تلتقي الأسماء في الناس والكنى ... كثيراً، ولكن لا تلاقى الخلائق
هذا البيت في ثلاثة أبيات ذكر البغدادي منها أثنين (قال: يونس بن حبيب: أشد الهجاء الهجاء بالتفضيل؛ وذلك كما قال صديق مولانا القريب، وابن عمته النسيب الفرزدق بن غالب، وقد قيل له: انزل على أبي قطن قبيصة فحسبه ابن مخارق الهلالي، فإذا هو آخر،
وذم قراه وجواره فقال:
سرت ما سرت من ليلها ثم وافقت ... أبا قطن ليس الذي لمخارق
وقد تلتقي. . . و (تلاقي) إما فعل حذفت إحدى النائين تخفيفاً، وفي البيت - والحالة هذه - إكفاء أو إقواء، وإما مصدر سكنت الياء فيه ضرورة، وفي (شرح النهج) لأبن أبي الحديد: (ولكن ميزوا في الخلائق). ورواية الأستاذ المردمي والبغدادي أصح.
وروى الأستاذ لأبي فراس من مقلداته:
أحلامنا تزن الجبال رزانة ... وتخالنا جناً إذا ما نجهل!
قال الأمدي في (الموازنة) - وأني لأنقل قوله على ما بيننا من خصومة قديمة. . . -: (أنكر أبو العباس قول أبي تمام:
رقيق حواشي الحلم لو إن حلمه ... بكفيك ما ماريت في أنه برد

وقال: هذا الذي أضحك الناس منذ سمعوه إلى هذا الوقت. والخطأ في هذا ظاهر، لأني ما علمت أحداً من شعراء الجاهلية والإسلام وصف الحلم بالرقة، وإنما يوصف الحلم بالعظم والرجحان والرزانة، كما قال الأخطل:

شُمس العداوة حتى يستقاد لهم ... وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا

وكما قال الفرزدق: أحلامنا. . . ومثل هذا كثير في أشعارهم. ألا ترى أنهم إذا ذموا الحلم كيف يصفونه بالخفة فيقولون: خفيف الحلم، وقد خف حلمه.

ونسب أبو تمام في الحماسة إلى الفرزدق هذين البيتين:

إذا ما الدهر جر على أناس ... كلاكله أناخ بآخرينا

فقل للشامتين بنا: أفيقوا ... سيلقى الشامتون كما لقينا

وهما للعلاء بن قرظة خال الفرزدق: (قيل للفرزدق مالك وللشعر فوالله ما كان أبوك غالب شاعراً، ولا كان صعصعة شاعراً. فمن أين لك هذا؟ قال: من قبل خالي. قيل: أي أخوالك؟ قال: خالي العلاء بن قرظة الذي يقول: (إذا ما الدهر. . .؟)

وفي (ديوان الحماسة) في باب الحماسة مقطوعة - ثمانية أبيات - للفرزدق، وأختير له في باب المديح والأضياف: ستة أبيات جيدات. يقول فيها واصفاً قدره التي بعث بها إلى ضيفه:

غضوباً كحيزوم النعامة أُحمشت ... بأجواز خشب زال عنها هشيمها

وروى الأستاذ المردمي للفرزدق هذا البيت:

أترجو ربيع أن تجيء صغارها ... بخير وقد أعيا ربيعاً كبارها

ونسبة أبو تمام في الحماسة إلى شعيث بن عبد الله، والبيت من مقلدات الفرزدق.

وروى أبو تمام في باب الهجاء لفرعان بن الأعرف في أبنه منازل مقطوعة، فيها هذان البيتان:

وربيته حتى إذا ما تركته ... أخا القوم واستغنى عن المسح شاربه

أأن أرعشت كفا أبيك وأصبحت ... يداك يدا ليث فإنك ضاربه

والبيت الثاني للفرزدق في مقطوعة في أبنه لبطة، وكان من العققة (واستغنى عن المسح شاربه) من بيت في المقطوعة. قالوا: كان فرعان من اللصوص، فهل سرق المقال سرقته المال أو لص الفرزدق اللص. . .

ولم يرو أبو تمام في الحماسة للأخطل شيئاً، وروي لجرير ثلاثة أبيات في رثاء أبنه سوارة، ولا يدل ذلك على أن ليس جرير جريراً ولا الأخطلُ الأخطلَ

يقول الأستاذ: (وللفرزدق ضرب آخر، فيه زهد ونسك وتوبة ووعظ وإقرار بالذنب وزجر للنفس؛ وهذا الضرب يمثل الروح المتأثرة بالدين، وهو في كلا الضربين - في هذا وفي شعره في الأدب والحكمة - يمثل الشاعر الإسلامي في عصر بني أمية عصر العروبة المتأثرة بالإسلام، من ذلك قوله:

ألا كل شيء في يد الله بالغ ... له أجل عن يومه لا يحوَّل

وإن الذي يغتر بالله ضائع ... ولكن سينجي الله من يتوكل

تبين ما يخفى على الناس غيبة ... ليالٍ وأيامٌ على الناس دوَّل

يبين لك الشيء الذي أنت جاهل ... بذلك علام به حين تسأل

وروى الأستاذ لأبي فراس أربعة عشراً بيتاً من قصيدته التي أعلن فيها توبته وهجا إبليس، منها قوله:

وما أنت يا إبليس بالمرء أبتغي ... رضاه ولا يقتادني بزمام

سأجزيك من سوءات ما كنت سقتني ... إليه جروحاً فيك ذات كِلام!

تعيرها في النار والنار تلتقي ... عليك بزقوم لها وضرام!

وقد اغتبط أبو فراس بهذا الهجاء فغدا إلى الإمام الحسن البصري فقال له: إني هجوت إبليس فأسمع. قال: لا حاجة لنا بما تقول، قال: لتسمعن أو لأخرجن فأقول للناس: إن الحسن ينهى عن هجاء إبليس. . .

قال: أسكت، فإنك بلسانه تنطق. . .

قال الأستاذ: (وللفرزدق معان لا تدخل تحت باب من هذه الأبواب ولكنها ذات بال لأنها تلقى نوراً على حياة الفرزدق الخاصة وحياة محيطه) وأشار إلى أشياء من هذه المعاني وروى أبياتاً للفرزدق يشكو فيها إلى الوليد بن عبد الملك جور عامل، منها قوله:

أمير المؤمنين وأنت تشفى ... بعدل يديك أدواء الصدور!
فكيف بعامل يسعى علينا ... يكلفنا الدراهم في البدور!
وأنى بالدراهم وهي منا ... كرافع راحتيه إلى العبور!
فلو سمع الخليفة صوت داع ... ينادي الله هل لي من مجير!
وأصوات النساء مقرنات ... وصبيان لهن على الحجور!
إذن لأجابهن لسان داع ... لدين الله مغضاب نصور!
(يتبع - الإسكندرية)
* * *
كتاب الأغاني
لأبي الفرج الاسكندراني
رواية الأستاذ عبد اللطيف النشار
صوت
أنا الفنان لبيكِ ... مناديتي وسعديكِ
إذا لامست مصباحي ... أتى بي لمس كفيكِ
كأسرع خاطر يَسري
الشعر للأستاذ توفيق الحكيم وفيه لحن من صنعة علاء الدين أحد أبطال قصة ألف ليلة وليلة
حدثنا أبو الفرج قال: الخطاب في هذا الصوت موجه إلى وزارة المعارف، وكانت قد عهدت إلى طائفة من كبار الأدباء بتلخيص الكتب العشرة المختارة، فلما كان موعد بحثها عن الأديب الذي يصلح لتلخيص ألف ليلة، رأت أن الكتاب ذو جانبين: جانب يفتقر إلى تحقيق علمي وجانب إلى روح فنية. فلم تزل تبحث عمن تتوفر فيه روح الفن حتى وقع نظر وزيرها السابق هيكل باشا على المصباح الأخضر
قال: والمصباح الأخضر هذا هو المصباح المسحور الذي كان علاء الدين قد وجده في كنز مرصود قاده إليه الساحر المصري. وكان علاء الدين لا يزال طفلاً يتيماً، وقد عرف الساحر أن الكنز لا يفتح إلا على يديه فأدعى أنه عمه وقاده إلى الخلاء ثم أطلق البخور وقرأ التعاويذ ففتح الكنز. ودخل علاء الدين واخذ المصباح، وكان الساحر يريد أن يأخذ المصباح منه وهو بداخل الكنز ولكن الصغير كان موفقاً في الرأي فأبى تسليمه حتى يخرجه، وغضب الساحر فأغلق باب الكنز وترك علاء الدين
وكان مع علاء الدين خاتم أعطاه إياه الساحر من قبل، فلما مسحه جاء خادم من الجن موكل بطاعة من يحوز الخاتم. فطلب إليه أن يفتح الكنز ففعل، ثم نقله إلى منزله ومعه المصباح
ومسحت أم علاء الدين ذلك المصباح لتجلو الصدأ عنه، وكان المسح رمزاً لخادم المصباح وهي لا تعلم ذلك فجاءها الخادم ولم يزل يأتمر بأمرها يفعل المستحيلات من أجلها ومن
أجل علاء الدين حتى فقد المصباح فحازه آخرون
قال أبو الفرج: وكان أخر مطاف هذا المصباح أن أخذه أهل الكهف فبقى في كهفهم ثلاث مائة سنين وتسعاً، وكان لونه من قبل ذهبياً فعلاه الصدأ واستحال على مدى العصور إلى مصباح أخضر
قال: ويظهر أن أهل الكهف كانوا قد طلبوا إلى خادم المصباح أن يوقظهم بعد ثلاثمائة سنين وتسع ولكن هذه مسألة لا ينبغي أن نماري فيها الأمراء ظاهراً ولا نستفتي فيها منهم أحداً
قال أبو الفرج: فلما وضع الأستاذ توفيق الحكيم قصة (أهل الكهف) زار المكان الذي دفنوا فيه قبل بعثهم كما يفعل كبار الكتاب والمحققين من نشدان الحقائق في وجوها وبيئتها، وكما فعل هيكل باشا لما حج قبل أن يكتب السيرة. قال: فوجد الأستاذ توفيق الحكيم ذلك المصباح في الكهف وأراد أن يجلو الصدأ عنه فجاءه خادم المصباح فإذا هو فنان يضع المسرحيات البارعة ويكتب ما يكتب تحت ضوء المصباح الأخضر
ولما وقع نظر الوزير الأديب هيكل باشا على المصباح مسحه هو أيضاً، ولكن لم يظهر له العفريت خادم الطلسم بل ظهر له الأستاذ توفيق الحكيم، فعهد معاليه إليه أن يراجع كتاب ألف ليلة وليلة، فأنشد بين يدي معاليه هذا الصوت:

أنا الفنان لا أبدو ... لعين ما لها قلب
أنا الفنان لا أبدو ... لقلب ما به حب
يشق الغيب مصباحي ... وتساقط دونه الحجب
وسر الغيب في المصبا ... ح والمصباح لا يخبو
بكف أدركت سري
تولى إمرتي حيناً ... سليمان بن داود
فهل جددت الدنيا ... كإنشائي وتجديدي
بنيت الصرح من ماء ... كريم غير مورود
وسخرت له الريح ... بتذليلي وتعبيدي
وعلمي منطق الطير
وجئت إليه من سبأ ... بأخبار وأنباء
فلما استعظم الجهد ... أتيت له بأحياء
نقلت العرش والتاج ... إليه وبنت حواء
ولم يتحرك الجفنا ... ن منه غير إيماء
أهذي قدرة السحر
فلما ضاع مصباحي ... تحطم كل ما شدت
مضى في رحمة الله ... وعفت الكون أو كدت
وخال الجاهل الغر ... بآني بعده مت
ولو خلد مخلوق ... على الدنيا لخلدت
فموتى آخر الدهر
أنا الفنان لا أبدو ... إذا ما ضاع مصباحي
فآمالي وأشجاني ... وأحزاني وأفراحي
وما أخشى وما أرجو ... معلقة بأرواح
بأرواح خفيات ... تضاء بضوء مصباحي
فذلك كله سري

قال: وهي قصيدة طويلة جداً، ويزعم الزاعمون أنها منقوشة على مصباح علاء الدين وأنها تفسر سر المردة والشياطين بأنهم أسماء مترادفة لكلمة الفن فهو الذي جعل الناس

كلما ... رأوا حسناً عدوه من صنعة الجن . . . . . .

قال الأستاذ توفيق الحكيم: ولقد راجعت اشتقاق كلمة الجن في جميع اللغات فوجدت الذكاء الخارق

والجن بمعنى واحد في كل لغة، فالعرب يقولون العبقري ومكان الجن عبقر. والأوربيون يقولون (جني) (وجنيس). وليس من الصفات المنافية للذكاء أن يبدو المرء كأنه نائم، فلعله يكون قد قضى حيناً من الدهر مع أهل الكهف. وليست زيارة الكهوف بالأمر الذي يسهل احتماله ولا بالذي لا يترك على الهوية العامة طابع النوم العام

وحدثنا الدكتور حسين فوزي قال: لقد أخطأ الكثير من النقاد في فهم كتاب أهل الكهف

للأستاذ توفيق الحكيم فعده البعض عربي الأصل لأن القصة وردت في القرآن الحكيم. وعده البعض مسيحي الأصل لان القصة مروية من قبل أساطير المسيحية؛ وهي في كتاب الله العزيز ذات مغزى يشير إلى قدرة الله على البعث، وهي في الأسطورة المسيحية ذات مغزى يشير إلى معنى آخر. قال: ولكن القصة كما يرويها الأستاذ توفيق الحكيم ذات لون فني آخر، فهي غير منظور فيها إلى هذين المصدرين العظيمين إنما مصدرها كتاب الموتى الفرعوني

قال الدكتور حسين فوزي: وإن قصة أهل الكهف للأستاذ الحكيم ليست إلا لحناً جنائزياً رائعاً لحياة الفنان المحروم من نصفه الآخر هي تعني الحياة بغير أصدقاء لأنهم فقدوا، إنما مبعث هذا الألم فقدان الصديقة التي لم توجد. قال ولقد غبن الناس صديقي حين سموه عدو المرأة، وما كان الفنان ليكون عدواً لها إلا على تفسير العامة: (من جهل أمراً عاداه)

وحدثنا الأستاذ إسماعيل أدهم قال: (لقد ناقشني الدكتور بشر فارس في تحقيقي

العلمي على طريقتي الخاصة لتاريخ مولد الأستاذ توفيق الحكيم وزعم أن التاريخ الصحيح هو الذي ذكره الحكيم نفسه والذي أجمع عليه الناس، ودلت عليه الأوراق الرسمية. ولقد شهد الدكتور بشر فارس بذلك على نفسه أنه غير جدير بالمكانة التي هو فيها من الشعر الرمزي. إنني ما حددت لمولده تاريخاً غير تاريخ مولده إلا إشارة رمزية مني لأنه من أهل الكهف

وحدثنا الأستاذ بشر فارس قال: أما وقد اعترف الأستاذ المعروف بالدكتور بهذه الحقيقة فإن تاريخ مولد الأستاذ الحكيم يرجع إلى القرن الثاني من ميلاد المسيح

قال الأستاذ توفيق الحكيم: لقد وهم كل هؤلاء فإن تاريخ مولدي سابق على تاريخ الكون. أليس أفلاطون يقول إن الفكرة وجدت أولاً ثم وجد الكون على غرارها؟ وبالله ماذا تكون الفكرة (الأديال) غير الفن؟ ألم يكن يقول شوبنهور إن الطبيعة محاكاة للفن وليس الفن هو الذي يحاكي الطبيعة؟ وهل يرى النقاد فارقاً في المعنى وإن اختلف اللفظ بين نظرية أفلاطون ونظرة شوبنهور. . . وهل ثمة فارق بين الأديال وبين الفن.

ثم التفت إلى وزارة المعارف وأنشد:

صوت

أنا الذي دوى ... بقلبك دون أذنيك
أنا الطيف الذي يبدو ... لروحك قبل عينيك
وكل ممرد عال ... وكل مظلل رحب
وكل محبب غال ... وكل مقطر عذب
وما يعزى إلى المجد ... وما يبني على الحب
وما يخشى وما يرجى ... وما يهوى وما يصبى
جميع الكون من أمري

الصوت للأستاذ توفيق الحكيم. وفيه لحن لعفريت في شاطئ الإسكندرية محبوس في قمقم.

(يتبع)

عبد اللطيف النشار

الجبر والاختيار في كتاب الفصول والغايات

(مهداة إلى الأستاذ محمود حسن زناتي)

للأديب السيد محمد العزاوي

(تتمة)

وقول الحق أمثل من السكوت، واستقامة العالم لا تكون، ولذة الدنيا منقطعة، . . .) (. . .وخبر الميت غير جلي، إلا أنه قد لقي ما حذر، فأسع لنفسك الخاطئة في الصلاح

أريد الآن أن أتبين جبرية المعري من أي نوع هي؟ أهي ميتافيزيقية حقاً؟ هل نظر أبو العلاء في الكون فقرر في أحد نصوصه حينما أنكر الاختيار إنكاراً شديداً ما قرره اسبينوزا من أن شعورنا بالحرية في أفعالنا ما هو إلا نتيجة تقدم معرفتنا للأسباب التي تدفعنا، وأن سلوك أي كائن ينتج ضرورة عن طبيعته، كما أن صفات المثلث تنتج ضرورة عن طبيعته كما يقول ليبنتز. وهل نظر أبو العلاء فيما يوجب علينا الجبر؟ أهو هذا النسيج القوي المتلاحم من السبب والنتيجة؟ أم هي قوة تفرض علينا هذا فرضاً مبهماً غامضاً؟ وهل ميز في الجبرية بين اضطرار ميكانيكي يدفع، ولا محيص عما يدفع إليه، وبين دوافع ميكانيكية إن دفعت إلى فعل فلا توجب حدوثه؟

وهل كانت نظرته فلسفية حقاً؟ هل تكلف لها التجريد والارتقاء والقياس والحصر واستنباط الأحكام؟ وهل هو انتهى إلى أحكام ثابتة يمكن أن تضاف إلى الآراء الفلسفية القويمة؟

هل نظر في تقريره الجبرية إلى الناحية النفسية فقال بأن الإرادة تنفصل تماماً عن الشعور والآراء، وإذا كانت الآراء جبرية لا تعدم شعوراً موجهاً نحو غاية فتقتضي لذلك فكرة، والفكرة من أمر ألة حرة العمل؟ هل قرر أن أعمال المرء وليدة مجموعة من الظروف معقدة غاية التعقيد تعين نوع الأفعال الصادرة عن الإنسان؟؟

أو من الناحية الأخلاقية، فقرر على أية أسس إذن يمكن أن تنبني الأخلاق؟ وما هو القول الفصل في التبعات الأخلاقية بأنواعها؟ وما هو الرأي الواضح البين في البعث

والحساب والعقاب؟
الواقع أن أبا العلاء لم يتبع البحث العلمي ولا طرقه، بل أن بيئته قد أثرت عليه تأثيراً كان
من نتائجه أن تكيفت نظرة أبى العلاء تكيفاً إن لم يكن كلامياً محضاً فقد شابته الشوائب الكلامية؛ فأهتم بخلق الأفعال: أهي من صنع الله أم من صنع الإنسان. وأهتم لمرتكب الكبيرة أهو خالد في النار أم مجرم يرجى غفران الله. واهتم بصفات الله أهي خارجة عن ذاته أم هي منها؟ وهذا هو السبب الذي حدا بي أن أفصل جبرية أبي العلاء على منهاج الكلاميين
الحق أنه من الظلم أن نقارن بين أبي العلاء وبين الفلاسفة. فأبو العلاء لم يقصد إلى الفلسفة قصداً فنأمل أن يتحدث عن الجبرية كما يتكلم سبينوزا أو ليبنتز أو عمرو بن عبيد وغيرهم من الفلاسفة وعلماء الكلام، وأن يتحدث عن الكون كما يفعل أرسطو أو أفلاطون
ولم يقصد إلى الأخلاق وإصلاح المجتمع فيحدثنا عنهما كستيوارت، وإنما هو أديب قبل كل شيء، وأديب يعني بالصناعة الأدبية: يحفل للفظ ويعني به عناية الجوهري، ويحرص على الغريب منه ويتلغبه ويتقفاه، ويستطرد له استطراداً ربما أضاع المعنى أو أضعفه. وهو كذلك يحفل للمعنى الطريف فيبحث عن أي ثوب يلبسه، وبأي شكل يعرضه، ومبلغ ما يكون فيه من حسن إذا كان على هذه الصورة أو تلك. وهو أديب كذلك يأخذ شواهده وأمثلته مما يرى وما يسمع وما يحس. فهو إذا فكر في أقدار الإنسان ضرب لنا مثلاً مما حوله وأنتزع مواد تفكيره ووسائل تسجيله مما حوله كذلك فهو لم يحاول أو قل لم يستطع أن يجرد العالم من ظواهره وينفذ إليه حقيقة عارية متحدة، وإنما هو كان يريده رافلاً في تلك الصورة والمعاني التي درج الشعراء على أن يخلعوها عليه. ولعل حرص أبي العلاء على المعاني المبتكرة، والأفكار الخفيفة واللفظ القوي الغريب، والسبك المتين كأن أشد من حرصه على النظرات الفلسفية العريضة الشاملة. ولعل ميله إلى إظهار آثار ذاكرته الأدبية القوية التي تعي أخبار الأقدمين وأشعارهم وعلمهم، ومقدرته اللغوية البيانية التي تسمو به إلى محاولة تقليد القرآن، ومزاجه الشاعري الذي يهفو إلى كل خاطر عابر، ويرنو إلى كل معنى بديع، لعل ذلك صرفه عن إن ينشئ فلسفة خاصة به بينة المعالم واضحة الحدود، أو أن يردد ما قال به معاصروه من الفلاسفة الإسلاميين وغير الإسلاميين. فأنت تستطيع - إن شئت - أن ترى صورة أدبية حقيقية لعصره، وأنت تستطيع إن شئت أن ترى صورة اجتماعية لعصره، ولكنك تكلف نفسك
الجهد إذا حاولت أن تظفر بصورة صادقة كاملة في الفلسفة في عصره أو بصورة لفلسفة له متكاملة متساوية
ولست أريد بهذا أن أنكر إن له فلسفة، وفلسفة جبرية خاصة، كلا، إن الرجل كما رأيت كان يدين بالجبرية ويؤمن بها إيماناً عميقًا قوياً. وكل شيء حوله يدفعه إلى هذا الإيمان العميق القوي. هو بالطبع كان مؤمناً بالله مسلماً ولكن إلهه كان مختلفاً عن إله الناس، كان ذلك الاضطرار الميكانيكي الذي يهيمن على الناس والعالم بجبروته المنضبط وحكمته الخفية، فلا سبيل إلى الشك في أن أبا العلاء له في هذه الناحية تفكير، ولن يستطيع أحد أن ينكر عليه ذلك التفكير
وأن جاز لنا بعد كل هذا أن نعد أبا العلاء متكلماً أو فيلسوفاً بمعنى دقيق فلا أقل من أن نثبت له ما يمكن أن يكون من أدوات الفيلسوف أو المتكلم ونظره، وأن نتبين أثره في الفلسفة حوله ومنزلته بين غيره. لقد كان يعتمد على العقل اعتماداً أهمل معه المتواتر، وفضله على الشرع، فهو قد خالف بهذا الأصل أهل السنة لأنهم يقدمون الشرع على العقل، وخالف المعتزلة لأنه يحترم العقل اكثر من احترامه الشرع مع اتفاقهما في تقديمه. فهو قرر مع المعتزلة قوة العقل على أدراك الحسن العقلي والقبح كذلك ولكنه قدم العقل على الشرع حين كان المعتزلة يضنون بذلك على العقل.
وأما قوله بأن الأفعال حكم مقدور، فهذا الرأي يوافق الجهمية فهم الذين قالوا بأن الله هو الذي خلق الأفعال وفرضها على المخلوق فرضاً. على حين أن المعتزلة تقول بأن المرء هو خالق أفعاله وأن للإنسان قدرة توجد الفعل بانفرادها واستقلالها دون الله

تعالى، ونفوا أن تكون الأشياء بقدر الله وقضائه
وإذا ما نظرنا إلى ما يقول في المنزلة بين المنزلتين لا يبدو لنا أنه تأثر بتلك الحدود التي وضعتها المعتزلة من أن صاحب الكبيرة ليس بكافر ولا مؤمن لكنه فاسق يستحق النار بفسقه. فهو كثير الرجاء لغفران الله لكل ذنب، شديد الأمل في رحمته كما رأيت لكل عاص، والشواهد على ذلك كثيرة جداً في الكتاب. أما لفظة (فاسق) فقد حاولت أن أجد لها عنده هذا المعنى الاصطلاحي فلم أوفق، ولعله كان يقصد بها (المذنب) دون أشراط الفسق الفقهية المعتزلية. أحصيت ورود الكلمة فإذا هو قد ذكرها اسماً وفعلاً نيفاً وعشر مرات في
مواضع في الكتاب مختلفة لم يقصد بها إلا مجرد المعصية والخروج عن الطاعة وفي مسألة البعث لا يوافق أبو العلاء الجهمية ولا المعتزلة. إذ إن كلا الفرقتين تجمعان على البعث. الأولى تقول بأن ذلك جبر والحساب والعقاب جبر كذلك. والثانية تقول به نتيجة إسنادها الأفعال للإنسان. وأما أبو العلاء فلا ينفي شيئاً ولا يثبت شيئاً كما رأينا ونجده حين يتعرض لذات الله يذهب مذهب المعتزلة والمعطلين؛ فهو لا يثبت لله صفة (وكيف يوصف بشيء خالق الصفات). وهذا نص واضح صريح. وأما قوله بأن الله حده الزمان وبأن المادة أزلية فلا يعنينا هنا كثيراً فليس هذا مقام البحث في فلسفة أبي العلاء الإلهية على وجه عام، وإنما الذي يعنينا هو إثبات الصفات للذات أو تجريدها عنها استعرضنا أفكار أبى العلاء الجبرية في كل ما تقدم ورأينا ما كان من اضطرابه وتنقله بين المذاهب المختلفة تنقلاً هو أقرب إلى تنقل الشاعر الذي يؤمن بالفكرة لحظة طروقها، ويؤمن بها حين يسجلها أيماناً بجعلها قطعة من نفسه في لحظة ما، أقرب إلى ذلك من تفكير الفيلسوف ينظر في الكون بنظر خاص به، وبه وحده. ونحن لا يمكن أن نقبل هذا الاضطراب من مفكر نحاول أن نقيم له فلسفة ذات أصول وفروع. هذا الاضطراب ليس ناتجاً عن ضعف في التفكير، ولا عن اتهام في العقل وشك في قوته على استكشاف الحقائق واستنباط الأحكام، بل عن تلاشي الشخصية في ذلك المجتمع الإسلامي الذي شاع فيه الحكم بالمروق عن الدين وما يتبع ذلك من إيذاء لم يكن المعري يحب أن يتعرض له؛ فكان إن اضطر إلى النقية والمصانعة بصرف الناس إلى الظاهر من الأمر. بل لعله اضطر إلى هذا الشك وتلك الحيرة لأنه درج على إثبات إله قادر حكم فلم يستطع - أو قل لم يحب - أن يعطله مما يقعد به عن الحكمة والعدل والكمال
وهو كان يدعو بعد كل هذا إلى الزهد؛ ولكن على أي أساس بنى هذا القانون الأخلاقي؟ وما الباعث؟ أكان ثقة منه وأيماناً بل هذه الدنيا مظهر من المظاهر الزائفة وظل للرغبات والأهواء على النفس الإنسانية والعقل البشري، فليس لها كيان واقعي خارج تلك النفوس والعقول؟ فهو يدعو إلى الزهد مبصراً الناس بهذه الحقيقة التي اكتشفها وفطن إليها؟ وهل هو استطاع أن يتبين في وضوح صلة الإنسان بهذا الكون؟ وهل أمكنه أن يدرك حقائق ثابتة وراء هذه العصور الزائلة الخادعة نسبته إليها كنسبة أي فرد من أفراد البشر إليها
فدعا إلى الفضيلة والتراحم باعتبار أن آلام الآخرين هي آلام الشخص وآلام الشخص هي آلام الآخرين لتلك الصلة التي أدركها؟
أغلب الظن بأن باعث هذه الدعوة لم يكن شيئاً من هذا، وإنما كان باعثاً سلبياً محضاً نتج عن جهله بما وراء الموت وخوفه من ذلك ورهبته وعدم تبينه ما يراد به من عقاب وثواب. فهو أن أوصى بالصلاح والزهد فذلك حتى لا يكون المرء - إذا صح البعث والحساب - من الخاسرين. من هنا نرى أن قانونه الأخلاقي الذي أستنه قد بنى على قاعدة سلبية محضة ليس فيها من الفلسفة قدر ما فيها من الحيطة والحذر الذين يوجبهما الجهل والتوقف. وكان الباعث كذلك نوعاً من الضيق القوي لظروفه الاجتماعية والشخصية جميعاً. فلذلك دعا إلى الوحدة والزهد في الناس: (فإن الوحيد في العالم لا يلحقه عيب من سواء). فهو كذلك يتقي المجتمع بطريقته السلبية. هو لا يحاول إصلاحه، فهو يائس من ذلك؛ ولكنه يتجنبه ويتقيه، وكان الدافع كذلك سخطاً شديداً على تحول الدنيا وعدم بقائها على حال: (فالدنيا حية عرماء، لمعة بيضاء، ولمعة دهماء، والأيام عوارم لا تترك لحى عراماً). إذن (ما البقاء إلا طول شقاء، والحياة ظلمة ليس فيها إياة، ومن السعادة أن يموت القوم كراماً). ولكن (أولع الولد

بالرغاث). وهو يهيب لذلك أن يا راغبُ رُع، والخشية فادرع، نحن على الدنيا نقترع، نتسايف ونسطرع والقدر لنا مضرع وهو يخاطب الدنيا معبراً عما يسخطه منها: (أيتها الدنيا البالية، ما أحسن ما حلتك الحالية، أين أممك الخالية، أن لُذ بك المتوالية والنفس عنك غير سالية، تتبع أولاك التالية، والله استنجد على تلك الصعدات) وحزنه على الدنيا ناتج عن إنها تخلط بين الفرح والسرور. فقد يكون الرجل كاسياً يمثل ريش الأخيل، وشبابه كروضة الوسمىّ، وعيشه أوسع من المومأة، وعروسه الصالحة الحسناء، فلا يخلو في ذلك من الكدر. إن داء الدنيا عرف قديماً، لا بد له من الانتقال، إما بالموت وإما بالحياة يمكن أن تكون عيشته زاردة مثل الزردة، ويلبس أخلاق ثياب كلباس الرأي، ويعارق العروس أم أن تهلك، وإما أن تختار سواه، وتكون روضة شبابه هشيما) والشواهد على ذلك كثيرة لا تكاد تحصى. وكل ما يمكن أن نستخلصه منها أسباباً لاعتزال أبي العلاء للدنيا ونصحه الناس بالزهد فيها لا يعدو أنها متقلبة لا تدوم، وأن خيرها يختلط بالشر وسرورها يختلط بالكدر، إلى غير ذلك من معاني الشعراء. فهل لو كانت ظروف أبى العلاء غير ما كانت، وهل لو كانت الدنيا على غير ما وصف أترى كان دعا إلى الزهد؟ ربما كان رأى في الكون ما رأى ولكنه لم يكن يبني الزهد في الدنيا على الأساس الذي بنى عليه دعوته التي رددها في الكتاب كثيراً

ولماذا حرص أبو العلاء على أن يثبت حكمة لتلك القوة التي تصرف أمور الناس، مع شقائه بهذه الحكمة لعدم الاهتداء إلى مراميها؟ تلك الإرادة التي بحث أبو العلاء عن حكمتها فلم يوفق والتي كانت مثار قلقه واضطرابه، والتي يخشى أن يتهمها بالظلم، لما يراه من تناقضاتها ومفارقاتها؟ كان مذهبه يستقيم، وعقله يطمئن إلى ما وصل إليه من تفكير لو أنه قال بإرادة غير عاقلة غاشمة، فإذا ما جردها من العقل والحكمة فلا جناح عليها أن تأتى من المفارقات ما يشاهد أبو العلاء وأكثر مما يشاهد. ولكنه مفكر (شاعر) في (وسط إسلامي) أنشأ الكتاب ليمجد الله ويعظ.

وقد حاول الأستاذ علي أدهم أن يعقد صلة بين أبي العلاء وبين شوبنهاور. ولست بصدد أن أتحدث عن نصيبها من الصحة. وإنما أقول أن أوجه الشبه إن صدقت في وجهات متعددة من نظر الرجلين إلى العالم والمجتمع بحكم ما بينهما من مزاج التشاؤم، فأنها لم تصدق في تلك الناحية الخاصة. حقاً إن كلا الرجلين قد أثبت الجبر وقال به. ولكننا إن تجاوزنا عن اختلاف الوسائل التي سلكاها فإنا لن نتجاوز عن فرق دقيق بين الجبريتين

أبو العلاء ردد كثيراً أن القوة المسيرة للكون (عاقلة) يصدر عنها الأفعال، والأقدار، والأرزاق، عن حكمة خفية لا يدرك كنهها وإن اجهد نفسه الجهد كله؛ وهو كذلك لم يستطيع أن ينظر إلى العالم نظرة تجريدية فلسفية، ولكنه قرر على أي تقدير بأن الدنيا شر، والطريقة المثلى للتخلص من شرورها وآلامها هي الزهد فيها وكبح الشهوات، وكبت الغرائز، والخلوص إلى العبادة والتفكير

وشوبنهاور قد اعتبر الحقيقة المطلقة إرادة عامة (لا تعقل) وذهب إلى أن ليست ثم إرادة فردية، فالفردية مجرد وهم لأنها قائمة على فرق الزمان والمكان. وقد قرر أن الإرادة شر في أساسها، وهي شبق حافز إلى الوجود، وحرص على اللذة والتمتع؛ فالحياة إرادة ورغبة تفيضان إلى الشقاء لأن الإرادة لا يمكن أن تروى غلتها أبداً من الرغبة في الحياة. وهو يعتبر غاية الحياة لذلك هي (الشقاء) وأفضل السبل فيها أن يخترق الإنسان حجب الوهم

الفردية ويرى عقم مطلب إشباع الرغبة ويتحرى العفة، فيصل إلى هدوء صوفي يشبه الهدوء البوذي، واعتبار الحياة قطعة من الفن. . .

فهما ينتهيان إلى غاية واحدة ويقرران مبدأ أخلاقياً واحداً ولكن بنظرين في الكون مختلفين، وانك لترى قانون شوبنهاور قد بنى على أسباب فلسفية محضة، فما ابعد بين المفكرين.

(تم البحث)

السيد محمد العزاوي

من نار الفراق

سأسخر بالأقدار بعدك!. . .

للأستاذ محمد حسن إسماعيل

(أنني أقدس فيك قلباً ما وهب الله متله لبشر، وعواطف ملائكية طاهرة، وإخلاصا ما شابه زور أو خيانة، وما أنا إلا زهرة شاء حظي السعيد أن أتتفتح على نور حبك وسحر أنغامك. فأي قوة في العالم تستطيع أن تنتزع هذه الزهرة إلى غير أرضها دون أن يلحقها الفناء، أو تفصل روحي عن جسدها!. . .)

من رسائلها إلي

تريدينَ مني الصبر هاتي رحيقَهُ ... وإلا فخَلِّيني ونيرانَ ثوْرتي!
نفختِ لَظاها في دمي، وتركتِها ... تؤَجِّج أحلامي وتكرب حَيرتي
وتَنسَخُ أيَّامِي عليكِ قصيدةً ... مشوشةَ الأنغامِ تَهذي بلوْعتي
وتنتظرينَ الصبرَ؟ إني نشدتُهُ ... فأقبلَ بركاناً يُزلزِلُ هَدْأتي!
أيصبرُ من سوَّى جمالُكِ عُمرَهُ ... ينابيع تَقديسٍ وحبٍّ ورحمةِ؟
وأسكرتِهِ بالحسنِ والطهر والهوى ... وكنتِ له في الله أقدسَ توْبةِ!
وعلَّمتِهِ إنْ هزَّ للفنِّ رُوحَهُ ... تُكبِّر للإلهام أطهرُ كعبةِ
ونشَّأتِهِ في الدَّمع حتى أذابهُ ... أناشيدَ أحزانٍ وبؤسٍ وحسرة
أنا الساخرُ الجبارُ لا الدَّهرُ هزَّني ... ولا النكبات السود هيَّجن عزلتي
أمُرُّ بأرْزاءِ الزَّمانِ كأنني ... خُطا العاصف العربيد في ظل زهرة
وأبِصرُ حشدَ الناسِ أسرابَ هاجسٍ ... من الإثْمِ زَحَّافٍ بأرْجَس مُهْجةِ
وأسمعُ لا من زيْفِهم وبيانِهم ... ترانيمَ عزَّافٍ بأمنع قِمَّةِ. . .
فما لي على كَفَّيكِ طرَّحتُ أدْمُعي ... وسُخْري من الدُّنيا وعزِّي وكِبْرَتي؟
ومَيَّلْتُ أنَّى سرْتِ في التُّرْبِ خاشعاً ... وطهَّرْتُ من أنوارِكِ البيضِ سجْدتي؟
وضيَّعتُ أيامي - وما ضِعنا - إنما ... ذهْبن قرابِينَ الهُدى لحبيبتَي!
فيا زَهرتي ما لي أناديك فانياً ... فتصرُخُ أصْداءُ النداءِ بخيْبتي
ويرتدُّ لي شجوِي كما ردَّتِ البلِى ... بقيَّاتِ آهاتِ الثَّكالَى لميِّتِ!

(القاهرة)

محمود حسن إسماعيل

الأمواج والشاطئ

للأستاذ حسن كامل الصيرفي

سألَ الشاطئ يوماً بَحْرَهُ: ... أيها البحر أجبْني كم حَوَيْتا!
ودَّ لو يكشف عنهُ سِرَّهُ ... بيدَ أن البحرَ قد حاول صَمْتا
قالت الأمواجُ للشاطئ ماذا تبتغي ... من سؤالكْ؟
قال: إني أبتغي ما غاب عني ... من مَدَارِكْ
فانثنتْ عنهُ بجَزْرٍ ساخرهْ
ثم عادت باندفاعٍ نحوهُ ... في اصطخابٍ مثل رَعْدِ
عالياتٍ، هابطاتٍ ترتمي ... فوق صخرٍ منه صَلْدِ
وعلى الشاطئ جاء ثائرَهْ
قال: إني رابضٌ منذ وُجِدْتُ ... وَوُجِدْتِ
جاهلاً سِرَّكِ، إني لستُ أدري ... ما احتوَيْتِ!!
فانثنتْ عنهُ بجَزْرٍ ساخرهْ
ثم عادت ثانياً وهي تقول: ... أنتَ سِريِّ أنتَ سِريِّ
سوف يحويكَ ضميري!! ... لا تَسلني. أنت سرِّي
ولأسراريَ إني مُضْمِرهْ. . .
واستمرَّ البحرُ يمتدُّ امتدادا ... وكذاك الموجُ يشتدُّ اشتدادا
ثم ردَّ الأفْقُ عيني حاسِرَهْ

حسن كامل الصيرفي

الطائر والشمس

للأستاذ خليل شيبوب

عندي أحاديث هوى جَّمة ... تجري كما يجري بها الخاطر
سطَّرها حبيَ في مهجتي ... ثم رواها جفنيَ الماطر
لكنما أغربها قصة ... مأثورة شاهدها حاضر
عن طائر هام بشمس الضحى ... وأين من شمس الضحى طائر

فرخ ضعيف ريشه، قابع ... في وكره، مرتجف حائر
يدرج منه بعض شيء إلى ... حيث شعاع باسم باهر
يصيب دفئاً عنده كلما ... فاض عليه نوره الغامر
يجر ذيلاً، فهو طوراً به ... طول، وطوراً ذيله قاصر
ما شك فيه أن ما يغتلي ... به حشاه والدم الفاتر
صنعة هذا النور في أصله ... وأنه من فوقه صادر
وإذ رأى وجه السماء انجلى ... له هناك الحَدَثُ الكابر
أتُون نار جاش من صدره ... دَفْقُ ضياءِ خاطفٌ حاسر
قطب من الجمر ولكنما ... عليه قام الفلك الدائر
وجه يفيض النور منه كما ... يفيض نبع الروضة الفائر
لكن هذا النور روحٌ ولا ... جسمَ، ولكن لهبٌ ثائر
في الشرق مرجان فإمَّا ارتقت ... في الأوج مار الذهب المائر
والورد مفروش متى غرَّبت ... والأرجوان البهج الفاخر
هذى هي الشمس التي نورها ... بحر حياة ما له سابر
الكائنات الغرُّ من حولها ... أبدعها ناظمُها الناثر
فاتنة الدنيا ولكنها ... ليس إليها مسلك ظاهر
ترعرع الطائر لكنه ... من كل ما يؤنسه نافر
يسير في الروض وعيناه في ... السماء والعمر به سائر
واشتدَّ حتى طار مستشرفاً ... ما حولَهُ فهو له حَاصِرُ
إذا اعتلى جوّا فسرعان ما ... يحطه إعياؤه القاهر
وهو لجوج النفس في صدره ... منها جوى ملتهب ناشر
يذهبُ فيها يومَهُ هائماً ... وقلبُه تحت الدجى ساهر
مرتقب في الدوح أن ينقضي ... الليل ويأتي السحَر الباكر
حتى يراها وجهها مشرق ... كما يطل الملك الظافر
ومرت الأيام لا تأتلي ... والحب نبت مخصب كاثر
فاستشعر اليأس ألا إنه ... مستضعف ليس له ناصر
لا الروض يسليه ولا حوله ... من الطيور الصادح الصافر
ولا نجوم الليل إما رنت ... ولا النسيم الخافق العاطر
ما الروض والطير وما زهرة ... بها تحلَّى الغصُن الزاهر
سوى مثيرات الجوى فالمنى ... هناك نور فاتن سافر
ذاك حياة النفس معبودها ... وحبها الأول والآخر
جاء إلى الجدول يوماً لكي ... يطفئ ظمئاً وقْدُه ساعر
إذا به في الماء يجلي له ... وجه نقي وادع طاهر
الشمس جاءته بلا موعد ... زائرة يا حبذا الزائر
فاختلط المفتون في عقله ... كأنما طالعه ساجر
وكاد أن يخذله قلبه ... وطاش مما أبصر الناظر
حتى إذا ثاب إلى رشده ... والحسن ناه والهوى آمر
خالسها القبلة في نغبة ... أسكره معسولها القاطر
لكنها غابت سريعاً وقد ... قام سحاب دونها ساتر
تحجّبت عنه ولمَّا قضى ... ما ينتويه قلبه الشاكر
كأنها غضبى زوت وجهها ... عنه فأودى جدُّه العاثر
هل قّصر العاشق في عشقه ... فكل تقصير له عاذر
إن كان ضعفاً فله راحم ... أو كان ذنباً فله غافر
وحينما طاح به بؤسه ... والجسم منهوك القوى خائر
خفَّ إلى الدوح وفي صدره ... طعنة يأس جرحها غائر
خاب فلم يصبر وحكم الهوى ... ألا يعيش الخائب الصابر
ومات في الدوح فأكفانه ... أغصانها والورق الناضر
يا زينة الدنيا ويا فتنة ال ... عمر ويا من حبها جائر
إليك مني صورةً في الهوى ... صوَّرها عاشقك الشاعر

حسب المنى دمعة حزن على ... صب شهيد ما له ذاكر
فأنت تلك الشمس معبودة ... حباً وقلبي ذلك الطائر
(الإسكندرية)
خليل شيبوب
رسالة الفن
دراسات في الفن
الزعامة فن
على ذكرى الزعيم سعد
للأستاذ عزيز أحمد فهمي

ما دام الفن هو التعبير عن الإحساس، وما دامت الزعامة هي التعبير عن إحساس الجمهور، فالزعامة إذن فن، بل إنها فن عريض.

فكيف كانت الزعامة تعبيراً عن إحساس الجمهور؟

إذا نظرنا إلى المجتمعات البدائية رأينا هذه المجتمعات تحس الخوف من الطبيعة؛ فهي تستعد للحرب في كل لحظة، وهي إما أن تعد لهذه الحرب سلاحاً، وإما أن تعتمد فيها على القوة البدنية وحدها. ولكنها على أي حال من الحالين تأخذ أهبتها المادية لتقاوم بها أحداث الحياة. فإذا نظرنا إلى الزعماء في هذه البيئات رأيناهم أشد الناس تعبيراً عن هذا الإحساس المركب الذي يبدأ بالخوف وينتهي بيقظة القوة البدنية. فهم أشد الذين في هذه المجتمعات حذراً على أنفسهم وعلى مجتمعاتهم، وهم أشدهم انتباهاً للخطر إذا ادلهم، وهم أشدهم مقاومة لهذا الخطر، وهم أشدهم قدرة على قهره، وهم إلى هذا أشد الذين في هذه المجتمعات استكمالاً لمميزاتها الملحوظة فيها حتى لا يكون الزعيم منهم عرضة لهجوم عاص من شعبه قادر على وخزه في إحدى نواحيه الضعيفة فيه بينما يكره الواحد من جمهوره أن تكون ضعيفة فيه. فإذا كان من مميزات جمهور أحدهم السرعة في الجري إلى جانب ما يهتم به الجمهور من تنمية القوة البدنية وجب على الزعيم أن يكون سريع الجري إلى جانب الذي امتاز به على الجمهور من قوته البدنية، وإذا كان من مميزات جمهور أحدهم الخفة في تسلق الأشجار، وجب على الزعيم أن يكون خفيفاً في تسلق الأشجار إلى جانب الذي امتاز به على الجمهور من قوته البدنية. وهكذا.

فإذا تركنا البيئات البدائية رأينا نظرتنا هذه تصدق في كل الحالات: في البيئات الزراعية، وفي البيئات الصناعية، وفي البيئات الاجتماعية المختلفة، وبقدر ما تتسع هذه البيئات

وتضيق تتسع الزعامة فيها وتضيق. فهناك زعامة للجنس البشري كله هي زعامة الأنبياء والرسل الذين فاضوا بالهدى على الخلق جميعاً، وهؤلاء زعامتهم تخلد بعد ذهابهم عن هذه الحياة الدنيا، وفي هذا تعويض للحصر الذي تلقاه زعامتهم في حياتهم. وهناك زعامة لجنس من الأجناس البشرية كزعامة موسى الذي يريد هتلر أن يرد عليها اليوم بزعامته الآرية. وقد تدوم هذه الزعامة بدوام الجنس إذا ظل الجنس متشبثاً بأنانية الطفولة وغرورها. وهناك زعامة لجماعة من جنس بشري يسكنون أرضاً ما، وهي الزعامة الوطنية كزعامة سعد زغلول، وهي تدوم ما دامت دواعيها وما ذكرها الذاكرون بعد زوال هذه الدواعي، وكثيراً ما تزول هذه الدواعي، لأن مشكلات الوطن كثيرة التقلب

ونحن إذا حسبنا عدد المرات التي استدعت فيها طبيعة التطور والارتقاء الروحيين وجود رسالات إنسانية عامة وجدناه أقل من عدد المرات التي استدعت فيها هذه الطبيعة وجود رسالات خاصة بحيث نستطيع أن نتصور التطور والارتقاء جاريين في موجات صغيرة، وهذه تجري في موجات كبيرة. وكأن الموجات الصغيرة هي موجات التطور، وكأن الموجات الكبيرة هي موجات الارتقاء. . .

وهذا شيء لا يستغرب؛ فنحن إذا تسللنا إلى نهاية التخصيص في البيئات الاجتماعية الإنسانية حتى نذهب إلى مجتمعات الصبيان في الحواري والفصول، وإلى مجتمعات الشبان في النوادي والحقول، وإلى مجتمعات النساء في الشوارع والبيوت، وإلى مجتمعات الرجال في الأكواخ وفي القصور، وجدنا لكل جماعة من هذه الجماعات زعيماً، فإذا أحصينا عدد هؤلاء الزعماء استطعنا أن نؤلف منهم في كل وطن ألف

برلمان تؤيد الزعيم
وعلى هذا كانت أغلى الزعامات هي أندرها، ولا بد أن تكون اشدها تطابقاً على نظم الطبيعة، لأن نظم الطبيعة هي العامة وهي الثابتة، ومراعاة تطورها وارتقائها يجب أن تلحظ في هذا التطابق. وهذه الزعامة لم تتحقق على أشمل الوجوه إلا في حالة واحدة هي زعامة النبي الرسول محمد (ص)
وإذا استسغنا بعد هذا القول بأن الزعامة فن تخلقه الطبيعة في نفس الزعيم كما تخلق
الألحان والأنغام في نفس الموسيقي، وكما تخلق المعاني والأخيلة في نفس الشاعر، فإننا لن نستبعد أن تكون قد تعرضت للصناعة مثلما تعرض لها غيرها من الفنون. وقد تجمل الصناعة الزعيم إذا كان رائدها التحسين والتجديد. وقد تتلف الصناعة الزعامة إذا حادت بها عن اتجاهها الطبيعي إلى اتجاه آخر كالرغبة في الجاه، أو الرغبة في المنفعة، وهذا هو ما يحدث للفنون جميعاً من موسيقى وشعر وتمثيل ورقص وتصوير وغير ذلك
ولما كان أغلب المجتمعات البشرية اليوم قد تعلم القراءة والكتابة، ولما كان من المحتم أن يكون الزعيم في كل مجتمع من هذه المجتمعات قارئاً كاتباً، فإن الزعماء في هذه الأيام يقرءون ويكتبون: الزعماء السياسيون، والزعماء الفنانون - أي الذين يمارسون الفنون الجميلة - والزعماء الماديون، والزعماء جميعاً. وهم يقرءون فيما يقرءون تواريخ الزعماء السابقين، وبهذه القراءة يستطيع الزعيم الضعيف في ناحية من النواحي أن يقويها، أو أن يغطيها أو أن يدعيها. . . وما دام باب الادعاء قد فتح مع غيره من أبواب التصنع، فقد أصبح من الميسور في هذه الأيام أن يدعي الزعامة في أي ناحية من نواحي الحياة مدع ليس بزعيم.
فكيف يستطيع الإنسان في هذا العصر إذن أن يحكم على الزعيم بأنه زعيم حقاً، أو أنه قد استطاع أن يجعل نفسه زعيماً لأنه زعيم، ولكن في نوع من أنواع التفكير، وقد كان المجتمع في حاجة إلى زعيم في الإحساس والتعبير عن هذا الإحساس، وما يصحب هذا التعبير من جهاد؟
نستطيع أن نصل إلى هذا الحكم العادل إذا نحن راجعنا إحساس المجتمع، وراجعنا ما يجب أن يكون التعبير به عن هذا الإحساس، وراجعنا إلى جانب هذا إحساس الزعيم وتعبيره عنه وطابقنا هذا على ذاك. . . فإذا انطبق وكان الزعيم بعد ذلك سائراً بشعبه إلى ما يؤمله فهو زعيم، وإلا فهو ذاك المفكر الذي ذكرناه
وهذا هو ما يسمى في الفن بالطابع. فأشد الفنانين تمكناً من الفن عند جمهور من الجماهير هو أشد الفنانين تمكناً من طابع هذا الجمهور الذي يطبعه ويميزه من غيره من الجماهير
وقد اتفقنا في أحاديث سابقة على أن الفنون تسعى بالبشرية متجمعة أو متجزئة في طريق التطور والارتقاء، والزعامة كذلك مادامت فناً، وأشرفها إذن ما كان أكثرها تقريباً
للمستقبل من الحاضر
ومن الزعامة ما تكون لحالة طارئة، تزول بزوال هذا الحادث أو تدوم - إذا دامت - حتى يسحب ذيوله. وقد يحدث أن ينزع جمهور من الجماهير إلى أن يتناسى زعيماً من زعمائه في حياته بينما هو لم ينحرف عن جادته فيستغرب الزعيم هذا ويستغربه معه آخرون، ولا يكون لهذا من سبب إلا أن زعامة الزعيم كانت طارئة استدعاها حادث طارئ. ومثال هذى زعامة هندنبرج التي أبقاها عليه هتلر في السنوات الأخيرة من حياته بينما كان الشعب يريد أن يحل زعامة هتلر محلها لأنه رأى نفسه يحس شيئاً جديداً زيادة على النزعة الحربية التي كانت تعبر عنها زعامة هندنبرج، ولأنه رأى هتلر يعبر عن هذا الإحساس. ولم يقل أحد إن هندنبرج كان قد فقد شيئاً من مميزاته الشخصية إلى آخر يوم من أيام صحته، وإنما الذي حدث هو أن الحادث الذي تزعم له هندنبرج ألمانيا لم يصبر حتى تنتهي حياة هندنبرج ليسحب بعدها ذيوله. . . وذلك الحادث هو الحرب الماضية وآخر ذيولها الذي سحبته عن ألمانيا هو الرضى الذي خنعت به السنوات الطويلة أمام شروط الصلح وما كان فيها من روح التشفي والانتقام.
وهناك زعامات ماتت في حياة أصحابها ولم تجد من يحفظها عليهم

ومن الزعامة ما يكون قريباً يلحقه جمهوره بسهولة فلا يعود يحفل به إلا كما يحفل المرء بهدف قريب وأصابه. وقد يتقي الزعيم من هؤلاء الزعماء كما يتقي الزعيم من السابقين زعماء الطوارئ شرّ هذا الركود الذي يصيب زعامته لزوال الطارئ أو لضآلة الزعامة، وهو يتقي هذا الركود باختلاق الحوادث في الحالة الأولى وبفلسفة الزعامة وتعقيدها في الحالة الثانية حتى يظن الجمهور أن وراء قبة الزعيم شيخاً فيتابعه ويظل يتابعه وهو لا يدري إلى أين يسير به زعيمه. ولعل المثل الصالح للزعيم الذي ينطبق عليه هذان الوصفان معاً هو نابليون، فقد ظل يأكل عقول الفرنسيين ويسحرهم حتى نفى ونفيت معه فرنسا من مجتمع الدول ذوات الحول والرأي النافذ، وقد يكون موسوليني من بين الزعماء الأحياء الذين يشبهون نابليون في هذا

وإذا كنا نحن اليوم وعلى البعد نستطيع بغير تحرج وبغير تهيب أن نقرر هذه الحقائق وأن نصف هؤلاء الزعماء بهذه الأوصاف فإن أحداً ممن كانوا في متناول أيديهم لم يكن ليجرؤ على شيء من هذا، لا خشية من هؤلاء الزعماء أنفسهم، فالأرجح أن فيهم من الحكمة ما يوسع صدورهم للنقد الحق على الأقل، بل خوفاً من جماهير هؤلاء الزعماء. فإنهم يكرهون أشد الكراهية أن ينقد زعماؤهم بالباطل أو بالحق، لأنهم في العادة يقيمون من هؤلاء الزعماء أوثاناً تمثل أعز أمانيهم في الحياة، وهم لهذا لا يحبون أن يخدش أحد زعماؤهم ما دام هذا الخدش يصيب أمانيهم العزيزة الغالية في أجسادهم. وهذا واضح اليوم في الترك الذين يتعصبون لمصطفى كمال تعصباً أعمى لا روية فيه، كما أنه واضح في شعبي هتلر وموسوليني، وكما أنه واضح في جماهير المعجبين بالفنانين المشهورين، فقد يقبل الفنان النقد يوجه إليه من ناقد صادق، بينما جمهور هذا الفنان لا يحب أن يلتفت إلى عيب فيه

هذا إذا كان الزعيم فناناً من هواة الحق ولم يكن مهرجاً. أما إذا لم يكن من أصحاب الحق فهو كأدنى فرد من أفراد الجمهور الأعمى يحب الشقشقة ويحب الطنطنة والزعيم الفنان (يتكون) كما تقدم في أول هذا الحديث بطريقة طبيعية هي طريقة الانتخاب، ولكنه ليس انتخاب الأصوات، وإنما هو انتخاب الضمائر، بحيث لو نزع من مكانه وأحل محله غيره لظهر هذا الجديد وفيه النقص والشذوذ والتكلف

وتستطيع المجتمعات أن تساعد الطبيعة في تكوين الزعماء: كما أنها تستطيع أن تعرقل هذا التكوين؛ وهي تساعد على تكوينه بأن تتزود من الإحساس الداعي إلى التعبير عنه أو الذي تريد أن تعبر عنه، وبكثرة المحاولة في التعبير عنه، وهي تساعد على عرقلته بإهمال هذا الإحساس، وإهمال التعبير عنه

والأصل أن يحدث هذا بدافع من الطبيعة وحدها. ولكن إذا مست حاجة الشعب إلى الزعيم القائد وانتبه عقله إلى هذا، فإنه يستطيع أن ينتج زعيما باصطناع هذه الطريقة التي رسمتها الطبيعة لإنتاج الزعيم ما دام بين أفراده من يصلح بطبعه لأن يكون زعيماً. ولعل هذا الذي تحاوله مصر الآن، فلا ريب أن فيها حركة يقوم بها بعض الأفراد يريدون من رائها أن يتيقظ الجمهور المصري فيرهف حسه للحياة، فيرجح بعد ذلك أن يعبر الجمهور عن إحساسه بلسان زعيم لا نزال ننتظره منذ مات سعد زغلول

ولا ريب أن الزعيم المصري المنتظر يختلف اختلافاً كبيراً عن سعد زغلول، فقد كانت حال المصريين التي استدعت زعامة حالاً لا تملك إلا أن تهتف أو أن تثور متخبطة في ثورتها، ثم أن تهدأ بعد ذلك حتى تستجمع قوتها لتهتف وتثور من جديد. وقد كانت زعامة سعد تصور هذه الحال في خطبه الرنانة، وفي بياناته الطنانة، وفي نكاته اللاذعة القاسية التي كان يلقي بها تلطم ما يعترض زعامته أو ما يقاوم اتجاهها الذي تقود فيه جمهورها.

أما الزعيم المنتظر فهو الذي سيكون إحساسه أشد من إحساس المصريين بالحال الذي نحن فيه، الذي سيكون أشد المصريين تعبيراً عن هذا الإحساس، وأشدهم مقاومة لدواعي الشر فيه، وأشدهم إلهاباً لدواعي الخير فيه.

والحال الذي نحن فيه الآن يغلب عليه الجهل والجوع والضعف والحيرة، فزعيم المستقبل إذن هو الذي سينقذنا من هذا كله، والذي سيعيد إلينا مصريتنا ناصعة معتزة بكل مفاخر الفراعنة والعرب والإسلام، وهو الذي تحاول الأزمات المتعاقبة على الوطن في هذه الحقبة من الزمن أن تتمخض عنه.

وإننا نرجو الله أن توفق مصر في زعيمها الجديد كما وفقت في زعيمها الراحل.

فالحق أنه لم يكن من الممكن أن يكون لمصر زعيم أفضل في صفاته الشعبية من سعد زغلول في ظروف زعامته. وقد أثمرت هذه الزعامة ثمرتها الطبيعية وهي هذه الحال التي نحن فيها الآن، والتي زاد فيها إحساسنا بالحياة، وزادت فيها قوة تعبيرنا عن هذا الإحساس، وزادت فيها محاولتنا إلى بلوغ أمانينا. . .

فمن هو الزعيم الذي سينبعث منا؟. . . لا ندري

ومتى ينبعث؟. . . لا ندري أيضاً. . . فقد يتدرج الزعيم في الظهور إذا لم تتحرج الحياة فيظهر فجأة

ومهما قيل إننا ارتقينا على يدي سعد، فإننا لا نزال على مقربة من عهده، فالزعيم الجديد ستكون فيه من سعد صفات هي ترديد ما لا يزال مضمراً في نفس الشعب المصري من الإحساس منذ أيام سعد، وهي صدى هذا الإحساس المضمر وترجمته. فلا بد أن يكون الزعيم المقبل خطيباً إذا جاء قريباً لأن الخطابة هي التي يجمع بها الزعيم أشتات الأحاديث والأماني التي يرددها الجمهور فيما بين أفراده، وإن شعبنا لما يصل من الرقي إلى حيث يمكن أن يظهر فيه زعيم صامت أو قليل الكلام

فإذا كان هناك زعيم في الخفاء اليوم ولم يكن خطيباً لأنه أرقى من مستوى الشعب، فإنه يستطيع أن يتدرب على الخطابة فإن لها صنعة، وصنعتها تجوز على الجماهير وعندما يهون أمر الخطابة فلا تكون من عماد الزعامة في الشعب المصري فإنه سيكون قد بلغ من الرقي مبلغاً يقف به إلى جانب الإنجليز الذين يقودهم المجربون والنافعون.

عزيز أحمد فهمي

حول الفن المنحط

للأستاذ كامل التلمساني

قرأنا بالعدد 319 من الرسالة الغراء كلمة بعنوان (حول الفن المنحط ـ كلمة أخيرة) رداً على ما كان قد كتبه أديب فاضل عن جماعة (الفن والحرية)، وما كان من نقاشه مع الأديب أنور كامل عضو الجماعة في رده عليه من ناحية توخى فيها أنور كامل البعد عن التفاصيل الفنية وذكر الأسماء والتواريخ. أما وقد ذكر الأستاذ الفاضل في كلمته هذه اسم الأديب الشاعر أندريه بريتون وترجم كلمة قديمة له عن السيرياليزم ثم تكلم بعد ذلك معقباً بكلام من عنده؛ فلهذا فقط أجد نفسي مضطراً لتصحيح ما أورده من الأخطاء في حق هذا الكاتب وحركته. ولكيلا أتيح الفرصة للقراء الأفاضل بأن يروا صورة مشوهة ممسوخة لهذه الحركة العالمية التي تعبر عن أسمى وأنبل المشاعر الإنسانية في القرن الحاضر، والتي وصلت عن طريقها الحضارة الفنية سواء في الشعر أو التصوير الحديث إلى الدرجة العليا واضعة بذلك قاعدة المدرسة المعاصرة في الشعر الحر والتصوير المبني على الفكر الشاعري والتحليل النفساني الحديث.

ولعل الزملاء من المعارضين قد يتحرون الدقة بعد ذلك في إيراد ما يريدون من مصادره الأخيرة الموثوق بها بشأن هذه الحركة التجديدية التي ما زالت تتسع وتتجدد حتى اليوم ولا يقف أمام نشاطها ركود الفكر أو خمول البحث والتنقيب.

والظاهر أن الأديب الفاضل قد اكتسب معلوماته عن السيريالزم (الفن البعيد عن الحقيقة الظاهرة) كما يتضح من كتابته عن طريق تلك الفقرات التي أتت إجمالاً في كتاب:

ونحن نعتقد أن مجرد قراءة فقرات كهذه كتبت منذ عدة سنوات لا تخول له الحق & , في التحدث بمثل ما تحدث به، وأن في هذا جناية على الفكر والكاتب الذي تحدث عنه، و (للرسالة) بما لها من تأثير وانتشار لا يقف مداه عند مصر، بل يتعداه إلى الشرق العربي أجمع! ولذا وجب أن نذكر هنا هذه (الكلمة الأخيرة) رداً على كلمته وليس لنا رجعة بعد ذلك اللهم إلا في نشرات تحليلية مفصلة أو معارض ومحاضرات عامة يتسع لها الموسم الشتوي المقبل وهو قريب

لقد تطور السيرياليزم في السنوات الخمس الأخيرة تطورات عدة بعيدة المدى في جوهرها،

ونشر أندريه بريتون في هذه المدة عدة بيانات متتابعة عن الحركة وما تجدد فيها وما اكتسبت من آراء وفكر؛ وكان آخر هذه التطورات مقالته الرائعة في العدد الأخير من مجلته: مينوتور والتي لا بد للأستاذ من الاطلاع عليها وعلى ما سبقها من مقالات، إذ

بحثت بجلاء الاتجاهات الأخيرة في التصوير السيرياليستي، كذلك ما كتبه أقطاب الحركة من النقاد والشعراء والكتاب الفرنسيين والإنجليز
والسيرياليزم ليست (حركة فرنسية محضة) كما يقول الأستاذ بل هي حركة أول مميزاتها أنها عالمية في التفكير والأداء، وليس لها من الطابع المحلي أدنى نصيب قل أو أكثر. وإنه لمن المدهش العجيب حقاً أن يسمح الأستاذ لنفسه أن يقع في مثل ما كتب من الخطأ الفاحش، وإني لأنصحه في هذا الموضع بقراءة ما كتبه الناقد الإنجليزي الكبير هربرت ريد في كتابه عن الحركة السيرياليستية وما أورده بشأن العالمية وهذه الحركة الحرة وبعدها كل البعد أن تتهم بأنها فرنسية محضة كما قال الأستاذ. بل إني أخبره أنه ليس بين قادة التصوير فرنسي واحد، فالمصور جورجيو دي كريكو إيطالي يوناني، وسلفادور دالي أسباني وكذلك بيكاسو نفسه، وبول كلي وماكس أرنست من ألمانيا، وبن روز إنجليزي، وكذلك هنري مور وأما بول دلفو فهو بلجيكي، وشجال روسي الجنسية وهكذا. . . هؤلاء يا سيدي الفاضل هم قادة الحركة.
ومن السخرية أنه لا يوجد بينهم فرنسي واحد!! وليس للفن بلد يا صديقي. فلقد أخطأت عندما قلت فيما قلته: (وأظن أن الحركات الفنية لا تنتقل بمثل هذه السهولة من قطر إلى آخر. . . دعك من حديث الشخصية والإلهام. . .)
وعلى ذلك فهناك حركة مماثلة في كل من إنجلترا والمكسيك وبلجيكا والولايات المتحدة وهولاندا الخ. فهل ترى يا سيدي أنه من العيب أن تقوم بعض الصور المصرية مستندة أو متأثرة بمثل هذه المدرسة!. إننا نريد حضارة تسير مع العالم ولا نريد أن نقف حين يسير الجميع. ثم إني أنصحك أيضاً أن تقرأ في هذا الموضوع نفسه افتتاحية عدد يناير 1939 من مجلة لتعرف بنفسك في صمت أنك بعيد عن فهم هذه المدرسة
هل رأيت يا سيدي (عروسة المولد الحلاوة) ذات الأيدي الأربع؟ هل رأيت عرائس القراقوز الصغيرة؟ وهل سمعت قصص أم الشعور والشاطر حسن وغيرها من الأدب الشعبي المحلي. . . كل ذلك يا سيدي سيرياليزم
هل رأيت المتحف المصري. . . كثير من الفن الفرعوني سيرياليزم
هل رأيت المتحف القبطي. . . كثير من الفن القبطي سيرياليزم. إننا لا نقلد المدارس الأجنبية بل نخلق فناً نشأ من تربة هذه البلاد السمراء وتمشى في الدماء من يوم كنا نعيش بتفكيرنا المطلق حتى هذه الساعة يا صديقي
تقول يا سيدي إن هذه الحركة الفرنسية كما زعمت (باعثها الأول نظريات العالم سيجموند فرويد). هذا كلام عام فيه كثير من التهويل واستدرار التصفيق من أيدي الجمهور - إن كان الجمهور عماده الجهل - بدون حق. هذا كلام بعيد عن التحليل الدقيق، ففرويد له قيمته عندهم وعند كل العالم الحر الطلق الديمقراطي النظيف في فكره وتفكيره. وهل هي جريمة يا سيدي أن يدخل التحليل المبني على أساس نظريات فرويد في التصوير كما هو كائن في الأدب والشعر في بلدنا هذا وهو بلد حر ديمقراطي؟ وليست مصر حتى الآن قطعة من ألمانيا ولم تستعمر إيطاليا بلدنا بعد حتى تحرق مؤلفات فرويد في الميادين العامة بين صيحات الفرح والوحشية. . .! لا يا سيدي ما زالت مصر ديمقراطية وتأثرك بالفكر الفاشي والنازي بنظرتك هذه إلى فننا يجب أن تكبتها وترى لنفسك الطريق القويم. . . هل تعلم يا سيدي أن صور محمود بك سعيد كبير المصورين كلها فرويدية وأن معظم كتابات الأستاذ محمود تيمور بك وتوفيق الحكيم وغيرهما كذلك
ليس لمجرد استناد فننا إلى نظريات فرويد - لو كان في ذلك بعض الصواب عند بعضنا - ما يدعوك لدعوة مثل هذا الفن بالانحطاط بأعلى صوتك؛ أنصحك هنا يا سيدي أن تعرف قبل أن تكتب هذا علاقة هذه الصور بالعلامة سيجموند فرويد. إني أدلك على هذه العلاقة في فصل ممتع بكتاب & للنقادة أو ارجع إلى ما كتبه السيرياليست الإنجليزي في أعداد عن ذلك أخيراً
لقد ذكرت فيما نقلت من مقالك لتستشهد به كلمة (الكتابة الآلية) فهل تدري يا سيدي أن هذه الكتابة الآلية قد ولت وذهب زمانها الآن. إن الشيء الحي يتجدد دائماً من تلقاء نفسه. ولا داعي للاستشهاد اليوم يا صديقي بشيء عرفت عنه شيئاً الآن فقط بعد أن تركه أصحابه بالصورة التي عرفته عليها. هل قرأت يا سيدي الأستاذ ما هو

السيرياليزم؟ ? واثق أنك لم تقرأه وإلا لما استشهدت بقوله الذي ذكرته اليوم وإن كان قد قاله منذ سنوات عدة والذي لم تذكر ما قدم له به وما ذكره بعد ذلك. ربما تجد إحدى الصور التي قد تسرك يا سيدي في محاضرة قالها الشاعر المصري بالفرنسية جورج حنين عضو الجماعة نشرتها له مجلة التي تصدر بالقاهرة عدد أكتوبر 1937

وأخيراً هل تعلم يا سيدي أن زعيم النقد في مصر أحمد بك راسم وهو رجل له رأيه في الفن منذ كتب للفن أن يظهر في مصر قد تكلم عن ثلاثة من أعضاء هذه الجماعة من المصورين في عدة مقالات ذكر في آخرها بالأهرام 17 سبتمبر سنة 1938 وبالبلاغ 15 أكتوبر سنة 1938 تأثير الفن الشعبي والفن الشرقي في فنون هؤلاء الفنانين وهم الأستاذان كمال وليم وفتحي البكري وكاتب هذه السطور. إن بعض الأعضاء في هذه الجماعة مثل أبو خليل لطفي وحسين يوسف أمين قد بلغوا بفنهم درجة ثقافية عالية بالفن الشعبي المحلي في فنهم خيال وفكر شخصي لا دخل للسيرياليزم فيه وإن كان به ما بالسيرياليزم من بعض الصلات والأصول خصوصاً في الصور الحفرية التي يعملها المثال أبو خليل لطفي. أما صور الأستاذ يوسف العفيفي وفؤاد كامل فهي تخرج من القلب تواً ومن أعصابهما ودمائهما تتكون خطوطهما، وفن كليهما شخصي محض ليس لغيرهما صلة مباشرة به عن قرب أو عن بعد. إني أحب أن أجيبك هنا بما أجاب به أستاذنا يوسف العفيفي أحد النقاد المعارضين لنظريته يوماً إذ قال له: (إن السيرياليزم ما هو إلا الاسم العلمي الحديث لما نسميه نحن: الخيال. حرية التعبير. حرية الأسلوب، والشرق منذ الأزل موطن كل هذا)

وليس لنا عودة بعد هذا. ولعل فيما ذكرت وأوردت في إيجاز ما يدعو قراء الرسالة الأفاضل لقراءة بعض هؤلاء الكتاب والنقاد

كامل التلمساني

عضو جماعة الفن والحرية

رسالة العلم

الشقيقان

الإلكترون والبوزيتون أو السالب والموجب

للدكتور محمد محمود غالي

ذكرنا أن المادة مجموعة من الذرات، وأن الكهرباء مجموعة من الذرات الكهربائية، أسماها العلماء (إلكترونات)، كتلة الواحدة منها حوالي 20001 من كتلة أخف الذرات (ذرة الهيدروجين)، وذكرنا أدلة حسية على وجود هذه الإلكترونات أو الجسيمات المتناهية في الصغر. من ذلك أن المجال المغناطيسي يجذبها كما تجذبنا الكرة الأرضية، وذكرنا أن مسار هذه الجسيمات يدل على أن كهربائيتها سالبة. والآن نخطو بالقارئ خطوة أخرى لنحدثه في نوعي الجسيمات الكهربائية. فكما أن العناصر المادية تبدو لنا مختلفة وفق اختلاف الذرات، كذلك الكهرباء تبدو لنا مختلفة وفق نوع الذرات الكهربائية. ففي المادة - ترى مثلا - الماء المكون الأعظم لسطح الكرة الأرضية، هذا الماء الذي يروي النبات الذي عليه نعيش، وفي المادة نرى المعادن تُكوِّن بتكييفها أعظم معالم المدنية.

وفي الكهرباء نرى نوعين مختلفين من الذرات، الذرات السالبة والذرات الموجبة، والأولى تكوِّن التيار الكهربائي وقد عرفنا أنها مكونة من جسيمات صغيرة جداً تتدفق في المادة كما يتدفق النيل في بلادنا حاملاً أمطار الحبشة سر رخائنا وأصل ثروتنا، والثانية مكونة من جسيمات صغيرة جداً تساوي كتلة الواحدة منها كتلة الأولى تقريباً وشحنتها موجبة. ولقد عكف العلماء البحث عن ماهية هذه الكهرباء الموجبة دون أن يجدوا وسيلة واحدة لفصل جسيماتها عن المادة التي تحملها كما حدث أن استطاع الباحثون التعرف على الجسيمات السالبة بعيداً عن المادة حقيقة أمكن الحصول، داخل أنابيب التفريغ الكهربائي على تيارات موجبة نعني تيارات تسير من القطب الموجب إلى القطب السالب، ويصح تسميتها الأشعة الموجبة ولكن

اتضح من تعيين كتلة وحدات هذه الأشعة أنها كتلة ذرات الغاز المتبقي في هذه الأنابيب، بحيث أن هذه الذرات تتكون من ذرات الغاز بذاته، ولا تمثل الذرات الكهربائية الموجبة، وهكذا اعتقد الكثير أن الكهربائية السالبة هي وحدها التي تظهر على شكل إلكترونات حرة، بيد أن الكهربائية الموجبة لا تنفصل عن المادة وتكون جزءاً منها.

وعندما أمكن لمليكان العالم الأمريكي المعروف أن يحصل في سنة 1907 على إلكترون حر واحد ويتأكد العلماء كلهم معه كما سيعرف قريباً قارئ الرسالة أن هذا الذي حصل عليه هو ألكترون حر واحد ليس باثنين أو بثلاثة - زاد تعطش العلماء إلى العثور على أثر جسيمات الكهربائية الموجبة حرة طليقة، ومرت السنون طويلة منذ حادث (مليكان) دون أن توجد مناسبة علمية واحدة استطاع الباحثون فيها أن يحصلوا على شقيق الإلكترون التائه كأنه لم يكن من أبناء هذا العالم الذي نعيش فيه

وشاءت الظروف أن يكون كشف الذرة الموجبة في المعهد ذاته الذي أحرز فيه (مليكان) نجاحه المنقطع النظير، وفي المعهد الشهير الذي يديره (مليكان) في باسادينا بكاليفورنيا كشف (أندرسون) حديثاً الذرة الكهربائية الموجبة، هذه الذرة التي أسماها العلماء في بادئ الأمر (البوزيترون) أي الذرة الموجبة والتي فضّل (بيران) شيخ علماء السوربون أن يحذف الراء من هذه التسمية ويطلق على الذرة الموجبة (بوزيتون) وذلك في كتاب (حبيبات المادة والضوء) ولقد كان هذا الكشف من ناحية أندرسون نتيجة لدراسة خاصة بالأشعة الكونية التي كتبنا عنها أربع مقالات بالرسالة وألقينا محاضرتين عنها هذا العام إحداهما في الجمعية الطبية العلمية بكلية الطب، والأخرى في جمعية

المهندسين الملكية. والظاهر أن جزءاً هاماً من هذه الأشعة الجديدة على معارفنا يتكون من الذرات الكهربائية الموجبة كما أن لهذه الأشعة قوة اختراق عجيبة بحيث تستطيع عندما تتصادم مع المادة أن تخرج منها الذرات الموجبة التي اتضح أن كتلتها تعادل كتلة

الإلكترونات ذرات الكهربائية السالبة.

ولقد استطاع الباحثون باستعمال أشعة جما الراديومية أن يحصلوا على البوزيتون.

وهكذا اتضح أن عملية إخراج الذرات الموجبة من المادة أصعب بكثير من إخراج الذرات السالبة، هذه الذرات الأخيرة تظهر في الأحوال العادية كجسيمات حرة، فهي التي تحدث كل الظواهر الكهربائية المعروفة بالظواهرالإلكترونية التي تعد من بينها الأشعة الكاثودية وتعد من بينها كل هذه الإلكترونات المهاجرة والسريعة التي تكون الأساس في فن الراديو حيث تعد هجرة الإلكترونات في الفراغ من سلك (الأمبول) حتى (الأنود) العمل الأساسي في نجاح هذا الفن

على أن معرفة هذه الحالة الذرية للكهرباء التي ابتدأت بمعرفة الإلكترون وانتهت بمعرفة شقيقه (البوزيتون) وفصلهما عن المادة وقياس كتلة كل منهما، كل هذا صحح في الأذهان الصورة الحقيقية التي عليها ظاهرة الكهرباء، وبعد أن كانت التيارات الكاثودية معتبرة عند العلماء حالة خاصة لظاهرة الكهرباء، فهم الباحثون أن الهجرة الحرة للجسيمات الكهربائية هي الحالة العامة الطبيعية، فالإلكترون مهاجر حر يسافر في كل مكان وفي أي اتجاه بسرعة كبيرة تعادل سرعة الضوء، وما المادة عندما تجري الكهرباء فيها إلا وسط مقاوم لطبيعتها الحرة، وسواء اعتبرنا (الأمبول) للفرغة مكاناً تسبح فيه الكهرباء أو اعتبرنا الأسلاك النحاسية مكاناً تروح وتغدو فيه، فالكهرباء في الحالتين ظاهرة واحدة. . . الكهرباء شخصيات مهاجرة وعوالم متنقلة، وليس ثمة فارق بين هجرتها في الأنابيب المفرغة وهجرتها في الأسلاك إلا أنها في الأخيرة تعمل لها طريقاً بين ذرات المادة المتراصة في هذا السبيل ما نسميه المقاومة الكهربائية

عندما تحادث من القاهرة صديقاً لك بالإسكندرية وتستمر المحادثة بينكما ست دقائق في المساء كما هو المعتاد، فإن كل لفظة تسمعها تُترجم في الواقع من بلايين البلايين من الشخصيات المهاجرة في السلك النحاسي الذي مدّه العمال بين العاصمتين.

عندما تقول لصديقك في التلفون (كيف حالك) فقد حدث في هذه اللحظة من جراء صوتك بضع مئات الآلاف من الذبذبات التي تمثل صوتك والتي يمكن تسجيلها والتي كان لها أثر على التيار الكهربائي بينكما، وفي كل حرف نطقت به وقعت حرب عوان لا تقارن بها مواقع

فردان والمارن، فإن ملايين الملايين من المهاجرين كانت تدفع طريقها بصعوبة وسط ملايين ملايين الذرات المادية كجيش محارب اضطر أن يجتاز صفوف العدو أو أن يخترق مدينة مزدحمة بالسكان وكان لا بد له في الحالين من مجهود مضنٍ قبل أن يكون قد اخترق كلَّ ما أمامه

هذه العلاقة بين عدد المهاجرين وشكل الذبذبة ثابتة لدرجة أنه أمكن التوسع أخيراً في طريقة نقل المكالمات التليفونية، بحيث أنه يمكن الآن على سلك واحد أن يتكلم حوالي 350 متكلما في وقت واحد بحيث يمكن في الحال تحليل الأصوات أو بالأحرى الذبذبات عند خروجها من السلك الذي يضمها جميعاً فيسمع كل متكلم صاحبه في الوقت ذاته الذي حدثت فيه المكالمات جميعاً، وقد تمت مثل هذه الخطوط بين كثير من البلاد الكبيرة نذكر منها على سبيل المثال الخط الرئيسي بين لندرة وبرمنجهام وبين هذه ومانشستر. وقد قدر العلماء أنه في الأحوال العادية يهاجر في واحد على الألف من الثانية حوالي كانتيليون من الإلكترونات

ولقد درس العلماء ما يحدث في التوصيل الكهربائي وكشفوا ظواهر غاية في الأهمية، وعرفوا ما ينتج من ضعف المقاومة الكهربائية عند تبريد الأسلاك الموصلة تبريداً بلغ في هذه التجارب درجة الهواء السائل، وقد وجدوا أن التيار الكهربائي يستمر عند هذه الحالة عدة ساعات دون أن يُغذّي الأسلاك التي يولد التيار فيها أي منبع كهربائي، طيلة هذه المدة، وفي حلقة معدنية محاطة بهيدروجين سائل كون الباحثون بطريق التأثير تياراً كهربائياً، وذلك بتقريب مغناطيس من الحلقة؛ ومن جامعة ليد الشهيرة نقل الباحثون بالسكك الحديدية الوعاء المحتوي على الحلقة إلى جامعة أيترخت حيث اتضح بواسطة الجالفانومتر أن التيار المتكون بالتأثير لا زال موجوداً وأن الإلكترونات لا زالت تدور دورانها في الحلقة ولعل ذلك راجع إلى هدوء نسبي في التهيج الذري المستديم والواقع في الحلقة المعدنية بحيث وجدت الإلكترونات طريقاً سهلاً بين هذه الذرات التي اقتربت بهذا التبريد من السكون وعليه فثمة ثلاثة أنواع رئيسية من الجسيمات:

(أ) الجزيئات وهي المكونة للحوادث الطبيعية

(ب) والذرات وهي المكونة للتغييرات الكيميائية

(ج) والإلكترونات ومعها البوزيتونات المكونة للظواهر الكهربائية

أما أن يكون الجزيء مركباً من ذرات فهذا لا جدال اليوم فيه إلا إذا أزلنا من العلوم علم الكيمياء. وأما أن تكون الذرة مركبة من مكونات أصغر منها أهمها الإلكترون والبوزيتون فهذا أيضاً أمر لاشك فيه وإلا جاز لنا أن نستغني عن كل معارفنا في الكهرباء

هذان الشقيقان يلعبان دوراً هامًّ في معارفنا، وسنحاول مع القراء أن نتعرف عليهما أكثر من ذلك.

محمد محمود غالي

دكتوراه الدولة في العلوم الطبيعية من السوربون

ليسانس العلوم التعليمية. ليسانس العلوم الحرة. دبلوم المهندسبخانة

من هنا ومن هناك

لو كنت يهودياً

(ملخصة عن مقال (للمهاتما غاندي))

كل عواطفي تتجه نحو اليهود، فقد توشجت بيني وبينهم أواصر المودة أيام إقامتي بجنوب أفريقيا، وصار لي بعضهم أصدقاء مدى العمر، فأتيح لي أن أعرف كثيراً عن هذا الاضطهاد الأبدي الذي يعانيه اليهود عن طريق هؤلاء الأصدقاء.

إنهم المنبوذون في المسيحية. ولقد أرى وجه الشبه يتقارب كثيراً بين المعاملة التي يعاملهم بها المسيحيون، والمعاملة التي يعامل بها الهندوس طائفة المنبوذين. فقد كان الدين هو الذريعة التي ارتكبت باسمها تلك المعاملات الهمجية التي تعانيها الطائفتان.

فإذا وضعت تلك الصداقة جانباً، ونظرت إلى الأمر من ناحيته العامة وجدت عواطفي جميعها تتجه نحو اليهود

إن المبادئ السامية تقضي بان يعامل اليهود كغيرهم من خلق الله أينما ولدوا وحيثما نشأوا فاليهود الذين يولدون في فرنسا فرنسيون ولا شك، كما أن المسيحيين الذين

يولدون في فرنسا فرنسيون. فإذا اتخذ اليهود فلسطين وطناً لهم، هل معنى ذلك أنهم يستمرئون فكرة إخراجهم مقهورين من ديارهم؟ أو أنهم يريدون أن يكون لهم وطنان يعيشون فيهما كيف يشاءون؟ إن تلك الصرخة في طلب الوطن القومي تعطي الألمان حجة براقة اللون لطرد اليهود

إن اضطهاد الألمان لليهود على أي وجه نظرنا إليه، يلوح لنا أنه منقطع النظير في تاريخ العالم. إن المظالم الغابرة لم تصل في يوم من الأيام إلى ذلك الجنون الذي اندفع هتلر إليه! وإنه ليندفع إليه بعامل ديني، إذ انه يدعو إلى دين جديد من الوطنية قوامه الطرد والمحاربة. فباسم الدين تعد هذه الأعمال المنافية للإنسانية، من الأعمال الإنسانية التي يجازى مرتكبوها في الدنيا والآخرة خير الجزاء

إذا كانت في الحياة حرب عادلة تقوم باسم الإنسانية، فالحرب ضد ألمانيا واجبة لمنعها من اضطهاد عنصر بحاله من بني الإنسان. ولكنني لا اعتقد في الحرب بحال من الأحوال، إن ألمانيا تلبس الباطل ثوب الحق، والهمجية ثوب الإنسانية. فهل يحتمل اليهود هذا الاضطهاد

الغريب؟ ألا يوجد سبيل للاحتفاظ بالكرامة والشعور بشيء غير الضعف والإهمال والخذلان؟

إنني أقر هنا بأنهم لا يعدمون هذا السبيل. إن إنساناً يعتقد في وجود الله يجب ألا يشعر بالعجز والخذلان. إن اليهود كالمسيحيين والمسلمين والهنود في اعتقادهم بوحدانية الله، إلا أنهم يشخصونه ويعتقدون أنه يتولى جميع أعمالهم فما أجدرهم بألا يشعروا بأنهم بغير نصير

لو كنت يهودياً مولوداً في ألمانيا وكنت أحصل رزقي بها، لصرخت في وجه أقوى رجالها: (إن ألمانيا وطني ولا أخرج منها ولو قطعت أوصالي، أو ألقى بي من حالق). ولرفضت أن اطرد منها أو أخضع لأي نوع من أنواع الاضطهاد بها، ولا انتظر رفقائي اليهود ليصحبوني إلى عصيان مدني، ولكني سأكون على ثقة بأنهم سيحذون حذوي في النهاية

لقد نجح الهنود في حركة العصيان المدني في جنوب أفريقيا، وكانوا يقفون ذلك الموقف الذي يقفه اليهود الآن. بل إن مركز اليهود في ألمانيا خير من مركز الهنود في جنوب أفريقيا. إنهم أكثر ذكاء وأقوى استعداداً من هنود جنوب أفريقيا، وفضلاً عن ذلك، فقد أوجدوا خلفهم سنداً من الرأي العام في أنحاء العالم

إنهم إذن جديرون أن يقفوا رجالاً ونساء ذلك الموقف الحازم معتمدين على قوة الله الذي سيعينهم ولا شك على احتمال الشدائد، وإنهم بذلك ليرفعون من شأن ألمانيا ويبرهنون على أنهم أبناؤها الجديرون بهذا الاسم، لا هؤلاء الذين يسيرون باسمها وسمعتها نحو الهاوية. . .

ولايات متحدة عالمية

(عن مقال (للمركيز أوف لوثيان))

جرب العالم في ربع القرن الأخير كل رأي في سبيل منع الحروب. ففي عام 1918 بدأت محاولات جدية لإنقاذ العالم من الأوتقراطية ونشر مبادئ السلم والحرية. ثم أعقب ذلك محاولة عصبة الأمم، ثم ميثاق كلوج فاتفاق عدم التسلح. فلما انتهت تلك الآراء بالخيبة وأخذ شبح الحرب يلوح ثانية للعالم، أقبلت بعض الأمم تفكر في حماية نفسها من الحرب،

فعاد بعضها إلى التسلح، وتذرع بعضها بالتحالف، وآثر بعضها الوحدة ونظام الحياد الدقيق. ولكن شيئاً من ذلك لم يفلح لوقاية العالم من الحرب، وإن كانت كل أمة من هذه الأمم تعتقد تمام الاعتقاد بأن الحرب إذا اندلع لهيبها - ولا يستطيع أحد أن يقول إن هذا أمر بعيد الوقوع - فسوف لا تنتهي إلا وهي على حافة الدمار

إن فكرة السيادة الدولية هي أهم أسباب الحرب. فمن أجل السيادة يقضي على العالم الإنساني بأن يعيش تحت عوامل الفوضى وإذا كانت هناك أسباب أخر لاشك فيها لإثارة نيران الحرب كالخوف والطمع والزهد والتعصب للعنصر، إلا أن هذه الفوضى. هي التي تشعل نيران تلك الشرور، وتجعلها أمراً لا مفر منه، فلا تلبث أن تؤدي إلى الحرب عاجلاً أو آجلاً، كما هو الشأن منذ سقوط آخر نظام عالمي وهو نظام الإمبراطورية الرومانية. لذلك تقع الحرب بين الأمم ذات السيادة فحسب، أو الأمم

التي تسعى وراء السيادة. والسيادة تجعل المنافسة على التسليح أمراً لا معدي عنه، وتضحي بالأخلاق في سبيل النفوذ السياسي، وتسوق الأمم القوية إلى الاستعمار والضعيفة إلى طلب الاستقلال، وتقضي على فكرة التعاون التجاري بين الدول، وتزيد في عدد العمال المتعطلين بزيادة التعريفة الجمركية وغيرها من العوائق، وتزعزع الحالة المالية والاقتصادية، وتقضي على حقوق الفرد، وتحيل الأمم وهي في طريقها الذي لا آخر له في طلب الأمن بالقوى الحربية - إلى مجرد ولايات للرق والاستعباد إن العلاج الوحيد للحرب هو الاتحاد الذي ينطوي على القضاء التام على فكرة السيادة الدولية، سواء اتخذت مظهر القوة كما يرى الاشتراكيون والفاشست، أو اتخذت صفة التحالف الديمقراطي. فكل اتفاق يؤول في النهاية إلى السيادة سيكون نصيبه أن يفشل تماماً كما فشل في الولايات المتحدة ما بين سنة (1881 - 1889) إذ أن الداء الكمين الذي يسبب الحرب لم تستأصل جذوره

يجب أن نختار بين الحرب، والسعي المتواصل وراء السيادة الدولية، مع ما في ذلك من القضاء على السلم وحرية الفرد، وبين الرجوع إلى فكرة حقوق الإنسان القائمة على اتحاد الشعوب تحت نظام إقطاعي كالذي تسير عليه أمريكا الآن إذا كان للحرية أن تعيش، وللسلم أن يقوم على دعائم ثابتة.

الله وشفاء الإنسان

(عن مجلة (ساينس أوف ثوت))

قد يتساءل الإنسان وهو يعرض لفكرة الحرب، ويفكر في الشقاء والبلايا التي تعترض الإنسانية في هذه الحياة: (كيف يرضى الله لعبيده هذه الحال؟) هذا السؤال وأمثاله يخطر ببال كثير من الناس. وهم إذ يفكرون هذا التفكير لا يريدون أن ينظروا إلى الحياة على وجوهها المختلفة المتعددة الجوانب، مسوقين إلى آراء واهية الأساس لا تنتج عادة غير الزيف. فنحن نظن أن عقيدتنا في الله والمسيح كافية لإصلاح كل شأن وقضاء كل مآرب مع ما نراه من البؤس الذي يعانيه كثير من المؤمنين المخلصين في إيمانهم، لا فرق بينهم وبين غيرهم ممن لا يؤمنون بشيء. ومثل بسيط كاف لحل هذا اللغز، وإفهامنا الحقيقة التي توجب ذلك

إن مجرد الإيمان بالفن لا يجعلنا من رجال الفن. فمن الواجب إذن إن نصبح فنانين. وعند ذلك يخلق في نفوسنا ذلك الشعور الداخلي الذي يخالط حياتنا ويجعلنا نعيش للتعبير عن الفن

وكذلك نستطيع إن نقول إن مجرد الاعتقاد في الله والمسيح لا يؤدي إلى ما تنشده نفوسنا، ما لم نكن مسيحيين كالمسيح، فيخلق في نفوسنا ذلك الشعور الداخلي الذي يمازجها ويجعلنا نحيا للتعبير عن قدسية هذا الشعور

فكما يعبر الموسيقي عن الأعمال الخالدة التي يضعها كبار الموسيقيين، نعبر عن الله العظيم ونترجم عن روحه

لقد وهبنا الله الحرية. وإن شقاء الحياة لمن الدلائل القائمة على ذلك. والحياة تسيرها حركة باطنة، وكل منا يملك في نفسه تلك القوة الخالقة التي تسير الحياة. فهذه القوة وذلك النشاط هما المادة التي تخلق فينا أسمى مظاهر الحياة

إن كل ما يحرزه الإنسان من التقدم في الحياة، يرجع الفضل فيه إلى القوة الباطنة: فهي التي تسمو بطبيعته وتهبها العمق والاتساع.

والفرق بين الناس يرجع إلى الباطن دائماً، فقد كان السيد المسيح لحماً ودماً في ظاهره،

ولكنه في الباطن كان متصلاً بالسموات والأرض. لقد خلقنا الله لنعيش كما يعيش الفنان المعبر عن الفن، وأمدنا بالروح والقوة والنشاط والحركة، ووهبنا القدرة على الاختيار، والحرية، وخلق فينا حياتنا الباطنة، فلسنا إذن آلات متحركة. إلا أن الحرية لا تسير بغير نظام. وإطاعة هذا النظام لا تفقدنا الحرية. فالحركة والنشاط والمادة والعمل والنجاح يجب أن تسير جميعها على نظام خاص.

والفرق بين الخضوع لقانون الفنان المعبر، والخضوع لقانون الإله، هو حرية الاختيار في الحالة الأولى - بمعنى وعي حقائق الأمور - والإجبار الذي لا اختيار فيه في الحالة الثانية. وما دام الله قد خلقنا لنكون الفنانين المعبرين عن جلاله، وجعلنا أحراراً في الحياة، فالحرية إذن سنة الله، وهو بقدرته يحمي هذه الحرية. فإذا خضعنا للقانون

حمى نفوسنا وحفظ حريتنا. وإذا عارضنا ذلك القانون، عارضنا حريتنا، وخضعنا لقانون الآلة الصماء
فعدم تنفيذ إرادة الخالق يقضي على حريتنا، إذ يساء استعمال الحركة والنشاط والمادة والتقدم، وينحدر العالم إلى مهاوي الشقاء. . .
البريد الأدبي
تاريخ الأمم والبلدان الإسلامية
هذا عنوان الكتاب الضخم الذي أخرجه من أسابيع المستشرق العلامة الأستاذ كارل بروكلمن، وقد نشره في مدينة مونيخ من مدن ألمانية. وعنوان الكتاب في اللغة الألمانية:
والحق أني لم أقرأ الكتاب بعد، وذلك لأني على سفر ولأني أستريح ههنا من عناء المطالعة العلمية. غير أني رأيت ألاّ أهمل إخبار قراء (البريد الأدبي) بخروج ذلك الكتاب المفيد وحسبي اليوم أن أجمل لهم مشتمله على أن أعود إلى النظر فيه بعد زمن
1 - العرب والدولة العربية: الجزيرة قبل الإسلام. النبي محمد. الخلفاء الراشدون. الأمويون
2 - الدولة الإسلامية: العباسيون سقوط الخلافة وقيام الدول الصغيرة. الفرس والترك. الإسلام في الأندلس وشمال أفريقية. الشرق الأدنى أيام الحروب الصليبية. المماليك في مصر. الترك والمغول
3 - العثمانيون والإسلام: قيام الدولة العثمانية واتساعها في عهد سليمان. حضارة العثمانيين في أوج ملكهم. قيام الدولة الفارسية الثانية ومنافستها للدولة العثمانية. انحلال الدولة العثمانية حتى نهاية المائة الثامنة عشرة
4 - الإسلام في القرن التاسع عشر: الدولة العثمانية ومصر. الحياة العقلية في تركية ومصر. شمال أفريقية والسودان وإيران والأفغان
5 - حال الدول الإسلامية بعد الحرب الكبرى: تركية. مصر. الجزيرة. الشام. فلسطين. شرقي الأردن. العراق. إيران. الأفغان
(تلال الفوج. فرنسة)
بشر فارس
أهداف الفتوة العراقية
كان يجب أن يكون مفهوماً أن في مصر رجالاً أكرمهم العراق من أمثال الزيات والسنهوري وعزام، وهؤلاء تُقبّل شهاداتهم الكريمة في العراق بتحفظ واحتراس، لأنهم ينظرون إلى العراق نظر المحب إلى الحبيب
وأنا عشت في العراق ونعمت بكرم أهل العراق، ومن السهل أن يقال إني أنظر إلى العراق نظر المحب إلى الحبيب
ولكنني أبعدت عن نفسي شبهة التلطف فلم أقل في أهل العراق غير كلمات سجلت فيها ما يملكون من محاسن وعيوب
واليوم أراني مقهوراً على إعلان ما أُضمر لإخواني في العراق من الحب والإعجاب بعد ظهور المجموعة النفيسة التي أصدرتها مجلة العلم الجديد بوزارة المعارف العراقية، وهي مجموعة مقالات وأحاديث نشرها سعادة الدكتور سامي شوكة في مناسبات مختلفات، وهي تدور حول محور واحد هو تقوية الفتوة في النفس العربية
ولا يمكن أن يتصور قيمة تلك المجموعة إلا أحد رجلين: رجل قرأها وعرف ما فيها من معانٍ سامية، أو رجل عرف الدكتور سامي شوكة وطالع ما في روحه الوثاب من قوة وحماسة
والدكتور سامي شوكة معروف لأهل مصر، فقد زارها منذ أشهر أيام المؤتمر الطبي العربي وشاء له كرمه أن يودعها بهذه الكلمات الحِرار:
(أودّع مصر القاعدة الحربية لجيوش أمتي العربية التي استندت إليها في فتح أفريقية وأوربا الغربية يوم كانت تقود العالم نحو الحق والفضيلة والعدل. أودع مصر أكبر كوكب في سماء بلادي العربية، مصر التي تضيء لنا بعلومها وثقافتها سبيل الرقي والتقدم. أودع مصر عاصمة القرآن في القرن العشرين)
ومما يجب النص عليه أن الدكتور سامي شوكة وهو مدير المعارف العام بالعراق يحتم

على جميع التلاميذ والمدرسين أن يلبسوا ملابس الفتوة لترتفع بينهم فوارق الترف في الملابس وليشعروا بأنهم جنود مستعدون لتلبية نداء الوطن حين يفزع إلى أبنائه الأبطال

فيا صديقي الذي لم أشهد فيه غير الشهامة والصدق، أعزك الله ونصرك، وجعلك قدوة لمن يخدمون المعارف بسائر الأقطار العربية

زكي مبارك

مداعبات النشار

سيدي محرر (الرسالة)

وجه نظري أحدُ الأصدقاء إلى المداعبات التي ينشرها حضرة الشاعر الفاضل عبد اللطيف النشار، وقد أبى لطفه إلا أن تشملني. وهو حر في ذلك لولا أن بعض ما يكتبه أتاح فرصة لسوء التفاهم مع بعض الأدباء. وحسبي أن أقول إن آرائي من أدبية واجتماعية وغيرها صريحة معروفة، ولم أحتج مرة لستر أبى الفرج ولا غيره في التعبير الملفوف عنها. وعلى هذا فلست مسؤولاً عما يقوله زيد أو عبيد من معارفي أو أصدقائي ولا أشاطر أحداً منهم خفيةً، كما أن أحداً منهم لا يتحمل مسؤولية كتابتي. وأما عن خلطه الآخر وذكره رجلاً من أعلام النحالة المشهورين وهو المستر (ليونارد هاركر) فمغفور أيضاً لمثل حضرته ما دام ذلك من مظاهر لطفه. وقد ينتفع حضرته لهذه المناسبة بالإطلاع على مجلة وإن لم يرضه أن يجد أبناء العالم الجديد يفهمون العلم والأدب والتأريخ لهما على غير ما يفهم

وبعد. فلما كنت قد نفضت يدي من الأدب العربي منذ زمن فإني أعدّ نسياني تفضلاً كريماً من آبي الفرج الأسكندراني وأدعو له بالهناءة والتوفيق.

أحمد زكي أبو شادي

في الفصول والغايات

قال أبو العلاء المعري في كتابه العبقري (الفصول والغايات في تمجيد الله والمواعظ):

الجسد بعد فراق الروح كما قُص من يدك، وقُصِّر من فودك: إذا ألقى فسيط في النار) لم تباله، وإذ غرق فليل في اللُّج فكذاك؛ هكذا يقول المعقول، ولله نظر في العالم دقيق. لا يمتنع أن يكون جسد الصالح إذا قبر في النعيم، وجسد الكافر في عذاب اليم، لا يعلم به الزائرون، وعابد الله ليس بغبين. ليت أنفاسي أعطين تمثلاً، فتمثل كل نفس (رجلاً قائماً يدعو الله تبتلاً يمنع جفنه لذيذ الإغفاء

رويت الفصل كله ليُعلم أن الشيخ قد فن في الكتاب فنيناً، ونوّع فصوله تنويعاً، فلم يقتصر على أشياء ما تعداها. وما أقصد بما أملئ أن أبحث بحثاً فلسفياً ولا (دينياً).

الخطب ضئيل:

في الفصل: (فليل) وقد قال محقق الكتاب في التفسير: (الفليل: ناب البعير المنكسر، أو ما ندر عن الشيء كسحالة الذهب وبرادة الحديد وشرارة النار) وعندي أن الفليل هنا هو الشعر، (ما قص من يدك) تشرح (الفسيط) و (ما قصر من فودك) توضح (الفليل). وفي اللسان: (الفليلة والفليل الشعر المجتمع) وفي فقه اللغة: (سبيخة من قطن، عميتة من صوف، فليلة من شعر، سليلة من غزل)

وإن استقل أديب نقد لفظة واحدة في هذا الكتاب فلا يلمني، وليلم إمعان العلامة محققه في التدقيق ومبالغته في الضبط فهو الذي حرمه نقداً كثيراً يشتهيه. . .

إن (الفصول والغايات) كتاب عجيب ما اخرج عالم في هذا الوقت من معادن الأدب القديم عديله، ولم يحقق مصنف تحقيقه. ولن يشينه أبداً إن الطبعة الأولى لم تنفذ حتى اليوم، وإنما يعزُّ ذلك القاهرة ومصر وبلاد العرب، ويخبر أن القوم (إلا أقلهم) لم يبرحوا في الشط.

* * *

مصارحة وتصحيح

لا ندري ما الذي يحمل الدكتور زكي مبارك على أن يحرف كلام الناس ثم يتهمهم بأنهم يحرفون كلامه! لقد أتهمنا حين أنكرنا عليه قوله: (اشغلني عنك يا رباه بما سيكون في الجنة من أطايب النعم) بأننا حذفنا قوله عقبه: (فأن بصري أضعف من أن يواجه نورك الوهاج) ليجوز لنا أن نصفه بسوء الأدب في الدعاء، وسوء الفهم للدين. والجملة التي

أخذناه بها لا يمكن أن يصلحها أية جملة أو جمل يمكن أن تضاف إليها، فضلاً عن جملة يصح في نفسها أن تكون موضع مؤاخذة لأنها تثني على الله سبحانه بما لا يكاد يصلح ثناء على الشمس التي خلقها. فلو أننا ذكرناها لأخذنا كاتبها مؤاخذة أخرى، ولكننا اكتفينا بمحاسبته على أشنع غلطتيه، كما سبق أن نبهنا

والآن يأتي الدكتور في خطابه في العدد 319 من الرسالة فينسب إلى كاتب فيها أنه قال: إن من حق الدكتور أن يتكلم في الأدب لأنه دكتور فيه، وليس من حقه أن يتكلم في الدين لأنه ليس دكتوراً فيه! والذي نعرفه أن الكاتب الذي يعنيه الدكتور لم يقل هذا، وإنما قال إن

للدكتور أن يتظرف أو يتمجن في أسلوبه حين يكتب في الأدب الذي هو دكتور فيه، وليس له أن يتظرف أو يتمجن حين يكتب في الدين أو حين يدعو الله. فهو ينكر على الدكتور لا مجرد الكتابة في الدين، ولكن إساءة الأدب في الكتابة، سواء أكان دكتوراً في الدين أم غير دكتور فيه. وأظن نعمة الإسلام التي يحمد الدكتور الله عليها من شأنها أن تجعل الدكتور يوافق الكاتب على ما قال، سواء أقر بما سماه الكاتب تمجنا في دعاء زكي مبارك الذي دعا أم لم يقر.

على أننا مع هذا نحب أن نصارح الدكتور زكي مبارك أن خيراً له وللناس أن لا يكتب في الدين، لا لأنه غير دكتور في الدين ولكن لأنه غير متمكن فيه. وفرق بين الاثنين. فلو كان متمكناً في الدين لجاز له أن يكتب فيه ولو لم يحمل فيه شهادة أو لقباً ما. ولكنه للأسف غير متمكن، ودليل ذلك أخطاؤه الكثيرة التي وقع فيها، والأخطاء التي لا يزال يقع فيها كلما كتب في الدين أو فيما يتصل به.

والخطأ في الدين ليس كالخطأ في الأدب، كما أن الحال في الدين ليس كالحال في الأدب فوضى لا يهتدي فيها بمعيار يميز الخطأ من الصواب. فمعيار الحق والصواب في الدين موجود لا يخطئ، إلا وهو الكتاب الكريم والسنة المطهرة. ما وافقهما كان هدى وصوابا، وما خالفهما كان خطأ وضلالا. والعقل بعد أن ثبت عنده أن القران من عند الله، وأن محمداً رسول الله، ملزم - ملزم بمنطقه هو - أن يسمع ويطيع من غير تردد ولا ريبة سواء فهم الحكمة أم لم يفهم، كما يقبل النظريات الرياضية مهما بدت معقدة غريبة. إن للعقل طبعاً أن يحاول الفهم ما استطاع، بل هذا هو واجبه، لكن ليس له أن يوقف السمع والطاعة في الدين على الفهم و (المعقولية) وإلا أصبح الدين رأياً يتغير، أي أصبح غير دين

فقول الدكتور زكي مبارك إن لكل مسلم الحق في أن ينظر إلى الله وإلى الوجود كيف شاء في حدود المنطق والعقل، قول يحتاج إلى تكملة، تكملة الاهتداء بالكتاب والسنة، لأن العقل قوة لا تستطيع تفكيراً صحيحاً إلا من مقدمات صحيحة. والمقدمات الصحيحة في الدين - بعد الدخول فيه بالعقل - لا توجد إلا في كتاب الله وسنة رسوله. فإذا لم يهتد العقل بهما فقد ظل سواء السبيل

والدكتور زكي مبارك في تطبيقه ما يسميه المنطق والعقل كثيراً ما يخالف الكتاب والسنة

كما فهمهما أولو العلم من المسلمين من لدن زمن الرسول إلى يوم الناس هذا. ومن هنا كانت أخطاء الدكتور، ومن هنا كان ما يشكو منه من سوء الظن به. فلو أنه اهتدى بالكتاب والسنة في تفكيره لقلت أخطاؤه كثيراً، ولجاءت حين تجيء من نوع لا يضره ولا يضر الناس. إذن لما قال - مثلاً - (اشغلني عنك يا رباه) بأي شيء لأي سبب؛ ولما جزم بأنه سيدخل الجنة بكتابه (التصوف الإسلامي) فضلاً عن أن يدخل معه (على حسابه) ألوفاً من الأدباء كما يقول، لأن الزيات - في زعمه - قال قولاً كهذا (والزيات رجل صادق الإيمان ورجاؤه عند الله مقبول) فإن هذا النوع من الكلام حابط باطل في الدين، فقد شهدت بالجنة من هي خير من الزيات لمن هو خير من زكي مبارك فأنكر النبي ذلك عليها وقال: من أدراك؟

ويجب أن يذكر الدكتور أن الإسلام ليس مجرد إقرار، ولكنه أيضاً عمل. والكتابة عمل، بل هي من الأديب من أهم الأعمال. فليراقب الدكتور الله في كتابته فلا يأتي فيها بما ينكره الإسلام، فإن فعل فلن يجد في المسلمين إلا من يحسن الظن به، فإن الذي حمل على سوء الظن به إنما هو ما وجد فيما كتب إلى الآن من مخالفة الكتاب والسنة حتى فيما يتعلق بالأساسي من الأمور

(بور سعيد)
محمد أحمد الغمراوي
فتوى الأزهر في أسباب الرق وأحكامه
أرسل بعض علماء جاوة إلى لجنة الفتوى بالأزهر الاستفتاء الآتي:
(رجل باع ولده الحر لمسلم أو لغيره، فهل يصح هذا البيع؟ وهل يصير هذا الولد ملكاً للمشتري؟ وإذا لم يصح البيع فما حكم عقده؟ وهل يجب استرداد الثمن؟ وما هي أسباب الرق بالضبط؟)
وقد أجابت لجنة الفتوى على هذا الاستفتاء بما يأتي:
الاسترقاق ظاهرة اجتماعية نشأت منذ ابتدأ الاجتماع الإنساني.
وترجع هذه الظاهرة إلى تغلب القوي على الضعيف وتسلطه عليه واستخدامه إياه وقد كان الرق شائعاً قبل الإسلام في جزيرة العرب، فكان الناس يتخطفون الغلمان والفتيات من بين أهلهم ويذهبون بهم إلى الأسواق حيث يوجد النخاسون وسماسرة الرقيق؛ وكذلك كان شائعاً قبل الإسلام في أمتي الفرس والرومان على ما كان في جزيرة العرب وأشد
وكانت معاملة الأرقاء في هذه الأمم تختلف في القسوة واللين تبعاً لاختلاف دياناتها وتقاليدها، إلا أن هذه المعاملة على العموم كانت قاسية جداً يظهر فيها سلطان القوي على الضعيف بأجلى معانيه، بل إن الديانة الهندية القديمة المؤسسة على رعاية الطبقات البشرية كانت تعتبر الأرقاء من الطبقة الدنيا التي تلزمها الخسة لذاتها، ولا يمكن أن ترقى يوماً إلى ذروة الطهارة الإنسانية
فجاء الإسلام وسوى بين الناس جميعاً وأعلن أن لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، ولكنه وجد نظام الاسترقاق قائماً بين الأمم ومعتبراً فيها من النظم الاجتماعية المتغلغلة في صميم الحياة إذ ذاك، فلم ير من الحكمة في التشريع أن يلغي هذا النظام إلغاء تاماً بل عمد إلى تقرير المبادئ الآتية التي تخفف من آثار الرق وتنظم العلاقة بين المالك والمملوك لا على أساس القوة والضعف كما كان في الأمم السابقة، بل على أساس المحبة والأخوة وتبادل المنافع والتعاون في شؤون الحياة.
ولا نبالغ إذا قلنا إن مبادئ الإسلام التي شرعها في الاسترقاق تعتبر بمثابة إلغاء الرقيق. وإليك بعضاً من هذه البادئ
أولاً: ضيق الإسلام في أسباب الرق حتى حصرها في سبب واحد هو محاربة المشركين للإسلام وصدهم الناس عن سبيل الله، فأذن للمسلمين الذين يدافعون عن دينهم ويردون عنه عادية المشركين أن يضربوا الرق على من يقع بين أيديهم من أسرى هؤلاء المشركين المحاربين
ثانياً: لم يجعل هذا الاسترقاق ضربة لازب ولا نتيجة حتمية لمحاربة المشركين والظفر بهم، بل جعل ذلك من قبيل نظم السياسة الحربية، فخير الإمام في أن يلجأ إلى الاسترقاق إذا رآه وسيلة من وسائل الإعزاز لدين الله وكسر شوكة المعتدين، وفي أن يمن على الأسرى فيطلق سراحهم بفداء أو من غير فداء
ثالثاً: إذا رأى الإمام أن في الاسترقاق وسيلة حربية لإعزاز الدين ودفع اعتداء المعتدين فلجأ إليه فإن الإسلام لم يترك الحبل على الغارب ولا ترك الرقيق لمشيئة مالكه ورحمته
يحمله من عناء الأعمال ما شاء كما كان في زمن الجاهلية، ولا جعل حظيرة الرق حظيرة أبدية لا يتسنى للرقيق الخروج منها بحال، بل عنى بأمر الرقيق وأوصى المسلمين به خيراً، قال تعالى: (وبالوالدين إحساناً، وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم).
وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس). وقال صلى الله عليه وسلم: (من كانت له جارية فعلمها فأحسن تعليمها ثم تزوجها كان له أجران)
ثم رّغب في العتق ودعا إلى تحرير الرقاب، وجعل لمن أعتق رقبة ثواباً عند الله يعدل ثواب كثير من الطاعات، بل أوجب الإسلام ببعض المعاصي تحرير رقبة كمن قتل نفساً خطأ أو أفسد صيامه عامداً أو حنث في يمينه التي عقد عليها قلبه
وآيات القرآن العظيم وأقوال الرسول الكريم في الرفق بالرقيق والإحسان إليه في

المعاملة كثيرة ومشهورة. من هذا يتبين أن ليس للرق في الإسلام إلا سبب واحد هو ما أسلفنا الإشارة إليه من محاربة المشركين واعتدائهم على المسلمين، وأن الاستيلاء على المشركين بأي وسيلة كانت زمن السلم، ومن غير محاربة، وخطف الأولاد من أهليهم كما كان يعمل في الماضي، كل ذلك لا يترتب عليه أن يكون المستولي عليهم أرقاء ولا يسوغ التصرف فيهم بحال

وإن بيع الرجل ولده يكون بيعاً باطلاً يجب منعه، ويجب رد الثمن للمشتري، ورد الولد إلى أبيه والله أعلم

محمد عبد اللطيف الغمام

رئيس لجنة الفتوى

سعد وسعاد ومعاوية بن أبي سفيان

ذكر صديقي الأستاذ علي الجندي أني مررت على قوله (وإلى تلك الجهة الأموي المدل بمكانه من قريش ومكانه من الخليفة مروان ابن الحكم) مراً خفيفاً. ففهمت أن مروان بدل من الخليفة مع انه ليس بدلاً منه. ولو أنصفني صديقي لذكر أني حين لم استسغ ذلك

مررت به مراً دقيقاً، وأن هذه الدقة كانت سبباً في ظهور أمر لم يكن أحد لينتبه إليه لولا أني لم استسغ ذلك، وذلك الأمر هو أن الذي فعل ذلك مع سعد وسعاد هو ابن أم الحكم لا مروان بن الحكم، كما جاء في بعض الروايات. ولا شك أن منشأ ذلك الخلاف بين الروايتين هو اشتباه الاسمين، والمعقول في هذا أن يشتبه اسم ابن أم الحكم باسم مروان بن الحكم، لأن الثاني أشهر من الأول، فمن القريب جداً أن يكون بعض النساخ أبدله به، لأنه لم يسمع إلا باسم مروان بن الحكم

وقد ذكرت لصديقي الأستاذ الجندي أني لم أستسغ ذلك لمروان بن الحكم لأنه كان رجلاً كبيراً يطمح إلى ما يطمح إليه كبار الرجال، ولا تدنو نفسه إلى مثل تلك الصغائر، ولم يكن كما قال الأستاذ رجلاً مفتوناً مدلاً، بل كان رجلاً عاقلاً ذا دهاء وسياسة، وقد اشتغل بالسياسة العالية وهو شاب صغير في خلافة عثمان رضي الله عنه، فكان فيها مشيره ووزيره، وقارع في ذلك أمثال علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله ومعاوية بن أبي سفيان، وما زال يطمح إلى أبعد الغايات ويعمل ليظفر بملك المسلمين حتى ظفر به وأسس دولة بني مروان الكبيرة فكان لها ما كان من الملك الكبير في الشام وغيره من البلاد الإسلامية، ثم بالأندلس التي نافست الدولة العباسية، فمثل هذا الرجل لا يستسيغ العقل أن يقع في تلك الصغيرة التي جاءت في تلك القصة، وإنما يستسيغ وقوع ذلك من أمثال ابن أم الحكم

وهذا إلى ما ذكرته في كلمتي الأولى هو منشأ اضطراب تلك القصة عندي، لا أنها موضوعة أو غير موضوعة كما نسب إلي الأستاذ الجندي، فإني لم أذكر ذلك أصلاً، ولا يمكن أن يقع فيه رجل يفهم شيئاً في الأدب. ولا زلت أرى أن تلك القصة موضوعة، وأنه لا فرق فيها بعد ذلك بين أن تكون واردة في كتاب تزيين الأسواق أو في غيره من الكتب التي يحتفل الأستاذ الجندي بروايتها، مع أن احتفاله بروايتها يناقض تردده في أنها موضوعة أو غير موضوعة، كما يناقض جزمه بوضع ما جاء فيها من الأشعار على لسان معاوية

وقد سكت الأستاذ الجندي عن دليلي على وضعها من هذا البيت الذي جاء فيها:

قد كنت تشبه صوفياً له كتب ... من الفرائض أو آيات قرآن

وهو دليل على وضعها لا يمكن نقضه، ولا أدري لماذا سكت الأستاذ الجندي عنه

أما ما ذكره الأستاذ الجندي عن مروان في تلك الفتن التي فرقت كلمة المسلمين، فهو من الأمور التي أختلف العلماء قديماً فيها، ومقام مروان في تلك الفتن كمقام معاوية رضي الله عنه. على أن ذلك خروج عن موضوعنا، لأني نفيت ما ورد في تلك القصة عن مروان بن الحكم لأنه كان رجلاً كبيراً لا يقع في تلك الصغائر، لا لأنه كان رجلاً عادلاً يتنزه عن الظلم

ولا أحب بعد هذا أن أطيل النقاش في كل ما جاء في كلمة صديقي الأستاذ الجندي، لأن القصة لا تستحق طول النقاش، ولأني لا أحب أن أشغله عن المضي فيما ينشره بمجلة الرسالة الغراء. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

عبد المتعال الصعيدي

العثور على أبيات من الشعر وقطعة نثرية في آثار الفيوم
أذاعت مصلحة الآثار بياناً عما قامت به بعثة جامعة ميلانو الملكية من أعمال البحث والتنقيب عن الآثار في منطقة مدينة ماضي بالفيوم. ومن أهم ما عثرت عليه عدد من المستندات معظمها أدبي، وقد عثر عليها في أحد أركان حجرة صغيرة، وقد تحولت كلها إلى قطع متناثرة من تأثير الطبيعة.
ومن الأنظمة التي تتبعها البعثة دراسة النصوص وجمع أجزاء الآثار بعضها إلى بعض. وقد أمكن معرفة ثماني فقرات من الإلياذة، وكذا أوائل سبعة عشر سطراً من الشعر لا تمت بصلة إلى هزيود ولا إلى أبو للنيوس برودس
ووجدت أيضاً أجزاء صغيرة من أناشيد، ونص قطعة نثرية يرجح أنها لخطيب أكثر من أن تكون لمؤرخ، وفيما عدا القطعة النثرية المكتوبة بحروف صغيرة فإن الباقي مكتوب بحروف جميلة كبيرة الحجم يرجع تاريخها إلى أوائل عصر المسيح أو قبل ذلك بقليل.
كتاب الجماهر
مما أتحفنا به الأديب الكبير الأستاذ النشاشبي في (نقل الأديب) العدد 318، قول عن (التاج) جاء فيه: (نقل شيخنا عن أبي الريحان في كتاب الجماهير قولهم . . .
لأن الرطوبة فصل مقدم لذات الماء. . . الخ) (رقم 482 حاشية 1) والكتاب إنما هو (الجماهر) لا الجماهير، وأسمه الكامل (الجماهر في معرفة الجواهر) لمؤلفه أبي الريحان البيروني نشره المستشرق العلامة الدكتور سالم الكرنكوي (ف. كرنكو) وطبعته جمعية دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد سنة 1355 هـ، والعبارة المنقولة في التاج هي في ص120 من كتاب الجماهر كما يلي:
(لأن الرطوبة فضل يقوم لذات الماء. . . الخ) وهذا هو الصواب.
(دمشق)
س. أ
على منهج الأغاني
للأستاذ النشار منزلة رفيعة في نفسي ولكتابته الأخيرة عن شعرائنا قدر كبير من اهتمامي وعنايتي وإعجابي وهو صديقي وأستاذي من زمن بعيد، ولكن ذلك لا يمنعني أن أقول كلمة عن أشياء عنت لي في مقالاته
لم أجد اتفاقاً بين الأغاني ومنهجه غير وضع لفظة (الصوت) على بعض الشعر وغير (حدثنا فلان عن فلان) وقد قال الأستاذ في مقاله الأول (ولن نخترع ولن نلفق إلا أن يكون ذلك من مستلزمات الكتابة) ومع هذا فيكاد يكون 80 % من مقالاته تلفيقاً على طريقة (إن لم يكن فقد كان يجب أن يكون)
وقد كان صاحب الأغاني يذكر الصوت فيترجم لصاحبه ويذكر آراء النقاد والعلماء فيه ثم يقص شيئاً من أخباره.
والأستاذ النشار لم يفعل شيئاً من ذلك فهو يكتب شعراً لغير الشاعر ونقداً لغير الناقد ثم يقول: (إنهم لا يقولون ذلك ولكن أحسب هذا هو الذي يجب أن يقولوه) ولعله لجأ إلى هذا ليتسنّى له تصريف القول كما يريد. وكان الأجدى لو عمد إلى أبيات من شعر من يريد أن يترجم له يتميز فيها مذهبه وطريقته ثم يكتب ما قد قيل فيه من رأي ثم يعقب برأيه. وقد يذكر الأستاذ الإسكندراني ما لا داعية إليه مثل أن يقول: (حدثنا الأستاذ خيري سعيد قال: حدثنا العلامتان هيجل وشليجل قراءة عليهما. وحدثنا الناقدان هردر وفيخت ولم يقل بماذا
حدثوه، وأغلب الظن أنهم لم يحدثوه بشيء، أو لعله آثر ألا يروي عن هؤلاء العلماء الألمان حتى يرى ماذا ستصنع ألمانيا في مشكلة دانزج)
فما نرى في مثل هذه العبارة ما يفيد الأدب أو التاريخ!
وقد ترجم أبو الفرج إلى الآن لشاعرين نراه خالف ما أتفق عليه الرأي في أحدهما، فمثلاً إذا جاء في القرن الخامس والعشرين من يريد أن يعرف زعيم المدرسة الحديثة في القرن العشرين لا يستطيع أن يعتمد على رأي الأستاذ، لأن المعروف والحق أن الذي فتح باب الحديث إنما هو (مطران) ومن خلفه (أبو شادي) أما ناجي فلم يكن له - فيما نعلم - تأثير بالغ في هذا الاتجاه. وقد يحجنا الأستاذ بأن هذا رأيه، فكان عليه - وقد خالف المشهور والمعروف - أن يعزز رأيه بالحجة والدليل

وكذلك نراه يقول عن صالح جودت (الموسيقار الكبير) وقد نفهم أنه يريد من ذلك السخرية ولكنا نرى أن في هذا مضلة لمن يأتي بعدنا
ومسألة رابعة أريد عنها جواباً. من المأخوذ بالرأي المتحدِّث أو المتحدَّث على لسانه؟
وبعبارة أوضح من نأخذ بما قال الأستاذ في امرئ القيس، الدكتور هيكل أم صاحب الأغاني؟
يقول الأستاذ على لسان هيكل: (وأني لأعجب من معلم اللغة العربية لا يقول لتلاميذه إن امرأ القيس وإن كان عبقرية فذة في فنه فإنه كان في آرائه وشعره نحو النساء كأي حمار في الطريق وإن غزله لا يختلف شيئاً عن النهيق؟) أهذا يقال؟!
والأستاذ النشار قد أجاد في ابتكار طريقة خاصة يدون بها التاريخ الأدبي لعصرنا الحاضر، فيها خفة وفيها ترويح عن نفوس القراء، ولكن ذلك قد يضطره إلى ما لا حاجة إليه كأن يقول: (واللحن لجوبلز على نغمة المترليوز)
وبعد، فرجائي إلى الأستاذ ألا يحوج الزمن إلى من يهذب (المنهج) كما أحوجه إلى من يهذب (الأغاني)
ودعوتي إلى الله أن ينسأ له في الأجل حتى يتم كتابه وحتى يتمتع قراء العربية بكتابته
علي محمد حسن
كلية اللغة العربية
المسرح والسينما
من التاريخ
النهضة المسرحية في مصر
ونصيب الفرقة القومية منها وواجبها حيالها
كيف قامت النهضة المسرحية على يد فرقة رمسيس؟
لكي نجيب على هذا السؤال يجب أن نعود خطوة أو خطوتين إلى ما قبل بدءِ هذه النهضة، كيما نرسم تلك الفترة الغريبة التي مر بها المسرح وقتذاك لنرى في أي بيئة نشأت فرقة رمسيس، وفي أي ظروف أنشئت؟
نحن في عام 1917، والحرب الكبرى ما تزال في أيامها العصيبة، والناس هنا يسمعون بها، وتصل إليهم أخبار أهوالها ويعانون الأزمات الناشئة عنها. بيد أن أكثرهم كان بعيداً عن الاصطلاء بنارها، وعلى كل حال لم يكن بهم من حاجة لقليل أو كثير من المآسي يضيفونها إلى مآسي الحرب وآلامها. كان بهم حاجة في الواقع إلى ما يفرج عن نفوسهم ويخفف عن صدورهم وقر الحياة والأيام العصيبة التي تجتازها الدنيا حينذاك.
ومن ثم، فإنهم كانوا أقرب إلى تناول الأشياء المرحة منهم إلى تقبل ما يفجع أو يخلق الأحزان ويثير كوامن الذكريات الأليمة
وقامت السينما ودور اللهو بنصيبها في هذا السبيل، وقام أبناء المسرح بنصيبهم أيضاً؛ وبدأت الفرق الهزلية تنتعش وتزجى بضاعتها، فيقبل عليها الناس!
كان بربري مصر الوحيد يعمل في: (كازينو دي باري) عند مدام مارسل، بين عشرات من الفتيات الجميلات!
وكان عزيز عيد، وروز اليوسف، ونجيب الريحاني وغيرهم يعملون حيناً في (الأبيه دي روز)، وحيناً آخر في (مسرح برنتانيا القديم)، أو على غير ذلك من مسارح كانت قائمة وقتذاك
كان هؤلاء جميعاً يعملون ليضحكوا الناس وليدخلوا المسرة إلى قلوبهم والنشوة إلى نفوسهم. حتى خرج إليهم نجيب الريحاني بشخصيته الطريفة: (كشكش بك) عمدة كفر البلاص. فأحدث بها ثورة في دنيا الهزل! وراح يلقي بنصائحه الغالية من على منبر (الأجبسيانة): فيتحدث عن النساء اللائي سلبن لبه وشغلن باله، وجعلنه يبيع الأطيان، ويرهن الضياع ليستمتع بهن في مصر أم الدنيا! ووضع أمين صدقي رواية (حمار وحلاوة) وأخرجها نجيب الريحاني على مسرح (الأجبسيانة) فنالت نجاحاً منقطع النظير، وكانت بدء عهد جديد للمسرح الهزلي في مصر، ولأول مرة في تاريخ المسرح المصري لاقت رواية كل هذا الإقبال من الجمهور، حتى ظلت تعرض حوالي أربعة شهور!
وكانت بمثابة إعلان ضخم عن هذا النوع الاستعراضي من الروايات المرحة الصاخبة

بألحانها وموسيقاها، وراح الناس يتغنون أغانيها وينشدونها في الطرقات والبيوت؛ وراح أهل المسرح ينسجون على منوالها! وبينما بربري مصر الوحيد يقول لمن حوله من الفتيات: (اللي في الدست تطلعه المغرفة)! ومصطفى أمين يطربهم بصوته البلدي الممتع. . . يجد أمين صدقي أن من الخير له أن يترك نجيب ليغترف من ذهب مدام مارسل، ويفيء في ظلالها ونجد نجيب في بديع خيري من يقوم بمهمته عنده فيحسن القيام بها

ومضى كل في سبيله. فلا تنقضي بضعة شهور حتى لا يكون في مصر غير: (كشكش بك) و (بربري مصر الوحيد)! وحتى لا يكون فيها غير شارع واحد بلغ صيته الآفاق هو شارع عماد الدين!

ويتضاءل شأن المسرح الأدبي وينزوي أبطاله حيارى لا يدرون ما يفعلون. ولقد وصل الحال بجورج أبيض بطل التراجيدي أن يستعين باسم (كشكش بك) وروايته (حمار وحلاوة) ويتخذ منهما شفيعاً لدى الجمهور ليقبلوا على شهود روايته العظيمة (أوديب الملك)، وعرضت (أوديب) إلى جانب الفصل الأول من (حمار وحلاوة) على مسرح الأجبسيانة، وسمع الناس (تجعيرة) أوديب إلى جانب صوت أبو الكشاكش المبحوح!

إلى هذا الحد من المهانة انحدر التمثيل الجدي، أو قل - في تعبير لطيف - إنه ما عاد يشغل عقول الناس بعد الذي كان من شأن المسرح الهزلي.

في هذه الظروف، وفي تلك البيئة، نبتت شخصية كانت مجهولة؛ وظلت مجهولة إلى حد ما حوالي خمسة أعوام بعد ذاك. هذه الشخصية هي التي تزعمت نهضة المسرح في فرقة ومسرح رمسيس عام 1922.

كان يوسف وهبي بن عبد الله باشا وهبي طالباً من طراز طريف، كان أخوه محمد بك وهبي صاحب مدرسة وادي النيل الثانوية، وكان اسم يوسف وهبي الطالب الفخري مدرجاً بين أسماء الطلبة العاملين! وما كانوا يشهدونه إلا لماماً، إذ يجدونه كل بضعة أسابيع إلى جوار زميله وصديق الصبا مختار عثمان يتحدثان في غير الدرس ويصغيان لغير وحي العلم، كان كل منهما موجوداً بجسمه، غائباً بعقله في ملكوت الفن الجميل.

وفي نهاية العام شهد الطلبة زميلهم يوسف وهبي على مسرح المدرسة في مونولوج ظريف، صور فيه صاحبه جنديً جباناً يدعى (هتشكو)، يصارع الخوف فيصرعه، ويدعى الشجاعة، وهي منه براء!

وطاف يوسف بمونولوجه بعض الحفلات المدرسية وغيرها. فرأى الناس فيه شيئاً فذاً عجيباً إلى جانب (مونولوجست) ذلك الزمان من أمثال: عبد الله شداد، ومحمد عبد القدوس، وحسن فائق، وحسني رحمي، وأحمد عسكر. . . وغيرهم، كان يوسف شيئاً آخر سواهم، كان يعني أشد عناية بشخصية الجندي الجبان ويمثلها أبرع تمثيل، ويغالي فيها بعض الشيء. فيسترعي الانتباه وينال الإعجاب!

ودارت الأيام سراعاً، ووضعت الحرب أوزارها، واشتعلت نيران الثورة في مصر، وتطور فن المونولوج، وكل فن، وكل شيء في مصر. واتجه المسرح اتجاهاً وطنياً شعبياً في الحدود التي سمح له بها، وبينما يشهد الناس مصرع (العشرة الطيبة) على مسرح الكازينو دي باري لتدخله في السياسة من قريب أو بعيد، إذ بهم يشهدون مصرع (حنجل يويو) من بعدها لنفس السبب ولأسباب أخرى تتصل بالأديان!

بيد أنهم شهدوا في الرواية الأخيرة شخصية يوسف وهبي - لأول مرة - في دور (أستاذ) بجبته وقفطانه وعمامته، ورأوا فيه شيئاً جديداً يسترعى انتباههم، لكنه سرعان ما توارى فلم يسمعوا باسمه، ولم يعلموا بخبره إلا في عام 1922 حينما ظهرت الإعلانات المضيئة على باب مسرح رمسيس تعلن عن أسماء أبطال وبطلات فرقة رمسيس بطريقة مبتكرة هي إحدى تفانين يوسف وهبي بطل الإعلان في الشرق وكان الناس ينظرون ويسخرون من هذه الجماعة التي تورط نفسها في هذا العمل العظيم، وتحاول بجرأة أن تحمل أعباء النهضة المسرحية عن أكتاف من ناءوا بحملها من جبابرة المسرح، وفي وقت لم يكن

يرجى فيه للمسرح الأدبي أي نصيب من الحظوة عند الجمهور

الإنتاج السينمائي في مصر وعلة ضعفه

الإنتاج السينمائي في مصر ما يزال ضعيفاً رغم بعض الروايات الناجحة، أو التي يصح اعتبارها ناجحة بالقياس إلى غيرها، وعلة الضعف فيما نرى هو عدم وجود الرواية

السينمائية الكاملة. أما أوجه النقص الأخرى فقد أمكن تداركها، فكل الأعمال الفنية الآلية قد تهيأت لبعض الاستديوات في مصر مجلوبة من مصانعها في الخارج، وكذلك بعض الرجال الفنيين الذين تحتاجهم هذه الآلات وهذه الأعمال؛ وإذا كانت التربة المصرية قد أنبتت وأثمرت بعض المخرجين المصريين من الشباب، فإن استخدام بعض الأجانب قد عوض عن النقص الموجود. وقد أثبتت التجارب أن ممثلينا وممثلاتنا يصلحون إلى حد ما للعمل السينمائي كما أن بعض الوجوه الجديدة قد برزت في الميدان وأثبتت وجودها!

أما التأليف السينمائي فقد دلت الأيام على أنه الشيء الوحيد الذي ينقص إنتاجنا السينمائي ويشل حركته أو يؤخرها

سمعت مخرجاً يقول: إن الرواية السينمائية تعتمد في نجاحها على الإخراج، أما الموضوع فهو آخر ما يعتد به، لأن المخرج النابه يستطيع أن يأتي بالمعجزات من لا شيء. وهذا لا يعدو أن يكون كلام مخرجين يطبلون لأنفسهم ويزمرون. أما الواقع فهو أن الرواية القوية هي أول ما يعتد به في صناعة السينما وكل ما عدا ذلك إن هو إلا (رتوش) للصورة وتجميل لها. لذلك ننصح منتجينا أن يفتشوا أولاً عن (الرواية) فإذا وجدوها فإن الباقي سهل وميسور، ومهما بذلوا في سبيل الحصول على الرواية الكاملة فإن النصر الأكيد الذي يأتيهم عن طريقها سيجعلهم بعد ذلك يضاعفون البذل والعطاء شاكرين لنا هذه النصيحة التي نقدمها إليهم بلا ثمن

(فرعون الصغير)

السينما والصيف

تطور الحال، وصار للسينما في الصيف موسم يعمل له حساب بعد أن كان الأمر غير ذلك منذ سنوات قليلة، حين كانت أغلب دور السينما لا تعمل إلا شتاءً. فإذا عملت صيفاً، فإنها لا تلقى إلا إقبالاً قليلاً. أما اليوم وبعد أن أنشئت دور السينما الصيفية، وزاد الإقبال عليها زيادة هائلة، وأصبحت تدر ربحاً وفيراً، إلى جانب تكاليفها الزهيدة. فقد بدأت الشركات تعمل حسابها للموسم الصيفي، وتعد له العدة كالموسم الشتوي على السواء، وسيكون لهذا أثر ملحوظ في صناعة السينما، وسيكون من شأنه زيادة الإنتاج ووفرة الأرباح وشدة التنافس؛ وبالتالي ازدهار صناعة السينما وتقدم شأنها عند الأمم

بعض روايات الموسم القادم

* انتهى العمل من روايتي (العزيمة) و (حياة الظلام)
* تم إخراج (يوم سعيد) ولم يبق إلا بعض الأعمال الفنية الأخيرة
* يعمل الأستاذ جلال في إخراج (إرمانوسه) للسيدة آسيا والآنسة ماري كويني.
* يخرج إخوان لاما (قيس وليلى) على طريقتهم المعروفة.

العدد 322 - بتاريخ: 04 - 09 - 1939

مجمعنا اللغوي

ماذا يصنع. . . وماذا أثمر؟

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

عرفت الدكتور أحمد عيسى بك لا من طبه - لا جعلت حاجتي إليه، على حذقه وأستاذيته فيه - بل من أدبه وعلمه. وقد كانت له مشاركة في سياسة الأحزاب جنت عليه فيما أعلم ولم يستفد منها إلا العناء الباطل، وإلا الاضطهاد بعد أن دالت دولة الحزب الذي دخل فيه. وما كان له قط عمل في السياسة وإن كان قد حسب من رجالها - وحوسب على ذلك - في وقت من الأوقات. وإنما كان همه العلم والبحث في اللغة، ومازال هذا همه ووكده. وقد زارني مرة منذ بضعة شهور أيام كان الكلام يدور في تخليد ذكرى المرحوم الملك فؤاد، وقال لي: إنه يرى غير ما يرى الناس في وسيلة هذا التخليد، فإنهم يرومون إقامة تمثال هنا وهناك، ولكن الملك فؤاداً كان عالماً محباً للعلم والعلماء، فالأولى أن يخصصوا المال الذي يجمع لنشر الكنوز العربية التي لا تجد لها ناشراً كما فعلت أم المستشرق جيب الكبير. وأراني ديوان شعر عربي طبع في أوربا وعلى الصفحة الأولى منه أنه مطبوع من المال المجعول لتخليد ذكرى هذا العالم المستشرق. وهذا الاقتراح من الدكتور عيسى بك يريك نزعته

ومن أغرب ما سمعت منه في ذلك اليوم أنه رد نحو ألفي كلمة من اللغة العامية إلى

أصولها العربية، ورتبها وبوبها وعرضها على مجمعنا اللغوي ليطلع عليها ويطبعها وينشرها إذا وافق. ولكن المجمع آثر أن يهمل الأمر ولم ير أن يصنع شيئاً - على عادته -

وقد عنيت بهذا الخبر لأني أنا أيضاً جمعت طائفة من الألفاظ التي يظنها الكثيرون عامية وهي صحيحة وردت في كتب اللغة وكتب الأدب. وكان الباعث لي على العناية بهذا أني أؤثر أن أستعمل اللفظ المأنوس وأستثقل الحوشي والمهجور، فغايتي شخصية وغايته علمية بحت. وأتيحت لي فرصة فأذعت حديثاً عن العامية والفصحى أشرت فيه إلى بحث الدكتور عيسى بك ورجوت أن ينفض المجمع عنه هذا الغبار الكثيف وان يولي بحث الدكتور عيسى بك شيئاً من العناية التي يستحقها، ولكني احسبني ناديت غير سميع فما عبأ المجمع بالرجل أو كتابه شيئاً

وقد دافعت مرات عن هذا المجمع بمقالات شتى لي في (البلاغ) وفي المجالس وفي لجان شهدت اجتماعها وسمعت فيها حملات شديدة عليه، فلست أتهم باللدد في خصومته حين أتساءل عن هذا المجمع ماذا تراه يصنع. . . إن كل ما أراه يصنعه هو إجازة صيغ لا يحتاج جوازها إلى إذن خاص منه، ووضع ألفاظ لمصطلحات العلوم والفنون سبقه الكتاب والمترجمون والمعلمون إلى خيرها ولا خير في باقيها، ونشر مجلة لا انتفاع لأحد بها، وطبع معجم الدكتور فيشر أو هو يطبعه ولا فضل للمجمع في هذا. وقد سألت مرة أحد أعضاء المجمع عن هذا المعجم هل اطلعتم عليه وراجعتموه واقتنعتم بصحته فكان الجواب السريع: (لا)

قلت ولكن المجمع ينشره فهو يعد مسئولاً عما فيه، وعسى أن يكون فيه خطأ أو اعتساف أو شطط فمن يحمل تبعة هذا غير المجمع الذي ينشره والذي يعتقد الناس - ولهم العذر - أنه أقره. فكان جواب عضو المجمع أن ترحم على الأستاذ السكندري لأنه كان هو الوحيد الذي اجترأ على الاعتراض على نشر هذا المعجم بغير مراجعة أو بحث كاف

ولست أحاول أن أغض من قدر الدكتور فيشر أو أن أنتقص من قيمة معجمه الذي يقال إنه قضى أربعين عاماً في وضعه فما اطلعت عليه - كما لم يطلع المجمع - وإنما قرأت وصفاً له في الصحف ورأيت أمثلة لما يقال إنه فيه وهي أقل وأضأل من أن تجيز لي الحكم عليه أو الذهاب فيه إلى رأي معين. وإنما ذكرت هذا الحديث على سبيل التمثيل لطريقة المجمع في العمل ومبلغ تقديره لتبعته

وقد قيل لي إن خير ما ينتظر من المجمع هو وضع معجم حديث لهذه اللغة وإن هذا عمله الأكبر؛ وقال لي غير واحد من أعضائه ومن غيرهم إنه معني بدرس اللهجات العامية في أقطار العربية مثل عنايته بوضع الألفاظ لما لا لفظ له في العربية وإن هذا وذاك بسبيل مما يجب أن يضطلع به من وضع المعجم العربي. ولكني لا أراه يضع معجماً بل أراه يطبع معجماً تاريخياً للألفاظ وضعه الدكتور فيشر المستشرق. ولا أراه يصنع شيئاً يذكر في وضع الألفاظ للجديد من المعاني والتعابير؛ ولو أراد كاتب أو مترجم أو مؤلف في علم أو فن أو أدب أن ينتظر حتى يعد له المجمع ما عسى أن يحتاج إليه لما جنى سوى طول الرياضة على الصبر. ولا أراه يدرس اللهجات العامية بل أراه يرفض أن ينشر بحثاً للدكتور عيسى بك في العامية رد به آلافاً من ألفاظها إلى أصولها؛ فهل كان ينبغي أن يكون الدكتور عيسى بك مستشرقاً أولاً وعضواً في المجمع ثانياً ليجامله الأعضاء بنشر كتابه بلا بحث أو نظر أو تفليه. . .

ورحم الله الفيروزبادي وابن منظور وابن سيدة وأمثالهم، فما كان أحدهم مجمعاً طويلاً عريضاً ذا أعضاء من الغرب والشرق ومال تكفله له الدولة

وعسى أن يتوهم البعض أني أحاول أن أحمل المجمع على نشر هذا البحث للدكتور عيسى بك، ولهذا أقول إن هذا ظن لا محل له فقد نشر الدكتور كتابه وانتهى الأمر ولا حاجة به إلى معونة المجمع. وأقول أيضاً إن الدكتور الفاضل ما كان يبغي أجراً على عمله أو منفعة أخرى يصيبها من وراء ذلك وإنما رأى أن المجمع أليق جهة بنشر كتابه لأن بحثه يعد بعض عمله

سمعت مرة من رجل مسئول - أو كان من المسئولين يومئذ - وقد قال لمسئول آخر

إنه يرى إنشاء مجمع أدبي لخدمة الأدب لا اللغة وحدها كما يصنع المجمع القائم، فقيل له إن التريث واجب في إنشاء هذه المجامع فقد أنشأت الدولة مجمعاً للغة العربية وكان الأمل فيه كبيراً فمضت سنوات طويلات وهو لا يصنع شيئاً يستحق الذكر أو يستحق به ما أنفق عليه من مال الدولة وهذه تجربة لا تشجع على المضي في إنشاء المجامع

فأما إنشاء مجمع حكومي للأدب فقد كنت لا أرى رأي صاحب الاقتراح فيه لأني على شعوري بحاجة الأدب إلى التشجيع وحاجة الأدباء إلى التفرغ للإنتاج أكره أن يكون للحكومة دخل في ذلك وأخشى أن يجني دخولها في هذا الأمر على الأدب. فما يرجى للأدب خير إلا في ظل الحرية، والحكومات بطبيعتها نزاعة إلى السيطرة والتحكم وتسخير الأقلام لها

كان هذا هو اعتراضي على ما اقترح من إنشاء مجمع أدبي على مثال المجمع اللغوي. أما المسئولون فكانوا ينظرون إلى الأمر من ناحية التجربة المخفقة وما تشير به من ضرورة التريث اتقاء لبعثرة المال في غير غرض صالح، ولست أروي هذا إلا ليعرف المجمع رأي الحكومة نفسها فيه لعل هذا يستحثه قليلاً إذا كان رأي غير الحكوميين من أمثالي لا

يعنيه

إبراهيم عبد القادر المازني

جناية أحمد أمين على الأدب العربي

للدكتور زكي مبارك

- 13 -

كتب إلي أحد المتخرجين في كلية الآداب يقول: (ألا ترى أن إصرارك على تفنيد آراء الأستاذ أحمد أمين فيه تجريح لكلية الآداب، وأنت أقسمت على الوفاء لكلية الآداب)؟

وأقول إني ما نسيت ذلك القسم العظيم، وسأظل طول دهري وفياً لكلية الآداب

ولكن كيف يصح القول بأن تفنيد آراء الأستاذ أحمد أمين ينافي الوفاء لكلية الآداب؟

إن كلية الآداب لها رسالة أدبية وفلسفية، وهي تروض أبناءها على الفناء في الحق، وتنكر عليهم أن يكونوا أبواقاً تذيع أهواء الجاهلين، فمن الوفاء لتلك الكلية أن نراقب ما ينشر باسمها من المباحث والآراء، وأن نتعقب أساتذتها بالنقد حين يقضي الواجب بلا ظلم ولا إسراف

وقد استبحت قبل اليوم نقد آراء الدكتور طه حسين وكان عميداً لكلية الآداب، فلم يقل أحد إن ذلك النقد كان تجريحاً لتلك الكلية وخروجاً على يمين الوفاء

وهل خرج الدكتور عبد الوهاب عزام على كلية الآداب. حين أنكر آراء الأستاذ أحمد أمين؟

وماذا تريد منا كلية الآداب؟

أتريد أن نطوف بأحجارها طواف الخشوع فنرى كل صدىً يرن في حجراتها وغرفاتها وحياً نزل من السماء؟

إن تقاليد تلك الكلية قامت على أساس الفتوة، وقد شرعت النضال والعراك حول المذاهب والآراء، فليعرف بعض الأساتذة هناك أن الوشائج الصحيحة بيننا بينهم ترجع إلى أصل أصيل من تقاليد تلك الكلية، هو الثورة على الأخطاء والأغلاط والجهالات

ونحن ماضون في سبيل النقد الأدبي بجرأة وصراحة رعاية للحق، ورعاية لتقاليد تلك الكلية الغالية، جعلها الله إلى الأبد مثابة لحرية الرأي والعقل، ونجاها من عادية الأهواء!

وارجع إلى الموضوع فأقول:

رأى القارئ كيف أخطأ أحمد أمين حين وازن بين الوثنية العربية والوثنية اليونانية، لأن الموازنة لا تصح إلا بين أثرين. وقد وئدت الوثنية العربية وعاشت الوثنية اليونانية، فالموازنة بينهما لا تجوز إلا في ذهن من يستجيز الحكم على المجهول

وأنا مع ذلك أعترف بأن الوثنية العربية بقيت منها أشياء، فقد صح أن بعض العرب عبدوا الأصنام وعبدوا الشمس وعبدوا بعض النجوم

هذا صحيح؛ وقد شهد به القرآن؛ وشهادة القرآن لا يمكن إنكارها على الإطلاق، فهو عند المؤمنين وحي من عند الله، وهو عند الملحدين صورة صحيحة لأحوال العرب في

عهد النبوة. وكذلك يستوي المؤمن والملحد في تصديق ما شهد به القرآن
ولكن كيف كانت تلك الوثنية من الوجهة العقلية والروحية؟
هل يعرف أحمد أمين لأية غاية عبد العرب صنماً في صورة أسد؟
لا يكفي أن يكون الصنم نحت من حجر ليقال إن عبادته أرضية وضيعة، كما يعبر أحمد أمين، وإنما يجب ان نعرف لأية غاية روحية أو عقلية عبد بعض العرب صنماً من حجر على صورة أسد، فقد يكون الغرض من تلك العبادة تمجيد الأنفة والقوة والكبرياء، وهو غرض نبيل رأينا له أشباهاً في وثنية الفرس والمصريين واليونان
وقد عبد العرب أسافاً ونائلة، وهما صنمان لامرأة مليحة ورجل جميل
فهل يعرف أحمد أمين لأية غاية عبد العرب هاتين الصورتين؟
لقد تحدث الأخباريون بأنهما صورة لرجل وامرأة فجرا في الكعبة فمسخهما الله جحرين، وهنا يتحذلق أحمد أمين فيقول: (ولست أدري ما حملهم على عبادتهما مع شنيع فعلهما، وهما إن استحقا شيئاً فالرجم لا العبادة)
فالقول بأن أسافاً ونائلة فجرا في الكعبة فمسخهما الله حجرين هو التأويل الذي اهتدى إليه بعض العوام بعد اندحار الوثنية العربية
أما أهل البصر بأسرار الوثنيات القديمة فيعرفون أن أسافاً ونائلة عند العرب قد يشبهان إيروس وأفروديت عند اليونان، فهما تمثالان لعبادة الجمال والحب، وليسا تمثالين لعبادة الفجور والفسق
وعرض الأستاذ لتصور العرب في الزهرة فلم يدرك ما فيه من جمال، فالزهرة في الوثنية العربية كانت امرأة حسناء فصعدت إلى السماء ومسخت كوكباً، فهل رأى الناس تقديساً
للجمال أروع من هذا التقديس؟
ألا يكفي أن تكون تلك الحسناء نقلت من الأرض إلى السماء، ومن عالم الفناء إلى عالم الخلود؟
قلت لكم إن أسرار الوثنية العربية ضاعت ضيعة أبدية بفضل الدين الحنيف، ونحن غير آسفين على ضياع تلك الأسرار ولكنا لا نستسيغ القول بأن عقلية العرب كانت أرضية وضيعة ونحن نجهل كيف كانوا يتصورون شؤون الدنيا وأحوال الوجود
والعرب قد اعتذروا عن عبادة الأصنام فقالوا: (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) وهذه العبارة القرآنية الكريمة تشهد بأن وثنية العرب كانت تحريفاً لدين صحيح قام على أساس التوحيد.
فمن الخطل أن يقول قائل بأن عبادة الأصنام كانت عبادة أرضية على حين يشهد القرآن، بأنها كانت موصولة الأواصر بالمعاني السماوية
ويشهد القرآن أيضاً بأن وثنية العرب كانت لها أحكام متصلة بسكان السماء فقد (جعلوا الملائكة الذي هم عباد الرحمن إناثاً) ومعنى ذلك أن أوهامهم تجاوزت الأرض إلى السماء
إن العرب في جاهليتهم قد عرفوا المصريين واليونانيين والفرس والهنود، فكيف جاز أن تخلو وثنيتهم من السمو الذي عرفت به وثنيات أولئك الناس؟
كيف يكون ذلك والوثنيات ينقل بعضها عن بعض، كما تنقل بعض الديانات عن بعض؟ ثم ماذا؟
ثم يحكم الأستاذ أحمد أمين بأن العرب لم تكن لهم طبيعة فنية وأن ما كان عندهم من تماثيل فمجلوب من مصر أو من اليونان، وأن (يغوث) إله مصري اسمه (يغنوت)
ونحب أن نعرف من هم العرب في ذهن أحمد أمين
يظهر أن العرب في ذهنه هم سكان البادية العربية، وسكان البادية لا يحسنون صناعة التماثيل
والقول بأن العرب في جاهليتهم لم يكونوا إلا سكان البوادي قول أذاعه المستشرقون الذي يهمهم أن يثبتوا أن الحضارة العربية أخذت عن مصر وفارس واليونان وليس فيها أثر عربي أصيل.
والتاريخ الصحيح يقول بغير ذلك، فالعرب في الجاهلية كانت لهم حواضر في الحجاز واليمن والشام والعراق، وكان لهم في تلك البلاد آداب وفنون، ولو عاش قصر غمدان وقصر الخورنق لاستطعنا أن نعرف كيف فهموا قواعد النحت والتصوير وكيف برعوا

في تسجيل حوادث التاريخ
ولنفرض أن العرب جهلوا النحت والتصوير كل الجهل، فكيف جاز مع هذا الفرض أن ينهاهم الإسلام عن النحت والتصوير؟ وهل ينهى الإسلام عن شيء غير موجود؟
قل كلاماً غير هذا الكلام يا أستاذ أمين ليصدق الناس دعواك!
قد يقال: وأين آثار النحت والتصوير في البلاد العربية؟
ونجيب بأن ذلك كله بدده الإسلام عامداً متعمداً ليذهب آثار الشرك والوثنية!
وهل تعرفون كم أثراً فنياً حطمه المسلمون بمكة يوم الفتح؟
لقد كانت مصر مملوءة بغرائب التماثيل فحطمها المسلمون ليمحوا شواهد الوثنية الفرعونية. والذي قرءوا التاريخ يذكرون ما فعل الشيخ محمد صائم الدهر: فقد طاف بمصر من الشمال إلى الجنوب ليهشم ما ترك المصريون القدماء من الأصنام والأوثان، وهو الذي جدع أنف أبي الهول، ولو استطاع لحوله إلى رماد
وبعد إسلام أهل مصر بقيت فيهم بقايا من احترام تمثيل الأسود فكانوا يقيمونها فوق قناطر النيل، وكان الشيخ محمد صائم الدهر يسطو عليها من وقت إلى وقت فيهشم منها ما يستطيع
فإن مررتم على جسر إسماعيل بقصر النيل ورأيتموه محروساً بأسدين فتذكروا أن تلك الصور الأسدية ليست إلا رجعة إلى ما كان يصنع المسلمون في تزيين قناطر النيل بصور الأسود. وإن زرتم أطلال الكرنك ورأيتم مداخل القصر محروسة بعشرات الأسود فاعرفوا أن هذا من ذاك
توهم احمد أمين أن دين العرب في الجاهلية كان أرضياً وضيعاً، فكان ذلك التوهم سنداً يركن إليه في تحقير التشبيهات الجاهلية، فهي عنده لاصقة بالأرض وشاهد ذلك أن الجاهليين يشبهون الحيوان بحيوان مثله كتشبيه الناقة بالظليم أو بالثور الوحشي أو بالنعامة أو بالأتان
واحسب أن لو قال هذا الكلام تلميذ بالسنة التوجيهية لسقط في الامتحان أبشع سقوط
فتشبيه الناقة بالظليم أو بالثور الوحشي تشبيه مقبول جداً، وليس مادياً لاصقاً بالأرض لأن وجه الشبه هو السرعة لا الشكل، والسرعة صورة معنوية
أحمد أمين يريد في الواقع أن يقول إن الناقة شبهت بحيوان يعيش في الأرض لا في السماء، وآية ذلك أنه عاب على امرئ القيس أن يشبه الفرس بجلمود صخر حطه السيل من علٍ، وقال:
(إن غير العرب شبهوا سرعة الفرس بالبرق)
ذلك كلام احمد أمين، وما تفتري عليه
فهل رأيتم كلاماً أغرب من هذا الكلام؟
أنا أنتظر رأي أساتذة البلاغة بكلية الآداب والأزهر ودار العلوم
هل من الصحيح أن تشبيه سرعة الفرس بالبرق أدق من تشبيه سرعته بجلمود صخر حطه السيل من شواهق الجبال؟
إن تشبيه سرعة الفرس بالصخرة التي حطها السيل من شاهق لا يقف عند السرعة وإنما يتعداها إلى الثقل. فالفرس عند العدو ثقيل جداً بحيث لا يملك مراعاة ما قد يعترض الطريق من شجرة أو جدار، وكذلك لا تملك الصخرة الانحراف من جانب إلى جانب حين تنحط من شاهق
أما تشبيه سرعة الفرس بسرعة البرق فهو تشبيه لا يقبل إلا عند من يرحب بالأخيلة البهلوانية
وأين الفرس من البرق؟
إن ما يقطعه البرق في لمحة واحدة قد يعجز عنه الفرس في الأعوام الطوال
والغرض من التشبيه هو تقريب بعض الصور من بعض، أما الإغراب في التشبيهات والاستعارات فيهو سخف مرذول
وأحمد أمين الذي تعجبه الصور السماوية كصورة البرق هو نفسه أحمد أمين الذي عاب على العرب أن يتصوروا مصير الغميصاء بعد فراق سهيل
زعموا أن الغميصاء وسهيلاً كانا مجتمعين فانحدر سهيل فصار يمانياً، وتبعته العبور)

(فعبرت المجرة، وأقامت الغميصاء فبكت لفقد سهيل حتى غمصت
تلك هي الأسطورة العربية التي استسخفها أحمد أمين، ولو كان يعرف تاريخ الأساطير لأدرك أن هذه الأسطورة فيها ملامح يونانية، فالنجم الذي يهوي من موضع إلى موضع هو إلهة عاشقة تنحدر لموعد غرام مع إله معشوق
وكانت الغميصاء المسكينة على موعد مع معشوقها سهيل، ولكنها عجزت عن عبور المجرة فظلت تبكي حتى أصابها الغمص
ولو كانت هذه الأسطورة يونانية لا عربية لعدها احمد أمين من غرائب الخيال، وعد أصحابها من الزاهدين في الأرض والمفتونين بالسماء!
وأنتِ كذاكِ قد غُيِّرتِ بعدي ... وكنتِ كأنك الشعري العبورُ
ثم ماذا؟ ثم ماذا؟
ثم رأى أحمد أمين أن دين العرب في الجاهلية قد ظهر أثره في وصفهم للمرأة، فهم (لم ينظروا في المرأة إلا إلى جسمها. لقد أدركوا تمام الإدراك جمالها الحسي، ولكنهم لم يدركوا جمالها الروحي. ولعوا بقدها الممشوق، وعيونها الدعج، ووجهها الوردي، وخصرها النحيل، وردفها الثقيل، وما شئت من أعضائها وأجزائها. فأما روحها السماوي وجمالها الروحي، وتعشق روح الشاعر لروحها والشعور بأنها مصدر وحيه وإلهامه فشيء لم يستطع إدراكه الشاعر الجاهلي)
ثم يصرح بأن الوقوف عند هذه المعاني في النظر إلى المرأة شيء مخجل (؟)
أما أنا فأقول بأن نظرة الشاعر الجاهلي إلى المرأة نظرة سليمة تدل على الفحولة والفتوة، فجمال المرأة، جمالها الصحيح، هو في نواحيها الحسية، وليس من العيب أن يقول الرجل إنه يشتهي المرأة شهوة حسية، وإنما يعيب الرجل ألا يملك من المرأة غير أنس الروح بالروح
إن أحمد أمين يحب أن يكون روحاً لطيفاً شفافاً يؤذيه أن يتحدث الناس عن العيون الدعدج، والقد الممشوق، والخصر النحيل.
هو يحب أن يضاف إلى رجال الأخلاق!
أما أنا فأبغض أشد البغض أن أضاف إلى هذا الطراز من رجال الأخلاق
أنا أفهم جيداً أن المرأة لا تهم الرجل إلا إن كانت أنثى فيها جميع خصائص الأنوثة، الخصائص التي تشعر بأنها متاع جميل، والتي تحمله على أن ينظر إليها نظر السد الهصور إلى الرشأ الربيب
ولا يمكن للمرأة أن تكون مصدر وحي وإلهام للرجل إلا إذا اشتهاها شهوة حسية، ومن قال بغير ذلك فهو رجل ضعيف لا يدرك جوهر الصلات بين الرجال والنساء
إن الأستاذ أحمد أمين يستقبح قول امرئ القيس:
وبيضةِ خدرٍ لا يرام خباؤها ... تمتعتُ من لهوبها غير مُعْجَلِ
فأين هو من الفحولة التي يهدر بها هذا البيت؟
قد يقول: وكيف يجوز للرجل الفحل أن يبكي وهو يستعطف المرأة؟
وأجيب بأن بكاء الرجل أمام معشوقته ليس علامة ضعف، وإنما هو علامة قوة، فالدمع في عين العاشق كالسم في ناب الثعبان؛ فالثعبان يخدر فريسته بالسم، والعاشق يخدر فريسته بالدمع
وهنا أستأنس بكلمة قرأتها للأستاذ المازني في جريدة السياسة سنة 1932 وهو ينقد قول شوقي
(ما الحب إلا التضحية)
فقد عد هذه الكلمة باباً من الضعف، ومن عمى البصيرة، لأن الحب في حقيقة أمره ضرب من الأثرة والافتراس
قولوا الحق يا بني آدم، فالنفاق خلق بغيض
قولوا الحق، واعترفوا بأن المرأة لا تهم الرجل إلا بوصف أنها مخلوق جميل له عينان دعجاوان، وجبين مشرق، وجيد كجيد الريم، وقوام كالغصن الرطيب
ولعل أحمد أمين يريد امرأة فيلسوفة لها عرقوب كشهر الصوم في الطول، ولها عين كعين الغميصاء تعينه على سهر الليل إلى أن يبزغ (فجر الإسلام)
والعجيب أن تصدر هذه الأحكام عن رجل يكتب في الفلسفة من وقت إلى وقت، وقد غاب عنه أن في فلاسفة هذا العصر رجل اسمه فرويد، وهذا الفيلسوف يرجع أعمال

الرجال إلى أصول شهوانية قد تسوق الناس من حيث لا يحتسبون. وما كان فرويد أول من نظر هذه
النظرة فقد رأيت لها أصولاً في مؤلفات الشعراني، ومن قبل ذلك رأيت لها أطيافاً عند فقهاء الشريعة الإسلامية، وهم رجال أمعنوا في درس أسرار الطبائع
فعمن أخذ أحمد أمين هذه الحذلقة في فهم الأدب النسوي؟
أغلب الظن أنه نقلها عن الكاتب المتحذلق توفيق الحكيم الذي زعم أن كل عبقري محروس بروح نسائية تفيض عليه الوحي من وراء الغيب!
وكيف تستطيع المرأة أن تسيطر على الرجل عند اليأس من طيباتها الحسية؟
إن الرجل قد يذكر المرأة بالشوق بعد أن تموت، ولكن ذلك لا يمنع من أن الأخيلة الحسية لها دخل في تسعير ذلك الشوق
أقول هذا وأنا أعرف أن في بني آدم من يوحي إليه الرياء بتكذيب هذه البينات، ولكن ماذا يهمني وأنا حريص كل الحرص على الجهر بكلمة الحق؟
إن الوثنية اليونانية التي يمجدها أحمد أمين قد جعلت للآلهة شهوات ولذات، فكيف يستنكر أن تكون لشعراء الجاهلية شهوات ولذات؟
إن أفروديت وهي من الآلهة في الوثنية اليونانية قد صهرها الغيظ حين سمعت بأن في الأرض إنسانة جميلة تستهوي قلوب الرجال، وكان من آثار ذلك الغيظ أن قامت بدسائس خبيثة للفتك بتلك الإنسانة التي وصلت أخبارها إلى سكان السماء
الحق كل الحق أن الجمال الحسي هو كل شيء في المرأة، وهي تصل إلى الكمال حين يؤيد جمالها الحسي بالجمال الروحي، كأن تكون على جمالها ذات عقل وأدب وعفاف
وهل تعرفون كيف كان العفاف فضيلة؟
كان العفاف فضيلة لأنه تمكين للرجل من السيطرة المطلقة على مواقع هواه، فهو فضيلة لوحظت فيها الأثرة الرجلية
ما هذا الذي أقول؟
أراني أهيئ الفرصة لثرثرة من لا يفهمون دقائق علم الأخلاق، وأنا أحب أن أسلم من ثرثرة أولئك الناس
الذي يهمني هو النص على أن شعراء الجاهلية صوروا الفطرة السليمة حين جعلوا الأنس بالمرأة الجميلة من النعيم المحسوس ولم يجعلوه من النعيم المعقول
ولو رزقني الله شيئاً من الصراحة لقلت: إن الشهوات هي في الأصل من أجل نعم الله على عباده، وما استنكرها رجال الأخلاق إلا بسبب الإسراف. أما الشهوات في حد ذاتها فهي من دلائل العافية: والعافية نعمة جزيلة ينعم بها الله على من يشاء
وفضيلة العفاف، وهي فضيلة نبيلة لا يقام لها وزن إلا حين تصدر عن رجال مزودين بحيوية الشهوات، فطغيان الشهوة ملحوظ عند النظر في فضيلة العفاف. أما عفاف العاجزين عن الفجور فهو لا يستحق أي ثناء، ولا يضاف صاحبه إلى أهل الكمال وإن لبس مسوح الرهبان
ويجب أن يكون مفهوماً أن الشهوة الحسية لها صلة بتفوق الرجال في الميادين العقلية، فالرجل الآمن من طغيان الشهوات محروم من نعمتين: نعمة القدرة على فهم الجمال، ونعمة القدرة على مجاهدة الأهواء
وكذلك يصح القول لأن الرجل العاجز لا يستطيع أبداً أن يتسامى إلى منزلة أصحاب الأخلاق
فهل ترونني وصلت إلى إقناعكم بأن أحمد أمين أخطأ حين عاب على شعراء الجاهلية أن يجعلوا المرأة من المتاع الجميل؟
أنا أعرف أني أوذي نفسي بهذه التحليلات، وأعرف أنها قد تصورني بصورة الرجل الفاتك، ولكن ماذا أصنع وأنا أريد أن أصدق كل الصدق وأنا أحادث القراء؟
وهل كتب على الدراسات الأدبية والفلسفية في مصر أن تقوم على قواعد الرياء؟
اسمعوا مني كلمة الحق في هذه الشؤون قبل أن تسمعوها من باحث يعيش في لندن أو باريس، فمن العار أن نعجز في عصر النور عما قدر على شرحه الأسلاف في عصور الظلمات
أما بعد فهناك مكاره سيصلاها أحمد أمين في المقالات الآتية وسيعرف أن التجني على

ماضي الأدب العربي لا يمر بلا حساب
وأنا أرجوه أن يترفق بنفسه فلا يصر على تحقير الأرومة العربية وتمجيد الأرومة اليونانية، فقد أستطيع أن أحدثه بأن العرب الذي غلبت عليهم شهوات الحواس هم الذي استطاعوا بفضل فحولتهم أن يدحروا اليونان وأن يحولوهم إلى أحلاس في حوانيت
الزيتون والسردين
وقد حدثنا أحمد أمين بأن العرب انحطوا في جاهليتهم بسبب تلك الوثنية الأرضية الوضيعة، ثم حدثنا بأن القرآن لم يرفع عقليتهم، مع أنه وحي سماوي رفيع، فهل يتأثر العرب بالوثنية ولا يتأثرون بالإسلام؟ سنعرف وجه الحق في هذه القضية، في الأسبوع المقبل، وإنه لقريب.
(مصر الجديدة)
زكي مبارك
في سبيل الإصلاح
علماؤنا والإصلاح
للأستاذ علي الطنطاوي
لعل في القراء من يذكر السؤال الذي وجهته منذ أسابيع إلى المفكرين من علمائنا وعرضت فيه إلى بعض المشكلات الدينية وسألتهم حكم الله فيها، حكم الله لا يخالف مصلحة الناس، ولا ينافي حاجة العصر. وقد مرت هذه الأسابيع ولم أتلق من أحد جواباً، ولم أحد فيمن لقيت من علمائنا في هذه المدة إلا أحد رجلين: رجل لم يقرأ السؤال، ولم يدر بأن في الدنيا مجلة اسمها الرسالة، ولم يدخل بيته إلى اليوم كتاب واحد أو مجلة أو رسالة صغيرة مما تفيض به المطابع كل يوم، لأن نذلك كله لغو لا يليق بالعالم أن يلقي إليه بالاً أو يقف عنده أو يعرج عليه، وفي كتب الفقه والأصول والحديث الكفاية، وإن كانت العناية بالحديث والتفسير - أعني بالكتاب والسنة - لمجرد التبرك والاطلاع، ولا للاستنباط والاجتهاد، لأن الاجتهاد سد بابه والفقهاء لم يتركوا شيئاً إلا قالوه، وإن هو احتاج بعد ذلك إلى شيء من الأدب فحسبه المستطرف، والكشكول، والمخلاة، ومسامرات الشيخ محي الدين بن عربي مؤلف الفصوص الذي تجد الكلام على دينه وتقواه في الصفحة 159 من كتاب الإسلام الصحيح للنشاشيبي ورجل آخر، حملت إليه الرسالة، فقرأ السؤال فكان جوابه عليه لعنة حامية على هؤلاء الملحدين الذي يحلون ما حرم الله، ويدعون إلى الربا الذي نهى عنه الله، وكان له مادة لإعلان غيرته على الدين، وتثبيت منزلته بين العامة. . .
على حين إن المشاكل الدينية من نحو مشكلة الربا قائمة، والناس يتعاملون بألوان من الربا منها الربا الفاحش البين، ومنها الربا الخفيف أو ما يشبه الربا، ولا تجد تاجراً (أعني تجار الجملة لا البقالين) يستغني عن مثل معاملات الحسم (السقونطو) أو عن الاتصال بالمصارف على نحو ما. . . فإذا كان هذا كله من الربا المحرم الممنوع شرعاً، وكان هذا كله مما لا يستغني عنه كانت النتيجة (المنطقية) أن الإسلام لا يصلح لهذا الزمان. . . وهذا محال، فلم يبق إلا إبطال إحدى المقدمتين، فإما أن يقال بالاستغناء عن معاملات المصرف، وإما أن يقال بأن هذه الأحكام الفقهية ليست هي كل الشريعة، وأن من الممكن
استنباط أحكام أخرى شرعية تصلح لهذا الزمان. وإذا نحن نظرنا في تاريخ التشريع الإسلامي وتاريخ الفقه نجد أن المجتهدين لبثوا متوافرين في كل عصر، لم يخل منهم زمان، وإن كان منهم من هو (مجتهد في المذهب) على حد تعبيرهم، ولبث ذلك إلى القرن التاسع حيث غلب الأتراك على البلدان العربية وضعفت العناية باللغة العربية، واستغلقت على القوم آيات الكتاب البينات، وخفي عنهم ما وضح للعلماء الأولين من السنة، فأعلنوا سد باب الاجتهاد!! على أن هذا العصر أيضاً لم يعدم جماعة من أهل الترجيح والتخريج، وهم أنصاف مجتهدين (إن صح التعبير). ونشأ عن وقوف الاجتهاد وسير الدنيا (بل سعيها سعياً) أن كان في الفقه اليوم أحكام تخالف ما يراه الناس صالحاً لزمانهم، مع أن الشريعة صالحة لكل زمان ومكان، لا شك في ذلك أبداً فكيف يكون التوفيق بين الأصل الثابت وبين هذه النتيجة؟
يستطيع العلماء أن يفتوا بأن هذه المعاملات (المصرفية) كلها ربا، وأن الربا كله حرام،

ولكن التجار يستطيعون أيضاً أن يثابروا على التعامل بها، والإقامة عليها، وتبقى المشكلة بل تزداد إشكالاً.

فالإصلاح إذن لا يكون بالإصرار على هذه الحواشي الفقهية والدفاع عنها، بل بالبحث عن أدلتها، فما كان منها قطعياً ثابتاً بدليل من الكتاب أو السنة الصحيحة، فهو الذي لا سبيل إلى تبديله، وما كان منها مبنياً على عرف أو دليل فيه احتمال، وكان إلى تعديله سبيل من الشرع عدل

وهذه المسألة على وضوحها تحملنا جهداً، وتكلفنا عناء، لأن من العلماء من لا يريد أن يفهمها، ولا يقدر أو لا يحب أن يفرق بين قول الفقيه واجتهاده وبين النص - ومن يحسب الخروج على المذاهب الأربعة خروجاً على الدين، وأكثرهم لا يبالي بعد ذلك هل سارت الحياة شرقاً أم اتجهت غرباً. . .

ولم يبق أحد جاهلاً بأن المدنية الأوربية قد طغت علينا، وأننا انغمسنا فيها واقتبسنا منها فبدلت حياتنا تبديلاً، وغيرت طرائق معيشتنا في دورنا ومدارسنا وأسواقنا، فأصبحنا أقرب في طراز حياتنا إلى أهل باريس اليوم منا إلى أهل دمشق والقاهرة في القرن التاسع الهجري، واصبح من المستحيل علينا العمل بأحكام استنبطها المجتهدون لأهل القاهرة

ودمشق في القرن التاسع. وإذا نحن وقفنا عند هذه الأحكام والحياة تمشي أصبح بيننا وبين الدين مسافة هائلة لا يمكن قطعها، وأهملنا أكبر مزية لديننا وهو أنه دين البشرية الراقية في كل عصورها، وعطلنا أصلاً مهماً من أصول ديننا وهو الإجماع، مع أن الوصول إلى الإجماع في هذا الزمان أسهل منه في كل زمان مضى لسهولة المواصلات وسرعتها، فلماذا لا ننظم مسألة الإجماع؟

الإجماع هو اتفاق المجتهدين في عصر من العصور على حكم من الأحكام، فلا يمكن تنظيمه إلا بتعيين المجتهدين، والاتفاق على الشروط التي يجب اجتماعها في العالم حتى يعد مجتهداً

وأنا أرى أنه لا مانع من الشرع ولا من الطبع يمنع من إحداث تشكيلات للعلماء، ودرجات وسمات لهم معروفة، حتى لا يختلط الأمر، ويستفتي الناس مفتين جهالاً فيضلوا ويضلوا. ولقد خطونا الخطوة الأولى من عهد بعيد حين جعلنا في كل بلد مفتين رسميين لهم مرجع أعلى، هو شيخ الإسلام، ولكن نسينا أن العالم لا يسمى مفتياً إلا إذا كان مجتهداً، وليس كل من عرف الدر وحواشيه والفتاوى الهندية يصح أن يتصدر للإفتاء. إذا وسعنا هذه الدائرة، وجعلنا للعلماء درجات متعددة تخلصنا من هذه الفوضى العجيبة التي نراها اليوم حين اصبح كل صاحب عمة قد كورها وجبة قد وسعها من العلماء، وحين رأينا في جمعيات العلماء أناساً لا يمتازون من العامة إلا بالزي. وليت شعري لماذا يكون لكل فرع من فروع العلم درجات وشهادات، فلا يستطيع أن يدعي الطب أو يمارس المحاماة إلا من حصل شهاداتها ودرس علومها، ويبقى أمر الدين مهملاً يدعيه كل ذي لحية طويلة؟ إن الطبيب إذا أخطأ قتل نفساً، ولكن العالم الديني إذا أخطأ قتل أمة، وأذهب عليها دينها ودنياها. . .

إذا وضع قانون الدرجات العلمية عرف به العلماء الذي بلغوا درجة الاجتهاد - فدعوا من كافة الأقطار الإسلامية - وعرضت عليهم هذه المشكلات وسئلوا حكم الله فيها، فإن اتفقوا على أمر عد مجمعاً عليه وصار من الأصول الثابتة، وإن اختلفوا استؤنس برأي الأكثر منهم، هذا إذا لم يكن في المسألة دليل شرعي، أما إذا وجد فالحكم حيث يوجد الدليل

وربما أنكر منكر هذا الاقتراح ورآه حدثاً في الدين، وتقليداً للنصارى في درجات قسوسهم، وأنا أرد سلفاً بأن هذا التنظيم من قبيل جمع القرآن، وتدوين العلوم، لم يرد ما يمنعه،

والمصلحة تقتضيه، وليس من شك بعد بأن (هذا) الإجماع أقوى وأظهر من كل إجماع إلا إجماع الصحابة. لأن استقراء المجتهدين وجمعهم والوقوف على رأيهم أهون في هذا العصر منه في العصور الأولى

أما المسائل التي تعد أساس الإصلاح الديني وركنه، فقد لخصها أستاذنا المغربي في (البينات) في مقالة له نشرها منذ ثلاثين سنة، وأنا أنقلها عنه بتصرف فيها:

1 - وضع مناهج المدارس الدينية على شكل يعد الطلاب للاجتهاد ويهيئ لهم أسبابه

2 - إصلاح أساليب الكتب القديمة وعرضها بشكل جديد، وقد بدأ بذلك الأستاذ محيي الدين عبد الحميد من أساتذة الأزهر فأصلح بعض كتب النحو، ولكن بمقياس ضيق
3 - أن يكون ادعاء العلم، واتخاذ زيه بإذن من لجنة علمية خاصة، وبعد ثبوت أهلية الطالب وكفايته
4 - أن يكون الاجتهاد إجماعياً لا فردياً، لئلا يكون للخلاف مجال
5 - ألا نلزم أقوال إما بعينه، وإنما نأخذ من كل مذهب ما يوافق العصر، وأقول: إن ذلك لا بأس به في العبادات. أما المعاملات فلابد من وضع قانون لها مقتبس من الدين يختار فيه قول واحد ويوقف عنده ليكون العمل به
6 - أن نبتعد عن البدع والأحداث وأن نقف عند الكتاب والسنة
7 - تمييز العقائد الثابتة من التقاليد الموروثة، فلا ندخل في باب العقائد إلا ما كلفنا الله به، ولا نكفر مؤمناً إلا إذا أنكر عقيدة ثابتة
8 - أن يكون تصحيح الحديث اعتماداً على متنه وسنده، لا على صحة سنده فقط، فإن خالف متنه أصول الدين أو المشاهد المحسوس رد مهما كان سنده، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يقول مثله
9 - أن يعمد في العقائد والعبادات والشعائر ظاهر النص وان يكون القياس في المعاملات وما يتعلق بالقضاء ويختلف باختلاف الزمان والمكان
10 - أن نرفع من شأن العمل قليلاً، فلا نزعم أن المسلم ينجو بمجرد أقوال يرددها، بل نقرر أن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، وعمل الأعمال التي حث عليها الإسلام، وتخلق بالأخلاق التي أمر بها
11 - وأن نرفع من شأن الأسباب قليلاً، ونعتبرها مظاهر لإرادة الله وقدرته، فلا نهملها إلى حد أن نقول أن السم لا دخل له في موت من تناوله فمات به، ولكنه مات لأن ذلك مقدر عليه
12 - ألا يبحث الفقهاء فيما ليس من شأنهم، وإنما يدعون كل أمر إلى أهله ويرجعون فيه إلى أربابه. فإذا كان البحث عن اختلاف مطالع الهلال مثلاً لم يرجع إلى قول ابن عباس ولكن إلى قول الفلكيين الفنيين، وفي الطب يرجع إلى أطباء العصر لا إلى داود الأنطاكي ومن روى عنه

عندنا اليوم مشكلات كثيرة كمشكلة الربا والطلاق وثبوت الهلال والسفور، وعندنا الاختلاف على التوسل بالصالحين، ورفع القباب، وعبادة القبور، وكرامات الأولياء، وكل ذلك لا يحل إلا بهذا المؤتمر الإسلامي أو هذا (الإجماع) المنظم، لأن كل فرد من العلماء يؤثر السلامة، فلا يجب أن يجابه الناس بما لا يألفون فيخسر منزلته فيهم ولا يجد الجرأة على ذلك

فهل يتلطف بعض من له صلة بشيخ الإسلام الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي فيحمل إليه هذه المقالة؟ وهل يتفضل إذا حملت إليه فينظر فيها ويولي هذه المسألة شيئاً من عنايته؟

علي الطنطاوي

ذكرى

سوداء!. . .

للأستاذ أديب عباسي

أطل صاحبي بعد أن نقر على الباب نقرتين أو ثلاثاً ونادى:

- ماذا تنوي أن تصنع بيومك؟ أتريد أن تبقى حيث أنت أمام هذا الركام من الهذر والغثاء، أم تريد أن ترى الشمس قليلاً؟

فقلت: ولكن متى نستطيع أن ننظر في كل هذا الذي ترى إذا لم ننتفع بيوم عطلتنا هذا؟ أليس الأولى والأحزم أن ننقل الحمل مجزئاً بدل أن ندعه يربو ويتراكم فنعود غير قادرين على زحزحته بل نقله؟

هذه كانت حجتي في إيثار البقاء في المنزل؛ ولكن صاحبي أدرك أنني أقول بلساني خلاف ما تقوله عيناي، وأدرك أنني أود النجاة مما بين يدي على أي حال، ولهذا لم يرد علي أن قال:

- إنني أنتظرك في أدنى الشارع، فهو يوم من أيام الربيع التي لا تفوت. والوادي اليوم متحف من متاحف الطبيعة للزهر والعطر والخضرة والظل، ولا يفوت هذا اليوم إلا كل

خامد الحس كافر بالسحر والجمال.
سرنا ساعة وبعض الساعة في خلال الوادي لا أستمع إلى حديث صاحبي ولا يستمع إلى حديثي إلا بعض سمعنا؛ فلقد كادت روعة الوادي في ذلك اليوم من أيام الربيع تعطل كل اتصال بين نفسينا وبين العالم الخارجي، إلا ما كان بينهما وبين هذه المائدة المثقلة بصوف الفتنة وألوان الجمال. ولم نثب إلى أنفسينا، مما سحرنا الوادي وشدهنا عن كل شيء سواه، إلا حينما رأينا نخلف الوادي الخضيل وراءنا وننتهي إلى العراء. وعندها شعرنا بالتعب والعطش ينحطان علينا فجأة وفي غير إنذار. وقال أحدنا: هيا إلى تلك الدوحة نتفيأ ظلها إلى أن ينكسر سم النهار فنعود
ومكثنا في ظل تلك الدوحة ساعة ألح علينا بها العطش إلحاحاً شديداً، فقلت:
- ألا نقوم فنسير إلى النبع نزيل هذا العطش الذي يكاد ينسينا كل ما نلناه من لذة ومتاع؟
فأجاب صاحبي:
- لا تنس أن بيننا وبين الماء ساعة كاملة من المسير وفي خلال هذه الساعة سيخف وهج النهار ويخف معه ما بنا من أوام، ولكن انظر: ألا ترى هذه السوداء؟ إنها قذرة، ولكن حبذا نهلة من جرتها الصغيرة!
أننزل إلى الطريق نلاقيها ونطلب أن تسقينا أم ندعوها إلينا وننفحها بقليل من القروش؟
فقلت: أعتقد أن من الأريحية ألا نكلفها الصعود إلينا، فلنقم نلاقيها ونكون أقل أنانية وخور عزيمة
وهممنا أن نقوم، وأخذ كل منا يعيث في جيوبه ليقدم للفتاة شيئاً مقابل ما سيشرب من جرتها ويضطرها إلى الرجوع وملئها من جديد. بيد أن الفتاة أبدت حركة اضطرتنا إلى البقاء، فقد أشارت إلينا بيدها أن امكثا، وأقبلت نحونا. فالتفت إلى صاحبي وقلت:
- ما معنى هذا؟ أتكون قد سمعت كلمتك القاسية فجاءت تعاقبك العقاب الذي أنت أهله؟
فقال: لا ادري، وإنما يجب أن نكون على حذر، وعلى كل فأنا لا أرى في وجهها شيئاً من الشر. وهبها أرادت أن تعاقبنا، فليس ثمة أكثر من أن تسكب على رأسي هذا الماء الذي تحمل، وهو كل ما أتمناه
فقلت: قد تسكب الفتاة الماء كما تتمنى، وقد تسكب الماء والجرة معاً. . . ولست ادري عندها أي الجرتين تكسر الأخرى، جرتك الفارغة هذه، أم جرتها الملأى؟
دنت الفتاة حتى غدت على قيد خطوات منا، وابتسمت ابتسامة خفيفة أزالت من نفس صاحبي ما ساوره من قلق، ثم حيت تحية طيبة وأنزلت جرتها عن رأسها وقالت بلطف: تفضلا
وتناول صاحبي الجرة وبدأ يشرب، وقبل أن ينتهي من شربه أمسكت الفتاة بالجرة وأزالتها عن فمه، فدمدم محتجاً وقال:
دعيني اشرب، إنني سأدفع ثمن الماء!
وابتسمت الفتاة مرة ثانية وقالت في شيء من المرارة والأسف:
- كم يخطئ الناس الحكم! إنني لم اضن عليك بالماء، ولكن لعلك لا تعلم أن الإسراف في الشرب في مثل حالتك من العطش الشديد يأتي بأوخم العواقب. . . هيا يا أخي اشرب (وأشارت إلي)، ولكن يحسن أن ترش يديك ووجهك بقليل من الماء قبل الشرب: إنني لم
اكن أعلم أنكما بهذا المقدار من العطش وإلا لما سمحت لصاحبك أن يشرب قبل أن يغسل يديه ووجهه. . .
وبعد أن ارتوينا وغسلنا أيدينا ووجوهنا طلبت إلى الفتاة أن تجلس وتستريح، فاعتذرت بأدب ولطف وقالت: إن أخوي الصغيرين في مثل حالكما من العطش. فأرجو أن تسمحا لي بالرجوع لأملأ الجرة وأعود إليهما
فقلت بأسف: يؤلمنا أن نكون قد شربنا الماء الذي كان يجب أن يبرد عطش أخويك فلا تضطرين إلى الرجوع ومضاعفة الأمد الذي سيرتوي عنده أخواك
فأجابت الفتاة: لا بأس، إن أبناء الصحراء أكثر احتمالاً للعطش من أبناء المدينة ولو كانوا صغاراً كأخوي

وهنا سأل صاحبي وهو يداري أن تقع عين الفتاة في عينه: ولكن كيف عرفت أننا على هذا الحال من العطش فحدت عن الطريق وأتيت تسقيننا؟
فأجابت الفتاة ببساطة: سمعتك تتمنى لو تتاح لك شربة من جرتي فجئت!
فقال صاحبي بجزع ظاهر: أو سمعت ما قلته إذاً؟ فأجابت: نعم، سمعته. فقال: أسمعته كله؟ فردت: نعم، كله. فقال: وكيف جئت إذاً؟! فحدجته الفتاة بنظرة قاسية ولم تجب. وعندها أدخل صاحبي يده في جيبه وأخرجها ثم مدها إلى الفتاة. وعندها نظرت الفتاة إلي وفي عينيها دموع وقالت: ألا سامحكما الله. ثم حيت وانصرفت
كان إحساساً أليماً حقاً، شعرنا عنده أننا صغرنا وصغرنا إلى حد الضؤولة. وقلت لصاحبي: لقد كنت قاسياً أشد القسوة
فأجاب: أتقول إنني كنت قاسياً؟ لم لا تقول إنني لم أكن إنساناً؟ لعلك تستحيي أن تقولها!
وعدنا إلى الصمت، وفي صدر كل منا نشيج من العواطف الفائرة والأحاسيس المتهدجة الثائرة. ولم نر بداً من ترك المكان في الحال، فقد غدا في نظري بقعة قبيحة أشد ما يكون القبح. مؤلمة اشد ما يكون الألم. وظللت - فيما بعد - كلما سرت في ذلك الطريق أشيح عنه بوجهي كما يشيح كل إنسان عن الموطن الذي حدثت له فيه حوادث مؤلمة مخزية
عدنا أدراجنا، وأحببت أن أصرف صاحبي عن التفكير المؤلم فيما جرى له فسألته: متى تبدأ الامتحانات الفصلية؟
فأجاب في شبه ذهول: إنما نحن العبيد وهم الأحرار!
فقلت مستغرباً: من تعني؟
فأجاب: هؤلاء السود الذي نسميهم زنوجاً وعبيداً
فأدركت أن صاحبي لن يتحول عن التفكير في الفتاة وما أساء إليها إلا متى شعر أنه نال من إيلام نفسه مثل ما نال من إيلام الفتاة. وعاد يقول:
تباً لهذه المعتقدات التقليدية التي نتلقاها من بطون الكتب وأفواه الناس في الحكم على الأجناس. لقد تآمرت الكتب والخطب والصحف والأحاديث وكل وسيلة من وسائل الإيحاء على أن هذا الجنس الأسود جنس منحط وان خلاص البشرية، إن قدر لها الخلاص، لن يجيء إلا عن طريق الرجل الأبيض وما في رأسه من علم وصدره من أريحية وأعماله من نبل وتضحية! لقد أوحى إلينا بذلك إيحاءً مستمراً حتى حسبناه من القضايا التي لا تناقش ولا يطولها باطل، وحتى غدا سواد البشرة عندنا مقروناً بظلام الباطن وحلوكة النفس وفساد السريرة
فقلت وقد أعداني صاحبي بحماسته:
- إن أجساماً تمتص النور، كما تمتصه أجسام هؤلاء السود لا يمكن أن تضم نفوساً مظلمة. إنه حيث ينفذ النور تذهب الظلمة. لقد أخطئوا خطأً فاحشاً فيما سموا أفريقيا القارة السوداء، لقد كان الأولى والأصوب أن يدعوها القارة البيضاء قارة الشمس والنور. فهل يعودون يوماً إلى الحق ويعطونها اسمها الحقيقي؟ إن في الآفاق البعيدة والقريبة مخا يكاد يشير إلى ذلك
فقال صاحبي بغبطة: صدقت، لا ظلام حيث ينفذ النور ولتكن كنية صاحبتنا وجنسها عندنا من الآن (أصحاب النور)
وأدركت أن قد سري عن صاحبي وزال أكثر ما كان يحز في صدره من ألم، فودعته وانصرف هو إلى منزله وعدت أنا إلى منزلي وقد نقشت الحادثة في صدري نقشاً لم تزله سبع سنوات كاملات مرت عليها

أديب عباسي

كتاب البخلاء

الطبعة الدمشقية بعد الطبعة المصرية

للأستاذ عبد القادر المغربي

جاءني كتاب من بعض الفضلاء يقول فيه: إنه بعد أن قرأ في (الرسالة) ما كتبه الأستاذ (محمود مصطفى) في نقد الطبعة المصرية لكتاب البخلاء اطلع على طبعته الدمشقية التي صدرت حديثاً. فإذا هي تعلن عن نفسها بأن أعضاء المجمع العلمي الدمشقي حققوها ونشروها بالاشتراك مع مؤسسي (مكتب النشر العربي) بدمشق ولم يصرح

المؤسسون بأسمائهم على الكتاب وإنما هم صرحوا بأسماء أعضاء المجمع واحداً واحداً ثم قال: (وقد رأيت في تصحيحات هذه الطبعة الدمشقية ما لا تصح نسبته إلى المجمع، لذلك حاولت نقده ثم رأيت أن أتثبت في الأمر من قبلكم أولاً).

فحفزني قول هذا الفاضل إلى نشر كلمتي هذه في (الرسالة) فتكون جواباً له ولكل من حاك في نفسه مثل الذي حاك في نفسه هو:

أنشأ السيد ظافر ابن العلامة الشيخ جمال القاسمي (رحمه الله) ورفاق له منذ بضع سنين بدمشق مكتباً لطبع الكتب ونشرها دعوه (مكتب النشر العربي). وقد احبوا أن يطبعوا (كتاب البخلاء) للجاحظ فرغبوا إلي أن أعدهم بالمشاركة في تصحيحه مع من وعدهم بذلك من أعضاء المجمع العلمي. فاعتذرت عن المشاركة في مباشرة التصحيح. وإنما أنا أقدم إليهم نسختي المطبوعة التي كنت طالعتها منذ سنين، وعلقت تصحيحاً على بعض أغلاطها. وقلت لهم استعينوا على طبع نسختكم بما في نسختي من هذه التصحيحات، فقبلوا شاكرين

ثم انقضت سنتان لم أجتمع بهم خلالها لأنظر في كيفية تصدير النسخة المراد طبعها وفي طريقة ذكر اسمي في ذلك التصدير

وإذا هم أخيراً يهدون إلي نسختهم الجديدة. وإذا على غلافها الظاهر (أن مكتب النشر حققها ونشرها بمشاركة لجنة من أعضاء المجمع) وعكسوا في الغلاف الباطن فكتبوا عليه (عبد القادر المغربي وفلان وفلان من أعضاء المجمع حققوا ونشروا هذه النسخة بالاشتراك مع مكتب النشر). ثم قالوا في مقدمة الكتاب ما نصه: (لم نجد بداً من أن نفزع إلى علماء

(العربية بدمشق نسألهم المعونة ونشركهم بالمسؤولية فلبى دعوتنا نفر منهم

هذا ما قاله مكتب النشر العربي في هذا الشأن. أما أنا فلا أعلم أن في دمشق لجنة ألفها مجمعنا العلمي أو مرجع آخر من اختصاصه تأليف اللجان لأجل تصحيح كتاب البخلاء. ولا أعلم أنني عضو في لجنة ألفت لهذا الغرض. ولا علم أنني جلست مع مصححي الكتاب أو واحد منهم جلسة واحدة تبادلنا الرأي في تصحيح غلطة واحدة منه.

ولا أعلم من نفسي أنها ترضى أن تكون مسؤولة أمام (تاريخ الأدب العربي) عنا يقع في هذه الطبعة الدمشقية من الأغلاط بمجرد مساعدتي لمكتب النشر في تقديمي له نسخة مطبوعة كنت منذ سنين صححت بعض أغلاطها تصحيح مطالع لا تصحيح ناشر طابع. بل لا أعد نفسي مسؤولاً عن تصحيحات نسختي نفسها مادامت لم تعرض لي للتثبت منها ولم أطلع على شيء من (بروفاتها) قبل طبعها. ومن الغريب أنه وقع نظري على عبارة في نسختي المذكورة قلت في التعليق عليه: (إن وصلية) وإذا مكانها في النسخة المطبوعة (إن شرطية)!

وكل ما أعلمه أنني أعطيت نسختي إلى شبان (مكتب النشر) لتصحيح نسختهم عليها بشرط أن تكون تصحيحاتي صواباً تفي نظر إخواني الآخرين الذين سيتولون بأنفسهم أمر التصحيح والتحقيق. . .

كما أن كل ما كنت أتوقعه من حضرات الناشرين الحقيقيين أن تسمح نفوسهم بالإشارة إلى هذا في مقدمة طبعتهم الجديدة. ولم يدر في خلدي قط أن تسمح نفوسهم بجعلي شريكاً لهم في مقاساة عناء تصحيح الكتاب، وفي تحمل متاعب نشره. وزادوا في السماح فجعلوني مسؤولاً عن الأغلاط التي تقع فيه!

وقد كنت أرجو أن ينصفوني بذكر نوع مساعدتي لهم، وتحديد مقدارها. كما أنصفوا زميلي الأستاذ (النعساني) مذ صرحوا في آخر الكتاب بأنه انقطع عن الاشتراك في التحقيق من بعد الصفحة الرابعة والستين. فيكون المعنى أنني أنا ورفاقي بقينا عاكفين على التحقيق إلى النهاية

لو أنصفوني كما قلت لكفوني مؤونة كتابة هذا التعليق الذي اضطررت إلى نشره في (الرسالة) خدمة للأدب العربي وتاريخه ومؤلفاته، وتفادياً من أن يقوم (محمود مصطفى

ثان) فيناقش الطبعة الدمشقية الحساب. ويحملني تبعة أغلاطها من الباب إلى المحراب

(دمشق)

المغربي

عودة إلى الشيخ الخالدي
مجلس آخر من مجالسه
للدكتور عبد الوهاب عزام
حدثت قراء (الرسالة) قبلاً عن الشيخ الجليل العلامة خليل الخالدي، وذكرت طرفاً من علمه بالكتب العربية ومؤلفيها ومواضعها من دور الكتب في البلاد الإسلامية كلها وفي أسبانيا
وقد سعدت بلقاء الشيخ مراراً من بعد في مصر والشام ووجدت معرفته بآثار دمشق مساجدها ومدارسها ومزاراتها ليست دون علمه بالكتب والمؤلفين
وقد شرف الشيخ حلوان منذ حين فساق الحديث إلى الكتب فأفاد وأمتع. فجنيت من حديثه هذه الثمرات:
قال إني في حيرة من أمر هذا الشريف الإدريسي مؤلف نزهة المشتاق. أعجب من رجل شريف يدخل في خدمة ملك صقلية والحروب الصليبية مستعرة، ويكتب للإفرنج عن البلاد الإسلامية فيصف لهم ثروتها وطرقها ومياهها، ويقول عن كنيسة المسيح: القبة الشريفة، وعن صخرة بيت المقدس: الصخرة التي يعتقد فيها المسلمون
ولولا أني قرأت هذا الكلام في نسخة صحيحة نقلت عن نسخة بخط المؤلف وكانت في خزائن الموحدين - وهي اليوم في كتب السلطان محمود في استنبول - ما أخذت الرجل بهذا الكلام خشية أن يكون بريئاً منه
والإدريسي في كتابه عالة على الإصطخري وابن خرداذبة، والهمذاني، وابن حوقل، وابن واضح
وسرنا في شعاب الحديث حتى ذكرنا ابن الأثير صاحب المثل السائل فقال: أديب كبير ولكنه ليس ثقة - والشيخ ينقد المؤلفين على طريقة المحدثين - قال: وقد طعن فيه الوزير القفطي وهو وزير عالم ثبت، ومن المؤلفين غير الثقاة الفتح ابن خاقان صاحب قلائد العقبان. طعن في ابن باجة بغير حق، وابن باجة من أجل علماء الأندلس وفلاسفته، وكان الفتح رجلاً يعيش في الخانات، وقد جلده القاضي عياض في الخمر، وقد مدح هو عياضاً قليلاً خوفاً منه
وعياض عالم كبير له كتاب المشارق الذي أثنى عليه ابن الصلاح في أبيات منها:
مشارق أنوار تجلّت بسبتة ... وذا عجب كون المشارق في الغرب
قلت: كان ابن الأثير معجباً بنفسه ولكن أدبه يشفع لهذا الإعجاب عندي
قال: ومن العلماء المعجبين بأنفسهم الأتقاني الفقيه مؤلف غاية البيان شرح الهداية، وله شروح على أصول الأخصيكشي. ومنهم الصفناقي، وله شرح على أصول فخر الإسلام البزدوي وعلى الجامع الكبير. ومنهم عصام الدين وكتبه معروفة ولاسيما في بلاد الترك، ولعل سبب هذا أن حفيده قدم إلى استنبول وأقام بها. وقد أهدى عصام الدين إلى السلطان سليمان القانوني حاشيته على تفسير البيضاوي المسماة (أنوار التنزيل)
وقد رأيت في مكتبة بني قرمان في قونية خط الأتقاني على كتاب الأصول للدبوسي، وهو نسخة قديمة كتبت سنة 475، ومن هذا الكتاب نسخة بخط الأتقاني في استنبول. ورأيت في هذه المكتبة من نفائس الكتب كتاب غريب الحديث لابن قتيبة الدينوري، ما رأيته قط إلا فيها. والجزء الرابع من البخاري عليه خط الحافظ أبي الوقت الشجزي، واليه وإلى أبي زيد المروزي تنتهي روايات البخاري
ورأيت في مكتبة جلال الدين الرومي في قونية كتاب التمهيد لعبد الشكور السالمي في العقائد، وهو إمام كالماتريدي ونجم الدين النسفي. ورأيت في مكتبة صدر الدين القونوي كتاب الفتوحات المكية بخط المؤلف في سبعة وثلاثين جزءاً، وفوائد ابن حيان في الحديث بخط ابن العربي، ونصوص الحكم بخط صدر الدين. ورأيت هناك كتاب روح القدس لابن العربي عليه سماعات بخطه وكتباً أخرى عليها خطه، منها الأحكام الكبرى والصغرى لعبد الحق الأشبيلي وهما في فقه الحديث، وقد أهداه محي الدين للصدر القونوي. رأيت فيها تفسير ابن برجان الأندلسي.
ورأيت من مؤلفات الصدر الأجوبة النصيرية كتبها إجابة لخمسين سؤالاً سأله عنها نصير الدين الطوسي، وهي تشهد بتمكن الصدر من العلوم والفلسفة
ورأيت في مكتبة السلطان سليم في قونية كتاب ابن ولاد بخط أحد علماء صقلية كتب

سنة 308. اهـ
وعرضت على الشيخ العلامة نسخة عندي من كتاب المثنوي عليها أبيات كتب تحتها أنها
بخط عبد الرحمن الجامي. فقال: لا شك أن هذا خط الجامي، أنا أعرف خطه، رأيته على كتب كثيرة وخطه جيد. ومن العلماء حسني الخط الخيالي صاحب حاشية العقائد، وملا خسرو صاحب الدرر. وقد رأيت له كتاب المرآة في الأصول بخطه، وعضد الدين، والنووي، وقد رأيت قطعة من شرح البخاري بخطه. وأنا أقلد خط النووي
ومن أحسن الناس خطاً الحافظ الصدفي المرسي مسند الأندلس على الإطلاق، وابن عاصم صاحب العاصمية التي كان يحكم بها عامة قضاة الأندلس والمغرب.
ثم انساق الحديث إلى الملك المعظم الأموي فقال إنه كان أعلم بني أيوب له شرح على الجامع الكبير كان أعلم من صلاح الدين مع مكانة صلاح الدين في العلم، وإنه كان يعد في درجة النووي أو فوقه. يقال إنه كان يحفظ التنبيه لأبي إسحاق الشيرازي في فقه الشافعي. وأبو إسحاق شيخ مذهب الشافعية في العراق وإمام الحرمين شيخه في خراسان
وكان المعظم يجل ابن قدامة ويقوم له إن أدخل عليه وما كان يقوم ليسف الدين الأموي صاحب الأحكام لاشتغاله بالفلسفة، وكان من درجة فخر الدين الرازي - ثم قال:
وكان الفخر ذا مكانة عظيمة عند خوارز شاه وبسببه رحل بهاء الدين والد جلال الدين الرومي عن خراسان
قلت: أرأيت لابن تيمية طعناً في جلال الدين؟ قال: نعم طعن فيه وفي الفخر وقال لو أدركت الفخر لضربته بهذا القضيب فلت: قال ابن بطوطة إنه حضر ابن تيمية في دمشق وهو على المنبر يتكلم في نزول الله تعالى إلى السماء وقال: نزل كنزولي هذا (ونزل درجة من المنبر).
قال: إن ابن بطوطة لم يدرك ابن تيمية. والتحريف في الكتب كثير ولا يعول المتثبت إلا على النسخ الصحيحة. إن أكمل الدين البابردي وعليا القارئ شرحا الفقه الأكبر لأبي حنيفة. واعتمدا على نسخة محرفة جاء فيها: (وأبواه صلى الله عليه وسلم ماتا على الكفر). والعبارة الصحيحة: (ماتا على الفطرة). والبابردي هذا شيخ السيد الشريف الجرجاني وتلميذ شمس الأئمة الأصفهاني الذي يقول بجواز الدور والتسلسل في الأمور العقلية
وكثيراً ما يقع العلماء في الأوهام. ألا ترى صاحب الكشاف كيف يروي خرافات إرم ذات العماد؟ . . .
ثم قال: إن الزمخشري أكثر الأخذ من كتاب الحجة لأبي علي الفارسي وكتاب الزجاج في القراءات ومن تهذيب الأزهري وقد عكف عليه ثماني سنين في مدينة مرو، ومنه أخذ كتابه الفائق ولم يصرح بهذا
ثم تكلم الشيخ على المتقدمين والمتأخرين من الفقهاء، وذكر الطحاوي من فقهاء الحنفية وأثنى عليه كثيراً وقال: إن قبر الطحاوي في القرافة وعليه قبة. وذكر قاضيخان وقال: رأيت إجازة بخطه دلت على ضعفه في العربية. ثم ذكر من المتأخرين ابن نجيم صاحب البحر وتلميذه الحصكفي والشرنبلالي تلميذ الحصكفي وقال: إن سبب شهرتهم أن قضاة العسكر كانوا يستفتونهم كثيراً، وكان خاتمة هؤلاء المفتين الرملي صاحب الفتاوى
ثم تكلم عن كتب المتقدمين فذكر شرح القدوري؛ قال: رأيت نسخة منه عليها خط الحصكفي. وتكلم عن كتاب المبسوط لمحمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة وقال: هو ثلاث روايات: رواية أبي بكر خواهر زاده ويسمى المبسوط البكري، ورواية الجوزجاني ورواية الحلواني. قال: وأما مبسوط السرخسي فهو شرح كافي الحاكم الشهيد الجامع لكتب محمد بن الحسن. قلت: يقال إن السرخسي أملى المبسوط وهو في السجن. قال: الذي أعرفه أن السرخسي ألف كتاب الأصول في قلعة أوزجند، وقد رأيت نسخة منه بخط العلامة الكردلي شيخ البزاز أولها: قال السرخسي في زاوية من حصار أوزجند. أهـ

(للكلام صلة)
عبد الوهاب عزام
خليل مردم بك وكتابه في الشاعر الفرزدق
لأستاذ جليل
يقول الأستاذ: (وقد يداخل (الفرزدق) في كلامه ويعاظل في تراكيبه، ويقدم ويؤخر ويتجوز في استعمال الوحشي والغريب والإقواء، وما هو أشبه باللحن؛ وذلك لثقته بنفسه واعتماده على سليقته ولقساوة في طبعه. قال كردين: (سقط الفرزدق شيء يمتحن الرجال فيه عقولهم حتى يستخرجوه). سمعه ابن أبي إسحاق الحضرمي مرة ينشد:
وعض زمان يا ابن مروان لم يدع ... من المال إلا مسحتا أو مجلف
فقال له ابن أبي إسحاق: (على أي شيء ترفع أو مجلف؟ قال: على ما يسوءك وينوءك. . .)
والبيت (المجلف) من شواهد الكشاف في مكانين: (فشربوا منه إلا قليلاً منهم. وقرأ أبي والأعمش إلا قليل بالرفع، وهذا من ميلهم مع المعنى والإعراض عن اللفظ جانباً، وهو باب جليل من علم العربية؛ فلما كان معنى فشربوا منه في معنى فلم يطيعوه حمل عليه كأنه قيل فلم يطيعون إلا قليل منهم، ونحوه قول الفرزدق (لم يدع من المال إلا مسحت أو مجلف) كأنه قال: (لم يبق من المال إلا مسحت أو مجلف) وقال في سورة طه: (قرء (فيسحتكم) والسحت لغة أهل الحجاز، والإسحات لغة أهل نجد وبني تميم، ومنه قول الفرزدق (إلا مسحتاً أو مجلف) في بيت لا تزال الركب تصطك في تسوية إعرابه. . .)
وفي (الخصائص): (قولهم ودع الشيء يدع إذا سكن فاتدع متبوع متبع، وعليه أنشد بيت الفرزدق:
وعض زمان يا ابن مروان لم يدع ... من المال إلا مسحت أو مجلف
فمعنى لم يدع بكسر الدال لم يثبت، والعائد منها إليه محذوف للعلم بموضعه وتقديره (لم يدع فيه، وهذا أمر ظاهر
وأورد الأستاذ أمثلة مما أشار إليه كردين، وشغلت به الأئمة في القديم، وقد اجتزأنا بواحدة من تلك الدواهي. . .
الفرزدق هو - كما قال الأستاذ - في (صحة اللغة وفصاحة الأسلوب) وقد رويت القول من قبل. وأشعار أبي فراس مبثوثة في كتب الأدب والتاريخ، وأبياته في المصنفات اللغوية
هي من أوائل الشواهد. فلو رجع إليها الفاضل عبد الله الصاوي الذي (عني بجمع ديوان الفرزدق وطبعه والتعليق عليه) في شرح (الأوابد) في بيت الفرزدق:
لن تدركوا كرمي بلؤم أبيكم ... وأوابدي بتنحل الأشعار
ما كان قال: (شبه القصائد بأوابد الوحش). وأوابد الوحش نفرها، ومثل هذا الشرح يذل البيت ويزيغ القارئ - فلو رجع إلى اللسان والأساس لوجد الأول يقول: (يقال للشوارد من القوافي أوابد. قال الفرزدق: لن تدركوا. . . وقافية شرود غائرة سائرة في البلاد) ووجد الثاني يقول: (أوابد الشعر التي لا تشاكل جودة قال الفرزدق: لن تدركوا. . .) وفي الصحاح: (يقال للشوارد من القوافي أوابد قال الفرزدق: لن تدركوا. . .) وفي التاج: (الأوابد القوافي الشرد مجاز. قال الفرزدق: لن تدركوا. . .)
ولو رجع العلامة اللغوي المشهور الشيخ إبراهيم اليازجي إلى كتب الأدب واللغة ما كان قال في مجلته (الضياء) السنة (3) الصفحة 485 - : (قال الفرزدق:
والشيب ينهض في الشباب كأنه ... ليل يصيح بجانبيه نهارا
أراد بقوله يصيح صيغة المتعدي من قولهم انصاح القمر، فنقل المعنى إلى النهار كما قال البديع: فلما انصاح النهار بجانب ليلى، ثم استعمل منه متعدياً بتجريده من الزيادة، (وهو غير منقول في هذا المعنى
فلو رجع الشيخ إلى (إعجاز القرآن) للباقلاني و (ديوان المعاني) للعسكري و (حماسة البحتري) و (الأغاني) و (نثار الأزهار) لابن منظور صاحب اللسان، و (الكامل) للمبرد و (أساس البلاغة) و (لسان العرب) و (تاج العروس) لوجد في هذه الكتب كلها رواية البيت الصحيحة:

والشيب ينهض في السواد كأنه ... ليل يصيح بجانبيه نهار
ووجد في اللسان والتاج هذه الفائدة: (. . . عن أبي عبيده أن جعفر بن سليمان قدم عند المهدي فبعث إلى يونس بن حبيب فقال: إني وأمير المؤمنين اختلفنا في بيت الفرزدق وهو (والشيب) ما الليل والنهار؟ فقال الليل هو الليل المعروف وكذلك النهار فقال جعفر: زعم المهدي أن الليل فرخ الكروان والنهار فرخ الحباري. قال أبو عبيده القول ما قال يونس؛ وأما الذي ذكره المهدي فهو معروف في الغريب ولكن ليس هذا موضعه. قال ابن بري: قد
ذكر أهل المعاني أن المعنى على ما قال يونس وإن كان لم يفسره تفسيراً شافياً، وإنه لما قال: (ليل يصيح بجانبيه نهار) فاستعار للنهار الصياح لأن النهار كان آخذاً في الإقبال والإقدام، والليل آخذ في الإدبار صار النهار كأنه هازم والليل مهزوم، ومن عادة الهازم أن يصيح على المهزوم. ألا ترى إلى قول الشماخ:
وألقتْ بأرجاء البسيطة ساطعاً ... من الصبح لما صاح بالليل نفّرا
فقال: (صاح بالليل حتى نفر وانهزم)
وبيت الفرزدق في قصيدة مشهورة ناقض بها قصيد لجرير مطلعها:
لولا الحياء لهاجني استعبار ... ولزرت قبرك والحبيب يزار
وفي قصيدة الفرزدق هذه الأبيات:
إن الملامة مثل ما بكرت به ... من تحت ليلتها عليك نوار
وتقول: كيف يميل مثلك للصبا ... وعليك من سمة الحليم عذار؟!
والشيب ينهض في السواد كأنه ... ليل يصيح بجانبيه نهار
إن الشباب لرابح من باعه ... والشيب ليس لبائعيه تجار
فالفعل (يصيح) وماضيه (صاح) أي صات، و (نهار) مرفوع فاعل يصيح. وللشيخ اليازجي عجائب في نقد متقدمين وسنعود إلى تبيينها في وقت
في شعر الفرزدق ألفاظ كثيرة فاتت المعجمات التي نعرفها مثل اللسان والتاج وغيرهما. من ذلك (التظاليل والوهون) وقد وردت الأولى في قوله:
وظلماء من جرّا نوار سريتها ... وهاجرة دوّية ما أقيلها
جعلنا عليها دوننا من ثيابنا ... تظاليل حتى زال عنها أصيلها
وجاءت الثانية في قوله:
وحبْل الله حبلك من ينله ... فما لعُرى إليه من انفصام
فإني حامل رجلي ورحلي ... إليك على الوهون من العظام
والوهون من مصادر وهن وقد ذكروا الوهن بالسكون والحركة. وإني لأستبعد قصده الوهون بفتح الواو بمعنى الضعيف
وفي العربية ألوف من الألفاظ الجاهلية والإسلامية لم تجلبها كتب اللغة. وقد بينت هذا الأمر المهم في جريدة (البلاغ) المشهورة منذ خمسة أحوال في مقال عنوانه: (العربية، أحاديث فيها) حين أقمت في القاهرة - قبل المرابطة في هذا الثغر - وكنت أكتب (أحرر) في تلك الجريدة
لما تقدم الغربيون ونجم فيها العربانيون وأراد هؤلاء أن يخبروا الأمم العربية والإسلامية الخبرة البليغة ليخدموا دولاتهم في سياساتها أو لمآرب أخرى ذهبوا إلى مثل (الفرزدق) يستنطقونه ويستهدونه، والعالم العاقل لا يضل سبيله، ولا يخطئ حين يختار دليله. وأعمال العربانيين في هذا المعنى، شهرتها تغني عن الإفاضة فيها
ولما كانت المدنية العربية وهم عمرو بن بحر (الجاحظ) وعلي بن عبيده (الريحاني) وعلي بن محمد (أبو حيان التوحيدي) وحبيب بن أوس الطائي (أبو تمام) والوليد بن عبيد (البحتري) واحمد بن الحسين الكندي (المتنبي) ونظراؤهم، فلما عزم هؤلاء النابغون أن يحذقوا لغتهم، ويرصنوا أدبهم، بادروا إلى مدرسة (الفرزدق)، وجثوا بين يديه، وتأدبوا في العربية عليه، ومن صار إلى الينبوع العد ذي النمير السلسال وكرع فيه ارتوى، ومن سعى إلى منجم الألماس ومعدن الذهب رجع جذلان غنياً
وإني لموقن الإيقان التام أن الأمم العربية يوم ترتقي بعد ثلاث مائة سنة (إن شاء الله تعالى) ستحرث الجاهلية والإسلامية (الأموية) حرثاً، وستأصلها علماً أصلاً فلا تذر لفظة من ألفاظها - وإنها لكثيرة - شردت عن أصحاب المعجمات إلا اصطادتها، ولا خبراً مستعجماً إلا ابتحثته ووضحته، ولا ديواناً لكبير وصغير من الشعراء والشواعر إلا

أظهرته. وستكرم دواوين لؤمت طبعاتها، وسود التجار الفجار (أو السماسرة) وجوههم عند الله بتشويه صفحاتها.
وستفتن علماء ذاك الزمان الآتي في التأليف في أدب الجاهلية والإسلامية افتناناً. وسيفضلون العربانيين والأئمة من العربيين السابقين (بذوق) حرمه الله الإفرنجي المستعرب أي حرمان، وبذرائع من الطباعة وغير الطباعة لم يحظ بها العالم العربي من قبل. وسيفهم أولئك المرتقون المتقدمون من مثل قول المأمون: (خير الكلام ما شاكل الزمان) ما لم يبد للمنتمين إلى الأدب العربي من العصريين، والمفقحون يجتلون ما لا يبصره المصأصئون
لقد بعث الأستاذ المردمي (همام بن غالب) في هذا الوقت و (البعث) حق، و (الرجعة) عند قوم
إنه اليوم في القاهرة (الحاضرة اللغوية للأمم العربية) إنه الساعة في دار (الجامعة المصرية، جامعة فؤاد الأول) - رحمة الله على الملك العالم - وهاهو ذا يخطب (الدكاترة) والأساتذة والتلامذة وهم حافون به. إنه ليهدر بصوت ذي نهيم كنهيم الأسد، صيت صهصلق، وإنا لنسمعه يقول:
أنا همام بن غالب. أنا الفرزدق
أنا أستاذ (الخليل) و (الريحاني) وحبيب
وإنها العربية الجاهلية الإسلامية الأموية خادمة (الكتاب) والتي قد كونت هذا اللسان
إن الناطقين بالضاد في كل زمان ومكان إلينا لمفتقرون
أنا همام بن غالب وزميلاي جرير بن عطية وغياث بن غوث فالعلم كل العلم في أن تعرفونا وتعرفوا الإسلاميين والجاهليين، والجهل كل الجهل في أن تنكرونا
أنا الفرزدق!!
تصفيق مشتد بدأ به الصديقان الأستاذ أحمد أمين والدكتور عبد الوهاب عزام، وتبعهما (الأستاذ إبراهيم مصطفى وسائر الأساتذة والتلامذة)
حيا الله أديبنا الكبير الأستاذ المردمي وبيّاه بما أحيا لنا (الفرزدق) في هذا الزمان حتى يخطب في (الجامعة) خطبته، ويقول في الجاهلية والإسلامية مقالته، ويصدع بالحق.
وقيل (الفرزدق) هو القيل:
إذا قالت حذام فأنصتوها ... فإن القول ما قالت حذام
هذه كلمات اقتبست من فضل الأستاذ المردمي، وطاقات اجتنيت من روض أدبه، أقدمها إليه إعجاباً وإجلالاً وتحية.
(الإسكندرية)
(* * *)
. . .أوراق مبعثرة
للأستاذ صلاح الدين المنجد
هاهي ذي نسيمات الصيف تهوي إلى هذا الوادي الضاحك. . . قافزة كالفتاة اللعوب؛ تلهو بين العشب وترف فوق الزهر، وتتيه وراء النهر. . . ثم تعانقني، فتهمس في أذني بحياء، وتدغدغ وجهي بدلال. . . فأغمض عيني نشوان. . . فإذا بأوراقي تتبعثر. . . وبذكرياتي تهيج!. . .
يا عجباً لهذه الأوراق!! إن فيها قصة الشباب المستحير والحب الطروب. . . ولكن ما أجدر بعضها بالقراءة. فإن فيها كثيراً من تهاويل الفن، وفرائد الشعر، ونوادر الفكر، وأهازيج الشعب، وأضاحيك الناس. . . أيضاً. . . فلتجمعها (الرسالة) فهي روضة الأدب الزاهر. . . وقيثارة الناغم. . . ومجلته الشرود. . .
- 1 -
قرأت اليوم كتاب (طاغور) عن الشاعر ودينه. إنه يجنح إلى الدقة حتى ليصعب عليك فهمه، ويميل أحايين إلى السهولة حتى ما تجد أحلى ولا أملى منه. إن له آراء طريفة. . هو يرى أن دين الشاعر ليس كدين الناس (لأن دين الناس عقيدة تهون بها المعضلات. . . فينقلب فيها الشك إلى يقين، والتمرد إلى إذعان). أما دين الشاعر فرقيق رجراج لا يخضع لشيء ولا يقيده شيء. هو كالقضاء الذي يحيط بالأرض تتلاعب في جنباته الظلال والأنوار، ويبدو الهواء فيه كالراعي الجميل ينفخ في مزماره ويغني بين قطائع الغيوم. إنه لا يقودنا إلى هدف ولا يجري بنا إلى غاية، لأنه مطلق لا تحيط به

الجدران فتقيده؛ ولا الحدود الضيقة فتحدده؛ ولأنه واسع تتراءى لك فيه عوالم بعيدة وقريبة، تسمع منها زفرات اليائسين، وأنين البائسين، وأغاريد العصافير؛ وتحس بها لغب العاملين، وحمى الضعفاء، واضطراب الوالهين؛ وتستنشق عطر الورد وأريج الياسمين، وترنو إلى دموع العذارى، وعبرات الثكالى، وحزن البنفسج، ورفيف الندى، وضحك الربيع. استمع معي إلى هذا النشيد:

(أبريل يا أبريل. . .! اضحك كالفتاة الخلوب. . . ثم اذرف الدمع مثلها!)

(أبريل يا أبريل. . .! يا من له أذناي، غن كالحبيب عندما تسمع أنيني وترى نحيبي، ثم اضحك ضحكة فيها الذهب. . . وازرف الدمع المذوب في الذهب. . .!)

فماذا وجدت؟ أليس هذا نوعاً من (الترف في الشعور؟) واستمع أيضاً إلى شاعر بنغالي قديم:

(استيقظت عند الصباح على خفق شراع القارب يا عروسي الجميلة، فتركت الشاطئ لأتبع الموج الصارخ. . . ثم سألتك: هل آن يا فتاتي حصاد الأحلام في تلك الجزيرة النائمة وراء الأفق الأزرق الجميل. . .؟ فسقط صمت ابتسامتك على سؤالي كما يتساقط صمت الأشعة على الأمواج. . . وانقضى النهار مملوءاً بالأعاصير، وهبت ريح عاتية دفعت بالقارب السكران إلى بعيد، فسألتك: أفي هذه الربوع، تحت رماد هذا النهار الميت. . . الذي ينطفئ على رود. . . شيدت برج أحلامك؟! فلم أسمع جواباً؛ ولكن ومضت عيناك كما تمض حفافي الغمام تحت شمس الطفل. وأقبل الليل. . . فغمرك الظلام، وداعب الهواء شعرك، وداعب شعرك خدي ففاح منك العطر، وهاج مني الأسى، وتاهت يداي تفتشان عن رفارف ثوبك، وسألتك: أوراء النجوم جعلت يا عروس رحلتي قبرك الذي ستدفنين فيه بين الورد والزهر؟. . . هناك. . . حيث ينقلب صمتك إلى نغمات، وحزنك إلى ضحكات. . .؟! فرف ثغرك. . . في الظلام كما ترف نجمة الليل. . . وراء الضباب!) فما هذه إلا نغمات حلوة تذهلنا عن الناس كلما طربنا لها وملأنا نفوسنا بها وهذا هو الشعر الجميل. . .

(دمشق)

صلاح الدين المنجد

كتاب الأغاني

لأبي الفرج الإسكندراني

رواية الأستاذ عبد اللطيف النشار

صوت

إصرفوا عني طبيبي ... واتركوني وحبيبي

جسدي راض بسقمي ... وفؤادي بالنحيف

فاصرفوا عني طبيبي

الشعر (لليلى المريضة في العراق)، وفيه لحن للجاحظ لم تدون نغمته

حدثنا الأستاذ أحمد أمين قال: إن (ليلى المريضة بالعراق) ليست إلا كناية عن الآداب العربية. فهي شخصية خيالية: كماريانا الفرنسية، وجون بول الإنكليزي. وقد تعلق بها في كل جيل كبار أدبائه، وإنما أمرضها كثرة العشاق.

قال: وقد كثرت هداياهم إليها، وكان معظم الهدايا من الأدب الجاهلي، وهو كما تعلمونه ثقيل على المعدات الرقيقة، فأصيبت بعسر الهضم، وما يتلوه من ضعف الكبد ومرض السكر وسائر الأمراض التي تحدث عنها الأستاذ العقاد في مقاله عن (مطاعم الأغنياء).

قال: وكان ممن افتتنوا بها العلامة الجاحظ الذي كاد يشفيها بطبه الناجع، وما طبه إلا العلاج بنبات الأرض التي نشأ فيها المريض، وبالإقامة مدة ما في الجو الذي كانت فيه النشأة، فاستحدث لها من ملابسات الحياة الحاضرة إلى عهده أدباً غير مخزون ولا غريب فأبلت وكادت تعود إلى عهدها من الغضارة والنضارة، حتى ابتلاها الله بطبيب اسمه خلف الأحمر فأعاد لها هدايا الجاهلية، وعاودها المرض من أجل ذلك. فلم تزل مريضة إلى اليوم.

قال: وقد وفقني الله سبحانه وتعالى إلى دواء ناجع فاعتزمت الجامعة أن تنشئ فيها كرسياً للأدب المصري، وليلانا المريضة في العراق مصرية بلا ريب. فأعددت لها دواء

من أعشاب الحياة المصرية، وبعثت إلى أخوالها في بغداد أن يرسلوها.
قال: لكن الرسول الذي بعثت به إليها تطبب وكان كرسول المتنبي الذي يقول فيه:
ما لنا كلنا جو يا رسول ... أنا أهوى وقلبك المتبول
كلما قد بعثت طيفاً إليها ... غار مني وخان فيما يقول
قال: وهذا الطيف المتطبب لما لقيها في بغداد استبقاها هنالك وأهدى إليها هدية من الأدب الأندلسي. ففي ذلك تقول:
اصرفوا عني طبيبي ... واتركوني وحبيبي
جسدي راض بسقمي ... وفؤادي بالنحيب
فاصرفوا عني طبيبي
وهذا اللحن قديم، كانت تقوله من عهد الجاحظ الأول، وأعادته في عهد الجاحظ الثاني؛ وكل الفارق بين الجاحظين أن أحدهما ذو لون حائل، وشق مائل، ولعاب سائل؛ وأن الثاني ذو يراع صائل، ولسان جائل. . . وقد نسيت السجعة الثالثة!
وحدثنا الدكتور زكي مبارك قال: (هذا اللحن لليلى المريضة في العراق، ما في ذلك شك، وأنا الطبيب، وأنا الحبيب؛ وإنما أرادت صرفي من الباب لكي آتي من النافذة بعد قليل، وهي القائلة على لسان عمر بن أبي ربيعه:
إذا جئت فامنح طرف عينيك غيرنا ... لكي يحسبوا أن الهوى حيث تنظر
ولكنني لا أنظر إلا إليها، ولا أنظر إلا وعيناي مفتوحتان إلى أقصى حد تستطيعان. وماذا علي في ذلك:
يقولون لا تنظر وتلك بلية ... وما فتحت عيناي إلا لتنظرا
وفي الحق أني أهديت إليها هدية من الأدب الأندلسي وهي موشح من موشحات الهجاء فيمن يتعرضون للأدب الجاهلي. وهاأنذا أرشح نفسي لكرسي في الجامعة للأدب الأندلسي بان أسرف في مدح الأدب الجاهلي. وماذا علي في ذلك؟ أليست الأندلس قد تأثرت بالأدب الجاهلي أكثر مما تأثرت به بقعة أخرى من بقاع العروبة؟ صحيح أن أهل الأندلس كانوا مزيجاً من البربر والأوربيين والعرب؛ وصحيح أنهم كانوا يستقون أدبهم من حياتهم في مناخ بعيد عن المناخ الجاهلي، ولكن، هل الأدب أدب لغة أم الأدب أدب قوم؟ هذه هي المسألة كما يقول الشيخ عبد العزيز البشري نقلاً عن شكسبير؟
اللغة الإنكليزية في أمريكا قد طبعت العقلية الأمريكية بطابع إنكليزي. من ذا الذي يشك في
ذلك؟ ولكن هل يجرؤ أمريكي أن يقول إنه أمريكي؟ أليس عليه أن يقول إنه إنكليزي وإنكليزي قبل كل شيء، وإنكليزي ثم لا شيء؟!
قال الدكتور زكي: ثم إن اللغة العربية لغة عالمية، والصفة العالمية هي أبجدية الإنسانية. فلا يكون الإنسان وطنياً إلا وفيه من الصفات الإنسانية العالمية الشيء الكثير. ثم تتفرع عن الصفات العالمية الأبجدية في حياتنا صفات القومية. فلماذا لا نقف عند الأبجدية؟ ولماذا ندرس الأدب المصري كفرع من فروع الأدب العربي ولا ندرس معه الأدب الأندلسي؟
صحيح أن الأدب الأندلسي قد ضاع معظمه إحراقاً وإغراقاً ولكن لماذا لا ندرس الأدب الذي ضاع؟ ألم أقل إن هناك نثراً جاهلياً، وإن هذا النثر الجاهلي قد ضاع، وإن علينا أن ندرس هذا النثر الجاهلي وإن كان قد ضاع؟ ألا نستطيع دراسته على طريقة المتصوفة بالتسبيح بآلائه والاكتفاء عنه بأسمائه؟
على أني سألزمهم الحجة الدامغة. . . أليس الأدب المصري هو العصر الثاني من الأدب الأندلسي؟ ألم يبدأ الأدب المصري بالأندلسيين الذين هاجروا إلى الإسكندرية، وأقام أكبرهم شأناً فيها عشرين عاماً أنشأ فيها أولى المدارس الأدبية؟ ألم يقرءوا شيئاً عن ابن زهر ومقامه في الإسكندرية أميناً لمكتبتها في نفس الوظيفة التي يشغلها الآن الشيخ بشير الشندي، والتي شغلها السيوطي مدة من الزمن؟
أو ليس ابن زهر هو أستاذ ابن قلاقس وابن الحداد والوجيه؟ ثم أليس ابن الحداد نفسه أندلسياً. . . والمدارس الدينية كمدرسة أبي الحسن الشاذلي ومدرسة أبي العباس المرسي ومدرسة الشاطبي؟ ألم يكن هذا كله هو الأساس الأندلسي الذي بنى عليه الأدب المصري، وشعراء الإسكندرية المعاصرون؟ أليسوا من نسل أندلسي؟ أليس

لقب أحدهم آخر شعراء بني الأحمر؟ وأنشد
صوت
عجباً يا قوم قولوا عجباً ... جحدوا الفن وخانوا الأدبا
جعلوا جِدّيَ فيهم لعبا ... بلغوا الذروة في الصيت وما
أنصفوا الآداب في الأندلس
يا أبا العباس يا مرسي ويا ... شاطبيٌ باركا نقدي ويا
سيدي موسى بن ميمون ويا ... أولياء الثغر بالله أما
تسمعون القدح في الأندلس
قال: وسيدي موسى بن ميمون كان عالماً عربياً في الأندلس، ثم صار الحاخام الأكبر للطائفة الإسرائيلية في الإسكندرية. فكيف يبدأ أستاذ الأدب المصري بتعليم الأدب المصري قبل أن أنتهي أنا من تعليم الأدب الأندلسي!
حدثنا الأستاذ ساطع الحصري بك قال: فيم يختصم هؤلاء؟ أفي دواء لمريضة عندي ولن أبعث بها إليهم؟ إن ليلى هنا وستظل ليلى هنا، فلا دواء من الأدب الأندلسي ولا من الأدب المصري ولكن من المركب العربي بمقادير ونسب. أما لهؤلاء المتخاصمين من ينشدهم شعر العقاد؟
صوت
ما في يدي منه لا عين ولا أثر ... ولي عليه مغاليق وأعيان
قال أبو الفرج: وقد انتهت الخصومة في شان كرسي الأدب المصري وكرسي الأدب الأندلسي إلى صلح عقده الأستاذان المتخاصمان، وأهم شرائطه أن يشتركا في نشر كتاب الأطباء لابن أبي أصيبعة، ففيه سير الأطباء الشعراء من الأندلسيين الذين كانوا نواة للأدب المصري في القرن السادس الهجري ثم يضيفانه إلى قائمة الكتب العشرة المختارة.
قال: ولقد نشأت عن هذه الخصومة ذيول تمت هي أيضاً بزيادة القائمة زيادة عظيمة! بارك الله في هذه الخصومات، حتى تستمر أمثال هذه الزيادات
عبد اللطيف النشار
نقل الأديب
للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي
494 - أقبل على سوقك
دخل أبو العتاهية على ابنه محمد، وقد تصوف فقال:
ألم أكن قد نهيتك عن هذا؟
فقال: وما عليك أن أتعود الخير، وانشأ عليه؟
فقال: يا بني، يحتاج المتصوف إلى رقة حال، وحلاوة شمائل، ولطافة معنى. وأنت ثقيل الظل، مظلم الهواء، راكد النسيم، جامد العينين. فأقبل على سوقك؛ فإنها أعود عليك. وكان بزازاً
495 - نزيل الجبال بالريش
قال ياقوت، قال أبو الرملي: حضرت مجلس أبي القاسم المرتضى وأنا إذ ذاك صبي، فدخل عليه بعض أكابر الديلم، فتزحزح له، وأجلسه معه على سريره، وأقبل عليه مسائلاً، فساره الديلمي بشيء لم نعلم ما هو. فقال له متضجراً: نعم. واخذ معه في كلام كأنه يدافعه. فنهض الديلمي، فقال المرتضى بعد نهوضه: هؤلاء يريدون منا أن نزيل الجبال بالريش. . . وأقبل على من في مجلسه. فقال: أتدرون ما قال هذا الديلمي؟ فقالوا: لا
فقال: قال: بين لي هل صح إسلام أبي بكر وعمر؟!
596 - ملائكة!!!
في (تاريخ بغداد): اشترى السري بن المغلس السقطي كر لوز بستين ديناراً، وكتب في روزنامجه: ثلاثة دنانير ربحه. فصار اللوز بتسعين ديناراً. فأتاه الدلال وقال: إن ذاك اللوز أريده. فقال له: خذه! قال: بكم؟ قال: بثلاثة وستين ديناراً. قال الدلال: إن اللوز قد صار الكر بتسعين. قال له: قد عقدت بيني وبين الله عقداً لا أحله. ليس أبيعه إلا بثلاثة وستين ديناراً. فقال له الدلال: إني عقدت بيني وبين الله ألا أغش مسلماً لست

آخذه منك إلا بتسعين. فلا الدلال اشترى منه، ولا السري باعه!
وشاهدي فيما ادعيت القمط والتمريخ - 597
في (وفيات الأعيان): كان المبارك بن أبي الفتح الملقب شرف الدين، قد خرج من مسجد بجواره ليلاً ليجيء إلى داره. فوثب عليه شخص وضربه بسكين قاصداً فؤاده. فالتقى الضربة بعضده فجرحته جرحة متسعة. فأحضر في الحال المزين فخاطها ومرخها وقمطها باللفائف. فكتب إلى الملك المعظم (مظفر الدين صاحب أربل) يطالعه بما تم عليه في هذه الأبيات:
يا أيها الملك الذي سطواته ... من فعلها يتعجب المريخّ
آيات جودك محكمٌ تنزيلُها ... لا ناسخ فيها ولا منسوخ
أشكو إليك (وما بُليت بمثلها) ... شنعاَء ذكرُ حديثها تاريخُ
هي ليلةٌ فيها وُلدتُ وشاهدي ... فيما ادعيت القمط والتمريخُ
وهذا معنى بديع جداً.
ورد تفتح في فنن - 598
قالوا: أحسن ما قيل في الضربة الدامية قول ابن المعتز:
شق الصفوف بسيفه ... وشفى حزازات الإحن
دامي الجراح، كأنه ... وردٌ تفتح في فنن
لقاء الله - 599 . . .
في (طبقات الشافعية): قال الأستاذ أبو القاسم القشيري: سمعت أبا بكر بن فورك يقول: سئل الأستاذ أبو سهل محمد ابن سليمان الصعلوكي (شيخ عصره) عن جواز رؤية الله (تعالى) من طريق العقل. فقال: الدليل عليه شوق المؤمنين إلى لقائه، والشوق إرادة مفرطة، والإرادة لا تتعلق بالمحال
فقال السائل ومن الذي يشتاق إلى لقائه. . .؟
فقال الأستاذ أبو سهل: يشتاق إليه كل حر مؤمن، فأما من كان مثلك فلا يشتاق . . .
لطيف - 600 . . .
في (مفاتيح الغيب): قال أبو علي الحسن الغوري: كنت في بعض المواضع فرأيت زروقاً فيه دنان مكتوب عليها: لطيف. فقلت للملاح: إيش هذا؟ فقال: أنت صوفي فضولي، وهذه
خمور المعتضد. فقلت له: أعطني ذلك المدري. فقال لغلامه: أعطه حتى نبصر إيش يعمل. فأخذت المدري وصعدت الزورق فكنت أكسر دناً دناً، والملاح يصيح حتى بقي واحد فأمسكت فجاء صاحب السفينة فأخذني وحملني إلى المعتضد، وكان سيفه قبل كلامه. فلما وقع بصره علي قال: من أنت؟ قلت: المحتسب. قال: من ولاك الحسبة؟ قلت: الذي ولاك الخلافة. قال: لم كسرت هذه الدنان؟ قلت: شفقة عليك. قال: فلم أبقيت هذا الواحد. قلت: إني لما كسرت هذه الدنان كسرتها حميةً في دين الله. فلما وصلت إلى هذا أعجبت بنفسي فأمسكت ولو بقيت كما كنت لكسرته. فقال: اخرج يا شيخ، فقد وليتك الحسبة فقلت: كنت أفعله لله (تعالى)، فلا أحب أن أكون شرطياً
لا يلزم باب السلطان . . . - 601
في (مسالك الأبصار ومروج الذهب): كتب على باب (النوبهار) بالفارسية: قال سوراشف الملك: أبواب الملوك تحتاج إلى ثلاث خصال: عقل، وصبر، ومال. ثم لما ملك الإسلام مدينة بلخ كتب تحت هذه الكتابة بالعربية: كذب سوراشف؛ الواجب على الحر إذا كان معه واحدة من هذه الخصال ألا يلزم باب السلطان
بائعة (الكازوزة) الحسناء
للأستاذ علي الجندي
تتردد على جسر الخديو إسماعيل وما جاوره من شواطئ النيل، فتاة في زي القرويات سمعت من يدعوها (هند) يجلس بجوارها في أغلب الأحيان رجل أحسبه يمت إليه بصلة القرابة، ولعل مهمته الأولى أن يحرسها من ذئاب البشر الضارية
هذه الفتاة على حظ عظيم من جمال الفطرة البريء من الصنعة. وقد اعتادت إذا مر بها المتنزهون في ذهابهم وجيئهم أن تعرض عليهم بضاعتها في بشاشة ورقة وأدب وحدث أنني كنت أرتاد هذه البقعة متفرجاً في بعض الليالي المقمرة، فمررت بها مصادفة - مصادفة يا وزارة المعارف - فابتسمت لي وقالت بصوت يقطر ليناً: تعال يا

أمر (قمر) اشرب كازوزة. وقد منعني ما اصطنعه من وقار المربين من تناول شرابها المشعشع بالثلج، ولكنني استطعت أن أرد على التحية بأحسن منها!

وحاولت جاهداً أن أتخلص من تأثير كلمتها (يا أمر) فلم استطع! فقد خالطت مني اللحم والدم، وفعلت بي فعل السحر! كنت أظن - وبعض الظن إثم - أنني جاوزت مرحلة الشباب، فأعادت لي هذه الكلمة الثقة بنفسي وقلبي! وتركتني ألتفت إلى الماضي أستحضر صوره المحببة! ناثراً الدمع في دمن الأنس العافية، وأطلاله الدوارس!

ومخضوبةِ الأطراف، مُخْطَفة الحَشَا ... على الشَّطِّ تخطو في دلال وفي خَفَرْ
يميس بها سُكْرُ الشباب فتنثِني ... كغصنٍ زَهتْه الريحُ أو شادنٍ خَطَر
تكاد السباع المقعِيات حيالَه ... تخفُّ إليه - صابيات - مع البشر
جَلاها الجمال النضر في ثوب فاقةٍ ... وما حاجة الغيد الغواني إلى الحِبر؟
وهل عابها أن تَعْدَم الوَشْىَ والحِلَى ... وقد أطلعتْ من وجهها بُلجَةَ السَّحر؟
إذا هتفتْ بالظامئين تَهافتو ... عليها كنحل هاجها مونق الزهر
وما بهِمُو بردُ الشَّراب، وإنما ... نُفوسٌ تَوَافتْ من رَدَاهِا على قَدَر
إذا هي هَشَّتْ للوُرود، فإنها ... - وإن نِعمتْ بالرِّي - لا تحمَدُ الصَّدَر
عفا الله عنهم! إن شَفَوْا غُلَّةَ الصَّدى ... فَمَن لجوىً بين الجوانح يَسْتَعِر؟
تَرى الشَّرب حول الوِردَ شَتَّى، فلاحظٌ ... حُشاشته وجداً، وآخرُ ينتظر
ومنْ صادرٍ عنه بمهجة والهٍ ... تكاد من الشوق المبرِّح تنفطر
مَرَرتُ بها - كالطيف - أسترق الخُطا ... أحاذِرُ أنْ أصبو، وهل ينفع الحذَر؟
فما راع سمعي غيرُ صوت مُنغَّمٍ ... يُخالُ - لفَرْطِ اللينِ - ترنيمةَ الوتَر
تقول - وبدرُ التَّم في الأفق سافرٌ ... يُفضِّض تِبْر النيل -: أيكما القمر؟
هَلُمَّ إلى راح طهُورٍ تُدِيرها ... عليك رَدَاحٌ زان أجفانَها الحَوَر
ستشربها صِرفاً، وإن شئتَ مزجها ... فدونك صْفوَ الشهد من ثغريَ العَطِر
تألَّفتِ اللذاتُ: ماءٌ وخُضرةٌ ... ووجهٌ كصبحٍ تحت جُنحٍ من الشَّعر
وهذا النسيم الرَّطْبُ ينفَح بالشَّذا ... فيفعَل بالألباب ما يفعَل السَّكَر
فخُذْ بنصيب من هناء معجَّل ... فإن الليالي غيرُ مأمونة الغِيَر
فقلتُ لها: خلِّي التَّصابي لأهله ... فما للمُرَبَّي في جَني الحسن من وطر
إليكِ، فلي (بالضاد) شُغلٌ عن الصبا ... وفي الدين عن وصل الكواعب مُزدجرْ
دعيني، فما لي والهوى - قُتلَ الهوى -! ... ألم يكفِ ما حُمِّلتُ في زمن غَبَر؟
أُرِقتُ ونام الناس مِلَء جفونهم ... أبكي لظبي صَدَّ، أو جُؤذَرٍ نفَر
فمن ذاق منه الأعذَبين فإنني ... لقيتُ به التبريح والهم والسهر
فلا تنكئي قرحاً بقلب دملته ... على لوعة حرى، ووجد قد استدر
ألم تُبصري فودي تنفس صبحه ... وكان حبيباً - للدُّمى - ليله العكر
وما ذاك من مَرِّ السنين، وإنما ... لبستُ بياض الشيب في مَيْعة العُمُر
جناه على رأسي زمانٌ مُذمَّمٌ ... يشوب لنا صفو اللذائذ بالكدر
ربيع ولا خصب، وظل ولا ندىً ... وماء ولا ريّ، وروض ولا ثمر
شقائيَ أني بين قوميَ دُرّةً ... وقد خلقوا تعشى عيونهم الدرر
ولو أنهم هانوا عليَّ، وسَمْتُهمْ ... على الأنف، لكنْ مَن له شيمتي غفَر
أُشيد لهم مجداً ويأبَى سِفاههم ... سوى هدمه! هل يستوي النفع والضرر؟
تَواصَوْا على أكلي - وفي لحميَ الردى - ... وما في النُّهى أن تُؤكلَ الحيّة الذكر
تولّى زمان اللهو (يا هند) فاعذري ... وأقصرَ عما كان غَيّه (عُمَرْ)
كفتنا - على برْحِ الجوى - منك نظرة ... وفي دين أهل الشعر لا يَحْرُم النّظر
سقى الغيثُ عهداً كم دعاني به الهوى ... فلبيتُ، لا أُعنَي بمن لامَ، أو عذَر
زمانَ فؤادي بالحسان مُوكلٌ ... إليهن أسعى بالأصائل والبُكر
شفيعي إليهن الصبا، ووسيلتي ... رَقائقُ أشعارٍ يلين لها الحجر
مرابع غِزلان تعفَّت، ولم تكن ... سوى مُتعة الآذان والقلب والبصر
نديمي بها (سُعْدَى) وريقتها الطلى ... وروحي وريحاني الأحاديث والسّمَر
كأنّ فؤادي يُسْعَر الجمرُ فوقهُ ... - إذا عادت الذكرى - ويوخز بالإبر
وحيّاك عنّا الله يا (هند) كلما ... تخطرتِ بالشطين، فاستضحك النهَر

ودام لك الوجهُ الصبيح، ولا ذَوَى ... عليك شبابٌ من صِبا (الخلد) مختصر
نظمنا لك الشعر النضير قلادةً ... ترف على رمانتي غصنك النضر
إذا ظفِرتْ حسناء منه بحلية ... فما ضر أن يغري بها البدو والحضر
علي الجندي
ترنمية الرياح. . .
للأستاذ ميخائيل نعيمة
هّللي، هللي يا رياحْ ... وانسجي حول نومي وشاح
مِن خرير الغديرْ ... واهتزاز الأثير
واختلاج العبير ... في دموع الصباح
هللي، هللي يا رياح
طوّقيني بنور النجوم ... وافتحي لي قصور الغيومْ
واتركيني هناك ... فَوراء السماك
قد لمحت ملاك ... باسطاً لي الجناحْ
هللي، هللي يا رياح!
هاأنا يا ملاك النعيمْ ... يا رسول الإله الرحيم
ما عساك تشاء ... مِن تراب وماء
فيهما ألف داء ... ما لها مِن براح؟
صفّقي، صفقي يا رياح!
ما أنا يا ملاكي السعيد ... غير طيف شريد طريد
علّمَتْهُ الحنينْ ... عاديات السنين
فاستطاب الأنين ... واسترقَّ النواحْ
صفقي، صفقي يا رياح!
أتَرَدّى ردآء المنون ... وأداوي الأسى بالظنون
كل فكري عناد ... كل قلبي سواد
كل دربي قاد ... كل عيشي كفاح
قهقهي، قهقهي يا رياح!
كان لي في قديم الزمان ... مرتع في رياض الجنان
بِعثُه بالوعود ... هل تراه يعود
لو نكثتُ العهود ... والتمستُ السماحْ
قهقهي، قهقهي يا رياح!
يا ملاكي، ألا من مآب ... لطريد براه العذاب؟
إنْ يعزّ الرجوع ... أفَلاَ من هجوع
لغريب الربوع ... يا ملاك الصلاح؟
ولولي، ولولي يا رياح!
قل، لماذا اعتراكَ الذبول ... هل تراك نظيري تجول
في رحاب الفضا ... نادباً ما مضى
طالباً عوضاً ... عن ديار الفلاح؟
ولولي، ولولي يا رياح!
عجباً بالدموع تجيب ... فإذن أنت مثلي غريب
أنت مثلي طريدْ ... هائم تستعيد
ذكر ماض بعيد ... كان حلماً وراح
هّومي، هومي يا رياح!
أنت مثلي ضللت الطريق ... فيكَ سرٌّ كسرِّي عميق
لا تَنُحْ يا ملاكْ ... ما دهاني دهاك
إن نكن للهلاك ... فالهلاك ارتياح
هوّمي، هومي يا رياحَ
قم بنا فالرياح تكادْ ... تجعل الدمع مِنّا جماد
وتَعالَ نَنَمْ ... في سرير الندمْ
علَّ شهر الظُلَم ... في المنام يزاحْ

أسكتي، أسكتي يا رياح
مخائيل نعيمة
رسالة الفن
دراسات في الفن:
والفن زعامة . . .
للأستاذ عزيز أحمد فهمي

هؤلاء جماعة من أبناء الصعيد العمال في عمارة، وهذان زعيمان متقدمان عليهم. أحدهما هذا الذي استجلبهم من الصعيد ووصلهم بهذا العمل الذي خبره ووقف على سره فهو مرشدهم فيه وقائدهم، والآخر هذا الذي يغني لهم أثناء العمل ما اشتد بهم العمل وما هان عليهم؛ فهو أكثرهم شعوراً بوحشة الغربة، وهو أشدهم شعوراً بوجوب الكفاح في سبيل الرزق، وهو أشدهم تفاؤلاً ورضاً بقضاء الله، وهو أشدهم نزوعاً إلى التعبير عن هذا كله، وهو أقدرهم على هذا التعبير، وأحلاهم فيه

فإذا وازنا بين زعامة المقاول، وزعامة المنشد، رأينا أن زعامة العيش تتستر وراء زعامة الروح والفن استحياء وتخاذلاً ما شبعت البطون، وما جرت الأرزاق في نهجها الطبيعي، وما سار العمل على نمطه المرسوم. فهؤلاء الجماعة من العمال لا يذكرون أن لهم إماماً يتبعونه في الحياة غير منشدهم إلا عند ما يطلبون الأجر أو العمل، وهم فيما عدا ذلك هائمون وراء شاديهم الذي يغنيهم، والذي يستدرج إلى نفوسهم ذكريات الماضي، ويقرب منها آمال المستقبل.

وفي ساعة من الساعات يفيض الشادي بالسحر والحنان والبهجة، فيرشف منها شعبه وينهل، وإذا بجمهور آخر من أبناء الصعيد أيضاً كانوا يمرون في فراغهم بهذا الحشد السكران، فيتجمعون حول الشادين يشدون معهم، لأنهم حنوا إلى الصعيد مثلهم، واستوحشوا الغربة، وذكروا الأحبة وهاجت في نفوسهم الآمال، وطاب لهم هذا الترويح الذي وجدوه فأقبلوا عليه يستروحون. وإن منهم من يقف كالمسحور يهزه الطرب ولكنه يعجز عن ترديد ما يسمع.

وفي ساعة أخرى يمر بهؤلاء الشادين جماعة آخرون شادون ولهم هم أيضاً زعيم يغني على ليلاه وأتباعه يرددون؛ فإذا صادف الغناء الطارئ هوى عند الماكثين فهم أصدقاء وأحباء، فإذا رأوا في الغناء الطارئ تعريضاً بمفخرة من مفاخرهم فهي معركة حامية قد تذهب فيها الأرواح

هذه صورة بسيطة من صور الزعامة الفنية وهي من الصور القليلة التي لا تزال قريبة من الطبيعة في صدقها وانحصارها. وإن لها شبيهاً عند أبناء البلد من القاهريين، فهم لا يزالون يقيمون حفلات الغناء في مشاربهم العامة، يقيم الحفلة مها مغنيان لكل منهما شعب يتبعه أينما حل، فإما يجد ما يصبو إليه من احترام وتوقير، وإما يحمي زعامته وكرامته بالعصي. . .

وثمة صور أخرى لهذه الزعامة التي تفرضها الطبيعة فرضاً، والتي لم تستطع الحضارة معها إلا أن تعممها فكان ذلك من حسناتها القلائل التي نجت من الصاحبات السيئات.

من ذلك تلك الزعامات الفنية التي تقوم المطبعة والسينما والمسرح بالترويج لها، وبالطواف بها في بيئات العالم المختلفة. فأدوات النشر هذه تذيع آثاراً فنية بين الناس، فتجد هذه الآثار الفنية من يطرب لها، ومن يرى فيها ترديداً لشيء كان يجول في نفسه ويريد أن ينفثه منها، أو من يرى فيها شبيهاً لشيء رآه وأحسه، ولكنه لم يستغرق في تأمله، أو من يرى فيها إمكان الحدوث على هذه الصورة من صور الجمال التي حققها له الفنان. . . وهؤلاء جميعاً عندما يرون هذا يشهدون للفنان الذي أسعدهم به أنه زعيم عليهم فيه، فمنهم من يتقرب إلى زعامته بفن فيه من روح فن الزعيم ويذهب مذهبه، ومن هؤلاء من يأبى إلا أن ينافس الزعيم حتى يتزعم هو، ومنهم من يرضى بالمتابعة، وأكثر الناس يرضون بالمتعة يصيبونها عند الزعيم الأصيل وعند المتزعمين وراءه، ومنهم من يهتم الاهتمام الكبير بالمناوشات التي تدور حول الزعامة. بل إن منهم من يثيرها ويشعل نيرانها رغبة منه في التلذذ بشهود الصراع الروحي الذي لا يكون من ثمرته إلا الرقي والذي لا ينبت على جوانبه الغل ولا الحقد إلا حيث يكون النقص والعجز

وتتسع الزعامة الفنية كغيرها من الزعامات كلما اتجهت إلى العموميات التي يشعر كل

الناس بان لهم صلة بها. فالأديب الذي يذكر الرحمة يجد في الناس عدداً يطرب لذكرها أكثر من العدد الذي يجده أديب آخر يذكر منظراً خاصاً من مناظر الطبيعة لا يعرفه إلا القليلون من الناس هم الذي يعيشون عنده، وهم الذين يطربون لذكره إذا جرى على لسان الأديب. ذلك أن الرحمة عاطفة تدركها النفوس الإنسانية جميعاً، ولكن هذا المنظر الطبيعي الخاص لا يدركه إلا أهله فقط

وليس معنى هذا أن زعامة الفنان صاحب الجمهور الكبير افضل من زعامة الفنان صاحب الجمهور الصغير. فقد يحدث أن يستشعر فنان بمشكلات تزحف نحو الإنسانية من بعيد فيراها، ولا يراها معه من الناس أحد غيره، وعندما تمتلئ نفس هذا الفنان شعوراً بهذه البشائر أو النذر، وعندما يعبر عنها بفنه، فإنه قليلاً ما يجد الناس الذي يتذوقون تعبيره ويوافقون عليه ويطمئنون إليه، وإنما يغلب أن تثور عليه الجماهير، ويغلب أن يتصدى له من زعماء الفن في عصره من تقاعد بهم الحس فيزمونه بالعجز أو الخبل، أو الالتواء أو شتى هذه التهم التي يتقاذف بها المتقاطعون الذين لا يتفاهمون، والذين لا يريدون أن يتفاهموا. وكثيراً ما ينكمش الفنان السباق في حنايا فنه وتلافيفه فيقضي ما يقضي من العمر وهو غريب عن عصره، حتى إذا ولى عن الحياة، وولى معه جيله وجاء بعده أناس قربتهم الحياة مما كان يراه ويتحدث عنه آمن هؤلاء به، واستعادوا فنه واسترجعوه، وأقاموه من أنفسهم في مقامه الحق. . . وجعلوه هو الزعيم، فهم أحياء وزعيمهم ميت. . . وفي هذا ما فيه من عدل الثأر الذي له عند آبائهم الذي أنكروه، فهم كلما ذكروا زعيمهم وطلبوا له الرحمة لعنوا آباءهم لأنهم كانوا كافرين.

ويقابل هؤلاء الزعماء السباقين زعماء آخرون زعامتهم معكوسة فهم لا يقودون الجماهير، وإنما يجرون وراء الجماهير، وقد يد هؤلاء من وفرة التابعين ما لا يجده الواثبون الصاعدون. وهؤلاء الزعماء الأذناب لونان، منهم من تسوقه نفسه إلى استرضاء الجماعات لأنه يحب رضا الجماعات ولأنه بطبعه فرد من أفراد الجماعات لا يزيد عنهم حساً، ولا يزيد عنهم قدرة على التعبير، وإنما كل ما يميزه هو الجرأة على التعبير والانطلاق به. ومنهم من يتسقط هذا الرضا عند الجماعات ليتسقط معه الربح المادي والجاه والشهرة، وهذا أدنأ من صاحبه وأقرب إلى التجارة منه إلى غيرها. فالفنان في غير التجارة لا يعبأ (بالزبائن) ولا يحسب حساباً لأذواقهم. أما التاجر وحده فهو الذي يستقصي طبائع الأسواق مستعرفاً أي البضائع يروج فيها وأيها يبور وليس هذا من طبع الزعامة في شيء، وإنما هو من ملق العبيد الذي تضيق عنه أخلاق الفن. وإنما أمانة الزعامة تقتضي الإرشاد والإصلاح والتحسين. فإذا كان الجمهور متردياً في رذيلة من الرذائل فليس زعيماً ولا هادياً من لم ينقذه منه. وكما أن الجماهير تتردى في رذائل خلقية، وفي رذائل عقلية، وفي رذائل اجتماعية، فإنها تتردى كلك في رذائل حسية يجب على من يحمل لواء الزعامة الفنية فيها أن ينقذهم منها أو أن يحاول إنقاذهم على أقل تقدير مادامت هذه الزعامة سبقاً في الحس، وسبقاً في التعبير. . . وإلا فهي لا شيء. . . أو هي تلك الأنانية الفنية الضيقة التي ليس لها شأن إلا بصاحبها فقط

أما الرذائل الخلقية والاجتماعية والعقلية فهي الأغلاط الإنسانية التي يعالجها أصحاب الفضيلة الإصلاح الاجتماعي والناهضون بالعقل المؤدي إلى العلم النافع. . . وأما الرذائل الحسية فهي التي ينفضها الفنانون عن أنفسهم بالسليقة أو بالتدريب الحسي فيزيحونها كذلك عن نفوس الذين يتابعونهم في إحساسهم ويتتلمذون عليهم فيه، والذين يشابهونهم في طريق التعبير عنه. ومن أمثلة هذه الرذائل الحسية ما تعانيه البشرية اليوم من استعار التعصب للقومية المادية، فهو وإن كان مما تلزم إثارته عند الشعوب الضعيفة حفظاً لكيانها بين الشعوب القوية المتعصبة؛ فإنه مما يجب أن يكافح وأن يقاوم بكل وسائل الكفاح والمقاومة عند الشعوب القوية، لأنه لا معنى له إلا الانحطاط بالمثل البشرية العليا، إلى حيث تكون أدنأ المثل وأضيقها رحاباً وأقذرها أهدافاً.

والفنانون الذي ينتظرهم العالم اليوم لينقذوه من هذه الرذيلة هم الفنانون الذين يحسون القبح في هذا الإحساس ويشمئزون منه ويدعون إلى فض هذا النزاع المادي

المتستر تحت قناع القومية ولابد أن تبدأ دعوتهم بأن يشعروا شعوراً صادقاً بأن الإنسانية حين تقدمت بعقلها وعلمها في طريق الحضارة الماثلة الآن تلكأت أو انتكست في سعيها الحسي، فلم توازن بين هذا التقدم في الحضارة وبين ما كان يجب أن يصاحبه من الإحساس الذي يشمل البشرية كلها كما استطاعت الحضارة أن تربط أطراف العالم بعضها ببعض وأن تخلط الشعوب بعضها ببعض، وأن تصل العقول بعضها ببعض، بحيث أصبح الياباني يعرف كل ما يعرفه الإنجليزي من المعلومات، وبحيث أصبح الأمريكي يقرأ ما يقرأه الأسترالي من الكتب وبحيث أصبح التركي يدرك ما يدركه النرويجي من الحقائق العلمية. . .

ولكن إحساس اليوناني لا يزال بعيداً كل البعد عن إحساس الإنجليزي، وشعور الأمريكي لا

يزال بعيداً كل البعد عن شعور الأسترالي، والمثل العليا التي يجري التركي وراء تحقيقها لا تزال مختلفة كل الاختلاف عن تلك المثل العليا التي يسعى النرويجي اليها؛ وليس ذلك إلا لأن الفنون قصرت حيث نشطت العلوم، ولأن إحساس البشرية تبلد حيث التهب عقلها. وما كان عقل البشرية ليهديها إلى الخير وحده، فلابد له من إحساس وأخلاق يسير في مصاحبتها إلى هدف الهدى

على أن هذا لا يصح أن يدفع اليأس إلى نفوسنا من صلاح الناس، فإن بذرة النجاة موجودة، وطريق السعادة ممهد قد رسمه الإسلام. وليس ينقص الإنسانية اليوم إلا فنانون مسلمون يضربون بإلحاح على ذلك الوتر المشجي الذي عزف عليه القرآن أول مرة فرتل قوله تعالى: إن أكرمكم عند الله أتقاكم. فمتى شاع هذا الإحساس في الناس شاعت فيهم السعادة. وقد كاد هذا الإحساس يشيع لولا أن انقسم العرب على أنفسهم فأصبحوا مشارقة ومغاربة، ولولا أن استعصمت أوربا بتعصبها، فألحت في محاربة المسلمين الذي نزلوا الأندلس ومضت في الحرب إلى أوائل هذا القرن حتى احتل اللورد اللعين فلسطين فقال: اليوم فقط وضعت الحرب الصليبية أوزارها.

على أن الإنسانية قد بدأت تحس هذا الإحساس النبيل، وإن كان يداخل نفسها في هدوء وفي بطئ، وإن كان عقلها ولسانها لا يزالان ينكرانه. ولولا هذا الإحساس لاشتبكت الدول في الحرب منذ عام أو منذ عامين، ولكن هذا الإحساس هو الذي يكتف القادة من غير أهل الفن، ويمنعهم من توريط أنفسهم بإعلان الحرب لأنهم يكادون يكونون مؤمنين بأن الشعوب أصبحت لا تتغاضب ولا تتقاتل جرياً وراء فكرة القومية المكذوبة؛ ولأنهم أصبحوا يرون أن الأفراد اليوم يعتزون بحياتهم، وبمتعة الدعة أكثر مما يعتزون بالرغيف.

وليست الشهادة الحرفية بتوحيد الله، والاعتراف الحرفي برسالة محمد هي كل ما نطلبه، وإنما نطلب لسعادة البشرية الإيمان بوحدانية الله إيماناً يتطرق إلى كل عمل وكل قول مما يعمل المؤمنون ويقولون، والإيمان برسالة محمد إيماناً ينفي كل ما يراد به تفضيل طائفة من طوائف البشر ورفعها على الطوائف الأخرى؛ فإن محمداً لم يكن يرى فضلاً لعربي على عجمي إلا بالتقوى

هذا هو الفن الجديد الذي تريد الإنسانية اليوم. وقد يجود به عليها مسلم، وقد يجود به نصراني، وقد يجود به يهودي ممن تتسع أذهانهم وتصفو نفوسهم فتحب إلى جانب المادة ما هو خير من المادة، بل قد يجود به وثني مثل غاندي

وقد كان طبيعياً أن ينعقد اللواء للزعامات القومية فيما مضى وأن تصطبغ حتى الزعامات الفنية بألوانها في أقتم درجاتها لأن البشرية لم تكن قد التحمت هذا الالتحام الذي تشابكت به اليوم؛ فلم يكن عجباً أن يكون زعيم القبيلة هو فارسها وهو شاعرها كما كانت عنترة العبسي في قومه مفخرة لهم، له اليد الطولى في مجدهم الحربي ومجدهم الفني أيضاً. . . ولكن منذ بدأت الآفاق تتفتح أمام المجموعات البشرية حق عليها أن ينفتح إحساسها حتى يحيط بكل ما تضرب فيه الحياة وحتى يلم بكل ما يضطرب فيها

ولا ريب أن الإنسانية قد انتبهت إلى هذا الآن، فقد قضت وقتاً طويلاً وهي تجرب هذه الدعوات التي تهتف بالقوميات والعصبيات المادية فتبين لها أنها دعوات ضعيفة عاجزة منافقة

أما ضيقها فتابع لضيق البيئات التي تصلح لانتشار كل منها، وأما عجزها فتابع لما

تستدعيه من التنفير الذي ينفث الكراهية في نفوس الناس فيرجم بعضهم بها بعضاً، وأما نفاقها فظاهر في أتباعها كما أنه ظاهر في ميوعتها وحيرتها وتناقضها مع نفسها، فقد كانت للإنجليز قومية يدعون إليها ويفخرون بها، وكان منهم من أسرع إلى أمريكا فاستوطنها ثم أبى أن يخضع لسلطان وطنه الأول فانقلب على قوميته وأنشأ مكانها قومية أخرى يحبها ويناضل في سبيلها لأنها تتصل بالأرض التي يعيش عليها ويأكل منها، ولا أكثر. وهذا ما حدث للأسبان الذين نزلوا أمريكا الجنوبية فقد انقلبوا على إسبانيا أمهم الأولى؛ ثم انقلبوا على أنفسهم واستأثر كل جماعة منهم بقطعة من الأرض. . . وهذا يثبت أن فكرة القومية والوطنية المادية ليست من الشرف في مكان يعلو على المادة ويتسامى عليها، وما من شك في أن (قومية الفكر) أو (قومية الفن) خير منها. ويتضح فضل الروحانية بمراقبة هذه القوميات المادية عندما يحتك بعضها ببعض فإننا نرى أن المادة والشغف بها يزيدان الصراع بين الناس استعاراً بينما المذاهب الروحية كلما توغلت في نفوس الناس على أساس من الصحة والسلامة ومجاراة الطبيعة والبعد عن التكلف كان ذلك أدعى إلى تقارب البشر، وزيادة تفاهمهم وتعاونهم

فالفن إذن ليس زعامة فقط، وإنما هو أرقى الزعامات

ليت الداعين إليه يزيدون في الناس، وليت دعوتهم تذيع!

عزيز أحمد فهمي

حركة السير ريالزم

للأستاذ رمسيس يونان

(يجب أن نحقق لكل إنسان نصيبه من الخبز. . . ونصيبه من الشعر. . .)

تروتسكي

يخطئ من يظن أن حركة السير ريالزم هي حركة أدبية أو فنية خالصة، وإن كانت تستخدم الشعر والقصة والرسم والسينما. . . ويخطئ من يظن أنها حركة سياسية بحتة، وإن كان القائمون بها يدينون بمذهب سياسي معين. وليست هي أيضاً مزيجاً من الفن والسياسة، فقد صرح (أندريه بريتون) زعيم الحركة مراراً وتكراراً بأنه لا يوافق على أن يتخذ الفن وسيلة للدعاية السياسية. وقد فصل (أراجون) من جماعة السير رياليين لأنه خالفهم في هذا الرأي. فما هي إذن حركة السير ريالزم هذه؟ وما غايتها؟

يصعب علينا أن نضع تعريفاً للسير ريالزم في كلمات قليلة. فإذا كان لابد من ذلك فعلينا أن نقول: إنها حركة اجتماعية فنية، سياسية، فلسفية، سيكولوجية. . . ولا بأس أن نضيف أيضاً أنها حركة دينية. فهي تستلهم شعر (ريمبو) و (بودلير) و (توتريامون) وتأخذ عنهم حب الخيال الثوري البعيد عن المنطق وأساليبهم الغريبة في الشعور والتعبير. وتستلهم فلسفة (هيجل) في إيمانها بالحرية؛ وتدين مع (كارل ماركس) بالتفسير المادي للتاريخ؛ وتأخذ عن (فرويد) نظرياته في العقل الباطن؛ ثم هي فوق ذلك تحاول أن تعتمد على هذه العناصر جميعاً في خلق ميثولوجيا جماعية جديدة تناظر الميثولوجيات التي خلقتها الديانات القديمة

ومهما قالوا عن كارل ماركس، ومهما قالوا عن فرويد فلا شك في أنهما الرجلان اللذان استطاعا أن يؤثرا في الفكر الأوربي الحديث أكبر التأثير. فإلى كارل ماركس يرجع الفضل في تفسير التاريخ على أساس من حروب الطبقات وفي التنبؤ بثورة العمال وبدكتاتورية العمال، ثم بالعصر المقبل (الموعود) الذي تزول منه الطبقات وتكتمل فيه المساواة الاقتصادية. وقد تأثر العمال بالمذهب الماركسي فنشطت حركاتهم ونمت أحزابهم

حتى أصبح الصراع بين الاشتراكية والرأسمالية أساس السياسة الأوربية في السنين الأخيرة؟ كما تأثر بهذا المذهب عدد كبير من رجال الفكر والأدب. . . وهانحن أولاء نرى أن أعلاماً مثل (برناردشو) و (ولز) و (أندريه جيد) و (مالرو) و (توماس مان) يدينون به وينافحون عنه

والسير رياليون كما قلنا يؤمنون بالمذهب الماركسي، ولكنهم يرون في نفس الوقت أن الدعوة إلى التحرير الاجتماعي يجب أن ترافقها دعوة إلى التحرير النفسي، فالنفس الإنسانية مكونة أيضاً من طبقات يتحكم بعضها في رقاب بعض. ولا سبيل إلى الوصول إلى التحرر النفسي ما لم تستطع أن نزيل الحدود التي تفصل بين العناصر

المتنازعة في باطن النفس
ولقد أقنعنا (فرويد) بأن الشخص (السليم) من الأمراض النفسية هو نموذج مثالي لا وجود له. وما الفارق بين (العاقل) و (المجنون) إلا اختلاف في الدرجة ولا في النوع. والسبب الأساسي لهذه الأمراض جميعاً هو أن للنفس الإنسانية رغبات، كثير منها لا يتحقق بالنسبة للعقبات التي تقابلها من الوسط الخارجي، والطفل الصغير لا يدرك هذه العقبات ولذا كان خياله لا يعرف الحدود، فهو إذ يرغب في سيارة فخمة، أو في حصان مطهم، أو في قصر باذخ، لا يشعر بأن هناك عائقاً من العوائق يمكن أن يحول دون ما يبتغيه، ولكن رويداً رويداً يتعلم الطفل خلال ممارسته للحياة بأن رغباته جميعها لا يمكن تحقيقها، فيضطر إلى كبح هذه الرغبات ويتعود التسليم بالأمر الواقع. وكلما كبر في السن نمت فيه هذه العادة - عادة التسليم بالأمر الواقع. على أن الصراع بين الرغبات وبين الواقع يستمر طوال الحياة، فحتى الكهل وهو على أبواب القبر لا يستغني عن الأحلام.
وعادة التسليم بالأمر الواقع بين الناس هي الأساس الذي ترتكن إليه دعوات المحافظين، وهي العقبة الكأداء التي تقف في سبيل كل تجديد وإصلاح. ولما كان السير رياليون يؤمنون بضرورة تغيير النظام الاجتماعي الحاضر فإنهم يثيرون حرباً شعواء على هذه العادة
والأساليب التي يتبعونها في ذلك متعددة: منها ما سيمونه (تغريب) الأشياء أي نقلها من وسطها المألوف إلى وسط غريب عنها (المثل الكلاسيكي لذلك كلمة لوتريامون ': فمن المألوف أن نرى الأسرة في غرف النوم فإذا هي تفاجئنا في رسم سير ريالي ' على شاطئ البحر، وقد تعودنا أن نرى السحاب في السماء فإذا هو يباغتنا داخل الجدران. . . وهكذا نشاهد في الرسوم السير ريالية شجرة تنبثق منها ذراعان، وسمكة مضطجعة بجانب فتاة عارية، وعيناً تطل من وسط ثدي، وأجزاء من جسم الإنسان طائرة في الهواء، وهيكلاً عظيماً يرقص لأن سمكة بجانبه تغرد. . .
ولليسر رياليين أسلوب آخر في مقاومة عادة التسليم بالأمر الواقع هو اللجوء إلى إثارة الرغبات المكبوتة وتنشيطها وحفزها على التمرد. ومن هنا كلمة (سلفادور دالي) المشهورة: (يجب أن يكون الفن مغرياً بالأكل ' أي مغرياً بتحقيق الرغبة واجتلاب اللذة. وكلمة (نيكولا كالاس): (الفن معمل بارود ' أي وسيلة لهدم عاداتنا في التفكير والسلوك.
وهناك أسلوب ثالث هام من أساليب السير رياليين هو ما يسمونه الأسلوب (الأتوماتيكي) في الكتابة والرسم. وهنا يحاول الشاعر أو الرسام منهم أن يتجرد من رقابة عقله الواعي تاركاً لخياله العنان، حتى يصل إلى حالة تقرب من الغيبوبة، ثم يسجل كل ما يهب ويدب في نفسه من الخواطر أو يتراءى له من الأشكال
وقد استعار السير رياليون هذا الأسلوب الأخير عن فرويد. ففرويد يجلس مريضه على مقعد وثير مريح، ويوحي إليه بأن يرخي عضلاته ويرسل نفسه على سجيتها، ثم يبوح دون تحوط أو تحفظ بكل ما يخطر بذهنه من أفكار، وبكل ما يختلج في قلبه من عواطف. وبهذا يكتشف فرويد (العقد) التي تكونت من الرغبات المكبوتة في نفس المريض، فيصارحه بهذه الرغبات، ويحاول أن يقنعه بالتفكير فيها بعقله المنطقي الواعي وبالتنازل عنها إذا تعارضت مع حقائق الوسط الخارجي: يعني التسليم بالأمر الواقع. وهنا نقطة الاختلاف الجوهري بين فرويد وبين السير رياليين: فهؤلاء لا يريدون بحال من الأحوال سيطرة العقل الواعي على العقل الباطن، بل هم يريدون مواجهة العقل الواعي بالعقل الباطن، والمنطق بالخيال، والواقع بالحلم، والحقيقة بالخرافة، والحكمة بالجنون. . . محاولين أن يؤلفوا من هذه العناصر جميعاً أداة جديدة للتفكير والمعرفة والنظر إلى الأشياء
لهذا يتهم السير رياليون فرويد بأنه (قد اشترى جرأته في البحث العلمي على حساب التحفظ والتسليم بالأمر الواقع في الناحية الاجتماعية).
ثم إن السير رياليين لرغبتهم في نشر مذهبهم حتى يصبح (فلسفة عامة) بين الناس يصرحون بأن النبوغ الفني والكفايات الأدبية لا تهمهم. فجميعنا نشترك في الصراع النفسي بين الأحلام وبين الواقع؛ وعلى ذلك فكل منا يستطيع أن يأخذ بنصيب من مجهوداتهم، إذ الغاية المرجوة عندهم هي إشاعة (جو سير ريالي) في الحياة

والخلاصة أن السير ريالزم وإن كانت تعتمد كثيراً على المذهب الماركسي وعلى أبحاث فرويد، إلا أنها مع ذلك حركة مميزة مستقلة. وقد أشرنا إلى خلاف جوهري بين السير رياليين وبين فرويد، كما أشرنا إلى اختلافهم مع الاشتراكيين الذين يعتقدون - ونحن على رأيهم في مرحلة انتقال سريع - بضرورة توجيه المجهودات الأدبية والفنية جميعاً في سبيل الدعاية السياسية المباشرة.

رمسيس يونان

رسالة العلم

ألغاز الكون وأسراره وتطور مخ الإنسان

للأستاذ نصيف المنقبادي

شرفني عالمنا المصري المحقق الدكتور محمد محمود غالي بالرد على ما قام في ذهني من الحيرة بين ما يقرره العلم من أن الكون سائر لا محالة نحو السكون التام أو (الموت الحراري) بسبب تحول الطاقة كلها في العالم بأسره من صورها العليا كالكهرباء والطاقة الميكانيكية الخ، إلى صورتها السفلى وهي الحرارة المنخفضة الدرجة فلا تستطيع أن تتحول من جديد إلى صور أخرى منها، وبين ما يدل عليه العقل من استبعاد بل استحالة أن يكون للكون نهاية، لأنه لو كان هذا سيحدث لكان قد حدث من قديم الزمان. ومن البديهي أن ما لا بداية له لا يمكن أن تكون له نهاية

وإني اشكر للدكتور الفاضل النصائح الثمينة التي أسداها إلي من وجوب عدم الجزم بشيء خارج ما يثبته العلم التجريبي. وقد دل حضرته بهذا على أنه عالم بطبيعته يتحلى بالروح العلمية الحق. وأقول هذا على رغم تواضعه الذي جعله يرى عدم استحقاقه بعد لهذا الوصف. وهذه فضيلة أخرى للدكتور تدل على أنه على جانب كبير من أخلاق العلماء الحقيقيين وسعة عقولهم. وإني أقول جازماً ومؤكداً - برغم نصيحة الدكتور لي - بأنه سيكون مفخرة مصر في البيئات العلمية العالمية في القريب العاجل والذي فهمته من مجموع رد الدكتور أن الموضوع الذي أثرته لغز من ألغاز الكون وسر من أسراره لا يستطيع العلم أن يحله الآن

وهذا قول حق وهو ما أعتقده من جهتي. أما العامل الغريب عن العلم الذي افترضه الدكتور افتراضاً ورمز إليه بلاعب العصا فإنه خارج عن نطاق البحث العلمي؛ وإني لا أرى له أي أثر في الطبيعة، ولا أجد في الكون ما يؤيده أو يدل على شيء منه ولو عن بعد. وهذه نواميس الطبيعة العمياء تسير على الدوام في طريقها لا تحيد عنه قيد شعرة، بدليل أن الإنسان يقيسها بالأرقام ويعرف نتائجها مقدماً قبل أن تقع، إذا عرفت أسبابها ومقدماتها، ويدخلها في معادلاته وحساباته. فيحسب مثلاً مقدماً تواريخ كسوف الشمس وخسوف القمر والسيارات الأخرى وغيرها، بالثانية وكسور الثانية في كل نقطة من بقاع

الأرض. أو ليست أساس جميع العلوم - العلوم الحقيقية اليقينية - القاعدة المنطقية البديهية القائلة بأن نفس الأسباب تنتج حتماً نفس النتائج: , , وبالجملة فإن أحوال الظواهر الطبيعية لا تدل على تدخل عوامل أخرى في سيرها، وإلا لظهر تغير من وقت إلى آخر في نظام النواميس التي يديرها، فتسير الأرض اليوم مثلاً بسرعة كذا في اتجاه معين، وتسير غداً بسرعة أخرى في اتجاه آخر، ويتصرف الراديوم تارة على وجه معين طبقاً لنواميس محدودة، وطوراً نراه يتبع طريقاً آخر ويجري على قواعد أخرى

وأظن أن الدكتور يذكر أكثر مني ما حدث لأحد العلماء الرياضيين الفلكيين - ولعله اسحق نيوتن - من أنه افترض نفس العامل الذي نحن بصدده لتصحيح ظاهرة فلكية تحدث في فترات بعيدة، تخالف ما تدل عليه الحسابات وتعجز عن تفسيرها النواميس المعروفة في ذلك الحين أو التي اكتشفها هو. ولم تلبث الأبحاث والاكتشافات التي جاءت بعد ذلك أن نفت ذلك الفرض وفسرت تلك الظاهرة التفسير العلمي الصحيح.

فهذه سابقة لمحاولة فاشلة من هذا القبيل يجب أن تجعلنا على حذر من تعليل الظواهر الطبيعية بمثل ذلك العامل. وإن العلم حافل بمثل هذه السابقة، بل إن تاريخ العلم إنما هو تاريخ انتصاراته على تلك النزعة القديمة

وبالجملة فإن العلم يجب أن يكون محصوراً في تفسير ظواهر الطبيعة بالنواميس الطبيعية التي تقع تحت المشاهدة والاختبار، والتي يمكن قياسها أو قياس بعض نواحيها.

أما لماذا تجري النواميس الطبيعية هكذا، ولماذا هي تدير ظواهر الطبيعة على هذا النحو، وما الغرض من ذلك كله، فهذا لغز آخر من ألغاز الكون؛ بل إنه اللغز الأول وهو ما سماه هربرت سبنسر ' أي ما لا يمكن معرفته. ويتصل بهذا الموضوع ويتفرع منه المسألة التي نحن بصددها الخاصة بنهاية الكون طبقاً لآراء بولتزمان وقواعد علوم الميكانيكا والطبيعة أو علم الطاقة الجديد العام الشامل ' الذي يتوقع العلماء أن يندمج فيه عاجلاً أو آجلاً جميع العلوم الأخرى الطبيعية والبيولوجية

لي رأي خاص في هذا الموضوع عنَّ لي أثناء دراستي للعلوم البيولوجية، وهو أن عجزنا الحالي عن إدراك أمثال هذه (الألغاز) التي تشمل أيضاً الأمور الأخرى المستعصية الآن على العلم مثل الوراثة وأسبابها وكيفية حدوثها في الحيوانات والنباتات، ومثل الشعور في الأحياء وفي الحيوانات على الأخص (بما فيها الإنسان) وكيف أن مواد كيميائية، أي جمادات محضة، مشتقة من الأرض والهواء بفعل العوامل الطبيعية، وعلى الأخص طاقة الشمس تشعر بوجودها وتحس بما يحدث لها - أقول إن عجزنا الحالي عن إدراك حقيقة هذه الأمور التي نسميها ألغازاً وأسراراً لا يدل على أنه من المحال معرفتها، وإنما يرجع ذلك إلى نقص في تكوين مخنا وعدم نموه بعد إلى الدرجة التي تجعله يستوعبها ويلم بخفاياها ويفسرها التفسير العلمي الصحيح

لا يخفى أن الحيوانات العليا الممتازة بشيء من الذكاء مثل الكلاب والفيلة والقرود الشبيهة بالإنسان المسماة (الشامبانزيه، والغوريلا، والأرونجوتانج، والجيبون) تعجز عن إدراك معظم الأمور التي نعرفها نحن ونعدها من البديهيات. هي ألغاز وأسرار بالنسبة لها، ولو كان في وسعها أن تتكلم أو تكتب لوصفتها بأنها الأمور المجهولة التي لا يمكن معرفتها ' على حد تعبير هربرت سبنسر

ولا شك في أن هذا كان حالنا فيما مضى من الزمن قبل أن يتم تطورنا الإنساني بفعل العوامل الطبيعية. فلما تم هذا النمو ونما على الأخص مخنا بسبب الظرف الطبيعي الذي طرأ علينا في ذلك الماضي البعيد وهو اضطرارنا إلى الوقوف على الدوام على قدمينا الخلفيتين لتسلق الأشجار لنقتات ثمارها بسبب ما حدث في ذلك العهد من نقص الغذاء على الأرض من جهة، ونمو الحيوانات المفترسة من جهة أخرى. واستعمال أيدينا في القبض على فروع الأشجار وقطف ثمارها، ثم في تناول الأشياء والأجسام المادية الأخرى وفحصها والتأمل فيها، وذلك مدة مئات الألوف من السنين - أقول إنه حين تم هذا النمو في مخنا أدركنا شيئاً فشيئاً كثيراً من الأمور التي ظلت غامضة على أجدادنا، وأخذت معلوماتنا تتسع بالتدريج إلى أن قام العلم وازدهى وساد العالم في عصرنا الحالي

وبطبيعة الحال لا يمكن القول بأن التطور الإنساني قد تم ووقف عند هذا الحد وهو لم يمض عليه اكثر من ثلاثمائة ألف سنة (متوسط تقدير العلماء) منذ أن تميز عن النوع الذي تفرع منه. ومعلوم أن حياة الأنواع الحيوانية والنباتية تعد بملايين السنين والمرجح أن يستمر التطور في المستقبل، غير أنه لا يمكننا أن نعرف من الآن الاتجاه الذي سيسلكه لأن هذا متوقف على العوامل الطبيعية والاجتماعية المختلفة التي تطرأ وتستجد من وقت إلى آخر لأسباب محلية لا يمكن التنبؤ بها، ومن باب أولى لا يمكن حصرها مقدماً وتحليلها ومعرفة نتائجها

ولكن الظواهر كلها تدل على أن المخ سيواصل نموه على ممر الزمن في نفس الاتجاه الذي بدأ فيه بدليل اضطراد رقي الأمم المتحضرة عقلياً وتفوقها على الأمم المتوحشة تفوقاً تدريجياً مستمراً

فإذا استمر التطور في هذا الاتجاه فإن الفكر الإنساني يصل حينئذ إلى درجة من القوة تجعله يحل بسهولة المسائل المعلقة في العلم وفي الفلسفة ويسمونها الآن ألغازاً أو أسراراً ويكشف عن أسبابها ونواميسها الطبيعية، ويتحول الإنسان إذ ذاك إلى نوع جديد من الـ الذي يتكلم عنه نيتشه

وعلى الجملة فنحن الآن فيما يتعلق بتلك المسائل الغامضة المستعصية على عقولنا على ما كان عليه أجدادنا البعيدون بالنسبة للأمور التي لا تدركها عقولهم البسيطة ونعدها نحن من البديهيات نظراً إلى النمو الكبير الذي طرأ على مخنا أثناء تطورنا

وهناك بعض شواهد تؤيد هذا الرأي. فكلنا سمع بذلك الشخص المدهش الذي يقوم بأعمال كالمعجزات في الحساب دون أن يستعين بأية ورقة لأنه أمي لا يعرف القراءة ولا الكتابة. وقد اختبرته أنا وعدد من المعارف فكنا نكلفه بعمليات طويلة عويصة بأن نطلب منه مثلاً أن يجمع خمسة أو ستة أو عشرة أعداد كبيرة مكون كل منها من أرقام عديدة، أو أن يضرب عددين ضخمين الواحد منهما في الآخر، أو أن يقسم أحدهما على الثاني، أو أن يستخرج الجذر المربع أو المكعب لعدد من سبعة أو ثمانية أرقام الخ، وكنا بطبيعة الحال نحتاط بإجراء هذه العمليات على الورق مقدماً قبل أن نضعها له لتطابق إجاباته على نتائجها. وليتصور القارئ ما كنا نعانيه من التعب وبذل الوقت الطويل في ذلك. وكم كانت دهشتنا عظيمة كل مرة حين كان يفوه بالرد فإذا به مطابق تمام المطابقة لما وصلنا إليه بعد تسويد الأوراق الكثيرة. وإذا وقع خلاف فكان يتضح لنا من مراجعة حساباتنا أنه لم يخطئ هو في شيء بل إن الخطأ جاء منا

ويمتاز هذا الشخص بذاكرة للأرقام مدهشة خارقة للعادة، فإننا كنا نتلو عليه من أوراقنا الأعداد الضخمة الكثيرة المكون كل منها من ثمانية أو عشرة أرقام طالبين منه جمعها أو

ضربها أو قسمتها فكان يعيد علينا سردها دون أن يخطئ في رقم واحد منها. وأغرب من هذا مقدرته الغريبة على أن يجري معنوياً في الحال العمليات الحسابية الكبيرة المعقدة التي تطلب منه دون أن يستعين بالكتابة وهو يجهلها كما تقدم لنا القول. فلا شك في أن جزءاً من مخ هذا الشخص نما نمواً استثنائياً أكثر من المعتاد جعله يذكر الأعداد الضخمة التي تتلى عليه ويحسبها بتلك السهولة المدهشة، الأمر الذي يعجز عنه باقي الناس. وقد شاهد كاتب هذه السطور شخصاً آخر من هذا القبيل من سنين في باريس بولوني الجنسية

ومثل أولئك الحسابين الشواذ الأشخاص الذي نبغوا في الموسيقى من حداثة سنهم نبوغاً فوق الطبيعي، فترى الواحد منهم وهو في سن الطفولة يلتقط أية نغمة يسمعها لأول مرة ويعزفها على الآلات الموسيقية التي يجيدها لدرجة الإعجاب الكبير ويؤلف الأدوار التي يعجز عنها كبار رجال الموسيقى العاديين، ويقود الجوقات الموسيقية وقد لا يزيد عمره على العاشرة أو الثانية عشرة. والأمثلة عديدة من هذا القبيل وهي معروفة للجميع. فلا شك في أن مخ هؤلاء النوابغ الخارقين للعادة نما في ناحية منه نمواً أكثر من الحالة الطبيعية جعلهم يمتازون بتلك المقدرة التي يعجز عنها باقي الناس

وكذلك الحال بالنسبة لعظماء الرجال الذين نبغوا في العلم أو الأدب أو الفنون الجميلة أو الفنون العسكرية. فهذا بسكال العالم الرياضي الكبير استنبط من تلقاء نفسه وهو في سن الثانية عشرة النظريات الهندسية القديمة الأساسية قبل أن يدرسها. وهذا نيوتن مكتشف ناموس الجاذبية. وهذا جوت أو جيته العبقري الألماني الكبير مؤلف رواية فوست الخالدة فإنه لم ينبغ فقط في الشعر والأدب بل وأيضاً في العلوم البيولوجية وله اكتشافات جليلة في علوم الحيوان والنبات وتكوين الجنين تؤيد ناموس التطور والتسلسل الذي قال به وبحث فيه قبل داروين بخمسين سنة، لمناسبة ظهور نظرية لامرك سنة 1809. وهذا نابليون عبر بجيشه جبال الألب وفتح إيطاليا وهو لا يتجاوز الثانية والعشرين؛ ثم غزا مصر، ثم انتصر على أكبر قواد أوربا ودخل جميع عواصمها ظافراً وهو في مقتبل سن الشباب. وهذا فكتور هيجو العظيم. وهذا أينشتين، وغيرهم. ولا شك في أن مخ هؤلاء العظماء نما نمواً فوق المستوى الطبيعي لباقي البشر. والنمو المقصود هنا ليس في حجم المخ ولكن في تكوين خلاياه وصفاتها الطبيعية والكيميائية وتشعب فروعها واتصالها (أي اتصال الخلايا)

بعضها ببعض بواسطة هذه الفروع الخ. وبالجملة فإن النبوغ والعبقرية وقوة التفكير ترجع إلى نمو المخ

فلا يبعد أن يصل مخ الإنسان أثناء تطوره في المستقبل البعيد إلى درجة من النمو تجعله يحل بسهولة المسائل المستعصية عليه الآن ويردها إلى أسبابها الطبيعية فلا تعد ألغازاً وأسراراً

كما أنه يجوز مع شديد الأسف أن يتجه تطورنا اتجاهاً آخر بفعل عوامل جديدة وظروف تطرأ علينا نجهلها الآن فنتحول تحولاً يختلف كل الاختلاف عما نتوقعه فنصبح نوعاً

مغايراً للنوع الإنساني الحالي ولنوع الـ الذي نصبو إليه بل قد نتحول إلى أنواع مختلفة قد يرتقي بعضها إلى تلك المرتبة العليا ويتأخر بعضها بالمعنى الذي نفهمه من الارتقاء والانحطاط، ذاك لأن الطبيعة لا تعرف هذه الفوارق التي لا توجد إلا في تفكيرنا ومن الخطأ تسمية ناموس التطور بناموس أو مذهب (النشوء والارتقاء) على الطريقة القديمة

نصيف المنقبادي المحامي
دبلوم في الفسيولوجيا العليا الحيوانية والنباتية من كلية العلوم
بجامعة باريس (السوربون)

لحظات الإلهام في تاريخ العلوم

تأليف مريون فلورنس لانسنغ

مقدمة

العلم هو الذي وصل بالعالم إلى ما هو عليه اليوم، فهو الذي ابتكر كل أداة في الحياة العصرية؛ ولكن العلم الذي نركن إليه في كل وسائل راحتنا ومتعنا ليس بالقوة الجامدة النائية التي تعمل عملها بيننا وهي عن نفوسنا بمعزل. إنما العلم معرفة إنسانية أفادها في بطئ، واحتمل في سبيلها الآلام رجال مثلنا وقد استخدموها لصالح النوع الإنساني

وهذا الكتاب يقدمنا إلى زعماء النهضات العلمية الذين خلفوا الدنيا الحاضرة. وفي الأقاصيص التي تضمنها هذا الكتاب نراهم في أسمى اللحظات التي أدوا فيها مهماتهم، وقد تضمنت كل العصور لحظات هي التي نسج منها التاريخ. وإنه ليبدو لنا أحد هذه المخترعات كأنه بداية لعهد جديد في حياة الإنسان مع أنه كان في العصر الذي وجد فيه يكاد لا يكون موضعاً للملاحظة إلا من القليلين البعيدي النظر الذين أنجزوه ومن أمثلة الكشوف التي غيرت اتجاه العالم اختراع آلة الطباعة والآلات المتحركة بذاتها وآلات التخاطب على مسافات متباعدة سواء منها السلكي واللاسلكي. ووراء كل كشف من هذه الكشوف رجل أو طائفة من الرجال ميزتهم الجرأة أو المخاطرة والمهارة وحب الإفادة. وفي الصفحات التالية سير رجال ألفنا سماع أسماء بعضهم؛ والبعض لما نألفه، ولكننا مدينون لهم جميعاً بدين ضخم. وسنرى سيرهم في لحظات انتصارهم المثيرة. نحن جميعاً نعبأ بأنفسنا وبعالمنا. وكل مجموعة من السير تتعقب آثار الفكر الإنساني في أحد اتجاهاته فإنما يراد بها إشباع حياتنا العصرية بمجهود ذلك الفكر، وفي كل تريب موفق لكل مجموعة من هذه السير ما يمكننا من الإفادة منها. فاستكشاف النار مثلاً يبدو لنا أقل استغراقاً في الغابر عندما نتبين أننا لا نزال نعيش في عصر النار وإن كان بيننا من يتنبأ بأن أبناءنا وأحفادنا سيعيشون في (عصر الكهرباء) الذي بزغ فجره الآن

لقد اخترع أهل العصور الأولى العجلة، واخترع الرجل العصري الآلة التي تدير عجلات العالم، واستكشف كيف يستعمل الوقود وقوة الماء والكهرباء في تسيير هذه الآلة لقد كان الرجل يريد دائماً أن يطير ولكن الآلة التي يديرها النفط هي التي جعلت هذه الرغبة في حيز الإمكان

ولقد كان الزمان والمكان مشكلتين أمام أهل العصور الأولى، فكان الإنسان مضطراً إلى لزوم دنيا مزدحمة ضيقة هي دنيا وجوده الحاضر، فتمكن من السيطرة على اعتبار المكان بواسطة الكتابة والطباعة والتصوير الشمسي والآلة الناطقة، وتمكن من السيطرة على اعتبار الزمان بواسطة الساعة والمنظار المقرب وآلة البرقية والمسرة واللاسلكية والآلة البخارية والسيارة، وتمكن بواسطة الطيارة من انتصارات جديدة على اعتباري الزمان والمكان

يجد الصغار من البنين والبنات أنفسهم في هذه الدنيا العجيبة ويتوقون إلى استئناف النصر فيها ويطيبهم منها كل ما كان في الإمكان، فمما يساعدهم على تفهم الدنيا أن يعرفوا كيف شيد بناء المدنية الحديثة

وإن دراسة زعماء النهضات وتقدير ما نحن مدينون به لهؤلاء الزعماء بمثابة تقديم الشكر على الصنوف التي نتناولها من صنع أيديهم

وفي تلك الدراسة وفي ذلك التقدير ما يجعل الشبان أكثر زهواً بتراثهم الإنساني عندما يتبينون أن معارك العالم قد خاضها في كل العصور رجال ونساء مثلنا

وعندما يسطع على لوحة إدراكهم وميض اللحظات العظيمة في حياة العلم سيرون لمحات لا من الماضي والحاضر فحسب، بل من اللحظات العظمى في حياة الإنسان، لحظات الإلهام التي استمتع بها المخترعون والمستكشفون فكانت إيذاناً من الله بظهور هذه الاختراعات وتلك الاستكشافات

عصر النار

صنع النار. الصخر المذاب. الحديد

النار أنفس ما كان في حيازة الإنسان فتخيل كيف تكون الدنيا إذا انطفأ كل ما فيها من النيران، ولم يبق فيها من يستطيع إيقادها!

إن منازلنا تصبح باردة لا تطاق فيها الحياة، ويصبح طعامنا غير قابل للنضج، وتقف قطاراتنا وبواخرنا، وتمتنع عن العمل مصانعنا، ولا يمكن صنع الكثير مما نأكله أو نشربه أو نلبسه أو نتولى إدارته بأيدينا

إننا نعيش في عصر جدير بأن يسمى حقاً (عصر النار).

ولقد بدأ عصر النار منذ آلاف كثيرة ة من السنين. وليس على وجه الأرض قبيلة ليس لديها أسطورة عن نشوء النار للمرة الأولى وصيرورتها في حوزة الإنسان. ذلك بأنه ليس في وسع مخلوق غير الإنسان أن يصنع النار، وأن مقدرته على صنعها جعلته في مستوى أرفع كثيراً من مستوى الحيوان، وكل أسطورة من هذه الأساطير تنص على أن النار كانت عند الآلهة، ويختلف بعضها عن بعض في بيان الطريق الذي حصل به الإنسان على النار، فيروي اليونان أن بروميذيوس صعد إلى السماء وأوقد شعلته من عربة الشمس، وسرق النار فنزل بها إلى الأرض. وقد كان الآلهة لا يريدون أن يحصل الإنسان على النار، لأنهم يعلمون أنه بعد حصوله عليها سيصبح كأنه واحد منهم، فهو بواسطتها يستطيع تعرف أسرار الأرض والانتفاع بكنوزها، وكانوا لا يرون أن يحبوه هذه المعجزة

ولا يعرف أحد حق المعرفة كيف عرف الإنسان سر صنع النار. وربما كان السر رؤيته البرق يصيب الغابات الجافة فيحرقها. وربما كان فيمن رأوا ذلك المشهد رجل أجرأ ممن عداه فاحتفظ بجزء من النار السماوية عندما وجدها تحرق الغابة بتعهده إياها وبتغذيتها بالوقود. فإن كان أحد قد فعل ذلك فمما لا ريب فيه أن قبيلته تعده مخوفاً محترماً لأنه عرف أسرار الآلهة. وقد كان في كل قبيلة أناس من مهمتهم أن يتولوا حراسة النار، فكانوا يتناوبون حراستها أناء الليل وأطراف النهار ويغذونها ويتعهدونها كيلا تخمد فيخسر الناس هذه الهبة الغالية من هبات الآلهة ويموت الإنسان برداً.

والأرجح أن مئات من السنين منذ اليوم الذي عرف فيه الإنسان كيف يحتفظ بالنار قد مضت والإنسان منتفع بالنار دون أن يعرف كيف يحدثها. وكان كل ما في وسعه أن يبحث عنها حيث توقدها آلهة البرق أو إله الغابة، فيحمل منها قبساً إلى كهفه وينعم به.

ثم جاء يوم صنع فيه الإنسان النار لنفسه، إما بسنه قطعة الخشب محددة على لوحة صلبة من البلاط، وإما بدق حجرين من الصوان. وعلى أي الفرضين فإن اللحظة التي استطاع فيها الإنسان صنع النار كانت أعظم لحظة في حياة الإنسان في عهده الأول، فإن وجود هذه القوة في يده مكنه من المفتاح الذي يستطيع به استخراج ما في الأرض التي يسكنها من كنوز.

ولما كنا لا نعرف حقيقة الأسطورة التي تنبئ عن استكشاف الإنسان النار لأول مرة، لأن هذا الاستكشاف أسبق كثيراً من العهد التاريخي وعهد الأساطير فإننا سنروي القصة التي يعتقدها أهل جزائر بولونيزيا عن رجل مخاطر جريء تمكن من معرفة أسرار العصي النارية وكيفية استعمالها في مأوى إله النار.

(يتبع)

ع. ا

من هنا ومن هناك

إلى أي طريق يتجه الشباب الألماني؟

(عن مجلة (باريد))

هل يستطيع هتلر أن يعتمد كل الاعتماد على الملايين التي حشدها لأجل الحرب؟ هذا سؤال جدير بالعناية والتفكير. ولقد كتبت مسز نورا والن المؤلفة المشهورة مقالاً في (الأفننج بوست) عن روح الشباب الألماني يلقي ضوءاً جديداً على هذا الموضوع.

يقول كثير من الألمان: (إننا لم نكسب الشباب). وتقول مسز والن: إنني لم أصدق هذا القول حتى شاهدت بنفسي كثيراً من الحوادث التي تؤيده.

إن الحالة في ألمانيا كما تبدو للعيان تدل على الانسجام والتوافق بين حزب النازي وبين الشباب في ألمانيا. فهم ينتظمون في الصفوف، وينشدون الأناشيد، ويهتفون ملء حناجرهم، ويرفعون أيديهم اليمنى للتحية، ويرتدون الملابس الحربية التي يؤمرون بارتدائها، وتبدو عليهم مظاهر الطاعة في كل شيء.

إلا أن كثيراً من هذه المظاهر تخفي وراءها المقت والاحتقار. وقد سمعت بعض الآباء يقول: (من يدري ماذا يفكر أبناؤنا؟ إن قليلاً منهم الذين يستطيعون أن يصرحوا لأمهاتهم أو آبائهم بذات نفوسهم إنهم على ما يظهر يضمرون لنا الكراهية والاحتقار، وإننا لم نكن كذلك في شبابنا)

ولقد سمعت بعض أساتذة المدارس يصف الجيل الحاضر في حذر واحترس فيقول: (إن الشباب الذي يعيش في ألمانيا اليوم جيل عجيب؛ فهم في ظاهرهم خاضعون للنظام والقوانين، وفي باطنهم على خلاف ذلك. فكل ما يمنعون منه لا يلبث أن يصير موضع بحثهم ومثار شهوتهم؛ فهم يبحثون عن الكتب المحرمة، ويسعون وراء الحصول عليها بهمة لا تعرف الملل. وكم تكون دهشة المعلم حين تنكشف له الحقيقة، ويجد تلاميذ فصله ملمين بهذه الكتب أكثر من إلمامهم بدروسهم المدرسية. إن لنا تراثاً عظيماً وذخيرة كبيرة من الآراء والأفكار الألمانية التي تناقض نظرية النازي. وعلى الرغم من الضغط الشديد الذي يلاقيه أطفالنا فإنهم لا يشبون على جهل بهذا التراث. فحرق بعض الكتب لم يكن ليخلي المكتبات منها. ففي ألمانيا عدد لا يحصى من الكتب الممنوعة التي يستطيع الشباب أن يحصلوا عليها. إن الفكر الألماني وإن كان بطيئاً، إلا أنه ليس بليداً على الإطلاق. فهو سريع الانفعال، ومن السهل استثارته، ولكنه يكتشف المزاعم الخاطئة كيفما كانت).

وتقول مسز والن في مقالها هذا إنها سمعت بعض أعضاء النازي يقولون: (من يدري ماذا يكون إذا قامت الحرب؟ لقد جندنا جيشاً جراراً من أبناء ألمانيا، ولكننا لا ندري إلى أي ناحية سيتجه ذلك الجيش)

لقد زعزع حزب النازي الثقة التي وضعها فيه أبناء ألمانيا، فقد كانت مزاعمه الأولى التي اجتذب بها قلوب الشباب، مبنية على أساس من المثل الأعلى، فزعموا أنهم يعملون على ترقية الجنس وليست لهم رغبة في غزو بلاد أخرى أو إزعاج أهلها بأي حال. ولكنهم نقضوا العهد فساقوا الجيش لاحتلال بلاد غير بلادهم. وهذا أمر لا يرتاح إليه الشباب، فقليل بين الشباب الألماني الذين يميلون إلى روح الاستعمار البغيض

مذهب التعقيم

(عن (داي بروك) الألمانية)

كثير من المذاهب والأنظمة التي ظهرت في ألمانيا هذه الأيام وضعت للأجيال القادمة. وقد كان قانون التعقيم الذي يرمي إلى منع النسل العاجز أو المصاب بالأمراض المتوارثة، عن الظهور على مسرح الحياة، من القوانين التي قابلها العالم بالاهتمام، وعالجها بكثير من النقد والتمحيص

وقد أعلن الكثير من العلماء والمفكرين من مختلف الأمم، أن هذا المذهب سيكون له شأن كبير في تحويل وجهة التاريخ الإنساني، وعده آخرون رجعة إلى الهمجية والوثنية الأولى.

ولم يكن هذا القانون وليد الفكر الألماني وحده، فقد نبتت بذوره في الولايات المتحدة، وكثير من الأقاليم السويسرية، والولايات الاسكندنافية، وما زال الصوت يرتفع في كثير من الممالك ومنها بريطانيا العظمى، بتنفيذ مثل هذا القانون.

أما الأسباب التي أدت إلى ظهور هذا القانون فهي بسيطة يدركها الطفل الصغير، ولكن السبب الجوهري هو التكاليف الباهظة التي تتحملها الحكومة من جراء هذا النسل

فالطفل الصحيح الذي يتعلم في المدارس يكلف ألمانيا 75 ماركاً في السنة، بينما يكلفها

الطفل المصاب بنقص في قواه المدركة أضعاف هذا المبلغ. وتبلغ المصاريف التي تنفقها الحكومة من أجل الشخص المعتوه من 6 إلى 8 ماركات في اليوم. أما الأشخاص المصابون بالميول الإجرامية الذي يحتاجون إلى حراسة خاصة ورعاية صحيحة لتقويمهم، فيتكلف كل شخص منهم 20 ماركاً في اليوم

وقد ثبت أن العامل الألماني لا يكتسب في الغالب ما يعادل ما تنفقه الحكومة على الضعفاء والمعتوهين وأصحاب الآفات والمجرمين. فهل تسمح ألمانيا التي تكافح جهدها للاحتفاظ بكيانها بأن يستمر هذا التيار الجارف من النسل العاجز بغير انقطاع، فتضع على كاهل العمال عبئاً لا قبل لهم باحتماله، أو تخطو خطواتها المباركة لقطع هذا النسل. . .

وقد شمل قانون التعقيم الصم والبكم والعمي الذي خلقوا بهذه الآفات وإن كان الكثيرون منهم لا يكونون عالة على الحكومة بعد تعليمهم، فهناك سبب آخر ساعد على تنفيذ هذا القانون عليهم قد يكون أكثر أهمية من أي سبب آخر. ذلك أن عدد ذوي العاهات قد يتجاوز عدد الأصحاء إذا ترك على ما هو عليه

وقد اصبح الرجال ذوو المكانة والعقول الراجحة في ألمانيا يكتفون من النسل بطفل أو طفلين، وأصبحت العائلات الصحيحة تتجنب كثرة الأطفال، هذا فضلاً عن الوقت الذي يصرفه أبناء الطبقات الممتازة في التعليم والتخصص في الدراسات العالية مما لا يمكنهم من الزواج قبل سن الثلاثين. بينما يتزوج ذوو العقول الضعيفة في سن تتراوح بين الثامنة عشرة والخامسة والعشرين

وعلى هذا القياس لا يمضي مائة عام حتى تكون نسبة النسل الضعيف قد تجاوزت نسبة النسل الصحيح عشرات المرات

وقد أخذت الحكومة الألمانية تراقب هذه الأحوال بيقظة ودقة وتبذل غاية جهدها لإخراج جيل قوي صحيح

البريد الأدبي

بحر العرب لا بحر الروم

كثير من الكتاب يسمون البحر الأبيض المتوسط (بحر الروم) حين يحلو لهم أن يذكروا التسمية القديمة لذلك المحيط

وأنا أقترح أن نسميه (بحر العرب)

وهذا الاقتراح له أساس من التاريخ. فقد كان من أسلافنا من يسميه (البحر الشامي) وذلك اسمه في أكثر كتابات ابن فضل الله العمري صاحب (مسالك الأبصار)

والواقع أن الشوام هم أقدم من انتفع بذلك البحر: بحر العرب، وهم أقدم من عرف أنه موطن استغلال، حتى جاز القول بأن الفينيقيين القدماء هم الذين أسسوا مدينة مرسيليا منذ نحو خمسة وعشرين قرناً. ومرسيليا هي عروس الشاطئ الفرنسي من بحر العرب، ولا يفوقها في الحسن غير الإسكندرية وهي عروس الشاطئ المصري من بحر العرب، وربما كانت الإسكندرية أجمل مدن الشواطئ على الإطلاق، ولذلك تفصيل سنطالع به القراء بعد حين

فما رأي الأستاذ إسعاف النشاشيبي في هذا الاقتراح؟

أنا أظن أن عنده شواهد كثيرة تؤيد القول بأن البحر الأبيض المتوسط هو بحر العرب لا بحر الروم، وانتظر أن يتسع وقته لتعريف القراء بما كان يملك العرب من السيطرة على هذا البحر أيام ازدهار الحضارة العربية

وصدق بدوي الجبل حين قال:

أيها البحر أنت مهما افترقنا ... ملك آبائنا وملك الجدود

زكي مبارك

الجبر والاختيار

جاء في المقال الأول للأديب السيد محمد العزاوي المنشور في العدد 318 من الرسالة ما يأتي:

أما رجال الدين والكلاميون من المسلمين فقد خاضوا فيها (أي مسألة الجبر والاختيار)

وكان همهم الأول البرهنة على أن الإنسان إما خالق لأفعاله فهو مسئول عنها أمام الله في القيامة، ويحق عليه الجزاء ثواباً وعقاباً، أو أن الإنسان وأفعاله من خلق الله، فلا

يكون ثمة حساب أو عقاب. وهمهم الثاني هو البحث في معرفة الله لما يحدث: أهي (قبل الحدث أم بعده

ونحن نرجو من الأديب الفاضل أن يصحح هذا القول، فإن المسلمين، القائلين منهم بأن الإنسان خالق لأفعاله وغير القائلين، متفقون على أنه مسئول عنها أمام الله، وعلى أنه مجزي بها؛ فإن أهل السنة لا يقولون بأن الإنسان خالق لأفعاله، ولكنهم لم يجعلوا خلقه لأفعاله أساساً لاستحقاق الجزاء، ولا عدمه لعدمه. فقوله (أو أن الإنسان وأفعاله من خلق الله فلا يكون ثمة حساب أو عقاب) بعيد كل البعد عن الحق. وكذلك قوله (وهمهم الثاني هو البحث في معرفة الله لما يحدث: أهي قبل الحدث أم بعده) في غير محله أيضاً، فإن المسلمين لا يختلفون في أن الله تعالى عالم بكل ما يحدث قبل حدوثه، إلا أنهم قالوا: (إن علمه بالمتجددات على وجهين: علم غير مقيد بالزمان، وهو باق أزلاً وأبداً لا يتغير ولا يتبدل؛ وعلم مقيد بالزمان وهو علمه تعالى بالمتجدد أو المتغير، وهذا العلم متناه بالفعل بحسب المتجددات، وغير متناه بالقوة كالمتجددات الأبدية. والعلم لا يتغير بحسب الذات، ويتغير من حيث الإضافة، ولا فساد فيه، وإنما الفساد في تغير نفس العلم) نعم قالت فرقة من القدرية: (إن الله لم يقدر الأمور أزلاً، ولم يتقدم علمه بها وإنما يأتنفها علماً حال وقوعها) ولكن هذه الفرقة قد خرجت بهذا القول عن الإسلام (فقد كفرهم عليه الإمام مالك والإمام الشافعي، والإمام أحمد وغيرهم من الأئمة) على أن هذه الفرقة لو عدت من الإسلام لا يصح أن يجعل قولها - وهو من الضعف ما هو - مقابلاً لقول سائر المسلمين، أو على الأقل لا يصح الادعاء بأن هم رجال الدين والمتكلمين هو البحث في هذه المسألة على هذا النحو

وجاء في هذا المقال أن المعتزلة قالوا: (بأن الله لا صفات له غير ذاته، فشاركوا الجهمية في هذا الأصل)

وهذا الكلام يحتاج إلى تصحيح، أولاً من جهة عدم توضيح قول المعتزلة، فإن تركه بلا توضيح يوهم إنكارهم الصفات إنكاراً غير حميد كما يدل عليه اعتبارهم شركاء للجهمية فيه. وهم إنما يقولون: إن صفاته عين ذاته، أي أن ذاته تسمى باعتبار التعلق بالمعلومات عالماً، وبالمقدورات قادراً إلى غير ذلك، أي بمعنى أنه عالم بذاته لا بأمر زائد على ذاته (العقائد النسفية وحواشيها ص 106). وثانياً يحتاج الكلام إلى تصحيح من جهة ادعاء مشاركتهم للجهمية في هذا الأصل، أي أصل إنكار الصفات؛ فإن الجهمية وطوائف أخرى ملحدة يعطلون الأسماء والصفات تعطيلاً يستلزم نفي الذات (المقدسة)

(فلسطين)

داود حمدن

اللغة العربية والجامعة المصرية

في مقال الدكتور زكي مبارك المنشور في العدد 318، كلام طيب في مؤاخذة القائمين على التدريس بكليات الجامعة. إنهم زعموا أن بالعربية قصوراً عن حاجة العلم، كأنهم يريدون أن يجدوا للمخترعات الحديثة (دون تعب منهم ولا سعي) أسماء في معاجمنا القديمة، فإذا لم يجدوا وصموا خير اللغات بالعجز والقصور، وما العجز في الواقع إلا عجزنا، وما العيب إلا فينا وفي هممنا. والكنز لا تنتفع به حتى ننبش فوقه بالمعاول

ونحن (في الشام) ما ينقضي عجبنا من قيام كليات في الجامعة المصرية على عقوق العربية إلى اليوم، بينما أثبتت الجامعة السورية منذ عشرين عاماً (في عمل صامت) صلاح العربية لتكون لغة علم. قام أساتذتها (وهم خريجو أرقى معاهد الغرب) يدرسون العلوم بالعربية ولاقوا في هذا السبيل عناء جاهداً. ولا ريب أن الأمر شاق لا يحمله إلا بطل يبذل له ما يبذل المجاهد الشجاع في الميدان

وخير برهان على اتساع لغتنا هذه المؤلفات العلمية الجامعية الضخام التي ألفها لسد حاجة الجامعة الدكاترة الأساتذة: الخياط. سبح. الشطي. الخاني. خاطر. . . وغيرهم؛ بل إن بعضهم طبع معجماً خاصاً بالمصطلحات التي وضعها لفنه، وما أظن أن ذوي الشأن في مصر علموا بهذا

وحبذا لو تبادلت الجامعتان العربيتان في مصر والشام نشراتهما وأنظمتهما

ومطبوعات أساتذتهما ومعاجمهم ومصطلحاتهم. ثم تداولتا الرأي بما ينهض التأليف العلمي بلغة العرب.

والوطن يشكر الذين رفعوا اسمه بأعمالهم كما يشكر غيرة وزير معارف مصر وجهد الدكتور زكي مبارك.

(دمشق)

س. أ

حول الوحدة العربية

قرأت في العدد (319) من الرسالة مقالاً للأستاذ عز الدين التنوخي عضو المجمع العلمي العربي بدمشق تأييداً لما يكتبه الأستاذ أبو خلدون ساطع الحصري بك نقداً لكتاب (مستقبل الثقافة في مصر)

وقد عرض في هذا المقال لمبحث طريف حين طلب إلى الدكتور طه حسين أن يكون أديب الأقطار العربية كلها أولى من أن يكون في قطر واحد أديباً! ثم قال: (. . . أوليته - وهو مسلم مصري - خاطب العرب بما خاطبهم به الأستاذ مكرم عبيد - وهو النصراني المصري - وهو لذلك أشد اتصالاً منه بالفراعنة ذوي الأوتاد!)

وبهذه المناسبة أقتبس شيئاً من مقال للأستاذ مكرم عبيد في هذا الموضوع يجنح إلى تحليل فكرة الوحدة العربية وتأييدها وذكر أنه قابل الأستاذ مكرماً في دمشق وسأله عن تلك النعرة الفرعونية في مصر وأنه لا يزال يذكر أن الأستاذ أجابه بما معناه: نحن عرب في مصر ولا نمجد الفراعنة إلا لأنهم عرب!

وأنا أقول إن الأستاذ مكرم عبيد وإن كان أديباً كبيراً (ومن نوابغ مصر في ثقافته وأخلاقه ووطنيته) إلا أنه سياسي عتيد، ولا يخفى ما في جوابه السابق من أساليب السياسيين، ولعل ذلك لم يغب عن الأستاذ التنوخي! فإن فكرة رد الفراعنة إلى أصل عربي يطول مداها، وتصل بنا إلى غور التاريخ مما لسنا في حاجة إليه اليوم. خصوصاً وإني أعلم أن فكرة كراهية الفرعونية في مصر ترجع إلى سببين: أحدهما سياسي والآخر ديني؛ أما السياسي فهو أنها تقف حجر عثرة في سبيل الوحدة العربية كما يراها أنصارها. وأما الديني فيرجع إلى فكرة خاطئة هي أن فرعون قد ذكر في (القرآن الكريم) بأنه حاكم باطش مستبد بالرسل. . . وهذه الفكرة خاطئة لأن فرعون الباطش الفرد لا يعني فراعنة ثلاثين أسرة

حاكمة توالت على عرش مصر في مدى ثلاثة آلاف سنة أو يزيد. وإذا كان موسى عليه السلام قد لقي من عنت فرعون ما دفعه إلى الخروج بقومه من مصر، فإن يوسف عليه السلام قد لقي عند فرعون إكراماً وتقديراً لمواهبه واستغلالاً لتلك المواهب في حكم البلاد. قال تعالى: (وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي، فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين. قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم. وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء. نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين)

هذه هي نقطة الضعف في السبب الديني الذي يدعو إلى كراهية الفرعونية في مصر.

أما السبب السياسي وهو أن الفرعونية تقف حجر عثرة في سبيل الوحدة العربية فذلك أنهم يريدون أن تقوم هذه الوحدة على أساس الاشتراك الجنسي دون العنصرية أو القومي، فهم لذلك يريدون أن يفرضوا العربية على جميع الذين يدخلونهم في نطاق هذا (الحلف العربي) أو (الاتحاد العربي) ويستعظمون أن يتسمى أحدهم بغير هذا الاسم. فأنا آخذ عليهم هذا. وذلك أن العرب خرجوا من جزيرتهم - التي هي وطنهم الأول الخاص بهم - يحملون مشعل الإسلام في أيمانهم فنزلوا على الشعوب الأخرى واختلطوا بها اختلاطين: اختلاطاً ثقافياً واختلاطاً جنسياً. . . فأما الثقافي فبني على أساس الإسلام والقرآن والأدب العربي، وأما الجنسي فعلى أساس المزاوجة والمصاهرة. ولا شك أن الاختلاط الأول كان أفعل من الثاني؛ فإن الجنسيات الأصيلة في البلاد المفتوحة لم تمح محواً إن لم تكن قد حافظت على تغلبها في أكثر تلك البلاد، بينما غلبت الثقافة العربية على جميعها وإن كانت المؤثرات الجديدة التي صحبت التوسع العربي قد استدعت منذ انتهاء الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية، أن يعترف بانتهاء تسميتها (بالدولة العربية) فأصبح المؤرخون يسمونها بعد هذا التاريخ (بالدولة الإسلامية)!

وإني ارجوا ألا يفهم من هذا أنني لا أؤيد وجود وحدة بأي نوع من الاتحاد وتحت أي اسم من الأسماء، ولكني أوجه إلى أقرب الطرق إلى تحقيق حلم من هذا النوع. . . إن مباحث الأدب والتاريخ لا تنتهي، ولكنها تصبح عظيمة الجدوى إذا اصطحبها النظر إلى واقع الظروف القومية والاجتماعية الملابسة، وقد تتحقق الوحدة المنشودة بإرشاد المخالفين لها أكثر مما تتحقق بإرشاد المؤيدين، فإن الناظر إلى حالة كل دولة شرقية على حدة يدرك
طول الأمد المطلوب لتحقيق شيء من هذا القبيل للانحلال الظاهر في كل عضو من أعضاء هذا الجسم على انفراد، فليكن العلاج علاجاً لكل عضو مستقلاً عما سواه، حتى يصح الجسم بصحة جميع أعضائه!
وبعد ذلك، أفلا يرى معي كل منصف أن الدعاة إلى القومية قد يكونون هم اصلح الدعاة إلى وحدة عربية أو إسلامية قوية منيعة في وقت ليس قريباً جداً، وأن من يراد له أن يكون أديب الأقطار العربية كلها لا أن يكون في قطر واحد أديباً، قد يكون هو أديب الأقطار العربية الحق، الذي يمهد السبيل القويم - وإن كان بطيئاً - لوحدة هذه الشعوب التي تدين بدين واحد في أغلبها، وبأماني وطنية واقتصادية واحدة في مجموعها؟!
(شبرا - مصر)
عامر محمد بحيري
العربية والإسلامية
دفعني إلى معاودة الكتابة في هذا الموضوع الرد الذي قرأته موجهاً إلي في العدد (320) من (الرسالة)، على أن مثل هذا الموضوع لا يعتذر من كثرة الكلام فيه، وإنما يعتذر (ولا يعذر) من قصر الكلام فيه، ولم يبن حقيقته
والمسألة هي أن هناك أخوة إسلامية دينية، وهنالك وحدة إسلامية سياسية، وهنالك إسلام وهنالك مسلمون، ولابد من فصل كل واحدة من هذه المسائل عن الأخرى فكون المؤمنين إخوة، وكون المسلم أخاً للمسلم ولو اختلفت الديار وتباينت اللغات أمر مسلم به ديناً، ولا يكون مسلماً من ينكره لأن الآثار القطعية تواردت عليه، ولأنه أصل من أصول الدين، ولأن شعائر الدين كلها من نحو الصلاة والزكاة والحج والأحكام الفقهية تدور كلها على اعتبار الناس أصنافاً: مسلمين وذميين ومحاربين، ففي إبطال الأخوة الإسلامية واتخاذ الأخوة العربية أو الوطنية خروج صريح على الدين الإسلامي هذا من ناحية الدين، وليس معنى هذا أن الإسلام ينظر إلى المواطنين غير المسلمين نظر العدوان أو يسقط حقوقهم أو يعاملهم على نحو ما يدعي من ينادي بحماية الأقليات، بل الحقيقة التي يعرفها كل من له أقل اطلاع على الإسلام، أن الإسلام يحفظ للمواطنين غير
المسلمين كل حقوقهم ويضمن لهم حرياتهم، فليفهم هذا
أما الوحدة الإسلامية وتحقيقها عملياً فشيء آخر لا نبحث فيه الآن، ولكننا نعتقد أن له مائة طريق إلى تحقيقه، وحسبك علماً بنظام الإمبراطورية الإنكليزية الذي استطاع أن يضم ممالك منثورة في كل آفاق الأرض لتعلم أن الفكر البشري لا يعجزه حين استكمال هذه الشعوب قوتها وحريتها، إيجاد نظام صالح للوحدة
أما الاحتجاج بعمل بعض المسلمين اليوم وموقفهم من فلسطين فلا يقوم حجة على الإسلام، لأنه فرع منه ولأن الدين مبدأ ثابت لا يعد عدم اتباع فئة من المنتمين إليه لأوامره وأحكامه نقصاً فيه. وأما نفي مساعدة المسلمين في الهند لثورة فلسطين فباطل، والأموال الكثيرة التي انهالت من الهند على مجاهدي فلسطين لا يستطيع نكرانها أحد
(دمشق)
ناجي الطنطاوي
حول معنى بيت
قال الأستاذ الصعيدي في العدد (319) من الرسالة تعقيباً على هذا البيت المنسوب إلى معاوية
قد كنت تشبه صوفياً له كتب ... من الفرائض أو آيات قرآن
مقالته الآتية: (ومثل هذا لا يمكن أن يقال في عصر معاوية لأن نظام التصوف لم يكن

قد حدث في ذلك العصر ولم يكن فيه كتب في التصوف يحملها المتصوفة وغيرهم).
أما إنه لم يكن هناك كتب في التصوف في ذلك العصر فهذا صحيح، لأن أول كتاب وضع للناس في التصوف هو كتاب (اللمع) لواضعه الشيخ أبي نصر عبد الله بن السراج الطوسي المتوفى سنة 649هـ. وقد قام المستشرق الإنكليزي نيكلسون بنسخه وتصحيح وطبع في مدينة ليدن 1914. بيد أن هذا البيت لا ينهض دليلاً للأستاذ الصعيدي على أن قصة سعد وسعاد موضوعة فقد فهم كلمة (كتب) في البيت على ظاهرها

والذي أراه في تفسير هذا البيت أن أسلوبه مقتبس من أسلوب الذكر الحكيم: (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً) أي مكتوباً موقوتاً، والمكتوب هو المفروض: أعني مفروضاً محدداً بوقت لا يتعداه. فكلمة (كتب) ليس المراد منها في البيت هذه المدففات من مخطوطات أو مطبوعات، وإلا فما معنى من الفرائض؟ بل هي جمع كتاب بمعنى المكتوب عليه أي المفروض فيكون الأسلوب هكذا: له مفروضات من الفرائض، كما تقول أقمنا بها عمراً من العمر. ومعنى البيت إذن: (قد كنت يا مروان في مبلغ يقيني بك تشبه الصوفي الذي جعل لنفسه مفروضات من الفرائض يتعبد بها أو آيات قرآن يرتفع بها فلا يسف إلى وهدة الآثام)

وبهذا يسلم البيت من الاعتراض التاريخي الذي يوجه إليه على تفسير الأستاذ الصعيدي. أما أن القصة موضوعة أو واقعة فهذا منحى آخر

أحمد عبد الرحمن عيسى

رسالة النقد

نظرات في كتاب

(بعث الشعر الجاهلي)

تأليف الدكتور مهدي البصير

للأديب خليل أحمد جلو

الكتاب - كما يحدثنا المؤلف - عدة فصول من كتابه (الأدب العربي قبل الإسلام) الذي نقله إلى الفرنسية وعرضه بشكل أطروحة في السوربون. فأخفق لأن المستشرقين لا يرحبون بكتاب يشيد بالأدب العربي ويحيي ما اندثر منه، فاضطر إلى تأليف كتاب في الأدب الفرنسي البحت فاطمأنوا إليه وأجازوه الدكتوراه!

والكتاب - بتعريف آخر - هو مجموع المحاضرات التي ألقاها صاحبه على طلاب دار المعلمين العالية ببغداد

والكتاب إذا أردت أن يفطن إليه أهل العراق، قلت هو كل ما ألقاه الدكتور من أحاديث في دار الإذاعة اللاسلكية في الصيف المنصرم

ولا تحسبني أيها القارئ الكريم من الكاذبين إذا تفقدته في الأسواق فلم تجده، فإن وزارة المعارف قد اشترته وهو في المطبعة بثمن يدل على عطف وتشجيع، فأنقذت صاحبه من عناء التصريف وحسرة البوار، وأخذت بما يروى: (ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء) وهل أحد من الناس أولى من الأديب بالرحمة والإنعام في هذا الزمان!؟

إن الدكتور كان بخيلاً على أصحاب المكتبات أن يرتزقوا منه، وكان ضنيناً على القراء أن ينتفعوا به. فهل أمن النقد حين استخفى كتابه عن السوق؟ وهل اطمأنت نفسه حين فرضه على طلابه في دار المعلمين العالية فرضاً ألا تذيع نواقصه وتنشر عيوبه؟

وهل نجحت حيلته حين أذاعه في المذياع العراقي ارتجالاً ولم يسمح للصحف والمجلات أن تنشره؟

لقد خابت ظنون الدكتور، ولم يفت النقاد المترصدين أن يصمدوا له ويتناوشوه. فاليوم عليه (البعث) وعلينا (الحساب)

ولأكن عند حسن ظن الدكتور! فلست أبغي التعريض بشخصه ولا المس بذاته وهو من ذوي الماضي المجيد، ومن دعاة الحركة الوطنية، وممن صاول وقارع البغاة المستعمرين، وممن لهم كرسي رفيع في دار المعلمين العالية

اقتضى هذا الإطراء ما أعرفه عن الدكتور من ضيق الصدر بالنقد واحتباس نفسه منه سواء أكان موجهاً إليه أم إلى غيره. واقتضاه أيضاً سوء الظن بالنقاد والارتياب بما

يؤاخذون به المخطئين. ألم تلاحظوا الدكتور زكي مبارك لا يفتأ يعلن صداقته وحبه لأحمد أمين في رده عليه، وبعض الناس لا يفتئون يتهمونه بالأغراض والمقاصد، بل وأشركوا معه صاحب الرسالة؟

فليعلم الدكتور - غير معلم - أني لا أضمر له كرهاً وليس لي معه مآرب، وأن الأدباء من حسناتهم النقد النزيه، ولعل ربك يريد أن يسبغ علي بعض حسناته حين قيض لي نقد كتاب (بعث الشعر الجاهلي)

أما بعد فإن كتابك يا سيدي ناقص من عدة وجوه لزم علينا تبيانها واستقصاؤها

أولاً: إنك اقتصرت في بحثك على خمسة شعراء هم امرؤ القيس، وزهير، وعمرو بن كلثوم، والحارث، وعنترة، وتركت الآخرين مقبورين لم تبعثهم. فهل أنكرتهم وشككت في تراثهم؟ وإذا كان ذلك فأين الدليل والبرهان؟ وإذا لم يكونوا من صلب بحثك فلم سميت الكتاب (بعث الشعر الجاهلي) الذي يقتضي ألا تدع ارتياباً في شاعر جاهلي ولا شكاً فيما روي عنه من قريض. هل تعتقد أن ما أغفلته حقيقة مسلم بها لا تحتاج إلى التنويه والإشارة على الأقل؟

إن الذي يطمع أن يبعث الشعر الجاهلي يجب ألا يدع شاردة ولا واردة منه إلا استقصاها وامتحنها، وإن من النقص الفظيع أن تكتفي في بحثك بخمسة شعراء. وهل تناولت غير شرح معلقاتهم كأن لم يكن لهم من دون المعلقات قصائد وأبيات أخر تحتاج إلى التدقيق والتحقيق؟!

ثانياً: لم يخطر على بالك أن تستعرض رأياً من آراء المستشرقين واستدلالات المنقبين الأثريين مثل (نولدكه) و (جويدي) وغيرهما من الذين كانوا الأساس الذي اعتمد عليه الدكتور (طه حسين) والمنبع الذي أخذ منه في إنكار الشعر الجاهلي أو الإغراق في الشك فيه. وركنت إلى المصادر العربية القديمة دون ترو واحتراس ودون جدال ولا مناقشة.

ولخصت حياة الشعراء متجنباً كل ما يدعو إلى الشك والارتياب ويعوزه التدليل والبرهان. وشرحت المعلقات ولم تر حاجة أن تستهلها ببحث يقرر أنها جاهلية وأنها ليست في مجموعها أو بعضها من انتحال الرواة أو اختلاق الأعراب، أو صنعة النحاة، أو تكلف القصاص، أو اختراع المفسرين والمحدثين والمتكلمين. وهل يصح لكاتب يريد أن يبعث الشعر الجاهلي بعد أن حامت حوله الشكوك والأوهام أن يغفل عن ذلك؟ وهل يبعث الشعر الجاهلي بسرد حياة الشعراء وشرح معلقاتهم كما يدرسها طلاب المتوسطات

ولابد أن اروي لك نماذج من بحثه لتستدل على صدق ما أقول ولؤمن أن البحث العلمي الصحيح يمقت ذلك

يقول الدكتور البصير مقرراً وجود عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة اليشكري: (إن منابع التاريخ العربية في القرون الوسطى تذكرهما وتروي لهما. إذن فلا سبيل إلى إنكار وجودهما ولا إلى الشك في شاعريتهما) (ص 48 - 49). ويعتقد أن القارئ قد أقنعه هذا البرهان، وأنه لا يمكن أن يقال أكثر من ذلك في إثبات الشاعرين، فيصدر أمراً عسكرياً (بالشروع بالبحث حالاً) عن شرح معلقتيهما

مهلاً يا دكتور! إن قولك لا يطمئن إليه اشد الناس سذاجة حتى تنفي عن ذهنه ما أحيط به عمرو بن كلثوم من أساطير جعلته أقرب إلى أبطال القصص منه إلى أشخاص التاريخ. وحتى تقنعه بالنص التاريخي أو الأدلة المنطقية التي تقرب إلى عقله صحة ما وقع بين آل المنذر وبني تغلب من ناحية، وبين ملوك الفرس وأهل البادية من ناحية أخرى. وحتى تدحض شكوك الرواة في بعض المعلقة واختلافهم في الأبيات الأولى: أقائلها عمرو بن كلثوم، أم قالها عمرو بن عدي بن أخت جذيمة الأبرش. وأنت مضطر أيضاً، إذا أردت أن تفهم أشد الناس سذاجة، أن تعلل ما في قصيدته من تكرار في الأبيات والحروف، وشذوذ عن سلامة الطبع البدوي

وجدير بك وأنت تبحث في قصيدة الحارث التي آمنت بصحتها أن تقنع القارئ بأنها ارتجلت ارتجالاً، ولم يفكر فيها الشاعر تفكيراً طويلاً ويرتب أجزاءها ترتيباً دقيقاً.

تراني أيها القارئ الكريم أطيل عليك فيما يجب أن يتناوله الدكتور مهدي البصير في بحثه عن الشاعرين: عمرو والحارث ومعلقتيهما. ولكن الحق معي فإن كتابه يدعى (بعث الشعر

الجاهلي) لا (بحث في الشعر الجاهلي)، وإن الكتاب ألقي على طلاب دار المعلمين العالية ولم يلق على طلاب المتوسطات. وإني منتقد يجدر به أن يدلي إلى الدكتور بما لاحظه من نقص وإغفال ويرشده إلى طريقة البحث العلمي الصحيح لعله ينتصح ويتلافى هذه الأغلاط

ولندع ابن كلثوم والحارث ولننتقل إلى زهير وامرئ القيس

أما زهير بن أبي سلمى فإن الدكتور لا يجد صعوبة ولا مشقة في إقرار شخصيته التي تتناقلها المصادر العربية القديمة وأشعاره التي ترويها، فيحدثنا في مستهل حديثه عن زهير: (إننا لسنا بحاجة إلى إقامة الأدلة التاريخية على أن زهير بن أبى سلمى قد وجد حقيقة وقرض الشعر) (ص 31) ثم يقتصر (على درس معلقة زهير) ويقصد بالدرس هنا تفسير الغريب من ألفاظ المعلقة وشرح بعض المعاني فقط. ولا أظنك ترميني بالغلو إذا قلت إن الذي يريد أن يبعث الشعر الجاهلي ملزم في كلامه عن زهير أن يبحث عن نسبته إلى مزينة، وإقامته في غطفان، وكونه من أسرة معروفة بقرض الشعر؛ وحظوته عند هرم، ورأي النقاد الحديثين والرواة الأقدمين فيه، وعلاقته بالإسلام مع ذكر الأدلة والشواهد التي تقنع القارئ بصحة ما يقول. وهل يثبت ما ذكره في مستهل حديثه أن قصيدة الشاعر جاهلية وأنها لزهير وأن ليس للمنتحلين يد فيها؟ وهل يصح له أن يغفل ما يتحدث به الرواة عن زهير: أنه تنبأ بالإسلام قبل البعثة، وأنه أوصى ابنيه كعباً وبجيراً أن يسلما، وأن له شعراً فيه أصول دينية إسلامية، وأن النبي رآه فاستعاذ بالله من شيطانه فانقطع زهير عن الشعر حتى مات؟

أما حديثه عن امرئ القيس فهو غاية في الظرف والفكاهة وجهل أفهام الناس. فهو يلخص تاريخ امرئ القيس تلخيصاً خالياً من كل ما ترويه الكتب العربية من أساطير وأعاجيب لينجو من عناء المناقشة ومشقة الدحض والإثبات. ثم يستجهل القارئ معرفة غير ما يروى عن الشاعر، ثم يقول: (ولا نزاع أنه (أي تلخيصه) منسجم مطرد. . وظاهر أنه لم يكن أكذوبة من أكاذيب القصاص) (ص 10)

(يتبع)

خليل أحمد جلو

المسرح والسينما

من التاريخ

النهضة المسرحية في مصر - 3

ونصيب الفرقة القومية منها وواجبها حيالها

فرقة رمسيس

جمع يوسف وهبي حوله بطلات وأبطال المسرح في ذلك الحين إلا من أبطرتهم الشهرة وأفسدهم المجد، أو خاف منهم على نفسه، وهو في مستهل حياته الفنية التي يرجى منها الخير. . . وليوسف بعض العذر فيما فعل، فما معنى أن يستظل باسم كبير لامع يتضاءل اسمه إلى جانبه ولا يفيد منه شيئاً يذكر، ويكون مصدر خطر على مشروعه الكبير الذي أرصد له ثلاثة عشر ألفاً من الجنيهات من ماله الخاص، فينسب إليه الفضل في النجاح إذا كان مقدراً له ولا يكون ليوسف إلا فضل صاحب المال، وما أتعسه من فضل لا يرتضيه فنان لنفسه! ويوسف إنسان ذكي له كل المميزات التي تجعل منه زعيماً في وسطه، وله كل عيوب الأذكياء التي تفقدهم عطف الكثيرين، وتذكي في نفوسهم الغيرة منهم والحقد عليهم. وقد شق طريقه بجرأة لا مثيل لها، وتزعم جماعة المسرحيين، وأقصى من لا يستطيع الزعامة عليهم، واحتضن من وطئوا أكنفهم له، وارتضوا بقيادته لهم على حين أن ماضيهم الطويل وخبرتهم بالمسرح ودرايتهم به كانت تجعلهم في أنفسهم ينظرون إليه ويبتسمون!

وترقب الناس ما ستخرجه لهم (فرقة رمسيس) من جديد يقبلون عليه. أما القديم فقد عرفوه وشبعوا منه وارتووا. وعلى أي حال، فهل تستطيع (فرقة رمسيس) أن تخرج أوديب أو عطيل أو مدام سان جين؟. . . إن جورج ابيض الذي تزعم التراجيدي لم يكن قد فقد مكانته فيه، وما كان أحد يعتقد أن يوسف أو سواه يحسن القيام بأدواره، وأن تستطيع فرقة رمسيس أن تخرج للناس (الموت المدني) أو (النائب هالير) ولم يكن أحد قد تصور مدى لحظة من الزمان أن عبد الرحمن رشدي يمكن أن يبزه آخر في هذه الأدوار التي اشتهر بها وأتقنها كل الإتقان.

ترقب الناس ما ستأتي لهم به فرقة رمسيس الجديدة من جديد - كما ترقبوا حين أنشئت
الفرقة القومية ما ستأتي به لهم هذه الفرقة الجديدة من جديد - والناس عادة لا يرحبون بالقديم لعرفانهم به ولمللهم إياه. ثم إنهم كانوا قليلي الثقة بغير جورج أبيض وعبد الرحمن رشدي!
وقد كان هذه الفكرة التي تخامر أذهان الجماهير، والتي تحدث بها بعض النقاد والكتاب عند تكوين فرقة رمسيس من الدوافع الهامة التي حدت بيوسف لأن يعمل على هدمها نظرياً وعملياً، وتقويضها من أساسها بطرقه المعروفة - وسنفصل ذلك فيما بعد - على أن هذه المجهودات الهدامة كانت من العوامل التي أثرت تأثيراً عكسياً في النهضة المسرحية في مصر، وأساءت إلى يوسف وفرقته إساءة عظيمة، وأفقدته عطف الجماهير وتقديرها
أما يوسف من جانبه فإنه كان راغباً في عدم التحكك بمجد الآخرين، كان يريد أن يبتني المجد لنفسه وبنفسه، وكان يريد أن يظهر في ثوب جديد خلاب، حتى لا يجد الجمهور وجهاً للمقارنة بينه وبين الآخرين فيه. ومن ثم فقد أعلن أنه تلميذ (كيانتوني) الإيطالي، ووضع في برنامجه روايات جديدة لم يعرفها الجمهور من قبل، ولم يسمع بها، ولو أنه كان في أعماقه يحلم بأوديب وعطيل ولويس، وكل الروايات التي اشتهر بها غيره من الأبطال ونالوا بها المجد. وكان يعتقد في نفسه القديرة، أو يرى في نفسه أنه مستطيع التأثير في الجمهور بطريقته الخاصة. فينتزع الإعجاب منه وينتزع راية المجد من الآخرين، وقد أخرج فعلاً فيما تلا من سنين بعض الروايات القديمة المعروفة، كما قام بمشهد صغير من عطيل ضمن مشاهد إحدى الروايات العصرية، لكنه لم يظهر في عطيل نفسها أو أوديب أو سواها من الروايات الضخمة التي أصبحت ملكاً لجورج ابيض طوال عمره!
وفي الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والأربعين من مساء اليوم العاشر من شهر مارس عام 1923 رفع الستار في مسرح رمسيس عن رواية المجنون التي قيل يومئذ إنها من تأليف يوسف وهبي.
(للكلام بقية)
اختيار الروايات في الفرقة القومية
يخطئ من سيظن أن الفرقة القومية أو أصحاب الشأن فيها يعرفون السبب الحقيقي الذي
من أجله أنشئت الفرقة، وإلا فما هذا العبث المحض الذي نراه في اختيار الروايات، وما هذه السياسة المضحكة التي يسيرون عليها، وكأنما هم موكلون بالتنكيل بفن التمثيل لقاء ما تكافئهم به الحكومة من أجر؟!
ولنضع أمام القارئ أمثلة يسيرة من هذه السياسة العجيبة.
و (جنون الشرف) (الخطاب)
في الموسم الأسبق أخرجت الفرقة القومية رواية الخطاب (لسومرست موغام)، وهي رواية أقل ما يقال فيها أنها تحض على الرذيلة، وتشجع عليها، وتكافئ الخاطئين، وتجزي الأبرياء شر الجزاء!
ومعرب هذه الرواية هو الأستاذ سليم سعده وقد خيل إليه أنه فهم رسالة الفرقة القومية في هذا الزمان فعرض على مديرها رواية (جنون الشرف) لبيرانديللو، وهي رواية أقل ما يقال فيها أنها تصور الشرف في أجمل الصور، وتحض على حبه والتعلق به. ولكن المدير الفاضل رفضها وطلب إلى المعرب أن يختار سواها من الروايات الشعبية التي هي أقرب إلى متناول هذا الشعب الذي لم يرق إلى درجة بيرانديللو. فاختار المترجم رواية (الخطاب) فقبلت في الحال وكانت سبة للفرقة أبد الدهر!
الروايات التاريخية في السينما
تقول الأنباء: إن إخوان لاما يخرجون رواية تاريخية عن المجنون وأن الثالوث المعروف (آسيا. ماري. جلال) يخرجون رواية تاريخية تحت اسم أرمانوسة أو شيء كهذا - فمن الضروري أن نقول لهؤلاء وهؤلاء ولغيرهم كلمة، أو نسدي إليهم نصيحة.
منذ أعوام أخرجت السيدة آسيا رواية تاريخية عن (شجرة الدر)، وأخرجت السيدة بهيجة حافظ رواية عن (ليلى بنت الصحراء)، وأخرج إخوان لاما بضع روايات كانت

مزيجاً من التاريخ وصور الصحراء، وأخرجت السيدة عزيزة أمير وغيرها روايات فيها تاريخ وفيها صور من أهل البدو، وكيف يعيشون، وكيف يملئون الدنيا غراماً!
وكانت هذه الروايات جميعاً تنقصها الطلاوة والحبكة مع أن أصحابها قصدوا فيما قصدوا من لياذهم بالتاريخ والصحراء والملابس المألوفة أن يستروا بها أشياء كثيرة من عدم كفاية
الاستعداد، وعدم حبكة الموضوع، بعد أن جربوا التعرض للموضوعات العصرية، فأخفقوا بعض الإخفاق، أي أنهم لجئوا إلى الروايات التاريخية ليداروا بعض العيوب وليفيدوا من الضخامة والمناظر الطبيعية الساحرة، وصور التاريخ الخلابة. مع أن الروايات التاريخية أو ذات المناظر الخارجية، تحتاج لعناية أدق واستعداد أوفى. وتحتاج فيما تحتاج إلى براعة فائقة في الإخراج لا يفهمها إلا الراسخون في العلم. فمن العدل أن نقول لهؤلاء جميعاً من البداية إن تعرضهم للروايات التاريخية لن يفيدهم شيئاً إذا قصدوا إلى ستر بعض العيوب أو الإفادة من الطبيعة ومناظرها. من الحق أن نقول لهم إن إخراج رواية تاريخية معناه البذل العظيم والتضحية الكبرى. ولينظروا كيف تفعل الشركات الأمريكية والإنجليزية على الخصوص. بل ليتأملوا كيف فعل استديو مصر في إخراج (لاشين). وليتريثوا قليلاً وليفكروا كثيراً قبل الإقدام على هذه المجازفات
ونحن على أي حال ندعو لهم بالنجاح والسداد والتوفيق
(فرعون الصغير)
أخبار سينمائية
جريتا جاربو وميلفين دوجلاس
استقر الري أخيراً على أن يكون ميلفين دوجلاس زميل جريتا جاربو في رواية نينوتشكا، وهذه ليست أول مرة يظهر فيها ميلفين إلى جانب جريتا فمنذ أعوام ظهر معها في رواية (إنك في حاجة إلي) ولم يكن وقتها قد نال إلا قليلاً من الشهرة.
جاري كوبر
أمضى جاري عقداً مع ساموبل جولدوين وستكون أولى رواياته (النصر الحقيقي) مع أندريه ليدز في دور القيادة.
تيرون باوار
منذ عامين لم يكن تيرون باوار شيئاً مذكوراً، ومع ذلك فإنه في العام الأخير قد ظهر في خمس روايات كل منها تكلفت أكثر من مليونين من الدولارات، وإحداها كما يذكر القراء
رواية (قنال السويس) التي منع عرضها في مصر لتعرضها بغير حق لشخصيات تاريخية معروفة. أما (حريق شيكاغو) فقد نالت نصراً عظيماً وقوبلت بعاصفة من النجاح في كل مكان. وهكذا ارتفع تيرون في لمح البرق تسنده الملايين وتحوطه قلوب الفتيات في العالم
مارلين ديتريش
وقد عرفت في رواية (الملاك الأزرق) مع (أميل جاننجز) وسطع نجمها في رواية (مراكش) أو (قلوب محترقة) مع (جاري كوبر). واليوم تفخر بها شركة (بارامونت) وتعتز بمكانتها في هوليود
وقد دعاها الهر هتلر أن تعود إلى بلادها فرفضت وفضلت الخروج من جنسيتها لتعيش حرة طليقة من كل قيد
العدد 323 - بتاريخ: 11 - 09 - 1939
من ذكريات الحرب الماضية
للأستاذ عباس محمود العقاد
كثير على إنسان واحد أن يشهد الحرب العالمية في حياته مرتين، فقد كانت الدنيا كلها لا تشهد حرباً عالمية إلا مرة في كل خمسة قرون أو ستة قرون، وكانت على أوسع ما تتسع له آفاقها تنحصر في دولتين أو ثلاث دول هي كل ما يسمى (العالم) في تلك العصور
أما اليوم فقد شهدنا الحرب العظمى قبل ربع قرن؛ وهانحن أولاء نشهد العالم كله متحفزاً لحرب عالمية أخرى تستغرق كل من على ظهر البسيطة من كبار الشعوب

وصغارها ولو لم يشتركوا جميعاً في قتال
ماذا وراء ذلك؟ خير أو شر؟ ونجاة أو هلاك؟ وخطوة إلى حضارة أعلى أو نكوص إلى همجية الكهوف؟
بشر ولا تنفر!
وعلى هذه السنة نقول: إن تتابع الحروب العالمية دليل على وجود المشكلة العالمية
بعد أن لم يكن لهذه المشكلة وجود، وبعد أن لم يكن للعالم نفسه شعور بوجوده مستقلاً عن عصبيات الدول والأوطان
ومتى ظهرت المشكلة فتلك بداية الحل، ومتى تفاقم الخطر فتلك علامة النهاية
أي نهاية؟
نهاية الخطر أو نهاية العالم؟ بل نهاية الخطر إن شاء الله
وذكريات الحرب الماضية تفوق الحصر والإحاطة، فهي أربع سنوات لم ينقض يوم
واحد منها على غير تجربة جديدة من تجارب الفكر أو من تجارب المعيشة أو من تجارب الحياة
تاريخ أربعة آلاف سنة مجتمع في أربع سنوات، لأن الحرب العظمى قد عرضت على
الناس في مدى سنواتها الأربع كل ما عرفه بنو الإنسان من خبرة السياسة وأطوار
التاريخ، وقد أرتهم مصائر ملوك ودولات لم يرها الأقدمون إلا من قراءة الأسفار الطوال، وهي قبس صغير مما يراه الناظر رؤية العيان
لكنني أقتصر في هذا المقال على ذكريات تمس الأدب والصحافة لأنني أكتبه في صحيفة أديبة، وفي استذكاره على ما أرجو عبرة للمعتبرين
كانت الرقابة شديدة على كل ما يطبع ولاسيما الصحف السياسية. وكنا نحن الذين
ننشر في الصحف بعض المقالات أو القصائد من حين إلى حين نعرف مبلغ تلك
الرقابة، ونسمي (الرقيب) بالمكتوبجي تشبيهاً له بالرقباء على الصحافة في تركيا العتيقة، أيام السلطان عبد الحميد
كان المكتوبجي التركي يلمح كلمة (المراد) فيحذفها مخافة أن يكون الكاتب مشيراً بها إلى حبس السلطان مراد
وكان يلمح كلمة (الرشاد) فيحذفها مخافة أن يكون المقصود بها ولي العهد محمد رشاد
وكانت تأتي الأنباء بقتل عظيم من العظماء فتعلم الدنيا كلها جلية النبأ إلا قراء
الصحافة التركية فيهم لا يعلمون إلا أنه قد مات بالحمى أو مات بالسكتة القلبية. . . وقس على ذلك سائر الأنباء
وعلى هذا النحو - أو على قريب من هذا النحو - سار بعض الرقباء في قلم
المطبوعات الموكول إليه أن يراجع الصحف قبل نشرها، وأن يحذف منها ما يثير
الخواطر ولا راد لقضائه، فكانوا يندسون بين السطور بل يندسون في ألفاف مخ
الكاتب حتى لا يقع في خلده أنه قد غلبهم بالدهاء وقد (فوت) عليهم كناية من الكنايات، وهم الأذكياء الألباء!
ويحضرني من نوادرهم أنهم حرموا علي ذكر الاستقلال في قصيدة شعرية فغلبوا
القائد العام لدولة الحماية! لأنه لم ينكر استقلال مصر عند إعلان الحماية عليها، بل وعد برعايته والمحافظة عليه
أرسلت إلى (الأهرام) قصيدة في وصف (هيكل أدفو) ختمتها بالأبيات الآتية وتبدو فيها أخيلة الحرب وأطيافها:
الناس يغتال القوي ضعيفهم ... ولدهر يغتال الفتى المغتالا
قهار كل القاهرين تقاصرت ... عنه مكائد من طغى واحتالا
ذهبوا فما هوت الكواكب بعدهم ... أسفاً وما نقص الثرى مثقالا
ملكَ الفراعنةُ الحماةُ وخلفوا ... للملك أعلاماً بمصر طوالا
وخلا الأكاسرة البغاة كأنهم ... عبروا بمدرجة الزمان رمالا
ومضى البطالسة الكماة وهذه ... مصر يزيد شبابها إقبالا
تتقوض الأوطان وهي كدأبها ... من عهد نوح تربة ورجالا
عهد على الله القدير وذمة ... ألا تضيم لها الكوارث آلا
فتجنبوا فيها القنوط واجزلوا ... قسط البنين معارفاً وخصالا

إنا لنرجوها ونوقن أنه ... ما كان يوماً لا يكون محالا
وستستقل فلا تقولوا إنها ... صمد الهوان بها فلا استقلالا
فظهرت القصيدة وليس فيها البيت الأخير، وسألت عنه أين ذهب؟ فقال لي رئيس التحرير ضاحكاً: في بطن المكتوبجي هذه المرة لا في بطن الشاعر! أيهمك أن تذهب إلى حيث ذهب هذا البيت العزيز من القصيدة؟!
وشاءت المقادير أن أعمل في قلم المطبوعات، لأنني خلوت من العمل واحتجت إلى الإقامة بالعاصمة بضعة أشهر في جو رفيق وفي عمل يناسب ما كنت أعانيه من السقم
فلم أشأ أن أكون (مكتوبجياً) وأنا أعلم نصيب المكتوبجي من السخرية في مجالس الأدباء والصحفيين
فلم يمض أسبوع واحد حتى دعاني مستر (هورنبلور) مدير المطبوعات إليه في مكتبه، وكان رجلاً متحذلقاً يدعي المعرفة بجميع الأشياء وفي مقدمتها اللغة العربية الفصحى التي لا يحسن نطقها، وبدهني قائلاً:
- إذا لم يكن عطفك معنا فلماذا تعمل في هذه الوظيفة؟
قلت: إنني لا فهم ما تعنيه
قال: إنك لا تتوخى الدقة في مراجعة الصحف. وأراني أخباراً تركتها في بعض الصحف وكان من حقها أن تحذف محافظة على (أمن الخواطر)
قلت: إنني لا أجد في هذه الأخبار ما يمتنع نشره بين المصريين، وإني أقرأ في الصحف الإنجليزية نفسها ما هو أهم من هذه الأخبار. فلماذا ينبغي أن يجهل المصريون ما يعلمه الإنجليز وهم محاربون؟!
والواقع أننا كنا نقرأ الصحف الإنجليزية يومئذ فنطلع فيها على أخطر الأخبار وأعنف اللهجات في انتقاد تقصير الحكومة. وكانت هذه الصحف كثيرة الانتشار في مصر لانتشار الضباط والجنود الإنجليز فيها، فإذا وصل بها البريد بعد تقطع وروده فترة من الزمن علمنا
منها ما لا سبيل إلى العلم به من غيرها، وعجبنا لشدة الحجر على الصحف المصرية بالقياس إلى تلك الحرية البالغة وتلك الصراحة الجريئة
فما ذكرت الصحف الإنجليزية للمستر (هورنبلور) نظر إلي طويلاً ثم قال: هل أنت من الحزب الوطني؟
قلت: كلا. ولكني من المصريين
قال: حسن. نحن لا نتفق، وأومأ إلي بالتحية. . . وانصرفت وأنا بريء من المكتوبجية وخلو من العمل في عالم الحرب الذي لا متسع فيه لصناعة الأدب ولا لصناعة الصحافة!
إلا أن الرقابة بغير غرض أهون كثيراً من رقابة يفرضها على الصحف رجل ينطوي على غرض خفي لا علاقة له بواجب الوظيفة
فقد كان من الرقباء من يطمع في المكافأة، وكان منهم من يتعمد حذف الأخبار من بعض الصحف لكي تنفرد بنشرها صحيفة أخرى بينه وبين أصحابها لحمة قرابة أو مصاهرة
وقى الله الصحافة المصرية شر الرقابة (بغرض) والرقابة المنزهة عن الأغراض على السواء!

عباس محمود العقاد
جناية احمد أمين على الأدب العربي
للدكتور زكي مبارك
- 14 -

أبدأ حديث اليوم بالاعتذار لفريق من القراء يريدون أن نكثر من الشواهد كما صنعنا عند الكلام عن إحساس ابن خفاجة بالطبيعة والوجود، فالنضال بيني وبين حضرة الأستاذ أحمد أمين يمس شؤوناً لا تهم غير الخواص، وهم في غنى عن سوق الشواهد وضرب الأمثال
أما الأديب الذي كتب من القدس ولم يذكر اسمه ولا عنوانه فأنا أرجوه أن يعفيني من إثبات رأيه في الأستاذ أحمد أمين لما فيه من إيذاء. وأما رأيه في فلا يحتاج إلى إثبات؛

ولعله استقاه من كتاب (ليلى المريضة في العراق) وأنا راض عما شهدت به على نفسي في أكثر مؤلفاتي. وكنت أستطيع أن أقول إن العيوب التي أضفتها إلى نفسي ليست صحيحة، وإنما جعلت نفسي صورة إنسانية أدرس على حسابها ما في الناس من محاسن وعيوب، ولكني في الواقع لا أهتم بأقاويل الناس ولا أقيم وزناً للأراجيف، لأني مؤمن أصدق الإيمان بأن الناس لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، فهم أعجز من أن ينفعوني أو يضروني؛ وأنا فوق ذلك أعرف أن الأساس السليم هو خلوص النية، وسلامة ما بيني وبين فاطر الأرض والسماوات، وهو عز شأنه يعلم ما بينه وبيني، ولولا فضله ورحمته وستره لكنت اليوم من الهالكين

كم تمنيت لو استطعت شكر الله على نعمه وآلائه، ولكن هيهات، فلله نعم تجل عن الحمد والثناء، ومن تلك النعم نعمة الرضا المطلق بما كتبه وقضاه، فما أذكر أبداً أني جزعت أو ضجرت من مكروه يلم بي. وهناك نعمة أعظم تفضل بها علي الله، وهي الأيمان بأنه تباركت أسماؤه هو وحده القادر على الضر والنفع، فما خشيت غيره ولا رجوت سواه

فأن كنت صادقاً فعند الله جزاه الصدق؛ وان كنت كاذباً فالله وحده هو الذي يملك ستر العيوب، وغفر الذنوب، وعليه أعتمد في نجاتي من شر نفسي

مولاي أنا أحب أن أكثر من الثناء عليك، ولكني أخشى الوقوع في مزالق الرياء، فارض مني بالقليل يا من لا يعرف القليل في الإحسان إلى العاصين والطائعين

إن الكافرين بنعمتك لم يفتهم برك وإحسانك، فكيف يفوتني لطفك وعفوك وسترك وأنا في

سريرة نفسي من أخلص عبادك

مولاي، إليك الأمر كله فافعل ما تشاء، ولن تراني إلا حيث تحب في جميع الأحوال

أرجع كارهاً إلى محاسبة الأستاذ أحمد أمين:

صرح الأستاذ بأن الدين له أثر كبير في الأدب (لأنه من ناحية مصدر كبير من مصادر الإلهام الأدبي، ومن ناحية أخرى كان الأديب ذا دين وثني جامد تأثر أدبه بعقليته فخرج مثله مادياً جامداً، وإذا كان دينه ضيق الخيال لاصقاً بالحجارة والأرض كان خياله في أدبه غالباً كذلك، لأن نفسية الإنسان وعقليته وحدة لا تتجزأ، وان اختلفت مناحيها ومظاهرها. من أجل هذا نرى الأدب الجاهلي في الكثير الأغلب مادياً لا معنوياً، ولا روحياً)

ذلك كلام أحمد أمين. وهو بهذا الكلام يضع قاعدة أدبية: هي تأثر الأدب بالدين فدين الجاهلية في رأيه دين أرضي وضيع، وكذلك كان أدبهم، لأن الأدب من صور الدين ولكن العرب لم يطل عهدهم بالوثنية فقد أنعم الله عليهم بالإسلام، وهو دين سماوي رفيع، فكان الواجب أن يتأثر أدبهم بذلك الدين فيسلم من تلك الصبغة الأرضية الوضيعة

منطق الأستاذ أحمد أمين يقضي بذلك

ولكن الرجل يصر على رأيه في تحقير العقلية العربية فيجزم بأن الشعر العربي لم يتغير بعد الإسلام، وإنما ظل في أسر العقلية الجاهلية

فهل يكون معنى ذلك أنه كان مخطئاً حين قال بتأثر الأدب بالدين؟

أم يكون معنى ذلك أن الإسلام لم يستطع أن يمحو تلك العقلية الجاهلية

لا هذا ولا ذاك

فالعرب في جاهليتهم تأثروا بالوثنية، وتأثروا في إسلامهم بالإسلام، ولكن أحمد أمين يمزح في مواطن لا يقبل فيها المزاح

وإلا فمن الذي يقول بأن الشعر العربي لم يتغير ولم يتطور بعد ظهور الإسلام؟

هل كان في الجاهلية شاعر كأبي العتاهية في الزهديات؟

هل كان فيهم شاعر كالشريف الرضي في الحجازيات؟

هل كان قيهم شاعر كأبي نواس في الخمريات؟

كان فيهم شاعر كابن المعتز في التشبيهات؟

هل كان فيهم شاعر كابن الفارض في الوجدانيات؟

هل كان فيهم شاعر كابن خفاجة في الورديات؟

هل كان فيهم شاعر كشوقي في التاريخيات؟

هل كان فيهم شاعر كحافظ في الاجتماعيات؟
وهل استطاع الشعراء الجاهليون أن يصنعوا ما صنع الشعراء الإسلاميون في تنويع القوافي والأوزان؟
هل عرفوا الابتكار الذي ابتدعه الأندلسيون والمصريون والعراقيون؟
هل عرفوا تسجيل التاريخ بالشعر كالذي صنعه بعض شعراء مصر والأندلس؟
إن أحمد أمين يشهد على نفسه بما لا أدري حين يحكم بأن الشعر الإسلامي صورة من الشعر الجاهلي؛ وإلا فإن ضاق ذرعاً بهذا الوصف فليدلنا على باحث يؤيده في هذا الرأي الغريب
وهل في الدنيا كلها رجل يجرؤ على القول بأن الشعر الإسلامي في مختلف عصوره ليس إلا نسخة ثانية من الشعر الجاهلي؟
إن احمد أمين افتتح مقالاته في مجلة الثقافة بتلخيص كتاب الموشي، وهو كتاب يشرح أفانين الشعراء في وصف حياة القصور وملاعب الترف واللين
فهل كان في شعراء الجاهلية من يعرف تلك الأفانين؟
ومن هم العرب بعد الإسلام في ذهن أحمد أمين؟
يجب أن نعرف أولاً من هم العرب في ذهن هذا (الأديب) فظاهر كلامه يدل على أنهم سكان البوادي العربية، وسكان البوادي يتطورون تطوراً بطيئاً جداً، وقد تظل أحوالهم متقاربة الأشكال والأوضاع ألوفاً من السنين. ومع ذلك لا يمكن القول بأن الإسلام لم يغير سكان البوادي ولم ينقلهم من حال إلى أحوال في العقائد والتصورات، لأن الإسلام رجّ البوادي العربية رجة عنيفة وحول سكانها إلى رجال مؤمنين يتابعون ما في القرآن من صور النعيم والعذاب. ولو أن أشعار سكان البوادي دُوِّنت وعرفت مغازيها ومراميها لاستطعنا أن نعرف إلى أي حد أثر الإسلام في تلوين الصور الشعرية عند سكان البوادي العربية
ولكن أحمد أمين قد لا يرضى بظاهر كلامه فيقول إن العرب بعد الإسلام هم الأمم التي تكلمت لغة القرآن في الشرق والغرب بعد ازدهار الحضارة الإسلامية
إن قال ذلك فقد حق عليه الخطأ فيما ادعاه من ضعف سيطرة القرآن على الأخيلة الشعرية في تلك الشعوب
إن أحمد أمين لم يدرس الشعر الإسلامي دراسة جدية، وماضيه العلمي يشهد بذلك، فأعماله كلها كانت محصورة في الدراسات الشرعية والأخلاقية، ولو شئت لذكرته بالأساس الذي أقيم عليه كتاب فجر الإسلام، فقد كان مفروضاً أن يدرس أحمد أمين تطور التأليف، وأن يدرس طه حسين تطور الأدب، وأن يدرس عبد الحميد العبادي تحول السياسة. فالرجل في نفسه وفي أنفس زملائه مؤلف لا أديب
وما يعيب أحمد أمين ألا يكون أديباً، فله مواهب في شؤون غير شؤون الأدب تعوض عليه هذا النقص. ولو وقف حياته على دراسة الفقه والتوحيد لظفر بنصيب من التفرد والتفوق
ولكن يعيب أحمد أمين أن يحاول فهم سرائر الشعراء والكتاب والخطباء، وهو ليس بالشاعر أو الكاتب أو الخطيب
وشاهد ذلك موجود: فهو يحكم بأن الشعراء لم يتأثروا بالقرآن، مع أنه لو نظر في كتب البلاغة وكتب الأدب لعرف أن تضمين آيات القرآن كان من الأغراض الملحوظة عند الشعراء، ولعرف أيضاً أن حفظ القرآن كان من الفرائض التي يتواصى بها الشعراء
لو درس أحمد أمين تاريخ الأدب لعرف أن في الشعراء من كان يقيد نفسه حتى يحفظ القرآن، ولعرف أن أبا إسحاق الصابي وهو على غير الملة الإسلامية كان يقرأ سوراً من القرآن قبل أن يسرع في النظم أو الانشاء، حتى صح القول بأن بلاغة القرآن كانت تجري على سنان قلم أبي إسحاق
ولما اتهم أبو تمام بأنه يشبه ممدوحة بأجلاف العرب ارتجل فقال:
لا تنكروا ضربي له من دونه ... مثلاً شروداً في الندى والياس
فالله قد ضرب الأقل لنوره ... مثلاً من المشكاة والنبراس
وهذه البديهة تشهد بان أخيلة القرآن كانت تلاحق ذلك الذهن الفنان
واتفق مرة أن اعترض أحد الأدباء على الاستعارة في قول حبيب:

لا تسقني ماء الملام فإنني ... صب قد استعذبت ماء بكائي
وأرسل خادمه يقول: إن مولاي يرجوك أن تملأ هذه الكأس من ماء الملام! فقال حبيب: قل لمولاك يتفضل أولاً بإرسال ريشة من جناح الذل!
فهل هناك أبلغ من هذه الشواهد في الدلالة على أن الشعراء كانوا يتأثرون أشد التأثر بأخيلة القرآن؟
وهنا مسألة دقيقة قد ينتفع بها الأستاذ أحمد أمين، وهي مسألة لم تدرس قبل اليوم، وسيكون لها صدىً في البيئات التي تهتم بدراسة الشعر الجاهلي
وتلك المسألة هي تأثير القرآن في الشعر الجاهلي نفسه
ولكن كيف؟ إن هذا لو صح لكان من الغرائب. وهل يؤثر القرآن في الشعر الجاهلي مع أن الشعر الجاهلي أسبق؟
نعم، القرآن أثر في الشعر الجاهلي تأثيراً شديداً فقد وضعه في الغربال ولم يستبق منه غير ما كان بلغة قريش، وهي لغة القرآن
فالأشعار الجاهلية التي شرقت وغربت بعد الإسلام هي الأشعار التي تساير القرآن من الوجهة اللغوية والنحوية، بغض النظر عما أثر من الشذوذ القليل الذي احتاج إليه اللغويون والنحويون والصرفيون
وهذا (التوجيه) الذي صنعه القرآن كانت له يد في (توحيد) اللغة العربية. فلولا القرآن لظل الشعر الجاهلي مختلف الصيغ والأوزان والأشكال، ولكان باباً إلى (بلبلة) الذوق العربي باختلاف اللهجات والأذواق
فالقرآن هو الذي ساق العرب على اختلاف قبائلهم ومواطنهم ولهجاتهم في تيار واحد. وهو الذي جعل من الشعر الجاهلي سناداً لما فيه من ألفاظ وتعابير، بحيث لم يبق من ماضي الجاهلية غير ما أراد به القرآن أن يعيش
فلا تقل يا أحمد أمين أن الشعر الجاهلي قد استبد بالعقلية الإسلامية، ولكن قل إن الإسلام هو الذي استبد بالأشعار الجاهلية وصيرها من شواهد القرآن
وهناك مسألة أدق، وقد ينتفع بها من يؤرخون الأدب العربي، وهي سبق القرآن إلى غزو الأذواق والقلوب في البلاد التي فتحها المسلمون. فالمعروف عند المؤرخين أن الحياة
الدينية كانت تسبق الحياة الأدبية في كل بلد يدخله الإسلام، لأن الإسلام شريعة مدنية واجتماعية، قبل أن يكون شريعة أدبية وذوقية. فالفرس والهنود والمصريون والأندلسيون سمعوا القرآن قبل أن يسمعوا الشعر الجاهلي. وكذلك كان القرآن أسبق إلى تلوين ما صار عند تلك الأمم من شمائل وأذواق
وأحمد أمين صرح بأن الأدب يتأثر بالدين فكيف جاز عنده ألا يتأثر السلمون بأدب القرآن وهم يقرءون سوره في الصلوات ويتدارسونه صباح مساء؟
إن البيت الواحد من الشعر قد يؤثر في نقل الذوق من وضع إلى وضع، فكيف يجوز أن يحرم القرآن هذه المزية وهو يحمل مئات من الأخيلة والتعابير والمعاني؟
إن القرآن هو أساس ما عرف المسلمون من المذاهب التشريعية والفلسفية، وهو عندهم المرجع في الشواهد اللغوية والنحوية والبلاغية، فكيف يمر سحره القاهر بدون أن يؤثر في أذواقهم الأدبية؟
أليس من العجيب أن يقع هذا القول من أحمد أمين وهو يعرف أن وزارة المعارف المصرية توجب على معلم اللغة العربية أن يحفظ القرآن؟
إن كلية الآداب التي يتشرف بالانتساب إليها أحمد أمين قد اعترفت بخطر حفظ القرآن، ورضيت بألا يكون لخريجيها حظ في تدريس اللغة العربية بالمدارس الأميرية إلا إن كانوا في الأصل من طلبة الأزهر الشريف
فما معنى ذلك؟
أليس معناه أن الأمم الإسلامية قد توارثت الاعتقاد من جيل إلى جيل بأن القرآن له تأثير شديد في تكوين الذوق اللغوي والأدبي؟
ألم يسمع أحمد أمين بأن الأستاذ مكرم باشا حفظ القرآن ليروض لسانه وذوقه على الفصاحة العربية؟
ألم يسمع أحمد أمين بأن الدكتور يعقوب صروف كان يملك خمس نسخ من القرآن ليستطيع الأنس بالبلاغة القرآنية في كل وقت؟

ألم يسمع أحمد أمين بأن من المبشرين من عاش متنكراً في الأزهر بضع سنين ليتذوق بلاغة القرآن لكي يتسنى له أن يواجه الجماهير بلسان عربي مبين؟
ما معنى ذلك أيها الناس؟
معناه أنه صار مفهوماً عند كل مخلوق أن القرآن أس متين من أساس الفصاحة العربية، فكيف جوز القول بأنه لم يؤثر في أخيلة الكتاب والشعراء والخطباء؟
أقول هذا وذهني خال خلواً تاماً من العصبية الدينية، فليس من همي أن أخلق أصدقاء للقرآن، وان كان ذلك مما يشرفني لو تساميت إليه، وإنما أنا رجل أشتغل بتدريس اللغة العربية، وفي تلاميذي مسلمون ونصارى ويهود، ومن واجبي أن أرشدهم جميعاً إلى الحرص على تذوق البلاغة القرآنية، لأنها بلغت الغاية في الدقة والعذوبة والجمال وأريد أن أستقصي هذا الموضوع بعض الاستقصاء، فقد تضيق الفرص عن درسه بالتفصيل فيما بعد
إن أحمد أمين يقف عند الشعر في درس تأثير القرآن، لأن الوقوف عند الشعر ينجيه قليلاً من المعاطب، إن كان من الممكن أن يعرف سبيل النجاة بعد أن وقع منه ما وقع وهو لنفسه ظلوم
وللأستاذ أحمد أمين أن يسلك من مذاهب النجاة ما يشاء، أما أنا فسأطوقه بطوق من حديد فلا يعرف سبيل الخلاص وإن بالغ في التشكي والتوجع، واستعدى علينا بفلانة وفلان
لابد أن يكون أحمد أمين قد سمع بتأثير الإنجيل في الأدب الفرنسي، ولا بد أن يكون سمع بأن شاتوبريان تأثر في أدبه بأخيلة الإنجيل
فهل يمكن القول بأن أثر القرآن في اللغة العربية أقل من أثر الإنجيل في اللغة الفرنسية؟
إن أحمد أمين يقتل نفسه عامداً متعمداً، إن قال بذلك؟
وأتحداه أن يقول، أتحداه، أتحداه، إن وجد السلامة في غير الصمت!
اسمع أيها الصديق
إن القرآن قص على الناس أخبار الأنبياء، فهل تعرف ما ابتدع المسلمون من الأقاصيص حول الأنبياء؟
وهل تعرف كم مرة تعرض المسلمون لشرح ما في القرآن من أخبار وأقاصيص؟
وهل تعرف عدد التفاسير التي ظفر بها القرآن المجيد؟
حدثنا القرآن عن بعض أخبار يوسف مع فرعون، فهل تعرف أن هذا الحديث كان له مئات
أو ألوف من الحواشي والذيول
ألا تصدق أن هذه الثروة القصصية أثر من آثار القرآن؟
وهل يعرف أحمد أمين أن جميع العلوم التي عرفها المسلمون كان لها ثمرة هي تأييد القرآن
لقد استطاع القرآن أن يؤثر في كل شيء حتى العلوم الرياضية فهي عند أهلها تأييد لآيات القرآن المجيد
والذي يراجع أحوال العرب والمسلمين في حياتهم العلمية والأدبية يراهم يدورون حول القرآن في أكثر الشؤون
وفي مطلع كل علم نرى الأبيات التي تقول:
إن مبادئ كلِّ فنٍّ عشرة ... الحدّ والموضوع ثم الثمرة
و (الثمرة) في أغلب العلوم ترجع إلى تأييد القرآن من الوجهات التشريعية واللغوية والعقلية. فعلوم الفقه والتوحيد والصرف والنحو والمعاني والبيان والبديع يراد بها جميعاً فهم ما يشتمل عليه القرآن من أغراض علمية أو أدبية
وقد نقدت ذلك في كتاب النثر الفني حين تكلمت عن مذاهب كتاب النقد الأدبي، ولكن ذلك النقد لم ينسني خطر الحرص البادي من المتقدمين على فهم دقائق القرآن
ومعنى هذا الكلام بطريقة صريحة أني كنت أحب أن تكون العلوم اللغوية والأدبية مقصودة لذاتها، بغض النظر عن جعلها وسيلة لفهم أسرار الإعجاز في القرآن المجيد، ولكني ما كنت أعلم أن سيجيء رجل كالأستاذ أحمد أمين يحكم بأن القرآن لم يؤثر في الحياة الشعرية، ويقول إن ما وقع من العرب لا يصح وقوعه إلا (في الطبيعة

القاصرة، والملكات المحدودة) مع أن العرب قد استوحوا القرآن في جميع الشؤون وجعلوا الأدب كله وسيلة لفهم ذلك القرآن
وخلاصة القول أن حفظ القرآن وفهمه كان من الوسائل التي يتذرع بها الشعراء والكتاب والخطباء للتفوق في البيان، فكيف يجوز القول بأن الشعراء لم ينتفعوا به في تطور التعابير والأغراض؟
ولنذكر دائماً أن العرب بعد الإسلام لم يكونوا أمة واحدة، فقد انتشرت اللغة العربية في
أقطار كثيرة مختلفة المشارب والأذواق، وكان المتعلمون بها يشارفون المائتين من الملايين، فهل يمكن الحكم بأن تلك الأمم جميعاً أصابها العقم فلم تنتفع واحدة منها بأسلوب القرآن؟
وهل هذا يعقل إلا عند من يسارعون إلى ارتجال الأحكام بلا مراجعة ولا استقصاء؟
إن مؤرخي الأدب الفارسي ومؤرخي الأدب التركي نصوا على أن القرآن أثر في هذين الأدبين تأثيراً بليغاً، فكيف يجوز ألا يتأثر الأدب العربي بالقرآن وهو به ألصق، واليه أقرب، ومن أخيلته وألفاظه وتعابيره يستمد القوة والحيوية؟
أنا لا أستسيغ القول بأن الأدب العربي وصل إلى ذلك الحد من الجمود في الاستفادة من القرآن مع أنه استفاد من كل ما وصل إليه من ثمرات الآداب الأجنبية، وقد استطاع بالفعل أن يؤرخ الحضارة التي عرفها في الشرق والغرب، بحيث صار مرآة لما رآه العرب في الممالك الأسيوية والإفريقية والأوربية
ولا ينكر ذلك إلا رجل يكابر فيما تلمسه الأيدي وتراه العيون
وأختم كلمة اليوم بعرض فكرة لا يختلف فيها اثنان
وتلك الفكرة هي تأثير القرآن في وحدة اللغة العربية، فبفضل القرآن امتدت الحياة في لغة قريش نحو خمسة عشر قرناً. ولو أن العرب خلت حياتهم من الدعوة الإسلامية لكان من المستحيل أن يكون في الدنيا إنسان يفهم ما أثر من لغة قريش قبل الإسلام بقرن أو قرنين
وإنما استطاع القرآن أن يحفظ وحدة اللغة القرشية، لأنه كان مفهوماً في كل أرض أنه نموذج عال للبلاغة العربية، فكانت البلاد الإسلامية ترجع إليه في صيانة لسان العرب من البلبلة والانحراف.
والكتاب الذي تسود لغته فيما اختلف وائتلف من الأقطار الإسلامية لا يبقى بينه وبين أذواق الشعراء حجاب
وماذا يريد هذا الأستاذ المفضال؟
أيريد أن يُلغي الناس عقولهم ليصدّقوا أحكامه الخواطئ على ماضي الأدب العربي؟
إن جميع القراء قد اتفقوا على أن قدمه زلت وهو يحاول تزهيد الجمهور فيما ورثناه عن الآباء والأجداد من الثروة اللغوية والأدبية. ولو أنني استبحت نشر ما سمعت من أصدقائه
الأوفياء في نقد ما انزلق إليه، لمادت الأرض تحت قدميه، وعرف أنه يتعلق بخيوط الأوهام حين يظن أن في القراء من ينظر إلى أحكامه الأدبية بعين الاستحسان
إن الأستاذ أحمد أمين يعاني اليوم أزمة أخلاقية، لأنه يعرف أن الاعتراف بالخطأ من مكارم الأخلاق. فإن لم يعترف بخطئه طائعاً فسيتولى القراء هدايته إلى الحق. وهو يجني على نفسه إن كان يتوهم أن قراءه ليس فيهم من ينصب الميزان للتمييز بين الحقائق والأباطيل
وسنرى في المقال المقبل شواهد جديدة من أحكام ذلك الرجل المفضال.
زكي مبارك
المعاملات في الإسلام
للأستاذ محمد بهجة البيطار
طالعت في الرسالة الغراء سؤال الأستاذ الطنطاوي الذي وجهه إلى (المفكرين) من علماء المسلمين، ودعاهم فيه إلى النظر في مطالب هذا الزمن المنوعة، ومشاكل المسلمين الكثيرة التي أوقعتهم في بحران من الاضطراب عظيم، وسلكت بهم في سبيل النجاة منه طرائق قدداً. وقد بنى سؤاله على أصلين ثابتين، (أولهما) أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان، (وثانيهما) أنه يجعل من المتمسكين به أرقى مجموعة بشرية

في العلم والقوة والمال والحضارة، (قال): فكيف يتفق مع هذين الأصلين وجود أحكام في الفقه لا تصلح لهذا الزمن، وأحكام تجعل المسلمين دون الأمم الأخرى في مرافق الحياة؟ وضرب لذلك الأمثال من كتب الفقهاء المتأخرين، ومما وضعوه من شروط وقيود، لبعض البيوع والعقود، يتعذر تطبيقها على كثير من المعاملات في هذا العصر، وعلى ما جرى عليه عرف الناس في التجارات الواسعة؛ وأبدى إعجابه بالفقهاء المتقدمين الذي درسوا وقائع أزمانهم، وطبقوا عليها الأحكام، وفرضوا الفروض وبحثوا عن أحكامها (وهذا مما عابه السلف الذين كانوا يفتون بالواقع، ويمسكون عن القول بما لم يقع إلى زمان وقوعه، لتكون الفتاوى مطبقة على الزمان والمكان والأحوال والأشخاص) ونعى على بعض المتفقهة المتأخرين جمودهم على الفقه الموضوع للقرن التاسع والعاشر، وأثنى على الأستاذ المحدث المحقق الشيخ احمد شاكر فيما كتبه في مسائل الطلاق، وقال: فمتى يعمد العلماء إلى الكتابة

أقول: لاشك أن واجب العلماء هو مواجهه الحقائق التي ظهرت في هذا العصر وبيان الحكم في استعمال جميع ما استحدث من المخترعات إلى اليوم، على قاعدة جلب المصالح للأمة ودرء المفاسد عنها، أي أن تكون فتاوى العلماء الواقفين على أسرار التشريع، وكنه الزمن، وحاجة الأمة - هادية إلى حفظ وحدتها وتنمية ثروتها، وحماية حوزتها، ودفع عوادي الشر عنها، مع إثبات أن ذلك هو الذي يقتضيه هدى الإسلام، وترشد إليه آيات القرآن، وأن المسلمين هم أولى بالمسابقة والسبق في هذا المضمار، فاستثارة دفائن الأرض مثلاً، واستخراج كنوزها ومعادنها، وعلم الزراعة، وفن الري، وإقامة الجسور والمعابر، وتشييد الدور والقصور، وإنشاء السكك الحديدية، والحصون والقلاع، هو عين ما يذكره

الفقهاء في أبواب الركاز والمعادن وإحياء الموات، ومطابق لنصوص الآيات والأحاديث الواردة في ذلك، وصنع المصفحات والدبابات، والمناطيد والطيارات، والمدرعات والغواصات، والكهرباء وسائر ما ظهر في الوجود من المخترعات والمكتشفات النافعة هو مما أرشد إليه الاسلام، ودل عليه مثل قوله تعالى: (وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه) فرده رد لنصوص القرآن وتعطيل لأحكامه. وهذا هو الفقه العام في الإسلام، وفقه الفروع والأحكام منبثق عنه أو هو جزء منه. فالفقه بإطلاقه سداد في العلم، ودقة في الفهم، وإصابة في الحكم. وهو الذي دعا به الرسول (ص) لابن عمه عبد الله بن عباس بقوله: اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل، فكان فقيه الأمة وترجمان القرآن

وهذه الطريق في فهم الدين والفقه فيه هي التي جرى عليها في هذا العصر إمامه السيد محمد رشيد رضا (تغمده المولى برضوانه) فقد أخذ منذ نحو نصف قرن يحل في مناره وتفسيره عقد المشكلات الدينية الدنيوية، ويبين لأمته وجه الحق فيها، وطريق الخلاص منها، مستهدياً بهدى السنة والتنزيل، وهما خير هاد ودليل، مسترشداً بسنن الوجود التي لا تبديل فيها ولا تحويل، وكانت فتاويه تبحث في أدق المسائل الإسلامية، وتحل أعقد المشاكل الاجتماعية حلاً يفي بحاجة العصر، ويتمشى مع قواعد النصوص الشاملة، والمصلحة العامة الراجحة. وقد تكلم عن بعض المسائل الفقهية التي عرض لها الأستاذ الطنطاوي في مقاله كسجدة التلاوة عند سماع القارئ في المذياع، وكالمصارف المالية ومعاملاتها، وأفاض القول في تحريم ما حرم الله من الربا، وتوعد عليه بأشد الوعيد، فبين وجه تحريمه، وعقد فصلاً مستقلاً في حكمته وانطباقه على مصلحة البشر، وموافقة لرحمة الله بعباده، بما لم تره لغيره من المفسرين. وقد ختم هذا الفصل بقوله: (من تدبر ما قاله الإمامان (أي الغزالي والشيخ محمد عبده) علم أن تحريم الربا هو عين الحكمة والرحمة، الموافق لمصلحة البشر، المنطبق على قواعد الفلسفة، وأن إباحته مفسدة من أكبر المفاسد للأخلاق وشئون الاجتماع، زادت في أطماع الناس وجعلتهم ماديين لا هم لهم إلا الاستكثار من المال، وكادت تحصر ثروة البشر في أفراد منهم، وتجعل بقية الناس عالة عليهم. فإذا كان المفتونون من المسلمين بهذه المدنية ينكرون من دينهم تحريم الربا بغير فهم ولا عقل، فسيجيء يوم يقر فيه المفتونون بأن ما جاء به الإسلام هو النظام الذي لا تتم سعادة البشر

في دنياهم فضلاً عن آخرتهم إلا به، يوم يفوز الاشتراكيون في الممالك الأوربية، ويهدمون أكثر دعائم هذه الأثرة المادية، ويرغمون أنوف المحتكرين للأموال، ويلزمونهم برعاية حقوق المساكين والعمال هـ (113: 3)

إن غرض السيد الإمام (كما صرح به في مواضع من تفسيره) أن البلاد التي أحلت قوانينها الربا قد عفت فيها رسوم الدين، وقل فيها التعاطف والتراحم، وحلت القسوة محل الرحمة، حتى أن الفقير فيها ليموت ولا يجد من يجود عليه بما يسد رمقه، فمنيت من جراء ذلك بمصائب أعظمها ما يسمونه المسألة الاجتماعية، وهي مسألة تألب الفعلة والعمال على أصحاب الأموال، واعتصابهم المرة بعد المرة لترك العمل، وتعطيل المعامل والمصانع لأن أصحابها لا يقدرون عملهم قدره، بل يعطونهم أقل مما يستحقون، وهم يتوقعون من عاقبة ذلك انقلاباً كبيراً في العالم ولا علاج لهذا الداء إلا رجوع الناس لما دعاهم إليه الدين. ولكن من الناس من يظن اليوم أن إباحة الربا ركن من أركان المدنية لا تقوم بدونه. (قال)، وهذا باطل في نفسه، إذ لو فرضنا أن تركت جميع الأمم أكل الربا فصار الواجدون فيها يقرضون العادمين قرضاً حسناً، ويتصدقون على البائسين والمعوزين ويكتفون بالكسب من موارده الطبيعية، كالزراعة والصناعة والتجارة والشركات ومنها المضاربة لما زادت مدنيتهم إلا ارتقاء ببنائها على أساس الفضيلة والرحمة والتعاون الذي يحبب الغني إلى الفقير، ولما وجد فيها الاشتراكيون الغالون، والفوضويون المغتالون

وقد قامت للعرب مدنية إسلامية لم يكن الربا من أركانها، فكانت خير مدنية في زمنها؛ فما شرعه الإسلام من منع الربا هو عبارة عن الجمع بين المدنية والفضيلة، وهو أفضل هداية للبشر في حياتهم الدنيا

الشركة الاقتصادية الكبرى

قامت في مصر أكبر شركة زراعية صناعية تجارية أسست بأموال المصريين، وأثبتت فوائد الشركات المالية والتعاون الاقتصادي، وأقامت هذه الشركة لها بيت مال كبير أنشأه المزارع والمصانع والمتاجر، وآوى إليه ألوف العمال، ونجاهم من شرور البطالة ومفاسدها، وزاحم الشركات الأجنبية في البر والبحر والجو، فأشعر مصر بعزة الاستقلال الاقتصادي الذي لا يتم الاستقلال السياسي بدونه، فهذا التعاون الاقتصادي الذي نهض

بمصر هو نموذج من مدنية الإسلام الأولى التي قامت على أساس استثمار الموارد الطبيعية، وتنمية الثروة العامة، لا على نصب شباك المعاملات الربوية لسلب نقود الأمة وإفقارها، ثم الاستيلاء على مواردها وممالكها، بحجة المحافظة على المصالح والأموال، كما فعل الأجانب بملكنا وحكوماتنا. فنحن معشر المسلمين لو كنا متمسكين بقرآننا الذي حرم الربا المفضي إلى إضاعة الثروة والملك، وأعددنا رجالاً لاستخراج كنوز أرضنا، وتعمير بلادنا، وتعزيز شأننا، لكنا بقينا مستقلين بأنفسنا، أحراراً في ملكنا، فكيف يكون الربا الذي كان السبب في استعبادنا وسيلة لإنقاذنا وإسعادنا؟

وقول الأستاذ الطنطاوي: بقي أن البنك لا يستعمل المال في التجارة، ولكن يستثمره بطريق الربا أيضاً، وهي التي لا وجه لها عندي. أقول قد أوضح هو أيضاً الفرق في مقاله أو سؤاله بين الربا المرهق (على طريق الفائدة المركبة) أي الربا الجاهلي، وبين معاملات المصارف، فقال عن الأول على طريق الاستفهام التقريري: وأنه حرم لما ينشأ عنه من خراب للبيوت، وتنازع بين الناس، وتسرب البغضاء إلى النفوس؟ وقال عن الثاني: فأنت حين تعامل المصرف لا تستغل حاجته، ولا ترهقه بالفائدة بل هو الذي يعرضها عليك، فهو أشبه بشركة المضاربة (قلت): وهذا يعود إلى الفرق بين ربا النسيئة الذي كانوا يفعلونه في الجاهلية مثل أن ينسئ الدائن (أي يؤخر) دينه ويزيده المدين في المال، وكلما أنسأه أي أخر الدين في المدة زاد في المال، حتى تصير المائة عنده آلافاً مؤلفة؛ وربا الفضل الذي كان تحريمه وسيلة لا قصداً ودل عليه حديث أبي سعيد الخدري (رض) عن النبي (ص): لا تبيعوا الدرهم بالدرهمين فأني أخاف عليكم الرماء (أي الربا). فربا النسيئة الجاهلي محرم لذاته، وفي الصحيحين: إنما الربا في النسيئة. وفي رواية: لا ربا إلا في النسيئة. وربما الفضل محرم لسد الذريعة أي لكيلا يكون وسيلة إلى ربا النسيئة، وما حرم لذاته لا يباح إلا للضرورة كالميتة والدم ولحم الخنزير، وما حرم سداً للذريعة أبيح للحاجة وللمصلحة الراجحة، وبنى على ذلك

الإمام ابن القيم في أعلام الموقعين جواز بيع الحلية من الذهب والفضة بنقود منهما تزيد على وزنها في مقابلة ما فيها من الصنعة. واستدل على هذا الجواز بأدلة منقولة ومعقولة أيضاً، واستشهد على جواز ربا الفضل للمصلحة الراجحة بإباحة النبي (ص) بيع العرايا، وهو من بيع المتماثلين في الجنس مع عدم القبض والمساواة. فالعرايا جمع عرية كقضية وقضايا، وهي بيع ما على النخل من الرطب بما يخرص ويقدر به من التمر لحاجة من يملكه إلى أكل الرطب، فيشتريه به. فالتمر يدفع مرة واحدة، والرطب يجنى بالتدريج، وقد رخص النبي في بيعها. وذكر ابن القيم من نظائره أيضاً إباحة نظر الخاطب والشاهد والطبيب والمعامل إلى المرأة الأجنبية وإباحة لبس الحرير للرجال لمنع الحكة أو القمل، لأن الحاجة تدعو إلى ذلك كله. (قال رحمه الله): وأين مفسدة بيع الحلية بجنسها ومقابلة الصناعة بحظها من الثمن، من مفسدة الحيل الربوية، التي هي أساس كل مفسدة وأصل كل بلية. وإذا حصحص الحق فليقل المتعصب الجاهل ما شاء وبالله التوفيق (275: 2) وقال أيضاً: فهذا محض القياس ومقتضى أصول الشرع، ولا تتم مصلحة الناس إلا به أو بالحيل، والحيل باطلة في الشرع. أهـ

تفسير المنار لآيات الربا وعمل المصارف

من العجيب الغريب أن يتهم السيد صاحب المنار (رحمه الله تعالى) بتحليل ما حرم الله من الربا، وما أثرناه عنه من مفاسد الربا ومضاره، هو قليل من كثير مما كتبه في تفسيره ومناره، وآخره ما جاء في المجلد الرابع والثلاثين من المنار وهو ختامها، فقد سئل عن أخذ الربا من البنوك لإنفاقه على الفقراء، فقال: من المعلوم من الدين بالضرورة أن الربا القطعي لا يجوز أخذه للتصدق به ولا لغيره، لأن التقرب إلى الله لا يكون بما حرمه الله، فان هذا تناقض بديهي البطلان، ولكن لاستغلال المال في الشركات المالية من المصارف وغيرها أعمالاً ليست من الحرام القطعي قد بيناها من قبل، وسيكون كتابنا الذي وعدنا بإكماله خير مفصل لها إن شاء الله تعالى. وقد نقل عن ابن جرير ما قاله أئمة التفسير من الصحابة والتابعين ومن بعدهم في الفرق بين هذا الربا الجاهلي المحرم لذاته، وربا الفضل المحرم لغيره، وتقدم بيان ذلك. أما الكتاب الذي وعد بإكماله ونشره (رحمه الله) فهو في مباحث الربا والأحكام المالية التي اشتدت الحاجة إليها في هذا العصر، وفي الأصول والقواعد العامة للحلال والحرام، وقد رأى أن جمهور المسلمين في حرج شديد من هذه المعاملات المالية العصرية، وكلهم يتمنون لو يجدون لهم مخرجاً منه مع المحافظة على دينهم فنعى على الذين توسعوا باجتهادهم في أحكام المعاملات المالية حتى أدخلوا في معنى الربا كثيراً من صور البيوع والقروض والشركات التي لا تدخل في ربا القرآن الأصلي ولا في ربا الحديث الاحتياطي من باب ولا منفذ إلا بالتأويلات المستنبطة من ،(النسيئة) التعاريف والأقيسة والضوابط المذهبية الاجتهادية كما قال. وليت هذا الكتاب تم وأخرج للناس قبل وفاته ليرى الناس سبل النجاة من هذا التخبط والاضطراب

ولقد علمنا الآن من هذه الأقوال اليسيرة التي أثرناها عنه أن غرضه الأول أن يجتنب المسلمون الربا الذي حرمه الله ورسوله، وأن تجري بيوع المسلمين وقروضهم وشركاتهم على نحو ما سارت عليه في خير عصور هذه الملة وأهداها، مع وضع حدود وضوابط للاضطرار وللحاجة إلى المحظور في القواعد المستنبطة من الأدلة كقاعدة اليسر ورفع الحرج والعسر، وككون الضرورات تبيح المحظورات، وكون المحظور لسد الذريعة يباح للحاجة إليه، ولرجحان المصلحة على المفسدة، ولم يقدر هو ضرورة الأفراد ولا حاجتهم، بل وكل أهل البصيرة منهم إلى معرفتهم بأنفسهم (قال): وإنما المشكل تحديد ضرورة الأمة أو حاجتها فهو الذي فيه التنازع. وعندي أنه ليس لفرد من الأفراد أن يستقل بذلك وإنما يرد هذا الأمر إلى أولي الأمر من الأمة، أي أصحاب الرأي والشأن فيها والعلم بمصالحها عملاً بقوله تعالى في مثله من الأمور العامة (4: 83 ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم)، (قال): فالرأي عندي أن يجتمع أولو الأمر من مسلمي هذه البلاد (بلاد مصر) وهم كبار العلماء المدرسين والقضاة ورجال الشورى والمهندسون والأطباء وكبار المزارعين والتجار ويتشاوروا بينهم في المسألة ثم يكون العمل بما يقررون أنه قد مست إليه الضرورة أو ألجأت إليه حاجة الأمة. فقوله: وإنما المشكل تحديد ضرورة الأمة أو حاجتها وقوله:

عندي أنه ليس لفرد من الأفراد أن يستقل بذلك وإنما يرد مثل هذا الأمر إلى أولي الأمر من المنة، هو فى معنى فول الأخ الطنطاوي: وهي التي لا وجه لها عندي، فما هو فول علمائنا الأعلام؟ فهذا علم الأعلام لم يجزم بشيء، بل صرح بأن أولي الأمر من المسلمين - وهم أنصاف الأمة الذين ذكرهم مجتمعين - هم الذين يقدرون ضرورتها. فأين قول المفتاتين بأنه أباح الربا هو وشيخه الشيخ محمد عبده؟ وإنما تكلم عن مسلمي مصر لأن البحث فيهم. ولو كان الكلام عن ضرورة الإسلام لصرح بوجوب اجتماع أو إجماع أولي الأمر من المسلمين في أقطار الأرض على تحديد ضرورة الأمة. إذاً فمرد الأمر إلى (المفكرين) من علماء المسلمين كما قال الأستاذ الطنطاوي ليبحثوا في وسائل هذا الأمر ومقاصده ويبنوا المعاملات المالية على أسس الإسلام الصالحة لكل زمان ومكان، والتي يستبين معها للموافق والمخالف أن قواعد الاقتصاد في الإسلام هي أبر ببني الإنسان، وأحق بتثبيت دعائم الحضارة والعمران

البيوع والمعاملات

أما ما وضعه بعض الفقهاء من شروط وقيود لبعض البيع والعقود، مما ليس فيه نص صريح، ولا قياس صحيح، فالناس غير ملزمين به، إذ أن لكل زمن عرفه وأهله ومصالحه، وإنما نهى الرسول (ص) عن أنواع من المعاقدات والبيوع كانت في الجاهلية لما فيها غبن وغش وغرر وضرر، وأمثلتها معروفة في كتب السنة. والمعاملات تفترق عن العبادات في كون الأصل فيها الإباحة والصحة، حتى يقوم الدليل على التحريم والبطلان. وأما العبادات فلا تكون صحيحة ما لم تكن قائمة على أمر الله، وعلى الوجه الذي شرعه وارتضاه. وفي الأعلام للإمام ابن القيم مباحث ضافية في ذلك أكتفي منها بقوله (رحمه الله):

(الخطأ الرابع) اعتقادهم أن عقود المسلمين وشروطهم ومعاملاتهم كلها على البطلان حتى يقوم دليل على الصحة، فإذا لم يقم عندهم دليل على صحة شرط أو عقد أو معاملة استصحبوا بطلانه، فأفسدوا بذلك كثيراً من معاملات الناس وعقودهم وشروطهم بلا برهان من الله بناءً على هذا الأصل، وجمهور الفقهاء على خلافه، وأن الأصل في العقود والشروط الصحة إلا ما أبطله الشارع أو نهى عنه، وهذا القول هو الصحيح، فإن الحكم ببطلانها حكم بالتحريم والتأثيم، ومعلوم أنه لا حرام إلا ما حرمه الله ورسوله، ولا تأثيم إلا ما أثم الله ورسوله به فاعله، كما أنه لا واجب إلا ما أوجبه الله، ولا حرام إلا ما حرمه الله، ولا دين إلا ما شرعه (إلى أن قال): فكل شرط وعقد ومعاملة سكت عنها فإنه لا يجوز القول بتحريمها فإنه سكت عنها رحمةً منه من غير نسيان وإهمال. وقد صرحت النصوص بأنها على الإباحة فيما عدا ما حرمه؛ وقد أمر الله تعالى بالوفاء بالعقود والعهود كلها، فقال تعالى: وأوفوا بالعهد) وقال: يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) وقال: والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) وقال تعالى: والموفون بعهدهم إذا عاهدوا) (2: 34 من أعلام الموقعين)

وقال الإمام نجم الدين الطوفي المتوفى سنة (716) في بحث المصالح: وإنما اعتبرتا المصلحة في المعاملات ونحوها، دون العبادات وشبهها، لأن العبادات حق للشارع خاص به، ولا يمكن معرفة حقه كماً وكيفاً وزماناً ومكاناً إلا من جهته، بخلاف حقوق المكلفين فإن أحكامها سياسية شرعية وضعت لمصالحهم وكانت هي المعتبرة، وعلى تحصيلها المعول اهـ باختصار، وتمام البحث في رسالة يسر الإسلام، وأصول التشريع العام للسيد الإمام محمد رشيد رضا رحمه الله تعالى

إنشاء مجلة للأحكام الشرعية (العصرية)

إن من أفضل ما يقوم به المفكرون من رجال الإسلام العناية بوضع مجلة الأحكام، تسير على نهج (مجلة الأحكام العدلية) التي وضعت في عهد الدولة العثمانية، عام (1297) على ألا تكون مقيدة مثلها بمذهب واحد، تبحث في المسائل الشرعية العصرية، وتضع لها ما يناسبها من الأحكام؛ وإنما يضطلع بهذا العبء، ويقوم على تحرير مثل هذه المجلة. لجنة مؤلفة من أكبر علماء هذا العصر، ممن تضلعوا من مورد الكتاب والسنة، وعرفوا مذاهب الأئمة، ووقفوا على كنه الزمن ونواميس العمران، ودرسوا قوانين الدول وحقوق الأمم، ومارسوا الشؤون القضائية والإدارية. ألا وإن عملهم هذا سيكون له فوائد عظيمة جداً، منها أنه يتبين به أن الإسلام دين السماحة

والتيسير، توافق أحكامه مصالح البشر في كل زمان ومكان، ولا يخفى أن من قواعده المأخوذة من نصوصه الكثيرة اليسر، ودفع الحرج والعسر، وأن الأمر إذا ضاق اتسع، وأن الضرورات تبيح المحظورات، فاستنباط الأحكام التي يدعو إليها الزمان من مآخذها وأدلتها يكون مبنياً على أساس حفظ مصالح الأمة ودرء المفاسد عنها، وقد تكرر هذا المعنى. (ومنها) أن اعتماد ما كان أقرب دليلاً وأكثر ملاءمة لحاجة العصر وطبيعة الأمة، من مذاهب الأئمة، يتبين به سعة الفقه الإسلامي، وأن اختلاف علمائنا رحمة والأخذ من متنوع مذاهبهم نعمة

(ومنها) رد المزاعم القائلة بأن الإسلام لا يلتقي مع حاجة البشر، ولا يبحث فيما يتجدد من شؤون الزمن. على أن الواقع أن بعض فقهائنا قد بحثوا في بعض ما ظهر في عصرنا من الشؤون؛ فهذا الفقيه الكبير الأستاذ الشيخ محمد بخيت قد ألف كتاباً أجاز فيه العمل بخبر البرق (التلغراف) سماه (إرشاد أهل الملة إلى إثبات الأهلة) ومثله الأستاذ الشهير الشيخ جمال الدين القاسمي الدمشقي في كتابه (إرشاد الخلق إلى العمل بخبر البرق) وقد أثبت

أستاذنا القاسمي فتاوى لاثني عشر عالماً من أشهر علماء العصر بجواز قبول خبر البرق في إثبات الأهلة وغيرها، والمذياع والهاتف (الراديو والتلفون) كلاهما أوضح في الدلالة وأوثق من خبر البرق، لأن التلغراف يستفاد مضمونه من تلك النقرات التي ينقرها العامل فيفهم خبره ويترجم المراد منه، بخلاف الكلام بالراديو والهاتف فهو كلام صحيح صريح، وإنما يسمع من يلقي إليه الخبر بهما كلام المتكلم نفسه لا صداه، وما أظن أحداً ممن أجاز العمل بخبر البرق في الديانات والمعاملات يتردد في جواز العمل بالمذياع والهاتف فيهما لما قدمنا؛ وهو أقوى من خبر الكتاب الموثوق الذي قبله العلماء، وأبعد عن التزوير بكثير. وقد كتب النبي (ص) كتبه إلى الآفاق، وبلغ بها دعوته إلى الملوك. وقامت الحجة عليهم وكذلك فعل الخلفاء الراشدون، والملوك العادلون، فقد أرسلوا كتبهم، وقلدوا القضاة والنواب والأمراء عنهم بالكتابة. وعلى ذلك جرت سنة التابعين وأئمة الشرع وفقهاء الأمة، وما أجدر العلماء الآن بإذاعة القرآن والدعوة الإسلامية بالراديو - كما يفعل الإمام المراغي شيخ الجامع الأزهر - لتعم الكرة الأرضية، وتقوم حجة الله على العالمين

فإلى إنشاء هذه المجلة الكبرى الشاملة لكل ما حدث إلى الآن من الوسائل التي تعامل بها العالم أجمع في كافة أنحاء المعمور، وإلى تفصيل ما نشأ عن هذه الوسائل من مسائل وأحكام فقهية، ندعو أعلام الأمة، وفقهاء العصر، وبالله التوفيق.

(دمشق)

محمد بهجة البيطار

ابن حوقل

للأستاذ ميخائيل عواد

يجد المتوغل في تاريخ العرب حركة علمية واسعة النطاق، امتدت أحقاباً من الزمن، وهي كلها جديرة بالعناية والدرس، وحرية بأن تتناولها الأقلام في وقتنا لتجلو مختلف صفحاتها التي كانت إحداها السياحة في البلدان والضرب في مختلف الأصقاع

لقد امتهن بعض العرب هذا النوع من الحياة، فكان منهم من نسميه بالتاجر الرحالة. . . بل إن فريقاً آخر منهم اتخذها علماً، يعلو به ويكتب فيه، وينشر لواءه شرقاً وغرباً. . . ذاك هو الجغرافي المخطط للبلدان. وليس بين الفريقين من مدى واسع، فإن كليهما يستكشف مجاهل الأمكنة والبقاع، ويتولى البحث في أحوال الأمم التي يتردد إلى مواطنها، فيدرس طباعها ويتعرف خواصها ويتصل بأسباب ثروتها، فيصف تربتها وغلاتها وطرقها، إلى ما هنالك من مرافق عامة وخاصة.

هذه كلمة نمهد بها لكلامنا على الرحالة العربي الشهير: (ابن حوقل) الذي ذاع صيته في القرن الرابع للهجرة، والذي بالرغم من ذلك لم يخل مجال البحث عنه من مصاعب وغموض، نظراً إلى أن ما بين أيدينا اليوم من المصادر القديمة لم يورد بشأن منشأه وحياته ووفاته إلا النزر اليسير.

حياته

هو أبو القاسم محمد بن علي الموصلي، ولد ببغداد، ونشأ بها على اتفاق أغلب المؤرخين، وذلك في أواسط القرن الرابع للهجرة، وأقبل على التجول في البلاد

الإسلامية، متعاطياً التجارة، لمكانتها الخاصة في الكسب، ولما تقتضيه من التنقل والتجول، وهي الناحية التي شغف بها فتملكته. وصادف عند ابتدائه في تجواله عام 331هـ (942م)، أن انقطع المسعودي الرحالة الشهير عن الارتحال ولزم داره، وعلى هذا فإن ابن حوقل قد خلف المسعودي في هذا المضمار. . . وانتهى رحالتنا من رحلته الواسعة سنة 359هـ (970م). فيكون بهذا قد أمضى ثمانية وعشرين عاماً في حل وارتحال، زار خلالها أقاصي البلدان، فساح في العالم الإسلامي شرقاً وغرباً من نهر السند إلى المحيط الأطلنطي، ووصف بلاد البربر وصفاً جميلاً، كما أنه جال في بلاد الأندلس متنقلاً بين كثير من مدنها

المشهورة. دخل صقلية وأسهب في الكلام عليها، وجاب ربوع مصر وسورية والعراق وفارس. . . ودون أخبار رحلته سنة 367هـ (977م)، ضمن كتابه المسمى بـ (المسالك والممالك والمفاوز والمهالك).

قال فيه عن نفسه: (. . . بدأت سفري هذا من مدينة السلام - يوم الخميس - لسبع خلون من شهر رمضان سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة. . . وأنا من حداثة السن وغرته، وفي عنفوان الشباب وسكرته، قوي البضاعة، ظاهر الاستطاعة. . .)

إلى أن يقول: (. . . وقد ذكرت في آخر كتابي هذا كيف تعاورتني الأسفار، واقتطعتني في البر دون ركوب البحار، إلى أن سلكت وجه الأرض بأجمعه في طولها، وقطعت وتر الشمس على ظهرها. . .).

ثم يصف لنا خطته في تأليف كتابه فيقول: (وقد حررت ذكر المسافات، واستوفيت صور المدن وسائر ما وجب ذكره. . . وقد فصلت بلاد الإسلام إقليماً إقليماً وصقعاً صقعاً وكورة كورة لكل عمل. وبدأت بذكر ديار العرب، فجعلتها إقليماً واحداً، لأن الكعبة فيها ومكة أم القرى، وهي واسطة هذه الأقاليم عندي. . .).

ويتضح لنا من دراسة مصنفة إنه اقتصر على ذكر صفات الممالك الإسلامية، ولم يتعرض لغيرها متنصلاً من ذلك بقوله في كتابه المذكور: (. . . أما بلاد النصارى والحبشة، فلم أتكلم عليها إلا يسيراً، لأن تولعي بالحكمة والدين والعدل وانتظام الأحكام يأبى أن أثني عليهم بشيء من ذلك).

ابن حوقل يتعاطى التجسس

ذكر العلامة دوزي في كتابه (تاريخ إسلام أسبانيا) أن ابن حوقل كان عيناً للفاطميين يتعاطى التجسس لمصلحتهم. ولا شك أن يكون قد نال حظوتهم والتفاتهم أثناء نزوله بين ظهرانيهم، فسهلوا له شؤون رحلته وتجارته؛ وقد تمخضت هذه العلاقة عن تبادل الثقة، فوجدوا فيه خير مثال للدعاية، وهو ذاك الرحالة الشهير الذي يجوب بلدان الأرض فينشر دعوتهم على أحسن ما يرام!

كتاب (المسالك والممالك)

جاء في مقدمة الطبعة الأولى (للمسالك والممالك) ما نصه: (هذا كتاب المسالك والممالك والمفاوز والمهالك، وذكر الأقاليم والبلدان، على مر الدهور والأزمان، وطبائع أهلها، وخواص البلاد في نفسها، وذكر جبايتها وخراجاتها ومستغلاتها، وذكر الأنهار الكبار، واتصالها بشطوط البحار، وما على سواحل البحار من المدن والأمصار، ومسافة ما بين البلدان للسفارة والتجار، مع ما ينضاف إلى ذلك من الحكايات والأخبار والنوادر والآثار، تأليف أبي القسم بن حوقل. . . معول فيما جمعه على كتاب الإمام العالم أبي القاسم محمد بن خرداذبة، وقدامة بن جعفر الكاتب. . .).

وقد قدم كتابه هذا إلى أبي السري الحسن بن الفضل بن أبي السري الأصبهاني. قال ابن حوقل: (. . . وقد عملت له كتابي هذا بصفة أشكال الأرض ومقدارها في الطول والعرض وأقاليم البلدان، ومحل الغامر منها والعمران، من جميع بلاد الإسلام بتفصيل مدنها. . . وكان مما حضني على تأليفه، وحثني على تصنيفه، وجذبني إلى رسمه، أني لم أزل في الصبوة شغفاً بقراءة كتب المسالك، متطلعاً إلى كيفية البين بين الممالك. . . وترعرعت فقرأت الكتب الجليلة المعروفة. . . فلم أقرأ في المسالك كتاباً مقنعاً، وما رأيت فيها رسماً متبعاً، فدعاني ذلك إلى تأليف هذا الكتاب. . . وأعانني عليه تواصل السفر وانزعاجي عن وطني مع ما سبق به القدر لاستيفاء الرزق والأثر والشهوة لبلوغ الوطر. . .)

شغف ابن حوقل أثناء تجواله بدرس مؤلفات المتقدمين كالجيهاني وابن خرداذبة

وقدامة. وكان لدى إحدى عوداته إلى بغداد عام 340هـ (951م) قد لقي الإصطخري (صاحب كتاب المسالك والممالك , الذي صنفه نحو تلك السنة أيضاً). فاطلع ابن حوقل على كتاب الاصطخري، وانكشفت له مواطن الضعف فيه، وكان الإصطخري قد طلب إليه أن يراجع مصنفه ويهذب بعض خرائطه الجغرافية , لكن ابن حوقل أبى ذلك، واعتزم كتابة هذا المصنف (المسالك والممالك) من جديد، فأتمه على ما أراد، حيث ضمنه مشاهداته ودراساته الخاصة وجعله باسمه

وهذا ما حدا بالكثير من المؤرخين إلى أن يقولوا كلمتهم في مصنف ابن حوقل ويعتبروه صورة ثانية لكتاب الإصطخري مع زيادات آتيه من دراساته ومشاهداته الخاصة التي اكتسبها أثناء رحلته، فأضافها إليه حينما عدل عن تصحيح كتاب الإصطخري.

وقد أضاف أبو الفداء في جغرافيته المسماة تقويم البلدان أن (كتاب ابن حوقل مطول، ذكر فيه صفات البلاد مستوفياً، غير أنه لم يضبط الأسماء، وكذلك لم يذكر الأطوال ولا العروض وصار غالب ما ذكره مجهول الاسم والبقعة. . .)

وجاراه في هذا القول الحاج خليفة صاحب كشف الظنون

ومهما يكن من أمر فأن هذا السفر الجليل عظيم الفائدة جدير بالدرس والاستقصاء، لاختصاصه في الجغرافية دون سواها فهو يحوي وصفاً دقيقاً لأغلب الأقطار. ولقد أفادنا بصورة خاصة عن مصر وسورية والعراق، وتعد بحوثه في المغرب وأسبانية وصقلية من المصادر الرئيسية، ناهيك بالمعلومات القيمة عن بقية الأصقاع والبلدان والمسافات، كما أنه لم ينس أن يعطينا فكرة عن ثروة البلاد وتجارة أهاليها، وجباية الضرائب إلى غير ذلك.

طبعات الكتاب

نال هذا المصنف اهتماماً حسناً، فظهرت له عدة طبعات قام بها طائفة من المستشرقين، والفضل الأوفر في ذلك يعود إلى المستشرق الكبير دي غويه، وسنأتي على ذكر هذه الطبعات فيما يلي:

أولاً: الطبعات الكاملة

1 - الطبعة الأولى: نشرها المستشرق دي غويه الهولندي سنة 1873 في لندن، معتمداً في ذلك إلى نسختي خزانتي ليدن وأكسفورد، كما أنه اعتمد على النسخة العربية المرقومة 2214 في خزانة كتب باريس الأهلية، تلك التي أطلق عليها في طبعته اسم الموجز الباريسي وهو نص النسخة الاستنبولية. وتعتبر هذه الطبعة الحلقة الثانية من مجموعة (المكتبة الجغرافية العربية) أن هذه الطبعة قد نفذت منذ سنين عديدة وأصبحت نسخها من نوادر الكتب

2 - الطبعة الثانية: اعتنى بنشرها المستشرق كريمرز بمطبعة بريل في ليدن سنة 1938، وقد اعتمد بصورة خاصة على نص النسخة المرقومة 3346، المحفوظة في خزانة السراي العتيق في استنبول، وعلى صورها، كما أنه قابل نص الطبعة الأولى المذكورة آنفاً، وبعض المصادر الأخرى، فجاءت بنتيجة هذه التدقيقات والمقابلات طبعة متقنة فيها وافر التحقيق، وتحتوي على كل ما هو موجود الآن من مادة كتاب ابن حوقل فأصبحت متكافئة مع الطبعة الأولى، كما أنها زينت بالخرائط ذات الشروح والتعاليق. وقد ظهر من هذه الطبعة حتى الآن: القسم الأول الذي يتقوم من 247 صفحة، وسيليه الثاني والثالث وعنونها الناشر بـ (كتاب صورة الأرض) تأليف أبي القسم حوقل النصيبي

3 - وكان هذا الكتاب قد ترجم إلى اللغة الفارسية، وعن هذه اللغة ترجمه إلى الإنجليزية السير ويلم أوزيلي وطبعه سنة 1800 في لندن بعنوان (الجغرافية الشرقية لابن حوقل)

وهي تقع في 36 + 327ص، وخريطة

ثانياً: الطبعات الجزئية

1 - القسم المختص بالعراق العجمي، اعتنى بنشره المستشرق هماكر في ليدن سنة 1822، ويقع هذا القسم في ست صفحات وترجمته اللاتينية في ثمان، وعنونت بـ (خلاصة أخبار المسافر والعجم في معرفة بلاد عراق العجم)

2 - القسم المختص ببلاد السند، طبع في بون سنة 1838 مع ترجمة لاتينية

3 - القسم المختص بإفريقية، طبع في باريس سنة 1842
4 - القسم المختص بمدينة بلرم (عاصمة جزيرة صقلية)، طبع في باريس سنة 1845، مع ترجمة فرنسية، بعناية المستشرق الإيطالي أماري
5 - القسم المختص بسجستان نشره المستشرق بلاشر في مجموعه المسمى (منتخبات من آثار الجغرافيين العرب في القرون الوسطى) المطبوع بالعربية مع حواش وملاحظات بالفرنسية، سنة 1932 في بيروت (136 - 148)
6 - ولعل هنالك بعض الترجمات أو الطبعات الجزئية مما لم نتوفق إلى الوقوف عليها لندورتها، فضربنا عنها صفحاً.

(بغداد)

ميخائيل عواد

الشيخ الخالدي أيضاً

للدكتور عبد الوهاب عزام

نقلت في المجلس السابق حديث الشيخ عن العلماء أصحاب الخطوط الجيدة. وقد لقيت الشيخ من بعد فقال:

ومن جيدي الخط صدر الدين القونوي وتلميذه سعد الدين الفرغاني شارح التائية - تائية ابن الفارض - وأبو منصور الجواليقي، رأيت بخطه نصف كتاب المحكم لابن سيده؛ والملك المعظم الأيوبي؛ وابن الأثير المؤرخ رأيت بخطه المؤتلف والمختلف لعبد الغني بن سعيد الحافظ المصري، وهو محدث كبير يعد من أقران ابن عبد البر والحافظ النيسابوري. ومن أصحاب الخطوط الجيدة من علماء الأندلس أبو حيان النحوي وأبو الربيع سليمان الكلاعي صاحب السيرة الكلاعية أجل كتاب في سيرة الرسول

ثم قال: ومن أرادأ العلماء خطاً نجم الدين النسفي صاحب العقائد، والإمام الحصيري أستاذ الملك المعظم، وهو شارح الجامع الكبير لمحمد بن الحسن، والعلامة التفتازاني وابن حجر. ومن علماء الأندلس ثم الإسكندرية الطرطوسي

وأما السيوطي والسيد الشريف الجرجاني والقطب الشيرازي والزمخشري وابن الأثير المحدث وابن مالك وابن هشام وابن عقيل النحويون فخطوطهم وسط بين الجيد والرديء

ولقيت الشيخ مرة أخرى فقال:

الشيء بالشيء يذكر: ومن أصحاب الخطوط الجيدة أبو الريحان البيروني وعبد الملك بن مسرة اليحصبي أستاذ ابن رشد القيلسوف؛ رأيت بخطه مدونة الإمام مالك وفي آخر كل جزء:

بالله يا قارئ استغفر لمن كتبا ... فقد كفتك يداه النسخ والتعبا

ومنهم الحافظ المنذري صاحب الترغيب والترهيب وكان مدرس دار الحديث الكاملية

ومن أصحاب الخطوط الرديئة شمس الدين الفنري صاحب فصول البدائع في أصول الشرائع، وهو مجلدان كبيران وشارح مفتاح الغيب لصدر الدين العوكزي

وحسب كتاب البدائع أن الفنري ألفه في اثنتين وثلاثين سنة مع أنه شرح إيساغوجى في يوم واحد فيما يقال.

ومن ذوي الخط الرديء أيضاً ابن منظور المصري؛ رأيت بخطه جزأين من مختصر تاريخ دمشق والدارقطني المحدث؛ رأيت بخطه كتاب الكنى والأسماء للإمام مسلم، ومنهم ابن الصلاح، وابن خلدون. ومن متوسطي الخط الحافظ السلفي

قلت: ولا تنس العبد الفقير فهو من أصحاب الخطوط الرديئة

- 2 -

ولقيت شيخنا بعد أن نشرت في الرسالة مقالي عن طرطوس وقبر الخليفة المأمون فتحدثنا عن هذه البلدة، وما كان لها من مكانة في الشعوب الإسلامية، فقال الشيخ:

كنت أعجب حين اقرأ في تاريخ كثير من علمائنا أنهم أقاموا في طرسوس، ولا أدري لماذا عني هؤلاء العلماء بالرحيل إلى هذا الثغر القصي، حتى قرأت في تاريخ أحدهم أنه سافر لأداء فريضة الحج ثم رحل إلى طرسوس للمرابطة، فعرفت أن علماءنا الذين رحلوا إلى طرسوس كانوا يؤدون سنة من سنن الإسلام في مرابطة العدو على الحدود الإسلامية

ممن رحل إلى طرسوس أبو عبيد القاسم بن سلام، أقام هناك زهاء اثنين وعشرين عاماً، وأبو داود المحدث صاحب السنن أقام بها إحدى وعشرين سنة وألف (السنن) هناك، وعبد الله بن المبارك كان يتردد على طرسوس ويطيل الإقامة بها، والثاني أقام وحدث فيها طويلاً. وممن رابط هناك أيضاً أبو زيد المروزي صاحب أعلى إسناد للبخاري، والإمام أحمد، ويوسف ابن أسباط وهو محدث عظيم أجل من ابن المبارك، أقام بطرسوس أكثر من عشرين سنة، وإبراهيم بن أدهم أقام بها ما لا يقل عن عشرين سنة. ولابن المبارك كتاب في مدح طرسوس وأهلها المجاهدين وكان طرسوس والمصيصة وأذنه والهارونية من مواضع الرباط يكثر العلماء الإقامة فيها

قلت: هذا سر من أسرار عظمة الإسلام وعلوه، وتمكن المسلمين في الأرض. كان علماؤنا لا يرون العبادة اعتكافاً واعتزالاً ولكن جهاداً ورباطاً، كانوا يرجعون إلى الثغور القاصية على بعد الشقة ليجاهدوا أو يرابطوا فسيطروا على الدنيا بالدين ولم ينبذوها من أجله. كانوا كما كان الخليفة الرشيد عباداً حجاجاً غزاة مرابطين:

فمن يقصد لقاءك أو يرده ... ففي الحرمين أو أقصى الثغور

- 3 -

وحادثت الشيخ في الكتب والمؤلفين فقال:

أربعة كتب يجب عليكم أن تنشروها

1 - كتاب العين، النسخة التي هذبها أبو بكر الزبيدي الأندلسي. رأيتها في مدريد بخط أندلسي جميل

2 - كتاب الفعال لابن القطاع. منه نسخة كاملة في مكتبة واحدة في استنبول

3 - وكتاب الأفعال، للسرقسطي ألفه للمنصور بن أبي عامر ومنه نسخة في استنبول وقد نقلت مقدمته كلها

4 - والغريب المصنف لأبي عبيد القاسم بن سلام. رأيت نسخة منه منقولة عن الحميدي صاحب الجمع بين الصحيحين وهي نسخة صحيحة

قال: وليت عملكم يتسع لنشر كتب أخرى مثل شرح كتاب سيبويه للسيرافي والتهذيب للأزهري والاشتقاق الكبير لابن دريد وشرح التسهيل لابن حيان الأندلسي ومن نوادر الدهر نسخة ابن القطاع من صحاح الجوهري عليه حواش بخطه واستدراكات. قلت: كم لأسلافنا من كتب مفيدة لم تنل حقها من العناية. وعسى أن يوفقنا الله إلى نشرها والاستفادة منها وهو ولي التوفيق

عبد الوهاب عزام

هنري بوردو يتحدث عن هتلر

للأستاذ ناجي الطنطاوي

إن فيليب باريس - في اعتقادي - أول صحفي بل أول كاتب فرنسي استطاع أن يجلو للناس مدى تأثر هتلر في شعبه، وبين لهم أن استيلاء هتلر على نفوس سامعيه وعمق أثر كلامه فيها ناتج عن أنه يشارك شعبه بؤسه وضيقه. يخطب في قدماء المحاربين الذين ذاقوا ويلات الحرب وأصلوا سعيرها، ويخطب في النساء اللواتي صبرن طويلاً على البؤس والشقاء في دورهن التي أقفرت من كل شيء، ويخطب في جميع أولئك الذين مسهم الفقر بنابه وتاقت نفوسهم إلى الخلاص منه، كان صوته الصاحل يدوي في الجموع المحتشدة دوي الجرس الناعي، ولكن وعود الخلاص والإنقاذ كانت تظهر على كل نبرة من نبراته. كان يعلنهم بما سيحدث في المستقبل القريب واثقاً مما يقول , لا يجهد نفسه بوضع النظريات والفروض، بل يستعيض عنها بخطة سهلة قريبة المنال، توصل إلى السعادة التي يحلم بها الرجال العاملون والنساء السذج

ولقد رأيت النساء الألمانيات يخضعن، وتذل نفوسهن أمام جاذبيته القوية. ولما رأيتهن وافرات الصراحة، رحت أحادثهن وأسألهن عنه، وانبرت واحدة منهن وافرة الجمال والذكاء من مدينة كولونية قدمت من برلين، وأخبرتني أنها حادثته على انفراد بعد (الأسبوع الأخضر) الذي جمع فيه الزعيم رجال الصناعات في كافة أنحاء البلاد الألمانية، ليبين لهم سبيل الاتفاق والتفاهم، وراحت تحدثني عنه قائلة:

- إنه دمث لين الجانب. لقد مثلت أمامه، وكان باستطاعتي أن أكلمه وأحادثه، ولكن الحياء عقد لساني؛ ولم أكن قد زورت في نفسي من قبل كلاماً ألقيه إليه.

سألتها:
- كيف بدا لك شخصه؟
فأجابتني قائلة:
- أن له عينين ساحرتين!
أجل! له عينان ساحرتان. . . هذا هو الجواب الذي أجبنني به جميعاً كيلا يعترفن بقبحه ودمامته. واجتمعت في هامبورغ بامرأة أخرى كانت تطيل الحديث عنه، وهي امرأة مسنة
كثيراً ما تضطرها أعمال زوجها للرحيل إلى برلين؛ وكانت أوثق صلة بهتلر من سواها، فكانت تضيف إلى جمال عينيه الحزن والكآبة اللذين يبدوان عليه دائماً. وبدأت أعير الأسطورة الذائعة في ألمانيا انتباهي واهتمامي، تلك أنه لا يهدأ ولا يسر إلا بالعزلة. ولقد شاد في بافاريا داراً في الجبل كثيراً ما يأوي إليها ليخلو إلى تأملاته، وينتظر إلهاماته. وحدثني المرأة قائلة:
- ذهبت إليه في أحد أيام عيد الميلاد، ودعوته للتفضل بزيارتنا مؤكدة له أنه لن يستطيع قضاء ليلة العيد هذه إلا بين أطفال إحدى العائلات، فما كان منه إلا أن هز رأسه وأجابني بقوله:
(كلا، كلا، إنني سأمتطي سيارتي مساء اليوم وسأتغلغل في الغاب تحت الثلج فأكون بعيداً عن الناس معتزلاً بنفسي) فحضرتني الجرأة إلى أن أتقدم إليها بالسؤال عن صلته بالمساء، فكان جوابها أنه لا أثر لهن في حياته قط. ومضت في حديثها قائلة:
- وسألته في يوم آخر عن السبب الذي أفضى به للجنوح عن الزواج، فأجابني: (أوه، كلا، إنني ذو شعور مرهف وحس دقيق، ووقوع طفل واحد لي في المرض يحول بيني وبين المضي في أعمالي السياسية)
وذكرت - لدى سماع هذا - أن هذا الرجل الحساس فد قتل يوم الثلاثين من يونيه عام 1935 ريهم فون كار، وأوبرفورن، وأوتوستراسر، والجنرال فون شليخر وامرأته، وكثيراً غيرهم، يبلغ عددهم زهاء سبع وسبعين نفساً. ولكنني ظللت مصغياً لحديثها اعتقاداً مني أنه من الواجب علينا أن نساير النساء في تفكيرهن إذا وددنا أن نقف على أسلوب التفكير لدى إحدى الأمم. . . قالت المرأة:
- ولما سألته هل يعتقد أن الحكم السائد بيننا هو الحكم الصالح، أجابني بقوله: (كلا، إننا نرفض كل حكم وراثي، إذ أن البنات لا الأبناء هن اللواتي يرثن عادة عبقرية الأب. إن التوريث هو خطأ الملكية)
فتذكرت فجأة هذا التعبير الجميل لمؤرخنا ألبير سوريل: (إن حياة أسرة المرء امتداد لحياته بعد موته، وحياة الأمة امتداد لحياة الأسرة بعد فنائها) وأنا أقول إن حياة الأمم التي يخلفها الملوك هي امتداد لحياتهم إن ماتوا
هذا ما حدثتني به المرأة. أما الرجال فإن كلامهم عن هتلر لا يرافقه حماس كحماسها، إذ أن الناحية العاطفية تختفي لديهم ويقدرون في الزعيم براعته في الإنشاء والبناء، براعة الرجل الذي أعاد للنظام حرمته بعد أن شوهته الاشتراكية، والذي قضى على البطالة بتمجيده العمل والنظام، والذي أعاد لألمانية كبرياءها وعزتها ومجدها، فعاشت مرفوعة الرأس بين الأمم، ولكن هل ترك الأمم الأخرى تحيا كذلك؟
إن هذه الإشارة الخفية إلى النمسا وتشيكوسلوفاكيا لا تترك أثراً، ذلك لأن المنطق الألماني لا يدخلهما في عداد الأمم
إن صاحب جريدة (دوتش فرانزوزيش غيزبلشاف) وهو الكونت آرنيم، هو من كبار الملاك، وتبلغ مساحة ملكه ستمائة هكتار. وليست هذه المساحة الشاسعة نادرة الوجود في ألمانيا الشمالية إذ أن الأرض هناك مجدبة وغير مقسمة كثيراً، وعدد الزراع هناك قليل، فيضطر المالكون للالتجاء إلى البولونيين، ففكرت - ولم أظهر ذلك - في فلاحنا الذي تحنو عليه الأرض حنو المرضعات على العظيم، وتقدم إليه الغذاء وفق اعتنائه بها، ورغم هذا نراه يذهب إلى المدينة، إلى الضجيج والنور
لقد تنبه الزعيم لهذه الهجرة، ورأى أن وقفها لا يتم إلا برفع منزلة الفلاح: فالبوير (الفلاح) هو عنوان فخري موقوف على تلك الأسر الألمانية ذات الدم الصافي التي تحرث الأربوف، والأربوف هذا هو الحقل الموروث الذي لا تقل مساحته عن مائة وخمسة وعشرين هكتاراً ليس من الجائز تقسيمها، وينتقل هذا الحقل بالإرث إلى الابن

الذي يسميه الأب، وليس لديهم قانون الابن البكر، فالأب يختار وريثه بنفسه
إنني أتمنى وأرجو لبلادي قانوناً نيراً يربط الأسرة بالأرض ويثبتها بها كيلا تضطر للهجرة
عنها، فالأرض التي تقسمها قوة القانون ليس باستطاعتها أن تؤمن حياة أسرة،
وتضطر تلك الأسرة للهجرة والرحيل. وإن باب التوريث في القانون المدني يقضي
على زراعة فرنسية، فيفقد فرنسة عقيدتها وإيمانها. يجب علينا حتماً أن نعيد النظر
في القانون، وبعض الأنظمة الجديدة تراعي هذه الناحية، ولكنها مراعاة غير كافية
احتفلت ألمانية احتفالاً فخماً بذكرى بلوغ هتلر سن الخمسين فهو قد ولد إذن يوم
العشرين من نيسان عام 1889 في بلدة ياسو؛ فلنحفظ هذه التاريخ لأنه من الممكن
أن يجلو لنا
تكونه العقلي. كان في العاشرة من عمره عندما حدثت في النمسا - وطنه الأول -
فاجعة دينية يظن أن أثرها كان قوياً في خياله الطفلي وأن صورتها ظلت منقوشة في
ذاكرته، وعلى الأخص لأن أستاذه اشترك فيها كما يغلب على الظن ولقد ذكرها دون
ريب لما دخل فينا التي فتحها، وبراغ التي غلبها وأذلها. ولقد اطلعت على فصل جيد
واف مكتوب بقلم جورج غويو عن الحياة الألمانية العقلية يكشف لنا عن هذه الناحية:
صدر في نيسان علم 1897 أمر الإمبراطور فرانسوا جوزيف باعتبار اللغة التشيكية
في المحاكم والدوائر والكنائس لغة رسمية، وكانت اللغة الألمانية قبل صدور هذا الأمر
هي اللغة الرسمية السائدة فثارت ثائرة الشعب، وقامت ثورة مسلحة كان أبطالها
جرمانيو النمسا الذين ألقوا المسئولية على عاتق الكنيسة الكاثوليكية. وكتب أحد
المحرضين إذ ذاك ويدعى شونيرير يوم 16 نوفمبر عام 1898 يقول:
ألا فلنحطم القيود التي تربطنا بكنيسة معادية لألمانيا، لا نريد أن يسود التفكير)
(المسيحي الأرض الألمانية. إن التفكير الجرماني هو وحده صاحب الحق بالسيادة فيها
ومذ ذلك الحين بدت نظرية التوسع الجرماني في النمسا، بشكل جديد: أنت
بروتستانتي. . معنى هذا أنك ألماني، وكان يذهب المتطرفون إلى أبعد من هذا، حتى
أن صحيفة شونيرير راحت تنادي صائحة: (لقد مررنا بفلسطين كما مررنا بروما لنشيد
فيهل قبة الجرمانية) وراح شونيرير يهيب بمواطنيه إلى رفض قبول الدين المسيحي
والعودة إلى حظيرة الوطنية الحق قائلاً: (يجب على كل فرد من مواطني أن يكون
وطنياً ألمانياً لا بروتستانتياً مسيحياً. وسيؤرخ العصر الحديث منذ الآن موقعة (نوريا)
بين الرومان والتوتيين قبل المسيح بمائة وثلاث عشرة سنة. ثم يقول جورج غويو:
(يقول تاريخ ألمانيا الوطني بالحرف الواحد: إن اليوم الذي أدخل فيه القديس بونيفاس
الدين المسيحي إلى ألمانية كان يوم حداد على جرمانية؛ وإن الأخلاق الألمانية الوطنية
تعلمنا أن العقيدة الاسكندنافية القديمة التي تأمر بمقابلة اللطمة بلطمة مثلها كانت
أرفع وأشرف من العقيدة المسيحية التي تذل الإنسان وتفسد خلقه عندما تأمره
بتقديم خده الأيسر؛ وإن التربية الألمانية الوطنية التي تتخذ من الأبطال الجرمانيين
القدامى مثلاً أعلى لها يجب احتذاؤه لا تفتأ تفخر بأسلوبها في التربية حتى يكاد يعتقد
الإنسان إنها توافق طبيعته. وتفضل هذه
التربية عبادة (ووتان) الإله الوطني على عبادة المسيح الدخيل. وبعد كل ذلك نرى
الطقوس الألمانية الوطنية تحيي التقاليد الدينية التي كانت سائدة في الغابات القديمة،
وذلك بعودتها إلى عادة تقديم الضحايا للشمس في زمني الانقلابين الصيفي والشتوي
وحرقهم على ذرى الجبال. ومع هذا، إذا كان الجرمانيون أفضل شعوب الأرض ألا يكون
إله المسيحيين قد استهان بهم وانتقص من أقدارهم باختياره شعباً غيرهم؟
وتملكت نفوس الألمانيين إذ ذاك رغبة صادقة في إنشاء دولة ألمانية موحدة يدين
أفرادها بدين واحد هو دين (ووتان) وانقلبت الحركة الدينية إلى حركة سياسة.
(دمشق)
ترجمة ناجي الطنطاوي
التاريخ في سير أبطاله
أحمد عرابي
أما آن للتاريخ أن ينصف هذا المصري الفلاح وأن يحدد له
مكانه بين قواد حركتنا القومية؟
للأستاذ محمود الخفيف

لم تكن مصر إذاً في حالة تدعو إلى القلق إلا إذا كان الخلاف بين الخديو ووزرائه مشكلة تستدعي حتما تدخل الدول الأوربية لحسمها، إذ لا يتسنى علاجها إلا على هذه الصورة

لم يكن هذا الخلاف الذي نشير إليه سوى الذريعة التي باتت إنجلترا تتحينها لتخطو الخطوة التي كانت سياستها في مصر طوال القرن التاسع عشر متجهة إليها، وكانت إنجلترا قد عولت أن تقطع العقدة إذا لم يتيسر لها حلها، فبقطع تلك العقدة أو حلها تصيب في الواقع غرضين: السيطرة على مصر وهذا قصارى آمالها في الشرق، والتخلص من مشاركة فرنسا لها فيما هي فيه من شؤون مصر وهذا ما كانت مصلحتها تقضي بوجوب الإسراع فيه

والإنجليز قوم نبغوا في أن يأخذوا كل شيء وألا يعطوا شيئاً، وأن يستبطنوا دخيلة كل عدو أو حليف دون أن يكشفوا له عن شيء تنطوي عليه نفوسهم، ولهم في ذلك أساليب يعد نجاحهم في إنفاذها أحد أسباب تفوقهم الكبرى

لذلك تقدم هؤلاء ليلعبوا إحدى لعباتهم السياسية وقد سهلت عليهم سياسة فرسنيه الأمر، فقد رأى هذا أن تبتعد إنجلترا وفرنسا عن التدخل المسلح في شؤون مصر، وفاته أنه إن استطاع أن يوجه سياسة بلاده نحو هذا الهدف فما له حيلة في إنجلترا إن استعصت عليه أو انسحبت منه

وتقدم فرسنيه يعرض على إنجلترا مقترحات لحل المشكلة، فطلب على لسان سفيره أن ترسل الدولتان سفناً من أسطوليهما إلى مياه الإسكندرية وأن تطلب الحكومتان إلى تركيا ألا تتدخل في شؤون مصر في ذلك الوقت، ولكن فرنسا لا تعارض إذا حضرت قوة عثمانية إلى مصر بدعوة من الدولتين على أن يكون عملهما محدوداً وأن تكون تحت مراقبتهما

ورأى فرسنيه أن تحاط روسيا والنمسا وألمانيا وإيطاليا بما تتخذه إنجلترا وفرنسا حيال المسألة المصرية على أن تكون تعليمات تلك الدول إلى سفرائها في الآستانة عين تعليمات الدولتين

أما عن مركز الخديو فقد رجعت فرنسا عن رأيها في خلعه ذلك الرأي الذي كانت تراه لو اتبع قبل ذلك يقضي على كثير من الصعاب

وكان فرسنيه يريد من المظاهرة البحرية أن يلقي الرعب في قلوب الوزراء ليقلعوا عن مقاومة الخديو فتنتهي الأزمة التي كانت قائمة بينه وبينهم، ولقد وافق جرانفل على مقترحات فرسنيه في جملتها ورأى أن يبلغ الباب العالي مع الاحتياط في القول أنه قد تعرض عليه في المستقبل مقترحات أخرى، ولكن فرسنيه لم ير هذا الرأي لأنه كان يرغب عن التقرب من تركيا ولذلك رفضه بادئ الأمر ولكنه عاد فقبله بعد إلحاف جرانفل عليه وكتب إلى سفيره بالآستانة أن يبلغ السلطان أنه (ليس من المستبعد أن تقدم اقتراحات أخرى إلى تركيا فيما بعد)

وأراد جرانفل أن يبعد عن نفسه وعن حكومته تهمة الرغبة في التدخل في شؤون مصر فاقترح أن تدعى الدول الأوربية إلى إرسال سفن إلى الإسكندرية تقف إلى جانب السفن الإنجليزية الفرنسية؛ وما كان جرانفل جاداً فيما يقول فإنه كان على يقين أنه سيقابل من فرنسا بالرفض ولو كانت لديه شبهة أن ستقبله فرنسا لما تقدم به، بل لو كان هذا الاقتراح من جانب فرنسا لعارضت فيه إنجلترا أشد المعرضة؛ ولو أن إنجلترا كنت جادة في مقترحها هذا لبذلت قصارى جهدها لتحمل فرنسا على قبوله

ولكنها اكتفت أن تبلغ فرسنيه على لسان وزيرها أنها تأسف ألا تقرها فرنسا على وجهة نظرها وأنها تعد من الخطأ عدم دعوة الدول إلى الاشتراك في تلك المظاهرة، ولكن بما أن فرنسا قد ذهبت في الموافقة على السياسة البريطانية إلى مثل هذا الحد فإن إنجلترا لا يسعها إلا أن توافق فرنسا على ما ترى

وآمن فرسنيه بنزاهة السياسة الإنجليزية، ولو كان غير فرسنيه في موضعه لآمن بها كما آمن هذا، فلم يكن يدور بخلد أحد يومئذ أن إنجلترا كانت تترقب الفرص لتنقض على الفريسة دون فرنسا ولا كان في عملها ما يستراب منه؛ ولكن الإنجليز في هذا العالم خير

من انتصح بنصائح مكيافلي وخير من حذقها ولو قد تأخر الزمن بهذا الرجل لأخذ عنهم مبادئه ولوجد في أساليبهم وخططهم أبلغ أمثلة كتابه

الحق أن هذا المكر كان يدق على فرسنيه وغير فرسنيه من أولي الخبرة والدهاء من الرجال؛ وما كان ليفطن إلى هذا إلا من يسيء الظن بإنجلترا فيكون مبعث فطنته سوء الظن لا حسن الفهم وبعد النظر، ونحن إنما نفطن إلى هذه السياسة بعد أن تكشفت وتعاقبت عليها السنون، ولقد فطن إليها فرسنيه ورجال حكومته وشعبه لا ريب يوم وقعت الواقعة وانفردت إنجلترا بضرب الإسكندرية غير حاسبة لأي شيء من حولها حساباً

وكانت إنجلترا تبغي من سياستها هذه أن تصرف الدول عن مصر فإن دعوة تلك الدول إلى مشاركتها في المظاهرة البحرية يظهرها بمظهر من لا غرض له إلا الصالح العام في حين أن انفرادها هي وفرنسا بالأمر يغضب الدول ويجعلها تميل إلى التدخل لتنال حظاً من الغنيمة في مصر أو في غير مصر يوم يقوم الحساب وتوزع الأسلاب وفضلاً عن ذلك فقد كانت إنجلترا تحذر أشد الحذر أن تغضب السلطان فينحاز إلى عرابي وحزبه ضد توفيق فيظهر هؤلاء بمظهر المحافظين على حقوق السلطان صاحب الحق الشرعي ضد الخديو ومشايعيه من الطامعين، وهنالك فكل تهمة بالعصيان ضد عرابي أمام الشعب المصري إنما تذهب أدراج الرياح

ولقد فطن ماليت إلى خطورة هذا الأمر وكتب إلى حكومته ينذرها أن إغفال تركيا من شأنه أن يضم النواب إلى العسكريين فيقفوا جميعاً صفاً واحداً ضد أوربا أو على الأقل إنه يقوي جانب عرابي وأشياعه

وودت إنجلترا لو طاوعتها فرنسا فيما أشارت به، ولما وجدت إصرارها على استبعاد تركيا والدول جميعاً لم تر بداً من أن ترسل إلى الدول قراراً ينفي أي نية في احتلال مصر ويؤكد أن إنجلترا لم ترد بالمظاهرة البحرية إلا إقرار السلام داخل مصر وأنها سوف تترك مصر وشأنها إذا قضي على ما فيها من القلاقل؛ وإذا لم تنجح تلك الوسائل السلمية فسوف تتفق إنجلترا والدول على ما تراه هي وفرنسا خير سياسة تتبع

وتحدث اللورد دوفرين سفير إنجلترا بالآستانة إلى وزير الخارجية العثماني في لهجة شديدة قائلاً: إنه إذا لم تعمل تركيا ما من شأنه أن يسهل على إنجلترا خطتها فسوف تزيد إنجلترا

عدد القطع في الإسكندرية وتطيل أمد بقائها جميعاً هناك

ولكن السلطان آلمه وأغضبه أن توجد السفن الفرنسية الإنجليزية أمام الإسكندرية فلم يكف عن احتجاجه وإعلان سخطه مما زاد الموقف العام حرجاً وتعقيداً

وبينما كانت فرنسا وإنجلترا تتبادلان الرأي على النحو الذي نذكر، كان الحنق في مصر على الخديو يتزايد يوماً عن يوم، وما زال الناس في قلق وخوف من موقفه ومشايعته الإنجليز على هذه الصورة حتى وصلت السفن إلى الإسكندرية

ولقد أخذ بعض الناس على الوطنيين أنهم لم يخلعوا الخديو في ذلك الوقت ويتصلوا بتركيا طالبين تعيين غيره؛ والواقع أنها مسألة دقيقة، فمن الناحية الوطنية كان الوطنيون يرون ضرورة خلعه، وحجتهم أن السكوت معناه التفريط في جانب الوطن ولكنهم من الوجهة الأخرى كانوا يرون أن عملهم هذا ينقلب وبالاً عليهم في ظروف كتلك الظروف التي أذاعت فيها أوربا عنهم المزعجات من الشائعات

وفي هذه الآونة حدث في صفوف النواب ما نخجل أشد الخجل من ذكره، فقد انحاز كبيرهم سلطان إلى الإنجليز وشايعه عدد منهم ليس بالقليل ولم يكن للوطنيين من عاصم في تلك المحنة إلا الاتحاد والثبات فكأنما تأبى الأيام إلا أن تجعل من أبناء مصر بعضهم لبعض عدواً، وكأن ذلك لكثرة ما تكرر من طباعهم التي فطروا عليها؛ ولطالما نكب هذا الشرق المسكين بتخاذله وانقسام أبنائه بعضهم على بعض مع أنهم يرون الظالمين الطامعين فيهم من أهل الغرب بعضهم في الكيد لهم أولياء بعض!

وكان انحياز سلطان والمستضعفين من النواب معه إلى الخديو أولى ثمرات المظاهرة البحرية؛ فإن سلطاناً حينما علم بها من الخديو فكر وتدبر ورأى أن المستقبل للخديو؛ فلما حضرت السفن اطمأن إلى الخديو وآثر أن يبادر بالانضمام إليه لتكون له الحظوة والمكانة عنده وعند الإنجليز أولي الجاه والبأس؛ وأمثال سلطان هذا إنما يعملون لأشخاصهم فحسب، وعلى ذلك فهم عبيد القوة وإن تعاظموا، وهم أضعف الناس وإن تطاولوا، وهم أحرص الناس على المادة وإن تظاهروا بالنبل والعفة، وهم إنما يدلون

بجاه من يستكينون إليهم إدلال الخادم بسيف سيده
ونشط ماليت وأعوانه من جديد يذيعون أسوأ الأنباء عن مصر وعن عرابي وحزبه على وجه الخصوص، حتى لقد وقف جرانفل في مجلس اللوردات في يوم 15 مايو يتوعد مصر ويتهدد ويصرح في غير تردد ولا استحياء أن النواب والأمة جميعاً في صف الخديو
وكان مستر بلنت لا يزال يسعى سعيه في إنجلترا لصالح الوطنيين وكانت بينه وبين عرابي مراسلات برقية قبل تصريح جرنفل يؤكد فيها عرابي الهدوء والسلام في مصر، فلما أعلن جرنفل تصريحه أرسل بلنت إلى عرابي رسالة برقية بتاريخ 16 مايو يقول فيها: (قال لورد جرانفل في البرلمان أن سلطان باشا والنواب قد انضموا إلى الخديو ضدك، فإن كان هذا القول غير صحيح فاطلب إلى سلطان باشا أن يرسل إلي تكذيباً، وإذا اتحدتم فلا تخشوا شيئاً. . . ألا يمكنكم أن تؤلفوا وزارة يكون سلطان رئيساً لها؟ وعلى كل حال عليكم بالثبات)
وأرسل هذا الرجل الحر إلى سلطان باشا في نفس الوقت برقية هذا نصها: (أعتقد أن جميع أولئك الذين يحبون مصر يجب أن يتحدوا فلا تتشاجر مع عرابي. إن الخطر عظيم) كما أرسل إلى كل من بطرس باشا وأبو يوسف ومحمد باشا الفلكي هذه البرقية (هل الحزب الوطني مع عرابي الآن؟ الحكومة الإنجليزية تدعي أنه ليس كذلك. إذا ذهب اتحادكم ضمتكم أوربا إلى أملاكها) ووصلت هذه البرقية أيضاً إلى الشيخ محمد عبده والشيخ الهجرسي وعبد الله أفندي نديم
وجاء بلنت رد سلطان فإذا به يقول: (لقد زال الخلاف الذي كان بين الخديو وبين الوزارة ولم يبق له أثر. وكلنا متفق على المحافظة على الأمن والسلام وعلى مناصرة الوزارة الحاضرة)
وتلقى كذلك مسير بلنت برقية من الشيخ الأمبابي شيخ الجامع الأزهر نصها: (من الشيخ الأنبابي شيخ الإسلام. سوى الخلاف بين الوزارة والخديو، والحزب الوطني راض بعرابي، والأمة والجيش متحدان)
وكتب الشيخ محمد عبده إليه أيضاً مثل هذا المعنى.
(يتبع)
الخفيف
من نار الفراق
قبلما يتمرد القلب!
سأغضب، فاخشى غضبتي، إن نارها=بقلبي بركان خفي)
(معربد
للأستاذ محمود حسن إسماعيل
1 - الغضب الملتاع. . .
سأغضبُ. . . لا أجفو، ولا أتمرَّدُ ... ولكنْ ضبابٌ سوْف يَنْكى له الغدُ!
سأغضبُ. . . لا أسلو! وكيفَ؟! وإنما ... حَبيبُكِ تُضنيهِ الجراحُ فيزْهدُ
ويزْهدُ لا عنْ نُور عيْنَيْكِ. . . إنما ... أغاني الهوَى للقَصْرِ تَبْلى وتَنفدُ
ويُصبِحُ شادِيكِ المُعَذَّبُ غُنْوَةً ... مُكبَّلةَ الأنغامِ لا تَتَنهَّدُ
خَريفيَّةَ الأحلامِ، قَبْرِيّةَ الصَّدَى ... بها الحُبُّ مَخنوقُ الشُّعاعِ مُقَيَّدُ
تُولْوِلُ في صَمْتِ الدُّموعِ كأنها ... عَزيفُ الليالي. . . لا ربابٌ، ولا يَدُ!
سأغضب. . . فاخشيْ غضبتي! إنَّ نارها ... بِقَلْبي بُركانٌ خَفِيٌّ مُعَرْبِدُ
إذا ثارَ. . . يا ويْل الهوَى! ويْلَ صفوِهِ ... إذا هَبَّ إعصارُ الملالِ المبَدِّدُ
ويا ويْل ما غنَّت لكِ الرُّوح شِعرَها! ... سَيَصْمُتُ بي هذا العَذابُ المغرِّدُ
وتَثْمَلُ أَوْتاري بخمْرٍ شَقيَّةٍ ... على كأسِها جِنُّ الأسَى مُتَمَرِّدُ
سَقَى كرْمَها دَمعُ الثَّكالَى، وهَزَّها ... أنينٌ على لَيْلَ الحَزانَى مُتَردِّدُ
فإنْ رُمْتُ تَغْريداً لحُسْنِكِ لَقَّني ... جُنوني، وأعْياني السُّكون المشَرَّدُ
ويَغْدُو إلهُ الحُسنِ في عُزْلَةِ الهوَى ... فلا الحُسن معبودٌ، ولا الصَّبُّ يعبُدُ. .
سأغضبُ. . . لكنْ غضبةَ الزَّهر حِينما ... يُجافيهِ ظِلٌّ في الهَجيرِ مُمَدَّدُ
سأغضب. . لكن غضبةَ اللَّحْن حينما ... يَدِفُّ به في قَفْرَةِ السمْعِ مُنشِدُ
سأغضب يا نَبْعَ الرِّضا وظِلالَهُ ... ويا مَنْ إليها جَذْوَتي تَتوَقَّدُ

فخِفِّي إلى أيَّاميَ السُّودِ، وامسحي ... جَبيناً على كفَّيكِ كم راحَ يَسجدُ!
وَرُفِّي خُطاكِ البِيضِ إني بِنورها ... إلى واحَتي الكُبرَى أَسِيرُ وأَرْشَدُ. .
التوبة الكبرى - 2
(القبلة!. . .)
وأَبْعَدُ آفاقِ الهَوَى مِنكِ قُبلَةٌ ... هِيَ الخُلْدُ أوْ في حبِّنا هِيَ أَخْلَدُ . . .
بَقيَّةُ آمالي من الكونِ طَيفُها ... أبِيتُ لهُ مِنْ لَوْعَتِي أَتَهَجَّدُ
نَشُيدة أحْلامِي من الحبِّ، دُونَها ... وعُمرِي كَعصْفِ السّافِياتِ يُبدّدُ
فهاتِي لرُوحي خَمْرَها وجُنونَها ... فَمَا بِسِوَاهَا مُهْيجَتِي تَتَعَبّدُ
هِيَ التّوْبةُ الكبرى لِجسمي إذا غَدَتْ ... بِهِ شَهْوَةُ الآثامِ تُرغْى وتُزْبِدُ
فلا تحْبِسيها في الشّفاه. . . وأقْبِلي ... بِثَوْرتها. . . فالعُمْرُ أوشكَ يَنْفدُ!
(سأغضب. . . لا أجفُو! ولا أتمرّدُ ... ولكنْ ضبابٌ سَوْف يبكي له العَدُ)
(فخِفِّي إلى أيامِيَ السُّود، وامْسَحي ... جبيناً على كفَّيك كم راحَ يَسْجُدُ!)
(القاهرة)
محمود حسن إسماعيل
كلمة ولوع
للأستاذ خليل شيبوب
غريبةٌ هذه الحياةُ ... وكل ما في الورى غريبُ
يا هند ما بال مقلتيك ... ملؤهما الدمع والصفاء
كأنما تحت حاجبيك ... من الدجى النجم والضياء
فكفكفي الدمع لا عليك ... تبتسم الأرض والسماء
هذا فؤادي يجثو لديك ... عبادة والهوى ضروب
غريبة هذه الحياة ... وكل ما في الورى غريب
لما سكرنا من التصابي ... صرنا بأمنٍ من الوجلْ
نحن حسبنا الهوى يحابي ... قلباً بقلبٍ قد اتَّصل
فضاع ما كان من حساب ... وخاب ما كان من أمل
الموت أشفى من بعض ما بي ... لو أنه حاضر قريب
غريبة هذه الحياة ... وكل ما في الورى غريب
نحن اجتمعنا ثم افترقنا ... وهكذا العمر ينقضي
الحب نار بها احترقنا ... والنار تفني وإن تُضي
بنا اشتفى من لو اتفقنا ... ما كان يرضى فلا رضي
يراقب السُّمّ قد شرقنا ... به ولا يشعر الرقيب
غريبة هذه الحياةُ ... وكل ما في الورى غريب
ما قيمة الكون والبرايا ... في عالم بارز الرؤى
لعلها هُيِّئَتْ ضحايا ... لعالَم آخر نأى
وإنما هذه الرزايا ... أوجَعُها الحُبُّ مخطئا
حسبت في نوره هدايا ... إذاً ضلالي فيه مريب
غريبة هذه الحياةُ ... وكل ما في الورى غريب
يا هند إني فقدت رشدي ... سامحك الله في رشادي
أضعته فيك وهو عندي ... أعز في العين من رقادي
يا حبها ما نقضت عهدي ... لها ولا حُلْتُ عن ودادي
أدعوكِ هنداً وأي هند ... أدعو ولا سامع مجيب
غريبة هذه الحياةُ ... وكل ما في الورى غريب
نحن ضيوفٌ على الزمان ... منزلنا الليل والنهار
وما لنا فيه من أمان ... ولا لنا فيهما قرار
من تحتنا لُجَّةُ المكان ... وفوقنا لُجَّةٌ تُدار
وعمرنا شرُّ ما نعاني ... فداؤنا ما له طبيب
غريبة هذه الحياة ... وكل ما في الورى غريب
(الإسكندرية)
خليل شيبوب

العودة. . .
للأستاذ العوضي الوكيل
تَعودينَ لي. . . حبَّذا أن تعودي ... وأن تصِليني بعيْشٍ جديدِ
تعُودينَ أروعَ ما عادَ لي ... ربيعٌ تحلَّى بزاهي الورود
تعودينَ مُشْرقةً في الضميرِ ... ورائعةً كمعاني القَصِيد. . .
وفاتنةً كبناتِ الخيالِ ... وآخذةً بعِنانِ النَّشِيد
تعودينَ لمحةَ طَرْفي اللهيف ... ونبضةَ قلبي المشُوقِ العميد
تعودين أنساً لذي نُفْرَةٍ ... يَقِرّ به بعد طولِ الشُّرودُ
وراحةَ ذي سفرٍ مُجهَدٍ ... يميل لها بَعدَ مُضنِي الجهود
كأنَّ النوى سَفرٌ في الهجيرِ ... بصحراءَ ما إن لها من حدودِ!
تعودينَ. . . رُبَّتَمَا عودةٍ ... تَبُثُّ بشعري معاني الخُلودِ
فكم قَبْسةٍ منك في طَيِّهِ ... وأخرى بروحِيَ عندَ الوَصِيد
أهمُّ لألْقِيَها في الحروفِ ... فَتعْيا بها لهَجاتُ الوُجود
فاحبِسها في دمِي نَشْوَةً ... وروحِي تَهتف: هل من مزيد؟
تعودينَ. . . رُبَّتَمَا عودة ... تُضاعف إحساس قلبٍ رشيد
فيخلُقُ فيك المعاني العِذاب ... وينظمها في النِّضارِ النَّضيد
ويُخصِبُ في القولِ إخصابَهُ ... ويرفَعُ فيهِ رفيعَ البُنودِ. . .
ويُنهِلُ من شاءَ منْ وِرْدِهِ ... ولا من ورودٍ كهذا الوُرودِ!
تعودينَ. . . يا حُسنَ أنسِ اللقاءِ ... حُفْ بِثغْرٍ رَوِيٍّ وَجِيدِ
ألا فأطيلي الزمانَ القَصيرَ (م) ... نَغْنَمُهُ بَعدَ يأسٍ شديدِ
ومُدِّيه مَدَّاً ولا تَبْخلي ... على ذلكَ الطامِعِ المستزيدِ!
(دماس - دقهلية)
العوضي الوكيل
رسالة الفن
دراسات في الفن
الحرب والفن
للأستاذ عزيز أحمد فهمي
الشعوب المحاربة بطبعها هي الشعوب التي تسكن الصحارى والمراعي، وما يشبه الصحارى والمراعي من الأرض القاسية على أبنائها التي لا تجود عليهم برزق كاف أو رزق منتظم، فيحملهم الفقر على هجرة أرضهم والإغارة على أرض غيرهم لينهبوها ويعودوا إلى أرضهم، أو ليغتصبوها ويستوطنوها سادة لأهلها. فإذا اطمأنوا في أرضهم الجديدة فإنهم على مر الزمن قالعون عن طبعهم داخلون في طبعها فلا يبقى لهم من نزوعهم إلى المحاربة إلا ما سمحت به
أما وهم على طبعهم الميال إلى الحرب فإن فنونهم تكون مما يلائم حياتهم. وهم في حياتهم رحالة، فقراء، مقاتلون؛ وقلقهم الدائم الذي يضطرهم إلى الهجرات المتتابعة لا يخلق عندهم الفنون التي تحتاج إلى أدوات ثقيلة، والى مكان تسكنه. لهذا لم يكن عند القوقاز تماثيل ولا صور، ولهذا لم يكن عند العرب موسيقى مما يستلزم عزفها الأدوات الثقيلة التي تزحم المحارب في المحارب. ولهذا لم يكد يكون عند الشعوب المحاربة من الفنون إلا الشعر والغناء والرقص
أما فقرهم فيصيغ روح الفن نفسها، فهو يخلق فيهم حباً للمال كما يخلق فيهم زهداً فيه. فهم يحبونه لأنه دليل على البطولة الواجبة للحصول عليه لأنه لا يستخلص إلا بالحرب والمجاهدة؛ وهم يزهدون فيه لأنه ليس دليلاً على شيء من هذا، فقد يبذل الكريم ماله للمحتاج حتى يفتقر فلا يأسف على ضياعه ولا يمكنه أن يعلن حسرته عليه إلا إذا أراد أن يعرض بأهله وأن يتهمهم بالتخلي عنه حتى ليستشعر الذل، أو إذا كان هذا الفقر نتيجة لكارثة لم يكن للإنسان يد في صدها كالطوفان أو الحريق
ودأبهم على المقاتلة يشارك هذا الفقر في صبغة روح الفن كذلك، إذ يخلق لهم مثلاً علياً من

البطولة، والشجاعة، والكرم والسماحة، والمروءة، والعزة، واحترام الكبير صاحب التجارب مهما هرم وضعف، واحترام الصغير الضعيف، واحترام المرأة العاجزة، إلى غير ذلك من أخلاق الفتوة والفروسية.

ومن أبرز ما تخلقه الطبيعة في نفوس هؤلاء المحاربين: شدة الإيمان بالقضاء والقدر، وبإسراع هذه الحياة إلى الذهاب، وبهوان شأن هذه الحياة نفسها؛ فيخلق هذه في فنونهم إلى جانب عنفها الأصيل، روحاً من المرح والمجون والاستخفاف الذي يشبه الطيش أحياناً، تشجيعاً لهم على الحرب، وتعزية لهم بين الحرب والحرب.

ويظهر هذا في الشعر، كما يظهر في الغناء، وكما يظهر في الرقص

أما الشعر، فتكاد لا تخلو قصيدة جاهلية مما يدل على طبيعة العرب الأولى من ذكر النساء والخمر، والعبث. . . فوق أساسها القائم على الفخر وتعداد المآثر، ودلائل البطولة، وأيام النصر

وأما الغناء فلم تجد به الطبيعة على العرب إلا لينفس به أفراد عن خوالج ذواتهم. وذلك أن الطبيعة في بلاد العرب تكاد تكون بكماء لا تعلم الآذان إلا حسن الإصغاء إلى الصمت، وذلك على خلاف أوطان القوقاز التي تشارف البحور من بعض أطرافها، وللبحور أصوات، والتي تنطوي على الجنات الصغار في بعض أنحائها، وفي هذه الجنات مياه وأطيار وأشجار ودواب، ولكل هذه أصوات، والتي قد تهب فيها على هذه الجنات نسائم، وقد تهب رياح، وللنسائم همسات، وللزوابع صرخات؛ وقد تعلم القوقاز من شدو الطبيعة هذا غناء أوفر مما تعلمه العرب، فكان لغنائهم ألوان للأفراد، وألوان للجماعات، وألوان أخرى لشتى المباهج والأحزان، وألوان طاوعتهم في التعبير عن أنفسهم وما في أنفسهم من الحماسة والفخر والبطولة. . . وإلى جانب هذا، فإن في غناء القوقاز ما يقوم دليلاً على حبهم للنساء والخمر والعبث

وأما الرقص ففيه هذا كله أيضاً. . . فهو رقص بالخناجر والسيوف. وهو ليس إلا تمثيلاً للحرب، فيه من عنفها وحدتها كل عنفها وحدتها، لا يخففها شيء إلا ما يذكره المحاربون دائماً وهم في (أوقات الفراغ) من جمال النساء، وحلاوة الخمر، وبهجة العبث.

فالراقص العربي والراقص القوقازي يكران ويفران، ويضربان ويطعنان، ولكنهما مع هذا

يتثنيان ويتخلعان رشاقة وتلطفاً إرضاء للمرأة، كما يرتشفان الهواء وهما يرقصان ثم يترنحان سكراً أو تمثيلاً للسكر، كما يهزلان ويخلطان عبثاً ومرحاً ومجوناً

هذه هي فنون الحرب في الشعوب المطبوعة على الحرب وهي منطلقة بفطرتها في براح الأرض.

وعندما تستقر هذه الشعوب تبدأ فيها فنون الاستقرار، فينشأ الرسم والنحت والخط والعمارة والتمثيل. . . ولعل أقرب مثل لهذه الشعوب هو الشعب التركي، فإنه لم تنشأ عنده هذه الفنون الأخرى إلا عندما اطمأن في أوربا، أما قبل ذلك فقد كان الشعب كله جيشاً، والجيش لا يملك أن يستقر لفن ما. ولم يظهر النحت في الحضارة التركية العثمانية لأنها كانت حضارة إسلامية، ولأن المسلمين ظلوا زمناً طويلاً وهم يكرهون النحت لصلته القديمة بالوثنية الجاهلية التي أقام العرب فيها الأصنام ليعبدوها محاكاة لما كانت تفعله المدنيات التي كانت تطوق جزيرتهم. فالنحت ليس من فنون المحاربين، ولذلك فإننا لا نراه عند القوقاز الذين لم يتسرب إليهم مثلما تسرب إلى العرب من رشح المدنيات

وعندما تحارب الشعوب المستقرة بعضها بعضاً، أو عندما تصد هذه الشعوب غارة الغائرين عليها، تكف العمارة، ويكف النحت. وقد كان للرسم أن ينام أيضاً لولا أن الطباعة تمهد له الانتقال الذي يلائم الحرب. وقد كان للتمثيل أن يهدأ كذلك لولا أنه ينقلب دعايات حربية. أما الشعر والغناء والرقص فهي فنون الحرب التي تستطيع مصاحبتها ومعاشرتها في كل حين.

والعمارة تكف لأن الحرب تهدم القائم المبني فيما مضى، وهذا لا يشجع على البناء الجديد مادام البناء عرضة للهدم، والنحت يكف لأن صاحبه لن يجد عندما ينشغل الناس بالحرب من يزوره ليقرأ السلام على تمثاله، والرسم ليس من فنون الحرب الطبيعية لاستلزامه المكان والأدوات الثقيلة، وكذلك التمثيل، بل إن التمثيل يزيد على

الرسم امتناعاً في الحرب لأنه يستلزم بطبعه كثيراً من الهدوء والاستسلام إلى حادثات الزمان ليستخلص منها موضوعات، والهدوء في الحرب منعدم، ولا حوادث في الحرب إلا هذه المآسي ذات اللون الواحد والطابع الواحد، وهي مما يحسه الأفراد العاديون إحساساً لا يمتاز عليه إحساس الفنانين امتيازاً كبيراً، وهي مما يعبر عنه الناس في كل ساعة بأقوالهم وأفعالهم فهم في
غنى عن ترديده وترجيعه في رحاب الفن
ولكن الرسم أنقذته المطبعة فمكنته من الحياة في الحرب، والتمثيل استعانته الدعاية فأعانها وإنه لقدير على نجدتها
والرسم والتمثيل فنان، وهما لا يستطيعان متى تيقظا أن يستعصيا على دوافع الحياة ومؤثراتها فلا بد أن يخضعا لما تخضع له فنون الحرب من هذه الدوافع وهذه المؤثرات.
ولا بد أن تدب إليهما ما تخلقه الحرب في الأحياء من الحماسة والفخر بالبطولة والفتوة وسائر فضائل الحرب، كما يجب أن يشيع فيها الميل إلى النساء والخمر والعبث. فهذا الموكب من الأحاسيس هو الذي تتجند له البشرية في الحرب
والعالم اليوم في حرب، فهل ستنطبع الفنون بهذا الطابع الذي تبصمها به الحرب؟
قد كان العالم في حرب منذ ربع قرن. ولقد حدث أن تأثرت الفنون بالحرب، فتوقفت العمارة والنحت، وانتعش الشعر بروح الحماسة التي استطاعت بقدرة الله أن تصل حتى إلى مصر وإلى أمير شعرائها المترف المرحوم أحمد شوقي بك فقال:
بني مصر مكانكمو تهيأ ... فهيا مهدوا للملك هيا
خذوا شمس النهار له حلياً ... ألم تك تاج أولكم مليا؟
ومع أن الشعب لم يكن يفهم هذا الكلام (النحوي) فقد أساغه في لحن صاغه له . . .
فرد من أفراده كان فقيهاً يقرأ القرآن في المقابر، وكان فقيراً يستعين على الحياة في محنته بدهن الجدران وطلائها، وكان يغني في المواخير حيث كان يستطيع أن يجد من لا يتكبرون على الاستماع إليه وهو المرحوم الشيخ سيد درويش الذي غنى هذا النشيد بين عشرات الأغاني الملتهبة الأخرى
وكما انتعش الشعر بهذه الروح الحماسية: سواء منه العربي والمصري الدارج، فقد انتعش الغناء بها في العالم كله وفي مصر أيضاً بفضل سيد درويش كذلك، ولم يبرأ الغناء في العالم كله، ومصر محسوبة في العالم، من الإسراف في ذكر النساء والخمر والعبث
أما الرقص فقد جن جنونه في الدنيا، وكف الراقصون عن التانجو والفالس والفوكس تروت، وعفرتتهم الشارلستون وأمثالها من الرقصات المجنونة المكهربة التي انتشرت في العالم على أثر هدأة الحرب، والتي أخذها العالم عن الجنود الذين اقتبسوها من زملائهم
المحاربين الزنوج الذين كانوا يجمعون من المستعمرات، فرأوا فيها ما كانت تنزع إليه أجسامهم من الترنح والنزق. وقد مهد لهذه الرقصات الشعواء عند الناس حال النشاط الخارق وتوتر الأعصاب الذي استولى عليهم في الحرب
أما الرسم فقد سخرته الحرب، فكان من أقوى وسائل الدعاية فيها، وازدهر منه الكاريكاتير الذي يحتمل سخرية الخصوم بالخصوم، والذي ينفسح لكل خيال يحلق إليه الرسام
ومع هذا فلم يخل رسم الحرب من النساء والخمر والعبث، فقد انتشرت في الحرب العالمية الماضية صور النساء العاريات، والرجال العراة، كما ذاعت نكات السكارى المصورة وغيرها من النكات. . .
وكذلك التمثيل فقد احتضنت منه الدعاية جانباً كما احتضن منه المجون جانباً، فشارلي شابلن، وريجيدان , وكشكش بك، والبربري عثمان، كلهم من مواليد الحرب، وقد كانوا جميعاً في تمثيلهم يؤدون واجب الدعاية لأوطانهم وجيوشهم، كما كانوا جميعاً في يروحون عن الناس بتهريجهم. وإذا كانوا قد مثلوا شيئاً بعد الحرب فإن طابع الحرب ظاهر فيه إلى مدى بعيد، فالعالم لم يستطع أن يتحول بشعوره عن حالة الحرب إلا بعد وقت طويل من خمودها.
والذي يتابع روايات شارلي شابلن يرى أنها أخذت تتخلص شيئاً فشيئاً من التهريج المناسب للحرب، وتذهب شيئاً فشيئاً إلى نقد الحياة الإنسانية في جوهر نفسها وفي

مظاهر اجتماعها حتى كانت روايته الأخيرة (العصر الحديث) نقداً عاماً للإنسانية عامة.
ولكن شارلي لا بد أن يعود إلى فن الحرب منذ اليوم. بل لقد أعلن العالم بروايته
(الديكتاتورية) التي سيقارع بها ألمانيا وهتلر والتي أعتقد أن أثرها في النيل منهما
سيكون أعظم بكثير من حملة تجردها جيوش كثيرة عليهما. . . فإن هذه الرواية
ستكون حملة يقود فيها شارلي شعبه الهائل الذي يكاد يشتمل أفراد الإنسانية جميعاً.
وكذلك من يتابع روايات نجيب الريحاني يرى أنها كانت في أيام الحرب دعاية وبهجة
وتهريجاً وعرضاً موسيقياً اتسع لثلاث زعامات فنية: هي زعامة نجيب الريحاني، وزعامة
بديع خيري، وزعامة سيد درويش. . . ثم أخذ مسرح الريحاني بعد ذلك يهدأ قليلاً قليلاً،
حتى مثل الريحاني في السنوات الأخيرة كوميديات تكاد تكون درامات من كثرة ما فيها من
الجد إلى جانب الهزل، ومن وضوح الهدف الخلقي الذي كانت تنطلق إليه. فقد كان
الريحاني أخيراً زعيماً مصرياً اجتماعياً مصلحاً، هو وشريكه بديع
وأجد الحق يجبرني على أن أشهد بها لله أن مسرح الريحاني هو البيئة الفنية التي
تماشي الحياة الطبيعية في مصر أكثر من غيرها
ولابد أن يتغير الريحاني في الحرب. ولكنه في هذه المرة لابد أن يرتقي عما كان عليه
في الحرب السابقة، ولابد أن ينثر الدعاية والتهريج الأصيلين بين درر من موسيقى
زكريا أحمد وفن الجد، وإن له في شارلي شابلن أستاذه أو زميله الكبير أسوة
فإذا كان حال الفنون في الحرب العالمية الماضية هو هذا الحال الذي رأيناه فسيكون
إذن حال الفنون هو هذا الحال نفسه في هذه الحرب العالمية القائمة إذا طال أمدها
وتمكنت مؤثراتها من النفوس؛ وستكون هذه هي الحال في فنون الدنيا كلها، فإذا لم
تظهر مثل هذه الفنون في مصر فان مصر إذن خالية من الفنانين. . .
وكل هؤلاء الذين يقولون نحن ونحن. . . عليهم أن يقروا في المخابئ وعلى أفواههم
الكمامات. . . فهذا هو مجال الفن إذا كانوا يحسون أثر الحرب
- فإذا لم يكونوا يحسون الحرب؟!
- فقد يحسون القيامة. . . فصبراً إلى يوم يبعثون!
عزيز أحمد فهمي
رسالة العلم
لحظات الإلهام في تاريخ العلوم
تأليف مريون فلورنس لانسنغ
عصر النار - 2
منذ عصور طويلة أدرك الإنسان وجوده في هذه الدنيا. ومع أنها وطنه ووطن أبنائه
وأحفاده إلى مدى أجيال لا عداد لها فإنه كان غريباً فيها، وكان عليه أن يتعرف على كل
شيء بها.
وكل طفل يولد في هذه الدنيا يولد غريباً، حتى في داره. فالوليد يتعرف في بطئ على
الحجرة التي يقيم فيها، ثم على الطريق الذي به مسكنه، وعلى أبيه، وأمه، واخوته،
وأخواته؛ ويتبين فيما بعد أنه يستطيع المشي، وأنه يستطيع الكلام!
وفي يوم ما ينتقل من هذا العالم الصغير عالم الدار إلى المدرسة فيجد دنيا أوسع من
التي عرفها من قبل. وربما سافر بعد ذلك فعرف عن دنياه أكثر وأكثر
ومهما يؤد المرء من عمل فإن غيره قد هيأ له سبيله فسهل عليه تناوله، فعندما يتقدم
الصغير في السن ويريد أن يشيد لنفسه منزلاً فإنه لا يحتاج إلى تعلم صناعة ابتناء
المنازل فإن تلك الصناعة معدة متهيئة لما يقع عليه اختياره، وليس على من يريد
التخاطب بالمسرة أن يخترعها، بل يدعو الأخصائيين فيضعون الأسلاك في منزله.
وتنقل إليه الصحف واللاسلكية والصور المتحركة أخبار العالم وتخبره الكتب عن
جغرافيته وتاريخه ويتهيأ العالم بسائر الوسائل العلمية
ومن بواعث السرور لنا نحن الذين وجدنا حياتنا مريحة ميسرة ممتعة أن نتعرف على
الرجال والنساء اللذين هيئوا لنا العالم هذه التهيئة
إنهم أناس عاشوا في هذه الدنيا قبل أن نوجد بها، وعاشوا فيها في عصور بعيدة
مظلمة. وليس في وسعنا أن نعرف شيئاً عن فريق منهم إلا بواسطة ما تركوه لنا من
الأشياء كالأسلحة الحجرية والنقوش المرسومة على الكهوف ومعابد الآلهة. ومن هؤلاء

الرجال فريق آخر عاش في عصر الأقاصيص والسير حين كانت أعمال الإنسان تنقل أخبارها إلى
بقاع الأرض بالحديث الشائع الذي لا يدرون كتابته
ومنهم فريق ثالث عاش في بداية العصر التاريخي، وفريق عاش في القرون الوسطى، وآخر عاش في بضع المائتين الأخيرة من السنين، ولا يزال فريق غير هؤلاء يعيش بين ظهرانينا إلى الآن
لم يصل إلى الناس أي جزء من المعرفة إلا بواسطة استكشافه على يد إنسان. وقد كانت الأرض التي وجد الإنسان الأسبق نفسه فوق ظهرها حافلة بالكنوز كما هي اليوم، ولكنه لم يستطع استكشاف كنوزها لنفسه فلم تفض إليه بأسرارها، وكان عليه أن يتعلم إيقاد النار وإذابة الحديد الواشج بالصخور، وكان عليه أن يعرف مقاييس الزمن وأن يستخدم البوصلة في تسيير السفن، وكان البخار والكهرباء ينتظران استكشافهما على يده، والفحم والنفط لا يزالان مدفونين في باطن الأرض قبل أن يستخدمهما في إدارة الآلات
وكان إنسان العصور السابقة يستطيع لكل هذه العناصر أن يأتي بالعجائب ولكن كان لابد له قبل ذلك أن يستكشفها، وأن يعرف مزاياها.
وبسبب الحذق الذي أبداه الإنسان في أعماله أصبح اليوم غير غريب عن دنياه، وليس ذلك فقط، ولكنه أصبح السيد المنتصر في الدنيا
لقد اجتاب على مدى قرون طريقاً طويلاً جبلياً فأصبح هذا الطريق مهيعه إلى النصر وكما أنه لابد أن يوجد دائماً رجل مشغوف بالمخاطر منتج من شأنه أن يضيف جزءاً من المعرفة إلى كنوز المعرفة وإلى الذهن الإنساني، فكذلك توجد دائماً لحظة في حياة كل رجل من هؤلاء الرجال هي التي يتبين فيها حقيقة جديدة تدفع إلى عمل شيء يجعله ويجعل جيرته أحكم أو أرغد أو أغنى أو أسعد. هذه هي اللحظات التي تدور حولها قصصنا هذه
إن العلم معرفة من المعارف الإنسانية وقد نمت المعرفة الإنسانية بما في الأنفس من نزعات وثابة جوالة جوابة، ومثل اللحظات العظيمة في حياة العلم على مدى العصور كمثل لحظات الإلهام والنصر في حياة الفرد، وفي هذه اللحظات يظهر الإنسان وهو المخلوق الذي ميزته الروح والعقل بمظهر الانتصار على دنيا المادة
سر صنع النار
كما يرويه أهل الجزر في المحيط الهادي
منذ أجيال طويلة، كان أبناء الفناء لا يزالون حديثي العهد بسكنى الأرض، ولم يكن أحد منهم ليعرف سر صناعة النار، ولم يكن يعرف ذلك السر إلا آلهة العالم السفلي.
وكانوا يتولون حراستها دائبين خشية أن يعلم الإنسان ذلك السر، فيصبح من الحكمة في مستواهم. وقد كان موطن النار في العالم السفلي كما يعرف ذلك كل من رأى دخانها المتصاعد من فوهات البراكين. ولكن كان من الصعب تعرف الطريق إلى ذلك العالم، لأن الرقباء كان كثيراً عددهم على أبوابها.
وحدث مرة أن أقام بين الفانين في العالم العلوي شاب اسمه ماوي؛ ومع أنه فان كسائر من على ظهر الأرض، فإن أبويه كانا يعيشان في العالم السفلي بين آلهته، وكانوا يترددون إلى الأرض للقيام بمهام الآلهة.
وكانت أم ماوي واسمها (بوراتاتنجا) إذا أتت لزيارته أبت أن تؤاكله، وكانت في ذهابها ومجيئها تحمل سلة أتت بها من العالم السفلي، وهي تتناول الطعام على انفراد مما في تلك السلة. وفي أثناء نومها يوماً نظر ماوي إلى ما في السلة، وأخذ منها طعاماً، فذاقه، فوجده أفضل من كل ما ذاقه إلى الآن. ومع أنه كان من نوع سائر الطعام، فإن به شيئاً يجعله أفضل منه.
وعلم ماوي شيئاً عن النار وعرف أن الآلهة يطبخون الطعام على النار التي يصنعونها، فأصر على أن يملك النار ما دامت تجعل الطعام من الجودة كما رآه. وأصر على مراقبة أمه سراً عند عودتها، وعلى أن يخاطر بالذهاب إلى العالم السفلي ليحظى بهذه الهبة الغالية
واقتفى ماوي أثر أمه وأفلت من الحراس عند الأبواب الأولى؛ أما عند بعض الأبواب الداخلية فقد كان عليه أن ينتظر طويلاً حتى يتبدل الحراس ليتمكن من الدخول أثناء

اشتغالهم بالكلام
لكنه وصل بعد مخاطرات كثيرة إلى منزل أمه وقال لها: إنه غير راغب في العودة إلى العالم الأرضي حتى يعلم سر صناعة النار
قالت الأم: (ولكنني لا أعلم هذا السر ولا يعلمه أحد غير إله النار وهو لا يفشيه. ومتى احتجت إلى نار جديدة فإني أذهب إلى أبيك (بو) وهو يذهب إلى إله النار ويطلب إليه منحه جزءاً من الخشب المحترق
قال ماوي: (إذن فسأذهب إلى إله النار وأطلب إليه تعليمي سرها)
فبذلت بوراتاتنجا كل ما في وسعها لتبعد ابنها عن إله النار لخشيتها أن يصاب ابنها الفاني في العالم السفلي. ولكن ماوي أصر على الذهاب وسأل عن موطن إله النار فدلته أمه على الطريق وكان اسم مسكنه (بيت شجر الموز)
وقالت له حين هم بالذهاب: (احترس يا ماوي فإن إله النار قوي جداً وقد يشتد به الغضب)
وذهب ماوي إلى بيت إله النار وعرفه للحال عندما رآه لكثرة الدخان المتصاعد فوق سطحه
وكان إله النار مشغولاً بطبخ طعامه، ولكنه وقف وسأل ماوي عما يريد
قال ماوي: (أريد جذوة من النار). فكان جواب إله النار - وهو يعود إلى الطبخ -: (لن ينال أحد الفانين جذوة من النار)
قال ماوي: (إن الفانين في حاجة إلى النار، وإنه قطع كل هذه المسافة أملاً في الحصول عليها) فقال الإله وقد ولاه ظهره: (لقد علم الفانون ما فيه الكفاية، ولو عرفوا النار أيضاً لصاروا آلهة. . .)
وعاد ماوي حزيناً لأنه رأى إله النار لن يعلمه هذا السر. ولكنه عزم على البقاء مختبئاً بالقرب من منزل إله النار ليرى هل سيكون في وسعه أن يعرف بنفسه سرها. ومع أنه طلب جذوة من النار - كما أخبرته أمه أن أباه يفعل - فإنه أدرك أثناء نظره إليها أن جذوة لن تكفيه لأنه لا يستطيع أن يستبقيها مشتعلة أثناء رحلته إلى الدنيا
واختبأ ماوي بين أشجار الموز وراقب إله النار وهو يغذيها فلما تعب وجاع أسعده الحظ وهو يكاد ييأس ويعود إلى بيت أمه، فمن خلال الفوهة الجبلية التي كان إله النار يرسل منها دخان ناره إلى العالم (حيث لا يزال الناس يرونه إلى هذا اليوم) - من خلال هذه الفوهة انصب وابل من المطر، وكانت نار هذا الإله تحت هذه الفوهة مباشرة. وكان اندفاع الماء شديداً فلم يجد الإله فرصة حتى ولا لأخذ جذوة منها فانطفأت النار قبل أن يجد متسعاً من الوقت للالتفات.
وكان إله النار في البداية حاد الغضب فلم يستطع أن يفعل شيئاً سوى أنه لعن المطر الذي أطفأ ناره قبل أن ينضج طعامه أو يكاد. ثم التفت ليستوثق من أن أحداً ليس قيد النظر.
ولكنه لم ير ماوي الذي كان على شجرة مشرفة على المنزل، ثم دخل حجرة أخرى وأغلق الباب، وأخذ من بعض أركانها قدراً من ألياف مجففة من الكاكاو وأخذ قدراً من ركن آخر نحو خمسة أو ستة من فروع الموز. وكان في وسط الغرفة كتلة صغيرة من خشب صلب بوسطها تجويف
وكان ماوي يراقب باهتمام ما يفعله إله النار فوجده ينتقي فرعاً خفيفا من فروع الموز ويفتله فتلاً محكماً ويمسك بقوة أطرافه المفتولة ويحكها بقاع الفجوة التي بالكتلة الخشبية
وكان في أثناء فتله ينشد:
شجر الموز يا شجر ... أعطني منك ما استتر
جذوة منك تختفي ... خلف غض من الثمر
أعطني منك جذوة ... حية تبعث الشرر
وفي هذه الأثناء رأى ماوي الدخان وقد بدأ يتصاعد من الفرع المفتول في الفجوة، ثم زاد تصاعد الدخان، فلما رأى الإله تصاعد الدخان ألقى في النار بألياف الكاكاو. ودهش ماوي إذ رأى ناراً محرقة ساطعة
لم يضيع ماوي وقته سدىً بل أسرع بالعودة إلى العالم وأخذ ألياف الكاكاو وفروع الموز وكتلة من الخشب الصلب وبدأ يجرب العمل بذلك ليعرف هل يستطيع الحصول

على النار
وقد استغرقت منه التجربة وقتاً طويلاً لأن صنع النار ليس بالعمل السهل. وستدرك ذلك إذا حاولته. ولكنه استفاد من تجاريبه علمه كيف يمسك بورقة الموز الجافة وكيف يفتلها وكيف يشتد في حكاكها بالخشب
ولما وثق ماوي من أن النار تعيش في شجر الموز وأن في وسع أي إنسان أن يحصل على جذواتها - ذهب إلى رؤساء القبيلة فأخبرهم بذلك فجاءوا إليه خلسة وراقبوا صنعه النار
ومع أن بعضهم خافوا أن يحل بهم غضب الآلهة لأنهم تعلموا هذا السر غير المباح للفانين فإن أجرأ هؤلاء الزعماء طربوا لحصولهم على هذه القوة
بعد ذلك علم الناس أن النار تكمن في الخشب، وأنها تخرج منه طوع الإرادة، وأن أحدهم يستطيع أن يصنع النار كلما أراد فينضج طعامه ويدفئ نفسه
وكان يوماً عظيماً في عمر الإنسان ذلك اليوم الذي عرف فيه كيف يصنع النار
(يتبع)
ع. ا
من هنا ومن هناك
لغة الشعر وأثرها في الحروب الحديثة
عن (فيلادفيا انكويارار)
من الوسائل الهامة في أيام الحروب فن كتابة الرسائل السرية. وقد ألف مستر فليشر برات كتاباً جديداً بين فيه أصول هذا الفن منذ نشأ إلى أن ترقى وعم استعماله بين سائر الأمم.
وقول مستر برات في كتابه سالف الذكر: (إن سائر اللغات المكتوبة (شفر) وليس لرموزها معنى في ذاتها، إلا أنها تكون ذات معنى حينما تترجم بطريقة يعرف سرها الكاتب والقارئ؛ وإذا كان هذا قد غاب عن أذهان الناس، فذلك لأننا نتعلم القراءة ونحن على أبواب الحياة)
ولكي نفهم ذلك تمام الفهم، يجب أن نرجع بأذهاننا إلى العصور الوسطى، فقد كان اللذين يعرفون القراءة ندرة في تلك العصور؛ فإذا تسلم أحدهم رسالة، ذهب بها إلى شخص يعرف القراءة ليحل رموزها، كما نفعل حينما ترد علينا رسالة مكتوبة بالشفرة في هذه الأيام.
وكن طبيعياً بعد انتشار القراءة أن تظهر الحاجة إلى لغة الشفرة. أما لغة الأسرار الحربية في العصر الحديث فقد ظهرت الحاجة إليها متأخرة، ولم يصل فن الكتابة السرية إلى الدرجة القصوى من الأهمية إلا بعد نشوب الحرب العظمى. حتى أن كبار الضباط البريطانيين في حرب البوير كانوا يجدون سهولة في تبادل الرسائل باللغة اللاتينية التي تعد شفراً بالنسبة للبوير
وانتهى دور اللغة اللاتينية وبدأت محاولات كثيرة لوضع لغة سرية للميدان منذ سنة 1900 إلى سنة 1914 يراعى فيها البساطة وسرعة التلقين، وقد قامت كل من إنجلترا وفرنسا وألمانيا بدورها في هذا الشأن
فلما أعلنت الحرب العظمى في ذلك اليوم من شهر أغسطس أذاعت ألمانيا في جميع أنحائها كلمة (ولد اليوم مولود) وكانت هذه الجملة هي الرمز الذي وضعته لكلمة الحرب، ومنذ ذلك اليوم والنصر والهزيمة معلقان بصدى كلمة تسمع من وراء الحجرات لمعرفة شيء من تلك الرموز
ومما يرويه مستر برات على سبيل المثال أن (فون كلوك) كان يقود جيشاً ألمانياً في مساء 2 من سبتمبر 1914، فأصدرت إليه تعليمات بالمذياع ليحول وجهته بعيداً عن باريس، متجهاً إلى جنوب شرقي فرنسا، فلم تصل إليه هذه الرسالة، ولكنها وصلت إلى الفرنسيين، حيث استطاعوا حل رموزها، وقد بادر الجنرال جوفر بتغيير الخطة التي كان قد وضعها، وتقدم الجيش الفرنسي من باريس إلى المارن حيث تم له النصر على الألمان
إن فن الشفرة على جانب عظيم من الخطورة، وله المكان الأول من اهتمام الدول وقت الحروب. فالنصر والوقيعة بالأعداء حيث تكون أسرار الكتابة في طي الكتمان، وفناء الأمم وضياع العروش والممالك، حيث تفشى هذه الأسرار

ستالين يفضل الاتجاه نحو آسيا
(عن مجلة (باريد))
لم توضح بالكلمات الخطة التي وضعها ستالين ورفقاؤه لروسيا إلى الآن. ولكنها قد تتبين بالحركات والأعمال. ونستطيع أن نحكم بناء على ما نراه من حركات ستالين، أنه يصور روسيا دائماً كإمبراطورية شرقية عظيمة، يبزغ نجمها من آسيا
وكثيراً ما يعتقد في نفسه أنه مبعوث لبناء إمبراطورية آسيوية كبيرة، تعيد الحياة إلى الأصقاع المهجورة في سيبريا، وأواسط آسيا؛ وقد سار بخطى واسعة لتحقيق أمله هذا في عشر السنوات الأخيرة
وقد يرى ستالين أنه مرسل لخلق جيل جديد من الشرقيين، يجمع بين العنصر الأسيوي والعنصر الأوربي على تخوم روسيا
وسياسة روسيا الخارجية كسياسة أميركا كلاهما مرتبط بمجرى الحوادث في أوربا وآسيا معاً. إلا أننا في الوقت الذي نرى فيه سياسة أميركا تتحول شيئاً فشيئاً على يد الرئيس روزفلت من الناحية الآسيوية إلى الناحية الأوربية، نرى مقاصد روسيا تتجه على النقيض: من الناحية الأوربية إلى الناحية الآسيوية
ن نظرة واحدة إلى الحالة في أوربا تجعلنا نعذر ستالين في اتجاهه نحو آسيا، أو على ' الأقل اتجاهه إلى ذلك الجزء من آسيا الذي يقع على تخوم روسيا: إذ أن المساحة الشاسعة
التي ستشغلها روسيا الآسيوية، وما تحوي من الموارد العظيمة لم يعرف تقديرها بصفة عامة
إن مطامع ستالين وعزيمته القوية لا تذهب إلى الاستيلاء عاجلاً على روسيا الآسيوية فحسب، ولكنها تمتد إلى الأصقاع والأقاليم المتفرقة في أواسط آسيا، خارج تخوم روسيا الحالية، حتى يكون للأجيال القادمة أرض جديدة يستغلونها بغير ثمن، بعيداً عن منازعات الدول
ويملأ الدنيا رجال الدعاية الروسية بأن روسيا السوفيتية لا تميل إلى التوسع، لأنها من الأمم الراضية القانعة. وهذا قول قد يبدو صحيحاً إذا أريد به أوربا، فحكومة السوفييت تبدو قليلة الاهتمام باسترداد أملاكها المغتصبة في أوربا، وإن كثيراً منها أخذ في ظروف قد تكون بعيدة عن الإنصاف. فإذا اتجهنا إلى آسيا وجدنا الموقف يختلف كل الاختلاف
فستالين لا ينوي استرداد الأراضي التي كانت يوماً ما في حوزة روسيا في الشرق الأقصى فحسب، ولكنه يعمل للاستيلاء على المواطن الهامة بعيداً عن الحدود الروسية الحالية أو تخومها السابقة
وقد أعلن أن الجيش الأحمر على استعداد لحماية أراضي منغوليا من أي اعتداء، والسوفييت يستغلون تلك البلاد منذ 1924، كما تفعل اليابان في منشوريا منذ 1931 على حد سواء
دخل الدكتاتورين
(عن (ذي برسباين تلغراف))
كان يتقاضى هتلر وهو مستشار الريخ 40000 جنيه في العام، فلما آل الأمر إليه في ألمانيا تنازل عن هذا المبلغ وقرر أن يكتفي بما ينال من أرباح كتابه (كفاحي)
أما ثروة الدكتاتور الألماني فهي في حيز الكتمان، إلا أنه مما لاشك فيه أن مجموع ما حصله من كتابه لا يقل عن مليون جنيه بحال من الأحوال
والمال - حتى في ألمانيا الحديثة - يعود على صاحبه بالمال، فمن الطبيعي أن تبذل المجهودات اللازمة لتنمية الثروة التي جمعها هتلر من حقوق طبع هذا الكتاب ومضاعفتها
وإذا عرفنا أن الذين يديرون أمر هذه الثروة، يمتازون في عالم الاقتصاد بمعرفة الأحوال والظروف الاقتصادية قبل غيرهم تبين لنا مقدار ما يستفيدونه من استغلال هذه الثروة
ولم يستطع دكتاتور مدى التاريخ أن يجمع ثروته من مثل هذا المورد العجيب، فقد كانوا يجمعون المال من الأبواب التي يعتقدون صلاحها، وقد بذل هتلر كثيراً من نفوذه في نشر كتابه وترويجه. ومن الطرق التي يتبعها في ذلك - على سبيل المثال - أن

كتاب كفاحي وإن كان القانون لا يمنع أن يباع منه نسخة مقروءة، إذا وجدت مثل هذه النسخة منه عند بائع الكتب، تعرضه لتهمة اليهودية بغير تردد

ولا يجهل أحد القانون الذي صدر في ألمانيا بإلزام كل شخص يريد الزواج باقتناء نسخة من كتاب (كفاحي)، ولكن الذي لا يعرفه الأكثرون أن هذه النسخة يجب أن تدفع ثمنها الحكومة. وبهذه الوسائل تتمشى الدعاية والمنفعة جنباً إلى جنب. فبينما لا يكلف الفوهرر رعاياه بنساً واحداً نظير خدماته بطريق مباشرة يتقاضاهم مبلغاً يتراوح بين 150000 و200000 بطريق غير مباشرة

على أن للفوهرر امتيازات أخرى غير هذه؛ فمن البديهي أن كل ما يحتاجه أو يستعمله في حياته الخاصة تلزم بدفعه الحكومة

أما موسوليني فيتقاضى من الحكومة 1500 جنيه في السنة، ولكنه يربح من الصحافة أضعاف هذا المبلغ؛ فهو يستغل باسمه صحيفة (بوبولو ديتاليا) وقد أصبح كل إيطالي يقرأ هذه الصحيفة لعلمه بأنها صحيفة الدتشي. وتقوم الحكومة بدفع مصاريفه الخاصة - كهتلر - فهو لا يحتاج إلى إنفاق شيء من ماله الخاص

ولعل أفقر الدكتاتورين هو ستالين. ويقال إنه يتقاضى 80 جنيهاً في العام. أما المبلغ الحقيقي الذي يتقاضاه فمن المحتمل أن يكون 500 جنيه على وجه التقريب على أنه ليس لديه ما ينفق فيه هذا المبلغ، فالحكومة تقوم بدفع الثمن لكل ما يحتاج إليه

البريد الأدبي

جواب عن أسئلة الأستاذ الطنطاوي

جاءنا من علامة حضرموت ومفتيها الأستاذ عبد الرحمن عبد الله هذا الجواب عن سؤال الأستاذ (الطنطاوي) المنشور في العدد 316 وقد أملاه على أحد تلاميذه قال:

يتعاظل الكلام من ازدحامه في الجواب عن هذا السؤال الخليق باللسان النضناض، والإفراد بالتأليف الفضفاض، حتى تبرد القلوب وتطمئن النفوس باتساع صدر الإسلام وضمانه للفوائد وقبول مبادئه للمصالح العامة إلى الأبد، وحتى تتأكد بأن الفقه الشافعي مبني على الأسس الثابتة من الكتاب والسنة. وخذ من عفو الخاطر ولسان البديهة ما يكون لهفة معجلة وتعلة للسائل إلى سنوح الفرصة للإفاضة فيما يشفي أوامه بالأدلة الناصعة والبراهين القاطعة.

أما أولاً فلأن في الاستعانة بالتوكيل في الرؤية والتسلم ما تندفع به المشاق في المتعارف بين التجار

وأما ثانياً فلأن مقابل الأظهر في المنهاج صحة بيع الغائب وإن لم يره البائع ولا المشتري، وبه يقول الأئمة الثلاثة. وقد جاء في فتاوى ابن حجر وأبي مخرمة أنه متى أمر السلطان باتباع مذهب معتبر في قضية وجب اتباعه، فما على الحكومة إلا أن تصدر أمرها بالعمل بذلك وينحل الإشكال

وأما ثالثاً فلأن الإمام النووي اختار انعقاد العقود بالمعاطاة، وتسامح في القول بها الإمام الغزالي وهو ممن لا يجهل مكانه من التصلب والورع في الدين. وقال في التحفة: وعلى الأصح لا مطالبة بالمعاطاة في الآخرة للرضا

وأما رابعاً فلأنه يسن للمقترض أن يزيد في الدفع على ما اقترضه لما صح من قوله صلى الله عليه وسلم: إن خياركم أحسنكم قضاءً. وإذا انضم إلى ذلك الأمر من السلطان بدفع الزيادة تحتم دفعها وصار واجباً كما بينت ذلك في كتابي (صوب الركام) ففي إمكان البنك المصري وأمثاله مع هذه المنادح الواسعة أن يتبسط في معاملاته ويفتنّ في مكاسبه بنجوة عما حرمه الله وأذن عليه بحربه من الربا

وأما خامساً فلأن القول بالمصالح المرسلة يمهد السبيل لكل مصلحه، ويفتح الباب لكل منفعة.

وأول من فتحه على مصراعيه الخليفة الثاني رضوان الله عليه. أوليس هو القائل: متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أحرمهما. وجاء في صحيح مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما: كان الطلاق الثلاث على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وسنتين من خلافة عمر واحدة، ثم قال عمر أن الناس قد استعجلوا ما كانوا فيه على إناءه، فلو أمضيناه عليهم، فأمضاه عليهم.

وقد أجمع الفقهاء الأربعة على نفوذ الثلاث باللفظ الواحد، وإنما أمضاه عمر لما ظهر له في إمضائه من المصلحة كما قاله النووي وتبعه السبكي. فهو إذن قريب من القول بالمصالح الذي عليه الأكثر من المالكية، وبه يقول كثير من الشافعية، منهم علامة اليمن ابن زياد. وتوسع فيه الحبر البدل شيخ مشايخنا الإمام عبد الرحمن ابن سليمان الأهدل، حتى لقد نقل عن العلامة الحشيبري الحكم بالعادة في القضية التي تخشى فيها الفتنة من الحكم بالنصوص الفقهية. فليهدأ بال السائل وليفرخ روعه، وليعلم أن من أرسخ القواعد لدى فقهاء الشافعية وأصولهم أنه إذا ضاق الأمر اتسع. وأن الفقه ليس إلا الخير العام الموافق لتيسير الإسلام، الضامن لمصالح الأمم على مرور الأيام. وإنما قد يؤتى من جمود بعض منتحليه فيظن به ما هو منه براء، وبينه وبينه سبل وعرة وأرض عراء. هذا ما سنح، والعذر ممهد للضعف والزيادة والنقص، لأنه كما قلنا بلا إعمال روية ولا إتعاب خاطر ولا مراجعة صحيفة، ومن ورائه تفصيل، أنا به عند الحاجة كفيل، إن شاء الله تعالى.

(حضرموت)

عبد الرحمن عبد اللاه

مفتي حضر موت

إلى الدكتور زكي مبارك

هل تسمح لي يا دكتور أن أسألك عن معنى جملة جاءت في مقالك الأخير؟

إنك تقول: (. . . فكل ما تقرءونه في الكتب التاريخية والدينية من وصف عرب الجاهلية بالغفلة والحمق والطيش والخيال وسوء الفهم وبشاعة التصور وخمود العقل وبلادة الإحساس، كل أولئك الصفات الذميمة وضعت لغرض خاص هو تحقير الوثنية الجاهلية، لتقوم على أنقاضها العقيدة الصحيحة، عقيدة التوحيد)

وكان من حق رجال الدين أن يضعوا في تشويه الوثنية الجاهلية ما يشاءون لأنهم (. . .كانوا يرونها زيغاً في زيغ)

وقد عرض لي عند قراءتها إشكالات:

1 - إن التاريخ هو العلم الذي ينبئنا بأخبار من مضى، وكتبه هي مادة هذا العلم؛ فإذا كان في كتب التاريخ وصف للعرب بهذا الذي تقول أو بعضه أو ما يشبهه، فإنه يبقى صحيحاً معتبراً حتى يجيء من ينقضه بالأدلة العلمية المستندة إلى النص الصحيح. أما حكمك عليه بالوضع بلا دليل فلا يصنع في رده شيئاً، فهل لك عليه من دليل؟

2 - وردك لما روته الكتب الدينية، أو يفهم من كلامك أنها روته، وحكمك عليه بالوضع أشد، لأن هذه الكتب الدينية، من دواوين الحديث أو مجموعات التفسير أو تصانيف الأئمة، حجة للمسلمين في دينهم، ومصدر يأخذون منه شريعتهم، فإذا صح لكل أديب تكذيب شيء منها بلا دليل صارت كلها عرضة للتكذيب، وبطل الدين. وإذا كانت مسألة اليوم هينة لا تمس جوهر الدين فإنها تجر حتماً إلى ما ليس بالهين وتكون سنة في الناس سيئة - أعيذ الدكتور زكي مبارك أن يكون صاحبها الذي سيحمل وزرها ووزر من عمل بها

3 - ما الدليل على أن الرواة اختلقوا الأخبار لتحقير الوثنية أو أنهم منعوا من رواية أنبائها؟

4 - ليس في الإسلام طبقة خاصة تعرف برجال الدين، وإنما فيها العلماء من محدثين ومفسرين وفقهاء وأصوليين، وطبقاتهم طبقات الصحابة والتابعين وتابعيهم والأئمة المجتهدين ومقلديهم، فأي أولئك الذين حكم عليهم الدكتور بصنع هذه الأخبار التي تشوه الوثنية ووضعها؟ وهل من الكذابين بين الصحابة والتابعون الذين نقل عنهم الشيء الكثير في ذم شرك الجاهلية وقبيح أحوالها؟

5 - وما معنى قول الدكتور بأن ما جاء في الكتب التاريخية والدينية من الأخبار الموضوعة (بزعمه) إنما أريد منها تحقير الوثنية لتقوم على أنقاضها عقيدة التوحيد، مع أن المعروف الثابت أن الوثنية هدمت منذ هدم الله أصنامها، ومحيت أنقاضها، وقامت عقيدة التوحيد قبل انتقال النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ورست دعائمها؟

هذا وليثق الدكتور أن هذه أسئلة مستفهم، يجب أن يعرف جوابه عليها.

علي الطنطاوي

حول نعيم الجنة

قرأت في العدد (316) من الرسالة رد أستاذنا الدكتور زكي مبارك، فأجيب بالآتي: ذكر الدكتور ما يفيد أن هناك من يرى أن الجنة رمز ومجاز، ولكن لما كانت اللذات الأخروية هي لذات لا تدرك إلا بالعقل المحض، فقد قال مثل العلامة الأصفهاني: إنه لما أراد الله أن يقرب معرفة تلك اللذات من أفهام الكافة شبهها ومثلها لهم بأنواع ما تدركها حواسهم، فقال تعالى: (مثل الجنة التي وعد المتقون، فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى) ليبين للكافة طيبها بما عرفوه من طيب المطاعم، وقال: (مثل الجنة التي وعد المتقون) ولم يقل الجنة لينبه الخاصة على أن ذلك تصوير وتمثيل، وأن الإنسان إن اجتهد ما اجتهد أن يطلع على تلك السعادة فلا سبيل له إليها إلا على أحد وجهين: أحدهما أن يفارق هذا الهيكل ويخلف وراءه هذا المنزل فيطلع على ذلك. والثاني أن يزيل قبل مفارقة الهيكل الأمراض النفسانية فيطلع من وراء ستر رفيق على ما أعد له ولكنا لا نستطيع الأخذ بنظرية التصوير هذه، لسبق وجود جنة بها أشياء مادية، وخرج منها أبوانا آدم وحواء لأكلهما من الشجرة المحرمة، ولا نريد أن ندخل في الخلاف الذي ذكره ابن قيم الجوزي في الجنة التي سبق لآدم السكنى فيها هل كانت جنة الخلد أم جنة أخرى؟ لأنه على أي حال يجب استبعاد النظرية التصويرية لمعارضتها لكثير من النصوص. إذن لم يبق إلا قول الدكتور زكي مبارك: (إن الإنسان مكون من جسد وروح، وهو كذلك في الحياة الأخروية). ولا أدري لماذا تشبث أستاذنا الدكتور بذكر هذا الشيء البديهي، ولكني أطمئن دكتورنا على أن الثواب والعقاب سيكونان للروح مع البدن. أذكر خلاصة ما ذكره الخوارزمي من أدلة على هذا من أن الأفعال والتدابير والآراء كلها تصدر من الجسد الحي، وأن الطاعة والمعصية حصلتا منهما جميعاً، وأن الثواب بالطاعة والعقاب

بالمعصية إنما صدر من الجسد بواسطة الروح فيجب أن يكون العقاب والثواب لهما وأن كلاً منهما محتاج لصاحبه، لولا الروح لكان القالب خشباً مسندة، ولولا القالب لما كان روح. فكل راض فاعل وعامل من وجه فيكون الخطاب والثواب والعقاب لهما جميعاً، حتى قال ابن عباس رضي الله عنه: لم تزل الخصومة قائمة إلى يوم القيامة حتى تختصم الروح مع الجسد فيقول الجسد: أي رب خلقتني كالجثة ولم تجعل لي يداً أبطش بها ولا رجلاً أمشي بها ولا عيناً أبصر بها حتى دخل هذا علي كالشهاب، فيه نطق لساني وسمعت أذني وأبصرت عيني وبطشت يدي، فأحل عليه العذاب ونجني من النار. فتقول الروح: يا رب خلقتني كالريح ولم تجعل لي يداً ورجلاً وعيناً وسمعاً فلم أتحرك إلا بحركته ولم أسكن إلا بسكونه، فما ذنبي وما جرمي يا رب؟ أحل عليه العذاب ونجني. قال: فيضرب الله تعالى لهما مثلاً كالأعمى والمقعد يصطحبان، أما الأعمى فلا يبصر، والمقعد لا يقدر على المشي، فبلغا إلى بستان فجلسا وتشاورا وطلبا حيلة، فقال الأعمى: أنا لا أبصر فمر أنت وأت بالعنب، وقال المقعد: بل مر أنت فإني لا أقدر على المشي، ثم تناظرا وتناصفا وقالا: هذا أمر لا يتم بأمر دون الآخر، يا أعمى قم أنت فارفعني حتى أتسلق الحائط وأقطف العنب. فلما توافقا قطعا العنب وأكلاه. وقال المقعد: لولا أنت يا أعمى لما أكلت. وقال الأعمى: لولا أنت يا مقعد لما أكلت. ونحن لم ننكر تمتع الروح والجسد فقد قلنا في كلمتنا الأولى في العدد 315: (إن الإسلام دين روحانيات ومعنويات، وأن ليس معنى هذا أنه لا يعنى بالحسيات والماديات، بل هو يعنى بها وبتنظيمها التنظيم الذي يتصل بأن يرقى بالإنسان إلى الروحانيات. . . وأنه إن أراد ببعضها اللذة الحسية، فإنه لا يريدها حقيرة متواضعة، كما هي في دنيانا، بل يريدها عزيزة تتصل أكبر مما تتصل بالروحانيات والمعنويات)، فالذي يحتمل الجدال ليس ذكر أن النعيم سيلحق الجسم والروح أم لا لأنا أجمعنا على ذلك، بل هل أغلب اللذات سيكون حسياً أم روحياً؟ أو بمعنى آخر هل تغليب اللذة سيصف لذات الجنة بأنها روحية أم بأنها حسية؟

على أنه يطربني أن أرى أستاذنا الدكتور زكي مبارك ينزع نزعة روحية من غير أن يشعر، إذ يقول في كلمته في العدد 316: (سيكون في المؤمنين من يكون نعيمهم

برضوان الله أطيب بنعيمهم بما في الجنة من ثمرات وطيبات) وإن كنت لا أفهم كيف يرى عدم
تعميم أن الرضى بالنعيم أطيب مما في الجنة من ثمرات مهما كانت درجة المرضي عنه. ولعل المخرج من هذا قول الدكتور في العدد 318 في الرد على الأستاذ الغمراوي: (إن العبادة الصحيحة هي رؤية الله في نعمه المشكورة) فإني أرى أنه بهذين قد زحزح نفسه كثيراً عن رأي حسية لذات الجنة، لولا ذكره ما ذكر من دعاء ناقشه فيه الأستاذ الغمراوي مناقشة عنيفة في كلمتين، فكتب أستاذنا الدكتور زكي كلمة يحمد الله تعالى فيها على نعمة الإسلام
على أن وجود الأشياء الحسية في الجنة لا يعني أن التمتع سيكون حسياً، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يجب ملاحظة تغيير ما في طبيعة الإنسان في الدنيا عنها في الآخرة لوجود قوى نفسية نازعة للبهيمية وعدم إمكان تصور هذا في الآخرة، على فهم أن أصحاب الجنة لم يصلوا إليها إلا لأنهم فهموا خصائص الروح وتمتعوا كثيراً كل حسب درجته بلذتها، فلا يعقل أن يكون حبهم للذة الروحية في العالم الثاني أقل من حبهم لها في عالمهم الدنيوي. ثم إن للجو حكمة، فجو الجنة جو روحي لا يمكن أن يعمد إنسان إلى الخروج عنه؛ على أن الحسيات لها بعض العناية بها، وللذاتها بعض الرغبة فيها، على أن تكون ثانوية وتابعة، وعلى أن تنحو نحو الفكرة الروحية. وإذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تعالى - كما في الحديث القدسي -: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا، ألم تدخلنا الجنة، ألم تنجنا من النار! فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) ويكفي أستاذنا الدكتور زكي مبارك من علامات روحية اللذات في الجنة أن أصحاب الجنة سيكونون ولا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب واحد، يسبحون الله بكرة وعشية، وتحيتهم فيها سلام، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين
محمود علي قراعة
المغرب الأقصى وفكرة الخلافة
قرأت متأخراً في العدد الممتاز من مجلة (الهلال) الأغر مقالاً للأستاذ عبد القادر حمزة باشا عن الخلافة الإسلامية وعدم إمكان قيامها في الوقت الحاضر، جاء فيه ما يلي: (وإذا قيل إنه من الميسور أن تقوم الخلافة بين الأمم الإسلامية المستقلة، وأن مصر أولى هذه الأمم بتلك الإمامة لأنها قلب العالم الإسلامي؛ إذا قيل هذا، فيجب ألا ينسى أن هناك من يعارض في الخلافة، ولا يعترف بها كتركيا والمغرب الأقصى وغيرهما، وما من فائدة في قيام نظام لا يعترف به الجميع)
أريد أن أسأل حضرة الكاتب عمن أخبره بأن المغرب يعترض على فكرة الخلافة. فإذا كان هذا الفهم وصله عن طريق الصحف الاستعمارية، أو عن تصريحات الرجال الرسميين، وهو لن يصله إلا عن هذين الطريقين، فأريد أن أقول لسعادته: إن القول في مثل هذا الأمر ليس هو من حق هؤلاء ولا من أولئك. القول الفيصل في هذا إنما هو لإرادة الشعب المغربي؛ والشعب المغربي لن يعارض مطلقاً في كل فكرة يستمد منها الإسلام والعرب القوة والمجد، كفكرة الخلافة الإسلامية، أو الوحدة العربية. وإذا كانت وضعية المغرب لا تسمح له في الوقت الحاضر أن يساهم في مثل هذه الأعمال الكبيرة، فهو يرجو أن تتحقق لأنه يعلم أن مثل هذه المشروعات العظمى ستعود عليه وعلى باقي الأقطار العربية التي تحت الاستعمار بأكبر المنافع، وسترفع عن كاهله كثيراً من القيود والسدود
على أن موضوع كلام الكاتب إنما كان في الأمم المستقلة، والغرب ليس كذلك، فهل نسي سعادته أن المغرب تحت حماية فرنسا؟ وما وجه قران المغرب بتركيا؟ إن المغرب يختلف تمام الاختلاف من حيث الأوضاع والنظم عن تركيا. والمغرب يمسك على دينه بأيد من حديد، ويريد اقتضاء قواعد الإسلام حذواً بحذو، كما سنها الرسول، وكما نزل بها القرآن
وأعود فأقول: إن الحركة القومية بالمغرب التي يترأسها الزعيم الأكبر محمد بن الحسن الوزاني - أطلق الله سراحه - كانت صرحت في جريدتها (الدفاع) أن من الأسس التي ترتكز عليها (القومية المغربية) (الامتثال لواجب الرابطة العربية، والجامعة الإسلامية)، وهي ما كانت لتقول مثل هذه الكلمة لو لم تكن شاعرة بما

يختلج في ضمائر الشعب المغربي من حب الوحدة الإسلامية، والتضحية بكل غال في سبيلها
وهل كتب علينا الشقاء إلا يوم كتب على الخلافة الإسلامية بالعدم!
(فاس)
(أبو الوفاء)
حول معنى بيت
ذكر الأستاذ أحمد عبد الرحمن عيسى في العدد (322) من مجلة (الرسالة) الغراء أن هذا البيت المنسوب إلى معاوية في قصة سعد وسعاد:
قد كنت تشبه صوفياً له كتب ... من الفرائض أو آيات قرآن
لا يحتمل ما فهمته فيه من حمل كلمة - كتب - على ظاهرها، وإنما هي جمع كتاب بمعنى مكتوب، والمكتوب هو المفروض، فيكون المعنى له مفروضات من الفرائض، وإذا كان هذا هو معنى البيت فإنه لا يكون فيه دلالة على أن قصة سعد وسعاد موضوعة
وإني أرى أن هذا المعنى الذي ذكره الأستاذ يزيد في ضعف هذا البيت وسخافته ويجعله متهافت اللفظ والمعنى، وتهافته اللفظي ظاهر لا خفاء فيه؛ وأما تهافته المعنوي فلأن الصوفي لا يمتاز عن غيره بمفروضات مكتوبة يقوم بها، لأن المكتوبات واجبة على سائر الناس، وإنما يمتاز الصوفي بالخلوة ومداومة العبادة وغير ذلك مما اخترعه المتصوفة. وقد فهم الأستاذ أحمد عيسى الفرائض في البيت على ظاهرها فخفي عليه المعنى الذي فهمته فيه، مع أن الفرائض هي الأوراد ونحوها مما يفرضه الصوفي على نفسه، وهو إطلاق سائغ لا شيء فيه، ومعنى البيت عليه: له كتب من كتب الأوراد ونحوها
وأرى أيضاً أن البيت يدل على أن القصة موضوعة ولو حمل على المعنى الذي ذكره الأستاذ أحمد عيسى، لأن نظام التصوف الذي يشير إليه لم يكن حدث في ذلك العصر، وقد بنيت وضع القصة على هذا، كما بنيته على أنه لم يكن في ذلك العصر كتب تصوف، وكل منهما كاف في الدلالة على وضعها، وكذلك سخافة البيت وتفاهته، وما كان للأستاذ أحمد عيسى أن يهتم بعد هذا به.
عبد المتعال الصعيدي
المسرح والسينما
من التاريخ
النهضة المسرحية في مصر
ونصيب الفرقة القومية منها وواجبها حيالها
النقاد وفرقة رمسيس
أحسن يوسف وهبي صنعاً بما ادعى لنفسه من صفة المؤلف فوق ما حظي به في الواقع من صفة الممثل. وقد كان من جميل حظه أن ظلت حقيقة رواية (المجنون) - التي افتتح بها مسرحه - خافية على الجميع من جمهور ونقاد أعواماً طويلة حتى عرضت رواية (وثيقة الطلاق) التي ظهر فيها جون باريمور في دور المجنون، وكاثرين هيبورن لأول مرة في دور ابنته، وحينئذ فقط عرف أن (مجنون) يوسف ليس إلا مجنون (وثيقة الطلاق)!
على أن يوسف كان قد ربح الكثير من هذه الصفة التي ادعاها لنفسه، والتي جعلته في نظر قومه مؤلفاً وممثلاً في عصر عز فيه المؤلف، ومع أن (المجنون) لم تكن الرواية القوية بالمعنى المفهوم إلا أنها كانت شيئاً جديداً وغريباً، وكما استرعى يوسف الأنظار في منولوج الجندي الجبان (متشكو) كذلك كان شأنه في دور المجنون، وهو ينجح في هذه الأدوار الشاذة التي تتطلب غرابة في الأطوار وشذوذاً في الطباع.
وليس من غرضنا أن نتحدث عن رواية المجنون أو عن غيرها من الروايات حديثاً مستفيضاً، وإنما أردنا بالحديث عنها أن نطلع القارئ على جانب من جوانب شخصية يوسف، وعلى سبب من الأسباب التي جعلت النقاد يهاجمونه بشدة ويعملون للقضاء عليه، ذلك أنهم استبعدوا أن يكون يوسف مؤلفاً، ولروايات أجنبية على الخصوص! ومع أنهم لم يستطيعوا في الوقت المناسب استكشاف حقيقة (المجنون)، إلا أن غريزتهم السليمة حملتهم على إنكار ما ادعاه يوسف لنفسه، وعلى إساءة الظن بزعيم النهضة

المسرحية منذ البداية.
ومن بعد المجنون أخرجت (الشياطين السود)، وعلى ما أذكر حضر هذه الرواية بعض الوزراء والعظماء، ولما كانت النهاية فيها محزنة، فقد خطر ليوسف أن يقوم بتعديلها وجعلها نهاية أمريكية، حتى لا يدخل الحزن على قلوب ضيوفه العظماء. وأما في الليلة التالية، وفيما تلاها من ليال، فقد عاد يوسف إلى النهاية المحزنة!
وهذه الحادثة أيضاً ترفع الستر عن جانب من جوانب هذه الشخصية العجيبة، وتلقي ضوءاً على سبب آخر من الأسباب التي ألبت النقاد على يوسف، وأعطتهم سلاحاً لحربه. وفي الواقع مضى يوسف في السخرية بالناس، ومهما يكن من شأن النجاح الذي ناله وحظيت به فرقة رمسيس، فقد كانت هذه المعاول الهدامة شديدة الوطأة على ذلك البنيان الحديث، ولم يقدر يوسف برغم ذكائه أثرها فيه، وتعالى على النقاد، وشمخ بأنفه، وصعر خده للصحافة، واعتبر نفسه قوة هائلة لا تتأثر بحملات كان يراها طائشة يقوم بها جماعة من الجهلاء في زعمه. ولم يرد الإفادة من هذه الأغلاط التي ارتكبها، أو العدول عن الخطة العرجاء التي سار عليها؛ وقد كان دوام النجاح، وإقبال الجماهير على مسرحه دليلاً عنده على أن حملات النقاد لا أثر لها حتى لو كانت على حق، فالحق عنده هو الواقع. ولعل الفرقة القومية لم تأخذ بنصيبها من الموعظة بعد ذلك، ولعلها إن غلقت أبوابها يوماً تذكر أنا نبهناها إليه وحذرناها منه.
كان من أغلاط يوسف إذن أن ادعى لنفسه ما ليس له وأن قام عامداً بتعديل الروايات التي أخرجها في مسرحه لتوافق مزاجه وما يراه خضوعاً لأهواء الجماهير أو الخاصة حتى لو كان ذلك حرباً على الحقيقة وقتلاً للفن، ثم استهتاره من بعد ذلك بالنقد والنقاد. ورغم خطورة هذه الأخطاء وغيرها فقد كانت حملات النقاد في بدايتها كأنها إعلانات ضخمة عن فرقة رمسيس ودعاية بلا أجر عنها، وبينما أخطأ النقاد فهم قلة أثر النقد بسبب إقبال الجماهير على مسرح رمسيس فإن يوسف أخطأ الفهم كذلك فأكثر من أغلاطه وأصر عليها وزاد في استهتاره بالنقاد
وحينئذ شحذ هؤلاء أسلحة جديدة وتدخلوا في حياة الممثل والممثلة الخاصة وأعنفوا في حملاتهم حتى خرج الأمر عن حدوده والنفوس عن أطوارها. وسرعان ما انتفت الصلة الوثيقة التي كانت، والتي يجب أن تكون، بين المؤلف والمترجم والمخرج والممثل من جهة، والناقد من جهة أخرى، وأصبح بعض الصحف ميداناً للسباب وفحش القول على حين كان يوسف ماضياً في سخريته وازدرائه - غير حاسب للعواقب حساباً - حتى يصل
به الأمر أن يرى في حرمان الناقد من المقعد الذي يهديه إليه انتقاماً منه أي انتقام. ولم يكن غريباً إذن أن نسمع بألوان من الخصومات تدعوا إلى الأسى والأسف حتى انقطعت الصلة تماماً بين فرقة رمسيس والنقاد. أو قل أصبحت هي الصلة بين المتحاربين في ميدان القتال.
(للكلام بقية)
السينما والحرب
السينما كالصحافة تجد من واجبها أن تسجل الأحداث التي تقع على النحو الذي تراه كفيلاً بفائدتها، وأصحاب الشأن في عالم السينما يرقبون الحوادث الجارية ويأخذون منها ما ينفعهم، فإذا وقع حادث فذ في الأوساط الاجتماعية أو الفنية أو الاقتصادية أو غير ذلك فإنهم يسرعون بتسجيله ويسرع الجمهور بالإقبال عليه. والحروب بلا ريب أعظم الحوادث التي تقع وأوسعها مدى وأقواها أثراً، ولهذا فإن السينما تسجل أحداثها وتستغل وقائعها أعظم استغلال. ومن رأي (كل شيء هادئ في الميدان الغربي) يعرف إلى أي مدى تفيد السينما من الحروب. ولقد رأينا كيف كانت السينما إبان الحرب الكبرى وسيلة فعالة من وسائل الدعاية. وقد استغلها الحلفاء في تصوير أعدائهم أقبح تصوير وأفادوا من ذلك كثيراً، والى جانب هذا الاستغلال فإن السينما كانت وسيلة من وسائل التسرية عن الجنود في الميادين؛ وقام شارلي شابلن ملك المضحكين بنصيب وافر من هذا الواجب وقابل الجنود رصاص العدو وفي أفواههم بسمات استطاع شارلي أن يطبعها على شفاههم رغم الموت
وفي الأعوام الأخيرة شغلت الحرب أذهان الجماهير، ومن ثم بدأت مدينة السينما في إخراج روايات عن الحرب، وحينئذ واجهتها مصاعب كثيرة، فالوقت سلم وتصوير

الحروب واصطراع المبادئ قد يرضي قوماً لكنه يغضب آخرين، ومعنى ذلك أن الرواية السينمائية التي ترضي الجبهة الديمقراطية تغضب حتماً الجبهة الفاشية أو النازية.
والنتيجة أن الرواية السينمائية تخسر ميادين تباع فيها، وهذا ما حدث لرواية (كل شيء هادئ في الميدان الغربي) التي تناهض فكرة الحروب. فقد قوطعت ومنعت في البلاد التي تعيش
على فكرة الحرب وتنشئ أبناءها جنوداً منذ طفولتهم. وكانت ألمانيا أشد البلاد حرباً لها رغم أن مؤلفها ألماني!
بيد أن مدينة السينما وجدت حلاً للمشكلة، ومن رأى روايتي (حصار) و (آخر قطار من مدريد) عرف كيف وفقت إلى هذا الحل العجيب. وسبيل ذلك أن وقفت الرواية نفسها على الحياد لا هي مع هؤلاء ولا هي مع هؤلاء، إنما هي مجرد استغلال لحوادث الحروب، مثل (آخر قطار من مدريد) التي طبقت عليها هذه الفكرة أتم تطبيق فكانت سلسلة من الحوادث الغريبة والوقائع المثيرة التي لا تقع إلا في الحروب. وأما (حصار) فكانت مناهضة لفكرة الحرب من الوجهة الإنسانية المحضة في الميدان الأسباني حيث يقتل الأخ أخاه واحتاطت الشركة التي أخرجت الرواية فلم تدع الملابس تميز الفريقين بعضهما عن بعض إلا بقدر يسير وكل ما رمت إليه هو استصراخ الضمير الإنساني أن يقف هذه المجازر البشرية
واليوم، والعالم يخوض غمار حرب ضروس، فإن السينما لن تتوانى عن القيام بواجبها.
ويقيننا أنها ستكون وسيلة فعالة من وسائل الدعاية، وكذلك من وسائل التسلية والترفيه عن المقاتلين وغير المقاتلين في هذه الأيام العصيبة التي يجتازها العالم
(فرعون الصغير)
أخبار سينمائية
(لوسيل بال)
وقد اشتركت في تمثيل رواية (باب المسرح) مع لويس رينروجنجر روجرز. وقد اهتمت بأمرها شركة ركو راديو واعتزمت أن تجعل منها واحدة ممن تعتمد عليهن
كلارك جابل
. . .هل تعرف كيف أصبح كلارك جابل فلاحاً؟ إن لذلك قصة طريفة
لقد أهدت إليه زوجته كارول لومبارد بغلاً فاشترى محراثاً. وأهدت إليه آندي ديفين خمسة فراريج فاشترى خمسمائة. وأهداه بوب كوب جردلاً لحلب اللبن فاشترى بقرة. وهكذا أصبح كلارك جابل فلاحاً يفلح الأرض ويحلب البقرة ويربي الفراريج.
كاي فرنسيس
وقد سطع نجمها في رواية (الممر الوحيد) مع وليم باول ثم في (ثورة في الجنة) مع هربرت مارشال، وقد ظلت منذ البداية نجمة شركة وارنر ولم تنتقل إلى غيرها من الشركات؛ وأخيراً أعلنت أنها آثرت الزواج واعتزال الأعمال الفنية، وحتى الآن لم تنفذ عزيمتها
جنجر روجرز
وكانت تعرف باسم زميلة فريد استير، أما اليوم فإنها أصبحت حرة تعمل مع من تشاء وكانت تجربتها الأولى في رواية (سأهذبها بنفسي) مع جورج برنت، وفي هذه الرواية لم ترقص سوى رقصة فردية
فريد ماك موراي
يحب فريد ماك موراي صيد السمك حتى أنه ينتهز فرصة الفراغ من العمل في رواية (هل من ضرورة للأزواج) التي يظهر فيها مع مادلين كارول ويقضي وقته في صيد السمك. وهو ماهر جداً في الصيد حتى أنه يعود دائماً خالي الوفاض! وإذا ما سأله أحد في ذلك قال: إنه يلقي بالسمك إلى البحر مرة أخرى رحمة به وشفقة عليه!
(آنا نيجل)
بمناسبة آخر رواية لها (مس كافل)
وقد أخرجت هذه الرواية في وقتها وسوف تكون دعاية سيئة ضد الخلق الألماني، ويذكر القراء أن الحلفاء استغلوا في الحرب العظمى حادث (مس كافل) أعظم استغلال واكتسبوا عطف العالم باسمها

حربان عظميان
تثيرهما ألمانيا على نمط واحد
للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

شهدت الحرب العظمى - أو التي كنا نظنها العظمى - وهي التي قامت في سنة 1914، وهأنذا أشهد حرباً عظمى أخرى بعد خمس وعشرين سنة؛ فأنا في هذا من المخضرمين. ويبدو لي أن ألمانيا الهتلرية هي ألمانيا القيصرية، لم تتغير روحها ولا نزعاتها ولا وسائلها ولا أساليبها. فليس البوربون - ملوك فرنسا الذين عصفت بهم ثورتها هم وحدهم الذين لم يتعلموا شيئاً ولم ينسوا شيئاً. وعجيب أن يكون هذا هو طراز الحكام في بلد من أرقى بلاد العالم وشعب من خير الشعوب ثقافة وأدباً وفناً وعلماً وفلسفة. ولا بد - كما يذهب إلى ذلك الأستاذ العقاد - أن يكون في هذا الشعب عيب يسمح بأن يكون هذا طراز حكامه الذي لا يكاد يختلف

وقد عانت ألمانيا أقسى ما يمكن أن تعانيه أمة من جراء ما حملت من تبعة الحرب العالمية السابقة وبقيت عشرين سنة تنوء تحت هذا العبء وتجاهد أن تطرحه، فكان المنتظر أن تتقي أن تحمل عبئاً آخر مثله، فإن العائد إلى الجريمة لا يحق له أن يتوقع العطف أو يعول على ما في قلوب الناس من الرحمة، ولكن حكام ألمانيا في هذا الزمان لا يجعلون بالهم إلى بل يقدمون على إثارة حرب عالمية بعد أن أعدوا عدتهم لها غير عابئين برأي العالم أو مبالين بما يجره عليهم من السخط والنقمة. وما من شك في أن الهر هتلر نهج نهجه هذا عن (عمد وسبق اصرر) كما يقولون رجال القانون. ومراميه كلها معروفة من كتابه (كفاحي). وخطته هي أن يعد لبلاده أقصى ما يستطيع من قوة، ثم يتجه إلى الشرق فيبسط سلطانه عليه، حتى إذا تم له ذلك ارتد إلى الغرب فرمى عليه ظله وأذله. ومع أن هذا معروف ولا خفاء به، نراه يتعجب لبريطانيا وفرنسا ماذا يعنيهما من شرق أوربا ولماذا تحاولان صده عن غايته فيه كأنهما لا تعلمان أنه منقلب عليهما بعد أن يفرغ من هذا الشرق.

وكما تجنت النمسا بتشجيع ألمانيا على الصرب في سنة 1914 تجنى هتلر في هذه الأيام على بولندة. فقد ادعت النمسا أن ولي عهدها إنما قتل في سراجيفو بتدبير الصربيين وإن

كان قد قتل في أرض نمسوية وبأيدي رعايا نمسويين. ولم يظهر أي دليل على وجود أية صلة بين الصرب وهذه الجريمة؛ ولكن الكونت برختلود رئيس وزارة النمسا كان غبياً قصير النظر، وكان همه أن يسحق الصرب، وقد حذره تيزا رئيس وزارة المجر وحذر الإمبراطور أيضاً ولكن الإمبراطور كان متهدماً وكان زمامه في يد وزيره الأعمى، فكانت الحرب التي ألوت بالنمسا وأذلت ألمانيا

واليوم يقلد هتلر هذا السلف الصالح فيتجنى على بولندة ويزعمها تهدده لأنها لا تذعن لمشيئته ولا تهدي إليه دانتزيج والممر البولندي والأرض التي فيها من الألمان نفر قليل أو كثير. والفرنسيون يقولون في بعض أمثالهم: (إن هذا الحيوان خطر لأنه يدافع عن نفسه حين يهاجم) وكذلك يقول هتلر عن بولندة فذنبها أنها لا تريد أن تخنق

وقد رسم هتلر خطته ببراعة فأعد في الغرب خط سيجفريد ليحول دون زحف فرنسا على ألمانيا من الغرب وليتسنى له أن يضع في هذا الخط أقل عدد يكفي للدفاع عنه، ثم يرمي بمعظم قوته على الشرق فيكتسحه في أوجز وقت، ويروع العالم بسرعة القضاء على الأمم في أيام معدودات، وبعد أن يفعل ذلك ويترك دول البلقان مرتعدة الفرائص ويفتح لنفسه الطريق إلى كل سوق ويكفل لبلاده كل ما عسى أن تحتاج إليه من أقوات وبترول وخامات وغير ذلك، وبهذا يحبط الحصر الذي عسى أن تضربه بريطانيا بحراً عليه - يرتد إلى الخط سيجفريد بقواته الأخرى ويقول لفرنسا وبريطانيا: الآن نستطيع أن نظل نقتتل نصف قرن إذا شئتما، أفلا ترون أن الصلح خير وأن التسليم بالأمر الواقع أجدى من هذه الحرب العقيمة. . .

وكذلك كان القيصر غليوم يعتمد على النصر (البرقي) أو (الخاطف) وكان همه يوم شن الغارة أن يحمل جيشه على جناحي نعامة ويطير به إلى باريس ويستولي عليها فإذا الحرب قد انتهت. . . واليوم يقلد هتلر سلفه ويزيد عليه الهجوم بغير إنذار وعلى يحن غرة وفي مأموله أن يقضي على بولندة ويمحو وجودها قبل أن تستطيع أن تجمع جيشها كله وتقذف به إلى ميادين القتال. فالنصر (البرقي) هو الذي عليه معول هتلر

الآن كما كان عليه معول القيصر غليوم، وكما أخطأ حساب القيصر يخطئ الآن حساب خلفه هتلر، فإن بولندة تأبى أن تزول فيما (بين غمضة عين وانتباهتها) ولا عبرة بالاستيلاء على بلد هنا وبلد هناك

فما دام الجيش المدافع سليماً فالحرب دائرة والمهاجم لم ينتصر، وإنما يكون النصر بالقضاء على القوة المدافعة لا بأخذ المدن. وخط سيجفريد قوي متين ولكنه أنشئ على عجل - في أقل من سنتين - وقد ظهرت فيه مواطن ضعف غير مأمونة، والجيش الفرنسي يختبره الآن ويلتمس هذه المواطن الضعيفة فيه ويحمل عليها، ويضطر ألمانيا إلى إرسال النجدات إليه (على جناحي نعامة) وبتوالي ورود هذه النجدات يخف الضغط الواقع على بولندة فتطول مقاومتها على خلاف ما حسب هتلر. ويجب أن يدخل في حساب الحاسب أن الجيش الألماني ليس كما يهولون به فقد كان جيش القيصر خيراً منه. ذلك أنه هو أيضاً أنشئ على عجل بعد أن ظلت ألمانيا عشرين سنة محرومة من جيش بالمعنى الصحيح بمقتضى معاهدة فرساي. ومن السهل أن تجند الملايين الرجال كما فعل هتلر ولكنه ليس من السهل أن تخرج العدد الكافي من الضباط الأكفاء في هذا العصر لهؤلاء الملايين من الجنود في أربع سنوات. فالجيش الألماني لا تنقصه الضخامة في العدد ولا في العدة ولكن ينقصه الضباط الأكفاء من الطراز الحديث بسبب هذه السرعة (البرقية) في تكوينهم

وقد كنا نظن من الواضح أن من العسير في هذا الزمان أن تسيطر أمة على العالم على نحو ما كان يحدث في العصور الماضية؛ فليس من الممكن في هذا الزمن أن تكون في العالم أمة واحدة لها شأن كما كان الحال في أيام الرومان والعرب وغيرهم. فما بين أكثر الأمم تفاوت يذكر إلا فيما يحدثه اختلاف الخصائص القومية؛ أما في العلوم والمعارف والمقدرة على الابتكار والاختراع وما إلى ذلك فالطبقة واحدة أو متقاربة. وقد رأينا الألمان في الحرب العظمى الماضية يفاجئون الحلفاء بالغازات السامة أو الخانقة أو الكاوية وما أشبه ذلك، ورأينا الحلفاء يسرعون إلى اختراع الكمامات الواقية ثم يصنعون هذه الغازات ويطلقونها على الألمان، وبذلك يضيعون عليهم هذه المزية. وأمثلة ذلك كثيرة وكلها شواهد على أن ألمانيا تكرر خطأها القديم ولا تعتبر بما كان في الحرب الماضية التي كان الظن أن عبرها ستظل ماثلة ولعل هذه أول حرب تقدم أمة على إثارتها وهي جائعة، أو على الأقل وهي تعاني نقصاً شديداً في الأقوات والمواد الأخرى التي لا غنى عنها لا في سلم ولا في حرب. فلا عجب

إذا كانت بريطانيا وفرنسا تشنان على ألمانيا حرباً اقتصادية فإنهما تعلمان ما تصنعان وتعرفان ما تكابده ألمانيا وما تظن أن في وسعها أن تعالجه وتتقي شره بسرعة القضاء على بولندة وهو حساب بدأ يظهر انه يخطئ. فالعجب لألمانيا التي تجعل حياتها كلها ومصيرها رهناً بحساب قد يخطئ أو يصيب. الحق أن هذه مقامرة فذة في تاريخ الأمم

إبراهيم عبد القادر المازني

جناية أحمد أمين على الأدب العربي

للدكتور زكي مبارك

- 15 -

كنت حدثت القراء فيما سلف أني لم أهجم على الأستاذ أحمد أمين إلا بعد أن صح عندي أنه يسئ إلى نفسه وإلى الأدب العربي إساءة خطرة تستوجب المسارعة إلى تعريفه بخطر ما يصنع عساه يثوب إلى رشده فيرجع إلى الصواب

وفي مطلع حديث اليوم أثير مشكلة تحدث بها إلى تلاميذه في كلية الآداب وكان لها صدىً، هو حيرة بعض الشبان الذين كانوا يثقون برجاحة العقل عند ذلك الأستاذ المفضال

وما الذي حدَّث به تلاميذه في تلك الكلية؟

حدثهم أن من رأيه ألا يدرس الأدب العربي في المدارس الثانوية ولا المدارس العالية، وأن الواجب أن يُقصَر درس الأدب العربي على المختصين في دراسة تلك اللغات (؟!)

هذا كلام نقله إلينا كثير من طلبة كلية الآداب، فهل هو صحيح؟

يجب على الأستاذ أحمد أمين أن يسارع إلى تكذيب هذا الكلام، إن كان من المفتريات،

ويجب عليه أن يحدد الغرض منه إن كانت نسبته إليه صحيحة، لأنا نحب ألا يعرض مركزه لأخطار الإشاعات والأقاويل

والواقع أن الكلام المنسوب إلى الأستاذ أحمد أمين يتفق في روحه مع الآراء التي أذاعها في الأسابيع الأخيرة، فهو يقول صراحة بأن الأدب العربي في اغلب أحواله أدب له معدات لا أدب أرواح، وأنه لم يصور البلاد العربية والإسلامية، ولم يصف ما وقع فيها من أحداث اجتماعية، ولم يشهد بأن أهله أحسوا الطبيعة وتأثروا بألوان الوجود

ومن الواضح أن الرجل يحترس في مقالاته أكثر مما يحترس في محاضراته، فما قال أحمد أمين في مجلة الثقافة ليس إلا صورة مهذبة لما أذاعه في كلية الآداب

نحن إذن أمام فتنة جديدة، هي فتنة القول بأن الأدب العربي لا يصلح لتربية الأذواق في الجيل الجديد. وهذه الفتنة ليست من مخترعات أحمد أمين، فقد نجمت قرونها منذ أكثر من خمسين سنة حين أراد المستعمرون والمبشرون أن يوهموا أبناء الأمم العربية بأن الصلة بين ماضيهم وحاضرهم لم يبق لها مكان، وأن المصلحة تقضي بأن يوضع الأدب القديم في

المتاحف، وألا يدرسه غير المتخصصين على نحو ما يصنع الأوربيون في الآداب اليونانية واللاتينية، ثم تُقبِل كل أمة على لهجتها المحلية فتجعلها لغة التخاطب والتأليف، وبذلك تكون اللغة الفصيحة أماً أو جدة للغات الشعوب العربية، كما صارت اللاتينية أماً أو جدة للغات الشعوب اللاتينية. وقد صرح بذلك المسيو ماسينيون في خطبة ألقاها في بيروت سنة 1913 ونقدتها يومذاك بمقال أرسلته إلى جريدة (البلاغ) من باريس

والحق أن الفتنة التي أذاعها المستعمرون والمبشرون كانت فتنة براقة خدّاعة تُزيغ البصائر والعقول، وقد انخدع بها من انخدع في الأعوام الماضية، فكانت المفاضلة بين الفصيحة والعامية من المشكلات التي تقام لها المناظرات في بعض المعاهد والأندية الأدبية. وقد وصل صدى هذه الفتنة إلى المجمع اللغوي بالقاهرة فانقسم الأعضاء إلى فريقين: فريق يقول بدراسة اللهجات المحلية وفريق يقول بأن الأفضل إنفاق المال في إحياء الأدب القديم، وقامت بسبب هذه المشكلة مساجلات فوق صفحات الجرائد بين الدكتور منصور فهمي والدكتور طه حسين

والظاهر أن لأستاذ أحمد أمين من أنصار القول بإحياء اللهجات المحلية، فهو يدرس على صفحات مجلة الراديو المصري ألفاظ اللهجة المصرية باهتمام يدل على تأصل تلك الفتنة في نفسه الواعية!

فهل تكون مقالاته في مجلة الراديو المصري نواة لمحاضراته عن الأدب العربي المصري بكلية الآداب في الأعوام المقبلات؟

نحن فهمنا أن الغرض من إنشاء كرسي للأدب المصري بكلية الآداب هو درس الآثار الأدبية العظيمة التي أبدعها المصريون باللغة الفصيحة منذ فتح العرب مصر إلى اليوم لأن مصر تفردت بمزايا كثيرة بين الأمم العربية، فاعظم مكتبة عربية في العالم هي دار الكتب المصرية، وأعظم جامعة عربية في العالم هي الجامعة المصرية، وأعظم معهد إسلامي في العالم هو الأزهر الشريف، وأعظم صحافة عربية في العالم هي الصحافة المصرية، وأعظم معجم عربي وهو لسان العرب ألف في القاهرة، وأعظم كتاب في أسيرة النبوية وهو سيرة ابن هشام أُلِفَّ في مصر، وأعظم كتاب في تاريخ الإنشاء وهو صبح الأعشى ألفه أديب مصري هو القلقشندي، وأعظم موسوعة عربية وهي نهاية الأرب ألفها أديب

مصري هو النويري، وأعظم شارح لمذاهب التصوف، وهو الشعراني، مصري من أبناء المنوفية. . . ومصر كانت الملاذ لعلماء العرب بعد أن اعتدى التتار الهمجيون على بغداد؛ ومصر كانت الملجأ لأحرار التفكير من العرب حين اضطهدهم الأتراك في سورية ولبنان؛ ومصر كانت ولا تزال صلة الوصل بين الحضارة الشرقية والحضارة الغربية، وبفضل سواعد المصريين اندحر الصليبيون؛ وبفضل مصر حبطت دسائس المبشرين في الشرق وهم أعوان المستعمرين في تقويض دعائم الحضارة العربية

فما الذي سيصنع أحمد أمين حين يدرس الأدب المصري بكلية الآداب؟

أترونه يفهم الغرض الأصيل من الأدب المصري فيرفع آصار الخمول عن مآثر المصريين في خدمة الأدب واللغة والتاريخ والتشريع؟ أم ترونه يتخذ مادة الدرس من الكلام عن أحاديث الحاجة خدُّوجة والمعلِّم مشحوت؟

إن كلية الآداب لن تعيش بمنجاة من رقابة النقد الأدبي، ولن يهمس أحمد أمين بكلمة أو فكرة بدون أن تصل إلى من يهمهم معرفة جوهر الرسالة الأدبية التي تذيعها كلية الآداب، ولن يرن في أبهاء تلك الكلية صوت ينطق بالحق أو بالباطل إلا وحوله أرصاد من عقول الشبان الأذكياء الذين توِّجههم عزائمهم وقلوبهم إلى أن يكونوا أبطال الفكر العربي الصحيح في العصر الحديث!

وإني لموقن بأن أصدقائنا من أساتذة كلية الآداب يعرفون جيداً أن الأمة تنتظر أن يكون ذلك المعهد العظيم أهلاً في كل وقت للأمانة العظيمة التي عهدتْ بها إليه، فلا يكون مسرحاً للآراء الفطيرة التي يذيعها بعض الناس في إحدى المجلات

لقد رجونا ألف مرة أن تكون كلية الآداب بالقاهرة هي النبراس الذي تستضئ بها العقول في الشرق، وقد استطاعت تلك الكلية بفضل المتفوقين من أساتذتها وخريجيها أن ترفع لواء الدراسات الأدبية والفلسفية، فمن المجازفة بسمعتها العلمية أن تصفح عمن يقفون عند الحدود السطحية في فهم الأدب والتاريخ

أقول هذا وقد كتب إليَّ أحد المتخرجين في تلك الكلية خطاباً يقول فيه: إن اللغة العربية ليست لغة المصريين. ولو شئت لصرحت باسم صاحب ذلك الخطاب، ولكنه صديق عزيز لا أحب أن أعرضه للاتسام بسمة الخطأ الذي وقع فيه أساتذة أحمد أمين وإنما يهمني نقض هذا الرأي لأنه على ضعفه يرفع رأسه من وقت إلى وقت، ويخيل للناس أنه قادر على الحياة وأنه يستطيع أن يمشي على رجلين أو على أربع، وأنه خليق بأن تُنصَبْ له الموازين!

وهذه الشبهة لها صورة من صور الحق:

فاللغة العربية ليست لغة مصرية، وإنما هي في الأصل لغة أجنبية حملتها العقيدة الإسلامية

هذه الشبهة تحمل وجهاً جميلاً من وجوه الحق، ولكنها تذكر بحكاية اللص الذي رأى صاحب الدار يجول في أرجاء داره فصاح: من الذي هناك!

أيها القراء

أسمعوا الحجج الآتية، ثم كذبوني إن استطعتم، ولن تستطيعوا أبداً. أنتم تعرفون أن أهل مصر تكلموا اللغة العربية نحو ثلاثة عشر قرناً، فهل تعرفون أن المصريين تكلموا لغة واحدة ثلاثة عشر قرناً قبل أن يتكلموا اللغة العربية؟

هل يستطيع رجل من علماء الآثار المصرية أن يثبت أن أهل مصر كانت لهم لغة واحدة في أي عهد من العهود قبل أن يعرفوا اللغة العربية؟

إن التاريخ يؤكد أن المصريين قبل الإسلام كانت لهم لغة في الشمال ولغة في الجنوب، ويؤكد أنهم عرفوا لغة ثالثة هي اللغة اليونانية، وكانت لغة رسمية في بعض العهود، وربما استطاع التاريخ أن يقول إن مصر كان فيها ثلاث لغات: لغة لأهل مصر الوسطى ولغة لأهل الجنوب ولغة لأهل الشمال

وقد يستطيع التاريخ أن يؤكد أن بعض الأقاليم المصرية عرفت اللغة العربية قبل الإسلام. والتشابه بين اللغة المصرية واللغة العربية أثبته كثير من الباحثين منهم المرحوم أحمد باشا كمال وأحدِّد الغرض فأقول:

إن اللغة التي تسود سيادة تامة في قطر من الأقطار ثلاثة عشر قرناً لا تكون لغة أجنبية وإنما تكون لغة قومية. وسيأتي يوم تسمى فيه اللغة العربية باسم آخر هو اللغة المصرية، لأن العرب الأصليين في حوا ضرهم وبواديهم لا يتذوقون اللغة الفصيحة كما يتذوقها المصريون، ولولا مصر لانقرضت لغة العرب منذ أجيال طوال

يا بني آدم من أهل مصر، أسمعوا وعوا

إن مصر - لحكمة أرادها الله بالعرب والمسلمين - هي البلد الوحيد الذي انقرضت لغاته القديمة لتحل محل اللغة العربية، وهذا حظ لم تظفر بمثله أمة عربية: فالأقطار الشامية تحيا فيها اللغة السريانية واللغة العبرانية؛ والبلاد العراقية تحيا فيها اللغة البابلية واللغة الكردية، ولغات أخر يعرفها أهل تلك البلاد؛ والجزيرة العربية تحيا فيها لهجات مختلفات؛ والبلاد المغربية فيها ما تعرفون من لغات متنافرة بعضها قديم وبعضها حديث، والرجل العربي قد يحتاج في تلك البلاد إلى ترجمان

وقد عصفت عصور الظلمات بلغة القرآن في كثير من الممالك العربية، فاضطرت بغداد وكانت عروس العروبة إلى أن تتكلم اللغة الفارسية بضعة قرون، ثم قهرها

الظلم بعد ذلك على أن تتكلم اللغة التركية زمناً غير قليل؛ والشام في مختلف أقطاره تعرض كارهاً لأمثال تلك الخطوب. ومع هذا لطف الله بمصر فظلت موئل اللغة العربية، وكانت المساجد في القاهرة وفي سائر الحواضر المصرية مدارس جامعة لنشر علوم اللغة والدين، وما يزال الناس يذكرون كيف حفظ الأزهر الشريف مخلفات الفُرس والهنود والعراقيين والشوام والمغاربة والأندلسيين في ميادين المعقول والمنقول

فالذين يهمسون بأن اللغة العربية في مصر لغة أجنبية هم قوم مجرمون يستأهلون التأديب وكيف تكون لغة أجنبية وقد تغلغلت في دمائنا وأرواحنا نحو ثلاثة عشر قرناً، وكنا الدرَّع التي تصد ما يوجه إليها من سهام ونبال؟

إن اللغة العربية في مصر أرسخ من اللغة الفرنسية في فرنسا ومن اللغة الإنجليزية في إنجلترا ومن اللغة الألمانية في ألمانيا، لأن تلك اللغات بصورتها الراهنة لم تعش في بلادها ربع المدة التي عاشتها اللغة العربية في بلادنا، والفرق بيننا وبينهم أنهم سلموا من الدسائس وابتلينا نحن بالدسائس

وهل يستطيع شاعر مثل فيكتور هوجو أن يجد في أجداده من تكلم اللغة الفرنسية كما يجد حافظ إبراهيم من أجداده من تكلم اللغة العربية؟

وأين كانت اللغات الفرنسية والإنجليزية والألمانية في الوقت الذي ظهرت فيه أشعار أبي تمام والبحتري، وأبن الرومي، والشريف الرضي باللغة العربية؟

وهل في الدنيا لغة عاصرت القرآن وبقيت مفهومة لأهلها على نحو ما يفهم القرآن في جميع البيئات العربية؟

إن مصر هي التي حفظت لغة القرآن بلا جدال ولا نزاع، فمن العار أن يوجد في أبنائها من يقول إنها لغة أجنبية

!ومن أعجب العجب أن تحفظ لنا الأمم العربية هذا الفضل، ثم نتنكر نحن لهذا الفضل

من اعجب العجب أن تذكرنا الأمم العربية بماضينا في خدمة اللغة العربية، ثم يكون فينا من يقول بأن اللغة العربية في مصر لغة أجنبية

فما هي لغتنا إذن؟

إن اللغات المصرية القديمة لن تعود أبداً، ولو أنفقنا في سبيلها غاليات الأنفس والأموال، فهل ترون أن نتكلم بعض اللغات الأوربية، وهي أجنبية أجنبية أجنبية؟

وهل يدعو إلى هذا الرأي غير مخلوق جهول لا يعرف ما تعيش به الأمم من المقومات الذاتية؟

إن مصر ستحتفل بعد قليل بالعيد الألفي للقاهرة، فهل تستطيع مدينة في الشرق أن تقول إنها أدت للدراسات العربية والإسلامية ما أدت القاهرة؟

هل تستطيع مكة وهي مهد اللغة العربية أن تقول إنها تنافس القاهرة في ماضيها اللغوي والأدبي؟

وهل طبع المصحف في مكة بقدر ما طبع في القاهرة؟

وهل أذيعت تفاسير القران في أي بلد عربي بقدر ما أذيعت في القاهرة؟

وهل نشرت عيون المؤلفات العربة إلا بفضل مطابع القاهرة؟ وهل عرف التسامح في درس المذاهب الإسلامية كما عرف في القاهرة؟

احفظوا نعمة الله عليكم، يا أهل مصر، وكونوا عند ظن الأمم العربية بوطنكم المحبوب

ولنفرض أن العامية هي لغة المصريين وأنها ترجع إلى عهد سبق الإسلام هو عهد الهكسوس كما قال بعض المبشرين، فما عسى أن تكون تلك العامية المصرية؟

أليست لغة عربية فصيحة المفردات لا ينقصها غير الإعراب وهو ليس شرطاً أساسياً في الإفصاح؟

أنا لا أسمي هذه اللغة عامية، وإنما أسميها لغة التخاطب ولكل أمة في الدنيا لغتان: لغة تخاطب ولغة إنشاء

ومن حدثكم أن أمثال الإنجليز والفرنسي والطليان والألمان يتكلمون كما يكتبون فاعرفوا أنه غافل جهول

وكيف تصح تلك الدعوى العريضة وقد عرف كل من عاش في البلاد الأوربية أن العوام لهم لغة سهلة بسيطة لا تقاس إلى لغة من يحيون في البيئات العلمية والأدبية؟

فمن كان في ريب من ذلك فليشهد بعض الأفلام الفرنسية التي تمثل لهجات الصناع والعمال أو تصور مناحي التعبير عند أهل الشمال أو أهل الجنوب، فإن فعل فسيعرف أن لغة التخاطب تختلف قليلاً أو كثيراً عن لغة الخطابة ولغة الإنشاء

إننا نعرف أن العصر العباسي كان عصر ازدهار اللغة العربية في العصور الماضية، فهل تظنون أن عامة الناس في البصرة والكوفة وبغداد كانوا يتكلمون كما يتكلم المبرد والجاحظ ومسلم ابن الوليد؟

إن في أدباء فرنسا لهذا العهد من يشكك في قدرة جمهور الأدباء هناك على التعبير الأصيل باللغة الفرنسية، ولأحد مؤلفيهم كتاب أسماه:

فهل يكون معنى ذلك أن اللغة الفرنسية خفيت أصولها على أدباء باريس وليون؟ أم يكون معناه أن الغيرة على اللغة تثور في صدور الأدباء من حين إلى حين بسبب التسامح الذي يشهدونه في تعابير بعض الكتاب كما فعل عبد القاهر الجرجاني في مقدمة دلائل الإعجاز حين رأى ما يشبه ذلك عند كتاب القرن الخامس؟

إن الناس عندنا لا يفرقون بين الحالات التي يختلف فيها بعض الكتاب عن بعض، وهم يظنون أن كل إنشاء يخالف إنشاء الجاحظ أو ابن العميد هو من شواهد انحطاط اللغة العربية؛ وهم يتوهمون أننا تفردنا بين الأمم بالحيرة بين لغتين: إحداهما لغة التخاطب والثانية لغة الإنشاء

ولو كان ذلك المتخرج في كلية الآداب قد تخرج في قسم اللغة العربية لا في قسم التاريخ لعرف أن الجاحظ على فضله نص على أن هناك مواطن لا يجوز فيها التعبير بغير اللغة العامية، وهذا يشهد بأن حياة اللغة العامية ليست نذيراً للغة الفصيحة بالهلاك، فالذوق يوجب أن يكون لكل مقام مقال وألا نحدث العوام كما نحدث الخواص وهل كان أهل مكة والمدينة يتكلمون فيما بينهم بنفس الأسلوب المعروف في القرآن والحديث؟

إن القرآن نزل على العرب بلسان عربي مبين، ومع ذلك لا يمكن القول بأن العرب لذلك العهد كانوا يعبرون عن ذوات أنفسهم في شؤونهم اليومية والمعاشية بنفس الأسلوب الذي عبر به القرآن عن الشؤون الدينية والدنيوية

فكيف يطلب منا أن نتكلم كما يتكلم شعراؤنا وخطباؤنا في جميع الشؤون، وألا قيل إننا خوارج على اللغة العربية؟

وهل يطلب من تجار الغورية بالقاهرة أو تجار الشورجة في بغداد أو تجار الحميدية في دمشق أن يتكلموا كما يتكلم علماء مصر والشام والعراق؟

وهل يتكلم سكان محلة بِلْ فيل في باريس كما يتكلم أساتذة السوربون؟

أنا أعرف أن أستاذنا برونو كان يوصينا بأن نستمع إلى محاورات العوام في المترو، ولكن لهذه الوصية مدلول آخر، فهو كان يريد النص على أن لغة التخاطب فيها مرونة قد لا توجد في لغة الإنشاء، وأن من العقل أن ننتفع بتلك المرونة في بعض المقامات لأن انصراف العوام عن الزخرف والتنميق أعطى لغتهم خصائص من السهولة والوضوح، وهما من أهم عناصر البيان

وأؤكد للقراء أن الفرنسي الذي ينتقل من الشمال إلى الجنوب قد يجد من اختلاف الألفاظ والتعابير ما لا يجده العربي حين ينتقل من مصر إلى العراق

فكيف يجوز لبعض الناس أن يوهم القراء بأن العرب تبلبلت ألسنتهم وأن التفاهم بين خواصهم وعوامهم صار من المعضلات؟

إنه لا مفر من الاعتراف بأن اللغات العامية لها مكان في كل أرض، لأنها لغات بسيطة سهل تؤدي الأغراض اليومية في المعاملات. ولو فرضنا اللغة الفصيحة على جميع الناس لكان ذلك ضرباً من الإرهاق. . . ولا خطر على العرب من أن تكون لهم لهجات عامية تقترب أو تبتعد وفقاً للظروف الجغرافية، ولكن الخطر كل الخطر هو في جعل اللهجات المحلية أصولاً ثابتة يتدارسها العلماء ليعطوها من السلطة الأدبية ما يمكنها من الانفصال عن اللغة الفصيحة بعد جيل أو جيلين، كما يصنع الأستاذ فلان الذي يعد نفسه ليكون (أصمعي) اللهجة المصرية في هذا الزمان!

وماذا يقول فلان وفلان وفلان إذا حدثتهم بأن اللهجات المحلية في البلاد العربية أصبحت تقترب من اللغة الفصيحة بسرعة عجيبة لم تكن تخطر في البال بسبب انتشار الصحافة والتأليف؟

إن العوام في جميع البلاد العربية يقرءون الجرائد والمجلات ويفهمون مغازيها ومراميها بلا صعوبة، وشاهد ذلك يعرفه أصحاب المجلات المصرية الذين يشهدون بأن قراءهم في خارج مصر يعدون بالألوف

فهل يمر ذلك بلا تأثير في تطور اللهجات المحلية؟

شرقّوا قليلاً أيها المصريون لتدركوا فضل اللغة الفصيحة في نشر معارفكم بأقطار الشرق، ولتروا كيف يعتز الرجل المصري حين يرى له إخواناً يفهمون عنه في أقطار تفصلها عنه البحار والصحارى والجبال

أنتم لا تعرفون قيمة الحرص على وحدة اللغة العربية، ولا تدركون قيمة النعمة التي خصكم بها الله حين جعلكم حَفَظَة التراث العربي، ولو عرفتم ذلك لأفضيتم حلل الثناء على من ينشدون أخوتكم من أهل الشرق، ويذكرونكم في كل يوم بأنهم إخوانكم الأقربون وإن بعدت الدار، وشطَّ المزار

إن الأديب الذي طويت اسمه حفظاً لسمعته ينسى أن المزية الصحيحة التي رفعته مكاناً عليَّاً بين زملائه هي قدرته على مخاطبة الجماهير بلغة مصونة من اللحن والتحريف، فإن أصر على معاداة اللغة الفصيحة فليجرب حظه بطريقة عملية، ثم لينظر كيف تميد الأرض تحت قدميه

أما بعد فهل ينتهي صديقنا الأستاذ أحمد أمين؟

هل يدرك أن شبان اليوم يعانون أزمة خطيرة بسبب الدسائس التي يصوبها المستمرون والمبشرون إلى صدر اللغة العربية، وإن واجب الأساتذة بكلية الآداب هو حماية أولئك الشبان من تلك السموم الفواتك؟ هل يعرف أن فرنسا على عظمة إيمانها بسيطرة لغتها الفصيحة سيطرة قاهرة تحسب ألف حساب بخطر اللهجات المحلية وتتخوف من انتقاض (البروفانس) وإنها لذلك أعلنت غضبتها الأدبية على الشاعر ميسترال؟

من حق السيد فلان أن يتحذلق كيف شاء فيدّعي أن الأدب العربي لا يستحق الدرس في

المدارس الثانوية والعالية، ومن حق السيد فلان أن يقول بأن اللغة العربية لغة أجنبية، ومن حق السيد فلان أن يقول بأن المصريين ليسوا من العرب؛ من حق هؤلاء أن يقولوا ما يشاءون ما دام القانون لا يحرم الاعتداء على اللغة كما يحرم الاعتداء على الدين. . . ولكنا سنريهم أن سيف القلم أمضى من سيف القانون

(للحديث شجون)

زكي مبارك

دمشقيات

ليلة على سفح قاسيون!

للأستاذ علي الطنطاوي

يا ليلة السفح هلا عدت ثانية ... سقى زمانك هطال من الديم

لم أفض منك لبانات ظفرت بها ... فهل لي اليوم إلا زفرة الندم؟

(الشريف)

يا ليلة ما كان أجملها وأقصرها! . . . وذلك تكون ليالي الأنس فاتنات قصيرات العمار

يا ليلة ستمر الليالي ولا تمحو من نفسي ذكراها ولا أستطيع أن أنساها. . .

يا ليلة. . . سكرت فيها بلا كأس ولا قدح. . . لقد علمتني السكر فسأسكر الليالي الآتيات بذكراك. . . ولكن ثمالة السرور لا يكون فيها إلا رحيق الألم. . .

صدق دانتي: إن ذكرى اللذائذ الماضية تؤلمنا!

تلك هي ليلتنا على سفح قاسيون، في قهوة (حسن آغا) نظم فيها قلادة الأصحاب والأحباب، شفاءُ الطفل المحبوب (إبراهيم الرواف) فأجتمع الشمل وتم الأنس وألفت الحلقة بين العلم والأدب والشعر والفن والنكتة والغناء، وجمعت القهوة بين العراق والشام، ودمشق وبيروت، فكان في المجلس كرام أهل كل بلد وكبار أهل كل فن. . . وشاركت الطبيعة الناس في فرحة الشفاء فتزينت بحلة الأصيل المنسوجة بخيوط الذهب، وماست أشجار الغوطة دلالاً، وهمست الأوراق بترتيلة المساء، وكان المشهد لا يفيد فيه الوصف، لأن مثله لا يرى إلا في دمشق أو في جنان الخلد، ودمشق جنة المستعجل. . .

وتحدث الأستاذ البيطار، وتطارح الأستاذان الأثري والتنوخي الأشعار، ثم تسلم المجلس الأستاذ سعدي ياسين خطيب بيروت فلم يبق لأحد مجال لمقال، وطفق يلقي النكتة إثر النكتة والنادرة تلو النادرة، ونحن نمسك بخواصرنا، ونضرب من الضحك بأرجلنا ونمسح دموعنا، وهو لا يكف ولا يقف، ففكرت كم يضيع بيننا من الآداب التي لو دوناها كما دون المتقدمون لكانت لنا ثروة هائلة. وحسبك من هولها أن ما رواه صاحبنا تلك الليلة وارتجله يملأ كتاباً كبيراً. . . حتى إذا انطفأ مصباح الكون، ولبثت عروس الطبيعة ثوبها الأسود، ووجب حق الله علينا، قمنا إلى الصلاة، فأذن مؤذن منا، فلم نفرغ من الصلاة حتى أذن
. . .مؤذن آخر أن حي على الطعام
ولما فرغنا وامتلأت بطوننا، حسبت المجلس سينفض، وأن القوم قد طعموا فلابد أن يتسروا، فإذا المجلس يبدأ، وإذا الشيخ سعدي يقدم المقدمات. . . ويتحدث عن الغناء والطرب، فما ظننت والله إلا أنه سيغني. ولقد سمعته حين أذن فسمعت صوتاً حلواً ورنة عذبة، ولكنى وجدته يشير إلى شاب ما فتح منذ الليلة فمه ولا تكلم بكلمة، فظننته يمزح وقلت إحدى هناته والله؛ غير أنه بالغ في إطراء الشاب وشاركه في ذلك من اعتمد ذوقه واطمأن إلى حكمه وارتضى فهمه، فشككت ولم أصدق أن يكون في دمشق مغن مجود لا اعرفه، على ولعي بأهل هذا الفن، وعلى صلتي بالأديب الموسيقي الأستاذ حسنى كنعاة لولب أهل الموسيقى. . . وكان أشد ما أخشى منه أن يردد علينا اسطوانات عبد الوهاب وأم كلثوم ويحسبها علينا ليلة طرب، وتمنيت لو ارتجل ارتجالاً ولم يجاوز أنغامنا العربية إلى أنغام لا نألفها ولا نحبها، ولا يدعى محبتها إلا قوم يراءون بالطرب منها حتى يقال إنهم متمدنون وأن لهم بموسيقى أوربة بصراً، ولست بحمد الله من هؤلاء. . .
وما لبث الشاب أن غنى، فإذا صوت تمنيت والله أن يكون لي علم الأستاذ محمد السيد المويلحي لأصفه لقراء الرسالة كما يصف هو، فأقيسه ب ـ (الكونترالتو) الذي لا أعرف اهو شيء مأكول أم ملموس، وب ـ (الميزو سبرانو) الذي لا أدري أهو حيوان أم نبات أم جماد أم هو شيطان من شياطين الموسيقى؟ ولكني وا حسرتا جاهل بهذا الفن، وليس عندنا في دمشق مويلحي آخر يخلد ذكر هؤلاء النابغين المغمورين المساكين في الرسالة!
أفيصح أن أصفه كما اعرف؟
بدأ بـ (يا ليل) بصوت ناعم حلو، فأطربني صوته، وأعجبني نغمته، ولم أعب عليه إلا خفوته ونعومته؛ وصحت وأنا رجل طروب، وصفقت، فقال لي القوم: انتظر إنك لم تسمع شيئاً. وانتظرت فإذا هو يدور بالنغمة دورة، فإذا له صوت قوي وضخم ولكنه واطئ كقرار عبد الوهاب؛ وإن كانت له قوة صوت صالح عبد الحي أو الشيخ صبحي الأمام في الشام، ثم يعلو به ويعلو، حتى يرتفع ارتفاعاً هائلاً، وهو لا يزال على قوته ورجولته، فبالغت في الإعجاب وهزني الطرب، فقالوا انتظر، أن بعد هذا لشيئاً، فسكت انتظر وما أظن أن بعد هذا شيئاً يكون، فإذا الشاب (عادل القربي) يقفز من هذا العلو إلى طبقة أعلى وأرفع، وإذا له صوت صبيّ برقته وحدته وصفائه، فاستخفى والله الطرب، حتى هممت لولا الحياء أن أقوم له فالتزمه وأقبله، وتركنا في هذا الأفق السامي، وهبط بآهة من آهاته إلى القرار، ثم تهاوت آهته واختفت حتى لقد سمعت الهاء الساكنة ينطق بها قلبه. . . ثم سكت سكتة، فلا والله ما ظننا إلا أن الدنيا قد دارت بنا، وثارت في نفوسنا عواصف من العواطف الدفينة، والذكر الكامنة لا يعلمها إلا الله، وكانت لحظة صمت وخشوع، آمنت فيها بما تفعل الموسيقى. . . ثم انتبه القوم فزلزل المكان بالتصفيق والهتاف. . .
ثم عاد ينادي هذا الليل الأصم: (يا ليل - يا ليل) والليل يصغي ويطرب، ولكنه لا ينطق فيجيب. (يا ليل - يا ليل) كم ذا يهتفون باسمك وأنت صامت! (يا ليل - يا ليل) يا ملجأ البائسين، يا سمير العاشقين، يا حبيب المتعبد الناسك، يا عدو المريض المتألم الحزين! (يا ليل) كم يخفى ظلامك من مشاهد البؤس ومظاهر النعيم (يا ليل) كم تضم أحشاؤك من الآم وآمال! كم تشهد من أفراح وأتراح! (يا ليل) كم يتمنى بقاءك سعيد جذلان، وكم يرقب فجرك ضائق حزنان (يا ليل - يا ليل) كم بين جوانبك من ساهر

يراقب النجم يرقب حبيباً لن يعود أبداً. أو يناجي ميتاً لا يسمع، أو يحنو على مريض لا يشفى، أو يشكو والحياة لا تسمع شكاة (يا ليل) يا رمز السرمدية، يا حليف المسرات، يا قرين الآلام!

امتلأت نفسي شجناً، وأحيت هذه (الليالي) ليالي الخاليات وملك نفسي شعور أعهده منها كلما سمعت الصبايا لسحر الصبا. . . ومضى الشاب يقلب الأنغام فيتلاعب بالقلوب والمشاعر. ثم كرّ كرة فجاء بنغمة متقطعة مرقصة. . . وأتى بدور يترع النفوس فرحاً، واضطر القوم كلهم أن يرددوا كلمات منه بصوت منخفض يخالطه صوته الدقيق العالي فيكون منه اتساق (آرموني) موسيقى عجيب، وعاد المرح إلى المجلس، وسقط الوقار عن أوقر أهله فعلمت أن موسيقانا ليست كلها بكاء وألماً ولكن فيها المرقص المطرب، وكان الشيخ سعدي لا يدخر سكتة بين نغمتين إلا أحكم المرمى وقذف بنكتة من نكته التي لا ينفد معينها. وزلزل المجلس بأهله من الضحك والغناء، حتى لقد حسبت الدنيا ترقص معنا. ثم حط الغناء على أنشودتنا الشعبية الخالدة (يا ميجنا - يا ميجنا) تلك التي تصور بمعانيها النفس الشامية، وتمثل بصورها طبيعة بلادنا وجمال ديارنا، وهي رمز عبقريتنا الشعبي ومجال الابتكار، ومحك القريحة؛ فهي ترتجل أبداً ارتجالاً وتعقد لها المجالس، ويقوم الشاعران يتقارضان المدح أو الهجاء، وأهل المجلس يرددون اللازمة. . . (الميجنا) أنشودتنا الأزلية التي لا يعلم أحد من نظم أول مقطع منها ولا متى ينظم آخر مقطع. . . ثم أخذنا في الأغاني البلدية (هيهات يا بو زلف):

من هُون لَ أرض الدير ... من هُون لَ أرض الدير
والسّر اللي بيننا ... أيشْ وَصَّلُو للغير
وان كان ما في ورق ... لَ أكتب عَ جناح الطير
وان كان ما في حبر ... بدموع عينيّ. . . . . .

تلك الأغاني التي ولدت في أودية الشام المختبئة في سر الغيب لا يعلم بها إلا أهلوها والله العالم بكل شيء، وذراه التي لا يسكنها إلا أهلوها والنور

فيا أيها المصطافون بالله عليكم، لا تقفوا عند صوفر وبحمدون وبلودان، بل . . . تغلغلوا إذا أردتم أن تشاهدوا الجمال جمال الفطرة، واهبطوا أودية، وارتقوا ذرى، واركبوا الدواب، وسيروا على الأقدام، ولكن لا. . . لا أيها المصطافون بالله عليكم، انسوا ما قلت لكم، ودعوا الجبل على فطرته، اتركوه يعيش على جهله الفاضل، وفقره السعيد. لا تحملوا إليه الحضارة التي أفسدت بلودان وصوفر وبحمدون. . . هذه الحضارة، ويل لنا من هذه الحضارة!

لقد سلبتنا كل شيء! فهل تسلبنا موسيقانا؟ إنا لا نجد ساعة الضيق إلا أغانينا وأنغامنا، نصب فيها آلامنا ونستوحيها الأمل ونمسح بها دموعنا. أفتريدون ألا يبقى لنا وزر نلجأ إليه ساعة الصبق؟

إن الموسيقى غذاء الروح، فشأنكم، قلدوا أوربة في كل شيء لكن دعوا لنا غذاء أرواحنا. أفتحبون ألا نجد لأرواحنا غذاء فنتركها تذوي وتموت؟

هذه صرخة قلوبنا، فهل يصغي إليها هؤلاء الذين وهبهم الله نعمة الفن ليحفظوا علينا فننا، فذهبوا يضيعون بهذه النعمة فننا؟ هل يصغي عبد الوهاب نابغة العصر؟

غني والله لأسمع في السينما أغاني القوم من أهل أوربة، فلا أحس طرباً ولا أرى فيها إلا اختلاطاً في الأنغام من باب. . .

سقياً ورعياً وزيتوناً ومغفرة ... قتلتم الشيخ عثمان بن عفانا

وليقل عني من شاء ما شاء، ثم أسمع عبد الوهاب فاعجب، ولكني لا اطرب، فإذا سمعت علياً الكردي في الشام أو القبانجي في بغداد عرفت ما هو الطرب. هكذا أنا، وهكذا الناس، فدعوا لنا أغانينا. . .

وضرب الشاب في كل فن من الغناء، ثم غنّى في أبيات أبي صخر الهذلي:

عجبت لسعي الدهر بيني وبينها ... فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر
فيا حبها زدني جوىً كل ليلة ... ويا سلوة الأيام موعدك الحشر
ويا هجر ليلي قد بلغت بي المدى ... وزدت على ما ليس يبلغه الهجر
وإني لتعروني لذكراك هزة ... كما انتفض العصفور بلله القطر
هجرتك حتى قيل لا يعرف الهوى ... وزرتك حتى قيل ليس له صبر

أما والذي أبكى وأضحك والذي ... أمات وأحيا والذي أمره الأمر
لقد تركتني أحسد الوحش أن أرى ... أليفين منها لا يروعهما الذعر
فنقلني إلى مجالس الخلفاء التي صورها أبو الفرج، ونال مني الطرب؛ فعرفت أن لقد كان حقاً ما ذكر الأصبهاني وأن المرء قد يمزق ثوبه من الطرب، أو يحرق لحيته بالسراج وينادي النار يا أولاد ال ـ. . . ومن يضع الوسادة على رأسه ويصيح (زلابية بعسل). . .
ولكن ماذا ينفع الشاب إعجابي، وماذا تفيده هذه العبقرية وهو مضطر إلى العمل في سوق الحميدية ليعيش؟ أفليس حراماً أن يدفن هذا النبوغ في دكان؟ أليس حراماً أن صبحي الحموي يعيش متنقلاً بين القرى يراقب إصلاح لطرق المخربة وهو من أقدر من أمسك بمضراب العود؟ أليس حراماً أن يكون عليّ الكردي شيخ الفن القديم في الشام دلال بيوت؟ أليس حراماً أن يشتغل تحسين بك سيد أهل الناي في البلاد كلها بإصلاح أنابيب المياه في البيوت وهو في الثمانين من عمره؟
وفي بغداد، أليس الشيخ حيدر الجوادي عاملاً في دار لتجليد الكتب؟ وفي مصر، أما فيها كثير من أهل الفن لا يعبأ بهم أحد؟
ولكن لا بأس
لقد عهدتك بعد الموت تندبني ... وفي حياتي ما زودتني زادي
لا بأس أن يموت الفنان جوعاً، فسينصب له بثمن خبزه تمثال، ورحمك الله يا سيد درويش. . .
(دمشق)
علي الطنطاوي
حديث في القرن التاسع عشر
للأستاذ خليل هنداوي
التفت إلي محدثي - وهو شيخ وقور - وقال لي:
إنني محدثك حديثاً عجباً!
قلت: هات!
قال:
كنت في نهاية القرن التاسع عشر في وظيفة إفتاء للأسطول العثماني. وألزمت أن أركب البحر من الدار العلية إلى شاطئ المغرب لمشاغل دينية، على باخرة يونانية صغيرة تميل كلما مال عليها الموج. كنت في عزلة موحشة، لأني غريب لا تميل سحنة إلى سحنتي، ولا ينحني زي على زيي. وصدفة جلس إزائي على المائدة رجل قد تجاوز الأربعين، ولكن ملامح الأسفار على وجهه، وقد استبد الشيب بأكثر مساحة رأسه. أما همته، فلا تزال في صعود: يمشي فلا ينحني، ويتكلم فلا يتتعتع. . .
بادرني قائلاً بالألمانية:
- هل تحسن الألمانية؟
- لا.
سكت ريثما فرغت جفنة من الطعام وعاد سائلاً:
- هل تحسن الفرنسية؟
- لا.
- هل تحس الإنجليزية؟
- لا.
ثم قال بلسان فصيح طلق كأنه أحد البداة:
- وهل تحسن اللغة العربية؟
- أنا أبنها!
- ما اسمك، وما وسمك، ومن أين، وإلى أين؟
أجبته على سؤاله، وعجبت من أمر هذا الرجل الذي كان ينبغي له لما صادفه من زيي أن يسألني بالعربية. وقدم إلي نفسه بأنه مستشرق ألماني من هامبورج، قضى في الشرق زمناً طويلاً يبلو به الأخلاق، ويدرس العادات. وكانت صحبتنا خلال هذه الأيام المعدودة، صحبة متينة وثيقة، تجاذبنا فيها ما اختلف ألوانه من الأحاديث. وقبل أن

يغادرني إلى بلده قال لي:
- والآن أريد أن أسألك عن مسألتين، ولكني رجل لا أُحب النقاش الممل، والجدل القائم على المكابرة. قال:
- إنني اطلب إلى الله أن يميتني على دين عمر بن الخطاب! قلت له:
- يا هذا! إن الدين دين محمد، فكيف تسنده إلى عمر؟!
أجاب:
- نعم. إن الدين دين محمد، ولكني أدعو الله أن يميتني على دين عمر. . . إن محمداً جاء بالدين ودعا إليه، وأبو بكر شد أزره، وثبت أمره. وجاء عمر ينشره يؤيده وينفذه. . . ومات عمر والمسلمون من بعده لا يزالون يتخبطون في فتنة عمياء، عرفت أوائلها، ولا تعرف خواتمها! المسلمون اليوم على دين غير دين عمر. وماذا - لعمر الله - يرعون من هذا الدين إلا رسومه؟ دين عمر يأمر بالصلاح وهم فاسدون. دين عمر يأمر بالأمانة وهم خائنون، ويأمر بالصدق وهم كاذبون، ويأمر بالوفاء وهم غادرون. . .
سمعتُ هذا من محدثي، وبرقت لنفسي خاطرة أحببت أن أوضحها، وأحببت أن الفت إليها أنظار المصلحين من رجال الدين: إن الأخلاق التي حث عليها الدين تنحصر في نوعين: الأخلاق الحسية، والأخلاق المعنوية. أما الأولى فهي تتناول الظاهر وتجعل من الرجل الذي يتمسك بها رجلاً فاضلاً محترماً. وإلى هذا النوع من الأخلاق يميل المصلحون، وعلى ممارسته يحثون. على أن المسلمين في الحقيقة لم يتردوا في هذا الدرك الأسفل من الذل، لأن بعضهم يشرب الخمر أو يفسق أو يقامر، وإنا لنرى اكثر الأمم المتسلطة علينا غارقة في خمرها وفسقها وقمارها. . . فلم يضرها ذلك شيئاً. أما الجانب الأكثر خطراً في الأخلاق، فهو الجانب المعنوي الذي تقاس به حيوية الأمم. ولعل هذا الجانب هو ما قصد إليه المستشرق، لأنه وجد أخلاقنا المعنوية، ومقاييسنا الروحية هزيلة جداً: فتاجرنا مثلاً يثرى بالخيانة والحيلة، وفقيهنا يرنع بالكذب، ومصلحنا يقصد جيبه قبل أن يقصد ربه. ومثل هذا الجانب هو ما ينبغي للمصلحين أن يعالجوه! وقد عرف رجال الدين كيف نعت الرسول (ص) الكفر بالشرك الأكبر والرياء في الأخلاق بالشرك الأصغر. ومن ذا الذي لا يذكر ذلك الأعرابي الذي قدم على رسول والرذائل حشو ثيابه، فقال له: إنه لا يستطيع أن يقعد عن الخمر، وعن الفسق، وعن القمار. فما عالجه الرسول الحكيم إلا من الناحية المعنوية التي تقوي الشخصية وتنقي النفس قال له:
- لا تكذب، وافعل بعد هذا كل شيء!
لكن الأعرابي بعد يومين ترك كل رذيلة.
وهاهنا روعة الفهم وروعة الحكمة!
ولكن كيف يعمل مصلحون يتاجرون بالأخلاق الحسية على حساب الأخلاق المعنوية؟
التفت المستشرق إلى محدثي عن المسألة الثانية:
- وما هو الفارق بين الشرقيين والغربيين؟
- فاعتذر صاحبي بأنه لا يعرف الغرب معرفة صحيحة، كما اعتذر الشيخ محمد عبده حين سأله الفيلسوف سبنسر عن أخلاق الإنجليز فاجاب المستشرق:
- إن الشرق كفرد له قيمته وطيبة قلبه، بعكس الغربي الذي فسدت ذاتيته، وتعطلت محاسن نفسه. ولكن الشرقي حين يندمج ويتكتل مع غيره لا يلد إلا كتلة فاسدة متفسخة، يسوقها الطمع، وتقتلها الأنانية. بعكس الكتلة الغربية التي يسودها النظام، وتذوب فيها المصالح الفردية. ولهذا يرجع سر نجاح الجمعية الغربية، وفشل الجمعية الشرقية!
ولقد أصاب المستشرق الهدف إلى حد بعيد، لأن تربية الشرقي تربية ذاتية أنانية تدور حول نفسها، لا تعمل الخير ولا تطلب الإحسان في العمل إلا إذا عملت لنفسها. بينما تربية الغربي تكاد تصبح تربية جماعية اجتماعية، كأنما أدركت هذه التربية قول الرسول (ص): يد الله مع الجماعة.
ولكن ما عسى يقول هذا المستشرق لو عرف أن الشرقي الذي كان يعرفه قد مات، وان الشرقي اليوم قد أضاع طيبة القلب وأمانة النفس كفرد، وبهذا أصبح لا يصلح للحياة كفرد في نفسه ولا في مجتمعه!

. . .وهنا افترقنا
- لكن القدر هيأ لهما اجتماعاً ثانياً بعد أربعة أعوام في مدينة المستشرق - هامبورج فاستقبل المستشرق صاحبنا وأحله في مثواه، لأنه عربي له عليه حق الضيافة. وفي اليوم الثاني عرَّج به إلى الجامعة، وقدمه إلى رئيسها، وهو شيخ مفكر، لكنه غير محلول اللسان
قال الرئيس لمحدثي بالعربية:
- كيف رأيت بلادنا؟
- البلاد جميلة!
- جميلة! الظواهر جميلة في انتظام، أما البواطن ففي انقلاب! ولكن إذا حكم الإنسان العقل أدرك الأمور بحقائقها
فالتفت محدثي إلى الرئيس وقال:
- على ذكر العقل وإدراكه للحقائق، أود أن أذكر هذه الفقرة من كتاب مخطوط قرأته في مكتبة - أيا صوفيا - وهو في التصوف، وأسمه (نور الأبصار) لمؤلفه الشيخ بهاء الدين اليانيلي من منطقة الألبان (صدر في سنة 1160هـ). قال عن الشيخ العارف الأكبر السيد محيي الدين بن عربي: (ما عرفت رجلاً عرف الله عن طريق العقل مثل أفلاطون. . . وأفلاطون فيلسوف يوناني تفتحت له الحكمة، وانزاحت عن عينيه الحجب. وقد أوصى بأن ينقش على قبره: (الحكمة سلم العالم الأعلى، من علمها فقد علم القرب إلى بارئه، من تدبر نظر، ومن نظر انفتح ذهنه وعقله صفت نفسه، ومن صفت نفسه وصل إلى خالقه بدون واسطة!)
وهنا طلب الرئيس إلى محدثي اسم الكتاب واسم مصنفه ومكانه. وطلب إلى أستاذ في الجامعة أن يسافر لغده إلى - الدار العلية - لاستنساخ الكتاب. ويضيف محدثي إلى ما قاله: وبعد شهرين علمت من قيم المكتبة أن أستاذاً ألمانياً نقل الكتاب، وأعطى القيم مكافأة حسنة. . .
خليل هنداوي
يا رسول الله!
لأستاذ جليل
إن الدهر قد جار على قوم عرب!!!
روى المسعودي في (التنبيه والإشراف) إخبار طائفة من الأفدية بين العرب والروم، منها خبر هذا الفداء:
(الفداء الأول فداء أبي سليم، كان أول فداء جرى في أيام ولد العباس في خلافة الرشيد باللامس من ساحل البحر الرومي على نحو من خمسة وثلاثين ميلاً من طرسوس سنة 189 - والملك على الروم نقفور - وذلك على يد القاسم بن الرشيد وباسمه، وهو معسكر بمرج دابق من بلاد قنسرين من أعمال الحلب. حضر هذا الفداء وقام به أبو سليم فرج خادم الرشيد المتولي له بناء طرسوس في سنة 171 للهجرة، وسالم البربري مولى بني العباس في ثلاثين ألفاً من المرتزقة، وحضره من أهل الثغور وغيرهم من أهل الأمصار نحو من خمس مائة ألف، (وقيل أكثر من ذلك) بأحسن ما يكون من العدد والخيل والسلاح والقوة. قد أخذوا السهل والجبل، وضاق بهم الفضاء. وحضرت مراكب الروم الحربية بأحسن ما يكون من الزي، ومعهم أسارى المسلمين وكان عدة من فودي به المسلمين في اثني عشر يوماً - ثلاثة آلاف وسبع مائة - (وقيل أكثر من ذلك). والمقام باللامس نحو أربعين يوماً قبل الأيام التي وقع الفداء فيها وبعدها).
وذكر المسعودي في ذلك الكتاب هذا الخبر:
(كانت ملوك الروم تكتب على كتبها من فلان ملك النصرانية فغير ذلك نقفور، وكتب (ملك الروم)، وقال هذا كذب، ليس (أنا) ملك النصرانية، أنا ملك الروم، والملوك لا تكذب وأنكر على الروم تسميتهم العرب: (ساراقينوس) تفسير ذلك عبيد سارة، طعناً منهم على هاجر وابنها اسمعيل. وقال: تسميتهم عبيد سارة كذب. والروم إلى هذا الوقت - يعني سنة 345 - تسمي العرب ساراقينوس).
قرأت ما روى المؤرخ المسعودي فرددت:

تذكرتُ والذكرى تهيج لذي الهوى ... ومن حاجة المحزون أن يتذكرا
وخط القلم هذا المكتوب: أقمنا وجيراننا الروم - بضعة قرون - نتغاور ونتعارك ونتناحر:
تصبح أجنادنا وبعوثنا: (الصوائف، والشواتي، والربيعيات) دروبهم ومدائنهم وتمسيها
لما حللتَ الثغر أصبح عالياً ... للروم من ذاك الجوار - جوار
أبقت بني الأصفر الممراض كاسمهم ... صفر الوجوه، وجلت أوجه العرب
أنت طول الحياة للروم غاز ... فمتى الوعد أن يكون القفول
وكيف ترّجى الروم والروس هدمها ... وذا الطعن أساس لها ودعائم
وتطلع على ربوعنا والعواصم ... بنودُ الروم يقاتلون مستبسلين
كنا نتحارب، وكنا نتهادن، ونفادي أسرانا عندهم، ويفادون أساراهم عندنا والحرب سجال
وكان تنابز بالألقاب، فكنا نقول لذوي القرون: يا أعلاج يا علوج!
ويقولون لنا ساخرين: سراقينوس!.
فلما وهنوا ووهنا وهلكوا وهلكنا أقبل قبيل كنا هديناه وعلمناه وهذبناه ومدناه - كما مدنا سواه - وقربناه، وإن شئت فقل: أنشأناه خلقاً آخر، وما كان يعد من الناس، وامتلك دار الروم و (رب ساع لقاعد). وقد كافأنا لئيم شر مكافأة:
جزتنا بنو (مُفل) بحسن فعالنا ... جزاء سنمار، وما كان ذا ذنب!
خرب لنا حضارة في مصر، ونهب الناهب كنوزنا، وتمالأ هو والإفرنجي علينا في هذا الوقت، وابتّز المختلس الظالم حقاً هو لنا
فإن الماء ماء أبي وجدي ... وبئري ذو حفرت وذو طويت!
وضام - غير راحم ولا كريم - في الربع المحروب كل عربي نصراني أو حنيف! وشرّد العرب البائسين في البلاد تشريداً! وحقر لو غادته لغة (الكتاب) المبين - الله أكبر، الله أكبر! - وهي التي كوَّنت لسانه؛ فنطق الأعجم مثل الناطقين
ألا إن العربيين لمستأهلون - بما شقوا ليسعد غيرهم - أن يقول لهم الروم: (ساراقينوس) مستهزئين وشامتين
يا محمد! يا محمد!
لقد ضامنا في هذا الزمان الإفرنجي والتركي حتى ذاك الذي ضربت عليه الذلة - حيهلاً بك يا منيَّة حيهلْ - وكان ضعفنا ولؤمنا وتعادينا وصَدَعاتنا وغضبك علينا، غضبك على الخلف الخالف من أجل ذلك - أقوى معين للضائمين!
فإن لم تمّن على المنتمين إلى عربية (قرآنك) العربي بشيء من عطفٍ ورضا هلك - يا سيدي أبا القاسم - أتباعك، خدام (كتابك) خدام (لسانك) خدامك - في الهالكين يا سيد الوجود يا رسول الله! يا أبا بكر الصديق! يا عمر الفاروق! يا ذا النورين! يا أبا الحسنين! إن الدهر قد جار على قوم عرب!
(ن)
. . .إلى صديقي
حول زيارة لضريح ابن عربي
للأستاذ صديق شيبوب
هنيئاً لك يا أخي تنقلك بين مصايف لبنان المرتفعة منها والمنخفضة، بين الجبال الشاهقة والأودية السحيقة، بعيداً عما نعانيه من حر مضن ورطوبة قاتلة ونزلة وافدة. ولعلك بعد أن تتم طوافك في لبنان لا تنسى أن تزور دمشق لأنه لا بد لكل من يصطاف بلبنان من أن ينتهي بزيارة الفيحاء، أو وكما قال شاعرنا العربي
تمام الحج أن تقف المطايا ... على خرقاء واضعة اللثام
ولدمشق سحر خاص تتميز به عن غيرها من البلدان العربية الكبرى. ولا أصف لك الحدائق الغناء التي تحيط بها، وهى نفحة من نفحات الجنان، ولا الآثار البديعة القائمة فيها وبعضها من الروعة بمكان. فإنك ستزورها وستشهد هذا جميعه وتعجب به وزائرو دمشق يكتفون عادة من آثارها بالجامع الأموي ودار المجمع العلمي والمكتبة وبعض القصور القديمة وبعض المصانع الوطنية؛ وقليل منهم من يفكر في زيارة ضريح الشيخ محيي الدين ابن عربي، أو يفطن إلى أن (بحر المعارف الإلهية، وترجمان العلوم الربانية، الشيخ الأكبر، والقطب الأفخر)، كما يلقبه الشيخ عبد الغني النابلسي، مدفون فيها

ولقد زرت دمشق أكثر من مرة، وكنت في كل مرة أتردد على الأماكن التي تعود الناس زيارتها. ولم أفطن مرة إلى ضريح (الشيخ الأكبر) كما يلقب علماء الصوفية ابن العربي بالرغم من أني ركبت أكثر من مرة (تراماً) يعرف خطه باسم (الشيخ محيي الدين) في غدوي ورواحي إلى حي الصالحية حيث كنت أقيم

ولم يخطر ببالي في زياراتي الأولى أن أسأل من هو محيي الدين هذا. ولا أخفي عنك أني لو سألت يومئذ عنه وقيل لي أنه ابن العربي لما نبه في ذهني خاطراً بعيداً، أو بعث في نفسي شوقاً مزيداً إلى زيارة ضريحه، لأني لم أكن أعرف عنه أكثر من أنه إمام من أئمة الصوفية وأنه صاحب هذه الأبيات الجميلة التي كنت أحفظها من غير أن ألتفت إلى معناها الصوفي وهي:

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي ... إذا لم يكن ديني إلى دينه دان

وقد صار قلبي قابلاً كل صورة ... فمرعى لغزلان ودير لرهبان

وبيت لنيران ومعبد طائف ... وألواح توراة ومصحف قرآن

أدين بدين الحب أنى توجهت ... ركائبه، فالحب ديني وإيماني

ولم أكن أعرف ابن العربي، كما وصفه الشيخ صفي الدين ابن أبي منصور في تعابير صوفية رائقة، فقال إنه (الشيخ الإمام المحقق، رأس أجلاء العارفين والمقربين، صاحب الإشارات الملكوتية، والنفحات القدسية، والأنفاس الروحانية، والفتح الموثق، والكشف المشرق، والبصائر الخارقة، والسرائر الصادقة، والمعارف الباهرة، والحقائق الزاهرة، والمحل الأرفع من مراتب القرب في منازل الأنس، والمورد العذب في مناهل الوصل، والطول الأعلى في معارج الدنو، والقدم الراسخ في التمكين من أحوال النهاية، والباع الطويل في التصريف في أحكام الولاية. وهو أحد أركان هذا الطريق)

أو كما وصفه الذهبي: (وله توسيع في الكلام، وذكاء وقوة خاطر وحافظة وتدقيق في التصوف، وتآليف جمة في العرفان. ولولا شطحه في الكلام لم يكن به بأس. ولعل ذلك وقع منه حال سكره وغيبته)

أو كما وصفه المسدي: (كان ابن العربي ظاهري المذهب في العبادات، باطني النظر في الاعتقادات، خاض بحار تلك العبادات، وتحقق بمحيا تلك الإشارات، وتصانيفه تشهد له عند أولي البصر بالتقدم والإقدام، ومواقف الغايات في مزالق الأقدام)

أو كما قال أيضاً: (وكان جميل الجملة والتفصيل، محصلاً لفنون العلم أخص تحصيل، وله في الأدب الشأو الذي لا يلحق)

أجل لم أكن أعرف هذا جميعه عن ابن العربي، بل لم اكن أعرف كثيراً أو قليلاً عن أئمة المتصوفين لأني وصلت إلى دراسة التصوف متأخراً. . . بل إني لم اكن أتذوق كما يجب أشعار ابن الفارض لأني لم أكن افطن إلى كل معانيها الصوفية.

وأذكر اليوم في شيء من الخزي أن كبيرة أديباتنا العربيات زارت منذ سنين ضريح ابن الفارض بالقاهرة بسفح المقطم، أو كما قال حفيده الشيخ علي في رثائه المعرف (بالقرافة تحت ذيل العارض) ثم كتبت عنه مقالاً كله إطراء وثناء؛ وكان أن لقيتها بعد ذلك بالإسكندرية حيث كانت تصطاف وقلت لها: إني لا أشاطرها إعجابها به. فأجابتني بأنه

يجب أن أحاول فهم شعر ابن الفارض من الناحية الصوفية قبل أن أتحدث عنه كشاعر ولعل هذا كان أول حافز لي لدرس الصوفية على قدر اجتهادي.

ولا شك أن لابن الفارض مكانة خاصة في شعرنا العربي لأنه يكاد يكون الوحيد الذي عالج شعر الصوفية على النحو الذي نحاه شعراء الفرس والترك الصوفيون المبتدعون أمثال العطار وجلال الدين الرومي وسعدي حافظ. ولا يدانيه في هذا الباب غير ابن العربي، وإن يكن قد قصر عنه. فابن الفارض إذن فارس هذه الحلبة في لغتنا العربية وبطلها الفرد، وقد قال فيه نيكلسون: (إن أشعار ابن الفارض غاية في اللطف). ولا أذكر الآن من قال في وصف ديوانه إنه (معجزة في عالم الأدب)

والصوفية في شعر ابن الفارض مراتب من حيث الوضوح والغموض. ولعل (خمريته) تحسب وسطاً بين شعره الغنائي الغزلي وبين (التائية الكبرى) المعروفة بنظم السلوك

وهل أروي لك للدلالة على تشعب معاني هذه القصيدة الأخيرة ما ذكروا من أن أحدهم

قصد ابن الفارض يستأذنه في شرحها، فسأله عن مقدار الشرح، فقال: إنه سيقع في مجلدين. فضح الشاعر الصوفي وقال: (لو أردت لكتبت مجلدين تفسيراً لكل بيت فيها)
على أن المقريزي ذكر في ترجمة عمر بن الفارض أن محيي الدين ابن العربي بعث إليه في شرح التائية الكبرى فرد عليه الشاعر: (كتابك المسمى بالفتوحات شرح لها)
إشارة إلى كتاب ابن العربي (الفتوحات المكية) الذي جمع فيه شتات العلوم الصوفية في خمسمائة وستين باباً
وبين ابن العربي وابن الفارض بعض الشبه. كانا متعاصرين فكلاهما من رجال القرن السابع للهجرة، أي القرن الثالث عشر للمسيح، فقد توفي ابن الفارض سنة 632هـ ـ (1235م) وتوفي ابن العربي سنة 638هـ ـ (1240م). وكان ابن الفارض يصاب بدورة إغماء وغيبوبة فإذا أفاق منها أملى أشعاره؛ وكان ابن العربي يعتقد أن ما يكتبه يتحول إليه بطريق الوحي في حالة الغيبوبة والمجاهدة. وكلاهما من أئمة الصوفية، ولكن بينما هي غامضة بعض الغموض عند ابن الفارض لأنه يرمز إليها في صور شعرية، نجدها واضحة عند ابن العربي لأنه يبحثها نثراً. وكان ابن الفارض ينظم غزلاً يرمز به إلى الله في غير حبيب مجهول، ويكثر فيه من أنواع البديع بينما نجد ابن العربي ينظم شعره من
غير أن يتعمد أنواع البديع في فتاة مكية
أما من حيث المحسنات البديعية فلعل الفرق ناتج عن المحيط الذي نشأ فيه كل واحد من الشاعرين. فقد ولد ابن الفارض في القاهرة ونشأ في محيط شرقي فاكتسب شعره المميزات التي كانت بارزة في بيئته بين معاصريه. أما ابن العربي فقد ولد بمرسية (في 17 رمضان سنة 650هـ. أي 28 يوليو سنة 1165م.) ونشأ وتأدب في بلدان الأندلس بين أشبيلية وسبتة، وقد استقر في الأولى ما يقارب الثلاثين عاماً، ولم ينزح إلى المشرق إلا عندما شارف الأربعين سنة 598هـ (1201 - 1202) فأكتسب شعره مميزات مواطنيه، وكانوا أقل عناية بالمحسنات اللفظية من شعراء مصر والشام والعراق
أما معشوقته ففتاة مكية تسمى (نظاماً) وتعرف بلقب (عين الشمس). وكان والدها من علماء فارس الذين نزحوا من بلادهم وأقاموا في مكة. وكانت لما عرفها ابن العربي في الرابعة عشرة من عمرها على كثير من العلم والمعرفة، بليغة الخطابة، جيدة الكلام، بارعة الجمال. وقد لقيها أثناء إقامته بمكة عام 598 أي غب رحلته من بلاد الأندلس. ثم نأى عن مكة زمناً حتى إذا عاد إليها سنة 611 نظم فيها بعض القصائد فوصف جمالها الفتان وعلمها الواسع وذكر ما كان بينه وبينها من حب. ثم رأى بعد ذلك أن يتبع هذا الديوان الصغير بشرح صوفي
بعد بنا هذا جميعه عن ضريح ابن العربي وزيارته
وهنا يجب أن أذكر شيخنا التفتازاني رحمه الله. سألته مرة أين قبر ابن العربي؟ فقال بأسلوبه العذب الذي تذكره: كيف لا تعرف ضريح ابن العربي؟ وكيف تزور دمشق ولا تزوره؟ إنه فيها بعد (الجسر) وتصل إليه بخط ترام معروف باسمه (الشيخ محيي الدين). ألم تقرأ في الشعراني قوله: (وقبر ابن عربي في الشام، وقد بنيت عليه قبة عظيمة وتكية وفيها طعام وخيرات) قلت ولكني أعرف أنه توفي بدمشق ولكنه نقل إلى جبل قاسيون ودفن بسفحه. قال: وقاسيون هو الجبل المطل على دمشق والذي بنيت في سفحه في شكل مدرج المدينة الجديدة والحي الذي يعرفونه اليوم باسم المهاجرين
وكان أني زرت دمشق بعد ذلك ولآخر مرة في صيف سنة 1935، وأقمت فيها أياماً ضيفاً على أحد أقاربي، ولما كان يقيم بالصالحية، وهي في أول مرقى الجبل قبل المهاجرين، كنا
نركب الترام في الغدو والرواح. وهناك خطان أحدهما يعرف باسم (المهاجرين)، والآخر باسم (الشيخ محيي الدين). والحق أني كنت نسيت ابن العربي ووصية الشيخ التفتزاني. وساقني الفضول مرة فسألت قريبي من يكون الشيخ محيي الدين هذا. فقال: انه عالم صوفي يعرف بابن العربي، وأن له ضريحاً ومسجداً في آخر خط الترام فدعوه باسمه. وهنا تذكرت الماضي وقلت: أجل يجب أن نزوره
وبعد ظهر ذلك اليوم أقلتنا عربة أخذت ترقى بنا الجبل حتى وصلنا إلى حيث المسجد

بعد أن اجتزنا حياً وسوقاً تختلف أبنيتهما جدة وقدماً، وأكثرها قديم. وكان جماعة من الفقراء يزدحمون بباب المسجد؛ فإذا تجاوزت الباب استقبلك بهو واسع تتوسطه بركة ماء كبيرة، وفي آخر البهو إلى الشمال الضريح، وهي غرفة حسنة الاتساع طفت بها فإذا على حائطها كثير من الشعر المنقوش على رخام قائم في الحائط. وحاولت أن أقرأ بعض الشعر فوجدته باللغة التركية. وقبل أن أستطيع الإلمام ببقيته تقدم إلينا الشيخ وقال: قد أزفت صلاة العصر فهلما نصلي ثم تتابعان زيارتكما بعد ذلك ولا أذكر الآن كيف تخلصت من الشيخ ودعوته إلى الصلاة، ولكني وجدت وقتئذ أننا في موقف حرج لأني أجهل ماذا يكون شعوره لو عرف أننا مسيحيان. وأشرت إلى صاحبي أن من الخير أن نغادر المكان على أن نعو في فرصة أخرى أكثر ملائمة من هذه، فخرجنا. ولم تتح لي فرصة أخرى للعودة

كانت العربة تهبط من الجبل، ونحن نستشرف تارة الحقول المنبسطة، وأخرى دمشق بقبابها اللامعة ومآذنها العالية تتخللها الأشجار الباسقة وتكتنفها الرياض والبساتين، ونستجلي هذا المنتشر في الأفق الحاني والطبيعة الساهمة والمدينة المنبسطة. وكنت لا أزال تحت تأثير زيارة الضريح أفكر في الأندلسي الذي طاف البلاد العربية فكان في كل مكان يحله كأنه بين أهله وإخوانه يتقرب إليه الناس ويجري عليه الحكام الأرزاق فيوزعها على الفقراء والمعوزين. أليس دينه الحب كما قال في أبياته التي ذكرها.

وهذا الجمال الذي نشرف عليه ونستجليه في هذه المناظر الخلابة، أليس من صنع الله، وما دام من صنعه فهل هو قائم فيه حقاً. وهل صحيح ما قاله ابن العربي (سبحان من خلق الأشياء وهو عينها) أو ما نظمه شعراً:

يا خالق الأشياء في نفسه ... أنت لما تخلقه جامع
تخلق ما لا ينتهي كونه ... فيك فأنت الضيق الواسع

وذكرت هذه الفلسفة الشمولية التي نادى بها العربي والقائمة على مذهب وحدة الوجود. ولا عجب فقد كنت (مسافراً) على حد تعبير ابن العربي الذي قال إن (السفر) عبارة عن القلب إذا أخذ في التوجه إلى الحق تعالى. ولا شيء أدعى إلى هذا التوجه مثل التأمل بجمال الطبيعة.

وفهمت وقتئذ كيف شذ ابن العربي عن أشياع نظرية واحدة الوجود المادية فتوجه بها إلى عبادة الخالق والشعور بالافتقار إليه تعالى، وهي عبادة الضعيف للقوي والفقير للغني. وفهمت كيف انه بالرغم من شعوره الديني الإسلامي العميق قال بوحدة الأديان لأنها جميعاً تدعو إلى عبادة الواحد المتجلي في صورهم وصور جميع المعبودات والحق أنني اليوم وأنا أكتب إليك بين جداران حجرتي أجد من الصعب أن أذكر كل هذه الخواطر التي مرت بذهني بينما كنت انحدر من جبل (قاسيون) إلى دمشق.

وبعد فإني أرجو ألا تجد في هذه الرسالة صورة كاملة لابن العربي، ولكنها خواطر جالت بفكري عندما أردت أن أنبهك إلى ضرورة زيارة ضريحه. وأنت تجد أني لم أحدثك عن حياته وآرائه ومؤلفاته وما قام حول مذهبه من جدل حمل بعضهم على رميه بالكفر وما كان من أثره بين أهل الشرق والغرب وخاصة ما وجده المستشرق الإسباني (ميجل اسين) من شبه بينه وبين (دانتي) فألف كتاباً قرر فيه أن الشاعر الإيطالي أخذ كثيراً عن المتصوف العربي وتأثر به في نظم قصيدته الخالدة (الكوميديا الإلهية) أو كما قال البحاثة الإنكليزي (ألفريد جيوم) إن ابن العربي كان من الذين (أخرجوا للناس النماذج المدهشة الأولى للكوميديا الإلهية)

على أنني لا أريد أن أختم رسالتي إليك قبل أن أروي لك قصة ذات دلالة كبيرة على طريقة هؤلاء الصوفيين ومنازعهم الفكرية والتأملية. فقد رووا أن ابن العربي اجتمع بالشهاب السهروردي فأطرق كل واحد منهما ساعة ثم افترقا من غير كلام. فقيل لابن العربي ما تقول في السهروردي؟ فقال: (مملوء سنة من قرنه إلى قدميه) وقيل للسهروردي ما تقول في الشيخ محيي الدين؟ فأجاب: (بحر حقائق)

ولعلك تكون يا أخي أكثر توفيقاً مني عند زيارة ضريح ابن العربي وأعمق شعوراً بما يطوف بك من جمال.

(الإسكندرية)

صديق شيبوب

بطاقة. . .
للدكتور محمد ناجي
بطاقة تحمل على صدرها اسم صاحبها مجرداً من أي لقب، وخلوا من أي عنوان أو رقم تلفون؛ وكأني به لا يحمل لقباً ولا يعرف لنفسه عنواناً، ولا يملك رقم تلفون، ولم يمن الله عليه إلا ببضعة قروش ثمن بطاقته
مرت تلك البطاقة على ناظري، ثم جالت بخاطري، حتى شغلتني عن أمري، فعجبت لها أيما عجب!
بطاقة فريدة في نظمها، عجيبة في نثرها، قليلة في لفظها، فحرت في أمرها، وضاق بي تفسيرها، ولم أدر ما شأنها ومن يكون حاملها؟
إنها تخالف بطاقات العصر، هي في واد والعصر في واد. بطاقات العصر تحمل من الألقاب والعنوانات والأرقام ما ليس لها وما لها، كأن الشيطان أوحى لها، حتى لا تدع موضعاً للقب جديد، أو زيادة لمستزيد. . .
فمن يكون هذا الذي يخالف العصر في بطاقاته، ويبز أبا العجب في نزعته؟ انه محمد طلعت حرب. ذلك الرجل المتواضع حتى في بطاقته، ولو شاء أن يسطر اسمه والقابه وعنواناته وتلفوناته لكانت بطاقته كتاباً
إن بطاقته تحمل في نفسها أدب الإعلان عن النفس، إنها لحكمة بالغة، تسيطر على الحس والنظر والفؤاد، إذ لها في كل قلب مستقر وفي كل واد أثر. هذه هي البطاقة التي بزت الزمن وعلمت المصري ما لم يكن يعلم. إنها تذكرة القدر، وإنها لإحدى العبر، فطوبى لمن قرأ وادكر، وعرف قدر نفسه واعتبر. . .
محمد ناجي
عضو القومسيون الطبي العام
عقيدة الزعامة في النازية
للدكتور جواد علي
لا تفهم وجهة النظر الوطنية الاشتراكية للعالم إلا إذا اطلع المرء على عقيدة الزعامة التي هي الأصل الأول من أصول المذهب النازي والعمود الذي ترتكز عليه جميع تعاليم الحزب ونظرياته. فلا تتساهل المؤسسات الهتلرية أبداً أمام التساهل بهذه العقيدة أو الكافر بها. لذلك سخرت جميع ما تمتلكه من وسائل في سبيل تأييدها وحض الناس على الاعتقاد بها. وطهرت السياسة والعلم والفن والصناعة - على حد تعبير الوطنية الاشتراكية - من جميع الأدران التي تراها تصطدم مع هذا الإيمان المطلق. ولم تتساهل حتى مع أكبر الأساتذة الذين لم تجد منهم ميلاً أو تأييداً في القول أو الفعل وعقيدة الزعامة هذه تنحصر في زعامتين: الزعامة الفردية، والزعامة العنصرية، أو الأممية. ومتى عرفت هاتين الزعامتين اتضح لك سبب تهجم هتلر على الماركسية والماسونية واليهودية، وكل فكرة أو نظرية علمية أممية. أما الزعامة الفردية فتستند إلى قاعدة أن الأفراد ليسوا في الاستعداد على حد سواء. وكذلك في المؤهلات العقلية والإنتاجية. فهنالك درجات كل درجة أرقى من التي تحتها؛ وهكذا ترتقي الدرجات حتى تصل إلى درجة زعيم فوهرر وهو زعيم الزعماء، إذ أن كل فرد بالنظر إلى من هو أدنى منه عقلاً أو جسماً أو أضعف إرادة زعيم مفترض الطاعة. وعلى حسب هذه الدرجات تتوزع كذلك المسؤولية والوظيفة والواجب. وهذه المواهب والقابليات موهوبة فطرية لا تكتسب بعلم ولا يحصل عليها بتهذيب أو درس والزعيم الأكبر الذي يتولى قيادة الشعب العامة هو الذي يكيف الشعب حسب إرادته وروحه ويضع الخطط العامة. ولا بد لهذا الزعيم من مؤهلات روحية تميزه عن أفراد شعبه، وقوى خارقة ممتازة من أهم صفاتها الإرادة والشجاعة والخيال والتفكير والخطابة والمقدرة السياسية والتضحية والإنتاج
هذه الصفات كما ذكرنا فطرية مجبولة في الشخص، فالزعيم يولد زعيماً وتظهر عليه المؤهلات، ولكي تنمو فيه هذه المؤهلات وتينع وتمنع من الانحطاط لابد من العناية بتربية الأفراد خصوصاً الطبقة الصالحة منها للقيادة التي تمتاز بميزات جسمية كطول القامة والاتزان وحدة النظر مع الهدوء وتحمل المشقات؛ ولا يسمح لذلك بالزواج إلا بعد الفحص

الطبي والتحقق من سلامة الزوج والزوجة من الأمراض الجسمية أو العقلية أو الاجتماعية كالإدمان على الشرب واللصوصية وغيرها. وهناك مدارس صارمة للزعامة يدخلها من يريد الانخراط في سلك الزعماء على اختلاف درجاته لها أنظمة شديدة، ومن هذه الطبقة تنشأ طبقة خاصة هي طبقة الأشراف، أشراف المستقبل الذين يقودون الجيل الجديد على طريقة فرسان الجرمان القدماء

أما الزعامة العنصرية أو الأممية فتتلخص في أن الأمم ليست متساوية كذلك في القابليات والأنتاج؛ وهي فطرية كذلك كما هي في الأفراد. والشعوب الآرية في نظر الوطنية الاشتراكية هي الشعوب المنتجة وحدها، وكل حضارة في العالم أو مدنية هي من صنعة هذا الجنس، وهذا ما يدعو طبعاً إلى قلب التأريخ ظهراً على عقب وإلى كتابة تاريخ عالمي جديد. لذلك حاربت النظرية المادية في التأريخ وهي نظرية كارل ماركس وزميله أنكل. وبيبل وهي النظرية المعروفة ب ? القائلة بأن التأريخ أو التطور البشري نتيجة من نتائج التطور الاقتصادي، وكذلك على وجود حضارات بشرية مختلفة، فهنالك حضارة بابلية وهناك حضارة مصرية، وهناك حضارة صينية، وهنالك حضارة عربية. كما أن هناك حضارة ألمانية أو حضارة إنكليزية، ولكل حضارة من هذه الحضارات نفسية خاصة (أنظر كتابه المشهور سقوط الغرب) وكذلك نظريات الكتاب الأحرار الذين يرون العالم ككتلة واحدة والمبادئ التي نشأت من الثورة الفرنسية

إن فكرة الزعامة العنصرية هذه ليست فكرة هتلر بمعنى أنه هو الذي ابتدعها وكوَّنها، بل هي فكرة عالمية قديمة كانت لدي اليونان إذ كانوا يحتقرون الشعوب الأخرى ولا يعترفون لها بالإنتاج؛ وكانت كذلك لدى الرومان والعرب، وظهرت في العصر الإسلامي باسم الشعوبية وهي حركة كانت ضد العرب؛ وكانت لدي الأمم الأخرى، والحركة المعادية للسامية قديمة أيضاً حتى أن لوثر المصلح الديني العظيم في ألمانيا كان من الذين يكرهون اليهود. ولكن تلك الفكرة لم تطبع بالطابع العلمي وتصبح عقيدة كما أصبحت في ألمانيا اليوم. وأشهر الذين نادوا بالزعامة العنصرية قبل هتلر هم الألماني (1802 - 1867) الذي بحث عن الشعوب الفعالة وانتشارها على الكرة الأرضية واعتقد بأن الشعوب الهندو آرية هي الشعوب المنتجة وحدها. وكذلك الفرنسي المشهور كراف كوبينو (1816 - 1882) وقد توصل إلى نتيجة تفوّق العنصر الجرماني على جميع العناصر؛ ثم فيكتابه ' الكاتب الفيلسوف الشهير هوستن شامبرلن (1855 - 1928) في كتابه 19 وهو إنكليزي الأصل ألماني الثقافة صديق الموسيقي الشهير ريشارد واكنر المعروف بكرهه لليهود أيضاً. وكان شامبرلن هذا يكره اليهود وحاول في كتابه بعث ألمانيا من جديد إثبات أن العنصر السامي هو عنصر غير منتج. ولأفكاره أعظم أثر في شخصية هتلر وآرائه. وقد زاره مراراً، وتعتبر كتبه من أهم الكتب التي كونت الوطنية الاشتراكية بجنب كتاب كفاحي ويرى من خلال دراسته المصبوغة بطابعه الجرماني الخاص أن الشعب الجرماني وحده له حق القيادة والزعامة إذ هو الشعب المنتج على الإطلاق، وأن اليهودية والشعوب السامية لم تنتج شيئاً وما أنتجه هو نتيجة العقلية الآرية فقط

كانت فكرة العنصرية قد توسعت منذ عهد بسمارك إذ أطلقت لليهود، لأسباب سياسية، الحرية المدنية وسمح لهم بالتوظف في الدولة من دون قيد ولا شرط. فازداد بذلك العداء وتوسعت الفكرة العنصرية ولا سيما بعد الحرب العظمى، وظهر مختلف الكتاب الذين شنوا الغارة على اليهود كالأستاذ أدولف بارتلز المشهور بكتابه (تاريخ الأدب الألماني) على الطريقة العنصرية، والبروفسور لدويك شيمان والبروفسور كنتر. وغيرهم، وأخذوا في دراسة العنصرية من جميع أوجهها متخذين للموضوع قواعد وأسسا وأدوات، وقد ساعدتهم الوطنية الاشتراكية طبعاً بكل قواها، وأسست معاهد للعنصرية في الجامعات والمستشفيات وجميع المؤسسات الشعبية. وظهر في عالم الدروس الجامعية فرع خاص يسمى باسم مبحث الأجناس وقد كيفت النازية السياسة والعلم والفن والرأي العام على هذا الاتجاه، إذ يرى هتلر أن مصدر كل بلاء نزل على ألمانيا هو إهمالها العنصرية وتصاهرها مع اليهود الذين أضروا بالأخلاق والتقاليد الجرمانية الموروثة، وكذلك المسيحية اليهودية التي لا تمثل إلا أخلاق اليهود. وهذه كانت نظرية الفيلسوف نيتشة الذي كان يصف الأخلاق المسيحية بأخلاق العبيد، وكذلك شامبرلن وغيرهما. لذلك أكره هتلر جميع العلماء والمؤسسات العلمية

على تطبيق هذه النظرية، وقاوم كل نظرية تدعو إلى الأممية وإلى المساواة بين الشعوب كالهرم أيضاً، قاعدته متسعة يضم في أسفله الشعوب الزنجية والأقوام الابتدائية، ثم يضيق شيئاً فشيئاً حتى يصل إلى القمة حيث هناك الشعوب الجرمانية الألمان والسكاندناويين والدانمارك، وفي قمة هذا الهرم تماماً تكون ألمانيا. (أنظر كتاب ص 140) وهكذا طبق هتلر عقيدة الزعامة الفردية على الزعامة الأممية، فكما أن هتلر هو زعيم الألمان الذي يجب أن يطاع لما له من مواهب الزعامة الموهوبة الفطرية فكذلك يريد أن يجعل شعبه في قمة الزعامة الأممية التي لا يرتقي إلى مصافها شعب

كان من الطبيعي أن يعاني العلم والفن من جراء هذه النظرية مصاعب شتى ولا سيما العلوم العقلية منها كالفلسفة وعلم الاجتماع وعلم التربية والسياسة والاقتصاد وخصوصاً التأريخ الذي يعتني به هتلر عناية خاصة، وخصص له عدة صحائف في كتابه كفاحي لأنه يرى في التأريخ خير درس وعبرة للأفراد والشعوب على الطريقة التاريخية القديمة التي تنسب إلى المؤرخ اليوناني توكيديدس (460 - 400ق. م) والمعروفة في التاريخ باسم أو التأريخ التعليمي. وبما أن الطريقة العلمية في مثل هذه الموضوعات حرة وآراء الأساتذة مختلفة طليقة تكره التحيز والتعصب، لذلك كانت مهمة العلماء في مثل هذه الموضوعات صعبة جداً. والنتيجة المنطقية لذلك كانت إحجام الكثير منهم عن التأليف وتبيان آرائهم بصراحة، وإجهاد الفكر لإيجاد براهين جديدة لتحقيق نظرية الزعامة وقلب العلم رأساً على عقب. ولو تصور القارئ مثلاً أن علم التاريخ حسب هذه النظرية يجب أن يقلب رأساً على عقب تماماً عرف صعوبة المهمة الشاقة ونظر العلماء الأجانب إلى أمثال هذه الآراء. فالنظرية النازية الجديدة في التاريخ ترى أنه من الكفر الابتداء منذ اليوم بالتاريخ القديم بممالك الشرق الأدنى كالمصريين والبابليين والأشوريين، بل ترى في ذلك الخطأ الفادح لأن من عقيدتها أن الحضارة الجرمانية أساس الحضارات، ومن الجرمان أخذت الشعوب الشرقية حضارتها مستدلة بذلك على نظريات الهجرة، وتوسع السكان الذي جرى ولا يزال يجري إلى الآن، وعلى حفريات تقوم بها المؤسسات الألمانية ثم تحكم هي بنفسها على تقدير أعمار المكتشفات الأثرية وقدمها. ولا شك أن ذلك مما يسخر منه علماء الأقطار الأوربية الأخرى ولا يدينون به، وكذلك علماء ألمانيا أنفسهم، ولكن السياسة طبعاً هي التي تتغلب الآن على العلم

يقسم علماء التاريخ اليوم في ألمانيا العالم إلى قسمين: شعوب سياسية تنشئ التاريخ وتكونه

وهي الشعوب الجرمانية طبعاً، وشعوب غير سياسية وهي التي لا تلعب دوراً في التاريخ ولا في السياسة بل يلعب بها وهي الشعوب السامية والزنجية وغيرها. ويصرح هتلر بهذه الفكرة في كتابه كفاحي، ويرى فضلاً عن ذلك أن التاريخ هو محصول الأفراد لا الشعوب، أي أن الزعماء هم الذين يكونون التاريخ لا الجماعة، إذ الجماعة تساق فتنساق وتؤمر فتطيع ومن أجل ذلك أمر بكتابة تاريخ جديد، وأنشأ تاريخاً عاماً للعالم يستند إلى أساس العنصرية فيبدأ بالجرمان وبالشعوب الأوربية السياسية المكونة للتاريخ وينتهي بالشعوب التي لم تلعب دوراً في السياسة المكونة للتاريخ وينتهي بالشعوب التي لم تلعب دوراً في السياسة، فتفحص فحصاً من جديد، وكل ما وجد فيها من حضارة يسند إلى الآرية كما فعل الفريد دوزنبرك في كتابه (خرافة القرن العشرين) 20 في الفصل الذي كتبه عن الحضارة العربية الإسلامية

وكان من جراء هذه النظرية تعديل الكتب التاريخية ومناهج البحث ووضع قواعد ثابتة للتأريخ وفق القيم النازية، ولقد لخصها الوزير الألماني ديترش كلاكس في كتابه التأريخ بما يأتي:

إن الحياة كفاح، والشعوب ليست بشيء أبداً دون زعيم، والشعب هو مستقبل الفرد، والمواطنين يرتبط بعضهم ببعض في السراء والضراء على قاعدة العنصرية والدم، وكل خائن عقابه القتل. يموت الفرد ويبقى الشعب، ولكن الشعب يجب أن يكون خالصاً نقياً كما أن الدولة يجب أن يكون خالصاً نقياً كما أن الدولة يجب أن تكون نقية ذات عنصر واحد.

ولكي تعيش هذه الشعوب تحتاج إلى قوى وجهاد وأسلحة وعتاد إذ بدونها لا تعيش

الأمم. وبين هذه الأمم اختلاف في العقل والجسم، وفي مقدمة هذه الأمم الأمة الألمانية؛ لذلك فإن كل من ينادي بالأممية وبالتطور البشري وبحقوق الشعوب يجب عقابه عقاب مفتر كذاب، إذ أن الطبيعة البشرية تناقض ذلك. والشعب السعيد هو الذي يخضع لزعيم مطاع. والعنصرية هي مفتاح تاريخ العالم. (أنظر ص 141 - 143).
هذه هي نظرية الوطنية الاشتراكية وعقيدتها التي تتمسك بها وكل ما يتعارض مع هذه العقيدة ينظر إليه نظر المسلم إلى الكفر والإلحاد، لذلك فالماسونية والشيوعية والديمقراطية والأديان العالمية التي تساوي بين الشعوب والأفكار الأممية كلها آراء فاسدة تتعارض
حسب نظرها مع الطبيعة البشرية والتأريخ. هذه هي فلسفة النازية، من أدرك شكل هذا الهرم الذي يمثل الزعامتين عرف المذهب تماماً وأدرك سبب كره هتلر للمبادئ المذكورة. ولعل في نفسية هتلر وقسوة العالم الخارجي بعد الحرب العظمى على ألمانيا هي الباعث على تطرف الألمانية الوطنية هذه

جواد علي
خريج جامعة هامبرج بألمانيا

من نار الفراق

أنا. . . وأنت!. . .
(لم يبق لي بعد اليوم في الدنيا أمل، فإذا لاحت في أفقك
شعاعة من رجاء فأتني بها قبل المصير!)

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

جُرْحانِ ظَلاَّ في سَعيرِ الزَّمانْ
لا يَهدآنْ!
وغُنْوَتا حبٍ بناي الهَوَان
مَذْبوحَتانْ!
وقَطرَتا دَمْعٍ بِوادي الحَنانْ
عِرْبيدَتانْ!
أذْراهُما في تَوْبةٍ عابِدانْ
مُسْتَغفِرانْ!
يا ربِّ أني لَشريد الجَنانْ
طَيْفُ الأمانْ!
بَيْتانِ مِنْ شِعْرِ سَقَاهُ الحَنين
كأسَ العَذابْ!
مَلاَّ صَدَى الدُّنيْا ونَجْوَى السِّنينْ
فوق التُّرابْ!
وَحِينَ. لاحَ الشَّطُّ غابَ السَّفِينْ
خَلْفَ الضَّبابْ!
فَلَمْ تَزَلْ كَفُّ الأسَى والجُنُون
تَسْقِي الرَّباب!
ولَمْ تَزَلْ تَشْدَو. . . وَشَدْوُ الحَزِين
رؤيا خَرابْ!!
فَرْخانِ في أُفْقِ الهَوَى حَائِرَانْ
حَوْلَ الرِّياح!
مَاتَتْ أغَانِينا بِظِلِّ الجِنانْ
قَبْلَ الصَّباح!
وَحَطَّم السَّاقِي بَقَايا الدِّنانْ
فوقَ الجِراحْ!
لَقَدْ سَقَيْنا حُبَّنا يَا زَمانْ
نارَ الْكِفاحْ!
فَخَلِّنا. . . إنَّا لِطوُلِ الهَوَانْ
عِفْنَا النَّوَاح!!

(القاهرة)
محمود حسن إسماعيل
أنشودة وفاء النيل
للأستاذ محمد فتح الباب
البحْرُ زَادْ ... عَمَّ البلادْ
والخَيْرُ جادْ ... كلَّ العِبادْ
إلى الحَصادْ .. البَحْرُ زادْ
مِصْرُ يا مِصرنَا افْرحي ... فَرْحةَ الطَّيْر بالريّاضْ
أنتِ يا كلَّ مطمحي ... هِبَةُ النّيلِ يومَ فاضْ
اسرحي اليوم وامرحي ... نيلنا يَمْلأُ الحِياضْ
البحر زاد. . .
مِصرُنا زينةُ الأُمَم ... حَسْبُها النيل والهَرَمْ
أمَّةُ السيف والقَلَمْ ... رَبَّةُ المجد مِنْ قِدَمْ
نِيلُها كلُّهُ عَجَبْ ... يَجمَعُ الأُنسَ والطرَبْ
ماؤه يَحْملُ الذَّهبْ ... وشِفاءٌ لِمَنْ شَرِبْ
البحر زاد. . .
نِيلٌ وَفَي لَيْلةَ الصَّفاءْ ... والنيل منْ دَأبهِ الوَفاءْ
والغِيدُ في خُضرةٍ وماءْ ... كالحوُرِ في جنَّةِ السَّماء
فَيضٌ غَزيرْ ... عذْبُ النمَّيرْ
لَهُ خَريرْ ... مِثلُ الزَّئيرْ
نِيلٌ جميلْ ... كالسلْسبيلْ
لَمَّا يَسيلْ ... بينَ النخيلْ
البحر زاد. . .
يا نيلُ عن مجدنا الأثيلْ ... خَبِّر وعن بَاعِنا الطويلْ
آثارُنا تعجِز العقولْ ... شهود حَقٍ لنا عُدُولْ
زهرٌ من (اللوتَس) البليل ... في حُسْنِهِ ما لهُ مثيلْ
يرْنو إلى الشمس كالخيلْ ... يرنو إلى الخِلِّ في الرحيلْ
يطْفوا على سَطحكَ الجميلْ ... تاجاً على مفْرقٍ نَبيلْ
البحر زاد. . .
يَا نِيلُ أسلوُبُكَ الحكيمْ ... يَعلُو على القول والكلام
بِفَيضكَ المُصلح العميم ... يا نِيلُ زُرِ مِصرَ كل عام
فإنها جَنَّةُ النَّعيم ... لولاك لَمْ يَسقِها غَماَم
وَحيَّ فَاروُقَها العظيم ... وأنشُر على أهلها السَّلام
البحر زاد. . .
آمنْتُ بِاللهِ والكتابْ ... وأنَّ فِي خَلْقهِ عِبَرْ
الحَبُّ بالماء في الترَاب ... أضحَى نَبَاتاً لَهُ ثَمَرْ
أحلى من الشهد والرّضاب ... والحبُّ من قبل كان مُرُّ
الحَبّ بالماء في التراب ... يصير من أكْرمِ الزَّهَر
أنَّى لَهُ ذلك الخِضابْ ... ونفْحه الطيِّب العطِرْ
آمنتُ بالله والكتابْ ... النيلُ مِن روح مُقْتَدِر
(القناطر الخيرية)
محمد فتح الباب
ظمئتُ. . .
للأستاذ صالح الحامد العلوي
ظمئتُ إلى الجداول حيث تجري ... مدردرةً كألواح اللُّجيْنِ!
عليها الطيَّر تمرح شادياتٍ ... على إيقاعها في الشاطئين!
ظمِئتُ إلى الخمائل زاهرات ... يراها الله بهجةَ كلِّ عيْن
بها الأزهارُ تضحك لاهياتٍ ... تُهَدهِدُها النُّعامى باليدين!
ظمِئتُ إلى النسيم يهبُّ رَهواً ... كوصل الخلِّ وافي بعد بَيْنِ

يُداعِبُني فيلثُمني دَلالاً ... وينشرُ فوق وجهي خُصلتين!
ظمئتُ لمن أراهُ حياةَ روحي ... وحبَّةَ مهجتي وسوادَ عَيني!
ومن رقَّت معاني الحسن فيه ... فكاد يطيرُ من لُطف وزيْن!
ومن في كل لحظٍ منه سِرٌّ ... أموت به وأحيا مرَّتين!
ومن هو من مزايا الحسن كونٌ ... حوىَ من كل لونٍ جنتين!
ظمِئتُ إلى الجمال بكلِّ معنىً ... عرى عن كل بهرجةٍ ومَينْ!
ظمئت. . . وما عسى تُجدي فتيلاً ... (ظمِئتُ)؟ ولو لقيت بذاكَ حيني
أما من حاكمٍ أشكو إليه؟ ... فيُنصف بينَ أيامي وبيني
فكم زادتْ على ظمأٍ - فوادي ... كأنَّ لديّ ثاراتٍ الحُسَين!
(حضرموت - سيوون)
صالح الحامد العلوي
وحي الحرمان
. . .لا تقولي نسيت
(. . .إلى الحالمة في أحضان النعيم. . . إليها في رأس البر)
للأديب عبد العليم عيسى
صرخَ النايّ في يدي. . . فتعاليْ ... قبل أن تنهب الليالي لحونَهْ
ويحَ قلبي إذا غضَبتِ عليه ... وتجاهلت صوته وأنينه
من له. . آه. . من لأنغامه الس ... ودِ إذا شبَّت الليالي شجونه
أسْعديه على الحياة. . وردِّي ... نغماته إلى حياتي الحزينة
لا تقولي نسيتُ يا أُخت روحي ... أنت تدرين ما مضى وتَعينه
كيف تنسين يوم سرنا إلى الني ... ل وهِمنا على الضفاف الأمينة؟!
والدجى مسبل علينا ستاراً ... كشفته لحوننا المكنونة
رَقص البحر حين سرنا على الش ... ط وغنت أمواجه المفتونة
وهفَتْ حولنا العصافيرُ نشوى ... طِربات. . . سعيدة. . . مجنونة
فتملَّيتِ فتنة الحسن والنو ... ر وهوَّمت كالطيور الجنونة
واحتضنت العود الحبيب إلى النف ... س وأسكرتني بما تُنشدينه:
صلواتي أنتَ في الدنيا وأعراسي وفني
وسعادتي وصفوي، وتسابيحي ولحني
أنتَ في قلبيَ ينبوع من الخلد يغني
فجَّر الله على وجهك ما يمسح حزني
فتغنيتُ مع الأطيار ما يسعد كوني
ليتنا نحيا على الشط. . . تغني وأغني
وشجاك الهوى فنمت على صد ... ري المدمّى في خشعة وسكينه
وعلى وجهك الجميل شعا ... عات أثارت مستورة ودفينة
فبعثتُ الأنغام تسري مع اللي ... ل فتروي أشباحه المسجونة
ثم لما أفاق من نومْه الفج ... ر وأهوى عن راحتيه دجونه
قُلتِ: يا شاعري الحبيب ترَّفق ... بفؤادٍ أهجت فيه حنينه
خذْ ذِراعي إلى ذراعك وانهض ... قبل أن يفتح الصباح عيونه
لا تقولي نسيت يا أُخت روحي ... أنت تدرين ما مضى وتعينه
أسرعي قبل أن تموتَ ألا حي ... ني وترَدي قيثارتي المحزونة
فتصيري حكاية الغدر في الدن ... يا وأقصوصة الغرام الخؤونه
(دمياط)
عبد العليم عيسى
رسالة الفن
دراسات في الفن:
(!ضيعت مستقبل حياتي)
وفي 15 سبتمبر سنة 1923 مات
للأستاذ عزيز أحمد فهمي
مات ولم يمكث في الأرض إلا واحداً وثلاثين عاماً. ولكنه قضاها كلها حياً، بل لقد كان

يستعير مما له في الخلد ليالي وأياماً فأنهكته الحياة: أضنت منه الروح والبدن فانطفأ وهو في أشد اشتعاله وسطوعه

1 - بين الربوة والبحر

طفل، والطفولة صفاء. وفقير، والفقر نقاء. وعزيز، والعزة وقاء

كان هكذا منذ عرفته الحياة، وظل هكذا إلى أن غادر الحياة: طفلاً، فقيراً، عزيزاً لم يذل إلا الله في الحب والغناء

ويا طول ما ذل! فقد غنى منذ أحب، وقد أحب منذ أحس، وقد أحس منذ أمنت أمه أن تطلقه في ربوة (كوم الدكة) يرتع ويلعب مع الصبيان والبنات. فكان يجمعهم ويقوم بينهم على حجر يقرأ القرآن ويرتل الألحان، فإذا أخلصوا له الإصغاء أخلص لهم الإنشاد. . ولم يكن أحد من هذا الجمع الحالم يدري لمن كان يغني هذا النشوان الضاحك إلا هو وتلك الصغيرة الطاهرة التي كانت تهفو إليه بروحها متلمسة فيه ما لم تكن تجده عند غيره من آيات الصدق ومن آيات الذكاء

وكان إذا افتقدها استوحش ربوته وأهلها، وفر إلى شاطئ البحر يكمن عند صخرة من صخور (السلسلة) يأخذ عن اليم معنى اللين إذا هدأ، ومعنى الثورة إذا اهتاج، ومعنى الكفاح إذا تصارعت فيه الأمواج، ويسرح بالطرف في آفاقه التي من بعدها آفاق، كأنه يستدرج الغيب من ورائها أن يستشفه لعله يرى في إطار منه الصورتين اللتين كان يحب أن ترتبطا. . . فكان يرى ما يشاء، أو لم يكن يرى شيئاً. . . ولكنه كان يسمع، وكان إذا

. . .عاد إلى ربوته تغنى بما سمع

وكان يكره أن يعود من حجته إلى البحر خال اليد، فكان يجمل (إليها) من البحر محارة أو صدفة يرفعها إليها في صمت كأنما يؤكد لها أنه ما نسيها ولا غفل عنها إذ نأت وغابت. وكانت هي تقبل منه هديته الفقيرة الرخيصة والله وحده يعلم أكانت تقبلها حباً، أم كانت تقبلها إغراء

2 - الطعنة الأولى

وفي يوم طار إليها بمحارة عجب، فإذا هي تصده، بل وتحمله إليه ما جمعته من محاره وصدفه وتمد إليه به يدها وهي تقول: (منعتني أمي من قبول هدايا الصبيان!. . .)

ولو لم يكن يرى أمها تستميل إليها من أبناء الجيران صبياً مات أبوه عن ثروة، ما أحزنه هذا الصد وما أشقاه. . . ولكن الذي أدمى قلبه هو أن أدرك للمرة الأولى أن هناك فرقاً بين الأغنياء والفقراء. وأن هذا الفرق ملحوظ مرئي دون غيره من الفروق. فحمل محاره وصدفه، وغسل بدمعه آيات غروره وجهله، ودفن المحار والصدف تحت عتبة مسجد سيدي (حذيفة). . . ثم دخل المسجد وتوضأ وصلى صلاة الجنازة على أمله

3 - الشيخ

وحسبوه من كثرة لزومه للمسجد ولياً من أولياء الله. وقد كان ولياً من أولياء الله. فوهبوه لكتاب الله. وألبسوه عمامة وجبة وقفطاناً، وأرسلوه إلى معهد الإسكندرية وعرفته (كوم الدكة) منذ ذلك الحين باسم الشيخ السيسي. . . لأنه كان صغيراً، وكان عجيباً في عمامته وجبته وقفطانه. . .

ولم يتأب هو على هذه (الشيخوخة) التي عاجلته، وإنما كان يجد فيها متعة ولهواً محببين، فقد يسرت له الحفظ والتجويد، والقراءة والغناء. . . وظل في (شيخوخته) هذه طفلاً كما كان يجمع حوله الفتيان والفتيات ويقوم بينهم على حجر أو كرسي. عريض من خشب يمدح النبي، ويرثي الحسين!

4 - مبيض الجدران

وقد كان أهل الحي أن يطلبوه في أفراحهم ومآتمهم، ولكنهم كانوا يطلبون غيره كلما اعتزموا أن يدفعوا أجراً. أما هو فكانوا يتزاحمون حوله كلما قرأ أو غنى في الطريق، أو في المقهى، أو في المسجد أو على الربوة. . . يسمعونه ويحيونه، ويتحدون به القراء والمغنين، ولكنهم لم يكونوا يملكون أن يستأجروه، لأنه لم يكن ينطلق إلا بإرادته، وبوحي من مزاجه، فإذا أكره على الشدو ثقل الشدو على نفسه وعلى نفوس مستمعيه. . .

ولهذا كان إذا أراد أن يرتزق بيَّض الجدران مع النقاشين والبناءين. . . وأعجب ما كان منه أنه كان ينطلق عندئذ بالغناء أنيناً وشكاية، أو بهجة واستبشاراً، وكان من زملائه

من يحمل عنه عمله راضياً مسروراً
في الأوحال - 5
ترعرع وترعرعت. وكانا يلتقيان. وقد كان يغنيها وكانت تستمع إليه. ولكنه كان قد
طوى نفسه على عزمة ملكته: ألا يدنس الحب، وأن يسلم أمره لله. . .
وتزوجت هي. . . وانهار هو. . .
فهجر (كوم الدكة) إلى حي الرجس. وأدمن النساء، وانكب على الخمر والمخدرات
يتعجل الموت فلم يعد له في الدنيا رجاء
وقيل إنه أحب، وما أحب وإنما كان يبحث عن حب، ولم يكن المحروق القلب ليحب ما
أكلت قلبه النار
ومن أعماق هذه الأقذار كان يتعالى صوت السيسي بألحان من وحي الطهر والعفة.
كان يرسلها مع الدمع ونفحات الجحيم المتأجج بين جنبيه فكان فيها تطهير نفسه
ونفوس هؤلاء الذين كانوا يتردون الخطيئة حوله، ويترددون عليه كأنه التوبة أو الصلاة.
وهج الروح - 6
وإلى جانب هذا الحب، وإلى جانب هذا اليأس، كانت حرب وكانت ثورة، واندلعت في
هذا الأتون المستعر روح الشيخ السيسي
وكان قد عاد من الشام بعد رحلة بائسة اصطحب فيها ممثلاً سوريًّا أراد أن يتحف به
أهل وطنه ولكنهما أخفقا معاً.
وكان السيسي قد جرب نفسه مرة في القاهرة في مسرح الشيخ سلامة حجازي فثار
عليه
الجمهور وأرغمه على أن يتوارى خلف الستار قبل أن يتم غناءه فواساه الشيخ سلامة
بأن خرج للناس وقال لهم: أحسنوا الاستماع إليه فهو الذي سيخلفني
ولكن الناس لم يحسنوا الاستماع إليه لأن غناءه لم يكن يشبه ما أعتادوه، وإنما كانت
روح طلقة هبت من الشمال
وكان كل فشل مما لاقاه يزيده أيمانا بنفسه ومقدرته حتى واتاه الفشل الأخير، إذ لحن
(فيروز شاه) لجورج أبيض فاندك جورج أبيض وبرز سيد درويش
وعرفه عندئذ نجيب الريحاني، فأفسح له مسرحه منبراً يلقى من فوقه ما شاء من
آيات
فنه
وأخذ بعدئذ نجمة يصعد، ويصعد، ويصعد. . . حتى جاء
وقت لم يتغن فيه مصر بلحن إلا كان من غناء سيد درويش
كان ربحه يصل أحياناً إلى ألف جنيه في الشهر، وفي هذه الأحيان كان يقترض
القروش والملاليم
قل إنه مجنون! قل إنه سخيف! قل ما شئت؛ أما هو فكان محروماً من شئ لا يمكن
أن يشترى بالمال وكان هو يحاول أن يستعيض عنه بما يشترى ويباع.
شاعر - 7
ولم يكن سيد مغنياً فقط، وإنما كان شاعراً أيضاً. . . وما كان في وسعه إلا أن يكون
كذلك. فإن الذي بعثه على الغناء إحساس كان يخالجه ولم يكن يستطيع أن يعبر عنه
إلا بالغناء، ولم يكن يستطيع أن ينتظر معه أن يبحث عن شاعر من الشعراء أو نظام
من النظامين ليقول له إني أحسست الحب على وجه من الوجوه، أو أحسست اللوعة
على نحو من الأنحاء، فصور لي هذا الإحساس بالكلام لأغنية. . . لم يكن يملك أن
ينتظر كل هذا الانتظار وإنما كان يغني ما يريد عند ما يحس أية عاطفة أو أية نزعة
هو سكران مترنح. . . وقد حددت له صاحبته موعداً، وذهب إليها فتصدى له من يمنعه
عنها، وهي معركة بينه وبين عذاله، فإذا حال بينه وبينهم أصدقاء له وأبعدوه عن
الموقعة، ثم بدءوا يلومونه على سكره وعربدته غناهم:
وأنا مالي هي اللي قالت لي ... روح اسكر وتعال ع البهلي
وهو جالس عند صديق له صائغ وتهبط عليهما غانيته مسرفة في التزين والتبرج، وتراه
ممسكاً - بعوده فتعابثه وتطلب منه (غنوة) فما أسرعه إلى إنشاده. . .
الأستيك على صدركْ بِضوي ... ون قلبي مِنْعلَّ ساعة
ويصطدم بذات المحار والصدف فيتقارآن السلام ويتعاتبان وأعصابه ترتج وأنفاسه

تضطرب فما تبرحه وما تنقضي ليلة أو ليلتان حتى تسمع البلد كلها تغني من لحن سيد:
زروني كل سنة مرَّة - حرام تنسوني بالمرة
ويغاضب إحدى صويحباته فيكيدها بغنائه:
يومْ تركت الحب كانْ لي ... في مجال الأنس جانب
والتقيت المجد عادْ لي ... بعد ما كانْ عني غايب
ولم يكن سيد يعبأ بأن يكون كلامه موزوناً أو مستوفياً لشروط الشعر وشروط صحته، فما كان يعرف إلا أنه يغني، وكان غناؤه سليماً!
تلميذ - 8
وعلى الرغم من المجد العظيم الذي أتيح له، فقد كان يرى نفسه جاهلاً بالفن وأصوله. ولعل ذلك راجع إلى أنه لم يتعلم الموسيقى على أحد، فقد خرج إلى الحياة ألفى نفسه يغني، ثم عرف أن للغناء قواعد وأصولاً، فراح يحصل منها ما يتاح له، ولكنه لم يتح له أن يروي غليله من علومها وفنونها، فكانت أمنيته الكبرى أن يتيسر له السفر إلى إيطاليا ليتعلم الموسيقى. . .
ولست أدري ما الذي كان يريد أن يتعلم سيد؟
ربما كان يريد أن يدرس أسلوب الغرب في صناعة الموسيقى. أما الفن، فأنا مؤمن بأن سيداً لم ينكب برزء أسود من نسبته إلى مصر، فلو قد كان إيطالياً، أو من شعب متقدم، لكنا نسمع اليوم ألحانه عن طريق السينما، وعلى اعتبار أنها معجزات من الغرب!
وهنا في مصر يحال بين ألحانه وبين المعهد الملكي للموسيقى الشرقية. . . لأن هذا المعهد لا يعترف بموسيقى المسرح، أو لأن حضرة صاحب العزة مصطفى بك رضا الموظف في وزارة الأوقاف ومدير معهد الموسيقى والمنصوب له تمثال على حياة عينيه في حوش المعهد، والذي لم يسمع له إنسان لحناً أو أغنية - قال له الأستاذ عزيز عثمان: إن ألحان
سيد درويش (هلس). . .
والحق أنه صراع بين ذوقين فنيين: ذوق القاهرة القديمة، وذوق الإسكندرية الحديثة. أما ذوق القاهرة فيمثله مصطفى بك رضا وأبناء محمد عثمان. وألحان القاهرة كما يعرف الجمهور هي هذه الألحان الصابرة الناعسة النائمة الخانعة، التي كان يقصد بها قصداً أن تغني في الأفراح والليالي الملاح التي يقيمها البيكوات والباشوات، وقد كان محمد عثمان أبرز المغنين في هذا النوع، وكانت موسيقاه المخمورة هي الرائجة في عصر النوم والسهر. . .
أما ذوق الإسكندرية فغير هذا. . . ذوقها هو الظاهر في موسيقى سيد، هو هذه الحياة المنغمة، وهذه العواطف الملحنة التي نفثها سيد درويش في مصر، والتي أخذها عنه من بعده زكريا أحمد فوفق، ومحمد عبد الوهاب فانحرف بها إلى تقليد الموسيقى الغربية لأنه حسبها تقليداً واقتباساً كما قرأ في المجلات، وهي بعد ذلك أساس المذهب الحديث الذي يقلده ملحنو اليوم!
واليوم ووزير المعارف هو معالي النقراشي باشا الإسكندراني ووكيلها هو صاحب العزة السنهوري بك الإسكندراني. . .
ألا نستطيع أن نأمل في إحياء موسيقى سيد درويش على أيد يهما؟ إننا نز جو هذا ما دام لها ذوق فني ناضج حي، وإن لها هذا الذوق
عزيز أحمد فهمي
رسالة العلم
لحظات الإلهام في تاريخ العلم
تأليف مريون فلورنس لانسنغ
عصر النار - 3
في الأيام الخالية وكانت الدنيا لا تزال في شبابها كان - كما علمنا - يقيم في واد شرقي عدن شاب اسمه (توبال قابيل) وهو حفيد ذلك الرجل الذي عاش على الأرض اكثر مما عمر أي رجل آخر وهو متوشالح
ذهب توبال قابيل إلى الجبال ليكون صياد قبيلته لأنه أوفر رجالها جسما وأوفاها قوة.

وكان يستطيع لقوته أن يرمي الرمية فيصيب بسنانه المصنوع من الحجر المنحوت أي وحش يريد قتله. وكان كذلك حاد البصر سريع الحركة ففي وسعه أن يرى أي مخلوق يختبئ في الغابة ويتبعه في سرعة مطارداً إياه عند الهرب

وقد عرف توبال قابيل سر النار وصنع النار وكان ذلك السر مجهولاً من قبيلته منذ أجيال. وكان رجل من أهل الشمال لقنه سرها، وكان هذا الرجل وقبيلته قد قبسوا من نار البرق الذي مصدره السماء فاحتفظوا بذلك القبس حتى عرفوا في النهاية كيف يصنعونها بأنفسهم، وذلك باستدعاء روح النار الكامنة في أخشاب الغابة التي يقيمون بها. وكان توبال قابيل يصنع بالنار ما يصنع بالسحر فهو في الليلة الباردة يعيد الدفء باستخراج الألهوب الأحمر من الخشب وبتغذيته بالهشيم الذي يجمعه أثناء النهار، وقد وجد أن الوحوش المفترسة تخاف من روح النار فتهرب وأن الوحوش لا تزعج نومه ما دامت النار بالقرب منه ترعاه

وفي يوم شديد البرد جمع توبال قابيل مقداراً عظيماً من الغصون الجافة والخشب الجزل وسلط عليها الروح الحمراء لتأكلها لأنه كان شديد التألم من البرد فقد كان طول هذا اليوم في الجبال يطارد نمراً عظيماً، وكانت الريح شمالية عنيفة باردة فاستشعر البرد حتى كاد يسري في عظامه

حبس من أجل ذلك بجانب النار، ولما تأمل في قرارها رأى منظراً أعجب من كل ما رآه من قبل: رأى صخرة كانت في وسط الألهوب، قد تحول لونها إلى الاحمرار، وبدأت على

حين فجأة تذوب. وكانت كلما اشتدت حرارة النار خرج من الصخرة الذائبة سائل ذائب كالماء الملوث بالطين حين يهم بالتدفق، ثم التفت أثناء جريها، وتحولت إلى ما يشبه حية سوداء هاربة من النار التي أخرجت من الصخر هذه المادة الغريبة.

لم يعرف توبال قابيل ما هو هذا السائل، ولكن هذه أول مرة رأى فيها الحديد أي إنسان على الأرض، فإن هذا السائل الناري لما جرى واستبرد أصبح معدناً ثميناً كان من قبل مختبئاً في الخام الصخري.

وانقضت أسابيع وشهور بعد رؤية هذا السائل المتدفق من الصخرة، وقد قضى هذه المدة في جمع الصخور المماثلة لما رآه من جوانب الجبل، وكان يجلب لها ناره ليرى هل هذه الصخور ستذوب أيضاً؟ فوجد أن بعضها الآخر أخرج نقاطاً لامعة متوهجة تتحول فيما بعد إلى معدن أرق هو الذي نعرفه باسم النحاس

وكان يجري تجربته في كل قطعة من الحجر الذي جربه أولاً ويراقب ما يصير إليه أمرها حين تبترد ليعرف إلى أي شكل تتحول

وفي أحد الأيام، حاول أن يصوغ المعدن في أثناء حرارته وابتراده، فطاوعه المعدن وتمكن من طرقه وتحديد طرفه كالسنان الذي يصنعه من الحجر.

وعند خروجه للصيد للمرة التالية رأى وحشاً يقبل نحو كهف في الجبل الذي يقيم فيه فرماه بسنانه الحديدي الجديد وأصابه السنان في جبهته وقتله للحال

وكان هذا أول سلاح معدني صنع في العالم؛ ورأى توبال قابيل أن في وسعه صنع أسلحة أخرى من هذه المادة الجديدة التي يمكن طرقها عند الحد أكثر مما تطرق الأحجار والفلزات التي يقضي في نحتها ساعات متعبة

ولم يقل شيئاً عن هذا السر للصيادين الآخرين الذين كانوا يأتون أحياناً إلى موطنه في الجبال ولا لسكان الوادي؛ ولكن الجميع دهشوا من وفرة قوته ومن حذقه الصيد لأنه كان يأتي بصيد أكثر مما يأتي به أي اثنين مجتمعين في هذه الجبهة الجبلية.

وكان أجدى على سكان الوادي من اثنين كذلك لحمايته إياهم من غارة الوحوش الضارية؛ ولكنه أفضى إلى جده متوشالح باستكشافه الغريب وأراه كل أنواع الأسنة والأسلحة المحدودة والآلات الحادة التي صنعها وصاغها بإحمائها وسكبها في حفر وأخاديد في

الصخر أثناء خروجها حارة من النار وتركها حتى تبرد فتتجمد ويمكن عند ذلك طرقها وكان متوشالح في النهاية حياته عندما أقبل عليه توبال؛ ولكن حكمته كانت تزداد على مدى الأيام. وكان ثاقب الفكر سريع الخاطر كحفيده الأصغر فأخذ القطع الغريبة من الحديد الأسود الذي جاء به توبال قابيل والقطع الساطعة من النحاس ووازن بين ثقليهما في يده وحاول اختبارهما بكل الأساليب، وأخبر توبال بأن هذا سر عجيب جداً

مكتوم عن سائر العالم وأنه يجب أن يدرس هذه الصخور وأن يستمر في العمل بها وأن يتعلم ك الذي يستطيع تعلمه وأن يستعد لإشراك إخوانه الصيادين جميعاً وأهل قرابته هذه المعرفة ونشرها في أرجاء العالم

وعاد توبال قابيل إلى الجبال وأنشأ لنفسه مكاناً للنار أو فرناً ليحبس فيه روح النار ويستبقيها في خدمته، وأرسل كل الصيادين ليأتوا إليه بالأحجار من النوع الذي يذوب.

وتعلم صنع قوالب من الطين يضع فيها المعادن الحارة. وليتمكن من إدخال الهواء تحت القدر صنع نوعاً من المنافيخ وصنع أسلحة لكل الصيادين والذين يتولون حراسة أهل الوادي

وكان الرجال يأتون من الأماكن البعيدة ومن الأماكن القريبة ليتعلموا فن توبال قابيل في صنع المعادن. وعلمهم وهو مسرور كل ما عرفه من الأسرار وكل الفنون التي كان يستفيدها من يوم إلى يوم

وكان الذي تعلمه خدمة لكل الناس لأنه كيف يمكن أن يعيش أهل الأرض وأن يغتنوا ما لم يتشاركوا - لمصلحة الجميع - فيما يستكشفه أي رجل أو فيما تصنعه أية قبيلة؟

تعلم كيف يحذق صنع الحديد ولم يكتف بأن يصنع الأسلحة للحرب بل صنع نصلاً ثقيلاً معقوفاً يستطيع الإنسان أن يحفر به الأرض اللينة قبل أن يلقي بها البذور، وأن يصنع نصلاً طويلاً وهو الذي نسميه الآن باسم المحراث. وبه استطاع أن يخط على الأرض خطوطاً طويلة يغرس فيها الحب

وصنع آلات أخرى كثيرة، واشتهر أمره في جهات بعيدة عن واديه، وعن الوديان المجاورة للجبال التي يقيم بينها، لا بل ذاع صيته عبر الأنهار وعلى حدود البحر الكبير، وذاع اسم توبال قابيل صانع كل سلاح قاطع أو منته بذبابة حادة، وأستاذ كل رجل يبغي العمل في

النحاس أو الحديد أو أية مادة تسيل من الصخور. وكذلك دون في الكتب القديمة كما يستطيع أن يتبين من يريد

وكذلك أصبح عصر النار عصراً للمعدن أيضاً. ولا نزال نعيش في هذا العصر إلى اليوم

ومهما تكن الطريقة التي عرف بها الناس سر النار للمرة الأولى، فإننا نعلم أنهم عرفوها قبل أن يكون للعالم تاريخ مكتوب وأنهم عرفوا أيضاً سر المعدن المخبوء في الأرض.

ولما عرف كيف يصنعه، وكيف يصوغه بواسطة النار فإنه بذلك قد بدأ يسير في طريق المدنية، وسنظل متتبعين رحلته في هذا الطريق على مدى القرون.

(يتبع)

ع. ا

من هنا ومن هناك

ألمانيا بعد سقوط هتلر

(عن (جوتبرج هاندل) السويدية)

لا يستطيع الباحث المدقق في حالة ألمانيا أن يحكم إذا كان ذلك النظام الذي أقامه هتلر سينهار بقيام حرب عالمية، أو أن سيدركه الفناء تحت تأثير عوامل وأزمات داخلية، يثيرها تدهور الحالة المالية والاقتصادية بها ومهما تكن الأحوال.

فإن الدوائر السياسية العليمة في أوربا، أصبحت تعتقد أن سقوط النظام الهتلري سيكون في خلال سنة 1940. فإذا كان الأمر كذلك فيحق للإنسان أن يسأل كيف تكون ألمانيا بعد هتلر؟

لقد احتاطت الدعاية الألمانية لهذا السؤال، ونشرت ما شاء لها الهوى من الأقاويل بين العامة والخاصة معلنة أن سقوط هتلر يتبعه قيام البلشفية في ألمانيا. وهذا خطر تهون إلى جانبه كل الأخطار. وقد تمسك بعض الناس بالنظام القائم في ألمانيا الآن باعتباره أخف الضررين. على أن الدوائر الاقتصادية المطلعة والأوساط الدينية تقرر أن نظام ستالين ونظام هتلر لا يختلفان

والنازية لا تجد لها سنداً في خارج ألمانيا إلا في بعض الدوائر التي ترى أن البلشفية تعم ألمانيا بعد هتلر، ومن ثم يختل النظام وتنهار المدنية في غرب ألمانيا تحت تأثير هذه الكارثة الخطيرة. ولكن هل في الحق أن ألمانيا مهددة بخطر الاشتراكية؟

إننا نستطيع أن نقرر في تردد أن ألمانيا على وجه العموم أقل انخداعاً بالماركسية من أي دولة من دول أوربا. وإن كان بعض قصيري النظر يعتقدون أن الماركسية قد تنتشر في ألمانيا كرد فعل للنظام النازي

إن ألمانيا ولا شك ستكون عرضة لانقلاب قوي شديد كرد فعل للنظام الذي تحكم به الآن فتلك سنة الطبيعة، ولكن هذا الانقلاب سينحو ولا شك ناحية مناقضة لهذا النظام. ولكن الاشتراكية ليست الناحية المناقضة للنازية بحال من الأحوال. . إن ألمانيا التي تتبرم

بالهتلرية السمراء، لا تشوقها دكتاتورية البلشفية الحمراء. فالألمان يعرفون ما هو الضغط على حرية الفكر والاعتقاد تحت ظل الحكومة الآرية، ويبغضون من أعماق قلوبهم ضياع الحرية ومصادرة العقائد والأفكار في ظل نظام محو الطبقات

فماذا تكون إذن بعد سقوط هتلر؟ ستكون هناك أمة ألمانية يستمتع شعبها بحريته وحقوقه الاجتماعية، وتندمج روحه والروح الأوربية. وسيكون قوامها العمال والفلاحون والأعيان والموظفون والضباط وأساتذة الجامعات

ستكون ألمانيا بعد هتلر أمة يسوسها خيرة من رجال الجيش والعمال والفلاحين والمدنيين وفي مقدمة هؤلاء جميعاً الشباب الناهض

ستكون إذن ألمانيا التي قهرت الفاشية والبلشفية

وستكون وتظل جزءاً مسئولاً في أوربا الحديثة

أين يسكن هتلر؟

(عن مجلة (تورنتو ستار))

منذ اثني عشر عاماً كتب هتلر مؤلفاً عن الأعمال التي يقوم بها وكيف تثنى له أن يقوم بها، وأسمى هذا الكتاب (كفاحي) بيع منه 11000000 نسخة بلغت أرباحها مليوناً من الجنيهات. وقد بنى هتلر من هذه الأموال مساكنه الجديدة، وإنها لمساكن على جانب من الأبهة والعظمة

ومن المأثور عن هتلر أنه قال في حديث له: (ليس من العار أن يقتات الألمان بالعشب مادامت ألمانيا تعاني ما تعاني من الشقاء) ولكن هتلر لم يأكل العشب ولم يسكن في بيوت من القصب، فبنى القصور الفاخرة على قمم الجبال، وشاد لنفسه الدور المؤثثة بأفخر الرياش

ومن غريب ما جاء على لسانه وهو يفتتح دار المستشارية الجديدة منذ أسابيع: (إنني ما زلت كما كنت فيما مضى ولا أريد أن أكون غير ذلك. إن منزلي يماثل بالضبط المنزل الذي كنت أسكنه من قبل وسيضل كذلك)

إنه في هذا يتكلم عن مسكنه الخاص في ميونخ، ولكنه لم يقل شيئاً عن القصور التي بناها

فوق قمم الجبال حيث يخلو إلى نفسه

فعلى ناحية من جبال الألب البافارية على بعد بضعة أميال مما كنا نسميه النمسا تقع قرية برخستجادن الجميلة، وعلى جانب من الجبل يرى قصر برجوف - مسكن هتلر - المحبوب. وقد كان هذا القصر مسكناً جبلياً بسيطاً فأعاد بناءه هتلر على طراز لا يحلم به أصحاب الملايين. وهو يقضي في هذا المنزل فسحة آخر الأسبوع في غالب الأحيان، فينتقل بالطيارة من برلين إلى ميونخ ومن ميونخ تقله سيارة سوداء سريعة السير إلى مسكنه الفاخر

ويقوم على حراسة هذا القصر قوة كبيرة وأسلحة واستعدادات عظيمة لا يقوم مثلها على حراسة بنك إنجلترا، وهو محاط في الليل والنهار بحصار شديد من الجند الأشداء.

وقد أقيم في الصخرة الصماء التي شيد عليها هذا القصر خندق حصين تحيط به قوة من المدفعية المضادة للطيارات تحميه وقت الهجوم. على أنه محاط بأبواب عظيمة من الفولاذ تجعله محجوباً عن الأنظار ولا يتثنى لأي زائر أن يقترب من هذه الأبواب دون إذن كتابي من البوليس السري

ولا يسمح لصحيفة ألمانية أن تذكر ما طرأ على هذا القصر من التجديد فهو لا زال في نظر الألمانيين ذلك الكوخ الجبلي الصغير.

ويقال إن حجرة الجلوس في هذا القصر من أفخر الحجر التي رأتها العيون. وهي تحتوي على نافذة واحدة ولهذه النافذة صفحة من الزجاج ارتفاعها عشرة أقدام

وطولها 28 قدماً ولعلها أكبر نافذة في العالم. ومن هذه النافذة يطل هتلر ومن عسى أن يكون معه من الضيوف على مناظر جبال الألب الخلابة
ولعل أكبر متعة تصبو إليها نفس الفوهرر، هي أن يجلس إلى هذه النافذة ويمتع النظر فيما حوله من الوديان المخضلة النبات، بينما يعزف أحد أصدقائه بعض مقطوعات من موسيقى واجنر على البيانو على بضعة أمتار
البريد الأدبي
المجمع والدكتور أحمد بك عيسى
كتبت في العدد الأسبق من الرسالة كلمة عن المجمع اللغوي قلت فيها - اعتماداً على ما رواه لي الدكتور أحمد بك عيسى - أن المجمع أهمل كتابه (المحكم في أصول الألفاظ العامية) ولمته على هذا
وقد بين لي صديقي الأديب الكبير الأستاذ الشيخ عبد العزيز البشرى (مراقب المجمع) أن اللوم في غير محله، وأن لجنة اللهجات العامية راجعت الكتاب وفحصته، وأن الدكتور عيسى بك نفسه حضر بعض اجتماعاتها، ووافق على ما اقترحته من زيادة (في مصر) على اسم الكتاب
وقرأ لي الأستاذ البشري كتابين بعث بهما باسم المجمع إلى وزارة المعارف يطلب في أولهما من الوزارة طبع الكتاب لتعميم فائدته، ويطلب في الثاني توزيعه على مكتبات المدارس
ويتضح من هذا أن المجمع لم يقصر ولم يهمل، وإذا كان لم يطبع الكتاب فذاك لأن المجمع لا مال له لطبع الكتب، ومطبوعاته هو تتولاها وزارة المعارف
ومن الإنصاف للمجمع أن أعلن هذه الحقائق التي تفضل الأستاذ البشري بإطلاعي عليها. ومن واجبي أن أشكر الصديق وأن أعتذر للمجمع وإن كان الذنب لغيري
إبراهيم عبد القادر المازني
صححوا هذين البيتين
يكثر استشهاد الخطباء والكتاب بقول شوقي:
في العلم تطّغن العقو ... ل وليس تطّغن الصدور
وكذلك ينطقون (تطغن) بالغين المعجمة في الصدر والعجز وهو صحيح في العجز ومحرف في الصدر. والصواب:
في الظلم تطْعِنُ العقو ... ل وليس تطّغن الصدور
فنقرأ (تطعن) في صدر البيت بالعين المهملة من الطعن، ونقرأ (تطغن) في عجز البيت
بالغين المعجمة من الضغن وهو الحقد
ومعنى البيت أن العلماء قد يتحاربون ولكنهم لا يتباغضون وشوقي لا يريد غير ذلك، وإنما نُشر البيت محرفاً ولم يفطن من يستشهدون به إلى ما وقع فيه من تحريف.
والقصيدة التي فيها (يا جارة الوادي) مطلعها هذا البيت:
شيعتُ أحلامي بطرف باك ... ولمحت من طرق الملاح شباكي
والناس يقرءون (لمحت)، وهي كذلك في الجزء الثاني من الشوقيات، وقد نُشر في حياة شوقي، ونقلها بعض المؤلفين عن نسخة الديوان بدون تصحيح، وأنشدها بعض الأدباء في محطة الإذاعة بدون تصحيح!
و (لمحتُ) فيها تحريف، والصواب (لممتُ) بلام وميمين من اللّم وهو الطي، وما أحسب شوقي يريد غير ذلك.
فأرجو القراء أن يصححوا هذين البيتين إن راقهم هذا التصحيح.
زكي مبارك
سؤال عن الربا
ذكرني السؤال الذي وجهه الأستاذ علي الطنطاوي إلى (المفكرين) من علماء المسلمين بسؤال كنت بعثت به إلى فقيد الإسلام المرحوم الأستاذ الإمام رشيد رضا في موضوع الربا بتاريخ 4 شعبان سنة 1352هـ ـ، وقد أجابني بجواب مختصر أحالني فيه - كعادته - على مجلة المنار. فإذا كان في الرسالة الغراء متسع لنشر هذا السؤال، تعضيداً لسؤال الأستاذ علي الطنطاوي فها هو ذا:
حضرة الأستاذ العلامة. . . . . .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته (وهنا قدمت بمقدمة شرحت فيها سوء حالة فلسطين الاقتصادية التي أوقعت فيها قسراً ثم قلت) فرأى المخلصون من رجال الاقتصاد أن خير وسيلة لإنقاذ الفلاحين من هذا الشقاء، ولتخليص البلاد من شره اليهود، هي إنشاء بنك زراعي عربي بأموال العرب يعقد قروضاً زراعية للفلاحين برباً قليل إلى وقت طويل. ويقدم إليهم آلات زراعية حديثة، إلى غير ذلك من الوسائل التي تخلصهم من ظلم
المرابين، وتوسع عليهم، وتحفزهم للعمل والتثمير حسب الأصول الحديثة، فتجلب الخير والمنفعة، وتغنيهم عن بيع أراضيهم لليهود
والمسئول عنه الآن: هل يكن ديننا الحنيف في هذه المعضلة الاجتماعية كشأنه في سائر المعضلات سمحاً سهلاً يتمشى مع المصلحة، وينطبق على ما تقتضيه نظم العصر الحاظر، فيجد الناظر فيه رأياً لا يخالف القرآن الكريم، ولا يصادم السنّة الشريفة، يجيز أمثال هذه المعاملات (المصرفية) من عقد قروض بربا قليل لا يضر بمصلحة الآخذ ويفيد المعطي، لا سيما أنه يؤخذ من ظاهر بعض الآيات، ويؤخذ من حالة العرب قبل الإسلام في مداينهم بالربا، أن المقصود بالنهي الربا الفاحش الذي يؤدي إلى خراب بيت المدين كما حصل ويحصل مع كثير ممن لو تداينووا بربا قليل لوفوا ديونهم وعادوا سيرتهم الأولى من السعة والغنى. وهذا الربا الفاحش هو ربا الجاهلية (وربا الجاهلية موضوع) وهو (الأضعاف المضاعفة) وبه يحصل التقاطع والتباغض بين الناس. أما الربا الخفيف فلعله يكون من أسباب المودة بين المتداينين
ثم ألا يجد الناظر في الدين حرجاً بناء على هذا - إذا صح - أن يحمل الآيات الشريفة المحرمة للربا على الربا المعهود (أي ربا الجاهلية، وهو الربا الفاحش) ويحمل الأحاديث على هذا المحمل. وتبقى الحكمة في عدم التحديد حث الناس على التعامل بقروض المجانية تنزهها عن شبهة الربا، ليكون ذلك أدعى للتآلف والتعارف؟ وإذا أبى نص حديث - والنص من الراوي - هذا المحمل، أفلا نتركه؟ إذ لا يصح أن تقف أحاديث الآحاد في وجه المنفعة والعمران وتقدم المسلمين؛ والعمران وتقدم المسلمين وقوتهم يغلب على الظن أنها مقصد من مقاصد الدين حتى يكون الدين كله لله
أقول: هل يجد الناظر في الدين رأياً كذلك؟ فإن كان فالرجا أن تفصلوا علله وأسبابه وأدلته، وإن لم يكن هناك ما يساعد على هذا الرأي فأرجو بيان ذلك مع الحكمة أيضاً وهل هناك إجماع يكون خرقه كفراً على تحريم الربا مطلقاً قليلة وكثيره؟ أم لا يكفر المتأول، ومن يأخذ بالظاهر؟ أفتونا. . .
وهذا جواب الإمام رشيد رضا رحمه الله بحروفه:
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته: إن من الإرهاق لي أن أكلف أن أجيب عن الأسئلة التي
تأتيني من أنحاء العالم في مكتوبات خاصة مع أن ما ينشر منها في المنار لإفادة الجميع قد عجزنا عن الإجابة عنه كله. ومن المعلوم لكل مسلم أن البنوك كلها فيها ربا وأن الربا محرم ولكن في بعض أعمالها وشركاتها ما ليس كذلك. ونحن ننشر في المنار بحثاً طويلاً سيصدر بعد إتمامه في كتاب مستقل والسلام.
رشيد
ولم أطلع على ما نشر في المنار، كما لم أعلم أتم البحث وصدر في كتاب مستقل أم لا؟
فعلى من يستطيع الحصول على المنار أن يرشدنا إلى ذلك.
(سائل)
كلمة أخيرة في نعيم الآخرة
أطال الأستاذ محمود على قراعة في الاستشهاد بأقوال بعض العلماء والصوفية وفلاسفة الأخلاق، وملأ أربع صفحات من الرسالة الغراء (العدد 321) ليثبت أن لذة الروح أرقى من لذة الجسم حتى يتسنى أن يثبت أن نعيم الآخرة روحي. وأنا لا أنكر أن لذة الروح أرقى من لذة الجسم، ولا أحتاج عليه إلى دليل من كلام أحد، وأرى الأمر أهون من أن يحتفل به هذا الاحتفال مادام الله تعالى لم يكلفنا - بعد الإيمان بالآخرة والجزاء فيها - أن نعلم نوع هذا الجزاء أهو حسي أم روحي
على أن جميع ما أتى به الأستاذ - ومثله معه، وإن كان من نوعه طبعاً - لا يجدي شيئاً

في تأييد دعواه. وأما دعوانا فهي واضحة جلية أعجب كيف يكابر فيها وهي تستند إلى هذه الأمور المسّلمات:

1 - إن جميع النعم الحسية التي ذكرت في القرآن الكريم كالمأكولات والمشروبات والأزواج ورؤية الله تعالى، هي حسية حقيقية لا مجازاً، وإن كانت على غير ما نتصوره في الدنيا؛ فالتفاح والرمان مثلاً هو تفاح ورمان، وإن كان من الجودة بحيث لا نعلم.

2 - أجسامنا في الآخرة - كيفما كان الرأي في إعادتها - هي أجسام، وإن كانت على نشأة أخرى كما تقتضي إرادة ربنا تعالى

3 - مادامت النعم الحسية لا تتغير أسماؤها هناك، ومادامت الأجسام لا تصير أرواحاً هناك، فإدراك الأجسام لتلك النعم إدراك حسي، وإن كانت حسيته بحسب قابلية الجسم في ذلك الوقت

فإذا سُلم هذا - وهو مسلم - يُبرهن على دعوانا بقياس منطقي اقتراني من الضرب الأول من الشكل الأول، تؤخذ مقدمتاه من هذه المسلمات، فيقال:

النعم في الآخرة تدرك بالحواس الجسمية؛ وكل ما يدرك بالحواس الجسمية فهو (حسي؛ فالنعم في الآخرة حسية). ونتيجة هذا القياس لا تنقضُ حتى تنقضَ المقدمات، وهيهات.

وبعد فلا أضن الأستاذ قراعة يفهم من هذا أننا ننكر أن النعيم الحسي لا يتصل بالروح، ولكن اتصاله بالروح، لا يمنع أنه نعيم حسي. والسلام على الأستاذ ورحمه الله.

فلسطين

داود حمدان

حول الوحدة الإسلامية والقومية العربية

كتب إلى فلسطيني فاضل يلومني في بعض فقرات من كلمتي المنشورة في الرسالة العزيزة عدد (320) فقال: (إن قولي: (يقف المسيحي في فلسطين في جانب المسلم يدفعان معاً شر المغتصب المستعمر) يخالفه الواقع) وقال الفاضل: (وإن كانت تركيا وهي المسلمة لم تتحرك من أجل فلسطين فما ذاك إلا لأننا لا نعرف وحدة إسلامية اليوم ولا ندعو بها). وقال أيضاً: (إن المستعمرين لا يخرجون من البلاد وإن أقرت الأقليات بأنها من صميم الأمة). ثم يختم كتابه إلى بقوله: (ولعل رسالتي تخفف من غلوائك في هذه الدعوة البريطانية)

فأود - قبل كل شيء - أن ألفت نظر الفاضل إلى أنني لم أزعم أن المسيحي السوري أو العراقي مثلاً هب يحمل السلاح للدفاع عن القضية العربية في فلسطين، وإنما قلت إن مسيحي فلسطين يدافعون مع المسلمين ويحاربون عدوهم القوي، وهو واجبهم في الذود عن أرضهم وفي حماية أهليهم. ولعل الفاضل يعلم أن كثيراً من المسيحين العرب وقفوا ألسنتهم وأقلامهم للدفاع عن فلسطين المجاهدة كالأساتذة الشعراء بشارة الخوري وحليم دموس والشاعر القروي: اللبنانيين؛ والكتّاب أمين الغريب وكرم ملحم كرم ولبيب الرياشي، وهم لبنانيون أيضاً. كما أن في سورية وفي مصر وفي العراق مسيحين عرباً خلصا خدموا القضية الفلسطينية خدمات لا تنكرا لا تجحد

وأحب أن أناقش الفاضل في قوله: (إن تركيا لم تحجم عن مساعدة فلسطين إلا لأننا لا نعرف الوحدة الإسلامية) فهل يريد الفاضل بالوحدة أن تتفق تركيا وإيران الدولتان المسلمتان القويتان مع العرب المسلمين المشتتين في كل صقع والمحكوم أكثرهم من قبل الدول الأجنبية؟ وهل هذا ممكن؟ ثم لنفرض إمكان التحاق المسلمين العرب بهاتين الدولتين أو بإحداهما فهل يقبل العرب وهم كثيرو العدد ووافرو الثقافة أن ينضووا تحت لواء دولة صغيرة؟ ثم هل يقبل الأتراك هذه المحالفة وهم يعرفون قوة العرب ووفرة عددهم؟ وإذا قبلوا أفلا نعتقد أن العرب لا تكون كلمتهم هي العليا في جانب تلك الدول القوية التي تخشى سيادة العرب وحكمها؟ وهل من المنطق أو المعقول أن يكون العرب تبعاً لغيرهم وأين نذهب بقوله تعالى: (وأطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم) وقد قال بعض جهابذة المفسرين: المراد بقوله تعالى (منكم) تخصيص الأمة العربية. . .

أما قوله: (إن المستعمرين لا يخرجون من البلاد وإن أقرت الأقلية بأنها من صميم الأمة إلا إذا كانت قوية عزيزة الجانب) فيرده أن الأمة لا تستطيع أن تصل إلى درجة

من القوة والمنعة إذا وقف مسلمها في جانب ومسيحيها في جانب آخر
وكنت أحب ألا يفهم الفاضل عكس ما أردته فقد قال: (ولعل رسالتي تخفف من غلوائك في هذه الدعوة البريطانية)
ولو كان الفاضل يعلم أنني كنت ولا أزال بحمد الله من مؤسسي القضايا الدفاعية عن فلسطين المقدسة وأنني نشرت عشرات المقالات وألقيت مئات الخطب في سبيل هذه القضية المشرفة وأنني كدت أسجن مراراً من أجل هذا الواجب، أقول لو علم الفاضل شيئاً من هذا لكتب بلسان العقل لا بوحي العاطفة
فليطمئن الفلسطيني الفاضل وليعلم أننا أشد منه غيرة على الإسلام ولكننا نحكم العقل فنجازي المحسن بما فعل ونقابل المسيء بما قدم.
طرابلس
محمد علي عكاري
جيرون وربوة في كتاب هبة الأيام
أورد البديعي في كتابه (هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام) قصيدة للعماد الأصبهاني يجاوب بها أبا الفتح التعاويذي في الصفحة 277 وهي قصيدة طويلة مطلعها:
بأبي معتدل القا ... مة في عطفيه نشوه
ومن أبياتها:
ما تسليني عن دجلة جيرون و (بروه)
هكذا أورده ناشر الكتاب الأستاذ الفاضل محمود مصطفى وعلق عليه بقوله: (لعل جيروناً وبروة اسما نهرين بدمشق). وهذا عدم تحقيق من الأستاذ الفاضل فإن بروة تحريف ظاهر لا يخفى على أديب باحث في اللغة العربية، ولا يوجد نهر أو موضع بدمشق بهذا الاسم. وإنما هي ربوة وهو متنزه جميل وجنة غناء قرب دمشق. . . قال ياقوت في معجم البلدان: ربوة بضم أوله وفتحه وكسره. إلى أن قال: بدمشق في لحف جبل على فرسخ منها موضع ليس في الدنيا أنزه منه لأنه في لحف جبل تحته سواء نهر بردى وهو مبني على نهر توري وهو مسجد عال جداً وفي رأسه نهر يزيد الخ اهـ. وقيل: إنها دمشق نفسها، ولكن المعروف إلى اليوم هو المكان المنتزه الجميل. وقد تغنى به أمير الشعراء المرحوم شوقي بك في قصيدة: (قم ناد جلق. . .) فقال:
وربوة الواد في لجلباب راقصة ... ألساق كاسية والنحر عريان
والطير تصدح من خلف العيون بها ... وللعيون كما للطير ألحان
وأقبلت بالنبات الأرض مختلفاً ... أفوافه فهو أصباغ وألوان
أما جيرون فقد قيل إنها دمشق نفسها، وقيل إنها حصن بدمشق أو بناء عظيم لبعض الكواكب الخ. قال في معجم البلدان هذا قولهم. والمعروف اليوم أن باباً من أبواب الجامع بدمشق وهو بابه الشرقي يقال له باب جيرون، وفيه فوارة ينزل عليها بدرج كثيرة في حوض من رخام وقبة خشب يعلو ماؤها نحو الرمح الخ
وجاء في الصفحة 280 من القصيدة نفسها
وهو في الشعر وفي العل ... م كحسان وعروه
فعلق عليه الأستاذ بقوله: (حسان بن ثابت الأنصاري شاعر رسول الله وأمره مشهور، وعروة من شعراء العرب كثيرون، فمنهم عروة بن حزام ومن شعره قوله في عفراء:
متى تكشفا عني القميص تبينا ... بي الضر من عفراء يا فتيان
إذا تريا لحماً قليلاً وأعظماً ... بلين وقلباً دائم الخفقان
جعلت لعراف اليمامة حكمه ... وعراف نجد إن هما شفياني. الخ
ومنهم عروة بن الورد الذي يسمى عروة الصعاليك لأنه كان كالرئيس عليهم ويجمعهم ويقوم بأمرهم إذا أخفقوا في غزواتهم. مع أن المراد هنا بعروة عروة بن الزبير بن العوام أحد فقهاء المدينة السبعة العالم المشهور، والمحدث الكبير تلميذ خالته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها المتخرج في مدرستها وهو مشهور غني عن التعريف.
وبيت العماد يقول: وهو في الشعر كحسان، وفي العلم كعروة، وهذا في البديع يا سيدي الأستاذ لف ونشر مرتب. وهذا الذي جعلنا نحمله هذا المحمل، والمعروف أن عروة بن حزام وعروة بن الورد وغيرهما من شعراء العرب لم يشتهر أحدهم بالعلم.
وإن الأستاذ محمود مصطفى ليشكر على مجهوده في هذا الكتاب وعلى إخراجه في

هذا الثوب القشيب، وأرجو أن يتقبل مني هذا التعليق بقبول حسن.
إبراهيم يسن القطان
الشطر المسروق
سيدي صاحب الرسالة:
لقد قرأت في العدد (320) من الرسالة الغراء قصيدة الأستاذ (العوضي الوكيل) فأعجبت بما فيها من المعاني الدقيقة والخيالات الرائعة ولكنما استوقف نظري هذا الشطر:
(أواه لو تنفع المحزون أواه)
فرجعت بالذاكرة إلى الماضي فتذكرت أنه مرّ عليّ منذ أربع سنوات في قصيدة للأستاذ (محمود غنيم) في العدد الممتاز من الرسالة من السنة الثالثة ص (591) تحت عنوان (مجد الإسلام - وقفة على طلل) وهاهو ذا البيت بأكمله:
(لي فيك يا ليل آهات أردده ... أواه لو أجدت المحزون أواه)
فرأيت الأستاذ (العوضي الوكيل) لم يغير في الشطر غير كلمة (أجدت) وأبدلها بكلمة (تنفع)
محمد إبراهيم شلتوت
رسالة النقد
نظرات في كتاب:
(بعث الشعر الجاهلي)
تأليف الدكتور مهدي البصير
للأديب خليل أحمد جلو
- 2 -
لا شك أن ما روى الدكتور عن حياة امرئ القيس منسجم مطرد، وهو حجة دامغة معقولة، لو أن ما كتبه (وهو عين ما يدرسه طلاب الصف الثالث الثانوي)، هو كل ما يروى في الكتب ويُستنتج بعد المحاكمة، ولو أنه صحيح ثابت، ولكنه ناقص سقيم حين سمع الناس أن امرئ القيس شخصية خيالية، وحين يعلم أن الرواة اختلفوا في اسمه وكنيته وذريته: فهو حندج وهو قيس، واسم أبيه عمرو واسم أبيه حجر، واسم أمه فاطمة واسم أمه تملك، وكنيته أبو لهب وكنيته أبو الحارث، وأنه لم يكن له ولد ذكر، وأنه يئد بناته جميعاً، وأن له بنتاً يقال لها هند، وأنها لم تكن بنته، وإنما كانت بنت أبيه، وأنه يعرف بالملك الضليل، وانه يعرف بذي القروح.
فكان عليك يا دكتور أن تستخلص من هذا الخليط المضطرب ما نستطيع أن تسميه (منسجم مطرد)، وما تستطيع أن تسميه حقاً أو شيئاً يشبه الحق ليجوز لك أن تسلم بوجود امرئ القيس وأن تقول: (إن ما يروى عنه (لم يكن أكذوبة) من أكاذيب القصاص).
أليس جديراً بكتاب يسمى (بعث الشعر الجاهلي) أن يستعرض ما ذكرت، وزيادة عليه مما يشم منه رائحة الأساطير والأكاذيب، ثم يعرض لها بالبحث والتحليل، والاستقراء ولاستنتاج، والتعقل والمحاكمة، لينسج منه المؤلف بحثاً يستطيع بعده أن يقول: قد بعثت امرئ القيس حقاً؟ ولكن الدكتور أغرق في تجنب الآراء المتضاربة والاختلافات المتناقضة، وما جرب أن يشطح وينطح، وابتعد عن كل أناة ونثبت فيما نقض وأبرم. فهو يجحد جحوداً مطلقاً، وينكر بغير حق شأنه في التصديق، ويروي ما يدعم مزاعمه، ويغفل عما يدحضها، وهذه خصال يتبرأ منها الباحث العلمي.
إذا أردت أن أنتهي من نقد طريقته السقيمة في البحث فأسمح لي أن أحدثك يا قارئي عن برهانه على حقيقة نسبة (قفا نبك). وما هو برهانه؟ لا يتجاوز ما يذكره في ص 10 (أن القصيدة رويت في القرن الثاني، وأن كبار الرواة وثقاتهم كالمفضل الضبي وأبي عمرو بن العلاء والأصمعي أحياء لم يطعنوا فيها). . . يظهر من هذا أن الدكتور مطمئن إلى ما يرويه هؤلاء كل الاطمئنان، ولم ير حاجة في الإطالة، فقد جاء بالبرهان الناصع والدليل القاطع
هل يستطيع الدكتور أن يقول إن كل ما رواه هؤلاء صحيح سالم من التجريح؟
لا شك أن هؤلاء ممن لم تفسد مروءتهم ولم يعرفوا بفسق ولا مجون ولا شعوبية،

والعجب أنهم قد كذبوا أيضاً وانتحلوا. فأبو عمرو بن العلاء يعترف بأنه وضع على الأعشى بيتاً هو:

وأنكرتني وما كان الذي نكرت ... من الحوادث إلا الشيب والصلعا

ويعترف الأصمعي بشيء من ذلك. ويقول اللاحقي إن سيبويه سأله عن إعمال العرب (فَعِلا) فوضع له هذا البيت:

حذرٌ أموراً لا تضير وآمن ... ما ليس ينجيه من الأقدار

وهل من صفة البحاثة العلمي أن يقف جامد العقل إزاء ما يروى عمن عاشوا في القرن الثاني مهما ابتعدوا عن السذاجة وفساد الذمة؟

وإذا سلمنا جدلاً أن القصيدة من ناحية السند صحيحة، أليس يحسن به أن يمتحن صحة متنها؟ إنه لم يتكلف عناء ذلك في جميع ما روى من المعلقات

يا دكتور أن أكاذيب كثيرة حملت على الجاهليين ونسبت أحاديث خرافة لا تحصى إليهم في عهد الإسلام، وأضيفت مقادير وافرة من الأباطيل إلى تاريخ كل شعب وكل جيل، وحاشاك أن تجهل الافتعالات التي يمليها تضارب المصالح والأهواء ويقتضيها تطاحن الأفراد والجماعات، مما يجب ألا نتواطأ عليها بالسكوت والتسليم، فلا تحسب أنك حين نزهت بعض الرواة عن الاختلاق والكذب يحق لك أن تقول بكلام المنتصر الغالب: (إذن لنفرغ لدرس هذه القصيدة (ص 19)، فإن الباحث المنصف من شأنه أن يحتاط ويحترس

من كل ما يروي، وليس من الصحيح أن تقول إن فلاناً مشهور بالصدق فيجب أن نأخذ عنه كل شيء على علاته مطمئنين راضين

هل تعرف عن (مدرسة الرأي) التي انتشرت في القرن الأول والثاني للهجرة التي كانت تشترط فيما يؤخذ به حديث شروطاً لا يسلم معها إلا القليل، حتى غالى قوم فرأوا عدم الأخذ بالحديث بتاتاً؟

أليس جديراً بك يا دكتور أن تقف موقف (اللارأيين) الذين شكوا في صحة الأحاديث ولم يكن بينهم وبين قائلها صلى الله عليه وسلم أكثر من قرنين؟ تذكر أنك في القرن الرابع عشر للهجرة، وأن الذي نرويه شعر وليس حديثاً لا يختلقه إلا من عرض نفسه لغضب الله وناره

يقول الدكتور (ص 92) (إني أحاول في هذا الفصل أن أثبت جاهلية المعلقات أو - المطولات السبع - ومتى تم لنا القول بأن هذه القصائد السبع جاهلية حقاً، فإننا نكون قد أنقذنا أمجد صفحات الشعر الجاهلي من الجحود والإنكار. ذلك لأن هذه المطولات أقوى وأجمل وأمتع ما وصل لنا من الشعر الجاهلي على الإطلاق)

إن الدكتور يريد أن يثبت (بالجملة)

هل تعلم ما هو السلاح الذي دافع به عن المعلقات حتى خيل إليه (أن القصائد السبع جاهلية حقاً؟) إنك لا تعلم حتى أقول لك! إنه اقتصر على تبرئة حماد الرواية عن قولها لا غير!

ولكن كيف برّأه ودافع عنه دفاع المحامي المحرج البرهان والدامغ الحجة؟

إنه يقول (ص 93) (إن حماداً يستطيع أن يقول البيت أو الأبيات القليلة من الشعر المبتذل وأن يدسها في شعر أحد الجاهليين ليدل بذلك على أنه أغزر علماً وأصدق رواية من غيره من الرواة، ولكنه لا يستطيع أن يقول قصيدة واحدة ذات شخصية أدبية وقيمة فنية) ثم يقول إن شاعرية حماد لا تساعده (على وضع الشعر البليغ وإضافته إلى فحول الشعراء)

لا تطلب مني أن أضايق الرسالة بما يروى عن حماد وبما يؤثر عنه من شعر جيد رصين، وفن في النظم فريد، وشيطنة في الانتحال عجيبة، وتقليد للشعراء يعجز عنه أعظم شاعر فحل؛ ويكفي أن أذكر أهل الكوفة مجمعون على أن أستاذهم في الرواية حماد: عنه أخذوا

شعر العرب، وأنه شاعر مجيد يصل من التقليد والمهارة فيه إلى حيث لا يستطيع أحد أن يميز بين ما يروي وينتحل

ويقول المفضل الضبي - والدكتور يثق به كل الثقة - إن حماداً قد افسد الشعر إفساداً لا يصلح بعده أبداً. فلما سئل عن ذلك: ألحن أم أخطأ؟ قال: ليته كان كذلك فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب

الشعراء ومعانيهم، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله في شعره ويحمل ذلك عنه في الآفاق فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد، وأين ذلك؟

ويحدثنا عنه محمد بن سلام - والدكتور لا يشك في روايته أيضاً - أنه دخل على بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري فقال له بلال: ما أطرفتني شيئاً؟ فعاد إليه حماد فأنشده القصيدة التي في شعر الحطيئة في مديح أبي موسى. قال بلال: ويحك! يمدح الحطيئة أبا موسى ولا أعلم به، وأنا أروي شعر الحطيئة! والرواة أنفسهم يختلفون في قائلها فمنهم من يزعم أن الحطيئة قالها حقاً

وكان يونس بن حبيب يقول: العجب لمن يروي لحماد، كان يكسر ويلحن ويكذب وثبت كذب حماد الرواية للمهدي فأمر حاجبيه فأعلن في الناس أن يبطل رواية حماد فهل صحيح يا دكتور ما تقوله من أنك قد (أحصيت ما عرف لحماد من الشعر، على أنه له، أو على أنه محمول على بعض الشعراء الجاهليين أو المخضرمين، فكان كله أربعة وعشرين بيتاً)، وأن حماداً لا يستطيع أن يقول قصيدة واحدة ذات شخصية أدبية وقيمة فنية، وأنه لم يدس في الشعر غير البيت أو الأبيات القلائل؟

وما لنا والإطالة؟ فهل يشك أحد - غير الدكتور مهدي البصير - في أن حماداً كان يسرف في الرواية والتكثر منها، وأن له في ذلك أخباراً لا يكاد يصدقها أحد؟ فلم يكن يسأل عن شيء إلا عرفه! وقد زعم للوليد بن يزيد أنه يستطيع أن يروي على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة لم يعرفهم من الشعراء. قالوا: وامتحنه الوليد حتى ضجر فوكل به من أتم امتحانه ثم أجازه

لا تظنوا مما حدثتكم به أني أريد أو أحاول أن أبدي رأياً في الشعر الجاهلي، وإنما كل ما طمعت فيه أن أبين لكم أن الكتاب الذي بعث الشعر الجاهلي، كما يخيل إلى صاحبه، برئ

مما يدعي أو يتخيل، وأنه خال من العمق، وهو سطحي كما يقولون. أو قولوا إنه شرح لمعاني المعلقات على أنها آيات منزلات أكثر منه محاولة لبعث الشعر الجاهلي، وهو قائم على الإبهام والتضليل لمن لم يؤت نصيباً من الأدب، وعلى الغفلة والانخداع. والباحث يخيل للقراء أو قل يخيل إليه أنه قد أحاط بالأدب والأدباء الجاهلين مع أنه لم يحط من ذلك بشيء. وإنما عرف صياغة بعض الجمل، وعلماً عامياً اقتطفه من الكتب اقتطافاً. . وآية ذلك أنه في بحثه الجديد الذي سماه (بعث الشعر الجاهلي) لم يكشف للناس عن شيء جديد في أمر هؤلاء الشعراء الجاهليين وشعرهم، وإنما ظل هؤلاء عند من يشك كما كانوا، بل زادوا شكاً وارتياباً.

هذا النحو من البحث السطحي شر، لأنه قاصر وعقيم، ولأنه لم يأت بالثمرة المطلوبة أو بما يشبهها، ولأنه لا يمت إلى العلم بصلة، ولأنه لا يصلح إلا للمتوسطات من المدارس.

لقد حدثتك عن الوجه الأول والثاني، وقد كدت أن أنسى الوجه الثالث وفيه اقترف المؤلف من الأحكام الخواطئ والتفسيرات السقيمة والآراء الفطيرة ما جعلنا نتذكره ونشعر بضرورة الهداية والإصلاح والجهاد في سبيل الأدب والأدباء.

يشرح الدكتور معنى البيت:

وأعلم ما في اليوم والأمس قبله ... ولكنني عن علم ما في غد عم

قائلاً: إن الشاعر (يعلن أنه يعرف ماضي الحياة وحاضرها لأنه رآهما، ولكنه يجهل مستقبلها) (ص 41) وهذا الشرح معقول مقبول لا يختلف فيه اثنان، ولكن مما يدعو إلى النظر والتروي ما يستنتجه الدكتور من قول الشاعر: (ولكنني عن علم ما في غد عم) إذ يزعم (أنه لا يؤمن بالبعث) (ص41). إن هذا الإدعاء باطل؛ فإن الرواة يتحدثون أنه تنبأ بظهور الإسلام وأوصى ابنيه كعباً وبجيراً أن يسلما. وهم يروون له أشعاراً كثيرة فيها أصول دينية. وذكر أبو عبيدة عن قتيبة ابن شبيب بن العوام بن زهير عن آبائه الذين أدركوا بجيراً وكعباً ابني زهير قال: كان أبي من مترهبة العرب وكان يقول: (لولا أن تفندوني لسجدت للذي يحي بعد الموت! قال: ثم إن زهيراً رأى قبل موته بسنة في نومه كأنه رفع إلى السماء حتى كاد يمس السماء بيده ثم انقطعت به الحبال، فدعا بنيه فقال: يا بني، رأيت كذا وكذا وإنه سيكون بعدي أمر يعلو من اتبعه ويفلح، فخذوا بحظكم منه، ثم لم

يعش إلا يسيراً حتى هلك فلم يحل الحول حتى بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولنسلم أن هذه الروايات مُفتَعَلة محمولة على زهير ولندعها جانباً، ولنرجع إلى الشاعر نفسه نسأله عن رأيه في البعث فسيقول لنا دون تردد:

فلا تكتمن الله ما في صدوركم ... ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ... ليوم الحساب أو يعجل فينقم

فاتق الله يا دكتور في دين الناس، ولا تضلك ظواهر الكلم، فإن الشاعر يريد أن يقول في بيته الذي آخذته عليه:

وما تدري نفس ماذا تكتسب غداً، وأنها لا تعلم الغيب

عفا الله يا دكتور! فلولا أنك كنت تلبس العمة وترتدي القباء وكنت شيخاً في الظاهر والباطن، كما هو معروف عنك قبل أن تقصد باريس، لاتهمناك بنكران الحساب وبرأنا زهيراً! ألست أنت الذي تقول في قصيدة وجدانية قلتها في نهر الليس (ص151)

لا تحسبن لماض ... ولا لآت حسابا

من يدري! لعل الدكتور قد زاغ قلبه حين أحس بجلال طبيعة فرنسا وحين تضاءل جلال الله أمام جلال نهر الليس!؟ سبحانك يا رب!

(يتبع)

الاعظمية

خليل أحمد جلو

المسرح والسينما

من التاريخ

النهضة المسرحية في مصر

ونصيب الفرقة القومية منها وواجبها حيالها

غادة الكاميليا

لا يعدو الحقيقة من يقول إن رواية غادة الكاميليا قد أفاد منها المسرح المصري أضعاف ما أفاده من رواية بل من روايات عديدة غيرها، وإن النهضة المسرحية تدين لها بالشيء الكثير. ويمكن أن ينسب جزء كبير من النجاح الذي لاقته فرقة رمسيس إلى هذه الرواية التي فتنت الجماهير ولعبت بألبابهم. وكما كانت (أوديب) الرواية التي جعلت لجورج أبيض شأناً أي شأن؛ وكما كانت (الموت المدني) الرواية التي نال بها عبد الحمن رشدي تقدير الجماهير، كذلك كانت (غادة الكاميليا) الرواية التي بلغت بها فرقة رمسيس أوج المجد، ومهدت الطريق لانتصارات كثيرة بعدها، وإن كان من شأن يوسف وهبي فيها غير ذي خطر إلى جانب السيدة روز اليوسف التي قامت بدور الغادة الفاتنة فوفقت فيه أعظم توفيق ووضعت اسمها به في ثبت الخالدين. إلا أن يوسف استطاع أن يفيد منها كما يفيد الأذكياء من توافه الأمور. وهكذا جعل من دور (أرمان) شيئاً يذكر وبطلاً يشار إليه بالبنان. بيد أن النقاد كانوا له بالمرصاد، وكان لأنفه - أنف يوسف لا أنف أرمان - قصص وحكايات كانت موضع تندر النقاد وسخريتهم على غير طائل، فقد ارتفع شأن فرقة رمسيس أيما ارتفاع، وصار جمهور الخاصة ينظر إلى الفرقة بعين الاعتبار، ويقدر مجهودها ونشاطها، وبذلك أصبح مسرح رمسيس وصالة التدخين التي جعلها يوسف إلى خلف المقاصير منتدى الطبقة الراقية في مصر، ومكان لقياهم المفضل في الليالي الساهرة، وكانت الفرقة تخرج كل أسبوع رواية، وكان لكل يوم من أيام الأسبوع طبقة خاصة أو طائفة خاصة من الناس، كما هو الشأن في بعض دور السينما اليوم.

وهكذا في أسابيع معدودة احتلت فرقة رمسيس مكاناً سامياً وغدا اسمها وأسماء أبطالها على كل لسان.

وللتاريخ نضع ثبتاً بأسماء هؤلاء الممثلات والممثلين الذين ارتفع عنهم ستار رمسيس في عام 1923 وهم:

يوسف وهبي - عزيز عيد - حسين رياض - أحمد علام - مختار عثمان - إستفان روستي - أدمون تويما - حسن البارودي - علي هلال - أحمد عسكر - عبد العزيز محبوب - توفيق صادق - صادق عارف - محمد إبراهيم - حسن شلبي

ثم السيدات: روز اليوسف - زينب صدقي - فاطمة رشدي - سرينا إبراهيم - ماري حداد - نعمت كمال

وكان مخرج الفرقة هو عزيز عيد، وحسن شلبي ملقنها. وكان أحمد عسكر أحد الممثلين، بيد انه أصبح بعد قليل الداعي الأكبر للفرقة وصوتها المسموع في كل مكان إذ أحتل من الفرقة المكان الذي يحتله اليوم من الفرقة القومية، وهو جدير بالمكان الذي يشغله ما دام يلتزم حدوده فيه؛ وكان على هلال (ريجسير) الفرقة؛ أما أدمون تويما فلم يكن طوال عمره الممثل الذي يعتمد عليه، بيد أنه كان دائماً البطل الذي يعمل من وراء ستار كما هو شأنه اليوم في الفرقة القومية أيضاً، فلهذا الفنان خبرة تامة بشؤون المسرح وتستطيع أن تضعه في مصاف المخرجين وإن تكن ثقافته ومعارفه ودرايته تفوق بعضهم بكثير.

(للكلام بقية)

ملاحظات

البعثات الفنية

من المفارقات العجيبة التي لا تحدث في غير مصر أن اللوم يقع شديداً على الحكومة لأنها تعني أكثر العناية بمبعوثيها ما داموا في بعثاتها فإذا عادوا أهملتهم كل الإهمال ولم تستفد منهم وكأنما أرسلتهم لغير غرض وبلا أدنى تفكير في مصيرهم

بيد أن الفرقة القومية، وصلتها بالحكومة غير بعيدة، قد خالفت هذه القاعدة الذهبية وعنيت بمبعوثيها في الخارج وزادت عنايتها بهم عند عودتهم. على أن أغلبهم لم يذكر يدها عنده وأنكر فضلها وآثر التمرد والعصيان. فمنذ بضعة شهور عاد أحد المبعوثين رافعاً راية العصيان قبل أن يصعد ظهر الباخرة وظل رافعاً الراية الحمراء حتى وصل وحتى استقال أو أقيل ساخطاً متبرماً في غير داع للسخط أو التبرم إلا أنه شعر بضعفه وعدم قدرته على الاضطلاع بالمهمة التي بعث من أجلها. . .

ومنذ أسابيع عاد آخر بعد أن تسلم الراية الحمراء من زميله وأعلن في غير حياء أن مرتبه ضئيل طالباً رفعه ومساواته بكبار المخرجين!

أما الذي عاد آخرهم فقد تذرع بالصمت وراح يعمل أو ينتظر أن يعمل في هدوء راضياً قانعاً بنصيبه المتواضع. وإنها لمعجزة!

ترى هل يعرف المتمردون أنهم يجرمون في حق الفن وفي حق أنفسهم وأن عقابهم يجب أن يكون شديداً؟

إن الفرقة القومية لم تبذل في سبيلهم هذه الآلاف من أجل أن يعودوا فينتقضوا عليها! إنها سرقة علنية، فإما أن يكلف هؤلاء برد الآلاف التي صرفت عليهم، وأما أن يجلدوا أو يسجنوا وفاء لديونهم

اختيار الروايات في الفرقة القومية

تحدثنا في عدد مضى عن السياسة العجيبة التي تسير عليها الفرقة القومية في اختيار الروايات، وذكرنا قصة (جنون الشرف) التي رفضت و (الخطاب) التي قبلت وقد ضاق المقام عن إيراد بعض الأمثلة التي وعدنا بها القراء الكرام، واليوم نعود إلى مواصلة الكلام

ويجرنا الحديث عن اختيار الروايات، إلى الحديث عن لجنة القراءة التي تختار هذه الروايات، أو التي يقولون إنها تختارها.

منذ عامين تقدم الأستاذ حسين عفيف بروايته: (وحيد) إلى الفرقة القومية، وعرضت الرواية على لجنة القراءة فقبلتها وهنأت صاحبها، وقدرت إدارة الفرقة ثمنها وصرفته له.

ثم تبين بعد ذلك أن الرواية لم تعرض على قلم المراقبة بوزارة الداخلية، فأرسلت إليه فرفض إجازة تمثيلها، لأن فيها أموراً تخدش الشرف والعرف العام

ومن العجيب أن يكون هذا رأي موظف في الدرجة الثامنة أو السابعة، على حين أن في لجنة القراءة شيوخاً معممين وعلماء جهابذة، وزعماء في الأدب والفن والأخلاق، ومن العجيب أيضاً أن ينتصر رأي هذا الموظف ولا تمثل الرواية.

ولنا أن نتساءل إذن عن وقع هذه اللطمة على لجنة القراء؟ على أن هذه اللجنة تستأهل ما جرى لها. فقد ترجم بعضهم رواية (البيت المهدم) لأميل فاير، وعرضت على اللجنة فرفضتها. وترجم آخر الرواية بعينها، بيد أنه كان ماكراً خبيثاً فأبدل اسم جورج بمحمد، وغير اسم ماري بزينب؛ أما أسم الرواية فقد جعله (الأفاعي) وزعم إنها من تأليفه

وعرضت الرواية في نفس الوقت على اللجنة الموقرة، فقبلتها ودفعت لصاحبها الثمن، ولم تفطن إلى أن هذه من تلك!

فلما قُرأت الرواية على الممثلين عرفوها وقرعوا أجراس الفضيحة غير نادمين؟

وبعد فقد أدى إهمال اللجنة إلى الخسارة أكثر من مائة جنيه أو يزيد، وفي نفس الوقت كان دليلاً رائعاً على أنها لا تصلح للمهمة التي وكلت إليها! وهل بعد ذلك من دليل؟

(فرعون الصغير)

أخبار سينمائية

زوجة ديك باول وإحدى فاتنات هوليود وبطلة عدة روايات موسيقية (جوان بلوندل) ناجحة ومن اظرف رواياتها (الملك والراقصة) التي عرضت منذ عامين في دار سينما ستوديو مصر. وكان يقوم بدور القيادة أمامها الممثل البارع (فرنان جرافيه) بطل

(الفالس الكبير)

شارلز لافتون

يظهر أن هذا الممثل الإنجليزي البارع يحب البحر أو أن البحر هو الذي يميل إليه. كانت أول رواياته في هوليود (الشيطان في الأعماق) مع (تالولا بانكهيد) وكان يقوم فيها بدور ضابط بحري في غواصة. وهل يمكن أن ينسى القراء دوره العظيم (كابتن بلاي) في رواية (الثورة على السفينة بونتي) ثم دوره في رواية (سفينة الغضب) وأخيراً فإنه في رواية (خان جاميكا) يعود إلى البحر مرة أخرى!

نجمة شركة وارنر وقد سطع نجمها في وقت كان يظن فيه أن حياتها (بيتي ديفيز) الفنية قد انتهت، وذلك أنها قبلت القيام بالدور المكروه في رواية (الاستعباد) مع لسلي هوارد فنجحت فيه نجاحاً رفعها دفعة واحدة إلى مرتبة النجوم. ثم توالت انتصاراتها من بعد ذلك.

كما سنراها في الفلم المصري (بياعة التفاح) الذي سيظهر في (السيدة عزيزة أمير) الموسم السينمائي الجديد. ومما هو جدير بالذكر أنها أول من ظهرت على الشاشة من الممثلات المصريات، وكان لها فضل إدخال الفن السينمائي في مصر، وهي إلى جانب ذلك ممثلة مسرحية مجيدة

سيجريد كوري

يخرجون الآن شركة يونيفرسال رواية (النساء المنسيات) للنجمة البارعة (سيجريد كوري)

الطفل سابو

يتمرن الآن الطفل سابو على صناعة النشل ليقوم بدوره في رواية (لص بغداد). وقد أمكنه أثناء مدة التمرين أن ينشل بضعة أشياء ثمينة من رجال الأستديو مما دعاهم إلى الثناء عليه. وهذه أول مرة يثنى فيها على فرد لأنه قام بمهمة النشل خير قيام!

(باتريشا موريسون)

وقد سطع نجمها فجأة هذا العام ويتوقعون لها صعوداً سريعاً إلى مرتبة النجوم، وهي قريبة الشبه إلى ميرل أوبرن كثيرة التشبه بها. وقد بدءوا يحيكون حولها شبكة من الحكايات والأقاصيص ليملئوا الأفواه باسمها كيما تجري الألسنة بذكرها

العدد 325 - بتاريخ: 25 - 09 - 1939

سيجفريد في الأدب

للأستاذ عباس محمود العقاد

أصبح خط سيجفريد مشهوراً في السنوات الأخيرة، وقد كان معروفاً في الحرب الماضية على غير الوصف الذي اشتهر به الآن، لأنهم كانوا يطلقونه يومئذ على مواقع الجيوش الألمانية خلف (السوم) ما بين كنتان ولاون، ولم يكن فيه حصون ولا أنفاق ولا مكامن كالتي بنوها في هذه السنوات محاكاة لخط (ماجينو) المعروف

وليس للتسمية مصدر من التاريخ ولا من فنون الحرب، وإنما مصدرها كله أساطير وأناشيد وخيال

خرافة شمالية قديمة نقلها الألمان عن أمم (الاسكندناف) ما بين أواخر القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر، وجاء (فاجنر) فأدار عليها بعض رواياته الموسيقية ومنها واحدة باسم البطل سيجفريد سليل ملوك البلاد الواطئة وسليل الأرباب العلويين

من قبل ذاك
وقد سمى الخط بهذا الاسم لأن نشأة سيجفريد وتربيته كانت بين البلاد الواطئة ووادي الرين حيث يقوم الخط الآن
وهناك مشابه تجمع بين البطل والخط في مجاز الأساطير
فقد كان سيجفريد يملك طيلسان الإخفاء فيلبسه فيصبح في قوة أثنى عشر بطلاً ولا تراه عين الناظر من أبناء الفناء
وكان جلده منيعاً على طعن الحراب والسيوف، لأنه قتل التنين الحارس لذخائر الرين وسبح في دمه فنشأ له جلد خشن سميك في صلابة القرون التي كانت على التنين
وكان له سيف صاغه بيديه من سيف أبيه المكسور، يقصم كل شيء ولا يقصمه شيء من الأشياء
لكن الأسطورة لا تقف عند هذه المشاية بل تعدد صفات أخرى لسيجفريد ليست مما يرتضيه هتلر وتابعوه
فقد كان النحس مظلاً للبطل المحبوب من مولده إلى مماته
مات أبوه قبل ولادته وماتت أمه بعد ولادته بقليل، ورباه قزم بغيض كان هو أول العاقين له المبغضين لمرآه
وسبح في دم التنين فلصقت بين كتفيه ورقة من شجر الزيزفون فحالت بين الدم وجلده فبقى موضعها مقتلاً يعرف سره بعض شانئيه. وقد طعنه منافس له في هذا الموضع وهو يميل إلى نبع ليشفي غلته، فقضى عليه!
فهل في خط سيجفريد موضع مثل موضع هذه الورقة؟ وهل يهتدي إليه خصم فينفذ فيه ويقضي على البطل المنيع من كل مكان، إلا من ذلك المكان؟
وهل يلازم النحس هذا الخط كما لازم سميه في الأساطير؟
لقد وصف برناردشو سيجفريد كما مثلته الأساطير وكما مثله (فاجنر) في روايته فقال في كتابه (الفاجنري الكامل):
(كان لا يعرف قانوناً ولا شريعة غير هواه، كان يمقت القزم الدميم الذي رباه، ويتميز من الغيظ كلما تقاضاه حق الوفاء. وكان على الجملة مخلوقاً براء من الأخلاق ومن قيود العرف والآداب (ارستاز) كما يصفها فلاسفة هتلر
أليست هذه هي النازية بعينها، أو الآرية كما يصفها المسخرون للأوامر العسكرية؟
أليس سيجفريد الحديث خليقاً بمصير سيجفريد القديم؟
على أننا لا ننسى نصيب سيجفريد من الفكاهة وقد أجملنا نصيبه من القصص والخيال فالإنجليز يقولون فيما شاع من (قفشات) الحرب أن خط سيجفريد (ارستاز) كسائر ما يصنعه الألمان
وما (ارستاز) هذه يا ترى؟
كلمة تحتاج إلى تفسير في عرفنا الدارج. وأقرب تفسير لها في هذا العرف أنها تقابل كلمة (التقليد) أو الصناعي التي نقصدها حين نقول في معرض التهكم: (هذا إنسان تقليد!). . . أو نقصدها حين نقول في معرض الجد: (هذه زبده صناعية!)
ويروي (قفاشو) الإنجليز والعهدة عليهم أن رجلاً ألمانياً ضاقت به الدنيا فعمد إلى بخع نفسه، واستخف الموت شنقاً فاشترى حبلاً ووضع فيه عنقه وضرب الكرسي الذي يقف عليه بقدر ولكن الحبل كان (ارستاز) فانقطع ولم يصبه شيء
وفكر في السم فذهب إلى صيدلية فاشترى مقداراً من السم يكفي لقتل خمسة وتجرعه مرة واحدة ثم انتظر فإذا هو كأصح ما كان، لأن السم كان أيضاً (ارستاز) فأفاد من حيث أريد
به الإضرار، وانقلب إلى نوع من الدواء
واشترى من فرط يأسه رصاصاً فوجده بعد التجربة (ارستاز) لا ينطلق ولا تنقدح فيه نار
قال الرجل: لقد خلقت للحياة إذن، ولم أخلق للموت، وفي العمر بقية لا محالة ومضى وهو ينوي أن يستمتع بالحياة جهد ما وسعته المتعة من طعام وشراب وسرور وانحرف في طريقه إلى مطعم كبير فأمر بأصناف كثيرة وصحاف متعددة وأكواب مترعة، ومنادمة مشبعة، وأفرط ما شاء، وهو يحسب أنه قد امتلأ بالغذاء
ولكن ذلك كله كان أيضاً (ارستاز). . .

فمات!
قال القفاشون: وإن بين سيجفريد وماجينو من المشابهة لنظير ما بين زبدة الكيمياء وزبدة البقر والشاء، أو نظير ما بين الجلد (التقليد) والجلد الصحيح، أو نظير ما بين (الضولمة) الكذابة والضولمة الصادقة في لغة الآكلين!

عباس محمود العقاد

للتاريخ السياسي

قنبلة سياسية

للدكتور يوسف هيكل

في 22 أغسطس 1939 انفجرت قنبلة سياسية في برلين سمع دويها في جميع أنحاء العالم؛ فهاله الأمر وناله الفزع. ولما لم يكن يعلم ما تحتويه من مواد، أخذ يرجو أن تكون محتوياتها غير مبيدة ولا قتالة، وكانت تلك القنبلة إعلان اتفاق ألمانيا وروسيا على توقيع ميثاق عدم الاعتداء بينهما

فوجئ العالم بهذا النبأ واستغرب وقوعه، لما بين ألمانيا وروسيا من عداء مستحكم، وما لهتلر من مطامع في البلاد السوفيتية كان يعمل على تحقيقها تحت ستار مكافحة الشيوعية. ومما زاد الصدمة شدة وخطورة، انقطاع الأمل في انضمام الروسيا إلى (جبهة السلام) ليتحقق بذلك إيقاف دولتي المحور عند حدهما، ولتتم سلامة دول أوربا من اعتداءاتهما. على أن العالم فوجئ بنتيجة معاكسة للتي كان ينتظرها، فوجئ بانضمام الروسيا إلى ألمانيا تحت ستار ميثاق عدم الاعتداء. فكيف تم هذا الميثاق؟ وما هي محتوياته؟ وما هي الدواعي التي حدت بألمانيا إلى مصافاة عدوتها اللدود روسيا، وما الذي دفع السوفييت إلى مد يد المساعدة لمنشئ (جبهة مكافحة الشيوعية؟) وما هي نتائج هذا الانقلاب الخطير في الحالة الدولية؟

لم تصب الدول الديمقراطية في اتفاق مونيخ الهدف الذي كانت ترمي إليه من تهدئة الخواطر وتحقيق السلام بإنالة الهر هتلر ما دعاء (آخر مطالبه في أوربا). وسبب ذلك سوء نية زعيم ألمانيا، وعزمه على استعمال التهديد والقوة لنيله مطلباً بعد آخر. فالدول الديمقراطية لم تنل السلام في مونيخ، بل سبب لها ذلك الاتفاق مشاكل ومصاعب جساماً، كنا قد نوهنا عنها حينئذ على صفحات (الرسالة) الغراء. وما الميثاق الألماني - الروسي الذي هز أركان العالم وزج بأعظم أممه في حرب ضروس، إلا نتيجة طبيعية لتسامح الدول الديمقراطية في 30 سبتمبر عام 1938. وهذا الميثاق الذي نظر إليه العالم نظرة الدهشة والغرابة لم يكن ابن ساعته، بل كان نتيجة لمفاوضات بين برلين وموسكو بدأت منذ استقالة الرفيق ليتفينوف من وزارة الخارجية الروسية وأدت إلى توقيع الاتفاق الألماني

الروسي الاقتصادي في برلين في التاسع عشر من أغسطس هذا العام، ثم إلى توقيع ميثاق عدم الاعتداء الذي نحن بصدده

ولما تم التفاهم والاتفاق بين الدولتين ولم يبق عليهما غير توقيع الوثائق، أعلن النبأ في برلين في 22 أغسطس. وفي صباح اليوم التالي سافر الهر فون ريبنتروب، وزير خارجية ألمانيا إلى موسكو بطريق الجو يصحبه اثنان وثلاثون من كبار الموظفين في وزارة الخارجية الألمانية. وعلى أثر وصوله العاصمة السوفيتية بساعتين اجتمع بالرفيق مولوتوف رئيس وزارة الروسيا ووزير خارجيتها. وفي مساء اليوم نفسه وقع الوزيران ميثاق عدم الاعتداء بين الدولتين، وكان التوقيع بحضور الرفيق ستالين رئيس الدولة السوفييتية. وفي ظهر 24 أغسطس عاد الهر ريبنتروب إلى العاصمة الألمانية.

لم يكن ميثاق موسكو قليل الأهمية، كمواثيق عدم الاعتداء التي اعتادت بعض الدول إبرامها بسهولة والتخلص منها في أي وقت أرادت، كما أنه لم يكن تجديداً لميثاق (رابالو) الذي عقد عام 1922 وتجدد عام 1928 وعام 1923. بل كان ميثاقاً أقرب إلى معاهدة حربية منه إلى ميثاق عدم اعتداء. فبهذا الميثاق ضمنت كل من ألمانيا وروسيا عدم اعتداء إحداهما على الأخرى منفردة أو مشتركة، كما أن ألمانيا أزالت عنها خطر اشتراك الروسيا في أي حركة ترمي إلى تطويقها مباشرة أو بصورة غير مباشرة. وبذلك أزالت ألمانيا مفعول المعاهدة الفرنسية الروسية لعام 1935، تلك المعاهدة التي أثارت ثائر هتلر، ودفعت به إلى عمل ما في وسعه لحمل فرنسا على إلغائها، فلم يوفق حينذاك. وقد تمكنت ألمانيا في هذا الميثاق أيضاً من منع كل

مساعدة روسية للدولة التي يكون معها الريح مشتبكاً في حرب، وخصت نفسها بالمساعدة الروسية الواسعة في الحرب وفي السلم. وفي الوقت نفسه هدمت السوفيت جبهة مقاومة الشيوعية، وباعدت ما بين ألمانيا واليابان

ومما هو جدير بالذكر أن الروسيا لم تضمن ميثاق موسكو المادة التي كانت حريصة عليها في المواثيق السابقة، والتي تخولها حق نقض الميثاق عند اعتداء المتعاقد معها على دولة ثالثة

ومن الأكيد أن مباحثات الهر ريبنتروب مع الرفيق مولوتوف لم تكن قاصرة على مضمون ميثاق عدم الاعتداء بل تعدتها إلى تحديد وضعية كل من الدولتين في أوربا وآسيا. وتقول

الدوائر السياسية في بعض العواصم إن الدولتين اقتسمتا بولندا، وتعهدت ألمانيا بالتنازل عن مطامعها في التوسع في أكرانيا، كما أن الروسيا تعهدت بالضغط على رومانيا وعلى تركيا لحملهما على الوقوف موقف الحياد حين نشوب الحرب

فميثاق موسكو لم يكن بعامل جديد على توطيد السلام، بل كان عاملاً مشجعاً للهر هتلر على المغامرة في إشعال نيران الحرب، باعتدائه العسكري على بولندا تلك البلاد التي كانت صديقته بالأمس والتي عقدت معه ميثاق عدم الاعتداء لمدة عشر سنوات

إن التقرب بين برلين وموسكو من الأحداث الدولية الخطيرة ولهذا الحادث أسباب هي في برلين تختلف عنها في موسكو. أما العوامل التي دعت الروس إلى قبول فكرة التقرب من ألمانيا فقد ذر قرنها منذ عقد مؤتمر مونيخ في 30 سبتمبر عام 1938

أصرت ألمانيا في أزمة سبتمبر من العام الفائت على إبعاد السوفييت من المجتمع السياسي الأوربي، ورفضت حينئذ الجلوس مع ممثليها رفضاً باتاً، وآثرت فشل المفاوضات وتعقيد حلها على أن تشترك في مؤتمر تكون السوفييت أحد أعضائه ولما رأت بريطانيا وفرنسا أن الهر هتلر جاد في ذلك، وأن إصرارهما على وجوب اشتراك السوفيت في مؤتمر مونيخ قد يؤدي إلى الحرب، رضيتا بالنزول على إرادة دكتاتور ألمانيا، وقبلتا ما طلبه حفظاً للسلام.

رأت الروسيا في تصرف دول مونيخ ضربة لنفوذها السياسي في أوربا، وسبباً في عزلتها، فعز ذلك عليها وأخذت تنتهز الفرص للتعويض عما أضاعه عليها مؤتمر مونيخ من نفوذ وأعوان.

لم يحافظ الهر هتلر على اتفاق مونيخ الذي ما تم إلا لإرضائه، ولم يعمل بتصريحاته الرسمية العديدة القائلة بأن ليس له مطالب إقليمية في أوربا بعد السوديت، بل برهن على أن لا قيمة لتوقيعاته ولا أقواله بضمه بلاد التشك والسلوفاك وميمل إلى الريخ.

عندئذ أيقنت بريطانيا وفرنسا بأن لا فائدة ترجى من سياسة تهدئة الخواطر، إذ أن زعيم ألمانيا يعتبر النيات السليمة والإنسانية ضعفاً، ويتخذ من حسن النية عاملاً مشجعاً على الاعتداء على الدول المجاورة للوصول إلى هدفه في السيادة على أوربا أولاً وعلى العالم أخيراً. أمام هذه النفسية الألمانية التي لا تعرف حداً لمطامعها عزمت بريطانيا وفرنسا على

إيقاف العدوان، فأمنتا سلامة بولندا ورومانيا ضد الاعتداء. وكان هذا التأمين واسع المدى حتى أنه ترك لبولندا الحكم فيما إذا كان استقلالها ومصالحها الحيوية في خطر. وعملتا على لإيجاد (جبهة سلام) قوية لا يستطيع العدوان أن يجد أمامها متسعاً. وكانت الغاية من هذه الجبهة المحافظة على السلام والتوكيد لهتلر أن بريطانيا وحليفاتها عازمات على إيقاف اعتداءاته عزماً صحيحاً لا محيد عنه.

ومن الطبيعي أن تفكر بريطانيا وفرنسا في ضم روسيا إلى (جبهة السلام) إذ أن الروسيا حليفة فرنسا، والنازية عدوة الشيوعية اللدود. يضاف إلى ذلك أن روسيا لها مكانتها في أوروبا الشرقية. فبدأت المفاوضات بين بريطانيا وفرنسا من جهة، والروسيا من جهة أخرى. غير أن هذه المفاوضات تعقدت وطالت لأسباب لا مجال لبحثها هنا. وقد أصرت بولندا على رفض مرور الجيوش الروسية في بلادها حين وقوع الاعتداء عليها والاكتفاء بمساعدة الروس لها بالأدوات الحربية. غير أن السوفييت رأت في رفض بولندا عدم ثقة بها وبجيشها

هذه الأسباب وغيرها أثرت في الحكومة السوفيتية وجعلتها تنشد سلامة بلادها عن طريق غير طريق التحالف مع بريطانيا وفرنسا، أي عن طريق التفاهم مع عدوها

اللدود الذي يهدد بلادها ويؤلب عليها الدول تحت لواء (ميثاق مكافحة الشيوعية) وبذلك تكون أيضاً قد خرجت من العزلة الدولية التي فرضها عليها مؤتمر مونيخ، وأزالت خطر مطامع هتلر والتحارب معه

أما من الناحية الألمانية فإن الهر هتلر وجد بريطانيا وفرنسا عازمتين على وقف عدوانه، وأن سياستهما آخذة في النجاح شيئاً فشيئاً. ورأى في جبهتهما جبهة حصار لبلاده، إن تمت بدخول الروسيا فيها حيل بينه وبين ما يطمع من تحقيق مشروعاته في السيطرة على أوربا. . . أمام هذا الخطر، وأمام الصعوبات الداخلية من سياسية واقتصادية، رأى الهر هتلر أن يخرج من المأزق بعمل يزيده ثقة بتحقيق أطماعه من جهة، ويضعف القوى المقاومة لتلك المطامع من جهة ثانية. فتقدم إلى عدوته السوفييت وعرض عليها المصافاة والصداقة. فصادف ذلك هوى في نفسها ولم تتردد في قبول ما عرض عليها. وبذلك تم ما أسموه (ميثاق عدم الاعتداء) بين موسكو وبرلين

وكان لهذا الميثاق نتائج هامة غير الحرب التي تدور رحاها الآن في أوربا، في ميادين القتال الثلاثة، البر والبحر والجو

كانت النازية تعتمد في توحيد الصفوف الألمانية وفي إيجاد الحلفاء والأصدقاء على مبدأ (عداء الشيوعية). ولم يخل كتاب هتلر (كفاحي) ولا أية خطبة من خطبه من التنديد بالشيوعية وذكر أخطارها. وكان هذا السلاح الذي استعمله الفور هرر مفيداً ومساعداً له على الوصول إلى ما وصل إليه من توحيد الصفوف في ألمانيا وإيجاد حلفاء وأصدقاء له وقعوا على ميثاق (مكافحة الشيوعية). ولكن تغيير هتلر لاتجاه سياسته الخارجية تغييراً كليا أذهل الشعب الألماني وجعله يرى في تصرفات زعيمه ما يناقض المبادئ التي كان يحمله على الإيمان بها

وكان لتغيير سياسة هتلر الخارجية أسوأ الأثر في اليابان. فاجتاحتها موجة بغض شديد للألمان، كان من نتيجتها استقالة الوزارة في طوكيو وتغير سياسة اليابان الخارجية. وبدأ التقرب بين اليابان وصديقتها القديمة بريطانيا العظمى.

أما في بريطانيا فلم تكن الحكومة والشعب براضيين عما قام به الهر هتلر. وليس ذلك بغريب، لأن للحكومة الإيطالية كرامة عزيزة عليها. وهذه الكرامة تحول بين ألمانيا وبين مرادها في أن تكون إيطاليا أداة لتحقيق مطامعها، حتى على حسابها.

إزاء هذا التأثير السيئ، حاول الهر هتلر إقناع أصدقائه بأن (ميثاق عدم الاعتداء) بين ألمانيا وروسيا لا تأثير له قط على مفعول (ميثاق مكافحة الشيوعية). فكان ذلك مهزلة قبيحة في وسط مأساة مؤلمة.

وكما أن ميثاق موسكو أثر في وضعية ألمانيا الدولية، فقد أثر أيضاً في وضعية الروسيا ومبادئها الشيوعية. من موسكو تتلقى الأحزاب الشيوعية في البلدان الأخرى تعاليمها وروحها؛ وكانت هذه الأحزاب آخذه في الانتشار استناداً إلى الصراع المستمر بين الشيوعية والاشتراكية من جهة، والنازية والرأسمالية من جهة ثانية. ولما رأت الأحزاب الشيوعية في الدول المختلفة أن موسكو مصدر الشيوعية قد حالفت أكبر عدو لها داخلتها الريبة في حسن نية السوفيت، وغاض لديها التشيع لها والدعوة إليها. ولعل أبرز مثال لذلك موقف الحزب الشيوعي في فرنسا، وما استهدف له من فقدان نفوذه على الجماعات الفقيرة
وطبقات العمال

على أن أهم نتيجة كانت للتقرب بين موسكو وبرلين، هي نشوب الحرب الحالية باعتداء هتلر الجنوني على بولندا واقتحامه لبلادها دون داع ولا مبرر إلا طمعه في بسط سيادته عليها وعلى أوربا أولاً والعالم أخيراً، ذلك الاعتداء الذي قام به زعيم ألمانيا رغم الجهود العديدة الجبارة التي بذلت من كل جانب لصون السلام والإبقاء على المدنية. فما هي تلك الجهود، وماذا كان رد هتلر عليها وما هي الفصول التي مثلتها الدبلوماسية الألمانية لتبرر تعديلها على بولندا؟ هذا ما سنعرضه في مقال آخر.

يوسف هيكل

جناية أحمد أمين على الأدب العربي

للدكتور زكي مبارك

كان الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام شرع في الرد على الأستاذ أحمد أمين، فقلت في نفسي: يحسن ترك المسائل التي نقدها الدكتور عزام حتى لا يكون في هذه المقالات حديث معاد. وهل كان الغرض من هذه المقالات إيذاء الأستاذ أحمد أمين بالذات حتى نعيد القول فيما نقده الدكتور عزام؟ إن الغرض هو التنبيه على أغلاط الأستاذ أحمد أمين حتى لا يفتن بها من يثقون بكفايته العلمية من طلبة الآداب في مختلف المعاهد العالية، وقد حمل الدكتور عزام بعض تلك الأعباء

كذلك حدثت نفسي حين قرأت ما كتب الدكتور عبد الوهاب عزام في كشف أغلاط الأستاذ أحمد أمين

ولكني رجعت عن هذه النية فيما بعد حن رأيت أن لي مسالك في النقد تغاير مسالك الدكتور عزام وتجعل القراء في أمان من ضجر الحديث المعاد

زعم الأستاذ أحمد أمين أن علماء العرب (رفعوا من قيمة كل شيء جاهلي وغلوا في تقديره: فالماء الحقير في مستنقع جاهلي خير من دجلة والفرات والنيل وكل أنهار الدنيا، والجرادتان اللتان غنتا للنعمان كان صوتهما وغناؤهما خيراً من كل صوت وكل غناء، ودوسر كتيبة النعمان بن المنذر أقوى جيش عرفه التاريخ، وأيام العرب في الجاهلية ووقائعها الحربية لا يعادلها أي يوم من أيام المسلمين، وجبلا طيئ خير جبال الدنيا، وحاتم الطائي لا يساوي كرمه كرم. حتى الرذائل لا يصح أن يساوي برذيلتهم رذيلة، فليس أبخل من مادر، ولا أشأم من البسوس، ولا أسرف من شظاظ)

أتدرون ما الذي قال الدكتور عزام في نقد هذا الكلام الأجوف؟

قال إنه يقوم على أساس المبالغة والإغراق

وهذا نقد جارح: لأن اتهام أستاذ من أساتذة الجامعة بالمبالغة والإغراق له عواقب سود. وما الذي يبقى لأساتذة الجامعات إذا حرموا مزية التحديد في شرح المقاصد والأغراض؟

وهناك كلمة طواها الدكتور عزام وهي كلمة (الافتراء). فقد افترى أحمد أمين على علماء

العرب حين زعم أنهم لا يرون أن أي يوم من أيام المسلمين يعادل أي يوم من أيام الجاهلية، ونحن نتحداه أن يثبت انه رأى شواهد هذا الرأي في أي مكان من كتب الأدب أو التاريخ. نتحداه، نتحداه، فلينطق إن كان من كلامه على يقين

وهل شغل المؤلفون بتدوين أخبار الحروب في الجاهلية كما شغلوا بتدوين أخبار الغزوات والفتوحات؟

وما هو النص الذي يشهد بأن الماء الحقير في مستنقع جاهلي كان عندهم خيراً من دجلة والفرات والنيل وسائر أنهار الدنيا؟ وما هي العبارة التي تنص على أن جبلي طي كانا عندهم خير جبال الأرض؟

وإذا كانت الجرادتان اللتان غنتا للنعمان كان صوتهما وغناؤهما خيراً من كل صوت وكل غناء فكيف استجار أدباء العرب أن يشغلوا أنفسهم بتقييد أخبار الأغاني والمغنين في عصر بني أمية وعهد بني العباس؟

إن أحمد أمين قد يستطيع النهوض من كبواته الكثيرة، ولكنه لن ينهض أبداً من هذه الكبوة. وستظل شاهداً على أنه يكيل الأدب والذوق بمكيال، مع أنه بحكم منصبه مسئول عن إدراك دقائق الفروق بين الألفاظ والمعاني

أترونني أقف عند الحد الذي اكتفى به الدكتور عزام حين قال: إن كلام الأستاذ أحمد أمين في هذه النقطة يقوم على أساس المبالغة والإغراق؟

!!هيهات، هيهات

سأقول إن كلام أحمد أمين صدق في صدق، وسأرجوه أن يتحمل الصدمة برباطة جأش

أفي الحق أن العرب يرون الماء الحقير في مستنقع جاهلي خيراً من دجلة والفرات والنيل؟

. . .وهو كذلك

ولكن ما رأيك إذا صارحتك بأن كلامك هذا هو الحجة عليك. . .؟

ألم تقل بأن العرب لم يحسوا الطبيعة في بلادهم؟

فكيف يصح هذا وكان الرجل منهم يتعلق بما يراه إلى الحد الذي عبته أنت على أولئك

الرجال
المسألة تحتمل وجهين: الوجه الأول أن يكون العرب في كلامك هم أهل الجاهلية، والثاني
أن يكون العرب في كلامك هم المسلمون
ولا صحة للوجه الثاني لأن العرب بعد الإسلام تغنوا بأنهار مصر والشام والعراق والأندلس غناء يشهد بأنهم فتنوا أشد الفتون بأنهار تلك البلاد حتى صح لعمر بن أبي ربيعه أن يضرب المثل بعذوبة ماء الفرات فيقول:
أسُكَيْن ما ماءُ الفرات وطيبهُ ... منى على ظمأ وَبرد شراب
بألذ منك وإن نأيت وقلما ... يرعى النساء أمانة الغُيّاب
وحسان في جاهليته جعل ماء بردى يصفق بالرحيق. واتفق لبعض المسلمين أن يقول بأن بردى أنزه بقاع الأرض، فكيف يجوز مع هذا أن يحكموا بأن الماء الحقير في المستنقع الجاهلي أعذب من سائر المياه في الأرض؟
واتفق لأحد شعراء الأندلس، وهو ابن خفاجة أن يحكم بأن الأندلس هي جنة الخلد، ولذلك اتهم بالمروق من الدين، فهل يصح في ذهن ابن خفاجة أن تكون المستنقعات الجاهلية أطيب من المياه الأندلسية وهي تجري في رعاية الرياض والبساتين؟
وتحدث النويري والعمري عما عرف العرب من بحار وأنهار وغدران حديثاً يشهد بأن العرب بعد إسلامهم فتنوا بما رأوا من طيبات الوجود كل الفتون
يبقى الوجه الأول وهو أن يكون العرب في كلام أحمد أمين هم أهل الجاهلية وأعترف بأن الجاهليين فضلوا مياههم على سائر مياه الأرض ولكن هل يدرك أحمد أمين سر هذا التفضيل؟
إن العربي في جاهليته كان يرى ماءه خير المياه، لأن كلمة (ماء) عند أهل الجاهلية ترادف كلمة (الوطن) ومن حق الرجل الكريم أن يرى وطنه خير الأوطان
وأتصدق على الأستاذ الناقد فأقول إن الكتب المؤلفة في (مياه العرب) لم يكن يراد بها وصف تلك المياه من وجهة طبيعية كأن يقال هذا ماء عذب وذاك ماء أجاج، وإنما كان يراد بالحديث عن (مياه العرب) وصف المواطن التي تجمع فيها العرب أيام الجاهلية، فهي دراسة لطبائع السكان في تلك البقاع، وتعريف بقواهم المعاشية
وإذا صح للشاعر الحضري أن يفضل أروند على بغداد فيقول:
وقالت نساء الحي أين ابن أختنا ... ألا خبِّرونا عنه حيّيتُمُ وفدا
رعاه ضمان الله هل في بلادكم ... أخو كرم يرعى لذي حسب عهدا
فإن الذي خلفتموه بأرضكم ... فتىً ملأ الأحشاء هجرانه وجدا
أبغدادكم تُنسيه أَرْوَنْد مربعاً ... ألا خاب من يشري ببغداد أروندا
فدتهن نفسي لو سمعن بما أرى ... رمى كل جيدٍ من تنهده عقدا
فقد صح للشاعر البدوي أن يفضل ماء (الوشل) على جميع المياه فيقول:
أقرأ على (الوشل) السلام وقل له ... كل المشارب مذ هُجِرت ذميمُ
سقياً لظلك بالعشيّ وبالضحى ... ولبرد مائك والمياه حميم
لو كنت أملك منع مائك لم يذق ... ما في قِلاتك ما حييت لئيم
وهذه الأبيات تبلغ الغاية من المعاني الوطنية، وفيها تتوقد جذوة الصدق
وقد أُغرم العرب بعد الإسلام بتقديس ما عرفوا من المياه والأنهار فزعموا أن النيل ينبع من الجنة، ولهم في ذلك أساطير يعرفها قراء كتب الأدب والتاريخ. وأروند التي ذكرناها آنفاً عرفت الأسطورة التي تقول بأن في جبلها عيناً تتفجر من الفردوس.
وما دخل العرب بلداً إلا رأوه خير البلاد: فمصر عند أهلها أطيب البلاد وهي كنانة الله في أرضه من أرادها بسوء قصم الله ظهره. والعراق عند أهله أجمل بقاع الأرض وفي رحابه تنبت عرائس الشعر وتسيطر العيون السود. والشام عند أهله جنة الأرض وفي عرصاته يقوم الناس يوم الحساب. وهضاب فارس كانت في أنفس شعرائها ملاعب الأفئدة والقلوب. وتونس والجزائر ومراكش كانت مركز الجيش المرابط الذي صدَّ الغارات الأوربية حيناً من الزمان
ولو أردنا أن نستقصي أشعار العرب في وصف ما عرف المسلمون من البلاد لجمعنا من ذلك مجلدات ضخاماً تصور غرام العرب بما شهدوا من أطايب الوجود
فمن أين عرف أحمد أمين أن الماء الحقير في مستنقع جاهلي كان عند العرب خيراً

من دجلة والفرات والنيل وسائر أنهار الدنيا؟
من أين استسقى مصدر هذا الحكم الخاطئ الأثيم؟
إن أحمد أمين يمزح في مواطن لا يُقبَل فيها المزاح. ولو كان ينتظر أن يتناول الناقدون كلامه وأحكامه بالتجريح والتزييف لأقلع عما تورط فيه من مبالغة وإغراق، فليلق جزاء ما
صنع، وكان لنفسه من الظالمين
ثم ماذا؟
ثم نسوق القول في أيام الجاهلية التي ندد بها أحمد أمين
إن أيام الجاهلية كان لها في الواقع صدى رنّان في أسماع العرب بعد الإسلام، وقد شُغِلَ بها كثير من المؤرخين، ولكن هل تدرون لأية غاية شُغِلَ العرب بذلك التاريخ؟
إن وقائع العرب في الجاهلية لها ألوان مختلفات، فبعضها يصور ما كان بين قبائل العرب من نزاع وشقاق قضت بهما منافع المعاش أو مَطالب المجد، وبعضها يصوِّر مغالبة العرب لطغيان الأحباش والفُرس والروم
أما التاريخ الذي يصور ما كان بين القبائل من حروب فكان الحرص عليه يرجع إلى غاية سياسية، ولتلك الغاية صورة هي اشتباك الأورمات العربية في الخصومات حول المناصب الرئيسية بعد أن مكّن لهم الإسلام من نواصي المجد والمعاش، وكذلك كانت القبائل تحيي وقائع الجاهلية لتأخذ منها وقوداً لأتّون المنازعات حول الرياسة والملك. .
. ولا يعاب على أمة أن تحيي ماضيها لتنتفع به في إذكاء العزائم والقلوب
وأما التاريخ الذي يصور وقائع العرب مع الأحباش والفُرس والروم فكانت له غاية قومية، هي تكذيب ما ادعاه الشعوبيون من أن العرب لم تكن لهم ذاتية قبل الإسلام وأنهم لم يذوقوا طعم المجد إلا بفضل الدين الحنيف
وما كان يؤذي العرب أن يعترفوا بنعمة الإسلام عليهم، ولكنهم كانوا يكرهون أن يقال إنهم كانوا في كل عهود الجاهلية أذلاّء
ومن هنا رأيناهم يبدءون ويعيدون في عدّ أيامهم الغُرّ حين أتيح لأسلافهم أن ينتصروا في بعض المواقع التي نازلوا فيها أعداءهم الأشداء
وهذا يفسّر إكثارهم من الطنطنة في أشعارهم بيوم ذي قار الذي انتصر فيه العرب على الفُرس انتصاراً أشعرهم بما في قلوبهم وعزائمهم من صلابة ومتانة وحيوية.
ويوم ذي قار في الجاهلية كان له فضل في إذكاء حمية العرب يوم القادسية، وهو اليوم الذي عرف فيه العرب أنهم قادرون على امتلاك ناصية الشرق.
وقد ظل يوم ذي قار يذكر في الأشعار بعد الإسلام بأجيال طوال، وأظنه سيذكر بعد هذه
الأيام، فإن وقائع التاريخ لها رجعات، والأحقاد الدفينة تنشرها الحوادث من زمان إلى زمان
فإن زعم أحمد أمين أن دوسر كتيبة النعمان بن المنذر كانت عند العرب أقوى جيش عرفه التاريخ فليعرف إن شاء أن تلك الكتيبة تستحق ذلك التهويل لأنها كانت نواة الجيش الذي:
به علمتْ صُهْب الأعاجم أنه ... به أعربتْ عن ذات أنفسها العرْبُ
وليس يهمني بعد ذلك أن أنقض قول أحمد أمين إن العرب يرون فضائل الجاهليين خير الفضائل ورذائلهم شر الرذائل، لأن هذا الكلام لا يحتاج إلى نقض فهو أوهى من بيت العنكبوت. ولو صح أن العرب كانوا يرون حاتماً أكرم الناس جميعاً، ويعتقدون أن مادراً أبخل الناس جميعاً لما كان في ذلك بأس من الوجهة الذهنية، لأن تجسيم الصفات وتضخيمها من الأمور التي استساغها العُرف في جميع البلاد. وهل يعتقد أحمد أمين حقيقة أن العرب كانوا يريدون القول بأن حاتماً أكرم من جميع الناس في سائر بقاع الأرض، وأن ما دراً أبخل من كان ومن سيكون في المشرق والمغرب؟ ذلك غير معقول
لا يهمني أن أنقض هذا الجانب من كلام أحمد أمين فهو إغراق في التوهم والتخمين، وإنما يهمني أن أشرح مسألة نقدها الدكتور عزام بصورة تغاير الصورة التي عرضها بلطف ورفق مراعاة لمزاج الأستاذ أحمد أمين الذي يتأدب في معاملة الأحياء ويتمرد في محاسبة من أصبحوا في غيابه التاريخ!

إن أحمد أمين حكم بأن العرب في جاهليتهم انتزعوا صور التعبيرات والتشبيهات والمجازات والاستعارات من البيئة التي عاشوا فيها، فما يجوز لنا نحن أن نجاريهم في تشبيهاتهم ومجازاتهم واستعاراتهم لأننا نواجه بيئة غير بيئتهم
وهذا الحكم صحيح، ولكن يجب أن يفهم أحمد أمين الحقيقة الآتية:
في اللغة العربية تعابير كثيرة نشأت في الأصل مصبوغة بالصبغة البدوية، ولكنها صارت على الزمن ميراثاً حلالاً يملكه أبناء العرب من جيل إلى جيل، وقد نُسَي معناها الأول أو كاد بحيث لا يفطن الكاتب أو القارئ إلى أنها منقولة عن صورة بدوية
فالذي يقول: (دون ذلك خرط القتاد) لا يتصور الخرط ولا القتاد حين ينطق بهذا التعبير. والذي يقول: (هذه مشكلة أعقد من ذَنَب الضَّب) لا يتصور العُقَد في ذيل ذلك الحيوان، وإنما يأخذ هذا التعبير قوته من الصورة المرسومة في أذهان من تداولوه على اختلاف
الأحوال، وذلك معروف في اللغات الأجنبية ففيها تعابير منسية الأصول وهي تؤدي المراد منها بلا عناء
وهنا يزعم أحمد أمين أن الشاميين والعراقيين لم يروا الضب ولم يعرفوا عنه شيئاً؟ وأعتقد أن الصواب غير ما قال، فالشاميون والعراقيون عرفوا الصحراء وما فيها من ضباب ويرابيع
واستنكر أحمد أمين أن يقول المصريون والعراقيون والشاميون (عيون المها وجيد الغزلان) وتعجب من أن يقول ابن الجهم
عيون المها بين الرصافة والجسر ... جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري
ثم قال: وأين المها في بغداد أمام عليَّ بن جهم وأين المها في مصر والأندلس؟
وأنا لم أزر الأندلس حتى أقر أو أنكر كلام أحمد أمين، فقد لا يكون فيها غير الظباء الإنسية، وإنما أستطيع أن أحكم بأن أحمد أمين ينكر الواقع المحسوس حين يقول بأن أهل بغداد لا يرون الظباء، فقد رايتها بعيني تباع وتشترى في شارع الرشيد ولا يزال البغداديون يذهبون لصيد الغزال في نواح كثيرة منها سامراء. وعفا الله عن السيد حسين النقيب الذي مناني بالخروج لصيد الغزال ثم اعتذر بشواغل مجلس النواب
ومن تقاليد أهل بغداد أن يربّوا الظباء في دورهم كالذي رأيت في دار الشاعر ناجي القشطيني، أراني الله وجهه الأصبح في خير وعافية!
ومن أطعمة أهل بغداد لحم الغزال، وقد أكلته بشهية في دار ظمياء أعزها الحب!
والبصريون يرون الغزلان حين يشاءون، فمنها أسراب تمرح وتلعب بالقرب من بلدهم الجميل
والشاميون يعرفون الغزلان معرفة أكيدة لأنها تجاورهم في الصحراء الشامية
أم المصريون فهم يعرفون الظباء، وهي كثيرة جداً في الصحراء الغربية، وهم يطاردونها من وقت إلى وقت، وقد حدثنا الأستاذ محمد خالد بأنه اشترك في مطاردة غزال، وتلك إحدى الأعاجيب، فقد كنت أحسبه من طراز الأستاذ أحمد أمين
وكلمة (طراز) تدخل في الموضوع، فهي في الأصل علم الثوب، كما يعبر صاحب القاموس، ثم نسى ذلك الأصل وصار الغرض هو المماثلة في الشمائل والخصال
ومن حقنا أن نقول: إن أحمد أمين ينسج على منوال طه حسين في نكران الحقائق وليس لأحد أن يعترض بأن المنوال لا تراه العيون إلا في قليل من الأحايين، لأننا حين نعبر بمثل هذه العبارة لا نفكر في ثوب ولا منوال، وإنما نسوق التعبير حيث وقع في كلام الأسلاف ونفهم المراد منه بلا عناء
وفي اللغة العربي تعابير لا نكاد نفهم الغرض منها بالتحديد، ولكنها في غاية من الانسياغ
ومن شواهد ذلك ما وقع بين الأستاذ سعد اللبان والدكتور هيكل باشا في مجلس النواب. فقد هجم الأستاذ سعد اللبان على إحدى كليات الجامعة المصرية هجوماً عنيفاً، فقال الدكتور هيكل باشا: هذا كلام يلقى على عواهنه!
ومن المؤكد أن أكثر النواب لم يفهموا المراد بالعواهن، ولكن هذه العبارة وقعت منهم موقع القبول، لأنها خير عبارة تقال في ذلك المقام الدقيق، وهي على عنفها لا تجرح الذوق
واعترض الأستاذ أحمد أمين على قولهم: (فلان يعرف من أين تؤكل الكتف) وعدها

عبارة بدوية لا يجوز لحضري أن يدونها في مقال أو ينطق بها في حديث
والظاهر أن الأستاذ أحمد أمين يظن أن أهل الحضر لا يأكلون الحُملان إلا مقطعة بأيدي القصابين فهو لذلك يتوهم أنهم لا يحتاجون إلى الاحتراس عند أكل الكتف فليعرف (إن شاء) أن الناس لا يزالون يدركون هذه العبارة في أصلها الأصيل، وقد رأيت الرجل البدوي الحضري عبد الستار بك الباسل يداعب أحد ضيوفه بتسليط تيار الكتف عليه، وهو تيار قد يسلَّط مرة على الأستاذ أحمد أمين فيعرف من أين تؤكل الكتف!

من حق أحمد أمين أن يرى الناس جميعاً مقلدين في الأخيلة والتعابير، لأنه من أبعد الناس عن مواجهة الحياة، وأكاد أجزم بأنه لا يساير الحياة الأدبية والفنية والاجتماعية إلا عن طريق القراءة أو السماع، وإلا فمن الذي رآه مرة يشهد رواية سينمائية أو يشهد حفلة من حفلات التمثيل؟

وأعيذكم أن تظنوا أني أتجنى على الأستاذ أحمد أمين، فهذا الرجل على فضله قليل الخبرة بألوان الوجود، وقد تقع منه أحياناً عبارات تضحك الحزين. أليس هو الذي يقترح أن (نميت العَرار ونحيي الزنبق، ونميت الكمأة ونحيي ألمانجو، ونميت القوس ونحيي القنابل، ونميت الخرشي ونحيي ما يدل على الموبليا)؟

ذلك كلامه بالحرف، وهو يدعو إلى النظر في الألفاظ المتماثلة أو المتقاربة، لنميت القديم ونحيي الجديد، ومن كلامه هذا تفهمون أن (الكمأة) نوع من الفاكهة، بدليل أنه يقابلها بألمانجو!

فهل سمعتم أن الكمأة اسم فاكهة قبل أن يحدثكم بذلك الأستاذ أحمد أمين؟

إن الكمأة معروفة لأهل الشام والعراق، ومعروفة لبعض أهل مصر من الذين يتصلون بالأسر السورية واللبنانية والفلسطينية. وقد عرفتها في القاهرة قبل أن أعرفها في بغداد، فكيف جاز للأستاذ أحمد أمين أن يظنها من الفواكه؟ تلك والله إحدى الغرائب!

أما بعد، فقد كنت أرجو أن يترفق الأستاذ أحمد أمين بسمعته الأدبية فلا يعرِّضها لهذه المزالق، وكنت أتمنى أن يكف عن السخرية من ماضي الأمة العربية، ولكنه أراد أن يمضي في العناد وفي اللجاجة إلى آخر الشوط فيزعم أن شعراء العرب وكتابهم لم يعرفوا الثورة على المظالم، ولم يعرفوا تحليل المقاصد والأغراض في الشعر والإنشاء

وذلك كله ظنٌّ وترجيم، وسنحاسبه أشد الحساب، عساه ينتهي عن اللجاجة والعناد

وإني لواثق بأنه يطرب لهذه المباحث التي تكشف له آفاقاً من الحقائق الأدبية، وتعينه على فهم ما خفي عليه من مكانة العرب في التاريخ

(للحديث شجون)

زكي مبارك

صفحة من التاريخ المغربي المجهول

تاريخ سلطنة الطلبة

للأستاذ إدريس الكتاني

كان فتى شهياً تأكله العين، قوياً في ميعة الشباب، أرسله الوالد الزعيم من ساحة الثورة والزعامة إلى معهد العلم والثقافة، ليربي الفكر الناشئ، والعقل الطري، ويعلم النفس المستكينة سبيل المجد، وطريق الحياة.

سار الفتى يقطع الفيافي والقفار على متن الأفراس العربية إلى حيث الجامعة المغربية (القرويين) بفاس، ليكون طالباً من طلابها، يسكن إلى مدارسها، ويتعيش من هبات أوقافها، ويغمر فكره بهدي علمائها.

قال الراوي: وكان في المدرسة التي حط الفتى رحله بها شيخ زاهد، قالوا: إنه من الإبدال، فكان يقوم بخدمة طلبة العلم هناك، ويتعيش من فتات موائدهم وفضلات مأكلهم. واتفق ذات يوم أن أقام فريق من الطلبة مأدبة لعموم من بالمدرسة من الطلاب، فكان من الذوق أن يتصدر الشيخ الوقور مائدتهم، كوالد عطوف أو كخادم أمين.

ونصبت موائد الطعام، فكان الشيخ يتوسط واحدةً منها. وعلى فجأة من القوم أرسل الزاهد بَصرهُ، فما حطه إلا على وجه ذلك الفتى الناعم، وهو ما يزال حديث العهد بهذه المعالم، وأرسلها الشيخ نظرات متعاقبة كأنما كانت شعاعاً كشافاً أرسله إلى مجهول من الغيب ليعرف!

قال الراوي: وأخذ الارتياب يداخل نفوس الحاضرين من الطلاب في أمر الشيخ الزاهد، فتراشفوا بنظرات حادة فيها كثير من الكلام، كان الشيخ البريء يصاب منها في الصميم، ثم قطع هذه الحيرة واحد من أولئك كان له في الشيخ وثوق واعتقاد، إذ صاح به قائلاً: هل من نبأ وراء هذه النظرات يا عماه؟ ورفع الشيخ بصره ببطيء يتفرس في هذا الذي قطع عليه إلهاماً كان يتلقاه من السماء. وقال في شيء من التأفف والبغتة: نعم يا ولدي، أُلهمت الساعة أن هذا الطالب سيكون بعد حين ملكاً على المغرب من أقصاه لأقصاه، وسيؤسس دولة لها سلطان وأعوان، ورايات خافقات!. . .

ضج الطلبة وتصايحوا لهذا الخبر المباغت، وتعالت أصواتهم من هنا ومن هناك يصححون النبأ العجيب عن زاهد المدرسة. أما الشيخ فكان يتكلم في هدوء ووداعة مؤمناً بقوله متأكداً منه، كأنما يخبر عن شيء يدرك بالبداهة من غير أن يكون للعقل فيع نقاش، وكان الفتى مأخوذاً بشيء من الدهشة والاستغراب كأنما يحاول ألا يصدق هذا الخبر الذي ما مر له بخاطر من قبل، ولكن نفسه كانت تميل إلى تصديقه مقتنعة بصلاح الشيخ وتقواه، ذاكرةً أنه لا شيء يدعوه إلى اختلاق فرية كهذه. وحدثته نفسه أن يقطع هذا الحديث عن الأفواه، فصاح في الطلبة يقول: إن صدق الشيخ في دعواه، فسأبتني لكم مدرسة تفوق هذه روعةً وجمالاً، وسأغمركم بهبات وعطايا لا ينضب معينها، وسأجعل لكم فوق ذلك سلطنة منكم تقوم دعائمها على كواهلكم في ربيع كل عام، وكأن الفتى النابه أراد بهذا كبح الغيرة التي رأى ملامحها تتسرب إلى نفوس بعض الطلبة، وفي الناس من تركبه الغيرة بمجرد الوهم والخيال.

كان هذا الطالب من أسرة شريفة نبيلة، وردت من الحجاز منذ أمد بعيد، وأقامت في جنوب المغرب ببلاد سجلماسة، وكان يدعى الرشيد بن الشريف بن علي، وأبوه هذا كان له وقتئذ مقام محمود ومنزل محترم بين أهالي البلاد، بفضل انتسابه للبيت النبوي ودعوته المخلصة للإصلاح والإرشاد.

قال الراوي: وجاء الزمن فطوى من التاريخ مراحل، وجعل في الأحوال الاجتماعية مشاكل، ومهد للساسة والعظماء سبلاً وطرائق، ولم يشعر القوم حتى كان الجالس على عرش المغرب، والمسيطر على دولته هو الرشيد، ذلك الفتى الذي كان طالباً في جامعة القرويين وتنبأ له الشيخ الصالح بالملك وهو في مطلع الشباب.

لم ينس السلطان مولاي الرشيد وعداً كان قطعه على نفسه للطلاب، وهو حول مائدة العشاء يوم كان طالباً عادياً لا أقل ولا أكثر. فلقد وفى بوعده خير وفاء، ولم تُنسه مشاغل الملك حياة الجامعة وملاهي الصبا.

فأما المدرسة، فالتاريخ نفسه يؤكد بناءَ الرشيد للمدرسة التي بحي الشراطين، والتي تدعى اليوم بمدرسة الشراطين، وكان الشروع في بنائها عام 1081، إلا أنها لم تتم إلا في عهد أخيه إسماعيل من بعده سنة 1089، وهذه المدرسة - كباقي المدارس الأخرى - كانت في القديم لدراسة العلم وسكنى طلابه في آن معاً، أما اليوم فهي لمأواهم ليس غير.

وقد جعل الرشيد لمدرسته هذه طبقات ثلاثاً تشتمل على 232 بيتاً وعلى قبة للصلاة، وكان قد صرف لها عنايته فجاءت آية من آيات الفن المعماري الجميل الذي ورثه المغرب فيما ورث عن الفردوس المفقود.

وأجمعت الأساطير وغير الأساطير على أن الرشيد هو أول من ابتكر (سلطنة الطلبة) بالمغرب وجعلها سنّة قائمة بفاس ومراكش.

فهذه الأطروفة التي قصصناها تستند في النتائج إلى شيء من الحقائق التاريخية، وقد كان حدثني بها واحد من أشياخي الطاعنين في السن قائلاً: إنه رواها عن بعض شيوخه الثقاة، وهي عندي رغم ذلك أسطورة تمت في الأغلب إلى عقلية الشعب وقتئذ بسبب من الأسباب، ولكيلا أكون متجنياً على رواة هذه القصة أو على القصة نفسها أراني مضطراً لأن أبين سخرية التاريخ من حوادثها.

قامت الدولة العلوية المالكة اليوم إثر الدولة السعدية التي تضعضعت أركانها وانحلت عراها بعد وفاة المنصور السعدي وتنازع أولاده من بعده على الملك، وتطاحنهم عليه، وكان طبيعياً أن ينقسم المغرب بين هؤلاء وغيرهم من الزعماء والرؤساء على شكل مقاطعات مستقلة يحكمونها كما شاءوا وكيف شاءوا من غير أن يكونوا مسؤولين أمام

سلطان أعلى.
وعلى هذا النحو قصد أهل سلجماسة - قاعدة الصحراء - مولاي الشريف بن علي (والد الرشيد)، وسبق أنه كان لأسرته منزل محترم في قلوب هؤلاء - فطلبوا إليه أن يتولى أمورهم بكل حزم وعزم، وبايعوه ملكاً على الصحراء عام 1041 لكي يتأهب للذب عن بلادهم وصد هجمات المعتدين عليها، وكان الباعث لهم على هذا قيام محمد الحاج الدلائي واستيلاؤه على تادلة وسلا وجبل درن، ووصوله لنهر ملوية حيث امتدت أطماعه إلى بلاد الصحراء، والسلطان عبد الملك بن زيدان بمراكش على لهوه، ورأسه من حوادث البلاد فارغ أو هو كالفارغ، إذ لا مطمح له في القضاء على كل مناوئيه بالقوة وهي منه براء.
والشريف بن علي على هذا يعتبر أول ملوك الدولة العلوية وإليه يرجع انتسابها؛ أما الرشيد فكانت ولادته سنة 1040 أي قبل بيعة أهل الصحراء لوالده بعام فقط، ثم وقعت حوادث بين الشريف بن علي وبين أبي حسون السملالي الذي كان مستولياً على سوس
ودرْعة أدت إلى أسر الشريف وبقائه سجيناً بسوس سنة 1045، ولكن سرعان ما بلغ الخبر إلى ولده البطل المقدام محمد، فنهض هذا وتقدم إلى شيعته من أهل سجلماسة يستحثهم على إنقاذ والده والدفاع عن كرامتهم المهانة، ولم يلبث أن جمع جموعاً غفيرة، قادها بعد ذلك إلى معارك كثيرة، كان له النصر في أغلبها، ثم اجتمعت كلمة أهل الصحراء على مبايعته، فبايعوه بسجلماسة سنة 1050.
وحدث في سنة 1069 أن مات الشريف بن علي، وكان ابنه الرشيد يومئذ شاباً متوقداً يبلغ من العمر 29 سنة فخرج هذا من سجلماسة فاراً بنفسه إلى تدغة خوفاً من أخيه محمد الذي أصبح ينظر إليه بعين مرتابة، خشية أن يطمع في السلطان أو يصبح شريكاً له في الأمر. والحق أنه كان في نفس الرشيد ما كان يتوقعه أخوه محمد ويخشاه؛ فمنذ أن خرج الرشيد من حكومة أخيه وهو يجمع الجموع عليه، ويقوم بدعاوة واسعة لنفسه في طول البلاد وعرضها؛ متنقلاً بين الحواضر والبوادي، وأخوه في كل ذلك يراقبه عن كثب لا يستطيع أن يناله بسوء وهو عنه بعيد
فلما أحس الرشيد من نفسه القدرة على الحرب وشعر بتمكن مركزه من الناس، قام في سنة 1075 بأنفاد ودعا لنفسه بها، فاجتمع عليه عرب المعقل وأحلافهم من بني يزناتن وبايعوه ثم دخلوا مدينة وجدة. فلما وصلت هذه الأنباء إلى أخيه محمد توقع الشر منه، فخرج إليه من سجلماسة بمن معه من العرب والبربر وقصده بأنفاد فخرج الرشيد لملاقاته، والتقى الجمعان في حرب شعواء كان محمد أول ضحاياها بعد أن دخلت الهزيمة إلى جيشه. وخرج الرشيد منتصراً من المعركة يحمل جثة أخيه إلى مضجعها الأخير
ثم سار الرشيد إلى سجلماسة فحاصر ابن أخيه محمد تسعة أشهر حتى غلبه عليها، فدخلها ومهد أطرافها، ثم رجع لمدينة تازة. وتطايرت أنباء انتصاراته إلى فاس فتأهب أهلها لقتاله ولكنهم انهزموا أخيراً. وفي عام 1077 زحف إلى فاس فاتحاً ودخلها منتصراً بعد أن فر ولاتها، ثم عقدت له البيعة من رجال الحل والعقد بها
وبدخول الرشيد إلى فاس ومبايعة أهلها له أصبح السلطان الرسمي للبلاد المغربية وكل من عداه من رؤساء المقاطعات المستبدين هم ثوار في إعتبار الشريعة والأعراف. لهذا كان لزاماً على الرشيد أن يتتبع أعقاب الثائرين ويستأصل كل إمارة تريد الاستبداد بمقاطعتها.
ولقد فعل الرشيد كل هذا حتى أصبح سيد البلاد المطلق لا ينازعه في سلطانه ثائر أو أمير
ثم بعد أن ساد نفوذ الرشيد في عموم البلاد المغربية باستثناء بعض الشواطئ أخذ يهتم بالإصلاح الداخلي فعمر المساجد وبنى الجسور ومهد الطرق وأسس معاهد العلم وكان إذا دخل بلدة تعاهد جوامعها ومدارسها، وسأل عن مجالس العلم بها وعمن يحضرها، وكان إلى هذا محباً للعلماء مولعاً بمجالستهم، محسناً إليهم يفيض عليهم من عطاياه، ويغمرهم بعطفه وإحسانه، وفي أيامه كثر العلم، واعتز العلماء والأدباء على السواء
وأخيراً، وبعد كل هذا، كان الرشيد بمراكش يشم النسيم في بستان المسرة، وأبت

ثقته بقوته إلا أن يركب فرساً جموحاً فطار الفرس به بين الأشجار المتعانقة وإذ بغصن من شجرة نارنج يهشم رأسه فيخر إلى الأرض صريعاً؛ وشاهد الناس مصرع هذا الملك العصامي آسفين في 11 من ذي الحجة سنة 1082، ودفن بمراكش إلى أن نقل منها إلى فاس وأقبر بروضة أبي الحسن علي ابن حرزهم بوصية منه بذلك

(للكلام بقية - فاس)

إدريس الكتاني

ملاحظة: وقع في المقال الأول المنشور في العدد (310) من الرسالة لفظة (الذعيرة) وهي في اللهجة المغربية بمعنى الغرامة، وقد فاتني التنبيه عليها وقتذاك.

استطلاع صحفي

فن التصوير الجوي

أهم أدوات الحرب الحديثة

(لمندوب الرسالة)

أنبأتنا التلغرافات بأن سلاح الطيران الفرنسي أمكنه أن يصور خريطة دقيقة لخط سيجفريد الأماني. وعلى ضوء هذه الخريطة يصبح من السهل على قيادة الجيش الفرنسي أن تحدد المناطق الضعيفة منه وتعين أماكن الاستحكامات فيه

ولدينا في مصر قسم خاص بالتصوير الجوي أنشئ سنة 1933 يستطيع رجاله أن يؤدوا نفس المهمة التي قام بها زميلهم الفرنسي. وفي هذا المقال يجد القارئ عرضاً عاماً لطرق التصوير الجوي ومدى فائدته في الأعمال العسكرية والمدنية، وما يحتاج إليه من خبرة ودراية.

عملية استكشاف

من النواحي الهامة في سلاح الطيران الحربي قسم التصوير؛ وهو لا يقل خطورة عن قسم المدفعية. فبواسطته يمكن تصوير سطح الأرض وتوضيح ما عليها من مرتفعات ومنخفضات تبين مسالك الأرض وطرقها فيسهل على القوات العسكرية كشف طريقها ومعرفة اتجاهاتها، كما يسهل معرفة إمتدادات خنادق العدو وتعيين مواقع مدافعه ومعداته فيتيسر للقوات الموالية تدمير هذه الاستحكامات وشق طريق للجيوش البرية وهذه العملية إحدى خطوات الاستكشاف في الحرب.

ولهذا كان من أهم التدابير التي تتخذها الحكومات ويقرها القانون الدولي منع الطيران أو التصوير فوق المناطق العسكرية، وأبيح لها حق تفتيش الطائرات التي تخالف هذه القاعدة كما أبيح لها حق إسقاطها بإطلاق النار عليها مما يعتبر عملاً عدائياً في المناطق المدنية.

مران وتضامن

وتختلف أدوات التصوير بالطائرات عنها في الحالات العادية. يضاف إلى ذلك ما تستلزمه

من مران وتضامن بين الطيار والمصور. فالتصوير من الجو نوعان: ففي الأول تثبت الآلة في أسفل الطائرة على قواعد خصصت لذلك فإذا أراد الطيار تصوير منطقة معينة يجب عليه أن يطير بسرعة ثابتة وعلى ارتفاع ثابت حتى تكون المساحات الظاهرة في الصورة واحدة؛ فمن المعروف أنه كلما بعدت آلة التصوير شغل هذا الجسم مساحة أقل من مساحة الصورة، وبالتالي تزيد مساحة سطح الأرض التي تلتقطها الآلة؛ وعندئذ يتعذر تحديد أبعاد المكان فيظهر على الصورة مساحة كبيرة أو صغيرة تبعاً لارتفاع الطائرة وسرعتها

ويختلف عدد صور شريط تصوير هذه الآلة باختلاف الأغراض المطلوبة منه فأحياناً يكون 25 صورة وأحياناً 50 وأحياناً 125 صورة. ولا يحتاج المصور إلى تكرار الضغط على مفاتيح الصور عند تصوير كل منظر. فإن الآلة تسجل المناظر بطريقة آلية كل مدة من الزمن إلى أن ينتهي شريطها أو يقف المصور الآلة

وطريقة التصوير الجوي الأخرى هي المعروفة بالتصوير الجانبي إذ يمسك المصور بآلته ويلتقط الصور التي يريدها. وفي كلتا الحالتين يحتاج التصوير إلى طيار ماهر حتى لا تهتز الآلة، وغالباً يكون ارتفاع الطائرة مقدار ثلاثة آلاف قدم. وقد يبدو هذا البعد كثيراً على عين آلة التصوير، ولكن عدساتها برغم أنها عدسات عادية وليست مقربة تستطيع

التقاط جميع تفاصيل الأرض لدقتها ولخلوها من الفقاعات الهوائية التي قد تفسد وضوح المرئي.

تأثير الضوء

فإذا انتهى المصور من التقاط المناظر التي يريدها هبطت الطائرة إلى الأرض وبدأت عملية ثانية لا تقل دقة عن سابقتها إذ يبدأ العمال بتحميض شريط الصور السالبة.

ومن المسائل التي يجب مراعاتها أن يكون هذا التحميض مساوياً لجميع أجزاء الشريط، ثم تبدأ عملية الطبع وهي اكثر دقة من أية عملية أخرى، إذ يجب أن يحافظ العامل في طبع الصور الموجبة على أن تكون كلها من لون أسود واحد، فلا تظهر إحداها ضعيفة اللون والأخرى قوية، حتى إذا جمعت الصور بعضها إلى بعض ظهرت كأنها صورة واحدة.

وتحتاج هذه العملية إلى كثير من الخبرة فتوزيع كمية الضوء على الأرض لا يكون بنسبة

واحدة؛ ففي مناطق تكثر الظلال، وفي مناطق أخرى يكون سطح الأرض مكشوفاً لضوء الشمس؛ وهذا يؤثر على تشبع الصورة السلبية بالضوء فيظهر بعضها أسود والآخر أقل سواداً تبعاً لكمية الضوء التي تعرضت لها الصورة والتي لا يستطيع المصور ضبطها

وتجمع الصور الموجبة ويلصق بعضها إلى بعض حيث تكمل الصورة التي تليها حتى إذا تمت المجموعة ظهرت صفحة الأرض واضحة لعدة أميال. وقد تمكن قسم التصوير بسلاح الطيران الجوي المصري من تصوير جميع مناطق القطر المصري فيمكنه أن يقدم لمصالح الحكومة ولأقسامها المختصة صورة أي بلدة فيظهر عليها ما في تلك البلدة من مرتفعات ومنخفضات وما فيها من طرق مائية وبرية أو جسور

تحليل الصور

ويسهل على الأخصائيين في التصوير تحليل الصور كما يسهل على الكيميائيين تحليل المواد. فبعد أن ينتهي المعمل من صنع الصورة فإنها تحلل بأن توضع تحت مجهر خاص يكشف أسرارها فما يرى خطاً ضعيفاً بالعين المجردة قد يكشف عن خندق مسلح وما يظهر نقطة سوداء على الصورة قد يظهر مدفعاً بالتحليل الفني وأمام العين العسكرية والخبرة الحربية

ويتدرب كثير من رجال الطيران على فنون التصوير الجوي ومنهم من يتخصص فيه. ومن الضروري أن يلم كل طيار بمبادئه الأولية حتى يدرك مدى المعونة التي يقدمها للمصور إذا اشتغل أحدهما مع الآخر وحتى يدرك أهمية المناطق التي يمر بها أثناء انتقاله في الجو من جهة إلى أخرى

ولا تقتصر عملية التصوير الجوي على الفوائد العسكرية بل تتعدى إلى الفائدة العلمية؛ فبالتصوير الجوي نستطيع أن نحصل على صورة دقيقة للتعاريج الساحلية أو النهرية وضبط مواقعها ومسافاتها بالضبط. وقد أتيحت لي الفرصة فشاهدت مدينة القاهرة التي التقطها سلاح الطيران لبريطاني فرأيت فيها شوارع المدينة في أتم وضوح كما شاهدت جزر النيل وجسوره وإنحناءاته ظاهرة بكل تفصيل

صورة في صورة 4000

وفي آخر مرة زرت فيها قسم التصوير الجوي شاهدت العمال يعدون صورة لفرع رشيد بلغ طولها بعد لصق أجزاء الصور ما لا يقل عن عشرين متراً، كلف التقاطها وطبعها القسم 300 جنيه، إذ تتكون الصورة من 4000 جزء كان التقاطها بمعرفة سلاح الطيران الجوي البريطاني يكلف الحكومة المصرية أربعة آلاف جنيه.

وقد أنشئ قسم التصوير الجوي المصري سنة 1933 فعين فيه ثلاثة أفراد مصريان وصول إنجليزي، ثم ازداد عدد العمال تبعاً لنمو الجيش وحاجة سلاح الطيران. فاقتنى من آلات التصوير وأجهزته أدقها، وعين من الأخصائيين المهرة الذين حذقوا هذا الفن ودرسوه في بعثات أرسلت إلى البلاد الإنجليزية حتى أصبح استعداد القسم ينافس أحسن الأقسام في البلاد الأوربية

ففي استطاعة قسمنا المصري أن ينتهي من عمل خريطة مكونة من 65 صورة في مدة 24 ساعة بأي مقياس مطلوب رغم ما في هذه العملية من صعوبات فنية. وقد أثبت رجال القسم جدارتهم وسرعتهم في مناسبات كثيرة في الحفلات العسكرية

الرسمية المختلفة، فأمكن إخراج الصور وتجفيفها ثم إهداؤها للزائرين في مدة نصف ساعة. وعند زيارة سمو الأمير محمد رضا ولي عهد إيران للكلية الحربية قدمت لسموه صور زيارته للكلية قبل أن يغادرها رغم بعد المسافة بين الكلية وبين مطار الماظة مركز القسم

معامل متنقلة

وأعد القسم عدته حتى لا يقتصر نشاطه على منطقة واحدة، فجهز سيارات خاصة بجميع الأجهزة اللازمة حتى تكون معمل تصوير متنقلاً يستطيع تحميض الصور وطبعها وتكبيرها في أي زمان ومكان، وفي مختلف الظروف والأحوال. وخصص لكل سيارة عمالها كما وزع بعض رجاله في المناطق التي تمس الحاجة العسكرية إلى وجودهم فيها.

فمنذ سنة 1933 وقسم التصوير الجوي يؤدي مهمتين: أولاهما العمل الفني المطلوب، والثانية تعليم الجنود والضباط. فهو من هذه الناحية معمل ومدرسة يقضي فيه الطالب ثمانية أشهر يتلقى فيها جميع الفنون التي يحتاج إليها المصور البارع من نظريات لفهم التصوير وتركيب حوامض التحميض والطبع ثم التكبير وضبط الصور وتحليلها وتأثير الحرارة على الأفلام والأحماض وبهذا المجهود الكبير أمكن لقسمنا المصري أن يسجل لنفسه طريقة جديدة في طبع الصور ذات الألوان المتعددة. وهي طريقة معقدة ولكنها أسهل من الطرق المتبعة في البلاد الأخرى وتحتاج إلى خبرة ودقة كبيرتين، ففي وسع قسم التصوير أن يقدم لك صورة أي منظر طبيعي أو صناعي بألوانه الأصلية مهما تباينت ألوانه. وهو يقدم للصحافيين الأجانب أحسن مناظر مصر الطبيعية بألوانها الأصلية، فأضاف إلى مهمته العسكرية مهمة جديدة هي الدعاية لمصر بتقديم صورة ناطقة عن الحياة وسحر الطبيعة فيها.

فوزي الشتوي

كان ما كان!. . .

للأستاذ صلاح الدين المنجد

ترى لم تحط هذه الطيوف بمضجعي. . . في هذا الليل الوسنان، فتملأ نفسي حنيناً إلى أيام الطفولة اللاهية، ومرابع العيش الرغيد؟. . . ولم ترقص حولي، قافزة من حفافي السرير، رائعة في حنايا الستور. . . فتدفعني إلى إغماض جفني، أستشف من خلل الهدب الرفاف بالدمع، تلك المغاني الحبيبة، التي فارقتها منذ بعيد. . . فأضحت - يا رحمتا لها - خلاءً، لا البشر يضحك في جنباتها، ولا الأم الرؤوم تناغي فيها الوليد!. . .

لقد رأيت الآن. . . ذلك الطفل الذي درج بالأمس على قبلات الأهل، وبسمات الجيران؛ وتمثلته، وقد نبت بين الفضة الباهية والذهب الرّنان. . . ولمحت أمه تنظر إليه ضاحكة جذلى؛ ترى فيه منية النفس ورغيبة الشباب، ثم أراه. . . يرتع فوق الأرائك مع أخيه، في غرفة واسعة، وقد روّق الليل، وانتشر الظلام، وأرنو إليه يرسّ حديثاً في نفسه، كان قد سمعه من جارته الصغيرة تحت شجرة الليمون في النهار. . . ثم يسمع إلى أبيه يهمس في أذن أمه أن (سأودعه دار الشيخ غداً. . .!)، فلا يفهم الطفل عنه، ولا يحاول الفهم، على الرغم من حبه للاستطلاع، ورغبته في الكلام. . . فقد كان له في كرته الصغيرة، وفي أخيه الحبيب، غني عن السؤال، وغني عن الكلام!. . .

ويتهادى الصبح باسماً كغانية خلوب، فينتشر النور وينقشع الظلام. فإذا كان طفل الغداة، نادى الأب ابنه، ليرافقه إلى البستان. وتسرع الأم فتلبسه الرداء الفاخر والحذاء اللامع. لقد غضب آنئذ، وعلم أن الرداء يمزق فوق الغصون الدوالي. . . وأن الحذاء سيبلى في التراب الأحمر الناعم. ولكن الأب يمسك بيد ابنه ويمضي. . . وقد أطرق الوليد يفكر في الشجيرات التي يجعلها أرجوحة له، والفراشات التي سيطاردها في كل مكان. . . والعصافير التي سيقفز ليقبض عليها. . . فتفلت منه. . . والأزاهير التي يحملها إلى جارته الصغيرة إذا رجع إلى الدار مع المساء. ثم يحدث نفسه عن رفقائه المساكين الذين لم ينعموا بما ينعم به من عيش ليّن ولهو كثير؛ ولا ينسى أن يروّر في نفسه كلاماً يتأبه به عليهم إذا رآهم في الزقاق عند العشاة. ولكن الأب يمضي. . . لا يلتفت إلى ثرثرة الطفل، مسرعاً في مشيه، موفضاً في خطاه؛ والطفل يقفز وراءه كعصفور جذلان، ثم يقصد زقاقاً

مظلماً من تلك الأزقة التي تعج فيها رائحة العفن ويتعالى الغبار. . . فينقبض صدر الطفل. . . فقد حدثوه أن الشيخ كامل، وهو مصدر التقوى والعفة والصلاح - كما حدثه أبوه - ومصدر الخبث والشر والفساد - كما حدثه رفيقه - يقطن بهذا الزقاق. فيبكي الطفل بدموع غزَّر ويحاول الفرار، ولكن الأب ممسك بيد ابنه يجره ويدفعه ويغريه باللعب إذا بلغ البستان، وينفحه (بنصف مجيدي) لينقطع عن البكاء. حتى إذا بلغ غاية الزقاق، عرج به فطرق باباً غليظاً. ويقف الطفل، ما يدري لِمَ يجره أبوه وهو الذي يحبه، ولم يدفعه وهو الذي يؤثره على نفسه.! ويفتح الباب شيخ هم، كان كلما تمثله في خاطره بعد ذلك اليوم قف شعر رأسه، وأغمض عينيه من الاشمئزاز: فقد بقى في ذاكرته، أنه كان ذا قامة فارعة، مسنون الوجه أسمره، خفيف العارضين، لم تبق الأيام من لحيته إلا شعرات لا لون لها نبتت هنا وهناك، تقفز وتهتز كلما ضحك أو تكلم. وبقى في ذاكرته أيضاً أنه كان أدرد، إلا من بضعة أسنان ملتوية صفراء تبعثرت في فمه الذي حسبه مغارة الجن ومأوى الشيطان. أما عيناه فكانتا غائرتين صغيرتين. . . يرد الذباب على موقيهما ليرتشف الطيبات، وهو يذكر أيضاً تلك السبحة الطويلة التي علقها في عنقه. . . وحسب حباتها الكبيرة (دحاحل) رفقائه الصغار، وتلك الجبة التي حال لونها وسخف نسجها. ويبادره الأب بالسلام، فيهش الشيخ ويبش، ثم يرحب ويقول: ما شاء الله. . . ما شاء الله. . . ثم يربت على كتف الطفل مردداً كلمات وتعاويذ لم يفهم الطفل لها معنى وإن كانت أطربته فأنصت لها. ويدخل الأب ويتبعه الطفل قائلاً بصوت حزين: (أهنا البستان يا بابا؟) ولكن الأب يحتال عليه ويسلمه للشيخ ليطعمه من نقله المبارك. فيدخل الطفل تتنازعه الرهبة من أبيه والرغبة في نقل الشيخ، ويرى فيما يراه آنئذ غرفة مظلمة سوداء لقي فيها رفقاءه الصغار؛ وقد جلس أحدهم فوق قطعة من الحصير البالي، يردد كلمات أفزعته وأضحكته، منحنياً إلى الأمام وإلى الوراء؛ ووقف ثانٍ يحملق فاغراً فاه؛ وانحنى ثالث يبكي بكاء كعواء الكلاب؛ فتستولي الكآبة على الطفل وينقبض صدره، ويرتد راجعاً ليرى أباه، فإذا بأبيه قد فر، وإذا بالشيخ يلحق به ليرجعه وفي يده بضع (سكرات) يدفعها إلى فمه الصغير. ويجلس الطفل بجانب الشيخ على دكه من القش. لقد جال بصره في هذه الغرفة الحقيرة، فرأى أشياء أنكرها، ولم يكن له بها عهد من قبل: شعر بهذا الظلام الذي يرفرف فوق الغرفة فيجعلها
كالقبو الذي تضع فيه أمه ما رث من الأثاث، ورأى هذه العناكب التي امتدت في أعالي الجدران كأنما تريد أن تزّين الغرفة كما تزّين أمه الجدران بأوراق الشجر وأزاهير البستان، ولمس الحصير البالي فأبصر الخشب وقد نخره السوس، وحدق بتلك الخشبة المستديرة المستطيلة كبندقية خاله التي ودّ لو يحملها ليصبح جندياً فأبوا عليه ذلك، فتساءل لم عّلّقها الشيخ ولم يهدد بها الصبيان؟
عندئذ ضاقت نفس الطفل فانفجر باكياً. . . ويقوم الشيخ ليخفف عن الطفل حزنه. . . ويكفكف دمعه، والصبيان يرمقونه دهشين، يحسدونه على ما يلقى من عطف، وما يظهره الشيخ من لطف، على حين يضربهم ضرباً ويصفعهم صفعاً. . . ولكن الطفل لا يهدأ، بل يزداد بكاءً وصراخاً، شأن الأطفال كلهم، فينادي الشيخ زوجته (الشيخة صفية)، التي علم الطفل أنها تجمع النساء يوماً في الأسبوع، ليقرأن معها (الوردُ)، وينقرن الدفوف، ويهززن الروادف والبطون ابتغاء مرضاة (الشاذلي) وتقرباً من الرسول. . . وما يكاد يراها طفل حتى يتولى عنها؛ فإن تلك الشعرات الطويلة التي تنبت على شفتها العليا، وتدلت فوق فمها الرخو أزعجته، على الرغم من دعائها له، وصلاتها على النبي، وقبلاتها التي اقشعر منها بدنه. . . فيعود إلى غرفة الشيخ يسأله عن أبيه، فإذا يجده يصرخ برفيق له، ثم يدفعه إلى الأرض ثم يعمد إلى تلك الخشبة المستديرة، فيجعل رجلي الطفل بين الحبل والخشب، ويفتل الخشبة مع صبي آخر. . . ويضربه بقضيب من خيزران ضربات موجعات فيصيح الصبي ويستعطف الشيخ، ويقسم لئن تركه ليحفظن الدرس ولكن الشيخ لا يلتفت إليه، فهو لاه عنه بعدّ الضرباتّ. . .
ويرأرئ الدمع في عيني الطفل - شفقة على رفيقه الصغير - فيهب منادياً: (هذا رفيقي. . . ليش تضربه؟)
فيحدق الشيخ في الطفل يوعده بالجزاء، فترعبه نظراته ويلجأ إلى البكاء. . . ويصرخ

ويصيح. . . وينادي أمه وأباه، ويضرب وجهه بكفيه والأرض بقدميه، فيحوقل الشيخ ويرجع ويترك الصبي ليرضى الطفل، والطفل يبكي ويصيح. . . فيمضي الشيخ. . . ليأتي (بسكاكره) المحورة، فينقطع الطفل فجاءة عن البكاء. وينظر إلى رفاقه ويقول:
. . .راح. . . هيّا. . . تعالوا نهرب قبل أن يجئ. . . نغلق الباب. . . ألسنا أقوياء) نختبئ في الزقاق. . . قوموا. . . قوموا. . .) ولكن الصبيان الذين ألفوا الذل واعتادوا الضرب، أنكروا ما قاله الطفل. . . فلم ينتظرهم بل تأبط حذاءه. . . وقام يعدو نحو صحن الدار. . . ثم فتح الباب وخرج إلى الزقاق يتنفس الصعداء. . .
ويعود إلى الدار كالقائد الظافر. . . فيستعيذ أبوه من الشيطان عند ما يراه، وتشهق أمه من العجب فتسأله كيف فرّ من الكُتاب! ولكنه يطأطأ رأسه ويسرع فينزع ثيابه. ثم يتسلق خشب العريشة، وينادي ابنة جاره الصغيرة فيسألها:
- أتلعبين بالدحاحل يا حسنا. . . لقد عدت من البستان! أما الأب فيعبس ويثور. وأما الأم فتضحك وتقول:
دعه. . . فإنه صغير
وانغمس في الفراش، وفي العين دمعة، وفي الصدر آهة، وفي النفس آلام
(دمشق)
صلاح الدين المنجد
رد على تعقيب
الجبر والاختيار
للأديب السيد محمد العزاوي
طالعت في البريد الأدبي لعدد الرسالة - 322 - ما تفضل به عليّ الأديب الفاضل داود حمدان من ملاحظات قيمة على مقالي الأول في الجبرية والاختيار؛ وعنت لي ملاحظات على رده سيتسع صدره لها دون شك، والله المستعان
أما اعتراضه على أن المسلمين لم يقل منهم أحد بأن (الإنسان وأفعاله من خلق الله فلا يكون ثمة حساب أو عقاب) فواضح أن أحداً لم يقل بذلك. وما هو يخاف، ولكني أردت أن أذكر حدي القضية الذهنيين، بغض النظر عن أن الكلاميين تكلموا في الطرف الثاني أو لم يتكلموا. وهذا أسلوب واضح: أن يذكر الكاتب حدي القضية على السواء في ذلك المعقول وغير المعقول الممكن والمستحيل، ما تكلم فيه وما لم يتكلم فيه. ولعله فهم أني أريد أن المتكلمين قد تكلموا في هذا الوجه ما داموا قد تكلموا في الوجه الآخر، ويبدوا أن هذا ما بنى اعتراضه عليه
أما ذهابه إلى أن المسلمين قد أجمعوا على أن الله تعالى عالم بكل ما يحدث قبل حدوثه ففيه نظر؛ إذ قد اختلفت وجهات النظر بين الفرق اختلافاً لم يجعل وجهاً لادعائه بأن فرقة واحدة من القدرية هي التي قالت: (إن الله لا يقدر الأمور أزلاً، ولم يتقدم علمه بها، وإنما يأتنفها علماً حال وقوعها). فقد ذهب إلى ذلكم مفكرون عدة سأذكر بعضاً منهم على سبيل المثال. فالجهم بن صفوان رأس الجهمية قال: (لا يجوز أن (الله) يعلم الشيء قبل خلقه لأنه لو علم ثم خلق أفيبقى علمه على ما كان أو لم يبق؟ فإن بقى فهو جهل: فإن العلم بأن سيوجد غير العلم بأن قد وجد؛ وإن لم يبق فقد تغير، والمتغير مخلوق ليس بقديم. . وإذا ثبت حدوث العلم فليس يخلو إما أن يحدث في ذاته تعالى، وذلك يؤدي إلى تغير في ذاته، وأن يكون محلاً للحوادث، وإما أن يحدث في محل فيكون المحل موصوفاً به لا الباري تعالى فتعين أنه لا محل له. فأثبت علوماً حادثة بعدد المعلومات الموجودة)
وهشام بن الحكم قال بأن (الله سبحانه) لم يزل عالماً بنفسه، ويعلم الأشياء بعد كونها بعلم لا يقال فيه محدث أو قديم لأنه صفة والصفة لا توصف
وهشام بن عمرو الفوطي كان يقول بأن الأشياء قبل كونها معدومة ليست أشياء، وهي بعد أن تعدم عن وجود تسمى أشياء ولهذا المعنى كان يمنع القول بأن الله تعالى قد كان لم يزل عالماً بالأشياء قبل كونها فإنها لا تسمى أشياء
فأي هذه الفرق - على قلة ما اخترت منها - يريد أن تكون الفرقة من القدرية؟ الجهمية أو الهشامية أو الفوطية، وغيرها كثير؟ ثم ألا يكفي كل هذا لأن أجعل هذا القول مقابلاً لقول سائر المسلمين، أو على الأقل لأن أدعي أن هذا كان تفكيراً لرجال الدين والمتكلمين؟ أم أن تكفير الإمام مالك والإمام الشافعي والإمام أحمد وغيرهم

من الأمة لهذه الفرق يخرج بهذا التكفير عن أن يكون (إسلامياً): إن لم يكن بالمفكرين فيه فلا أقل من أن يكون بالموضوع الذي دار حوله هذا التفكير؟ صحيح أن النزاع في مسألة سبق علم الله بما يحدث أو ائتنافه له علماً حال وقوعه قد اندمج في (النزاع في أنه كما أن للعالم منا علماً هو عرض قائم به زائد عليه حادث، فهل لصانع العالم علم هو صفة أزلية قائمة به زائدة عليه، وكذا جميع الصفات) وتشعب القول بين الفرق في الأمر، وأصبح سبق علم الله أو ائتنافه حدا من الحدود هذه القضية. واختلف القول فيه إلى ما قد فرغت من إيراد بعضه، واتضح منه أن المسلمين لم تجمع كلمتهم على ما أورد الأديب الفاضل. ولنفرض جدلاً بأن طائفة واحدة من القدرية قالت بأن الله لم يتقدم علمه بالأشياء، أليس من العدل أن أذكر ذلك حتى أبين أقصى مدًى بلغته الفكرة، وأوسع عرض حازته هذه الدعوى؟

أما اعتراضه على اشتراك الجهمية والمعتزلة في نفس الصفات عن الله ففيه نظر كذلك؛ فقد طلب الأديب الفاضل أن أفصل قول المعتزلة حتى لا أوهم إنكارهم الصفات إنكاراً غير حميد، ولم يكن المقام مستلزماً أن افصل قول المعتزلة أو غيرهم فإني كنت أود أن أبين اشتراكهم والجهمية في اختصار أتحرز به تهويش ذهن القارئ حتى أستطيع بعد ذلك أن أطلعه على رأى أبي العلاء

على أن الجهمية وافقت المعتزلة في نفس الصفات الأزلية. فنفى جهم أن يكون لله صفات غير ذاته وزاد عليهم (على المعتزلة) بأشياء منها قوله لا يجوز أن يوصف الباري تعالى بصفة يوصف بها خلقه لأن ذلك يقتضي تشبيهاً. فنفى كونه حياً عالماً، وأثبت كونه قادراً فاعلاً خالقاً. . .

فنفى الجهمية للصفات ناشئ من أن التشبيه بالمخلوق مستحيل على الله فوجب أن يؤول ما يرد في القرآن بهذا المعنى، ويؤخذ على غير ظاهره. فالحياة والعلم الإلهيين - في رأى الجهمية - ليس حياة وعلماً كحياتنا وعلمنا تحرزاً منهم من التشبيه، فليس نفيه - والحال هذه - (يعطل الأسماء والصفات تعطيلاً يستلزم نفي الذات المقدسة.

ونفي المعتزلة للصفات ناشئ من أنهم لو أثبتوا الصفات، فإما أنها صفات قديمة قائمة به زائدة عليه فيلزم تكثر في الذات، وتعدد في القدماء والواجباتْ، ومن المستحيل تعدد الذوات القديمة. وإما أنها صفات محدثة فهي عرض لذات قديمة والعرض قابل للتغير والزوال، ومحال على الله التغير. فالمتغير مخلوق ليس بقديم. وإن كانت صفات قديمة أزلية، فإما أن تكون خارجة عن الذات فتعدد القدماء (وأنكره الفلاسفة والمعتزلة وزعموا أن صفاته عين ذاته بمعنى أن ذاته تسمى باعتبار التعلق بالمعلومات عالماً، والمقدورات قادراً ولصعوبة هذا المقام ذهبت المعتزلة، والفلاسفة إلى نفي الصفات، والكرامية إلى نفي قدمها، والأشاعرة إلى نفي غيريتها وعينيتها)

فالفرقتان كما ترى من المعطلة، قد اتفقتا في النتيجة، وإن اختلفتا في الأسباب. وقد كانت مشاركتهما في هذا الأصل داعياً إلى تلقيب المعتزلة بالجهمية (لا لأنهم وافقوا الجهمية في القدر. . . ولكن لأن المعتزلة وافقوا الجهمية في نفس الصفات عن الله،. . .،. . .، وقد ألف البخاري والإمام أحمد كتابين في الرد على الجهمية وعنيا بهما المعتزلة)

فهل رأيت إلى هذا التشارك الذي حلل أن تدعي المعتزلة بالجهمية؟ ذلك معناه أن الجهمية إن كانت من هذه (الطوائف الملحدة) فأنت مضطر إلى أن تعترف بأن المعتزلة من هذه الطوائف الملحدة كذلك. وهذا ما لا يسلم به الأديب الفاضل، وما لم يقل به أحد

هذا ما أحببت أن أوجه هم الأديب الفاضل إليه، وأرجو أن يتقبله بقبول حسن. على أني قبل كل شيء وبعد كل شيء أشكر له صنيعه هذا شكراً جزيلاً

السيد محمد العزاوي

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

ولكن لا نستطيع أن نتكلم - 502

في (العقد): قال الرجل لهشام بن الحكم: أنت تزعم أن الله في فضله وكرمه وعدله كلفنا ما لا نطيق، ثم يعذبنا عليه.

قال هشام: قد (والله) فعل ولكن لا نستطيع أن نتكلم

503 - ميمونة الزنجية تطيب بذلك
في (الموشح): قالت امرأة لكثيّر عزة: أأنت كثير عزة؟ قال: نعم. قالت: تبا لك! أتعرّف بامرأة؟! قال: وما يضيرني من ذاك؟ فوالله قد رفع الله بها ذكري، ونشر فيها شعري، وأغزر بحري. قالت: أفلستَ القائل:
فما روضةٌ بالحَزن طيبةُ الثرى ... يمج الندى جَثجاثُها وعرارُها
بأطيب من أردان عزة موهناً ... وقد أوقدت بالمندل الرطب نارُها
قال: نعم، قالت: فض الله فاك! تالله ما رأيت شاعراً قط أقل عقلاً ولا لأضعف وصفاً منك. أرأيت لو أن ميمونة الزنجية بُخرت بمندل رطب، أما كانت تطيب؟ ألا قلت كما قال سيدك:
ألم ترياني كلما جئت طارقاً ... وجدت بها طيباً وإن لم تَطيَّب
فنصرف كثير وهو يقول:
الحق أبلج لا يُخيلُ سبيله ... والحقُّ يعرفه ذوو الأحلام
504 - ضحكت على لحيته
في (طوق الحمامة) لابن حزم: كان لسعيد بن منذر بن سعيد صاحب الصلاة في جامع قرطبة (أيام الحكم المستنصر بالله) جارية يحبها حباً شديداً، فعرض عليها أن يعتقها ويتزوجها فقالت له ساخرة به - وكان عظيم اللحية -: إن لحيتك أستبشع عظمها فإن حذفت منها كان ما ترغبه. فأعمل الجلمين فيها حتى لطفت، ثم دعا بجماعة شهود، وأشهدهم على عتقها ثم خطبها إلى نفسه فلم ترض به. وكان في جملة من حضر أخوه حكم
بن منذر فقال لمن حضر: أعرض عليها أني أخطبها أنا، ففعل، فأجابت إليه فتزوجها في ذلك المجلس بعينه، ورضى (سعيد) بهذا العار الفادح على ورعه ونسكه واجتهاده. . .
505 - لا يحتاجون هذا منك
صلى الأعمش في مسجد قوم فأطال بهم الإمام. فلما فرغ قال له: يا هذا، لا تطل صلاتك؛ فإنه يكون خلفك ذو الحاجة والكبير والضعيف
قال الإمام: (وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين)
فقال له الأعمش: أنا رسول الخاشعين إليك، لا يحتاجون إلى هذا منك
506 - فيم تدخل الجنة أذن؟
في (تاريخ بغداد): قال بشير بن الخصاصية: أتيت النبي (صلى الله عليه وسلم) لأبايعه، فقلت: علام تبايعني يا رسول الله؟
فمد يده ثم قال: تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، وتصلي الصلوات الخمس المكتوبة لوقتها وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، وتجاهد في سبيل الله
فقلت: يا رسول الله، كُلاًّ أطيق إلا اثنتين: أما الزكاة فما لي إلا حمولة أهلي وما يقوون به، وأما الجهاد فإني رجل جبان فأخاف أن تجشع نفسي فأبوه بغضب من الله
فقبض رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يده، ثم قال يا بشير، لا جهاد ولا صدقة، فيم تدخل الجنة إذن؟
قلت: يا رسول الله، أبسط يدك أبايعك، فبايعته عليهن
507 - وبعثنا إليك بك
في (سمط اللآلي): أهدى شاعر نرجساً إلى غادة اسمها نرجس، وكتب مع الهدية:
كنت أبغيك في البسا ... تين شوقاً لرؤيتك
فإذا نرجس ينا ... دي بلفظ كلفظتك
أنا شبه لمن هوي ... ت فخذني لبغيتك
فجنيناك ناضراً ... وبعثنا إليك بك
508 - لأجل قوة المعاني وجزالة الألفاظ
في (مفاتيح الغيب) للرازي: (أتَدْعون بعلاً، وتذَرون أحسن الخالقين) كان الملقب بالرشيد الكاتب يقول: لو قيل أتدعون بعلاً، وتدعون أحسن الخالقين، أوهم أنه أحسن لأنه كان قد تحصل فيه رعاية معنى التحسين. وجوابه أن فصاحة القرآن ليست لأجل رعاية هذه التكاليف بل لأجل قوة المعاني وجزالة الألفاظ

حينما تهجعين يا ملاكي. . .
(نجوى حنين عاودتني بين دخان الغضب والملال!)
للأستاذ محمود حسن إسماعيل
حينما تَهجعين في مهدكِ الطا ... هر والسحر متعَب في جفونِكْ
حينما تُسلِمِينَ قَلبكِ للأحلا ... م والفجرُ ذاهلٌ في سُكونِك
حينما تَطرَحين شَعركِ في الدِّيباج ... لحناً مبعثراً من شجونك
حينما تُغمضين عينيك للنَّوْ ... م على جذوةٍ ذكَتْ من حَنينك
حينما يُصبِحُ المِهادُ خميلاً ... في رُبَى الخُلد زهرُه في يمينك
حينما يُسبلُ الإله على وجهك ... ستراً يصُون طهر جبينك
حينما تَسجدُ الملائكُ حوْليك ... حياءً وهيْبةً من فُتونك
حينما تَسْهَرُ الغيوب لِترعَى ... صلوات النجوم حوْل عيونك
حينما تَنفضين عنكِ أسى الدنيا ... وتَنسْين نارها في أنينِك
حينما تُصبحين شَبَّابَةَ الفجر ... وعمري يَطوفُ حول رنينك
حينما تَسبحينَ في كَوْنك العا ... لمِ وروُحي مُعلَّق بسفينِك
حينما يا نَبيَّة الحُبِّ تُغْفين ... وأغدو عبادةً في يَقينِك
لو تَسمَّعتِ خافِقي في دُجَى الليل ... وشكوى جراحه في سكونِك
لرأيتِ الغداة طيْراً شَقيَّاً ... أقصتِ الريح عشَّه عن غصونك
شاردٌ في ربُاكِ لا جادَهُ الظلُّ ... ولا جُرحُه ارتوى من معينك
(القاهرة)
محمود حسن إسماعيل
أنا. . .
للأستاذ فؤاد بليبل
أنا مَنْ أنا؟. . . يا للَنْعا ... سةِ منْ أنا؟ شَبَحُ الشقاءُ!
بَلْ زَهرةٌ فواّحةٌ ... عَبَثَتْ بِها أيْدِي القَضاءُ
عِنْدَ الصبَّاح تَفَتَّحَتْ ... وَذَوَتْ وَلَمْ يَأتِ الْمساء
وَطَغَى الْفناءُ على الشَبا ... بِ فَغَالَهُ قَبْل الْفناء
بِالْأمْسِ كانَتّ مَلَعَب أل ... عصفُورِ في ذاك العَراءُ
يِشفي الْعليلَ أريجُها ... وبَهاؤُها يُحْيي الرَّجاءُ
بَسَّامَةٌ لَمْ تدْرِ ما ... مَعْنَى السآمةِ والْعنَاء
وَاليَوْمَ بَاتَتْ يا لتَعْـ ... س نصيبها! هَدَف الْبَلاء
قد حَوَّلُوا عنها الغَد ... يرَ فلا خريرَ ولا رِواءُ
فَذَوَتْ عَلى أكمامِها ... عَطشاً وَبَعْثَرها الْهَوَاءُ
(دار الأهرام)
فؤاد بليل
النهر المتجمد
للأستاذ ميخائيل نعيمة
يا نهر هل نضبَتْ ميا ... هك فانقطتَ عن الخريرْ؟
أم قد هرمتَ وخار عز ... مك فاثنيت عن المسير؟
بالأمس كنت مرنحاً ... بين الحدائق والزهور
تتلو على الدنيا وما ... فيها أحاديث الدهور
بالأمس كنت تسير لا ... تخشى الموانع في الطريق
واليوم قد هبطت علي ... ك سكينة اللحد العميق
بالأمس كنت إذا أتي ... تك باكياً سلَّيتني
واليوم صرتَ إذا أتي ... تك ضاحكاً أبكيتني
بالأمس كنتَ إذا سمع ... ت تنهدي وتوجعي
تبكي، وها أبكي أنا ... وحدي ولا تبكي معي
ما هذه الأكفان؟ أم ... هذي قيود من جليد
قد كبْلتك وذّللتك ... بها يد البرد الشديد؟
ها حولك الصفصاف لا ... ورق عليه ولا جمال

يجثو كئيباً كلما مرّت ... بهِ ريحُ الشَّمآلْ
والحورُ يندب فوق را ... سكَ نَاثراً أغصانه
لا يسرح الحسّون فيه ... مُرَدّداً ألحانه
تأتيه أسراب من الغر ... بان تنعق في الفضا
فكأنه ترثى شباباً من ... حياتك قد مضى
وكأنها بنعيها عند الص ... باح وفي المساء
جوف يشيّع جسمك الصا ... في إلى دار البقاء
لكن سينصرف الشتا ... وتعود أيام الربيعْ
فتفك جسمك من عقا ... ل مكّنته يد الصقيع
وتكرّ موجتك النقيّ ... ة حرّة نحو البحارْ
حُبلى بأسرار الدجى ... سكرى بأنوار النهار
وتعود تبسم إذ يلا ... طف وجهك الصافي النسيمْ
وتعود تسبح في ميا ... هك أنجم الليل البَهيم
والبدر يبسط من سما ... هـ عليك سترا من لجينْ
والشمس تستر بالأزاهر ... منكبيك العاريَيْن
والحور ينسى ما اعتراه ... من المصائب والمِحنْ
ويعود يشمخ أنفه ... ويميس مخضرّ الفَنَنْ
وتعود للصفصاف بع ... د الشيب أيام الشبابْ
فيغرّد الحسون فوق غصونه ... بدل الغراب
قد كان لي يا نهر قل ... ب ضاحك مثل المروجْ
حرٌّ كقلبك فيه أه ... واء وآمال تموج
قد كان يضحى غير ما ... يمسي ولا يشكو الملَلْ
واليومَ قد جمدت كوج ... هك فيه أمواج الأمل
فتساوتِ الأيام فيه ... صباحها ومساؤها
وتوازنت فيه الحياة ... نعيمها وشقاؤها
سيّان فيه غدا الربيع ... مع الخريف أو الشتاءُ
سيان نوح البائسي ... نِ وضحك أبناء الصفا
نَبَذَتهُ ضوضاء الحيا ... ة فمال عنها وانفرَد
وغدا جماداً لا يحنّ ... ولا يميل إلى أحد
وغدا غريباً بين قو ... م كان قبلاً منهمُ
وغدوتُ بين الناس لغ ... زاً فيه لغز مُبهم
يا نهر، ذا قلبي، أرا ... هـ كما أراك مكبّلا
والفرق أنك سوف تن ... شط من عقالك، وهو لا

ميخائيل نعيمة

ابنتي كوثر

للأديب محمود إلهامي

أشهى إلى نفسي وأرضى لها ... إذا تمنت غالياً كوثر
صغيرة لم يسر في طبعها ... لؤم ولم يعلق بها منكر
فتانة الدَّل إذا ضوحكت ... خِلت المنى من ثغرها تنثر
نبع من الإشفاق يروي صدى ... نفس بأنواع الأسى تزخر
وطائر في السمع تغريده ... لا العود يشأوه ولا المزهر
يشدو فيشدو القلب في إثره ... ألحان صفو طيبها يسحر
إن كان لي في العمر من فرحة ... فهي لعمري الفرح الأكبر
كل أمانيها وأحلامها ... عطف إذا داعبتها يغمر
والمال، أغلى المال في زعمها ... من دمُية تلهو بها، أحقر
يا ويح من يشقى به إنه ... بكل خزي سافر يعبر
يحنو عليها وهي في لهوها ... قلب بزخَّار الأسى يقطر
يخشى عليها بعض ما راعه ... من قسوة الدهر وما يستر
والدهر لا يرحم أبناءه ... يا ويل من في صخره يعثر

كم هدَّ من ركن أشم الذرى ... وراح من أُسد الشرى يسخر
يا زينة الدار ولآلائها ... وجنة يجري بها الكوثر
إني لأرجو أن تكوني غداً ... مبينة يزهو بك المنبر
وثابة للمجد لا تنثني ... لا تعرف الختل ولا تغدر
من اللواتي عند ذكر الحجى ... والرأي فالوادي بها يفخر
محمود إلهامي
رسالة الفن
دراسات في الفن
خمسة أيام طاهرة
بين الفن والإسكندرية
للأستاذ عزيز أحمد فهمي
ليتني ما جئت القاهرة. بل أحمد الله لأني جئت. وأستغفرك اللهم إذ تمنيت غير ما كان من إرادتك. فقد رأيت القاهرة لوثتني ونسيت أنها علمتني، وقد جننت إلى الإسكندرية التي دللتني ونسيت أنها خلبتني. وهأنذا أعيش في القاهرة راضياً، وهاأنت ذا يا رحمن تأذن لنا أن نجتمع بين يديك يوماً أو أياماً كلما شئت فلا تحرمني من الإسكندرية يا رب كما يسرتها لأستاذي أحمد الشايب
يا رب!
عجيبة الإسكندرية! ولست أدري إذا كنت أحبها لأنها بلدي، أو أني لأحبها لأنها الإسكندرية. ولكني أشعر وأومن بأنها أقرب إليك . . .
وشتان ما بينها وبين القاهرة.
عندما يريد أهل الإسكندرية أن يسبوا واحداً منهم أو من غيرهم يعيرونه بأنه (صايع) وهو عندهم من لا يعمل عملاً شريفاً يأكل منه
وعندما يريد أهل القاهرة أن يمدحوا واحداً منهم أو من غيرهم ويعظموه، يصفونه بأنه (وجيه) وينعمون عليه برتبة (البيكوية) من عندهم. والوجيه في القاهرة هو من لا يعمل عملاً مطلقاً ويأكل ويشرب من حيث يعلم الله، و (البيك) فيها هو هذا الوجيه نفسه، أو ذاك الموظف في الحكومة الذي ينفق في الخلاعة مرتبه وزيادة تأتيه من حيث يعلم الله
وأهل الإسكندرية لا يصفون إنساناً بأنه (صايع) ويعدلون بهذا الوصف عن الحق إلا إذا تهاجموا، وفي التهاجي عداوة، والعداوة نكد، والنكد ضرر، فالعدول عن الحق في الإسكندرية ضرر فيه شر
وأهل القاهرة قد يصدقون حين يصفون إنساناً بأنه (وجيه أو بيك)، ولكنهم غالباً ما يصفون
بهذين الوصفين أناساً ليسوا أهلاً لهما فيعدلون بذلك عن الحق، ويصيبهم من هذا رضاء موصوفيهم، وعندما يرضى الإنسان يجود على الذي أرضاه ووصفه بغير الحق، فالعدول عن الحق في القاهرة نفع فيه خير
والذي يتجول في أحياء الإسكندرية لا في القاهرة المصطافة المتهتكة عند الشاطئ، لا يفتأ يسمع كلمة (صايع) تُردد مع خطاه. فالخلاف على الرزق في الإسكندرية كثير بحكم أنها بلد صيد وبيع وشراء وكفاح، ولكن هذا الخلاف صريح مكشوف لأنه نما وترعرع مع الأجيال، والخلاف لا يمكن أن ينمو وأن يتضخم وأن يظل مع نموه وتضخمه مكتوماً مستوراً، فإذا انكشف لم يكن غير معركة، والناس لا يستطيعون أن يتعاركوا ليلاً ونهاراً، فهم يعدلون عن العراك أحياناً إلى السب والتعبير، فإذا كثر سبهم بوصف من الأوصاف، كان ذلك دليلاً على أن هذا الوصف هو أبلغ السب عندهم، وأبلغ السب يكون بنعت المشتوم بأقبح النعوت في رأي الجمهور وأكره ما يكرهون، (فالصياعة) أذاً هي أكره ما يكره أهل الإسكندرية وضدها هو أحب ما يحبونه، وهو أن يكون الإنسان عاملاً
والعمل في الإسكندرية بطولة. لأن الناس محتاجون إليه فهم يقظون، عيونهم مفتحة، متصارعون عليه في لهفة واستماتة وإجادة، فإنه إذا لم يكن العامل قوياً خر في الميدان. وهذه البطولة لها قيود كان لا بد منها لأمان المجتمع، فإنها لو تحررت يسعى إليها كل إنسان بطريقته هو فاستباح بعض الناس الحرام، وأكلوا جهود غيرهم. وكل

مجتمع تكونه الطبيعة يصنع قوانينه وقيوده بنفسه لأنها من أسباب حياته، ويحرص كل الحرص على صيانتها، ويثور كل الثورة على من يهم بخدشها. وقيود البطولة في الإسكندرية هي القوة الصريحة في العمل الجد.

فإذا انحدرنا إلى القاهرة سمعنا رتبة (البيك)، والوصف بالوجاهة ينعم بهما على كل من هب ودب حتى نحن. ومعنى هذا أن أهل القاهرة جميعاً يحبون أن يكونوا (بكوات) ووجهاء هكذا ويأكلون ويشربون من حيث يعلم الله ولا يعلم الناس.

وهم في هذا كما يكره أهل الإسكندرية أن يكون الواحد منهم هكذا

وهذه حال تستلزم أن نتنزع لها من الطبيعة قوانين تصونها، كما أنها تستلزم أن يكافح الجموع من أجلها، وأن يقاوم الخارج عليها الذي يهم بخدشها، والقانون الذي تلتزمه الطبيعة في هذه الحال هو قانون (الستر) ما دام الناس لا يريدون أن يعلم غير الله من أين يأكلون ويشربون. و (الستر)، و (التستر)، و (الستائر) جميعاً تخفي وراءها ما لا يعلمه أيضاً إلا الله. وقد يعلم الناس منه الكذب والغش.

وأهل القاهرة يسترون هذا التلوث الخلقي لأنهم يسترون كل شيء، حتى أنفسهم يسترونها عن عيونهم.

فالكذب إذا حدث في الإسكندرية حاربه أهلها، وإذا كان في القاهرة حاباه أهلها. وهكذا يسري الكذب في القاهرة حتى يتغلغل في حياتها إلى أن يركب الفن. . . الفن العطية من الله. إذا ادعاها في الإسكندرية مدع قتلته الإسكندرية، فإذا ادعاها في القاهرة مدع سترته القاهرة

وقد يصبر أهل الإسكندرية على مدع في غير الفن، ولكن هذا الذي يتلف عليهم الوقت الذي يطلبون فيه متعتهم الروحية التي يشترونها بدمائهم ويكدحون طول النهار لها، هذا المدعي يضربه أهل الإسكندرية ضرباً بالأيدي وبالأرجل وبالكراسي وبالزجاجات الفارغة وهم يصيحون: (هاتوا فلوسنا)!

ومع هذا العنف في طلب الحق فإن في أهل الإسكندرية عيباً عجيباً هو أنهم يلينون لكل ما يجيء من القاهرة سواء أكان فناً أم غير فن، لا يفتحون عيونهم عليه، ولا يحاولون التفرس فيه وانتقاده، لا لشيء إلا أنه من العاصمة وأنهم لا يظنون بالعاصمة إلا خيراً، فلا يمكن أن يتصوروها أقل منهم فراسة وصدق نظر! وإلا فلماذا كانت القاهرة العاصمة؟ ليس من شك في أن الله جزى القاهرة ستراً بستر، إذ خيل لأهل الإسكندرية أنها ما استحقت أن تكون العاصمة إلا لأنها جديرة بأن تكونها. . ولولا هذه العقيدة لزحفت الإسكندرية على القاهرة. . .

صحيح! هذا هو إحساس الإسكندرية وتفكيرها، فهذه الثقة المتعامية بالقاهرة هي وحدها التي تروج بضائعها في الإسكندرية ومنها الفن. فإن لم يكن هذا فكيف ذاق سيد درويش الويل في الإسكندرية حتى اعترفت به، وكيف هللت الإسكندرية وكبرت للأستاذ عبد اللطيف ألبنا عندما استجلبه لها متعهدو الحفلات من القاهرة؟. . . القاهرة العاصمة!

والفن عند أهل الإسكندرية قد يسرع إلى أن يكون حرفة لأنه موهبة، والمواهب عند العاملين رأس مال. ولا يمكن أن يحترف الفن في الإسكندرية إلا الفنان الصادق، ومتى ظهر صدقه في فنه وتمكنه منه، أقبل عليه الناس وشجعوه، ولكن إلى أن يظهر هذا الصدق، ويجوز رضاء أهل الإسكندرية، ثم يكون له بعد ذلك تعصبهم البلدي يذوق فنان الإسكندرية الأمرين من نقدهم القاسي الصريح الذي لا يمكن التغلب عليه إلا بعزم من فولاذ، وأكثر الناس تعرضاً لهذا النقد وهذا التهشيم هم أصحاب الفنون الجميلة، التي لا يأكلها الناس ولا يشربونها، فإذا لم تكن فنونهم إلهاماً من الله يهبط على الجمهور من خلال أرواحهم، فإن كل ما فيه من صنعة يتعرض للنقد، والصنعة ينفسح المجال في نقدها للعالمين والجاهلين، ما دام الأمر في النقد راجعاً إلى المنطق والحجج والبراهين والكلام، وما دام الأمر في هذا كله راجعاً إلى وجهات النظر الفردية. . . على العكس من إلهام الله وهو الحق الذي لا مراء فيه. والفن الملهم هو باعث الحق في الحس، والناس إذا أحسوا الحق لم ينكروه إلا كما ينكر المحروق شيّ النار.

ومع أن الفن الملهم هذا قد يسرع إلى أن يكون حرفة في الإسكندرية لإسراع الناس فيها إلى العمل والإنتاج بحكم الحاجة، فإنه لم يكن إلى اليوم فيها تجارة مثلما أصبح في القاهرة على أيدي إخواننا السوريين الذين تأصلت فيهم طبيعة التجارة منذ كان

أجدادهم الفينيقيون يحملون لواءها في العالم القديم ووجدوا في القاهرة المتسترة ميدانهم. . . فأهل الإسكندرية صيادون يبيعون ما يجود الله به عليهم من سمك أو فن، ولكنهم لا يستطيعون تلفيق السمك ولا يستطيعون تلفيق الفن، كما أنهم لا يعرفون الإعلان عما عندهم إلا بعرضه، كما أنهم لا يوقتون مواسمه ولا ينظمونه، فالطبيعة هي التي توقته لهم وتنوعه، فأيام الصفاء لها سمك ولها فن، وأيام النوء لها سمك آخر ولها فن آخر. وما أكثر تقلبات البحر الذي يجود بالسمك! وما أكثر تقلبات الحياة التي تجود بالفن! وما أكثر تلون الصروف التي تجود بما بين السمك والفن. . .

أما القاهرة فكان من نتائج الاتجار بالفن فيها أن أصبح له أسواق منها شارع عماد الدين، كما أن للخردوات فيها أسواقاً منها شارع الموسكي. والأسواقيتسلل إليها السماسرة، ومتى دخل السماسرة دخل الزيف والبهرج اللذان لا صلة لهما بالفن وإن كانت لهما صلة بما هو دونه

هذا هو ما يختص بظهور الفن في كل من الإسكندرية والقاهرة. . . فما هي طبيعة فن الإسكندرية، وما هي طبيعة فن القاهرة؟

طبع الفن في الإسكندرية يشبه طبعها، وطبع الفن في القاهرة يشبه طبعها، وأصدق الفن في الإسكندرية ما كان صدقاً، وأصدق الفن في القاهرة ما كان غشاً وكذباً!

الإسكندرية تعاشر البحر في كنف الصحراء. . . وكل منهما مكشوف. وفيها منهما. والقاهرة يحتضنها جبل أغبر ليته ما كان فانطلقت صحراوية خالصة، وانكشف عنها هذا الرجم الثقيل الجاثم على صدرها وعينيها. . . فربما كانت تسمع وترى وتعي. . .!

لقد طبع البحر الإسكندرية وأهلها وفنها. فالأدب فيها نقد عنيف قاس يشبه أن يكون إعصار، فإذا رق فهو إخلاص البحر واستسلامه على جبروته وعظمته، والموسيقى فيها صفاء وصدق ما هدأت أو ثارت. والرسم فيها هو هذه الصور التي تعرض البحر وطيره وسمكه، والصيد ومراكبه ورجاله، وهي التي نرى فيها من نشاط الإسكندرية وتوثبها ما يميزها من غيرها. . .

وفن الإسكندرية فيه من روح أوربا أنقاها لا البراق الباطل منها، وذلك لاختلاط المصريين فيها بالأجانب اختلاطاً لا يشبه اختلاطهم بهم في القاهرة، فالأجانب في القاهرة يكادون يعيشون في أحياء خاصة، فيها بيوتهم ومتاجرهم وملاهيهم، أما في الإسكندرية فهم منبثون في أنحائها جميعاً يتخللون الوطنيين، ويعاشرونهم كأنهم منهم، وقد لا يشعر الأجنبي في الإسكندرية بالغربة، كما أن الوطني لا يشعر فيها بغرابة الأجنبي، وهذا راجع إلى أن الإسكندرية تصبغ سكانها جميعاً بصبغتها، وأنها تعدهم جميعاً لنوع واحد من الحياة يتعاون فيه سكانها. وقد يعجب القارئ إذا قلت له إني سمعت روميا يلعن روميا آخر ويلعن الباخرة التي قذفت به في بر مصر، وهذا لا يمكن أن يصدر إلا من وطني يغار على بلده ولا يريد أن ينهال عليها إلا من هو جدير بالحياة فيها، ولا يحابي في هذا من كان من وطنه الأول أو من كان من أهل البلاد نفسها. والأجانب في الإسكندرية كثيرون، وهم كما يعطونها أرواحهم يعطونها تفكيرهم، وإحساسهم، فيأخذ عنهم الوطنيون ألواناً من أساليب العرض الفني، كما يتعلمون منهم أشياء رقت بهم على المصريين وجودت فنونهم

هذا هو فن الإسكندرية

وأما فن القاهرة فأستره إرضاء للقاهرة.

عزيز أحمد فهمي

رسالة العلم

فَلْنَسْتَمر

خواطر الحرب - صوت العلم بين صليل السيوف ودوي المدافع - إستكناه الذرة وقضية الإلكترونات - جحافل العلم في ميدان التجارب - قصة مليكان - إذا عمت السكينة.

للدكتور محمد محمود غالي

كنا نتابع قصة الخليقة ونذكر عمل الإنسان، ونستعرض الخطوات الكبرى التي تمت في السنوات الخمسين الأخيرة، وبدأنا هذا العمل في يناير الماضي بدء العام السابع للرسالة، وما نعد أنفسنا إلا في منتصف الطريق، مهمتنا أن نعرض على القارئ صوراً من المراحل المختلفة التي بلغتها العلوم، تلك المراحل التي فتحت مجال الذهن

وفتقت حواشيه وحولت التفاتاته إلى الناحية التي جعلت من الإنسان على مرَّ الأيام أنموذجاً أرقى ومثالاً أكمل. وقد تابع مقالاتنا هذه عدد غفير من القراء ما زالت تردنا رسائلهم من كل صوب.

وبينما نحن نتابع عملنا إذا بالعالم يُفاجأ بما يُغير مسرى الحياة الفكرية فيه، ويحولها من طريقها إلى آخر تكتنفه الآلام والمصائب، فمن اطمئنان وسلام، إلى حرب واصطدام، أكثر ما يُروَّعني فيهما أن يُقْضى خلالهما على الملايين من الأبرياء، وأن تهدم أسس الحضارة وتُدكّ صروح المدنية، ولكن هذا التغيير في حالة العالم لم يك ليُقْعدني عن مهمتي في الكتابة ويصدني عن غرضي في التأليف؛ فإن النفوس الواجمة من شبح حرب مروعة، والأفكار المضطربة من صراع عنيف في حاجة من وقت إلى آخر أن نرفه عنها، ونعمد إلى تهدئتها ونبث روح السكينة فيها. لذلك أخذت على عاتقي أن أستمر في مهمتي العلمية حتى أساهم في الساعات التي أعطيها كل أسبوع لقراء الرسالة في دفع كابوس الحرب الجاثم على العالم في هذه الآونة.

لعل القارئ يشعر معنا أن نغمات حزينة تتجاوب أصداؤها الآن في آذان العالم نرى لزاماً علينا إبعاد الأذهان عنها، وأن فكرة تحمل في طياتها الدمار والخراب وتغيير معالم الحضارة والعمران تسري الآن سريان النار في الهشيم، نرى لزاماً علينا أن ندفعها بكل عناية وأن نحطمها بكل قوة

إن الظلام حالك مدلهم، والنجوم تنشر في الفضاء وتملأ، والمشتري والمريخ يطلان علينا

من علياء السماء، وكأن ما بهما من مخلوقات فرضية تشاهد مأساة الإنسان التي بدأت تعرض دورها في ثالث الكواكب فتعجب لها ولا تقف على الغرض منها. ألا بئس الطمع وشر ما يجلب! الآن بعض شروط من معاهدة وضعها نفر من الساسة منذ عشرين عاماً ولا يريد هذا النفر تغييرها، ولأن هذه لا تروق لبعض الزعماء تقع شعوب الأرض في حرب ضروس؟ الآن لقطر أشباراً من الأرض في قطر آخر تمتشق الأمم الحسام وتأبى التفاهم ويحمل الطيارون وسائل التهلكة وتتخيَّر الناس حد الظبى فاصل إشكالها، ونُساق إلى حيث لا نعرف المصير؟

ولو أنه يتأتى من هذا أنه يصبح في العالم خلف خيرا من السلف، لو أننا مسوقون حقاً إلى هدف أسمى يستجلي منه الإنسان عهداً أرقى في الحضارة وأبقى في العدالة وأعظم في التقدم، عهداً لم يعهده من قبل - لوجدنا أن الخير كل الخير في حمل السلاح وطرح الراحة، ولطاب لكل إنسان أن ينقلب مجاهداً بين المجاهدين. أما والبشر يتقاتلون لغير غاية مفهومة، أو مأرب معقول، فكل ما نتمناه أن تنحصر الكارثة وألا تطول هذه المحنة، وأن يتغلب حكم العقل على الهوى ويعود السلام فيرفرف على الربوع والأمصار من جديد، ونرى العلماء يتفرغون لاكتشافاتهم العلمية المجيدة ومباحثهم اللانهائية وتصبح المختبرات مخابر سلم ووسيلة للتعمير لا للتخريب

هذا السلام لبني الإنسان طُرّا، للفقير قبل الغني، للضعيف قبل القوي، هو أمنيتنا وله نعمل من قلوبنا، وهانحن أولاء نرقب عودة عهد هدوء العالم ورفاهيته ونتم للقراء قصة العلوم ففيها القسم الإيجابي من حظ البشر، أما القسم السلبي الذي يشغل الآن رجال الحرب ويندفع إليه فريق من بني الإنسان فهو ما سيأسف له العقلاء في النهاية

وبراً بما وعدنا نعود الآن إلى الكتابة في الموضوعات التي سرنا فيها شوطاً فليس أحب إلى نفوسنا من المضي في سرد قصص العلم والعلماء وفي تبسيط أهم ما وصل إليه الإنسان المفكر من اكتشاف واختراع، ذلك لأن أسعد الساعات عندنا هي تلك التي نسطر فيها مفاخر الإنسان العاقل الدارس، وأعمال الرجل الكاشف العالم: فهيا بالقارئ خطوة أخرى إلى الأمام نزيده فيها كلمة يخلق بنا أن ندعوها باسم العالم الذي هو بطلها فندعوها قصة (مليكان)

تكلمنا في مقالنا السابق عن الإلكترون أصغر جزئ في الكهرباء أو وحدة الكهرباء السالبة وزميله البوزيتون الوحدة الموجبة، وهما الشقيقان اللذان يلعبان دوراً هاماً في معارفنا الكهربائية بل يتصلان اتصالاً وثيقاً بمعرفتنا عن المادة وكل ما هو كائن، فالإلكترون هذا المهاجر الحائر، نعرفه في المادة على أشكالها الثلاثة الغازية والسائلة والصلبة، فذرة غاز الهيدروجين وهو أخف ما نعرفه من العناصر تحوي نواة وسطى كالشمس يدور حولها إلكترون واحد وتتميز به عن سائر العناصر وذرة الماء مكونة من

ذرتين من الهيدروجين السابق الذكر وذرة واحدة من غاز الأكسيجين، وهذه الذرة الأخيرة مكونة من نواة وسطى يدور حولها ثمانية إلكترونات وذرة الأيرانيوم أثقل العناصر ذلك العنصر الصلب المشع الذي كان حجر الزاوية في اكتشاف عنصر الراديوم العجيب تتركب من عدة شموس يدور حول كل منها عدد معين من الإلكترونات، ويبلغ مجموع إلكترونات هذه الذرة اثنين وتسعين إلكترونا أي أكثر من ضعف ما يدور حول شمسنا من كواكب وأقمار، فهي مهما بلغت من الصغر عالم يتعين بعدد من الشموس وعدد من السيارات التي تجري في أفلاكها وتشبه عالمنا الشمسي، وما اختلاف العناصر إلا في اختلاف عدد الإلكترونات التي تدور حول شموسها، واختلاف المسافات التي تبتعد بها هذه الإلكترونات عن الشموس، بحيث يعد هدم النواة الوسطى، وطرد بعض الإلكترونات المحيطة بها تحولاً في المادة وانتقالاً من عنصر إلى عنصر آخر يتعين بالعدد الجديد من هذه الإلكترونات السابحة، وهذا ما استطاعه العلماء أخيراً يتقدمهم (رذر فورد) المتوفى منذ عامين في إنجلترا، والدوق موريس دي بروي في فرنسا، وبرايش في ألمانيا، والعالم الشاب فرمي في إيطاليا. . .. وهو ما سنتبسط فيه عندما نتكلم عن التَّفتت الذري تحت تأثير الإشعاع

وإذا كان هذا الإلكترون أصغر ما نعرفه من مادة لها وجود مادي، فهو أصغر ما نعرفه مما له وجود كهربائي، فهو المكون الأول للكهرباء، بل وجميع الإلكترونات هي التي تُحدث كل الظواهر الكهربائية التي أهم ما يعرفه الشخص غير المشتغل بهذه العلوم ظواهر الإلكترونات المهاجرة التي قدمنا أنها تكون الأساس في فن الراديو بل الأساس في كل الكهرباء اللاسلكية منها، والسلكية، والتي يهاجر منها عند المخاطبات التلفونية أو الإذاعة اللاسلكية ملايين الملايين في كل واحد على عشرة آلاف من الثانية. عندما تشتري من

التاجر بضعة أمتار من السلك لتوصيل جرس كهربائي في مكتبك، فإنك تشتري طريقاً صالحاً لهجرة بلايين البلايين من الموجودات الصغيرة التي أطلقنا عليها إلكترونات، وهي التي شغل العالم مليكان بدراسة أحدها والتي تسري في السلك من طرف إلى طرف. وعندما تشتري من التاجر ذاته صماماً - أي مصباحاً للراديو - من هذه المصابيح الخاصة التي منها الثلاثي الأقطاب (تريود) أو خماسي الأقطاب بنتود والتي تتفنن الصناعة الحديثة في تقديمها إليك بدل مصباح تالف، فإنك تشتري في الواقع مكاناً صالحاً لإحداث هذه الإلكترونات التي تهاجر بين الكاثود القطب السالب والأنود القطب الموجب بعدد لا يمكن أن يتصوره العقل.

ترى كيف يمكن العثور على جُسيم مادي يعلق به أحد هذه الموجودات الدقيقة التي تعد أصغر ما نعرفه من الكون؟ كيف يتسنى لنا أن نستوثق من ذلك؟ بل كيف يتسنى لنا أن نرفع ونخفض الجسيم الحامل لأحد هذه الإلكترونات وفق إرادتنا؟ وكيف نعلم علم اليقين أنه حامل إلكتروناً طليقاً كما نعلم أن سيارة تنساب في الشارع بسرعة عظيمة تحمل السائق ولا تحمل غيره من الركاب؟

لقد أمكن للأستاذ الكبير مليكان أن يقوم بتجارب دقيقة حصل فيها على إلكترون حر واحد، وتيقن فريق العلماء معه أن هذا الذي حصل عليه مليكان في تجاربه هو إلكترون حر واحد. وسأشرح للقراء تجربة مليكان وهي مهمة أحاول تبسيطها للقارئ رغم صعوبتها. وأمامي الآن المذكرات العديدة التي نشرها الأستاذ مليكان، وأهمها نشرته التي قدمها لمؤتمر عقد في وينبج في أغسطس سنة 1909 أي منذ ثلاثين عاماً، والمذكرة الإضافية التي ظهرت خلاصتها في المجلة الطبيعية ديسمبر من نفس السنة، ثم نشرته التي ظهرت في السنة التي تليها في الجريدة الفلسفية كذلك أمامي كتابه (الإلكترون) ' ولقد طالعنا هذه المذكرات في سنة 1928 عندما أتيحت لنا فرصة الاشتغال بالأبحاث الطبيعية في معامل البحث بالسوربون بباريس، وهأنذا أعيد مطالعتها كما أعيد مراجعة الكتاب المتقدم لنستطيع أن نحدث قراء (الرسالة) عن علم، بوصف تجارب مليكان الخالدة، تلك التجارب التي مهدت لها أعمال كثير من الباحثين أمثال تونسند وولسون وهم من أعلام مختبر كافاندش الشهير الذي يكون جزءاً من جامعة كامبردج المعروفة

وغني عن البيان أننا سوف لا ننقل للقارئ خلاصة هذه النشرات العديدة التي برزت في تاريخ المعارف والتي عدها الكثير من العارفين خطوة موفقة من أكبر مفاخر العلم

الحديث، فليس المجال هنا أن نلخص مسائل علمية يعد الدخول في تفاصيلها من الموضوعات الفنية التي لا تروق غير المختصين، وإنما غايتنا أن نعرض على القارئ صورة سهلة واضحة هي تلك التي تبقى في الذهن بعد طول المطالعة وتمثل حقيقة هذه الأسطورة التي تعد من أعظم ما نعرفه في العلم التجريبي وتوضح هذه التجربة التي حاولنا إعادتها في يوم لا زال عهدنا به قريباً.

وموعدي إذن مع القارئ الأسبوع القادم إذ احتاج إلى سبعة أيام لمراجعة أعمال هي عندي نتاج الإنسان الراقي لا عمل الإنسان المتوحش. ولَشدَّ ما يغلب على النفس نوع من الاطمئنان عندما تسوقنا الكتب إلى أعمال هؤلاء الأعلام، وثمة فارق كبير بين ما نستشعره في أعماقنا حيال مجهوداتهم وبين ما نلحظه في مجهودات هؤلاء المقاتلين، مهما كان السبب الذي يناضلون من أجله. ما أكثر تعاقب الحوادث هذه الأيام كل أسبوع تدخل فيه أمة في الحرب، ويخيل إليّ أن سبعة أيام لمطالعة (مليكان) فترة طويلة في هذا الزمن الكثير المفاجآت، فإذا لم يقفنا عن عملنا ظرف مفاجئ؛ وإذا ظل السلام مخيماً على ربوع مصر والبلاد الشرقية ناشراً لواءه على ذلك المسكن الواقع في هذه الجزيرة الهادئة بين النيلين، وإذا ظل النيل السعيد بهذا البهاء أرصده من هذا المكان، وظلت الدور هادئة كعهدنا بها، وظلت السعادة ترفرف على الربوع ودامت لنا رؤية أطفالنا هانئين مرحين، ولم تلجئنا الظروف إلى أن نبعث بهم إلى الريف البعيد - فإني مُعط أوقات فراغي هذا الأسبوع لقارئ الرسالة، أحدثه في المرة القادمة عن مكنون هذه النشرات ودخائل هذه الكتب، وسر هذه الأسطورة العلمية، وبذلك ربما فزت بأن أجعله يعجب بهؤلاء العلماء إعجابي بهم ويشيد معي بذكرهم.

عندما نطالع العمل المضني الذي قام به هؤلاء الأعلام ونطالع بعد ذلك أخبار الفواجع التي تغمرنا بها الجرائد وتبعث بها إلينا محطات الإذاعة المختلفة أشعر براحة في الأولى وامتعاض في الثانية

فإلى العلوم هذه الأيام العصيبة نقص لك منها أحب سيرها ليزيد إيماننا وإيمانك بمستقبل

الإنسانية ومبادئ السلام والعدل. وعسى ألا تُفرَّقنا الأيام، فأظل أشتغل، وأظل أكتب إليك؟

محمد محمود غالي

دكتوراه الدولة في العلوم الطبيعية من السوربون

ليسانس العلوم التعليمية. ليسانس العلوم الحرة. دبلوم المهندسخانة

-

من هنا ومن هناك

حلم ألمانيا

(عن (هاربرز مجازين))

قال هتلر في بعض أحاديثه: (إن ضربتي العاجلة ستكون كالنور ينتشر في الظلام).

وقال جورنج وهو بصدد المفاخرة بالطيران الألماني في أزمة سبتمبر المنصرم: (أنتم معشر الألمان تعرفون أن قوة الطيران الألماني التي لا تقهر أبداً كانت على أتم استعداد، وكلمة واحدة كانت كافية لإشعال مارج من النيران تبتلع خصومنا، وما هي إلا ضربة عاجلة، ولكنها ضربة قاضية لا تبقي منهم باقية!)

ولا شك أن ألمانيا وضعت آمالاً كبيرة في طيرانها، واغترت كثيراً بقوتها الحربية، وقد آذن ذلك الغرور أن يلعب دوراً محزناً في تاريخها، على يد الريخ.

فقد وضع النازي كل همهم في كسب حرب سريعة قاضية بواسطة الطيارات والمصفحات الحربية (تانكس) والغواصات

وهكذا يطلبون النصر المعجل في تلك الحرب السريعة. وتبدأ هذه الحرب - كما يؤملون - بهجوم جوي عنيف تشترك فيه جميع قوات الطيران الألماني والإيطالي والياباني - إذا تيسر - على مواطن البحرية البريطانية والفرنسية في مختلف الجهات، حتى يدمر ذلك السلاح الذي يعطي الدولتين البحريتين السلطة والنفوذ في العالم.

وفي أثناء هذه الغارة الجوية تنتشر الغواصات الألمانية في كل مكان؛ ويعجل بالهجوم على المطارات البريطانية والفرنسية، ومراكز القوة، ومصانع الأسلحة، والمواطن

الآهلة بالسكان. ويتبع ذلك الغزو عن طريق الجو، هجوم عنيف على الأراضي الفرنسية من الناحية البرية في كل موضع وكل مكان
ولكن هل من الممكن أن يدمر أسطول حربي عظيم بواسطة الطيارات؟ لقد برهنت التجارب العديدة على أن المدافع المضادة للطيارات تقوم بعملها في مطاردة الطيارات على أكمل وجه. وقد أرصدت إنجلترا خمسين طراداً حربياً للمساعدة في مكافحة الطيارات وليس لهذه الطرادات القوية عمل غير هذا العمل. على أن الأسطول البريطاني مجهز بقوة من سلاح الطيران معدة لحمايته في كل وقت. فهل من المعقول أن تغرق جميع السفن
البريطانية والفرنسية في غزوة فجائية تنقذ ألمانيا ومن يعاونها من ذلك الموقف الضعيف الذي يجرعها غصص اليأس؟
إن قوة البحرية الألمانية ضعيفة جداً بالنسبة للقوتين الإنجليزية والفرنسية. فإذا قامت بمثل هذه التجربة فسترى أنها كانت واهمة، وأن القوة البحرية ما زالت تلعب دورها التقليدي في الحروب، وأن مركزها البحري سينتهي إلى اليأس المحقق
لقد جربت تلك الغزوة الجوية في برشلونة في 16 مارس 1938 فقد استمرت قوة الطيران الإيطالية الرابطة في ماجوركه تلقى عليها وابلاً من القذائف ثلاثة أيام وثلاث ليال، وكانت طياراتها تحمل أثقل أنواع القذائف وتلقي بها على تلك المدينة التي يسكنها مليونان من الأنفس، فماذا كان تأثيرها؟ لقد قتل في تلك الغارة ثلاثمائة نفس، ولم تنقطع حركة العمل بالمدينة، بل لقد ظلت دور السينما مفتوحة الأبواب للرائد فحلم ألمانيا بحرب جوية سريعة حلم خلاب ولكنه بعيد عن التحقيق
النازي وطبيعة المرأة
(عن مجلة (تايدين) استوكهلم)
قبل أن يستولي النازي على زمام الأمور في ألمانيا كان زعماؤه القائمون بالأمر الآن، ونذكر منهم على سبيل المثال دكتور جوبلز يقولون: (إن المكان الوحيد للمرأة هو المنزل، فقد خلقتها الطبيعة وأعدتها لحمل الأطفال والعناية بزوجها وبيتها) وذكر (ألفرد روزنبرج) في الكتاب الذي أخرجه تحت عنوان: (خرافة القرن العشرين) حديثاً عن المرأة قال فيه: (إن نفوذ المرأة في الدولة يحمل في طياته أسباب سقوطها، وكما أن اليهود في أنحاء العالم يدعون إلى المساواة، ولا هم لهم في الحقيقة إلا جلب المنفعة لأنفسهم، فالمرأة التي تطالب بالحرية لا تطلب المساواة في الحقوق كما قد يتراءى، ولكنها تنشد الصعود على ذمة الرجل. وفي اجتماع للنازي عام 1934 قال هتلر نفسه في حديث موجه إلى النساء والفتيات من حزبه: (إن الرجل عالمه الدولة والكفاح؛ أما المرأة فعالمها بيتها وأسرتها وأطفالها)
إلا أن هذه الكلمات وما تبعها من الأعمال لم يكن المقصود بها طبيعة المرأة ووظيفتها في
الحياة كما قد يبدو، ولكنها كانت سياسة مرسومة لمحاربة البطالة، إذ ما كادت تنصرم تلك الأيام حتى تغيرت الفكرة من الناحيتين النظرية والعملية فلم نعد نسمع أو نقرأ في ألمانيا كلمة واحدة عن الأمومة وطبيعة المرأة
لقد كان النساء يفصلن من أعمالهن بالمئات في المدة من سنة 1931 - 1935 بغير رحمة ولا شفقة، والآن أصبحنا نراهن يسقن إلى تلك الأعمال بالطريقة نفسها. فالنظرية القائمة في ألمانيا الآن هي نظرية الحرب وحاجة الحرب، فسواء كانت طبيعة المرأة تدعوها إلى ملازمة المنزل أولاً، فإن النظام القائم يدعو النساء إلى أن يحللن محل الرجال في أعمالهم التي تخلو باستدعائهم إلى الأعمال الحربية، سواء أكانوا مطلوبين للخدمة العسكرية أو للعمل في زيادة السلاح تلك الزيادة التي لا تقف عند حد
وفي ألمانيا الآن كثير من النساء يشتغلن بالأعمال الزراعية الشاقة، حيث يسقن إليها بطريق العنف والقوة تحت أحكام قانون العمال. ومما يدعو إلى العجب أن بعض هؤلاء النسوة كن يطردن من أعمالهن التي ينشدن فيها الرزق لحماية أنفسهن بدعوى الرأفة بهن في عهد هؤلاء الذين يسوقونهن إلى الأعمال المرهقة بغير تدبر ولا رحمة كل هذا يحدث في ألمانيا باسم الحرب والتأهب لها، فالنساء والرجال في ألمانيا يباغتون بقسوة وشدة، فيفصلون من أعمالهم ووظائفهم التي تعودوها وأحرزوا فيها

قصب السبق والنجاح، ليلحقوا ببعض الأعمال الخاصة بالتسلح والتأهب للحرب، ولا عبرةً بما يقال عن إرهاق المرأة وتحميلها ما لا تطيق.

ومما قالته جريدة (أنجريف) في يوليه سنة 1938، وهي لسان حال الدكتور جوبلز: (يجب أن تشتغل النساء الآن مع الرجال في أعمالهم. فجسم المرأة مطالب بان يؤدي للدولة العمل الذي يؤديه جسم الرجل). ولا فرق بين الرجل والمرأة في ألمانيا إلا في أن المرأة تتقاضى 40 % من الأجر الذي يتقاضاه الرجل.

الساعة الرهيبة في آسيا

(عن مقال بقلم (مدام شيانج كاي شك))

نحن نخسر كثيراً من المواقع الحربية - ولكننا ولا شك سنكسب الحرب. هذه كلمة قالها أحد ضباط الصين في العام المنصرم، وهي كما تبدو كلمة كثيرة التناقض، ولكننا نعيش اليوم في عالم عجيب، فالنصر اليوم لا يعني النجاح، والتقهقر لا يعني الهزيمة.

وقد يكون اللاشيء معناه الكثرة، وكل شيء قد لا يدل على شيء فالكلمات تفقد معناها على مر السنين والأيام، حيث تدركها الشيخوخة.

ونحن في الصين بعد أن خسرنا عدة وقائع ما زلنا نحس الانتصار على مقربة منا كأننا لم نصادف في هذه الحرب غير النجاح

ولكن هل يبقى العالم معصوب العينين أمام الحالة التي تعانيها الصين منذ سنتين؟ هل ينتظر حتى يفنى أبطال الصين على بكرة أبيهم في ميدان الحروب ثم يفتح عينيه فإذا العالم كله على أبواب خطر جسيم؟ لقد أفنت الحرب ملايين من أبناء الصين ولم يفطن أحد إلى المثل السامية التي ذهبوا في سبيلها

فالحرب اليابانية كما هي اليوم ليست إلا مقامرة كبيرة بين اليابان التي تعد نفسها دولة أوربية وبين القارة الغربية

وقد كان في وسع أوربا أن تقف تلك الحرب الأسيوية التي تنذرها بأشد الأخطار منذ اللحظة التي نشبت فيها بدلاً من تشجيعها وتقديم الوقود لإشعال نيرانها

لقد كان هذا في الإمكان، بل لقد كان أمراً سهل الوقوع؛ فكلمة واحدة كانت كافية لإنهاء كل شيء. ولكن أوربا لم تدرك بحصافتها أنه متى أذنت الساعة الرهيبة فقد فقدت مركزها في آسيا

إن الصين لا تستطيع أن تميز بين المبدأين المتقاتلين في أوربا، ولكنها تستطيع أن تقول اليوم إن أوربا إذا فقدت مركزها في آسيا لن تستطيع أن تستعيده مرة أخرى

إن الصين تكافح في حرب غير متعادلة. وهي وإن كانت لا تزال محتفظة بداخلية البلاد، فقد فقدت كثيراً من مدنها الجميلة، تلك المدن التي تدين لأوربا في أنظمتها ومظهرها قد سقطت في أيدي الأعداء

إننا ما زلنا نؤمل في أوربا أن تفطن إلى حقيقة الموقف. فقد تستطيع أن تقوم بعمل حاسم لإنقاذ الشرق مما يعانيه

البريد الأدبي

إلى الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

السلام عليك ورحمة الله، وليس يعيب الرجل أن يروي خبراً عمن يظن به الثقة إذ الخبر غير صحيح؛ ولا يعيبه أن ينقد بناء على هذا الخبر ويلوم، وأن يشتد في النقد والملام؛ وليس يعيب الرجل الفاضل أن يسرع إلى بيان الحق متى عرفه، بل الذي يعيبه ويضع من قدره ألا يفعل، وهذه الخلة مع الأسف العظيم شائعة في كثير من نقدتنا، كأن يروعهم ويتعاظمهم أن يرجعوا عما مضوا فيه ولو إلى الحق الصريح

ولولا ما أعرف يا أخي من نزاهة قصدك وسعة فضلك. وتمكنك من نفسك وضنك بها على كتمان الحق، ما راجعتك في شأن ما كتبت من كتاب حضرة الدكتور أحمد عيسى بك، ولا أطلعتك على ما هو مسجل في الوثائق الرسمية

فالحمد لله الذي لم يخلف ظني ولم يخيب رجائي

وإنني أدعو الله جاهداً أن يكثر بين نقدتنا من أمثالك، ولا أقول إنني أسأل الله شططاً، وأستغفر الله، فإنني مؤمن بأن الله على كل شيء قدير

والسلام عليك والشكر أبلغ الشكر لك

عبد العزيز البشري

لكل سؤال بابتين جواب

1 - اهتم الأستاذ محمود على قراعة بشرح آراء العلماء في نعيم الجنة ولم يفته أن يحاول إقناع الأستاذين داود حمدان ومحمد علي حسنين بأن نعيم الجنة تغلب عليه النزعة الروحية
وقد كان الأستاذ قراعة في غاية من اللباقة، فقد رجع بانتظام عن رأيه الأول الذي صرح فيه بأن نعيم الجنة روحي صرف وأن ما جاء في القرآن من أوصاف النعيم المحسوس ليس إلا رموزاً وإشارات
ونحن لم ننكر أن الجنة فيها نعيم روحي بجانب النعيم الحسي، وإنما أنكرنا أن تؤول نصوص القرآن تأويلاً تنكره أصول الشرع الشريف
والآن وقد اعترف الأستاذ قراعة بأن القرآن يشهد حقاً بأن المؤمنين سيكون لهم في الجنة
أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين،) (وأنهار من عسل مصفى
الآن وقد اعترف بذلك هل يسمح له ذوقه بأن يحكم بأن الآيات التي تحدثت عن هذه الطيبات تعد من أدب المعدة الذي ينكره الأستاذ أحمد أمين؟
2 - صال الأستاذ الغمراوي وجال في مجادلتنا بالتي هي أقبح، وشاء له أدبه أن يقول إننا غير متمكنين من علوم الدين، كأنه صار من علماء العصر والأوان! ونقول إن دعواه باطلة: فنحن بحمد الله وتوفيقه نعرف من علوم الدين أضعاف ما يعرف الذين يدعوهم الكبر الممقوت إلى مجادلتنا في شؤون الدين وهم لا يعرفون من أصوله بعض ما نعرف
3 - قدم إلينا الأستاذ علي الطنطاوي أربعة أسئلة وهو ينتظر الأجوبة
وكنت أحب أن أسارع إلى إجابته، ولكني رأيت أن الأسئلة التي ساقها قد تعرض القراء لفتنة شديدة إن استبحنا الإجابة بلا ترفق وبلا رعاية للمأثور من الأفكار الدينية
وهو نفسه قال (إن مسألة اليوم هينة لا تمس جوهر الدين) فليترك هذه القضية إلى اليوم الذي نتعرض فيه لشؤون تمس جوهر الدين
وأنا لا أبالي أين يقع قلمي، ولكن لا بأس من التأسي بالحكمة التي تقول: أترك الشر ما تركك
وهل قلّت اعتراضات رجال الدين حتى تتطوع لتحريكهم يا سيد طنطاوي؟
على أنني أقول بصراحة إنني أضع كل شيء في الميزان مهما تقادم العهد عليه. ومن حقي شرعاً أن أنظر في القرآن نفسه بدون اعتماد على أقوال المفسرين، لأني مسئول رأساً أمام الله لا أمام الناس. وليس لأحد أن يطالبني بان أومن كما آمن. وهل منحنا الله العقل إلا لنواجه العقائد عن بصيرة ويقين؟ إنني راض عن طريقتي في درس الشؤون الدينية، والاحتكام في فهم الكتاب والسنة إلى المنطق والعقل، فليقل من شاء ما شاء، وبالله أعتصم من كيد الخائنين.
زكي مبارك
عود إلى اقتباس الكتاب
يذكر القارئ هذا الباب من الرسالة أني أخذت على الأستاذ إسماعيل أحمد أدهم اقتباسه
لبعض ما جرى على قلمي في حديث الرمزية معنى ومبنى (راجع الرسالة رقم 312 ص 1271) وقد تعذَّر على المقتبس أن ينكر ذلك، فقال يتعذر: (إنني حين أكتب بالعربية فأنا أكتب بلغةٍ غير لغتي الأصلية، ومن هنا بعض ما يجئ على قلمي من التعابير الخاصة لكتاب اليوم استدراكا للمعنى الذي في ذهني. . .) (الرسالة رقم 313 ص 1331)
والحق أن الأستاذ أدهم يقتبس المعنى فضلاً عن المبنى. ومن مقتبساته الأخيرة أنه أغار على نقدي لكتاب صديقي محمود تيمور وعنوانه (فرعون الصغير) فقد كتبت في مقتطف يولية الأخير (ص 252 أول باب المكتبة): (في فرعون الصغير تخف وطأة الواقعية بحيث لا تملك على بعض القصص مداخلها ومخارجها. ففي القصة الأولى وعنوانها (فرعون الصغير) يشغل خيال المكان الأول حتى إنه يردّ القصة إلى لون معروف هو اللون التخيلي وفي القصة (المخ العجالي) يسطو اللون الباطني المستمد من علم النفس الفرويدي على المجري الواقعي للحوادث والأحوال). ثم كتبت: (بهذه

المجموعة من الأقاصيص تأخذ طريقة الأستاذ محمود تيمور، على ما يبدو للناقد، في جهة جديدة. وذلك أن تيمور كان منصرفاً إلى طريقة الواقعية)
وإليك الآن ما نشره الأستاذ أدهم في الرسالة (العدد 319 ص 1621 و1622): (. . .
وأقصوصة فرعون الصغير يبرز فيها اللون التخيلي حيث يتغلب على بناء الأقصوصة الجو الخيالي. وفي الأقصوصة الثانية وهي (غريم) تجد تيمور بك يقيم هيكل أقصوصته على أساس من تنازع العواطف. وهذا اللون الباطني، وإن كان خفيفاً في هذه الأقصوصة، فهو يعود إلى علم النفس الحديث، والتأثر بالفرويدية واضح فيها) (ص 1622 ع1 س 9 - 12؛ 20 - 24). ثم كتب: (وهكذا يمكنك أن ترى من مجري حوادث الأقاصيص أن التخيلية من جهة والباطنية من جهة أخرى أخذت تطغى على الواقعية الساذجة ولكن بدون أن تفوقها وهذا التطور عند تيمور بك طبيعي. . .) (ص1622 ع2 س3 - 6) ذلك ما جاء على قلمي في أول يولية وما جرى به قلم أدهم في الرابع عشر من أغسطس. والموازنة ميسورة للقارئ
على أني أظن أن فطنة المقتبس حدثته بأن يبدَّل من الأصل فمسخه. ألا تراه ينسب (اللون الباطني) الذي أصبته في قصة (المخ العجالي) إلى قصة (غريم)؟ ثم ألا تراه يجعل الكلمة
الإفرنجية إزاء التعبير العربي (اللون التخيلي) على حين جعلت إزاءه كلمة وكأني بالمقتبس أراد أن يستر طرفاً من اقتباسه فيأتي بشيء من عنده، شأنه مع حديثي في الرمزية إذ كتب: (لوامع النفس وبوادرها)، وفي الأصل: (اللوامع والبواده) فأجرى البوادر مجرى البواده (راجع الرسالة رقم 312 ص 1272). وكما أنه مسخ هذا التعبير من قبل كذلك مسخ نقدي لفرعون الصغير
وبيان ذلك أن قصة (غريم) لا شأن لها باللون الباطني. وأظرف من هذا استبدال الكلمة الفرنسية في نقدي. ذلك أن الكلمة التي تنظر إلى اللغة الألمانية هي وأما التي أتى بها المقتبس فتدل على شيء آخر. وحسبك أن تعرف أنها تقع صفةً للغات المنحدرة من اللاتينية كالإيطالية والبرتغالية والرومانية، وصفةً لفن العمارة في البلدان اللاتينية من المائة الخامسة إلى الثانية عشرة
والآن دعني أقص عليك كيف زلَّ قلم المقتبس هنا، والقصة مُلحة، والملح في هذه الأيام السود من نعم الله
قرأ المقتبس في المقتطف كلمة إزاء هذا التعبير: (اللون التخيلي)، فقال في نفسه: أُغير على التعبير العربي، لأن العربية ليست لغتي الأصلية وفي ذلك معذرة، ولكني أبدل الكلمة الفرنسية. وإذ المقتبس لا يعرف من الفرنسية إلا الشيء القليل كما بينت في الرسالة (رقم 314) والمقتطف (أغسطس 1939) طلب معنى الكلمة الفرنسية في معجم إنجليزي، ظناً منه أن الكلمة بمعنى واحد في اللغتين لأن هجاءها واحد فيهما. ولكن كيف يأتي المقتبس بشيء من عنده وهجاء الكلمتين واحد؟ فتحول إذن إلى اللغة الألمانية وطلب في معجم من معجماتها ما ينظر إلى الكلمة الإنجليزية: له كلمة وذلك لأن الإنجليزية تقع فيما تقع صفةً لفن العمارة المذكور فوق هذا الكلام، وللغات المنحدرة من اللاتينية
بشر فارس
بين الدكتورين بشر وأدهم
أرسل إلينا منذ أسبوعين الدكتور إسماعيل أدهم رداً مسهباً على الدكتور بشر فارس جعله فصل المقال فيما شجر بينهما من خلاف، ولعلنا نستطيع أن ننشر منه في العدد المقبل.
حول الشراة
جاء في الرسالة عدد 318 في (خليل مردم بك) لأستاذ جليل هذه الكلمة
لولا أن يغضب أو أن يشرى صاحبنا الأستاذ أبو اسحق اطفيش نزيل القاهرة، ومن) علماء إخواننا الأباضية وفضلائهم لشننا على (الشراة) غارات، وفندنا (مقالاتهم) (الخارجية بمقالات في (الرسالة الغراء) متلاحقات
أيها الأستاذ الجليل - إني أنزهكم أن تتركوا ما تعتقدونه حقاً لغضب أستاذ أو صاحب. وهل يصح للموازين والنقاد الذين يسخطهم تفضيل شاعر على شاعر بباطل أو باعتقاد أنه باطل - إهمال فريق من الأمة له تاريخه وماضيه المبنيان على أساس مفند؟ سامح

الله الأستاذ زكي مبارك فقد باع جميع أصدقائه لقوله حق يقولها أو فكرة يعتقد صوابها: فأرادنا كيف تنبذ الصداقات وتتضاءل قيم الرجال بجانب الحقائق
أنا أعتقد أن الأستاذ أبا اسحق لن يغضبه ما تكتبه، كما أعتقد أنه سيرد عليك إن تنكبت السبيل السوي
إن الأستاذ إبراهيم اطفيش كغيره من الأباضية ليسوا فئة متعصبة لرجال أو طوائف على بطلان وضلال؛ وإنما يتعصبون لحق يرونه مع إمام أو طائفة، فإذا اتبعوا مذهباً أو أخذوا بقول إمام - فلأنهم درسوه فوجدوه صحيحاً فاتبعوه. ولو أبنت لهم اليوم بطلان ما يذهبون إليه لنبذوه ورجعوا إلى الحق. ولا تخش أن تلاقي منهم عناداً ومكابرة؛ وإنما عليك بالحجة تجدهم لك أطوع من البنان
فأقدم أيها الأستاذ على عملك، ولا تخش غضباً، ما دمت مع الحقيقة والواقع
الشراة - يا أستاذ - طائفة من الناس حيروا العالم ودوخوا الدنيا وملئوا التاريخ ولم تخلص حقيقة القول فيهم إلى اليوم. ولقد يسرنا جداً أن تكتب فيهم مقالات متلاحقات تظهر ما أنبهم من أمرهم وجار من حكمهم وزاغ من عقائدهم، فتكون بذلك من المحسنين إلى التاريخ والحقيقة، ومن المحسنين إلى الشراة واتباع الشراة
ولقد يسرون - وهم في الأجداث - بما تكتبونه لأنكم تطلبون حقا - وقد كان شعارهم طلب الحق؛ فإن فعلتم أسديتم إليهم والينا جميلاً تطوق به الأعناق إلى يوم يحاسب على الجميل و (لا حكم إلا لله). وهل أجمل من إظهار حق غمطته السنون وغمرته
(مقالات خارجية)
مدة ثلاثة عشر قرناً؟
أراني قد أطلت وجرني الحديث إلى ما ليس من غايتي، فهل تسمحون أن أطلب إليكم إظهار اسمكم، فلطالما رغبت في معرفتكم، وكيف لا أرغب وقد كشفتم لنا ببحوثكم القيمة أنواعاً من حقائق أخفاها الدهر مما يدل على عظيم اطلاعكم وحسن تمحيصكم. . . وتقبلوا خالص احترامي. . .
القرارة: (جنوب الجزائر)
علي معمر الطرابلسي
برنامج وزارة الشئون الاجتماعية
وافق حضرة صاحب المعالي الأستاذ عبد السلام الشاذلي باشا وزير الشئون الاجتماعية على برنامج هذه الوزارة. ونحن نذيع نصه الكامل فيما يلي لاتصاله الوثيق ببرنامج الرسالة وهو:
1 - وضع تشريع لإلغاء البغاء ومحاربة الدعارة السرية
2 - العمل على إنقاذ الفلاح وإسعاده من طريق التعاون الإجباري وإنشاء بنك للتعاون المركزي
3 - وضع تشريع لحماية الطفولة المشردة يراعى فيه سلب الولاية من الآباء غير الصالحين للإشراف على أولادهم
4 - وضع تشريع لصيانة النسل وذلك بوضع رقابة خاصة على الحالة الصحية للأزواج قبل عقد الزواج بقصد العمل على إعداد جيل قوي شديد
5 - وضع تشريع لمنع الأطفال والبنات إلى سن معينة من التردد على السينما إلا في حالة عرض أفلام تعليمية تهذيبية أو أفلام خالية مما يؤثر تأثيراً سيئاً في الخلاق ومنعهم من ارتياد محلات الخمور وصالات اللهو وأمكنة القمار ومنتدياتها
6 - وضع تشريع لمقاومة التسول والقضاء على أسبابه
7 - الانتفاع الكامل بالإذاعة والعناية بنشرها في القرى لكي تتصل الحكومة بالفلاحين اتصالاً مباشراً وذلك بأن يخصص لهم برنامج خاص يبدأ بالقرآن الكريم ثم بنصائح صحية
وزراعية وأخلاقية واجتماعية، وكذلك بعض أسباب التسلية التي تسري عنهم وتتفق مع حالتهم
8 - العمل على توحيد موارد الإحسان وجمعها وتوجيهها الوجهة النافعة، وتنظيم الجمعيات الخيرية والاجتماعية بما يكفل إنعاشها وبقاءها وتوجيهها الوجهات الخيرية الملائمة لحالة البلاد الاجتماعية
9 - محاربة البطالة وتوجيه الشباب إلى العمل الحر وتحسين حالة العمال وتنظيم

شؤونهم ورفع مستوى معيشتهم
10 - بحث حالة السجون وتوجيه نظمها وجهة اجتماعية صحيحة، واستخدام المسجونين في أعمال التعمير كإصلاح الأراضي الحكومية والعمل على عدم عودتهم للإجرام وذلك بمعاونتهم بعد انتهاء مدة العقوبة على كسب عيشهم من طريق شريف
11 - توجيه الشعب توجيهاً يحقق وحدة البلاد وتمكين روح الإخلاص والتضحية للوطن والعرش والعمل على سلامة الأخلاق وتقوية الروح القومية وروح التعاون والاقتصاد بين طبقات الشعب بوسائل الدعاية المختلفة كالصحافة والخطابة والتمثيل والسينما
12 - الأخذ بالروح الصحيحة للتعاليم الإسلامية للوصول إلى مقاومة فوضى العلاقات الزوجية وما يترتب على هذه الفوضى من تفكك روابط الأسرة وانهيار العائلة
13 - تنظيم النشاط الرياضي للشعب وتنظيم أوقات الفراغ واستثمارها
14 - توجيه بوليس الآداب للعمل على صيانة الآداب العامة ومحاربة البدع السيئة والمنكرات في غير تعسف ولا جمود وزيادة قوته ليستطيع مواجهة هذه الأعمال
15 - بحث توحيد الزي وتحسينه بما يلائم أحوالنا وعاداتنا وجو بلادنا

لا تقولي نسيت

في قصيدتي (لا تقولي نسيت) التي تفضلتم فنشرتموها برسالة الأسبوع الفائت ورد هذا البيت:

من له. . . آه. . . من لأنغامه السود ... إذا شبت الليالي شجونه؟

والبيت يا سيدي ليس لي إلا قافيته، بل هو لصديقنا شاعر الشباب الأستاذ محمود حسن إسماعيل. . . وقد نسيت أن أقوس عليه. لذلك وجب التنبيه

عبد العليم عيسى

سؤال؟

إلى (الأستاذ الجليل) اللغوي الكبير

تحية طيبة؛ وبعد فهذا سؤال في نظري عويص سألنيه صديق فعجزت عن الجواب عنه بعد أن بحثت فيما لدي من المعاجم، فلم يسعني إلا أن ألجأ إليكم للإجابة عليه وهو: تسمى العرب فاقد البصر أعمى، وفاقد السمع أصم، وفاقد الشم أخشم. فماذا يسمى فاقد الذوق؟

أرجو الجواب على صفحات رسالتنا المحبوبة ولكم الشكر

ع. م. ح

كتاب البستان

أعاد الناشر المعروف (مكميلان) طبع كتاب البستان لأديب العربية الأستاذ الجليل والعلامة المحقق محمد إسعاف النشاشيبي بك. فرأينا أن نطرف قراء الرسالة بمقدمته ليعرفوا طريقته فيه وغايته منه. على أن من قرأ مقالات النشاشيبي لا ينكر علمه وفضله، ومن تتبع نقل الأديب للنشاشيبي لا يجهل ذوقه وعقله

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على محمد

ما الكبير بأحق بالعناية بشأنه من الصغير. وليس الشادي بأحوج إلى كتب في العلم والأدب يحتفل فيها العلماء من البادي. بل الثاني في هذا الأمر هو الأول، (والأهم مقدَّم) وإن على الذي يُلقنه في بدء تثقيفه المعوّل. وقد فطن لذلك فريق من عرب الدهر القديم وإفرنج هذه العصور، فخصوا تلك الطائفة من الطلاب بكتب جمة محكمة، وشرعوا لها في التهذيب شرائع بينة؛ فمشى الطالب في طريق معبد حافظ. وإني لما تقربت إلى عربيتي بتأليف مجموعتي (مجموعة النشاشيبي) لكي يرويها نشءُ العرب، ويستظهرها الشادون من الطالبين، ورأيت أن أجمع (لتلاميذ المدارس الأولية والابتدائية) أقوالاً قديمة عربية غير منقولة عن لغة غربية (ومن ورد البحر استقل السواقي، ومن لقي جالينوس استجهل الرواقي) وقد تحريت أن يدنو إليهم منالها، وتسهل لهم معانيها، ولا يلؤُم نظمها وسبكها.

والكلام يلؤم (يا فتى) كما يلؤم المرء، واللؤم شر الخلائق، واللئيم شر الناس، ولا خير في قول لم يكرم لفظه وتأليفه، وإن اجتافته حكمة الحكيم. وقد ضل السبيل جل الجامعين ولم يسلك النهج إلا الأقل. وظني أن سينشط ذهن الطالب الصغير لما أطرفته إياه فلا يجهد يوم الاستظهار نفساً ولا يدهمه ما لا يفهمه إلا من بعد سنين. ولله (القاضي أبو بكر بن العربي) الذي عيَّب في (كتاب رحلته) سنة المؤدبين في

تدريس الصغار (الكتابَ) الكريم المعجز ودلهم على المهيع المستبين. فقد تنبه على هذا الأمر الجلل والقوم رقود، وهدى إلى الحق وهم في ضلال بعيد.

محمد إسعاف النشاشيبي

المسرح والسينما

من التاريخ

النهضة المسرحية في مصر

ونصيب الفرقة القومية منها وواجبها حيالها

رواية الذبائح

كانت رواية غادة الكاميليا خيراً وبركة على المسرح المصري وبسببها اتجهت الأنظار إلى فرقة رمسيس، وارتفع قدرها وكبر شأنها، فازداد النشاط فيها وعظم الإنتاج.

ولا نتعرض للعدد الوفير من الروايات التي أخرجتها، فإن هذا ليس سبيلنا، وإنما يكفي أن نضع أمام نظر القارئ أسماء بعض هذه الروايات:

غادة الكاميليا، المجنون، كرسي الاعتراف، الاستعباد، الذبائح، ناتاشا، الجبار، راسبوتين، توسكا، الصحراء، فيدورا، انتقام المهراجا، القضية المشهورة، ملك الحديد، النسر الصغير، الولدان الشريدان، الذهب، في سبيل التاج، عطيل، يوليوس قيصر، المائدة الخضراء، جاك الصغير، الشرك، البرنس جان، نيرون، لوكاندة الأنس، حانة مكسيم، الرئيسة، القبلة القاتلة، الفريسة. . .

وليست هذه الروايات إلا قليلاً من كثير أخرجته الفرقة في أعوامها الأولى التي نالت فيها نجاحاً منقطع النظير في تاريخ المسرح المصري

وكما كانت (غادة الكاميليا) سبباً من أسباب اهتمام الجمهور بالمسرح كذلك كانت رواية (الذبائح)، بيد أنه كان لهذه أثر يخالف تلك، ونتائج خطيرة غيرت من اتجاه سير النهضة وقلبتها رأساً على عقب.

لم تكن الذبائح رواية عادية، بل كانت حدثاً في تاريخ التأليف المسرحي، فاللغة التي كتبت بها غريبة كل الغرابة، هي لغة عامية صيغت في ألفاظ ومعانٍ عربية، أو دخلت عليها ألفاظ ومعان أرقى من مستواها اللفظي ولهجتها الشاذة، وهي بعد ذلك ذات رنين عجيب، أحياناً تراها كأنها نوح النائحات، وأحياناً تسمعها كأنها شدو الحمائم، وأحياناً أخرى تنظرها فكأنها حكم وأمثال للحكيم سليمان أو لغيره من الحكماء، ثم لا ترى بعد هذا أنك في جو

تعرفه، ولا تشعر أنك في حياة ألفتها، بل أنت في دنيا غريبة وحياة غريبة، وبين أشخاص غرباء، وكأنهم خارجون من القبور، أو آتون من بعيد حيث الظلام الدامس يعم الأرجاء، والغموض والإبهام يلابس الأشياء. هم مخلوقات آدميون في الظاهر لكنهم ليسوا من أهل هذه الدنيا. لعلهم من سكان المريخ، ولعلهم من سكان غير المريخ من هذه العوالم التي تجري في نظامها الرائع مع أرضنا سيدة هذه العوالم بلا منازع.

فلم يكن غريباً أن يكون لهؤلاء الأشخاص أثر في الجمهور، ولم يكن غريباً أن يفتتن بهذه الرواية الناس، وأن يترنم بعضهم بألفاظها الغريبة في منتدياتهم، حتى في الطرقات كان البعض ينادي أمينة رزق وفتوح نشاطي بطلي الرواية بتلك اللهجة الغريبة التي تقرع الأسماع.

وكما أثرت الذبائح في عقول الجمهور، كذلك أثرت في عقول أصحاب المسرح وسادة النهضة فيه، وبدأ يوسف وهبي ينسج على منوالها، فكتب (الصحراء)، بيد أنه حاول إخفاء الحقيقة فكتبها بلغة عربية ليدخل في روع الناس أنه غير مقلد على حين أن كل شيء فيها قد نم عن تأثر صاحبها بالذبائح وأسلوبها ولهجتها وما فيها من بكاء وعويل.

(للكلام بقية)

ملاحظات

اختيار الروايات في الفرقة القومية

نعود إلى هذا الموضوع فنقول إن الرواية (محمد علي الكبير) التي قبلتها لجنة القراءة وقبض أصحابها ثمنها قد رفضها أفراد الفرقة لعيوب فنية وموضوعية لمسوها فيها، فالرواية عبارة عن عرض تافه لسيرة منشئ مصر الحديثة، وهو عرض غير جدير بذلك البطل الذي أظهره المؤلفان بمظهر السفاح الذي يجتذب إليه أعداءه ليغدر بهم، هذا إلى أنها من الوجهة المسرحية لا قيمة لها

وهنيئاً للمؤلفين ما قبضا من ثمن!
خطوة مباركة
علمنا من مصدر نثق به أن لجنة من الممثلين والمخرجين بالفرقة القومية قد عهد إليها
بصفة غير رسمية قراءة الروايات التي تقدم للفرقة وانتخاب ما يصلح منها لعرضه على اللجنة الرئيسية. هذا بلا شك يعد خطوة مباركة لها ما بعدها من نتائج حاسمة في اختيار الروايات الذي يعد عقدة العقد ولغز الألغاز في هذه الفرقة. ونحن نرحب بهذا العمل ونرجو أن يصبح رسمياً على أن ينضم إلى هذه اللجنة التمهيدية فريق من النقاد للانتفاع بخبرتهم ودرايتهم بشئون المسرح.
سراج منير
ترامى إلينا أن الأستاذ فتوح نشاطي توسط في الصلح بين الأستاذ سراج منير وإدارة الفرقة القومية، فعاد سراج إلى عمله كمخرج وبدأ فعلاً في إخراج (مصرع كليوبطرة)، ونحن نحمد هذه الروح التعاونية بين أفراد الفرقة ونتمنى دوامها.
الفرقة الموسيقية
يقولون إن هناك فكرة لتوفير أكبر عدد ممكن من أفراد الفرقة الموسيقية التي تعمل مع الفرقة القومية.
وبهذه المناسبة نذكر أن عدد أفراد هذه الفرقة 15 عازفاً، وهم يكلفون الفرقة القومية ألفاً من الجنيهات كمرتبات
وفي الواقع أن الفرقة القومية ليست في حاجة إلى فرقة موسيقية بهذه الضخامة لأنها لا تخرج روايات أوبرا أو أوبريت
مصر الخالدة
قدم الأستاذ فتوح نشاطي إلى إدارة الفرقة القومية، رواية (مصر الخالدة)، وهي مأساة فرعونية أشاد فيها بالعبقرية المصرية القديمة
الإخراج في الفرقة القومية
بدأ العمل في إخراج الروايات وتوزيع الأدوار على النحو الآتي:
عهد إلى الأستاذ فتوح نشاطي إخراج الروايات الآتية:
(ماريا)، وهي درامة إسبانية عنيفة تصور رجلين يتنازعان حب امرأة.
(الأمل)، وهي رواية مقتبسة بقلم الأستاذين: سليمان نجيب وعبد الوارث عسر، وهي عبارة عن تصوير للجيل الحاضر الذي يريد أن يشق طريقه إلى الحياة بصدق وعزم، دون أن يأبه للتقاليد الموروثة.
وعهد إلى الأستاذ عمر جميعي بإخراج (امرأة تستجدي)
كما عهد إلى الأستاذ سراج منير بإخراج (مصرع كليوبطرة)
وبهذه المناسبة نذكر أن الروايات الثلاث (ماريا) و (مصرع كليوبطرة) و (الأمل) قد وزع أدوارها المسيو فلاندر
ثقافة مخرج
كتب أحد المخرجين كلمة يدافع بها عن السيدة فاطمة رشدي في نوعها الجديد حيث هبطت إلى فن الصالات فقال: إن موليير حين طرد من فرقة الكوميدي فرانسيز افتتح مقهى أمام المسرح وكان الممثلون يأتون إليه ذرافات ووحداناً يتناولون عنده شرابهم وطعامهم، فلما سويت الأمور بينه وبين إدارة الفرقة بعد سنوات عاد إليها ولم يكن فنه قد تأثر بإدارة المقاهي
وللحقيقة والتاريخ نقول: إن موليير مات قبل إنشاء فرقة الكوميدي فرانسيز ببضعة أعوام لعلها خمسة، وأن موليير لم يفتح مقهى وإنما كان صاحب مسرح اسمه (مسرح موليير)
ولسنا نعيب على مخرجنا الجهل، وإنما نعيب عليه التبجح في إيراد هذا الدفاع وهذا الدليل الذي لا يأتيه الباطل!
(فرعون الصغير)
أخبار سينمائية
في رواية (ماري والوسكا) التي قام فيها شارل بدور (شارل بوابيه وجريتا جاربو) (نابليون) وجريتا بدور (صديقته). وقد زعم بعض النقاد ان شارل تغلب على جريتا في

هذه الرواية والصحيح أن شخصية نابليون كانت أقوى من شخصية مارى والوسكا. وبهذا طغت شخصية شارل على شخصية جريتا.

كارول لومبارد

يقول أصدقاء وصديقات كارول لومبارد إنها ستعتزل السينما لتكون زوجة كلارك جابل ومع أن للحياة الزوجية جمالها إلا أننا نشك كثيراً في أن ممثلة عظيمة مثل كارول لومبارد في إمكانها أن تستعيض عن مجدها بحياة منزلية مهما بلغ من سعادتها. إنها إحدى ملكات السينما فكيف ترضى بالنزول عن عرشها بهذه السهولة. لقد جربت كثيرات غيرها هذه التجربة فعدن بالفشل الذريع

نجمة متروجولدوين ماير. وكانت يوماً ما الممثلة الأولى في هوليود (كونستانس بينيت) وما زالت تحتفظ ببعض مكانتها فيها وتظهر في روايات قوية.

وهي تعد في الطليعة بين قائدات المودة في مدينة السينما

نلسون أدي وجانيت ماكدونالد نجما شركة مترو جولدوين ماير ومن أبرع المغنين في العالم ظهرا معاً في روايات موسيقية كثيرة آخرها (روزالي) التي عرضت في بداية الموسم الماضي.

وأشهرها (أيام الربيع) التي ما توال تعرض حتى الآن في دور السينما الصيفية

جمال الساق

جمال الساق في عالم هوليود من شرائط الجمال الأولى. والمقاييس لجمال الساق تحتم أن تكون كما يأتي:

الكاحل: ثماني بوصات ونصف - سمانة الرجل: اثنتا عشرة بوصة ونصف - الفخذ: تسع عشرة بوصة ونصف

ويقولون إن سر جمال السيقان هو في رياضة المشي العادي

والشهيرات بجمال السوق في هوليود هن: كلوديت كولبيرت جنجر روجرز: أليس فاي. ألينورا باول. بيتي جرايل. مارلين ديتريش

التي نالت عقداً سينمائياً عن طريق التربع على عرش الجمال. فقد (ماجوري ويفر) تسارعت إليها الشركات السينمائية بعد أن أصبحت ملكة للجمال في أمريكا، واستطاع دافيد زانيخ أن يقتنصها ويعطيها دوراً في رواية (شهر العسل الثاني)

العدد 326 - بتاريخ: 02 - 10 - 1939

قالوا استقال طلعت حرب!

قلنا وكيف يستقيل طلعت حرب من عمل هو فكرته وكلمته وطريقته وغايته ورمزه؟ إن في الاستقالة معنى التفريق بين العامل والعمل، ينتسب إليه ما دامت يده فيه، فإذا خلاه لسبب من الأسباب أصبح غريباً عنه؛ ولكن طلعت حرب معناه بنك مصر وشركات مصر واقتصاديات مصر، فلا تجد بين اسمه وبين هذه الأسماء تفاوتاً في الدلالة لا في الذهن ولا في الخارج. فالتعبير بالاستقالة عن راحته الضرورية بعد الجهاد الطويل والجهد الثقيل والحركة الدائبة تعبير مباين لوجه الصواب في اللغة وفي الواقع إن طلعت حرب موجود في مؤسساته وجود الروح في الجسم العامل، لا ينفك عنها ما دامت قائمة؛ وقيامها الثابت بعمائرها ومظاهرها وإنتاجها تماثيل خالدة لهذا الزعيم الوطني العبقري الموفق. وإذا حق للتاريخ أن يجادل في أقدار العظماء وآثار الزعماء الذين برزوا في ميادين النهضة المصرية الحديثة، فإن قدر طلعت حرب، وأثر طلعت حرب، لا يمكن أن يكونا في يوم من الأيام مثار جدل ولا موضع شك. وإذا جاز للتاريخ أن يعزو نجاحنا السياسي إلى أسباب خارجية أهمها اضطراب العالم واصطراع الدول، فإنه لا يستطيع أن يعزو نجاحنا الاقتصادي إلا إلى عوامل داخلية أولها وأهمها كفاية طلعت حرب، وجهاد طلعت حرب!

ولقد كان هذا النجاح الاقتصادي الماثل في بنك مصر وشركات مصر هو وحده الحجة الناهضة على رشد هذه الأمة الكريمة: رحض عن سمعتها الأذى، ودحض عن كفايتها التهم، وجلا عن نهضتها الشكوك، وبدد عن مستقبلها السحب؛ لأنه نسقٌ من الضرورة والقدرة والنظام والثقة لا يقوم على الهوى، ولا ينتظم على الطيش، ولا يدوم على الفساد، ولا يتقدم على العجز، ولا يبلغ شيئاً وراء الزعامة المترددة. ثم انتشر هذا الفوز الاقتصادي وانبسط أفقه واتسع مداه حتى أصبح نهضة اجتماعية شملت مرافق البلد من كل نوع، وتناولت أمور الناس من كل جهة: أجْدت على العلم ففتحت له

أبواب العمل، وعلى التعليم فمهدت له سبل التطبيق؛ وعلى الأدب فاستعملت اللغة في أعمال المال، ونشرت الثقافة بالطباعة والإذاعة والتمثيل؛ وعلى الأخلاق فأحيت في الرجال الثقة وقوّت في الشباب الرجولة؛ وعلى الاجتماع فوقت الأمة شر العطلة المجرمة والأزمة المستحكمة باستخدامها الألوف من الموظفين والصناع والعمال في شركات البنك وفروعه؛ وعلى القومية فخلقت
الروح الجماعية بإنشائها الأعمال التي تقوم على رءوس المال وتَوَزُّع العمل وتساند القوى وتضامن الجماعة؛ وعلى السياسة فكفكفت عنها شِرَّة النفوذ المالي الأجنبي بمنازلتها الجريئة له في ميادينه القوية الحصينة؛ وعلى الإسلام فساعدت على إقامة ركن من أركانه، وكشف الضر عن منزل وحيه وقرآنه؛ وعلى وحدة العرب فوصلتها بأسباب التعاون ووثَّقتها بسلاسل الذهب. والاقتصاد اليوم وقبل اليوم كان دستور الحياة وعلة السعي لها وغاية الجهاد فيها، فلا بدع إذا أثر في كل شيء، وعمل في كل حركة، وهاج في كل ثورة، وصاح في كل نهضة
ذلك هو مدى الاستقلال الاقتصادي الذي يتبوأ عرشه اليوم طلعت باشا حرب، والشعب كله على عُدوتي واديه يعتقد له الحب، ويعرف له الجميل، ويخلص له الشكر، ويختلف في كل شيء إلا في فضله. وتلك منزلة من تكريم الله وتقدير الوطن لا يبلغها إلا الأفذاذ المخلصون الذين شغلهم حب الخير ففكروا وأمِلوا، ثم آمنوا وعملوا، ثم استمسكوا بروح الله وقوة الأمة على عصف الخطوب وإلحاح المكايد، حتى استقر بهم الإيمان على الفوز، واستقام بهم الإخلاص على الطريقة؛ فكانوا مثلاً للجهاد الصابر المثابر الذي يتلمس القوة من جوانب الضعف، ويتطلب الكثرة من أشتات القلة، ويخلق النجاح اليقين من أحاديث المنى، ويرفع في معترك الشبه والظنون هذا الصرح الباذخ فيكون قاعدة للمصلح ومنارة للمتخلف ومثابة للشريد
فليت شعري هل تملك الأحوال الحاضرة عن أن تعوقنا عن أداء الواجب الوطني لهذا الرجل العظيم؟ إنا لا نريد أن نقدم إليه ثروة ولا عمارة ولا شارة؛ إنما نقترح أن تجعل له الأمة يوماً من أيامها الغر الحوافل، تفد عليه فيه طوائفها المختلفة من زراع وصناع وتجار وموظفين وطلبة، فيقدمون إليه شكران الوطن منظوماً في عقود الزهر، وقصائد الشعر، وهزج الأناشيد، وحماسة الهتاف، ليشعر هذا المجاهد البطل، وهو ينفض غبار المعارك الغالبة عن جبينه المتوج، ويمسح أذى السنين الناصبة عن جسده المهدود؛ أن الأمة التي شغل بنهضتها فكره، وقضى في خدمتها عمره، وأنفق فى سبيلها قواه، لم تفرط في جانبه، ولم تقصر في واجبه، ولم تعدُها عن شكر أياديه عوادي الخطوب الراصدة
ذلك الشكر الوطني العلني الحاشد هو في رأينا خير ما يقدم اليوم إلى رجل مثل طلعت
حرب غمره خير الله حتى شرق به، ولزمه مجد الحياة حتى غرِض منه، وخدمه سلطان الجاه حتى زهد فيه؛ فلم يعد يطمع إلا في خفقة الحب من فؤاد شاعر الإخلاص من لسان شاكر
أما قيام حافظ عفيفي على ما أسس وشاد طلعت حرب، فذلك هو ضمان الله وأمان القدر. لأنه بإجماع الرأي أجدر من في مصر لخلافة الزعيم العظيم، وما رأينا الناس يخلدون بثقتهم بعد طلعت حرب إلا إليه، لاعتقادهم أنه كذلك رجل إنشاء وعمل، وصاحب رأي وعزيمة، ورسول إصلاح وخطة، ولم يتول عملاً من الأعمال إلا وضع فيه النظام والدقة والثقة والنزاهة. وكذلك عوّد الله الكنانة أن يلطف بها في القضاء ويُخلف عليها في القدر!
احمد حسين الزيات
جناية أحمد أمين على الأدب العربي
للدكتور زكي مبارك
- 17 -
أراد صاحبنا أن يقسم الأدب إلى قسمين: أدب تركيبي وأدب تحليلي، ثم بنى على هذا التقسيم أحكاماً خواطئ، كعادته في كل ما يتناول من الشؤون الأدبية وإلا فمن الذي يصدق أن التشبيهات تُعاب بحجة أنها صور تركيبية، وبحجة أن الأمم لا تهتم بالتشبيهات إلا في حالتها الفطرية؟

إن أحمد أمين أفرط في تحقير التشبيه اقبح إفراط، ونسى أنه عمليةٌ ذهنية تشهد بقوة الذكاء، ودقة الملاحظة، والقدرة على ضم الصور بعضها إلى بعض
ولو جارينا أحمد أمين في أحكامه الجائرة لأغضينا عن جمال التصوير في قول ابن المعتز:

لا مثلَ منزلة الدويرة منزلٌ ... يا دار جادكِ وابلٌ وسقاكِ
بؤساً لدهر غيرتك صروفهُ ... لم يمح من قلبي الهوى ومحاكِ
لم يحلُ للعينين بعدك منظرٌ ... ذُمّ المنازلُ كلُّهن سواكِ
أي المعاهد منك أندبِ طيبهُ ... ممساك بالآصال أم مغداك
أم بَرد ظلك ذي الغصون وذي الجَنَي ... أم أرضك الميثاء أم ريّاك
فكأنما سُعِطتْ مجامر عنبر ... أوفُتَّ فار المسك فوق ثراك
وكأنما حصباءُ أرضك جوهَرٌ ... وكأن مآء الورد دمع نداك
وكأنما أيدي الربيع ضحيةً ... نشرت ثياب الوْشي فوقُ رُباك
وكأن درعاً مُفْرغاً من فضة ... ماءُ الغدير جَرَتْ عليه صباك

وقد أشرنا من قبل إلى أن أحمد أمين يرى التشابيه ضرباً من الألاعيب، وليس من الكثير عليه أن يرى ذلك فقد رأيتم فيما سلف وسترون فيما بعد أن للرجل طريقة في الفهم تخالف طريقة أهل الأدب
وأُدعم هذا الهجوم بالشاهد الآتي لتسقط حجة من يدّعون أننا نظلمه ونتناسى مكانته الأدبية
قال أحمد أمين إن الأدب العربي جنح إلى التركيب وغفل عن التحليل، وكان دليل ذلك عنده (أن علماء البلاغة العربية عُنُوا بالإيجاز أكثر من عنايتهم بالإطناب، وأعجبوا بجوامع الكلم أكثر من إعجابهم بالكلام الطويل المنبسط، بل إن بعضهم كأبي هلال العسكري فهم أن الإطناب تكرار المعاني وطول الألفاظ، وقال: (إن كتب الفتوح وما يجري مجراها مما يقرأ على عوامّ الناس ينبغي أن تكون مطوّلة مطنباً فيها) فكأنه يريد أن يجعل الإطناب أدب العامة، والإيجاز أدب الخاصة)
ذلك كلام أحمد أمين، وهو يدل على أنه لم يفهم كلام أبي هلال وإليكم البيان:
إن كلام أبي هلال معناه أن الكلام له مقامات، فإن خاطبت رجلاً ذكياً فأوجز: لأن الإطناب في مخاطبة الأذكياء يعدّ من التطويل وهو فضول، وأن خاطبت الجمهور فأطنب: لأن الجمهور مكوّن من عناصر كثيرة تتفاوت في الفهم والتمييز والإدراك، والحزم يوجب أن نطنب حين نخاطب الجماهير لنصل إلى إفهامهم ما نقصد إليه من المعاني والأغراض
ذلك معنى كلام أبي هلال، فهو لا يريد أن يقول بأن الأدب يكون أدب خاصة عند الإيجاز وأدب عامة عند الإطناب، وإنما يريد أن يحدد واجب الشاعر والكاتب والخطيب، ودليل ذلك أن علماء البلاغة مجمعون على أن الإيجاز في مخاطبة العامة خطأ، والإطناب في مخاطبة الخاصة ضياع
وعلى ذلك يكون شرف البيان موقوفاً على فهم مقتضيات الأحوال، فالأديب الذي يوجز حين يخاطب الخاصة ليس أعلى منزلة من الأديب الذي يطنب حين يخاطب العامة، كما يتوهم أحمد أمين الذي يكيل الحقائق الأدبية بأوسع المكاييل، مع أنها لا توزن إلا بأدق الموازين
فمن أين فهم أحمد أمين أن الإطناب يراه العرب من المبتذلات حتى يحكم بزهدهم في الأدب التحليليّ الذي يستوفي عناصر الموضوعات؟
وعاب أحمد أمين على العرب أن يهتموا بجمع الحكم والأمثال وعدّ ذلك نتيجة حتمية للأدب التركيبيّ، ولو كان أحمد أمين من المطلعين على الآداب الأجنبية لعرف أن الاهتمام بجمع الحكم والأمثال هو من الأغراض التي يهتم بها أكثر الشعوب. ويقول أحمد أمين إن (الخطب والكتب في كثير من الأحيان عبارة عن جمل قصيرة مركزة محكمة، كالذي نلاحظه في كتاب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري في القضاء وكخطبة زياد
وخطبة الحجاج، ولو تناول الأدب التحليلي كل جملة من هذه الجمل لصاغ منها صفحات)
فهل يدرك الأستاذ أحمد أمين وجوه الخطأ في كلامه هذا؟

إن خطاب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري من أنفس الخطابات في تحديد أصول القضاء، فهل كنت تنتظر أن يؤلف عمر بن الخطاب كتاباً في مجلد أو مجلدين يشرح فيهما لأبي موسى فروع القضاء؟
وما الذي تعيب على خطبة زياد وخطبة الحجاج؟
أتعيب عليهما الإيجاز؟ وما الموجب للإطناب وقد وقعت الخطبتان على رؤس من سمعوها وقوع الصواعق، وظلتا حديث الناس من جيل إلى جيل؟
ما رأيك في المستر تشمبرلن وقد ألقى خطبتين وجه إحداهما إلى مواطنيه الإنجليز، ووجه الثانية إلى أعدائه الألمان؟
ألا ترى أن هاتين الخطبتين أوجز من خطبتي زياد والحجاج؟
هما أوجز بلا جدال
فهل سمعت أن ناقداً أدبياً في فرنسا أو إنجلترا عاب على المستر تشمبرلن أنه أوجز ولم يطنب؟ هل سمعت؟ هل سمعت؟
!!وا أسفاه
إن المستر تشمبرلن حوله أمة تفهم أقدار الرجال، فقد أعلن الإنجليز عطفهم عليه حين رأوه يبكي جهوده الضائعة في الدعوة إلى السلام
وكان العرب أمة تفهم أقدار الرجال إلى عهد الحجاج. فقد كان مالك بن دينار يظهر عطفه على الحجاج كما أعلن الإنجليز عطفهم على تشمبرلن. كان مالك بن دينار يقول: ما سمعت الحجاج يشكو أهل العراق إلا رحمته منهم!
إن أحمد أمين يقول إن كل جملة من كتاب عمر بن الخطاب وخطبة زياد وخطبة الحجاج يصاغ منها عند التحليل صفحات، ويعد ذلك شاهداً على ميل العرب إلى الأدب التحليلي، فما الذي يقوله أحمد أمين في خطاب تشمبرلن إلى الألمان؟
إن خطاب تشمبرلن قد يصاغ منه عند التحليل مجلدات لا صفحات، ومع ذلك لم يقل أحد بأن هذا الخطاب شاهد على أن الإنجليز لا يحسنون تحليل المعاني والأغراض
إن المستر تشمبرلن يفهم ما كان يفهمه زياد والحجاج
هو يفهم أن الجمل القصيرة المركزة المحكمة هي التي تبقى في الأذهان والقلوب، ويدرك أن التهديد الذي يصبه الخطيب في جملة أو جملتين، والسخرية التي يصوغها في كلمة أو كلمتين، أبقى أثراً من الكلام المطول المبسوط الذي يصاغ في صفحات
أيعرف أحمد أمين ما الذي سطره الفرنسيون على مدخل البانثيون؟
سطروا هذه العبارة الموجزة:
وهي عبارة تُشرح في مجلدات لا صفحات
أيعرف أحمد أمين الجملة المسطورة على باب قصر التين؟
هي الجملة القليلة الألفاظ الكثيرة المعاني الجملة التي تقول:
(العدل أساس الملك)
وهي أنفع من ألف كتاب في شرح مزايا العدل وأثره في حياطة الملك
أيذكر أحمد أمين الآية المكتوبة في جميع المحاكم المصرية فوق منصة القضاء؟
هي كلمة القرآن المجيد:
(وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل)
فهل يعدّ ذلك الإيجاز من الخطأ؟ أم يراه غاية في تذكير الناس بأصول الحقائق؟
يجب أن يعرف الأستاذ أحمد أمين أن العرب لم يستهينوا بالإطناب ولم يعدوه من المبتذلات حتى يحكم بأنهم يرونه من أدب العوامّ لا أدب الخواصّ. فالإطناب أسلوب من البيان يقصد إليه الشاعر والكاتب والخطيب حين يدعو المقام إليه، وهو أسلوب شريف لم يحتقره أحد من أهل البلاغة كما توهم أحمد أمين
وهل كانت سائر الكتب على نمط كتاب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري؟
أين هو من الكتب المطولة التي كان يبعث بها علي بن أبي طالب إلى عماله في الأقاليم البعيدة والأقطار القصية؟ وأين هو من كتب العهود التي صارت بعد ذلك من تقاليد الحكومة الإسلامية؟
وهل كانت سائر الخطب كخطبة زياد وخطبة الحجاج؟
أين هو من الخطباء المطنبين الذي تحدث عنهم الجاحظ في البيان والتبيين؟

أين خطب سحبان الذي كان يهدر بها من الظهر إلى الأصيل؟
أين أحاديث صعصعة بن صوحان؟
أين مشاورة المهدي لأهل بيته، وهي من أنفس الذخائر الأدبية؟
وتحدث أحمد أمين عن الإيجاز الذي التزمه مؤرخو العرب في كتب التراجم وعده من عيوب السليقة العربية، فهل كان ينتظر أن تصاغ تلك التراجم على نحو ما نصنع اليوم، وعلى نحو ما يصنع الأوربيون؟
كان هذا ممكناً لو أن المؤرخ العربي كان يقصر جهده على الترجمة لرجلين أو عشرة رجال، ولكن هذا كان من المستحيل على من يترجمون لعشرات أو مئات أو ألوف
وما الذي قرأ أحمد أمين من كتب التراجم؟
هل عرف كتب الطبقات: طبقات النحويين واللغويين والفقهاء والصوفية؟
إن كان عرف تلك الكتب فليحدثني كيف كان يمكن لرجل مثل السبكي أن يصنع أكثر مما صنع في طبقات الشافعية؟
وليحدثني كيف كان يمكن لأبي الفرج أن يصنع أكثر مما صنع في كتاب الأغاني؟
وليحدثني كيف كان يمكن لياقوت أن يصنع أكثر مما صنع في كتاب إرشاد الأريب؟
وليحدثني كيف كان يمكن للمقري أن يصنع أكثر مما صنع في نفح الطيب؟
لو أن هؤلاء الرجال ترجموا للشعراء والكتاب والخطباء والمؤلفين على نحو ما نصنع اليوم لأضاعوا علينا فرصاً لا تعود أبد الدهر، لأنه كان يستحيل عليهم أن يحدثونا عن جميع تلك الطوائف، وكانت هممهم ستقف عند الترجمة لعدد قليل من أصحاب المواهب في الأقطار العربية والإسلامية
فما الذي يستفيد أحمد أمين حين يغض من أقدار أولئك الرجال، وهو من فضلاتهم يعيش؟
هل يعرف كم ألوفاً من الأدباء والمؤرخين انتفعوا بجهود مؤلف الأغاني؟
هل يعرف أن ابن خلكان الذي احتقره وازدراه أدى مهمة يعجز عنها الأكثرون؟
إن أحمد أمين يعيش في عصر المطبعة، والسبل أمامه ممهدة لنشر ما يشاء، فما الذي صنع، وما الذي صنع زملاؤه في الترجمة لأعلام العصر الحديث؟
ليت دنيانا الحاضرة تعرف رجلاً مثل ياقوت يترجم لأقطاب الفكر والبيان في مصر والمغرب واليمن والحجاز والشام والعراق!
ليت ثم ليت! فأحمد أمين نفسه لا يعرف شيئاً من التيارات الفكرية في البلاد العربية والإسلامية لهذا العهد، وهو محتاج إلى ثعالبي جديد يعّرف الناس بفضلاء عصره كما صنع أبو منصور حين ترجم لأقطاب القرن الرابع
فما هذه الغطرسة على أسلافكم يا أدباء آخر الزمان؟
وبأي حق تتجنون على رجال أدّوا واجبهم أحسن أداء وهم في قلة من أسباب الرزق؟
إن أحمد أمين لم ير بلداً غير مصر إلا وهو مكفيّ المؤونة بأموال الحكومة المصرية. . . فهل يعرف كيف كان يصنع رجل مثل ياقوت وهو يطوّف بالمغرب والمشرق وعلى ظهره حقيبة يحمل فيها ما يتّجر به ليعيش؟
وأبو هلال الذي يستشهد أحمد أمين بكلامه في الإيجاز والإطناب؟
أبو هلال هذا لم يعرف سهولة العيش التي عرفها أحمد أمين، فقد قست عليه الأقدار حتى اضطرته، وهو من نوابغ الأدباء والمؤلفين إلى كسب قُوته من مزاولة التجارة بالأسواق، وهو الذي يقول:
جلوسي في سوق أبيع وأشتري ... دليلٌ على أن الأنام قُرودُ
ولو اضطُر أحمد أمين - لا قدر الله ولا سمح - إلى كسب رزقه من مزاولة التجارة في الأسواق لنضب معين فكره وشُغل عن مضغ الكلام في أدب المعدة وأدب الروح. . .!
أحب أن أعرف ما هي الغاية من تحقير ماضي الأمة العربية؟
أحب أن أعرف لأي غرض شغل أحمد أمين نفسه بالنص على أن عبد الحميد الكاتب فارسيّ الأصل؟
هل يريد القول بأن الأدب التحليليّ وصل إلى العرب من أدباء ليسوا من الأرومة العربية؟
وهو كذلك!
ولكن ما رأيك إذا حدثتك بأن الحضارة العربية هي صاحبة الفضل على عبد الحميد وابن

المقفع وسائر من نبغوا في الممالك الإسلامية وهم من أصول أجنبية؟
إنك تعرف أن أعظم ما بقى من آثار ابن المقفع هو الحِكم المبثوثة في الأدب الصغير والأدب الكبير، وهي حِكم يغلب عليها الإيجاز، فهل تعدُ الإيجاز من عيوب تلك الحكم الخوالد بحجة أن الإيجاز من خصائص البلاغة العربية؟
اتق الله في نفسك، أيها الصديق، فللناس أذواق وعقول وتقول إنك لا تعرف في العربية غير شاعر واحد هو ابن الرومي وكاتب واحد هو ابن خلدون. . . وسترى في الأسبوع المقبل كيف نلتقي في تحرير هذا الموضوع الدقيق.
(للحديث شجون)
زكي مبارك
هل آن للأزهر أن يبعث؟
للأستاذ محمد يوسف موسى
تصفحت بعض أعداد الرسالة الغراء التي صدرت وأنا بفرنسا صيف هذا العام، فرأيت في أحدها كلمة عن إهابه الأستاذ الكاتب علي الطنطاوي بعلماء الأزهر لمساعدته في تأليف كتاب عن الدين الإسلامي، يفيد منه العامة والخاصة والعرب والعجم والمسلم وغير المسلم، وأن هذا الاستنجاد لم يجد له سميعاً فضاع صرخة في وادي كما يقولون
ليطمئن الأستاذ نفسه فليس إلى بلوغ ما يريد من سبيل إلا إذا اعتمد على نفسه وأمثاله من الكتاب الذين يلذ لهم أن يقفوا بعض جهودهم على الدين ونشره، ويجدون التعب في ذلك عذباً جميلاً. أقول ذلك وأنا واثق مما أقول؛ فقد دعوت في أوائل هذا العام المنصرم إلى مثل ما يدعو إليه الآن فما وجدت غير التثبيط وأمثال هذه الكلمات: خَلّ عنك، الله قد وعد بأنه سيظهر الإسلام على الدين كله، وهو ليس في حاجة إلى مثل جهودك وجهودنا! وإلى القراء الأمر على جليته:
نزلت في صيف العام الماضي بفرنسا بعائلة محترمة بمدينة (ليون)، وتأصلت بيني وبينها الروابط لتقارب في العاطفة وتشابه في الميول. ولأنها عائلة محافظة، أعجبها مني قيامي ببعض ما يجب عليّ لله من الصلاة وتلاوة القرآن؛ فكانت أحاديثنا في أوقات الفراغ تدور كثيراً على الإسلام وما فيه من آداب عامة، وشرائع في مختلف مناحي الحياة تصلح للناس جميعاً. وبلغ بهم الأمر أن كانوا يطلبون مني تفسير بعض الآيات التي تشتمل على تلك الآداب والتشريعات، والآيات التي تضمنت أخبار عيسى عليه السلام وأمه العذراء.
وبديهي أن ذلك كان يسرني، وكنت أعمل على تحقيقه جهدي. ثم بدا لي فأعطيتهم القرآن مترجماً للفرنسية ترجمة مناسبة تقريباً.
ولما حان موعد سفري إلى مصر رجوني أن أرسل إليهم كتاباً بالفرنسية جامعاً لأصول الدين التي قام عليها، ومبادئه التي يدعو إليها. . . هنا وقف حمار الشيخ! إذ اعتذرت وأنا خجل بأن مثل هذا الكتاب لم يوضع بعد في اللغة العربية، بل إن أحداً لم يفكر في مثل هذا العمل.
وأخيراً رجعت للوطن بعد أن وعدتهم ببذل الجهد في تحقيق ما يرجون - من وضع كتاب
كهذا يترجم للغات الحية ويوزع في مشارق الأرض ومغاربها بالمجان - لما في ذلك من خدمة عامة وتعريف بالإسلام لدى أقوام لا يعرفون عنه شيئاً، أو لا يعرفون إلا ما ينقله لهم جماعة ساءت نياتهم، فحرفوا واختلفوا وشوهوا الإسلام بما كتبوا.
إلا أني بكل أسف، كما أشرت أولاً، لم أجد هنا مساعداً أو مشجعاً؛ فقد تحدثت في ذلك إلى كثير من إخواني النابهين المدرسين بالكليات - الذين كان لي ملء الثقة في غيرتهم على الدين ونشاطهم في العلم - فكان الإعراض والتثبيط مما جعلني أسوف في الأمر من يوم لآخر حتى انقضى العام الدراسي أو كاد. ويعلم الله أن من بين هؤلاء الإخوان من إذا كلفه أحد الناشرين بمثل هذا العمل أو أشق منه نظير دراهم معدودة لشكر الله على هذا الرزق الذي سيق إليه، ولأعطى من نفسه فوق طاقته حتى ينجز له ما طلب فينقده أجره!
أخيراً جاء أوان السفر هذا العام فسافرت ونزلت بين العائلة نفسها فكان من أول ما سئلت عنه أمر الكتاب الموعود.
لي الله، فما كان أشد خجلي وأعظم حيرتي! وبعد لأي وجمجمة اعتذرت بأن مثل هذا

العمل، لخطره ومسئوليته، يتطلب الأناة وطول الوقت حتى يخرج كاملاً بالقدر المستطاع. فهل يرضى السادة شيوخي وإخواني هذا التقصير في أداء واجب ديني يقوم بأكبر منه وأشق مرات ومرات رجال الأديان الأخرى، بينما نقضي أوقاتنا في قال وقيل وأخبار العلاوات والدرجات والسعي لها بمختلف الوسائل!

يميناً بالله أنه لا يخطر لي بالبال تنقص أحد يشرف بالانتساب للأزهر - فلست إلا واحداً منهم ينوبني ما ينوبهم - وإنما هو أمر أحرجني وأخجلني وآلمني فوجدت فرجة للتنفيس عني، وإنما هو إحساس عميق ببعض ما فينا من عيوب؛ والإحساس بالنقص أول الخطوات للسعي نحو الكمال. على أنه لولا حرصي على أن يظل (الطابق مستوراً) لأشرت إلى بعض المقارنات بين كثير من علمائنا ورجال الدين في أوربا، الذين لقيت منهم الكثير من ناحية الثقافة الواسعة الكاملة، وقضاء العمر في طلب العلم وخدمة الدين بدافع من أنفسهم وتربيتهم التي نشأوا عليها، حتى ليصح بحق الكثير منهم ما كنا استأثرنا به طويلاً من أوصاف مشرفة: حبر، بحر، علامة!

وبعد، فهاأنذا - رغم عملي بالأزهر والدراسة الخاصة التي ندبت نفسي لها بفرنسا والتي تأخذ كل وقتي حتى أيام العطلة - أمد يدي للأستاذ الطنطاوي شاكراً له غيرته التي دعته للتفكير فيما دعا إليه، واعداً حضرته بمساعدته بجهدي القليل وبجهود من أستطيع إقناعهم وضمهم لنا من زملائي، والله يهدي السبيل

محمد يوسف موسى
المدرس بكلية أصول الدين

بحث قانوني مقارن
القتل الخطأ
في الشريعة الإسلامية وفي القانون المصري الحديث
للأستاذ أحمد مختار قطب

من أمد غير طويل ارتفعت صيحات متفرقة تنادي بوجوب بسط القوانين الشرعية على البلاد. . . ولقد وجدت هذه الدعوة مرتعاً خصباً في نفوس عامة الناس. ولما كان من الثابت قطعاً أن السواد الأعظم من الجمهور لا يعرف عن القوانين الشرعية إلا فكرة ضئيلة مشوهة رأيت من ألزم واجبات الرجل القانوني أن يتيح لتلك النفوس فرصة تذوق ما في القوانين الشرعية من صلاح وعدالة وقوة مع مقارنة هذه القوانين بالقانون المصري الحديث

ولقد اخترت القوانين الجنائية لأنها هي التي يظهر فيها الفرق جليّاً بين الشريعة الإسلامية والقوانين الحديثة، ولأنها من جهة أخرى ألصق القوانين بالحياة البشرية.

وسأبدأ أبحاثي بجريمة القتل بنوعيها سواء الجريمة العمدية أو غير العمدية فنبدأ الآن بجريمة القتل الخطأ في الشريعة الإسلامية ثم في القانون الحديث حتى يتسنى لنا أن نحصر أوجه الشبه وأوجه الخلاف بين التشريعين

في الشريعة الإسلامية

أحكام هذه الجريمة مستمدة من الآية الكريمة: (وما كان لمؤمن أن يقتلَ مؤمناً إلا خطأ؛ ومن قتل مؤمناً خطأ فتحريرُ رقبة مؤمنة ودية مسلّمة إلى أهله إلا أن يصدقوا. فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمنٌ فتحريرُ رقبة مؤمنة، وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة. فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهَرَينِ متتابعينِ توبةً من اللّه وكانَ اللّهُ عليماً حكيماً)

أجملت هذه الآية الكريمة أحكام القتل الخطأ، وبالاستعانة بالسنة النبوية وبأقوال الشراح نستطيع تفصيل هذا الإجمال

والخطأ الوارد هنا هو بمعنى عدم القصد. (وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ) وعدم القصد هو مناط الإباحة. . .

فالأصل أن الخطأ لا يعاقب الإنسان عليه (ولا جناح عليكم فيما أخطأتم به) ولكن لما نتج عن هذا الخطأ إزهاق روح بشرية صار إثماً ووجب عقاب فاعله على رعونته وإهماله

ولقد عدّد الفقهاء صور الخطأ وأوجهه فقالوا: إن وجوه الخطأ لا تحصى ويربطها جميعاً

عدم القصد مثل أن يرمي صفوف المشركين فيصيب مسلماً، أو يسعى بين يديه من يستحق القتل من زان أو محارب أو مرتد فطلبه ليقتله فلقي غيره فظنه هو فقتله فذلك خطأ

وعقوبة هذه الجريمة تختلف باختلاف الشخص الذي وقعت عليه، فإن كان المجني عليه مؤمناً من قوم مؤمنين فله حكم خاص؛ وإن كان مؤمناً منتمياً إلى الأعداء ومقيماً معهم فله حكم آخر؛ وإن كان من قوم معاهدين فله حكم مخالف لما سبق

فإن كان المقتول خطأ مؤمناً من قوم مؤمنين فقد قالت في حكمه الآية الكريمة: (ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلّمة إلى أهله)

فبناءً على ذلك يلتزم القاتل بتحرير رقبة مؤمنة وتسليم دية إلى أهل القتيل، وعلّة إلزام القاتل بتحرير رقبة مؤمنة هو أنه قد تسبب بإهماله ورعونته في قتل نفس مؤمنة كانت تعبد الله فتعين عليه إقامة نفس أخرى محلها، ولا يمكنه ذلك بالإحياء فلا مناص إذن من العتق. ولا تنس ما في هذا العمل من حض ظاهر على إزالة الرق وهذا العتق من قبيل الكفارة التي ترفع عن المذنب عقوبة الآخرة.

ولقد اشترط العلماء في هذه الرقبة المؤمنة أن تكون رقبة قد عقلت الإيمان، لأن الغرض هو تنصيب إنسان للعبادة بدل الإنسان المقتول، فلا يصلح إذن إعتاق المجنون جنوناً مطبقاً، ومن كان في حكمه.

والعقوبة الثانية هي دفع دية إلى أهل القتيل عوضاً عن دمه، ولقد ذكر القرآن الدية إجمالاً، ولكن السنة وضحت هذا الإجمال إذ ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن الدية مائة من الإبل

ولقد توسع العلماء بعد ذلك فقالوا: إن الدية قد لا تدفع من الإبل، بل قد تستبدل ذهباً، فهي عند أهل الذهب ألف دينار، وعند أهل الفضة اثنا عشر ألف درهم، وعند أهل الشاء ألف شاة، وعند أهل الحلل مائتا حلة. . .

على أن دفع هذه الدية حق خالص لورثة القتيل إن شاءوا تنازلوا عنه، وإن شاءوا احتفظوا به؛ أما الكفارة، وهي إعتاق الرقبة المؤمنة، فلا تسقط بإبراء الورثة لأنها حق لله تعالى.

أما إن كان المقتول مؤمناً منتمياً إلى الأعداء، وكان القاتل يعتقد أنه كافر، فقد جاء حكمه في الآية: (فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة) أي أن العقوبة هنا قاصرة على الكفارة، وهي تحرير الرقبة المؤمنة، فلا يلتزم القاتل بدفع دية إلى أهل القتيل، وسقطت الدية لوجهين أحدهما أن أولياء القتيل أعداء للمسلمين، فلا يصح أن تدفع إليهم فينتفعوا بها، والثاني أن حرمة هذا الذي آمن ولم يهاجر قليلة فلا دية له لقوله تعالى: والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا.

والحالة الثالثة تتحقق عندما يكون المقتول خطأ من قوم معاهدين أو ذميين، ففي هذه الحال يجب تحرير الرقبة المؤمنة وتسليم الدية إلى أهله. ونلاحظ أن هذه الحالة لا تفترق عن الحالة الأولى، وسبب الإلزام بدفع الدية هو أنه ما دام المقتول من قوم معاهدين فهم إذن أولى بديته

ثم قالت الآية في آخر الأمر: (ومن لم يجد فصيام شهرين متتابعين) أي من لم يجد الرقبة، ولا اتسع ماله لشرائها، فصيام شهرين متتابعين يعفيه من هذا الواجب

هذه هي أحكام القتل الخطأ في الشريعة الإسلامية وقد أوردتها بإيجاز يعفي القارئ من التفصيلات المسهبة

في القانون المصري

أما أحكام القانون المصري بالنسبة لهذه الجريمة، فقد وردت في المادة 238 من قانون العقوبات الجديد ونصها (من قتل نفساً خطأ أو تسبب في قتلها بغير قصد ولا تعمد بأن كان ذلك ناشئاً عن رعونة، أو عدم احتياط وتحرز، أو عن إهمال وتفريط، أو عن عدم انتباه وتوق، أو عن عدم مراعاة واتباع للوائح، يعاقب بالحبس أو بغرامة لا تتجاوز مائتي جنيه)

هذه المادة تنص على أن هذه الجريمة نحتاج لنكوّنها إلى الأركان الثلاثة الآتية:

الركن الأول يتلخص في ضرورة صدور خطأ من الجاني، والخطأ هو سبب العقاب، إذ بدونه لا يكون هناك محل لتوقيع العقوبة. . . ويعتبر الخطأ موجوداً كلما ترتب على

فعل إرادي نتائج لم يردها الفاعل مباشرة، ولا بطريق غير مباشر، ولكنه كان في وسعه تجنبها
ولقد حدّدت المادة أنواع الخطأ وحصرت هذه الأنواع في الصور الخمس الآتية: وهي الرعونة وعدم الاحتياط والتحرز والإهمال أو التفريط وعدم الانتباه أو التوقي وعدم مراعاة اللوائح
ومما هو جدير بالملاحظة أن عبارات القانون واسعة يندرج تحتها كل أنواع الخطأ والركن الثاني ضرورة وجود رابطة سببية بين الخطأ والنتيجة؛ وبتعبير آخر ألا يكون من الممكن تصوّر وقوع الجريمة بدون وجود الخطأ. فإن كان الموت مستقلاً عن الخطأ فلا محل للعقاب.
وبتعبير أكثر دقة يجب أن يكون الخطأ من أسباب وقوع الجريمة
وقد يحدث في الحياة العملية أن يساهم المجني عليه بخطأه في إحداث الجريمة؛ ففي هذه الحالة لا ترتفع مسئولية الجاني بل يظل مسئولاً، وإنما تخف مسئوليته بقدر خطأ المجني عليه وأثره في إحداث النتيجة
أما الركن الثالث فهو ضرورة وقوع الموت، وإلا فلا عقاب مهما كان الخطأ في ذاته. وهذا الشرط بديهي لأن الجريمة لا تتم بدونه، إلا أن الخطأ قد يكون في ذاته جريمة يعاقب عليها القانون
هذه هي الأركان التي تتكون منها الجريمة، وبمجرد استيفائها يجب عقاب فاعلها بإحدى العقوبتين الواردتين بالمادة إما الحبس لمدة لا تزيد على ثلاث سنوات، وإما غرامة لا تزيد على مائتي جنيه
ولقد كانت هذه العقوبة في القانون القديم أخف وطأة منها في القانون الحالي، لأن العمل أظهر أن العقوبة المنصوص عليها في القانون القديم وهي الحبس لمدة لا تزيد على سنتين أو غرامة لا تتجاوز خمسين جنيهاً مصرياً لا تكفي في الأحوال التي يكون فيها الخطأ جسيماً أو التي يتعدد فيها المجني عليهم
هذه هي جريمة القتل الخطأ في الشريعة الإسلامية، وفي القانون المصري الذي هو صورة للقانون الفرنسي، ويبدو لنا أن الشريعة الإسلامية تقارب القانون الحديث في بعض الأحوال وتفترق عنه في غيرها. فهي تشبهه في الوجهة العامة من حيث اشتراط الخطأ وصوره وأوجهه، ولكنها تختلف عنه اختلافاً بيناً في العقوبة. وعندي أن أساس هذا الاختلاف
هوتغير الأوضاع الاجتماعية، فعقوبة إعتاق الرقبة أساسها نظام اجتماعي يسود فيه الرق
ولكني أعتقد أنه بقليل من الاجتهاد نستطيع التوفيق بين القانون والشريعة فنطور القانون إلى أن يوافق الأسس الشرعية التي لا تقبل التغيير، ونطور بعض الأحكام الشرعية التي روعي في وضعها تغيرها بالزمان والمكان
أحمد مختار قطب المحامي
صفحة من التاريخ المغربي المجهول
تاريخ سلطنة الطلبة
للأستاذ إدريس الكتاني
(تتمة ما نشر في العدد الماضي)
وعلى ضوء ما تقدم من حياة السلطان الرشيد نستطيع الآن أن نقول: إن الرشيد كان والده ملكاً على الصحراء بعد أن ولد هو بعام فقط، ثم تولى أخوه محمد الملك يوم أن كان هو لا يتجاوز من العمر عشر سنين، فقد نشأ الرشيد بين أحضان الملكين والده وأخيه؛ ثم إن السن التي يمكن أن يكون الرشيد فيها طالباً بجامعة تبعد عن بلده بعشرات الأيام، لا تقل مطلقاً عن خمسة عشر عاماً إن لم تكن فوقها بكثير. . . والرشيد في مثل هذه السن كانت دولة أخيه وقتئذ آخذة في القوة والانتشار، لكنها لم تبلغ فاسا. . . فلو أن الرشيد سار إلى جامعة القرويين طالباً، لسار إليها على أنه ابن ملك وأخو ملك، لا على أنه طالب عادي كما في القصة الآنفة الذكر. فإذا ذكرنا أيضاً أن الخصومة السياسية بين السلطان محمد ملك الصحراء وولاة فاس قد تكون حجر عثرة في ذهاب الرشيد إلى فاس تأكد لدينا بطلان تلك القصة. . . أضف إلى هذا أن كل من أرخوا للرشيد لم يذكروا أنه دخل فاسا إلا يوم أن دخلها فاتحاً

وهذه أسطورة أخرى لا تقل في التنسيق وبراعة الحبك عن سابقتها. تتحدث الأقوام التي رام على قلوبها الجهل فتبدع قصة من الخيال لتكون تاريخاً لسلطنة الطلبة.
ولماذا نعيب على هؤلاء الأقوام جهالتهم وقد سكت حضرات المؤرخين عموماً عن صفحة ناصعة من التاريخ المغربي المشرق، ولم يستفز شعورهم مغزى تلك السلطنة التي تحمل في جوانبها نبل الغرض وشرف الغاية، وكان خليقاً بهم أن يكتبوا تاريخ (سلطنة الطلبة) بإسهاب ويبدعوا في وصف تلك المظاهر والمناظر أبدع الوصف، وحتى الشعراء - وهذا هو الغريب - كان لهم وجوم غامض أمام هذه السلطنة لست أدري أكان ناشئاً عن عدم تقديرهم لمغزاها السامي أم أن شعورهم كان قد انحط في هذين القرنين المتأخرين فلم يعد منهم من يذكرنا بمثل أبي تمام وأبي العلاء والمتنبي من شعراء القديم، أو بمثل شوقي وحافظ وإقبال
من متأخري الشعراء، وإنما كان هناك شعراء حافظوا بكل أمانة على أوزان الشعر وقوافيه، ولم يخرجوا قيد شبر عن بحور الخليل وأنهار تابعيه، وأحسب من هنا جاءت العلة الأولى أيضاً، فكان مفهوماً ألا يهتم شعراؤنا - سامحهم الشعر - بسلطنة الطلبة وما تحويه من معاني الشعر والخيال. وأنى لهم ذلك الحس المرهف، والفكر المصقول، والقلب الشاعر، وهم إنما دخلوا إلى الشعر من باب الأوزان والقوافي؟!
قال رواة الأسطورة التاريخية: عندما أخذت الدولة السعدية في الانحلال والانخذال بعد وفاة المنصور السعدي، نشأ في كل مقاطعة من أرض المغرب رؤساء وزعماء يتولون حكم مقاطعتهم مستقلين تمام الاستقلال عن باقي المقاطعات الأخرى، فكان من سوء حظ مدينة تازة أن جار على مقاطعتها يهودي يدعى ابن مشعل، وامتد نفوذه إلى فاس فأرغم أهلها على تقديم هدية رسمية إليه عند رأس كل سنة. وليس هذا هو الغريب إنما الغريب أن تكون هذه الهدية عبارة عن أجمل فتاة في أكبر أسرة بفاس تقدم إلى ابن مشعل لتكون واحدة من جواريه وخدمه في قصر إمارته، كدليل على إخلاص الفاسيين له، وخضوعهم لحكمه
يالها من خرافة ما أشد سخافتها وبلاهتها عند من يعرفون المغاربة عموماً وأهل فاس على الخصوص! أتبلغ الجرأة بيهودي حقير إلى أن يصير حاكماً على بلد إسلامي، ثم يتجاوز هذا فيرغم بحكم سلطته بلداً عريقاً في الأسلام على أن يقود له أجمل وأشرف فتياته إلى دار الفسق والهوان؟
عندما تسيل آخر نقطة من الدم العربي الطاهر الذي يعيش على وجه البسيطة في المشارق والمغارب، عند ذلك يصح أن يكون لليهود حكم على العرب، أعني على أرض العرب
إيه يا فلسطين، عشت للعرب وعاش العرب لفلسطين
وعادت الأسطورة فقالت: ثم ما لبث أمر اليهودي أن سمع به شاب عربي صميم يدعى الرشيد بن الشريف فأخذته النخوة العربية ونفخت في أعصابه روحاً من الشهامة والإباء وكان طالباً من طلبة الجامعة القروية
فماذا فعل الرشيد يا ترى؟ لقد جمع حوله أربعين شاباً من صناديد الطلاب، ثم تم الاتفاق بينه وبين القائمين بأمر الهدية التي تقدم لليهودي على أن يكون هو هذه الفتاة العذراء التي
ستهدى هذه المرة، وأن يكون أصحابه الأربعون في مكان (شورة) العروس، والمراد أن يندس هؤلاء الشبان داخل القبب التي تكون في صحبة العروس، وأن يكونوا عوناً لزعيمهم على ما يريد.
وتم كل شيء، فتسلح زعيم الطلبة الرشيد بن الشريف كما تسلح أبطاله الأربعون واتخذوا مطاياهم من الجمال فوقها الأخبية والقبب، وسار موكب الفتاة من فاس إلى ضواحي تازة من غير أن يكون فيه ما يبعث على الارتياب والظنون.
ولو كان لابن مشعل قليل من دهاء الزباء لأنشد مثل ما أنشدت هي في قصتها الشهيرة إذ قالت:
ما للجمال مشيها وئيداً
أجندلا يحملن أم حديداً
أم صَرفَانا تارزا شديداً
ولو أن ابن مشعل قال هذا لأجابه الرشيد في نفسه:

بل الرجال قبضاً قعودا
ثم قالت الأسطورة: ووصل الركب إلى دار ابن مشعل من غير أن تحوم حوله ريبة أو شكوك، فاستقبله اليهودي بسرور الظافر، وغبطة المنتصر، وأمر في الحال بإغلاق أبواب الدار، إذ كان قد استعجل لقاء الفتاة التي لن يجد شبيهتها في بنات إسرائيل، ولكنه ما استعجل إلا لقاء حتفه؛ فلقد حدث ما لم يكن في الحسبان من قبل. لم يشعر المسكين أن رأى جيشاً من الأبطال الغائصين في سلاحهم قد أحاطوا به إحاطة الجزارين بالذبيح؛ ثم سالت الدماء في بطاح دار ابن مشعل، حتى لم يبق بها دم حي وفي صباح اليوم التالي أجمعت كلمة الطلبة الأربعين على مبايعة زعيمهم الرشيد فبايعوه على سنة الله ورسوله ملكاً على المملكة المغربية.
وأراد الرشيد أن يكافئ رجاله الأشداء على ما قاموا به من أعمال جسام، فأقام لهم سلطنة هزلية مؤقتة، وجعلها إرثاً مشاعاً بين جميع طلاب الجامعة القروية - عدا الفاسيين - يتبوأن عرشها أسبوعاً واحداً في العام كله
تلك هي الأسطورة التي تسير على أفواه رواة التاريخ المجهول؛ ولعلنا لا نحتاج إلى تضعيفها من الوجهة التاريخية بعد ما ذكرناه عن حياة السلطان الرشيد وكيفية جلوسه على عرش الملك المغربي العتيد
وبرغم ما في هذه الأسطورة من التزيد والتلفيق فإنها تستند في أصل وضعها إلى شيء من الحقائق التاريخية التي أشار إليها بعض الثقات من المؤرخين، فإنه قال ما معناه: وفد السلطان الرشيد يوم كان يتهيأ للجلوس على عرش المغرب ويعمل على إفهام الشعب أنه خليق بهذا العرش على رئيس يدعى الشيخ اللواتي، وبينا هو في ضيافته إذ رأى رجلاً يصطاد في هيئة الملوك وحوله حاشية من المماليك والفرسان فسأل عنه فقيل هو ابن مشعل من يهود تازة وقد عتا فيها وتجبر. فتنحى الرشيد سريعاً وجعل السكين في فمه (وذلك علامة تأكيد الاستعطاف والاستنجاد في أخذ الثأر ونحوه) واستقبل الشيخ اللواتي، فلما رآه هذا بادر إليه قائلاً: لبيك يا سيدي! نفسي ومالي طوع يديك. فأخبره الرشيد بما رأى ورجاه أن يؤلف له كتيبة من إخوانه الأشداء ليفتك بهذا اليهودي الذي يستطيل بنفسه على المسلمين وهو تحت حكمهم وفي أرضهم. فجرد له الشيخ اللواتي جيشاً من العرب البواسل تبلغ عدته نحو الخمسمائة وتواعد الرشيد مع جيشه الصغير على أن يلحقوا به متفرقين مختفين تحت أستار الظلام
وسار الرشيد إلى دار ابن مشعل التي تبعُد عن تازة ببضعة أميال، واستضاف اليهودي فأضافه. وعندما جن الليل، وهجع الناس كان رجال الرشيد قد أحاطوا بالدار وهم تحت السلاح، وعندئذ تسلل الرشيد من مضجعه، واحتال في دخول بيت ابن مشعل فبطش به في صمت ثم أشار لأصحابه فتسلقوا الأسوار وهجموا من كل جانب، ولم يشعر ساكنو القصر حتى وجدوا أنفسهم مغلولين في الأصفاد لا يستطيعون خلاصاً مما وقعوا فيه
وهكذا نجح الرشيد في هذه المؤامرة وأضاف إلى نفسه ما وجده من الأموال والذخائر فاشتد بها ساعده وقوى نفوذه
ويقف بنا المؤرخ عند هذا الحد فلا يذكر شيئاً عن سلطنة الطلبة. غير أنا نستطيع نحن أن نتم القصة بما رواه أحد العلماء استطراداً إذ قال: إن مولاي الرشيد هو الذي سن نزهة الطلبة التي جرى بها العمل كل سنة بفاس ومراكش أيام الربيع وذلك أنه لما فتك بابن مشعل واحتوى على ما كان لديه من الذخائر جعل لمن كان في معيته من الطلبة نزهة
فاخرة، وقد كانوا نحو الخمسمائة ومن يومئذ اتخذت عادة سنوية مدة حياته وبعد موته هذا هو التاريخ المفصل (لسلطنة الطلبة)، وهو تاريخ طويت صحائفه وجهلت أطواره منذ نشأته الأولى حتى الآن، ومن عجيب الصدف أن يقرأه الشرقيون - والمغاربة منهم - في آن واحد لأول مرة. ولعل من المؤلم أن أذكر هنا أن كثيراً من سلاطين الطلبة الذين سبق لهم أن جلسوا على عروش مملكة الطلاب كانوا يجهلون تمام الجهل تاريخ مملكتهم وعروشهم. ولو سألت آخر سلاطينهم - كما سألت أنا - عن سبب زيارتهم لضريح أبي الحسن علي بن حرزهم، لأجابك بما لا يرضي الحقيقة والتاريخ. ويجهل أن ذهابه لذلك الضريح إنما كان للترحم على الروح الشريف الذي كان السبب في جلوسه

على عرش تلك السلطنة.
ولكن هل كان يضره هذا الجهل المعيب؟
حسبي أن أسكت الآن. وهل كان يهمني من كل هذا إلا أن ألفت نظر أبناء عمومتنا وخئولتنا في أقطار العروبة والإسلام إلى هذه القطعة الواسعة من دنياهم الإسلامية ليطلعوا على صفحة من تاريخ مجدها ألتالد والطريف؟
فيا شباب العرب سددوا سواعدكم لتحيوا مجد العرب
واذكروا دائماً أن لكم قطراً عربياً طالما صدفتم عنه وفيه أمة تريد أن تعيش لتحي مجد الإسلام والعرب
عاش العرب، وعاش الإسلام
(فاس)
إدريس الكتاني
من الأدب الفرنسي
. . .امرأة نوح
للأستاذ ناجي الطنطاوي
تناول الكاتب الكبير (جان نوروا) في هدأة من الليل، في غرفة عمله المنعزلة، الكتاب الذي وقع تحت يده وفتحه، فالتقت نظراته بهذه الجملة:
(. . .عندئذ أمطر الله من السموات على سدوم وعمورة الكبريت والنيران . . .)
(. . .ولكن امرأة نوح نظرت خلفها، فانقلبت في الحال تمثالاً من الحجر
فقرأها، ثم أغلق الكتاب المقدس
لقد كان هذا مع خياله الواسع، نقطة ابتداء كافية جداً. . . لقد وجد قصته. لم يبق إلا أن يسكبها في قالب جديد. ولفت نظره، في جريدة بجانبه، هذا العنوان الضخم:
(انتحار شاب في مطعم ليلي)
فقرأه وابتسم. . . لقد تم له ما يريد، وتألفت القصة. ليس هناك حاجة إلى النظر في أعمدة الجريدة. لقد كان بطله ماثلاً أمامه، يراه بوضوح: فتى ممشوق القد، في العشرين من سنه، أحرقته حمى حب ملتهب، ولم تكن لديه الشجاعة الكافية للفرار فهلك. وما الفائدة من الاطلاع على التفاصيل التي توصل إليها مخبر الصحيفة؟ لقد كانت عناصر الموضوع وتفاصيله التي تبعث فيه الحياة، كانت تتجمع لديه شيئاً فشيئاً: المرأة الأفاقة، والفتى الضحية. . . وأخيراً الحكيم الذي تجده في كل قصة (صورة المؤلف ذاته)
كان جان نوروا يحس لذة فائقة في هذا التلاعب. ولكن كان يخيل إليه أن الكلمات والحوادث تأتيه هذه المرة بأسرع وأحسن من كل يوم.
وانقبض صدره فجاءة. لماذا تسيل الكلمات بهذه السهولة على ريشته هذا المساء؟ وتذكر أن هذه الكلمات ذاتها خرجت من بين شفتيه قبل الآن. . . ومنذ وقت قريب. . . على أثر مأساة كادت تزعزع كيانه
. . .وأخذ يفتش، كالمحموم، بين أوراقه المبعثرة على المكتب
وكان يتمتم: (مستحيل! ليس من الممكن أن يكون (هو) قد وصل)
و (هو) كان ولده الذي تبناه، موريس لا ندري، ابن أعز أصدقائه عليه. شاب حدث، قاد خطواته في الحياة. يتيم، أخلص له، هو، جان نوروا، الأعزب الأناني.
لقد كان يذكر كيف تقبله عنده، وكيف أخذ يملأ قلبه وعقله من عقله وقلبه.
أجل، لم تكن جائزة جونكور التي نالها موريس في السنة الماضية إلا له هو، جان نوروا، ولولاه ما نالها. . .
ولكن ما كان أشد المأساة التي تبعت هذا النصر!
لقد علقت بموريس امرأة خطرة، فتأثر بها بشكل مزعج، بحيث أصبح من الضروري أن يتدخل جان نوروا، بقسوة في الأمر.
أين كانت ستقوده هذه المخلوقة بعد تبديد دراهمه القليلة؟ إلى الجنون؟ إلى السرقة؟ إلى الجريمة؟ ربما
لقد قال له وهو يعظه: (انتقل من هذا البلد. غيّر هذه الحياة. سافر دون أن تلتفت وراءك، وإلا فأنت هالك)
هه!. . . جملة التوراة بذاتها

وكانت تضطرب في يده إشارة تلغرافية من سَيْفون (الهند الصينية):
(ضجرت جداً. . . سأعود. . . أصدق عواطفي. . . موريس)
لقد غاظته هذه الإشارة حين تلقاها. النذل! وأخيراً، لا مناص من الحزم. لشدّ ما ساءه هذا
وهاهي ذي إشارة أخرى بين يديه:
(سَفْرة هانئة. . . سأكون في فرنسا قريباً. . . أعانقك)
وإذن ماذا؟
وكان جان نوروا يلتهم خبر الجريدة بنظراته. ما كان أروع هذه التفاصيل:
(بعد أن تعشى في المكان المذكور مع امرأة ذات هيئة غريبة، وبعد أن ذهبت صاحبته في الصباح الباكر، طلب الفتى غرفة خاصة وأخذ يحتسي فيها وحيداً أكواب الشمبانيا. وبعد نصف ساعة كانوا يخرجون به منها وقد اخترقت صدغه رصاصة. والبحوث الأولى تحمل على الظن بأن الفتى عائد من المستعمرات. ومع ذلك لم يتمكن من معرفة هويته)
وكان صوت خفي يصيح بجان نوروا: (ليس هناك أي شك، هذا الشاب المجنون هو موريس. . . موريس العزيز! وليس عليّ إلا أن أعدوا، لا أدري أين، للتعرف على جثته!)
وكان جان قد وقف
وطُرق الباب في تلك اللحظة. . . فعرته رعشة وتمايل أليس هذا هو الخبر المشؤوم يحملونه إليه؟ وقفز. . .
ومع ذلك كان يتردد ويده على الباب
ولكن القرع عاود. . .
- أبي العزيز، أبي العزيز! هذا أنا! هذا ما كان يصيح به صوت عزيز عليه. . .
وفتح الباب سريعاً. . .
وبدا موريس جميلاً كالشبح
- أنت؟ أنت؟ أهذا أنت؟
- ولم الدهشة؟ ألم أخبرك بقدومي؟
- و. . . قدمت. . . من المحطة؟
- ومن أين تراني إذن أقدم؟
ومد له (جان) ذراعيه، فاندفع فيهما
ثم قال موريس:
- ما أشد سروري برؤيتك! كم ضجرت، باريز. باريز العزيزة! لم أكد أخترقها، حتى أحياني جوها!
وكان سكون. . . كان (جان نوروا) يفترس ابنه بنظراته كما لو كان يحاول الوصول إلى أعماق فكره. ثم صاح به وقد اصطكت أسنانه:
- لماذا عدت؟
فأجابه موريس مازحاً:
- لأني عاشق
- أتجرؤ؟
- ولم لا، يا أبي العزيز؟ فكرت فيها فوجدتها ساحرة ولا أدري في الحقيقة ما الذي يمنعني من زواجها. . .
- هم؟!
وكان جان نوروا قد رفع قبضته. وصاح به:
- أنت مجنون
- أوه، ما هذا الذي تقول؟
- ما أقول؟ ستعود إلى السفر حالاً دون أن ترى (كريستيان) امرأة السوء هذه
فانفجر موريس ضاحكاً:
- ولكنني لا أتكلم عن كريستيان! هه، لقد نسيتها منذ زمن. . . أريد أن أتزوج فتاة - فتاة حقاً - لاقيتها هناك مع أسرتها، وقد عادت إلى باريس
ولم يعد جان يصغي إلى ما يقول، بل كان يضمه إليه

وقال موريس:
- ما أحسنك الآن! لقد قطعت عليك عملك فيما أظن، فأنت فيما أعرف لا تنقطع عن العمل، أليس كذلك؟ لقد قرأت هناك مؤلفك الأخير- بماذا تشتغل الآن؟
فرمى جان نوروا قطعة من الورق على ما كان يكتب، ولكنه لم يصب الهدف، وصاح موريس:
- امرأة نوح! هه، هذه القصة القديمة! مسخت تمثالاً من الحجر جزاء التفاتة! أعجب دائماً برموز الكتاب المقدس!
أما هذه النقطة فلن نتفاهم عليها قط.
فأجاب جان بحرارة:
- كلا، لا تستطيع أن تفهم، ولن تتخيل يا صغيري كم يسرني هذه المرة ألاّ تفهم!. . .
(دمشق)
ترجمة
ناجي الطنطاوي
في الأدب الإنجليزي الحديث
د. هـ. لورنس
للأستاذ عبد الحميد حمدي
السبيل إلى فهم فلسفته - 3
يعجز الكثيرون - ومن بينهم كبار النقاد ومشهورو الكتاب - عن فهم لورنس وفلسفته، وما ذلك إلا لأن سلاحهم هو العقل وحده، وعمادهم هو المنطق والقوانين المنطقية.
فأول ما يجب أن يراعيه دارس لورنس هو أن هذا الكاتب ليس مما يسهل فهمه بالعقل، وإنما إلى جانب ذلك يجب أن يستعين القارئ بخياله وتجاربه وشعوره الجسماني. فلورنس قبل أن يصل إلى آرائه وقبل أن يستخلص فلسفته لم يلجأ إلى العقل أو التفكير بل كان عماده الغرائز الطبيعية ووحيه الرغبات الجسمية- والحقيقة أن لورنس رجل نحسه في دمنا، وفلسفته تختلف عن فلسفة كل من سبقه من الكتاب والشعراء، فهي ليست بناء شامخاً من العقل والتفكير، وإنما هي تجربة أو سلسلة من التجارب أحسها صاحبها في دمه ثم نقلها إلينا في صورة كلمات. وواجبنا نحن عند دراستها أن نرد هذه الكلمات إلى أصلها فنحسها كتجربة تجري في دمنا، كما كان الحال مع صاحبها في أول الأمر، فنحن إذ نقرأ لورنس فإنما نصحبه في رحلة طويلة في عالم جديد علينا.
ولما كانت كتب لورنس هي عبارة عن قصة روح تجول في العالم الإنساني تبرز ما في المجتمع من عيوب، وتحذر الناس من تيار المدنية الحديثة الذي قد يجرفهم إلى هاوية لا يعرف لها قرار، فواجبنا عند دراسة لورنس أن ندرس تجاربه التي على ضوئها وصل هو إلى آرائه وأفكاره التي ضمنها كتبه. ويجب أن نذكر دواماً أن لورنس كان فناناً قبل أن يكون كاتباً، حتى نفهم أن تجاربه وحدها ما كانت لتكفيه، فعمد إلى توسيعها والتعمق فيها، بل والتفاني في وصفها أحياناً. ومن ثم كانت شخصيات رواياته حقيقية وغير حقيقية. فهي حقيقية لأنها منقولة من الحياة وأصلها في الحياة، وغير حقيقية لأنها تأتي من الأعمال ما قد يختلف عما تأتيه مثيلاتها في الحياة. وقد كانت هذه الظاهرة أو هذا التناقض سبباً في فشل كثير ممن حاولوا دراسة لورنس، لأنهم لم يحسبوا لهذه النقطة حساباً
ويختلف لورنس عن غيره من كتاب عصره في توجيه اهتمامه إلى اللاشعور أكثر منه إلى الشعور. ومن ثم كان الاختلاف البيِّن بين شخصيات رواياته وبين شخصيات الروايات الأخرى. فالأولى تعمل مدفوعة بقوانين أعمق من قوانين شخصيات الروايات الثانية، فهي أكثر حساسية وطواعية لقانون اللاشعور من الأخرى، وكان هذا الاختلاف مصدر صعوبة كبيرة في فهم ما يرمي إليه لورنس في بعض كتبه.
ولم يغب عن الكاتب مبلغ ما سوف يلاقيه قراؤه من العناء في فهم هذه الكتب فعمد إلى بسط آرائه وشرحها بطريقة مباشرة لا رموز فيها ولا أحاجي في بعض كتبه التي من أهمها كتاباه عن تحليل اللاشعور وكتابه الذي يحتوي على مقالات متنوعة؛ وأخيراً كتابه الذي طبع بعد وفاته واسمه (فينكس)
ومن أكبر الصعاب التي صادفت لورنس أنه قام يبشر بدين الجسم ويبث الدعاية له

بين قوم عبدوا العقل ونصبوه إلهاً عليهم، وكان لزاماً عليه أن يأتي بالمعجزات قبل أن يستطيع تحويل الناس عما يعتقدون إلى ما يعتقده هو.

رأى لورنس هذه الصعوبة، ولكنه كان لا يعرف لليأس معنى، ولا كان الفشل يعرف له طريقاً رغم أنه كان يصدم المرة بعد المرة، وما ذلك إلا لأنه كان واثقاً من صدق رسالته، ومن الفوز في النهاية. لقد شعر في داخلية نفسه بالصراع العنيف بين الجسم والعقل، كل يريد أن يبسط سلطانه ويسيطر على الآخر. وهذا هو السبب في أن القارئ المدقق يجد دائماً في كل شخصية من شخصيات روايات لورنس تيارين من الحياة: تيار الحياة العادية وتيار الحياة الرمزية، بمعنى أن لورنس كان يرى في كل شخصية قوتين: قوة العقل التي تحاول أن تجعل كل شيء يبدو صحيحاً، حتى ولو عاد على صاحبها بالضر، والقوة الثانية هي قوة الجسم الغريزية، وهذه لا تخدع ولا تُخدع، فما يعود على صاحبها بالضرر تجنبته، وبالعكس تقبل على ما فيه مصلحة صاحبها لا يؤثر فيها مؤثر ولا يثنيها عن طريقها مغر من المغريات الصناعية. ولقد لاحظ لورنس على حياتنا الحديثة أننا بدأنا نضرب بقوة الجسم ورغباته عرض الحائط، وبذلك نمهد السبيل لسيادة العقل ويسطرته علينا. ومن ثم كان الصراع العنيف الذي يجري في داخل شخصيات لورنس التي ترمي إلى كسر قيود العقل والتحرر من ربقة استعباده، حتى توفق إلى الاستماع إلى رغبات الجسم ثم العمل على تحقيقها، وبهذه الطريقة تستكمل الحياة الصحيحة الحقة. ويرى لورنس أن رغبات الجسم لا تكذب قط، فالجسم هو الذي يشعر بالجوع والعطش، وهو الذي يشعر بالفرح والحزن، وهو الذي يشعر بالحب والكره، وهو الذي يشعر بالعطف والنفور، وهو الذي يشعر بالحنو والصد وما إلى ذلك من العواطف التي مرجعها الجسم وحده، وأما العقل فلا تتعدى وظيفته تسجيل هذه العواطف والاعتراف بها وإن حياة الجسم لتظل طبيعية حتى يتدخل فيها العقل، فيحدث الانقسام ويبدأ التفريق بين الخير والشر، وهذا أساس شقاء البشر، وهذا الانقسام هو نتيجة لرغبة العقل في تقييد الجسم والحد من حريته، فهو لا يريد أن يتركه يشعر كما يشاء أو يطلب ما يريد، ثم لا يقتصر الأمر على ذلك، بل يحاول العقل أن يملي على الجسم طائفة من العواطف ينعتها له بأنها الخير، ويحرم عليه طائفة أخرى على اعتبار أنها الشر، وبمعنى آخر يحاول العقل أن يبسط علينا سيطرته ثم يتحكم فينا بعد ذلك فيفرض علينا ما يجب أن نشعر به وما لا يجب أن نشعر به؛ ثم بعد ذلك يفرض علينا كيف نشعر بهذه العواطف التي اختارها لنا، ويستمر العقل على مسلكه هذا كلما أنس من الجسم خضوعاً وخنوعاً، حتى يأتي الوقت الذي تموت فيه كل مشاعر الجسم وعواطفه، ولا يبقى سوى هذه العواطف المصطنعة المتكلفة التي صاغها لنا العقل وخدع بها الجسم. وقد مثل لورنس شخصية الرجل الحديث في روايته المصادرة (عشيق لادي تشاترلي) تحت أسم كليفورد الذي يدعو إلى العواطف المنظمة التي يرسمها لنا العقل، ويدعو كذلك إلى استئصال العواطف الجائشة الطبيعية التي لم يتناولها العقل بالتهذيب والتشذيب

ويرمي لورنس من كتاباته سواء في ذلك رواياته الطويلة أو قصصه القصيرة، أو مسرحياته الأربع، أو كتب أسفاره، أو مجموعة أشعاره، إلى فك قيود الجسم وتخليصه من الأغلال التي أصبح يرسف فيها منذ أمد طويل. ويرى لورنس أن الوسيلة الوحيدة للوصول إلى هذه الغاية لا تكون إلا بترك الجسم يستمع إلى أحلامه، وينفذ رغباته دون أن يكون عليه من العقل رقيب أو محاسب، وبمعنى آخر يريد لورنس أن يوقظ الجسم من سباته العميق، أو يبعثه من رمسه بعد أن دفنته المدنية الحديثة ووارته التراب. ففي القصة القصيرة المسماة: (شمس)، ترى المرأة وقد استلقت عارية، لتهب نفسها للشمس، لأنه

شعرت برغبة جسمها في ذلك، وبذلك تتغلغل الشمس في جسمها وتشعر المرأة بالحياة قد دبت فيه، وتسير، وقد امتلأت حيوية وجمالاً. لم تسأل المرأة نفسها: لِمَ يطلب جسمها الشمس، ولِمَ رغب فيها، لأن هذه الأسئلة هي من صنع العقل وابتكاره. لم تفكر المرأة في العقل ولا في أسئلته أو منطقه، وإنما حصرت كل تفكيرها في جسمها، فعمدت إلى إعطائه ما يطلب، حتى إذا فعلت شعرت كأن ينبوع الحياة قد تفجر من جسمها من جديد، بعد أن جف ماؤه أو كاد. . . ولقد اختار لنا لورنس هذه

المرأة مثالاً نحتذيه ونقلده، بعد أن رأى الناس قد أعطوا العقل أهمية لا يستحقها، ورفعوه إلى مكانة ما كان له أن يرتفع إليها. لقد أولوا أسئلته أذناً صاغية، وكان من أثر ذلك أن تحكم فيهم العقل وتسيطر عليهم، وكل ذلك على حساب الجسم، وكانت النتيجة الحتمية أن بات الناس يعيشون، وما هم بأحياء. خلق لهم العقل حالة وأجبرهم على الاستقرار فيها دون تغيير أو تبديل، وهذا أبعد ما يكون عن الحياة الصحيحة. ونحن نشاهد أثر ذلك في فشل كثير من الزيجات في عصرنا هذا، لأن حبنا في الحقيقة إنما هو وليد العقل لا دخل للجسم فيه، وأما الزواج الحقيقي فأساسه الجسم وعماده الرغبات الجنسية، ولذلك نجد أن زواج العقل الحديث مآله إلى فشل ثم إلى طلاق.

ونحن لا ننكر أن كثيراً من علماء علم النفس أمثال ولجوا باب اللاشعور قبل لورنس وحاولوا تحليله، ولكنهم اتبعوا في ذلك الطريقة العلمية التي تعتمد قبل كل شيء على العقل، وحذا حذوهم بعض الكتاب العصريين أمثال أندريه هكسلي فلم يتركوا باباً دون أن يلجوه، فكتبوا في اللاشعور، ولكن كان رائدهم في ذلك العقل والتفكير، حتى تجاربهم العلمية أعطوها صبغة عقلية محضة، ولذلك فشلوا حيث نجح لورنس لأنه لم يعتمد على غير تجاربه الخاصة التي ترجمها إلى لغة جسمانية صريحة أثارت المجتمع وأقامته ضده

حتى في خلق شخصيات رواياته، لم يستلهم سوى غرائزه وحواسه. وكان هذا سبباً في عجز كثير من الكتاب العقليين عن فهم لورنس وإدراك فلسفته، ولكنهم لم يترددوا في الاعتراف له بقصب السبق وتفوقه عليهم في مضمار العبقرية والنبوغ. فنرى لورنس الحميم أثناء حياته وعدوه اللدود بعد مماته يقول في كتابه المسمى (ذكريات عن لورنس): (إن للورنس من التجارب ما لا طاقة لنا على فهمه أو إدراكه. ولم يكن أصدقاؤه ليستطيعوا أن يجاروه أو يسيروا معه جنباً إلى جنب نظراً لأن ما يراه هو سهلاً بسيطاً يدق على إفهام

الكثيرين ويصعب فهمه). ثم يقول هكسلي في أحد كتبه عن لورنس: (إن صحبة الإنسان للورنس عبارة عن اشتراكه وإياه في مغامرة استكشافية يرى فيها الإنسان كل ما هو جديد عليه. وذلك لأن لورنس يعيش في عالم غير عالمنا، ويرى ما لا نرى، ويستخلص مما يرى ما نعجز نحن عن استخلاصه. والحياة في نظر لورنس ما هي إلا دور نقاهة طويل يشعر فيه الإنسان وكأنه قد خلق من جديد في كل يوم وفي كل لحظة. . . ولورنس يعرف كل شيء عن كل شيء، فهو يعرف الشجرة وكنهها، والزهرة وأصلها، والقمر وما يحيط به من إبهام وغموض، وفي مقدوره أن يتقمص جسم أي حيوان ثم يحدثنا بإسهاب وتطويل كيف يشعر هذا الحيوان وكيف يحس وكيف يفكر)

وهناك نقطة أخرى يحار كثير من القراء في فهمها، لأنها غير مألوفة لديهم، وهي أن شخصيات روايات لورنس سهلة الانتقال من النقيض إلى النقيض في أقصر وقت، فمن اليأس إلى الأمل، ومن الحزن إلى السرور، أو من الغضب إلى الرضا، ومن الانفعال إلى الهدوء. وهذه الظاهرة وإن كنا لا نلحظها في حياتنا العادية إلا أنها موجودة حقاً بين الشعراء والفنانين. ولما كان لورنس نفسه شاعراً فناناً فقد عمد إلى خلع بعض مواهبه على شخصيات رواياته بأن خلق فيهم هذه الحساسية المرهفة. ولورنس ليس من أولئك الذين يرون حداً فاصلاً بين الحقيقة والخيال، بل يراهما متداخلين تداخلاً تاماً، وهذا ما عنى بتصويره في رواياته نقلاً عن الحياة. ففي رواياته (سانت مور) و (قوس قزح) و (غرام النساء) لا يكاد القارئ يتبين الخط الذي يفصل بين الحلم والحقيقة ولا يسهل عليه أن يتعرف من أين تبدأ الحقيقة ومن أين يبدأ الحلم وأين ينتهي كل منهما. وهذا الرأي وإن يكن غير مألوف في روايات كتاب العصر الحالي إلا أنه موجود حقاً في الحياة، ولورنس إذ يكتب يصور لنا الحياة كما يراها هو لا كما اتفق الناس على أن تكون.

وثمة صعوبة أخرى تعترض بعض قراء لورنس وتقعدهم عن فهمه أحياناً، ألا وهي اللغة التي يستعملها في نقل فلسفته غير المألوفة لنا. فلورنس وهو يترجم تجاربه في صورة كلمات يحاول جهد طاقته أن يشرك القارئ في نفس التجربة التي مر بها هو ويشعره بها كأنها تجربته الخاصة، وطريقة إلى ذلك هو صوغها في لغة تتفق والتجربة

تماماً. فهو يبذل المستحيل كي ينتقي من الكلمات ما يناسب كل إحساس جسماني، كما يحاول في
الوقت نفسه أن يتخير التعبيرات التي توافق كل فعل منعكس يصحب هذه الاحساسات الجسمانية. وقد وفق لورنس في محاولاته هذه كل التوفيق مما وضعه في مصاف كبار اللغويين وقادتهم. ولم تكن مهمة لورنس بالسهلة اليسيرة، ولكنه ما كان ليأس أو يستسلم، ولم تقف مجهوداته الجبارة عند حد إيجاد الكلمات التي تعبر أصدق التعبير عن الاحساسات الجسمانية والعواطف العميقة التي تصحبها بل عمد أيضاً إلى خلق لغة خاصة للاشعور. وهذه وإن بدت غريبة غير مألوفة لدى القارئ عند أول وهلة إلا أنه لو درست ووفيت حقها من الدراسة لوجد أنه بغيرها لا يمكن التعبير عما أراد لورنس التعبير عنه. ونقطة أخرى يجب أن نلفت نظر دارس لورنس إليها وهي تمت إلى موضوع لغته بصلة، هي أن هناك بعض كلمات يجب أن تفهم كما فهمها لورنس نفسه لا كما أجمع الناس على فهمها، ومن أمثال هذه الكلمات: (الظلام) و (الكهرباء) و (الرجل) و (المثل الأعلى) و (الغيرية) فهذه الكلمات وأمثالها استعملها لورنس وقصد منها غير ما أتفق الناس عليه ويبوء بالفشل كل من يحاول أن يستخلص من كتابات لورنس وفلسفته طريقة ثابتة للحياة على اعتبار أنها المثل الأعلى، وذلك لأن لورنس كان عدو الاستقرار اللدود، وكان يعتقد أن كل محاولة لخلق طريقة يعيش الإنسان على منوالها طول حياته هي الخطأ كل الخطأ، بل هي الموت بعينه وإنما في صيغة أخرى. فلزام على الإنسان أن يتغّير ويتلوّن حسب مقتضيات الأحوال لا أن يعيش على وتيرة واحدة. ويقول لورنس في أحد كتبه: (لا يجب أن تبقى الوصايا الدينية ثابتة دون تغيير. بل يجب أن تذبل وتذوي وتموت كما تفعل الزهور تماماً، فهي ليست أفضل منها في شيء؛ وإن مقاومة ناموس الحياة لهو الشر بعينه. فإذا أحب الإنسان الحياة حقاً وإذا كان يشعر بقدسيتها يجب أن يعترف دائماً أنها تتطلب منه اليوم غير ما تطلبت بالأمس، وأنها في الغد ستكون مختلفة عما كانت عليه اليوم، فعليه إذن أن يلبس لكل حال لبوسها وألا يقاوم رغباتها ومقتضياتها، وإلا فهو ميت حي، لأن سر الحياة هو الطاعة، طاعة الدوافع التي يشعر بها الجسم ثم العمل على تحقيقها) ويعتقد لورنس أنه ليس بين الحياة والموت وسط وما على الإنسان إلا أن يختار بينهما، وهو بكتاباته يرمي إلى إرشاد الناس كيف يعيشون عيشة هي الحياة نفسها
وبرغم أن المعجبين بلورنس وأتباع مدرسته يتزايدون يوماً بعد يوم إلا أنه لا بد أن يمضي
قرن من الزمان قبل أن يتبوأ لورنس مكانته التي تليق به بين كتّاب العصر الحديث كما حدث للشاعر الإنجليزي وليم بليك من قبل.
(يتبع)

عبد الحميد حمدي
خريج جامعة اكستر بإنجلترا

من ذكريات الحرب الماضية

. . .أخي

للأستاذ ميخائيل نعيمة

أخي، إن ضجّ بعد الحر ... ب غربيٌّ بأعمالهْ
وقدّس ذكرَ من ماتوا ... وعَّظم بطشَ أبطاله
فلا تهزج لمن سادوا ... ولا تشمت بمن دانَا
بل اركع صامتاً مثلي ... بقلبٍ خاشعٍ دامٍ
لنبكي حظَّ موتانَا

أخي، إن عاد بعد الحر ... ب جنديٌّ لأوطانه
وألقى جسمه المنهو ... ك في أحضان خلانه
فلا تطلب إذا ما عد ... ت للأوطان خلانا
لأن الجوعَ لم يتركْ ... لنا صحباً نناجيهمْ
سوى أشباح موتانا

أخي، إن عاد يحرث أر ... ضه الفلاح أو يزرَعْ

ويبني بعد طولِ الهج ... ر كوخاً هدّه المدفع
فقد جفت سواقينا ... وهد الذُّل مأوانا
ولم يترك لنا الأعدا ... ء غرسا في أراضينا
سوى أجياف موتانا
أخي، قد تمَّ ما لو لم ... نشَأْهُ نحن ما تمَّا
وقد عمَّ البلاءُ ولو ... أردنا نحن ما عمَّا
فلا تندبْ فأذن الغي ... ر لا تصغي لشكوانا
بل اتبعني لنحفر خن ... دقاً بالرفش والمعولْ
نواري فيه موتانا
أخي، من نحن؟ لا وطنٌ ... ولا أهلٌ ولا جارُ
إذا نمنا إذا قمنا ... ردانا الخزيُ والعارُ
لقد خمّت بنا الدنيا ... كما خمت بموتانا
فهات الرفش واتبعني ... لنحفر خندقاً آخر
نواري فيه أحيانا
وحدة العمر
للأستاذ حسن كامل الصيرفي
تعال فقد عرفتُ حدود نفسي ... وأدركتُ السعادة ملْء كأسي
تعالَ إليَّ واملأ رَحْب حسِّي ... فإني اليومَ لست خيال أمس!
تعال فقد تحطَّمتْ الكؤوسُ ... ومالت من تَفاعُلِها الرؤوسُ
وشاهتْ في ضلالتها النفوسُ ... تعال إليَّ تتبعُك الشموسُ!
تعالَ إليَّ يتبعُكَ الشُّروقُ ... وتلمعُ في خواطرك البروقُ
فقد سَكِرَ الظلامُ فما يفيق ... وطال على مُناجيكَ الطريق!
تعال، تعال أسمِعني غناءَكْ ... تعال، تعال صوِّرْ لي سماءَكْ
تعال، تعال أشرِبني ضياءَك ... فإني اليوم ظمآنٌ إزاءَك!
تعال فحيرتي أخذت تولِّي! ... تعال فرغبتي بدأت تصلِّي
وتنزع عن تساميها التدّلي ... تعال فأنت أسرَارُ التجلِّي!
تعالَ، تعال طهِّرْني بنارك! ... وأهِّلْني لأمزَجَ في سوارك
تعالَ إليَّ طهِّرْني وبارك ... فؤاداً ظلّ يفنى في جوارك!
تعالَ فأنقذِ الإيمانَ مّما ... يحاول أن يحيلَ الطُّهْرَ إثما
ويمعن في اجتذاب النفس رغما ... فما أقسى الحياةَ، تفيض لؤما!
تعالَ فهذه كأسُ الليالي ... يحوم على حفافيها خيالي
وتلمسها يَدٌ تدري مآلي ... فتقصيني، وأيَّ يدٍ أبالي!
تعال فهذه اليد كم أشارتْ ... وحامت في الظلام وما توارت
وأزهجت النفوس وما استثارت ... يداً أقوى تحطمها. . . فجارتْ
يد الأقدار تزعجني دواماً ... وتشهر في سكينتي السهاما
وتملأ رحب إحساسي زحاماً ... تعال فحوِّل الدنيا سلاماً!
سألزم كُوّتي وأظلُّ أرنو ... إلى الأفق البعيدِ وأنت تدنو
ونور الفجر يغمرني ويحنو ... عليَّ صباحُهُ، وسَناكَ يدنو
ستختلف الحياةُ أمام عيني ... تمرُّ طيوفها وتغيب عني
وتفنى في محيطٍ من تَمَنٍّ ... وأحلام تلوحُ بكل لونِ
وما أنا غيرُ طيف من رؤاها ... تأخَّر حَيْنُه حتى يراها
ويعرفَ ضعفها ومدى قواها ... وتفرحَهُ وتبكيه مُناها
تعالَ فربما جاوزتُ داري ... فتجذبني الحياةُ إلى قراري
فأمشي بين أضواءِ النهارِ ... إلى ليلي، ويهزأ بي انتظاري
تعال وفيّ أحلامٌ وروح ... تعال وفيّ أطيافٌ تروحُ!
تعال وفيّ أضواءٌ تلوح ... تعال وفيّ أعطارٌ تفوحُ!
تعال فقد بلغتُ حدودَ نفسي ... وأطمع أن أحقِّق طيف حدْسي
فهل لك أن تُذيبَ ثلوجَ يأسي ... وتمزج حاضري بغدي وأمسي. .
حسن كامل الصيرفي

النائح الشادي
للأستاذ فؤاد بليبل

كُفَّ النُواحَ فقد أثرْتَ توجُّعي ... إنَّ الذي أشْجاكَ مزَّق أضلُعي
يا نائحاً في الدوْح يندبُ حظه ... دع عنك لحنَ اليأس واهجرهُ معي
قلبي كقلبِكَ موجَعٌ متألم ... أعجِبْ بقلبي الضاحك المتوجِّع
لك يا هزارُ بما أكتِّمُ أسوة ... فاصدح على فنن الأراكة واسجع
كفَّ البكاءَ ودع أناشيد الأسى ... لا أنتَ في قفصٍ ولا في بلقع
وارقُصْ على الغصنِ النَّضيرِ مرجِّعاً ... في كلِّ مؤْنقَةٍ وَرَوْضٍ مُمْرِع
فعلامَ تبكي فوْق أشواكِ الرُّبى ... بين الطول ودراساتِ الأربُع
وأمامَكَ المَرْجُ الخصيبُ ودونَكَ ال ... روضُ القشيبُ وصافياتُ الأنبع
وَحيالكَ الآمال ملأى بالمُنى ... وتجاهكَ الأفقُ الرحيبُ المرتع
لكَ منزلٌ في الدَّوْح لَو أُنزلتُه ... لأديلَ من حُزني وزالَ تفجُّعي
ناءٍ عن الظلم المضيمِ مكانةً ... مخضوضَر الشرفاتِ حلو الموقع
بَسَمتْ لكَ الدنيا فمالكَ عابسا ... وتجهَّمتْ لي فابتسمتُ لمصرعي
أشجاكَ أنك قد شُغفتَ بِوردة ... غذَّيتَها بفؤادِكَ المتقَطِّع
وسقيْتها ماءَ الشئونِ فأينعتْ ... بَين الوُرودِ وليَتها لم تيْنع
وتفتحتْ أكمامُها وتَرَعرَعت ... في الروضةِ الغنّاءِ أيّ ترَعرُع
وكأنما اغترَّت بِفاتِنِ حُسْنِها ... فمضتْ تَتِيْه بهِ بِغيرِ تورُّع
والحسنُ كان ولا يزالُ وسيمه ... شركَ القلوب وقبلةَ المتطلع
وتلاعبتْ فيها الأكفُّ ودُنّست ... بأصابعٍ شتى وأيدٍ قطّعِ
واستنفرَت لمّا رأتْكَ وقد أتى ... زَمَنُ الحصادِ وآذنتْ بتمَنع
فاقلبْ لها ظهرَ المجنِّ فليس في ... أكمامِها للحرِّ أدنى مطمع
وأربأ بنفسِك أن تكون ذَليلةً ... فالمورد ملء الروض فاختر واقطع
واملأ سماءَ الشعر ألحاناً ولا ... تكُ في وجومكَ كالغراب الأسنع
يكفيكَ أنك كنتَ أوّل ناشق ... دون الطيور لعَرفها المتضوّع
يكفيكَ أنكَ قد رشفتَ رضابها ... فاترك بقاياها لغيرك واقنع
دَعها لسافلةِ الطيور غنيمةً ... وانشدْ سواها في مكانٍ أرفع
في موضعٍ أقوى الفساد عراصَه ... وا روعتاهُ لطهر ذاك الموضع!
وإذا ظمئت ولم تجدْ لك منهلا=عذْب المياه كصافياتِ الأدمع
فاطوِ الضلوعَ على الصدى أو مُتْ به ... حرّاً أبيّ النفس غير مروّع
لَلموتُ خيرٌ من ورودكَ موردا ... ولغَ الكلابُ بمائِه المتجمِّع
من كان لا يرضى المجرة مشرباً ... هيهات يغشى كدرة المستنقع
ومغيظةٍ أنحتْ عليَّ بلومِها ... راحتْ تصبُّ عتابها في مسمعي
قالت (وما كذبت) أراك سلوتنا ... ودنت تعانقني فقلت لها ارجعي
فاستَغربت مَّما رأته وهالَها ... ألاّ أطاوعَها على ما تدَّعي
قالت أتذكر حينَ كنتَ مُتَيّماً ... تشكو لهيب فؤادِكَ المتصدّع
وتروح تُقسم أن تصون عهودنا ... فعلام خنت إذن أجب أفلا تعي؟
فأجبتها قَدْ كان ذلك والهوى ... عَفٌّ وثوبُ الطهر غير مرقع
أغراك أني شاعرٌ متعِّبدٌ ... للحسنِ أرعاهُ بقلبٍ موَجع
أهوى، نَعمْ أهوى الجمال مبرقعاً ... بالطهر لا أهواهُ غيرَ مبرقع
أهوى الجمال عفيفَهُ وبعيدَه ... عن كل شائنةٍ وفحش مُقْذع
ولقد أعافُ الشيء مع أني به ... كلف شديد الوجد صعب المنزع
وأعودُ عنه وملء نفسي شهوة ... وكما علمتِ تعفّفي وترفعي
كم منهلٍ يمَّمْتُهُ متجرِّعاً ... سقطَ الذبابُ به فلم أتجرع
قد كان حسنكِ قبل ذلك ملهمي ... واليومَ بات وقد تدَّنس مُفزعي
عودي إلى ما كَنِتهِ من عفةٍ ... أو فاتركيني لا تقضي مضجعي
ودعي التصُّنعَ بالغرام فما أنا ... ممن يبالي بالهوى المتصنَّع
إن تبتغي وصلاً فلستُ بمْبَتغ ... أو تزمعي صلحاً فلست بمزمع

أو كنتِ مولعةً وأنت كما أرى ... تبغينَ تَضليلي فلستُ بمولع
(دار الأهرام)
فؤاد بليبل
رسالة الفن
دراسات في الفن
كنت أحسبك رجلاً!
بهذا ودعت استراوس عشيقة
للأستاذ عزيز أحمد فهمي

كان لاستراوس عاشقتان، وكان لكل واحدة منهما اتجاه في الحب، وكان هو يحبهما معاً، وعلم الله أنه كان يود بكامل صدقه وإخلاصه، لو أنهما كانتا عاشقة واحدة، فقد كانت كل واحدة منهما تكمل أختها، ولم يكن يعيب إحداهما إلا أنها استقلت عن الأخرى بجسد وحدها. . .

ولكنها حكمة الله التي شاءت أن تتبعثرا اثنتين!

تزوجته منهما واحدة، وشالت عنه واحدة بعدما ظلت تحوم حوله زمناً لم تهمل فيه حيلة من حيل الإغراء التي تستولي بها النساء على الرجال، ولم تستر فيه حسنة من حسناتها، وقد كانت كلها حسنات مما يخلب الألباب، ولم تحجب فيه بريقاً تألقت به روحها، بل كانت تحرق فيه روحها لتتألق أمامه متفانية، لعلها تستهويه إذا احترقت ونورت، ولم تدع فيه قوة من قوى الأنوثة التي حبتها الطبيعة بأقواها وأشدها وأحكمها، إلا سلطتها عليه لتخذله بها. . . فما استطاعت أن تصل منه إلى شيء أكثر من أنه أحبها كما كان يحبها، وما كان هذا الذي تقصده، وإنما كانت تريد أن تأخذه أخذ النساء اللواتي تعرفهن للرجال الذين تعرفهم. فلما عجزت وسائلها عن تمكينها من غرضها يئست وأعلنت إفلاسها وهجرته، وقالت له وهي تودعه متعشقة في حنقها: (كنت أحسبك رجلاً). . . قالتها وهي تظن أنها سممته بها، وتركته ومضت. . . لو عرفت أن أشد النساء عداوة لها أوشكت أن تحب استراوس وأن تهيم به، لحذرتها منه رحمة وبراً بالأنوثة أن يذلها هذا الذي كانت تحسبه رجلاً. . . فتبينته غير رجل!

ولو علمت هذه الصغيرة أنها حين رأت استراوس في صورة غير صورة الرجل، رأت منه جوهر نفسه. . . إذن لما تركته ولا هجرته ما دامت تحبه، ولبدأت تعالج الحب على أساس جديد غير ذلك الأساس الذي يقوم عليه الحب بين المرأة والرجل. فقد كان استراوس غير رجل حقاً، ولكنه في كونه التائه كان لا يزال يحب المرأة، ويستسلم لها، ويفزع كلما خيل إليه أنه قد يقضي الحياة من غير امرأة.

وكانت زوجه تعرف فيه هذا، وإن لم تكن ترى شيئاً وراءه فكانت تظله بالذي يطيب لها من ظلال أنوثتها وحبها فاشتد سلطانها عليه، وتحكمها فيه حتى كانت النظرة اللائمة منها تهطل على أشد ثوراته اندلاعاً فتطفئها وتخمد أنفاسها

فماذا كان استراوس؟

كان إنساناً كبقية الناس، ولكنه كان إلى جانب هذا قليل الصلة بالدنيا لأنه كان شديد الصلة بما في أعماقها، وكان قليل الحيلة في اصطناع حركات الناس وسكناتهم لأنه كان شديد الخبرة بدخائل نفوسهم، شديد المراقبة لخلجات هذى النفوس ونبضاتها، شديد الموازنة بين ما يراه وبين ما ينزع إليه من الكمال، شديد النقد لما يبدو له من النقص والعيب. والذي ينفذ هذا النفاذ إلى ما تستره مادة الدنيا لا يمكن أن يشبه الرجال الذين يعيشون على سطحها، والذين يسعون على وجهها سعي الهوام والماشية. وإنما له كيان آخر، دلائله وآياته فنونه. وقد كان استراوس فناناً، وكان فنه يستدعيه إلى الأعماق، وكانت عاشقته التي نفرت منه تغوص معه إلى الأعماق أحياناً فيتزاوجان ولكنها كانت تنسى إذ ذاك أنه رجل وأنها أنثى، فإذا ذكرت هذا طفرت إلى السطح وأرادته أن يسعى إليها طفراً هو أيضاً، ولكنه كان يظل حيث هو ويناديها إليه فلم تكن تستطيع أن تعود إليه إلا إذا نسيت أنها الأنثى التي تريدها هي

فهل لم يكن ميسوراً أن تدرج إلى مغاوره وكهوفه في ثوب من الأنوثة يخلبه؟ قد كانت تستطيع لو أنها تطلعت إلى أزياء الأنوثة في المغاور والكهوف كما كانت تتطلع إلى أزيائها في (فيينا)

في المغاور والكهوف لا يتعلق الناس إلا بالحق، ولا يفتنهم إلا الصدق، ولا يمكن أن

يتبادلوا العواطف إلا بوحي من الطبيعة لا بوحي من الحاجة، وبنداء من الروح لا بنداء من المادة: ذلك أن العواطف لهفات الروح لا البدن. وهم أقرب الناس إلى الأطفال. بل إنهم الأطفال ينمون في طفولتهم، ويكبرون في صغرهم. ولولا هذا لخرجوا من هذه المغاور

والكهوف إلى حيث يستطيعون أن يصارعوا الرجال في الحياة القائمة على وجه الأرض، والتي يتراشق الناس فيها بقنابل من الأباطيل والأكاذيب والحيل والمخادعات إنهم عاجزون، والله مع العاجزين هذا العجز، وهو يعوضهم عنه قوة أخرى هي هذه الحاسة النادرة التي لا يجاهد في سبيل اكتسابها إلا أقل الناس، والتي تقتصد الطبيعة كل الاقتصاد في تهيئة عناصرها في النفوس، والتي يدرك بها هؤلاء الأطفال الكبار العاجزون من حقائق الوجود ما يغيب عن إدراك الكبار الرجال الذين ليسوا أطفالاً

ولم تكن البارونة الصغيرة تلمح هذا ولا كانت تعرفه، وإنما كانت تسحرها أغاني استراوس وألحانه، وكانت تؤديها كأطيب ما تصبو إليه نفسه هو فتشعر حينئذ بأن روحه من روحها، وأن روحها من روحه، فإذا ادلهمت عليه بأنوثتها رأته كالمسحور أو المعمول له عمل، فلما طال هذا وتكرر أدركت أنه غير رجل، ولكنها زعمت أن هذا الإدراك يجب أن يكون نهاية الصلة بينهما، فقطعت صلتها به وما فكرت في هذه الحالة الشاذة ولا في طريق علاجها، ولم تذكر أنها أنشدت له لحناً صاغه هو لتتبرج به هي في حفلة من حفلاتها، ولم يكن هذا اللحن إلا آهات كل آهة منها حكم تصدره على رجل بعينه من النظرة الأولى التي تلقيها عليه، فللمغرور المعجب بنفسه آهة فيها السخرية بغروره وتيهه، وللحالم المتغائب عن الوجود آهة مرسلة شاردة كأنما تصاحبه إلى الملكوت الأعلى، وللسمين القاعد على روحه آهة دسمة كأنما هي الرغيف المحشو برغيف آخر فيه خروف صغير، وللمهندم المؤدب الأنيق المتزجج آهة مرتعشة مخنوقة كأنها محرجة وجلة. . . ولم تذكر أن هذه الآهات تعددت في اللحن وتكاثرت بألوانها ودلائلها حتى لم يعد من المعقول أن يقال بعدها إن استراوس بعيد عن نفس المرأة وعقلها، جاهل طريقة تفكيرها، غافل عن أحكامها و (حيثيات) هذه الأحكام وقد كان هذا اللحن وحده يكفي لكي تعلم البارونة الصغيرة أن استراوس الذي يتسمع إلى الصمت في الطبيعة كما يسمع أصواتها وينظم من هذا وتلك ألحانه المعجزة. . . بصير أيضاً بالنفوس عامة سواء منها نفوس النساء ونفوس الرجال، والبصير بالشيء لا يعجز عن نيله، ما دامت فيه القوة التي تمكنه من نيله وقد كان استراوس في أزمته الغرامية هذه شاباً فتياً له جسد الإنسان الرجل النزاع إلى جسد الأنثى. . . فما الذي منعه عنها؟

أمانة الزوجية؟

قد يكون هذا، ولكنه بعيد لأن حياة استراوس مع البارونة الصغيرة لم يحدث فيها ما يدل على أنه استشعر الأنوثة التي ترضيه فيها - وهي أنوثة المغاور والكهوف - تحاول أن تغزوه فيصدها بهذه الأمانة. بل الذي حدث هو عكس هذا فقد قدم استراوس عاشقته هذه لشعب من اصحابه في ثورة من ثورات فيينا على أنها فنانة مغنية فقط، ولم يكن في هذا كاذباً ولا مجاملاً، بل كان صادقاً لأنه لم يشعر منها إلا بأنها كما قال. فلم تكن الأمانة الزوجية هي التي حالت دون استراوس وعشيقته، وإنما هذه العاشقة نفسها هي التي التوت على حبها، والتوت على نفسها، والتوت على حبيبها، وكان بيدها ألا تلتوي

وقد يسائلنا سائل عن هذا الذي نطلبه من المسكينة الصغيرة ما هو؟ أكنا نريدها أن تخرج على طبيعة المرأة أكثر مما خرجت فتدعو إليها استراوس بالذي دعت به امرأة فرعون إليها سيدنا يوسف الجميل؟!

ونحن نقول لا. ونقول إن الحب لا ينتج إلا من صراع في الغزل، والصراع في الغزل إذا انتهى إلى حب فهو واحد من حبين في نفس كل من العاشقين: إما حب الحنو، وإما حب الإعجاب، ولم تكن لاستراوس قوة يعتز بها غير قوة الفن، وكان فنه الموسيقى، فلو أن البارونة الصغيرة ناوشته بألحان فإنه لم يكن هناك بد من أن تقهره: إذا فاقت ألحانها ألحانه خلبته واستحوذت عليه عاشقاً وتلميذاً لها، وإذا فاقت ألحانه ألحانها حنا عليها، واحتضنها وراح يسقيها ما هي ظمأى إليه، ورباها كما تربى الدجاجة أفراخها، ولكن البارونة الصغيرة لم تصنع شيئاً من هذا، واكتفت بأن تغني له فكان يرى فيها

. . .نفسه هو، ولم يكن ير نفسها
قد كان عليها أن تريه نفسها صريحة واضحة في الفن مهما خشيت أن تتضاءل إلى جانب صفائه وقوته
ربما كانت تنتظر أن يقول لها: (لحني!) بل ربما تكون قد استأذنته في التلحين بأسلوبها المعوج الملتوي فهل عرفت البارونة لماذا لم يأذن لها، ولماذا لم يطلب منها أن تصوغ الألحان. . . ذلك أنه حين أراد أن يلحن. . . لحن، وحين كان يريد أن يغني لم تكن قوة تستطيع أن تحبس صوته. . . فلعله لم يصدقها، أو لعله خشي أن يدعوها إلى شيء قد
تكون عنه عاجزة. . . أو لعله كان يرحمها فيحررها من طلب إذا أجابته فإنما تجيبه إرضاء له هو لا إرضاء لنفسها. . .
وأغلب الظن أنها كانت عاجزة لأنها كانت بارونة. وأغلب الظن أنها كانت تستطيع أن تطاوله، وأنها انطلقت في الحياة كما كان هو منطلقاً فيهما، فإنها ركبا يوماً عربة معاً، وسرحت بهما العربة في أحراش وغابات، وأثارت خطى الجواد الذي كان يجر العربة - وكانت خطى منتظمة على ضرب متسق - بواعث الشدو في نفوس الطير وفي نفسيهما وفي نفس الحوذي الذي كان معهما، فأنشد الطير، وأنشدهما، وأنشد الحوذي، وكان من نشيدهم جميعاً لحن الفالس الكبير الذي لا يمكن أن يقال إلا أن الطبيعة والجواد والطير والعاشقين والحوذي، اشتركوا جميعاً في توصيله من الغيب إلى هذا الكون.
وعلى هذا فقد كانت البارونة من معدن استراوس. كانت هي الأنثى غير الأنثى لهذا الرجل غير الرجل. ولكننا لا ندري كيف أنكرت منه شروده عن رجولة السطح، ولم تذكر أنها حين أفاقت من الفالس الكبير وهي في العربة ألفت نفسها مطوية بين ذراعيها المتشنجتين اللتين كادتا تهصرانها هصراً؟
كان عليها أن تدرك إذن أن له لوناً من الأنوثة خاصاً يخلبه، وهو هذا اللون الشائع في أعماق الطبيعة والذي فاض في نفسها هي عندما كانت تشدو مع الطير ومع الطبيعة ومعه
كان عليها أن تدرك هذا، ولكنها لم تدركه فأي شيء دهاها؟
دهاها هذا (الإتيكيت) الذي نشأت عليه في القصور، ودهتها هذه التقاليد التي علمتها أن تطلب الطعام إذا جاعت بالحديث عن لوحة زيتية تفنن مصورها في رسم تفاحها وكمثراها. . . فإذا سمع استراوس كلامها هذا نظر هو أيضاً إلى الصورة، وتفحص فيها التفاح والكمثرى ولم يفهم بعد ذلك شيئاً. . . فعيناها. . . عيناها تنظر في صدق عجيب إلى جمال التفاح والكمثرى كأنما هي معجبة به حقاً. . . فكيف لا يصدق استراوس إعجابها بالرسم وكيف يعرف أنها جائعة
لا بد أن يشعر وأن يحس؟ أليس هو الحساس الموهوب أكثر مما وهب البشر؟ أليس هو الناقد المتفرس إلى ما وراء المادة والحجب؟ نعم إنه كذلك حقاً. . . ولكنه يلقي هذا السلاح بين يدي محبوبته، فهو يصدق كل ما تقول. . . ويجول معها أينما شاءت، ويسلم لها قياده
. . .فهي المسئولة عن عقله وهو بين يديها، وهي التي تقوده إلى هذه الوديان القاحلة
ولم تكن زوجته هكذا على قلة ما كانت تدرك من جمال فنه وروعته. فهي لم تغازله بالفن، ولم تناوشه بالنغم، وإنما هجمت عليه بإخلاصها وعطفها ورعايتها، ولمست فيه طفولته وحيرته في الحياة خارج ميدان الفن، ولقد أرشدت هذه الزوجة البارة بارونة زوجها إلى هذا الطبع في نفسه يوم أرادت البارونة أن تأخذه منها فقالت لها: (لا تأخذيه على أنه رجل فهو لا يعرف من أموره أمراً، ولا يمكنه أن يدبر شأناً من شؤونه لأنه طفل!)
كان هذا تعبير زوجة استراوس، وكان هذا التعبير هو الصدق وكان هذا الصدق نتيجة ما كان بينها وبينه من صراع في الغزل والحب، فقد عجزت عن الفن كل العجز أمامه، وعجز هو عن إدراك ما كان في نفسها من قوة الرعاية والحدب كل العجز أيضاً فاندمجا وتشابكا
فلو كانت هاتان العاشقتان واحدة!
أما زوجة استراوس فما كانت تستطيع أن تستكمل نقصها بمثل ما كان في البارونة

من فطرة الفن، فالفن موهبة. وأما البارونة فقد كانت تستطيع أن تتعلم من زوج استراوس طريقة ترويضه وصيانته، إذا احتاجت إلى شيء من هذا. . . ولم تكن لتحتاج لو أنها أعملت الفن. . .
ولكنها كانت بارونة. . .

عزيز احمد فهمي

رسالة العلم

أندروز مليكان والإلكترون

للدكتور محمد محمود غالي

الرياضي هلبرت بين نظرياته والطبيعي مليكان في معمله - كيف حصل مليكان على جسيمات صغيرة من الزيت، وجعلها تصعد وتهبط وتقف وفق إرادته - وصف جهاز مليكان - كيف شاهد مليكان هذه الجسيمات في غرفة يبلغ ارتفاعها 16 مليمترا - كيف تحقق من حمل هذه الجسيمات لعدد من الإلكترونات.

منذ أربعين سنة في سنة 1899 قاد الفكر أحد الذين يتابعون الدرس ويواصلون العمل، الرياضي هلْبرت إلى فكرة جديدة وباب لم يطرقه أحد من قبل، ذلك أنه كوَّن نوعاً جديداً من التفكير الهندسي يخلق بنا أن نسميه هندسة هلبرت تختلف في طريقتها عن الهندسة التي تبعناها منذ عن هندستي

هذا العالم الألماني هلبرت الذي ما زال في اعتقادي حياً بين سكان الأرض في من أعمال ألمانيا لم تحصده قنابل المحاربين، ولم يعبث بجسده غرض الفاتكين، ويبلغ من العمر اليوم 78 سنة وجد أسلوباً جديداً لتأسيس الهندسة الأقليدية التي تلقاها كل منا في المدارس، وغير الهندسة الأقليدية التي لم يتلقها إلا نفر قليل بعد التخرج في الجامعات، كما أثبت عدم تعارض الفروض فيهما، ذلك أنه استعمل لبناء علمه الجديد ثلاثة النقطة والخط والمستوي، وخمسة كلمات هي: عنها اصطلاحياً بموجودة واستطاع باستعمال هذه المعاني الخمسة فقط أن يقيم هندسته الكاملة، وخرجت من هذه (العناصر) الثلاثة، (والمعاني) الخمسة هندسة منسجمة نستطيع تتبعها والاقتناع بوجودها، وقد تتبعها في مصر في العام الماضي كل الأعضاء الذين حضروا محادثات الرواق الرياضي الطبيعي، والذين قضى بعضهم نحبه خلال الحرب القائمة، وهم من أصدقائنا الحميمين، ونأسف لهذه الحوادث التي ترجع بالإنسان إلى الهمجية، عندما حاول صديقي الدكتور أن يتابع عرض هندسة هلبرت بين إخوانه من المصريين والأجانب الطبيعيين والرياضيين المقيمين في مصر، وهي رياضة صعبة نوعاً ما ويكفي لإدراك صعوبتها أن تعلم مثلاً أنك في حاجة بادئ هذه الرياضة أن تثبتَ إمكان وضع نقطة على خط مستقيم، وإنك لتستغرق بعض الوقت لإثبات ذلك الذي تظنه بديهياً. ليست هندسة هلبرت الجديدة التي ما زالت تجد قليلاً من المطلعين هدفي في هذه الكلمة، وأعتقد أنها سوف لا تكون موضوع كلمة لي في (الرسالة) في الأعداد القادمة. فموضوعها صعب على القارئ، وغايتها أصعب عليه، إنما ذكرتها وأنا في طريق شرح أعمال مليكان - رجل التجارب والمعامل - لأضع أمام القارئ مثالاً للتباين بين النظريات يتبعها المنطق والخيال في أقصى درجاتهما، وبين العلوم التجريبية يتبعها التحقيق والمشاهدة في أقصى حدودهما، فبقدر ما في رياضة هلبرت غير المعروف لكثير من المطلعين من خيال وصعوبة بقدر ما في تجربة (مليكان) من تحقيق تجريبي وسهولة، تحقيق يبعد كل البعد عن التحايل اللفظي.

ليس إذن في قصة مليكان ما يدعو لإثبات مسائل تلتبس علينا مع البديهيات التي يقبلها الذهن، إنما هي في الواقع سلسلة لمشاهدات علمية وتجارب طبيعية، ولو صح لنا أن نتساءل عن تعريف ما نسميه تجارب طبيعية صحيحة (لقلنا إنها تلك التي تؤيد النتائج ذاتها بلغ تكرار هذه التجارب ما بلغ. . .)

ونوجز تجربة مليكان التي قام بها سنة 1909 في قياس شحنة الإلكترون أصغر ما نعرفه أو نعيه من الموجودات، وإثبات وجوده كجوهر فرد مستقل يلعب أكبر دور في الكون الذي نشعر بوجودنا فيه، ومن العدل أن نذكر أنه قد تقدمت تجارب مليكان أبحاث علماء عديدين كان لهم الفضل الأول في تهيئة السبيل للقيام بهذه التجربة التي تعد من أعظم مفاخر العلم التجريبي في القرن الذي نعيش فيه، وإذا لم نأت في هذا المقال على أسماء هؤلاء جميعاً، فإن رجال معامل هو في الواقع أول من قام بتجارب

فريدة لقياس شحنة الإلكترون التي يرمز لها العلماء عادة
ونعود الآن لشرح عمل مليكان، ولتسهيل الموضوع على القارئ نعمد إلى تقسيم عمله
إلى قسمين رئيسيين: القسم الأول هو الذي نذكره اليوم ونصف فيه الجهاز الذي
استنبطه والتجربة التي قام بها هذا العالم لقياس شحنة الإلكترون بل لملاحظة
جسيمات منعزلة لا تحمل أحياناً إلا إلكتروناً واحداً، ولا نعرض في هذا القسم لنتائج
هذه التجربة ولا نذكر كيف استنبط مليكان من تجربته شحنة الإلكترون وحدة الكهرباء
وأصغر الجسيمات التي نعرفها في الوجود، وفي القسم الثاني وهو برنامج الأسبوع
القادم نذكر الطريقة التي حسب
بها مليكان شحنة الإلكترون ونبين كيف من عملية القاسم المشترك الأعظم البسيطة
التي تعلمناها كلنا في التعليم الابتدائي بيّن مليكان من تجاربه وسيلة لإثبات وجود
الإلكترون وحساب شحنته وإثبات تعلق إلكترون حر واحد ببعض هذه الجسيمات أثناء
تجاربه العديدة
والآن نبدأ بشرح الوقائع الأولى وتفسير دخائل الجهاز الذي ابتدعه مليكان واستعان به
للوصول لغايته
استعمل مليكان لمقارنة شحنة الجسيمات الصغيرة المختلفة الحاملة للكهرباء والذي
يسميها العلماء (يونات) الإلكترون رشاشة أي (بخاخة) تبخّ غيوماً من الزيت في غرفة
عليا نرمز لها بالحرف غ كما يرى القارئ في الشكل
وينقى الهواء قبل إطلاقه ووصوله للرشاشة بمروره في أنبوبة
تحتوي على قطن مندوف، وينشر هذا الرذاذ الرفيع من الزيت
الذي يبلغ قطر معظمه 1000 2 من المليمتر في الغرفة
المتقدمة ويبدأ تساقطه غيوماً كالضباب الذي نصادفه في
الشتاء صباحاً جوار النيل أو الأراضي الزراعية. ويحدث من
جراء هذه العملية الأولى أنه يتصادف من وقت إلى آخر
مرور واحدة من هذه الجسيمات الزّيتية الصغيرة من الثقب
الصغير الموجود في مركز قرص من النحاس قطره 22
سنتيمترا موجود في أسفل هذه الغرفة، وتكون إحدى كفتي
مكثف كهربائي يتكون من كفتين بينهما الهواء، كفة عليا (ق)
هي هذا القرص والثانية كفة سفلى (ك) وهذه الكفة الثانية
مثبتة بالكفة الأولى بواسطة ثلاثة أعمدة من الأبانوس (د)
وهو مادة عازلة كهربائيا، وهذه الكفة محمولة على بعد 16
مليمتراً من الأخرى وفي هذه الغرفة الثانية المحصورة بين
هاتين الكفتين والتي لا يرتفع سقفها عن أرضها إلا بمقدار 16
مليمتراً، شاهد مليكان هذه الجسيمات الصغيرة من الزيت التي
يتصادف مرورها من الثقب، والتي أثبت هذا العالم كما سيرى
القارئ في المقال القادم أن بعضها كان يحمل إلكترونا واحداً.
وتتصل هاتان الكفتان بمفتاح (م) يتصل ببطارية كهربائية
تبلغ القوة الدافعة الكهربائية بين طرفيها عشرة آلاف (ب)
فولت وذلك لإيجاد مجال كهربائي قوي، ومتغير بين الكفتين
ويُتممُ هذا الجهاز أجهزة ضوئية أخرى تكوّن خارجه حزمة من الضوء شديدة تمُّر من
نوافذ أو بالأحرى من ثقوب موجودة الواحدة منها تجاه الأخرى ومحفورة في حلقات
من الأبانوس (ح) موضوعة في اتجاه الشخص الراصد. وتضيء هذه الحزمة الضوئية
الجسيمات أو رذاذ الزيت الذي يتصادف مروره من الثقب (ث)، هذا الرذاذ الذي يصبح
بمروره من هذا الباب عرضة للمشاهدة والاختبار
وقد أمكن لمليكان أن يرى هذه العوالم من ثقب ثالث صغير بواسطة الميكروسكوب
الذي يلعب في هذه التجربة دور الألترامیكروسكوب، وقد رتَّب جهازه بحيث يقع الضوء
على هذه الجسيمات من جهة ويراها هو من جهة أخرى عمودية عليها، وهي الطريقة
ذاتها التي نرى بها الكواكب السيارة في الليل، إذ يقع عليها ضوء الشمس من جهة
تختلف عن التي نراها منها، بل هي الطريقة التي نرى بها جسيمات من التراب الرفيع
العالق بهواء غرفنا والذي تستنشقه رئاتنا طوال النهار، عندما تدخل أشعة الشمس من

جهة غير الجهة التي نشاهد بها هذه الذرات الترابية التي تبدو لنا في هذا الوضع مضيئة تحت أثر أشعة الشمس
الساقطة عليها، وهكذا كانت تظهر النقط الصغيرة التي يتصادف مرورها من الثقب (ث) كما يظهر نجم ساطع في ظلام الليل الحالك
ولا يفوتنا أن نذكر أن هذه الجسيمات التي تمر من الثقب مكهربة، وقد حدثت الكهرباء فيها من احتكاكها بعضها ببعض عند خروجها من الرشاشة التي حولت السائل بفعل الهواء إلى رذاذ أو ربما عند ظني أثناء احتكاكها بذرات الهواء المنتشر في الغرفة، وثمة طريقة أخرى لكهربة هذا الرذاذ عند اقتضاء الحال وذلك بتسليط أشعة راديومية عليه بتقريب عنصر الراديوم المعروف من الجهاز، بحيث تتصادم الجسيمات الراديومية المتناثرة من الراديوم المشع بهذا الرذاذ الرفيع فتعلق به جسيمات كهربائية سالبة كالإلكترونات أو جسيمات كهربائية موجبة كالبوزيتونات
وتتلخص التجربة في نشر رذاذ الزيت في الغرفة العليا، ثم انتظار مرور أفراد من هذا الرذاذ في الغرفة الثانية أي بين كفتي المكثف، ثم في كهربة القرصين باستعمال المفتاح م كهربة موجبة في إحدى الكفتين سالبة في الأخرى، وذلك باستعمال البطاريات السالفة الذكر، بحيث أنه بإدارة المفتاح إلى الجهة اليسرى مثلاً تتصل الكفتان وينعدم المجال الكهربائي، وبإدارته إلى الجهة اليمنى يتولد مجال كهربائي يختلف وفق المقاومات الكهربائية التي في طريقه تبع إرادة الراصد
وتتضح الكهرباء أو الشحنات الكهربائية الموجودة على هذا الرذاذ من أنه عندما نوصل المفتاح الكهربائي، ونجعل فارقاً في الضغط الكهربائي بين الكفتين، أي عندما نعمد على إيجاد مجال كهربائي قوي - في الاتجاه المناسب - تنجذب هذه الجسيمات بسرعة نحو القرص ن مظهرة بذلك شحنتها الكهربائية
على أنه إذا أعدمنا المجال الكهربائي بتوصيل الكفتين؛ فإن هذه الجسيمات من الرذاذ الزيتي تبدأ وقوعها رأسية تحت تأثير جاذبية الأرض حتى تقترب اقتراباً شديداً من الكفة ك، وهكذا كلما أعدنا المجال الكهربائي فإن هذه العوالم الصغيرة تغير اتجاهها من جديد وترتفع إلى سقف الغرفة ق. وبهذه الطريقة أمكن الحصول على حركة مستمرة صعوداً وهبوطاً لرذاذ الزيت بين الكفتين، وفي الغرفة الضيقة الثانية باستعمال المفتاح م
وقد أمكن لمليكان أكثر من ذلك، إذ تمكن من شل حركة هذه النقطة الحائرة من الزيت التي
يريد أن يرصدها في غرفة هذا الجهاز، هذه النقطة من الرذاذ الواقعة بين قوة مجالين: المجال الأرضي الذي يجذبها إلى أسفل كما يجذبنا معشر البشر والمجال الكهربائي الذي يجذبنا إلى أعلا، بأن ساوى بين قوة المجالين المتعارضين، وذلك بجعل قوة المجال الكهربائي معادلة لقوة المجال الأرضي. عند ذلك تقف النقطة الحائرة والجسم التعب بين الكفتين. وعند ذلك عين مليكان القوة الكهربائية اللازمة لإيقافها والتي لها علاقة كما سيرى القارئ بما يحمله هذا الجسيم من الإلكترونات.
وسيرى القارئ أن هذا كان كافياً لمليكان لحساب شحنة الإلكترون ولأن يُتيقن أن في كثير من تجاربه وجدت ذرات زيتية كانت تحمل إلكترونا واحدا
محمد محمود غالي
دكتوراه الدولة في العلوم الطبيعية من السوربون
ليسانس العلوم التعليمية. ليسانس العلوم الحرة. دبلوم المهندسخانة
من هنا ومن هناك
دانزج موطن النزاع
(ملخصة عن (باري ميدي))
لم يكن يخطر ببال أحد في السنين الأخيرة أن مدينة دانزج التي كانت موضع نزاع الدول في غابر الأزمان، ستحتل المكان الأول في سياسة أوربا المسلحة اليوم
وتعد دانزج من أقدم مدن العالم، فقد ظهرت في عالم الوجود منذ ألف سنة وكانت في العصور الوسطى تدعى (ملكة البلطيق) نظراً لمركزها الممتاز على شاطئ هذا

البحر
وقد حاربت في سبيلها الأمم البروسية والدانمركية والبولونية، والبرانبرجرز، والتوتون منذ بدء القرن الثاني عشر إلى اليوم
فاحتلها الفرسان التوتون في بداية القرن الرابع عشر، ولكن سرعان ما انتهى أمد احتلالهم لها وصارت إلى أيدي البولونيين في سنة 1454، فتركوا لها الحرية في الاحتفاظ بقوانينها القديمة، وجعلوا لها الحق في سك العملة باسمها باعتبارها (مدينة حرة) تحت حماية بولندا. ولم تقع في أيدي بروسيا إلا سنة 1793، وبعد أربع سنوات من هذا التاريخ فتحها جيش فرنسي تحت قيادة (مارشال لففر). وظلت دانزج مدينة حرة في أيدي الفرنسيين إلى سنة 1813
ولكن الجيوش البروسية احتلت دانزج للمرة الثانية بعد موقعة (واترلو). لا لتكون تابعة لها إلى الأبد، فقد انتزعتها معاهدة فرساي من الريخ وعادت دانزج (مدينة حرة) للمرة الثالثة - تحت إشراف عصبة الأمم - وأعطيت بولندا الحق في استغلال مينائها، ومنحت كذلك الحق في تمثيلها من الناحية السياسية.
فدانزج لم تكن ملكاً للألمان إلا منذ سنة 1815 إلى سنة 1918 أي قرناً من الزمان. وقد ظل العلم البولوني يرفرف عليها منذ سنة 1454 إلى سنة 1793 أي ثلاثمائة سنة على التقريب. وقد أعطيت دانزج إلى بولونيا بحكوماتها الحرة ومساحتها التي تقدر بثمانمائة وخمسين ميلاً مربعاً، وسكانها الذين يقدر عددهم بمائة ألف نسمة، ليكون لها منفذ إلى
البحر. فكانت هذه المدينة المنفذ الوحيد لتلك المملكة العظيمة حتى سنة 1928، وقد ازدادت الحركة بمينائها على أيدي البولونيين فوصلت إلى ثمانية مليونات طن سنة 1930 بعد أن كانت لا تزيد على مليونين قبل الحرب. فقد أنفقت بولندا مائة مليون من الجنيهات لاحياء هذه الميناء. وأنشأت قاعدة هامة للملاحة والتجارة في (جيدنيا) على مقربة منها. ومن المعلوم أن ثلثي تجارة بولندا التي يقدر عدد سكانها بـ 35000000 نفس تمر من تين الميناءين، وأسطول بولندا ليس له قاعدة غيرهما وتقع دانزج على مصب نهر الفستيولا ولهذا النهر صفة ممتازة في بولندا، فإذا ضمت دانزج إلى الرايخ أصبحت المواصلات الحيوية لبولندا تحت رحمة ألمانيا
فالفوهرر كما يظهر لا يريد أن يضم بلداً ألمانياً إلى الريخ، ولكنه يريد أن يعزل بولندا عن البلطيق، ويطوقها من البحر والبر حتى تضطر سياسياً واقتصادياً إلى الانضمام إلى الريخ، وهذه كارثة تدفعها الآن بولندا بكل ما لديها من قوة. وتريق دماء الملايين من أبنائها لكي تتحامى وقوعها
الفاشية في الهند
(عن مقال بقلم خواجة عباس أحمد)
نظرة بسيطة إلى خريطة العالم تدل على مقدار اهتمام القوات النازية والفاشية واليابانية بالهند. فالهند هي أقوى دعائم الإمبراطورية البريطانية في الشرق، وهي بكثرة سكانها، وأهميتها التجارية والسياسية ومركزها الحربي وحدودها المتاخمة لأفغانستان وإيران والصين وروسيا السوفيتية. . . تعد عاملاً قوياً في السياسة الفاشية فالهند الحرة حليفة للديمقراطية، يحسب حسابها إذا سارت مؤيدة لصفوفها، وهي عدو يخشى بأسه، إذا سارت تحت النفوذ الفاشي سواء من الوجهة السياسية أو الفكرية.
ولقد دأبت الدعاية الفاشية على بث بذور العداء نحو بريطانيا واستغلت لذلك الحركة الوطنية وأملها أن تجتذب إليها القلوب، وتستهوي النفوس. ولهذه الحركة الجديدة قصة قديمة. فمن المعروف أن رجال السياسة الألمانية كانوا على اتصال دائم ببعض الهنود الثائرين في منفاهم في أوربا إبان الحرب العظمى. وكان حلم ألمانيا بإنشاء إمبراطورية
ألمانية تمتد من برلين إلى بغداد فدلهي، يشعل فيها ضياء الأمل؛ فلجأت إلى مد يد المساعدة إلى هؤلاء في منفاهم، وعادوا بدورهم ينشرون الدعوة إلى المطالبة بحرية الهند بمعاونة الألمان
ولكن وجهة نظر الزعماء الهنود اتجهت في السنين الأخيرة اتجاهاً مخالفاً لدول المحور.
ولم يغب عن البال الحماس الذي كان يقابل به زعماء تلك الدول منذ ثماني سنوات،

حين كان الشباب يقرنون أسماءهم بأسماء مازيني وجاريبلدي ودان برين وغيرهم من الزعماء. وكان الهنود الذين يعودون من دراستهم بألمانيا يتغنون بالاشتراكية الوطنية، وكنا في الهند نمدح اليابان ونعطف عليهم، ونقابل بالزهو والإعجاب كل انتصار لهم على الروس: كأمة أسيوية تنتصر على أمة أوربية

فما كاد يظهر العهد الدكتاتوري على حقيقته، وتنكشف نيات أصحابه بظهور أعمالهم، حتى تغيرت الحال وأخذ الهنود ينفضون عنهم ويشعرون بالاستياء عند ذكرهم؛ فاضطهاد ألمانيا لليهود ذلك الاضطهاد الذي لم يسبق له مثيل في تاريخ العالم، وقتل الاشتراكيين في إيطاليا وغزو الحبشة العزلاء كان لها أسوأ الأثر في نفوس الهنود الذين أعلنوا سخطهم على هذه الأعمال بواسطة المجلس الوطني

فالدعاية النازية والدعاية الفاشية قد أخفقتا كل الإخفاق في اجتذاب نفوس الهنود الذين أعلنوا رأيهم بلسان المجلس الوطني

إلا أن بعض النفوس المولعة بالأسرار والأعاجيب، من الهندوس والمسلمين، قد تأثرت إلى حد ما بتلك الدعاية التي تنسب فلسفة هتلر إلى الهند وسزم في معاملة المنبوذين، وتنظر إلى البابا من ناحية الديانة البوذية التي يدين بها سكانها، وتحرك عوامل الضغينة في نفوس المسلمين - الذين يميلون بطبيعتهم إلى العرب - بإثارة مشكلة فلسطين. ومهما تبلغ تلك الدعاية من المقدرة على التضليل، فلن تزيل من النفوس أثر تلك الأعمال التي تقضي على آمال المدنية في العصر الحديث

تجفيف مياه بحر الروم

(ملخصة عن (ذي أمريكان ويكلي))

وضع مهندس ألماني مشروعاً عجيباً لتخفيض مياه بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) ستمائة قدم بإقامة سد عظيم على بوغاز جبل طارق المتقارب الشاطئين.

ويقال إن إيطاليا التي تطلب مزيداً من الأرض، سوف يمنحها هذا المشروع ما تريد من الأرض الواسعة، لا من الدول الأخرى التي تمانع في ذلك كل الممانعة، ولكن من البحر. ومن المعلوم أن إيطاليا تريد أراضي متاخمة لمستعمراتها، وهذا من السهل أن تحصل عليه إذا نفذ هذا المشروع.

ولكن ماذا عسى أن تقول فرنسا واليونان ومصر عن هذا المشروع؟ إنها ولا شك ستستفيد أصقاعاً فسيحة من الأرض الخصبة؛ وستكون لديها فرصة عظيمة لاستغلال القوى المائية في مختلف الصناعات.

ولعل بريطانيا وغيرها من الدول التي تعول على الملاحة في هذا البحر هي وحدها التي تخشى الخسارة من تنفيذ هذا المشروع. ولكن هذه الدول قد لا تتأثر بتنفيذه إذا أنشئت الممرات والخلجان التي تسهل لسفنها السير وتجعل حركة الملاحة متيسرة على الدوام

ومما يجعل هذا المشروع محتمل التنفيذ أن مياه البحر الأبيض المتوسط بطبيعتها تسير نحو النقصان. فإن الأنهار العظيمة التي تصب فيه، وهي نهر إلبو الإيطالي ونهر الرون الفرنسي ونهر النيل المصري وبعض الأنهار الصغيرة - تعد قليلة لا تعوض المياه التي يفقدها هذا البحر بالتبخر. ولا بد من وصول فيض من المياه إليه عن طريق البحر الأسود وبوغاز جبل طارق الذي يمده بمياه المحيط الإطلنطيقي

فإذا وضع سد محكم على بوغاز جبل طارق، ووضع سد آخر على باب البحر الأسود بوغاز الدردنيل، فإن مستوي مياه البحر الأبيض يهبط بالتدريج، إذ أن مقدار المياه التي يفقدها بالتبخر ستزيد على المقدار الذي يصب فيه

وإذا كان المشروع يرمي إلى تخفيض مياه هذا البحر ستمائة قدم فحسب، فمن الميسور بعد أن يتم هذا التخفيض أن يسمح لمياه البحر الأسود، ومياه المحيط الأطلنطي أن تصب فيه بمقادير معينة تمنع الخطر المنتظر من حبس هذه المياه فالمشروع كما هو ظاهر لا يستعصي على التنفيذ، وهو من المشروعات التي تدر الخير والنفع على كثير من الأمم الواقعة على هذا البحر.

أما الاعتراض الذي يوجه إليه فهو اختلال سطح الأرض بعد أخذ هذه المقادير العظيمة من المياه، وتعرضها للزلازل والبراكين التي تقتلع صخور هذا البحر بعد زوال ذلك الثقل العظيم عنها، وقد يعود بركان أذنة وبركان فيزوف إلى الانفجار من جديد لذلك كان علماء طبقات الأرض وحدهم دون سائر العلماء هم الذين يعارضون في

تنفيذ هذا المشروع، ويرفعون صوتهم بالتحذير من الإقدام عليه. ومما يقولونه بهذا الصدد أن الزلازل قد تكون من القوة بحيث تحطم السدود والحواجز المراد وضعها، بحيث لا يمكن إصلاحها وتعيد فيضان المياه إلى البحر

الجوائز الأدبية في فرنسا

(عن مجلة الآداب والفنون)

في فرنسا كثير من الجوائز الأدبية التي ما زالت أكبر مشجع للأدباء على الإنتاج. فهناك جوائز المجمع العلمي الفرنسي وجوائز المجامع الأدبية، وجائزة (النهضة) وجائزة النقد، وجائزة (الجزائر) الأدبية، وغيرها من الجوائز الفردية

وقد نال الجائزة الكبرى للآداب هذا العام الكاتب جاك بولانجير، تقديراً لإنتاجه الجيد. ونال جائزة الرواية الكاتب (أنطون دسانت اكسوبيري) من أجل كتابه المسمى (أرض الرجال) الذي يعد من الكتب الرائعة وإن كان لا يعد رواية حقا. ونال جائزة (لويس بارتو) الكاتب شوفالييه شيخ معهد غرونوبل

أما جائزة (النهضة) فلم تعط - كما علمنا - لأحد بعد، وقد قدم إلى جمعية هذه الجائزة التي تضم كبار الأدباء، ومنهم إدوارد هريو، كثير من الكتب والروايات. ويقولون إن الجائزة ستعطى للكاتب (ماريوس ريشارد) مؤلف رواية (جان التي ذهبت) لأن له كثيراً من الأنصار. وربما زاحمه (رايموندمّييه) مؤلف (مَلَك الثورة)، و (كريستيان ميغره) الذي سحر أناساً كثيرين بروايته المشهورة (ما يزالون رجالاً)

وفي الجزائر جائزة أدبية قيمتها 10 آلاف فرنك، وستعطى في نهاية هذا العام لأعظم كتاب يستهوي الجمهور سواء أكان موضوعه في الأدب أو التاريخ أو الاقتصاد السياسي أو علم الآثار أو علم الاجتماع. وتعطى هذه الجائزة للجزائريين وللفرنسيين فيها

أما جائزة النقد وقيمتها 6 آلاف فرنك، فقد نالها لهذا العام (جوهن شاربانتير) النقادة الكبير للروايات في (ميركورد فرانس) وقد لاقت هذه الجائزة الرضى التام. وجوهن شاربانتير هذا أيرلندي فرنسي الأب، وهو في إنتاجه الأدبي يعني بإنكلترا وفرنسا معاً

فلقد أصدر فيما يتعلق بإنجلترا: (صديقتنا إنجلترا) و (التصوير الإنكليزي)، ثم أصدر (تطور الشعر الغنائي في فرنسا بين 1830 - 1930) ثم (الشعر الرمزي)، إلى جانب دراسات كثيرة نقدية كتبها عن (تيودور بانفيل) و (جان جاك روسو) و (الفرد دموسيه) و (بودلير) و (فولتير).

فمتى تنظم عندنا جوائز كهذه لتشجيع الأدباء. . .؟ الحقيقة أن هذا الشرق لا يعرف إلا قتل الأدباء والاستخفاف بهم. . .!

البريد الأدبي

على هامش خطاب رئيس الوزراء

صاحب هذه المجلة وكاتب هذا المقال لم ينفكا يناوئان عدوَّين لمصر، أحدهما تسلّط الموظف بغير حق، والآخر (الخدر والنعاس). وفي الخطاب الرصين الذي ألقاه رئيس الوزراء في التاسع عشر من هذا الشهر ما حرفه:

وكم رأينا ببعض الموظفين من ضجيج كاذب وحركات لا خير من ورائها ولا بركة. وكم شاهدنا القادرين من أهل الفن والمعرفة يُقصون عن العمل فيما هم أهل له، في حين يشغل بعض المراكز الكبيرة ويتقاضى المرتبات الضخمة من يكتفي من الوظائف بمظهرها وجاهها دون أن يستطيع الاضطلاع بمسئولياتها حق الاضطلاع)

ثم (نعتمد على الشباب. . . وليعلم الشباب أن الباب مفتوح أمامه، وأن الحكومة تريد أن تنتفع بالكفايات والروح الفتية حيثما وجدت، وليس كل شاب فتياً، وعند بعض الكهول شباب متوقد)

هذا كلام يطرب له من يريد التقدّم الحق لهذا البلد: بلد الموظف المتعجرف والناعس المطمئن. أمران ثنتا عندنا بفضل عهدين كريهين: كلاهما نشَّأ الناس للقناعة بخدمة الحكومة القائمة مع حصر الفخر في ذلك، فانهدمت الروح الوثابة والهمة العالية.

وعلى هذا جرت الأمور في خطٍّ لا يمتد طرفاه فجمدت حيث هي

الموظف خادم الأمة، منها يتلقى راتبه ولأجلها أنشئت وظيفته. وجاء الوظائف بالقياس إلى جلال الخدمة لا بالنسبة إلى مبلغ الراتب. وإذا شغل الوظيفة من لا يستحقها فذلك مسلَبَة لمال الأمة وعدوان على حقها. وعلى هذا فاستثمار الوظيفة لغير خدمة الأمة إثم، و (المحسوبية) إثم، والتهاون بالمصلحة العامة إثم. ففي وزارة المعارف مثلاً من

يستعين بوظيفته على تقرير كتاب من كتبه، وفي كلية الآداب من يدرِّس مادةً زميله المصري أحقُّ بتدريسها، ومعهد الموسيقى يكلفنا مالاً كثيراً ولا يصنع شيئاً

هذا وفي حِسبان بعض الشرقيين أن المقدرة لا تؤاتيك إلا إذا تدلت لحيتك وتخدّد وجهك وارتعشت يدك وثقلت رجلك وأعانت العين صاحبتها على فتح باب وإغلاق نافذة وأكبر الظن أن الشيوخ في هذا البلد يحذرون الشباب بعض الحذر أو كله. ذلك لأن الشبان

المثقفين ولا سيما الذين تخرجوا في جامعات أوربة ربما أصابوا من العلم والخبرة ما فات الشيوخ. دليل ذلك مثلاً أن البعثات الأولى كانت تقنع بنيل إجازة كذا. وأما البعثات الأخيرة فقد أدركت أن هذه الإجازات ليست كل شيء: ذلك أن في مصر من يحملها فليست هي بالعزيزة ولا بالنادرة؛ ثم الإجازة شهادة، والمقدرة فيما وراء الشهادة، المقدرة في الاطلاع الواسع والتأليف الرفيع والإنجاز. هذا في باب العلم وعليه قس أبواباً أخرى

تلك حقائق فطنت إليها الوزارة الجديدة وأعلنها رئيس الوزراء ونحن نرقب ما يكون. نرقب وضع الشيء موضعه، فتُسند الوظيفة إلى من هَمُّه خدمة الأمة وباعثه الإخلاص ومقصده التقدم؛ ويشغل المنصب، سواء رفع أو وضع، صاحب الكفاية، والكفاية دليلها العمل المُنجَز؛ ويبُعْد من الأجانب مَن في المصريين غنىً عنهم؛ وتُغلق المعاهد والمصالح التي لا تثمر أو تصلح من الأساس بغير تلطف ولا ترحم

بقي أن رئيس الوزراء قال: (كذلك نود أن لا يفوتنا الاتصال بالكتاب والمفكرين، فإنه يسرنا أن نحصل على تحقيق رقابة الأمة في مختلف صورها)

وفي هذا دلالة على أن الحكم في مصر بعيد عن الاستبداد بالرأي وأن للفكر دولته وعزته. ومن العسْف أن يهمل الحاكم نظر المستنيرين، فهم هم الذين يؤدبون الأمة ويهذبون الأذهان من طريق الكتابة والتعليم العالي. وعسى أن تنفسح المجلات الراقية - وفي مقدمتها الرسالة - لإشارات أهل الدراية والخبرة من الكتاب، فهذى الصحف اليومية مشغولة عن الجانب الفكري بسرد الأخبار المحلية الخاصة بالقطن والدفاع وغيرهما ثم ببرقيات السياسة الخارجية ومسير الحرب القائمة في أوربة الضائع حظها لانصرافها إلى المادة المطلقة وهيامها بالسلطان فالبطش

وإشارات أهل الدراية والخبرة من الكتاب يحق لها أن تتعدى جانب الثقافة إلى جوانب نشاط الأمة كلها. حتى الدفاع الوطني يلفت نظر المفكر الذي شهد وسمع من قبل. وأما الشؤون الاجتماعية فهي محور نظره، ذلك أن الحياة الاجتماعية تحكم جميع ألوان نشاط الأمة. وفي العدد المقبل - إن شاء ربك - حديث يجري على قلم الدعاية في وزارة الشؤون الاجتماعية.

(الإسكندرية)

بشر فارس

وفاة الأستاذ سجموند فرويد

توفي الأستاذ سجموند فرويد في ليلة الأحد الرابع والعشرين من شهر سبتمبر في منزله بهامستيد عن ثلاثة وثمانين عاماً قضاها في خدمة الطب وعلم النفس وشؤون الاجتماع دارساً وباحثاً ومعلماً ومؤلفاً حتى ترك للعالم والعلم ثروة من نتاج الفكر العبقري الخالق كان لها الأثر العظيم في توجيه علم النفس إلى وجهة جديدة

ولد هذا العلامة الكبير بمدينة فريبرج الصغيرة في اليوم السادس من شهر أغسطس سنة 1856 ثم تلقى ثقافته العامة في فيينا ورحل بعد ذلك إلى باريس فدرس نظريات الدكتور شركون في الأعصاب وخواصها وأوضاعها. ثم عاد إلى فيينا فتولى التدريس في جامعتها وتقدمت به كفايته حتى عين فيها أستاذاً لأمراض الأعصاب وعلاجها سنة 1902، وفي خلال ذلك توفر على البحث والتأليف فلفت إليه أنظار العلماء بأصالة فكره وثقوب ذهنه وطراقة رأيه، ونال الدكتوراه الفخرية في سنة 1909 من جامعة كلارك ووستر بأمريكا. ثم عين في السنة التي بعدها عضواً أجنبياً في الجمعية الملكية ببريطانيا. وظل في وطنه يخدم العلم والتعليم وهو موفور العيش مرفوع المكانة حتى ضمت النمسا إلى ألمانيا فاضطهدته العصبة النازية لأنه يهودي فهاجر بزوجته وأولاده إلى لندن فعاش بها إلى أن توفاه الله

كان فرويد بطلاً من أبطال العلم جاهد فيه وصابر حتى انتصر وفتح. فهو صاحب مذهب

جديد في علم النفس قوض أسسه القديمة، وقلب أوضاعه القائمة، ولقي في سبيل تأييده ونشره ما يلقاه المجددون من عنت الجدل وسفه الخصومة. ورماه الناس بالدجل والشعوذة حين قرر أن الأمراض العصبية تشفى بالتحليل النفسي؛ ولكنه يثبت لخصومه يقارعهم بالحجة ويأخذهم بالتجربة حتى انظم إليه طائفة من صفوة العلماء فاعتقدوا مذهبه وأعانوه على ضبطه وبسطه

وخلاصة مذهب فرويد في علم النفس أن الغريزة الجنسية هي علة الاضطرابات العصبية، وأن ما يختزنه العقل الباطن في جميع مراحل العمر هو الذي يؤثر فينا ويهيمن علينا؛

والعقل الباطن إنما يمثل رغبات النفس الحقيقية؛ أما العقل الواعي فيمثل رغباتها العرفية التي أقرتها البيئة وارتضتها التقاليد؛ وذلك الصراع الذي ينشأ بين رغبات العقل الباطن ورغبات العقل الظاهر هو الذي ينتهي أحياناً إلى الاضطرابات العصبية. فإذا نجحنا في إطلاق الغرائز المكبوتة نجحنا في توفير الهناء المعنوي للنفس. لذلك أخذ فرويد يعالج الأمراض العصبية بالكشف عن مخزون العقل الباطن وهو ما يسميه بالتحليل النفسي. ويقول فرويد إن الأحلام هي تعبير عن رغبات العقل الباطن فلا تنبئ عن المستقبل ولا تدل عليه.

وله في تفسير الأحلام كتاب ضخم يؤيد به هذه النظرية من طريق التحليل العلمي والمنهج القويم

وقد انبسط سلطان المذهب الفرويدي على الأدب والفن والفلسفة والتشريع، وأحدث موجة من التفكير في أحوال الإنسان الداخلية سيكون لها الأثر البالغ في توجيه حياته وتقدير عمله

خطبة منبرية من نوع جديد

ألقى الخطيب الكاتب الأستاذ محمد عبد الرحمن الجديلي مدير قسم المساجد بوزارة الأوقاف خطبة الجمعة الأولى من شعبان في مسجد يحيى باشا الذي صلى به صاحب الجلالة الفاروق المعظم، فكانت الخطبة في إنشائها وإلقائها ومغزاها نمطاً عالياً في فن سحبان الذي ضعضعه الزمن حتى انقلب بيانه لغواً على الألسنة، كما انقلب سيفه خشباً في الأيدي. وطرافة هذه الخطبة أنها تشعرك بجدة الدين ومسايرته لكل عصر ومطابقته لكل حالة؛ فقد عالج فيها الخطيب أعراض الحرب القائمة من الخوف والتخاذل والأثرة والادخار والاحتكار بطب من كلام الله وحديث الرسول كأنما نزل به الوحي أمس. ولقد كان أثر هذه الخطبة بليغاً في نفوس من سمعوها في المسجد أو في المذياع حتى كتب إلينا كثير منهم يطلب إلى وزارة الأوقاف أو وزارة الشؤون الاجتماعية أن تضع أمثال هذه الخطبة فيما يحزُب الناس كل يوم من أمور العيش ومشاكل الحياة ثم توزعها على الخطباء في المدن والأقاليم، فإن في ذلك توثيقاً لنظام الجماعة بقانون الله، وتحقيقاً لغرض الشارع من سن هذه الخطبة

ماذا تركة روما وماذا خلفة أثينا؟

أشار صاحب المقام الرفيع علي ماهر باشا في البيان الذي أذاعه إلى ما جناه الخلاف على المدنية الأثينية، وإلى ما جناه الترف على الحضارة الرومانية، وناشد أبناء مصر أن يتعظوا بأخبار الدول السالفة فيجعلوا القصد والاتحاد وسيلتهم إلى المجد المنشود.

ولقد ذكرت بمناسبة إشارته إلى روما وأثينا أن رفعته لما كان وزيراً للمعارف قد أعلن مباراة في ترجمة كتب مختارة من روائع الأدب الغربي منها كتابان: (تركة روما) و (تركة أثينا).

ومع أن المباراة ألغيت في عهد الوزارة التالية فإني أعتقد أن كثيرين من الأدباء قد أفادهم اختيار تلك الكتب، وأن محاولات بذلت لترجمة هذين الكتابين بالذات من بين الكتب المختارة. . .

فهلا أعادت وزارة المعارف النظر في قرار الإلغاء لهذه المباراة، أو هلا نشط من يمكنه وقته وظروفه إلى ترجمتها بغير حاجة إلى جوائز الوزارة؟!. . .

عبد اللطيف النشار

المنضدة في اللغة

في مقتطف يونيه أخذ العلامة الأب الكرملي على صاحب كتاب (مباحث عربية) استعماله لفظة المِنْضَدَة بدلاً من النضَد إذ قال إنها لم ترد في كلام فصيح. وذكر كاتب

جعل توقيعه نجماً - في الرسالة رقم 317 (البريد الأدبي) أن المنضدة وردت في (أساس البلاغة) هكذا: (المنضدة شيء كالسرير له أربع قوائم يضعون عليه نضدهم). وقد راجعت مادة ن ض د في (أساس البلاغة) ولم أعثر على هذا النص. فهل هو في مادة أخرى؟

عسى أن يرشدنا الكاتب الفاضل إلى مظنة النص فيفيد

قارئ

رد على (اقتباس الكتاب)

حضرة الفاضل الأستاذ محرر (الرسالة).

تحية وسلاماً. . . وبعد، قرأت في عدد (الرسالة) الأخير الكلمة التي تهجم فيها الدكتور بشر فارس من جديد عليّ. والرد على تهجمه أن كتاب (فرعون الصغير) للأستاذ محمود بك تيمور وصلني صبيحة 15 يونية سنة 1939، والكتاب يحمل إهداء تيمور بك، والتاريخ 14 يونية مرقوم تحت التوقيع. وكتبت كلمتي في الأسبوع الثالث من شهر يونية، وقرأتها على الأستاذ صديق شيبوب في حينها، وبعثت بها إلى (الرسالة) بتاريخ 27 يونية - أعني قبل صدور مقتطف يولية بأيام -

على أن كلمتي وإن تأخر نشرها للعدد الصادر في 14 أغسطس سنة 1939، فذلك على ما يبدو لي راجع إلى تقديم بعض كلمات أرسلتها للرسالة، وكانت لمناسباتها تتطلب نشرها في وقتها، من ذلك كلمتي عن المرحوم فليكس فارس، وردودي على الدكتور بشر فارس، وردي على الدكتور غالي والأستاذ المنقبادي.

وأظن أن في هذا البيان ما يقطع كل مظنة للاقتباس

(الإسكندرية)

إسماعيل أحمد أدهم

مهرجان للأدب في السودان

عزم شباب السودان على أن يجعلوا من عيد الفطر المبارك عيداً قومياً آخر. فقرروا أن يقام في أيامه الثلاثة مهرجان للأدب في واد مدني عاصمة الجزيرة

وفي هذا المهرجان ستعرض جهود السودان المتعلم، وما ناله من حظ في العلم والأدب. وسيكون العرض شاملاً لمختلف نواحي العلوم والفنون والآداب من أبحاث فلكية وطبية واجتماعية وتاريخية.

وهذه فرصة طيبة لتقوية الصلات الثقافية بين مصر والسودان يجدر بأبناء الشقيق انتهازها حتى يكون لنا من العيد أعياد. فهلا يبادر الكتاب والأدباء لزيارة السودان في رحلة شتوية ممتعة ليروا آثار النهضة الأدبية؟ وعلى أرباب الصحف ومحرريها التي لا تخلو منها دار سودانية واجب كبير في هذا الصدد. وسيجد مندوبوها مادة غزيرة للكتابة عن ناحية مجهولة في السودان الذي لا يعرفه وا أسفاه إلا قلة من أبناء مصر. وما أسعد قلوب السودانيين جميعاً إذا ساهمت مصر بكتابها ومفكريها في ذلك المهرجان، فيروا بينهم توفيق

الحكيم والعقاد والزيات وزكي مبارك والمازني وفكري أباظة وفتحي رضوان وإبراهيم المصري

وللسودان على هؤلاء جميعاً دين يجب أن يؤدوه، فهو يدرس أدبهم، ويقرأ كتبهم، ويعيش معهم دائماً بروحه وعطفه، وهو لا يرجو إلا أن يزوروه بهذه المناسبة ليصفوه ويعرفوه وينصفوه وينعموا بجوه الشتوي الجميل.

هذا، ومن لم يستطع الحضور، فلا أقل من أن يرسل تحيته إلى السودان على عنوان سكرتير المهرجان أحمد محمد خير السوداني واد مدني.

سكرتير المهرجان

حول رواية محمد علي الكبير

سيدي الأستاذ الجليل صاحب الرسالة

قرأت لمحرر الرسالة الفني كلمة عن رواية (محمد علي الكبير) هنأنا فيها على قبض ثمنها من الفرقة القومية وعزا عدم إخراجها إلى أسباب غير صحيحة

والواقع أن الرواية مأخوذة عن قصة (ابنة الملوك) للأستاذ محمد فريد أبو حديد، وقد فازت بجائزة ممتازة في مباراة التأليف المسرحي عام 1929 بين ما يربي على مائة رواية لمؤلفي المسرح المصري.

وقد نشرت (الرسالة) منظراً تمثيلياً منها في العدد الخاص الذي صدر بمناسبة تولي صاحب الجلالة الملك سلطته الدستورية. وحاشا أن أصور محمد علي باشا في صورة السفاح كما توهم المحرر، فإني أعقل من أن أصور منشئ مصر الحديثة في هذه الصورة.

وستعرض الرواية في الوقت المناسب، وسيراها رواد المسرح والنقاد ويصدرون حكمهم على موضوعها وقيمتها

أما السبب الصحيح في تأجيل تمثيلها فهو اشتمالها على مواقف حربية بين محمد علي والإنجليز، وقد ورد فيها انتصاره عليهم في موقعة رشيد، فرأوا من المناسب ألا تمثل في الظروف الدولية الحاضرة

أما المكافأة عليها فلم تدفعها الفرقة وإنما فازت بحق تمثيلها من غير مقابل، لأن شرط

مباراة التأليف كما وضعته وزارة المعارف يعطي الفرقة هذا الحق. وقد صرفت الجائزة من هبة المرحوم عليوه بك التي رصدها تشجيعاً للتأليف المسرحي. . .

يوسف تادرس

حول الفن والحرية أيضاً

تتبعت الدوائر الفنية والأدبية في مصر باهتمام شديد كل ما كتب حول جماعة الفن والحرية في مجلة (الرسالة) الغراء. ولقد ضمت هذه الجماعة مجموعة من الشباب المصري المثقف تلمس فيهم كل إخلاص وحب للوطن العزيز. ولا شك في أن كل ما كتب في (الرسالة) ما هو إلا كتابات سطحية عن أغراض الجماعة لم توف حقها من البحث حتى نطمئن جميعاً إليها حتى إنني لم أكد أدرك ما يريده أعضاء الجماعة من حركتهم الجديدة.

بقي سؤال، وهو أليس للجماعة حساب على جماعة (الفن والحرية)، وهي تؤمن به كما علمت حتى تفصح عن أغراضها الحقيقية، وتوضح بكل جلاء ما ينتجه أعضاؤها من الفنانين أو الأدباء - من فنون حديثة سواء في الرسم أو في الأدب أو في الشعر.

ومقال الأستاذ (كامل التلمساني) الذي نشر بالعدد (321) ودافع فيه عن فنه وفن زملائه (فتحي البكري) و (كمال وليم) والأستاذ (حسين يوسف أمين) و (أبو خليل لطفي) ثم الأستاذ (يوسف العفيفي) و (فؤاد كامل) لم يوضح فيه بشكل قاطع وغير قابل للشك ماهية فنونهم هذه؛ بل ترك مقاله خالياً من أي نتيجة حاسمة نطمئن لها.

ثم جاء بعده مقال للأستاذ (رمسيس يونان) نشر بالعدد (322) عرض فيه عرضاً عاماً شاملاً سريعاً لحركة (السيرريالزم)، وبعض أساليبها في التعبير. وفي هذا المقال أيضاً لم يخرج القارئ منه بنتيجة حاسمة

وأذكر أيضاً كلمة جاءت في صفحة (البريد الأدبي) في أحد أعداد (الرسالة) الغراء كتبها الأستاذ (أنور كامل)، وهي لا تقل في غموضها وشمولها عما كتب من قبل

أليست الحكمة إذن أن تفصح جماعة (الفن والحرية) عن فنها وعن أدبها في صراحة تامة دون مواربة أو إبهام؟

وبعد، فإنني أرى أن أعضاء هذه الجماعة تغمرهم عواطف حارة جياشة في صدورهم الرحبة لخلق فن جديد، وأدب جديد ينبت حقاً من تربة مصر رأساً

ولكن لا بد من إفصاح ولابد من بيان. فهل تتقدم جماعة (الفن والحرية) فتبين لنا ماهية هذه التحولات الجديدة في الفنون وتذكر لنا أثرها في مستقبل مصر الفني والأدبي والمعنوي، على أن يكون بيانها مبنياً على أسس متينة من البحث العلمي أو الفني، معترف بها لدى الجميع.

حسين عبد الله السيد

ليسانسيه في الآداب

الكتب

التربية النظامية

لصاحب العزة القائمقام علي حلمي بك

مدير شرطة مديرية البحيرة

بقلم الأستاذ عبد المنعم خلاف

تفضل سعادة المؤلف بإهداء هذا الكتاب القيم إليّ؛ وهو الكتاب الأول من نوعه باللغة

العربية فيما أعلم، عولجت فيه أوضاع الحياة الشخصية والاجتماعية بوضوح وتفصيل وضبط وبيان رصين على الأسلوب المتكافئ

وقبل أن أتحدث عن الكتاب يسرني أن أتحدث قليلاً عن مؤلفه: فهو مثال للرجل العسكري الكامل الذي يعلن بشخصيته وخلقه عن الفضائل العسكرية التي تقوم لنا قائمة ما لم يعد إلينا الاعتزاز بها والعمل على إحيائها في نفوس الشباب بالقدوة والتعليم. فإنها فضائل تملأ الحس والنفس لأنها في الجسم والفكر والروح

وقد تقلب سعادته في كثير من المناصب في الجيش والشرطة منذ سنة 1911 إلى الآن، وكان معنيا دائماً بدرس شئون الحياة النظامية التي تستلزمها مهنته في القرى والمدن والبيت والشارع. وقد رحل إلى كثير من ممالك الشرق والغرب، فسافر إلى فرنسا وألمانيا وإيطاليا وسويسرا والنمسا وتشيكوسلوفاكيا والمجر ويوغوسلافيا وتركيا واليونان والحجاز وسوريا ولبنان وفلسطين.

قال في مقدمة الطبعة الأولى من كتابه: (وقد عنيت في أثناء هذه الرحلات بالبحث عن كل ما يتصل بالتربية النظامية وأنظمة البوليس والإدارة والنظم القضائية والاجتماعية وكل ما يتصل بالأمن وشئونه وكذا السجون والإصلاحيات ومصير المفرج عنهم والبلديات والمجالس المحلية

وفي الدول التي زرتها بحثت أيضاً في الوسائل التي تتبعها حكوماتها وطوائفها لغرس) روح النظام في أبنائها وإذكاء الروح الحربية والقومية فيهم، وما تقوم به الهيآت لترقية الحياة الاجتماعية وخاصة عامة الشعب

كذلك حضرت المؤتمر الرياضي العسكري السنوي بمدينة (نورنبرج) بصفتي) الشخصية بدعوة من المدير العام للبوليس الألماني مدة أسبوع في صيف 1937. . .

وقد شاهدت ودرست معهم أنظمة المعسكرات والتشكيلات الرياضية والعسكرية لملايين الشباب والشابات. . .)

وكان يوالي الجمهور عقب عودته من كل رحلة بمحاضرات يلقيها في الأندية والمعاهد وقاعات الجمعيات المختلفة وفي محطة الإذاعة اللاسلكية. فهو من المؤمنين بنقل الجماهير من حياة الفوضى إلى حياة النظام عن طريق التمهيد بالدعوة والإرشاد والإذاعة قبل النقل بالقوانين. وهو الآن مستشار عتيد في الجيش (المرابط) الجديد، وقائم خبير من القائمين على تنظيمه. ونرجو الله أن ينفع به دائماً

أما الكتاب فلم يترك ناحية من النواحي التي فيها فوضى أو نقص أو قصور في حياتنا المصرية إلا عالجها واقترح لها وأرشد إلى خير الطرق لتنظيمها أو تكميلها مسترشداً بما في الممالك الغربية. فهو كتاب في (فن) الحياة و (إخراجها) في البيت والشارع والمدرسة والملعب والقرية والمدينة على خير أساليبها وأنماطها

تحدث عن النظام ونهضات الأمم، وتنظيم الاستعداد في السلم والحرب، ووسائل مكافحة الغارت الجوية وحماية الآهلين منها، والقرية المصرية والإصلاح الاجتماعي، وسلامة الدولة، والبوليس والجمهور، ومقاومة الجرائم، وبعض النظم الأوربية الملائمة لعاداتنا وتقاليدنا، والتربية البدنية، والتدريب العسكري، ومفاخر الجيش المصري، والروح القومية. ذلك عرض لأمهات مسائل الكتاب يضاف إليها مسائل عدة يطول بنا الحديث إذا ذكرنا عنواناتها

وهو يقع في 355 صفحة محلى بكثير من الصور الفوتوغرافية. ولو أن مثل هذا الكتاب وزع على طلاب المدارس الثانوية والمعاهد الدينية للمطالعة لكان أفضل بكثير من الكتب التي تتحدث في موضوعات لا تتصل بصميم التربية والسلوك في الحياة، وإنما تتحدث بمقالات كلها (ترف) أدبي أو علمي يحشو الأذهان بالحروف والأرقام وألوان التعبير الجميل والرشاقة البيانية. أما هيكل الحياة الفردية والاجتماعية وأساسها فذلك أمر لا ينظر إليه إلا عرضاً

لقد آن لوزارة المعارف أن تبني النفس المصرية من جديد وأن تجعل همها الأول التربية والإشراف على الناشئين في البيت والشارع والمائدة وطريقة الحديث والمرور والملعب والمجتمعات والملاهي والأفراح والمآتم، وأن تجعل وكدها في أن يخرج الطالب من المرحلة الثانوية وهو راشد التصرف مهذب السلوك قبل أن يكون عالماً علم الأولين والآخرين

نريد أن تبيد وزارة المعارف بكل طالب من طلابها خمائر الفوضى والخرافات الشائعة

في بيوتهم، ولن تتمكن من ذلك إلا إذا استولت على أفئدتهم وملأتها بحب الانتصار لحياة النظام والتنسيق وأفهمتهم أنه من الواجب عليهم أن يجندوا أنفسهم دائماً لحرب الفوضى في بيوتهم ومجتمعاتهم وألا يخضعوا أمام جهل آبائهم وأمهاتهم. والكتب الموضوعة في هذا أولاً والتدريب الطويل ثانياً هما الوسيلة إلى ذلك

(الإسكندرية)

عبد المنعم خلاف

عبث الأقدار

تأليف الأستاذ نجيب محفوظ

للأديب محمد جمال الدين درويش

القاص نجيب محفوظ شاب حديث عهد بالقصة، ولكني أعده في الصف الأول ومن المبرزين فيها وخاصة في القصة القصيرة، وأقاصيصه في مجلة الرواية تؤيد ما ذكرت، وتجعلنا نشد على يده إعجاباً بفنه، وتهنئة بفوزه، واستبشاراً بمستقبله في عالم القصة وهو يمتاز بذوقه الخاص، وطريقته التي اكتسبها من القاص الكبير محمود بك تيمور في كتابه الأقاصيص، ومقدرته الفنية على كتابتها. . . وهو يتخذ مما يشاهده، وما سطرته الأيام والحوادث في سجل المحيط المصري مادة لأقاصيصه، ولذا نرى قصته الجديدة عبث الأقدار مطبوعة بالطابع المحلي. . . تصفحها تجد أنه قد أظهر خوفو فرعون مصر وباني الأهرام كأنه بين ظهرانينا يتمتع بالحياة، والأهرام نلاحظ ونشاهد طريقة بنائها وضجيج العمال وغناءهم. وقصارى القول أن القصة ترينا ما وقع من الحوادث في عهد باني الهرم. كل هذا بأسلوب سهل خال من الكلفة يخطه قلمه على نهج نفسه التي تركها على سجيتها تسجل أفكاره بكل بساطة كأن الفن طوع أمره. وقد نفخ في كلماته من روحه فجعل العبارات كأنها قلوب تنبض وتجيش بالحياة والعواطف تشوق القارئ إلى قراءتها فتتسلسل فصولها تحت أعينه كشريط السينما حادثة في إثر أخرى وتجبره على ألا يلقيها من يده إلا بعد أن ينتهي من قراءتها. . . فيرى أن الأستاذ نجيب عرضها بأسلوب الوصاف أو خلقها بريشة الرسام أو كونها بعدسة المصور

وعلى رغم طول القصة تمكن الأستاذ نجيب من السيطرة على أعصابه ووجدانه حتى أخرج عبث الأقدار كما هي الآن محبوكة كما ينبغي فن القصة. . . وإذا عرفنا أن هذه أول قصة يكتبها طويلة نغتفر للقاص بعض هنات ومآخذ في القصة، ولكني أحاسبه على سوء طبعها وحشوها بالغلطات المطبعية وهي تقع في 160 صفحة من القطع الكبير

وآمل أن تلقى عبث الأقدار من الرواج ما هي أهل له وهي خليقة بالعناية والاعتبار

محمد جمال الدين درويش

رسالة النقد

فصل المقال

فيما دار من نقاش حول (مباحث عربية)

للدكتور إسماعيل أحمد أدهم

أخذنا في نقدنا لكتاب (مباحث عربية) أن مؤلفه في بحثه عن (المسلمين في فنلندة)، وقف عند مجرد الأقوال التي سمعها، ولم يتعدها إلى التحقيق. والحق أن هذا المبحث لا يتعدى كونه استطلاعاً صحفياً، ومن هنا جاء ما فيه من الضعف. فالدكتور بشر يرى أن المسلمين الذين اكتشف وجودهم في فنلندة أصلهم من (الترك - التتر)، الضاربين أصلاً فيما وراء جبال أورال، رحلوا إلى فنلندة عقب الثورة الاشتراكية الكبرى في روسيا. وقد لاحظت أنا أن المسلمين من (الترك - التتر) ينتشرون في شمال وشرق أوربا بكثرة. فمنهم جموع في لابلاند وفي فنلندة وفي استونيا وفي ليتونيا وفي بولندة. . . وقد تحدث عنهم المستشرقون الروس والبولنديون كثيراً - خصوصاً اليهود من الأخيرين - وكان من الروس المستشرق بارثولد، وهو من شيوخ الاستشراق في أوربا؛ فقد كتب بحثاً نفسياً عن (الأتراك في أوربا الشمالية) تجده في مجلة الشرق الجديدة الروسية م 8 ج 4 ص 311 - 336 كذلك كتب بحثاً قيماً الأستاذ فيسفولد كزمبرسكي، وهو من أعلام الاستشراق في روسيا الآن في نفس المرجع. م 10 ج 2 ص 101 - 140 وهو عن (بقايا جموع التتر القديمة في دويلات البلطيق) واعتماداً على هذه

المعرفة نظرت في المراجع التركية التي تحت يدي، فوجدت أن جموعاً من الأتراك المسلمين، رحلوا إلى الشمال في القرن السادس عشر، واستمروا في بلاد الفنوا (فنلندة)، ومن هنا جاء تساؤلي: هل تأكد الدكتور بشر فارس من المعلومات التي ألقيت إليه من الأشخاص الذين قابلهم في فنلندة من جمهور (الترك - التتر) فيها عن أصلهم؟

وقد عمد الدكتور بشر إلى المغالطة في رده فقال: إنه اهتدى إلى هؤلاء المسلمين، وأنهم خبروه بما دوَّن. وأنا وإن كنت لا أحب أن أشجب رواية الدكتور بشر واتهمه في كلامه، إلا أن الذي أحب أن أقوله: إنهم قد يكونون خبروه أن أصولهم من وراء جبال أورال،

وأخطأ هو فهم كلامهم فظن أن هذا يعني أنهم حديثوا العهد بفنلندة أتوها بعد الانقلاب السوفيتي من وراء جبال أورال!. . .

2 - قال الدكتور بشر: إن بعض هؤلاء الأتراك (التتر) يقيمون بمدينة أعمال فنلندة. وقد علقت على هذا الكلام في ردِّي فقلت: (ما صلة اسم هذه المدينة بلفظة ترك)، لأن المشابهة قوية بين اسم المدينة واسم الأتراك، مما يدل على أن المدينة اشتق اسمها من جموع الترك - التتر - التي نزلتها في زمن من الأزمان فجاء الدكتور بشر في ردّه يغالط ويقول: إن مدينة توركو كانت عاصمة فنلندة في المائة الرابعة عشرة للمسيح، وبذلك ينفي تأثير جماعة الترك الذين نزلوا ربوع بلاد الفنوا في القرن السادس عشر والمغالطة واضحة، لأننا لم نقل في ردّنا إن هنالك صلة بين نزول الجموع التركية في القرن السادس عشر وبين تسمية المدينة باسم توركو، ذلك أننا نعرف أن المدينة أقدم عهداً من ذلك التاريخ، وإليك الدليل:

قلنا: (ومسألة أخرى في هذا البحث، فالباحث يذكر أن جموع هؤلاء المسلمين الأتراك تنزل العاصمة ثم بمدينتي تميري وتوركو. وهو لم يذكر لنا شيئاً عن المدينة الثانية، وهل هنالك صلة بين اسمها ولفظة (تورك)

فأين هذه الملاحظة من ردّ صاحبنا القائم على المغالطة والإيهام والتهويل؟

3 - نعرف من كتب الأثنولوجيا أن الفنلنديين يردّون إلى أصلين: الشمال من فنلندة تنزل بعض الجموع الذين يردّون إلى قلة ضئيلة في فنلندة اليوم. ونزول النورديين في دويلات البلطيق من القرن الخامس عدل الصفات الاثنولوجية للفينوا الأول. ومجيء بعض الجموع من (الترك - التتر) إلى دويلات البلطيق واستقرارهم فيها، وكان من الموجتين المغوليتين العظيمتين اللتين جرفتا روسيا عام 1237 وعام 1239، إذ نزل شواطئ البلطيق جماعات من (الترك - التتر) الذين دفعتهم أمامها الموجة المغولية. ثم جاء من الشرق ومن الجنوب عبر بحر البلطيق عن طريق بولندة جموع من الأتراك العثمانيين، نزل بعضهم بولندة واستقر فيها والبعض الآخر ركب البحر إلى الشمال واستقر في استونيا ولتوانيا ولتفيا وفنلندة. وكان مجيء هذه الجموع على دفعات. ولا شك أن بعض هؤلاء كانوا من الأتراك العثمانيين الذين أسروا في الحروب التي شنها الأتراك على أواسط أوربا وعلى جنوب

بولندة (التوران في مجرى التاريخ - ج 3 المقدمة بعدها وكذا بارولد في مبحثه السابق الذكر)

ومن هنا يتبين قيمة رد الدكتور بشر من الحقيقة. هذا إلى أن أصل اشتقاق الفنلندية يعود إلى مادة ترك كما تحقق هذا معنا من مراجعة مادة (ترك) من أعمال معهد التاريخ التركي (السلسلة الأولى - المجلد 4 ج 3 ص 117 - 118)

4 - قلنا إن الدكتور بشر فارس لم يتعمق في بحثه، وكان آية ذلك عندنا أنه يقول: إن لغة التعليم عندهم هي التركية وحروف هجائهم هي الحروف اللاتينية التركية التي وضعت وشاعت بأمر أتاتورك (ص 24) وهو يستدل بهذا على أنهم صرفوا هواهم عن روسية الجنوبية (ص 23) لأننا نعرف أن هناك ضربين من الهجاء اللاتيني للغة التركية، الأول يتخذه أتراك الاتحاد السوفيتي والثاني يتخذه أتراك الجمهورية التركية. وهنالك من الفروق بين الضربين ما يجب تفرقة بعضها عن بعض. وقلنا في ردنا عليه: (وفي إمكان الباحث بمراجعة هذه الفروق أن يدلي برأي نهائي في الموضوع) فحرف الدكتور بشر كلامنا فقال: (إنني أخذت عليه عدم التثبت في بحثه لأنه لم يقرر أن الحروف التي يستخدمها هؤلاء المسلمون في فنلندة، ليست هي تلك الحروف التي

!توافق عليها أتراك الاتحاد السوفيتي) وأين هذا الكلام من كلامي؟
إن الكماليين استعملوا الهجاء اللاتيني في 3 نوفمبر عام 1929 288 سطر 24 الاتحاد
السوفيتي اتخذوا الهجاء اللاتيني في مؤتمر باكو عام 1924، ثم حدث بعض الخلاف
سوّه في مؤتمر تفليس عام 1925 ومصطفى كمال اعتمد على الهجاء اللاتيني
الفرنسي في وضعه الهجاء اللاتيني التركي، وإن نظر لنظام أتراك الاتحاد السوفيتي
ولا زلت أنا عند رأيي الأول أنه كان في مستطاع الدكتور بشر أن يرجع لنظام الهجاء
اللاتيني لهؤلاء المسلمين، ويقارنه بما يقابله عند أتراك الاتحاد السوفيتي ثم أتراك
الجمهورية التركية وبذلك يدلي برأي نهائي في الموضوع. أما القول بأنهم أخبروه
بذلك، فهو من اجتلاب القول، فضلاً عن أنه موضع نظر حتى يمكن الجزم في نظام
أحرف الهجاء اللاتيني التي يستخدمونها في الكتابة
وإذا كان عند الدكتور بشر فارس نماذج من كتاباتهم فليبعث إلي بواحد منها، وأنا ضمين
بأن أقطع الشك في هذه المسألة بحكم درايتي بهذه الدقائق نتيجة تقلبي في بيئات
تركيا والاتحاد السوفيتي ردحاً من الزمان
بقيت بعض ملاحظات على الجملة التي دار حولها النقاش من مبحث الدكتور بشر
فارس، من ذلك أنه استدل من أن لغة التعليم عند هؤلاء المسلمين الفنلنديين هي
التركية بأنهم صرفوا هواهم عن روسية الجنوبية (ص 23 من كتابه) ولست أعرف ما
موضع روسية الجنوبية في هذا التعبير؛ لأن هؤلاء إن كانوا من الترك الضاربين فيما
وراء جبال أورال فلا صلة لهم إذن بروسية الجنوبية (القرم وقازان وأكرانيا)، وإن كانوا
من الجنوب من روسية فلا معنى للقول بأنهم من الترك الضاربين فيما وراء جبال
أورال. . . والذي عندي أن هذا الخلط نتيجة تفسيرات شخصية من الدكتور بشر فلم
يحدثوه بأنهم من وراء جبال أورال، وإنما الدكتور بشر قد استنتجه خطأ، لعلمه أن
(الترك - التتر) أصلهم من هذه المناطق. وعلى هذا يتسق الأمر في استطلاع الدكتور
بشر لشؤون هذه الجماعة المسلمة في أقصى الشمال. أما القول بصرف الهوى عن
روسيا الجنوبية. . . فهو الأصل الذي يكشف عن فكرة الاستنتاج في قول بشر أنهم من
!. . .(الأتراك - التتر) الضاربين فيما وراء جبال أورال
5 - قلنا في نقدنا لكتاب مباحث عربية: (إن استعمال لفظ (السلوك) لأحد مشتقات
المصدر الفرنسي تارة ولفظ (الأخلاقيات) لمشتق آخر لنفس المصدر (وهو تارة أخرى
يوقع في اللبس والاختلاط). فكتب الدكتور بشر: (والردّ أن الناقد لم يدرك الفرق بين
اللفظتين الفرنسيتين: فالأول يدل على أعمال المرء من الناحية الأخلاقية، والثاني يفيد
علم الأخلاق). والمغالطة في ردّ صاحبنا الدكتور بشر واضحة، لأن الأصل في نقدنا أن
استعمال لفظ السلوك والأخلاقيات لمشتقتين من مصدر واحد اللاتينية يوقع في
اللبس. واللازم أن يشتق من المادة العربية التي ينظران إلى اللفظين الفرنسيين
والأول يأتي عندي آداباً والآخر أدبيات، ففي الأول مفهوم حيث هو قاعدة (أو منهج)
وفي الآخر مفهوم حيث هو مبدأ وبين الاثنين من الفارق ما لاحظه الدكتور بشر فارس
6 - قلنا: (إن في تعبير الدكتور بشر أن للفظة الشرف مفادات متجاورة تارة، متباينة
أخرى) قصوراً لا تستقيم معه الجملة إلا إذا أبدل فيها لفظة المتجاورة بالمتشابهة لأنها أدل
على المعنى وأكثر اتساقاً في الجملة من حيث أن التجاور في تعبيره يفيد إفرنجياً يعني:
1 - الألفاظ المفردة الدالة على معنى واحد (مترادف)
2 - الألفاظ المفردة الدالة على معنى متشابه (أو متقارب)
وإذن يكون في العربية الفصحى كل من لفظتي المترادف أو المتشابه (المتقارب)
وذلك حسب استعماله. والتعبير الذي استعمل فيه الدكتور بشر لفظة متجاورة سياقها
تفيد التقارب أو التشابه. والدكتور بشر يريد هذا، لأن المتباين يقابله المترادف من
الجهة الأخرى ويقف بينهما المتشابه والمتقارب. وهذه مسألة لا تحتاج إلى ذلك العلم
الدقيق بمفردات اللغة كما يهول صاحبنا في رده. وليس جعلنا المتشابهة بدليل قصور
في العلم باللغة. لأن المتشابهة والمتباينة من الألفاظ التي تنظر وليست اللفظة
الإفرنجية مفادها قاصراً على المترادفة عربياً. ونحن إن كنا وقفنا في ردنا عليه عند

المشابهة (الوجه الثاني من مفاد اللفظة) فذلك لأنها هي المقصودة في العبارة، والسياقة تدل عليها، وما دام الأمر كذلك فأي ضرورة تلجئنا إلى الكلام عن المترادف أو المترادفة من الألفاظ؟

على أن محاولة بشر تخريج الموضوع بقوله: إنه يعني بالمفادات الإفرنجية فلا معنى لها ولا محل، لأن المفادات لا تتجاور ولكن تتشابه (أو تتقارب) وتتباين وتترادف، لأن التجاور يغلبها الجانب الحسي والمفادات يغلب عليها الجانب المعنوي. أما أن المتجاورة من تعبيره تنظر فليس ذلك بدليل يلزم أن يكون التعبير فيه لفظ التجاور. لأن التعبير في العربية وليس في اللغة الفرنسية، ولكل لغة أحكامها وأصولها. وأظن أنني لست بذلك الشخص الذي يعطي للدكتور بشر درساً في هذا، فهو أدرى منا في هذا بحكم كونه ابن اللغة العربية، ولكن قل هي الشكلية أفسدت عليه النظر

(لها بقية)

إسماعيل أحمد أدهم

المسرح والسينما

من التاريخ

النهضة المسرحية في مصر

ونصيب الفرقة القومية منها وواجبها حيالها

أولاد الفقراء

قلنا إن رواية (الذبائح) التي وضعها المرحوم أنطون يزبك كانت ذات أثر سيئ في النهضة المسرحية. ولقد نسج على منوالها يوسف وهبي فوضع (الصحراء) ثم وضع (أولاد الذوات) ثم (أولاد الفقراء) وقد نجحت هذه الروايات لكنها استبدلت لمسرح رمسيس جمهوراً بجمهور فأصبح رواده من طبقة العامة الذين افتتنوا بيوسف وبرواياته التي كتبت باللغة العامية التي يفهمونها وباللهجة المبتذلة التي يتكلمون بها. ولقد عافت الآذان الشريفة أن تستمع إلى الألفاظ الكثيرة الساقطة التي ترد على لسان الممثلين والممثلات فهجر أصحابها مسرح رمسيس الذي انحدر انحداراً شنيعاً مع شدة الإقبال عليه من طبقة معينة من الجماهير كانت تأتي لتشاهد (أولاد الفقراء) وتعجب وتتأثر بالمآسي والفجائع التي حشدها يوسف وهبي فيها. ولم يكن يوسف ليعرف عظم الهوة التي ينحدر إليها، وقدر كبته أنانية المؤلف التي جعلته يعتقد ويجاهر بأن الكلمات التي يكتبها لا يجوز التبديل فيها كما لا يجوز التبديل في القرآن. ولهذا فقد استمر يوسف في نهجه حتى وصل به الحال إلى أسوأ ما يصل إليه فنان

نعود فنقول إن يوسف وقد أراد أن ينتقم من النقاد وأن يهدم إلى جانبهم بعض الشخصيات المسرحية البارزة، قد قبل تمثيل رواية (الوحوش) للأستاذ محمود كامل ورواية (تحت العلم) للأستاذ عبد الرحمن رشدي، وليس هذا أوان التحدث عن هاتين الروايتين، وإنما يكفي أن نقول إن الأستاذ محمود كامل وضع (الوحوش) في سن الشباب قبل أن ينال الخبرة والمران وأن الأستاذ عبد الرحمن رشدي وضع (تحت العلم) وهو ليس بالمؤلف وما هو إلا ممثل فقط. ولقد سقطت الروايتان سقوطاً شائناً. ومن العجيب أنهما لم تسيئا إلى اسمي مؤلفيهما بقدر ما أساءتا إلى مسرح رمسيس. وهكذا أراد يوسف أن يطعن الآخرين

فطعن نفسه

فلما وقعت الشحناء بين أفراد فرقة رمسيس وحلت البغضاء محل المودة وشاءت الظروف أن تنقسم الفرقة إلى شطرين شطر يذهب مع فاطمة رشدي وعزيز عيد وشطر يبقى، نقول لما شاءت الظروف أن يقع هذا انتعش المسرح انتعاشاً مؤقتاً بسبب التنافس الشديد، بيد أنه كان انتعاشا مؤقتاً وعلى غير أساس، ومن ثم فقد سقطت فرقة فاطمة رشدي مع الزمن وانهار بنيان فرقة رمسيس من بعدها خصوصاً وقد اختطت لنفسها خطة جديدة بهذه الروايات التي كتبت بلغة عامية

ولا نطيل فقد انهارت النهضة المسرحية على يد من شادوها وأقاموا بنيانها فارتفعت صيحات النقاد من كل جانب بطلب إنشاء فرقة حكومية، وأخيراً استجابت الحكومة للنداء وأنشأت أولاً فرقة (اتحاد الممثلين) التي منيت بفشل ذريع، فاضطرت أمام هذه الحالة إلى إنشاء (الفرقة القومية المصرية). ومن طريف ما يذكر أن الأستاذ يوسف وهبي وقد عرض عليه أن ينظم إلى الفرقة طلب أن يسمح له بتمثيل بضع روايات من

أمثال أولاد الذوات وأولاد الفقراء حتى يمكن أن نأتي بإيراد يعوض الخسائر التي ستمنى بها من تمثيل الروايات المثالية التي ستعنى الفرقة بإخراجها لإنقاذ فن التمثيل مما وصل إليه بسبب يوسف وهبي ورواياته الشعبية!

ومع أن مدير الفرقة رفض أن يجيب يوسف وهبي إلى طلبه الغريب فإنه سمح بعدئذ أن تخرج الفرقة القومية روايات وإن تكن باللغة العربية إلا أنها أكثر ابتذالاً من رواية أولاد الفقراء.

(للكلام بقية)

ملاحظات

روايات قديمة

قلنا إن من أسباب نجاح فرقة رمسيس في عصرها الذهبي أنها أخرجت للناس روايات جديدة قوية ولم تعمد إلى إعادة إخراج بعض الروايات القديمة إلا بعد أن استتب لها الأمر ورأت أن في إخراج هذه الروايات ما يبرهن على كامل استعدادها وقوتها ثم إنها كانت تخرج في موسمها الواحد حوالي عشرين رواية لا يكون من بينها أكثر من رواية واحدة قديمة

أما الفرقة القومية فإنها لشدة فقرها الفني - فإنها بحمد الله واسعة الثراء من الوجهة المادية - لا تجد أمامها سوى الروايات القديمة التي سبق إخراجها ونالت النجاح، فهي تعيد إخراجها مطمئنة إلى أنها لن تسقط على الأقل!

وهاهي ذي ستفتتح موسمه برواية (مصرع كليوبطره) وهي رواية قديمة وستتبعها برواية (لويس الحادي عشر) وهي رواية قديمة أيضاً!

وسوف ترى الفرقة أنها بهذه الأعمال التي تصدر عن غير بصيرة ستفقد الثقة الباقية فيها.

أما ما يقال من أن بعض هذه الروايات القديمة، إنما يعاد إخراجها من أجل بعض الممثلين الذين لا يصلحون إلا لها، فإنه مع صحة هذا القول لا يجب أن يذهب الكل من أجل البعض. وعلى أي حال فإن رواية الافتتاح يجب أن تكون جديدة، وقد كان من الكياسة أن يؤخر إخراج هذه الروايات القديمة إلى ما بعد إخراج بضع روايات جديدة.

عدد أفراد الفرقة القومية

أتينا في العدد الماضي على الإشاعة القائلة بتوفير أكبر عدد ممكن من أفراد الفرقة الموسيقية التي تعمل مع الفرقة القومية؛ وذلك لتوفير بضع مئات من الجنيهات تصرف في وجوهها الحقة خصوصاً وأن الفرقة ليست في حاجة إلى هذا العدد الوفير من الموسيقيين فهي ليست فرقة أوبرا أو أوبريت

قلنا في الأسبوع الماضي فإذا بالإشاعة تتطور في هذا الأسبوع إلى أن التوفير سيشمل أيضاً بعض الممثلين!

وإذا كنا ننصح مع الناصحين بتوفير أكبر عدد ممكن من أفراد الفرقة الموسيقية، أو الاستغناء عن هذه الفرقة جميعاً والاستعاضة عنها بحاك، وبضع اسطوانات؛ فإننا ننصح إلى جانب ذلك بزيادة عدد أفراد الفرقة القومية، وضم العناصر القوية الخارجة عنها، أما التوفير فمعناه إضعافها والقضاء عليها.

وليسأل مدير الفرقة الأستاذ أحمد عسكر عن عدد أفراد فرقة رمسيس أيام كان يعمل بها، وعن المجهودات التي كان يبذلها الأستاذ يوسف وهبي لضم العناصر القوية التي كانت تعمل خارج الفرقة، وعما حل بفرقة رمسيس منذ انقسمت شطرين وخرج منها بعض أبطالها وبطلاتها!

الأستاذ سليمان نجيب

يبذل الأستاذ سليمان نجيب مدير الأوبرا أقصى جهده في مساعدة الفرقة القومية مساعدة جدية يشكر عليها، وقد بلغنا أخيراً أنه استمع إلى رأي المخرجين فتوح نشاطي وعمر جميعي بشأن تغطية الفراغ الكبير المعد للفرقة الموسيقية ليتسنى بذلك وضع بضعة صفوف أخرى للمشاهدين، وكذلك سيسمح للممثلين بالتقدم إلى مقدمة المسرح ولم يكن يسمح لهم بذلك من قبل بسبب الاحتياط الخاص بالحرائق، وبهذا كله ينعدم الفراغ الكبير الذي كان يخلق جواً من البرود يؤثر تأثيراً سيئاً في المشاهد التمثيلية. وقد كان من أسباب نجاح الروايات في مسرح رمسيس (ريتس الآن) أن هذا الفاصل غير موجود.

مأساة الفرقة القومية
مأساة الفرقة القومية في سكرتيرها السابق ما تزال ماثلة في الأذهان، وقد خرج منها على أي حال فليس من سبب يدعوننا إلى التحدث عن هذه المأساة أو ذكر تفاصيلها من جديد. وإنما غايتنا من التذكير بها أن نوجه النظر إلى وجوب مراقبة الشئون المالية للفرقة مراقبة دقيقة وحصر المسئولية في شخص معين يكون مسئولاً عنها. وها نحن أولاء في بداية الموسم وستكثر المشتريات وصرف النقود فإذا سار الأمر فوضى فإنه يخشى أن تتكرر المآسي وهي كفيلة بالقضاء على الفرقة
(فرعون الصغير)
العدد 327 - بتاريخ: 09 - 10 - 1939
جريرة النازية على الإنسانية
يا ضَلَّةَ العقل ويا حيرة المنطق!
إن أمام التاريخ اليوم رجفة من رجفات الهول والهلاك لم يبتلَ بمثلها الإنسان منذ دحا الله هذه الأرض. فهل يستطيع مهما سبر أغوار النفس، وكشف أسرار المجتمع، ورصد أطوار الحوادث، أن يقول فيها أكثر مما يقول في العواصف والزلازل والبراكين والأوبئة؟
هل يستطيع التاريخ بفلسفته وحذلقته أن يفسر لنا وللأجيال كيف تسنى لخمسة نفر من عباد الله الضعاف، لا هم آلهة ولا هم أبالسة، أن يسيطروا على الشعب الألماني الضخم وهو آية في النبوغ البشري في العلم والأدب والفلسفة والفن فيشلوا تفكيره، ويلغوا إرادته، ويمسخوه قطيعاً جراراً من أفيال جهنم ترمي العالم كله محاربيه ومسالميه بالبوار والدمار، أو بالفزع والمجاعة!
لو كانت هذه النازية الهتلرية قائمة في سلطانها وطغيانها على مبدأ من مبادئ الخير، أو مذهب من مذاهب الإصلاح، لالتمسنا لخضوع الشعب الألماني لها واضطراب العالم الإنساني بها مساغاً في العقل أو مثلاً من التاريخ؛ ولكنها ضلالة من ضلالات العصبية والعنصرية والأثرة والغرور استبدت بفكر ثائر وعقل حائر وهوى طموح، فظنها الفوهرر رسالة من رسالات الله أوحاها إليه في كتاب (كفاحه)، وأوجب أداءها عليه بقوة سلاحه؛ فهي شريعة تنسخ كل كتاب غير كتاب هتلر، وتمحو كل سيادة غير سيادة النازي، وتمحق كل عنصر غير عنصر الجرمان. وإذا كان في الساميين وهم في رأيه حثالة الناس رسالات ورسل، فكيف لا يكون على الأقل في الآريين وهم خلاصة الأجناس رسالة ورسول؟
ولكننا عرفنا إله الناس الذي أصطفى من الساميين موسى وعيسى ومحمداً ليبلغوا رسالات الهدى والحق والخير، فألفوا نوافر القلوب بالحب، وأقاموا قواعد المجتمع على العدل، وخففوا متاعب العيش بالإحسان، وضمنوا وفاء العهود بالذمة، وجعلوا الناس كلهم سواسية في حق الحياة لا يطغي جنس على جنس، ولا يبغي قوم على قوم. فمن هو يا تُرى إله الألمان الذي أصطفى من الآريين هتلر وجورنج وهيس وريبنتروب ليبيدوا أمم العالم، ويدمروا حضارة الدهر، ويحطموا روائع الإنسان، ويستبدلوا بشرائع الله وقوانين الضمير سياسة لا تعرف براً بوعد ولا وفاء بعهد ولا ثباتاً على مبدأ؟
يا ضلة العقل ويا حيرة المنطق!
أبعد أن تغلغل على طول القرون هدى الله في الغرائز والأخلاق والقوانين والنظم ففازت الحرية، وسادت الديمقراطية، وعلت الإنسانية، يمكن أن تقوم في العالم اليوم نِحلة مجرمة الوسيلة والغاية كنِحلة النازية تحتقر أجناس الناس، وتنكر حقوق الشعوب، وتزدري قواعد السلوك، وتستحل في سبيل السيطرة والغلب الغدر والمكر والكذب وغش السياسة ونقض العهود وإنكار المذهب!
ليت شعري ماذا يقول أحفاد لوثَر وكَنْت وجوته وبيتهوفن وقد رأوا زعيمهم الأديب الفنان يقول بلسان دولته ولا يصدُق، ويعاهد بشرف أمته ولا يفي، ويجعل من شعبه الصبور العامل غولاً للسلام يقذف الرعب في كل قلب، والشقاء في كل منزل، ثم يدع صليبه النازِيَّ المعقوف يتحطم رويداً رويداً بين مطرقة الشيوعية ومنجلها بعد أن ناصبها العداء المر والهجاء الفاحش!
لقد قلنا في كلمة سابقة: (إن هذا الرجل العجيب استطاع في ست سنين ونصف أن

يبني من الحديد والنار والسم والثأر والعزيمة والعصبية دولة كانت بعد صلح فرساي تتوارى من الخجل، وتتفانى من الجوع، وتتهالك من الدين، وتضع أيديها على هيكلها فلا تجد إلا شلواً لا صورة له ولا حس فيه، فأصبحت بما نفخ فيها من روح الكفاح، ووضع في أيديها من قوة السلاح، تملك على الدولة الحياة والموت، وتقضي على الأمم بالسلام أو بالحرب؛ كل ذلك فعله من غير ثورة ولا حرب فكان حريّاً أن يتبجح في آخر خطابه التاريخي المشهور بقوله: ألست حقيقاً بأن أطلب إلى التاريخ أن يعدّني في الذين حققوا أعظم ما يسمح الإنصاف بطلبه من رجل؟). نعم قلنا ذلك أيام كان هذا الرجل الشاذ قابضاً على عجلة القيادة بحزم الربان الماهر وحكمة القائد البصير. وما كنا نتوقع أن يبتليه الله بضعف الإنسان الفرد على هذا النحو المهلك والقضاء العاجل، فيدور برأسه الغرور، ويذهب بنفسه العناد، حتى لم يعد لشهواته حد تقف عنده، ولا لنزواته فرملة تحبس عليه.

هذا هو هتلر الذي أعجب به شباب الأمم بالأمس يأخذه اليوم جماح السلطان وعرام القوة، فيُلقى عامداً بقوته وبالعالم في سعير الحرب، ثم يقف في ضوء لظاها المشبوب في الأرزاق والأعلاق والأنفس وفي يديه قيثارة نيرون يعبث بأوتارها ويضحك!

ماذا عسى أن يكون مصير الشعوب الصغيرة التي ضمنت على ضعفها أن تعيش في حمى الشرف والعدل والسلام، إذا تغلب هذا الطغيان النازي الذي يريد أن يحكم العالم على أساس استعباد الضعيف، وتسخير قوى الناس والطبيعة لسيادة عنصر واحد وإرادة رجل واحد؟

إن ميراث الإنسانية المتدينة المتمدنة أخلاق وثقافة ونظم هو اليوم في حمى الدول الديمقراطية الحرة تدافع عنه وترعاه وتمسك به الأرض أن تميد وتبيد. وليس للأمم الصغيرة سبيل للحياة الحرة إلا أن تساهم في هذا الدفاع بإخلاص وقوة، فإن ضمان العيش للقلة بجانب الكثرة، وللعجز في كنف القدرة، هو هذه الفضائل الاجتماعية التي نبتت في أصول الدين ونمت في ظلال الديمقراطية. أما إذا شاء القدر - ومعاذ الله أن يشاء - أن يتحكم هوى الطغيان في حقوق الإنسان فيذهب بالإخاء أثرة جنس، وبالمساواة سيادة شعب، وبالحرية استبداد فرد، فقل إنها دنيا للشر جديدة نرجو أن لا يكون لنا فيها وجود!

أحمد حسن الزيات

أين الكلتور؟

للأستاذ عباس محمود العقاد

دخل الألمان الحرب الماضية وهم يحملون أمامهم كلمة (الكلتور) التي شاعت على ألسنة الناس من ذلك الحين كما شاعت ترجماتها في اللغات الأخرى، ومنها كلمة الثقافة في اللغة العربية.

وكانت دعواهم أنهم يحاربون بالكلتور الجرماني أو الثقافة الجرمانية كما يحاربون بقوة السلاح وقوة السياسة، لأنهم اعتقدوا أنهم أصحاب أشرف الثقافات وأحقها بالنصر والغلبة على عقول الأمم وأذواقها.

فأين (الكلتور) في الحرب الحاضرة؟

إن النازيين لا يذكرونه على ألسنتهم ولو على سبيل الإدعاء الذي يعوزه البرهان، لأنهم بعيدون عنه وهو بعيد عنهم. فليس في حركتهم ثقافة، وليس لها فن ولا ثمرات فنية؛ وكل ما عليها صبغة حرب كالطلاء الأحمر على الوجه الشاحب الهزيل، لا هو من الصحة ولا من الجمال.

وتعترف الصحف النازية - كما جاء في صحيفة أوربا الحديثة الفرنسية - بأن الروايات التي يؤلفها الكتاب النازيون لا تترجم إلى لغة من اللغات الأجنبية، وأن الأدب الألماني يمثله اليوم في العالم جماعة من الكتاب المهاجرين المطرودين من حظيرة هتلر؛ فكل ما يعرفه العالم من الأدب الألماني الحديث هو من ثمرات فراغ هؤلاء الكتاب المطرودين!

ورأيُ الإيطاليين - وهم أخوان المحور - لا يختلف عن رأي الأمم الأخرى في الأدب الشائع بين النازيين، فقد ترجم إلى اللغة الإيطالية في سنة 1937 خمسة وسبعون كتاباً معظمها من تأليف كتاب المنفى، ولم تبرز قط رواية نازية على مسارح العالم

بعد سنة 1933 وهي السنة التي قبض فيها هتلر على زمام السلطان؛ وهي خسارة مالية فوق الخسارة الأدبية يقدرون ما ضاع من جرائها على خزانة الريخ بخمسة ملايين من الماركات.

وقد بلغت ثروة الصور المتحركة النازية خلال السنة الماضية خمسة ملايين مارك هبطت إلى ثلاثة ملايين في السنة الحاضرة، وبلغت الشُّرُط الكبرى في سنة 1932 وهي من

سنوات الأزمة والكساد مائة وأثنين وأربعين أخرجت كلها في العواصم الألمانية، فما زالت تهبط حتى انحدرت إلى ثمانية وتسعين في سنة 1938 على الرغم من ضم النمسا وبلاد السوديت.

أما ما باعته ألمانيا النازية من الشرط في الخارج فقد كان تسعة وسبعين في سنة 1937! فهبط في السنة التالية إلى أربعة وعشرين

هذا كساد في الملكات والقرائح شعر به هتلر ونبه إليه في المؤتمر الأكبر فقال إن الحركة النازية لا تزال في انتظار العبقريات التي تتغنى لها بمعانيها وأناشيدها.

وشعر به القائمون على التربية الوطنية فعالجوه على دأبهم المشهور بالعلاجات العسكرية والأساليب البتراء فما ازدادوا في كساد ملكاتهم وقرائحهم إلا خموداً على خمود.

قال أستاذ رياضيات لزميل أمريكي: ما الحيلة في هذا الجيل العقيم الذي لا يحسن غير السير في المواكب وشق الحناجر بالهتاف والتفاخر بالبنود والشارات؟ لقد زيفوا لهم التاريخ فقبلوا وقائعه ومسخوا تفسيراته وجعلوه قصيدة من قصائد الإطراء للنازيين وأشباه النازيين، وقد علموهم الجغرافيا على النحو الذي طاب لهم ووافق دعواهم وأملى لهم في سياستهم، وقد جعلوا أبطال الدنيا بأسرها من سلالة شمالية أو آرية كما يقولون. فأما الرياضيات فمن لنا بتزييفها على هذا النمط المنكوس؟ ومن لنا بتعليم الشبان الجبر والفلك والرياضيات العليا والدقائق الفنية، وهم بين موكب يصخبون فيه أو نشيد أو مناورة في عرض الطريق؟ كل درس يحتمل التزييف والاصطباغ بالصبغة السياسية إلا العلوم والرياضيات!. . . فلم يبق أمامنا إلا إسقاط الدرجات كرة بعد كرة حتى هبط مقياس النجاح إلى ما دون مقياس الرسوب، ولولا هذا لاتهمنا الرؤساء بالتقصير وقالوا: إن الآفة من عجزنا عن التعليم لا من عجز هؤلاء الأولاد الفاشلين عن الإصغاء وإنعام النظر في دقائق العلوم.

وقد يستخف النازيون بهذه العاقبة الوخيمة لو كان خطبها كله مقصوراً على ندرة التأليف وقلة النبوغ في الأدب والفن وما إليهما من مجالي العبقرية ومعارض التعبير. لكن المصيبة التي لا يستطيع النازيون تجاهلاً لها ولا استخفافاً بعقباها أن كساد العقول يتغلب عليهم في مجال (العسكريات) أو مجال التدريب للقتال، وهم لاشيء في سياسة الأمة

ولا في سياسة العالم إن لم يفلحوا في تدريب الجنود وتحضير السلاح.

فلا غنى للدراسة العسكرية العصرية عن الفنون وعن الرياضيات وعن البراعة في تركيب الآلات وتسيير المحركات. وقد أشار إلى هذا النقص في الجيل النازي الأخير كاتب مجري من أصحاب المراجع الموثوق بها في مسائل الحرب الماضية والعدد الضرورية لكل حرب حديثة، نعني به الدكتور إيفان لاجوس مؤلف كتاب (فرص ألمانيا في الحرب) ومسجل الآراء التي أفضى بها رجال ألمانيا المسؤولون في هذه الأمور، فإذا بهم يجمعون على الشكوى من تقهقر التعليم واستحالة الاعتماد على من يتدربون بالأساليب النازية المستعجلة، ويؤتمنون بعد ذلك على الطيارات والدبابات وتنفيذ الخطط ومراس المختلف من دقائق الأدوات.

فالثقافة المزيفة بلاء لا تنحصر أضراره في الأدب والفن والتأليف، ولا يزال يسري في كل شعبة من شعب الحياة حتى يعطل القوة العسكرية والقوة البدنية والقوة الحيوانية في النهاية، وهي القوى التي يُظَّن أنها أغنى ما تكون عن الثقافة والمثقفين.

وإذا كان في الحرب ما يحمد الله عليه فلنحمد الله نحن المصريين بل نحن الشرقيين أجمعين أن كشف ستر النازية قبل أن تخدع الأسماع والأبصار بظاهر ما لها من الضجة والبريق والطلاء، فقد بلغ من خداعها أن سمعنا أناساً من ساستنا يدعوننا إلى اقتباسها والأخذ عنها ولو في تقييد الحرية الفردية وتغليب (النظام العسكري) عليها، فأشرنا

يومئذ في مجلس النواب إلى وخامة التربية النازية وجنايتها على العقول وإفسادها لينابيع التفكير والتثقيف، وقلنا إنها جنت على ألمانيا وهي سابقة لنا في ميادين العلم والفن والتربية فماذا تصنع بنا نحن وإننا لدارجين حتى الساعة في بداية الطريق؟!
وسنحمد الله حمداً مضاعفاً متى تكشفت الحقائق كلها عن فضائل الحرية ورجحانها في جميع الموازين على أساليب الطغيان و (النظام) المزعوم، ولا يخامرنا الشك في مصير أناس يعارضون مجرى الحياة الإنسانية ويمسخون ما ازدانت به من شرف وجمال. فسيفشلون لا محالة كما فشل أسلاف لهم حملوا على الدنيا بسلاح الحديد وسلاح الكلتور، وإن هؤلاء اللاحقين لأضعف من سابقيهم في السلاحين!

عباس محمود العقاد

أسمار وأحاديث

في منزل الدكتور طه حسين

للدكتور زكي مبارك

في مطلع الصيف كنت على موعد مع الأستاذ الكبير الدكتور طه بك حسين لأقدم إليه نسخة من كتاب (ليلى المريضة في العراق) ولأقرأ معه صفحات من ذلك الكتاب، ولكني حين وصلت في الموعد المحدّد لم أجده في البيت، فسلمت الكتاب لجنديْ يرابط هناك وانصرفت.

ولم يعزّني عن إخلاف الدكتور طه حسين إلا لحظات عذاب قضيتُها في منزل الآنسة أم كلثوم، وبينه وبين منزل الدكتور طه بضع خطوات.

وفي اليوم التالي سألت عنه بالتليفون لأعرف كيف أخلف الموعد، فاعتذر بلطف وأكّد أنه نسي ذلك الموعد كل النسيان، ودعاني إلى تجديد الموعد، فقلت: إني أتأهب للسفر إلى بغداد للاشتراك في تأبين الملك غازي، وسأحرص على التشرف بمقابلتك حين أعود.

وكنت أحب أن آنس بلقائه بعد أن رجعتُ من بغداد، ولكني خشيت أن يكون أخلف الموعد الأول عن عمد، لأن أولاد الحلال لا يزالون (يصلحون) ما بيني وبينه من صلات.

ثم سافر الدكتور طه إلى باريس، وسارت الأخبار بأنه سيعتذر عن الحضور في العام المقبل ليستريح من عناء المشكلات الجامعية وليؤلف كتاباً عن تاريخ الشعر العربي.

وكنت في تلك المدة شرعت في الهجوم على الأستاذ أحمد أمين؛ وندْ القلم فوقعت منه غمزات تمسْ الدكتور طه حسين بدون موجب. وكذلك استوحشت من المضيّ للتسليم عليه حين عرفت أنه رجع من باريس.

ثم عدت فقررت أن أودي الواجب في تحية الدكتور طه، راجياً أن يكون في تأدية هذه التحية تبديد للظلمات التي يخلقها من يأكلون العيش بحياكة الأقاويل والأراجيف.

كان ذلك في مساء اليوم الثالث عشر من شعبان، والقمر يقدِّم إلى الوجود أفانين من الرفق والحنان، ويذكِّر القلوب الخوامد بماضيها الجميل في مقارعة الصبوة والفتون؛ فنزلت من السيارة عند جسر فؤاد لأمتع القلب والروح بمشاهدة النيل، وهو يواجه القمر في أيام الطغيان، ولأستقبل الزمالك بأدب وخشوع؛ فما كان ثراها الغالي إلا نثائر أكبادٍ وقلوب.

وأخذت أجتاز الزمالك من حَرَم إلى حَرَم إلى أن بلغت منزل الدكتور طه حسين.

وكنت أرجو أن أجده وحده، لأني وصلت بعد الساعة التاسعة، وهو عنده وقت هدوء؛ ولكن يظهر أن قدومه من السفر رفع الحجاب فكان منزله في أنس بجماعة من أهل الفضل هم الأساتذة شفيق غربال، وعبد الواحد خلاف، ومنصور فهمي، وعلي عبد الرزاق، وسعيد لطفي، وأمين الخولي، وتوفيق الحكيم، وعبد الوهاب عزام، وإبراهيم مصطفى، وعبد الحميد العبادي.

سلّمتُ على الدكتور طه تسليم المحب المشتاق، وسألته عن باريس وعن السوربون، فأجاب إجابات موجزة دلتْ على أنه يريد أن يكتم عني أشياء. فهل آذت الحرب بعض أصدقائي هناك؟ لا قدر الله ولا سمح!

وبعد لحظة حضر الأستاذ أحمد أمين فنهضت واقفاً لمصافحته، ولكنه زوى وجهه وتجاهل وجودي، ورأيت المقام لا يتسع لمحاسبته على ما صنع، فتكلفتُ الابتسام وأنا مَغِيظ.

وخطر في البال أن حضوري قد يعَكر المجلس، وأن من الخير أن أنصرف؛ ثم تذكرت

أنني أحق الناس بمودة الدكتور طه حسين، وإن حالت بيننا الدسائس حيناً من الزمان، فقد كنت صديقه الحق قبل أن يعرف أصدقاء اليوم. كنت صديقه الحميم في ظروف لا يسأل فيها الشقيق عن الشقيق، فكيف أخرج من منزله ليخلو الجوْ لصديق مثل أحمد أمين؟

يجب أن أقضي السهرة كاملة، وعلى من يؤذيه حضوري أن يتفضل بالانصراف!

وبعد أن دارت السجائر على الزائرين شرع الأستاذ أمين الخولي في الحديث

أمين الخولي - يا زكي، ما تترك أبداً أخلاق المنوفية؟

طه حسين - وما أخلاق المنوفية؟

أمين الخولي - هي المشاغبة واللجاجة والعناد

طه حسين - وزكي مبارك مشاغب؟ قل كلاماً غير هذا يا أمين، فما عرف الناس زكياً إلا مثال اللطف والأدب والذوق. الدكتور زكي حقيقة رجل لطيف؛ ومن آيات لطفه أنه ينظر فيرى الناس قد ضجروا من الهدوء والسكون فيسلط عليهم القذائف القلمية ليتذوقوا نعمة الحركة والجدَل والنضال.

علي عبد الرزاق - يظهر أنك راض عن الدكتور زكي مبارك

طه حسين - وهل أملك غير ذلك؟

زكي مبارك - تملك كلمة النصح يا سيدي الدكتور، إن رأيت ما يوجب كلمة النصح

طه حسين - لا، يا عم، يفتح الله!

زكي مبارك - يظهر يا سيدي الدكتور أنك غضبان

طه حسين - لست بغضبان، ولكن يحق لي أن أنزعج من بعض ما أقرأ لك

عبد الواحد خلاف - لعل الدكتور يشير إلى مقالاته في مهاجمة الأستاذ أحمد أمين

أحمد أمين - أنا أحتج على إثارة هذا الموضوع في هذا المجلس

خلاف - الخطب سهل، ونحن نحاول تصفية القلوب

أحمد أمين - أنا أحتمل كل شيء إلا التعرض لنبالتي

طه حسين - وهل تعرض زكي مبارك لنبالتك بشيء؟ إن هذا لو صحّ لكان خروجاً على شِرعة العقل!

أحمد أمين - لقد تعرض لنبالتي بأشياء

إبراهيم مصطفى - إن الدكتور زكي لم يتعرض لنبالتك، يا حضرة الأستاذ

زكي مبارك - أنتم تخوضون في شجون من الأحاديث لا عهد لي بها قبل اليوم، فما كنت أعرف أن الأستاذ أحمد أمين فوق النقد، ولا كنت أظن أن التعرض لتفنيد آرائه يعد هجوماً على قدسيته الذاتية! فهل تعتقد يا أستاذ أني تجنيت عليك؟

أحمد أمين - ليس لي معك كلام، ولا أقبل الدخول معك في نقاش، وأنت حرٌّ فيما تنشر من زور وبهتان

زكي مبارك - زور وبهتان؟ وهل النبالة أن تنطق بهذه الكلمات في هذا المجلس؟

منصور فهمي - لاحظ يا زكي أنك جرّحت الأستاذ أحمد أمين وأن من حقه أن يعلن غضبه عليك، والنفس الإنسانية معرضة للرضا والغضب، والفرح والترح، والرجاء والقنوط. فالأستاذ أحمد أمين يعبر تعبيراً طبيعياً عن السريرة الإنسانية

زكي مبارك - وكيف يكون الحال لو استبحتُ من التعبير ما استباح؟

أحمد أمين - وهل تورعت عن شيء؟ إن مقالاتك عني هي الشاهد الحيُّ على مبلغ أدبك!

زكي مبارك - وأنا راض عما قلت فيك، وما قلت إلا الحق والصدق، وأنا أنتظر أن يغضب الله عليك فيجازيك على سوء ما صنعت في تحقير ماضي الأدب العربي

طه حسين - إيه الحكاية؟

أحمد أمين - الحكاية أن زكي مبارك يقول إن طه حسين جاهل، وإن أحمد أمين جهول!

طه حسين - خبر أسود!

سعيد لطفي - أنا كنت أظن أن المسألة مزاح في مزاح. وأين نشر الدكتور زكي هذا الكلام المزعج؟!

أحمد أمين - نشره في مجلة الرسالة وعند الزيات. الرسالة التي خلقتها بقلمي

زكي مبارك - والزيات الذي سويته بيديك!

طه حسين - لقد قرأت المقالة الأولى قبل السفر، وأوصيت الأستاذ عبده عزام بحفظ المجموعة لأقرأها يوم أعود، وسأقرأها في هذه الأيام، فإن رأيت فيها أني جاهل وأن أحمد أمين جهول فستكون وقعتك يا زكي زيْ الزفت!
أحمد أمين - وما ذنب لطفي باشا حتى يتعرض له زكي مبارك بسوء؟
إبراهيم مصطفى - لقد قرأت تلك المقالات مرات. . .
طه حسين - قرأتها بالقراءات السَّبع؟
إبراهيم مصطفى - أريد أن أقول إني قرأتها بعناية ولم أجد فيها أية إشارة لسعادة لطفي باشا
علي عبد الرزاق - لطفي باشا لا يُغضبه أن يكون في بال الناقدين والباحثين
زكي مبارك - ومن أجل هذا أهجم عليه من وقت إلى وقت
سعيد لطفي - هذا أسلوب طريف في البر والوفاء!
طه حسين - طبعا. طبعاً، فصاحبنا زكي مبارك يتوهم أن الخلود لن يكون إلا من نصيب من يتعرض لهم في مقالاته ومؤلفاته بالقبيح أو الجميل. وأشهد أنه سلْ سخائم صدري يوم قال إنه لا يهجم علي إلا وهو يعتقد أن الهجوم معناه (بونجور)
أحمد أمين - وأنا لا أريد منه بونجور ولا بونسوار!
زكي مبارك - ولكني لن أتركك بعافية أو تكف شرك عن الأدب العربي
أحمد أمين - وما شأنك بالأدب العربي؟ وما هي خدماتك لهذا الأدب الذي تقول إنك تغار
عليه كما تغار على عِرضك؟
زكي مبارك - يكفي أني من تلامذة طه حسين
طه حسين - العفو! العفو! إني والله راض بأن تكون من أساتذة طه حسين!
زكي مبارك - يا سيدي الدكتور. . .
طه حسين - تقتلني حين تقول (سيدي الدكتور) وأنت ترى أني جاهل وأن أحمد أمين جهول
علي عبد الرزاق - لم أشهد في حياتي أروع من هذا الحوار، وهو يستحق التسجيل
إبراهيم مصطفى - بشرط ألا يذكر فيه أسمي
علي عبد الرزاق - وما المانع من أن يذكر أسمك في هذا الحوار؟
إبراهيم مصطفى - لا تعرف ما المانع. إن هذا الحديث يوم يسجَّل لن يسجله غير زكي مبارك الذي ابتدع فن الأسمار والأحاديث
علي عبد الرزاق - وهل تخشى أن يتزيد عليك؟
إبراهيم مصطفى - أنا لا أخاف التزيد ولا أهاب الافتراء، لأني أملك تكذيب المفتريات، وأستطيع دحض الأباطيل؛ ولو كان زكي مبارك يفتري على الناس لكان أمره أخفْ وأسهل، ولكنه مع الأسف يبرع في تصوير الصدق
منصور فهمي - وما الخطر من تصوير الصدق؟
إبراهيم مصطفى - الخطر عظيم جداً. وإليك توضيح هذه المعضلة: زكي مبارك يحرص على أن يصورك في أحسن أحوالك، وأحسن أحوال المؤمن حال الصلاة. فهل تعرف كيف يصورك وأنت في صلاتك؟ يصورك وأنت راكع أو ساجد! فهل يرضيك أن تصوّر في حال الركوع أو السجود؟
توفيق الحكيم - هذه أخيلة باريسية، وهي تشهد بروعة ذكائك يا أستاذ إبراهيم
إبراهيم مصطفى - العفو، يا أستاذ توفيق، فتلك وثبة من الخيال ساقها هذا الحوار الطريف
أحمد أمين - أرجو أن تعفوني من هذه المطايبات، فلولا مراعاة المقام لانصرفت
طه حسين - أؤكد لك أن الدكتور زكي لم يقصد إيذاءك فيما كتب عنك. ألم تر كيف احتملته سنين وهو يلحْ في اتهامي بالجهل؟
زكي مبارك - لم أتهم سيدي الدكتور بالجهل المطلق، معاذ الله، وإنما اتهمته بالجهل بالقياس إلى المسيو برونو والمسيو دي لاكروا، وقد توليا عمادة كلية الآداب في باريس
أمين الخولي - كلام طيب، يا فتوة المنوفية، فلا مانع عند الدكتور طه من أن يكون في باريس من هو أعلم منه، فقد تخرَّج في مدينة النور وهو يثني على أساتذتها في كل

حين، ولكنك اتهمت الأستاذ أحمد أمين بالعاميّة الفكرية، فما هو المخرج من هذا الاتهام الفظيع؟
زكي مبارك - لم أتهم الأستاذ أحمد أمين بالعامية المطلقة، ولكن بالقياس إلى الشيخ خربوش
طه حسين - ومن الشيخ خربوش؟
زكي مبارك - الشيخ خربوش عالم علامّة لا يقاس إليه الأستاذ أحمد أمين
علي عبد الرزاق - ألم أقل لكم إن هذا الحوار يستحق التدوين؟
عبد الواحد خلاف - هذا الحوار ينفع في تهدئة أعصاب الأستاذ أحمد أمين، وقد بدأ يبتسم، ولكن المهم هو الاستفادة من هذا المجلس في تغيير المذهب الأدبي للدكتور زكي مبارك، فهو أقدر أدبائنا جميعاً على إحداث الضجات الأدبية، ولا أدري كيف رجع سليماً من العراق. . .
توفيق الحكيم - كنت تنتظر أن يلقى حتفه هناك؟
طه حسين - كان يستريح ويريح، كما قال أحد الكتّاب
زكي مبارك:
لن تزالوا كذلكم ثم لا زل ... ت لكم خالداً خلود الجبال
أحمد أمين - أي جبال وأي خلود؟ أليست لنا أقلام تفل قلمك بأيسر جهد؟
عبد الواحد خلاف - أرجو أن تسمعوا بقية كلامي. إن زكي مبارك أقدر أدبائنا جميعاً على إحداث الضجات الأدبية، ولكنه لا يوجِّه نشاطه إلى ما يفيد.
زكي مبارك - وبماذا تشير أيها السيد؟
عبد الواحد خلاف - أشير بأن تعود سيرتك يوم كنت تؤلف في النثر الفني والتصوف الإسلامي، فتوجه مجادلاتك ومصاولاتك إلى القدماء
طه حسين - الأمل بعيد في توجيه الدكتور زكي مبارك إلى ما يفيد وينفع
زكي مبارك - يا سيدي الدكتور. . .
طه حسين - فلقتني يا أخي بعبارة (سيدي الدكتور) وقد تحيرت في أمرك، فأنت في المجلس رجل لطيف، ولكنك حين تخلو إلى قلمك تنقلب إلى شيطان مَريد
أمين الخولي - دافع عن نفسك يا زكي فإني أخشى أن ينهزم فتوة المنوفية
زكي مبارك - لي كلمة يا سيدي الدكتور، ولا تؤاخذني بالحرص على هذه العبارة، فقد حضرت دروسك بضع سنين ولا أستبيح الهجوم عليك
طه حسين - ألم أقل لكم إن زكي مبارك رجل
زكي مبارك - أشكر لك هذا اللطف يا سيدي الدكتور، ثم أقول إني تلقيت عنك مبادئ الظلم والاعتساف.
عبد الوهاب عزام - إيوه، يا عم زكي، هات ما عندك هات
زكي مبارك - تذكرون المناوشة التي قامت بين الدكتور طه والدكتور منصور على صفحات الأهرام في سنة 1921؟
منصور فهمي - أية مناوشة؟ ذَكِّرني فقد نسيت
زكي مبارك - كنت يا سيدي الدكتور أثنيت على أسلوب المنفلوطي، فهاج أستاذنا الدكتور طه وماج، ودعاك إلى أن تسمي الجمل جَملاً والأرنب أرنباً، أو كما قال، ومعنى ذلك أن المنفلوطي ليس بكاتب ولا أديب
طه حسين - ثم؟
زكي مبارك - ثم جاء الأستاذ الكبير الدكتور طه حسين الذي أنكر أن يكون المنفلوطي كاتباً أو أديباً فاعترف بأن الأستاذ أحمد أمين كاتب وأديب وسمح بأن يدرس أسلوبه على طلبة السنة الأولى بكلية الآداب
طه حسين - ما هذا الحشيش؟
زكي مبارك - أنا لم أذق الحشيش أبداً، ولكني أؤكد أن أسلوب أحمد أمين يدرس في كلية الآداب
طه حسين - هذا مستحيل
أحمد أمين - الكلية تدرس أساليب المعاصرين جميعاً.
زكي مبارك - وأنت كاتب ولك أسلوب؟
منصور فهمي - احترس يا زكي من الخروج على أدب الخطاب

أحمد أمين - ليتكم صدقتموني حين قلت إن زكي مبارك لا ينقد الباحث نقد العالم للعالم وإنما ينقده نقد المصارع للعالم
زكي مبارك - وأنت عالم يا أستاذ؟ وهل يكال العلم أيضاً بمكيال؟
أحمد أمين - العلم كله عندك، ونحن تلاميذ مبتدئون!
علي عبد الرزاق - هذا الحوار لا يستحق التسجيل!
عبد الحميد العبادي - هو على كل حال صورة من صور التاريخ!
توفيق الحكيم - أنا والله شديد الحسرة على ما وصلنا إليه؛ فقد كنت أحب أن تكون بين الأدباء صداقات عظيمة كالذي يعرفه الأدباء العظماء في باريس ولندن وبرلين
عبد الوهاب عزام - وكالذي شهدناه بين زكي مبارك وأحمد أمين!
طه حسين - إن ذهني لا يسيغ القول بأن النقد يفسد ما بين الأصدقاء
شفيق غربال - أعتقد أن الدكتور زكي رجل طيب القلب. وقد قرأت مقالاته عن الأستاذ أحمد أمين بارتياح، وجنيت منها كثيراً من الفوائد الأدبية. ولو أنه نزه قلمه عن بعض العبارات التي جرت مجرى السخرية من الأستاذ أحمد أمين لما استطاع أحد أن يوجه إليه أي ملام
توفيق الحكيم - ولهذه المقالات مزية أخرى غير الفوائد الأدبية، فقد بعَّضتني في الجو الأدبي عندنا وحبّبت إليّ قضاء الصيف في أوربا، ولم أرجع إلا بعد أن ظننت أنها انتهت؛ ثم كانت حسرتي شديدة حين رأيت أن زكي مبارك لا يزال يبدي ويعيد في شرح جنايات أحمد أمين. ولولا الحرب لرجعت من حيث أتيت، فمن أين يجد زكي مبارك كل هذا الكلام الطويل العريض؟
شفيق غربال - المسئول عن هذه المتاعب هو الأستاذ أحمد أمين
أحمد أمين - أنا المسئول؟
شفيق غربال - بالتأكيد، أنت المسئول، لأنك مضيت في بحثك طول الصيف، وهيأت المجال للدكتور زكي مبارك. والذي يقدِّم الوقود للنار لا ينكر عليها الاشتعال
طه حسين - هل أفهم من هذا أن الجوْ الأدبي عرف الحياة في هذا الصيف؟
زكي مبارك - يكفي يا سيدي الدكتور أن تعرف أن الأستاذ أحمد أمين نقل مكتبته إلى الإسكندرية في هذا الصيف ليجد الشواهد تحت يديه وهو يردّ عليّ
أحمد أمين - أنا رددت عليك؟ وهل قلتَ كلاماً يُرَدّ عليه؟
زكي مبارك - الله يعلم كيف شغلت قلبك وعقلك، وكيف قهرتك على مراجعة المؤلفات الأدبية، والمصنفات الفقهية. وهل تستطيع يا أستاذ أن تقول إنك تجهل منزلتي الأدبية؟
أحمد أمين - إن مقالاتك في الهجوم عليّ زهدت القراء في علمك وأدبك
شفيق غربال - سمعت غير هذا. سمعت أن مقالات الدكتور زكي مبارك في الهجوم على الأستاذ أحمد أمين دلتْ على اطلاع فائق وتفكير عميق، وسمعت من يقول إنه لم يعرف قيمة زكي مبارك إلا بفضل هذه المقالات
منصور فهمي - وهذا يشرح جانباً من عقلية المجتمع. فالجمهور يعرف زكي مبارك الناقد ولا يعرف زكي مبارك المؤلف، لأنه ينقد وهو ثائر ويؤلف وهو هادئ
طه حسين - زكي مبارك يصطنع الثورة في كل شيء حتى التأليف، ولكن ثورته في مؤلفاته لا تلفت نظر الجمهور لأنها في الأغلب متصلة بالقدماء، والهجوم على القدماء لا يثير تطلّع الناس إلا حين يمس العقائد من قرب أو من بعد، كالذي وقع يوم ظهر كتاب الشعر الجاهلي
زكي مبارك - ومن أجل هذا حرص سيدي الدكتور على تغليظ بعض الألفاظ ليوجه الأنظار إلى كتابه النفيس!
طه حسين - وبعدين لك، يا دكتور زكي؟
زكي مبارك - لا بَعْدين ولا قَبْلين، ولكني أحب أن أعرف كيف تكون الصراحة حلالاً في وقت وحراماً في وقت؟ وكيف يحلْ لسيدي الدكتور ما يحرُم على سائر الناس؟
طه حسين - يظهر أنك تحب أن تتمتع بالحرية الكاملة في حياتك العقلية، ويظهر مع الأسف أنك لم تعتبر بما عاناه أحرار الفكر في هذه البلاد، فما تحسدني عليه حلال لك حين تشاء. وإني أرجو أن يبعد اليوم الذي ترجع فيه عن شططك وجموحك، اليوم الذي تيئس فيه من إنصاف الناس كما يئستُ من إنصاف الناس

منصور فهمي - ولكن ما الموجب للتعرض لما يمس العقائد؟
طه حسين - اسأل نفسك يا منصور فلك مع العقائد تاريخ
منصور فهمي - كان ذلك في عهد الشباب
طه حسين - وكان مني ما كان في عهد الشباب، وإن لم يمض عليه غير عشر سنين، والحسرة تلذع قلبي كلما تذكرت أني لا أملك مكايدة الجماهير من جديد. وهل نكايد الجماهير إلا بفضل ما يثور في دمائنا من ثورة وطغيان؟
عبد الواحد خلاف - ومعنى ذلك أن الدكتور زكي مبارك يكايد جماهير الأدباء لأنه لا يزال في عنفوان الشباب؟
طه حسين - الذي أعرفه أن زكي مبارك صار من طبقة الكهول، بحكم السن على الأقل، فقد شهدت مشاغبته بدروس الأستاذ علي عبد الرزاق في الأزهر سنة 1912
زكي مبارك - وأنا شهدت مشاغبتك يا سيدي الدكتور بدروس الشيخ محمد المهدي في الجامعة المصرية سنة 1913
أحمد أمين - ومع هذه السن العالية لا يزال زكي مباركك يمعن في الغزل والتشبيب كأنه في سن العشرين
شفيق غربال - هذه الدعابة تدل على أن الأستاذ أحمد أمين صفت نفسه وطابت
طه حسين - فهل نرجو أن يكف زكي مبارك عن العدوان بعد هذا الصفاء؟
زكي مبارك - هل تصافينا حقيقة؟
أحمد أمين - لن نتصافى أبداً بعد الذي كان
زكي مبارك - يظهر انك تستروح بالهجوم عليك، وسأخيِّب ظنك فأسكت عنك بعد ثلاث أو أربع مقالات. . . مساء الخير، يا سيدي الدكتور، والحمد لله الذي أرجعك إلينا بخير وعافية.
(مصر الجديدة)
زكي مبارك
من تاريخنا العلمي
طالب علم. . .
للأستاذ علي الطنطاوي
قال (محمد بن سعيد):
- ويْك أتق الله يا أبا فلان. إنك لتوشك أن تقتل هذا الرجل الصالح وتبوء والله بدمه. ويك اتق الله، لا تطرده من (فندقك) فإنه غريب نائي الديار، قطع سباسب وبحاراً، وجاب ما بين المشرقين. . .
قال: أبقى بن مخلد جاب ما بين المشرقين؟
قال: نعم، وهل تراني عنيت غيره؟ إنه حاجتي إليك، وما سألتك حاجة قبلها، أفلا تقضيها لي؟ إنه شيخ جليل القدر يحمل الحديث ويروي السنن، أفندعه يموت على قارعة الطريق؟
قال: وما أصنع به أنا؟ لقد آويته في فندقي عامين أثنين، لا آخذ منه مالاً ولا أرزؤه شيئاً ولا أعصي له أمراً، أفيكون جزائي أن أعجف عليه نفسي حتى يموت، فيخرج من فندقي محمولاً إلى القبر فيتشاءم الناس بالفندق فيتحامونه فأفلس؟
إنه مريض أنهكته الأوجاع وأدنفته الحمى، ولقد أعجز تقاريس الأطباء، وما أراه إلا ميتاً العشية أو غداة الغد. . . فارحموني، أنقذوني منه، ليس لي به حاجة. . . قبحها الله ساعة أكريته فيها هذا البيت، لقد كانت ساعة ما حضرها مَلَك. . .
قال: أربع عليك أيها الرجل فإنك في نعمة لو عرفت قدرها لقطّعت الليل بحمد الله عليها. إنك لا تدري أيّ خير ساقه الله إليك، وأي أجر كتبه لك، فأقم نفسك في خدمته، وارجُ وجه الله، أطمعْ لك بالجنة
قال: إني والله لو عرفت مداها لما لمتني على الجزع منها. إنك لا تعرف هذا الشيخ أي رجل هو؟ أأقول لك: إنه لم يبت عندي ليلة واحدة حتى خرج بخلقان بالية ومزق مخرقة وركوة وعصا ليسأل الناس. . . ما لك تضحك من كلامي؟. . . أتهزأ بي يا أبن سعيد؟
قال: لا. ولكنك لا تدري ما شأن هذا الرجل

قال: وإنّ له بعدُ لشأناً؟
قال: وأي شأن؟ هذا رجل هجر جنَّات الأندلس ورياضها، وعيونها وأنهارها، ومكانة له فيها سامية، وجاهاً له عريضاً. . . وفارق أهلاً فيها وصحباً، وعشيرة كبيرة، وأموالاً كثيرة، وذهب يخوض اللجج والبحار، ويجوب السباسب والقفار، ليقْدَمَ بغداد، لا طمعاً بجاه يناله، أو مال يحصله، أو صديق يزوره، أو امرأة يخطبها، أو لذة يطلبها، ولكن رغبة في العلم وحباً للحديث، وشوقاً إلى لقاء أبي عبد الله!
فلما سمع الفندقي اسم أبي عبد الله انتبه وتبدلت حاله، وطفت على وجهه خيالات من الحب العظيم، والإجلال الكبير، الذي يحتفظ عليه قلبه لهذا الإمام، وقال بلهجة أرق، ونغمة أعذب، قد ذاب فيها حقده على بقى بن مخلد في محبته لأبي عبد الله -
أتقول إن الرجل قدم من الأندلس ليلقى أحمد بن حنبل؟
- نعم.
- ياله من شرف في الدنيا والآخرة! وهل لقيه؟ ألا تخبرني كيف لقيه؟
قال: إنه نزل عليك في هذا الفندق فألقى فيه متاعه، وذهب يطلب أبا عبد الله؛ وكان ذلك أيام المحنة والناس لا يجرئون على ذكر أسمه، وأبو عبد الله منفرد لا يلقاه أحد إلا أخذته عيون السلطان فناله أذى شديد. . . فلما علم الرجل بذلك ناله من الغمْ ما الله عالم به، فأمّ المسجد الجامع في الرصافة يسمع من المحدثين فما زال يمرّ بالحلق حتى انتهى إلى حلقة نبيلة، فوقف عليها، وكنت أول من رأى زيّه الغريب، فسلمت عليه أونس غربته؛ فسألني: من هذا الشيخ؟
قلت: يحيى بن معين، وكان يعرفه، ومن لا يعرف يحيى أبن معين؟ فوقف ساعة، ثم لمح فرجة قد انفرجت فقام فيها، وكان الشيخ يكشف عن الرجال فيقوي ويضعف، ويزكي ويجرح، فقال:
- يا أبا زكريا - رحمك الله - رجل غريب نائي الديار، أردت السؤال، فلا تستخفني
فقال الشيخ: قُلْ
فجعل يسأل عن بعض من لقي من أهل الحديث - وكان قد لقي منهم خلقاً كثيراً - فبعضاً زكى وبعضاً جرح، فسأله عن هشام بن عمّار وكان قد أكثر الأخذ عنه، فقال الشيخ:
- أبو الوليد هشام بن عمار صاحب صلاة دمشق، ثقة وفوق الثقة، لو كان تحت ردائه كبر ما ضرّه شيئاً لخيره وفضله
فتصايح أهل الحلقة:
- حسبك يرحمك الله حسبك، غيرك له سؤال
فقام وهو واقف على قدم:
- أكشفك عن رجل واحد: أحمد بن حنبل؟
فما قالها حتى جمد الناس وعلت الشيخ كآبة، ونظر إليه متعجباً كأنه يقول له: أعن أحمد يسأل أحد؟ وهل تجرؤ على ذكره؟ وكأن الشيخ قد خالطه شيء من الجزع، ثم غلب عليه إيمانه فلم يعد يبالي السلطان وغضبه، وقال للسائل:
- من أين أنت أيها الرجل؟ نحن نكشف عن أحمد أبن حنبل؟
وسكت الشيخ لحظة ثم قال بجرأة عجب لها الناس ولبثوا شاخصين، ينظرون إلى الشيخ يخافون أن تتخطفه جلاوزة السلطان. . .
قال الشيخ:
- ذاك إمام المسلمين وخيرهم وفاضلهم
ثم إن الرجل ذهب يستهدي الناس إلى دار أبي عبد الله فمنهم من يعرض عنه خشية أن يكون عيناً للسلطان، ومنهم من يجرؤ فيمشي معه خطوات. . . حتى انتهى إلى الدار
فنال الإعجاب من نفس الفندقي كل منال، وسأله:
- أتقول إنه زاره في منزله أيام محنته؟
قال محمد بن سعيد: نعم. قرع عليه الباب فلما فتح له قال: إني رجل غريب أتيتك من مكان سحيق
قال أبو عبد الله: مرحباً بك، أين بلدك؟
قال: الأندلس

قال: أفريقية؟
قال: لا، أبعد من ذاك، أركب البحر من أفريقية إلى بلدي
قال: لا جرم إنه بعيد، فما حاجتك؟
قال: أسمع منك، وأروي عنك
قال: ولكني كما رأيت وعلمت، لا ألقى أحداً، ولا يدعون أحداً يلقاني، ولست آمن عليك الأذى إذا أنت أتيتني
قال: ما كنت لأبالي في سبيل الأخذ عنك أذى ولا عذابا
قال: فإن هم منعوك؟
قال: أحتال بحيلة، آتيك بزي السؤال فأصيح: الأجر يرحمك الله، فتفتح لي وتحدثني
قال: على ألاّ تظهر في الحلَق فيعرفوك
قال: على ألا أظهر
فكان يفعل ذلك، وكنت تظنه يخرج فيسأل الناس
فعاد الفندقي يسأل متثبتاً، وقد كبر الرجل في عينيه حتى كأن الذي تحتويه غرفته ملك أو وزير، عاد يسأل متثبتاً:
- إذن فهو من (أصحاب) أحمد بن حنبل
قال: نعم، ولبث على ذلك حتى رفع الله المحنة وولى الأمر (المتوكل) فأحيا المذهب الحق، مذهب أهل السنة، وأمات البدعة، وجزى الله أحمد بما صبر، فكان كما تعرف وأعرف إمام الأمة، وأيد الله به الدين كما أيده بأبي بكر يوم الردة فصار يعرف لهذا الرجل حقه ويقول لأصحابه: (هذا يقع عليه أسم طالب العلم)
قال الفندقي:
- جزاك الله يا ابن سعيد خيراً، فقد عرفتني حقه، فهلم بنا إليه . . .
كان بقى بن مخلد الأندلسي وحيداً في غرفته، يتقلب من الألم، ويتلوى من الحمى، قد طحطحه المرض، وهدته الأوجاع فما أبقت منه إلا هيكلاً كالقناة الجوفاء يتردد فيها الهواء، ولَما يشكو من الحنين إلى بلده، والتشوق إلى أهله - أشد عليه من كل ذاك ولم يكن في البيت إلا لبد اضطجع عليه ووسادة ألقى عليها رأسه، وكتبه مبثوثة من حوله ما يدعها، إذا أدركه انتباه نظر فيها، فإذا غاب عنه من الوجع عقله تركها في مكانها، فلما دخلا عليه ألفياه يقرأ في صحيفة في يده. فجلسا ساعة يؤنسانه فما شعرا إلا ضجة تدنو حتى حسباها قد استقرت في الفندق، فنظرا من الشباك فإذا الرحبة والطرق التي تؤدي إليها ما فيها موطئ قدم خلا من إنسان. فاضطرب الرجل ونزل يسأل أن ماذا جرى؟
فما أحس إلا الناس يقولون: لقد أتى. . . هو في الطريق. . . فأيقن أنه الخليفة، ولكنه رأى موكب الخليفة غير مرة فما رأى مثل اليوم. . . ودنا من شيخ واقف في أطراف الناس فسأله من القادم، وأين يذهب؟
فقال: إنه أبو عبد الله الذي لا يمشي إلى الخليفة، قادم ليعود مريضاً في هذا الفندق، فصاح الفندقي:
- أبو عبد الله قادم إلى فندقي، أبو عبد الله؟ وطفق يصيح ويثب لا يدري ماذا يصنع وماذا يقول، وما يحفله أحد لأن الناس يتشوفون إلى الطريق ينظرون، وقد احتشدوا فيها فما بقي بزاز في دكانه، ولا تاجر في سوقه، ولا طالب علم في حلقته، ولهم دويّ وجلبة. . .
وصحا الفندق على نفسه، فإذا هذا البحر ينشق بقدرة الله، وإذا الخلق يسكتون حتى كأن رؤوسهم الطير، ويبدو الإمام ومن حوله طلبة العلم قد احتشدوا من جهات بغداد كلها. بغداد العظيمة التي يسكنها مليونان وبأيديهم قراطيسهم وأقلامهم يكتبون كل كلمة يقولها فانتهى الإمام إلى الغرفة، فوقف على المريض فقال له:
- يا أبا عبد الرحمن! أبشر بثواب الله، أعلاك الله إلى العافية، ومسح عنك بيمينه الشافية
فتناقل القوم ما قال فكتبوه
ومرّت أعوام بعد ذلك وأعوام، والناس يذكرون هذا اليوم المشهود. أما الفندق فغدا منذ ذلك الزيارة محط رجال العلماء والكبراء، ودرت على صاحبه إخلاف الرزق، وأما

. . .بقيّ فقد شفاه الله وعاد إلى الأندلس فملأها علماً
علي الطنطاوي
ساراكينوس
للأستاذ محمد عبد الله العمودي
جاء في العدد 324 من هذه الرسالة العالية، كلمة بعنوان (يا رسول الله)، (لأستاذ جليل) ينم عليه قلمه!
استهلها بآية من آياته، وبينة من بيناته، وتلك قوله:
(!!إن الدهر قد جار على قوم عرب)
ثم نقل من (التنبيه والإشراف) للمسعودي هذه النبذة:
كانت ملوك الروم تكتب على كتبها من فلان ملك النصرانية، فغير ذلك نقفور، وكتب) (ملك الروم) وقال هذا كذب، ليس (أنا) ملك النصرانية، أنا ملك الروم، والملوك لا تكذب، وأنكر على الروم تسميتهم العرب (ساراقينوس) تفسير ذلك: عبيد سارة، طعناً منهم على هاجر وابنها إسماعيل، وقال: تسميتهم عبيد سارة كذب، والروم إلى هذا الوقت (يعني سنة 345) تسمي العرب (سارقينوس. . .) أهـ
وأستاذنا الجليل، وهو (سباق غايات، وصاحب بينات) كان حقاً عليه أن يقف لحظة أمام هذه (الكلمة) فيعالجها معالجة يردها إلى أصلها، أو يقول قولاً في فصلها؛ إذ هذا هجِّيراه وديدنه في كل ما يرقمه قلمه البارع في شتى (بحاثاته). . .! ولكنه لم يفعل بل تركها تجري في عبارات المسعودي غامضة الوضع، عسيرة الفهم، ملحقةً بذلك التفسير الذي يغلب على الظن أن المسعودي فسره تفسيراً خياليّاً بقوله: (عبيد سارة) أخذاً من الهجاء الأول (سارا) من كلمة: (ساراقينوس)، والدليل على بطلان هذا الكلام عن المسعودي، وإن كنا لا نستبعد أن لوجود (سارا) أو (سارَّة) في بنية هذه (الكلمة) من أمر، قوله: (وقال (أي نقفور) تسميتهم عبيد ساره كذب) لأن ملكاً من ملوك هذه المصفَّرة لا يمكن بحال من الأحوال أن يجعل من نفسه مدافعاً عن العرب، أو يعنى بمثل هذا التحليل وغاية ما في الأمر أن لخيال المسعودي أثراً في هذا، فمن وجود (سارة) في هذه الكلمة يتبادر إلى ذهن (المؤرخ) الأسطورة الخرافية الداهية التي (تحطّ) من قدر الإسماعليين أبناء هاجر بالنسبة (لساره) الزوجة الشرعية لإبراهيم الخليل. . . وهذا ما وقع فيه المسعودي، فلا يُسلَّم له بهذا، إلا إذا جاء نصٌ من اللاتينية أو الإغريقية يقول أن (كينوس) بمعنى (عبد) حينئذ يمكننا أن نركن البنادق مسلّمين!
وسيرى الأستاذ الجليل، من الأقوال الآتية في أصل هذه الكلمة وما قاله المؤرخون، قدامى ومحدثون، ما يجعله يقلّل من أهمية رواية المسعودي الذي إذا صح أنه لم يبتدعها من خياله، فقد أمكن حينئذ أنه استقاها عن طريق. . . (إسرائيليات!) والنكتة في هذا معلومة!
هذه الكلمة قد سجلها التاريخ في مطاويه منذ عهد عريق جداً، فالعرب لا تعرفها مطلقاً، إذ لم تشتهر في تاريخهم، وما وردت في نظمهم ولا نثرهم، فإذا كان المسعودي هو المؤرخ الوحيد الذي ذكرها، فلا شك أنها هبطت عليه عرضاً، وأقتنصها اقتناصاً من أحاديث الروم. ومعنى هذا أنها غير مشهورة بين العرب، ولا جارية على ألسنتهم فهم يجهلونها كل الجهل جهلهم بأصلها!
وهي سارية في كل اللغات الأوربية بهذا المفهوم ألهم إلا في الهجاء الثاني منها فإنه يختلف إختلافاً بسيطاً بحسب اختلاف اللُّغى واللهجات. . .
أما التوصل إلى حقيقتها والتعرف على كُنه تحدرها في مجرى التاريخ فهذا لا يكون إلا بالوقوف على ما كتبه مؤرخو أمتي البحر المتوسط: الإغريق والرومان، فلِهاتين الأمتين صلات وثيقة وتجارة جارية. أجل، عند هاتين الأمتين نشأت كلمة (ساراكينوس) ووردت في تاريخهما معزّزة بهجماتهم المتوالية على حدود الممالك الإغريقية والرومية في مصر وفلسطين وما وراء بلاد الأنباط. وكانت قوافل السبأيين من أقصى الجنوب تفيض موقرة بالأحمال، معطّرة الأعطاف بالبهار والأطياب فتتسلمها عن طريق أيدي هؤلاء (السراكينوس) لتتوزع في قصور أوربا ومعابدها عن طريق الأغارقة والرومان. . .
وإذا كانت هذه الكلمة أصبحت اليوم علماً خاصاً يطلق على العرب، فإن مفهومها

قديماً كان على عكس ذلك؛ فقد كانت تدور في دائرة ضيقة من التعريف، لا تطلق على الشعب العربي كله وإنما كانت خاصة بقبيل معيّن يسكن على شواطئ خليج العقبة في الجزء الجنوبي لجزيرة سيناء يعرفه الإغريق بـ (ساراكِيني)

وأقدم ذكر جاء لهذه الكلمة في كتاب المؤرخ الإغريقي ديوسكوريدس في منتصف القرن الأول من ميلاد المسيح عندما وصف صمغ (المقل) فقال: إنه ينبت من (شجرة ساركينية).

وذكر المؤرخ الروماني بلينوس الأكبر في كتابه (التاريخ الطبيعي)، وقد كان معاصراً للإغريقي السابق الذكر، هؤلاء (السراكين)، فقال: (إنهم من جملة القبائل العربية الثاوية في صميم الصحراء، والتي تتاخم بلادهم بلاد الأنباط).

وجاء على أثر هؤلاء المؤرخ بطليموس، في منتصف القرن الثاني للميلاد، فذكر بلاد (السراكين فقال: (إنها تقع في بلاد العرب الحجرية وعين مكانها بقوله إنها تقع في غرب الجبال السوداء التي تمتد - بناء على قوله - من خليج فاران إلى أرض اليهودية. .)

ولم يكتف المؤلف بكلامه هذا، بل عاد ونقض قوله، فقال في موضع آخر من مؤلفه: إن (السراكين) شعب يقيم في داخلية بلاد العرب السعيدة يقصد بذلك بلاد اليمن. وزاد على ذلك فقال: إن (السكينتس) وقوم عاد يسكنون الهضاب المرتفعة، وبالقرب منهم نحو الشمال والجنوب يوجد (السراكينوس) والثموديون!

وهذه الفقرة الأخيرة من بطليموس بعيدة عن إفهامنا كل البعد إذ لا يصدق مطلقاً أن توجد قرابة في المسكن بين (السراكينوس) و (العاديين) مثلاً؛ فأولئك - كما علمنا - مساكنهم حوالي جزيرة سيناء، وهؤلاء مثاويهم في جبال حضرموت والمسافة بين البلدين طويلة لا تقاس!

ولعل بطليموس قاس هذا قياس استيطان لا قياس مساحة بالنسبة لجهله بأبعاد الجزيرة. وأما قوله إن (السراكينوس) على مقربة من (قوم عاد) كما ذكرنا، في بلاد العرب السعيدة، بعد أن أقرهم في بلاد العرب الحجرية، فلا يبعد أنهم كانوا يفهمون كل ما هو خلف بلاد الأنباط من بلاد، هو من بلاد العرب السعيدة، إذ هم يتصورون أجواءها وراء هذه الحدود، والسراكينوس كانوا عندما يهاجمون هذه الممالك سرعان ما يختفون في أجواف هذه الصحراء صوّب اليمن. . .

مع كل ما سبق، إذا جئنا نتلمس هذه الكلمة في الأسفار اليهودية والسريانية لم نعثر فيها على ما يشفي غلة الباحث الصادي. نعم! إن الكنائس السريانية قد برّزت في هذا المجال فحفظت لنا أسفاراً قديمة جداً تتعلق بأخبار الساميّين - وخاصة ما يتعلق بهم من ناحية العقيدة، كما يتضح لنا هذا في (كتاب الحميريين) الذي نقله من نص سرياني الأستاذ (إكسل موبرج) المدرس بجامعة لند من أعمال السويد. أما (السراكينوس) فلم يروا لهم ذكر يذكر في هذه الأسفار السريانية، ما خلا رسالة وضعها برداسانيس السرياني في بداية القرن الثالث للميلاد بعنوان ' ذكر فيها الطائيين و (السراكينوس) بقوله: (إنهما قبيلتان تمثلان أهم القبائل العربية الرحالة)

وأستمر الحال على هذا في تلك الأعصار الماضية والسراكينوس لا يعرفون إلا في تلك الطوائف الصغيرة التي تظهر أحياناً مغيرةً من وراء الحدود النبطية، حتى نهض العرب نهضتهم المشهورة، حاملين الرسالة الإنسانية. فبدت طلائع خيلهم من وراء التخوم الفلسطينية تتواكب شمالاً ويساراً على حفافي البحر المتوسط؛ فاهتزت لها أرجاء المملكة الرومانية، وارتعدت لها فرائص القياصرة، وسرى أمر (السراكينوس) بين أمم البحر المتوسط مسير الشمس، فأصبحت هذه الكلمة من هذا الحدث التاريخي العظيم قد أخذت لها معنى واسعاً عن ذي قبل، فكانت سِمة الشعب العربي كله

من هذا نرى أن الكلمة قد تقمصت شكلاً آخر أو مشت متطورة إلى دور ثان، وسنراها كذلك قد دخلت في طور ثالث؛ وذلك أن العرب عندما اشتدت هجماتهم على ممالك الروم في مصر والشام، وذاع من أمرهم أنهم يحملون ديناً جديداً إلى العالم، أقضَّ هذا مضجع الكنيسة الشرقية في عاصمة بيزنطية. فأرسلت رسلها إلى الكنائس الغربية تنبئها بأمر المسلمين، وأن شيئاً جديداً قد صار يهدد الكنائس!!

ولما ودع هرقلُ سوريةَ وداعه الأخير المشهور، واكتسحت جحافل أبن العاصي فلول

الرومان في مصر، كان أمر (السرازينس) قد ملأ النفوس رعباً وممالك الفرنجة إضطراباً، حتى أصبحت هذه الكلمة من مرادفات الهول والموت؛ ومن ذلك الوقت عُرف المسلمون بـ (السرازين) وإن كانوا هم العرب في حقيقة الأمر والواقع!
وبقى البيزنطيون على وجه أخص يطلقون هذا الاسم على المسلمين إلى أواخر القرون الوسطى حتى سقوط الخلافة في بغداد. يؤكد لنا هذا خبرُ أبن بطوطة عندما دخل القسطنطينية فحياه إمبراطورها باسم (سراكينو) أي مسلم
ولما أستقر العرب في أسبانيا كانت كل الأمم الأوربية قد سمعت بـ (السرازين) وراحت هذه اللفظة متغلغلة في آداب هذه الأمم؛ فاستعملها الفرنسيون في شعرهم الحماسي باسم
أي الذرة السمراء (كما يقولون!) يعنون بذلك عرب أسبانيا نظراً للونهم (السرازين) الصحراوي الأسمر!
ثم أخذت طريقها بعد ذلك إلى إيطاليا، فتسللت إلى شعر الفروسية الإيطالية باسم (ساراشيني) وفي أثناء الحروب الصليبية كان المسيحيون يطلقونها أيضاً على المسلمين أجمعين، وقد ذكرها الشاعر الإيطالي (دانتي) في (جحيمه) بقوله:
ومعلوم من التاريخ أن غزوات العرب قد وصلت إلى معابر جبال الألب ومنافذ سويسرة بعد أن استولوا على جزء عظيم من جنوب وشمال إيطاليا. وفي استطاعتنا أن نقول أنه لا يوجد اليوم جزء من أجزاء العالم يردد أهله ذكر (السرازين) في حكايات أقرب إلى أن تكون من عمل خيالات القصصيين المولعين بأخبار الحماسة، كبلاد سويسرة. فعلى جبال هذه البلاد بنى (السرازين) أطامهم وقلاعهم وحصونهم، وما زالت حتى هذه الساعة محتفظة باسمهم، وفي مهاوي هذه الشعاب البعيدة عن العالم تقوم كنائس وأديرة ما فتئ رهبانها يذكرون أخبار (السرازين) في عبارات مزيجة بالخرافة والتاريخ!
هذه قصة (السراكينوس) تتبعناها من منبعها إلى موقعها بحسب ما توفر لنا من البحث والزمن، ويرى القارئ من هذا التفصيل السابق أن هذه الكلمة قد أصبح أمرها معروفاً من حين خروج العرب من جزيرتهم، وأنها لا تطلق إلا عليهم، ولكن المشكل المحيّر هو:
من هم هؤلاء (السراكينوس) قديماً؟
ومن أين اشتق هذا الاسم؟
سؤالان لم يجزم بحقيقتهما حتى الآن؛ فقد ذهب المؤرخون في مأخذ هذا اللفظ مذاهب شتى، كلها من قبيل الظنون والرجوم، فمظانها غامضة، وأثرها مطموس، وللمؤرخين أقوال في هذه (اللفظة) نجملها فيما يلي:
1 - في العصور القديمة كانت تطلق على قبيل بعينه كما بينا فيما مر، ولكن في العصور المتأخرة ذهب المؤرخون فيها مذاهب شتى، فيرى بعضهم أنها:
2 - تصحيف (شرقيين) العربية، ويدللون على رأيهم هذا أن حرف (الشين) العربي لا يوجد في الإغريقية، ولا الرومانية.
3 - أي (اللصوص)، ويقصد بهم سكان الصحراء (سرّاقين)!
4 - أصلها (صحراء ساكن) أي سكان الصحراء (ساراكين)!
وبعد فهذه أقوال المؤرخين في هذه اللفظة المحيرة، ففيها ضعف، وفيها قوة، وكلها - في رأينا - لا تغني من الحق شيئاً!
على أنه إذا صح لنا الاختيار من هذه الأقوال، فأقوى الآراء منها القول بأنها تصحيف (شرقيين) فالكلمة إذن عربية أصيلة، أطلقها الأنباط، وهم عرب على القبائل التي تناوحهم من جهة الشرق. فسمع منهم الإغريق والرومان هذا اللفظ فأدخلوه إلى لغتهم بتلك النبرة، وقد كانت لهم مستعمرات بهذه الأرجاء كما هو معروف. وكلمة (الشرق) و (الشرقيين) لها أصل في لغتنا اليوم؛ فالمصريون يطلقون على كل من يفد من جهة الشرق (شرقيين) وأهل الحجاز يسمون أهل نجد (شروقاً) فليس بعجيب إذن أن يعيد التاريخ نفسه في القرن العشرين!
ولكن مع كل هذا التعليل، ففي النفس شيء من (ساره) في (سارا. . . كينوس) وأن هذا التركيب لابد وأن يحمل توجيهاً آخر في تحليل هذه اللفظة، وخاصة إذا أخذنا بأقوال مؤرخي الكنيسة في القرن الرابع أن (السارازين) انضموا إلى الإسماعيليين

الذين كانوا يقيمون في صحراء قادش في مقاطعة فاران حيث ينهض جبل (حوريب) في شرق البحر الأحمر. وفي النفس شيء - أيضاً - من هذا إذا علمنا أن (الهاجريين) أبناء هاجر، قد اشتهروا في الأدب اللاتيني في القرون الوسطى كمرادف (للسرازين)
فهل لعلماء اللغات السامية، والمبرزين في الإغريقية واللاتينية، كشيخنا العلامة الكرملي، أن يقولوا كلمتهم في هذا الشأن، فيعيدوا الحق إلى نصابه، والسيف إلى قِرابه!
أما بعد هذا كله فإني أختتم هذا البحث بمِخرقَة قالها أحد المؤرخين الأوربيين، وذلك أن (السراكينوس) القدامى لا تزال سلائلهم موجودة لليوم ممثلة في قبيلة (السواركه) القبيلة البدوية الصغيرة التي تعيش إلى هذا اليوم على شواطئ البحر بين العريش وغزَّة
وحسبنا أن نقول إزاء هذا التحقيق أن هذه بلية من بلايا البحث توقعها المجانسة في اللفظ؛ وكم خدعت المجانسة مستشرقين في الغرب وأئمة في الإسلام. فالسواركه هؤلاء وجدوا في عصر متأخر، يرجعون في نسبهم إلى سيدنا عكاشة الصحابي المشهور وفوق كل ذي علم عليم.
(القاهرة)
محمد عبد الله العمودي

بين سيد الشعراء وسيد رجال المال

للأستاذ صالح جودت

في ليلة مشهودة في التاريخ، عشية الجمعة المباركة من اليوم السابع من شهر مايو سنة 1920، ائتمر نفر من سراة القوم في دار الأوبرا (السلطانية)، ليحتفل بتأسيس أول دعامة من دعائم النهضة الاستقلالية المصرية، هي (بنك مصر).
وفي تلك الليلة المزدهرة، وقف مؤسس هذه النهضة، محمد طلعت حرب، يقول بصوت يختلجه الإيمان:
سادتي:
ما كاد يظهر نبأ تأسيس البنك حتى وجهت إلينا الاعتراضات الآتية:
أولاً: إننا أردنا لبنك مصر ورأس ماله صبغة مصرية، فأثبتنا تعصبنا وتأخرنا في المدنية.
ثانياً: إنه ليس في مصر من يصلح لأعمال البنوك.
ثالثاً: إن الأمة، مع كل الطبل والزمر اللذين أحاطا بالمشروع، لم يمكن أن يجمع منها سوى ثمانين ألفاً من الجنيهات، من أسماء كثيرين، اكتتب كل منهم بمبلغ زهيد، مما يدل على أن الأمة غير مستعدة للأعمال الاقتصادية. . .
وماذا يراد أن يُعمل بمثل هذا المبلغ الزهيد الذي لا يفي ربحه لدفع أجرة المحل ومرتبات بعض الموظفين. . .
دعونا نبتعد عن هذا الحديث قليلاً، لنتدرج فنعود إليه.
نشأ طلعت حرب - أول ما نشأ - أديباً يحمل القلم، ويصدر عنه المقال تلو المقال، والكتاب إثر الكتاب، ينافح بها في إيمان الكاتب المخلص، والمسلم المؤمن، والأديب الموهوب، عن كيان المجتمع وحرمة التقاليد، والمحافظة على تراثنا الإسلامي من الفضيلة والعفاف. . .
وكانت جهوده الاقتصادية آنذاك تقوم في ركن هادئ من حياته القلمية البارزة.
وهناك. . . في أفق الأدب المتسع، والفن الوضاء، ارتبطت روح طلعت الأديب، بروح شوقي الشاعر، وأدرك كل منهما نواحي العظمة في صاحبه، ثم مرت الأيام تجلو أقدار الرجال، وإذا بالروحين الحبيبين، روح الأديب وروح الشاعر، لا يزيدهما مر الأيام إلا تساندا، فكلما بنت يد طلعت حرب، عزفت قيثارة شوقي. وكلما تحدث طلعت حرب، تغنى بشاعرية شوقي. فترى طلعت حرب يحتفظ بآثار صاحبه الشاعر في أعز ركن من بيته، ثم تراه في الحفلة التي أقامها التجار لتكريم الزعيم الطيب الذكر سعد زغلول في فندق سميراميس يوم 13 أبريل سنة 1921، ينتهي في خطابه الكريم بقوله:
واختتم متمثلاً بقول شاعرنا شوقي:
صح بالصباح وبَشِّر ... أبناء بالمستقبل
واسأل لمصر عناية ... تأتي وتهبط من عل

قل ربنا أفتح رحمةً ... والخير منك فأرسل
أدرك كنانتك العز ... يزة ربنا وتَقَبَّلِ
أما تراه يقول (شاعرنا شوقي)؟ أو لم يكن شوقي شاعر بنك مصر الذي صحبه في شعره من يوم تأسيسه، وسجل حركاته وبركاته وشركاته؟
أليس هو القائل للامية المشهورة في تأسيس بنك مصر، والتي مطلعها:
قف بالممالك وأنظر دولة المال ... واذكر رجالاً أدالوها بإجمال
وانقل ركاب القوافي في جوانبها ... لا في جوانب رسم المنزل البالي
ما هيكل الهرم الجيزي من ذهب ... في العين أزين من بنيانها الحالي
أو ليس هو قائل الدالية العصماء في الاحتفال بوضع الحجر الأول في أساس بنك مصر، التي مطلعها:
نراوَحُ بالحوادث أو نُغَادَى ... وننكرها ونعطيها القيادا
ونحمدها وما رعت الضحايا ... ولا جَزَتْ المواقف والجهادا
لحاها الله! باعتنا خيالاً ... من الأحلام واشترت اتحادا
أو ليس هو صاحب الميمية الخالدة في حفلة افتتاح الدار الجديدة لبنك مصر، التي مطلعها:
نبذ الهوى وصحا من الأحلام ... شرقٌ تنَّبه بعد طول منام
ثابت سلامته وأقبل صحوه ... إلا بقايا فترة وسقام
والآن، آن أن نستجمع آثار هذه الصلة بين سيد الشعراء وسيد رجال المال، لنرى كيف عكست صورتها الجلية على روحيهما في تلك الليلة المشهودة، ليلة تأسيس بنك مصر في
اليوم السابع من مايو سنة 1920، حين وقف طلعت يردد ما يثيرون تجاهه من اعتراضات، فراعنا كل الروعة أن نجد هذه الاعتراضات مردودة كلها في قصيدة شوقي التي قالها في نفس الليلة، ويدهشك أن يحدث هذا الاتفاق بغير سابق اتفاق إلا صلة الروحين الساميتين.
الاعتراض الأول، أننا أردنا لبنك مصر ورأس ماله صبغة مصرية، فأثبتنا تعصبنا وتأخرنا في المدنية. وفي ذلك يقول شوقي إن الدنيا للمال، ولا حياة لأمة بغير المال:
والمال، مذ كان تمثال يطاف به ... والناس مذ خلقوا عُبَّاد تمثال
إذا جفا الدور فانع النازلين بها ... أو الممالك فاندبها كأطلال
والاعتراض الثاني، أنه ليس في مصر من يصلح لأعمال البنوك، وفي ذلك يقول شوقي
إننا قد خطبنا المعالي، وأردنا جلائل الأعمال، فعلينا أن نعد العدة لها، فيومئذ لن يصعب على المصري شيء، ويومئذ يصلح المصري لكل جليل، وهذه العدة هي العلم والمال
يا طالباً لمعالي المُلك مجتهداً ... خذها من العلم أو خذها من المال
بالعلم والمال يبني الناس ملكهم ... لم يُبْنَ مُلْكٌ على جهل وإقلال
والاعتراض الثالث، أن الأمة مع كل الطبل والزمر اللذين أحاطا المشروع، لم يمكن أن يجمع منها سوى ثمانين ألفاً من الجنيهات وعندئذ يهيب شوقي بسراة مصر أن يهبوا لدفع هذه الدعوى، ونصرة الوطن، إذ يقول:
سراة مصر، عهدناكم إذا بسطت ... يد الدعاء، سراة غير بَخَّال
تبين الصدق من مَيْن الأمور لكم ... فامضوا إلى المال لا تلووا على الآل
ويحدثهم عن الخير المنتظر من وراء هذه الدار فيقول:
دار إذا نزلت فيها ودائعكم ... أودعتم الحبَّ أرضاً ذات إغلال
آمال مصر إليها طالما طمحت ... هل تبخلون على مصر بآمال؟
فابنوا على بركات الله واغتنموا ... ما هيأ الله من حظ وإقبال
يقول الأديب الكبير (تورناد) إن الرجال يذهبون، ولا يبقى من مجدهم إلا ورقات تتعب رؤوس التلاميذ في المدارس
ولكن مجد طلعت حرب، شيء أسمى من مجد الرجال، وهو باقٍ ما بقى بنك مصر ومؤسساته على أثبت الدعائم، ودعائمه هي القلوب، إلى ما شاء الله.
صالح جودت

من وحي الحرب
وَدَاعْ!. . .
للأستاذ محمود الخفيف
أفاقَتْ عَلى صَيْحةٍ رَوَّعتْ ... لَدَى سَكرةِ الوصلِ أحلامَها
وَطافتْ بِها النُّذُرُ الغاشياتُ ... تُجَدِّدُ فِي العَيْشِ آلاَمَها
وَكانَ صَفا دَهرُها واغتدَى ... وَضِيَء الملاَمِحِ بَسَّامَها
تهاوَتْ طُيوفٌ تَدَلْت لَها ... مِنَ الخُلدِ في أمْسِها الناعِمِ
تَألُفُ مِنْ لَمحَاتِ الخُلودِ ... ومِنْ رَوْعةِ الأمَلِ الباسِمِ
وَتَنْسِمُ بِالْحُبِّ أنفاسُها ... عَلى عُشِّها الهْانئِ الحالِمِ
أفي وَمْضةٍ تَتلظَّى الجَحيمُ ... وفي خطرة ترجُفُ الراجِفةْ؟
وتمضي رَحَى الموتِ في ضجَّةٍ ... تَبيتُ القلوبُ لها واجِفَة؟
إذا أوحَشَ البيتُ مِن بَعدهِ ... فمنْ يُؤنِسُ الزوجةَ الخائفة؟
أفاقَتْ عَلى الهَولِ ملْهوفةً ... وَما كَانَ في العيْشِ بِالمنتظرْ
ألاَ شَدَّ ما تَفجعُ النَّائباتُ ... عَلى غِرَّةٍ ساقَهُنَّ القَدَرْ
وَيا قُبحَ مَوقعهُ في النُّفوس ... إذا جَاء بَعدَ الصَّفاءِ الكَدرْ
وأكدرُ ما كانَ لونُ السحابِ ... إذَا مَرَّ عَارِضُهُ بالْقَمرْ
ترَدَّى لِباسَ الوَغى مُعْجلاً ... وَهَمَّتْ لِتثْنِيَهُ ضارِعَةْ
فلا قولَ إلاَّ الدُّموعُ السِّجالُ ... تَفيضُ بِها المُقَلُ الهامِعةْ
وَمَا حِيلةُ اللَّفظِ في موْقفٍ ... تذوبُ بِهِ الأنفُسُ الجازَعه؟
إذا هَمَّ لا يَستجيبُ اللِّسانُ ... وَمَا عَيَّ في مَوْقفٍ قَبلَهُ
وَماذا عَسَى أنْ يقولَ ... وهَلْ تَتأسَّى فَتُصغي لَهُ؟
هُنا الصْمتُ أبلغُ في لحْظةٍ ... توَرّعَ فِيها الأسَى قَوْلَهُ
تَلاَصَقَ قَلباهُما فِي عِناقٍ ... يَزيدُ الأسى فيهما والضّنى!
تُلِحُّ وَتَسْألُهُ المُستحيلَ ... فَيا لَيْتَها طَلَبتْ مُمْكنا
أهَابَ الحِمى بالشُّبولِ الحُماة ... فَما يَمْلِكُ اليومَ أن يُدْعِنا
إذا هَان دَاعِيهِ في قلبهِ ... غَدا كلُّ شَيءٍ بِهِ أهْونا
أكانَ يُعجِّل لولا الفِداءُ ... فيُفلتُ من سحرِ هذا الجمالْ؟
ويمضي إلى حيث شبَّ اللَّظَى ... وجُنَّ الردى واستحرَّ القتال؟
إلى حيثُ لا يهدَأ الجاهدون ... سوى غفوةٍ في الليالي الطوال؟
وَيُنْذِرُ بالويْلِ وجهُ النهارِ ... وتَّمشي إليه جمُوعُ الرِّجال؟
يُؤرِّقُني طيْفُ هذا الودَاعِ ... وتَبعثُ ذِكْراهُ أشجانِيَهْ
أغَنِّي لِمرآهُ لحْنَ الأسَى ... وكم ألْهَمَ الوَجدُ ألحَانِيَه
وإني لذو كِبْرةٍ في الخُطوبِ ... وإن أغرَقَ الرِّفقُ أجفانِيَه
أرَى منظراً حارَ فيه القريضُ ... وأوْشك رَاخِرُهُ يَنضُبُ
قُصاراىَ فيهِ هُتافِي بهِ ... فليسَ إلى وصْفِهِ مَذْهب
لئن كان يوحي البُكَا وَجْدُهُ ... فَكَم خاطِرٍ فيه يُسْتعْذَب
إذا لَم تَرِفَّ قُلوبٌ له ... فهِنَّ من الصخْرِ أو أصْلب
ألاَ كَم أراعُ لهذا القَوَامِ ... تَمَشّي من الهمِّ فيه الوَهَنْ
ويوجِعُ نفسِيَ بَرْحُ العذَابِ ... يُلِحُّ على مثل هذا البَدَن
لَها اللهُ يُذْهِبُ عنها الأسَى ... ويَدْرَأُ عنها غَوَاشِي المِحَن
تَفجُّعها - يا غَلِيلي لها - ... لَدَى البَينِ عن غيرها شاغِلي
يُعذِّبُنِي أنهُ رَاحِلٌ ... وأنَّ بُكاها بِلاَ طائِلِ
ودِدْتُ لَو أنّي لبستُ الحديدَ ... وكنتُ فِدى للراحِلِ الباسلِ!
أمِيلُ بلحظِي إلى وَجْهِهِ ... فيا حَيْرَةَ اللَّحظِ في أمْرِهِ!
معاني الفجيعَةِ في ناظِرَيْهِ ... وعَزْمُ الكَماةِ على ثَغرِه
يُريها التجَلُّدَ في صَمْتِهِ ... فَتَكشفُ عيناهُ عن سرِّه
وأنّى لهُ الصبرُ في مَوْقفٍ ... سَقاهُ النوَى فيه من مُرِّه
تَجلَّدَ لا من حِفاظٍ فحسْبُ ... ولكن ليَبدُو جَدِيراً بها

فللموْتُ أهَوُن من أن تُحِسَّ ... مَعانِي تَوَقِّيهِ في قَلبِها
وليسَ يَهَابُ الرَّدى قَلبُهُ ... إذا عَوّدَتهُ بإعجَابها
هو الحُبُّ حتى لدى الموت يحيي ... نفوسَ الرِّجالِ ويسمو بها
تسائِلُ عيناهُ هلْ تَرْتَجي ... لَهُ أوْبةٌ بعدَ هذا النَّوى؟
ولكنَّهُ لنْ يُطيعَ الخيالَ ... فَكمْ فيهِ قادِحةٌ للجوَى
وهلْ يعصمُ المرَء مِنْ حتفهِ ... جحيمُ الوَغى أو نَعيمُ الهوى؟
تحيرْتُ ماذا أثارَ الجوَادَ ... ولاحَ لِيَ الهوْلُ في وثبِهِ
أذلكَ دأبُ كِرَامِ الجِيادِ ... إذا الرَّوْعُ أعلنَ عن قربِه؟
أمِ اهتاجَ مِمّا يَرى حَوْلهُ ... فَجُنّ بما لَجَّ في جَنبِهِ؟
معانٍ يَصِفنَ لِقلبِي العذابَ ... ويمْلأنَ نَفْسيَ مِن رُعبِه
عرَفتُك يا ساعةَ البيْنِ قَبلُ ... وقَرَّ عذابُكِ في خاطري
غداةَ ذَرفتُ عَصيَّ الدُّموعِ ... فَأرخصتُ دمعي لدى آسِري
وضاقتْ عليَّ الرِّحابُ الفِساحُ ... وأظلَمتِ الأرضُ في ناظري
وَأوْحشَ كلُّ مكانٍ عرَفتُ ... وغاضتْ رُؤى صُبحِهِ الزاهرِ
عرَفتُكِ قبلُ وأيُّ امرِئ ... دَهيْتِ فلمْ يكُ بالجازعِ
عرَفتُك حين يرجَّى الإيابُ ... فما كانَ ذِكرُ غَدٍ نافِعي
فَكيف بهذا الذي لا يَرى ... سوى الموتِ في هوْلِه الفاجعِ؟
سيمضي إلى الرّوع ثبْت الجنان ... وإن كان يشقَى بأوهامِهِ
تَفيضُ على رغمهِ مُقلتاهُ ... ويذْكرُ ماضيَ أيّامهِ
فيمسحُ عينيهِ خوفَ الرقيبِ ... وينْفي الهمومَ بإقدامه
ويكتئبُ البيتُ منْ بَعدهِ ... فما منْ جليسٍ ولا آنسِ
تطوفُ بأرجائِهِ وحشةٌ ... كما طافَ بالطللِ الدارسِ
وليسَ إذا جنَّهُ لَيلُهُ ... سوى خفقِ مصباحهِ الناعسِ
تطلُّ إذا الصُّبحُ لاحَ لها ... على شَجَنٍ في جميع النّواحْ
فليسَ الندَى في مآقي الوُرود ... سوَى أدُمعٍ من بُكاءِ الصباح
وهذي الهواتفُ نوْاحةٌ ... بِأغصانِها لا تَملُّ النُّواح
تعلِّلُ أطفالها تارةً ... وطوْراً تصيحُ بهمْ زاجرَه
فَتصْفرُّ منهمْ وجُوهٌ صِغارٌ ... تظَلُّ إلى وجهها ناظرَه
وتجهشُ حيناً إذا أبصَرت ... دموعاً بآماقِهم حائِرَه
يلوحُ لها اليُتمُ في دَمعهمْ ... فَتسقطُ من وهنٍ خائِره
وتَمضي الليالي ثقالَ الخُطَى ... ولا قوْل عن زوْجها الغائبِ
بَرَاها السَّقامُ فليسَ يُرَى ... سوَى اليأس في وجهها الشاحب
إذا الهَمُّ صُوِّرَ تِمثَالُهُ ... فليس سوَى جسمها اللاَّغِب
وما علمت كيف خاض الحُتوف ... سِجالاً وكيف تصدَّى لها
وكيف أحاطَ الرَّدى بالرِّجالِ ... وزلزِلَتِ الأرضُ زِلزَالَها
وكيف تصبُّ السماء الدّخانَ ... تَزيدُ على الأرضِ أهوالها
وكيف يُلاقي الكميُّ الكمِيَّ ... وتمتحن الحربَ أبطالَها
إذا الليل أسْدَل أستارَه ... تراءى على الأفْقِ لونُ الدّمِ
ولاحت مخضَّبة بالنجيع ... جحافلُ من خافِقِ الأنجم
يرى كلّ ما حوله قانياً ... إلى الدّمِ في لونه ينتمي
تَناوحُ في مِسمعيه الرِّياح ... فيسمع فيما تقولُ الأنِينَا
وَيَسمع ثَمّ الذين طَوت ... يَدُ الموت أعمارهمْ هامِسينا
يقولون متنا وصرنا عظاماً ... فمن للبنات غداً والبنينا؟
وَتَأخذُ أجفانَهُ غَفْوةٌ ... فيأوي إلى بيته ثانِيَهْ
وتَطْفُر مِن فرح زوجه ... كأن لم تَبِتْ لَيلة عانِيَهْ
تُكَفكفُ أدمعهُ الساخناتِ ... وَيَمسحُ أجْفانَها الهامِيَهْ
ولكنهُ حُلمٌ تنطوي ... على نفخة الصور أفراحُهُ
وينهض كلُّ فتىً للسلاح ... ويوحي له الدَّمَ إصباحُه

فيهزأ بالموت في كرِّهِ ... فليس بِمُثنيه مجتاحه
الخفيف
رسالة الفن
دراسات في الفن
الفن بين (الآميبات) و (الاميبين)
للأستاذ عزيز أحمد فهمي
لي صديقة صغيرة غاية ما تريده مني هو أن تسخر بي وأن تحطم كل رأي أبديه ولو كان إعجاباً بها وتقريظاً لها حتى آمنت بأنها دسيسة مسلطة عليّ فلم أعد أحمل كلامها محمل الجد ولو كان تعزيزاً لرأي كنت قد أراه وأصدق عليه. فنحن ما نكاد نلتقي حتى نختلف منذ نتبادل التحية. فإذا قلت لها: (نهارك سعيد) قالت: (وكيف عرفت؟). فإذا قلت لها إن هذا دعاء وليس خبراً، سألتني: (ومتى كنت من أولياء الله الصالحين حتى تدعوه إلى إسعاد غيرك. . .؟ أفلا جربت دعائك لنفسك أولاً؟ فمن يدريك أن يستقبل الله رجاءك، من غضبه عليك، بسخطه ولعنته؟)
هذه هي صديقتي المفكرة التي قابلتني أمس وفي يدها العدد الأخير من الرسالة فما رأتني حتى نادتني:
- تعال، الله يخيبك!
- أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقية! ماذا حدث يا هذه؟
- حدث الحدث، ونزلت الكارثة. أهذا كلام تقوله عن استراوس وصاحبته؟
- وماذا كنت تريدين أن أقول؟ اكتبيه في ورقة حتى إذا اتفقنا عليه لا تعودين فتنقضينه. . .
- ناصح جداً. من ذا الذي قال لك إن البارونة فشلت مع استراوس؟
- هي التي قالته، وأرجو ألا تسأليني متى قابلتها ولا أين لقيتها، فهي لم تقل لي أنا بالذات، وإنما عبرت بهجرانها لاستراوس عن هذا الفشل الذي تنكرينه
- ولم لا يكون في هذا الهجر تعبير عن فشل استراوس نفسه؟ ألم يوافق هو عليه؟
- ربما يكون قد وافق عليه، ولكنه لم يسع إليه. ثم إنها هي التي بدأت مناوشته؛ فكان هذا دليلاً على أنها تريده، فهجرها إياه لا يدل بعد ذلك على شيء إلا أنها عجزت عما كانت تريد. . . فهي التي فشلت، وليس هو الذي فشل
- بل إنه هو الذي فشل منذ سمح لها بأن تريده ولم تأخذه عزة الرجولة، ولم يبدأ هو بالإرادة وإعلانها
- وما عزة الرجولة هذه؟
- بِه! أأنت أيضاً (ستراوس)؟
- فال الله ولا فالك! ولكني أريد أن أتفق معك على تحديد معناها حتى لا نختلف بعد في المناقشة
- عزة الرجولة هي قوة الأمر التي خص الله بها الرجل ليتسلط بها على المرأة
- وما المرأة؟
- والمرأة أيضاً تريد أن نتفق على تحديد معناها؟
- إذا كان لها معنى؟
- داهيتك أسود من الليل! المرأة هي شريكة الرجل في حياته
- بأي حق. . . إلا حق الضعف؟
- بحق القدرة على النسل. وليس رجل قادراً عليه بغير امرأة
- كان استراوس قادراً عليه بغير امرأة. وليس استراوس وحده الذي استطاعه، وإنما استطاعه مثله كثيرون غيره.
- هذا هراء. وإذا كان هناك من أعقب من غير شريك، فإنها مريم العذراء. . . ولم تكن رجلاً. . .
- وكانت آيتها: أنه كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً. لم يجد كتاباً، ولم يجد وحياً، ولم يجد آية أخرى
- ماذا تعني؟
- أعني أنها رضي الله عنها كانت هبة آل عمران للخبير الرحمن، وأنها اتقته وتبتلت له،

فأغناها عما تطلبه كل امرأة من هذه الدنيا وهو الرزق، فيسره لها من حكمته وكرمه، ثم نفخ فيها من روحه، فكانت هذه هي معجزة المرأة الكبرى: أن ينفخ فيها من روح الله. . . ومع هذا الجلال، فإنها بمشيئة الله لم تعقب من روحه فكرة، وإنما أعقبت المسيح الإنسان
(ص)
- وهو كلمة الله!
- المتجسدة! الجسد! ولا تنس أنه رجل، وانه أعقب ديناً جل من دين.
- وهو ابنها؟
- وهل أنكرت أنا هذا؟ ولكن دينه ليس منها!
- الدين من الله.
- وكل حق من الله، سواء أكان ديناً أم كان علماً، أم كان فناً. . .
- تريد أن تنسب الفنون أيضاً لله؟ حرام عليك!
- حرمت عليك عيشتك! أليست الفنون هبات من الله ومنحاً؟ هل يستطيع كل إنسان أن يكون فناناً إلا من وهبه الله القدرة على ذلك، ومن أخذ نفسه بطلبه. . . إن الله وعد عبده التقي أن يعطيه حتى يرضى. . .
وقد اتقته مريم (رضى الله عنها) فأعطاها رزقاً، واتقاه المسيح فأعطاه ديناً، ويتقيه ناس فيعطيهم فنوناً. . . ألم تسمعي بالإلهام؟
- ما أكثر الذي نسمعه، وما أقل المعقول فيه. . .
- ليست مسألة الفنون يا مولاتي شيئاً يفهم بالعقل. . . إنها كالحب تماماً شيء يحس. . . هل تعرفين ما معنى (يحس)؟ كما تخزك الإبرة، وكما تلسعك النار. . . وكل ما في الأمر أنهما وخز ولسع روحيان. . . فهل تعرفين ما هي الروح؟
- من أمر ربي.
- ولا شيء غير هذا؟
- القرآن عرفها بهذا، فهل عندك أنت تعريف أوضح منه؟ توقح وقل ما شئت وعليّ وعلى الأزهر الشريف ما بعد ذلك
- هو ذنبي أن أناقش امرأة إذا قهرتني جمعت علي الناس شماتةً وغلا. فإذا هممت أن أصرعها استنجدت وولولت وبكت واستعدت على كل من تأخذ نفسه الرحمة والشفقة بحواء الضعيفة التي سيقتلها الوحش الذي هو أنا. . . أليس كذلك؟ أني ألقي السلاح يا آنسة
- إذن فقد فشلت
- كما فشلت البارونة مع استراوس
- لكنها لم تفشل. وإنما كانت في أنوثتها أنصع من استراوس في رجولته. وقد كان عليه أن يتطهر وأن ينقي نفسه ليدركها وليطاول حسنها. . .
- أما كان استراوس متطهراً؟ هذا الذي لم تخلبه الأبدان مثلما كانت تستهويه الأرواح من ورائها؟
- ما هذا الكلام الفارغ الذي لا معنى له. أنا لا أعرف إلا أن الله خلق الناس ذكراً وأنثى. وكل منهما في حاجة إلى صاحبه. وعلى الرجل أن يطلب الأنثى وليس عليها أن تطلبه، بل إن عليها أن تتريث وأن تتمنع، وأن تنتظر حتى تتأكد أنه يريدها حقاً، كما قلت لك أن للرجولة عزة، فإن للأنوثة كرامة، وكرامة الأنوثة تقتضي هذا التريث وهذا التمنع حتى لا يجيء يوم يعير فيه الرجل المرأة بأنها هي التي طلبته، أو أنها هي التي ألقت بنفسها بين ذراعيه. . .
- ليس هذا كرامة كما تقولين، وإنما هو نفاق
- بل إنه كرامة
- كان يمكن أن يكون كرامة لو أنه كان ممكناً أن تعيش المرأة من غير رجل، ولكن ما دامت هي تحتاج إليه حقاً فالتريث والتمنع واللف والدوران، وغير ذلك مما تتقنه بنات حواء ليس شيئاً غير الإثارة الجنسية، فإذا خفتت النزعة الجنسية في الرجل لم تعد هذه الصناعة تجدي شيئاً.
- ليست هذه صناعة، وإنما هي طبيعة
- فليكن

- فليكونن! والآن قل لي كيف تخفت النزعة الجنسية في الرجل
- كلما كف عن حياة الحيوان، وكلما استخلص من الحياة الفضائل، ومن هذه الفضائل تلك الكرامة التي تتحدثين عنها، والتي تريدين أن تقفيها على الأنوثة
- ولكن هذه الكرامة التي أتحدث عنها خاصة بالأنوثة وحدها ولا يمكن أن تجتمع في الرجل هي وقوة الطلب التي تلتهب فيه الرغبة، والتي تدفعه وتحدوه إلى التسلط على المرأة. . . لا يمكن أن يحدث هذا الذي تقوله إلا إذا كان الرجل (كالأميبة) ينشق جسده
شقين، ثم ينشق كل شق منهما شقين، فلا ذكر، ولا أنثى، ولا زواج، ولا تناسل. . . فهل في الرجال (أميبون) يا هذا؟
- فيهم يا آنستي فيهم. . . كما أن في النساء (أميبات)!
- وما هؤلاء؟
- هن اللواتي بلغن للعالم رسالات. هن اللواتي خلفن لهذه الدنيا آثاراً. هن اللواتي أعرضن عن الرجال كثيراً أو قليلاً، وتداخلن في أنفسهم، ثم انشققن على أنفسهن فأنجبن أحياء غير البنين والبنات. صحيح أنني لا اذكر منهم ولا واحدة لأني قليل الإطلاع على التاريخ، ولكنك تستطيعين أن تسألي عنهن واحدة من بنات جنسك المثقفات. اسألي الآنسة سهير القلماوي. اسألي الآنسة. . . لا. . .
- من هي الآنسة (لا) هذه؟ يابانية هي؟
- عجائب! ألا تعرفينها؟ أستاذتك التي لم يمنعها من دراسة هذا الموضوع معك، إلا أنكما أنثيان تعودتما ألا تمسا الحقائق إلا من بعيد.
- وما لك تحمل عليها هكذا؟
- لأنها (أميبة) ولكنها متكتمة. . . وأنت (أميبة) مثلها ولكنك مترددة!
- لا تقل هذا. . . إني أموت إذا خلته حقاً.
- وهل في الحق ما يفزع؟ الحق جميل، وهو من عند الله فأحبيه يا مكروبتي الصغيرة. . . ولا تكوني مثل بارونة استراوس!
- آه منك! لقد طوحت بنا إلى موضوع لم يكن يخطر لي مطلقاً أن أندفع إليه. وما دمنا قد مسسناه، فأظنك لا تمتنع عن المضي فيه إلى آخره. . . هل تصلح الحياة بين (الأميبة) و (الأميب)، كما تصلح بين والمرأة والرجل؟
- إما أن تصلح صلاحاً ما بعده صلاح. . . وإما أن تستحيل استحالة ما بعدها استحالة. . . ولا وسط بين الحالتين. . . والدرس الواحد في هذا الموضوع بعشرة جنيهات، فهو موضوع لم يطرقه إلى اليوم أحد.
- يا لك من مادي مظلم! عشرة جنيهات مرة واحدة!
- وعلى أي حال فإني أرضى منك الآن (بسيجارة). . . أشعليها ولكن بعد أن تمسحي عن
شفتيك هذا (الأحمر) الذي تكذبين به على الناس وعلى نفسك. . .
- يا لطيف! هل أكلت اليوم مسامير تنفخها في كلامك فتخرق بها الآذان والأفئدة؟
- يا ما أكلت المسامير والزجاج والنار. . . وتجيئين أنت في آخر الزمن لتهزئي بالسحار الذي علمته الأفاعي الصدق والرحمة، لنا الله معاً.
- هل هذا الكلام موجه لي أنا؟
- لك أنت، لكما أنتما، لكن أنتن لي أنا، لنا نحن. . . ألا تحفظين بقية الضمائر؟
- لا ريب أنك مجنون؟
- ولم لا؟ ربما كانت البارونة تقول هذا عن استراوس! أما هو فلا ريب أنه قال هذا عنها
- فأيهما كان المجنون؟
- الاثنان معاً!
- لماذا؟
- لأنهما افترقا، ولم يكن يصلح لها غيره، ولم يكن يصلح له غيرها. وما كانت لتهجره لو أنها قرأت مقال الأسبوع الماضي الذي أسخطك، فقد كانت (أميبة) لا يعجبها كل رجل، وكانت فيها قوة الإبداع الفني والانشقاق على نفسها، وإن كانت لم تمارسها لظنها أنها امرأة
- بدأ الغرور يركبك

- أعتذر. وأستغفر الله. وأمسح الأرض بوجهي ورأسي بين يدي جلاله وعزته، وأعود فأقول إنهما كانا يتفقان لو أنهما رأيا نفسيهما كما أراني الله إياهما. . . ألم نقل إنهما كانا (آميبين) كل منهما ينشق على نفسه فنوناً، أو لم أقل لك إن من (الأميبين) من يصلح (للأميبات) كل الصلاح. لقد كان هذان من هؤلاء

- كيف؟

- الرجل يا آنستي ابن رجل وامرأة ففيه من الرجولة والأنوثة، وهو لم يكن رجلاً إلا لأنه ورث من أبيه أكثر مما ورث من أمه. فلو تعادل الذي ورثه منهما كان خنثى، وكذلك المرأة، وفي الرجال من تبلغ رجولتهم تسعين في المائة من حيويتهم وهؤلاء (حيوانون) أكثر منهم أناسا، ولعل راسبوتين كان من هؤلاء، فالتاريخ يروي أنه كان يعصف بالنساء عصفاً، ورجل مثل هذا لا تشبعه المرأة إلا إذا بلغت أنوثتها تسعين في المائة من حيويتها

هي أيضاً، وهذا الصنف من الرجال والنساء هم الذين يصفهم أهل هذه الأيام بأنهم أصحاب السكس أبيل. أما الرجل الذي لا تزيد رجولته على ستين في المائة مثلاً فلا بد له من امرأة ليس فيها ما يزيد على ذلك من الأنوثة وهذان يتحابان ويتقاربان. . .

- وكيف تعرف هؤلاء الرجال. . . هل يظهرون للأعين؟

- نعم. فيهم من ملامح النساء. . . استدارة الأطراف، طراوة الصوت، دلال المشية، واستدارة الأعناق أيضاً. . . وبروز الأثداء. . . والنساء الأميبات فيهن من ملامح الرجال غزارة شعر الشاربين، وضئولة الأثداء، وعنف المشية. . . وهناك علامات غير هذه. . .

- ومتى لا يتحاب (الأميبان) ولا يتقاربان. . .

- عندما تشتط الأنوثة في الرجل، أو الرجولة في الأنثى. أو الاثنتان معاً. . . عندئذ يتنافران

- وماذا أيضاً؟

- فكري برأسك هذا قليلاً. . . ولا تقولي (ماذا وكيف) أفأن لم تسألي لا تتفهمين؟

- لقد دخت. . . دوخك الله أنت واستراوس

- أما أنا فقد دوخني الزمن. . . وأما استراوس فقد دوخه الفن. . . إلى اللقاء

عزيز أحمد فهمي

رسالة العلم

لحظات الإلهام في تاريخ العلم

تأليف مريون فلورنس لانسنغ

الاستكشافات الخمسة - 4

من الطين إلى الصيني

الطعام من حاجات الإنسان اليومية. وقد كان على إنسان الكهف كما علينا الآن، أن نستبقي الحياة بالاستمرار على تناول الطعام

وكثير من القصص الممتع في حياة الإنسان يدور حول هذه المسألة الكبرى: مسألة الطعام وهي التي تشغل الجنس الإنساني كله إلى اليوم. فبعض القصص يتعلق بالتجارة وبعضها بالاستكشافات والبعض بتاريخ الشعوب المنعزلة

وكان الإنسان في البداية هائم الحركة بحثاً عن الطعام فهو يأكل القوت والفواكه والحشائش والحبوب وجذور النبات؛ فإذا ما غال ذلك من حقل ذهب إلى حقل آخر يلتمس فيه طعاماً جديداً، ويمكث كذلك حيناً في مكان من أماكن الصيد ثم يتركه إلى مكان آخر

ثم جاء اليوم العجيب الذي تعلم فيه الإنسان أنه متى غرس بذرة فإنه سيجني حصاداً. وقد كان ولا ريب بالعالم في هذا العهد القديم بعض رجال لكل شعب من الشعوب مهمتهم أن يرقبوا مرور الشهور بظهور القمر واختفائه لغرس الحبوب وملاحظة ما سيكون من أمرها: هل ينشأ أم لا ينشأ منها نبات؟

وحدّث أحد زعماء الملايو عن كيفية اعتماد قبيلة في الحياة على فواكه الغابة فقال إنهم في البداية كانوا يأكلون الفواكه في أماكن صغيرة بالقرب من المكان الذي تجمع فيه. ولكن لوحظ أن عدداً كبيراً من أشجار الفاكهة كان ينبت حول هذه الأماكن التي يأكلونها فيها فقرروا أن يحملوا الفواكه إلى أماكن أبعد من الأولى ليأكلوها بها. وكانوا في كل عام بعد ذلك يرون أن أشجار الفاكهة تنبت حيث يسقط النوى أو البذور

فحملوا البذور والنوى إلى مسافة أبعد ورموها في أماكن مختلفة إلى أن صار لهم في النهاية بساتين في أنحاء الإقليم الذي يقيمون به
ولما استكشف سر زمن الغراس وزمن الحصاد استطاع الإنسان أن يكف عن التجوال صعوداً وهبوطاً على سطح الأرض وأن يقر في مكان يستثمر به الأرض طلباً للقوت.
وقد عرفت كل القبائل ذلك في أوقات طالت أو قصرت فاستقرت بأماكن اختارتها وحاجات الطعام الإنساني هي السبب في صناعة الأواني فمنها أوعية للماء وأخرى للطبخ وأوعية لحفظ الطعام بين وجبة ووجبة. وأخيراً أوعية ليتناول فيها الطعام وباهتمامه بالحالة التي يقدم بها له الطعام نشأ التبديل من الأوعية الغليظة المصنوعة من طين الأرض إلى الأواني الصينية التي تكاد تكون شفافة لرقتها
وكانت كل أسرة تأكل على مائدة واحدة وكان طبقها واحداً في البداية، ثم صار لكل فرد طبقه الخاص. وفي نفس الوقت كان التقدم مستمراً في ناحية أخرى متصلة بحاجة العالم إلى الطعام فإن الإنسان كان يجوب الأرض براً وبحراً فاستطاع نقل الطعام من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب حول الكرة الأرضية. ولكن الطعام الذي ينقل كل هذه المسافات البعيدة أو الذي يحفظ مدداً طويلة يجب أن لا يكون في درجة من النضوج لا تسمح بالنقل إلا من اليد إلى الفم. ويجب أن تستبقي فيه حلاوته وسلامته وجدّته. فجاءت علبة الصفيح المختومة مُلائِمةً لهذه الحاجة.
وبواسطتها أصبح عهد استكشاف الطعام تاماً
كان على الإنسان في البداية أن يكثر من التنقل طلباً للقوت ومن ثم نشأت المهاجرات العظيمة ثم تعلم صنع الطعام في موطنه، وبذلك نشأت المدنيات المنفصلة، والآن يستطيع أن ينقل الطعام إلى حيث شاء؛ فأصبحت له الحرية العصرية في الانتقال، وقد نقلتنا هذه الأساطير في كل الدورة. ففي البدء كان عليه أن يتحرك ثم كان له أن يستقر. والآن له أن يتحرك وأن يأخذ معه مختلف الأطعمة أو يستقر ويستدني إلى مائدته الطعام من أنحاء العالم
وفي قصة الزعيم الملايي وبذوره، وفي فن صنع الأواني وتأثيره على الطبخ، وفي تقدم فن الكيمياء وتأثيرها على اختيار أنواع الطعام وطرائق تناوله، وفي قصة العالم الفرنسي الذي سنتحدث عنه وحصوله على الجائزة، في هذه القصص سنرى تطور هذه الأشياء
الأقاصيص كثيرة في كل قبيلة على سطح الأرض عن الأيام الأولى من عهد تعلم الإنسان ما على هذه الدنيا العجيبة من الغرائب وما في بطنها من الكنوز التي تنتظر المستكشف.
ومجموعة من مثل هذه الأقاصيص توضح لنا كنه ما تحت أقدامنا من الأرض
لا بد أن يكون أقدم الناس في عهد سكنى الكهوف قد لاحظوا أن بعض أماكن من الأرض سوداء مخصبة وأن بعضها صخري والبعض رملي. وفي جهة ما من كل إقليم لا بد أن تكون قبيلة وربما كانت إقامتها عند شاطئ نهر أو مهدٍ جاف لغدير أو في وهد على مقربة من المساكن. وقد لاحظ الناس ذلك النوع الخاص من الأرض الذي تنطبع عليه آثار الأقدام ولكنها تجف عندما تظهر الشمس
لسنا ندري من البادئ بهذا الاستكشاف فقد يكون رجلاً أو امرأة أو طفلاً ممن يلعبون بعجينه من الطين كما هي عادة الأطفال من عهد لا تعيه الذاكرة ولكنه صادف أن وضع هذا المستكشف طينه المبتل على قطعة مسطحة من الخشب أو كتلة ذات تجويف ثم أدرك لما جفت عجينة الطين أنها ليست لينة كما كانت بل أصبحت صلبة متماسكة وأنها تجمدت على الشكل الذي وضعت عليه وهي عجينه
ومهما يكن السبيل الذي أمكن الوصول منه إلى هذا الاستكشاف فإن كل قبيلة مما يعيه علمنا قد صنعت في بداية عهدها أواني بسيطة الشكل من فخار مصنوع من الطين، ففن صنع الأواني وهو تكييف الطين بأشكال يمكن بها استعماله، أو صنع أشياء جميلة منه، هو أقدم الفنون وأوسعها انتشارا
إن قصة ازدياد المرء معرفة بهذه الأرض العجيبة التي يطأها بقدميه، وقصة ازدياد حذقه أساليب استعمالها - إن هذه القصة تتكون من قصص خمس لاستكشافات موفقة وصل إليها العالم في عهود مختلفة من التاريخ على أيدي أعضاء في كل قبيلة ولقد كان إنجاز هذه الكشوف الخمسة أسرع في بعض القبائل من بعضها، ففترات

الاستكشاف استغرقت في بعض القبائل مائة عام أو خمسمائة بل قد تبلغ الفترة ألفاً من الأعوام
لكن كلاً من هذه الاستكشافات قد وصلت إليه قبيلة بنفسها على يد حاذق منتج من رجالها قبل أن تصبح صناعة الخزف من الأعمال العامة
أما الاستكشاف الأول فهو أن بعض تراب الأرض صلصال حقيقي تحدث به عند البلل نعومة عظيمة وعند الجفاف صلابة شديدة وأنه إذا وضعت عليه علامة عند نعومته فإنها تبقى بعد جفافه
وأما الاستكشاف الثاني، فهو أنه من الممكن صنع طبق بوضع طبقات من هذا الصلصال بعضها فوق بعض، وتركها في الشمس حتى تتجمد.
وقد كان صنع الأطباق في لحظة عظيمة حقاً من حياة الناس ولو أنهم لم يدركوا ذلك في البداية، فإن الإناء الذي توضع فيه المياه فيحتفظ بشكله عند وضعه فوق النار، أو عند دفنه في حفرة ساخنة هو الوسيلة الوحيدة لجعل الطبخ الحقيقي في حيز الإمكان. ولم يبق بعد اختراعه من ضرورة لإنضاج اللحم بتعليقه على عصا فوق النار، ولا تجفيفه بإحراقه في فرن، ولم تبق من ضرورة كذلك لطحن الحبوب، وصنع حبات (بلابيع) منها ليسهل ابتلاعها. إن سحر النار قد أمكن الانتفاع به في تهيئة الطعام، لما أصبح من الممكن صنع طبق أو وعاء يوضع الطعام فيه على النار فلا يحترق.
وأما الاستكشاف الثالث، فالأرجح أنه معرفة المرء إمكان استخراج مادة أصلب وأمتن من الصلصال بإضافة الرمل أو مادة أخرى إليه، فبينا يصلح الصلصال وحده لصنع الأطباق، فهو يصلح مخلوطاً لما هو أهم من ذلك، يصلح لصنع الطوب الذي تبنى به المنازل. . . وهل تذكر أنك قرأت في قصة موسى شكوى الشعب اليهودي من أنه لا يستطيع صنع الطوب خالياً من القش؟
إن القش يؤدي في توثيق الطوب ما تؤديه الرمال، ففي مصر وفي المكسيك وفي الأجزاء الجنوبية من الولايات المتحدة وفي كل المناطق الحارة التي يكثر فيها الصلصال تبنى الأكواخ من الطوب النيئ أي الذي تجففه الشمس
وقد كان أول ما صنع الطوب جديراً بالملاحظة والاهتمام في حياة الإنسان. وذلك لأنه جعل في حيز الإمكان بناء بيوت يسكنها
وبعد أن شاع استعمال النار حدث بطريق المصادفة أن طبقاً سيئ الصنع أو قطعة من الطوب قد ترك أو تركت بالقرب من النار، فوجد في اليوم التالي أصلب وأمتن من الصلصال الذي يجفف في الشمس
وجد قوياً صلباً كأنه قطعة من الصخر فلا يمتص الماء ولا الضغط يستلينه، فكان صنع الصلصال على النار هو الاستكشاف الرابع في تاريخ الفخار. وقد مضى زمن طويل قبل
أن يتعلم الناس تعلماً تاماً صنع أطباقهم بواسطة النار
صنعوا (القمائن) وهي أفران تصنع في العادة على شكل خليات النحل وهم يضعون فيها ناراً تحترق في بطئ، وفي استمرار عدة ساعات أو عدة أيام. ثم عرفوا بالتجربة مقدار الحرارة الكافية لصنع كل نوع من أنواع المزيج والمدد المختلفة التي يجب أن يقضيها بتلك القمائن كل جنس من الصلصال
ولكن سر إحراق الصلصال هو الأساس لصنع كل ما يتعلق بالفخار والطوب بما في ذلك ما يصنع اليوم من أواني الصيني ومن الأوعية الجميلة السكسونية ومن الأحجار التي تشاد بها مباني العصر، وألف شيء آخر مما أنشئت عليه مدينتنا الحاضرة
أما الاستكشاف الخامس فقد جاء في عهد تأخر موعده: جاء في العهد الذي تاق فيه الإنسان إلى الجمال وإلى النفع معاً فيما يصنعه
وقد كان صانعوا الصلصال في أقدم العصور يحاولون على أساليبهم الخشنة أن يزينوا الأواني حتى ولو لم يكن ذلك إلا بآثار الإبهام على حافة الأواني
وكان المصريون والبابليون والليديون يحلون أوانيهم والطوب الذي يصنعونه والتماثيل بألوان لامعة مستخرجة من أكسيد الأثمد والنحاس الأحمر والصفيح
وكان اليونان يستعملونه دهاناً صلباً يغطون به الأواني الجميلة ذات اللونين الأسود والأحمر، ولكن الفخار الرقيق اللامع الذي يكاد يكون شفافاً لم يكن من صنع شعب من هذه الشعوب؛ فإن صناع الأواني في الصين قد بدءوا تجاريبهم بإحراق الصلصال في

(القمائن) حين كان معاصروهم المجهولون بين الشعوب الأخرى لا يزالون يصنعون الأواني من الطين المجفف في الشمس، وكان الصقل بالخزف أمراً معروفاً في الصين قبل مائتي عام من بدء التاريخ المسيحي، وفي القرن السابع للمسيح تعلم الصينيون أن يضيفوا إلى نوع خاص من الصلصال أسمه (كاولين) نوعا آخر من الحجر الرملي أسمه السليكي فيستخرج من مزجهما مادة أدق. واسم (كاولين) مأخوذ من أسم جبل في الصين (كاو - لين) أي القمة العالية. وقد استخرجوا لأول مرة من ذلك الجبل ذلك الصلصال العجيب، وهو غير قابل للذوبان مهما اشتدت حرارة النار، والغاية منه كما جاء في التعبير الصيني (لصنع عظام الأواني) وأما السليكي فإنه يشبه الجرانيت أي أنه قابل للذوبان على درجة عالية من الحرارة. ومتى ذاب تكون منه زجاج شفاف جداً.

وبالحذق في مزج هاتين المادتين أمكن صنع الأواني الصينية التي لا تزال تعرف بهذا الاسم إلى اليوم. وقد بقى سرها نحو ألف عام غير معروف في الغرب حتى تحراه المحققون في هذه الصناعة. وسنذكر الآن قصة الكيميائي الغضوب والشعر المستعار والمسحوق (البودرة)

وقبل أن نسرد هذه القصة الأخيرة عن الصيني نرى أن نعير نظرة إلى فن آخر يقرب من هذا الفن وهو صناعة الزجاج. وهي كما يرويها (بلايني) أحد الكتاب الرومانيين الذين عاشوا في القرن الأول بعد المسيح. وهذه القصة عن استكشاف استكشفه بحار كانت سفينة تجارية رومانية تعبر البحر الأبيض المتوسط وعليها حمولة من النطرون وهو نوع من الصودا خاص بتلك المناطق. وكان الأقدمون يستعملونه في الاستحمام وغسل الأقمشة

وفي أثناء سير السفينة هبت ريح ضد اتجاهها فأقصتهم إلى شاطئ رماله بيضاء دقيقة عند مصب نهر في سوريا، فأوقد البحارة ناراً على الرمال لينضجوا طعامهم ولما لم يجدوا صخوراً استعملوا قطعاً من النطرون لحمل الأواني فأدهشهم أن يروا سائلاً من الزجاج الذائب يجري في معسكرهم بين النار والماء. وكان هؤلاء البحارة قد عسكروا على مرتفع من الرمال كسته الرياح بمادة معدنية مما يستعمل في صنع الزجاج، فجعلت حرارة النار هذا المزيج من تلك المادة ومن النطرون يذوب. وكانت النتيجة مدهشة، ولنا أن نعتقد بحق أن الملاحين قد أخذوا إلى وطنهم بعض تلك الرمال مع ما كانت تحمله السفينة من البضائع

هذه قصة واحدة عن صنع الزجاج من بين قصص كثيرة يمكن أن تروى. وهي تريك أن طرق الانتفاع بالمواد في مكانين مختلفين من الأرض كان يستكشفها فريق من الناس وفريق منهم هناك، ولو أنهم كانوا على اتصال بعضهم ببعض كما هي حالة الشعوب اليوم، ولو أن أحدهم كان يأتمن الغير على سره لكانت المدنية أوسع انتشاراً ولبكزت عن موعدها بضع مئات السنين

ولكن لم تكن في تلك الأيام قد اخترعت آلة الطباعة فكان تناول المعرفة ليس بالأمر السهل، وكانت الشعوب المتفرقة يفصل بعضها عن بعض محيطات لا تعبرها إلا السفن ذات الشراع، وكانت الصحارى والجبال لما تخترقها السكة الحديد، وكانت تلك الأيام أياماً تخاف فيها بعض الشعوب بعضها وكان من المحتمل حدوث استكشاف علمي عظيم في أحد البلدان وبقاؤه سراً مكتوماً عن البلدان الأخرى جميعاً وكذلك كان الأمر في صنع الصيني

(يتبع)

ع. ا

من هنا ومن هناك

ألمانيا وإيطاليا عند مفترق الطريق

(عن مجلة (باريد))

قد يخطر على بال الكثيرين ممن يتتبعون الحركة الفاشية في أوربا، أن الشعب الإيطالي والشعب الألماني مرتبطان برباط وثيق العرى، في الميول والعواطف، وأن مظاهر الحياة العامة متفقة في الدولتين المتحدتين

والحقيقة أن الصلة بين جماعة النازي في ألمانيا، وجماعة الفاشستي في إيطاليا، صلة بين الحكومتين فحسب من حيث وجهة النظر الخارجية، أو ما يسمى محور برلين

رومه
وقد كتبت لادي درا موندهاي في مجلة (كانديان هوم) مقالاً في هذا الموضوع قالت فيه إنها زارت البلدين في الأيام الأخيرة، وخبرت أحوالهما عن كثب، وتستطيع أن تقرر أن الشعب الإيطالي ليست له ميول خاصة نحو ألمانيا، وقد سمعت كثيراً من النقد اللاذع ضد ألمانيا على ألسنة بعض الإيطاليين الذين لم يرتاحوا إلى تقليد إيطاليا لها
وقد راعها ما رأته من الفرق الشاسع بين مظاهر الحياة في كل من البلدين الدكتاتوريين. فقد دب الفساد إلى كل شيء في ألمانيا، فالطعام لا يخلو من الغش، والنقص يعتور كافة السلع المعروضة في الأسواق. أما في إيطاليا فالأمر على خلاف ذلك، إذ تستطيع أن تجد فيها ما تريد بغير مشقة. وفي ألمانيا تنتشر الجاسوسية في كل مكان فلا تمشي خطوة أو تتكلم كلمة إلا وعليك رقيب يعد عليك كل خطوة ويحصي كل كلمة فلا يمكنك أن تعيش ساعة بعيداً عن الشكوك التي تحيطك من كل جانب. أما في إيطاليا فحرية الكلام مكفولة ومباحة بصفة نسبية. وقد تمر في بعض شوارع ألمانيا فلا تجد غير بريق الملابس الحربية ومناظر الجنود تملأ الرحب. ولكنك في إيطاليا لا تبرح ترى أسراب السيدات المتأنقات يدلفن إليك من كل فج، والأهالي ينصرفون إلى أعمالهم بغير رقيب أو حسيب
وتقول ليدي درا موندهاي: لقد وجدت الحالة في ألمانيا على وجه العموم ثقيلة لا تطاق، ولقد اعتدت زيارة ألمانيا منذ خمس عشرة سنة وكنت أزورها أكثر من مرة في العام الواحد، ولي فيها أصدقاء كثيرون، فإذا حكمت عليها الآن فإنني لا أحكم عن جهل. لقد غابت مظاهر الحياة عن الوجوه، وغربت الابتسامة التي كانت تشرق على أفواه بعض
العابرين في الطريق، ووصلت ملابس المرأة الألمانية إلى درجة بعيدة من البساطة، كما أن أدوات الزينة والطلاء قد أدركها العجز الشديد. وتقول ليدي درا موندهاي: إنها سمعت من الحلاق الذي تتردد عليه أن صناعة إصلاح الشعر وفن التجميل على وجه العموم قد أدركهما الفناء في ألمانيا. وقد أصبحت مظاهر الابتهاج في برلين أقل منها في المدن الصغيرة، إذ أن طرد اليهود والضغط على حرياتهم قد حرم هذه المدينة وغيرها من المدن الكبيرة مظاهر الأبهة والعظمة وعناصر التسلية المحبوبة، فمما لا شك فيه أن عنصر اليهود كان له أثر عظيم في حياة ألمانيا التجارية والاجتماعية والثقافية
أما في إيطاليا فإن القوانين التي شرعت لاضطهاد اليهود ليس لها أثر في الحياة العامة. وقد تجد كثيراً من الإيطاليين يتوددون إلى أصدقائهم اليهود ليثبتوا لهم الوفاء والإخلاص ولو كرهت الحكومة ما يفعلون.
الألمان يحشدون في مصانع الحكومة
(ملخصة عن (لاريفي هيدومادير))
لعل أهم مظاهر التغير في ألمانيا اليوم، هي تحويل عدد كبير من الأهالي، إلى مجرد عمال في مصانع الحكومة. ومما يستفاد من تقرير حديث عن لجنة العمال الألمانية، أن عدد المشتغلين بالمصنوعات اليدوية ممن تزيد سنهم على الستين، قد تزايد في الأيام الأخيرة؛ فأصبح 283000 بعد أن كان لا يزيد على 187000 في السنين الماضية وقد وجد بين هؤلاء العمال نحو ستين ألف عامل تزيد سنهم على السبعين، وتدل هذه الأرقام على أن الرجل في ألمانيا مطالب بأن يشتغل ويكدح، ولو تقدمت به السن وأنهكته السنون
وقد أخذت الحكومة في الأيام الأخيرة تستدرج أصحاب الحوانيت الصغيرة من العمال إلى مصانعها حيث تسخرهم في شتى الأعمال التي تطلبها حكومة النازي، وصدر مرسوم بإباحة إغلاق الحوانيت الصغيرة، إذا كان أصحابها قادرين على العمل في مصانع الحكومة، ويطبق هذا القانون على أصحاب الحوانيت الذين يعجزون عن دفع الضرائب
وقد تبين أن عدد المطاعم الصغيرة في ألمانيا قد نقص من 22800 سنة 1934 إلى 20000 في سنة 1938 وفي مايو سنة 1939 أعلنت الحكومة أنه من المحتمل إغلاق عدد يتراوح من 8000 إلى 10000 من المتاجر والحوانيت الأخرى على التدريج ومما لاحظه البنك الأهلي الألماني في أحد تقاريره المالية أن 670000 نفس حشدوا

فعلاً للعمل بالمصانع
وجاء في تقرير للدكتور ك. هابفور، وهو من كبار موظفي الحكومة، أن المليوني عامل الذين تحتاجهم ألمانيا لمصانعها تستطيع أن تجمعهم بشتى الطرق، ولو أدى الأمر إلى حشد العجزة والمقعدين إلى المصانع، ووضعهم في الأعمال التي يليقون لها
ويقول هذا الموظف: لا حرج على الحكومة في إرسال الموظفين والسعاة والخدم إلى المصانع وإصدار قانون السخرة إذا احتاج الأمر
وتقول صحيفة ألمانية: إن النساء في مصانع الحكومة يشعرن بشيء من الرهبة والخوف وهن يشتغلن تحت الرقابة الشديدة فتضطرب أعمالهن في كثير من الأحيان، وإن كن يرغبن في أدائها على أكمل الوجوه
فما هو السبب الذي يؤدي إلى اضطراب المرأة هذا الاضطراب وهي مقبلة على عملها برغبة حقه؟ إن مظاهر الخوف التي تحيط بها تدعوها إلى ذلك الارتباك، فهي معرضة لأشد التهم وأنكى العقوبات على الدوام وإن كانت تبذل ما في وسعها للقيام بعملها خير قيام؛ وتلاقي السلطات الألمانية صعوبة لا يستهان بها مع العمال وإن كانوا من خيرة الرجال الأخصائيين، فهم يتعمدون الإبطاء في إنجاز أعمالهم التي تتطلب السرعة والإنجاز وقل أن يولوها العناية الكافية، إذ أنهم مساقون إلى العمل في تلك المصانع تحت حكم الإرهاب
الطعام والخرافة
عن)
لم يخل عصر من الخرافات العجيبة حول الطعام الذي يأكله الناس. فقد كانوا في القرون الوسطى مثلاً، يتوجسون من تعاطي الفاكهة الطازجة، وكان أكثر الناس في ذلك العهد يعتقدون أنها تسبب الحميات ومما يروى أن جالينوس كان يعتقد أن أباه لم يعمر طويلاً لأنه كان يتحامى تناول الفاكهة، ولعل هذا كان أول باعث على انتشار هذه الفكرة. ومما جعل هذا الرأي يزداد رسوخاً في أذهان الناس على مر الأجيال ازدياد عدد من يموتون بالزحار
والتيفوس في أشهر الصيف. وقد مضت قرون عديدة قبل أن يستطيع الناس أن يعرفوا أن هذه الأمراض تنتقل إلى الإنسان مع الماء الذي يشربه. وكانوا يحرمون على الطبقة الدنيا تناول الخضروات، فكان طعامهم مقصوراً على الكراث والبصل والجرجير والحمص ومنتجات الألبان. ومن ثم كان الأغنياء يترفعون عن تناول الزبد، ويعدونه من طعام الفقراء
وكانوا في تلك العصور يستقبلون الفاكهة الجديدة بتحفظ شديد، فلما ظهرت الطماطم في القرن التاسع عشر، كانوا يضعونها على المائدة لأجل الزينة فحسب، فلما بدأت تظهر في الأسواق العامة، وأخذ البعض يقبلون على شرائها، شاع بين الناس أنها تسبب مرض السرطان فكفوا عن أكلها، وما زالت هذه الفكرة المضحكة متسلطة على أذهان العامة والخاصة إلى عهد قريب
أما الخرافات حول الطعام في العصر الحديث، فأكثرها يدور حول الرشاقة، ومحاولة تخفيض الوزن. ومما لا شك فيه أن زيادة السمن تأتي من تناول كمية من الطعام تزيد على حاجة الجسم؛ فالرجل الذي يتعاطى مقداراً كبيراً من الطعام يزيد على المقدار الذي يستهلكه الجسم لابد أن يزيد وزنه. ولا شيء يمنع جسمه من التضخم، إلا التمرينات الرياضية التي تعادل هذه الزيادة في الطعام. ومن الجهل الفاضح ما يتحدثون به عن صلاحية بعض الأطعمة لإزالة السمن أو المساعدة على الرشاقة، فلا يوجد طعام قابل للهضم والتغذية يؤدي إلى تخفيف الوزن. وإن كان بعض الأطعمة أقل من البعض في التغذية
ومن العقائد الخاطئة التي أعتقدها الكثيرون، أن الخبز القديد أقل من الخبز المعتاد في زيادة السمن. وهذا مخالف للواقع كل المخالفة. إذ أن تقديد الخبز لا ينقص منه شيئاً غير الماء ويبقى الخبز كما هو.
البريد الأدبي
على هامش خطاب رئيس الوزراء
إدارة الدعاية في وزارة الشؤون الاجتماعية
جاء في الصحف أن إدارةً للدعاية أنشئت في وزارة الشؤون الاجتماعية، وأنها تشرف

على الفرقة القومية والمسارح المختلفة، وعلى دور السينما وقاعات الغناء، وعلى برامج الإذاعة، وعلى قيام المهرجانات الشعبية، وأن مدير هذه الإدارة هو الأستاذ توفيق الحكيم.

هذه إدارة جديدة تنشأ، ومهمتها معينة، ومديرها معروف. أما مهمتها فصيانة الدولة مما يضّر بها، والأمة مما يفسدها. وأما مديرها فمن الشباب الذين عرفوا الاجتهاد والروّية، فنالوا قسطاً وافراً من الثقافة العامة بما شهدوا في إقامتهم بأوربة، وما علموا من طريق القراءة المفيدة. وعلى هذا، فإنشاء هذه الإدارة يوافق ما جاء في خطاب رئيس الوزراء من السعي في تقويم معوجّات الأمة، والاعتماد على أهل الدراية والخبرة ممن سلِموا من (الخدر والنعاس) . . .

في رأيي أن إدارة الدعاية، يحق بها أن تُعنى بأمورٍ أربعة: الأول: تنشيط الهمم وبث الهزّة القومية في الأنفس. والثاني: تهذيب الشعب من باب التسلية. والثالث: بسط الرقابة الشديدة على أعمال إدارات المسارح والإذاعة وغيرها. والرابع: خدمة الفن الخالص . . .

أما الأمر الأول فيتطلب، أول ما يتطلب، مناوئة طرائق الغناء المستبد بآذاننا، فقد أجمع الكتاب أن التلاحين السيارة رخوة أي رخاوة حتى إنها تفتك بالعزم؛ فيتسرب الثقل في همة النفس والبطء في نهضة الأعضاء فضلاً عن انتشار الملالة، وبالشعب حاجة إلى ما ينعشه ويمضيه. فإنه أصبح مسئولاً عن حرمة الأرض التي يضرب فيها بعد أن كان على غيره متكلاً كل الاتكال. فلتضرب إدارة الدعاية على أنامل العازفين ولهوات المغنّين، وتأمر بالحماسيّات، وتخطو الطيّ واللّيّ والنواح، و (الشخلعة). وإذ اللحن مرتبط باللفظ الملحن فلتفتش الإدارة عن الناظم الذي لم يأكل نَفَسه وجد مصنوع أو فتور مقيم.

والهوْة القومية تبث في الأنفس من طريق المسرحيات، و (الأفلام) التاريخية خاصة، إذ تجري حوادثها في عهد السلطان الواسع والدولة المتمكنة، ومن طريق المحاضرات الموَّجهة، ثم من طريق المهرجانات، حيث تنتشر الأعلام وتعزف الأناشيد، ويصطف الجند

وتلقى الخطب الحماسية؛ وقد شهدت نوعاً من هذا في محافل نورمبرج النازية.

وأما تهذيب الشعب من باب التسلية فبتنظيم المحاضرات السهلة الجذابة، ومدارها مبادئ علم الصحة والأخلاقيات، والوطنية، وبتمثيل مسرحيات مؤدبة باللغة العامية على أن تكون غير مرذولة.

وأما بسط الرقابة الشديدة على أعمال إدارات المسارح والإذاعة وغيرها فالمقصد منه وضع الشيء موضعه: فلا يهضم حق مؤلف أو ممثل أو مغن، ولا يفضل هذا على ذاك بغير حق، ولا يُبعَد مخرج قدير لسبب لا يتصل بمجرى عمله، ولا ينفق مال استهواء للصحافة التي لا وزن لها، ولا تشترى مسرحية ثم لا تمثل، ولا يتسلط مغن أو عازف لأنه ذائع الصيت إذ من حق الكفايات كلها أن تعجم فتستثمر . . . هذا قليل من كثير.

بقيت خدمة الفن الخالص. فإذا قلتَ إن الفن الخالص خاص (أرستقراطي) فلا خير فيه للأمة، قلتُ إن في الأمة جماعة من أهل الثقافة اللطيفة فلابد لهم من غذاء، بل بالأمة حاجة أن يقال إن فيها من الكتاب من هو منجذب إلى الإنشاء الرفيع ومن الموسيقيين من يكره الأنغام المطروقة والحيل الموروثة الموقوفة، ومن الراقصين أو الراقصات من يأنف هز الكتف ورفع البطن وخفض الردف، فإنما صيت الأمم يعلو ويستطير بفضل أهل الفن الخالص السامي، على وجه العموم؛ وهل يضر مصر أن يعلو صيتها؟

هذا ويلحق بالفن التصوير والنحت فلِمَ أسقطتهما إدارة الدعاية من الخطة التي رسمتها؟ وفي مصر فئة من المصورين والنحاتين لهم أن يظفروا بالتقدير والرعاية، فهذه معارضهم لا يلتفت الناس إليها كثيراً، وعلى مثل الصديق توفيق الحكيم أن يرشد الناس إلى قدر الصور والتماثيل.

وفي مأمولي أن يفلت هذا الفن الخالص (وكذلك العلم الصِّرف) من القيود المختلفة وينجو من سطوة الأوضاع التقليدية أو المذاهب السياسية حتى لا يهزل هزلته على يد ألمانية الهتلرية حيث النازية حكمت على كثير من ألوان الفنون المستحدثة بأنها شر وفساد.

(الإسكندرية)
بشر فارس
حول رواية محمد علي الكبير
عزيزي الأستاذ الزيات
قرأت في العدد الأخير من (الرسالة) كلمة بإمضاء الأستاذ يوسف تادرس خاصة برواية (محمد علي الكبير) يرد بها على ناقد الرسالة الفني.
وليس يعنيني من هذه المناقشة إلا أمر واحد، وهو أن الأستاذ يوسف تادرس يتحدث عن الرواية كأنها من وضعه وهو يقول عن نفسه:
ثم قال (. . .وحاشا أن أصور محمد علي باشا في صورة السفاح الخ):
(وأني أعقل من أن أصور منشئ مصر الحديثة في هذه الصورة) الخ. . .
والذي يفهم من هذا أن الأستاذ له يد في تصوير أشخاص الرواية.
وتقريراً للحقيقة، واحتفاظاً بحقي الأدبي في هذه الرواية لمجرد الذكرى أرجو أن تعلنوا أن حضرة الأستاذ يوسف تادرس ليس له من هذه الرواية إلا أنه أشترك في وضعها في القالب التمثيلي على أساس الرواية التمثيلية التي سبق لي أن اقتبستها بنفسي من روايتي (ابنة المملوك)، ولست أسخو بأن ينسب ما فيها من تصوير لشخص آخر، سواء أكان ذلك التصوير حسناً أم سيئاً.
وأما من حيث المكافأة المالية، فإني أرجو أن تعلنوا أنني لم أنل منها شيئاً. فلعل هذا يعدل رأي حضرة (ناقد الرسالة الفني) الذي يظهر أنه هنأنا بالاستيلاء على هذه المكافأة. وإذا كان الأستاذ يوسف أفندي تادرس قد حصل على تلك المكافأة، فليس لي علم بذلك. . .
ولعل في ذلك الأمر موضعاً للتأمل في تصرف الأدباء في مصر.
ولك تحياتي الخالصة
محمد فريد أبو حديد
بين الدكتورين بشر وأدهم
أقحم اسمي في الجدل القائم بين الصديقين الدكتورين بشر فارس وإسماعيل أدهم، وهو جدل طال عهده بين أخذ ورد، وهجوم ودفاع، وتشعبت بواعثه ونتائجه. وكانت مناوشته الأخيرة أن كتب بشر فارس أن أدهم أقتبس منه بعض نقده لكتاب (فرعون الصغير)
للأستاذ محمود تيمور بك
وقد رد إسماعيل أدهم أنه كتب مقاله وأرسله إلى (الرسالة) بعد منتصف شهر يونيو أي قبل أن يظهر نقد بشر فارس في (مقتطف) أول يولية، وأنه أطلعني على هذا النقد في حينه، وأن صاحب (الرسالة) أخر نشره
والحق أني أذكر أن إسماعيل أدهم تلا علي وقتئذ مقاله في كتاب (فرعون الصغير) وقال لي: إنه سيرسله في الغد إلى (الرسالة) ولكني لا أذكر اليوم شيئاً من هذا الرد وهل كان يتضمن ما يقول إسماعيل أدهم أنه لم يقتبسه من بشر فارس أو لا ولعل القول الفصل في هذا الخلاف عند صاحب (الرسالة) فإن الأستاذ الكبير لا بد ذاكر متى وصلته مقالة إسماعيل أدهم وكيف تأخر نشرها
وبعد فإني لم أكتب كلمتي هذه لأنتصر لهذا أو لذاك من المتناظرين، فلكل واحد منهما عندي الصداقة التي يعرفها، ولكني أقصد إلى أن هذا الجدل قد طال أمره وتشعبت نواحيه وتعددت أساليب الهجوم فيه حتى لم يبق فيها زيادة لمستزيد، وحتى وقف جمهرة القراء على آراء الفريقين ومراميهما، ولعل الأستاذ الجليل صاحب (الرسالة) لا يعدم أسلوباً من أساليبه اللبقة لإقفال بابه بعد أن يحفظ لكل من المتناظرين حقه في إجمال آرائه في أسطر معدودة، وللجمهور بعد ذلك أن يحكم لهذا أو ذاك أو لكليهما معاً
وأنا واثق أني حين أعرض هذا الاقتراح أعبر عن رأي أصدقاء الأديبين الفاضلين الدكتورين بشر فارس وإسماعيل أدهم والمعجبين بأبحاثهما القيمة وهم كثيرون
(الإسكندرية)
صديق شيبوب
و (الرسالة) تقول لصديقها شيبوب إنها كانت شديدة الإعجاب بموقف الأستاذ أمين

عثمان من الخصمين العظيمين أحمد ماهر ومكرم عبيد
حكومة قاسية؟!
. . .نعم، ثم نعم، حكومة قاسية، قاسية، قاسية
ولكن من الذي يقول بذلك؟ إليكم البيان:
لما أعلنت الحرب، تسابق التجار في مصر إلى رفع الأسعار، أسعار الأشياء المعاشية. . . فلم يؤذني ذلك، لأني قضيت دهري في الحدود التي صرح بها الشاعر إذ يقول:
لستُ أرتاع لخطبٍ نازلٍ ... إنما الخوف لقلبٍ مطمئنّ
فأنا أحتقر الضرورات المادية للعيش، وأكتفي بالقليل حين لا أجد غير القليل، وأتأسَّى بالتعبير الذي كنت أعتصم به يوم كانت تكرثني الفاقة في باريس، التعبير الذي يقول: '
فقد وطنتُ نفسي على الأزمة التي تقضي بها جوائح الحرب، وقلت: لعل في ذلك خيراً وأنا لا عرف!
ولكن هناك أشياء لا أستغني عنها أبداً، وهذه الأشياء هي ورق الطباعة الذي يحتاج إليه المؤلفون في كل وقت. وقد صرت مؤلفاً من حيث لا أحتسب، وتلطف القراء فأوهموني أن لي في أنفسهم منزلة توجب أن أحسب لرضاهم ألف حساب!
وهل كنت أول مؤلف خدعه القراء؟
أليس في مصر نحو عشرين أو ثلاثين مؤلفاً ينفقون أرزاقهم وأرزاق أطفالهم فيما يشترون من الورق وما يقدمون إلى المطابع؟
. . .أليس في مصر عدة مجلات أدبية يتنازل أصحابها عن أقواتهم ليفوا بالعهد للقراء؟
قامت الحرب، ولي في المطابع ثلاثة مؤلفات، منها كتاب نفذت طبعته منذ أشهر طوال، وهو يطلب كل يوم. . . ولهذا الكتاب منزلة في قلبي، لأنه من محصول دار المعلمين العالية في بغداد، هو كتاب (عبقرية الشريف الرضي)، الذي أعلن عن طبعته الثانية بالمجان في مجلة (الرسالة) لأن صاحبها مؤلف وصحفي، وهو يعاني من عُنف تجار الورق أضعاف ما أعانِي. . .
وأعترف بالحق فأقول: شرعتُ في طبع تلك الكتب مطلعَ الصيف، ثم ضاق جيبي عما أريد، فاعتللتُ لأصحاب المطابع بأني أحب أن أقضي الصيف في شغل ألطف من الطبع والتصحيح: وهو مشاهدة اللؤلؤ المنثور فوق شواطئ الإسكندرية وشواطئ بور سعيد وشواطئ دمياط
وهل يكثُر على رجل في مثل حالي أن يعطّل مؤلفاته ليمتع عينيه بمشاهد الملاح؟
ولكن لا بدَّ مما ليس منه بدّ
الحرب أُعلنتْ، ويجب أن أفرغ من طبع تلك المؤلفات قبل أن يصير الورق من الممنوعات
الورق! الورق!
تلفتُّ فرأيت التجار زادوه إلى أضعاف وأضعاف، فرضيت بالخسارة العاجلة فيما شرعت في طبعه من تلك المؤلفات، وانتظرت حتى تنتهي الحرب. ولكن الحكومة - الحكومة الحازمة التي يرأسها الرجل الحازم علي ماهر باشا - سارعت ففرضت تسعيرة لأكثر الأشياء، ومنها الورق
وعندئذ أسرعت لابتياع ما أحتاج إليه لإنجاز تلك المؤلفات فماذا رأيت؟ رأيت التجار جميعاً خضعوا لحكم التسعيرة إلا تجار الورق
فهل يعرف القراء ما الذي قرأت في عيون تجار الورق؟
رأيت في عيونهم كلمة مرقومة بأحرف من الظلمات. رأيتهم جميعاً يقولون: هذه حكومة قاسية لأنها صدَّتنا عن إرهاق من يشتغلون بالصحافة والتأليف!
وأنا أشهد علانية بأن الرئيس علي ماهر باشا رجل قاس لأنه صدَّ عنا عادية المجرمين من تجار الورق وكفّهم عن الجشع البغيض
فيا أيها الرجل العظيم الذي اسمه علي ماهر، تذكَّر ثم تذكَّر، تذكَّر أنك أنقذتنا من ظلم تجار الورق، وتذكّر أنهم سيرجعون إلى غيّهم بعد قليل إن أمنوا سطوة الحزم والعدل وستكون أول من أهدِي إليه تلك المؤلفات التي انتزعتُ ورقها من تجار الورق بفضل حزمك ورجولتك، وعند الشدائد تظهر عزائم الرجال
زكي مبارك

حثر اللسان
قرأت في (الرسالة الغراء) سؤال السيد الفاضل (ع. م. ح) وقد وجدت في اللسان والتاج هذا: (لسان حَثِر لا يجد طعم الطعام) وجاء في نجعة الرائد: (يقال رجل حثر اللسان كما يقال حثر الأذن أي لا يجد طعم الطعام) وفي (الإفصاح): (لسان حَبْر - لا يجد طعم الطعام) وابن سيدة لم يذكر في المخصص في فصل أدواء اللسان لا الحثر ولا الحبر. وقد
أضاف الأستاذان مؤلفا الإفصاح إلى المجموع من المخصص أشياء من غيره (مما تمس إليه الحاجة) فإن أرادا ذكرا متفضلين مظنة اللفظة التي نقلا عنها لأجل تحقيقها
(طنطا)
أزهري
كتاب (التعليم والمتعطلون في مصر) شكر وتقدير
أهدى الأستاذ المربي عبد الحميد فهمي كتابه النفيس (التعليم والمتعطلون في مصر) إلى حضرة صاحب المقام الرفيع علي باشا ماهر فتفضل رفعته بإرسال هذا الكتاب إليه:
حضرة الأستاذ الفاضل عبد الحميد فهمي مطر
تلقيت ممتناً مؤلفكم القيم (التعليم والمتعطلون في مصر) وإني ليسرني أن أبعث إليكم بعظيم الشكر على جميل هذا الإهداء، مقدراً أحسن التقدير ما أبديتم من عناية بهذا الموضوع الدقيق، وما بذلتم من جهد في تقديم هذه الدراسة النافعة
ولكم مع أزكى التحيات أطيب التمنيات
(علي ماهر)
معهد اللغات الشرقية في كلية الآداب
نشرت الوقائع المصرية مرسوماً بقانون هذا نصه بعد الديباجة:
مادة (1) ينشأ في كلية الآداب معهد يسمى (معهد اللغات الشرقية وآدابها) يكون الغرض منه التخصص في اللغات السامية ولغات الأمم الإسلامية واللهجات العربية القديمة والحديثة.
مادة (2) يشمل المعهد الفروع الثلاثة الآتية:
1 - فرع اللغات السامية.
2 - فرع لغات الأمم الإسلامية.
3 - فرع اللهجات العربية.
مادة (3) يدرس في فرع اللغات السامية المواد الآتية:
الأكادي، الكنعاني، الآرامي، السامي الجنوبي، علم اللغات، النحو المقارن. . .
ويدرس في فرع لغات الأمم الإسلامية اللغات الآتية:
الإيرانية والتركية والأردية (الهندستانية). . . وما يضاف إليها من اللغات الشرقية القديمة والحية غير السامية. . .
ويدرس في فرع اللهجات العربية:
اللهجات العربية القديمة والحديثة في مختلف الأقطار والأقاليم
واشتمل المرسوم بعد ذلك على شروط القبول ورسم القيد وأمور أخرى خاصة بهذا المعهد.
جائزة طلعت حرب باشا السنوية
لما عاد سعادة طلعت حرب باشا من أوربا في السنة الماضية معافى رأى بعض إخوانه من مديري البنك وشركاته أن يظهروا سرورهم بشفائه وأن يغتنموا هذه الفرصة لتقديرهم لما قام به من خلق مصر الاقتصادية الصناعية، فاكتتب كل منهم بعشرين جنيهاً مصرياً، وقرروا أن يشترى بالمبلغ مائة سهم من أسهم بنك مصر يخصص ربحها سنوياً لجائزتين: إحداهما للمتفوق في التعليم التجاري، والثانية للمتفوق في التعليم الصناعي. وأنابوا عنهم في هذا حضرة صاحب السعادة توفيق دوس باشا. وقد أرسل سعادته منذ يومين إلى صاحب المعالي وزير المعارف العمومية الخطاب الآتي:
حضرة صاحب المعالي وزير المعارف العمومية
أتشرف أن أخبر معاليكم أنه بمناسبة إبلال حضرة صاحب السعادة طلعت حرب باشا السنة الماضية من المرض الخطير الذي كان قد ألم به إذ ذاك اجتمع بعض إخوانه من

مديري البنك والشركات المتصلة به واكتتبوا فيما بينهم بمبلغ اشتروا به مائة سهم من أسهم بنك مصر وخصصوا ريعها ليصرف جائزتين سنويتين: إحداهما للمتفوق في التعليم التجاري والثانية للمتفوق في التعليم الصناعي ويطلق عليها جائزة محمد طلعت حرب باشا

وبناء على هذا قد أودعت في بنك مصر المائة سهم المذكورة تحت تصرف معاليكم ليصرف كوبونها لوزارة المعارف سنوياً.

حول مقال

سيدي الأستاذ الزيات

أشكركم كثيراً لنشركم مقال (ابن حوقل) في العدد 323 من الرسالة. وقد وقفت بعد إرسال المقال المذكور إليكم على كتاب (المكتبة العربية الصقلية)، الذي اعتنى بجمعه ونشره المستشرق الإيطالي أماري في ليبسك سنة 1875 بعنوان: - فوجدته قد نشر في الصفحة (4 - 11) من هذه المجموعة جانباً من كتاب (المسالك والممالك) لأبن حوقل يتناول وصف جزيرة صقلية

إن ما نُشِر في هذه المجموعة الصقليَّة يعتبر إحدى الطبعات الجزئية التي سردناها في مقالنا السابق لكتاب المسالك والممالك

(بغداد)

ميخائيل عواد

إلى رجال الأدب والتاريخ

في العدد 322 من الرسالة الزهراء وفي مقال نصير العروبة الدكتور زكي مبارك (جناية أمين على الأدب العربي) ورد ذكر الشيخ محمد صائم الدهر الذي طاف بمصر من الشمال إلى الجنوب ليحطم ما ترك المصريون القدماء من الأصنام والأوثان وجدع أنف أبي الهول الخ

وقد أثار هذا الاسم حواراً طريفاً وحديثاً تشعب وتفرع عند طائفة من الأدباء، هنا فهل لرجال الأدب والتاريخ من يذكر طرفاً موجزاً عن تاريخ هذا الشيخ وعصره فإن في ذلك الإيضاح فائدة وعملاً مشكوراً!

أم درمان (السودان)

حسن حامد البدوي

حول نقد كتاب

سيدي الأستاذ الجليل الزيات

قرأت في عددين مضيا من (الرسالة) الغراء، كلمة للأديب البغدادي خليل أحمد جلو ينقد بها كتاب (بعث الشعر الجاهلي) للدكتور مهدي البصير. وقد أهدى إلى أحد أصدقائي ببغداد نسخة من هذا الكتاب في أواسط يونية الماضي، وكتب إلي يقول: إن مؤلفه يسره أن أكتب عنه ما يعن لي من نقد وملاحظات، فكتبت عنه كلمة طويلة ضمنتها ما أخذته على الكتاب ثم بعثت بنسخة منها - أواخر يوليه الماضي - إلى مجلة (التفيض) البغدادية. ومن غريب المصادفات أن أجد مقالة الأديب جلو مشابهة لمقالتي في موضوعها وجوهرها، لا في أسلوبها ومظهرها

وتشاء الظروف أن تنقطع مجلة (التفيض) عن الظهور عقيب وصول المقال إليها؛ لأنها كانت تصدر نصف شهرية وأراد القائمون على أمرها أن تصدر أسبوعية من أول شهر (أيلول). وللآن لم يصلني العدد الأسبوعي الأول من (التفيض) حتى أعرف إن كان مقالي المذكور قد نشر أم لا. وخشية من أن يتهمني الأديب (جلو) أو سواه بأنني بنيت مقالي على مقاله أو حرفته ونسبته لنفسي، أسارع بنشر هذه الكلمة والوقت لا يزال فسيحاً؛ وسندي في ذلك كتاب بعث به إلي الأستاذ سليم التكريتي محرر (التفيض) يطلب مني أن أكون محرراً دائماً بها، ويخبرني بوصول مقالي عن كتاب البصير إليه. وهذا الكتاب بتاريخ 6 أغسطس سنة 1939م

ولعل صفحات (الرسالة) الغراء لا تضيق عن هذه الكلمة القصيرة، ولكم شكر وتحيات وسلام

(البجلات)

أحمد جمعه الشرباصي

رسالة النقد
نظرات في كتاب
(بعث الشعر الجاهلي)
تأليف الدكتور مهدي البصير
بقلم الأديب خليل أحمد جلو
- 3 -
لقد عقدت النية ووطدت العزم على محاسبة الدكتور مهدي البصير حساباً عسيراً بلا ترفق ولا استبقاء. ولكن الأستاذ الزيات شفيق رفيق فأشار إليّ إشارة خفية بأن يكون حسابي يسيراً ليناً. وسأفعل إن شاء الله
ولا يحسب القارئ أني سأحيد عن الحق والحقيقة أو ستأخذني فيهما رأفة أو هوادة. ولكني سأبذل قصارى جهدي وأحرص كل الحرص على أن يكون النقد شريفاً صادقاً كما تعودت وألفت وأبتعد عن غواية الأهواء وضلالة العواطف على قدر ما تسمح نفس إنسان شريف
لقد أجمع أصحابي على أن النقد الذي حدثتكم به من قبل نزيه معقول، ولكنه عبء ثقيل على الدكتور البصير لا يحتمله كاهله فكان علي أن أتجنبه وأسمح له أن يحيا حياة هادئة مطمئنة لا يعكرها نقد ولا تنغْصها مؤاخذة، وكان علي أن أزهق الحق وأظهر الباطل في سبيل ما يحب ويشتهي، وليس ذلك علي بعزيز ولا عليه بكثير وهو أستاذ في الدار التي تخرجت فيها
لقد أخطأ هؤلاء الأصحاب وشطوا عن الصواب. ولو علموا أن نقد التلميذ لأستاذه بر واعتراف بالجميل لما جازفوا في قولهم.
والدكتور مهما بلغت به سورة الغضب وشدة الحنق سيضطر عاجلاً أو آجلاً أن يعترف بفضل هذا النقد ووجاهته
أما بعد فإن للمؤلف ذوقاً خاصَّاً في تقدير قيمة الأشعار حرم السلامة والجمال. وأحسن ما يتجلى وذلك في تذوقه البيتين الأولين من معلقة امرئ القيس:
قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها ... لما نسجتها من جنوب وشمأل
فقد ملكت روعتها مشاعره واحساساته. وشهد لهما (بالضبط الذي لا يفطن إليه سوى كبار الشعراء) (ص25)
قولوا ما شئتم في قيمة هذين البيتين الأدبية، أما أنا فلا أعتقد أن لهما جمالاً يخلب اللب ولا سحراً يأخذ بالقلوب، ولا ضبطاً يجدر بصغار الشعراء أن ينتبهوا له بله كبارهم وأي روعة أدبية فيهما وهما يرسمان خارطة لمنزل حبيبة الشاعر؟ وهل من الأدب في شيء قولي: إن شارع أبي نواس يقع في نهاية (الباب الشرقي)، ويمتد على ضفة دجلة اليمنى، تكتنفه المقاهي والمتنزهات؟. كلا، إن هذا الضرب من الكلام أقرب إلى كلام العوام فلا يهم الأدب شيئاً. إنما يهمه ما في الشارع من قدود هيف، وعيون دعج، ومنظر للنهر وللفضاء ساحر أخاذ حين تجنح الشمس للغروب ويتحرك النسيم العليل وهل فطن الدكتور للأخطاء التي ارتكبها الشاعر في تركيب هذين البيتين فأثرت على معناهما وقللت من قيمتهما؟
رحم الله الباقلاني فقد قال: إن امرأ القيس في مطلع قصيدته المعلقة كأنه دلال يبيع داراً ينادي إن الدار المرقمة كذا، والتي يحدها من الشمال كذا وكذا معروضة للبيع وغفر الله للأستاذ إبراهيم شوكت قوله: إن امرأ القيس واضع أساس علم الجغرافية عند العرب، فهو يعرف الشمال والجنوب ويحسن التحديد
وبارك الله في الدكتور زكي مبارك فإنه يستخف هذا النوع من الكلام ويأبى حشره مع الأدب ونسبته له
وأحدثكم بعد هذا عن ادعاء للدكتور مضطرب مختلط إذ يقول (ص11): (إن شعر امرئ القيس لا ينفي شيئاً ولا يثبت شيئاً. . . وإن مؤرخي العرب لم يستدلوا بشعره يوماً ما على شيء) من حياة الشاعر أو تاريخه. وفي هذا القول من الخطأ والزلل ما يثير الدهش والاستغراب. إذ يُستخلص منه أن قصائد الشاعر لا تمثل شيئاً ولا تدل على شيء، فهي إما لغو وإسفاف لا يمكن أن يستنبط منها صورة حياة الشاعر، وإما انتحال

واختلاق حملت عليه حملاً؛ وإن ما نسب له من شعر موضوع مفتعل من قبل أناس لم يحسنوا التقليد ولم
يمرنوا على الإيهام، وإن (قفا نبك) التي لا يشك المؤلف (ص13): (في أنها جاهلية بحتة ولا في أنها من شعر امرئ القيس ذاته) ليست له
تلاحظ هنا ارتباك المؤلف وخبطه ومناقضته لنفسه، فبينما يقرر حقيقة وجود امرئ القيس إذا هو ينفيه من حيث لا يشعر، وبينما يعترف بأن شعره المنسوب إليه لم ينظمه سواه إذا به ينكره غافلاً
والذي ساقه إلى هذا التورط المحاولة التي يدحض بها استخلاص الدكتور طه حسين من قصائد الشاعر ما يستدل به على إنكار تاريخه
ويزعم بهذه المحاولة أن ما أُثر عن امرئ القيس في شعر لا يصح الاعتماد عليه لمعرفة حياته، وأنه يجب أن نرجع إلى المصادر التي يروي عنها مؤرخو العرب ونستقي منها ما يمكن أن يقال عن الشاعر
لقد بينت سابقاً أن الدكتور البصير يثق كل الثقة بما يرويه المؤرخون ويتناقله القدماء بلا جدال ولا مناقشة. فهنا يسوق برهاناً آخر على حسن ظنه وعظيم تمسكه بهم، حتى إنه لينكر على الناس أن يركنوا في استطلاعهم على تاريخ امرئ القيس إلى شعره ويفرض عليهم أن يلتفتوا إلى ما قاله القدماء بلا شك ولا ارتياب
أنصح لك يا دكتور مرة أخرى ألا تثق في أقوال القدماء كل الثقة، وأن تستمع للقائل الأصيل فهو أصدق وأحق أن يرجع إليه، وألا تتهم مؤرخي العرب بأنهم لم يستدلوا يوماً ما على شيء من حياة الشاعر أو تاريخه، فليس من المنتظر أن يصدر منك هذا القول الجزاف
هل تنكر أن الشعر بصورة عامة يمثل حياة صاحبه وأنه مرآة عاداته وأخلاقه وتقاليده وميوله
إن الأستاذ العقاد استطاع أن يعطي صورة صادقة عن ابن الرومي رسمها في شعره، وإن الأدباء اليوم لا يكتبون عن شاعر أو كاتب حتى يشبعوا شعره أو أدبه دراسة وتمحيصاً
الله أكبر. إن شعر امرئ القيس لا يمكن الاعتماد عليه ولا يدل على شيء من تاريخ صاحبه وهو الذي يحدثنا أن (قفا نبك) لا تمثل سوى حياة قائلها
ولا أدري كيف جوز لنفسه أن يقول إن المؤرخين لم يستدلوا من شعره على حياته! ألا والله لو سألت أقل الناس ثقافة أن يشرح لك هذين البيتين:
بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه ... وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك إنما ... نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا
لاستدل لك بهما على حياة عريضة لامرئ القيس ولأنبأك بقتل أبيه واغتصاب ملكه وفزعه إلى قيصر بيزنطة واستنجاده به على أعدائه، ولأفادك بأن الشاعر قال هذين البيتين وهو في الطريق حين هلع صاحبه وجزع
(يتبع)
خليل أحمد جلو
العدد 328 - بتاريخ: 16 - 10 - 1939
من مشكلات الأسرة الحديثة
بين الدين والحب
لقيته بعد تسع سنين على (تريانون) رائق الشباب رائع الصورة لطيف الشارة كما عهدته. وكان هذا اللقاء الجميل مفاجأة سارة من مفاجآت الغيب بان أثرها عليّ وعليه فلم ندرك كيف نسلم ولا ماذا نقول
هذا الشاب الطرير من أسرة لبنانية مسلمة، تلمذ لي حيناً من الدهر في أحد المعاهد الكبرى بالقاهرة، واتصل بيني وبينه الود بعد أن تخرج فيه، ثم رحل إلى العراق يزاول التعليم به، وانحصر وجوده بين بغداد وبيروت فلم أعد أراه. فلما رأيته بالإسكندرية في هذه الساعة على هذه الحالة مثل أمام عيني جزء مشرق من الماضي القريب كاد يغرقه في لجة النسيان حدثان الزمن
- متى قدمت مصر يا عبد الحميد وكيف أخفيت عني هذا القدوم؟
- قدمتها منذ ثلاثة أسابيع. وقد علمت أنك هنا فبحثت عنك في كل مقهى وفي كل

شاطئ فلم أجدك. ومنذ يومين لم يعد لي في الإسكندرية عمل ولا أمل إلا أن ألقاك؛ فإني فوق أن أراك أريد أن أسألك أن عن أمر شغل بالي وشق علي
- خير أن شاء الله؟
فقال الصديق الشاب وهو يحاول أن يكظم شيئاً في نفسه بدت إماراته في نظرته القلقة وصوته المأخوذ ولهجته المترددة:
- أريد أن تدلني على كتاب في الإنجليزية يبين رزح الإسلام وحقيقة مبادئه وأصول أحكامه بطريقة يقبلها الرجل العصري المثقف
- هل وقعت - معاذ الله - في أزمة من أزمات الشك؟
- كلا وأحمد الله على قوة الإيمان وثبات العقيدة. إنما يتعلق الأمر بإنسان أحب إلى من نفسي، فتنته عن دينه فتون التعليم الأجنبي وفسوق البيئة. ولقد وقع في يدي اليوم كتاب في العربية عنوانه: (لماذا أنا مسلم) فراقني أسلوبه وأرضاني منهجه، ولكن صاحبي على مصريته لا يعرف العربية ولا يثق بما كتب فيها
- ألا تستطيع أن تقدمه إلي فأعينك على إقناعه وإرجاعه؟ فارتبك الفتى وكسر من طرفه. ثم ما لبث أن خفض جأشه وأرسل نفسه وترك تحفظه وقال:
- ما لي أخفي الأمر عنك وقد كنت لي في مشكلات الشباب والعيش المشير الصادق والناصح المخلص؟ إن الأمر يتصل بفتاة مصرية هويتها منذ سبع سنين، أبوها طبيب من الأطباء الموظفين النابهين تعرفه كما أعرفه، وأمها إنجليزية دخلت في الإسلام لئلا تحرم الإرث كما يقال، والفتاة بارعة الجمال رضية الأخلاق رقيقة القلب عفيفة الدخلة، تلقت دروسها الابتدائية في مدرسة أمريكية بالقاهرة، والثانوية في مدرسة إنجليزية بلندن، فهي في ثقافة الجسم والعقل والروح مثال المرأة الحديثة الصالحة. لقيت أسرتها أول مرة في إحدى مدن لبنان فألف بيننا تجاوب الشعور وتقارب للثقافة، وتمكنت الألفة بيني وبين الفتاة بحكم الطبيعة والسن، وتأثير اللهو والرياضة، فما كنا نفترق في اليوم والليل إلا ساعات النوم القليلة. وكان أبواها يساعدان هذا الهوى الوليد بإطلاق الحرية وإرصاد الفرص واعتقاد الثقة، فلم نعد إلى القاهرة معاً حتى كان هذا الحب عاتيا جباراً يذهب بقلبي وقلبها كل مذهب.
ثم دأبت على زيارتها في بيتها كل يوم في النهار أو في الليل فنقضي أوقات الفراغ في القراءة أو في النزهة أو في التنس أو في السينما! وفي كل لحظة تمر أو لفظة تقال يكشف كلانا في الآخر دليلاً جديداً على أنه عروس أحلامه وموعود غده
كانت تسافر أوائل الخريف إلى لندن فيكون بيننا بريد دائم بالفكر المستمر والطيف المثابر والكتابة المتصلة. فلا ندع فكرة يبعثها الخيال أو الشوق، ولا كلمة يوحيها العقل أو القلب، إلا تبادلناها بالتفكر أو التذكر أو الحنين أو الكتابة في النوم أو في اليقظة. ثم تعود أواخر الربيع إلى القاهرة فيعود أنسنا باللقاء، وسرورنا بالحديث، ومرحنا بالرياضة، فلا نترك متنزهاً ولا ملهى في العاصمة والضاحية إلا أشهدناه على آية من آيات الحب، أو ساعة من ساعات السعادة
ثم رحلت إلى بغداد فنشأت في نفسي رغبة شديدة في بناء بيت وتكوين أسرة، فخطبتها إلى أبويها في شتاء هذا العام واستقر رأينا على إعلان الخطبة في الصيف
- متى عدت من بغداد وعادت هي من لندن
جاء الصيف يا سيدي فعدت وعادت، ونزلت على عطف أبويها في مصيفهما بالرمل نزول الابن الموموق على حنان أبويه بعد غيبة طويلة. ولكني رأيت الوجوه غير الوجوه! فلا البشر باد في عين الأم كما شهدت، ولا السرور جار على ثغر الفتاة كما عهدت. فلما سألت السيدة عن سر هذا السهوم قالت لي أدخل على ميمي الغرفة فلعلك تجد عندها الجواب
دخلت على ميمي فوجدتها جاثية بجانب السرير تضرع وتبكي. فلم أتمالك أن جثوت بجانبها مغرورق العين مستطار الفؤاد، وأخذت أنفس من كربها وأسالها عما بها، فقالت وهي تنشج بالبكاء:
- مستحيل! مستحيل! لقد أحببتك حتى لم يعد لي هوى إلا إليك ولا فكر إلا فيك؛ ولكنني لا أستطيع الزواج منك لأني مسيحية متعصبة وأنت مسلم محافظ. ولا سبيل إلى أن نتزوج كما تزوج أبي وأمي، فإني وأنت صريحان، وأنا أحتقر دينك بقدر ما أحترمك، وأبغض نبيك بقدر ما أحبك

- ومتى دنت بالنصرانية يا ميمي وأنا وأبواك لا نعرفك إلا مسلمة؟
- دنت بها منذ رحلت إلى لندن، وجعلت الأمر بيني وبين الله حتى أخبرتني أمي بخطبتك فلم أجد بداً من إعلانه
- وهل درست الإسلام يا ميمي قبل أن ترتدي عنه؟
- درسته على الراهبات في مصر وفي إنجلترا وعلمت عنه ما أشفق على وجدانك من سماعه
- لقد درسته على خصومه ومنكريه، فكيف يسوغ في عقلك أن يكون كلام الخصم على الخصم حجة؟
- وعلى من كنت تريد أن أدرسه؟ أعلى أبي وما سمعته مرة يذكر الله، ولا رأيته يوماً يدخل المسجد؟ أم على أمي وقد كانت مسيحية لا تؤمن فأصبحت مسلمة لا تعتقد؟ وهل كان في مقدوري أن أغالب الفطرة وفي نفسي إلى الله شوق نازع لا أملك الصبر عليه متى رأيت السبيل إليه؟
- أنا كفيل بأن أعلمك ما تجهلين من حقيقة الإسلام، فإن أقنعتك تزوجتك، وإلا رجع الأمر بيني وبينك إلى الصداقة، فإنك لا تتزوجينني مسلماً ولا أتزوجك مسيحية
وأخذت منذ ذلك اليوم أشرح لها مبادئ الإسلام على قدر ما يستطيع مسلم تخرج في الجامعة الأمريكية؛ فكانت تصغي لما أقول وتعجب به. ولكنها كانت تتهمني بتلفيق ذلك مما أعلم من فضائل الأديان وأصول الأخلاق ثم أنسبه زوراً إلى الإسلام. فاتفقنا على أن أقدم إليها كتاباً عن الدين الإسلامي في الإنجليزية، وأن نؤجل البت في أمر الخطبة إلى مثل هذا الشهر من قابل. فهل تستطيع يا أستاذي أن تدلني على كتاب في هذا الموضوع يجعل زواجي منها حقاً لا ريب فيه؟ فقلت له والأسى يكاد يعقل لساني: إن كتاب روح الإسلام للأستاذ الهندي مير علي هو طلبتك. فلعلك تصيبه في مكاتب الإسكندرية. وعسى أن نعيش يا قارئي العزيز حتى أكتب لك الفصل الأخير من هذه الرواية!

أحمد حسن الزيات

بين الوحدة الإسلامية والوحدة العربية

للأستاذ أبي خلدون ساطع الحصري بك

قرأت وسمعت - إلى الآن - آراء وملاحظات كثيرة حول المفاضلة بين الوحدة الإسلامية والوحدة العربية، وأخذت أتلقى - منذ مدة - أسئلة متنوعة عول هذه القضية منها:

لماذا تهتم بالوحدة العربية وتهمل الوحدة الإسلامية؟

ألا ترى أن هدف الوحدة الإسلامية أسمى من هدف الوحدة العربية؟

وأن القوة التي تحصل من اتحاد المسلمين تكون أعظم من التي تحصل من اتحاد العرب؟

ألا تسلم بأن الشعور الديني في الشرق أقوى بكثير من الشعور القومي؟ فلماذا تريدنا أن نهمل استغلال ذلك الشعور القوي، ونصرف قوانا في سبيل تقوية هذا الشعور الضعيف؟

هل تعتقد أن اختلاف اللغات يحول دون اتحاد المسلمين؟

ألا تلاحظ أن (مبادئ الشيوعية والاشتراكية والماسونية وغيرها تجمع بين أناس اختلفت لغاتهم وأجناسهم وبلادهم وأقاليمهم ولم يمنعهم هذا الاختلاف كله من أن يتفاهموا أو يتقاربوا ويجتمعوا على خطة واحدة ومبدأ واحد؟) ألا تعرف أن كل مسلم في سورية أو مصر أو العراق يعتقد أن المسلم الهندي أو الياباني أو الأوربي أخ له كأخيه المسلم الذي يعيش معه جنباً إلى جنب؟ ففيم استحالة تحقيق الوحدة الإسلامية؟

يقول البعض: (إن الوحدة الإسلامية أقوى من كل وحدة سواها، وإن تحقيقها أسهل من تحقيق أية وحدة أخرى) فما رأيك في هذا القول؟

ويدعي البعض (أن فكرة الوحدة العربية دسيسة إنكليزية يقصد من ورائها الحيلولة دون توسع فكرة الوحدة الإسلامية، وذلك لفصل الهند عن سائر أقطار العالم الإسلامي لتسهيل إدامة السيطرة عليها) فماذا تقول في هذا الادعاء؟

لقد سمعت وقرأت - ولا أزال أسمع وأقرأ - أسئلة كثيرة من هذا القبيل خلال محادثات شفهية، وفي رسائل خصوصية، أو في كتب مفتوحة

فرأيت أن أخصص هذا المقال لمعالجة المسائل المبحوث عنها معالجة وافية، لأشرح رأيي فيها بصراحة كافية

1 - أعتقد أن القضايا الأساسية التي يجب درسها وحلها عند التفكير في (المفاضلة بين الوحدة الإسلامية والوحدة العربية) تتلخص فيما يلي:

هل (الوحدة الإسلامية) من الآمال المعقولة التي يمكن تحقيقها أم هي من الأحلام الطوباوية التي لا إمكان لتحقيقها؟

وعلى فرض الشق الأول: هل تحقيقها أسهل أم أصعب من تحقيق الوحدة العربية؟

وهل يوجد شيء من المنافاة بين هاتين الوحدتين

وهل من سبيل إلى تحقيق الوحدة الإسلامية، دون تحقيق الوحدة العربية؟

عندما نقدم على إعمال الذهن وإنعام النظر في مثل هذه المسائل يجب علينا - قبل كل شيء - أن نحدد ما نعنيه من الوحدة الإسلامية والوحدة العربية بوضوح تام، ونعين مدى شمول كل واحد من هذين التعبيرين بصراحة كاملة

من الأمور التي لا تحتاج إلى شرح أن الوحدة العربية ترمي إلى إيجاد وحدة سياسية من الأقطار العربية المختلفة التي يتكلم أهلوها باللغة العربية. وأما الوحدة الإسلامية فترمي - بطبيعة الحال - إلى إيجاد وحدة سياسية من البلاد الإسلامية المختلفة التي يدين أهلوها بالديانة الإسلامية بالرغم من لغاتهم وأجناسهم. . .

ومن المعلوم أن العالم الإسلامي يشمل الأقطار العربية وتركية وإيران، والأفغان وتركستان، مع قسم من الهند وجزر الهند الشرقية وبلاد القفقاس، وأفريقيا الشمالية مع قسم في أفريقية الوسطى. . بقطع النظر عن بعض الكتل المتفرقة في أوربا وآسيا في ألبانيا ويوغسلافيا وبولندة والصين واليابان

ولا حاجة لبيان أن الأقطار العربية تشغل القسم المركزي من هذا العالم الفسيح

إن كل من يضع هذه الحقائق الراهنة نصب عينيه، ويتصور خريطة العالم الإسلامي، ويلاحظ موقع العالم العربي منها، يضطر إلى التسليم بأن الوحدة العربية أسهل بكثير من الوحدة الإسلامية وبأن هذه الوحدة لا يمكن أن تتحقق على فرض إمكان تحققها إلا بالوحدة العربية

إذ لا يمكن لأي عقل كان أن يتصور حصول اتحاد بين القاهرة وبغداد وأنقرة وطهران وكابل وحيدر أباد ونجارا وكشغر وفارس وتمبكتو. . دون أن يحصل اتحاد بين القاهرة وبغداد ودمشق ومكة وتونس. لا يمكن لأي عاقل كان أن يقول بإمكان اتحاد الترك والعرب

والفرس والملايو والزنوج دون اتحاد العرب أنفسهم

لو كان العالم العربي أوسع وأشمل من العالم الإسلامي - بعكس ما هو واقع الآن - لأمكننا أن نتصور وحدة إسلامية دون وحدة عربية، ولجاز أن يقال إن تحقيق الوحدة الإسلامية أسهل من تحقيق الوحدة العربية. غير أنه لما كان الأمر بعكس ذلك تماماً فإنه لا مجال لمثل هذه الأقوال والتصورات في المنطق بوجه من الوجوه

إن هذه الحقيقة يجب أن لا تغرب عن بالنا عندما نفكر ونتكلم في أمر الوحدة الإسلامية والوحدة العربية

إن فكرة الوحدة الإسلامية أوسع وأشمل من مفهوم الوحدة العربية، ففي الإمكان أن نقول بالوحدة العربية دون أن نقول بالوحدة الإسلامية؛ وليس من الممكن أن نقول بالوحدة الإسلامية دون أن نقول بالوحدة العربية

ولهذا السبب يحق لنا أن ندعي أن كل من يعارض الوحدة العربية يكون عارض الوحدة الإسلامية أيضاً، وأما من عارض الوحدة العربية باسم الوحدة الإسلامية، أو بحجة الوحدة الإسلامية، فيكون قد خالف أبسط مقتضيات العقل والمنطق مخالفة صريحة

2 - بعد تثبيت هذه الحقيقة - التي لا يجوز منطقياً الاختلاف فيها - يجدر بنا أن نلتفت إلى حقيقة ثانية لا تقل أهمية عنها

يجب علينا أن لا ننسى أن المقصود من كلمة الوحدة في هذا المقام هو الوحدة السياسية، كما يجب علينا أن نلاحظ على الدوام أن مفهوم (الوحدة الإسلامية) يختلف عن مفهوم (الأخوة الإسلامية) اختلافاً كبيراً

فإن الاتحاد شيء والتعاطف شيء آخر، والاتحاد السياسي شيء والاتفاق على مبدأ من المبادئ أو على مجموعة من المبادئ شيء آخر

فالدعوة إلى الوحدة الإسلامية تختلف بهذا الاعتبار عن الدعوة إلى إصلاح أحوال الإسلام كما تختلف عن الدعوة إلى زيادة التفاهم والتقارب والتضامن بين المسلمين ولذلك نستطيع أن نقول: إن من يتكلم عن مبدأ الأخوة الإسلامية، ومن يبحث عن فوائد التفاهم بين المسلمين، لا يكون قد برهن على إمكان تحقيق الوحدة الإسلامية وبعكس ذلك، من لا يسلم بإمكان تحقيق الوحدة الإسلامية لا يكون قد أنكر مبدأ الأخوة
الإسلامية، ولا عارض مساعي النهوض والتفاهم بين المسلمين
فكل ما يقال عن مبدأ الأخوة الإسلامية لا يكون دليلاً كافياً على إمكان تحقيق الوحدة الإسلامية
وأما الاستشهاد على إمكان الوحدة الإسلامية بالماسونية أو الاشتراكية أو الشيوعية فليس موافقاً للعقل والمنطق بوجه من الوجوه، لأن الماسون لم يؤلفوا وحدة سياسية، والأحزاب الاشتراكية في الممالك الأوربية المختلفة لم تتحد لتكوين دولة واحدة؛ حتى الشيوعية نفسها لم تكون دولة جديدة، بل قامت مقام الدولة الروسية القيصرية
فيجب علينا أن نميز بين مسألة الأخوة الإسلامية ومسألة الوحدة الإسلامية تمييزاً صريحاً، وأن نفكر في إمكان أو عدم إمكان تحقيق الوحدة الإسلامية - بمعناها السياسي - تفكيراً مباشراً
3 - إذا ألقينا نظرة عامة على التاريخ، واستعرضنا تأثيرات الأديان في تكوين الوحدات السياسية، نجد أن الأديان العالمية لم تتمكن من توحيد الشعوب التي تتكلم بلغات مختلفة إلا في القرون الوسطى، وذلك في ساعات محدودة ولمدة قصيرة من الزمن فإن الوحدة السياسية التي حاولت تكوينها الكنيسة المسيحية لم تستطع أن تجمع العالم الأرثوذكسي بالعالم الكاثوليكي في وقت من الأوقات. . كما أن الوحدة السياسية التي سعت لتكوينها البابوية في العالم الكاثوليكي نفسه لم تعمر مدة طويلة وكذلك كان الأمر في العالم الإسلامي، فإن الوحدة السياسية التي وجدت في صدر الإسلام لم تقو على تقلبات الأيام مدة طويلة، والخلافة (العباسية) نفسها لم تستطع أن تجمع كل المسلمين تحت رايتها السياسية، حتى عند بلوغها أوج قوتها وقمة عظمتها؛ كما أن البلاد التي كانت تخضع لسلطان هذه الخلافة نفسها لم تحافظ على وحدتها السياسية بصورة فعلية مدة طويلة، ولم يمض وقت طويل على تأسيس الخلافة المذكورة حتى أصبحت سلطتها على الأقطار معنوية أكثر منها مادية، فلم تقو على الحياة دون انفراط عقد الأقطار المذكورة، وتحولها إلى وحدات سياسية عديدة مستقل بعضها عن بعض بصورة فعلية
ومما يجدر بالانتباه في هذا الصدد أن انتشار الدين الإسلامي في بعض الأقطار تم بعد أن فقدت الخلافة الإسلامية وحدتها الفعلية وقوتها الحقيقية، حتى أن هذا الانتشار جرى في
بعض الأقطار بصورة مستقلة عن تأثير السلطات السياسية، وذلك على أيدي دعاة من التجار والشيوخ والدراويش، فالعالم الإسلامي بحدوده الواسعة الحالية، لم يكون وحدة سياسية، في وقت من الأوقات
فالوحدة السياسية التي لم تحقق في القرون الماضية - في عهود بساطة الحياة الاجتماعية وسذاجة العلائق السياسية، وفي أدوار سيطرة التقاليد الدينية على كل ناحية من نواحي الأعمال والأفكار ليس من الممكن أن تحقق في هذا القرن بعد أن تعقدت الحياة الاجتماعية وأعضلت المشاكل السياسية وخرجت العلوم والصناعات عن سيطرة التقاليد والمعتقدات
4 - إنني أعرف أن ما قررته هنا لا يروق الكثيرين من علماء الإسلام. أعرف أن الدلائل التاريخية التي ذكرتها آنفاً لا تستطيع أن تؤثر على معتقد الكثيرين من رجال الدين. وذلك لأنهم قد تعودوا التكلم في هذه المسائل دون تذكر الحقائق التاريخية وملاحظة الخرائط الجغرافية، كما أنهم لم يألفوا التمييز بين مدلول (الأخوة الدينية) ومدلول (الرابطة السياسية) بل إنهم نشأوا على المزج بين مبدأ الأخوة الإسلامية بمعناها الأخلاقي، وبين فكرة الوحدة الإسلامية بمعناها السياسي
أنا لا أرى حاجة للسعي وراء إقناع هؤلاء بخطأ اعتقادهم في هذا الأمر، غير أني أرى

من الضروري أن أطلب إليهم ألا ينسوا مقتضيات العقل والمنطق في هذا السبيل.
لهم أن يحافظوا على اعتقادهم في إمكان تحقيق الوحدة الإسلامية، ولو في مستقبل بعيد، غير أنهم عليهم كذلك أن يسلموا في الوقت نفسه بضرورة السعي إلى الوحدة العربية على الأقل، كمرحلة من مراحل تحقيق الوحدة الإسلامية التي يعتقدون بها.
عليهم - في كل حال - ألا يعارضوا المساعي التي تبذل في سبيل تحقيق الوحدة العربية، بحجة خدمة الوحدة الإسلامية التي يدعون إليها
فإني أكرر هنا ما كتبته آنفاً (أن من يعارض الوحدة العربية بحجة الوحدة الإسلامية يكون قد خالف أبسط مقتضيات العقل والمنطق مخالفة صريحة) وأقول بلا تردد إن مخالفة المنطق إلى هذا الحد، لا يمكن أن تتأتى إلا من الخداع أو الانخداع:
خداع بعض الشعوبيين الذين لا يرتاحون إلى نهوض الأمة العربية فيسعون إلى تهييج الشعور الديني ضد فكرة الوحدة العربية
وانخداع بعض السذج الذين يميلون إلى تصديق كل ما يقال لهم مقروناً باسم الدين دون أن ينتبهوا إلى ما قد يكون وراء هذه الأقوال من المقاصد الخفية
فأرى من واجبي أن أوجه أنظار جميع المسلمين العرب إلى هذا الأمر الهام، واطلب إليهم ألا ينخدعوا بتدليس الشعوبيين في هذا الباب
5 - لعل أغرب وأخدع الآراء التي أبديت حول قضية الوحدة العربية والوحدة الإسلامية هو الرأي القائل بأن فكرة الوحدة العربية من المصنوعات الإنكليزية التي خلقت لمحاربة (الوحدة الإسلامية) وذلك لفصل الهند عن سائر الأقطار الإسلامية، تسهيلاً لدوام السيطرة عليها
أنا لا أستطيع أن أتصور رأياً اكثر بعداً من حقائق التاريخ والسياسة وأشد مخالفة لأحكام العقل والمنطق من هذا الادعاء الغريب
فإن التفاصيل التي ذكرتها آنفاً عن علاقة الوحدة الإسلامية بالوحدة العربية تكفي لإظهار خطر هذه المدعيات من حيث الأساس
مع هذا أرى أن أضيف إلى تلك التفاصيل بعض الملاحظات لزيادة البرهنة والإيضاح
إن كل من ينعم النظر في مكاتبات الملك حسين للإنكليز، وكل من يلاحظ اتجاهات السياسة البريطانية في عدن والعقبة وفي فلسطين وفي جزيرة العرب، يفهم بداهة أن القول بأن الإنكليز يشجعون فكرة الوحدة العربية تشجيعاً حقيقياً يكون افتئاتاً على الواقع صريحاً
لا ينكر أن الإنكليز سايروا الحركة العربية وصانعوها أكثر من سائر الدول، وما ذلك إلا لأنهم أكثر مرونة في السياسة وأسرع فهماً لنفسيات الأمم وحقائق الاجتماع. . .
إنهم عرفوا القوة الكامنة في الفكرة العربية قبل غيرهم، فرأوا أن يسايروها بعض المسايرة ويصانعوها بعض المصانعة - عوضاً عن محاربتها مباشرة - ليدفعوا ضررها عنهم ويجعلوها أكثر ملاءمة لمصالحهم.
وأما قضية (حكم الهند) فيجب أولاً ألا يغرب عن البال أنها ليست مسألة إسلامية بحتة - فأن المسلمين في الهند لا يؤلفون أكثرية السكان، كما أن في الخلاف القائم بين المسلمين والهندوس مجالاً واسعاً لتسهيل سيطرة الإنكليز على تلك البلاد. ومما لا شك فيه أن حكم الإنكليز لا يتم في الهند نفسها، بل يتطلب السيطرة على طرق المواصلات الجوية
والبحرية التي تربطها ببريطانيا أيضاً؛ ومن المعلوم أن قنال السويس وبحيرة الحبانية وثكنات مصر ومطارات العراق، من جملة وسائل هذه السيطرة، فهل يعقل أن يخشى الإنكليز - بالرغم من مرونتهم السياسية - من قيام دولة إسلامية كبيرة تستطيع أن تستولي على الهند، أكثر مما يخشون من قيام دولة عربية قوية تستطيع أن تسد طرق المواصلات المذكورة؟
يجب أن نعرف جيداً أن السياسة الإنكليزية سياسة عملية تتكيف مع الظروف وتنتهز الفرص على الدوام. ويجب ألا ننسى أن بريطانيا العظمى هي التي أنقذت الدولة العثمانية صاحبة الخلافة الإسلامية من استيلاء الروس عدة مرات. وهي التي كانت أوقفت الجيوش المصرية في قلب الأناضول، لتخليص مقر الخلافة الإسلامية من استيلاء تلك الجيوش الظافرة. وهي التي حالت دون اتحاد مصر مع سورية في عهد محمد علي الكبير

فكل من يتهم فكرة الوحدة العربية بكونها دسيسة إنكليزية يكون قد قام بخدعة ما وراءها خدعة، ووقع في انخداع ما بعده انخداع
يجب أن نعلم حق العلم أن فكرة الوحدة العربية فكرة طبيعية لم يوجدها موجد. إنها نتيجة طبيعية لوجود الأمة العربية نفسها. هي قوة اجتماعية تستمد نشاطها من حياة اللغة العربية وتاريخ الأمة العربية واتصال البلاد العربية. فلا يستطيع أحد أن يدعي - بصورة منطقية - أن الإنكليز هم الذين خلقوا فكرة الوحدة العربية إلا إذا استطاع أن يبرهن على أن الإنكليز هم الذين خلقوا اللغة العربية، أو أوجدوا تاريخ الأمة العربية، وكونوا جغرافية البلاد العربية
إن فكرة الوحدة العربية من التيارات الطبيعية التي تنبع من أغوار الطبيعة الاجتماعية لا من الآراء الاصطناعية التي يستطيع أن يبتدعها الأفراد أو تستطيع أن تخلقها الدول . .
.
إنها ظلت كامنة - شأن الكثير من القوى الطبيعية والاجتماعية - منذ عدة قرون لأسباب وعوامل تاريخية كثيرة لا مجال لشرحها هنا؛ غير أن كل شيء يدل على أن دور كمونها قد انتهى، وأن تيارها أخذ يظهر للعيان وصار يتدفق شيئاً فشيئاً. ولاشك في أن تيار هذه الفكرة سيزداد تدفقاً من جميع النفوس العربية بسرعة متزايدة تزايداً هائلاً. وسوف لا يلبث أن يغمر جميع البلاد العربية ويعيدها إلى مجدها السالف ونضرتها الأولى، بل إلى ما هو
أخصب وأقوى وأسمى منها
هذا يجب أن يكون إيمان كل مستنير من الناطقين بالضاد.
(برمانا)
أبو خلدون
جناية احمد أمين على الأدب العربي
للدكتور زكي مبارك
- 18 -
ترفق الأستاذ احمد أمين بالأدب العربي فقال: إنه يرى من الإنصاف أن يستثني أديبين أثنين (كان أدبهما أدباً تحليلياً واضحاً) وهما ابن الرومي وابن خلدون
وكذلك انتهت دنيا الأدب العربي، الأدب الذي لم ينجب غير شاعر واحد وكاتب واحد في أمد طويل دام نحو خمسة عشر قرناً، وتعاونت في تكوينه أمم أسيوية وأفريقية وأوربية، واستطاع أن يؤثر في الآداب اللاتينية والعبرية والفارسية والتركية والهندية، وصار له في أكثر الجامعات الأوربية كرسي خاص
احمد أمين يستثني ابن الرومي من بين الشعراء، ويستثني ابن خلدون من بين الكتاب لسبب آخر غير الإنصاف، فقد سمع أن العقاد وضع كتاباً عن ابن الرومي، وسمع أن طه حسين وضع كتاباً عن ابن خلدون، ومن الواجب عليه أن يعجب بالشاعر الذي أعجب به العقاد، والكاتب الذي أعجب به طه حسين
وكيف أقفر الأدب العربي في تلك الآماد الطوال فلم ينبغ فيه غير أديبين أولهما شاعر، وثانيهما كاتب؟
إن احمد أمين لو حكم بأن مدينة واحدة مثل القاهرة أو دمشق أو بغداد لم تنجب في جيل واحد غير أديبين أثنين لكان من المسرفين، فكيف وهو يكيل الأحكام الأدبية بأوسع المكاييل فيحكم بأن الأدب العربي في جميع عصوره، وفيما انتظم من أمم شرقية وغربية لم ينجب غير أديبين أثنين؟
قد يقول أنه يقصد الأدب الذي يقوم على التحليل والاستقصاء إن قال ذلك فنحن ندعوه إلى دراسة الأدب العربي من جديد. فالطريقة التحليلية عرفها شعراء العرب منذ أقدم العهود وعليه أن يرجع إلى معلقة طرفة، ومعلقة لبيد، وعينية أبي سويد وتائية كُثيّر، ولامية الكميت، وتائية دعبل، ودالية مسلم
الواقع أن الشعر العربي تغلب عليه النزعة التحليلية في أكثر ما تعرض له من مقاصد وأغراض، وانظروا كيف يحلل سعيد ابن حميد فكرة النهي عن العتاب:
أقلل عتابك فالبقاء قليلُ ... والدهر يعدِل تارة ويميلُ
لم أبك من زمنٍ ذممتُ صروفهُ ... إلا بكيتُ عليه حين يزولُ
ولكلِّ نائبةٍ ألمَّتْ مدةٌ ... ولكل حال أقبلت تحويلُ

والمنتمون إلى الأخاء جماعةٌ ... إن حُصِّلوا أفناهم التحصيل
فلئن سبقتُ لتبكينَّ بحسرة ... وليكثرنَّ عليَّ منك عويل
ولتُفجعنّ بمخلص لك وامق ... حبل الوفاء بحبله موصول
ولئن - سبقتَ ولا سبقتَ - ليمضينْ ... من لا يشاكله لديّ خليل
وليذهبنّ بهاءُ كل مروءة ... وليفقدنّ جمالها المأهول
وأراك تكلَف بالعتاب وودُّنا ... باقٍ عليه من الوفاء دليل
ولعل أيام الحياة قصيرةٌ ... فعلام يكثر عتبنا ويطول

فالشاعر في هذه القصيدة يحلل ويعلل ويتناول موضوعه تناول من يدرك ما فيه من كليات وجزئيات، ومازال ينتقل من العموم إلى الخصوص حتى وصل في تصوير معناه إلى ما يريد

ولننظر كيف يقول الشريف الرضي في استبقاء الصديق:

وكم صاحبٍ كالرمح زاغت كعوبه ... أبى بعد طول الفخر أن يتقوما
تقبلتُ منه ظاهراً متبلِّجاً ... وأدمج دوني باطناً متجهِّماً
فأبدى كروض الحَزن رقَّت فروعه ... وأضمر كالليل الحذاريّ مظلما
ولو أنني كشَّفته عن ضميره ... أقمت علي ما بيننا اليوم مأتما
فلا باسطاً بالسوء إن نالني يداً ... ولا فاغراً بالذم إن رابني فما
كعضو رمت فيه الليالي بقادح ... ومن حمل العضو الأليم تألما
إذا أمر الطب اللبيب بقطعه ... أقول عسى ضنّاً به ولعلما
صبرتُ على إيلامه خوف نقصه ... ومن لام من لا يرعوي كان ألوما
هي الكفّ مضَّ تركُها بعد دائها ... وإن قُطِعت شانت ذراعاً ومعصما
أراك على قلبي وإن كنت عاصياً ... أعزّ من القلب المطيع وأكرما
حملتك حمل العين لجّ بها القذى ... فلا تنجلي يوماً ولا تبلغ العمى
دع المرَء مطوياً على ما ذممته ... ولا تنشر الداء العضال فتندما
إذا العضو لم يؤْلمك إلا قطَعته ... على مضض لم تبق لحماً ولا دما
ومن لم يوطّن للصغير من الأذى ... تعرض أن يلقى أجلّ وأعظما

فما رأيكم في هذا القصيد الجميل؟

ألا ترون الشاعر ينقل الفكرة من وضع إلى وضع، ويصنع بها ما يصنع المصور الذي يراعي دقائق المعاني. . . وهو يضع اللوحة الفنية؟ . . .

إن الشاعر في هذه القصيدة أمامه غرض واضح الرسوم، فهو يحلل ويعلل ليصل إلى أبعد ما يريد من الاستقصاء!

أليس هذا هو التحليل الذي يقصد إليه احمد أمين؟

وما رأيكم في قول الطغرائي وهو يحاور الحمامة الباكية:

أيكيةٌ صدحتْ شجواً على فنَن ... فأشعلت ما خبا من نار أجفاني
ناحتْ وما فقدت إلفاً ولا فُجعت ... فذكّرتنيَ أوطاري وأوطاني
طليقةٌ من إسار الهمّ ناعمةٌ ... أضحت تجدد وجد الموثَق العاني
تشبهت بيَ في وجدي وفي طربي ... هيهات ما نحن في الحالين سيّان
ما في حشاها ولا في جفنها أثرٌ ... من نار قلبي ولا من ماء أجفانِي
يا ربة البانة الغنّاء تحضنها ... خضراءُ تلتف أغصاناً بأغصان
إن كان نوحك إسعاداً لمغترب ... ناءٍ عن الأهل ممنُوٍّ بهجران
فقارضِيني إذا ما اعتادني طربٌ ... وجداً بوجد وسلواناً بسلوان
أو لا فقصرَك حتى أستعين بمن ... يعنيه شأني ويأسو كلْم أحزاني
ما أنت مني ولا يَعنيك ما أخذتْ ... مني الهموم ولا تدرين ما شاني
كِلي إلى الغيم إسعادي فإن لهُ ... دمعاً كدمعي وإرناناً كإرناني

فهل ترون هذه القصيدة من (الأدب التركيبي)، وهو لفظ ثقيل اخترعه أحمد أمين؟ أم ترونها قصيدة تقوم على تحليل المعاني ليخلق منها الشاعر صورة شعرية؟

وانظروا قول ديك الجن وقد قتل معشوقته بيديه:

يا طلعةً طلع الحِمام عليها ... فجَنى لها ثمر الردى بيديها
حكَّمت سيفي في مجال خناقها ... ومدامعي تجري على خديها
روّيتُ من دمها الثرى ولطالما ... روّى الهوى شفتيَّ من شفتيها

فَوحقِّ نعليْها وما وطئ الثرى ... شيءٌ أعزُّ عليّ من نعليها
ما كان قتليها لأني لم أكن ... أبكي إذا سقط الذباب عليها
لكن بخلتُ على الوجود بحسنها ... وأنِفتُ من نظر العيون إليها
. . .فقد شرح الشاعر فكرته أتم الشرح، وصورها أكمل التصوير
وهل وصلت إلى احمد أمين أخبار تلك الوصية الرائعة التي بعث بها العباس بن الأحنف إلى حجاج البيت الحرام، وقد توقع أن يمروا بدار هواه
انظروا إلى ذلك العليل، وقد تمرد الداء، وتعذر الشفاء، وكلما عصر الماء في فيه مجه، كما يصنع الطفل الوليد. . . وقد ذهبت العلة بجمال نظراته، وبريق بسماته، وإن نودي لم يجب بغير الأنين. . . انظروا إليه! وقد تمنى جرعة مزجت بريق حبيبته يحملها الحجاج في زجاجة، ولو أمكن أن تنقل النظرة لرجاهم أن يحملوا إليه نظرة، ولو خلق (الحاكي) في ذلك الحين لرجاهم أن ينقلوا إليه نغمة من نغماتها العذاب، ولو مهر المصورون حينذاك لكلفهم أن يصوروا مشيتها في الضحى والأصيل. . . انظروا إليه وهو يرجوهم أن يتعللوا عند أهله، فيذكروا أن تلك الجرعة العذبة إنما هي من ماء زمزم. . . انظروا إليه وقد أوصاهم أن يرشوا ريق من يهوى على وجهه، فإن صادفوه ميتاً فليرشوه على قبره. . .
انظروا كيف يقول:
أزوَّار بيت الله مُرُّوا بيثرب ... لحاجة مبتول الفؤاد كئيب
وقولوا لهم يا أهل يثرب أسعدوا ... على جَلَبٍ للحادثات جليب
فإنا تركنا بالعراق أخاً هوىً ... تنشّب رهناً في حبال شعوب
به سقَمٌ أعيا المداوين علمه ... سوى ظنهم من مخطئ ومصيب
إذا ما عصرنا الماء في فيه مجهُ ... وإن نحن نادينا فغير مجيب
خذوا لي منها جرعة في زجاجة ... ألا إنها لو تعلمون طبيبي
وسيروا فإن أدركتُم بي حُشاشةً ... لها في نواحي الصدر وَجْس دبيب
فرشوا على وجهي أفق من بليتي ... يثيبكُم ذو العرش خير مثيب
فإن قال أهلي ما الذي جئتم به ... وقد يحسن التعليل كل أريب
فقولوا لهم جئناه من ماء زمزم ... لنشفيه من دائه بذَنوب
وإن أنتُم جئتم وقد حيل بينكم ... وبيني بيوم للمنون عصيب
وصرت من الدنيا إلى قعر حفرة ... حليف صفيح مطبق وكثيب
فرشوا على قبري من الماء واندبوا ... قتيل كَعابٍ لا قتيل حروب
فهذا الشاعر قد قص قصة بلواه بأسلوب تحليلي رائع لا أدري كيف ينكره احمد أمين
وما رأيكم فيما قال كثير في السخرية من عهود النساء:
ألا إنما ليلى عصى خيزرانة ... إذا غمزوها بالأكفّ تلين
تمتع بها ما ساعفتك ولا يكن ... عليك شجاً في الحلق حين تبين
وإن هي أعطتك الليان فإنها ... لآخر من خلاتها ستلين
وإن حلفت لا ينقض النأي عهدها ... فليس لمخضوب البنان يمين
وما حاجتنا إلى تحليل هذا المعنى وقد وفاه في بيت واحد من يقول:
فلا تحسبن هنداً لها الغدر وحدها ... سجية نفْس، كل غانية هندُ
إن احمد أمين ينتظر شعراء يحللون، فهل أتاه حديث أبي العتاهية في الزهديات، وحديث أبي نؤاس في الخمريات، وحديث الشريف الرضي في الحجازيات، وحديث الكميت في الهاشميات، وحديث الأبيوردي في النجديات، وحديث البحتري في طيف الخيال، وحديث العباس بن الأحنف في الكتمان؟
وهل عنده علم بوصف الربيع في شعر أبي تمام؟ وهل سمع بأشعار ابن زيدون في الحنين؟ وقل قرأ قصائد ابن خفاجة وا بن حمديس؟ وهل فتح الله عليه فنظر بكاء الرندي يوم سقوط الأندلس؟ وهل قرأ فائية ابن الفارض؟ وهل اهتدى إلى حائية ابن النحاس الذي يقول:
كم أداوي القلب! قلتْ حيلتي ... كلما داويت جرحاً سال جرح
وهل عرف مصير أشعار بديع الزمان الذي يقول:
رأيت الناس خدَّاعاً ... إلى جانب خدَّاعِ
يعيثون مع الذئب ... ويبكون مع الراعي

وهل قرأ قصيدة أبي تمام يوم فتح عمورية؟ وهل عرف روميات أبي فراس؟ وهل شهد موكب المعاني في مقصورة ابن دريد؟ وهل درس رائية أبي صخر وعينية أبي ذؤيب؟

احب أن أعرف أين مكانك بين أدباء اللغة العربية، يا صديقي؟

أحب أن أعرف أتجدّ في دعواك أم تكون من الهازلين؟

اقسم بالله وبالشرف أني لفي عجب من غفلة الأستاذ احمد أمين عن ذخائر الأدب العربي، مع أنه أستاذ مسئول يتصدر لتدريس الأدب في أكبر معهد من معاهدنا الأدبية ويزيد في الأسف أنه لم يكن كذلك فيما كنا نعرف من شمائله الذاتية، فقد استطاع أن يظفر بثقة ناس من كبار الأدباء منهم لطفي السيد وهيكل وطه حسين والمازني والعقاد والزيات والبشري، وسمعنا ثناء عليه في بيئات تزن أقدار الرجال، فمن أين وصل إليه مرض الحذلقة الذي كاد يضيفه إلى أدعياء الأدب والبيان؟

أتريدون الحق؟

الحق أن احمد أمين لم يوفق إلى الإجادة إلا في الموضوعات التي سار فيها على سنن مسلوك مهده العلماء من قبل

فكتاب (الأخلاق) له مصدر معروف، فهو في جملته وتفصيله وأصوله وفروعه تلخيص لأي كتاب أوربي في الأخلاق، ولو شئت لسقت الأدلة والبراهين

وفجر الإسلام وضحى الإسلام لهما أصول من أبحاث المستشرقين عن المدنية الإسلامية، وفيهما توجيهات للدكتور طه حسين سأكشف أسرارها حين أشاء، وفيهما سرقات في شئون اجتماعية ونحوية، ولو شئت لقلت إنه نهب بعض آراء الأستاذ فلان، وهو يعرف من أعني، وسيعرف كيف نجازيه بعد حين

بقي أحمد أمين (الأديب) الذي ينقل عن العقل والروح فهل قرأتم له مقالة واحدة تشهد بأن له مواهب فيها أصالة وعمق.

وكيف يصح ذلك، وهو يرى أن الأدب العربي لم ينبغ فيه غير شاعر واحد؟

ومن هو الشاعر؟

هو ابن الرومي، وإنما نص عليه بالذات، ليصح له اتهام الأرومة العربية بالفقر والإجداب، فقد كان المازني كتب منذ أعوام أبحاثاً عن ابن الرومي، وقرر في تلك الأبحاث أن ابن

الرومي ورث طريقة التحليل عن أجداده الأبعدين من اليونان

ولست بصدد الرد على المازني، الأديب العظيم، حتى ابحث من أين أخذ هذا الرأي، وإنما يحق لي أن أسأل: هل كان ابن الرومي أول شاعر عربي له أسلاف من اليونان؟ ومن هو الجد اليوناني لطرفة بن العبد، وقد وصف ناقته في المعلقة وصفاً هو النهاية في التحليل والاستقصاء؟

ومن هو الجد اليوناني لعمر بن أبي ربيعة وأشعاره تقوم على أساس من الحوار والتحليل والتمثيل؟

ومن هو الجد اليوناني للشاعر لبيد وفي معلقته تحليل دقيق؟

ومن هو الجد اليوناني للشريف الرضي وفي حجازياته أوصاف وتحليلات لم يهتد إلى مثلها سدنة الهياكل اليونانية؟

وما رأي الأستاذ أحمد أمين في أبي العلاء صاحب اللزوميات وصاحب رسالة الغفران؟

ألا يرى أن أبا العلاء كان من الشعراء الذين يجيدون تحليل المعاني؟

إن أبا العلاء قضى الشطر المثمر من عمره، وهو يحاور نفسه ودنياه، وقد وصل في التحليل والاستقصاء إلى أبعد الحدود، برغم المآخذ النفسية التي قيدناها عليه في كتاب (وحي بغداد) فهو عندنا لا يقل عظمة في تحليلاته ومحاوراته عن أكبر شاعر يبرع في الحوار والتحليل.

أفلا يتفضل الأستاذ أحمد أمين بالاعتراف بمكانة أبي العلاء بين أقطاب الشعراء والمفكرين، فيضيفه إلى ابن الرومي وابن خلدون؟!

يظهر أن الأستاذ أحمد أمين نسى أن أبا العلاء شغل الأستاذ العقاد والدكتور طه حسين، فنشر الأول كتاباً عن أبي العلاء ونشر الثاني كتابين!

يظهر أنه نسي ذلك، وما أنساه إلا الشيطان، ولولا ذلك لاعترف بمكانة أبي العلاء رعاية للعقاد وطه حسين، إن عزت عليه رعاية الحق!

وأرجع فأقول: إن من التجني على شعراء العرب أن نقول بحرمانهم من النزعة التحليلية، فهم في أغلب الأحوال يهتمون بتصوير المعاني، ويشعرون السامع والقارئ بأنهم يحاورون العواطف والقلوب والعقول، وإليكم قول تميم بن جميل وهو يرعد من خوف الموت

بحضرة المعتصم:

أرى الموت بين السيف والنطع كامناً ... يلاحظني من حيثما أتلفتُ
وأكبر ظني أنك اليوم قاتلي ... وأي امرئ مما قضى الله يفلت
وأيُّ أمريء يدلي بعذر وحجة ... وسيف المنايا بين عينيه مصلت
يعز على الأوس بن تغلب موقف ... يُسلُّ عليّ السيف فيه وأسكت
وما حَزِني أني أموت، وإنني ... لأعلم أن الموت شيءٌ مؤقت
ولكن خلفي صِبيةً قد تركتهم ... وأكبادهم من حسرة تتفتت
كأني أراهم حين أنعى إليهم ... وقد خمّشوا تلك الوجوه وصوتوا
فإن عشت عاشوا خافضين بنعمة ... أذود الردى عنهم، وإن متُّ مُوِّتوا
فكم قائل لا أبعد الله داره ... وآخر جذلان يُسرُّ ويشمت

أليس هذا الشعر قائماً على الحوار والتحليل؟؟

وما رأيكم في قول ابن الزيات، وقد ماتت زوجته وتركت له طفلاً يؤرقه بكاؤه في هجعات الليل:

أَلاَ من رأى الطفل المفارق أمه ... بُعَيْد الكرى عيناه تبتدرانِ
رأى كل أمّ وابنها غير أمه ... يبيتان تحت الليل ينتجيان
وبات وحيداً في الفراش تحثهُ ... بلابل قلب دائم الخفقان
ألا إنَ سجْلاً واحداً قد أرَقتهُ ... من الدمع أو سجلين قد شفياني
فلا تَلْحيانِي إن بكيتُ فإنما ... أداوي بهذا الدمع ما تريان
وإن مكاناً في الثرى خُطَّ لحدهُ ... لمن كان في قلبي بكل مكان
أحقُّ مكان بالزيارة والهوى ... فهل أنتما إن عُجْتُ منتظران
فهبني عزمتُ الصبر منها لأنني ... جليدٌ فمن بالصبر لابن ثمان
ضعيف القُوَى لا يعرف الأجر حسبةً ... ولا يأتسي بالناس في الحدثان
ألاَ من أمنِّيه المنى وأعدّهُ ... لعثرة أيامي وصرف زمانِي
ألاَ من إذا ما جئت أكرم مجلسي ... وإن غبتُ عنه حاطني ورعاني
فلم أر كالأقدار كيف يصبنني ... ولا مثل هذا الدهر كيف رماني

فهذه قطعة تحليلية رائعة، وقد يلاحظ بعض القراء أن الصورة الشعرية في هذه القصيدة متنافرة الأجزاء، ولكن لا بأس فهذه القصيدة قد ضاعت أصولها مع الأسف، ولم يبقى منها غير هذه الأبيات وهي مما تخيره ابن رشيق. وقد تعبت في البحث عن أصل هذه القصيدة واستعنت بالأستاذ الشيخ محمد الخضري بك مهذب الأغاني فلم أصل إلى ما أريد، ولكن هذه البقية الباقية من تلك القصيدة تشهد بقدرة ابن الزيات على تحليل المعاني والأغراض

أما بعد فأنتم تعرفون أن توضيح الواضحات من المشكلات؛ فالعرب في أكثر أشعارهم قد تفوقوا في عرض المعاني والمناظر والمشاهد، ولهم في تصوير الطبائع والشمائل قدرة لا ينكرها إلا جاهل أو مكابر أو حقود

وليس من الحتم أن يسلكوا جميعاً مسالك ابن الرومي أو أبي العلاء، فلكل شاعر مذهب في الأوصاف والتعابير، واختلافهم في مذاهبهم ومناحيهم ومراميهم هو الشاهد على ما يملكون من الأصالة والذاتية

وما كان ابن الرومي أكبر شاعر عرفه العرب، كما توهم احمد أمين، وقد صارحت الأستاذ العقاد بأني أرى الشريف الرضي أشعر من ابن الرومي فلم ينكر ذلك، واكتفي بأن يقول إن مزية ابن الرومي عنده هي التفوق في وصف

وهذا حق، فمزية ابن الرومي هي الحرص على درس أهواء الناس، وهي مزية شاركه فيها أبو العلاء

وإذا كان ابن الرومي قد أفلح في تصوير نحائز الخلق فهو مع ذلك لم يصل في شعره إلى الرنة الموسيقية التي كان يتفرد بها البحتري، ولم يصل في الصنعة إلى منزلة أبي تمام أو مسلم بن الوليد، ولم يحس الأنس بالحياة على نحو ما أحس ابن خفاجة أو ابن

زيدون أو أبو نؤاس
ومن هنا نفهم أن للشعراء رسالات مختلفات، فعمر بن أبي ربيعه في بابه أشعر من ابن الرومي في بابه، وابن الرومي في بابه أشعر من ابن أبي ربيعه في بابه. والناقد الضيق الذهن هو الذي يضع للشعر غاية واحدة يحاكم غليها الشعراء
ومحاسن الأدب العربي ترجع إلى هذا التنوع الطريف، فليس عندنا شاعر يغني عن شاعر، وإنما هم اخوة مختلفون في المذاهب والأغراض، ومن اختلاف الألوان التي قدموها
تتم الصورة الكاملة للعبقرية العربية
ثم ماذا؟ ثم يقول أحمد أمين: إن الأدب العربي ليس فيه إلا كاتب واحد يجيد التحليل هو ابن خلدون
وسنرى في المقال المقبل خطأ ما ادعاه هذا الزميل مع الدعاء له ولنا بالهداية والتوفيق، وإنا أو إياه لعلى هدى أو في ضلال مبين، والله المستعان على حيرة الفكر في أهل هذا الزمان
(للحديث شجون)
زكي مبارك
التعليم والإنتاج
للأستاذ عبد الحميد فهمي مطر
ها قد انتهت العطلة الصيفية بخمولها أو آذنت بالانتهاء. ودب في المعاهد التعليمية نشاطها وعادت إليها حركتها السنوية العادية، حركة القبول والرفض وتوفير المحال للطلاب. وهي حركة تشمل عدداً كبيراً من أبناء هذه البلاد وتشغل بال أولياء الأمور كما هو الحال في مثل هذه الأيام من كل عام. وهي حركة إن نمت عن شيء فهي تنم عن إقبال شباب الأمة فتيانها وفتياتها على معاهدنا سعياً وراء العلم والتعلم. وهي لا شك بشير الخير والبركة لو سار التعليم عندنا سيرته عند غيرنا، ولو اتجهت معاهدنا في توجيه أبنائها الاتجاه الصحيح الذي يدفع بالشباب إلى السبيل المستقيم سبيل الإنتاج، لأن حياة الأمم وعزها وقوتها في الإنتاج، والفرد غير المنتج، تكون حياته عديمة القيمة.
فإلى أي حد يا ترى أصبح تعليمنا منتجاً؟ وإلى أي مدى يا ترى تعد مدارسنا أبناءها ليكونوا مواطنين منتجين؟ وكم في المائة منهم يلجون أبواب الإنتاج الفعلي بعد تخرجهم في معاهدهم؟ وهل تستطيع معاهد التعليم عندنا أن توافينا بعدد خريجيها في كل عام، وعدد من انخرطوا منهم في سلك الإنتاج والمنتجين، وعدد من أصبحوا منهم في عداد الموظفين، وعدد من بقوا عالة على أهلهم وصاروا في عداد المتعطلين؟
هذه أسئلة قد اعترضتني أثناء البحث الذي أجريته خاصاً بمؤلفي (التعليم والمتعطلون في مصر) ولم أستطع أن أجد لها حلاً وافياً لأني سألت كثيراً من المعاهد في ذلك، فلم يرد علي البعض ورد البعض الآخر رداً مقتضباً عديم القيمة، ولكن مدرسة واحدة هي مدرسة التجارة المتوسطة بالإسكندرية ردت علي رداً وافياً بإحصائية كاملة عن حالة خريجيها من سنة 1930 إلى سنة 1937 أوردتها بصفحة 250 من مؤلفي السابق الذكر. ويتبين منها أن عدد خريجي هذه المدرسة بين العامين السابقي الذكر هو 531 منهم 201 موظفون في الحكومة أي بنسبة 37. 7 في المائة ومنهم 98 موظفون في الشركات والمصارف أي بنسبة 18. 5 في المائة ومنهم 165 متعطلون لا عمل لهم أي بنسبة 31. 1 في المائة ومنهم 37 حالتهم مجهولة أي بنسبة 7. 2 في المائة ومنهم 23 يزاولون أعمالاً حرة أي بنسبة 4. 3 في المائة، وقد ارتفعت نسبة المتعطلين في العام الأخير عام 1937 ارتفاعاً
كبيراً؛ فكان عددهم 76 من 98 متخرجاً أي بنسبة 77 , 5 في المائة مما يدعو إلى الأسف الكثير. ومما يدعو إلى الأسف الأكثر أن 4. 3 في المائة فقط من المتخرجين جميعهم هم الذين ولجوا أبواب الإنتاج الحقيقي بمزاولة الأعمال الحرة
ولقد كان من السهل علينا الحصول على نتيجة حاسمة في هذا الموضوع لو أن كل معهد من معاهدنا احتفظ بسجل خاص بخريجيه يمكنه من عمل مثل الإحصائية السابقة وتقديمها لكل باحث في هذا الموضوع الهام الذي له شأن كبير في توجيه التعليم ورسم سياسته. وأعتقد أن وزارة المعارف لا بد أن تعنى به عناية جدية في عهدها الجديد المبشر بالخير. على أنه قد استجدت في مصر الآن حركة قوية غمرت معظم

معاهدها، وأخذت بلب شبانها، ووجهت الكثيرين منهم وجهة جديدة، هي الانخراط في سلك ضباط الجيش العامل والمرابط، أو في زمرة عمالة، وهي حركة تبشر بالخير، وتنبئ عن صدق الوطنية وحرارتها، وتقابل من جميع المصريين بالتقدير والإعجاب، ولكنها حركة مؤقتة أوجدتها ظروف المعاهدة وظروف الحرب الحاضرة. وليس من الممكن أن تستنفد الكلية الحربية كل خريجي مدارسنا الثانوية، ولا أن تستنفد ملحقاتها من مدارس صناع الجيش ومصانعه كل خريجي مدارسنا الصناعية. وإذا كانت الكلية الحربية قد أخذت عدداً كبيراً من هؤلاء، وإذا كانت المدارس الحربية الملحقة بها قد أخذت عدداً آخر كبيراً من أولئك، فإنها في الوقت نفسه قد رفضت منهم العدد الأكبر وردتهم عنها رداً خيب آمالهم وآمال أهليهم في توفير عمل يضمن لهم العيش في المستقبل. . . ولا شك أنها سترد عنها في السنين المقبلة جموعاً غفيرة من هؤلاء الطلاب أكثر بكثير ممن ردتهم هذا العام، لأن استيعابها للعدد الكبير منهم الآن راجع كما أسلفنا لظروف الحرب وظروف تنشئة الجيش العامل والمرابط وتكوينهما وتسليحهما، وهي ظروف طارئة لا تلبث أن تزول، وبزوالها يعود الآلاف من شباننا من خريجي المدارس والمعاهد يتراكمون، كما قال المسيو كلابارید في تقريره، كأنقاض الهدم لا يرجى منهم للإنتاج خير. ولذا أصبح لزاماً علينا أن نفكر جدياً في ربط معاهدنا بالحياة العامة حياة العمل والإنتاج ربطاً حقيقياً، كما فعلت قبلنا أمم وكما تفعل الآن الأمم الحية. على أننا نستقبل هذا العام الدراسي الجديد بخطوة طيبة خطتها وزارة المعارف نحو الإصلاح المنشود، وهي خطوة نادينا في تقاريرنا المتكررة إلى الوزارة بضرورة

تنفيذها منذ أكثر من عشر سنوات كما نادى بتنفيذها الخبيران الفنيان المستر مان والمسيو كلابارید في تقريريهما قديماً إليها

تلك هي إنشاء المناطق التعليمية الجديدة، وهي خطوة حسنة تخلصنا من أعباء المركزية الثقيلة وقيودها ولكنها في نظرنا لن يكون لها أثر فعال في إصلاح معاهد التعليم وربطها بالحياة العامة حياة الإنتاج إلا إذا تخلصنا من أمر أشد ثقلاً على المعاهد من المركزية نفسها، لأنه يقيدها بأثقل القيود، وينهك قواها في مجهودات غير منتجة ويضطرها إلى التزام طريق خاصة تبعدها كل البعد عن الاتصال الفعلي بمصادر الإنتاج في الحياة العامة: تلك هي الامتحانات وأعباؤها. وإذا كان الثقات من علماء التربية الحديثة أمثال دكرولي ومنتسوري وديوي الخ يقررون أن المعاهد يجب عليها ألا تتصل فقط بمصادر الإنتاج المحيطة بها، بل عليها فوق ذلك أن تكون هي نفسها مصادر للإنتاج على نمط مصغر أو مكبر حسب ظروفها - فكيف يمكن لمعهد من المعاهد يضع نصب عينيه إعداد تلاميذه للامتحان في مسائل خاصة امتحاناً يعد هو الحد الفاصل في مستقبل تلميذه؟ كيف يمكن لمثل هذا المعهد أن يحيد قيد أنملة عن المنهج الخاص بذلك الامتحان أو أن يفكر لحظة في غير مسائل الامتحان الذي يرفع الناجح ويقضي على الراسب، لأنه يعد الحد الفاصل بين العلم والجهل وبين الذكاء والغباء كما يقرر أنصار القديم؟ وكيف يمكن لناظر أو مدرس أن يفكر في غير الامتحان أو أن يعمل لغير الامتحان وهو المسئول عن نتيجته ومن ورائه المفتش يعمل وينقب للوم كل من يخرج عن المنهج المقرر في أمر ما مهما كان الأمر هاما ومهما كان متعلقاً بحياة الطالب ومستقبله؟!

لهذا كله لا أشك في أن الامتحانات بعد تنفيذ اللامركزية أصبحت بصورتها الحاضرة هي العقبة الكأداء التي تعوق المدارس عن القيام بواجبها الحقيقي نحو أبنائها، إذ هي علاوة على ابتلاعها لوقت المدارس والمدرسين والنظار والطلاب وحرمانها إياهم من الاتصال المباشر بالإنتاج المحلي وتعرف دقائقه وأسراره ليست مقياساً مضبوطاً للكفاية كما نمت عن ذلك التجارب والإحصاءات وكما قرر ذلك أكابر الثقات، ثم هي فوق ذلك تحرم المدارس من العناية بشخصية التلميذ كفرد مستقل له ميوله الخاصة واتجاهاته الخاصة التي يعني بها الآن أكبر عناية في جميع المدارس الحديثة في البلاد الأخرى، كما أنها تعمل

على تنمية بعض قواه العقلية وإهمال البعض الآخر مما له أهمية كبرى في حياته، وتفقده لذة العمل للعلم ذاته علاوة على ما فيها من مرتع خصيب للغش وإفساد الأخلاق وقد كتبت عن مضارها فصلاً مطولاً في مؤلفي (التعليم والمتعطلون في مصر)

من صفحة 198 إلى صفحة 213 بدأته بما يأتي: (إذا كان أظهر عيوب السلطة التعليمية المحركة للأعمال الفنية والإدارية عندنا هو المركزية فإن أظهر عيوب الأعمال المدرسية هو الامتحانات) وقد جاء فيه (وإذا كان علماء التربية في البلاد ذات التعليم الحي التي تربط تعليمها ومدارسها بالحياة العامة قد أجمعوا على أن الامتحانات ليست مقياساً حقيقياً للكفاية فإن مدارسنا لا زالت إلى اليوم تعتبر النجاح فيها هو الغاية الوحيدة التي ترمي إليها، وأصبحت الشهادة في نظر الجميع هي الدجاجة ذات البيض الذهبي التي تدر على صاحبها الذهب والفضة والخير والحياة السعيدة فهي الغاية التي ليس من ورائها غاية الخ)

وإذن؛ فقد وضح الآن أنه لا سبيل إلى جعل اللامركزية مجدية ومفيدة في سبيل إصلاح معاهد التعليم وربطها بحياة الإنتاج ربطاً يدفع بأبنائها إلى حياة العمل إلا بالتخلص من شر الامتحانات إما بإلغائها أو بتعديلها تعديلاً كبيراً يخفف من شرها ويفسح المجال للعمل بدونها. وإن مصر كلها لتضع آمالها في إصلاح حال التعليم وجعله منتجاً، في ذلكم المعلم الفذ الذي دانت لهمته الكبير ألوية الثورة المصرية قديماً كما دانت لشخصية القوية ونزاهته ألوية النهضة حديثاً، ذلكم المعلم الفذ القابض على زمام وزارة التربية والتعليم الآن الذي يجعلنا بماضيه المجيد نضع في جرأته وقوة شكيمته ومضاء عزيمته آمالنا في الإصلاح المنشود، سائلين الله تعالى أن يوفقه لخير العلم والتعليم، ولخير مصر والمصريين.

عبد الحميد فهمي مطر

في الأدب الإنجليزي الحديث

د. هـ. لورنس

للأستاذ عبد الحميد حمدي

الإباحية في الأدب - 4

ينتمي الإنسان الحديث إلى إحدى طوائف ثلاث: فهو إما رجعي يخشى جسمه ولا يعرف بوجوده بحجة أن تفكيره كله مركز في الحياة الروحية دون غيرها، وهو لذلك يحارب كل ما يمت إلى الجنس بصلة وينكر على نفسه كل رغبة جنسية مهما كان مصدرها أو موضوعها. وقلما ينجو أمثال هذا الشخص من غضب جسمه عليه في آخر الأمر ومن ضربته القاضية التي يكيلها له دون ما هوادة أو رحمة. وليس أدل على هذا من الأخبار التي كثيراً ما نسمعها عن أساتذة كبار أو قساوسة نيَّفوا على الستين مع فتيات قاصرات ممن يتعلمن في مدارسهم أو يقصدن كنائسهم. وليس أمر هؤلاء بالمحير ولا تعليل ما فعلوا بالمعجز، فهم تنكروا لأجسامهم وكبتوا رغباتها، فكانت نتيجة ذلك أن اعتل تفكيرهم واختل ميزان عقلهم، فأتوا من الأعمال مالا ينطق على العقل في شيء

وهناك رجل آخر هو على النقيض من الرجل الأول، أرخى لجسمه العنان وعاش من أجل متعة جسده لا غير. فهو يرى في جسمه وسيلة إلى اللذة فأسرف في الانغماس فيها، لا فرق عنده بينها وبين أن يتناول كأساً من الكوكتيل أو غيره مما يشتهيه الجسد ويتلذذ به

وأخيراً يأتي النوع الثالث من الرجال وهم للأسف كثيرو العدد. ويمتاز هذا الرجل بعقل قذر لا يغذيه إلا كل قذر. فهو رجل يغرم بقراءة الكتب التي تبحث في العلاقة الجنسية، ولكن رائده في ذلك ليس تفهم فلسفتها أو الإفادة مما جاء بها، وإنما رائده التفتيش عن كل بذئ خارج، لأنه يجد في قراءته لذة لا تعدلها لذة أخرى. ونجد هذا الشخص ميالاً إلى الاستماع إلى القصص التي تعالج هذا الموضوع وكذا النكات والفكاهات فكأنهم يجعلون من أساس حياتهم وعمادها موضوعاً للهزل واللعب. وهؤلاء وأمثالهم يربأ لورنس أن يكونوا من قراء كتبه

ومن غريب الأمر أن يتكلم هؤلاء الطوائف عن لورنس ككاتب إباحي مفحش في القول، لا فرق عندهم بين من قرأ منهم كتبه ومن لم يقرأ. ولا يضع لورنس كل اللوم على هؤلاء الناس، بل هو يوجه بعض لومه على القرن السابق الذي لا زالت تعاليمه مسيطرة على عقول الناس في العصر الحالي، تلك التعاليم التي أكل عليها الدهر وشرب، والتي ظهر خطأها وكان يجب أن يبطل العمل بها. وليس أدل على تأخر جيل من خضوعه

لقيود الجيل السالف واستسلامه لتعاليمه، وإن ينطبق هذا على شيء فهو ينطبق على القرن العشرين الذي ما زال يرسف في أغلال القرن التاسع عشر على الأقل من الوجهة الاجتماعية. ففي مجتمعاتنا لا زلنا نحرص على التمسك بقيود أسلافنا، وحتى في الأفلام التي نشاهدها، وفي الكتب التي نقرأها، وفي الأحاديث التي نستمع إليها، مازال لهذه التقاليد أكبر سلطان علينا! فمثلاً لا زلنا نعتقد أن الجنس والعلاقة الجنسية هي من الموضوعات المحرمة التي لا يجب الخوض في بحثها، أو الإشارة إليها إلا متسترين، أو من طرف خفي. فالوالدان إذ يتحدثان إلى فتاتهما لا يزالان يقنعانها أنها يجب أن تكون في نقاوة الزهرة وطهر الملائكة، وهم إذ يشبهونها بالزهرة فإنما يقصدون أنها يجب أن تتخذ الزهرة مثلها الأعلى! ووجه الشبه الذي بينهما هو - في اعتقادهم - خلو كل منهما من الرغبة الجنسية. وأمثال هؤلاء القوم مخطئون في تشبيههم، فلا الزهرة خالية من الرغبة الجنسية، ولا الفتاة بمستطيعة أن تكون في غنى عن هذه الرغبة! والحقيقة أن للزهرة جنساً، وأن لها رغبة جنسية، وليس من العدل في شيء أن نحرم الفتاة مما لم تحرم منه الزهرة، بعد أن شبهنا الواحدة بالأخرى.

ومع ذلك لا يفتأ الوالدان يكرران على مسمع الفتاة أمثال هذه الترهات حتى يأتي الوقت الذي تبغض فيه الجنس الآخر، وتنظر إليه نظرتها إلى عدو لدود، ولكنها بعد أن تنمو وتكبر وتصل إلى الدور الذي تبحث فيه عمن سيكون شريك حياتها، تصطدم بالفكرة الخاطئة التي غرسها في نفسها والداها، فيحدث عندها انقسام وصراع ينغص عليها عيشها ويفسد حياتها!

وليس في استطاعة أحد تعريف الإباحية أو تحديدها، بل هي في الحقيقة أمر نسبي كغيره من الأشياء النسبية، فما يعده شخص إباحياً، قد يعده شخص آخر غير ذلك، وما كان إباحياً في عصر من العصور قد لا يكون كذلك في عصر آخر وهكذا. فمثلاً كان الإنجليز في عصر كرمويل يعدون رواية (هاملت) إباحية لا يستسيغها ذوقهم ولا تتفق وتعاليمهم

الأخلاقية. . . وهانحن أولاء في العصر الحالي نعدها من بين أهم روايات شكسبير وأقواها، بل ومن أهم روائع الأدب العالمي. وعلى العكس من ذلك، يعد بعض الناس في عصرنا هذا روايات أريستوفانيس إباحية تخدش قوانيننا الخلقية وتنتهكها، ولكن هذا لم يمنع الإغريق من أن ينظروا إلى أريستوفانيس نظرة التجلة والاحترام ويضعونه في مصاف كتاب الدرجة الأولى

وإذا سألنا أنفسنا عن السر في اختلاف حكم شخص عن حكم شخص آخر أو حكم جيل عن حكم جيل آخر لما أعيانا السؤال أو استعصى علينا الجواب. وتفسير ذلك أنه ما من كلمة إلا ولها معنيان: المعنى الإجماعي، أو المعنى الشعبي وهو ما اتفق الناس عليه؛ والمعنى الخاص، أو المعنى الفردي وهو المعنى الذي يفهمه كل قارئ على حدة حسب تفكيره وخياله وتجاريبه. وليس في مقدور كل شخص أن يكوَّن هذا المعنى الفردي لأنه يتطلب من صاحبه أن يكون تفكيره من النوع العميق، وأن يكون خياله خصباً، وأن تكون تجاربه واسعة. وإن كتب لورنس لهي من النوع الذي يجب أن يعتمد القارئ فيها على المعنى الفردي، وإلا فهي أعمق من أن يسبر غورها أو يتفهم فلسفتها أو يحيط علماً بما بها. وإن أمثال هذا القارئ قليلون، ولهذا السبب كان عدد من يفهمون لورنس على حقيقته قليلاً؛ ولكن الغالبية من القراء يستسهلون قراءة لورنس عن طريق المعنى الشعبي الذي هو ابعد ما يكون عما قصده الكاتب. وهم لهذا السبب ينعتونه بأنه كاتب إباحي أو مفحش في القول. ولو أن أحدهم كلف نفسه مشقة سؤال عقله (هل ما أقرأ يصطدم وتعاليم عقلي الخلقية الصحيحة) لكان الجواب بالنفي. ولكن قليل هم من يفعلون ذلك، بينما يلجأ الكثير منهم إلى تلك القواعد والقوانين الخلقية التي ورثها عن أسلافه جيلاً بعد جيل ويطبقها على ما يقرأ وإذ ذاك يرمي صاحب الكتاب بالفحش والخروج على القوانين الأخلاقية. والحقيقة الواقعة هي أن ما يقرأ قد يجرح العينين لأنهما لم تألفا رؤية أمثال هذه الكلمات من قبل، أما العقل فهو يعرفها تماماً وطالما فكر فيها، فهي معروفة لديه مألوفة له، فهي إذن لا تجرحه ولا تتعارض وتعاليمه الأخلاقية

ويعتبر الناس أن كل ما يثير الرغبة الجنسية إباحي، وهم ولا شك مراءون مضللون

يقصدون خداع الغير بعد أن نجحوا في خداع أنفسهم. ومن غريب الأمر أنهم مجمعون على
أن الكون لا تقوم له قائمة من غير الجنس والعلاقة الجنسية، وهم يعرفون تماماً أن
هذه العلاقة كانت وما زالت وسوف تكون أساس الحياة في هذا العالم، وأننا لا
نستغني قط عما يثير فينا الرغبة الجنسية، وإلا أنهار الكون وتقوض بناؤه. وفوق ذلك
فهم يعتبرون بعض القصائد الشعرية واللوحات الفنية والقطع الموسيقية والروايات
والقصص من روائع الفن أو الأدب، وهي كلها تعتمد على الجنس وقوامها إثارة الرغبة
الجنسية. ومع كل هذا فما زال الاعتقاد سائداً بينهم أن الكلام في هذا الموضوع هو من
المحرمات التي لا يجوز الخوض فيها. وهم يقصدون بالكلام في هذا الموضوع الكلام
الجهري فقط، إذ أنهم لا يأنفون من خوض غمار هذا الموضوع ما دام التستر رائدهم
وما داموا بعيدين عن أعين النقاد
والحقيقة التي لا شك فيها أنه ليس هناك أي ضرر من معالجة الكتب لموضوع العلاقة
الجنسية، ما دامت لا تقصد من ذلك سوى منفعة الفرد وخدمته، عن طريق تنوير ذهنه
وإرشاده إلى طريق الحياة السوي الصحيح. وأما ما يجب محاربته بشدة فهو تلك
الكتب التي تنشر سراً بين الناس انتشار الأمراض الخبيثة، والتي تدلس العلاقة
الجنسية وتسيء إليها كل الإساءة، والتي لا يبغي أصحابها من ورائها سوى منفعتهم
المادية الشخصية. وإن سبب انتشار أمثال هذه الكتب انتشاراً ذريعاً وإقبال الناس على
اقتنائها وتلهفهم على قراءتها هو ذلك الجو الغامض الذي أحاطه الناس جيلاً بعد جيل
بالعلاقة الجنسية. فحب الاستطلاع الذي لا يخلو منه فرد هو الذي يدفع الولد والشاب
والكهل إلى أن يختلي بكتاب من هذا النوع علَّه يقف منه على ما حرم من سماعه
طيلة حياته. وإن انتشار هذه الكتب لهو أشد ضرراً وأسوأ عاقبة من قراءة الكتب
الصريحة، وشتان بين الأثر الذي تتركه أمثال هذه الكتب، وبين الأثر الذي تتركه قصص
بوكاتشيو مثلاً، مع أن الناس اعتادوا وضعها في مرتبة واحدة.
ولكن الغريزة الجنسية التي لا غنى للناس عنها تتطلب من الفرد تنفيساً عن رغباتها.
فإذا ما جلب له هذا التنفيس الخزي والعار بين قوم لا يميزون بين الغث والسمين،
عمد إلى وسيلة أخرى ينفس بها عن رغباته دون أن يعرف الناس عنه شيئاً. وليس
لديه ما هو أقرب منالاً من العادة السرية يرتكبها ويسرف في ارتكابها، لأنها طريقه
الآمن الوحيد الذي
لا يتعرض فيه لنقد ناقد أو تهكم متهكم. وقد هاجم لورنس العادة السرية بكل ما فيه
من قوة لأنها في نظره سرطان المدنية الحديثة وداؤها العضال، فهي التي قتلت في
الإنسان الحديث حيويته وتركته رجلاً وما هو برجل؛ فضلاً عن أننا نلمس في مرتكبها
ثوب العار والمذلة الذي لا يخلعه عنه قط. وإنا لنلمس أثر العادة السرية في كتابات
العصر الحديث، فكما أنه في العادة السرية ليس هناك شخص وموضوع بل هما واحد،
كذلك في كتابات هذا العصر نرى أن موضوع الكتابة والكاتب هما شيء واحد، بمعنى
أن الكاتب يعمد إلى شخصيته أو نفسه فيحللها تحليلاً دقيقاً ويبني على هذا التحليل
كتابه. ومن أمثال هذه الكتب كتاب (يوليسيس) لجيمس جويس
وقد تنبه الناس في العصر الحالي إلى الضرر البليغ الذي ينجم عن إحاطة العلاقة
الجنسية بجو من الغموض والإبهام، وأدركوا عظم الهاوية التي قد يجرفهم إليها تيار
هذا الغموض، ولكنهم للأسف نجحوا في تشخيص المرض ثم عجزوا عن وصف الدواء.
ففي محاولاتهم لقتل هذا الغموض قتلوا الجنس نفسه وأعدموا الرغبة الجنسية.
فظهرت كتب عديدة تحاول أن توضح كل شيء في العلاقة الجنسية فكان من جراء
ذلك أن زالت عنها كل قدسية، ومن أمثال هذه كتب ماري ستوبس وذهب فريق ثان
إلى التغلب على هذا الغموض بأن انغمس في هذه العلاقة وأسرف فيها، وهؤلاء هم
البوهيميون الذين كان من جراء تغاليهم في هذه العلاقة أن عرفوا كل شيء عنها، غير
مدركين أن العلاقة الجنسية هي ينبوع مقدس يتفجر منه الماء بقوة إلهية، حتى إذا ما
حاول الإنسان أن يكشف السر عن هذه القوة توقف تفجر ماء الينبوع ثم جف
فغرض لورنس الذي يرمي إليه هو أن يعالج الكتَّاب هذا الموضوع في شيء من
الصراحة التي لا تحلل كل شيء بطريقة علمية حتى لا تفقد هذه العلاقة قدسيتها.
وكذلك يريد لورنس أن يعلم الناس أن هذه العلاقة شيء مقدس لا خزي فيها ولا عار؛

فهو يريد أن يرفع من شأنها ويهيب بالناس أن يقدسوها التقديس اللائق بها، وفوق ذلك يريد لورنس أن يقول الإنسان ما يعتقد دون خفاء أو مواربة
ولورنس يكتب الآن لأقلية من القراء المفكرين واسعي العقول إلا أن الوقت سوف يأتي عندما يؤمن الناس به جميعاً ويدافعون عن آرائه ومبادئه ويعملون بما يبشر به، وهم إن
فعلوا ذلك فسوف يحيون حياة جديدة كلها هناء وكلها سعادة وكلها رفاهية.
(يتبع)
عبد الحميد حمدي
خريج جامعة أكستر بإنجلترا
على هامش الحرب
ثغر لا يتبسم
للأستاذ محمود غنيم
وقف الشاعر على شاطئ البحر فراعه ظلام شارع الكورنيش كما يقضي أمر الحاكم العسكري فأنشد هذه الأبيات:
الشطُّ داجٍ والسكون مخيِّمُ ... ما بال ثغر الثغر لا يتبسَّمُ
عهدي به طلقاً بَشوشَ الوجه إذ ... وجهُ الطبيعة عابسٌ متجهم
ساد الظلام البحرَ حتى أوشكت ... في الليل تخشى أن تُطلَّ الأنجم
فكأن أرواحاً (بوارسو) أزهقت ... فأقيم في مصرٍ عليها مأتم
البحر يغمره الظلامُ. فيا له ... من عَيْلَمٍ يطغى عليه عيلم
لا نور في الآفاق إلا أن ترى ... طيارةً قد طاردتها أسهم
أو حمرة الشفق التقت بعجاجةٍ ... فكأن ماء البحر خالطه دم
أو طيفَ مصباح بدا وكأنه ... يخشى من الغارات فهو ملثَّم
نور كنور النجم خلف الغيم أو ... كهلال يوم الشك خافٍ مبهمُ
ولقد نظرت إلى المنار فما انثنى ... طرفي. وهل يَثنيه جسم معتِم؟
قد عُطِّل المصطافُ من سُمَّارِهِ ... وانفضَّ من قبل الأوان الموسم
أقوت مسارحه وأغطش ليلُه ... لا راقصٌ فيه ولا مترنِّم
قد كان يحيى الليلَ فيه معشرٌ ... فتثاءبوا عند الغروب وهوَّموا
أين الملاح على ملاعبَ سيفِهِ ... وكأنهنَّ به طيورٌ حُوَّم؟
جيش من الآرام كان مرابطاً ... ما باله من غير حرب يُهزم؟
هذي عروس البحر أم أنا حالمٌ ... ما بالها ليست كما أتوهم؟
ما ساهمتْ في الحرب إلا أنها ... بالصمت عن هول الحروب تترجم
لكأن هذا الصمت بين مسامعي ... طلقاتُ أفواهِ المدافع تهْزِم
كم كنت أغشاها فأنسى عندها ... نفسي ويسبح بي الخيال وأحلُم
دنيا يفيض بها السرورُ وعالمٌ ... مَرِحٌ وجو بالسعادة مفعَم
البحر كم أغرقتُ فيه لواعجي ... واليوم ما بالي به أتبرَّم؟
يا بنت ذي القرنين عذراً إن نبا ... بي مِقْوَلي. قلبي بغيرك مغرَم
اللهُ يعلمُ قد نزلتك كارهاً ... صدر يفيض أسى وفَكٌّ ملجَم
(الإسكندرية)
محمود غنيم
مدرس بالمعلمين
الخير والشر
للأستاذ ميخائيل نعيمة
سمعت في حلمي، ويا للعجب! ... سمعت شيطاناً يناجي ملاكْ
يقول: (أي، بل ألف أي يا أخي ... لولا جحيمي أين كانت سماك؟
أَلَيسَ أنّا توأمين استوى ... سرّ البقا فينا وسرّ الهلاك؟
(أَلَمْ نُصَغْ من جوهر واحد؟ ... إن ينسني الناس أتنسى أخاك؟
فأطرق ابن النور مسترجعاً ... في نفسه ذكرى زمان قديمْ
واغرورقت عيناه لما انحنى ... مستغفراً وعانَق ابن الجحيم
وقال: (أي، بل ألف أي يا أخي ... من نارك الحرَّى أتاني النعيم)

وحلَّق الإثنان جنباً إلى ... جنبٍ وضاعا بين وشي السديم
ميخائيل نعيمه
في الهيكل
للأستاذ إبراهيم العريض
أنا منْ يُنكرُ النعيمَ إذا لمْ ... أتمثَّلهُ في حياةِ أنفردِ
فإذا رُمتَ في الحياةِ كفافاً ... فاجعلِ المستقرَّ في بطنِ واد
كلَّ رُكنٍ من جانبيْهُ مُصلَّى ... قائمٌ فيهِ للطبيعةِ حاد
حيثُ ينصبُّ جدْولٌ في ائتلاقٍ ... كالمَرايا تحتَ الشُّعاع الهادي
سالَ للشمسِ في الوِهادِ لَعاباً ... فاطمأنَّتْ بِهِ بطونُ الوِهاد
ساجِباً ذَيْلَهُ على كلِّ خافٍ ... نافِضاً بُرْدهُ عَلى كلِّ بادِ
كلمَّا هبَّتِ الرياحُ أصِيلاً ... ماجَ كالطفلِ ناعساً في المهاد
وعلى ضِفَّتَيْهِ باسقُ كرمٍ ... لاحَ في مَعْزِلٍ عن الوُرَّاد
بَكَّرَتْ طَيْرُهُ تُردِّدُ لَحْناً ... كِقيانٍ يَعْزِفْنَ بِالأعوادِ
فإذا ماجَ كالغَدائرِ ظِلُّ الـ ... مسِ قامت على الغصون تُنادي
وإذا زالَ زَائِلُ الظِّلِّ. . غابت ... بِينَ أوْراقِ وكْرِها الميَّاد
خَلْوةٌ ما خلَتْ بها النفسُ إلاَّ ... تَتمنَّى لوْ لمْ تِعش في البلاد
عشت - يا قلبُ - في الليالي وَدوداً ... والليالي لا تحتفي بالودادِ
فأخلُ بالنفسِ إن أردْت خلاصاً ... منْ حياةٍ تموجُ بالحُسَّاد
تحتَ ظلِّ الكروم. . فوق بساطٍ ... أخضر العشب، أحمر الأوراد
وبِعُنْقودِها الجَنِيِّ إذا غُنِّ ... قَ عِشْ سالماً مِن الأحقاد
(البحرين)
إبراهيم العريض
حياتي
للأستاذ العوضي الوكيل
كأنَّ حياتي كوكبٌ أنتِ نورُه ... وزهرٌ ومرآكِ السنيُّ عبيرُه
حييتُ ليحيا فيَّ رُوحٌ من الهوى ... فَيهدِرُ في الدُّنيا ويحلو هديرُه
وتنسابُ في المِزمارِ منْ فيَّ نغمةٌ ... هي القلبُ أوقد بُثَّ فيها شُعورُه
تجوزُ شعاب الأرضِ في رَوْنق الضُّحى ... وتسرى بها والليلُ مرخىً سُتورُه
حياتيَ بُستانٌ تطاولَ صمُته ... وأقبَلتِ في نفسي فغنَّتْ طيورُه
ورقْرقَتِ الأنغامَ بيضاءَ نَضْرةً ... وفي اللحنِ ذوُ يُبسٍ وفيه نضيرُه
فكم ظاهرٍ عَبْر العيونِ تُكِنُّه ... وكم مستكِنٍّ في الضلوع تثيرُه
(السنطة)
العوضي الوكيل
تعالي. . .!
للأستاذ صالح الحامد العلوي
تعالي يا ابنة الفجرِ ... أشَعِّى النور في صدري
وبثِّي نشوة اللذا ... ت والأفراحِ في نفسي!
فإنك عنديَ الدنيا ... وكلّ جمالها المغري
وما في الكون من سحرٍ ... ومن طهرٍ ومن قدسِ!
معاذ الله! ما ضاهاً ... ك من شمسٍ ولا بدرِ
تمثل في جمالك حس ... نُ أجيالٍ من الإنسِ!
تعالي زهرة الحبِّ! ... أذيعي العطر في قلبي
وأحيي ميت الأحلا ... م والآمال في جَدْبي!
هلمي نحي باللهو ... ونغنم زاهر العمر
ونعمر غالي الأوقا ... ت باللذات والأنسِ!
ففي خدي وفي خدي ... كِ ماء للصِّبا يجري
وفي الكفين كأسٌ لل ... هوى عذرية الغرس!
وقد ينضب ذاك الما ... ء من نهرك أو نهري
وقد تنفد تلك الخم ... ر من كأسكِ أو كأسي!

هلمي! بهجة القلب! ... لندرك صفوة الحبِّ
وكلي مهجةٌ تصبو ... وكلكِ فتنةٌ تصبى!
(حضرموت: سيوون)
صالح الحامد العلوي
هذيان. . .
للأديب عبد العليم عيسى
مذهبي، لا مذهب الن ... اس شُعاعي وحياتي
وسواء سَارَ بي للنُّ ... ور أم للظلمات
أنا وَحدي في سبيلي ... مشعلي الهادي حصاتي
لا أبالي ضجة الأح ... باب حولي والعداة
تاركاً نَسل التراب يتلهى ... بالسراب وأمانيه الكذابِ
فلُيلم من شاء إني ... راسخ كالطودعات
ساخر من كل ماض ... فوق دنياي وآت
نَقَروا الأعواد للعر ... س وضجوا بالنشيد
وأنا وحدي نقرْت ال ... عودَ للنعش السعيد
لست بالباكي على الس ... ارب للقبر المبيد
لاَ . ولا بالهاتف الشَّا ... دي إلى الطفل الوليد
نحن دنيا من حبابٍ نَتَبدَّي ... للذهابِ بعدهمّ واكتئاب
فلماذا أرقص الأن ... غام للعرس الرغيد
وهو في عيْنيَ وهم ... من ضَلاَلاتِ العبيد
أتركوني. أنشد الأل ... حان سكران طروبا
أتركوني. أوقظ الأط ... يار والزهر الحبيبا
لا تضجوا حول روحي ... وكفى روحي لغوبا
فَأنا هيمان في الدن ... يا وإن كنت كئيباً
أتسلَّي عن عذابي بنشيدي ... المستطاب مثل عصفور الروابي
وسواء كنت للنا ... س عدواً أو حبيباً
فَأنا لا أعرف النا ... س وإن كنت قريباً
(دمياط)
عبد العليم عيسى
رسالة الفن
دراسات في الفن
شيء ليس في الكتب. . .
للأستاذ عزيز أحمد فهمي
وقابلتني مرة أخرى صديقتي التي قدمتها إليك في الأسبوع الماضي وكانت . . . كعادتها غاضبة، ولكنها في هذه المرة كان غضبها بالغاً نهايته من قبل أن تراني، وقد رأتني قبل أن أراها فلم أنتبه إليها إلا بعد أن وكزتني وهي تقول:
- أهكذا يكتب الناس في الصحف السيارة ما يدور بينهم وبين صديقاتهم من أحاديث، حتى إذا قرأها من يعرفونهم ويعرفونهن وقفوا على ناحية من تفكير فتاة تحب أن يعرف الناس عنها أنها مقطوعة الصلة بالرجال وأحوال الرجال ونفوس الرجال؟. . . أم أنت آليت على نفسك تخويف العرسان؟ حقاً إنك قليل الذوق!
- عفوك يا آنستي عفوك، فما أقصد إلى شيء من هذا، وإنما أدعو الله لك بالتيسير كما أسأله لك الصون. ثم أنتهزها فرصة لأسألك ما هو الذوق؟ هذا الذي تقولين إن نصيبي منه قليل. . .
- هو فضيحة جديدة تزفها بأجراسها للرسالة. سأشكوك للأستاذ الزيات!
- ليس للأستاذ الزيات شأن في هذا. فأجيبي وقولي: ما هو الذوق؟ أم أنت تقولين مالا تعرفين؟
- لا أعرف هه! فما هو الذوق يا ذواق؟. . .
- وأنا أيضاً لا أعرف
- إذن ففيم كانت هذه الأستاذية المنفوخة في سؤالك؟

- كانت في السؤال يا آنستي. . . أما تعرفين أني أستاذ في الجهل، والسؤال سألته بحثاً عن المعرفة؟ وهلا تحبين أن نتعرف الذوق معاً؟
- أتعرَّف الذوق معك أنت؟ وهل أنت تريد أن تعرف الذوق. . .؟
- بنعمة الله أردت. وإني أراك لا تعرفينه فقد وقفت عن تعريفه، فلم لا نتعرفه معاً. . . إنه
شيء ليس في الكتب!
- لولا أنك مر!
- يا توفيق الله! من هنا نبدأ. أنت تصفين إنساناً بأنه مُر، بينما الإنسان شيء لا يؤكل ولا يشرب حتى يعرف له طعم فكيف سولت لك نفسك هذا الخلط؟
- وأنا مالي! أتريد أن تحاسبني على اللغة أيضاً؟ هم الناس يقولون هذا عندما يريدون أن يصفوا إنساناً بأنه. . . بأنه مر!
- إذن فأنت مقلدة في هذا. . . وسنفرض أيضاً أن كل من يصف الإنسان بالمرارة مقلد في وصفه. . . ولنمض إلى أن نلتقي بأول من وصف إنساناً بهذا الوصف. . . ولنسأله: كيف سولت له نفسه هذا الخلط؟
- سيقول إنه تشبيه
- ونحن أيضاً نقول إنه تشبيه. . . ولكن كيف نشأ هذا التشبيه في ذهنه، وكيف قامت عنده هذه العلاقة بين الإنسان وبين المرارة وهي طعم من الطعوم لا يمكن أن يصل إلى الذهن إلا في أعصاب الجهاز الهضمي؟
- ما للجهاز الهضمي وما نحن فيه؟
- ليس للمرارة مدخل إلى الإنسان إلا من هذا الطريق. . . من الجهاز الهضمي وحده فلن نعدل في تفهم الذوق عن هذا. . وسنبدأ بتقدير حقيقتنا الأولى، وهي أن أول من وصف إنساناً بأنه مر لابد أن تكون أعصاب جهازه الهضمي قد أحست المرارة منه فعلاً. . . وعلى هذا القياس يكون أول من وصف إنساناً بأنه حلو قد أحست أعصاب جهازه الهضمي فيه بطعم السكر فعلاً. . وهكذا. .
- إذا وجدت إنساناً معك يوافقك على هذا الكلام، فإني أعاهدك أن أقوم لك مدى الحياة خادمة، وعليَّ دخانك! إن هذا الذي تقول لا يصح إلا عند نيام نيام حيث يأكل الناس بعضهم بعضاً فيتذوق بعضهم مرارة ذبيحته أو حلاوتها!
- وأنت لا يصح الذي تقولين، إلا إذا كان عقل الإنسان آلة مضطربة لا نظام لها ولا قانون، ولكن للعقل نظاماً وقانوناً، أفإذا قال هذا علماء النفس آمنت، فإذا قلته أنا تستهزئين؟
- لأنك تريد أن تخرج منه إلى نتيجة مضحكة!
- ليس ذنبي، ولا ذنب ما أقوله أنك تضحكين. اسكتي، ولنمضي. . . والله المعين.
- أنا معك. . . فماذا تريد أن تقول؟
- أريد أن أعود فأصلح ما قلت لأنه كلام سخيف
- ليتك تريد أن تعرض نفسك على طبيب حكيم. أما قلت لك إن الذي تقوله ليس شيئاً غير كلام المجانين. . .
- لا يا آنستي، إنه كلام معقول معقول، وكل ما في الأمر أنه سخيف، فلو أننا برأناه من السخف لصلح. ومن يدري فربما أصبح حقيقة علمية فيما بعد. اسمعي
- هاأنا ذي سامعة. وإني لا أسألك يا رب رد القضاء وإنما أسألك اللطف فيه
- المعروف أن الجهاز الهضمي لا يرسل إلى المخ إشاراته إلا بعد أن تؤثر فيه مؤثرات كيميائية. . . أليس كذلك؟
- إنه كذلك
- ونحن نريد الآن أن نعرف: ألا يمكن أن يرسل الجهاز الهضمي إلى المخ إشاراته هذه بغير وجود هذه المؤثرات الكيميائية؟
- يمكن هذا. . . عندما يتذكر الإنسان طعماً من الطعوم
- ليس هذا التذكر إلا استعادة داخلية تلقائية تحدث في المخ وتسترجع بها صورة لحالة فاتت. . . فهو من نوعها. . . ولكنه على أي حال يفيدنا دليلاً أو قرينة على أنه من الممكن أن يتصور الذهن أو أن يدرك طعماً من الطعوم بدون حاجة إلى المؤثر الكيميائي

- حسن. وهل تحسب أن هناك مؤثراً غير هذا المؤثر الكيميائي؟
- ولم لا؟ ألا يمكن أن يكون هناك مؤثر كهربائي مثلاً؟
- تريد أن تقول إننا عندما نرى إنساناً ممن نصفهم بالحلاوة مثلاً، يجري منه تيار كهربائي فيدخل هذا التيار إلى أفواهنا أولاً، ثم تمضغه أسناننا، وتلوكه ألسنتنا، ثم ينزلق في المريء إلى المعدة، وفي أثناء هذا ترسل أعصاب الجهاز الهضمي إشارات إلى المخ تدل على أن هذا الإنسان حلو؟!. . .
- لست أريد أن أقول هذا بالضبط، وإنما أريد أن أقول شيئاً يشبهه. على أني لا أرى ما يمنع من إقرار هذا الذي تقولين، وتعززه عندي مشاهدات فطرية ليس من الحكمة أن ننكرها أو أن نغفلها
- وما هي مشاهداتك هذه؟
- سأذكرها لك، ولكني أرجوك ألا تشمئزي منها فالحق لا يعرف الاشمئزاز ولا التقزز. . . لا تؤاخذيني. . . ألم تبصقي يوماً على إنسان رذل؟ أو في موقف رذل؟ ثم. . . ألم يسل لعابك يوماً استجابة لحلاوة. . . طفل أو طفلة. . . أو موقف حلو؟!. . . أجيبي.
- ما هذا (القرف)؟
- عدنا إلى تردد النساء ووجومهن عن الحق؟ أجيبي. . . ألم يحدث لك شيء من هذا؟ أما أنا فقد حدث لي كثيراً، كما أني أعرف أناساً كثيرين حدث لهم مثل هذا، وإني أعفيك من الإجابة عن هذا السؤال وأفرض أنك مخلوقة عجيبة لا تخضعين للقوانين التي تسري على غيرك من الأبشار. . . وأسألك لماذا يحدث للناس ما عداك طبعاً. . . هذا الذي ذكرناه؟. . هل هو تأثير كيميائي أيضاً؟
- لا أظن!
- إذن فهو غير التأثير الكيميائي، وأنا أقول إنه تأثير كهربائي. صحيح أنني لا أستطيع أن اثبت هذا إثباتاً علمياً يقوم على أساس من التجربة الدقيقة. . . ولكن. . .
- ولكن هذا الكلام لا يمكن أن تقوم له قائمة إلا إذا أثبته
- وأنا لا يعنيني كثيراً ولا قليلاً أن تقوم له قائمة، فلا أنا متعلق به ولا أنا حريص عليه. . . بل إني أحب أن أمحوه لأثبت مكانه شيئاً آخر أحبه أكثر مما أحب الكهرباء، وهو الروح
- ولماذا لا تقصد إلى ذلك رأساً ما دام هذا هو غرضك؟
- لأن الحديث عن الكهرباء في هذا الزمن أيسر قبولاً عند الناس من الحديث عن الروح، وقد يجد من يقتنع به في سهولة بل إنه قد يجد من يحاول إثباته. . . وربما وجد من يثبته
- فأنت تخادع محادثك وتتملقه
- بل إني أستدرجه. . . دعيني من هذا، وعودي بنا إلى ما كنا فيه. . .
- وفي أي شيء كنا؟
- كنا نتحدث في (كهربات) الناس
- ياله من موضوع!
- إنه لا يزال أشتات موضوع ولما يتجمع. . . والآن نريد أن نعرف. . . ألا تختلف الكهرباء في المعادن والعناصر؟
- إنها تختلف. . . فنحن إذا دلكنا الكهرمان بالصوف أو الحرير انبعثت منه الكهرباء، ولكنها لا تنبعث منه إذا دلكناه بالقطن مثلاً. . .
- حسن. إن في هذا ما يشبه ذلك السر الذي يوفق بين ناس وناس، وينفر ناساً من ناس. وقد يكون في هذا أيضاً سر الإذن الذي أباح به الإسلام للرجل أن يتزوج من أربع نساء
- إن هذه قفزة عجيبة أريد لها توضيحاً. . .
- ألا تستطيعين أنت أن تذهبي وحدك إلى هذا التوضيح؟ الرجل كالكهرمان، والنساء كالصوف والقطن، ولكنهن أربع والصوف والقطن اثنان
- ولكن النبي محمداً تزوج أكثر من أربع. . .
- إنه النبي محمد الذي كانت كل كلمة من كلماته درساً، والذي كان كل عمل من أعماله حكمة. . . وهو قد أحب خديجة حباً، وأحب عائشة حباً، وأحب زينب بنت جحش حباً، وهكذا. . .

- ألا ترى أننا ابتعدنا عما كنا فيه. . . عد بنا إلى الكهرباء
- لا أريد أن أقول شيئاً بعد هذا. . . إلا أنه قد أصبح من السهل على هذا الأساس الذي وضعناه أن ندرك السبب في اتفاق مشارب الناس وفي اختلافها. والاتفاق هو الذي يحشد بعض الجماهير وراء بعض الفنانين إذ تجد الجماهير في الفنان قائداً يقودها إلى ما تحبه وترتاح إلى الإحساس به، وينأى بها عما تكرهه وتتقزز من الإحساس به. وهذا هو ما يسمونه الذوق؟
- ولكن علماء النفس أدركوا هذا السر قبل أن تدركه أنت، وقالوا أن الناس أمزجة، وقسموا أمزجة الناس إلى أربعة: اللمفاوي، والسوداوي، والدموي، والصفراوي. وأرجعوا نشأة هذه الأمزجة إلى إفرازات تفرزها غدد خاصة في الأجسام. ولقد أعانهم علماء الطب والتشريح على مذهبهم هذا فأثبتوه لهم، وأنت تلقي كلاماً على عواهنه وتريد مني أن أصدقك وأن أعرض عن كلامهم من غير برهان تسوقه؟
- لا يا آنستي. . . أنا لم أطالبك بشيء من هذا. ولكني أذكرك بما يكون قد غاب عن ذاكرتك، وهو أن الفلاسفة الأقدمين قد قسموا أمزجة الناس إلى طبائع أربع أيضاً فقالوا إن من الناس من هو ترابي، وإن منهم الهوائي، وإن منهم المائي، وإن منهم الناري. . . وقد أندثر تقسيم الفلاسفة القدماء ولم يعد أحد يأخذ به وحل محله كلام أطبائك وعلماء نفسك!
- ولعلك تريد أن تقول إن مذهب حضرتك هذا هو الذي سيحل محل مذهب الأطباء وعلماء النفس؟
- العفو! ولكني أعود إلى السؤال الأول الذي بدأنا به هذا الحديث والذي جرنا إلى هذه النهاية المربكة. . . كيف وصف الواصف الأول إنساناً بأنه حلو أو أنه مر بينما هو لم يذق له طعماً؟
- إنه تشبيه
- بهذا أجبت في بادئ الأمر. فهل تريدين أن ندور؟ . . .

عزيز أحمد فهمي

رسالة العلم

لحظات الإلهام في تاريخ العلم

تأليف مريون فلورنس لانسنغ

الشعر المستعار والمسحوق - 5

في صباح يوم من عام 1708 حدثت متاعب في بلاط سكسونيا الملكي؛ فإن الأمير أغسطس الملقب بالقوى قد غضب

وكان أغسطس متى غضب لا يكتم غضبه بل يترك كل من يتصل بهم يحسون سوء مزاجه سواء في ذلك الخادم الذي يحمل إليه الطعام، والسائس الذي يمسك بزمام جواده. ولم يكن يعد أحداً من أهل منزله أصغر من أن يعنيه اهتمامه؛ فلا شيء أقل من إشراكه في غضبه ما دام في هذه الحالة

قال (أوتو) خادم المائدة همساً (لأولرتش) الوصيف: (متى بدأت هذه الحالة؟)، وقد ألقى عليه هذا السؤال عندما رمى أغسطس بالمائدة التي أمامه ومشى مغضباً من غرفة الطعام، وهو يصرح بأن اللحم الذي أكل منه والذي كان سروره منه بادياً لا يصلح للرمي للخنازير في الإسطبل، وقال إن كل شيء كان جميلاً عندما جاء من بولونيا في مساء الأمس

قال أولرتش: (ربما كان ذلك لأمر من أمور الدولة؛ فقد قيل إنه سيكون ملكاً على بولونيا إذا سارت الأمور بين النبلاء على ما هي عليه الآن)

فتطوع الحاجب الذي كان مصغياً إليه بقوله: (لقد ذهب في هذا الصباح إلى المصنع)

قال أولرتش: (هذا إذن هو السر. ففي هذا المكان سحر وزيارته لا تؤدي إلى خير)

فقال الحاجب مستغرباً: (ما الذي يصنعونه هناك؟ إنني أراهم ينقلون إليه زجاجات عجيبة الشكل وقناني ثقيلة، ولكن أحداً لم يسأل متى يكون إخراج هذه الأشياء. ولم يحاول أحد الدنو من الأبواب المخفورة ليرى ماذا يحدث بداخلها

قال أولرتش محتداً: (لا ترفع صوتك يا بنيَّ، وكف عن الطواف حول السلم المؤدي إلى الحصن، هذا إن كنت تحرص على مركزك هنا، والأفضل أن تبقي عيناك مغمضين، وأذنك كذلك ما دامت قوات الظلام تعمل).

فقال أوتو وهو يبتسم للحاجب المنزعج: (كلا، لا تقل ذلك، فلا وسيلة لإرسال شاب قوي الروح إلى الشيطان لمطالبته بأن يدنو منه وهو مغلق العينين خوفاً من أن يراه. إن الهر (بوتجر) ليس من أمراء الظلام، فيلقي عليك سحره يا بنيّ، ولكن عمله يتعلق به وبالدوق أغسطس، وهما لا يحبان الفضول ولا يحبان تدخل الفضوليين)

قال الصبي وقد بدا عليه الاهتياج الشديد: (ولكنهم يقولون إن الهر بوتجر ساحر، وإنه لما كان يتمرن على فن الصيدلة في برلين لم يكن أستاذه أقل من الراهب اليوناني لاسكا بريس نفسه) . . .

فقال أولرتش: (أرأيت نتائج تصرفك يا أوتو؟ لقد امتلأ رأس الصبي بالأقاصيص منذ الآن، وهو يعرف أن الفنون الملعونة فنون الكيمياء تمارس في الحصن. تكلم عنها إذا شئت، وإذا وجدت من نفسك الجرأة على الكلام. أما أنا فأني أعتقد أن الحوائط لها آذان مادام الحديث يسفر عن شر)

ومشى أولرتش غاضباً. فقال الصبي: (ولكن يا أوتو . . . يا أوتو الرقيق. . . أخبرني. . . فأنت تعلم أني حديث العهد بخدمة القصر، وأنت على حكمتك بعيد العهد بهذه الخدمة!

قال أوتو: (نعم يا بنيّ، لقد كنت هنا لما جاء بوتجر، وكان عمري إذ ذاك ستة عشر عاماً، وكان بوتجر نفسه قاصراً تحت وصاية النبيل أغسطس)!

فقال الصبي: (ولكن لماذا كان فراره ومتى جاء؟).

قال: (لقد فر من برلين، وكان بها في الواقع تلميذ كيمياء ولكنه وأستاذه لاسكاريس عثرا على أثناء الدراسة على شيء جعل حياتهما في خطر، ويقولون إنهما تمكنا من الوصول إلى حجر الفلاسفة نفسه، وإن الدوق الطامع الذي تحت حمايته أراد أن يسجنهما خشية أن يفشيا سر استكشافهما إلى سواه!

قال الحاجب وقد حملق في دهشة أمام أوتو: (حجر الفلاسفة! أهذا هو الذي يحول كل مادة تلمسه إلى ذهب؟).

فقال أوتو: (نعم هو هذا الحجر، وقد سر مولانا أغسطس من إيواء كميميائي ذكي قد يكشف عن هذا السر في يوم من الأيام

قال: (وهل عرفه؟). فقال: (لا. وأظن أن هذا هو السبب في مجيء مولانا أغسطس مغضباً من المصنع. لقد فعل أغسطس كل ما في وسعه أن يفعله، ولخوفه من ألا يستطيع غلام في عامه السادس عشر أن يصل وحده إلى هذا السر استقدم الهر والتر فون تشر ناهوس الحكيم - وهو أستاذ في الكيمياء وفي كافة العلوم - واشتغل الرجلان معاً عدة أيام ولكنهما لم يخرجا من المعمل إلا بعض أوان من الخزف الأحمر؛ فإن لم يكن هذا هو كل ما فعلاه فإنه على الأقل كل ما رأيته. وكان شكل هذه الأواني جميلاً لو أن الذي يعني المرء هو لون أطباقه. وكان السيد معجباً بهذه الأطباق حتى لقد أرسلها إلى ليبزج حيث أحدث وصولها حركة غير عادية كما علمت. ولكن الذي يبحث عن السحر الذي يمكن بواسطته تحويل كل المعادن الدنيا إلى ذهب، لكن هذا الذي يبحث عن السحر فلا يجد إلا أطباقاً حمراء والناس كلهم يعلمون أن الطعام طعام سواء أكل في أطباق من الخشب، أو أطباق من الخزف العادي، أو في تلك الأطباق الجميلة الحمراء. فله العذر إذا غضب

قال الصبي: (ولكن أين هو الهر والتر؟ إنني لم أره)

فأجابه: (لقد مات منذ شهرين ومن أجل ذلك كان من نذر السوء على الهر بوتجر ألا يقع على السر سريعاً كما يدل على ذلك ما يبدو من نظرات الشر على عيني مولانا، ولكن تعال أيها الصبي، فيجب أن نؤدي أعمالنا الآن لا أن نقف فنتحدث كأننا بعض النساء العجائز، لكنني لا أحب أن يزعجك الصديق أولرتش الذي يظن كما يظن الكثيرون في هذا القصر أن أمير الشياطين مقيم في الحصن، وأنه يأتي متى استدعاه جارنا بوتجر).

ذهب أرتو ولكن متاعب ذلك اليوم لم تنته؛ ثم فتح الباب على الأثر، ودخل أستاذ الكيمياء الهر بوتجر الذي قلما يخرج من الحصن، وكان في هذه الساعة مهتاجاً كما كان أغسطس منذ ساعة مضت!

مشى بخطوات طويلة وهو يحرك شعره المستعار الذي نُثر فوقه مسحوق، وكان قد اعتاد أن يضعه فوق رأسه المستطيل الضيق فيكسبه هيبة، ونادى بصوت مرتفع ذلك

الوصيف الذي يذر المساحيق فعرف هذا الشعر.
فقال الحاجب في إحجام: (هل لي أيها السيد أن آخذها إليه إذا كان المسحوق الذي وضعه ليس جيداً)
صاح الكيميائي: (ليس جيداً! أين هو الذي وضع هذا المسحوق؟ أين هو المسحوق؟ من أين أتى به؟ يجب أن أحصل على مقدار منه في الحال؟)
ثم خرج من الردهة وفي يده شعره المستعار وشعر رأسه مشوش. فقال الصبي وهو يشير إلى نفسه بإشارة الصليب أثناء تحدثه: لست أعرف أيهما المحق أولرتش أو أوتو؟ لقد بدا لي الهر بوتجر في هذه اللحظة كأنه مجنون، وكأن قوات الظلام تطارده.
نحن الذين أتيح لنا أن نجتاز السلم، وقسم المعمل في الحصن الذي بدأت به هذه الأعمال الغامضة نعرف أن الهر بوتجر لم يخرج كالمجنون للبحث عن الوصيف الذي ذر المسحوق على شعره المستعار لأنه فعل ذلك على صورة لم يرضها بل لأنه سر من هذا المسحوق إلى درجة غير عادية، وكان يريد جزءاً من هذا المسحوق الثمين الذي وجده، وهو لا ينتظر ذلك، فوق شعره المستعار أكثر مما أراد أي شيء آخر منذ عهد طويل
وكان أوتو مصيباً في قصته في الحدود التي تناولها ولكنه يسلم بأنه لم يدخل المعمل ولا يعلم ماذا يحدث به إلا عن طريق الإشاعة. وقد كان بوتجر وزميله والتر فون تشر فاهوس كسائر الكيميائيين في عهدهما يبحثان عن حجر الفلسفة الذي يحول كل المعادن إلى ذهب. ولكن أغسطس كان يبحث عن أكثر من هذه الخرافة، وقد اتضح فيما بعد أنها خرافة، كان الرجل عملياً كما كان رجل ثقافة. وبما أن عصره كان عصر استكشاف وسياحة، فقد كان اهتمامه شديداً بمعرفة ما تفعله الشعوب الأخرى في تجاريبها العملية وفي فنونها، وقد جمع في العهد الأول من حياته أسلحة ودروعاً من كل الممالك الأوربية، ومن البلاد المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط. وكان تحمسه في العهد الأخير لجمع المصنوعات الفضية والمجوهرات، وكان لديه من ذلك مجموعة نفيسة، وكلتا مجموعتيه أو الباقي منهما لا يزال موجوداً في هذا اليوم في متاحف سكسونيا بين أفضل المعروض من كنوزها.
وحوالي الوقت الذي لجأ فيه إليه بوتجر ملتمساً حمايته، كان اهتمامه بالغاً نهايته بالأواني الصينية التي جاء بها تجار الألمان إلى أوربا من البلاد النائية في الصين واليابان!
كان في أوربا في سنة 1700 أوان من الحجر ملمعة بأملاح وكان استعمالها شائعاً، وكذلك كان فيها أوان ملمعة بالقصدير، وكان الأغنياء خاصة يستعملون نوعاً من الأواني مغطى بطبقة من الميناء، ولكن هذه الأنواع كانت من نوع الأواني ذات القشرة التي تستعمل
اليوم، فإذا ذهبت القشرة بمضي الزمن وكثرة الاستعمال، فإن الطينة تظهر من تحتها، وهي فضلاً عن شكلها العامي ذات مسام، وإذا وقعت نقطة من الماء محتوية على شيء من الدهن في الموضع الذي تقشرت فيه الميناء، فإن هذه النقطة تتسع حول الثقب، وتترك أثراً قبيح الشكل.
وكانت مجاميع الأطباق الواردة من الصين صافية جميلة يستطيع المرء أن يضع إحداها بين عينيه وبين النور، فيتبين أنها مصنوعة من معدن واحد، وهي فضلاً عن ذلك رقيقة خفيفة. . .
وكانت هذه المجاميع كنزاً في نظر رجل مثل أغسطس مشغوف بجمع التحف، فكان يشتريها بأي ثمن ويقدرها لجمالها ولحسن صناعتها. وقد بلغ من شغفه بها أنه تخلى لملك الفرس عن طائفة من جنوده طوال القامة مدربين كسائر رجال الحرس السكسوني في مقابل مائة قطعة من هذه الأواني الشرقية كان الملك الفارسي قد جمعها.
وكان أغسطس قانعاً في البداية بجمع الأواني من الخارج؛ ولكن في الوقت الذي أنشأ فيه (بوتجر) معمله في قصره طمع الناخب السكسوني في أن يضع تحت رعايته مثل الذي يقتنيه
وتساءل، عن السبب الذي من أجله يصنع الصينيون أواني جميلة، بينا المهرة من الصناع ومن الكيميائيين الأوربيين لا يصنعون الأواني إلا من الطين ملمعة أو مغطاة

بالميناء
وعهد بعلاج هذه المشكلة إلى كيميائيه الصغير فكانت النتيجة ظهور الفخار الأحمر في أسواق ليبزيج سنة 1707؛ وكان هذا الفخار يصنع من الصلصال الذي وجده فون تشر تهاوس قرب مدينة درسدن
وكان هذا الفخار الذي يصنع في ألمانيا فخاراً جميلاً ولكنه لا يزال بعيداً عن الأواني البيضاء التي تكاد تكون شفافة والتي تصنع في الصين. وقد ملَّ بوتجر من مطالب سيدة الأمير بعد أن صنع الفخار الأحمر. وحاول الفرار من سكسونيا وإنشاء مصنع تحت رعاية سيد أقل سيطرة من أغسطس. ولكن هذا الأخير جاء به إلى القصر القديم الذي يقيم فيه وسجنه في حصنه وإن كان أوتو وأولرتش لا يعلمان ذلك. وقد فرض عليه أن يبقى سجيناً حتى يصنع مثل الأواني العجيبة التي تصنع في الصين كانت هذه هي الحالة إلى اليوم الذي نتحدث عنه، ومع أن الكيميائيين قد أطالا البحث فإنهما لم يستطيعا أن يجدا أي صلصال يمكن صنع الفخار الأبيض منه
وفي الصباح الذي ذكرناه وضع الكيميائي على رأسه شعره المستعار وهو ذاهل الذهن واستمر على عمله، ولكنه شعر بثقل وباكتئاب، وأخيراً خطر بباله أن الشعر المستعار أثقل من العادة فنزعه ليرى سبب غنائه فوجد أن المعدن الأبيض الذي ذر على الشعر المستعار معدن لم ير مثله من قبل، وقد وضع خطأ بدل المسحوق العادي
ولما عثر بوتجر على الوصيف الذي وضع هذا المسحوق سأله عن سره وأخبره الخادم المذكور أنه لم يكن سيئ القصد في إحداث هذا التغيير وأخبره أن رجلاً أسمه شنور وجد محجراً يتخرج منه هذا المسحوق بالقرب من قرية (أو) وباع له جزءاً مما استخرجه منه، وقال هذا الخادم إنه وجده أصفى بياضاً وأليق بالشعر المستعار، لأنه سيبقى مدة أطول
وفحص بوتجر هذا المسحوق كما لا بد أن يكون قد تبادر إلى ذهنك واستنتج أنه على الأرجح هو الكاولين الذي طال البحث عنه والذي كان السياح الآتون من الصين يتحدثون عنه
وعلى أثر هذا الاستكشاف ذهب بوتجر إلى ذلك المحجر واشتراه باسم أمير سكسونيا، وتمكن من صنع عجينة من صلصال كالتي يصنعها الصينيون
وفي سنة 1710 لم يكن في سوق ليبزج تلك الأطباق التي تصنع من الفخار الأحمر فقط بل وجد إلى جانبها نماذج قليلة من فخار أبيض صنعه فون فردريك بوتجر تحت رعاية أغسطس الأول أمير سكسونيا
في العام التالي صار يصنع الفخار المعروف باسم (مسين) في حصن (مسين) بالقرب من درسدن، وبدأت صناعة الفخار السكسوني، وهو النوع المشهور الذي يصنع في درسدن.
ولم يستفد بوتجر المسكين إلا قليلاً من استكشافه هذا. فإن أغسطس الذي أصبح في الوقت نفسه ملكاً على بولونيا، كان حريصاً على سر صناعة الصيني مثل حرصه على أمواله ومثل حرص الصينيين على سر صناعة أوانيهم.
وكان العمال الذين يشتغلون في هذه الصناعة يسجنون في الحصن ويحملون على أن يقسموا على الاحتفاظ بسر صناعتهم إلى أن تطوى عليهم القبور، وكان بوتجر نفسه في
حكم السجين وكان مع إشرافه على مصنعة يتابع دراسته لسر استخراج الذهب مع متابعته صنع الفخار.
وفي عام 1716 حذق صنع الفخار فأصبحت الأطباق من الوجهة الفنية في درجة الكمال التي بلغها الصينيون في هذه الصناعة ومات في سنة 1719 وهو في الرابعة والثلاثين من العمر ولا يزال إلى اليوم في معارض درسدن قطع من ذهبه الكيميائي وهو ثمرة محاولته الجدية إلى جانب مصنوعاته الخزفية، ومن المشكوك فيه أنه تبين أهمية استكشافه للنوع الأخير بالنسبة للعالم الغربي بأسره.
لقد ترقى القرن الثامن عشر بواسطة هذا الاكتشاف وقد ذلل بوتجر صعوبة الحصول على خزف صلب أبيض شبيه بالشفاف فالنوع الذي أنتجه من الصيني نموذج لكل ما بين أيدينا اليوم من الخزف
ووجدت محاجر الكاولين (صلصال الخزف) في ليموجيس في فرن، فقد حدث بطريق

المصادفة أن امرأة وجدت جذور بعض النباتات المنزرعة في حديقتها وقد علق بها مسحوق أبيض، وبدأت صناعة الصيني بعد ذلك في تلك الجهة ولا تزال موجودة بها إلى اليوم

ومنذ ظهور هذين المركزين يبدأ تاريخ التطور الذي حدث على نظام طعامنا لأن الأطباق الخشبية والأطباق المصنوعة من الصيني أو الحجر، كل تلك الأطباق الكبيرة التي كانوا يغمسون فيها أصابعهم قد زالت وحل محلها الأطباق الصغيرة التي يختص كل فرد بطبق منها

وكانت بداية ذلك كله أن كيميائياً غضب ذات صباح لأنه وجد شعره المستعار أثقل من العادة.

(يتبع)

ع. أ

من هنا ومن هناك

كيف نحارب ألمانيا

(عن مجلة (فورثنايتلي))

من الوسائل الفعالة في الحروب الحديثة إلقاء النيران الحامية على مصانع الأعداء. فبهذه الوسيلة نستطيع أن نحد من قوتهم ونضعف مقدرتهم على الاستمرار فيها. وقد حشدت ألمانيا في المصانع كل ما تبقى لديها من الرجال للعمل في صنع الذخائر، فإذا هوجمت تلك المصانع فقدت ألمانيا عدتها من الرجال. وقد أعلن مسيو بيير كوب في مجلس النواب الفرنسي في 20 من يناير سنة 1939 أن ألمانيا قد حشدت في مصانعها من الرجال ما يربو على الخمسة والستين. بينما تستعد فرنسا لوضع عشرة من العمال الأميركيين في مصانعها بازاء كل جندي فرنسي في خط القتال

إن الفوز في الحروب الحديثة قد يكون في المصانع كما يكون في ميادين القتال. فتعطيل حركة المصانع أو إيقاع الاضطراب في داخلها، وإيقاف الإمدادات التي تعول عليها الجيوش في ميدان القتال من أسلحة وأطعمة وملابس يعد من الطرق الفعالة في الحروب، وهو عند العارفين بمثابة الفوز في معركة من معارك القتال

والمؤونة التي يحتاجها الجندي والحيوان لها المرتبة الأولى في الحروب. فالأمة الجائعة لا تستطيع أن تحارب وقد يكون جيشها عرضة للانشقاق. وقد بدأت ألمانيا تضحي بالزبد من أجل البنادق، وأصبحت المواد التي يغذي بها الجيش من الزبد واللبن والدهن والخبز والدقيق مغشوشة جميعها. ومما لا شبك فيه أن ألمانيا الآن في حاجة ماسة إلى الدهن بكافة أنواعه. وقد كانت ألمانيا تعول على الولايات المتحدة في إمدادها بما تحتاجه من ذلك، إلا أن موقف أميركا بالنسبة لألمانيا اليوم سيحرمها مما كانت تستصدره من هذه المواد

فألمانيا والحالة هذه تدخل الحرب وهي في حالة اقتصادية لا تحسد عليها. ولعل أي طارئ جديد يهدد ما تختزنه من المؤونة الآن قد يعرضها لقحط شديد، وهنا يكون للطائرات الفضل الأكبر في كسب الحرب. فالغارات الجوية على المخازن والمزارع والمطاحن التي تعول عليها ألمانيا عليها كل التعويل ستجعلها في أحرج المواقف

إن اختيار مواقع الغارات خير من إلقاء مقذوفاتها بغير حساب؛ فهولا يعرضنا لعداوة الرأي

العام، أو يفقدنا شيئاً من عطف الأمم المحايدة. وليس في العالم قوة تستطيع أن تحلق في كل الأماكن دفعة واحدة، فلنوجه قوانا جميعها إلى الأماكن التي تستحق المهاجمة، ولنزودها بكل ما نستطيع من القذائف التي يمكن حملها على متن الطائرات

إحصاء المسلمين في العالم

(عن مجلة (العصبة))

كتب الأمير أمين أرسلان النبذة التالية في (الموندو) الأرجنتينية عربتها مجلة العصبة فيما يلي:

قلما يتفق المؤرخون والكتَّاب على تحديد عدد المسلمين في العالم. وهذا التباين) عائد إلى سبب جوهري وهو أن كثيراً من الأقطار المأهولة بأتباع محمد يتعذر فيها إجراء إحصاء دقيق؛ ولكن ذلك لا يمنع من تحديد عدد المسلمين بأرقام تقرب من الحقيقة

من المعلوم أن المسلمين ليسوا كلهم عرباً أقحافاً، وأنهم يختلفون جنساً ووطناً ولغةً، ففي الصين مثلاً ثلاثون مليون مسلم وهم لا يمتون إلى العرب بصلة غير صلة الدين.
بناءً على إحصاء الحكومة الإنكليزية بلغ عدد المسلمين في الهند بعد الحرب العالمية 78 مليوناً، واليوم، أي بعد عشرين سنة، يجب أن يكون قد ارتفع عددهم إلى 85 مليوناً
وحدد إحصاء رسمي عدد المسلمين في المستعمرات الهولندية بستة وخمسين مليوناً، وبمليون في جزيرة الفيليبين حيث يُدعون مغاربة. وليس يُعرف تماماً عدد المسلمين في الهند الصينية وفي كمبودج وأنَّام وسيام وغيرها.
وفي روسيا يبلغ المسلمون عشرين مليوناً وفي الأفغان عشرة ملايين.
ويبلغ عدد سكان إيران 14 مليوناً، وتركيا بناءً على الإحصاء الأخير 17 مليوناً، وسوريا ولبنان 3 ملايين، والعراق 4 ملايين ومملكة ابن السعود بين 4 و5 ملايين، وفلسطين وشرق الأردن 1. 200. 000، وعدن والممالك المحمية كحضرموت، ولحج مليوناً وجزيرة البحرين والكويت 300 ألف.
وفي يوغوسلافيا 1. 500. 000 من المسلمين، وفي ألبانيا مليون، وفي اليونان مائة ألف وقد كانوا قبل مبادلة السكان خمسمائة ألف، وفي بلغاريا 800 ألف، وفي رومانيا 200
ألف، وفي بولونيا 12 ألفاً، وفي المجر ألف. فمجموع المسلمين في أوربا نحو ثلاثة ملايين
أما عدد المسلمين في أفريقية، فيمكن تقديره بين ثمانين ومائة مليون منتشرين في كل أنحاء القارة السوداء، ففي مصر والسودان ويوغندا 27 مليوناً، وفي الحبشة والصومال 5 ملايين، وفي جزيرة زنجبار بين 5 و6 ملايين، وفي موزمبيك البرتغالية مليونان، وفي رأس الرجاء الصالح والترنسفال بين 400 و500 ألف، وفي مستعمرة كونغو البلجيكية 150 ألفاً، وفي أواسط أفريقية وشواطئها الغربية يبلغ عدد المسلمين بناء على تعديل الرسالات التبشيرية المسيحية 48 مليوناً. ومما يذكر في هذا الصدد أن تلك الرسالات من كاثوليكية وإنجيلية لم تستطع على رغم جهدها الكبير أن تدخل في المسيحية إلا 8. 500. 000 نفس في حين أن عدد الذين اعتنقوا الإسلام يتجاوز 36 مليوناً.
تعد مراكش 6 ملايين، والجزائر 6 ملايين و 500 ألف وتونس 2. 500. 000، وطرابلس وبرقة 800 ألف، فيكون إذن عدد المسلمين في هذه البلدان الثلاثة بين 16 و17 مليوناً
وفي أميركا يعيش نحو مائتي ألف مسلم وفي الأرجنتين وحدها ستون ألفاً. فيؤخذ مما تقدم أن عدد المسلمين في العالم، بناء على الإحصاءات الرسمية وعلى تعديل الجغرافيين والرُّحل والبعثات العلمية، يتراوح بين 350 و360 مليوناً، ولا 250 مليوناً كما يزعم البعض

الحب وعلم الحياة

(عن مقال للكاتب (جوليان هكسلي))

يستطيع علم الحياة أن يعرض علينا مئات من الأمثلة لتألف القردة، وشدو الطيور وتعاطفها؛ ولكن هذا جمعيه شيء آخر غير الحب. وكل ما نستطيع أن نقوله إن تلك الحيوانات الدنيا، تعطي الإنسان صورة بسيطة للمادة الأولية التي نشأ منها الحب. فالإنسان من هذه الناحية كغيرها من النواحي يمتاز عن سائر المخلوقات. وهذا الامتياز الظاهر في الإنسان يرجع إلى تركيبه الذهني بلا شك. فليس الإنسان مقيداً بغرائز معينة تلازمه على الدوام، أو قيود عنيفة تتسلط على فكره وشعوره وتتصرف في سائر أعماله. فالعواطف
على اختلافها، والإلهام والفكر والتجاريب تتكون جميعها لتخلق في الإنسان حالة فكرية أكثر تشعباً وأشد اختلافاً مما في الحيوانات الدنيا.
وليس للإنسان فضلاً عن ذلك فصول معينة ينقطع فيها إنتاجه كالحيوان ويعجز عن مواصلة الحب. والإنسان بطبعه معرض للاختلاجات النفسية على الدوام وله مقدرة على كبح هوى النفس. وأما الحيوان فله حياته الخاصة المحصورة بين غريزة وأخرى، ولن يكون عرضة للغرائز المتباينة والاحساسات المضطربة التي تشغل نفس الإنسان

وللعقل الإنساني فوائده ومزاياه في فهم التجارب وترتيبها في نفس الإنسان، إلا أن هذا قد يؤدي في بعض الأحيان إلى ارتطام العواطف واختلاف الأهواء والأغراض. فالذين لا يستطيعون أن يتغلبوا على أهوائهم يعيشون عيشة ليس فيها راحة ولا استقرار، والذين يقدرون على كبح جماح النفس وإبعادها عن العوامل المتباينة المتناقضة التي تضطرم فيها يحيون الحياة الإنسانية الصحيحة الهادئة. وللتعليم ولا شك شأنه في إخضاع تلك الأهواء للعقل والمنطق وإيقافها عند حدها. ومما لا ريب فيه أن العوامل الجنسية هي من أقوى ما يتسلط على نفس الإنسان، إلا أنها تقابل بالكبت الشديد في حياتنا الاجتماعية

لذلك كان الحب من الظواهر العجيبة عند الإنسان، فهو يجمع بين أسمى العواطف وأحط الغرائز؛ وهو يفك النفس من عقالها ويقيدها بأثقل الأغلال، وهو يجمع بين الثورة والهدوء

ولا يغيب عن البال أن للحب مراتب وأحوالا لا يدركها الحصر، وللحب ألوان متعددة بعدد المحبين، إلا أن تلك الألوان وإن اختلفت وتعددت يجمعها شيء من التشابه وتظل النفس الإنسانية ناقصة ما لم يكملها الحب. فهو أقدر العواطف على تحويل الفكر من مرتبة الطفولة إلى مرتبة النضوج؛ فهو يمد الإنسان بشتى الوسائل التي تطلق الروح من قيود الطفولة. وقد يكون الحب فوق ذلك وسيلة عند كثير من الناس لاكتشاف خبايا النفس، ومعرفة أسرارها

إذا نظرنا إلى الحب من الناحية الحيوية أمكننا أن نقرر أن الحب فن، وأن النجاح في هذا الفن يحتاج إلى تفكير وتدبير كالموسيقى والشعر والرياضة وغيرها من الفنون ولا نريد بالحب هنا ما تكون علاقته بالجسد فحسب، فنحن هنا نقصد الحب على سائر ألوانه. فإذا كان بعيداً عن حدود العقل فمن الواجب النظر إليه على ضوء العقل والتفكير.

ولا يقلل من قيمة الحب أن ينظر إليه كظاهرة من ظواهر الحياة التي يمعن فيها العقل ويحللها الفكر، كما أن التحليل العلمي لا يقلل من الجمال الذي يسم قوس السماء. فمن الواجب إذن أن ننظر إلى الحب كناحية وضاءة من نواحي النفس الإنسانية المتشعبة الجوانب المتعددة الأنحاء

البريد الأدبي

مسألة

في العدد 31 من (الثقافة) مقال بارع المنحى، عذب الأسلوب، عنوانه (مسألة) بقلم الأستاذ عبد العزيز البشري. وقد جاء في خاتمة هذا المقال - عند الكلام على أخذنا العلوم والفنون عن الفرنجة - ما حرفه: (في العلوم والفنون والمستحدثات من مختلف الأشياء، وللنبات والأزهار مئات الآلاف من الأسماء والصيغ والمصطلحات. فإذا نحن عرَّبنا هذا كله طغى أشد الطغيان على سائر اللغة. وأنت خبير بأن ما يدور في صيغ العربية على ألسنة فصحاء الخطباء وأقلام بلغاء الكتاب وما يتحدث به الخاصة. . . ويجري في مقاولاتهم ومحاوراتهم وما تنتضح به رسائلهم - كل ذلك لا يزيد على بضعة آلاف. وكيف لهذا بأن يقوم بازاء ذاك؟ بل كيف له بأن يعيش بجانبه ويحقق ما تحقق اللُّغى لها من كيان؟

هذه هي المسألة كما يقول شكسبير، فليت شعري ماذا يكون المصير، فاللهم الطف بنا فيما جرت به المقادير). أهـ

وإذا أذن لي الأستاذ البشري في أن أرى رأياً فأحاول التعليق على مقاله، قلتُ: إننا ناقلون إلى لغتنا كثيراً من مصطلحات العلوم والفنون، وهذا الطارئ الضخم إنما يحي اللغة المتداولة ويغنيها ويهذبها؛ فلا نسأل إذن: (كيف لهذا بأن يقوم بازاء ذاك؟) بل نسأل: كيف لهذا بأن يقوم بغير ذاك؟

إن اللغة التي تعجز عن سدّ حاجات التعبير وتبقى على عجزها مصيرها الموت أو السقوط عند ألسنة العامّة. فها نحن أولاء مقبلون على تلقِّي العلوم والفنون عن الفرنجة بل التأليف فيها لنعلم أو لنُنشِئ، فكيف يكون التأليف بالعربية ومصطلحات مختلفة تعوزها؟ هذه حقيقة لا تحتاج إلى دليل ولا بسط. فإما أن نستحدث في التعبير والأداء جميعاً وإما أن نعدِل عن العربية إلى لغة إفرنجية، وفي الحال الأولى تعزُ اللغة وتنشط، وفي الثانية تذلّ وتخور؛ الحياة أو الموت. وليس من الحق أن ندع اللغة

تموت، وذلك لأسباب عمرانية وسياسية وتاريخية لا أعرض لها هنا، وليس ثمة ما يسوّغ الإماتة فالعربية صالحة للتجديد قابلة بفضل أوضاعها وأسرارها ثم بفضل كنوزها التي نهملها أو نجهلها.

وإغناء اللغة يهذَّبها فضلاً عن أنه يحييها. بيان ذلك أن الصيغ والألفاظ الطارئة، سواء استخرجناها من بطون كتبنا أو وضعناها وضعاً، لابدّ لها من أن تحلَّ في الحافظة محل صيغ وألفاظ مقيمة. وفي العربية التي تدور على (ألسنة فصحاء الخطباء وأقلام بلغاء الكتاب) ما لا خير فيه بل ما يرد الأداء تفهاً أو يجعله حشواً. ومما يرد الأداء تَفِهاً تلك التعبيرات المطروقة من زمان قديم حتى إنها أضاعت قوَّتها بل لونَها، وقد بين ذلك الأستاذ أحمد أمين في كلامه على جناية الأدب الجاهلي. وبما يجعل الأداء حشواً تلك المترادفات والمتواردات التي يظن بعضهم أنها هي اللغة. ولو علموا أن متن اللغة ينهض الألفاظ المفردة والصيغ المستقلة بنفسها! ولكنه كان جيل من الناس ضاق أفق تفكيرهم فانقبضت صفحة تعبيرهم فمطَّوا أطرافها بالثرثرة والتكرار. فأن تُترك المطروقات وتُهجر المترادفات ويشغل مكانها صيغ وألفاظ لا غنى عنها، ذلك خير للغة ومَدَد للمتكلمين بها

ومن هنا يتبين أن ذلك الطارئ لا يطغى (اشد الطغيان على سائر اللغة) مهما ضخم، بل قل إنه لِقاح له من جانب المبنى والمعنى. أما المبنى فقد تقدم القول فيه. وأما المعنى فبتلك الصور التي تجليها معها الألفاظ والصيغ الداخلة على اللغة المتداولة، فُيحقَن المجاز بدم فتي فيهتزَّ. وإنك لتلمس ذلك في الشعر الحديث في أوربة ولا سيما في فرنسة وإنجلترة ثم في النثر الرفيع هنالك: فكثيراً ما يستعمل الشعراء (شعراء ما وراء الواقعية مثلاً) والكتاب في فرنسة مثلاً) صيغ العلوم والفنون، طلباً للافتنان في التصوير

هذا من جهة الأدب الصرف. بقي أن أقول إن اللغة لا تنحصر في الإنشاء الأدبي. فثمة الإنشاء العلمي، وله أن يجري إلى جانب الإنشاء الأدبي: هذا في شعب وذاك في شعب، فلا طغيان ولا عدوان. وفي تاريخ آدابنا ما يؤيد هذا؛ فقد كتب الفلاسفة والموسيقيون والحاسبون وغيرهم ما شاءوا أن يكتبوا، فهل طغى ما كتبوا على قرائح الشعراء وأنفاس الكتاب؟ وكان طالب العلم المجتهد يحصّل العلوم والفنون؛ فإذا تفلسف بعد ذلك عمد إلى أسلوب الفلاسفة، وإذا تأدَّب نحا نحو المترسِلين

تلك خطرات خطرت وأنا أقرأ مقال الأستاذ الفاضل عبد العزيز البشري، وقد سأل سؤالاً فلعله يتقبل محاولة تعليق، وله مني التحية الخالصة.

بشر فارس

المنضدة

المنضدة وتفسيرها هما في (أساس البلاغة) لأستاذ الدنيا جار الله في مادة (ف ج ج) في الجزء الثاني في الصفحة (104) في الطبعة سنة 1327 وفي الجزء الثاني من ذلك الكتاب في الصفحة (186) في الطبعة سنة 1341

وقد جاء جمع الكلمة في (المفضليات) الصفحة 142 من شرح الإمام الأنبا ري في بيت من قصيدة لمزرِّد أخي الشمَّاخ، قال:

وعهدي بكم تستنقعون مشافراً ... من المحض بالأضياف فوق المناضد

ومنضدة الأعرابي في الخباء أو الخيمة غير منضدة العربي في القصر ذي الأبهاء. وهي البداوة المسكينة، وهي الحضارة ذات التفنن والترف. والاسم فيهما واحد وإن اختلف المسمى نجَّارُه ونجْرهُ وِنجارُه.

(ق)

حثر اللسان

حضرة المفضال الجليل صاحب الرسالة:

اطلعنا على ما جاء بالرسالة في العدد رقم 327 خاصاً بالنص الذي ورد في (الإفصاح) وهو لسان حَبْر: لا يجد طعم الطعام، وقد رجعنا إلى الأصول التي لدينا، فوجدنا النص منقولاً عن (اللسان) كما وجده حضرة الأخ (أزهري) (لسان حِثرٌ: لا يجد طعم الطعام) فما جاء في الإفصاح مطبعي ندَّ عنه النظر في أثناء الطبع، ويسرنا أن نعلن شكرنا لحضرة البحاثة (ازهري) على عنايته بالتمحيص الذي أدَّى إلى الكشف عن السهو، وهدى إلى الصواب، ونسأل الله أن يوفقه هو وأمثاله الأفاضل إلى خدمة العلم وإعلاء

شأنه
صاحبا الإفصاح
حسين يوسف موسى وعبد الفتاح الصعيدي
هل على القاتل خطأ من إثم؟
جاء في مقال (القتل الخطأ) بقلم الأستاذ أحمد مختار قطب المنشورة في العدد 326 من الرسالة: (فالأصل أن الخطأ لا يعاقب الإنسان عليه (ولا جناح عليكم فيما أخطأتم به) ولكن
لما نتج عن هذا الخطأ إزهاق روح بشرية صار إثماً ووجب عقاب فاعله على رعونته (وإهماله
والذي يؤخذ على العبارة السابقة تحميل القاتل خطأ إثماً، وقد أتى الكاتب في هذا من قبل ما رتَّب على قتل الخطأ من الكفارة والدية فظن أن ذلك نتيجة أنه فعل إثماً وحراماً، والواقع أن ما يرتكبه الإنسان من خطأ وعدم قصد لا إثم عليه ولا يؤاخذ به: حكماً مطلقاً لا مثنوية فيه، أصفق عليه علماء الملة، واجتمعت عليه كلمتهم، وقد دل هذا الأصل من أصول الدين أدلة كثيرة ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: (إن الله تعالى وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه) رواه ابن ماجة في كتاب الطلاق وغيره. قال المُناوي في شأن هذا الحديث: (حديث جليل ينبغي أن يعد نصف الإسلام؛ لأن الفعل إما أن يصدر عن قصد واختيار، أولاً. الثاني ما يقع عن خطأ أو إكراه أو نسيان وهذا القسم معفوٌّ عنه اتفاقاً) فإن قال قائل: فما بل هذا القاتل ولا إثم عليه يكلَّف التكفير عن عمله ودفع الدية؟ فالجواب أن دفع الدية عن القتل من قبيل دفع قيم المتلفات أو من قبيل دفع بدل المحل أي محل الإتلاف وهو البدن وهذا لا يتوقف على الإثم. ألا ترى أن الصبيّ لو أتلف شيئاً غرم قيمته وهو لم يجرِ عليه القلم بعد. وأما الكفَّارة فللزجر وليحتاط المكلف حتى لا يقع في قتل الخطأ بتوقي ما قد يجر إليه. ويقول صاحب شرح مسلم الثبوت في ص165 ج1: (ولما كان - يريد قتل الخطأ - نوع جناية، والقتل من أعظم الكبائر لم يُهدر الخطأ فيه بل وجبت الكفارة) بقي أن في آخر الآية الكريمة الخاصة بقتل الخطأ ما يشعر ظاهره بأنه إثم إذ فيها: (توبة من الله وكان الله عليماً حكيماً) والتوبة إنما تكون عن ذنب، وقد عرض لذلك المفسرون وقالوا فيما أجابوا به إن التعبير بهذا للتنبيه أن مثل هذا الفعل يصدر عن نوع من التقصير وإن لم يبلغ بصاحبه درجة المعصية، وقد شرعت الكفارة لمحو أثر هذا التقصير والتوبة منه، وللتلميح بأن من وقع منه هذا الفعل الشنيع ينبغي له أن يستشعر الندم والأسف ويملأ نفسه إعظاماً لما فعل، والسلام عليكم ورحمة الله
محمد علي النجار
مدرس بكلية اللغة
الأدب فوق الجميع
أستاذي وصديقي الدكتور زكي مبارك
ليست صلتي بك ولا شدة حبي لأدبك ولا رغبتي في تملقك هي التي تملي عليَّ كلمتي هذه؛ وإنما هو صوت القلب والحقيقة يدفعني إلى مصارحتك بأن فصولك الرائعة (جناية أحمد أمين على الأدب العربي) قد أوجدت بالجو الأدبي حياة جديدة، وبعثت فيه روحاً قوية بعد شهور خدر ونعاس مرت بالأدب المصري خاصة والعربي عامة، خلنا أثناءها أن أدبنا العزيز قد أخذ طريقه نحو الأجداث!
ولا تظن يا (سيدي الدكتور) - أو لا يظن أحد - أنني أعبر عن معاداتي لآراء الأستاذ أحمد أمين، أو أريد الحملة عليه أو النيل من مكانته المعروفة في العلم والأدب؛ فقد تذكر أنني في آخر رسالة مني إليك - ولم يمض عليها أسبوع - صرحت لك بأنني أخالفك في كثير من آرائك، وأنني أحب الأستاذ الأمين كما أحبك، وأنني كتبت إليه أستعديه عليك واستنفره إلى محاربتك بقلمه لا بسلاحه، وأطالبه بما يجب عليه نحو الأدب والقراء من الرد على ما وجهتَه إليه من انتقادات وملاحظات؛ وما أريد بذلك إلا أن تتسع دائرة النقاش والمباحثة فيستفيد الأدب خير الفوائد، وتجني العربية أشهى الثمار
ولقد طلعت علينا أخيراً - الرسالة 327 - بطرفة من أسمارك وأحاديثك وأدهشتنا إذ أخبرتنا أنك ستقطع سلسلة فصولك النقدية المحكمة بعد ثلاث أو أربع مقالات. .!

ولِمَ تقطعها يا سيدي وما كتبتَها إلا خالصة لوجه الأدب والعربية؟ ألأنك أردت أن تخيب ظن الأستاذ أحمد أمين تحرم آلاف القراء وأهل الأدب من هذه الثمرات الناضجات التي أنتظر لها أن تصير كتاباً ضخماً يكون فتحاً جديداً في الأدب العربي الذي لم يعرف النقد الصحيح إلا في فترات معدودات لا تسمن ولا تغني؟

لا تفعل، يا سيدي، فإني أخاف أن يفسر الناس انقطاعك بتفسيرات، وأن يؤولوه بتأويلات، وأن ينفض عنك بسببه أتباع وأنصار. إن لي بالأستاذ الأمين صلة، وقد اشترك في تسديد خطاي الأدبية يوماً، وإني لأحمل له كل تقرير وإجلال، ولكني على الرغم من ذلك لم أستطع إلا توجيه العتاب الشديد إليه ولومه اللوم القاسي على قوله لك: (لن نتصافى أبداً

. . .!(بعد الذي كان

إنها لكلمة كبيرة ما كنت أنتظرها ولا ينتظرها غيري من كاتب مشهور له قدره وخطره، وخلقه ونبالته!

أين نحن إذن من أدباء أوربا وكتابها؟ أين منا تلك الصداقة المتينة التي تضم الأدباء هناك تحت لوائها، لا يزعزعها اختلاف في رأي، أو تنازع على فكرة، أو نزول إلى ميدان نقد ومباحثة؟

إني لأقول كما قال الحكيم: (أنا والله شديد الحسرة على ما وصلنا إليه، فقد كنت أحب أن تكون بين الأدباء صداقات عظيمة، كالذي يعرفه الأدباء العظماء في باريس ولندن وبرلين)

أحد أمرين: إما أن تكون مقالات الدكتور مبارك على حق وإما أن تكون على باطل. والأستاذ (الأمين) في كلتا الحالتين معاتب ملوم؛ لأنه يجب عليه الرضى بها إن كانت الأولى، ويجب أن يهب للدفاع عن نفسه وآرائه إن كانت الثانية، وهو لم يفعل من ذلك شيئاً. وليس الدكتور مبارك بالشخصية الأدبية الهزيلة، حتى نقول إن الأستاذ الأمين تغافل عنها لقلة خطرها. ومن كالدكتور في جولاته وصولاته وتاريخه الأدبي المجيد؟

أي صديقي الدكتور. . . قد انتهى لغو الصيف وجاء جد الشتاء، فلا تكسل ولاتنم، وواصل بحوثك فإنها تهدينا إلى حقائق كثيرة كنا في غفلة عنها، وتطلعنا على آفاق جديدة من الأفكار والأبحاث لم نرها من قبل. على أنني أرجو أن تتحاشى ما يسبق إليه قلمك من عبارات تنال من شخصية الأستاذ الأمين وتجرح شعوره، كيلا يكون لأحد من الناس فيك وفي نقدك كلمة غير كلمة الإعجاب والتأييد. وما أصدق الأستاذ العميد شفيق غربال إذ يقول عنك: (ولو أنه نزه قلمه عن بعض العبارات التي جرت مجرى السخرية من الأستاذ أحمد أمين لما استطاع أحد أن يوجه إليه أي ملام) يجب أن تكون عند قول الدكتور طه حسين فيك إذ يقول: (فما عرف الناس زكياً إلا مثال اللطف والأدب والذوق)

نعم لو أن فصولك خلت من هذه العبارات الساخرة لما اعتبرها القارئ نقداً لكاتب، بل يدرسها على أنها فصول أدبيه بحتة، كلها الأدب الخصب، والتفكير الخالص، والإنتاج الممتع!

،لنجعل الأدب يا دكتور فوق الأهواء وفوق الأشخاص وفوق الصداقات وفوق كل شيء لنجعله فوق الجميع!

وقد كنت عازماً أن أبثك كلمتي السابقة في إحدى رسائلنا، ولكني فضَّلت أن تأتيك عن طريق الرسالة كي يطالعها معك القراء فيشهدوا أنني أعبر عن شعورهم وأترجم عما يجول بخواطرهم. وإننا لفي شوق ملح إلى ما يسيل به قلمك الساحر من سلاف!

أما الأستاذ الأمين، فما هو بالمحتاج للنصيحة، ولا ريب أن له رأيه وخطته؛ وما أكثر ما تضمر الأيام!

أحمد جمعة الشرباصي

عند مدير الدعاية في وزارة الشؤون الاجتماعية

في الساعة السادسة من مساء الثلاثاء الماضي اجتمع عند الأستاذ توفيق الحكيم مدير الدعاية في وزارة الشؤون الاجتماعية لفيف من مندوبي الصحف العربية والإفرنجية تلبية لدعوته ليصف لهم مهمة هذه الوزارة ولم أنشئت وقد رحب بهم حضرته وأحسن استقبالهم ثم قال لهم:

كلفني الوزير معالي الشاذلي باشا أن أجتمع بكم لنتحدث معاً في شؤون وزارة هي

أقرب الوزارات إليكم وأوثقها اتصالاً بكم وبالشعب الذي أنتم عيونه ولسنه. ذلك أن وزارة الشؤون الاجتماعية هي كما يدل عليه اسمها: وزارة شؤون الشعب، الشعب الذي لا ينبغي منذ اليوم أن يسقط من الحساب، فهو القوة الحقيقية للدولة. لقد رأينا دائماً أن الجيوش قد تحطم ولكن الشعوب لا تحطم.

وهنا قد تسألونني عن السبل التي تسلكها الوزارة للنهوض بالشعب وإنشائه نشأة جديدة فأجيبكم بأن الطرق التي سنتبعها كثيرة وهي تتلخص أول الأمر في إعانة كل فرد من أفراد الشعب على رفع مستوى حياته مادياً وتحسين حاله صحياً وروحياً وخلقياً. إن الفرد خلية حية في جسم المجتمع ومفتاح صغير من مفاتيح تلك الآلة الهائلة التي تتحرك وتدور. وإن في فساد بعض الخلايا وعطب بعض المفاتيح اعتلال الجسم واختلال الآلة. وهنا كان دائماً مصدر تفشي الداء في شعبنا منذ أمد طويل لهذا توزعت أعمال وزارة شؤون الشعب على نواح شتى، فقامت فيها إدارات تعالج هذه

الخلايا من جهات متعددة. فإدارة التعاون والفلاح تعنى بالناحية الاقتصادية والمادية التي تكفل للفلاح وهو الجانب الأكبر من الشعب شيئاً من اليسر والرخاء؛ وإدارة الخدمة الاجتماعية تتجه إلى علاج الأمراض المعنوية والمادية المتفشية في الشعب بأسره مثل الطفولة المشردة ومشاكل الأسرة وضعف الأجسام لعدم انتشار الرياضة البدنية، والعمل على نشر النظافة ومبادئ الصحة في إنحاء البلاد؛ ومصلحة العمل تسعى إلى الأخذ بيد العامل ومؤازرته في مطالبه العادلة والارتقاء بمستوى معيشته، ومكافحة البطالة، وتدبير الرزق للمتعلمين المتعطلين؛ ثم إدارة الدعاية التي ينبغي أن تعد الأذهان وتمهد الأفكار وتستنهض همم القادرين على التضافر لتنفيذ كل ما تقدم ذكره من وجوه الإصلاح

ثم قال: لقد وضح معالي وزير الشؤون الاجتماعية في الكلمة التي افتتح بها قسم الإذاعة في إدارة الدعاية مهمة هذه الإدارة وأعلن وجهتها للناس، وذكر أن فيها دعاية للإصلاح الاجتماعي بأوسع معانيه، وأعيد عليكم هذا البيان في صورة أخرى فأقول: إن عمل تفتيش صحة القاهرة والأقاليم في مراقبته للمواد الغذائية الضارة بالأجسام، كان ينبغي أن يكمل منذ زمن بمراقبة أخرى وتفتيش آخر لنوع من الجراثيم أعظم ضرراً واشد فتكاً بكيان الشعب، وأعني بها الجراثيم الخلقية التي تتسرب إليه من خلال ما يعرض عليه من بذيء الأغاني ورقيع المشاهد وخليع المناظر في المسارح والصالات ودور السينما وإذاعات الراديو. إن إدارة الدعاية بما لها من سلطة الرقابة والتوجيه لكل ما يعرض على الشعب من مشاهد وما يلقى في أذنيه من محاضرات وغناء ستقف حائلاً قوياً دون انتشار كل ما يخدش الخلق ويضعف الهمم ويلقي بذور الانهيار الروحي والانحطاط المعنوي في قلب هذا الشعب العريق. ولسوف نستخدم ما نملك من وسائل في بث الفضائل وتدعيم الروح القوي النبيل، وفي تهذيب الذوق العام بتشجيع الفن الصحيح والدنو به من الكمال وتعويد الناس فهم الجمال.

وعند ذاك ترقى النفوس والعقول ويتم للشعب بلوغ ما نصبو إليه من مرتبة عالية بين الشعوب الراقية المجيدة

إن هذه الوزارة لا يمكن أن يقوم موظفوها وحدهم بكل العبء. هنالك دعامة قوية من الدعائم التي ترتكز عليها دائماً أعمال الإصلاح، هذه الدعامة القوية هي التطوع. بثوا الدعوة معنا إلى الزملاء في شتى أوساط الشعب لإيجاد المتطوعين للإصلاح نحن في حاجة إلى تجنيد أكبر عدد من المتطوعين للإصلاح

أحمد عرابي

اضطررنا لقطع سلسلة البحث في تاريخ عرابي نظراً للظروف الحاضرة؛ وسنعود إلى وصلها في الوقت المناسب

وابتداء من العدد القادم سندرس شخصية مازيني أحد أبطال الحرية في التاريخ الحديث

الخفيف

رسالة النقد

فصل المقال

فيما دار من نقاش حول (مباحث عربية)

أما عن التلبيس في سوق الروايات والواقعات في كتاب (مباحث عربية) فإليك بعض من ذلك:
1 - أسند الدكتور بشر فارس ص60 من كتابه (مباحث عربية) ثماني روايات جملة إلى 16 مرجعاً منها أربعة مراجع مخطوطة؛ والغرض من ذلك الوصول إلى إثبات أن (التعريف) الحقيقي الناهض على التمييز للفظ المروءة غير ممكن، وليصل إلى هذا فقد ساق الدكتور بشر هذه الروايات جنباً إلى جنب، وأسندها جملة إلى مصادرها بالجملة للتعجيز، حتى لا ينظر القارئ مصادر كل رواية ويتدبر معانيها في مكانها ووجه مجيئها من الكلام. لأن في ذلك الخطر كل الخطر على البحث إذ يثبت أن الروايات تأتي في كلها لفظة (المروءة) من أصل واحد يحمل مدلول السيادة من جهة ويتضمن السجايا الرفيعة التي يتقوَّم بها شخص السيد. بيان ذلك:
(أ) يقول النوري: (المروءة بذل الهدى، وكف الأذى، وترك الهوى، والزهد في الدنيا، وطاعة المولى)، وهذه الرواية بهذا الإطلاق يتنافر فيها مفاد المروءة مع المدلول الحقيقي للفظة وهذا ما يريد أن يصل إليه الدكتور بشر، وهذا هو التلبيس لأن هذه الرواية لو أسندت إلى مصدرها، وهو مخطوط كتاب (الفتوة) للأردبيلي - أيا صوفيا 2049 - وهو مخطوط في التصوف كما وصف ذلك الأستاذ في مبحثه المعنون باسم والمنشورة بمجلة التي تصدر عن همبورج، م24 ص58، لظهر أن لفظة المروءة في هذه الرواية تأخذ مفادها من وجهة المتصوفة، وفي ذلك الوقت يتسق مفاد اللفظة في الرواية مع مدلول الكلمة الناهض على التمييز
هذا وقد نبهني أحد الزملاء إلى أن هذا المخطوط الذي وردت فيه الرواية، نشره الدكتور
بشر في مقتطف أبريل سنة 1939 والعجيب أن يقول في التقدمة. (تدخل الفتوة على قلم الأردبيلي في التصوف، وكذلك المروءة التي هي شعبة من شعبها في كتاب الأدربيلي!)
(ب) يقول معاوية: (المروءة احتمال الجريرة وإصلاح أمر العشيرة) فهذه الرواية رغم أنها تحمل في طياتها إشارة إلى سجايا السيد وإفادتها سياسة الملك، فقد أتى بها بشر فارس ليستدل على أن مدلول لفظة المروءة غير ناهض على التمييز. وهو في الوقت نفسه يذكر ص67 في الحاشية، في الهامش رقم 34 هذه الرواية، والمتن يحمل الإشارة إلى أن الرواية مفادها سياسة الملك!
(ج) يقول عمر بن الخطاب: (تعلموا العربية فإنها تزيد من المروءة). ويقول مسلمة بن عبد الملك: (مروءتان ظاهرتان: الرياسة والفصاحة). والدكتور بشر لا ينكر في الرواية الثانية أن لفظة المروءة تنزع إلى السيادة، مع أنها تجئ من الفصاحة وإذن فمفاد الرواية واضح في إشارتها إلى السيادة وسجايا السيد، من حيث أن العربي كان يرى معرفة العربية سبيل الفصاحة والفصاحة من أسباب الكمال والكمال من متطلبات سجايا السيد
(د) في عام 1932 أخرج الأستاذ بشر فارس كتاباً بالفرنسية اسمه (العرض عند عرب الجاهلية) وتقدم به لينال إجازة الدكتوراه من جامعة باريس. وموضوع هذه الأطروحة أن (أخلاق عرب الجاهلية تندرج تحت معنى العرض) (انظر ' ' باريس 1932 ص 32 وما بعدها). ولما كان جُولْد تسيهيرْ أحد شيوخ الاستشراق قد كتب في كتابه طبع سنة 1889 ج1 ص1 - 40 - فصلاً كاملاً عن المروءة ذهب فيه إلى أن (المروءة كانت تنزل منزلة الفضيلة عند عرب الجاهلية). وهو في هذا على نقيض من الرأي الذي ذهب إليه الدكتور بشر، فقد اضطر صاحبنا بشر أن يعود عام 1937 ليناقش رأي جولد تسيهير لأنه صاحب رأي خاص في الموضوع فكتب مادة (مروءة) في تكملة دائرة المعارف الإسلامية، ثم توسع بالمادة فكان منها موضوع مبحث المروءة من كتاب (مباحث عربية) وهو يشغل الصفحات من 57 - 74، وهو إلى هذا الحد لم يرتكب وزراً، ولكن موضوع المؤاخذة جاء من جهة محاولة إيهام القارئ أن بحثه في المروءة ليس عن فكرة سابقة وإنما هو نتيجة التدبر والتدرج من الواقعات للنظر (كما يقول ص73 من

كتابه)، وهو لكي يصل للغرض يوهم القارئ - والإيهام ليس بالشيء القليل - ثم يعمد لطرق ملتوية لتعجيز
القارئ حتى لا يكشف كيف يميل بالواقعات ويديرها منحرفة عن حقيقتها بعض الشيء حتى يتحصل له من انحرافاتها النتيجة المقصودة. وقد سبقت الإشارة إلى بعض طرق الالتواء في بحثه، وإليك طرقاً أخرى:
(1) لو كانت المروءة واضحة المعنى ما عثرنا على تعريفات لها لا يكاد يقع بعضها على بعض، ولا أصبنا أقوالاً فيها ربما تنافرت بل تدافعت. وبهذه الجملة يلج البحث الدكتور بشر فارس. والذي عندي أن اختلاف التعريف إن جاء من عبارات يقصد بها بيان كيفية المروءة، فذلك لا يقع على بعض مدلول لفظة المروءة. بيان ذلك أن لفظة الرجولة لعهدنا هذا واضحة المعنى، ومدلولها ناهض على التمييز، ولكن كل إنسان حسب طبيعته وأخلاقه وسجاياه ونظرته يعطي اللفظة لوناً يقع على كيفيتها من جهة الصفات لا على مدلولها الذي يدل على المعنى. ومن المهم في تدبر المعنى الحقيقي للفظ ملاحظة هذه الاعتبارات. والآن على ضوء هذا الكلام لننظر في مبحث الدكتور بشر فارس
أولاً - يأخذ الدكتور بشر قول أبي الحاتم البستي: (اختلف الناس في كيفية المروءة) (روضة العقلاء ص207) دليلاً على تضارب التعريفات والأقوال حول لفظة المروءة. والرواية تقصر عما يريد صاحبنا بشر أن يحملها، لأن كلام أبي الحاتم البستي يقع على الصفات لا على المعنى، والمعنى اختلاف الناس في كيفية المروءة لا في مدلولها
ثانياً: يستدل الدكتور بشر من سؤال معاوية: (ما تعدون المروءة؟) على أن معنى المروءة (أو مدلولها) أشكل على المسلمين. والاستدلال خطأ، لأن السؤال يقع على ما كان يعدونه، وعد الشيء مربوط بكيفيته (أو صفاته)، فالصوفي يعد المروءة مثلاً: (ترك الهوى والزهد في الدنيا وطاعة المولى)، ورجل الدنيا يعدها (كثرة المال والولد). فهذه الدلالات للفظة المروءة تقع على الكيفية منها لا المدلول
ثالثاً: نفى الدكتور بشر أن المروءة تفيد معنى السيادة قائلاً ما ملخصه: (إن الاستناد إلى مشتقات مادة (م ر ء) ولا سيما أسم الفاعل منها في الآرامية لإثبات إفادة المروءة للسيادة خطأ، لأن لفظة مرء عربياً وهي اللفظة الناظرة إلى اللفظ الآرامي إنما مفادها الإنسان. وهذا يدفع أن تكون المروءة أفادت السيادة أول الأمر) هذا وهو يدفع القول، بأن باب المروءة وقع كتاب السؤدد من عيون الأخبار لابن قتيبة، بأن المصدر المذكور لم يثبت
غير قول واحد تنزع فيه المروءة لمعنى السيادة
والرد عندنا أن الدكتور بشر ذكر في موضع آخر من كتابه أن المروءة تدرج مقرونة بالسؤدد من كتاب مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب. . . (رقم 409 مخطوط ليدن ص 532 - 534 ع297 من الرسالة) والدكتور بشر يقول في تقدمة هذا المخطوط: (وفي المصدر الأول تعريفات وأقوال في المروءة على أنها لون من ألوان السيادة وشرط من أشراطها) الرسالة العدد 297 ص533. أما عن مجيء هذه الروايات من الجاهلية أو عدم مجيئها، فلا يؤثر على القضية في شيء، لأن جلها أتى من صدر الإسلام، والعربية لم تتغاير فلا معنى للاحتجاج بأنها ليست من الجاهلية. وإذن يبقى معنا لفظ المروءة نازعة منزع السيادة في الجاهلية وصدر الإسلام، بعكس ما حاول أن يوهم القارئ بطرق ملتوية الدكتور بشر في مباحثه العربية
رابعاً: ينكر الدكتور بشر فارس أن المروءة أفادت السيادة - وأكبر الظن عنده - أنها ضمت، أو ما ضمت محاسن خلق الإنسان، ثم - من طريق التجديد والمجاز - محاسن خلقه (وهو في رأيه هذا لا يذكر السبب الذي جعله يميل مع هذا الظن. فضلاً عن أنه لا يستند في ظنه هذا إلى أكثر من فصل مخطوط تحت رقم 2049 بأيا صوفيا، يشتق فيها المؤلف المجهول المروءة من مرء الطعام وامرأة، وإذا تخصص بالمريء لموافقته للطبع. فكأنها أسم الأخلاق والأفعال التي تقبلها النفوس السليمة، فعلى هذا يكون اسماً للأفعال المستحسنة كالإنسانية، وهذا الرأي من الكاتب أحد رأيين ثانيهما أنه يجعل المروءة من المرء فيجعلها اسماً للمحاسن التي يختص بها الرجل فيكون كالرجولية، ولست أدري ما الذي جعل الدكتور بشر يميل مع الرأي الأول؟! وليس في بحثه ما يرجع الرأي الذي أخذ به إلا قول بل أكبر الظن!)

خامساً: يرى الدكتور بشر أن الأقوال والروايات التي ورد فيها لفظة المروءة، فيها جانبان متضادان كلاهما معقود على الآخر: الأول حسي والآخر معنوي، وهذا غلاب على ذاك؛ وهو يذهب إلى: (أن الجانب الحسي ينحدر من زمن الجاهلية وأما الجانب المعنوي فمصدره الإسلام) (ص63 من مباحث عربية) غير أنه لا يثبت على هذا الرأي سريعاً فلا يلبث أن ينقضه ويقول: (وكأن الحسي والمعنوي أخذا يتجاذبان المروءة أيام الجاهلية)

وهو بهذا يخلع الجانب المعنوي على الجاهلية. وفي هذا ،(ص65 من مباحث عربية) التضارب والتناقض ما فيه مما لا يحتاج إلى بيان. . .

سادساً: يعتمد الدكتور بشر على رواية الأغاني: (أن عينية ابن مرداس كان معوزاً فقصد إلى عبد الله بن عباس يسترفده ويرغب إليه أن يعينه على مروءة. فردَّه ابن عباس لاتهامه إياه في مروءته) ليصل إلى أن المروءة كانت تجيء معنوية من العصر الإسلامي وحسية من الجاهلية؛ وهو يعلق على هذه النتيجة بقوله: (إن ابن عباس نظر إلى المروءة بعين المسلم فنزهها عن المادة وأنزلها منزلة الخلق الحسن. وابن مرداس نظر إليها بعين الجاهلي فرأى فيها إعانة له حتى لا يشتهي طعام غيره)

والرد أن الرواية لا تسعف الدكتور بشر بالنتيجة التي أراد أن يحصلها، لأنه لا يتحصل منها أن ابن عباس نظر إلى المروءة بعيني المسلم، وإنما الصحيح أن يقال إنه نظر إليها من طبيعته، كذلك لم ينظر إليها ابن مرداس بعين الجاهلي، وإنما الصحيح أنه نظر إليها من طبيعته، والفرق بين النظرتين، كالفرق بين الطبيعتين، وهذا الاختلاف في النظر راجع إلى اختلاف النفوس لا إلى اختلاف الزمان، ومن أمثال الذين ينظرون نظرة ابن مرداس للمروءة كثيرون في كل زمان ومكان!

سابعاً - مضى الدكتور بشر في بحثه، وكأنه يتعقب روايات مختلفة من أزمان مختلفة، وأعطى المروءة مفادات مختلفة، كل مفاد خاص بعصر، وانتهى ببحثه إلى أنها لم تنزل منزلة الفضيلة على جهة المماثلة إلا في العصور المتأخرة. والرأي الصحيح في الموضوع أن الروايات التي أتى بها الدكتور بشر فارس متسقة وكل منها تقع على لون خاص من مدلول المروءة، وهذا اللون مرتبط بالناحية الكيفية (صور) للفظة. وهي من هنا لا تأخذ دليلاً على التطور التاريخي. والأصل في البحث اللغوي لتاريخ لفظه أن يكون الباحث صاحب نظرة فلسفية تتغلغل في صفحات الماضي وتستمد من طبيعة الحالات القائمة في العصر صورة تقيمها في ذهنها يمحص على أساسها الباحث الروايات التي تعرض له ويكشف، عن مقدار تأثرها بحالات العصر، وهل هي راجعة لاختلاف النفوس والطبائع، أم إلى اختلاف الزمان، ذلك لا يتأتى إلا عن طريق النفوذ من مادة الرواية وهو الجسم المنظور إلى روحها وهو ما وراء المنظور

ظهرت عقلية الدكتور بشر الشكلية في أجلى مظاهرها وتبين لنا كيف أن هذه الشكلية مساقة إلى أخطاء في البحث لا يقع فيها من له دراية بسيطة بالبحث اللغوي المستقيم. والواقع أن بحث الدكتور بشر في المروءة ضعيف لا يثبت على نقد، ولا يمكنه أن يواجه مراجعة علمية صحيحة. هذا فضلاً عما فيه من تحريف وتعديل للعناصر الأولى والواقعات حتى لا ينفصم معه النطاق، وسيجيء في مقتطف نوفمبر ما في المراجع من اضطراب وما في البحث من تقطع، وما في حلقاته من انفصام.

إسماعيل أحمد أدهم

المسرح والسينما

من التاريخ:

النهضة المسرحية في مصر

ونصيب الفرقة القومية منها وواجبها حيالها

الفصل الأخير:

كانت هزيمة المسرح على يد سادته وأبطاله هزيمة منكرة، هبطت بهم إلى الحضيض، ورجعت به إلى الوراء عشرات السنين، ولم يبق بد من أن يعهد بالمسرح إلى غير هؤلاء الأبطال الذين نصبوا أنفسهم سادة في مملكته. كان لابد من إنقاذ المسرح وأهله معه بأية وسيلة من الوسائل، ولقد وجدت الوسيلة واقتنعت الحكومة بها فأنشأت هذه الفرقة التي ما تزال قائمة بيننا، وعهدت بها إلى رجل لا ننكر فضله كأديب وشاعر، بيد أنا ننكر صلته بالمسرح، تلك الصلة التي تجعل منه خير من يضطلع

بهذه المهمة العظيمة. هذا إلى أنه رجل مشغول بغير المسرح من الشئون؛ فلم يكن الاختيار موفقاً على أي حال. فالمسرح يريد واحداً من رجاله الذين بلوه أعظم البلاء، والذين امتحنتهم خشبة المسرح وعركت أعوادهم فوجدتها من اصلب الأعواد وأشدها قوة وعزماً وحزماً. أما الشعراء، وأما أصحاب الكفايات في الأدب والكتابة فلن تؤهلهم هذه الكفايات والمميزات لهذه المهمة، وقد تؤهلهم لخدمته بوسائل أخرى غير سيادته والتحكم في شؤونه.

على أن مدير الفرقة ليس وحده المسئول عن هذه الهزيمة الجديدة للمسرح، فإن إلى جانبه لجنة عهد إليها باختيار الروايات، فإذا اعتبرناها مسئولة عن عملها، وليس فيها إلا رجل واحد يصلح لهذه المهمة، فإننا نظلمها ظلماً مبيناً! إنها لجنة تتكون من أعضاء من ذوي الكفايات الأدبية والعلمية، لكنهم كما هو الحال مع المدير، ليست لهم صلة بالمسرح تجعلهم أحق الناس بهذه المهمة، بل لعل هذه الكفايات والمميزات التي لهم تجعلهم آخر من يصلح لها. ذلك لأن المسرح فن، وإن كان يعتمد على غيره من الفنون، إلا أن من يصلحون له يجب أن يكونوا من طراز خاص. فالمسرح يعتمد على الكتاب والأدباء والموسيقيين وغيرهم، بيد أن أحداً من هؤلاء قد لا يصلح لمهمة قيادته وسيادة شئونه، وقد يصلح لها

ممثل أو مخرج أو مؤلف مسرحي أو ناقد، وقد يكون هؤلاء أقل ثقافة وعلماً من أولئك الجهابذة العلماء، بيد أن روحهم الفنية الملهمة تحوطهم بسياج من القوة، وتمنحهم إحساساً فنياً مرهفاً وتجعلهم من اصلح الناس لتوجيه هذه الشئون!

قلنا إذن: إن مدير الفرقة لا يصلح لقيادتها، لأنه غريب عنها، ولو أنه أديب وشاعر. وقلنا: إن لجنة القراءة ليس فيها إلا رجل واحد صالح، على أنه مشغول هو أيضاً ولديه من المهام ما هو في نظره أجل وأسمى خطراً من المسرح، ومن ثم، فقد ساءت إدارة الفرقة، وساء اختيار الروايات؛ وفي نفس الوقت نرى جماعة الممثلين والمخرجين، وقد اطمأنوا إلى أرزاقهم، قد تركوا الحبل على الغارب، ولم يعد يشغلهم إلا قبض المرتب في أول الشهر، وإلا الإشاعات التي تدور حول الفرقة وتتناثر هنا وهناك، وإلا الزلفى إلى هذا والتقرب إلى ذاك. أما إجادة العمل فهي في المحل الأخير إن لم يكن لا محل لها من تفكيرهم!

هل نجد ما نقوله بعد ذلك إلا أن نكون مكررين لما قيل مئات المرات وكتب في الصحف وتحدث به الناس؟

يكفي أن نضرب مثلاً لشعور الفرقة بتفاهة مجهودها أنها وقد عرضت لها فرصة تقديم بعض بضاعتها أمام مليك البلاد لم تجد ما تقدمه سوى رواية (المتحذلقات) وهي فكاهة صغيرة من الأدب الغربي ذات فصل واحد!

وثمة مثل آخر، فقد دعت الفرقة أعضاء مجلس النواب لتشهدهم على أحقيتها في استمرار صرف الإعانة التي أوشكت أن تطير، دعتهم ليشاهدوا المهزلة الكبرى التي وقعت في إخراج (الجريمة والعقاب) فخرجوا ساخطين متبرمين، ولولا بقية من أمل لطارت الإعانة وطارت معها الفرقة!

ماذا نقول أيضاً، وهل نعتبر هذه الكلمة الفصل الأخير في مأساة الفرقة القومية أم أنه ما تزال هناك فصول كثيرة تستحق كثيراً من الضحك وكثيراً من الرثاء؟

(للكلام بقية)

ملاحظات

فن الصالات

ليس من شأن هذه الصحيفة أن تتحدث عن الصالات وما فيها، وإنه لعهد أخذناه على أنفسنا أن نحرص على كرامة الفن الذي تدنسه الصالات بسخفها وبالجو الذي تخلقه والفساد الذي تدعو إليه، وتاريخ الصالات عندنا تنبعث منه روائح تزكم الأنوف تثيرها الفضائح التي لا حصر لها ولا حد

ولكن في الأيام الأخيرة هبط الصالات بعض بطلات المسرح وأبطاله لظروف يعرفها الجميع في مقدمتها فشلهم على المسرح ويأسهم منه

ويقول عزيز عيد الذي يشتغل الآن بصالة ببا: إنه قد وجد سبيلاً آخر لخدمة المسرح في صالات المجون واللهو حيث يبحث الناس عن مشتهيات الجسد. وتقول فاطمة

رشدي: إنها لم تفقد شخصيتها التي نالت بها مكانة في المسرح والتي ستنال بها مكانة في الصالات! أما عزيز عيد فقد رأيناه في دور صغير كان بارزاً فيه بلا جدال. ولكن ماذا يجدي عليه هذا وماذا يجدي على الفن في هذه الأوساط الموبوءة. إن من الواجب أن يكون كل شيء في الصالات من الوجهة التمثيلية صحيحاً إلى حد كبير، ولكن هذا لن يغير من جوهر الأمر شيئاً. ولنلق نظرة على فاطمة رشدي التي كانت نجمة المسرح يوماً وهي تبتذل نفسها بين طائفة من الراقصات وحثالة الصالات

الرؤوس اليانعة

جلس الأستاذ حلمي رفله يتحدث إلى مدير الفرقة عن الإصلاحات الكبيرة التي سيدخلها على فن المكياج هذا العام، وطلب فيما طلب أن تصنع رؤوس من خشب على قدر رؤوس الممثلات والممثلين كيما يضع لها الشعور المستعارة اللازمة دون حاجة إلى العودة للممثل في كل مرة

ونظر إليه المدير الجبار وقال:

- لنؤجل ذلك إلى السنة القادمة يا أستاذ رفله، فهنا رؤوس ستخرج وهناك رؤوس قادمة من بعيد!

ثم تحمس المدير الهمام ونطق بكلمة الحجاج المشهورة:

(إني لأرى رؤوساً قد أينعت)

ولو نظر المدير إلى المرآة لرأى فيها أحد الرؤوس اليانعة التي حان قطافها.

(فرعون الصغير)

العدد 329 - بتاريخ: 23 - 10 - 1939

وزارة الشؤون الاجتماعية

ما أظن أحداً من آحاد المصلحين ثَلِجت نفسه لإنشاء هذه الوزارة مثلما ثلجت له نفس الرسالة. ذلك لأن سبيلها هي التي تجاهد فيها الرسالة، وخطتها هي التي تسير عليها الرسالة، وغايتها هي التي تقصد إليها الرسالة؛ فكأنها قامت لتحقيق آمالها بالتنفيذ، وتطبيق مبادئها بالعمل. ومن ذا الذي لا يبلج صدره إذا رأى قوله قد صار فعلاً، وخياله قد أصبح حقيقة؟

لقد عالجت الرسالة مشكلة الفقر على وجوهها الشتى في بضع عشرة مقالة خرجت منها على أن الحرمان كان في الأكثر الأغلب علة ما يكابد المجتمع من جرائم القتل والسرقة، ورذائل البغاء والتشرد؛ فلو أن أولي الأمر عالجوه بما عالجه به الله من تنظيم الإحسان وجباية الزكاة لما وجدوا في البيوت عائلاً ولا في الطرقات سائلاً ولا في السجون قاتلاً ولا في المواخير ساقطة. ولكننا تركنا الموضوع قانطين من رحمة القلوب، لأننا وجدنا غاية الأمر فيه لا تعدو البكاء والاستبكاء ما دام الحكم في يد الأقوياء، والتشريع لألسنة الأغنياء، والغلب والسبق للناب العضوض والجناح المحلق. فلما وفق الله الحكومة القائمة لأن تجعل لآثام الجهل وآلام الفقر وأرزاء المرض وزارة تعالج كل عرض لها، وتساعف كل منكوب بها، وتقطع كل علة فيها، قربت منازع الإصلاح وسفرت وجوه المنى. ثم كان من مصاديق الأمل ودواعي الثقة أن تولي الوزارة رجل من رجال الجد والعزيمة لم يصبه الله بداء الكلام، ولم يشغله بحرفة السياسة، فاختار لمشورته ومعونته وأمره طائفة من قادة الرأي ودعاة الإصلاح أمثال الأساتذة عبد المنعم رياض وتوفيق الحكيم وابنة الشاطئ؛ ثم مضى بهم في طريقته المرسومة إلى غايته المعلومة يقظ القلب نافذ الهمة لا يعمي وجهه ضلال، ولا يقطع سبيله عقبة

أجل، إن اختيار الشاذلي باشا لوزارة الشئون الاجتماعية سبب من أسباب النجاح لها والثقة بها ما في ذلك شك، فإن عهد الناس بهذا الرجل قوي الارتجال عسكري الإرادة. وهم لا يفتئون يذكرون أنه أشعر المصريين عزة الوطن، وعود الأجانب احترام الدولة، بأمر يسير واحد حرص عليه وألح فيه، هو أن يعزف أصحاب المسارح والسينما السلام الملكي في ختام كل حفلة. ولكننا لاحظنا أن وزارة هذا الرجل السكوت الفعول قد أخذت في هذه الأيام تسرف في نسج الكلام وقطع الوعود ووضع المشروعات وتقديم

المقترحات وتأليف اللجان، فذكرنا ذلك وزارة المعارف في عهد من العهود إذ كانت تؤلف كل ساعة لجنة، وتضع كل يوم مشروعاً، وتسن كل أسبوع نظاماً؛ ثم ينتهي الأمر بأكثر أولئك إلى ما تنتهي إليه الفقاقيع الغازية على وجه الماء الآسن!

لقد أكرهتنا حكوماتنا المتعاقبة على أن نفهم أن تأجيل الموضوع للبحث معناه إهماله، وتحويل المشروع إلى لجنة معناه إغفاله. فهل يجوز أن نخشى مثل ذلك من هذه الوزارة الوليدة وهي لم تبتل بعد بجمود الموظفين الآخرين وروتين الوزارات الأخريات؟

إن الدم الجديد في هذه الوزارة، والروح المتوثب في هذا الوزير، يذهبان الخيفة من جهة التفريط والنكول، ولكنهما يوجبان الحيطة من جهة الإفراط والتهور. وكفى بهذه الظنة باعثاً على كتابة هذه الكلمة

إن وزارة الشؤون الاجتماعية تجديد رسمي لدعوة النبوة؛ وهي بحكم وجودها وطبيعة عملها وزارة الجمهور؛ فلا مندوحة لها إذن عن نهج سبيل الدين في محاربة الفساد بالأناة والحكمة. فإن مصادمة الموجود بالطبيعة مدعاة إلى الفشل، ومقاومة المألوف بالعادة مجلبة للنفور، ووسيلة النجاح في هداية العامة الحيلة والتدرج. والله عزت حكمته لم يشأ أن يقيد الزواج ويحرم الخمر ويحظر الرق دفعة واحدة؛ وإنما استدرج الغرائز والأهواء إلى حدود المعروف شيئاً فشيئاً حتى اطمأنت إليه ورغبت فيه

ما للوزارة على حداثتها تبدأ منهاج الإصلاح من آخره، فتريد أن تعرض لما يتصل بالحرية أو بالعقيدة كأن تقيد الزواج وتحدد السهر وتحرم على بعض الناس اللهو؟ إن ذلك

وإن كان له أثره في صلاح المجتمع لا يحسن أن يكون أول ما تعمل. وربما كانت هذه الأمور التي تنكرها ظواهر لبعض الأدواء الاجتماعية تزول بزوالها. أما الرأي الذي تأمن عليه من المعارضة والفوضى والتشعث فهو أن تحرر دستورها الإصلاحي تحت ثلاثة عناوين هي الفقر والجهل والمرض، فإنها جماع العلل التي يصدر عنها كل فساد وينجم منها كل شر؟ ثم تحاول بجهادها المتصل في شتى الميادين أن تمحو الأمية وتقتل الجوع وتجتث أصول العلة، حتى إذا وجدت أمامها بعد ذلك شعباً صحيح الجسم نير الفهم مكفي الحاجة استطاعت أن تأخذه بوسائل الكمال كتوحيد الأزياء وترقية الغناء وتهذيب التقاليد وتنظيم الأسرة وتمدين الجماعة. على أن ذلك كله يكتسبه الشعب من ذات نفسه متى أدرك قسطه الضروري من ثقافة العقل والروح والبدن. وعسى ألا يقع في ظنك من هذا الإجمال أني أخلط بين اختصاص هذه الوزارة واختصاص وزارات المعارف والأوقاف والصحة؛ فإن وزارة الشؤون الاجتماعية بحكم اختصاصها الشامل لحياة الجماعة في المدينة والقرية لا بد أن تتصل بالثقافة والسلامة والإحسان من جهاتها العامة؛ ولكنها لا تعلم كالأستاذ، ولا تعالج كالطبيب، ولا تحسن كالواقف. وسترى في فصولنا التالية كيف يتميز عملها من عمل غيرها، حين نفصل الكلام في هذه العناوين الثلاثة: الجهل والفقر والمرض

أحمد حسن الزيات

كيف يعظون

للأستاذ عباس محمود العقاد

أيام الحوادث الفادحة هي أيام العظات البليغة لمن يحسن استخراجها من حوادثها ثم يحسن التعليل بين مقدماتها وعواقبها والحرب أبلغ العظات

لأنها تمتحن النفوس فتثير فيها الشكوك وتقلقل فيها دعائم الإيمان فهي في حاجة إلى اليقين والاستقرار

ولأنها ترين على القلوب بالغموم وتلعج فيها الأحزان فهي في حاجة إلى الترفيه والتأسية والعزاء

ولأنها تكتظ بالشواهد والمثل وأسباب الخبرة ومجامع العبرة فهي في حاجة إلى من يحسن التعبير والاعتبار

رأيت مثلين من أمثلة العظات العصرية هما اللذان بعثاني إلى كتابة هذا المقال: أحدهما مسيحي والآخر إسرائيلي، وكلاهما من مبتكرات الوعظ (العقل التاريخي) الحديث

جاء المثل الأول في مقال بصحيفة (المانشستر جارديان) الأسبوعية لواعظ يصف

قال تجاربه في الحرب الماضية:
كثيراً ما وعظت في أثناء فترات الغداء بالمصانع فكانوا يلقونني برفق وإكرام ولكني في بعض الأيام لقيت رجلاً غاضباً محنقاً وإن كان مؤدباً في مسلكه يقول لي: ما هذه الجرأة منك على الوعظ باسم إله المحبة والرحمة وهذه الحرب الخبيثة تطحن الناس؟
فقلت له: إنك يا أخانا لقاس على الأقدار. . . فهبك في مكان القدر فماذا عساك كنت صانعاً بالدنيا؟. . . لا أحسبك كنت تخليها من الخطيئة لأنك بهذا تهدم تكوين النفس الإنسانية باعتبارها نفساً مريدة مكلفة ذات حرية ومشيئة. . . فإن لم تصنع هذا فماذا أنت صانع؟
قال: على أية حال كنت لا أدع إنساناً يألم في حياته لجريرة غير جريرته وذنب غير ذنبه فأجبته قائلاً: آه! يالها من حياة مخيفة تلك التي تريدها. فماذا تنوي أن تصنع بالأمهات مثلاً؟ أتريد من الأم إذا ذهبوا بابنها إلى الموت أو ذهبوا بابنتها إلى العار أن تمضي في طريقها ضاحكة راضية وهي تقول: لا يعنيني! فالذنب ذنب غيري؟
إن الدنيا التي تريدها لتكونن دنيا خلواً من الآباء والأمهات والأصدقاء والقديسين (والأبطال والشهداء)
هذا هو المثل المسيحي وله شروحه ومعقباته عند من تناولوا مسألة الاختيار ومسألة الشر الدنيوي في الفلسفة الحديثة
ولكنه كلام يقال للرجل العصري فإذا هو أقرب إلى فهمه والإصغاء إليه من كلام لا يقوم على فكر ولا على حجة وإنما يقوم على إلزام كإلزام الآلات وتكرير كتكرير الببغاوات
أما المثل الإسرائيلي فقد قرأته في رسالة يقول كاتبها وقد عرض حوادث العالم أمامه فإذا هو يقول: إن الله يبتلي بالقصاص العاجل كل بلد يظلم أبناء إسرائيل، ويكتب النصر والقوة لكل بلد يعاملهم معاملة الرفق والمساواة. فلن ترى أمة شاعت فيها المذابح والمظالم للإسرائيليين إلا أصيبت بثورة أو سيقت إلى حرب أو منيت بهزيمة
هذه روسيا كانت أسبق الأمم إلى ظلم اليهود فابتلاها الله بالثورة البلشفية
وهذه أسبانيا تعاقبت فيها المظالم عليهم فابتلاها الله بالحرب الأهلية
وهذه بولونيا نفسها لم تخل في بعض عهودها من ظلمهم ومطاردتهم، فشاءت الأقدار أن تكفر عن سيئاتها
وهذه ألمانيا النازية تنساق إلى حرب زبون تهدمها من أركانها
(يهواه رب جبار لا ينسى الثأر ولا يصبر على الأشرار)
وهذا الكلام أيضاً قريب إلى عقل الرجل العصري الذي يفكر تفكير المشاهدة وينظر بعين التاريخ، وإن كان قائله ليخلف الأمر فيضع المقدمة موضع النتيجة ويضع النتيجة موضع المقدمة. إذ الحقيقة أن الاضطراب هو السبب المؤدي إلى ظلم (الأقليات) ومنها اليهود، وليس ظلم الأقليات عامة أو اليهود خاصة هو السبب المؤدي إلى وقوع الاضطراب. فالروسية وأسبانيا وبولونيا وألمانيا كانت فيها المساوئ الاجتماعية والقلاقل السياسية سابقة للخصومات والفتن التي تقع بين عناصر الكثرة وعناصر القلة فيها، وقد حدث أن بلاداً وقعت فيها الهزائم والفتن وليس فيها يهود مضطهدون كما حدث في بلاد الترك والصين. فالعلة الأولى هي الاضطراب والعلة الثانية هي الاضطهاد، وهذا هو موضع الخطأ في تفسير إرادة الله كما رآها واعظ إسرائيل إلا أن الكلام كما أسلفنا كلام يقال في العظات العصرية لإقناع السامعين العصريين، وهو خير من كل كلام لا ينظر قائله إلى الواقع ولا ينظر إلى التاريخ
قرأت هذين المثلين في شهر رمضان
وشهر رمضان عندنا هو شهر العظات وشهر السهرات في سماع القرآن والدروس وقد سمعت بعضها وقرأت بعضها وذكرت بعضها مما كان يلقى في السنوات الماضية فيطيب لي أن أقول إنها تتقدم من المحاكاة إلى الابتكار، وأنها تخرج من حفائر الموت إلى ميادين الحياة، وأنها تخاطب الناس خطاب الإقناع بعد أن خاطبتهم طويلاً خطاب الإلزام والإرهاب. . .

فإذا اطردت على هذه الوتيرة فسبيلها غداً (1) أن تشمل الآفاق الواسعة وتتعمق في أغوار النفس الإنسانية و (2) أن تربط بين موضوعاتها وكبريات الحوادث الحاضرة و (3) أن تعمم الإقناع في خطاب العقل البشري فلا تقصره على من يؤمن بالقرآن والسنة والمسلمين، بل تجعله مقنعاً خليقاً بالبحث والنظر في رأي كل صاحب عقل وتفكير

وهل أضيف أمنية أخرى؟

يقول أناس إن بائع الحرير لا يلزم أن يلبس من حريره، وإن واصف الدواء لا يلزم أن يتناول من دوائه، وإن الأب الذي يقدم لوليده الطعام لا يلزم أن يأكل من طعام الأطفال، ولكن الواعظ لا يكون واعظاً إلا إذا عمل بما يأمر به الناس

ويقول آخرون: بل حكم الواعظ في ذلك حكم بائع الحرير وواصف الدواء ومقدم الطعام لبنيه، فليس بالواجب عليه أن يعمل بكل ما يقول، وإنما الواجب عليه أن يهدي كلاً من سامعيه إلى ما يحسن به عمله وتصلح له هدايته

وأياً كان مقطع الرأي في اختلاف الواجبات أو اتفاقها بين الناس فهناك واجب مشترك متفق عليه بين جميع الواعظين والعاملين: وهو الإيمان بالواجب والإيمان بالأمانة والإخلاص في أدائه.

عباس محمود العقاد

جناية أحمد أمين على الأدب العربي

للدكتور زكي مبارك

- 19 -

رأينا في المقال السالف كيف أخطأ الأستاذ أحمد أمين حين زعم أن الأدب العربي على اختلاف عصوره ليس فيه إلا شاعر واحد يهتم بتحليل المعاني

فهل نجاه الله من الخطأ حين زعم أن الأدب العربي لم يعرف غير كاتب واحد يهتم باستقصاء الأغراض؟

إن الله لطف بابن خلدون فشغل به قلب الدكتور طه حسين لتعلو منزلته في نظر الأستاذ أحمد أمين، فأغلب الظن أن احمد أمين لم يكن عنده مانع من القول بأن الأدب العربي في جميع العصور وفي جميع الأقطار لم يخلق فيه كاتب يعرف كيف يشرح المعاني والأغراض على نحو ما يصنع الكتاب في هذه الأيام!

والحق أن بُعد الدكتور طه حسين عن مصر في أيام الصيف عرض الأستاذ أحمد أمين للمعاطب، فلو أن الدكتور طه بقي في مصر لكان من الجائز أن يعلن إعجابه بكاتب آخر غير ابن خلدون، وعندئذ كان يصح للأستاذ أحمد أمين أن (يتفصل) فيقول إنه لا يعرف في الأدب العربي غير كاتبين اثنين؛ وكان من الجائز أيضاً أن يعلن الدكتور طه حسين إعجابه بكاتب ثالث فيقول الأستاذ أحمد أمين إنه لا يعرف في الأدب العربي غير ثلاثة من الكتاب!

فهل نرجو أن يتلطف الدكتور طه حسين فيقول إنه لا يُعقَل ألا ينبغ في الأدب العربي غير كاتب واحد في ذلك الأمد الطويل الذي سيطر فيه على أقطار أسيوية وإفريقية وأوربية؟

إن الدكتور طه لو قال هذه الكلمة - وهي حق - لسرت عدواها إلى روح الأستاذ أحمد أمين فاندفع يثني على الأدب العربي بما هو أهله، ولكان من الممكن أن يصرح بأن الأدب العربي نبغ فيه من الكتاب عشرات أو مئات

ولكن الدكتور طه يترفق بأصدقائه أشد الترفق، ويحرص على ستر ما يقعون فيه من أوهام وأضاليل، وقد يقدمهم إلى الجمهور في جلبة وضوضاء، فكيف ننتظر أن يقول في الأدب العربي كلمة حق تشجع رجلاً مثلي على مهاجمة رجل يستبيح في الغض من أدب العرب ما لا يباح؟

لقد قضيت أعواماً طوالاً في محاربة الدكتور طه حسين، واستطعت أن أعدل مسالكه الأدبية بعض التعديل، فهل أستطيع اليوم أن أخوفه من عواقب السكوت على أغلاط بعض زملائه الأعزاء؟

إن الدكتور طه هو المسئول عن احمد أمين، فهو الذي قال: (إن أحمد أمين لم يكن يعرف نفسه فهديناه إليها) ومعنى ذلك أن أحمد أمين لم يكن يعرف أنه أديب قبل أن

يدله الدكتور طه على الكنز المدفون في صدره
كنت أعرف أن الدكتور طه على خطأ يوم ظن أنه استكشف (الأديب) المدفون في صدر احمد أمين، ولكني رأيت ألا أسارع إلى تخطئة الدكتور طه، علماً بأن الأيام سترد الدكتور طه إلى الصواب، فهل ردته إلى الصواب؟
لقد حدثتكم من قبل أن أحمد أمين لم يكن أديباً، وإنما كان موظفاً مخلصاً للوظيفة لا يرى ما عداها من الشؤون، ثم قال له طه حسين: كن أديباً، فكان
واليوم أحدثكم أني أخطأت، والصواب أن أحمد أمين لم يكن أديباً، وإنما قال له طه حسين: كن أديباً، فلم يكن!
يا دكتور طه:
هل تصدق القول بأن اللغة العربية لم يكن فيها كاتب يحلل المعاني غير ابن خلدون؟
أحب أن أساجلك الحديث، فقد ضجرت من مساجلة أحمد أمين
ما رأيك في الرعيل الأول من الكتاب بعد عصر النبوة؟
ما رأيك في الخطاب الذي وجهه عبد الحميد بن يحيى إلى الكتاب؟
ألا تراه غاية في تحليل المعاني وتشريح الأغراض؟
وما رأيك في طريقة عبد الله بن المقفع وهو ينثر الحكم أو يكتب العهود؟
إن كتاب كليلة ودمنة هندي الأصل، فليس لابن المقفع غير الترجمة والتهذيب، ولست من القائلين بأن كتاب كليلة ودمنة من إنشاء ابن المقفع، ولكن ما رأيك في مقدمة ذلك الكتاب، وهي بالتأكيد من إنشاء ابن المقفع؟
أليست تلك المقدمة شاهداً على أن ابن المقفع يجيد الاستيعاب والاستقصاء؟
وما رأيك في الكتاب الذين عرفتهم اللغة العربية بعد ذلك؟
هل يستطيع إنسان أن يقدم ابن خلدون على الجاحظ إلا وهو محروم من نعمة الفهم والذوق؟
إن الجاحظ كاد يستوعب جميع المعارف في عصره، وكاد ينطق جميع الأحياء والأموات بما عرفوا وأحسوا من دقائق الأشياء. والذي يقرأ رسائل الجاحظ ومؤلفاته يشهد المعارك والمصاولات بين أصحاب المذاهب والآراء، ويرى كيف تصطرع الطبائع والنحائز والخصال
فهل يحوز القول بأن اللغة التي عرفت أدب الجاحظ ليس فيها كاتب غير ابن خلدون؟
وما رأيك في ابن قتيبة؟
هل تذكر مقدمة كتابه (أدب الكاتب)؟
إن (أدب الكاتب) هو في الأغلب دراسات لغوية وصرفية ولكن ما رأيك في مقدمة ذلك الكتاب؟
أليست غاية في التحليل والتشريح؟
وقبل الجاحظ وابن قتيبة عرف الأدب العربي (مشاورات المهدي لأهل بيته) وأذكر أنك حاورتني في صحة هذه المشاورات وصح عندك أنها من الأدب المنحول، وكانت حجتك أنها لم تذكر في غير كتاب العقد الفريد. وقد ضاق وقتي عن تعقب المصادر التي وردت فيها إشارة إلى تلك المحاورات، فهل تظن أنها من بعض ما اخترع كتاب الأندلس؟
المهم، يا سيدي الدكتور، أن نتفق على أنها سبقت القرن الرابع، ولا يهمنا بعد ذلك أن تكون مشرقية أو مغربية، كما لا يهمنا أن تكون من نتاج القرن الثاني أو الثالث، فما يعنينا في هذا المقام إلا أن نتخذها شاهداً على أن من كتاب العرب من أجادوا التحليل والتشريح قبل ابن خلدون بأجيال طوال
ومن المؤكد أن مشاورات المهدي لأهل بيته ليست أول وآخر ما عرف العرب من هذا الطراز، فلها أشباه كثيرة منها (حديث السقيفة) الذي قصه علينا التوحيدي والذي نقده ابن أبي الحديد
ولولا خوف الفتنة لأشرت إلى قصة دينية كثر فيها الحوار والتمثيل، وهي من الشواهد على أن العرب تنبهوا من وقت مبكر إلى تحليل المعاني وتشريح الأغراض
وما رأيك في أبي حيان التوحيدي؟
ألا ترى أن أعماله في القرن الرابع تذكر بأعمال الجاحظ في القرن الثالث؟
كان الجاحظ ينطق العلماء والفقهاء والأدباء، وكذلك كان التوحيدي ينطق من عاصروه

بألوان كثيرة من صور الفكر والبيان
ومن المؤكد أن التوحيدي أكتب من ابن خلدون وأسبق إلى تشريح الآراء والأهواء
ومن المؤكد أيضاً أن التوحيدي لا يقل عن أعظم كاتب عرفته اللغات الأجنبية، وشمائله في الأسمار تذكر بشمائل أناطول فرانس
وهل يذكر الدكتور رسالة الطير والحيوان بين رسائل إخوان الصفاء؟
لقد دلنا ابن أبي الحديد على واضع (حديث السقيفة) فمتى نعرف الكاتب المجهول الذي وضع (مشاورات المهدي لأهل بيته)؟ ومتى نعرف الكاتب المجهول الذي وضع (رسالة الطير والحيوان)؟
قد نتعزى حين نيأس من معرفة المهندس الذي وضع تصميم الأهرام، والمهندس الذي وضع تصميم إيوان كسرى والمهندس الذي وضع تصميم قصر الحمراء، ولكنا لن نتعزى أبداً عن اليأس من معرفة الكاتب الذي وضع (رسالة الطير والحيوان) لأنه عندنا أعظم كاتب عرفته الآداب العالمية بعد أفلاطون
هل يذكر الدكتور ما قال يوم لقيته في جريدة كوكب الشرق؟
لقد صارحني الدكتور طه حسين بأن الفصل الذي حللت به رسالة الطير والحيوان في كتاب النثر الفني غير كاف، وقد أجبت بأنه فصل من كتاب، وتحليل هذه الرسالة يحتاج إلى كتاب خاص
فكيف يقال إن اللغة العربية لم ينبغ فيها كاتب غير ابن خلدون وفيها (إخوان الصفاء) الذين سجلوا معارف زمانهم أعظم تسجيل؟
لقد أشرت من قبل إلى الميزة الخلقية التي امتاز بها أولئك القوم، وهي نكران الذات، وإلا فمن الذي يصدق من أهل عصرنا أن جماعة من أهل البصرة أو غير أهل البصرة يخفون هوياتهم عن أعين التاريخ مع تلك القدرة الباهرة على تشريح الحقائق والأباطيل؟
وما رأي الدكتور في ابن شُهيد صاحب (التوابع والزوابع)؟
ألا يسمح لهذا الكاتب المبدع بأن يضاف إلى من يجيدون تحليل المعاني واستقصاء الأغراض؟
إن ابن شهيد في تلك الرسالة قارع المعاني الصعبة مقارعة الفحول، ودخل في شعاب لا يهتدي إلى مسالكها غير المزودين بأضواء البصائر والقلوب، فكيف يُجهل ويُعرف ابن خلدون؟!
وما رأيك في التنوخي صاحب (نشوار المحاضرة)؟
ألا يذكرك هذا الكاتب بكتاب (الصور) من أقطاب الفرنسيس والإنجليز والألمان؟
لو كان التنوخي في أمة غير الأمة التي طبع فيها ديوان ابن خفاجة مرة واحدة في مدى أربعين سنة لجاز أن يخطر في بال الذي قال إن اللغة العربية لم تعرف كاتباً غير ابن خلدون!
وما رأيك في ابن مسكويه صاحب (تجارب الأمم)؟
ألم يهتد ابن مسكويه إلى فلسفة التاريخ قبل ابن خلدون بأزمان؟
وما رأيك في الجرجاني صاحب (دلائل الإعجاز)؟
هل ترضى أن توازن بين الجرجاني وبين لانسون؟
إن الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز أبرع وأعظم من لانسون في كتابه ' ' ولكن لانسون وجد رجالاً يعرفون قيمته الأدبية، أما الجرجاني فله أخلاف ينسونه ويذكرون ابن خلدون!
وهل يمكن لرجل فيه بقية من الفهم والعقل أن يتناسى العظمة الفكرية عند أمثال عبد القاهر الجرجاني؟ ومن قبل الجرجاني عبد القاهر كان أستاذه أبو الحسن الجرجاني الذي فصل ما بين المتنبي وخصومه أعظم تفصيل، والذي أدخل في الأحكام الأدبية روحاً من عدل القضاء.
ومن قبل هؤلاء نشأ احمد بن يوسف المصري الذي برع في تسجيل ما عرف عن معاصريه من محاسن وعيوب، والذي وصل إلى الغاية في شرح أهواء النفوس
وهل ترى أن يقف الأدب عند الرسائل والمؤلفات التي غلبت عليها الصفة الاصطلاحية؟

إن ميدان الأدب أوسع من ذلك، فإليه تضاف أعمال المؤلفين في التصوف والأخلاق
إن صح هذا - وهو صحيح - فهل أستطيع أن أعرف رأيك في الغزالي؟
أنا أعتقد أن الغزالي من فحول الكتاب في اللغة العربية، وأومن بأنه من المبتكرين في تحليل النوازع النفسية والقلبية، وفي كتاب (الإحياء) فصول تشهد بأنه من أئمة الفكر والبيان
اقرأ - إن شئت - بعض ما كتب في الرياء تجده أتى بالأعاجيب في التنبيه على المجهول من سرائر النفوس، وتعرف - وأنت تعرف - أنه في بابه أعمق من ابن خلدون وأقدر على التحليل والتشريح
قلت في محادثة قريبة بأنه لا يسرك أن تراني أعتدي على الناس.
لقد ذهب الناس، يا سيدي الدكتور!
أليس من المحزن أن يحتاج الأدب العربي إلى من يحميه من غطرسة بعض الأساتذة بكلية الآداب؟
إن الأستاذ الذي لم يعرف في اللغة العربية كاتباً غير ابن خلدون لم يطلع أبداً على كتاب الفتوحات المكية، فلو أنه كان اطلع على ذلك الكتاب لعرف أن عندنا كاتباً فحلاً هو ابن عربي الذي طوف بآفاق يجهلها أكثر الأدباء في هذا الجيل
وهو أيضاً لم يطلع على مؤلفات الشعراني الذي صور المجتمع المصري في القرن العاشر تصويراً نعجز عن مثله اليوم، وأكاد أجزم بأن الصحف المصرية على اختلاف ألوانها ونزعاتها لا تعطي من صور مصر في العصر الحاضر ما أعطته مؤلفات الشعراني من صور مصر في القرن العاشر
وما كان الغزالي ولا ابن عربي ولا الشعراني إلا تلاميذ لأساتذة مجهولين وضعوا الأساس لحياة الفكر والتأليف في مختلف الأقطار العربية والإسلامية
هل تذكر المقريزي، يا دكتور؟
أنظر خطط المقريزي، وتذكر العصر الذي عاش فيه المؤلف ثم وازن بينه وبين أي باحث من نوعه عاش في الأقطار الأوربية، فإن فعلت فسترى أن أسلافنا كانوا من أئمة الابتكار والابتداع
فبأي حق يقال إن اللغة العربية لم ينبغ فيها كاتب غير ابن خلدون؟
إن ابن خلدون ممتاز في الترتيب والتبويب، وتلك هي الصفة التي يعنيها أحمد أمين، فأين هو من القلقشندي الذي بوب (صبح الأعشى) تبويباً معدوم النظير؟
وأين هو من السخاوي الذي صور القرن التاسع كأنك تراه؟
وأين هو من الحركات العقلية الممثلة في ذخائر التفكير العربي والإسلامي؟
الأدب، يا دكتور، له فنون تتجاوز ما أسلفنا من الفنون، فأين صاحبك من الكتاب الذين شغلوا أنفسهم بتشريح الدقائق النحوية والصرفية؟
إن سيبويه ألف (الكتاب) في القرن الثامن للميلاد، فهل تعرف أن الأقطار الأوربية كان فيها مؤلف يشرح أصول النحو والصرف كما صنع سيبويه في ذلك العهد؟
وهل يمكن أن يقال إن ابن خلدون كان في التشريحات السياسية والاجتماعية أعمق من سيبويه في التشريحات النحوية والصرفية؟
وهل يمكن القول بأن جوهر العقل عند سيبويه أقل قيمة من جوهر العقل عند ابن خلدون؟
إن الأستاذ أحمد أمين لا يرى غير ظواهر الأشياء، ولو كان عميق الفكر لعرف أن رجلاً مثل ابن هشام الأنصاري خليق بأن يوضع في أول صف من صفوف الباحثين الذين يجيدون تشريح المعاني، فهذا الرجل عرض مسائل النحو في صور مختلفات، وبذل في ذلك جهداً يشهد بأنه في غاية من سمو الفهم والعقل، وقد استطاع أن يجعل القاهرة في صف البصرة والكوفة وبغداد، ومجموعة المحاولات التي بذلها في تكييف المعضلات النحوية والصرفية أقوى من مجموعة المحاولات التي بذلها ابن خلدون في تكييف السياسة والاجتماع
إن فقهاء الشرع الإسلامي كان فيهم فحول من الوجهة الأدبية، ولكن أين من يدرك أن البويطي صاحب كتاب الأم كان من أقطاب البيان؟
أين من يصدق أن البويطي عرض الخلاف بين الشافعية والحنفية عرضاً هو الغاية في حسن التعبير، ودقة الوصف، وسداد الأداء؟

ومع ذلك نجد من يقول بأن اللغة العربية لا تعرف كاتباً غير ابن خلدون!
أما بعد فما الذي بقي لأحمد أمين وقد مزقنا أوهامه كل ممزق!
بقي أن نبين أن أغلاطه ليست أغلاط الرجل المجتهد - وللمجتهد أجر حين يخطئ وأجران حين يصيب - وإنما أغلاطه مسروقة سرقة حرفية من بعض أدباء هذا الجيل فكيف سرق أحمد أمين تلك الأغلاط؟ وكيف خفيت سرقاته على الناس؟
سنكشف تلك السرقات في مقال أو مقالين، ثم نتركه في سلام ليتذوق البقية من أطايب رمضان، إن لم يجد ما يوجب أن يفطر يوم العيد على حديث ذي شجون
زكي مبارك

على ذكر الحرب الراهنة

موقف العلم من الكمال الإنساني

للأستاذ توفيق الطويل

1 - العلم وتطور غاياته في شتى العصور:

نشأ العلم جنيناً في أحشاء المعرفة البشرية عند قدماء المصريين والهنود ومن إليهم من شعوب الشرق القديم، وكان أداة لخدمة الحياة العملية، وتحقيق الملح من مطالبها، ووسيلة لتنمية العقيدة الدينية وتوكيد سلطانها في قلوب الناس، ثم أقبل عصر الفلسفة اليونانية فجاهد أهلها لإنقاذه من عبء الحياة العملية وضغط العقيدة الدينية معاً، ورفعوه إلى البحث البريء الذي لا يعرف غاية يرمي إليها إلا اللذة العقلية وحدها. ثم أقبلت العصور الوسطى وقد تمكن الدين المسيحي من قلوب الناس، وهيمن على عقولهم، فهبط العلم من سمائه وأدركته العبودية من جديد. إذ سخره أهله لخدمة الدين وتمكين نفوذه، وأقام العلم على احتماله لهذا الاستعباد حين تمرد أساطين النهضة على سلطان الكنيسة، وتولوه بالتحطيم والتدمير. وأقبل القرن السادس عشر، وأوربا في غليان فكري أثار لوناً من الشك الهدام. أفقد الناس اليقين في مجال العلم، والاطمئنان في ميدان العمل، وحطم وحدة أوربا وتركها ركاماً وأنقاضاً، واطمأن لهذا الانتصار الفاشل دعاة الشك اليائس: أجريبا وسانشيه ومونتاني. بيد أن الناس قد ضاقوا بدعوتهم وتطلعوا إلى اليقين والاطمئنان واستخفهم الرضا عن دعوة جديدة ظهرت في أواخر القرن السادس عشر لمقاومة هذا الشك الهدام، تولاها ثلاثة من أعلام الفكر هم: شارون وديكارت وبيكون، فدعا الأول إلى الاطمئنان عن طريق الإيمان الديني - وكان روح العصر لا يلائم دعوته - وبشر الثاني باحترام العقل واعتباره أصدق معين تستقى منه المعرفة الصحيحة فكان أبا الفلسفة الحديثة؛ ونادى بيكون بالإيمان العلمي عن طريق التجربة، وحدد للباحث طريقته ورسم له منهجه، وأعلن ميدان العلم وغايته في وضوح لا يحتمل الالتماس فكان أبا العلوم الطبيعية الحديثة، وعلى يديه خرج العلم من أحشاء المعرفة البشرية، واستقل عن الدين والفلسفة والأدب، وتميزت شخصيته وتحدد ميدانه وعرفت غايته. ذلك أن بيكون أعلن احتقار العلم الذي يدرس للذة العقل أو خدمة الدين، وأكد الدعوة إلى ربط الأبحاث العلمية بالحياة العملية وقصرها على صالح الإنسان ومنفعته. فكان ميلاد العلم الحديث شبيهاً من بعض الوجوه بميلاده القديم. واستبسل بيكون في الدفاع عن العلم حتى كفل له الاستقلال عن سائر ألوان المعرفة، وحط عن كاهله عبء الأغراض الدينية ولكنه لم يكفل له حريته كاملة موفورة، فأذله مرة أخرى وسخره لخدمة الحياة العملية وتوفير السعادة للناس. وهكذا بدأ العلم في عصوره الحديثة مستقل الشخصية صاحب منهج محدود وغاية مرسومة، يتهكم بالفلسفة ويسخر من أهلها، ويبتعد عن العقيدة الدينية ويقيم الحدود الفاصلة بينه وبينها، ولكنه مع هذا الاعتزاز الذي لازمه الغرور قد شعر بعد بأنه ليس سيد نفسه. إنه مسخر لخدمة الإنسان، ونجاحه رهن بتحقيق هذه الغاية. فلما شب العلم بعد هذا ونضج عقله، ثاب إلى رشده، فكف عن الطعن في الفلسفة، وتقبل منها النصح بعد أن أرشدته إلى الكثير من أخطائه، وأخذ يجاهد لتحرير نفسه من ذل الأغراض التي رسمها له أبوه، وأصاب النجاح في مسعاه، وحقق حريته كاملة غير منقوصة، وأصبح يدرس لذاته بقطع النظر عن كل غاية - بالغاً ما بلغ سموها - إلا إذا اعتبرت اللذة العقلية نفسها غايته. إنه قد تحرر من ذل الحياة العملية واستعباد العقائد الدينية وامتهان الأغراض القومية - أو هكذا يزعم أصدقاؤه وحواريوه - وأصبح يفاخر الأدب والفن

والفلسفة بأنه سيد نفسه، لا يخضع للعاطفة، ولا يحترم الهوى، ومنهجه موضوعي قائم على تعرف الشيء من حيث هو شيء، دون نظر إلى علاقته بخير المجتمع وصالح الإنسان. وقد أدى هذا بقواعده إلى أن تكون بمنجاة عن التأثر بالزمان والمكان وما يلابسهما من ظروف. أما الفلسفة والأدب فإن أحكامها تقديرية بالإضافة إلى ذات شاعرة مدركة تتأثر بمزاجها وتتفاعل مع بيئتها وظروفها. ووجه الخلاف بين هذا المنهج العلمي الحديث، والمنهج الذي رسمه بيكون قائم في الغاية وحدها. كان بيكون لا يحترم العلم إلا بمقدار ما يحققه للإنسان من خير، وما يوفره للمجتمع من نفع وهناء، فاسترد العلم حريته التي كانت له أيام اليونان، وأصبح يجاهر على لسان المجمع البريطاني لتقدم العلوم سنة 1915 بأن العلم يطلب لذاته أولاً. قال رئيس المجمع ما خلاصته: إني أقدر العلم حق قدره، وأكبر خدماته للمجتمع الإنساني، ولكني أعلن أن العلماء إذا اغتبطوا للظفر بما تضم الأرض من ثراء، وما تنطوي عليه كواكب السماء وجواهر المادة من قوة،

فليس مرد اغتباطهم إلى أنهم يرفعون الثروة المادية فوق اللذة العقلية؛ وإنهم ليستشعرون اللذة مضاعفة عندما يستعملون قوى العقل للوصول إلى منفعة الأمة، ولكن هذا كله لا ينبغي أن يمنعنا من تخطئة الحط من شأن المبادئ الأدبية، فإن هذا الامتهان قد ولد الرأي الفاسد القائل بأن القوة تخول صاحبها امتلاك ما يشاء (لعله يقصد ألمانيا التي أشعلت الحرب الكبرى قبل خطابه ببضعة شهور). ثم قال المجمع في اجتماعه الذي عقده بعد ذلك بعشر سنوات: إن القائلين بأن غاية العلم هي التسلط على قوى الطبيعة لخدمة الإنسان - وهي دعوة بيكون - يبالغون في الاعتقاد بصحة ما يزعمون، فما كانت المنفعة أكبر الأسباب التي حملت العلماء على مواصلة أبحاثهم، ولكن أول غرض يرمي إليه العلم، إنما هو الكشف عن قوى الطبيعة ومعرفة ما بينها من صلات، وتصنيفها حتى يأتلف من مجموعها نظام معقول. ذلك أول أغراض العلم؛ أما المنفعة المادية فيجنيها الناس بعد من وراء ذلك، وبهذا يصبح الاشتغال بالعلم لذة عقلية تكاد تلحقه بالفنون الجميلة!. . . والعلماء الذين يبلغون مناهج العلم العليا يشعرون بالرابطة التي تصل بين العلم والفن، وتجعل الطبيعة موضوع بحثهما معاً لغير ما غاية إلا التملي بجمالها. إن التحليل الجبري المنظم لشبيه بالنغمة الموسيقية ذات التوقيع المتسق، وهذا تشبيه يثير دهشة الذين لا يرون في الجبر إلا أرقاماً وعلامات، ولكنه مقبول عند الذين يعرفون نسبة هذه الأرقام والعلامات إلى المعنى الذي تخفيه وراءها، فهي كنسبة العلامات الموسيقية إلى الأنغام المطربة، والأثر الذي تخلفه في نفوس سامعيها. ثم يعزو رئيس المجمع اهتمام العلماء بالعلوم الطبيعية إلى ما تنطوي عليه مباحثها من بهجة وجدة، لا إلى ما ينتظر من ورائها من نفع مادي، وإن كان تحقيق هذا النفع أمراً أكيداً!

بهذه الروح (الفنية) يتحدث العلماء المحدثون عن العلم وغاياته. كان بيكون في مستهل العصور الحديثة يتهكم بالعلماء الذين ينفقون الوقت الطويل في الدراسات النظرية التي لا ترمي إلى خدمة الإنسان، فأصبح العلماء في آخر القرن الماضي يتحدثون عن علاقة العلوم الطبيعية بالعلوم الأدبية، ومشاركتها لها في تهذيب النفوس، ويقولون أنا نلوم العلوم الأدبية إذا اقتصرت على دراسة الإنسان وأعماله، وأهملت ظواهر الطبيعة وقواها؛ ثم نلوم أنفسنا إذا اقتصرت - علومنا الطبيعية - على النظر إلى الطبيعة ولم تتجاوزها إلى الإنسان وأعماله. ثم تطورت هذه الروح في القرن العشرين حتى أصبح العلماء يفكرون في العلاقة بين العلوم الطبيعية والفنون الجميلة، ويتحدثون عن الجمال الذي تكشفه الدراسات إذا انصبت على ظواهر الطبيعة، ويتكلمون عن أثر هذا (الجمال) في نفس العالم وتشجيعه على مواصلة البحث، وإن لم ينكر هؤلاء العلماء ما يترتب على دراساتهم من نفع إنساني لم يقصدوا إليه، ولم يتجهوا إلى تحقيقه. تلك أحدث وجهات النظر في فهم العلم الطبيعي وتجديد غاياته فيما نعلم

2 - تبعات العلم في الحرب والسلم

تحرر العلم من تبعة الويلات التي قد تترتب على بعض مبتكراته ومخترعاته، وإن لم ينج من النقد الحر الذي ترتفع به صيحات الناس إبان الحروب وبعد أن تخمد نارها، فإن الحرب إذا اندلع لهيبها قصر العلم غايته على تقديم الوقود لها، وخص بلاده بكل

جهوده، وتحول العلماء بين جدران معاملهم إلى جنود بواسل، يبذلون الجهد صادقين في إنقاذ الوطن، أو يفرغون الوسع جاهدين لتحطيم أعدائه، ولهذا انصبت اللعنات على العلم دون حساب، وأحس أهله - في فترة مضت - بحرج مركزهم؛ فأخذوا يلتمسون لأنفسهم الأعذار. وتذرع المجمع البريطاني بحجة أعلنها سنة 1899، ثم كرر إعلانها سنة 1925 فقال: إن الجندي يسعى لحفظ حياة الأفراد، أما العالم فإنه يجاهد لحفظ حياة النوع بالعمل على إيقاف الحرب بما يخترع من آلات التخريب وأدوات التدمير، والظفر في الحرب يكسب السلم الذي يصون الحرية الفكرية ويستأصل الشر الذي يجور على محبة الأمم ويبشر بالحق والمحبة في بقاع الأرض طراً. . .! وهذا العذر يكاد لا يفترق عن الحجة التي تذرع بها نابليون يوم طمع في إخضاع العالم وتوحيد حكمه. وقد ردد الحلفاء صداها في الحرب الماضية، وتثار اليوم في الحرب الراهنة التي ترمي إلى القضاء على الهتلرية التي أنهكت أعصاب العالم وهدت قواه، بما تظهره من امتهان الوعود والحنث بالعهود. فكأن رجال العلم حين التمسوا لأنفسهم الأعذار عن تسخير علمهم لغرض قومي عملي، قد تحولوا إلى رجال سياسة! وقد كان في وسعهم أن يقولوا إن الحروب إذا اندلع لهيبها، انقلبت الأوضاع واضطربت الغايات، وأصبح من واجب العلم أن يلبي نداء الأوطان. إن المواطن في أعرق البلاد نزوعاً للحرية والديمقراطية، يكاد أن يستحيل آلة في يد الوطن

إذا حاق به خطر، فلماذا ننكر على العلم خروجه عن حريته، ومرضاته بخدمة غرض قومي متى دعا الداعي ونادى الوطن؟

ورغم أن العلم قد تحرر من ذل الأغراض فما زال مثاراً لاتهامات تنصب عليه في أيام السلم كذلك، وحجة المتهمين أن مخترعاته قد ترتب على بعضها ما يراه البعض شراً وأذى، وقد يطالبونه بتحقيق ألوان من السعادة الموهومة ويحاسبونه على عجزه عن تحقيقها! قال الرئيس ولسون: إن العلم قد أخفق في تحقيق الإصلاح العاجل وتوفير الفردوس الأرضي للناس. إنه أفادنا في عالم المادة وحررنا من خوف الخرافة والمرض، ولكنه فشل في تغيير الطبيعة البشرية وتخليصها من أدران الأحقاد والضغائن، وبذلك ظل الناس عبيداً لأنفسهم. فرد عليه المجمع البريطاني قائلاً: لماذا نلقي على عاتق العلم تبعة الفشل الذي انتهت إليه آمال لم يعد العلم بتحقيقها؟ إن العلم لا يدعي إصلاح الطبيعة البشرية، وقد يكون في مقدوره أن يغير البيئة ويزيد في منفعة الإنسان، ويوسع من رحاب مداركه، ولكنه غير مسئول إذا أساء المرء استعمال آثاره. فعلم الطب قد يطيل حياة الناس، ويكفل لهم الصحة والعافية، ولكنه غير مسئول عن تُقْضى الحياة التي نجح في إطالتها. وقد يكفل للأشرار القوة كما يكفلها للأخيار ولكن ذلك لا يبرر المطالبة بإغلاق المستشفيات حتى لا يفيد منها دعاة الشر والإجرام

ترى مما أسلفنا أن العلم وإن كان قد بدأ في العصور الحديثة موصول الرابطة بصالح الإنسان، إلا أنه مضى في تطوره حتى أزاح عن كاهله خدمة المجتمع واسترد حريته وسيادته، وأضحى عند أهله بحثاً موضوعياً يعينهم على التملي بجمال الطبيعة واستشعار اللذة العقلية عند فهم ظواهرها. أما المنفعة المادية فتجيء عرضاً من تطبيق نتائج العلم لصالح المجتمع، واعتبر المحدثون توجيه العلم للنفع المادي استعباداً للعقل وامتهاناً لقداسته، بالإضافة إلى ما ينشأ عن تقييد حريته من انحطاط فكري شهد به تاريخ الفكر منذ أقدم العصور. وما دام العلم في عهده الأخير لا يتصل بالكمال الإنساني اتصالاً مباشراً، وهو زاهد في ثناء الناس على ما قدم من خدمات، غير مستعد لاحتمال التبعات التي يلقيها على عاتقه خصومه، فليس من حقنا أن نتولاه باللوم كلما تطايرت إلينا أنباء الحروب وفظائعها. وإن كان لابد من الحديث عن موقف العلم من الكمال الإنساني لمعرفة ما حققه

من خير وما جره من ويلات - وجب أن نتحدث عن العلم في أول مراحله كما صوره فرنسيس بيكون أداة لخدمة الإنسان. والكلام على بيكون وتبشيره برسالة العلم والمدنية، يذكرنا بجان جاك روسو ورسالته القائمة على الدعوة إلى الطبيعة والعيش على مقتضى الإلهام والفطرة البسيطة؛ وذلك ما نخصص لمناقشته مقالنا القادم ت. الطويل

الحد الفاصل بين أدب الروح وأدب المعدة
للأستاذ محمود علي قراعة

قرأت لأستاذنا الدكتور زكي مبارك في العدد 325 كلمة ذكر في آخرها آية كريمة وسألنا هل نعدها أدب معدة أم أدب روح. وهو بذلك يحاول أن يدخلنا في الميدان الذي دخل فيه متحدياً كل فكرة روحية، متهكماً على كل نزعة سماوية، مستنداً بذلك إلى مكانته الأدبية ولباقته وما أوتي من قوة غريبة على الدفاع عن القضايا الخاسرة. وهو لذلك يقف دائماً نصيراً لكل فكرة حسية ويقف نفسه موقف العداء لكثير من المعنويات وإن كان قلمه السيال كثيراً ما يجرفه ويخرجه عن الحسيات إلى المعنويات والروحيات من غير أن يشعر. والحقيقة أن الدكتور زكي مبارك مشكلة لأنه خليط لم يمتزج بنسب معينة من القوى النفسية المختلفة، فتارة تراه الخير كله والإخلاص كله والوفاء كله، وآونة تجده يميل كل الميل إلى الخروج عما يتصل بالروح إلى النزول إلى ما يوثقه بكل أرضي وبكل نازع لحسي. وفي تاريخه أمثلة متضاربة لكل ما يمكن تصويره من الميل إلى أحد هذين الجانبين؛ فتارة تراه صوفياً مدروشاً، وأخرى تلفيه ساخراً بالحياة وعابثاً فيها. ولكن إذا كان أستاذنا الدكتور يرى لنفسه الحق في أن يتشكل كما يشاء وأن ينضم إلى الجانب الذي يريد، فلا أدري لماذا نراه متهكماً على كل فكرة روحية ومحارباً لكل النازعين إليها؟! كثيراً ما ردد في الرسالة كلمة أدب الروح وأدب المعدة، لا لأن الاصطلاح في ذاته غير موفق بل لأن أستاذنا أحمد أمين قد وضعه لتقويم الأدب وصحة تقديره. ولأستاذنا الدكتور الخيرة في أن يواصل حملاته على صديقه أو أن يقفها لأنه حر إذ لم يرد أن يسمع رجاء تلاميذه وإخوانه في أن النقد ممكن من غير خصومة كما فعل أستاذنا الدكتور عبد الوهاب عزام؛ ولكن الذي لا نقره ولا نستطيع السكوت عليه أن نغفل مناقشة ما يرد في حملاته مما عسى أن يمس الأدب في ذاته من قريب أو بعيد. فأستاذنا أحمد أمين يعني بأدب الروح الأدب الذي يتصل بالعواطف السامية عند الإنسان فيهذبها ويرقيها ويغذيها؛ ولذلك رأى أن القرآن أدب روح لأنه يسمو بالإنسان عن عالم المادة ويأخذ بيده إلى السماء لينظر إلى الأرض وما فيها نظرة تريه الحق حقاً والباطل باطلاً. ولكن أستاذنا الدكتور زكي مبارك تأبى عليه نزعته الحسية إلا أن يعارض هذا. ورأى أن أقرب مثل يؤيد وجهة نظره أن يذكر ما في

القرآن من آيات تذكر وجود أشياء حسية في الجنة، مع أنه كان يجب على أستاذنا الدكتور أن يرى أن أقل ما يمكن تصوره في عالم سيخلو من البؤس والفقر والهرم، ولن تهيئ طبيعته المجال لظهور الحكمة والعفة والشجاعة والعدالة وما يدخل تحت كل منها من فضائل إنسانية، أن ينعم الناس فيه بالاتحاد والمحبة فتتاح لهم أنواع المحبة من إلهية وصداقة أخوية، وفهم نزوع الأشياء المادية التي ستوجد هناك إلى التمتع بفكرتها الروحية، فما وجد من جميل صور من حور وولدان، نزع به إلى فكرة تقديس خالق هذه الصور، وما وجد من قصور وأنهار وفاكهة نزع به إلى النشوة الروحية من وجود هذه الأشياء، وأن ليس معنى هذا خلو الجنة من استلذاذ بالحور العين الاستلذاذ الحسي أو بما هنالك من مأكول ومشروب وحلي وحلل، وبذا نضع الفكرة الروحية في درجتها العلوية ونجعل الحسيات في درجتها الثانوية، بل ونسمو بها إلى فهمها الفهم القريب من الروح. ونحن بذلك نسمو باللذة الممكن تصورها في الجنة من غير نكران لحسيتها بجعلنا الحسي تابعاً للروحي إذ أكثر جزئياته روحية. ولو تدبر الدكتور قوله تعالى في سورة السجدة: (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) وقول النبي (ص) في حديث قدسي عن ربه تعالى: (أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) لوصل إلى أن المذكور في القرآن في سورتي الرحمن والواقعة وغيرهما وفي الأحاديث الصحيحة لا يفيد أن المذكور مذكور على سبيل الحصر بل على سبيل التمثيل لما سيوجد، ولعرف أنا وقد استبعدنا الأخذ بالنظرية التصويرية لمخالفتها لكثير من النصوص وما تحتمله قرائنها مثل الطمث للحور، لا نجد أمامنا إلا أحد أمرين: إما أن نأخذ بالنظرية الحسية أي بتغليب اللذات الحسية على الروحية، أو أن نأخذ بالنظرية الروحية التي تغلب اللذة الروحية على الحسية فلو أخذنا بحسيتها تغليباً، لنزلنا بها ولشبهناها بلذة الدنيا المتواضعة فأخرجناها من سموها الذي يجب أن تكون فيه لتتلاءم

مع نفوس أصحابها، ولذا لم يكن بد من أن نأخذ بروحية اللذة تغليباً. وعلى ذلك فذكر القرآن الكريم الأشياء المادية حتى على فرض الأخذ بالنظرية الحسية إطلاقاً لا يفيد أن القرآن أدب معدة وهو مملوء بما يفيد أن الجنة جزاء من عمل صالحاً وجزاء من اتقى. وليتل دكتورنا إذا شاء قول الله تعالى (لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في
سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة، وكلاً وعد الله الحسنى، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما، درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيما) وقوله تعالى (فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) وقوله (وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً، حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين) وقوله (كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين، وما أدراك ما عليون؟ كتاب مرقوم يشهده المقربون) وقوله (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون، وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن، ومن أوفى بعهده من الله، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم) وقوله حكاية عن أولي الألباب من عباده قولهم (ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار، ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد) وقوله: (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً خالدين فيها) وقوله: (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم) وقوله: (إن المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق) وقوله: (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس، والله يحب المحسنين، والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون. أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين) فهذه الآيات الكريمة وأمثالها التي كثر ذكرها في القرآن الكريم أكبر دليل على أن القرآن روحي لأنه جعل الجنة (حتى لو أخذنا بحسية اللذات إطلاقاً) جزاء المجاهدين والصالحين والمتقين والمؤمنين والمستغفرين؛ أي جزاء من سمت روحه بالإيمان وزكى نفسه بالتقوى وكان روحانياً بالجهاد والعفو والصلاح
ويرى أستاذنا أحمد أمين أن باب الحماسة في ديوان الحماسة مثلاً أدب روح لأنه صادر عن نفوس قوية، وباعث لمشاعر قوية، وداع لمواجهة هذا العالم وما فيه من نفوس أبية،
في غير خضوع ولا استخذاء، فلم يعترض أستاذنا الدكتور زكي مبارك على هذا لأنه لا يستطيع مهما كان نصيراً للحسية أن يقول بغير هذا، لذلك نجده بلباقة زكيه مباركة قد أغفل ذكر الحماسة وتخطاها إلى ذكر الغزل والحب. فأستاذنا أحمد أمين يرى أن غزل جميل وكُثير والعباس بن الأحنف، أدب روح، لأنه يصهر النفس ويطهرها ويجعل من آلامها وآمالها مبعثاً لفيض الحنان والرحمة والعطف على العالم وعلى الإنسانية كلها. وقال إن الغزل الفاجر أدب معدة وإن تعليل ذلك واضح بقليل من إعمال الفكر، فأتى أستاذنا الدكتور زكي مبارك في العدد 322 من الرسالة يعارض هذه الفكرة بقوله: (. . . لا يمكن للمرأة أن تكون مصدر وحي وإلهام للرجل إلا إذا اشتهاها شهوة حسية، ومن قال بغير ذلك فهو رجل ضعيف لا يدرك جوهر الصلات بين الرجال والنساء) ويقرر أن رجال الأخلاق لم يستنكروا الشهوات إلا بسبب الإسراف؛ أما الشهوات في حد ذاتها فهي من دلائل العافية، وأن فضيلة العفاف لا يقام لها وزن إلا حين تصدر من رجال مزودين بحيوية الشهوات، وأن للشهوة الحسية صلة بتفوق الرجال في الميادين العقلية، وهذا ليس مستبعداً من أستاذنا الدكتور الذي يعبر في كل كتاباته عن ميله للحسيات وهو بهذا ينصر أدب المعدة؛ لأنه ينصر الحب الفاسد ويخذل أدب الروح، لأنه يخذل الحب الروحي الذي يجمع بين قلبين، ولكن الغريب مع هذا أن نجد لأستاذنا الدكتور بعض كتابات تجعله من أنصار أدب الروح فمثلاً وقد فتحت الآن كتابه (ذكريات باريس) قد صادفتني ص13 وفيها يقول وصفاً لحسناء (هي فتاة ناهد حسناء رشيقة

القد، مشرقة الجبين، في عينيها النجلاوين بقايا خطيرة من سحر هاروت وماروت. . .
وفي صوتها غنة موسيقية. . . ولأناملها رقة جذابة تفيض بالكهرباء. . . وفي خطراتها
تكسر وتثن. . . ولها رفق بارع في إذكاء نار الحب والوجد فيمن تختار من أصحاب
القلوب. . .) فهذا الوصف من أدب الروح لأنه يعطي القارئ فكرة روحية عن حسناء
زكي مبارك الجميلة. وكذلك أعد من أدب الروح مقالة الحب الأثيم في باريس ص15
وما بعدها، لأنه وإن حدث عما في حدائق باريس من عشاق متعانقين ومتعانقات فوق
المقاعد مظللين بالأشجار المورقة، فقد كتب مقاله ليقرر (أن الشاب الذي يحمله
جنون الشباب على غشيان المواخير القذرة ثم يحمل مرضاً يعيا في برئه الأطباء) إنما
يخدع نفسه بقوله إنها تجربة، وإن كان قد أبى عليه حبه للحسيات إلا أن
يجعل جزءاً منه أدب معدة بتقريره بوجود حب شريف غير الهوى العذري المعروف
عند العرب (وهو الذي يجري بين فتى وفتاة أو رجل وامرأة لغرض غير مادي وتقع
حوادثه في الأوساط المعروفة بالاستقامة وحسن السمعة. . . ويستبيح أشنع الذنوب
والآثام ولكنه مع ذلك يجري فيه الأرق وتسيل من أجله المدامع، وتعرف فيه نكايات
الوشاة والعذال، وتتخذ من أجله الرسل، وتدون له المكاتبات. . .) ولعل الحد الفاصل
بين الحب الروحي والحب الفاسد هو أن الصلة في الحب الروحي تصل بين روحين
وقلبين، كما رأينا في رفائيل لامارتين وتعريب أستاذنا أحمد حسن الزيات؛ ففي ص82
تستنكر جوليا أن يتدلى الحب إلى اللذة الحسية الوضيعة، أو يتدنى إلى الشهوة
الدنسة الحقيرة لأنه إذ ذاك يفقد كبرياءه ونماءه وبقاءه. فيجيبها رافائيل في ص202:
بأن نار الحب القدسية قد أتت على هذه الشهوات الباطلة والنزعات السافلة فحولتها
إلى لهب صاف كقلبها نقي كحبها. ولذلك لا أدري كيف يستنكر أستاذنا الدكتور أن
يسمي ما يتصل بالروح كرواية رفائيل أدب روح، وما يتصل بالجسد أدب معدة لأنه
يتصل بالمعدة؟ وكيف أجاز لنفسه أن يدعي أن القائلين بروحانية الأدب قد خلوا من
الفتوة، أو أن المرأة لا تلهم الرجل إلا باشتهائها حسياً، أو بمعنى آخر إلا إذا كانت
الصلة بينه وبينها بهيمية، يعني أنها إذا كانت روحية بريئة لا تلهم على رأي الدكتور وفي
هذا ما فيه من النزول بالصلات وما فيه من الإلغاء للشعور القلبي والقرب من البهيمة
التي لا يهمها من الفحل إلا عملية التلقيح

ويقول أستاذنا أحمد أمين إن أدب الطبيعة أدب روح، لأنه شعور بالجمال مجرداً عن
الرغبة وتقدير للحسن منزهاً عن الأثرة، ومزيج من شعور بجمال وجلال يحد من كبرياء
الإنسان، ونبل هذا الأدب إنما يرجع لنبل غرضه. وظاهر أن غرض المتغزل في الطبيعة
التي خلقها الله، هو التفكير في خلق الله، وفي تقديس ما أوجده الله لنا من أشياء
حسية تدل في خلقها، وسمو صنعها على جليل قدرته وعظيم قوته، أي أن أستاذنا
أحمد أمين يرى أدب الروح هو كل أدب انبعث عن عواطف نبيلة ويدفع إلى أعمال
نبيلة، ولا أظن أستاذنا الدكتور زكي مبارك يعترض اعتراضاً جدياً على هذه التسمية
أما أدب المعدة فيرى أستاذنا أحمد أمين أنه ذلك الأدب الذي يدور حول ملء المعدة
واستدرار المال وتحصيل القوت، ومثل لذلك بالغزل الفاجر ومقالات الكاتب التي
باعثها

الأول ملء الأعمدة والاستيلاء على الأجرة، وأدب المديح؛ وظاهر أن سبب هذه
التسمية ضعة الأدب الذي يكون باعثه استدرار عطف من يغدق على المادح المال أو
يفيده من الجاه، وتفاهة الأدب الذي يكون باعثه الأول لا حب الأدب في ذاته أو الرغبة
في البحث في ذاتها أو الاقتناع بفكرة بعينها، بل لأنه مسوق إلى أن يكتب موضوعاً
معيناً وإلى أن يصوغ فكرة معينة على أسلوب معين على قدر كذا من الأعمدة
ليتقاضى كذا من الجنيهات، وكذلك الغزل الوقح أو الوصف المكشوف لما ينزو
بالرؤوس ويحرك الشهوات، فلا ريب في أنه وضيع لاتصاله بالضعة، وعلى ذلك يمكن
أن نجعل الغزل من أدب الروح إذا أخرجناه عن تحريك الشهوات وكان القصد منه
الحديث عن صلة قلبية روحية أو تصوير صورة حسية تسمو بالقلب أو ترقى بالروح،
ويمكننا أن نرى من الكتاب من يكتب كل يوم مقالاً ويتقاضى عليه أجراً، ولكنه يأبى أن
توضع لي الفكرة أو تملى عليه إرادة ويأبى إلا أن يوحي إليه ضميره ويفتيه قلبه
وعقله، فلا يمكننا إلا أن نعجب بأدبه وأن نقر بأن أدبه أدب روح لأنه من الروح وإلى
الروح، وكذلك يمكن أن يكون المدح لعظيم يستحقه من مادح لا يبغي بمدحه إلا تقرير

الحقيقة، أدب روح لأنه يضع لنا صورة حقيقية تسمو بالروح. وبعد فهذا هو ما نراه حداً فاصلاً بين أدب الروح وأدب المعدة، أرجو أن يقره أستاذنا الدكتور زكي مبارك وأن يكون به من أنصار أدب الروح، والسلام.

محمود علي قراعة

استطلاع صحفي

قرناً في المتحف الحربي 50

جولة بين آثار الماضي والحاضر

(لمندوب الرسالة)

حمى الحرب تهز أطراف كل إنسان. ولئن اختلف الناس في ضرر الحرب وضرورتها فأنهم يتفقون في وجوب الاطلاع على تاريخها وحالة جندها ونتائجها. ومصر أمة قديمة لها تاريخها الرائع الذي صحب المدنية من مهدها إلى الآن والمطلع على تاريخها يجد فيها تطور الأسلحة وأدوات القتال من المقطع الصخري إلى المدفع المدمر. فإذا جاز للأمم أن تشيد لها متاحف حربية فأن مصر أولاها بهذا الحق

وقد شرعت وزارة الدفاع الوطني في تكوين نواة هذا المتحف ووصلت إلى نتائج طيبة. وأتيح لي أن أجول في هذا المتحف وهو في فترة تكوينه. وهاأنذا أقدم للقارئ بعض ما رأيت راجياً أن يتاح له في القريب العاجل أن يرى هذا المتحف بعد أن يتم أمينه النقيب عبد الرحمن زكي أفندي جزءاً من برنامجه. ولست أقول كله لأني أعرف أحجامه ومراميه

خمسون قرناً من الزمان

إذا خلوت إلى نفسك وطاب لك الاستجمام فاستعرض في مخيلتك تاريخ مصر الحربي منذ فجر التاريخ إلى الآن. فتصور كيف كان المصريون يكافح بعضهم بعضاً في عصور ما قبل التاريخ. ثم كيف كانوا يغزون القرى والبلاد ويفتحون الممالك في عصر الأسر الفرعونية وفي عصور الفرس والرومان والبطالسة وفي العهود الإسلامية. واستمر في وصل حلقات التاريخ من عصر المماليك إلى الآن؛ ولا يفوتن مخيلتك أن تستعرض الأسلحة التي استعملوها والملابس التي ارتدوها والأسلاب التي غنموها والقلاع التي حصنوها والمواقع الحربية التي اشتركوا فيها بما في ذلك صور أبطال تلك المعارك وقدر بعد هذا كم تكون هذه الصورة واضحة، وماذا تعرف من تاريخ مصر ومن سير أبطال مصر. ولقد جلست من قبلك فوجدت أن حقباً كاملة تمر غامضة؛ بل إن أكثر الفترات وضوحاً لدي كان ينقصها كثير من التفاصيل. حتى الفترة الحالية مع أني أعيش فيها وأخالط رجالها العسكريين وأزور معاهدهم كل يوم مازالت مبهمة، ومازلت في كل يوم أرى جديداً لم أشاهده من قبل. فإذا استعرضت هذا الماضي الطويل وعرفت أثره في تربية النشء وبث الروح القومية أدركت حاجتنا الماسة إلى متحف يضم تلك الذكريات العظيمة فيشاهد الصبي تحتمس أو رمسيس أو صلاح الدين أو إبراهيم وقد تقلدوا أسلحتهم ودافعوا عن كرامة بلادهم. فهل تظن أن من يشاهد عز أولئك يرضى بالذلة لنفسه؟ محال! فالذكرى تنفع المؤمنين

مشروع ضخم

وإذا كانت مصر قد عاشت تلك السنين الطويلة بدون متحف حربي عام فقد أنشئت عدة متاحف ضمت عدة مجموعات من الأسلحة أهمها ما هو محفوظ الآن في المتحف الحربي في قصر عابدين. وقد تنبهت وزارة الدفاع الوطني منذ سنوات إلى أهمية هذا المشروع فقدرت إنشاء متحف حربي عام عينت لإدارته لجنة من كبار ضباط الجيش المصري واختارت حضرة النقيب عبد الرحمن زكي أفندي أميناً له.

وشرع أمين المتحف من اللحظة الأولى في وضع برنامج الإنشاء فزار الأماكن التي توجد فيها آثار حربية مصرية سواء كانت هذه الأماكن معاهد عامة أو منازل خاصة. فكثير من ضباطنا الذين اشتركوا في حروب السودان وأغلب أمراء العائلة المالكة يحتفظون بمجموعة ثمينة من الأسلحة وخصوصاً من عهد محمد علي إلى الآن. وليكون تنظيم المتحف على أحدث طراز سافر أمينه إلى أوربا فشاهد هناك أحدث الطرق لحفظ الآثار وأبرع الوسائل لعرضها على أنظار الجمهور حتى تؤدي الغاية المقصودة منها سواء كانت قومية أو تعليمية

وقد يكون من الصعب على الإنسان أن يتخيل صور مصر الحربية خلال خمسين قرناً

فإذا قارنا بين إنسان يتخيل صورة وبين آخر يحاول أن يخلق صورة واضحة استطعنا أن ندرك ضخامة العمل وما يحتاج إليه من جهود. فإنشاء النموذج الواحد يستلزم الرجوع إلى عشرات المؤلفات والصور. فهاهو مثلاً نموذج لقلعة بنيت في عصر رمسيس الثالث يتطلب بناؤه زيارة القلعة الحقيقية ومعرفة تخطيطها ثم الطريقة التي تبعها المصريون الأقدمون في حروبهم والأسلحة التي استعملوها لمغالبة مهاجميهم حتى تتكون لدينا صورة
صحيحة عن استعداد القلعة وشكلها وهذا يستلزم منا أن ندرس عشرات المراجع لنتأكد من صحة ما نصنع
فالآثار التي تركها الأقدمون قد عصفت بكثير من معالمها تقلبات الزمن وتوالي الحروب بين غزو وفتح. هذه القلعة التي نراها في لمحة بصر احتاجت من منشئها إلى عدة سنين استعان فيها بدراسة غيره وخبرة نفسه. فالعبرة في المتاحف أن تكون معروضاتها صورة تاريخية صحيحة وليست بناء يسهل على الناقدين نقضه وإثبات خطئه
نواة صالحة
ويتكون المتحف الحربي الحالي من ثلاثة طوابق. يشغل الطابق السفلي منه وهو (البدروم) مصنع أعد لصب التماثيل، وأعمال النجارة لعمل الخزائن الزجاجية التي تحفظ المعروضات. ويشغل في هذا المصنع فنانون مصريون درسوا الحياة العسكرية فعرفوا دقائق تقاطيع وجه الجندي المصري إذا اشتبك في ساحة القتال أو جلس في ثكنته ينشد التدريب العسكري، ويستعد لطوارئ الزمان
وهم يوجهون اهتمامهم الآن لتسجيل نماذج الجندي المصري الحديث فصبوا أجساماً من (المصيص) دهنوها بالأصباغ، وألبسوها حلل الميدان أو التشريفات. فلا تكاد تراها حتى تشعر بأنك أمام جندي أو ضابط مصري في وقفة عسكرية لا أثر فيها للكلفة. وإني لأضحك من نفسي كلما تذكرت المرة الأولى التي شاهدت فيها هذه التماثيل إذ ما كاد باب الحجرة ينفتح وأرى من فيها حتى رفعت يدي بالتحية ولاسيما عندما وجدت ضابطين واقفين قبالة بعضهما كأنهما يتحادثان
وتعجب أشد العجب إذا عرفت أن هذه النماذج لا تصنع واحداً واحداً بل تصنع بالعشرات؛ فهاهي أجزاء نماذج جديدة لن تلبث حتى ترسل إليك نفس الشعور بالحياة. وتتكون هذه العملية من عدة مراحل، فتصب أولاً أجزاء التماثيل على انفراد فترى الساق وحدها والصدر منفصلاً عن الظهر، ثم الرأس موضوعاً في مكان آخر. ويتناولها الفنان فيكون من هذه الأجزاء المتناثرة المتماثلة وحدة مختلفة بما يسبغه عليها من ألوان، وعلى تقاطيع وجوهها من معجون، يرفع الأنف أو يوسع العينين ويشرف على هذه الحركة الدقيقة الأستاذ محمد نجيب المثال
صنع في مصر
وأول ما يواجهك عند دخولك المتحف مجموعة من (المسدسات) صفت على الحائط وكتب عليها (صنع في مصر) فهي دليل حي على ارتقاء صناعة الأسلحة في بلادنا في عهد محمد علي. فإذا دخلت إلى القاعة التالية شاهدت نماذج جنود مصر في ذلك الوقت وعرفت الأناقة والنعمة التي كانوا يعيشون فيها. وأما الجدران فقد غطيت بالصور المختلفة التي تبين ملابس الجنود وأزياءهم
ويحرص المتحف على أن يقدم لزائريه صورة واضحة عن المعارك التي اشتبكت فيها جيوش مصر، ولهذا ترى لوحات كثيرة رسمت عليها خرط تلك المعارك، فترى مواقف الجنود ونظامهم وكيف سارت المعركة. وأكثر هذه الرسوم هدايا قدمها أمراء العائلة المالكة وغيرهم من رجال مصر تعضيداً للمتحف حتى يحقق برنامجه
قارع الطبل
وقسم الطابق الأعلى على فترات التاريخ المختلفة ابتداء من عصر ما قبل التاريخ إلى الآن كما يضم مجموعة من الأسلحة والطبول التي استولت عليها الجيوش المصرية أثناء حروب السودان، ومنها طبل استولت عليه البطارية الرابعة في الداورية رقم 27 أثناء تجوالها في دار فور سنة 1916 ولتكون الصورة أكثر وضوحاً صنع المثال لهذا الطبل قارعاً وقف يضربه فلا تكاد تراه حتى تشعر بأنك أمام محارب سوداني
ويحتفظ المتحف بمجموعة كبيرة من الصور بعضها رسم باليد ليمثل العصور التي لا

سبيل إلى إثبات صورها بالفوتوغرافيا كالعصر الإسلامي وعصر محمد علي وعصر إسماعيل وبعضها الآخر - وتقدر صوره بالألوف - عن العصر الحديث وقد التقط بآلة التصوير لمعاهد الجيش في عهدها الحالي، ومن يشاهدها يأخذ فكرة كاملة عن الجيش المصري في الوقت الحاضر. ويضاف إلى ذلك مجموعة أخرى أعدت لإلقاء المحاضرات بواسطة الفانوس السحري، وتنظم هذه الصور بطريقة علمية دقيقة تيسر للناظر الحصول على معلومات طريفة

الزمن خير كفيل

وفي فناء المتحف الداخلي صفت المدافع التي أمكن للمتحف الحصول عليها من عصر محمد علي، وهي مجموعة ثمينة تبين تقدم فن القتال الحربي في ذلك الوقت وأكثرها صنع في مصر ومازالت حتى الآن في حالة جيدة يسهل معها استعمالها. ويوجد في أنحاء القطر المصري كثير من هذه المدافع وخصوصاً في الإسكندرية في القلاع القديمة، ولكن نقلها وتنظيفها يحتاج إلى زمن طويل ونفقات كثيرة ولهذا ينقلها المتحف شيئاً فشيئاً

ويعتمد المتحف في تنظيمه وتوفير معروضاته على الهدايا التي يقدمها الناس أياً كانت جنسياتهم ومهنهم وعلى المنشآت التي يصنعها عماله، ولكن ضخامة العمل وقلة الأيدي العاملة تقف حجر عثرة في سبيل افتتاح المتحف للجمهور. فرغم النشاط المبذول ورغم كثرة المعروضات لا نستطيع أن نقول إن ما تم إنشاؤه يمثل خمسين قرناً من الزمان، فمثل هذه المشروعات الضخمة تحتاج إلى عشرات السنين لتظهر أمام الجمهور في ثوب لائق

(الشتوي)

حوّاء

للأستاذ علي أحمد باكثير

قلبي يحن إلى عهودك ... وإلى رضائك أو صدودك
وإلى محيّاً ساهمٍ ... فيه الفضاء على عميدك
فيه شكاياتي وأح ... زاني وآلامي وياسي
وضناي فيه ووحدتي ... من غير آسٍ أو مُوَاسِ
. . .يرثِى له قلبي فلا ... يرثِى لغير مُصَابه
!فكأنه المرآة يُبْ ... صر فيه قلبيَ ما به
حتَّى إذا ما افترّ ثغ ... رُكِ عن ثناياك العِذاب
وهفا الضياء على لَمَا ... ك كأنه العسل المُذَاب
وتلألأت عيناك وان ... بثق الشُعاع الحالمُ
!خطرَتْ لِي الدنيا بِفي ... كِ فكل شيء باسم
خطرت كوجه الأُمِّ يب ... سم للوليد الراضعِ
!يسري بعَيْنَيها على ... نَهَر النعيم الواسعِ
عَقَلَ ابتسامتَها لأوَّل ... مرّةٍ في عُمره
!فرنا بِطَرْفٍ فيه أوَّلُ ... خفقةٍ مِنْ فكره
عقل الحقيقة كالخيال ... هناك في تلك الدقيقة
ولطالما مِنْ قَبْلُ كا ... ن له الحيال هو الحقيقة
أو كالوجود بدَتْ لِعَيْ ... نَيْ شاعرٍ أسرارُه
في لحظةٍ مِنْ وحيِهِ إنْ ... هتكتْ له أستاره
فكأنه لم يَدْرِ أوْ ... يَرَ قَبْلها في الكون شيا
أو كان صخراً مسَّه ... سرُّ الإله فقام حيَّا
!يا نظرةً كُنْتُ الولي ... د بها وكنتُ الشاعرا
والأمَّ كنت بها وكنْ ... تِ بها الوجود السَّاحِرا
ما كان ثَمّةَ غيرُ عي ... ن الله ترعانا حنانا
!وكأنه مِنْ عَطْفِه ... إذ ذاك لم يخلُقْ سوانا
يا ليت شعري هَلْ أحسَّ ... بمثلِ ما أحسَسْتُ آدم
لما بدوتِ لعينِه ... حَوَّاء في عهدٍ تقادم؟
فهفا إليك كما هفوتُ ... وما له أمٌّ سواكِ

فرحمتِهِ وجرتْ على ... أطراف جُمَّتِهِ يداك!
أخْرجتِ آدم مِنْ جنا ... ن الخُلد لكن كُنتِها له!
أنقذته بهواك من ... تلك السآمة والملالة
فأحسَّ في الدنيا الشقا ...َء وكابَد الألم الكبيرا
فَازْدَادَ بالسَّرّاء وال ... ضَّعماء في الدنيا شعورا
ما بالُ آدمك الجدي ... د تركتِه في شِقوته؟
لم ترحمي بلواه إذْ ... أخرجتِه من جنَّته
قد كان يأمل إذ عصى ... مولاه فيك مزيد عطفك
ويح الشقيَّ. . . حَرَمْته ... مِنْ لطف مولاه ولطفك!
أهبطتِه من جَنَّتَيْ ... هِ فهام في الدنيا شريدا
يبكيك في المأوى ويب ... كي عهدك العهد السعيدا!
كيف السبيل إلى الرجو ... ع إلى نعيمي السَّالفِ؟
وشفاء حَرَّى مهجتي ... وسكون قلبي الواجب
وبأيّ وجهٍ بعد عصْ ... يانِيهِ ألقى وجه ربي؟
ولئن جَرُؤتُ فَمنْ لقلبي ... في يمينكِ. . . مَنْ لقلبي؟
أأجيئه مِنْ غيرِ قلبٍ؟ ... كيف كيف يكون ذاكِ؟
ردّيه لي أطلُبْ رضا ... هُ حيْنَ لم أدرِك رضاك!
حوّاء ذات العدْلِ! فيْم ... عَدَلْت إلاَّ فيَّ وحدي؟
وعلامَ يا حَوّاء حافظةَ ال ... عهود نسيتِ عهدي؟
لم تُنْصفيني إذْ بَرَرْ ... تِ بآدمٍ وقطعتِ حَبْلي
وهو الذي ما إنْ حَملْ ... تِ به ولم تضعيه مِثلِي!
أنا منكِ يا حوَّاء. . . أج ... در بالحنان. . . وليس منكِ
. . .إن كنتِ منه فتلك بَعِ ... دُ مزيّةٌ تُقصيه عنكِ
. . .إن الحياة تَعُقُّ بِنتاً ... دأبَها وتَبِرُّ أمَّا
هلاّ سلكتِ سبيلها ... فقسمتِ لي بالبؤس نعمي!
أم شئتِ أن تلغي الوجو ... دِ لتبْدئي في الخلق طَوْرا؟
لم تُغفَرِ الأولى. . . أأجْنِئ ... فيكِ يا حوَّاءُ أخرى؟!
علي أحمد باكثير

إلى نجمتي النائية

للأستاذ صالح الحامد العلوي

حنانكِ! يا نجمتي الزاهرة ... ويا نزهةَ القلب والباصرهْ!
ومن لم تزل رغم طول النوى ... على الصبِّ ناهيةً آمره!
ومن غرست في الحشا دوحةً ... من الحبِّ مزهرةً ناضره
ومَن هي من حسنها تحفةٌ ... بَرَتها يد القدرة الباهره!
بروح تكاد لها خفَّةً ... تطير مع النَّسمة الخاطره
ومن ساقها الحظُّ لي نعمةً ... من الله سابغةً وافرة!
عرفت بها كيف معنى الحنانِ ... وما لذّة الخلدِ في الآخره!
رعى اللهِ وجهاً كساهُ الجمالُ ... غدوتِ به في الورى نادره!
وعيناً من السِّحر مكحولةً ... عليها معاني الهوى زاخره
بها قد أرى فيك أمي الحنونَ ... وحيناً أرى اللبوة الخادرة
معانٍ من السِّحرِ لا تهتدي ... إليها سوى الأعين الشاعره!
ألا حبَّذا عهدك المشتهى ... ولله أيامكِ الزاهرة!
وتَجْوالُنا بين تلك الرُّبي ... وطوراً على الضّفّة الساحره
وذاك المراحُ، وحلو المزاحِ ... وضحكاتنا العذبةُ الطاهرة!
نخبُّ ونطفر بين الحقول ... ونضحكُ للموجةِ الساخرة
ونشدو ونرقصُ مِلَء الصِّبا ... من اللهو في نشوةٍ غامره
كأنّا - وقد شبَّ فينا الشباب - ... صبيان لم نبلغ العاشره!
شريطٌ لماضيَّ لا تَأتلي ... تمدَّ الخيالَ به الذاكره
لعهد من اللهو قضَّيتُهُ ... يفاضلُ أوَّلُه آخرَه

متى يا قضاء ترى عوده؟ ... على رغم أيامنا الغادره!
(حضرموت: سيوون)
صالح الحامد العلوي
إليها يوم تنساني .. .!
للأديب محمود السيد شعبان
مِعْزَفٌ في يدِ السَّنا ... يَتَغنَّى عَلى الحِقَبْ!
ألهبَتْ شَدْوَهُ المنَى ... ما لهُ ضلَّ فانتحبْ؟!
أنتِ لقَّنْتِهِ الهوَى ... قُبْلةً كنتِ طُهْرَهَا
فاسْكُبي في فؤادِهِ ... من معانيكِ سحرَهَا
وَامْرحي فيهِ. . . طالما ... مَسَّهُ الحبُّ فَالتَهَبْ!
أنتِ دنيا خيالهِ ... ليتهُ كان سِرَّها
. . .أنتِ في موكبِ الجما ... لِ نعيمٌ هو التَّرَف
أبدعته يَدُ الجُنُو ... ن وزانتهُ بالسَّرَفْ!
أنتِ سِرُّ الحياةِ في ... باطن الكونِ قَدْ خَفَق!
أنتِ فجرُ الوجودِ من ... كل قلبٍ هوى انْبَثق!
كذَبَ الشِّعرُ!. . . إنما ... أنتِ فوق الذي وَصَفْ!
فخذيني إليكِ. . . لمْ ... يَبْقَ مِني سوى رَمَق!
أنتِ معنىً منَ الخلو ... دِ وعى صفحةَ الأزَلْ!
وشعاعٌ من الحيا ... ةِ حوَى الحبَّ والأمل
يا ابنةَ النور!. . . بدِّدي ... ما بقلبي من الرِّيبْ!
واسكبي في فمي الضيا ...َء الذي ضلَّلَ الحِقَب!
واغمُري الروحَ باللهي ... ب لِتحيا على وَجَلْ!
. .قَلَقُ الحُبِّ. . . ما ألذَّ (م) ... وَأحلَى لمَنْ أحب!
إيه يا حُبَّها!. . . أفِقْ! ... قد عرفنا بكَ الخَبَل!
ورشفنا الجُنونَ لما (م) ... استبَدَّتْ بنا القُبَل!
همْ يُسمُّونكَ الهوى ... أنتَ يا حُبَّها القدَر!
فترفَّقْ بنا. . . فما ... نحن إلاّ من البَشَر!
. . .إيه يا قَلبُ!. . . دعْ دَمِي ... فيكَ يَنسابُ بالأمل
واشرب الحُسنَ والسَّنا! ... هكذا حُبُّها أمَر!
يا جُنونَ الهوى! عَشِقْ ... تُكَ جَهْدي. . فكن معي!
واطْوِ فيما طويْتَ قل ... بِي وعقلي ومسْمَعِي!
أنتِ في هيكل الخلو ... دِ صلاةٌ لمن عَبَدْ!
!!أزَلُ الدَّهر يلتقي ... فيكَ يا حُبُّ بالأبَد
فاْمَلأ النفسَ بالرَّجا ... ءِ وعِشْ بين أضْلُعي
أنت روحي. . . وإنما ... أنا يا فِتْنَتي جَسَد!
يا خيالي! ادَّخِر معي ... للمُنى كلَّ ما فَتن!
لا تسلْني: متى غدِي؟! ... كيف يحيا هُنا الزَّمن؟!
يا خيالي. . . أفِقْ وخُذْ ... من رُؤى الحبِّ ما سَحر!
لا تقل لي: صِف الهوى! ... هاهنا لا يرى البَصرْ!
. . .إيهِ يا مُلْهِمَ النُّهى ... كلَّ ما يبعثُ الشَّجَن
!!اكشفْ السِّتر عن غدي! ... إنه في دمي استتر
أيها الشِّعر!. . . أحيِني! ... أنتَ مِن وحيها مدَد!
شعَّ في الكونِ نورُها ... من قديمٍ وما نفد!
أيها الشِّعر!. . . غنِّني! ... وارو رُوحي بسحرها!
واسكُب الطُّهر في دَمي! ... إنه بعضُ سِرِّها!
هاتِها فتنةَ النُّهي! ... هاتِها نشوَةَ الأبد!
هي دنيا خواطري ... وتسابيحُ طُهرِها!
أيها الشِّعرُ. . . هجْتَ في ... باطِني كامِنَ الذِّكَر!
عادَني فيكَ حُبُّها ... فَالْتَقَيْنا عَلى قَدَر!

فكأني بها مَعِي ... تسمعُ الشِّعَر مِن فَمي!
وكأني بصوْتِها الطَّ (م) ... هْرِ يَنْسَابُ في دمِي!
لَيْتَ هذا حقيقةً ... يَجْتَلِيها هنا البصَر!
إنه الُحبُّ. . . بَيْنَ أحْ ... ضانِهِ الكوْنُ يَرتمي!
أيها الشِّعْرُ:. . . هاتِها ... مُنْعةً تبعثُ الطَّرَب!
وادَّخِرْنِي إلى غَدٍ ... سوف آتيكَ بالعجَب!
أنتَ يا شِعر خالدٌ ... لستَ يا شعرُ للعَدَم
لا تَكِلْنِي إلى الأسى! ... نِلْتُ زادِي من الألَمْ!
واسقِنِي النورَ جُرْعةً ... هيَ أنشودَةُ الحِقب!
وَقَّعَتها على القلُو ... بِ يَدُ الحُسن من قِدَم!
(القاهرة)

محمود السيد شعبان

رسالة الفن

دراسات في الفن

عن فن الصوم

للأستاذ عزيز أحمد فهمي

ليس الصوم تجويع البطن وحرمانه من حشوها، وإنما الصوم زهد في حاجات البدن يقصد لذاته، ويقصد لأثره. فهو نفسه انتصار لذيذ على قانون الحاجة والضعف، وهو بعد ذلك يبعث في الصائم إيماناً بإمكان التدرج بالطبع في مدارج الرقي، وإغراء بالوثوب إلى حياة الإرادة والعقل. وفي ذلك ارتفاع بإنسانية الصائم إلى درجة من النقاء الروحي لا تتاح لغير البشر من المخلوقات التي تنساق لقوانين المادة وتخضع لمطالب الأجسام فلا تملك لها رداً إلا إذا أجبرت في ذلك إجباراً وقهرت عليه قهراً. فهي في كل من الحالين مسوقة مسيرة مشدودة، بأسباب الاتصال ودواعيه، إلى أحوال وأوضاع لا دخل لإرادتها في إعدادها ولا ترتيبها، ولا توجيهها. هذا إلى ما في الصوم من تيسير التفرد، وتقريب الوحدانية، واستشعار الغنى. فكلما لوَّن الصائم الزهدَ وقَلل من حاجاته البدنية أحس حدود كيانه تتميز وتفصله عما عداه، وأدرك أنه واحد، وإن كان صغيراً فإنه نزاع إلى أن يقوم بذاته، وأن تفيض نفسه بالحياة على نفسه فهو لا يطلبها - إلا قليلاً - في لقمة من الخبز أو جرعة من الماء

ومع الإحساس بهذا الاستقلال عن مادة الحياة فإن الصوم يبعث في نفس الصائم إحساساً آخر من الشيوع يشبه ذلك الإحساس الذي يشعر به النهم الأكول الجشع المستغرق في طلب الماديات، ولكن شعور الصائم لا يتجه به إلى الماديات، فهو منقطع عنها جهده، وإنما هو يتجه به إلى ما يتعاطاه ويلج فيه مما هو فوق المادة، فهذا هو ما يفطر عليه ما يغذي نفسه به، وكما أن النهم الأكول الجشع المستغرق في طلب الماديات يشعر بأنه مرتبط بالعجل لأن لحم العجل لذيذ، ولأن جلده مفيد، ولأن قرنيه نافعان، ولأن حوافره تصلح في شأن ما أو في عدة شئون، فإن الآخر الصائم يرى في العجل غير ما يراه ذلك الذي يفكر ببطنه وجلده وسائر جوارح بدنه، ويرتبط إليه برباط آخر معنوي، فهو عنده رمز لقوة البدن مع طيبة القلب، واستسلام النفس مع تناوم العقل، فإذا آلفه فإنما يؤالفه ليتعلم منه هذه الطباع وليستخرج من تركيب بعضها إلى بعض عبرة تدله على عجز القوة ما لم يسندها الفكر، ومهانة الاستسلام ما لم تدركه اليقظة. وهكذا يصبح العجل الحيوان الواحد ذا طائفتين اثنتين مختلفتين من الدلائل والمعاني يدرك طائفة منها إنسان زهد في المادة وصام عنها، ويدرك الطائفة الأخرى إنسان زهد فيما فوق المادة وصام عنه وليس العجل وحده هو ما يراه الإنسان ويتصل به في هذه الحياة، وإنما هو يرى كائنات كثيرة ومخلوقات عدة ويتصل بها جميعاً وفق نزعته، وإنما سقت العجل مثلاً لأن له قصة طويلة قديمة مع البشر، فكما أذله ناس وقره آخرون، وكما استضعفه ناس عبده آخرون

ولست أريد أن أنحاز إلى هؤلاء أو إلى هؤلاء، فقد كان لكل رأي وكان لكل رأي برهان، وإنما أريد أن يلتفت القارئ معي إلى صلاح العجل عند البشر للإهانة والعبادة معاً، لا لشيء إلا لأن فريقاً من الناس رأوه رأياً، وفريقاً آخر رأوه رأياً، وهؤلاء مضوا في رأيهم

حتى نهايته، وهؤلاء أيضاً مضوا في رأيهم حتى نهايته، فكانت نهاية أصحاب الرأي الأول أن أكلوه، وكانت نهاية أصحاب الرأي الثاني أن قالوا إنه الله. . . وهكذا كل ما في الحياة يستطيع الإنسان أن يأكله، ويستطيع أن يرى فيه الله. . . أو أن يصل من سبيله إلى الله. . . لو هداه

ولندع العجل إلى غيره من الخلائق وآيات الله لنرى أن الناس دائماً ينقسمون أمام مظاهر الحياة إلى قسمين واضحين: قسم يزهد في كل شيء ماعدا الملموس المحسوس الذي له أثر ملموس محسوس، وقسم آخر يزهد في هذا الملموس المحسوس نفسه فلا يصيب منه إلا بمقدار ما يمسك عليه الرمق وما يحفظ عليه الحياة. وهناك - إلى جانب هذين الفريقين من الناس - قسم ثالث يتراوح بينهما فيجول مع كل فريق جولة، له فيما فوق المادة ساعات يقضيها مع نفسه ثم يعود إلى الناس فينقل إليهم ما رأى وما سمع وما أحس وما علم. وهؤلاء هم أهل الفن الذين نعرفهم من فنونهم، والذين يقول عنهم أهل الأرض إنهم أصحاب خيال وإنهم في خيالهم يعمهون بعيدين عن حقيقة الحياة، لا لشيء إلا أن أهل الأرض يعتبرون الحياة هي هذه الماديات وحدها، فما لم ينطبق عليها تمام الانطباق فهو خيال ووهم

ولست أريد أن أظل مع هؤلاء المتراوحين طويلاً الآن، وإنما أتركهم إلى أولئك الذين أعطوا الأغلب من أرواحهم لما حجبته المادة الكثيفة عن أغلب الأبصار والأسماع. . . أولئك يحيون، وإن لهم دنيا طويلة عريضة كهذه السموات والأرض، بل إنها أوسع من السموات والأرض، وهم يكشفون مجاهلها يوماً بعد يوم، ويغزون أطرافها ما صفت أرواحهم، وما اتجهت عقولهم بالتفكير في أسرار الوجود، فإذا هم في حياة أساسها في هذه الدنيا ولكن مهادها ووديانها عليون، وإذا هم يشعرون بعلاقات وثيقة تربطهم بكل ما في الكون من حقائق وموجودات، بل إنهم يحسون أن لهم منافع روحية وفوائد معنوية يصيبونها في الحقائق والمخلوقات كتلك المنافع التي يرجونها النهم الأكول في لحم العجل وجلده وقرنيه وحوافره، وهم ملحون وراء هذا الذي يستطيبون من الكسب كلما حصلوا منه ربحاً استزادوا الربح بالجهد والمران، فإذا هي أرباح فوق أرباح، وإذا بالفقير المعدم منهم له ثروة عجب من المعلومات والمدركات، فإذا أراد أن يستغل علمه وإدراكه وأن يخرج بهما من دائرة التحصيل والإفادة، إلى دائرة العمل والإنتاج كان الشيء الذي يصنعه خارقاً لا يستقيم مع طبائع الحياة التي تعارفها أهل المادة من الناس، وإن استقام مع طبيعة الوجود العامة التي لا يحلق إليها إلا أندر الناس الذين يشرأبون دون عشرائهم إلى ما أباحه الله للمقبلين عليه من خلقه السباقين في التقدم إليه والارتقاء إلى رضاه بإرضائه. وتقول الجماهير عندما ترى أعمال هؤلاء إنهم سحرة. . . أو أنهم أصحاب معجزات.

وهذه الأعمال الإيجابية التي يقوم بها هذا الفريق من الناس تختلف وتتعدد مظاهرها وألوانها باختلاف اتجاهاتهم وما يتخصصون فيه من العلم، وليس تخصصهم في العلم شيئاً غريباً، فعلماء المادة يتخصصون هم أيضاً في دراسة نواحيها. . . لكل منهم ناحية. . فمنهم مهندسون، ومنهم أطباء، ومنهم من ينفقون حياتهم في دراسة القوانين التي كتف الناس بها الحياة، كذلك أولئك منهم من يتجه إلى نفسه فيدخل فيها فيعلم من شؤونها ما يعلّمه الله إياه، ومنهم من يدخل في نفوس الناس، ومنهم من يدخل في نفوس الناس والحيوان. . . بل إن منهم من يتجه إلى المادة نفسها فيغزوها بالروح غزواً فيشق البحر ويقلب العصا إلى حية والحبل إلى ثعبان. . .!

ويضطرب الناس ويرتبكون حيال هؤلاء الزهاد الأنبياء. . . فيقولون إن محمداً صلوات الله عليه ورضاه كان شاعراً. . . لأنهم كانوا يسمعونه يقول كلاماً لا يشبه كلام الناس، وفيه ملامح من كلام الشعراء، هي هذا البعد عن مادة الأرض المعتمة العمياء، وهي هذا النور الذي أهداه الله إليه من نور السماء. . . وما كان محمد شاعراً، وما كان الشعر ليتسامى إلى درجة ما أفاض به على الناس، وما كان كلامه فناً من فنون الأرض، وإنما هو أرفع ما أتاحه الله لإنسان من علم حق ومن حكمة خالدة تنسحب إلى أبعد الأزل، وتنطلق إلى أبعد الأبد سبحان من أوحاه! وسبحان من جاد على البشر بفنه. . . هو الله. . .!

لم يكن محمد شاعراً، فالشاعر كما رأيناه يتراوح بين حياة الأرض وحياة السماء، ويتذبذب بين طبيعة المادة وطبيعة الروح، ولا يقر له قرار إلا بين الناس، ولا يغيب

عنهم إلا لمحات قصيرة عابرة لا يطيق استدامتها، لضعفه ولشعوره بالحاجة البدنية إلى ما في الأرض من راحة. . . أما محمد، وأمثال محمد من الأنبياء فإنهم قد اشتروا الآخرة بالدنيا، وليس لهم في الدنيا مطمع، فقد أحاطوا بما فيها علماً، وهم يتجهون بعد ذلك بأطماعهم إلى ما وراء هذه الحياة. . . وهم مؤمنون بأن هناك شيئاً بعد هذه الحياة، لأنه قد كان هناك شيء قبل هذه الحياة، وليس في هذا الطور ما يدل على أنه الحلقة الأخيرة من حلقات التطور والارتقاء. . .

وهنا قد يسائلنا سائل: كيف قال محمد إنه خاتم الأنبياء والمرسلين، ومادامت طبيعة الحياة قد استدعت بعث الرسل والأنبياء فيما مضى، ومادامت بريئة مما يدل على أنها قد كفَّت عن نهجها والتوت إلى نهج جديد؟

وجوابنا على هذا أن محمداً صلى الله عليه وسلم وضع أمام عيون الناس القواعد الخالدة لهذه الحياة. . . القواعد التي تتغير الدنيا ولا تتغير هي، والتي تتطور الحياة وترتقي وتمتنع هي على التطور والارتقاء لأنها نهاية النهايات، ولأنها الحقائق الثابتة التي يقوم عليها التغيير والتبديل، ولأنها المحاور التي يدور حولها التطور والارتقاء.

فلقد جاء في دين محمد أن الإسلام هو دين الفطرة، فإذا عرفنا علام نحن مفطورون فسايرنا فطرتنا فإننا مسلمون. وهذا مبدأ لا يمكن أن يزول وإنما يتحطم كل من يناوئه ويعصيه. . . وإن من فطرتنا أن نتطور وأن نرقى. وقد جاء في دين محمد بين آيات القرآن (أحلت لكم الطيبات وحرمت عليكم الخبائث) فإذا عرفنا ما هي الطيبات التي تنفعنا، وما هي الخبائث التي تضرنا، وأخذنا ما ينفع وتركنا ما يضر فإننا مسلمون سالمون. وهذا مبدأ تتبعه الكائنات بطبيعتها فتسلم، وعلينا نحن ألا نقاومه بعقولنا وإرادتنا كي ننجو، وإلا فالهلاك لمن أحل لنفسه الخبائث، وحرم عليها الطيبات. . . وقد جاء أيضاً في دين محمد بين آيات القرآن كذلك: (وما أصابكم من خير فمن الله وما أصابكم من شر فمن أنفسكم) ومعنى هذا أننا إذا ألقينا أنفسنا بين يدي الله وأطعنا أمره، وهو يأمرنا بالتزام فطرتنا والخضوع للقوانين الطبيعية التي انتهت بنا اليوم إلى هذا الطور من أطوار الحياة والتي تسير بنا منذ اليوم إلى أطوار وأطوار فإننا إذن مسلمون سالمون، فإذا حدثتنا أنفسنا بغير ذلك فانتكسنا وخيلت لنا الأهواء أن في الرضا شراً أو ضعفاً أو عجزاً وحاولنا أن نكسب لأنفسنا ما يثقل علينا وما لا حق لنا فيه وما ننوء بحمله وما يربكنا تصريفه؛ فإننا عندئذ مضطربون قد وضعنا أنفسنا حيث لا يمكننا أن نظل طويلاً. . . فلا عجب إذا انهزمنا سريعاً

علينا أن نعرف ماذا كنا. . . وماذا نحن. . . وماذا سنكون. . . حتى لا نخطئ الطريق إلى ما نحن صائرون إليه. . . ولنعلم أن فينا اليوم من طبائع الماضي ما لا يصلح للمستقبل. . . وهذا ما علينا أن نقاومه وأن نتخلص منه. . . وقد قيل إننا كنا في الماضي قردة. . فعلينا أن نخلص إذن من أوجه الشبه بيننا وبين القرود. . . وإلا فنحن نعرقل فطرتنا. . .

هذه هي بعض مظاهر الخلود والصلاح الدائم في الإسلام، وهذه هي نهاية النهايات التي وصل إليها محمد تبارك من هداه، فله الحق - على هذا - أن يقول إنه خاتم الأنبياء والمرسلين، لأن أحداً لن يجيء بعده بتلخيص لسر الوجود أعمق من هذا التلخيص ولا أمكن إصابة منه. . وما أدناها حقيقة، وما أبعدها منالاً!. .

فهل يعرف أحد إلام نحن صائرون؟ إننا صائرون إلى حياة خالصة من هذه الأبدان التي يصيبها العطب. . . إننا صائرون إلى لقاء الله، وإن في نفوسنا ما يسير بنا إلى هذا، فعلينا أن نتعرفه وأن ننميه. . .

نفوسنا حشد من الغرائز، فما تشبث منها بالحال الراهنة وأعرض عما هو مقبل من حياة الخلوص كان كما يريد أن يعود بنا إلى حياة القرود. وكان تعطيلاً لإرادة الإنسان القادر -

بقوة الله - على تنقية نفسه وترقيتها. وما تحرر منها وانطلق إلى الله فهو عون الإنسان على توحده، وعلى شيوع نفسه في نفوس الخلائق، والاتجاه مع الكائنات في صلاة الجماعة لفاطر السموات والأرض المهيمن العلام الأول والآخر.

عزيز أحمد فهمي

رسالة العلم
لحظات الإلهام في تاريخ العلم
بقلم مريون فلونس لانسنغ
ثناء على علبة الصفيح
الصفيح خادم متواضع للإنسانية، فنحن نتلف العلبة بعد فتحها ونلقي بها دون أي احترام ودون أن يكون في أنفسنا لها موضع للشكر على الخدمة التي أدتها. ولكن نابليون لشدة شغفه بالحصول على مادة تؤدي إلى حد قليل مثل الخدمة التي تؤديها اليوم علبة الصفيح، قد عرض هو والحكومة الفرنسية في سنة 1800 أو ما حولها جائزة قدرها 12000 ألف فرنك لمن يخترع وعاء يمكن حفظ الطعام فيه من التلف في زمن الحرب
إن تعاقب مواعيد الغراس والحصاد التي عرفها آباؤنا الأولون كان نعمة عظيمة على الإنسان. ولكنه من جهة أخرى يفرض عليه واجبات معينة ويلزمه عناية خاصة، فالرجل الذي يعيش في المناطق المعتدلة لا يستطيع أن يجعل مائدته مبسوطة على الدوام على الرغم من كل جهوده الزراعية
يجب أن يكون لديه خبزه كل يوم ولكن الثمار والمحاصيل لا تخرجها الأرض يوميّاً بل في مواعيد معينة. وكما يختزن السنجاب البندق في ثقب بجذع الشجرة انتظاراً للوقت الذي تخلو فيه الفروع من ثمرها فكذلك يجب أن يختزن الإنسان من نتاج الموسم ما يكفي احتياجاته بقية فصول العام المجدبة
وكان تجفيف الطعام من أقدم الوسائل للاحتفاظ به. وقد وجد الفريق الأقدم من المستعمرين الأمريكيين جماعة الهنود يتبعون نظاماً لتجفيف القمح والسمك والفواكه واللحوم بحفظها من العطب مدة طويلة. وتوجد وسيلة أخرى لحفظ الطعام هي تثليجه، ولكن هذه الوسيلة لا تمكن مزاولتها إلا في الأجواء التي يمكن فيها ترك الطعام في الماء البارد والثلج أو في أنابيب في أعماق الأرض
وتوجد وسيلة أخرى لحفظ الطعام مناقضة للوسيلة الأخيرة وهي حفظه بواسطة الحرارة. ووجد الطباخون في العصور القديمة أن اللحم المطبوخ يبقى مدة أطول من اللحم النيئ
فوصلوا بهذا الاستكشاف إلى أول حلقة من سلسة الاستكشافات التي انتهت اليوم إلى حفظ المجففات في علب الصفيح
إن سر نجاح الحفظ في تلك العلب هو أن الطعام يمنع فيها عن التعرض للهواء منعاً محكماً. وفائدة منع الطعام عن الهواء ليست بالاستكشاف الحديث فقد وجدت في جزيرة كريت بالبحر الأبيض المتوسط آثار قصر قديم يرجع عهده إلى 1500 أو 2000 سنة قبل المسيح ووجد في حجرات باردة تحت أرضه أوان كبيرة من الطين يختزن فيها الطعام ويمنع عن الهواء
ولكن الذكاء والنجاح اللذين ظهرا في حفظ الطعام بعلب الصفيح لم يكونا قبل الحروب النابليونية في فرنسا حتى رأت الحكومة - والحكومات بطيئة دائماً في بذل الأموال للاختراعات المشكوك في نفعها للجماهير - أنه من المجدي بذل جائزة للوسيلة الناجحة في حفظ المأكولات بالتخزين
وكان مبلغ اثني عشر ألف فرنك مبلغاً عظيماً في ذلك العهد من القرن الثامن عشر. وقد تسابق صناع الحلوى وصناع الجعة وأصحاب معامل التقطير بنشاط وجد علهم يحصلون على هذه الجائزة، وقد نالها بعد اثني عشر أو خمسة عشر عاماً رجل اسمه فرانسوا إيبرت وهو صانع حلوى وقد قضى كل حياته في حل هذه المسألة
وربما كان ما يشاع عن جهود إيبرت هو الذي حمل نابليون ومستشاريه على التفكير في قيمة المشروع الذي يمكن به النجاح في حفظ الطعام، وعلى كل حال فقد عرضت الجائزة واستمر إيبرت يزاول عمله في صبر حتى كان عام 1810 فتقدم بالدليل على نجاحه ونال الجائزة
وحتى مع حصوله عليها فقد أنفقها كلها على اختراعه مجرباً أساليب أحسن من التي عالجها من قبل، إلى أن مات في فاقة وهو يشكو قلة التشجيع بعد بضع سنين، وذلك على الرغم مما كان يبدو من أن مبلغ الاثنى عشر ألف فرنك مبلغ كبير
ومن حسن حظنا نحن الذين انتفعنا بنجاحه أن الحكومة الفرنسية نشرت له في الوقت

الذي عرضت فيه الجائزة كتاباً يوضح على وجه التفصيل تجاريبه ونتائجها، فأمكن بذلك أن نعرف عن تجاريبه أكثر مما نعرف في العادة عن التجاريب السابقة وتبين أنها تجاريب مماثلة تمام المماثلة للمشاريع العظيمة التي اتسعت في القرن العشرين لحفظ البضائع وإرسالها إلى أرجاء الأرض وحفظها إن دعت الحاجة عدة أشهر أو سنين

لم يكن لدى فرنسوا إيبرت علب ملائمة ليضع فيها بضائعه. فكان يضع كل أنواع مصنوعاته في علب من الزجاج أو الفخار ثم يحكم غطاءها ويضع العلب في ماء يكفي لتغطيتها ثم يضع الوعاء الكبير الذي به الماء وفيه العلب فوق نار حتى يسخن إلى أن يصل إلى درجة الغليان. ويتركها بعد ذلك في هذا الوعاء أوقاتاً تختلف قلة وكثرة ثم يسد الزجاجات ويختمها في أثناء حرارتها

وربما بدا لك أنه ليس في هذا ما هو جديد أو غريب يستحق أن ينال الرجل بسببه جائزة بل يصنع هذا في كل مطبخ أيام الخريف عند ظهور الفواكه الجديدة لحفظها في الشتاء. والواقع أنه ليس في هذا الأمر ما يعد اليوم جديداً ولا غريباً وإنما ذلك لأن الفكرة شاعت وأصبحت مقبولة. ولكننا الآن في القرن العشرين وهذا العالم الفرنسي كان يشتغل في معمله سنة 1800 وبسبب جهده وصبره في العمل أصبح استكشافه سهلاً وأصبح يؤدى في مطابخنا كأنه أمر طبيعي. وكانت التجاريب تتقاضاه وقتاً طويلاً لأنه كان لابد من تجريب درجات مختلفة للحرارة وأساليب متباينة للصنع. وكان لابد كذلك من بقاء الزجاجات مغلقة عدة أشهر أو عدة سنين ليتضح مبلغ النجاح في كل تجربة. وقد قضى إيبرت اثني عشر عاماً حتى عرف خير الوسائل لمعرفة المدد التي يقضيها كل طعام على الحرارة ليكون عند استخراجه من الوعاء في مثل عذوبته وصلاحيته عند وضعه فيه

وقد رأى إيبرت أن نجاح تجاريبه يتوقف على إخراج الهواء إخراجاً تاماً، وقد رأى كما كان يرى العلماء في عصره أن الهواء يحدث عطباً في الفواكه والخضر وكانت وسائله صحيحة، ولكن مضى خمسون عاماً أخرى قبل أن يستكشف العالم الفرنسي الشهير لويس باستور ذلك الاستكشاف المميز لعصره وهو أن الفساد لا يحدثه الهواء بل الميكروبات التي تعيش في الهواء

كان إيبرت يجري تجاريبه على الطريقة الصحيحة الوحيدة ولكنه كان يخطئ في تفسيرها وكانت النتيجة واحدة لأن التجربة نجحت وحفظ الطعام

ولكن العالم الكبير باستور بشرحه القانون المسيطر على نماء البكتريا والميكروبات قد

أحدث ثورة في علوم الطب وبدأ عهداً جديداً في حفظ الطعام بطريقة علمية مجدية، وهذه الطريقة كان إيبرت هو المبشر بها

ولعله ليس في تاريخ الإنسانية يوم أعظم من اليوم الذي بيَّن فيه باستور أن التغيرات التي تطرأ على المواد الغذائية عند تعريضها للهواء إنما هي نتيجة لعمل أحياء بكتيرية صغيرة، فإذا ما أزيلت هذه الأحياء بواسطة الحرارة وأزيل الهواء في الوقت نفسه فإن الطعام لا يفسد إلا عندما يتعرض للهواء مرة أخرى فيتعرض لهذه الأحياء. وقد نال باستور جائزة على استكشافه هذا في فرنسا سنة 1860 - على أننا لم نبدأ إلا الآن فقط في فهم ضخامة التغير الذي أحدثه استكشاف باستور في المعارف الإنسانية وفي أساليب الحياة بتطهير اللبن وبتعقيم الأدوات الجراحية. ومن الممتع أن نلاحظ أن الأرجح أن ينشأ في وقت واحد اختراعان يساعد أحدهما على نجاح الآخر، ففي الوقت الذي كان فيه إيبرت جاداً في صنع الأواني من الزجاج والفخار كان في إنكلترا ميكانيكي أسمه بطرس دوراند يصنع أول ما عرف من علب الصفيح، وقد عرض علبته الأولى في سنة 1807 وكانت عملاً غير متقن فهي ثقيلة الوزن مصنوعة باليد، وكان لها غطاء ضخم قبيح الشكل ولكنها كانت على كل حال علبة من الصفيح

واحتكر رجل إنكليزي طريقة إيبرت بعد عام من ظهورها في فرنسا. وأنشئ أول مصنع لتخزين الأطعمة في العلب بإنكلترا وكانت شركة أمريكية هي التي تقوم بهذا العمل، وربما كانت الحكمة في اختيار إنكلترا لهذه الصناعة هي نشوء صناعة الصفيح فيها، وسرعان ما انتقلت الصناعتان إلى الولايات المتحدة

وفي سنة 1891 أنشأ إزرا داجوت وتوماس كنست في نيويورك صناعة لحفظ سمك

السلمون وبرغوث البحر والكابوريا في علب الصفيح، وكلا الرجلين متعلم في إنكلترا وفي العام التالي أنشأ رجلان آخران هما أندر وود تيشل في بوستون صناعة حفظ الفواكه في العلب الصفيح وقد استعملا في إعلاناتهما كلمة هي التي اشتقت منها الكلمة الإنكليزية (علبة) وأصبحت صناعة العلب من الصناعات الكبرى في الولايات المتحدة

وليس ثناؤنا على اختراع العلب الصفيح من أجل أهمية هذه الصناعة من الوجهة التجارية وإن كانت العلبة ومحتوياتها جديرين بوضعهما في قائمة الاستكشافات الهامة، بل لأن أثرهما في حياة الإنسان أثر بعيد مميز للعصر

كان الإنسان من عهد قديم يعتمد على الأطعمة المحلية والموسمية وكانت حركاته محدودة من أجل هذا السبب. كان لا يستطيع الإقامة إلا في المناطق التي توجد فيها بصفة مستمرة أنواع حاجاته المختلفة من الطعام الملائم لصحته. وكان لا يستطيع السفر والاستكشاف إلا إلى المدى الذي يؤهل له ما لديه من الطعام

وكان لا يمكن أن تتسع المدن إلا إلى الحد الذي تؤهل له طاقة الأراضي الزراعية المحيطة بها على إخراج نبات يكفي للطعام، وقد توافرت الآن كل هذه الشروط وكان لها أثر كبير في حياة الإنسان.

ولكن العلم الذي أذاعه باستور والتجارب العلمية التي أجراها أيبرت والحذق الميكانيكي الشائع الآن - لكن كل ذلك مجتمعاً قد أدى إلى إنتاج مقادير عظيمة من علب الصفيح رخيصة الثمن تتسع لمقادير هائلة من الأطعمة فأصبحت حركة الإنسان سهلة بعيدة المدى

كان نابليون يرى أنه سوف يستطيع التغلب على العالم على صورة نهائية وأن يتولى إدارته لو وثق من أن جيشه يستطيع الحصول على الغذاء وهو في ميادين بعيدة عن وطنه

وكانت رحالات كولومب محدودة بمقدار الطعام الذي يستطيع حمله في سفينته وكان المستكشفون في رحلاتهم الأولى يخفقون لأن رجالهم كانوا يمرضون إن لم يحصلوا على طعام طازج

اقرأ سير الرحلات الأولى تر أن الرجال كانوا يموتون بداء الأسخربوط ولكن المستكشفين العصريين بيري وامندسون وسكوت قد استطاعوا تحقيق حلم الإنسانية منذ قرون في الوصول إلى القطبين لأنهم كانوا يحملون أطعمة مضغوطة في علب مختومة تكفيهم إلى نهاية الرحلة

وقد قيل إن حفظ الأطعمة في العلب هو أكبر الاختراعات أهمية بعد اختراع البخار من حيث تمكين الناس من إنشاء المدن الكبيرة وتسهيل المواصلات إلى أبعد مناطقها المختلفة بتزويد السفن بالطعام المحفوظ

فهل تشترك معنا في الثناء على خادم الإنسانية المتواضع: علبة الصفيح؟

(يتبع)

ع. أ

من هنا ومن هناك

البترول يكسب الحرب

(عن (ونتورث داي))

سوف يكون للبترول الشأن الأول في كسب الحرب. فبالبترول تدار الطائرات وتسير المدرعات وتعمل البنادق وتحرك السيارات وتسير الغواصات

ومن المعروف أن البواخر الحربية العظمى جميعها تتخذ وقودها من زيت البترول. وقد أصبح للإمبراطورية البريطانية مراكز ذات أهمية كبيرة للبترول تمتد إلى شواطئ الإمبراطورية وموانيها المختلفة في جميع أنحاء العالم، حتى أصبح عددها الآن يفوق عدد مراكز الفحم التي للإمبراطورية

وتسيطر بريطانيا الآن على أكبر مقدار من البترول الذي يستخرجه العالم. وقد بلغ ما تستهلكه من هذه المادة في الأغراض التجارية أيام السلم 12. 000 , 000 طن، وهي لا تجد صعوبة في الحصول على هذا المقدار

ويبلغ ما تستهله ألمانيا وقت السلم 7. 000 , 000 طن في العام، وهي تستطيع أن

تستخرج ثلث هذا المقدار، فإذا أضفنا إليها ما يستخرج من أسبريا وما تستطيع أن تحضره بالطرق العلمية وجدنا أن هذا جميعه لا يكفي لتقديم ما تتطلبه في أوقات السلم بحال من الأحوال. فكل ما تستطيع ألمانيا الحصول عليه من هذه المادة الأساسية في حياة الأمم، لا يتجاوز 2. 400. 000 يدخل في ذلك البترول الصناعي والبنزول وغاز السيارات. وتستورد ألمانيا باقي حاجتها من أميركا وجزائر الهند الهولندية ورومانيا

ومن الواجب في هذا الصدد إلا نبالغ في تقدير البترول الذي تستخرجه رومانيا، فليس له في الحقيقة الأهمية التي يتصورها رجل الشارع. فكل ما تستخرجه رومانيا لا يزيد على 6. 000. 000 طن من البترول الخام، وهذا المقدار لا يكفي حاجات ألمانيا أيام الحرب، هذا إذا استطاعت الاستيلاء على منابع البترول في رومانيا، والإشراف عليها جميعها. وقد أخفقت في هذه المحاولة إبان الحرب العظمى. وعلينا أن نذكر هنا أن البترول الذي يصدر من رومانيا إلى ألمانيا، يجب أن يتخذ طريق الدانوب أو طريق البحر ماراً بمضيق جبل طارق، وكلا الطريقين تحت إشراف البنادق البريطانية. وإذا كانت بريطانيا تستورد

حاجتها من البترول عن طريق البحر، فليس في ذلك أي ضير مادامت تسيطر على البحار. فإذا أصبح طريق البحر الأبيض المتوسط معرضاً للأخطار أيام الحرب، فأمامها أكثر من طريق واحد لتوصيل البترول إليها. فعلى الرجل الذي يحلم بالانتصار على الإمبراطورية البريطانية أن يعلم حق العلم أن الحرب لا يمكن أن تستمر بغير بترول، ولكنها تنتهي لأجل البترول

الصحافة السرية في ألمانيا

عن)

تنتشر الصحافة السرية في ألمانيا بطريقة منظمة محكمة تيسر للملايين من الألمان الاطلاع على آراء كتابها الأحرار داخل بلادها وخارجها. وقد ذهبت سدى كل المجهودات التي بذلت لوقف تيار هذه الصحف التي تنتشر بين الجنود وفي المصانع والمساكن تحت أسماء وعناوين مختلفة. وقد حاول هتلر منذ ست سنوات أن يكتشف طريقة لوقف هذه الحملة الشديدة المحكمة النظام التي يقوم بها بعض أبناء ألمانيا لإنقاذ نفوس الملايين الذين لم تفسد بعد قلوبهم ورؤوسهم بتعاليم النازي السخيفة، فذهبت جهوده في مهب الرياح. وقد عملت التدابير المحكمة لنشر تلك الآراء المعادية لحزب النازي، واتخذت لها أعواناً وأستاراً ممن يلبسون اللباس النازي ويسيرون في صفوف المؤيدين. وتنتشر الصحافة السرية في المصانع والمصالح الحكومية وبين جنود الجيش، ويتلهف الكثيرون على تلاوتها على الرغم مما في ذلك من المخاطرة بالحياة.

وكثيراً ما توجد هذه الصحف في علب الشاي والبسكويت وغيرها من هذه الأنواع البعيدة عن المظنة والشبه، ويدبج مقالاتها الطريفة كتاب فحول من أمثال: توماس مان وجورج برنهارد وهنريك مان وغيرهم. وفيما يلي فذلكة مما ينشر بتلك الصحف:

في الأمم الديمقراطية تشتد الخلافات وتتضارب الآراء بين الأحزاب حتى يهتز لها كيان النظام السياسي القائم، إلا أنها عند مواجهة الأخطار تتحد جميعها وتتعاون للدفاع عن الحقوق والحريات. وقد تظن الحكومات الديمقراطية أن هذه الروح السائدة في بلادهم تجد ما يشابهها في بلاد تحكم بالعنف وبالقوة مثل بلادنا، ولكن الأمر على النقيض من ذلك،

فروح الكراهية والانتكاس والتطاحن لا تظهر عندنا في وقت السلم، فإذا دعا الداعي للحرب أظهرت الأكمة ما وراءها، وظهرت قوة الشعب

ومن المعلوم أن أركان حرب الجيش الألماني قد حذر النازي من الارتطام في حرب عامة إذ أن حرباً كهذه ستؤدي إلى هزيمة لا شك فيها. وقد أرسل إلينا ضابط عظيم يطلب الاستعانة بالصحافة السرية، على تحذير الشعب الألماني من الدخول في هذه الحرب. ويقول هذا الضابط في كتابه: (إن مركز ألمانيا الجغرافي في وسط أوربا وقرب مصانعها من الجهة الحربية، ومدنها الغاصة بالسكان تجعلها عرضة للغارات الجوية. ومن السهل على الطائرات الوصول إلى أقصى ناحية من الريخ في ساعة من الزمان). وعلى هذا النحو تسير الصحافة السرية في إرشاد الشعب الألماني وتحذيره بطريقة منظمة في كل أسبوع، بحيث تنير الطريق أمامه في ظلام المدلهمات.

هل تستطيع اليابان أن تحكم الصين
(عن (أميركان ميركيوري))
يلوح أن الضحايا العديدة التي فقدتها اليابان والأموال الطائلة التي بذلتها في الحرب الصينية سنتين كاملتين، قد ذهبت كلها أدراج الرياح. وقد تنقضي تلك الانتصارات المزعومة في هذه الحرب الطاحنة دون أن تفيء على الأمة اليابانية ما تأمله من الغنم. وذلك أن اليابانيين لم يرزقوا ذلك النوع من الدهاء السياسي الذي يمكنهم من حكم البلاد بغير العنف والإضرار، مما لابد منه لكل أمة تريد التوسع والاستعمار وتدل الحالة في فورموسا وكوريا ومانشوكو على أن الاستعمار الياباني لم يكن إلا نوعاً من الحرب المتواصلة التي يشقى بها الحاكم والمحكوم، وليس فيها أي دليل على الاستقرار والهدوء والتمكن من الاستيلاء على ناصية الأمور
ولعل الميول العسكرية التي ساقت الجيش إلى الانتصار بحكم الرغبة في السيطرة والقوة، هي نفسها التي ذهبت بقيمة هذا الانتصار، فإن حكم الجيش لتلك البلاد المقهورة هو الذي جعل اليابان عاجزة عن توطيد مركزها بها
وقد أخذت اليابان تفكر تفكيراً جدياً في نبذ تلك الفكرة التي كانت ترمي إلى فتح الصين
والاستيلاء على جميع أراضيها، وتود لو أتيح لها أن تعقد اتفاقاً مع الصين على أن تحكم الأقاليم الساحلية وتترك لها داخلية البلاد. ولكن اتفاقاً كهذا ليس من شأنه أن يوطد دعائم السلام بين الأمتين. فهو في الحقيقة سيكون بمثابة هدنة مؤقتة، إذ أن المنطقة الحرة في الصين ستعبئ كل قواها لإشعال نار الحرب من أجل الانتقام. وسوف تظل المؤامرات السياسية والأعمال السرية الخطيرة تقلق بال اليابان
وكل ما ترجوه اليابان الآن أن تستطيع استغلال الأقاليم التي استولت عليها جيوشها من الناحيتين الصناعية والاقتصادية، فإذا استطاعت اليابان أن تصل إلى أغراضها، وأمكنها أن تمد جيشها الذي يحتل تلك البلاد بما يرجوه من ثمرة انتصاره عليها، لم يكن من الصعب عليها أن تنتهز الفرص للاستيلاء على مواطن أخرى، أما إذا أعياها ذلك الأمر فإن الناحية الاقتصادية ولاشك ستصبح كارثة على اليابان. وقد ظهر أن المقدرة على الاستقرار وتسوية الأمور هي الشيء الذي ينقص اليابان في جميع المحاولات التي قامت بها لبناء الإمبراطورية
مما لاشك أن اليابان قد كسبت الحرب من الناحية الحربية. فقد استولت جيوشها بصفة نهائية على الشواطئ الصينية وامتلكت كثيراً من المدن الصينية الكبرى إلا أن السلطة اليابانية، ونفوذ حكومتها عليها يتعد المناطق التي تحميها بنادق الجيش. ومازالت اليابان تلاقي أشد الصعوبات في البلاد التي تتوغل فيها داخل بلاد الصين. فالصينيون يقطعون عليهم خطوط المواصلات كلما تقدموا خطوة إلى الأمام ويهدمون البلدان ويفسدون الأطعمة وكل ما ادخرته تلك البلاد من الخيرات
ويقول الصينيون إنهم يضحون بالسكان لأجل الزمان؛ ويحسبون الأيام ويعدون الزمن لإيقاع الهزيمة بهؤلاء المغيرين. فإذا فرضنا أن اليابان لم تهزم وقدرنا أن قوتها الحربية ستستمر على إخضاع تلك البلاد، فليست اليابان بالأمة المؤهلة للاستعمار بالمعنى المفهوم عند الأمم الأوربية فهو كما يظهر شيء بعيد عن أخلاق اليابانيين
البريد الأدبي
الجاو، الورق النقدي سنة 693
قال ابن الفوطي في كتابه (الحوادث الجامعة):
في سنة (693) وضع صدر الدين صاحب ديوان الممالك بتبريز (الجاو) وهو كاغد عليه) تمغة السلطان عوض السكة على الدنانير والدراهم. وأمر الناس أن يتعاملوا به. وكان من عشرة دنانير إلى دون ذلك حتى ينتهي إلى درهم ونصف وربع. فتعامل به أهل تبريز اضطراراً لا اختياراً بالقسر والقهر، فاضطربت أحوالهم اضطراباً أضر بهم وبغيرهم حتى تعذرت الأقوات وسائر الأشياء، وانقطعت المواد من كل نوع، فكان الرجل يضع الدرهم في يده تحت (الجاو) ويعطي الخباز والقصاب وغيرهما ويأخذ حاجته خوفاً من أعوان السلطان. ثم حمل منه عدة أحمال إلى بغداد صحبة الأمير (لكزي بن أرغون آقا) فلما بلغ ذلك أهلها استعدوا بالأقوات وغيرها حيث عرفوا ما جرى في تبريز. فلما أنهي ذلك إلى السلطان (كيخاو) أمر بإبطاله، فأبطل قبل وصول

(كيخاو إلى بغداد، وكفى الله العالم شره
فالناس - إذن - في القديم والحديث لا تمشي عندهم في شأن السكة شيطنة دهاةٍ شياطين ولا حيل حكومات وسلاطين. فهم لا يعرفون إلا هذا الأصفر، الأحمر الوازن
أكرمْ به أصفر، راقت صفرتهْ!
وحُببت إلى الأنام غرته!
كأنما من القلوب نقرته!
وهم لا يؤمنون إلا إذا رأوه جهرة، أو استيقنت أنفسهم أيما استيقان بأنه يسبح لله في الحزائن من بنات الفولاذ في معقل قويّ منيع كالذي شاده العلامة الأستاذ (محمد طلعت حرب باشا)
من همة المحكوم وهو مكبّل ... بالقيد لا من همة الحكام
الله سخر للكنانة خازناً ... أخذ الأمان لها من الأعوام
وأن ليست تلك (الورقة) ذات الخطوط والسمة إلا آية، علامة لكبيرٍ، لإمامٍ لم يغب، لا، ولم يجهل مكانه. . .
(ن)
وفاة المستشرق فنسنك
يخزن الرسالة أن تنقل إلى قرائها خبر وفاة المستشرق أ. ي. فنسنك توفاه الله منذ أسابيع بعد رحلة ساقته إلى مصر، فأقام بها نحو شهر اجتمع فيه بكبار علمائنا وكتابنا، حتى إذا قفل إلى (ليدن) في هولندا تخوَّنته حمى خبيثة ثم واظبت فقلبت عليه حتى كان قضاء الله
المستشرق فنسنك علم من أعلام الاستشراق. وكان أستاذ اللغات السامية في جامعة ليدن، وتوفر على دراسة أصول الدين الإسلامي فألف كتاباً نفيساً عنوانه (العقيدة الإسلامية) وأردفه بمقال نشره سنة 1936 في مجلة تخرج في أمستردام، عنوانه: (الأدلة على وجود الله في أصول الدين الإسلامي) وتجد وصف هذا المقال في (مجلة الدراسات الإسلامية) باريس 1935 ج4 ص236. وكان فنسنك إلى جانب التعليم والتأليف، يدير دائرة المعارف الإسلامية الخارجة في ليدن: يوزع العمل ويراجع المقالات ويخرج الدائرة. وكان يعينه على هذا سعة اطلاعه على مسائل الإسلام وشؤون العرب ثم تضلعه من لغته الهولندية فالفرنسية والإنجليزية والألمانية فضلاً عن اللغات القديمة من ساميَّة وغير ساميَّة
بقي أن فضل فنسنك كان من وراء جمعه لأحاديث الرسول. كان فنسنك رحمه الله الجماع المجتهد للحديث الصحيح، وضع أول ما وضع (مفتاح كنوز السنة) الذي نقله الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي إلى العربية سنة 1933، ولم يكن ذاك الكتاب سوى مدخل إلى سِفر أغزر مادة وأعم نفعاً. وقد أخذ السفر يخرج للناس منذ سنة 1934، وهو معجم تفصيلي لمفردات الأحاديث المدونة في الكتب الستة ومسند الدارمي وموطأ مالك ومسند أحمد بن حنبل، واسمه في العربية (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي). وظلَّ السفر الجليل يخرج للعلماء وهم به فرحون، حتى جاء يوم قلَّ فيه المال، فسعى فنسنك في تدارك الفشل. والذي نعلمه أن مسعاه في مصر خاب! والسَّفر لم يتم خروجه وإن كانت الجزازات كلها مهيأة للطبع (خرج 11 جزءاً)
إن فنسنك خدم الإسلام والعربية بكتابيه الخدمة التي لا يقدر قدرها، وحسبه شهادة السيد محمد رشيد رضا في الكتاب الأول قال: فلو كان بيدي هو (يعني الكتاب) أو مثله من أول عهدي بالاشتغال بكتب السنة لوفر عليَّ ثلاثة أرباع عمري الذي صرفته فيها. . .)
هذا ومما لا معدل عن ذكره أن ثائرة ثارت على المستشرق فنسنك يوم عُيّن عضواً من أعضاء مجمع اللغة العربية الملكي. والقصة مشهورة، والثائرون أحياء في ذمّة الله من وقف حياته على العلم الحق وإمداد الباحثين وتقريب مصادر الإسلام إلى أهله. سيأتي يوم تهدأ فيه الأنفس فتراجع أعمال النافعين
(ب)
في منزل الدكتور طه حسين
تلقينا من صديقنا الأستاذ الكبير محمد عبد الواحد خلاف هذه الكلمة:
اطلعت على مقال للأستاذ زكي مبارك منشور في العدد الأخير من الرسالة عن

اجتماع مزعوم بمنزل حضرة الدكتور طه حسين بك حضره طائفة من الأدباء والعلماء ووردت فيه عبارات زعم كاتب المقال أنها صدرت عني وعن بعض إخواني كالأستاذ أحمد أمين والأستاذ العبادي والأستاذ عزام والأستاذ إبراهيم مصطفى، وهذا الاجتماع من نسيج خيال الكاتب ولا حقيقة له. . .

محمد عبد الواحد خلاف

حول ابن بطوطة وابن تيمية

أورد الأستاذ المحقق الدكتور عبد الوهاب عزام في الرسالة الغراء (العدد 322) في مقالته (عودة إلى الشيخ الخالدي) قولاً لهذا الشيخ الجليل رأيته لا يتفق والحقيقة التاريخية وهو: (أن ابن بطوطه لم يدرك ابن تيمية)

قال الشيخ الخالدي ذلك في معرض دحض رواية ابن بطوطة عن ابن تيمية، وخلاصتها أن الرحالة المغربي حضر الإمام الحرَّاني يعظ الناس في المسجد بدمشق ويقول متكلماً في نزول الله تعالى إلى السماء: (نزل كنز ولي هذا) ونزل ابن تيمية درجة من المنبر

إنني لا أريد أن أبحث في مطابقة هذا القول المعزو إلى الشيخ الإمام لمذهبه واجتهاده وفلسفته الدينية كما يمكن استخلاصها من تآليفه، ففي العلماء والفقهاء من هو أجدر مني بهذا البحث. وفي دمشق عالم فقيه هو أحد البقية الباقية من السلف الصالح الأستاذ الشيخ بهجة البيطار، له باع طويل واختصاص في كل ما له صلة بمذهب الإمام ابن تيمية نتمنى

لو كتب في هذه المسألة

ولكني أود أن ألفت النظر إلى أمرين رئيسيين في هذا الموضوع: الأول أن ابن بطوطة أدرك ابن تيمية، والثاني: الشك في صحة رواية ابن بطوطة

أما إدراك ابن بطوطة لابن تيمية فأمر يكاد لا يحتاج إلى دليل، وحسبنا أن نعلم أن بطوطة ولد سنة (703هـ) وتوفي سنة (779هـ)، وأنه جاء إلى دمشق كما ذكر في رحلته (طبع المطبعة الأزهرية ج1 ص50 سنة 726هـ) وهي السنة التي سجن فيها ابن تيمية سجنه الأخير في القلعة إلى أن مات، وكانت وفاته رحمه الله عام (728) ثمان وعشرين وسبعمائة كما هو ثابت في جميع تراجم ابن تيمية نذكر منها (العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية للإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد ابن عبد الهادي) (مطبعة حجازي بالقاهرة سنة 1938 ص369) وكما هو بارز حتى الآن منقوشاً على قبره خلف بناء الجامعة السورية في مقبرة الصوفية المندرسة التي لم يبق منها غير ضريحه

أما الشك في صحة رواية ابن بطوطة فمصدره ما يأتي:

ذكر ابن بطوطه في رحلته (المطبعة الأزهرية ج1 ص50) أنه وصل إلى دمشق (يوم الخميس التاسع من شهر رمضان سنة ست وعشرين وسبعمائة، ثم سرد بعد ذلك (ص 58) روايته التي نحن بصددها، وأضاف: إن ملك الأمراء سيف الدين تنكيز كتب إلى السلطان الملك الناصر في أمر ابن تيمية (بأمور منكرة) فورد أمر السلطان من القاهرة (بسجنه بالقلعة فسجن حتى مات) في حين أن سائر المظان والمصادر ومنها (العقود الدرية) (ص 329) و (دائرة المعارف) التي تعتمد بحقيقتها على تراجم وكتب متعددة تعين يوم الاثنين السادس من شعبان عام ستة وعشرين وسبعمائة، تاريخاً لسجن الإمام تقي الدين للمرة الأخيرة التي مات فيها

ينتج مما تقدم أن ابن بطوطة، إذ حطَّ رحاله بالشرابشية (المدرسة المالكية) في دمشق، كان شيخ الإسلام رهن سجن القلعة يقضي أيامه ولياليه في التأليف والعبادة فلابد لنا بعد هذا من الحكم بعدم صحة رواية الرحالة المغربي ما لم يثبت لدينا خطأ ابن عبد الهادي، وسائر المؤرخين والمؤلفين (كابن شاكر الكتبي في فوات الوفيات والصدقي في طبقاته، وابن الوردي في تاريخه) الذين استندت إلى أقوالهم دائرة المعارف الإسلامية،

وهذا بعيد عن المعقول

وخلاصة القول: أن ابن بطوطة قد أدرك ابن تيمية، وإن لم يره ويسمعه.

(دمشق)

محمد محسن البرازي

إلى الدكتور زكي مبارك
1 - وجهتم أنظار المولعين بالمباحث الأدبية والتاريخية إلى درس ما بقي في أذهان العرب من أساطير الأولين لعلهم يعرفون شيئاً من رسوم الوثنية العربية التي حاربها القرآن. طلبتم هذا في معرض تدليلكم على أن وثنية العرب لم تكن (أرضية وضعية). فأقول: روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن اللات والعزى ومناة وسواها أسماء لرجال صالحين كانوا في زمن إبراهيم أو نوح عليهما السلام؛ وأن العرب قد أقاموا لهم هذه التماثيل بعد مماتهم تدليلاً على ما يكنونه نحوهم من صادق الولاء وخالص الوفاء (أنظر تفسير النسفي - سورة النجم). وفي رواية ثانية عن ابن عباس (أن اللات كان رجلاً يلت السويق للحاج. قيل فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه. تفسير الخازن - سورة النجم) وتستطيعون إذا أردتم المزيد في هذا البحث أن ترجعوا إلى كتاب (التوسل والوسيلة) تأليف ابن تيمية طبعة المنار
2 - أوردتم في تعليقكم على مادة (ابن الأحنف) من (دائرة المعارف الإسلامية) قصة ذكرتموها كذلك في كتابكم (مدامع العشاق) مفادها أن العباس بن الأحنف مات هو وإبراهيم الموصلي والكسائي في يوم واحد وأن الرشيد أوفد المأمون للصلاة عليهم، فصفوا بين يديه ثم سأل عنهم المأمون واحداً واحداً وأمر بتقديم العباس فصلى عليه، فلما فرغ وانصرف دنا منه هاشم بن عبد الله بن مالك الخزاعي فقال: يا سيدي كيف آثرت العباس بالتقدمة على من حضر؟ فأنشده المأمون هذين البيتين:

سماك لي ناس وقالوا إنها ... لهي التي تشقى بها ونكابد
فجحدتهم ليكون غيرك ظنهم ... إني ليعجبني المحب الجاحد

ثم قال المأمون: أتحفظهما؟ فقال: نعم. قال: أليس من قال هذا الشعر أولى بالتقدمة؟ فقال:

بلى يا سيدي) أهـ والقصة ظاهرة الوضع فإن العباس بن الأحنف قد مات سنة 192 للهجرة والكسائي توفي سنة 189 وإبراهيم الموصلي قضى سنة 188 فكيف يمكن أن يقال إنهم ماتوا في يوم واحد؟ قد يحتج الدكتور مبارك بأن هناك رواية تدعي أن الكسائي قد مات سنة 192 وهو العام الذي مات فيه العباس، ولكن ما قوله في إبراهيم الموصلي وقد أجمع الرواة على أن وفاته كانت سنة 188؟ وقد يحتج أيضاً بأنه قال عند إيراده القصة (ذكروا أن العباس والكسائي وإبراهيم الخ) وأنه عقب عليها بقوله: (فإذا صحت هذه الرواية الخ) وأن هذا وذاك يفيدان تشككه في صحة هذه الرواية، ولكنه - إن قيل ذلك - شكٌ في إسناد الرواية إلى المأمون، بيد أن الأسانيد التاريخية تدعونا لنبذ هذه القصة بكليتها على أنهم يروون أن محمد بن الحسن صاحب الإمام أبي حنيفة مات والكسائي في يوم واحد وأن الرشيد صلى عليهما وبكى قائلاً (اليوم دفنت الفقه والنحو)

ما أجدرنا بأن نمحص هذه الروايات التي تزخر بها كتب الأدب تمحيصاً جدياً لنقدم للأدب العربي بعض ما يجب له علينا من خدمات ما كنا لنعترض على هذه القصة لولا أن ناقلها هو الدكتور زكي مبارك.

(طرابلس)

محمد علي عكاري

لطيفة

بيَّنت في العدد 325 من الرسالة كيف عاد أدهم إلى الإغارة على ما يكتبه الكتاب في مصر. وقد وقفت القارئ على فرط إقدام المغير، إذ دوَّنت نص النقد الذي عملته لكتاب (فرعون الصغير) لصديقي محمود تيمور ونشرته في مقتطف أول يوليه ثم نص النقد الذي عمله أدهم للكتاب نفسه ونشره في 14 أغسطس في الرسالة. وهكذا مكنت القارئ من معارضة النصَّين. وقد شرحت فوق هذا كيف استبدل المغير كلمة ألمانية جاءت في نقده بكلمة فرنسية كانت قد وردت في نقدي، وذلك رغبةً في التضليل؛ فجاء الاستبدال خطأ من حيث مفاد الكلمتين، فدلّ ذلك مرة أخرى على أن أدهم لا يعرف كيف يغير بل لا يفقه ما يكتب؛ أو قل إن معرفته بالألمانية لا تزيد على معرفته بالفرنسية، وقد بينت من قبل

رقة هذه. ولما طعن أدهم تلك الطعنة لم يرتجل في رده (الرسالة (الرسالة 314) 326) ما يجعل ذلك الخطأ صواباً، وأدهم على كل ارتجال قدير

طُعِنَ أدهم ففرَّ يستغيث بشهادة صديقه الإسكندري صديق شيبوب - وهو الناقد الأدبي لصحيفة (البصير) - فقال إنه قرأ نقده عليه قبل أن يبعث به إلى الرسالة في 27 يونيه فتلقى الأستاذ شيبوب استغاثة صديقه باشمئزاز. ألا ترى كيف يفتتح شهادته (الرسالة 327): (أقحم اسمي في الجدل القائم بين فلان وفلان)، والفيروزابادي رحمه الله يخبرنا بأن (قحم في الأمر: رمى بنفسه فيه فجأة بلا رويّة وقحمه وأقّحمه. . .)، ولكن مثل أدهم يجهل التدَّبر والاستئذان. وقد زاد الأستاذ شيبوب أنه (لا يذكر شيئاً) من نقد أدهم في كتاب فرعون الصغير، وعلى هذا فشهادته لا تجدي على أدهم شيئاً، إذ هي ساقطة كما يقال في لغة القضاء. ثم إن شيبوباً خرج من عهدة الشهادة بأن سأل صاحب الرسالة أن يخبرنا كيف أخر النشر لنقد أدهم شهراً ونصف شهر، فاعتصم صاحب الرسالة بسر المهنة؛ وهذا حقه. وقد قال أدهم في رده تأخير نشر نقده حتى 14 أغسطس على أنه مرسل به في 27 يونية (راجع إلى تقديم بعض كلمات له أرسلها للرسالة (يريد أرسل بها إلى) وكانت لمناسباتها تتطلب نشرها في وقتها) والواقع أن الرسالة لم تنشر شيئاً لأدهم في عدد 10 يوليه (رقم 314) ولا في عدد 24 يوليه (رقم 316) وأما عدد 3 يوليه (رقم 313) فليس فيه لأدهم سوى كلمة في البريد الأدبي. والرسالة نشرت لأدهم في آن كلمة في البريد الأدبي ومقالاً في باب النقد (راجع عدد 326). أضف إلى كل هذا أن مكانة الأستاذ تيمور عند صاحب الرسالة لا تسوغ مثل ذلك التأخير

وكيفما كانت الحال فإن الحكم بالسوابق كما يقال في لغة القضاء. ولأدهم غارات غير هذه: أغار على مراد فرج وزكي مبارك وعليَّ (أطلب الرسالة 314 ص1380) وعلى من يعلم الله.

وإن قال قائل: لِمَ تعنى بالغارات الأدهمية ولا ترحم. قلت: إنه ينبغي لنا أن ننصب الحرب للمغيرين ولاسيما المكابرين منهم؛ وذلك أننا نريد أن نقيم للإنشاء بالعربية دولة. والإنشاء إذ رضي بالاستلهام فإنما يكره السطو والالتقاط ثم التهويل بهما وفي هذه (اللطيفة) الكفاية.

ب. ف

. . .لعله هو

في العدد (325) من الرسالة الغراء وجَّه الأستاذ (علي معمر الطرابلسي) كلمة تتحدث عن جماعة (الشراة) إلى (أستاذ جليل) وكاتب مبرز مبدع، سباق غايات وصاحب آيات بينات، ومدبج بحاثات رائعات، ينم قلمه العتيق الكريم عن رسوخ كعبه في الأدب، وعلو مقامه بين الكتاب، وكمال اتصاله بروح العربية، وفذ اطلاعه وإحاطته بفنونها وآدابها، ومع ذلك فهو لا يتباهى بعلمه، ولا يفاخر بأدبه، ويرغب عن شهرة اسمه، فتراه يخفي شخصيته وينتحل إمضاءه وما تخفى الشمس ولا يحجب ضوء النهار!

وقد قال الأستاذ الطرابلسي في نهاية كلمته يخاطب الأستاذ الجليل: (فهل تسمحون أن أطلب إليكم إظهار اسمكم، فلطالما رغبت في معرفتكم، وكيف لا أرغب وقد كشفتم لنا ببحوثكم القيمة أنواعاً من حقائق أخفاها الدهر، مما يدل على عظيم اطلاعكم وحسن تمحيصكم؟)

وقد كنت ظننت بادئ الأمر أن (أستاذنا الجليل) سيسارع (فيضع عمامته) ويعلن اسمه، كي يعرف أهل العربية قاطبة من هو (ابن جلا وطلاّع الثنايا)! ولكن الأيام مضت تترى والأستاذ الجليل لا يجيب وعهدنا به أنه المجيب لكل سائل؛ وكأنه في عالم سماوي حبيب إلى نفسه، لا يود أن يغادره إلى عالم المتبجحين المتوقحين المدعين العظمة والسبق بالباطل والزور والافتراء والادعاء! وإنها الشمس تستحي أن تقول للنجوم وما حولها من كواكب: أنا الشمس. . .!

وأنا أرجو - إذ أتقدم بمحاولة الإعلان عن هذه الشخصية الفذة - ألا أكون فضولياً على أحد الأستاذين السائل أو المسئول فإن بي رغبة جامحة إلى الإشادة بفضل تلك الذات العالية والشخصية النابغة: شخصية (الأستاذ الجليل)، وأقرر أنني أصدر قولي هنا اعتماداً على الترجيح لا على اليقين وعلى ما استطعت أن أجده من المشابهة والتماثل بين ما كتب (الأستاذ الجليل) مذيلاً باسمه الحقيقي، وما كتب مذيلاً بما انتحل من إمضاء

وسأكسب - مع الأستاذ الطرابلسي ومع القراء - معرفة الحقيقة سواء كنت موفقاً أم مخطئاً؛ لأنني إذا وفقت فبها، وإلا فسيسارع (الأستاذ الجليل) أو بعض صحابته بتصحيح الخطأ - فذلك فريضة إسلامية، و (الأستاذ الجليل) من أصدق المجاهدين للإسلام، وعلى ذلك فحتماً سنعرف!

إنني أرجح اعتماداً على ما قدمت أن ما ينشر في الرسالة المحبوبة بإمضاء (* * *) أو (ن) أو (القارئ) هو لحضرة صاحب العزة (أديب العربية الأستاذ الجليل والعلامة المحقق محمد إسعاف النشاشيبي بك) صاحب (نقل الأديب) و (الإسلام الصحيح) وغيرهما من الكتب الخالدة والمقالات العبقرية الفريدة وكل خاف سيعلم!

وأذكر الأستاذ الطرابلسي بقول القائل: (ويأتيك بالأخبار من لم تزود!).

(البجلات)

أحمد جمعه الشرباصي

المصطلحات العسكرية ترجمتها إلى اللغة العربية

قررت وزارة الدفاع إجراء مسابقة في ترجمة المصطلحات العسكرية الخاصة بالأقسام الميكانيكية والسيارات وغيرها إلى اللغة العربية. ويبلغ عدد الكلمات التي يراد ترجمتها حوالي خمسة عشر ألف كلمة.

وسيمنح الفائز في ترجمة هذه المصطلحات مكافأة مالية

تثقيف الشعب عن طريق الإذاعة

أعدت وزارة الشؤون الاجتماعية مشروعاً يرمي إلى تثقيف الشعب عن طريق الإذاعة اللاسلكية وذلك بتنظيم محاضرات دينية واجتماعية وقصصية تتناول شؤون الأسرة وتعالج أمراض المجتمع وتقوم أخلاق الشعب على أن تذاع إلى جانبها أناشيد وأغاني وموسيقى تعاون على تقريب المعاني الإصلاحية التي ترمي إليها الوزارة - من أذهان الشعب وتساعد على رفع مستوى تفكيره

وقد استقر الرأي على افتتاح موسم هذه الإذاعة في شهر رمضان

ويقال أن الوزارة تقوم الآن باختيار المحاضرين والمحاضرات من بين المشتغلين بمسائل الإصلاح الاجتماعي

حول قصيدة

سيدي الأستاذ الكبير صاحب الرسالة:

بعد التحية قرأت بالعدد (327) من الرسالة الغراء الصادر في 9 أكتوبر سنة 1939 قصيدة رائعة للشاعر المعروف محمود الخفيف عنوانها (وداع) وقد أعجبت بتصويره أيما إعجاب ولكنني عندما قرأت

إذا هم لا يستجيب اللسان ... وما عيَّ في موقف قبله

وماذا عسى أن يقول ... وهل تتأسى فتصغي له

عندما قرأت هذين البيتين لاحظت أن الثاني مكسورة فقدرت أن كلمة قد سقطت في الطبع ولعل الأستاذ الشاعر كان يريد أن يقول:

وماذا عسى أن يقول وهل ... تتأسى لقول فتصغي له

أرجو أن يتفضل سيدي الأستاذ فيدلي إليَّ برأيه وأكون له شاكراً

(بني مزار)

يوسف حنين

صحة البيت هكذا (الرسالة):

وماذا عسى أن يقول لها ... وهل تتأسى فتصغي له

وقد سقطت كلمة (لها) في الطبع

رجاء إلى الكتاب

لاحظت في أكثر المقالات المنشورة في الرسالة أن الكاتب عندما يريد أن يشير إلى كلمة أو جملة تحتاج إلى إيضاح أكثر يشير إليها بالرقم 1، 2، 3 إلى آخره كما هو متبع عادةً ويكتب لذلك مفسراً يقول: (اقرأ صفحة كذا من كتاب مختصرات طبقات الحنابلة) أو (راجع أخبارهم من كتابي سيناء القديم وتاريخ بئر السبع وفيائلها إلى غير ذلك. . .) وهذا مثل لما جاء بالعدد الأخير فقط. ومثل ذلك في الأعداد الماضية

وإني أرى أن يكلف الكاتب نفسه ولو بكتابة كلمة أو اثنتين أو سطر أو سطرين وإن اضطره الحال فليكتب جملة أو جملتين كما نرى في كثير من المقالات لأن من قراء

الرسالة كثيرين من الطلبة والموظفين لا يجمعون من تلك الكتب التي يشير إليها كاتب
المقال كتاباً واحداً. . . والكاتب بطبيعته يطلع على ذلك الكتاب الذي يشير إليه وهذا ظاهر من تحديده صفحة الكتاب ورقم السطر فما كان يضيره لو كتب ما يريده من القارئ أن يطلع عليه ولو موجزاً؟ . . .
أحمد حلمي العباسي
جريدة الشورى
سألنا بعض القراء عن جريدة الشورى التي كان يصدرها صديقنا الأستاذ محمد علي الطاهر باسم الشباب ثم باسم العلم ولماذا لا تصدر الآن؟ ونحن نجيب على ذلك بأن الزميلة توقفت عن الصدور بسبب الأحوال الحاضرة وسيعيد الأستاذ الطاهر إصدار جريدته بعد الحرب إن شاء الله
الكتب
تحت راية الإسلام
لفاضل مسيحي
بقلم الأستاذ عز الدين التنوخي
كتاب جديد يبحث عن سيرة النبي العربي وحقيقة الإسلام، ويدرأ :(تحت راية الإسلام) عنهما شبهات المبشرين ومفتريات المستشرقين ألفه الأستاذ خليل جمعه الطوال العربي المسيحي الكاثوليكي، من أدباء شرقي الأردن أو مشارف الشام؛ ولو كان المؤلف عربياً وأرثوذكسياً لخف العجب، ولكنه يؤلف (تحت راية الإسلام) وهو كاثوليكي وبابوي صميم!
وكثيراً ما كنت أجادل بعض إخواني من دعاة الجامعتين العربية والإسلامية، وأكثر من الاحتجاج لرأيي القائل بأنه لا فرق بين العربي الأرثوذكسي وأخيه الكاثوليكي إذا ما بُثت فيهما روح العروبة منذ الصبى، لا فرق بهذا الشرط بينهما في الإخلاص لدين العروبة، وبالتالي للأمة العربية ودولها العربية
ولولا مدارس التبشير الأجنبية، وما تبثه في بلادنا الشامية من روح التعصب، وما تنشره في صفوف المدارس من الدعايات السياسية المصمومة، لولا ذلك لكانت لعمري روح شباب الشام واحدة، على الرغم من اختلاف الأديان، ولما كان للأقليات نواب في مجلسنا النيابي، ولما وجد المستعمرون مطايا لهم في بلادنا العربية. ولو كانت الروح القومية واحدة لرأينا العربي المسلم يدرس إلى جانب العربي الأرثوذكسي والكاثوليكي على مقعد واحد في مدرسة واحدة.
ومن دعاة الجامعة الإسلامية من يوجس في نفسه شراً من الجامعة العربية، وكأنه يحسب أن الإفراط في الارتباط بالقومية، والمبالغة في التمسك بحبل العروبة مما يحل عقدة العقيدة، ويوهن عصب الجامعة الإسلامية، ومن دعاة الجامعة العربية من يخال أن الجامعتين متضادتان، وأنه قلما اجتمعت الوطنية الصحيحة والقومية الصادقة في أحد من دعاة الجامعة الإسلامية، وكلا الفريقين غال في رأيه، مخطئ في حكمه: ذلك لأن العربي المسلم قد يشاطر الياباني والهندي المسلم عقيدته وعاطفته وهيامه بالمثل الإسلامي الأعلى،
ويحب لهم من الخير والاستقلال وبلوغ الكمال ما يحب لنفسه؛ ولكن حبه الخير لأخيه في الإيمان لا ينافي حبه الخير والسعادة لأخيه في الأوطان.
ولا ضرر على الإسلام ولا ضرار في انتشار دين العروبة في البلدان العربية، فكثيراً ما عرفت بين نصارى العرب أو عرب النصارى من شبان يدينون بدين العروبة، ويجاهدون في سبيلها حق الجهاد، ومنهم من هو أكثر خيراً للعروبة وأقل ضرراً للإسلام من بعض ملاحدة المسلمين.
ذلك لأن منهم من كانت عروبته الصادقة تحطم قيود عقيدته التقليدية، وتحمله على درس القرآن وسيرة النبي العربي، فيجلو بدرسه الحر وبحثه المستقل وما ران على قلبه من أضاليل المستشرقين ودعايات المبشرين.
ولو سردت أسماء إخواني في العروبة في لبنان وفلسطين والشام والعراق ومصر وأمريكة وعرضت لذكر آرائهم لضاق بي نطاق البحث، وحسبي أن أذكر من هؤلاء الأدباء النجباء في أرومتهم والصرحاء في عروبتهم الأستاذ خليل جمعه الطوال مؤلف

(تحت راية الإسلام)

لقد عرفت قبل اليوم هذا المؤلف معرفة روحية بقراءة ما كان يكتبه في مجلة الرسالة من الأبحاث الدقيقة الممتعة، وعرفته في الفيحاء اليوم عربياً مشهوداً له في بلاده بصدق النسب العربي، والاعتزاز بالنبي العربي، الذي أحيا أمته وجمع بعد تفرق شملها، وشفاها من أمراض الجاهلية المعضلة، وأخرجها من القبلية الضيقة النطاق، إلى الشعبية الفسيحة الآفاق، فجعلها أمة واحدة تحمل بيمناها كتاب القرآن، وبيسراها كتاب علوم الأكوان، فهدت بالأول الأمم إلى مَسمى الإنسانية، واهتدت بالثاني في معترك حياتها الدنيوية، ففازت بالإسلام بسعادة الدارين معاً

استمع لما توحيه إليك كلمة المؤلف في مطلع كتابه إذ يقول: (لقد نشأت بتأثير تربيتي المسيحية الكاثوليكية نفوراً من الإسلام كارهاً له ولأهله، لا أقر له بحسنة، ولا أبرئه من سيئة، وغاية ما كنت أعرفه عنه أنه شريعة فاسدة تنطوي على عيوب كثيرة، أقامتها جماعة من الغزاة المحبين لسفك الدماء والنهب والسلب، ثم اعتنقتها شعوب بدائية وأمم بربرية لا حظ لها من الثقافة والمدنية، ولست أرى عليَّ الآن أيّ لوم في تلك الصورة

الملفقة المشوهة التي كنت أحملها عن الإسلام، لأني لم أكونها لنفسي بنفسي، ولا بنيتها على ما قد انتهى إليه اجتهادي في دراسة حقيقة الإسلام، أو اقتنعت به بعد إنعام النظر وإعمال الفكر في كتابه، ولكني ورثتها منذ حداثتي وراثة تقليدية .. .)

ورأى صديقاً له مسلماً يبتاع نسخة من التوراة والإنجيل ليدرسهما قائلاً له: (من الناس من يكره شيئاً ويحب آخر دون أن يكون له في كلا الحالين أمر أو رأي، ولكنه مقيد في جميع سلوكه بمألوف عادات بيئته وتقاليدها، ويسرني أنني لست من ذلك الطراز، ولذلك اشتريت هذه الكتب لأقبل ما فيها أو أرفضه عن فهم واقتناع لا عن جهل وتعصب)

ورأى أن حالة صديقه المسلم تنطبق عليه، وأن كلمته هذه الحرة جدير به أن يقول مثلها إن كان منصفاً وعاقلاً حراً. قال المؤلف: (ثم نظرت فإذا بي أكره أخي العربي المسلم وأنفر منه وأتحاشاه لا لعلة إلا لما كان من إسلامه الذي كنت أشعر بكراهته قد خالطت لحمي ودمي، إلا أنني على كل حال لا أكاد أعرف عنه إلا اسمه، فعزمت لذلك على دراسة أملاً أن أقف على صحته أو فساده

وفي ذات يوم عرجت على إحدى المكاتب العربية وابتعت منها نسخة من القرآن) العربي المبين، وأخرى من سيرة ابن هشام فطواهما البائع لي في رزمة، وتسللت من عنده كاللص، واضعاً إياها بين ملابسي، وحريصاً كل الحرص على ألا يطلع عليها أحد من أقاربي وأهلي، ذلك لأن الكنيسة الكاثوليكية كانت سوى ذلك تحرم على المسيحيين مطالعة جميع الكتب الدينية غير الكاثوليكية ولو كانت مسيحية، فكيف الكتب الإسلامية؟!)

تلا المؤلف القرآن باستقلال فكر وإنعام نظر، وقرأ معه سيرة ابن هشام فرأى ما رأى من شبهات غير المحققين من المبشرين وشاهد ما شاهد من مفتريات غير المحقين من المستشرقين، فكان كما قال الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده: (من عرف الحق عزَّ عليه أن يراه مهضوماً)، ولذلك انتبه من رقدته منتصراً لمحمد فخر أمته، وللحق يراه مهضوماً، وللعدل يبصره مظلوماً، فألف كتابه هذا (تحت راية الإسلام)

على أنه ينتظر لمثله أن يؤذى ويظلم في حرية تفكيره فقد قال المسيحيون عنه: (زنديق مارق عن الدين وكافر يجب حرمانه) وأجاب المسلمون: (بل هو دجَّال متملق يقول هذا لغرض يريده حتى إذا ظفر به انقلب على عقبيه)، ولقد ظلم كثيراً من المسيحيين

والمسلمين بقوله هذا، لأن المسيحيَّ العاقل الفاضل يعذره، ولا يكفره، إذ لا يجتمع عقل سليم وتعصب ذميم، والفضل يحول بين المرء والعدوان في كل زمان ومكان؛ وأما المسلم الذي يعرف ما لقيه المؤلف في سبيل عقيدته الحرة من ضروب الأذى، فإنه لا يقول لمثل خليل جمعة الطوال متملق دجال!

إن دين الله السماويَّ واحد، وكالقطر حين ينزل من السماء واحد، وتحليله الكيميائي واحد، وإنما تباعدت النصرانية الحاضرة عن الإسلام بكثرة ما دخلها من الزيادات الكنسية، كماء السماء ينزل صافياً نقياً، وكلما ازداد اتصالاً بالأرض وجرياناً عليها قل

صفاءه بمقدار ذلك وبقاءه، والمؤلف مع اعتقاده بمحاسن الإسلام وصدق دعوته العامة لا يزال يعتقد بالنصرانية الأولى ولا يرى تنافياً في الدعوتين، لأن الإسلام كما قال السيد جمال الدين الأفغاني: نصرانية وزيادة، ولذلك يقول في كتابه (تحت راية الإسلام) ما نصه: (إن اعتقادي الصحة في معتقدي لا يمنعني البتة من أن أعتقدها في مذهب غيري)، ويقول في موطن آخر معترفاً بأن محمداً لم يرسل إلا رحمة للعالمين: فبه اهتدت السفينة الضالة وكملت البشرية الناقصة، وعزت الإنسانية المهينة، فمن لم يحبه عن طريق الدين الذي أظهره، أحبه عن طريق الدنيا التي طهرها، ومن لم يمجده عن طريق الإسلام الذي رفع مناره مجَّده عن طريق العنصر العربي المجيد الذي أعز مكانه ورفع قدره وأعلى كلمته. .)، فالأستاذ خليل جمعه الطوال الذي شرح الله للإسلام صدره لا يزال في يوم الناس هذا ممن يكتم إيمانه، وإن صدَّق بنبيه العربي محمد وأحب قرآنه، ودون للناس في كتابه حسنَ دعوته وإحسانه

(دمشق)

عز الدين التنوخي

العدد 330 - بتاريخ: 30 - 10 - 1939

وزارة الشؤون الاجتماعية

الجهل. . .

- 1 -

ذلك هو العنوان الأول من العناوين الثلاثة التي اقترحنا في العدد الماضي من الرسالة أن يتألف منها الدستور الإصلاحي لوزارة الشؤون الاجتماعية، وهي الجهل والفقر والمرض.

والجهل كما يظهر لأدنى نظر هو علة العلل في اضطراب الأسرة، وانحطاط البيئة، وفساد المجتمع، وأفن الرأي العام. فإذا وقفت هذه الوزارة بالفعل إلى أن تمحو الأمية وتنسخ الجهالة فقد تيسر لها أن تقول فتفهم، وتكتب فتقرأ، وتشير فتتبع؛ وإذن يخفف عنها عبء الإصلاح باعتماد كل امرئ على نفسه في تدبير عيشه من طريق الكفاية فلا يكون فقر، وفي علاج بدنه من طريق الوقاية فلا يكون مرض، وفي تهذيب خلقه من طريق الدراية فلا يكون شر. ذلك إلى أن الشعب متى أدرك القدر المشترك من المعرفة قوى عقله فيعمل عمله بروية، ونضج رأيه فينتخب نائبه بحرية؛ وبروية العزيمة تثمر فروع الإنتاج، وبحرية الرأي تثبت أصول الديمقراطية

ولكن كيف نكلف وزارة الشؤون الاجتماعية أن تساهم في نشر المعرفة وهناك على مدى قريب منها وزارة المعارف بميزانيتها الضخمة وجامعتها الفخمة ومدارسها المختلفة الدرجات والغايات، ورجالها المتعددي الألقاب والشهادات؟ فهل يسوغ في العقل أن تترك هذه الوزارة الغنية الفنية في مصر بعد قرن ونيف من لا يعرف حروف الهجاء، ولا يدري أفي الأموات هو أم في الأحياء؟

الواقع الذي يحار في تعليله الذهن الفلسفي أن التعليم الحكومي والأهلي، والديني والمدني، والوطني والأجنبي، لم يستطع أن ينفي الأمية في مصر - وهي ملتقى بحرين ومجتمع ثلاث قارات - إلا عن 25 ? من الذكور و8 ? من الإناث. ونفي الأمية لا يثبت العلم؛ ولكني أسلم بأن هؤلاء تميزوا عن نظرائهم أولئك بإدراك الحياة الإنسانية على نحو معقول. فإلى من نكيل تعليم البقية وهي سواد الأمة وعماد الدولة وعدة الإنتاج؟ إن تثقيف وزارة المعارف لا يشمل كل الصغار لأن قانون التعليم الإجباري لم يشرع، ولا يقبل كل الكبار لأن قانون التربية لا يجيز؛ فلا يبقى إذن للذين افلتوا من القيد أو شبوا عن الطوق إلا

وزارة الشؤون الاجتماعية؛ فهي وحدها التي تستطيع أن تعلم الزراع والصناع والعمال والخدام والباعة من كل سن وفي كل مكان وعلى أي حالة

أما كيف يتهيأ لوزارتنا الجديدة بلوغ هذه الخطة فسبيله القصد إنشاء المدارس الشعبية الليلية في معاهد المدن ومساجد القرى، وحشد العامة إليها عن طريق الإغراء المادي والإكراه غير المباشر، كأن يفرض للمنتهين والمتفوقين جوائز مالية، وأن يشرط على طلاب الرخص للسعي أو للخدمة أن يلموا بالقراءة والكتابة؛ ولسنا بصدد التفصيل فذلك عمل له وقته وله أهله

هذه المعاهد الليلية المبثوثة في أرجاء الوادي وأعطافه وأريافه ستكون - فضلاً عن

عملها الثقافي - أداة مضمونة لنشر الإصلاح الاجتماعي في جهاته المتشعبة وغاياته المتعددة، فإن الوزارة تستطيع أن تجعل من كل فرد يتعلم فيها بوقاً رافعاً لأصوات وعاظها ومرشديها الذين يساعدون بالمحاضرة فيها على تقوية المدارك وتهذيب العادات وتنظيم العيشة وتدبير الصحة. وسيكون كل معهد من هذه المعاهد الشعبية وحدة اجتماعية يتفرق عنها الضوء والحرارة في كل بيئة وفي كل أسرة فإذا قامت الوزارة بذلك ثم حملت وزارة الدفاع على أن تعلم الجيش المرابط والجيش العامل فقد ظفرنا بقتل الأمية في قليل من الزمن بيسير من النفقة. وإذا قتلنا الأمية فقد أحيينا في الشعب خمود الحس وموات الضمير ومعنى الواجب

ستقول الوزارة من أين لي المال وقد ولدتني الضرورة لأعيش على ما طفح من رجال الدواوين وما فضل من مال الوزارات؟ وجوابنا أن الوزارة التي لا تقوم على المال، لا تنتج غير الأقوال. وربما كان ذلك علة ما نرى من نزوع هذه الوزارة في سياستها الإصلاحية إلى الوسائل الكلامية حتى حدثتها نفسها أن تنشئ لها مجلة خاصة بها تملأها بالمقالات والمناقشات والقصائد والحكم والأمثال لتكون كمجلة (التعاون) و (زميل الفلاح) و (المجلة الزراعية) و (الصناعة والتجارة) آلة شرهة لاستهلاك الورق والحبر في غير رحمة ولا جدوى!

يا معالي الوزير، إن فن الإنشاء مستقيم فلا يحتاج إلى إصلاح، وإن سيل الكلام دافق فلا يفتقر إلى رفد، وإن ميادين العاصمة مكتظة بالمجلات فلا تتسع إلى زيادة، وإن ما عندكم

من مذخور البلاغة لا يختلف عما عند الناس. فلماذا نؤثر النظر على العمل ونبذر الجهد والمال والوقت في استثمار الصفصاف واستيلاد العقيم؟

إن الذين يستطيعون أن يقرءوا المجلة العتيدة هم بثقافتهم مستغنون عنها، والذين يهمكم أن يقرءوها لا يستطيعون لأميتهم أن يستفيدوا منها. فأعدوا القارئ قبل أن تعدو المجلة؛ وإعداد القارئ هو الميدان الأول لجهاد الوزارة؛ فإذا انتصرت فيه فقد ضمنت النصر المؤزر في سائر الميادين.

على أن تثقيف الشعب من طريق التعليم في هذه المدارس الشعبية لا يكلف الحكومة أكثر مما تكلفها الفرقة القومية أو مجمع فؤاد للغة العربية، والخير الذي تصيبه الأمة من وراء هذه الكتاتيب المتواضعة لا يجوز أن يوازن به عمل لا يزال صلاحه في ذاته أمراً مشكوكاً فيه!

هذا بعض ما يدخل تحت عنوان (الجهل) أجملناه في هذه الأسطر لتمضي الوزارة في سبيل التفكير فيه، وفي ظننا أنها ستجد في طوايا بحثه أبواباً للعمل وسبلاً للإصلاح تغنيها عن المشروعات المبتسرة التي تلقفها من المجالس، والموضوعات المرتجلة التي تأخذها عن الصحف

احمد حسن الزيات

جناية احمد أمين على الأدب العربي

للدكتور زكي مبارك

- 20 -

من كلام الحكماء: (نعوذ بالله من الحديث المعاد)

وإنما استعاذ الحكماء من الحديث المعاد لأنه شاهد على انعدام القدرة على الابتكار والابتداع والخلق والإنشاء، ولأنه يدل على استهانة المتكلم بأقدار من يخاطب من الرجال، ولأنه يشهد بأن صاحبه قد لا يعني ما يقول

وصديقنا القديم الأستاذ أحمد أمين موكل بالحديث المعاد ينقله من بلد إلى بلد ومن جيل إلى جيل، وقد صحت فيه كلمة أحد النقاد القدماء في سعيد بن حميد: (لو قيل لكلام سعيد وشعره: ارجع إلى أهلك لما بقي معه شيء)

وكذلك نقول في كلام أحمد أمين: فلو دعونا مقالاته ومؤلفاته بالرجوع إلى أهلها لما بقي معه شيء!

وما ظنكم برجل يتوهم أن القراء في الأقطار العربية هم جميعاً أبناء الأمس، وما فيهم من قارئ واحد سمع من أخبار الأدب والمجتمع غير ما يتحدث به أحمد أمين؟

وإليكم هذا الشاهد:

كان المرحوم الشيخ محمد الخضري بك ألقى محاضرة منذ خمسة وعشرين سنة عن

تطور المجتمع المصري، وقد نص في تلك المحاضرة على الخطأ الذي ارتكبته مصر حين سمحت بأن ينقسم التعليم إلى شعبتين: شعبة دينية وشعبة مدنية، وقال: إن هذا يعرض مصر لشهود الصراع بين طائفتين تختلف عقلياتهم أشد الاختلاف

وقد سمعت هذه المحاضرة وسمعها الأستاذ أحمد أمين، فهل تعرفون ما الذي وقع؟ وقع أن الأستاذ احمد أمين فهم أن الشيخ الخضري مات منذ أكثر من عشر سنين، وأن الذين سمعوا تلك المحاضرة منذ خمس وعشرين سنة قد أنستهم الأيام ما كان في تلك المحاضرة من آراء

وكذلك أعد القلم والدواة والقرطاس ليحدث قراء (الثقافة) بأن مصر ارتكبت جرماً فظيعاً حين سمحت بأن ينقسم التعليم إلى شعبتين: شعبة دينية وشعبة مدنية، وأن هذا عرض

المجتمع المصري لشهود الصراع بين طائفتين تختلف عقلياتهم أشد الاختلاف

وكيف قال هذا الكلام؟ قاله وهو يوهم القراء أنه من المبتكرات في عالم الاجتماع!

ولم يكن الشيخ الخضري أول من قال ذلك الكلام الذي سرقه احمد أمين، فقد تنبه المغفور له علي باشا مبارك إلى هذه الفكرة منذ أكثر من سبعين سنة، وعلى أساس هذه الفكرة أنشأ مدرسة دار العلوم ليخلق جيلاً يجمع بين الصبغة الدينية والمدنية ويكون أساساً للتطور المعقول

وهذه الفكرة عرض لها الكتاب بالنقد والشرح مرات كثيرة في مدى أعوام طوال، وفصلها المنفلوطي في (النظرات) بعض التفصيل، وإن كان ساقها في مساق آخر هو التناحر بين الأخياف من أبناء الثقافة المدنية

من حق أحمد أمين أن يلخص كلام من سبقوه ليطلع عليه شبان هذا الجيل

ولكن هل راعى الأمانة العلمية وهو أستاذ مسئول؟

هل رجع كل كلام إلى قائله كما يصنع أساتذة الجامعات؟

لم يصنع شيئاً من ذلك، وإنما انتهب ما انتهب، ثم واجه القراء وهو مزهو مختال، كأنه صار بالفعل من أهل الابتكار في الميادين الأدبية والاجتماعية!

قد يقال: وأين هذا الكلام من الموضوع الأصيل؟

وأجيب بأني أريد أن أبين أن أغلاط أحمد أمين لم تكن أغلاط الرجل المجتهد، وإنما هي أغلاط منهوبة مسروقة ليس فيها من جديد غير برقشتها بحبر جديد في ورق جديد!

وإليكم يساق الحديث

لبس أحمد أمين ثوب المفكر المبتكر وقال: إن الأدب الجاهلي جنى على الأدب العربي حين فرض عليه ما عرف الجاهليون من ألفاظ وأخيلة وتعابير وقواف وأوزان

وهذه الفكرة خطأ في خطأ، وهو نقلها عن بعض الكتاب الذي تكلموا في النقد الأدبي بلا زاد من المعارف الأدبية، وبلا سناد من فهم التطور الذي شهده العرب في ميدان الحقائق الأدبية

وآفة الأدب في مصر وفي غير مصر أنه معرض في كل وقت لغارة الأدعياء، فكل مخلوق يتوهم أن من حقه أن يقرأ الشعر والنثر قراءة الخبير بأسرار الدقائق الشعرية والنثرية، وأن يوازن بين الشعراء والخطباء والكتاب والمؤلفين بعد أن تتيح له المقادير أن يفرق بين المنظوم والمنثور، وبين الخطاب والكتاب، وبين الألف والباء!

وهل كان من الصحيح أن الأدب الجاهلي جنى على الأدب العربي في العصور الإسلامية؟

إن العرب تحللوا من قيود الأدب الجاهلي منذ أول يوم توجهوا فيه إلى الاتصال بغيرهم من الممالك والشعوب

ويقول المبتدئون في الأدب إن أبا نؤاس كان أول من ثار على التقاليد الجاهلية، وهذا غير صحيح، وإن صار من الحقائق المقررة عند بعض أساتذة كلية الآداب

والصحيح أن الثورة على التقاليد الجاهلية في الأشعار والرسائل سبقت عهد أبي نواس بزمن بعيد. ولهذه الثورة شواهد في العصر الأموي سنسوقها حين نجد ما يجب ذلك، أو حين ينطق الأستاذ أحمد أمين الذي خرج بالصمت عن لا ونعم، والذي نزل بالبرج العاجي ضيفاً على الأستاذ توفيق الحكيم

قلت لكم غير مرة إن أحمد أمين قليل الاطلاع على تاريخ الأدب العربي، فلو كان من

المطلعين لعرف أن العرب بعد الإسلام أعلنوا ثورتهم على التقاليد الجاهلية، وصرحوا بأن الأدب يتأثر بالزمان والمكان، وأن أخيلة سكان الحواضر يجب أن تختلف عن أخيلة سكان البوادي، وأن من يعيش في مصر له أذواق تخالف من يعيش في الحجاز أو العراق أو الشام أو المغرب أو فارس أو الهند

لو كان أحمد أمين من المطلعين لعرف أن من العرب في القرن الثالث من صرح بأحكام يعجز عن التصريح بها من يعيشون في هذه الأيام

هل تصدقون بأن من كتاب القرن الثالث من قال بأنه لا يجوز أن نحاكي القرآن في جميع التعابير؟

وهل في الدنيا جرأة أعظم من جرأة الرجل المسلم حين يقول في زمن شباب الإسلام بوجوب التحرر من بعض أساليب القرآن؟

وهل يجوز القول بأن من جاز عندهم الخروج على الأساليب القرآنية تصعب عليهم الثورة على التقاليد الجاهلية؟

انظروا كيف يقول ابن المدبر في (الرسالة العذراء):

(وأعلم أنه لا يجوز في الرسائل ما أتى في آي القرآن من الإيصال والحذف، ومخاطبة الخاص بالعام، والعام بالخاص، لأن الله سبحانه وتعالى إنما خاطب بالقرآن أقواماً فصحاء فهموا عنه جل ثناؤه أمره ونهيه. والرسائل إنما يخاطب بها قوم دخلاء على اللغة لا علم لهم بلسان العرب. وكذلك ينبغي للكاتب أن يتجنب اللفظ المشترك والمعنى الملتبس، فأنه إن ذهب على مثل قوله تعالى (واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي اقبلنا فيها) وقوله تعالى (بل مكر الليل والنهار) احتاج أن يبين أن معناه ((اسأل أهل القرية وأهل العير) و (بل مكركم بالليل والنهار) ومثله في القرآن كثير

فما معنى هذا الكلام؟

معناه أن العرب فهموا أن القرآن وهو عندهم تنزيل من حكيم حميد راعى عقلية العصر الذي نزل فيه فخاطب الناس بما يفهمون، وأنه حين يتغير الناس بتغير الزمان لا يجب أن نخاطبهم بالأسلوب الذي استجازه القرآن، لأنه نزل على قوم يدركون الحذف والإيصال ومخاطبة الخاص بالعام، والعام بالخاص

فهل يعقل أن يكون الأدب الجاهلي أقدس عندهم من القرآن؟

وهل يجوز اتهام العقلية العربية بالجمود والخمود لتصح أوهام أحمد أمين؟

أنا أتحدى أي باحث أن يثبت أن العرب لم يدركوا ما يوجبه اختلاف الزمان والمكان في تلوين الصور والأفكار والأساليب

أتحدى أي باحث أن يقيم الدليل على أن العرب التزموا محاكاة التعابير القرآنية والنبوية

وكيف فات أحمد أمين أن العرب لم يلتزموا وحدة الوزن والقافية على نحو ما التزم الجاهليون؟

ألم تصل إليه أخبار التجديد والتنويع في القوافي والأوزان عند أهل المشرق وأهل المغرب؟

ألم تصل إليه أخبار الموشحات والأزجال؟

ألم يسمع بما دخل في الشعر العربي من الأخيلة الفارسية والمصرية والأندلسية؟

ألم يحدثه أحد بأن الذوق الأدبي عند مهيار الديلمي يخالف الذوق الأدبي عند الشريف الرضي؟

ألم يعلم بأن عمارة اليمني له مذاهب في القول تخالف مذاهب ابن حمديس؟

ألم يقرأ ما كتب أبو الحسن الجرجاني في اختلاف الأذواق باختلاف الوجوه والطباع؟

ألم تحدثه كتب الفقه بأن الشافعي تغيرت حاسته التشريعية بالتردد بين الحجاز ومصر والعراق؟

ألم يسمع بأن علماء البلاغة في مصر لهم مسالك تخالف مسالك أمثالهم في فارس؟

ألم يصل إليه القول بأن كتاب الإحياء له ألوان مختلفات بسبب تنقل المؤلف من أرض إلى أرض؟

ألم يشهد تطور الأسلوب عند ابن عربي في الفتوحات المكية بسبب اختلاف موطن التأليف؟

ألم يعرف بأن شعراء اليتيمة تختلف أذواقهم باختلاف البلاد؟

ألم يدرك أن أشعار البهازير لها مذاق غير مذاق أشعار أبن زيدون؟ ألم يلمس الخشونة والنعومة في تردد ابن الجهم بين البادية وبغداد؟
وهل بقي أحمد أمين على حال واحد حتى يبقى الناس جميعاً على حال واحد؟
إن أحمد أمين القاضي الشرعي كانت له مسالك في الحكم على الأشياء تخالف مسالك احمد أمين الأستاذ في كلية الآداب
فكيف يقال إن الشاعر الذي يعيش في الأندلس أو في فارس لا يزال خاضعاً لأذواق أسلافه القدماء في الحجاز أو العراق؟
إن أذواق أهل العلم في البلد الواحد تختلف باختلاف المعهد الذي يتخرجون فيه، مع وحدة الزمان، ومع تقارب المشارب والميول. فالمتخرج في الأزهر غير المتخرج في دار العلوم وغير المتخرج في كلية الآداب. وقد كان مفهوماً عند أهل مصر أن المتخرج في الأزهر غير المتخرج في الجامع الأحمدي مع التقارب الشديد فيما يلقى هنا هناك من المعارف العقلية والنقلية. وأهل فرنسا يفهمون أن المتخرج في جامعة باريس غير المتخرج في جامعة ليون
وإنما كان الأمر كذلك لأن اختلاف المكان يؤثر في الأذواق حتى صح القول بأن الأدب الإنجليزي في إنجلترا يبعد بعض البعد أو كل البعد عن الأدب الإنجليزي في أمريكا.
وكذلك يقال في الأدب الفرنسي حين يصدر عن أرض فرنسية أو بلجيكية أو سويسرية
فكيف يمكن أن يتفرد العرب بالخروج على هذا القانون الذي تفرضه طبيعة الوجود على سائر الناس
وهل يجوز في ذهن عاقل أن تكون جيمية ابن الرومي نسخة ثانية من جيمية الشماخ لوحدة القافية؟
وهل يصح أن تكون تائية حافظ إبراهيم في رثاء محمد عبدة صورة من تائية دعبل في التوجع لأهل البيت بحجة الاتفاق في الوزن والقافية؟
إن احمد أمين ينظر في ديوان جاهلي وديوان إسلامي فيرى قصائد تشابهت في القوافي والأوزان فيحكم بأن الشعر لم ينتقل من حال إلى حال، وإن اختلفت الأماكن والأجيال
ولو نظر غيره هذه النظرة لقلنا أنه يحكم أحكاماً عامية، ولدعوناه إلى الانسحاب من ميدان الدراسات الأدبية
من واجب أحمد أمين أن يفهم أن أساتذة الجامعات لا يصح لهم الوقوف عند ظواهر الأشياء، فأقل مزية لرجل الجامعة أن يكون في إحساسه كالشاعر الذي قال:
أسمع في قلبي دبيب المنى ... وألمح الشبهة في خاطري
وأحمد أمين أستاذ في كلية الآداب، وهي كلية على جانب عظيم من الكبرياء، وهي تأبى الاعتراف بأي معهد يقارعها في هذه البلاد، ولا تنظر إلى سائر المعاهد الأدبية إلا بعين الاستخفاف
والمنزلة التي صارت إليها كلية الآداب بفضل جهود أساتذتها الكبار من المصريين والأجانب توجب على الأستاذ أحمد أمين أن ينظر في كل كلمة يكتبها خمسين مرة قبل أن يعرضها على الناس
فأين كان حرصه على مكانة تلك الكلية يوم زعم أن الأدب العربي لم يتطور قط، وأن الأدب الجاهلي ظل يسيطر عليه من عصر إلى عصر حتى خنق مواهب أحمد شوقي وحافظ إبراهيم؟
وهنا يتسع المجال لعرض سرقة جديدة من سرقات احمد أمين فهل يعرف هذا الباحث الكبير من أين أخذ القول بأنه يجب أن نضع القنبلة مكان القوس؟
لقد سرق هذه الفكرة من باحث لا أنوه باسمه إلا وأنا كاره لأني أبغضه أشد البغض وقد أرجع إلى مصاولته بعد أيام أو بعد أسابيع.
هذا الباحث هو الدكتور طه حسين الذي عرف الجمهور بالأستاذ احمد أمين
ولكن متى قال الدكتور طه هذا الكلام؟
إن أحمد أمين يظن أن ذاكرة الناس ضعفت كل الضعف، وأنه لم يبقى في مصر أو غير مصر من يتذكر مقالة نشرت منذ عام أو عامين، فكيف يتذكرون مقالة نشرت منذ أكثر عشر سنين؟
فما هي تلك المقالة؟

هي مقالة الدكتور طه حسين في نقد بائية شوقي في يوم (سقاريا) التي عارض بها بائية أبي تمام في يوم (عمورية)، بائية شوقي ذات المطلع:
الله أكبركم في الفتح من عجب ... يا خالد الترك جدد خالد العرب
وقد نص الدكتور طه في تلك المقالة على أن شوقي استعمل في وصف الحرب التركية اليونانية ألفاظاً وتعابير كانت تعرفها الحروب القديمة، ولكنها مجهولة عند المحاربين في العصر الحديث
أنكر الدكتور على شوقي أن يقول في خطاب مصطفى كمال:
قذفتَهم بالرياح الهُوج مسرجةً ... يحملن أسد الشرى في البيض واليَلَبِ
وأن يقول في مدح الجنود الأتراك:
والجاعلين سيوف الهند ألسنهم ... والكاتبين بأطراف القنا السلُب
وكانت حجة الدكتور طه أن (أسد الشرى) عبارة قديمة وقد لا يفهمها الترك، وأن (البيض واليلب وأطراف القنا السلب) ليست أهم الأدوات الحربية في هذه الأيام
وقد تأذى شوقي بهذا النقد اشد التأذي لأنه في ظاهره لا يخلو من بريق، ودعاني إلى الرد على الدكتور طه حسين ولكني اعتذرت لأسباب أدبية لا يتسع لشرحها المقام، ولعلي كنت أحرص على مجاملة الدكتور طه في ذلك الحين
ومقالة الدكتور طه في نقد بائية شوقي مشوهة جداً، ولكن عند من؟
عند الذين كانوا يسايرون الحياة الأدبية أيام الفتنة بين السعديين والدستوريين والاتحاديين،
وهي مقالة نشرت في جريدة يومية كانت قليلة الذيوع وهي جريدة الاتحاد، ولكنها كانت على كل حال مما يطلع عليه الأستاذ أحمد أمين
ماذا يظن احمد أمين بذاكرة الرجال؟
هل يتوهم أن النقد الأدبي قد أنعدم في مصر وأنه لا يوجد في هذه البلاد من يذكر تطور الآراء النقدية من حال إلى أحوال؟
يجب أن يعرف جيداً أننا سنحصي عليه خطرات قلبه، وسنردها خطرة خطرة إلى ما قرأ وما سمع، فلا يزهي ولا يختال بترديد الحديث المعاد. فهل يقرأ هذا الكلام بعض من كبر عليهم أن نهجم على الأستاذ أحمد أمين؟
إن الذين فتنوا بحذلقة احمد أمين لم يكونوا يعرفون أنه ينتهب آراء المعاصرين وغير المعاصرين بلا تهيب ولا تخوف، ولم يكن يدور في خواطرهم أن هذا الرجل له سطوات على الكتب والمقالات يأخذ بها ما يشاء بلا ترفق ولا استبقاء
قد يقال: وما خطر هذه السرقات؟ وما العيب في أن يسرق احمد أمين كلام طه حسين؟
وأجيب بأن النص على السرقات يشرح تطور الأفكار الأدبية، وذلك مغنم ليس بقليل وسنرى في المقال المقبل سرقات أغرب وأعجب. . ومن الله وحده ننتظر حسن الجزاء على هذا الجهاد
زكي مبارك
على ذكر الحرب الراهنة
موقف العلم من الكمال الإنساني
للأستاذ توفيق الطويل
(تتمة ما نشر في العدد الماضي)
انتهينا في حديثنا السالف إلى أن العلم قد استعبدته الأغراض في أكثر مراحل حياته، فعاش في خدمة الإنسان يحقق مطالب حياته العملية، أو يستجيب لنداء عقيدته الدينية، وأقام على هذا الاستعباد طول عمره، إذا استثنيت مرحلتين من حياته تحرر فيهما من ذل الأغراض، هما عهد اليونان، والفترة الأخيرة من عصرنا الحديث. وقد أشرنا فيما أسلفنا إلى الروابط التي أخذ ينشئها المحدثون من العلماء بين العلوم الطبيعية والفنون الجميلة، بتوحيدهم الغاية التي ينتهي إليها كل منهما، فكان علينا إذا رغبنا في الحديث عن صلة العلم بالكمال الإنساني أن نتناوله عند (بيكون) ابن العلم الحديث، ورب الدعوة إلى تسخيره لصالح الإنسان.
3 - الكمال عند بيكون
تمرد رجال النهضة على العصور الوسطى، وأقبلوا يحملون - فيما حملوا - معاول

الإصلاح الديني، وحطموا بها الكنيسة وسلطانها الذي هيمنت به على قلوب الناس وعقولهم أجيالاً طوالاً وسار في موكبهم حواريو العلم الطبيعي يتقدمهم رجال الفلك، من كورنيكوس وتيخوبراهي وغاليلو وكبلر، وشنوا الغارة على علم الأقدمين ومكنتهم الآلات التي اخترعوها من الكشف عن كثير من أخطائهم، وبذلك هتكوا عصمتهم، وحطموا قداستهم وأعلنوهم لطلاب العلم ناساً كسائر الناس، ومهدت هذه الحركات لظهور (بيكون) في أواخر القرن السادس عشر، فتقدم بعقله الواسع وقلمه السيال، للانضمام إلى موكب المحاربين، وساهم بأوفر نصيب في تحطيم الفلسفة الجدلية التي شاعت عند المدرسيين، وهدم القياس الذي استعاروه عن أرسطو ليحل مكانه منطقاً قائماً على الاستقراء، فوضع بذلك أساس المنهج التجريبي، وبدأ العلم في عصره الحديث على يديه، ورسم للباحث منهجه وحدد له غايته، فدعا إلى تطهير العقل من الأوهام التي تعرقل طلاقته، ونادى بالإكثار من جمع المشاهدات وإعداد تاريخ لكل منها، وتصنيفها توطئة لمقارنتها بعضها ببعض، واستنباط العلل الكامنة وراءها، وتسخير النتائج التي يهتدي إليها العلماء لخدمة المجتمع، وتوفير أسباب الكمال لأفراده، فربط بذلك بين العلم والكمال الإنساني، وصور هذه النتيجة في كتاب صادف عند الكثيرين من المؤرخين مديحاً ملحوظاً ذلك هو الذي صور فيه مجتمعاً مثالياً - على نمط جمهورية أفلاطون والمدينة الفاضلة للفارابي - وتوافرت في مجتمعه أسباب الكمال، وتهيأت لأفراده ألوان النعيم؛ وأظهر ما في هذا المجتمع المثالي مما يعنينا في مقالنا (بيت سليمان) وهو يشبه المؤسسات العلمية التي تقام في عصرنا الحاضر للعمل على تقدم العلم وإنهاضه، وقد حدد الغرض الذي يرمي إليه هذا البيت بالكشف عن أسباب الظواهر والاهتداء إلى علل الأشياء، والتمكين لسلطان الإنسان حتى يتيسر له القيام بكل عمل ممكن؛ وتحقيقاً لهذه الغاية أنشئت المعامل لإجراء التجارب في مختلف فروع العلم من طب وطبيعة وصناعة وزراعة. وأقيمت المراصد لمراقبة الظواهر الجوية، وحفرت البرك والبحيرات لتربية الأسماك وسائر الأحياء المائية. . . ولما كان بيكون شديد العناية بالإكثار من جمع المشاهدات والإسراف في عمل التجارب رغبة في تمكين البحث، وعدم التسرع في استنباط القوانين العامة من الجزئيات القليلة، فقد رأى أن يوفد بيت سليمان فئة من العلماء بين الحين والحين، يجوبون البلاد الأجنبية، ويرتادون الآفاق النائية في طلب المشاهدات، وجمع الكتب وكتابة التقارير عما يصادفهم من غريب الظواهر، وبذلك ترقى العلوم ويتيسر لأهلها أن يفهموا الطبيعة على وجهها الصحيح، لا اقتصاراً على فهمها، بل توطئة لبسط سلطانهم على ظواهرها، واستغلال سيادتهم لها، في الانتفاع بها والإفادة من مواردها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً وبذلك يرقى المجتمع وينهض أفراده. وقد جره هذا التصور إلى أن يكل حكم المجتمعات إلى العلماء والفلاسفة الذين لا يقنعون بالاطلاع على ما تحويه بطون الكتب، وإنما يولون جهودهم شطر الطبيعة ليجمعوا منها المشاهدات توطئة لاستغلال فهمهم لها في ترقية المجتمع والعمل على تطوره إلى الكمال

تلك صورة مصغرة لهذا المجتمع المثالي الذي يتحقق فيه الكمال الإنساني فيما بدا لبيكون. ولم يكن هذا التصور غريباً على العصر الذي دوت فيه هذه الصيحة، فقد اتجهت فيه أنظار أهل العلم والأدب والفن إلى الطبيعة، وراح كل يعبر عنها بطريقته وفي حدود

منهجه، واهتم العلم بالسيطرة على ظواهرها أملاً في استغلال مواردها، واتقاء شرورها، وملأ الحياة الإنسانية بالخير والهناءة.

وقد تساءل (كامبانيلا) - معاصر (بيكون) - في مجتمعه المثالي عن موقف الإنسان الجديد من الرقيق، وانتهى إلى القول بأن مخترعات العلم الحديث ستوفر للناس وقتهم، وتغنيهم عن الرقيق والعبيد، وتجعلهم سادة للطبيعة، وتملأ حياتهم بالسعادة . . .

تلك هي النزعة التي شاعت في أوربا أواخر عصر النهضة، وهي قائمة على الأمل الباسم في قدرة العلم على تحقيق السعادة للناس. وقد مكن لهذه النزعة بيكون في مستهل القرن السابع عشر، ودفعها إلى العصور الحديثة، فانطلقت أبانها تسعى حثيثة حتى خابت في العلم آمال الناس، وتحرر العلماء من ذل الأغراض - على نحو ما عرفنا في مقالنا السالف -

والآن بعد أن قطع العلم هذه المراحل الطويلة في تحقيق الغاية التي كان يرجوها (بيكون) وأشياعه، نرى من حقنا - وقد اندلعت نار الحرب وراح العلم يقدم لها الوقود - أن نتساءل عن مدى ما حققه العلم من الكمال، ومبلغ ما أسبغه على الناس من نعم. وليس هذا السؤال بجديد في تاريخ الفكر، فكثيراً ما تردد في أبحاث الأدباء والفلاسفة، واختلفت في الإجابة عليه وجهات النظر. ولقد ذهب بعض الذين تناولوا بالبحث هذا الموضوع إلى الطعن في العلم وما يترتب عليه من ألوان الحضارة والمدنية، والدعوة إلى العيش على مقتضى الإلهام الطبيعي البسيط، وقد نادى بهذه النزعة في القرن الثامن عشر (جان جاك روسو)، ولم يقصر هجومه على العلوم الطبيعية وحدها، وإنما تجاوز آفاقها إلى الطعن في العلم بأوسع معانيه، فشملت غارته الآداب والفنون كذلك، فلنعرض - في إيجاز - حلمه الذي كان يرى فيه تحقيقاً لسعادة الناس، وسنرى بين آرائه وآراء (بيكون) هوة سحيقة القرار:

4 - السعادة عند روسو:

مات لويس الرابع عشر فماتت معه الملكية المستبدة القادرة في فرنسا، واستأسد من كان بالأمس ذئباً، فاسترد الأشراف نفوذهم، واستعاد الكتاب والشعراء حريتهم، وتأهبوا لتحطيم الإيمان الديني الذي جاهد أسلافهم لتدعيمه زلفى إلى الملك الديّن المستبد. وشاعت اللادينية في فرنسا، وكانت تعاني من حروب انقضت ظهرها، وفاقة أحرجت صدرها، وترف يهد من كيانها فتدهور نفوذ الملك، وانحل سلطان الدين، ومال المفكرون إلى تمجيد العقل، معلنين التمرد على كل قديم. وفي هذا الجو نشأ (جان جاك روسو) شريداً بائساً، حييّا مسرفاً في الحياء، لا يحسن عشرة الناس ولا يألف المجتمعات؛ يعشق الطبيعة ويجد في رحابها مسرحاً لخياله الوثاب، لم يوهب العقل الخالق الممتاز، ولكنه أوتي القدرة على التعبير المليء بالقوة والحرارة والإيمان، فنصب نفسه لمحاربة الإلحاد بالطعن في العقل والمدنية وتمجيد القلب والفطرة، بعد أن أخفق (بيركلي) في نصرة الإيمان الديني بإنكار المادة، والاقتصار على الاعتراف بوجود العقل - أو الروح - وتهيأت له فرصة الإعلان عن رأيه، حين طرحت أكاديمية (ديجون) على الكتاب مسابقة عن أثر العلوم والفنون في صلاح الأخلاق أو فسادها، فتقدم (روسو) للاشتراك فيها، وقد وطن العزم على الطعن في العلوم والفنون، وبيان ما يترتب على انتشارها من سيئ الآثار، وتوالت بعد ذلك حملاته وإلى القارئ الكريم خلاصة رأيه:

تحدث (روسو) عن الرجل البدائي الذي يعيش في أحضان الطبيعة، بسيطاً هانئاً ببساطته، جاهلاً قانعاً بجهالته، مسترسلاً على فطرته وطبيعته؛ ثم قارنه برجل المدنية الفخور بعلومه، المزهو بفنونه، الغارق في حياته المعقدة، وانتهى من هذه المقارنة بترجيح الأول على الثاني، مؤيداً رأيه بمثل استقاها من تاريخ المصريين واليونان ومن إليهم. فمصر المجيدة التي كانت مدرسة الدنيا بأسرها، ما كادت تصبح أم العلوم والفنون، حتى أغار عليها قمبيز، وأعقبه اليونان والرومان والعرب والأتراك على التوالي، فهبطت إلى الهوان على سلم صيغت درجاته من علم وفن. وكذلك يقال في غيرها من كبرى الأمم، والتاريخ شاهد عدل على صدق ما نقول، فمتى نشأت الفلسفة تدهورت الأخلاق، وأنى ظهر العلم اختفى الشرف، وليس الرجل المفكر إلا حيواناً فاسد المزاج مناقضاً للطبيعة، فالفكر وكل ما أبدعه من ألوان المدنية والحضارة تمرد على إلهام الفطرة ووحي الطبيعة، ومن هنا نشأ شقاء بني الإنسان. فالإنسان الأول خيّر بطبيعته، طيب بفطرته، قانع ما وجد اللقمة التي يسد بها رمقه، والخرقة التي يستر بها عورته، والمرأة التي يقضي معها حاجته، ومتى انقضت حاجته، فقد انطفأت رغبته، فإذا ولدت المرأة تعهدت طفلها بالرعاية كما تفعل أنثى الحيوان التي لا تعرف إلا إلهام الطبيعة الرحيمة، فإذا شب الولد في ظل هذه الرحمة الطبيعية تكفل بحياته، شأنه شأن سائر أنواع الحيوان، وعاش متساوياً مع رفاقه يتبادلون المحبة والوئام والإخاء، لا يزهو أحد على أقرانه بعلم ولا مال، وبهذا كانوا سعداء، ثم تمردوا على إلهام الطبيعة، وخضعوا لإملاء العقل، فأدركتهم المدنية بعلومها وفنونها، وسرعان ما طاردت النعيم الذي عاشوا في رحابه، وسلبتهم باسم النظام ما كانوا يتمتعون به من ألوان الحرية، وميزت بعضهم على بعض فجعلت منهم أغنياء وفقراء، وسادة وعبيداً، فكان هذا مبعث الداء وأصل الشقاء. ولقد كانت الإنسانية تنجو

من الجرائم البشعة والحروب الدامية التي ارتكبت في سالف أيامها من جراء الطمع، لو أن أول من أحاط قطعة أرض وقال: هذه ملكي - قد وجد رجلاً شهماً يتقدم إلى هذه الأرض فيحطم السياج الذي أحاط بها، أو يردم الخندق الذي التف حولها، ويصيح في قومه: أيها الناس حذار أن تصدقوا هذا الكذاب الأشر. . .

وما من دواء لهذا الداء إلا بالرجوع إلى أحضان الطبيعة، ورياضة القلب والاعتماد على الفطرة وإهمال العقل وما يترتب عليه من ألوان العلوم ومظاهر المدنية والحضارة تلك صورة مصغرة للكمال الذي يحلم به (روسو) في القرن الثامن عشر. وهي على خلاف ملحوظ مع الكمال الذي يحلم به بيكون في القرن السابع عشر. ويعنينا من هذا أن (روسو) يهاجم العقل وكل ما يترتب عليه من علم ومدنية، ويرجو لو عاد الناس إلى حضن الطبيعة، وعاشوا سعداء بما هم عليه من قناعة وجهالة. أما (بيكون) فيرى الكمال ماثلاً في إنسان قد مكنته قوى العقل وتجارب العلم من إخضاع الأرض والسماء والماء لسلطانه، فأحسن استغلالها لمصلحة المجتمع الإنساني، وتحقيق السعادة لأبنائه، ففي مدنية العقل الناجح غي إخضاع الطبيعة للإنسان، يكمن الكمال عند بيكون، فأي المذهبين أبعد عن الخطأ أو أدنى إلى الصواب؟

مناقشة روسو وبيكون - 5

ينبغي أن نعترف إنصافاً لروسو بأن آراءه قد صادفت هوى من نفوس قرائه، وأنها سعت إلى قلوب الكثيرين منهم وهيمنت على عواطفهم، وكان لها بالغ الأثر في قيام الثورة الفرنسية بعد ذلك، وكان من آثارها أنها حادت بالأدب عن العقل واتجهت به نحو العاطفة، وجعلت السيدات في صالونات الأدب يسرفن في التزام الظهور بما يدل على الشعور

الرقيق والقلب الرحيم، دون العقل الراجح والفكر المتزن، وربما كان لها أثرها في انتعاش الشعور الديني عند القراء

ولكن آراء (روسو) مع هذا حافلة بالأخطاء - فيما يلوح - والمثل الأعلى الذي ينشده عسير التحقيق، ولو تحقق لما أقام الناس عليه طويلاً، ولعادوا إلى المدنية راضين أو كارهين، فإن العقل من شأنه التفكير المتواصل، وليس في وسع قوة في الأرض أن تقيد عقول الناس، وتحرمها نعمة التفكير دواماً، وذلك وحده كفيل بتحقيق التطور الذي يرفع الإنسان من حالة الفطرة إلى مستوى المدنية، وروسو يقاوم أموراً يتصل بعضها بما يترتب على الغرائز من آثار، يطلب محو الملكية، والتزام القناعة، وعدم التقييد باختيار امرأة بعينها، ويزعم أن الناس بطبيعتهم أخيار أطهار، ويبني على هذا الأساس الخاطئ نظرياته التي ثبت اليوم بطلانها - كالعقد الاجتماعي مثلاً - تلك كلها أحلام عسيرة التحقيق، وقد نادى ببعضها أفلاطون في جمهوريته، وحسبنا أن نكشف عن ضعف نظرته إلى علاقة الرجل بزوجته، بتجربة نرويها كما نذكرها الآن: يقال إن تجربة أجريت على طائفة من القردة العليا لمعرفة نظام الزواج الراهن ومدى انطباقه على الطبيعة البشرية - كما أذكر الآن من أمر هذه التجربة - فجمعت القردة ذكوراً وإناثاً، وأتيح لها أن تعيش في مكان واحد، فلوحظ بعد فترة من الزمن أن كل قرد قد اختار له أنثى بعينها والتزم عشرتها، وتولى الذود عنها إزاء كل قرد يفكر في الاعتداء عليها، وكذلك كان موقف الإناث من ذكورها مع فوارق بسيطة، فانتهى الحال إلى ما يشبه النظام الذي شرعته الأديان وأقرته المدنيات.

وإذا صح هذا مع الحيوانات العليا فأحر به أن يكون صحيحاً مع بني الإنسان. ومثل هذا يقال في بقية الآراء التي خلفها لنا (روسو) وذلك - فيما يلوح - أظهر الفوارق بينه وبين (بيكون) فإن الكمال الذي يحلم به بيكون سهل التحقيق، وليس فيه مقاومة لغرائز الناس أو ما يترتب عليها من آثار. . .

ثم أي سعادة تلك التي يحتمل أن يشعر بها الرجل المتوحش الذي يعيش على إلهام الطبيعة ووحي الفطرة؟ إن (روسو) يتغنى بما يتمتع به الرجل من ألوان الحرية ونعيم الجهالة، ويشفق على المتمدين من القيود التي يكبل بها باسم النظام والمدنية ولكنه نسي أن هذا

المتوحش يعيش في أسر ذليل، تستعبده الأوهام، وتذله الخرافات، ويزعجه الخوف من كل شيء حتى من نفسه، ثم لا يشعر بعد هذا بالسعادة التي يحلم بها (روسو) حتى إذا عاش في غمرتها، ذلك لأن الشعور بالسعادة يتوفر لأصحابه إذا مروا بدورين:

أولهما سلبي وهو انتفاء الشعور بالشقاء، وثانيهما إيجابي والشعور بالسعادة. أما الحالة الوسط التي يعيش فيها الرجل المتوحش، فينتفي عندها الشعور بالشقاء والسعادة معا، فإنها ليست من السعادة في كثير ولا قليل، ومن هنا يظهر بطلان الدعوة التي بشر بها (روسو) وعبر عنها (المتنبي) بقوله:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله ... وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

ذلك وجه الخطأ في مهاجمة العلم وما يترتب عليه من آثار المدنية، والدعوة إلى الطبيعة وتوهم السعادة في ظلها. وقد تردى روسو في هذا الخطأ لأنه عاش في بيئة أنهكتها الأمراض والعلل، بالإضافة إلى فشله في عشرة الناس، وعدم ملاءمة طبيعته للمجتمعات، ولهذا أصاب في التمرد على أخطاء بيئته، ولكنه أخفق في علاجها إخفاقاً بيناً. ولعل (فولتير) كان على حق حين قال ساخراً منه: (لو أن الناس أصاخوا لآرائه، لسرهم أن يمشوا على أربع. . .!)

وقد عاش بيكون في بيئة عقلية يعوزها الاستقرار، فعرف داءها وشخص الدواء الذي يقتضيه علاجها، وقد تجد ما تؤاخذ به بيكون في تشخيص الدواء أو فهم الداء، ولكنك لا تملك إلا الاعتراف بتوفيقه، وقد انقضى على موته نحو ثلاثة عشر قرناً وثلاث عشر عاماً، وحققت الأيام الكثير من آماله، فأصاب العلم نجاحاً في أكثر الميادين، وعرف الإنسان كيف يعالج الطبيعة، ويتغلغل إلى فهم أسرارها ويعرف العلل الكامنة وراء ظواهرها والطرق التي تمكنه من استغلالها على أكمل وجه والانتفاع بها إلى أقصى حد، فقهرها على ظهر الأرض وفي أعماق البحار وفي أجواز السماء، وكاد يحيل المكان والزمان اسماً على غير مسمى. . .! إنه ينصت اليوم في مصر إلى توقيع الموسيقى في أمريكا، ويستطيع أن يتبادل الحديث وهو جالس إلى مكتبه مع أصدقائه أو عملائه في أقصى بقاع الأرض طرا، وتلك هي السيادة الموفقة على الزمان والمكان. . .

ولكن هل حقق هذا كله شيئاً من سعادة الناس؟ لقد أسفر نجاح العلم عن اختراع الغازات

السامة والقنابل المحرقة والمدافع المدمرة والغواصات المغرقة، وسائر وسائل التدمير والتخريب، مما يسمع الناس صدى التهديد به في أيامنا الراهنة، فتنهد قواهم وتنهك أعصابهم وهم بعيدون في غمرة القتال، والظاهر أن (بيكون) لم يقدر هذه النتيجة الرهيبة، فقد جعل من مظاهر التقدم في مجتمعه المثالي، أن يتجنب الحروب ويتقي شرورها، وذلك بألا ينتج إلا ما يستهلكه، ولا يستهلك إلا ما ينتجه. .!

على أن هذه النتيجة التي انتهينا إليها من النظر في الأثر الذي يترتب على الدعوة إلى تقدم العلم، قد رد عليها دعاته فقالوا إن العلم الذي اخترع ما استغله البعض في غير صالح الإنسان، هو نفسه الذي اخترع ما يقي الإنسان هذا الشر الطارئ. اخترع الغازات السامة وقدم للناس الأقنعة الواقية. اخترع الطائرات الحربية بقنابلها المحرقة وأعد المدافع المضادة لمقاومتها. وكلما أظهر للمجتمع خطراً جديداً تولى وحده مقاومته ووقاية الناس من ضرره. . .

ولكن أصحيح أن المجتمع الإنساني قد أمن بهذا شر المخترعات الحديثة؟ أصحيح أن الناس الآمنين في بيوتهم لن تصيبهم الغازات الجوية بعد اليوم بسوء؟ ذلك ما تجيب عنه وحشية الحروب في وقتنا الحاضر؛ على أنا نقول إنصافاً للعلم وأهله إن ما نتصوره ضاراً بالمجتمع الإنساني قد يكون كبير النفع من جوانب أخرى، وما نراه في الحروب عدواناً وحشياً ذميماً فيه قضاء على النفوس البريئة والأموال الطائلة وحضارة الأجيال الماضية، قد يعتبر شراً لا بد منه تقضي به حياتنا ومثلنا العليا. ومن المفكرين الذين درسوا المجتمع في تطوره إلى الكمال وانحداره إلى الاضمحلال من اعتبر الحرب نعمة والسلام الدائم نكبة على أصحابه. ثم إن عدوان القوي على الضعيف عند بعض المفكرين حتى تبيحه القوة أو يبرره التفاوت في المدنية، وذلك بالإضافة إلى أن القتال في أصله غريزة لم يلدها العلم وإنما اقتصر على تغذية نارها، فإن كان أثر العلم في وحشية الحروب سيئة عند بعض القراء فهو حسنة عند غيرهم من المفكرين، لأنه يعجل بنهاية الحرب وينقذ الناس من شر أنبائها، بالإضافة إلى الميزات التي يكسبها الناس من وراء الحروب. . .

على أن من التجني أن يحمل العلم تبعة هذه الاتهامات التي عرضه لها بيكون يوم

ربطه بصالح الإنسان، فقد ألقى العلم عن عاتقه هذه التبعة الخطيرة يوم حرر نفسه من ذل
- الأغراض - كما أبنا في مقالنا السالف
على أن من الخير أن نقول إن السعادة - إن صح أنها رادف لكمال الإنسان - لا تعيش في آثار العلم والمدنية، ولا تقيم في أحضان الطبيعة والفطرة؛ ولكنها تعيش في قلب الإنسان يحملها معه أنى ذهب ولا يستطيع أن يفارقها أو يستدعيها تبعاً لظروف الزمان والمكان، وهي بعيدة عنه دائماً إن كان بينه وبينها جفاء طبيعي ولده مزاجه أو أسفر عنه خطأه في النظر إلى الحياة، فمن الناس من وهب القدرة على أن يستمد من الشقاء الذي يكتنفه شعوره بالسعادة، ومنهم من يتخذ من مباهج الحياة وأفراحها أسباب اكتئابه وشقائه. فالسعادة فن يفيد تعلمه أكثر الأشقياء الذين قد لا تنطوي حياتهم على سبب واحد يبرر الشعور بالشقاء! وما يقال في الفرد ينسحب على الجماعات. . .
توفيق الطويل
من بغداد. . . إلى كركوك
وداع بغداد!
للأستاذ علي الطنطاوي
الوداع يا بغداد. . .
يا بلد المنصور والرشيد والنعمان وأحمد، والكرخي والجنيد، وأبي نؤاس والعباس، ومخارق وإسحاق، ومطيع وحماد. . .
يا منزل القواد والخلفاء، والمحدثين والفقهاء، والزهاد والأنقياء، والمغنين والشعراء، والمجان والظرفاء. . .
يا مثابة العلم والتقى، واللهو والفسوق، والمجد والغنى، والفقر والخمول. . . يا دنيا فيها من كل شيء
الوداع يا دار السلام، ويا موئل العربية، ويا قبة الإسلام
يا بلداً أحببته قبل أن أراه، وأحببته بعد ما رأيته. . .
لقد عشت فيك زماناً مر كحلم النائم، صحوت منه على صوت الداعي يؤذن بالفراق، فلم أجد منه في يدي إلا لذع الذكرى
وهل تخلف الأحلام يا بلد إلا الأسى والآلام؟
ولكني على ذلك راضٍ راضْ. . . فالوداع يا بغداد واسلمي على الزمان!
ودعتها والسيارة تشتد بي إلى المحطة تسلك إليها الشوارع ذات بهجة وجمال، شبهتها (والمحطة غايتها) بليالي الحب كلها أنس وحلاوة، ولكن نهايتها وحشة الوحدة ومرارة الفراق. وعانيت الوداع، فأيقنت أني مفارق بغداد عما قليل، وأني سأتلفت فلا أرى رياضها ولا أرباضها، ولا أبصر دجلتها ولا نخيلها، فجرى لساني بقول الأول (وإن من الأقوال ما لا تبلي جدته ولا يمضي زمانه):
أقول لصاحبي والعيس تهوى ... بنا بين المنيفة فالضمار
تمتع من شميم عرار نجد ... فما بعد العشية من عرار
شهور قد (مضين) وما شعرنا ... بأنصاف لهن ولا سرار
فأما ليلهن فخير ليل ... وأطيب ما يكون من النهار
وجعلت أذكركم ودعت من أحباب، وكم فارقت من منازل، وكم قطعت قلبي قطعاً نثرتها في أرض الله الواسعة التي لا تحفظ ذكرى، ولا ترثى لبائس، ورأيتني لا أكاد أستقر في بلد حتى تطرحني النوى في آخر، كنبتة لا تكاد ترسخ في تربة وتمد فيها جذورها حتى تقلع وتنتقل إلى أخرى. . . ورأيت أني دخلت بغداد يوم لم يكن جاءها أحد من أصحابي فلبثت فيها وحيداً مستوحشاً، لا أعرف منها إلا المسجد، وما كان لمسلم أن يرى نفسه غريباً في بلد فيه مسجد، ولكنها العاطفة الضعيفة المتهافتة، فلما ألفتها وصارت بلدي، وغدا لها في قلبي مكان نفيت عنها. . .
دخلنا كارهين لها فلما ... ألفناها خرجنا (مكرهينا)
وفكرت في أمري متى ألقي رحلي، ومتى أحل حقائبي؟ وهل كتب علي أن أطوف أبداً في البلاد، وأعيش غريباً وحيداً بعيداً عن أهلي وكتبي وصحبي؟ وهاجت في رأسي الخواطر السود وماجت حتى لقد رأيت الشوارع الحالية بالزهر صحراء مجدبة، ورأيت

. . .شعاع القمر المضيء أظلم خابياً
ومن طوف تطوافي، وأقبل مثلي على بلاد ما لها في نفسه صورة، ولا له فيها صديق، وفارق أهلاً إليه أحبة، وصحباً عليه كراماً، وكانت حاله كحالي، عرف صدق مقالي!
وصفر القطار وسار، وطفقت ألوح بمنديلي لصديقيّ الأثيرين أنور وحسن حتى داراهما عني الظلام، فنظرت حولي فإذا أنا وحيد في العربة الفخمة، لا أنيس ولا جليس، فكر فكري راجعاً إلى بغداد. . .
بغداد، يا مهد الحب، يولد الحب على جسرك الذي تحرسه (العيون)، وينمو في زوارقك ذات الأجنحة البيض التي تخفق كخفقان قلوب راكبيها، ويشب في كرخك وتحت ظلال نخيلك
فتشوا كم تحت الثرى من بقايا القلوب التي حطمها بسهام (العيون) هذا المخلوق الجبار الذي ولد على الجسر شابا، ونما في الزورق، واكتهل في الكرخ، ثم لم يمت لأنه من أبناء الخلود
سلوا أرض بغداد: أعندها خبر من شهداء الغرام؟
،سلوا جو بغداد: أين النغمات العذاب التي عطرت نسيمه بعطر الجنة، فهزت قلوباً وهاجت عواطف، وأضحكت وأبكت، وأماتت وأحيت؛ هل أضعت ويحك هذه الثروة التي لا تعوض؟
سلوا الجسر. . . يا (جسر بغداد) إن ما بقي من حديثك قد ملأ كتب الأدب، حتى لم يعرف الناس سوقاً للعواطف والأفكار والعبر أكبر من جسر بغداد، فأين سائر أخبارك؟ كم ضممت ذراعيك على عشيقين فنعما بينهما بلذة الحب! وكم تركت حبيباً ينتظر فلا يرجع بعد الانتظار إلا بالخيبة والأسى! وكم عطفت على بائس منكود، وأعرضت عن منكود بائس، فأريت الأول من مشاهد الحياة ما هون عليه ما هو فيه، وزدت الثاني بؤساً ونكداً؟ وكم وعيت من أسرار الحب والبغض والفرح والحزن، والغنى والفقر، والعزة والذل، وكل ما تحتوي الحياة وتشمل النفس من ألوان؟ كم رأيت من حصاد الأدمغة وثمرات القلوب؟
كم مدت تحت أقدام خليفة كانت تصغي له الدنيا إذا قال لأنه ينطق بلسان محمد، وقائد كانت تخضع له الأمم إذا سار لأنه يلوح بسيف محمد؟
يا (جسر غازي) الجديد، الهائل العظيم، أعندك نبأ من ذلك الجسر الذي كان عالماً من العوالم؟ والذي كان سُرّة الدنيا وقطب رحاها؟ وكان للجد إذا جد الجد، وللهزل إذا جاز الهزل، فحوى المجد من أساسه، وجمع المتعة من أطرافها؟
وهذه المنارة المنحنية المائلة في (سوق الغزل) تنظر بعيني أم ثكلى. . . سلوها أين مسجدها الذي كان يضيق على سعته بالمصلين، حتى تمتد الصفوف إلى الشارع ثم تتتالى حتى تبلغ النهر؟ أين أولئك العلماء الذين أترعوا الدنيا علما وملئوا آفاق الأرض نوراً وهدى؟ أين مواكب الخلفاء حيث. . .
الخيل تصهل والفوارس تدّعي والبيض تلمع والأسنة تزهر
. . .ومشيهم في رحاب بيت الله
مشية خاشع متواضع ... لله لا يزهي ولا يتكبر . . .
أين فرسان المنابر وأبطالها؟ أين جيران المحاريب وجلامها؟ أين. . . أين. . .؟
يا أسفي! لقد سرق المسجد، وهدم المنبر، وضاع المحراب، ولم تحفظ الحجارة يا بغداد مآثرك ومصانعك، ولاوعت الأرض ذكريات حبك، ولا أبقى الجو رنات عيدانك. . . أفلا
حفظتها قلوب اقسم أصحابها أنهم ذاكروا عهدك وأنهم مرجعوا مجدك؟
فأين مسجد بغداد الجامع يا مديرية الأوقاف؟ أين المسجد يا إدارة الآثار؟ أين المسجد يا من تخذتم المسجد بيوتاً ودكاكين وتركتم المنارة منحنية عليه تبكي!
أين المدرسة النظامية يا من أقمتم على أنقاضها سوق الشورجة لتبيعوا فيه البصل والثوم - وقد كانت تباع فيها حيوات العلماء وعصارات عقولهم وقلوبهم؟. . .
لا تحزني يا بغداد واصبري فإن كل شيء يعود ما بقي في القلب إيمان، وفي الفم لسان، وفي اليد سنان
وتلفت ورائي فإذا بغداد قد اختفت وراء الأفق. . . وغابت مسارب الأعظمية التي تحاذي النهر، تتكشف تارة فتضيء، ثم تختفي في ظلال النخيل كشاعر منفرد يتأمل،

أو محب معتزل يناجي طيف الحبيب، ويسامر ليالي الوصال التي تلوح له صورها. . .
والنهر يطلع عليها مرة بصفحته البيضاء المشرقة التي تشبه أمنية بدت لحالم، ثم
يحجبه عنها النخيل، ويمحوه الظلام كما تمحو الحياة بواقعها الأحلام وتطمس صور
الأماني. . . وغابت شوارع الصالحية ذات الفتنة والجلال وغابت المآذن الرشيقة،
وغابت القباب. . . وبقيت أنا والماضي!
هذا الماضي الذي طالما قاسيت منه، وطالما كابدت. . . ثم كلما أوغلت به انحداراً في
أعماق نفسي ودفنته في هوة الذكرى وقلت مات، عاد حياً كاملاً تثيره نغمة وتهيجه
صورة ويبعثه بيت من الشعر. . . فيبعث بحياته الآلامي. . .
غابت، فسلام على بغداد، وأشهدوا أنه ما بعد دمشق بلد أحب إلي من بغداد، ولا بعد
العتابا نغمة أوقع في قلبي من الأبوذية، ولا بعد الحور شجر أجمل في عيني من
النخيل، ولا بعد بردي نهر أعز على نفسي من دجلة. . .
استغفر الله! إلا حرم الله ومدينة نبيه، فهما والله أحب البلاد إلي، وماؤهما ألذ الماء
في فمي، وشجرهما، أبهى الشجر في بصري. . .
السلام عليك يا بغداد ولو نفيتني عنك إلى كركوك، وعلى ساكنيك السلام. . .
(ثانوية كركوك)
علي الطنطاوي
هل يقرأ الفنان هتلر
الدم والحديد
رواية في فصل واحد
بقلم بيرلي بورشهان وروبت دافيز
ترجمة الأستاذ عبد اللطيف النشار
أشخاص الرواية:
(الإمبراطور غليوم الثاني، وعالم ألماني وجندي مرقع من مشوهي الحرب)
المكان: (قاعة العرش)
الوقت: (في مساء عيد ميلاد الإمبراطور غليوم مدة الحرب الكبرى)
الإمبراطور - (يدخل فيعتلي العرش)
العالم - (يحمل حافظة فيضعها على منضدة ويبتسم ويفرك كفيه) مولاي! إن الهيبة
تعقد لساني
الإمبراطور - إن وقتي محدود، فولي العهد في انتظاري
العالم - (متحمساً إلى درجة الارتعاش) مولاي! إن الهدية التي أقدمها إلى جلالتكم
بمناسبة عيد ميلادكم الإمبراطوري لهي أثمن الهدايا لأنها تعني أن في الإمكان إعادة
مليون من الجنود المشوهين إلى صفوف جيشكم، وتعني أن الجيش الألماني أصبح
قوة مخيفة
الإمبراطور - (في اهتمام) هذا كلام عام
العالم - (وقد لاحظ أن الإمبراطور يبدي حركة عنيفة دالة على أتم الاستعداد للإصغاء)
إنني سأخصص يا مولاي: إن أهم عنصر من عناصر الإتقان ألا نترك شيئاً يفقد بغير
جدوى. وقد جعلت همي في أمر اليوم أن أرد إلى الجنود المصابين ما فقدوه بسبب
الحرب. وقد نجحت
الإمبراطور (وقد بدا عليه الاغتباط) - كيف ذلك؟
العالم - بعد تجارب متعددة أصبح في وسعنا أن نأتي بأي جندي كائنة ما كانت درجة
أصابته فنعيده إلى الصفوف أقوى مما كان. . . نعيده لا إنساناً ضعيفاً سريع القابلية
للفناء،
بل آلة قوية باطشة
الإمبراطور - (ضاحكاً) كلام حماسي ولكنه غير مقنع، فهات الدليل
العالم (في لهجة دالة على الصدق والإخلاص) لقد توقعت يا مولاي هذا الشك فجئت
معي. . .
الإمبراطور (مقاطعاً) - بماذا؟ بنموذج؟
العالم - نعم يا مولاي بنموذج حي آلي في غرفة الانتظار
الإمبراطور (متعجلاً) - إيت به، إيت به

العالم - مولاي، أستميح عفوكم فإن منظره غير سار
الإمبراطور - هذر! كل ما يؤدي إلى الاحتفاظ بالقوة جميل
العالم (وقد بدا عليه الابتهاج) - هل لي. . .؟
الإمبراطور - أسرع!
العالم (يفتح الباب ويخرج وهو ينادي بلهجة عسكرية) - انتباه! إلى الإمام؟
(وهنا يسمع صليل وجلجلة كصوت حديد يتحرك، ويدخل الجندي رقم 241 كما تمشي أية آلة ميكانيكية فلا ملاحظة لشيء ولا اختلاف بين الخطوات، حتى ما صار في وسط القاعة ناداه العالم أن يقف فيقف)
العالم - لقد جربناه 241 مرة ومن أجل ذلك أطلقنا عليه هذا الرقم
(ويبدأ العالم في الشرح، وفي هذه الأثناء يحدق الإمبراطور فيه وهو مفتون)
الإمبراطور - هذه أحسن مشية عسكرية
العالم - هذه أقل ميزة له
(ثم يلتفت إلى رقم 241 ويعرض يده الفولاذية ويأمره أن يفتح فمه فتبدو أسنانه الحديدية ويأمره بإغلاقه فيسمع صوت الحديد، ويأمره برفع يده اليمنى فيظهر ذراع آلي من الصلب وكذلك ساقه اليسرى التي يؤمر بتحريكها فيكون لها صليل. ويرى الإمبراطور ذلك مبتهجاً)
الإمبراطور - هذا ترقيع في نهاية الإحكام
العالم - ولكن كفايته زادت كثيراً بهذا الترقيع فهو الآن يتناول البندقية ويطلق المدفع دون أن يخشى سقوطه في الميدان.
إن يده معدنية فلا تعتريها رجعة ولا اضطراب
(ثم يلتفت العالم إلى الجندي المرقع ويأمره)
انتباه!
احمل السلاح!
سر إلى الأمام!
صوب إلى الهدف!
أطلق النار!
(ويقوم الجندي المرقع بكل ما يؤمر به والإمبراطور ينظر إليه وقد بدت عليه علائم الدهشة)
الإمبراطور - هذا فوق ما كنا نحلم به
العالم - بهذه التجربة أصبح في وسعنا يا مولاي أن نعيد إلى الجيش جميع العميان ومكسوري الأيدي والأرجل ومفقودي السمع
الإمبراطور - هذا فوز عظيم للمدنية
العالم - هذا يا مولاي خراب تام للمستشفيات
الإمبراطور - أنت عزيز لدينا يا أستاذ. إن العلم هو أمل الدولة
العالم - أتأذن يا مولاي بامتحان أذنه؟
الإمبراطور - بغير شك
(فيقف العالم خلف العرش، ويدق بطرف ظفره دقات غير مسموعة ويسأل الإمبراطور)
العالم - هل سمعتم جلالتكم شيئاً؟
الإمبراطور - كلا
الجندي المرقع - سمعت ثلاث دقات عالية
(ثم يمشي العالم إلى المنضدة التي عليها حافظة أوراقه، ويستخرج منها بطاقة صغيرة عليها كتابة بخط دقيق جداً ويسأل الإمبراطور وهو غير بعيد عنه هل يستطيع قرأتها فيقول الإمبراطور إنه لا يستطيع
ويعرض العالم البطاقة على الجندي المرقع عن بعد فيقرأ الجندي: إن الشعوب هي الإرادة
وإن الحكم هو القوة
ويعرض العالم البطاقة على الإمبراطور فيتناولها ويقول: (قراءة صحيحة)
(ويعود العالم إلى مكان الحافظة فيضع فيها البطاقة ويلتفت إلى الإمبراطور ويقول:

العالم - هذا خير ما أداه العالم؛ فقد استغل بقايا الإنسان المحطم الذي لا خير فيه. لنفسه ولا لأمته فأعاده كما ترون جلالتكم، يد من الصلب، ورجل من البرنز، وذراع من النيكل، ومفاصل من الأليومنيوم، وعين تلسكوبية، وأذن من مصابيح الراديو
(ويلتفت العالم إلى الجندي ويسأله):
العالم - ماذا تسمع الآن؟
الجندي - صوت بوق عال
الإمبراطور - هذا مستحيل فإني لا أسمع شيئاً. افتح النافذة
(فيفتح العالم النافذة وينصت الإمبراطور فيسمع صوتا ضعيفا هو صوت بوق عن بعد)
الإمبراطور (في دهشة) هذا هو الكمال التام
العالم - هذا انتصار على المادة. إن الجندي الذي يسقط في الميدان يصبح عالة على الأمة لا يصلح لشيء، ولكن العلم يرد إلى الأعرج رجله وإلى الأبتر ذراعه، وإلى الأصم تلفونين في جانبي أذنيه، وإلى الأعمى تلسكوبين تحت حاجبيه
ويلتفت الإمبراطور إلى الجندي المرقع ويسأله: (كم مدة خدمتك في الجندية؟)
فيتقدم الجندي ثم يرفع يده بالسلام
العالم - أجب جلالة الإمبراطور
الجندي المرقع - ثمانية عشر عاماً يا مولاي
الإمبراطور - وهل أنت متزوج؟
الجندي - نعم يا مولاي
الإمبراطور - وهل لك أولاد؟
الجندي - سبعة يا مولاي
العالم (متدخلا في الحديث) منهم خمسة ذكور يا مولاي
الجندي (في مرارة) - واحد مات وثلاثة في الميدان والأصغر سيتبعهم
الإمبراطور - كم عمره؟
الجندي (وهو يبلع ريقه كالغصان) - ستة عشر
الإمبراطور (إلى العالم) - ومتى يعود هذا الجندي إلى الصفوف؟
العالم - في ظهر الغد يا مولاي
الإمبراطور - متى عاد من الصفوف فإني أحب أن أراه مرة أخرى وسأنعم عليه بالوسام المثلث الصلبان
العالم - أنتم ترون يا صاحب الجلالة أنه أصبح في وسعنا إرسال الجيش ومعه (قطع التغيير) أرجل من المعدن، وأيد البرنز، وأعضاء من النيكل، ومفاصل من الألومنيوم وعيون وآذان كهربائية، فعند أقل إصابة نستبدل بالأجزاء الهالكة الآدمية أجزاء قوية آلية. وهناك أصابع على حدة، وأكف مستقلة عن الأذرع، ومعاصم إلى دون الكوع
الإمبراطور - وما وزن هذا الجندي؟
العالم - 175 كيلو يا مولاي!
الإمبراطور - وما وزن (قطع التغيير) التي أضيفت إليه؟
العالم - مائة وخمسة يا مولاي؟
الإمبراطور (وهو يمسح جبينه بيده) - هذا أكثر من وزن جسمه
العالم - هذا صحيح يا مولاي ولكن غذاءه الآن أقل من نصف ما كان يحتاج إليه. لأن الأجزاء الآلية في غير حاجة للغذاء
الإمبراطور - لقد أهديت إلى أعظم ما وصلت إليه المدنية في تاريخها، ولكن حدثني عن العين التلسكوبية
العالم - هذه العين يا صاحب الجلالة فضلاً عن قوتها لها ميزة أخرى هي أنها ترى في الظلام
الإمبراطور (وقد بدا عليه أنه لم يصدق) يرى في الظلام؟
العالم - نعم يا مولاي، وفضلاً عن ذلك . . .
الإمبراطور (مقاطعاً) صه! إن هذا الأمر في غاية الخطورة
العالم - هل لجلالتكم اعتراض على تجربته في الظلام؟
الإمبراطور (متردداً) - لا - وعندك زر الكهرباء، أغلق النافذة وأطفئ النور
العالم (للجندي 241) - التفت إلى جلالة الإمبراطور. وسأطفئ النور (ثم قال

الإمبراطور) وتفضل يا مولاي بإبداء أية حركة فإن الجندي سيصفها
(ويطفئ النور فيبدي الإمبراطور حركات ويطلب إلى الجندي وصفها)
الجندي - إن جلالته رفع يديه إلى أعلى ثم ضمهما. إنه أحنى رأسه إلى الأمام. إنه يصلي
الإمبراطور (محتداً) - أسرع بإيقاد المصباح
العالم - هل اكتفيتم جلالتكم من التجربة؟
الإمبراطور (بحالة عصيبة) - هذا فوق المدارك الإنسانية
ويوقد النور فيقف الإمبراطور ويقول: هذه سعادة لا حد لها أهديتها إلي في عيد ميلادي يا أستاذ! هذا اختراع يعيد إلى جنسنا جدارة فوق كل جدارة (ثم ينزع وساماً عن صدره ويضعه على صدر العالم) ويقول: هذا وسام الجدارة المرصع. هذا شارة الحق الإلهي.
هذا الوسام الذي لم يتقلده غير الإمبراطور أقدمه هدية إليك
العالم (يتقدم منزعجا فيقبل يد الإمبراطور)
في اللحظة التي يقبل فيها العالم يد الإمبراطور تبدو على عيني الجندي نظرة غضب) شديد وتفتر أسنانه المعدنية عن ابتسامة خفيفة مؤلمة ويعود الإمبراطور إلى الجلوس)
الإمبراطور - إني في دهشة من قوته ومن حدة بصره فإلى أي مدى يرى؟
العالم - في استطاعته يا صاحب الجلالة أن يرى العدو على بعد عشرين أو ثلاثين ميلاً وأن يعد ما لديه من المدافع والخيول والمعدات
الإمبراطور (مسرعاً) - انتظر فإني سأقوم بتجربة أخرى.
إنني أحمل في جيبي نسخة دقيقة الحروف من الكتاب المقدس ولا تمكن قراءتها إلا بالمكرسكوب. فهل ترى هذه التجربة صعبة؟
العالم - كلا يا صاحب الجلالة فهذه تجربة سهلة جداً
يتقدم من الإمبراطور ويتناول منه الكتاب المقدس ثم يلتفت إلى الجندي رقم 241) ويقول:
التفات!
در يميناً!
(يلتفت الجندي ويؤدي التحية العسكرية)
العالم - إنني أفتح الكتاب المقدس حيثما اتفق - أقرأ من هذه الصفحة
الجندي - إنجيل متي. الإصحاح الخامس. الآية الرابعة:
طوبى للحزانى لأنهم يتعزون. طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض
العالم (يلتفت إلى الإمبراطور)
الإمبراطور - أصاب، فإني أحفظ كثيراً من إنجيل متي
العالم - (يلتفت إلى الجندي) أطو هذه الصفحة واقرأ في أخرى
الجندي - اشعيا، الإصحاح الثالث، الآية الخامسة عشرة. ما لكم تسحقون شعبي وتطحنون وجوه البائسين. يقول السيد رب الجنود
الإمبراطور - صه! (ويستند بظهره إلى الكرسي وقد بدا عليه الانفعال الشديد ويمسح جبينه بكفه مرات
ويتناول العالم الكتاب فيرده إلى الإمبراطور فيضعه هذا في جيبه ويقول إن قوته شيطانية. إنني أريد امتحانه على انفراد
(العالم يمشي إلى المنضدة التي عليها حافظة أوراقه فيحملها
الإمبراطور - أسرع وسأطلبك متى شئت بدق هذا الجرس (وفي هذه الأثناء يظل الجندي واقفا مكانه وقد بدا علي عينيه إصرار على عزم جديد
العالم - مره يا مولاي!
ثم ينحني ويخرج. ويظل الإمبراطور يتأمل في دهشة ولا يرفع بصره عن الجندي 241) ثم ينزل بجلال عن عرشه ويمشي في بطء نحو الجندي ويدور حوله ويفحصه ناقدا ممحصا. وهنا يبدو على الإمبراطور فزع وخوف ويشعر بأن مركزه من هذا الجندي غير مأمون
الإمبراطور - أين مولدك؟
الجندي - في الجنوب يا صاحب الجلالة

الإمبراطور - ماذا كانت حرفتك؟
الجندي (يبدي من غير إرادة حركة دالة على التبرم) - كنت زهَّاراً. (فيتأمل الإمبراطور في أصابعه المعدنية. ويفطن الجندي إلى هذه الملاحظة)
الجندي - لقد كنت اصنع باقات الورد ولكن بغير هذه الأصابع (ينحني الإمبراطور وجهه عنه) بل بأصابعي المفقودة
الإمبراطور - ليس في الحرب حفلات تحتاج للزهور
الجندي - أستطيع يا صاحب الجلالة أن اصنع باقات للموتى (ثم يميل نحو الإمبراطور) (يلاحظ الإمبراطور لهجة تهكمية في خطاب الجندي فيتظاهر بالغضب)
الإمبراطور - ألست شاكراً فضل العلم على ما قام به نحوك من الإصلاح؟ تكلم!
الجندي - ماذا أقول؟
الإمبراطور - لقد أصبحت إنساناً بعد أن شوهت. لقد استرددت ما فقد منك
الجندي - نعم يا جلالة الإمبراطور ولكن قلبي تحطم
الإمبراطور - لماذا؟
الجندي - أهلي يموتون جوعاً. وزوجتي وحدها
الإمبراطور - إذن فأنت غير مزهو بأن العلم وجد سبيلاً لمضاعفة جيشنا وتقويته؟
الجندي - بماذا؟ بتقديمي ضحية للموت مرتين؟
الإمبراطور (يتكئ إلى الكرسي مستنداً إليه) - هذا جحود!
الجندي - بمضاعفتك قوة جيشك ضاعفت أحزان الإنسانية (ويخطو خطوتين في عنف نحو الإمبراطور)
الإمبراطور - أنت تفوه بكلمات ثورية في حضرة الإمبراطور بما اجترأت على قوله
الجندي - اجترأت؟ إن الخوف قد ذهب من جسدي الممزق إلى جسدك أنت (ويمشي نحو الزر الكهربائي متثاقلاً ليطفئ النور)
الإمبراطور - اجث على قدميك، وأطلب الصفح من إمبراطورك
الجندي - إن هذا الجسد الذي أصبح معظمه من الحديد لا يجثوا أمام جسد معظمه من الدم. إنني لا أركع إلا لله الذي أطلب منه أن يغفر لي ما اعتزمت على اقترافه الآن. بل لا وزر عليّ في إنقاذ العالم من روحك الطاغية. فالذي سأفعله هو لمصلحة الشعوب المرهقة. إن عيد ميلادك هذا هو عيد موتك وعيد مولد الحرية
(ويطفئ الجندي النور فيغمر الظلام المسرح)
الإمبراطور (صارخا) - النور! النور!
الجندي - لست في حاجة إلى نور
الإمبراطور (يشتد صراخه) - النور! النور!
الجندي - لقد جعلتني أعيش في الظلام فمت أنت الآن في الظلام
الإمبراطور - (وهو يكاد يختنق) الرحمة! الرحمة!
الجندي - إنك لن تستطيع الإفلات مني. إنني أستطيع رؤيتك في أحلك الحالك، وأستطيع سماعك مهما خفت صوتك. تعالى إلى اليد الحديدية التي تباهي بأنك صنعتها لي. لا ترتعش وأذهب إلى ملك الملوك
(يسمع صوت جلجلة الحديد وصلصلته وتسمع أصوات من خارج القاعة ممتزجة بصرخات، وبصوت الأسنان الحديدية والأيدي والأرجل المعدنية.)
ثم يسود الصمت مرة أخرى وتضاء الغرفة فيظهر الجندي 241 واقفا وأمامه الإمبراطور ملقى على الأرض عند عتبة العرش، ثم ينحني الجندي على صدره فينزع الوسام ويضعه على صدر نفسه
(ويدخل العالم الذي كان مختبئا إلى الآن وراء الستار)
العالم (مذعوراً) - ما هذا؟
الجندي (رافعا يده المعدنية إلى السماء صائحا بصوت كالرعد):
(الدم والحديد!)
(ستار)
التاريخ في سير أبطاله
مازيني
(رسول الحرية إلى قومه، المجاهد الذي أبلى في جهاده مثل)

(بلاء الأنبياء
للأستاذ محمود الخفيف
لئن كان في المجاهدين رجل أعوز في جهاده المرير كل سلاح فتسلح بإيمانه فحسب ومشى يهزأ بكل قوة حتى تغلب بذلك الإيمان وحده على جميع القوى التي غالبته، واثبت في النهاية أن المثل العليا في مختلف أوضاعها هي خير هاد للبشرية إلى ما تنشد من كمال، فذلك الرجل هو يوسف مازيني رسول الحرية إلى قومه، المجاهد الذي أبلى في جهاده مثل بلاء الأنبياء.
وما نجد في الذين خلوا من قبله من المجاهدين والزعماء من كان مثله في ذلك؛ فهذه جان دارك الفتاة الناعمة على ما توافى لها من إيمان قد لبست الحديد واعتلت صهوة جواد وأقدمت يحف بها الجند وتلتمع من حولها السيوف؛ وهذا وشنجطون الزعيم الشيخ قد خاض إلى النصر غمرات الحتوف على رأس الأنجاد البواسل من جنوده؛ ثم هذا لنكولن المجاهد الصابر لم يجد بداً آخر الأمر من امتشاق الحسام ليصل به إلى ما لم تجد في الوصول إليه وسيلة من الوسائل.
لذلك كان مازيني بدعاً من الزعماء، وكان كفاحه فاتحة عهد جديد في كفاح المغلوبين على أمرهم، ثم كان جهاده مثالاً يحتذي كما كان صبره على ما لقي من الأذى ومجابهة حوازب الخطوب أحقاباً طويلة وحياً للمجاهدين من بعده يوحي البطولة إلى نفوسهم ويربط على قلوبهم ويحبب إليهم التضحية والفداء. ومن هنا كان خطر مازيني في تاريخ الحرية، ثم من هنا كان أساس عظمته ومبعث قوته.
أما في الذين خلفوا من بعده فقد نستطيع أن نضع إلى جانب أسمه أسم سعد في مصر واسم غاندي في الهند؛ فلقد انتهج هذان البطلان منهجه عامدين أو غير عامدين، إذ كان سلاح كل منهما إيمانه فحسب، وكان ما تعرض له كلاهما من ألوان الخطوب بحيث يبوئهما بلا
شك مكان كبار الأبطال، كما كانت قضية كل منهما قضيته وإن اختلفت الظروف وتباعدت الأيام.
ولد يوسف مازيني في جنوه في اليوم الثاني والعشرين شهر مايو سنة 1805؛ وكان أبوه طبيباً يتمتع بقسط من الشهرة في تلك المدينة، وكان رجلاً رقيق الحاشية، عطوفاً حتى ليمد يد المساعدة أحياناً إلى المرضى دون أجر، وإن كان يعنف في بعض الأحيان على أسرته ويريها شيئاً من الغلظة والتحكم. وكانت أمه امرأة صالحة قانتة قوية الخلق ذكية الفؤاد، ولقد ورث الصبي هذه الخلال فما ورث من أمه فكان أكثر شبهاً بها منه بأبيه.
ونشأته هذه الأم قوياً، فلقد كانت تعني أشد العناية بإعداد أبنائها لملاقاة مصاعب الحياة يوم يجابهون الحياة؛ ودرج الصبي في عصر كان ينذر بجسيمات الأمور، عصر كانت البلاد فيه أشد ما تكون حاجة إلى أولى الفطنة والعزم من الرجال؛ وراح يستبقل الشباب في الوقت الذي كانت إيطاليا تستقبل فيه فترة من حياتها كانت كفترة الشباب من حياة الأفراد.
ولد مازيني بعد ثلاثة أعوام من تتويج ابن الثورة بونابرت إمبراطوراً على فرنسا؛ وكانت لا تزال انتصاراته في إيطاليا تشغل أذهان بنيها، تلك الانتصارات التي وضع بها أساس مجده وعظمته؛ وكانت نفوس الإيطاليين لا تزال تجيش بما هبط عليهم من وراء الألب مع الفاتحين من مبادئ تلك الثورة التي افتتحت فصلاً جديداً في تاريخ بني الإنسان؛ وأحس ذلك الشعب كما أحس غيره من الشعوب أنه تلقاء فجر عصر جديد يخالف ما سلف من العصور أشد المخالفة، وكانت ترف على جانبي ذلك الفجر أطياف جميلة بسَّامة ولدت كلها من النور كأنما تهبط من عالم غير هذا العالم الذي ألف الظلام؛ ولقد اشتد هيام الناس بتلك الأطياف الساحرة التي سموها الحرية والديمقراطية والمساواة، وراحوا يمنون أنفسهم بالصباح الجميل بعد ليلهم الحالك الطويل.
ولكن الصبي لم يكد يناهز التاسعة من عمره حتى كان الإمبراطور في قبضة أولئك الذين كان يزعجهم بالأمس مجرد ذكر اسمه؛ وأرسل (القورسيقي الصغير) كما بات يدعوه أعداؤه إلى جزيرة إلبا حيث يلاقي ذل الأسر؛ وشاعت في طول أوربا وعرضها

أحاديث القومية ويقظة الشعوب وتحطيم الاستبداد وما إليها من العبارات التي ولدها الجيل، وتكشف الفجر عن طيوف جديدة ازداد بها طلاقة وسحراً.

على أن الناس في إيطاليا وغير إيطاليا ما عتموا أن أدركوا أنهم كانوا تلقاء فجر كاذب، فلقد راح أرباب العروش وأقطاب السياسة يعدون الأغلال والسلاسل بدعوى القضاء على عوامل الفوضى والضرب على أيدي الخارجين على حكامهم الشرعيين؛ وهبط الليل، وانحسرت الموجة العاتية التي انبعثت من فرنسا، ولكن لتتجمع فتتلاطم فتندفع فتحطم الجسور وتجرف السدود.

ويستمع الصبي إلى هذه الأنباء في بيته حيث كان يلتقي خلان أبيه، فلا يفهم منها إلا بمقدار ما يسع عقله الصغير؛ ولكنه كان صبياً قوي الخيال منذ حداثته، وعصر الطفولة هو عصر الخيال الخصب، هو ذلك العصر الذي يخيل إلى كل طفل فيه أنه قادر على أن يكون بطلاً ككل من يسمع سيرهم من الأبطال؛ ولذلك تحرك خيال الصبي أكثر مما تحرك عقله، وامتلأ لا ريب بشتى الصور عن ذلك القورسيقي الإيطالي المولد الذي جاب البلاد قاصيها ودانيها فاتحاً ظافراً ليستقر آخر الأمر أسيراً في جزيرة إيطالية. وما الذي هزم ذلك الجبار وأنزله من عليائه؟ ذلك ما يتساءل عنه الصبي. وماذا يعني أبوه بقوله اتحاد الشعوب ضده؟ ولكن خياله القوي لا يلبث أن يسعفه بالجواب، فهو وخلانه الصغار إذا اتحدوا على صبي كبير فإنهم يخيفونه ويهزمونه؟ وهكذا يتعلم زعيم الغد أول درس من دروس الجهاد ويفطن إلى أول عدة من عدد القوة.

ويحار الصبي أحياناً بين مادحي ذلك الجبار وبين قادحيه؛ ولئن استطاع أن يدرك أنه يبغض لأنه كان مستبداً يفرض إرادته على الشعوب، فما يقوى عقله الصغير على متابعة الذين يمدحونه والذين يسندون إليه أنه خطا بإيطاليا خطوات واسعة نحو الاتحاد فقضى على حكم البربون وحكم البابا، وأشاع في البلاد على رغم خضوعها له شعور القومية والوحدة. لا يستطيع الصبي أن يفهم ذلك جلياً، وإن كان خياله لا يتقاصر عن تصور الوحدة ولو في أبسط صورها؛ وأنه ليدين لهذا الخيال بالكثير مما يتعلم في هذه السن. وهل يفلت من الخيال في غد يوم يكون شاباً مثقفاً أو كهلاً مجرباً؟ كلا. فلسوف يكون الخيال من أعظم أسباب قوته ومن اشد دعائم إيمانه ومن أبرز خصائصه؛ وإن كان بعض دارسيه يعيبونه عليه وينكرون إسرافه فيه، وهم لو أنصفوا لرأوا فيه عنوان محامده. وكم كان للخيال من فضل على كثير غيره من العظماء!

ويجلس الساسة في فينا بعد واترلو يتحكمون في مصير الضعفاء ويقضون قضاءهم في إيطاليا كما قضوا في غيرها، فإذا سلطان النمسا يفرض على ولايتها وتضم جنوة إلى بيدمنت، وقد طالما مناها الساسة بالاستقلال، وتعود إلى البابا ولاياته وسلطته، وتقادم في نابلي مملكة تخضع للبربون، ويتفق ملكها سراً مع زعيم الرجعية العتيد في ذلك العصر مترنيخ على ألا يمنح شعبه دستوراً إلا بإذن من النمسا. وهكذا يفلح ذلك السياسي الماكر في تقسيم إيطاليا وتفريق كلمتها حتى ليحق عليها قوله: (إن إيطاليا ليست سوى اسم جغرافي).

وتخيم الرجعية على إيطاليا جميعاً وتطارد الحرية الشريدة أينما ظهر هيكلها المكدود أو لاح علمها الممزق؛ وينتقل الصبي من طور الخيال الغالب إلى طور العقل المتيقظ في مثل ذلك الجو البغيض

ولن يملل الصبي القراءة في تناول أعداداً قديمة من صحيفة الجيروند كان قد دسها أبوه بين كتبه الطبية مخافة الرقباء، وينهل ما شاء من معين عذب يروى غليل نفسه ويبهج روحه ويثبت فؤاده؛ ويحرم عليه وعلى التلاميذ الكتب التي تخشى الحكومة منها فلا يعطون إلا الكتب الكلاسيكية ليكون لهم فيها ما يبعدهم عن الآراء الثورية، ولكنهم يقرئون تاريخ الإغريق والرومان فيعجبون بالنظام الجمهوري ويطربون لما تقع عليه أعينهم من مبادئ الديمقراطية

ويستشرف الفتى للسادسة عشرة من عمره فتهز نفسه من أعماقها أنباء تتناقلها الألسن عما انبعث من الرجفات في أنحاء إيطاليا، فإن الناس حين ضاقوا بحالهم لم يجدوا بداً من تكوين الجماعات السرية وكان من اشهر هذه الجماعات جماعة الكاربوناري، وما زالت هذه الجماعة تنمو وتنتشر حتى كان لها أنصارها في أكثر الولايات! وكان لهذه الجماعة بحكم تكوينها رموز يعرفها أعضاؤها، فاسمها معناه (موقدو الفحم)، ومن مبادئها (طرد الذئاب من الغابات) ولعلهم يريدون طرد الحكام

الأجانب من البلاد. على أن غاية الجماعة كانت تنحصر في القضاء على الاستبداد وإحلال الحكم الدستوري محله
وما حل عام 1820 حتى هبت الثورة في نابلي، وقد جاءت الأنباء إلى الكاربوناي هناك عن ثورة في أسبانيا؛ وأسقط في يد الملك فأجاب شعبه إلى الدستور؛ وحذا الكاربوناري في
بيدمنت حذو إخوانهم في الجنوب، فاندلعت نيران ثورتهم في صورة لم يجد ملكهم بداً إزاءها من اعتزال الحكم، فقد خشي من النمسا أن يمنح شعبه الدستور؛ واتسع نطاق الثورة حتى شملت لمبارديا نفسها وكانت تخضع مباشرة لحكم النمسا
ولكن النمسا ما لبثت أن ساقت جيوشها فقضت على الثورات وأرغمت الثوار على الفرار ونكلت بمن وقع منهم في يدها، وأثبت مترنيخ لساسة أوربا مقدرته على مقاومة هذه الحركات، وإنه لينسى أن القوة المادية مهما بلغت لن تقضي على القوة المعنوية، وإن هذه الثورات إنما تستعر كما تستعر الجمرات تحت الرماد؛ وهل كانت الحرية إلا تلك الشعلة التي لا تزداد مع الضرب إلا توقداً واشتعالاً؟
وكان الصبي يمشي صحبة أمة ذات يوم في أحد شوارع جنوة فوقعت عيناه على فلول من الهاربين كانوا في طريقهم إلى أسبانيا، ورأى معاني اليأس تلوح في وجوههم المصفارة، كما رأى آثار الإعياء بادية في أجسامهم المكدودة، وكان بعضهم لا يجد ما يقتات به وقد عضه الجوع أياماً
واستقر في خاطره هذا المنظر فما يبارحه قط، وتحرك اليوم خياله وعقله معاً، وأخذته حال من الهم صرفته عن كل شيء حتى باتت أمه تشفق مما ألم به، ثم أخذ يفكر في أسباب هزيمتهم ويتتبع أنباءهم حتى اهتدى إلى حكم؛ فقال وهو لا يدري أنه كان يعبر عن الواقع (لقد كان من الممكن أن ينتصروا لو أن كل فرد قد أدى واجبه) وتعلق خياله بالكاربوناري ومبادئهم فما يلتفت إلى شيء سواها، وكان يومئذ في سن اليفاعة، سن الأحلام والآمال، سن التوثب والتطلع إلى المثل التي ينسجها الخيال ويفيض عليها من سحره ومن تلفيقه، وهو ذلك الفتى الذي اشتد خياله حتى أشرف به على المرض. أنظر إليه كيف آلى على نفسه أن يلبس السواد منذ ذلك اليوم الذي رآه اسود في خياله، فلن يبدل ثيابه السود بعدها حتى يلفه الكفن ويضمه سواد القبر وهكذا ينضم الفتى إلى الكاربوناري بآماله وقلبه، ويتحرق شوقاً إلى اليوم الذي يجاهد فيه بين صفوفهم، ويستعذب معهم الألم في سبيل قضية الحرية والدستور
ويعود إلى كتبه بعد حين وقد انطوت نفسه على ما لن تقلع عنه بعد اليوم؛ وكم وجه سواه من العظماء وجهتهم حادث بسيط تقع عليه أعينهم فيرون فيه على بساطته مالا يراه
غيرهم، وتستشف نفوسهم من خلاله من المعاني مالا تستشفه إلا كبار النفوس؛ وتلك خلة يمتاز بها العظماء أبدا من سائر الناس. . .
وكان الصبي يدرس الطب ليخلف أباه، ولكنه أخذه الإغماء مرة وهو يشهد عملية جراحية، فمال به ذلك الحادث عن الطب فاختار القانون؛ وكان يحس بميل قوي إلى القانون، فلعله كان يراه أقرب إلى ما وطد العزم عليه، وإن يكن قد أبغض طريقة تدريسه وبرم بالكتب التي تشرح قواعده
على أنه كان يكثر قراءة الشعر والتاريخ ففيهما لخياله المشبوب مجال، ولروحه المتوثبة وحي؛ ولنفسه الحزينة عزاء. ولما أوفت به سنة على الشباب عرف بين أقرانه بفصاحة اللسان وصفاء الذهن وحماسة القلب وشدة الشعور وجموح الخيال
(يتبع)
الخفيف
رسالة الفن
لإسلام الفن وإسلامنا:
فلنغير ما بأنفسنا
للأستاذ عزيز أحمد فهمي
قواعد الإسلام هي:
1 - الشهادة بأن لا أله. . . إلا الله وحده. . . وحده لا شريك له في أي ناحية من نواحي ألوهيته، ومنها تفرده بالخلق فهو واهب الحياة، وواهب الرزق، وواهب الراحة في

الحياة، وفي الموت، وفيما بعده. ومنها تفرده بالحكم حكم فلا حكم إلا لقضائه وأمره وشرعه. . . هي الشهادة بالله. وأظن أنه لا جدال في الله

2 - الشهادة بأن محمداً رسول الله. . . وهذه قضية تقوم على ركنين: أولهما أن محمداً رسول، وثانيهما أنه رسول الله. أما أنه رسول فحياته كلها تشهد بذلك، فقد كان صاحب فكرة خاصة محدودة تسلطت عليه منذ يقظته إلى الكون وانتباهه إلى نفسه، فلم يخرج عن حدود فكرته هذه لا في عمل ولا في قول، ولا في جد ولا في هزل. حتى لقد كان يمزح فلا يقول إلا حقا. وقد بدأ انطلاقه في اتجاهه هذا منذ طفولته المبكرة فعرف فيه الناس طفلاً (الصادق الأمين) وليس للأطفال جرائم ولا زلات إلا الكذب وإغفال العهد فمن لم يقترفها منهم كان الطفل الطاهر، محمداً. ما أروع أسمه!

هو إذن رسول فكرته. . . فأية فكرة كانت فكرته؟ كانت الحق، وكانت الفطرة. والحق هو الله. . . والفطرة هي الطبيعة التي أوجدها الله، ومن قوانين هذه الطبيعة التطور والارتقاء بالمادة والروح

فهو إذن رسول الله، لا رسول الشيطان، ولا رسول فكرة أخرى آثمة بعثتها نزعة من نزعات نفس متعجلة. . . فمن محمد؟ إنه بشر لم يخرج على طبع البشر. فهل من طبع البشر أن يستطيع الاتصال بالله؟. . . إنه يستطيع لو كانت في نفسه مؤهلات محمد ومواهبه ثم جاهدها جهاد محمد. فإذا لم يستطيع فليشابهه قليلاً أو كثيراً حسبما يستطيع، ومن كان كعمر فهو خير ممن كان كزفر

3 - الصلاة: والصلاة عمل وكلام: قيام يقرأ الإنسان فيه من كلام الله. . . كذلك يجب أن ينهض المسلم في الحياة وأن يذكر الله. . . وعليه أن يذكر الله في عمله، وفي قوله، فالصلاة عمل وكلام. . . وركوع. . . وهو هذا الانحناء أمام ربنا العظيم. . . العظيم حقاً. . . الذي فعل ويفعل. . . وسجود لربنا الأعلى. . . إليه وحده الذل، وبه وحده العزة، وعنده وحده الأمان، وفيه وحده الرجاء. . . وهذه الجلسة الأخيرة المطمئنة التي يقرأ فيها المصلي التحيات لله، والسلام على النبي وعلى نفسه وعلى المؤمنين. كذلك يجب أن يفعل الإنسان حين يطمئن وحده أو بين الناس أن يكون كلامه وعمله تحيات وسلاماً. . . لله وللنبي وللمؤمنين ولنفسه. فالصلاة إذن تلخيص لما يجب أن تكون عليه الحياة. ولو أن الناس ذكروا الله ونهضوا، وعظموه وخشعوا، وأجلّوا شأنه وذلوا له وآمنوا به، وكان الذي بينهم وبين الله والنبي والناس وأنفسهم تحيات وسلام. . . لو أنهم فعلوا هذا فيما بين الصلاة والصلاة، لكانت حياتهم صلاة في صلاة. . .

4 - صيام: والصيام زهد في حاجات البدن، وهو دليل على إمكان الرقي وهو من بشائر القيام بالذات. . . وهو عدو المادة الذي نصره الإسلام

5 - الزكاة: والزكاة نزول عن جزء من ملك الإنسان للناس، فمن كان ملكه مالاً فعليه نصيب منه يجب أن يؤديه للناس، ومن كان ملكه معنى فإن عليه نصيباً منه يجب أن يؤديه للناس. . ومن أحسن وتصدق فإن له في الصدقة عشرة أمثالها. . ذلك أن الإحسان يبعث في النفس شعوراً بالراحة والغبطة، فإذا أحب الإنسان الإحسان أحب هذا الشعور، فمارس من أجله الإحسان وأدمنه واستلان له حتى يقضي العمر في إحسان وإحسان، فهو في راحة وغبطة ما دام محسناً. . . إن في الإحسان جزاء الإحسان، وإن الذي عند الله خير وأبقى

6 - حج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً: والبيت حرم تتجه إليه القلوب والأنظار والأسماع. وللحج وقت خاص يجتمع فيه القادرون عند هذا البيت. . . من الشرق ومن الغرب ومن الشمال ومن الجنوب، فإذا كانت أمة في محنة حج القادرون من أهلها إلى البيت والتقوا عنده بالحجاج ممن يملكون عونهم فاستعانوهم، والإسلام أخوة، والتعاون فيه واجب، فالحج إلى البيت يشبه ما يريد الغرب أن يحج رؤوسه إلى جنيف أو لوزان

هذه هي قواعد الإسلام وهذا هو شيء عنها، وإن الإسلام لأجل وأجل من هذا الذي بسطت وأعظم

فهل في الدنيا مسلمون كثيرون؟

الواقع أننا في حاجة إلى صرخة جديدة تهتف بالإسلام ليفيق على دويها المسلمون

الذين نام الإسلام في قلوبهم - ولا نقل إنه مات، لأنه لا يمكن أن يموت، فهو دين الفطرة والطبيعة المرتقية، فهو حي ما كانت الحياة، إذا أغفله أهله المنسوبون إليه، فإن غيرهم ساع إليه متعلق به؛ يحققه قليلاً قليلاً، حتى ليشهدن في آخر الأمر به عمله، وليعلنن الشهادة بعد ذلك بلسانه

وهاهو ذا برناردشو يقول إن الإسلام هو الدين الذي سيسود أوربا بعد مائة عام. وهو لم يقل هذا إلا لأنه لحظ اتجاه الحياة الأوربية إلى مبادئ الإسلام الحقة تستنجد بها كلما أحست وحشة المارد وظلمتها، مدفوعة في ذلك بعوامل الطبيعة لا بتبشير يزاوله المسلمون، ولا بجهاد يمارسونه. و (شو) فنان من الغرب يعرفه الناس بأنه قد حرر عقله، وهو يؤذن بالإسلام على رأس أوربا. . . فكم من فنان (مسلم) يفعل اليوم هذا؟. . . قليلون جداً، فأكثرهم يتحرروا كما تحرر هو، وأكثرهم لم يصقلوا إحساسهم كما صقل إحساسه هو، وأكثرهم لم يطلقوا عقولهم من أغلال الزيف كما أطلق عقله هو، وأكثرهم يعربدون في ظلمة الباطل خارج الحدود التي رسمها الإسلام للحياة. . . ولا يعربد هو وكأنما هم يجهلون أن الفن من الحياة، وأن للحياة حدوداً رسمها الإسلام فحصر في داخلها أصولها، ثم ترك الخيار بعد ذلك لكل مسلم أن ينطلق داخل هذه الحدود ما حلا له الانطلاق، وحدود الإسلام ليست قيوداً مما يشل الحركة، ولا هي أغلال مما يمنع النهوض، ولا هي عصائب مما يحجب عن العيون النور، ولا هي أحجار مما يثقل على الحس، ولا هي جهالات مما يمتنع على العقل الاقتناع به وتدبره، وإنما هي حدود الطبيعة التي لا يمكن خرقها، والتي لا يخرقها إلا من يظلم نفسه، وهي ليست شيئاً إلا تحرير الإنسانية من كل عبودية تفرض عليها إلا عبادة الله ومن كل تقليد أو نظام يراد به العبث بكرامة العقل أو كرامة الروح. . . وهي في ذلك كله سعي حر بالتطور إلى الارتقاء

فعلينا أن نسعى إلى هذا ومن الله العون

وعلى أهل الفن الإمامة في هذا السعي فهم الموهوبون فضلاً من روح الله، وعليهم زكاة الروح كما أدى غني زكاة المال. وليقرئوا معنا من آيات القرآن قوله تعالى: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، فهذه أمام العيون حقيقة من حقائق الإسلام التي تحتمل الأكوان، وتنهض بالأقدار. وقد تكون عند من يسمعها ويتفهمها أمراً بديهياً تراه كل عين، ويحسه كل قلب، ويعيه كل عقل حتى لكأنها تشبه قولنا: (إننا بشر) و (الملح يذوب في الماء) و (النار تبعث الحرارة) فكل هذه حقائق ليست في حاجة إلى الترديد لأنها معلومة متفق عليها لا ينكرها ولا يجحدها عقل إنسان. ولكن هذا لا يعيبها طبعاً، فهكذا طبع الخلود والدوام في الحق: قد يجهله، وقد نظل أطول العمر نجهله فإذا عرفناه قلنا: (هذا صحيح) ولم نقل أكثر منها، ثم تعجبنا له أو لم نتعجب، ثم أطلقناه بعد ذلك في أنفسنا يغيب في آفاقها حيثما شاء لا نراقبه ولا نتقصى أثره لأننا مطمئنون إليه بما جبلنا عليه من حبه، ولإيماننا الفطري بأنه مهما غاب في أنفسنا؛ فإنه منجدنا عندما نستنجده، وبأنه مجيرنا وقتما نحتاج إليه ونطلبه وأنه يأبى أن يخذلنا فهو الحق، والحق هو الله، والله قريب يلبي دعوة الداعي إذا دعاه. . . ولكننا لا ندعو من الحق إلا قليلاً، ندعوه بعد نكران أو نسيان، وأغلب ما ندعوه في حاجات الأبدان، ليتنا نذكره في غيرها وندعوه، فتصبح لنا إلى جانب هذه الحضارة التي أقامها العالم بالأسمنت و (الزلط) حضارة أخرى نقيمها نحن بالحب والرحمة. . .

فما لنا لا ندعوه؟!.

سبيلنا واضح وهو الإسلام. وهداتنا إليه الفنانون قبل العلماء، فهم الذين يناجون شعورنا وهو أول علامات الحياة فينا، وإنهم يقولون إن طلبهم التحرر، وإنهم لا يطيقون القيود، وإنهم يحبون أن ينطلقوا في الحياة كل منهم وراء فكرة، وإنهم يبذلون أنفسهم للناس فيحترقون ويضيئون لغيرهم الطريق، وإن مآربهم في الدنيا تحية وسلام. فهل هناك حياة تحقق هذا كله في أروع الصور إلا حياة الإسلام؟ فعليهم أن يباشروها، فهي التي تبعث الفن، أسمى الفن، وتقود إلى الهدى، أصوب الهدى وتنشر بين الناس أطيب ما تمنته الإنسانية من اسعد الأحلام. . .

وهم أقدر الناس على هذا ما دام المفروض فيهم هو أنهم أشد الناس إحساساً، وأسرعهم

إدراكاً لحقائق الحياة القريبة من الفطرة، أو التي هي الفطرة نفسها، والتي غيبتها عن إدراك الجماهير هذه الستار أسدلتها الصناعة على الطبيعة، وهذه الوسائل أراد بها الناس أن يأخذوا من الأرض أكثر مما تحمل طاقتهم فرزحوا تحت أعباء ما حملوا، وثقلت عليهم أعباؤهم فشغلتهم عما كان جديراً بهم أن يلمسوه، وأن يحسوه، وأن يعقلوه، من شئون أنفسهم ومن شئون هذه الخلائق التي تحيط بهم، وما يربط هذه الموجودات جميعاً من نظام لا يختل، ولا يعتل

جماهير الناس لم تعد آذانهم تسمع أصوات قلوبهم وأفئدتهم فقد طغى على هذه الهمسات الناعمة قصف المدافع، وضوضاء البورصات، وصفير القطر، وأزيز الطيارات. . .

جماهير الناس لم تعد أعينهم ترى ما في أحضانهم من نفوس أزواجهم وأولادهم، فقد غاب كل مرئي في هذه الحضارة بين سحائب الدخان الكثيف الذي تنفخه المصانع فتسمم به الهواء وتسودّه ظلاماً

جماهير الناس لم تعد تملك أن تقف وقفة المتريث المتعرف المتأمل عند أي ظاهرة من ظواهر الجمال أو ظواهر القبح، فالناس اليوم متسرعون متعجلون، يجرون ويطيرون ويقفزون على وجه الأرض كما يرقص الشيطان. . يمرون بآلاف من شواهد الحق والحكمة، ولكنهم لا يلمحونها إلا كما يلمح العقاب من فوق السحاب دبة النملة تحت التراب. . .

فأي شيء يراه هؤلاء؟ وأي شيء يسمعون؟ وأي شيء يعون؟

. . .!إنهم أشقى القرون وأباس الأجيال

وليت للمسلمين في هذه السوق ما لغيرهم من ربح المادة، فقد يكون في المادة عزاء. . . بل حاشا أن يكون فيها إلا عزاء السكرة. . . وهم حتى في هذا متراجعون متأخرون رانت عليهم قناعة النائمين، فلا هم كسبوا الدنيا ولا هم ربحوا الدين. . . فمن منقذهم من هذا غير الفن يلتهب في بعض النفوس بوهج من حر الإسلام، يشعله الإيمان، وتزكيه الرعاية، ويحفظه الإصرار على إرضاء الله. . .

وإن فينا فنانين تعرفهم جماهيرنا. . . ولكنهم مشغولون بما يقرئون من كتب الغرب التي أوحتها حضارة المادة الملفقة، عن آيات الخلد المبسوطة للعيون في القرآن. . . وحتى هم

إذا قرءوه لم يقرئوا منه إلا لفظة وأسرعوا في تلاوته كأنما هم يعدون أرقاماً. وفيه آيات جمعت أسرار الحياة. . .

عزيز أحمد فهمي

رسالة العلم

لحظات الإلهام في تاريخ العلم

بقلم مريون فلورنس لانسنغ

قصة العجلة

أبونا النيل - الريح والتيار

كان الإنسان الهمجي لا يضع على جسده ستراً سوى جلد الحيوان، وكان إما دافعاً صخرة أكبر من أن يستطيع حملها وإما حاملاً عبئاً ينوء بحمله - هذه أول صورة نتخيلها للرجل القديم أثناء مزاولته عمله

ما أضأل وما أعيى ما يبدو لنا الإنسان الأول عندما نتصوره واقفاً بالعراء وليس لماضيه تاريخ يفيد منه وليس له إلا جسمه القوي وإلا مواهبه الذهنية التي عليه أن يقهر بها الدنيا ويخضعها له! وكان لا بد له من قهرها لأنه إذا لم يحصل على الطعام والمأوى والدفء فإنه ميت لا محالة

إن الدنيا حافلة بالكنوز التي فيها وسائل نعمته وراحته. ولكن كيف يستطيع ذلك؟ لم يكن لديه مفتاح تلك الكنوز ولا لديه المرشد لمصادرها، ولا غرابة في أن يكون بطيئاً في الوصول إلى شيء ما وإنما الغرابة في سرعته - على الرغم من قلة التجريب ذهنياً ويدوياً - في الوصول إلى أشياء يقضى بها حاجياته

يقف الرجل الهمجي أمام عبء أثقل مما يستطيع حمله كما تصورناه في بداية المقال، وليس لديه من الآلات إلا أجزاء جسمه وليس يستطيع السفر إلا إلى حيث تستطيع قدماه حمله ولا يحمل إلا ما تقوى ذراعاه على رفعه ولا يدفع إلا ما يندفع

أمامه. هذه صخرة أمامه وهاهو ذا لا يستطيع أن يحركها
ربما وجد هذا الإنسان القديم غصناً ساقطاً من شجرة فوضع طرفه عند تلك الصخرة ودفعه فوجد الصخرة تتحرك. . . إن حدث ذلك فإن دهشة ستعروه وسيجرب غصناً قصيراً فلا يجد له فائدة وسيجرب غصناً أطول فيجد فائدته أكبر. وإذا صادف وجود صخرة أصغر من الأولى على مقربة منها ووضع الغصن فوقها ووضع طرفها تحت الصخرة الكبيرة فقد
يجد أنه يستطيع رفع تلك الصخرة عن موضعها بإحداث ثقل من جسمه على الطرف الآخر من الغصن دون أن يحمَّل عضلاته مشقة الدفع والرفع
إن فعل ذلك فإنه يخطو خطوة عظيمة في سبيل الابتعاد عن مستوى الحيوانات التي تعيش معه في نفس الغابة لأنه باستكشافه هذا يكون قد عثر على قانون من قوانين الطبيعة هو نظرية الرافعة التي بواسطتها يمكن استخدام ثقل ضئيل لرفع ثقل أكبر بالضغط على الطرف الآخر
لم يكن ليعرف في ذلك العهد أن هذا قانون من قوانين الطبيعة فقد مضت مئات كثيرة من السنين حتى ظهر العلامة اليوناني أرخميدس وتبين هذه النظرية وما يمكن أن يترتب عليها من النتائج المدهشة فقال: (لا أريد إلا مكاناً آخر أضع عليه الرافعة فيصبح في وسعي تحريك هذه الدنيا
وكانت لحظة عظيمة تلك التي عرف فيها أرخميدس قانون الروافع، ولكن ألم يكن أكبر من هذه اللحظة تلك اللحظة الأخرى التي احتاج فيها الصياد القديم إلى شيء فوق طاقته فصنع رافعة وهو يجهل كنهها من الخشب وحرك بها الثقل
كان هو البشير بالرجل الذي رفع الصخور الضخمة ليبني بها أهرام مصر كما كان هو البشير بمهندس القرن العشرين الذي يرفع القوائم الحديدية إلى قمة ناطحات السحاب
وإنما نجح ذلك الرجل لأنه لا يريد أن يفشل في واجب لم يستطيع أداءه. وربما كان العبء الذي أراد الصياد القديم أن يحمله إلى كهفه صندوقاً فيه جثة وحش ليقتات من لحمه، وربما كان قد أعانه على تحريك هذا الصندوق عمودان من الخشب وضعهما تحته فاستطاع بواسطتهما نقل الصندوق إلى مكان ابعد من الذي يستطيع نقله إليه لو حمله على ظهره
لكن هذا العمود كان في البداية شجرة طويلة غير مشذبة تتدحرج باليد على أرض غير ممهدة، فَنَقْل الصندوق على عمودين من هذا النوع أمر يشق على صياد مُتْعَب. لكن صادف أن كان العمود ناعم الملمس حسن الاستدارة، وكان وضعه تحت الصندوق بشكل حسن، فسهل تحريك الصندوق الذي كان تحريكه صعباً من قبل
في تلك العصور المظلمة التي نتخيل حدوث هذه القصَّة فيها كانت توجد كتل من الخشب مستديرة وهي مقطوعة من جذوع الأشجار
وكان في ذلك العهد رجل أذكى من رفاقه، فبعد أن نقل الأثقال على أشجار تتدحرج حتى كاد ظهره أن ينكسر، رأى أن يحفر اثنتين من هاتين الكتل وأن يصل بينهما بعمود يمر بوسط كل منهما لا يكون كجسم الشجرة التي تجر على الأرض. هذا هو أول نوع من أنواع العجلتين ومن المحور الواصل بينهما
وبهذه الوسيلة عرف الإنسان قانوناً آخر من قوانين الطبيعة هو نظرية الاحتكاك، والاحتكاك معناه تمرير سطح على سطح. وهذه النظرية تفيد الإنسان من عدة وجوه، وقد كنا ننزلق على الثلج بغير قبقاب (الباتيناج) لولا معرفتنا تلك النظرية
لكن إنسان ما قبل التاريخ كان يستخدم كل قوته ضد قوة الاحتكاك، فكان يوجه جهد عضلاته لجر الأثقال على الأرض، فلما رفع الأثقال عن الأرض استفاد كثيراً ووجد الدحرجة على أشياء مستديرة أسهل من الجر على الأرض، فلما عرف العجلتين المتصلتين بواصل يوضع تحت العبء تضاعف كسبه، فقد أضاف قوة العجلة إلى قوته وطبق نظرية الرافعة مرة أخرى لرفع الثقل عن الأرض حتى لا يجر جسماً مسطحاً على جسم مسطح
وشتان بين تعلم هذه النظريات من كتب الطبيعة بطريق الدرس وبين معرفة الرجل القديم لها واحدة بعد واحدة، معانياً الكثير من الفشل في مقابل القليل من النجاح. وهو في أثناء ذلك يحتال على تخفيف الجهد القاصم للظهور والمستنفد للقوى

إننا نجل الذين كان لهم من الحكمة ما ساعدهم على أن يفهموا وأن يستنبطوا القوانين العظيمة التي أقيم عليها بناء هذا العالم فلا تنسى أن تكرم ذلك المخترع المبتكر الذي كان له من الذكاء ما مكنه من صنع العجلة

أبونا النيل

(أقبل الفيضان! أقبل الفيضان! أبونا النيل يعلو)

هكذا كان يقول الأطفال في مصر فيترك كل عامل عمله ويذهب ليشهد النيل العظيم وقد بدأ يفيض ماؤه على جانبيه

وقد كانت أرض مصر مدة اشهر عشرة قبل الفيضان جافة بتأثير الشمس الجنوبية المحرقة، وهاهو ذا الصيف قد أقبل وارتفع ماء النهر المعبود جرياً على عادته التي لم يخلَّ بها؛ وهاهو ذا يترك مجراه ويصل إلى أماكن بعيدة من أرض البلاد التي يهبها الحياة،

ويظل النيل خمسين يوماً ينُعم على الناس ببركاته. وعندما يعود إلى مرقده الآمن بين شاطئيه اللذين أنشأهما لنفسه، يحجب ظاهره بطبقة غنية من الطمى الأسود تستمد منها الحياة فواكه الربيع وزهوره وحبوبه، فينعم بها الناس إلى العام المقبل حيث يعود إليهم مرة أخرى بهدايا مائه الغالي. أما في نظر الذين تمطر في بلادهم الدنيا في الربيع والصيف والخريف، ويتساقط البرد في الشتاء، وفي أرضهم الماء غير منقطع، فإن الفيضان بالنسبة لهم إخلال بنظام الطبيعة ونكبة على الجنس الإنساني، لأنهم لا ينتظرون ولا يريدون المفاجأة التي تجلب لهم النكبات والخسائر، وتهلك محاصيلهم وتكتسح مساكنهم

لكن أبانا النيل لم يكن بالضيف غير المرحب به على هذا الاعتبار بالنسبة لأرض مصر التي لفحتها الحرارة فلو أتى فيضانه مرة في كل عام بمقدار أربعين قدماً لأصبحت البلاد صحراء كالصحاري المجاورة لها. فلا عجب إذن في تقديس المصريين له واعتبارهم إياه أباً عطوفاً مكللاً بالفواكه والورق الأخضر. وتصويرهم إياه وحوله الأرواح السعيدة تلعب في مرح وهي وافرة العدد

ولكن مع كثرة ما يجود به النيل فإنه يعم جميع البلاد، ومع أن مدة الفيضان مطلوبة مهما طالت فإنه يظل كالنائم في مجراه الضيق عشرة أشهر في كل عام. وعندما ينتهي عمل النيل يبدأ عمل الإنسان وقد كان عملاً مجهداً.

هذا الماء الغالي الذي يأتي في وقت قصير يجب أن يحتفظ به، من أجل ذلك كان الأرقاء ينشئون ما يشبه أن يكون بحيرة حتى لا يضيع ماء الفيضان بدداً في الرمال. ويجب أن يحمل هذا الماء إلى الدور والحدائق والمزارع التي تخرج عن المنطقة التي ينالها الفيضان. ومن أجل ذلك كان يكلف الأرقاء بحمل هذا الماء في أوان على رؤوسهم

وقد كان الجهد الإنساني رخيصاً في تلك الأيام وكان للملوك والنبلاء في مصر مئات ومئات من العبيد لا يعدونهم أفضل من المواشي: هم آلات إنسانية لم توجد إلا لتؤدي مالا نهاية له من الخدمات لساداتهم. وعلى النقوش المصرية القديمة على الأحجار صفوف وصفوف من العبيد حاملين أواني الماء على رؤوسهم

لكن حتى الأرقاء ومن يعهد إليهم بأن يسوقوا العبيد كانوا أهل ذكاء ولم يكونوا حيوانات تعمل بلا عمل ولا فكر ولا محاولة للتغيير. وفي يوم من الأيام حدث أن رجلاً ذكياً من بين

اللذين كان من واجبهم اليومي رفع المياه من المجرى المنخفض إلى الحقول العالية، حدث أن هذا الرجل علق دلوه بطرف عمود خشبي مستند وسطه إلى الجسر وتعلق بالطرف الآخر من هذا العمود وها أنت ذا تراه الآن يطبق نظرية الرافعة مرة أخرى، فعلق الدلو في سهولة في الهواء ثم سكب في الموضع الذي أراد الرجل أن يرويه من ماء النهر

وقد كانت مصر موصولة الأجزاء على ضفتي نيلها بترع وجداول تروى بواسطة الشادوف (الدلو والعمود)، وتوضع هذه الشواديف أما فرادى وإما أزواجاً لرفع الماء من مستوى إلى مستوى آخر. لكن كان لا يزال الرفع بواسطة رجال، وكانت كل القوات الدافعة التي يجب استخدامها من نشاط العضلات

ثم جاء رقيق لعله أذكى ولعله اضعف جسماً من غيره، فظن سيده أنه أكسل من

رفاقه، راقب هذا العبد وهو يؤدي عمله إحدى العربات المصرية وهي تسير بخفة بسبب عجلاتها الدائرة فأخذ عجلة قديمة سقطت من إحدى العربات وعلقها في عمود فوق حفرة الماء وعلق بها الدلو ووجد بذلك أن الدلو يهبط ويعلو في سهولة وأن المشقة قد قلّت

كان الرجل يندفع إلى الأمام ثم إلى الوراء في أثناء إخراجه للدلو ووضعه في الماء، ويتكرر ذلك طول مدة السقي فيفقد قواه شيئاً فشيئاً لطول هذه الحركة، وهو فضلاً عن ذلك مضطر إلى الوقوف بين دفعة ودفعة

فلما عرف طريقة العجلة التي تدور دون أن تقف أو تعاود البدء، لما عرف هذه العجلة (الساقية) أضيف فصل آخر إلى قصة العجلات التي مكنت الإنسان بسبب ما فيها من سرعة الحركة من جر أثقاله ومن الانتقال على عربة، ومن رفع الأثقال عن الأرض هذا فضلاً عن أن العجلة يمكن أن تدار سواء بواسطة الإنسان أو بواسطة حيوان يساعد الإنسان في هذه المهمة، ولكنها في مصر كانت على الغالب تدار بواسطة الإنسان وحده لكثرة الرجال ورخص الجهد الإنساني.

(يتبع)

ع. أ

الكينا تفتح للصين عهدا جديدا مزدهرا

هو اسم لإحدى المقاطعات التي لا يجدها الإنسان في خارطة مهما كانت (شانك شي) دقيقة فليست هذه تسمية جغرافية رسمية ولكنه اسم يعني باللغة الشعبية (العشرين هسيان) الواقعة في جنوبي شرقي تونان المقاطعة الصينية.

معناها هواء فاسد ولهذه المقاطعة سمعة سيئة منذ أكثر من ألف سنة (شانك شي) بسبب العدد الكبير للوفيات التي يسببها مرض الهواء الفاسد (الملاريا) فقد كانت سابقا بقعة تجارية غنية ومزدهرة وهي الآن بقعة فقيرة تعد ضحايا الملاريا بعشرات الألوف.

لكن عن قريب تدخل هذه الأخبار في نطاق التاريخ القديم. فمنذ منتصف 1936 يوجد في اليونان مصلحة صحة للمقاطعة تقوم بمهمتها بكثير من الغيرة وأرسلت أيضا عمالها الصحيين إلى مقاطعة شانك شي كي يقوموا هناك بتحقيق يتعلق بجنس المرض المنتشر فيها فظهر أن هذا المرض ليس إلا الملاريا فاتخذوا الإجراءات اللازمة حال معرفة النتيجة وأرسلت مصلحة الصحة الوطنية مليونا ومائتي ألف جنيه من الكينا على سبيل الإسعاف المؤقت وسترسل في المستقبل إلى مقاطعة شانك شي كميات أكبر أيضا من هذا الدواء الشافي والواقي.

فالكينا هي فعلا العلاج الذي وصفته لجنة الملاريا في جمعية الأمم للوقاية وللشفاء من هذه البلية البشرية فإذا تبع الإنسان نصيحة هذه اللجنة وأخذ يوميا 400 ملليجرام من الكينا مدة موسم الحميات فلا يصيبه هذا المرض وإذا ما أصابه فلجنة جمعية الأمم توصي في هذه الحالة بالعلاج السريع بالكينا أي جراما واحدا أو جراما وثلاثين ستجرام مدة خمسة أو سبعة أيام ولا داعي لعلاج تكميلي آخر لكن في حالة الانتكاس يمكن الشفاء باستعمال العلاج السريع نفسه.

البريد الأدبي

على مسرح الأوبرا

افتتحت الفرقة القومية موسمها على مسرح الأوبرا بمسرحية (مصرع كليوبترا) وهي داخلة في أدبنا القومي. وميزة المسرحية أن موضوعها مصري وأن صاحبها وضعها بالعربية شعراً. وإذا نحن نظرنا في مبناها ومعناها أصبنا الأول لا يخرج عن طرائق النظم المألوفة بمحاسنها ومساوئها، مع توخي الجَرسْ البحتري اللطيف، وتطلب الحكم والأمثال على أسلوب المتنبي وغيره. . . ذاك هو شوقي الذي لم يسعده إقدامه على فك أداء الشعر العاني. وأما المعنى فتسَّيره النية الحسنة ويزينه الظرف، ثم يعوزه الإيغال في التفكير الشامل، والكشف عن بواطن النفس، وتغليب التلميح الرقيق على التصريح الذي لا يدع شيئاً لمخيلة متخيل

وقد ألقى الممثلون شعر شوقي كما كنا نلقي الشعر العربي في المدارس: نقطّع أقسام البيت ونتمهل عند العروض ثم نضغط على الضرب، والذي يحرك ألسنتنا الوزن

الذي عليه جاءت القطعة أو القصيدة. وفي ذلك الأمر ما فيه من غرابة، فإن الشعر لعهدنا هذا في أوربة (وعنها نأخذ فن التمثيل) يلقي على المسرح كأنه نثر. وسبب ذلك أن القصيدة تقوم بمعانيها وألفاظها لا بتفاعيلها، والتفاعيل كأنها الدعامات والخشب في منزل، وأما المعاني والألفاظ فأثاثه والتزاويق والتصاوير وكل ما يأخذ الطرف. كل ذلك فضلاً عن أن تقطيع أقسام البيت، وفصمه مصراعين، والضغط على القافية الراجعة، يورث الملل ويصك الأذن. وخير من هذا إنشاد البيت على حسب انسياب المعنى في تضاعيفه، مع التمهل عند اللفتة أو النكتة أو اللفظ الموحى، ومع تسرق العروض والضرب، كأن القصيدة كلها بيت (مدور) على قول أهل العروض. ومما يذكر بعد هذا أن الممثلين لم يلحنوا إلا قليلاً، ولكن بين الذال والثاء وألسنتهم (ولا سيما ألسنتهن) مغاضبة شديدة

وكان التمثيل يجاري لون المسرحية نفسها، وهو اللون الابتداعي (على حد ترجمة الصديق صاحب (الرسالة) بل كان يذهب وراءه على الغالب: ضجة، ومبالغة في الإشارة، وإفراط في التعبير عن الشعور. ولم يمُسك عن هذا إلا ثلاثة: منسي فهمي، وحسين رياض، وعباس فارس، إذ طلبوا الاعتدال في الأداء لعلمهم أن الصدق فيما هو طبيعي

وأما إخراج المسرحية فلا أكتمك أن المنظر الأول صدم عيني، فهو منظر (عايدة) المسرحية الملحنة. ويعلم الله كم مرة مثلت هذه المسرحية في دار الأوبرا الملكية، فكيف غاب عن المخرج أن العين سئمت مناظرها، بل كيف غاب عنه أنها لم تكن لتنتظر واحداً منها في (مصرع كليوبترا) أول ما يرتفع الستار. وقد رجعت إلى نصَّ شوقي، فقرأت (المنظر الأول - في مكتبة قصر كليوبترا - أشخاص جلوس إلى أعمالهم). والغريب أن الناظر لم يلمح على المسرح كتاباً واحداً، وأما الأشخاص فكان بعضهم إلى بعض جالساً لمحادثة أو لائتمار. هذا وفي الإخراج مآخذ أخرى أقف عند واحد منها: كانت الإضاءة تجري على غير بصيرة في غالب الأمر واكثر الحال. فكانت شديدة جداً في مشاهد تتطلب بعض الظلمة، في مشهد مصرع كليوبترا مثلاً. حتى الفصل الثالث - وفيه ينشق الستار عن مشهدين متجاورين، أحدهما حجرة الكاهن في المعبد، والآخر جانب من خارج المعبد فيه شجرة باسقة - على حسن توزيع مشهديه، لم يستطيع أن يوحي إلى الناظر ما ابتغاه المؤلف والمخرج جميعاً. وعلة ذلك اضطراب الإضاءة، فقد كان نور أحد الجانبين يسطع قبل انطفاء نور الجانب الآخر أو بعده توًّا، فلم يتمكن الناظر أن ينتقل - في دخيلة نفسه - من مشهد إلى مشهد: إن للنظر إيحاء وإيهام قبل كل شيء

وهذا الحديث يدور على الإخراج في الفرقة القومية. فهل أخفى عليك أني دهشت - وقد دهش غيري - أن الأستاذ زكي مبارك طليمات المخرج القدير لم يُدعَ هذه السنة، بعد رحيل المخرج الفرنسي (فلاندر)، إلى الوقوف على شؤون الإخراج في الفرقة وهي التي نهضت به من حيث الإخراج أول ما نهضت. ثم كيف ينسى ناس أن (أهل الكهف) و (تاجر البندقية) خرجتا على يد زكي طليمات ألطف إخراج، وأن الأولى لولا حذقه ما تذوق الجمهور المصري ما فيها من فن رقيق؟

حتَّام تهمل الكفايات - وما أقلها! - في هذا البلد؟ أو أقل ماذا يصنع ناس بما جاء في خطاب رئيس الوزراء: (وكم شاهدنا القادرين من أهل الفن والمعرفة يقصون عن العمل فيما هم أهل له).

بشر فارس

حاشية: بدا للفرقة أن تدعو أحد المغنين إلى إنشاد قطعة من المسرحية فكان الغناء طنينا،

وقد أسعفته الموسيقى، كما أسعفت الرقص.

بيني وبين القراء

1 - اطلعت في العدد الأخير من الرسالة على كلمة لحضرة الأخ الكريم الأستاذ محمد عبد الواحد خلاف يذكر فيها أن الحديث الذي دار في منزل صاحب العزة الدكتور طه حسين بك لا حقيقة له وأن ذلك الاجتماع من نسج الخيال

وقد دهشت من كلمة الأستاذ خلاف، وبلغ مني العَجب كل مبلغ. ولولا الرعاية لحقوق الأخوةّ لقلت إن كلام الأستاذ يحتاج إلى تصحيح، وقدمتُ له الأدلة والأسانيد؛ ولكن

الأستاذ خلاف كما أعرفه ينفر من المجادلات والمصاولات، ويكره ما يصحب النقد أحياناً من صَخب وضجيج. ومن حقه علينا وهو أخٌ كريم أن نجنِّبه مواطن الشغب والصيال

وما نمنَّ عليه بهذا الترفق، فهو عندنا أهلٌ للتكريم والتبجيل، وسنصفي ما بيننا من حساب يوم نلتقي مرة ثانية في منزل الدكتور طه حسين

2 - قرأت (الحد الفاصل بين أدب الروح وأدب المعدة) لحضرة الأستاذ محمود على قراعة، وأنا أشكر لهذا الصديق المفضال ما تجشم من المتاعب في شرح الفروق بين النوازع الحسية والعواطف الروحية. ثم أعتب عليه: فقد آذاني أن يقرر أن زكي مبارك (يتحدى كل فكرة روحية، ويتهكم على كل نزعة سماوية) فمؤلفاتي ومقالاتي ومذاهبي في الحياة تشهد بغير ذلك. وهذا العناد الذي يعيبه عليّ بعض القراء هو من الشواهد على قوة الروح، ولو كانت المنافع المادية مما يدخل في حسابي لما استبحت الهجوم على فلان وفلان وفلان في سبيل الحق، ولهم قدرة على الضر والنفع، ولهم أصدقاء يقدَّمون ويؤخَّرون، ويحسب لهم طلاب المنافع ألف حساب

قد يكون للمظاهر دخلٌ في تلوين الصورة التي تراني عليها بعض العيون، فقد أكثرتُ من الكلام في الغراميات والوجدانيات، ولكن هذا الميل هو في جوهره من صميم الروحانية، وسأقضي حياتي في التغني بالصباحة والملاحة والجمال، تأدباً مع الله الذي جعل الوجود مواسم فتنة ومطالع أقمار ومشارق شموس. فإن كان هذا مما ينافي الوقار في نظر بعض الناس فهو عندي من أصدق الشواهد على الرزانة والعقل.

ويرحم الله من يقول:

شاع في العالمين أني أديبٌ ... جامح القلب فاتك النظراتِ

فاستباح الجهال شتمي وعدُّوا ... فتنتي بالجمال من هَنَواتِي

ظلموني فلم أكن غير روُحٍ ... صِيغَ من لوعة ومن زفراتِ

لو بعيني رأوا صدور الغوانِي ... سبَّحوا للجمال في الصلواتِ

ومن غرائب الدهر - وللدهر غرائب - أن أضطر إلى الدفاع عن نفسي وقد جعلت الهيام بالمعاني الروحية والذوقية شريعة من الشرائع، وملأت الدنيا بالحديث عن أزمات الأرواح والقلوب في الشرق والغرب، ولم تكن فتنتي بالأعاصير في صحراء النجف أقل من فتنتي بالأزاهير في حدائق روان

الأستاذ محمود قراعة رجل فاضل، والفضل يوجب عليه أن يعترف بأصل الخلاف بيني وبين الأستاذ أحمد أمين فيما يتصل بأدب المعدة وأدب الروح، فقد أنكرت عليه هذه التسمية فيما يختص بالقرآن، لأن القرآن يرى الشخصية الإنسانية مكونة من جسد وروح، وقد وعد المؤمنين بأن ستكون لهم في الجنة طيبات من النعيم المحسوس والفضل يوجب على الأستاذ قراعة أن يعترف بأني نقلته من حال إلى حال، فقد صرح بأن ما ورد في القرآن من اللذات الحسية ليس إلا رموزاً وإشارات، وأعلن أن بعض المبشرين تهكم حين سمع أننا نقول بأن المؤمنين ستكون لهم في الجنة أطايب من لذات الحواس!

وقد بينت في الكلمات الماضية أن هذه النزعة لم تصل إلى بعض المسلمين إلا عن طريق النصرانية، وقد اقتنع الأستاذ قراعة بهذا الرأي بعد أن تعرض لمناوشات صوبها إليه باحث من مصر وباحث من فلسطين

أما ثناء الأستاذ محمود قراعة على الأستاذ أحمد أمين فهو مقبول، ذكره الله بكل صالحة، وأعانه على فهم القيمة الصحيحة للأدب العربي، وجعله بالفعل لا بالقول من أنصار الروح!

اسمعوا كلمة الحق، أيها الناس

إن الأستاذ أحمد أمين قال في لغة العرب كلاماً لو قيل مثله في لغة الزنوج لعد من المفتريات، فكيف يكون تصحيح أغلاطه ضرباً من العدوان على الآمنين؟

3 - أما الأستاذ محمد علي عكاوي فسنرد عليه في العدد المقبل. وأما الفتنة التي ثارت بين الدكتور فارس والدكتور أدهم وأشير فيها إلى أسمي عدة مرات فقد أكتب عنها كلمة بعد أسابيع

زكي مبارك

الأدب التحليلي والتركيبي

حضرة الأستاذ الفاضل محرر مجلة الرسالة:

تحية وسلاماً، وبعد فقد بدت لي بعض الملاحظات وأنا أقرأ ما كتبه الدكتور زكي مبارك أخيراً في الرد على الأستاذ أحمد أمين أجملها فيما يلي:

1 - يقول الدكتور زكي مبارك: (إن الطريقة التحليلية عرفها شعراء العرب منذ اقدم العصور. وعليه (يريد أحمد أمين) أن يرجع إلى معلقة طرفة ومعلقة لبيَّد وعينية أبن سويد. . .) والرأي عندي أن زكي مبارك أخطأ فهم المقصود من اصطلاح الأدب التحليلي، وإلا لما أجاز لنفسه هذا القول. فمعلقة طرفة ومعلقة لبيد، ليستا من الأدب التحليلي في شيء. لأن التحليل - كما نعرفه ويعرفه كل الباحثين في تاريخ الآداب - هو رد الأشياء إلى أصولها الأولى، وبيان تقومها بهذه الأصول ووجه هذا التقوم. ومعلقتا طرفة ولبيد ليستا من ذلك في شيء، وإنما الصفة الغالبة عليهما، صفة الوصف التشريحي. فطرفة مثلاً يصف لك الجمال في معلقته بدقة تشريحية، ولكن هذا الوصف التشريحي وإن لخص لك التفاصيل في دقة متناهية، فهو بعيد بعد ذلك كل البعد عن أن يظهر لك الجمل في حياته الداخلية. ذلك أن هذا الوصف التشريحي ينقصه التجرد عن الذاتية من جهة ثم إدخال عنصر الخيال فيها من جهة أخرى. ومن هنا جاء القصور عن أن يطرق الشاعر الناحية التحليلية في وصف الجمل. كذلك يمكننا أن نقرر هذا الكلام في شيء قليل من التعديل ليناسب المقام حين نعرض لمعلقة لبيد أو عينية ابن سويد، أو غيرهما ممن ذكرهم زكي مبارك كنماذج للأدب العربي الذي جرى على النهج التحليلي

2 - وضرب الدكتور زكي مبارك مثلاً لقوله بتغلب النزعة التحليلية على أكثر الشعر العربي فقال: إن قصيدة سعيد ابن حميد في النهي عن العقاب فيها تحليل واستقصاء، ثم تعليل وانتقال من العموم إلى الخصوص مما يثبت عنده ملكة التحليل للشاعر. والذي عندي أن الدكتور زكي أخطأ فهم القصيدة ونوعها وخصائصها. فالقصيدة ليس فيها تحليل، وإنما

كل ما فيها وصف ساذج لحالات تتقوم بفكرة النهي عن العقاب. كذلك قصيدة الطغرائي في الحمامة الباكية، يمكن أن نقول فيها إنها وصفية ساذجة بعيدة عن التحليل. أما قصيدة الشريف الرضي فما بدا فيها من تسلسل الفكرة والترابط بين الموضوعات التي تنتقل فيها القصيدة، فهي نتيجة لكون طبيعة الناثر متغلبة على الشريف الرضي، وليس من ذلك طبيعة التحليل في شيء

3 - يتصور الدكتور زكي مبارك أن النزعة التحليلية في الأدب تقوم على أساس الاهتمام بتصوير المعاني وإشعار السامع والقارئ بأن هنالك محاورة للعواطف والقلوب والعقول. وهذا خطأ، لأن القدرة على الوصف وإجراء الحوار شيء، والقدرة على التحليل شيء آخر، فقد يكون شاعر من الشعراء وصافا، ولكن ذلك لا يعني أنه صاحب تحليل يمكنه من ردَّ الأشياء إلى أصولها الأولى. وإليك مثلاً لذلك قول تميم بن جميل في وصفه حاله الشعورية وهو يرى منظر الموت أمام المعتصم. فهذه القصيدة - وقد ذكرها زكي مبارك - وصفية، وهي بعد ذلك ليست قائمة على عنصر التحليل للحالات الشعورية التي كانت تنتابه في ذلك الموقف والخلجات التي كان يحسها، ومنظر الموت أمامه

والذي عندي أن السبب في خطأ الدكتور زكي يرجع إلى أنه ظن الوصف من التحليل، وسبب هذا الظن الخاطئ أنه قرأ لإسماعيل مظهر والمازني والعقاد أن ابن الرومي متفوق في الوصف، ثم قرأ لهم أنه صاحب طريقة التحليل في الأدب العربي فاختلط في ذهنه هذا بذاك وكان منه الظن بأن الوصف من التحليل

هذه ملاحظات وجدت من المفيد أن أعقب بها على ما كتبه الدكتور زكي مبارك في هذا الموضوع. وليس بي غير الرغبة في تبيان رأي قديم لي في هذا الموضوع والسلام.

(الإسكندرية)

إسماعيل أحمد أدهم

حول أبن تيمية وابن بطوطة

اطلعت في الرسالة الغراء على كلمة للأستاذ محمد محسن البرازي يأخذ فيها على

الشيخ الخالدي ما نقلته عنه من أن ابن بطوطة لم يدرك ابن تيمية، وكان الشيخ قد ذكر هذا ينفي
ما حدثته به من قول ابن بطوطة إنه رأى ابن تيمية على منبر الجامع بدمشق يقول:
إن الله تعالى ينزل إلى سماء الدنيا كنزولي هذا، ونزل درجة من درج المنبر
فأما إدراك ابن بطوطة لابن تيمية فلا شك فيه كما قال الأستاذ البرازي. وقد وقع السهو في وضع كلمة يدرك مكان كلمة يلقى. والكاتب الفاضل يوافق الشيخ الخالدي في هذا
وأنا مع إجلالي للأستاذين لا أجد ما يحملني على تكذيب ابن بطوطة في أمر يدعى أنه رآه وسمعه
عبد الوهاب عزام
رواية (عثمان في الهند) - إلى ناقد الرسالة
سمعنا مساء السبت الماضي (21101939) عن طريق
الإذاعة اللاسلكية من مسرح (ديانا) بالإسكندرية، رواية
تأليف الأديب محمد شكري، وتمثيل الممثل (عثمان في الهند)
الهزلي علي الكسار؛ ويسوءني أن أقول: إن هذه الرواية
ساقطة؛ وهي أتفه من أن تشاهد أو تذاع أو تسمع!
ولعلك يا أخي سمعتها أو شاهدتها فرأيت كيف بدت هزيلة في فكرتها وفي موضوعها وأسلوبها وأغانيها وفي مغزاها، ولولا وجود بضعة (قفشات تخللت القصة لرجحت أن يطالب مشاهدو الرواية بما دفعوا من قروش، إذ لم يشهدوا رواية تذكر، وإنما شهدوا تهريجاً مرذولاً، كالذي يقوم به (الحواة والنور) في الأحياء الفقيرة من العاصمة والأقاليم لقاء مليم أو مليمين
لقد جلسنا إلى المذياع وابتدأت الرواية، وذهبنا نفتش عن فكرة تدور عليها، أو مغزى ترمي إليه، فتتابعت الفصول والمناظر، وأعلن المذيع انتهاء الرواية، فدهشنا كما دهش المشاهدون بالمسرح، فلم نسمع منهم هتافاً ولا تحية، ولو على سبيل المجاملة!
لم تخرج الرواية عن جملة من الأغاني العادية ومعها جملة من (النكات والقفشات). وليت
الأغاني كانت جديدة، أو جميلة، أو قوية؛ ولكنها كانت ثقيلة، مملولة، معادة وإن ظهرت في ألفاظ جديدة وشكل جديد؛ واللحن المكرر يسأم وإن عرض من آخره معكوساً بدل عرضه من أوله. . .!!
قد يقول قائل: إن الفرقة هزلية، والرواية (كوميدية) مضحكة، وعلى ذلك فلا يشترط أن تتضمن الرواية فكرة أو ترمي إلى مغزى؛ وقائل هذا مخطئ بعيد عن روح المسرح جاهل لرسالته. فسواء كانت الرواية محزنة أو مضحكة، وسواء كانت من (الدرام) أو (الكوميدية)، فإنها تستطيع - بل يجب - أن توضح ما يشاء المؤلف من أفكار، وتعرض ما يشاء من مبادئ، وتظهر ما يشاء من غرض
وقد تستطيع الرواية الهزلية بنكاتها اللاذعة و (قفشاتها) المحكمة، أن تؤثر في أفكارنا وفي عواطفنا وفي نفوسنا، أكثر مما تؤثر الرواية المحزنة؛ فإن النفوس أميل إلى الضحك، وأولع بالهزل، ومن هذه السبيل نستطيع أن ندخل إلى النفوس ما نشاء من آراء ومبادئ. وقد يستطيع الممثل الهزلي بسخريته واستهزائه وتهكمه، أن يقف منا موقف الحكيم الفيلسوف، فيهدي الضال ويرشد الحائر، ويقوي الفضيلة، ويحد من الطغيان!
لقد كانت رواية (عثمان في الهند) التي نحن بسبيل نقدها، تتحدث عن أن المعروف إذا فعله المرء وألقى به إلى البحر فإنه لا يضيع، ولكن هل يستطيع حقاً - أو يستطيع من سمع أو شاهد الرواية - أن أقول إنني آمنت - بتأثير الرواية - بهذا المبدأ؟ هل استطاعت الرواية حقاً أن تظهر هذا المبدأ الأخلاقي كأنه قضية مسلمة مقبولة؟
الجواب: كلا!. . .
إن أكبر اللوم - كما أعتقد - يقع على مؤلف الرواية، لأن الممثل يترسم خطاه، ويتمسك بأسلوبه وطريقته، ولو أن المؤلف أجاد التأليف لاستطاع أن يجيد الممثل التمثيل فنشهد الرواية الكاملة
يا حسرة على المسرح المصري. . . لقد ظهر عدوه اللدود (السينما) وبدأ يغزوه في

كل مكان وكل ميدان، وكنا نتوقع من المسرح أن يشمر عن ساعده، ويحمل سلاحه لمناضلة هذا العدو الجديد، لكي يثبت أنه جدير بالبقاء والحياة. ولكنه - مع الأسف - رضي من الغنيمة بالإياب، واستطاب الركود والخمول. وما دليلي على ذلك إلا إقامة أهله على تمثيل
الروايات القديمة المكررة التي أكل عليها الدهر وشرب فإذا ما اقدموا على التجديد والتأليف جاءونا بالغث البارد الذي لا يشبع روحاً ولا يرضى فناً، ولا ينال قطرة من إعجاب أو تقدير!

أحمد جمعه الشرباصي

رسالة النقد

لا بد مما ليس منه بد

حول كتاب

بقلم الدكتور بشر فارس

قال لي ناس - وأهل الفطنة كثير -: رأيناك تشهر القلم في وجه بعضهم إرادة الذود عن حمى العِلم، إذ قلتَ (الرسالة 314): (إن العلم في مصر أمسى شيئاً مقدساً له سَدَنته وله حراسه، فكيف يأخذنا القول بالظن والكلام المتحدي والجدال المتحكم والتظاهر بالتثبت والدراية). ونصحتَ لمن عنَّ له التطاول أن يطيل الروّية، وبصرتَه عواقب أمره (إذا هو أقبل على الاشتغال بالعلم أو على نقد من توفر عليه، لأن النقد لا ثمرة فيه إذا حاد عن خدمة العلم وحده). وهذا الناقد ينقضه كلامك فيكتب مقالاً وثانياً وثالثاً، وأنت معرض عنه وقد قلتَ كلمتَك فسارت. فاعلم أن في عنقك أن تكشف عما يجب الكشف عنه مادام المتستر ينتفض فتنزلق المناظرة على يديه إلى مماحكة.

قال لي ناس. . . فقلت: شهرت القلم من قبل للسبب الذي تعرفونه، فلما رأيت الرجل يلوّى قلمه ويكابر، قلت في نفسي: هذا الوادي لا أنزل فيه ولا قَبل لقلمي بالوثب في منحرفاته. إن إسماعيل أدهم تخرّج في جامعة موسكو سنة 1933 على قول مجلة الحديث (حلب 1938)، وأنا في غير هذه الجامعة تخرجت؛ وقد لقّنني من أدبني أن ألتزم طريق الحق كيفما دار وحيثما انقطع ولا أدري كيف يكون التلقين في جامعة موسكو. قلتم إن المناظرة انزلقت على يد الخصم إلى مماحكة، فحسبي اليوم أن أدوّن ما يؤيد قولكم

قلت كلمتي في (الرسالة) بعد نقد أدهم الأول لكتاب (مباحث عربية). فردَّ أدهم في الأعداد 317، و 326، و 328. وكنت أنا وغيري نرقب كيف يحاول أدهم التنصّل مما ألصقته به، فأخفقت الرقابة.

كنت قد كتبت إن أدهم (يختلق القول). إذ يقول: (يعتبر الباحث (يعنيني) كلمة البصيرة مقابلاً (يريد: ناظرة إلى) في ص 57 من مباحث عربية). وزدت أنه من الغريب أني لم أثبت كلمة إزاء كلمة البصيرة في الصفحة المذكورة وقد أطلعت صاحب (الرسالة) ورئيس تحرير المقتطف على ذلك، فمن أين جاء أدهم بالكلمة الفرنسية، وكيف جعلني (أعتبر) ما يجهل أنا (معتبره)؟

ثم كنت كتبت أن أدهم (يرتجل المصادر) ودليلي أنه استشهد بالإصحاح الرابع عشر من (سفر دانيال) من العهد القديم للكتاب المقدسّ، على حين أن (سفر دانيال) كله أثنا عشر إصحاحاً فقط. فبينت كيف اقتبس أدهم ذلك المرجع الوهمي من كتاب (ملتقى اللغتين) لمراد فرج، وكيف سقط هذا المرجع هناك من باب الغلط المطبعي - إذ الصواب الإصحاح الرابع - فسطا عليه أدهم من غير تحقيق ولا رؤية. ثم إني أتيت بدليل آخر مجمله أن أدهم استشهد، عند الكلام على أنساب العرب، بالجزء الثالث من (الفهرست) لابن النديم وعين الصفحة 187 فبعد أن نفيت احتمال غلط الطبع بينت أن (الفهرست) لم يخرج إلا في جزء واحد، وأن الصفحة التي عينها الرجل لا أثر فيها لما استشهد به. وكان أدهم قد أسند نص الاستشهاد إلى أبن حزم، فسألته من ابن حزم هذا وما كتابه، ولابن حزم المشهور ستة وثلاثون مؤلفاً؟ فاستخلصت من هذا كله أن أدهم اقتبس المرجع إلى (الفهرست) من كتاب من الكتب الحديثة من غير أن يراجع المظنة، دأبه مع (سفر دانيال). هذا وأخبرني من هو أرسخ مني في العلم قدماً بأن ما استشهد به أدهم إنما هو وارد في الجزء الثالث من كتاب (بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب) للألوسي. فانظر كيف يكون الاضطراب في تناول المراجع.

كتبت ذلك فأحجم أدهم عن الدفاع، أو قل أبي التسليم: أحَياء أم مكابرة؟
أما نقد أدهم الثاني فمما لاُ يلتفت إليه؛ فيه عناد ومغالطة وتحدٍّ وعود إلى اختلاق القول وتهويل ونقد عن هوىً. والله يعلم أنيً لست ممن يعتبط الكلام ويرسل التهمة؛ فرجائي من القارئ أن يلمس بعض الأدلة:
- أما العناد ففي إصرار أدهم على أن المسلمين الذين اهتديتُ إليهم في فنلندة سنة 1934 لم يرحلوا إليها عقب الثورة البلشفية في روسية، على حسب ما أثبتُّ نقلاً عن هؤلاء المسلمين أنفسهم واستناداً إلى بيان موظفي الحكومة الفنلندية. وإن أدهم يحملنا على أن نظن أن أولئك المسلمين من سلالة طائفة من الترك هبطوا فنلندة في (القرن السادس عشر للميلاد)، وحجته هنا أن مدينة (توركو) الفنلندية تشتق اسمها من هؤلاء الترك. فرددت
على هذا قلت: إن مدينة (توركو) تصعد إلى المائة الرابعة عشرة، واستشهدت فيما استشهدت به بدائرة المعارف البريطانية. ولكن أدهم لم يدفع شهادة دائرة المعارف البريطانية - ولعل هذا السفر مما لا يعول في جامعة موسكو - بل عاد إلى تشكيكه في تاريخ هجرة أولئك المسلمين، وقام يستند إلى كتب ألفها علماء من روسية ليبرهن على أن جماعة من الترك رحلوا إلى فنلندة قبل الثورة البلشفية، وأن أمرهم مشهور.
- وحسبي اليوم أن أنقل هنا رسالة بعث بها إلي رأس المستشرقين في روسية، وهو الأستاذ كراتشكوفسكي أستاذ العربية وآدابها في جامعة لننجراد (وهي غير جامعة موسكو، كما يعرف أدهم نفسه) ومن أعضاء الأكاديمية الروسية فيها، (وقد اطلع صاحب مجلة (الرسالة) ورئيس تحرير المقتطف على تلك الرسالة) ونصَّها:
(سيدي الأستاذ الفاضل، سلاماً واحتراماً وشكراً على ما أنعمتم علي به من رسالتكم اللطيفة عن أحوال المسلمين في فنلندا، وقد قرأتها بكل إمعان ولذة في مجلة الدراسات الإسلامية، ولكم الفضل في لفت أنظار العلماء إلى هذه الزاوية من العالم الإسلامي الحاضر. هـ ا)
وعلى هذا فقد شهد شاهد من أهله، وأي شاهد!
وهل ثمة حاجة بعد ذلك إلى أن أخبرك بأن (مجلة الدراسات الإسلامية) التي يخرجها المستشرق ماسينون في باريس نشرت حديثي عن أولئك المسلمين على أنه (اكتشاف)، نشرته بالفرنسية سنة 1934 قبل أن أنقله إلى لغتنا في (مباحث عربية)؟
أو إلى أن أخبرك بأن المستشرق حِبّ من أساتذة جامعة اكسفرد بعث إلي برسالة (اطلع عليها صاحب مجلة الرسالة ورئيس تحرير المقتطف) يقول فيها إنه لم يك يعلم شيئاً عن أولئك المسلمين؟
- وأما مغالطة أدهم، فقد بينتها من قبل عند الكلام على ارتجاله لعنوان كتاب جعل اسمه أول الأمر (مجموعة محاضرات دركايم عن علم الاجتماع في السوربون)، حتى إذا ضيقت عليه المسالك قال: (الرسالة 317 وردّى 320) إن هذا الكتاب يحمل أسم (قواعد منهج علم الاجتماع) تحت عنوان شامل هو (أعمال السنة الاجتماعية) (وهي مجلة دورية)، وقد حاول عبثاً أن يقحم كلمة (مجموعة) في هذين العنوانين. ثم إنه اعترف بعد ذلك أنه كان قد استند إلى ترجمة الكتاب بالإنجليزية. فكيف يناقشني - أول ما يناقشني - في الأصل الفرنسي ويعين صفحات منه؟
- وأما تحدي أدهم في القول فيدخل تحته ما بدا له أن يكتب في جانب اللغة. ووالله ما أدرى ما الذي استدرج الرجل إلى اقتحام النقد اللغوي، وهو لا يزال يأخذ لغتنا عنا كما يقول (الرسالة 313 ص 331)، وهو يريد الاعتذار من اقتباس تعبيرات لي: (إنني حين أكتب بالعربية فأنا أكتب بلغة غير لغتي الأصلية، ومن هنا بعض ما يجئ على قلمي من التعابير الخاصة لكتاب اليوم استداركاً للمعنى الذي في ذهني). هذا ولا شك عندي أن القارئ لمس ارتباك أسلوب أدهم وركاكة عبارته واختلال مواقع ألفاظه، وكثيراً ما قوّمت تعبيره، وأنا أناظره حتى يفهمه القارئ. وهيهات أن أجادل أدهم فيما جاء به في نقده الثاني دفاعاً عن آرائه اللغوية الأولى. فقد نصحت له من قبل أن يقرأ النوع السابع والعشرين من (المزهر) للسيوطي حتى يتبين معنى (المترادف)، ونصحت له فوق ذلك أن يراجع دواوين اللغة والمؤلفات الفلسفية في العربية والفرنسية جميعاً لعله يعلم أن (الأخلاقيات): بمعنى شيء و (السلوك) شيء آخر. ماذا أصنع وأنا لا أملك إلا النصيحة؟

وحسبي اليوم أن أبرز للقارئ جانبين من نقد أدهم الثاني في باب اللغة، قال أدهم (الرسالة 326 ص 1924) - وهو على كل قول قدير - (وليس جعلنا (يعني نفسه) لفظة المتشابهة ناظرة إلى أفرنجياً بدليل (أضف: على) قصور في العلم باللغة. لأن المتشابهة والمتباينة (كذا والله!) من الألفاظ التي تنظر إلى أهـ. هذا وأنت تعلم أن لفظة تفيد مفاد كلمة (المترادف) عندنا. فالله كيف تكون الألفاظ المتشابهة والمتباينة ناظرة معاً إلى المترادفة، وبين المتشابه والمتباين ما بين الأبيض والأسود؟ - ثم قال أدهم (الرسالة 326 ص 1996): (أما عن مجيء هذه الروايات (الخاصة بالمروءة) من الجاهلية أو عدم مجيئها، فلا يؤثر على (يريد: في) القضية في شيء، لأن جلّها أتى من صدر الإسلام، والعربية لم تتغاير (يريد: تتغّير؛ قد والله سئمت تهذيب أسلوب الرجل!) فلا معنى للاحتجاج بأنها ليست (يعني الروايات) من الجاهلية، وإذن يبقى معنا لفظة المروءة نازعة منزع السيادة في الجاهلية وصدر الإسلام، بعكس ما حاول أن يوهم القارئ بطرق ملتوية الدكتور بشر في مباحثه العربية) أهـ. فهل للأستاذ الدكتور أدهم أن يراجع في (الصاحبي) لابن فارس باباً لطيفاً قريب المنال عنوانه (الأسباب الإسلامية) ليتبين له أن العربية اتفق لها أن (تتغاير) كما يقول، بانتقال أهلها من الجاهلية إلى الإسلام إذ (حالت أحوال، وأبطلت أمور،
ونقلت من اللغة ألفاظ من مواضع إلى مواضع آخر. فعفى الآخر الأول). ليراجع الأستاذ الدكتور أدهم ذلك الباب، فبه إليه حاجة، وليطمئن إلى أن ابن فارس لا (يوهم القارئ بطرق ملتوية) مثل بشر فارس

وأما عود أدهم إلى اختلاق القول فقصته أن الرجل قال (الرسالة 328 ص 1995) - إني ألفتُ رسالة بالفرنسية عنوانها (العرض عند عرب الجاهلية وموضوعها أن أخلاق عرب الجاهلية تندرج تحت معنى العرض، ثم زاد) (ولما كان المستشرق جولدتسيهر قد كتب فصلاً كاملاً عن المروءة ذهب فيه إلى أن المروءة كانت تنزل منزلة الفضيلة عند عرب الجاهلية. فقد أضطر الدكتور بشر أن يعود عام (يريد: سنة) 1937 ليناقش رأي جولدتسيهر فكتب مادة مروءة في تكملة دائرة المعارف الإسلامية ثم توسع بالمادة فكان منها موضوع مبحث المروءة من كتاب مباحث عربية) , أهـ

والرد على هذا أن كتابي (العرض عند غرب الجاهلية) مطبوع ومتداول، وهو موجود في مصر، في دار الكتب مثلاً وعند نفر من علمائنا وكتابنا. فمن ذا الذي يقول إني لم أناقش في هذا الكتاب - هو الرسالة التي نلت بها شهادة الدكتوراه من السوربون - رأى جولدتسيهر ومن تلا تِلوه من المستشرقين؟ إني لم أتحول في مبحثي الذي نشرته لي دائرة المعارف الإسلامية الخارجة في هولندة ولا في مبحثي المدرج في مباحث عربية عما جاء في كتاب العرض عند عرب الجاهلية. إن ما ذهبت إليه هنا هو ما ذهبت إليه هنالك مع زيادة في سياقة النصوص وإفاضة في عرضها؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله! وحسبك موازنة ما جاء في كتابي الفرنسي (ص30 - 32) بما جاء في مباحث عربية (ص 72 - 74) وقد اطلع على ذلك صاحب مجلة الرسالة ورئيس تحرير المقتطف

وأما تهويل أدهم فيدل عليه ما تقدم بك من ارتجاله للمصادر، وإن قال من قبل - متواضعاً (الرسالة 311 ص 1225): (أظن أن الدكتور بشر فارس لا ينكر علينا أننا أكثر الكاتبين في العربية استقصاء للمصادر). ثم دعني أخبرك بأن أدهم سلط قلمه ثانية على مبحثي في المروءة فاستغرق نقد ثلاث صفحات من الرسالة (328). ولما رأيت ذلك قلت في نفسي: لعل الناقد يدفع ما ذهبت إليه بتضعيف النصوص التي استخرجتها وهي تزيد على ثلاثمائة سواء تصريحاً أو تلميحاً، أو لعله يسقط مبحثي بالطعن في المراجع التي عولت عليها

وهي تقارب المائة. ذلك ما يرقبه الناس من الناقد الثبت فيما أعلم. فماذا أصبت في تلك الصفحات الثلاث؟ جاءني أدهم - حياتك - بنصوص دون غيرها، فحرفها عن مواضعها، وقدم من سياقها وأخر، وحملها ما لا تحمل ثم استخلص من ذلك التشويش أني أبعد ما يكون عن البحث اللغوي البسيط. بالله ثم بالله لِمَ لمْ يأت بنص من عنده، ولو بنص واحد؟

وأظرف من هذا أنه أثبت مظان النصوص في نقده ناقلاً إياها من المراجع المثبتة في هوامش كتابي. ألا من يقول لي ما الذي يدعوه إلى أن يدوَّن مثلاً: (كتاب الأردبيلي

مخطوط في آيا صوفيا رقم 2049 وهو مخطوط في التصوف كما وصف ذلك الأستاذ تيشنر في مبحثه المعنون باسم (هنا العنوان الألماني)، والمنشور بمجلة التي تصدر عن همبرج مجلد 24 ص58)، ما يدعوه إلى مثل هذا التعالم، وكل ما دوَّنه مثبت في مباحث عربية) (ص 59 المتن والحاشية)؟ وعلى هذا ما دوَّنه بشأن كتاب جولدتسيهر، وكتاب العرض عند العرب الجاهلية (راجع (مباحث. . .) ص 72، 74). وخير للأستاذ أدهم أن يعدل عن التعالم بعد اليوم، فلربما حفر حفرة وقع فيها. من ذلك الحفرة التي حفرها، وهو يسطو (على ملتقى اللغتين) لمراد فرج، ومن ذلك أيضاً قوله (الرسالة 328 ص 1995): (المعنى الحقيقي وياليته قنع بالسطو على التركيب العربي وحده، (وهو في (مباحث عربية) ص 60)! إلا أن وسوسة التهويل غوته فزاد كلمة فرنسية في صيغتها المؤنثة. فلم يؤنثها في نقده وهي واردة فيه من غير موصوفها؟ القصة أن أدهم نسى الموصوف في طيات (مباحث عربية) وهو (أي التعريف) فجاءت الصفة مبتورة، ولم يفطن أدهم إلى وجوب تذكيرها حتى ترد صيغة الإطلاق. ولو كان أسند كل هذا إلي لكان خرج من ظِنَّة السطو. . إلا إنها الوسوسات، لطف الله بنا!

وأما نقد أدهم عن هوىً مبيَّت في النفس فواضح في عناده عند الكلام على مسلمي - فنلندة. وكان قد اجتاب النقد اجتلاباً من قبل ثم عاد فذهب في اللجاج، على ما قدمت، لأنه - هو المتخرج في موسكو بعد سنة 1918 - يريد أن يجعلنا نرتاب في أن نفراً من الناس بل من المسلمين يخطر لهم أن يفرَّوا من الثورة البلشفية (أو (الثورة الاشتراكية الكبرى) كما يسميها هو: الرسالة 311 ص 1230).

وأوضح من هذا أن أدهم خرج من نقده الثاني بهذه النتيجة:

ظهرت عقلية الدكتور بشر الشكلية بأجلى مظاهرها وتبين لنا كيف أن هذه الشكلية) مساقة إلى أخطاء في البحث لا يقع فيها من له دراية بسيطة بالبحث اللغوي المستقيم (يعني نفسه طبعاً). والواقع أن بحث الدكتور بشر في المروءة ضعيف لا (يثبت على نقد ولا يمكن أن يواجه مراجعة علمية صحيحة

وهنا لا أحب أن أذكر أدهم بأن مبحث المروءة نشر من قبل بالفرنسية والإنجليزية والألمانية في دائرة المعارف الإسلامية الخارجة في هولندة ولم يظفر بمثل هذا الحكم. ثم لا أحب أن استشهد بآراء من كتب عندنا في (مباحث عربية) مثل العلامة الأب الكرملي، والأديب المترسل الأستاذ المازني، ومدرسَين من الجامعة المصرية وغيرهم. فلربما قال أدهم (وهو على كل قول قدير): إن هؤلاء وأشباههم لا (دراية لهم بالبحث اللغوي المستقيم). ثم لا أحب أن أطلعه على ما قاله المستشرق بروكلمن في الجزء الثالث من تكملة تاريخ الآداب العربية؛ فلربما قال: إن بروكلمن لا يستطيع (مراجعة علمية صحيحة). بل ليأذن لي الأستاذ الدكتور أدهم أن أدوَّن اليوم حرفاً لحرف ما قاله في نقد الأول لكتابي:

وفي هذا المبحث (مبحث المروءة) يبرز الباحث (يعنيني (مع الأسف) رجلاً مدققاً) عرض للموضوع في إحاطة عجيبة) (الرسالة 312 ص 1274).

ثم هذه خاتمة نقد الأول: (هذا هو كتاب مباحث عربية. وهو كتاب فريد في موضوعه وفي نهج بحثه وفي منحى تحقيقه، يدل على أن صاحبه صاحب ذهنية علمية متزنة، يتصدى للموضوعات على أساس من التقصي للأصول والفروع مع دراية تامة بأساليب البحث (غريب، غريب!) والمآخذ التي أخذناها على أهميتها لا تنال من قيمة البحوث ولا من الجهد العلمي المبذول فيه. والواقع أن الدكتور بشر فارس شق الطريق للبحث العلمي الجدي (العفو!) ولو لم يكن له غير هذا الجهد لكفى ذلك التقدير. إسماعيل أحمد أدهم) (الرسالة 312 ص 1275)

إن السر في هذه الردَّة أنى أدهم كتب نقده الثاني وهو ناقم حانق، لأن بينت في المقتطف (أغسطس) والرسالة (314) كيف يجتلب النقد اجتلاباً ويرتجل المصادر ويتحدى في القول ويتعالم فينزلق إلى الاعتساف والغمر. ولم أجد بداً حينئذ من تبيين كل هذا - على ما قال

أدهم في خاتمة نقده - حتى تستقيم موازين النقد عندنا وينزجر الهاجم على العلم من غير بابه. فلما عجز الأستاذ الدكتور أدهم عن دفع البينة فزع إلى المماحكة والمهاترة، قطع الله الحزازات التي تأكل النفس!

وإن قال أدهم (وهو على كل قول قدير): إن له أن ينكر رأياً دوَّنه فيستبدل به ضده،

بعد مضيَّ أربعة أشهر (والحر في مصر شديد، ييبس كل شيء)، قلتُ ما دمتَ تناظر في العلم كأنك تداور في السياسة على الطريقة الحديثة، فخذ شهادة أخرى ممن يُجَلُّ به من (أهلك)، وهي رسالة بالعربية بعث بها إلى الأستاذ كراتشكوفسكي، وقد اطلع عليها صاحب مجلة الرسالة ورئيس تحرير المقتطف: (سيدي العزيز الفاضل. سلاماً واحتراماً وشكراً لكم على إرسال كتابكم الجديد (مباحث عربية) وقد قرأته في هذه الأيام أيام العطلة المدرسية، وانتفعت منه كثيراً. لا يخفى عليكم أن في قراءته بعض صعوبة على من لم يتعود طريقاً علمياً صرفاً في البحث والاستقرار ومع ذلك في الكتاب درس مهم وخطوة جديدة في سبيل ترقية العلم العربي الحديث، عسى أن ينتفع بها أبناء العربية في كل أقطارها. حتى بدعة الرموز، الرموز الاختزالية رأيتها في مكانها وهي بدعة مستحسنة، ولا يتعسر إدراكها واستعمالها على كل من يتمرن فيها دقيقتين. وفي الإجمال قد خدمتم العلم والآداب بهذا الكتاب الجديد خدمة تذكر وتشكر ودمتم على مساعيكم الحميدة والنجاح حليفكم وذوو العقول السليمة في الشرق والغرب أصدقاؤكم. أغناطيوس، كراتشكوفسكي، الروسي) أ. هـ - ألا حسبي صداقة (العقول السليمة)!

وبعد فهذه كلمة ثانية، أرسلها مكرهاً، ولكنها رعاية العلم الحق وإقامة النقد الصحيح ولن أعود إلى مثلها مع إسماعيل أحمد أدهم، فإن قلمي لمشغول عن مماحكته بما هو أجل شأناً وأعم نفعاً

ب. ف.

العدد 331 - بتاريخ: 06 - 11 - 1939

وزارة الشؤون الاجتماعية

الفقر. . .

- 2 -

الفقر هو العنوان الثاني في الدستور الإصلاحي لوزارة الشؤون الاجتماعية كما نقترح أن يكون. وإذا قلت الفقر فقد عنيت بهذه الحروف الثلاثة كل ما يقع في ذهن المرء وخياله وحسه من معاني البؤس والألم والأسى والجريمة والرذيلة والذلة والمسكنة والعداوة والانتقام والثورة. وأي مجتمع يتسنى له أن يلتئم أو ينتظم أو يسعد ما دامت هذه الآفات تلح عليه بالاعتلال والانحلال والوهن؟ وأنت إذا تقصيت بالنظر المتأمل أحوال الناس وأهوال الدنيا وجدت تنازع القوت هو المشكلة الأزلية للحياة، والفقر هو النكبة الأبدية على النظام، والجوع هو السبب القريب أو البعيد لكل ثورة في تاريخ الأمم وكل جريمة في حياة الأفراد. فهل في حدود الجائز إذن أن نطلب إلى وزارة الشؤون الاجتماعية أن تبيد الفقر وتقتل الجوع كما طلبنا إليها أن تمحو الأمية وتنسخ الجهالة؟ لا وا أسفاه! لأن شمول العلم أمر تقتضيه الفطرة وتجيزه القدرة، ولكن شمول الغني شيء تأباه الطبيعة ويمنعه العجز. وما دام الناس مختلفين في الذكاء والقوة، فلا بد أن يختلفوا كذلك في النفوذ والثروة. والتفاوت في الطبع والكفاية والحيلة والوسيلة مبدأ مقرر في الطبيعة ونظام مسلم في الدين. إنما نطلب إلى وزارتنا المصلحة أن تخفف من نوائب الفاقة وتكفكف من غوائل الجوع بتقريب المسافة بين الغني والفقر، وتنظيم العلاقة بين القوة والضعف، فإنها إن نجحت في تحقيق هذه الأملين فقد نجحت في إقرار السلام في النفوس وإحكام النظام في المجتمع

ولكن كيف تستطيع وزارة الشؤون الاجتماعية أن تخفف آلام هذه العاهة المستديمة ما دامت لا تستطيع أن تحسم أسبابها بالطّبّاب الناجع؟ تستطيع ذلك من طريق الدين ومن طريق التشريع ومن طريق الإدارة. فأما ما تستطيعه من طريق الدين فجباية الزكاة وتنظيم الإحسان. وجباية الزكاة فريضة على الحكومة المسلمة، كما أن أداءها فريضة على الشعب المسلم. فلا يجوز للوزارة أن تكل أمرها لحرية الضمير وإرادة النفس، فإن طمع الناس في عاجل ثواب الدنيا أقوى من طمعهم في آجل ثواب الدين. ومن أجل أداء الزكاة كان ارتداد العرب عن الإسلام في عهد أبي بكر. إنما يجب أن تجبى الزكوات بالاضطرار كما تجبي ضرائب الأرض وعوائد العقار، وأن يكون لوزارة الشؤون الاجتماعية جباة كما كان لوزارة المالية صيارف. ولا بأس أن يترك الاختيار في الإحسان على أن يستعان على

غرسه في القلوب وجمعه في الأيدي بفرقة من الرجال والنساء تدخل البيوت والمكاتب على الأغنياء والغنيات من الأفراد والشركات فيذكرونهم بان الله الذي خلقهم وخلق الفقراء قد جعل جمعة ما بينهم وبينهم قائمة على أساس من المودة والرحمة. فإذا تعهدوا هذه الصلة الإلهية بالبر فمنح القادر العاجز روحا من قواه، ونفح الواجد الفاقد قليلاً من جدواه، سارت القافلة الإنسانية في طريقها غير ظلعاء ولا وانية. فإذا ما جمعت الزكوات والصدقات من طريقي الطوع والكره تجعل في (بيت المال) لا في (الخزانة العامة)، ثم تدبر على النظم الحديثة في التأثيل والاستغلال، وتنفق في إنشاء المياتم والملاجئ والمستشفيات، ويستعان بالفرقة التي جمعت الإحسان من بيوت الأغنياء، في توزيع المعونة على المتعفف المجهول من بيوت الفقراء

وأما ما تستطيعه الوزارة من طريق التشريع فسن القوانين لحماية العامل والفلاح من صاحب المال ومالك الأرض؛ فإن أكثر ما يصيب الطبقة العاملة من المحن والإحن إنما ينشأ من إطلاق الحرية الطاغية لأصحاب الأموال الذين يستثمرونها في التجارة أو في الصناعة، ولأرباب الأطيان الذين يستغلونها بالتأجير أو بالزراعة

فهؤلاء وأولئك على قلتهم يتحكمون في الأجراء ويستبدون بالمستأجرين ولا تدركهم بهم رحمة الخالق بالخلق ولا عناية الصانع بالآلة. فصاحب الآلة يوفر لها الشحم والوقود، ومالك البقرة يهيئ لها الحظيرة والعلف؛ ولكن أصحاب الأموال والأطيان لا يكادون يتركون لعمالهم وفلاحيهم ما يمسك الروح ويستر البدن

وإذا شاءت الوزارة أن تحقق ما يعانيه العامل والصانع من أولى العمل، وما يقاسيه الأجير والزارع من ذوي الطين، تكشفت لها أستار المجتمع عن مآس مروعة من الظلم والغبن والطمع والأثرة لا يستطيع منع تمثيلها المحزن المخزي غير سلطان القانون

بقى ما تستطيعه الوزارة من طريق الإدارة وهو يشمل ما لا يدخل في نطاق الدين أو القانون بنص صريح، كمكافحة البطالة بتيسير سبب العمل للعامل، وتدبير رأس المال للصانع، وتمصير المعامل والمصانع والمتاجر والمصارف والشركات يداً ولساناً ليحل الوطنيون المتعطلون فيها محل الأجانب، وذلك مورد للرزق يمكن أن يعيش عليه ألوف من الأسر المحرومة أهملته الحكومات السالفة لاشتغالها بسياسة الكلام وخصومة الحكم عن كل نافع

بهذه الخطة المحكمة لكفاح الفقر بمعونة من سلطان الدين وسطوة القانون وقوة الحكومة تستطيع الوزارة أن تنقذ من غوائله الطفولة المعذبة والشبيبة المشردة والشيخوخة العاجزة والأسر المنكوبة والكفايات المعطلة، وأن تطهر المجتمع مما يجره عليه بقاء هذه الأحوال من فساد الأخلاق ونغل القلوب واضطراب الأمن وقلة الإنتاج وكثرة الجرائم. ونجاحها في ذلك معناه بناء المجتمع المصري على أسس جديدة من تقوى الله ورضوان الناس وتعاطف النفوس وتعاون القوى وتضامن الأمة.

احمد حسن الزيات

الباحثون والساسة

للأستاذ عباس محمود العقاد

المعروف عن رجال السياسة في أمم الغرب أنهم أوسع اطلاعاً وأكمل ثقافة من رصفائهم في الأمم الشرقية، فمنهم الأدباء والناقدون، ومنهم المشتغلون بالفن أو بالعلم أو بالرياضة، وقل منهم من ليست له مشاركة في موضوع من موضوعات الذوق أو التفكير

لكن العجيب فيهم مع ذلك أنهم يعدون في بلادهم من أقل الناس اطلاعاً على الدراسات النافعة في شؤون السياسة العصرية، أي الشؤون التي هم بها مشتغلون وعليها عاكفون، كأنما يستنكف أحدهم أن يتعلم شيئاً في مسألة من المسائل هو أحرى أن يجلس فيها مجلس الأساتذة المعلمين!

ومن هنا يعتورهم السهو والتقصير، وتتعرض أحكامهم على المسائل العالمية لما يشبه الغفلة والإهمال

مثل من الأمثلة الكثيرة على ذلك هذه المحالفة الشيوعية النازية التي وقعت عند الأكثرين موقع المفاجأة والغرابة وفي طليعتهم أقطاب الوزارة والسفارة

ففي الوقت الذي كان فيه بعض السفراء والوزراء يعانون صدمة المفاجأة من جراء هذه المحالفة الغربية كان قراء الكتب السياسية يتلقونها كما يتلقون نبأ جائزاً في التقدير بل مرجحاً أعظم الترجيح في الحسبان

ففي أوائل هذه السنة طبع كتاب الناقد السياسي والخبير الاقتصادي الدكتور بيتر دركر الموسوم بنهاية الرجل الاقتصادي أو الرجل الذي يفترضه الشيوعيون والنازيون فإذا بالمؤلف يقول عن المحالفة بين الروسيا والأمم الديمقراطية: (إنها قد أحدثت من الأضرار ما لم تحدثه قط غلطة سياسية في السنين العشرين الأخيرة. فلن تقع الآن حرب بين ألمانيا وروسيا ما لم تعترض في الطريق قارعة لا تخطر على البال. . . ومتى امتنعت الحرب فلا بد من محالفة تربط هاتين الدولتين في وجه العالم الغربي بأسره، ولا ينبغي أن ننظر إلى الحرب بينهما إلا على اعتبار أنها فكرة متمناة أو أمنية ترد علينا مورد التفكير. . . أما الواقع فهو أن الدولتين خليقتان أن تتقاربا وتتحالفا لأنهما متشابهتان في لباب العقيدة وأحوال الاجتماع. ومن الحق أن نترقب هذه المحالفة ولو ناقضتها في الظاهر جميع الاعتبارات والتقديرات. . .)

وفي قريب من الوقت الذي طبع فيه ذلك الكتاب كان كتاب آخر باسم (بولونيا مفتاح أوربا) يطبع لمؤلفه الدكتور رايموند لسلي الثقة بين علماء الأمريكيين في هذه الشؤون، وكان مؤلفه يراجع آراء هتلر التي بسطها في كتابه (جهادي) عن المحالفة بين الروس والألمان فيرد قائلاً:

(ومع هذا يحتمل أن تصبح الروسيا أقوى من أن تمزق وأضعف من أن ترفض اقتراحاً من النازيين بالاتفاق الشامل بين الفريقين. فهي في عزلتها عن فرنسا وبريطانيا العظمى، وفي حذرها من تهديد اليابان لتخومها الشرقية، قد تؤثر محالفة ألمانيا على محاربتها، وقد تؤدي هذه المحالفة إلى بطلان الدولية الثالثة وتقديم الموارد الروسية إلى الألمان واتخاذ السياسة المعادية لليهود؛ ويلوح أن إبرام هذا الاتفاق عسير قبل موت ستالين، ولكن احتمالاً من هذين الاحتمالين وهما الحرب أو المحالفة الشاملة أمر لا ينبغي أن يغرب عن البال. . . ولا يصعب علينا أن نتوقع اتفاقاً على تقسيم بولونيا تقسيماً جديداً بعد المحالفة)

وحوالي هذا الوقت بعينه كانت صحيفة إنجليزية تصدر في فانكوفر اسمها شمس فانكوفر وهي بلدة في كندا تنشر بحثاً ضافياً في هذا الموضوع فتقول فيه بعد عرض المسألة من جميع جوانبها ما خلاصته: (أن ستالين وهتلر قد يطرحان عنهما خصومتهما القائمة في الوقت الحاضر ويتفقان على تكرار تقسيم بولونيا من جديد. فالحكومة والأحوال في كلتا الأمتين الروسية والألمانية ليس بينهما كبير خلاف، وإن سخط هتلر وأصحابه من بيان هذه الحقيقة: كلتاهما حكومة طغيان عسكري لا أثر في ظلالها للحرية، وقد صدقت الفكاهة التي تشيع اليوم في البيئات الألمانية وفحواها أن صاحباً يسأل صاحبه في معزل عن الناس: ما الفرق بين روسيا السوفيتية وألمانيا النازية؟ فيجيبه: الجو بارد في روسيا أبرد!. . .)

كان الباحثون السياسيون يفيضون في أمثال هذه البحوث بين الترجيح تارة والتوكيد تارة أخرى والسفراء والوزراء يلحون في وجوب عقد المحالفة بين الروسيا من جهة وبريطانيا العظمى وفرنسا من الجهة الأخرى، وكان منهم رجل حصيف مثل لويد جورج يكتب وينادي بأن هذه المحالفة ضرورة لا محيص عنها وباب لا باب غيره للنجاة من إرهاب الهتلرية والنازية، وكانت الإشاعات تتوالى بالتقدم في طريق الاتفاق والدخول في التفصيلات التي لا ضير منها على المبادئ والأصول، وتشاء مضحكات القدر أن نقرأ أنباء هذه البشريات وأنباء الغدر الروسي في بريد واحد وصل بعد استفحال الخطب وجلاء الشكوك!

ويسألني القارئ: وما اقتراحك في هذه المشكلة؟ أتراك توصي بإسناد الوزارة والسفارة إلى الباحثين والدارسين وانتزاعها من أيدي الوزراء والسفراء؟

وأبادر فأقول معاذ الله!. . . إن الباحث باحث والوزير وزير، فإذا أصبح الباحث وزيراً بطل بحثه ونقص من أحد طرفيه ولم يستوف العملين في آن

وإنما أقول بوجوب الانتفاع بهذه البحوث والدراسات في تذكير الوزراء والسفراء أو

في بسط وجوه النظر في كل مسألة من مسائل السياسة والحكم عندما يعرضها عليهم العارضون
فيشتمل كل مكتب من المكاتب المتصلة بالسياسة القومية أو السياسة العالمية على قسم للقراءة والتلخيص والتبويب، ولا تنظر مسألة من المسائل إلا ومعها سجل الحقائق والمعلومات والآراء التي اهتدى إليها في تلك المسألة ذوو الخبرة والاختصاص ولبيان الفرق بين قرار يتخذه عالم منقطع للدرس والمراجعة وقرار يتخذه وزير خاضع للقيود العلمية والوقائع الراهنة والمنازعات الحزبية نسأل:
هبوا وزراء فرنسا وبريطانيا العظمى اطلعوا جميعاً على كتب الباحثين وفصول الخبراء الثقات في ترجيح المحالفة النازية الشيوعية والتيئيس من المحالفة الأخرى وآمنوا أصدق الإيمان بما قرءوه فماذا عساهم كانوا صانعين؟
كانوا يحجمون عن مفاوضة الروسيا ويستضيعون الوقت فيما ليس وراءه طائل ونعود فنسأل: أتراهم يحسنون بذلك أم يسيئون؟؟
واعتقادنا نحن أنهم يسيئون غاية الإساءة، لأن أنصار الروسيا بين الفرنسيين والإنجليز أبناء الأمم أجمع يظلون بعد ذلك في ضلالهم القديم، ويزعمون لأنفسهم أو لغيرهم أن ساسة فرنسا وإنجلترا هم الذين عزلوا الروسيا وقطعوا ما بينهم وبينها فدفعوا بها كارهة إلى أحضان النازيين أعداء الديمقراطية، وانهم إذن مسؤولون عن هذا الفشل وعما يضيع بسببه من الأرواح والأموال
ومتى شاعت هذه العقيدة بين الطبقات التي يؤخذ منها الجنود والعمال فالخطر عظيم، وتزييف العقيدة بالحجج العلمية والدروس النظرية عسير، وباب المكابرة واللجاجة مفتوح لمن شاء على مصراعيه
أما اليوم فقد أخطأ الساسة في مفاوضة الشيوعيين وأصاب المقدار. فلا مكابرة ولا لجاجة ولا خفاء بحقيقة النيات بعد أن بلغ من وضوح الحقيقة أن تلمسها كل يد وتبصرها كل عين
إن الدراسة حسنة واتباع الواقع حسن، وأحسن منهما واقع تهديه دراسة الدارسين.
عباس محمود العقاد
جناية أحمد أمين على الأدب العربي
للدكتور زكي مبارك
- 21 -
رأينا في المقال السالف سرقتين من سرقات الأستاذ أحمد (الأمين) كما كان يسميه أستاذنا الشيخ المراغي قبل أن تنكشف تلك السرقات
والكشف عن سرقات هذا الرجل المفضال لا يعد من الإيذاء حتى نقبل دعوة بعض الأصدقاء إلى مهادنته مراعاةً لأدب الصيام. فاحمد أمين نفسه يحكم منصبه في كلية الآداب يعرف أن الكشف عن سرقات الشعراء والخطباء والكتاب نوع من المرانة الذهنية، وفن من فنون الأدب الرفيع
وأعترف بأن اهتمامي بكشف سرقات أحمد أمين لا يخلو من شيطنة، ولعله ضرب من المنافسة للدكتور طه حسين، فالدكتور طه قد زعم أن أحمد أمين لم يكن يعرف نفسه فهداه إليها، وأنا أيضاً أزعم أن أحمد أمين لم يكن يعرف نفسه وسأهديه إليها، مع الفرق بين الهدايتين
وأصرح بأن تشجيع القراء وحرصهم على أن تجمع هذه المقالات في كتاب يرجع إليه من تهمهم معاودة النظر فيما شرحناه من الحقائق الأدبية، ذلك التشجيع لا يهمني كثيراً وإن كان يدلني على يقظة القراء ورغبتهم في محاسبة الكتاب والباحثين.
وإنما أنتظر أن أتلقى كلمة ثناء من الأستاذ أحمد أمين لأعرف أن الجميل في هذا البلد لا يضيع، فهو يعرف جيداً أني قدمت إليه خدمة عظيمة حين دللته على أن مصر لا تزال بخير ففيها رجال يحاسبون من كان في مثل منزلته من المتصدرين لتدريس الأدب بكلية الآداب، وهل يظن أصدقاؤنا بتلك الكلية أن حديقة الأورمان منطقة من مناطق المريخ، وأنهم بمنجاة من أسنة الأقلام؟ هيهات ثم هيهات؟!
ونرجع إلى السرقات فنقول:
شغل الأستاذ أحمد أمين نفسه بالنص على أن العرب في جاهليتهم لم تكن لهم وثنية

تبدع الأساطير على نحو ما كان الحال عند اليونان، وذلك يشهد بأن الجاهليين لم يكونوا من أهل الخيال

وقد ناقشنا هذا الرأي بمقال مفصل نكره تلخيصه اليوم لئلا نقع في الحديث المعاد، فهل يعرف القراء من أين أخذ الأستاذ أحمد أمين هذا الرأي؟ أخذه من قول الدكتور أحمد ضيف:

(وقد قال بعض المستشرقين مثل رينان ومن جرى على مذهبه: إن العرب ككل الأمم الساميّة ليس لها أساطير في شعرها ولا في عقائدها، وإن هذا يدل على ضيق الخيال لديهم: لأن الأساطير والخرافات إنما هي نتيجة سعة الخيال، ونتيجة الحيرة والبحث وحب الاطلاع. . . وكل ذلك يظهر أثره في بلاغات الأمم من نظم ونثر، كما هي الحال عند الأمم الآرية كاليونان وغيرهم من الأمم الأوربية، وقالوا سعة الخيال، ولا يقصدون بالخيال ما نقصده نحن من المجاز والتشبيه، وإنما يقصدون سعة الخيال في تصور الحقائق وفي إدراك الموضوعات المختلفة، لأن أساطير اليونان كان منشأها البحث عن الخالق وتصوره فلم ترشدهم عقولهم إلا إلى ضرب من الخرافات كتبوا عنها وألفوا فيها الأسفار ونصبوا لها التماثيل، فاستدل الباحثون بذلك على قوة الذكاء وسعة الخيال وحب الجمال والافتتان فيه، وربما كان هذا من الأسباب التي حملتهم على طول الكلام والميل إلى القَصص في النثر والشعر، لأن هذا النوع من البلاغة ليس إلا ضرباً من سعة الخيال في التصور والفكر والتعبير. ومن هنا يكون تعدد الأنواع في ضروب البلاغة نظماً ونثراً)

ذلك كلام الدكتور أحمد ضيف في محاضرات ألقاها بالجامعة المصرية سنة 1918 ونشرها سنة 1921

فهل عرفتم من أين سرق الأستاذ أحمد أمين كلامه عن الفرق بين وثنية العرب ووثنية اليونان؟ هل عرفتم من أين سرق القول بأن الوثنية العربية لم تخلق التماثيل كما صنعت وثنية اليونان؟ هل عرفتم من أين أنتهب القول بأن المجاز والتشبيه لا يدلان على سعة الخيال؟ هل عرفتم من أين اغتصب القول بأن الجاهليين لم تتعدد عندهم ضروب البلاغة فلم يعرفوا الأقاصيص الشعرية والنثرية؟

إن الدكتور أحمد ضيف لم يبتكر هذا الكلام، ولكنه راعي الأمانة العلمية فذكر مصدره من كلام المستشرقين، أما الأستاذ أحمد أمين فقد انتهب ما نقله الدكتور أحمد ضيف عن المستشرقين ثم ادعى أنه من مبتكراته ودعا الناس إلى مناقشته في تلك (المبتكرات)!!

فهل عرف أنه جازف أقبح مجازفة حين دعا الباحثين إلى مناقشته وهو يظن أن لن يسمع منهم غير الحمد والثناء؟

وفُتِنَ القراء بقول الأستاذ أحمد أمين إن العربي الجاهلي وصف ما رآه، وهي فكرة بسيطة لا تحتاج إلى مقال مطول في مجلة اسبوعية، ولكنها مع ذلك مسروقة من قول الدكتور أحمد ضيف:

(كان العربي يصف في شعره ما يراه، ويتكلم عما يشعر به في نفسه من عواطف وفضائل، وقد تكلم وعبَّر عما يجول بخاطره بنفس الشجاعة والإقدام اللذين كانا له في الحياة)

فأين الذين فتنوا بكلام الأستاذ أحمد أمين ليعرفوا أنه مسروق من كلام الدكتور أحمد ضيف؟

وهناك فرق بين العبارتين: فعبارة الدكتور ضيف سبقت بتعليل مقبول لوقوف العربي عند وصف ما يراه، أما أحمد أمين فاقتضب الكلام حتى لا ينتبه بعض القراء إلى أنه يجدح من سويق سواه!

وقال الأستاذ أحمد أمين إن بلاد العرب كانت في الأغلب جرداء فلم توح إليهم التفنن في وصف المناظر الطبيعية من رياض وبساتين، وجداول وأنهار، وجبال مكللة بالأشجار والأزهار

فهل يعرف القراء أنه سرق هذه الفكرة من قول الدكتور أحمد ضيف:

(إن طبيعة بلاد العرب الجافة ذات الشكل الواحد لم تُلهم العربي ولم توح إليه من أنواع الجمال غير جمال التعبير عما يجول بخاطره وإظهار عواطفه إظهاراً ساذجاً. غاب عنه جمال الطبيعة من حقول وخمائل ومن جبال وتلال مكللة بالأشجار والأزهار،

وتَدرَ لديه جريان الماء وهدوء الجو، فلم ير إلا الصحراء المحرقة ذات الفضاء اللانهائي، والنخل المصعد في السماء على شكل واحد فأثر ذلك في خياله وجعله لا يعرف التغيير)

قد تقولون إن هذه أفكار تعدُّ من البديهيات، فمن حق أحمد أمين أن ينقلها عن أحمد ضيف

وهذا حق، ولكن ما رأيكم فيمن ينقل البديهيات التي أعيدت مرات على أنها من البدع المبتكر الطريف، ثم يقول وهو مزهو مختال: هذه آراء نعرضها للبحث وندعو القراء إلى مناقشتها رغبةً في تلخيص الأدب العربي من الأوهام والأضاليل؟!

وأراد الأستاذ أحمد أمين أن يأتي بالأعاجيب فقرر أن العرب لم يعرفوا الشعر القصصي ولا الشعر التمثيلي، وهي فكرة بسيطة لا تحتاج إلى دعوى الابتكار والابتداع، ولكنها مع ذلك مسروقة من قول الدكتور أحمد ضيف: (الشعر القصصي والشعر التمثيلي بالمعنى المعروف الآن عند الأدباء في بلاغات الأمم الأخرى لا وجود له عند العرب)

وما ادعينا ولا ادعى أحد أن العرب كان عندهم شعر قصصي وشعر تمثيلي حتى نحتاج إلى حذلقة أحمد أمين.

وعاب صاحبنا على الناس أن يظنوا أن العرب عرفوا كل شيء، ولامهم على الاطمئنان المطلق إلى المؤلفات القديمة مع أنها على سعتها مشوشة تتنافر بعض أجزائها مع بعض، وعجب من أن يوجد قوم يأنفون من الخروج على الأدب القديم

وهذا الكلام (المبتكر) مسروق من قول الدكتور أحمد ضيف في مطلع المحاضرة التي ألقاها بحضور الزعيم سعد زغلول في اليوم التاسع من نوفمبر سنة 1918:

(دراسة الأدب العربي بالطرق المعروفة الآن لا تزال حديثة العهد. والأدب العربي على سعته وغناه مشوش مختلط مرتبك لا يزال باقياً على حالته الأولى من البساطة والسذاجة في التأليف والجمع، ولم تحرر بعد عقول أدبائنا من قيود الطرق القديمة والانتصار لها، ولا يزال يعد الخروج من القديم خروجاً عليه. ولا نزال نعتقد أن القدماء وصلوا إلى أقصى ما يمكن أن يصل إليه العقل البشري من الذكاء والإتقان، وغير ذلك من ضروب الرضا والارتياح)

ومن ذلك ترون أن الأستاذ أحمد أمين لم يكن من المبتكرين حين أراد أن ينهبكم إلى الغفلة التي شاعت منذ أزمان، الغفلة التي توجب أن نجهل أن مصادر الأدب العربي تحتاج إلى تهذيب وترتيب، والتي قضت أن تظل عقولنا في أسر الأدب القديم، والتي أوهمتنا أن العرب لم يتركوا زيادةً لمستزيد، وأنهم وصلوا إلى كل شيء، وأن لغتهم أحسن اللغات

قد تعتذرون عن الأستاذ أحمد أمين بأنه يحادث ناساً يعيشون في سنة 1939 لا في سنة 1918، ولكن لا تؤاخذوني: فقد توهمت أننا نتقدم في الدراسات الأدبية من يوم إلى يوم، وأن ما ينشر في سنة 1918 لا يعاد بحروفه في سنة 1939 خوفاً من أن يقال إن في أساتذة الجامعة المصرية من يرى الحديث المعاد من المبتكرات

وحدثكم الأستاذ أحمد أمين أن الإعجاب المطلق بالأدب العربي يضر أكثر مما ينفع، وأن من واجبنا أن نوازن بين أدبنا وبين الآداب الأجنبية، وأن نترك أحكام النقل والتقليد. . . وهذا منقول عن قول الدكتور ضيف:

(كل حكم مبني على النقل أو التقليد لا قيمة له، ولا يفيد شيئاً ولا يصح الاعتماد عليه، فلا يصح أن نصدق قول من قال إن لغة العرب أحسن اللغات بدون أن نعرف شيئاً من اللغات الأجنبية ونوازن بينها وبين اللغة العربية. وإننا لنسيء إلى اللغة العربية وإلى الأدب العربي وإلى الأمة العربية أكثر من أن نحسن إليها بمثل هذه الأقوال التي لا يمكن أن يعتمد عليها إنسان مفكر، كما أنها لا تحرك العقول ولا تحملها على البحث)

ذلك كلام الدكتور أحمد ضيف الذي نقله الأستاذ أحمد أمين بدون أن يشير إليه. . .

وهل كان يظن أن في مصر من لا يزال يذكر كلاماً قيل في سنة 1918 ونشر في سنة 1921؟

وحدثكم الأستاذ أحمد أمين بأنه يجب أن ننظر إلى الأدب العربي القديم كما ننظر إلى

الآثار المودعة في المتاحف، وندرسه كما تدرس الآداب اليونانية واللاتينية. . . وهذا هو كلام الدكتور ضيف إذ يقول:
من هذه الوجهة يجب أن نتعصب للغة العربية وآدابها كما يتعصب الأوربيون الآن للغة) (اللاتينية واليونانية لأنهما أصل معارفهم ومستودع سر مدينتهم
وحدثكم أحمد أمين بأنه يجب أن يكون لنا أدب مصري يصور المجتمع عندنا ويحدثنا عن الزارع في حقله والتاجر في متجره والعالم بين تلاميذه وكتبه والعابد في معبد والماجن في مجونه. . . وهذا منقول عن قول الدكتور ضيف:
نريد أن تكون لنا آداب مصرية تمثل حالتنا الاجتماعية، وحركاتنا الفكرية، والعصر الذي) نعيش فيه، تمثل الزارع في حقله، والتاجر في حانوته، والأمير في قصره، والعالم بين تلاميذه وكتبه، والشيخ في أهله، والعابد في مسجده وصومعته، والشاب في مجونه وغرامه. أي نريد أن تكون لنا شخصية في آدابنا. ولا نريد بذلك أن نهجر اللغة العربية (وآدابها، لأننا إن فعلنا ذلك أصبحنا بلا لغة وبلا أدب
ومن هنا تعرفون كيف سرق أحمد أمين تلك (المبتكرات) التي دعاكم إلى تقليبها على جميع
الوجوه لتعرفوا ما في كلامه من الخطأ والصواب!
وحدثكم أحمد أمين بأنه يجب تحرير الشعر من القوافي والأوزان حتى يتسع لشرح مختلف المقاصد والأغراض. وهذا منقول عن قول الدكتور ضيف:
إن بلاغة العرب محصورة أو تكاد تكون محصورة في الشعر، والشعر لا يمثل حالة) الاجتماع لضيق المجال فيه، لأنه لا يسع جميع الأفكار ولا يحتمل إظهار الحقائق كما ينبغي، لما فيه من القوانين التي جيب على الشاعر اتباعها، وكثيراً ما تضطره إلى ذكر ما لا يلزم، أو حذف ما يلزم، ولأن الشعر رغم كل شيء مبناه الخيال والمبالغات، (والاستعارة والتشبيه والمجاز
أما بعد فتلك مجموعة جديدة من سرقات أحمد أمين في الآراء التي عدَّها من (المبتكرات)
فهل أخذتم منها عبرة؟
هي أولاً شاهد على أن في أدبائنا من ينهب آراء معاصريه لا ترفق ولا استبقاء
وهي ثانياً مظهر من مظاهر الاستخفاف بيقظة النقد الأدبي فلو كان الأستاذ أحد أمين يعرف أن مصر رجالاً يسايرون الحياة الأدبية مسايرة نمكنهم من رد كل كلام إلى مصادره الظاهرة والخفية لتهيب عواقب السطو على آراء من سبقوه في القديم والحديث
وهي ثالثاً دليل جديد على عدل فاطر الأرض والسموات، فالدكتور ضيف قد انسحب من ميدان الحياة الأدبية منذ أعوام طوال، وهو يوغل في إيثار العزلة والانزواء، ولا يكاد يلتفت إلى أن له آراء يسرقها أحمد أمين أو غير أحمد أمين، ولعله يتأذى حين يسمع أننا ننوه بتلك الآراء ونأخذ بتلابيب من يسرقونها في وضح النهار أو ظلام الليل.
ثم ماذا؟ ثم ماذا؟
سترون في المقال المقبل سرقات جديدة من سرقات الأستاذ النبيل أحمد أمين!
وسترون أنه لن يضن علينا بكلمة ثناء!
الهم إني صائم! الهم إني صائم!
فاجعل إفطاري على زاد أفضل من كشف سرقات الأدباء!
(للحديث شجون)
زكي مبارك
دمشقيات
. . .صديقي رمضان
للأستاذ علي الطنطاوي
صديق عزيز، لقيته وأنا طفل في دمشق، ثم افتقدته وأنا شاب أذرع الأرض وأضرب في بلاد الله، ففرحت بلقائه وأحببته، وألمت لفقده وازداد حنيني إليه، فأين أنت يا صديقي رمضان؟
كنت أرقب قدومه، وأحسب له الأيام والليالي على مقدار ما يحسن طفل من الحساب، فإذا جاء فرحت به وضحكت له روحي لأني كنت أرى الدنيا تضحك له وتفرح

بقدومه
كنت أبصره في المدرسة، فالمدرسة في رمضان مسجد، ودرسها تلاوة وذكر، وأهلوها أحبة، ما فيهم مدرّس يقسو على طلاب، وطلاب يكرهون المدرس، لأن رمضان وصل النفوس بالله فأشرق عليها من لدنه النور فذاقت حلاوة الإيمان، ومن ذاق حلاوة الإيمان، لم يعرف البغض ولا الشرّ ولا العدوان
كنت أراه في الأسواق، فالأسواق تعرض بضاعة رمضان وتفيض عليها روح رمضان فتمحو الغش من نفوس أهلها محواً ويملؤها خوف الله ورجاؤه، وتقف ألسنتهم عن الكذب لأنها جرت بذكر الله واستغفاره، وهانت عليهم الدنيا حين أرادوا الله والدار الآخرة، فغدا الناس آمنين أن يغشهم تاجر، أو يخدعهم في مال أو متاع، ويمضي النهار كله على ذلك، فإذا كان الأصيل ودنا الغروب تجلى رمضان على الأسواق بوجهه فهشت له وجوه الناس، وهتفت باسمه ألسن الباعة، فلا تسمع إلا أمثال قولهم: (الصايم في البيت بركة) - (الله وليك يا صايم) - (الله وليك ومحمد نبيك) ثم لا ترى إلا مسرعاً إلى داره حاملاً طبق (الفول المدمس) أو (المسبحة) أو سلال الفاكهة أو قطع (الجرادق)، ثم لا تبصر إلا مراقباً المنارة في دمشق ذات الثمانين منارة، أو منتظراً المدفع، فإذا سمع صيحة المؤذن أو طلقة المدفع دخل داره، والأطفال يجتمعون في كل رحبة في دمشق ليسمعوها فيصيحوا: أذن. . . أذن. . . أذن. . . ثم يطيروا إلى منازلهم كالظباء النافرة.
وكنت أبصر رمضان يؤلف بين القلوب المتباينة، ويجلو الأخوة الإسلامية رابطة المسلم أخي المسلم فتبدو في أكمل صورها فيتقابل الناس عند الغروب تقابل الأصدقاء على غير
معرفة متقدمة فيتساءلون ويتحدثون ثم يتبادلون التمر والزبيب ويقدمون الفطور لمن أدركه المغرب على الطريق فلم يجد ما يفطر عليه، تمرة أو حبة من زبيب، هينة في ذاتها، تافهة في ثمنها، ولكنها تنشئ صداقة وتدل على عاطفة، وتشير إلى معنى كبير
وكنت انظر إلى رمضان وقد سكّن الدنيا ساعة الإفطار، وأراح أهلها من التكالب على الدنيا والازدحام على الشهوات، وضم الرجل إلى أهله، وجمع الأسرة على أحلى مائدة وأجمل مجلس وأنفع مدرسة. فوا شوقاه إلى موائد رمضان وأنا الغريب الوحيد في مطعم لا أجد فيه صائماً ولا أسمع فيه أذاناً ولا أرى فيه ظلاً لرمضان. . .
فإذا انتهت ساعة الإفطار، بدأ رمضان يظهر في جلاله وجماله وعظمته المهولة في المسجد الأموي أجل مساجد الأرض اليوم وأجملها وأعظمها، وكنت أذهب إلى المسجد بعد المغرب وأنا طفل فأراه عامراً بالناس ممتلئاً بحلق العلم كما كان عامراً بهم ممتلئاً بها النهار بطوله، فأجول فيه مع صديقي سعيد الأفغاني خلال الحلقات نستمع ما يقول المدرسون والوعاظ، وأشهد ثريّاته وأضواءه وجماعاته، ومن صنع الله لهذا المسجد أن صلاة الجماعة لا تنقطع فيه خمس دقائق من الظهر إلى العشاء الآخرة في أيام السنة كلها وقد بقى ذلك إلى اليوم على ضعف الدين في النفوس وفساد الزمان. . وإن أنس لا أنس تلك الثريا الضخمة ولم يكن قد مدّ إليها الكهرباء، فكانت توقد مصابيحها وهي أكثر من ألف بالزيت واحداً بعد واحد يشعلها الحسكيون وهم يطيفون بها على سلاليم قصيرة من الخشب فيكون لذلك المشهد اثر في النفس واضح، ثم يكون العشاء وتقوم من بعده التراويح ولها في الأموي منظر ما رأيت أجل منه ولا أعظم إلا صلاة المغرب حول الكعبة في مسجد الله الحرام فإن ذلك يفوق الوصف، ولا يعرف قدره إلا بالعيان. وليس يقلّ من يصلي التراويح في الأموي عن خمسة آلاف أصلاً، وقد يبلغون في الليالي الأواخر الخمسة عشر والعشرين ألفاً، وهو عدد يكاد يشكّ فيه من لم يكن عارفاً بحقيقته ولكنه الواقع، يعرف ذلك الدماشقة ومن رأى الأموي من غيرهم. وحدثّ عن الليالي الأواخر (في دمشق) ولا حرج، وبالغ ولا تخش كذباً، فإن الحقيقة توشك أن تسبقك مبالغة، تلك هي ليالي الوداع يجلس فيها الناس صفوفاً حول السدّة بعد التراويح، ويقوم المؤذنون والمنشدون فينشدون الأشعار في وداع رمضان بأشجى نغمة وأحزنها ثم يردّد الناس كلهم: يا شهرنا ودعتنا عليك السلام! يا شهرنا هذا
عليك السلام ويتزلزل المسجد من البكاء حزناً على رمضان
وسحر رمضان؛ إنه السحر الحلال. إنه جنة النفس ونعيمها في هذه الدنيا، وإني لأقنع

من جنات الفردوس أن تكون مثل سحر رمضان، فأين ذهب رمضان؟ وأنى لي بأن تعود أيامي التي وصفت لأعود إليه؟
ذمّ المنازل بعد منزلة اللوى ... والعيش بعد أولئك الأيام
إني لا أشتهي شيئاً إلا أن أعود طفلاً صغيراً لأستمتع بجوّ المسجد في رمضان وأنشق هواءه وأتذوق نعيمه. لم أعد أجد هذا النعيم، وما تغيرت أنا أفتغيرت الدنيا؟
إني لأتلفت أفتش في غربتي عن رمضان فلا ألقاه لا في المسجد ولا في السوق ولا في المدرسة، فهل مات رمضان؟
إذن فإنا لله وإنا إليه راجعون
لقد فقدت أنس قلبي يوم فقدت أمي، وأضعت راحة روحي يوم افتقدت رمضان، فعلى قلبي وأمي ورمضان وروحي رحمة الله وسلامه!
(كركوك)
علي الطنطاوي
هل يقرأ الفنان هتلر
الذئب والحمار
رواية في منظر واحد
الأستاذ عبد اللطيف النشار
(يزعم هتلر أنه يريد إنقاذ الإنسانية من شوك الديمقراطية)
الحمار (يدخل المسرح خائفاً وحده):
أقبل الذئب ومالي ... بكفاح الذئب حيله
رَب ألهمني برأي ... فحياتي مستحيله
أدّعي أني مريض ... علني أنجو بحيله
(يتعارج. . . ويدخل الذئب)
الذئب:
لِمَ تمشي مشية الأع ... رج يا أوفى حبيب
كيف تشكو أي داء ... وأنا خير طبيب
أرني رجلك أشف ... يك من الجرح الرغيب
(يتقدم ليرى رجل الحمار)
الحمار:
لك شكري وثنائي ... وجزاك الله عني
قد أصاب الشوك رجلي ... فانزع الشوك ترِحْني
وإذا لم أستطع قتلك ... يا ذئب فكَلني
(يركل بقدميه الخلفية)
الذئب (وهو يتلوى من الألم ويجود بنفسه):
هكذا أقضي حياتي ... هكذا عقبى الغرور
أنا قصاب فمالي ... أدَّعى طب الحمير
ليس في الكذْب على ال ... خلق سوى الشر الكثير
(يموت)
الحمار:
أحمد الله على ال ... مقل ففي عقلي نجاتي
أحمد الله فلولا ... حيلتي ضاعت حياتي
كتب الله ليَ العمْ ... رَ بصبري وثباتي
عبد اللطيف النشار
التعليم والإنتاج
للأستاذ عبد الحميد فهمي مطر
أبنا في مقالنا السابق أهمية ارتباط معاهد التعليم بمصادر الإنتاج وضرورة اتصالها بها اتصالاً وثيقاً يضمن لخريجي هذه المعاهد العمل المباشر بين تلك المصادر بمجرد انتهائهم من عهد الدراسة ومغادرتهم لدورها إلى الحياة العامة
أما الإنتاج فهو في الحقيقة نوعان: إنتاج عقلي وإنتاج مادي. ولا شك في أن الإنتاج المادي، وهو أمر يتعلق برفاهية الأفراد والأمم وثروتها ومجدها الإقتصادي، يستمد قوته

ونشاطه وحيويته من الإنتاج العقلي، إذ كلما كان الذهن نشيطاً وكانت الثقافة مزدهرة استطاع العقل البشري أن يبتكر طرقاً جديدة مفيدة في زيادة الإنتاج المادي وإنماء الثروات المختلفة مما يؤدي طبعاً إلى السعة بين الأفراد ورفع مستوى الحياة بين طبقات الشعب. ولذلك نعد الإنتاج العقلي الأساس الذي ينبني عليه عز الأمة وقوتها ورفاهيتها. ولعل هذا كان السبب الذي من أجله اتجهت المدارس المصرية بكل قوتها منذ فجر النهضة إلى دراسة مبادئ العلوم الحديثة النظرية ظناً من القائمين بأمرها أن الإنتاج بنوعيه محصور في ذلك لما هو ظاهر من الارتباط الوثيق بين المدنية الحديثة وبين تلك العلوم العصرية، مهملين بجانب ذلك أموراً حيوية أخرى لا محيص عنها في سبيل الحصول على الثمرة الحقيقة من التربية والتعليم في تلك المدارس، وهي أمور تعني بها العناية كلها جميع المعاهد العلمية في مختلف الأمم المتمدنة. فكان لهذا العمل أثره الكبير فيما نلمسه من الفروق الكبيرة بين شبابنا وشبابهم: فبينما تجد الشاب منهم ينغمس في أعمال الإنتاج بمجرد انتهائه من دراسته، إذا بالشاب المصري يسعى حثيثاً إلى الوظيفة ويفضلها على أي عمل منج آخر، معتقداً أن فيها ضماناً للعيش في هدوء وطمأنينة مهما قلت مواردها، ومهما هزل مستقبلها على حد قول الشاعر:

حب السلامة يثني هم صاحبه ... عن المعالي ويغري المرء بالكسل

ومن ثم نرى الشاب المصري لا يقوى على المخاطرة في الأعمال الإنتاجية لأنه ضعيف العزم قليل الصبر على ما يعترضه من عقبات، يجب أن يصل دائماً إلى نتيجة حاسمة سريعة مما لا يصل إليه غيره في البلاد الأخرى إلا بقوة العزيمة والأناة والصبر والجد المتواصل؛ ونراه يتعجل الثروة قبل أوانها ويتعجل المجد قبل أن يحين حينه، يضجره البطء ويقضي عليه التسرع فيسلمه للفشل كمن قيل فيه: (إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى). ونراه متراخياً متواكلاً يفضل الاعتماد على والديه وذويه وما يمنحونه إياه من فضلات الرزق، على القليل مما قد يصيبه من الكد وعرق الجبين، وهكذا نجد في شبابنا نقصاً في نواح متعددة بل في كثير من الصفات التي تقتضيها الرجولة ويحتمها الجهاد في الحياة الحاضرة. وما ذلك إلا لأن المدرسة لم تجد من الوقت ما يمكنها من العناية بغرس تلكم الصفات الضرورية في أبنائها لأنها خصصت كما ذكرنا في مقالنا السابق كل وقتها لحفظ الكتب المؤلفة في برامج الامتحان ليصل الطالب إلى الشهادة التي كانت ذات قيمة ذهبية في سوالف الأيام، وقد أصبحت اليوم في نظر عقلاء المجتمع لا قيمة لها في الحياة العملية العامة. وإذا كان الإنتاج العقلي كما قررنا هو الأساس الذي تبنى عليه قوة الإنتاج المادي فإن الأمم الحية لا تعنى بالإنتاج العقلي وحده مهملة في معاهدها كما فعلنا نحن في معاهدنا، الاتصال المباشر بمصادر الإنتاج المادي ولكن السياسة التي يسير عليها التعليم في تلك الأمم تقوم على فكرة حصر الإنتاج العقلي على قدر الإمكان في المتفوقين من أبنائها فلا يباح لكل متوسط العقل أو ضعيفه أن يخترق الصفوف إلى معاهد التعليم العليا ما دام قادراً على دفع مصروفاته كما هو الحال عندنا. ولكن هؤلاء قبل أن يتزاحموا على أبواب المعاهد العليا تزاحمهم عندنا اليوم، يوجهون توجيهاً صحيحاً إلى معاهد الإنتاج المادي لتتكون منهم فئات الزراع والصناع والتجار العاديين قبل أن يكونوا عالة على معاهد الثقافة العليا فلا يكون الكثيرون منهم نكبة على تلك المعاهد فقط بل نكبة كذلك على الإنتاج العقلي نفسه! بهذا تتكون طبقات الأمة عند تلك الأمم تكوناً صحيحاً، وتنحصر القيادة العقلية والعلمية في المتفوقين من ذوي العقول الناضجة والإفهام القوية، ولا توجد عندهم تلك الثقافة المزيفة التي تحمل شبابنا من شعبة الرياضة اليوم مثلاً على أن يلجئوا مكرهين كليتي الحقوق والتجارة مع أنهم لم يخلقوا لهما، تلك الثقافة المزيفة التي وصفها الأستاذ العقاد في إحدى مقالاته بالرسالة بقوله:

(فالثقافة المزيفة بلاء لا تنحصر أضراره في الأدب والفن والتأليف، ولا يزال يسري في كل شعبة من شعب الحياة حتى يعطل القوة العسكرية والقوة البدنية والقوة الحيوانية في النهاية وهي القوى التي يظن أنها أغنى ما تكون عن الثقافة والمثقفين)

من اجل هذا كله إذا بحثنا في إنتاجنا العقلي الحالي نجده مع الأسف ضئيلاً عقيما فما بالك إذن بالإنتاج المادي! ليس لدينا من الهيئات العلمية إلا العدد القليل، وأهمها طبعاً

كليات الجامعة وهي وإن كانت لا تزال ناشئة إلا أننا كنا نأمل منها في زهاء 15 سنة مضت أن تثبت وجودها العلمي بين جمهور المثقفين كما أثبتته بين جدرانها الخاصة، فهي وإن كانت لها بحوث علمية إلا أنها إلى الآن لم يحس الجمهور المثقف بوجودها لأنه لم يستفد من بحوثها إلا قليلاً ولأنه لم يحس بأثر لها في الحياة العامة أكثر مما كان للمدارس العالية قديماً، فالجمهور لم يستفد شيئاً محسوساً إلى اليوم في أغانيه وأناشيده وأقاصيصه القومية من كلية الآداب مثلاً، والجمهور لم يجد فائدة تذكر من كلية العلوم وكلية الزراعة ومصلحة الكيمياء في أمور تتصل بالصميم من حياته الإنتاجية كمسألة دودة القطن التي تقضي على ملايين الجنيهات من ثروته سنوياً، لا ولا فيما هو أبسط من ذلك كالفوائد الصحية التي يمكن أن تجنى من عين مائية كالعين الجديدة في حلوان الخ

فإذا انتقلنا خطوة إلى التعليم الفني الزراعي والصناعي والتجاري وهو التعليم المتصل اتصالاً مباشراً بحياة الإنتاج المادي وجدنا حالة مع الآسف لا تسر أي مصري، إذ ليس لتلك المعاهد بأنواعها أثر يذكر في ذلك الإنتاج، لأن جميع خريجيها لا يعنون بمصادر الإنتاج المادي ولا يعبئون بالاتصال به. إنما همهم جميعاً الحصول على الوظيفة حتى ولو كانت وظيفة كتابية أو إدارية لا علاقة لها بفنهم. ولقد شرحت عيوب هذا النوع من التعليم في مؤلفي (التعليم والمتعطلون في مصر) من صفحة 246 إلى صفحة 253

أما التعليم العام فالإنتاج العقلي يكاد يكون معدوماً بين رجاله أنفسهم، لأن كل إنتاجهم محصور في عدة كتب خاصة بمناهج الدراسة ليس للابتكار أثر فيها لأن معظمها منقول عن الكتب الإفرنجية لغرض الكسب المادي لا لغرض الثقافة والتثقيف، مما لا يحبب الطالب في المطالعة بل يبعده عنها ويبغضه فيها، على عكس الحال في المدارس الأجنبية التي تعتبر الغرض الأساسي من وجوها ووجود مؤلفاتها إنما هو تعويد أبنائها القراءة وتحبيبهم في المطالعة وإفهامهم جيداً أنهم إذا تركوا المدرسة فإنما يتركونها ليبدؤوا تعليمهم الحقيقي المستمد من داخلية نفوسهم بالاطلاع على الكتب المختلفة، مما لا أثر له عندنا مع

الآسف. ولعل سبباً من أسباب ذلك العقم يرجع إلى النظام الذي ابتدعه دنلوب قديماً في مكافأة رجال التعليم وترقيتهم، والذي أخذ به أتباعه ولا يزال يأخذ به الكثيرون منهم، ذلك النظام العتيق الذي يقضي بقصر الترقية على ذوي المؤهلات التي حصل عليها الواحد منهم من غير نظر إلى ما ينتجه فترهم يقدمون دائماً صاحب المؤهلات الأوربية على ذوي المؤهلات المصرية مهما كان الأول عديم الإنتاج ومهما كان الثاني كثير الإنتاج لا لسبب إلى لأن الأول - كما يقولون - رجل إنجلترا أو وهذا النظام - وهو نظام المؤهلات والشهادات يقضي على الإنتاج العلمي قضاءاً تاماً، لأن الجميع عرفوا أنه يكفي للواحد منهم أن يقضي ثلاث سنوات في إنجلترا ليضمن القفز المستمر في التقدم على زملائه بل على أساتذته أنفسهم مهما كانوا منتجين! وبذا لا يهتم رجل التعليم اليوم بأن يكون منتجاً (وقد يضر الإنتاج أحياناً) بقدر ما يهتم بأن ينتسب إلى إحدى الكليات في أوربا ليقضي بها سنين معدودة تجعله في مقدمة الصفوف دائماً وتضمن له الوصول إلى أعلى القمة

وإنا لنأمل في هذا العهد الجديد أن يقضي على هذا النظام الدنلوبي العتيق قضاءاً تاماً، لأنه يقف حجر عثرة في سبيل النهوض بالإنتاج العلمي والعقلي الذي يجب أن يكون هو الأداة الفعالة في سبيل النجاح والرقي

عبد الحميد فهمي مطر

صوت من ألف عام

للأستاذ محمد حسن الأعظمي

وهذا الصوت هو ديوان الأمير تميم بن الخليفة المعز لدين الله الفاطمي، وهو كما يعرف الأدباء أمير شعراء مصر في العصر الفاطمي. ويمكننا القول بأن تميما هذا كان مبدأ حياة خصيبة عامرة نشأ في وقت واحد مع القاهرة. وكان الشعر في مصر بما نعلمه عن الضعف والقلة والندرة، إذ كان العصر العباسي الثاني حافلاً بدويلات مختلفة شبه مستقلة، وكان الشعر فيها يصيب تشجيعاً من أمراء العرب كدولة بني حمدان. إلا أن الحياة في مصر كانت طوفاناً مضطرب الأمواج بين أيدي رسل الخليفة من الأتراك الذين لم يكن الشعر العربي يلقي حياته المعروفة عندهم بحكم تباين اللغة والمنزع.

لهذا كان يلجأ الشعراء إلى غير مصر ويلتمسون لأنفسهم الحياة والرقي في الشام وبغداد، بينما كانت اللغة الفارسية تلتمس في ذلك العهد نهضتها وانبعاثها في الدولة السامانية والغزنوية فإذا ما أتيح للفاطميين أن يقيموا دولتهم الكبرى في وادي النيل فنحن أمام دولة عربية هاشمية تحمي اللغة كما تحمي كتابها ودينها، ففي عصر الفاطميين أخصب البيان العربي وانفسح الميدان للشعراء يتبارون في قرض قصائده وعرض فرائده، أمكننا أن نسمع مائة شاعر في رثاء بعض الوزراء ينشدون جميعاً وينالون الجائزة جميعاً، فيجيدون من أربحية الفاطميين وسعة نائلهم ما يشجعهم على القول يدفعهم إلى الإجادة. ولكن لماذا يحدث صاحب العمدة والثعالبي وغيرهما عن تميم والجميع قد أجمعوا أو كادوا يجمعون على أن تميما كان على عرش الإمارة في الشعر كما كان أبوه وأخوه على عرش الخلافة في مصر. الحق أن للسياسة دخلاً كبيراً في السطو على تميم وحرمان أبناء العربية أدهاراً طوالاً من ثمار تفكيره، فقد كان شعر تميم ضمن مخلفات ذلك البيت المالك، وفي خزانة القصر الفاطمي التي كانت حافلة بمئات الألوف من الذخائر الأدبية والنفائس الفلسفية والعلمية، ونحن نسمع من التاريخ أحاديث متشعبة الأطراف عن الأحداث الجسام التي انتابت هذا القصر في كتبه وفي جواهره بل في أهله ومشيديه، وكان الأمر بعد عصر الحاكم نهباً في أيدي الثورات المتتابعة بين الجيوش السودانية والتركية من جهة والمصرية من جهة أخرى، وأصيب الملك كله بأزمة جائحة وصدمة فاجعة تركت القصر نهباً والكتب سلباً. ثم جاء بعد ذلك

العصر الذي غربت فيه شمس الدولة الفاطمية فنهبت هذه القصور وأحرق أكثرها وحمل القليل من تحفها وجواهرها، وشاءت الأقدار أن تحفظ لنا تميما وأن ينقل من مصر مع من هاجر من بقايا هذه الأسرة وأتباعها الذين اعتصموا بجبال اليمن ولاذوا بحصونها الطبيعية المنيعة من غوائل أعدائهم. أما أدباء العرب والمؤرخون فلم يعرفوا عن تميم بعد ذلك إلا شذرات متفرقة وبضع قصائد لعبت بها يد التحريف والتصحيف إن البقية الباقية من أتباع الفاطميين لم يكونوا بمأمن على أنفسهم في جبال اليمن فأرادوا النجاة بأرواحهم وبما في أيديهم من الكتب إلى الهند في مقاطعة كُجرات، فأقاموا بها وشيدوا لأنفسهم هنالك دويلة روحية وأقاموا لهم كلية عظيمة تدرس بها العلوم الفاطمية حيث يقبل الطلبة من أنحاء الهند إليها فيتعلمون بعد امتحان دقيق ما تصبوا إليه نفوسهم من العرفان. وكان من نصيبي أن أدرس بهذه الكلية، أو بعبارة أقرب إلى الوضوح أنه كان يعنيني في هذه الكلية دراسة فلسفتها كما حاولت قبلها الانتساب إلى كليات أخرى في مذاهب شتى لاستكمال الثقافة الإسلامية من نواحيها العديدة، ولاعتقادي أن الحكمة ضالة العاقل ينشدها في كل مكان ويبحث عن لآلئها في كل غور وصقع. وكان هذا الديوان فيما وجدته بين نفائس المكتبة وما أكثرها، فنقلته من سبع نسخ مختلفة كما نقلت غيره من الكتب الخطية المفقودة في جميع مكاتب العالم، ومنها مثلاً ثمانمائة محاضرة لداعي دعاة الفاطميين المؤيد الشيرازي الذي ناظر أبا العلاء المعري. وقد أردت قبل طبع الديوان جملة أن أعرض على قراء الرسالة الغراء نماذج يسيرة من هذا الديوان

قال رداً على عبد الله بن المعتز في تفضيله العباسيين على العلويين في قصيدته التي أولها (أي ربع لآل هند ودار):

يا بني هاشم ولسنا سواء ... في صغار من العلي أو كبار
إن نكن ننتمي لجدّ فإنا ... قد سبقناكم لكل فخار
ليس عباسُكم كمثل عليٍّ ... هل تُقاس النجومُ بالأقمار
من له الفضل والتقدم في الإ ... سلام والناس شيعة الكفار
من له الصِهر والمواساة والنص ... رة والحرب ترتمي بالشرار
من دعاء النبي خِدنا وسمّا ... هـ أخا في الخلفاء والإظهار
من له قال لا فتى كعلي ... لا ولا منصل سوى ذي الفقار
وبمن باهلَ النبيُّ أأنتم ... جهلاءٌ بواضح الأخبار
أيعبد الإله أم بحسين ... وأخيه سلالة الأطهار
يا بني عمنا ظلمتم وطرتم ... عن سبيل الإنصاف كل مطار
كيف تحوون بالأكُفِ مكاناً ... لم تنالوا رؤياه بالأبصار

من توّطى الفراشَ يخلف فيه ... أحمداً وهو نحو يثرب سار
أين كان العباسُ إذ ذاك في ال ... هجرة أم في الفراش أم في الغار؟
ألكم مثل هذه يا بني العبا ... س مأثورة من الآثار. . .؟
ألكم حرمة بعم رسول (م) ... الله ليست فيكم بذات بوار؟
ولنا حرمة الولادة والأع ... مام والسبق والهدى والمنار
ولنا هجرة المهاجر قدماً ... ولنا نصرة من الأنصار
ولنا الصوم والصلاة وبذل ال ... عرف في عسرنا وفي الإعسار
ونحن أهل الكساء سادسنا الر ... وح أمين المهيمن الجبار
نحن أهل التقى وأهل المواسا ... ة وأهل النوال والأيسار
فدعوا خُطة العُلى لذويها ... من بني بيت أحمد الأبرار
أو فلوموا الإله في أن برانا ... فوقكم واغضبوا على المقدار
أجعلتم سقي الحجيج كمن آمن (م) ... بالله مؤمناً لا يداري؟
أو جعلتم نداء عباس في الحر ... ب كمن فر عن لقاء الشفار
كوقوف الوصي في غمرة المو ... ت لضرب الرؤوس تحت الغبار
حين ولّى صحب النَبّي فرارا ... وهو يحمي النبي عند الفرار
واسألوا يوم خيبر واسألوا ... مكة عن كرّه على الفجّار
واسألوا يوم بدر من فارس الإس ... لام فيه وطالب الأوتار
واسألوا كل غزوة لرسول (م) ... الله عمن أغار كل مغار
يا بني هاشم أليس عليّ ... كاشف الكرب والرزايا الكبار
فبماذا ملكتم دوننا إر ... ثَ نبيّ الهدى بلا استظهار
أبقربي فنحن أقرب للمو ... روث منكم ومن مكان الشعار
أم بإرث ورثتموه فإنا ... نحن أهل الآثار والأخطار
لا تغطوا بحيفكم واضح الحق (م) ... فيقضي بكم لكل دمار
وأصيخوا لوقعة تملأ الأر ... ض عليكم بجحفل جرّار
تحت أعلامه من الفاطميي ... ن أسود ترمى شبا الأظفار
فأصدروا عن موارد الملك إنا ... نحن أهل الإيراد والإصدار
ولنا العز والسموّ عليكم ... والمساعي وقطب كل مدار
يا بني فاطم إلى كم أقيمكم ... بلساني ومنصلي وانتصاري
ويرثى الأمير أهل بيت النبي:
نأت بعد ما بان العزاء سعاد ... فحشو جفون المقلتين سهاد
فليتَ فؤادي للظمائن مربع ... وليت دموعي للخليط مزاد
نأوا بعدما ألقت مكائدها النوى ... وقرّت بهم دارٌ وصحّ وِداد
وقد تؤمن الأحداث من حيث تتقى ... ويبعد نجح الأمر حين يراد
أعاذل لي عن فسحة الصبر مذهب ... وللهو غيري مألوف ومصاد
ثوت لي أسلاف كرام بكربلا ... هُم لثغور المسلمين سداد
أصابتهم من عبد شمس عداوة ... وعاجلهم بالناكثين حصاد
فكيف يلذ العيش عفوا وقد سطا ... وجار على آل النبي زياد
وقتلهم بغياً عبيد وكادهم ... يزيد بأنواع الشقاق فبادوا
بثارات بدر قاتلوهم ومكة ... وكادوهمُ والحق ليس يكاد
فحكّمت الأسياف فيهم وسلطت ... عليهم رِماح للنفاق حِداد
فكم كربة في كربلاء شديدة ... دهاهم بها للناكثين كياد
تحكّم فيهم كل أنوك جاهل ... ويغزون غزوا ليس فيه محاد
كأنهم ارتدّوا ارتداد أميّة ... وحادوا كما حادت ثمود وعاد
ألم تعظموا يا قومُ رهط نبيكم ... أمالكم يوم النشور معاد
تداس بأقدام العُصاة جسومهم ... وتدرسهم جردٌ هناك جياد
تضمُهم بالقتل أمة جدهم ... سفاها وعن ماء الفرات تذاد
فماتوا عطاشاً صابرين على الوغى ... ولم يجبُنوا بل جالدوا فأجادوا
ولم يقبلوا حكم الدعيّ لأنهم ... تساموا وسادوا في المهود وقادوا
ولكنهم ماتوا كراماً أعزّة ... وعاش بهم قبل الممات عباد

وكم بأعالي كربلا من حفائر ... بها جُثث الأبرار ليس تُعاد
بها من بني الزهراء كل سميدع ... جوادٍ إذ أعيي الأنام جَواد
معفّرة في ذلك الترب منهم ... وجوه بها كان النجاح يفاد
فلهفي على قتل الحسين ومسلم ... وخزي لمن عاداهما وبعاد
ولهفي على زيد وبثا مردّدا ... إذا حان من بث الكئيب نفاد
ألا كبدٌ تفنى عليهم صبابةً ... فيقطر حزناً أو يذوب فؤاد
ألا مقلة تهمي ألا أذن تعي ... أكلّ قلوب العالمين جماد
تقاد دماء المارقين ولا أرى ... دماء بني بيت النبي تقاد
أليس هم الهادين والعترة التي ... بها انجاب شركٌ واضمحل فساد
تساق على الإرغام قسراً نساؤهم ... سبايا إلى أرض الشآم تُقاد
يسقن إلى دار اللعين صواغراً ... كما سيق في عصف الرياح جراد
كأنهم فيء النصارى وإنهم ... لأكرم مَن قد عزّ عنه قياد
يعزّ على الزهراء ذلة زينب ... وقتل حسين والقلوب شِداد
وقرع يزيد بالقضيب لسّنه ... لقد مجسوا أهل الشآم وهادوا
قتلتم بني الإيمان والوحي والهدى ... متى صحّ منكم في الإله مُراد
ولم تقتلوهم بل قتلتم هداكم ... بهم ونقصتم عند ذاك وزادوا
أمية ما زلتم لأبناء هاشم ... عِدي فاملأوا طرق النفاق وعادوا
إلى كم وقد لاحت براهين فضلهم ... عليكم نِفارٌ منكم وعناد
متى قط أضحى عبد شمس كهاشم ... لقد قل إنصاف وطال شراد
متى وُزِنت صمّ الحجار بجوهرٍ ... متى شارفت شمَّ الجبال وهادُ
متى بعث الرحمن منكم كجدهم ... نبيًّا علت للحق منه زِناد
متى كان يوماً صخركم كعليّهم ... إذا عُدَّ إيمان وعُدّ جهاد
متى أصبحت هندٌ كفاطمة الرضى ... متى قِيس بالصبح المنير سَواد
أآل رسول الله سؤتم وكدتم ... ستُجنى عليكم ذلة وكساد
أليس رسول الله فيهم خصيمكم ... إذا اشتد إبعاد وأرمل زاد
بكُم أم بهم جاء القرآن مبشراً ... بكُم أم بهم دين الإله يُشاد
سأبكيكم يا سادتي بمدامع ... غزارٍ وحزن ليس عنه رقاد
وإن لم أعاد عبد شمس عليكم ... فلا اتسعت بي ما حييتُ بلاد
وأطلبهم حتى يروحوا ومالهم ... على الأرض من طول الفِرار مهاد
سَقى حفراً وارتكم وحوتكم ... من المستهِلاّت العِذاب عهاد
وقال متغزلاً:
قالت: أغدراً بنا في الحب قلت لها: ... لا نال غاية ما يرجوه مَن غَدرا
قالت: فلم لم تزرنا قلت: زاركم ... قلبي ولم يدر بي جسمي ولا شعرا
قالت: كذا يكتم العشّاق حبّهم ... فينعمون ويجنُون الهوى نضرا
قلت: اسمحي لي بتقبيلٍ أعيش به ... قالت: وأيّ محبٍ قبّل القمرا
وقال يصف الناعورة:
وباكية من غير دمع بأعين ... على غير خل دائماً تتحدر
يغني بها زجل المدير لقطبها ... فيطربها حسن الغناء فتنعر
إذا نزف العشاق دمع عيونهم ... فأدمعها مع كثرة السكب تغزر
وقال وقت الخروج من الشام سنة 374هـ:
قالوا الرحيل لخمسة ... تأتي سراعاً من جمادى
فأحببتهم أني اتخذت ... له البكا والحزن زادا
سبحان من قسم الهوى ... بين الأحبة والبعادا
وأعار للأجفان سق ... ما يسترق بها لعبادا
يا ويح من منع الفراق ... جفون مقلته الرقادا
وقال في الحكم:
قواضب الرأي أمضى من شبا القضب ... والحزم في الجد ليس الحزم في اللعب
بت ساهراً عند رأس الأمر ترقبه ... ولا تبت نائماً عنه لدى الذنب
يرجى دفاع الرزايا قبل موقعها ... وليس يرتجع الماضي من النوب

وأفضل الحلم حلم عند مقدرة ... وأعذب الجود ما وافى بلا طلب
وقال أيضاً:
قتيل الحوادث مَن خافها ... فلا تخش حادثةً تنجح
مع العسر يسر يجّلي الأسى ... ألم تتذكر ألم نشرح
وقال:
عتبتْ فأثنى عليها العتاب ... ودعا دمعَ مقلتيها انسكاب
وسعت نحو خدّها بيديها ... فالتقى الياسمينُ والعُنَّاب
رُبَّ مبدي تعتّبٍ جعل العت ... ب رياء وهمّه الإعتاب
فاسقينها مدامةً تصبغ الكأ ... س كما يصبغ الخدود الشباب
ما ترى الليل كيف رقَّ دجاه ... وبدا طيلسانه ينجاب
وكأن الصباح في الأفق باد ... والدجى بين مخلبيه غراب
وكأن السماء لجة بحرٍ ... وكأن النجوم فيها حباب
وكأن الجوزاء سيف صقيل ... وكأن الدجى عليها قِراب
وقال معرضاً ببعض القرابة، وذاك أنه ذكر أن الأمير يستعين على ما يأتي به من الشعر بغيره:
أرى أناساً ساءني ظنهم ... في كل ما قلت من الشعر
لما تطاطا بهمُ علمهم ... قاسوا بأقدارهمُ قدري
لو فهموا أو عقلوا لاستحوا ... أن يجعلوا المريخ كالبدر
قيسوا بشعري شعره تعلموا ... تصايق النهر عن البحر
من بطّل الحق هجا نفسه ... بجهله من حيث لا يدري
فناظروني فيه أو فاشرحوا ... شعريَ إن أنكرتم أمري
أو لا فقولوا حسدٌ قلتل ... مستمكن في القلب والصدر
وقال يمدح أخاه الخليفة العزيز بالله الفاطمي:
أشرب فإن الزمان غضّ ... وصرفه ليِّن الجناب
من قهوة مرّة كميت ... أسكرُ من أعصر الشباب
أرق من أدمع التصابي ... سكباً وأشهى من الضراب
صاغ لها المزج حين شبت ... بطاق در من الحباب
كأن في كأسها صباحاً ... والليل محلولك الثياب
يسعى بها ساحر المآقي ... لا يمرض الوصل بالعتاب
كأنها لون وجنيته ... وطيب ألفاظه العذاب
إن ندى راحتي نزار ... ما زال يغني عن السحاب
مهذب أروع السجايا ... مقابل ما جد النصاب
ومن أحسن ما قيل في الأمير قول ابن رشيق:
أضح وأقوى ما سمعناه في الندى ... من الخبر المأثور منذ قديم
أحاديث ترويها السيول عن الحيا ... عن البحر عن كف الأمير تميم
محمد حسن الأعظمي
-
لو. . .
للأستاذ إيليا أبو ماضي
لو أنني يا هند بدر السما ... هبطت من أفقي إلى مخدعك
وصرت عقداً لك أو خاتما ... في جيدك الناصع أو أصبعك
أو بلبل البستان ما لذ لي ... الإنشاد إن لم يك في مسمعك
ولو أكون الأرج الذاكي
لما هجرت الروض لولاك
وما حواني غير مغناك
ولم أفح حتى تكوني معي
فيك وفي الوردة سر الصبا ... وفي الصبا سر الهوى والجمال
فإن تريني واجماً باهتا ... حيالها أخشى عليها الزوال
فإنني شاهدت طيف الردى ... ينسل كالسارق بين الظلال

ولاح لي في الورق النامي
منطرحاً في الأرض قدامي
رموز آمال وأحلام
أحلام من؟ أحلام مضناك
إيليا أبو ماضي
استطلاع صحفي
مدرسة الطيران الحربي
كيف تصبح طياراً حربياً؟
(لمندوب الرسالة)
تكلمنا في مقال سابق عن مدرسة التصوير الجوي وبينا أهميتها. ونتحدث اليوم عن مدرسة الطيران الحربي حيث يتلقى ضباطنا الطيارون دروسهم العلمية والعملية فيكونون أهم وسائل القتال الحديث. فقد اصبح الطيران الحربي عماد الجيوش فهو الذي يؤدي مهمة استطلاع مواطن العدو، وهو الذي يدمر بقنابله موارد جيوشه، ويعطل طرق تموينه بنسف السكك الحديدية أو المصانع الحربية والحاجيات الأولية، فهو الذي يدعم الحرب الاقتصادية).

قوة الأعصاب

على طرف مسطرة ممدودة في يد أحد الطلاب أوقف مسمار على سطحه المستوي. والمسطرة وذراع الطالب في مستوى كتفه يتحركان ذات اليمين وذات اليسار تبعاً لأوامر الطبيب دون أن يهتز المسمار أو يسقط. فالطبيب يختبر قوة أعصاب الطالب ليقرر إذا كان يصلح لدراسة فن الطيران الحربي أو لا يصلح. وينتقل الطالب من إختبار إلى اخر، فهنا يختبر الطبيب حدة بصره وسلامته من العيوب فيقرب جسماً صغيراً من وجهه ليرى زاوية التقاء البصر في العينين، وهناك يدرس حساسية أجزاء الجسم فيمر أجساماً غريبة على جلده ويلاحظ الانفعالات المختلفة، وهكذا يمر طالب الالتحاق بمدرسة الطيران الحربي من مرحلة إلى أخرى، حتى يتأكد الطبيب أن جسمه من أصلح الأجسام وأقواها، فإن الطيار يتعرض لضغوط جوية مختلفة تودي بحياته إذا كان جسمه لا يتحملها.

فإذا قبل الطالب في مدرسة الطيران الحربي، فهو يبدأ دراسة فنية عمادها الخبرة العملية وتطبيق النظريات العلمية مع ملاحظة سرعة الخاطر وحضور البديهة. فالطيران الحربي فن الطوارئ سواء كانت طبيعية أم صناعية، فقد يقابل الطيار أثناء تحليقه في الجو إعصاراً، وقد يفسد منه أحد الأدوات، فعليه أن يدبر نفسه ويصلح خلله وإلا كلفه جهله أو ارتباكه ثمناً غالياً إذا لم يكن حياته فهو الطائرة التي يركبها. وقد تقابله أثناء قتاله مع العدو قوة أقوى من قوته أو خدعة لم تخطر له على بال، فعليه في هذه الحالة أن يتصرف ويجيد التصرف، وعليه أن يغامر ويحسن المغامرة وإلا أفسد المهمة التي كلفه بها قائده وكلف جيشه وأمته خسائر مادية ومعنوية كبيرة.

الطيران الثابت

يبدأ الطالب دراسته في مدرسة الطيران الحربي في غرفة صغيرة في أحد جوانبها جهاز صغير على شكل حجم الطائرة، ورسم على حائط الغرفة الأفق وزوايا الطيران المطلوبة. وفي جانب آخر يجلس المدرب أمام جهاز لاسلكي يعرف بواسطته حركات الجهاز كما يصدر أوامر بالاتجاه إلى اليمين أو إلى اليسار والأمام.

ويدور هذا الجهاز بالكهرباء، فيجلس الطالب على مقعده فيجد أمامه عصا القيادة وأقيسة اتجاهات الريح والضغط والبوصلة وغيرها من الأدوات التي لا غنى عنها لطيار. ويعمل الجهاز فتتولد فيه عدة تيارات هوائية تمثل التيارات الهوائية الجوية، ويتعرض جهازه لعدة أخطاء فيتعلم الطالب كيف يضبط جهازه في الوضع الصحيح بتحريك عصا القيادة في اتجاه يصحح أخطاء الريح فإذا مال الجهاز بفعل التيارات إلى اليمين صححه الطالب

وتعرف هذه الرحلة بالطيران الثابت، ففيها يتعرض الطالب لجميع مؤثرات الطيران،

ولكن جهازه لا يفارق الأرض، وإن سمح له أن يدور إلى اليمين أو إلى اليسار. ويمكث الطالب على هذه الحالة عشر دقائق في اليوم لمدة 15 يوماً. فيتاح للطالب المبتدئ أن يعرف كثيراً من أسرار الطيران دون أن يعرض حياته ومال الدولة للهلاك. أضف إلى ذلك أنه يكون بعيداً عن ضوضاء المحركات مالكاً لأعصابه فيسهل عليه أن يفهم إرشادات مدربه بسهولة

لا تتيسر له إذا استعمل طائرة حقيقية، ثم وجد نفسه لأول مرة معلقاً بين الأرض والسماء

الطيران الأعمى

والأصل في هذا الجهاز أن يتمرن عليه الطيارون فيما يسمى بالطيران الأعمى، إذ يغطي سقفه فينعزل القائد عن العالم ولا يبقى أمامه إلا خريطة وأجهزة ليضبط بها الاتجاه الذي يجب أن يسير فيه. وهذا المران هام جداً لمن يريد قطع مسافات طويلة على ارتفاعات كبيرة لا يمكنه رؤية تفاصيل الأرض أو في مناطق متشابهة كالصحارى أو البحار والمحيطات، فعلى ضوء هذه الأدوات وحدها يعرف الطيار طريقه وبمساعدتها يصل إلى هدفه

ورأت إدارة المدرسة أن تستغل هذا الجهاز لتعليم المبتدئين لقلة نفقاته ولبعده عن الخطر، فإنه يدار بالكهرباء التي لا تكلف الدولة إلا نفقات زهيدة لا تذكر إلى جانب ما تستهلكه الطائرة الحقيقية من وقود وآلات. ويمر بهذا الجهاز كل طالب يدرس فن الطيران سواء كان ضابطاً أو مجاهداً (صول)

والمعروف أن الطيارين لا يحتاجون إلى كثير من تنظيم الصفوف وتعليم المشية العسكرية والحركات الحربية الأرضية ولكنه يحب على كل طيار أن يقضي أربعة أشهر يتعلم فيها هذه الحركات لتكتسب عضلاته المرونة الرياضية وليتعود الحياة العسكرية، فإذا أتقنها بدأت حياته كطيار

بين طبقات الهواء

وبعد أن يتقن الطالب السيطرة على إدارة هذا الجهاز ينتقل إلى الرحلة التالية فيحلق بطيارة حقيقية في الهواء. وتحتوى طائرة التدريب عادة على مقعدين أحدهما خلف الآخر جهز كل منهما بجميع أدوات القيادة، وامتاز مقعد المدرب (بزر) إذا ضغط عليه انتقلت عملية القيادة إلى أدواته. يجلس الطالب في مقعده ويجلس المدرب في الثاني فإذا ارتفعت الطائرة في طبقات الهواء ترك المدرب لتلميذه مهمة قيادتها تبعاً للخبرة التي تلقاها عندما كان في مرحلة الطيران الثابت. فإذا أخطأ صحح له أخطاءه

ويستمر هذا المران أشهراً ثلاثة يتلقى الطيار أثنائها فنون الطيران كالملاحة الجوية وصيانة الطائرة وفنون اللاسلكي واستعمال أسلحة القتال المختلفة، فإن المران العملي لا يستنفذ كل وقت الطالب إذ هو لا يتجاوز الساعة في اليوم بينما يصرف باقي يومه في تلقي العلوم النظرية، ويتلقى طلبة الكلية الحربية بعض هذه العلوم قبل التحاقهم بمدرسة الطيران

ويتنقل الطالب أثناء مرانه على ثلاثة أنواع من الطائرات تختلف في الوزن والسرعة والدقة، ولهذا فهي تقسم إلى ثلاث مراحل أولاها الطيران الابتدائي فيقود الطالب طائرة من طراز ماجستر، وفي الطيران المتوسط تكون طائرته من نوع الإفرو وفي المرحلة الأخيرة المعروفة باسم الطيران العالي يقود طائرة من نوع الأوداكس، وتختلف سرعة الهبوط على الأرض في كل من هذه الأنواع الثلاثة

مدرسة حديثة ناجحة

فإذا نجح الطالب في اجتياز هذه الفترات الثلاث جاز له أن يقود أكبر الطائرات وأكثرها تعقيداً. وقد تمكنت مدرسة الطيران الحربي من سد حاجات سلاح الطيران الجوي المصري رغم حداثة عهدها إذ أنشئت سنة 1938. ولم تكن هي أولى مدارس الطيران في مصر، فقد أنشأ سلاح الطيران الحربي البريطاني مدرسة في أبي قير سنة 1929 ويبذل مدير المدرسة عبد الحميد الدغيدي أفندي كثيراً من الجهد والوقت حتى تؤدي المدرسة مهمتها بتقديم طيارين صالحين يقدرون المهمة الملقاة على عاتقهم بالدفاع عن مصر وكرامتها، ويعرفون أن الطيران أصبح من أشد وسائل القتال خطورة

صيانة وإصلاح

وإذا قلنا مدرسة الطيران الحربي فإننا في الواقع نتكلم عن أربع مدارس مجتمعة في

مكان واحد وتحت إدارة واحدة. فإن الطيران الحربي يحتاج إلى مدرسة ميكانيكية يتعلم فيها رجال الجيش كيف يصلحون العطب الذي يحل بطائرتهم والعناية بها، فإن مهمة حفظ هذه الأدوات لا تقل خطورة عن مهمة قيادتها. فإن أقل خلل في جهاز الطائرة يعرضها للتلف كما يكلف الأمة فقد أرواح عزيزة عليها

ولهذا فقد اختص فريق من الطلبة بالدراسة في هذا المعهد حيث يفحصون أجزاء الطائرات

على نماذج مكشوفة عملت فيها قطاعات تبين أجزائها المختلفة حتى يشاهد الطالب بنفسه العمليات الداخلية في الطائرة وأثرها. ففي إحدى الغرف تشاهد محركاً تظهر فيه مجاري الوقود وتبين تأثيره. وفي مكان آخر تشاهد نموذج جناح الطائرة وجزءها الخلفي وهو مكشوف بين التركيبات الداخلية وقوة مقاومتها

ويتولى خريجو هذا القسم الإشراف على صيانة الطائرات وإصلاحها، ولا يباح للطائرة أن تغادر حظيرتها إلا إذا رأى الضابط المسئول أنها في حالة جيدة وأن جميع أجهزتها سليمة. ولهذا يتولى المسئولون فحص الطائرات كل مدة معينة. وأحياناً يكون هذا الفحص كاملاً وأحياناً يكون سطحياً تبعاً لحالة الطائرة والمدة التي حلقتها في الجو، فلكل طائرة كتابها الخاص الذي يبين تاريخ حياتها حيث تقيد فيه عدد ساعات تحليقها في الجو والأماكن التي زارتها والأعمال التي أدتها

حلقة متصلة

وتستلزم لدراسة الميكانيكية لأجزاء الطائرات معرفة عدة مهن فكما تحتاج إلى حداد فهي تحتاج إلى نجار، فبعض أجزائها يتكون من المعادن وبعضها الآخر يتكون من الخشب. أضف إلى ذلك ما يحتاجه سلاح الطيران من أثاث تعد به الحجرات وصناديق تحفظ فيها الذخائر والأجهزة

ويتبع مدرسة الطيران الحربي مدارس التصوير الجوي والمدفعية واللاسلكي. وقد تحدثنا عن الأولى في مقال سابق وفي عدد تال نتحدث عن المدرستين الأخريين فإن كل هذه الفنون ضرورية للطيار حتى يكون قادراً على تأدية مهمته سواء في زمن السلم أو في زمن الحرب

وفي مدرسة المدفعية يتعلم كيف يطلق القنابل ويستعمل مدافعه السريعة الطلقات، وفي مدرسة اللاسلكي يتعلم كيف يتلقى الأوامر من قيادته وهو محلق في الجو

فوزي الشتوي

التاريخ في سير أبطاله

مازيني

رسول الحرية إلى قومه، المجاهد الذي أبلى في جهاده مثل

(بلاء الأنبياء

للأستاذ محمود الخفيف

- 2 -

والتحق الفتى بالجامعة في جنوة حيث بدأت فترة نشاطه في قراءة الآداب والتزود بشتى فروع المعرفة مما يدخل في نطاق دراسته؛ وما كان اعتماده فيما يقرأه على الجامعة، فلو أنه قصر همه على ما كانت تزجيه لطلابها من الدروس والكتب لكان له وجهة غير التي اتجهها في المطالعة والبحث ولكانت ثقافته من نوع محدود، هو ذلك النوع الذي يعد الطلاب للإجازات التي تمنحها الجامعات لأبنائها دلالة على انهم درسوا هذه الفنون أو تلك في مستوى معين وعلى صورة معينة ما تكاد تختلف في طالب عنها في آخر

وما كان الفتى ممن يسهل قيادهم من الفتيان فيولون الوجهة التي يريدها لهم غيرهم، وإنما كان بطبعه ثائراً على كل قيد، ما رأى شبح القواعد التي تحد من الحرية في شيء إلا نفر منه ثم عول على تخطي تلك القيود ولو أصابه من وراء ذلك الإعانات والإحراج؛ وكثيراً ما أدى ذلك إلى شكوى القائمين على شؤون الجامعة، وإلى اتهام من يجهل خلقه إياه بأنه مشاغب متمرد؛ أما الذين عرفوه معرفة خبرة فكانوا يحسون في ذلك التمرد وفي ذلك التوثب روحاً قوية حرة لا يجدون نظيرها في أحد ممن حوله من الطلاب

وكانت الحكومة وقد هالها ما هب من الثورات تقاوم كل ميل إلى الحرية ما وسعتها

المقاومة؛ وكانت الجامعات هي الأمكنة التي تنظر إليها بعين الخوف والحذر، ففي هذه الأبنية يلتقي الشباب، والتقاء الشباب في جماعات أمر لا يتفق في طبيعته مع تلك المقاومة التي راحت تحكم الحكومة أمرها في طول البلاد وعرضها؛ فللشباب أحلام وآمال لا تحد، وفيهم حيوية وتوثب، ثم هم يتزودون من المعرفة؛ ومن كان هذا شأنهم، أو من كانت هذه طبيعتهم صعب على الآمرين أخذهم بالعنف، بل ما يكون العنف إلا داعياً إلى العصيان

فالتذمر فالثورة

وكان حراماً على الأساتذة أن يجاروا الطلاب في أهوائهم، أو أن يكون فيما يلقونه عليهم ما يحفزهم إلى أيتجهوا الوجهة التي لا ترضاها الحكومات لهم؛ وكانت إدارة الجامعة في جنوة لا تقبل من الطلاب غالباً إلا من تطمئن إلى سلوكه ومن يملك أبوه قدراً معيناً من الثروة لتكون ثروته رهينة لدى الحكومة متى شاءت؛ وحسبك أنها كانت تحتم على الطلاب أن يحلقوا شواربهم لأن الشوارب عندها كانت من علامات التمرد والنزوع إلى الأفكار الثورية! ومن خالف ذلك حمل على رغمه إلى أقرب حلاق حيث يقضي على شاربه في غير رفق، ولا ندري كم مرة حمل فيها مازيني على هذه الصورة المضحكة!

وكانت له وهو لا يزال في الجامعة الزعامة على الطلاب جميعاً؛ وهو بذلك يقدم البرهان العملي على أن الزعيم الشعبي يولد وفيه صفات الزعامة، فما يزال زعيماً في كل مراحل حياته حتى تتناهى إليه كبرى الزعامات فيصبح في أمته الرجل الذي يعمل بوحيه الرجال أرادوا ذلك أو لم يريدوا

كان وسط إخوانه جاداً لا يعرف صغار الأمور، عزوفاً بطبعه عن اللهو وإن كان يحب الرياضة البدنية ويجعل لها بعض وقته، فإذا كان لا بد من المزاح فهو مزاح الأديب الفطن، الذي يحلق ولا يسف، والذي تعذب روحه دون أن يبتذل شخصه. وكان له إلى الموسيقى ميل شديد ولكن على أنها شيء تسمو بها النفس وتستيقظ عليه الروح، أما أن تكون ملهاة أو مدعاة إلى المجون والعبث فذلك ما كان ينفر منه أشد النفور

وكان شخصه أبداً يوحي إلى من حوله معاني الاحترام؛ فصفاء ذهنه وحدة تفكيره يمليان على المتحدث أن يفكر فيما يقول، وقوة خلقه وترفعه عن الدنايا تحول بين الكلمة النابية على لسان غيره وبين الإعلان؛ وإنه ليحمي الضعيف وينتصر للمظلوم، ويدافع عن الحق في كل ما يعرض له من الأمور؛ ثم إنه ليواسي البائس ويعزي المحزون، ويمد الفقير بما تملك يداه من نقود وكتب وملابس. ولسوف تكبر معه تلك الصفات وتنتقل من مجال الجامعة إلى مجال إيطاليا كلها يوم ينفخ فيها من روحه فيبعث في أرجائها الحياة والأمل

وكانت القراءة أحب هوية إلى نفسه منذ حداثته، فكان يكب على ما يقع في يده من الكتب فما يدعها حتى يأتي عليها؛ ثم اتفق وبعض خلانه على تأليف جماعة للقراءة والدرس.

وكانت الحكومة بعد ثورات سنة 1820 قد شددت الرقابة على الكتب فلا تسمح بنشر ما يدعو إلى المبادئ الثورية منها أو ما توحي قراءته بتلك المبادئ؛ وكذلك شددت الحكومة الوثاق على الصحف الأجنبية فلا تأذن بدخول البلاد إلا لما لا تخشى من دخوله. من أجل ذلك عولت تلك الجماعة على تلمس السبل لتهريب الكتب والصحف المحرمة، ولقد نجحت في ذلك نجاحاً مرضياً

وأقبل مازيني على كتب الأدب فراح يعيش مع شكسبير وجوته وبيرون وشلر، وكان قد قرأ قبل هؤلاء دانتي وأعجب به أيما إعجاب حتى لقد صار له المكان الأسمى في قلبه كان مازيني يرى رسالة الأدب على العموم والشعر على الخصوص السمو بالنفوس وتطهيرها، وبث الأمل فيها وتقويتها وشحذ العزائم واستنهاض الهمم، وإيجاد روح المحبة والمودة بين الناس، وكان يرى أن الشاعر الحق هو الذي يجمع بين الشعر والحكمة فيطرب النفوس ويطير بها إلى الجواء العليا ثم يملأها بمعاني الفضيلة ويستحثها على الجهاد والعمل؛ أما الاقتصار على التغني والوصف دون أن يكون من وراء ذلك غاية من فضيلة أو عمل فذلك عنده ضرب من النقص

وقرأ مازيني فيما قرأ الفلسفة فدرس هيجل وكانت وفخت وهردر، وصاحب روسو وفلتير فترة من الزمن، ورجع إلى ماكيافيلي وكان عنده في السياسة كدانتي في

الأدب إذ كان كلاهما إيطالياً وطنياً وإذ كان نبوغ كل منهما يدل على إيطاليا جديرة بأن تخرج النوابغ الأفذاذ

وكان في إيطاليا يومئذ نزاع بين أنصار الأدب الابتداعي (الرومانتيكي) وأنصار الأدب الأتباعي (الكلاسيكي)؛ فكان من الطبيعي أن يشايع مازيني الفريق الأول، فينتصر لأدب الحرية والابتكار الذي يتحرر من القيود ويجرف السدود، وكم كان لذلك معجباً بشاعر إنجلترا العظيم اللورد بيرون، ذلك الذي كان يصل شعره إلى أعماق نفسه لما كان فيه من تمرد وتوثب ولما كان يوحي به من معاني العزم والجهاد والتغلب على الشدائد؛ وكان اسم بيرون يومئذ يدوي في أنحاء أوربا حتى لقد باتت كتبه فتنة كل شاب في كل لغة

وكان مازيني يقول إنه لن يتحقق لإيطاليا من جديد كيان سياسي اجتماعي إلا إذا تحقق لها أدب يدعو إلى الحرية والتقدم. ومما ذكره في هذا الصدد قوله: (إن تشريع وآداب أية أمة

يسيران أبداً في خطين متوازيين) وقوله: (إن بين تقدم الثقافة العقلية والحياة السياسية للأمة ارتباطاً وثيقاً) وتحدث عن الأدب الابتداعي بقوله: إن غرض الأديب الابتداعي هو أن يمد الإيطاليين بأدب قومي أصيل، لا بأدب كذلك الذي يكون كصوت الموسيقى العابرة يطأ الأذن ثم يموت؛ أدب يترجم لهم عن نوازع نفوسهم وأفكارهم وحاجاتهم وحركتهم الاجتماعية)

وراح الشاب وهو في الثالثة والعشرين يكتب في الصحف وقد صرف همه أول الأمر إلى النقد، إذا كان يرجو من ورائه أن يوجه أدب قومه إلى ما كان يريد؛ وبدأ يكتب في صحيفة في جنوة ولكنها عطلت بأمر الرقيب بعد عام، فأنشأ صاحبها غيرها وكتب إلى مازيني ليوافيه بأبحاثه ففعل مغتبطاً ولكن هذه الصحيفة لحقت بسابقتها بعد عام آخر، فتعاظم الأمر هذا الشاب الحر ولكنه ما زاده إلا إيماناً بالحرية ومزاياها

وتسنى لمازيني بعد جهد ليس بالقليل أن يتصل بأكبر صحف بلاده وكانت تسمى (أنتولوجيا) وقد أخذت مواهبه، كناقد من أمهر النقاد، تتجلى في تلك الصحيفة

وكان مازيني يجعل من الأدب يومئذ وسيلته إلى خدمة بلاده وكانت تحدثه نفسه بشتى المشروعات الأدبية يرمى بها إلى الهدف الذي عينه، هدف القومية والحرية؛ ولكن هاجساً ظل يهجس في نفسه منذ ترك الجامعة أن الأدب ليس كل شيء، فهو وسيلة بطيئة، ولا سيما أن الرقابة تضيق مجاله أشد التضييق

وكان ذلك الهاجس يكرب نفسه إذ كان يدعه في حيرة من أمره ويذره أحياناً بين اليأس والرجاء؛ فروحه المتوثبة كانت تستبطئ الوسيلة التي اتخذها وتتوق إلى وسيلة غيرها ولكنه كان لا يدري ما عسى أن تكون الوسيلة الجديدة. . . أليس يحس يد البطش تقضي على كل ميل إلى المقاومة في كل جهة من جهات إيطاليا؟ ثم ألا يذكر ما حل بالثائرين قبل ذلك بنحو ثمانية أعوام؟ وهاهو ذا مترنخ لا يزال يشهر سيف الرجعية فيخطف بريقه الأبصار ويلقي الرعب في الأفئدة

على أنه وإن عدم الوسيلة كان يرى الغاية واضحة أمامه أتم الوضوح؛ وما كانت تلك الغاية إلا بناء إيطاليا من جديد على أساس قومي، فتصبح أمة واحدة تتمتع بالحرية وتبهر العالم كما تعودت أن تبهره من قبل بثقافتها ومدنيتها؛ ولقد استقرت هذه الغاية في أعماق

نفسه حتى أصبحت أغلى عنده من حياته؛ وما تهدأ تلك النفس التي تتنزى في أغلال الرجعية حتى يؤدي رسالته أو يهلك دونها، مهما يرى أمامه من جبروت ويلمس من بطش؛ ولكم سلح الحق الأعزال وحطم الإيمان السلاسل والأغلال

وكان الفتى منذ عامين قد اتصل بجماعة الكاربوناري وانضم إلى صفوفهم؛ وكانت تلك الجماعة لا تزال تضم إليها الأنصار في طول البلاد وعرضها، ولئن كان قد لحقها الوهن منذ ثوراتها عام 1820، فلقد ظلت متماسكة، ولقد أخذت تنتشر حتى لقد جازت حدود إيطاليا وصار لها مراكز في القارة، وكان مركزها الرئيسي في باريس، حيث اتصل زعماؤها بالأحرار الناقمين على الملكية المتجبرة في فرنسا ملكية شارل العاشر، أو الكونت دا أرتوا ذلك الذي شهد بنفسه بالأمس القريب الثورة الكبرى ورأى مصير لويس المسكين فما اعتبر، بل طغى واستكبر، حين استوى على العرش وازدهاء التاج والصولجان.

ولكن جماعة الكاربوناري كان يعوزها المال والقيادة الحكيمة، وذلك ما كان يألم له مازيني أشد الألم، وكذلك كان يألم مازيني من اعتماد الجماعة على فرنسا فحسب إذ كان يرى - وما أجمل ما كان يرى - أن قوة الشعب إن لم تكن منبعثة منه فلا أمل فيها، وأساس الوطنية والجهاد القومي اعتماد الشعب على إيمانه وثقته في نفسه أولاً، ولا ضير بعد ذلك أن يتلقى العون من غيره؛ ولكنه إن اعتمد على غيره وكانت تعوزه العزيمة فليس له من أمل إلا أن يعينه ذلك الغير، وهذا أمر غير مضمون في كل وقت، وإذا كف ذلك الغير يده عظمت الخيبة وتسرب إلى النفوس اليأس

على أنه على الرغم من هذا كان يرى في الجماعة الهيئة الوحيدة التي تعتبر عنصر المقاومة والفداء، ولذلك لم يتردد أن يضع يده على خنجر عار ويؤدي القسم على تنفيذ ما يأمر به؛ وكان من نظام الجماعة ألا يعرف العضو رؤساءه، وإنما يعرف زميلاً أو زميلين، ولقد أخلص مازيني لمبادئ الجماعة ونمى أمر إخلاصه وحماسته إلى رؤسائه القريبين، فأوفد من قبلهم إلى بعض الجهات مبشراً بتلك المبادئ عاملاً على ضم أعضاء جدد إلى الكاربوناري. . .

ورجفت الراجفة في فرنسا فأطاحت بالملك المتجبر عام 1830؛ فرأى للمرة الثانية الدليل العملي على أن قوة الشعوب قد باتت أمراً يجدر بكل حاكم أن يحسب له ألف حساب؛ وأن

هذه الشعوب إذا استقرت بعد هياج فلن تكون، إذا سلط عليها الظلم، إلا كالبحر يعظم جيشانه وفورانه بقدر ما كان من تطامنه وثباته

وهبطت من وراء الألب على إيطاليا أنباء الثورة الجديدة في فرنسا والتمعت بوارق الأمل للأحرار، وتأهب رجال الكاربوناري، وقد حسبوا أن قد جاء اليوم الموعود، ونشط مازيني وخلانه يذيعون مبادئ الجماعة ويهيبون بالشباب أن ينتظروا أول صيحة

ولكن الحكومة ما لبثت أن ألقت القبض عليه، فلقد بثت من قبل عيونها بين صفوف هذه الجماعة واتهم مازيني بأنه كان يغري أحدهم بالانضمام إليها. وألقى بالشاب المجاهد في غيابة السجن في سافو وهو يومئذ في الخامسة والعشرين، فكان هذا أول ما لحقه من الآلام في حياته التي سوف تكون مليئة بالآلام

وسيق إلى المحاكمة فمالت إلى تبرئته لعدم توافر الأدلة ولأنه لم يقم إلا شاهد واحد عليه؛ ولكن السلطة خيرته بين الاعتقال في إحدى القرى أو النفي إلى خارج إيطاليا؛ فاختار النفي، وعبر جبال الألب إلى فرنسا، وكان يريد الذهاب إلى باريس حيث يخدم مبادئ الجماعة هناك، ولكنه تحول إلى ليون حيث انضم إلى المنفيين هناك من الإيطاليين وشاطرهم مرارة الاغتراب

(يتبع)

الخفيف

رسالة الفن

دراسات في الفن

معضلة بين الفن والقانون

للأستاذ عزيز أحمد فهمي

قابلتني، وكنت أنا في هذه المرة المهموم فسألتني مشفقة:

- مالك؟

- إني متألم لصديق توشك نكبة أن تحل به ويلزمه العيش أن يمهد لها السبيل كي تحل به

- أعوذ بالله! ومن صديقك هذا؟ أأعرفه؟

- تعرفينه، ويعرفه الكثيرون. هو محمود حسن إسماعيل الشاعر، والموظف بوزارة المعارف

- محمود إسماعيل؟ وماذا جرى له؟

- عينه اليسرى ضعيفة - فيما تقول الوزارة - وهو الآن يعالجها ليقويها لينجح في الفرصة الأخيرة من فرص الكشف الطبي، لتجدد الوزارة عقده وتثبته في وظيفته. . .

- فهل أصابها سوء وهو يعالجها؟

- يقول إنها تتقوى

- وأي شيء في هذا؟

- أن يمتنع الشعر على محمود!
- إيه؟ ولماذا
- لأن عينه اليسرى هي التي يرى بها الشعر ما دامت على هذه الحال
- أما قلت لي هذا من الأول؟! حسبت ما يهمك جداً. وماذا يا سيدي؟
- لا شيء، أما يكفيك هذا؟ كم هم الشعراء في مصر الذين يشبهون محموداً في مصر الآن ومن قبل
- يا سلام؟! أإلى هذا الحد تكبره؟
- هذا رأيي. وقد قلته له في وجهه، وأنت تعرفين قلة ما أقتنع بالناس، وندرة ما أصرح بهذا الاقتناع. . . وأنا كما قلت لك دائماً أعجز العاجزين، وأضعف الضعفاء
- ولكني لا أرى محموداً كما تراه. . .
- فليكن رأيك فيه ما يكون. ولكن التاريخ سيشهد بأن الشعر العربي في مصر بدأت تكثر فيه التسابيح، والأنغام، والتهاويل، والطهارات، والأشعة، والضفادع، والثيران، والغربان، والنخيل، والبقول، والزهور، والأرواح، والأطياف، والمعازف، والمزامير، والمباسم، والمشاعل، والساقي، والأكواخ، و. . . و. . . و. . . من بعد اليوم المبارك 23 يناير سنة 1938
- وهل استصدر محمود في هذا اليوم مرسوماً من القصر الملكي باستعمال هذه الألفاظ في الشعر، وطواف الشعراء حول ما يحيط بها من المباني؟
- نعم. لقد فعل محمود هذا
- لو لم اكن نسيت مسدسي في البيت! كيف حدث هذا يا أخانا؟
كان هذا اليوم المبارك هو ثالث أيام زفاف الفاروق، وكان جلالته قد أسعد محمودا والفن بالشرف الأسمى إذ دعاه إلى عابدين ليرتل بين يديه من أغاني الروح على أثر إعجابه به في حفل سمعه فيه، وكان هذا الحفل من حفلات الجمعية الخيرية الإسلامية، وقد هذه الدعوة حضرة صاحب المقام الرفيع محمد محمود باشا رئيس الوزارة السابقة ورئيس الجمعية الخيرية الإسلامية، والظل الأول الذي أظل محموداً، كما شهدها حضرة صاحب المقام الرفيع علي ماهر باشا رئيس الديوان الملكي سابقاً، ورئيس الوزارة اليوم. وكانت هذه الدعوة هي هذا المرسوم، وقد تلاه محمود في عابدين. . . إنه الشعر الذي طاب للملك. . . والملك عارف، والملك عبقري، والملك ناقد فذ
- ما أبرعك صديقاً!
- في اختيار أصدقائي لا في رفعهم بالباطل
- فمحمود إذن له قيمة. . .
- قيمة خطيرة. ولو أن ملكاً في غير مصر فعل هذا الذي فعله الفاروق أعزه الله في شاعر لبدأت الحكومة، وبدأ الشعب يدرسان هذا الشاعر، فالملك لا يدعو كل شاعر، والملك لا يفعل ما يفعل عبثاً، فهو يعرف أنه رأس الدولة، انظري إليه. . . من الذي أعلن عنه رضاه من رجال المسرح بعد أن استعرضهم جميعاً. . . أليس هو نجيب الريحاني؟. . . ومن في رجال مسرحنا مثل نجيب الريحاني؟. . . وانظري. . . ألم يغن عبد الوهاب في القصر
- فحياه جلالته حين سمعه بكل ما في الملوك النبلاء من أدب ورقة. . .
- إنك بدأت تفهمين. . . يخيل إليّ أنه ليس في مصر من يحس ويتذوق ويفهم مثل فاروق الأول. . . تربية فؤاد الملك الذي اعتلى العرش بعد ما اختبر الحياة مع الملوك ومارس الحياة في صميمها بين أفراد الشعوب. . . فعرف بعد ذلك كيف يملك وكيف يحكم وكيف يعد للعرش من بعده ملكا يتغلغل بالإدراك في تلافيف وطنه. . . ومحمود الشاعر الذي قدره الفاروق والذي يهتف الجيش اليوم بنشيد من شعره، تساومه الآن وزارة المعارف ووزارة المالية في فنه، لا بد أن يفقده إذا أراد أن يبقي موظفاً. . . فهل يصح أن يحدث هذا؟ كلا! فلا بد أن يعفي من الكشف الطبي
- ولكن أحداً لم يطلب منه أن ينزل عن شعره!
- إنهم يريدون منه أن يقوي عينه اليسرى. . . وقد قلت لك إن عينه اليسرى هذه هي التي يرى بها الشعر

- وكان يجب أن أقول لك أنا إن هذا هو كلام المجانين
- أرجوك ألا تصدري حكما على شيء قبل أن تبحثيه وتدرسيه. . . لقد عرض محمود عينه هذه على ثلاثة من أطباء العيون الممتازين في مصر هم الدكتور محمد صبحي وقد سمعت من الكثيرين أنه أقدر أطباء العيون في مصر، والدكتور محمد بكري وهو مدير مستشفى العيون بروض الفرج. . . مدير المستشفى. . . والدكتور إيليا ناشد وهو عضو كلية الجراحين بإنجلترا. . . بإنجلترا لا بمدغشقر. . . وقد قرر هؤلاء الفحول الثلاثة أن عينه اليسرى هذه سليمة، وأن أعصابها قوية. . . فهي إذن ليست ضعيفة. . .
- إذن فقد كان يجب عليها أن تنجح في الكشف الطبي
- هذا لو أنها كانت كبقية العيون التي ركبها الله تركيباً يمكنها من رؤية علامات الكشف الطبي
- وهل هي مركبة تركيباً آخر فليست مثل عيون الناس؟
- أسمعي! هل تصدقين النبي محمداً أو أنت تكذبينه؟
- معاذ الله أن أشك في قوله
- الحمد الله. كان محمد رسول الله يقول إنه كان يسمع الوحي سمعاً. . . وكان يوحي إليه في الموقعة الحربية، وكان يصاحبه في مواقعه الحربية جنوده وأنصاره فلا يسمع الوحي أحد غيره. فهل كانت أذن محمد كآذان بقية الناس؟ أجيبي؟
- كان محمد نبياً
- وكان بشراً مثلنا بتقرير القرآن وتقريره هو نفسه. . . فتكذبين القرآن؟
- حاشا الله. . .
- إذن فهو لا يختلف في شيء عن تكوين البشر. . . ومع هذا فقد كان يسمع ما لم يسمعه جيرانه والملتصقون به. . . فلا بد إذن أن يكون من تكوين البشر حالات خارقة نادرة يستعصي على الآلات وأجهزة الكشف الطبي قياسها. . .
- كأني أريد أن أوافقك وأن أقول إن هذا كلام معقول
- هو معقول لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. فمحمد الرسول كان بشراً وكان نبيّا له أذن تسمع ما لم يكن يسمعه الناس. . . وكذلك كان موسى. وكذلك في جهة أخرى كان بتهوفن الموسيقى الأصم. وكذلك كل موسيقى آخر يلتقط الأنغام من الجو. موهبة السمع فيهم واحدة وإن كانت تتشكل بأشكال مختلفة. . . ومحمود حسن إسماعيل شاعر، وله عين يرى بها ما لا يراه بقية الناس. . . هذا أمر لا عجب فيه. . .
- لو كان لديك دليل مادي غير هذه الاستنباطات
- الدليل موجود. . . وهو في شعر محمود. . . أقرئيه تجدي تسعين في المائة منه على الأقل كلها صور بصرية. . . إنه يشبه حتى المسموعات بالمرئيات. . . إنه يرسم معانيه صوراً كل صورة منها يمكن إن توضع في إطار. . . إن شعره كله يمكن أن يترجم إلى رسوم. . . فكيف يتاح له هذا إلا إذا كان يرى هذا الذي يصفه. . . لا تقولي إنه يتكلف هذا. . . فالمتكلف لا يستطيع أن يستمر وأن يتجدد وأن يفيض مثلما يفعل محمود. . . إنه يرى هذه الأشياء حقا. . . أقرئي شعره!
- فليكن هذا حقاً. . . فكيف نحكم بأنه يرى هذه الأشياء بعينه اليسرى لا اليمنى. . .
- لأنه يغمض عينه اليسرى حين يكتب. . . أنا أعرفه. . . وقد رأيته كثيراً وهو يسبح وراء خياله. . . كما رأيته كثيراً وهو يكتب. . . ورأيته يغمض عينه اليسرى كلما كتب شعراً
- قد تكون عادة!
- لا. بل إنه يغمض عينه اليسرى ليسترجع هذه الصور التي يصفها وليراها في وضوح. . . ويفتح عينه اليمنى ليرى بها القلم والورق و (اللكي سترايك) .
- يا لها من خرافة!
- إنها ليست خرافة. . . وإنما هي رأي. . . ومع أنه رأيي فأني لا أريد أن أقطع به، فإن كنت قد تعلمت شيئاً فإن أساتذتي الذين علموني لا يزالون بحمد الله موجودين على قيد الحياة. . .

وهم جميعاً طوع أمر وزارة المعارف , ووزير المعارف رجل من رجال التربية وعلم النفس فهو عالم ومعلم قبل أن يكون سياسياً ووزيراً. . . ووكيل المعارف رجل من المجتهدين وممن لهم آراء جديدة في فنه، وممن لن تقف عقولهم عند القديم المقرر. . . فهو يرحب بالدراسات الجديدة من غير شك. . . فهذا وزير عالم وهذا وكيل

مجتهد، والأستاذ عبد السلام القباني المتفنن في دراسات النفس وتجارب التربية موجود في معهد التربية للمعلمين وهو وكيله، والدكتور عبد العزيز القوصي أستاذ علم النفس بالمعهد موجود أيضاً وأظن أن الرسالة القيمة التي نال بها إجازة الدكتوراه في علم النفس على يد سبيرمان كبير الأساتذة الإنجليز كانت خاصة بالعين، والبصر، والنظر. . . وهذه وزارة المعارف من أولها إلى آخرها بمن فيها من علماء النفس، والمربين والأدباء والفلاسفة. . . وهذه حالة شاذة يصح أن تدرس. . . فلماذا لا تدرس؟ هي عين يقولون إنها ضعيفة، ويقول الأطباء إنها قوية، ويقولون إنها لا ترى علامات الكشف الطبي، وأقول إنها ترى صوراً لا يراها الناس ويصفها محمود بالشعر. . . فكيف تحكم حكماً صحيحاً في هذه المعضلة إلا بالدرس. . . أليس الدرس هو الطريق الطبيعي المنطقي الوحيد الذي يستطيع الإنسان به أن يصدر حكماً في مسألة من المسائل؟ فإذا لم نسلك هذا الطريق الوحيد مع شاعر رضى عنه الملك وينشد جيشنا شعره. . . فمع من نسلك طريق المنطق والعقل والطبيعة. . . إن المسألة أخطر مما تتوهمين!

- ولكن كيف تدرس هذه الحال؟

- أنا لا أعرف كيف. . . فلست دكتوراً في علم النفس، ولا أنا شيء ما. . . وإنما هذه فكرة خطرت. . . أنا ذهبت إلى وزارة المعارف ومعي إنسان في (زكيبة)، وقلت لها يا وزارة المعارف خذي هذا الإنسان وأدخليه في مدرسة من مدارسك الابتدائية، فهل ترفضه الوزارة، أو تقبله قبل أن تخرجه من الزكيبة فتعرف إذا كان صبياً أو صبية. . . وهل هو أو هي مستوف أو مستوفاة لشروط الدخول في المدارس الابتدائية. . . أو أمره غير ذلك. . . كذلك موقفي الآن مع وزارة المعارف وفي يدي محمود إسماعيل. . . أفلا يجب عليها أن تتعرف ما هو؟. . . قبل أن تفصله أو تثبته أو تطالبه بتقوية عينه. . . أو. . .

- وما لوزارة المعارف وهذا كله. . . إنها تريد موظفين بعيون قوية

- اللهم يا رب عفوك. . . إن في الموظفين من ليست لهم عيون قوية ولا عيون. . . قوية. . .

- وماذا يضره لو أن عينه تقوت؟

- إنها لن تتقوى يا إنسانة. . . إنها مخلوقة هكذا. . . هذه هي قوتها. فهل يرضي مصر لو فشل محمود في تقوية عينه أن تلفظه وزارة المعارف فيسرح على الأبواب يقول: (الحمد لرب مقتدر) إن المسكين يضع على عينيه اليوم مناظير زاعماً أنها وسيلته إلى تقوية عينه وهو يخدع نفسه أحياناً فيزعم أنها تقوت

- ولماذا تقول إنه يخدع نفسه؟

- له شهر وأكثر وهو بهذه المناظير الثلاثة. واحد معتم للشمس، وواحد مكبر لتقوية عينه اليسرى، وواحد زجاج على اليسرى ليكشفها فترى، وسواد على اليمنى ليمنعها من الرؤية تمكيناً لليسرى من التدرب على النظر. . . ومنذ عصب عينيه بهذه المناظير قد كف عن الشعر. ألست تقرئين (الرسالة) على الدوام؟ ألم تلحظي أنه احتجب منذ خمسة أو ستة أسابيع؟. . . لقد كان يكتب قصيدة للإذاعة فكتب منها سبعين بيتاً إلا شطراً واحداً وقف عن كتابته منذ طلسم عينيه بهذه المناظير. إنه الآن لا يرى ما كان يراه من قبل وهو يعاني أزمة نفسية قاتلة، ولا عزاء له في هذا كله إلا أن يردد دائماً قوله: (إن عينه تقوت)، وهو يقولها كلما عجز عن رؤية شيء واضح. في سبيل الوظيفة والخضوع للنص الحرفي القديم في القانون سيختل عقل شاعر شاب فذ كان يكفيه ما يلاقيه الشباب من إنكار الشيوخ وبطشهم في هذا الزمن. . . فكيف ننقذه. . .؟

- أكتب في هذا الموضوع؟!

- ومن أنا حتى أكتب فيسمع كلامي؟!

- إنك إنسان ما. . . ولكن الكلام الذي تقوله معقول. والذين بيدهم الأمر كلهم عقلاء. . . وأصلبهم وهو وزير المالية أشدهم إيماناً بالعقل، فهو مهندس وبالعقل وحده استطاع أن يكون وزيراً للحربية ثم وزيراً للمالية. . . وهو مهندس. . . ولم يستطع هذا إلا لأن له عقلاً ناضجاً. . . ثق بأنه سيكون في صفك. . .

- إنك تشجعينني

- أكتب واطلب من وزارة المعارف أن تؤلف لجنة من علمائها لدراسة هذا الموضوع. .
.
- طيب. على الله. . .
وهأنذا كتبت. . . فمن يكتب عن معضلتي أنا؟
عزيز أحمد فهمي
من هنا ومن هناك
سويسرا تضرب المثل في التسلح
(عن (باري سوار))
لعل ما تقوم به سويسرا في الأيام الأخيرة من الاستعداد الحربي وإنفاق الأموال الطائلة في سبيل التسليح، يعد مثلاً بارزاً لكثير من الأمم التي تخال أنها في مأمن من الحوادث. فقد كانت سويسرا من سنة 1920 إلى سنة 1930 تقتصد في نفقات التسليح كل الاقتصاد، حتى أنها لا تقرر لأجله في ميزانيتها إلا مبلغاً ضئيلاً لا يكفي إلا لشراء بعض الآلات الحربية الخفيفة إذ أنها لم تكن تشعر في تلك السنين بأي تهديد. فسويسرا متاخمة لفرنسا، وأمة كالأمة السويسرية أشتهر أهلها بالرزانة والعقل وحب السلام، لا يزعجها وجود الجيش الفرنسي عند حدودها
وفي سنة 1931 والسنين التي تلتها أخذت سويسرا تعمل لزيادة التسليح ولا تدخر وسعاً في هذا السبيل. وذلك أن شبح هتلر كان قد بدأ يحلق في سماء القارة الأوربية. ولم تكن سويسرا حتى سنة 1929 تقدر للتسليح أكثر من 16 ? من الميزانية العامة. فلم تمض عشر سنوات حتى وصلت النسبة إلى 22 ? ولكن هذه المقادير لم تكن لتفي بحاجاتها إلى السلاح وما تتطلبه من الأموال الطائلة. فعقدت قروضا فيما بين 1929 - 1930 لأجل الدفاع بمبلغ 648 مليوناً من الفرنكات السويسرية أو ما يوازي 32. 000. 000 من الجنيهات
ولم تقف سويسرا في استعدادها الحربي عند هذا الحد، فمنذ سنة 1936 نشطت هذه الأمة الوادعة في تنظيم جيشها، وحشد قواها، وتعزيز جبهتها، وزيادة مدة التدريب العسكري بين أبنائها. وإذا كانت سويسرا فيما مضى لم تفكر في إقامة المصانع الحربية، فقد أصبح لديها الآن مئات من المصانع الكبيرة المعدة لهذا الغرض في أنحائها المختلفة. أما قوى الطيران الدفاعية منها والهجومية، فقد أصبحت على قدم الاستعداد، وقد أقيمت استحكامات عظيمة
على طول خط الرين وبالقرب من الجبهة الألمانية. وتعد سويسرا الآن برنامجاً حربياً حافلاً لحمايتها من الطوارئ المفاجئة، ولكي تصل إلى الغاية قررت سحب 25 مليوناً أخرى من المال الاحتياطي للاستمرار في عمليات التحصين والتسلح حتى تصل في دفاعها إلى أقصى ما تصل إليه أمة في العالم.
فسويسرا لن تفقد استقلالها، ولن تموت أبداً. وإذا كان الشعب السويسري لم يكن في تاريخه من الشعوب المتعطشة للحروب فليس هو كذلك بالشعب الذي يغتر بالسلم، وقد أعد العدة للطوارئ بعد أن ظهرت نيات ألمانيا نحو الشعوب الضعيفة.
وقد تحدث إلي في الأيام الأخيرة سويسري عظيم فقال: (إنني أعرف إعجابك بألمانيا التي أنجبت كثيراً من العبقريات النادرة؛ ولست أخالفك في ذلك، فأنا من أبناء سويسرا الألمانية وقد نشأت على احترام تلك البلاد الغنية بعلمائها وفلاسفتها وشعرائها وموسيقيها. ولكنني لا أستطيع أن أتبين أثراً لألمانيا الحقيقية وراء القناع الهتلري. إن أمتي تنظر بعين الذعر إلى أعمال ألمانيا ونياتها، لأنها تريد أن تظل تلك الأمة الجديرة بتاريخها المجيد)
ومن خلال هذه الكلمات المريرة نستطيع أن ننظر إلى سويسرة المتألمة الصبور.
الطيران في القرن الخامس عشر
(عن (لاتريبونا إلستراتا) رومة)
أقيم في ميلانو في الأيام الأخيرة معرض لأعمال ليوناردو دافنسي العبقري المشهور ومما أثار الدهشة في نفوس الزائرين لذلك المعرض تلك الطائرة التي وضعها هذا الفنان الفذ قبل ظهور أول طائرة بخمسة قرون
فقد كان دافنسي يشتغل بالطيران، ويبذل كثيراً من وقته وتفكيره لتنفيذ فكرته متأثراً

بأساطير الإغريق
ومما يروى أن عضواً من أعضاء الأكاديمية الفرنسية شرح هذا الاختراع الذي كان يدور برأس ليوناردو. للملك لويس الثامن فما كاد يسمع منه بفكرة الآلة الطائرة حتى افتر ثغره عن ابتسامة ساخرة وقال: (إن ليوناردو حسن الحظ لأن مستشفى المجانين لم يكن قد عرف في العصر الذي عاش فيه)
وقد جاء (أوتوليليانثال) في العصر الحديث ودرس خواص الطير والقوة التي تساعدها على الصعود والتحليق في السماء، وأثبت أن ما كان من الخيالات والأوهام العابرة في العصور السابقة قد أصبح حقيقة علمية خاضعة للتنفيذ
ولم يكن ليوناردو في بادئ الأمر يعرف طريقة لإدارة الطائرة غير الطريقة التي تحركها بالقوة العضلية، إلا أنه وجد أخيراً أن هذه الطريقة لا تكفي لاستمرار سيرها، فوضع لها سيوراً من المطاط تدار باليد أو بالقدم. وقد عرضت طائرتان من هذا النوع لدافنسي كانتا موضع الدهشة والإعجاب
ومما فكر فيه هذا الفنان لإتمام مشروعه، قوة الهواء والرياح فسخر وقته لدراسة الطيور. وأخذ يفكر في القوة التي تساعدها على التحليق وسط الزعازع والأنواء. وقد دلت الدراسات الحديثة، على أن النتائج التي وصل إليها كانت على جانب عظيم من الأهمية وفي مقال كتبه عن تحليق الطيور، وضع ليوناردو فكرة الطيران الآلي بواسطة الجناحين، وأشار إلى كثير من الآراء الناجحة في فن الطيران، ومما لاشك فيه أن الآلة التي ابتدعها ليوناردو كانت مؤسسة على الطرق والقواعد السائدة في الأيام الحديثة
ولعل اشتغال هذا الفنان العظيم بصوره ولوحاته الفنية النفيسة، هو الذي عاقه عن إتمام مشروع الطيران، فلم يترك له الوقت الكافي للسير بالفكرة إلى النهاية، وإن كان الكثيرون من أصحاب الرأي والخبرة، يؤكدون صحة القواعد التي وضعها، ويسلمون بأن التجارب التي أقيمت عليها كانت ناجحة كل النجاح
تاريخ التقبيل
عن)
القبلة هي إحدى الطرق الإنسانية النفيسة التي ابتدعها الحب فما هو تاريخ ظهورها بين بني الإنسان؟
المعروف عند عامة الناس أن التقبيل نشأ مع الشهوة الجنسية وهذا مخالف للحقيقة، ويحملنا على الاعتقاد بأن هذه العادة لم تكن من الغرائز الإنسانية الأولى، أن كثيراً من الأمم لا يعرفها على وجه الإطلاق، وأن بعضها ينظر إليها بالمقت والامتعاض
ومن المحقق أن قبائل الاسكيمو والمورا لا يعرفون التقبيل. وقد مضت قرون عديدة قبل أن تعرف هذه العادة في الصين واليابان أما في أيامنا الحديثة فالصينيون يعرفون التقبيل ولا يرون بأساً من انتشاره بينهم، ولكن اليابان يحرمونه ويبالغون في تحريمه، حتى أنهم يحذفون جميع مناظر التقبيل من الأفلام الأوربية والأمريكية التي تعرض في بلادهم
وقد عرضت رسوم رودان في معرض طوكيو سنة 1924 فظهرت جميع رسومه المشهورة ما عدا اللوحة التي تحمل صورة القبلة فقد ألقى عليها غطاء كثيف. وقد اعترض بعض الزوار الفرنسيين على ذلك فأجابه رئيس البوليس بأن مجموعة رودان كان من الواجب أن توضع جميعها تحت غطاء من أجل صورة القبلة فالتقبيل عادة أوربية ممقوتة تمنعها اليابان بأي ثمن، ولولا عظمة رودان وماله من الشهرة بين أمم العالم لمنعت جميع رسومه من الدخول إلى اليابان لأجل هذه الصورة. . .
أما تاريخ التقبيل فغير معروف على التحقيق وإن كان لبعض القبلات تاريخها وشهرتها، ومن القبل المشهورة قبلة (فلورنتين) وتنسب إلى (نابليون الأول) وقد بيعت قبلة واحدة في إحدى المناسبات بمبلغ 12000 جنيه، وكان ذلك في البرت هول سنة 1915 في حفلة لإعانة الجرحى عرضتها الممثلة المشهورة (مورلوب) عن طريق المزايدة؛ فلما وصلت المبالغ المعروضة إلى 8000 جنيه كف جميع المتنافسين عدا اثنين هما المثري الكبير هتشنسن ودوق أرسنت ألبانز؛ وقد فاز الدوق في النهاية بهذه القبلة. ومما يذكر في هذه المناسبة أن الدوق طلب إلى الممثلة أن تقبل أبنه البالغ من العمر تسع سنوات بدلاً منه. . .
وتعد القبلة في بعض أنحاء الولايات المتحدة عملاً مخالفاً للصحة، وتعريض صحة

إنسان ما للمرض جريمة يعاقب عليها القانون. أما اغتصاب القبلة من امرأة أية كانت فهو عمل يعاقب عليه القانون في سائر الأحوال
وإذا كانت القبلة اليوم هي التعبير الجسدي عن الحب، فقد كانت في الأزمان الخالية نوعاً من التحية فحسب كالتلويح بالمنديل للمسافرين، وقد ظلت كذلك إلى القرن الخامس عشر، وكان يباح للضيف أن يقبل زوجة مضيفه، وكل فرد من أفراد عائلته وكانوا في روما القديمة يقبلون لأسباب غير التحية والاحترام فقد كان النبيذ محظوراً على
النساء تعاطيه، ومن ثم كانوا يبيحون للرجل أن يقبل المرأة إذا كانت له بها علاقة، ليتأكد من أنها لا تشرب النبيذ وتخالف القانون
وقد قام أحد علماء أمريكا في الأيام الأخيرة يحذر العالم من التقبيل، ويعلن أنه ينقص من أجل الإنسان، ولكن أحداً من الناس لم يصدقه أو يجعل لتحذيره نصيبه من التقدير البريد الأدبي
نداء المجهول - قصة للأستاذ محمود تيمور نشرتها المكشوف
بهذه القصة الجديدة يندفع الأستاذ محمود تيمور في اللون التخيّلي، وقد بدت بوادره في قصته المتأخرة (فرعون الصغير) على ما بينت في مقتطف يولية الماضي. وتراه يندفع فيه مهملاً اللون الواقعي الذي عرف به زماناً. ولكن إهماله له إنما هو من ناحية الفكرة التي تسّير القصة لا من جهة السياق، إذ لا يزال يلتزم التصوير المباشر والتحليل الصريح وغير ذلك من أساليب الواقعية واللون التخيلي بالفرنسية والإنجليزية (هنا أيضاً وبالألمانية - يجري إلى سرد الحوادث النوادر و (المغامرات) (كما نقول اليوم في مصر: وإلى وصف العوالم التي تَبهت العقل وإلى الكشف عن آفاق تضطرب فيها الأسرار والألغاز، كل ذلك رغبة في الفرار مما نعرفه ونلمسه ونؤمن به، كل ذلك إرادة أن تلبي النفس نداء يأتيها من وراء حجب. هذا وبين التخيلية والرمزية المستحدثة وشائج من جهة ذلك الفرار من العالم المبذول لنا. غير أن هذه تتشبث بما يجول في النفس خفيةً فتبرزه عزمات وتصورات وانفعالات، ثم تستخرج ما وراء الحسّ وتدون ما يهجم على القلب ويرد على الوهم، وذلك من طريق التمثيل، وانتزاع الصور من الأشكال والهيئات، واستنباط المطابقات والمقابلات والإضافات مما يجري الموازنة البعيدة أو القريبة بين الحيّ والجامد
وجملة القول أن التخيلية تتناول الخارجيات من بلدان نائية وغرائب مستملحة وحوادث أخاذة، على حين أن الرمزية المستحدثة تركز أوتادها في وادي المضمرات والسوانح وما يلي المادة المباشرة
وقد عرف الأدب العربي اللون التخيلي، ففي حكايات جدّاتنا وفي (ألف ليلة وليلة) ما تشاء من ابتداع للطائف. وأما الأدب الإفرنجي الحديث فقد خرج اللون التخيلي على يديه فناً شائعاً مقبولاً شريف الغاية في أكثر الحال، بيّن الأوضاع على تباين في الأنحاء. وفن تيمور في (نداء المجهول) لا يرجع إلى الأدب العربي، ثم إنه ليس من فن (كبلنج) لأن هذا بلا ما كتب، وليس من فن (إستراتي)ـ لأن هذا صاحب عنف، وليس من فن (فورنييه) لأن الرجل شاعر في نثره وصاحب وسوسات، وليس من فن (مارك أورلا). لأن هذا خاض الحياة الشاقة. إن اللون التخيلي عند تيمور في (نداء المجهول) يقارب بعض المقاربة ما نعرفه من فن القصصي الفرنسي مع اعتبار ما يميز الكاتب من الكاتب من حيث الأسلوب والتفكير
وأسلوب تيمور في قصته التخيلية لا يبرح أسير الطريقة الواقعية كما قدّمت: فلا اللفظ يثب من موضعه المعهود، ولا التعبير يميل إلى الإيحاء، ولا العبارة يجربها نغم خفيّ. بل كل ما يتصل بالأداء تصيبه في المكان الذي كنت تحتسبه
لا أدري ما الذي وقع لصديقي تيمور حتى يجنح إلى ذلك التخيل ثم يريده إرادة؟ أي شيء ينفّره من هذا العالم ثم يطير به إلى آفاق المجهول؟ هل خاب أمل من آماله؟ هل أحسن بطلان دنيانا وتعرّف مبلغ زيفها فانجذب إلى التشاؤم كما انجذب إليه (بيرلوتي) من قبل؟ إن عطف تيمور على الإنسانية ورثاءه لبؤسها وضعفها مما هو جليّ في قصصه السابقة. وبين هذا العطف على الناس وطلب الفرار منهم خطوة. . . ألا شبّك يدك بيدي أيها الصديق، فاثنان على الفرار المضني أقوى من واحد، وإن كان لكل منا جناحه!

وبعد فرجائي ممن يستهويه الأفق البعيد أن يقرأ (فرعون الصغير) لكي ينطلق فيحيا قدر لحظات حياة البطولة أو حياة الغرابة، ثم يهبط إلى أرضه فتعاود أيامه دورتها الشاحبة. وحسب تيمور أنه يستطيع بذل تلك اللحظات النفيسة، حسبه! هل يستطيع ذلك غير صاحب افتتان غزير المادة لطيف النواحي؟

بشر فارس

التاريخ المزخرف والأشعار المسرحية

1 - أشكر لحضرة السيد محمد علي عكاري جهده في تقديم بعض الشواهد التي تؤيد القول بأن وثنية العرب قامت في الأصل على قواعد روحية، وأرجوه أن يجعل هذه المسألة في باله فيقيد جميع ما يصادفه من البينات التي تجلو غوامض تلك الوثنية.

وليكن مفهوماً عنده وعند سائر الباحثين أن الوثنيات في جميع بقاع الأرض لم تكن إلا صوراً أو رموزاً لحقائق وجدانية ومعنوية كانت في الأصل ديانات سليمة خفيت مغازيها على الجماهير فجسّموها بالصور والتماثيل. ومن هنا تسقط حجة من قال إن وثنية العرب

كانت (أرضية وضيعة) ولو أنه كان فهم هذه الحقيقة لعرف أن العرب لم يكونوا بدعاً بين الأمم حين عبرّوا عن عقائدهم بمثل ما عبّر به الفرس والهنود واليونان والرومان والمصريون

وقد أوضح القرآن حجة الجاهلين في عبادة الأوثان إذ حكى أنهم قالوا (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) وهذه العبارة القرآنية تشهد بأن الأوثان كانت رموزاً لمعان روحية

وأنتقل بعد هذا إلى صلاة المأمون علي الموصلي والكسائي وابن الأحنف وقد ماتوا في يوم واحد فأقول:

إني أوردت هذه القصة في كتاب (مدامع العشاق) نقلاً عن شرح شواهد ابن عقيل للشيخ قطة العدوى، وهو لم يخترعها وإنما نقلها عن بعض المصادر الأدبية

وأنت لا تنكر أني أوردت هذه القصة بتحفظ مراعاةً للأمانة العلمية، فأرجو أن تعرف أنها عندي من التاريخ المزخرف ? والتاريخ الزخرف يقبله الباحثون في الموضوعات التي تغلب فيها الصبغة الروائية على الصبغة التاريخية.

والذي زخرف هذا التاريخ كان يقصد إلى تمجيد العباس ابن الأحنف الذي كاد يتفرد بإجادة القول في الكتمان، والذي أذاع معاني الصدق في الوجد في أيام كثرت فيها الاستهانة بشرف العفاف

ولو أنك رجعت إلى أكثر الأخبار الأدبية لرأيتها من التاريخ المزخرف الذي يعتمد على التصوير أكثر مما يعتمد على التحقيق، وذلك التاريخ مقبول في الميادين الأدبية، والغرض منه معروف، فلا تستغرب صدوره من العرب، لأنه يشهد بأنهم كانوا من أهل البراعة والخيال

2 - نشرت (الرسالة) كلمة لصديقنا الدكتور بشر فارس في نقد رواية (مصرع كليوباترا) التي مثلتها الفرقة القومية، وفي ذلك النقد آراء فيها المقبول والمردود، ولكني أقف عند قوله:

ألقى الممثلون شعر شوقي كما كنا نلقي الشعر العربي في المدارس: نقطّع أقسام) البيت ونتمهل عند العروض ثم نضغط على الضرب، والذي يحرك ألسنتنا الوزن الذي عليه جاءت القطعة أو القصيدة. وفي ذلك الأمر ما فيه من غرابة، فإن الشعر لعهدنا هذا في

أوربا - وعنها نأخذ فن التمثيل - يلقى على المسرح كأنه نثر، وسبب ذلك أن القصيدة تقوم بمعانيها وألفاظها لا بتفاعيلها والتفاعيل كأنها الدعامات والخشب في المنزل، وأما المعاني والألفاظ فأثاثه والتصاوير والتزاويق وكل ما يأخذ الطرف. كل ذلك فضلاً عن أن تقطيع أقسام البيت، وفصمه إلى مصراعين، والضغط على القافية الراجعة يورث الملل ويصك الأذن). . . الخ.

ذلك كلام الدكتور فارس، وهو كلام برّاق، ولكنه غير صحيح.

وما كنت أحب أن أخطئ هذا الصديق لولا الخوف من أن يتأثر به النقاد والممثلون فتفسد أذواق من ينشدون الأشعار المسرحية فساداً لا يرجى بعده صلاح.

نحن أخذنا عن أوربا فن التمثيل؟

هذا حق، ولكن لا ينبغي أن نأخذ عنها فن الإلقاء، فإن الأداء بالشعر غير الأداء بالنثر، وليست الأشعار المسرحية إلا قصائد خضعت للقوافي والأوزان، وفيها محرجات تقبل في المنظوم ولا تقبل في المنثور، ومعنى ذلك أن صوغ المعنى في بيت من الشعر يجعل له صورة غير صورته في فقرة من النثر، فإذا أدى الشعر كما يؤدي النثر تعرض للغثاثة والانحلال.

ولو أن الدكتور فارس كان شهد إبراهيم الجزار - وما أعظم فجيعة الشعر المسرحي بوفاة إبراهيم الجزار - لعرف أن لإلقاء الشعر المسرحي أصولاً في الإلقاء تختلف في لغة العرب عن أمثالها في لغة الإنجليز والفرنسيس.

الوزن في الشعر ليس تصويراً وتزويقاً، كما يظن الدكتور فارس، وإنما هو عنصر أصيل لا يقام بدونه للشعر ميزان، وليس بصحيح أن الأوربيين يلقون الأشعار المسرحية كما يلقون القطع النثرية، وإن كانوا أقل منا رعايةً للأوزان عند الإنشاد، لأن ذوقهم يختلف عن ذوقنا بعض الاختلاف.

وخلاصة القول أن الممثلين لا يجوز لهم تحويل الشعر إلى نثر وإلا فسد الذوق واختلت الموازين وضاع جمال الفن في الشعر المسرحي أبشع ضياع.

وإني لأرجو أن يراعي ممثلو الفرقة القومية أذواقنا حين ينشدون الشعر المسرحي مرة ثانية، فقد انزعج كثير من الناس حين رأوهم ينشدون بعض الأشعار بلا احتفال بأهمية ما

في الأوزان من الرنة الموسيقية.

زكي مبارك

وحدة الوجود والحلول

لأستاذنا الجليل أحمد أمين سابقة جليلة في اللغة العربية، حين انتدب لكثير من المصطلحات الفلسفية في اللغة الإنجليزية فوضع بإزائها كلماتها العربية. وليست كلمتنا هذه لبيان هذه الفضيلة، فهي غنية عن البيان. ولكن إحدى هذه الكلمات استوقفتنا، وقد خيل إلينا أن أستاذنا المفضال خانته فيها دقته، وهي كلمة الحلول، فقد وضعها بإزاء كلمة وتحليل هذه الكلمة يرجعها إلى كلمتين يونانيتين: بمعنى (كل) وبمعنى (الله) فهي تعني بهذا أن كل شيء هو الله، أو أن الله هو كل شيء؛ وطبيعي أنه لا يستقيم مع هذه الكلية المطلقة إلا أن يكون ثمة كائن واحد هو الله (وسائر الصور الأرضية والسماوية صور تجلياته وشؤون ظهور ذاته) كما يقول العلامة بهاء الدين العاملي في رسالته: الوحدة الوجودية. وكذلك سمى المسلمون هذا المذهب بوحدة الوجود، واستفاضت هذه التسمية. أما (الحلول) الذي آثره الأستاذ فما زالوا يبرءون منه في كل مناسبة: أن يشتبه بمذهبهم ويشنع به عليهم، فهو شيء مختلف كل الاختلاف. فيقول ابن الفارض مثلاً:

وفي الصَّحو بعد المحو لم أكُ غيرها ... وذاتي بذاتي إذ تحلّت تحلّتِ
وما زلتُ إيّاها، وإيّاي لم تَزَل، ... ولا فرقَ، بل ذاتي لذاتي أحبّتِ
متى حلتُ عن قولي: أنا هِيَ، أو أقلْ: ... - وحشا هُداها - إنها في حلَّتِ؟
وليسَ معي في الملك شيء سواي وال ... معيّة لم تخطر على المعيّتي

وكذلك جاء عبد الغني النابلسي ينتفي من هذه التهمة في تائيته إذ يقول:

وإياك من قولي بأن تفهم الذي ... تدين به الكفار بين البرّية
فإني برئ من حلول رمت به ... عقول تغذَّت بالظنون الخبيثة
وما بانحلال واتِّحادٍ أدين في ... حياتي وإن دانتهما شرُّ أمة

وقد وضح العاملي في رسالته الآنفة الذكر الفرق بين وحدة الوجود والحلول توضيحاً يحسم الشبهة بقوله: (فإن قيل لهم فيلزمكم القول بالحلول والاتحاد يقولون: لا يلزمنا هذا ولا ذاك،

إذ نقول: لا وجود لشيء غير الوجود وما سواه فهو اعتبار محض. فمن أين الحلول والاتحاد؟ إذ لا غير ولا اثنينية فلا حلول ولا اتحاد)

ففي تعبير الأستاذ أحمد أمين عن هذا المذهب بالحلول تسامح ظاهر، وإنما توضع كلمة الحلول بإزاء الكلمة الإفرنجية

أبو حيان

حول ابن تيمية وابن بطوطة

قرأت في الأعداد الثلاثة السالفة من (مجلة الرسالة الغراء) ما نقله الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام عن العلامة الخالدي وما رد به الأستاذ البرازي وما استدركه عليه الدكتور عزام حول سماع ابن بطوطة الحافظ ابن تيمية يقول وهو على منبر الجامع بدمشق: إن الله تعالى ينزل إلى سماء الدنيا كنزولي هذا. ونزل درجة من درج المنبر قرأت ذلك كله فذكرت أن هذا الخبر ذكره الحافظ بن حجر في (الدرر الكامنة) وابن فرحون في (الديباج المذهب) قال الحافظ: ذكروا أنه ذكر (أي ابن تيمية) حديث النزول فنزل عن المنبر درجتين فقال (كنزولي هذا) فنسب إلى التجسيم. اهـ ورأيت في حواشي (دفع شبه التشبيه لابن الجوزي) في الصفحة 48 من مطبوعة دمشق: يقول بعض علماء دمشق بأنه رأى خطبة ابن تيمية في مخطوط قديم وفيها زيادة (لا) قبل (كنزولي) أي (لا كنزولي هذا) والله أعلم

سيف الدين الخليلي

إلى الدكتور زكي مبارك

حضرة المحترم الفاضل الدكتور زكي مبارك

تحية طيبة وبعد فأراني بين عاملين متجاذبين إذ أكتب هذا لحضرتك: العامل الأول يحفزني، وأكاد أقدم، لما أعتقده في نفسك الكريمة من نخوة، وما امتازت به شخصيتك من إقدام وشجاعة

والعامل الثاني يثبط همتي، ويقف يراعتي مترددة حائرة، خشية ما قد يصيبني ويصيب الموضوع الذي سأتعرض له معك

وأخيراً رجحت عندي كفة الإقدام على ما اعتزمت ثقة بأنه لن تتحد النخوة مع الجبن ولا تتنافر شجاعة المصلحين ومثابرتهم كل في سبيله، مادامت ترمي إلى هدف سام، وتطمح إلى غاية نبيلة

وفي اعتقادي أن الأستاذ الفاضل أحمد أمين حينما تعرض بمقاله (جناية الأدب الجاهلي على الأدب العربي) لم يكن قصده من النقد والتوجيه إلا نبل الغاية، وحسن النية، واعتقد أيضاً أن ثورة الدكتور مبارك التي تجلت في المقالات التي عنونت: (جناية أحمد أمين على الأدب العربي) لم تكن إلا ثورة للنقد والإصلاح من طريق آخر، وكلا الغرضين شريف بالنسبة لموضوع الأدب العربي الذي نال حظوة موفقة بأن هيأت له الظروف قلم هذين العالمين الفاضلين.

والآن وقد أتممت يا حضرة الدكتور عشرين مقالاً تحت العنوان السالف الذكر، فإني أتقدم إليك برجاء لم يدفعني إليه إلا رغبتي الأكيدة في أن توجه جهودك الجبارة ونشاطك المعدوم النظير، إلى نوع آخر من الإصلاح حتى نفوز بقراءة طريفة من قلمك المرن

وأحب أن أخبر حضرتك أني من المعجبات بكل ما يكتبه الأستاذ الفاضل أحمد أمين بأسلوبه العلمي المتين، وأؤكد للدكتور الفاضل زكي مبارك أن الأستاذ أحمد أمين يتصدر ركناً مهماً في الثقافة المصرية، وقد أبلى فيه بلاء حسناً، سواء وافقتني على رأي هذا أو لم توافقني. وأقول إنه إن تخلى عن مجهوداته التي يؤديها، أو أنكر فضله إنسان فيما سبق أن أداه، فليس من السهل ملء الفراغ الذي لا بد يحدثه هذا التخلي وذلك الإنكار

هذا ورجائي أن تتفضل الرسالة الغراء بنشر خطابي هذا إلى الدكتور زكي مبارك، ولا إخالها إلا فاعلة كما هو عهدي بها محبّة للحق، أمينة في خدمة الأدب والعلم والفن

زينب الحكيم

حول (مجلس في منزل الدكتور طه حسين)

بعد أن وقف القراء على تكذيب الأستاذ محمد عبد الواحد خلاف للحديث الذي رواه الدكتور زكي مبارك عن مجلس قال إنه كان في منزل الدكتور طه حسين، كتب إلينا كثير منهم يظهرون إعجابهم ببراعة الدكتور الفنية في إدارة الحوار وإجراء الكلام على ألسنة الجالسين بما يشبه أن يصدر عنهم فاكتفينا عن نشر ما كتبوا بهذا التنويه.

قرية تعليمية نموذجية في السودان

اختير الأستاذ عبد العزيز أمين عبد المجيد خريج دار العلوم وجامعات إنجلترا ليساهم في الجهاد الثقافي الحديث في السودان الشقيق. والأستاذ عبد العزيز من القلائل

الذين زاوجوا بين الثقافتين الشرقية والغربية بالبصيرة النيرة والمنطق السليم، وقد كتب إلى (الرسالة) كتاباً نقتطف منه هذه الجملة:

(. . . بخت الرضا قرية تعليمية نموذجية أسستها مصلحة المعارف السودانية سنة 1934 لتكون مركزاً للتجارب في التربية والتعليم. وأنشأت بها ثلاث مدارس: مدرسة أولية، ومدرسة وسطى، وكلية للمعلمين. وقد راعت في تأسيس هذه القرية ومدارسها أن تكون ريفية محضة، وأن تكون القرية مستقلة في المعيشة بقدر ما يمكن. ولذلك فقد بنيت بيوتها ومدارسها من اللبن أو الجالوس، وحفرت بها الآبار، وتضاء ليلاً بمصابيح البترول، وبها دكاكين ومسجد وصيدلية وحمام للسباحة وملاعب للرياضة البدنية. وتتبعها حقول وحدائق للتجارب الزراعية. وبها أبقار وأغنام ومصانع للزبدة ولها نجارها الخاص وحلاقها وخفراؤها الخ والتلاميذ والمدرسون والمشرفون يعيشون في هذه القرية التي لا يسكنها أجنبي. والعمل في هذه القرية وما يتبعها مستمر طول اليوم وهزيعاً من الليل في المزارع ومرابط الأبقار ودكاكين النجارة وحجرات الدراسة الخ ونظام العمل هنا تعاوني، ويقوم الطلبة بمعظم الأعمال المدرسية والمزرعية والمنزلية بالاشتراك، ويصدرون جريدتهم الأسبوعية ومجلتهم الشهرية. وبالجملة فالغاية هنا من التربية أن تكون عملية بسيطة رخيصة تعد السوداني ليعيش في القرية السودانية ويعتمد على نفسه في أكثر ما يحتاج إليه وللدراسة خمس شعب: شعبة المواد الاجتماعية، وشعبة الرياضة، وشعبة الفنون الجميلة والأعمال اليدوية، وشعبة الزراعة، وشعبة اللغة العربية. ولكل من هذه الشعب رئيس إنجليزي إلا شعبة اللغة العربية فهي من نصيبي. ولكل رئيس مساعدان، ومهمة رئيس الشعبة الإشراف على كل عمل يتصل بمادته أو موارده، وهو مسئول عن المدرسين والكتب وطرق التدريس ونظام العمل في حصص مادته. وهو أيضاً مسئول عن وضع المنهج المناسب وتأليف الكتب. وهذا المنهج وهذه الكتب تمر في مرحلة التجربة قبل أن

تعتمد فتعمم في مدارس السودان جميعها. وقد بدأت منذ وصولي من الأساس. وأنا الآن أدرس منهج التعليم الأولى ومشغول بمقرر اللغة العربية في السنة الأولى الأولية وكتبها وطرق التدريس فيها تمهيداً للقيام بالتجارب في السنة الدراسية القادمة التي تبدأ هنا عادة من يناير. ورئيس هذه المعاهد إنجليزي فاضل حازم له تجارب منتجة في الهند والسودان. ولذلك تجد دولاب العمل يسير بانتظام وتناسب في جميع أركان القرية وفي المعاهد

لقد أطلت عليك في وصف قريتنا التعليمية، ولكني أرجو أن تكون إطالتي في غير ملل؛ فأنت من أسرة المدرسين ويلذ لك أن تقرأ عن أخبار التعليم وأخبار أسرتك العمل هنا كثير وكله علمي تثقيفي نافع، وأنا سعيد بعملي هنا وأحبه وأقبل عليه برغبة وإن كان لا يترك لي إلا القليل للراحة والاستجمام. وأحاول أن أختلس سويعات في أوقات الراحة فأكتب شيئاً أو أعالج موضوعاً يصح أن ينشر .)

عبد العزيز أمين عبد المجيد

رئيس شعبة اللغة العربية بمعاهد بخت الرضا التجريبية

استدراك

جاء في المقال الثاني عن (موقف العلم من الكمال الإنساني) للأستاذ توفيق الطويل أن بيكون قد انقضى على وفاته ثلاثة عشر قرون وثلاثة عشر عاماً. والصواب ثلاثة قرون وثلاثة عشر عاماً

أسرار البلاغة في علم البيان

أصدرت (دار المنار) في هذه الأيام هذا الكتاب النفيس لمؤلفه الإمام (عبد القاهر الجرجاني) مطبوعاً طبعاً متقناً على ورق جيد صقيل، والكتاب ومؤلفه غنيان عن التعريف، وقد وضع في وقت تحكمت فيه دولة الألفاظ واستبدت على المعاني، وهو خير ما كتب في موضوعه عبارة وأسلوباً وإيضاحاً للمسائل وبسطاً للدلائل، وقد امتاز بإرجاع الاصطلاحات الفنية إلى علم النفس وتأثير الكلام البليغ في العقل والقلب. وقد عني بتصحيحه علامتا المعقول والمنقول المرحومان الشيخ (محمد عبده) والشيخ (محمد محمود الشنقيطي) وعلق حواشيه المرحوم (السيد محمد رشيد رضا). وثمن النسخة 25 قرشاً

الفرقة القومية تقدم رواية:
امرأة تستجدي
أدار المؤلف موضوع الرواية حول شخصية بارزة في المجتمع لها حظها من الثقافة والعلم والمكان الرفيع. فالبطل رئيس تحرير صحيفة سياسية قد رشحه مجلس النواب، وهو رجل مثقف مستنير الذهن واسع المدارك يعيش أعزب حتى يلتقي بامرأة تقع من نفسه موقعاً حسناً فيخطبها سعيداً مغتبطاً. وإذ هو بسبيل استكمال سعادته يعرض له حادث يغير وجه الأمر
لقد كان من رأيه أن ليس من حق الإنسان أن ينتصف لنفسه. ليس له أن يقتل مهما يكن من أمر، ليدع القضاء يأخذ له حقه، رعاية لنظام المجتمع وخشية عليه من الانهيار. وقد هاجر برأيه هذا في مسألة عرضت له إذ قتل رجل عشيق ابنته الذي وعدها وأخلف
بيد أنه لا يجد مناصاً من ارتكاب جريمة القتل لسبب لا يسيغ قتل ذبابة فضلاً عن رجل! أتدري من قتل؟ إنه قتل زوج أخته الذي طلقها لينقذه من حبائل امرأة مستهترة ولينقذ شرف الأسرة وثروتها التي لا تزيد على عشرين فداناً مثقلة بالديون!
وإنك لترى أنه أقدم على ارتكاب جريمة القتل وهو في حالة كان يرى فيها نفسه أسعد رجل في الوجود، خطب المرأة التي يحبها وسيتزوج منها بعد أيام، وهو يوشك أن يبلغ قمة المجد، وغداً ربما يكون وزيراً أو رجلاً خطيراً في الدولة. هذا الرجل يقدم بعزم وإصرار على قتل زوج أخته لأنهم طلقها! ومن العجيب أنه، وقد أراد أن ينقذ شرف الأسرة وثروة الأسرة، أنه سلم نفسه للعدالة حتى لا ينتصف لنفسه بنفسه، وبذلك وقعت الكارثة الكبرى، وانتهت حياته وانهارت آماله ونزلت بالأسرة الفضيحة مزدوجة وخسرت عائلها وسيدها!
بأي منطلق كتب المؤلف هذه الرواية؟ لسنا ندري، ومن العبث أن ندري فما يجيز العقل شيئاً كهذا إلا إذا كان البطل قد نزل يوماً بدار المجانين، وقد جعل هذا المنطق شخصيات الرواية شاذة مضطربة ليس في الحياة مثلها أو شبيهة بها. وبهذا خرجت الرواية سقيمة
عرجاء رغم جهد المخرج النابه الذي أخرج غيرها من قبل بنجاح ملحوظ. وكيف يسيغ هذه الأكذوبة الجريئة على الحق والحياة، لو أنه بذل بعض هذا المجهود في إخراج رواية مستقيمة لأفاد منها كثيراً كما أفاد من (الحب والدسيسة) وغيرها مما أخرج وقام الأستاذ أحمد علام بدور البطل، وإنك لترى موقفه وهو يحاول عبثاً أن يستر ضعف الشخصية التي يؤديها، على أنه وفق في كثير من مواقفها كممثل
وهكذا كانت السيدة دولت أبيض التي جعلها المؤلف، وهي امرأة، لا تهتز لذكرى أمها على حين كان أخوها، وهو رجل قد بلغ الغاية في رقة العاطفة وجلال التأثر لذكرى أعز شخصية في الوجود
أما الآنسة فردوس حسن فقد كانت شخصيتها بعيدة عن منطق الرواية الأعرج، وهي منها في الصميم، أحبت صاحبها ورضيت به زوجاً ودافعت عن سعادتها في حدود قدرة المرأة التي جربت الحرمان، وهكذا كان عملها سليما وشخصيتها سليمة
وكان منسي فهمي بارعاً في دور الرجل المستهتر السادر في غيه. وكان موقفه مع (شربات) الراقصة من أبدع المواقف
أما الآنسة أمينة نور الدين فقد قامت بدور (شربات) الراقصة، ولنا حديث عنها في العدد المقبل.
وكان الأستاذ عباس فارس في دوره الصغير آية من آيات الإبداع والقوة، حتى لقد جعلنا ننتصر لقضيته ونسخر بمنطق البطل.
وكان أنور وجدي في دور الشاب المرح غاية في الظرف. وكذلك كان حسن إسماعيل في دور (هاني) الذي يعتبر بداية حسنة لممثل شاب وبعد فإن الرواية ساقطة من وجهة التأليف ناجحة إلى حد ما من وجهة الإخراج
فرعون الصغير
العدد 332 - بتاريخ: 13 - 11 - 1939
وزارة الشؤون الاجتماعية
المرض. . .

بعد الجهل والفقر لابد أن يجيء المرض. فهو في الترتيب الطبيعي ثالث العناوين البارزة في دستور وزارة الشؤون الاجتماعية.
وإذا كان الجهل يمنع أن يكون لنا رأي عام، والفقر يمنع أن يكون لنا خير مشترك، فإن المرض يمنع أن يكون لنا كيان صحيح. وإذا لم يكن للمجتمع رأي عام ولا خير مشترك ولا كيان صحيح، فسمه ما شئت إلا أن تسميه أمة.
ولعل المرض كان العَرض الملازم الذي يميز الشقاء المصري من كل شقاء في العالم. وإن أثره في تاريخنا الاجتماعي كان كأثر الزلازل والبراكين والحروب في تاريخ البلاد الأخر. فقد كانت الأوبئة تفد إلى مصر عاماً بعد عام فتجتاح نصف السكان وتصيب النصف الآخر بعاهات تدعه كالشجر اليابس لا للظل ولا للثمر. والعلة الأصيلة في ذلك أن أبانا النيل منذ شقه الله يجري فيكون الخصب والغضارة والحياة، ثم يركد فيكون الجدب والذبول والموت. وفيضانه ونقصانه يتعاقبان تعاقب الجديدين. فإذا فاض أنعش الذاوي وجدد البالي وأحيا الموات؛ وإذا نقص تخلفت بقاياه في أجواف المصارف وأطراف الترع ومناقع الأرض فتكون مزارعَ خصبة لجراثيم التيفود وبعوض الملاريا وقواقع البلهارسيا وديدان الأنكلستوما، وبنو النيل الدائبون البررة لا ترتفع أيديهم من مائه، في حالي نقصه ووفاءه؛ فخيرهم منه لا يزال مشوباً بالشر، ووجودهم فيه لا ينفك مهدداً بالعدم. فإذا أضفت إلى ذلك أن الجهل يستوجب فساد العيش وترك الوقاية، وأن الفقر يستلزم سوء الغذاء ونقص العلاج، فقد اجتمعت لك أسباب المرض التي جعلت الكثرة الكاثرة منا مذبذبين بين الدور والقبور لا هم في الأحياء ولا هم في الموتى.
إذا استطعت أن تقيم البناء من ناخر الحجر، وتنسج الرداء من رثيث الخيط، استطعت أن تؤلف من مهازيل المرض وسُقَاط الوهن شعباً يستغل الأرض وجيشاً يحمي الوطن.
تعال نزر قرية من قرى الريف فأريك كومة مبسوطة من سباخ الأرض، في مستنقع واسع من آسن الماء، فقد قامت عليها أبنية من الطين والقصب والخشب تجمعت على ظهورها
المراحيض والمزابل، وتكدست في بطونها الناس والبهائم، وتطرحت على أبوابها ومصاطبها الرجال والأطفال وقد هدَّتهم العلل وبَرَتهم الأسقام حتى ليعجزون عن دفع الذباب عن وجوههم الساهمة الشاحبة. فإذا سألت هؤلاء المنهوكين بالزُّحار والصُّفار والسُّلال والطُّحال والحمى والرمد: من الذي يزرع الأرض ويتعهد الزرع، ويحصد الثمر ويجمع الحصيد، وينجل العلف ويرعى الماشية؟ قالوا لك: يعمل ذلك كله قليل من الشبان الذين يدافعون المرض بالجلَد، وكثير من النساء اللاتي يغالبن الضعف بالصبر. ومما ترى وتسمع يتسنى لك أن تروز العبء الذي تحاول وزارة الشؤون الاجتماعية أن تضطلع به.
ولكن هل من الحق أن يلقى عبء الصحة العامة على كاهل هذه الوزارة المفدوحة بأمور المجتمع؟ إذن فماذا تصنع وزارة الصحة؟ والجواب أن الجهاد الصحي مفروض على الوزارتين جميعاً بنظام تقتضيه طبيعة كل منهما فلا يُثقل إحداهما ولا يعطل الأخرى. فكل ما يتصل بالوقاية والصيانة يرجع إلى وزارة الشؤون الاجتماعية، وكل ما يتعلق بالطب والعلاج يعود إلى وزارة الصحة؛ وقد يجوز لهذه بحكم خصوصها أن تصون وتقي، ولكن لا يجوز لتلك بحكم عمومها أن تعالج وتَطب.
فمن الطب الوقائي المنوط بوزارة الشاذلي باشا تخطيط القرية على نمط يكفل لها الشمس والهواء والجمال والذوق والراحة، وفصل الحظائر والمزابل عن المساكن، وتجفيف البرك والمستنقعات، وتطهير الماء الراكد من الطفيليات، وإنشاء المغاسل والمراحيض العامة، ورفع مستوى المعيشة القروية بتحسين الغذاء وتنقية الماء وتعميم النظافة، وإرشاد الفلاحين عن طريق الإذاعة والصحافة والوعظ إلى أنجع الوسائل في اتقاء العدوى وتدبير البدن.
ذلك عملها في القرية، وأما عملها في المدينة فبناء المساكن الصالحة للعمال، ومراقبة المعامل والمصانع من حيث الصحة، وملاحظة المطاعم والمشارب من حيث النظافة، ومراعاة الطعام والشراب من حيث السلامة، وحماية الطبقة العاملة من رهق العمل، ووقاية النفوس الغاوية من سموم المخدرات، وبث الروح الرياضية في

كل طبقة، وإنشاء الملاعب والمسابح والأندية في كل بيئة، وإقامة المسابقات النهرية والبرية في كل فرصة، وتفريج الهموم بإقامة المهرجانات الشعبية في كل مناسبة، وتعميم الثقافة الصحية عن طريق التعليم والإذاعة والنشر.

هذا مجمل ما ينبغي أن تقوم به وزارة الشؤون الاجتماعية لمكافحة المرض. فإذا أضفناه إلى ما أجملناه قبلاً من الوسائل الفعالة في كفاح الجهل والفقر كان لنا من مجموع ذلك برنامج كامل شامل لا يعوزه غير التنفيذ. فليت شعري أتظل الوزارة واقفة من شؤونها الاجتماعية موقف خراش من ظبائه، أم تجري على هذه الخطة الواضحة فتأتي كل أمر من وجهه وتعالج كل داء بدوائه؟

أحمد حسن الزيات

جناية أحمد أمين على الأدب العربي

للدكتور زكي مبارك

(النهاية)

هل أستطيع أن أحدِّث القارئ مرةً عن بعض مكاره النقد الأدبي؟

ليتني أعرف من أغروني بسلوك هذا الطريق المحفوف بالمخاطر والمعاطب والحتوف!

كنت تبت ونجاني الله من مهلكات هذا الطريق الوعر الشائك، فكيف رجعت إليه بعد أن عرفت وجه الخلاص؟

كان الأستاذ أحمد أمين أحد الأصدقاء الذين رأيت أن أتجنب الوقوف في طريقهم مهما كانت الأحوال، وكانت الحجة بيني وبين نفسي أن هذا الرجل رقيق الإحساس، أو ضعيف الأعصاب، فلا يجوز أن أعرض له بإيذاء.

وما زلت أذكر ما وقع في سنة 1935

كنت يومئذ مدرساً بكلية الآداب، وأخرج الأستاذ أحمد أمين الجزء الثالث من ضحى الإسلام، وقد سرق من الأستاذ إبراهيم مصطفى مسألة متصلة بتاريخ النحو وسرق مني مسألة متصلة بتاريخ التشريع الإسلامي، فصاح إبراهيم: إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجةً ولي نعجةٌ واحدة فكيف يسرقها مني؟ إنه لطمّاع!

جلست أنا وإبراهيم نتشاكى في غرفة أساتذة اللغة العربية، وانتقلنا من التشاكي إلى التباكي، فهتفتُ: سأنتقم لي ولك يا إبراهيم!

فقال: يعزّ عليّ أن يَجرح الأستاذ أحمد أمين بسببي، وهو صديق قديم، ولم ينهب مني شيئاً قبل هذه المرة، وأنت يا صديقي قد أوغلت في معاداة طه حسين فلا تضف إليها معاداة أحمد أمين!

وشاءت المقادير أن أقص هذه القصة على بعض أصدقائي في بغداد سنة 1938 فكان من أثر ذلك أن يوجَّه إليَّ سؤالٌ في جريدة (الكلام) عن بيان ما سرق مني أحمد أمين.

ورأيت أن أعتصم بالصمت فلا أجيب: لأني كنت نشرت قبل ذلك كلمة أثنيت بها على جهود أحمد أمين في جريدة (الهدف) ولأني كنت أستقبح اغتياب أبناء وطني في جرائد بغداد، فقد كان أدباء لبنان يسمونني سفير العروبة المصرية في العراق.

ومنذ أشهر نشر الأستاذ أحمد أمين مقالته الأولى فيما سمّاه جناية الأدب الجاهلي على الأدب العربي فلم تعجبني: لأني رأيتها من الحديث المعاد، ثم لقيني مصادفةً في (المترو) بعد ظهور مقالته الثانية فسألني عما أراه في الأفكار التي أودعها مقالتيه، فقلت له: لم يعجبني غير نقد الشاهد الذي أوردته من كلام ابن قتيبة، أما سائر أفكارك فتحتاج إلى تحقيق، فقال: أنا دعوت القراء إلى مناقشة تلك الأفكار، وأنا أرحِّب بكل ما يَرِد إلي من تصحيح.

فهل كان يدعوني إلى أن اساجله الحديث؟

كانت الصداقة بيني وبين الأستاذ أحمد أمين قد بلغت أقصى حدود المتانة والصدق، وما كان ينتظر أن يرى مني غير ما يحبّ، وكنت والله خليقاً بالتجاوز عن سيئاته لو لم يُسرف في الإساءة إلى ماضي اللغة العربية في وقت يحرص فيه العرب على تفهيم أبنائهم أن أجدادهم كانوا من أصحاب الرفيعة في العلوم والآداب والفنون، وأنهم كانوا في ماضيهم من أقطاب الزمان.

وكذلك وقعت الواقعة وكان ما عرفه القراء من تمزيق الأوهام التي اعتز بها ذلك

الصديق.
ولكن ما الواجب لهذا التمهيد في مطلع المقال الثاني والعشرين؟
أنا أريد أن يعرف القارئ أني أشعر بالضجر حين أثبت في مقال اليوم أن أحمد أمين سرق بعض آرائي، بعد أن أثبتُّ ما سرق من الدكتور أحمد ضيف والدكتور طه حسين، وما كان يهمني أن ينص على ما سرق مني، ولكن اعتزازه بآرائه (المبتكَرة) أوجب الحدّ من جرأته العاتية في نهب تلك (المبتكرات).
وأدخل في صميم الموضوع فأقول:
اهتم الأستاذ أحمد أمين بالنص على أن الشعر العربي كان في أغلب أحواله أدب معدة لا أدب روح، وحجته في ذلك أن التكسب بالشعر كان عادةً غالبةً على أكثر الشعراء، وقد طنطن بهذه المسألة وأخذ يعيدها في كل مكان حتى صحّ للأستاذ محمد العشماوي بك أن يواجهني بهذه العبارة:
(كيف تعيب على الأستاذ أحمد أمين أن يقول إن شعراء العرب كانوا يتجرون بأشعارهم، وهو قول صحيح؟)
فهل ابتكر الأستاذ أحمد أمين ذلك الرأي؟
انظروا ما جاء في كتاب (البدائع) ج 1 ص 99
(لا أنكر أن كثيراً من الشعراء اتخذوا مدح الملوك والأمراء وسيلة من وسائل العيش، ولا أنكر أن كثيراً منهم وصل بذلك إلى أسفل دركات الاسفاف، واصرِّح بأن من النقائص النفسية أن يسخر الشعر تسخيراً في سبيل المنافع الزائلة، وأعترف بأن هذه النقيصة تمسُّ كثيراً من شعراء اللغة العربية، وإن كان من أسباب العزاء أن هذه النقيصة لم يتفرد بعارها شعراء العرب فقد كان أكثر الشعراء في أوربا يعيشون عالةً على الملوك والأمراء ولم يعرف منهم باستقلال الشخصية إلا القليل. ولكني - مع هذا - أقول بأن المديح ديوان العرب، وهو الوثيقة الباقية على ما كان فيهم من كرم الشمائل والخصال. والمادحون قد يكذبون، ولكنهم في كذبهم يصورون ما اصطلح عليه معاصروهم من ألوان المحاسن والعيوب، فالشاعر الكاذب يقف كذبه، عند حقيقة ممدوحه، ولكنه من الوجهة الاجتماعية صادق كل الصدق، لأنه يصور ما يتشهى ممدوحه أن يتصف به من كرائم الخلال).
وهذا البحث كان من البحوث التي راعت الأستاذ المازني وكان نُشرَ في جريدة البلاغ قبل أن يُضم إلى الطبعة الثانية من كتاب البدائع.
وقد رأى الأستاذ أحمد أمين أن ينهب الشطر الأول من الفكرة ويغفل الشطر الأخير، لأن الشطر الأخير فيه توجيه لمدائح الشعراء وهو حريص على طمس محاسن أولئك الشعراء.
وعاب أحمد أمين على العرب أن يلتزموا افتتاح القصائد بالنسيب وأن يتنقلوا بهذه العادة من جيل إلى جيل، في حين أن الشاعر قد لا يكون مشبوب العاطفة في كل حين.
وهذا الكلام مسروق من مقال أرسلته من باريس سنة 1931 وفيه أقول:
(لقد درج شعراء اللغة العربية منذ الزمن القديم على افتتاح القصائد بالنسيب، وتلك طريقة لها محاسن ولها عيوب: فمن محاسنها أنها تمهد للشاعر طريق الكلام، وهي بذلك أشبه بالموسيقى تتقدم الغناء ليثور قلب المغنِّي ويُرهَف إحساسه للتلحين والتطريب. ومن مساويها أنها تفرض على الشاعر ما لا قِبَل له باحتماله من التغني بعواطف قد تكون خمدت في صدره منذ أزمان. على أن الشعراء الأقدمين قد التزموا هذه القاعدة حتى وصلت ببعضهم إلى الإسفاف، وحسبُ القارئ أن أذكر له أن من الشعراء الماضين من كان يفتتح
قصائد الرثاء بالنسيب، وذلك أغرب ألوان الشذوذ، وقد أحصيتُ من هذا النوع عشرين شاهداً هي في مذكراتي بمصر، فليعذرني القارئ إن اكتفيت بالإشارة إليها في هذا الحديث)
وصرح أحمد أمين بأن المعاني القديمة لم تخضع للتجديد، وإنما نقلها الشعراء بلا تجميل ولا تحسين. أفلا يصح القول بأنه سرق هذه الفكرة مما جاء في كتاب (البدائع) ج 1 ص 29.
(إن شعراءنا يدورون حول الحسن فلا يرون منه غير ما كان يرى الأقدمون. فحيرةُ

الشاعر اليوم هي حيرة أسلافه منذ قرون مع أن النفوس قد تعقدت أشد التعقد، وهذا الحُسنُ - إن لم يلطف الله - ماضٍ في الفتك بلفائف القلوب، وقد جدّت للأرواح أزمات جديدة ومطامح جديدة لم يَشْقَ بها الأولون، فليس من المغالاة في شيء أن نصارح القراء بأن الغزل في شعر شوقي وأضرابه من المعاصرين أصبح أعجز ما يكون عن وصف ما في نفوسنا وأرواحنا وقلوبنا من ألوان القلق والظمأ والالتياع).

واهتم الأستاذ أحمد أمين بتوكيد القول بأن نزعة القرآن روحية لا حِسيّة. فنال بذلك ثناء الأستاذ محمود علي قراعة الذي عدّ كلامه من المبتكرات، فهل يعلم أن هذا الكلام مسروق من قول صاحب (التصوف الإسلامي) ج 2 ص 7.

(وأقرب الآثار الصوفية إلى أذهان الناس هو القرآن، ذلك الكتاب الذي أطال القول في وصف الدنيا وذمها وثلبها وتحقيرها، وقضى بأنها لهو ولعب، وأنها في نضارتها ليست إلا متاع الغرور. القرآن هو أقرب الآثار الصوفية إلى أذهان الناس وإن جهلوا ذلك، هم يعدّونه كتاب تشريع ونراه كتاب تصوف. إن التشريع في القرآن ليس إلا تنظيماً للعلاقات الدنيوية، والعلاقات الدنيوية في نظر القرآن هي تمهيدٌ للصلات الروحية: صلات الناس بالله الكبير المتعال، وكلُّ مَغنم لا يُقرِّب المرء من ربه هو في نظر القرآن ذُخرٌ باطلٌ سخيف)

ومع ذلك يقال إن أحمد أمين يدعو إلى الروحانيات وإن زكي مبارك يقاوم الروحانيات!

فيا ربَّ هل إلا بك النصر يُرتَجَى ... عليهم؟ وهل إلا عليك المعوَّلُ؟

غفر الله لي ولكم، يا إخوان هذا الزمان!

ويوصي أحمد أمين بقَصْر دراسة تاريخ الأدب على المعاهد العالية والاكتفاء في المدارس الثانوية بنصوص مختارة من الأدب الحديث.

فمن أين أخذ هذا الكلام وهو الذي اشترك مع لجنة مكونة من أشخاص معروفين في تأليف كتابين للمدارس الثانوية بُدِئ فيهما بالأدب الجاهلي والأدب الأموي، وهما عصران أعلن عليهما الحرب في هذه الأيام؟

أخذ هذا الكلام من قول صاحب رسالة (اللغة والدين والتقاليد) ص 42 و 43.

(إن درس تاريخ الأدب بدعةٌ نقلناها نقلاً عن أوربا، وهي مقبولة هناك؛ لأن الأدب الأوربي يكثر في القصَصَ والتمثيل، وهي موضوعات ألفها التلاميذ، لأنهم منذ الطفولة عرفوا القصَصَ وعرفوا التمثيل، فلا يصعب عليهم أن يفهموا الفرق بين فن وفن، وعصر وعصر، وأسلوب وأسلوب. أما في مصر فالأدب في جملته يتحدث عن شؤون جِدية لم يعرفها الشبان من قبل، فمن العسير أن يدركوا كيف تطور واستحال من جيل إلى جيل. . . إن تاريخ الأدب لا ينبغي أن يدرس إلا في المعاهد العالية، أما المدارس الثانوية فيدرس فيها الأدب الصِّرف، مع العناية بشرح النصوص والبحث عن مواطن الجمال في النثر الجيد والشعر البليغ. . . درس تاريخ الأدب في المدارس الثانوية جهدٌ ضائع، وسنصبر عليه إلى أن تسوق المقادير رجلاً حاذقاً من بين الذين عرفوا عقلية التلاميذ، وما أظن أننا سنصبر طويلاً، لأن العناية بإصلاح التعليم تزداد من يوم إلى يوم، والى أن تحذف تلك المادة الفضولية نوصي أساتذة اللغة العربية بأن يتخيروا للمطالعة والمحفوظات نصوصاً لا تخرج عن الأدب الحديث، لأنه أقرب العصور إلى أذهان التلاميذ، وقربُهُ من أذهانهم يساعد المعلمين على بيان ما يتصل به من الملابسات الخلقية والاجتماعية، ويمكِّن التلاميذ من فهم ما فيه من أسرار البيان).

ورسالة (اللغة والدين والتقاليد) نشرت في سنة 1936، والفكرة قديمة عند صاحب هذه الرسالة فهي مُثْبتةٌ في كتاب (ذكريات باريس) الذي طبع في سنة 1931.

وأحمد أمين يعرف أن الجندي المجهول الذي اسمه زكي مبارك هو الذي غير منهج دروس الأدب في مدارس وزارة المعارف من حال إلى حال، فقد كانت تبتدئ بالعصر الجاهلي فصارت تبتدئ بالعصر الحديث. ومن السهل أن نستخرج المذكرات التي قدمتها للوزارة في هذه القضية ليعرف أحمد أمين هوية الرجل الذي وَأَد كتاب (المجمل) وكتاب (المفصَّل)

عليهما رحمة الله، وعلى مؤلفيهما السلام، وهي تحية تصل أصداؤها إليه وإلى علي الجارم وأحمد ضيف وعبد العزيز البشري وطه حسين.

وسيأتي يوم أفصِّل فيه ما أديت من الخدمات لتوجيه الحياة العلمية بوزارة المعارف؛

تلك الخدمات التي انتفع بها أحمد أمين وغير أحمد أمين، ثم مضت بلا شكر ولا جزاء غير السرقة والانتهاب!

إن الفخر بغيض ممقوت، وقد عابه عليَّ الأصدقاء قبل الأعداء؛ ولكن ماذا أصنع وأنا أشهد آرائي تُنتهب بلا تحرُّز ولا ترفق، وبها يرد على خصومي حين يشتجر القتال، وكأنها مما ابتكرت أفكارهم الثواقب وألسنتهم النواطق!

ويقول أحمد أمين وطه حسين: إن الأدب يجب أن يرفع نفسية الأمة ويدلها على مواطن الضعف والقوة لتواجه الحياة عن هدى وبصيرة

فهل أستطيع أن أقول إن هذه الآراء منهوبة من قول صاحب رسالة (اللغة والدين والتقاليد) (ص 46 و 47).

فإذا انتقلنا من الأدب وتاريخ الأدب في المدارس الثانوية والعالية تلفتنا نبحث عن) الأديب المخلوق لدرس الحياة، ونحن نرجو أن يكون في أساتذة الأدب من يخرج على الذوق المتكلف والوقار المصنوع، نرجو أن يكون عندنا أساتذة يزورون تلاميذهم في بيوتهم، ويرافقونهم في الحفلات والسهرات، ويطوفون بهم على الأحياء الشعبية ليعلموهم كيف تكون الثورة على ما في حياة الشعب من بؤس وشقاء. . . نريد أساتذة يربون تلاميذهم على مرافقة العمال والصناع والفلاحين ليكونوا في المستقبل من حملة الأقلام الثورانية التي تبدد غياهب الجهل والخمول. . . نريد أدباً يبعث في الشعب روح التمرد على الفقر والمسكنة والذل، ويروضه على الطمع الشريف في الغنى والكسب والعزة والكبرياء. . . نريد أدباً يطمعنا في استرجاع ما ضاع من مجد مصر والنيل. . . نريد أدباً يرفعنا إلى صفوف الجوارح، نريد أدباً يعلمنا فضل المِخلب والناب، نريد أدباً نسيطر به على الدنيا غير باغين ولا عادين).

أما بعد فقد أنهيتُ القول في محاسبة الأستاذ أحمد أمين بعد أن أرَّقت جفونه خمسة أشهر كانت عنده كألف سنة مما تعدون، وأنا أشكر لمجلة (الرسالة) وقرائها ما لقيت من تشجيع وترحيب.

انتهيت من محاسبة أحمد أمين الباحث، أما أحمد أمين الصديق فله في قلبي أكرم منزلة وأرفع مكان، ولن يراني إلا حيث يحب في حدود المنطق والعقل، فما أرضى له أن يكون من الساخرين بالأدب العربي وماضي الأمة العربية

وسأبدأ بالتحية حيث ثَقِفْتُه. فلا يَرْو عني وجهاً أراه أهلاً للكرامة والحب.

وسلام عليه من الصديق الذي لا يغدر ولا يخون.

(تم البحث)

زكي مبارك

من كتاب (الدين الإسلامي)

من هو المسلم؟

للأستاذ علي الطنطاوي

ديننا علم واعتقاد وعمل

فالمسلم من (علم) أن الله عز وجل بعث محمداً صلى الله عليه وسلم على حين فترة من الرسل بالشريعة الخالدة التي تصلح لكل زمان ومكان، والتي تكفل لمتبعيها سعادة الدنيا والآخرة، وجعلها رحمة للعالمين، وهدى للناس أجمعين، وأنزل عليه الكتابَ الذي ما فرط فيه من شيء، القرآن كلامَ الله القديم، وختم بالإسلام الرسالات فلا نبي بعد محمد خاتم النبيين

و (علم) أن دعامة الإسلام وأساسه، ومصباحه ونبراسه، كتاب الله وسنَّة نبيِّه، فما جاء في القرآن أو صحَّ أن النبي صلى الله عليه وسلم قاله فهو من الدين، وما عدا ذلك من بدع ابتدعها في الدين قوم، أو زيادات زادها أقوام ليست في القرآن ولم ترد في الحديث الصحيح ولا تقاس عليهما ولا يجمع عليها أئمة المسلمين فليست من الدين ولو قال بها أهل الأرض.

و (علم) أن الإسلام لا يشبه الأديان ولا يقاس عليها، لأنه دين وشريعة وسياسة وأخلاق، فهو يبيِّن صلة العبد بربه، ويضع القوانين لصلات الناس بعضهم ببعض، ويبني قواعد العلاقات السياسية بين الدول الإسلامية وغيرها من الدول، والإسلام يرافق المسلم إذا غدا أو راح أو طلع أو نزل لا يفارقه لحظة ولا خطوة. وليس في الدنيا عمل لا يدخل

فيه الإسلام ويبيِّن فيه حكم الله، فإما أن يكون مباحاً لا يثاب فاعله ولا يعاقب تاركه، وإما أن يكون مندوباً يثاب فاعله ولا يعاقب تاركه، وإما أن يكون واجباً يثاب فاعله ويعاقب تاركه، وإما أن يكون مكروهاً يثاب تاركه ولا يعاقب فاعله، وإما أن يكون حراماً يثاب تاركه ويعاقب فاعله. وهذه الأحكام الخمسة (الفرض والمندوب والمباح والمكروه والحرام) هي التي تحدد مكان كل عمل من الدين ولا يخلو عمل من واحد منها. فالمسلم لا يقول أبداً (هذا الأمر خارج عن نطاق الدين لا دخل له فيه) كما أنه لا يقول (إن الإسلام يجب أن ينفصل عن السياسة) لأن السياسة جزء من أجزاء الدين، و (براءة) وكلها سياسة، سورة من القرآن لا يمكن أن تنفصل عنه

والمسلم من (علم) أن الشريعة الإسلامية أغنى الشرائع؛ وأنها أثمن وأجمع وأحكم من القانون الروماني الذي اقتبست منه كل قوانين أوربة، وأنه يجب أن تكون قوانيننا المدنية والجزائية والمالية والإدارية والدستورية مستنبطة من شريعتنا، مقتبسة من ديننا

و (علم) أن من أنكر آية من القرآن، أو حديثاً متواتراً فقد خرج من الإسلام

و (علم) أن الاجتهاد في استنباط الفروع أمر مستحسن شرعاً، يؤجر عليه صاحبه ولو أخطأ فيه مكافأة له على بذله الجهد واستفراغه الطاقة، فإذا أصاب كان له فوق ذلك أجر آخر هو أجر الإصابة؛ وأن الاجتهاد في أصول الدين ممنوع لأنها منصوص عليها ولا مساغ للاجتهاد مع ورود النص، وأنه لا يضر الناس اختلافهم في الفروع (فكلهم من رسول الله ملتمس) سواء في ذلك الحنفي منهم والشافعي والمالكي والحنبلي. بل إن اختلافهم رحمة من الله وتوسيع على الامة، ولكن يضر الناس اختلافهم في أصول الدين من العقائد ونحوها، ويكون الواحد منهم مصيباً والباقون على ضلال. لأن الحق لا يتعدد، والمصيب هو من اتبع ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والقرن الأول خير القرون

و (علم) أن كل من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله، ولم يعتقد ما يخالف الكتاب والسنة، ولم يستحل محرَّماً ولم يحرم حلالاً، فهو مسلم تنطبق عليه أحكام المسلمين وتجمعنا به أخوة الدين، ولا يجوز تكفير مسلم إلا إذا أنكر أصلاً من الأصول، أو أتى ما أجمع الأئمة على أنه مكفر

و (علم) أن الإسلام لا يعارض العلم الصحيح، ولا الفن النافع، ولا الحضارة الخيِّرة، وأنه دين سهل رحب مرن، ليس بالدين الضيق الجامد المحرج

والمسلم من (اعتقد) بأن لهذا الكون إلهاً واحداً قديماً باقياً، سميعاً بصيراً، متصفاً بصفات الكمال، منزهاً عن صفات النقصان، وأنه هو خالق كل شيء وإليه المصير، ويخلص له العبادة ويراقبه دائماً ويعلم أنه مطلع عليه، وأنه هو وحده النافع الضار، وبيده الخير وهو على كل شيء قدير. فلا يدعو معه غيره، ولا يسأل سواه حاجة من الحاجات التي لا يقدر البشر على مثلها ولا يستعين إلا به، ولا يخاف حق الخوف إلا منه، ولا يسخطه ليرضي الناس، ولا يبالي إذا رضي عنه بسخط أحد

و (اعتقد) أن الله خلق أنواعاً من المخلوقات، منها ما خلقه من مادة كثيفة كالناس والحيوان والكواكب، ومنها ما خلقه من مادة نورانية كالملائكة وهم خلق كثير من خلق الله لا يأكلون ولا يشربون ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، يسبحون الليل والنهار لا يفترون

ومن مخلوقاته الجن، وهم خلق يروننا ولا نراهم، ومنهم المؤمن ومنهم الكافر، ومنها الشياطين وهم أهل الشر ليس فيهم صالح

و (اعتقد) أن الله رحمة منه بالناس، اختار منهم رجالاً عصمهم من الكبائر، ونزههم عن النقائص، ثم بعث إليهم (جبريل) وهو واحد من الملائكة، فأبلغهم رسالة الله، وعلمهم ما يسعدهم في دنياهم وينجيهم في آخرتهم، وكلفهم إبلاغ هذه الرسالة أقوامهم، وهؤلاء هم الرسل وأولهم آدم وآخرهم محمد صلوات الله عليهم أجمعين.

ولو شاء الله لأنزل كتاباً واحداً، وجعل الناس أمة واحدة، ولكن اقتضت حكمته أن يكون التكامل في الرسالة تدريجياً، كالتكامل في الحضارة والرقي، فكل رسالة تعدل التي قبلها وتكملها، حتى جاءت رسالة محمد، في نهاية الكمال، لا يحتاج بعدها إلى شيء لسببين، أولهما أن طبيعة الرسالة المحمدية طبيعة مرنة قابلة للتطور في

أحكامها الفرعية تبعاً لتطور العصور، فهي لذلك تبدو في كل عصر جديدة، ويتكشف منها جوانب ومعان لم تكن معروفة، حتى كأنما أنزلت لذلك العصر؛ والسبب الثاني طبيعة الحياة البشرية وميلها نحو الوحدة، منذ فجر الإسلام حتى اليوم، إذ أصبح الناس من حيث الاتصال كأنهم أبناء أسرة واحدة، تقال الكلمة في آخر الشرق فتسمع في آخر الغرب، وسهل تبليغ الرسالة، ولم تعد حاجة لتعدد الرسل بتعدد الأقوام

و (اعتقد) أن الوحي معناه نزول الملَك على الرسول، وهو غير الإلهام الروحاني الذي يحس به الشعراء والكتاب، وأن الوحي ليس كسبياً وإنما هو عطاء من الله لا ينال بالتحصيل، ولا يوصل إليه بالبحث والعلم والتفكير، لذلك لا يقال إن النبي مصلح عظيم، ولا شاعر ولا فيلسوف، لأن ذلك كله يختلف عن النبوة، وينحط عن مرتبتها انحطاطاً كبيراً، ويخالف العقيدة الإسلامية

و (اعتقد) أن الله أنزل على أربعة من رسله كتباً، فأنزل التوراة على موسى، والزبور على داود، والإنجيل على عيسى، والقرآن على محمد صلى الله على الجميع، فبدل كل قوم كتابهم وحرَّفوه وبقي القرآن كما أنزل، لأن الله ضمن حفظه (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون).

و (اعتقد) أن الله سيجمع الناس كلهم في يوم القيامة، فيعيد الحياة لمن مات، ويرد عليه الروح ولو فني وصار تراباً، ولو أحرق جسده وصار رماداً، ولو أكلته الوحوش أو تخطفته الطير، ثم يحاسبهم جميعاً على ما عملوا في الدنيا، فيكافئ المحسنين فيخلدهم في الجنة، ويعاقب المسيئين فيدخلهم النار

وأنه لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

وأن من تاب قبل أن يموت محي ذنبه حتى كأنه لم يذنب، بشرط أن تكون التوبة مقرونة بترك الذنب، والعزم على عدم العودة إليه، والندم على الماضي، وهذه هي التوبة الصادقة التي تمحو الذنب، فإن عاد بعدها إلى الذنب، ثم تاب منه توبة صادقة غفر له، ولو كثرت ذنوبه حتى صارت مثل زبد البحر (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً)

أما من تاب من ذنب وهو لا يزال مقيماً عليه، أو يفكر في أن يعود اليه، فهذا كالمستهزئ به والعياذ بالله

و (اعتقد) أن كل شيء بقدر الله، وأن الله قسم للعبد سعادته وشقاءه، ورزقه وعمره فما كان لك سوف يأتيك على ضعفك، وما كان لغيرك لن تناله بقوتك، ولو بقي في عمرك يوم واحد لا يقتلك أهل الأرض ولو اجتمعوا عليك، وإذا جاء أجلك أدركك الموت ولو كنت في برج مشيَّد، رفعت الأقلام، وجفت الصحف، ولا رادَّ لما قضى الله، ولا دافع لمشيئته

والمسلم بعد ذلك، من يقر ويشهد بلسانه أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيم الصلاة ويؤديها على وجهها في أوقاتها محافظاً على فروضها وسننها، خاشعاً لله فيها، ويصوم رمضان إيماناً واحتساباً، ويؤدي زكاة ماله طيباً بها قلبه، ويحج البيت إن استطاع

ثم إنه لا يكذب ولا يغتاب ولا يشي ولا يؤذي أحداً ولا يظلمه، ويكون عفيف العين واليد والفرج، ساعياً إلى مكارم الأخلاق، آخذاً الحكمة من حيث وجدها، يحب لأخيه ما يحب لنفسه، مبتعداً عن الفحشاء والمنكر، يعاون على البر والتقوى، ولا يعاون على الإثم والعدوان، ينكر المنكر بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان، ويؤدي حقوق المسلمين فيساعد ضعيفهم، ويمد فقيرهم، ويعود مريضهم، ويغض بصره عن نسائهم، ويحفظ لهم أعراضهم، ويعد كل شيخ في المسلمين أباً له، وكل شاب أخاً، وكل صبي ولداً، وكل فتاة بنتاً، وكل امرأة أختاً، ثم إنه يجتنب الخمر، ويدع الربا، ويخاف الشُّبَه كيلا تقوده إلى المحرمات، ولا يحوم حول الحمى حتى لا يقع فيه

ويريد بذلك وجه الله، مبتعداً عن حظ النفس ما استطاع الابتعاد، عالماً أنه بشر فيه غرائز لا يملك الانفكاك عنها، ولا يؤاخذه الله إلا بما ملك.

هذا هو المسلم الحق. . . فاللهم اجعلنا مسلمين حقا!

علي الطنطاوي

الفروق السيكلوجية بين الأفراد

للأستاذ عبد العزيز عبد المجيد

إن ما أعنيه بالفروق السيكلوجية هي تلك الفروق العقلية والخلقية والمزاجية والجسمية الموجودة بين الأفراد. ومن السهل على المفكر العادي أن يدرك مظاهر تلك الفروق في تصرفات الأفراد وفي إنتاجهم الاجتماعي والعلمي. وليس موضوع اختلاف الأفراد السيكلوجي حديثاً في ذاته، فقد تناوله العلماء والفلاسفة بالبحث منذ قرون. ولكنه حديث بالنسبة لبحثه بالطرق العلمية والإحصائية، وتحديد تلك الفروق وتبويبها، ومعرفة أسبابها، وعزو ما هو وراثي منها للوراثة، وما هو بيئي للبيئة. وهذا النوع من البحث العلمي في الفروق السيكلوجية ظهر واحتل مكاناً بين فروع علم النفس في الربع الأخير من القرن الماضي وذلك بنمو علم النفس التجريبي. وهو يعرف الآن بعلم النفس الفردي في

وأقدم من عالج هذا الموضوع أفلاطون في جمهوريته، فإنه حين وضع نظام المدينة الفاضلة بناه على أساس الاختلاف السيكلوجي بين أفراد الجماعة الواحدة. وكان يرى أن (العدل الاجتماعي) يقضي بأن يقوم الفرد بالعمل الذي أُعد له بطبيعته، والذي تقوى على تحمله وتسويته طاقته العقلية، واستعداده الجسمي. وكانت نتيجة هذا المبدأ أن قسم أفلاطون سكان مدينته إلى طبقات ثلاث، فجعل فيها طبقة الزراع والصناع والتجار، وهؤلاء بطبيعتهم غير صالحين لأن يكونوا ضمن الطبقة الثانية طبقة الجنود المدافعين عن المدينة من الخارج والمحافظين على نظامها في الداخل. وفوق هاتين الطبقتين طبقة ثالثة قد وهبت من المزايا العقلية والخلقية ما لم توهب الطبقتان الأخريان وهذه هي طبقة الفلاسفة والحكام الذين لهم حق الإشراف على الإدارة والقضاء والتشريع. وقد أشار أفلاطون في الجمهورية إلى أن هذه الطبقة الأخيرة طبقة ممتازة بالفطرة. وأهم مميزاتها التفكير المنطقي المعنوي، والإدراك الفلسفي لحقائق الأشياء. ومن الغريب أن هذه الميزة التي يراها أفلاطون ضرورية لطبقة الفلاسفة هي التي يسميها بعض علماء النفس الحديثين الذكاء

وضع أفلاطون منهجاً لتربية هذه الطبقات الثلاث، ورأى أنه من العبث أن يضيع المجهود في تربية طبقة الزراع والصناع، لأن هذه الطبقة ليست بفطرتها مستعدة للنمو الثقافي والترقي الفكري.

وإذاً فمن صالح هذه الطبقة - وصالح الجماعة أيضاً - أن تنصرف إلى نوع العمل المستعدة له، يعني الزراعة والصناعة؛ أما الطبقتان الأخريان فقد رأى العناية بتربيتهما من سن السابعة إلى سن العشرين.

وحينما يصل الشبان إلى هذه السن تكون قد ظهرت مواهبهم وقدراتهم للمشرفين على تربيتهم، فيختارون من بينهم النابغين منهم عقلياً وتفكيرياً ليواصلوا دراساتهم الثقافية وتستمر دراسات هؤلاء المختارين مدة عشر سنوات يعالجون فيها من الموضوعات كل ما ينمي فيهم القدرة على التعليل وفي نهاية عشر السنوات يُختار الصالح من هذه الطبقة ليكون مشرفاً إدارياً، بينما يستمر الأصلحون منهم خمس سنوات أخرى في دراسة الجدل والحوار المنطقي، وبذلك يكونون قد أُعِدُّوا لتحمل التبعة الكبرى، تبعة الحكم الرئيسي

ويمثل رأي أفلاطون الذي شرحناه هذا مذهب الوراثيين الذين يبالغون في أهمية الوراثة كعامل مرجح في تكوين الصفات العقلية والخلقية والجسمية للفرد، ويعزون للوراثة وحدها الفروق السيكلوجية بين الأفراد

ولسنا هنا في مقام انتقاد هذا الرأي الأفلاطوني من الناحية العلمية والسيكولوجية الحديثة، ولا في مقام شرح نقط الضعف في نظام الطبقات وتربيتها، تلك التربية التي أهملت عدداً كبيراً من المواهب الفردية والعناصر النافعة ضائعةً في طبقة الصناع والتجار والزراع وفي طبقة الجنود. ولكنه ضروري من الناحية التاريخية أن نشير إلى أن أفلاطون حاول أن تكون مراحل التربية وغاياتها في المدينة الفاضلة مبنية على أساس أن هناك فروقاً عقلية وجسدية بين أفرادها. ويقابل هذا في التربية الحديثة أن تكون المناهج الدراسية مختلفة باختلاف قوى التلاميذ العقلية واستعدادهم الطبيعي وميولهم الفطرية، وأن يكون التعليم المدرسي فردياً أكثر منه جميعاً

اتبع أرسطو مذهب أستاذه أفلاطون في قبول مبدأ الفروق السيكلوجية الفردية، ولكنه اختلف عنه في أن أهم هذه الفروق هي الفروق الجنسية.
فالمرأة عنده تختلف بطبيعتها عن الرجل من حيث استعدادها العقلي والجسمي والمزاجي والخلقي. ولذلك رأى أن يختلف نوع التربية التي تتلقاها عن تربية الرجل، وأن تكون
الغاية من تربيتها مختلفة عن الغاية من تربية الرجل. فلم يقرَّ ما ذهب إليه أفلاطون من أن الطبيعة جعلت المرأة مساوية للرجل وهيأتها للمشاركة في الجندية والسياسة.
وزاد على ذلك أرسطو فحاول أن يحدد النمو البشري العقلي والجسمي وطبيعته، والعوامل التي تحدث الفروق السيكلوجية في مراحل هذا النمو. وهو يرى أن التربية ليست آلة يستطيع بها المربي أن يصوغ المربى كما يشاء، وأن يضعه في القالب الذي يريد، ولكن التربية وسيلة للتوجيه فقط، توجيه القوى الكامنة والاستعدادات السيكلوجية الفطرية في الأفراد توجيهاً إلى الناحية الصالحة، وتوجيهاً عن الناحية الفاسدة.
وهو يرجع الفروق السيكلوجية بين الأفراد عامة إلى ثلاثة عوامل رئيسية:
(1) التعقل (2) العادة والتمرين (3) الطبيعة البشرية.
أما الطبيعية فهي وراثية توجد في الطفل منذ الولادة وهي كامنة في الفرد في جميع أطوار نموه. وأما العادة فهي أثر من آثار البيئة وهي التي تحدد اتجاه النمو الطبيعي والتطور الفردي.
وأما التعقل فهو الذي يتدخل في قوانين العادة فيهذب منها، ويبطل هذا ويحبذ ذلك.
ويدلنا مذهب أرسطو هذا على اعتداله، وأنه يأخذ بمبدأ تأثير كل من الوراثة والبيئة في إيجاد الفروق الفردية السيكلوجية. غير أنه يقول بأن فرداً لا يمكن تغييره وتحويره بحيث يعدو حدود طبيعته، لأن أي مؤثر تربيوي إنما يحدث أثره في الفرد ضمن قوى الفرد الطبيعية.
ويقرر أن الأفراد الذين يعوزهم الذكاء العقلي يعيشون طول حياتهم متخلفين عن غيرهم ممن منحوا هذا الذكاء مهما سلطت على الأولين من عوامل تربيوية قوية. وثمة نوع غير هذين النوعين من الأفراد وهم النابغون، وهم قلائل ولا يحتاجون لاستغلال نبوغهم إلا إلى قدر يسير من الدربة والتربية بالنسبة لغيرهم.
ونستنبط من مذهب أرسطو هذا أن الفرد بطبيعته مزود بقوى حسية وإدراكية محدودة، وأن التربية (العادة في نظره) هي التي تنمي هذه القوى وتعمل على أن تصل بها إلى مرحلة الكمال الممكن.
ولما كانت هذه القوى مختلفة عند الأفراد، وكان أثر التربية في كل فرد مختلفاً أيضاً كانت
النتيجة أن الأفراد مختلفون في تصرفاتهم وسلوكهم وإنتاجهم. وهذا ما يسميه علماء النفس الحديثون بالفروق الفردية السيكلوجية
كان اسكوراطس الخطيب اليوناني القدير معنياً بتعليم الخطباء وتمرينهم وتنشئتهم. وقد أدرك هو أيضاً كمعلم الفروق السيكلوجية بين من قام بإعدادهم من الطلبة لمهنة الخطابة واللسن.
وهو يقول في هذا الصدد (لقد أشرفت على إعداد معلمي الخطابة ومعلمي الألعاب البدنية كما لاحظتهم أثناء قيامهم بالتدريس ووصلت إلى نتيجة اقتنعت بها. وهي أنهم في مكنتهم أن يتقدموا بتلاميذهم، وأن يرتقوا بهم إلى درجة يصيرون فيها أقدر على استعمال أجسامهم وعقولهم من ذي قبل. ومهما يكن من الأمر فإنه ليس في استطاعة معلمي الخطابة، ولا معلمي الألعاب البدنية أن يخلقوا خطباء من أي أفراد يشاءون. نعم إن مجهود هؤلاء المعلمين ينتج إلى حد ما نتيجة نسبية، ولكنه لا يمكن أن ينتج هذا المجهود أقصى ما يمكن إلا إذا صادف من التلاميذ من جمع بين فضيلتين: الذكاء وقبول التدريب)
وإذا نظرنا إلى الذكاء وجدنا أنه عامل وراثي، أما التدريب فهو عامل بيئي، وإذاً فقد قال أسكوراطس بأثر عاملي البيئة والوراثة معاً
هكذا كان مذهب أسكوراطس الأثيني في الوقت الذي كان فيه التفكير اليوناني ينظر إلى الفرد من جميع نواحيه السيكلوجية: الناحية الجسمية، والناحية العقلية، والناحية

الخلقية، والناحية الذوقية، وكان مجموع هذه النواحي يُكوِّن عند الرأي اليوناني ما يسمى بالشخصية، وكلما وجد تناسق وتناسب وانسجام بين هذه النواحي وبين أطوار نموها كانت الشخصية أقرب إلى الكمال
وينحو علم النفس الحديث هذا المنحى الآثيني، مع اختلاف في طريقة البحث والقياس.
فللأفراد شخصيات مختلفة، واختلاف الشخصيات هذا معناه الفروق الفردية
السيكلوجية، والشخصية وفقاً لعلم النفس الحديث يمكن تحليلها إلى عناصر أربعة: العنصر العقلي والعنصر الخلقي والعنصر الذوقي والعنصر الجسمي.
(للبحث بقية)
عبد العزيز عبد المجيد
رئيس شعبة اللغة العربية بمعاهد بخت الرضا التجريبية
بالسودان
الثقافة العسكرية وأناشيد الجيش
للأستاذ عبد اللطيف النشار
يا بعد ما بين القوة وبين التبجح!
وهل تعده قوياً ذلك الشكس الشرس الذي يخشى أن يوصم بالضعف فهو لا ينفك يهاهي ويباهي؟!
يا بعد ما بين الشجاعة وبين ذلك الهذر هذر المهاتر الخائف الواجف فهو لا يزال يتهدد ويتوعد حتى لا يقال إنه أذعن أو يوشك أن يذعن
كثر في هذه الأيام شعر الأناشيد العسكرية وقلما خلت أنشودة من ذكر الدم والفداء والاستشهاد والتضحية. فهل هذا الشعر قد وضع للإزعاج والتخويف، أو لبث الروح العسكرية القوية، تلك المتعلقة بالحياة التي تترنم بالحب والجمال وتفيض بالشوق والحنين.
دعت قيادة الجيش المرابط ووزارة الدفاع ووزارة الشؤون الاجتماعية سادتنا الشعراء إلى وضع ألحان حماسية ليأخذوا بنصيب في نشر الثقافة العسكرية. وكان شرفاً عظيماً أن تتجه هذه الهيئات السامية إلى فريق مثقف من الأمة فتدعوه إلى هذه المشاركة. ولكن شعراءنا كانوا أحوج إلى الثقافة العسكرية من جنود الجيش المرابط فخالوا أنه ما دامت الدعوة من هيئات حربية ولغرض عسكري ومن أجل الجنود فلا أقل من أن يكون الشعر عروقاً تتفجر وأشلاء تتبعثر وسلاحاً يتكسر!
كلا أيها السادة الشعراء، هذا أدل على الخوف منه إلى الشجاعة، وهذا النوع من الحماسة لا يشابهه إلا نوع آخر في الحب جعلتم فيه علامة العشق البكاء والانتحاب والتمرغ على الأبواب وذكر الدموع والأرق والسهاد. ولا حب في هذه الذلة ولا قوة في ذلك التبجح
أدب القوة!؟
نعم ونعيم عين وحباً وكرامة
ولكن ما هي القوة؟
شعر الحرب!؟
نعم ونعيم عين وحباً وكرامة
ولكن ما هو الحرب؟!
ليست الحروب جديدة في التاريخ العربي، ولا شعر الحماسة جديداً في لغتنا الفاتحة الظافرة فكونوا مجتهدين ولكم إمام، أو كونوا مبتكرين على شريطة الصدق في الإلهام؟
إن للجنود أناشيد في كل اللغات ولكن أناشيدهم حافلة بالحنين وبالشوق وبالتمدح بالأهل والوطن وبالغزل الرقيق، فهذا هو الشعر الذي يثقف الجنود ثقافة عسكرية. أما الألفاظ الدامية فلا يهديها الشعراء إلى الجنود كما لا يهدي النمر إلى هجر كما جاء في المثل.
(يا شباب النيل يا عماد الجيل)
مطلع جميل! ولكن ماذا يقال لشباب النيل وعماد الجليل؟
يقال إن أجمل امرأة لأقوى فارس. هكذا قيل في الشعر الحماسي وهكذا ينبغي أن يقال. أما كونوا الفداء، وأريقوا الدماء، ولا تهنوا في الدفاع عن اللواء، فهذا ما يعلمه

شباب الجيل للشعراء لا ما يتعلمونه من الشعراء، وقد يكون الشعراء من عماد الجيل ومن شباب النيل ولكنهم عند ذلك لا يقولون بل يفعلون
وبعد فقد كان للنبي (ص) شعراء وكانوا يضعون الشعر الحماسي لفاتحي الفتوح وغالبي الغالبين وقاهري القاهرين فماذا قال شعراء النبي؟ قال حسان:
إن كنت فاعلة الذي أوعدتني ... فنجوت منجى الحرث بن هشام
ترك الأحبة لا يدافع عنهم ... ونجا برأس طمرَّة ولجام
فبهذه السخرية ظفر بفارس قائد فأحرجه فعاد إلى الجيش فاستشهد في الموقعة التالية
بهذه السخرية لا بالألفاظ الجوفاء حمل القائد الذي كان قد فر إلى أن يعود للرسول فيقول:
الله يعلم ما تركت قتالهم ... حتى رموا فرسي بأشقر مزبد
وعلمت أني إن أقاتل مفرداً ... أقتل ولا يضرر عدوي مشهدي
ففررت منهم والأحبة فيهمو ... طمعاً لهم بعقاب يوم مرصد
ولو أن حساناً قال يا شباب النيل يا عماد الجيل لتغير وجه التاريخ!
يا أساتذتي الشعراء، لا أستخف بالأناشيد التي تذاع إلا لأني أثق باستطاعتكم وضع أناشيد جدية لو اطلعتم على الأناشيد الحماسية في اللغات الأخرى أو رجعتم إلى الشعر الحماسي في لغتكم أو رجعتم إلى خيالكم الصادق ولباقتكم فعرفتم كيف ينبغي أن يقال للجندي وكيف ينبغي أن يقول الجندي، وماذا يخطر بباله وبماذا يشعر أيحارب لأنه يريد أن يموت حباً في الموت فيقال له الفداء والدماء، أو يحارب لأنه يحب الحياة الكريمة؟ فإن يكن الموت ولابد (فلن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) أيحارب حباً في سفك الدماء أم ضناً بسلام بلده أن يعتدى عليه؛ فإن لم يكن بد من رد السهم إلى الرامية فان
قومي همو قتلوا أميم أخي ... فإذا رميت أصابني سهمي
أيحارب لأنه مل الحياة أم لأنه يرجو أن ينتصر فيسعد في الحياة؟ زينوا ثمر النصر ولا تذكروا ثمنه (فمن خطب الحسناء لم يغله المهر) واذكروا ذلك الشعر الحماسي العربي الذي عماده الغزل، وذلك الشعر الحماسي الأوربي الذي عماده الخيال الصادق في تصوير نجوى النفس
هذا فيما يتعلق بالأناشيد وهي أدنى ما يراد منكم، فالعسكريون أقل حاجة إلى حماستكم من المدنيين إلى حسن تصويركم؛ فضعوا للمدنيين القصائد المسهبة في وصف الحياة العليا التي تتخيلونها والتي من أجلها نحمل ضرورات الحرب إن وقعت. صفوا الترف والنعيم
كان حسان شاعر النبي يقول:
نشربها صرفاً وممزوجة ... ثم نغنى في بيوت الرخام
فهذا النعيم الذي يصفه هو الذي من أجله يدعو إلى الحرب فيطاع
وما آمركم بشيء أنا عنه بنجوة. أبدأ بنفسي. ولما كنت أومن بأن احتذاء المثل من أقوى أركان الفنون فسأبدأ بترجمة بعض الأناشيد الحربية التي كسبت بهت مواقع، وباختيار أناشيد حربية عربية كسبت بها مواقع، ثم أعرض نماذج من شعري الذي أدعو إليه. والى الملتقى على صحائف الرسالة.
عبد اللطيف النشار
جندي متطوع في الجيش المرابط
أنت عزائي .. !
للآنسة جميلة العلايلي
أيها الحاكم بغير لسان، والآمر بغير بيان، والمتحدث ليل نهار!
أيها المنذر الصارم، والعطوف الراحم، والمرشد في الحياة كشعاع علوي يهدي الحائر والضال!
أيها الملاك النائم على عرش من عروش الطهر والبهاء!
أيها الهزار الغرد فوق أفنان من حديقة السعادة والهناء! أيتها النسمة الصافية التي تهب
عن الأرواح فتبعث فيها نشوة الأمل! أيتها الزهرة الندية التي تنفح عطراً يسكر الأرواح

كأنه خمر الهناءة يشربها الثمل!
يا ملاكي المعبود، يا هزاري المنشود، يا نسمتي المنعشة، يا زهرتي المزركشة، يا حياتي
ورجائي، يا سعادتي وهنائي، أنت عزائي!
أنت أليفي الحبيب، يلازمني في مسيري ويسايرني في وحدتي. أنت سميري الأمين الذي
يحبوني العطف والرعاية في ثورتي وهدأتي! أنت عزائي الذي ينير لي الحياة كلما نشر
الظلام ستاره على العالم فلا أضل السبيل. أنت المرفأ الأمين الذي ترسو عنده
السفينة بعد أن تتخبط في ظلمات الموج وقد فقدت الربان والدليل
أنت المزنة الهاطلة تتنزل على الأرض القاحلة فتكسوها ببساط البهر والجمال. أنت
الروح الهفهافة تسكب دماء الحياة في قلب الزمن فيكيف الكون بالحسن والجمال.
يا جنتي وحياتي، يا قبلتي وصلاتي، يا أملي الحبيب، يا رجائي الغريب، يا سعادتي
وضيائي، يا حلمي وغنائي، أنت عزائي!
أيتها الشمس المشرقة في بهرة العمر وروعة النهار!
أيتها النفحة السارية تطبع على فم هذا الكون قبلة الأقمار!
أيتها النسمة الملائكية تهب على الأرض فيطفر الروض وتهزج الأزهار!
أيتها النغمة الخالدة التي تحيي الأمل وتوحي الفن والأشعار
. .يا شمسي العالية. . . يا نغمتي السارية. . . يا نسمتي الصافية. . . يا نفحتي الصادية
. . .يا مناط حنيني. . . يا باعث أنيني. . . أنت عزائي. . . يا قلب .
(المنصورة)
جميلة العلايلي
في الأدب الإنجليزي الحديث
د. هـ. لورنس
للأستاذ عبد الحميد حمدي
الرجل كابن ومحب - 5
بدأ لورنس حياته الأدبية الصحيحة بمعالجة مشكلة من مشكلات العصر الحديث، ألا
وهي موقف الرجل كابن ومحب، أو موقفه حيال عاطفتين: عاطفة البنوة وعاطفة
الحب. وقد سبق أن عالج لورنس هذا الموضوع في أولى رواياته (الطاووس الأبيض)
ثم عالجها بشكل أعمق في روايته (الأبناء والمحبون) ولم ينسها في قصصه القصيرة
التي من أهمها (بنات القسيس) وأخيراً بحث فيها بتطويل وصراحة في كتابه عن
اللاشعور. ولم يصل كاتب إنجليزي إلى ما وصل إليه لورنس من العمق والدقة في
تحليل العلاقة بين الحبيب وحبيبته وبين الوالدين وأبنائهما أو بناتهما. ولا يجوز أن نعزو
معالجة لورنس لموضوع واحد في كتب مختلفة إلى رغبته في التكرار أو إلى نقص في
معينه، وإنما يجب أن نذكر دواماً أن لورنس كاتب يبشر بدين جديد وبآراء ومعتقدات
لم تكن معروفة من قبل. فكان لزاماً عليه أن يعرض الفكرة ويكرر عرضها ويمثل لها
بشخصيات متعددة بعد أن يضعها في ظروف مغايرة حتى ترسخ في أذهان قرائه
ويؤمنون بها.
ويعتقد لورنس أن الطفل يولد وتولد معه غريزته الجنسية، ولكن لا ينبغي أن تظهر
هذه الغريزة أو يبدأ عملها حتى يصل الطفل سناً معينة. وإن من الخير أن نقيم الحد
الفاصل بين الولد والبنت في تلك السن المبكرة حتى نضمن عندنا رجولة كاملة وأنوثة
مطلقة، وبدون ذلك لا تقوم للمجتمع قائمة. ويحدد لورنس الرجولة الكاملة بأنها هي
التي تحدو صاحبها إلى تحقيق غرض سام في الحياة، غرض يرمي إلى بناء الكون
وتوسيعه. أما الأنوثة الكاملة فهي التي تتطلب من صاحبتها أن تكون كتلة عواطف،
تقودها في كل أعمالها، دون أن يكون للعقل سلطان عليها، ويصحب التغيرات
الجسمية التي تعتري الولد أو البنت في دور البلوغ تغيرات من نوع آخر، أهمها تغير
العلاقات. فبعد أن ظل الولد أعواماً طويلة لا يفكر إلا في والده أو والدته يبدأ في هذه
السن بالتفكير فيمن ستكون شريكة
حياته. وبدل أن كانت علاقته قاصرة على أخوته وأخواته يبدأ يفكر في أصدقائه
وصديقاته. ويعبر لورنس عن هذه السن بأنها ساعة دخول الغريب، وإنه من الأفضل أن

نترك الغريب يدخل دون أن نحاول عرقلته أو الوقوف في سبيله. ويقصد لورنس من الغريب الحبيب أو الحبيبة. ويرى لورنس أن الوالدين في عصرنا هذا يبذلان قصارى جهدهما للوقوف في سبيل هذا الغريب وعرقلة مساعيه ظناً منهما أن في استطاعتهما احتكار حب الابن حتى لا يدعاه يفكر في أحد سواهما. فضلاً عن ذلك فإن حبهما الفياض لابنهما في تلك السن المبكرة يوقظ فيه غريزة كان يجب أن تكون نائمة في هذا الوقت ألا وهي الغريزة الجنسية، ويعتبر لورنس ذلك جريمة لا تغتفر يجنيها الوالدان على ابنهما. ثم يجيء دور البلوغ الذي يتطلب من الابن أن يكون حراً طليقاً يحب من يشاء ويصادق من يريد، فبدل أن يفعل ذلك يرى نفسه يرسف في أغلال حب ثقيل لا يستطيع منه فكاكاً، وبذلك يحرم من حبه للمرأة، ذلك الحب الذي لا تقوم للمجتمع قائمة بدونه

وكان الواجب على الوالدين أن يقطعا علاقتهما القديمة بولدهما بعد أن يصل إلى سن البلوغ كي يتركا له الفرصة لبدء علاقات جديدة غير علاقات الأبوة أو الأمومة. وليس هناك أخطر من أن يحاول الأب أو الأم أن ينصب من نفسه صديقاً لابنه.

والآن لندرس حالة البيئة الحديثة لنرى نتيجة إهمال الوالدين في تربية أبنائهما. فيرى لورنس أن المرأة في عصرنا هذا قد تبوأت مركزاً غير مركزها الذي خلقت من أجله فسيطرت على البيت بكل ما في هذه الكلمة من معنى. فهي التي تقود الرجل وترشده بعد أن كان راعيها وحاكمها، وهي لا تنظر إلى جنسها أي إلى العلاقة الجنسية سوى نظرتها إلى وسيلة للسيطرة على الرجل واستغلاله. وهي لا تعتبر الرجل سوى تابعاً لها أو خادمها المطيع، وتعتبره أحياناً مصدراً لإشباع عواطفها إذا ما عاودتها الرغبة في الرجوع إلى أنوثتها الأولى، وهذا عكس للأمور ووضعها في غير نصابها، وإن يكن له نتيجة فستكون هدم كيان المجتمع وتقويض بنائه. ثم زوال المدنية الحديثة واندثارها، تلك المدنية التي نفخر بها دواماً.

ويرى لورنس أن الواجب قطع تلك العلاقة القديمة بين الأم وابنها أو بين البنت وأبيها إذا ما وصلا إلى سن البلوغ. فقبيل هذه السن يجب أن نبعد الولد عن كل سيطرة نسوية،

كسيطرة الأم أو الأخت أو المربية. ويستحسن أن يوضع في رعاية رجل. وليس هناك أخطر من أن يدلل الأمهات أبنائهن بأن يلبسنهم ملابس البنات أو يعاملنهم معاملتهن، أو يتركنهم يزاولون ألعابهن لأن عاقبة ذلك تكون فقد رجولتهم أو عدم استكمالها. ويجب أن يكون لنا في الزنوج خير قدوة عندما نراهم يحتفلون بوصول الولد إلى سن البلوغ ودخوله دوراً جديداً من أدوار حياته، وهم باحتفالهم به إنما يشعرونه أنه انتقل إلى حياة جديدة لها أهميتها

وأول واجب للوالدين بعد وصول ابنهما إلى هذا الدور هو أن يحيطاه علماً بالغريزة الجنسية، وليست هذه المهمة باليسيرة إذ يلزم الأب أو الأم أن يكون حريصاً في كلامه في هذا الموضوع كل الحرص، ويعتقد لورنس أن أسوأ ما يفعله الوالدان هو أن يلجئا إلى المعلومات العلمية يفسران بها لولدهما ما خفي عنه من هذه الغريزة، لأن أمثال هذه المعلومات كفيلة أن تبغض الولد في هذه الغريزة مما يترك لديه أسوأ الأثر. كذلك يجب على الأم ألا تصور العلاقة الجنسية لابنتها في شكل روحي غامض. والى القارئ مثلاً من الأمثلة الخاطئة التي يتبعها بعض الأمهات مع بناتهن:

(والآن يا حبيبتي، تعرفين أن أباك رجل، وأني أحبه، وسوف يأتي الوقت الذي تقابلين فيه رجلاً تحبينه كما أحب أباك وبعد ذلك سوف تتزوجين منه وتعيشين معه عيشة سعيدة. ولذلك آمل أن تتزوجي من الرجل الذي سوف تشعرين أن قلبك يخفق نحوه بالحب. . . ثم تقبل ابنتها وتستطرد قائلة: (وبعد زواجك ستحدث لك أشياء كثيرة لا علم لك بها يا حبيبتي، وستفكرين في أن يكون لك طفل جميل، وكذلك سيفعل زوجك، لأن ابنك سيكون ابنه أيضاً، أليس كذلك يا حبيبتي؟ وسيكون الطفل طفلكما معاً. . . أنت تعرفين ذلك تمام المعرفة، ولكنك لا تعرفين كيف يتم ذلك. سيأتي هذا الطفل من جسمك وسوف يخرج من جسمك كما خرجت أنت من جسمي من قبل. . . الخ)

ويقاوم لورنس هذه الطريقة التي يتبعها معظم الأمهات في الإدلاء بالمعلومات الجنسية إلى بناتهن، ويرى أنها لا تغني ولا تشبع من جوع. وليست الطريقة العلمية بأحسن منها حالاً. فهي بتشريحها جسم الإنسان إلى جزيئاته الصغيرة تشوه جماله

وتسيء إلى صاحبه، وتكون النتيجة أن يشب الولد وهو ينظر إلى هذه العلاقة نظرة خوف واشمئزاز.

هذا هو مجمل لرأي لورنس في العلاقة التي يجب أن تكون بين الوالدين وولدهما وبين الابن ومن سوف تشاركه حياته المستقبلية. والآن فلنحاول تطبيق ما قلنا على إحدى روايات لورنس المهمة، وهي (الأبناء والمحبون) فهذه الرواية هي ترجمة دقيقة لحياة لورنس، وحوادثها هي تجاربه الخاصة، وأشخاصها هم الأشخاص الذين احتك بهم في الجزء الأول من حياته وكان لهم أكبر الأثر في حياته المستقبلية. وفيما يلي الخطاب الذي أرفقه لورنس بالرواية بعد أن فرغ منها وأرسله إلى إدوارد جارنت أحد الناشرين، ومن هذا الخطاب نقرأ الرواية باختصار:

تدور حوادث هذه الرواية حول امرأة من طبقة النبلاء أحبت عاملاً من طبقة الدهماء) وتزوجت منه. ولكن كانت الشقة بين ثقافتيهما واسعة فلم تتفق حياتهما في نقطة واحدة، فانصرفت الزوجة عن زوجها وانصرف هو عنها. وبعد أن أعقبت منه أطفالها استعانت بهم لإشباع رغباتها الغريزية بعد أن فشل في ذلك زوجها. وكان من جراء حبها الجارف لأطفالها أن شبوا يفيضون حباً لها ويبادلونها عاطفة بعاطفة. ولكن أتى ذلك الوقت الذي وصل فيه الولد إلى سن الرجولة وشعر بالرغبة الملحة في داخلية نفسه نحو الحب، حب امرأة غريبة عنه، ولكن أتى له ذلك وأمه تملك عليه كل مشاعره وتقيده بتلك الأغلال التي لا يستطيع لها كسراً؟ ورغم ذلك فقد حاول الاتصال بامرأة، فشعر بالانقسام داخل جسمه لأن قلبه كان نهباً بين حبين، حبه لأمه وهو حب قوي جارف، وحبه للمرأة الأخرى، ذلك الحب الذي لا يستطيع أن يعيش بدونه، ولقد كان من جراء هذا الانقسام أن مات الولد الأكبر لأنه لم يحاول مقاومة أو دفاعاً. أما الابن الأصغر فقام للدفاع عنه تلك المرأة التي كان يريد أن يجعلها شريكة حياته، فقاتلت الأم ودافعت عن مركزها دفاعاً مجيداً. ولقد دام هذا النضال طويلاً ولكن النصر في النهاية كان للأم وباءت المرأة الأخرى بالفشل، وذلك لأن مركز الأم كان أمنع وأقوى من مركز المرأة، وحتى بعد أن ترك الأمر للابن أي الكفتين يرجح؛ عمد إلى كفة أمه فرجحها لصلة الدم التي تربطهما معاً، ولم يأبه للمرأة الأخرى التي تحطم قلبها وتكسرت آمالها. وفي النهاية تدرك الأم خطورة الدور الذي تلعبه وأثره السيئ في حياة أولادها فمرضت وأشرفت على الموت، ولكن لم يمنع هذا من أن يهجر الولد المرأة بتاتاً ليلازم أمه ويقوم بالعناية بها. وأخيراً تموت الأم وتكون النتيجة أن (يفقد الولد أمه وخطيبته في آن واحد: فلا هو أصاب حب أمه ولا هو أصاب حب المرأة

هذا هو ملخص رواية (الأبناء والمحبون) كما كتبه لورنس بخط يده. والكتاب عبارة عن صورة دقيقة لحياة المناجم والمنجمين، وصورة أخرى لتلك المرأة التي وقفت ثقافتها ونبل أصلها حجر عثرة في سبيل الحياة الزوجية الصحيحة. ومن الصفحات الأولى للرواية نستطيع أن نحكم لأول وهلة أن هذه الزوجة هي على النقيض من زوجها في كل شيء، فهي امرأة مفكرة يروق لها البحث في الموضوعات المختلفة، ولها ولع شديد بالمناقشات والمجادلات وخاصة في المسائل الدينية والفلسفية والسياسية، وهذا أول سهم من سهام النقد التي يوجهها لورنس إلى المرأة الحديثة، فالمرأة في نظره لا يجب أن تعيش بعقلها بل بعواطفها وجسمها، أما التفكير فهذا من شأن الرجل وحده. فاهتمام المرأة يجب أن يركز إلى أسفل، وأما الرجل فهو الذي يوجه اهتمامه إلى أعلى، إلى الفكر. فالأم في هذه الرواية هي صورة مشوهة لامرأة أو هي صورة امرأة قد جردت من صفات أنوثتها واستعاضت عنها بصفات هي من شأن الرجل وحده، ولم يكفها ذلك بل عمدت إلى زوجها تحاول تغييره وخلقه من جديد خلقاً يتفق مع ما هي عليه من الشذوذ. لم ترضها رجولته ولم تعجبها حيوانيته، فأرادت أن تصقل من طبعه وتهذب من حواشيه وتحد من حيوانيته وتنتقص رجولته، فهدمت كيانه وهدمت نفسها معه، وبذلك لم يعد لها في الحياة مطمع ولا في العيش مأرب، اللهم إلا أن تعيش وتفني شبابها من أجل أطفالها، ولكنها لم تكن لتستسلم أو تقهر فبعد أن تكسرت آمالها، وتحطمت أمانيها، وانهارت خيالاتها تحولت إلى أول أطفالها بقلب يفيض حباً وعاطفة، وحملته بين ذراعيها، وتفرست في عينيه الزرقاوين الواسعتين، فشعرت بقلبها يكاد يقفز من بين جنبيها حباً وغراماً بطفلها، ثم أحست بذلك الرباط الذي كان يربطها بزوجها قد تمزق وانقطع، وأحست أن حبها لزوجها قد اندثر ولم يعد

له أثر، وحل محله حب عميق فياض هو حبها لطفلها فقربته منها وضمته إلى صدرها وأخذته بين أحضانها
هذا هو شعورها بعد أن ولد أول طفل لها، فما كاد ثالث طفل يرى نور الحياة لأول مرة حتى كان زوجها في عالم النسيان. لم تعد تشعر قط بتلك الرغبة الغريزية التي كانت تدفعها سابقاً للاتصال بزوجها، لم تعد تحس بأن زوجها جزء متمم لها لا غنى عنه، لم يعد يهمها
في كثير أو قليل متى يحضر أو ماذا يفعل، لم تعد تتأثر أو تتألم إذا ما أصابته مصيبة أو حدث له حادث. أما الرجل فكانت حياته جحيما لا يطاق، كان يشعر بالرغبة إلى زوجته، لكن أنى له ذلك فدونه خرط القتاد. افتقد امرأته فما وجدها، مد يده نحوها فما عبأت به، توسل إليها فاحتقرته، شعر بالفراغ يعم قلبه فحاول ملأه فما استطاع، صار المنزل جحيمه فهجره، إلى الحانة يتناول فيها ما هو كفيل بأن ينسيه آلامه وأحزانه ويصرفه عن ذكرى تحطيم آماله، هجر المنزل وهجر زوجه وأولاده وعاش عيشة لا يكاد يحتملها مخلوق، أما هي فاستعاضت عن حب زوجها بحب ابنها بول، فأشبعت غرائزها، وملأت فراغ قلبها وسدت ذلك النقص الذي كانت تشعر به وهي إلى جوار زوجها ولم تكتف الأم بذلك بل سعت حتى جعلت ابنها يبادلها حباً بحب وعاطفة بعاطفة. فشعر نحو أمه بذلك الشعور الذي كان يجب أن يشعر به نحو المرأة التي ستكون شريكة حياته، وبذلك قيدته بسلاسل حديدية لا يستطيع معها أن يتصل بامرأة أخرى أو يبادلها الحب. هذه هي الأم الحديثة، أم القرن العشرين، الأم التي يفسد حبها لأبنائها حياتهم وينغص عليهم مستقبلهم ويحطم آمالهم وأمانيهم.
(يتبع)
عبد الحميد حمدي
مدرس بمدرسة شبرا الثانوية
التاريخ في سير أبطاله
مازيني
رسول الحرية إلى قومه، المجاهد الذي أبلى في جهاده مثل
(بلاء الأنبياء
للأستاذ محمود الخفيف
- 3 -
ولكن حلاوة الجهاد ما لبثت أن أنسته مرارة الغربة، وإن النفوس الكبيرة لتتعزى بنبل غاياتها فيهما يصيبها في سبيل تلك الغايات، فتستعزب الألم وهو مر، ويحلو لها في سبيل النصر الجلاد؛ ويراد بها أن تذل فما يكسبها الإذلال إلا إباء الأبطال وحفاظ أولى القوة من الرجال؛ وما يزيدها العذاب والنكال إلا إصراراً على النضال وإمعاناً في الاستبسال، ولن تحول بينها وبين غايتها قوة حتى الموت، فإنها إن تزهق فقد تم لها بالاستشهاد أروع مواقف الجهاد. . .
ولقد كان مازيني من أولئك البواسل الميامين الذين تبعث الشدائد كامن قواتهم، وتوقظ المحن نوازع نفوسهم، حتى لكأن الشدائد والمحن من مستلزمات ذواتهم ومقومات أخلاقهم.
استقر مازيني في منفاه يتدبر فيما كان يعتلج في نفسه، وأخذ يتساءل ماذا بقي في بلاده من أثر الثورة التي هبت في فرنسا؟ لقد أحزنه قبل نفيه أن يرى فرنسا تطلق يد مترنيخ في إيطاليا فيبطش بها في سنة 1831 كما بطشت بها في سنة 1820، ويقضي في غير هوادة على ما انبعث من مظاهر العصيان في مودينا وبارما والولايات البابوية، وقد حزر ذلك الوزير النمسوي الملك الجديد الذي تربع على عرش فرنسا من أن يظهر أي عطف على مثل هاتيك الحركات الشعبية التي من شأنها أن تزلزل العروش إذا أطلق لها العنان، وأمن على هذا الرأي ذلك الملك الذي جعل المحافظة على عرشه قاعدة حكمه، وذاق الثوار في إيطاليا مرارة الخيبة والخذلان مرة ثانية. أليس ذلك ما كان يخشاه مازيني؟ ألم يعب على الكاربوناري اعتمادهم على غيرهم؟ هاهي ذي الأيام تأتي مصدقة لما رأى، وإذاً فليس لإيطاليا بعد اليوم إذا أرادت النجاح أن تسير

على نهج الكاربوناري، وعليها أن تنتهج نهجاً جديداً يكون فيه صلاحها وفوزها
ولقد كانت حالة إيطاليا يومئذ تبعث على الأسى، فلم تكن أكثر من اسم جغرافي على حد تعبير مترنيخ، ففيها ولايات الشمال والوسط والجنوب، وفيها ولايات البابا؛ وفوق ذلك كانت ولاية لمبارديا خاضعة لحكم النمسا المباشر، على أن سلطان النمسا كان متغلغلاً في شبه الجزيرة جميعاً.

وكانت هذه الوحدات مستقلة بعضها عن بعض، حتى لقد وضعت حدوداً جمركية فيما بينها، فلم يك ثمة ما يشعر أهل إيطاليا بأنهم شعب، اللهم إلا شعورهم جميعاً بوطأة الحكم النمسوي الذي كان قوامه الرجعية الشديدة في شتى مظاهرها البغيضة من خنق للحريات جميعاً، إلى إهمال شائن للشؤون العمرانية والاقتصادية، وللتعليم والثقافة العامة، لأن هذه جميعاً كانت عند مترنيخ وأعوانه عناصر القوة التي لا يأمن معها أن تبعث الثورات من جديد في كل مكان.

وفكر مازيني في حال إيطاليا فرأى الظلام الكثيف يخيم عليها وهذا الظلام لا ريب مدعاة إلى اليأس والخوف، ولكن في قلوب غير قلبه؛ أما هو فقد كان يتلمس النور الباهر الذي لا يلبث أن يكتسح هاتيك الظلمات كلها - في شيئين: الإيمان والشباب، ومن هنا برزت إلى الوجود جمعيته الجديدة (إيطاليا الفتاة) أو قل بدأت رسالته إلى الجيل الجديد: رسالة الوحدة والحياة الحرة. . .

وتغلغل الإيمان في قلبه الكبير وأحس ما يحسه كل صاحب دعوة من حرارة ذلك السر الهائل الذي لا يعرف مستحيلاً أو يحفل برهبة، ورفع الفتى مشعله فوق رأسه ووضع روحه فوق كفه، ومشى يبدد ظلام اليأس وعلى محياه الأبلج نور الوطنية وصرامة الجهاد، وفي عينيه الباسمتين أشعة اليقين وبريق الأمل.

ولخص مازيني دعوته في كلمتين: الله والشعب، وراح يبشر بدينه الجديد في غير مبالاة بما يعترضه من الصعاب. ولقد جعل أساس كفاحه التضحية، فدعا حواريه وأنصاره إلى أن يتألموا حتى تمحص نفوسهم الآلام، وتقوى عزائمهم المحن، وتعلي مبادئهم ما يلاقونه في سبيلها من أنواع العذاب.

وعول على أن يبث النور في كل قلب، ويحيي بالحماسة كل نفس، ويجري أناشيد الوطنية
العذبة على كل لسان، حتى يتألف من الشعب كله قوة تهزأ بكل قوة، وتطفئ بالدم الغالي بريق الحديد ولهيب النار. وعنده أن كل حركة شعبية مصيرها إلى الفشل ما لم تقم على أساس من الوطنية الصحيحة المنبعثة من الأعماق، تلك الوطنية التي تحتقر أعراض الدنيا، لأنها متصلة بالسماء، والتي تضحي بالنفس في سبيل العقيدة، لأن قوام العقيدة الفداء.

وكان هو أكثر الناس إيماناً بوحدة إيطاليا، يوقن أن سوف يأتي اليوم الذي تتم فيه رسالته على يده هو أو على يد غيره من الأحرار. ولقد اتخذ من الشباب جنده وأعوانه، لأن قلوب الشباب بطهارتها وحرارتها أجدر بالإيمان وأسرع إلى البذل وأقوى على العذاب. قال في ذلك: (اجعلوا الشباب على رأس الجماهير الثائرة، فإنكم لا تعلمون مدى القوة الكامنة في تلك الأيدي الصغيرة، ولا مدى التأثير السحري الذي يكون لأصوات الشباب بين الجموع، ولسوف تجدون في الشباب رسل الدين الجديد).

وعظمت ثقته بتلك القلوب الفتية حتى أنه كان لا يقبل عضواً في الجمعية من تزيد سنه على الأربعين، إلا في ظروف استثنائية حينما كان يتقدم إليه ذو منزلة، أو ذو سن كبيرة وقلب فتي.

ولئن تشبعت قلوب الشبان بمبادئ الوطنية والتضحية فسوف تتسرب منهم إلى سواهم؛ ولكن كثيراً من الصناع والتجار والفلاحين لن يشايعوهم إلا إذا كان إلى جانب الوطنية إصلاح يتناول شؤونهم؛ وعلى ذلك فقد جعل مازيني من مبادئ جماعته الإصلاح الاجتماعي في أوسع نطاقه وبذلك زاد مبادئها قوة ورسوخاً.

وكان يرى مازيني أن الحرب (هي القانون الأبدي بين السيدويين العبد الذي يريد أن يحطم الأغلال)، ولكنه كان يشير إلى الحرب غير النظامية لأنها الوسيلة الطبيعية للشعب الثائر في وجه القوة المنظمة، فما لمثل هذا الشعب الذي يعتمد على نفسه سبيل إلى الجيوش النظامية التي تكون بالضرورة من صنع الحكومات.

واستقر الغريب المنفي في مرسيليا يعمل في غربته من أجل وطنه، ويخرج إلى

الوجود ما امتلأ به رأسه من الأفكار، وأحاط به أول الأمر خمسة من الشباب، أخرجوا مثله من وطنهم فصاروا حواريه في رسالته.

وما نجد في تاريخ الحركات الشعبية حركة بدأت على مثل هذه الصورة التي بدأت بها حركة (إيطاليا الفتاة)، فهؤلاء الخمسة الميامين، هؤلاء السابقون الأولون، وعلى رأسهم زعيمهم، كانوا كل شيء؛ استأجروا داراً صغيرة وراحوا يعملون ليل نهار لتحقيق مبادئهم! أيكون في تاريخ الجهاد أغرب من أن يعتزم ستة من الفتيان يعوزهم المال والجاه توحيد شعب ممزق وتحريره من سلطان دولة عانية مسيطرة؟ ولكن الشباب إذا آمن لا يعرف المستحيل، فليشمر هؤلاء الأبطال عن سواعدهم وليسهروا الليالي في الكتابة ومراسلة من يريد أن ينضم إليهم حتى تكل أبصارهم فيناموا بعض ساعات ثم ينهضوا للعمل يحدوهم الأمل؛ وليوح إليهم زعيمهم بالصبر ويبث في قلوبهم الإيمان، فهذا أجدى عليهم وعلى حركتهم من الجاه والمال.

هكذا بدأ مازيني وحواريه، فسرعان ما انضم إليهم الانصار، واجتمع لهم بعض المال فأنشئوا صحيفة يذيعون بها آرائهم ومبادئهم. وشد ما فرحوا بهذا واستبشروا به! وكان مازيني يحرر أكثر أجزائها وحده فيبث فيها من روحه؛ وكان أصحابه يحتالون، وقد تكاثر عددهم وعدد مريديهم على تهريب تلك الصحيفة إلى إيطاليا كما كانوا يهربون إليها بين حين وآخر بعض المطبوعات الصغيرة التي توحي إلى القراء مبادئ الجمعية وتعلمهم دروس الوطنية.

وأقبل مازيني وحواريه على العمل، يزدادون نشاطاً وهمة كلما ازداد عدد أنصارهم. وانقضى عام فرأى الزعيم الشاب ما شرح صدره وملأ نفسه بما تمتلئ به نفس المؤمن من نشوة الظفر، فللجمعية مراكز في شمال إيطاليا ووسطها، وأعضاؤها يبلغون في إيطاليا وخارج إيطاليا مائة ألف أو يزيدون! وهذا نجاح جاء أكثر مما كان يتوقع.

وتقع عين مازيني على أسماء الأعضاء وأعمالهم في ثبت سرى فيسره ويثبت فؤاده أن يرى فيهم بعض النبلاء وبعض الضباط، حتى القساوسة يجد أسماءهم بين المجاهدين! وتطيب نفسه بذلك ويحلو له الجهاد وتلوح له بوارق الأمل فتسهل الصعب وتقرب البعيد.

وكان ممن انضموا إلى الجمعية رجل سوف يكون له في تاريخ وحدة إيطاليا وحريتها شأن عظيم، ذلك هو غاريبلدي المجاهد البطل والفدائي الأروع الذي جمعت حوله سجاياه العذبة وشجاعته الفائقة قلوب الرجال.

وراح الزعيم ينشر تعاليمه ويرسم خططه. استمع إليه كيف يقول لأنصاره: (اصعدوا الجبال واذهبوا إلى القرى وشاطروا العمال والفلاحين طعامهم المتواضع، وجالسوهم وتحدثوا إليهم؛ وزوروا المصانع والصناع الذي أهملوا حتى اليوم. حدثوا هؤلاء عن حقوقهم وعن ذكريات ماضيهم وتقاليدهم ومفاخرهم السالفة وتجاربهم التي مرت، وعددوا لهم ما لا ينفد من أنواع الاضطهاد التي يجهلونها لأنهم لم يجدوا من يكشفها لهم).

بهذه الطريقة راح مازيني يرسل صوته إلى الأعماق ويملأ به الآفاق؛ ولقد تخرج معظم ذوي الشأن في المستقبل من رجال إيطاليا في جمعيته، فكان له بذلك شرف لن يتاح إلا لأفذاذ العظماء: شرف الخلق والتكوين، فما كانت إيطاليا الحديثة إلا من صنع يده. وإن تمت وحدتها على أيدٍ غيرها. وبذلك يعد مازيني من مكوني أوربا الحديثة، وهي منزلة لن يشاركه فيه إلا أمثال بسمارك ومن على شاكلتهما ممن تقرن أشخاصهم بحركات عامة توجه التاريخ وجهته في فترة من فتراته.

وكان ممن كاتبهم مازيني ليعاونوه: شارل ألبرت ملك ولاية بيدمنت؛ وكان ذلك بعد خروجه من إيطاليا ببضعة أشهر، وقد كان يعلم عن شارل بالأمس أنه من ذوي الآراء الحرة، إذ كان متصلاً بالكاربوناري وكان يعطف على ثورتهم التي هبت سنة 1821؛ ولكن مازيني كان مسرفاً في حسن ظنه به. وكيف كان يرجو المساعدة من ملك يتناول تاجه في الواقع من النمسا؟ ولئن كان شارل بالأمس نصير الحرية، فهو اليوم على عرشه يبغضها ويحذر منها، فلقد تجر إلى الثورة دعوة الداعين إليها، وما له حيلة إلى إجابتهم، والنمسا تلوح للبلاد بسيف الغلب. قال مازيني في خطابه (هناك يا مولاي

طريق آخر إلى القوة والخلود العظيم، وحليف آخر أقوى وأسلم من النمسا أو فرنسا، وتاج أكثر لمعاناً وبهجة من تاج بيدمنت، تاج ينتظر الرجل الذي يجرؤ على أن يفكر فيه والذي يوجه حياته للحصول عليه. . . ألم تلق يا مولاي قط مثل لمحة النسر على إيطاليا هذه، إيطاليا التي تجملها بسمة الطبيعة، والتي يتوجها عشرون قرناً من الذكريات الجميلة، أرض العبقرية القوية بمنابعها التي لا تنفد والتي لا يعوزها إلا الغرض المشترك؛ المحاطة بحدود من المنعة بحيث لا تحتاج إلا إلى عزيمة وثيقة وبعض القلوب البواسل لحمايتها من العداء الخارجي. ضع نفسك على رأس الشعب، واكتب على رايتك: الاتحاد والحرية والاستقلال. حرر إيطاليا من البربرية وابن المستقبل وكن نابليون حرية إيطاليا. افعل ذلك نلتف حولك ونقدم حياتنا من أجلك ونجمع الولايات الصغيرة تحت علمك. إن نجاتك في حد سيفك، فأشهر السيف واطرح الغمد، وتذكر أنك إن لم تفعل ذلك فسيفعله غيرك دونك ويوجهه ضدك).

في هذا الخطاب تتجلى حماسة الشاب المجاهد، وتتبين آماله، وتتضح نزعاته؛ وفيه قبس من وميض حماسته وفيض من حرارة إيمانه وقوة وجدانه، ولكنه لم يظفر من الملك برد، وكان جواب الحكومة أن أمرت بالقبض على مرسله إذا اجتاز الحدود الإيطالية.

على أن بيدمنت ما لبثت بعد سنتين أن امتلأت كما امتلأت الولايات الأخرى على نحو ما أسلفنا بأنصار مازيني، وفي نصرة الشعب له خير عوض عن معونة الملك.

وتسربت مبادئ الجمعية إلى جيش بيدمنت؛ وكان يذيعها فيه رافيني كبير أنصار مازيني وساعده الأيمن في جهاده، وأحكمت مؤامرة للقيام بثورة عن طريق الجيش؛ ولكن تلك المؤامرة اكتشفت وا أسفاه؛ وبطشت الحكومة بالمتآمرين؛ فقتلت عشرة من الضباط رمياً بالرصاص واثنين من المدنيين، فضلاً عمن أودعتهم السجون من الرجال، حيث أخذت الحكومة تنكل بهم ليعترفوا.

وكان رافيني ممن سجنوا، وخير في سجنه بين الاعتراف على شركائه والنجاة من الموت أو الإنكار والإعدام، فاختار الموت ولكن بيده هو، فانتحر في سجنه. ونمى خبر الفاجعة إلى مازيني فاشتد وقعها عليه، حتى لقد كانت من أعظم ما ناله من المحن؛ وتوزع الحزن قلبه حتى ما يفيق من الغم، ووهن جسمه واعتلت صحته كمداً على صاحبه الشهيد.

(يتبع)

الخفيف

الحب الطاهر

لمعالي الشيخ محمد رضا الشبيبي

أما لأسير في هواكَ سراحُ ... وهل لتباريح الفؤادِ براحُ
أجل، سّلمتْك العاشقون قلوبها ... وما فوْق تسليمِ القلوبِ سماح
إذا بدءوا يستعطفونك عاوَدوا ... وإن بكرَوا يستطلعونك راحوا
هوُوا فاتَّقوْا بثَّ الغرام فأضمروا ... فخانهمُ الصبرُ الجميل فباحوا
يحبون وخزَ النُّجلِ وهي صوارمٌ ... وطعنَ القدودِ الهيفِ وهيَ رِماح
خليليَّ ما أحلى الغرامَ سجيّةً ... إذا كرَّمتْه عفةٌ وصلاح!
وما أخطر العشق الذي ليس دونه ... على عاشقٍ يأتي الهناة جُناح!
يقولون: إتيانُ الكبائرِ جائزٌ ... وفعلُ الخطايا المنكرات مباح
أفي هذه الأخلاقِ للجنسِ نهضةٌ ... وللبشر الآتين منه فلاح؟
يريدون للدنيا ضماداً وإنهم ... بجُثمانِ هذا الاجتماع جِراح
ويعتبرون الناسَ مرضى كأنهم ... - وهم كيَّفوا داءَ النفوس - صِحاح
ألا هِممٌ يكبحْن من شهواتهمْ ... فينحطُّ مبْلٌ، أو يلين جِماحٌ
وهل فاضلٌ يرعى الفضيلة؟ إنها ... خيالٌ سَيفْنى أو حِمىً سيباح
فقد عصفت بالمَكْرمات زعازعٌ ... وعفَّت رُسومَ الأكرمينِ رياح
إذا أظلمتْ أخلاقنا وتجهَّمتْ ... فهل نافعٌ أنَّ الوُجوهَ صِباح؟

محمد رضا الشبيبي

. . .قولي معي

للأستاذ الحوماني

مَن ذا يقول معي: عينان ملؤهما ... دمعٌ، هما غذتا عينيكِ بالحوَرِ
قولي معي: لم يذب قلبٌ شقيت به ... إلا ليسقىَ ما تجنين من ثمر
أخليتُ عينيَّ من دمعٍ يمدُّهما ... بالنور من فمكِ المحشوِّ بالدُّرر
وأنضرتْ فاكِ أصال شربتِ بها ... روحاً تلظّى به خداك في السحر
في عين حوَّاء صبحٌ ضرِّجت قبلى ... عينيك بين يديه من دم الخَفَر
لا تجزعي وتلقَّيهنَّ باسمة ... للطير يصدح غِرَّيداً على الشجر
كالشاعر الطفل يمشي في خميلته ... وينشد الفجر حوّاماً على الغُدُر
قومي نكنْ مثل هذا الطير يجمعنا ... حوض من الماء أو روض من الزهر
فلا نحاذرُ من وحش الفلا بشراً ... ولا ينغصنا وحشٌ من البشر
الحوماني
اسلمي. . .!
للأديب محمود السيد شعبان
اسْلَمِي يا نَبْعَ أشوا ... قي ويا دُنيا خُلودِي!
وابسِمي تُفصِحْ لِيَ الأيا (م) ... مُ عن سرِّ وُجودي
مهجتي تدْعوكِ. . . يا ذا ... تي إلى وَكركِ عودي!
إنَّ في كفَّيْكِ أحلا ... مي فصوني لي عهودي
وتَعاليْ!. . قبَلُ الحب (م) ... تنادي شَفَتَيْنا!
وسَعِيرُ الشَّوقِ في الأج ... ساد يدعوها إلينا!
إنْ نعِشْ لِلحبِّ يا صَف ... وِي فلا لومَ علينا
إنه الكوْنُ الذي من ... هـ إلى الدنيا أتيْنا!
وتعاليْ!. . لا يُرَوِّع ... كِ شقائِي يا فتاتِي!
فالهوى والطُّهْرُ والإي ... مانُ نَبْعٌ في حَياتي
أو خُذيني أَنْسَ في دُن ... ياكِ دُنيا زَفَراتي!
وتَعِشْ للحبِّ والأل ... حانِ في ظِلَّكِ ذَاتي!
إنني في عالَمِ الحِر ... مانِ قد عِشتُ شَقِيّا!
فاخلُقِي في باطني كو ... ناً من الحبِّ شَهِيّا
واسكُبي الأشواقَ والأل ... حانَ في نفسي لأحيا!
قَبْلما تذْوِي مُنى نف ... سي وتقضى في يَدَّيا!
يا نشيدي!. . . ليتني كن ... تُ لدُنياكِ نَشيدَا
. .أنا منْ ذِكرِكِ في أنْ - سٍ وإن عشتُ وحيدا
لستُ أنساكِ. . . ففي ظل ... كِ قد كنت سعيدا!
ونَظَمْتُ الكوْنَ منْ ... أعماقِ أنفاسي قَصِيدا!
(القاهرة)
محمود السيد شعبان
وحي صورة
للأديب مصطفى علي عبد الرحمن
ذكَّرتني ذلك الماضي السعيد ... شعَّ في جناتِه نور الأماني
والهوى في مهدِهِ طِفلٌ وليدْ ... هامَ في دنيا حنانٍ من جناني
ما رأى القسْوة أو ذل القيود ... لا. ولو عَق جَناني وعصاني
كلما شبَّ نما فيه الجمود ... وإذا بي منه في قيد الهوان
ذكرتني ذلك الروضَ النضيرْ ... والذي أوحاه من شتى المعاني
وابتسامَ الزهر من حول الغدير ... وطيور الأيك تشدو بالأغاني
كل شيءٍ كان من صفوٍ ونور ... يغمُر القلب بنُعمى وَحنان
لم يعد للعين، والقلب الكسير ... غير ذكرى من لظاها كم أُعاني
ذكرتني الأمسَ - والدنيا نعم ... وصفاءٌ شامل - حلو المجاني
قد حسونا الحب واللقيا نديم ... والهوى نشوان في نعمى التداني
في ليالٍ كنَّ في ظل الكروم ... كم بعثن السحر في تلك المغاني
ذكريات تشعل الهم الأليم ... كلما تخطر من آنٍ لآن
ذكرتني ليلةَ النيل الوديعْ ... حيث غنّى لهوانا الشاطئان

وبنا الزورقُ يسري في خشوع ... فوق موج ناعس الأجفان هان
بت أرعى ذلك الحسن البديعْ ... يتجلى في افتتان وافتتان
طابت الأيام والعمرُ ربيعْ ... هل يعود اليوم لي بعض الأماني
(إسكندرية)
مصطفى علي عبد الرحمن
أباريق الجمال. . .
(. . .إلى الناسج أردية الجمال من أضواء قلمه، إلى الزيات)
للأديب أحمد عبد الرحمن عيسى
الأباريق حُفَّلٌ فابتهلها ... وكن اليوم أول الشاربينا
إنما أنت في الحياة هباء ... فلماذا تكون عبداً رهيناً. . .؟
أرقص الناي صاحبي أو فدعه ... يتحطم على التراب مهينا!
سوف يمضي - وإن تلبث حينا - ... إن طروباً محبباً أو حزينا!
سوف يمضي كما مضى النفَس العا ... بر في روضة من الياسمينا
وستمضي. . . وما أخالك إلا ... ومضة ألمعت من الدهر حينا
والسعادات في الأشعة غرقى ... قد حباها الزمان عرضاً مصونا
هي بكر فكيف تحسب أني ... قد تفيأت ظلها المجنونا!
وهي حِرْمٌ على العفاة فما لي ... خلف هذا السراب أعدو سنينا
الأباريق حفل فدعينا ... نتزود من الجمال دعينا
إنما نحن مهجة تتشاجَى ... ونداء يرف حتى يبينا!
بِدَع الحسن صيرتنا شعاعاً ... كابيَ اللون يستدر العيونا
(كلية اللغة)
أحمد عبد الرحمن عيسى
رسالة الفن
دراسات في الفن
الفن في حياتنا الاجتماعية
للأستاذ عزيز أحمد فهمي

شاءت وزارة الشؤون الاجتماعية أن تتعرض للفن فأنشأت في نفسها إدارة للدعاية خصتها بأمور ستة: الأول نشر المبادئ الاجتماعية القويمة، والثاني الإشراف على برامج الإذاعة وترقيتها، والثالث تدعيم المسرح القومي والعمل على جعله وسيلة فعالة لتثقيف الشعب وإصلاحه، والرابع مراقبة الروايات والأفلام السينمائية والأغاني الشعبية، والخامس الإشراف على تنظيم المهرجانات والأعياد القومية والموالد بما يحقق استفادة الجماهير منها من الوجهتين الاجتماعية والاقتصادية، والسادس تنفيذ القوانين واللوائح الخاصة بمحال دور التسلية. . . وهذه الأمور الستة شديدة الصلة بالفن، وهذا ما يدعوني إلى إنعام النظر فيها محاولاً أن أجد الطريق العملي إلى تحقيقها.

والمسألة فيما يخيل إلى دائرة. . . ذلك أننا نعرف أن الفن هو ثمرة الحياة الاجتماعية، فكما تكون الأمة يكون فنها، وأمتنا كما هو ملحوظ في حاجة إلى إصلاح اجتماعي، فإذا حاولنا أن نصلحها بفنها لم نفعل شيئاً، لأن فنها منها وما هو منها لا يمكن أن يصلحها. إنما هناك رجال سبقوا عصرهم وهؤلاء وحدهم هم الذين يستطيعون أن يؤثروا في مواطنيهم لو أن فرصة العمل أتيحت لهم، وفرصة العمل لا تتاح لهؤلاء عادة في سهولة لأن مواطنيهم متأخرون عنهم فهم لا يتذوقونهم كما يتذوقون غيرهم من الفنانين والمفكرين الغارقين في هذا العصر الضال، فأول ما يجب علينا إذن هو البحث عن هؤلاء الرجال، وإلقاء مقاليد الإصلاح بين أيديهم. . .

ونحن إذا استرجعنا هذه الأهداف الستة التي تريد وزارة الشؤون الاجتماعية أن تصل إليها وفكرنا فيمن يصلح لقيادة الشعب لها. . . رأينا الهدف الأول هو نشر المبادئ الاجتماعية القويمة، ولعل هذا يتم بإنشاء مجلس أعلى للشؤون الاجتماعية يضم كل من عرفت مصر أنهم يهتمون بشؤونها الاجتماعية اهتماماً حقيقياً لا اهتماماً زائفاً، ويكون على رأس هؤلاء

جميعاً صاحب السعادة عبد العزيز فهمي باشا. . . فهو الزعيم المصري الذي آمن بحق الوطن حينما لم يكن يؤمن به إلا نفر قليل جداً من أبناء الوطن، وهو الذي سبق كل الزعماء في تقدير القسط الصالح من سيادة الشعب وقتما كان كل الزعماء يريدون للشعب سلطة فضفاضة وهو لم يزل طفلاً ناشئاً. . . وهو الرجل الذي لو أراد أن يعيش متنقلاً بين الكونتنتال ومينا هاوس وسان استفانو لفعل، ولكنه على الرغم من جهل الجماهير لفضله يفضل دائماً أن يقترب من الجماهير، ويختار جمهوره الأقرب إليه فهو يلزم (كفر المصيلحة) قريته التي نبت فيها والتي وهبها كل الفراغ من وقته، والتي ظل فيها يكافح الجهل حتى محا منها الأمية محواً، ويكافح الفقر حتى لم يعد من أبنائها متعطل ولا متسكع، ويكافح المرض حتى أصبح أكثر أهلها من هواة الألعاب الرياضية وهم يقيمون فيها المسابقات. . . هذا الرجل وغيره من رؤوس الريف العاملين المجربين هم الذين يعرفون ما هي السبيل إلى نشر المبادئ الاجتماعية القويمة، وليشترك معه الكتاب والمفكرون والمجاهدون الذين لهم ماض بين الفقر والجهل والمرض. . . أولئك الذين خالطوا الناس وعرفوا أوجاعهم، والذين أهينوا وعذبوا وسجنوا وجاعوا وتألموا. . . أبناء الشعب، ونبت الطين المصري. . . من يهمهم إصلاح الحياة في مصر لتصلح حياتهم هم أنفسهم، ولترتاح ضمائرهم. . . أما الإذاعة فتنقسم إلى قسمين: أولهما قسم الأغاني والموسيقى، وثانيهما قسم الأحاديث والمحاضرات والتمثيل. وقسم الأغاني والموسيقى لا يمكن أن يرقى إلا إذا أشرف عليه رجل موسيقي، وهو اليوم ملقى بين يدي مصطفى بك رضا الموظف بوزارة الأوقاف، وهو رجل من أبناء الذوات تعلم العزف على القانون كما يتعلم أبناء الذوات وبنات الذوات العزف على البيانو، فهو عندهم وعندهن زينة وأبهة. . . هذا الرجل يجب أن يبعد عن محطة الإذاعة وعن المعهد الملكي للموسيقى العربية ليحل محله واحد ممن كافحوا الحياة في سبيل الفن، وممن بذلوا للفن حياتهم؛ وأنا، ومن يعرفون لا يشكون في أن مثل زكريا أحمد هو أول هؤلاء فقد كان مقرئاً للقرآن كما كان من منشدي القصائد ومرتلي مولد النبي، ثم إنه من ملحني التخت له أدوار وطقاطيق وموشحات لا يحصى عددها وهو بعد ذلك من ملحني المسرح والسينما أيضاً. . . وليس في مصر من جمع هذه المميزات على نجاح مشهود وتفوق ظاهر غير زكريا، فكيف يبعد رجل كهذا عن الإشراف على
ترقية الأغاني والموسيقى في مصر؟

ويجيء بعد ذلك قسم الأحاديث والخطابة والروايات، ولابد أن يكون المشرف على هذا القسم ممن سبق لهم أن تحدثوا إلى الشعب وأن عرفوا ما هي الأحاديث التي تؤثر فيه وتخلبه، وكيف يمكن أن يقاد وكيف يمكن أن يُهدى.

أما تدعيم المسرح فلا يمكن أن يكون إلا بتحريره، وتحريره لا يمكن أن يكون إلا بتشجيعه، وتشجيعه لا يمكن أن يكون إلا بالمال يوزع على الفرق الأهلية، فيكون للريحاني نصيب، ويكون ليوسف وهبي نصيب، ولفاطمة رشدي نصيب. . . وقد تستجد فرق أخرى تنافس هذه، ولا ريب أن الروح ستدب من جديد إلى المسرح المصري الذي قتل حين أظله (الميري) بظله. . . إن الفرقة القومية تشبه جريدة الوقائع الرسمية والمجمع الملكي للغة العربية. . . فكم من الناس يكترثون لهذه الجريدة وهذا المجمع؟ وما مدى تأثير كل منهما في الحياة المصرية؟ وبم يشعر الناس لو أنهما ألغيا؟ هل يحس أحد بأن الحياة المصرية قد نقصت شيئاً؟

وأما مراقبة الأفلام والروايات السينمائية فلابد لها من خطة خاصة أيضاً. . . لابد أن يعهد بالإشراف عليها إلى هيئة لا إلى فرد فهي تؤثر في الجمهور من عدة نواح مختلفة، وهي شديدة الخطر على النشء، فإذا لم تكن خاضعة لرقابة صالحة يقوم بها نفر ممن يغارون على وطنهم وأهلهم فإنها من غير شك ستجرف مصر إلى هاوية ليس لنا قبل بالتردي فيها. . . هذا إلى ما يكون في روايات السينما أحياناً من مظاهر التعصب الغربي ضد الشرق عامة، وضد العرب خاصة. . . والروايات التي تنحو هذا النحو يقبلها الغرب لأنها ترضي كبرياءه ولأنها تنم عن ألوان من الكفاح اصطنعها الغرب ضد الشرق وانتصر فيها. . . ولكن هذه الروايات نفسها لا يصح أن تعرض في بلد شرقي لأن عرضها فيه إهانة له ولأنها تربي الصغار على كراهية الشرق وعبادة الغرب بينما هم شرقيون.

لابد لنا من عالم نفساني اجتماعي يشاهد هذه الأفلام قبل عرضها ليحكم عليها وليقرر أنها تقربنا في المثل العليا التي نحب أن نحققها فيبيح عرضها أو أنها تحيد بنا إلى مثل سفلى لا يصح أن نتدلى إليها فيمنع عرضها، ولابد إلى جانب هذا من رجل غيور على التقاليد والنظم الشرقية غيرة صحيحة، ولابد إلى جانب هذا وذاك من مرب يعرف مدى ما تؤثر
هذه الروايات في نفوس الصغار، وفي صغار النفوس.
وتجيء أخيراً المهرجانات والأعياد والموالد، وهذه هي معضلة المعضلات. . . فكم من أمة حكمت مصر، وكم من حضارة ألمت بها، وكم من دين غزاها، وكم أريد بها أن تكون على هوى من أراد فلم تكن إلا ما أرادت بها طبيعتها فنفضت عن نفسها كل ما حاول الجبابرة أن يصبغوها به من ألوان الحياة، ولم تستبق من هذه الأصباغ إلا صبغتين اثنتين هما صبغة الفراعنة وصبغة الفاطميين. أما الفراعنة فلا يزال في مصر من مخلفاتهم هذه الآثار القائمة من الصخر والحجر، وهذه اللغة التي يتكلم بها بعض أهل النوبة، وهذا التقويم الذي يؤقت به المصريون الزراعة، وهذه العواطف التي لا تزال تختلج في نفوس المصريين اليوم بالمنطق نفسه الذي كانت تختلج به في نفوس المصريين من أقدم العصور والتي نحب بها ما كان يحبه أجدادنا ونكره بها ما كانوا يكرهون، فنحن لا نزال نحب النيل ونحتفل بفيضانه كما كانوا يفعلون، ونحن لا نزال نحب الجاموس الذي يساعدنا في فلاحة الأرض كما عبدوا العجل أبيس، ونحن لا نزال نكره الهجرة من بلادنا مهما قست علينا الحياة فيها كما كانوا يكرهون هم الهجرة من بلادهم مع أننا اليوم مسلمون، ومع أن الإسلام يمقت الذين يتشبثون بأرض يستضعفون فيها. وفينا كذلك من تفكيرهم هذه القدرة العجيبة على الاستعاضة بالخيال عن الحقيقة والأمر الواقع، ولعلنا الشعب الوحيد الذي يرضى اليوم أن تلاقيه ولا تغديه، كما أن فينا من أخلاقهم (فرعنة) تجري في عروقنا مع الدم، فالواحد منا إما فرعون يتفرعن على من هو دونه، وإما عبد لكل فرعون ممن هم فوقه رؤساء وحكاماً. وأما الفاطميون فلا تزال مصر تحتفظ بكل ما أقاموه فيها من دعائم حكمهم، فهذه الأضرحة التي تملأ القاهرة وغيرها من مدن مصر وقراها، وهذه الموالد التي لا يزال المصريون يجرون وراءها من القاهرة إلى دسوق إلى طنطن إلى دمنهور، وهذه الخرافات العجيبة المتأصلة في أذهان الناس والتي تخالط عقائدهم من دينية ودنيوية والتي يستقونها من القصص الفاطمي المتفشي بينهم، ومن الكتب المدسوسة عليهم باسم الإسلام والإسلام منها بريء. وهذا التشاغل عن الحياة، وهذه القناعة بخيرات الأرض إذا جادت الأرض بالخيرات. . . هذا وذاك باقيان في الحياة المصرية إلى اليوم من أثر الفراعنة ومن أثر الفاطميين، حتى الدين تأثر بالفراعنة والفاطميين، فالإسلام الذي في نفوس العامة من
المصريين إسلام فاطمي، والمسيحية التي في نفوس العامة منهم مسيحية فرعونية. . فالمسلمون من المصريين يفكرون في أهل البيت أكثر مما يفكرون في الله، ويستنجدون بالحسين والسيدة زينب أكثر مما يستنجدون بالله الواحد الأحد خالق الحسين والسيدة زينب وجدهما عليه الصلاة والسلام، وهم يقرؤون قصص السيد البدوي ومناقبه وأحاديث أكلاته ومواقعه أكثر مما يقرؤون القرآن وتاريخ النبي. والمسيحيون المصريون فرعنوا مسيحيتهم هم أيضاً؛ فهم يسمون أنفسهم بأسماء فرعونية مع أن الفرعونية وثنية في رأي المسيحية، ثم إنهم لا يزالون يتفننون في الحزن على موتاهم تفنناً عجيباً لم يكن يحسنه في الشعوب الغابرة أحد إلا قدماء المصريين، ويحسنونه هم اليوم، مع أن المسيحية إيمان مطلق بإرادة الله ورضا مطلق بمشيئته. . . فلماذا انطبعت الحياة المصرية بهذين الطابعين وحدهما. . .؟ ولماذا استطاع هذان الطابعان أن يغالبا الزمن في مصر وأن يبقيا فيها على مر العصور دون غيرهما مما كان يصح أن يؤثر في الحياة المصرية وأن يطبعها بطابعه. لابد أن في الأمر سراً. والسر هو أن الفراعنة والفاطميين أنشئوا دولتيهم على أساس من الدعاية والفن، وقد راعوا في فنونهم أن توافق الروح المصرية، وقد عرفوا أن مصر أرض زراعية، وأن هذه الأرض الزراعية تستذل أهلها بخيراتها، وأنه إذا توفر الخير لأهلها طابت لهم الحياة فيها فلم يعودوا يفكرون في شيء إلا اللهو، فشغلوهم بأنواع من اللهو، كما شغلوهم بأنواع من الاسترقاق خيلوا إليهم أنها أصل خيرهم، فحملوهم على

عبادة النيل، وعبادة الحكام، وعبادة العجول، وأولياء الله الصالحين واختلقوا لهم ألواناً من البطولة هي ألوان الآكل والشرب. . .
ولم يكن الفراعنة مجانين ولا كان الفرعون منهم يصدق أنه إله لأنه كان يعرف أنه ضعيف، ولم يكن الخليفة الفاطمي سخيفاً ولم يكن يصدق أن السيد البدوي يأكل بقرة وكبشاً ومائة دجاجة وألف عصفور. . . وإنما كانت هذه هي السياسة التي قام عليها حكم الفراعنة وحكم الفاطميين. . . ونحن اليوم نجتاز ظرفاً جديداً من ظروف الحياة ثبت فيه أن الزراعة لم تعد تصلح أن تكون أساساً لحياة راقية في أمة ناهضة، وثبت فيه أن العلم والحرية أساسان للرقي والنهوض، لذلك يجب أن تتبدل هذه الأسس التي خلفها الفراعنة والتي ثبتها الفاطميون، وليس يستطيع هذا إلا فنانون مبتدعون يخلقون للمصريين المثل
العليا للبطولة الجديدة، يستقونها من الإسلام الصحيح، ومن تاريخ النبي وعمر وصلاح الدين وأولئك الأبطال المسلمين. . . وليس يتأتى هذا إلا لفنانين عاشوا في الريف وعاشوا في المدن، وخالطوا البيئة الزراعية والبيئة الصناعية، وتمكنوا من الحياة المصرية الناعسة وتحرقوا شوقاً لحياة مصرية جديدة صاخبة حية. . . تنهض على أساس مصري إسلامي لا على أساس مترجم أو مسروق. . . لابد أن تعطل موالد الأكالين والدجالين وأن تحيا موالد الأبطال الحقيقيين. . لابد من رجعة إلى النور. . . بلسان المصريين. . . وأقدر الفنانين على هذا هم: بيرم التونسي وعبد السلام شهاب وبديع خيري. . على أن يعاونهم مؤرخون.
أما تنفيذ اللوائح فمن شأن رجال القانون.
عزيز أحمد فهمي
رسالة العلم
لحظات الإلهام
في تاريخ العلم
بقلم مريون فلورنس لانسنغ
الريح والتيار
مضت مئات كثيرة من السنين قبل أن يحدث الحادث التالي العظيم: حدث عندما صار للإنسان قدرة حقيقية على الاختراع أن رجلاً امتاز عن معاصريه امتيازاً عظيماً في رجحان العقل وحدة الذكاء قد لاحظ سرعة التيار في مجرى الماء وهو يكتسح كل شيء في سبيله، فوضع به عجلة بحيث يمكن أن تديرها قوة الماء، ثم جعل حول هذه العجلة ما يشبه الزعانف لتكون كمجاذيف السفينة في تلقيها ضغط الماء.
لما استطاع الإنسان أن يجعل قوة الماء الجاري تدير له العجلة واستطاع أن يربط هذه العجلة من مركزها بتدبير خاص يمكنه من رفع الماء بواسطة الدلاء - لما استطاع الإنسان ذلك انتصر انتصاراً استحق أن تحييه من أجله الأجيال لأنه بذلك قد تمكن من صنع آلة تدور من نفسها وتخطى الدور الذي يمكن فيه استخدام الآلة التي يجب أن يزودها بقوة الدفع من عنده، كما تجاوز أيضاً نظرية الروافع التي احتاج في تطبيقها إلى جزء من قوته يضاف إليه القوة التي مصدرها قانون الآلة، أما فيما يتعلق بالقوة التي يديرها الماء فإنه قد اخترع منها آلة يديرها الماء نفسه لرفع الماء ويقتصر جهد الإنسان فيها على الوقوف بجانبها ومراقبتها.
من تلك اللحظة بدأ عهد الآلات التي تدور من تلقاء نفسها، ومن تلك اللحظة رفع الإنسان نفسه عن مستوى الكادح الذي تتوقف نتائج عمله على مقدار جهده أو جهد ماشيته، وأضاف إلى جهد الإنسان أو الحيوان عنصراً طبيعياً هو قوة ضغط الماء.
في ذلك اليوم المجيد بدأ الإنسان يتحرر من رق العمل، وبدأ يسلك طريقاً طويلاً يستعين فيه بجهده الذهني بدلاً من الجهد العضلي.
الهواء ضد الماء
منذ خمسمائة عام كان يقيم في قرية الكماد، وهي قرية صغيرة في شمال هولاندا، رجل اسمه فلورنت الكماد وهو غني من أهل تلك المدينة يشتغل بالحدادة فضلاً عن كونه مزارعاً موسراً يملك أرضاً واسعة.
ولم تكن الزراعة من الأعمال السهلة في ذلك العهد بهولاندا وما جاورها من الأراضي المنخفضة ولم تكن الحياة فيها سهلة هناك منذ العهد الذي نزل فيه السكسونيون

والهمج من الغريزيان إلى تلك الأراضي ذات المستنقعات التي أطلقوا عليها اسم الأراضي المنخفضة، وأرادوا أن يتخذوا منها وطناً.

وربما كانت القوة والعزيمة اللتان امتاز بهما أهل هذه البلاد في تاريخهم كله - ربما كانت هذه القوة وليدة اضطرارهم للمحاربة الدائمة ضد الريح وضد الماء اللذين تتوقف على محاربتهما حياة هذه البلدة الصغيرة. وما كان في وسع شعب غير جريء وغير مثابر أن يستولي على أرض رملية أنهارها دائمة الفيضان وبحرها دائم الطغيان فيجعل ذلك الشعب منها بلاداً زراعية خصبة.

ويعلم كل إنسان قصة المرافئ الهولاندية وهي تلك الحواجز المنيعة المصنوعة من الأحجار والتي مهمتها منع البحر من الطغيان على الأرض التي ينخفض جزء كبير من شاطئها عن مستواه.

بنى الكبريون والغريزان هذه المرافئ حين عسكروا على أكثر أجزائها ارتفاعاً وقاية لأنفسهم من الماء. وزاد أهل الأجيال التالية من تلك الحواجز إلى أن جاء عهد فلورنت الكماد فأصبحت الأنهار والبحر تحت نوع من الرقابة يمكن للمقيم بالبلاد من الاطمئنان على السلامة والراحة عند الشاطئ المحصن.

ولكن بينما البحر محصور كانت الأنهار لا تزال تفيض على الشاطئين فتحدث خطاً طويلاً من مستنقعات دائمة، فبدلاً من أن يكون على الشاطئين مزارع خضراء وحقول خصبة تنبت الحب كان حولها مستنقعات واسعة كثيرة السبخ. وكما كانت مصر في عهد الفراعنة تشكو من قلة الماء، فكذلك كانت هولاندا في بداية تاريخها تشكو من كثرة ما يغمرها من الماء.

ولم يكن فلورنت دائم الإقامة في قريته الصغيرة فقد كان يسافر من أجل عمله ولا تقتصر

رحلاته على زيارة المدن الهولاندية الأخرى بل كان يزور باريس وما دونها من المدن جنوباً في الأقاليم الزراعية الغنية التي تمتد وسط أوربا. رأي ثراء تلك البلاد وفكر في أطيانه ذات المستنقعات التي يمكن أن تصير خصبة أيضاً لو أنه جفف ما فيها من الماء.

وكان قد سمع في باريس من سائح أنه قد ظهر اختراع حديث في بوهميا حيث أنشأ رجل عجلة تدار بواسطة الهواء وتستخدم في امتصاص المياه من الآبار. وكان الكماد ميكانيكياً عملياً فعرف كيف يمكن امتصاص الماء فوق الأرض. وكان يستعمل في ضيعته مصاصات للماء غير متقنة الصنع تكلف عناء كبيراً في العمل ولا تمتص إلا القليل من الماء، لأن المصاصات التي تستعمل باليد لتفريغ مستنقعات طاغية مما يسيل من مجرى النهر لا تكاد تفضل في عملها بعض ألاعيب الصبيان. ولم يكن في هولاندا في القرن الخامس عشر جيش من الرقيق يستخدم في مستنقعاتها الواسعة ليلاً ونهاراً ليحارب طغيان الماء.

ولو أن رجلاً آخر كان في مكان الكماد لجاز أن يسخر بفكرة استخدام الريح لهذه الغاية، ولكنه كان هولاندياً يألف ما يألفه المتصلة حياتهم بالسفن وبالمياه، وقد عرف في طفولته كيف ينزع شراع سفينة ويقيمه في مستنقع في الأرض ليساعد بواسطة الريح على كسح الماء. وكان ملاحاً فهو يعرف حق المعرفة قوة الريح. ولكن الفكرة التي كانت جديدة هي أن تدير الريح عجلة وأن تدير هذه العجلة مصاصة.

ولو أن رجلاً آخر في موضع هذا الرجل وكان أقل ذكاء لرأى الفكرة مستحيلة. ولو أن الأمر الذي يعنيه كان أقل أهمية لرأى أسهل الأمرين أن يستمر امتصاص الماء بواسطة العمل اليدوي القديم أو بإدارة ساقية يجرها حيوان. لكن بالنسبة لهذا الرجل فإنه لا الإنسان ولا الحيوان يقوى على مص الماء من أطيانه الواسعة، وهو يعتقد أنها لو صُفِّيتْ من الماء لصار في وسعه أن يجعل كل جزء منها في مثل خصوبة المزارع الفرنسية.

ولما عاد الكماد من باريس إلى وطنه لم يقل شيئاً عن هذه الآلة الجديدة التي سمع عنها لأنه عرف أن جيرانه الهادئين المجردين من الخيال سيسخرون من الهواء الذي يمتص الماء، ولكنه عكف على صنع ألعوبة تمثل عجلة فوقها أكثر من شراع، وذلك لكي يجرب بها الاختراع.

وقد أمضى زمناً ليس بالقليل في وضع كل شراع بالزاوية التي تناسبه، ولكنه أخيراً صنع طاحوناً تدور حول نفسها كأنما تلقت سر الحركة الدائمة.
وعند ذلك استدعى بعض جيرانه فأطلعهم عليها وقد أعجبوا بذكائه في صنع اللعبة، ولكنهم ضحكوا من استحالة القيام بعمل جدي بواسطتها وقالوا: (هل يدل هذا على مقدار الأذى الذي تلحقه الأسفار بالانسان، فإن فلورنت كان مزارعاً صالحاً وعاملاً منتجاً وحداداً جاهداً قبل أن يعتاد السياحة في البلدان، وهو الآن يظن أنه يعرف أكثر مما كان آباؤه يعرفون وهو يضيع وقته في صنع الألاعيب، وما أغرب تخيله في أن تمتص الرياح الماء! من الذي سمع من قبل بأمر مثل هذا؟
لكنه على الرغم من أنه لم يكن في هولاندا من سمع شيئاً من هذا، فإن الكماد ظل يعمل لينشئ طاحونة. وبعد أن أجرى التجربة في الألعوبة شيد طاحونة كبيرة ذات أربعة شرع بدلاً من العجلة. وجعل هذه الشرع ذات دولاب واحد لكي تظل الريح تديرها، وذلك لأنه إذا كانت حركتها مستمرة كان من السهل أن تركب عليها عجلات أصغر منها تجعل حركة المصاصات مستمرة كذلك.
أنشأ طاحونته الفخمة ولكنها كانت لا تدور إلا إذا هبت الريح من اتجاه معين. وكذلك ظلت كما ظل مِنْ بعدها كل الطواحين الهولاندية مدداً طويلة تعمل عندما تهب الريح شمالية شرقية.
فلما تحركت وامتصَّتْ الماء استدعى جيرانه وأراهم نجاحها.
وقد يكون الهولندي بطيئاً في تصرفه وقد يكون من الصعب إقناعه، ولكنه متى رأى عملاً صالحاً فهو يحسن تقديره، فهؤلاء المزارعون الهولنديون ذوو الصلابة قد قضوا العمر في محاربة عنصرين من عناصر الطبيعة: الماء والريح. وما كادوا ينشئون تلك المرافئ الرملية لتحميهم من الأمواج حتى هبت الرياح فأزالت أعالي هذه المرافئ وأعادت الماء إلى الطغيان.
لما رأى هؤلاء المزارعون عدويهم القديمين وقد سُخِّر أحدهما لمحاربة الآخر ضحكوا وصفقوا وأثنوا على ذكاء فلورنت.
وقبل أن يموت فلورنت كان نجاحه غير مقتصر على أن أصبحت الطواحين منتشرة في
كل مزارعه لتجفيف المستنقعات لتصبح الأرض قابلة للزراعة في مواسمها؛ بل إن جيرانه قد أصبحوا يحاكونه، فكانت الشراعات تدور مع النسيم لمثل هذه الغاية. وكان الناس يأتون من أطراف هولاندا ليشاهدوا هذه الطواحين.
وكانت أول طاحونة ناجحة أنشأها الكماد هي التي أنشئت في سنة 1408 وقبل عام 1500 كانت هولاندا قد غصت بالطواحين الهوائية التي جعلت هذه البلاد في ظرف أربعمائة عام شهيرة بمناظرها الزراعية. وتحولت أراضي المستنفعات إلى مزارع خصبة، وأثرى الناس، وأدرك الإنسان فوزاً جديداً هو تسخير قوة من قوى الطبيعة ضد قوة أخرى في صنع آلاته. ونجح الهولنديون بمحالفتهم الهواء ضد الماء فانتصروا على الطبيعة.
وكانت الخطوة التالية هي التي انتصر فيها الإنسان على النار فاستخدمها لإدارة العجل بواسطة البخار. وقد استطاع الإنسان ذلك بعد مائتي عام. وتتم قصة العجلة بتمام القدرة على تحويل الوقود إلى قوة تحرك الآلات.
(يتبع)
ع. أ
من هنا ومن هناك
الحيلة في تقليد السياسة الألمانية
(عن (ذي ايفننج استاندر))
للسياسة الألمانية طرائق وأساليب قلَّ أن يعتريها التغيير وإن تغير الجيل واختلفت العصور. وقد مر سبعون عاماً منذ اعتزم بسمارك محاربة فرنسا، مدفوعاً بفكرة ضم الولايات الألمانية المتحالفة التي حازتها ألمانيا، نتيجة لحروبها السابقة التي وضع خطتها بعناية وإتقان. وكان بسمارك يطمع في تقوية مركز بروسيا للسيطرة على هذه الولايات. فأشعل نيران الحرب في أوربا من أجل هذه الأسباب

التي تتعلق بسياسة ألمانيا الداخلية.

وقد كتب الكثيرون في موقفه هذا والطريق التي سلكها لتحقيق بغيته، ولكن تلك القصة العجيبة مازالت قابلة لأن تعاد. كانت أسبانيا تقطع مرحلة من مراحل السلام والهدوء فأظهرت حاجتها إلى حاكم عادل يسوس أمورها. فعرضت عرشها على أمير من أسرة (هوهنزلرن). ومن الجلي أن الفرنسيين لا يرحبون بفكرة مثل هذه الفكرة ولا يسمحون بتحقيقها، إذ أنها تبيح لأسرة واحدة أن تحكم على الرين والبرانس.

فلاقى بسمارك صعوبة في تحقيق مطلبه - لا من ناحية الفرنسيين الذين لم يكن يعبأ بهم - ولكن من ناحية (سيك) ملك بروسيا الذي يقول عنه في مذكراته: (لقد كان رجلاً في الثالثة والسبعين من عمره محباً للسلام، فلم يشأ أن يخاطر بأكاليل النصر التي نالها في حرب عام 1866. ويشير بسمارك هنا إلى الفوز الذي أحرزته بروسيا على أوستريا عام 1866 في حرب قصيرة المدى.

فلما رأى الملك المعمر أن حرباً أوربية توشك أن تقع من جراء قبول أحد أقربائه عرش أسبانيا، اعتزم أن يمنعه. فما كاد يصل احتجاج فرنسا إلى يده حتى استدعى (البرنس ليوبولد أوف هوهنزلرن) وما زال به حتى رفض ما عرض عليه. ورأى بسمارك أن

الأمر قد انتهى عند هذا الحد، وأنه لا يجد أمامه ما يحارب من أجله فانتهز فرصة غياب الملك للاستشفاء بمياه أحد الأنهار وأخذ يدبر الحيل لإثارة الحرب. وبينما هو والكونت مولتكي وفون ردن القائدان الألمانيان يتناولان العشاء ويتباحثان في شؤون الحرب، إذ وردت برقية من سفير فرنسا يطلب على لسان حكومته بعض تأكيدات في موضوع عرش أسبانيا، فرأى بسمارك أن الفرصة سانحة للتدبير لبغيته، فأدخل بضع كلمات على برقية السفير الفرنسي، ثم التفت ذات اليمين وذات اليسار إلى القائدين الألمانيين متسائلاً عن مبلغ استعدادهما للحرب فأجاباه بما يؤيد رغبته. فلما أطلع المليك على الرسالة الفرنسية اعتبر ما فيها حاطاً للكرامة، ورفضها رفضاً باتاً. ثم أمر أن يمنع سفير فرنسا من المثول في حضرته. وقد كان بسمارك قد أعد اللازم لظهور هذه الرسالة في الصحف الألمانية في اليوم التالي، ومن ثم أعلنت الحرب بين فرنسا وبروسيا. إنها لصورة خبيثة بالغة حد البشاعة تلك الصورة التي ظهر بها هؤلاء الشيوخ الثلاثة وهم يتجرعون كئوس الخمر ويهنئ بعضهم بعضاً لنجاحهم في إشعال الحرب بين هاتين الأمتين العظيمتين.

ليس من الصعب علينا بعد هذا أن نتصور موقفاً مشابهاً لهذا الموقف فيما حدث في أوربا منذ أسابيع، إذ قامت تلك العصابة المتعطشة إلى سفك الدماء بوضع شروطها الستة عشر التي بنت عليها إنذارها النهائي لبولندا بحيث لم تطلع عليها بولندا نفسها أو الحلفاء إلا بعد فوات الوقت اللازم للرد عليها.

ففوجئ الناس بخبر الحرب ليلة 31 أغسطس عن طريق الإذاعة الألمانية دون مقدمات سابقة. ولكن الأمر تبين بجلاء في خطاب رئيس الوزارة الإنجليزية بعد ظهر اليوم التالي، فتحولت الدهشة إلى احتقار واشمئزاز.

إن ريبنتروب يحاول أن يقلد بسمارك في أحاييله السياسية. ولكن كم من الفروق الشاسعة بين تلك الشخصيات التي بنت مجد الإمبراطورية وتلك التي تذهب بمجدها إلى الهاوية.

أما هتلر فقد عقد نيته على الحرب سنة 1939 كما فعل بسمارك سنة 1870. وقد نستطيع أن نقول: إن ذاك الأرستقراطي البروسي لا يختلف على وجه العموم عن ذلك النقاش الآستوري، فكلاهما على استعداد لإزهاق ما لا يعد ولا يحصى من النفوس البشرية في سبيل المطامع الشخصية.

ألا إن بسمارك كان أكثر تهذيباً وأنضج عقلاً، فقد كان يعرف من أين يبتدئ والى أين ينتهي.

عصبة الأمم ما لها وما عليها

(عن (فيتال سبيتسن))

اختلف الكثيرون في الرأي حول عصبة الأمم فمن قال، إنها أخفقت في تحقيق مهمتها، وقائل أنها نجحت في هذه المهمة، فأي الرأيين الصواب؟

إن أعمال عصبة الأمم في العشرين سنة التي انسلخت منذ ظهورها كثيرة الشعب

متعددة الألوان. ويحسن بنا أن نشبهها بمجموعة من الخيطان بعضها أبيض اللون والبعض الآخر أسوده. فالألوان البيضاء تمثل الأعمال التي أدتها العصبة بنجاح في جنيف، والألوان السوداء وهي لاشك أقل عدداً من الأولى - تذكرنا بالأعمال التي أخفقت فيها.

فمن الواجب إذن أن نعترف بأن عصبة الأمم نجحت نجاحاً محققاً في كثير من الشؤون، ومن الواجب كذلك أن نصرح بأنها أخفقت في بعضها.

لقد نجحت عصبة الأمم في عقد اجتماعات دورية في جنيف يحضرها خمسون عضواً يمثلون خمسين حكومة من حكومات العالم. وقد بدأت أعمالها باثنين وأربعين عضواً ممثلين لحكوماتهم، ووصل هذا العدد إلى ستين في وقت من الأوقات. ويبلغ عدد الدول الممثلة في عصبة الأمم الآن خمسين دولة، وهذا العدد يدل على اتجاه الغالبية العظمى التي تؤيدها بين أمم العالم. إذ لا يزيد عدد الدول المعترف بها في العالم اليوم على خمس وستين.

وبعد سنتين من قيام عصبة الأمم أنشأت محكمة العدل الدولية في لاهاي وهذه المحكمة تفصل فيما يقع بين الأمم من المنازعات والخلافات القانونية. وهي مفتوحة الأبواب دائماً لكل دولة تريد الاحتكام إليها. وقد بلغ عدد القضايا التي فصلت فيها هذه المحكمة سبعين قضية.

أما فيما يتعلق بالقضايا الناشئة عن التغييرات الطارئة على مراكز بعض الدول وما يستدعيه ذلك من إعادة النظر في كثير من الحقوق التي تدعو إليها الضرورة فقد توسطت عصبة الأمم منذ سنة 1920 في أربعين مسألة فصلت في ثلاثين منها فصلاً تاماً. وقد

قامت عصبة الأمم خارجاً عن ميدان السياسة بكثير من جلائل الأعمال، كمنع تجارة الرقيق الأبيض ومحاربة الأفيون وغيره من العقاقير الضارة وتسهيل المواصلات بين بعض الأمم، وإيواء المهاجرين، وتبادل السكان بين اليونان وتركيا وبلغاريا، والنظر في شؤون الصحة العامة وحماية الطفولة، وتحقيق مصالح العمال.

ومما لا شك فيه أن عصبة الأمم قد ضربت المثل الأعلى في عقيدة التعاون وضرورتها بين الأمم والأفراد.

أما ما يؤخذ على العصبة فعدم نجاحها في منع التسلح الحربي والاقتصادي بين الأمم وإخفاقها في إيقاف الحرب في منشوريا سنة 1931 وفي جنوب أمريكا سنة 1933 وفي الحبشة سنة 1935 وفي إسبانيا واستريا وتشيكوسلوفاكيا وبولنده في السنتين الأخيرتين. إلا أن هذه المنازعات المفاجئة كانت مبنية على مطامع بعض الدول في امتلاك أرض الغير، ومن الطبيعي في هذه الحالة أن تتهرب من التحكيم، وتقضي على كل مجهود يبذل في سبيل التوفيق.

البريد الأدبي

علامة تعجب

في (الرسالة) (رقم 329) قصيدة أبياتها أربعة وخمسون وتُزخرفها اثنتان وستون علامة تَعَجُّب، أعان الله جمّاع حروف (الرسالة)! ولا أقصد هنا التمهل عند هذا النحو من أنحاء النظْم الحديثة، فلكل عهد من عهود الشعر المنظوم بالصنعة ذرائع؛ وقديماً استنجد بعض الشعراء ممن قعد خاطره بمحسنات البديع، واستغاث غيرهم ممن جمدت رويَّته بالأغراب والتهويل اللفظي، وفزع طائفة من المحدثين إلى المسخ أو المحاكاة أو المعارضة، ثم هذى الطباعة الحديثة تبذل أسباباً أخرى في طليعتها علامات التعجُّب (أو التنهد أو التحسر).

ولو كان في يدي من أمر (الرسالة) شيء لكنت ضننت على الشاعر بذلك العدد الجارف من علامات التعجب، فأدخرها للقراء أنفسهم إذ آمُر بها فتنثر هنا وهنا في صفحة من صفحات المجلة، فيلتقط منها الملتقط ويختطف المختطف. ألا يحصرنا من مثيرات العجب ما لا يحصيه غير إحصائي حاذق؟ ولو بسطتَ أطراف العجب على ما يبغتك لنفدت علامات التعجب المخزونة في صناديق (الرسالة) مهما غصت بحروف الترقيم. وحسبي أن أتعجب مما صدمني في يوم واحد.

هاتِ علامةً أتعجب بها من معاملة إدارة دار الأوبرة والفرقة القومية وشركة مصر للتمثيل والسينما. فمن المشهور أنها تدعو إلى ما تقيمه الحين بعد الحين من صنوف

الفن طائفةً من الصحافيين والنقدة الفضوليين الهاجمين، مداراةً أو تلطفاً، وأنها تدعو زمرة ممن يقال لهم (كبار الموظفين). تدعو هؤلاء وأولئك، وهي تُهمل نفراً من الكتاب المقدمين والنقاد البصراء؛ فإن سألها أحدهم في ذلك قالت له (اقصدني أتفضلْ عليك بتذكرة دخول). فهل غاب عن تلك الإدارات ما يجري في نواحي أوربة المتمدينة؟ ولعل الصديق الأستاذ توفيق الحكيم يرشد تلك الإدارات المختلفة إلى آداب المعاملة الثقافية.

وعلامةً أتعجب بها من خروج مسرحية عنوانها (امرأة تستجدي) على مسرح الفرقة القومية، وقد وصفها ناقد الرسالة خير وصف في العدد السابق. بالله كيف أفلتت هذه المسرحية من مناظير (لجنة القراءة) وفيها من فيها؟ ولِمَ تذيقُ الفرقة رجالها عذاب تمثيل مثل هذه المسرحية وتذيق النظارةَ شهودها؟ هل يدخل هذا في مجاهدات شهر رمضان؟ ألا

كثيراً ما قلنا للفرقة القومية: المسرحية المرضية إذا ترجمت خير من المسرحية التافهة وإن كانت مؤلَّفة. والتأليف المسرحي في الأدب العربي لا يزال في عهد الاستواء، فاطلبوا النماذج الحسنة وانبذوا الرديئة. ولا يضير بلداً أن يقال فيه إنه لم يخرج بعد عدداً من الفلاسفة المبتكرين أو الشعراء الفحول. . . إن مجد الأمم لا يرتجل.

وعلامةً أتعجب بها مما جاء في الصفحة الأولى من (مصطلحات في باب الأحياء والطب) من (مجلة مجمع فؤاد الأول للغة العربية) (ج 4 ص 11 والشرح). أصبت في تلك الصفحة: (الحركة الذاتية) بازاء ثم (الحركة الخارجية) بازاء والذي يعرفه طلاب الفنون أن كلمة تنظر إليها في العربية كلمة (فعّال) وأن تنظر إليها كلمة (منفعل) و (انفعالي) وهما من المقولتين (يفعل وينفعل) (راجع هذا في (مباحث عربية) ص 120، الحاشية). وأما (الحركة الذاتية) فشيء آخر (وتصيب تعريف هذا التعبير في (كشاف اصطلاحات الفنون) مادة (الحركة) ص 343، وفي (التعريفات) مصر 1283 ص 58). وكيفما كانت الحال فإن التعبير الذي يقابل (الحركة الذاتية) هو: (الحركة العرضية)، كما جاء في ذينك المرجعين. هذا وكأني بالمجمع عبَّر بـ (الحركة الخارجية) عن (الحركة القسرية) (وهذا من المصطلحات العربية) و (هي ما يكون مبدؤها بسبب ميل من خارج كالحجر المرمى من فوق) (التعريفات). ومما يقابل (الحركة القسرية) في المصطلح: (الحركة الإدارية).

ثم علامةً أتعجب بها مما جرى به قلم الصديق الدكتور زكي مبارك، إذ أخذ عليَّ في العدد السابق أني أغلِّب إلقاء الشعر بحسب المعاني والألفاظ على إلقائه بحسب التفاعيل، وسبب التعجب أن زميلي الباريسي يعلم فوق علمي أن أهل الدراية من عرب وأعاجم مجمعون على أن الشاعر خير من الوازن، وكانت العرب تقول في موضع الذم: (إنما هو عروضي، ومقطع أبيات ووزان تفاعيل)، وما كان لهذا أن يكون لولا أن الشعر يقوم بمعناه ولفظه فوق ما يقوم بوزنه، وذلك فضلاً عن أن مجرَّد الوزن إنما هو للأذن، وأما المعنى واللفظ فلما يليها في الباطن؛ والطرب لا يأخذ النفس اللطيفة من طريق الحس الظاهر، بل هذا الحس إذا علا شأنه طغى على الوجدان، فمما يحسن به إذن أن يتواضع، ومما يحق على الوزن أن ينتشر خِفيةً في تضاعيف البيت. ثم كيف يكون مأخذ الصديق صاحب (ليلى المريضة. . .) - لعلها شُفيت فشفى فيشفى المواسون معه - وهو يذيع فينا أنه مفتون بالجمال، والجمال لا تصيبه في الهيكل العظمي بل عليك به فيما يكسوه، وإنما الوزن يكسوه المعنى واللفظ. بقي أن فن الإلقاء الحديث يرى ما أرى، وإن تمسك الصديق بما أَلِفتَه أذنه، وكثيراً ما نغضب لما تعودناه، من ذلك غضب بعضهم للحجاب وغضب بعضهم (للعتبة الخضراء) يرحمها الله.

بشر فارس

العيد الألفي لمولد الشريف الرضي

أخي الأستاذ الزيات:

كنت تفضلت فأطلعتني على بعض ما نشر في جرائد العراق عن الاستعداد لأقامة حفلة كبيرة في الكاظمية بمناسبة العيد الألفي للشريف الرضي.

ومنذ أيام قرأت في مجلة الصباح كلمة قال كاتبها (الفائق): إن سعادة السيد إبراهيم

صالح شكر قائم مقام الكاظمية يهتم بتوسيع ضريح الشريف تمهيداً لتلك الحفلة الكبيرة.

فهل أستطيع أن أقول إن الشريف الرضي يستحق أن تقام له حفلة رسمية في العراق كالحفلة التي أقيمت لأبي الطيب المتنبي؟

إن المجد الأدبي للشريف الرضي لم يعد ميراثاً لأتباعه من الشيعة، مع الاحترام لصدقهم في الحرص على إحياء ذكراه، وإنما مجد الشريف الرضي تراث للعراق أولاً، وللأمم العربية ثانياً؛ ومن أجل ذلك أرجو أن يأخذ الاحتفال بذكراه في العراق صبغة قومية لا صبغة طائفية، فيكون من الخطباء والشعراء من يفهمون أنه من رجال الأدب قبل أن يكون من رجال الدين.

وأنت تعرف يا صديقي أن الشريف الرضي تحرر من دنياه من الصبغة المذهبية فدرس كتب الشافعية ليعرف ما عند أهل السنة من أفكار وآراء، فمن الظلم لهذا الرجل العظيم أن يحتفل بذكراه فريق دون فريق.

وفي نيتي - إن شاء الله - أن أحضر تلك الحفلة على شرط أن تصدر الدعوة إليها من وزارة المعارف العراقية، وإلا فسأقترح على كلية الآداب بالجامعة المصرية أن تقيم أسبوعاً لذكرى الشريف كما أقامت أسبوعاً لذكرى المتنبي، فنؤدي حق الشريف في القاهرة قبل أن يؤدى في بغداد.

فإن قيل إن الحالة الدولية قد تمنع من إقامة تلك الحفلة بصفة رسمية، فإني أجيب بأن الأوربيين يحتفلون بذكريات رجالهم العظماء في ميادين الحروب، ونريد أن نكون أعرف منهم بالواجب وأحفظ للجميل.

وحين يتفضل وزير المعارف في العراق باستماع هذا القول فإني أرجو أن نزور بغداد معاً في آذار المقبل لنشترك في إحياء ذكرى الشريف، ولنشهد تفتُّح الأزهار حول دجلة والفرات، ولنطوف بدار ليلى ودار ظمياء. . . والله يحفظك للصديق الموكَّل برعاية العهود.

زكي مبارك

تخليطات في فهرس (عيون الأخبار)

عامة الناس على أن دار الكتب المصرية، بقسمها الأدبي، أمثل دور النشر العربية جميعاً، بما أتيح لها من أسباب القوة، وما مكن لها من وسائل التحرير والضبط، مادية وفنية، ففيها المال والرجال، وجنباتها الواسعة تفهق بالمراجع العظيمة والمصادر الثرية، ولها الصوت الواسع البعيد الذي يكفل لنشراتها ما تقتطع دونه أعناق الناشرين تشوقاً وطماعية.

وما نشك في أن (دار الكتب) جديرة - مع شيء من التحفظ - بهذه المكانة التي تتبوؤها، فقد أسدت إلى الأدب العربي، وإلى جمهرة المتأدبين والباحثين، صنائع لا سبيل إلى نكرانها، قياساً إلى تلك النشرات الأخرى التي نكب بها الأدب العربي. وإذا كان بعض الناس يغلو في نقدها ومؤاخذتها بالبطء الشديد، والتنكب أحياناً لمسالك النشر العلمي السديد، فإنما ذلك على قدر الظن بها، والأمل فيها؛ وعلى قدر الرغبة في أن تكون النشرات التي تقوم عليها صورة مثلى مما تضطرب به آمالنا نحو تراثنا العقلي، من الأخذ في تحقيقها بالتثبيت الذي لا يتهاون ولا يتسامح ولا يغفل، مما هو جدير بأدبنا العربي الذي ندين له، وجدير بالمنزلة التي نزعمها لمصر نحوه.

ومن نشرات (دار الكتب) التي نرى فيها إلى جانب الرغبة في التحري والدقة والضبط مظاهر شنيعة للغفلة والإهمال والتخبط كتاب (عيون الأخبار) لابن قتيبة، مما يبعد بهذه النشرة عن الروح العلمية بعداً شاسعاً، ويضع الذين قاموا عليها موضعاً غير جدير بهم ولا بمكانهم من تلك الدار.

وأنا أكتفي من هذه المظاهر المتناثرة في أثناء الكتاب كله بثلاثة مواضع لا عذر فيها لمعتذر، ولا محل فيهل لجدل؛ وليس يقال فيها: رداءة الأصل وانبهام الخط وانعدام المصادر واختلاف النظر. فهي أغلاط بل (تخليطات) في فهرس الإعلام لذلك الكتاب، ومثل هذه الفهارس التي قيل فيها إنها نصف العلم، إن لم يؤخذ في وضعها بالدقة، كانت شيئاً أشبه بالترف الذي يقوم على التقليد الظاهر، أو التغرير الذي يلجأ إليه بعض المتجرين التماساً للعائدة المادية ليس غير، لا ضرورة علمية توحي بها روح العلم ومناهج البحث.

1 - أول هذه المواضع يتعلق بالثوري، وقد جاء (الثوري) في عيون الأخبار مشتركاً بين اثنين، يختلف ما بينهما اختلافاً كبيراً، حتى ما يكادان يلتقيان إلا في هذه النسبة: أحدهما أبو عبد الله سفيان بن سعيد الثوري، المحدث العظيم، والورع المعتصم بدينه وورعه عن مزالق الهوى، والمحتمل في ذلك أذى التواري ومحنة التوقي ومضاضة العيش حتى لا يلي للسلطان عملاً، ولا ينفذ إليه الشيطان من باب. وأما الثاني، فهو أبو عبد الرحمن أحد شخصيات الجاحظ الطريفة في كتاب (البخلاء)، ممن اتخذهم أبو عثمان مادة لتصويره وسخريته من طبقة (البورجوازي) في البصرة وبغداد. وحسبنا هذا لنعلم أي صورتين متناقضتين جعل منهما ناشرو (عيون الأخبار) شخصاً واحداً، وأرسلوه في فهرس الإعلام باسم أبي عبد الرحمن الثوري (صاحب الجاحظ) بالرغم من كل شيء، وأخضعوا الأمر لقاعدة التغليب. . . يعتسفونه اعتسافاً. . . وهكذا أضاع ناشرونا الأفاضل أبا عبد الله سفيان، كان الله له!

2 - وأما الموضع الثاني، فالخلط فيه أشنع، والخطأ فيه أفظع، أو هي المعجزة التي تعنو لها المعجزات، وقعت على أيدي سادتنا الأجلاء، إذ نرى الكليم موسى بن عمران عليه السلام قد تقلصت عنه السنون، فقام ينفض غبار القرون، فإذا هو من معاصري أبي الهذيل العلاف وسهل بن هرون! وحقت بذلك كلمة القوم.

فكذلك صنع ناشرو عيون الأخبار في الإشارة إلى موسى ابن عمران في خبر جاء فيه أن سهل بن هرون بعث إليه أبياتاً يعبث فيها بأبي الهذيل العلاف، إذ خلطوا بينه وبين موسى ابن عمران (النبي عليه السلام).

وإنما موسى بن عمران هذا هو بعينه الذي يذكر كثيراً باسم (مويس بن عمران)، وقد ذكره المرتضى في الطبقة السادسة من طبقات المعتزلة، وكثير من أخباره وآرائه في الانتصار لأبي الحسين الخياط، والملل والنحل لشهرستاني، والاغاني لأبي فرج، وأخبار أبي نواس لابن منظور. كما يردد الجاحظ اسمه كثيراً في كتبه كالحيوان والبخلاء والبيان والتبيين.

3 - وأما الموضع الثالث فأعجب عجباً وأغرب غرابة، والخلط فيه من طراز بدع جديد. لعل كثيراً من المتأدبين يذكرون قصيدة سويد بن أبي كاهل التي يقول فيها:

رب من أنضجت غيظاً قلبه ... قد تمنى لي موتاً لم يطع

وقد جاء فيها هذا البيت يذكر ذلك المغيظ الذي أنضج الغيظ قلبه:

مزبداً يخطر ما لم يرني ... فإذا أسمعته صوتي انقمع

وكنا نفهم - بكل بساطة - أنه يمثل صاحبه في هذا البيت بالجمل الهائج يخطر في مشيه ويضرب بذنبه وقد علا الزبد شدقيه، وقد غفلنا - ونستغفر الله الذي تفرد بالعصمة - أن فوق كل ذي علم عليما. فقد أبى أصحابنا الناشرون إلا أن (مزبدا) في هذا البيت ليس على ما خيل إلينا وإنما هو. . . (مزبد) المدني صاحب النوادر! هكذا والله صنع القوم. فقد أشاروا إلى هذا البيت في فهرس الإعلام ضمن ما أشاروا إليه من النصوص التي ورد فيها (مزبد) هذا وأحالوا الباحثين عليها.

وبعد فإن هذه التخليطات الغليظة تكاد تهدم الثقة بدار الكتب ونشراتها جميعاً، لولا ما نراه فيها كثيراً من آيات الجهد الجاهد في التحرير والضبط، والبراعة العظيمة في التصحيح والتخريج. فنتساءل مع شيخنا الجاحظ: كيف تصبر البعيد الغامض، وتغبى عن القريب الجليل!

م. ط. ح

تعليق على خطبة وزير الدفاع

ألقى حضرة صاحب المعالي اللواء محمد صالح حرب باشا وزير الدفاع خطبة قوية رائعة في احتفال الكلية الحربية صباح الخميس 2 نوفمبر، بمناسبة تخرج طائفة من الضباط الذين أتموا دراستهم. وأشهد لقد قرأت هذه الخطبة في الصحف، فاهتزت مشاعري حماسة وإعجاباً بما اشتملت عليه من معان وطنية سامية، تبعث العزة والكرامة في النفوس، وتحفز إلى التضحية والاستشهاد في ميدان الشرف!

ومعالي الوزير أديب واسع الاطلاع، دقيق الفهم لأسرار البيان، وخطيب بالغ الحجة قوي التأثير؛ وهو فوق هذا صاحب عقيدة راسخة وخلق متين.

أستهل معاليه خطبته البليغة بقوله: (أبنائي الأعزاء، إن موقفي اليوم منكم هو موقف التهنئة والتبريك، فأهنئكم من كل قلبي. أهنئكم بالنجمة الأولى في سماء المجد

والشرف، وأهنئكم بالسيف المصلت في سبيل الوطن الغالي!).
يا له من توجيه سديد والتفاتة بارعة! نعم إنها النجمة الأولى التي يزهو بها حاملها في سماء المجد والشرف، لا بين نجوم المسرح وكواكب الصالات. . .
إنني لأذكر مع الأسف ذلك المشهد المؤذي للكرامة والشعور حين وقفت إحدى الراقصات تلقي منلوجاً مطلعه:
النجمة في كتفك عاجباني ... والسيف على وسطك خلاني
حبيتك يا ملازم ثاني. . .!
فما كان من أحد الضباط وقد استخفه الطرب إلا أن قام في عربدة واستهتار يطلب الترديد والمزيد، ثم طوح بطربوشه في الفضاء، مزهواً بالنجمة الآفلة والسيف الذليل!
فأي ضابط من أولئك الذين سمعوا وزيرهم النبيل يلقي عليهم ذلك الدرس البليغ في تقدير هذه الشارات الرفيعة التي ترمز إلى المجد والعظمة والسمو، تحدثه نفسه بعد ذلك بالنزول إلى هذا المستوى الوضيع؟
لقد ترك معالي الوزير السابق أجمل الذكرى وأطيب الأثر، حين أمر بعدم ظهور الضباط بملابسهم العسكرية في هذه الميادين. وفي ذلك معنى بليغ يجب تدبره وتقديره، وهو أن الضابط الذي يزج بنفسه في هذه النواحي لا يستحق التمتع بشرف الجندية.
وحبذا لو أتم معالي الوزير الحالي خطوات سلفه، فلم يجعل هذا الخطر قاصراً على الضباط فحسب، بل نافذاً على الجنود أيضاً. حتى لا نشاهد تلك المناظر المخجلة في بؤر الدعارة والفساد جنود الوطن وعدته في الشدائد الذين يمثلون أسمى معاني الرجولة والشرف، تمتلئ بهم المواخير في بعض الليالي والأيام.
ويقول معالي الوزير في خطبته السديدة: (ليست الجندية غروراً يملأ الصدور وينفخ في المعاطس، ولا بدلة للزينة؛ وليست الجندية رتباً ولباساً ومطعماً ومتاعاً من النعيم الذليل. ولكن الجندية - وهي أسمى مراتب الرجولة وأسمى منازل الأخلاق - أكرم على الله والناس من أن تكون هذه غايتها وهذا مداها!).
منطق حق وقول سديد. وما أحوج رجال الجيش إلى تدبر هذه المعاني النبيلة، والانطباع على تلك الأخلاق القويمة. حتى يستطيع أن ينهض بأعبائه الثقال قوي العدة متين البناء. فنحن في زمن - كما يقول معاليه - من لم يكن فيه ذئباً كان في الغنم.
ثم يختتم خطابه بقوله: (أوصيكم بأنفسكم خيراً، وتحصنوا بالأخلاق فهي جنتكم من الزلل. ثم أوصيكم بالجنود خيراً، وأكرر هذه الوصاة، فهم عدة الوطن في شدته، وهم طعام النيران! ومن أساء إليهم فقد أساء الوطن، وإني أعيذكم أن تسيئوا إلى مصر وأنتم حماة ذمارها).
وهنا أشير إلى عادة مستهجنة يجري العمل عليها في نظام الجيش، فيها الإساءة البالغة إلى كرامة الجنود وشرف الجندية. تلك هي نظام (المراسلة) الذي يفرض على بعض الجنود أن يكونوا خدماً للضباط لا في ميادين القتال وساحات الجهاد، وإنما في المنازل حيث إعداد الطعام وغسل البلاط وحمل الأطفال! بل وفيما هو أحط من ذلك في كثير من النواحي والشؤون. . .
ومن المؤلم أن تكون هذه الخدمة مطمح الجنود ومقر ذوي الحظوة منهم. وفي ذلك ما فيه من إفساد للروح المعنوية وانحدار عن مستوى الرجولة والشرف. فهل لمعالي الوزير الحازم - وهو يوصي بالجنود خيراً - أن يرفع عن أعناقهم هذا النير الذي يورث الذل والصغار، فلا يفرض عليهم الخدمة في غير المعسكر أو الميدان؟
إنا لنرجو الخير الكثير على يدي معاليه. ولنا في ماضيه الجليل في ميدان الحرب والسياسة، وحاضره المحفوف بالتقدير والإكبار ما يؤكد الثقة ويقوي الأمل في جلال المستقبل وعزة الغد.
(حلوان)
محمد كامل حتة
زكاة الفطر
أعدت وزارة الشؤون الاجتماعية صندوق الإحسان في بنك مصر لجمع زكاة الفطر ووجه معالي وزيرها إلى الشعب نداء بليغاً يدعوه إلى أداء هذه الزكاة جاء في ختامه قوله:

إن وزارة الشؤون الاجتماعية حين تجعل في عنقها أمانة الزكاة تنهى إلى خاصة) المسلمين وعامتهم أن إيداع زكاة الفطر في (صندوق الإحسان) الذي جعلته وعاء للخير موافق لأحكام الشرع الشريف، فبهذا أفتى رجال الدين وعليه جرى العمل في دول الإسلام الأولى وصدور أيامه السالفة وبه تبرأ ذمة كل مسلم من عهدة التقصير في هذه الزكاة وتنتقل المسؤولية أمام الله إلى وزير الصدقات الذي هو وزير الشؤون الاجتماعية. وحسبكم أن يعطيكم وزير الشؤون الاجتماعية عهد الله وذمته فيشهد الله ويشهدكم أن ينفق ما تزكون به في وجوهه المشروعة.

إن فرصة الخير أضيق من أن تمتد مع التسويف وقد علمتم أن أفضل ما تؤدى زكاة الفطر إذا لم تتأخر عن يوم العيد والله تعالى يدعوكم إليها فأجيبوا دعاءه وهو يعدكم حسن الجزاء عليها فاستوجبوا وعده الصادق بالمبادرة إلى طاعته).

اكتشاف مصل واق من التيتانوس

أبلغ المجمع العلمي الفرنسي أن الدكتور رمون والدكتور لبميه توصلا إلى صنع مصل واق من التيتانوس ودلت التجارب التي عملت أن هذا المصل يعطي الإنسان والحيوان مناعة قوية من التيتانوس وهو اكتشاف ذو أهمية خاصة في هذا الوقت الذي يعد فيه التيتانوس مرضاً مخيفاً في وقت الحرب.

العالم المسرحي والسينمائي

مع الأستاذ توفيق الحكيم

الفرقة القومية في عهد جديد

كيف السبيل إلى النهوض بالمسرح؟

نعتقد أننا قد أجبنا على هذا السؤال فيما كتبناه عن (نهضة المسرح في مصر)، إذ شرحنا في إيجاز جميع العوامل وكل الأسباب التي أدت إلى انحلال المسرح، ثم قيام الحكومة بنصيبها في نهضته بإنشاء الفرقة القومية ونصيب هذه الفرقة من النهضة الأخيرة وواجبها حيالها.

على أنه كاد الموسم يبدأ حتى كانت الفرقة قد انتقلت من يد إلى يد، وأصبح أمراً واقعاً أن وزارة المعارف قد سلمت مقاليدها إلى وزارة الشؤون الاجتماعية، فحمدنا الظروف التي أتاحت هذا التغيير الذي سيكون له أثره في سياسة الفرقة، والذي جعل للأستاذ الكبير توفيق الحكيم إشرافاً حقيقياً على شؤون المسرح فلطالما كان من أعز أمانينا أن يكون لمن هو في مكان الأستاذ من المسرح هذا الأثر الفعال في توجيه شؤونه.

من يحمي الفنون ومن ينصرها في بلد يراها ضرباً من ضروب اللهو ولوناً من ألوان التسلية؟ فالبعض عندنا يذهب إلى المسرح للتسلية ولمجرد اللهو ولا ينظر إلى ما وراء ذلك من فائدة والى ما بعد ذلك من أثر. كل ما يرجوه ساعة أو أكثر يقضيها في دار للتمثيل: يضحك ويتندر ويتحدث، كأنما هو على قارعة الطريق، أو في بيته أو في أحد المنتديات أو المشارب؛ أما الفهم الصحيح للمسرح ورسالته، وأما الرغبة الأكيدة في الإفادة من هذا الغذاء الروحي والعقلي، فإنهما بعيدان عن تفكيره وميوله، ولهذا عاش المسرح في مصر خاضعاً لأهواء الجماهير، حتى في أيام ازدهاره، وحتى حين أخرج للناس (أوديب) و (عطيل) و (لويس الحادي عشر) وغيرها من الروايات الخالدة، حتى في ذلك الوقت لم يكن إقبال الناس على هذه الروايات، ولم يكن نجاحها الملحوظ عندهم إلا ستاراً لرغباتهم في التسلية، فهم يجتمعون في دار الأوبرا، وهم يتحدثون ويتندرون في هذا الشيء الجديد الذي يمر أمامهم، وفي هذه الشخصيات المضيئة التي تصعد في سمائهم، ولم توجد الرغبة الأكيدة في رفع شأن المسرح، ولن توجد إلا إذا عهد به إلى أهل المسرح وأبنائه، ووكل إليهم شأنه وترك لهم أمره.

من يحمي المسرح إذن؟

هم الفنانون المخلصون الذين لا يضعون في اعتبارهم أن الجمهور يريد أن يتسلى، والذين يفهمون أن رسالتهم البعيدة عن تسلية هذا الجمهور، وإنما هي قريبة إلى إفادته والى رفع مستواه والصعود به إلى القمة حيث تنفتح عيونه على أفانين من الجمال يراها في صور متعددة من صور الفنون الحقة تسمو به وبروحه وبكل جارحة فيه إلى حيث يكشف داخل نفسه وفي نفوس الآخرين تلك الإنسانية التي تميزه عن

غيره من المخلوقات.

ذهبنا إلى الأستاذ توفيق الحكيم وفي خلدنا تدور هذه الآراء وغيرها، وفي عزمنا أن نسأله بياناً عن السياسة الجديدة للمسرح المصري بعد إذ أصبحت مقاليده عند وزارة الشؤون الاجتماعية التي ناطت به شؤون الدعاية فيها. على أننا ما كدنا نقول كلمة أو كلمتين حتى أفاض معنا في الحديث في سلاسة واتزان. قلنا: إن علة العلل هي (الرواية) فالفرقة القومية قوية بعناصرها غنية بمالها، وإن يكن من رأينا أن بعض العناصر مازالت خارجة عنها ويجب أن تضم إليها لتزداد قوة على قوة. وإنما ينقص الفرقة شيء واحد هو (الرواية) التي لم تحط بالعناية المنشودة فيما سلف من أيام.

فقال: سنكون من أول ما نعني به اختيار الرواية الصالحة، وقد أنشأت لذلك لجنة تنفيذية (مكونة من العشماوي بك وخليل مطران بك والأستاذ الحكيم)، وهذه اللجنة من شأنها أن تنظر في الرواية بلجنة القراءة لترى إن كانت تصلح للمسرح وتتفق ورسالته ثم تقدر قيمتها، ونحن نفكر في تكوين لجنة أولية من المخرجين والممثلين لتقرأ الرواية قبل تقديمها للجنة القراءة حتى لا تصل إلى أيدينا رواية تافهة، وحتى يكون للمخرج رأيه فيما يخرج، وللممثل رأيه فيما يمثل. على أننا سنضع نصب أعيننا أن تكون الروايات التي تخرجها الفرقة من الأدب الرفيع الذي يتفق ورسالتها، وقد كان من رأينا أنها يجب أن تخرج عن حدود هذه الرسالة حتى لو لم يقبل عليها الجمهور الإقبال المأمول. وأستطيع أن أؤكد لك أن الجهات المسؤولة تشجع الفرقة على ذلك ولا تطلب منها أكثر من السمو بالفن ولتكن النتائج ما تكون، وإن تكن رغبتنا أن يقبل الناس جميعاً على الفرقة وأن يشجعوها.

ومن رأينا أن الروايات الممتازة الخالدة التي سبق أن أخرجت للمسرح يجب أن تخرج ثانية وأن يراها الجمهور كلما سنحت الفرصة. وسوف يرى النقاد فيها لوناً جديداً من ألوان الإخراج والتمثيل. فالمخرجون قد أصبحوا غيرهم بالأمس، والممثلون كذلك إلا قليلاً. ونحب ألا يقال إنها روايات قديمة بل يجب أن يقال إنها خالدة لا يفرغ الجمهور من مشاهدتها ولا يكف النقد عن التحدث عنها وإنك لترى أنهم في أوربا، ولديهم المؤلف الحديث والرواية الجديدة، يعنون بتراث الآداب الخالدة. وروايات شكسبير وراسين وفولتير وغيرهم مترجمة إلى اللغات الحية، وهي تخرج على المسارح في كل فرصة والناس يقبلون عليها كأنها روايات جديدة. وعلى هذا فلا بأس من أن تخرج روايات شكسبير وسوفوكل وكورنبي وغيرهم؛ ولا ضير من أن يرى الناس للمرة المائة بعد الألف عطيل وأوديب والسيد وغيرها.

وكان أحمد أفندي عسكر موجوداً أثناء الحديث فأضاف (غادة الكاميليا)، وقد لقي اقتراحه قبولاً على أن تعرب الرواية من جديد وأن يقوم بتعريبها الكاتب الأديب الممتاز الذي اشتهر بتعريب الروايات الرومانتيكية العاطفية.

وعاد الأستاذ توفيق الحكيم إلى حديثه فقال:

لقد دلت التجارب على أن الرواية الموضوعة لم تصل بعد إلى المرحلة التي نطمئن لها، ومع ذلك فإن الباب سيظل مفتوحاً للكفايات المجهولة لتتقدم على مسئوليتها بما تنتجه، فلن نكلف أديباً أن يضع لنا رواية نكون مضطرين إلى قبولها منه. أما الروايات المترجمة فقد صح عزمنا بعد التجارب العديدة التي مرت بها الفرقة أن نختارها نحن من الأدب الرفيع قديمه وحديثه وأن نعهد بها إلى مترجمين ممتازين ممن لهم شأن معلوم ومكان معروف، وبذلك نضمن نجاح الرواية من كل الوجوه.

هذا وستعنى الفرقة بفن الأوبرا والأوبريت لترفع من شأنهما بعد إذ مرت عليهما فترة ركود حتى كاد يسدل عليهما النسيان ستاراً كثيفاً، وحتى انصرف الجمهور عنهما إلى صالات الرقص والمجون.

وعلى العموم فإن سياستنا ستكون النهوض بالفرقة ومساعدتها المساعدة الحقة على أداء رسالتها. ونأمل أن يكون النقد معنا وفي عوننا؛ فالفرقة لا تستطيع مقاومة العواصف من

كل جانب، وعن طريق النقد؛ سيفهم الجمهور رسالة الفرقة، وسيروض نفسه على تقبلها وإن كان لونها مما لا يتفق وهواه.

وانتهى الحديث بأن أبدى الأستاذ الحكيم استعداده ورغبته في تبادل الآراء حول هذه الموضوعات وغيرها كلما وجد في الأمر ما يدعو إلى ذلك.

ونحن نعتقد أن في تنفيذ السياسة التي بسطها الأستاذ ما يكفل نهوض المسرح وكرامة أبنائه ونجاح رسالته.

فرعون الصغير

العزيمة

بدأ عرض رواية (العزيمة) على ستار سينما ستديو مصر منذ الاثنين الماضي وسننشر كلمتنا عنها في العدد المقبل.

العدد 333 - بتاريخ: 20 - 11 - 1939

في وزارة الشؤون الاجتماعية أيضاً

هذا هو المنهاج

فكيف يكون المسير؟

حاولنا فيما سبق من القول أن نرسم لوزارة الشؤون الاجتماعية معالم المنهج الذي تسلكه مخافة أن ينتشر عليها الأمر وتلتبس الوجهة؛ ثم تركنا لرجالها المختصين توضيح الرسوم وتحديد التخوم وتعيين المراحل. ولكن رسم المنهاج لا يكلفنا ولا يكلف الوزارة غير ساعات من النظر والفكر والكتابة؛ وإنما عماد الأمر ومِلاكه أن تُنهج السبيل وتُنفذ الخطة وتُبلغ النهاية. ويلوح لي أننا نكلف الوزارة شططاً إذا أردناها على إصلاح الفاسد وإقامة المعوج وهي على حالها الحاضرة ووضعها القائم

ماذا عسى أن تعمل وزارة موظفوها خمسة عشر موظفاً وليس لها وكيل ولا نظام ولا سلطة ولا خزانة؟

لقد صدق الأستاذ الذي قال: إن وزارة الشؤون الاجتماعية مشروع وزارة لا وزارة.

فإن خمسة عشر موظفاً من مختلف الوزارات (كشليلة) خيط من غير رأس، أو كشركة إنتاج من غير مال، لا يستطيعون أن يفكروا إلا في لجنة تعقد أو قرية تزار أو مقالة تذاع أو مجلة تحرر؛ أما تنفيذ الرأي وتكوين النتيجة وتوفير الثمرة فذلك شيء فوق الطاقة لمن لا يملك إليه الوسيلة

ولقد كان في وزارة الصحة عبرة لوزارة الشؤون الاجتماعية لو أنها التمست هداها على ضوء الدرس المنظم والتجربة الحاصلة والخبرة المختصة؛ فإن وزارة الصحة قد فكرت منذ عامين في كفاح المرض فهيأت له الأسباب وأرصدت الأَهَب، فجعلت لكل جماعة من الناس طبيباً، وسيَّرت إلى كل جهة من جهات القطر مستشفى، ولكنها لم تجد المال الكافي لشراء الأدوية وتجهيز العلاج فظل أطباؤها من غير عمل، وباتت سياراتها من غير حركة.

إن وزارة الشؤون الاجتماعية فكرة موفقة ما في ذلك ريب؛ وإن الرجل الذي أوحاها خليق بأن يكون صاحب المقام الرفيع علي ماهر باشا، فإن العهد برفعته أنه رجل عَمول يريد ما يقول ويفعل ما يريد. وقد دلَّت الدلائل في وزارته الأولى على أن في رأسه خطة مدبَّرة

للإصلاح لابد من إنفاذها وإن عوَّق القدر وطال الأمد. ولولا ذلك ما هششنا لهذه الوزارة الوليدة ولما أسرفنا في الرجاء منها والحديث عنها. لهذا نعتقد أنه سيفرغ لها بعد حين قد يطول وقد يقصر، فيدبر لها المال ويمهد لرجالها سبيل العمل. وليس من الغلو فيما أظن أن تكون ميزانيتها وسطاً بين ميزانيتي الصحة والمعارف، فقد علمنا أن اختصاصها يكاد ينبسط على كل شيء في هذا البلد. على أن المال الذي يُفرض لهذه الوزارة في ميزانية الدولة هو وحده النصيب الحق لهذا الشعب المسكين من ثروته العامة؛ فإن أكثر ما يجبى من موارد الوطن المشتركة إنما يذهب للحكومة لا للأمة، وللأغنياء لا للفقراء، وللمدائن لا للقرى. وجمهور الشعب هو صلب المجتمع وأداة إنتاجه وعدة دفاعه، فينبغي أن يكون همُّ الخاصة وولاة الأمر مصروفاً لسد عوزه وتثقيف عقله وتأمين سلامته، لا يضنون عليه في سبيل ذلك بمال ولا جهد

إن رئيس الوزارة الذي يتذرع لتقوية الدفاع الوطني بكل الذرائع، لا يمكنه أن ينسى مادة ذلك الدفاع ولا هيكله من العمال والصناع والزراع ومن يقمن على رعايتهم وخدمتهم من أم وزوجة.

فلعله يقرع بصوته العالي أسماع أولئك الأمراء والأغنياء فينزلوا عن بعض ترفهم وسرفهم للجيش أسوة بمن يضحون بأرواحهم وأموالهم في سبيل وطنهم من أمراء إنجلترا وأغنياء فرنسا؛ فإنهم إن فعلوا ذلك - وبعيدٌ أن يفعلوه طائعين - تسنى له أن

يجد المال الضروري للشؤون الاجتماعية، ومن ثَم يتسنى لوزارة هذه الشؤون أن تنهض بما ألقى عليها من عبء، وتحقق ما نيط بها من أمل
نعم، هذا هو المنهاج فكيف يكون المسير؟ هيهات أن تسير وزارة الشؤون الاجتماعية إلا على قدمين من عزم ومال. فمتى تيسر لها المال وتوفر لها العزم كان عليها يومئذ أن تعيد النظر في تنظيمها وتقسيمها على أساس مكين من الحاجة والكفاية والاختصاص، فإن الإسراف في قلة الموظفين كالإسراف في كثرتهم سواء بسواء؛ والعدول عن الكفء إلى غيره جناية على العدل وإنكار لفائدة العمل؛ ووضع الأمر في غير أهله أقصر الطرق للفوضى المربكة والفشل المحقق. وإذا كانت الوزارات الأُخر تجري على سَنَن من التقاليد الموروثة والأنظمة الآلية والأعمال الرتيبة، فإن هذه الوزارة الجديدة في وضعها
وموضوعها حرية بأن تكون مثلاً يحتذى في اختيار الموظف، وابتكار الطريقة، وتبسيط الإجراء، ودقة المراقبة، وحسن التوفيق بين قدرة العامل وطبيعة العمل، وفرض المسؤولية على كل موظف بمنح الاستقلال الذاتي لكل وظيفة. وتجربة النظم الحديثة في الجديد المنشأ أسهل منها في القديم المجدَّد. وتحويل الوزارة القديمة بمصطلحاتها وطفيلياتها ومحاباتها وفوضاها إلى وزارة جديدة بطريق التنظيم، أدخل في باب المحال من تحويل المدينة العتيقة بمنعرجاتها ومنعطفاتها ومضايقها إلى عمارة حديثة بطريق الترميم.
وملاك الأمر في الإصلاح الدرس والروية والمشورة والعزيمة والنفاذ، على أن يكون كل عمل في وقته، وكل رأي في وجهه، وكل أمر في أهله. ومدار النجاح في العمل العظيم على الرزانة والجد. فإذا قضى الله أن يعاجلك الفشل دون التمام، فخير لك أن تفشل بالصمت لا بالكلام!
أحمد حسن الزيات
الشيوخ والسياسة
للأستاذ عباس محمود العقاد
الشيخوخة زيادة ونقصان
زيادة في الخبرة والحنكة، ونقصان في الطاقة والهمة، والأمم السعيدة هي الأمم التي تحسن الانتفاع بجانب الزيادة، وتحسن الحذر من جانب النقصان.
أما الأمم التي تهملهما إهمالاً فهي مسرفة مضيعة، قد تفوتها المنفعة ولا تضمن أن تفوتها الخسارة.
في جزائر الفيجي، على ما يقال، قبيلة تقتل الشيوخ الفانين أو تدفنهم أحياء. . . لأنهم لا ينفعون في حرب ولا صيد ولا عمل. وقد يعرقلون أعمال النافعين
أولئك قوم من الهمج لا يحتاجون إلى الرأي ولا يفترقون إلى عبر الماضي وهي كل ما يعرفه الشيوخ. فإذا بدا لهم أن الشيخوخة ضرر محصن وسن عقيمة فلا عجب: هي كذلك بين أمثال هؤلاء الناس.
وفي اليابان مجلس للشيوخ الكبارين ينتظم فيه الرجل بعد اعتزاله مناصب الحكم ومعارك السياسة ومطامع الحياة، وقلما ينتظم فيه قبل السبعين أو الثمانين. فإذا أشار بالرأي فإنما ينزع فيه عن غرض قويم لا خبيئة وراءه من طمع ولا ضغينة، أو هكذا يعتقدون هناك في فضائل الرأي الذي يصدر من مجلس الكبارين، وما نخالهم على الصواب كل الصواب فيما اعتقدوه، لأن المرء قد يطمع لغيره إذا بطلت مطامعه لنفسه، وقد يكون طمعه لابنه أو زوج بنته أو نصيره أشد تمكناً من هواه وأثقل غشاوة على بصره من الطمع الذي كان يطمعه لنفسه في شبابه.
لكن هؤلاء الكبارين ينفعون
ومتى كان لهم بعض النفع فمن الإسراف تضييعه، ومن الواجب تمييز نفعهم وضرهم قبل رفض النفع والضرر جزافاً على السواء.
أما اعتقادنا نحن في آفات آراء الشيوخ فالمحقق أنها عرضة لآفتين متلازمتين قد تفسدان كل ما لهم من أصالة وصواب: إحداهما التهيب من الأعمال الجسام، والثاني الحرص على العادة المتبعة والاستخفاف بكل شيء لا يضعون أيديهم عليه، ولا يملكون تصريفه مع

خلفائهم في الميدان
وقد خطر لي هذا الخاطر يوم نقل البريد الإنجليزي إلينا أقوال لويد جورج وأحاديثه التي يذكر فيها أنه يتلقى الرسائل كل يوم بتعجيل مؤتمر السلام، وأنه يرى (أن تتولى الولايات المتحدة عقد هذا المؤتمر، وألا يكون أساس البحث فيع عودة الحدود البولونية والتشيكية إلى ما كانت عليه قبل احتلال الألمان، بل ضمان الوسيلة التي يتحقق بها دوام السلام بين شعوب العالم)
عجبت لهذا الرأي يصدر من الرجل الذي ألَّب الدنيا على غليوم الثاني، وهو لم يبلغ مبلغ هتلر من إقلاق الشعوب وإهدار العهود وإزعاج الشرق والغرب بالتهديد وراء التهديد، والإرهاب في ذيل الإرهاب.
عجبت لمثير الأمم كلها إلى الحرب كيف يحجم هذا الإحجام، ويرتاع هذا الارتياع، ويحسب أن الحرب شر من العواقب التي لا تنقطع فيها الحروب ولا تهدأ فيها الفتن لو نجح هتلر فيما ابتغاه وفقدت الشعوب كل سند تستند إليه حيثما جمح به هواه، وعاد إليه ديدنه وهجِّيراه؟
أهذا لويد جورج الذي كان يقسم لا يتركن غليوم حتى يشد بيديه حبل مشنقته في العاصمة الإنجليزية؟
أهذا لويد جورج الذي كان يقسم ليفتشن جيوب الألمان فرداً فرداً عن بقية الدراهم الباقية عليهم من غرامات الهزيمة؟
كلا!
إنما لويد جورج الذي يقول هذا هو كما قال شاعرنا العربي:
فكأني وما أزيَّن منها ... قُعَديٌّ يزِّين التحكيما
لا ينصح بالسلام إلا كما ينصح الرجل بالعفة إذا خمدت فيه نار الغرام. أو هو كما قال خصومه (لويد جورج في السادسة والسبعين)!
أما لويد جورج الذي شن الغارة العالمية على غليوم الثاني فقد كان رجلاً آخر، لأنه كان لويد جورج في نحو الخمسين.
وشتان اللويدان!
وشتان كل إنسان يتعاقب عليه هذان العمران
ولقد كان لهذا الشيخ الكبار أخ له من قبل كان أعظم منه شأناً وأرفع في الخدمة الوطنية رتبة وأخلد سابقة في سجلات وطنه وسجلات العالم بأسره
لأن لويد جورج هزم غليوم
أما أخوه السابق فقد هزم نابليون الكبير
ولأن لويد جورج هزم غليوم في ديوان الوزارة أو على منصة الخطابة
أما أخوه السابق فقد هزم نابليون الكبير بالرأي والسيف، أو هو كان ظافراً في الميدان كما كان ظافراً بعد ذلك في الديوان.
لأن لويد جورج لا ينسى المناورات السياسية والمفاجآت المسرحية.
أما أخوه السابق فقد كان مثلاً في صراحة القول وصراحة العمل، وكان نموذجاً من نماذج الفروسية في غزواته الحربية أو غزواته الوزارية.
ذلك الأخ السابق كما علم القراء الآن هو ولنجتون القائد السفير الوزير
وقد هزم نابليون وهو في الخامسة والأربعين، ثم ساورته مخاوف الهرم فقال بعد أن جاوز الثمانين: (إنه يحمد الله الذي حماه أن يعيش حتى يرى عاقبة الخراب الذي تتجمع حولهم دواعيه)!
ولنجتون في الخامسة والأربعين غير ولنجتون في الثالثة والثمانين.
ولويد جورج في السادسة والسبعين غير لويد جورج في الخمسين.
ولابد للشيخوخة من آفة وهي هي اضمحلال الحياة
وهذه هي آفة الشيخوخة لا مراء
على أنها ليست آفة الشيخوخة وحدها فيما يرجع إلى صاحبنا لويد جورج
لأن الرجل كان في الخامسة والسبعين قبل عام واحد وليس الفرق عظيماً بين شيخ في الخامسة والسبعين وشيخ في السادسة والسبعين.
كان لويد جورج شيخاً كباراً في شهر أكتوبر من السنة الماضية
وكان لا يكف يومئذ عن تحذير رئيس الوزراء من الضعف والهوادة (مخافة أن نخون

الشرف وأن نفقد ثقة العالم. بل شر من ذلك وأدهى أننا نفقد الثقة بأنفسنا. ثم لا يكون سلام
(!بعد هذا كله في خاتمة المطاف).
فالذي يقول هذا في الخامسة والسبعين خليق أن يقول مثله في السادسة والسبعين
عام واحد لا ينقل الإنسان هذه النقلة، ولا ينال من عزيمته هذا المنال
فالشيخوخة على كثرة آفاتها براء مما نجنيه عليها حين نلقي عليها وحدها تبعة الخلاف
في الرأي إلى هذا المدى بين عام وعام.
إنما هناك أمور أخرى تعمل عملها وتسبق الشيخوخة إلى آفاتها
إنما هناك شعور الرجل من قبل فرنسا لم يفارقه منذ كانت سياستها في حرب
الأناضول سبباً من أسباب فشله وزوال عهده.
وإنما هناك شعور الرجل من قبل ألمانيا وما أبقته في قلبه زيارته لزعمائها.
وإنما هناك حب الملام ممن يده في الماء لمن يده كما يقولون في النار
وإنما هناك مفاجآت لويد جورج، ولا غنى للرجل عن مفاجآت
لقد حوسب الرجل بعد خطابه حساباً عسيراً:
حاسبوه على تبشيره بالمحالفة الروسية، وتبشيره من قبلها بالمحالفة الألمانية،
وتبشيره بكل خطة تخالف ما خطته الوزارة القائمة، ثم يكون الفشل من نصيبها ويبدو
العقم على وجهها قبل أن تنحدر إلى عقابيلها.
حاسبوه ولم يظلموه
وحاسبوا الشيخوخة وظلموها في غير ذنبها
وإن يكن للشيخوخة ذنب فمن الشيخوخة شفيع!
عباس محمود العقاد
السراكينوي هم السرويون
للأب أنستاس ماري الكرملي
1 - السراكينوي لا السراكينوس
كتب حضرة الأستاذ الجليل محمد عبد الله العمودي مقالة بعنوان (السارَاكينوس) في
الجزء الـ 327 من (الرسالة)، ونَقَلَ عبارة المسعودي المأثورة عن نقفور الأول، ملك
الروم، وهي: (وأنكر على الروم تسميتهم العرب (ساراقينوس)، تفسير ذلك: عبيد
سارة، طعناً منهم على هاجر وابنها إسماعيل، وقال: تسميتهم عبيد سارة كذب.
والروم إلى هذا الوقت (يعني سنة 345) تسمي العرب (ساراقينوس). . . اهـ
قلنا: إن حضرة الأستاذ خُدع بما طُبع من نص هذا الكتاب، إذ نقل (ساراكينوس) أو
(ساراقينوس) بمعنى العرب. والصواب أن قد وقع خطأ في طبع هذا الاسم وهذا
الصواب هو (ساراكينوي) أو (ساراقينوي)؛ أي بياء في الآخر في مكان السين. وأما إذا
كان اللفظ مختوماً بسين فيدل على الفرد لا على الجمع، كما هو مشهور في تلك
اللغة.
2 - معناها
وأما أن نقفور قال: معناها عبيد سارة، فهو من تأويله الخاص به، ولم يذهب إليه أحد
من العلماء الأقدمين، ولا من المحدثين. وأنتَ عليم أن هذا الملك وُلِدَ في سلوقية
العراقية، في جوار المدائن، وكان فيها يومئذ مدارس عامرة تضارع أشهر مدارس
ربوع اليونان؛ فتبحَّر نقفور فيها كما تبحر في مطالعة التواريخ القديمة. ولو كان معنى
هذه الكلمة كما يقول هذا الملك - (أي ساراكينوي)، أي مملوكات أو مماليك سارة،
لكن لم ينطق أحد من المؤرخين أو المؤلفين بهذا اللفظ، اللهم إلا أن يكون قد نحِتَ
وصُحِّفَ فقيل ما قيل. لكن يبقى أن هذا التأويل خاص بالملك نقفور دون غيره؛ ويدل
على قوة فكره، وتضلعه من اليونانية، وتلاعبه بالألفاظ والتصرف في التخريج وأول
هذا التأويل تزلفاً من الناطقين بالضاد، واستمالتهم إليه، إذ كان في حاجة إليهم يومئذ،
واسترضائهم في ذلك العهد، وليس للمسعودي أدنى خيال في هذه المسألة. فهو إذاً
ناقل لا قائل، والمسعودي مؤرخ أمين وفي، لا يستحق أن يغمز غمزات هو بريء منها.
3 - معالجتنا لهذا الموضوع قبل 35 سنة
وكنا قد عالجنا هذا الموضوع منذ أكثر من 35 سنة، فأدرجنا في المشرق (من مجلات
بيروت) في سنة 1904 في مجلدها السابع ص 340 إلى 343 مقالة عنوانها: (العرب

أو السَّرْحِيُون). ثم عدنا إلى البحث، فنشرنا في مجلتنا لغة العرب 7: 293 إلى 297 مقالاً وسَمْناه (السرحيون أو الشرويون)، وفي 7: 488 و 489 أيضاً. وعدنا إلى البحث رابعة فأصدرنا مقالة في لغة العرب المذكورة في 8: 584 وسمناها (الشرويّون)، وبينا أن (سراكينوي) هم الشرويون أو أهل الشراة، وهم اسم العرب الذين يقطنون الشراة، وهو صقع بالشام بين دمشق ومدينة الرسول، وكان من عمل جُند دمشق.
والآن نقول إن صحيح الاسم هو السراة بالسين المهملة، لا الشراة بالشين المعجمة وأما كيفية تحول السراة إلى (سراكينوي) فظاهر من أن السراة، وهي تشبه سارة بعض الشبه إذا ما كتبت بحروف يونانية أو رومانية، كُسعت بأداة النسب عندهم، فصارت (سراكينوس) بالمفرد، و (سراكينوي) بالجمع. فانتهز هذه الفرصة الملك نقفور وأوَّل اللفظ بالوجه الذي نقله المسعودي.
هذا هو تأويل اللفظ اليوناني، وهذا هو وجه تحوله إلى ما تراه وتسمع به.
4 - ذكر اللفظة غير المسعودي
أما قول الأستاذ العمودي (ص 1939 من الرسالة): (هذه الكلمة قد سجلها التاريخ في مطاويه منذ عهد عريق جداً، فالعرب لا تعرفها مطلقاً، إذ لم تشتهر في تاريخهم، وما وردت في نظمهم ولا نثرهم. فإذا كان المسعودي هو المؤرخ الوحيد الذي ذكرها، فلا شك أنها هبطت عليه عرضاً، واقتنصها اقتناصاً من أحاديث الروم. ومعنى هذا أنها غير مشهورة بين العرب، ولا جارية على ألسنتهم، فهم يجهلونها كل الجهل، جهلهم بأصلها) فجوابنا هو: لا يمكن أن تكون هذه اللفظة معروفة عند العرب بهذه الصيغة المفلوجة المعوجة؛ إنما يقولون: أهل السراة أو السرويون. - وأما أن المسعودي هو المؤرخ الوحيد الذي ذكرها، فنحن لا نوافق عليه حضرة الكاتب الجليل، فقد ذكرها ابن الأثير أيضاً في تاريخه (1: 240 من طبعة الإفرنج) بصورة (ساراقيوس) ونقل عبارة نقفور عينها، فقال:
وكانت الروم تسمي العرب سراقيوس (كذا)، يعني عبيد سارة بسبب هاجر أم) اهـ (إسماعيل. فنهاهم عن ذلك
ومعلوم أن ابن الأثير جاء بعد المسعودي بنحو ثلاثمائة سنة، فلا جرم أنه نقل هذا الخبر عنه. وكنت قد قرأت في كتاب تاريخ قديم سبق المسعودي بنحو مائة وخمسين سنة، وهو لنصراني ذكر (الساراكينوي) فيكون هو أول مؤرخ عربي ذكرهم بهذا الاسم، فأخذ عنه سائر مؤرخي العرب، لكني لا أتذكر اسمه، ولا اسم كتابه.
وعلى كل فليس للمسعودي أدنى خيال في هذه الكلمة، فهو ناقلٌ، ثقةٌ، حجةٌ، ثبتٌ، يعتمد عليه.
5 - لماذا سمي العرب سراكينوي أي سرويين
إن الأمة الواحدة، الوافدة على أمة ثانية، إذا اتصلت بها حديثاً وهي لا تعرفها، سميت المجهولة باسم تذكره لها الأولى، كما أنه إذا جاءك طارئ تجهل اسمه، فإنك تسميه بعد ذلك بالاسم الذي عرفَّك به، لا بالاسم الذي تضعه أنت له. فاليونان والرومان اتصلوا بعرب السراة أو السَرَوات منذ أقدم الأزمنة، فذكروهم بالاسم الذي تسموا هم به، ثم أطلقوه على العرب جميعهم من باب تسمية الكل باسم الجزء، كما أن الإرَميين لا يعرفون العرب إلا باسم (طائيين) لأنهم أول ما عرفوا منهم، كانوا من طَيء لمجاورتهم لهم، واتصالهم بهم، ثم أطلقوا هذا على العرب جميعهم وإن لم يكونوا من طَيء. ومثل هذه التسمية كثيرة الوقوع في التاريخ.
6 - موافقة الساراكينوي للسرويين في جميع ما نقل عنهم
إذا حفظتَ في صدرك ما بسطناه لك، انجلتْ لك عرائس الحقائق بوجوهها الصبيحة.
فقد نقل الأستاذ الفاضل من المعلمة الإيطالية: (إن هذه الكلمة أصبحت اليوم علماً خاصاً يطلق على العرب، فإن مفهومها قديماً كان على عكس ذلك؛ فقد كانت تدور في دائرة ضيقة من التعريف لا تطلق على الشعب العربي كله إنما كانت خاصة بقبيل معين يسكن على شواطئ خليج العقبة في الجزء الجنوبي لجزيرة سيناء يعرفه الإغريق بـ (ساراكيين) اهـ. فهذا داخل في أن هذا الجزء من سيناء هو من ملحقات السراة لا غير
وقول الأستاذ العمودي: (وأقدم ذكر جاء لهذه الكلمة في كتاب المؤرخ منتصف القرن الأول من ميلاد المسيح عندما وصف صمغ (المقل)، فقال: إنه ينبت من (شجرة

ساركينية) اهـ. قول يحتاج إلى تصحيح فيقال: (وأقدم ذكر جاء لهذه الكلمة (هو) في كتاب الطبيب الشجار الإغريقي ذياسقوريذس العيْن زربى، من أبناء المائة الأولى للمسيح حينما وصف صمغ (المقل)، فقال: (صمغ شجرة تكون ببلاد العرب) (عن ابن البيطار في مادة (مقل) 2: 162 من طبعة مصر) وأحسن من هذه العبارة هذه الترجمة: (هو صمغ شجرة تكون في السراة أو في السروات)

وقال الأستاذ العمودي نقلاً عن معلمة الإسلام وإن لم يصرح به: (وذكر المؤرخ الروماني بلينوس الأكبر في كتابه (التاريخ الطبيعي)، وقد كان معاصراً للإغريقي السابق الذكر، هؤلاء (السراكين)، فقال: (إنهم من جملة القبائل العربية الثاوية في صميم الصحراء، والتي تتاخم بلادهم بلاد الأنباط) اهـ.

قلنا: ولو قيل: (إن السرويين أو أهل السراة هم من جملة القبائل العربية. . .)، لكان الكلام عين الصواب. لأن صفة البلاد التي وصفها بلينوس هي صفة ديار السرويين تماماً.

ومن مقال الأستاذ العمودي، وهو مقتبس أيضاً من المعلمة الإسلامية: (وجاء على أثر هؤلاء المؤرخ بطليموس، في منتصف القرن الثاني للميلاد، فذكر بلاد (السراكين) (إنها تقع في بلاد العرب الحجرية وعيَّن مكانها بقوله إنها تقع في غرب الجبال السوداء (لعل الصواب السُود) التي تمتد - بناً على قوله - من خليج فاران إلى أرض اليهودية. . .)

قلنا: (وهذا يثبت ما ذهب إليه وُصاف البلدان من السلف أي أن السَرَوات تمتد من أقصى اليمن إلى الشام).

وأما قول الأستاذ العمودي: (ولم يكتف المؤلف بكلامه هذا، بل عاد ونقض قوله، فقال في وضع آخر من مؤلفه: (إن (السراكين) شعب يقيم في داخلية بلاد العرب (كذا). ولعل الصواب يقصد بذلك بلاد اليمن وزاد على ذلك فقال: إن الهضاب المرتفعة، وبالقرب منهم نحو الشمال والجنوب يوجد (السراكينوس) و (الثموديون) اهـ.

ثم قال الأستاذ العمودي: وهذه الفقرة الأخيرة من بطليموس بعيدة عن أفهامنا كل البعد إذ لا يصدق مطلقاً أن توجد قرابة في المسكن بين (السراكينوس) و (العاديين) - مثلاً. فأولئك

كما علمنا - مساكنهم حوالي جزيرة سيناء، وهؤلاء مثاويهم في جبال حضرموت، والمسافة بين البلدين طويلة لا تقاس) اهـ.

قلنا: إن حفظنا في ذاكرتنا السروات وأنها تمتد من أقصى اليمن، وفيها حضرموت، إلى الشام، فهمنا كلام بطليموس كل الفهم، وبلا أدنى صعوبة، من أوله إلى آخره، وأن ليس ثم أدنى مناقضة. فبعض المؤرخين من اليونان والرومان تكلموا على قسم من ديار السرويين، وآخرون على القسم الاوسط، وكثيرون على أقصى تلك الربوع، حسب احتياج الكاتب إلى ذكر قسم دون قسم آخر من السراة.

(للبحث بقية - بغداد)

الأب أنستاس ماري الكرملي

بين الإسلامية والعربية

صفحة موجزة من التاريخ

للأستاذ علي الطنطاوي

لما أراد الله أن يتم على العالمين نعمته، ويختم فيهم رسالته، وينزل عليهم (الكتاب) الذي ما فرط فيه من شيء، الجامع لكل ما يسعدهم في أولاهم وأخراهم، الخالد الذي تعهد عز وجل بحفظه وكفل حمايته، اختار الله لرسالته محمداً رجلاً من العرب لا من الروم ولا من الفرس، فأنزل عليه وحيه، واختصه بفضله وهو أعلم حيث يضع رسالته، وبعثه في (مكة) أم القرى، لم يبعثه في (روما) أم المدائن، ولا في (قصبة فارس) ذات الإيوان، وأمره أن يبدأ بقومه من قريش فيدعوهم، وبعشيرته الأقربين من هاشم فينذرهم، وأنزل عليه القرآن كتاباً عربياً لم ينزل بلغة روم ولا يونان، منة امتنها الله على العرب، ونعمة أفردهم بها. . . وكان العرب - على كريم خلالهم، وجميل سجاياهم، وأنهم لم تفسدهم الحضارة التي أفسدت غيرهم من الأمم - في جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء، وتنازع واختلاف، ذوي عصبية جاهلية يقاتل الرجل منهم أخاه على بكرة، ويزاحمه على قطرة، إن دعوا فإلى جامعة القبيلة ورابطة العشيرة، وإن

نادوا فبيا لَتغلب ويا لَبكر ويا لَعبس ويا لَذبيان، ما نادوا قط: يا لَلعرب! فدعاهم صلى الله عليه وسلم إلى ما يحييهم: إلى طرح أصنامهم وآلهتهم، وعبادة الله إلهاً واحداً لا إله إلا هو، وإقامة الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر، وإيتاء الزكاة التي تصلح حال الأمة، وتؤلف بينها، وتحيي فقيرها بما لا يضر بذله غنيها، وصوم رمضان وحج البيت وشهادة المؤتمر الأكبر في عرفات، واستكمال مكارم الأخلاق، وطرح عصبية الجاهلية، واستبدال الخلاف والتنازع بأخوة في الله، ووحدة في الإسلام، فأجاب منهم من كتب الله له الحسنى، وأبى من سبق عليه الشقاء، فصار الناس فريقين: مؤمنين وكافرين، وصار القرآن ينزل بـ (يا أيها الذين آمنوا) بعد أن كان ينزل بـ (يا أيها الناس)، ولم يبق إلا نسب الإسلام نسب، وبطلت من دونه الأنساب، فغدا النبي صلى الله عليه وسلم يصلى تالياً شتم عمه الأدنى أبي لهب الهاشمي القرشي (تبت يدا أبي لهب وتب) ويقول عن سلمان الفارسي الأعجمي: سلمان منا أهل البيت. وتطوي بنت أبي سفيان رضي الله عنها الوسادة عن أبيها وتقول إنما أنت رجس، وقد كان (رحمه الله) يومئذ

على دين قومه، ويستأمر رسولَ الله في قتل شيخ المنافقين ولدُه الذي انحدر من صلبه، ويقول أبي بكر رضي الله عنه لابنه (وكان مع قريش): لو تراءيت لي في المعركة لقتلتك. لا تأخذهم في دين الله شفقة ولا رحمة، ولا يعدلون برابطة الدين رابطة ولا رحماً، ويؤيد الله المسلمين بنصره فينصرهم ببدر وهم أذلة، فيقتلون المشركين ولم يقتلوهم ولكن الله قتلهم، ويثبتهم في أحد ويرسل على الأحزاب ريحاً وجنوداً لم يروها، وينزل أعداءهم من اليهود من صياصيهم. ولبثوا على ذلك حتى أراد الله إكمال الدين وإتمام النعمة، فجاء نصر الله والفتح، ودخل الناس في دين الله أفواجاً وعم السلام الجزيرة وألف بين أهلها (ولو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم) واجتمع المسلمون في حجة الوداع، وقام صلى الله عليه وسلم يخطب مبيناً ومودعاً ومبلغاً، فقال:

أيها الناس اسمعوا قولي، فإني لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً. أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من أئتمنه عليها وإن كل ربا موضوع، ولكن لكم رؤوس أموالكم، لا تَظلمون ولا تُظلمون.

أيها الناس، إن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً، ولكنه إن يُطع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه دينكم.

أيها الناس، إن لكم على نسائكم حقاً، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبيَّنة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهنَّ في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوانٍ لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله، فاعقلوا أيها الناس قولي فإني قد بلغت، وقد تركت فيكم ما أن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً، أمراً بيناً: كتاب الله وسنة نبيه.

أيها الناس، اسمعوا قولي واعقلوه، تعلمنَّ أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم، اللهم هل بلغت؟

قالوا: نعم. قال: اللهم اشهد.

وانتقل صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى، وخرج المسلمون لينشروا دين الله، وينقذوا

العالم، فكانوا يعرضون على من يلقون خصالاً: أولاها أن يدخل في الإسلام فيكون واحداً منهم له ما لهم وعليه ما عليهم، لا يفرق بين المسلمين اختلاف لون ولا تباين لسان، ولا يفضلون عربياً على عجمي إلا بالتقوى؛ فإن أبى رحمة الله وكره دين الحق، عرضوا عليه الثانية وهي أن يدفع الجزية فيكون له ذمة الله وذمة رسوله وذمم المسلمين، ويكون في حرزهم وكنفهم، حقه محفوظ له، وحريته مضمونة ومعابده قائمة، وإن تعدى عليه مسلم انتصف له منه، ثم إن الجزية شيء لا يكاد يذكر، دراهم

قليلة هي دون ما على المسلم من زكاة أو عشر أو غير ذلك، ثم إنها يعفى منها الصبي والشيخ العجوز، والراهب المتعبد، فإن أبوها فقد آذنوا بالحرب. وكذلك فتحوا البلدان، فلم تكن إلا سنوات حتى تغلغل الإسلام في أقاصيها. ولم يمض القرن حتى غدت بلاد العجم كلها مسلمة الدين، عربية اللسان، ونشأ من كل مدينة فيها علماء فحول كانوا أئمة الدين وكانوا أعلام الأدب وكانوا مصابيح الهدى، وحسبك بالبخاري والرازي والطبري والمروزي والتبريزي والجرجاني والأصفهاني والقزويني والفيروز آبادي ممن نشأ في بخارى والري وخراستان ومرو وتبريز وجرجان وأصفهان وقزوين وفيروز آباد. ممن كان من أصل عربي أو كان من أرومة فارسية كأبي حنيفة وسيبويه والحسن وابن سيرين والزمخشري، من العلماء أو من الأدباء كابن المقفع وبشار وأبي نواس وابن الرومي، ولم يكن فيهم من يرضى أن تقول له أنت أعجمي يخدم العربية، بل هم لا يرون أنفسهم إلا عرباً، ولا يجدون شتماً أبلغ من أن تقول لواحدهم (أنت شعوبي) قال الزمخشري أستاذ الدنيا جار الله في مقدمة مفصله: (الحمد لله على أن جعلني من علماء العربية، وجبلني على الغضب للعرب والعصبية، وأبى لي أن أنفرد عن صميم أنصارهم وأمتاز، وأنضوي إلى لفيف الشعوبية وأنحاز، وعصمني من مذهبهم الذي لم يجد عليهم إلا الرشق بألسنة اللاعنين والمشق بأسنة الطاعنين).

وسبب ذلك أن الإسلام امتاز من سائر الأديان، بأنه دين وقومية جامعة، وأنه سياسة وإنه تشريع (ولما كان الإسلام ديناً وجنسية، وقد رفع الحدود بين الأمم اللاتي تدين به، وكره أن يدعى فيها بدعوة الجاهلية، وجعل أصحابها جميعاً إخواناً يؤلف مجموعهم كتلة واحدة لا فضل فيها لعربي على عجمي إلا بالتقوى، ولما لم يكن بد للمجموعات البشرية من رابطة تتعصب لها وتعتصم بعروتها، فإنه وهو دين التوحيد ودعوته للاتحاد . . كان لابد للمسلمين من وحدة عامة، وعصبية عامة، ولسان عام، وقد نبت الإسلام عربياً، وبعث على لسان رسوله العربي، ونزل قرآنه بلسان عربي مبين، فصح لهذا أن يمتزج الفرع بأصله، ولن يتحد الإسلام بالعربية، وأن يكون لسان شعوبها قاطبة، وقد نجحت هذه النظرية أتم نجاح، وأخلص المؤمنون العمل بها، فعمت العربية ذلك المنبسط الآسيوي والأفريقي إلى حدود جبال البرنة في أوربا، وذلك ما يعجب به علماء الاجتماع الآن).

فكان انتشار لسان العرب في هذه الأمم كلها واستعرابها قاطبة من عمل الإسلام الذي جعل العربية لسان العبادة بين العبد وربه. وأوجب على كل مسلم تعلم شيء منها يقيم به صلاته، وجعل فهم القرآن وهو غاية كل مسلم معلقاً على درس العربية وفهمها، وجعل حب النبي وقومه من أصول الإسلام، كما أوجب الحج لتكون هذه البقعة العربية القاحلة وهذا الوادي العاري غير ذي الزرع أحب إلى المؤمن من داره وبلده.

على هذا الأساس أنشئت الدولة الإسلامية الضخمة، وقامت تلك الحضارة الجليلة وبني الماضي العظيم، ولا صلاح لآخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

ثانوية (كركوك)

علي الطنطاوي

الفروق السيكلوجية بين الأفراد

للأستاذ عبد العزيز عبد المجيد

(تابع)

كان - معلم البيان - بيئيَّ المذهب فكان يعتقد أن الفروق السيكلوجية بين الأفراد - وبخاصة العقلية والخلقية منها - هي من آثار البيئة. وكان يرى أن التربة تمحو هذه الفروق أو تقلل من أهميتها. وقد بني رأيه هذا على تجاربه في إعداد خطباء الجماهير. وهو يميل إلى أن التمرين قد يعوض على الفرد ما قد حرمته الوراثة. وهو يقول في كتابه (معاهد الخطابة) يأتي:

(على الوالد أن يفكر منذ ولادة طفله في أفضل مهنة يريد إعداده لها. لأنه بتفكيره هذا يكون قد وضع نصب عينيه الغاية التي يريد تنشئته لها، فينمو بذلك نشاطه، وتشحذ جهوده في تقويمه وتسويته من طليعة حياته. وإنه لزعم واهٍ أن يقال: إن قليلاً من الأفراد قد وهبوا الذكاء والقدرة على فهم ما يلقى إليهم، وإن الجمهور من الأفراد يَضيع جهدُه ووقته سدى بسبب قلة الذكاء وبطء الإدراك. فالحقيقة تناقض هذا الزعم.

لأننا نجد السواد الأعظم من الأفراد قابلاً للإدراك سريع التعلم، ولأن سرعة التعلم ميزة من ميزات الإنسان. ونحن البشر خُصِصْنا بالنشاط والفهم الحكيم، لأن عقلنا قد نزل من السماء وقل من الأفراد من يولد غبياً أو غير قابل للتعليم، كما قل من الأفراد من يولد ممسوخ الخلق مشوه الشكل. ويؤيد رأيي هذا أنني أرى بذور الذكاء كامنة في نفوس الكثير من تلاميذي، وقد تموت هذه البذور بمرور الزمن. ومعنى ذلك أن ظهور الذكاء وتفتحه رهن بالعناية والتمرين لا بوجود المقدرة الطبيعية فقط. ولعلك تعترض فتقول إن تفوق فرد على آخر إنما هو لما امتاز به الأول من مقدرة طبيعية. وإنني أسلم ذلك، ولكن هذا التفوق لا يُعترف به إلا إذا كانت المقدرة الطبيعية عملية محسوسة منتجة، كما أنك تسلم معي أن من جَدَّ وجد. فعلى من اقتنع بصواب رأيي هذا أن يسارع بمجرد أن يصبح أباً، فيفكر في مستقبل ابنه، وماذا سيكون، فيعمل (لذلك المستقبل بحرص وعناية ويقظة.

ونحن وإن سلمنا بأن كوينتليان من أنصار مذهب البيئة لا يسعنا إلا أن نثبت له أيضاً أنه يعترف بوجود الفروق السيكلوجية الموروثة بين الأفراد. فهو إذاً يقر بالفروق السيكلوجية الفطرية، وبأن هذه الفروق يمكن إزالتها بالتربية والتمرين.

وفي عصر النهضة أخذت دراسة الفروق السيكلوجية بين الأفراد اتجاهاً جدياً في المدارس الايطالية، وعنى المعلمون بها في توجيه تلاميذهم إلى نوع العمل والدراسات التي تصلح لهم.

ويعتبر فيتورينو عاش في القرن الخامس عشر أول مدرس بيداجوجي بحق. كان ناظراً لمدرسته ومدرساً بها. وقد اهتم بمعرفة الفروق السيكلوجية بين تلاميذه واكتناه أسبابها، وكيفية استغلالها في تكوين شخصيتهم. درس ولاحظ ميول تلاميذه الطبيعية المختلفة، ومظاهر هذه الميول، وقدراتهم الفطرية. وكان يضع لكل تلميذ منهم طريقة للتدريس خاصة تتفق وقواه العقلية وذوقه. وهو يقول في هذا الصدد (ليس كل فرد صالحاً لأن يكون قانونياً أو طبيباً أو فيلسوفاً محترماً باقي الذكرى بين الجمهور، وليس كل فرد موهوباً نعمة الذكاء الطبيعي).

ونحن نجد مما سقنا عن فيتورينو أنه لم يكتف بمعرفة الناحية النظرية من الفروق السيكلوجية بين الأفراد بل طبَّق هذه المعرفة في مدرسته، بل لقد بالغ وأسرف في تطبيق نظرية الفروق السيكلوجية ونتائجها. فكان لا يتردد في أن يطرد من مدرسته أي تلميذ يرى أنه سيئ الخلق. كما كان في كثير من الأحيان يفصل البلداء، أو من تخلف ذكاؤهم بعد سبق.

وفي القرن الثامن عشر سادت أوربا حركتان عقليتان في فلسفة التربية: الحركة التعقلية التي تعزز من شأن العقل وحده وتدعو إلى الثقة بما يوحي به، والحركة الطبيعية وهي التي تجعل للميول والعواطف المحل الأول في شؤون التربية والاجتماع، والتي تدعو إلى أخذ الطفل بما يوافق طبائعه ويلائم ميوله ورغباته. وتدعو هذه الحركة إلى إعطاء الطفل أكبر نصيب مستطاع من الحرية لتنمية غرائزه الصالحة وقواه المنتجة النافعة. وزعيم هذه الحركة هو جان جاك روسو. وقد كانت رسالته في التربية (إميل) ثورة على نظريات التربية القديمة التي كانت تحول بين الطفل وبين نمو غرائزه، وتحدد من نشاطه العقلي وتقيده بآراء دينية واجتماعية تقليدية.

جاء روسو منادياً بتقوية الفردية وبتشجيع الغرائز على إظهار آثارها، وإزالة العوائق التي تقطع عليها طريق الحرية الكاملة. وهاك اقتباساً من كتابه (إميل) يحث فيه على تنمية المواهب الفردية وتقويتها:

لكل طفل استعداد عقلي خاص. ووفقاً لهذا الاستعداد يجب أن يوجه الطفل. وإذا) أردنا نجاحاً في تربية الطفل وجب علينا أن نسير مع ميوله الطبيعية. كن حازماً وراقب طبيعة طفلك طويلاً، ولاحظه بحرص وحيطة من قبل أن توحي إليه بكلمة أو إرشاد. دع أولاً بذور طبيعته تترعرع، وأحذر أن تتدخل في نموها إلا قليلاً حتى ترى عم تتفتح

وإذاً فروسو وراثي المذهب، لأنه يرى أن الفروق السيكلوجية - وهي التي (براعمها تكون الفردية - طبيعية وموروثة، وأن مهمة المربي هي أن يرعى ما في الفرد - أي الطفل - من قوى، ويراقبها، وهو يحث المربين والكبار على (أن يحترموا الأطفال، وألا

يتعجلوا في الحكم على أفعالهم بالخير أو الشر. وإذا كان من بين الأفراد بعض الشواذ، فالأولى أن يتركوهم مدة من الزمن حتى تظهر نواحي شذوذهم، ثم يعالجوهم بما يصلح لها. دع الطبيعة - يعني طبيعة الطفل - تعمل وئيداً، واترك لها الزمن الكافي قبل أن تستعيض عنها غيرها، خشية أن تعطل وظيفتها النافعة).

وفي أثناء المراحل الأولى من نمو الطفل سيعرف الطفل نفسه بنفسه. ويرى روسو أنه (لا ضير أن يترك الطفل وشأنه يفعل ما يشاء، لأنه قد عرف قوة نفسه، ومن المستحيل أن يعمل شيئاً لا يقدر على عمله، ولأنه لا يمكن أن يعدو حدود قدرته الطبيعية، وهو يعرف تماماً ما هي).

ومعنى هذا أن روسو يترك للطفل كامل حريته حتى تنمو فيه الصفات المكونة لفرديته، والتي تميزه عن غيره. فالفروق السيكلوجية إذاً نتيجة للنمو الحر للخواص الطبيعية الموروثة عند الأفراد.

ولكن رجال التربية الحديثة لا يشاركون روسو في هذا النوع من التربية المطلقة، لأنهم لا يثقون بتعليم الطبيعة وقيادتها وحدها، ولأنهم يخشون إن تركت الغرائز الفردية والميول الطبيعية حرة، أن تسلك الطريق المعوج كما تسلك الصراط المستقيم. وهم يعللون ذلك المذهب البيداجوجي الذي اعتنقه روسو ونادى به بأنه رد فعل للروح الاجتماعية والتربوية التي كانت سائدة في عصره والتي قيدت النمو السيكلوجي الطبيعي للطفل.

وكل ما يهمنا من مذهب روسو في هذا البحث هو أن نُسجِّل أنه فطن كغيره من الفلاسفة والمربين الذين ذكرناهم في هذا المقال وسابقه، فطن إلى الفروق السيكلوجية عند الأطفال والى ضرورة تنمية الفردية وتربيتها عند الأطفال.

هذا وقد أصبحت الفروق السيكلوجية بين الأفراد من الحقائق المسلم بها بين المربين وعلماء النفس المعاصرين، وهم يوصون بأن تكون مناهج الدراسة وطرقها مختلفة باختلاف الأفراد، ولكن إقرار الحقائق شيء والقيام بتنفيذ مستدعياتها شيء آخر. ولا زالت هناك صعوبات مادية وعملية في سبيل تحقيق مستدعيات الفروق السيكلوجية بين الأطفال. ففصول الشواذ والمتخلفين وطرق التربية الفردية من الأشياء التي يشعر المربون بضرورتها وإن لم يستطيعوا تحقيقها بعد في كل معهد دراسي.

(بخت الرضا. السودان)

عبد العزيز عبد المجيد

الثقافة العسكرية وأناشيد الجيش

للأستاذ عبد اللطيف النشار

نشيد الأحزاب

من وضع السيد الرسول صلى الله عليه وسلم

الله أكبر! الله أكبر! الله أكبر

الله أكبر كبيرا، والحمد لله كثيرا

وسبحان الله بكرة وأصيلا

الحمد لله وحده ... صدق وعده

ونصر عبده ... وأعز جنده

وهزم الأحزاب وحده

الله أكبر. الله أكبر. ولله الحمد

من من المسلمين لا يحفظ هذا النشيد؟

كلنا نحفظه، ولكن أكثرنا يرتلونه قعوداً بعد صلاة عيد الأضحى. ولا يزال في الريف من يرتلونه في موكب عند عودتهم من المسجد إلى القرية. أما النبي صلى الله عليه وسلم فقد كان يرتله في وسط كوكبة من الجند، ووراء الكوكبة جيش جرار على صدر كل منهم درعه، وعلى رأسه اللأمة، وفي يده السيف المسلول.

كانوا رضوان الله عليهم أجمعين يمشون مشية المحارب ويرتلون هذا النشيد الرصين الهادئ القوي على نغمات المسير. فهو إن أردنا تسميته بالمصطلح العصري (مارش الإسلام) هو النشيد الذي أعد لمسير الجيوش التي فتحت فارس ومصر بعد عقدين من الهجرة النبوية الشريفة.

الحمد لله وحده ... صدق وعده

ونصر عبده ... وأعز جنده
وهزم الأحزاب وحده
هذا الكلام البليغ ليس بالشعر، ولكنه قابل للتلحين. وقد حفظنا لحنه وأنشدناه ولا نزال ننشده في كل عام. وكل الفارق بيننا وبين قائليه الأولين أنهم كانوا يرددونه وفي أيديهم السيوف ونحن نرتله وفي أيدينا المسابح، وأنهم كانوا يرددونه وهم يمشون إلى القتال ونحن نقوله ونحن سائرون إلى الديار لشرب مرق الأضاحي التي أمرنا بذبحها للفقراء فذبحناها لنأكلها نحن هنيئاً مريئاً، وأنهم كانوا يرتلونه وتنبض قلوبهم بشعور حي لأنهم يفهمون لكلمة (وهزم الأحزاب وحده) معنى غير الذي نفهمه نحن. . . هم يفهمون أن الأحزاب هم فلان وفلان الذين رأوهم في يوم كذا من شهر كذا يذبحون فلاناً وفلاناً من أقاربهم وقد هزمهم الله بأن مات منهم فلان وفلان وأسر منهم فلان وفلان وأسلم منهم فلان وفلان.
كلمة بليغة نقولها نحن، ونغمة شجية نطرب لها نحن، ولكنها (وهزم الأحزاب وحده) غير مشفوعة في خيالنا بالصورة الواضحة التي يترسمها القائل المجاهد، وغير مشفوعة في مشاعرنا بذكريات الأرحام الممزقة، والمودات التي استحالت إلى عداوة، والعداوات التي استحالت إلى أخوة.
ألفاظ نقولها ونغمة نعيها ونفهم معاني كل كلمة فيها ونعي النغمة أيضاً، ولكننا بعد ذلك لا نفهمها الفهم الكامل لأنها لا تستثير في نفوسنا ذكريات حية واشجة بحياتنا الشخصية ولا تعرض على خيالنا صوراً رأينا مثلها بالحس:
صدق وعده ... ونصر جنده
وهزم الأحزاب ... وحده
نفهم كل حرف من هذا ولكننا لم نر النبي كما رأوه وهو يرتعد ويقول: اللهم وعدك الذي وعدتني. ولم نسمع أبا بكر يجيبه كما سمعوه حين أجابه وهو يقول: إن الله منجزك ما وعدك. فالألفاظ واحدة ولكنها أدت لدى الكثرة منا معاني فحسب، وأدت لدى من قالوها لأول مرة معاني وصوراً وانفعالات. بل لو شئنا لقلنا إنها أطلقت من غددهم إفرازات اختلطت بدمائهم فكونت في عروقهم لوناً آخر من ذلك السائل الكيميائي غير الذي يجري في عروقنا نحن.
هذا النشيد إذن بتأثيره في سامعيه نشيد غير الذي ننشده نحن وإن لم تختلف ألفاظه، وما قيمة الألفاظ التي لا تنقل نفس الأثر؟
ولكن أحقاً أنها لا تنقل نفس الأثر؟
أحسب القول ذا إجابات تتراوح بين الإقرار وبين الإنكار، فإن الخيال والدرس والإيمان كل ذلك خلال تستبقي الأثر لكل لفظ قيل إذا تشابهت ظروف القول. وهذا النشيد ككل قول آخر ينطبق عليه قول أبي الطيب:
ولكن تدرك الأفهام منه ... على قدر القرائح والعقول
ولقد كان الذين دفعهم إيمانهم إلى دراسة السيرة النبوية دراسة تربط الفهم بالوجدان - كان هؤلاء يتأثرون بهذا النشيد حين يسمعونه كما تأثر به أوائل من سمعوه إذا اتفقت لهم مثل الظروف التي قيل فيها. فطارق بن زياد في فتح الأندلس قال في وسط الجند:
الحمد لله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده.
قال لهم ذلك والسيوف في أيديهم ينقل إليهم مثل الإحساس الذي عالجه المهاجرون والأنصار وهم على أبواب المدينة في العام الثاني للهجرة والنبي واقف يقول إن المشركين قد اقتربوا من المدينة يريدون غزو المسلمين، وإنه يريد أن يخاطر بعض المسلمين بحياتهم فيذهبوا إلى حيث معسكر الكفار ليعرفوا مواقعهم ويبرزوا قوتهم ثم يأتوه بالأخبار.
سأل النبي أيهم يقدم على هذه المخاطرة، فتقدم منه الزبير يعلن استعداده لها. ولكن النبي أعاد السؤال فكان الزبير هو الذي أجاب، وأعاد النبي السؤال للمرة الثالثة فكان الزبير هو الذي أجاب. فقال عليه الصلاة والسلام إن لكل نبي حواريين وإن حواريَّه هو الزبير.
أجميلة هذه الصورة؟
جميلة بلا ريب. لكن أجمل منها ذلك الشعور النبيل الذي جاش بنفس النبي وجاش

بنفس كل جندي من جنوده، هو الشعور بأن الأحزاب إن هزمت فإن الذي سيهزمها هو الله وحده، ومن الذي يستطيع أن يهزم الأحزاب غير الله؟
إن أحداً لم يعد النبي بالنصر غير الله. فالله سيهزم الأحزاب لأنه سبحانه وعد بذلك. والأحزاب عدد كبير، ولكن الله أكبر.
كذلك تدفقت من فم النبي هذه الأنشودة التي ظل يرتلها في كل غزوة والمسلمون يرتلونها معه:
الله أكبر. الله أكبر. الله أكبر
الله أكبر كبيرا ... والحمد لله كثيرا
وسبحان الله بكرة وأصيلا
الحمد لله وحده ... صدق وعده
ونصر عبده ... وأعز جنده
وهزم الأحزاب وحده
الله أكبر. الله أكبر. الله أكبر. ولله الحمد
وبعد فهذا أول (مارش) في الاسلام، ولم يكن بالشعر ولكن صاحب الرسالة التي تحدت الشعر بالفواصل الكريمة: فواصل القرآن قد تحدت الأناشيد العسكرية بهذا النثر الموسيقي الذي فتحت به فارس وفتحت به مصر وفتحت به الشام وفتحت به أفريقيا وفتحت به الهند وفتحت به الأندلس وفتحت به بلاد البلقان وفتحت به بلاد النمسا الجنوبية وبولونيا. ثم ماذا؟ كان يفتح به سائر العالم لو فهم المسلمون فهماً مشفوعاً بالشعور العميق معنى الحمد لله (وحده)، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده!
ولكن هل في هذا النشيد الهادئ القوي الرصين ما في أناشيدنا من الألفاظ الجوفاء كالنار والفداء والدماء؟
لا. لأن الجيش المحارب لا يستطيع الانتصار إلا إذا شعر بأنه من أجل الحياة يدافع، ومن أجل الرفاهية يهاجم، وأنه في سبيل الخير يتحرك، وأن الغرائز التي تستحثه هي الغرائز السامية لا شهوة الدم والنار.
عبد اللطيف النشار
في الأدب الإنجليزي الحديث
د. هـ. لورنس
للأستاذ عبد الحميد حمدي
الرجل كابن ومحب
قابل بول فتاة أحلامه، وشعر بقلبه يخفق نحوها، وحاول أن يتصل بها فما أمكنه ذلك، لأنه كان عشيق أمه وخلها الوفي، وفي الوقت نفسه كانت الفتاة التي قابلها وليدة العصر الحديث وثمرته، ترى في الجنس عدوها اللدود، وترى في الرغبة الجنسية الشر الذي لابد منه. وكثيراً ما صرحت لبول برأيها في العلاقة الجنسية، ومن ذلك قولها له: (إن الزواج لا بأس به، ما خلا هذه العلاقة فلولاها لكان نعيماً ليس بعده نعيم، ولكن ما قدر يكون وليس علينا إلا الإذعان).
وبدل أن يكون الحب مصدر سعادة البنت وينبوع هنائها، صار سبب آلامها وأساس عذابها، فصارت تقضي جل وقتها واجمة مطرقة، تفكر وتمعن في التفكير، وكلما فعلت ذلك تضاعفت آلامها وزادت.
أحب بول ميريام وهام بها لكنه كان يريد أن يحبها حب الرجل للمرأة، ولكنها ما كانت لتستطيع التفكير في العلاقة الجسمية، وحتى القبلات الحارة كانت تؤلمها أيما إيلام. كان بول يفهم ذلك من حبيبته فما حاول أن يؤلمها أو يعذبها، وفضل أن يكبت غريزته على أن يجرح فيها تلك النقطة الحساسة. أما هي فشعرت برغبته الملحة إلى جسمها حتى دون أن يبديها بكلمة. أدركت الفتاة ذلك فأعطته ما يريد، أعطته إياه وهي تشعر بثقل التضحية التي تقدمها له، وهبت له جسمها، لا كما تهب المرأة جسمها للرجل ولكن كما توهب الضحية للآلهة. لم تكن تريد هذه العلاقة الجنسية، ولكنها كانت تريده هو، ولا سبيل إلى الاحتفاظ به إلا إذا أعطته ما يريد. وهذا ما دعاها للخضوع لمشيئته والاستسلام لرغبته. وإن ينس بول فلا ينس ذلك اليوم الذي أسلمت فيه له نفسها. لقد راعه في بادئ الأمر جمالها، فرأى فيها مثال الجسم الناضج الصحيح، فشعر بالدم

يتدفق حاراً في عروقه، وأحس بجسمه يحن إلى الاتصال بها، فتقدم منها خطوة واحدة ثم وقف في مكانه لا يستطيع حراكاً. لقد رآها
وقد رفعت يديها نحوه في حركة كلها توسل واستعطاف كأنما ترجوه أن يعفو عنها ويتركها دون أن يمسها بأذى أو مكروه. تطلع إلى وجهها فرأى عينيها الواسعتين ترقبانه في استسلام وخضوع وترجوانه أن يعفيها من هذه المهمة العسيرة. كانت كالذبيحة التي رقدت مستسلمة حتى يحين وقت تقديمها قرباناً للآلهة. . . فكان كل ذلك سبباً في برود كل عاطفة كان يشعر بها نحوها. . .).
وفضلاً عن ذلك كانت ميريام ابنة القرن العشرين، تؤمن بتلك النظرية المستحدثة التي تسوي بين الرجل والمرأة، والتي تقول بوجوب مزاولة المرأة لكافة أعمال الرجال، فبدلاً من أن تركز كان تفكيرها في حياتها المنزلية كانت تحن دائماً إلى ممارسة أي عمل من أعمال الرجال، وكثيراً ما كانت تقول: (أريد لو أتيحت لي الفرصة مزاولة عمل من الأعمال كما أتيحت لكثيرات قبلي. وهل كان ذنبي أنني خلقت امرأة، إن هذا أبعد ما يكون عن العدل).
ورغم أنها كانت تكره الجنس الآخر إلا أنها كثيراً ما كانت تتمنى لو خلقت رجلاً، وكان مقياس احترامها لأي شخص هو مقدار ما حصله من التعليم والدراسة.
وفي الوقت نفسه كان يشعر بول في قرارة نفسه أن حبه لأمه لا يترك له فرصة كي يحب امرأة أخرى غيرها، وكان يعرف أنه مهما أحب ومهما أخلص فحبه لأمه أقوى وأثبت. ومع ذلك كان يتمنى لو صادف المرأة التي تستطيع أن تحبه حباً جسيماً، حباً يستطيع أن يكسر تلك الأغلال التي تقيده بأمه وتربطه بها ولكن ما كانت ميريام أبعد ما تكون عن هذه المرأة، وكان هو يعرف عنها ذلك، فكان يحبها ويشفق عليها، ثم يعود يبغضها ويمقتها.
وأخيراً لم ير بداً من أن يطلب منها فصم تلك الصلة التي بينهما، فكانت الضربة القاضية التي هدمت حياتها.
ترك بول ميريام واتصل بكلارا، وعلى العكس من حبه لميريام، كان حبه لكلارا حباً حيوانياً لا غير، ففي أول مقابلاته لها نراه يسترق النظر إلى صدرها من تحت ثيابها منتهزاً فرصة انحنائها لاقتطاف زهرة، ثم نراه وقد انتقل ببصره إلى رقبتها وبقية جسمها، ورغم ذلك فقد باء حبه في هذه المرة بالفشل أيضاً نتيجة حبه لأمه، فعجز عن أن يهبها جسمه كله، فأعطاها جزءاً ومنع عنها الجزء الاكبر، وكانت كلارا امرأة ذات تجارب فلم
يفتها ذلك ولم تتردد أن قالت له في يوم من الأيام بعد أن اتصل بها مباشرة: (إني أشعر وكأني لم أتصل بك ألبتة، أشعر كأنك بعيد عني كل البعد).
وفي آخر الرواية ترى الأم مقدار الضرر الذي تلحقه بأبنائها نتيجة استئثارها بحبهم، وترى كذلك أنها مهما خدمتهم ومهما تفانت في هذه الخدمة فلن تستطيع أن تجعله يعدل عن حب امرأة أخرى. فيتحطم قلبها ويذبل جسمها وتسير في طريقها نحو القبر بخطوات واسعة.
ويرمز لورنس بموت الأم إلى مآل المرأة التي تسير في الطريق غير الطبيعي، ذلك الطريق الذي لم تخلق له.
ويرى في ميريام وكلارا نساء القرن العشرين، فكل منهما امرأة لا تصلح لشيء سوى حضور المراقص وإقامة الحفلات واستغلال أصحاب الأموال واستعبادهم. ونرى شخصيتيهما تتكرر في رواياته الأخرى تحت أسماء أخرى.
فنجد أميلي في (الطاووس الأبيض) وهيلدا في (ظل الربيع) وهيلينا في (المعتدي).
ويرى في بول الرجل الذي يفيض قلبه بالعاطفة التي أشعلتها فيه أمه، وهؤلاء يظلون عذارى داخل أقفاص من حديد، يتمنون حب امرأة ليجرف أمامه حبهم لأمهاتهم، وعبثاً ما يتمنون.
وتتكرر هذه الشخصية كثيراً في روايات لورنس المختلفة، فهو شربنزكي في (قوس قزح) وألفريد دبرانت في (بنات القسيس) وجورج في (الطاووس الأبيض) وبرتي ريد في (العميان).
أما مورل الأب فهو مثال لورنس الأعلى ورجله الكامل، خلع عليه كل صفات الرجولة ومميزاتها، ونجد له أشباهاً في الروايات الأخرى، فهو أنابل في (الطاووس الأبيض)

وهو ميلورز في (عشيق لادي تشاترلي).
(يتبع)
عبد الحميد حمدي
خريج جامعة اكسترا بإنجلترا
الأسمار والأحاديث
للدكتور زكي مبارك
أخي الأستاذ الزيات:
بعد أيام يظهر كتاب (الأسمار والأحاديث)، وهو كتاب صورت به ما يصطرع في الجو الأدبي والاجتماعي من أحلام وأوهام، وحقائق وأباطيل.
وقد كتبت مقدمة ذلك الكتاب وأنا غضبان: فهجمت على أهل العصر بما أعتقد أنهم له أهل، وتوجعت من بعض ما عانيت من الأصدقاء والزملاء.
ومن حقي على مجلة (الرسالة)، وهي صديق، أن تنشر هذه المقدمة على ما فيها من قسوة وعنف، لأنها تصور بلائي بأهل زماني، ولأنها كذلك تؤرخ حياة باحث له بين قراء (الرسالة) أصدقاء لا يؤذيهم أن يفتن بنفسه وبأدبه أشد الفتون.
زكي مبارك
أيها القارئ:
هل تذكر ما يحدِّثك به مِراض القلوب إذ يقولون إني أُثني على نفسي في فواتح مؤلفاتي؟
أنت تذكر ذلك، ولا ريب، لأنهم يُعيدون هذه التهمة في كل وقت بغير حساب.
فهل ترى من حقي أن أدفع هذه التهمة في فاتحة كتابي هذا، لعلهم ينتهون؟!
إن الحاسدين والحاقدين لم يتركوا طريقاً إلا سلكوه لينفِّروك مني، أيها القارئ، ثم عادوا جميعاً خاسئين مدحورين، وتلك عاقبةُ البغي والعدوان.
لقد عابوا عليَّ أن أُفتن أشدَّ الفتون بما وصلتُ إليه من الظفَر بودادك، أيها القارئ، فهل كانوا ينتظرون أن يَغزُوا قلبك بعدْوَى الحِقد والضِّغن فأعيش في دنيايَ بلا صديق؟
إن ودادك، أيها القارئ، هو الذي أرهف قلمي، وصقل بياني، وهو العزاء عما أعاني في دهري وزماني من ظلم وعقوق. وما تذكرتُ حبك، أيها القارئ، إلا غفرتُ ذنوب الدهر وصفحتُ عن مكايد الزمان.
والآن - وقد رُفِع بيني وبينك الحِجاب - أَحِبُّ أن تعرف أني لم أسرق مودتك ولم أنهب ثقتك، وإنما غنِمتُ من مودتك وثقتك ما غنِمتُ بفضل الكفاح الموصول، وبفضل ما أنفقتُ من نور البصر تحت أضواء المصابيح، في زمنٍ تؤخذ فيه بعض المراكز الأدبية بالخداع
والتضليل، وبيع الضمائر والقلوب.
إليك، أيها القارئ، أَنفُض أحزاني وأشجاني. ولو شئت لدللتُك على فيالق من المؤلفين في المشرق والمغرب شكَوْا دهرهم كما شكوتُ، وتوجعوا من زمانهم كما توجعتُ، وعانْوا من غدر الأصدقاء والزملاء بعض الذي أعاني.
فأنا لم أبتكر شكوى الزمان، وإن كنتُ أشقى المكْتوين بغدر الزمان.
أنا ما سرقتُ ثقتك، أيها القارئ، حتى ينفق ناسٌ من أعمارهم ما ينفقون لينفِّروك مني، فأنت تعرف أني قضيت أكثر من عشرين سنة في خدمة اللغة العربية خدمةً صحيحةً صادقةً، يعجز عنها الرجال (الأفاضل) الذين يُحسنون حِياكة الأقاويل والأراجيف، والذين تشهد سرائرهم بأنهم لو كلِّفوا نسخ مؤلفاتي ومقالاتي وقصائدي لانقضت أعمارهم قبل أن ينسخوا تلك الألوف المؤلفة من الصفحات العامرة بالأفكار والمعاني.
المخلصون في زمانك قليل، أيها القارئ، وهم مع ذلك لا يخدمونك إلا في ميدان أو ميدانين، أما أنا فقد خدمتك في كثير من الميادين:
نظرتُ فرأيت اللغة العربية تتشوق إلى من يحدد مقاصد النقد الادبي، فألفت كتاب (الموازنة بين الشعراء) وقد طُبِع مرتين. ورأيت لغة العرب تنتظر من يحقق بعض المؤلفات القديمة فنشرت كتاب (زهر الآداب)، وتداركتُ في الطبعة الثانية ما فاتني تحقيقه في الطبعة الأولى، فجاء صورةً من الأدب المخدوم بجدٍ وعناية، ثم نشرتُ (الرسالة العذراء) مصحوبةً بدراسات وتحقيقات، ثم عاونتُ على إخراج كتاب (الكامل)

في صورة تسرُّ الناظرين. وتلك جهودٌ بذلناها لوجه الأدب، ولم نر من منافعها المادية غير أطياف!

ورأيت القرن الرابع هو الفَيْصَل بين عهدين من عهود الإنشاء، فألفت كتاب (النثر الفني)، الذي يُعدُّ بحق خير كتاب في بابه منذ العصر العباسي إلى اليوم، والذي أرغم الحاسدين والحاقدين على الاعتراف بأن الرجل الذي كوى قلوبهم وكبُدهم لم يكن في حياته من العابثين.

ورأيت المجتمع المصري في حاجة إلى من يدُلُّه على هفواته الذوقية والأدبية والخلقية، فألفتُ كتاب (البدائع) الذي أقبل عليه القراء فطُبع مرتين، وألفتُ رسالة (اللغة والدين والتقاليد) التي أجازتها لجنة المباراة الأدبية برياسة مدير الجامعة المصرية.

وراعني أن يجهل الناس بعض مصادر التشريع الإسلامي، فنشرتُ رسالةً في تحقيق نسب كتاب (الأمّ)، وهي رسالة عدَّها السنيور نالينو من الآيات، وسينتفع بها رجال الأزهر الشريف.

وعز عليَّ أن يقال إن شعراء أوربا قد تفرَّدوا بإجادة القول في الوجدانيات فألفتُ كتاب (مدامع العشاق) ليكون شاهداً على سَبْق العبقرية العربية إلى شرح مآسي الأرواح والقلوب، ومن قبله ألفت كتاب (حب ابن أبي ربيعة) الذي صور ملاعب الأفئدة في أيام الحجيج.

وساءني أن يقال إن راسين هو أعظم من شرَّح عاطفة الحب فألفت كتاب (ليلى المريضة في العراق)، لأقيم الدليل على أن في كتاب اللغة العربية من يتفوق أظهر التفوق على راسين.

ونظرتُ فرأيتُ أن الجمهور شغلته الشواغل عن الدراسات الفلسفية، فألفتُ كتاب (الأخلاق عند الغزالي)، وكتاب (التصوف الإسلامي)، وهما كتابان لن يجود بمثلهما الزمان. ولو قلت إن كتاب (التصوف الإسلامي) هو خير ما كان وما سيكون في التعبير عن العبقرية العربية لكنت أصدق الصادقين.

ورأيتُ الأدب العربي يحتاج إلى من يَعْرِض محاسنَه على العقول الأوربية فألفت كتاب:

ورسالة:

لقد كان لهذين الكتابين صدىً في البيئات الأوربية والأمريكية عند من يهمهم الوقوف على ذخائر اللغة العربية. ورأيت جمهور أهل الأدب يظنون أن إمارة الشعر في السنين الخوالي لم يظفر بها غير أبي تمام والبحتري وابن الرومي والمتنبي، فألفتُ كتاب (عبقرية الشريف الرضي)، وهو كتابٌ رضي عنه قومٌ وسخط عليه أقوام، ولكنه سيبقى من غرر المؤلفات الأدبية ولو كره الحاسدون والحاقدون.

ورأيت الناس في الشرق يكادون يجهلون أسرار الحياة الأوربية فألفت كتاب (ذكريات باريس) وهو كتاب يشرح ما هنالك من صراع بين الرُّشد والغيِّ والهدى والضلال.

ورأيت الأمم العربية في شوق إلى من يحدِّد ما بينها من مختلف الصلات ومَن يعبِّر عما في ضمائرها من آلام وآمال، فألفتُ كتاب (وحي بغداد).

أترك ما شغلت به نفسي من الدراسات الأدبية في العوام الماضية، فالقراء يعرفون من ذلك أكثر مما أعرف، وإن كان يخفى عليهم أن لي مؤلفات جيدة تصدقتُ بها على بعض الأدعياء. وأنتقل إلى الحديث عن كتاب اليوم، وهو كتاب (الأسمار والأحاديث).

فأقول:

هذا الكتاب جديدٌ من جميع نواحيه، ولن يحتاج إلى تزكية أحد من الأصدقاء، فهو حركة فكرية متوثِّبة تواجه القارئ في كل صفحة، بل في كل سطر، بل في كل جملة، إن لم أقل في كل حرف، وهو مجالٌ للتأمل والتفكر والتندر والاعتراض والاحتجاج.

في هذا الكتاب صور غريبة لعقول المصريين، وعقول من عرفت من الفرنسيين، وسيشقى به ناس، ويسعد ناس: لأنه سجِّل طوائف من أوهام العصر الحاضر أدق تسجيل.

أنا أعرف أن موتي يوم يحينُ سيكون فرصةً لقوم كدِّرت صفوَهم حياتي. ولكني مع ذلك راضٍ عما صنعتُ حين تصدقتُ فخلَّدتُ أسماءً لا تستحق الخلود من أمثال السادة: فلان وعلان وترتان! وهل في التصدق على الجاحدين من بأس؟ أولئك قومٌ مَنَّ الله

عليهم بالوجود، وأمكنهم من النعيم بالأنوار والظلمات، وسمح لهم باستنشاق الهواء: فليس من الكثير أن أدعي أنهم يقرءون ويفكرون!!
في هذا الكتاب تنويه بأشخاص يوُّدون لو عميت عيونهم، وصمت آذانهم: فلا يرون وجهي ولا يسمعون أخباري، ولكنهم سيعرفون أني أكرم منهم وأشرف، لأني سجلت أسماءهم في كتاب سيغلّف من جلود أحفادهم وأسباطهم بعد حين.
بقيت كلمة عن أسلوب هذا الكتاب:
وأنا أعتقد بلا زَهوْ ولا كبرياء أني وصلتُ باللغة العربية إلى ما كانت تطمح إليه من (البيان).
أنا أعتقد بلا استطالة ولا تزيُّد أني خلقت عذوبة الأسلوب في اللغة العربية، وقد صار البيان عندي طبيعة أصيلة لا يعتريها تكلف ولا افتعال، وما أذكر أني عرفت التسويد والتبيض فيما ألّفت من الكتب أو نشرت من المقالات بعد زمن التمرين الذي سبق سنة 1916.
وما أعرف بالضبط ما هي خصائص أسلوبي: لأني أصدر فيه عن السجية والطبع، ولكني أعرف بالتأكيد أن الذي يقرأ مؤلفاتي ومقالاتي يشعر بأنه يرى الحياة وجهاً لوجه، ويشهد صراع الأحلام والأوهام، والآراء والأهواء، والحقائق والأباطيل.
تلك صفحات من أعمالي الأدبية، فيها القديم والحديث، فهل تراني تزيدتُ أو أسرفت؟
وأنت مع ذلك تعرف أني وقفت لأعداء العروبة والإسلام بالمرصاد فمزقت أوهام الخوارج على العروبة والإسلام شر ممزق، ودحرتُ من سولتْ لهم أنفسهم أن يتطاولوا على ماضي الأمة العربية، وكنت دليلك في التعرف إلى مآثر العرب في المشرقين والمغربين، وعاديت من أجل الحق رجالاً يضرون وينفعون، ويقدمون ويؤخرون، فكان اعتصامي بحبل الحق هو أقوى ما تدرَّعت به لاتقاء مكايد الناس ومكاره الزمان.
ولم أخدعك، أيها القارئ، فيما تعرضت لشرحه من الحقائق الأدبية والفلسفية: فلم أتهيب مساقط غضبك ولم أتلمس مواقع هواك، وإنما صدقت كل الصدق فرآني فريقٌ من الملحدين، ورآني فريق من المؤمنين، ونسبني قوم إلى المُجان، وعدني قوم من الصوفية، وما كنت من أولئك ولا هؤلاء، وإنما أنا سارٍ يبحث عن عَلَم الهداية في بيداء الوجود، وما بيني وبين الله لا يعرفه عدوٌ ولا صديق، وإنما عِلمُه عند علام الغيوب الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، وأنا أتقرب إليه بالصدق في درس شرائع الهدى وذرائع الضلال.
أيها القارئ!
أتراني أحسنتُ الدفاع عن نفسي؟
أترى أن الذين يضيِّعون أعمارهم في مناوشتي ومحاربتي لم يستطيعوا حرماني من ودادك؟ كمْ تألمتُ وتوجعت من مكايدة مَن أعاصر من الرجال، وكنت في أحرج أوقات الضجر والغيظ لا أملك غير التعزِّي بهذه الكلمات:
لِيَ قُرّاءٌ أوفياء في أكثر الأقطار العربية والإسلامية، وهم عَوْني على مصاولة الدهر، (ومكايدة الزمان).
أما بعد فأنت الصديقُ الحق أيها القارئ، ولو شئتُ لقلت إنك أعزُّ عليَّ من سائر أصدقائي وأصفيائي لأنك تفهم عني أكثر مما يفهمون، وقد تفوقهم في رعاية العهد وحفظ الجميل.
أيها القارئ!
لم يبق لي بعد الله غير ودادِك وعَطفِك. ودنيا الأدب بدون حبك سرابٌ في سراب.
ولولا الثقةُ بك أيها القارئ لكسْرتُ قلمي ورجعت إلى صحبة الفأس والمحراث في سنتريس، إن كان سهر الليالي من أجلك أبقى لي من القوة ما أستطيع به الرجوع إلى صحبة الفأس والمحراث.
ويرحم الله الشباب الذي بَدَّدته في صحبة الكتاب والدواة والقلم والقرطاس!
زكي مبارك
بين المد والجزر
للأستاذ إيليا أبو ماضي
سيّرت في فجر الحياة سفينتي ... واخترت قلبي أن يكون إمامي

فجرَت على الأمواج قصراً من رؤى ... ملء الفضا، ملء المدى المترامي
وأقل منها البحر حين أقلَّها ... دنيا من الأضواء والأنغام
ومشى الخيال على الحياة بسحرهِ ... فإذا الهوى في الماءِ والأنسام
وإذا الرمال أزاهرٌ فواحةٌ ... والشط هيكل شاعرٍ رسام
وإذا العباب مَلاعب ومراقصٌ ... وإذا أنا من صبوةٍ لغرام
أتلقّف اللذات غير محاذرٍ ... وأعب في الزلات والآثام
لا أكتفي وأخاف أني أكتفي ... فكأنما في الاكتفاء حمامي
وكأن هديي أن تطول ضلالتي ... وكأن رِيي أن يدوم أُوامي
مرَّت بي الأعوام تتلو بعضها ... وأنا كأني لست في الأعوام
كالموج ضحكي، كالضياء ترنحي ... كالفجر زهوي، كالخَضم عرامي
حتى إذا هتف المشيب بلمتي ... ودنت يد الماحي إلى أحلامي
صرخ الحجى بي ساخطاً متهكماً: ... هذا الغنى شرٌّ من الإعدام
حتى متى تمشي بغير نظام؟ ... حتى متى تمشي لغير مرام؟
أسلمتني (للقلب) وهو مضللٌ ... فأضرَّني وأضرَّك استسلامي
يا صاح نجَّ النفس من سجن الرؤى
!أنا تائهٌ
!أنا جائعٌ
!أنا ظام
وأراد عقلي أن يقود سفينتي ... للشط في بحر الحياة الطامي
فطويتُ أعلام الهوى وهجرتها ... ونسيت حتى أنها أعلامي
وحسبت آلامي انتهت لما انتهى ... فإذا النهاية أعظم الآلام
وإذا الطريق وساوس ومخاوف ... وإذا أنا من هبوةٍ لقتام
أبغي الثراء ولم يكن من مطلبي ... وأرى الجمال بناظرٍ متعام
وأشيد مثل الناس مجداً زائفاً ... وأشد حول الروح ثوب رغام
فإذا أنا - والأرض ملكي والسما - ... قد صرت عبد الناس، عبد حطامي
فتضايق القلب السجين وقال لي: ... يا أيها الجاني قتلت هيامي!
القفر بالأحلام روض ضاحكٌ ... فإذا تلاشت فالرياض موامي
أين العيون تذيبني حركاتها ... وتموت في سكناتها آلامي
وأطل من أهدابها السكرى على ... ظلٍ وأنداءٍ وزهرٍ نام
لما عصاني أن أشب ضرامها ... أعيا عليها أن تشب ضرامي
الخمر ملء الجام لكن قد مضى ... شوقي إلى الخمر التي في الجام
أسلمتني للعقل فهو مضللٌ ... فأضرَّني وأضرَّك استسلامي
أنظر ألست تراك في أوهامهِ ... أشقى وأتعس منك في أوهامي
المال؟ من ذا يشتريه كله ... منى بليل صبابة وغرام
يا صاح نجِّ النفس سجن النهى
!أنا تائهٌ
!أنا جائعٌ
!أنا ظامي
!لا تسألوني اليوم عن قيثارتي ... قيثارتي خشبٌ بلا أنغام
إيليا أبو ماضي
رسالة الفن
دراسات في الفن
العيد فن الطفولة
للأستاذ عزيز أحمد فهمي
إلى الذين أسعدوني في أعيادي والذين ودوا ذلك، والى الذين سعدوا معي فيها فطاب لهم ذلك كما طاب لي، والى الذين وددت لو أسعدتهم بعد ذلك. . . حقق الله رجائي . .
.
إلى أيام البهجة والصدق. إلى أيام الغفلة والحب
إلى رصيف الإسكندرية ورصافتها

إلى كل ما كان. . . تحية اللوعة والوفاء. . . يا ليت ما كان دام لولا أن من عاش رأى. ومن يدري فربما ود من رأى لو أنه لم ير. من يدري؟ لطفك اللهم!

كان العيد عيداً

كنا نتهيأ لفرصته من رمضان أو شعبان فكانت أيامهما أعياداً. وكنا نحلم بأيامه فكانت أحلامنا أعياداً، وكنا نتحدث بأحلامنا فكانت أحاديثنا أعياداً. وكان العيد يجيء وكنا نستغرق فيه، وكان العيد يمر، وكنا نذكره فكانت ذكراه أعياداً. وكانت نشوة العيد تأخذ الروح من العيد إلى العيد حتى لم نكن نحسب أن بين العيد والعيد أياماً ليست أعياداً.

حتى جاء عام فطنت فيه إلى أن بين عيد الفطر وعيد الأضحى شهرين وبعض . . . شهر، وأنهما ليسا أسبوعاً متلاحقاً: الثلاثة الأيام الأول منه عيد صغير، والأربعة الأخر عيد كبير. فكيف فطنت إلى هذا؟ وكيف عرفت أنها حقيقة جديدة لولا أني لم أكن أراها قبل ذلك، وأني كنت لا أميز الأيام من الأيام؟ وهل أنا وحدي الذي كنت هكذا؟ لا يمكن. . . وإنما كان مثلي كل الأطفال فهذا هو طبع الطفولة. . . لا تريد أن تعرف من الحياة إلا المرح والبهجة والفرح والعيد. . . فهل لم تكن تنغص عليَّ الحياةَ آلامٌ؟ كانت آلام ولكن كانت معها دموع تغسلها فتنقي الروح منها ولا تعود تذكرها.

ثم تعلمت الجلد. والجلد صبر على الألم، والألم كدر. . . فتراكمت في النفس أكدار فوق أكدار لعلها اليوم من كثرتها لم تعد تصلح علامة لتمييز الأيام من الأيام. . . ولكنها صلحت

في الماضي كثيراً فقليلاً. . . فعرفت بها في البدء أن بين العيد والعيد أياماً لا زينة فيها ولا كعك ولا ضحية، ثم عرفت بعد ذلك أن هناك أياماً للمدرسة، وأن في المدرسة حساباً وعقاباً، ثم عرفت. . . ثم عرفت. . . حتى عرفت أن من الأعياد ما يقضى بين الجدران ووراء القضبان وكنت قد مررت قبل ذلك بسجن في عيد ولم أرض أن أفكر أن فيه ناساً يقضون العيد، ولم أطلب حتى لنفسي الرحمة من محنة كهذه المحنة.

كانت غفلة. ولكنها كانت سعادة. ولكنها كانت غفلة

فأي شيء نرجوك يا رب والسعادة تبدو كأنها من لوازم الغفلة. وأنت تكره الغافلين! نسألك العون على مرارة الفطنة. بل إنا نسألك الهدى إلى حلاوتها.

فكيف نكون إذا اهتدينا؟

فلنر إلى المهتدين

كان محمد يلعب مع سبطيه، وكان المسيح يدعو إلى ملكوت الأطفال، وكان في كل فنان من علامات الطفولة وإماراتها ما يشهد بأن في الطفولة ميزة لو أن الناس يحتفظون بها، ولا يجاهدونها بالستر والكبت والخنق، ولو أنهم يتركونها تنمو في حياتهم وتزدهر كما تنمو أبدانهم وتزدهر، لكبروا وكبرت هذه الميزة معهم واستطاعت أن تطبع حياتهم بذلك الطابع الذي تطبع به حياة الأطفال، وهو طابع السعادة. . . ولن تكون ثمة غفلة مادام العقل ينضج شيئاً فشيئاً، وما دامت هذه الميزة تهديه في نضجه فتحميه من الاتجاه إلى الخطيئة وتأخذه بالتصويب الحق الذي تأخذ به أهل الفن المهتدين. . . وإذا كانت الإنسانية قد غيرت في الماضي أهل الفن هؤلاء بشذوذهم عن أوضاع الناس المألوفة للزومهم هذه الطفولة والتزامهم منهجها فإنها إذا آمنت بها وانتهجتها هي أيضاً ستعرف أن محمداً لم يكن يعبث بوقته الغالي عندما كان يلعب مع سبطيه، وأن المسيح لم يكن يهرف حينما كان يلفت أنظار الناس إلى الأطفال ويؤكد لهم أنهم أقرب إلى الله والحق من الكبار وأشد به صلة، وأن موسى لم يكن مخطئاً حينما استنجده الذي من قومه وكان عدوه يضربه فلكم عدوه فقتله، فليس هذا إلا ما يفعله الطفل أو البدو وهم أطفال الشعوب بين حضارات البشر المكتهلة، وقد نجاه الله بعدها من الغم فلم تعد نفسه تنغص عليه حياته بالحساب والتأنيب والتعنيف. . .

فأي ميزة هي هذه التي في الأطفال تسعدهم وتبرئهم وتستنبت الفن فلي نفوسهم. . . فإذا كبروا اجتزوها واستأصلوا الفن معها، وصاروا بعد ذلك هكذا كما نراهم.

إنها لاشك الميزة التي تبعث الفن، إنها الصدق في الحس، والصدق في الاستجابة له، والصدق في التعبير عنه. . . وهذا الصدق إذا صين في النفوس كبر الأطفال وهم لا يزالون أطفالاً، وأقبلوا على الحياة كما يقبل عليها الأطفال مطمئنين مبتهجين، ولم يكن لهم شغل في الدنيا إلا اللعب والغناء والطرب والبحث عن السعادة. فتصبح أيامهم عندئذ أعياداً. . . كما كان آدم وحواء في الجنة: لا تكليف ولا حساب، لأن

التكليف والحساب لم يجبا ولم يلزما إلا فيما جد على الإنسان من حياة بعد الجنة، وفيما يجد على الفرد من حياة بعد الطفولة. . . تمهيداً لعودة الإنسان إلى الجنة، ورقيباً عليه وصوناً حتى يعود الفرد إلى طفولته الثانية وهي الشيخوخة، وفيها تضعف عند الإنسان قوة الكبت التي يضغط بها الصدق في نفسه فيطفو الصدق من جديد ولكنه يسرى عندئذ في أعصاب منهكة تراكمت فيها الأكاذيب وآثار الأكاذيب، فهو لا يحظى من سعادة الطفولة إلا بمقدار ما خلصت نفسه في حياته من الشر ودواعيه. فإذا كان قد عاش على الصدق والفرح فهو في طفولته الثانية كما كان في طفولته الأولى تملأ نفسه البهجة ولا تفزعها الوساوس، وإذا كان قد عاش على الغش والختل فيا ويله من طفولته الثانية! ويا ما أشد الذي يلقاه فيها من الصراع بين الصدق الذي طالت غمرته والذي يريد أن يفيض، وبين الكذب الذي طال تشبثه بنفسه ثم ضعف فهو لا يقوى على البقاء. . . ومع هذا فإنه يأبى أن يزول في هدوء.

والآن. . . هل صحيح أن الطفولة تمتاز بالصدق؟ وهل صحيح أن الصدق مبعث الفن والفرح معاً؟

أما أن الطفولة تمتاز بالصدق فإنه من غير شك صحيح. لأننا إذا تتبعنا أكاذيب الناس رأيناها تنقسم إلى قسمين: قسم يراد به تحصيل نفع أو دفع ضرر، وقسم آخر يراد به التسلية والترويح عن النفس، والقسم الثاني يدخل من باب الفن لأنه تخيل يستكمل به صاحبه نقصاً يحسه، وهذا لا يؤذي صاحبه ولا غيره إن لم ينفع البشرية ويحضها على استكمال النقص الذي رآه صاحبه. وأما القسم الأول الذي يراد به تحصيل النفع أو دفع الضرر فهو من مستلزمات التكليف والحساب، فلو لم يشعر صاحبه بأنه مطالب بأداء عمل من الأعمال وأنه قاصر عن أدائه لما لجأ إلى الكذب يستر به عجزه، ويموه به على صاحب الحق مدعياً أنه قام بما كلف به، وهو يريد من وراء ذلك أن ينجو من حساب صاحب الحق، وهذا شعور ينافي طبيعة الطفولة التي حررتها الأديان والقوانين الطبيعية والقوانين الموضوعة من التكليف والحساب، لأنها فعلاً لا تطيق التكليف ولا الحساب.

فالطفولة إذن صريحة صادقة بطبعها، والأطفال إذن يتعلمون من الكبار الكذب فيما يتعلمون من ألوان الكفاح والصراع في سبيل الرزق وغير الرزق من مطالب الإنسانية الجوفاء، والكذب الذي يتعلمه الأطفال له ثلاث شعب: هذه الشعبة الأولى التي رأيناها تأخذ تعبيرهم عن أنفسهم وتصبغه بصبغة الغش، والشعبة الثانية تلك التي تمنعهم من الاستجابة إلى إحساسهم الصادق فتقعد بهم عما يحبون، وتلقي بهم إلى حيث يكرهون متبعين في هذا اعتبارات ليست من الحق المطلق في شيء وإنما صنعتها هذه الحياة الملفقة التي اختلقت المذاهب، والمواطن، والعلاقات البشرية المتناقضة المضطربة القائمة على النفع العاجل والزيف. ثم هذه الشعبة الثالثة تقيم بينهم وبين الحق سداً منيعاً وتغلف أنفسهم عنه، فتعمي أبصارهم، ولا يعودون يرون الشيء على حقه، وإنما يرونه حسبما تشتهي أنفسهم الكاذبة، وشتان ما بين الحق وبين الذي يشتهيه الكاذبون.

ولكي يدرك القارئ مدى الحق فيما أقول أدعوه إلى أن يتصور صاحباً له ممن عرف فيهم الميل إلى الكذب وإدمانه، والتعلق بالغش والإسراف فيه، فإذا ما استحضره في ذهنه فإني أطلب منه أن يتابع حياته وأن يرى كم يقع هذا الكذاب الغشاش في أحابيل الكذابين الغشاشين؟

أما أنا فأعرف أمثلة عديدة لهؤلاء المساكين، وأعرف أنهم أسهل فريسة للكذب والغش مع تفوقهم في تدبير الكذب، وتمكنهم من حبك الخديعة. . . فإذا اتفق صاحب القارئ مع أصحابي في هذا جاز لنا أن نعتبرها قاعدة مطردة، وحق علينا أن نستقصي أسبابها. ولن يجهدنا السعي إلى أسبابها كثيراً أو قليلاً لأن ذكرها تقدم في الذي انبسط أمامنا من الحديث عن شعب الكذب. فالأصل في الإنسان أن يستطيع التمييز بين ما هو خير وبين ما هو شر، وإذا جاز للإنسان أن يعجز عن التمييز بين الخير والشر فيما اختلف عن نوعه من المخلوقات والموجودات فإنه لا يمكن أن يلم به هذا العجز في صدد الكائنات البشرية التي

هي من نوعه ومن طينته، فهو نفس أو روح، وبقية الناس نفوس أو أرواح، والتعارف بين النفوس والأرواح لا يحتاج إلى تعليم ولا تدريب، وإنما هو شيء يحدث بالسليقة والطبع كما يعرف الزيت الزيت فيسعى إليه ويمتزج به مهما فرق الماء بينهما. ونحن إذا تأملنا الأطفال عندما تجمعهم الظروف لأول مرة بإنسان نعرف نحن بالتجربة أنه خيِّر، أو بإنسان نعرف نحن بالتجربة أنه شرِّير وكان مظهر كل من هذين يشبه إلى حد كبير أو صغير مظهر الآخر. . . رأينا الأطفال يندفعون إلى الذي نعرفه خيِّراً، وينفرون من الذي نعرفه شريراً، وليس هذا إلا لأن الأطفال أطلقوا إحساسهم صادقاً يميزون به وحدة النفوس والأرواح بعضها من بعض، ولا يقيمون بعد ذلك وزناً للاعتبارات الأخرى التي نقيم لها نحن الأوزان، والتي نتأثر بها قليلاً أو كثيراً في إصدار أحكامنا على الناس فنصدرها أحكاماً اختلطت (حيثياتها) فبعضها من القانون الطبيعي الصحيح وأغلبها من قوانين أخرى وضعناها نحن، ووضعها الزمان، ووضعها المكان، وما أكثر هذه عند الكذابين الغشاشين، وما أشد تأثيرها في أحكامهم، وما أشد ما يبتعدون بها عن الحق في هذه الأحكام فيغشون أنفسهم كما يغشون الناس.

هذا من ناحية الإحساس وصدقه

والأصل في الإنسان أيضاً أن يستجيب لإحساسه هذا الصادق متى تمكن من نفسه، فإذا أحب اندفع إلى ما يحب، وإذا كره انقبض عما يكره، ونحن إذا تأملنا الأطفال رأيناهم يستجيبون إلى هذا القانون الطبيعي أكثر مما نستجيب له نحن الكبار، ومهما أخذنا على الأطفال الأنانية في مسلكهم هذا فإننا لا نستطيع أن نتهمهم فيه بالخديعة والغش، ثم إن هذه الأنانية نفسها التي نأخذها على الأطفال تنقحها الحياة الطبيعية شيئاً فشيئاً، وتمحوها شيئاً فشيئاً، فالطفل كلما كبر على سجيته أدرك العلاقات الحقيقية - لا الزائفة - التي تربطه بالمجتمع الذي يحيط به، ورأى نفسه مطالباً أمام نفسه - لا أمام غريب عنه صاحب حق مفروض وتكليف مصنوع وحساب مسلط - بأن يراعي حق هذا المجتمع عليه كي يراعي المجتمع أيضاً حقه عليه. . . وهذا شيء ملحوظ في مجتمعات الأطفال، التي تتألب بسرعة على الطفل الطاغية الذي يميل إلى قهرها وفرض سلطانه عليها زوراً، وهو ما تتحرج عنه مجتمعات الكبار وتحتار وتختبل وتتعثر في القيام به.

وهذا من ناحية الاستجابة للإحساس الصادق. ويجيء أخيراً التعبير الصادق عن هذا الإحساس الصادق بهذه الاستجابة الصادقة، وأظن أنه لا أحد من القراء يختلف معي في أن الأطفال يمارسون هذا التعبير على طول الخط، وأنهم لا يتحرجون من مواجهة صاحب العيب بذكر عيبه أمام عينيه وفي مواجهته لا يخشون اللوم، ولا يحسبون حساباً لهذه المجاملات المعقدة التي يحسب الكبار حسابها والتي تحملهم على ابتلاع العيوب. . . ثم ابتلاع المحاسن أيضاً. . . ثم التحكم في تقرير الحكم على الأشياء وفق ما يعرض لهم بناء على هذا الحكم من نفع يكسبونه، أو ضرر يمنعونه. . .

الأطفال إذن هم الذين يحسون بالناس - على الأقل - إحساساً صادقاً، وهم الذين يستجيبون لهذا الإحساس الصادق استجابة صادقة، وهم الذين في آخر الأمر يعبرون عن هذا الإحساس الصادق في هذه الاستجابة الصادقة تعبيراً صادقاً. . . والأطفال بهذا سعداء. وهم بهذا أحب إلى الله من الكبار الكذابين. . . فهل كل الكبار كذابون؟ لا. . . بل أغلبهم. . . ونجا من الكذب الفنانون، أولئك الذين تحرر احساسهم، والذين لا يمنعهم من تلبية هذا الإحساس مانع، والذين يعبرون عنه في صدق وتحرر كالأطفال لا يعنيهم أن يسخط الناس عليهم أو أن يرضوا. . . وهم بهذا أطفال الرجال، وحياتهم على الرغم من الشقاء الذي يظهر لنا فيها حياة سعيدة لأنها حياة طبيعية تجري على سنة الله الأولى وفطرته.

عزيز أحمد فهمي

رسالة العلم

لحظات الإلهام

في تاريخ العلم

بقلم مريون فلورنس لانسنغ

من الألياف إلى الثياب

لأحد الشعراء الإنكليز أبيات يقول فيها إن آدم كان فلاحاً يحرث الأرض وإن حواء كانت

عاملة تنسج الغزل. ويتساءل هذا الشاعر أين كان أهل الكياسة والظرف في ذلك العهد؟

وإذا لم تكن حواء هي أو غازلة أو ناسجة فإن إحدى بناتها أو حفيداتها أو بنات الحفيدات كانت أول من فعل ذلك لأن فن النسج كان مما بدأت به الإنسانية في طفولتها، فقبل أن يصنع الرجل من الشماليين في العصور الأولى لنفسه ثوباً من فرو الحيوانات التي يصيدها كانت المرأة الجنوبية قد جدلت من النبات الطويل أو من ورق الأشجار المفتول أو من البوص سلالاً تحمل فيها من حاجاتها أكثر مما تتسع لحمله كفاها، وضفرت كذلك من هذه الأنواع حصيراً تغطي بها الأرض المرطوبة أو الصلبة في كهفها أو كوخها، وصنعت كذلك نوعاً من الثياب تستر به جسمها.

في العهد الذي أصبح فيه جوبال أخو توبال كين راعياً وأباً لكل الرعاة كانت أمه (آده) وزوجته وابنته إخصائيات في ضفر النبات والألياف لصنع الأغطية والحصر التي تصنع منها الخيام، وربما كانوا يفتلون الألياف لتصنع منها جدائل غير متقنة الصنع ويمرون هذه الجدائل بين ثقوب في قوائم الخيمة لربطها.

في هذه الأيام الأولى بدأت المرأة تهتم باللباس لها ولأسرتها كما تهتم بالطعام، وبدأت تزاول، بما كان بين يديها من الآلات الحقيرة، تلك الفنون الجميلة التي صارت فيما بعد من دواعي مجدها، لأنه لاشك في أن الغزل والنسج والصباغة من الفنون النسوية.

كانت المرأة أول من استخرج الألياف من نبات الكتان وصنع منه خيوطاً، وكانت زوجة أحد الرعاة الذين يقضون نهارهم البارد فوق الجبال. كانت تلك الزوجة أول من أخذ جانباً من صوف الغنم. ومنه صنعت ثوباً تدفئ به ابنها الطفل. وخطر ببال امرأة أخرى وهي تغزل خيطاً طويلاً متيناً من ألياف الكتان أن تضع جانباً من هذه الخيوط على عصاً وأن تلف بعضها على بعض حتى يتكون منها خيط متين، فكان اختراعها هذا أول نوع من المغزل. وكان يدار باليد ثم صار يدار كعجلة الغزل. وكانت محبة الجمال هي السبب الذي جعل المرأة تمل من اللون الساذج البسيط للأصواف، فوضعت المرأة المادة التي تصنع منها خيوطها في أثناء العمل في عصارات بعض النبات لتغير من لونها.

كان هؤلاء النسوة اللاتي نتحدث عنهن من نسوة القبائل الرحالة. وفي ابتداء العهد الزراعي وعهد إنشاء المساكن أتيحت الفرصة للمرأة لتوطد هذه الصناعة. ولم تعد أمامها ضرورة تقضي بالاقتناع بالمواد الخشنة التي تجدها في الحقول بل أصبح في وسعها زراعة الكتان والقطن لتكون ثيابها أرق وأخف وزناً مما يصنع من الصوف. وأصبح عمل الراعي أهم لما صارت الحاجة إلى صوف غنمه مثل الحاجة إلى لحومها في السوق.

وفي الكتاب المقدس أقصوصة تدل على أن ميشا ملك مؤاب قد دفع لمولاه ملك إسرائيل الجزية صوفاً لمائة ألف جمل ومائة ألف سخل. وقد كان حذق النساء صناعة المنسوجات الصوفية مما جعل لها قيمة تجارية.

وفي سفر الأمثال من الكتاب المقدس صورة جميلة لامرأة متخيلة في عهد كان قبل سبعمائة عام من التاريخ المسيحي، وكان كل ما منزلها بحاجة إليه من الفنون خاضعاً لسلطانها. وهذا الوصف جاء على لسان ملك ليمويل الذي علمته أمه ما ينبغي أن تكون عليه المرأة التي تصلح زوجة له. وهذا وصفها: (هي التي تبحث عن الصوف والكتان وتعمل بيدها راغبة في ذلك وهي التي تصنع بالمغزل وتمسك بيديها النسيج وتمد يدها بالبر إلى الفقير والى المضطر وهي لا تخاف على منزلها من البرد لأن منزلها مفروش بالبساط القرمزي وهي التي تصنع أغطية من الدانتللا وترتدي ثياباً من الحرير والقماش الأحمر).

الأميرة الصينية وثوبها الحريري

إذا كنت فتاة صينية معهوداً إليها بتربية دود القز لأمك فإنك ستملين سريعاً من جمع ما لا يحصى من ورق التوت لإطعام هذا الدود الجائع. ولكنك إذا شكوت إليها فإنها ستقول لك: (إن كانت الإمبراطورة (هسي لنج شي) العظيمة المقدسة تتعهد بيدها دود القز، وهي فتاة، فلأي سبب لا تفعل ذلك فتاة عادية مثلك؟).

عند ذلك تطأطأ الرأس في خجل وتقول: (كلا يا أمي لن أمتنع عن هذا العمل بل سأؤديه في سرور).

ولكن عندما تنتهي الفتاة من عملها هذا فقد تطلب إلى أمها أن تعيد عليها قصة الإمبراطورة ودود القز. وهذه هي القصة التي ترددها الأم:
(منذ أجيال طويلة عندما كان كل سكان العالم همجاً كان الشعب الصيني وحده شعباً حكيماً، وقد حذق عدة أمور. وهذا هو عصرنا الذهبي الذي نزل فيه الإمبراطور الأصفر هوانج تي بين الخالدين وتولى بنفسه الحكم في هذه الأرض.
وكان هوانج حكيماً رحيماً في حكمه، واصطنع من أجل شعبه أموراً كثيرة فوضع للتجار قواعد الموازين والمكاييل والمقاييس لكي يعلم الفقير من الصينيين عندما يشتري الشاي أو الأرز مقدار الذي اشتراه فلا ينخدع عن الثمن. وعلم سكان الشواطئ النهرية كيف ينشئون السفن وبذلك أصبحت الصين متصلة بواسطة السفن التي تجري في الأنهار غادية رائحة.
وفي أثناء عهده الطويل استكشفت المعادن وصنعت الأطباق من الخزف لأول مرة، وأثرى الشعب الصيني كله في عهد هذا الإمبراطور الأصفر سليل الخالدين الذي عاش مائة عام على الأرض وباركها بحكمته.
ولكن مع أن هوانج كان أعظم العواهل فإنه بكل ما أوتي من حكمة وبكل ما بذله من جهد لم يفعل من أجل مستقبل البلاد ورخائها مثل الذي فعلته زوجته الجميلة الصغيرة هسي لنج شي التي استقرت بحديقة منزلها وأخذت تراقب دودة قبيحة الشكل في تلك الحديقة.
كانت حديقتها حافلة بأشجار التوت وهذا هو السبب في كثرة دود القز بها، لأن ذلك الدود يحب أوراق التوت كما تعلمين ذلك يا بنيتي.
وكانت تلك الإمبراطورة الصغيرة لا تزاول أي عمل فأتت لتستظل بأشجار الحديقة من حرارة الشمس.
وفي أحد الأيام وقفت في ظل شجرة وأصغت، لأنه كان يصدر عن تلك الشجرة صوت كأنه صوت تساقط ماء المطر. ذلك على أن الشمس مرتفعة في السماء. أصغت الإمبراطورة وراقبت ثم رأت أن الديدان الصغيرة التي كانت تراها من قبل متسلقة الأغصان والتي كانت تكرهها لأنها تأكل الاوراق، رأت تلك الديدان وقد كفت عن تناول طعامها وأخذت تصنع لنفسها لوزات، وأخبرتها تابعتان أن هذه الديدان تستمر في صنعها اللوزات ثلاث ليال وثلاثة أيام وأنها تسجن نفسها في داخل هذه اللوزات وقاية من الهواء ومن الشمس وتنام شهراً كاملاً ثم تثقب في نهاية هذه المدة طرفاً من اللوزة وتطير، لأنه ينبت لها في مدة سجنها أجنحة وتتحول إلى فراشة جميلة.
وكانت هسي لنج شي لم تر إلى ذلك العهد فراشة تخرج من اللوزة فراقبت الدود ثلاثة أيام كان في أثنائها مكباً على عمله، فلما انتهت هذه المدة امتنعت الأصوات التي كان يحدثها بعمله وعادت الهداة إلى الحديقة وأخذت الإمبراطورة تعد الأيام التي يخرج الفراش في نهايتها من اللوزات.
ولما عاد البدر إلى الاكتمال مرة أخرى خرج من اللوزات مئات من المخلوقات الطائرة الرقيقة الأجنحة، ولكن الإمبراطورة لم تكن مهتمة بهذا الفراش بقدر اهتمامها بالنسيج الذي تنسجه الدودة حول نفسها، وكان على أرض الحديقة عشرات من هذه اللوزات الذهبية المصفرة، فالتقطتها وعكفت على دراستها وسحبت خيطاً رقيقاً هو الذي تصنع منه هذه اللوزات.
قالت في نفسها: (هذا الخيط البديع أرق من الخيوط التي نسجت منها ثيابي فليتنا نستطيع غزل خيوط بهذه الرقة
وأخذت هسي لنج شي تعبث متبلدة بهذه اللوزات مجربة الخيوط وقد لاحظت مبلغ قوتها ومبلغ رقتها، ثم خطر ببالها خاطر فجائي فسألت نفسها: لماذا تتمنى صنع خيط مشابه لهذا؟ ولماذا لا تأخذ نفس هذه الخيوط التي تصنعها الديدان وتنسج منها ثوباً لنفسها؟
ولما جاء الموعد التالي لظهور دودة القز ذهبت الإمبراطورة الصغيرة إلى الحديقة، ولكن عملها في هذه المرة لم يقتصر على المراقبة، بل كانت تأخذ اللوزة وتحاول حل الخيط على عكس النظام التي كانت تلفها به الدودة وذلك قبل أن تثقب الدودة جانباً منها لتخرج منه.
في البداية انقطع الخيط في يدها ولكنها سرعان ما علمت أنها إذا غمست اللوزة في

ماء حار فإنها تقتل الدودة ويسهل حل اللوزة.
وكان مقدار الحرير الذي يستخرج من اللوزة قليلاً جداً ولكنها كلفت أتباعها جمع اللوزات
حتى أصبح لديها أكداس فوق أكداس منها. ولما وضعتها في الماء الحار جلست لتلف الخيوط على عصا لفةً فوق لفة حتى اجتمع لديها قدر كبير من هذه المادة الناعمة. ثم حملت هذه الخيوط إلى منسجها الذي كانت تنسج عليه التيل والصوف ونسجت قطعة صغيرة من هذا الحرير الذهبي اللامع.
من أجل ذلك نذهب كل عام يا بنيتي إلى المعبد في الوقت الذي تظهر فيه أوراق التوت ونصلي أنا وأنت وجدتك وأبوك وعمك - للإمبراطورة هسي لنج شي فهي إلهة الحرير لأنها بفطنتها وبعملها اليدوي قد استكشفت سر نسج الحرير ولقنت شعبها هذا السر.
وربما سألت الفتاة أمها هذا السؤال: (هل احتفظ كل إنسان بعد ذلك بدودة القز؟)
فيكون جواب الأم: (نعم لما سمعت سيدات القصر أن الإمبراطورة تحتفظ بهذا الدود رغبن جميعاً في محاكاتها، وقد اعتادت الإمبراطورة أن تخرج إلى الحديقة ومعها أدوات ذهبية لتقطع أوراق التوت وطبق من الذهب لتضعها فيه، وسمحت لهؤلاء السيدات بأن يخرجن إلى الحديقة بآلات وأطباق من الفضة لجمع هذه الأوراق، وقد رغب الشعب كله في أداء مثل الذي يؤديه أهل البلاط، فلم يمض عهد طويل حتى حذق الشعب تربية دود القز، ونسج حريره على المناسج ولبس كل الأغنياء ثياباً من الحرير. وكذلك صنعوا منها أحزمتهم وأغطية أثاثاتهم والحفتهم.
وقد تسأل الفتاة الصينية الصغيرة: (ولكن أليس كل إنسان في العالم يحتفظ بدود القز؟)
فتخبرها الأم بقصة الاحتفاظ بسر دودة القز وبسر نسج الحرير الذي تخرجه مدة ثلاثة آلاف عام في الصين.
السر المصون ثلاثة آلاف عام
هل تظن أن في وسع شعب كامل أن يحتفظ بسر ما مدة مائة عام أو مائتين؟
هل تظن أن نساء ورجالاً وأطفالاً يعرفون كلهم ذلك السر وأن الأجانب الراغبين في معرفة السر والآتين من بلاد بعيدة يمشون في الأسواق ويطوفون بالمدن متجسسين على هذا السر ولكن أحداً منهم لا يستطيع أن يكشفه؟
هذا هو الذي فعله الشعب الصيني بسر الحرير ثلاثين قرناً ثلاثة آلاف عام.
كان الصينيون في العهد الأول من إنتاج الحرير شديدي الزهو بالصناعة الجديدة التي ابتكروها فكانوا من أجل ذلك شديدي العناية برعاية هذا السر. وأصدر الحكام قوانين تحرم على أي إنسان إخراج الحرير من بلادهم. ولتجار الأجانب أن يشتروا ما يريدون من الخزف والشاسي والأرز ومن المحاريث ومن المعادن المطروقة ومن كل ما تنتجه الصين من صناعة. ولكن ليس لهم من النسيج اللامع الحريري إلا أن ينظروا إليه بأعين طامعة فإن هذا الحرير لم يكن يباع.
وكانت قوانين التجارة لا تكفي لمنع التجار عن تهريب الأقمشة الحريرية من حدود الصين فخرج الحرير من الصين حتى في العهد الذي كانت فيه القوانين صارمة وزاد مقدار المهربات زيادة مطردة في القرن الأخير بازدياد الاتصال بالشعوب الأخرى.
وكان بين الصين وبين إيران طريق منقطع بين الجبال ويقول بعض الناس إنه أقدم طرق العالم، وقد بدأ ضيقاً بحيث لا يتسع إلا لمرور رجل واحد فمن أجل ذلك كانوا يمشون فيه صفاً، وعلى التدريج كانوا ينظفونه من الصخور والأحجار التي تعوق المسير فيه حتى أصبح أعظم طريق للقوافل في الدنيا القديمة، وهو الطريق ما بين الشرق الأدنى والشرق الأقصى، وهو الطريق الذي يسلكه أهل البلاد المجاورة للبحر الأبيض المتوسط للحصول على المصنوعات الجميلة من الصين ومن الهند.
ومن هذا الطريق كان التجار يهربون الحرير من الصين إلى الأغنياء في مصر وفي أشور وفي بابل وفي فينيقيا، ومع كثرة ما كان المهربون يهربونه من كميات الحرير التي تؤخذ سراً. أو تشترى علناً فإن تجار الفرس لم يعرفوا سر دودة القز.
وجاء الاسكندر الأكبر، وكادت فتوحاته تشمل العالم كله، وفي أثناء قيادته جيوشه في مناطق الشرق في القرن الرابع قبل المسيح رأى نبات القطن في الهند فنقله إلى

اليونان، ورأى الثياب الحريرية يرتديها نبلاء الصين فأتى بشيء منها إلى بلاده وذهب إلى الأماكن التي يصنع فيها الحرير فلم يكتف بنقل كميات من المنسوج بل نقل كذلك أثقالاً من مادته الخام قبل نسجها، ولكنه مع ذلك لم يستطع أن يعرف من أين تأتي هذه المادة الخام.

هذا هو سر الصين الذي كتمته طول عمرها والذي لم يستطع معرفته حتى قاهر العالم الاسكندر.

وكان الرومانيون في بداية العهد المسيحي يختالون بقصورهم في ثياب حريرية اشتروها

من تجار الفرس، وقد بلغ بهم الأمر أن حلوا النسيج الصيني واستخرجوا خيوط الحرير وأعادوا نسجها على أنوالهم ولكن هذا العمل كان كبير النفقات إلى أقصى حد. وكانت القوانين في الإمبراطورية الرومانية تحرم لبس الحرير على غير النبلاء وقد رفض الإمبراطور أورليان (712 - 275 قبل المسيح) أن يلبس الحرير أو أن يسمح لزوجته بلبسه لأنه غال جداً، وكان يدعوه باسم (الهواء المنسوج) وذلك بالقياس إلى المواد السميكة الأخرى التي كان الرومانيون يصنعون منها ثيابهم وأخيراً أفشت سر الحرير أميرة صينية مخترقة بذلك حرمة القوانين: كانت مخطوبة لملك هندي حوالي سنة 120 قبل المسيح، وهذا الملك هو خوتان. وكان يعلم أن أميرات الصين اعتدن لبس الثياب الحريرية دون غيرها فبعث إليها بأن الهند وإن كانت قد اشتهرت بقطنها فإنها لا تستطيع أن تزودها بشيء من الحرير فخاطرت مخاطرة جسيمة عند سفرها إلى منزل زوجها فخبأت في زينة شعرها بذور شجر التوت وبيض دود القز وغادرت الحدود دون أن يشتبه في ارتكابها للجريمة التي عقوبتها الإعدام.

ولما وصلت إلى البلاد التي اختارتها وطناً ثانياً بدأت زراعة التوت وتربية دود القز. ولكن سفراء الصين لدى بلاط زوجها رأوا ما فعلته ولم يكن في وسعهم أن يعاقبوها لأنها أصبحت ملكة على بلاد أخرى وكانوا لا يزالون يريدون الاحتفاظ بالسر، فأخبروا زوجها الملك بأنها تربي الثعابين السامة فأمر الملك بإحراق المكان الذي يربي فيه دود القز معتقداً أنه ثعابين.

لكن السر تسرب إلى الهند في بداية العهد المسيحي؛ ففي سنة 289 بعد المسيح ذهب أربع فتيات صينيات إلى اليابان لتعليم اليابانيين تربية الدود. لكن إلى سنة 500 بعد المسيح كان صنع الحرير لا يزال مجهولاً في القسطنطينية وهي إذ ذاك عاصمة العالم الغربي، وكان الإمبراطور جوستنيان الذي يتولى شؤون الإمبراطورية في القسطنطينية رجلاً ذا مشاريع كبيرة حاذقاً في تغذية التجارة، وكان كالاسكندر الكبير دائم البحث عن شيء جديد مما يصنع في البلاد الأخرى. وعاد اثنان من الرهبان الفارسيين ومن أصحاب العهد النسطوري المسيحي إلى القسطنطينية بعد أن عاشا في الصين سنوات كثيرة. وعلما لطول مدة الإقامة ما لابد أن يعلمه من طالت مدة إقامتهم هناك من سر هاتين الصناعتين: إنماء

شجر التوت وتربية الدود.

سمع الإمبراطور قصتهما فاشتد اهتياجه وحملهما على الوعد بأن يحاولا عند عودتهما إلى القسطنطينية في المرة التالية نقل شيء إليه من بيض دود القز. وفي سنة 555 عاد الرهبان وقد خبأه في تجويفي عصوين من الغاب. وقد اشتدت العناية في القسطنطينية بهذا البيض تحت إشراف الراهبين. وصنع الدود لوزاته وأخرج فراشه كما لو كان لم ينقل إلى مسافة تقرب من نصف طول العالم. وهكذا بدأ صنع الحرير بداية حسنة في عهد ذلك الإمبراطور.

وكانت كل هذه الإجراءات تعمل في داخل القصر وتحت إشراف الإمبراطور شخصياً بما في ذلك إقامة أنوال تشتغل عليها النساء في نسج الثياب بين جدران القصر وبملاحظة الإمبراطور.

لكنه لم يكن في الإمكان الاحتفاظ بسر في القرن السادس في الأستانة حتى ولو كان ذلك السر في البلاط الإمبراطوري كما كان ذلك يفعل منذ قرون في الصين. وعلى الرغم من أن جوستنيان قد احتكر صناعة الحرير ولم يكن يسمح لأحد بصنعه فسرعان ما تسربت هذه الصناعة إلى العالم الغربي. ومن البيض الذي كان في تلك العصا نشأت هذه الصناعة وازدهرت في جنوب أوربا وبخاصة بالقرب من البندقية مدة الألف

والمائتي العام التالية. وانتهت أخيراً مدة السر المكتوم التي دامت ثلاثة آلاف عام.
(يتبع)
ع. أ
من هنا ومن هناك
لماذا اتفقت روسيا وألمانيا
(ملخصة عن مجلة (كرستيان ساينس))
اصبح العالم اليوم يشاهد روسيا وألمانيا تتمشيان يداً في يد على خريطة أوربا السياسية، وقد يكون في ذلك شيء من الغرابة، ولكن الأيام من قبل قد أرتنا مثل ذلك.
فقد عاد ستالين وهتلر إلى تلك السياسة التي ترمي إلى تقوية موسكو وبرلين ضد قوى أوربا الغربية المتحدة.
وليس هذا كل ما في الأمر، فقد رأى هذان الرجلان المختلفان في الرأي والمبدأ أن يخضعا المبادئ والآراء، لضرورة الظروف الواقعة؛ فاختلاف المبادئ لم يكن له أثر يذكر في توثيق العلاقات التجارية بين روسيا الغنية بالخامات وألمانيا الحافلة بالمصانع والآلات. كما أن اختلاف الآراء والمناحي السياسية لم يكن ليحول دون هذا الاتفاق، وقد كانت الصلات السياسية والحربية بين موسكو وبرلين مبنية على قواعد وأسس وطيدة الاركان، حتى ظهر هتلر، وأعلنت مبادئه في ألمانيا؛ فتغيرت الأحوال، وحل الشقاق محل الوئام، وتبادل كل من الدولتين الدعاية المزرية ضد الأخرى، وتعددت الإهانات من الجانبين.
فنحن حين نذكر الاتفاق الروسي الألماني، جديرون بأن نذكر كلمة قالها سياسي فرنسي عظيم في هذا الاتفاق: (لقد عجبنا ولكننا لم نفاجأ).
على أن ألمانيا وروسيا وإن اختلفتا في المبدأ، فإن بينهما أواصر من التشابه تجمعهما في سياق واحد. ونعني هذا التشابه في الوسائل لا في الفكرة ولا في الفلسفة، فكلتا الدولتين تنفذان إلى أغراضهما عن طريق القوة، وكلتاهما تستخدمان أشد أنواع الإرهاب للاحتفاظ بكيانهما، وكلتاهما لا تعبئان باحتجاج الرأي العام أو تقيمان له وزناً، وكلتاهما تخضعان لحكم الأقلية وتسيران وراء نظام حزب واحد، وتهزئان بالنظم البرلمانية والأوضاع الشرعية، وكلتاهما تضطهدان الأديان، وتناديان بنوع جديد من الوطنية. ونحن نرى أن من المبالغة وسوء تقدير الموقف أن نقول إن هذه الأمور من شأنها أن تؤدي إلى تحالف دائم موطد الأركان ولكنها ولاشك تؤلف نوعاً من الوحدة بين الدولتين فلا تلبثان أن تتحدا إذا اصطدمتا عند غرض واحد.
وليس معنى هذا أن الدولتين لا تختلفان من الوجهة العملية فنحن لم ننس بعد حملة الألمان على البلشفية، ولا ننس حملة البلشفيك على الالمان، ولا ما بين الدولتين من الاختلافات العديدة.
ولكننا إذا أردنا أن نتبين حقيقة الموقف بين روسيا وألمانيا يجب أن نقدر ثلاثة أشياء: وجوه الاتفاق بين الأمتين، ووجوه الاختلاف بينهما، ثم حكم الأمر الواقع. فهذه أمور يجب أن ينظر إليها بعين الاعتبار.
ولا يخفى أن رجال الجيش الأحمر لا يرضيهم ذلك الاتفاق بين روسيا وألمانيا، ويعدونه من مظاهر الضعف والخذلان، كما أن رجال (ليتفنوف) يؤيدونه ويعدونه من عوامل القوة ومظاهر الانتصار.
ومهما تختلف الآراء وتتباين الأغراض، فإن هناك مواضع عديدة للاتفاق بين الدولتين، فمن الواجب أن ينظر إليها بالحذر والاحتياط.
كيف أنشئ خط ماجينو؟
(عن مجلة (باربيد))
كان قواد الجيش الفرنسي في عام 1914 لا يهتمون كثيراً بفكرة التحصين. فكانت نتيجة ذلك أن الجنود الفرنسية دفعوا ثمن هذا الإهمال.
ولكن هذا الدرس لم يكن ليذهب سدى. فنحن نرى فرنسا اليوم تشيد نظامها الحربي على فكرة الحصون وتعتمد على قوة النيران ويعد خط ماجينو من الأمثلة العجيبة في قوة التحصين والدفاع.
وقد جرى العامة على تسمية هذا الخط (بحائط ماجينو)، وهذه التسمية في الحقيقة

بعيدة عن الصواب. إذ أنها تمثله في صورة الأبراج المرتفعة إلى عنان السماء، والحقيقة أن هذا الحصن الفرنسي لا يرتفع عن سطح الغبراء. وقد صدق بعض الجنود في تسميته: (أديم الشرق).

ومما لاشك فيه أن ذلك الأديم العجيب، سيعد من أقوى وأعظم ما صنعته يد البشر في القرن الحديث.

حفر خط ماجينو في المدة من سنة 1929 إلى سنة 1936 في مساحة قدرها اثنا عشر مليوناً من الأمتار المربعة، ووضع فيه ما لا يقل عن 50. 000 طن من الصلب، ويحتوي هذا الخط على كهوف وأنفاق تمتد من باريس إلى ليج في خط واحد، وبلغ عدد المشتغلين في بناء هذا الخط 15. 000 نفس، ومقدار ما أنفق عليه سبعة آلاف مليون من الفرنكات. ولم يقف العمل في هذا الخط إلى اليوم.

ومن المؤكد أنه لا يتسنى لقوة أية كانت أن تخترق هذا الحصن المكين، ولما كانت حصون ليج ونامور وانتورب في عام 1914 لم تقو على صد هجمات الخصوم لضعف مادتها، بينما أعيت حصون فردان المدافع الثقيلة، فلم تعد منها بطائل - فقد عرضت مادتها على هيئة من كبار المهندسين الفرنسيين فحصاً جيداً، ومعرفة ناحية المقاومة فيها للائتناس برأيهم قبل اختيار المادة التي يصنع منها خط ماجينو العتيد. وبعد التجارب المضنية التي قام بها خاصة الخبراء والمهندسين، قرروا أن يصنع الخط من مادة قابلة لاحتمال ثلاث قذائف متوالية على مكان واحد.

أما فيما يتعلق بالغازات السامة، فقد أعدت آلات كهربائية داخل الخط، ومن شأنها أن تجعل الضغط الجوي في الداخل أعلى من الضغط الخارجي، فيمتنع تسرب الغازات السامة داخل الخط وقد أعدت المدافع والبنادق لمطاردة الطيارات.

ولا تقف مهمة خط ماجينو على الدفاع، فلا يكفي المحارب أن يكون آمناً، فالدفاع هو الناحية السلبية في الحرب، أما الناحية الإيجابية، فهي الهجوم، وكلاهما ضروريان في الحرب.

ويستطيع الجنود في خط ماجينو وهم آمنون أن يسدوا وجه الأفق بطبقة من النيران تلتهم ما أمامه وما خلفهم.

كيف نصل إلى الله

(عن مجلة (سيكلوجي، ريلجن هلت))

العبادة فن. ولكي نعبد الله عبادة مقبولة يجب أن نعبده عبادة صحيحة، من الواضح أننا لا نستطيع في يوم من الأيام أن نصعد على خشبة المسرح ونتناول القيثارة، ثم نعزف عليها

الأغاني والأناشيد دون أن نتعلم كيف نحمل القوس ونستعملها استعمالاً صحيحاً. فهل العبادة أقل خطراً من العزف؟ هل الحياة الروحية أقل أهمية من حياة اللهو؟ لاشك أن عبادة الله تحتاج إلى كثير من الجد والتأمل والمران الطويل.

يشكو الكثيرون الخمود في حياتهم الروحية. ويزعمون أنهم يخفقون كلما حاولوا الاتصال بالرفيق الأعلى. فهل حان لنا الوقت لنسأل أنفسنا عما إذا كنا نسلك الطريق الصواب في محاولاتنا الاتصال بالله؟ إن العبادة ككل شأن في الحياة لها طريقها الخطأ وطريقها الصواب.

ولا يفهم من كلامنا أننا نريد أن نقول إن الإنسان لا يستطيع أن يتصل بالله إلا إذا عرف طريق العبادة فهذا ما لا نرمي إليه، ولكننا نستطيع أن نؤكد هنا شيئاً واحداً وهو أننا لا نستطيع أن نصقل قوانا الروحية ونصل بها إلى غايتها العليا. إلا إذا عرفنا ما يجب عن الله جل شأنه، وما يوجبه علينا من الفروض في هذه الحياة، ونعد أنفسنا لطاعته على الدوام.

إن العبادة أمر طبيعي في الإنسان. فنحن في بداوتنا أو حضارتنا، إذا أصابتنا ملمة نفكر دائماً في تلك القوة التي تقينا شر العوادي، ونصور بألسنتنا أو قلوبنا ذلك الإحساس العميق نحو الخالق الذي بيده كل شيء. فبعضنا يلجأ إلى الرقي والتعاويذ وبعضنا يلجأ إلى الخلوات وبعضنا يتوجه إلى الكنائس وبعضنا يذهب إلى المساجد وبعضنا يجأر إلى القوة الإلهية مستصرخاً من شر ما يلاقيه، ومهما تتعدد الوسائل وتختلف الأسباب، فكلنا نتجه إلى قوة نسألها العون في جميع المطالب.

إن عقائدنا تصور نفوسنا. فمن الواجب أن نعرف الرأي السديد في معرفة الله إذ أن

حياتنا وأخلاقنا يسيران خطوة خطوة وراء هذا الرأي.
نحن حين نعبد الله نعبد صفات. فماذا ترى أن تكون صفات الله. إن عبادتنا تتوقف على معرفة ذلك. فإذا عرفنا الله معرفة خاطئة لا يقبل عبادتنا. فلا يصح مثلاً أن نطلب إلى الله أن يقسو على أعدائنا، أو نطلب إليه تحقيق رغبة من الرغبات التي تبعثها الأنانية الشخصية، لأن الله له صفات فوق كل ذلك.
يجب أن ننظر إلى الله عن طريق الحق والجمال وحب الخير، وأن نعتقد بأنه منزه عن كل
ما يخالف هذه الصفات.
البريد الأدبي
في كلية الآداب
1 - جاءني صديق يدرس علماً من العلوم العقلية في كلية الآداب، جاءني يشكو. وهذا الصديق كان زميلي أيام التحصيل في جامعة باريس.
قال صديقي: أتدري ما يجري عندنا؟ قلت: خيراً! قال: إن أحد المدرسين من الأجانب لا يقنع بما تم له في جانب التدريس بفضل سعي مستشرق كبير، فها هو ذا يتلطف ليظفر بإدارة شؤون مكتبة الجامعة. وأعجب من هذا أنه يتلمس من الكلية استقدام زميل له شاب من أوربة، فيقول إنه من ذوي البسطة في اللغة العربية ومن أهل النظر في الاستشراق، وإنه لا غنى للكلية عنه في تلقين الطلبة (مناهج البحث في المشرقيات). ومما يورث الأسف أن آذان (قسم اللغة العربية) في الجامعة قد نشطت إلى هذه الأقوال. ولو تدري يا صديقي أن هذا العالم الشاب - واسمه سلومون بينيس - قد عرفناه في باريس قلت: لا أذكره. قال: إنه ذلك اليهودي اللتواني، وفي منطقه عِي. قلت حقاً لا أذكره؛ ألا تخبرني عن كفايته؟ قال: إنه لا يحمل سوى شهادة الدكتوراه من ألمانيا، وأنت تدري أن الدكتوراه الألمانية ليست بشيء يذكر إذ المعول عليه هنالك شهادة (الهابليتاتسيون)، وما الدكتوراه إلا في مرتبة (الليسانس) الفرنسية.
قلت: هل ألّف الرجل شيئاً فنُعظم فهمه ونكبر عرفانه؟ قال: إنه صنَّف رسالةً في الفلسفة الإسلامية لم يشقَّ بها أفقاً ولم يكشف عن سر، فهو ممن يجري ويُجرى مَعَه. بالله خبِّرني: أكلُّ من خطر له أن يسقط إلينا يصيب الأذرع إلى العناق مشتاقة؟ ثم ماذا أقول عن هذا، وماذا يقول إخواني وجلّهم من زملائي الباريسيين أو البرلينيين؟ إنَّ في مصر غير واحد ممن حصل في أوربة فن الاستشراق ومارسه وألّف فيه وظفر برضا أهله وإعجابهم، وذلك فضلاً عن أن العربية لغتنا فقدُمنا فيها أثبت وبصرنا بها أعلى).
إني أنقل شكوى الزميل، وأملي أن يكون حديثه وهما من الأوهام.
2 - في كلية الآداب (معهد الدراسات الإسلامية) وهو اسم واقع على شيء غير موجود، بل على خزانة كتب (وهي غير وافية فلقد شكا إلى بعضهم أن ليس فيها (كتاب الشعر) لأرسطو، ترجمة أبي بشر متي بن يونس).
وقال لي قائل: إن الوزارة السابقة وقفت دون إخراج هذا المعهد من جانب القوة إلى جانب الفعل، وذلك دفعاً لفتنةٍ قد تقوم بين كليتين في هذا البلد. فانظر كيف تُفسد السياسة مسالك العلم.
إن معهداً للدراسات الإسلامية مما لا معدِل عنه لمصر. وقد فصلت ذلك في العدد الخاص لمجلة (المكشوف) البيروتية (10 يولية 1939) فلا أحب أن أعود إلى ما جاء هنالك. غير أني أذكِّر بعضهم أنْ ليس في مصر - وهي مصر - مجلة محض علمية موقوفة على مسائل الإسلام وشؤون العرب، على حين أن في بيروت مجلة (المشرق) وفي دمشق (مجلة المجمع العلمي العربي). وأما أوربة وأمريكة فمجلات الاستشراق تزيد فيها على الثلاثين. وأغرب من هذا أن للفرنجة في مختلف البلدان الإسلامية مجلات رفيعة الشأن، وقد ذكرت بعضها في (المكشوف).
3 - منذ تسعة أشهر أو نحو ذلك أُلِّفت في كلية الآداب لجنة لوضع المصطلحات الفلسفية باللغة العربية. وأعضاء هذه اللجنة طائفة من الأساتذة والمدرسين من مصريين وأجانب. واللجنة على قسمين: قسم للتحرير وآخر للعمل. وهذا القسم الثاني على شعب، وإحدى هذه الشعب إنما همها منصرف إلى تأليف معجم المنطق من طريق استخراج المصطلحات فالتنقيب عن أصلها اليوناني ثم الاهتداء إلى نظائرها في

اللغات الإفرنجية الحديثة. ومما نوته هذه الشعبة طبع منطق كتاب الشفا لابن سينا طلباً للوصول إلى مصطلحاته وبذلها للمراجعين. هذا وأعمال سائر الشعب على ذلك النحو.

ولاشك أن مثل ذلك السعي محمود، فمن ورائه تُسد حاجات التعبير الفلسفي بقواعد صحيحة. ولاشك في أن جُل رجال تلك الشعب أهل اطلاع ومعرفة، وإن نُحِّيَ عنهم غيرهم من المشتغلين بمصطلح الفلسفة الإسلامية.

غير أن أعمال تلك اللجنة لا تزال حديثاً يُتناقل في أندية الثقافة العليا، وإن كان حديث صدق. مصداق ذلك أن شعبة معجم المنطق لم تقم في أثناء تلك المدة إلا بتصوير منطق كتاب الشفا وهو مخطوط. وهذا البطء في الإنجاز قد دعا بعض المستشرقين المتصلين باللجنة إلى أن يكتب إليها يستخبرها الخبر على ما انتهى إليَّ.

فعسى أن تمنع اللجنة الناس أن يقولوا إن مجمع فؤاد الأول للغة العربية أوفر نشاطاً من لجنة وضع المصطلحات الفلسفية في كلية الآداب.

بشر فارس

أعجب العجب

صديقنا الدكتور بشر فارس لا يسره كثيراً أن يعترف بالحق: فهو ينقل الجدل من ميدان إلى ميدان ليُنسيَ القراء موضوع الخلاف.

هو يقول بوجوب إلقاء الشعر كما يُلقى النثر، وأنا أقول إن الوزن من العناصر الأساسية في الشعر، ومن الواجب مراعاة ذلك عند الإلقاء.

هذا هو أصل الخلاف، فكيف استباح أن يعيد على سمعي مسألة بديهية تقرر أن الشاعر خير من الوازن؟ وهل يظن أن (زميله الباريسي) ممن تخفى عليهم البديهيات؟

ويقول: (إن الطرب لا يأخذ النفس اللطيفة من طريق الحس الظاهر) وهو في هذا الحكم من المخطئين: فالحواس هي أدوات النفس، ولكل صورة وجدانية أصل من الصور الحسية، وهذا بحثٌ مسهَب أودعته كتاب (التصوف الإسلامي) فلا أعود إليه: لأني أبغض الحديث المعاد، ولأني لا أحب أن أعود إلى درس هذا البحث من جديد، ولأن لمجلة (الرسالة) شواغل أهم من درس الموضوعات التي دُرست من قبل.

وأراد الدكتور فارس أن يداعب (زميله الباريسي) فسأله عن صحة (ليلى المريضة في العراق).

وأقول إن (ليلى) فوق التهكم والسخرية يا دكتور فارس فاتق الله في رأسك فقد يطيح في لحظة غضب إذا توهمت أنه يجوز المزاح مع الحب.

وتقل إني أردت أن أذيع فيكم أني مفتون بالجمال

فماذا تريدون! أتريدون أن أفتن بالقبح كما تُفتنون؟

إن القاهرة لم تخلق فيكم شاعراً يصف أيامها الغُرِّ ولياليها البيض، وليس فيكم من تحدث عن شارع فؤاد كما تحدث طبيب ليلى المريضة في العراق، وهل ألهمتك باريس ما ألهمتْ صاحب كتاب (ذكريات باريس)؟

أحبك يا ليلى، وأحب من أجلك جميع اللائمين والعاذلين. ذكَّرتني يا بِشر بليلاي، فمتى أرى ليلاي؟ ومتى يهديك الله، أيها العذول!

زكي مبارك

1 - الروحانية، والفكرية

2 - اللفظة الإغريقية

1 - مما يُروى حاشية لمقالة المِعَن المِفَن الدكتور زكي مبارك الأديب المشهور في نعيم الجنة التي وُعد بها في الغد لا اليوم المتقون - خبر فرقة اسمها (الروحانية، الفكرية) تعجلت في الدنيا لذات وطيبات في الأخرى ولم تتمهل و (من طلب الشيء قبل أوانه مُنِي بحرمانه) وقد ذكر تلك الفرقة المستعجلة. . (أبو الحسين محمد بن أحمد الملَطي المتوفى سنة 377) في منصفه (كتاب التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع) وهو من الكنوز العربية التي أظهرها العربانيون - لا العربيون - منذ ثلاث سنين. وفيه من أخبار النحل ما فات كتبها المشهورة مثل مقالات الإسلاميين، والفِصَل، والملل والنحل، والفَرْق بين الفرَق.

قال الملطي: (ومنهم الروحانية وهم أصناف، وإنما سموا (الروحانية) لأنهم زعموا أن أرواحهم تنظر إلى ملكوت السموات وبها يعاينون الجنان، ويجامعون الحور العين، وتسرح في الجنة، وسموا أيضاً (الفكرية) لأنهم يتفكرون - زعموا - في هذا حتى يصيروا اليه، فجعلوا الفكر بهذا غاية عبادتهم ومنتهى إرادتهم، ينظرون بأرواحهم في تلك الفكرة إلى هذه الغاية، فيتلذذون بمخاطبة الإلهية لهم، ومصافحته إياهم، ونظرهم إليه - زعموا - ويتمتعون بالحور العين ومفاكهة الأبكار على الأرائك متكئين ويسعى عليهم الولدان المخلدون بأصناف الطعام وألوان الشراب، وطرائف الثمار. . . ولو كانت الفكرة في ذنوبهم الندم عليها والتوبة منها والاستغفار لكان مستقيما. وأما هذه الفكرة فبوبها لهم الشيطان لأنه لا يتلذذ بلذات الجنة إلا من صار إليها يوم القيامة، وهكذا وعد الله عباده المؤمنين والمؤمنات).

وذكر ذلك الكتاب صنفاً آخر (من الروحانية) أغرب من الصنف الأول وأنكر. . . قال: (ومنهم صنف من الروحانية - زعموا - أن حب الله يغلب على قلوبهم وأهوائهم وإرادتهم

حتى يكون حبه أغلب الأشياء عليهم. فإذا كان كذلك عندهم كانوا عنده بهذه المنزلة ووقعت عليهم الخلّة من الله؛ فجعل لهم السرقة والزنا وشرب الخمر والفواحش كلها على وجه الخلة بينهم وبين الله لا على وجه الحلال ولكن على وجه الخلة كما يحل للخليل الأخذ من مال خليله بغير إذنه، منهم رباح وكليب كانا يقولان بهذه المقالة، ويدعوان إليها. . . كذب أعداء الله وكيف يكون ذلك؟!).

إنه البشر حائر كيف يدين، حائر كيف يكون - لازال في حيرته! - وفي هذا الوقت في هذه (الكرة الأرضية) في هذه الاريضة الضيقة الضئيلة الحقيرة التي هي من ذنبات الشمس - أكثر من أربعة آلاف نحلة كما يقول جيو في كتابه ? ' (وكل يعظم دينه ويقول: إن الحق عندي، والحق يسخر منهم.

ألاَ (إن الدين عند الله الإسلامَ) الصحيح.

مقالة الباحث المفضال (الأستاذ محمد عبد الله العمودي) في الجزء (327) من - 2 (الرسالة الهادية) - مكتز بالفوايد، كشاف عن حقائق وسؤال منشيه حاذقي الإغريقية واللاطينية عما لا يدريه ولا ندريه من براهين فضله.

وقد تعديت في (كلمتي) السابقة البحث عن تلك اللفظة الإغريقية، وتركت مجادلة النابز في نبزه - إن كان يعني ما يعني - لأني إنما قصدت أن أبث ما بثثته، وأشكو - وقد ضيم العرب في كل إقليم - إلى سيدي (رسول الله) ما شكوته.

وأقول في هذا المقام في حكاية ذلك النبز: إن العربية الحرة ما أَمَت أو تأمت في حين. وإن لم تكن - يا أخا العرب - عِزوةٌ من العِزَواتُ التي خطها مؤرخون ولم يُحقها باحثون؛ فإن عربية محمدية إليها ننتمي لتتضاءل بل تضمحل قدامها في الكون كل نسبة.

(ن)

جوائز نوبل لسنة 1939

منحت جائزة نوبل الأدبية لسنة 1939 إلى الكاتب والأديب الفنلندي فرانز إميل سيلانبا.

ونالها في الطبيعة البروفسور أرنست أورلاندو لورانس الأستاذ بجامعة كاليفورنيا، مكافأة له على اكتشاف السيكلوترون وتحسينه والنتائج التي أمكن الحصول عليها بواسطته،

وخاصة فيما يتعلق بالعناصر الصناعية في محطات الإرسال الأثيرية.

أما جائزة نوبل للكيمياء في سنة 1939 فقد نالها الأستاذان بوتناندت الأستاذ بجامعة برلين، وروزيسكاتوف الأستاذ بجامعة زوريخ.

وقد كانت جائزة الكيمياء لسنة 1938 مؤجلة، فمنحها في هذا العام البروفسور كوهن الأستاذ بجامعة هيدليرج.

وقف دور انعقاد مجمع فؤاد الأول للغة العربية

أصدر حضرة صاحب المعالي وزير المعارف القرار الوزاري الآتي:

بعد الاطلاع على محضر الاجتماع الذي عقد في يوم 2 نوفمبر سنة 1939 من بعض أعضاء (مجمع فؤاد الأول للغة العربية) بشأن دور الانعقاد في هذا العام.

وبعد نظر المادة التاسعة من المرسوم الملكي الصادر في 14 شعبان سنة 1351 (13 ديسمبر سنة 1932) بإنشاء (مجمع ملكي للغة العربية).
من حيث أنه يتبين من مجموع الكتب الواردة في هذا الصدد من الأعضاء الأجانب أنه لا ينبغي الاطمئنان إلى توافر العدد الذي يكفل عقد جلسات المجمع في هذا العام.
ومن حيث أن التوجه بالدعوة مع ذلك إلى هؤلاء الأعضاء على وجه خاص، من شأنه أن يجشمهم مشقة السفر والتخلي عن الأعمال التي يعالجونها في بلادهم لو قدر لهم القرار فيها في هذه الفترة. هذا على حين لا يكفل عقد جلسات المجمع، لقلة العدد أو على الأقل انتظامها على فرض اكتمال الحد الأدنى الذي أوجبه المرسوم لصحة الانعقاد
المادة الأولى: وقف دور الانعقاد (لمجمع فؤاد الأول للغة العربية) هذا العام (1939 - 1940).
لمادة الثانية: على رئيس (مجمع فؤاد الأول للغة العربية) تنفيذ هذا القرار.
الأمير شكيب أرسلان في برلين
قالت جريدة (النهار) البيروتية:
اعتاد المذيع العربي في راديو الشرق أن يرد على أكاذيب المذيع العربي في راديو برلين على أثر تلاوة نشرة الأخبار المسائية. وقد تولى مساء الأربعاء تفنيد مزاعم راديو برلين
التي طلعت بها على العالم العربي لمناسبة وصول الأمير شكيب أرسلان إلى العاصمة الألمانية والحفاوة التي قوبل بها.
وقد علقت الصحف السويسرية على زيارة الامير، فقالت إن رئيس الدعاية النازية اقترح منح الأمير شكيب لقب مواطن شرف الريخ، ولكن هتلر رفض العمل بهذا الاقتراح بحجة أن الزائر من الجنس السامي ولا يجوز أن يمنح لقباً يجعله في مستوى أبناء الريخ.
وإزاء إلحاح رئيس الدعاية رضي هتلر بمنح الأمير لقب مواطن شرف على أن يرأس الحفلة رجل غير آري فوقع الاختيار على البارون اليهودي اربنهايم الذي كان يرأس دوائر الاستخبارات في البلاد العربية في الحرب العظمى.
حول صوت من ألف عام
حمدنا الأستاذ الاعظمي قيامه ببعث ديوان الأمير تميم وإمتاع الناس به وإتحاف قراء الرسالة ببعض شعره، ولكن هل كان أفضل شعره ما عرض فيه للعباس وعبد الله بن عباس في قصيدة الرد على ابن المعتز؛ وهل ثم ضرورة داعية إلى هذا وشعر ابن المعتز في هذا الوجه لا يكاد ينتبه إليه أحد لإعراض الناس عن هذه المفاضلات السياسية التي كانت لها مناسبات درست؟ ولقد كان العباس وعبد الله بن العباس وعلي والحسين أسرة واحدة وبينهم من الحرب والتناصر ما التاريخ ممتلئ به، فما بالنا اليوم نثير فتناً حمدنا الله على موتها؟ والعجب أن الأستاذ الاعظمي قائم على جماعة الأخوة الإسلامية والدعوة لها، فهل تقوم الأخوة على تذكير الناس بهذا الجانب الطائفي من الماضي السحيق؟
محمد علي النجار
مدرس بكلية اللغة العربية
رسالة النقد
في سبيل العربية
تصحيح نهاية الأرب
جزؤه الثاني عشر
بقلم الأستاذ عبد القادر المغربي
الأغلاط التي عثرنا عليها في هذا الجزء قليلة جداً، وقد يكون معظمها مما يسمونه خطأً مطبعياً، ومع هذا فسنذكر هنا هذه الأغلاط لتكون كاللحام يصل بين طرفي سلسلة التصحيحات التي خدمنا بها هذا الكتاب النفيس منذ أول صدوره ونشرناه على التوالي في أجزاء مجلة مجمعنا العلمي الدمشقي. وإذ قد توقفت مجلة هذا المجمع عن الصدور رأينا أن ننشر تصحيح الجزء الثاني عشر وما يليه في مجلة (الرسالة) وذلك لسعة انتشارها، ولأن معظم قراء مجلة المجمع الدمشقي من قرائها وهاهي ذي

تصحيحات الجزء الثاني عشر.

ص 63 س 8 قوله: (ويؤخذ من السُكُّ الأصفر الطوامير مثقال) السُكُّ طيب ذكره المؤلف ووصف أنواعه. و (الطوامير) جمع طومار وهو الصحيفة. وفي اصطلاح كتاب الدواوين قديماً صحائف ذات شكل خاص تطوى طياً خاصاً. قال كعب بن زهير في وصف ناقته من شعر (طُمِّرت تطميراً) أي كأنها طويت طيَّ الطواميرـ فكلمة الطواميرـ إذن لا تصلح أن تكون صفةً أو بدلاً من كلمة (السُك) فلعل صوابها (الطواميري) بياء النسبة. ويكون معنى نسبة السك إلى الطواميرـ أن ذلك السك مما يحفظ في الطوامير لا في أوعيةٍ أو ظروف أخرى، أو المعنى أن لون السُك الأصفر فاتح أو قاتم كلون الطوامير.

وقد تتبعنا ما قاله المؤلف في طريقة اتخاذ السُك فلم نجد ما يساعدنا على معرفة المراد من وصفه بالطواميري.

ص 90 س 5 قوله: (طبيخ ألبان بالأفاويه مع الماء أقوى له) الصواب أن يكون (طبخ) بصيغة المصدر إذ أن سياق الكلام والإخبار بقوله: (أقوى) يقتضيان هذا.

ص 121 س 2 قوله: (ثم دُقه بشيءٍ من ماء التمر) الضمير في (دقَّه) يرجع إلى الآس الذي دُقَّ دقاً جريشاً ثم عُجن بماء التمر إلى أن قال: (ثم دقه الخ). ولا يخفى أن قوله: بالقاف المشددة محرف أو مصحف وصوابه (دُفهُ) بالفاء الساكنة أمر من فعل (دفّه) داف يدوف. قال في (الأساس): (داف المسك بالعنبر خلطه به. وداف الزعفران أو الدواء خلطه بالماء ليبتل) ولا ريب في أن ماء التمر لا يتصور أن يدق به شيء من الأشياء وإنما يداف به ويخلط. وفعل (الدوف) استعمله المؤلف في غير ما موضع. ففي ص 132 س 5 (ويُدافان بالطلاء الريحاني) وفي ص 135 س 10 (الزعفران والمسك المدافين بدهن البلسان).

ص 128 س 10 قوله: (وصعده على هبال الماء) ضمير (صعده) يرجع إلى المسك المدوف بماء الورد (التصعيد) كما في القاموس وشرحه الإذابة ومنه قيل خلٌّ مصعَّد. ويقال شراب مصعَّد إذا عولج بالنار حتى يحوَّل عما هو عليه طعماً ولوناً اهـ. وهبال الماء بخاره الساخن الصاعد عنه وهو على النار. وهي كلمة عامية كانت شائعة على ما يظهرـ في عهد المؤلف كما لا تزال شائعة في بلادنا الشامية غير أنا نلفظها نحن الشوام (هبلة) لا (هبال) على أن (هبال) قد تكون جمعاً لهبلة فإن (فعلة) تجمع على (فعال) قياساً نحو قصعة وقصاع. واليسوعيون في معجمهم العربي الفرنسي فسروا الهبلة ? وضعوا أمامها العلامة التي تدل على أن الكلمة ليست فصيحة وإنما هي مستعملة في اللغة العامية. وأذكر أن بعض العارفين باللغات السامية عدَّ كلمة (الهبلة) في جملة الكلمات الباقية في العامية الشامية من اللغة السريانية. ولا يخفى أن مؤلف (نهاية الأرب) يتسامح في استعمال الكلمات الدخيلة الجارية في لهجة عوام زمانه: فهو يقول (شوابير) ويريد بها القطع أو الفتائل المجعولة على طول الشبر. ويقول (الريم) ويريد به الزبد أو الرغوة التي تعلو المائعات وهي تغلي على النار فتلتقط وترمى. والكلمتان عاميتان شائعتان في مصر والشام إلى زماننا هذا. فلا حاجة إذن إلى جعل (الهبال) الواردة في كلام المؤلف محرفة عن كلمة (الهباء) بالهمزة وهو ما ارتفع من الغبار وأن المراد بالهباء حينئذ البخار الساخن مجازاً.

ص 144 س 2 قوله (ويغلى بزيت مغسول) لعل الأفصح في استعمال هذا الفعل هنا أن يقال (يُقلى) بالقاف لا (يُغلى) بالغين: فإن ما يطبخ بالزيوت والادهان من دون إضافة ماء يستعمل فيه فعل قلاه يقلوه وآلته (المقلاة). وإذا طبخ الطعام بالماء مع زيت أو دهن أو من دونهما ثم بقبق قيل إن الطعام يغلي غلياناً، وإن الطاهي أغلاه وطبخه لا قلاه وحمصه.

على أن الغليان في عبارة المؤلف قد يكون له معنى ولكننا نستبعد أن يكون مراداً للمؤلف فهو في الراجح من تصحيف النساخ.

ص 160 س 10 ذكر المؤلف عقاقير سُحقت ونُخلت وعُجنت بعسل، ثم قال: (وتُبسط على جام وتقطع وتستعمل) ثم قال في ص 161 س 6 (ويبسط على جام الخ) واستعمال الجام في الموضعين صحيح فصيح فلا حاجة إلى تصحيح الجام بكلمة (الرخام) وإن كان بسط الأدوية والطيوب على رخام كثير الوقوع، غير أن بسطها على الجام أقرب تصوراً وتعقلاً. وبيانه أن للجام معاني ثلاثة تختلف باختلاف اللغات الثلاث

العربية والتركية والفارسية فالجام في العربية معناه الإناء من فضة، وقال علماء اللغة إنه بهذا المعنى عربي فصيح. والجام في التركية لزجاج كزجاج الشبابيك والمرايا. والجام في الفارسية القدح الذي يشرب به الشراب في الأكثر وغير الشراب في الأقل.

ولا يمكن أن يكون المراد من (الجام) في عبارة المؤلف هذا المعنى الفارسي أي القدح؛ وإنما الممكن أن يكون المراد الإناء من فضة (بالمعنى العربي) أو لوح الزجاج (بالمعنى التركي)، فإن بسط العقاقير ومعالجة تركيبها عليه أكثر الشيوع وشد ما رأيناه في الصيدليات. ولا سيما إذا لاحظنا أن طائفة من علماء اللغة قالوا إن (الجام) هو (الفاثور) وفسروا الفاثور بالطست يكون من رخام أو فضة. وخص الأزهري فقال: إن أهل الشام يتخذونه من رخام. فإذا كان الجام قد يتخذ من رخام فلا حاجة إذن إلى تصحيحه بالرخام. والفاثور أيضاً قد يكون بمعنى قرص الشمس وقد سموا قرصها بالفاثور على التشبيه. وهذا يدل على أن الفاثور الذي يسمى الجام لا يكون له حروف قائمة حواليه حتى قال في (الروض الأنف): (الفاثور سبيكة الفضة) والسبيكة لا حروف لها كما لا يخفى. ويؤيد هذا ما جاء في كتاب (الألفاظ الفارسية المعربة) من أن (فاثور) معرب (بتر) وهو كل ما صفح من ذهب وفضة ونحاس. ثم نقلوه إلى الآنية المعدنية التي لها شكل الصفائح كالخوان والطست وقرص الشمس، ثم شبهوا به صدر الحسان وخاصة صدر بثينة الذي قال فيه جميل:

سبتني بعيني جؤذر وسط ربرب ... وصدر كفاثور اللجين وجيد

وبالجملة فإن استعمال المؤلف لكلمة (جام) بمعنى الإناء أو الزجاج صحيح ولا حاجة إلى تصحيحه بالرخام وإن كان استعمال الرخام في هذا المقام ممكناً.

ص 169 س 6 قوله: (ويؤخذ ماء الصِلق المعتصر) الفصيح في (السلق) وهو الخضرة المعروفة أن يكون بالسين كما ورد في معاجم اللغة. لكن لما كان المؤلف يتسامح في استعمال الكلمات العامية كما قلنا وكان (الصلق) بالصاد مما ينطق به عامة زمانه كما ينطق به عامة زماننا - لما كان ذلك كذلك حَسُنَ الإبقاء على (الصلق) الواردة في عبارة المؤلف بالصاد ولا حاجة إلى تصحيحها بالسين، وهذا كما أبقينا على كلمة (ملو) بالواو وهي عامية مكان (ملء) بالهمزة في عبارة المؤلف (ص 140 س 5) وهي قوله: (ويكون العصير أقل من ملو القارورة) وقد أحسن المصحح الفاضل صنعاً في قوله: (أبقينا (ملو) على حاله حرصاً على استعمال المؤلف) وكذلك نبقي كلمة (الصلق) بالصاد على حالها حرصاً على استعماله: فإن في هذا الإبقاء على الكلمات العامية الواردة في عبارات علمائنا وكُتابنا الأقدمين - غرضاً له قيمته في معرفة تطور الألفاظ وتاريخ اللهجات كما لا يخفى.

ص 162 إلى 177 وصف المؤلف خلال هذه الصفحات أدوية مركبة من عقاقير لتنمية (القوة الجنسية) وقد ذكر في عنوان ثلاث (وصفات) منها أنها (تسخِّن الكلَى) بالخاء وفي ثلاث وصفات أخرى أنها (تسمِّن الكلى) بالميم، فإذا كانت كلتا الكلمتين صحيحتين غير محرفتين كان ذلك من أسرار الطب القديم، وإلا فإن طبيباً من فضلاء أطبائنا قال: (بعد أن اطلع على نصوص الكتاب) إن إحدى الكلمتين (تسخن وتسمن) محرفة عن الأخرى وأن الصواب في ظني هي (تسخن) بالخاء دون (تسمن) بالميم، واستدل على ذلك بأن المؤلف وصف هذه العقاقير بأنها (كثيرة الحرارة)، ولا ريب أن كثرة حرارتها تحدث حرارة في البدن عامة وفي الكُلية خاصة، قال: وهذا ما وقع لي مذ كنت في السودان فقد دعاني شيوخها إلى وليمة أكثروا في طعامها من الفلفل الحار فأدى ذلك إلى حصول التهاب ونزيف دموي في كليتي. فلا جرم أن يكون المؤلف في وصفاته إنما أراد أن العقاقير تسخّن وتحدث حرارة لا تسمّن الكلية وتضخمها. وفوق كل ذي علم عليم.

المغربي

العدد 334 - بتاريخ: 27 - 11 - 1939

خطاب العرش من الوجهة الأدبية

للدكتور زكي مبارك

أخي الأستاذ الزيات

أحب أن يتسع صدر (الرسالة) لموضوع لم يكتب فيه الباحثون من قبلُ: وهو نقد خطاب العرش من الوجهة الأدبية

وأسارع فأذكِّر القرّاء بأن هذا الموضوع لا يحتاج إلى تحفظ وإحتراس، لأن خطاب العرش ليس من إنشاء جلالة الملك، وإن كان يُلقى باسمه الكريم، وإنما هو إنشاء رئيس الوزراء، وهو الذي يحاسَب عليه أمام الشيوخ والنواب، بآية ما نشهد من تأليف اللجان البرلمانية للرد عليه، في حدود قد تصل أحياناً إلى الصرامة والعنف، وقد تعرِّض الوزارة إلى تعديل بعض النصوص أو تستقيل

ولعل هذا هو السرّ في أن جلالة الملك لاُيلقى خطاب العرش بنفسه كما يصنع حين يتفضل بتوجيه الرأي والتحية إلى شعبه في فواتح الأعوام وفي المواسم والأعياد وخطاب العرش في التاريخ الحديث يشبه العهود التي كانت تُكتب بأسماء الخلفاء في التاريخ القديم، ونحن نعرف أن كُتّاب (العهود) كانوا يُسألون عما يقع فيها من خطأ أو إسراف، لأنه كان مفهوماً أن الخلفاء لا يكتبون بأنفسهم تلك العهود، ولذلك تفاصيل يضيق عنها هذا المقال، وهي معروفة لجميع المطلّعين على تاريخ الحضارة الإسلامية

إن خطاب العرش من إنشاء رئيس الوزراء، ولكنه يُلقَى باسم جلالة الملك: فمن الواجب أن يكون صورة رائعة من الوثائق الأدبية التي تمثل عظمة مصر لهذا العهد، فهل كان كذلك؟

إن صاحب المقام الرفيع علي ماهر باشا من رجال مصر المعدودين، وهو في أنفُس خصومه أهلٌ للتبجيل، فمن حقنا عليه ونحن نؤمن بكفايته الذاتية أن نطمع في أن يمنح خطاب العرش عناية خاصة من الوجهة الأدبية ليكون في نَسَق مع مطامحهِ العالية في خدمة البلاد، وليكون في طراز مع الخطب الجيدة التي كان يلقيها يوم كان وزيراً للمعارف في سنة 1925

وقد يمكن الاعتذار عن خطاب العرش بأنهُ خلاصة لآراء تصل إلى الرياسة عن مختلف الوزارات، ولكن تنوُّع المصادر التي تؤلف خطاب العرش لا يُعفي الرئيس من إنشائه بطريقة مُحكَمة تضعه في الصف الأول بين الوثائق الأدبية التي يعتز بها العهد الجديد: عهد فاروق بن فؤاد

ولكن ما هي المآخذ التي توجَّه إلى خطاب العرش من الوجهة الأدبية؟

نلاحظ أولاً أن فيه عبارات لا تقال في وثيقة رسمية كالعبارة الآتية:

(قد آن لنا أن نعمل وأن نلبي داعي الوطنية والإيمان، داعي الرجولة والتضحية والكفاح)

لأن الحكومة الجديدة ليست أول من يعمل حتى يشهد لها بذلك، وإنما عملُها حلقةٌ من سلسلة كونتها الحكومات المصرية من قبل، وقد شهد رفعة الرئيس بأن فيمن سبقوه رجالاً كانت لهم وطنية وتضحية وإيمان

وكذلك نقرأ في خطاب العرش:

(وقد فطن جدي الأعلى محمد علي الكبير إلى الصلة المتينة التي تربط الجيش الوطني القومي بفروع الإصلاحات والإدارة العامة: فما كاد الجيش المصري يظهر في الوجود حتى ظهرت في البلاد إدارة منظمة ومصانع ومعامل ومدارس لا عداد لها)

وليس هناك شكّ في أن المغفور له محمد علي الكبير نهض بمصر نهضة عظيمة، ولكن لا يقال إن عهد محمد علي كان أول عهد لظهور الجيش المصري في الوجود، فإن معنى ذلك أن مصر لم تكن أمة قبل أن تعرف محمد علي الكبير. والرأي الصحيح أن مصر كانت أمة لها وجود أدبي واجتماعي وسياسي، فلما جاء محمد علي عملت يداه في تنظيم ما كان في مصر من قوة أدبية ومعنوية فكان لها المكان الذي عرفته الأمم في التاريخ الحديث. . . كان محمد علي الكبير تركيّاً، وكان يسرهُ بالطبع أن تكون لغة مصر هي التركية، ولكنه رأى بثاقب الفكر المبدع أن اللغة العربية من أقوى مظاهر القومية المصرية فساعد على تقوية اللغة العربية ليتأصل حبهُ في القلوب المصرية، ومن كان هذا حاله لا يقال إن عهده كان أول عهد لظهور الجيش المصري في الوجود

وفي خطاب العرش أن مصر لذلك العهد ظهرت فيها مصانع ومعامل ومدارس لا عداد لها، وجملة (لا عداد لها) جملة يراد بها التفخيم، ولكنها لا تُقبَل في وثيقة مثل خطاب العرش، لأن هذا مقام يفصَّل فيه القصد في الإغراق

وماذا يريد الخطاب من العبارة الآتية:
(مصر مهد المدنية، وعلى يديها نهضت، ومنها خرجت وإليها تعود)
أيكون معنى ذلك أن المدنية خرجت من مصر إلى مَعاد؟
أيكون معناه أن المدنية يوم تعود إلى مصر ستفارق ما سواها من الممالك والشعوب؟
ويقول خطاب العرش:
(إن التفاتنا إلى الماضي لا يُنسينا الحاضر، والذكرى تبعث الذكرى)
فما معنى عبارة: (والذكرى تبعث الذكرى)؟ أيكون الحاضر أيضاً من الذكريات؟
ويقول خطاب العرش:
(ومما تطيب له النفس أن الأمة متعلقة بعرشها)
فهل يظن أن هذا مما يُنص عليه؟
إن تعلق الأمة بالعرش لا يحتاج إلى هذا النص، لأنه من البديهيات، ولأنه من موضوع الخطاب.
ويقول:
(كان لابدّ من السير بسفينة البلاد في يقظة وأمن وحذر)
فما موقع كلمة (الأمن) بين اليقظة والحذر؟ لعله كان يريد كلمة: (الإيمان) أو (العزيمة) أو (الثقة) ولم يسعفه التعبير بما يريد.
ويقول بعد أن أشار إلى وجوب العناية بإصلاح جميع المرافق:
(فلا يجدي والحالة هذه أن نعدد برامج الإصلاح في الوزارات القائمة).
فما معنى (الوزارات القائمة)؟ وبأي حق يكون تعدد برامج الإصلاح شيئاً (لا يُجدي)؟
إن خطاب العرش يريد أن يقول: إن المقام مقام إجمال لا مقام تفصيل؛ ثم ضاقت به العبارة عما يريد، فرأى تعديد برامج الإصلاح من الفضول!
ويقول في إعادة إنشاء المجلس الأعلى للتعليم: إن الغاية منه أن (تتحقق مصلحة البلاد العليا التي يجب أن تعلو على كل مصلحة أخرى).
فما موقع كلمة (كل مصلحة أخرى)؟ وما الموجب للنص عليها في هذا الخطاب؟
ويقول:
(وإن حرصنا على الدفاع عن أرض البلاد واستقلالها لا يحده حد ولا يدركه وهن).
وعبارة (لا يدركه وهن) لا تخلو من وهن!
ويقول:
(إن تعاوننا مع حليفتنا سيكون أكبر رائد لنا في العمل)
ونحن حلفاء الإنجليز، ولكن لا ينبغي أن نقول إن ذلك التحالف أكبر رائد لنا في العمل، لأن لنا إرادة ذاتية هي رائدنا الأكبر في السلم والحرب
بقيت مسألة على جانب من الأهمية وهي سكوت خطاب العرش عن الحياة الأدبية في هذه البلاد
العمّال موضع اهتمام، والفلاحون موضع اهتمام، والجنود موضع اهتمام، كل شيء في مصر موضع اهتمام في خطاب العرش إلا الأدب والأدباء، فكيف جاز ذلك، أيها الناس؟
إن خطاب العرش يتمدّح بما وصلنا إليه في توثيق الروابط الأدبية والثقافية بيننا وبين الأمم الشرقية
فهل يذكر خطاب العرش أن أدباء مصر هم الذين رفعوا القواعد من تلك الروابط؟
وهل يرى الشرق مصر إلا في مرآة الآداب والفنون؟
إن الأدباء هم سفراء الثقافة المصرية في الشرق، فكيف يكثر على منشئ خطاب العرش أن يشير إليهم بكلمة تشجيع وهو يتحدث عن صلات مصر بأمم الشرق؟
إننا نعتب على رؤساء الحكومات المصرية أشد العَتْب، فلكل هيئة من الهيئات حظ من الرعاية والتشجيع، إلا جماعات الأدباء والباحثين الذين يُقذون أبصارهم تحت أضواء المصابيح، فهم المنسُّيون، مع أنهم يحملون أكثر الأعباء، ويؤدون للأمة وللدولة أعظم الخدمات، وبأعمالهم تظهر خصائص الشعوب
أين حظ الأدباء من ألقاب التشريف ودعوات التشريف في المواسم والأعياد؟ وأين الوزير الذي يقترح رتبة لموظف أو غير موظف باسم المواهب الأدبية؟ بل أين من يعرف أن أدباء مصر رفعوا اللغة العربية مكاناً عليّاً لم تعرف مثله في عهد بني أمية

وعصر بني العباس؟
إننا نرفع هذا الصوت إلى حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول راجين أن يضع سُنّةً جديدة في تشجيع الأدب والأدباء تضاف إلى مآثره الغُر في عهده السعيد
زكي مبارك
في مزارات الإسكندرية
مع الشيخ الخالدي
للدكتور عبد الوهاب عزام
لقيت الشيخ العلامة خليلا الخالدي في الأسكندرية، ففرحتُ بمقدمه إلى هذه المدينة، وكنت أحسبه لا يعرف كثيراً من مشاهدها وأخبارها. جلسنا نتحدث والشيخ إذا ترك لشأنه لم يتجاوز حديثه الكتب والمؤلفين ومعاهد العلم ودور الكتب. فلما تحدث عن خطوط العلماء الجيدة والرديئة - وقد ذكرت هذا في مقال سابق - قال: وكان الطرطوشي من أصحاب الخطوط الرديئة. فلما ذكر الطرطوشي وهو من علماء الإسكندرية نقلت الحديث إلى علماء هذه المدينة؛ فإذا الشيخ عالم بأخبارها خبير بمزاراتهم. ذكر من المحدثين والعلماء عبد الرحمن بن هرمز والسِّلفي والقاضي سند وابن المنّير. وذكر من الصوفية أبا العباس المرسي والبوصيري والأسمر وياقوت العرش. وتواعدنا يوماً نزور فيه هؤلاء الكبراء
وتلاقينا يوم الاثنين سادس رجب (21 أغسطس)، وكان معنا الأستاذان عبد الفتاح عزام وعبد الغفار الطنطاوي. فذهبنا صوب الميناء نسأل عن عبد الرحمن بن هرمز حتى وقفنا على مسجد صغير في أحد جوانبه حجرة يتوسطها قبر يقول الناس إنه لأبن هرمز، ورأينا لوحاً على الجدار كتب فيه أن هذا قبر عبد الرحمن ابن هرمز المتوفى سنة سبع عشرة ومائة. قال الشيخ: وهو ممن روي عن أبي هريرة: قلت: بل هو من واضعي علم النحو ومن تلاميذ أبي الأسود الدؤلي. قال ابن الأنباري:
وأما الأعرج فهو أبو داود عبد الرحمن بن هرمز الأعرج. وكان مولى لمحمد بن ربيعة بن الحارث بن المطلب. وكان أحد القراء عالماً بالعربية وأعلم الناس بأنساب العرب. وخرج إلى الإسكندرية وأقام بها إلى أن مات سنة سبع عشرة ومائة
ونقل السيوطي عن الزبيدي أنه كان من أول من وضع العربية. ثم سرنا إلى مسجد آخر فألفينا في حجرة متصلة به قبرين كبيرين كتب على أحدهما: أبو بكر محمد بن محمد بن الوليد النهري الطرطوشي المتوفى سنة 521. قال الشيخ: له كتاب البدع وهذا الكتاب وكتاب البدع لابن وضاح مأخذ كتاب الاعتصام للشاطبي صاحب الموافقات. قال وبين وفاة الطرطوشي وابن رشد الكبير شهران أو ثلاثة
أقول: هو أحد علماء المسلمين الأعلام ينسب إلى طرطوشة من بلاد الأندلس نشأ بها وطلب العلم في البلاد الأندلسية، أخذ عن أبي الوليد الباجي وابن حزم. ورحل إلى الشرق سنة ست وسبعين وأربعمائة وحج ولقي شيوخ العراق وأقام بالشام زمناً ودرس بها. وله مؤلفات أعظمها سراج الملوك
ونقل ابن خلكان عن كتاب الصلة لابن بشكوال أنه: (دفن في مقبرة وعلة قريباً من البرج الجديد قبليّ الباب الأخضر في الإسكندرية)
والقبر الذي بجانب قبر الطرطوشي كتب عليه أنه قبر محمد الأسعد. ولست أدري من هو
تركنا مسجد الطرطوشي لنزور اثنين من جلّة العلماء القاضي سند والحافظ السِّلَفي، فدُللنا على مسجد صغير جداً فإذا قبر بجانب جداره الغربي علّق فوقه لوح كتب فيه أنه قبر القاضي سند بن عنان الأزدي المتوفى سنة 541 هـ. قال الشيخ الخالدي: وهو شارح المدونة في فقه الإمام مالك. وقرأت في حسن المحاضرة أنه (تفقه بالطرطوشي وجلس في حلقته بعده وانتفع به الناس وشرح المدونة وكان من زهاد العلماء وكبار الصالحين، فقيهاً فاضلاً مات بالإسكندرية سنة إحدى وأربعين وخمسمائة)
وسألت أين قبر الحافظ السلفي فأشار خادم المسجد إلى موضع بجانب سارية أمام المنبر وقال: قد سوّي القبر بالأرض ليتسع المكان للصلاة. قال الخالدي وكذلك رأيت في مساجد المغرب يصلي الناس على بلاطات تحتها قبور
والحافظ السلفي ولد في أصفهان حوالي سنة 475 وشغل بالحديث ورحل في طلبه وورد بغداد وأخذ اللغة عن الخطيب التبريزي. وقدم ثغر الإسكندرية سنة إحدى عشرة

وخمسمائة وأقام بها أكثر من ستين سنة حتى توفى سنة 576. وقصده الناس من مصر وغيرها يأخذون عنه وذاع صيته في الآفاق. وبنى له العادل وزير الظافر الفاطمي مدرسة في الإسكندرية وبقيت تعرف باسمه زمناً طويلاً ودفن في مقبرة وعلة أيضاً وكانت مقبرة وعلة مقبرة كبيرة بالإسكندرية دفن فيها كثير من العلماء. وسمعت من الشيخ الخالدي ثم قرأت في رحلة ابن رشيد رواية عن النجيبي: (وكان شيخنا الحافظ السِّلفي رحمه اللّه يقول لا أعلم في البلاد التي تطوفتها تربة جمعت قبور ثلاثة أئمة في ثلاثة مذاهب إلا التربة التي بمقبرة وعلة، وقبور الأئمة الثلاثة في الثلاثة المذاهب بالمقبرة
المذكورة متلاصقة: قبر أبي الخطاب الشافعي، وقبر أبي بكر الطرطوشي المالكي، وقبر أبي بكر محمد بن إبراهيم الحنيفي) (يعني الحنفي على عادة الأندلس في النسبة إلى أبي حنيفة)
وقرأت في رحلة ابن رشيد أيضاً:
زرنا بالإسكندرية حماها اللّه تعالى قبر الإمام الزاهد المحدث، آخر الحفاظ بقية) المحدثين أبي الطاهر السلفي داخل باب الأخضر على مقربة منه وله سنام كبير عال، وعلى مقربة من قبر الزاهد الفقيه الإمام أبي بكر الطرطوشي رحمه اللّه، وعلى قبره مكتوب: توفى الإمام الزاهد أبو بكر محمد بن الوليد الفهري في جمادى الآخرة سنة 520
وبمقربة من الجدار الغربي قبر يقال إنه قبر عبد الرحمن ابن هرمز الأعرج رحمه اللّه) اهـ
وسرنا بعد إلى جامع المنير فراقنا جمال هندسته ونقشه وتهللت وجوهنا وانبسطت أنفسنا لمدخله حتى قلت: حبذا جلسة طويلة في هذا المسجد الطويل. وزرنا ضريح الشيخ ابن المنير وهو في جانب من المسجد عليه قبة شاهقة
وابن المنير هو عبد الواحد بن شرف الدين بن المنير. قال السيوطي نقلاً عن ابن فرحون: كان شيخ الإسكندرية ويلقب بعز القضاة فاضلاً أديباً عُمّر وانتفع به الناس، أخذ الفقه عن عمّيه ناصر الدين وزين الدين، وألّف تفسيراً في عشرة مجلدات) (لعله يريد تفسيره المسمى الانتصاف من صاحب الكشاف)
ولد سنة 651 وتوفى سنة 736
ثم قصدنا إلى زيارة الصوفية فزرنا أبا العباس المرسي، وقبره الآن تحت المسجد العظيم الرائع الذي تشيده وزارة الأوقاف الآن ويرجى إتمامه قريباً. وهو أبو العباس أحمد بن عمر الأنصاري من كبار الصالحين، وأكبر أصحاب أبي الحسن الشاذلي. توفى سنة 686
وعلى مقربة منه قبر العالم الكبير عثمان ابن عمر المعروف بابن الحاجب أحد أئمة العلماء المصريين في القرن السابع. ولد بإسنا في العقد الثامن من القرن السادس وتوفى بالإسكندرية سنة 646. وله مصنفات في الفقه والأصول. وأما مصنفاته في النحو فقد طبقت شهرتها الآفاق وعدت من أمهات كتب العربية. وحسبك في النحو الكافية وشرحها
وفي الصرف الشافية وشرحها
لم نستطع الوصول إلى قبره إذ حالت دونه العمارات القائمة في جامع أبي العباس.
قال ابن خلكان: ودفن خارج باب البحر بتربة الشيخ الصالح ابن أبي أسامة
وخرجنا بعد زيارة أبي العباس فمررنا باثنين من كبار الصوفية: المكين الأسمر عبد اللّه بن منصور الإسكندراني شيخ القراء بالإسكندرية في وقته. مات سنة 692
وقال ابن رشيد: (الشيخ المقري المجود مكين الدين أبو محمد عبد اللّه بن منصور بن علي ويلقب بالمكين الأسمر أحد الصلحاء الفضلاء، وهو المتصدر لإقراء القرآن بالإسكندرية. قرأت عليه بدكان منزله - عمره اللّه ببقائه - ضحا يوم السبت الحادي والعشرين لجمادى الآخرة من عام أربعة المذكور، جميع المجالس الخمسية السلمانية التي أملاها الحافظ أبو طاهر السلفي الخ.)
وبجانب المكين قبر لياقوت العرش أحد الصالحين. وهو ياقوت بن عبد اللّه الحبشي العارف تلميذ أبي العباس المرسي. وكان الناس يقصدونه للدعاء والتبرك. مات بالإسكندرية 732. قال الشيخ الخالدي: ذكره ابن عطاء اللّه في تآليفه

وأما ابن عطاء الّله السكندري صاحب الحكم فهو أحمد بن محمد ابن عبد الكريم الجذامي الاسكندراني. كان صوفّياً على طريقة الشاذلية، جامعاً لعلوم شتى من تفسير وحديث ونحو وأصول وفقه، وأخذ عن أبي العباس المرسي، وأخذ عنه التقى السبكي، وله كتب منها كتاب الحكم وهو من أروع ما أثر من أدب الصوفية. وكتاب التنوير في إسقاط التدبير. وكتاب لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس، والشيخ أبي الحسن (أبي العباس المرسي وأبي الحسن الشاذلي)

ومات بالمدرسة المنصورية بالقاهرية سنة 709 ودفن بالقرافة

وعلى مقربة من ضريحي الأسمر وياقوت في الجانب الآخر من الشارع بناء جديد نقلت إليه بلدية الإسكندرية رفات جماعة من الصالحين كانت في قبور متفرقة في المدينة. وقد قرأت على الجدار من الخارج أسماء أحد عشر منهم. وأخبرنا الخادم أنهم تسعة عشر.

(للكلام صلة)

عبد الوهاب عزام

على هامش الأبحاث الفلسفية والنفسية

بين الفرض النظري والحقيقة الواقعة

للدكتور محمد البهي

- 1 -

للفيلسوف أن يفرض ما شاء من النظريات والمبادئ لإصلاح المجتمع وتهذيب الفرد، وللأخلاقي أن يتحدث عن كمال الإنسانية وفضائلها، وللواقع بعد ذلك أن يسطر حوادثه في سجل الوجود بأسلوبه الخاص وعلى النهج الذي ترتضيه الأيام ويضعها أمام الأفراد والجماعات

وضع أفلاطون (جمهوريته) وتكلم فيها عما يجب أن يتبع لقيام حكومة عادلة ونظام دائم يرعى مصلحة الفرد كما يحرص على نفع الجماعة. وأسهب في تفاصيل ذلك النظام وقسمه وفق طبائع الإنسان التي قدرها والتي يجب أن تسودها (العدالة) في نظره إذا قصد به إلى الكمال المطلق

وظن كثير من أتباع هذا الفيلسوف أنها أجود ما ينتجه عقل مفكر، وأن في نظامها خير ما تبغيه الإنسانية

إلا أرسطو - لأنه عاش بتفكيره في عالم الواقع ووجه عمله العقلي في أغلب الأحايين إلى إيجاد حلول لمشكلات وقته وأزمات شعبه - فقد تناول جمهورية أستاذه بالنقد مسترشدا بتجاربه ورد كثيراً من مبادئها لأنها قامت على الفرض الذي لا تمكن الأيام ولا طبيعة الإنسان من تنفيذه

كذلك شعّب كثير من علماء الأخلاق وجهات نظرهم فيما هو أسمى الفضائل التي تقرب الفرد والجماعة من (المثال الأعلى) وتضعهما في مستوى روحي يحول بينهما وبين الشقاء النفسي. وتحدثوا كثيراً عن العدل (المطلق) كتحديد لهذا الأسمى من الفضائل أو تقريب لمفهومه. وآمن رجال الدين بهذا المبدأ وبنوا عليه وعظهم الخلقي كما حاول المقنّنون جعله غاية تقنينهم، سواء فيما يتعلق بنظام الحكم أو بمعاملة الأفراد بعضهم لبعض

ولكن الواقع أنكر هذا الإطلاق فيما مضى وما زال - وسوف - ينكره لأن ما يقع من تصرف الإنسان مهما كان العقل مستقلاً - عن الغرائز - في إصداره، ومهما بدت الدوافع التي بعثت عليه في مظهر التجرد عن الغايات الشخصية لا يخلو من تأثره (بالميول). وهذه لاشك تضيِّق من دائرة العدل وتقيد عمومه. ولذا يميل البحث الواقعي للمسائل الخلقية إلى الإكتفاء بطلب العدل النسبي في الإنصاف بوصف العادل. وفي هذه النسبية يتفاضل العادلون

كذلك قرَّ في النفوس البشرية إما عن رغبة في حسم النزاع بين الأفراد في الأصل تحولت فيما بعد إلى عرف بينهم أو عن دافع فطري، أن (الكفاية) هي المقياس الصحيح للفصل في أفضلية فرد على آخر. وهي تختلف طبقاً لما تتطلبه ميادين النشاط المتنوعة في الحياة. فالكفاية الدينية غير الكفاية السياسية، وهاتان غير الكفاية العسكرية والاقتصادية مثلاً. وكانت في جملتها مقياساً صحيحاً لأنها تكشف عن عنصر القوة الذي يُهيئ للبقاء الصالح ويُعده للفوز في معترك الوجود، ولأنها أضمن

لتوجيه نظام الجماعة للإنتاج الإيجابي والعمل المثمر في سبيل الحصول على رغد العيش، فضلاً عن أنها أدنى لتحقيق العدل في توزيع منافع الحياة بين الأفراد ويندر لذلك عدم تقرير مبدأ الكفاية من الناحية النظرية في نظام الحكومات مهما اختلفت الأسس التي قامت عليها تلك الحكومات، ففي عصرنا الحديث نجد الدكتاتورية، برغم ما يبدو في طابعها من تحكم الصفات الفردية، تنادي بالكفاية كشرط أولى لإنتاج الأداة الحكومية. والديمقراطية طبعاً بحكم ما ترتكز عليه نظريّاً من أصل المساواة ورفع أي اعتبار آخر في التفضيل للتكليف بالأعمال العامة سوى الجدارة المحض، أشد إيماناً في مجال النظر بمبدأ الكفاية من أي نظام آخر من نظم الحكم الحاضرة

ولكن إذا قطعنا على الفكر متعته العقلية حين استعراضه الآراء المختلفة المتعلقة بنظم الحكم وحملناه على ملاحظة ما يجري فعلاً في التفضيل والاختيار؛ لاشك أنه سينغَّص، وسيمتد تنغيصه كلما كان أشد إيمانا (بالمثالية)

وإذا عجزت الملاحظة السطحية عن أن تقدم أمثلة كثيرة لما يحدث في ظل الدكتاتورية من مخالفة لهذا المبدأ - لدقة الرقابة على النشر - فسوف تلمس في الديمقراطية البرلمانية عنصراً آخر - وهو العصبية الحزبية - له السيادة المطلقة على مبدأ الكفاية في الاختيار

وإذا جاوزنا مثل هذه المبادئ الخلقية العامة التي لا ننكر ضروتها من الناحية النظرية في حياة الجماعة، والتي وجدت لها، منذ أن عرفت الجماعة البشرية النظام، أنصاراً مدافعين إلى حد التضحية بأرواحهم أو بمتعتهم الشخصية في هذه الحياة - إلى الصفات التي هي أقرب أن تكون مذاهب فردية، نجدها كذلك لا تنعكس على مرآة الواقع طبقاً للصورة التي صاغها العقل فيها

فالذي يدين بمبدأ الصراحة، إذا أراد أن يتخذها أساس تصرفه وقوام عمله، سوف يجد عنتاً في بيئته وسوف تعقد الأمور في طريقه لأن سبل الحياة نفسها ملتوية ورغبات الأفراد فيها مختلفة لا تنال إلا عن طريق إخفائها

والذي يقدر كرامته تقديراً مثالياً، ينفر أشد النفرة، مما يتوهم فيه جرح عزته والحط من مكانته، سوف يصطدم مع الواقع صدمات عنيفة لأن ما في الواقع منازع له ولغيره. والنزاع كثيراً ما يكون سبباً مباشراً في اعتداء أحد المتنازعين على الآخر، والاستخفاف بالمعتدي عليه أخص مظاهر الاعتداء

والذي ينزع إلى فهم الصداقة على أنها يجب أن تسود كل العلاقات الممكنة بين شخصين سوف تكون آلامهُ من جراء هذه الصداقة أكثر من سروره بها، لأن التنافس والعمل على تحقيق المصالح والرغبات الشخصية، وهما من الغرائز الفطرية في الفرد، مما يحول دون الوفاء بمقتضيات الصداقة على هذا النحو

فالمبادئ النظرية لم توجد بعد في الواقع كما حاكها العقل النظري، أو على حد تعبير (كانت) العقل الخالص، لا كما صورها الخيال

ولكن هذا لا يمنع من تأييد الفيلسوف إلى حد ما إذا دعا لمبدئه، ورجل الدين والأخلاق إذا نادى بالتقرب من المثل العليا لأن غاية كل منهما تقليل شرور المجتمع (وليس رفعها لأنها من طبيعة الإنسان)

وإنما على الذين عاشوا حتى الآن في حياة النظر، واسترسلوا في خيال الأمل وحددوا مصيرهم على فروضه ألا تدفعهم الرغبة في تقليد المثاليين (إلى طلب مثلهم العليا حقائق واقعة لأن المثل الأعلى لم يكن كذلك إلا لبعده عن تحديد المشاهدة - وما يشاهد قريب منه فقط -، عليهم أن يربطوا بين حياة النظر وحياة العمل حتى لا تكون خيبة الأمل فاجعة إذا

هالهم فرق ما بين الحياتين، وحتى لا يكون الانتقال من الأولى وهي حياتهم حتى الآن، إلى الثانية، وهي حياتهم الجديدة، قاسياً صعب التحمل. فكثير من الناس اعوّج سلوكه، وكثير من الناس صحبه التشاؤم في عمله وسيطر على حياته، وكثير من الناس لم يصبر على مشاق الحياة الواقعية - في نظره - فذهب ضحية اليأس والقنوط والتململ، لا لشيء سوى أنهم كانوا جميعاً شديدي الإيمان (بالمثالية) واستمروا حديثي عهد بالواقع.

محمد البهي

السراكينوي هم السرويون
للأب أنستاس ماري الكرملي
(بقية ما نشر في العدد الماضي)
7 - ما يحصل مما سبق الكلام عليه:
يحصل مما سبق الكلام عليه أن السراكين هم أهل السروات، وهم قبائل تقيم في داخل بلاد العرب من اليمن إلى ديار الأنباط، أو جنوبي اليهودية، بل إلى الشام وأما (السكينتس) فليس اسم عرب، لا عند السلف ولا عند الرومان أو اليونان. وكيف يكونون كذلك والاسم يوناني معناه (أهل الأخبية) فقد يكونون من أبناءِ يعرب، كما قد يكونون من أبناءِ الغرب. فأهل الأخبية أو سكان الأخبية معناهُ: الرُحَّل، أو أهل البادية، الذين يثوون إلى الأخبية. فإذا علمتَ هذا، عرفت الحقيقة على ما هي بلا تناقض، ولا إشكال، ولا غموض.
وقال الأستاذ العمودي - وهو ينقل دائماً ما جاء في معلمة الإسلام، وإن لم يذكرها -:
(أما (السراكينوي) فلم يُرْوَ لهم ذكر يذكر في هذه الأسفار السريانية ما خلا رسالة وصفها برداسانيس (؟ كذا) السرياني في بداية القرن الثالث للميلاد بعنوان: ' ذكر فيها الطائيين و (السراكينوس) بقوله: إنهما قبيلتان تمثلان أهم القبائل العربية الرَّحالة.) انتهى
ففي هذا القول نظر، لأن ابن دَيْصان لم يذكر السراكينوس في تأليفه - بل ألـ (سَرْقايي) أي العرب السروبين، وذكرها بأحرف إرَميَّة بالصورة التي ذكرناها في العربية. وأنت خبير أن اليونان والرومان ومن نقل عنهم ذكروا أبناء عدنان وقحطان مرة باسم العرب، وأخرى بالسروبين (أو الساراكين أو السرازين أو السراكينوي)، وطوراً باسم سكان جزيرة العرب، أو نحو ذلك ولم يسموهم باسم واحد
أما أن المسلمين عُرفوا بعد ذلك عند الغربيين بالسرازين، فلأن الإسلام نشأ وترعرع واكتهل في الحجاز، سُرَّة السروات وقلبها، ومنهُ امتد إلى ديار العالم. فمن الحق أن يسمى الغربيون المسلمين بالسروبين أو بأهل السرَوَات، وهي تسمية مأخوذة من مسكنهم، أو وطنهم، أو منشئهم الأول، كما أن المسيحيين سموا نصارى، جمع نصراني، وأصلها
ناصراني، نسبةً إلى الناصرة وهي المدينة التي طوى المسيح بساط أيامه أو معظمها فيها
إذن لا وَهْم ولا ضير في تسمية المسلمين: (سرويين) أما أن أبناء الغرب خصوا هذا اللفظ بالمسلمين الذين افتتحوا ديارهم، فلأنهم كانوا قد قدموا إليها عن طريق مصر وأفريقيا الشمالية
وأما أن الفرنسيين سموا العرب (سرازين)، أي الذرة السمراء، فهذا من رأي الأستاذ العمودي الخاص به، ونحن لا نوافقه عليه، ولم يقل به أحد. وذلك لأسباب منها: أن السرازين عند الفرنسيين، ضرب من القمح أو الحنطة أسمر اللون أو سوداؤه، وليس بذرة، واسمه بلغة علماء النبات ولم يعرف اللفظ (سرازين) في اللغة المذكورة إلا في المائة السادسة عشرة. أما (السرازين) بمعنى العرب، أو السرويين، أو المسلمين، فكان معروفاً عندهم منذ عهد الرومان واليونان
على أن الفرنسيين يسمون أيضاً سرازين ضرباً من الجاورس، يعرف عندهم أيضاً باسم أو وبلسان العلم فاسم النبات مأخوذ من اسم العرب لا العكس، كما ذهب إليه حضرة الأستاذ الفاضل
8 - تفنيد آراء المخالفين لرأينا
ذهب بعضهم إلى أن (سراكينوي أو سرازين) مأخوذ من اسم قبيلة بعينهِ، وكان يطلق عليهِ؛ إلا أنهُ ليس في التاريخ ما يثبت هذا الرأي، فهو زائف لا محالة
أما أنه مأخوذ من (الشرقيين)، فقد ذهب إليه جمهور علماء الغرب، أو يكاد، إلا أن العرب لم يسموا أنفسهم بشرقيين حتى ينقل عنهم. فالحقيقة تمزق هذا البرقع المهلهل
أما أنه من (سرَّاقين) وأنه منقول عن العرب المتحضَّرين نابزين بهذا اللفظ الأعراب الرُحَّل، احتقاراً لهم فهو محتمل، لكن الأقدمين من الرومان واليونان يذكرون بلادهم، وأنها من أقصى اليمن إلى اليهودية أو إلى الشام، فليس الاسم من أسماء البادية

المتنقلة، بل اسم عرب يسكنون دياراً معينة، ليس إلاّ
وأما أن الاسم منحوت من (صحراء ساكن)، فهذا من أسخف الآراء، ولا يقول به إلا جَهلة اللغة العربية، إذ لا يُقدَّم في هذه اللفظة المضاف إليه على المضاف، بخلاف اللغات اليافثية، أو الآرية
وأما أن الأنباط أطلقوا اسم (الشرقيين) على القبائل التي تناوحهم من جهة الشرق، فالتسمية سابقة لدولة النبط، كما لا يخفى على المطلع، وقد ذكرها اليونان والرومان في تواريخهم
بقي علينا أن نبيّن للقارئ معنى قول مؤرخي الكنيسة في القرن الرابع (إن (السارازين) انضموا إلى (الإسماعيليين) الذين كانوا يقيمون في صحراء قدش (لا قادش كما قال الأستاذ) في مقاطعة فاران) اه. فهذا معناه أن السرويين، وهم أهل الجبال، انضموا إلى الإسماعيليين، سكان السهول والصحارى ليكونوا كتلةً واحدة.
وليس ثَمَّ غير هذا المعنى. ولم يعرف الهاجريون باسم السرازين، إلا لأنهم كانوا منضمين إلى أهل السراة العليا، أو سراة الأزد
وقد أحسن الأستاذ العمودي في تزييف من قال إن السراكينوي لا تزال سلائلهم ممثلة إلى اليوم في قبيلة (السواركة) تلك القبيلة البدوية الصغيرة التي تعيش إلى هذا اليوم على شواطئ البحر بين العريش وغزة، إذْ هذا حديث خرافة
فلم يبقَ لنا إلا القول بأن (الساراكينوي) أو (السارازين) أو (السرازين) هم (السرويون) أو أهل السراة أو السرَوات. وكانوا معروفين في صدر الإسلام بهذا الاسم. قال في التاج في مادة (س ر ى): (وكثيراً ما يذكر الدينوري في كتاب النبات عن السرويين أي من أهل السراة) اه
وفي الكامل للمبرَّد (2: 287 من طبعة مصر):
ومن اليمن من غيرهم، عبد اللّه بن الطُفيل الأزدي ثم الدّوْسِيّ، ذو النُور، أعطاهُ . . .) رسول الله صلى الله عليه وسلم نوراً في جبينه، ليدعو به قومهُ، فقال: يا رسول الله، هذه مُثلة، فجعلهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم في سوْطهِ، فلما ورد على قومه (بالسراة، جعلوا يقولون: إن الجبل ليلتهب، وكان أبو هريرة ممن اهتدى بتلك العلامة هـ
فهذه شهادة بَينة على أن أهل السراة عرفوا الإسلام منذ عهد الرسول. فلا عجب بعد ذلك إذا عرف المسلمون بلفظ (السرويين)
وأخذ السرويون ينافحون عن دينهم، ويفتحون الفتوحات مع كبار القادة منذ نأنأة الإسلام. ففي تاريخ الطبري في أخبار سنة 14 للهجرة (1: 2217 من طبعة الإفرنج):
فخرج سعد ابن أبي وقّاص من المدينة قاصداً العراق في أربعة آلاف: ثلاثة ممن قدم عليه من اليمن
السَّرَاة، وعلى أهل السروات حُمَيضة ابن النعمان بن حُميَضة البارعي، وهم بارق، وألمع، وغامد، وسائر اخوتهم في سبع مائة من أهل السراة وأهل اليمن ألفان وثلث مائة، منهم النخع بن عمرو، وجميعهم يومئذ أربعة آلاف، مقاتلتهم، وذراريهم، (ونساؤهم
وفي الأغاني (19: 54 من طبعة بولاق الأولى): (وذكر جرير بن عبد الله خبر إسلامه (إسلام أسد بن كرز)، حدث بذلك عنه خالد بن يزيد عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن جرير بن عبد الله، قال: أسلم أسد بن كرز ومعه رجل من ثقيف، فأهدى إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، قوساً فقال له: يا أسد، من أين لك هذه النبعة؟ - فقال: يا رسول الله، تنبتُ بجبلنا بالسراة. فقال الثقفي: يا رسول الله، الجبل لنا أم لهم؟ - فقال: بل الجبل جبل قسر، به سمى إبراهيم قسر عبقر. فقال أسد: يا رسول الله، ادعُ لي. - فقال: اللهم اجعل نصرَك ونصر دينك في عقب أسد بن كرز) اه
فهذه الأدلة وغيرها، وهي لا تعد، تبين أن السرويين دانوا بالإسلام منذ عهد الرسول، وسعوا في نشره. ولا جرم إذا سمى العرب جميعهم باسمهم أو سمى الإسلام باسمهم، وجرى عليه الأعاجم جميعهم
لكن لما كانت السراة أو السرَوَات ممتدة بامتداد جزيرة العرب من أقصى الجنوب إلى الشام، كان فيها قبائل عديدة مختلفة الأسماء، أطلق الأدباء من عرب وغير عرب

اسم السرويين على كل عربي. أما أن هناك سروات مختلفة القبائل، فيشهد عليها من كان فيها، فمنها سراة الأزد، وسراة أَلْهان، وسراة بجيلة، وسراة بلد وادعة، وسراة بني علي، وسراة جُبلان، وسراة جنب، وسراة الحِجْر، وسراة خولان، وسراة دوس، وسراة الطائف، وسراة عُذَر وهِنْوَم، وسراة عنز، وسراة غامد، وسراة فهم وعدوان، وسراة قُدم، وسراة مذحج، وسراة المصانع، إلى غيرها. وبهذا القدر كفاية في هذا الموضوع

ملاحظاتنا - 9

الملاحظة الأولى: رأينا بين مقال الأستاذ العمودي وما جاء في ترجمة من معلمة الإسلام مشابهة، وكان يحسن بحضرته أن يقول: إنه اقتبس أغلب كلامه من المعلمة المذكورة، حتى لا تبخس الناس حقوقهم، ولا تذهب أتعابهم سدى

الثانية: كنّا نود أن تكتب الأعلام على ما يرويها العرب لا الإفرنج، حتى لا يظهر للغير أننا نقتبس شرقياتنا من أبناء الغرب. فكان يجب أن يقال ذيوسقوريذس العَيْن زربي، لا أن يكتب بحروف إفرنجية، وفي كتابتها ثلاثة أوهام، إذا ما قابلناها برواية معلمة الإسلام. وكذلك يقال عن كتابة سائر الكلم التي دونت بحروف إفرنجية فإن الغالب عليها الخطأ

وقال (ص 1940) برداسانيس. والمشهور ابن دَيْصان أو برَدْيصان، وقال (في الصفحة المذكورة): البيزانطيون. والسلف لم يقولوا إلا (البوزنطيون) وبوزنطية أي بالواو لا بالياء، لأن اليونانيين كانوا ينطقون بها هكذا كما ينطقون بها اليوم. وهذه شهادة تاريخية على كيفية النطق بالحرف اليوناني في أيام العرب الأول

الثالثة: كنا نود أن يتحرى أفصح الألفاظ في الكلام. فالعرب لم تسمّ ملوك الروم: المصفرة، بل بنو الأصفر. أما المصفرَّة فهم الذين علامتهم الصفرة. وملوك الروم ما كان هذا اللون شعاراً لها

وقال الجبال السوداء. والعرب تقول: الجبال السوُد، كما تقول الرجال السود والنساء السود، ولم يقل أحد منهم الرجال السوداء، ولا النساء السوداء. وقال: من جنوب وشمال إيطاليا. ونظن أن الصواب هو: جنوبي وشمالي إيطالية. لأن الجنوب يدل على الجهة لا على قسم الأرض. وكذلك الشمال

وذكر الأديرة. والفصحاء قالوا ديارات أو دِيَرة أو أديار أو غيرها، لكنهم لم يقولوا أديرة. هذا ما بدا لنا في أثناء المطالعة، ونحن مهتمون بأمور خارجة عن هذا البحث. ولعل خطأنا أكثر من صوابنا.

(بغداد)

الأب أنستاس ماري الكرملي

عقيدة النازي الدينية

للدكتور جواد علي

تنص المادة 27 والمادة 28 من منهاج الحزب الوطني الاشتراكي على الحرية الدينية لجميع الألمان وبحماية الديانة المسيحية في داخل المملكة الألمانية، وقد طبقت الحكومة الهتلرية فعلاً هذا النص في جميع أنحاء الريخ فجعلت ضريبة الكنيسة ضريبة إجبارية على كل ألماني وألمانية حضر صلاة الكنيسة أم لم يحضر؛ وقاومت حركة الإلحاد ونكران الديانة المسيحية فطردت كل موظف يجاهر بهذه الفكرة وحكمت على كل رجل ينادي بها أو يربي أولاده عليها بأحكام تناسب ظروفه ومنزلته، وأجبرت الأولاد في المدارس على حضور دروس الديانة بعد أن كانت مسألة اختيارية قبل الحكم الهتلري تتعلق بإرادة الوالد. وقد شددت الحكومة في المراقبة لأن الذين كانوا يجاهرون بهذه الآراء كانوا إما من الحزب الشيوعي أو من الحزب الماركسي أو من الحزب الديمقراطي الاشتراكي؛ وهذه الأحزاب الثلاثة هي من ألد أعداء هتلر، لذلك اختفت الحركة بسرعة طبعاً خشية التعرض لهذه التهمة

وحجة الوطنية الاشتراكية في ذلك هي أنها تقاوم المادية الصرفة البشعة التي تدعو إليها هذه الأحزاب وتدين بالمثل العليا وبالحياة الروحية وبقوة خارقة عليا يدعو هتلر ويشير في معظم خطبه إليها، ولكنه لا يصفها بالصفات أو ينعتها بالنعوت التي ترد في كتب الديانة واللاهوت. بل يراها كقوة مظلمة تشع أشعة مختلفة إلى النفوس حسب كفاية الأبدان التي يتمتع بها ذلك الشخص يظهر أثرها في الإرادة والعزم. والزعماء في

نظره هم الذين يتمتعون بها أكثر من غيرهم ويمتازون على الأفراد بالعزم والإرادة.
ويدعو ممثله ووكيله إلى هذه الفكرة في كتبه ومؤلفاته ويتوسع في نشر الديانة المسيحية الحقيقية لا الديانة المسيحية الحالية التي هي من مبتكرات اليهود على رأيه.
وحاول كذلك دعاة النازي من رجال الكنيسة وعلى رأسهم رئيس أساقفة الريخ ملر توسيع دعوة هتلر ووكيله وتنقيح العقيدة المسيحية حسب التعاليم النازية؛ ولكنهم اصطدموا بمعارضة واسعة من البروتستانت بقيادة الباستور نيملر أسقف دالم في برلين الذي لا زال حتى الآن في السجن، ومن الكاثوليك بقيادة أسقف في إيبرك وكاردينال الراين
والنازية نفسها عقيدة دينية تحاول تنظيم حياة الأمة والفرد على أساس العنصرية والزعامة، وتتدخل حتى في الأحوال الشخصية للفرد لتكيف حياته وفق التعاليم الجديدة، وهذا ما يصطدم طبعاً والعقيدة المسيحية التي تراها الوطنية الاشتراكية عقلية يهودية رومية من مبتكرات سكان البحر الأبيض المتوسط، لا تلتئم أبداً مع العقلية الجرمانية الشمالية. وهذا النقد اللاذع للديانة المسيحية يرجع في الحقيقة إلى أدوار تسبق هتلر والنازية بكثير، يكفي أن نتذكر هجمات الفيلسوف فويرباخ الألماني عليها (1804 - 1872)، وكذلك الفيلسوف نيتشه (1844 - 1900) والفيلسوف هوستن جامبرليني (1855 - 1927) مؤسس الفلسفة الوطنية الاشتراكية والمؤثر القوي على هتلر، والذي كانت بينه وبين هتلر صلات
وعند تسلم الوطنية الاشتراكية زمام الحكم أصبحت هنالك مشكلة الديانة المسيحية مشكلة خطيرة جداً إذ أنها تصطدم مع أصول العقائد النازية، لذلك ظهرت هنالك عدة محاولات لحل المشكلة حلاً يتفق مع المبدأ النازي، وظهرت جماعة من بين صفوف الحزب أطلق على مؤسستها اسم (المسيحيون الألمان) لم تر إلغاء المسيحية ولا مقاومتها، ولكنها رأت تجريد الديانة المسيحية من كل أصل أو عقيدة يهودية أو أية فكرة تراها النازية غير جرمانية، إلا أنها سرعان ما اصطدمت بمشاكل ذات خطورة عظيمة وهي تعيين الحدود بين اليهودية وبين المسيحية والى أي حد يجب أن يبلغه الحذف والإخراج من هذه الديانة، وعلى أي أساس يكون ذلك، أعلى أساس أقوال هتلر وروزنبرك أم على أساس التاريخ. وهذا ما يتعارض مع عقيدة النازي التي لا تؤمن إلا بأقوالها فقط. (أنظر كتاب ? وكان في نفس الوقت هنالك حركة أخرى أوسع من هذه أطلق عليها اسم الإيمان الألماني انضم إليها بعض رجال الحزب مثلت نزعات مختلفة، فمنيت بالتفرقة كذلك؛ فهنالك من اعتقد بوجوب الاعتقاد فقط بقوة عظيمة هي وراء الطبيعة وفوقها يطلق عليها اسم الإله كما هو في المسيحية، ولا يتوسع بعد ذلك ولا توضع قواعد ومواد لاهوتية أخرى؛ مثل هذه الحركة كراف ريونتلو المشهور بآرائه الفلسفية والدينية، وبكتبه في بادئ الحركة النازية وإن لم يظهر اليوم اسمه عالياً في صفوف النازي. ومنهم من أراد الاعتقاد بالمسيح ولكن بمسيح جرماني تكون حياته حياة جرمانية وأوصافه جرمانية كذلك، ذي شعر أشقر
يميل إلى البياض، وعينين زرقاوين، طويل الجسم نحيف الوجه لم يخضع لإرادة أحد.
وهذه هي آراء البروفسور مندل من جامعة كيل بألمانيا - وتطرف آخرون فقالوا بوجوب إلغاء الديانة المسيحية تماماً والاستعاضة عنها بالديانة الجرمانية القديمة، - وإنشاء كنيسة ألمانية بحتة تمارس فيها الطقوس الألمانية؛ وقام بهذه الحركة وأخيراً اجتمع ممثلو هذه الحركة في شهر يولي من سنة 1933 في مدينة وار تبرك برآسة البروفسور هور ثم في سنة 1934 في تيبنكن حيث توصلوا إلى وضع الأسس التالية:
1 - يجب أن يكون الإيمان الألماني مستمداً من الروحية الألمانية
2 - إن النوع أو العنصر الألماني مستمد من الأزلية الإلهية، لذلك يجب إطاعة هذه الأزلية
3 - على حسب هذه العقيدة يجب أن تنصرف أعمالنا وأقوالنا
وقد ظهر بعض الكتاب يحاولون إثبات أن المسيح لم يكن يهودياً بل كان يونانياً أي آري الجنس، ومنهم من أثبته رومانياً، ومنهم من حاول البرهنة على أنه يهودي وأن القديس بولس اليهودي الأصل هو الذي اخترع تلك القصص، أو أنه أدخلها من اليهودية وساقها إلى روما فأوربا حيث حاربت الديانة الجرمانية والأخلاق الجرمانية العتيدة وقضت على

العنصرية الجرمانية التي كان يدين بها كل جرماني حتى القرون الوسطى غير أن أقوى حركة في صفوف النازي هي حركة ألفريد روزنبرك الذي يحاول إرجاع الديانة الجرمانية القديمة عن طريق التصوف الألماني فهو يحمل على المسيحية بنوعيها الكاثوليكية والبروتستانتية، لأن الكثلكة ليست في نظره سوى الفكرة الإمبراطورية الرومية القديمة تتمثل في محاولة البابوات تكوين سيادة عالمية. أضف إلى ذلك أن الكنيسة قد جردت الجرمان في نظره من عناصر الحرية والاستقلال والعزة الوطنية الذاتية باستسلامها إلى الآراء العالمية اليهودية، وسقوط آلاف صرعى في سبيل الإمبراطورية الرومانية التي ورثها البابوات. ويرى في الكنيسة البروتستانتية كذلك تدخلاً في السياسة وفي الشؤون العامة للشعب وفي المبادئ النازية كما حدث في مجمع الأساقفة البروتستانت في عام 1937 في مدينة أكسفورد حيث حمل حملة شعواء على النازية ومبادئها

والطريقة الوحيدة التي يراها هي الرجوع إلى الروحية الألمانية القديمة التي نادى بها المتصوف الألماني الشهير مايستر إيكهارت 1260 - 1327 أحد أساتذة الطريقة الدومينيكانية المسيحية وتلميذ اللاهوتي الألماني الشهير ألبرت فون بولشتيد ? 1206 - 1280 أحد رؤساء هذه الطريقة كذلك، وأحسن رجل اطلع على الفلسفة العربية اليهودية في زمانه، فقد درس اللغة العربية واللغة العبرية، وترجم كتب الفلسفة والطب والتصوف إلى اللاتينية، لغة العلم والدين إذ ذاك، وكان من أعظم المختصين بفلسفة ابن سينا. واليهودي ابن ميمون وقد تأثر به تلميذه هذا مايستر إيكهارت فمال إلى التصوف وصار الألمان يعتبرونه المؤسس لما يسمى بالتصوف الألماني وقد أثرت آراء مايستر إيكهارت في عصره تأثيراً عظيماً ولاسيما في مقاطعات الراين حتى اضطرت الكنيسة إلى محاكمته بتهمة الهرطقة والخروج على الدين؛ وظل تأثيره مدة طويلة حتى عصر النهضة الأوربية. كان يرى أن المعرفة لا تكون بممارسة الطقوس الظاهرية؛ إنما تتم بالتفكير العميق، وخرق الحجب بالتأمل والتدقيق، بعبارته المشهورة (إن أردت اللب فعليك بكسر القشرة) , وكذلك بعبارته المشهورة: (تعميق البئر ينتج ماء أكثر) والمعرفة هي الوجود ذاته وبواسطة هذه المعرفة نتوصل إلى إدراك علة الوجود ولكن هذا الإله هو في كل مكان لم يكن شيئاً، فخلق نفسه بنفسه؛ خلق النفس وجعلها مساوية لنفسه تماماً فلا يستطيع أن يؤثر عليها أبداً إذ هي حرة طليقة؛ ومن هذه الروح وبواسطة الانهماك في معرفة الحقائق نستطيع الوصول إلى درجة الوحدة أو الاتحاد مع الله حيث تكون الروح كالمرآة بالنسبة لله تماماً، ويقول في ذلك:

والصلة بيني وبين (أحمل فيّ صورة الله: متى أراد رؤية نفسه نظر فيّ ولو أني مثله) الله هي المحبة وهي كذلك في جميع أجزاء العالم، والله نفسه يحب ذاته في مخلوقاته وأعماله، ولولا مخلوقاته هذه لما كان الله خالقاً بل ولم يكن الله موجوداً، فلولاي لم يكن الله، ويتصل شعاع الله بالقوى النفسية العلوية ? فيحصل من جراء ذلك إدراك الحقيقة والمعرفة

ويرى روزنبرك أن مايستر إيكهارت قد تكلم وعبر عن عقلية آرية جرمانية ومعتقد قديم، لذلك يريد إحياء تعاليمه هذه وبعثها على يد الوطنية الاشتراكية إذ لا طقوس ولا كنيسة كاثوليكية أو بروتستانتية، بل مبادئ صوفية يجب أن يخضع لها الجميع. وهذا هو خلاصة

الديانة المسيحية في نظره والدين الذي يجب أن ينتشر في كل ألمانيا. ولعل ما في نفسية هتلر من اعتكاف وغموض وانزواء في وكره، وكذلك ما في نفسية روزنبرك من اعتزال عن العالم وحب الانزواء، هما اللذان جرَّا هذين الرجلين إلى التصوف مع ما بين التصوف والوطنية الاشتراكية من تباين في النظر إلى الحياة والكفاح

والواقع أن هذا التصوف ولو حاول روزنبرك وغيره إسناده إلى الجرمانية القديمة فإن من الصعب إثبات ذلك لعدم وجود نصوص تاريخية تثبت ذلك ولأن هذا الرجل كان هو نفسه تلميذ المتصوف (البرت فون بولشتيد) الشهير المترجم للكتب العربية والمتأثر بذلك، ولأن أفكار (مايستر ايكهارت) واصطلاحاته عبارة عن نسخة طبق الأصل للفلسفة الإسلامية واصطلاحاتها. ولو كان روزنبرك من المستشرقين لغير رأيه تماماً. وروزنبرك نفسه ليس من الاختصاصيين في هذه الموضوعات بل هو كاتب عاطفي

ساعدته الظروف على ذلك
ويظهر من هذه التعاليم أن التصوف وهو (التسليم) والتعمق في البحث بإعطاء النفس في العرف الألماني، ونظرية الإشعاع الإلهي واختلافه باختلاف الناس، ثم في سهولة توجيه الرأي العام الذي أخذ يميل بعد الحرب العظمى إلى درس المسائل الروحية هي التي دفعت بالوطنية الاشتراكية إلى إحياء فكرة التصوف والبحث عن دين جديد يتفق مع مبادئ الوطنية أو يكيّف على حسب آراء هتلر ومبادئه.
جواد علي
خريج جامعة هامبرك بألمانيا
الثقافة العسكرية وأناشيد الجيش
للأستاذ عبد اللطيف النشار
نشيد العودة
من وضع السيد الرسول صلى الله عليه وسلم
ولقد تتخيل عظم الفارق بين مسير الجيش ذاهبا إلى المعركة وبين عودته آيباً منها فهو يذهب بالأمل في النصر ممزوجاً بالخوف من الهزيمة. يذهب ليلاقي العدو، ويعود بالنشوة ظافراً ليلاقي الأهل والأحباب.
ومن أجل ذلك، جاشت بنفس النبي عليه الصلاة والسلام عواطف سامية حين عودته من غزوة الأحزاب المعروفة بغزوة الخندق في العام الرابع أو الخامس الهجري، غير تلك العواطف السامية التي اختلجت بنفسه عند ذهابه إليها. كلا النوعين من العواطف سام، ولكنهما في طبيعتهما مختلفان.
عاد النبي من غزوة الأحزاب وهو ينشد:
آيبون
تائبون
عابدون
ساجدون
لربنا حامدون
صدق الله وعده ... ونصر عبده
وهزم الأحزاب وحده
أترى كيف تكون الخطوات العسكرية عند الأوبة، مخالفة لها عند الذهاب؟
أما عن اللحن، فيقول العلامة القسطلاني في شرح صحيح البخاري، تعليقاً على نشيد آخر، هو قول عبد الله بن أبي رواحة أنه عليه الصلاة والسلام كان يرفع صوته بالكلمة الأخيرة من ذلك النشيد: (أبيْنا) ويقول: أبينا، أبينا، مرتين. وسيأتي نص هذا النشيد.
ويقول العلامة القسطلاني أيضاً في التعليق على نشيد آخر، وهو الذي قيل في أثناء حفر
الخندق: إن النبي كان يقول فقرة ويرد عليه الصحابة بفقرة، (وظاهره أنهم كانوا يجيبونه تارة ويجيبهم أخرى).
ومعنى هذين التعليقين أن هناك نغمة لكل هذه الأقوال، أي أنها كانت ملحنة. وما لنا نستدل على الترتيل أو التنغيم بمثل هذا الاستدلال ونحن نرتل نشيد غزوة الأحزاب بلحن موسيقي عقب صلاة العيد الأكبر؟ ثم مالنا نستدل على أن القول كان ملحناً بألحان موسيقية، وهو لا يمكن أن يقال إلا مصحوباً بنغمة موسيقية؟
فأنت ترى أن هذا النشيد هادئ رصين، وقد قاله النبي لأول مرة بعد عودته من غزوة الخندق، ولكنه صار يقال بعد ذلك عند العودة من كل غزوة، وكان يقال والجنود سائرون، وكان يقال ملحناً على لحن السير؛ فهو وفقاً للتعبير العصري: (مارش)
وليس يغير من طبيعته أنه ليس بالشعر، فليس من الضروري أن يدخل كل قول موسيقي في دائرة عروضية من دوائر الخليل بن أحمد. وإن تحدي الشعراء بما ليس من الشعر وليس من النثر، كان صبغة اصطبغ بها هذا الجيل.
ولكن النبي عليه الصلاة والسلام لم يكتف بألحان المسير، بل أعد أو أمر بأن تعد له ألحان للعمل أيضاً. ولقد تقدمت الإشارة في هذه الكلمة إلى لحنين رتلا في أثناء العمل بحفر الخندق وحمل التراب منه على المتون ليكون جسراً على الخندق. أما أحدهما فهو من جزأين: جزء يقوله النبي، وجزء يرد به الصحابة عليه. ويقول شارح

البخاري: (وظاهره أنهم كانوا يجيبونه تارة ويجيبهم أخرى).
لحن النبي:
لا هُمَّ إن العيش عيش الآخرة
فاغفر الأنصار والمهاجرة
لحن الصحابة:
نحن الذين بايعوا محمداً
على الإسلام ما بقينا أبداً
أما اللحن الآخر فقد كان يقوله النبي والصحابة جميعاً في أثناء حفر الخندق، وهو من وضع عبد الله بن رواحة أحد شعراء النبي وقائد من قواده، وهو:
لا همَّ لولا أنت ما اهتدينا
ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا
وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الذين قد بغوا علينا
إذا أرادوا فتنة أبينا
(أبينا)
وكان صوته يرتفع كما يروي البخاري عند كلمة (أبينا) التي كان يكررها عليه الصلاة والسلام.
وفي هذه الموقعة أيضاً كانت أناشيد صغيرة تنشد تارة في أثناء المعركة، وطوراً في أثناء القتال مثل قوله عليه الصلاة والسلام:
يا منزل الكتاب
سريع الحساب
اهزم الأحزاب الخ
وقد استوفت هذه الأناشيد كل ما يشترط في أناشيد المسير، فهي قصيرة الفقرات بحيث تصلح ألحانها أن تكون على قدر خطى الجنود. وهي معبرة عما في أنفس الجيش من العواطف تعبيراً خالياً من التغالي المثير. وهي سهلة الحفظ، يتوافر فيها شرط السيرورة
هذه هي أناشيد الجيش، وهل يحسب الشعراء والموسيقيون أن لا غنى للشعوب عنهم؟
إن الشعوب لا تستغني عن الشعر ولا عن الموسيقى ولكنها تستغني عن الشعراء والموسيقيين إذا ما تعالوا عليها وترفعوا عنها.
هي تؤلف لنفسها إن لم تجد من يؤلف لها.
إنها تفكر على قدر طاقتها إن لم تجد فلاسفة ومفكرين، وإنها كذلك تعيش معيشة على وجه ما إن لم تجد من يجمع شملها ويؤلف لها نظاماً، وإنها كذلك تضع لنفسها الشعر والموسيقى إن لم تجد شعراء وموسيقيين.
كذلك الأرض التي نحن منها إن لم تجد مزارعين ينظمون لها طرق الري والاستنبات، فهي مخرجة من باطنها زرعاً غير منظم ولا منسق.
كذلك كانت الحال في مصر في الحرب الكبرى، فقد ألف الجيش الذي اشتغل في السلطة العسكرية لنفسه ألحاناً عبرت عما في نفسه وأنشدها بنفسه. فهل أنت من المخضرمين الذين حضروا الحرب الكبرى؟
لقد تذكر إن كنت من المخضرمين مسير المئات من الصعايدة المتطوعين وهم ذاهبون إلى حدود فلسطين وهم ينشدون:
يا عزيز عيني ... وأنا بدي اروَّح بلدي
بلدي يا بلدي ... والسلطة خُدِت ولدي
وهل تذكر لحن هذا البيت؟
في ذلك العهد لم تكن هناك قيادة للجيش المرابط ولا كانت السلطة الإنكليزية العسكرية تعنى بوضع ألحان للمصريين المتطوعين ولا كان هناك رجل كالشاذلي باشا يدعو الشعراء إلى تقديم أناشيدهم للجنة في وزارة الشؤون الاجتماعية، لجنة دائمة اسمها (لجنة الألحان)، ولا كان هناك قائد عظيم اسمه صالح حرب باشا يدعو الشعراء

إلى وضع ألحان للجنود، ويعد بالمكافأة السخية. ولم يكن أمير الشعراء قد وضع لحنه (بني مصر مكانكمو تهيا) ولا كان أحمد رامي قد وضع نشيد الجامعة، ولا كان الأستاذ صادق قد وضع النشيد القومي.

لم يكن شيء من ذلك، ولكن كان مليون من المصريين في ساحات القتال في فرقة التشهيلات، وكانوا يسيرون، فكان لابد لهم من لحن عسكري. ولما لم يجدوا من يؤلفه لهم ألفوه لأنفسهم، ولحنوه بأنفسهم، فكان:

يا عزيز عيني ... وانا بدي اروَّح بلدي

بلدي يا بلدي ... والسلطة خدِت ولدي

ولكن ما رأيك في أن هذا النشيد لعذوبته ولصدق تعبيره بالنغمة الموسيقية عما في أنفس الجنود قد طغى على نشيد:

الإنكليزي فكان الجنود الإنكليز ينشدون في أثناء سيرهم:

يا أزيز إيني الخ. . .

ثم ما رأيك إذا كان نشيد يا عزيز عيني هذا أبلغ في نغمته وفي معناه وفي روحه من نشيد شوقي ومن نشيد الجامعة ومن النشيد القومي ومن نشيد الرافعي

أتحسبني أتجني؟

لا والله، ولكن أرى أن هؤلاء الشعراء الاماجد لم يتصلوا بالطبقة التي تجند منها السلطات على اختلاف ألوانها وأزمانها ولم يتصلوا إلا بالطبقات التي تقيم حول حياتها سوراً من الأرستقراطية المترفعة. لم يتصلوا بالشعب فهم لا يعبرون عنه. لذلك يحفظ شعرهم أمثالهم من طلبة المعاهد العلمية ولكن لا يصلح شعرهم للسيرورة بين العامة. وإنما يراد بالأناشيد وبخاصة العسكرية منها ما يصلح للعامة

ولقد ظهر اليوم من يكتبون للعامة ولكنهم لم يتقربوا بعدُ إلى العامة بفهم أرواحهم وبالمشاركة في عواطفهم وبتفهم أحاسيسهم وإنما تقربوا بهجر اللغة العربية وبكتابة الأزجال

(يا قاعد في دارك ... والعالم في نار)

هذا كل مبلغ للتقرب للمجندين. والمجندون يفهمون اللغة العربية ولكنهم لا يفهمون التغالي في تصوير العواطف ولا يفهمون التكلف، ومن أجل ذلك سيضعون لأنفسهم ألحاناً جميلة مثل:

بلدي يا بلدي ... والسلطة خدت ولدي

ويتركون أناشيد الشعراء ما لم يدرس الشعراء أنفسهم وسائل الاتصال بالشعوب فيقولوا مثل نشيد:

صدق وعده

الحمد لله وحده ... ونصر عبده

وأعز جنده ... وهزم الأحزاب وحده

فإن أعجزهم مثل هذا وهو معجزهم بالطبع ففي رسائلي التالية نماذج لأناشيد أخرى عربية ومترجمة وجديدة مؤلفة.

عبد اللطيف النشار

استطلاع صحفي

مدرسة المدفعية الجوية

كيف يتعلم الطيار تدمير أهدافه

لمندوب الرسالة

من المراحل الهامة في الطيران الحربي مرحلة القتال، فهي الغاية التي استعملت من أجلها الطائرات في القتال، فأصبحت أخطر الأسلحة وأشدها فتكا إذ لا تقف في سبيلها حصون ولا تقفها اختراعات، فهي تصيب المحاربين والآمنين مهما ابتعدوا منها.

خطوة أخرى

تكلمنا في مقالتينا السابقتين عن مدارس الطيران الحربي والميكانيكي والتصوير الجوي وهانحن أولاء نبر بوعدنا فنضيف حلقة أخرى من هذا الفن المتشعب الذي يقضي الطيار حياته في الهواء وهو يتعلم دروساً جديدة فيه. وموضوعنا هذه المرة هو

مدرسة المدفعية الجوية.
فقد قرأنا كيف يتعلم الطيار قيادة طائرته وكيف يصلحها، ومزايا الاستكشاف والتصوير بها والآن ننتقل إلى مرحلة أخرى من أدق المراحل وأكثرها خطراً وأشدها حاجة إلى حسن التقدير والمعرفة.
فالمدفعية الجوية اليوم عامل من أهم عوامل الهجوم والدفاع. فتصور قواعد الطيران الإنجليزي وهي تبعد عن ميناء كييل الألمانية مئات الأميال ومع هذا فإن الطائرات تصل إليها وتصيبها بأهدافها فتسبب أضراراً فادحة للأسطول الألماني المرابط هناك.
كما تدمر المصانع والمعاهد العامة. وقد يكون الانتقال من ميناء بارموث الإنجليزي إلى كييل سهلاً بطريق الجو ولكن إسقاط القنابل الصائبة من أشق الأمور ويحتاج إلى خبرة
كاملة وتمرين طويل.
ولننتقل بالقارئ إلى مطار مصر الجديدة الحربي لنشاهد في غرفه وحظائره كيف يجب أن يتلقى الطيار مرانه وماذا يتحمل لإتقانه، فهناك في إحدى الغرف تجد مجموعة كبيرة من مدافع الفيكرز والبرن ونماذج القنابل بأحجامها المختلفة وأشكالها المتعددة وبعضها عملت فيه قطاعات عرضية وبعضها الآخر عملت فيه قطاعات طولية، فانكشف داخلها وظهر الفراغ الذي تحتوي الخلطات المختلفة من المواد المتفجرة والتي تساعد على الانفجار فإن تركيب القنابل الآن من المسائل التي تحتاج إلي التخصص سنوات طويلة، ويصل ثمن الواحدة من بعضها إلى 1500 جنيه
تنافس على الشر
فقد تنافس المخترعون في استنباط خلطات الصلب والنحاس وغيرهما من المعادن، وأصبح لكل دولة خلطة خاصة تنافس بها منافسيها وتحرص على التفوق عليهم بها. فهناك قنابل تنفجر بمجرد اصطدامها بجسم صلب، وهناك قنابل تنفجر بعد زمن معين، وهناك قنابل عملت خاصة لاحتراق طبقات الصلب ثم الانفجار. وهناك أيضاً قنابل تغوص في لجج الماء ثم تنفجر
كل هذه الأنواع وغيرها احتاج إلى مجهود عقلي جبار وسنين طويلة ليظهر إلى عالم الوجود، ولكل نوع منها مزاياه الخاصة. وتبعاً لهذه المزايا اختلف التركيب واختلفت المواد المستعملة، وجميع هذه المتفجرات يستعملها الطيار. فإذا جاز له أن يجهل دقائق تركيبها فلا أقل من أن يعرف مميزاتها وطرق استعمالها والمدى الذي تصل إليه ثم تأثرها بالعوامل الجوية إذا أطلقها أو إذا تركها بدون استعمال
قتال الطائرات
والقتال الجوي بالطائرات نوعاًن: الأول باستعمال المدافع السريعة الطلقات، والثاني بإلقاء القنابل ولكل منهما دروسه وتمريناته. وبعض المدافع يطلقها الطيار بالضغط على زر مثبت على عصا القيادة فينطلق المدفعان الجانبيان في وقت واحد، وهما يثبتان عادة في الطائرات المصرية فوق عجلتي الطائرة بحيث تتقابل طلقاتهما أمام مقدمة الطائرة وعلى
بعد 200 ياردة منها. فإذا أراد الطيار أن يهاجم عدواً ويطلق عليه مدافعه السريعة الطلقات فإنه يجب أن يحول مقدمة طائرته إليه. إذ لا يستطيع أن يتحكم في مدافعه بغير هذه الوسيلة
ولهذا كان استعمال هذه المدافع من الأمور الصعبة. وتزود طائراتنا عادة بمدفع ثالث خلف مقعد الطيار ويديره محارب خاص.
وهذا المدفع يتجه إلى عدة اتجاهات فيستطيع المقاتل أن يصوبه إلى الوضع الذي يلائمه. ويركب هذا المدفع على إطار مستدير حول مقعد العامل فيدور إلى الخلف وإلى الجانبين ولكنه لا يتجه إلى الأمام إذ في المنطقة الأمامية مقعد الطيار ويخشى أن تستولي حمى القتال على العامل فتنطلق من مدفعه رصاصة تقتل الطيار فتتحطم الطائرة ويهلك العامل أيضاً
طلقة في الدقيقة 1050
وتمكن الإنجليز في الحرب الحالية من تجهيز طائراتهم بثمانية مدافع سريعة الطلقات حتى أصبحت طائراتهم أشبه بقلاع جوية. ويجب على الطيار ألا يطلق هذه المدافع باستمرار عند اشتباكه مع طائرات الأعداء فبعض هذه المدافع يطلق 1050طلقة في

الدقيقة فإذا استمر الطيار على إطلاق المدافع مدة طويلة فإن ذخيرته تنفد ولاسيما إن المدافع بعيدة عن متناول يده فلا يستطيع تعميرها. أضف إلى ذلك أن استمرار الضرب يرفع حرارة المدفع مما قد يؤدي إلى تلفه؛ ولهذا فإن الطيار يطلق مدفعه ثانية تقريباً ويستريح ثانية أخرى

ويجب على الطيار أن يدرس هذه المدافع دراسة جيدة حتى يستطيع إصلاح ما قد يطرأ عليها من خلل، ولهذا فإن كل طيار يعرف أنواع العطب التي قد تطرأ على كل منها ويعرف كيف يعالجها بسرعة. فإذا سألت أحدهم عن الخلل الذي قد يصيب مدفع البرن مثلاً قال أربعة وذكرها هي وطرق علاجها

مدفع التصوير

وللاقتصاد في النفقات يستعمل الطيار في تدريبه ما يسمى مدفع التصوير وهو لا يطلق رصاصاً ولكن يسجل على شريط تصويري مقدار إحكام الإصابة. ويثبت هذا المدفع عادة

على جناح الطائرة أو في جزئها الخلفي وهو عبارة عن آلة تصوير على هيئة مدفع فعندما يضغط الطالب على الزر الذي أمامه تنفتح العدسة وتسجل بعد الطلقة عن الهدف كما ترسم دوائر حول الهدف فتبين مدى الخطأ أو الصواب في الإصابة

ويحتوي كل مدفع على اثنتي عشرة صورة مربعة طول ضلعها ستة سنتيمترات، ويفضل استعمال هذا المدفع في التمرين على المدافع الحقيقية لسببين مهمين أولهما الاقتصاد في المال والذخيرة، وثانيهما أن يرى الطيار بنفسه مبلغ دقته في إصابة الهدف فيعرف الخطأ ويتعلم كيف يصححه. ويستمر على هذا التمرين مدة يتقن فيها استعمال المدفع. وتحفظ أشرطة هذا المدفع في إدارة المدرسة ليرجع إليها الطيار كلما احتاج إليها فتراها معلقة في أنحاء الغرفة الخاصة وقد كتب على كل منها اسم مطلقها

فإذا انتهت هذه المرحلة بنجاح انتقل الطيار إلى استعمال المدافع الحقيقية أولاً بذخيرة كاذبة وأخيراً بذخيرة حقيقية ثم يوالي مرانه في فترات السنة المختلفة للبرنامج المعد لذلك

ثلاثة أطنان في الطائرة

وينتقل الطيار بعد هذا إلى فترة تعليم إطلاق القنابل. وتختلف الطائرات في قدرتها على حملها والمكان الذي توضع فيه وهي غالباً في الطائرات المصرية تثبت تحت جناح الطائرة إلى حوامل مشدودة بأسلاك متصلة بلوحة أمام القائد. وبعض الطائرات تحمل ثقلاً يبلغ وزنه 660 رطلاً وهي طائرات صغيرة. وبعضها تصل حمولته إلى ثلاثة أطنان من المدمرات كما هي الحال في بعض الطائرات الإنجليزية التي تستطيع الواحدة منها أن تقطع مسافة 4500 ميل دفعة واحدة

وسبق أن بينا أن القنابل ذات أحجام وأوزان مختلفة يثبت منها الطيار ما يشاء بشرط ألا يزيد مجموع حمولته على الثقل المقرر تبعاً للأغراض التي يقصدها الطيار والأماكن التي يريد تدميرها

ولقذف القنابل شروط يجب أن يتقيد بها الطيار وإلا أفسد مجهوده، ففي الجو تيارات هوائية تؤثر على سير القنبلة عند سقوطها. أضف إلى ذلك سرعة الطائرة نفسها فإن القنبلة تأخذ سرعة الطائرة، ولهذا يجب على الطيار أن يحسب ويقدر هذين العاملين وما لهما من تأثير حتى تكون إصابته دقيقة أو تبعاً للاصطلاح العسكري أن يكون (نشانه

مضبوطاً) فقبل أن يسقط الطيار قنبلته يجب عليه أن يعرف سرعة الريح واتجاهه، وهل هو مضاد لاتجاه الطائرة أو متفق، وثانياً ارتفاع الطائرة عن الهدف، وثالثاً سرعة طائرته، ويعمل بعقله عملية حسابية شفوية فإذا وجد أن حسابه مضبوط وأن موقفه يساعده على إطلاق قنابله ضغط على الأزرار وإلا صحح موقفه بما يراه مناسباً

جحيم المدينة

والقنابل ثلاثة أنواع، الأول للتدمير وشكلها انسيابي ولها زعانف تضبط اتجاهها ولها مقدمة نحاسية ثقيلة متحركة تصطدم بالأجسام الصلبة فتضغط المواد الداخلية وتفجرها فترسل جحيمها لتدمر ما حولها، والنوع الثاني للحريق وهو نوعان نوع يوضع في أوعية كبيرة من الصاج توضع فيها عدة قنابل يفتحها الطيار فتتساقط القنابل فإذا

لامست جسماً صلباً احترقت مولدة حرارة شديدة تشعل كل ما يجاورها، وعيب هذه القنابل صعوبة ضبط اتجاهها ولا تستعمل إلا في القرى والأماكن السريعة الاحتراق، والنوع الثاني وهو قنابل كبيرة تشبه قنابل التدمير ويسهل ضبطها وتطلق مثلها بالضغط على الأزرار

والنوع الثالث من القنابل هو قنابل الغازات السامة على اختلاف أنواعها، وبعضها يطلق في قنابل وبعضها تقذفه الطائرة على هيئة رذاذ ينتشر في جو الأماكن التي يراد إصابتها، وكما يدرس الطيارون طرق استعمال هذه القنابل فأنهم يدرسون أيضاً طرق الوقاية منها وأهمها طريقة إخفاء المدن أو الجنود والمصانع وغيرها من الأهداف التي تقصدها الطائرات، ويضيق بنا المقام عن سرد تفاصيلها ولكننا نرجو أن نحدث القارئ عنها في مقال آخر

إلقاء القنابل

يبدأ الطيار مرانه على القتال بالقنابل باستعمال آلة التصوير وبها يسجل قدرته على إصابة الهدف. وليكون التدريب أكثر نفعاً وأوفى عناية، شيدت إدارة سلاح الطيران الحربي بناء من طابقين يجلس الطيار في الأعلى منهما حيث تسلط عليه التيارات المشابهة لتيارات الجو، ويوضع في الطابق الأسفل منهما خريطة صغيرة متحركة عليها علامات يحاول الطيار أن يصيبها بقذائفه وتسجل الإصابات بواسطة ضوء أحمر ومن وسائل التدريب المهمة استعمال القنابل الكاذبة الخالية من المتفجرات الضارة. فهذه الوسيلة أقرب إلى الحقيقة من سواها إذ يجلس الطيار في طائرته بعد أن يحمل حمولته المقررة من القنابل ثم يرتفع إلى طبقات الجو ومن هناك يسقط قنابله على الأهداف. فيستطيع بهذه الطريقة أن يتعلم دروسه العملية التي تعتبر المرحلة قبل النهائية. ففي الفترة الأخيرة يستعمل الذخيرة الحية

ولا يجوز للطيارين العودة إلى مطاراتهم والهبوط فيها إذا كانوا يحملون قنابل مستعدة للانفجار فيجب عليهم أن يهبطوا أولا في مكان منعزل حيث يتخذون بعض الاحتياطات الفنية التي تمنع حدوث انفجار هذه القنابل في حالة حدوث طارئ مفاجئ للطائرة عند هبوطها في أرض المطار كاصطدام جزئها الأسفل بالأرض مثلاً. وهذا الاحتياط ضروري للمحافظة على سلامة المطار وعماله ولتكون أرضه ممهدة صالحة لهبوط الطائرات.

فوزي الشتوي

التاريخ في سير أبطاله

مازيني

رسول الحرية إلى قومه، المجاهد الذي أبلى في جهاده مثل (بلاء الأنبياء)

للأستاذ محمود الخفيف

- 4 -

على أن اليأس لم يعرف سبيلاً إلى قلبه الفتى حتى في مثل تلك المحنة؛ فراح بعد العدة لثورة جديدة يشعل نارها في بيدمنت، ثورة تأتي هذه المرة من الشعب وكان مازيني مختبئ في بيت أحد أصدقائه في مرسيليا إذ راحت الحكومة تطارده هو وأصحابه، فكان لا يخرج إلا تحت ستر الظلام متنكراً حتى لا يقع في يد الشرطة؛ ولما ضاق بسجنه هذا رحل إلى جنيف وأخذ يجمع المال في سويسرا لثورته الجديدة ولقد لاقى في سبيل ذلك من العناء ما لم يخففه على نفسه إلا شرف الغاية التي كان يسعى إلى بلوغها

وأعد في سويسرا من الرجال ألفاً وثمانمائة ليعبروا جبال الألب إلى بيدمنت، وكان يمني نفسه أن ينضم الناس في تلك الولاية إلى هؤلاء المغيرين فتشيع الثورة فيها وتتعداها إلى بقية الولايات، فيبرهن بذلك لشارل ألبرت أن جنده لم يهنوا من بطش أو يستكينوا إلى ما ضرب عليهم من ذلة، واختار لقيادة هؤلاء المجاهدين ضابطاً يدعى رامورينو حارب من قبل تحت راية بونابرت؛ ولكن رامورينو هذا قضى على الحركة بدل أن يسير بها إلى النجاح فلقد تلكأ في الحضور من باريس حيث راح يبدد المال الذي جمعه مازيني درهما إلى درهم؛ ولما حضر سار بجنده وإنه ليخفى في نفسه غير ما يبديه، وكان هؤلاء قد فترت الحماسة في قلوبهم لطول انتظارهم قائدهم، فما لبثوا أن ذهبت ريحهم وباءوا بفشل عظيم. . .

وأحس الغريب اللاغب بالهم والنصب يخترمان جسمه النحيل فسقط من الإعياء قوامه السمهري، وتمدد على فراشه أياماً كاد فيها المرض أن يودي بروحه فيطفئ ذلك السراج الوهاج ولما يؤد رسالته على تمامها

وتداركه لطف ربه فبرئ مما ألم به؛ وكانت تخفف عنه آلامه وتسري عن فؤاده سيدة أحبها فكانت له في شدته ملاك الرحمة وذلك من فضل الله عليه

ولم يكد يستعيد قوته حتى ألفى الحكومة تطارد أنصاره فتخرجهم من سويسرا بأمر من الدول المسيطرة يومئذ؛ وعز عليه أن يبرح تلك البلاد فيبعد عن إيطاليا وإنه ليحس أن قربه منها يشد عضده ويربط على قلبه، وهو لا يعرف له مستقراً إلا أن يكون ذلك في إنجلترا أو أمريكا ولكنه لا يطمئن إلى أولاهما لا يطبق البعد في الأخرى

لذلك لاذ المجاهد المكدود بالهرب فقضى سنوات ثلاثا مختبئ في منازل بعض محبيه؛ كأنما قدر عليه أن يحيا حياة السجناء وما هو بمجرم ولا مجنون؛ وتوالت عليه المحن وانتابته النوازل، فتمشى السقم في بدنه وتراءت الصفرة في محياه، ولاحت اللوعة في عينيه؛ ونفد ماله حتى لجأ إلى طلب العون من أصحابه وكانت أمه ترسل إليه ما تستطيع أن ترسله كلما كتب إليها يسألها المعونة ورثت ملابسه وأعوزته الكتب التي كانت عزاءه في غربته وسلوته في وحدته؛ وحيل بينه وبين أنصاره فبرم بالوحدة واستوحش الغربة، وألح عليه مرض أسنانه فكان يتناوب هو والهم جسده المضني وأحزنه ما ترامى إليه من الأنباء عن تخاذل الناس وفتورهم في إيطاليا، كما آلمه أن يجد بعض المنفيين يعودون باللائمة عليه فيما أصاب حركتهم من فشل؛ ولقد أدى ذلك إلى أن يضيق بالناس فما يصطحب إلا قطة أحبها!

وهكذا يجتاز الزعيم الطريد فترة من أشد فترات حياته المريرة فترة البلاء التي ما خلت من مثلها فيما نعلم حياة زعيم؛ وخيم عليه ذلك الظلام الذي يسبق في حياة القادة النور الوهاج الذي يبدد بقوته كل ظلام

وإنما يكون هذا البلاء في حياة الزعماء وحيالهم يشعرهم بسمو الغاية التي يجاهدون من أجلها، فيزيدهم هذا الشعور تعلقاً بمبادئهم وحرصاً على بلوغ غاياتهم حتى ليصبح الألم محبباً إلى أنفسهم أن كان مبعث اليقين والصبر، وتلك ناحية تمتاز بها كبار النفوس من سائر النفوس

ولن يكون عظيماً من تتعاظمه الشدائد فتلويه عن وجهته، وإنما العظيم من يسير على القتاد مغالباً كل ما يعترضه، وعلى قدر ما يجتاز من الصعاب تكون عظمته ويكون الأثر الذي

تتركه في الناس حركاته، ومن هنا أيضاً كان ترحيب العظماء بملاقاة المكاره، ثم من هنا جاءت قيمة التضحية والفداء وولدت الزعامة

والألم فوق ذلك يمحص المجاهدين فيستخفون كل مرة بما يأتي بعدها من ضروبه حتى ليصير مألوفاً لديهم؛ وذلك ضرب من الغلب يأتيهم من بطلان سبب من أكبر أسباب الهزيمة

لذلك صبر مازيني، ومثله خليق أن يصبر وهو الذي جعل من مبادئ جمعيته التضحية والفداء والصبر على الآلام، بل والسعي إليها ومجابهتها، فلما كتبت إليه أمه تسأله أن يرجع عما هو بسبيله كتب إليها يقول: إنه كان يفعل ما تأمر لو أنه استطاع ذلك!

فانظر إليه كيف لا يستطيع أن يبتعد عن المحن والآلام وخذ من رده هذا معنى من أبلغ معاني البطولة. . .

وكان له في وحشته نور من مبادئه ترى قبساً منه في قوله: (لقد جعلنا قضية الناس قضيتنا، ولقد حملنا على عاتقنا باختيارنا آلام جيل بأجمعه؛ وقبسنا من الله الباقي شعلة، ووضعنا أنفسنا بينه وبين الناس؛ واضطلعنا بدور المحرر، وتقبلنا على ذلك الله)

وعلمه ما سبق من الفشل أن يصبغ مبادئه صبغة تجعل لها مثل قوة الدين، فتكون بذلك أسرع نفاذاً إلى القلوب، فإذا مستها علقت بها حتى ما تنتزع منها؛ لذلك جعل من تعاليمه الحث على المبادئ السامية التي بها تكمل الإنسانية، كأداة الواجب لذاته، ومحبة الناس جميعاً، والعمل لخير الإنسانية عملاً لا يبتغي المرء من ورائه جزاءً ولا شكوراً، والبذل والفداء في غير مَن، والصبر على المكاره في سبيل النصر

وراح يوحي ذلك إلى الناس بخيال شاعر ويقين نبي حتى أحيطت دعوته بروح مثل روح الدين، وأصبحت الكلمات التي لا تكون على لسان غيره أكثر من كلمات، قوة لها

سحرها وفتونها على لسانه هو؛ وأصبح شخصه بين حوارييه وكأنما رفعته قوة خفية إلى مرتبة فوق مرتبة البشر وإن كانت دون مرتبة الأنبياء

وأصبحت وطنية الذين اتبعوه أكثر من أن تكون وطنية؛ فلقد ملأت قلوبهم الآمال واشرأبت نفوسهم إلى المثل العليا، وفي ذلك تتجلى رسالته الحق إلى الجيل، إذ قد جعل الناس يؤمنون أن في هذه الحياة غير الدين ما يستحق تضحية النفس في سبيله، ومن ذلك الوطن

والحرية والكرامة الإنسانية

وكان يشتد به الحنين إلى وطنه وهو في سويسرا حتى ليفعل به الحنين ما يفعل المرض؛ وإنه ليعلق خياله بتلك السحب التي تجتاز الجبال لأنها تسير إلى إيطاليا؛ وإنه ليمد بصره إلى أقصى ما يستطيع نحو وطنه وكأنه يستأنس بهذه النظرات فهو يطيلها أحياناً كما لو بات في غيبوبة

على أن الأنباء التي كانت تصل إلى مسمعيه عن أهل هذا الوطن كانت تزيده غماً على غم، فهذه الرجعية العتيدة التي تؤيدها النمسا تزعم خاطره وتؤلم نفسه، وهذا الخور الذي حل بالرجال يغيظه ويحزنه، حتى ليصل به الأمر أحياناً إلى أن يتدبر أهو على صواب فيما هو فيه من جهاد يجر عليه عذاباً كذلك العذاب الأليم؟

ولكن نفسه كانت تحدثه أبداً أنه مهما قل أنصاره، ومهما مسه من الضر أو أصابه من الهم، فلابد أن تكون العاقبة بحيث تستحق ما يلاقيه؛ وكان قلبه يوحي إليه دائماً أن مبادئه محققة في غد لا محالة على يده أو على يد غيره؛ وكثيراً ما أعانه هذا الأمل على التغلب على كثير من الصعاب؛ ولقد يشتد هذا الأمل عنده حتى فكأنه يرى المستقبل فهو يبشر أبداً بالفوز كأنما كان يوحي إليه به من وراء حجاب. فهل كان مرد ذلك إلى شدة يقينه وقوة حماسته أم إلى جموح خياله وقلة تجربته؟ ألحق أن خياله كان ذا سلطان كبير عليه، ولكن جانب اليقين في نفسه لم يكن أقل من جانب الخيال، بل لقد نستطيع أن نقول إن قوة خياله كان مبعثها قوة يقينه فلولا ما أيقنه واعتزمه ما طمع في شيء ثم ما تخيل شيئاً

وجمع مازيني في سويسرا حوله نفراً من أهلها وأوحى إليهم أن يعملوا للحرية وأغراهم أن ينشئوا جمعية على غرار إيطاليا الفتاة فتألفت بذلك سويسرا الفتاة، وأصدر أعضاؤها صحيفة تعبر عن مبادئهم وعاونها مازيني بقلمه، ولقد كان مازيني يبغي من وراء ذلك أن تنتشر الحرية في كل مكان في أوربا لتتألف منها قوة عظيمة تجرف أمامها الرجعية، وتقذف بها إلى غير رجعة؛ وانتشار الحرية في سويسرا من شأنه أن يؤدي إلى تسربها إلى جارتها، هكذا حدثته نفسه الوثابة وخيلت له روحه المتوقدة

ولكن الحكومة السويسرية تقرر نفيه من بلادها مخافة أن يبذر فيها بذور الثورة، وتجد في البحث عنه وتقضي في غير إبطاء على حركته هذه، وهي في مهدها، فيجد نفسه مضطراً

إلى الرحيل فيختار إنجلترا ويسعى إليها عام 1837 وهو في الثانية والثلاثين من عمره وفي لندن يحيا حياة طليقة حرة فيظهر بشخصه في المجتمعات ولا يلجأ إلى الاختفاء ولكنه يضيق أول الأمر بجو لندن وحياتها الصاخبة وضبابها المقبض، ويذكر ما خلف وراءه من شمس منيرة وسماء ضاحية وفضاء رحيب منضور الجوانب مسكي النفحات، وهو بطبعه شاعر يهفو لجمال الطبيعة قلبه، فلا عجب أن تقبض صدره عيشة لندن التي أحس منذ وطأتها أقدامه أن المادية فيها هي أساس كل شيء، وأن الروحية فيها غريبة شريدة مثلما كان هو غريباً شريداً

ولئن منح حرية التجول والعيش السافر، فلقد وجد أمامه من دوافع العزلة والقبوع في داره ما لا يقل إيلاماً عن نوازع الرجعية والاستبداد وذلك هو الفقر؛ الفقر الذي تركه رث الثياب حتى ليتواري من الخزي عن الأعين، الفقر الذي جعله يرهن ما حمل معه من ضئيل المتاع ليقتات والذي اشتد به زمناً حتى لقد راح ذات يوم يرهن ملابسه من أجل بعض دراهم، وذهب مرة أخرى يرهن حذاءً له ليشتري به طعاماً لغده

وأخذ يبحث عن عمل يمسك من ورائه رمقه، فلم يجد إلا أن يكتب بعض المقالات في بعض الصحف، على أن أجره على ذلك كان ضئيلاً وكان المترجم الذي ينقل كلامه إلى الإنجليزية يحصل على نصيب من هذا الأجر

ومن غريب أمر هذا الطريد النازح أنه كان لا يبخل في غربته على غريب غيره بماله على قلته، فكلما اكتسب شيئاً منه أو أرسلت أمه شيئاً وجاءه أحد معارفه يسأله العون مدّ يده إليه بما تملك وهو في أشد الحاجة إلى من يعينه، حتى الملابس لقد كان يجود بما ترسله إليه أمه منها على الغرباء من بني وطنه لتقيهم غائلة البرد في لندن، وحسبه هو دفء قلبه وابتهاج نفسه بما تقدم يداه

وكان يستدين على ما كان في الدين من مذلة، ثم يحاول أن يسد دينه بقلمه فيفلح حيناً ويفشل أحياناً فأضاف ذلك إلى آلامه وأشجانه ما نعجب كيف أطاق احتماله! على أن أعظم ما نال من نفسه بعده عن بلاده وقصر ذات يده عن مواصلة جهاده في سبيل تحريرها، ومخافته في هذا البلد النازح من أن تموت مبادئ جمعيته فتنحل وينساها أعضاؤها، وفي ذلك الطامة الكبرى والبلاء الذي لا يجدي معه صبر ولا تنفع فيه حياة

ومما قاله في هذا الصدد: (لن يستطيع رجل أن يعيش وحده، وهاأنذا لا أجد حولي من يدري ما أفكر فيه وما أبتغيه) ووصف ذلك العصر بقوله: (إنه عصر انحلال خلقي، عصر إنكار، عصر كذلك الذي مات فيه المسيح)

وكأنه كان بينه وبين الدهر ثأر فهو لا يأبى إلا يتيه بالمحن بعضها في إثر بعض، فلقد جاءه وهو في غربته نبأ وفاة أخته العذراء، وقد كان يحبها أشد الحب إذ كانت تكبر مبادئه وتعجب به من أجلها، وكان إعجابها هذا به يزيده حماسة وأملاً. وكيف نستطيع أن نصف مبلغ حزنه على أخته التي ذهبت فلن يراها أبداً وهو ذلك الشاعر الرؤوف العطوف الذي يهب حبه الناس جميعاً؟

وكان الأسى يرمض فؤاده كلما مر ذكر ما عسى أن يكون عليه حال أمه المحزونة، ويتضاعف حزنه إذا حدثته نفسه أنه كان سبب كثير من شقائها بما جره على نفسه من العذاب والغربة، ولكن شيئاً واحداً كان يخفف عنه بعض ما به، وذلك شعوره أنه يلقى ذلك كله من أجل وطنه ومبادئه.

(يتبع)

الخفيف

أنت. . .

(مهداة إلى الدكتور إبراهيم ناجي)

للأستاذ خليل شيبوب

النورُ في عينيكِ أُنشودةٌ ... تَروي عن البحر أعاجيبا
تُرقِصُ في هُدْبيْهِما ناظراً ... كاللجِّ بالخضرةِ مشبوبا
قد أسمعتْ عينيَّ ألحانَها ... عيناكِ تنغيماً وتطريبا
حَدَّرَتِ النفسَ أهازيجها ... واقتدحتْ في القلبِ ألهوبا
فاختبطتْ في الصدْرِ أغوارُه ... تهدر تصعيداً وتصويبا
لكِ ابتسامُ الصبحِ خطَّتْ به ... مغازلُ الشمسِ أساليبا
من خَطَفاتِ السحر موهومُهُ ... يُخالُ تفضيضاً وتذهيبا
أَحِسُ في النفسِ حفيفاً له ... أزهقَها حبّاً وتعذيبا
وشَعْرُكِ المرسلُ نَبتُ الدُّجى ... يموجُ تصفيفاً وترتيبا
ملتمعٌ من سافرٍ تحته ... أضفى ضياء البدر مسكوبا
رعاه قلبي حَلَكاً هادياً ... يجلو عن النفس الغياهيبا
الحسنُ في الوجهِ وفي الشَّعرِ قد ... سافر تشريقاً وتغريبا
جيدُك أعيى الفنَّ لما بدا ... في قَالَبِ الفتنة مصبوبا
لانَ لُجَيْناً وضياءً كما ... قام عمودُ الصبح منصوبا
سطَّر فيه الحسنُ أطواقه ... دائرةً لم تكسُ مسلوبا
الحسنُ وُصفٌ لكِ والفنُّ قد ... أضحى لأوصافكِ تلقيبا
جسمُكِ قدسُ الحبِّ طافتْ به ... عبادةُ العابدِ مربوبا
في كل عضو منه أعلى الهوى ... معابداً لي ومحاريبا
أعبُدُ فيها اللهَ مستشعراً ... قُدرَتَهُ لا أختشي حوبا
وقفتُ عمري لكِ مستلحقاً ... بصدر أيامي الأعاقيبا

عواطفي في الصدرِ مكبوتةٌ ... أدبها حسبِّيَ تأديبا
لو أطلِقَتْ لاندفقتْ مثلما ... تَدَفَّقَ الغيثُ شآبيبا
أحْبَبْتُكِ الحبَّ جميعاً فهل ... أعيشُ محروماً ومحروبا
يا هند لا يُغْضِبكِ حبي فكم ... وَضْع صحيح بات مقلوبا
وإنني ما اخترتُه عامداً ... بل هو شيءٌ كان مكتوبا
أَخْفَقْتُ في سعيي إليه ومن ... أخفقَ في مسعاه ما عيبا
إن عاش بالآمال غيري فقد ... أموتُ بالآمالِ منكوبا
أو صَدَقَ الحبُّ لغيري فقد ... أعاد لي العمر أكاذيبا
(الإسكندرية)
خليل شيبوب
لحظة
للأستاذ حسن حبشي
آهِ ما أجْمَلَها مِنْ لحْظةٍ ... حادَثتْ عَينيّ فِيها مُقْلتاكِ
لحظة مِنْ عُمُري خالِدَة ... لامَستْ كَفيَ فيها رَاحَتاكِ
وأضاءتْ لَيلَ قَلبِي بَسْمَةٌ ... أطْلَعْتها كالأمَانِي شفتاك
فَصَحا القلب عَلى فِتْنتها ... وهَفا منْ شوقِهِ نحو عُلاك
أنت يا مَولاي عُلْويُّ السَّنا ... فاحبُني من نورك الزاهي شُعاعا
هاتِهِ أجْعلْ فُؤادِي زوْرقاً ... وضِياك الحُلوَ في اللجِّ شِراعا
عَلَّهُ يُنقذُ روحاً حُرَّةً ... سئمتْ في عالم الأرض الصراعا
وامضِ لا تَعبأ بِذيَّاك الورى ... فالورى قد أحسنوا فيها الخداعا
يا نجيَّ القَلبِ في عُزلَتِهِ ... رامَكَ القلبُ فهلاَّ تُشفقُ
لا تخلْ صمتي جحوداً بالهوى ... أنا إنْ أسكُتْ فَعيْني تنطقُ
أنتِ في هذي الدُّنا زَنْبقةٌ ... عِطرُها الفوّاح فِينا يشرُقُ
عَطَّرَ الرُّوح فأمسى خاطري ... بالَهَوى العَفِّ طروباً يَخفقُ
حسن حبشي
رسالة الفن
دراسات في الفن
مع هذه الأجسام
للأستاذ عزيز أحمد فهمي
- اسمعي! إذا كنت تريدين زوجاً صالحا فعليك بهذا الشاب الذي مر الآن ونظر
- أيهم؟ فهم كُثر، الذين مروا ونظروا
- نعم هم كثر، ولكنه هو واحد، وقد عرفك وأنت عرفتِه، وقد حياك وأنت حييته. . . فلم التجاهل؟
- أأنا حييت أحداً الآن وحياني؟ متى كان ذلك؟ وكيف كان؟
- زعموا أن آنسة كانت جالسة على قارعة الطريق في مقهى وكان معها دلو. . .
- دلو؟
- أي نعم. . . بمعنى رجل. . . وهو عند المرأة هكذا لأنها تلقي به حيث شاءت، وتملؤه بما يطيب لها، و (تدفقه) أينما أرادت، وتأخذ منه كل ما يحتويه فتختص به نفسها أو توزع منه على من تحب. . . فإذا انثقب رقعته، فإذا انكسر جبرته، فإذا تحطم حرقته واستدفأت بحطامه. . .
- يا له من ثأر بينك وبين المرأة. . .
- أنا؟ أنا ما بلغت إلى اليوم منزلة الدلو. . . مهما أكن فلن أزيد على لوح من ألواحه فلا يمكن أن يكون بيننا ثأر
- يا للفضيحة. . . ما علينا. . . أتمم قصتك. . .
- وكان الدلو يتحدث إلى الآنسة بكلام تافه سخيف لا غناء فيه لأنه يدور حول أسرار الوجود. . .
- وهل يقال عن الحديث الذي يدور حول أسرار الوجود إنه تافه سخيف؟ فما الحديث الجليل الخطير؟
- هو عندكن ما يدور حول هذه الجثث التي هي أنتن، وحول هذه الخرق و (الهلاهيل)

التي هي ثيابكن أو دروعكن وما أشد التباين بينها وبين دروع الرجال، فهم يتدرعون بما يقيهم الهجمات، وأنتن - يا ويلي منكن - دروعكن مغامز ومطاعن تكشفنها كشفاً، وتظهرنها عمداً ليسهل افتراسكن على الجرذ الضئيل كما يسهل على الأسد الضرغام
- يا أخي! أما تُتم قصتك وتدع هذه المهاترات. . .
- فلندعها. . . ومر بالآنسة وصاحبها. . . آخر. . . عريض المنكبين متين الألواح. . . طفت رجولته على جلده ولم يعد منها شيء في داخل نفسه. فلما رأى الآنسة، تجمعت قواه في عينيه، ثم انبثقت القوة تياراً، وانطلق التيار جارفاً قوياً، فصدم الآنسة في عينيها، وفيما بين عينيها، وفيما حول عينيها، فألمتها الصدمة، فرفعت يدها إلى رأسها تحول بين رأسها وبين هذا التيار الذي لو ثقل عليها لتراخت وتخاذلت وتساقطت، ولنتحسس بيدها أيضاً مكان الصدمة تختبرها وتتعرف مداها، كما نصنع دائماً عند كل صدمة، ولكنها فطنت إلى أنها بين جماعة من الناس قد يكون فيهم من يتتبع حركاتها، فمررت يدها سريعاً من جبهتها إلى شعرها حتى يظن الذي يراها أنها إنما رفعت يدها لتصلح من شعرها، لا لتتقي تياراً، ولا لتشد أعصابها. . . وجازت هذه الحركة على كل من رأوها. . . وصاحبها أولهم
- وما لنا وهذه الحكاية؟
- هذه الحكاية حدث الآن ما يشبهها، وكل ما في الأمر أني أردت ألا تفوت من غير أن ألفتك إليها لعلك تستغلينها، وتربطين إليك بسببٍ صاحبك هذا الذي مر، وهو فيما يظهر ممتلئ. . . رجولة وغروراً، ومالاً أيضاً. . .
- ولكن هذا أجنبي
- إذن فانتظري الذي ليس أجنبياً، والذي يؤثر فيك هذا التأثير، واعلمي أنه هو الأهل لك
- ولكن رجالاً كثيرين. . . كثيرين جداً يفضلون السحلب على (المغات) . . .
- نعم لأن الكاكاو أطيب طعماً من جوز الهند
- عدنا إلى الخلط؟
- لقد مشيت معك. . . كنا نتحدث عن الرجال والنساء فانتقلت أنت إلى العطارة، فآثرت أن أجاملك وأن أمضي معك حيثما تريدين. . . فهل نعود إلى ما كنا فيه وتقولين لي مالهم الرجال الكثيرون الذين كنت تريدين أن تتحدثي عنهم. . . أو الأحسن أن ندعهم ونتحدث
في الحمص وغزل البنات؟ مالهم الرجال الكثيرون. . . مالهم؟
- فأنت مصر على أن تهتك نفسي؟
- مهتوكة يا آنستي نفسك وكل نفس ما دامت الأنفس في الأجسام!
- إذن، فليست الأجسام حجبا كما قلت مرات؟
- إنها حجب، وليست حجباً، كالنور يبصر فيه البلبل ويمشي فيه الخفاش. . .
- أو كالظلمة تبصر فيها البومة ويعمى فيها الطاووس. . . فهل أنت طاووس أو أنت بومة؟
- ولم لا أكون البلبل وأنت الخفاش؟
- لم أسمعك يوماً تصدح. . .
- لأنك تسهرين الليل وتنامين النهار. . . عيناك لهما الظلام ونفسك اطمأنت للسواد!
- قسمتي!
- ولماذا ترضين هذه القسمة وهي مما لم يكتبه الله على الناس فما كتب على المبصرين العمى، ولكنهم هم الذين يضعون أصابعهم في أعينهم كمن يخشى أن يرى، وكمن يجب أن تزل قدمه ليسقط فينهار! افتحي عينيك، وانظري، وابصري، وافهمي، والله لا يتعاطى من عبيده أجراً على ما يعلمهم، ولا هو يتقاضاهم رسوم الألعاب.
- وماذا تريد مني أن افعل؟
- ترقبي حركاتك، وترقبي دوافعها في نفسك، ثم ترقبي حركات الناس، تعرفي دوافعها في أنفسهم.
- وهل كل الناس يتشابهون؟
- من غير شك، هم يتشابهون في مقومات الإنسانية وأصولها كما تتشابه الأسود في مقومات (الأسدية) وكما تتشابه الأبقار في أصول (البقرية). . . وكل ما بين أفراد الناس من خلاف، فإنما يتناول الفضول والزوائد ولا يتعداها، فالأمير إذا مات وحيده

حزن وبكى ومسح دموعه في منديل، والخفير إذا مات وحيده حزن وبكى ولكنه يمسح دموعه في ذيل ثوبه، وكل من المنديل وذيل الثوب، لا صلة له بالحزن ولا البكاء. . . أنت تضحكين فتكتمين صوتك تحشما، وأنا أضحك فأفزع الناس بقهقهة كالرعد ولكننا مع هذا نتساوى في

أننا نضحك وإن كنت أنت تضحكين بقدر، وأنا أضحك بكل القوة التي في القدر والقضاء. وبهذه المراقبة يا آنستي تستطيعين أن تفهمي الناس، وتستطيعين بعد ذلك أن تكتبيهم وتصوريهم أو تعزفيهم أو تغنيهم أو تلعبي بهم ما شاء لك الفن. . . ولكن عليك - كما رأيت - أن تعرفي نفسك أولاً، وأن تحكمي عليها دائماً مهما آلمك هذا الحكم، وإذا كنت تكرهين الألم فحاولي أن تصلحي نفسك بالحق، واحذري أن تخدعيها بالباطل لأن الباطل يتلفها فلا تعود تصلح مقياساً للحق الذي تنشدينه. فالحق مستقيم، ولا يقيسه إلا ما استقام، ولا يمكن أن يحصره حلزون. . .

- وكيف تعرف الحق؟

- الحق معروف، هو ما فطر عليه الناس لا ما اصطنعوه، الله خلق الخلق بالحق. . . فالحق فيهم، وهو إلى اليوم على رغم ما جاهدوه طويلاً لا يزال فيهم، ونحن نعرفه في البشر بذيوعه بينهم على اختلاف ألوانهم وأجناسهم. فالموت حق لأنه يتناول الناس جميعاً، والحب حق لأنه يتمكن من قلوبهم جميعاً، والفن حق لأنهم يطربون جميعاً. . . هذا هو الحق. . .

- هذا حسن. فكيف تريدني أن أبدأ في تفهم هذا النوع من الحق الذي تدعي حدوثه بين الأجسام، والذي يخيل إلي أنك تجعله كتيار الكهرباء. أنظر مثلاً: هذا رجل ممتلئ رجولة، هو أيضاً كذلك الذي رأيناه في البدء، وهو ينظر إلى هذه السيدة ولكنها تتحسس رأسها من الخلف لا من الأمام، فهل حركتها هذه هي أيضاً تدل على أن تياراً أنبثق منه نحوها، وأن هذا التيار أثر فيها إلى آخر هذه الدعاوى التي تدعيها. ليست المسألة إلا ارتباكاً فقط

- ما الذي قلناه شك. وكل ما في الأمر أن هذه السيدة أنضج أنوثة من الآنسة الأولى التي هي أنت، وعينها أشد تبجحاً من عينك، وحيلتها أوسع من حيلتك، وأعصابها أقوى من أعصابك. . . لقد رفعت يدها لتمر بها على جبهتها مثلما صنعت أنت، ولكنها أفاقت ويدها في منتصف الطريق فبدلاً من أن تضع يدها على موطن (النغزة) في جبينها الفت بيدها إلى قفاها. . . وهذه هي الدرجة الثالثة من درجات الصد

- وهل للصد درجات. . . غير ما فعلتُ وما فعلتْ؟

- نعم. . . أولى درجاته هي ما يلجأ إليها الأطفال عندما يهاجمهم مهاجم بعينيه ونظراته. .

فهم يرفعون أيديهم ويغطون بها أعينهم ويمسكون بها رؤوسهم، وهذه حركة من حركات الصد المكشوفة التي لا يلجأ إليها الواثق من ضعفه. . . وهي تشبه الجري والهرب. . . والدرجة الثانية هي هذه الحركة التي بدرت منك، والدرجة الثالثة هي هذه الحركة التي بدرت من هذه السيدة. . . والدرجة الرابعة هي الصد بالنظر. . . تيار ضد طيار. . . والفوز لمن غلب، والفشل لمن أرخى عينيه. . . ومن الناس مخادعون. . . يريد الواحد منهم عند الهجمة أن يغطي عينيه أو أن يغطي رأسه؛ فإذا رفع يده خشي أن ينكشف فعبث بعنقه أو بأذنه أو بأنفه. . . ألم تلحظي شيئاً من هذا. . . وبهذه المناسبة أريد أن أسألك سؤالاً لعلك تجيبين عنه. . . بعدما استنار لك الطريق

- اسأل. . . ولكن اجعل سؤالك خفيفاً فأنا لا أزال في السنة الأولى معك. . .

- ليتني أبلغ السنة الأولى أنا اسمعي، ألا تستطيعين بناء على ما تقدم أن تستنبطي للتحيات التي يتبادلها الناس منطقاً؟. . .

- وماذا تقصد بالتحيات؟

- التحيات. التحيات. رفع اليد إلى الرأس. أليست هذه تحيات؟

- الناس يحيي بعضهم بعضا لأنهم مؤدبون، والصغير يبدأ الكبير، لأنه مطالب باحترام الكبير. . .

- ليس لي شأن بهذه المطالبات. إنما أنا أريد التحيات الطبيعية التي لا يلحظ الناس فيها الفروق الصناعية. . . حتى فروق العمر والسن يجب أن تعلمي أنها ليست طبيعية في هذا الصدد فهناك صغار نفوسهم أقوى من نفوس الكبار. . . هاأنذا وضعت لك

الأساس
- وبهذا الأساس زدتني اضطراباً. . .
- لا بأس. . . قوي وضعيف التقيا. . . يرفع الضعيف يده إلى رأسه بالتحية في هذا الزمن، ولكنه في الأصل كان يغطي عينيه ورأسه. . . والكبير يرد عليه بعد ذلك من باب (جبر الخاطر) لأنه في الواقع لم يشعر بالدافع الطبيعي الذي يحمله على أن يرفع يده إلى رأسه. . . ويلتقي القويان فيرفع أحدهما يده إلى رأسه في الوقت الذي يرفع الثاني يده فيه. . . وهكذا يفعل الضعيفان. هذا هو منطق التحية الذي أطلبه. . . والآن. . . وبعد هذا المثل. . . هل تستطيعين أن تستنبطي منطق التقبيل؟
- وهل للتقبيل هو أيضاً منطق؟ إن التقبيل استجابة لعاطفة، والعواطف لا منطق لها. . .
- من الذي قال لك هذا؟. . . كل ما في الطبيعة له منطق وقانون حتى المفاجآت والمصادفات. . . وإن الذي نثر الكون في هذا الفضاء وحفظه هذه الدهور وهذه العصور لا يمكن إلا أن يكون حكيماً له سنن هي الحكمة. . فكري معي قليلاً. . .
- طيب! قل لي من أين أبدأ؟
- من حيث تشائين. ابدئي بالقبلة التي يطبعها الأب على جبين الابن. . . لماذا يختار لها الجبين؟
- لماذا؟
- ليعطيه شحنة من الكهرباء القوية في هذا الموطن الذي هو أصلح مكان في جسم الإنسان لاستقبال الكهرباء. . . والجبين هو المكان الذي يسلطون عليه الكهرباء في أجسام الذين يعدمونهم بها في أمريكا. . . أو هو المكان الرئيسي لهذا. . .
- فلماذا؟ . . . كأنه معقول. . . والابن يقبل يد أبيه. . . ثم إنه يضع يد أبيه على جبينه
- الابن يقبل يد أبيه فيمتص شحنة من كهرباء أبيه، واليد من أطراف الإنسان التي تشع منها الكهرباء باستمرار وبسهولة. . . والمنوم المغناطيسي يستعين بيديه على تنويم وسيطه إلى جانب القوة التي تنبعث من عينيه. . . والابن يضع يد أبيه على جبينه لأن الجبين كما قلت لك من أطيب المواطن في الجسم لاستقبال الكهرباء
- والأخَوان؟ يقبل كل منهما الآخر في خده، أو يمسح الواحد منهما وجهه في وجه الآخر. . .
- ذلك لأن المفروض في الأخوين أن يكونا متساويين في كمية الكهرباء التي شحن بها كل منهما. . . فالواحد منهما لا يريد أن يكسب من الآخر شيئاً، ولا أن يعطي الآخر شيئاً ولذلك فأنهما يلتفان كل منهما حول الآخر ولا يتعاطيان. . .
- والعاشقان؟. . . يتبادلان القبل من الشفاة
- لأنهما يريدان أن يتعادلا. . . فمن كان منهما قوياً أعطى الآخر الفضل من قوته. . . حتى يتم التعادل. . .
- عجيبة. . . ولكن غاب عنك شيء يا سيدنا. . . إن القبل ليست شائعة بين البشر جميعاً. . . وهي أقرب إلى العادات المكتسبة منها إلى الأفعال الطبيعية. . .
- إذا كانت القبل على هذه الصورة التي نعرفها ليست شائعة بين البشر جميعاً، فللذين لا يعرفونها من البشر قُبَلٌ ولكن على صور أخرى. . . فمنهم من يحك أنفه في أنف صاحبه ومنهم من يحك رأسه في رأس صاحبه. . . وبالملاحظة نرى أن من يفعلون هذا هم المتأخرون من الشعوب الذين لم يهتدوا إلى القُبل. . . وهم بتقبيلهم أقرب إلى ما يصنعه الحيوان. . . والإنسانية تتفتق عن الجديد كل يوم. . . والذين رأوا القُبل من هؤلاء المتأخرين مارسوها واطمأنوا إليها. . . ولا تخشى أن في هذا تنكراً على الطبيعة وإنما هو ارتقاء بها. فإنه لا يزال في الدنيا ناس يعيشون على الأشجار. . . وهؤلاء إذا عرفوا الحياة على الأرض اطمأنوا لها وعاشوا عليها كما يعيش بقية الناس لأنها الطور من أطوار الحياة الذي يتلو ذلك الطور الذي عاش فيه الناس على الأشجار. . .
- كأنه معقول. . .
- أنا أعرف أنه لن يكون كلامي معقولاً إلا إذا كان مترجماً أو منقولاً، وكي تطمئني يا آنستي اعلمي أني أخذت هذا الكلام عن الأستاذ وهو أستاذ مشهود له في أوربا وأمريكا وآسيا وأفريقيا واستراليا وهوتولولو أيضاً
- على أي حال إن كلامه لذيذ. ألم يقل شيئاً غير هذا؟

- . . .يا ما أكثر الذي قال. . . ولكني أنسى كثيراً مما يقول. انظري. . . ألم تري
- ماذا؟ هذه الفتاة الجالسة في الركن؟
- نعم. . . لقد نظرتُ إليها فماذا صنعت؟
- هل تريد أن تقول إنها رفعت يدها إلى رأسها فتستدل بهذا على أنك رجل قوي الكهرباء. . . لا يا سيدي لقد رأيتها وكنت مثبتة نظري عليها. . . هي لم ترفع يدها. . . ولم ترفع يدها. . .
- ولكنها فعلت ما هو أحلى من رفع اليد
- . . .ماذا؟. . . كل ما كان منها أن أطلت بلسانها من فمها فمرت به بين شفتيها
- . . .علامة على أي شيء
- . . .إذا كان وراء هذا معنى، فلا معنى له إلا أنها تخرج لك لسانها استهزاء بك
- يصح هذا. . . ويصح شيء آخر. . . وهو أن يكون إخراج لسانها ترطيباً لشفتيها اللتين جفتا على أثر انطلاق التيار الكهربائي منهما، وهذا التيار لا ينطلق إلا في حالة التقبيل شوقاً إلى الازدواج. . . فهي قد شيعت لي قبلة في الهواء. . .
- كده؟ لقد اشتد البرد في هذا المكان. . . قم بنا. . . ألست تريد أن تدرك السينما من أولها. . .
- . . .والله إني أفضل هذا (التياترو)
- وهذه الفتاة القبيحة التي تشيع للناس القبل في الهواء. قم. قم.
- . . .قمنا

عزيز أحمد فهمي

رسالة العلم

لحظات الإلهام في تاريخ العلم

بقلم مريون فلورنس لانسنغ

اختراع الألوان

تتعلق قصتنا التالية بالعصور الحديثة فقد حدثت في المائة والخمسة والسبعين عاماً الأخيرة. لكنه للوصول إلى مصدر هذه القصة يجب أن نعبر جسراً ضيقاً من الزمن يمتد إلى ألف عام

وكان في خلال هذه المدة فنان يتدرجان في سبيل التطور كلاهما يصلح للاستخدام في تهيئة الثياب للحالة التي هي عليها اليوم

أما أحد الفنيين فهو فن الصناعات الآلية فإن اختراع الآلات الميكانيكية في القرن الثامن عشر قد أفسح المجال للحذق في فن النسيج. وإذا أردنا أن نحدد تاريخ بدايات العهود لصناعة القماش وجدنا أنه من فجر التاريخ أي في القرن الرابع عشر قبل الميلاد كانت عناصر النسيج في كل العالم بسيطة أولية هي المغزل بأنواعه ومنها المغزل الصيني للحرير والمغزل الهندي للقطن. ولم يكن أهل القرون الوسطى في أوربا قادرين على إحداث تغيير عملي كبير في صنع ألوانهم

فظل النسيج إلى منتصف القرن الثامن عشر على طريقته القديمة طريقة عجل النسج والنول الذي يدار باليد. وكان هذان العنصران هما كل ما لدى الغزالين والنساجين في إنكلترا من أدوات هذه الصناعة. لكن الناس كانوا قد بدءوا يسائلون أنفسهم: أليس من الممكن اختراع وسيلة يمكن بها أن تظل عجلة النسيج دائرة وأن تظل الوشيعة (المكوك) تتحرك فيصبح النسج أسهل مما كان بواسطة اليدين؟

وكان أحد الضباط البحريين في فرنسا في القرن السابق واسمه (دي جانس) قد اخترع آلة لصنع الأقشمة التيلية لا تحتاج إدارتها إلى عامل ولكن فكرته في الاختراع لم تنجح عملياً. وفي سنة 1733 اخترع جون كاي في مدينة بوري في مقاطعة لانشستر نوعاً جديداً من الوشائع وقد سمي باسم (مكوك الذبابة) لسرعته في الحركة سرعة خارقة للعادة

وبعد اثني عشر عاماً صنع بالاشتراك مع جوزيف ستيل نولاً وصفه بأنه (يشتغل باليد أو بالماء أو بأية قوة أخرى) وكانت لحظة أحق بالذكر في تاريخ العلم الصناعي تلك اللحظة التي جاءت في سنة 1764 إذ اخترع (جيمز هارجزيفر) دولابا. وهو نساج يشتغل على النول وهو في الوقت ذاته نجار. وكان يقيم في بلاكبيرن. وقد قبل أن الفكرة قد أُوحى إليه بها عندما رأى عجلة المغزل يقلبها أحد أبنائه فرأى عند ذلك أنها

استمرت تدور أفقية وأن المغزل ظل يدور عمودياً
وبواسطة هذا الدولاب صار في الإمكان غزل عشرين أو ثلاثين خيطاً في وقت واحد بنفس السرعة وبنفس السهولة التي يغزل بها خيط واحد
ولما عرفت هذه الحقيقة لدى زملاء هاجريفز انزعجوا خشية أن تكون نتيجة الاختراع تخفيض أجورهم وكثرة العاطلين بينهم فهاجموا بيت المخترع في أحد الأيام وأتلفوا جهازه
وكانت الخيوط التي يخرجها النول قبل أن يبدأ النساج عمله تعرف باسم السدى. أما الخيوط التي يخرجها المكوك فتعرف باسم (اللُحمة) لكن الخيوط التي يخرجها دولاب الغزل كانت كلها من نوع اللحمة فليست متينة ولا قوية مثل السدى الذي يمتاز بالطول وبالقوة
وجاءت لحظة أخرى من اللحظات العظيمة في تاريخ الصناعة عندما قدر أن يؤثر رجل آخر في حياة الملايين من زملائه، وهذه هي قصة صبي الحلاق الذي مات وهو حامل للقب ورتبة فارس وأصبح من كبار الأغنياء
كان رتشارد اركرايت (1732 - 1792) أصغر الأبناء في أسرة عدد أبنائها ثلاثة عشر. وكان أبواه فقيرين فلم يستطيعا تعليمه إلا إلى الحد التافه فاشتغل رتشارد صبياً لحلاق؛ فلما بلغ العشرين من العمر أنشأ لنفسه حانوت حلاق في بولتون ولم يكتف بأن يحلق لعملائه، ويمشط لهم الشعر المستعار بل كان يبيعهم شعوراً مستعارة مصبوغة على طريقة ابتكرها. وبهذه الوسيلة أدرك ثروة وصار في وسعه بعد ذلك أن يترك حرفة الحلاقة، وأن تنصرف عنايته إلى غزل القطن، وكان قد اهتم جد الاهتمام بدولاب الغزل فأخذ يجري تجاريبه ليعرف هل في وسعه أن ينشئ دولاباً من هذا النوع يخرج خيوطاً قوية تصلح للسدى، وقد استعان برجل اسمه جون كاي (وهو غير جون كاي مخترع المكوك السريع وربما كان من
أقاربه) فصنعا دولاباً كان لأول مرة في تاريخ النسيج يخرج الخيوط القوية اللازمة بطريقة آلية
وكان أول مصنع أنشأه اكرايت في نوتنجهام سنة 1768 وكان يديره بواسطة الخيل. وبعد ثلاثة أعوام أنشأ مصنعاً في كروفورد في دربشاير، وكان يدار بالماء. وقد تعرض أيضاً لسخط الجماهير وتحطمت مصانعه أكثر من مرة بسبب غضب الجماهير ولكنه عاش العمر الكافي للانتصار على كل المصاعب ولإنشاء مصنع بخاري للنسيج في نوتنجهام سنة 1790
وجاءت لحظة أخرى من اللحظات العظيمة في تاريخ الصناعة وهي قصة قسيس أديب هادئ هو الأب أدموند كارترايت وقد تغير كل نظام حياته بسبب زيارة زارها لمصانع السير رتشارد اركرايت
اخترع هذا القسيس في سنة 1785 نولاً آلياً كان على الرغم من كل عيوبه بشيراً بالنول الذي يستعمل اليوم. واشتد به التحمس للفكرة فأنشأ مصنعاً في دونكاستر وآخر في مانشستر، ولكن الرعاع المتسخطين الذين يرون في هذه المعامل عدوّاً لهم قد حطموها
على أن كاراترايت استمر على خطته وتحول من القطن إلى الصوف وعكف على دراسة مباحث وتجاريب كان يجريها مهندس أرلندي متأمرك اسمه روبرت فولتون، وهو أول من أدخل قوة البخار في الملاحة
ومع أن اختراعات كارترايت لم تعد عليه شخصّياً بالنفع الطائل فانه لم يمت قليل الاعتبار ككثيرين من المخترعين لأن البرلمان كافأه بمبلغ (10. 000) جنيه في سنة 1809
وآخر قصة نرويها هنا عن تطور الصناعة الآلية لنسيج القطن والصوف في إنكلترا هي قصة العازف على الكمان الذي استكشف طريقة جديدة لصنع القماش. وهو من أهل لانكشاير مثل هارجريفز اركرايت وهو مثلهما من الأوساط الوضيعة
اسم هذا الرجل صموئيل كرمبتون وقد ولد في فايروود بالقرب من (بولتوف أن ذي مورز) في سنة 1753 وقد مات أبوه وهو طفل؛ وكانت أمه الأرملة تشتغل بالغزل فساعدها على ذلك

وبعد قليل اشتغل عازفاً على الكمان في مسرح بولتون. وكان يقسم وقته بين العزف وبين
الغزل. وكان يغيظه أن الغزل الذي يصنعه تتهدل أطرافه وخطر له أنه قد يستطيع تحسين عمله على طريقة دولاب هارجريفز فيمتنع هذا التهدل. واستمر خمسة أعوام يعمل على هذا التحسين. وفي نهاية هذه المدة اخترع آلة تغزل خيوطاً رقيقة ناعمة تصلح لنسيج الشاش
أراد أصحاب المناسج أن يعرفوا سره فحاصروا منزله ولما كان المبدأ الذي بني عليه عمله في نهاية البساطة بحيث يستطيع أي خبير بالصناعة أن يعرفه في لحظة فإن هذا المخترع المسكين قد اضطر إلى استئجار حرس حول المنزل طول الليل والنهار، وأخيراً أفشى سره لأحد أصحاب المصانع في بولتون. ومما يدعو إلى الأسف أنه لم يكافئه المكافأة التي وعده بها
وأطلق في إنكلترا وفي إبقوسيا على تلك الآلة اسم بغلة النسيج. وتشجع كرمبتون بما بذله البرلمان الإنكليزي من المكافأة لكارترايت، فاستجمع الأدلة على كثرة ما استُعمل من الآلة التي اخترعها في أنحاء البلاد، وطلب معونة الدولة فمنحه البرلمان ما يعدل نصف المكافأة التي منحها زميله المخترع القسيس وعاد كرمبتون المسكين إلى بولتون وهو يشعر بالخيبة والمضاضة
من الاستكشافات التي استكشفها هؤلاء الأربعة الحاذقون الموهوبون نشأت المراكز الصناعية للصوف والقطن في لانكشاير ويوركشاير وإبقوسيا، وأصبحت هذه اللحظات الهامة في أعمارهم حلقات في سلسلة متصلة في صناعة النسيج الآلي تربط مصانع اليوم بالغزل والطارة اللذين كانا يستعملان في أقدم العصور
وكان على الكيميائي أن يشترك بقسطه الوافر في صناعة القماش، فنشأ كيميائي في السابعة عشرة من العمر كان يشتغل في لندن، واستكشف في سنة 1856 استكشافاً يستحق أن بعد أوانه من اللحظات العظيمة العلمية في تاريخ العالم الحديث
ومن الغريب أنه بينا كان التقدم مطرداً في غزل الأقمشة العظيمة ونسجها كان فن الصناعة يكاد يكون من الوجهة العلمية واقفاً تمام الوقوف
كانت المواد النباتية مثل النيلة والفوة والمواد العشبية كحشيشة البحر والمواد الحيوانية كدودة القرمز والمعدنية مثل الدارصيني، كانت هذه المواد التي تستعمل في الصناعة إلى
أن انقضى عهد ليس بالقصير من القرن التاسع عشر، وبهذه المواد المحدودة الناقصة التأثير كان النساجون في أوربا يلونون منسوجاتهم تلويناً بديعاً كما نرى في الحرير والشيت والقماش المطبوع الذي يوجد الكثير منه في المتاحف
ولكن لم يظهر إلى ذلك العهد ذهن عبقري من المخترعين يكشف أن مزج مادتين كيميائيتين يمكن أن يؤدي إلى استخراج ألوان كثيرة أخرى.
(يتبع)
ع. ا
من هنا ومن هناك
ثروتنا تكسب الحرب
(ملخصة عن (الأوفر))
كانت ألمانيا عام 1914 تعتقد أنها ستمحو فرنسا في أسابيع معدودات. ولكن الحرب مع ذلك دامت أربع سنوات. وقد تكون الحرب الأسبانية أكثر دلالة على أن الحروب العصرية ليست من الحروب القصيرة المدى، وإن تفوقت الدول المحاربة في التسلح. لذلك نستطيع أن نقول إن الحرب الأوربية الحالية ستكون حرب اجتياح
وتدل الجهود المضنية التي تبذلها ألمانيا في سبيل إصلاح حالتها الاقتصادية، على أن الدول الدكتاتورية لن تجد الفرصة المواتية في مثل هذه الحرب
ويقول (ميجر - جنرال توماس): أن القوة الاقتصادية في الحروب الطويلة لها شأن أعظم من القوى الحربية، وقد برهنت الحرب العظمى عام 1914 - 18 على صدق هذا القول. وهو في الأيام الحاضرة يزداد صحة وتأييداً
إن نظام ألمانيا الاقتصادي يقوم منذ زمن طويل على أسس واعتبارات حربية، وتدل محاولاتها في غرب أوربا على حاجتها الملحة إلى الحنطة والبترول

ولا مفر من الاعتراف بأن ألمانيا أقل استعداداً للحرب من الناحية الاقتصادية مما كانت عليه سنة 1914. فالثروة الألمانية أقل مما كانت في ذلك العهد. والألمان لا يستطيعون أن يقوموا بإنتاج الأطعمة والسلع التي تسد حاجتهم أيام الحرب، بل لا يستطيعون كذلك أن يحافظوا على التوازن اللازم بين الصادر والوارد. فهم إذن إما أن يثقلوا كاهلهم بالديون أو يلجئوا إلى الاحتياطي الضئيل الذي لديهم من الذهب فينفقوه ويعتقد (بول إبنزج) الاقتصادي الإنجليزي المشهور أن الاحتياطي الذهب سيكون له الشأن الأول في هذه الحرب دون سائر الشؤون الخاصة بالحرب. ومما لاشك فيه أن ألمانيا لم تكن في عهد من العهود أكثر استعداداً من الناحية الاقتصادية مما كانت عليه سنة 1914، ومع ذلك فقد ضاقت بها سبل الاقتصاد، ومن الحق أن يقال إنها جاءت وتسلحت، ولا يستطيع شعب من الشعوب أن يجابه الجوع والضغط أربع سنوات، تزداد حالته فيها سوءاً يوماً بعد يوم، ومن البديهي أن هتلر إذا استطاع أن ينال بعض الموارد عن طريق
الاغتصاب، فإن هذه الموارد لا يمكن أن تزيد على موارد ألمانيا في الحرب السالفة؛ وهي مع ذلك لا تكفي لإقامة نظام اقتصادي ثابت يضمن لبلاده المال الاحتياطي الضروري لها عند الأزمات.

يقول الدكتور (فرد نزبرج) الأخصائي الألماني: إن ألمانيا تحتاج من البترول في زمن الحرب إلى ما يتراوح بين خمسة عشر وعشرين مليوناً من الأطنان كل عام، ولا يزيد ما يستخرج منها على ثلاثة ملايين في العام. وبقدر محصول رومانيا من هذه المادة بثمانية ملايين من الأطنان على أكبر تقدير، وإذا وجهنا نظرنا نحو الدول الديمقراطية، وجدناها أكثر استعداداً اليوم منها سنة 1914. فاحتياطي الذهب في إنجلترا وفرنسا يزيد خمسين ضعفاً على الاحتياطي الموجود بألمانيا الآن، وللدول الديمقراطية موارد أخرى فيما وراء البحار تستطيع أن تزودها بما يكفيها عند الحاجة. ولا ننس هنا أن أمريكا على استعداد لتمونها بما تحتاج إليه دون أن يؤثر ذلك في مركزها الاقتصادي العتيد.

من هنا يتبين أن الميزان الاقتصادي راجح في ناحية الدول الديمقراطية، ولا تجهل ألمانيا ذلك، ولكنها تمني نفسها بفكرة الهجوم السريع، ولكن الحرب في أوربا اليوم لا تعرف القصر

نشرة نازية!

(من بنك التوفير العام ببرلين)

حدث بعد إقالة دكتور شاخت من رآسة بنك الريخ تغيير كبير في سياسة ألمانيا المالية. فقد كانت أثمان الأطعمة والملابس حتى ذلك العهد تزداد زيادة لا تصل بها إلى حد التضخم، فقد علمتنا الأيام أن تضخم الأسعار يبدأ بزيادة الأثمان كل شهر، وتعلو ثم تعلو حتى تصير في كل أسبوع، ولا تنتهي حتى يصبح المبلغ الذي يدفع في يوم الجمعة لا يساوي شيئاً في يوم الاثنين الذي يليه. وقد تبين في عام 1938 أن إيراد الضرائب لا يكفي لسد ما تنفقه الحكومة في التسليح، فعمدت إلى سد هذه الثغرة ببعض القروض، ولكنها وجدت في عام 1939 أن تلك القروض لم تكن لتكفي لإمدادها بالمال الذي تريده. فلجأت إلى فرض الغرامة اللازمة على الأمة. وكانت حتى ذلك العهد مترددة بين أمرين: إما أن ترفع
الضريبة، أو تزيد في عدد الأوراق المالية. وكان من رأي دكتور شاخت زيادة الضرائب. ولكن رجال المال وأصحاب الأعمال أشاروا على الحكومة باجتناب هذه الطريقة لأن ماليتهم لم تعد تحتمل زيادة في الضرائب على الإطلاق. وعلى ذلك فقد لجأت الحكومة إلى توسيع دائرة الأوراق المالية مع فرض بعض الضرائب. وكان من البديهي بعد ذلك أن ينحى دكتور شاخت عن منصبه، إذ لا يتسنى للحكومة أن تترك مالية الدولة في يد رجل رفع عقيرته بالاحتجاج عليها صراحة حين اعتزمت زيادة الأوراق المالية المتداولة

نحن لا نستطيع أن ننكر بحال من الأحوال أن السياسة المالية الجديدة قد جعلت المصارف على حافة الخطر، وعلى الأخص مصرف التجنيب (التوفير)

إننا لا نشك في فائدة التسليح، ونود أن يكون لألمانيا استعداد حربي يفوق كل أمة على وجه الأرض، ولا يمكننا أن ننصح لأصحاب الأموال بأن يسحبوها من المصارف إذ

يصير من المتعذر على الحكومة أن تعقد قروضاً جديدة بعد ذلك، ولكننا على العكس قد أصبحنا مضطرين تحت ضغط بعض الظروف والاعتبارات أن نمنع سحب الأموال من المصارف لتبديدها بغير وعي في شؤون الرفاهية والأهواء. فحياة الدولة كما يقول الفوهرر في ثروتها. ونحن نعد أموال عملائنا من مالية الأمة ومرافقها العامة. فهي العمود الفقري لتسليح البلاد. لذلك نستطيع أن نقول لكل إنسان في ألمانيا دع أموالك لبنك التوفير

ألم الشعور بالوحدة

(عن (يور لايف الأمريكية))

في الحياة آلام كثيرة، ومن أقسى تلك الآلام الوحدة

والوحدة التي نعرفها بالانفراد، نختلف كل الاختلاف عن شعور الإنسان بأنه وحيد، كل إنسان يميل أن يكون وحيداً في بعض الأحيان. وقد يثير نفسه ويضجرها أن يكون قريباً منه أحب الناس إليه. والمرء ينشد الهدوء والعزلة في بعض الأوقات ليفكر ويستريح، ويبني قصوراً في الفضاء. إلا أن الوحدة تثلم القلب وتؤذيه وتؤدي إلى الكآبة، وتحرك في النفس أفكار السوء. والنفس الوحيدة تشعر على الدوام بأنها غريبة عن العالم مجفوة من بنيه، ومن العجيب أن صاحبها يشعر بالوحشة وهو في المدينة تعج بالملايين من السكان

المحيطين به المجاورين لداره، كما لو كان وحده وسط صحراء قاحلة لا صديق فيها ولا أنيس

ومما يثير في نفوسنا شعور الوحدة، كبت بعض الغرائز التي تريد الظهور، ففي كل إنسان غريزة تدعوه إلى البحث عن رفيق من الجنس الآخر. وكبت هذه الغريزة يسبب له كثيراً من الآلام

من الطبيعي ولاشك أن يكون الإنسان وحيداً، ولكن الوحدة ليست من الأمور التي تؤخذ بالوراثة، ولا من الغرائز التي لا يمكن التغلب عليها وتغييرها. فنحن لم نخلق في هذه الحياة بهذا الضعف، إن الظروف هي التي جعلتنا كذلك، وفي وسعنا أن نغير هذه الظروف فلا نعود إلى احتمال آلام الوحدة بعد

ويختلف علاج الوحدة بالوحدة باختلاف الأشخاص والأحوال. فبعضنا يعاني آلام الشعور بالوحدة حتى يتزوج، وبعضنا يعاني الوحدة حتى يكون له أبناء، وبعضنا يؤنسه كلب صغير أو طائر جميل. وقد كان للمذياع فضل كبير في معالجة هذا الداء عند الكثيرين، كما أن للقراءة والأفلام المصورة فضلا يذكر في هذا الشأن.

من هنا يتبين أن علاج الوحدة يختلف باختلاف الظروف والبيئات. فقد يكون لعصفور صغير فضل كبير في معالجة إنسان من هذه الحالة، وقد يكون للطبيعة فضل في معالجة إنسان آخر. وقد يأنس بعضنا بمشاهدة حفلات الرقص، وقد يأنس البعض بمشاهدة بعض المباريات الرياضية والاندماج في غمار الناس

ومن واجب الشخص الوحيد أن يتعلم كيف يتصل بالناس، وألا يضيق على نفسه كثيراً في اختيار معارفه، فإن الأمور يؤدي بعضها إلى بعض

ونحن نستطيع أن نقهر الظروف وان نحكمها، إذا قوينا غرائزنا وأفسحنا لها الطريق المران. فإذا أخذنا بهذه الأسباب أتيحت لنا الفرصة للتغلب على أحوالنا، فأصبحت تأتمر بما نريد.

البريد الأدبي

تاريخ الآداب العربية لبروكلمن

سبق لي أن وصفت الجزء الأول والثاني والثالث لذلك الكتاب من غير توسع ولا إفاضة في الفحص عن المسائل المتناولة والتفصيلات المتفرقة في البحث. واليوم أعدل عن الوصف المجمل إلى تعقب الفقر بعض التعقب. وقد وعدتُ الأستاذ بروكلمن نفسه بذلك، ولا أدري هل يصله هذا العدد من الرسالة وقد انقطع حبل البريد بين مصر وألمانية

يجري الكلام في الجزء الرابع على النثر في مصر. وإليك أسماء الذين نظر المؤلف في آثارهم: فرح أنطون، محمد إبراهيم المويلحي، المنفلوطي، محمد حسين هيكل، منصور فهمي، محمد عبد الله عنان، شبلي شميل، سلامة موسى، يعقوب صروف، فؤاد صروف، محمد تيمور، محمود تيمور، نقولا الحداد، محمد فريد أبو حديد، خير

الدين الزركلي، الهلباوي، حسين شفيق المصري، عبد الله حبيب، عبد العزيز عمر الساسي، توفيق الحكيم، طاهر لاشين، حسين فوزي. ثم عاد المؤلف إلى الكلام على أحدث ما أخرجه العقاد ومحمود تيمور بعد أن تناول هذا في صدر الجزء الرابع وذاك في الجزء الثالث. وهنالك طائفة من الكتاب لم يتمهل المؤلف عندهم بل قنع يذكر أسمائهم وإثبات كتبهم وتصانيفهم، والحق أن بعضهم، مثل إبراهيم المصري، يستحق فوق هذا، وكان أولى به أن يشغل المحل الذي ظفر به بعض صغار الكتبة (أنظر مثلاً ص241)

ولن أناقش هنا آراء المؤلف في كتابه، فقد قلت من قبل إني مرجئ هذا حتى تخرج الأجزاء كلها فينتظم سلك المناقشة وينبسط على ما تقدم وما تأخر. وإنما هي اليوم التنبيه على بعض الأوهام حتى يتمكن المؤلف من مراجعة ما فاته في المستدرك الذي أخبرني بأنه صانعه:

1 - رسم الكلمات العربية بالحروف الرومانية ورسم الأعلام الإفرنجية

ص 193: سياحة في أرز لبنان - لا: عرز لبنان - ابن الشَعب - لا: الشِعب

ص 214: مُقدمة السوبر من - لا مَقدمة

ص 217: أساطين العلم الحديث (لفؤاد صروف)، لا: أساطير

ص 220: مَهْزَلة الموت - لا مُهْزِلة

ص 226، 228: مسامرات الشَعب، لا: الشِعب

ص 228: مرقص فهمي، لا: مَرقوص

ص 233: محمد عَوض، لا: عِوض

ص 234: شِحاته عُبيع، لا: شحّاته

ص 236: مصطفى الهِلباوي، لا: الهُلباوي

ص 241: لا: (وكان من المدرسين الإنجليز في كلية الآداب عندنا)

ص 243: لا: (وهو المؤلف المسرحي الفرنسي لهذا العهد)

ص 243: لا: (وهو الذي نقل إلى الفرنسية (شهرزاد) لتوفيق الحكيم)

ص 243: صلاح الدين ذُهني، لا: ذِهني

ص 248: كوم حمادة، لا: حمّادة

ص 266: رواية قَصصية، لا: قِصصية

2 - بعض الواقعات

ص 215 و 217: يجعل المؤلف لفؤاد صروف لقب دكتور ويقول إنه ابن يعقوب صروف، والوجه أن صديقي الأستاذ فؤاد ليس بدكتور وأنه ابن أخي يعقوب صروف

ص 235: أدخل المؤلف خير الدين الزركلي في كتّاب مصر باعتبار الإقامة، وهو من أدباء الشام أصلاً

ص 240: جعل المؤلف أحدهم مهندساً في مصلحة السكة الحديدية وهو موظف صغير فيها

وبعد، فهذه مآخذ حقيرة الشأن لا تضير عمل الأستاذ بروكلمن وهو جليل، ولو كان الأستاذ يعيش بين ظهرانينا ما فاته مثل هذه الهفوات، إلا أنه بعيد عن البيئة التي يكتب فيها، أجنبي عن أهلها

بشر فارس

رجع

أقول لصديقي الدكتور زكي مبارك إني لم أقل (بوجوب إلقاء الشعر كما يلقى النثر). فليراجع كلمتي الأولى والثانية (الرسالة 330، 332) يقرأ ما حرفه: (فإن الشعر لعهدنا هذا في أوربا (وعنها نأخذ فن التمثيل) يلقى على المسرح كأنه نثر (إذاً: في أوربا وكأنه). وسبب ذلك أن القصيدة تقوم بمعانيها وألفاظها لا بتفاعيلها. . . وخير من إنشاد البيت

بتقطيعه وفصمه مصراعين والضغط على القافية الراجعة أن يُنشَد على حسب انسياب المعنى في تضاعيفه) ثم (ومما يحق على الوزن أن ينتشر خفية في تضاعيف البيت). وعلى هذا فبيّن أن المحل الأول عندي في إلقاء الشعر على المسرح للمعنى واللفظ وأما الوزن فليكن كالنغم الخفي يذهب ويجيء من وراء ستار رقيق. وأظنني بينت الأسباب التي من أجلها أغلّب إلقاء الشعر بحسب المعاني والألفاظ على إلقائه

بحسب التفاعيل. فهل أعود إلى التبيين؟
وأما تهديد الصديق إياي من أجل ليلاه - حَفِظت لطبيبها العهدَ! - فمما أنشط له. ألا أعِدْ عليَّ يا زكيُّ صروف ليالي باريس ومحن أيامها، فقد لعمري سئمت حياة الطمأنينة ومصر كلها اطمئنان. ألا (أطمح رأسي عن كتفي) ولا تخشَ بأساً فلا ليلى لي فتنوح علي. وهل تكون ليلى، على مرضها، إلا لمثلك. يا للجمال والفتنة ووسوسة الشياطين! وأعوذ بالله من شيطان غير رجيم. . .
ب. ف
إلى مشيخة الأزهر فمشيخة المقارئ
ظهرت طبعة جديدة للمصحف الشريف بعنوان (التنزيل الرباني بالرسم العثماني) قام بطبعها ونشرها عبد الرحمن محمد الكتبي بشارع الصنادقية بميدان الأزهر
وقد وقع في يدي مصحف من هذه الطبعة، فسأني أن أجد بكتاب الله أخطاء منشؤها التهاون في التصحيح والإهمال في المراجعة، كما سرني أن أعلن للناس عنها، ليصلحها كل من كان عنده مصحف من هذه الطبعة ذات الحجمين وإليك البيان:
ص 9 س 4: ـم والصواب: نم
ص 64 س 13: الغيتوالصواب: العنت
ص 87 س 7: حاءتهموالصواب: جاءتهم
ص 97 س 4: ادكر والصواب: اذكر
ص 112 س 10: ـطعمهاوالصواب: يطعمها
ص 112 س 10: نشاء وزعمهم والصواب: نشاء بزعمهم
ص 198 س 2: فيضلّوالصواب: فيضلّ
ص 249 س 15: يومئدوالصواب: يومئذ
ص 254 س 13: ءاينيوالصواب: ءايتي
ص 255 س 10: أتنا والصواب: أتينا
ص 258 س 1: أتوالصواب: أنت
ص 258 س 14: ميهاوالصواب: فيها
ص 260 س 11: ـجدلوالصواب: يجدل
ص 292 س 15: علهوالصواب: عليه
ص 302 س 1: ضللهموالصواب: ضللتهم
ص 309 س 16: من مضلهوالصواب: من فضله
ص 311 س 2: ـالحسنةوالصواب: بالحسنة
ص 312 س 12: ميهموالصواب: فيهم
ص 314 س 9: هده والصواب: هذه
ص 320 س 13: حلقكمموالصواب: خلقكم
ص 424 س 9: ولا حانوالصواب: ولا جان
هذه هي الأخطاء التي استرعت نظري. ولا أقول إنها كل ما في المصحف، بل هي ما عثرت عليه في فترات متقطعة. وكل ما نريده أن تتخذ مشيخة المقارئ وذوو الشأن إجراءات لتصحيح هذا الخطأ وتلافي ذلك الأمر
عبد الحفيظ أبو السعود
في كلية الآداب
قرأنا كلمة الدكتور بشر فارس في العدد السابق من الرسالة تحت عنوان (في كلية الآداب). ولا ريب أن هذه الكلمة أصابت الهدف ونبهت الأذهان إلى أشياء إن كانت معلومة عند أغلب الجامعيين إلا أنها خافية عن الجمهور الذي حقه أن يكون مطلعاً على ما يجري في دوائر العلم والثقافة
وبهذه المناسبة يحضرني أمران عن ذلك المدرس الأجنبي الذي قال فيه الدكتور بشر أنه (يتلطف ليظفر بإدارة شؤون مكتبة الجامعة). الأمر الأول يتلخص في أن كلية الآداب كانت قد أخذت صورة فوتوغرافية للترجمة العربية من كتاب (الارغانون) (منطق أرسطو) وهو مخطوط في المكتبة الأهلية في باريس. فلاحظ بعضهم أن الهوامش غير واضحة في الصورة وكذلك كل ما هو مكتوب بالمداد الأحمر. فكلفت الكلية ذلك المدرس الأجنبي بان يراجع الهوامش ويتمها في باريس في صيف 1938

وصرفت له أجراً كبيراً لذلك، والذي حدث أن هذا المدرس عاد من باريس بدون أن يقوم بما كلف به، والدليل على ذلك هو أن كتاب أرسطو كان طول مدة صيف 1938 - أي أثناء وجود ذلك المدرس الأجنبي في باريس - بين يدي عالم مصري عاد من باريس في نهاية الصيف

أما الأمر الثاني فهو خاص بإعادة طبع كتاب (كليلة ودمنة)، وتفصيل ذلك أن مطبعة المعارف كانت قد عزمت على إعادة طبع هذا الكتاب ورأت أن تعهد بمراجعته إلى لجنة مكونة من بعض كبار رجال وزارة المعارف. فسألت في ذلك الدكتور بشر فارس فكان من رأيه أن تعهد بهذا العمل إلى رجال الجامعة لأنهم أدرى بفن مقابلة المخطوطات ومراجعة المصادر في السريانية والفارسية ثم اللغات الحديثة واقترح للعمل أسماء: الدكتور طه حسين لكتابة المقدمة والمراجعة الأخيرة للأصل العربي والأستاذ عبد الوهاب عزام للمخطوطات الفارسية، والدكتور مراد كامل للمخطوطات السريانية فضلاً عن استشارة المصادر الحديثة وبخاصة الألمانية. والذي حدث بعد ذلك أن المدرس الأجنبي حل محل الدكتور مراد كامل وأن كان الدكتور مراد كامل هو الذي يدرس اللغات السامية ومنها السريانية في كلية الآداب فهذان أمران يدلان على أن ذلك المدرس الأجنبي يحظى برعاية خاصة قد لا يحضي بها مدرس مصري (جامعي)

يوميات نائب في الأرياف للأستاذ توفيق الحكيم

نقل هذا الكتاب إلى الفرنسية الأستاذان جاستون فيت وزكي محمد حسن، وقدم له صاحب السعادة الدكتور حافظ عفيفي باشا ونشرته (مجلة القاهرة) الفرنسية، وقد كتب عن الناقد

الأدبي لمجلة (مريان) في أحد أعدادها الأخيرة ما يأتي: (قرأت في سرور عظيم (يوميات نائب في الأرياف) للسيد توفيق الحكيم. وهي صورة حية للريف المصري تغلب على أكثرها الفكاهة وتظهر في بعضها القسوة. رسمها رجل من رجال الضبط القضائي الذين لا يستطيعون أن يقفوا عند الألفاظ بحكم وظيفتهم. فبرز هذا العالم الصغير على صفحات الكتاب في خفة عجيبة وجلاء باهر. وفي الغالب ينسى القارئ الفكرة الإصلاحية التي حركت الأستاذ توفيق الحكيم حتى ليتمنى أن يبقى كل شيء في هذه المجموعة الإنسانية على حاله ما دامت الإمتاع والغرابة. ولكن من المؤكد أن كثيراً منها سيتغير.

إن المؤلف إذا لم يقنع بالألفاظ فانه لا يمضغها أيضاً. ومع ذلك فإن الذي يبقى في ذاكرة القارئ هو شعبية الحادث وطبعية الملاحظة واطراد السياق. إن الأستاذ توفيق الحكيم هو لا شك كاتب مطبوع. وهو يكتب ليرشد ويكتب وينقد ويعلن، وليسامحني إذا أضفت إلى ذلك أنه يكتب أيضاً لمجرد الرغبة في الكتابة)

حول الأمير شكيب أرسلان

قرانا ما نشرتموه في الرسالة عن عطوفة مجاهد الإسلام الكبير الأمير شكيب . . . أرسلان نقلاً عن إحدى الصحف اللبنانية. والصواب هو أن الأمير يقيم في جنيف وقبلها في لوزان منذ أعوام كثيرة يدافع عن الإسلام والأوطان العربية، ولما عاد إلى سويسرا بعد زيارته لمصر اقتضت ظروفه أن يزور ألمانيا لشأن يتعلق بمنزل يمتلكه في برلين منذ عشرين سنة، والبيت مرهون الآن ومحجوز عليه. وبعد أن سوى مسألته على وجه عاد إلى جنيف ليصوم رمضان في بيته بين عائلته. وآخر أخبار الأمير الجليل أنه كان في أواخر رمضان في مدينة زيورخ السويسرية لزيارة صديقه القديم صاحب المقام الرفيع عزيز عزت باشا، وقد بلغنا أن الأمير يفكر في ترك أوربا والسكنى في الحجاز إلى أن تنتهي الحرب والسلام عليكم.

عربي

صدى صوت من ألف عام

أشكر للأستاذ النجار نصحه وتنبيهه، فقد دلَّ في استهلال حديثه على براءة نقده ونزاهة قصده. أما ما نشرت من شعر الأمير تميم في مساجلة ابن المعتز العباسي، فما كان يسعني، وأنا أنشر الأنواع المختلفة من شعر تميم أن أهمل نوعاً منها، لأنه يتناول خلافاً سياسياً لا وجود له عند أحد من الناس، ولا عند الأستاذ النجار أيضاً.

وقد نشرت في هذا العصر عشرات الكتب وفي طليعتها عصر المأمون وبهذه

المطبوعات الحديثة شعر يؤيد العباسيين وشعر آخر في هجائهم والطعن عليهم، فلم يوجه مثل هذا النقص الذي لو وجه إلى كل مؤرخ لبطل التاريخ من أساسه، أو اتهم المؤرخ على الأقل بإثارة الفتنة أو انتحال دين الأمة التي يؤرخ لها وقد تكون وثنية. وأنا حين أكتب عن الفاطميين لا أستطيع أن أهمل شأناً من شؤونهم، فلسنا في عصرهم ولا في عصر منافسيهم. وكتمان الحقائق العلمية خوفاً من فتنة موهومة من شأنه أن يطمس آثار العلوم ويضلل الأذهان ويترك باب الفوضى مفتوحا للأراجيف الباطلة التي شاع بسببها سوء الظن وانتشرت دواعي الفرقة بين شعوب الإسلام لجهل بعضهم ببعض.

ثم إني أعتب على الأستاذ تناوله موضوع الأخوة الإسلامية في موضوع كتبته أنا بصفتي الشخصية، ولم أذكر فيه الجماعة، ولا أني أحد أعضائها. فأرجو أن لا يغيب عن الأستاذ ولا عن غيره أنني حين أتناول الأدب أو التاريخ أو الفلسفة لا أكتب لحساب الجماعة ولا لغيرها، بل أكتبه للحق وللواجب.

محمد حسن الأعظمي

مصر في أفريقيا الشرقية للدكتور محمد صبري

الدكتور محمد صبري مدير الثقافة والنشر علم من فقه التاريخ وأصول الأدب. شغل الأذهان وملأ الأسماع حيناً من الدهر بمؤلفاته ومقالاته وبحوثه. ثم اعتكف منذ أعوام في دور الكتب ودواوين السجلات في مصر وفي أوربا يجمع النصوص، ويطلب الوثائق، ويستخرج الدفائن، ويسأل الآثار، حتى اجتمع له عن تاريخ مصر في القرن التاسع عشر ما لم يجتمع لغيره. ثم توفر على تحرير هذا التاريخ في عمومه وخصوصه بعدة المؤرخ الموهوب والقارئ المتتبع والكاتب المحلل؛ وهو في أثناء ذلك يفرد النقط المهمة بالتصوير الخاص بالتصوير والنشر المستقل جلاء لغامض أو تحقيقاً لفرية أو استنباطاً لعبرة. ومن

تلك الموضوعات الخاصة التي أراد الأستاذ أن ينشرها تحديداً للذكرى (التي تنشر الأمل وتحفز الهمم وتجرف قوى الاضمحلال البادي في وجه الدولة وفي كل عضو من أعضائها) كتاب مصر في أفريقيا الشرقية: هرر وزيلع وبربرة.

وهو كتاب لطيف الحجم أنيق الطبع رائق الأسلوب، ألم فيه الدكتور بتاريخ هذه البلاد واستعمار إسماعيل لها وتاريخ الحكم المصري بها، معتمداً في ذلك على ما لم ينشر من من مخطوطات قصر عابدين ومحفوظات وزارة الخارجية الإنجليزية وعلى ما نشر من المطبوعات الأوربية فجاء الكتاب حقيقياً بعبقرية الكاتب خليقاً بثقة القارئ

الطفل من المهد إلى الرشد للأستاذ محمد خلف الله

هو كتاب جديد في العربية، يتناول موضوعاً طالما شعر الآباء والمعلمون والمشتغلون بشؤون التربية عامة بحاجتهم إلى كتاب في العربية يتناوله على أسلوب من البحث العلمي يكشف لهم السبيل ويحدد لهم النهج في دراسة الطفل دراسة نفسية تعينهم على ما هم بسبيله من شؤون التربية

وإذا كانت أكثر المصادر في مذاهب التربية وعلم النفس أوربية لا يتأتى لغير الدارس المتخصص أن يلم بها إلماماً يعينه على القصد؛ فإن لنا أن نزعم أن كتاب (الطفل من المهد إلى الرشد) هو محاولة موفقة لتعريب هذا الفن

على أن فائدته إلى ذلك لا يستغني عنها أحد من رجال التربية، فإن فيه جهداً شخصياً يطبعه بطابع مؤلفه ويرفعه منزلة فوق كثير من الكتب المنقولة إلى العربية في هذا الفن. وحسب القارئ أن يعلم أن مؤلفه وضعه أول ما وضعه بالإنجليزية بعد دراسة تسع سنين وتقدم به إلى جامعة لندن فمنحته به درجة الأستاذية في علم نفس الطفل

العدد 335 - بتاريخ: 04 - 12 - 1939

جسومنا وعقولنا

بين الصحة والمعارف

إذا عجبت من أن تقوم فينا وزارة المعارف قرناً ونيفاً ثم يظل تدرس في مانية أعشارنا أميين، فإن أعجب العجب أن تقوم فينا وزارة الصحة زهاء هذا العمر المبارك ثم لا يزال تسعة أعشارنا مرضى

ولا تحسبن ذلك لأن شعبنا بدع من الشعوب هواه في أن يجهل ومزاجه في أن يمرض؛ فإن الله لم يخلق إلى اليوم إنساناً يكره المعرفة ولا حياً يرفض السلامة. إنما السبب

الأول في هاتين الظاهرتين الخاصتين بهذا البلد أن القائمين على ثقافة والمسؤولين عن سلامته قد حصروا همهم في الديوان، وقصروا جهدهم على الشكل، فلم يشغلوا ذرعهم إلا بالتعيين والنقل والترقية والميزانية والدرجات والامتحانات والتقارير والتجارب والدسائس، ولم يكلفوا أنفسهم النظر من نوافذ المكاتب الرسمية إلى هذا الشعب الذي يعيشون عليه ويعملون له، فيضعوا سياستهم على مقتضيات حالة، ويرسموا خطتهم على دواعي حاجته.

أما الحديث عن ماضي المعارف وخيبتها في كفاح الجهالة وتبعتها من هذه الخيبة، فقد جف من تكراره المداد والقلم، فلندعها في ذمة الرجلين العظيمين النقراشي والسنهوري، فعلى استقلالهما في الرأي يعقد الرجاء، وبإخلاصهما في العمل تناط الثقة؛ ولنمض في الحديث عن وزارة الصحة فقد رعانا أن يتخطفنا الموت احتضاراً وعلى حراستنا جيش من الأطباء له المستشفيات المنشأة على آخر طراز، والمعامل المجهزة بأحدث جهاز، والصيدليات المزودة بأندر الأدوية؛ وأصبحنا كلما رأينا القرى والقبور تكتظ بضحايا البلهرسية والأنكلستوما والطحال والملريا والبلغرا وداء الفيل ننكر الواقع ونفكر ونطيل التفكير، ثم نسأل ونكثر السؤال: هل في مصر وزارة للصحة؟ وهل في وزارة الصحة أطباء؟ وهل لأطباء الصحة ضمائر؟ ولا تكلفني الإبانة عن آراء الناس، فإنك تستطيع أن تسأل هذه الأسئلة فيكون لديك من الأجوبة عنها ألوف مختلفة الصيغ والأساليب في التألم والتهكم والالتهام والشكاية والزراية والضغينة واليأس. ثم تسمع عن المستشفيات الحكومية في حواضر الأقاليم شجوناً من أحاديث الإهمال والقسوة والفوضى وغير ذلك مما تمسك عن ذكره محافظة على ما بقي فيها من الثقة. ولكنني أحد اللذين جندوا في جيش الإصلاح وفرض عليهم أن تكون أقلامهم عارية كالسيف، وأصواتهم عالية كالمدفع، وألسنتهم صريحة كالحق، فأنا أروي لك حالة قريتي في وراثة المرض، ونصيب قريتي من وزارة الصحة، وحظ قريتي من الأدواء والأطباء هو حظ كل قرية: هي جزيرة من الأكواخ والحضائر في مستنقع وخيم من مصافي المزارع؛ نمت على عفنها وأسنها جراثيم الأمراض المتوطنة فجعلت كل وجه في صفار الخوف، وكل جسم في هزال الجوع، وكل حي في همود الموت. وقطعت مراحل عمرها الماضي على هذه الحال الشديدة، لا يزهر فيها شباب ولا تثمر بها كهولة. ولم يكن لمصلحة الصحة يومئذ إلا شبه طبيب في المركز لا تراه القرية إلا إذا أنتشر وباء أو وقعت جناية. وعمله كله مع حلاقي القرى: يصرح لهم بدفن الموتى من بعد، ويكلفهم جلب المرضى إلى عيادته من قرب، وعلاجه قائم على البركة والتوكل: ماء من الترعة القريبة يشتمل على عقور مسهل.

فلما صارت هذه المصلحة وزارة أرادت أن يكون لها كالوزارات عمل، فأنشأت المستشفيات الثابتة والمتنقلة، ودرست الأمراض الوافدة والمستوطنة، وقررت تطهير القرى بقتل الأمراض وردم المناقع. وكان من نصيب حضرتنا مستشفى، ومن حظ مركزنا طبيب. فأما الطبيب فقد عجز عن ردم البركة لأن مالكها الباشا لا يريد، وإذا لم يرد الباشا وجب ألا يريد الناس، لأنه يملك الخراف والسمن والفاكهة والكلمة المسموعة. وأما المستشفى فقد دعي القرويين إلى طبه فهرعوا إليه من كل طريق. وأنحنى طبيبه على الأذرع الذابلة بالحقن العنيف، فخشع الداء، وتنبهت العافية، وشعر الفلاح أن في (الاسبتالية) رجاء وفي الطب منفعة، فأزداد وفود المرضى على المدينة حتى شرقت الشوارع وغص المستشفى وضاقت المساكن. فلما وثق الطبيب من الإقبال جعل منزله عيادة خاصة، وسلط أعوانه على المرضى ينفرونهم من المستشفى، ويرغبونهم في العيادة، حتى أشاعوا أن الطبيب يحقن هنا بالماء، ويحقن هناك بالدواء. وأخذ هو يقسوا في المعاملة ويهمل في المعالجة ويشتط في القبول، حتى أشتد على الناس الأذى، وخرجت بهم الأخرجة، وكثرت فيهم الوفيات، فانقطعوا في دورهم مفضلين الموت البطيء الهادئ على الموت السريع المضطرب. وعادت الجراثيم الطفيلية ترتع في الكلأ الآدمي المباح، فلم يبقى في القرية من لم يخامره داء. ثم أنتشر من استفحال البلهرسية داء الطحال فانتفخت البطون واصفرت الأطراف وثقلت الجوارح، فمات به الأكثرون، ولاذ بعض الأقلين بالقصر العيني يرجون استئصال الداء بالجراحة؛ وقد سمعوا أن أساطين الطب من أساتذة الجامعة هم اللذين يتولون

الفحص ويزاولون العلاج ويباشرون العملية، ولكنهم حين دخلوا لم يجدوا إلا أطباء كأولئك الأطباء، ونظاماً كذلك النظام، ومعاملة كتلك المعاملة. أما بقراط وجالينوس وأبن سينا فقد اتخذوا من (القصر) عنواناً ومن (الكلية) وظيفة. فهم يحضرون - إن حضروا - ساعة النهار، فيقابلون أطباء الامتياز، ويحادثون طلاب الطب، وغاية المقابلة أو المحادثة إشارة أو عبارة، ثم ينقلبون سراعاً إلى عياداتهم أو مستشفياتهم يعملون فيها بقية النهار وطرفاً من الليل بصبر الفقير إلى الناس، وعزم الكادح لنفسه.
هذه حال قريتنا في عهد من العهود وكل القرى المصرية على هذا الحال. وإن الناس لينسجون حول المستشفيات الرسمية من الحوادث والأحاديث ما لا يجرؤ القلم على روايته مهما شجع. ولعل في هذه الإشارة ما ينبه أولي الأمر في وزارة الصحة إلى شدة الحسابات ودقة المراقبة؛ فإن الاعتماد في كفاح المرض على التقارير والدفاتر والأرقام، أشبه بالاعتماد في كفاح العدو على رسم المعارك في الورق وكسبها بالكلام!

أحمد حسن الزيات

مع أبي العلاء في سجنه

للأستاذ عباس محمود العقاد

قال صديقنا الدكتور طه حسين في تبيين مقصده من كتابه هذا: وستقول فانك إن مضيت على هذا النحو لم تقدم إلينا كتاباً في البحث العلمي ولا في النقد الأدبي؛ وإنما تتحدث إلينا عن صديق! وهذا حق؛ فأني لا أقدم إليك كتاباً في البحث العلمي عن أبي العلاء، ولا في النقد الأدبي لأبي العلاء، ولعلي قدمت إليك من ذلك ما فيه مقنع؛ وإنما أتحدث إليك عن صديق لا يرجى نفعه ولا يتقى شره؛ ولا يصدر المتحدث عنه إلا عن الحب المبرأ من الرغب والرهب ومن الطمع والإشفاق، أفتراك تكره مثل هذا الحديث؟ ألم تسأم هذه الأحاديث الكثيرة التي تمتلئ بالبحث العلمي والنقد الأدبي (والتي تكتب ابتغاء لرضى الأصدقاء واتقاء لسخطهم. .؟

وقد أحسن الدكتور القصد، وأحسن التعريف. فكتابه حديث المرء عمن يحب لمن يحب. واراه مذكري أحاديث الآباء عن أبنائهم الأعزاء: كيف يضحكون وكيف يبكون، وكيف يخطون وكيف يتعثرون؛ والسامع يرتاح إلى الإصغاء إن كان ممن يعنيهم أمر أولئك الأبناء، فأما إن لم يكن منهم فإلى غيره يساق الحديث، وليس من حقه أن يلوم المتحدث كما ليس من حق القارئ الذي يطلب الهندسة أن يلوم المؤلفين الذين لا يكتبون كتابة المهندسين

وأنا ممن يحبون أبا العلاء وممن أطالوا قرأته في أول عهد الشباب، وما أحسب أحداً من الشبان المشغولين بالأدب لم تمض به فترة معرية في باكورة كفاحه حين تصطدم أحلام الصبا بمتاعب الدنيا وتجارب الأيام، فهناك يروقنا التشاؤم ويعجبنا من يعيبون لنا الحياة. ثم نخرج من هذه الربقة فنعاودها معاودة الحنين إلى تلك الباكورة المشتهاة، ونقرنها بذكرى الشباب وذكرى الأحلام، ونعطف عليها كما يعطف الرجل الجلد على بكاء طفولته وهي لا تستوجب بعض ذلك البكاء. فما زلت أعتقد وأزداد مع الأيام اعتقاداً أن بغض الحياة اسهل من حب الحياة، وأن الأدوات النفسية التي نلمس بها آلام الحياة اعم وأشيع وأقرب غوراً من أدوات النفس التي نلمس بها أفراح الحياة العليا ومحاسنها الكبرى. فالفرح أعمق من الحزن في رأيي ولا مراء! وليس الحزن قدرة بل هو انهزام أمام قدرة. . . أما الفرح فهو القدرة والانتصار. والدكتور طه لفرط حبه أبا العلاء يتهم نفسه بمحاباته فيقول: (قل إني أوثر أبا العلاء وأحابيه وأرضى منه أشياء لا أرضاها من غيره فقد لا تخطى ولا تبعد، وأظنني نبهتك إلى ذلك في أول الحديث، وقلت غير مرة إني لا أملي كتاباً في البحث العلمي ولا في النقد الأدبي، وإنما أسجل خواطر أثارتها في نفسي عشرة أبي العلاء (في سجنه وقتاً ما

فمن المصادفات العجيبة أنني حابيت أبا العلاء على نحو قريب من هذا النحو، ولكني لم أسمها محاباة بل قلت إنها هي الإنصاف المعقول في قياس الأقوال بالقائلين، وعبت من نصحونا بأن ننظر إلى ما قيل لا إلى من قال، فكتبت قبل ثلاثين سنة في مذكراتي التي جمعتها باسم (خلاصة اليومية) أنها قاعدة لا يصح إطلاقها على كل حال. فالكلمة تختلف معانيها باختلاف قائليها، وكلمة مثل قول المعري:

تعب كلها الحياة فما أعج ... ب إلا من راغب في ازدياد
يؤخذ منها مالا يؤخذ مما تسمعه في كل حين بين عامه الناس من التذمر من الحياة وتمنى الخلاص منها، لأننا نثق بأن المعري مارس الأمور الجوهرية في الحياة ودرس الشؤون التي تكون منها عذبة أو مرة، نكداً أو رغداً؛ ولم يسبر منها أولئك العامة إلا ما يقع لهم من الأمور التي لا تكفى للحكم على ماهية الحياة
فكلانا إذن يسمع القول من شيخ المعرة فيعجبه، ويسمع القول نفسه من غير الشيخ فلا يحظى عنده بذلك الإعجاب لكن صديقنا الدكتور يسميها محاباة ومجاملة لصديق، وأنا أجرى فيها على سنتي الغالبة في كل شيء من التوفيق بين الحجة والعاطفة فلا أبرح بالعاطفة حتى أقنع بها عقلي وأثبت له أنها جديرة بإقراره وترخيصه، فيعيش العقل والعاطفة معا في وئام، وأخلص بهذا مما يقع بينهما من ملام وصدام وشيء آخر أخالف به الدكتور أو تخالف فيه طريقتي طريقته في صداقة أبي العلاء فأنا لا أذكر أنني كرهت أحداً أحبه أبو العلاء، أو أحببت أحداً كان هو من كارهيه أما الدكتور فيعلم ما كان في نفس صاحبه من الحب والإكبار لأبي الطيب ثم يقول: (أنا أقدر فن المتنبي وأعجب ببعض آثاره إعجاباً لا حد له، واعجب ببعضها الآخر إعجاباً متواضعاً أن صح أن يتواضع الإعجاب، وأمقت سائرها مقتاً شديداً، ولا تثير حياة المتنبي في نفسي إشفاقاً عليه ولا رثاء له، وإنما هو مغامر طلب ما لم يخلق له، وتعرض لما كان
يحسن أن يعرض عنه فانتهى إلى ما ينتهي إليه أمثاله المغامرون)
ترى ماذا كان المعري قائلاً للدكتور لو سمع منه هذا المقال؟ أخشى أن تكون وقيعة بين الصاحبين وأن كنت لا أخشى أن يعود الشيخ إلى استحسان قصيدة أبي الحسين التي مطلعها:
لك يا منازل في القلوب منازل ... أقفرت أنت وهن منك أواهل
لأن الشيخ يعلم أن الدكتور لا يكره أبا الحسين كراهة الناقص للكامل ويستشفع له بشفيع من طيب النية وصدق الولاء والحق أنني أعجب لهذا النفور بين الدكتور وشاعرنا العربي الكبير، وما أنا ممن يستحسنون كل شعره ولا كل عمله ولكني أزن ما زاده في ثروة الآداب العربية وما زاده في شرور الحياة بسوء عمله وسوء خلفه فأعلم أن الحياة لم تفسد بفساد المتنبي وأن الأدب قد صل بصلاح شعره، وان لأصغر الهلافيت من خلق الله لسيئات أكبر من سيئات المتنبي بكثير واحتملتهم الدنيا مع ذاك. . أفتحتمل الدنيا هذا من أصغر الهلافيت ولا تحتمله من الرجل الذي لو قبلنا حسناته بألف ضعف من سيئاته لكنا نحن الرابحين؟
هنا أيضاً أعود العاطفة والحجة واحسبني أقرب من الدكتور إلى وفاق الصداقة ببني وبين شيخ المعرة، واقرب إلى الإنصاف
أهذا كل ما أخالف به الدكتور من رأى أو هوى في حديثه عن صديقنا العظيم؟
كلا! بل هناك خلاف وخلاف، وأكثر من خلاف وخلاف هناك قول الدكتور تعقيباً على كلام الأديب الفرنسي بول فاليرى في المصور ديجاس (العجيب الذي لم أكن أتوقعه ولا أفترضه أن كثيراً من صفات هذا لمصور الفرنسي الذي كنت أسمع اسمه وأجهل من أمره كل شي تشبه ما ألفت وأحببت من صفات أبي العلاء. فشدة الرجل على نفسه إلى أقصي غايات الشدة، وشك الرجل في مقدرته إلى أبعد آماد الشك، وارتياب الرجل بأحكام الناس في أمور النفس، وزهد الرجل في الشهرة وبعد الصيت، في الثراء وسعة ذات اليد، وانصرافه عن الحمد الكاذب والثناء الرخيص، وتأجيله لذة الظفر بالفوز، وخلقه المصاعب لنفسه وبغضه للطرق القصار والأبواب الواسعة، وإيثاره الطرق الطوال والأبواب الضيقة - كل هذه الخصال التي يحدثنا بها بول فاليري عن صديقه وأثيره ديجاس قد حدثتنا بها
القرون والأجيال عن أبي العلاء، إلا أن الأول كان مصوراً رساماً والآخر كان شاعراً حكيماً. . .)
أفصحيح أن المعري وديجاس شبيهان في خليقة واحدة لأنهما على نفسيها صارمان؟ هنا قسوة، وهناك قسوة، وهنا تعذيب وهناك تعذيب، ولكن أين قلق الفنان في سبيل الخلق من قلق الناسك في سبيل الإحجام؟ أين تعذيب الجواد بالسوط لينبعث ويسبق من تعذيب الجواد باللجام ليسكن ويكف عن الوثوب؟ أين اللزوميات وهي قيود، من

(الأمبرشنالزم) وهي انطلاق من القيود؟ أين رياضة الفقير الهندي المتقشف من رياضة الحسناء بالتقتير على جسدها في الشراب والطعام لتزداد جمالاً على جمال ونشاطاً على نشاط؟ أين الزهد في المال انصرافاً إلى الغني من الزهد في المال انصرافاً عن الدنيا؟ إن الفرق بين تعذيب وتعذيب ليبلغ أحياناً من السعة أبعد مما بين النعيم والعذاب، هكذا كان الفرق بين صرامة المعري وصرامة ديجاس

وثمة خلاف غير هذا الخلاف بيني وبين الدكتور في حديثه عن صديقنا القديم فالدكتور ينقل شذرة من فصول المعري وغاياته يقول فيها: (يقدر ربنا أن يجعل الإنسان ينظر بقدمه، يسمع الأصوات بيده، وتكون بنانه مجاري دمعه، ويجد الطعم بأذنه، ويشم الروائح بمنكبه، ويمشي إلى الغرض على هامته، وأن يقرن بين النيروسنير حتي يريا كفرسي رهان)

ثم يعقب الدكتور على هذه الشذرة فيقول: (أما أنا فما أشك في أن أبا العلاء قد قصد بهذا الفصل خاصة إلى رأى من أشد الآراء الفلسفية الأبيقورية خطراً وهو إنكار العلة الغائبة وإثبات أن العالم كما هو لم يخلق لغاية من هذه الغايات التي نعرفها نحن ونزعم أن الأشياء قد خلقت لتحقيقها)

وعندنا نحن أن سماع الإنسان بيده أو شمه الروائح بمنكبه لا ينفي العلة الغائبة، لأن الوسيلة والغاية هنا موجودتان، ولم تختلف إلا الوسيلة التي تتحقق بها الغاية

وأصوب من هذا أن يقال إن رأى المعري شبيه برأي المعاصرين الذين يقولون: (إن الوظيفة تسبق العضو، وإن القوة تسبق الظاهرة)

فإذا وجدت الرغبة في الحركة أو في هضم الطعام وجدت الأعضاء التي تتكفل بأداء هذه

الوظيفة على اختلاف الأشكال والأوضاع في أجناس الحيوان

وللشاعر الإنكليزي (كولردج) على ما أذكر كلمة في مصور عظيم يقول فيها: (إنه لمصور ولو خلق بغير ذراعين) مريداً بذلك أن التصوير وظيفة قبل أن يكون عضواً من الأعضاء، فلو خلق المصورون بغير أذرع لخلقت لهم وسائل أخرى لإبداع مالا بد أن يبدعوه

وقال الدكتور يخاطب أبا العلاء:

أنت لا نعرف ما باريس وما أظنها قادرة على أن تصرفك عن حزنك وتشاؤمك، . . .) بل أنا واثق بأنك لو عرفتها لأمعنت في حزنك وتشاؤمك كشأنك حين عرفت بغداد. أما أنا فإن باريس تصرفني عن الحزن والتشاؤم وتثير في نفسي لذات عقلية ليست أقل من هذه اللذات التي أجدها في الحديث إليك والحديث عنك، وهي على كل حال تزعجني عن سجنك الذي كنت أود لو أطيل المقام فيه. ومن يدري لعلي أسأم لذات باريس فأفزع منها إليك من حين إلى حين. فليكن وداعي لك الآن موقوتاً ولأقل لك (في لهجة المحب المشفق الوامق: إلى اللقاء

فالدكتور واثق بان أبا العلاء لن يكون في باريس إلا كما كان في بغداد

فما باله أراد مني أن أجعل أبا العلاء يرى في باريس ما يراه السائحون، ويقول فيها ما يقوله أولئك السائحون؟

في هذه أنا أيضاً أقرب إلى وفاق الصداقة من الدكتور

أنا ذهبت إلى باريس بالخيال فأخذت إليها صاحبي بالخيال، والدكتور طه ذهب إلى باريس حسا وخيالاَ فأبى على صاحبه المزاملة وهتف به:. . . إلى اللقاء؟

وما أردت علم الله أن أوغر صدر الشيخ على صديقنا الدكتور أو أن أظفر بنصيب من الحظوة عنده فوق نصيبه، ولكنني أحببت الحديث عن الشيخ ولم أحب أن يكون تكريراً وإعادة تبطل بها متعة الحديث. فليكن خلاف وكان خلاف!! وإنما هو اتفاق في حب التحدث عن صاحبنا المحبوب

عباس محمود العقاد

!أبو كلثوم الوفدي

للدكتور زكي مبارك

ما كنت أنتظر أن أجد في (شبرا) ما رأيت هذه الليلة. فشبرا حي صخاب لا مثيل له في الحركة والضجيج بين أحياء القاهرة. هو في الأصل من الضواحي الهادئة الوادعة المجَّملة الشوارع بأشجار الجميز والتوت، ثم تحول في مدة قليلة إلى محلة مزدحمة

بالتجار وأرباب الأعمال
كانت سهرة هذا المساء في منزل صديق عزيز يسكن تلك المحلة، وكانت السهرة مثقلة بالحديث عن مشروعات وزارة المعارف، فلم يكن فيها جانب واحد من جوانب الهدوء والصفاء
ومن عيوب رجال التعليم في مصر أنهم يحملون شواغلهم في كل مكان، حتى لتحسب أن تلك الشواغل هي كل ما يملكون من زاد الحديث في سهرات الأندية والبيوت. . . لطف الله بكم يا زملائي!
وزاد في عنف الجدل معالي النقراشي باشا كان تحدث مع جريدة المقطم في أشياء تفتح المجال للنظر والتأمل، وتقدم للمشتغلين بالتعليم فرصاً كثيرة لحركة الأفكار والعقول وأردت أن أخرج قليلاً من ذلك الميدان الذي كنت أركض فيه وقت الصباح، ونويت أن أخلص من شواغله وقت الليل، فاقترحت أن تتفضل (روحية) فتقرأ علينا حديث النقراشي باشا بصوتها الذي يشبه بغام الظباء، وأنا أرجو أن أحول تلك المعضلات التعليمية إلى مشكلات وجدانية
ولكن روحية تلحن حين تقرأ، واللحن من مثلها لا يغتفر: لأنها طالبة بإحدى كليات الجامعة المصرية، ومن البعيد أن أطرب لكلامها الملحون، فقد كان المقام مقام تعليم، ولم يكن مقام تشبيب، وإن كنت قصدت أن يفيض صوتها على ذلك الموضوع الجاف نفحةً من نفحات الوجدان
فهل غيرتني الأيام حتى صرت أعد اللحن من ذنوب الملاح؟!
معذرة، يا روحية، فأن عمك نقله الزمان من إلى أحوال! خرجت مكروب الصدر أفكر في أشياء وأشياء، ولكن القمر طالعني بوجه أصبح وهاج، فنظرت إليه برفق وحنان، وكدت
أنسى ما في الصدر من هموم وأثقال. . . والشعراء كالأطفال ينسون أشجانهم الفوادح في لحظات!
قال رفيقي: أين تقع هذه الليلة من الشهر؟
فنظرت في المقطم على نور القمر فرأيتنا في مساء اليوم الثالث عشر من شوال، فقلت: هذه ليلة البدر، يا رفيقي!
وما هي إلا لمحة حتى كان المذياع يصافح آذاننا بجلجلته من منزل بعيد فهرعت إليه وأنا مأخوذ، فجذبني الرفيق من يدي وهو يقول: إن لم يكن بد السماع فارجع بنا نسمع المذياع في البيت؟
فقلت: أريد أن أسمع مع قوم لا يعرفون وزارة المعارف، ولا يفكرون في المناهج، ولاتهمهم مصا ير التلاميذ!
وقفت أسمع كما وقف ابن عبد ربه يسمع منذ أكثر من تسعة قرون، ولم أخف مما وقع لابن عبد ربه؛ فقد طردوه بأسلوب قبيح حين رموه بجرة من الماء ليحرموا أذنيه ألحان الغناء! ثم نظرت فرأيت الدنيا حولي تذكر بمحلة الصدرية في بغداد هي والله محلة الصدرية بمنازلها المنثورة بلا نظام ولا ترتيب، وفي ثناياها نخلات طوال تخيلتها نقلت من هناك
قال رفيقي: إن المذياع في بيت ليس فيه ضياء
فقلت: إنه يغنى أهل البيت في لحظة صفاء
فقال: ألا يكون من الأدب أن نتصرف؟
فقلت: ومن الخير أن أرجع إلى داري لأكتب كلمة عن أبي كلثوم الوفدي، فقد تذكرته حين رأيت في شبرا صورة الصدرية في وطن الأهل والأحباب، إن بقي لي في الدنيا أهل وأحباب!
فمن هو أبو كلثوم الوفدي؟
هو أبو كلثوم: لأنه مفتون كل الفتون بأغاريد أم كلثوم، وهو يهذي بها في كل وقت وهو وفدي: لأنه حقاً وصدقاً من أشياع الوفد المصري، وهو يهفو إليه في كل حين فمن هو أبو كلثوم الوفدي الموزع القلب بين القاهرة وبغداد؟ هو الأخ العزيز الأستاذ محمد
باقر الشبيبي أحد الشعراء المجيدين في العراق
وما كان باقر الشبيبي أول من فتن بأغاريد أم كلثوم، فقد فتن بها الزهاوي والرصافي

والبناء، ولهم في الهيام بأغانيها قصائد جياد، وربما جاز القول بأن أم كلثوم شغلت جميع شعراء العراق، فمن النادر أن تمر أغانيها هناك بلا تشوف. وقد زاد الاهتمام بأم كلثوم عند أهل العراق بعد أن عرفوا أن حنجرتها مسروقة من الحمامة الموصلية التي تقيم بإحدى نوافذ المنارة الحدباء

لم يكن باقر الشبيبي أول المفتونين بأغاريد أم كلثوم، ولكن هيامه بها قد اتصل بنزعة نبيلة هي الجزع من الانشقاق الذي وقع في الوفد سنة 1932 وخرج به على الزعامة ثمانية أعضاء

في تلك الأيام ذهبت أم كلثوم لزيارة بغداد فاستقبلها الشاعر بخفقة من القلب والروح وهو يهتف:

على الشاطئ صيداحٌ ... هنيئاً لك يا دجله
سأرعَى النجم للصبحِ ... وأحْي الليل في الحفله
فأهلاً ظبية النيلِ ... ومَرحَى جارة الرمله
وبوركتِ على السيرِ ... وهُنِّئت على الرحله
هنيئاً لكِ بغدادُ ... فهذى أم كلثومِ
من الغِيد الأعاريبِ ... أتتنا، لا من الرومِ
لقد أحيتْ لياليكِ ... بتغريد وترنيم
فعذراً فرحة النفسِ ... إذا قَّصر تكريمي
أعيدي السجعَ والصدحَ ... غنِّينا إلى الفجرِ
فهذى الأنجمُ الزُّهرُ ... مُطلاّتٌ مع البدرِ
فغنِّى أروع الشعرِ ... وصُوغيه من السِّحرِ
فمن نَحرك للثغرِ ... ومن ثغرك للنحرِ
أطِلّي بنت فرعونٍ ... على المسرح والملعبْ
ورفقاً ربَّة الصوتِ ... بأحشائي أن تُنهبْ
فأنت الكاعبُ الرُّودُ ... فما الظبيُ وما الرَّبرب
خذي روحي إلى مصرٍ ... فمصرُ الوطنُ الأقرب

ثم تثور النزعة الوفدية في صدر الشاعر فيصيح:

سلى قلبي عن الحبِّ ... فقد ذاب من الوجد
فكم لابَ على الروض ... وكم حام على الوردِ
سليني شاحبَ اللونِ ... فمن سُهدٍ إلى سُهدِ
خذي قلبيَ للوفدِ ... فأني في الهوى وفدي

ولم يكتف (وفديُّ الهوى) بهذه الزفرة، بل انتقل إلى انشقاق الوفد وهو يصرخ:

عجبنا أمَّ كلثوم ... من الحادثة الكبرى
لماذا انقسم الوفدُ؟ ... ومن ذا بَيَّتَ الأمرا؟
أَلاَ مَنْ يجمع الشَّملَ؟ ... ألا من يطرد الشرَّا؟
خُذِى حِذْرك يا مصرُ ... ورُدِّي الكيدَ والمكرا

وتوجع الشاعر لما صار إليه سعادة الأستاذ محمد نجيب الغرابلي باشا فقال:

رأيت الخصمَ جذْلانَ ... بما جَدَّ من الخُلفِ
أحقًّا فَصَلَ الوفدُ ... (نجيباً) وهو في الصفَّ
فهذا الحادثُ البِكرُ ... أرانا مواطنَ الضعفِ
إلى الوحدةِ يا مصرُ ... إلى الإشفاقِ والعطفِ

نظمت تلك القصيدة في مثل هذه الأيام من سنة 1932 فهل كانت آخر زفرة من زفرات الأستاذ باقر الشبيبي في التشوق إلى أم كلثوم وإلى الوفد المصري؟

إليكم هذا الخبر الطريف:

في بواكير الربيع من سنة 1938 اجتمع نادي القلم العراقي بمنزل سعادة الدكتور فاضل الجمالي، وكانت الجلسة برياسة معالي الأستاذ محمد رضا الشبيبي، وكانت الكلمة يومئذ للأستاذ عبد المسيح وزير، فما الذي قال؟ أخذ يقرأ قصة من قصصه فاشتركت مع الأستاذ عباس العزاوي في السخرية من خياله الجميل!

وعند نهاية القصة طلبت الكلمة لأحاسب (القارئ)، ولكن معالي الأستاذ محمد رضا الشبيبي

خشي عاقبة الهجوم على الأستاذ عبد المسيح فاقترح ترك التعقيب، ثم قال أن عنده موعداً وانصرف
واستؤنفت الجلسة برياسة الدكتور الجمالي فقلت: إن معالي الرئيس أغلق باب التعقيب لأنه مشغول، وهو قد انصرف، فأنا أطلب الكلمة من جديد، ثم قلت: إن الغرض هو إلقاء محاضرة، لا قراءة قصة، فكيف جاز للأستاذ عبد المسيح وزير أن يحبسنا ساعة لنشهد طريقته في التلاوة؟ فقال الدكتور عقراوي: الأصل أن يلقى العضو محاضرة، ولكن ما الذي يمنع من أن يقرأ شيئاً من آثاره الأدبية؟ إن الأدب هو الأصل والتعليق عليه هو الفرع، فالقصة كالقصيدة لون من الأدب الصرف
وقال الدكتور الجمالي: فليكن هذا تقليداً جديداً من تقاليد نادي القلم العراقي، ومن حق الشعراء من أعضاء نادي القلم أن ينشدوا بعض قصائدهم في الجلسة المقبلة، وستكون فرصة نسمع فيها صوت الدكتور زكي مبارك، فقد سمعت أنه شاعر، وله ديوان
فقال الدكتور عقراوي: ولا يشترط أن يكون الشعر جديداً، فالدكتور مبارك شاعر مقل، وعليه واجبات في دار المعلمين العالية قد تعوقه عن نظم قصيد جديد
وبهذا المحاورة نجا الأستاذ عبد المسيح من لساني، وما كاد ينجو، مع أنه أبو إيناس أنا شاعر مقل؟
هذا صحيح، ولكن كيف ألقي نادى القلم العراقي بقصيد نظمته منذ سنين؟ وكيف أضيع الفرصة فلا أقرع أسماع بغداد بقصيد جديد؟ ومضيت وأنا أحاور شيطاني فنظمت قصيداً (في أحد عشر ومائة بيت) عنوانه:
وأنشدته في الأسبوع التالي (من جحيم الظلم في القاهرة إلى سعير الوجد في بغداد) بالرستمية. فقال معالي الأستاذ محمد رضا الشبيبي: كيف استجزت يا دكتور قتل هذه الشاعرية؟ فقلت: قتلها التأليف، وهو يشغل الفكر عن الغناء وصاح الأستاذ رفائيل بطي: أين الشاعر الذي يجيب الدكتور مبارك؟
فقال الدكتور الجمالي: سيجيبه الأستاذ باقر الشبيبي حين نجتمع في منزله بالزوية في الأسبوع المقبل، إن شاءت الشياطين!
واجتمعنا بالزوية في مساء مقتول النسيم ودجلة تصغي إلينا في تودد وترفق، والإخوان ينتظرون قصيدة السيد باقر الشبيبي، فهتف البلبل:
وفاءً بعهدي أو نزولاً على وعدي ... وقفت أحِّي معشري وبنى ودي
وقفتُ أحِّي عُصبةً عربيةً ... بها نستبين الرشد حقاً ونستهدي
فأهلاً بكم في روضة الحب والصفا ... وأهلاً بكم عند المسرَّة أو عندي
وهيجني في الرستمية شاعرٌ ... به مثل ما بي من أنين ومن سُهد
به من هوى ليلي رسيسٌ من الهوى ... وبي لهب لا ينطفى من هوى هند
وما كاد يصل إلى هذا الحد حتى حدثني القلب بأنه سيتحدث عن أم كلثوم والوفد لأن القافية دالية، فقلت: أراهن أنك ستعلن انضمامك إلى الوفد! فضحك ضحكة كادت تزلزله من مكانه، ثم مضى يقول:
وذكَّرني عهد الصبا في نشيدهِ ... سلامٌ على عهد الصبا في ربُا نجد
هواه على أجراف دجلة وافدٌ ... وأما هوى قلبي فللنيل و (الوفد)
فصاح الأعضاء: صحت فراسة الدكتور مبارك في (الوفد) فهل تصح في (أم كلثوم)؟
فمضى الشاعر في النشيد:
فلا تحسبوه شارد اللب وحده ... ولا تحسبوني سادراً في الهوى وحدي
صريعَ الغواني، لا تُلمني فإنني ... صريع أغاني أم كلثومَ لا دعد
سلام على تلك الأغاريد إنها ... أغاريد من وحي الصبابة والوجد
أما بعد فهذا حديث أبي كلثوم الوفدي، أعزه الحب ورضيت عنه العروبة المصرية والعراقية، فأن كنت فضحت هواه فلا يلمني (فإني في الهوى وفدي) وربما صرحت فقلت إني شيوعي في الحب: فلي صبابات تغرب فتصل إلى باريس ولو أحق باريس، وتشرق فتصل إلى بغداد ولواحق بغداد من حواضر العراق، وهل تركتني دمشق وبيروت بلا عقابيل؟
إن حالي لعجيبٌ ... ما يُرَى أعجبُ منهُ

كلُّ أرض لِيَ فيها ... غائبٌ أسأل عنهُ
زكي مبارك
أعرابي في المدنية
الأعرابي والشعر الحديث
للأستاذ علي الطنطاوي
أتاني منذ يومين (صلبي) فقال لي:
هل أنت من المعنيين بالشعر والأدب؟
قلت: نعم، فماذا عندك؟
قال: نعمة ساقها الله إليك، إن أنت أضعتها يوشك ألا تلقي مثلها يد الدهر
قلت: فاذكر لي ما هي، فأني أرجو ألا أضيعها
قال: أتعرف (السوالم)؟
قلت: نعم، جمع تكسير. . .
قال: ولا والله ما هم بجمع تكسير، إنهم أكرم من ذاك، هم والله جمع مبارك
قلت: إنما أردت الكلمة. . .
قال: كلمة ماذا؟ إنها قبيلة كانت متوارية في رملة من رمال (عالج) لا يدري بها أحد ولم يكشفها إلا حكم الإمام عبد العزيز أطال الله عمره، فعرفها العرب وعرفوا فيها العربية المبراة من العجمة، والبلاغة التي ما وراءها بلاغة، والنبرة الصافية التي إن سمعتها فإنما سمعت كلام سحبان، أو خالد بن صفوان. . .
قلت: ولكن ما أبعدك يا رملة عالج!
قال: بل ما أدناك يا شارع الحلبوني، ألا تعرف دار الباشا؟ قلت: القنصلية السعودية؟
قال: بارك الله فيك. إن شيخ السوالم نازل فيها وقد هبط دمشق ليلة دمشق، وهو أول (سالي) يهبطها بعد إذ فارقتها قبيلته قلت: متى فارقوها؟
قال: صبيحة الفتنة التي قتل فيها الوليد بن يزيد، الملك المظلوم الذي عبث خصومة بتاريخه، فقولوه ما لم يقل، ونسوا إليه ما لم يفعل، وروى هذا العبث مؤرخون هواهم عليه وميلهم مع أعدائه. . . وأدباء محاضرون لا يبالون ما يروون. . .
قلت: إنك لتذكر تاريخاً قديماً!
قال: هو ما قلت لك. غير أن (الشيخ) لا يحب أن يلقي أحداً، وقد حذروه قوماً يقال لهم
أهل الصحف، يفضحون الناس: ينشرون من أسرارهم ما يطوون، ويعلنون من أخبارهم ما يسرون، ليسلوا بذلك من يشتري منهم هذه الصحائف، فاحتل للقائه بحيلة. . .
قلت: وأني لي الحيلة؟
قال: سمعت أن هاهنا عالماً جليل القدر يقال له الشيخ بهجة البيطار، لو أقسم على (الإمام) لأبره، ولو قال لسمع منه، وما كان الباشا ليرد له طلباً، وأننا إن قصدناه أوصلنا إلى (الشيخ). أفلك به معروفه؟
قلت: لي به معرفة؟ أقول لك هو أستاذنا وصديقنا ثم إننا إذا لم نلقه سرت بك إلى من مكانته عند (الإمام) مثل مكانته أو أعلى، الزعيم العالم المصلح الشيخ كامل القصاب رئيس علماء دمشق، ومدير معهدها العلمي
قال: إنه رئيسكم الذي. . .
- فقاطعته وأنا أقول: رئيسنا، ولكني لست من العلماء!
- قال: ولمه؟ أو أنت إذن من الجهلاء؟
- قلت: إن علماءنا (يا صلبي) لا يقبلون فيهم من كان مثلي، مخلوع العذار، محفوف اللحية والشاربين، يمشي في الطرقات حاسراً، ولا يرون الرجل عالماً إلا إذا اتخذ عمة طواها ثلاثون ذراعاً، ولحية لا تقصر عن مد قبضة، وأتخذ جبة تسع معه اثنين آخرين، ويضع من كمها وحده جبة ثانية. . . - فضحك صلبي وقال: ولكن هذه الكتب ما ألفتها الأكمام ولا العمائم، وهذا العلم ما جاءت به اللحى. . . أفلا يعلم أصحابك هؤلاء أن العلم دماغ وقلم ولسان؟
وتفضل أستاذنا البيطار فسعى لنا بجاهه عند الباشا (القنصل) حتى جمعنا بـ (الشيخ) فإذا هو فوق ما وصف لنا، وإذا لسان مبين ولغة معربة وحديث كأنك تقرأ في البيان والتبيين أو في عيون الأخبار. ولقد خضنا معه كل بحر، وعرجنا على كل منزل، فسألته

عن الشعر واستطلعت رأيه في جديده، وسأله أستاذنا عن مسائل من اللغة والنحو، وعرض عليه أشياء من تمحلات النحاة وغلاظاتهم، فأجاب بأسد جواب وأحكمه، فما كان أعجب من سؤال الأستاذ إلا جوابه، وما تقول فيهما إلا الأصمعي يشافه بلغاء الأعراب من أهل زمانه. . .

وأني مثبت هنا طرفاً من حديثه في الشعر، بكلامي أنا لا ببيانه هو، فما استطعت حفظ ما قال بحروفه، ولعلي راجع يوماً فراوٍ حديث النحو، أو لعل الأستاذ البيطار يرويه بنفسه ليعلم القرّاء أننا نصف مجلساً قد كان حقاً، لا نتخيل ولا نبالغ. . .

قلت له: كيف أنت والشعر؟

قال: أما ما قالت العرب فأني أرويه كل لا أخرم منه شيئاً، وأما ما قال المحدثون بعد إذ فشا اللحن في الأمصار وعمت (فيما بلغنا) العجمة فلا أعرف، ولا أرضى لنفسي روايته، لأن أصحابه أفسدوا على العرب ديوانهم، وجاءوهم بما ينكرون من القول

قلت: ولكنك رجل عادل حصيف، أفلا تسمع قول هؤلاء المحدثين قبل أن تحكم عليهم؟

قال: بلا والله أني سامعٌ فأنشدني

فنظرت فكأن الله محا الشعر كله من قلبي إلا أبياتاً لأبي تمام في وصف الربيع نرويها للتلاميذ. فأنشدته إياها وفي ظني أنه لا يرضى عنها، بأنها ليست مما ألف، ولو أنشدته لغير أبي تمام أو أنشدته لأبي تمام غيرها، لكان ذلك أدنى إلى رضاه، ولكن ماذا أصنع وقد نسيت كل ما جاوزها من الشعر؟ قلت:

مطر يذوب الصحو منه وبعده ... صحو يكاد من الغضارة يمطر

غيثان فالأنواء غيث ظاهر ... لك وجهه والصحو غيث مضمر

فرأيته قد طرب لها طرباً لم يخفه وصفق يداً بيد من الإعجاب وتمايل فقلت وقد قويت نفسي: كيف سمعت؟

قال: لقد أحسن وجاء بما لم يسبقه إليه سابق، وما أحسبه يلحقه فيه فيدرك شأوه لا حق: لقد عرف الناس ثلجاً يذوب، فأذاب لهم الصحو حتى سال ماء، ثم عاد فجعل الصحو من طراوته كأنه يمطر، فلم يخلهم في المطر من صحو ذائب، ولا في الصحو من مطر. ثم أصل وفرع، فجعل من الغيث ظاهراً ومضمراً، وما يكون مضمر إلا وثمة ضمير، ولا ضمير إلا في حي، أفلا تراه كيف أسبغ الحياة على الجماد؟ قلت: هذا مذهب في الشعر يعرفه أهل زماننا ويحسبون أنهم ابتكروه. . . يعطيك صورة جميلة ولكنها ليست بنية الحدود ولا واضحة المعالم، فأنت تستمتع فيها بكشف المجهول، وهو لعمري أصل الآداب، وأقوى الغرائز، ثم تملأ فراغها بعواطفك وتجعل حدودها من أفكارك، فتكون كأنك صغتها لنفسك، وتفهم منها ما لا يفهم سواك.

قال: هذا شيء ما أعرفه لكني لا أعيبه، ولقد طربت لما سمعت منه. . . قلت: أفلا أسمعك من شعر أهل زماننا؟

قال متعجباً: وأن لأهل زمانكم لشعراً؟

قلت: ولم لا يكون؟ أسمع مقطوعة من حديث الشعر لشاعر أسمه فياض، قالها على لسان المتنبي أكبر شعراء العرب كأنه يعلمه بها كيف يكون القول

قال: هذا لعمري النبوغ فماذا قال؟ قلت: قال:

جسدي النازل من شهوته ... سلم العار وروحي السامية

يا لعمر مشياً فيه معاً

فوثب كمن داس على جمرة، أو لسعته عقرب، فأمسك بفمي فسكت فزعاً فقلت: مالك؟

قال: ما هذا؟ قلت: شعر جديد!

قال: أعوذ بالله (جسدي النازل من شهوته)؟ وهل كانت شهوته جبلاً عالي الذرى، أو قصراً شامخ الدعائم حتى ينزل منها؟ وإلى أين ينزل؟ وهل بعد الشهوة منحدر، أو دونها منزل؟ وما (سلم العار)؟ هل هو جسده؟ فكيف صار سلماً؟

قلت: لعله أراد أن جسده ينزل على سلم العار، أي ينحط في درك العار بسبب شهوته التي ركبت فيه، فما استقام له طريق القول؟

قال: برئت من العربية إن كان هذا يفهم من كلامه، أننا نعرف (ينزل فلان) إذا كان عالياً وهبط، و (وينزل البلد) إذا سكنه، و (ينزل بالقوم وعليهم) إذا حل فيهم، و (ينزل

من الجبل) إذا كان قد صعد فيه، و (ينزل إلى الوادي)، (وينزل على الدرج)، ولا نعرف (نزل السلم) إلا إذا قام فيه، كما يقيم المرء في المدينة، ثم أن السلم يصعد عليه من يكون على الأرض، فأين كان هذا حتى نزل على السلم؟ هل ولدته أمه على المنارة فنشأ فيها، ثم بدا له فنصب له (سلم العار) لينزل عليه؟

قلت: أو لا تسمع سائر المقطوعة؟ قال: لا والله

قلت: ولكنه ألقاها على ملأ من الأدباء والشعراء في سوق من أسواق الأدب في دمشق، كان أقامها أديب من أدباء تنوخ أسمه عزالدين بن علم الدين، فسمعوها وارتضوها وما رأينا فيهم من أنكرها عليه

قال الأستاذ البيطار: لقد كنت حاضر السوق وسمعتها ولكني لم أرتضها ولا ارتضاها صديقي أبو قيس

قال الشيخ: ومن أبو قيس؟

قلت: هو التنوخي الذي حدثتك عنه، وهذه كلها أسماؤه وله غيرها. قال: ما أكثر ماله من أسماء!

قلت: وما أكثر ما له من فضائل وحسنات، وكثرة الأسماء دليل على شرف المسمى!

قال: هذا صحيح! قلت: أتحب أن أقرأ لك من شعر شوقي؟ قال: أسمع اسماً منكراً!

قلت: نعم، ولكن له شعراً معروفاً. إنه الذي يقول في الأزهر:

قم في فم الدنيا وحيَّ الأزهر ... وانثر على سمع الزمان الجوهرا

واخشع ملياً واقض حق أئمة ... طلعوا به زهراً وماجوا أبحرا

كانوا أجل من الملوك جلالة ... وأعز سلطاناً وأفخم مظهرا

فاستوى جالساً، وقال: لا جرم أنه شعر معروف، هذا هو الشعر لا ما صككت به سمعي آنفاً، هذا هو الشعر. لقد أنطق أعظم ناطق وهو الدنيا، وأسمع أجل سامع وهو الزمان، وجعل مدح الأزهر جوهراً، وهذا لعمر الحق أكبر مما صنع امرؤ القيس حين وقف واستوقف، وبكى واستبكى. . . ثم وصف أئمته بخير ما يوصف به علماء، سمو كالنجم ونور كالنجم، وهدى كهدى النجم، وعلم كالبحر وهم بكثرتهم كماء البحر، ولو شئت لكشفت عن خمسين معنى مستتراً وراء قوله (طلعوا به زهراً وماجوا أبحرا). زدني من قوله. . .

فمضيت في القصيدة حتى بلغت قوله: (يا معهداً أفنى القرون جداره) فترنح، طرباً، وأعجبته صورة هذا الجدار، وهو قائم في وجه القرون كالصخرة تريد عنه القرون كليلة عاجزة، ثم تفنى وتضيع كما الأمواج عن الصخرة ثم تذهب وتضمحل والصخرة راسية ولا اضمحلت.

واستزادني من شعره فأنشدته قوله وهو لم يبلغ العشرين:

صوني جمالك عنا إننا بشر ... من التراب وهذا الحسن روحاني

أو فابتغي فلكاً كوني به ملكاً ... لا تنصبي شركاً للعالم الفاني

فهزه الطرب هزاً وقال: إن الشعراء يقولون ولكن مثل هذا ما يقولون. إنهم وصفوا حسن المرأة وجمالها، ولكن لم يستطيعوا أن يرفعوها فوق الناس وأن يجعلوها من طينة غير طينتهم، وأن يبرئوها من مادة التراب حتى تخلص لصفاء الروح ثم يجعلوها ملكاً يسكن السماء. أني لأعجب لكم!. . . عندكم هذا الشاعر ولا تفاخرون به شعراء الأرض؟

ثم قرأت عليه من شعر حافظ فأعجبه ولكنه قال:

هذا من عيار وذاك من عيار، وليست أسوى بينهما. إن الأول عبقري إمام، وهذا مقلد ذو بصيرة، وسباق ذو ثبات.

قلت: إن الناس كانوا يسوون بينهما أو يقاربون يوم كانا حيين، وللأحياء مقاييس من صداقة أو عداوة، ولهم صفات يحبون من أجلها أو يبغضون: كخفة الروح وبسطة الكف وحسن المجالسة. فلما ماتا ولم يبق إلا موازين الأدب بدأ الناس يدركون أن بينهما بوناً شاسعاً وأمداً بعيداً.

ثم أسمعته لكثير من الأحياء فلم يعدل (بأحمد محرم) و (بشارة الخوري) أحداً وفضلهما على كل من ينظم اليوم شعراً، وأعجبه غزل (رامي)، وأنس بجزالة شعر (البارودي) وحسن ابتكار (صبري). وقرأت عليه من أشعار الشاميين، فقدم (الزركلي) وأستقل شعره وعجب من سكوته الآن، لأن الشاعر عنده من ينظم أبداً لا ينقطع حتى

ينقطع عن نفسه سيل العواطف ويجف منها معين الحس. ومن يقول مثل شعر الزركلي الوطني الذي يسيل منه الدمع، دمع القلب، لا يمكن أن ينضب ينبوعه. وقد كره قصيدته (العذراء) ورأى فيها ضعفاً في التأليف بيناً. وأعجبته جزالة شعر (محمد البزم) ولكنه رأى ألفاظه أجزل من معانيه ومفرداته أمتن من جمله، وأخذ عليه قوله:

إذا كان من أسدى لك الشر هيناً ... فقل لي أبيت اللعن من أين تثأر

وقال إن العرب تقول أسدى إليه يداً ولا تنطق بها في الشر، أما قوله (أبيت اللعن) فإقحام لا معنى له، لأنها كلمة كان يخاطب بها ملوك الجاهلية وقد بطلت، فأي ملك من ملوك الجاهلية يخاطب؟ وأخذ على (مردم) قوله في نشيده:

سماء لعمرك أو كالسماء

ورآه سبكاً مقلوباً، وكان ينبغي أن يقول هم كالسماء بل هم سماء، وكره منه قوله في مطلع النشيد:

حماة الديار عليكم سلام

وقال بأن تنكير الإسلام يجعله أشبه بلغة مستعربة الروم يعني عمال الفنادق في الإسكندرية. وأعجبه شعر (مردم) الوصفي التصويري أما (الشعر الجديد) كشعر الرمزيين، والمهاجرين، فلم يفهم منه إلا بعض من مفردات من ألفاظه ولم يعدده شعراً ولا كلاماً عربياً!

وقد أستمر المجلس ساعات طويلة، ومال الحديث فيه على من يتلقى العربية على أبناء باريز، من أمثال الإمام اللغوي أبي جريجة الشيخ مارسيه أصمعي العصر. . . وكان مجلساً نادراً ما قمنا بمنه إلا ونحن كارهون. نتمنى لو أنه يمتد بنا أسبوعاً. . . وخرجنا وقد امتلأ وطابنا علماً وفوائد، هذا طرف منها وأنه (طبق الأصل) بشهادة أستاذنا الجليل الشيخ محمد بهجة البيطار.

علي الطنطاوي

من وراء المنظار

بيني وبين كتبي

ضقت بالكتب حتى لأخشى أن ينقلب هذا الضيق قطيعة ليس بعدها صلة. والحق أني حائر في تعليل هذا الضيق الشديد، وأنا الذي ظل الكتاب زماناً مبعث أنسي وبهجتي، فلا أمله إذا قعدت، ولا أدعه إذا خرجت، كأنما كان صار ضرورة كالهواء الذي أتنفسه، فلا تقوم حياتي إلا به، أو كأنه على أقل تقدير بعض ملابسي فلا أستطيع أن أبرح منزلي إلا وهو معي، بل كثيراً ما خيل ألي رفاقي - كما حدثوني - أني أستغني عن أي شيء ولا أستغني عن الكتاب، وإن لم أفتحه فيما بينهم إلا دقائق معدودات.

أيكون مرد هذا الضيق إلى ما تبعثه طول الألفة من السأم؟ أم يكون مرده إلى أن الكتب وقد صارت عندي درساً وملهاة قد شغلتني من متع هذه الحياة؟. . . فأنا أصدف عنها كيلا أنسى نصيبي من الدنيا فأحرم من زينة الله التي أخرج لعباده؟. . . ولكنني لا أرتاح إلى هذا التعليل ولا إلى ذلك. ففي نفسي مما يبغض الكتب إلى نفسي ما هو أعظم خطراً مما ذكرت!. . فلقد أستحوذ على لبي خيال، لا أدري إن كنت فيه مخطئاً أم مصيباً: وهو أن الكتب على طول صحبتي لها لم تعلمني شيئاً مما ينبغي لي أن اعلمه عن هذه الحياة، ولا يزال هذا الخيال يوسوس إلي أني إن لبثت بعد ذلك بين كتبي، فمصيري أن ينقطع ما بيني وبين هذا الوجود. . . ولا تحمل أيها القارئ كلامي هذا على المبالغة أو المزاح، فلو شئت لجئتك بألف دليل على أن لي العذر على فيما أقول. وحسبك أن الكتب قد بنيت لي كثيراً من أصول الفضائل وقواعد الخلق؛ فلما أتيح لي أن أتبين ذلك في سلوك من أخالط من الناس، وجدتني في حيرة مما تقول الكتب، وأنكرت أكثر هؤلاء الناس وأنكروني، ولا شك أنهم رموني بالغفلة والحمق كما رميتهم بالضلال والسفه. وحسبك أن كثيراً من ذوي قرباي ومن خلاني الأدنين، قد سخروا مني أكثر من مرة سخراً كان ينال من نفسي بعض الأحيان، حتى لأهم بالغضب منهم والثورة عليهم؛ فهم يتهمونني بالغفلة إذا جادلتهم في أمر كما أرى ذلك في أعينهم، وكما تفسره لي ابتساماتهم التي يعلقون بها على كلامي إذا خشوا أن يسيئوا إلي بألفاظهم. وكان مما يريد تبرمي بهم انهم يظنون بي الحمق بينما أعتقد أنا وفق ما علمتني الكتب أنهم هم بما يبدون من آراء أكثر الحمقى. ولقد يصارحني من يجد

نفسه في مأمن من غضبي - إما لكبر سنه، وإما لسمو مكانته عندي - أن عيبي الأساسي هو أني رجل خيال، أو بعبارة أصح رجل كتب لا أدري شيئاً مما تقوم عليه الحياة بين من يفهمون الحياة، وهو - كما ترى - سب ولكن على صورة (ذوقية) إن جاز اصطناع الذوق في السب، وإلا فما الفرق بين هذا وبين قولهم: إني جاهل غر مثلاً؟ وأكثر من ذلك لقد كان مرد كثير من أخطائي في معاملة من تربطني بهم صلة العمل الذي أكسب قوتي منه إلي جهلي بطباعهم، وأقل إلي جهلي بمبادئهم. ولطالما سبب لي ذلك كثيراً من العنت. . . فأنا على حق إذا تدبرت ما تقول الكتب، وأنا على باطل إذا قست ما يصدر عني بأقيستهم. وأنا لا أدري أأسير طوع الكتب فلا أفرغ من الخصام والحرب وإن أرحت ضميري بذلك، أم أسير وفق تعاليمهم فأكسب الهدوء والسلام. وكادت تقل ثقتي بنفسي لما رأيت شبه إجماع ممن أخالط على إنكار مسلكي، حتى لقد وقفت أحياناً أسأل نفسي: أأنا الغر حقاً، أم أنهم هم الإغفال الأغرار؟

لذلك طويت كتبي زمناً ورحت أتعلم مكر الناس لا لأمكر مكرهم، ولكن لآمن منهم فلا يكون سبب كثير من متاعبي. ونظرت من وراء منظاري ورحت أتدبر فزادتني هذه التجربة اعتقاداً بأن الكتب جنت علي بقدر ما قدمت من قواعدها إليّ. . .

وما لبثت أن رأيت منظاري يقع على كثير مما أصيب فيه الدرس، حتى لقد أصبحت أشبه نفسي بأولئك الفلاسفة الأقدمين الذين لم يأخذوا فلسفتهم من الكتب، وإنما أخذوها من الحياة!

وليت لي مثل بصير هؤلاء. . . إذاً لأفدت من العلم من وراء المنظار ما لم يأتيني من جميع ما في دار كتبنا العظيمة من كتب، ولكن لا ضير أن أنظر وأن أطيل النظر، وأن أدور بمنظاري هنا وهناك في المدينة وفي القرية، في القصر وفي الكوخ، في (الدواوين)، وفي الطرقات والمتاجر والمنتديات ودور اللهو، في الحقول على المصاطب وفي الأسواق، وفي غير ذلك جميعاً من نواحي هذا المضطرب الواسع، أو هذا المسرح الهائل الذي تمثل عليه الحياة. ولعل طول النظر وتنوعه يعوض على ما فاتني من العلم فيما تصرم من سني عمري بين أوراقي وكتبي

(شين)

الفروق السيكلوجية بين الأفراد

للأستاذ عبد العزيز عبد المجيد

ذكرت في المقالين السابقين آراء بعض الفلاسفة والمربين ومعلمي البيان في الفروق السيكلوجية. وأشرت إلى أنهم طبقوا نظرية الفروة السيكلوجية في الحياة العملية. فقد بنى أفلاطون نظام التربية في المدينة الفاضلة على هذه النظرية، كما وجه فيتو رينو دافلتري تلاميذه إلى الدراسات التي يصلحون لها بطبعهم، وأوصى روسو أن تترك لأميل حرية اختياره العمل الذي يتفق وميوله الفطرية.

غير أن هؤلاء الفلاسفة والمربين قد استنبطوا آراءهم استنباطاً من الملاحظة العامة لتصرفات الأفراد وسلوكهم، فلم تكن إذاً هذه الآراء علمية مبنية على التجربة والبحث والإستقرائي، وذلك طبيعي لأن علم النفس ما أصبح علماً مستقلاً بالمعنى العلمي إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وأعني بذلك أنه اتبع في دراسة موضوعاته التجربة والإحصاء والطريقة الخطوات الأربع:

1 - ملاحظة الظواهر المختلفة للنوع الواحد في موضوع البحث

2 - جمع المتشابه من هذه الظواهر.

3 - اقتراح بعض الفروض لشرح هذه الظواهر وتعليلها

4 - إجراء بعض التجارب لإثبات صحة الفرض أو الفروض المقترحة.

ولم يعتن علماء النفس بموضوع الفروق السيكلوجية إلا في الربع الأخير من القرن الماضي. على أن دراسة الاختلافات البشرية بين الأفراد دراسة منظمة، وقياس هذه الاختلافات، وتحديد آثارهم لم تنشط إلا في القرن العشرين.

ويعتبر فرانسيس جولتن أول من بحث في موضوع الفروق الفردية بطريقة منظمة مبنية على الإحصاء. ومن الحق أن نذكر أن دارون هو الذي مهد السبيل له - ولغيره ممن عنوا بموضوع الفروق السيكلوجية الفردية - بنظرياته البيولوجية كنظرية النشوء والارتقاء، ونظرية الوراثة في النبات والحيوان. وقد عاصر جولتن دارون وصدق

بنظرياته. وكان دارون وراثي المذهب، وفي هذا يقول: (أن التربية أو البيئة لا تؤثر إلا قليلاً في عقل الأفراد ومواهبهم، وأغلب صفات الأفراد وخواصهم ولدت معهم) أعتمد جولتن على
نظريات دارون في بحوثه وبخاصة في علم إصلاح النسل البشري الذي لم يسبق جولتن أحد إلى الكتابة فيه. فهو أول من وضعه. ويعرف هذا العلم (بأنه دراسة العوامل الاجتماعية والبيئية التي يمكن ضبطها، والتي تؤثر بالإيجاب أو السلب في تحسين الصفات الجسمية أو العقلية للأجيال البشرية المقبلة) وتشمل هذه الدراسة دراسة الفروق السيكلوجية الموروثة، وأثر البيئة في هذه الفروق. ويمكن إجمال رأي جولتن في أسباب هذه الفروق في عبارته (لقد أصبح من المؤكد أن الإنسان إنما هو إنسان نتيجة لمؤثرين: أولاً لما به من الصفات الأبوية والجنسية الموروثة، وثانياً لما تحدثه فيه البيئة التي يعيش فيها)
وقد وقف جولتن حياته وجهوده على دراسة الفروق الفردية بين أشخاص بذواتهم، وأسرات بذاتها، وهو يقول في مقدمة كتابه المسمى (بحوث في القوة البشرية) ما يأتي:
كانت غايتي فيما قمت به من بحوث أن أدرس القوى الوراثية المختلفة لأفراد) مختلفين، وكذلك أدرس الخصائص المختلفة لأسرات مختلفات وشعوب مختلفة، وأن أعرف إلى أي حد يمكن أن نعوض عن النقص الوراثي بعناصر تربيوية، وقد فكرت في أن من الواجب أن نقوم بهذا التعويض بقدر ما تسمح جهودنا وظروفنا. وبهذه الطريقة يمكننا أن نعجل إصلاح الجنس البشري وتطوره حتى لا يقاسي من المتاعب ما يقاسي
وكان جولتن قد نشر سنة 1869 كتابه (لو ترك وشأنه يسير في تطوره الطبيعي (النبوغ الوراثي) وبه كان أول عالم حاول دراسة أثر الوراثة في نبوغ الأفراد دراسة منظمة. وقد اتخذ في كتابه هذا منهجين علميين للبحث: أحدهما هو دراسة تاريخ الأسرة
طريق التلازم درس في كتابه هذا بعناية حياة أفراد 977 أسرة اشتهرت كل واحد منها بوجود نابغة فيها في ناحية: في الشعر أو الكتابة أو السياسة أو الخطابة أو العلوم أو الفلسفة الخ، كما درس أيضاً نوع المهن التي أحترفها كل واحد من هؤلاء الأفراد، وطبيعة هذه المهن، ومقدار إنتاج الفرد في مهنته، ثم عالج ما وصل إليه من معلومات بطريقة إحصائية لا حاجة لذكرها هنا. ولكنه استخلص من هذه الدراسات أن إمكانية وراثة النبوغ في الأسرة التي بها نابغة تبلغ 134 مثلاً لإمكانية وراثة النبوغ في أسرة عادية. ومن هذه النتيجة يرى أن المواهب العقلية عند الأفراد موروثة، وأن النبوغ الذي نجده بين عدد كبير
من أفراد بعض الأسرات لا يمكن أن يعزى إلى التربية والبيئة، بل لا بد أن يكون نتيجة الوراثة. ولا شك أن القارئ يلاحظ مما سقناه من جولتن أنه من الأنصار المتعصبين لمذهب الوراثة، وأنه ينسب إليها كل الفروق السيكلوجية بين الأفراد. ومما يؤثر عنه في كتابه (النبوغ الوراثي) قوله: (إن الأفراد الذين ميزوا أنفسهم في الحياة الاجتماعية لا يمكن أن يكونوا قد وصلوا إلى مراكزهم الممتازة إلا بالمواهب الطبيعية)
وليست قيمة أبحاث جولتن محصورة في النتائج التي وصل إليها، بل إن الطريقة العلمية التي أتبعها في أبحاثه تعتبر بنت أفكاره، فقد أستخدم الإحصاء والتحليل العلمي في طرق بحثه. وكانت نتائجه العلمية مبنية دائماً على عمليات رياضية ومقاييس حسابية دقيقة. وقد اقتدى به في طرقه العلمية هذه خلفه الأستاذ كارل بيرسن رئيس معمل جولتن بلندن الآن، والأستاذ تشارلس سبيرمان السيكلوجي الشهير.
كان لجولتن أثر محسوس في إيقاظ الرغبة في بحث الفروق السيكلوجية بين الأفراد، كما كان ذا نفوذ علمي كبير في توجيه علم النفس التجريبي ومقاييس الذكاء. وذلك بواسطة الاختبارات التي أبتكرها لقياس قوة الخيال ودقة الإدراك الحسي. أبتكر جولتن مقياساً به نعرف دقة تمييز الأفراد للأثقال المختلفة اختلافاً بسيطاً، كما أبتكر الصفارة المعروفة (بصفارة جولتن) لقياس قدرة الأفراد المختلفة على سماع النغم العالي وتمييزه ووضع عدداً من الاختبارات لقياس قوة الشم والذوق واللمس وغيرها من الحواس.
وكانت هذه المحاولات من جانبه لمعرفة الفروق الحسية بين الأفراد ترمي إلى معرفة

ما إذا كانت هناك علاقة تلازمية بين الذكاء وبين قوة الإدراك الحسي ودقته في نفس الفرد. ويؤيد ما نقول أنه كان دائماً يختار للبحث والقياس أفراداً بينهم تفاوت كثير في الذكاء. كان يختار عبقرياً وضعيف العقل ثم يجري عليهما تجارب في الإدراك الحسي ليعرف: هل هناك تلازم بين قوة الإدراك الحسي ودقته في الفرد وبين ذكائه أو غبائه. غير أنه لسوء الحظ وبالرغم من مجهوده العظيم ومحاولاته الكثيرة لم يجد تلازماً يذكر بين ذكاء الفرد وقوة إدراكه الحسي. وبالرغم من هذا نجد أن بحوثه وطرقه العلمية كان لهم أثر عظيم في كل ما أجرى من تجارب سيكلوجية حتى نهاية القرن التاسع عشر حين ظهرت مقاييس الذكاء التي وضعها السيكلوجي الفرنسي الشهير ألفريد بينيه يقسم جولتن الأفراد

إلى أنواع وفقاً لقوة خيالهم الحسي. فعنده النوع الإبصاري وهو الذي يغلب عليه الخيال البصري، والنوع السمعي وهو الذي يغلب عنده الخيال السمعي، والنوع الحركي وهو الذي يغلب عنده الخيال الحركي الخ. فالنوع الإبصاري مثلاً يفكر باستحضار الأشياء المرئية، بينما السمعي يستحضر الصور الصوتية، على حين أن الشمي يستحضر الصور الشمية الخ، ولكي يعرف أن فرداً يتبع للنوع الإبصاري أو السمعي أو الشمي مثلاً كان يجري عليه تجربة كالآتية: -

تصور أنك جالس في الصباح على المائدة لتناول طعام الإفطار. تخيل بدقة المائدة التي جالس عليها. هل الصورة الخيالية المرئية واضحة أم غامضة؟ هل ألوان الأطباق والفناجين والأكواب والخبز واضحة أو غامضة؟ هل تستطيع أن ترى بمخيلتك جانبي الكرة في وقت واحد؟ هل تستطيع أن تتخيل بوضوح تقاطيع الوجه لأقرب قريب لك (زوج أو أب أو أم الخ)، هل تسمع بمخيلتك صوت السيارة تمر تحت نافذة منزلك؟ هل يمكنك أن تتخيل حركة الفم والأسنان واللسان حينما تنطق بكلمة (عجب) أو كلمة (وطن)؟ هل يمكنك أن تسمع بمخيلتك سقسقة العصافير فوق الشجرة؟ هل تستطيع أن تشم بمخيلتك رائحة البطيخ أو القهوة أو البرتقال؟ هل تستطيع أن تتخيل طعم الشكولاته أو الليمون أو الكفتة؟

وهكذا وضع جولتن سلسلة من الأسئلة في أنواع الخيال الحسي المختلف، وقسم الإفراد إلى الأنواع السابقة كما قسم النوع إلى درجات تختلف من (قوي جداً) إلى (ضعيف جداً) باختلاف قوة الفرد على التخيل.

(بخت الرضا)

عبد العزيز عبد المجيد

بين الأستاذين

أحمد أمين وزكي مبارك

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

لما قرأت المقالة الأولى للأستاذ أحمد أمين في جناية الأدب الجاهلي على الأدب العربي كان ذلك بحضرة الأستاذ الزيات صاحب مجلة الرسالة الغراء، فذكرت له أن الأستاذ أحمد أمين يرى في هذا ما سبقته إليه في كتابي (زعامة الشعر الجاهلي بين امرئ القيس وعدي بن زيد) وأخذت عليه أن يجعل الزهديات من أدب المعدة لا من أدب الروح، مع أنها أحق من غيرها بأن تكون من ذلك الأدب الذي ارتضاه، لأن اتجاه الزهاد إلى الروح من الأمور التي لا يجهلها أحد، وكل زهدياتهم تتجه نحو هذا الاتجاه، فلا يمكن مع هذا أن تكون من أدب المعدة.

وقد أنكر ذلك الرأي على الأستاذ أحمد أمين كما أنكر على قلبه، وكان ممن أنكره عليه الأستاذ زكي مبارك في مقالاته التي نشرتها له مجلة الرسالة، وقد سبق للأستاذ زكي مبارك أن أنكر علي أيضاً ذلك الرأي في نقده لكتابي (زعامة الشعر الجاهلي) بجريدة الأهرام، وكان مما ذكره في ذلك أنه لا يمكن القول بأن زهديات أبي العتاهية أبلغ في الشاعرية من خمريات أبي نواس، فرددت عليه بأن أبا نواس نفسه يشهد بتقديم أبي العتاهية في هذا عليه، وذكرت له ما رواه صاحب الأغاني عن هارون بن سعدان أنه قال: كنت جالساً مع أبي نواس في بعض طرق بغداد، وجعل الناس يمرون به وهو ممدود الرجل بين بني هاشم وفتيانهم، والقواد وأبنائهم، ووجوه أهل بغداد، فكل يسلم عليه فلا يقوم إلى أحد منهم، ولا يقبض رجله إليه، إذ أقبل شيخ على حمار بريسي، وعليه ثوبان دبيقيان: قميص ورداء قد تقنع به ورده على أذنيه، فوثب إليه أبو

نواس، وأمسك الشيخ عليه حماره واعتنقا وجعل أبو نواس يحادثه وهو قائم على رجليه فمكثا بذلك ملياً، حتى رأيت أبا نواس يرفع إحدى رجليه ويضعها على الأخرى مستريحاً من إعياء، ثم أنصرف الشيخ وأقبل أبو نواس فجلس في مكانه، فقال له بعض من بالحضرة: من هذا الشيخ الذي رأيتك تعظمه هذا الإعظام وتجله هذا الإجلال؟ فقال: هذا إسماعيل بن القاسم أبو العتاهية فقال له: لما أجللته هذا الإجلال؟ وساعة منك عند الناس أكثر منه، قال: ويحك لا تقل، فوالله ما رأيته قط إلا توهمت أنه سماوي وأنا أرضي.

ولا شك أن هذه بعينه تقسيم الأستاذ أحمد أمين الأدب إلى أدب الروح وأدب المعدة، فأدب الروح هو الأدب السماوي، وأدب المعدة هو الأدب الأرضي. وخلاصة ما ذهبت إليه في ذلك أن الشعر لا يصلح أن ينظر إليه على أنه ليس إلا ألفاظاً وأخيلة من تشبيهات واستعارات ونحوها، ولا يليق أن نعده من وحي الشياطين، فيكون لهواً وعبثاً في الحياة لا غير، وإنما يجب أن يكون الشعر إلهاماً شريفاً، ووحياً صالحاً، وعملاً نافعاً في هذه الحياة، يدعو إلى النهوض، ويجهر بالإصلاح، ويوقظ النفوس النائمة، ويحرك العقول الجامدة، وبهذا يكون الشعراء في الأمة رسل إصلاح، وأئمة هداية فينفعون ولا يضرون، ولا يكونون في هذه الحياة أبواقاً للشياطين.

وهذا الأدب الذي دعوت إليه وذهبت إلى تقديمه على غيره هو الأدب الذي دعا إليه الإسلام، وجاء به القرآن الكريم، فذم شعر الجاهلية في جملته، وقبح موضوعه وأغراضه، وذلك في قوله تعالى: (وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين) وفي قوله أيضاً: (والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) وقد ذمه النبي صلى الله عليه وسلم أيضاً فقال: (لما نشأت بغضت إلي الأوثان وبغّض إلي الشعر). وقال أيضاً: (لأن يمتلئ جوف أحدكم قيئاً خير له من أن يمتلئ شعراً) ثم جاهد في إصلاح ذلك الأدب الجاهلي الضال جهاده في إصلاح عقيدتهم الضالة، وسلك سبيله في ذلك الخلفاء الراشدون فضربوا على يد كل شاعر أراد أن يستن في الإسلام سنة شعراء الجاهلية، فيجعل الشعر سبيلاً لجمع المال، ولا يعرف في ذلك إلا المدح والهجاء ونحوهما من تلك الأغراض التي وقف عندها الشعر الجاهلي، وجمد عليها جمود أهل الجاهلية على عبادة الأوثان، وقد حبس عمر الحطيئة في ذلك حتى أستشفع إليه بقوله:

ماذا تقول لأفراخٍ بذي مَرَخٍ ... زُغْبِ الحواصل لا ماءٌ ولا شجر
ألقيتَ كاسبهم في قَعرِ مُظلِمَة ... فاغفر عليك سلامُ الله يا عُمُر
أنت الأمين الذي من بعد صاحبه ... ألقي إليك مَقاليدَ النُّهى البَشر
لمْ يؤْثِروكَ بها إذ قدموك لها ... لكنْ لأنفسهم كانت بك الخِيَر

فأطلقه عمر وهدده بقطع لسانه إن هجا أحداً، واشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم. وكذلك فعل عثمان رضي الله عنه مع ضابئ البرجمي، وكان قد أستعير كلباً من بعض بني حنضلة يصيد به، فطالبوه به فامتنع من إعطائه فأخذوه منه قهراً، فغضب ورمى أمهم بالكلب وهجاهم بقوله:

فيا راكباً إما عرضتَ فَبلِّغَنْ ... أَمَامَةَ عني والأمور تَدُورُ
فأُمَّكُم لا تتركوها وكلبكم ... فإن عُقُوقَ الوالدين كبير
فأنك كلب قد ضَريت بما ترى ... سميعٌ بما فوق الفراش بصير
إذا عَبِقَت من آخر الليل دخنةٌ ... يبيت لها فوق الفراش هَدِيرُ

فاستعدوا عليه عثمان فحبسه وقال: والله لو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان حياً لنزلت فيك آية، وما رأيت أحداً رمى قوماً بكلب قبلك.

ثم جاء بنو مروان بعد الخلفاء الراشدين فعادوا بالشعر إلى سنته الأولى قبل الإسلام، وعملوا على تقديم الشعراء الذين سلكوا في الشعر هذه السنة من جرير والفرزدق وأضرابهما، وعقدوا لهم لواء الزعامة على غيرهم من الشعراء، وتأثر علماء الأدب الذين كان يقربهم أولئك الملوك بهم، فذهبوا في الشعر والشعراء مذهبهم، وقدموا من الشعراء من قدموهم على غيرهم، حتى أن الأصمعي رحمه الله كان يقول: إن الشعر لا يقوى إلا في باب الشر، فإذا دخل في باب الخير لان، وإنما طريق الشعر هو

طريق شعر الفحول مثل امرئ القيس وزهير والنابغة، من صفات الديار والرحل والهجاء والمديح والنشبيب بالنساء وصفة الخمر والخيل والحروب والافتخار وما إلى ذلك، فإذا دخل في غيره مما دخل فيه بعد الإسلام ضعف ولان. ألا ترى أن حسان بن ثابت كان شديداً في الجاهلية والإسلام، فلما دخل شعره في باب الخير من مراثي النبي صلى الله عليه وسلم وحمزة وجعفر رضوان الله عليهما وغيرهم لان شعره

ولست الآن بصدد الدفاع عن ذلك الرأي في قياس الشعر بموضوعه وأغراضه قبل أن يقاس بألفاظه ومعانيه، وفي تقديم الشعر الجاد النافع في الحياة على ذلك الشعر الذي لا يعني إلا بالألفاظ، فالذي يهمني الآن أن أبين أن ذلك إذا كان جناية على الأدب الجاهلي،

فأن الأستاذ زكي مبارك يجب أن يكون آخر من يدافع عنه، وموعدنا بهذا المقال الآتي.

عبد المتعال الصعيدي

التاريخ في سير أبطاله

مازيني

(رسول الحرية إلى قومه، المجاهد الذي أبلى في جهاده مثل بلاء الأنبياء)

للأستاذ محمود الخفيف

هكذا كانت حياة مازيني في لندن منذ رحل إليها عام 1837 حياة شقاء لم يكن يقوى على احتماله إلا من كان له مثل إيمانه، وظلت هذه حاله مدة أربع سنوات طويلة؛ وفي عام 1841 لانت الأقدار له بعض اللين، إذ أخذت يد الصداقة تخفف عنه بعض آلام الغربة والوحدة، وكان أكثر أصدقائه الجدد من الإنجليز، وقد حلوا في قلبه محل أصدقائه الأقدمين الذين نسوه وإن لم ينسهم والذين تركوه في غربته، وأنه ليغترب من أجل قضيتهم ويعاني من الآلام ما يعاني في سبيل تحريرهم.

وأعجب مازيني بأصدقائه الإنجليز وأعجبوا به، وكان يرى في صداقة هؤلاء القوم له ما يزيده تعلقاً بهم؛ فهو يحب إخلاصهم وصراحتهم ورقة آدابهم وظروف أحاديثهم؛ وود مازيني لو كان لديه من المال ما يكفي لأن يشتري الملابس التي تليق به ويدفع منه أجر تنقله من جهة إلى جهة ليتسنى له أن يكثر من الأصدقاء في هذا البلد العظيم، وكم آلمه وأحزنه فقره في هذه الغربة الطويلة

وكان ممن اتصلت بينه بينهم أسباب المودة والحب الفيلسوف الإنجليزي الشهير كارليل، فلقد أعجب كارليل بما انجلى لعينه البصيرة من معاني العظمة في نفس هذا المجاهد الغريب، وكانت قد ترامت إليه من قبل أنباء حركاته في سبيل بلاده؛ وكذلك كانت تربط قلبيهما دعوة كليهما إلى العناية بالجانب الروحي من حياة الإنسان ومحاربة النفعية والأنانية، ثم ذلك الحماس الذي كان يبث الحرارة والحيوية في كل ما يكتبان. وكثيراً ما كان مازيني يزور صاحبه في منزله، وقد اتصلت أسباب المودة كذلك بينه وبين زوج الفيلسوف الكبير، وأعجبت بخلاله وأكبرت مبادئه، حتى لقد كانت تجادل زوجها غالباً

وتأخذ جانب مازيني فيما كان ينشأ بينهما من خلاف في الرأي، فإن الأمر لم يخل من خلاف بينهما، إذ كان كاريل يرى أن مبادئ مازيني غير ممكنة في هذا الوجود، الأمر الذي كان يغضب له الزعيم أكبر الغضب فيؤدي إلى احتدام الجدال بينه وبين صاحبه.

وكان عليه من أول الأمر أن يعمل ليكسب قوته، ولم يكن أمامه ألا الكتابة، فراح يكتب على الرغم مما كان يحسه من كآبة وهم، وكان مما يضايقه أشد الضيق أن يرى نفسه مقيداً في اختيار موضوعاته بما يلائم الذوق الإنجليزي، وإلا ردها إليه أصحاب الصحف معتذرين من نشرها؛ فكان لذلك كثيراً ما يتناول من الموضوعات ما لا يحس في تناوله بما ينبغي من الارتياح واللذة، وقد كانت أكثر كتاباته في الأدب، فجال في ميدانه جولات موفقة، وتوثقت الصلة بينه وبين كثير من نابهي الكتاب من الإنجليز، وعرف فيمن عرف من كتاب فرنسا يومئذ لامنيه، والكاتبة الفرنسية الشهيرة التي اتخذت لقلمها أسم (جورج ساند)؛ فتبودلت الرسائل بينه وبينهما. وصار لمازيني في الواقع شخصيتان، فهو الزعيم السياسي الذي تعرفه الجمعيات السرية، وهو الأديب الكاتب الذي يذيع أسمه في الأوساط الأدبية.

ورأى الزعيم أن الأدب قد يصرفه عن السياسة كما أوشك أن يفعل ذلك من قبل في مستهل حياته العامة، فمال إلى السياسة وراح من جديد يوليها من عنايته إلى جانب الأدب؛ وقد عز عليه أن تموت جمعيته إيطاليا الفتاة. فأخذ يزيح الرماد عن هذه الجمرة لتظهر من جديد متوقدة مستعرة؛ فأكب على مراسلة أعضائها في إيطاليا وخارج إيطاليا. وشد ما كان يزعجه ويؤلمه ألا تقابل حماسته إلا بالفتور، وكان يعظم حزنه كلما آنس ذلك الفتور فيمن كانوا بالأمس يتحمسون أشد التحمس للجمعية ومبادئها، ترى ذلك في مثل قوله: (إني لأحس بالخجل حينما أكتب من أجل إيطاليا كما لو كنت ألجأ إلى الكذب).

وكان يخاف أن يموت دون أن يتم ما بدأه، كما كان يعتقد أن التراخي في الجهاد تفريط في كرامة الشهداء الذين جادوا بأنفسهم في سبيل وطنهم، وتفريط في حق الوطن الذي يتطلب من بنيه أن يموتوا كما مات غيرهم أو يهبوه الحرية والاستقلال. وكان يسأل نفسه ماذا عسى أن يصنع وحده وقد تخاذل الرجال وهانت الحرية على كثير من طلابها بالأمس؟ ولكن مثله لم يخلق له اليأس. ومتى كان اليأس من خلال الزعماء وهم الذين يبددون بإيمانهم ظلماته؟ وهل صرف ما ألح عليه من المحن والشدائد عن وجهته؟ أم أن الشدائد قد زادته صلابة ويقيناً وإن كان جسمه كان يشكو من التعب وسوء الغذاء وغيرهما مما يكون نتيجة للعسر المالي؟

الحق أنه كان يزداد إيماناً فوق إيمانه كلما تصرمت الأيام. ولقد كان على بينة من أن جهاده لم يذهب سدى، وأن هذه البذور التي بذرها فسقتها دماء الأحرار لا بد أن تنمو وتؤتي أكلها، وأن تلك الجمرة التي يخفيها الرماد لا بد أن يتطاير الرماد من فوقه إذا نفخ فيها الشباب من روحهم فتعود كما كانت وهاجة مستعرة ولا تقوى بعد على إطفائها الأيام. ولئن تخاذل الرجال عن دعوته فذلك لأنهم فقدوا الثقة في الثورات وفي الحرب الهمجية، أما مبادئ الوطنية والحرية فقد تغلغلت في النفوس واستقرت في أعماقها، ولسوف تكون هذه المبادئ في غد أكبر حافز لأبناء إيطاليا أن يقدموا أرواحهم رخيصة في سبيل وطنهم يوم يسيرون في حروبهم النظامية ليضربوا عدوتهم الكبرى، ألا وهي النمسا. ولئن تمت وحدة إيطاليا في غد بفضل مساعي كافور وبطولة غاريبلدي والبواسل الأشداء من رجاله، فإن التاريخ لن يستطيع أن ينكر أن دعوة مازيني كانت الروح المحركة في جميع هاتيك الخطوات، فهو الذي أعد الرجال وإن كان غيرهم ساقهم جنداً وهو الذي حشد من الأبطال ما لن يستطيع غيره أن يحصيهم عدداً؛ وفضلاً عن ذلك ففي حجر جمعيته ولد كافور وغاريبلدي فكان أحدهما رأس الحركة الوطنية وكان الآخر ساعدها.

دأب مازيني في غربته على العمل من أجل قضيته الكبرى؛ وما كانت الكتابة يومئذ إلا وسيلة لكسب قوته؛ ولئن لم يستطع أن يتصل بمواطنيه بإيطاليا إلا في مشقة شاقة، فقد أخذ يتصل بالإيطاليين في إنجلترا عامة وفي لندن خاصة ونشط في بث دعوة في قلوبهم؛ وكان يعني أكبر العناية بأن يقبل العمال على دعوته لأنه كان يقدر القوة التي يمكن أن تنبعث من صفوف هذه الطائفة.

ولم يحل الفقر بين هذا الرجل العظيم وأبناء وطنه في إنجلترا، فأنظر إليه على ما كان به من الفاقة كيف يفتتح مدرسة ليلية لتعليم أبناء إيطاليا الغرباء وتثقيف عقولهم حتى ينفذ إليها النور الذي يسعى به فيكونوا عوناً لبلادهم إذا رجعوا إليها ويكونوا عدتها غداً في كفاحها؛ ولك أن تتصور مبلغ ما عانى في سبيل جمع المال للإنفاق على هذه المدرسة، وهو الذي فدحه الدين وتركته الفاقة رث الملابس مضعوف الجسم؟ ولكن المدرسة قد نجحت على الرغم من ذلك، وازداد مازيني بها قدراً في أعين الإنجليز وهم الذين يقدرون مثل هذه الأعمال حق قدرها؛ وزاد نجاحها على نجاح المدارس فبثت الروح الوطنية في قلوب أبنائها، وبثت فيها غير الوطنية عرفان الجميل وشكر المحسنين، فهذا غلام يعود إلى موطنه فيأبى عليه شعوره النبيل إلا أن يسافر إلى جنوة ليحدث أم الزعيم عن أبنها العظيم ويعبر لها عن امتنانه وحفظه صنيع ذلك الرجل الذي علمه وملأ قلبه حماسة وإخلاصاً.

ونشر مازيني صحيفة للعمال يحدثهم فيها عن حقوقهم وواجباتهم ويرفع بها مستوى

مداركهم لأن العلم عنده من أكبر أسلحة الوطنية، ولقد كان لهذه الصحيفة في صفوفهم أثر بالغ وإن لم يكن يستطيع أن يذيعها فيهم إلا في فترات متقطعة لحاجته إلى المال؛ وكثيراً ما كان يهرب العمال أعداداً منها إلى إيطاليا فيكون لها في قلوب العمال هناك أكثر مما قدر لها من التأثير إذ كان يحس قراءها أن هذا الكلام كلام زعيم إيطاليا، وأنه فوق ذلك منبعث إليهم من المنفى. . . وكان الزعيم لا يفتأ يحدثهم عما يعانون من البؤس ويلاقون من الإهمال ويبين لهم أسباب ذلك، ويبشرهم بمستقبل سعيد تسود فيه الحرية وتقرر فيه حقوق الأفراد فينالون حظهم من التعليم والرقي والرخاء.

أنكأ مازيني على نفسه على الرغم من ضنى جسمه وقصر ذات يده؛ وكلما أشتد الموقف عليه لاذ بالأمل فبدد أمله أشباح اليأس. ولئن كبر على نفسه أن تضعف (إيطاليا الفتاة) فلقد كان عزاؤه فيما بثته مبادئها في قلوب الشباب والشيوخ من الحماسة والعزم؛ فكان العمال يتلقفون صحيفته الخاصة بهم على الرغم من يقظة الرقيب والبوليس، وكان شباب الجامعات يتهافتون على كتاباته ويتلونها كما يتلون الإنجيل فلها في أنفسهم مثل جلال الإنجيل ومثل سحر الإنجيل.

وكانت النمسا تضيق بها أشد الضيق، كما كان يضيق به أنصار الرجعية في القارة كلها. وأصبح اسم مازيني يقض مضاجعهم وينذرهم بالويل في المستقبل القريب. وكان مما تطيب له نفس ذلك الغريب المجاهد، أن يصبح وهو فرد مبعث خوف هؤلاء الجبابرة الحاكمين.

وترامت إلى مازيني في إنجلترة نبأ دعوة جديدة أخذت تتسرب إلى أذهان الإيطاليين، وهي

دعوة الإعتدال، ومؤداها الاقتصار في ذلك الوقت على المطالبة بالإصلاح الداخلي، حتى تتهيأ البلاد للاستقلال، فتكون وثبتها في غد وثبة قوية لا تخاذل بعدها. وكان أصحاب هذه الدعوة يتطلعون إلى ملك بيدمنت ليكون عوناً لهم في تحقيق آمالهم في الإصلاح. . . وغضب مازيني من هذه الدعوة وضاق بها صدره، إذ كان يرى النمسا أساس كل فساد. وكيف يتسنى للبلاد أي إصلاح وسلطانها مفروض على الأمراء ونفوذها متغلغل حتى الأعماق؟ أنه يرى أن سياسة المعتدلين قلب للوضع المعقول؛ فالوطنية هي الخطوة الأولى والثورة تأتي بعدها، ومن وراء الثورات المتلاحقة يأتي الغلب في النهاية، ويكون بعد الغلب الإصلاح كأسرع وأكمل ما يكون الإصلاح!

وإنه ليخشى أن يركن الناس إلى هذه الدعوة فتموت روح الوطنية في نفوسهم ويستطيع بعد ذلك المستبدون بهم أن يلهوهم عن غايتهم الكبرى ببعض مظاهر الرخاء المادي حتى تنحل عزائمهم وينسوا القبلة التي كانوا يتوجهون إليها، وتغرهم مطالع الدنيا فيصبح بعضهم لبعض عدواً، وقد كانوا بالوطنية والجهاد في سبيل قضيتهم المشتركة بعضهم أولياء بعض.

وأمض نفس الزعيم النازح أن يسفه بعض دعاة الاعتدال آراءه، وأن يهاجموا حركاته أقسى مهاجمة، فيتهموه بأنه يلقي بالشباب بين براثن الموت وهو بعيد، كل أولئك في غير جدوى، مرة بعد مرة. . . وأثارت هذه التهمة نفسه حتى لقد فكر أن يذهب إلى إيطاليا على الرغم من الحكم عليه بالإعدام، فيضحي نفسه في سبيل قضيته. فللموت أهون على نفسه من هذه التهمة، ولولا أن صدفة عن ذلك بعض أصدقائه لأقدم عليه في غير تردد. وكأنما أراد الغريب المناضل أن يرد عليهم بالعمل خيراً من القول، فأخذ يدبر ثورة جديدة يذيعها في طول إيطاليا وعرضها يكون مركزها هذه المرة الولايات البابوية، إذ كان قد علم أن وسط إيطاليا كان يزخر يومئذ بالمؤامرات السرية، وكان ذلك في عام 1843 واتصل مازيني بنبيلين ضابطين في بحرية النمسا، وهما أتيليو وإميليو من أهل البندقية، وأوعز إليهما أن يوقدا نار الثورة في وسط إيطاليا - ولكن البوليس - ألقى القبض عليهما بعد أن وثق من حركاتهما ومراميهما، فسيقا إلى الإعدام، وزادت دمائهما الزكية شجرة الحرية نماء وقوة. وعلم مازيني أن الحكومة الإنجليزية هي التي دلت عليهما، لأنها كانت تفتح رسائله

إليهما ورسائلهما إليه، فاستشاط الزعيم غضباً، وأطلع أحد النواب في مجلس العموم، وكان من أصدقائه الأدنين على الأمر، فأحتج النائب في المجلس على مسلك الحكومة الإنجليزية، وسرعان ما شاع في المجتمع الإنجليزي شعور الخجل مما فعلت الحكومة،

حتى لقد حار وزير الداخلية عما يدافع به عن نفسه أمام المجلس حين وقف على تسائل بعض النواب، وكان بينهم ماكولي الكاتب الإنجليزي العظيم. . . وكتب كارليل في جريدة التيمس يسفه عمل الحكومة فكان مما قاله: (إن فتح الرسالة المغلقة مسألة جد خطيرة بالنسبة إلينا، لأن هذه الرسائل كما كنا نظن تحترم في مصلحة بريد إنجليزية كما تحترم الأشياء المقدسة. إن فتح الرسائل المغلقة على غير علم من أصحابها عمل قريب جداً من سرقة جيوب الناس).

ودافع كارليل عن صديقه مازيني في تلك الجريدة. فكان مما ذكره عنه: (مهما يكن من رأيي في نظرات هذا الرجل العملية وفي خبرته بشؤون الدنيا، فإني أستطيع في غير تحرج أن أشهد أمام الناس جميعاً أن هذا الرجل - إن كنت قد عرفت شبيهاً له - رجل عبقرية وفضيلة، رجل شجاعة صحيحة ورجل إنسانية؛ وهو كذلك نبيل الفكر، فهو أحد هؤلاء النوادر الذين ترى عددهم في هذه الحياة وا أسفاه قليلاً، أولئك الجديرون بأن نسميهم الأرواح الشهيدة؛ أولئك الذين يسيرون على التقوى في حياتهم اليومية، والذين يدركون في صمتهم، ويسلكون في الحياة مسلكا يتفق على ما يفهم من ذلك).

(يتبع)

الخفيف

هاتف من الحرب. . .

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

أَغَفى ربابُكَ لا شدْوٌ ولا طرَبُ ... وجفَّ حانُكَ لا كأس ولا عنبُ
وزَّفت الريح، هل زفَّ النشيد لها ... أم ظلَّ سأمان هذا اليأسُ التعِب
هذا الذي اهتزَّت الدنيا، وعازفُه ... ساهٍ على صَّفة الأحلام مُكتئب
نَشوانُ يَمَرح في دُنيا محلِّقةٍ ... من الخيال ترامتْ دونها الشُّهُب
هزَّ الطموحُ جناحيْهِ وأتعبَه ... أنَّ الطريقَ إلى الآفاقُ مضطرب
وأنَّ أيامَهُ من طول ما رَتَعَتْ ... بها النوائب أدْمى فَجْرها العطب
تغدوا لجِراح مدِلاّت بشِقوَتها ... مادام فيها لأمجاد العُلا نَسَب
وجرْحه راعِشُ الآهات تحسَبه ... هَشيمةً جُنَّ في تحريقها اللهب
ناشدْتُ لَوْعتَه السُّلوانَ فامتعضتْ ... كيف الهدوءُ وأنفاس الوَرَى تَجِب؟
والأرض موْقد أعمار قد اشتعلتْ ... في جمْره الناس لا الأعواد والحطب
كأنها رأسُ مجنونٍ قد احتدَمتْ ... به الهواجس واستشرى به الغضب
ترتجُّ في راحة الطاغي كجمجُمةٍ ... تحت القتام طوت أحلامها الكرَب
عَلا دُخانُ المنايا في سَماوَتِها ... فزُلزلتْ رَهبةً من هوْله السحب
وكُبكِب الناس للميدان لا فَرقَ ... من الحِمام، ولا خوْفٌ، ولا رَهَب
كأنما سئموا الدنيا وبَهجتَها ... فراحَ يُغريهمُ للفتكةِ الهرب
الأرضُ أمُّ رءُومٌ ما جفت ولداً ... ولا تقطَّع مِنْ أرحامِها سَبب
تُقيتُ جائعَها حبّاً وتشرِبُهُ ... وما تضنُّ بسترِ الهالِكِ التُّرب
فَما لَهمْ مَزَّقوا أوْصالهَا طمعاً ... وناهَشوا الوحشَ في الآطام واحْتربوا؟
ودوَّخوا كلَّ سَجواَء الظِّلالِ بِها ... وكلَّ عَزلاَء فِيها السيفُ مُغترِب!
وكلَّ ناسكةِ الكفَّينِ في يدها ... غصنُ السلام يتيم العود مرتهِب!
وكلّ شلاَّء في الطّغيان، باطِشةٌ ... في الخَير في يَدها الرَّيحانُ والقُضُب!
زيتونةُ السّلم خلوْها مُعقّرةً ... دمُ الضحايا عليها هاطلٌ سكِب
نوْحُ الليالي، وإعوال السنين على ... ترابها جَوْقةٌ خرسَاءُ تَنتحب
وللثَّكالَى نَشيجُ ردّ حرْقَتهُ ... في كلِّ بيت تداعى مضجع خرِب
وللأجنةِ همسٌ حول مصرعها ... كأفرخ فَتَّ في أكبادها اللغَب
قد أعْجلتهْا يدُ الفتاك مولِدَها ... فَعمرُها قصة فوْق الثرى عَجب!
هزَّ الصَّباح لها مَهْداً، وأرضعَها ... قطرَ النَّدى، وكساها ضوؤهُ القشِب
وفي الضحى نشقتْ آجالَها. . . وغَدتْ ... عُمراً حديثُ الأسَى عن أمسِهِ كذب
ميْدانُ حربٍ هُنا!؟ أم تِلك مجزرةٌ ... دمُ الحضارةِ فِيها رَاحَ يَنْسكِبُ؟
في البر، في البحر، في صدر السماءِ وغى ... لمخْلب الوحش فيها النصر والغلب
أتتْ إلى غابهِ الأشْلاءُ صاغرةً ... فعافها وتجافى نَتْنها السّغب
يا حان (عِزريل) إن الكرْم قد نضجت ... به القطوفُ وحيَّا كأسهُ العنب

قمْ أتْرِع الدَّنَّ. أوْ لا! فَهْي مترعةٌ ... فاحبسْ خُطاك، عداها الأيْنُ والتعب
وادعُ الندامى، وقلْ للظامئين: هنا ... نبعٌ من الموت بالأرواح يصطخب
. . .هيَّا اشربوها على نخبِ الطُّغاةِ فهُمْ ... من خمرِها في ليالي الحرب كم شربوا
وكم تنادَى ضُحًى بالسِّلم عاهلُهم ... فما دجى اللَّيْل حتى راح ينقلب
وأرسل البغتةَ النَّكراءَ صاعقةً ... تدِفُّ من نارها الأرزاءُ والنُّوَب
الناسُ منها أعاصيرٌ مُزمجِرةٌ ... يرتجُّ في يدها الفولاذ واللهب
والموتُ شاعرُ آجالٍ على فمه ... ينعى النشيدُ، ويَرثى نفسه القصب
قد جُنّ فارتجلَ الأعمارَ قافيةً ... مزمورُها من قلوب الناس منتهب
!تُرى الحضارةُ ثكلى في مآتمهِ ... ودمعُها من جِراح العصر مُنسرب
!يا قَومَنا وتُرابُ (النيل) ضجّ بنا. . . ... أما كفانا عليْه اللهو واللعب
!أما كفانا كرىً في جنَّة سجدت ... لها العصور وأحنت رأسها الحِقب
وجاسَ (هاروت) يوماً في ظلائلها ... فردّه سحرُها حيْرانَ يرتْعب
تَبكي الرُّقَى بين كفَّيهِ تمائِمها ... بكاءَ راجي الأماني خانه الطَّلب
وكيف؟ والسحرُ في أعتابها رصَدٌ ... وحُسنُها بشعاع السحرُ منتقب
!هذى المحاريب كم ريمت دفائِنها ... فأقسمت أرضها لن ترفع الحُجب
قد ختَّمتْ سرَّها الأقدارِ فانع لها ... مَن راحَ مِن فمَها للسرِّ يرتقب
وكم تحَّطمَ جَبّارٌ على يَدِها ... ودُكَّ باغٍ قويُّ البطش مغتصب
شُطآنُها الخضر ألواحُ مقدَّسة ... تنزيلُها عَجَزتْ عن حمله الكتُب
سمراءُ، مسكيَّة الأغراس طاهرة ... وفيَّةٌ ما دَنتْ من عهدها الرِّيَب
كانت مصلّى جبين الدهر في زمن ... ملَّتْ قرابينَه الأصنام والنُّصب
والناس من نَزَق الفوْضى وظُلمتها ... ماجوا من الجَهل كالقُطْعان واضطربوا
كلنا لهم قبساً (فرَعوْن) أشعله ... كيْما تضِئ به للعالَم الشُّهُب
!لولا شعاع سرَى من مَهدنا لغدتْ ... أجيالهم في ظلام الفكر تحتجب
والنخل فيها كفرسان على كثَب ... ترنَّحَ النصرُ فيهم بعدما غلبوا
ترجَّلوا، وشأت أعلامُهمْ، ومضتْ ... رُءُوسهْم بِفُروع الغار تَعْتَصِب
إنْ هَزَّها الرِّيحُ خِلتَ الجيش صاح به ... منْ بوق (رمسيس) صوتٌ صاخبٌ لجب
وإن سجتْ قلتُ عباد قد ابتهلوا ... في مَعبد حفَّهُ الإجلال والرهب
والنيلُ جبار آبادٍ كم احتُضرت ... بشاطئيهِ سنونٌ واختفت حِقب
الأسيَوُّيون حجوا فوق صفحته ... وأنسيتْ مَهدها في ظلِّهِ العرب
وأقبلَ الغرب أرسالاً متيَّمةً ... كأنما عُلِّقت في زرْعه الصُّلُب
أمواجه هتفت بالناس: مِن زَبدى ... ومن رَشاش هَديري ينبت الذهب
دعوا الغمامَ وشوْق الموَعدين به ... فلجَّتي من سُفوح الخلد تَنسكب
كلَّت بأرضي خُطا الأيام من سفر ... ما مسَّ خطْوي به يأسٌ ولا تعب
علا وقارُ الندى كفى فما افتخرتْ ... على النزيلِ بما تعطِي وما تهب
!تَّسَّيْت كل غريب أهله، فغدا ... من ذاقني مرّةً للنيل ينتسب
!يا شعبَ (مصر) وَعظْتُ اليوم فاستمعوا ... فإنني لكُم يوْمَ الفَخَارِ أَبُ
خلقتُ من أرضِكم للشمس راييةً ... عِطرُ الخلودِ بها رّيان منسكب
النورُ فوق مَجانيها وأغْصُنِها ... متيَّمٌ شَفَّهُ الإغرادُ والطرَب
وحاملُ الفأس يسقيها حُشاشته ... وحظه من جَناها البؤس والوَصب
من عهد آدم يَرعاها. . . وشِقْوتهُ ... دمعُ السواقي لها غضبان ينتحب
الأسمَرُ القانعُ المسكينُ تحسبهُ ... في الكوخ بينَ حماهُ والبلَى نسب
!مُرُّوا بهِ مِثلما مَرّ النعيمُ بكم ... فما لكم بِسوى أجدادهِ حسب
وأنقذوا مِصر من خُلفٍ يكاد به ... جَنانُها من صراع القوم يَنشعِب
كونوا لها صفَّ أبطالٍ على فمهمْ ... نشيدُ مجدٍ بِلحنِ النار يَلتهب
فإن دعا هاتفٌ للحربِ أو رجفتْ ... من بوقها نذُرٌ بالشرِّ تقترب
هُبُّوا حُتوفاً وطِيروا أنُسراً وثِبوا ... صواعقاً بالمنايا الحُمْرِ تصطخب
وفي دَمي النغَمُ الجبّارُ يلهمُكم ... شجواً تعانقَ فيه السِّحرُ واللهب
!والشِّعرُ دُنيا مِنَ الإعجازِ ساكنةٌ ... لولا الأسى رقْرقَتْ أنغامَها الشهُبُ

. . .أنوار
(مهداة إلى الأستاذ خليل شيبوب)
للدكتور إبراهيم ناجي
طابتْ بكِ الأيامُ وا فرحتاهْ ... أنتِ الأماني والغِنى والحياهْ!
قد وَجَدَ الضِّلِّيل نور الهدى ... يا حُلمه يا نجمه يا سماه!
فليذهبِ الليل، غفرنا له ... ما دام هذا الصبح عُقبى دُجاه
جمالك الطاهر عندي له ... إيمان قلب في خشوع الصلاه
ولي إلى ذاك الجلال اتجاه ... ولى بسلطانكِ عز وجاه!
قد طرق الباب فتى مُتعبٌ ... طال به السيرُ وكَلَّت خُطاه
نَقّل في الأيام أقدامه ... يبغى خيالاً ماثلاً في مُناه
عندك قد حط رحال المُنى ... وفي حِمى حُسنك ألقى عصاه
أينَ شقاءٌ صاخِبٌ في دمي ... جرعني الضنك إلى مُنتهاه
له إذا دوّي به ساخراً ... ضِحك التشفّي وجنون الطغاه
شكراً لذات هَبطتْ من علٍ ... تحدث النحس فَشُلَّت يداه
بأي كف طَعَنَتْ قلبه ... فمات في قلبيَ حتى صداه!
قد هدأ الليل وران الكرى ... إلا أخا سهد يُغَني شجاه
ناداكِ من أقصى الرّبى فأسمعي ... لِمَنْ على طول الليالي نداه
نادى أليفاً نام عن شجوه ... عَذْبٌ تَجَنبه عزيزٌ جناه
أحبك الحب وغَنّى به ... عفّ الأماني والهوى والشفاه
وإنما الحب حديثُ العُلى ... أنشودة الخلد ونحن الرُّواه
ناجي
رسالة الفن
دراسات في الفن:
اليد فاللسان فالقلب
للأستاذ عزيز أحمد فهمي
- أأنت الذي قطعت أوتار هذا العود هكذا؟
- نعم
- وتقول بكل وقاحة (نعم)؟! لم أعد أطيق معك صبراً!
- وبهذا أنذر الخضر موسى. ومع هذا فقد أصر موسى على صحبته. . .
- الخطر وموسى؟ إذن حكمة في هذا الخبل يا سيدي الخضر الثاني. . .
- من غير شك. فالمحروس أخوك الصغير خلقه الله معبداً بالغريزة والسليقة، وقد كان هنا طول الأمس، فلو أنه عثر على العود مشدود الأوتار لأبى إلا أن يطربنا ويشنف أسماعنا بنشيد (العنزة والضفدعة) وأغنية (الجحش النجيب)، وغير ذلك من محفوظاته الرائعة. . . فقطعت أوتار العود، ونجونا بذلك من الكرب
- أما كنت تستطيع أن تخفيه؟
- كان يستطيع أن يجده!
- فإذا وجدته أما كنت تستطيع أن تنهاه عن العزف؟
- بل كنت أستطيع أيضاً أن أدعه يعزف فلا أمنعه، ولا أنهاه، وإنما ادعوا الله في قرارة نفسي أن تنقلب أوتار العود ألغاماً فما يمسها حتى تنفجر في وجهه فنرتاح ويرتاح. . .
- يا حفيظ! ولماذا لم تفعل هذا يا سيدي الخضر فكنت ترينا كرامة من كراماتك؟
- لا يفعل هذا إلا من كان إيمانهم أضعف الإيمان
- الكرامات لا يفعلها إلا ضعفاء الإيمان؟ ما هذا؟ إنما الكرامات للأولياء. . .
- الكرامات للأولياء، وما أكرمه على الله عبده الذي يلهمه الصواب ويوفقه إلى فعله بيده. . . أتظنين أن هذا شيء يسير؟ هذه هي الكرامات، وأولياء الله هم الذين يفعلون الصواب ويقيمون الحق بأيديهم. . . والحق من الله. . .
- كنت أحسب للأولياء آيات
- إن لهم آيات. بل أن الذين أقل منهم آيات أيضاً. . . بل إن في كل الذين ترين وتسمعين من هذا الوجود آيات. . .
- ما هذا التناقض؟ تنكر عليهم الكرامات، وتشهد لهم بالآيات، بل تمضي فتشهد لمن

هم دونهم بها. . . ثم تذوب آخر الأمر في هذا الوجود الذي لا يمكن أن نحصره فتقول إنه كله آيات في آيات، فما الذي تحب أن أفهمه من هذا كله؟
- إذا استطعت فافهميه كله، ولكي تفهميه كله اذكري الحديث الشريف من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فأن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وهذا أضعف الإيمان. واذكري إلى جانب هذا الحديث قصة الخضر وموسى، واذكري مع هذا وذاك أن القرآن يروي عن حوار دار بين الكفار وبين النبي (ص) طلب فيه الكفار منه آيات ومعجزات فأوحى إليه الحق الجبار أن يقول لهم إن الوجود ملؤه الآيات والمعجزات. وأعذريني إذا كنت لا أحفظ نصوص الآيات فقد استعصى عليَّ الحفظ بفضل الطرق التي كانوا يحفظوننا بها في المدارس. . .
- إني أذكر هذه الآيات ولكني مع هذا لا أستطيع أن أخلص من جمعها إلى الحديث الذي ذكرته، وإلى قصة الخضر بشيء مما تريدني أن أخلص به. . .
- هذه هي عادتك. . . فلو كان ما نناقشه حسبة فستان وروائح ومساحيق لخلصت منها كالجن بالذي تريدين. . . وأكثر! لا بأس فلنبدأ معاً. . . أنت تعلمين أن كل ما في هذا الوجود يتبع في حياته قانوناً خاصاً به. وأنه لو حاد عن هذا القانون أختل وأضطرب وفسد وقد يفقد الحياة. وأنت تعلمين إلى جانب هذا أن كل القوانين التي تخضع لها كل الخلائق لها هي أيضاً قانون تخضع له هو قانون التطور والارتقاء الناهض إلى الكمال والموصل إلى الله وأسمه الآخر، تباركت أسماءه. والخلائق متنوعة: منها ما يبدوا لنا بإدراك، ومنها ما لا يبدو له إدراك، ومن الخلائق التي لها إدراك الإنسان، وله إلى جانب الإدراك أو بهذا الإدراك إحساس وإرادة وعقل، ثم إن له آخر الأمر قدره على الإنتاج. وحياة الموجودات في مجموعها حين تنزع إلى الارتقاء والكمال لا تزحف بالتساوي ولا تتماسك في صف واحد، والذي صنع بها هذا هو تشابك القوانين المؤثرة فيها وتعقدها وتكاثر الظروف الفعالة
فيها وتباين أصولها وأتجاهاتها، وهذا التشابك وهذا التعقد وهذا التكاثر وهذا التباين. . . كل هذه حين تتفاعل تغلي بالوجود غلياناً، وفي هذا الغليان تتناثر بعض الموجودات فتخرج عن محيط أخواتها متطايرة متطيرة، فأقوى ما في الموجودات هو الذي يستطيع أن يرد هذه الشاذة إلى مرجل الحياة بالدفع أو بالجذب، وأقل قوة من هذا هو الذي يدعوها بالكلام عسى أن تقتنع أو تعود إذا كانت مما يفهم الكلام. . . والأقل قوة من هذين هو الذي ينظر إلى هذه الشاذة نظرة العارف بمروقها والآسف لهذا المروق والراغب في عودتها، والعاجز عن إعادتها بالفعل أو القول. وهذا الذي وصفه النبي (ص) بأنه أضعف الإيمان، وليس الإيمان - كما لعله وضح - إلا الخضوع بالرضى لقوانين الحياة الساعية إلى الله، ومن أقوى هذا الخضوع ما لم يشبه التردد وما صاحبه الإدراك، كخضوع الخضر، ومن أضعفه الخضوع الذي لا إدراك فيه وهو خضوع الجماد والتراب، وبين هذا وذاك درجات للإيمان.
- والآيات. . .؟
- الآيات هي البراعة في هذا الإيمان. . . إن في تتابع الليل والنهار آية، لأن هذا التتابع بارع، فهو ماض منذ كان إلى ما شاء الله لم يضطرب يوماً ولم يتأخر يوماً، ولم يحدث أن تعاقب نهاران أو تلاحقت ثلاث ليال من غير أن يتوسطها نهاران.
- في القطب يطول النهار شهوراً. . .
- نحن نتحدث في التتابع لا في الطول والقصر فلهذين قانون آخر هو أيضاً آية لأنه أيضاً بارع
- طيب. . .
- وكما أن للشمس والقمر براعة في إيمانهما تحتم أن يكون للناس براعة في إيمانهم ما دام الناس هم أشرف المخلوقات. وقد حدث هذا. فإن من الناس من هم بارعون في إيمانهم براعة هي آية. . . فالخضر الذي ثقب سفينة الفقراء لينقذها من اغتصاب الحاكم الطاغية الذي كان يأخذ كل سفينة غصباً إذا أعجبته، ولا تعجبه المثقوبة، كان في عمله هذا من أولياء الله، أي من ملازمي الحق، أي من الناس البارعين في خضوعهم لقوانين الحياة الصحيحة التي كان جديراً بالأفراد جميعاً أن يتبعوها فلا يعتدي منهم إنسان على ملك

إنسان، أو على جهد الإنسان، والخضر - فيما يروي كتاب الله - كانت له أفعال كثيرة كهذه، وعلل بعضها لموسى حين ألح في سؤاله إياه عنها، وهذا التعليل يدل على أنه كان يستطيع التمييز بين الخلائق والحوادث المنتظمة في النهج الصحيح للحياة - أو بعض ذلك - وبين الخلائق والحوادث الأخرى التي تشذ عن هذا النهج الصحيح - أو بعض ذلك - وبراعة الإيمان في الخضر ليست هي مجرد الإحساس بهذا وإدراكه، وإنما براعة إيمانه في أنه يرد الحق إلى نصابه. . . وهذا فعلاً هو الأمر الجلل الذي لا يستطيعه كل إنسان. . . فنحن في كل يوم نرى عيوباً وشذوذاً عن الحق يصاب بها الناس وتصاب بها الأشياء، ولكن أكثرنا يتشاغل عنها بشئونه هو كأن شئونه لا تتصل بشئون الكون. وقليلاً جداً من الناس هم الذين يلفتون الناس بالكلام أو بوسائل أخرى من وسائل التنبيه تشبه الكلام إلى هذه العيوب ويطلبون منهم أن يصلحوها، وهؤلاء هم الفنانون فهم أيضاً من ملتزمي الحق أي من أولياء الله، ولكنهم ليسوا كالخضر إيماناً ولو كانوا مثله لتحولت فنونهم هذه إلى أفعال يؤدونها بأيديهم؛ فيقيمون بها الحق ويقومون بها المعوج بدلاً من الكلام وما يشبه الكلام، ولكنهم على أي حال أقوى إيماناً ممن لا يفعلون ولا يقولون وإنما ينظرون ويدركون ويأسفون ويعجزون. . . وحتى هؤلاء أصلح حالاً مما ينظرون فلا يدركون، ولا يأسفون ولا يحزنون!. . . وما أسعد الجمهور من الناس الذي يتولى أمره نفر من هؤلاء المؤمنين، أولئك الذين يقومون العوج بأيديهم. . .

- وما حال الجمهور الذي يتولى أمره الفنانون؟

- الفنانون فيهم عيب، وهو أنهم يقولون ما لا يفعلون. . . وقد وصف القرآن الشعراء بهذا. . .

- هذا صحيح، ولكن لماذا؟

- ألم نقل إن درجات الإيمان تختلف في الخلائق، وأن اختلافها يظهر في مدى خضوعها لقوانين الحياة المرتقية إلى الكمال بمظهر القوة على رد غيرها إلى مرجل الحق بالدفع أو الجذب، ثم بعد ذلك بالنداء أو الكلام ثم بعد ذلك بالأسف. . . إلى آخر هذا الذي قلناه

- هيه. . .

- الفنانون إيمانهم من الدرجة الثانية أو ينتجون من الفنون ما يشبه القول، وتنظرين بعد ذلك إلى أعمالهم فترين فيها ما قد يتناقض مع أقوالهم. . .

- أو لا يستطيعون أن يصلحوا من أنفسهم؟

- يستطيعون. . . فالله لا يمنع الرقي عمن أراد، وقد علمنا في القرآن وفي الإنجيل وفي التوراة أن نناديه وأن نطلب منه الهداية إلى الطريق المستقيم، وليس هذا الذي علمنا إياه عبثاً، وهو لم يقل لنا: (أدعوني أستجب لكم)، وفي نفسه ألا يستجيب. . . إنما هو الرحمن يريد أن يستجيب، ويطلب منا أن ندعوه ليستجيب. . . ففي يد كل إنسان إذن أن يطلب من الله ما يريد على أن يكون الذي يريده شيئاً مما يعطيه الله الذي هو الحق والذي هو الرحمن والذي هو العادل، والذي هو الهادي. . . فالهداية إذن بابها مفتوح. . . إنما علينا أن نطلبها. . .

- علمني كيف أطلبها لعل الله يهديني فأكون من أولياء الله الصالحين. . .

- أظن ذلك يكون بأن تعدي لها نفسك أولاً. . . أنت تريدين أن تهتدي للحق، فمهدي نفسك للحق. . . ثم اعرفي الحق ثم ابذريه في نفسك، ثم تعهديه بالحفظ والصون، ثم غذيه واسقيه حقاً وحقاً. . . عندئذ لا بد أن يثمر الحق في نفسه حقاً هو أزهى الحق وأزكى الحق. . . وسترين نفسك بعد ذلك، وتقولين الحق كما يفعل الفنانون، ثم إذا رضي الله عنك رأيت نفسك تفعلين الحق بيدك كما يفعله أولياء الله الصالحون رضي الله عنهم. . . أظن أن هذا هو الطريق. . . بل إنه الطريق

- فلماذا لا يمضي الفنانون في طريقهم هذا إلى نهايته؟ ما دام يستطيعون؟

- لعل إعجابهم ببراعتهم في إيمانهم يستهويهم.

- هذا الإيمان الشفوي الذي لا غناء فيه، والذي لعنهم القرآن من أجله. . .

- ليس إيمان الفنانون شفوياً يا هذا، وإن القرآن لم يلعنهم يا تلك. . . بل إن القرآن وصفهم بأنهم يقولون ما لا يفعلون وهذا حق لأنهم هكذا، وقال عنهم القرآن إنهم

يتبعهم الغاوون وهم الذين يستهويهم كلام الشعراء وفنون غيرهم من الفنانين، ويهيمون ورائهم في دنيا كلها خيال تريد الكمال ولكنها لا تطلب الكمال إلا بالكلام، بينما الكلام لا يحقق هذا الكمال، وإنما تحققه الأفعال. . . فالفنانون هم حقاً لا ينتجون إصلاحاً. . . ولكن دعوتهم إلى الإصلاح والكمال لا بد أن تصادف مؤمناً ممن يستطيعون أن يفعلوا بأيديهم فيحقق بهذا الإيمان الذي يستقيه منهم وبإيمانه الذي يهديه إليه الله. . . ذلك الكمال أو جانباً مما كانوا ينشدون. . . وحين وصف القرآن الشعراء بهذا الوصف الذي لا شك أن فيه كثيراً من التعبير كان الإسلام في حاجة إلى الذين يبذلون الأرواح والأجسام في تقويمه وتثبيته. . . ولم يكن في حاجة إلى من يقول شيئاً، لأن الله عندئذ كان هو الذي يقول. . . أذن فليسوا الآن ضالين -

- ولم يكونوا يوماً ضالين ما استوحوا الحق فنونهم، وإنما كان على أنوارهم أن تسجد لنور الله حين تجلى الله بنوره على محمد سيد العالمين. . .

- ولكن دفاعك هذا كله عنهم لا يزال عاجزاً عن رفع إيمانهم منزلة على الإيمان الشفوي كما أقول. . .

- أعوذ بالله منك ومن اللوغاريتمات. . . إن لإيمانهم هذا المظهر الشفوي الذي تقولين عنه لأن تعبيرهم عن هذا الإيمان يكون بالكلام، أو ما يشبه الكلام، ولكن إيمانهم نفسه ليس كلاماً ولا شيئاً يشبه الكلام. وإنما هو إحساس وفهم وإدراك وتمييز واهتداء إلى الحق. هم يشعرون بأنفسهم، ويشعرون بما يحيط بهم، ويشعرون بالحق في بعض هذا، وبالشذوذ عن الحق في بعضه، وهم يشعرون بالحق واتباعه خير من الشذوذ، فيرجوا أن يحدث هذا الحق، ويتصورون أنه قد حدث فعله لأنهم يستطيعون بعقولهم أن يرتبوا النتائج على المقدمات، ومتى اهتدوا إلى علاج للعيب الذي يرونه فإن أنفسهم تخيل إليهم أن هذا العلاج قد تم بالفعل وأن الخلائق قد صلحت بعد ذلك واتبعت قوانين الحياة الصحيحة. . . وهم يصفون هذا كله بفنونهم: يصفون رجاءهم، ويصفون علاجهم، ويصفون آثار هذا العلاج ويصفون قبل هذا وذاك الأشياء التي يرونها على ما هي عليه بما فيها من خير وما فيها من شر. . . ولوا أنهم عدلوا عن هذا الوصف إلى الإصلاح باليد لما قلت عنهم أن إيمانهم شفوي، وإنما الذي يسحبك إلى هذا المغالطة هو المظهر الشفوي لإيمانهم. وحرام عليك هذه القسوة

- ولكن من الفنانين عابثين، وإن منهم داعرين. . .

- ليس هؤلاء فنانين، وإنما هم حيوانات يتفننون.

عزيز أحمد فهمي

رسالة العلم

أرقام تتحدث

وتنبئنا عن قصة الإلكترون

للدكتور محمد محمود غالي

- 1 -

لم يتطرق إلى ذهني أي وهن يمنعني عن متابعة الكتابة لقارئ (الرسالة) الذي وعدته المرة بعد المرة بأني منبئه بقصة الوجود، مطلعه قدر المستطاع على حلقة التفكير الإنساني في أحدث صوره، مستعرض أمامه مبلغ ما وصل إليه من السمو، مطلعه على الطفرة التي بلغتها العلوم الطبيعية والذروة التي ارتقى إليها العلم التجريبي محدثه في الأسباب التي دعت العلماء إلى الأخذ بفكرة معينة والإعراض عن أخرى. ولكن تطرق إلى جسمي نوع من الوصب ظننته بادئ الأمر وصباً دائماً، وحل بهذا التركيب الجسماني مرض عاقني عن الكتابة شهراً، أختل خلاله توازن الجسم ووصل الاختلال إلى العينين، فغير المرض فيهما معامل الانكسار ومنعني هذا عن المطالعة وأبعدني عن الكتابة. ولم تكن مقالاتي بالتي أستطيع أن أمليها على أحد، فأستطيع الاستمرار في الكتابة، إنما من الضروري مراجعة بعض المصنفات والاطلاع على بعض الجداول، نتاج البحث التجريبي وعماد الفلسفة الحديثة. وكان من اللازم تصفح عدد من النشرات العلمية لأستطيع أن أكون للقارئ هيكل موضوعاتي وأحدد معه مجمل مقصدي

وهكذا شاءت الظروف أن أحتجب عن الكتابة على غير إرادتي، وأبتعد عن القراءة

على غير رغبتي، ولكن الاختلال أخذ طريقه في الزوال، والمرض بدأ يتضاءل، والعينين بدأتا عملهما كسابق عهدي بهما، فكان أول همي أن أتصل بالقارئ وأول أغراضي أن أتم له حديثي وليكن ذلك من حيث انتهينا آخر مرة. حدثنا القارئ عن الإلكترون الوحدة المكونة للكهرباء، هذه الشخصية التي هي أصغر ما نعرف في المادة يعتبرها فريق من العلماء جسيما ضئيلاً ويعتبرها البعض الآخر اتحاداً بين جسيم صغير وموجة مستصحبة لها. ووصفنا التجارب الشهيرة التي قام بها مليكان في خريف سنة 1909 التي استطاع بها أن يقيس شحنة الإلكترون، هذه التجارب التي فصل فيها هذا العالم جسيماً حاملاً إلكتروناً حراً واحداً، وقد وضعنا جهاز مليكان وشكله في مقال سابق، ويتكون من بخاخة تنشر رذاذاً رفيعاً من الزيت في غرفة عليا يسقط فيها هذا الرذاذ ويمر بعد سقوطه في غرفة سفلي فضاؤه صغير يبلغ ارتفاعه 15 ملليمتراً وواقع بين كفتي مكثف كهربائي. هذا الرذاذ مكهرب بسبب احتكاك جسيماته بعضها ببعض بحيث أن كل جسيم منه يحمل فريقاً من الشحنات الكهربائية بعضها سالب وبعضها موجب، ويمكن كهربة هذه الجسيمات بتسليط أشعة راديومية عليها تخترق الغرفة التي تحويها فتكسب هذه الجسيمات شحنات كهربائية، وترى هذه الجسيمات الميكرسكوبية بتسليط حزمة ضوئية عليها بشرط أن نراها في اتجاه عمودي على مسار الحزمة، عندئذ تبدوا كالكواكب اللامعة في فضاء الغرفة الصغيرة

ولا يجوز أن يختلط الأمر على القارئ فيظن أن هذه الجسيمات المتناهية في الصغر هي الإلكترونات التي نتحدث عنها ويعتقد بهذا أن مليكان رأى الإلكترون، والواقع أن هذه الجسيمات مهما صغرت كبيرة بنسبة الإلكترون، فهي عليها كالإنسان على الأرض أو كمخلوق على كوكب المريخ - إننا نستطيع في الليل أن نرى المريخ ينتقل في أبراجه السماوية ونتحقق بالمنظار من دورانه حول نفسه، ودورانه حول الشمس، ونرى ما يحيط به من سحب وما يعلوه من جبال ويكتنفه من هضاب ووديان، ولكننا لا نستطيع بما أوتينا اليوم من علم أن نرى رأى العين ما قد يعيش من حيوان أو نبات - كذلك الحال في تجارب مليكان. رأى جسيماً يحمل إلكتروناً أو بضعة إلكترونات أو عدداً عديداً منها، وكان على ثقة في كل حالة من وجود الإلكترونات على هذا الجسيم المضيء السابح في جو الغرفة الصغيرة كما يسبح المريخ حول الشمس وكما تسبح هذه في المجرة وكما تسبح المجرة في الكون المحدود، ولكنه لم يرى الإلكترونات بذاتها

على أني أزيد القارئ شرحاً: لو أننا استطعنا يوماً أن نتحقق من وجود مخلوقات في المريخ فلا يتحتم أن نرى هذه المخلوقات لنعرف عددها، ثمة وسائل أخرى يصح أن نجيل فيها النظر فإنه يكفي أن تتبادل هذه المخلوقات معنا رسائل مفهومة يستطيع هؤلاء فيها أن يوافونا بإحصاء عن عددهم، عند ذلك نقول: إن المريخ يسكنه كذا من المخلوقات الأذكياء دون أن نكون في حاجة لنرى أياً منهم.

كذلك كان الحال في تجارب مليكان الخالدة التي يجذبني هيكلها الرائع منذ تجولت فيه بالمطالعة والدرس والذي أبسطه للقارئ قدر المستطاع - كان في استطاعته أن يرى الجسيم الزيتي المتناهي في الصغر، وكان يعرف عدد ما يحمله من الإلكترونات وهي جسيمات أصغر من الرذاذ المادي كما أن المخلوقات الفرضية في المريخ أصغر بكثير من الكوكب الحامل لها وكان مليكان يعرف عدد ما يحمله الجسيم المضاء من الإلكترونات عدد ما تحمله الأرض من مخلوقات بشرية، وليست ثمة فارق بين معرفتنا هذه ومعرفة مليكان إلا أننا لا نستطيع أن نعرف على وجه التدقيق عدد الأحياء من البشر في لحظة معينة، وتواجهنا في ذلك مصاعب يتفق القارئ معنا فيها، منها أننا لم نكتشف الأرض كلها ومنها أننا لا نستطيع في بعض الشعوب الاعتماد على وسائل الإحصاء الصحيحة بيننا نستطيع أن نعرف على وجه التحقيق عدد المخلوقات الإلكترونية التي يحملها كل جسيم، ولم يتطرق إلى ذلك أي خطأ

كيف تسنى لمليكان التحقق من وجود هذه الشخصيات التي لا ترى، هذه المكونات الأولى للخليقة؟ - كيف استوثق من عددها؟ - أمور أحدث عنها القارئ في الأسطر الآتية واحتاج في ذلك إلى بعض الشرح.

في باريس محلات للبيع يسمونها أي (أثمان موحدة) تشبهها في لندن محلات أسمها

(ولورث) تدخل إليها فتجد فيها كل شيء، تجد جميع الأصناف من المأكولات فتجد الشكولاته كما تجد علب الأناناس والفواكه المحفوظة، كذلك ترى أطباقاً ساخنة للأكل تغنيك وأنت في عجلة عن الغذاء أو العشاء يسمونها (طبق اليوم) وترى أطباقاً باردة تقوم مقام (الساندوتش) وترى الأنواع المختلفة من لعب الأطفال أو أدوات النجارة والبرادة، وفي هذه المحلات توجد الملابس بجانبها الأدوات الكهربائية من مصابيح إلى أجراس وخلافه، وتوجد الأقمشة والأحذية بأنواعها؛ وتوجد أدوات الزينة للسيدات وأدوات الحلاقة للرجال، وطل ما يعوزنا نجده في المحلات من أدوات الحديقة إلى أدوات الحمام من المأكل إلى المشرب إلى كل ما يطرأ على بالنا من الحاجيات، وقد حددوا الأثمان فيها فجميع ما فيها يباع مثلاً بخمسة فرنكات أو بأعداد مضاعفة للخمسة مثل 10 أو 15 أو 25.

ثمة غاية لنا من وصف هذه المحلات يراها القارئ فيما بعد، ونكرر القول أن المعاملة في مختلف أقسام هذه المحلات تجري بخمسة فرنكات أو أضعافها، فإذا دخلها في اليوم الواحد ألوف من الجمهور فأننا على ثقة بأن كل شخص أشترى بضاعته بخمسة فرنكات أو بعدد منها، ثمة رجل أشترى بمبلغ 20 فرنكاً وآخر بمبلغ 35 وثالث بخمسة ورابع بمائة أو مائتين ولكنه لا يوجد متردد واحد أشترى بضاعة ثمنها 37 فرنكاً أو 102 من الفرنكات لسبب واحد، ولكنه سبب رئيسي، ذلك أن هذه البضاعة غير موجودة ولا يجوز شراءها بهذا الثمن.

ولو أننا الآن عرضنا على أحد الطلبة المبتدئين في الحساب الجدول الآتي من الأثمان المختلفة التي أشتري بها عدداً من الجمهور الباريسي. 10، 35، 45، 5، 105، 80، 60، 75، 65 وسألناه عن العدد الذي يقسم كل هذه الأعداد لأجابنا على الفور 5، ومعنى ذلك أن كل عدد من الأعداد السابقة يقبل القسمة على 5 فالعدد الأول يحوي أثنين منها والثاني 7 والثالث 9 والرابع 1 والخامس 21 الخ. هذه المسألة البسيطة التي يسميها المعلمون في المدارس القاسم المشترك الأعظم الذي هو 5 في المسألة السابقة، كانت المسألة الوحيدة التي أستنتج منها مليكان شحنة الإلكترون وتثبت من وجود عدد الإلكترونات الحرة المحمولة على كل جسيم كان ينظر إليها في الغرفة الدقيقة السابقة. وإلى القارئ كيف حدث ذلك: ترك العالم المعروف (مليكان) رذاذ الزيت يسقط في الغرفة الأولى، وتتبع بالميكرسكوب ما يمر من هذه الجسيمات الصغيرة في الغرفة الثانية، وكانت تسقط تحت تأثير جاذبية الأرض كما يسقط كل جسم عليها، وكان يراها كالكواكب تتألق ساقطة جميعها من أعلى إلى أسفل بين كفتي المكثف المكون لسقف وأرض الغرفة الصغيرة الثانية، وكان من الميسور باستعماله ساعة ثوان أن يقيس الزمن الذي يمر على أحد هذه الجسيمات لتقطع مسافة معينة، هي المسافة التي بين شعرتي عدسة المكرسكوب، مسافة تبلغ في تجارب مليكان خمسة مليمترات.

على أني ألفت نظر القارئ إلى أن كل جسيم يسقط في الفضاء بعجلة معروفة أي أن سرعته تزداد كلما أقترب من الأرض بمعدل في الزيادة معروف يسمونه (العجلة) بمعنى أننا لو تركنا كرة تسقط من أحد الأدوار العليا في منزل مرتفع فإن سرعة هذه تزداد كلما اجتازت الكرة الأدوار التالية حتى تبلغ أقصاها عند اقترابها من الأرض: أمر آخر يدخل في محل الاعتبار عند سقوط هذه الكرة، ذلك أن للهواء كما لكل سائل مقاومة للأجسام التي تتحرك فيه، وتزداد هذه المقاومة أيضاً كلما ازدادت السرعة بحيث تتعادل بعد فترة معينة هذه القوة المقاومة مع قوة جاذبية الأرض للكرة، عند ذلك تسير الكرة بسرعة منتظمة لتعادل القوتين، ويسمي العلماء هذه المنطقة (المنطقة ذات السرعة المنتظمة) ولقد كانت المنطقة المحددة بامتداد شعرتي الميكرسكوب والعين من هذه المناطق التي تسير فيها الجسيمات بسرعة منتظمة بالنسبة للجسيمات الكروية الصغيرة التي أستعملها مليكان، وقد أعطى (ستوكس) القانون الذي يمكن أن تحسب منه سرعة هذه الكرات من كتلتها أو بالعكس، وهو معادلة تجد في أحد طرفيها ثقل الكرة في السائل وفي الطرف الثاني مقاومة السائل للكرة ويحوي هذا الطرف الثاني سرعة الكرة أيضاً.

راقب مليكان سرعة أحد هذه الجسيمات الساقطة والمتناهية في الصغر بملاحظة الوقت الذي يمر على الجسيم لكي يقطع المسافة بين شعرتي الميكرسكوب، عند ذلك أوصل التيار الكهربائي بين كفتي المكثف، وشاهد أن هذا الجسيم الساقط بدأ يرتفع في جو الغرفة الضيقة المحدودة بكفتي المكثف - ذلك لأن الجسيم يحمل عدداً من الإلكترونات كما قدمنا أي أنه مكهرب، وطبيعي أن تجذبه الكفة العليا إليها، لأنها مكهربة من نوع من الكهرباء يختلف عن الكهرباء الموجودة على الجسيم - عند ذلك قطع مليكان المجال الكهربائي الموجود بين الكفتين، وفي هذه اللحظة ذاتها بدأ الجسيم في السقوط مرة أخرى تحت تأثير المجال الأرضي؛ فإذا أوصل التيار الكهربائي عاد الجسيم إلى الصعود وهكذا.

وقد لاحظ مليكان أن الوقت الذي يسقط الجسيم فيه المدى الواقع بين الشعرتين واحد لا يتغير - إلا في حدود الخطأ التجريبي - وأن الزمن الذي يمر لكي يصعد الجسيم فيه المدى عينه يتغير من وقت إلى آخر، ويتخذ فترات مختلفة إلا أنها فترات تتكرر دائماً أو تتكرر مثيلاتها؛ وهي كلها مضروبة في عدد واحد يقسمها جميعاً، بمعنى أن يسقط الجسيم مثلاً في 13. 6 من الثانية ولكنه يرتفع دائماً إما في 12. 5 ثانية أو 21. 8 أو 34. 8 أو 84. 5، ومهما أعاد التجربة على الجسيم ذاته فإنه يسقط دائماً تحت تأثير المجال الأرضي في 13 , 6من الثواني، ولكنه يرتفع تحت تأثير مجال كهربائي ثابت في عدد الثواني هو حاصل ضرب عدد معين يقسم الأعداد جميعاً لم يكن هناك إلا فرض واحد لتفسير الحادث الواضح لحركة الجسيم في المجال الأرضي وحركته في المجال الكهربائي، ذلك أن الجسيم يحمل باحتكاكه في الهواء أو بالتأثير الراديومي فيه كميات كهربائية ذات شحنات مختلفة إلا إنها لا يمكن أن تختلف بعضها عن بعض إلا بقدر معلوم

(يتبع)

محمد محمود غالي

دكتوراه الدولة في العلوم الطبيعية من السربون

ليسانس العلوم التعليمية. لسانس العلوم الحرة. دبلوم المهندسخانة

من هنا ومن هناك

السياسة والأخلاق

(عن (نشرة اكسفورد في الأحوال الحاضرة))

منذ عرف الإنسان السياسة لم يجد سبيلاً للتوفيق بينها وبين المثل الأخلاقية العالية. فهو أما أن يهجرها ويصد عن سبيلها كما يفعل رجال الدين في كل العصور، أو يشتغل بها ويواجه كل مواقف بما هو أهل له، فيرد ما لقيصر لقيصر كما يقول المثل المعروف. والسياسة لا تعرف غير الحقائق الواقعة، فليس من السهل أن نسألها العطف أو الرحمة أو الأناة أما إلى ذلك من الخلال التي نعرفها في حياتنا العامة.

ولعل من أهم الأسباب التي تجعل للسياسة هذا اللون، أنها تدين في الحياة للقوة، والقوة سلاح خطر، وإن كانت في ذاتها شيئاً لا هو من الخير ولا هو من الشر، شيئاً لا لون له ولا صفات فمرجعها في الحقيقة إلى الغاية التي تستخدم في سبيلها والوسائل التي تلتمس لها.

وقد واجه الحكماء والمحكمون هذه الصعوبات منذ عرفت السياسة. إلا أن ظروف العالم الحاضرة اليوم قد أمدتهم بشيء من الصرامة والتأييد. ويرجع ذلك إلى سببين: السبب الأول هو أتساع نطاق الحياة السياسية باشتباك الصوالح الدولية، فكثير من أحوال السياسة اليوم لا يرجع أمره إلى المصالح والأغراض الوطنية كما كان بالأمس، فللشئون الدولية أهميتها الكبرى في هذه الأحوال، ومن هنا يصير الاعتماد على القواعد الأخلاقية أشد صعوبة مما كان عليه في العهود السالفة.

أما السبب الثاني فهو أشد عمقاً من السبب الأول: وذلك أن الشعوب في هذه الأيام لم تعد تهتم بالدعوة الأخلاقية في العالم السياسي، لأنها غير واثقة من كيانها الأخلاقي نفسه.

لقد كانت الدول الأوربية منذ خمسين عاماً، بل - منذ عشرين عاماً كذلك - يربطها وثاق متين من الأخلاق المسيحية

ولا أقول إن الحياة في تلك العهود قد وصلت إلى مستوى الأخلاق المسيحية السامية -
- ولكن هذا الباب كان مفتوحاً على كل حال. ولكنا اليوم نرى فجوة واسعة في العلاقات الدولية فلم يعد يصل ما بينها ذلك التعاون القديم الذي تقلصت ضلاله ولم يحل محل شيء
على الإطلاق، وقد أصبحنا نرى على الصهوة رجالاً متعلقين بعنان القوة، وهم لا يخشون شيئاً غير الهزيمة، ولا يخجلون من شيء غير الانحدار. فهل من الغريب مع هذا أن تنحط القوى الأدبية والمعنوية في العلاقات بين الدول الأوربية إلى الحضيض الذي لم تنحدر إليه في عهد من العهود؟
نحن اليوم أمام موقف يدعونا إلى بعض التأمل. ومما يدعو إلى الأسف الشديد أن نرى الحالة السياسية والفكرية والأخلاقية يعروها هذا الجمود.
وإذا كنا هنا بصدد الكلام عن الأخلاق، فمن الواجب أن نقول: إن حكام ألمانيا الحاليين قد أساءوا استعمال القوة التي في أيديهم، فزادوا إلى ويلات الإنسانية بلاء لم يعهد له مثيل؛ ومن الحق أن نحملهم وزر ما جنوا على العالم الإنساني، ونجعل الدفاع عن الأخلاق من الواجبات العامة التي ينشدها الجميع لخير الإنسانية العام.
إن الدول الدكتاتورية ما زالت تعتقد أن القوة هي سيطرة الإنسان على الإنسان، لا سيطرة الإنسان على الطبيعة، وترى في الجار عدواً يجب أن تتحين الفرص لهلاكه. فالجار والجار عدوان على الدوام.
وتستبيح لنفسها الاعتداء على كل أمة وهبتها الطبيعة شيئاً من خيراتها، وهذه حالة ينهار معها كيان الشرف والأخلاق.
نحن نحارب لأجل المدنية
(نقلا عن مجلة بكشرز يوست)
نحن اليوم في حرب، فماذا نحارب من أجله؟ أنحارب لأجل بولندة؟ أجل، نحن نحارب من أجل بولندة، لا لأن في بولونيا شعباً ضعيفاً معزولاً هوجمت بلاده دون إعلان سابق للحرب، ولكن لما هو أكثر من هذا، وهو أنا منحنا هذا الشعب كلمتنا.
وهي الكلمة البريطانية. . ولكننا كذلك نحارب من أجل حياتنا. فنحن نعلم أن انتصار - النازية ليس في الحقيقة انتصاراً على بولندا واستراليا وتشيكوسلوفاكيا فحسب، تلك البلاد التي وجدت وذاق أهلها أشد أنواع العسف في العصر الحديث. نحن نحارب لهذه الأسباب - ولا شك - ولكن هناك اعتبار أعظم وأسمى من تلك الاعتبارات، وهو أنا نحارب لأجل
المدنية، فما هي المدنية؟ ليست المدنية لبس القبعة الحريرية، أو المعرفة بفن وجنر، أو الاضطلاع بعلم الكيمياء. ولكن المدنية هي معرفة فلسفة الحياة الحقة، هي أن تدرك تماماً أن القوة ليست الطريق إلى المجد، وأن المادية العمياء ليست كل شيء في الحياة، وترى راحتك في عمل الخير للصالح العام. إن الألمانيين ولا شك أكثر انهماكاً في دراسة الكتب من البريطانيين، ولكنهم لم يدركوا هذه الحقيقة، فهم أذن بعيدون كل البعد عن المدنية.
يقول بعض المتشائمين: إن كل شيء في الحياة قد تناولته يد الفساد فما أجدرنا بأن نهدم بيدنا كل شيء ونبني حياتنا من جديد! وما أجدرنا بأن نقتدي ببساطة ذلك الهمجي النبيل ولكن الهمجي النبيل ليس إلا أسطورة في خيال ذلك القائل المسكين، إن أهالي الشعوب الهمجية على ما عرف عنهم من الخرافات الكثيرة ليسوا بسطاء، فهم يطوون قلوبهم على الشحناء ويجدون فخارهم في الحروب.
إن الحياة ولا شك لم تصل إلى الغاية التي يستريح فيها كل إنسان، وعلى الأخص الفقراء، ولكن حالة الفقير اليوم خير منها بالأمس والعالم بمختلف طبقاته اليوم أكثر اتجاهاً إلى البر والإحسان والاعتراف بحقوق الفقراء مما كان عليه منذ مائة عام. لقد أخذت الشعوب تجني ثمار الراحة والرفاهية نتيجة جهادها الجهل والقسوة مئات السنين. ونحن مطالبون اليوم بأن نحارب تلك الدعاوى الباطلة التي غرس بذورها هتلر ولينين، ضناً بتلك الثمار النقية من الفساد
وإن بريطانيا وفرنسا لتزهيان بقيامهما بواجبهما في سبيل الدفاع عن المدنية، ضد هذه الحالة التي ترجع بالعالم إلى عصور الهمجية الأولى، ولا تختلف عنها إلا في استعمال الطائرات قاذفة القنابل والمدرعات الحربية بدلاً من القوس والنبال.

إن الكفاح العظيم الذي نراه اليوم قد أوجد بيننا نوعاً جديداً من الوئام والارتباط، ونحن نرى روح التعاون اليوم يشع نورها في كافة الأنحاء، ومن واجبنا إذا انتهت الحرب أنعمل على دوام هذه الروح، ومن واجب وزارة الخدمة العامة ألا تغلق أبوابها إذا دقت الأجراس مؤذنة بانتهاء الحرب ليدوم هذا التعاون الجميل لمكافحة الجهل والفقر والمرض.

البريد الأدبي

في المسرح

1 - فجع المسرح الفرنسي بل العالمي في الإخراج والتمثيل بوفاة جورج بيتويف وقد شارك بيتويف المجددين من المخرجين الفرنسيين في فك قيود المسرح. فأتم هو وجوفيه ودولان وباتي مسعى كوبو (ومن قبله: في مسرحه الذي ثار فيه على الأوضاع المربوطة وأسم المسرح - والذي أحدثه هؤلاء النفر أنهم أنزلوا نص المسرحية في المنزل الأول فجعلوه كالصورة المنصوبة، وأخذوا هم يسلطون عليه الضوء من هنا والظل من هنا، من طريق الإخراج والتمثيل، حتى يبرز للعين وخصائصه تكاد تجسدها اليد، ودفائنه تتعلق بها البصيرة فتتصورها الحواس. وقديماً كان النص كالعجين يعجنه المخرج والممثل على أهوائهما. ومزية بيتويف أنه ذهب في الطريقة المستحدثة أبعد مذهب، وأشتهر بالبساطة بل بالسذاجة، وقد كنت أمل أداءه أو الأمر حتى فطنت إلى قوته المستترة وجلاله المتواري، فأدركت كم يجتهد الرجل (وزوجته أيضا: في ساعات التدريب حتى يبرز للنظارة كأنه غائب عنهم أو كأنه شبح يذهب ويجيء في عالم ثان. وكان بيتويف يختار من المسرحيات أبعدها غاية وأدقها لمحة وألطفها وضعاً. فأدى فيما أدى مسرحيات لأندرييف وتشيكوف الروسيين وإبسن النرويجي وشكسبير، وأقدم على بيرندللو الإيطالي فأقام باريس وأقعدها إذ أدى (ستة أشخاص يفتشون عن مؤلف) ثم أقدم على رابندرانات تاغور فأدى (رسالة أمال). فشق بتلك المسرحيات الدخيلة كوى ونوافذ في المسرح الفرنسي. وكان اعتماده على الجمهور المثقف، على الخاصة، وكثيراً ما راعتني قلة النظارة في مسرحه، ولكنه الفن الخالص، وبيتويف وأحزابه خدامه وسدنته. حتى أن الرجل كان يؤدي المسرحية الواقعية البينة المعالم في أسلوب يغلب عليه اللطف، رغبة في الإيحاء والإيهام؛ وهل المسرح سوى هذا؟

2 - وأما الفرقة القومية عندنا فلا تزال تقول: إن جمهورنا يريد كذا أو لا ينشط لكذا. بالله لم أنشئت الفرقة: ألتسلي الناس أم لترفع قدر المسرح وتستدرج النظارة إلى تذوق الفن الدقيق؟ إن في مصر عدداً من المسارح القائمة للتسلية وللترويح عن النفس، والربح من وراء ذلك. وإن كان هذا غرض الفرقة فلتهجر دار الأوبرة ولتقصد إلى شارع عماد الدين

تنافس فيه ما تشاء. وإنا لنبرأ بالفرقة أن يستهويها مثل هذا. ولكن ماذا نصنع وهي تمنينا كذا وكذا ولا تصنع شيئاً. فإذا أصرت على أنها خرجت إلينا بأموالنا لتخدم الفن فهل راجعت ما هي عليه سائرة؟ هل نظرت في أمر لجنة القراءة التي تأذن في تأدية مسرحيات موضوعة قد نفض لونها وأختل أتساقها؟ هل جعلت لجنة من أهل الإطلاع والمعرفة تختار من المسرحيات الإفرنجية ما له شأن؟ هل عزمت على أن تطلب المدد ممن وقف حياته على فن المسرح؟ هل فطنت إلى إرضاء الخاصة؟ هل ذكرت أن في أوربة ما يقال له: (تأدية الشعر) وهي أن ينشد رجال الفرقة الحين بعد الحين قصائد ومقطوعات في كذا وكذا من الموضوعات؟

أن في رجال الفرقة وفيمن أقصوا عنها بغير حق من يقدر على معالجة الفن الخالص. فقد شهدت من سنوات (أهل الكهف). ثم شهدت أو من أمس (تحت سماء إسبانيا)، فرأيت إخراجاً حسناً وتمثيلاً صحيحاً؛ ولن أنسى مشهداً أجتمع فيه زوزو الحكيم وعلام ومنسي فهمي وعباس فارس فتجلى الصدق في الإحساس والتعبير، ومن وراء ذلك فتوح نشاطي. إلا أن المسرحية نفسها ليست بآية، وهي أقرب إلى رواية سينمائية منها إلى مسرحية، وذلك لما فيها من التأثير المباشر والحوادث النفاضة فكيف يكون السبيل إلى التلطف في الإخراج وبث الأوهام؟ ولم أر اسم المؤلف ولا عنوان المسرحية في لغتها على صفحات البرنامج الذي دفع إلي وأنا أدخل إلى دار الأوبرة، وهذا غريب. وعلى كل حال فإن في المسرحيات الإفرنجية ما هو خير وأعلى وبعد فقد كتبت (الرسالة 332) أن إدارة الفرقة (وغيرها) تسرف في بذل تذاكر

الدخول لهذا ولذاك على حين أنها تضن بها على الكتاب المقدمين والنقاد البصراء، فسألت من سألت أن يتدارك الأمر. وبلغني بعد ذلك أن وزارة الشؤون الاجتماعية جعلت للإسراف حداً عنيفاً. على أن التشديد هنا كالترخص؛ أفلا نطلب الاعتدال؟ والوجه أن تعمل قائمة تدون فيها أسماء الذين يدعون في الليلة الأولى وفيهم النقاد والكتاب. أما الممثلون فلهم أن يظفروا بعدد من التذاكر على ألا يدعوا حلاقهم وطباخهم وبقال الناحية. . . إلا إذا كانوا من طلاب الفن. ومتى أقول الفن الخالص؟

بشر فارس

لغة الأدب ولغة العلم

من تقصى محققاً كما يتقصى الفاضل الباحث (الدكتور بشر فارس) الأديب العربي المشهور علم (أن اللغة لا تنحصر في الإنشاء الأدبي فثمة الإنشاء العلمي، وله أن يجري إلى جانب الإنشاء الأدبي: هذا في شعب وذاك في شعب، وفي تاريخ آدابنا ما يؤيد هذا. . .)

ولي شيء كنت قلته في تضاعيف كلام في خطبة طويلة منذ ثلاثة عشر سنة - يعضد المعنى الذي غزاه (أي قصده) الدكتور المفضال، وقد رأيت أن أشيع مقالة (الفارس) - وإن لم تفتقر إلى تقوية - بأن أروي اليوم في (الرسالة الغراء) ذاك الكلام:

لا تلوموا العربية ولوموا أمة ركضت إلى الدعة (قبح الله الدعة) ثم قعدت . . .

ليس المروءة أن تبيت منَّعما ... وتظل معتكفاً على الأقداح

ما للرجال وللتنعم، إنما ... خلقوا ليوم كريهة وكفاح

والحركة - كما قالوا - ولود والسكون عاقر، وقد قال أبيقور: أي معنى للكون بالسلم بفقدان الحركة؟ ولام هذا الحكيم هومير حين سأل الآلهة أن تصطلح كي تزول الحروب

إذا المرء لم يغش الكريهة أوشكت ... حبال الهويني بالفتى أن تقطعا

وأبن نتشه يرى أن عمل الرجال إنما هو القتال، وعمل النساء هو تمريض الجرحى. وليس القصد (يا بني) أن تغلب أو أنتغلب بل القصد أن تكون حرب، أن تكون حركة. . .

فليست اللغة العربية (والحالة في تلكم العصور كما سمعتم عنها) بمستأهله أن . . . تلام وأن تعاب، فإنها لا بست ضعفاء فلبست كساء ضعف، وعاشرت وضعاء فارتدت شعار ضعة، وما الضعف وما الضعة (والله) من خلائقها. ولو استمرت تلك القوة، ولو استمرت تلك المدنية، ولو لم يكن ما كتب في اللوح أن يكون - لملأت بدائع العربية الدنيا، فإنها معدن البدائع، ومنجم كل عبقري رائع.

على أن لغة العلم في العربية، وللعلم لغة وللأدب لغة، لم تضم ضيم أختها، وما المقاصد والمواقف وشرحاهما، وأقوال أبن الخطيب ومقدمة أبن خلدون، وكلها في العصور المتأخرة، بالتي تذم (في أسلوب اللغة العلمي) جملتها. . .

(ن)

أصدقاء المؤلف!

أخي الأستاذ الزيات

يجب أن تصدق ما أقصه عليك:

هل تعرف أن مؤلفاتي ستضيع أصدقائي؟

هو، والله، ذلك: فكل صديق ينتظر أن أهدي إليه مؤلفاتي، فإن لم أفعل فأنا عنده من أهل العقوق!

وهل يصدق قراؤك ما أقص عليهم؟

ليسمعوا، إن شاءوا:

إن صداقتي لمجلة الرسالة لا تخفي على أحد، وقد بذلت في خدمتها ما أطيق، وجهد المقل قليل، ومع ذلك رفضت أن ترسل ألي هديةً، فأنا أشتريها من السوق كما يصنع سائر القراء، وكذلك حالي مع جميع الجرائد والمجلات، إلا ما يتفضل به كرام الصحفيين في مصر ولبنان والحجاز وسورية والعراق

وكانت حجتي يوم رفضت هديتك أني حين أشتري الرسالة أحس أني أقول: (صباح الخير، يا صديقي الزيات) وقد أشترى العدد الواحد مرتين أو ثلاثة مرات ليشعر الباعة الذين يعرضونها عليّ بأن الأدب شيء مقبول، وله أنصار أوفياء. هذا، وقد كان من

عادتي أن أهدي مؤلفاتي إلى محرري الجرائد والمجلات ليؤدوا واجب النقد الأدبي في التنويه بالمؤلفات الحديثة، ولكني لاحظت أنهم يفرطون في هذا الواجب بحجة أني أقدم إليهم عدة كتب في العام الواحد وهم لا يستطيعون أن يتحدثوا عني في كل عام عدة مرات!

أفلا يكون من الذوق أن أعفى أولئك الأصدقاء من هذا الواجب؟!

قد أعفيتهم، فهل يعفونني من العتاب حين أبخل عليهم بمؤلفاتي وأنا أنفق عليها من رزقي وأرزاق أطفالي؟

وفي ختام هذه الكلمة أراني مضطراً إلى التنويه بفضل الأستاذ خليل بك ثابت فقد كان دائماً مثال الرجل الحريص على الواجب. أما الأستاذ حافظ محمود فقد حفظ لمؤلفاتي مكاناً في السياسة الأسبوعية، وأما الأستاذ المازني فهو من المعتوب عليهم. وهذا آخر العهد بإهداء مؤلفاتي إلى أصدقائي، ولا أستثني الأستاذ الزيات ولا الدكتور طه حسين ولا الأستاذ أحمد أمين!!

زكي مبارك

في كلية الآداب

أشار (جامعي) في العدد السابق من الرسالة إلى حوادث تدل على مقدار كبير من المحاباة يتمتع به أجنبي يدرس الآن في كلية الآداب، وعلى أنه يحظى برعاية لا يصيبها مصري أحق منه. وجاءت هذه الإشارة عقب كلمة الدكتور بشر فارس في العدد الذي سبقه وهي الكلمة التي كانت لها فضل كبير في تنبيه الأذهان إلى مدى الخطوة التي يجود بها بعضنا على الغريب على حساب دافعي الضرائب المصريين، فيطمع في المزيد منها ولو كان في ذلك حرمان للمصري. ولا شك أن كثيراً من شباب مصر الذي نبغ في معاهدها، ثم نال من الإجازات من معاهد أوربا أكثر مما نال هذا المدرس الأجنبي، ثم لا يجد بعد طول التحصيل عملاً يفيد به الأمة - يشكر للدكتور بشر فارس صراحته وشجاعته. وأني لأعرف بينهم من يود إعلان تأييده إياه وبسط شكواه من الواقع لولا خشية الذين يضرون وينفعون.

وإني أرجو أن تتفضل (الرسالة) بإفساح صدرها لشرح حقائق أخرى تضاف إلى حساب هذا الشاب الأجنبي الذي عين في كلية الآداب بمرتب يزيد على مرتب أثنين من المصريين الذين أتموا من الدراسة والتحصيل ما لم يتم، وحصلوا من الإجازات على ما لم يحصل عليه.

أن الرجل عين في مصر بسعي مستشرق فرنسي كبير ذي نفوذ واسع وكلمة نافذة في بعض الدوائر المصرية، وذلك بعد أن رفضت وزارة المعارف الفرنسية تجديد عقده الذي كان يمنحه سنوياً في باريس مبلغاً يقل بكثير - على حسب سعر العملة اليوم - عن مرتبه الشهري في مصر؛ وقد فعلت هذا حكومة فرنسا الغنية ابتغاءً للاقتصاد. وتم تعيينه عندنا في عام 1936. وفي عام 1937 منحته كلية الآداب مكافأة لتمضية العطلة الصيفية في فرنسا وفعلت مثل هذا في عام 1938. والمتداول عندنا أن المكافأة الثانية صرفت من الاعتماد المخصص لمكافآت الطلبة. ثم أن الكلية ذهبت في سخائها الحاتمي إلى زيادة مرتبه مرتين، وقررت أيضاً منحه مبلغ خمسمائة جنيه مصري إعانة له على طبع رسالته التي يتقدم بها أمام جامعة باريس لنيل الدكتوراه في الآداب. كل هذه الألوان المتعاقبة من المحاباة نفذت في زمن قصير بتوصية المستشرق الكبير الذي سبقت الإشارة إليه.

وأني لأعرف أديباً مصرياً مشهوراً طلب إلى كلية الآداب منذ عشرة أعوام أن تعينه على طبع رسالته للدكتوراه أمام جامعة باريس فلم يجد أذناً مصغية، وكان هذا الأديب في حاجة إلى الإعانة وقتئذ، إذ لم تجر عليه كلية الآداب راتباً شهرياً بل كان يجاهد بقلمه ليعيش أثناء إقامته للتحصيل في العاصمة الفرنسية. ولعل هذا الأديب يقرأ هذه الكلمة فيزكي هذه الذكرى بقلمه لينصف حقاً من حقوق الأمة.

وأني أتمنى أن يجرؤ كل عارف لمثل هذه الحقائق على نشرها ليمتنع حصول مثلها.

وهذا أبر بالشعب من محاربة بعضنا لبعض واضطرار الكثير منا إلى الالتجاء إلى الأجنبي يشتري عونه وحمايته بأموال مواطنيه، وهو لا يبيعه العون والحماية إلا ليثبت

مصلحة له يعلم من يعلم مقدار خطرها.
جامعي آخر
إلى الأستاذ الجليل (النشاشيبي)
كثير الجدال في صحة نسبة نهج البلاغة وتقارعت الأدلة. فمن يرى أنه للشريف الرضي لا للإمام عليّ يقول أن أسلوبه أسلوب العصر العباسي لا أسلوب الصدر الأول، ومن قابل بينه وبين آثار العصرين، والثابت من مأثور العهدين، وكان من نقدة الكلام وجهابذة القول حكم بإحالة صدوره عن الإمام. وإن فيه من الطعن على الصحابة ما ينزه عنه أبو الحسنين ويناقض ما روي عنه (بالتواتر) من الثناء على الشيخين ومبايعتهما والرضا باتباعهما، وإن فيه أشياء من مصطلحات أهل العلوم التي لم تكن قد وضعت على عهد الإمام أصولها، ولا أصطلح على تلك الألفاظ فيها، وإن فيه ما يخالف (طبائع الأشياء). فقد كان الإمام مدة خلافته كلها في حروب ومشاكل لا يفرغ معها ولا يجد داعياً ولا مجالاً لإلقاء خطبة طويلة
في وصف الطواويس وأنواع الخلق أو البحث في فلسفة اللاهوت - هذه الحجج لمن ينفي، ولمن يثبت حجج دفاعية (يرونها) مقنعة - وقد كنا في مجلس (هو واحد من مئات أمثاله) أشتد فيه بيننا الخصام وامتد الجدال، ثم اتفقنا على تحكيم أعلم الناس بمراجع هذا البحث وأوسعهم اطلاعاً عليها، ومن قوله فيها القول، فوجدنا هذا الشرط
في حجة الأدب النشاشيبي
فهل لك يا أستاذنا الجليل أن تقول (كلمة الفصل) في هذا الموضوع فتخدم بذلك الحقيقة ولأدب وأهلهما؟
(العراق)
(سائل)
اليونان والبلاغة العربية
ذهب الدكتور طه حسين بك في بحثه الذي صدر به كتاب نقد النثر لقدامة إلى أن قواعد البلاغة إنما أسست على ما وضع أرسطو، ونقله العرب عن اليونانية، وشايعه على ذلك الأستاذ البشري (الهلال يناير 1936) وقد وجدت في المثل السائر لأبن الأثير وهو من أشهر كتب البلاغة وأجودها كلمة في هذا الموضوع، رأيت أن أطرف بها من لم يطلع عليها من القراء قال: (. . . فإن قلت إن هؤلاء وقفوا على ما ذكره علماء اليونان وتعلموا منه، قلت لك في الجواب هذا شيء لم يكن (إلى أن قال): وهذا باطل بي أنا، فإني لم أعلم شيئاً مما ذكره حكماء اليونان ولا عرفته، ومع هذا فأنظر إلى كلامي (إلى أن قال): ولقد فاوضني بعض المتفلسفين في هذا وانساق الكلام إلى شيء ذكره لأبي علي بن سينا في الخطابة والشعر وذكر ضرباً من ضروب الشعر اليوناني يسمى اللاغوذيا (؟) وقام فأحضر كتاب الشفاء لأبي علي، فوقفني على ما ذكره، فلما وقفت عليه استجهلته فإنه طول فيه وعرض كأنه يخاطب بعض اليونان، وكل الذي ذكره لغو لا يستفيد منه صاحب الكلام العربي شيئاً)
ولست أنقض ما رآه الدكتور طه حسين ولا أثبته، ولكنني أردت إطراف القراء
(ع. ط)
يوميات نائب في الأرياف بالفرنسية
وقع تساهل في ترجمة الفقرة الأخيرة من مقال مجلة مريان الفرنسية عن هذا الكتاب الذي نشرناها في العدد الماضي، فقد ورد فيها: (أنه يكتب لمجرد الرغبة في الكتابة). والأقرب إلى الصواب: (أنه يكتب لأنه يجد لذة في الكتابة).
الكتب
الحكم في أصول الكلمات العامية
للدكتور أحمد عيسى
من العجيب أن الذين أجدوا على العربية وخدموها أجل الخدمات، ليسوا من أولئك الذين ربطوا أنفسهم بدراستها، وأفنوا أعمارهم بحثاً في أصولها وفروعها، ونحوها وصرفها، ولكنهم جماعة ابتدءوا حياتهم بدراسة لعلها آخر ما يتصل بالثقافة اللغوية، ثم دفعتهم الرغبة النفسية الخالصة فخاضوا لجج البحث اللغوي، وأمعنوا في دراسة فقه العربية وأصولها ومفرداتها فخدموا لغتهم وأمتهم خدمة أقل ما يقال فيها أن مجمع اللغة بجاهه وماله لم يبلغها في شيء. ولعل في طليعة أولئك الباحثين الهواة (كما

يقولون) الدكتور أحمد عيسى بك، فهو طبيب نابه في مهنته، ثم هو باحث معروف في اللغة، وقد أخرج في خدمتها مؤلفات قيمة، آخرها ذلك الكتاب: (المحكم في أصول الكلمات العامية)

ووضع الدكتور الباحث كتابه هذا ليثبت به كما يقول: أن اللغة العامية التي نتكلمها الآن في مصر ليست بعيدة كل البعد عن العربية الفصحى، وهو تبتعد عن الفصحى في شيئين: الإعراب وتركيب الحروف، على أن أكثر الكلمات العامية التي ينفر منها الذوق الآن ويستنكرها الحس إنما كانت من أفصح الألفاظ العربية، وإن كثيراً منها قد استعملت فيه المجازات اللطيفة والاستعارات المستملحة التي تعد من أرقى أساليب الفصاحة في الكتابة والكلام.

ولا شك أن المؤلف قد استطاع أن يحقق رأيه بما جمعه وشرحه من المفردات العامية وردها إلى أصولها وبيان ما اعتورها من التحريف، وقد رتب سردها على حسب الحروف الهجائية، بذكر اللفظ العامي وبجانبه تفسيره عند العوام، ثم يأتي بالأصل الفصيح مبيناً ما فيه من الحقيقة والمجاز.

والمؤلف طبعاً لم يجمع كل الكلمات المستعملة في لغة العامة ولكنه قد جمع منها ما استطاع أن يرده إلى أصوله في اللهجات العربية، ومنها ما رده إلى أصله في الفارسية واللاتينية والتركية والسريانية وغيرها من اللغات التي دخلت على لهجات المصريين. وقد قدم لذلك كله ببحث وافٍ في أسباب التحريف في اللغة وتعدد اللهجات والفصيح منها والمرذول،

ومخالطة العرب الأعاجم وتحديد الصلة بين العامية المصرية واللغة العربية، وكل هذا بأسلوب سهل مهذب، ودقة علمية فاحصة فجاء كتابه نافعاً لا للمعنيين باللغة فحسب! بل لكل أديب وطالب وقارئ.

تاريخ الطب في العراق

للدكتورين هاشم الأثري ومعمر خالد الشابندر

أشترك في تأليف هذا الكتاب الدكتور هاشم الأثري عميد الكلية الطبية العراقية من قبل، والدكتور معمر خالد الشابندرالمتخرج في تلك الكلية، وهو بحث تاريخي متصل، يتناول سير الثقافة الطبية، والأدوار التي اجتازتها في ربوع الرافدين منذ أيام العباسيين حتى تأسيس الكلية الملكية في العصر الحاضر

والكتاب في موضوعه لا يقف عند الناحية الطبية، ولكنه صورة رائعة لتاريخ العراق العلمي والعمراني، فقد قسم المؤلفان كتابهما إلى ستة فصول: الفصل الأول في الكلام عن موقع بغداد التاريخي، وما كان لها من جد ومجد، وما انتابها من الحوادث والكوارث؛ والفصل الثاني عن اتصال العراق بالثقافة الطبية ومدى ما بلغته في ذلك؛ والفصل الثالث يتناول الأحوال الطبية في العهد التركي؛ والرابع في توحيد المستشفيات والمعاهد الصحية وتوسيع المستشفى الملكي وتقدمه؛ والفصل الخامس في مشروع الكلية الملكية والفكرة في إنشاءها؛ والفصل السادس في تأسيس الكلية ومنهاجها وأساتذتها ونواحي الدراسة فيها

ولقد اعتمد المؤلفان الفاضلان في سرد الوقائع التاريخية على المراجع الصحيحة، والروايات البعيدة عن زيف الشكوك والأوهام، والمشافهة من الشيوخ الثقاة، وقد حرصا على الترجمة لأشهر أطباء والمترجمين العرب الذين أقاموا أساس الطب في العراق، والتعريف بكثير من المدارس والمعاهد والمستشفيات، كما حرصا على نشر كثير من الصور والرسوم للمعالم والشخصيات فجاء بحثهما وافياً من جميع جهاته، وخدمة جليلة نحو وطنهم ونحو بغداد العظيمة جنة الدنيا في القديم، ومحط العلم والعرفان، ومجمع العلماء والدارسين من أقطار الأرض وأقاصي المعمور.

ساعات في الجحيم

للأديب يوسف عيسى البندك

(هذه شعل من اللهب الأحمر، فيها وصف لرجعية المجتمع الشنيعة، وفيها نقد لنظم الحياة الوحشية، ثم فيها تصوير لآلام الجماهير التي تقاسي أهوال الاستبداد والظلم، وتهرق دماءها جزافاً إرواء الجشع الرأسمالية المكتم أن تغرق الإنسانية في طوفان من النار)

بهذه الكلمات قدم الأديب يوسف عيسى البندك كتابه (ساعات في الجحيم)، وأنها

لكلمات تحمل في أطوائها الفكرة التي عالجها المؤلف الفاضل بشعور ملتهب، وعاطفة فياضة، وثورة عنيفة على النظم المرهقة التي يدعمها الاستعمار والرجعية والجمود والتعصب، ولقد حاول المؤلف أن يسوق أفكاره مساق القصة، وأن يمزج الحقيقة بالخيال حتى تكون قريبة سائغة، ولكنا لا نستطيع أن نقبل كتابه على أنه قصة لها خصائصها ومميزاتها، إذ تنقصه الحبكة الفنية، وقوة الحوار والسرد القصصي وأسلوب المؤلف أسلوب ملتهب، أسلوب أديب تفيض نفسه بحب الطبيعة وحب الحرية، على أنه يتهاون كثيراً بحق اللغة، وهو حق تجب العناية به، فإن الفكرة لا يمكن أن يتميز بها الفنان إلا إذا أظهرها في لبوس فن له روعته وله تأثيره

البلبل

للأديب حسين عفيف

هذه قصة، أو كما يقول المؤلف (شبه قصة) في مقطوعات غرامية من صنيع الخيال. ومؤلف هذه القصة الأديب حسين عفيف كاتب له أسلوب شعري يفيض بالموسيقى والعاطفة، وله قراء يتلهفون عليه، ويطيرون به

وأسلوب المؤلف أسلوب يشيع فيه التقديم والتأخير، ويقول حضرته: (إنه يلتزم ذلك وفقاً لما تقتضيه رغبة إشاعة النغم فيه) والواقع أن للبلاغة العربية قواعد مقررة، وهذه القواعد تحتم على الكاتب مراعاة الدقة في الأداء، ولكن هذه الدقة لا اعتبار لها في تقدير المؤلف، فكثيراً ما يغرق في تقديمه وتأخيره حتى من غير أن يكون هناك نغم ينشده، بل كثيراً ما يخل بقواعد العربية في سبيل ذلك فيقدم الصفة على الموصوف!

إن الكاتب الأسلوبي يجب عليه أن لا يكتب للإفهام فحسب، بل للتأثير الذي هو غاية البلاغة وروحها، ولن يكون التأثير إلا بمراعاة الدقة والقوة والجزالة؛ فإذا كان المؤلف الفاضل يريد أن يظهر بين الكتاب بأسلوبه، فليؤد له ما يجب من قوة الأداء، ودقة الصياغة، وسلامة التعبير، حتى يتم له الكمال، والنغم ليس كل ما هنالك من خصائص الأسلوب، كما أن الدنيا ليست كلها أشجاناً وآلاماً، فلا ينبغي أن تكون أنغام قيثارته كلها على هذا النحو.

م. ف. ع

العدد 336 - بتاريخ: 11 - 12 - 1939

سياسة السمك!

(إن الحرب الحالية ستزيل الدول الصغيرة من الوجود)

(هتلر)

يلتهم الدب الروسي الآن فنلندا كما التهم النمر الألماني من قبل بولندا! وما هذه وتلك - حفظك الله - إلا أكلة اليوم! أما أكلات الغد وما بعده فعلمها لا يزال عند هذين الوحشين اللذين ينقِّلان النظر المحمرَّ من أوربا الشمالية إلى أوربا الشرقية، ومن آسيا الصغرى إلى آسيا الوسطى؛ والدول الصغيرة ترى هذه العيون المتقدة والأفواه المتحلبة فترتعد فرقاً من الخطر المهاجم والعاقبة المبهمة. ولقد كان لهذه الدويلات الغريرة فيما مضى من الزمن السعيد حارس من سلطان الدين وحكم القانون وعرف السياسة، فكانت تعيش في ظلال الخلق الإنساني العام حرة آمنة لا تجد من جاراتها الكبرى إلا ما يجده الصغير من عطف الكبير، والفقير من عون الغني. فلما كفر النازيون والشيوعيون بشرائع الله وقوانين الناس أخذوا العالم بسياسة السمك التي تجعل الضعيف طعاماً للقوي، ففسد النظام وفقد السلام، واختل التوازن، واضطربت الحياة، وذل الحق، وأفلس المنطق، وأخذت جماعات السمك الصغير الرخو تضطرب اضطراب القلق والحيرة بين الحيتان الدكتاتورية التي لا تريد أن تبقي على سمكة، وبين التماسيح الديمقراطية التي لا تريد أن تُبقي على حوت

كان ضمان العيش والاستقلال للدول الصغرى ذلك النظام السياسي الذي وضعته الدول الكبرى وسمته (التوازن الدولي) وحمته بالقوانين والمواثيق والمعاهدات والمحالفات وعصبة الأمم، فجعلت من بعض هذه الدويلات حدوداً فاصلة، ومن بعضها الآخر أسواقاً مشتركة، حتى لا يبغي حد على حد، ولا تطغى قوة على قوة. ولكن هتلر رسول الشيطان ونبي الألمان وخليفة نيتشه، قضى بالموت على الدول الصغرى وقرر ألا يحكم الأرض غير دولتين: دولة ملكة هي ألمانيا، ودولة وزيرة هي إنجلترا كما كان رأيه بالأمس، وروسيا كما أصبح رأيه اليوم! فليت شعري ماذا تصنع هذه الدويلات

وصغرها عمل من أعمال الطبيعة لا حيلة فيه لمحتال، كما يقصر شخص عن شخص، ويصغر شيء عن شيء؟ ليس لها الآن إلا أن تنضوي إلى الأمم الديمقراطية التي تجاهد في سبيل السلام والحرية والمدنية بجانب جهادها في سبيل نفسها؛ حتى إذا أنتصر الأحلاف على هذا
الطغيان المسلح الكافر الأثِر، نظرت هي في يومها وفي غدها فتعالج ضعفها بما تعالج به الطبيعة ضعف النمل والنحل والقرود: وهو التجمع و (التكتل) والتعاون، فيكون بين البلاد المتجاورة، كدول البلطيق وأمم البلقان وشعوب الإسلام، شبه ما بين الدول المتحدة في أمريكا من اتحاد السياسة الخارجية والدفاع العام والدستور المشرع والرئيس الحاكم. وإذن لا يبقى على الأرض أمة صغيرة يقوم على استعمارها النزاع، ويميل من جرّاها ميزان السلامة. واعتبر ذلك مثلاً ببلاد الوطن الإسلامي الأربعة عشر: مراكش وتونس والجزائر وليبيا ومصر والسودان وفلسطين وسورية والحجاز واليمن والعراق وتركية وإيران وأفغانستان إذا انتظمها كلها اتحاد كاتحاد الولايات الأمريكية الثماني والأربعين، وقدَّر في نفسك ماذا يقدم هذا الاتحاد القائم على صلة الدم أو على نسب الروح من الخير المتصل للعالم والضمان الدائم للسلام
إن الحلفاء الديمقراطيين المنتصرين متى جلسوا إلى مائدة الصلح سيذكرون ما صنعوا في فرساي من تقسيم الممالك وتمزيق الشعوب وتركها في حمى الضمير الإنساني والحق الأعزل دون أن يكون لها من شَرةَ الدول الكبيرة وشرها نصير ولا عاصم. وسيفكرون ثم يفكرون في هذا المخلوق العجيب الذي صوروه من مداد وورق ثم أسكنوه قصراً في جنيف وألزموه حماية السلام وجعلوا في خدمته قوماً من ذوي القبعات والقفازات والعصي، وقالوا له مرة: قف أمام الدتشي فانسرقت قواه؛ ثم قالوا له مرة ثانية: اثبت في وجه هتلر فارتهكت مفاصله؛ وهم يقولون له اليوم مرة ثالثة: خذ الطريق على ستالين؛ وأغلب الظن أنه لاستمرار الخجل وإلحاح الفشل وتتابع الخذلان لن يستطيع أن يتحرك.
نعم سيفكر المنتصرون فيما جنوا من (عصبة الأمم) ويقررون - إذا وفقهم الله - أن ينشئوا السلم العالمية الدائمة على قواعد من التركيب لا من التحليل، فيؤلفون من الأمم الصغيرة المتقاربة في الوطن والجنس والمنفعة اتحادات مستقلة تتحد في الرياسة والحكومة والدستور، وتشترك في الدفاع والسياسة والعمل، ثم يربطوا بين الدول العظمى والاتحادات الكبرى بروابط وثيقة من الاقتصاد العادل الذي يضمن لكل أمة سداد عوزها من خير الله وغلة الأرض.
على أننا الآن بسبيل الحرب لا بسبيل السلم، فلنَدعْ حديث الصلح إلى يومه، ولندْعُ الله مخلصين أن ينصر جنود الديمقراطية على أعوان الطغيان والبغي. فإن أوربا تكابد محنة لا سابقة لها في التاريخ. وهي بالحق أو بالباطل رأس العالم اليوم، وقد قضى عليها جنون رجل واحد أن تصبح كلها مخزناً هائلاً للبارود والغاز؛ فأينما تسر في قطر من أقطارها أو على بحر من بحارها تر الموت مشتعلاً يتلظى، أو كامناً يترقب؛ فإذا قضى عليها جنون الرجل الآخر أن تنفجر فتنهار على شمشون وأعدائه، زُلزلت بانهيارها القارات الأربع، وأصبحت النكبة نكبة العالم أجمع
إن مصرع بولندا وفنلندا على هذه الصورة الأليمة الأثيمة إنذار من الله للدول الصغيرة في الغرب والشرق أن فوز النازية والشيوعية معناه فوز الوحشية التي لا تعترف بحق الحياة لفرد، ولا بحق الاستقلال لأمة.
إن الشرف هو معنى الإنسانية وخصيصتها في الإنسان. وهو الضمان السلمي لأداء الحق واطراد المعاملة؛ فإذا انتفى الشرف عن الكلمة بين الرجل والرجل، وعن المعاهدة بين الدولة والدولة، لم يبق لضمان الحياة والحق إلا القوة؛ والقوة لا تتيسر لكل حي في كل وقت وفي كل حالة

احمد حسن الزيات

كتاب الإمتاع والمؤانسة

مصالحة الأستاذ أحمد أمين

للدكتور زكي مبارك

لم يبق شك في أن الأستاذ أحمد أمين غضبان بسبب المقالات التي تجاوزت العشرين، والتي حرضت عليه بعض من خاصموه في مجلة المكشوف وأغرت بعض (أنصاره) في

العراق، وأخرجته عن وقاره فشتمنا في مجلة الثقافة بأبيات جاهلية، سامحه الله وعفا عني!

وأقول اليوم إني استوحشت مما صنعت - والاعتراف يهدم الاقتراف - فمن واجبي نحو نفسي أن أقدم إلى الأستاذ أحمد أمين عملاً صالحاً يعطفه عليّ، ويرده إلى سابق عهده فيبدأني بالتحية حين يراني، ويذكرني بالجميل كما كان يصنع قبل أن أجترح في نقده ما اجترحت، وليس من الكثير أن أرجو عفوه، فقد عفا (أخٌ) له من قبلُ!

والأستاذ أحمد أمين يعرف أني رجل ممتحَن بعداوات الرجال، وقد عانيت من ذلك مصاعب لو صادفت رجلاً غيري لدحرته في أقصر وقت، فمن حقي عليه وهو صديقي وجاري، وزميلي كان في الجامعة المصرية، أن يتجاوز عن سيئاتي، إنه - ولله المثل الأعلى - غفورٌ رحيم!

ولكن كيف أتقرب إلى الأستاذ أحمد أمين وهو فيما يظهر أقسى من الجلمود؟

أتقرب إليه بالعلم الذي يقول إنه حارسه وراعيه، فأقدم إليه ملاحظات على تصحيح كتاب الإمتاع والمؤانسة الذي نشرته لجنة التأليف بتصحيح الأحمدين أمين والزين، كما صنعت يوم صحح هذان الفاضلان ديوان حافظ إبراهيم، فقد استدركت على الجزء الأول عشرين غلطة جوهرية اعترف بها الأستاذ أحمد أمين، ثم صرفتني الشواغل عن النظر في الجزء الثاني، ولعلي أرجع إليه بعد حين

ويجب قبل الشروع في سرد ملاحظاتي أن أقدم أصدق التحية إلي المصححين الفاضلين، فقد بذلا في إخراج الجزء الأول جهداً لا يعرف قيمته غير من عانى المصاعب في تحقيق بعض النصوص المخطوطة من الأدب القديم، جزاهما الله خير الجزاء.

ويجب أيضاً أن أنبه القراء إلى واجبهم في اقتناء هذا الكتاب، فهو تحفة أدبية قليلة الأمثال، ورواج مثل هذا الكتاب قد يشجع لجنة التأليف والترجمة والنشر على متابعة السير في هذا

الطريق؛ فتنشر من ذخائر الأدب القديم ما يعجز عننشره الأفراد

وقد يلاحظ بعض القراء أن الكتاب غالي الثمن، ولكنهم سيعرفون أن ثمنه معتدل حين يذكرون أن أمثال هذه الكتب تستوجب في تصحيحها ونشرها كثيراً من التكاليف

وأعود إلى الموضوع فأقول:

كان في النية أن أتعقب الجزء الأول كله، وهو يحتاج إلى عدة مقالات، ولكن كثرة الشواغل حالت دون ذلك، فوقفت عند (الليلة الثامنة) وهي من عيون الكتاب

1 - جاء في ص 132 طريقة (الربانيين) ويقول المصححان الفاضلان: إن الأصل (الديّانين) ولكنهما لم يجداها في كتب اللغة بهذا المعنى

وتقول إن الديّانين جمع ديّان وهو الناسك، وهي كلمة قديمة في اللغة العربية، ولها شواهد في كتب التصوف، وهي كذلك من الألفاظ المألوفة عند التوحيدي، وقد استعملها في مواطن كثيرة سأدل عليها إن وجدت ما يوجب ذلك

والديان بمعنى الناسك كلمة عرفها الأدب الحديث: فقد رأيتها في مقال نشره الدكتور طه بك حسين في جريدة السياسة في صيف سنة 1926 وهو يقص حكاية ديكارت في السخرية من المرحومين علام سلامة ومحمد عبد المطلب

2 - جاء في ص 123 (وإنما بودكم أن تشغلوا جاهلا) ويقول المصححان الفاضلان إن (بودكم) هي في الأصل (قولكم)

ونقول إن عبارة الأصل هي الصواب، ويؤيد هذا أن المؤلف قال قبل ذلك (لأنكم لا تقولون بالكتب) ولم يفطن المصححان لغرض المؤلف فأثبتا في مكان (لا تقولون) عبارة (لا تفون) وبهذا ظلما المؤلف في صفحة واحدة مرتين

3 - وجاء في ص 119 (إذا حضرتَ الحلقة استفدت) ويقول المصححان الفاضلان إن (الحلقة) هي في الأصل (المختلفة) ولم يفهما معناها فغيراها إلى (الحلقة)

ونقول إن (المختلفة) كلمة يريدها التوحيدي، فمن الظلم تحويلها من وضع إلى وضع، والمختلفة هم طلبة العلم الذين يحضرون الدرس، وقد وردت بهذا المعنى في ص 129 إذ يقول المؤلف (وأحضرُ بركةً على المختلفة)

4 - وفي ص 112 (فإن علم العالم مبثوثٌ في العالمَ بين جميع من في العالمَ)

ونقول إن السياق يوجب أن نقرأ (فإن علم العالمِ) بكسر لام العالم لا فتحها
5 - وفي ص 109 يقول المصححان الفاضلان إن (المِصاع) من صاع الشجاعُ أقرانه إذا حملَ عليهم، وهذا خطأ في التصريف والصواب أن (المِصاع) مصدر ما صَعَ بمعنى جالَد، فهو من فصل الميم لا فصل الصاد، والسرعة هي التي أوقعت المصححين الفاضلين في هذا الغلط
6 - وفي ص 108 (بما حويناه من المنطق) ويقول المصححان الفاضلان إن (حويناه) هي في الأصل (جربناه)
7 - وفي ص 115 (وإذا لم يكن لك بد من قليل هذه اللغة من أجل الترجمة) ويقول المصححان الفاضلان إن (الترجمة) هي في الأصل (التجربة)
ومن هنا نفهم أن المصححين الفاضلين ظلما المؤلف في موطنين: فالتجربة كلمة مقصودة يريدها التوحيدي بالذات. فيجب في الطبعة الثانية أن تبقى كلمة (جربناه) في ص 108 وكلمة (التجربة) في ص 115 فتصير العبارة الثانية هكذا:
(وإذا لم يكن لك بد من قليل هذه اللغة من أجل التجربة فلا بدّ لك أيضاً من كثيرها من أجل الترجمة)
8 - وفي ص 111 (فما تقول في معان متحولة بالنقل من لغة يونان إلى لغة أخرى سريانية)
ويقول المصححان الفاضلان إن (متحولة) هي في الأصل (مملوكة)
ونقول إن الأصل صحيح وتغييره ليس إلا تحكّماً في توجيه غرض المؤلف
9 - وفي ص 110 (ليس كل ما في الدنيا يوزن، بل فيها ما يوزن وفيها ما يكال وفيها يُذرعَ وفيها يُمسح وفيها ما يُحزر)
ومن كلام المصححين الفاضلين نفهم أن أصل عبارة التوحيدي (وفيها ما يمسح ويحزر) وأنهما زادا عبارة (فيها ما)
وبذلك نعرف أن دقة المؤلف في التعبير خفيت على المصححين الفاضلين، وتعبير التوحيدي جيد جداً؛ لأن ما يُحزر داخل فيما يمسح فلا موجب لتخصيصه في التفريع
10 - وفي ص 111 (الأغراض المعقولة والمعاني المدركة لا يوصل إليها إلا باللغة)
ويقول المصححان الفاضلان: (ورد في الأصل بعد قوله (إلا) جيم وألف وذال وهي زيادة من الناسخ والصواب حذفها)
ونقول إن المصححين الفاضلين لم يفطنا إلى أن كلمة (جاذ) محرفة، وصوابها (مجاز)
ويريد المؤلف أن يقول إن اللغة مجاز أي مَعبَر نصل به إلى المعاني والأغراض
11 - وفي ص 109 (الأسماع المصيخة والعيون المحدِقة والعقول الحادة والألباب الناقدة)
ومن كلام المصححين الفاضلين تعرف أن (المصيخة) كانت محرفة في الأصل، وأقول يجب أن تصير (مُصغية) ليمَ التزاوج بينها وبين (مُحْدِقة) ومن كلامهما نفهم أن العقول الحادة هي في معجم الأدباء العقول الجامدة، وأقول إن الحادة لا تتزاوج مع الناقد
فيحسن أن نقول: (العقول الصامدة، والألباب الناقدة) والصمود له معنى يتسق مع مراد المؤلف ومع أسلوبه في إيثار الازدواج
12 - في ص 106 (ومتى انفق إنسان بهذه الحِلية) ويقول المصححان الفاضلان: لعله الجِبلة، ونقول إن (الحلية) معناها الصفة، ولها شواهد في القرن آثار الثالث والرابع
13 - وفي ص 115 (إنك في هذا الاسم والفعل والحرف فقير إلى وصفها وبنائها على الترتيب الواقع في غرائز أهلها)
ونقول إن (وصفها) محرفة، والصواب (رصفها) وهي كلمة معروفة في اصطلاحات الإنشاء.
14 - وفي ص 116 (فلم يبق إلا أحكام اللغة) والسياق يوجب أن نقرأ (إحكام اللغة)
15 - وفي الصفحة نفسها (قبل واضع المنطق) والصواب (قبل وضع المنطق) وقد وردت كذلك في موطن آخر من الحوار بين متَّى والسيرافي (أنظر ص 126)
16 - وفي ص 117 (فهذا جهلٌ من كل من يدعيه، وخطلٌ من القول الذي أفاض فيه) والقول صوابها القائل، كما يشهد السياق
17 - وفي ص 119 (فأما وهو يريغ أن يبرر ما صحّ له بالاعتبار والتصفح)
ومن كلام المصححين الفاضلين نعرف أن (يبرر) أصلها (يزن) ونقول إنهما أخطأ في

التصحيح: لأن (يزن) هي الكلمة التي يريدها المؤلف، وهو قد نص عليها في بعض المواضع وكلمة (يبرر) بهذا المعنى لا تعرفها اللغة
18 - في ص 127 (فاعتقد فيه أنه (صحيح وهو) مريض العقل)
ويقول المصححان الفاضلان إنهما زادا عبارة (صحيح وهو) وتلك زيادة يضيع بها غرض المؤلف لأنه يريد أن يقول: إن الكندي اعتُقِد فيه أنه مريض العقل حين جاز عليه التلبيس
19 - وفي ص 134 (بَلل الريق، وغزارة النفث)، والصواب حرارة النفث
20 - وفي ص 116 ضبط المصححان (مسكويه) بفتح الميم، وكذلك صنعا في ص 32 والصواب مِسكويه بكسر الميم، وقد نص عليها صاحب القاموس، وقال إنها على وزن سيبويه.
21 - وفي ص 137 (ليس للعقل من شعره منال، ولا له في قرضه مثال)
ومن كلام المصححين الفاضلين نعرف أن (قرضه) هي في الأصل (عرصته) وأنا أفضِّل أن تبقى هذه اللفظة كما وردت في الأصل، ثم نقول (مثال) في مكان (منال) ونقول (مجال) في مكان (مثال) فتصير العبارة هكذا:
(ليس للعقل من شعره مثال، ولا له في عرصته مجال)
وهي أدل على المراد مما اختاره المصححان الفاضلان، أجزل الله لهما الثواب
22 - وفي ص 138 (وكان عجبي منك دون عجبك مني، لو تقارعنا على هذا لفلجت عليك)
وكلمة (دون) صوابها (فوق) وتنقل الواو فتصير العبارة: (كان عجبي منك فوق عجبك مني، ولو تقارعنا على هذا لفلجت عليك)
23 - وفي ص 139 (ولكنه يقرص فيحزّ، ويَشَمُ فيهز) وكلمة (بَشَمُ) من الغلط القبيح، والصواب (يَسِم) (من الوسم وهو الكيّ، بدليل قوله بعد ذلك (ويجرح فيُجهز)
24 - وفي ص 141 (وأما النصيبي فدقيق الكلام) و (دقيق) خطأ، والصواب (رقيق) ورقة الكلام هي ضعف الدين بدليل قول المؤلف في النصيبي:
(يشكّ في النبوّات كلها) انظر ص 133 والعقيدة الصحيحة يسميها التوحيدي (الدين الثخين)
25 - وفي الصفحة نفسها (إلا أنه يأتي لابن عباد في سمته ولزوم ناموسه حتى خف عليه) والسياق يوجب أن نقول (تأتى) في مكان (يأتي) والتأتي هو التلطف.
26 - وفي ص 142 (إن كثيراً من الذين لا يكتبون ولا يقرءون ولا يحتجون ولا يناظرون ولا يُكرَمون ولا يفضَّلون خيرٌ من هذه الطائفة)
ومن كلام المصححين الفاضلين نعرف أن (لا يُكرَمون ولا يفضَّلون) أصلها (يلزمون ولا يتفضلون)
وأقول إن الصواب (ويلزَمون ولا يَفصِلون) والمعنى أنهم يُلزمون الحجة ولا يستطيعون الفصل، وهو الحكم والتمييز بين دقائق الأغراض
27 - وفي ص 143 (وتَحِيلَ الحالَ به عند خوضك وفيضك)
كذلك ضبط المصححان عبارة (تَحيلَ الحال) والمعنى غير واضح، وأنا أحب أن تكون (وتُجيل المَحال)
والمحال بفتح الميم هو الحيلة، وهو يتسق مع المراد.
أما بعد فهذه سبع وعشرون ملاحظة قيدناها عند قراءة (الليلة الثامنة) من كتاب الإمتاع والمؤانسة، وفي هذا الفصل نفسه أشياء سكتنا عنها لأنها قليلة الأهمية
وهذه الملاحظات خليقة بأن تصلح ما بيني وبين الأستاذ أحمد أمين، فإن لم تكف للإصلاح فسأراجع الكتاب كله
ولكن أين الوقت؟
الوقت عند صديقنا الدكتور بشر فارس، وهو قد عزم على مراجعة كتاب التوحيدي، وأنا أنتظر أن يكون بحثه أوفى وأشمل، لأنه يملك من الفراغ ما لا أملك.
بقيت كلمة عن الأستاذ أحمد الزين وهو المسئول الأول عن تصحيح هذا الكتاب:
ألا يرى هذا الصديق أن بعض التصحيحات غلب عليها الارتجال؟
وإلا فكيف جاز أن يكون المصاع من صاع؟ وكيف جاز أن يكون الديان بمعنى الناسك أمراً غير معروف؟

وأمثال هذا الأغلاط تشهد بأن الأستاذ أحمد أمين لم يشترك في التصحيح بطريقة جدية، لأن من كان في مثل علمه وفضله لا يخطئ في هذه البديهيات.

وفي ختام هذا البحث أعتذر للقراء عن محادثتهم في شؤون لا يدركها غير من يملك نسخة من كتاب الإبداع والمؤانسة، فلولا الثقة بأنهم لن يضنوا على أنفسهم بنسخة من هذا الكتاب
لطويت عنهم هذه الملاحظات

وذلك إعلان ننشره في (الرسالة) بالمجان مراعاةً للتضامن الأدبي بين المؤلفين والناشرين، فهل يكون القراء عند الظن الجميل فيُقبلوا على اقتناء هذا الكتاب؟ إن ثمنه لا يزيد على ثمن أربع عُلب من السجاير المصرية، فأين من يفكر في متعة العقل كما يفكر في مُتعة الحس؟ سارعوا إلى اقتناء الكتب الجيدة لتعرفوا أن العرب لهم أذواق وعقول

زكي مبارك

البغاء في أوربا

للمستر إبراهام فلكسندر

بقلم الأستاذ عبد اللطيف حمدي

سندرس موضوع البغاء في الصحائف التالية على أساس التجارب العلمية في الأمم الأوربية. وسينصرف الجهد إلى تحقيق أنواع الدعارة ومدى انتشارها والأسباب التي تزيدها اتساعاً أو تضيق من مجالها، وإلى تحقيق الجهود التي تبذلها الهيئات المختلفة حيال هذه الرذيلة والوسائل التي اتخذت إما لمحاربتها وإما للإشراف على تنظيمها والنتائج التي أسفرت عنها هذه الجهود.

وسيضاف إلى هذه التحقيقات نتائج بحث شخصي وتحريات وملاحظات في المدن الكبرى من إنكلترا وايقوسيا وفرنسا وإيطاليا وسويسرا والسويد وألمانيا والنمسا والمجر وسائر الأقاليم التي يطلق عليها اسم أوربا الغربية والتي يشتد التشابه بين بعضها وبعض في حياتها الاجتماعية ومُثُلها الوطنية العليا ومعاهدها السياسية ولكن القوانين في تلك الأمم نفسها ليست متجانسة المواقف حيال مسألة البغاء؛ ومن أجل ذلك اختلفت الآثار المترتبة على هذه القوانين بين بعضها وبعض اختلافاً بيناً، ففي البعض أدت إلى كبح قوي، وفي البعض الآخر أدت إلى زيادة انتشار الرذيلة نفسها. على أنه بالرغم من اختلاف هذه المظاهر فقرار هذه الرذيلة متشابه من حيث المنشأ بحيث تصلح الوسيلة المختارة للعلاج في رأي هذا الكتاب لجميع هاته الأمم، ولن نتجاهل في أثناء البحث وجوه الاختلاف وإن تكن وجوه الخلاف نفسها دالة على وجوب اتخاذ وسائل متوافقة لمناهضتها، فإن البحوث الحديثة أسفرت عن تطابق بين هذه الأسباب إلى درجة أكثر مما كان مفترضاً. فأمر البغاء ينطبق عليه المثل القائل (لا جديد تحت الشمس) أكثر من انطباق هذا المثل على أي أمر آخر. كما دلت الكتب التي خلفتها القرون الوسطى في شأن البغاء على تطابق عجيب في حالة هذه الرذيلة بين تلك العصور وبين العصور الحاضرة

وإن وجوه الخلاف التي سبقت الإشارة إليها في الأمم التي ذكرناها بشأن وجوه النظر فيها وإما في حالة انتشار المرض وأما في السياسة التي تتبع حيالها - إن وجوه الخلاف هذه

آخذة في سبيل الاضمحلال والتلاشي، فقد قرَّب ما بين مختلف الأمم انتشار الأفكار الديمقراطية وتوطد الحكم الديمقراطي. ولئن اصطحب ذلك تعديل في القواعد الخلقية، وبخاصة بعد أن شاع مبدأ التساوي بين الجنسين، فإن التأمل الحصيف يوجب سلوك مسلك متشابه بين هاته الأمم قائم على اعتبارات إنسانية أساسية، وإن الذي يدرس هذا الموضوع الخاص الذي نشتغل بدراسته الآن ليدهشه اتفاق المظاهر أكثر مما يسترعي نظره اختلاف البيئات المحلية أو الاعتبارات الأهلية في موضوع التحقيق الذي بدئ به في جلاسجو وختم في بودابست.

ومن أهم ما يلاحظه الناظر في هذا الموضوع عن بعد أن الدعارة في أوربا الغربية قد تطورت في مدى القرون القليلة الماضية على نظام واحد بين أممها المختلفة. وليس ذلك بدعاً، فإن مدى انتشار هذه الرذيلة مرتبط بمقدار اتساع المدن لأنه بعض ظواهر المدنية، وقد كانت المدن في أوربا الغربية في العصور الوسطى كلها مدناً صغيرة. أما

المدن الكبرى في تلك العصور فقد كانت كلها إسلامية، فقد كان عدد السكان في كل من القسطنطينية وبغداد والقاهرة يربى على المليون. وكانت كل من اشبيلية وقرطبة تربو في عدد سكانها على نصف المليون في حين كانت باريس لا يكاد يصل عدد سكانها إلى 200. 000 وفينا 50. 000 ولوندرا 35. 000 وكولوتيا 30. 000 وهامبورج 18. 000 ودرسدن 5. 000. أما المدن التي لا تتصل بمواصلات مائية فلم يكن عدد السكان في إحداها ليزيد على25. 000. وكثير جداً من المدن التي تعتبر الآن ذات أهمية لم يكن عدد سكانها في القرون الوسطى يزيد على 5000. وما من شك في أن اتساع المدينة يؤثر في صبغة مدينتها ويكيف طبيعتها، فإذا نظرت إلى تاريخ الدعارة في أوربا في القرون الوسطى وجدت أن معظم مدنها إذ ذاك لم يكن إلا قرى يعرف بعض أهلها بعضهم الآخر، وكان كيان الأسرة لا يزال سليماً. ولقد يقال إنه كان في المدائن غرباء كالصليبيين والحجاج والجيوش ولكن جموعهم لم تكن كثيفة وعلى أية حال فقد كان الغرباء معروفين كذلك كالأهلين. وكانت الدعارة في العصور الوسطى ذات نوعين أساسيين: نوع مستوطن ونوع متجول. أما الأول فيشمل العاهرات المقيمات أو المترددات على مساكن معدة للدعارة، وقد لا تكون الإقامة على صورة نظامية وهذه البيوت تدعى بالمواخير. وأما النوع الثاني فكان من المتشردات اللواتي يلحقن على صورة غير رسمية بمعسكرات الجيوش التي كانت في تلك العصور كثيرة التجوال في القارة. أو اللواتي يلحقن كذلك على صورة غير رسمية بالطبع برجال الطوائف الدينية المجتمعين في تجوالهم الموسمي وفاء منهن لنذور نذرنها. ولكن على أية حال فإن العاهرة كانت امرأة موسومة في العصور الوسطى التي امتازت بقلة عدد السكان في مدنها وما كان لينتفي هذا الموسم سواء بين المستوطنات أو المتجولات. وحتى لو أن إحداهن كانت تزاول رذيلتها سراً فسرعان ما تتلوث سمعتها وتوصف بالخطر، وبخاصة إذا كانت محترفة لأنها في هذه الحالة تكون مميزة بشكل ثيابها ومظهرها ومسكنها وطبيعة حياتها الخارجية، وكان الفارق في العصور الوسطى شديد الوضوح بين المرأة الشريفة والمرأة الداعرة.

أما في العصور الحاضرة فالتناقض بَيِّنٌ من هذه النواحي فالمدن كبيرة وقد أضيفت إليها لأغراض عملية ضواح تقوم منها مقام الحواشي المزركشة، فالفرق المتعلقة بالكمية بين المدينة في العصور الوسطى وبين المدينة في العصور الحديثة قد رتبت فروقاً متعلقة بالكيفية في أمر البغاء.

في أواخر عهد بابل أصبح نظام الأسرة يسمح بأن يتصل بها ألوف من الناس تتفاوت درجات الصداقة بينهم كما يختلف الشعور بالمسئوليات نحوها وفيهم الفتيات والفتيان ومعظمهم في ظروف تقضي على الأخلاق بالانحلال

ولقد أصبحت المدن الكبرى في العصور الحديثة في حالة أشد تعقداً بسبب المهاجرة إلى باريس وبرلين ولوندرا إما للاتجار وإما للهو وإما للشغب.

أما في الأوساط الضيقة المحيط فإن كيان الجماعة فيه لا يزال على سذاجته، فإفراد هذا المجتمع معروف بعضهم لبعض ومطالبهم المشتركة ومثلهم الأخلاقية العليا تخضع لتقاليد واحدة أو متقاربة من شأنها أن تسيطر على الأعضاء الضعفاء من هذا المجتمع. وفضلاً عن ذلك فإنه مهما يكن وصف هؤلاء الأفراد فإن بعضهم معروف لبعض.

وأما في المدن الحديثة، وكل منها بابل عصرية وهي التي أتحدث عنها الآن، فإن الفرد فيها لا يعرف جيرانه الأدنين. وهنا تشتد وسائل الإغراض بقدر ما تضعف وسائل الكبح والمنع فالأحوال ليست تقف عند الحد الذي يقل فيه الشعور بالمسئولية بل قد تصل إلى حد

ارتفاع هذا الشعور.

ومن هذا يتبين أن مجرد زيادة العدد في مدينة من شأنه أن يقلل إمكان التقسيم بين رجالها ونسائها إلى طبقات من حيث العفة أو الرذيلة. ومن شأنه أيضاً تجهيل ماضيهم الخلقي وهذا فارق أساسي عظيم في موضوع الدعارة بين العصور الوسطى وبين العصر الحاضر، فقد كانت في العصور الوسطى محدودة واضحة وهي الآن لا بالواضحة ولا بالمحدودة

وثمت حقائق لها من الوجهة العلمية أهمية لا يستطاع جحودها فالمدينة التي فيها

ثلاثون امرأة عاهرة وعدد سكانها 3. 000 تبدو كأن النسبة متجانسة فيها مع المدينة التي فيها من العاهرات خمسة آلاف وعدد سكانها نصف مليون. وذلك لأن النسبة المئوية في الحالتين هي واحدة في المائة. ولكن ضخامة العدد على الرغم من الاحتفاظ بالنسبة المئوية تؤدي إلى خلاف جسيم بين أمر الدعارة في المدينتين، فإن الإجراء الذي يتخذ لمناهضة الدعارة ضد ثلاثين عاهرة فينجح لا بد من حبوطه إذا هو اتخذ ضد خمسة آلاف عاهرة في مدينة كبيرة. وكذلك تتغير المسألة من النواحي الاقتصادية والإدارية والصحية إذا زاد العدد على حد معين

(يتبع)

ترجمة عبد اللطيف حمدي

الفروق السيكلوجية بين الأفراد

للأستاذ عبد العزيز عبد المجيد

كان كاتل السيكولوجي الأمريكي الشهير معاصراً لجولتن ومن تلاميذه وأتباع مذهبه وقد بحث باستيعاب موضوع الفروق السيكولوجية. درس كاتل في معمل جولتن بلندن، كما درس علم النفس التجريبي على يد فنت الألماني في معمل علم النفس الذي أسسه في ليبزج وتأثر به.

وتعتبر تجارب جولتن وكاتل أول مجهود علمي بذل في موضوع الفروق الفردية.

ويحدثنا البرفسور ثورنديك تلميذ كاتل عن أستاذه فيقول (هذب أستاذي كاتل من طرق جولتن التي استعملها في قياس الفروق السيكلوجية بين الأفراد، وحاز اعتراف العلماء بما ابتكره من مقاييس القوى العقلية المختلفة. وبذلك جعل دراسة الفروق السيكلوجية فرعاً مستقلاً من فروع علم النفس. وكانت أبحاثه في الفروق العقلية ومقاييسها أول حلقة من سلسلة حلقات البحوث التي توالت بعد ذلك في السنوات العشر الأخيرة من القرن التاسع عشر. وبذلك وضع كاتل مقدمة موضوع السيكلوجية الفردية ويعزى إلى كاتل أنه أول من وضع اصطلاح (المقاييس العقلية) وذلك في سنة 1890 حينما طبع ملخصاً لتجارب مقاييس الذكاء التي أجراها في معمله بجامعة بنسلفانيا

وكانت تجارب كاتل التي أجراها لمعرفة الفروق السيكلوجية منصرفة لقياس الذاكرة، والمخيلة، وحدة البصر والسمع، ومقارنة الألوان والمفاضلة بينها، والدقة في إدراك الأصوات والأوزان، والإدراك الزمني، ودقة إحساس الألم، وسرعة الإدراك الذهني، وسرعة الحركة ودقتها وتكييفها، وزمن الرجع أو رد الفعل

وأهم ما يوجه من انتقاد إلى هذه التجارب التي أجراها كاتل أنها أولاً: إنما تقيس فقط العمليات العقلية البسيطة كالذاكرة مثلاً، أو المخيلة، أو قوة الإدراك. وثانياً: إن الطرق الإحصائية التي استخدمت مع هذه التجارب لم تكن مضبوطة ومطردة بحيث تعطى نتائجها حكماً صحيحاً على ذكاء الأفراد. وإذا فلا يمكن الاعتماد عليها في معرفة الفروق العقلية

أثار كاتل باستخدامه زمن الرجع ضمن مقاييس الذكاء اهتمام معاصريه ومن تبعه من العلماء حتى أصبح زمن الرجع مقياساً لقدرة الفرد على التمييز والاختيار وسرعته فيهما.

وتستعمل لذلك آلة كهربائية خاصة يتصل بها مسجل الزمن ويجلس المختَبر أمام هذه الآلة، ويطلب إليه المختبِر أن يضغط على زر خاص في الآلة إذا رأى علامة خاصة كعلامة أو علامة مثلاً. ويثبت (مسجل الزمن) الفرق بين ظهور هذه العلامة وبين ضغط الزر، أي الزمن الذي استغرقه الفرد من حين رؤية العلامة إلى أن يحدث رد فعل منه (أو رجع) لهذه الرؤية بضغط الزر. ومثل هذه التجربة تجري في قياس زمن الرجع السمعي أو اللمسي، أي الذي تكون فيه العلامة شيئاً يسمع أو يلمس. وقد تكون التجربة أكثر تعقيداً فيطلب من المختبَر مثلاً أن يضغط الزر (1) إذا كانت العلامة المعروضة والزر (ب) إذا كانت العلامة وبذلك يكون على المختبَر أن يميز أولاً العلامة وأن يختار ثانياً الزر المناسب لها.

وبالرغم من شيوع تجارب زمن الرجع وتنوعها وتسجيل نتائجها لم يوجد بينها وبين الذكاء من التلازم الأطرادي إلا القليل بمعنى أنه لا يلزم أن يكون الذكاء أكثر كلما كان زمن الرجع أقصر. والواقع أننا لا نجد الآن بين مقاييس الذكاء الحالية مقاييس زمن

الرجع التي استخدمها كاتل.
ويعود كاتل فيعترف بأن مقاييس زمن الرجع، ومقاييس الإدراك الحسي وغيره من الخواص الفردية ما قصد بها في الأصل قياس فروق الذكاء بين الأفراد، وإنما استخدمها لأنها ضمن موضوع علم (طبائع البشر) الذي كان معنياً بدراسته.
وعلى أية حال فقد كان لبحوث كاتل في الفروق الفردية أثر واضح في اتجاه التفكير العلمي. ففي سنة 1895 عينت (الجمعية السيكلوجية الأمريكية) لجنة لتعمل على إيجاد الصلات والتعاون بين معامل علم النفس الأمريكية لكي تجمع المعلومات الممكنة عن الصفات العقلية والجسمية المختلفة للأفراد، وتدرسها درساً علمياً إحصائياً. وكان كاتل عضواً في هذه اللجنة. وكذلك عنيت معاهد التعليم بمعرفة الفرق السيكلوجية بين الطلبة وقياسها ففي سنة 1899 أجرت جامعة شيكاغو تجارب لقياس ذكاء طلبتها وميولهم الخلقية لم تكن دراسة الفروق السيكلوجية بين الأفراد - بطبيعة الحال - قاصرة على إنجلترا وأمريكا، فإنا نجد في فرنسا عدة محاولات لمعرفة أثر كل من البيئة والوراثة في الفرد، كتلك المحاولات التي قام بها جولتن في إنجلترا، فقد ظهر عدد من الكتب حول هذا
الموضوع منها كتاب (تاريخ العلم والعلماء خلال القرنين الماضيين) درس فيه المؤلف حياة كل عالم وأسرته وبيئته والعوامل التي أثرت في تكوينه. وكتاب (العلاقة بين الوراثة وانتخاب الأصلح من البشر)، وكتاب (أصل عظماء الرجال، ورجالُ الأدب الفرنسي المعاصرون)
عالج كاتل أيضاً ما عالج من بحوث - أثر البيئة والوراثة في إيجاد الفروق بين الأفراد. ففي سنة 1906 كتب في مجلة (العلوم) موضوعاً تحت عنوان (بحث إحصائي في حياة رجال العلم الأمريكيين) ذكر فيه أماكن ميلاد ألف من العلماء البارزين وأماكن إقامتهم وعوامل الوراثة في حياتهم وعوامل البيئة وإنتاجهم.
وقد أثارت النتائج التي وصل إليها عجب القراء. فقد وجد إن عدد العلماء في ولاية ماساشوستس 108. 8 في كل مليون من السكان، بينما هم 86. 9 في كل مليون في ولاية كونيكتيكوت، و 1. 4 في كل مليون في ولاية لويزيانا، و 1. 3 في ولاية ميسيسبي واستنتج من هذا الإحصاء (أن هذا التوزيع النسبي غير المنتظم لرجال العلم بين الولايات يدل دلالة قوية على أن الاستعداد العلمي ليس وراثياً كما قال جولتن وبيرسُنْ، وليس من المعقول أن ثمة فروقاً وراثية كبيرة بين الأسرات في الولايات المختلفة نتيجتها هذا الفرق النسبي الكبير بين عدد رجال العلم الذي قد يبلغ في ولاية مائة مرة عددهم في ولاية أخرى. صحيح قد يكون لجنس الزنوج أثر وراثي في ذلك، ولكن الإحصاء لا يثبت ذلك ويظهر أن العوامل الأساسية في المواهب العلمية والإنتاج الفكري هي الثروة، وازدحام السكان، الفرص الاجتماعية، والمؤسسات العلمية، والتقاليد، والمثل العليا للجماعات، وقد يمكن إرجاع كل هذه العوامل في النهاية إلى الوراثة الجنسية، ولكن هذا لا يمنعنا من القول بأننا إذا أخذنا أي جنس فإنه من الممكن بتسليط العوامل البيئية عليه أن تزيد في عدد ذوي المواهب العلمية، كما نشاء، وإن كان هذا ليس معناه أننا نستطيع تحسين هذه المواهب. إن الحقيقة المشاهدة هي أنه لا يوجد فرق كبير بين مقدرة العالم في هذه الولاية، ومقدرة العالم في الولاية الأخرى. ومعنى هذا أن الإنتاج العلمي هو أثر من آثار البيئة لا الوراثة). ثم يقول في مكان آخر (والرأي عندي أن أنواع المواهب والخلق إنما هي وراثية، أما الاتجاهات التي تأخذها هذه المواهب، فإنها خاضعة لتأثير البيئة)
وبالمقارنة بين مذهب كاتل ومذهب جولتن وبيرسن نجد أن الأول يرى أن الظروف والبيئة لهما أهمية كبرى في الإنتاج العلمي وأن عامل الوراثة فقط لا يكفي لتعليل النبوغ العلمي. نعم يعترف كاتل بالوراثة وأنها البذرة الأولى التي تحمل معها خواص الفرد، ولكنه يؤكد أن الفروق الفردية التي تظهر في الإنتاج والابتكار والخلق إنما هي من صنع البيئة
وفي سنة 1915 نشر كاتل بحثاً جديداً عنوانه: (أسرات العلماء الأمريكيين)، وأستخلص في بحثه هذا أن 43 ? من آباء هؤلاء العلماء كانوا من الموظفين وذوي الحرف غير اليدوية وأن 35. 7 ? من التجار والصناع، وأن 21. 2 من الزراع. ويعلق كاتل على هذا الإحصاء فيقول: لو أن ظروف الحياة الاجتماعية، والفرص التربوية

خاصة، كانت متشابهة بين هذه الطبقات الثلاث لكان توزيع النسبة المئوية لرجال العلم متعادلاً، ولما وجد ذلك الفرق بين رجال طبقة وأخرى. ولا يمكن أن تكون الوراثة هي التي أوجدت هذا التوزيع، لأن معظم سكان القارة الأمريكية منذ كانوا منذ قرنين من مستوى واحد تقريباً جسمياً وعقلياً. ويؤيد رأي كاتل هذا إحصاء آخر عمل سنة 1932 ظهر فيه أن أقل الولايات علماء أكثرها تأخراً في التعليم.

وقد اقتفى أثر كاتل غيره من علماء النفس، فاستخدموا مقاييسه وأخرى شبيهة بها في معرفة الفروق السيكلوجية للأفراد ومعظمها لقياس الإدراك وسرعة الحركة والقدرة على تكييفها ومن هؤلاء العلماء جاسترو الذي انتهز فرصة معرض شيكاغو العالمي الذي أقيم سنة 1893 فأستأجر (كشكا) وجلس فيه يجري بعض الاختبارات على من يقدم إليه نفسه من زوار المعرض. وكذلك أجرى جلبرت بعض الاختبارات على بعض تلاميذ المدارس وطلبة الجامعات. فقاس الطول والوزن والقوة الرئوية ودقة الإحساس وزمن الرجع والذاكرة والتأثر بالإيحاء؛ وقارن نتيجة هذا كله بآراء المدرسين. ونشر في ذلك بحثين الأول سنة 1894 بعنوان (بحوث في النمو العقلي والجسمي لأطفال المدارس) والثاني سنة 1897 بعنوان: (بحوث سيكلوجية في أطفال المدارس وطلبة الجامعات)

السودان (بخت الرضا)

عبد العزيز عبد المجيد

كتاب (الدين الإسلامي)

عودة إلى الموضوع فيهما إيضاح لعلمائنا وبيان

للأستاذ علي الطنطاوي

أما والله لولا اعتقادي بأن شباب المسلمين هم أحوج اليوم إلى هذا الكتاب منهم إلى الخبز الذي يأكلونه والهواء الذي ينشقونه، ما عدت بعد إذ تكلمت فيه، ولا ألححت عليه (هذا) الإلحاح، بعد أن وجدت من علمائنا (ذلك) الإعراض. وإني لأومن بما أقول، لا أبالغ ولا أغلو، وإن بالهواء والخبز لحياة الشاب في هذه الدنيا، ولكن بهذا الكتاب حياته في الأخرى وما الدنيا في الآخرة إلا هباء، ولا يؤثر الفانية على الباقية إلا جاهل أو غافل. ولو أن علماءنا داخلوا الشباب وخالطوهم وأخذوا منهم وأعطوهم، لوجدوا الكثرة منهم تجهل المعلوم من مبادئ الإسلام وتنكر المعروف من أحكامه، ولوجدوا فيهم من لا يعرف إذا أراد الصلاة كيف يصلي، وفيهم من لا يفرق بين كلام الله والثابت من حديث رسوله، وشروح الأئمة المعتبرين، وبين كلام المشعبذين والدجالين، ويضع ذلك كله في سطر واحد فيقرؤه جملة أو يطمسه جملة، ثم لا يعمل بشيء منه، ولا يراه لازماً له في حياته، ولا مرافقه في غدواته وروحاته، ولا يدخله في عداد الأمور الجدية التي يوليها عنايته ويجعل فيها همه. . . وإذا تكلم أحدهم في الدين. صلته بالحياة أو مِساسه بالسياسة، أعاد ما حفظ من أقوال الأوربيين والنافخين في مزاميرهم من الشرقيين.

ولقد غدا من المفهوم المشهور الذي لا يحتاج إلى إيضاح أن هؤلاء الشبان لا يمكن أن يقرءوا كتب الفقه والتفسير والحديث ولو طبعتها لهم على ورق أبيض. فأخرجتها عما ينبزونها به من أنها (كتب صُفْر. . .) ولا يمكن أن يدخلوا المساجد فيستمعوا فيها درس العلم، أو يحضروا مجالس الوعظ، لأنهم نُفّروا منها وأبعدوا عنها، ولا يمكن أن يتعلموا علوم الدين في مدارسهم (النظامية) الرسمية، لأن القائمين عليها، في مصر والعراق والشام لم يقتنعوا إلى اليوم بأن للدين علوماً محترمة تستحق أن تضيع في درسها سبع ساعات في الأسبوع، ولم يروا في علوم الدين ما هو أهل ليعنى به كعنايتهم بالرسم والغناء، ونسوا أو هم لم يعلموا أن من الأوربيين من يهتم بهذه العلوم ويرفع من قدرها، ويعلي مكانها، وأن رجلاً جرمانياً أسمه (بِرتزِل) قدم علينا الشام منذ سنوات، فعرفنا بنفسه، وأرانا بطاقته وإذا

هو قد كتب عليها (فلان: متخصص بقراءة القرآن) يفخر بذلك ويعتز به، وسأل عن الذي طبع كتاب (النشر في القراءات العشر) فلما لقيه أكبره وعظمه، وعلمنا بعد أنه ملم بعلم القراءة عارف برواياتها، وقارئ للقرآن، ناشر لكتب في هذا العلم عدة، ومن شبابنا من لا يعرف ما الإدغام وما الإخفاء، وما المخارج وما الأداء، ويرى اشتغاله بذلك ذلة لأنه لا يشتغل به (على ما أفهموه. . .) إلا رجعي غير متمدن، وشيخ جامد. . .

وأمثال (برتزل) أكثر من أن يحيط بهم حصر.
أصبحت الحملات على الإسلام منظمة مرتبة قوية، تأتيه من كل صوب، وتهاجمه من كل ناحية، من ناحية الأخلاق بنشر الفسوق والخمور، وتهوين أمر العرض، ونشر أدب الشهوة، وصورة العراة، ومن ناحية العبادات بصرف الناس عنها، والتزهيد فيها ومن ناحية العقائد بإدخال الشكوك عليها، ووضع الشبَه من حولها ومن ناحية العلم، بإبعاد الناشئة عن علوم الإسلام، بصرفهم عن كتبه، وتحقير علمائه في أنظارهم. فماذا فعل علماؤنا حيال ذلك كله؟
لا أشك في جلال العمل الذي قام به الشباب في مصر والشام ولا أبخسهم قيمتهم، ولا أهمل ذكر جهادهم؛ وإن للأخوان المسلمين في مصر، والشبان المسلمين في مصر وفي غيرها، ولشبان الأزهر، وشباب محمد، والتمدن الإسلامي في الشام: (دمشق وحلب وبيروت) وأمثالهم ممن اختصرت فلم أذكر، أو جهلت فلم أعلم، إن لهم بما عملوا لذكراً في الناس ومجداً، وثواباً عند الله وأجراً. . .
ولكن كلامي هنا عن (كبار العلماء) ماذا عملوا في رد هذه الحملات؟
أو أقل من أن يؤلفوا للشاب المسلم كتاباً يعرف به دينه إذا ألهمه الله الرجوع إلى الدين، وخلصه من كيد الشياطين؟
لقد فهمت من الرسائل الكثيرة التي جاءتني تبحث في فكرة تأليف الكتاب أن الذي يمنع العلماء من تأليف هذا الكتاب أن عندهم علوماً متميزة، وفنوناً متباينة، فهم لا يدرون أيجعلون الكتاب فقهاً أو حديثاً، أو أصول فقه، أو مصطلح حديث؟
وهذه إن تكن هي (العلة) فإن عندي (دواءها) الذي يشفيها بإذن الله:
يقسم الكتاب إلى ثلاثة أبواب كبار: باب العلم، وباب العمل، وباب الاعتقاد.
ففي (باب الاعتقاد) يبين للشاب كل ما يجب عليه الإيمان به بأسلوب (عصري) بيّن، بعيد عما أحدث من الخلاف، يعرض فيه عرضاً لأهم الشبه التي تتردد كثيراً فيجاب عنها جواباً حاسماً باتاً، ويكون (مقصد) هذا الباب تكليف الشاب بالإيمان بما لا يكفي أقلّ منه للنجاة في الآخرة. وهو الذي جاء في الكتاب والحديث المتواتر الذي يفيد العلم، أما ما لم يثبت بالتواتر كنزول المسيح، وظهور الدجال، ولا يفكر منكره، فلا يبحث فيه في هذا الكتاب.
وفي باب العلم يلخص له الأصول والمصطلح مع طرف من علوم القرآن، ويكون على فصول:
الفصل الأول: في الأدلة مجملة: الكتاب والسنة والإجماع والقياس، وبيان منزلة العقل من الشرع، وأن الحسن ما رآه الشرع حسناً، وأن العقل شارح لا شارع.
الفصل الثاني: في القرآن: نزوله وجمعه ومكيّه ومدنيّه، ومحكمه ومتشابهه، وناسخه ومنسوخه (مع بيان أن النسخ الذي هو إبطال الحكم السابق وإلغاؤه بالمرة قليل جداً) وحكمة النسخ، وإعجاز القرآن، من جهة عجز فصحاء العرب (الفعلي) عن محاكاته، ومن جهة ألفاظه وأسلوبه، وعلاقته بالشعر والنثر العربيين، ومن جهة إخباره بالمغيبات، وإشارته لبعض نواميس الكون التي لم يكن يعرفها على عهد محمد بشر على ظهر الأرض، ومن جهة إحاطته بكل شيء وأن فيه الإيمان والعلم والقانون والأخلاق مع أنه ليس كتاب تاريخ ولا علم، وما أراد التقصي وإنما ضرب الأخبار أمثلة، وأمر بالنظر في نواميس الكون لإدراك عظمة الخالق، - والتفسير والمفسرين وطبقاتهم، والتلاوة والأحرف السبعة والقراءات السبع وأنها ليست هي الأحرف السبعة وإنما هي على حرف واحد، وعربية القرآن وترجمته، وأن ترجمته غير ممكنة لمكان المتشابه منه، ولأن الترجمة لا تمكن في بليغ الشعر فضلاً عن القرآن لأنها تفقده أحد عنصريه، وهو (موسيقية) الألفاظ - ثم تشرح آيات من القرآن.
والفصل الثالث: في الحديث، المتن والسند، ورجال الحديث وأقسامه المتواترة والمشهور والصحيح وما دون الصحيح، والمرفوع والموقوف والمرسل، وعن تدوينه وكتبه وما يوثق به منها، وتصح الرواية عنه مع شرح نماذج منه.
والفصل الرابع: في الاجتهاد، معناه وشروطه، وكبار المجتهدين، وأسباب الاختلاف بينهم،
وكون الاختلاف في تأويل آية أو فهم حديث، لا في الأصول، وحكم التنقل بين المذاهب
والفصل الخامس في الإجماع وفي شرح القواعد الفقهية العامة: كالموادّ التي في

صدر مجلة الأحكام الشرعية التي يفهمها الناس على غير وجهها، فيحسبون أن قولهم: (لا ينكر تغيّر الأحكام بتغيّر الأزمان) معناه تبديل كل حكم، مع أن الحكم الثابت بالقرآن والسنة الصحيحة القطعية لا يمكن تبديله. وفي المجلة أيضاً أنه (لا مساغ للاجتهاد مع ورود النص).

والفصل السادس في ميزة الإسلام ونظره إلى السياسة والقوانين والإدارة والأخلاق.

و (مقصد) هذا الباب أن يعلم الشاب قارئ الكتاب كل ما ينبغي للمسلم أن يكون عالماً به باختصار ووضوح، وبعد عن المصطلحات العلمية على الأسلوب الذي يدعونه اليوم بتبسيط العلم أو تعميمه

الباب الثالث في الأعمال ويشتمل على فصول:

الفصل الأول: حقوق الله على العبد، ويكون تلخيصاً لباب العبادات من الفقه بشرط أن تذكر كيفية العبادة وفائدتها من غير تفصيل لسنتها وواجباتها وفرائضها ومكروهاتها ومبطلاتها، وأن تقرن بما ورد في الترغيب فيها والترهيب من تركها

الفصل الثاني: حقوق النفس، كنحو تحريم الانتحار والإقدام على التهلكة، وإضعاف الجسم، وفضيلة السمو بالنفس عن الأخلاق المنحطة، والأدواء الباطنة

الفصل الثالث: حقوق الأسرة، كنحو حق الوالدين والأولاد والزوجة والأخ وفقراء الأسرة.

الفصل الرابع: حقوق المسلمين، من نحو عيادة المريض منهم ومساعدة الضعيف، ونصيحتهم وحرمة غيبتهم والنميمة بينهم الخ

الفصل الخامس: حقوق غير المسلمين، من نحو إحسان معاملة الذمي وحفظ ماله ونفسه وضمان حريته التي هي له، والوفاء لذي العهد من المحاربين، واحترام المبادئ الإسلامية الإنسانية في الحرب.

الفصل السادس: حقوق الوطن، من نحو احترام المصلحة العامة، والاستعداد للجهاد في سبيل الله والذود عن الحمى، والتهيؤ للتضحية، وتعلّم الإيثار ونحو ذلك.

الفصل السابع: درجة الورع والصلاح، وبيان الصورة الكاملة للمسلم، وأنه يعمل للدنيا ولا يجعلها في قلبه، ويعمل للآخرة ويستعد لها دواماً، وتضرب الأمثلة من أخبار الصالحين من طبقة الفضيل والسفيانين وابن المبارك وابن حنبل ممن كان ورعاً وعالماً وعاملاً للدنيا في وقت واحد

فمن اطلع من علمائنا على هذا المقال، وكان قادراً على كتابة فصل من هذه الفصول، فلم يكتبه، ولم يمنعه منه مانع، فليعلم أنه يعين بسكوته أعداء الإسلام على ما هم فيه، وإن لنا معشر الشبان لموقفاً معه بين يدي أحكم الحاكمين، فنقول: يا ربنا سَلهُ لِمَ قدر على إرشادنا، فلم يرشدنا وهو يروي قول نبيك محمد (لأن يهدي بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم)؟

فليهيئ لهذا السؤال جوابه. . وهيهات!

(كركوك)

علي الطنطاوي

بين الأستاذين

أحمد أمين وزكي مبارك

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

قلت في مقالي السابق إن الدكتور زكي مبارك يجب أن يكون آخر من يدافع عن الأدب الجاهلي، وإنما قلت هذا لأنه هو وأستاذه الدكتور طه حسين لا يؤمنان بصحة ذلك الأدب، والدفاع عن الشيء لا يكون إلا بعد الاعتقاد بصحته، فقد ألف الأستاذ طه حسين كتابه (في الشعر الجاهلي) وكان أكبر جناية على أدب الجاهلية، إذ أنكر فيه صحة ذلك الأدب، وقلد في هذا الرأي أعداء الأدب العربي من المستشرقين، فلم يكن من الدكتور زكي مبارك إلا أن احتفل بظهور ذلك الكتاب، وعده فتحاً جديداً في الأدب العربي وقال في هذا من جريدة البلاغ الأسبوعي (3 ديسمبر 1926): (كان كتاب الشعر الجاهلي الذي ألفه أستاذنا الدكتور طه حسين فاتحة لعهد جديد في دراسة الآداب العربية، وحسبك أن ترجع إلى ما كتب في نقده من الرسائل المطولة، والأسفار الضخام، لترى كيف أثار ذلك الكتاب ما خمد من القرائح، وكيف أيقظ ما هجع

من العقول)
والفرق كبير بين رأي الأستاذ طه حسين في الأدب الجاهلي ورأيي ورأي الأستاذ أحمد أمين فيه، فالأستاذ طه حسين يرمي في رأيه إلى الهدم والطعن في ثقة السلف ونحن نرمي إلى الإصلاح ونريد تقويم اعوجاج الأدب العربي، وهذه غاية نبيلة يكاد علماء الأدب يتفقون الآن عليها، لإجماعهم على أن الأدب العربي في حاجة إلى الإصلاح، وعلى أن إصلاحه يجب أن يكون من الناحية التي أشرنا إليها، حتى يكون أدب ألفاظ مزوقة ومعان خيالية لا طائل تحتها.
ومن الغريب أن الدكتور زكي مبارك يؤمن أيضاً بذلك الإصلاح، ويدعو إليه في كتابه (النثر الفني) ولكنه ينسى ذلك في حب التغلب على الأستاذ أحمد أمين، ويأخذ عليه تهوينه من شأن التشبيه وما إليه من المعاني الثانوية، ومما جاء في ذلك الكتاب: ونحن نرى أن سر الفصاحة والبلاغة يرجع إلى ما في المعنى من قوة وروح، وقد تجد من الشعر ما تخلو معانيه وألفاظه من الروعة الظاهرة، ولكن قوة الروح تصل به إلى أسمى غايات الإبداع، ومثال ذلك قول حِطَّانَ بن المُعَلَّي يشكو فقره، وما وضع القدر في رجليه من قيود الأهل والذرية:

أنزلني الدَّهْرُ على حكمه ... من شامخٍ عال إلى خَفْضِ
وغالني الدهر بِوَفْر الغنى ... فليس لي مَال سوى عرضْيِ
أبكانَي الدهر ويَا رُبَّمَا ... أضحكني الدهر بما يُرْضِي
لولا بُنَيَّاتٌ كَزُغْبِ الْقَطَا ... رُدِدْنَ من بَعْضٍ إلى بَعْضِ
لكان لي مُصْطَرَبٌ واسعٌ ... في الأرض ذات الطول والعَرْضِ
وإنما أولادنا بيننا ... أكبادنا تمشي على الأرض
لو هَبَّتِ الريح على بعضهم ... لامتنعتْ عيني عن الْغَمْضِ

فقوة هذا الشعر ترجع إلى الشاعر لا إلى اللفظ، ولا إلى الأسلوب. ومن ذلك يتضح أن من يزعمون أن القرآن ليس من جنس كلام العرب لم يفهموا شيئاً من أسرار الإعجاز، ولذلك نراهم يدورون حول الظواهر والمحسنات اللفظية، ويرجعون في ذلك إلى الناحية اللفظية أو الفنية، ونحن نرى غير ذلك، فنرى أن محمداً عليه السلام اجتذب العرب لأنه نبي، ولم يجتذبهم لأنه فنان، فالفن الكلامي لم يكن جديداً عند العرب، وإنما كان الجديد عندهم أن يأتيهم رجل منهم بأساليب من الفكر والعقل والوجدان غير التي كانوا يألفون، ومن العبث أن نظن أن البلاغة لا تخرج عن المناورات اللفظية، فإن هذا إسراف في تقدير الزخرف، وامتهان لصولة العقول، إن الألفاظ في مقدور كل شاعر وكل كاتب وكل خطيب، ولكن المعجزة حقاً هو الفكرة. وليس معنى هذا أننا لا نقيم وزناً للصناعة الفنية، ولكن معناه أننا نقرر أن الفكرة تجيء أولاً، ويجيء الورق ثانياً، كما يقول الفرنسيون)
وإنما أطلت النقل من كتاب (النثر الفني) لأقيمه دليلاً قاطعاً على أن الأستاذ زكي مبارك لا يؤمن بتلك الناحية الفنية التي أخذ على الأستاذ أحمد أمين تهوينه من أمرها، ويكاد يتفق معه في أن الشأن في ذلك لقوة الروح والفكرة، ومن الإنصاف أن نذكر أن الأستاذ زكي مبارك لا يفرق في ذلك بين قوة الروح في الخير والشر، ويرى أن الشاعرية روح يتمرد به الشاعر فيهز نفس القارئ أو للسامع هزاً عنيفاً يحمله على أن يؤمن وهو طائع ذلول بما يدعو إليه الشاعر من تزيين الإثم والبغي، أو تقبيح الغي والفسوق ومن الأول قول ديك الجن:

لمَّا نظرتِ إليَّ عن حَدَق المَها ... وبَسمتِ عن مُتفتِّحِ النُّوارِ
وعقدتِ بين قضيب بانٍ أهيف ... وكثيب رمل عُقْدَةَ الزُّنَّار
عفَّرت خدي في الثرى لك طائعاً ... وعزمتُ فيك على دخول النار

ومن الثاني قول معن بن أوس:

لَعمْرك ما أهويت كفِّي لريبة ... ولا حملتني نحو فاحشة رِجْلي
ولا قادني سمعي ولا بصري لها ... ولا دلَّني رأيي عليها ولا عَقلي
وأعلم أني لم تُصبني مصيبةٌ ... من الدهر إلا قد أصابتْ فتى قبلي
ولستُ بماش ما حَييتُ لمنكرٍ ... من الأمر لا يمشي إلى مثله مثلي
ولا مُؤْثر نفسي على ذي قرابة ... وأوثِرُ ضيفي ما أقامَ على أهلي

ولكنا لا نحب للدكتور زكي مبارك أن يمضي في ذلك إلى حد التسوية بين روح الخير وروح الشر في الشعر، فيجعل قول ديك الجن مثل قول معن بن أوس بعد اتفاقهما في قوة الروح، لأنه يبقى بعد هذا شرف المعنى والغرض وهو مما لا بد من اعتباره أيضاً في المفاضلة بين شعر وشعر، أو كلام وكلام. ولا يمكن الدكتور زكي مبارك أن ينكر هذه الناحية في الموازنة الشعرية، فقد ذكرها في قوله تعالى: (وَلا يَجْرِ مَنَّكُم شَنَآنُ قَوْم على ألاَ تَعْدِلُوا)، فجعل الفضل فيه لهذا النصح النبيل والمعنى الشريف والدعوة إلى إيثار العدل في جميع الأحوال من غضب وسكون، وحب وشنآن، وإذا لم يكن للدكتور زكي مبارك بد من اعتبار ذلك أيضاً فإنه لا يكون بيننا وبينه فرق فيما ندعو إليه من ذلك الإصلاح، ولا يكون له حق في تلك الحملات القاسية التي تقف عقبة في سبيل غايتنا جميعا.

هذا وإذا كانت اقتصرت في أول هذا المقال على موقف للدكتور زكي مبارك من كتاب (في الشعر الجاهلي) فلأني أحببت الترفق به، ولم أشأ أن أذكره بمواقف له جارى فيها أستاذه في الجناية على الأدب الجاهلي، وذهب إلى الشك في صحته كما ذهب إليه قبله، وتلك هي الجناية على الأدب الجاهلي حقاً، لا ما ذهبنا إليه من ذلك الإصلاح، والله الهادي إلى الصواب.

عبد المتعال الصعيدي

من وراء المنظار

كرنفال!. . .

أبداً لا تقع عيناي أو لا يقع منظاري على هذا الذي أحدثك عنه إلا اعتلج في نفسي شعور من الهم والخزي يلازمني فترة طويلة بعد فوات المنظر، ويتجدد كلما تجدد في خاطري طيفه، وأنا أكتب هذا على أثر رؤية جديدة لذلك المنظر الذي أنكره أشد الإنكار، وما أزال أزداد إنكاراً له في كل مرة عني في سابقتها.

وإنما أكتب لأدعو القارئ إلى أن يغضب مني، فإن لم يغضب، ومر على هذا الذي أقول مر الكرام، فلا شك عندي أنه قوي الأعصاب جداً - على أحسن تعبير - قوة لا أدري أيحمد عليها أم يذم من أجلها؟!

على أني لا أشك في أن كثيراً من القراء غضبوا مثلما غضبت وسيغضبون كلما وقعت أعينهم على ذلك المنظر البغيض، منظر جنائزنا (البلدية) في أجمل وأعظم أحياء القاهرة العظيمة مهبط السائحين في الشتاء من إنحاء الغرب والشرق!. . .

وللقارئ أن يخطر في باله صورة لجنازة من هانيك الجنائز. . . فهناك في الطليعة أنماط من الناس منهم من يرتدون هلاهيل من القماش كانت من قبل جباباً وقفاطين، ويضعون فوق رؤوسهم ما يشبه العمائم، أو ما يصح أن يكون أبلغ صورة هزلية للعمامة، وكأنما يقول الواحد منهم (متى أضع العمامة تعرفوني) فهو كما أتخيل بل كما أكاد أعتقد يتخذ هذه الهيئة عن عمد ليكون جديراً بأن يظهر في الطليعة! وأنا أرى أبداً هذا الصنف من الخلائق على أشكال متقاربة في صورها.

ويندس بين هؤلاء (الفقهاء) الحمقى فريق من (الجدعان) من أهل الحي الذي خرج منه الميت وهم يخطرون جميعاً في جلابيبهم (البلدية)، وإنما رؤوسهم بأشكال من الطواقي و (اللاسات) وما شئت من أنواع (الكليوش) وألوانه. . .

وينطلق هؤلاء وهؤلاء في نشاط عجيب، وقد تأبط كل منهم ذراع جاره، ويطلقون حناجرهم بأفظع الأصوات وأنكرها، يستجمون لها كل قواتهم، ويمضون في ترديد عبارة حفظوها، أو يتغنون بورد من الأوراد، لا يفترون ولا تكل حناجرهم أبداً، كل أولئك وهم يتمايلون ويتسابقون في النعيق على صورة أجدر أن تكون فرحاً في موت هذا الذي يحملونه من أن تكون حزناً عليه، وإلا فكيف يكون هذا الزعيق وهذا التهريج حزناً في أي وضع من الأوضاع؟!

ولو أن متفنناً في التهريج أراد أن يحشد (كرنفالا) من المهرجين لما تعلق خياله بأبلغ وأروع من ذلك الكرنفال الجنائزي

وتأتي بعد ذلك الآلة الحدباء يحف بها من رهبة الموت وجلاله ما لا يتفق مع هذا التهريج المنكر أمامها. . . ومن ورائها ذيل أسود طويل بغيض لعله أشد نكراً من الطليعة؛ هؤلاء النسوة الماشيات أو الراكبات عربات (الكارو)، ومنهن من تدور طرحتها حول عنقها كالحبل، ومنهن المصفقة كفاً بكف، والمشيرة بمنديلها إشارات عجيبة مزعجة

معاً، والمولولة المترنحة ذات اليمين وذات الشمال؛ وأفظع من هؤلاء الصابغات وجوههن (بالنيلة) في شكل لا يمكن أن يتخيل معه أنهن ينتمين إلى بنات حواء. . . ولا أريد أن أزعج خاطرك - أيها القارئ - بوصف أصواتهن التي تجيء مع ذلك الزعيق في المقدمة نشازاً على نشاز، وشناعة على شناعة. . .

وبعد، فهل في هذا شيء يتفق مع الدين أو يجوز في عرف معقول أو يليق بسمعة أمة؟. . . ولشد ما يوجع نفسي أن أذكر وا أسفاه أني رأيت مثل هذا المنظر مرتين في أسبوع واحد أمام دار الآثار ساعة (انصراف السائحين)؛ فسألت نفسي والألم والخزي يحزان في صدري: ماذا عسى أن يقول هؤلاء عن حياتنا الاجتماعية إذا رجعوا إلى قومهم؟ وهل هم يرون (الأنتيكة) التي جاءوا ليروها داخل (الأنتيكخانة) حقاً؟ أم أنهم يرون ما هو أبلغ في معناه منها في شوارع العاصمة الكبيرة؟!

يا وزارة الشئون الاجتماعية. . . هذا والله في صميم الشئون الاجتماعية. . . شيعي هذا المنظر إلى حيث لا يعود، فهذا لعمري وعمرك خير من إنشاء ألف حديقة في هذه المدينة أو نشر ألف صحيفة من صحف الدعاية عن مصر والمصريين.

(عين)

الثقافة العسكرية

وأناشيد الجيش

للأستاذ عبد اللطيف النشار

في الثورة المصرية

ولقد مر بك أن (المتطوعين) المصريين في الحرب الكبرى لم يجدوا من يضع لهم أناشيد تعرب عن آمالهم، فوضعوا لأنفسهم تلك الأناشيد كما تخرج الأرض المهجورة زرعها (الشيطاني)، وكان بعض الذي وضعوه نظماً ولحناً مما يستحق الإعجاب لدلالته على خوالج نبيلة كالشوق إلى الوطن، وكالشكوى من تحكم السلطة العسكرية إذ ذاك في التجنيد باسم (التطوع).

ولقد قرأت في بعض الصحف الإنكليزية على أثر الثورة المصرية بحثاً ضافياً عن أسباب تلك الثورة، وقد عدَّ كاتب ذلك البحث مسألة (التطوع الإجباري) من أهم المسائل التي أدت إلى الثورة وأستدل على ذلك باللحن الذي أشرنا إليه في المقال السالف ونشره بلغته العربية بأحرف إنكليزية مع ترجمته إلى تلك اللغة، وهكذا كانت ترجمته:

والنص هو:

بلدي يا بلدي ... والسلطة خدت ولدي!

ومن البديهي أن الذين كانوا يتغنون بهذا النشيد ليسوا هم الذين أخذت السلطة أولادهم، ولكنهم هم الأولاد المأخوذون

وكان المأخوذة أولادهم مقيمين في مصر، أما الذين يرددون هذا اللحن فكانوا بعداء عنها يتحرقون تشوقاً إليها بدليل البيت الآخر وهو:

يا عزيز عيني ... وأنا بدي أروح بلدي

ولكن هكذا الشعر الذي ينال شرف السيرورة لا يمكن إلا أن يكون صادق التعبير عن البيئة التي صدر عنها.

وكان هؤلاء (المتطوعون) يعبرون عن مصر كلها لا عن الفريق المتطوع حينما وضعوا هذا اللحن الذي سار والذي استدل به الباحثون فيما بعد عن أسباب الثورة المصرية، كما يستدل الطبيب بالنبض على حركة القلب.

وكذلك الشعر لم يكن قط قلباً للأمة، ولكنه نبضها الذي يستدل به على حالة ذلك القلب. وهذه الحقيقة هي أساس النقد الحديث الذي يذعن له النقاد منذ وضع سانت بيف كتابه (تاريخ الحضارة الإنكليزية كما يظهر من خلال أدبها).

ولم يكن المتطوعون في الحرب الكبرى كلهم من طبقة واحدة ولا كان تطوعهم ذا صبغة واحدة، ولا كانت أغراضهم واحدة، ولكن كانت الكثرة كما تقدم وصفها، وكان فيها فريق تطوع بمحض الرغبة فراراً من الفتك الاقتصادي وطمعاً في القوت.

وكان هذا الفريق من لابسي (الهلاهيل)، وقد أبت طبيعة الأشياء إلا أن يسجل هذا الفريق من البؤساء على جبين الزمن شكواه من ذهابه للقاء الموت من أجل الكساء الذي يستر العورة ولم توفق مصر إلى شاعر من أبنائها يحس إحساس الفريق فيعبر

عن مشاعره. فأعرب هؤلاء الرعاع عن مشاعرهم ولحنوها بأنفسهم (ولا الحوجة للشعراء والموسيقيين).

وهكذا كان في متطوعي السلطة في الحرب الماضية مصريون كالعراة ينشدون هذا النشيد:

(يا اللي رماك الهوى ... حود على الكامبو
يقلعوك الهلاهيل ... ويلبسوك البلطو)

ومن الذي تراه كان من شعرائنا أو موسيقيينا يستطيع أن يقول ذلك القول أو يلحنه؟

لقد كنا . . .
ولا تسل كيف كنا . . .
نتعاطى من الهوى ما نشاء . . .

كان شعراء مصر في ذلك الحين يشربون الكوكتيل أو الويسكي على الأقل!

هل تصدق أنني كنت في سنوات الحرب أتقاضى مرتبي من وظيفتي في الحكومة، وكان مضافاً إليه علاوة الحرب مماثلاً لمرتبي الآن؟ لقد ترقيت ترقية طبيعية في مسافة العشرين عاماً بين الحربين ولكن الترقية في مسافة عشرين عاماً لا تكاد تبلغ المائة في المائة التي كنا نتقاضاها علاوة حرب، وكان في الشعراء الآخرين من هو أيسر حالاً وأهنأ بالاً، والعلة مقطوعة بطبيعتها بين شعراء مصر وبين لابسي الهلاهيل، فلم نضع ألحاناً لمسير المليون مصري الذين تطوعوا في الحرب الكبرى ووضعوها هم لأنفسهم. فإذا بعضها:

يا اللي رماك الهوى ... حود على الكامبو

والكامبو هو الـ أي معسكر الجيش الإنكليزي

وانتهت الحرب الكبرى ونشبت الثورة المصرية وكان لها شأن آخر. كانت هناك قيادة للثوار واتحاد في الغرض والوسيلة، واشترك في المشاعر الثائرة أصحاب (الفراك) و (البونجور) و (الردنجوت) مع أصحاب الهلاهيل. ومن أجل ذلك كان هناك الأناشيد التي يضعها الشعراء للمسير والتي نالت شرف السيرورة لصدق تعبيرها عن عواطف البيئة.

قد لا تكون هذه الأناشيد مما يسميه الشعراء غروراً (بالشعر الخالد) ولكنها على كل حال ستظل باقية ما بقى لتلك الثورة ذاكر. وإذا شئت أن تدرس طبيعة تلك الثورة وتعرف أسبابها فإن أهم مرجع هو الذي يدلك عليه سانت بيف وهو الشعر الذي قيل فيها، هو تلك الأناشيد:

نشيد شوقي. ونشيد العقاد. ونشيد صدقي. ونشيد الرافعي. ونشيد صادق. ومائة نشيد ونشيد غير أناشيد هؤلاء. . . ولكن هل كانت الثورة المصرية خالية من الأوشاب؟ وهل كانت كل العواطف من طراز عواطف هؤلاء النبلاء! كلا. فقد كان في المتظاهرين من لا يقنعه (حيوا العلم!) ولا (مكانكمو تهيأ) ولا (فحيي فتاك شهيد هواك) ولا أمثال هذه الاتجاهات السامية

ولم يكن في الشعراء من يستطع الإعراب عن عواطف الذين يلقون بالأحجار على اللوحات الزجاجية فيحطمونها ولم يكن فيهم من يستطيع الإعراب عمن لا يجد تعبيراً أطيب من قلب مركبة الترام أو قطع خطوط التلغراف. وكان هذا الفريق من الأوشاب موجوداً بالفعل وكان لا بد له من الإعراب بالموسيقى عن عواطفه تلك. والإنسان برغم أنف المناطقة حيوان موسيقى وليس فقط بالحيوان الناطق، بل أستغفر الله فهو برضى المناطقة وعن طيب خاطر منهم حيوان موسيقى لأن النطق لا يمكن أن يتم إلا والموسيقى جزء منه.

ظهر في الثائرين أيام الثورة المصرية من يحطم اللوحات ويقذف بالطوب ولم يكن بينهم شعراء من أمثال (فرلان) ذلك الوغد الفرنسي المتشرد الشاعر ليضع لهم نشيداً فوضعوا هم أناشيدهم نظماً وألحاناً ومن بينها:

مش عاوزين حد أبداً يحكمنا ... وإلا إن غلطنا حد يلومنا

كان هذا الفريق أقل من أن يعقل (حيوا العلم) فلم يثر من أجل كرامة العلم ولكنه فقد النظام فأبى أن يحكم أبداً كما يقول

وبعد فيما شعراء الجيل هل تريدون أن ينال شعركم شرف السيرورة؟ إذن فانغمروا في كل وسط تريدون أن ينتشر فيه شعركم. أنتم (وأنا من بينكم) من رواد المقاهي

فلن يروج شعرنا إلا بين رواد المقاهي
ويا وزارة الدفاع ويا وزارة الشؤون الاجتماعية ويا قيادة الجيش المرابط، هل تريدون ألحاناً للجنود تعرب عن روح عسكرية قوية وتدعم الروح العسكرية وتصل بين حاضرها ومستقبلها.
لن تكون تلك الأناشيد من وضع الجالسين على مكاتبهم في الدواوين ولكن أفسحوا المجال في المعسكرات في ساعات التدريب لطائفة من الشعراء.
تقول قيادة الجيش المرابط إنها تريد أن يتعلم الفلاح المشية العسكرية والنظام في الجلوس والقيام وحالة المعيشة العامة. هذا جميل كله، ولكن إذا استثنينا الأستاذ الشاعر عباس العقاد فمن من بين شعرائنا يمشي مشية عسكرية؟
أتمنى أن أرى في ساحات التدريب الأساتذة حسين شفيق المصري والدكتور زكي مبارك وشاعراً ثالثاً على الأقل وسيرى الجميع بعد أيام من التدريب كيف يمشي هؤلاء الثلاثة مشية غير مشيتهم الحاضرة. وإلى الملتقى في ميادين التدريب.
عبد اللطيف النشار
أحلام سوداء. . .
للدكتور إبراهيم ناجي
رب ليل قد صفا الأفقُ به ... وبما قد أبدَعَ اللهُ ازدَهرْ
قد سرَى فيه نسيمٌ عبقٌ ... فكأنَّ الليلَ بستانٌ عَطِرْ!
قلتُ، يا ربِّ، لَمِنْ جَمَّلتَهُ ... ولَمِنْ هذِي الثَّرياتُ الغُررَ
فَخَليٌّ نائمٌ عنه القَدرْ ... نام لم يَسعَدْ بِهاتيكَ الصُّوَر
وشجِيُّ القلبِ يشدو للذِّكَرْ ... دامِيَ الألحانِ مجروحَ الوَتر
كل شيء مأتمٌ في عينهِ ... لا الكرى طابَ، ولا طاب السَهر
غامَ وجهُ الأفقِ وأربدَّت به ... سُحبٌ حامتْ على وجهِ القمر
كلَما تقربُ تمتدُّ له. . . ... كأكُفٍّ شَرِهاتٍ تَنتظِر
قائماتٍ، كذئابٍ حُوّم ... جائعاتٍ مثلَ غربانِ الشَّجر
صِحْتُ بالبَدْرِ، تَنبّه للنَّذَرْ ... أدْرِكِ الهالَةَ حُفَّتْ بالخطَر
لا تُبِحْ مائِدَةَ النُّورِ لِهمْ ... لا تبحها لسوادٍ مُعْتَكِر
قهقَهَ الرّعدُ ودَّوى ساخراً ... فكأنَّ الرعدَ عربيدٌ سَكِر
قمتُ مذعوراً، وهمَّتْ قَبضتي ... ثم مُدَّت ثم رُدَّت، مِنْ خَوَر
لَهَف القلبِ على الدنيا، إذا ... عجزَ القادرُ، والباعُ قَصُر
لَهَف القلبِ، على الحسن، إذا ... قهقهَ الغربانُ والذئبُ سَخِر
تحتمي الوردةُ بالشوكِ فإنْ ... كثُرَ القُطّافُ لم تُغْنِ الإبَر
آهِ مِن غصنٍ غنيٍ بَالجنَى ... ومِن الطامعِ في ذاك الثمر
آهِ من شكٍّ، ومن حبٍ، ومن ... هاجساتٍ وظنونٍ وحَذَر!
كسَتِ الأفقَ سواداً لم يكن ... غير غَيْمٍ جائمٍ فوقَ للفِكَر
طالما قلتُ لقلبي، كلما ... أنَّ في جنبي أنينَ المحتضَر
إن تكن خانت، وعقَّتْ حُبَّنا ... فأضِفْها للجراحات الأخَر. . .
كان طيفاً من ظنونٍ لم تَدُمْ ... وسحاباً من جنون وعَبَرْ!!
ناجي
شريد!. . .
للأديب محمود السيد شعبان
يا ليْل! هذَا شَريدٌ تائهٌ تَعِسٌ ... يحوطه الصمت في واديك والغلسُ
حيرانُ. . . يُدلج في طخياء مظلمةٍ ... تكادُ من خوفه الأنفاس تُحتبس!
لهفان. . . تحسبُهُ الأنظارُ واهمةً ... إنساً من الجنِّ أو مِن جنةٍ أنِسوا!
أَسوان. . . تنشدهُ الأوهام ساخرة ... لحْناً من البؤس فيهِ العيُّ والخرس
هَيمانُ. . . تَلقفهُ الاغلاسُ ذُاهلةً ... كأنما هو في كفِّ الدُّجى قَبس!
ظمآنُ. . . يرتشفُ الظلماَء يَحبسها ... كأساً من الدمع فيها الطهر والقدس
ندمانُ. . . يبحث عن ألف يُقاسمهُ ... جوْبَ الغياهبِ ما في طبعه دنس
نهمانُ. . . يُطعِمه ما ليس يُطعمه ... من السَّرابِ إذا ما لفَّه غلس!
أقولُ للنَّجم لمَّا لاح يرقُبُه ... كِلاكما في الدِّياجي حائِرٌ تعِس

علامَ لا ترقدانِ الليلَ وحدَكما؟ ... والكون أغفى وكل الناس قد نعسوا
وفيمَ لا تهجرانِ الليلَ ويحكما ... والليل للنفسِ ذات الشجو يفترس
!أَأَنتَ يا ليلُ موجٌ ضلَّ غايتهُ ... تطوى دياجيهِ من عاشوا ومن درسوا؟
علامَ يا ليلُ لم تفرحْ بمنْ سعدوا؟ ... وكيف يا ليل لم تحزنْ لمن تَعسوا؟
وفيم يا ليل لم تحفِل بمن ضحكوا ... ولا بمن فيك يا نبعَ الأسى عبسوا؟
!. . .سيَّانِ عنْدكَ من باتوا على أملٍ ... فيه النعيمُ ومن الليلُ قد يئسوا
يا سائلاً عن شبابي كيف تُعجبهُ ... تلك الأناشيدُ منها الدمع ينبجس؟
!أقصِر بربكَ!. . . فالآلامُ تَعرفُني ... لأنها في فؤادِ الفذِّ تَنغرِسُ
محمود السيد شعبان
!حيرة. . .
للأستاذ أحمد فتحي
جهلتُ حقائقَ الآمال، لكن ... قنعتُ بها من الزمن اللئيم
وحسبي من أعاجيب الأماني ... رِضاها بالخسيسِ وبالكريم
تكفكفُ من مدامعِ كل شاك ... وتحفِزُ هِمَّةَ الباغي الظلوم
ويزجيها خيالٌ كالليالي. . . ... فلا هوَ بالصحيحِ ولا السقيم
فكمْ يهوى إلى قاعٍ سحيقٍ ... وكم يسمو إلى هامِ النجوم
وكم يُغري فؤادي بالدَّنايا ... وكم يُغريهِ بالشَّأوِ العظيم
وما ألقاهُ يأسو مِنِ جِراحي ... ولا ألقاه يجلو من غيومي
ومن عجبٍ وصلتُ به حياتي ... كما اتصلَ الشرابُ إلى النديم
!إذا أزمعتُ مِنْ أملٍ فِراراً ... فررتُ من الجحيم إلى الجحيم
أحمد فتحي
رسالة الفن
دراسات في الفن
ملامح الأرواح
للأستاذ عزيز أحمد فهمي
- هل سمعت أن شارلس لوتون سيمثل هتلر للسينما؟
- قرأت ذلك ومن يومها وأنا مشتاق لمشاهدة لوتون في هتلر
- أظن أنه لم ينجح
- لماذا؟
- لأن لوتون طويل عريض، وهتلر ضئيل الجسم
- وأي شيء في هذا؟ إن الذي سيمثله لوتون من هتلر نفسه لا بدنه - ولكن هذه الصورة الحاضرة في أذهاننا والتي نعرف بها هتلر لا يمكن أن يمحوها لوتون بتمثيله، وسيذكر الناس عندما يرونه أنه ممثل يمثل، بل قد يرى بعض الناس أنه ممثل أغتصب دوراً ليس هو أهلاً له
- هذا يخيل إليك. وقد يكون الذي تقولين حقاً إذا كان الممثل ضعيفاً. . . ولكن لوتون. ألم تريه في هنري الثامن؟ لقد كان هو هنري الثامن
- لأنه يشبه هنري الثامن كثيراً في جسمه، وعلى الخصوص في وجهه. . .
- صحيح! فكيف رأيت هاري بور في بتهوفن؟ هاري بور طويل عريض هو أيضاً وكان بتهوفن ضئيل الجسم مثل هتلر، ومع هذا فلا أظن أحداً من النظارة أحس شيئاً من الكذب في بتهوفن الذي أخرجه هاري بور. . . اللهم إلا أولئك الذين يذهبون إلى السينما ليعرضوا على الناس أجسامهم وأزياءهم. . .
- قد يكون التوفيق أتيح لهاري بور في بتهوفن، لأن هاري بور ممثل وبتهوفن موسيقي، وليس عسيراً على الفنان أن يدرك الدخائل في نفس فنان مثله، فإذا حاكاه ومثله كان كمن يحاكي نفسه ويمثلها. . .
- والله إنها فكرة لم أكن أتوقع أن تجول في ذهنك، وإنها لجديرة بالتأمل والدرس، وإنك لجدير بالمكافأة عليها. . . خذي هذه النكلة. . .
- شكراً. سأعلقها على باب البيت تعويذة وحجاباً دون إبليس. . .
- بل أعيديها فقد وجدت الرد. . . هات. . . إن هتلر أيضاً ممثل

- رحت في داهية! هل أنت ممن يؤمنون بهذا الذي يدعيه من أنه فنان؟!
- ليس هذا قصدي، وإنما الذي أقصد إليه هو أن الناس جميعاً يمثلون
- آه. هذه فكرة أخرى. ولكن ألا ترين أن فكرتك هذه لو كانت صحيحة لما ارتفع سعر التمثيل
في الدنيا، ولما كان أجر الممثل المجيد آلاف الريالات ومئات الجنيهات في الدور الذي لا يستغرق منه إلا الساعات القليلة. . .
- الحق معك
- إذن فرأيك غير صحيح. . .
- لماذا؟ أفلا يستطيع الحق أن يكون معك وأن يكون معي في الوقت نفسه؟
- يستطيع. قادر على كل شيء. . .
- ولا قادر غيره. . . والتوفيق بين الذي تقولين وبين الذي أقول يسير. فأما أن كل الناس ممثلون فهذا حق. وأما أن أندر الناس هم الذين يستطيعون أن يمثلوا فهذا حق أيضاً، فالناس كالأواني: كل آنية تصلح لأن تعبأ بما يملؤها، فإذا امتلأت لم تعد تصلح لأن تمتلئ مرة أخرى، إلا إذا فرغت. ومن الناس من يملك نفسه يملؤها ويفرغها وهؤلاء هم الممثلون المجيدون، ومنهم من امتلأت نفسه مرة فاكتظت وجمد حشوها فيها فلم يعد ميسوراً أن تفرغ وأن تملأ. ومن هؤلاء محمد عبد الوهاب فهو يمثل على نفسه وعلى الناس دور الأستاذ الموسيقار مطرب الملوك والأمراء والعظماء وقد (عقد) هذا الدور في نفسه فكلما مثل دوراً ظهر فيه بمظهر الأستاذ الموسيقار مطرب الملوك والأمراء والعظماء مهما تطلب منه هذا الدور الجديد شيئاً من البؤس، أو شيئاً من الخيبة، أو شيئاً من اليأس. زيدي على ذلك أن الصورة التي رسمها عبد الوهاب لنفسه في خياله صورة متكلفة ليس فيها من الحقيقة شيء، فقد عرف الناس هنا في مصر مطرباً كان الملوك والأمراء والعظماء يطلبونه حقاً ويسعون إليه ويكرمونه كل التكريم ولم يكن فيه شيء من هذه الأرستقراطية
التي يلبسها عبد الوهاب فيتعثر في أذيالها، ذلك هو المرحوم عبده الحامولي تؤكد الروايات أنه كان يأكل الطعام ويمشي في الأسواق
- وهل لا يأكل عبد الوهاب الطعام ويمشي في الأسواق؟
- حاشا لله. وإن أكل فتنازل، وإن مشى فكما كان يمشي هرون الرشيد
- إني لا أحب فيك هذا التعصب على عبد الوهاب. وإن الذي تأخذه عليه يمكن أن آخذه على شارلي شابلن نفسه، لشارلي أيضاً لوازم تبدو في كل أفلامه: قبعته وعصاه وشارباه ومشيته وحذاؤه وتلعيب فمه ومسحه الحذاء في البنطلون وهزة كتفيه.
- صحيح صحيح. . . ولكنك نسيت أن شارلي يمثل في كل أفلامه شخصاً واحداً هو ذلك المتشرد الحائر الذي يطارده المجتمع في أغلب الأحياء، ولا يعطف عليه إلا في أقل الأحيان. وروايات شارلي شابلن كلها يمكن أن توصل وأن تعرض على أنها حوادث حدثت لهذا المتشرد. وعلى هذا الأساس فإنه ليس عجيباً أن يلزم هذا المتشرد حركات وسكنات وإشارات خاصة هي هذه التي تقولين عنها
- طيب. ونجيب الريحاني الذي تشهد له بالتفوق. أليست له هو مواهب أيضاً لازمة لا تخلو منها رواية من رواياته هي هذه (المطة) التي يختم بها أكثر جمله وعباراته
- صحيح أيضاً. ولكنك أيضاً نسيت أن هذه (المطة) هي من آثار كشكش بك في نجيب الريحاني، فقد كان نجيب مثل شارلي يمثل شخصاً واحداً هو عمدة كفر البلاص، وكان هذا العمدة لا ينجو من مأزق حتى يقع في مأزق، وكانت الحيرة والدهشة و (اللخمة) تأخذه من أول الرواية إلى آخرها، وكان يستغيث، وكان يلوم، وكان يسترحم، وكل هذا يستدعي منه هذه (المطة) فلزمته ولكنه بدأ يتخلص منها فهي لا تعاوده الآن إلا نادراً
- ولم تلجأ إلى هذا التعسف ولا تقول إن لكل ممثل إسلوبه الخاص به
- لأن موضوعنا هذا لا صلة له بأسلوب الممثل. وإنما أسلوب الممثل شيء آخر
- هو الطريقة التي يتذوق بها الممثل الناس، والتي يعرض بها بعد ذلك هؤلاء الناس
- وكيف يتذوق الممثل الناس؟
- للأرواح ملامح كما للأجسام ملامح، ومن الممثلين من ينعم النظر في هذه الملامح حتى يحصرها كلها، ومنهم من يروعه بعضها فيقف عنده ولا يعود يرى غيره، أو يرى غيره

ولا يهتم به. والممثل بعد أن يشبع من التمعن في هذه الملامح الروحية يبدأ فيرسمها في نفسه هو، ويشكل روحه بشكلها ويكون تمثيله بعد ذلك إبرازاً لها، وأقدر الممثلين على هذا من لم تكن لروحه هو ملامح قوية ناتئة تستعصي تغطيتها على الماكياج الروحي، وهؤلاء الممثلون القادرون هم الذين تكون نفوسهم شديدة الشبه بنفوس الأطفال فهي بريئة صافية تعيش على الفطرة والحق، ولعلك قد لحظت أن الأطفال أقدر من غيرهم على تقليد الناس وتصوير نفوسهم والمظاهر الواضحة التي تنثرها نفوسهم على أجسامهم. . . ولو كان الناس كلهم يعيشون على الفطرة وعلى الحق لكثرت بينهم أوجه الشبه، بل ربما كانت أشكالهم تتوحد فلا يكون بينها خلاف، والذي يعزز هذا الرأي هو ما نراه من توحد أشكال الحيوانات التي من فصيلة واحدة - ولا أقول ألوانها - فهذا التوحد لا مرجع له إلا أن الحيوانات تسلك في حياتها المسلك الفطري الحق

- فكأنك تقول إن اختلاف ملامح الوجوه في الناس يرجع إلى اختلاف الملامح في أرواحهم

- هو هذا. وإن كنت لا أنكر آثار البيئة والوراثة وغيرهما

- ومعنى هذا أن الذي يسيطر على حياة الإنسان نفسه وليس بدنه وغريزته الجنسية كما يقول فرويد

- لو كانت الغريزة الجنسية هي التي تسيطر على حياة الإنسان لما اختلفت أشكال الناس، وإنما الغريزة الجنسية نفسها تخضع لذوق الإنسان والذوق عامل نفسي لا بدني

- ولكنك قلت مرة إن له مرجعاً يرده إلى كهرباء الجسم

- وقلت لك وقتها إني أستعمل كلمة الكهرباء حيث أريد أن أقول (الروح) وإني أختارها لأضمن ارتياحك وارتياح الناس إليها فهي عند أهل هذا العصر أقرب إلى العقل من كلمة الروح. . .

- فهل تريدني أن أعرف الروح على أنها كهرباء؟

- يصح ولكن على أن تكون كهرباء لها إرادة ولها عقل ولها عواطف ولها ذاكرة ولها أمل ولها صلة بالماضي ولها صلة بالمستقبل ولها كل ما للحياة من مميزات تسمو بها على الجمود والموت

- ملامح الأرواح التي تتحدث عنها هي ملامح هذه الكهرباء. . .

- ولم لا؟ فهناك إنسان قوته ألف شمعة، وهناك إنسان قوته خمس شمعات، وهناك إنسان كهرباؤه مائة فولت وهناك إنسان كهرباؤه عشرون. وهناك إنسان كهرباؤه مستقاة من دينامو، وهناك إنسان (ببطارية)، وهناك إنسان كهرباؤه صواعق، وهناك إنسان كهرباؤه شرر. . . وهناك وهناك. . . وكل هذا يحسه الممثل المجيد ويستطيع أن يقلده. . .

- فإذا قصرت قوة الكهرباء في الممثل عن قوة الشخص الذي يريد أن يمثله فماذا يصنع؟

- لا يمكن أن يحدث هذا إلا إذا أراد الممثل أن يقلد طفلاً صغيراً. . . وكلما كان أصغر كان تمثيله أصعب

- ومعنى هذا أن في الطفل كمية من الكهرباء أوفر مما في الكبير. . .

- لا. وإنما معناه أن درجة وضوح الروح في الطفل أكبر منها في الكبير. فالطفل إذا فرح ظهر عليه الفرح فياضاً جارفاً، وهو إذا غضب لم يمكنه أن يكتم غضبه وإنما أرسله قوياً عنيفاً وهذا شيء لا يقوى عليه إلا هو أو ممثل فيه من هذا الوضوح ما في نفوس الأطفال. وهذا الوضوح الذي يستوجبه التمثيل، وهذه البراءة التي تستلزمها المحاكاة هي التي تحول بين النساء وبين النبوغ في هذا الفن. . . إلا النادرات النوادر منهن. . .

- ولماذا؟

- لأن النساء لا يعشن على الفطرة مطلقاً وإنما كل منهن تمثل في حياتها دوراً خاصاً

- بل أدواراً

- لا. . . لو أن النساء كن يمثلن أدواراً مختلفة لقلنا إنهن قادرات على التمثيل، ولكن هذه الأثواب المختلفة التي تبدو عليهن إنما يلبسنها في دور واحد يظللن يمثلنه طول الحياة وهو دور حواء

- وهل سيطلب المسرح منهن أو السينما أن يمثلن دوراً آخر
- نعم، والمشكلة هنا أصلها أن الذين يؤلفون الروايات رجال، والرجل مهما ألم بنفس المرأة ومهما أحاط بها فهو لا يرضى أو لا يستطيع أن يظهرها في تأليفه على صورتها الطبيعية، وإنما يكتب لها عادة صورة أقرب إلى الروحانية من صورتها، وهذه الروحانية أمر صلة المرأة به صلة بعيدة ولذلك فإنها لا تدركها الإدراك التام ولا تخرجها الإخراج الصحيح
- فهو عيب الرجال الذين لا يطبقون أدبهم على الواقع. . .
- إنه العيب الذي ينزعون إليه بأدبهم وفنونهم محاولين به أن ينقذوا الحياة من شر الواقع. . .
- ولكن لماذا نقول إن صلة المرأة بالروحانية صلة بعيدة
- لأن المرأة تبدأ في صناعة التمثيل من سن مبكرة فالتمثيل عونها على الإغراء وهو ستارها، وهو سلاحها. . . وكي أثبت لك ما أقول أسألك كم مرة مثلت النساء في السينما مريم العذراء وجان دارك مثلاً وكم مرة مثلت النساء في السينما كليوباترا؟ إن مريم العذراء لم تمثلها إلى اليوم ممثلة وجان دارك مثلتها ممثلة فرنسية لشركة باتيه منذ خمسة عشر عاماً على ما أذكر. . . أو أكثر. . . أما كليوباترا فقد مثلتها ممثلات كثيرات وفي أوقات مختلفة. . .
- وعلى أي شيء تستدل بهذا؟
- أستدل به على أن النساء أقرب إلى كليوباترا منهن إلى جان دارك ومريم العذراء
- ولكن لمريم العذراء قدسية لا تحب شركات السينما أن تمسها
- لقد مثلت شركات السينما المسيح نفسه. . .
- طيب. . . وجان دارك هذه لم تكن امرأة وإنما كانت رجلاً. . .
- إنها التي بذلت نفسها في سبيل وطنها. . . أنا معك لم تكن امرأة

عزيز أحمد فهمي

رسالة العلم

أرقام تتحدث وتنبأنا بقصة الإلكترون

للدكتور محمد محمود غالي

- 2 -

- من تجارب ميلكان - رسالته الشائقة يطالعها في الطبيعة

رقصة الإلكترونات وحركاتها الثابتة - مليكان كشامبليون في

تعرفه على اللغة الهيروغليفة - رقصة أخرى للجسيمات

بكشف عن مغزاها جان بيران

لا بد أن يكون قد أستشعر القارئ عظم المعنى الذي أدته هذه الرسالة، رسالة الجسيمات التي علقت بها الإلكترونات، ولا بد من أن يكون قد فطن إلى مبلغ الدقة الذي يُظهر جلال هذه التجارب الرائعة لمليكان التي ذكرناها في مقالاتنا السابقة، وهي التي حصل فيها على إلكترون حر واحد محمول على جسيم دقيق يتحرك في غرفة صغيرة، وما على القارئ إلا أن يستدرك في ذهنه أمراً سبق أن ذكرناه ليتأمل مقدار ضآلة الإلكترون الذي هو أصغر ما نعرفه من الوحدات المادية والكهربائية فيذكر أن ذرة الهيدروجين التي هي واحد على ألف مليون المليون من الجرام تكبر الإلكترون بحوالي ألفي مرة، وللقارئ بعد ذلك أن يتخيل مقدار صغر الإلكترون الذي يصعب استيعاب مبلغ ضآلته، ويذكر أن هذا الإلكترون بذاته هو الذي فصله مليكان وتحقق من وجوده حراً على هذا الجسيم طوراً يعلق به وتارة ينفصل عنه، ولا يسع القارئ مع دهشته إلا تصديق الحوادث بعد البراهين التي أدلينا بها والتي يثبت منها أنه كان يعلق بالجسيم إما قدر محدود واحدا أو قدران أو ما يزيد من الأقدار الصحيحة، ولكن لا يمكن أن يعلق به قدر ونصف القدر أو قدر وثلثان. كسور هذا القدر وأجزاء هذا الإلكترون غير موجودة، وهي حالة تشبه بالضبط تلك التي ذكرناها من قبل عن بعض المحال التجارية في باريس ولندره التي لا تبيع الأشياء إلا بأقدار معلومة هي ضعف أو أضعاف قدر أولى معين، فهي لا تبيع مثلاً إلا بخمسة فرنكات أو مضاعفاتها.

وإلا فلماذا لم يحدث مرة واحدة في آلاف التجارب التي أجراها (مليكان) وأجراها

العلماء من بعده أن أخذ الجسيم طيلة ارتفاعه تحت تأثير المجال الكهربائي فترة تقع بين فترتين من الفترات التي كانت يختارها الجسيم لذاته ويلاحظها مليكان؟ لماذا تخيَّر الجسيم في الصعود فترات معينة لا تتغير؟

ثمة مخرج واحد وتفسير وحيد للظاهرة المتقدمة، ذلك أن يفرض مليكان فرضين:

الفرض الأول: وجود جسيمات صغيرة كهارب يسمونها ألكترونات يستطيع أن يعلق بالجسيم واحد منها أو اثنان أو ثلاثة أو ما يزيد، ولكن لا ينقسم إلكترون منها ليعلق بالجسيم جزء منه.

الفرض الثاني: أن وزن هذه الإلكترونات صغير بالنسبة إلى وزن الجسيم الحامل لها، وهذا يفسَّر السرعة الثابتة التي يسقط الجسيم بها دائماً عند انعدام المجال الكهربائي، هذه السرعة تتغير متى أخذ الجسيم في الصعود تحت تأثير هذا المجال، بحيث إذ علق بالجسيم إلكترونان صعد بسرعة تعادل ضعف السرعة عندما يعلق به إلكترون واحد، وإذا علقت به خمسة ألكترونات صعد خمسة أضعاف هذه السرعة الخ

ولا يتسع المجال هنا لنذكر للقارئ الذي قصدنا معه التبسيط المعادلات السهلة التي استنتج منها مليكان شحنة الإلكترون، وذلك من حساب المجال الكهربائي وسرعة الجسيم وهذه المعدلات التي استعملها من قبله توسنذ وغيره من علماء معمل كافندش بكامبردج، ولكنا نكرر أن مليكان استنتج هذا القدر الإلكتروني بطريق سهلة يستنتج طالب المدرسة المبتدئ في الحساب العدد خمسة في مثال محلات باريس الذي ذكرناه في مقالنا السابق، على أننا نورد للقارئ أمثلة من تجارب مليكان الأولى منقولة عن نشراته الخاصة:

الزمن مقدر بالثانية الذي سقط فيه جسم معين المدى بين شعرتي المكروسكوب
الزمن مقدر بالثانية الذي صعد فيه الجسم ذاته المدى السابق

13. 6
12. 5
13. 8
12. 4
13. 4
21. 8
13. 4
34. 8
13. 6
84. 5
13. 6
84. 5
13. 7
34. 6
13. 5
34. 8
13. 5
16. 0
13. 8
34. 8
13. 7
34. 6
13. 8
21. 9
13. 6
13. 5
13. 4
13. 8

13. 4
المسافة بين الشعرتين 0. 5222 س. م
ويلاحظ أنه خلال صعود الجسيم لثالث مرة تغيرت فترة صعوده من 12. 4 إلى 21. 8 ثانية، وهذا يدل على أن هذا الجسيم ذا الشحنة الموجبة أكتسب ايوناً جديداً، ثم أكتسب بعد ذلك ايونات أخرى حافظ عليها طيلة صعوده للمرة الخامسة والسادسة وفقدها في المرة السابعة فعاد إلى فترة من فترات صعوده السابقة وهي 34. 6 ثانية وهكذا، وفي الجدول الثاني تتضح فكرة وجود الشحنات الكهربائية بحالة متقطعة بسبب وجود الإلكترونات.
ويحوي العمود الأول الشحنة المرصودة والعمود الثاني مقدار هذه الشحنات لو أننا استنتجناها نظرياً بضرب عدد ثابت قدره 34. 6 في الأعداد الصحيحة 1، 2، 3، 4، 5 الخ، وفي العمود الثالث الأعداد الصحيحة التي بضربها في عدد ثابت تنتج أرقام تدل على الشحنات المقيسة.
الشحنة الكهربائية المرصودة
الشحنة المشتركة (4. 917) مضروبة في عدد صحيح قدره 1 أو 2 أو 3. . الخ
العدد الذي يضرب في العدد الثابت (4. 917) فنتج الشحنة المتقدمة
4. 917
1
9. 834
2
14. 75
3
19. 66
19. 66
4
24. 60
24. 59
5
29. 62
29. 50
6
34. 47
34. 42
7
39. 38
39. 34
8
44. 42
44. 25
9
49. 41
49. 17
10
53. 91
54. 09
11
59. 12
59. 00
12
63. 68

63. 92
13
68. 65
68. 84
14
73. 75
15
78. 34
78. 67
16
83. 22
83. 59
17
88. 51
18

وليس أبلغ من هذه الأرقام التي تحدثنا عن قصة الإلكترون وتعطينا شحنته، إذ يرى القارئ أن ثمة عدداً ثابتاً قدره 4. 917 إن ضربناه في الأعداد الصحيحة 1، 2، 3، 4 حتى العدد 18 في الجدول السابق تنتج الشحنات الكهربائية المرصودة

وهكذا استطاع هذا العالم الكبير الذي يسرنا أن نسمع أنه سيزور مصر قريباً أن يقيس قدر الألكترون، وأن يحصل على جسيمات صغيرة سخرها لتجاربه وأبحاثه جسيمات استوثق بالدليل أن بعضها كان يحمل إلكتروناً حراً واحداً ولا يحمل سواه. وكأني بمليكان في المريخ استطاع وهو فيه أن يعد سكان الأرض من البشر دون أن يكون بحاجة لأن يراهم. ذلك أنه كان أمام أرقام تتحدث وحقائق لا تقبل الجدل، بل أنه كان أمام رسالة علمية عرف كيف يطالع رموزها ويستخلص منها أمراً خاصاً بقصة الوجود، وكان شأنه في ذلك شأن شامبليون الفرنسي عندما استطاع أن يطالع اللغة الهيروغليفية من مجرد معرفته للغتين الإغريقية والقبطية القديمة، وذلك عندما وجد نصاً مكتوباً باللغات الثلاث على حجر رشيد المعروف، وعندما استطاع أن يجد في إطار بيضاوي الشكل اسم (بطليموس) ذلك الاسم الذي فَصَل شامبليون حروفه والذي بسببه قرأ الأسماء (برنيس) و (كليوبترة) و (اسكندر)، وتوصل منها إلى حروف أبجدية أولية ساعدته في معرفة اللغة المصرية القديمة بحذافيرها.

تُرى هل استوعب معنا أسطورة مليكان؟ وهل اطلع فيها على جانب من التطور العلمي وأدرك ناحية من نواحي البحث التجريبي؟ تُرى هل لمس القارئ أمراً خالداً تدل عليه تلك الأسطورة - أمراً في خلوده صورة من صور الأبد تختلف عن صور العاديات القديمة التي تبلى مع كر الزمن: الإلكترون المكون لنا - وجوده - قدره - كل ذلك نشهده في هذه التجارب الخالدة.

وعندما يتغير وجه المدينة، ويرقى الإنسان إلى المدنية أعظم شأناً، عندما ينمو فيه عقل أكثر رجحاناً من عقله الحاضر فتوجد جماعات تتسابق جميعها في سبيل تقدمه بدلاً من أن تتهالك أحياناً على تحطيمه، عندما يأتي عصراً تزدهر فيه دور الكتب والعلم، ويأتي إنسان أعظم، يطالع فيفهم ويتأمل فيُقِّدر، فإنه سوف يرى على ممر الأجيال أسطورة مليكان ويطالعها بين الأساطير البارزة التي يحفظها التاريخ، فإذا حصل هذا القارئ البعيد في الزمن على (بطارية) من صنع يديه، وصنع لنفسه مكثفاً كمكثف مليكان، وغرفة صغيرة كغرفة جهازه، وإذا وضع إزاء هذا ميكروسكوباً في اتجاه عمودي على خط الضوء الواقع على جسيمات دقيقة من الميسور الحصول عليها، استطاع أن يعيد رقصة هذه الجسيمات، واستطاع أن يراها تعلو وتهبط في فراغ الحجرة فيرى رقصات رذاذ الزيت كما تحددها للقارئ البعيد، يرى رقصة الأبد وهي بهذا ثابتة مهما كرَّ الزمن وأينما دارت الأرض، رقصة يلعب الراقصون فيها على أنغام ثابتة ويبدون في ذلك حركات لا يتغير شيء في جوهرها ولا يتعدل حدث في مسارها، وهي رغم الذي ذكرناه لم تكن الدليل الأول والأخير على وجود الإلكترون والتحقق من

شخصيته ومن قدره. ثمة طريقة أخرى نلمس فيها هذا الكائن في ثوب جديد وبدليل يختلف عن دليل مليكان السابق.

ثمت شيخ بلغ اليوم السبعين حولاً لا يزال حياً يرزق، متوسط القامة ينتهي وجهه بلحية مدببة وخطها المشيب، قد تركت له الطبيعة التي تفني كل شيء شعره المنتشر كثيفاً على رأسه والذي يكسوه طوله هيبة وجلالاً. ولو أنك جلست ظهراً في أحد مقاهي الحي اللاتيني بباريس مر أمامك هذا الشيخ في تجواله كما يمر أي رجل من الشارع، وهو طوراً لا يعرفه أحد من الجالسين وتارة يشير إليه أحدهم من بعيد قائلاً: (هذا هو (جان بيران) مكتشف شحنة الإلكترون ومحدد عدد - أوفوجادرو). وإذا تركت المقهى ودخلت إحدى المكتبات أمكنك أن تشتري صورته إذ تباع للجمهور كما تباع صور الملوك والفاتحين، ذلك أن بيران من العلماء المعروفين فقد توصل في الوقت ذاته الذي قام فيه مليكان بتجاربه السابقة إلى شحنة الإلكترون وإلى النتائج ذاتها من سبيل جديد يختلف جد الاختلاف عن سبيل مليكان، ويتميز بدقة الموضوع ومهارة الطريقة وبساطة التجارب وقوة الاستنتاج وعظمة الاستقراء، فأنم هو أيضاً أسطورة جديدة نأتي عليها لنكون قد أنصفنا العلم وأرضينا التاريخ، وهي الأسطورة التي وإن كانت تمت فصولها في سنتي 1907، 1908 منتي تجارب مليكان، إلا أن معهد السويد منحه عنها جائزة نوبل في سنة 1929.

تحضرني ليلة في السوربون إذ كانت الساعة التاسعة مساء دخل هذا العالم بعد نيله الجائزة المدرج الكبير ليحدث العلماء والجمهور الباريسي عن أسطورته الخالدة، وتمر بذاكرته الصور العديدة التي عرضها، والجمهور الغفير الذي استمع إليه، هذه الأسطورة أخط فيها على صفحات الرسالة مقالاً أو اثنتين وأعنونها (أرقام تتحدث) وهو العنوان الذي اتخذته لموضع مليكان، ولقد كان في الواقع (بيران) هو أيضاً أمام أرقام تتحدث إليه، وفهم حديثها، واستطاع أن ينقل هذا الحديث إلى الناس، وأن يسطره في حالة مفهومة ومعقولة للأجيال القادمة

لي من هذه الأساطير غاية لقراء الشرق، الأدباء منهم والعلماء والمطلعون، أطمع أن تتعدى الحدود العلمية التي أردنا منها هذا النوع من الكتابة في التبسيط، ذلك أن يستنتج القارئ فوق ما قصدناه من علم أن العمل العلمي ككل عمل سلمي هو حجر الزاوية في مستقبل الإنسان، وأنه خير لسكان هذه المعمورة عن كل ما عداه من الأعمال، فالعلم يحمل في طياته سر الوجود وعليه وعلى المتصلين به تترتب حركة التقدم، وغرضنا أن يدرك القارئ من وقت لآخر أننا مهما أصبنا في هذه الأزمنة من محن فإن أنصار الإنسان موجودون وموجودون دائماً. ثمة أناس حريصون على الميراث العلمي الكبير يشعلون دائماً شمعة المستقبل، وغايتنا أن يدرك القارئ أن الإنسانية تخطو دائماً خطوات جريئة إلى الأمام وأن يلمس شيئاً من هذه الخطوات على حقيقتها فيلمس أثر ما بلغته الفلسفة وما وصل إليه الفكر.

هناك في السوربون استطاع بيران، كما استطاع مليكان في باسادينا وتومسون في كامبردج، أن يتعرف هو أيضاً بطريقته الخاصة الإلكترون، وفي هذه البيئة الجامعية، حيث الحسد أقل خطراً هناك منه عندنا، وحيث الهجوم الخفي لا يعرف طريقاً للدخول، وحيث الجميع يتعاونون على الخير وعلى رفعة حق الإنسان، رأينا (بيران) يحدث العلماء عن قصته مع الذرة والإلكترون في المدرج ذاته الذي رأى باستير وكيري وغيرهم.

من هذا الحديث الذي أصبح ملكا للبشرية، ومن هذه الذكريات العزيزة التي مضى عليها اليوم عشرة أعوام نستملي للقارئ مقالنا القادم الذي يرى فيه كيف عثر (بيران) على رقصة تشبه الرقصة السابقة، وكيف استنتج من طول ملاحظتها قصة خالدة من قصص الوجود، وكيف وضع بهذا حجراً أساسياً في بناء المعرفة.

محمد محمود غالي
دكتوراه الدولة في العلوم الطبيعية من السوربون
ليسانس العلوم التعليمية. ليسانس العلوم الحرة. دبلوم المهندسخانة

من هنا ومن هناك
هتلر كما يراه علم النفس
(ملخصة عن (يوروب توفل) باريس)

كثر الكلام عن دكتاتور ألمانيا في هذه الأيام لمناسبة الحرب التي أشعلها في أوربا، والروح التي تسلط بها على البلاد الألمانية، وكثر القول في تحليل تلك العقلية الغريبة التي أورثت العالم كثيراً من النصب، وقد نشرت مجلة (أوروب نوفل) الباريسية حديثاً للعالم النفساني المشهور دكتور (كارل جنج) حلل فيه دكتاتور النازي من ناحية علم النفس فقال: (كان في العصور الأولى البائدة نوعان من الرجال الأقوياء الذين تخضع لهم الجماهير: الرئيس ويمتاز عن سائر رجاله بالقوة الجسدية، والعراف ويكتسب نفوذه عليهم بعقيدتهم فيه).

ولا شك أن بنية هتلر لا توحي بشيء من الصرامة الجسدية. وأكثر ما يلاحظ في أخلاقه هو ذلك المزاج الحالم العجيب، وتلك النظرات السماوية الرهيبة مما يجعلنا ندرجه في صف العرافين.

ولعل تلك النزعة الروحية في هتلر هي التي تحفزه إلى بعض الأعمال التي نراها بعيدة كل البعد عن المنطق والصواب لما فيها من الغرابة والشذوذ. وقد نستطيع أن نقول: إن تسمية الريخ الألماني بالريخ الثالث قد قصد بها إلى معنى روحي خاص. . . إن أحداً من الناس لم يفكر في تسمية إمبراطورية القيصر وليام الثاني: الريخ الثاني.

فاختيار النازي لكلمة (الريخ الثالث) لم يكن يقصد به معنى الكلمة في ذاته، وإنما اختارها النازي لأن كلمة (الثالث) لها معنى روحي يوحي في الباطن إلى القداسة المثلثة.

وقد أخذ الألمان يحيون نوعاً من التقليد تحت اسم (وتان) فما هو وتان؟ هو ألم الريخ، وقد أنشئوا بعض الكتائب تحت اسم كتائب (العاصفة النازية) يعنون العاصفة التي تتسلط فيها الرياح فتقتلع الأخضر واليابس وهي رمز الشر عند البوزيين.

فهذه الرموز والأسرار التي ابتدعها الريخ الثالث قد ساقت الألمان ونبيهم المزعوم تحت لواء الرياح ووراء تلك الشارة التي ترمز إلى معنى الزوبعة بغير وعي لا تعقل نحو ذلك الموقف الدقيق الذي لا يعرف نتيجته أحد.

ويعد هتلر مرآة لما هو مطبوع في نفوس تابعيه، فكأنه الصوت المكبر لما يجول بخواطرهم، وهو يستمد قواه من عقله الباطن الذي يتحول إلى عقل واع يسيطر عليه ويسوقه كيف شاء.

نحن نعرف عقلنا الباطن ولكننا لا نطيعه، ولكن هتلر يصغي إليه ويطيعه طاعة عمياء.

إن الألمان في موقفهم الحالي كاليهود في العهد القديم. فمنذ اليوم الذي هزموا فيه، وهم ينتظرون مسيحاً. فلما وجدوا هتلر تعلقوا به وألقوا إليه القياد. وقد جعل رسالته إليهم أن يوجد بينهم ويقودهم إلى الأرض الموعودة. ومن هنا نستطيع أن نعرف السبب الذي من أجله يحارب النازي كل ديانة لا تتفق ومبدأه.

الألمان قوم وجدانيون، يندفعون في كل شيء نحو غاياته. وقد كان يسرهم أن يظهروا في ثوب (الجنتلمان) الإنجليزي فنادى بهم هتلر: لقد آن الأوان لنكون ألمان . . .

إن هتلر كاهن وعراف، فإذا بحثنا عنه كرجل فقد لا نجده في الواقع. هو شتى أحلام وأحوال تكونت جميعها فأوجدت رجلاً

الغازات السامة منذ الإغريق
(عن (لارفي بلج))

قال أحد مؤرخي الإغريق الأقدمين في سفر من مؤلفاته: (إن الأعداء في أثناء حصارهم لمدينة (ميجارا) عام 470 قبل الميلاد حاولوا أن يغزوا المدينة ويستولوا عليها بتسليط الدخان، فحفروا حولها الأسوار وملئوها بالحطب والكبريت والقار؛ ثم أشعلوها حول المدينة، ولكن الدخان ارتد إليهم لتغير في مجرى الرياح فاضطرهم إلى الهزيمة والفرار.

ولكنهم أعادوا هذه التجربة في حصار (بلاتا)، وفازوا في هذه المرة بالاستيلاء على المدينة إلا أنهم ما كانوا ليدركوا أن أكسيد الكربون هو الذي ساعد على نجاحهم لا مجرد الدخان.

وقد استخدمت هذه الطريقة نفسها في العصور الوسطى؛ ويقال: إن أحد الأعداء كان

يسكن في برج عال، فوصل إليه الدخان في قلعته وقضى عليه. إلا أن هؤلاء الذين كانوا يستخدمون هذه الوسيلة لم يدركوا أن الموت كان متسبباً عن أكسيد الكربون وكانوا يفضلون أن يدسوا في نيرانهم الكبريت والنا وهما يلتهبان حتى في الماء ويسمونها (نار الإغريق)، وكانت (نار لإغريق) هذه معروفة في عهد الإمبراطورية الرومانية،
والإمبراطورية البيزنطية، والعصور الوسطى، وعصر النهضة.

وقد أشار أحد مؤرخي العرب في القرن الرابع عشر إلى إحراق الأفيون وإضعاف العدو بما ينبعث منه من الأبخرة السامة وقد وجد في مكتبة المواد السامة في برلين كتاب مؤرخ في سنة 1437 يعطي فكرة عن صنع القنابل السامة المحتوية على الزرنيخ. وقد أدرك المتقدمون أن بعض الغازات تحوي ثقلاً أخف من الهواء، ورأى العالم اللتواني (سيمونكسيس) في أواسط القرن السابع عشر أن يجعلها في ثقل الدخان الذي ينبعث من الحشائش المحترقة، ويزعم أنه بذلك يستطيع أن يخلق جواً ساماً لا ينجو منه إنسان.

وإلى هنا تنتهي المرحلة الأولى من تاريخ الغازات السامة، وإذا كنا لم نر أحداً أقدم على استعمالها حتى عام 1914 فليس ذلك لأن العاطفة الإنسانية هي التي وقفت دون ذلك، ولكن المحاربين كانوا يخشون عند إلقاء القذيفة السامة، أن يصيبهم دخانها كما يصيب أعداءهم وقد قدم كيميائي إنجليزي إلى نابليون اختراع قنبلة سامة فلم يوافق عليه. ثم كثرت المخترعات التي من هذا النوع وتعددت في القرن التاسع عشر، وفي سنة 1912 أجمعت جميع الدول في مؤتمر لاهاي على عدم استعمال الغازات السامة، ولم تسمح باستعمال شيء منها على الإطلاق، وقد أباحت استعمال الغازات التي تسيل الدموع لأنها لا تسبب للإنسان علة يعسر شفاؤها

ولكن ألمانيا استعملت الغازات في أواخر أكتوبر سنة 1914 مناقضة بذلك تعهدها في مؤتمر لاهاي. إلا أن القذائف التي استعملتها لم تف بالمرام، فقد كانت ضعيفة القوى سريعة الزوال فعدلت عنها بعد عدة محاولات، ولكنها عادت إلى استخدامها في فبراير 1916.

وقد أحرقت ألمانيا في ثلاث سنوات ونصف 75. 500 طن من الغازات السامة، وقد بلغ عدد الذين أصيبوا من الجنود الفرنسية بهذه الغازات 507. 000 جندي، وقد ثبت أن 27 % من الجنود الذين فقدتهم الحملة الأميركية في الحرب ماتوا بالغازات السامة

دراسة التوأمين

(ملخصة عن مجلة (باريبد))

بدأت في أمريكا في السنين الأخيرة دراسات وأبحاث جديدة في علم النفس، وقد بذل الباحثون مجهوداً عظيماً في تحليل نفسية التوأم، واكتناه ما فيها من الأسرار والعجائب. وهي نفسية معقدة حار فيها الكثير من العلماء الذي قضوا حياتهم في دراسة الطفل. إذ أن حياة التوأم تختلف من الناحية العقلية والنفسية عن سائر الأطفال.

وتنقسم التوائم إلى نوعين، التوائم المتشابهة وهي التي يتشابه فيها التوأمان حتى يصعب على الإنسان التفريق بينهما، وهذان التوأمان يتكونان في الرحم من بويضة واحدة. تنشطر بعد أن يدركها النمو، إلى شطرين كل منهما يكون إنساناً منفصلاً عن أخيه

أما النوع الثاني فلا تكون المماثلة فيه بين التوأمين، إلا كما تكون بين سائر الأخوة الذين يولدون لأم واحدة. وهما على هذه الحال يتكونان من بويضتين منفصلتين تنموان -كيفما كانا - في وزن واحد.

وقد وضع الأسس العلمية لدراسة التوائم سير فرنسيس جالتون (1822 - 1911) واضع علم الوراثة، وقد أمد بمباحثه القيمة في الانتقال الوراثي، من جاءوا بعده بالحقائق الهامة، التي استطاعوا بواسطتها أن يجنوا أحسن الثمرات.

ومن الحوادث التي تسترعي الأنظار في هذا الباب: أن أختين توأمين إحداهما تعيش في باريس والأخرى في مرسيليا، أصيبت الأولى بتدرن في موضع في الرئة فأرسل الطبيب إلى زميل له ليكشف على الأخت الأخرى، ولشد ما كانت دهشة الطبيبين

حينما تبين لهما أنها أصيبت بالتدرن في نفس الموضع الذي أصيبت به الأولى. فكان الأختان توأمين متشابهين، وقد أثبتت التجارب أن التوائم المتشابهة تصاب بالتدرن الرئوي والتهاب الأذن والحمى القرمزية في وقت واحد. . إلا أن هذه الحالة كانت أولى ما عرف في اتفاق التوأمين في موضع الإصابة وفي الوقت الذي حدثت فيه.

وقد يتفق التوأمان (المتشابهان) في الاتجاه الإجرامي إذا كانا من المجرمين، فيأتي أحدهما بنفس الجريمة التي يأتيها الآخر وقد يكون في معزل عنه منذ أمد بعيد، وقد أثبتت التجارب وقائع كثيرة من هذا النوع.

ومن التجارب النفسية المعروفة اختبار الورقة والحبر، فيلقى بقليل من الحبر على الصفحة من الورق وتطوى ثم تفتح. ويسأل الشخص الذي يراد اختباره عما قد تذكره به فيفسرها

كل إنسان تفسيراً يختلف عن الآخر، فبعضهم يقول مثلاً إنها تشبه الثعبان، والبعض يقول إنها تذكر بالطائر أو المنزل أو الإنسان أو ما إلى ذلك. ولكن التوأمين المتشابهين يجيبان في الغالب إجابة واحدة. فبقعة الحبر المرتسمة تثير في رأسيهما صورة واحدة في غالب الأحيان.

البريد الأدبي

خطة إعداد النشء

كنا ضيفاً على بحر الروم، وكانت (للنيل) موضع رعاية الأمواج البيض القِصار وهُنَّ صواحب بطش في غالب الأمر وأكثر الحال

جلس قوم بعضهم إلى بعض يتحدثون عند صدر الباخرة (أو مَرنَحتِها، كما كانت العرب تقول)، على عادة الذين يجتمعون في رحلة: معرفة مستطرفة أو لقاء على غير وعد. وانطلق الحديث في شؤون مصر؛ وركزه من ركَزَه في وجوه الإصلاح، حتى انساق إلى قصة التعليم وتنشئة أبناء الأمة. وإذا رجل، خافض صوته، قاصد في الإشارة، يندفع في حديث انعطفت إليه أذني. قال:

(ما أظن أحدكم يشك في أنّ وجهة التعليم الغالبة عندنا إنما هي إخراج كتبة وموظفين. وأما علة ذلك فكذا وكذا من الأمور المتصلة بالسياسة المفروضة أول الأمر، يوم كنا لا نملك لأنفسنا من النفع شيئاً. ثم ذهبت العلة الأولى، ولكن الآثار بقيت من طريق تسلط العادة وتجمد المنهج. ومن هنا اختل التوازن: تكسرت القيود الاجتماعية، فانفسحت مسالك الحياة وانبسطت مرافق العيش - والمدارس لا تنفك تخرج طوائف متماثلة من بغاة الرزق الهيِّن، لفتور في عزماتهم، وقصور في مداركهم. ذلك الرزق الذي تناله وأنت جالس إلى منضدة عليها ركام من الملفات والأضابير، فلا طموح ولا اعتماد على النفس ولا رغبة في التميز عن النظراء باقتحام باب من أبواب الاحتراف الصعب، وشق أفق من آفاق الارتزاق. . .

(بقيت هذه الآثار، على سعي أولى الأمر في محوها. وسبب ذلك أن الإصلاح، في مثل هذه الحالة لا يكون من باب التصور والتخيل. وشتان ما الإزماع والإنجاز. فعلى المشرف على التعليم أن ينظر في وجوه الحياة ويتتبع موارد الكسب. والحياة تقوم، أول ما تقوم، على المادة؛ وموارد الكسب إنما هي السوق على تفاريقها وتفاريعها. وهكذا تصح الوجهة إذ تعلم المقصد.

(وإذا قلت السوق عنيت التجارة والصناعة والزراعة، وما ينطوي تحتها جميعاً أو يأخذ مأخذها. والمدارس المصرية التي تعلِّم هذه الفنون الثلاثة قليلة، ونسبتها إلى المدارس التي تخرج الكتبة والموظفين حقيرة. ومن هنا ترى أن التوظف في مصر سيعاني ما يقال له:

(التضخم) من وجهٍ، ويعجز عن ضم جميع طلابه من وجهٍ آخر. وينشأ عن هذا أمران: الأول بقاء سلطان الموظف البليد الحركة، والثاني البطالة. وينضاف إلى كل ذلك أن مرافق الحياة الاقتصادية مصيرها الانحلال أو تخرجَ من قبضة المصري إلى الأجنبي، بل قُلْ: أو تبقى في قبضة غير المصري.

(ثم إنه يحسن بنا أن نفسح من مجال السوق نفسها، فنشق سبلاً جديدة ثم نُعدّ لها الناس في المدارس؛ ولا يكون إلا بمعاونة وزارة المالية ووزارة التجارة والصناعة. وعلى هذا النحو نمطُّ دائرة الحياة الاقتصادية ونوزّع همم النشء، فلا تنحصر وجوه النشاط في مصارف معلومة مربوطة، ولا تنقلب المنافسة إلى مناوأة. وفي ذلك كله

(أسباب غنى للبلد فضلاً عن استغناء.)
قال الرجل مقاله السديد، ثم نهض ونهضنا إلى الغداء فملت إلى صديق لي فسألته: من الرجل؟ فقال: الدكتور السنهوري. واتفق لي أن جلست إليه بعد ذلك، فإذا هو على أوفر علم وألطف أدب.
وجمعني بالسنهوري بك مجلس جِد، لأسبوعين مضيا. وجرى الحديث على خطّة وزارة المعارف في التعليم. فنطق الدكتور السنهوري - وهو الآن وكيل الوزارة - بما كان نطق به و (النيل) تحملنا إلى شواطئ أوربة. فأيقنت أن هذه الخطة مما ظفر بالرؤية والتثبت؛ فما هي بالمرتجلة ارتجالا ولا المبتدعة بحكم العمل.
وقد بدا لي أن أسأل وكيل الوزارة في شأن الثقافة، وما تكون حالها إذا هو صرف همه إلى وجوه الحياة الاقتصادية. فقال: إني أدرك ما وراء سؤالك من القلق لأحب الأشياء إليك وأعلاها عندك. فلا عليك، لا عليك! إن الثقافة لا تزال موضع عناية. على أننا لابد لنا من السهر على مستقبل العيش من بسط مرافق الحياة المادية وإعداد النشء لها. هنا سهر وهنالك عناية؛ والتفاوت بينهما في الدرجة، لا في المرتبة، على قول الفلاسفة قلت: لأهل الثقافة إذن أن يرقبوا الإصلاح هنالك. فهل تنظر الوزارة في إخفاق المعهد الملكي للموسيقى العربية، وتراجع طريقة إنشاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية، وتسال كلية الآداب عن صحة ما يقال فيها، وتردّ بعض كبار موظفيها عن الاستبداد بتقرير الكتب، وتجعل لتصرّف بعضِ موظفيها من الأجانب حداً واجباً (فلا تعود قصة نفائس دار الآثار)
العربية): (الرسالة) رقم 304 و 306، ولا قصة المدرس الفرنسي: مازويل الذي نال - فيما قيل لي - شهادة الدكتوراه في الآداب من جامعة باريس على حساب الحكومة المصرية)
ذلك قليل من كثير. وأجلّ من ذلك شاناً أن تصلَح طرائق التلقين فيخرج النشء للقراءة والتطلع والتفكير والمرح، لا للكسل والبلادة والتقبض. واظنني فصّلت ذلك في بحث نشرته (مجلة الدراسات الإسلامية) في باريس (1936)؛ ولا حاجة بمثل عبد الرزاق السنهوري بك إليه.
بشر فارس
النقد الأدبي
قراء (الرسالة) يذكرون مقالي في نقد خطاب العرش من الوجهة الأدبية، ويذكرون أن بعض الجرائد والمجلات قالت إني تخطيت الجانب الأدبي إلى شؤون وطنية ودستورية وتاريخية، ومن الصحفيين من أشار إلى أني موظف بوزارة المعارف، وهي إشارة لها مدلول!
فهل أستطيع أن أدافع عن نفسي؟
هل أستطيع أن أقول إن النقد الأدبي لا يُقْصَر على المفردات اللغوية كما قالت إحدى المجلات؟
النقد الأدبي هو درس الصلات بين التعابير والأغراض، فلو درست نصاً فقهياً لكان من واجبي أن أنظر إلى المعنى من ناحية فقهية، ولو كان النص فلسفياً لكان من واجبي أن أنظر إليه من ناحية فلسفية، ومع ذلك أظل في حدود النقد الأدبي
وخطاب العرش بطبيعة موضوعه يتعرض لشؤون وطنية ودستورية وتاريخية، فنقده من وجهة أدبية يستوجب أن ننظر فيما احتواه من هذه الشؤون، فكيف يستجيز بعض الناس أن يقول إني اتخذت من النقد الأدبي ستاراً لأغراض سياسية؟ ومعاذ الوطن أن أتبرأ من قول الحق، ولكن يجب أن أنصف نفسي فأقول إني لم أتجاوز الحدود الأدبية في نقد خطاب العرش، فمن طاب له أن يقول إني موظف بوزارة المعارف ليحدَّ من حرية الفكر فليمض
في طريقه وهو مغفور الذنوب، لأنه على كل حال مواطنٌ عزيز.
وهنا مسألة يجب النص عليها لأهميتها من الوجهة القومية:
إن مقالي في نقد خطاب العرش مرَّ على الرقابة بوزارة الداخلية فأجازت نشره وهي تعرف أني موظف بوزارة المعارف، فما معنى ذلك؟
معناه أننا في مصر وطن الرأي والحرية ومَشرِق النقد الأدبي
فإن قيل إن هذه أول مرة يُنقد فيها خطاب العرش من الوجهة الأدبية فسيقال أيضاً إن

هذا تقليد يصدر أول مرة عن وطن مصطفى كامل ومحمد عبدة وسعد زغلول.
والصحفيون الذين أرادوا أن يعدّوا هذا المقال من ذنوبي قد
نسوا أني زميل قديم، له عليهم حقوق، وفيهم من يذكر أن
هو أيضاً وطنيٌ له أهداف سامية، وبعضهم يحفظ (الموظف)
الآية الكريمة: (ولا يَجرِ منَّكم شَنَآنُ قوم على أن لا تعدلوا)
زكي مبارك
في كلية الآداب
في منذ أسابيع أقرأ (الرسالة) الغراء حملة على مدرس في كلية الآداب، حمل لواءها
أول من حمل صديق للدكتور بشر فارس على لسان الدكتور بشر، وتلاه من بعد
(جامعيان) آخران. ولا يعنيني من هذه الحملة إلا أن أراجع الوقائع التي سردها الدكتور
بشر فارس نقلاً عن صديقه، ثم ما ذكره الآخران من وقائع أخرى. وإلى الدكتور بشر
أولاً أسوق الحديث:
ذكر في حديثه عن هذا المدرس مسالتين: الأولى تتصل بمكتبة الجامعة؛ والثانية تتصل
باستقدام الأستاذ الدكتور سالومون بينس
أما المسألة الأولى وما ذكره في شأنها من أن هذا المدرس (يتلطف ليظفر بإدارة
شؤون مكتبة الجامعة) فلعله قد اقتنع من الحديث التليفوني الذي ساقه إليه أحد كبار
الأساتذة في كلية الآداب، وهو ولي الأمر فيما يتصل بشؤون مكتبة الجامعة الخاصة
بكلية الآداب، إن
هذا (التلطف) نفسه لا أساس له من الواقع، وإنه من اختراع مخيلة صديقه الخصبة
الجريئة. بل إن المسألة على العكس من ذلك تماماً. فإن صلة هذا المدرس بمكتبة
الجامعة صلة يجب أن نشكره عليها كل الشكر، فقد أدى لمن يريدون البحث في
المسائل الإسلامية أجلّ الخدمات دون أدنى مقابل. ويكفي أن تعلم أنه خلق قسماً
خاصاً في المكتبة يجمع كل ما تحتويه من كتب إسلامية عربية أو غربية، وأنفق جهداً
ضخماً في مساعدة القائمين على شؤون هذا القسم من موظفي المكتبة من حيث
جمع الكتب وتبويبها ووضع الفهارس لها والإرشاد عن مظان المسائل الإسلامية
المختلفة. كل هذا الجهد الهائل قد بذله دون أن يؤجر عليه، على أي نحو من الأنحاء.
فصلته بالمكتبة إذاً صلة فضلٍ عليها لا صلة فضول، صلة يجب أن يسجل له الباحثون
في المسائل الإسلامية من أجلها أعظم الشكر
وفيما يتصل بالدكتور سالمون بينس يجب أن تقرر أولاً أن هذا المدرس في كلية
الآداب لم يقترح مطلقاً على الكلية أن تستقدمه. بل إن صلته بالدكتور بينس منقطعة
منذ أكثر من سنة ونصف، وليس أدل على تهافت كلام صديق الدكتور من ذكره أن
قسم اللغة العربية قد نشطت آذانه لسماع اقتراح هذا المدرس. فمثل هذا الاقتراح لا
يتعلق بقسم اللغة العربية، وإنما بقسم الفلسفة، لأن الدكتور بينس يشتغل بالفلسفة
الإسلامية فحسب، وليست له مشاركة في أية ناحية أخرى من نواحي الاستشراق؛
فإذا استقدمته كلية الآداب، فذلك لكي يكون مدرساً للفلسفة الإسلامية بقسم
الفلسفة.
هذا هو الواقع في مسألة صلة هذا المدرس بالدكتور بينس وما قيل عن اقتراحه
المزعوم.
أما مسألة استقدام الدكتور بينس فهي في ذاتها أمنية تجيش في نفوسنا نحن
المدرسين المصريين المستقلين بالفلسفة الإسلامية وليس أدعى إلى اغتباطنا من أن
يأتي إلى الكلية مدرس في تدريسه أعظم الفائدة للطلاب، ونهوض بمناهج الدرس
للفلسفة الإسلامية. في كلية الآداب نهوضاً كبيراً. فالدكتور بينس مستشرق ممتاز،
وقطب من أقطاب الجيل الذي بدأ يتبوأ مركز الصدارة في حركة الاستشراق بعد أن
انقضى الجيل السابق من المستشرقين أو كاد بعد موت المرحوم نلينو. وأن أعجب
لشيء فعجبي لجهل الدكتور بشر فارس بمكانة بينس مع أن الدكتور بشر فارس ممن
لهم إلمام بحركة الاستشراق غير قليل، وأغلب الظن أنه إنما تجاهل بينس - ولم يجهله
- حرصاً على إرضاء شهوة الصديق أن
ينال من هذا المدرس في كلية الآداب. فيكفي أن يذكر المرء من أبحاث الدكتور بينس
(رسالته في مذهب الجوهر الفرد عند الإسلاميين) فهذا البحث من أحسن البحوث التي

كتبها المستشرقون في الفلسفة الإسلامية على الإطلاق؛ وسيرى ذلك قراء العربية حينما ننتهي من طبع ترجمتنا لهذه الرسالة. هذا ولم نذكر مقالاته العربية التي تظهر في مجلات المستشرقين وخصوصاً في مجلة (الحضارة الإسلامية) التي يصدرها بعض الهنود المشتغلين بالدراسات الإسلامية وهذه الأبحاث التي كتبها بينس تمتاز بالطرافة في النتائج التي يصل إليها، والاستقامة في مناهج البحث الفيلولوجي والعمق في فهم المذاهب الفلسفية الإسلامية وغير الإسلامية

فاستقدام الدكتور بينس للتدريس في كلية الآداب فائدة كبرى، وأمل اعز ما نرجوه من أجل مصلحة الدراسة في الكلية أن نراه عن قريب وقد تحقق.

ومن هذا كله يتبين أن الحال في المسألتين اللتين ذكرهما صديق الدكتور بشر ليست كما زعم الصديق. بل هي على العكس من ذلك تحملنا على تسجيل الشكر لهذا المدرس في كلية الآداب أما المسائل التي ذكرها الجامعيان الآخران فلا تستحق منا أن نرد عليها بأكثر من قولنا إن ما ذكر باطل كله. فالمرتب الذي يتناوله هو المرتب العادي الذي يتناوله أصغر المدرسين الأجانب بالكلية، وقصة الخمسمائة الجنيه قصة أقل ما تستحقه هو السخرية لبطلانها، وفي هذا فليرجع إلى كلية الآداب من شاء.

وأخيراً أقول لمن تحدث عن الحق منهم كما أقول لزميليه الآخرين: اتقوا الله في الحق أمام ضمائركم، قبل أن تدعوا اتقاءه فيه أمام الناس حتى لا تضطروا إلى الدفاع عن أجنبي مواطناً لا يؤذيه شيء قدر أن يلجأ إلى الدفاع عن أجنبي بازاء مواطنين

عبد الرحمن بدوي

المصريون في ميدان الثقافة

اطلعت في مجلة الرسالة بالعدد 333 على كلمة قوية على هدوئها للدكتور بشر فارس تحت عنوان (في كلية الآداب) أثار فيها مسائل هامة تمس الحياة الثقافية عندنا. واطلعت بعد ذلك في مجلة (المصور) تحت عنوان (النبوغ في مصر. هبوط سعره في بورصة

الحكومة) على بيان للأستاذ فكري أباظة ذكر فيه حقائق خاصة بضياع حقوق الجامعيين من الشباب المصري. وقد تلت كلمة الدكتور بشر في الرسالة كلمة أخرى لزميل (جامعي) بيَّن فيها كيف يحظى المدرس الأجنبي بما يعز على المدرس المصري في بلده، ثم كلمة ثانية تعززها بقلم (جامعي آخر).

ولقد سمعت - حين كنت بباريس - أن بعض أولئك الأجانب - وكان قد قضى بمصر سنوات - لما سمع لأول مرة قدر المرتب الذي عرض عليه لم يصدق أذنيه؛ فلما رأى كشف المرتبات كاد لا يصدق عينيه! ومما لا نشك فيه أنه لو عرض على أمثاله نصف المرتب لقبلوه ولكانوا هم الفائزين. هذا مع العلم بأن في المدرسين والأساتذة الأجانب نخبة لا ينكر فضلها وعلمها عندنا جميعاً.

كيف يرفع المستوى الاجتماعي والأدبي عندنا وبين قادة الثقافة من ينتقص من أقدار مواطنيه وينظر إلى المتعلمين الأكفاء منهم كأنهم من طينة دون طينة الأجنبي إطلاقاً. . . أما تعلَّمنا لغة الأجانب على طول الاحتكاك بهم، أعني لغة الوطنية الصحيحة لا لغة الكرم والضيافة والدعاوى العريضة التي لا تجدي؟

ثم لِمَ تنفق أموال الدولة على أعضاء البعثات الذين يقضون في الخارج سنين أكثر أيامها جهد وكد، فإذا عادوا إلى الوطن أشد ما يكونون حماسة لخيره وتلهفاً إلى العمل لخدمته، رأوا زملاءهم الأجانب أوفر حظاً.

رحم الله شوقيَّاً إذ قال:

إحرام على بلابله الدو ... ح حلال للطير كل جنس؟

جامعي ثالث

حول المصحف المحرف

جاءنا من الأستاذ شيخ المقارئ ما يأتي:

اطلعت على الكلمة المنشورة بالعدد رقم 334 من الرسالة الصادر في 27 111939 بشأن أخطاء في مصحف يسمى (التنزيل الرباني): طبعه عبد الرحمن أفندي محمد - ورداً عليها أفيد أن المصحف المذكور قام بطبعه ونشره ذلك الملتزم بدون مراجعة ولا إذن. وقد سبق لنا رفع أمره إلى مشيخة

الأزهر في شهر يناير سنة 1939، وطلبنا منها إلزام ناشره
بإصلاح أكلشيهاته ونسخه التي طبعت عليها مع منعه من
الاتجار بها بدون إصلاح. وتفضلوا بقبول فائق الاحترام.
الضباع
شيخ المقارئ
شمال أفريقيا والأستاذ الحصري
يقول الأستاذ الحصري في مقاله (بين الوحدة الإسلامية والوحدة العربية) الرسالة
328 - (إن العالم الإسلامي يشمل الأقطار العربية وتركيا وإيران والأفغان وتركستان
مع قسم من الهند وجزر الهند الشرقية وبلاد القفقاس وأفريقيا الشمالية مع قسم في
أفريقيا الوسطى)
فالأستاذ الحصري يوهم أن الأقطار العربية هي فقط مصر والشام والعراق والحجاز
واليمن أما أفريقيا الشمالية التي تبدأ من تونس وتنتهي بمراكش فهذه عنده بلاد
إسلامية وليست بعربية. فهل هذا هو الحق يا سيدي الأستاذ؟
لقد انصرم أكثر من اثني عشر قرناً على تعريب أفريقية الشمالية ودلت الحوادث على
أن جريان الزمن لا يزيدها إلا تمسكاً بعروبتها وقوميتها؛ ولكن بعض إخواننا في الشرق
ينكرون - عن غير عمد - هذه الحقائق البسيطة.
والأستاذ الحصري نفسه زار شمال أفريقيا منذ أشهر قلائل ووصل إلى المغرب
فتطلعنا لرؤيته ورجونا خيراً من زيارته للقطر العربي الذي تجهله الأقطار العربية
وبحثنا عنه في كل مكان فما أسعدنا الحظ بلقياه.
سلوه هل زار كلية القرويين وشاهد مكتبتها العربية؟ سلوه هل طاف بمدارس فاس
الأثرية
وشاهد ما تركته يد العرب بجدرانها؟ سلوه هل زار قصور إسماعيل بمكناس ومنارة
الكتبية بمراكش ودار الآثار العربية بفاس وهو مدير لمثل هذه الدار ببغداد إن لم
تخطئني الذاكرة.
سلوه بالله ماذا أفاد من رحلته إلى (مجاهل!) أفريقيا الشمالية كان يمكنه أن يعلم
شيئاً كثيراً عن عربية هذه البلاد لو اتصل بعلمائها وأدبائها واختلط بالشعب الذي يود
التعرف بأمثاله من نبهاء الشرق.
وعلاوة على ذلك فإن المغرب وهو جزء من أفريقية الشمالية يمتاز في عربيته بوحدة
دينية مذهبية لا تجدها في غيره من الأقطار العربية كمصر أو سوريا أو العراق؛ فليس
في المغرب أقليات دينية سوى أقلية ضئيلة من اليهود الذين يتكلمون باللغة العربية.
وسوى أقلية تافهة من الأجانب الذين نزلوا المغرب بعد الحماية
أما الوحدة المذهبية فالمغرب من أقصاه لأقصاه على مذهب إمام دار الهجرة مالك بن
أنس، وليس فيه طوائف دينية كالرافضة أو الأباضية أو غيرهما من بقية الفرق الدينية
التي توجد كثيراً في بلدان الشرق العربي والإسلامي.
الحق أن النزعة القومية المتأصلة في دمائنا هي التي تضطرنا أحياناً لإصلاح أغلاط
إخواننا العرب فينا، فمتى يكون بين البلاد العربية سفراء سياسيون وثقافيون يقومون
بربط العلاقات الثقافية والسياسية بين أبناء البلاد العربية؟
(فاس)
أبو الوفا
الاحتفال الرسمي بضريح أبي العلاء
روت صحف سورية أنه احتفل بالمعرة بوضع الحجر الأساسي لضريح الفيلسوف
الشاعر أبي العلاء المعري؛ وقد حضر هذه الحفلة رجال الحكومة وافتتحها السيد
طالب الحراكي بكلمة ترجمها إلى الفرنسية السيد زكريا شكري وقد تقدم رئيس
المديرين والمسيو هوتكلوك فوضعا الحجر الأساسي وألقى رئيس المديرين خطاباً
تكلم فيه عن عبقرية أبي العلاء وأن الأمة التي أنجبته تنجب مثله ما دامت مياهها
مياهها وسماؤها سماءها، ثم شكر رجال فرنسا والمندوبين وكل من شجع الحكومة
بحضور هذه الحفلة. ثم وقف المسيو هوتكلوك
فألقى خطاباً أعرب فيه عن سروره باشتراكه في الحفلة وذكر شهرة أبي العلاء وأنه
كان أبدع مظهر للذكاء العربي، وأسهب المندوب في الكلام عن شعره، ثم شكر باسم

المفوض السامي وباسمه الذين قاموا بهذا المشروع وهنأ المعرة وتمنى أن تحذو البلاد السورية حذوها.

جائزة مختار للنحت لعام 1940

تقيم جمعية أصدقاء مختار في هذا العام مسابقة في فن النحت إحياء لذكرى المرحوم المسيو فيس صديق المرحوم مختار الذي ساهم بقسط وافر في نهضة الفنون الجميلة بمصر وظل لآخر لحظة من حياته عضواً عاملاً في جمعية أصدقاء مختار.

وجائزة هذا العام قدرها خمسة وأربعون جنيهاً مقدمة من حضرة صاحبة العصمة السيدة الجليلة هدى هانم شعراوي. وهذه الجائزة على ثلاث درجات: الأولى 20ج والثانية 15 ج والثالثة 10 ج

وموضوع المسابقة (الحرف الجوالة) وللمشتركين في المسابقة الحرية في اختيار نوع الحرفة ووضع المحترف الجوال كأن يختار واحداً من هؤلاء:

بائع العرق السوس. قرداتي. مسحراتي. حاوي. نبين زين. سن السكين وسن المقص. بائعة اللبن. بائعة علي لوز. السقا. غزالك ربَّع. يا جابر. بخور عاشوراء. حب العزيز. . . الخ

وآخر موعد لقبول الاشتراك في هذه المسابقة هو 29 فبراير سنة 1940 ويجب أن يقدم المشتركون في المسابقة تماثيلهم قبل نهاية يوم 25 مارس 1940 بصالة العرض التي سيعلن عنها في الوقت المناسب

والمرجو من حضرات الفنانين الراغبين في الاشتراك في هذه المسابقة أن يقدموا طلباتهم إلى سكرتير (جمعية أصدقاء مختار) جبرائيل بقطر أفندي بشارع الأنتكخانة رقم 6 بالقاهرة ت 52947

رواية (الأمل) على مسرح الأوبرا

حسبك من هذه الرواية أنها تدعو الجيل الجديد للتحرر مما يرسف في أغلاله الجيل القديم

وأنها تفتح عيون الشباب على حياة جديدة بهم

أما أنها تعبر أو لا تعبر عن الروح المصرية فهذا ما ندعه جانباً إلى حين، وحسبنا أن المؤلف (هنري برنشتين) كان فيها إنساناً أكثر من مواطن فرنسي، فهو لم يعبر عن حالة معينة في الخلق الفرنسي والبيئة الفرنسية وإنما أراد أن يرسم للشباب كله - الذي خرج من الحرب منهوك القوى محطم النفس. مندفعاً بكل قواه إلى الملذات والمباهج - حياة جديدة، وأن يدعو إليها طالباً منه أن تكون لديه الشجاعة الكافية للانتفاض على الجيل القديم وتقاليده وما عرف عنه من الاستسلام للأمر الواقع وانتظار حكم الزمن. . .

أما ممثل الشباب فإنه كان قوياً بحيث لم يخش الفضيحة وألسنة الناس وهو يسترد كلمة أعطاها ووعداً ارتبط به مع فتاة عابثة ليعطي كلمته فتاة جديرة بحمل اسمه، هي أخت الأولى ومن لحمها ودمها.

ولم يستطع ممثل الجيل القديم أن يكون الإنسان الذي يدافع عن سعادته وهناءته العائلية واكتفى بأن يكون سلبياً في انتظار حكم الزمن، أما ممثل الجيل الجديد فقد أصدر حكمه بنفسه وفي الحال، فآب الأول بحياة كسيرة وفاز الثاني بحياة حافلة بشتى ضروب السعادة والهناء.

وبعد فإن مقتبس الرواية أو على الصحيح اللذين قاما بترجمتها وتمصيرها قد فعلا القليل في هذا السبيل. ارتفعا بأشخاص الرواية إلى الطبقة الأرستقراطية كما يبررا هذه الحياة الأجنبية التي تحياها هذه الطبقة عندنا، وقالا في برنامج الرواية:

(وأن تفتح عينيها - أي الزوجة العابثة - على حقائق الحياة المصرية فتعلم أن التقليد الأعمى لعوائد الغرب إنما ينقلب في جونا الشرقي وبالاً وشقاء على الأسرة)

فالمقتبسان على ذلك يأخذان الصورة كما هي بنصها وفصها ليكون لهما مجال للتنديد بهذه الطبقة الأرستقراطية التي تقلد تقليداً أعمى عوائد الغرب. على حين أن الرواية لا تقصد إلى شيء من هذا وإنما ترمي إلى ما هو أسمى وأعم نفعاً وأوسع مدى من هذه الفكرة المحلية، فهنري برنشتين يرى أن خضوع رجل الزوجية العابثة يفقده هناءه العائلي ويحطم كيان أسرته؛ وفرق كبير بين هاتين الفكرتين. وما دعا المقتبسين إلى

الركون إلى ذلك إلا مخافة أن يقول النقاد إن أشخاص الرواية ليس في مصر من يشبههم، كما قالوا - أي النقاد - في
رواية لهما من قبل هي (الزوجة الثانية)
وهذه الرواية هي الثانية التي يخرجها الأستاذ فتوح نشاطي. فأما الرواية الأولى (تحت سماء أسبانيا) فقد كان نجاحه فيها شاملاً. سيطر على المجموعة سيطرة تامة فنال عن طريق ذلك الفوز المبين. أما في هذه الرواية فقد أفلت منه البعض برغمه؛ فما يستطيع أن يقوم اللسان المعوج أو العود المائل اللذين لم يقومهما الزمن، ومع ذلك فقد نجحت الرواية. وقد كان بارعاً البراعة كلها في ترتيب وتنظيم المنظرين اللذين ظهرا في الرواية، فقد نثر الأثاث في ظرف وأناقة بحيث لا يعوق الممثلين ولا يقصر عن حاجتهم، وكانت الحوائط قد زانتها الصور والمرايا في تناسق مثير وأناقة بالغة؛ وكأني بالمخرج ينظم عشه ويجمل الإطار الذي يعيش فيه.
أما التمثيل فقد كان موفقاً في أغلب المواقف. وليس يعاب على البعض إلا تعثره في الكلمات التي لم تعها الذاكرة الكليلة؛ وبالتالي إخفاقه في إنجاح المشاهد التي تعثر فيها. وعلى أي حال فلا بد من التنبيه إلى أن أول ما يعنى به الممثل هو حفظه دوره حفظاً تاماً فإذا لم يفعل فليس غريباً أن يخفق مهما كان فاهماً لدوره
وبعد فقد نجحت الرواية نجاحاً حد منه أنها خرجت بغير ثوبها الأصلي، فإن من رأينا ألا تمصر الروايات وأن يكتفي بترجمتها وإخراجها كما هي منسوبة إلى مؤلفيها دون سواهم. ومن رأينا كذلك أنه إذا عن لبعضهم أن يقتبس فكرة من رواية فليؤد معنى الاقتباس أداء دقيقاً وافياً فيأخذ الفكرة ويخضعها للبيئة التي ينقلها إليها ثم يكتب روايته من جديد غير ناظر إلى الرواية المصرية، فلا ينقل منها حواراً بنصه بل بروحه حتى يكون له فضل التأليف لا فضل النقل.
فرعون الصغير
العدد 337 - بتاريخ: 18 - 12 - 1939
صاحب المعالي وزير المعارف
على ذكر مراقبة الثقافة العامة
عرفك الناس يا صاحب المعالي في جميع أطوار النهضة وأدوار الجهاد رجل جد وعزيمة، وصاحب رأي ونفاذ. ولعلك واحد الزعماء في حب الصمت وكراهية الإعلان وإيثار العمل. ولقد كان توليك أمور المعارف أمنية من أماني النفس المصلحة طالما هفت بقلبك وقلوب رجال الثقافة. فإن داء وزارة التعليم قد استفحل وأعضل حتى استيأس منه الطبيب والعائد، وأنت من الرجال القلال الذين عرفوا أن هذه الزَّمانة التي خزلت هذه الوزارة عن السير في عصر السرعة إنما هي الذبذبة في سياستها والفوضى في ساستها والتواكل في جنودها. وكنت تنظر إليها من بعيد وهي تمشي متخلجة متخلفة فترجو أن يتيح الله لها قوماً غير القوم فينفخوا فيها من روح العصر ونشاطه ما يساعدها على مسايرة النهضة ومواتاة الحاجة.
وهاأنت ذا قد أتاحك لها الله كما رجوت ورجا أنصارك، وقد استقر الأمر واتسق الحكم واستبان الطريق، وعلى رأس الدولة ملك ديمقراطي النزعة عُمَري الإصلاح، يريد أن يكون عهده السعيد عهد مصر الذهبي في العمران والعرفان والسلطان والمنَعة؛ وعلى رأسة الحكومة رجل قوي الإدارة نزيه السياسة حر الضمير، يود أن يكون حكمه حكم الأمة في إشاعة الخير، وتوخي المنفعة، وتعميم العدالة! ولك وكيل منطقي الرأي أصيل الثقافة يتساير هواك وهواه في الطريقة والغاية. فنحن إذن حريون أن نرى وزارة المعارف في عهدك شيئاً آخر يختلف عن هذا الشيء في روحه ونظامه وعمله وغرضه ومداه.
إن مراقبة الثقافة العامة يا معالي الوزير هي الناحية التي ستخرج منها الوزارة عن سياستها الديوانية التقليدية التي انحصرت إلى اليوم بين جدران المكاتب وأبواب المدارس فلم تتصل بالفكر العام اتصالاً مباشراً تغذيه أو تهديه أو تعاونه. في هذه الناحية الجديدة ستلتقي الوزارة بالشعب وترى بعينها أنها فرطت في جانب الثقافة العامة تفريطاً لا يسعها فيه عذر. فالأدب لا يزال ناقصاً في نوعه، قاصراً في بيانه، قليلاً في نتاجه، ضعيفاً في انتشاره. فهو ناقص في نوعه لأنه أنكر قديمه وجهل جديد

الناس فلم يُغذِّه ماض ولم ينَمِّه حاضر، فبقي مُخْدَج الخَلْق لا هو ميت ولا هو حي.
ولقد كان أدبنا القديم في حدود مراميه
اللسان العام لخوالج النفس الإنسانية في أكثر بقاع الأرض، فلم تكن هناك فكرة تجول في ذهن كاتب، ولا صورة تتمثل في خاطر شاعر، إلا وجدت في هذا الخضَم المحيط صدفة تستقر فيها. فلما تحولت عن مذاهبه الأنهار وجفَّت على جوانبه الروافد، عاد كالبحيرة الراكدة المحدودة لا يمدها إلا قطرات المطر ودفعات السيل من حين إلى حين. فالقارئ العربي الحديث لا يجد فيما أثر منه ولا فيما استجد فيه غذاء عقله ولا رضى شعوره، لأن المأثور منه ناقص لانقطاعه عن سير المدنية، والجديد فيه ناقص لخلوه من الآداب الأجنبية. والغريب أن المرء يقرأ أي نابغة من نوابغ العالم في أي لغة من لغات التمدن إلا في اللغة العربية! فالتركي مثلاً يستطيع أن يقرأ في لغته هوجو كله، وشكسبير كله، وجيته كله؛ ولكن العربي لا يجد في لغته لهؤلاء العالميين إلا كتاباً أو كتابين اختارهما مترجم على ذوقه ونشرهما على حسابه. فإذا أردنا يا معالي الوزير لأدبنا أن يتسع في حاضره كما اتسع في ماضيه، فليس لنا اليوم غير سبيل الأمس: نرفده بآداب الأمم الأوربية، ونصله بتيار الأفكار الحديثة. فإن لكل أمة مزيا، ولكل بيئة خصائص. ولن يكون أدبنا عالمياً ما لم يلقح بآداب العالم. والمحاكاة والاحتذاء من أقوى العوامل أثراً في الأدب.
والأدب العربي قاصر في بيانه، لأنه مقطوع الصلة بحضارة العصر، فلا يستطيع أقدر كتابنا أن يتحدث عما يستعمل من ماعون وأثاث، ولا أن يصف ما يركب من باخرة أو طائرة. ومجمعنا اللغوي ليس في مقدوره بحكم تأليفه وطريقة عمله أن يقدم إلى الناس معجمه العتيد إلا بعد جيل أو جيلين، حين يكون كل شيء في العالم قد تغير أو تطور، فيصبح معجمه في الجدّة يومئذ كمعجم لسان العرب اليوم! فلا بد لهذه الحال من علاجك الحاسم يا معالي الوزير، فإن اللغة الناقصة هي نصف البَكم إن لم تكن أكثر الجهل!
والأدب العربي قليل في نتاجه ضعيف في انتشاره، لأن الأدباء ينتج بعضهم ليعض؛ فهم الذين ينشئون وهم الذين يقرءون. أما الخاصة فلجهالتهم لا يفهمونه، والعامة لأميتهم لا يعرفونه. وإذا حرم الأدب تشجيع الخاصة لا يزدهر، وإذا لم ينل إقبال العامة لا ينتشر، وإذا لم يكن حاجة هؤلاء وهؤلاء لا يتنوع. وعلاج ذلك يا معالي الوزير تعويض الأدب من تعضيد الجمهور بالمكافآت والجوائز؛ فإنها تحفز القرائح للعمل، وتضمن الإجادة بالتنافس، وترفع المستوى بانتخاب الأجود. وبضعة آلاف جنيه من الخزانة العامة ينفق أضعافها في تمهيد طريق أو تجميل بناء تخلق في الأمة أدباء عالميين، وتجمع لها من الأدب الصحيح ثروة.
ومِلاك ذلك كله يا معالي الوزير أن تفكر مراقبة الثقافة العامة في أمرين جليلين: أحدهما إنشاء دار للترجمة تنقل الآداب الأجنبية نقلاً كاملاً صحيحاً، فلا تدع نابغة من نوابغ العالم في العلم والأدب والفلسفة إلا نقلت كتبه ونشرتها على حسب ترتيبها وتبويبها في طبعاتها الأصلية؛ والآخر تأليف مجمع للأدب يقوم على رعايته وتوجيهه وتشجيعه ونشره؛ ثم يكون لقرائح الشباب وهي في أول الشوط مناراً وحمى، ولعبقريات الشيوخ وهي في آخره أمناً ومثابة. والأستاذ المراقب الذي اخترته يا معالي الوزير أقدر من يحقق الرجاء في هذه المراقبة متى ظفر بتسديدك وتأييدك وعطفك.
أحمد حسن الزيات

الإنسان والحيوان والحرب
للأستاذ عباس محمود العقاد

حركة!
إذن هو الخطر بعينه!
وهل في موقف الحراسة من الميدان حركة لها أمان؟. . . كلا. بل هو الخطر جد الخطر على الحارس وعلى من يحرسهم، وهم مئات ألوف.
ثم حفيف بين العشب!
فهو الخطر إذن يقترب، وهو الانتباه أشد ما يكون انتباه، والاستتار أخفى ما يكون استتار!
وانبطح الحارس وانتظر، ولمعت عينان على مقربة، فإذا بالحارس كله عيون، لو قتل

إنسان شيئاً بنظرته لمات صاحب تينك العينين في جنح الظلام!
وسدد الحارس الرامية، ومضت العينان تدنوان وتدنوان، وأوشكت القذيفة أن تنطلق لولا أن انطلاقها محظور لغير الخطر المحقق القريب، مخافة الانتباه من جانب الأعداء إلى موضع الحراسة وموضع المعسكر، فلا مناص من انتظار.
ثم بدا صاحب العينين برأسه وبشخصه:
الحمد لله. . .
هو كلب. . . وليس بإنسان!
تلك خلاصة قصيدة إنجليزية من قصائد الجنود في حرب الدردنيل الماضية.
حمد الشاعر ربه لأنه كان يحذر فصيلة الإنسان دون الفصائل جميعاً من عالم الحيوان، فهو من أخيه الإنسان على أخطر الخطر في ذلك الظلام. . . أما عالم الحيوان جميعاً، فهو منه في أمان!
لم أقرأ هذه القصيدة قط إلا ذكرت شاعرنا العربي حين يقول:
عوى الذئب فاستأنست للذئب إذ عوى ... وصوت إنسان فكدت أطير
نعم. وأصدق ما يكون ذلك في مقام حراسة وفي ميدان قتال!
ثم قامت الحرب الحاضرة، فإذا ببطل من أبطال الحيوان، يعلو ذكره في كل ميدان، ويستوحونه القصائد والألحان!
ذلك توني المنسوف.
أو هو بالإنجليزية
أتعرفه؟
لم أزدك به معرفة على ما يظهر، فاعلم أنه قط من مشاهير القطط في الدنيا، أو هو الآن من مشاهيرها بعد أن لم يكن على بال أحد غير أصحابه وعشرائه قبل بضعة أسابيع.
كان يومئذ في سفينة إنجليزية أغرقتها الغواصات على مقربة من شواطئ السويد، وبصر به جندي في الماء فعاد إليه ونجاه ولم يحفل بما يصيبه من مكامن البحر (الملغوم) في سبيل هذه النجاة: نجاة توني المنسوف!
وضبطه رجال الميناء ميناء جوذنبرج فاعتقلوه، وقرروا إبادته في المحجر كما يصنعون بالحيوان من قبيله إذا خيفت منه العدوى أو احتاج أمره إلى الرقابة والتمحيص. وأين هي الحكومة التي تنفق على حيوان طريح من طرائح البحر حتى ينجلي الشك فيه، فإما سليم فيرسل، وإما مصاب فيباد!
يباد؟
إن الجنود الذين أنقذوه من الغرق لم ينقذوه من الماء ليقذفوا به إلى النار المحرقة أو إلى السم الزعاف.
فلن يباد توني المنسوف، وفي أولئك الجنود بقية من دماء.
واتصلت المشكلة بالصحيفة الوقور التي أسماها بعضهم بالدولة المستقلة، وهي صحيفة (التيمس) اليومية.
فكُتبت الحياة لتوني المنسوف!
وتقاطرت الهبات على ميناء جوذنبرج للإنفاق على ضيفها المضنون به على غير أهله، طوال مدة الرقابة الصحية وعدتها ستة شهور.
وجاشت قرائح المصورين وقرائح الشعراء.
فظهرت في الصحيفة صورة (توني) على لوحة تغوص وتطفو بين اللجج المزبدات، والحطام المتناثر من الأحياء والأموات.
وعلى رأسه طيارات، ومن حوله غواصات، وهو بينهن كأشجع ما يكون الشجعان من البطولة والثبات!
وكتب شاعر تحت الصورة هذه الأبيات:
(المخلوق الضعيف القليل النصير في ألعوبة من ألاعيب الأقدار، يبدو أنها ختام قدّر له من وجود.
(تولته صداقة (التيمس) فامتدت به حبال الأجل الممدود.
(ووثب من ذراعي الموت إلى أحضان الشهرة والخلود.
(لقد كان مجهولاً لا عنوان له بين قطط العالمين.

(فارتقى سلم الشهرة قفزة واحدة إلى مكانها المكين.
(مذكور الأحزان والأشجان بين الناس، معروف الشجاعة على كل لسان مبين، من المادحين والمعجبين.
(والآن تتلقى أنباءه أمواج الأثير، وهو قابع في المحجر مستقر أمين.
(يشرب اللبن ويستطعم الغذاء، ويلعب ويطرب ويستكين.
(وعلى ضفاف السويد من خليج بوهاس الجميل الموصوف.
(ينتهي منظر القصة المنظومة، وتبتدئ شهرة توني المنسوف.
(وتسري على (الكاتيجات) أنفاس الخضم، وآهات الخريف!).
اقرأ هذه القصيدة الظريفة وقل معي: يا لذلك القط من حيوان مجدود!
بل قل معي: يا للإنسان من حيوان مكدود منكود!
ولا تعجب أن تكون هذه عنايته بقط مسكين، وفي العالم حرب ضروس تنذره بهلاك الألوف أو الملايين.
أو إن عجبت فاعلم أنني لا أعجب مما أرى وأسمع من أشباه هذه الأنباء، ولا أراها أهون ولا أهزل من أن تشغلنا بعض الشغل في هذا البلاء أو عن هذا البلاء.
فأهون ما فيها أنها لا تيئس من العاطفة الإنسانية، وأنها تزيدنا علماً بسرائرنا النفسية، وأنها توازن ما في الحرب كلها من عداء، بما في ودائع القلب الآدمي من شغف بالمودة وحرص على الولاء، وشوق إلى الوفاء.
إن عداء الحرب لا يستنزف ما في النفس من ينابيع الرحمة بل ينبش عنها في الأعماق فيرسلها على شتى الصور وأغرب المناسبات.
فكلما اشتد العداء كان اشتداده مدعاة إلى اشتداد البحث عن جانب المودة والرفق، وجانب الألفة والمعونة، وجانب الطمأنينة إلى ملاذ في قرارة الحياة.
ولهذا تعظم الحرب لأنها تشمل الملايين من أفراد السلالة الآدمية.
وتعظم إلى جانبها حادثة (توني) الضعيف لأنها تشمل نفس الإنسان، أو تشمل جميع بني الإنسان.
ونحن بصدد الحيوان والإنسان فلنختم هذا المقال بقصة طريفة من قصص هذا المقام.
على الصفحة الأولى من الصحيفة الإنجليزية المصورة (اللستراتد) رسم كبير لكلب من فصيلة (البول دوج) المشهورة بين الإنجليز وعلى رأسه قبعة من قبعات الجنود.
ومناسبة هذا الرسم أن (المذياع الألماني) أشاع في الشهر الماضي أن الغواصات الألمانية أغرقت (السفينة) كستريل وليست هي بسفينة ولكنها نقطة تدريب برية يختبرون فيها سلاح السفن ويتبعونها من أجل ذلك لوزارة الشؤون البحرية.
فلما شاع هذا النبأ المضحك بين جنود تلك النقطة نقله الجندي الذي يخلع قبعته على كلبها المحبوب إلى ذلك الكلب الغافل عن مذياع الألمان ودعوة الألمان، وقال له مازحاً:
أتدري يا بوللي أنك الآن في عداد الأموات وفي سجل الغرقى؟ هكذا يزعم جوبلز يأيها الميت الذي يدعي الحياة!
(قال الراوي: فزمجر بوللي غاضباً: (ومن هو جوبلز؟.
والحق أن بوللي ليقولها ويقول ألفاً من قبيلها!. . .
نعم. . . ومن هو جوبلز؟
ولهذا السؤال ولا ريب معناه!
عباس محمود العقاد
إليك رجعت يا قلبي
(لكاتب من الكتاب)
ينم عليه أسلوبه
قلبي، ألم يأن لك أن تعفو وتصفح؟
أنت تعرف أني لم اقبل على التحرير والتأليف في شؤون الأدب القديم والحديث إلا طلباً للسلامة من ظلمك وعدوانك، ولم أشغل قلمي بوصف أوهام المجتمع إلا لأصرفه عن الشغل بأحلامك وأوهامك.
فهل تراني مع ذلك نجوت من شرك؟
أنت تعرف أني لا أرى الناس من وقت إلى وقت إلا رغبة في الانصراف عنك، فإن

الخلوة إلى نَزَواتك وبدواتك تُشبه الخلوة إلى أوكار الأراقم، وملاعب الجنّ، ومساقط البراكين.
فكيف تريد أن أرجع إليك؟
إن لي عقلاً يعصمني من غيّك، فاصنع ما أنت صانع ألست أنت الذي أغراني بالتطلع إلى مشارق الأقمار والأزهار ومواسم الأفئدة والقلوب؟
ألست أنت الذي حدثني بأن النعمة الصحيحة هي جودة الفهم لأطاليب الوجود؟
فهل تراك صدقت فيما حدثت؟
وهل تراني أحسنت في الاطمئنان إلى وسواسك ونجواك؟
الدنيا في طاعتك ليست إلا مهالك ومعاطب، فكيف فاتني التوفيق فلم أتمرد عليك؟
ما رأيت إنساناً يعيش في سلام وأمان إلا حكمت بأنه يحيا بلا قلب.
ولا رأيت إنساناً مسلوب مَهْدود العافية، إلا عرفت أنه من أرباب القلوب.
فمتى أنجو من شرك يا قلبي؟
إن اشتباك المهلكات والمدمرات في المعارك البرية والبحرية والجوية ليست إلا صورة مصغَّرة لما يقع بيني وبينك حين أخلو إليك فمتى أنجو من شرك يا قلبي؟
وما يضمر الأعداء المتحاربون بعضهم لبعض، وما تضمر الغابة الشّجراء في ظلام الليل، وما يستتر في جوف المحيط من غَدَرات وفَتَكات، كل أولئك أخفّ وأهون مما تعدّه
لمحاربتي أيها القلب!
إن الحرب بين الممالك والشعوب يسبقها النذير ليأخذ الرجال أهبتهم للصراع والقتال، والحرب بيني وبينك لا يسبقها نذير حتى استعد لمصاولتك ومغالبتك. فمن أنت بين المغتالين، أيها القلب؟
وقد دَرج المقاتلون منذ آماد طوال على الترفق بأسرى الحرب وأنت لا تعرف الرفق بأسيرك، أيها القلب!
فمتى ينصرني الله عليك فأجزيك ظلماً بظلم وعدواناً بعدوان؟
أنت الذي جعل إيذاء الصديق للصديق من شرائع الوجود، أيها القلب.
فكيف أعاتب أصدقائي وأنت على قربك أول من أتلقى منه الطعنة الدامية؟
أنت تظلم وتغدر وتفتك، وما أسأت إليك في سر أو علانية، وليس بيني وبينك واش ولا نمّام ولا رقيب.
فكيف ألوم صديقاً يغدر أو يخون وبيني وبينه ألوف من المفسدين والمرجفين؟
عنك تلقيت درساً لن أنساه، أيها القلب، فعدوانك وأنت صديق لا تصل إليه الوشايات والسعايات دليل على أن الدنيا قامت على أساس منخوب لا يصلح للخلود.
لو كانت الدنيا أهلاً للجمال لكان من المستحيل أن تكون الأشواك أطول أعماراً من الأزهار والرياحين.
ولو كانت أهلاً للقوة لما جاز أن يقضي الأسد دهره وهو محموم.
ولو كانت الدنيا أهلاً للرفق والعطف لصار من العسير أن يفسد ما بيني وبينك، أيها القلب.
إن آهة الألم من الحيوان الفاتك هي التي تدل عليه الصائد المغتال حين يطرق الغابة بليل.
وزقزقة العصافير في الظلمات هي التي ترشد الثعابين إلى عشها الأمين.
ورحيق الأزهار هو الذي يسلط عليها خراطيم النحل.
والنور الذي ينبعث من مخدع آمن قد يعرِّض مدينة برمتها إلى غارة جوية.
فما الذي دلَّك عليّ، أيها القلب؟
دلتك القوة؟ دلَّك الرفق؟ دلَّك الضعف؟ دلك الشعر والخيال؟
أنا أعرف أني كتلة جسيمة من الأحلام والأوهام والحقائق والأباطيل، فمن أي جانب نفذت
إلي، أيها الغادر المغتال؟
تخلَّقْ مرة واحدة بأخلاق المحاربين الشرفاء، أيها القلب، وحدثني كيف استطعت النفاذ إلى ما أقمتُ من معاقل وحصون؟
أنت قوة خطرة مخوفة، أيها القلب، ومن حقك أن تَبغي وتستطيل، لأني سوّيتك بيدي،

وطوفت بك في الشرق والغرب لأمدك بأصول القوة والعنف، وآية هذا العصر هي نكران الجميل، فلا عتب عليك ولا ملام إن بذلتَ في إيذائي كل ما زودتك به من جهد وعافية (ومَن غرس الرياح جنى العواصف)!

كل حرب إلى سلام، وكل شقاق إلى وفاق، إلا ما بيني وبينك، أيها القلب.

سيتعب أعدائي فينسحبون من ميدان القتال، ولن تتعب أيها القلب، لأنك جذوة من العواطف لا تخمُد ولا تبيد.

فهل تراني أتمنى لك الخمود وأنت صديق؟

الناس على دين زمانهم، أيها القلب، وأنت اصطنعت الغدر طاعةً لزمانك، فكيف لا أستبيح الغدر طاعةً لزماني؟

أتراني ألتفت إلى رعاية الجوار؟ وهل رعيت أنت الجوار ومثواك بين ضلوعي؟

المودّات في الدنيا أخذٌ وعطاء، فكيف تنتظر أن يكون أمري كله إليك، ولا يكون لي سلطان عليك؟

كيف تنتظر ألاّ أتقدم أو تأخر إلا بوحي منك وأنت لا تسمع دعائي مرة واحدة فتَصدِف عمن تسقيهم الشهد ويسقونك الصاب؟

أنت الشريك المخالف، أيها القلب، والشريك المخالف تعوّذ منه الآباء والأجداد. فكيف أسلم من شرك ولن يفرِّق بيني وبينك غير الموت؟

إن أمرك لعجيب غريب، أيها القلب، فأنت تغدر بي، ثم تفي لسائر أصدقائك وأصفيائك.

أنت والله لئيم، أيها القلب، فأنت لا ترعى عهدي لأنك وثقت بأمانتي ثقةً أبدية. وأنت تراعي غيري ممن أحببت لأنك تخشى أن ينقلبوا عليك. والاتجار بالصداقة من أخلاق زمانك، وأنت ابن زمانك، فشرِّق في مكايدتي وغرِّب، فسأبقى بجانبك يوم تنكشف لك أخلاق الزمان فتصبح بلا صديق.

أراك انزعجت، أيها القلب.

الحمد لله، فلا يزال في الدنيا إخوان يزعجهم العتاب. وبالرغم مني أن يرقّ الصخر الذي جعلتُه علامة القِبلة في أوقات الصلوات لا تجزع، يا قلبي، فلن أعاتبك في كل يوم، فلست بالصديق الذي يشوك أصدقاءه بالعتب في كل حين.

أراك غضبت.

اتق الله والحب، أيها القلب، فقد صبرتُ على تجنِّيك عدداً من السنين، وما يجوز لك أن تثور على من ينطق بكلمة الحق مرة واحدة بعد أن صبر على كلمة الزُّور ألوف المرات.

كنت أودّ أن ألقاك بالهجر الجميل، أيها القلب، كما تعودت أن ألقاك في الليالي الخوالي، ولكني رأيتك تعدّ سكوتي علامة من علائم العجز أو دلالة من دلائل الشُّبهات، فاسمع صوتي يا جاحد، لتعرف أني أملك الثورة عليك حين أشاء.

ومن العجز أن تظن أن التفريط في حق الصديق يمرّ بلا عقاب، كما مرّت حسنات الصديق بلا ثواب.

تلك أيامٌ خَلَتْ. فأعدّ نفسك العاشق الذي صحا وأفق.

ما هذا؟ ما هذا؟

أراك تبكي وتنتحب أيها القلب.

أمن دعابة وجهتها إليك يتفجر حزنك وأساك؟

فكيف أكون وقد قضيت السنين الطوال في رأب ما يَصدَع الأصدقاء؟

كيف أكون ولي في كل يوم رفيق يغدر، وصديق يخون؟ أنا أثور عليك أيها القلب؟

وكيف وقد صفحت عن ذنوب قوم أسكنتهم في سوادك؟

أنا الأخير بين من تَعمَى عيونهم عن عيوب الصديق، أيها القلب.

وأنا الأخير بين من لا ترى عيونهم غير محاسن الصديق، أيها القلب.

فاغدر كيف شئت، وليغدروا كيف شاءوا، فأنا أحق من (الحجَر الأسود) يِحَمل الذنوب وسَتر العيوب.

ولن أنطق إلا يوم ينطق الحجر الأسود، فإن نطق فسأعتصم بالصمت.

أتراني أمنّ عليك، أيها القلب؟

أنت الذي تمنّ عليّ، لو شئتَ، وأنت تشاء لأن زمانك منّان، ولكني سأعفيك من رذيلة المنّ على الأصدقاء.
أنا أختلق المحاسن لأصدقائي، فكيف أبخل بالثناء عليك بما أنت له أهل؟ وكيف أجاريك في طمس محاسن الصديق وأنا أقوى منك؟
لا تنزعج من كلمة الحق، أيها القلب، فستسمع مني بعد ذلك ما يرضيك. أنا راضٍ عنك مع جهلك، لأن شعرنا يقول:
ولربما اعتصم الحليم بجاهل ... لا خير في يُمنَى بدون يسارِ
وعقلي محتاج إلى جهلك، أيها القلب ... أتذكر ما وقع في صباح اليوم؟
كنت في سيارة عمومية، وصعد زوجان إنجليزيان ومعهما طفل وطفلة، فوثب الطفل إلى صدري يسكن إليه، فنهرته أمه فغضب، وجذبه أبوه من يده فثار وجرى إلى باب السيارة لينزل وهي في جنون السرعة، وخاف والد الطفل فأشار إليه أن يتوجه حيث شاء، فأقبل الطفل على صدري من جديد، وأخذ يشير إلى أخته أن تصنع كما صنع، فقضيت المسافة وأنا أحتضن طفلين عزيزين في رقة الأزهار ونضارة الرياحين.
ونظر الأب والأم إلى هذا المشهد نظرة حنان وهما في عجب عُجاب، فقلت: لا تعجبا يا سيديَّ، فهذان الطفلان يعرفان بوحي الفِطرة أني رجل له قلب . . .
وشاءت ظروف عملي أن أنزل في منتصف الطريق فتشبث الطفل بي وهو دامع العين مكروب، فلثمت جبينه فاستراح، وأوى إلى صدر أبيه وهو جذلان.
وكان ذلك لأنك كنت في صحبتي، أيها القلب.
وأرادت إحدى الغوادر أن تنسى ما صنع قلمي في التشبيب بجمالها الفتَّان فدلت وتاهت، فأصليتها صدّاً بصد وإغضاءً بإغضاء، فهي منذ سبعة أشهر تترضَّاني برسائل تذيب الجلاميد وأنا ألقاها بصمت الأوثان، فهل كان يمكن ذلك إلا لأنك في صحبتي، أيها القلب؟
عندي ألوف من الشواهد على أنك المصدر الأصيل لما أملك من عنفوان القوة والعافية، فإن صح أنك أصل لما قد يساورني من ضعف فذلك دقة النصل في السيف الصقيل.
إليك رجعت يا قلبي، فارجع إليَّ كما رجعتُ إليك:
فاقد يُسعف الجريح أخاهُ ... ويواسي الغريب في الأحزانِ
(كاتب من الكتاب)
فنلندا أو سوومي
أحدث أمة في أقدم أرض
للدكتور مأمون عبد السلام
تقع فنلندا بين خطي العرض 60 - 70 شمالاً وخطى الطول 19 - 23 شرقاً، فهي في أقصى المعمورة شمالاً، وجوها أدفأ من جو البلاد التي تقع شرقيها على نفس خط العرض بسبب تيار الخليج الذي يمر بها. فمتوسط الحرارة في أبرد شهور السنة خمس عشرة درجة تحت الصفر في لابلندا شمالاً، و5 تحت الصفر في المقاطعات الجنوبية، ومتوسطها في الصيف 17 مئوية في الجنوب و14 في الشمال. ويكسو الثلج الأرض نحو مائة يوم في الجنوب ومائة وخمسين يوماً في الوسط ومائتين وعرين يوماً في لابلندا شمالاً، ويتساقط على ساحلها الجنوبي خمس وعشرون بوصة من الثلج والمطر، ونحو أربع عشرة بوصة في داخليتها الجنوبية. وكثيراً ما يشتد البرد صيفاً فيتلف الصقيع محصولاتهم كما في صيف سنة 1867 إذ أتلف المحصول فمات مائة ألف مزارع في الشتاء والذي تلاه واضطر عدد كبير من الفلاحين إلى النزوح إلى المدن للاشتغال في المصانع ليدفعوا عن أنفسهم غائلة الموت جوعاً.
وفنلندا سابعة دولة أوربية من حيث المساحة التي تبلغ 150. 005 أميال مربعة. فهي أكبر من الجزر البريطانية بما فيها ايرلندا، وهذه المساحة موزعة كما يأتي:
11. 5 % بحيرات أي 16150 ميلاً مربعاً، وأكبرها بحيرة لادوجا التي هي أكبر بحيرة في أوربا، ويصب في هذه البحيرات نهيرات صغيرة تتكون منها تتكون منها شبكة نهرية في جنوب فنلندا كلها صالحة للملاحة ويتولد من تياراتها القوية كميات هائلة من الكهرباء.
و1 , 6 % من الجزر في البحيرات أي 2385 ميلاً مربعاً.

و1 , 3 % من الجزر في البحر أي 1968 ميلاً مربعاً.
والباقي وهو 85 , 6 % عبارة عن أرض قارية.
و73. 6 % من أرض فنلندا تكسوها الغابات و6. 3 % أرض زراعية.
وتقع فنلندا بين بحر البلطيق والبحار المتجمدة الشمالية، وتحيطها الأراضي الروسية والسويدية وجزء بسيط من شمال النرويج، فهي أقصى جمهورية في شمال العالم. وتحتوي
على جزء كبير من لابلندا، وفي جنوبها الغربي على جزائر خليج فنلندا وأرخبيل ألاند، وبه ما لا يقل عن ستة آلاف جزيرة.
وأرض فنلندا عبارة عن عدة هضاب يرتفع بعضها إلى 3750 قدماً عن سطح البحر.
وكان عدد سكانها في سنة 1751 نحو 429900 نسمة فارتفع إلى 832650 بعد خمسين سنة، ثم إلى 1. 636. 95 بعد مائة سنة، وإلى 2. 520. 437 بعد مائة وخمسين سنة، وأصبح 2. 712. 562 في سنة 1904. وقد بلغ الآن ثلاثة ملايين وسبعمائة ألف نسمة منهم 88. 7 % فنلنديون يتكلمون اللغة الفينية، و10. 1 % فنلنديون يتكلمون السويدية ثم ثلاثة آلاف من اللابلنديين.
وديانة الفنلنديين المسيحية ومعظمهم 96. 2 % بروتستانتيون لوثريون و1. 8 % روم أرثوذكس، والباقون وهم 2 % يتبعون ديانات مختلفة.
وفنلندا من أقدم أراضي العالم من الوجهة الجيولوجية. ونظراً لكثرة ما فيها من المستنقعات سماها أهلها بلغتهم سوومي أو سوومنما؛ وسماها السويديون فنلندا أي أرض الفِن (بكسر الفاء وسكون النون) بمعنى المستنقع.
وكان يسكن هذه البلاد في الأصل اللابلنديون، فغزاهم أسلاف الفنلنديين الحاليين وأجلوهم عنها فرحلوا إلى أقصى الشمال حيث لا يزالون يعيشون في بيوت يزرعون بجوارها مساحات صغيرة من البطاطس ويقتنون بعض البقر. وهم يحبون الحياة المنزلية الهادئة ويتمسكون بأهداب الدين، فإذا مات أحدهم يحفظون جسمه في صندوق إلى أن ينزل الجليد فيذهبوا به إلى أقرب كنيسة للصلاة عليه. وهم لا يهتمون بالسياسة وما تجره من الحروب، فإذا اعتدى أحد على أراضيهم تركوها له من غير حرب.
وتعيش العائلة في حجرة واحدة مع كلابها. وغذاؤهم السمك ولحم الرنة المجفف وقليل من البطاطس ونبات الخضر الوحيد الذي ينمو في بلادهم واسمه العلمي أنجليكا أركانجيليكا وهو من فصيلة الينسون وله طعمه ورائحته فيأكلونه نيئاً أو مطبوخاً. وهم مشغوفون بشرب القهوة المحلاة بالسكر الكثير؛ وقد ألفوا شرب لبن البقر، وكانوا في الزمن السابق يشربون لبن الرنة.
ويملك اللابلنديون نحو مائتي ألف رأس من حيوان الرنة يخص أغناهم منها نحو ألف رأس، وهم يجمعونها في الشتاء ويطلقون سراحها للرعي في مايو فتسرح في الوديان للرعي وتذهب إلى العوالي في الليل هرباً من البعوض. ويعرف كل منهم قطيعه بما عليه من علامات الوسم.
وأول من اتصل بهؤلاء الناس راهب روسي اسمه تريفون في سنة 1550 فأسس دير بتشينجا فنشر الرهبان المسيحية بينهم وزرعوا الأشجار وربوا الماشية وشيدوا الكنائس على الساحل، وملحوا الأسماك وبنوا السفن وحفروا طلباً للمعادن وتاجروا مع أركانجل وأنقرس وأمستردام فكانوا يصدرون إليها أسماك السالمون الأحمر. وفي سنة 1589 أحرق السويديون الدير وقتلوا الرهبان، وبذا أصبحت بلاد اللابلنديين فريسة للطامعين من دانمركيين ونرويجيين وروسيين، وصارت مشاعاً للجميع، فكان الكل يطلبها والكل يرسل إليها عماله لجباية الضرائب من أهلها المساكين الذين كانوا يدفعون الضرائب للروسيا والنرويج والسويد في آن واحد.
وقد ورد ذكر الفنلنديين في التاريخ من سنة 2500ق. م وهم قوم من الفرع الأوجرو الفيني فهم بذلك طورانيون من العائلة الألطية الأورالية التي انتشرت في كل فنلندا ولابلندا ومقاطعات البلطيق المسماة أستونيا وليفونيا وكورلندا، وعلى ضفتي نهر الفولجا وبيرم وفولوجدا، وغرب سيبيريا بين جبال الأورال وينيسي، وفي بلاد المجر فهم يمتون بصلة الدم؛ إلى الأتراك والبلغاريين والمجريين.
وقد كانوا في مبدأ أمرهم بدوا رحلاً يعيشون من الصيد فنزحوا غرباً واستولوا على ما

هي فنلندا الآن في القرن السابع أو الثامن الميلادي، وكانوا يعيشون إذ ذاك في مجاميع مستقلة وفي قرى لا يربطها أي نظام حكومي. وكانت ديانتهم الوثنية إذ كانوا يعبدون القوى الطبيعية فجعلوا للرياح إلهاً سموه (أوكو) وآخر للغابات سموه (تابيو) وثالثاً للماء اسمه (أهتى). وكانت الشجاعة والإقدام من صفاتهم فسببوا متاعب شديدة لجيرانهم فقد هاجموا شواطئ السويد مدة طويلة فجرد عليهم ملك السويد أريك التاسع في سنة 1157 ميلادية جيشاً عرمرماً وبصحبته بطريق أوبسالا المسمى هنري الإنجليزي فغزا البلاد وأدخل أهلها في المسيحية ورجع تاركاً جزءاً من جيشه ليتمم غزو البلاد، والبطريق هنري وقساوسته ليعمد أهلها فقتل البطريق هنري بعد مدة وأصبح فيما بعد قديس فنلندا وشفيعها.

ولكن الفنلنديين دافعوا عن استقلال بلادهم ورفعوا نير السويد عنهم ثم ارتدوا إلى وثنيتهم الأولى إلى أن جاءهم في سنة 1209 مبشر إنجليزي آخر اسمه البطريق توماس فأعادهم إلى المسيحية ونجح في فصل فنلندا تقريباً عن السويد وجعلها مقاطعة تابعة رأساً للبابا.

وقد اضطرت السويد من جراء الحروب المتتالية بينها وبين الروسيا أن تحتل فنلندا فاحتلتها زهاء ستمائة سنة وأدخلتها ضمن مملكتها. وفي سنة 1323 جعلت حدود فنلندا هي الحد الفاصل بينها وبين روسيا. وقد نشر السويديون مدنيتهم وثقافتهم بين الفنلنديين فعلموهم الزراعة وشتى ضروب الفنون والصناعة، ومنحوهم نفس الحقوق التي يتمتعون هم أنفسهم بها.

وفي سنة 1528 أدخل جوستاف فاسا الديانة البروتستانتية في فنلندا التي رفعها الملك جون الثالث إلى درجة دوقية عظمى.

وقد خسرت فنلندا خسائر كبيرة من الحروب المستمرة بين السويد والروسيا والدانمارك.

وفي أوائل القرن السابع عشر أسس الملك جوستافوس أدولفوس مجلس النواب الفنلندي المسمى (ديات) وجعل أعضاءه من أربع طبقات: الأشراف ورجال الدين وأصحاب الأراضي والفلاحين. وقد شجع التعليم فأنشأ المدارس وأدخل الطباعة وشيد الكنائس.

وفي حكم شارلس التاسع (1692 - 1696) تحملت البلاد شدائد ومتاعب عظيمة من جراء ما حل بها من القحط والأوبئة فهلك في أبرشية (أبو) نحو ستين ألفاً في أقل من تسعة أشهر.

وفي سنة 1716 ضم بطرس الأكبر قيصر الروس فنلندا إلى أملاكه، ثم استردتها السويد بعد ذلك ولكنها تخلت عنها وعن جزر ألاند في سنة 1808 للروسيا، ونظراً لما رآه إسكندر الأول الروسي من شجاعة الفنلنديين فقد أبقى فنلندا كدولة شبه مستقلة وجعلها تحتفظ بقوانينها وعاداتها فاجتمع البرلمان الفنلندي ونادى به دوق فنلندا العظيم فأقسم على احترام دستور البلاد وديانتها وشرائعها وحريتها. واستمرت مدينة (أبو) عاصمة للبلاد حتى سنة 1821 ثم انتقلت إلى هلسنكي ولم يجتمع البرلمان بعد ذلك لمدة 56 سنة، ثم دعاه اسكندر الثاني في سنة 1863. وفي حكم اسكندر الثالث نقض الروس عهودهم وأنزلوا بفنلندا من ضروب الاضطهاد ما غرس بذور الحقد والكراهية لهم في قلوب الفنلنديين الذين
حاربوا من أجل استقلالهم، فازداد الروس قسوة وطغياناً وحاولوا فرض لغتهم وديانتهم وقوانينهم قسراً على الفنلنديين وملئوا البلاد بالجواسيس، فهب الفنلنديون للدفاع عن حريتهم وأعلنوا الإضراب العام في سنة 1905 واشتركت الأمة فيه على اختلاف طبقاتها في كافة أنحاء البلاد فتعطلت المواصلات والبريد والتلغرافات والتلفونات وأغلقت المدارس ودور الحكومة والمتاجر، واضطرت الحكومة الروسية إزاء اتحاد كلمة الفنلنديين أن تجيب طلباتهم بمرسوم إمبراطوري صدر في 7 نوفمبر سنة 1905. ولكن الروسيا حاولت ثانياً حد سلطة البرلمان، فثار الفنلنديون في سنة 1908 وسنة 1910 وقاوموا الروس بشدة ورفضوا أن يتجندوا في الجيش الروسي الممقوت ودفعوا 20مليون مارك سنوياً ليعفوا من الخدمة العسكرية.

ولما استقرت نيران الحرب العظمى أعلن برلمان فنلندا حياد البلاد فقطع بذلك كل علاقة بين فنلندا والروسيا. وقد أعلن الفنلنديون أنهم لا يحاربون إلا من أجل فنلندا.

ولما أُلفت الحكومة البلشفية في الروسيا اعتقد بعض الفنلنديين أن من مصلحة البلاد الدخول ضمن الاتحاد السوفيتي فقامت من جراء ذلك حرب أهلية بين الحمر الفنلنديين والبيض من أهل فنلندا بقيادة المارشال مانرهايم بطل فنلندا الذي استولى على هلسنكي وطرد البلاشفة؛ وهو بعينه الذي يحاربهم الآن.

وفي سنة 1919 نودي بفنلندا جمهورية مستقلة لأول مرة في تاريخها، فهي بذلك أحدث أمة مستقلة في العالم.

وفي سنة 1920 التحقت فنلندا بعصبة الأمم وتنازلت الروسيا بمقتضى معاهدة دوربات عن الجزء الضيق الذي فيه ميناء بتسامو لفنلندا، وبذا أخذت في إنشاء الطريق القطبي العظيم الذي لا مثيل له في العالم.

والعَلم الفنلندي مكون من اللونين الأزرق والأبيض رمزاً إلى زرقة السماء والماء وبياض الجليد.

والفنلنديون أقوياء الأجسام وهم في الأصل ربعون ذو رؤوس مستديرة وجباه منخفضة وجلود تضرب إلى السمرة وعظام خدودهم بارزة وشعر ذقونهم خفيف؛ وشعرهم أسود لامع طويل، وهذه من صفات المغول ولكنهم تزاوجوا مع من جاورهم من الأمم فدخل فيهم

الدم النوردي الأسوجي والصقلبي الروسي؛ فأصبح شعرهم بنيا أو أحمر أو أشقر، وتحسنت سحنهم عن أسلافهم.

ولا يزال الفنلنديون يحتفظون بعاداتهم البدوية التي ورثوها عن أسلافهم المغول، فهم كرماء للضيف محبون للحرية والاستقلال ميالون للانتقام، وهم أهل عفة وأمانة وطهارة وحسن خلق، يحبون وطنهم حباً يقرب من العبادة، لذلك لا يهجرون ديارهم إلا قليلاً.

والفلاح الفنلندي مجد صبور يجهد نفسه في استغلال أرضه. ويكون الفلاحون 87 % من الأمة الفنلندية. وألد أعداء الفلاح الصقيع الذي ينزل في يونيه فيتلف محصولاته الجذرية.

وقد ازدادت مساحة الأراضي المزروعة ولكنها ليست متصلة في مساحات شاسعة بل هي حقول منفصلة تتخللها غابات ومستنقعات. وتبلغ المساحة المزروعة نحو 6. 3 % من المساحة العامة. وتعمل الحكومة على إكثارها بتجفيف المستنقعات وإصلاح أرضها. ولكنها لن تبلغ أكثر من 12 % من المساحة العامة على أكبر تقدير. وتوزع الأراضي الزراعية بالنسبة المئوية الآتية:

52. 1 ملكيات فردية
39. 7 ملك الدولة
6. 5 ملك جمعيات تعاونية
1. 7 ملك جمعيات أخرى

ومحصولات فنلندا محدودة؛ فهي تقتصر على الغلال كالقمح والشعير والزمير والجويدار وبعض المحصولات الجذرية كبنجر السكر واللفت والبطاطس ونباتات العلف. وتزرع هذه المحصولات بالنسبة المئوية الآتية:

50. 7 نباتات علف
18. 9 زمير
9. 6 جويدار
5. 4 شعير
3. 3 بطاطس
12. 1 محصولات أخرى كالقمح والبنجر والكتان

وفنلندا غنية بنباتاتها، وقد درست الفلورا الفنلندية دراسة مستفيضة فقسم النباتيون البلاد

إلى 28 مقاطعة بحسب ما فيها من أنواع النبات. وقد بلغ عدد الأنواع النباتية الفنلندية 1132 نوعاً موزعة كما يأتي:

318 - 400 نوع في لابلندة
508 - 651 في كاريليا
752 في فنلندا الأصلية

ولا يوجد في فنلندا نباتات ألبيه ولكنه يوجد منها في شبه جزيرة كولا 32 - 64 نوعاً.

وتبلغ مساحة الغابات في فنلندا نحو 63 مليون فدان، منها نحو 35 مليوناً ملك للدولة. وقد حصروا أشجار هذه الغابات فوجدوا أن مكعب جذوعها النامية يبلغ 57214 مليون قدم مكعب من الخشب. ومنها 60. 7 % من الصنوبر البري و28. 1 % من شجر الأسبروس و11. 2 % من خشب البيرش. ومن أشجار الغابات المهمة عندهم شجر البيرش القصير، والحور، واللارش السيبيري الذي أدخلوه في القرن الثاني عشر. ويبلغ مقدار ما يقطعونه من الأشجار سنوياً نحو ستة ملايين شجرة يلقونها في مجاري المياه المتدفقة التي يبلغ مجموع طولها في فنلندا نحو 65 ألف ميل فتعوم إلى أن تصل إلى الآلات الخاصة بقطعها ونشرها بالتيار الكهربائي المتولد من مساقط المياه استعداداً لتصديرها وصنع لب الورق ومشتقات الأخشاب منها.

ويوجد في فنلندا خمس مدارس للغابات، مدة الدراسة فيها سنتان. وتعطي جامعة هلسنكي دراسة في الغابات مدتها ثلاث سنوات. ويمكن للطالب أن يحصل منها على درجة الأستاذية والدكتوراه في الغابات. ولجامعة فنلندا غابات للتمرين. وقد أنشئت من ثلاثين سنة مضت جمعية للغابات يتبعها معهد للبحوث تديره الحكومة وتدرس فيه علوم الغابات ويتبعه عدة غابات للتجارب ولتدريب عمال الغابات. وتطبع هذه الجمعية ثلاثة أنواع من النشرات. وتنفق الحكومة الفنلندية على أبحاث الغابات مليونين من الماركات سنوياً.

وجميع مزارع فنلندا وطرقها تصرف في مصارف وخنادق عميقة. وأرضها غنية بالدبال، ولدفء جوها في الجنوب ينمو الخشخاش والبانزي والفوشيا وتكثر المزارع والحقول والضياع بما فيها من المناحل وأكوام الدريس والأخشاب المقطوعة.

ويشكر الفنلنديون الله على استقلالهم. فقد مكنهم من أن يمتلكوا أراضيهم إذ كان ذلك مستحيلاً تحت الحكم الروسي، ولكنه أصبح من الممكن في أوائل القرن العشرين أن يمتلك المزارع الفنلندي الأرض التي يزرعها فبلغ ما ملكه الزراع في سنة 1901 نحو 40 % من الأرض الزراعية والباقي أراض محكرة ولم تأت سنة 1929، حتى أصبح 90 % من أرض فنلندا ملكاً لفلاحيها. ويرجع الفضل في ذلك إلى قانون ليكس كاليو الذي صدر في سنة 1922 نسبة إلى كيوستي كاليو زعيم الحزب الزراعي الفنلندي. وبمقتضى هذا القانون أجبر كبار الملاك على بيع أراضيهم الواسعة بأثمان زهيدة جداً لصغار الزراع، فترتب على ذلك وجود طبقة وسط من صغار الملاك فأصبحت فنلندا في مأمن من انتشار الشيوعية. وتمد الحكومة صار المزارعين بالنصح والإرشاد والمساعدات المالية.

ويحصل المزارع من أرضه على جزء بسيط من غذاءه وغذاء عائلته، فهو يعتمد إذن في معيشته على ألبانه ومشتقاتها، وعلى ما يتقاضاه من الأجر من قطع الأخشاب وما يستعمله منها في بناء بيته وفي وقوده، فمن ذلك ترى أن فنلندا لا تقوم كقطر زراعي بحاجة سكانها.

ومعظم مزارع فنلندا صغيرة. ولا تزال مزارع شرق كاريليا وشمالها في حالة أولية محضة، ولكن المزارعين يقبلون على المستحدثات الزراعية بشغف، فترى كل جماعة منهم يشتركون في شراء آلة زراعية حديثة ليستعملوها شركة بينهم.

وقد توصل البروفيسور فيرتانين الأستاذ بجامعة هلسنكي إلى طريقة لحفظ العلف في الشتاء وذلك بعمل حفرة في الأرض يكوم فيها العلف الذي لم يتمكنوا من تجفيفه، ويكومون فوقه الأجزاء الخضر المتخلفة من المحصولات الجذرية المختلفة، ويرشون فوق الكومة محلولاً كيميائيا يجعل العلف طرياً ويحتفظ بخمس وتسعين في المائة من مواده الغذائية التي تبلغ في الدريس العادي 60 - 65 %. ويمتاز العلف المحفوظ بهذه الطريقة بأنه ليس له رائحة كريهة كالتي توجد في العلف المحفوظ بطريقة السيلو القديمة. ولذلك تقبل الماشية على أكله إقبالها على العلف الأخضر. وقد نجحت هذه الطريقة نجاحاً باهراً، وانتشرت في البلاد الأجنبية تحت اسم علف.

(البقية في العدد القادم)

مأمون عبد السلام

الفروق السيكولوجية بين الأفراد

للأستاذ عبد العزيز عبد المجيد

ومن بين علماء النفس الألمان الذين ساهموا بنصيب في دراسة الفروق السيكولوجية بين الأفراد ووضع مقاييس للذكاء كريبلين وكانت مقاييسه لاختبار سرعة الإدراك أن يطلب إلى المختَبر (بفتح الباء) أن يعُدَّ بأسرع ما يمكن حروف الكاف (ك) الموجودة في مقالة، أو أن يضع بقلم الرصاص علامة على كل حرف (راء) في قطعة مكتوبة، أو أن يعرض على المختبر قطعة مطبوعة بها بعض الأغلاط الإملائية أو الحروف الساقطة ويطلب إليه أن يوجد مواضع الأغلاط والحروف المفقودة. كذلك وضع اختبارات لقياس الذاكرة الرقمية ليكشف الحد الأعلى من الأرقام التي تستطيع أن تستعيده ذاكرة الفرد إذا عرضت هذه الأرقام مدة خمس عشرة ثانية مثلاً، واختبارات أخرى لقياس القدرة على تذكر الكلمات (الفارغة) مثل: غضذ، ثظ، قصخ خخق الخ، وغير هذه الاختبارات التي أسفرت عن أن لكل فرد خواص عقلية وذوقية تميزه عن غيره. ولكن كريبلين أدركه اليأس حينما ساقه البحث إلى أنه لا يوجد تلازم مطرد بين نتائج هذه الاختبارات المختلفة للفرد الواحد. وقد حكم من عدم اطراد التلازم أنه لا يمكن الاعتماد على مجموعة هذه الاختبارات في قياس الذكاء. وهو يقول في ذلك: (إننا لا نستطيع أن نخفي عن أنفسنا أن النتائج التي وصلنا إليها بعد هذه الاختبارات والبحوث الطويلة لم تحقق ما كنا نتوقع من وضع مقاييس مضبوطة للذكاء، تقاس بها العمليات العقلية البسيطة).

كان لتقدم علم النفس التجريبي في أواخر القرن التاسع عشر أن ظهر علم النفس التطبيقي وفكر العلماء في كيفية الاستفادة من نتائج قياس الفروق السيكولوجية بين الأفراد، ومعرفة الخواص العقلية والجسمية والخلقية لكل فرد للاستفادة منها في المهن والصناعات، وكانت غايتهم هي أن يختاروا لكل مهنة الفرد الصالح لها، أو كما يقولون ومن الغريب أن أول من قام بتجارب الاختيار المهني هو مهندس ميكانيكي أمريكي لا علاقة له بعلم النفس، يسمى تيلور كان موظفاً في شركة لصنع العجلات. وكانت في مصنع العجلات مهنة فنية تحتاج إلى أفراد سريعي الرجع (رد الفعل). وقد اختبر المائة والعشرين فتاة المشتغلات في هذه المهنة فوجد أن عدداً كبيراً منهن بطيء الرجع، فاضطر إلى فصل

البطيئات وإبقاء السريعات، وعددهن خمس وثلاثون. وكانت النتيجة أن هؤلاء الفتيات الخمس والثلاثين أمكنهن أن يعملن نفس العمل الذي كانت تقوم به المائة والعشرون فتاة وفي زمن أقل. وقد نشرت نتائج هذه الاختبارات في سنة 1903، وأثارت اهتمام علماء النفس وبخاصة القائمون منهم بدراسة الفروق الفردية السيكولوجية ومن بين هؤلاء الأفراد البروفيسور هوجو مونستربرج الألماني. وكان حينئذ أستاذاً لعلم النفس في جامعة هارفرد بأمريكا، فأجرى عدداً كبيراً من التجارب لمعرفة الفروق الفردية، وخصائص كل فرد، والمهنة التي تليق له أو يليق لها. وطبع في ذلك كتاباً سماه (علم النفس والكفاية الصناعية). وقد عالج مونستر برج في هذا الكتاب موضوع المواهب الطبيعية واللياقة المهنية. وهو يرى أن لكل فرد خواص ومميزات تجعل شخصيته أو تكوينه صالحاً لنوع من العمل دون نوع آخر. ومن العبث والإسراف الاقتصادي ألا يكون الفرد صالحاً للمهنة التي يقوم بها، أو أن يُعَدَّ لغير المهنة التي يصلح لها بطبيعته، ولا بد إذاً من اختبار الأفراد، ومعرفة مواهبهم واستعدادهم، ومقدار ذكائهم، ونوع ميولهم ومقدرتهم الجسمية وأمراضهم وأخلاقهم حتى يوكل إلى كل منهم العمل الذي يصلح له. فمن المعقول أن الرجل الذي يصلح لأن يكون سائق ترام قد لا يصلح لأن يكون ناظر زراعة، ومن يصلح لأن يكون محامياً قديراً قد لا يمكن أن نخلق منه طبيباً نطاسياً. وإذاً فلا بد من اللياقة المهنية - حتى يستطيع الفرد أن ينتج أكثر ما يمكن من إنتاج في أقل ما يمكن من زمن، وبأقل ما يمكن من مجهود، وهو في أكثر من راحة وسعادة. فلو نجحنا في كشف الرجل الصالح لمهنة بذاتها لأمكننا أن نقتصد في الزمن والمجهود والمال، وأن نرقى من نوع الإنتاج وكميته، وكذلك نجعل العامل سعيداً في عمله. يقول مونستربرج: (حينما نبحث في الفروق السيكولوجية بين الأفراد ونذكر كلمة (خصائص) الفرد نستعمل هذه الكلمة في معناها الأعم. فهي تشمل القوى العقلية للفرد التي قد تكون كامنة، والتي قد تظهر وتحيا تحت ظروف خاصة، وتشمل أيضاً الصفات الثابتة لشخصية الفرد مزاجية كانت أو خلقية، كما تشمل معارف الإنسان وتجاربه المكتسبة. ويدخل ضمن ذلك كل أنواع الإرادة، والشعور، والإدراك،

والتفكير، والانتباه، والعاطفة، والذاكرة، والخيال. إن العالم النفسي حينما ينظر إلى الفرد يجده مجموعة من هذه القوى السابقة؛ ولكنا في الحياة العملية وحينما نريد أن نكل لفرد عملاً يجب أن ننظر أولاً إلى أخلاط الخصائص التي تكون شخصيته بغض النظر عما إذا كانت هذه الخصائص وراثية أو مكتسبة، وعما إذا كانت خاصة بالفرد أو شائعة في أسرته، أو في قبيلته، أو في جنسه ومن دراسة هذه الخصائص المتداخلة يتضح لنا أن بعض الناس أصلح من بعض للقيام بنوع من العمل).

ويحتج مونستربرج على جعل الامتحانات المدرسية والشهادات العلمية مقياساً لكفاية الفرد وصلاحيته للعمل الذي يقوم به، إذ أنه ليس من المعقول أن الامتحان المدرسي يقيس غير المعلومات المكتسبة، ولا يكشف لنا شيئاً من خصائص العقل وخصائص الخلق. ويعيب أيضاً على الآباء أن يختاروا لأبنائهم الدراسات التي يرغبون فيها، فإن مجرد الرغبة ليس معناه أن هناك ميلاً طبيعيّاً حقيقياً إلى الشيء. فالأولاد في سن الصغر لا يعرفون شيئاً عن استعدادهم وميولهم الطبيعية. وقد يرغب اليافع في أن يكون طبيباً لأن أخته تتحدث بإعجاب عن زوجها الطبيب، أو أن يكون ضابطاً حربياً لأن قريبه ضابط حربي جميل المظهر. وقد يعرف الآباء حقيقة ميول أبنائهم واستعدادهم ولكن ذلك يجيء في الغالب متأخراً.

وضع الأستاذ مونستربرج اختبارات مختلفة لقياس الذكاء، ولقياس المواهب الخاصة، كاختبار القراءة المرتفعة السريعة، وكمطالبة المختبر بذكر ألوان الأشياء التي تتلى عليه، وكتقسيم مجموعات من النباتات أو المعادن إلى أنواعها المتشابهة، واختبار القدرة على الجمع والطرح بسرعة. وكذلك وضع اختبارات لقياس القدرة على تقسيم الخطوط إلى أقسام متساوية، أو رسم خطوط تساوي خطوطاً أخرى معينة، واختبارات أخرى لمعرفة مكان صدور الصوت ونوعه.

قلنا إن مونستربرج عالج موضوع اللياقة المهنية، ونادى بضرورة اختيار أنسب رجل لكل مهنة. ومن الأمثلة التي يسوقها لتأييد رأيه أن من الناس من هم (عمى الألوان) - فلا يستطيعون أن يفرقوا بين اللون الأحمر واللون الأخضر. فهؤلاء لا يصلحون لوظائف إشارات السكة الحديدية، ولا سياقة السيارات والقاطرات، إذ لا يخفى ما يحدث من خطر إذا التبس اللونان على السائق، وكذلك لا يصلحون لمهنة النقاشة التي تحتاج للتمييز بين الألوان في التصوير والتلوين.

وقد أجرى بعض التجارب لمعرفة الصفات العقلية الضرورية لسائق الترام والسيارات، فوجد بطريق الإحصاء أن بعض السائقين لم يحدث منهم أي خطأ طول مدة سياقتهم، بينما غيرهم عرضة دائماً للأخطاء بالرغم من حرصهم الشديد. ووجد أن أهم صفات السائق هي حدة الانتباه واستمراره، وعدم تشتت الفكر بما يحدث في الطريق أثناء السياقة، ودقة الحكم في تقدير حركات الراجلين والسائقين، وسرعة الرجع وضبط الأعصاب. واخترع آلة بسيطة أمكن بها معرفة خير الأفراد لمهنة السياقة.

كذلك أجرى تجارب لمعرفة الصفات الضرورية لرّباني السفن الذين قد تودي غلطة واحدة منهم بأرواح الآلاف من الناس. واخترع لعبة مكونة من أربع وعشرين بطاقة استطاع بها أن يعرف الأفراد الصالحين لقيادة السفن.

وقد وُكِلَ إليه أن يضع مقاييس لمعرفة أليق العاملات في مركز التليفون (السنترال) فوضع مجموعة اختبارات للذاكرة والانتباه والذكاء والدقة والسرعة. وأجرى هذه التجارب على فَصْل من العاملات مكون من ثلاثين وهي تتلخص فيما يأتي:

الذاكرة: قراءة عددين مكونين من أربعة أرقام وعددين من خمسة وعددين من ستة وهكذا إلى اثني عشر، ثم مطالبة العاملات بكتابة ما يذكرن من هذه الأعداد كل واحدة في ورقتها.

الانتباه: أعطى كل عاملة نسخة من المقالة الأولى في جريدة يومية، وحدد لهن زمناً، وأمرهن أن يضعن علامة بقلم الرصاص على كل حرف في هذه المقالة.

الذكاء: قرأ على العاملات أربعة وعشرين زوجاً من الكلمات وكان بين كلمتي كل زوج ارتباط منطقي مثل: جوع وأكل، ونار واحتراق، وعين ودموع، وماء وبخار، وأسود وأبيض الخ ثم ذكر بعد ذلك أربعاً وعشرين كلمة مفردة على أن تقترح العاملة لكل كلمة كلمة أخرى ذات علاقة منطقية بها.

الدقة: تقسيم خطوط مختلفة الطول إلى أنصاف.

السرعة في حركة اليد: أعطى كل عاملة صفحة من أوراق المربعات، وطلب إلى كل العاملات في الفصل أن يرسمن في زمن مخصوص أكثر ما يمكن من أقطار المربعات على أن تكوِّن خطوطاً متصلة منكسرة.

ثم تبع هذه الاختبارات الجمعية باختبارات أخرى فردية لقياس دقة الحركة وسرعتها معاً.

أما مقدار نجاح هذه الاختبارات فيحدثنا عنه مونستربرج بقوله: (لقد قارنت نتائج هذه الاختبارات بتقارير شركة التليفونات بعد أن مضى على هذه العملات الثلاثين ثلاثة أشهر في العمل فوجدت أن نتيجة المقارنة تؤيد تجاربي بصفة عامة).

(بخت الرضا. السودان)

عبد العزيز عبد المجيد

من وراء المنظار

دُبٌّ في الترام!. . .

أرى الناس في هذه المركبة أبداً مرهفي الأعصاب، وقل من رأيته فيها مطمئناً هادئاً، وعلى الأخص في الصباح وعند الظهيرة؛ وليس الأمر قاصراً على الراكبين، فقاطع التذاكر عصبي اللفتة عصبي الكلمة عصبي الزمارة؛ والسائق من فرط يقظته، أو من فرط توجسه مما يخبئه له القدر، زائغ البصر، مذعور الوجه والعينين؛ يغضب لأي بادرة، وينفذ صبره - إن كان ثمة لديه من صبر - لأقل سبب أو لغير سبب!. . .

وأمر قاطع التذاكر وصاحبه يمكن أن نرده إلى أسبابه في غير مشقة. . . ولكنني من أمر الراكبين في حيرة! مم تضيق صدورهم وتنقبض نفوسهم، حتى لتقع العين منهم على قوم كأنما يساقون على رغمهم إلى ما لا يحبون؟. . . أيكون مرد ذلك إلى أنهم في الصباح مقبلون على عبء اليوم من العمل، فهم متبرمون عابسون، وأنهم في الظهيرة خارجون من أعمالهم فهم مكدودون ساهمون؟ أم يكون ذلك لأنهم يستبطئون هذه المركبة وليس لهم عنها منتدح؟. . .

ومهما يكن من سبب، فتلك ظاهرة أشاهدها في معظم الوجوه كل يوم، ولم أخل أنا منها، ولكنني لا أتبرم من العمل أو يؤودني حمله، وليصدقني القارئ في ذلك أو فليكذبني إذا شاء فليس هذا ما أردته بهذه الكلمة.

وإنما أردت أن أصور له منظراً رأيته جديراً بأن يغضب الراكبين جميعاً ولو كانوا كلهم هادئين: فهذا شاب من شبابنا المثقفين، أو ممن يدعون من الوجهة الرسمية (مثقفين)، انتهت المسافة التي تبلغه إلى نهايتها تَذْكرته؛ فطلب إليه قاطع التذاكر أن يدفع أجراً جديداً إذا شاء أن يستمر راكباً، ولكن صاحبنا أبى ذلك دون أن يبدي أية علة، ثم استكبر أن يجادل الرجل؛ فاتجه ببصره إلى الأمام، ورفع رأسه إلى آخر ما يستطيع حتى كادت تتدلى إلى الخلف!. . .

ونفخ الرجل في زمارته، فوقف الترام، وانتزع السائق مفتاحه، وجاء إلى حيث وقف صاحبه، ووقف خلف هذا الترام خمسة غيره أو ستة، وأخرج معظم الراكبين ساعاتهم، وشاعت في وجوههم إمارات الغضب والقلق والاستنكار. . .

وجاء نفر من هؤلاء العمال، ووقفوا جميعاً ينظرون إلى هذا الذي كان سبباً في هذا التوقف: فرأوا فتى بادي الفتوة، عبل الساعدين، عريض المنكبين، غليظ العنق؛ ورأوه لا يلتفت إليهم، بل لا يعبأ بتلك النظرات التي رشقته من كل ناحية من نواحي العربة - وهو في جلسته - شامخ الرأس، هادئ المحيا كأن لم يجر حوله شيء!. . .

وحار هؤلاء العمال - أول الأمر - ماذا يصنعون، وليس فيهم من عابث من قبل دباً أو قرب منه؟!. . . ثم استجمع أحدهم قوته وقرب من هذا الدب وهو على أهبة أن يقفز إلى الخلف عند أية بادرة منه: ثم رجا منه أن يدفع الأجر حتى لا يتعطل الناس. فرماه الدب بنظرة كانت وحدها كافية لأن ينكمش ويتراجع من فوره!. . .

وازداد الناس ضيقاً وسخطاً وقلقاً، وبلغ حنقي غايته. . . ثم جرؤ أحد الراكبين فاقترب من الدب في هيئة لم يسعني معها إلا أن أضحك على الرغم من غيظي. فقد أخذ هذا الراكب يتلطف ويتظرف، ويحاول أن يبتسم، فلا يستطيع من فرط حنقه. . . فيرفع شفته العليا من إحدى زاويتيها، ويكشف عن أسنانه كأنه يبتسم! ثم يربت على كتف الدب ويقول وهو يلوي عنقه مبالغة منه في التواضع: (ألا ترى أنك بهذا تسبب عطلاً لنا جميعاً؟).

وكأن الدب لم يعبأ به لضعفه فلم يزد على أن قال له في هدوء: (أنت حضرتك . . . عاوز تتفلسف؟). . . وانكمش الرجل ولم يلتفت بعدها إلى الخلف أبداً . . .
وكان في العربة بعض الأجانب، فتخاطبوا بالأحداق، وعلقوا على المنظر بالإيماء والابتسام. . . وكان قاطع التذاكر المسكين قد ذهب ليحضر الشرطي، فعاد وهو في صحبته، وقد بلغ قلق الناس أقصاه! وسمع الشرطي القصة. . . فما كان أشد عجب الناس أن يسمعوه يعنف (الكمساري) ويلومه قائلاً له: (ياعني يا سيدي هم الستة مليم دول اللي حايزودوها؟ اطلع يا شيخ بلا عطلة دي محطتين أو ثلاثة وينزل)!!
وكان خزيي أمام الأجانب وخزي الراكبين جميعاً مما فعل الشرطي أعظم مما فعل ذلك الفتى المدل بقوته. ولعله خاف أن يقرب منه كما خاف غيره، وأمره في ذلك أدهى وأمر. . .
وقلت في نفسي: متى تشيع فينا الآداب الاجتماعية؟ ومتى نحس بالوسط الاجتماعي؟. . . ورجوت أن ينسى هؤلاء الأجانب هذا الحادث وأشباهه إذا حدثوا قومهم عن مبلغ ما وصلنا إليه من المدنية، فبهذا تقاس المدنية الحق، كما رجوت ألا يحكموا على شرطتنا جميعاً بما رأوا من هذا الشرطي.

(عين)

أفانين

بين الخوارزمي والهمذاني

للأستاذ علي الجندي

- 1 -

من أروع ما وعاه تاريخ الأدب في صفحاته تلك المناظرة الحادة العنيفة بين إمامين من أئمة الأدب، أبي بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني، وقد أسفرت عن هزيمة أولهما هزيمة ساحقة، لم يقو على احتمالها فقضى نحبه بعدها بقليل!
ما ذكرت تلك المصاولة قط إلا غام الحزن على عيني، وملأ شِعاب قلبي، وشعرت للبديع بمقت شديد يكاد يعقل لساني عن الترّحم عليه!
ففي الحق أن هذا الرجل بالرغم من وصف الثعالبي له: بحسن العشرة، ونصاعة الظرف، وعظم الخُلق، وشرف النفس وكرم العهدة، وخلوص الود، وحلاوة الصداقة، قد التاثت نفسه بأمراض تتوارثها الكثرة الكاثرة من الأدباء جيلاً بعد جيل، وتتمثل في تلك الصورة الشوهاء من حدة الغيرة، وفرط الأثرة وحمل الحقد، وحب الانتقام والزراية على النظراء والسعي الجاهد في هدمهم بالحق والباطل، حتى كاد مدلول الأدب لطول ما اتسم أصحابه بهذه المثالب، يرادف في الأذهان نشوز الطبع وانحراف المزاج، وانحلال الخلق، والتمرد على الشرائع المرعية والارتكاس في الخلاعة والمجون، ورحم الله من قال:

ليس الأديب أخا الروا ... ية للنوادر والغريبْ
ولشعر شيخ المحدَثين (م) ... أبي نواس أو حبيب
بل ذو التفضل والمرو ... ءة والعفاف هو الأديب

ولد أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي (بخُوارِزْم) ونشأ بها متأدباً، وإن كان أصله من طبرستان ثم جاب الأقطار من الشام إلى أقصى خراسان في تحصيل العلم والأدب، فبرع في كل فن من فنون العربية، وغزر محصوله من اللغة والشعر حتى كان يحفظ عشرين ألف بيت من شعر النساء خاصة.
ورشحه فضله لخدمة الملوك والأمراء والوزراء في الدويلات المتفرعة من الخلافة العباسية، وكانت خاتمة مطافه، مدينة نيسابور من أعمال خُراسان، فاتخذها دار إقامة، واقتنى بها الدور الفاخرة، واعتقد الضياع المُغِلّة، وفرغ إلى الكتابة والشعر وتصدّر للتدريس، وظن أنه يستطيع أن يقضي بقية عمره هادئ النفس ناعم البال، في ظل النعمة الفاشية والثراء الواسع والجاه العريض، ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه، فقد مُنِي بهذا الواغل الدخيل، فنغّص عليه عيشه، وشاب صفو حياته، وساقه إلى الفناء الذريع!
ولم يكن الخوارزمي دون الهمذاني في حوك القصائد، وتحبير الرسائل، وجمع اللغة، وحفظ الأشعر والأخبار، بل ربما كان أوفر منه حظاً في كل ما يتصل بالنقل والرواية؛ ولكن الهمذاني كان يمتاز بحدة القريحة وحضور البديهة وشدة العارضة وسرعة

الخاطر وقوة الارتجال، وهي أمضى سلاح يملكه المناظر لقهر خصمه وإقحامه.
وما ظنك برجل كان يُنشد القصيدة تبلغ خمسين بيتاً لم يسمع بها قط، فيحفظها كلها ويؤديها لا يخرم منها حرفاً واحداً! ويُقترح عليه إنشاء قصيدة أو رسالة في معنى من المعاني، فيفرغ منها في الوقت والساعة! وينظر في أربع أوراق أو خمس من كتاب نظرةً طائرة فيحفظها ويسردها عن ظهر قلبه! ويُقترح عليه الكتاب فيبتدئ بآخر سطر منه، وينتهي بأوله ويخرجه كأحسن شيء وأملحه! وتُلقى عليه الأبيات الفارسية فيترجمها شعراً إلى العربية جامعاً بين الإسراع والإبداع! إلى غير ذلك من العجائب والغرائب التي يحلو لي أن أسميها بشعوذة البيان!
ومع أن هذه الصفات مواهب عظيمة لم يُرزقها كل إنسان ولا ينكر خطرها في ميادين المصاولة الأدبية، إلا أنها لا تصح أن تكون فيصلاً في الحكم على أقدار الرجال وآثارهم. فأبو العتاهية مثلاً وهو رأس شعراء البديهة لا يتسامى إلى منزلة مسلم بن الوليد وأبي تمام وابن الرومي من شعراء الرّوية، والمتنبي - على سنيّ مكانته - تعد مقطوعاته الارتجالية من سقط المتاع، حتى تمنى بعض شارحي ديوانه أنْ لو خلا من هذا السخف والهذر، وعبد المحسن الكاظمي أقوى شعراء العصر طبعاً وأسرعهم خاطراً، ولكنه لا يُوزن بشوقي من شعراء الأناة، بل لا يقاس بحافظ وهو أكثر الشعراء تعباً في نحت القريض وصوغ القوافي.
ولم يكن سلاح البديع مقصوراً على هذه المزايا الخارقة التي أوردناها، بل كان - إلى ذلك
- في طراءة عمره وغضارة شبابه وكان الخوارزمي قد علت به السن فتحيفت جسمه وعقله معاً.
وأنكى من هذين على الخوارزمي أن جماعة من وجهاء نيسابور لا يخلو من أمثالهم بلد من بلاد الله، كانوا يكرهونه وينفسون عليه نعمته، فصاروا عليه إلباً في هذه المحنة، وشدوا أزر خصمه، ولا شيء أثلم للعزيمة وأقعد بالهمة من خذلان الآل والأقارب!
وهي حال شاذة ممضة أنطقت بالشكاة كثيراً من جِلّة الفضلاء! فقال في ذلك قاضي الأندلس وخطيبها المصقع المنذر ابن سعيد:
هذا المقال الذي ما عليه فَنَدُ ... لكنّ صاحبه أزرى به البلد
لو كنت فيهم غريباً كنت مُطَّرَفاً ... لكنني منهمو فاعتالني النّكد
وقال الفيلسوف ابن حزم:
أنا الشمس في جو السماء منيرة ... ولكن عيبي أن مطلعي الغرب
ولو أنني من جانب الشرق طالع ... لجدَّ علي ما ضاع من ذكرى النهب
هنالك تدري أن للعلم غصّة ... وأن كساد العلم آفته القرب
فواعجبا من غاب عنهم تشوفوا ... له، ودنوّ المرء من دارهم عيب
ولنأخذ الآن في إيراد هذه المناظرة، موفِّقين بقدر الإمكان بين الروايات المختلفة، فنقول:
في سنة ثمانين وثلاثمائة هـ فارق البديع بلده همذان التي نشأ به وتأدب، إلى حضرة الصاحب بن عباد وزير آل بويه وخليفة ابن العميد، وهي - إذ ذاك - مرمق العيون، ومناط الآمال، ومحطّ الرحال، فلقي فيها ما يلقاه كل أديب من كرم الوفادة، وحسن الرعاية، وجميل التعاهد.
وكان مجلس هذا الوزير العالم الأديب، آخر مجلس لوزير ضم خيرة العلماء وصفوة الأدباء وأعيان المصنفين والمتكلمين، وهم دائماً في حوار متصل، وجدال مستحر، ومذاكرة دائبة لا تهدأ ولا تفتر، فكان لذلك أثره البالغ في صقل مواهب البديع، وفتق جنانه، وتزويده بمعارف جديدة واسعة، وهو في مقتبل الشبيبة وميعة الحداثة.
وكان الظن بمثله أن يضن بمفارقة هذا الروض المونق والجناب الخصيب، ولكنا رأيناه في سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة يشخص إلى خراسان، وبعد جولة قصيرة في ربوعها يرد
نيسابور وقد سلبه قطاع الطريق ما يملكه من مال ومتاع!
ونيسابور هذه مدينة مقرورة يهرأ بردها الأجسام، ويُوسم أهلها بالجفاء والشغب والضعف والخبث وكراهة الغرباء! وفيها يقول السمعاني:
لا قدس الله نيسابور من بلد ... ما فيه من صاحب يُسلي ولا سكن

ويقول فيها المرادي:
لا تنزلن بنيسابور مغترباً ... إلا وحبلك موصول بإنسان
أولا، فلا أدب يغني ولا حسب ... يجدي ولا حرمة ترعى لإنسان
ويقول أيضاً:
قال المراديُّ قولاً غيرَ مُتهَّم ... والنصح - ما كان من ذي اللب - مقبولُ
لا تنزلنّ بنيسابور مغترباً ... إن الغريب بنيسابور مخذول
فما هو سر اختيار البديع لها بالذات؟ وقد كان له في غيرها مَراد ومسرح. أهو حب التنقل والضرب في البلاد، للدراسة والاطلاع، واستفادة العلم والمال؟ وهو الطابع الغالب على علماء هذه العصور وأدبائها؟ أم هو القصد إلى مناضلة الخوارزمي وانتزاع صولجان الشهرة منه، حتى يقال عنه: إنه غزا النسر في وكره واقتحم على الليث عريته؟
على أن بعض المؤرخين يسوق لهذه الرحلة علة طريفة نذكرها للتفكهة: وهي أن البديع كان في مجلس الصاحب يوماً فخرج منه ما يخرج من غير المتمكن في قعدته؛ وكان خيراً له أن يعوذ بالصمت، ولكنه أراد أن يموّه على الصاحب فقال: هذا صرير التخت! فقال الصاحب: أخشى أن يكون صرير التحت!
فخجل البديع خجلاً شديداً حمله على مفارقة حضرته والخروج إلى خراسان!
ويلذ لنا أن نقول - بهذه المناسبة -: إن مجلس الصاحب - على رفعة شأنه - كثيراً ما كان مهبّاً لهذه الزعازع! وكان الصاحب لا يمنعه وقاره أن يعقب على ذلك بالنكتة البارعة والتورية اللطيفة.
فمن ذلك أن الصاحب أخذته ليلة سنةٌ من النوم، وبين يديه جماعة من الأدباء شرع أحدهم في قراءة (الصافات) واتفق أن نام أيضاً بعض الحضور، فأحدث صوتاً منكراً أيقظ الصاحب من نومه! فقال - يخاطب سمّاره - يا أصحابنا، نمنا على (والصافات) وانتبهنا على (والمرسلات).
وأظرف من ذلك: أن الفقيه ابن الخضيري كان يحضر مجلسه بالليالي، فغلبته عينه مرة، فخرج منه شيء فخجل وانقطع عن المجلس، فقال الصاحب أبلغوه عني:
يا ابن الخضريّ لا تذهبْ على خجَل ... لحادث كان قبل النّاي والعود
فإنها الريح لا تستطيع تحبسها ... إذ لست أنت سليمان بن داود
وكيفما كانت الأسباب التي حفزت البديع إلى انتجاع نيسابور فقد بدأت المناوشة بين الرجلين بكتاب أرسله الهمذاني إلى الخوارزمي، صدّره بهذا الكلام المعسول: إنا لقرب دار الأستاذ - أطال الله بقاءه - كما طرب النشوان مالت به الخمر، ومن الارتياح إلى لقائه، كما انتفض العصفور بلله القطر، ومن الامتزاج بولائه، كما التقت الصهباء والبارد العذب، ومن الابتهاج بمزاره، كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب.
ثم ختم كتابه بأن طلب منه إرسال غلامه لينفض له جملة حاله.
والتقيا بعد ذلك على موعد مضروب في دار الخوارزمي، وما نشك في أنه أكرم مثواه، وأحاطه بألوان البر والرعاية، ولكن البديع كان مدخول النية مطويّ الجوانح على الضغينة! فخرج من دار مُضيفه غير حامدٍ لقياه، وأرسل إليه كتاباً حشوُه عتاب مرّ، يذكر فيه: أن الخوارزمي استزراه لغربته، واقتحمته عينه لرثاثة ملبسه، وأنه تكلف القيام له والسلام عليه، وأنه كان يكلمه بنصف طرفه، ويسير إليه بشطر أنفه، وأن أهل بلده همذان في الذؤابة من الشرف والسيادة، وفي الصميم من الجود والسماحة، ولو قد حل الخوارزمي بينهم لخبئوه في سواد العيون والقلوب!
وقد رد عليه الخوارزمي رداً جميلاً يستلّ السخائم، ويطفئ الأحقاد، ولكن موقف البديع منه أشبه بموقف الروسيا من فنلندا: إدلاءٌ بالباطل وتورُّط في الضلال، وتجن للذنوب، وتصيد للمثالب، ومن كان هذا شأنه فإرضاؤه محال!
وهكذا أخذت تتردد الرسائل بينهما وهي تزداد عنفاً وحدة، حتى انتهى الأمر إلى الخصومة الصريحة! التي كان يعمل لها البديع ومَنْ وراءه كل وسيلة!
وكان يمكن إطفاء هذه الثائرة لولا أن خصوم الخوارزمي الذين سبقت الإشارة إليهم انتهزوها فرصة للنكاية به، فأذكوا العداوة وأرّثوا النار!

وكان أن أرسل نقيب الأشراف إلى الخوارزمي يستدعيه إلى داره ليجمع بينه وبين البديع، فترفع عن المجيء لأنه كان يعرف ما دُبّر له، فأحرجه النقيب بإرسال دابته إليه، وشفع ذلك البديع برسالة يستفزه بها! فلم ير الرجل بداً من الحضور يحف به تلاميذه البررة فالتقى الخصمان في بيت النقيب وجهاً لوجه وقد حُشرَ الناس ليروا لمن تكون الغلبة!

(يتبع)

علي الجندي

التاريخ في سير أبطاله

مازيني

رسول الحرية إلى قومه، المجاهد الذي أبلى في جهاده مثل

(بلاء الأنبياء

للأستاذ محمود الخفيف

عول مازيني على استغلال هذا الحادث ليلفت الأنظار إلى حركته وأخذ ينشر الأحاديث عما يجب أن تسلكه الحكومة البريطانية تجاه الحركات القومية في القارة؛ وتزايد عدد محبيه في العاصمة الإنجليزية، وسعى كثير من ذوي المكانة والرأي إلى رؤيته؛ وكان الإنجليز يعجبون بمرأى هذا الزعيم الغريب في ملابسه السوداء ويرونه بمظهره وبما يرتسم على وجهه من سمات الصبر والعزيمة، ومن إمارات التعب وأثر الفاقة أقرب إلى القديسين منه إلى رجال السياسة.

وكان مازيني فضلاً عن اهتمامه بمسألة إيطاليا لا يفتأ يتصل بكثير من ذوي الأفكار الحرة في أنحاء القارة، يريد بذلك أن يزيد شعور القومية والحرية في أوربا نماء وانتشاراً، ليكون من حياته حرباً متصلة على الرجعية والاستبداد الغاشم؛ ولذلك يعد مازيني إلى جانب كونه زعيم إيطاليا من أكبر المؤثرين في نمو الحركات القومية في القرن التاسع عشر. وظل مازيني يشكو العسر وما يجره العسر من إبطاء في السير نحو هدفه، وكان يفكر في بعث حركة ثورية جديدة في إيطاليا يقودها بنفسه. فأوحى إلى بعض صديقاته من الإنجليز أن يقمن سوقاً إيطالية خيرية بدعوى جمع المال لمدرسته وكان يريد من وراء ذلك جمع مبلغ أهلي يسعى به إلى الوصول إلى غرضه، وافتتحت تلك السوق عام 1847، ولكن ما جمعه من المال من ذلك المبلغ الأهلي الذي منى به نفسه لم يزد على مائة من الجنيهات!

وكانت الأنباء التي تأتيه من إيطاليا في ذلك العام تزيده غضباً ونكداً؛ فلقد اشتدت فيها دعوة المعتدلين، وكان هؤلاء المعتدلون فريقين: فريق الملكيين الداعين إلى الالتفاف حول شارل ألبرت ملك بيدمنت، وانتظار ما عسى أن تأتي به الأيام؛ وفريق الاتحاديين المنادين ببقاء إيطاليا وحدات مستقلة بعضها عن بعض في شؤونها الداخلية مع ارتباطها في شؤونها

القومية بإقامة اتحاد عام من ممثلين للولايات؛ وكان هؤلاء الاتحاديون يدعون إلى الالتفاف حول البابا ليكون زعيم الاتحاد المطلوب، وكان زعيمهم في ذلك جيوبرتي.

وكان مازيني ينكر دعوة هؤلاء وهؤلاء، فلم يكن يرضى إلا بأن تتحد إيطاليا جميعاً فتصبح شعباً واحداً وقطراً واحداً يخضع لحكومة واحدة جمهورية لا ملكية، حكومة مستقلة عن نير الأجنبي ونفوذه، وتستمد سلطانها من الشعب، وتعمل لصالح الشعب؛ على أنه في سبيل الحرص على مبدأ الوحدة قد صرح ذات يوم أنه يقبل أي شكل من أشكال الحكومة ما دامت تقوم على أساس وحدة البلاد. وكان قد استوى على كرسي البابوية عام 1846 بيوس التاسع، وكان معروفاً بعدائه للنمسا وبآرائه الحرة ورغبته في الإصلاح، فسرعان ما اتجهت الأنظار إليه في إيطاليا حتى خيل إلى الناس أن دعوة جيوبرتي وأشياعه هي الفائزة بين الدعوات؛ وخطا البابا بعض خطوات حرة كإصدار العفو العام عن جميع المجرمين السياسيين مما انزعج له كبير الرجعيين مترنخ أشد انزعاج قائلاً: (لقد كنا على أهبة للقاء أي نبأ إلا أن نعلم نبأ ظهور بابا حر، أما وقد ظهر هذا البابا، فلا حد لما سنراه في المستقبل).

وسرعان ما تحركت الولايات تطلب الإصلاح على نحو ما يصلح البابا في ولايته، ففي الصقليتين أرغم هياج الشعب الملك على إعلان الدستور، وفي نابلي عجل الملك فأعلنه قبل الهياج، وسرت العدوى إلى ولايات البابا فأعلن فيها كذلك، وكذلك أعلن

في تسكانيا؛ وما لبث أن خطا شارل ألبرت هذه الخطوة في بيدمنت، فأعلن الحكم الدستوري على نحو ما حدث في تلك الولايات، وهكذا تشيع المبادئ الدستورية في طول إيطاليا وعرضها.

وانبعثت الثورة في فرنسا فطاحت بالملكية هناك وأعلن الأحرار فيها قيام حكومة جمهورية؛ ولم يقف الأمر عند فرنسا، بل لقد امتدت العاصفة إلى النمسا نفسها فزلزلت الحكومة فيها زلزالاً شديداً وأخذت مترنخ أخذاً أليماً فأسقطته من مركزه العتيد بعد طول تربعه فيه وانبعاث سلطانه منه. وهب الناس على أثر ذلك في لمبارديا يضعون عن أعناقهم نير النمسا، فلم يمض أسبوع حتى طردت الحاميات النمساوية هناك، ثم بادر ملك بيدمنت شارل ألبرت فأعلن الحرب على النمسا وتبعه أمير تسكانيا وسرعان ما أتى الناس من كل حدب ينسلون، كأنهم شعب السيل وساروا أنماطاً من كل طبقة ومن كل حرفة

عالمهم بين جاهلهم وشيخهم بين فتيانهم إلى حيث يلتقون تحت راية بيدمنت، ولم يبق في إيطاليا ولاية لم تأخذ بقسط في هذه الحرب حتى لقد خيل إلى الناس أن حلم مازيني قد تحقق، فها هو ذا علم إيطاليا يخفق على رؤوس الإيطاليين من كل حزب ومن كل ولاية.

وكان الزعيم المجاهد يومئذ في باريس يؤلف قلوب المنفيين من بني قومه هناك على مبادئه، فما أن جاءه نبأ ما حدث في إيطاليا حتى هرع إليها وإنه ليكاد من فرط فرحه أن يطير ومن فرط حماسته أن يشتعل؛ ونزل الزعيم في ميلان إذ لم يكن يستطيع بناء على حكم الإعدام الذي حكم به عليه عام 1933 أن يذهب إلى بيدمنت أو إلى جنوة؛ وعرفه رجال الجمارك من صوره التي رأوها من قبل فكانوا يحيونه في حماسة بالغة ويسمعونه من عبارات الوطنية، واستقبله أهل ميلان استقبالاً رائعاً ومشى والزحام من حوله إلى الفندق الذي اختاره لإقامته.

وراح الزعيم القائد يعقد الآمال على فوز هذه الحركة، وكأنما حل اليوم الموعود فتمت رسالته بعد جهاد طويل لاقى فيه ما لاقى من أنواع العذاب وصنوف البؤس والشقاء. . ووقف مازيني أول الأمر من الحرب موقف السياسي الرشيد، فوجه همه إلى نصرة بني قومه وترك الخلاف على الجمهورية والملكية جانباً فإن هذا أمر يمكن النظر فيه بعد النصر، وأخذ الزعيم يحث الرجال إلى التطوع لنصرة قضيتهم المشتركة لا يتوانى عن ذلك ولا يكل.

ولكنه ما لبث أن حاد عن هذه الطريق الخليق به وأخذ يذيع مبادئه الجمهورية على أساس الوحدة راداً بذلك على الملكيين ودعاة الاتحاد؛ وكان عمله هذا وا أسفاه مما يعرقل سير الحرب فإن من شأن هذا الخلاف أن يشيع في الجند وأن يتسرب إلى المتطوعين؛ وكان الزعيم يعتذر عن فعلته بأن مخالفيه في الرأي هم بدءوا بإثارة الخلاف، ولكن عذره هذا سقيم لا يقبل ممن كانت له مثل مكانته ومثل ماضيه في الجهاد. . . ولعل مسلك مازيني يومئذ كان أكبر أخطاء حياته جميعاً.

وكتب إليه شارل ألبرت يدعوه أن يحث أتباعه الجمهوريين في شمال إيطاليا على الانضمام إلى القائلين هناك بالاندماج في بيدمنت وكانت قد بدأت تظهر لهؤلاء حركة قوية نحو هذا الغرض؛ وذكر الملك في خطابه إلى الزعيم الكبير أنه مستعد للقائه إذا قبل ذلك

وعرض عليه أن يكون وزيره الأول وأن يكون له ما شاء من الرأي في وضع دستور تحكم به المملكة على أساس ديمقراطي.

ورد مازيني بأنه لن يرضى بغير الوحدة للإيطاليين جميعاً وما به حاجة إلى السلطة ولا نزوع إلى الجاه ونعيم الحياة لأن هذه أمور تصغر أمام غرضه الأسمى الذي تحمل في سبيله ما سلف من مصائب الحياة. . . ولم يرد الملك على الزعيم بعد ذلك فقد يئس من ضمه إليه.

ولا ريب أن إصرار مازيني على مبادئه وعدم التساهل فيها خلة من أبرز خلال الزعماء، بل هي عندي أكبر هاتيك الخلال وأهمها، وماذا يبقى للزعيم من زعامته إذا هو تهاون فيما يرى أنه الحق وفيما جاهد فيه جهاده؟

وما لبث أن تجمعت عوامل الهزيمة فأحاطت بجيش الإيطاليين فإن البابا بيوس التاسع ما لبث أن أعلن استنكاره رفع الحسام في وجه النمسا وهي من أكبر الدول

الكاثوليكية؛ وقد أدى هذا إلى أن يسحب ملك بيدمنت جنوده من الميدان؛ كما أن الخلاف بين الزعماء قد فت في عضد المتطوعين فتخاذلوا ثم قعدوا وتركت بيدمنت وحدها تحارب جيوش النمسا. وما لبث شارل أن انهزم في كستوزا، فتراجع إلى ميلان وتبعته جنود النمسا إليها فسقطت في أيديهم بعد قتال شديد وانسحب منها شارل وجنوده.

وخرج مازيني من ميلان قبل أن يصل إليها جيش النمسا؛ وذهب يبحث عن المتطوعين من رجال غاريبلدي، وكان هذا المجاهد البطل قد أخذ بقسط من هذا الجهاد القائم، ولكن حماسة المتطوعين لم تغن عنهم شيئاً أمام تفوق النمسا في العدة والعدد فتفرقوا كما تفرق الجيش الرسمي، وتم للنمسا النصر على شمالي إيطاليا، ولحقت بالمجاهدين خيبة أخرى وكانوا من النصر على قاب قوسين. وحار مازيني ماذا يفعل وقد هده الإعياء وأحزنته الخيبة؛ ولكنه فكر في الذهاب إلى الولايات الوسطى ليدعو هناك إلى مبادئه الجمهورية على أساس الوحدة عسى أن يجد في القلوب بقية من العزم أو أثراً من الرجاء، وندم مازيني أشد الندم على أن لم يذهب إلى تلك الولايات الوسطى منذ قيام الحرب ليدعو أهلها إلى الجهاد القومي فتكون منهم قوة إلى جانب قوة الحرب الرسمية.

وكان البابا قد فر من أملاكه واعتصم بملك نابلي، فأمل مازيني أن ينشأ من أملاك البابا

ومن ولاية تسكانيا وحدة على أساس جمهوري، وقد كاتب مازيني بعض الأحرار منذ أن فر البابا يدعوهم إلى ذلك، وبعد ذلك بنحو شهرين اتخذ طريقه إلى روما فبلغها في شهر مارس عام 1849 وكان ذوو الرأي من أهلها قد اجتمعوا في مجلس وأعلنوا أن مازيني من مواطني روما كما نادوا بالحكم الجمهوري وطلبوا من الزعيم أن يحضر إليهم.

وقد استقبل مازيني استقبالاً عظيماً في لجهورن وهو في طريقه إلى روما، ولاقى في روما من روعة الحفاوة به والتحمس لمبادئه ما أنساه مرارة العيش فيما مر به من الأيام.

واختاره أهل روما ومعه سافي وأرمليني نواباً عن الجمهورية فتكونت منهم حكومة ثلاثية، وجمعت أزمة الحكم في الحقيقة في يد مازيني فأخذ يتأهب لتحقيق مبادئه وسرعان ما أعد للجهاد عشرة آلاف من المجاهدين.

وعاش الرئيس الجديد عيشة في غاية البساطة؛ فكان يخفض جناحه للناس جميعاً، وكان لا يضع بينه وبن أحد حجاباً فبابه مفتوح لجميع من يريدون مقابلته لا فرق بين كبير وصغير؛ وهو في الحكم كما هو في حياته الشخصية مثال للنبل والنزاهة واللطف، أكبر همه أن يعتنق الناس مبادئه فيجعلوا وحدة إيطاليا قبلتهم التي لا يرضون غيرها.

وكان يحرص مازيني أشد الحرص أن تكون جمهوريته مثالاً يحتذى، وأن تكون في أسلوبها وروحها خير داعية إلى مبادئه، لذلك ضرب للناس أحسن الأمثلة في التسامح والعدالة وحب الخير للأهلين جميعاً؛ وكذلك رأى الناس من نشاطه وإقباله على عمله ما زادهم تعلقاً بشخصه وإيماناً بمبادئه.

ولكن هذه الجمهورية لم يقدر لها أن تعيش إذ ما لبثت أن جاءتها الضربة القاضية على يد دولة ما كانت ترجو منها الجمهورية الوليدة إلا العون، دوله طالما ترنم أهلها بالحرية وأشعلوا نيران الثورات في سبيل الحرية والديمقراطية، وأعلنوا أنهم أبداً على أهبة لتعضيد كل شعب يعمل على نيل حريته، وما كانت تلك الدولة إلا فرنسا التي قضت في أمسها القريب على الملكية، وأحلت محلها الجمهورية!

لم تتورع فرنسا عن توجيه حملة حربية لإسقاط الجمهورية في روما وهي بذلك ترتكب إثماً من أكبر آثام السياسة الدولية في العصور الحديثة، وكان ذلك الإثم مضاعفاً لصدوره عن فرنسا ذاتها، وإنما تكون الجريمة من أهل الشر جريمة فحسب؛ أما مجيئها على أيدي

من يدعون أنهم أنصار الفضيلة ففيه معنى الجريمة ومعنى الفجور وخيبة الآمال جميعاً.

وأحاط جيش فرنسا بأسوار روما وحاول مازيني وغاريبلدي ومن انضم إليهما من الأحرار الدفاع عن المدينة، وكان مازيني يشخص بنفسه إلى مركز الدفاع، يأكل أكل

الجند وينام نومهم ويبث فيهم روح الفداء؛ وجاء كثير من الناس من أنحاء إيطاليا للدفاع عن الجمهورية، ومنهم الملكيون ومنهم الأدباء والكتاب، ولكن المدينة لم تقو على الحصار، ولما رأى مازيني أنها واقعة في أيدي الأعداء لا محالة استقال من منصبه.

وصمم غاريبلدي ومعه ثلاثة آلاف من رجاله على المقاومة إلى النهاية، ودعا مازيني إلى ذلك، ولكن الزعيم رأى مالا يراه ذلك الجندي المتحمس فذهب إلى مرسيليا؛ ثم لم يلبث أن انتقل إلى سويسرا، ولكن الحكومة السويسرية ضاقت بوجوده في بلادها كما فعلت من قبل وهو في أولى سني جهاده، ولذلك اتخذ مازيني سبيله إلى إنجلترا وراح يستأنف العيش فيها من جديد. وعاد إلى القلم والقرطاس يكتب ليعيش مما يكسب ولينشر مبادئه مجاهداً بالقلم بعد أن فشل جهاده بالسيف، وكأنما صارت إنجلترا موطنه الثاني، فلقد استراح إلى العيش فيها وأحبها هذه المرة أكثر مما أحبها من قبل، وكثر في المدينة العظيمة أصدقاؤه من الإنجليز ومن الفرنسيين والإيطاليين، فكانت تخفف صداقة هؤلاء عنه آلام الغربة ومصائب الزمن، تلك المصائب التي ذاق كبراها عام 1852 بموت أمه التي ظلت حتى وفاتها تعطف أشد العطف على حركاته، وتتألم أشد الألم لما يلاقي في سبيل بلاده.

(البقية في العدد القادم)

الخفيف

بنت القرية

للأستاذ محمود الخفيف

أنا بنتُ الشمسِ والفجرُ أبي ... شيِّع النَّجمَ وراقِبْ مطلعي
كمْ سبقتُ الصبْحَ في طلعتِه
وسرَقتُ السِّحرَ منْ غُرتِه
وفمي كمْ صاغَ من بَسمته
أيُّها السائلُ هذا نسَبي ... مثلَ ذا فاطلبْ وإلا فَدَعِ
مِنْ جُمانِ الطَّلِّ عِقْدي انتظما
ولَكمْ صُغتُ بِليْلِي الأنجُما
وأخي البَدْرُ رَوَى لي حُلُما
أينَ مِن رُؤيايَ سِحرُ الذَّهبِ ... ومعاني السِّحرِ والطُّهرِ معي؟
لَستُ أحصي مَنْ هَوَوْني عَدَدا
ثمَّ لم أشرِكْ بِقَيسي أحدا
لا ولا أرخصتُ حُبِّي أبداً
بسمةٌ منهُ قصارَى طَلَبي ... وهواهُ العفُّ أقصى مطمعي
أنا أغلى عندهُ من ناظِرَيْه
وهوَ؟. . . هل أبخلُ بالرُّوح عليه؟
إن يَشَأ جُدْتُ بها بَين يَديْه
طيفُ أحلامِي ودُنيا طرَبي ... وشذا رُوحي وريَّا أضلُعي
أَمَلي. . . هل دونه مِن أملِ؟
وغَداً لَيسَ سِواهُ مؤئِلي
أيُّ شيءٍ قُربه لم يكُ لي؟
كلما غازلني مِن كثَب ... لاحَ لي العهدُ الذي لم يُقطعِ
حُبُّهُ لحْنِيَ أيامَ الحَصادْ
وهُيامِي كلَّ يوْمٍ في ازدياد
لا أسمِّيهِ ولكنْ في الفُؤاد
شخصُه منذُ زمانِ اللَّعبِ ... يُنبِتُ الحُبَّ بهذا الموضعِ
إنْ جفانِي في منامي طَيفُه
أوْ رَنا يوْماً لِغيْري طَرفُه
أوْ تجنَّى فتَوَالى حُلْفُه
شاعَ في جِسْميَ بَرْحُ اللهبِ ... وجفا جَنْبِيَ فيه مَضجعي
يا ابنةَ الرِّيفِ هوايَ افتَضَحا

فِيكِ كم سَفَّهْتُ غِرّاً نَصَحا
ما انجَلَى رأيِيَ إلا رَجَحَا
ليتني قَيْسُكِ هذا أَرَبي ... لستُ بالعابثِ أو بالمدَّعي!
تنبتُ الزَّهرَةُ فَوْقَ الجبلِ
مِثلَما تنبتُ عند الجدوَلِ
إنْ تفُزْ هذِي بماءٍ سَلْسَلِ
حسب هاتيك دموع السُّحب ... ومن الصبحِ ندِيُّ الأدمعِ
زَهرةٌ أنتِ ترُوعُ الناظِرِينْ
فوقَ خَدَّيكِ وفي هذا الجبينْ
لَمحَةُ الوَرْدِ وطيْفُ الياسَمِينْ
ووَميضٌ كوميضِ الشُّهب ... ملَء عينيكِ سَنِيُّ الموْقِعِ
املِكِي. . . مَنْ يَمتلكْ هذا الجمالْ
حازَ ما لنْ يُشتَرَى يوماً بمال
الجَلالُ الحقُّ في هذا الجَلال
لا تقولي قد تَدَلّى حَسَبي ... لن يَضيرَ الشمسَ قرْبُ المطلع
إيهِ بنتَ الشمسِ أُختَ القمَرِ
يا خيالِي في لَيالِي السَّمَرِ
ونَصيبي من غِناءِ الوَتَرِ
بَدِّدِي بالسِّحر وهْمَ الحِقَب ... وابزغي كالشمس وارقيْ واسطعي
أسْفِري كالصُّبح نُوراً وابتسامَا
واخطُري كالغُصنِ مَيْساً وَقَواما
وامْلأِي دُنياكِ سِحراً وَهُياما
أبْلغي بِالحسن أعلى الرُّتبِ ... فذُبولِ الحُسنِ في أن تَقْنعي
أينَ في غَيرِ الحِمى هَذا القوام؟
أعَلَى حُبِّكِ ذو لُبٍ يُلام؟
بَعضُ صُنع النِّيل هذا الانْسجام
أينَ مِنْ لحَظِكِ بنتُ العنبِ ... كدتُ من سحري به ألا أعي!
كمْ سقانِي الخَمرَ في لفْتَتهِ
فَمضَى قَلْبيَ فِي سَكْرتِهِ
وَيْحَهُ. . . كمْ هِمتُ في فِتنتهِ
كم رَوَى لي من حَديث عجبِ ... ثمَّ نادَى مُهجتي: لا تهجعي!
صَدرُكِ النَّاهدُ يَسبِي الأعيُنا
أبْلَغُ الفتنةِ والسِّحرِ هُنا
لم تَزَلْ لِلسِّحرِ مِصرُ المؤْطِنا
مُنذُ (نِفريتيتَ) لم يغتربِ ... عن ثَرى الوادي البهيج الممرعِ
أُختُ بَطليموسَ سِحرُ القيْصريْن
لَمْ تَرِثْ فِتنَتها عَنْ أبَويْن
حُسنُها للنِّيل دَينٌ أيُّ دَيْن
لِسَوَى وَادِيهِ لم يَنتسبِ ... فاتَ مِنْ يونانَ ما لمْ يَرجع
يا ابْنةَ النِّيل نَميرُ النِّيل غالي
إمْلأِي الجَرَّةَ مِنْ هَذا الزُّلاَلِ
حَدِّثِي الضفَّةَ عنْ خَطو الغَزالِ
آهِ كم طفتُ بها من كثَبِ ... أطفئ الشَّوقَ بِقلبٍ مُولعِ
نظرَاتٌ بَدَأتْ في خَافِقِي
أبداً لم أعْصِ فيها خالِقي
مِلْؤها كلُّ شُعُورٍ صادِق
صَلَواتٌ لم تُحَطْ بالرِّيَبِ ... في جَنانِي لِلعِليِّ المبدِعِ
اكْشِفي عن هذه السَّاقِ الثيابا
ملَكَتْ لُبِّي ظهوراً واحتجابا

كيف يسهو من يرى هذا الإهابا؟
وَيْحَ خَلخالِكِ كم يصنعُ بي ... لكِ ما شئتِ فما شئتِ اصنعي
اجْتَلِي وجهَكِ في هذا النميرْ
فهْوَ مِرآةٌ مُحيَّاكِ النَّضير
واصْحكِي فِي الماءِ لِلوجهِ الغريرْ
كم نفى الكرْبةَ عن مُكتّئبِ ... يسناهُ العَبقريّ الأرْوعِ
أبْهَجَتْنِي صِبْغَةُ اللهِ بِهِ
إنْ زَكا الوَرْدُ فَهَلْ مِنْ مُشبِه
لِلْجنِيِّ المشتَهى مِنْ رَطْبِه؟
اخلعي كلَّ طِلاءٍ كذِبِ=لكِ مِنْ غاليهِ ما لنْ تخلعي
الخفيف
رسالة الفن
دراسات في الفن
يا سارية، الجبل!
(مع الإجلال إلى معالي الدكتور هيكل باشا بمناسبة حديثنا
الشفوي عن عمر)
للأستاذ عزيز أحمد فهمي
- قرأت اليوم أن عمر. . . كان يخطب يوم جمعة في مسجد المدينة، وكان للمسلمين جيش في حرب مع بعض أعدائهم عند سفح جبل على حدود فارس، وكان على هذا الجيش قائد اسمه (سارية) وحدث أن كان الأعداء قد بدءوا في تطويق جيش المسلمين بحيث لم تكن له نجاة إلا أن يلجأ إلى الجبل، وحدث أن توقف عمر عن الخطابة وصاح: (يا سارية الجبل)، وحدث أن لجأ سارية إلى الجبل بجيشه، فنجوا، فلما عاد سارية إلى المدينة روى أنه سمع هتافاً يهتف في أذنه صارخاً: (يا سارية الجبل) فلجأ إليه فنجا، فقال له الناس إنه صوت عمر. . . أليست هذه قصة عجيبة؟ وهل تصدقها؟
- ولم لا؟ أو ما يهتف الآن الإنسان في لندن فيسمعونه في طوكيو؟ هذه كتلك.
- ولكنهم الآن يتصل بعضهم ببعض عن طريق التليفون.
- بل لقد اختصروا الآن التليفون، واستغنوا عن أسلاكه وجعلوه (راديو). الناس ارتقوا.
- فليكن. . . ولكن الراديو لا يزال أداة يستعين بها الإنسان على التخاطب من بعد، ولولاها لعجز عنه.
- لا بأس. ولكن الإنسان إذا واصل رقيه العلمي واصل اختصار الراديو والتقليل من أدواته حتى يبلغ من الرقي درجة يستغني بها عن اختراعه هذا واختراعاته كلها. . . وعندئذ يستطيع أن يخاطب طوكيو وهو في لندن من غير أداة؟
- وأن ينتقل من طوكيو إلى لندن بغير أداة!
- في كم من الزمن؟
- هذا يرجع إلى مقدرته على تحويل الزمن!
- تحويل الزمن؟ وإلى أي شيء يمكن أن يتحول الزمن؟
- إلى أزمنة وإلى غير ذلك مما يعلم الله. ما يخيل إلينا أنه مستحيل الحدوث، يمكن حدوثه، فالله قادر على كل شيء. . . انظري. . . أتصدقين أنني أستطيع أن أمسك هذه الزجاجة الفارغة وأن أقول فيها بعض كلمات ثم أسدها فإذا الزجاجة مصباح مضيء يلقي النور؟
- هذه لم يصنعها حاو، ولا نبي، فتصنعها أنت؟
- ولا أنا أصنعها. . . ولكني أسألك أين وجه الاستحالة فيها؟
- استحالتها في أن تتحول الكلمات إلى نور. . . هذا هو المحال المتعذر لأن الكلمات حروف والنور أشعة.
- وما رأيك في أن هذه الاستحالة قد ذللت واستطاع أهل السينما الناطقة أن يحولوا الكلمات والحروف والأصوات إلى أشعة ونور، بل إنهم يخزنون الصوت والضوء في أشرطة من (الباغة). . . ما رأيك؟
- هذا مفهوم ومعقول لأنهم يستعينون عليه بالآلات.

- أنت لم تقولي في البدء إن المعضلة معضلة آلات، وإنما قلت إنها مسألة استحالة طبيعية، وإنه ليس من شأن الصوت أن يتحول إلى ضوء. . . والآن، وقد رأيت أن الصوت قد تحول إلى ضوء، قلت إن ذلك تيسر بالآلات. . . وأنا أقول لك إن لكل شيخ طريقة وأدوات، فمن الناس من يستعينون بالحديد وبالمغناطيس والكهرباء يستعيرونها من الخارج، ومنهم من له عزم هو الحديد، ونزوع هو المغناطيس، وروح مؤمنة صافية هي الكهرباء؛ وقد كان عمر من هؤلاء، وقد اكتفى بهذا فانطوى له الزمان وانطوى له المكان، وهتف في المدينة فسمعه سارية وهو على حدود فارس. . . وإذا كنا نعيش في هذه الحضارة صماً بكماً عمياً فليس لنا أن نلزم السامعين الناطقين المبصرين بأن يكونوا مثلنا فلا يسمعون ولا يتكلمون ولا يرون إلا بالآلات والأدوات. . . أنا ولله الحمد نظري كامل وإن كان سمعي ناقصاً، أفإذا رأيت النملة في السقف أنكرت أنت علي أن أراها بغير منظار معظم، فإذا سمعت أنت دبيبها أنكرت أنا عليك أن تسمعيه بغير مكبر الأصوات؟ ليس هذا من حقي ولا من حقك، ولا من حق جيل الحديد والزلط الذي يريد أن ينكر على
عمر إلقاء الأمر إلى سارية من المدينة وسارية على حدود فارس. وإن نسبة التقى بين عمر البشر وأستاذه الهادي الأمي محمد النبي الرسول صلى الله عليه وسلم، لتساوي فيما أرى النسبة بين هذه التي حدثت من عمر وبين تلك التي كانت من النبي إذ أسرى الله به ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.
- آمنت بالله ورسوله. . . إذن فقد انتقل النبي بجسمه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى. . .
- انتقل بروحه وبجسمه وبكيانه كاملاً غير منقوص، وليس هذا من الله عجباً، وهو يرويه في القرآن، والقرآن كتابه، وإن كنت تنكرين فاجمعي الإنس والجن وائتوا بسورة من مثله.
- وأنى لي أن أجمع الجن. . . هل تعرفهم أنت وهل تستطيع جمعهم؟
- إني لا أستطيع جمعهم لأني أضعف من ذلك. . .
- ولكنك تعرفهم؟ ولعلك أيضاً تعرف الملائكة؟
- لم يقل لي أحد ما الملائكة، وإن كان أستاذي النائم عبد السلام شهاب قد عرفني بالجن. . .
- ما هذا الاسم العجيب؟ لم أره يكتب لا في الهلال ولا في المقتطف، ولا في الرسالة، ولا في السياسة، ولا في الثقافة. . . فأين تقرأ له.
- إني لا أقرأ له ولكني أسمع منه، وهو يكتفي بأن يقول لي وأن أكتب أنا، وقد قال لي إن الجن ناس، وأسمعني مرة إياهم وأراني مرة بعضهم. ولم يزد على هذا.
- وكيف يمكن هذا؟ أو أن له استعداداً خاصاً؟
- له، وهو مثل كل استعداد غيره يهبه الله لمن يشاء من عباده فيمكنهم به من القيام بما يعجز عنه غيرهم. . . وهو كذلك الاستعداد الذي يستطيع به الفنان أن يلمح طبع الخير في بعض الناس وطبع الشر في بعضهم من غير أن يحتك بهم. . . وهو كذلك الاستعداد الذي يلمح به المهندس العلاقات بين النقط والمستقيمات والمنحنيات فيصل بعضها ببعض ويفرق بعضها عن بعض ويبني على ذلك ما يشاء وما لا يوفق إليه غيره. . . ولقد سمعتهم يطبلون طبلاً رهيباً في ليلة هادئة. . . وهؤلاء لم أرهم. . . أما الذي رأيته فواحد كان يسير في ليلة مظلمة في طريق قفر ضيق وراء بيت (عبد الرزاق) في عابدين.
- ألم يقل لك (بخ)؟
لا. . . وإنما كان يهرول إلى جانب الجدران وقد انشغل كل الانشغال عن الدنيا وكل ما فيها بما لا يمكن أن يكون إلا تسبيحاً؛ فلما قرأ عليه الذي كنت معه السلام رد السلام في خفوت وسرعة ركبت فيها حروف السلام بعضها بعضاً. . .
- إذا كان هذا هو كل ما سمعته وأريته فإني أستطيع أن أقول إن الذين سمعتهم يطبلون الطبل الرهيب بشر، وإن الذي رأيتماه وحياه صاحبك بشر أيضاً. . .
- وعلى الرغم من أنه كان معنا ثالث لم ير شيئاً مم رأيناه. . . ولم يسمع، فأنا لا أقول غير ما تقولين.
- إذن فلا جن ولا عفاريت.

- إنكارك هذا راجع إلى أنك تتصورين الجن من غير الناس بينما هم ناس. وكل ما في الأمر، عندي، أنهم يختلفون عن الإنس بأنهم جنوا بمحبوب، لكل منهم محبوب. وهم ينطلقون إلى هؤلاء بإحساسهم وتفكيرهم وأخلاقهم وأجسامهم وكل كيانهم ولم يعودوا بعد ذلك يأتنسون بغيرهم من الناس، وقد يسندني في هذا أن العرب رووا أقاصيص كثيرة عن الجن وأنهم كانوا يظهرون للناس ويحادثونهم ويعاشرونهم أحياناً، والقرآن الذي نزل بلغة العرب ذكر الجن بلغة العرب وعني الجن الذين يعرفهم العرب. . . زيدي على ذلك أن بعض أئمة المسلمين أباحوا للمسلمين التزوج من الجن المسلمين وأهل الكتاب، ومعنى هذا أن الجن ناس يكونون جناً أحياناً، ويكونون إنسا أحياناً. أو يلزمون حالة الجنة إذا استغرقوا فيها.

- إذا كان هذا ممكناً فإنه ممكن أيضاً أن يتحول الإنسان إلى جن. . . أليس كذلك؟

- كل شيء ممكن. فقد كان إبليس ملكاً وتحول إلى جن بعد أن فسق عن أمر ربه، والملك الذي أرسله الله لمريم يبشرها بعيسى تمثل لها بشراً سوياً. وسئل النبي (ص) كيف يرى جبريل فقال: إنه يراه أحياناً في صورة دحية الكلبي، على ما أذكر، وهو إنسان. وتفسير قول النبي يحتمل فرضين: فإما أن يكون النبي في الخلوة فيحضره جبريل في صورة دحية، وإما أن يكون مع دحية على انفراد أو بين ناس فيستشف النبي في قرارة دحية. . . جبريل. . . وأنا أميل إلى الأخذ بالفرض الثاني، ولا أمنع الفرض الأول. . . وأعلل الرأي الذي أميل إليه بأن حالات من التقي والرحمة والصفاء تحل ببعض الناس، فإذا هم ينقون من نوازع الدنيا ويسمون إلى دعاء الله فهم عندئذ ملائكة. . . يشعرون بالخير والهدى لا يراهم إلا من فتح الله عليه، وهم أنفسهم لا يهدون وإن كانوا يلهمون الهدى لمن قسم له الله أن يُلهم وأن يُهدى بنظرة منهم أو إشارة أو كلمة أو سكتة أو حركة.

- ولكن هذا الذي تقول ليس في شيء من كتب الدين.

- وليس في كتب الدين حديث عن الألغام الممغطسة، وليس في كتب الدين ذكر التلفزيون. ولا تنس أن كثيراً من كتب الدين أحرق بعد سقوط بغداد، وأن ديننا إسلام وتفكير وتدبر، وللمجتهد المخفق فيه ثواب، وللمصيب ثوابان، والله يعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسه. . . وإني سألته التوفيق فلا تقفي في طريقي، أو فمدي لي يد العون يكن لك عند الله الجزاء. . . أو تعرفين أنت الملائك والجن؟

- لا، وإنما أرى وصفك الملائك كأنه الشعر، وأرى وصفك الجن يمكن أن يطبق على ناس كثيرين جداً هم الذين ينصرفون بكيانهم كله إلى هدف ما، ومن هؤلاء من هم خيرون، ومنهم من هم أشرار.

- إني لا أستطيع أن أدافع عن رأيي في الملائك بأكثر مما قلت إلا أن أزيد أني أراك كالملائكة أحياناً. . .

- إذن فرأيك صحيح. . .

- وأما الجن، فلا تتصوري أن وصفي إياهم يمكن أن يطبق على ناس كثيرين جداً كما تقولين، فليس من الميسور للكثيرين أن ينصرفوا بكيانهم كله إلى محبوب واحد يجنون به، ويستولي على جماعهم. . . وإنما أغلب الناس بل جلهم يتشتتون وتتوزع اتجاهاتهم ورغباتهم وأهواؤهم، وينزعون إلى الائتناس بغيرهم كلما استوحشت أنفسهم أهواءهم ورغباتهم واتجاهاتهم.

- ومع هذا القيد فإني لا زلت أستطيع أن أعتبر الإنسان العبقري المنصرف إلى فنه من الجن. . .

- إذا كان لا يأنس بغير فنه، وإذا كان لا يستوحش فنه مطلقاً، وإذا كان لا يشغله غير الفن شاغل. . . وكلما قل فيه هذا كان أقرب إلى الناس.

- واتباعاً لما تقول أيضاً نستطيع أن نعتبر الإنسان الشرير المستغرق في الشر جناً. . .

- إذا كان لا يأنس بغير الشر، وإذا كان لا يستوحش الشر مطلقاً، وإذا كان لا يشغله شاغل غير الشر إذا ترك لنفسه يختار المشاغل، فهو إذا قابل الناس ابتدرهم بالأذى، وهو إذا غفلت عنه الدنيا أحرقها بناره. إنه الجن الشرير غير المسلم.

- ولكن الذين يعنون بهذه الأحاديث يروون عن الجن أنهم قادرون على الاختفاء، فكيف تعلل هذا الاختفاء. . .

- قلت لك إنها قدرة يعطيها الله لمن يشاء فيطوي بها المكان ويطوي بها الزمن، يقابلها في الناحية الأخرى عجز عن الملاحظة.
- لقد سكت عنك حين نسبت هذه الخوارق للإنسان الراقي ولكني لا أظن أنه يحسن السكوت عنك إذا نسبتها أيضاً للإنسان الشرير الذي يؤذي الناس.
- إن هذا الشرير الذي يؤذي الناس إنما ينزل بالناس قضاء الله الذي هم أهله، وإن لله حكمة في كل ما ترين من تصرفات عباده ألم يقتل الخضر طفلاً لحكمه؟
- كان الخضر شريفاً. . . وقوة كقوته إذا أعطيت لشرير كان فيها تشريف للشر.
- ليس التشريف في القوة، وإنما هو في استعمالها. . . كل الناس فيهم القوة التي تمكنهم من الارتقاء والتحول، أو فيهم نواتها، ومع هذا فأقلهم الذين يريدون أن يرقوا وأن يتحولوا. . .
- وهل تريد أنت أن تتحول؟. . . أظنك تريد أن تكون ملكاً؟
- لا. . . إني أريد حقاً أن أرقى، ولكني أريد أن أظل إنساناً فقد فضل الله الناس على خلقه جميعاً. . . ذلك أن الملك منصرف إلى الله يعبده فقط، ولإنسان يستطيع أن يعبد الله وأن يتأمل خلقه أيضاً، وأن يفكر فيه، وأن يتدبر حكمة الله، وأن يتحدث بنعمته، وأن ينشئ بعد ذلك من فنه عبادة ترضي وهي غير عبادة الملائكة. . . وإلا فقولي لي لماذا فضل الله الناس على خلقه جميعاً. . . إلا بالعقل، إن علينا أن نتجه إلى الله بعقولنا. . . كي نحقق أفضليتنا. إن فينا القوة التي تمكننا من التعالي على الملائكة. . . ولكن كم منا استطاع أن يكون ملكاً لا أكثر.
- ألست تقول إنني أحياناً أبدو كالملائكة؟. . .
- لا تؤاخذني فقد نسيت. . . لأنك لا تكونين هكذا إلا نادراً.
- إذا كان عمر وهو عمر لم تحدث منه الخارقة فيما روى من حياته إلا مرة واحدة حسبما قرأت، فهل تظن أن غيره يمكن أن تحدث منه أمثال هذه الخوارق مرات؟
- كان موسى نبياً رسولاً، وقد ساير الخضر وكأنما كان طفلاً معه. . . فالله أعلم كم يستطيع كل إنسان أن يأتي من الخوارق. . . ولكن المؤكد أن الجُنة تصيب بعض الناس في لحظات خاصة يتلخص فيها وجودهم فيقومون بأعمال، أو يقولون كلاماً، ولو سئلوا كيف صدرت عنهم أعمالهم أو أقوالهم هذه عجزوا عن تعليلها، وقال بعضهم إنها إرادة الله، وقال بعضهم وجدت نفسي فعلت أو قلت، وقال بعضهم لا أدري، وقال بعضهم جننت، والحق أنهم جنوا بأهوائهم، وغلبتهم طبائعهم وانطلقوا غير مختارين ولا مقيدين بعقولهم إلى نحو ما كانت تنزع إليه أرواحهم، وما كانت ترتاح إليه أبدانهم تنفيذاً لشيء من قضاء الله سبحانه.
- وقد كان كذلك عمر؟
- كلا. . . إن عمر لم يجن، وإنما عمر رأى، وقال، وسارية سمع. . . فعمر إنسان ممن فضلهم الله على الجن وغير الجن من خلقه. . .

عزيز أحمد فهمي

القصص

الإغماء. . .

أقصوصة مصرية

(مهداة إلى الأستاذ محمود بك تيمور)

بقلم الأستاذ خليل شيبوب

كنت صديقاً حميماً للأستاذ عزيز سامر وزوجته سلمى. أما عزيز فترجع علاقتي به إلى عهد الحداثة الأولى. وأما سلمى فإن والدتها كانت وثيقة الصلة بوالدتي وكانت تصطحبها قي زيارتها إلى منزلنا حيث كنت أراها يافعة تبرق عيناها ذكاء وأستلذ محادثتها في فترات قصيرة بين والدتها ووالدتي.

ولعلي كنت السبب في زواجهما لأن عزيزاً قابلها في منزلنا غير ما مرة، ولم يصادف صعوبة حين عقد النية على الزواج منها لا من أهله ولا من أهل الفتاة. وعاشا عيشة رضية بضع سنوات ماتت في خلالها والدة سلمى ووالدتي. وكم مرة كنا نتحدث عنهما وتثير أليمة الذكريات. ولم يرزق عزيز ولداً فما اهتم للأمر كما أن سلمى أيضاً لم تهتم له ولم ينشب بينهما ذلك الخلاف العهيد الذي يبعث به عقم الرجل أو المرأة.

أجل، كنت صديقاً حميماً للأستاذ عزيز سامر وزوجته سلمى حتى أني كنت أتناول

طعام الغذاء أو العشاء مرات كل شهر في منزلهما الذي اشتراه عزيز على ضفة المحمودية في عزلة عن الأوساط الصاخبة وفرشه بأفخر أنواع الرياش، ووسع حوله حديقة مغروسة بمختلف الأزهار والرياحين. ولا أزال أذكر مجالسنا فيها للأنس والسمر في أيام الربيع المزهرة، وليالي الصيف المقمرة، كما لا أزال أذكر مجالسنا بعد العشاء في قاعة التدخين على مقاعد الجلد العريضة في ليالي الشتاء الباردة، وأستار الحرير القاتم مدلاة على النوافذ، والطنافس المفروشة تحت أقدامنا تبعث في جو القاعة حرارة طيبة، بينما يتساقط المطر خارجاً بين هزيم الرعود، وولولة الرياح.

والأستاذ عزيز سامر محام معروف كثير الأعمال وافر الربح يعيش في يسر ودعة.

وسلمى فتاة طيبة القلب، جميلة الوجه، أنيقة الملبس. تدير منزلها في كثير من النظافة والمرح،

وتستلذ الخروج مع زوجها إلى مشارب الجعة ومساهر السينما ودور التمثيل. وكم صحبتهما إليها وكم احتدم الجدل بيني وبين سلمى على الملابس النسائية وائتلاف ألوانها، واختلاف أشكالها وطولها وقصرها، ومناسبتها وغير مناسبتها. وكانت سلمى تحب مداعبتي وإحراج زوجها وتهمته بفقدان الذوق في هذه الأمور الهامة.

ولا أعدو الحقيقة إذ قررت أن سلمى على جانب من الثقافة يجعلها تتذوق القراءة الأنيقة، وبخاصة هذه الأقاصيص التي اكتظت بها الكتب الحديثة. ولكنها كانت تعجب كل الإعجاب بالكاتب القصصي جي دي موباسان، لأن أقصوصته نيرة مشرقة مترعة بالحياة يتدفق الذوق الفني في سطورها البارزة حتى كأنها رسم بارع الألوان تامُّ التخطيطات تكاد الصورة تنطق بين ثناياه.

وإني لأشعر بكثير من الغبطة كلما ذكرت تلك الساعات الأدبية التي مرت بنا وبخاصة كيف كنت أضحك من الأحكام الجائرة التي كان يحمل بها عزيز سامر على الأدب والأدباء فيقول لزوجته:

- دعي عنك هذه السفاسف!. . إن أدباءك أناس أخفقوا في عواطفهم فقذفوا بها في وجه الناس وهم يظنون أنهم يأتون بالمعجزات.

فتقول له سلمى في كثير من التهكم:

- أنت يا عزيز لا تفهم إلا (حيث إنّ). . . تريد بذلك (حيثيات) الأحكام. . . وتضيف إلى قولها: أن الأدب مرآة الحياة كما يقولون ولكن (حيث إنّ) هذه لا حياة فيها.

فيجيبها عزيز بأن الأدب مرآة مشوّهة للحياة لا تعكس إلا ما يظهر منها بينما ما خفي أكثر وأدق، وقد يكون أجل وأعظم. . .

فأتدخل بينهما وأقول:

- قد يكون ذلك كذلك وكلاكما على حق. والأدب دنيا والمحاماة دنيا، قد تلتقيان وقد تفترقان. . .

وكنا نفترق عادة ولم يقنع أحد فينا رفيقه.

ولكن هذه العيشة الراضية لم تدم طويلاً، لأن سلمى كانت تمر بها السنون مقفرة الأيام إلا من زوج تعودته وخدم ألفتهم وقليل من الأصدقاء ملّت صحبتهم. وصرت أشعر في أحاديثها بكثير من الضجر والسأم فأختصر الزيارة أو أعكس وجهة الحديث أو أنقطع عنهما أسابيع.

ولا أنس يوماً وأنا مكب في مكتبي على عمل هام إذ اندفع إليه عزيز سامر فجأة كأنه قذيفة طائشة فنهضت منذعراً أرحب به، وهو يقول:

- اسمع يا فريد! إن هذه الحياة لن تطول بي وإني لأختنق. لقد بلغت مناقشاتي مع سلمى درجة من الحدَّة حملتها على التفكير في الطلاق.

فسكنت روعه ولطفت من هياجه، وبين فنجان من القهوة ولفافة من التبغ فهمت أن سلمى اندفعت من طريق المطالعة إلى حد خرجت به عن التسلية إلى الجد، وأنها صارت تطبق على زوجها كل الآراء والأفكار التي تقرأها. وأنها تلح عليه في الجدل والمساجلة حتى يتبرم بها ويكاد يجنُّ من الأسئلة والأجوبة، وهو رجل لا يفكر إلا في قضاياه وملفاته، وقد أضحكني عزيز كل الضحك حينما سألته أن يضرب لي مثلاً لذلك فقال:

- تصور يا فريد أنها قرأت قصة من قصص موباسان حدثتني أن صاحبتها كانت إذا

أرادت رجلاً لنفسها ورأت فيه شيئاً من الاستحياء والخجل تصنَّعت الإغماء بين يديه حتى يضمها إلى صدره ويغتنم فرصة إغمائها.
فتهالكت من الضحك وقلت لعزيز: إن هذا ايوجد إلا في القصص. فتغاضب عزيز وقال: لا تضحك بل اسمع ماذا سألتني سلمى.
قلت: ماذا؟
قال: سألتني بعد أن أعربت عن إعجابها بهذه الناشرة المريضة: ماذا أفعل لو أن سيدة أغمي عليها وألقت بنفسها بين يدي. . . فأجبتها بأني أستدعي لها الإسعاف. . . فقالت لي: أنت رجل مغفَّل! ومن هنا نشأ بيننا جدل عنيف لم ينته إلى الصباح، وقضينا ليلة ساهرة في المصايحة والمهاترة.
وزاد عزيز على قوله:
- لذلك أرجو منك يا صديقي أن تحاول ردَّ سلمى إلى صوابها، وتحملها على الإقلاع عن هذا الهذيان الذي يقودنا حتماً إلى المحكمة الشرعية.
ووعدت عزيزاً بالتدخل، وفعلاً خاطبت سلمى في الأمر وأخذت أخضد من رغبتها في قراءة الكتب الجامحة دون أن تسترشد بدليل يميز لها الغث من السمين، والنافع من الضار. ورضيت بي سلمى مرشداً أدلها على الكتب الطيبة والأقاصيص الطريفة الأدبية التي تمتزج بالحياة من جهاتها القويمة. وصرت أشتري لها بعض الكتب التي كنت أعرف في مؤلفيها ميلاً إلى إصلاح المجتمع والمحافظة على الأخلاق.
ومضت فترة من الزمن تبينت فيها أن سلمى لم تعد تلك الزوجة المفهومة التي ترتسم على وجهها كل معاني نفسها بل أصبحت كثيرة التأنق في ملبوسها وزينتها واختيار عطورها بل صرت أراها تتعمد إثارة الفتنة بملامحها وجلستها ومشيتها، وكأنما زاد بريق عينيها السوداوين الواسعتين بما كانت توسع من أشفارهما بالكحل، وتبالغ في توضيح أنوثتها بارتجاج جسمها في نقل خطواتها. وصارت تزيد أثوابها قصراً وتغالي في تعرية زنديها وصدرها، وصار زوجها يشكو من هذا كله فأقول له:
- دع سلمى، إنها فتاة طيبة، وإن الزينة حياة المرأة، ولا ضير عليك ولا عليها من الأناقة ومسايرة أزياء العصر.
وفي الواقع كان تطور سلمى بطيئاً وما كانت لتلفت نظري ونظر زوجها لولا بعض أثواب قديمة لها كانت ترتديها في بعض الأحايين فترينا الفرق بين ما كانت عليه وما صارت إليه، ولكنني وزوجها ما برحنا نعتقد أن شغفها بالزينة نتيجة التقليد فقط، وأن المرأة أكثر ما تتزين لتباهي بزينتها غيرها من النساء، وأن هذا كله بريء كل البراءة، لا يفضي ولن يفضي إلى ما لا يصح السكوت عنه.
ولقد صادفت سلمى مرات في الشارع منفردةً تدور على المخازن كما تقول ذلك كل النساء، وأظن أني لمحت مرة شاباً يترسم خطاها وهي تشجعه بابتسامتها له، ولكن ظهوري أمامها صرفه عنها وصرفها إليّ. وأذكر أني فسرت ذلك بأنه حادث عادي، ولم أشأ أن أفسر ابتسامة سلمى له سوى أنها محض توهم مني.
وسئمت سلمى من المطالعة ورغبت إليّ ألاّ أتعب نفسي في اقتناء الكتب لها، وكنت سئمت التفكير فيما أقدمه إليها، وهي مهمة محرجة، فحمدت لها رغبتها تلك وفي صدري منها مرارة مبهمة. وصرت ألاحظ أن سلمى إذا جلست إلى جانبي ألقت بنفسها متهالكة على المقعد في حركة غريبة، وكانت من قبل تقعد قعود الصراحة، وصرت ألاحظ أنها ترنو إلي
خلسة بعض الرنو بألح اظ فاترة مستطيلة، وأني إذا حملت إليها على عادتي القديمة بعض الهدايا أخذتها بلا شكر كأنها فرض أؤديه ولكنها كانت تتحين فرصة يكون فيها زوجها بعيداً عنا فتخاطبني عن هديتي في لطف وهدوء لم أعهدهما فيها كأنما تجعل نفسها مقصودة بها باعثة عليها، لا المنزل ولا الصداقة القديمة.
وإننا معشر الرجال ليطيب لنا مثل هذا الجو الفاتر الذي تثيره المرأة حولنا ونشعر فيه بلذة غامضة، إلا أن هذه اللذة كانت مشوبة عندي بكثير من تأنيب النفس وكنت أشعر بأنني لست راضياً عن سلمى الجديدة لأنني كنت أكثر ميلاً إلى سلمى القديمة المرحة التي عايشتها مع زوجها عيشة الألفة البريئة الصريحة. ومما زاد في عدم رضائي عنها أنها صارت تكثر من مخاطبتي بالتلفون وتطيل صوتها في شيء من الدلال وتسألني دائماً عن صحتي وعن ليلتي وعن إصباحي وعن إمسائي كأنني مريض تريد أن تطمئن

على سير مرضه.
ومرت الأيام وهذا الجو يزداد حرارة حتى إني صرت أحس بأن عينيَّ تثبتان على سلمى ثبوت تفحص لجسمها البض، ووجهها الغض، وقوامها المجدول وابتسامتها الساحرة وجبينها المشرق، وبخاصة بريق عينيها السوداوين الواسعتين.
(البقية في العدد القادم)
خليل شيبوب
من هنا ومن هناك
حرب الحصار
(عن مجلة (تروث) لندن)
الحرب الحديثة حرب مصادرات وتضييق، فالجانب الذي يتغلب على الآخر في مصادرة بضائعة هو الذي يكسب الحرب.
إن الحصار البحري فضلاً عن أنه سلاح ناجح قد قل بواسطته عدد القتلى في الحرب، فإذا أخفق في مهمته لم تكن الخسارة بالشيء الذي لا يحتمله المحاربون، وقد جعلت البحرية البريطانية من همها أن يقل عدد السفن التجارية التي تغرق في عرض البحار.
إن الحصار البحري الناجح - مع ماله من القوة - لا يحتاج في تنفيذه إلى شيء من العنف، فقد تقضي السفن الحربية مدة الحرب جميعها دون أن تسمع كلمة (ارفع البندقية وكن مستعداً) وقد بلغنا عن طريق الأسر ومصادرة السفن ضعف ما بلغه عدونا بإغراق السفن بواسطة (الغواصات)؛ فإن الأسر والمصادرة (كالانتخاب ذي الصوتين)، ولكن أصحاب العقول المخربة، والنفوس المتعطشة للدماء، يظنون أن الحرب لا تكسب بغير القتل والتدمير؛ والحروب البريطانية على النقيض من ذلك، فهي تصل بنا إلى الغاية بالمصادرة لا بالقتل، وبالاحتفاظ ببضائع العدو التي تقع في أيدي رجالنا لا بتدميرها. فالجندي المخرب حين يرسل إلى البحار لا يفكر إلا في إغراق السفن، ولكن رجل البحار يصادر بضائع العدو ليستخدمها لنفسه، وبذلك يكسب الحرب.
إن سكان البلاد الشمالية وجيوشها ومصانعها لا تستطيع جميعاً أن تحصل على شيء من خيرات البلاد الاستوائية بغير إرادتنا.
وقد تذهب مجهودات الأمة المحاربة أدراج الرياح إذا هي حرمت من بعض المواد الأساسية: كالقطن والنترات والفوسفات والمطاط وزيت النخيل وغيره من المواد الدهنية والشحوم والبن والكاكاو وأطعمة البلاد الاستوائية جميعاً. بل إن شيئاً من صادرات تلك البلاد لا يمكن أن يصل إلى أوربا بغير إرادتنا. فجميع المضايق التي تمر بها تلك الصادرات تحت إشرافنا، ويكفي إرسال قوة من الطرادات والسفن الصغيرة تحت حراسة الأسطول لحصر التجارة بين مضيق جبل طارق البالغ اتساعه ثمانية أميال، ومضيق دوفر
البالغ اتساعه ثمانية عشر ميلاً، ومائتي الميل الواقعة بين سكوتلاند والنرويج، وبذلك نستطيع أن نحاصر أوربا إذا اختارت أوربا أن تكون عدواً لنا، ومن هذه المضايق نستطيع أن نسمح بمرور ما نشاء لحلفائنا وأصدقائنا المحايدين سواء أكان وراداً إليهم من المناطق الاستوائية أو الأمريكيتين أو أفريقيا أو الدنيا القديمة. . .
ونستطيع أن نصادر ما يحمل منها إلى أعدائنا ونستغله لأنفسنا.
وقد اختفت من البحار فعلاً جميع السفن التي كانت تحمل البضائع لألمانيا، ولم يحاول أحد الآن أن يفر من حصارنا ويجازف بإرسال شيء إلى ألمانيا، لأن الجميع لا يشكون في أننا سنصادر بضاعتهم في الحال.
فالحصار البحري - وهو سلاحنا في الحرب - هو أقوى الأسلحة وأكثرها اقتصاداً في المال والأرواح. . .
يوم من أيام الحرب في برلين
(عن (لاربابليك دي لبه))
سكان ألمانيا اليوم يعيشون عيشة رتيبة، ويحيون حياة لا تختلف عن حياة الجنود: فالرجل الألماني يستيقظ من الساعة السادسة والنصف صباحاً - لا لسبب - إلا أن يكون أمام موزع الألبان قبل الساعة السابعة. . . فيتاح له أن يصرف البطاقة التي يستطيع بها أن ينال المقرر له من هذا الطعام!

وفي غالب الأحيان لا يصل إلى أيدي الباعة أكثر من ثلثي اللبن المطلوب. فيندفع الأهالي إلى شرائه، ويتزاحم المشترون بالمناكب. . . فإذا كانت الساعة السابعة والربع جاء موعد توزيع المقرر من الخبز: وهو خمس أوقيات ونصف أوقية؛ وعليك أن تطلبها ثلاث مرات في اليوم الواحد، حتى لا تحرم تصيبك من هذه المادة الأساسية في الطعام.

ولا يحتاج المشتري لحمل نقود معه لشراء هذه الأشياء، فيكفي أن تكون معه البطاقة ليصرف إليه المطلوب، وتجمع هذه البطاقات في نهاية الأسبوع وتخصم قيمتها من مجموع الأجور، ولا يتبقى بعد هذه المشتريات في غالب الأحيان غير النذر القليل من باقي الأجور. ونستطيع أن نقول: إن في مقدور الرنج أن يسخر الشعب على هذه الصورة وقتاً

ما، كما يسخر الأرقاء، ولا يبذل (ماركا) واحداً في الأسواق.

وكما أن جميع سكان ألمانيا المتحضرين يستيقظون كالأبطال في ساعة مبكرة من النهار، وينتظرون في صبر وجلد توزيع الأقوات، فإنهم لفي حاجة شديدة إلى الانتظار لتوزيع البترول والفحم اللذين يوزعان بمقادير دقيقة.

فالألمان والحالة هذه لا يستطيعون أن يقوموا بتحضير طعام الإفطار قبل الساعة الثامنة، وفي هذا الوقت يستمعون إلى الإذاعة إذ أن التيار الكهربائي ينقطع بعد هذا الميعاد.

وقد وضع الفوهرر هذا النظام ليكون متفقاً مع النظام الذي وضعه للعمل. فقد لا تجد بعد الساعة الثامنة نازياً واحداً خارج العمل: إما داخل المصنع أو في الإدارة حيث يجب أن يكون خاضعاً لمثل هذه التعاليم، ويتسلم مثل هذه البطاقات شأن ثمانين مليوناً من الوطنيين. وفي الساعة العاشرة تماما يجب أن يقف على قدميه سواء أكان في المصنع أو المصلحة ليستمع إلى حديث الدعاية الرسمي ثم يعود فيعكف على عمله صامتاً حتى منتصف النهار، إذ يتناول بطاقته ويتبوأ مكاناً في المطعم، وعليه أن يقضي نصف ساعة في هذه الوجهة، ثم يعود إلى عمله.

ويظل في هذا العمل إلى الساعة الثامنة مساء. فإذا ما عاد إلى منزله، فعليه أن يسارع إلى استحضار الغذاء المقرر له، وعليه ألا يهمل حمل بطاقته. فإذا جاءت الساعة التاسعة وجب عليه ن يصغي مجبراً إلى الإذاعة ثانية، وقد لا يستطيع الخروج إلى نزهة خلوية، أو الذهاب إلى دور السينما لتتبع الأفلام الحديثة إذا فقد البترول وانقطعت السيارات لعامة. أما السهرات المنزلية المعروفة، فقد صدرت الأوامر بمنعها بتاتاً.

وهكذا ينقضي اليوم في ذلك البلد المسكين!

البريد الأدبي

نهج البلاغة

إلى حضرة الأستاذ البارع الفاضل (سائل) من (العراق) في مجلة العرب (الرسالة).

يا أخي - من كتب إخواننا الإمامية، ومن الكنوز العربية، وهو مجموعة (نهج البلاغة) مصطفاة، وإن لم يحبره سيدنا عليّ (رضوان الله عليه) فقد انتقاه وحبره علويين كما زخرف محدثون و (كل حزب بما لديهم فرحون) وإن همهم تحقيق وتأريخ، فقد ابتهج الأدب واللغة. ولولا إبداع المبدعين أو صوغ الصياغين ما ورثنا هذه الثروة الفخمة الضخمة في الأدب العربي. وليس عندي اليوم مزيد على ما قلته في (نهج البلاغة) في (كلمة في اللغة العربية) وفي (الإسلام الصحيح) وإذا لم يكن ما خططته في الكتابين (كلمة الفصل) فربما كان (فصلاً من الفصول) المرْصَنة فيه.

محمد إسعاف النشاشيبي

في كلية الآداب

كتب الأديب عبد الرحمن بدوي في عدد الرسالة الماضي كلمة حاول الرد فيها على إشارة الدكتور بشر فارس ومقالات غيره من الجامعيين التي ظهرت متعاقبة في الرسالة تحت عنوان (في كلية الآداب) وكان الغرض منها ذكر ما ينعم به مدرس أجنبي عندنا من حظوة وما يلاقيه المصريّ المماثل له من ضيق. ونحن ندهش كيف لم يتعرض لنا غيره مع علمنا بانتشار ما أذيع هنا في الدوائر المسئولة وإحداثه ما يستحق من تأثير. ولولا الخوف من أثر ما قد يحدثه كلام الكاتب في نفوس بعض القراء ما

تعرّضنا اليوم للكشف عن اغتصابه للدفاع وتهافته فيه.
يقول: (أما مسألة استقدام الدكتور بينس فهي في ذاتها أمنية تجيش في نفوسنا نحن المدرسين المصريين المستقلين أو المشتغلين بالفلسفة الإسلامية الخ)، والذي نعرفه - وأمامنا برامج دروس كلية الآداب لهذا العام - أن الكاتب لا علاقة له بتدريس الفلسفة السلامية في الكلية، وإنما هو طالب في قسم (الماجستير) فهو يتصف بغير صفته، وقد قال بعد ذلك إنه مصري يعز عليه الدفاع عن أجنبي إزاء مواطنين، ويحق له أن يعتذر عن
ذلك ولا سيما إذا تذكر انتماءه إلى طائفة الشباب التي اشتهرت في حين ما بالعداء المتطرِّف لكل ما هو أجنبي. ألم تنشر (مصر الفتاة) صيف 1937 مقالاً تهكمياً عن هذا المدرس الأجنبي لما حظي إذ ذاك بمكافأة للسفر إلى باريس؟ وهذه المكافأة هي إحدى الحقائق التي ينكرها الكاتب ويحاول تكذيبها اليوم.
وعلى ذلك فإذا تعرض بدوي لما لا يعنيه، وتعامى عن الواقع الذي ثار له هو وإخوانه من قبل، فاغتصب الدفاع عما كاد يتم لولا ما كتب في الرسالة فهنالك ما أومن أنه دفعه إلى ذلك دفعاً، وبئس التوجيه في مثل هذه الحال، ومتى استقر التوجيه قام الشك. وعليه فإننا في هذه الكلمة نزدري دفاعه المغتصب، وإنما غرضنا أن نبين له كيف يجري قلمه بغير ضابط وهو يطلب العلم العالي.
على أن الكاتب المدافع لا يتردد في تعمد المغالطة. وبيان هذا أن الدكتور بشر فارس، وله الفضل في إثارة المسألة، أشار فيما أشار إلى (تلطف) ذلك المدرس الأجنبي للظفر بإدارة المكتبة العامة للجامعة. ولكن بدوي أفندي تكلم عن مكتبة الكلية ومكتبة معهد من معاهدها مع علمه أن الإشراف على مثل هذه المكتبات لا يحتاج إلى مدير. وأما إشادته بفضل المدرس المشار إليه في ترتيب المكتبة الخاصة بقسم اللغة العربية، فإننا نؤكد أننا لم نسمع من قبل مدحاً لهذا العمل، بل سمعنا من المختصين بفن المكتبات الشكوى منه. ويبرر شكواهم أن هذه المكتبة الفرعية لم يستقر لها نظام بعد، وأن وجودها على ما هي عليه معطل للنظام القائم في المكتبة العامة. وما دمنا ملزمين بالكشف عن تهافت السيد بدوي في دفاعه فإنا نزيد: كيف يأذن لنفسه أن يقول في وصف الشاب (بينس) بأنه (مستشرق ممتاز، وقطب من أقطاب الجيل)؟ وادَّعى أن الدكتور بشر تجاهل اسمه! أن (بينس) لا يحمل إلا الدكتوراه الألمانية العادية، وهي شهادة لا تقنع بها كلية الآداب ولا الجامعة الأزهرية من أعضاء بعثاتها إذ تلزمانهم نيل إجازة التدريس العالي في ألمانيا وهي (الهابلتاسيون). فضلاً عن أن دكتوراه (بينس) لم تقبلها جامعة باريس معادلة لشهادة (الليسانس في الآداب الفرنسية). يوم تلمس الرجل الانتساب إلى جامعة باريس ليظفر منها بالدكتوراه.
ومما يدل أيضاً على عدم تحوط المدافع في الكتابة أنه قال: إن (بينس) (بدأ يتبوّأ مركز
الصدارة في حركة الاستشراق بعد أن انقضى الجيل السابق من المستشرقين أو كاد بعد موت المرحوم نلّينو). ألم يسمع الكاتب من أساتذته أنه لا يزال من المستشرقين على قيد الحياة أنداد لنلّينو العظيم ومن جيله، وبين قراء الرسالة من يعرف بروكلمَنْ ولتمْنْ وشيدَر ورِتَّر وفِشَر وهرتمَن في ألمانيا. ثم مارْسيه ودومامبين في فرنسا. ومرغوليوث ومِنْفُخ ورُسّ مثلاً في إنجلترا، وبالاثيوس في أسبانيا، ونيبرج في أسوج؟ ثم إن الكاتب يجدّ في ترويج البضاعة المزجاة فيترخص في استعمال الألفاظ ويسرف في سوء الظن ويقول: إن الدكتور بشر حرص على إرضاء شهوة صديقه (يعنينا) في أن ينال من هذا المدرس الأجنبي، والدكتور بشر وزملاؤه من الجامعيين لا يعنيهم أمر هذا المدرس على وجه التخصيص بقدر ما يعنيهم إنصاف المصري والرفق بماله، كما تعنيهم فوق ذلك مصلحة الثقافة إطلاقاً.
وأحب أن أختم هذه الكلمة بقولي للكاتب ومن دفعه إلى الكتابة إننا نعلم اليوم حق العلم أن كلية الآداب لن تستقدم (بينس) بالرغم من سعي بعضهم. والفضل في ذلك راجع إلى ما أثير في مجلة الرسالة.
(جامعي آخر)
1 - جائزة نوبل تمنح لأديب فنلندي
منحت جائزة نوبل في هذا العام لأديب بارع من فنلندا اسمه ? ?، وقد أجمع أهل الرأي

في الأدب على أن هذا الأديب هو أعظم قصصي عرفته فنلندا في هذا القرن من حيث طرافة مادته، وخصوبة خياله، وغزارة بيانه.

ولد هذا الأديب سنة 1888، في أسرة فقيرة معدمة، بين أحضان إحدى القرى. فقضى طفولته، وشطراً من صباه، بعيداً عن المدن، بين غابات الصنوبر وشطآن البحيرات، ومال إلى الأدب والشعر مذ كان يافعاً. ثم انكب على المطالعة الشخصية حتى استطاع أن يصبح الأديب الأول في بلاده. فلما كانت سنة 1916 أخرج للناس كتابه الأول (الحياة والشمس) فبهر الناس بوصف رائع للطبيعة، يجذب ويغري. ثم أتبعه بكتابه الثاني (البؤس المقدس). وقد نقل هذا الكتاب إلى الفرنسية. ثم اختص بالأقاصيص، فأخرج: (وطني العزيز) و (بالقرب من الأرض).

وفي سنة 1928 أخرج (اعترافاته) فأحدث أثراً في فنلندا، وقد شبه الناقدون كتابه هذا، بالزهرة المتفتحة ذات الأريج العطر المسكر. لأنه كان فيه بعيداً عن التكلف والنحت، سهلاً متدفقاً رائعاً.

وكان يؤخذ على أديب فنلندا الأكبر الإطناب وعدم الدقة، وهذا المأخذ لا يأتي من ضعف الشخصية المبدعة، ولكن من قلة إعمال الفكر والملاحظة. على أنه نجا من هذا العيب في كتابه الذي أسماه (ماتت في ريعان الصبى)، وقد ترجم إلى كثير من اللغات ويعد أروع ما أخرجه للناس.

ونستطيع أن نقدّم لهذه القصّة خلاصة موجزة لشأنها الكبير: فقد كان لزوجين من أغنياء القرويين ولد فرد، تزوج فتاة من أقرباء أبيه. ولم يلبث طويلاً حتى قضى أبوه ولحقت به أمه. فبدأ يعاني جفوة الزمان وإهمال الزوج. فقد كانت زوجه ضعيفة الخلق مريضة الجسم، لا تستطيع أن تشد أزره أو تساعده على تدبير أطيانه واستثمار أمواله. ولم يكن ذا بأس شديد أو حزم ماض أو إرادة صلبة، فبدأ الناس يسلبونه ماله، ويوقعون بينه وبين أعوانه، فاضطر إلى بيع أراضيه الواسعة وحقوله الشاسعة، وداره التي رأى النور فيها، ومنزله الذي عاش فيه أبواه ومن قبلهما أجداده. فخشي الذل، ورحل إلى قرية مجاورة وعاش فيها يُعاني ألم الفقر وبؤس العوز، ثم فجع في زوجته التي قضت نحبها أسيانة حزينة.

وعاش الرجل (غوستاف) مع ابنته (سليجا) التي تركتها زوجته من خلفها، وكان شديد الحب لها، والتعلق بها، ولكنه لم يمتّع بالعيش معها طويلاً، بل مات وعمرها خمسة عشر عاماً. فاضطرها اليتم والفقر إلى الخدمة في قرية مجاورة. وكانت حلوة العينين، عذبة الكلام، أنيقة الجمال؛ وكانت تؤثر الوحدة والانفراد إذا فرغت من عملها على الاختلاط بالناس. وما كان أحد ليستطيع معرفة ما يجول في خاطرها ويعجّ في نفسها. فلما تخطت العشرين من عمرها التحقت بخدمة شيخ كان أستاذاً في إحدى الجامعات فحنا عليها بلطفه وآثرها بعطفه، فذاقت الراحة وعرفت لهناء وساعدها الزمان، فعرفها شاب اسمه (أرماس) أتى من المدينة ليصيف، فتحابَّا وقضيا ليلة (تدنيه ويدنيها) حتى إذا كان طفل الغداة تلقى كتاباً ينبئه بمرض أصاب أمه وكاد يهلكها فتفارقا، وكان العام 1917 في أوائله والحرب مستعرة الأوار، والفوضى ضاربة إطنابها في كل مكان.

ومرضت (سيلجا) وما شفيت إلا بعد زمن طويل، وكان الأستاذ الشيخ قد اضطر إلى الرحيل، فتركته والتحقت بخدمة أناس آخرين، فعاودها المرض، وكانت تدعو ربها أن يعيد إليها (أرماس) وأن ينقذه من شر الحرب الأهلية التي قامت آنئذ وأن يقيه شر الجنود الحمر الذين هاجموا البلاد. وأضنى المرض جسمها فعجزت عن العمل، ولكن سيدتها أبقتها طمعاً في صُبابة مال كانت ادخرتها، وآوتها في غرفة حقيرة قطّعت فيها أيامها الأخيرة وهي راضية مطمئنة لا تأبه بمرضها ولا تخشى الموت، معتقدة أنها ستلقى يوماً خطيبها الشاب الذي أحبته، والذي أصيب بمرض في صدره، وقطع الحمر رجله. وتفقدوها ذات يوم فألفوها ميتة وهي تبسم.

ويُعدُّ هذا الأديب مجدِّداً، فقد أعرض عن الأقوال السالفة والتعابير السخيفة التي لجأ إليها من سبقه من الكتاب، ولا تصلح الآن، وابتدع أقوالاً وتشبيهات كثيرة ترقص وتعجب.

صلاح الدين المنجد

خير الدين الزركلي الكاتب - 2
قرأت في ثنايا نقد الدكتور بشر فارس لتاريخ الآداب العربية لبروكملن أن هذا المستشرق قد جعل خير الدين الزركلي في عداد الكتاب. على أن خير الدين ليس بكاتب، ولا يصح أن نسميه كاتباً لئلا تنهار شهرته، لأن ما أخرجه للناس في النثر ليس بشيء، اللهم إلا (أعلامه) وكلها جمع.
أما ميزة خير الدين فهي في شعره. ولقد كان - وأعني خير الدين الشاعر، لا خير الدين الموظف - من أرق شعرائنا وأنصعهم ديباجة، وأحلاهم شعراً؛ ولقد كان في طليعة شعراء سورية المطبوعين السباقين.
ونقد الدكتور بشر يبين للناس خلط بعض هؤلاء. . . وهل من الدقة ومن البحث والتحقيق جعل الشعراء كتاباً ومنح الألقاب من لا ألقاب لهم!
ص. ا
شعراء الشرق والطبيعة الغربية
اطلعت في عدد يوم الأحد الماضي من جريدة (الإجبشان مايل) الإنجليزية على كلمة كتبها مكاتب فاضل بمناسبة قصيدة أخي الشاعر الأستاذ علي محمود طه (أغنية الجندول) التي غناها الأستاذ عبد الوهاب في الإذاعة المصرية.
وكل ما جاء في الإجبشان مايل خاصاً بشاعرية صديقي فهو حق؛ وصديقي شاعر مجيد له وثبات وومضات معروفة. إلا أن الكاتب الفاضل ذكر أن علي محمود طه (هو الشاعر الشرقي الوحيد الذي سحر بجمال الطبيعة في الغرب وسجل هذا الجمال في شعره الغنائي).
والواقع أن هذا الكلام بعيد من الحق كل البعد. ففي الشرق شعراء كثيرون اطلعوا على مباهج الطبيعة في الغرب وسجلوها في شعرهم قبل أن يشدو علي محمود طه ببيت، وقبل أن يزور أوربا زيارته العابرة بزمن طويل.
وإذا خلَّينا شوقيّاً وحافظاً ومطران فهناك كثير من الشعراء الشرقيين تغنوا بمحاسن الطبيعة الغربية في شعر عربي جميل.
أين إيليا أبو ماضي وقصيدته (العوسجة) وأين مخائيل نعيمة وقصيدته الخالدة (النهر المتجمد) وأين شكر الله الجر وقصيدته (شلال تيجوكا) التي نشرت بالمقتطف سنة 1932؟
ولصديقي العتيق (في الصداقة لا في السن!) الدكتور بشر فارس قصائده الغنائية الخالدة في وصف الطبيعة الأوربية، وقد نظمها متأثراً بالجو الغربي الذي عاش فيه زمناً طويلاً، وقد نشر المقتطف أكثر قصائده منذ سنة 1928 كقصائده الأربع (الخريف، والشتاء، والربيع، والصيف في باريس)، ثم الخريف في برلين. وآخر قصائده (في جبال بافاريا) التي نشرت في مقتطف مارس سنة 1937 وأعادت نشرها مجلة (الجمهور) البيروتية في العام نفسه.
وأغلب شعر (الشاعر القروي) في وصف مجالي الطبيعة في أمريكا الجنوبية. ولزميلي الأستاذ فخري أبو السعود شعر كثير في وصف الطبيعة الأوربية وخاصة مقاطعة (ديفون) الإنجليزية التي عشنا فيها زماناً.
ولكاتب هذه الكلمة قصائد كثيرة تنشر في مجلة المقتطف من سنة 1935 إلى الآن تحت
عنوان (وحي إنجلترا) نذكر منها (ديفون الجميلة) (وأرض شكسبير) (وبحيرة دندرمير) والقرية النائمة - مقتطف ديسمبر سنة 1939، وقد سجلت تذكاراً لزيارتي القصيرة للجبل الأبيض بفرنسا قصيدة في مقتطف ديسمبر سنة 1937 عنوانها: (ثلاجة الجبل الأبيض). . .
محمد عبد الغني حسن
طبع الكتب الدينية
على أثر ما نشرناه من بعض الأخطاء في طبع أحد المصاحف التي ظهرت أخيراً، اهتم فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر بالأمر، وأخذ في تحقيقه تمهيداً لمنع تداول هذا المصحف.
وقد قابل فضيلته في مكتبه فضيلة شيخ المقارئ، وصاحب المطبعة التي طبعت هذا المصحف ودار البحث حول هذا الموضوع.

وقد اعتزم فضيلة الأستاذ الأكبر اتخاذ التدابير لتنظيم الإشراف على طبع القرآن الكريم وكتب الحديث والتفسير والفقه والتوحيد وما إلى ذلك من الكتب الدينية، بحيث يراجع بعض حضرات العلماء هذه الكتب في أثناء طبعها، فلا يؤذن لدور الطباعة في إصدارها إلا بعد هذه المراجعة، إذ يرى فضيلته أن وقوع أي خطأ في هذه الكتب، قد يقوم عليه حكم شرعي غير صحيح، أو يتخذ منه دعاة التأويل وسيلة لتضليل العامة.

تاريخ الأمة المصرية

أصدر معالي وزير المعارف قراراً بترجمة كتاب (تاريخ الأمة المصرية) من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية. وقد جاء في ديباجة القرار أنه بالنسبة لما لهذا الكتاب الذي ألفه جماعة من المؤرخين الفرنسيين برياسة المسيو جبربيل هانوتو والذي شمله بالرعاية السامية صاحب الجلالة المغفور له الملك فؤاد الأول، من القيمة العظيمة في تصوير تاريخ مصر في عصورها المختلفة.

ولما كان من الخير أن يعم به النفع ويستطيع الرجوع إليه والانتفاع به جميع المثقفين في مصر والشرق العربي من الذين لا يحسنون اللغة الفرنسية، وتحقيقاً لما ينبغي من إغناء

اللغة العربية بأن تنقل إليها أمهات الكتب الجامعة في العلم والأدب والفن، فقد تقرر ما يأتي: تؤلف لجنة لترجمة كتاب (تاريخ الأمة المصرية) إلى اللغة العربية في أسلوب قريب يسير ولمراجعة هذه الترجمة.

يكافأ المترجمون والمراجعون على ما يبذلون من جهد.

يشرف الدكتور طه حسين بك على هذه الترجمة تحقيقاً لما ينبغي بين أجزائه المختلفة من الوحدة والاتساق.

والكتاب في ستة أجزاء نيط كل جزء منه بمترجم من وزارة المعارف ومراجع من كلية الآداب.

الجيش المصري قبل عهد محمد علي باشا

تناول أحد الكتاب الأفاضل خطاب العرش، فنقده نقداً أدبياً طريفاً على صفحات (الرسالة)، غير أنه أنكر ما جاء في هذا الخطاب من أن عهد محمد علي باشا كان أول عهد لظهور الجيش المصري في الوجود.

ولكن التاريخ يحدثنا بوضوح أن مصر لم يتكون فيها جيش مصري صميم من أبنائها الخلصاء قبل عهد محمد علي باشا الكبير بزمن طويل. ولا يمتد هذا الزمن إلى الفتح العربي فحسب، بل إلى ما قبل ذلك أيضاً. إنه يمتد إلى حكم البطالسة لهذه الديار. فمنذ حكمت مصر الملكة كليوباترا، وأدت سياستها إلى الاحتلال الروماني حوالي سنة 30 قبل الميلاد، فقضى بذلك على جيش مصر قضاء مبرماً. وظلت البلاد مزرعة للرومان نحو 670 سنة حتى استنقذها منهم العرب، ومن هنا انتقل إليهم أمر احتلالها حتى ولوا أمرها أحمد بن طولون سنة 254هـ وذلك في خلافة العباسيين.

وأحمد بن طولون رجل تركي، ولكنه صنع بهذه البلاد كما صنع محمد علي باشا من بعده إذ أداه بعد نظره إلى إصلاح مرافقها والسهر على مصالحها وتدبير أموالها وتثميرها وتكوين جيش قوي لها. ثم أعلن الناس باستقلالها.

هذا ما صنعه ابن طولون، غير أن أبناءه لم يحافظوا على استقلال مصر كما حافظ، ولم يدافعوا عنها كما دافع. أما أبناء محمد علي باشا فقد حافظوا على هذا الاستقلال ودافعوا عنه، ولا يزالون مدافعين. . . ليس هذا كل الفرق بين الرجلين، بل هناك فرق لا ينسى،

وهو أن بن طولون لم يستخدم في جيشه جنوداً مصرية من صميم أبناء البلاد كما فعل محمد علي، بل كان جيشه من المماليك الأتراك الديالمة. وقد أخطأ بعض المؤرخين المعاصرين ودونوا في الكتب المدرسية الحالية أن أول من استخدم المماليك الأتراك في مصر وجلبهم إليها واستعان على تثبيت سلطانه، خلفاء الفاطميين تشبهاً منهم ببني العباس. والواقع أن أول من فعل ذلك هو أحمد بن طولون، فقد ذكر القلقشندي في صبح الأعشى ما نصه عند الكلام عن ابن طولون: (وفي أيامه عظمت نيابة مصر وشمخت إلى الملك. وهو أول من جلب المماليك الأتراك إلى الديار المصرية واستخدمهم في عسكرها). وقال ابن إياس: (قال ابن وصيف شاه: فلما تم أمر الأمير أحمد بن طولون في ولايته على مصر واستقامت أحواله بها استكثر من مشتري

المماليك الديالمة حتى بلغت عدتهم أربعة وعشرين ألف مملوك).
وبعد قليل فتح الفاطميون مصر سنة 358هـ فاشتهروا باستخدام كثير من الجنود المرتزقة من أمم شتى، فتكوَّن الجيش في عهدهم من أتراك وعرب ومغاربة ومصامدة وصقالبة وروم وعبيد وغيرهم. وكان عدم التجانس بين فصائل الجيش الفاطمي سبباً قوياً لنزاع طال بين هذه الأجناس أدى إلى زوال الدولة.
وخلفها صلاح الدين الأيوبي عام 567هـ فقضى على نظام الجيش الفاطمي المضطرب، ورغب في توحيد جنس فصائل جيشه، ولكنه بدلاً من أن يتجه إلى أبناء مصر فيتخذ منهم حاجته من قادة وجند، استعار ذلك من الجنس الكردي.
وفي أواخر الدولة الأيوبية استكثر الملك الصالح الأيوبي من شراء المماليك الأتراك ونشأهم تنشئة عسكرية وأطلق عليهم اسم (البحرية) وهم الذين انتزعوا حكم البلاد من يد الأيوبيين سنة 648هـ وأسسوا دولة المماليك. . .
وفي عهد هذه الدولة الجديدة أصبح شراء المماليك الجدد وتزويد الجيش منهم سنة متبعة لبث زهاء ثلاثة قرون انقسمت فيها جنود المماليك إلى طوائف متنابذة كان تنابذها وبالاً على مصر، على الرغم من خدماتها الجليلة التي يعترف بها التاريخ.
وقد زالت دولتا المماليك بواسطة الاحتلال العثماني عام 923هـ ولم يعد في مصر جيش خاص بها لا من أبنائها ولا من الطارئين عليها. وتضافرت عليها الكوارث في ذلك العهد
البغيض حتى أنقذها من براثن العثمانيين هذا العصامي النابه محمد علي باشا. وكان من جملة ما قام به وفي مقدمة حسناته إلى مصر أن دفع أبناءها إلى ميدان الجندية وفتح لهم المدارس الحربية وغرس فيهم معنى المصرية الصحيحة ونبه روح الإقدام والتضحية ونال من وراء ذلك جاهاً عريضاً وملكاً كبيراً. وعاد جيش مصر لأول مرة في التاريخ بعد زمن البطالسة.

محمود رزق سليم

ذكرى ابن الهيثم

ستحتفل الجمعية المصرية للعلوم الرياضية والطبيعية في الساعة السادسة من يوم الخميس 21 ديسمبر بقاعة الاجتماعات الكبرى بالجامعة المصرية بذكرى الحسن بن الحسن بن الهيثم العالم العربي الذي عاش في القاهرة، بمناسبة مرور تسعة قرون على وفاته. وسيكون الاحتفال تحت رياسة الأمير محمد عبد المنعم رئيس الشرف للجمعية، وسيلقي كلمة الافتتاح حضرة صاحب السعادة أحمد لطفي السيد باشا مدير الجامعة، ثم يعقبه معالي الأستاذ مصطفى عبد الرزاق بك وزير الأوقاف السابق؛ ثم يتكلم عن ابن الهيثم من نواحيه الرياضية والطبيعية والفلكية والهندسية الأساتذة: الدكتور علي مصطفى مشرفة بك عميد كلية العلوم، ومصطفى نظيف بك أستاذ الطبيعة بكلية الهندسة، والدكتور محمد رضا مدور مدير مرصد حلوان، والدكتور محمد محمود غالي بمصلحة الطبيعيات. وكلهم من أعضاء مجلس إدارة الجمعية. ثم يتناول الدكتور حجاب مدير مكتبة الجامعة الموضوع من الناحية الببليوغرافية. والاحتفال بذكرى عالم من علمائنا العظام على هذه الصورة العظيمة عمل عظيم يسجل لهذه الجمعية الجليلة بالحمد والشكر.

رسالة النقد

كتاب (الإمتاع والمؤانسة)

بقلم الدكتور بشر فارس

صيف سنة 1930 قدمت من باريس إلى القاهرة أطلب فيها كتباً ومخطوطات؛ فاهتديت (دارَ العروبة)، فعرفت أحمد زكي باشا - رحمه الله رحمة واسعة - فكان بيني وبينه ما تشاء من الود: أكبره وأنس بي. وقد وقع إليَّ فيما وقع من خزانة كتبه الخاصة كتاب (الإمتاع والمؤانسة) لأبي حيان التوحيدي. فأقبلت عليه، فإذا هو جليل نفيس. وكم تمنيت وتمنى (شيخ العروبة) أن يُنشر هذا المخطوط فتُذاع فوائده فتُدرَك على غير كلفة. وهذان الأستاذان أحمد أمين وأحمد الزين أقدما على طبعه وليس بين أيديهما سوى نسخة وبعض نسخة على جانب غير يسير من الاضطراب والتحريف (والنسختان مما خلفه زكي باشا). فما أحرى الأستاذين بالتهنئة والشكر! وكان الأستاذ أحمد أمين أخبر المستشرقين في مؤتمرهم (سبتمبر 1938، بركسيل) بأنه ناشر

كتاب التوحيدي، فاهتز القوم لذلك.

ونشرُ كتابٍ ذاهب في التصرف بضروب الكلام، جامع لمنثور المسائل من أدبية وفلسفية، مع ما يفسد ألفاظه ويُسقم عباراته من جهة مسخ النسّاخ، ليس بالمطلب السهل. ومن هنا ما جاء في ضبط الكتاب من فَرَطات. وقد بيّن طائفة منها صديقي الدكتور زكي مبارك في العدد الماضي من الرسالة، ولا عجب فإن الدكتور زكياً بأدب التوحيدي عارف وبأسلوبه بصير؛ ألم يؤلف فيه فصولاً؟

والحق أني كثيراً ما توقَّفت وأنا أقرأ (الإمتاع والمؤانسة). فلا أرى بداً من التنبيه هنا على ما وقَفَني، وإنما مقصِدي تقويم الكتاب لوجه العلم وحدَه. وإني قاصر الاستدراك على الأربعين صفحة الأوَل، على سبيل التمثيل (والكتاب في 226ص). ثم إني مقسم المآخذ على حسب المنهج الذي عليه يجري العلماء في تحرير المخطوطات.

1 - التباعد عن سياق النصّ:

ص 19 - 20: يروي التوحيدي كيف مثل في (الليلة الأولى) بين يدي الوزير، فأخبره الوزير بأنه استقدمه للمحادثة والتأنيس. فيكتب التوحيدي (ص20 س8): (فقلت: قبل كلٍ، شيءٌ أريد أن أجاب إليه يكون ناصري على ما يُراد مني. فقال (الوزير): قل ما بدا لك.

قلتُ: يؤذن لي في كاف المخاطبة وتاء المواجهة للفرار من مزاحمة الكناية ومضايقة التعريض. . .).

هذا وأما الناشران الفاضلان فقد دوّنا ذلك هكذا: (فقلت قبلُ: كلُّ شيء أريد أن أجاب إليه يكون ناصري. . .). وهذا غريب: فإن التوحيدي لم يبدأ بالكلام، وإنما قوله ذلك هو فاتحة نطقه في مجلس الوزير. فكيف يكتب: (فقلت قبلُ). ثم إن غرضه أن يقول للوزير ما تفسيره: (أجل سأحادثك وأؤنسك، ولكنْ قبلَ كلٍ هنالك شيء أريد أن أجاب إليه وهو أن تأذن لي قي استعمال كاف المخاطبة وتاء المواجهة فترفع الكلفة وتيسّر لي الحديث إليك).

وعلى ذلك اضطراب الترقيم، وهو كثير تصيبه في كل صفحة. ولن أتمهل عند هذا المأخذ خشية الإملال. وحسبك وضع نقطة في آخر السطر الـ14 من الصفحة الثانية، وأخرى بعد الكلمة الرابعة ص7 س4، وأخرى بعد الكلمة الثانية ص13 س11، وأخرى بعد الكلمة العاشرة ص14 س6، وأخرى بعد الكلمة السابعة ص15 س2؛ ثم ضع شولة منقوطة بعد الكلمة الأولى ص13 س11، ونقطتين بعد الكلمة العاشرة ص14 س5، وبعد الكلمة الثانية ص16 س13؛ ثم ضع علامة استفهام بعد الكلمة السادسة ص15 س14 والكلمة الثانية ص15 س16.

2 - التجافي عن أسلوب المؤلف:

ص14 س2، 3: (وصيانة النفس حسنة إلا أنها كلفة محرجة إن لم تكن لها أداة تُجدُّها وفاشية (أي مال) تَمدُّها) - والوجه: تُمدُّها، موازنةً لتُجدُّها؛ والتوحيدي معروف بإيثار الازدواج (راجع مقدمة الكتاب لأحمد أمين ص: ق، و (النثر الفني في القرن الرابع) ج1 ص113، 115).

ص24 - س4، 5: (فأما الفَلك وأجرامه المزدهرة في المعانقة العجيبة، ومناطقِه الحفيّة، فقد. . .) - والصواب: (في معانِقِه). والذي هداني إلى ذلك كلمة (مناطقِه)، إذ قلت: إن التوحيدي أراد الازدواج هنا. وإذا (المعانق) جمع لمِعْنقَة ومعناها القِلادة، كما أن (مناطق) جمع لمِنطقة (وهو كل ما شُدَّ به وسطه كالنطاق: عن (لسان العرب)). ثم استُعملت المِنطقة والقِلادة والمِعنقة في مصطلح علم الهيئة (راجع مثلاً: (مفاتيح العلوم للخوارزمي) مصر 1342 ص128 و (محيط المحيط) مادة: ن ط ق، ق ل د، ونص التوحيدي). والدليل

القاطع - بعد هذا كله - أن التوحيدي كتب خمس عشرة صفحة (ص39 س 4): (الصعود إلى معانق الفَلك).

3 - ترك الغامض على حاله:

ص14 س3، 4: (وتركُ خدمة السلطان غيرُ الممكن ولا يستطاع إلا بدينٍ متين. . .) - ما المعنى هنا؟ وما غيرُ الممكن)؟

ص25 س6، 7: (ما الفرق بين الحادث والمحدَث والحديث؛ فكان من الجواب أن الحادث ما يُلحظ نفسُه. . .) - فربما كان يحسن بالناشرين أن يهتديا بكتب الفلسفة

ودواوين مصطلحاتها فيشرحا تلك العبارة. لغير قراء الفلسفة، على نحو شرحهما - في غير موطن - لألفاظ لغوية قد تدقّ على المتأدبين.

4 - التسرع في تصويب الأصل:

ص17 س12: (فذهب هذا كله، وتاه أهله). وزاد الناشران في الهامش: (تاه أهله: هلكوا. وفي الأصل: باه) - والصواب عندي: (باد) فهو أقرب إلى مدلول العبارة، فضلاً عن أن التوحيدي كتب بعدُ (ص111 س13): (وقد عفت (اللغة) منذ زمان طويل، وباد أهلها).

ص39 س3: (الشهوات الغالبة، والعقيدة الردئية، والأفعال القبيحة). وفي الأصل: (العالية) - وألصق بمادة النص عندي: (الغالية أو العاتية أو العائبة. ألا ترى التوحيدي يستعمل (الردئية) صفة للعقيدة، و (القبيحة) صفة للأفعال، فأين ما يفيد التهجين في كلمة (الغالبة)؟

5 - قلّة التقصّي:

ص38 س15، ص39 س1: (ولا عجب فإنه إذا كانت الركاكة العائقة تمنع الناس من العدو. . . لأن الحركة قد بطلت بالركاكة. . .). وهنا زاد الناشران في الهامش: (الركاكة: الضعف أو لعل صوابه: (الزمانة) إذ الركاكة كثيراً ما تستعمل في ضعف العقل والرأي، والمراد هنا ما يخص البدل).

فإن صح أن الركاكة كثيراً ما تستعمل في ضعف العقل والرأي (راجع (لسان العرب) أول مادة ر ك ك) فلا شك أنها استعملت أول الأمر في ضعف البدن، وذلك على حساب سنّةٍ من سنن فقه اللغة: مدارها أن الألفاظ تتدرج من جانب الحِسّ إلى جانب المعنى. والركاكة للبدن معروفة، من ذلك ما جاء في (باب ضعف الخَلق) من (مختصر تهذيب الألفاظ) لابن السكيت (بيروت 1897 ص88): (والركيك: الفَسل الضعيف (والفَسل بالفتح: الذي لا مروءة له، عن (القاموس) والمروءة هاهنا: الهمة) قال جميل بن مَرثد:

(فلا تكوننَّ ركيكاً ثنتلا ... لعوًا وإن لاقيتَه تقهَّلا)

وعلى هذا فالذي جاء في الهامش لم يظفر بالتدبّر كله. (وتقهّل: مشى مشياً ضعيفاً، عن (القاموس)).

6 - التحكم في رفض رواية النصّ:

ص24 س13، 14: (وأما قولهم: هذا شيء خَلَق، فهو مضمَّن معنيين (كذا): أحدهما يُشار به إلى أن مادته بالية، والآخر أن نهاية زمانه قريبة). وفي الأصل (سايلة) - فرفض الناشران الفاضلان رواية الأصل إذ وجدا فيها (تحريفاً وقلباً). هذا وكان يحسن بهما أن يتبينا مُفاد كلمة (السايل) من دواوين الفلسفة، وكلام التوحيدي في هذا الموطن يدخل في فنها. فالسايل في الفلسفة العربية من السيلان الذي هو (عبارة عن تدافُع الأجزاء. . .) ((كشّاف اصطلاحات الفنون) كلمة (السيلان) و (السائل)). وفي (تهافت التهافت) لابن رشد مثلاً (بيروت 1930 ص137، 140، 572) يرد (السيلان) في سياق الكلام على الفناء، وتأتي صفة (سيْال) ضدّاً لصفة (ثابت). وقد جاء (السايل) (لا: السائل) في (كشاف اصطلاحات الفنون) من غير تفريق (واذكر قول المناطقة: (الألفاظ أعراض سيالة)). وعلى هذا فرواية الأصل صحيحة إذ يجري الحديث على الفناء في أسلوب فلاسفة العرب.

ص25 س14: (كله من ديوان واحد وواد واحد وسبك واحد). وفي الأصل، بدلاً من (وواد): (وهو) - فرفض الناشران رواية الأصل إذ قالا (لا معنى لها)، وكأني بهما عدّا (هو) ضميراً منفصلاً لا اسماً مُعْرباً. ففي (لسان العرب) ج20 ص251 س16: (هَوْ من الأرض: جانب منها). فالهَوْ إذن له معنى، ومعناه يفيد مُفاد الوادي وهو اللفظ الذي آثره الناشران بسلائقهما المُحدثَة على سلامتهما، ظناً منهما أن الهَوْ ليس في اللغة. أذكر في لغتنا العامية: (الهوْ)، وفصيحه: الهوة.

ذلك ما حقَّقتُه. ولعل الأستاذ أحمد أمين ينظر في سطور الكتاب على منهج قويم وهو به أدرى، فيستدرك عليه. فإني لا أشك - بعد الدكتور زكي مبارك - أنه لم يصرف إليه عند التحرير موفور هَمّه.

بشر فارس

العدد 338 - بتاريخ: 25 - 12 - 1939

ذكرى مولد المسيح
وعلى الأرض السلام!

في هذا اليوم يحتفل المسيحيون بذكرى مولد المسيح عيسى ابن مريم. وفي ليلة هذا العيد المجيد بات القسس والرهبان يرتلون وحدهم بين أروقة البِيَع وصحون الكنائس ذلك القُنوت الشعري الجميل:

(المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وفي الناس المسرة!) وربما تابعهم الأقوام فرتلوا وهللوا جرياً على التقليد وخضوعاً للعادة؛ ولكنهم وا أسفا لا يجدون في الآفاق ولا في أنفسهم معنى هذا النشيد، ولا حقيقة هذا العيد!

في أي جهة من جهات الأرض ذلك السلام؟ وفي أي قلب من قلوب الناس تلك المسرة؟ لقد عادت روح يهوذا الأسخريوطي في جسدي هتلر وستالين فدلا على السلام الإلهي أبالسة الشر وزبانية الجحيم فصلبوه في بولندة، ودفنوه في فنلندا، ومكّنوا في الأرض لعوامل القحط والموت، فأوقروا مائدة عيسى سماً وصاباً، وأنبتوا شجرة ميلاده هماً وعذاباً، وحولوا أعشاش الأسر ورياض الحقول قبوراً موحشة على كل قبر منها ركام من الثلج وصليب من الخشب!

لكأني بك يا روح الله كنت تمشي من الناصرة إلى بحيرة الجليل، ومن صفد إلى كفر ناحوم، وأنت ناكس الرأس ساهم الوجه، يعتلج بين جوانحك الهم، ويجول في مآقيك الدمع، لأنك كنت ترى بعين الله التي تخترق الأزل والأبد كيف تَلازَم الشر والخير في ملكوته، فابتَلى آدم بإبليس، وموسى بالسامري، وعيسى بيهوذا، ومحمداً بأبي لهب؛ وقضى ألا تخلو الأرض من أتباع هؤلاء وهؤلاء، ليدوم صلاحها بمدافعة بعض لبعض، حتى إذا طغت قوى الشر وسادت عناصره أرسل عليها طوفان نوح بالماء أو بالوباء أو بالدم أو بالنار فترعوي وتهمد.

وكان الشر في عهد المسيح وقحاً يتعسر في عيون الروم، ويتنمر في نفوس اليهود، فأخذ هو وحواريوه يكفكفون طغيانه بالمسالمة، ويخففون عدوانه بالصفح، ويسعفون ضحاياه بالمواساة، ويشفون مرضاه بالدعاء، ويحاربون أولياءه بالوعظ. ولكن الشر كان قد تفاقم واستطار فلم يرتدع باللين حتى جاء محمد رسول الله فردَّ جماحه بالسيف. وظلت محنة عيسى عليه السلام ألماً واخزاً في ضمير الإنسانية لا يفتُر، وأنيناً موجعاً في أذن الدهر لا يخفت. وتوالت القرون وتعاقبت الدول وتتابعت الحضارات، ولا يزال إبليس والسامري ويهوذا وأبو لهب مُنظَرين في الأرض، يدعون إلى الشر ويُرَغبون في الرذيلة ويعملون للفساد، والعالم المسكين يتدرع في جهادهم بالدين والمدنية والتربية والعلم، ولكن ذلك كله لا يغني عنه إلا كما يغني السد في دفع الفيضان، أو الفرجة في كف البركان، أو الكوخ في اتقاء العاصفة.

يا راعي السلام وداعي المودة، لقد ضل قطيعك كله وشرَد! فاسأل الله أن يُطْلع في سماء أوربا القاتمة (نجم المجوس)، فعسى أن يهتدي به إليك طاغية موسكو وجبار برلين. والله قادر على أن يحوِّل في يديهما القنبلة والطربيد واللغم إلى (ذهب ولبان ومز).

يا حامل الآلام ورسول المرحمة، كيف استحال حلمك وسلمك وهداك في ألمانِيَة لوثر وروسِيَة تولستوي سمائم قحط وزلازل دمار وطوفان هُلك؟! ألإنك لا تزال غريباً عن الغرب فلم يصادف دينك هواه، أم لأنك شرعت الألم تكفيراً عن الكفر بالله؟ لشد ما تختلف المسيحية في الغرب عنها في الشرق! إنها مع المسيح قد خرجت من الغسق إلى النور، ولكنها مع بولس قد دخلت من الشفق إلى الظلام! ومن سار في صحوة النهار اهتدى ودل، ومن ضرب في سُدفة الليل اعتسف وأضل.

بأية حال عاد عيدك يا رسول السلام وحامل الآلام على بولندة وفنلندة؟! هل قضى الآباء والأمهات ليلة البارحة مُشْبِلين على بنيهم وبناتهم وق الفرش الوثيرة حول المدافئ الواهجة وعيونهم تشرق بالغبطة وقلوبهم تفيض من السرور، وهم يتناغون بأحاديث الحنان والحب تناغي البلابل الآمنة في أعشاش الربيع الساكنة؟ هل باتت الصغار الأبرار هذه الليلة في مهودهم الحريرية يحلمون في أحضان الكرى بباباهم (نويل) وهو يضع لهم الألطاف واللعب والحلوى تحت أفنان الشجرة وفي نواحي المدفأة؟

يا حسرتا عليهم! لم يأتيهم عيدك يا مبرئ المرضى ومحيي الموتى إلا وهم حطام وأشلاء. فلا الدار أهلة ولا الرزق موصول ولا الشمل جامع! إن نار الأعداء تحرق البلاد فلا مأوى، وصقيع الشتاء يهرأ الأجساد ولا دفء، وخوَي الأمعاء يلحس الأكباد ولا قوت، وبقايا القنابل والرصاص والغاز من النساء والأطفال والشيوخ مشرَّدون على الجليد يلتمسون الحياة الموقوتة في قرية بعد قرية!

وليت الخراب والعذاب كانا مقصورين على أمة أو أمتين فتمدهما الأمم الأخرى بالمواساة والعون! ولكن الخطب شامل والطامة عامة. فالأمم المحاربة والمحايدة في شقاء العيش وبلاء الموت على حد سواء. قضت عليهم هنا وهناك نزوات الفرد وبدواته أن يساقوا إلى الجزر سوق القطيع؛ فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر. ومن المنتظرين من يقتله الجوع والخوف، قبل أن يقتله المدفع والسيف. والله وحده يعلم بأي حال ستعود ذكرى مولدك المقبلة على هذا الصدام، أيقول الحي يومئذ: السلام على الأرض، أم يقول: على الأرض السلام!!

أحمد حسن الزيات

حول مراقبة الثقافة العامة بوزارة المعارف

إلى الدكتور طه حسين بك

كلمة صريحة

للدكتور زكي مبارك

أيها الأستاذ الجليل:

أقدم إليك أصدق التحيات، ثم أذكر أن الصحف أخبرتني وأنا ماض إلى الإسكندرية لبعض الواجبات أن معالي وزير المعارف أصدر أمراً بندبك مراقباً للثقافة العامة، فخفق قلبي خفقة الفرح لأمرين: الأول هو الاطمئنان إلى أن للحق دولة في هذه البلاد، فقد كان قيل إنك انسحبت من عمادة كلية الآداب فراراً من المناوشات التي تعترضك من حين إلى حين. وكان قيل إنك طلبت إجازة طويلة تقضيها في جوّ هادئ، وإن معالي النقراشي باشا لم يسمح بذلك، وقد ظهر أنه كان يدخرك لهذا المنصب الرفيع، فكان معنى هذا التلطف أن كفاحك في ميدان الحياة الأدبية يجعلك دائماً موضع الحظوة عند كبار الرجال.

ومن المؤكد أن في الناس من يعترض على اختيارك لهذا المنصب، لأسباب لا تخفى عليك، ولكني مغتبط بما صرت إليه، لأنه شهادة بأن الكفاح له في مصر جزاء، وأنت برغم حسادك من أقطاب المكافحين.

أما الأمر الثاني فهو الاطمئنان إلى أنك أصبحت معنا في وزارة المعارف، وقد كان بيننا وبينك حجاب كثيف هو أشجار حديقة الارمان بالجيزة الفيحاء، فلن تملك بعد اليوم أن تُبرِم وتَنقُض بلا رقيب ولا حسيب كما كنت تصنع في (القصر المسحور): فصر كلية الآداب!

أصبحت معنا في وزارة المعارف، وصار من السهل أن نتعقبك حين نشاء بدون أن نتجشم عُبور النيل فوق جسر فؤاد أو جسر إسماعيل أو جسر عباس.

فماذا أعددت لصحبتنا بوزارة المعارف، أيها المراقب الحصيف؟

أتكون جئت وفي يمينك كتابك (مستقبل الثقافة في مصر)؟ إن كان ذلك فاعلم، أيها الأستاذ الجليل، أن هذا الكتاب لا يصلح أساساً لعملك الجديد، فقد ناشه الناقدون ممن كل جانب ولم يتركوا فيه أديماً صحيحاً!

وأنت قرأت مقالي في نقد كتابك، وقرأت مقال الدكتور عبد السلام الكرداني بك، فهل قرأت مقالات الأستاذ ساطع الحصري بك، وقد نبهتك إليها منذ أكثر من شهرين؟

أنت صرحت مرات كثيرة بأن العقلية المصرية عقلية يونانية، وأن تلك العقلية تجب مراعاتها في التعليم والتثقيف، أفتظن أن هذا الأساس لا يزال صالحاً لأن تقيم عليه عملك الجديد؟

وأنت دعوت إلى تعلم اليونانية واللاتينية بحجة أنهما أصل للحضارة الأوربية، فهل تظن أن تلك الدعوة لا يزال لها في مصر والشرق مكان؟

أيها الأستاذ الجليل:

إنك لا تفرق بين ما يقال في حُجرات كلية الآداب لتثقيف عدد محدود من الطلاب، وما يقال في وزارة المعارف لتثقيف السواد الأعظم الذي تدخره الأمة للنهوض بأعباء

العصر الحديث.
وإليك بعض التفاصيل:
أنت سعيت سعيك لسيطرة الجامعة على السنة التوجيهية، فهل تعرف كيف كانت العواقب؟
أردت بعقليتك (الجامعية) أن تفرض على الطلبة دراسة كتاب (نقد النثر) لقُدامة بن جعفر، فهل تظن أن نصوص ذلك الكتاب مما تسيغه عقول الطلبة في السنة الخامسة الثانوية؟
كان يجب أن تشتغل بالتدريس في القسم الثانوي سنة أو سنتين قبل أن ترشح نفسك لوضع منهج الأدب بالمدارس الثانوية.
كان يجب أن تذكر مصير كتاب (المجمل) عليه رحمة الله! وهو الكتاب الذي انتظم تاريخ الأدب من عصر امرئ القيس إلى عصر شوقي، ومع ذلك كان من الحتم على طلبة السنة الثالثة أن يدرسوه في عام واحد!
ولكن لا بأس، فقد أعانني الله على وأد ذلك الكتاب ومؤلفوه أحياءٌ ينظرون!
وأنت سعيت سعيك إلى أن يكون منهج الأدب في السنة الخامسة خلاصة لتاريخ الآداب اليونانية واللاتينية، وأتعبت نفسك في تأليف مذكرات يستعين بها المدرسون على فهم ذلك المنهج الطريف!
فهل تستطيع أن تدلني على أمة واحدة كان فيها منهج الأدب القومي خلاصة لآداب أمة أجنبية؟
وهل جشمت نفسك مشقة الانتقال لحضور الامتحانات الشفوية بوزارة المعارف عساك تدرك إلى أي حد نجح اقتراحك الجديد؟
إن وزارة المعارف سكتت عنك، لأنها كانت تعرف ما (ترجوه) منك، فقد قلت في كتابك: إن أكثر المراقبين لم يُثقفوا ثقافة جامعية. وأنت في الواقع خصمٌ مخيف، فليس من المستغرب أن يسكت عنك المراقبون وهم كارهون!
فهل تنتظر أن يطول هذا السكوت؟
هذا يوم له ما بعده، يا سيدي الدكتور، فقد تحدثك النفس بعد أسبوع أو أسبوعين بدعوة وزارة المعارف إلى فرض إحدى اللغات الميتة على بعض الأقسام بالمدارس الثانوية، وقد تحدثك النفس بوجوب القول بأن عقلية مصر عقلية يونانية لا عربية، وقد تحدثك النفس بأن الجهل بحياة البحتري لا يقاس إلى الجهل بحياة هوميروس!
هل تذكر خُرافة (تيسير النحو) التي شغلت بها وزارة المعارف؟
وهل تذكر أين صارت تلك الخرافة بين غيابات التاريخ؟
وهل تذكر ما قوبلت به من السخرية في الشام والعراق؟
إن محاسنك هي عيوبك، يا سيدي الدكتور، فأنت تفرّ من السكون لأنه ينافي الحياة، وأنت بالفعل من أقوى الأحياء، ولكنك مع ذلك لا تحب الحياة في الحقيقة كما تحبها في الخيال، وإلا فكيف جاز عندك أن تُدرس الخطب القديمة في وطن ديموستين قبل أن تدرس الخطب الحديثة في وطن زغلول؟ وكيف صح في ذهنك أن تُدرس مجادلات الأحزاب في أتينا قبل أن تُدرس مصاولات الأحزاب في القاهرة وبغداد؟
أن أرجو - وأنت مَن أعرفُ في رحابة الصدر ورجاحة العقل - أن تثق بأني لا أجامل وطني ولا أصانع زماني، وإنما أنا معلِّم يدرك أصول التعليم إلى أبعد الحدود، وهي مهنة سأصل بها إن شاء الله إلى ذروة المجد، فلا يعيبني أن أستطيل بها على من أشاء؛ ومعرفتي بهذه المهنة تفرض عليّ أن أصارحك بأنك قد تسلك مسالك لا تخلو من وعورة والتواء.
أنت تلوذ بالقديم في كل وقت لتأمن سيطرة الناقدين، ولكن القديم قد اندحر أمام الجديد، فمن واجبك أن تفكر فيما تقدم عليه قبل أن يذكرك ناقدوك.
فأين أنت من مشكلات العصر الحديث؟
هل ترى أن يظل شبابنا على جهل بالتطورات التي تثور في الممالك الأسيوية والأوربية والأمريكية، اكتفاءً بما تقترح أن نعلِّمهم من أخبار اليونان والرومان؟
وهل تظن أن العلم بمناوشات الأحزاب في أتينا القديمة يغني عن العلم باصطخاب المذاهب في لندن وباريس وموسكو وبرلين لهذا العهد؟

وهل ترى أن درس مخاطرات هانيبال أنفع من درس دسائس ستالين؟
وهل تظن أن النظر في أسباب سقوط الإمبراطور الرومانية أهم من النظر في أسباب سقوط الخلافة الإسلامية؟
وهل يخطر في بالك أن درس تاريخ الآشوريين والبابليين أهم من درس العراق الحديث؟
وهل تفهم أن درس الصلات بين مصر والشرق لعهد الفراعين أهم من درس الصلات بين مصر والشرق لهذا العهد؟
التاريخ واجب الدرس، ولكنه على كل حال تاريخ، فكيف يغيب عنك أن من العيب ألا نعرف من مذاهب روسيا وألمانيا وإيطاليا غير ما تسوقه إلينا بعض الجرائد الأجنبية؟
وهل تثق بأن تلاميذ المدارس عندنا يعرفون الفروق بين الاشتراكية والشويعية، مع أننا نعلّمهم الفروق بين مذهب أهل السنة ومذهب الاعتزال؟
هل يعرف تلاميذنا ما النازية وما البلشفية وما الفاشستية؟
وهل يعرفون أصول العقائد التي تحترب في الشرق لهذا العهد؟
وهل في مصر كتابٌ واحد يؤرخ الثورة المصرية التي شبت في سنة 1919؟
وهل في مدارسنا تلميذ وحد علّمه أساتذته كيف يقرأ أخبار الأسواق المالية في الجرائد؟
وهل تعرف مدرساً شرح لتلاميذه كيفية الاستفادة من الإذاعة اللاسلكية؟
وهل عندك في كلية الآداب مدرس يستطيع أن يُلقي محاضرة وافية عن الأفلام المصرية؟
وهل تعرف أنت كُنه الاتجاهات الأدبية في البلاد العربية لهذا العهد، كما تعرف كُنه الاتجاهات الأدبية في عصر بني أمية وعصر بني العباس؟
وهل عندك في مكتبة قسم اللغة العربية بكلية الآداب مجموعة من الجرائد والمجلات تصور عقول الكتاب والباحثين في مختلف الأقطار العربية تشبه مجموعة الكتب القديمة التي اشتركتُ معك في تكوينها سنة 1925؟
وهل يعرف طلبة الفلسفة عندكم عدد المذاهب الصوفية بهذه البلاد؟
وهل فكرتم في تصحيح الأغلاط التي وقعت فيها بعثة بونابرت؟
وهل أقمتم متحفاً لمخطوطات العلماء والشعراء والكتاب الذين حفروا الأساس لبناء العصر الحديث؟
وهل عندكم نبأ مما صنع النجاري في ترتيب (لسان العرب)؟
وهل فكرت كلية الآداب في البحث عن كتاب تيمور باشا في اللهجات العامية؟
يا سيدي الدكتور.
اسمع كلمة الحق من رجل كان تلميذك، وكان زميلك، ولا يزال أصدق أصدقائك، وهو يصارحك بأنك تجهل بلدك وعصرك بعض الجهل.
لقد جاورتَنا مدة في مصر الجديدة، فهل تعرف عدد المدارس في مصر الجديدة؟
في مصر الجديدة أربع وثلاثون مدرسة لا تعرف منها وزارة المعارف غير آحاد!
أنت جئت إلينا في وزارة المعارف، ولم يعُد بيننا وبينك حجاب من أشجار الأورمان، فأعدّ عزيمتك لحرب ضروس تنقلك من حال إلى أحوال.
أقول هذا وأنا أعرفُ الناس بفضلك وشهامتك، فإن استرحتَ لبعض ما قدمتُ إليك فذلك بعض ما عدتُ فيك، وإن ضاق صدرك من بعض ما أسمعتُك فلك عذرٌ مقبول: فأنت من أهل هذا العصر، وهم يتنكرون لكلمة الحق في بعض الأحيان.
لا تنزعج، يا سيدي الدكتور، فليس هذا المقال إلا صدىً لهدير البحر بالإسكندرية، ولن ألقاك في وزارة المعارف إلا بلسان معسول يشبه ألسنة الفنيين بوزارة المعارف!
زكي مبارك
يظهر أن الدكتور المبارك فهم من (الثقافة العامة) (الرسالة) المرحلة الثانوية من السنة الأولى إلى الرابعة. والذي نعرفه أن (مراقبة الثقافة العامة) لا يتصل عملها بالمدارس والمناهج وإنما يتصل بشؤون الثقافة الشعبية فيما وراء ذلك.
في مزارات الإسكندرية
للدكتور عبد الوهاب عزام

(بقية المنشور في العدد 334)
سرنا إلى جامع البوصيري وهو من أجمل المساجد وأحبها إلى نفسي لا يمل زائره الجلوس فيه يقلب الطرف في جوانبه ويرى البردة منقوشة على أربعة جدرانه في إطار واحد، ويرى بين الحين والحين زرقة البحر والسماء فيطلق فكره من المعبد الصغير إلى المعبد الأكبر بين لجة المار ولوح الجو.
ذكرنا هناك المحدث الأديب الشاعر شرف الدين محمد بن سعيد البوصيري صاحب البردة والهمزية القصيدتين المباركتين اللتين خلدتا صاحبهما وخلدتا في صفحات الدهر ونالتا من الحفظ والإنشاد والكتابة والنقش والتذهيب والتحلية ما لم ينله شعر آخر في الجاهلية والإسلام.
وجلسنا في الإيوان المشرف على الصحن جلسة خفيفة أنشدنا فيها الشيخ الخالدي هذه الأبيات:
أما المحبة فهي بذْل نفوس ... فتنعّمي يا مهجتي بالبوس
بذل المحبّ لمن أحبّ دموعه ... وطوى حشاه على أحر رسيس
شرفاً لشاذلة ومرسية سرتْ ... لهما الرياسة من أجلّ رئيس
ما إن نسبت إليهم شيخيهما ... إلا جلوتهما جلاء عروس
وليست هذه الأبيات غريبة في مسجد البوصيري، وإن لم يذكر فيها، فهو تلميذ أبي العباس المرسي. وأبو العباس تلميذ الشاذلي.
وأبو الحسن الشاذلي هو الشريف تقي الدين علي بن عبد الله بن عبد الجبار شيخ الطريقة الشاذلية. كان عالماً واسع العلم وبلغ الدرجات العالية في التصوف وتوفى بصحراء عيذاب متوجهاً إلى مكة في ذي القعدة سنة 656 ونسبته إلى شاذلة إحدى قرى تونس.
وأردنا أن نزور قبر الشاطبي الذي ينسب إليه حي الشاطبي في رمل الإسكندرية فقيل لنا إن قبره قد اشتملت عليه العمارة الشامخة التي شادتها جمعية العروة الوثقى هناك.
وهذا الشاطبي غير صاحب الشاطبية، ولكنه من رجال القراءات كذلك ذكره السيوطي في
حسن المحاضرة في عداد من كان بمصر من الصلحاء والزهاد والصوفية. وقد كتب لي العلامة الشيخ الخالدي ترجمته من كتاب (الزهر المضبي في مناقب الشاطبي) وهاأنذا أثبتها هنا:
(أبو عبد الله محمد بن سليمان المعافري الشاطبي نزيل إسكندرية ويعرف بابن أبي الربيع أحد أولياء الله تعالى شيخ الصالحين صاحب الكرامات المشهورة، جمع بين العلم والعمل والورع والزهد والانقطاع إلى الله تعالى والتخلي عن الناس، والتمسك بطريقة السلف، قرأ القرآن ببلده بالقراءات السبع على أبي عبد الله محمد ابن سعادة الشاطبي وغيره، وقرأ بدمشق على الواسطي وسمع عليه الحديث ورحل فسمع من الزاهد أبي يوسف يعقوب خادم أضياف رسول الله صلى الله عليه وسلم بين قبره ومنبره سنة 617، وسمع بدمشق على أبي القاسم بن صصري وأبي المعالي بن خضر وأبي الوفا ابن عبد الحق وغيرهم. وانقطع لعبادة الله تعالى في رباط سوار من الإسكندرية بتربة أبي عبد الله الراسي، وصنف كتباً حسنة منها كتاب المسلك القريب في ترتيب الغريب، وكتاب اللمعة الجامعة في العلوم النافعة، وتفسير القرآن العزيز، وكتاب شرف المراتب والمنازل في معرفة العالي في القراءات والنازل وكاتب المباحث السنية في شرح الحصرية، وكتاب الحرقة في إلباس الخرقة، وكتاب المنهج المفيد فيما يلزم الشيخ والمريد وكتاب النبذ الجلية في ألفاظ اصطلح عليها الصوفية وكتاب زهر العريش في تحريم الحشيش وكتاب الأربعين المضية في الأحاديث النبوية، ومولده بشاطبة سنة 585 ووفاته بالإسكندرية في رمضان سنة 672)، ودفن بتربة شيخه المجاورة لزاويته رحمهما الله.
ويوم الأربعاء التاسع والعشرين من رجب خرجت أنا والأستاذ الزيات لرؤية جامع الشيخ. وكنت واعدت الشيخ إبراهيم القادري شيخ التكية القادرية أن أمرّ به صباح هذا اليوم ووعد أن يكلف خازن مكتبة الجامع أن يكون هناك ليطلعنا على خزانة الكتب.
زرنا التكية وصحبنا الشيخ إبراهيم إلى الجامع، وكنت أسمع بجامع الشيخ وأود أن أراه

فلم تتح الفرصة قبل.
الجامع مبني فوق سوق بها حوانيت كثيرة. دخلنا من الباب الخلفي فصعدنا درجاً وملنا ذات اليسار إلى مكتب لتعليم القرآن، ثم صعدنا درَجاً آخر إلى حجرات يسكنها طلاب العلم
في ذلك الجامع. ثم هبطنا من حيث صعدنا فدخلنا إلى جامع واسع فيه مصلّى كبير تحيط به ثلاثة أروقة كبيرة، رواقان مستطيلان عن جانبي القبلة ورواق إلى الشمال كبير يفضي إلى باب المسجد الأماميّ وقد ألفيت المسجد أوسع واجمل مما حسبت قبلاً.
وسرنا في الرواق الذي إلى يسار القبلة إلى حجرة، وتقدم شيخ وقور هو إمام المسجد ففتح الغَلَق عن باب يؤدي إلى حجرة تفضي إلى حجرة أخرى فيها الكتب.
سمعت من قبل أن هذه الخزانة أغلقت أربعين عاماً ثم فتحت وقد فعلت الأرضة فعلها بالكتب فأتلفت كثيراً منها. ورأيت بقية الأرضة والإهمال من هذه الكتب مكدسة في رفوفها لا يدرى ما فيها. ولعل فيها من نفائس الكتب ما نتفقده في دور الكتب فلا نجده، أو ما نحن في حاجة إليه شديدة لتصحيح ما لدينا من الكتب المخطوطة. ولست أدري على من تقع التبعة فيما أصاب هذه الأسفار من التلف وما هي فيه من ضياع. إن أسرة الشيخ إبراهيم باشا الذي أسس هذا المسجد أسرة عريقة في البرِّ لها أياد على العلم والعلماء. وكانت دورهم مقصد رجال العلم من مصر وغيرها. وكان هذا الجامع معهداً في الإسكندرية قبل إنشاء المعهد الديني التابع للأزهر. فلماذا ترك الخلَف من هذه الأسرة سنن السلف وأهملوا آثار آبائهم؟ وإن كان لوزارة الأوقاف إشراف على هذا الجامع فعليها تبعة عظيمة، وعليها أن تستولي على المسجد ومكتبته أو تلزم القائمين عليهما أن يحسنا القيام.
لعل كلمتي هذه لا تذهب سدى بين الأوقاف وأسرة الشيخ إبراهيم باشا.
تركنا الجامع إلى مكتبة الإسكندرية في دار موصيري. وهناك لقينا الأخ الأديب الشيخ بشير الشندي، فأنسنا به وأفدنا من حديثه عن الكتب، وعن آثار الإسكندرية. وقد أطلعنا على رحلة ابن رشيد التي ذكرتها في المقال السابق. وفي المكتبة منها الجزء الثالث وهو المتضمن وصف مصر. وهو منقول عن نسخة في الأسكوريال. وهذه الرحلة ذات جدوى كبيرة في تاريخ مصر ولا سيما الإسكندرية، وهي جديرة بالعناية والنشر.
وكان من حديث الأخ بشير أن قال: أسمعتم عن بئر مسعود؟ قلنا: نعم هو على ساحل سيدي بشر. قال: لكن مسعود الذي أضيفت إليه البئر؟ قلنا: لا ندري. قال: عندي حديث عنه لا تجدونه في الكتب. كان شيخنا الشيخ عبد الفتاح شريف والشيخ جاد الحق يذهبان إلى تلك الجهة للرياضة والدرس وكنت أذهب معهما؛ وكان الشيخان ومن يصحبهما
يجلسون على هذه البئر يتمتعون بمنظر البحر وهوائه. وكان فيمن يحضر هذا المجلس رجل ظريف موظف في الجمرك يسمى مسعود أفندي طراطيش فبدا لشيخنا أن يسمي البئر (بئر مسعود) فعرفت بهذا الاسم حتى اليوم قلت: هي فائدة لم يفكر فيها اللاهون حول البئر اليوم.
رجعت إلى داري وأنا أتمنى أن تمكن الفرص من بعد لرؤية ما لم نر من مشاهد المدينة العظيمة.

عبد الوهاب عزام

فنلندا بلاد التعاون

مواردها والحركة التعاونية فيها

للدكتور مأمون عبد السلام

(بقية المنشور في العدد الماضي)

تعمل الحكومة الفنلندية جهدها لترقية الزراعة فأنشأت مدارس للزراعة وفلاحة البساتين وتربية الماشية وصناعة الألبان وتربية الخيل والتدبير المنزلي، وأنشأت معهداً للبحوث الزراعية يتبعه محطات تجارب لتربية النباتات وصناعة الألبان وإصلاح أراضي المستنقعات. ومما يدل على اهتمام الفنلنديين بالزراعة أن كل مزارع منهم ينتمي إلى جمعية زراعية، وجميع الجمعيات الزراعية تساعدها الحكومة.

والفنلنديون مغرمون من قديم بشرب اللبن فتراهم يدعون الله في صلواتهم أن يكثر ألبانهم. وهم مشغوفون بأكل الزبد فتحث الأم ابنتها على الإكثار من أكله وهي تنشدها قائلة:

كلي الزبد الطازج طول العام
كي يستدير جسمك
كلي لحم الخنزير طول العام
كي يزيد حسنك
كلي القشدة طول العام
كي يزيدك جمالاً

وكان الفنلنديون في سنة 1260 ميلادية يدفعون بعض الضرائب للحكومة أقراصاً من الزبد. وفي سنة 1560 بلغ الزبد الذي صدرته فنلندا إلى دنزيج ولويك والدانمارك وهولندا نصف مجموع صادراتها. أما الآن فعشرة في المائة من الصادرات من الزبد والجبن، وقد بلغت الحركة التعاونية في الألبان درجة لا تضارع في أي قطر آخر. وخمسون في المائة من أعمال الفلاح في فنلندا محصورة الآن في صناعة الألبان ومشتقاتها.

وقد كانت الأبقار الفنلندية رديئة ضعيفة صغيرة قليلة اللبن تجوب المستنقعات وراء الغذاء، فعملت الحكومة على تحسينها فأوجدت عترات نقية جيدة وعلمت المزارعين ضرورة إنتاج

الألبان الجيدة فأسست المعاهد والمدارس لتدريبهم على صناعة الألبان بالطرق الحديثة وأوجدت معياراً ثابتاً للبن وللزبد وصدرتها على هذا الأساس.

ويوجد الآن في ميناء هانكو مخزن ومعمل عظيم للزبد المعد للتصدير فيفرزونه من حيث الرائحة والطعم والجودة ولا يصرح بالتصدير إلا للزبد المتفوق الحائز للشروط، ويعاد غيره إلى داخلية البلاد للاستهلاك المحلي بسعر يتناسب مع رتبته. وبذلك أصبح الزبد الفنلندي يضارع زبد الدانمارك، والجبن الفنلندي لا يقل في الجودة عن الهولندي والفرنسي، ويصدر 90 % من زبد فنلندا عن طريق الجمعية التعاونية المسماة فاليو.

وتعتمد فنلندا في ثروتها القومية على الزراعة وصيد الأسماك والتعدين، ففيها قليل من الذهب في لابلندا والنيكل والفضة والنحاس، ويستخرج الحديد من المناجم ومن قاع البحيرات.

وقد تقدمت الصناعة في فنلندا في السنوات الأخيرة مما يشهد لأبنائها بطول الباع واستحقاقهم للحياة، وإليك النسبة المئوية للفنلنديين من حيث حرفهم.

يشتغلون في الزراعة 6 , 59
و16 , 8 في الصناعة والأعمال اليدوية
و4 , 3 في التجارة
و3 , 8 في أعمال النقل
و15 , 5 في صناعات أخرى

وقد ازدهرت في فنلندا صناعة الأخشاب والورق والسليلوز ولب الخشب وخشب الأبلاكاش والبوبينات ويشتغل 35 % من الصناع في الصناعات الخشبية. وقد أسس أول مصنع يشتغل بقوة المياه من مائة سنة مضت. وفي سنة 1860 استكشفت طريقة صناعة لب الخشب، ومن ثم انتشرت مصانعه بفنلندا.

ومساكن العمال بالمصانع على جانب عظيم من النظام والنظافة. ويشتغل العامل ثماني ساعات في اليوم ويعطى في أول عام من التحاقه بالمصنع إجازة قدرها أسبوع ثم أسبوعان في السنة الثانية وهكذا إلى الخامسة إذ تزداد ثلاثة أسابيع. وفي سنته العاشرة تزداد إلى شهر في العام.

وقد كانت حالة العمال قبل ذلك سيئة فقد كانوا لتفككهم وفقرهم وتحكم أصحاب الأعمال فيهم يشتغلون 14 ساعة في اليوم بأجور زهيدة، فتسربت إليهم التعاليم الحديثة الخاصة بحقوق العمال من ألمانيا، فألفوا اتحادات العمال في المدن، وكانت في أول أمرها غير سياسية، إذ اشترك فيها أصحاب الأعمال والعمال، ولكنها ما لبثت أن لبست ثوب الاشتراكية. وفي سنة 1899 تأسس حزب العمال ونشر برنامجه الذي طالب فيه بالمساواة في الحقوق وبجعل ساعات العمل ثمانياً في اليوم وتحريم

الخمور. ثم تكون الحزب الصناعي وهو دائماً متحد مع حزب الفلاحين.
وتتجر فنلندا مع الروسيا ثم بريطانيا العظمى وألمانيا والدانمارك وفرنسا والسويد، وأهم وارداتها الغلال والدقيق والمعادن والآلات والمنسوجات. وأهم الصادرات الأخشاب. ومن مصنوعاته الورق ولبه، وبعض المنسوجات، والمصنوعات المعدنية والجلود.
وقد افتتح أول خط حديدي في سنة 1862 وأنشئ آخر يصل عاصمتها بعاصمة الروسيا (لينجراد) أي سنة 1870. وفي فنلندا نظام بديع من الترع والقنالات أهمها القنال الذي يصل بحيرة سايما بخليج فنلندا، ويمكن بواسطته أن تتوغل البواخر من بحر البلطيق إلى 270 ميلاً داخل فنلندا.
ولفنلندا أسطول تجاري، ويمكن للمسافر السويدي أن يصل إليها في بواخر تبرح ستوكهولم في كل مساء عدا أيام الأحد فيصل إلى ميناء توركو الفنلندي وهو ميناء عظيم على أحدث نمط فيه مصانع للسجاير والخزف والمأكولات، والمصنوعات الحديدية والمخازن الكبيرة المملوءة بالبضائع. ومعنى توركو باللغة الفنلندية (السوق) وقد كانت كذلك أيام وثنيتها فأنشئت مكانها هذه المدينة في القرن الثالث عشر.
وفنلندا في مقدمة أمم العالم من حيث بواخرها التي تمخر في الجليد وقد صنعت لأول مرة في سنة 1890 وهي تجري على الجليد فتهشمه بثقلها وتشق لنفسها طريقاً في الماء، وبذا يمكنها أن تمخر طول العام إلى ميناءي توركو وهانكو.
ويؤمن الفنلنديون إيماناً صادقاً بنظام التعاون. فنظام فنلندا الاجتماعي مشبع بالجمعيات والمؤسسات التعاونية حتى لا يضارعها فيه أي قطر. فترى المزارع يبيع زبداً بواسطة الجمعية التعاونية لتصدير الزبد المسمى (فاليو) ويحصل على نقود من البنوك التعاونية
ليوسع بها مصانع ألبانه ويبتاع آلاته الزراعية عن طريق الجمعية التعاونية الزراعية للبيع بالجملة المسماة هانكيجا. وتبتاع زوجته ما يلزم البيت من الشركة التعاونية المسماة إيلانتو، ويكتب ابنه الصغير بمداد من صنع الجمعية التعاونية المسماة وتبيع ابنته الصغيرة ما تجمعه من الثمار البرية من الغابات لجمعيات تعاونية خاصة لتصنع منها المربيات.
وقد أدخل نظام التعاون في فنلندا في منتصف القرن التاسع عشر ولكنه أصبح حقيقة واقعة في سنة 1899 وذلك بتأسيس جمعية بليرفو التي أخذت على عاتقها نشر الحركة التعاونية فنجحت في ذلك نجاحاً كبيراً. وكان من أكبر أسباب ضعف التعاون في فنلندا عدم ارتباط الجمعيات التعاونية بعضها ببعض. ولكنهم تغلبوا على ذلك في سنة 1915 بإنشاء المؤسسات التعاونية المركزية الآتية:
1 - جمعية وهي جمعية عظيمة تشتري جميع المواد الغذائية والبضائع المختلفة لحساب المخازن التعاونية المحايدة. وتصنع جمعية الكبريت والفرش والملابس الداخلية والورق والطوب والدراجات والأخشاب، كما أنها تحفظ الفواكه وتحمص البن. وقد شيدت بناء عظيماً زودته بآلات تولد الكهرباء بقوة المياه للإضاءة والصناعة، وهي تستورد الآلات ولها من أجل ذلك مكاتب في القارة الأوربية ولندن وأمريكا الشمالية والجنوبية.
2 - جمعية هانكيجا وتشتري الآلات الزراعية والأسمدة والبذور والسيارات والزيت والأسمنت وكل ما يحتاج المزارعون وتبيعها للجمعيات التعاونية والمزارعين، ولها محطات للتجارب ومشتل ومحطة لتنظيف الحبوب واختبار نقاوتها وآلة للطحن ومخازن لبيع الآلات.
3 - جمعية العمل وهي جمعية المزارعين التعاونية للجملة، وتختلف عن السابقة في تكوين عضويتها.
4 - جمعية بنوك التسليف الزراعي المركزي لتسليف البنوك الزراعية، وهذه تسلف أعضاءها لتحسين زراعتهم أو أعمالهم الأخرى التي يعيشون منها.
5 - جمعية فاليو لتصدير لزبد.
6 - الجمعية التعاونية الفنلندية لتجارة الماشية.
7 - جمعية ماتا للتصدير.

8 - جمعية انيغتين لصناعة الألبان.
9 - الجمعية المركزية لأصحاب الغابات.
10 - جمعية التعاونية للجملة وهي فرع من جمعية السابقة.
ومما يلفت نظر زوار فنلندا وجود اسم أيلانتو في كل مكان وهو اسم جمعية للبيع بالقطاعي أنشئت سنة 1907 كمخبز. وهي لا تزال إلى الآن أكبر مخبز في فنلندا، ولكنها توسعت في اختصاصها فأصبحت تبيع مصنوعات الألبان والبقالة واللحوم والبيرة والعقاقير الطبية والملابس وإدارة المطاعم ويبلغ عدد أعضائها خمسين ألفاً.
والفنلنديون أهل ذمة وأمانة ووفاء. فحكومتهم هي الوحيدة من جميع الحكومات المدينة للولايات المتحدة التي تسدد أقساط دينها بفائدته مما جعلها محط احترام الأمريكيين ومحبتهم. فالفنلنديون بطبيعتهم مقتصدون حسنو التدبير. وهم يكرهون المضاربات والمساهمة في الشركات وكل أعمال البنوك اعتقاداً منهم أنها تخالف قواعد الأمانة وحسن الذمة، لذلك لا تجد فيهم أمثال كروجر وغيره من الدجالين النصابين من زعماء المال. وفنلندا هي الدولة الوحيدة التي أخفق كروجر في الحصول على احتكار الكبريت فيها.
وأنشئ بنك فنلندا في سنة 1811 في هلسنكي وله فروع في 13 مدينة أخرى، ومديروه ينتخبهم البرلمان وينتخب مجلس الإدارة رئيس الجمهورية مباشرة.
وأسست العملة الفنلندية في سنة 1860 وكانت تجري على قاعدة الذهب من سنة 1877 واحتفظت بها حتى أول يناير سنة 1926. أو وحدة عملتها المارك الفنلندي المجزأ إلى مائة جزء يسمى بنيا وقيمته سنتيمان.
وفي فنلندا تسعة بنوك للسندات وستة للرهنيات و482 بنكاً للإيداع وبنك مركزي للتسليف و1342 بنكاً تعاونياً للتسليف.
وتعتبر فنلندا من أرخص بلاد العالم، لأن أهلها لا يميلون إلى الكماليات إذ يعتقدون أن أحسن وسيلة للمعيشة هي اكتساب القوت من العمل في الحقل أو في المصنع لا عن طريق اللصوصية المقنعة بالمضاربة وغيرها.
ويعطي الفنلنديون كل عنايتهم لنشر التعليم، فخصصت حكومتهم 12 % من ميزانيتها له، وحتمت على كل طفل مهما نأى بلده أن يتعلم القراءة والكتابة، فترى في الدساكر والقرى
والمدن المدارس الأولية الحرة ومدارس التعليم التعاونية والمدارس الصناعية والزراعية ومدارس التدبير المنزلي، والدراسة فيها باللغتين الفنلندية والسويدية على أحدث النظم الألمانية.
والتعليم عندهم ذو وجهة عملية يهيئ الطالب ذكراً كان أو أنثى ليكون عضواً نافعاً لبلاده جسميّاً وعقلياً، لذلك يتضمن التعليم التدريب الجسمي والفكري.
ويلتحق صار الطلبة من سن 7 إلى 13 أو 14 سنة بالمدارس الأولية الحرة التابعة للمجالس البلدية وبالمدارس التعاونية والمدارس التحضيرية. وتوجد كذلك مدارس أولية راقية للطلبة من سن 10 إلى 17 أو 18 سنة، ومدة الدراسة ثماني سنوات وتديرها الحكومة.
وبفنلندا ثلاث جامعات أنشئت في سنة 1640 وسنة 1917 وسنة 1920 على التتابع، منها اثنتان في مدينة توركو والثالثة في هلسنكي، وهي أكبرها وأعظمها استعداداً. والتدريس في الجامعات باللغتين الفنلندية والسويدية وهما اللغتان الرسميتان بحسب نص الدستور. وعلى الطالب الفنلندي أن يتكلم لغة إضافية كالألمانية أو الإنكليزية أو الفرنسية أو الإيطالية ليسهل عليه الاتصال بالعالم الخارجي. وكانت دراسة اللغة الروسية إجبارية في الزمن السابق فأبطلت، وتدرس علاوة على ذلك اللغتان اليونانية القديمة واللاتينية. ونسبة الأمية في فنلندا 9 و10 % من الذين يزيد سنهم على 15 سنة.
وتهتم فنلندا أعظم اهتمام بالرياضة البدنية. وقد اشتركت في الألعاب الأولمبية الدولية وحاز مصارعوها السبق أربع سنوات متتالية على أمم العالم، كما أنهم تفوقوا في كثير من الألعاب كالجري البعيد. وقد رفع العلم الفنلندي في سنة 1912 فوق بناء الألعاب الأولمبية الدولية بالرغم من احتجاج الروسيا. وفي سنة 1920 دخلت فنلندا دورة أنفرس الدولية كدولة مستقلة وتبوأت مكانها كالثانية أي بعد الولايات المتحدة

وأرسلت 58 عضواً وقد احتفظت بمكانها في سنة 1924 في دورة باريس في جميع الألعاب التي اشتركت فيها. وسبقت فنلندا الأمم الأوربية في منح النساء حريتهن واهتمام الفنلنديين بشؤون النساء يرجع إلى عهد بعيد فإن أقدم مستند فنلندي تاريخي يرجع إلى سنة 1316 كان خاصاً بحقوق النساء. ويزاول الفنلنديات كافة الأعمال والحرف، فمنهن المهندسات والمعماريات
والبناءات، وراصفات الطرق، وسائقات السيارات وما إلى ذلك. وقد منحن حق التصويت في الانتخابات من سنة 1906، وأصبح لهن الحق في أن ينتخبن لعضوية البرلمان في سنة 1907. ونسبة النساء في عمال المصانع 20 % كما أن 10 % من مخازن الأدوية يملكها نسوة و80 % من مستخدميها من النساء. وقد جاهدت الفنلنديات لمنع شرب الخمر وكان لهن الفضل في إجبار الحكومة على مراقبة بيع المشروبات الروحية. وقد تسبب عن اشتغال النساء بالحرف متاعب زوجية عظيمة. والفنلنديات ماهرات في فنون الطهي وتدبير المنزل.
وبرغم أن سبعة أثمان سكان فنلندا من الفنلنديين، وبالرغم من أنه لم يحرم عليهم التكلم بلغتهم في عهد تحكم الدول الأجنبية فيهم، فإن الأقلية التي تتكلم السويدية كانت تملك معظم الثروة وكل الإدارة والسلطة السياسية والمراكز الاجتماعية الهامة، ولم توجد كتب باللغة الفنلندية قبل سنة 1860 عدا الكتب الدينية. وقد ترجم ميخائيل أجريكولا (وهو تلميذ مارتين لوثر منشئ البروتستانتية كتاب العهد الجديد إلى اللغة الفنلندية في سنة 1548 وقد طبع أول قاموس لاتيني فنلندي في سنة 1826، وقد وضع لونروث في سنة 1831 وسنة 1835 قاموساً للغة الفنلندية وأصدر أول جريدة بهذه اللغة ولم يتكلم في عهده أحد باللغة الفنلندية سوى ست أسر إذ كان الفنلنديون يفضلون التكلم باللغة السويدية.
ولم تأت سنة 1841 حتى أصبحت اللغة الفنلندية تدرس بالمدارس الأولية، واعترف دستور سنة 1919 بلغتين رسميتين وطنيتين: اللغة السائدة الفنلندية ولغة الأقلية السويدية.
ويوجد الآن بفنلندا فئتان: الأولى فئة الفينومان الذين يرفضون التكلم بغير الفنلندية، وفئة السفيكومان ولا يتكلمون غير السويدية قائلين إن اللغة الفنلندية ليست إلا رطانة الفلاحين. ولكن لا دخل لهذا الخلاف في تفانيهم في حب بلادهم وأبناء وطنهم وفي سنة 1906 غير ستة عشر ألف أسرة أسماءها السويدية بأسماء فنلندية مدفوعين إلى ذلك بعوامل وطنية أو سياسية، وقد رجع بعضهم إلى اسمه الأسريّ القديم الذي غير مدة حكم السويد. فترى الآن أخوين يحملان اسمي أسرتين مختلفتين وأحدهما يتكلم السويدية والآخر الفنلندية.
واللغة الفنلندية صعبة وهي تشبه لغة استونيا والمجر وهي خالية من أداة التعريف ومن الجنس وليس في حروفها الأبجدية حروف وكلماتها طويلة جداً مثال ذلك:
وحكومة فنلندا جمهورية دستورية على رأسها رئيس ينتخب كل ست سنوات وراتبه الشهري مائتا جنيه. والقوة التشريعية في يد برلمانها المسمى ديات، والقوة التنفيذية في يد مجلس الوزراء المسئول أمام الديات، وهو في بناء من أجمل أبنية أوربا، وعدد أعضائه مائتا عضو ينتمون إلى الأحزاب المختلفة كما يأتي:
حزب الاشتراكيين الديمقراطيين ويمثله 78 عضواً.
والحزب الزراعي ويمثله 53 عضواً.
والحزب السويدي ويمثله 21 عضواً.
وحزب الاتحاد ويمثله 18 عضواً.
والحزب الوطني الأهلي ويمثله 14 عضواً.
وحزب التقدم ويمثله ثلاثة أعضاء.
وحزب المزارعين الصغار ويمثله ثلاثة أعضاء.
وحزب الشعب ويمثله اثنان.
وأنشئ الجيش الفنلندي النظامي في سنة 1922، وسن الاقتراع 21 سنة ويمضي الفرد سنة في سلاح المشاة وخمسة عشر شهراً في سلاح آخر ويمكث في الرديف سبع سنوات وفي الجيش المرابط 24 سنة. ولفنلندا أسطول ولكنه ليس في قوة جيشها وهو يحتوي على سفن للحراسة ومراكب للطوربيد وغواصات. والفنلنديون من

أحسن البحارة في العالم، لذلك استخدمتهم الروسيا في أساطيلها الحربية والتجارية. وللفنلنديين سمعة عالمية عالية في صيد الأسماك.

مأمون عبد السلام

على هامش الفلسفة

للأستاذ محمد يوسف موسى

قرأت كلمة الأستاذ الكبير عباس العقاد بعدد الرسالة رقم 335 التي عنونها (مع أبي العلاء في سجنه) وفيها يتعقب الدكتور طه حسين بك في بعض ما ذكره في بحثه عن شيخ المعرة رهين المحبسين، إذ لا يرضى ما فهم من قول أبي العلاء في بعض فصوله: (يقدر ربنا أن يجعل الإنسان ينظر بقدمه، ويسمع الأصوات بيده، وتكون بنانه مجاري دمعه، ويشم الروائح بمنكبه، ويمشي إلى الغرض على هامته. . .) لا يرضى أن فيلسوف المعرة (قصد بهذا الفصل خاصة إلى رأي من أشد الآراء الفلسفية الأبيقورية خطراً، وهو إنكار العلة الغائية وإثبات أن العالم كما هو لم يخلق لغاية معينة من هذه الغايات التي نعرفها نحن ونزعم أن الأشياء خلقت لتحقيقها). ويرى - أي الأستاذ العقاد - أن هذا الرأي من الدكتور فيه شئ من الصواب، ولكن (أصوب من هذا أن يقال إن رأي المعري شبيه برأي المعاصرين الذين يقولون: إن الوظيفة تخلق العضو، وإن القوة تسبق الظاهرة).

هذه الكلمة أثارت مني رغبة كامنة في متابعة الكتابة في الرسالة - تحت عنواني الذي اخترته العام الماضي، وهو على هامش الفلسفة - لو إلى ذلك سبيل الآن! ذلك أن البحث الذي أعني بإعداده هذا العام أو بالتحضير له عن ابن رشد ومكانته في الفلسفة الإسلامية يملك عليّ كل أمري ويستأثر بكل وقتي أو لا يدع هذه الرغبة تخرج من القوة للفعل، إلى حين أرجو أن يقصر أمده إن شاء الله تعالى. إلا أن اتصال الموضوع الذي أثاره الأستاذان عن غير قصد بالدراسات التي أحبس نفسي عليها هذه الأيام، جعل من الواجب أن أكتب كلمة قصيرة أبين فيه أن التوفيق أخطئهما كليهما فلم يصيبا المحز، وإلى القارئ البيان:

تشير كلمة أبي العلاء - فيما أرى إن كان قالها جادّاً - إلى مسألة الأسباب والمسببات التي ثار حولها الخلاف الشديد بين الغزالي وبين الفارابي وابن سينا في تهافت الفلاسفة. ثم أثارها بعده ابن رشد في تهافت التهافت الذي كتبه دفاعاً عن الفلسفة والفلاسفة ضد ما وجهه الغزالي من هجمات نالت من الجميع نيلاً كبيراً، ولا تزال الفلسفة متأثرة بها حتى هذا العصر الذي نعيش فيه.

يرى الغزالي، ممثل المتكلمين في عصره، أنه كان من الممكن أن يكون العالم على غير ما نشاهد الآن، وأن ما نظنه سبباً للإبصار أو الكلام والموت أو الحياة أو ما نعتقده أداة لشيء من هذا ونحوه ليس كذلك في نفسه، بل لأن الله قدره هكذا أزلاً. وفي ذلك يقول: (الاقتران بين ما يعتقد في العادة سبباً وما يعتقد مسبباً ليس ضرورياً عندنا. . . فليس من ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر، ولا من ضرورة عدم أحدهما عدم الآخر. مثل الري والشرب، والشبع والأكل، والاحتراق ولقاء النار، والنور وطلوع الشمس، والموت وجز الرقبة، والشفاء وشرب الدواء. . . وإن اقترانهما لما سبق من تقدير الله سبحانه بخلقهما على التساوق لا لكونه ضرورياً في نفسه. بل في المقدور خلق الشبع دون الأكل، وخلق الموت دون جز الرقبة، وإدامة الحياة مع جز الرقبة وهلم جرا إلى جميع المقترنات، وأنكر الفلاسفة إمكانه وادعوا استحالته).

إذاً فعند الغزالي أنه يمكن أن يجعل الله العين أداة وسبباً للشم لا للإبصار، والأذن للشم لا للسمع، وأن يخلق الشبع دون سببه وهو الأكل، والري دون الشرب، وهكذا إلى سائر الأمور التي نعتقدها أسباباً تتلوها حتما مسبباتها.

أما ابن رشد - وقد جعل من نفسه مدافعاً عن الحكمة، وهي كما يقول: صاحبة الشريعة والأخت الرضيعة - فيرى أن لكل شيء سبباً لا يتخلف عنه، ولكل عضو عملاً لا يعدوه، وأن (العقل ليس هو شيئاً أكثر من إدراكه الموجودات بأسبابها وبه يفترق عن سائر القوى المدركة، فمن رفع الأسباب فقد رفع العقل. وصناعة المنطق تضع وضعاً أن هاهنا أسباباً ومسببات، وأن المعرفة بتلك المسببات لا تكون على التمام إلا بمعرفة أسبابها فرفع هذه الأشياء هو مبطل للعلم ورفع له) ثم يعود إلى تأييد نظريته هذه في

موضع آخر فيقول: (ولو ارتفعت الضرورة عن كميات الأشياء المصنوعة وكيفياتها ومـوادها كما تتوهم الأشعرية مع الخالق لارتفعت الحكمة في الصانع والمخلوقات. . . إلى أن يقول: وهذا كله إبطال للعقل والحكمة).

على أنه لا يجب أن يتبادر للذهن أن ابن رشد، الرجل الدين كان يرى اكتفاء الأسباب بنفسها في خلق مسبباتها. فمن الحق أن نقول إنه يقرر (أنها ليست مكتفية بأنفسها في هذا الفعل بل بفاعل من خارج فعله شرط في فعلها بل في وجودها فضلاً عن فعلها).

أعتقد أن القارئ يرى معي بعد ما سقناه من كلام الغزالي وفيلسوف قرطبة، أن الدكتور طه حسين بك لم يكن مصيباً فيما أكده من أن شيخ المعرة كان يرمي بقولته التي أسلفنا إلى شيء من الفلسفة الأبيقورية، وأن الأستاذ الكبير العقاد لم يكن موفقاً كذلك في التعقيب عليه، وأن المعري لم يقصد بكلمته - إن كان سلك فيها مسلك الجد - إلا الإشارة لفلسفة المتكلمين الذين يدفعون التلازم بين الأسباب والمسببات على النحو الذي ذكرناه عن ممثلهم وزعيمهم في عصره حجة الإسلام الغزالي. وبالله التوفيق.

محمد يوسف موسى

من وراء المنظار

حلاقو القاهرة!. . .

لا تفهم يا قارئي العزيز أني أعقد لك فصلاً تاريخياً عن منظر من مناظر القاهرة العظيمة في زمن ابن طولون أو في زمن الحاكم بأمر الله أو في زمن قلاوون عليهم رحمة الله، فإني لا أكتب هنا إلا عما يقع عليه منظاري. . . وإنما أنا محدثك عن منظر من مناظر هذه العاصمة الكبيرة في القرن العشرين بل وفي عام 1939 الذي أوشك أن ينطوي على وجه التحديد.

ولا تتوهم أني فيما أصف لك أذهب بك إلى تلال زينهم أو إلى أعلى الدراسة أو إلى جوار المحمدي أو إلى ما وراء سيدي الحِلّي؛ فإنك قد تنكر على ما أقول لجهلك فيما أظن مظاهر العيش في هاتيك البقاع. . . على أنه لا يكون جهلك بها أكثر من جهلي.

وإن لك في أقرب شوارع المدينة غنية عن الذهاب إلى أطرافها فسر في شارع ماسبيرو على ضفة النيل أو في شارع شبرا حيث المدرسة التوفيقية أو في شارع الملكة نازلي أو حول حديقة الأزبكية وانظر ماذا ترى.

لاشك أنك رأيت هؤلاء الحلاقين الذين يتربعون على الأرض أو على الأسوار ويأخذون في حلق رؤوس زبائنهم ولحاهم في صورة تدعو إلى الاشمئزاز والأسف والضحك جميعاً.

وقفت على مقربة من أحدهم ورأيته وقد شمر عن ساعديه وأمسك بالموسى ودعا إليه من زبائنه الجالسين حوله من جاء دوره. ومثَّل الرجل بين يديه وله لحية ما أحسبه أجرى الموسى عليها منذ مثل هذا اليوم من العام الماضي؛ ووضع الحلاق كفه في إناء بجواره فاغترف غرفة من الماء بيده ورشها على تلك الأشواك الكثيفة في وجه صاحبنا وأجرى عليها قطعة من الصابون، ثم شحذ الموسى على ذراعه بأن حكها بها عدة مرات في سرعة عجيبة ولما استيقن من مضيها راح يقطع هاتيك الأشواك، ثم يمسح ما تجمع منها على حافة سلاحه في ظهر يسراه أو يأخذها على سبابته ويقذف بها في الجو لا يبالي أين تقع ولا من يصيب برشاشها. . .

ونظرت إلى الحلاق وزبائنه أتبين ماذا كان يخالجهم شعور من المبالاة، فلم أصب في وجوههم إلا مثل ما يرى في الحيوانات من عدم المبالاة فيما تأتيه من أعمالها جميعاً على أعين الناس؛ وكأن هؤلاء الناس جلوس في دكان لا تقتحمهم فيه الأعين!

وهممت أن أدور بمنظاري عن هذا المنظر الذي لست أدري لم وقفت إليه تلك اللحظة، وقد كنت أبداً أمر به مسرعاً، وإني لأضيق به أشد الضيق، وكأن الظروف أرادت أن تكيد لي أشد الكيد فلا تقلع عن العناد حتى في مثل هذا الموقف التافه؛ فهذا غريب مقبل ومعه سيدة وفي يده آلة تصوير، وإنه ليضحك ملء شدقيه كأنما يقع من الحلاق وزبائنه على بغية طالما تمناها.

وأعد الفرنجي آلته للتصوير، ولشد ما غاظني أن أرى الحلاقة ومن حوله يضحكون

ضحكة البلهاء كأنما يفرحهم أن يأخذ (الخواجة) صورهم، وسمعت ذلك (الخواجة) يقول لصاحبته بالإنجليزية ما ترجمته: (انظري فسنحصل على صورة ظريفة لحلاقي القاهرة).

ودنوت منهما فسلمت وتكلفت الابتسام أولاً، ثم عبست وبالغت في العبوس لأعبر عن احتجاجي، وتكلمت في لهجة استخذى لها ذلك الغريب، وحار ماذا يقول؛ وأشارت إليه صاحبته فطوى آلة التصوير؛ وكأنما أملى عليه إحساسه بالغربة أمام احتجاجي الشديد أن يتلطف فاعتذر، ولكنه أعقب اعتذاره بقوله: (جميل منك أن تغضب لسمعة شعبك ولكن أجمل من ذلك أن تزيحوا عن الأعين ما يشوه هذه السمعة).

وجميل من الرجل قوله هذا لا شك عندي في ذلك؛ ولكن ما حيلتي وما أملك غير القرطاس والقلم؟

ليس يهمني من هذا المنظر وأشباهه ما عسى أن يقول عنا الأجانب من أجله فحسب، وإنما أراه على ذلك شيئاً تتأذى به العيون وتشمئز منه النفوس. ولئن لم تقع عليه وعلى أمثاله أعين غير أعيننا، ففيه مما يشعرنا بالضعة والهمجية.

(عين)

البغاء في أوربا

للمستر أبراهام فلكسندر

بقلم الأستاذ عبد اللطيف حمدي

البوليس والبغاء

فضلاً عما ينشأ في المدن الفسيحة من الصعوبة في تمييز الداعرات فهناك صعوبة أخرى مترتبة على الأولى: ذلك أنه حيث يكثر الداعرات المحترفات يكثر كذلك ما يسمونه بالدعارة السرية.

وقد كانت الدعارة السرية في العصور الوسطى على غير ما هي عليه الآن، فإن سهولة التعرف على الداعرات في تلك العصور، والنظرة التي كان ينظر بها إليهن، كانتا سببين كافيتين لحصر بؤرهن. فكانت المومس التائبة إن تركت حياة المواخير لا تجرؤ على السكنى في حي آخر، بل كن يقمن في تلك الأحياء؛ ولم يكن ثمة شك في أشخاصهن ولا في ماضيهن. وفي العصور الحاضرة فريق من الداعرات يحترفن ما يسمى بالدعارة السرية وهن مثل الداعرات في العصور الوسطى معروفات حق المعرفة لرجال البوليس، بل هن رغم التسمي باسم (السرية) معروفات كذلك لكل عابر سبيل وذلك لافتضاح أمرهن. ولكن على الرغم من ذلك هناك فارق مهم بين أنواع من البغاء السري في العصور الحاضرة. فالنوع الأقل عدداً والأقل خطراً هو الفريق المعروف باحترافه للدعارة.

أما الكثرة من البغايا السريات، فهن اللواتي لا يدل عليهن شيء من ثيابهن ولا مظهرهن ولا مسكنهن، وهن يعشن بين سائر النساء بحيث يتعذر تمييزهن، ولكنهن مع ذلك يزاولن البغاء السري بحالة مستمرة أو متقطعة.

إن المومس المجاهرة أقل أهمية؛ ودراسة حالتها أقل جدارة لدى من يحاول درس التطورات التي تحدث بالمدن الكبرى أثناء تقدمها من النواحي الصناعية وغيرها.

ولقد بذل جهد ليس بالقليل في سبيل تعريف الدعارة تعريفاً دقيقاً، لأن النظر إليها من وجوه مختلفة يسفر عن تعريفات مختلفة، فالداعرة من وجهة النظر الإدارية لدى رجال البوليس هي التي ليس لديها وجه من وجوه الرزق غير ابتذال العرض، وهذه هي التي توجب

الإدارة تسجيل اسمها. فالأمر إذن لدى رجال البوليس يتعلق بالتسجيل. ولما كان موجبه هو الرزق قد وجد الكثيرات من البغايا مهرباً منه لأن هذه الشبكة واسعة الخروق، وأكثر البغايا حقاً يحترفن حرفة مكسبة. ففي ألمانيا نوع من الحانات تعمل فيه أجيرات. وفي أماكن أخرى مغنيات وراقصات وذوات حرف مماثلة، وكلهن في الواقع بغايا يتخذن هذه الحرف ذرائع لاستجلاب الرجال ويحتمين بها في نفس الآن من واجب للتسجيل على اعتبارهن محترفات. ومتى سقط عنهن التسجيل سقط كذلك عند البوليس وصفهن بالدعارة.

ومما يدل على أن هذه الحرف التي لا تقوم أجورها بالأود أو التي إنما تنتحل ستاراً دون قوانين البوليس، أن علاقة هؤلاء النسوة بحرفهن علاقة تكاد تكون اسمية من

حيث المواظبة من جهة والأجر من جهة أخرى، وقد قام مستشفى زيوريخ بإحصاء للمريضات بأمراض تناسلية اللواتي عولجن فيه في عام واحد فكانت النتيجة أن عدد المريضات 1177 منهن 7 وتسعة أعشار في المائة من المومسات وستة وسبعة أعشار في المائة لا صناعة لهن وخمسة وثمانون في المائة وأربعة أعشار من ذوات الحرف. فمن الواضح إذن أن التعريف الإداري للبغاء إنما هو تعريف لا يتفق مع الواقع.

ويرى الأب (دوشاتليه) في تعريف الدعارة (أنها هي الجرائم الخلقية التي يدفع عنها أجر وترتكب في أماكن أنشئت بمقتضى القانون، ولا تعتبر المرأة فيها مخالفة إلا بأن يشهدها شاهد غير متهماً وغير رجال البوليس).

وهذا التعبير يخرج الدعارة السرية إخراجاً تاماً من التعريف فهو لا ينطبق عليها. وإنما يكفي لتحديد الغرض الضروري في نظر رجال البوليس.

وعلى الخلاف من هذا التحديد الشديد الضيق أرى للأسباب التي سأسردها بعد قليل أن الدعارة تتميز باجتماع ثلاثة عناصر مختلفة. وهي (1) العوض (2) التعدد (3) فقدان العاطفة.

وليس من الضروري أن يكون العوض نقداً؛ فإن الهبات والهدايا والاصطحاب في مجال اللهو - كل ذلك وهو مما لا يحصل عليه إلا بالنقد يعتبر عوضاً.

وليس كذلك من الضروري أن يكون شرط التعدد مانعاً من الاختيار، فإن اتصاف المرأة بالدعارة لا ينفيه أنها تختار مَن تشاء وترفض حين تشاء.

وأما شرط فقدان العاطفة فهو أوضح من الشرطين السابقين وعلى هذا الأساس تعتبر المرأة داعرة متى اتصلت اتصالاً جنسيّاً من أجل الأجر أو الهدايا برجال متعددين سواء كان هذا الاتصال عرضيّاً أو احترفته. وليس من الضروري بعد ذلك أن تكون مفضوحة السمعة ولا أن تكون قد اعتقلت ولا عديمة الكسب من حرفة؛ فقد لا تكون المرأة سيئة السمعة ولا من صواحب السوابق ولا من الخاليات من العمل لكنها مع ذلك بغي.

وعلى أساس هذا التعريف للدعارة يكون مداها قد اتسع وتكون ضرورة علاجها أمَسّ؛ وهذا الذي أرجو أن أدل عليه.

فالعوض وفقدان العاطفة وتعدد الرجال سواء قلوا أو كثروا، كل ذلك في المدن العصرية لا يميز العلاقة الجنسية للبغي المحترفة وحدها. بل هذه الصفات للداعرة السرية أيضاً، بل إن أردنا التسمية بالاسم الصحيح فهذا التعريف يشمل أنواعاً كثيرة من الداعرات المحترفات اللواتي لا يعرف حقيقتهن إلا زميلاتهن في البيوت السرية كما يشمل المرأة العادية التي تخرج بين حين وآخر من هدأة الحياة إلى هذا النوع الشاذ منها، ويشمل كذلك ذوات المراكز المصونة اللاتي قد يزاولن عرضاً هذه الرذيلة دون أن يمسسن ظاهر شرفهن. ويشمل كذلك المتسترات بحرفة من الحرف، واللواتي تتخذ إحداهن خليلاً واحداً ريثما تستطيع الاستبدال به من تراه خيراً منه، واللواتي تخادن إحداهن أكثر من خليل واحد لعدم استطاعة فرد من هؤلاء الأخلاء القيام بأودهن، واللواتي تخون إحداهن خليلها الواحد مع فرد أو أكثر طلباً للنفع. وأخيراً يشمل هذا التعريف النسوة المتزوجات ولسن جميعاً من الطبقة الدنيا بل فيهن من سائر الطبقات وكلهن في نظر العالم بريئات يرتفعن عن مظنة الكسب من الزنا ولكنهن في الواقع يحببن من يصحبهن إلى أماكن اللهو.

فهذه ثمانية أنواع تخرج عن التحديد الضيق الذي يقيد صفة الداعرة في نظر البوليس.

ولكن هذه الأنواع جميعاً تدخل تحت عنوان الدعارة إذا ما تميز هذا العنوان (1) بالعوض (2) وبالتعدد (3) وبفقدان العاطفة. أي أن الدافع للصلة لم يكن وجدانياً بل هو نفعي. ولكن دون هذا كله سؤالاً لابد منه وهو لماذا نعترض على البغاء على أي نوع من أنواعه؟

والجواب واضح وهو أن الزنا بغيض لأسباب كثيرة. فأما أولاً فلما يترتب عليه من الانحلال الشخصي.

وأما ثانياً فلأنه ضار بالمجتمع من الناحية الاقتصادية.

وأما ثالثاً فلأنه من الناحية الصحية ينشر أمراضاً تناسلية، ومن الناحية القضائية لأنه يرتبط بالإخلال بالأمن وينشر الجرائم؛ وما لا ريب فيه أن العاهرات اللواتي يقصر البوليس اهتمامه عليهن منحلات الأخلاق ينشرن الانحلال، ويسببن استهلاكاً اقتصادياً

جسيماً، وينشرن الأمراض. والقاعدة أن بؤرهن مباءات للمجرمين. ولكن من الخطأ الفاحش أن تظن صواحب الأنواع الأخرى من البغايا أقل أثراً منهن على المجتمع في نشر هذه الويلات، فإن البغي العَرَضية أو المستمرة المحترفة أو الهاوية المتسترة بحرفة أو التابعة - كل أولئك يؤدين باتصالهن الأثيم إلى نفس النتائج ولقد تختلف آثار بعضهن عن بعض ولكنهن جميعاً خطرات.

(يتبع)

عبد اللطيف حمدي

التاريخ في سير أبطاله

مازيني

رسول الحرية إلى قومه، المجاهد الذي أبلي في جهاده مثل

(بلاء الأنبياء

للأستاذ محمود الخفيف

(تتمة)

ود مازيني لو أنه استطاع أن يجعل للأدب من وقته أكثر مما جعل له، ولكن مشاغل السياسة حالت بينه وبين أمنيته؛ وكان منذ عودته إلى لندن بعد ثورة عام 1848 يوجه أكثر همه إلى الأدب الإنجليزي، وقد أكب على دراسة حياة الشاعر الإنجليزي العظيم اللورد بيرون الذي أحبه أشد الحب لأنه الشاعر الذي هز القلوب وأيقظ المشاعر بأناشيد الحرية والقوة، ولأنه ذلك الروح المتمرد على الطغيان والاستبداد، ثم لأنه لم يكن رجل الفن الذي يجلس في معزل عن عصره يتغنى بالجمال ويستغرق في الفن استغراق الصوفي المسحور، بل كان الرجل الذي كانت أغاني قيثارته صدى لآلام عصره وأحلامه، والذي ذهب إلى حيث لاقى الموت في مناقع مسولنجي في سبيل الدفاع عن حرية اليونان.

وجعل مازيني يوحي مبادئه إلى كل من يلاقيهم، يريد بذلك أن يكسب لقضية إيطاليا أكثر ما يستطيع من الأنصار؛ ثم أنشأ عام 1851 جمعية أصدقاء إيطاليا لهذا الغرض وسرعان ما انتظم في صفوفها كثير من ذوي المكانة من الإنجليز، وفتحت لها بعض الجرائد الذائعة أبوابها؛ فكانت من أكبر وسائل مازيني في الدعاية عن قضية وطنه. وكان لهذا الرجل أن يفخر يومئذ بأنه أدى إلى بلاده من جليل الخدمات ما لم يؤد مثله رجل غيره، بل لقد كان له أن يفخر بأنه أدى إلى الجليل كله ما يجعله في مصاف قادته ويسلكه في سجل القلائل الأفذاذ الذين يباهي بهم تاريخ أوربا.

لقد ملأ قلوب المستنيرين في إيطاليا كلها بمعاني الوطنية والحرية ولقنهم مبادئ الديمقراطية وسيادة الشعوب، ونشأ الجيل كله في إلهامه، فما من رجل من رجل السياسة وقادة الرأي في الولايات جميعاً إلا من تأثر بتعاليم هذا المجاهد العظيم؛ ولئن كان فيهم من يخالفه في الوسيلة، فما كانت الغاية التي يعمل على بلوغها إلا أنشودة كل وطني حر.

على أنه وجد البلاد تتأثر بعد فشل حركات سنة 1848 بسياسة بيدمنت، تلك السياسة التي كان يمثلها كافور، ذلك السياسي الفذ الذي يعد في حركة إيطاليا رأسها المفكر؛ وكان كافور ومازيني على طرفي نقيض؛ إذ كان أولهما رجل لعمل الدبلوماسي الرشيد الذي يتحين الفرص ويسير إلى غايته في حذر وبطء، ولكن في وثوق، والذي جعل خطته تقوية بيدمنت أولاً، ثم دفعها إلى الحرب متى آنس فيها القوة ووجد لها الفرصة؛ وكان ثانيهما الزعيم الثائر الذي لا يفتأ يدعو البلاد إلى العصيان والتمرد لتبقى شعلة الجهاد متوهجة، وتظل نار القلوب متأججة، فلا يركن الشعب إلى القعود، فينسى تلك الغاية التي تهيب بالرجال وتشد عزائم الأعزال وتوحي إليهم اليأس والاستبسال. وضاق الرجلان أحدهما بالآخر، وكان كل منهما حرباً على صاحبه؛ وهذا مما نعده على مازيني الذي وضع إصبعيه في أذنيه تلقاء كل دعوة إلى مشايعة أنصار بيدمنت وتعضيدهم، والذي اعتبر كل قاعدة غير الوحدة والاستقلال مروقاً وإلحاداً في مبادئ الوطنية ودين الحرية. . وليت شعري ماذا كان يضيره لو أنه عضد كل حركة تقرب البلاد من غايتها؛ على أنه لم يقف عند هذا الحد، بل لقد أخذ يدعو إلى الجمهورية ضد الملكية، جاعلاً بمسلكه هذا تلك المسألة الثانوية مقدمة على المسألة الرئيسية مما أضعف دعوته وزاد الناس إقبالاً على كافور وسياسته.

وكذلك أخذ كثير من الناس يعيبون على مازيني اتخاذه الثورات وسيلة إلى تحقيق آماله؛ وعابوا عليه أكثر من ذلك تدبيره مؤامرات الاغتيال، ولكنهم كانوا في ذلك يرمونه بتهمة هو منها براء، وقد رد مازيني على متهميه بأنه يرى الثورات ضد الغاصب المسلح وسيلة شرعية، أما الاغتيال فإنه يعده جريمة إذا أريد به الانتقام أو إذا أدى إلى القضاء على شخص لا يذهب الاستبداد معه إلى القبر؛ وكأنما كان يبرر اغتيال من يموت بموتهم الظلم؛ يتجلى ذلك في رده على اتهام كافور إياه بأنه يدبر مؤامرة لاغتيال الملك فكتور عمانويل، قال مازيني: (إن حياة الملك في مأمن وذلك لسببين أولهما أخذه بقواعد دستورية في حكمه، وثانيهما أنه ليس ثمة من جدوى لهذه الجريمة).

على أن مازيني لم يعبأ بما يقول مخالفوه وما فتئ يترقب الفرص لإثارة الثورات من جديد؛

وما لبث أن جاءته الأنباء عام 1852 عن ثورة تدبر في ميلان ضد النمسا بين صفوف العمال وكان في هؤلاء كثير من شيعته، فخف إليهم متنكراً حتى صار على مقربة منهم، ولكن ثورتهم كان نصيبها الفشل السريع، فاضطر الزعيم إلى العودة إلى إنجلترا وفي نفسه من الألم والحزن والشعور بالخجل ما جاء عبأ جديداً فوق أعبائه؛ ولقد حملت عليه صحافة بيدمنت حملات عنيفة وحملته مسؤولية هذه الحوادث وما ذهب فيها من ضحايا، فازداد بذلك حنقه على الملكيين وتوالت حملاته هو أيضاً على خطتهم وعلى زعيمهم. وظل في إنجلترا يتربص ويتصل بشيعته في وسط إيطاليا وشمالها؛ وقد عقد النية على بعث ثورة كبرى في الوسط والشمال تكون أبلغ رد على الملكيين، وتكون قائمة على أساس وحدة إيطاليا وطرد النمسا وإقامة الحكم الجمهوري في إيطاليا الموحدة؛ واتصلت أسباب المودة بينه وبين قنصل أمريكا في لندن ومناه القنصل بمعونة حكومته أن كان من أكبر دعاة الديموقراطية في أوربا.

وذهب مازيني عام 1854 متنكراً إلى باريس ثم إلى إيطاليا حيث كان يلتقي سراً بأنصاره ويوحي إليهم من خططه ما يوحي، وكان يقضي أكثر وقته في جنوة، وكان تنكره يحير الشرطة ويزعجهم، وهو في الحق يعد من أغرب نواحي كفاح ذلك الرجل الذي قضى في الجهاد إلى ذلك الوقت أكثر من ثلاثين عاماً بين اغتراب وسجن اختياري وتنكر، فما صرفه هذا العذاب عن وجهته وما قعد به الجهد عن غايته، الأمر الذي يكفي وحده لأن يسلك هذا الرجل العظيم في سلك أكبر زعماء الحرية في جميع العصور ويلحقه بالشهداء والقديسين الذين وهبوا أرواحهم لخير الإنسانية.

وبينما كان مازيني يعد العدة لثورته الجديدة كان كافور يمشي إلى غايته بخطى حكيمة تضعه هو أيضاً في صف أعاظم الساسة في تاريخ الأمم؛ انتهت إلى كافور رياسة الحكومة في بيدمنت عام 1852 فجعل أولى خطاه إصلاح مرافق الولاية والنهوض بماليتها وبناء قوتها الحربية على أساس متين، ولما تم له ذلك على خير ما يرجى أخذ يخطو خطاه السياسية وكانت تتجه إلى مكافحة النمسا بالأساليب الدبلوماسية أولاً ثم بالحرب آخر الأمر؛ على أن يكون بدء الحرب من جانب النمسا فتكون هي المعتدية، ويعتبر مسير كافور إلى غايته من أجمل وأقوى الحركات في تاريخ السياسة الدولية.

بدأ أولاً بالتدخل في جانب المضطهدين السياسيين في لمبارديا وفينشيا الذين صادرت النمسا أملاكهم عام 1853، فجعل بيدمنت في ذلك زعيمة المضطهدين في إيطاليا، فولى الأحرار شطرها وجوههم؛ ثم واتته الفرصة في حرب القرم فأرسل جيوش بيدمنت لمساعدة قضية الحلفاء ضد الروسيا، فلما عقد مؤتمر الصلح في باريس عام 1856، كان لبيدمنت مقعد فيه وهي مزية سياسية لها مغزاها بالنسبة لنفوذ النمسا؛ وشكا كافور إلى رجال المؤتمر وقد كسب مودتهم بمساعدته قضيتهم من مسلك النمسا في إيطاليا فهيأ بذلك الجو الصالح لخطواته في المستقبل.

واتجه كافور بعدها إلى فرنسا، ومال إلى محالفة نابليون الثالث، وكان نابليون يعطف على حركة إيطاليا إذ كان يرى نفسه وريث مبادئ سميه العظيم، كما كان يطمع أن ينقض ما وضعه الساسة عام 1815 عقب هزيمة بونابرت؛ لذلك اتفق كافور ونابليون سراً في بلومبير عام 1858 على أن يساعده نابليون ضد النمسا نظير أن تضم مقاطعة سافوي إلى فرنسا.

وأوحى كافور إلى الملك في بيدمنت أن يستفز النمسا، فكان مما جاء في خطاب

العرش الذي ألقاه فكتور عمانويل في تلك السنة: (إننا مع احترامنا جميع المعاهدات لا يمكن أن نصم آذاننا عن صيحات الألم التي تنبعث إلينا من نواح كثيرة في إيطاليا)؛ وسرعان ما توجه الأحرار إلى بيدمنت بآمالهم في انتظار ساعة الخلاص على يديها. هكذا كسب كافور حليفة قوية وكسب الرأي العام في إيطاليا وبقي أن تعلن النمسا عليه الحرب ليتم رسالته؛ وكان كافور يستعجل هذه الحرب! إذ كان يعلم أن نابليون رجل قلب كثير الأهواء والنزعات، فكان يخشى أن يتخلى عنه؛ وكانت الحكمة تقضي على النمسا أن تتريث حتى ينقضي ما بين كافور ونابليون؛ ولكن رأي الحزب الداعي إلى الحرب فيها تغلب على أولى الحكمة فأعلنت الحرب واحتلت جنودها بيدمنت. ومشت جنود بيدمنت وفرنسا فأوقعت بالنمسا هزائم متلاحقة كانت كبراها في سلفرينو؛ ورأى كافور والفرح يملأ فؤاده أنه من النصر النهائي على قاب قوسين؛ فما هي إلا أيام ثم تطرد النمسا من إيطاليا؛ ولكن شد ما أزعجه وآلم أن يرى نابليون يخذله على حين غفلة فيعقد الصلح مع النمسا في فلافرنكا في يوليو عام 1859. حنق مازيني على كافور أشد الحنق لانضمامه إلى نابليون؛ إذ كان الزعيم لا يؤمن بغير قوة الشعب، ويخشى كما خشي في أول سني جهاده من الاعتماد على قوة خارجية قد يأتي من جانبها الخذلان بدل النصر؛ وكان الخصام قد بلغ أشده بينه وبين كافور منذ عام 1857، ففي تلك السنة فكر كافور في بعث ثورة في مودنيا وقابل مازيني شخصياً في جنوة لهذا الغرض، ووعده مازيني بالمساعدة؛ وفي العام التالي رأى مازيني أن تكون الثورة في الجنوب أيضاً في صقلية ونابلي، وكان قد أعد عدته لذلك؛ ولكن الحكومة في بيدمنت أساءت فهم أغراض الثوار في جنوة فحسبتهم يعملون لإقامة الجمهورية وإسقاط الملكية، فشتت شملهم وأصدرت ضد مازيني ونفر من أصحابه حكماً غيابياً بالإعدام.

ولما خذل نابليون كافور استقال هذا من منصبه؛ فجاء مازيني إلى إيطاليا وإنه ليرجو أن يبعث الثورات الشعبية في ولايات الوسط والجنوب عسى أن يصل بها إلى تحقيق ما عجز الزعيم السياسي عن تحقيقه، واختفى الزعيم الشعبي الكبير عند حاكم تسكانيا من ولايات الوسط، فقد كان هذا الحاكم يجله ويؤمن مثله بالوحدة وإن لم يأخذ إخذه في الاعتماد على الثورات؛ وحاول مازيني أن يضمه إلى رأيه فلم يفلح. وأخذ الزعيم في مخبأه يتصل بأعوانه ويحثهم على النضال؛ وكان يرمي إلى اكتساح الولايات البابوية أولاً ثم يسير منها الثوار إلى ولاية نابلي فيتم بذلك توحيد نصف إيطاليا الجنوبي؛ وكان كافور بينه وبين نفسه يعطف على هذه الحركة ويتمنى نجاحها لتكون أجمل رد على النمسا وفرنسا؛ وفرح أن يسمع عن مازيني أنه يدعو إلى ترك الخلاف الحزبي والعمل للوحدة فحسب، بل لقد كان لا يرفض يومئذ ضم الولايات الجنوبية إلى بيدمنت.

ولكن حاكم تسكانيا خاف من بقاء مازيني مختبئاً عنده، ففي تهديد ولايات البابا ما يدعو إلى تدخل النمسا، ولذلك طلب إلى مازيني أن يرحل فلم يسعه إلا الطاعة، وخرج وإنه ليأسف الأسف كله أن يعامل هذه المعاملة من بني وطنه وأن يكون في إيطاليا سجيناً وهو ما يجاهد هذا الجهاد الهائل إلا من أجلها، ولكنه تعود الألم وألف الصبر في هاتيك السنين الطويلة؛ واتخذ الزعيم سبيله إلى إنجلترا من جديد. ومتى يهدأ هذا الثائر المجاهد؟ إنه لن يعرف الهدوء حتى تتحقق آماله أو يموت، ذلك ما عقد النية عليه من أول الأمر، وذلك ما درجت عليه نفسه الحرة وصمد له قلبه الكبير.

وعاد كافور إلى الحكم واتجه صوب فرنسا من جديد وقدم نيس وسافوي إلى نابليون ليكون ظهيراً له مرة أخرى؛ ولقد حنق مازيني وغاريبلدي على ذلك أشد الحنق. على أن مازيني أخذ من جديد يفكر في بعث ثورة في الجنوب يؤيدها كافور، وصرف إلى ذلك همه وما زال بغاريبلدي حتى حمله أن يسير هو والبواسل الألف من رجاله إلى صقلية، وقد جاء مازيني إلى إيطاليا متنكراً ليكون على مقربة من الأبطال المجاهدين، وحل بجنوة وأقام بها في مخبأ لا يراه أنصاره فيه إلا تحت ستار الليل، وراح يمد غاريبلدي ورجاله بكل ما يصل إلى يده من المال؛ وحالف النصر غاريبلدي فعبر من صقلية إلى نابلي، وطرب الأحرار في إيطاليا كلها لهذه الحركة العجيبة تأتي على يد ذلك البطل العظيم؛ وانتعشت آمال مازيني وذهب إلى نابلي ليستحث المقاتلين وكانت

قد سقطت تلك المدينة في يدهم، وأخذ كافور يترقب في حذر على عادته ويخشى أن يعتدي غاريبلدي وجنوده على أملاك البابا فتتدخل أوربا، ولكنه ما لبث أن وجد الفرصة المرجوة فأرسل جيشاً دخل أراضي البابا، ثم تقدم فكتور عمانويل على رأس جيش فدخل نابلي وقابله غاريبلدي وقدم له الطاعة؛ ورأى الأحرار أن الوحدة المرجوة أوشكت أن تتم.

ولما صار مازيني على مقربة من النصر أخذ ينادي بمبادئه الجمهورية من جديد فأدى هذا إلى حنق كثير من الناس عليه حتى لقد ألقيت قنبلة في نابلي تحت نافذة مسكنه، وطلب إليه أصدقاؤه ففعل بعد احتجاج شديد وعاد إلى إنجلترا في نهاية ذلك العام 1860؛ ولكنه عاد هذه المرة مسروراً بما تم تحقيقه من آماله، تطيب نفسه بما يحسه من شعور الناس جميعاً نحوه حتى الملك فقد قال حينما طلب إليه الخروج: (دعوا مازيني حيث هو؛ إذا نحن عجزنا عن بناء إيطاليا فليبنها هو، ويومئذ أكون أول المصفقين له) وإن الملك ليشعر في قرارة نفسه أن ما تم بناؤه حتى ذلك اليوم من هذا الصرح إنما قام أكثره على كاهل ذلك المجاهد الصبور.

لم يبق إلا روما وفينسيا كي تتم الوحدة؛ وذلك ما كان يشغل مازيني بعد عودته إلى لندن. وكان لابد من حرب ضد النمسا كي تضم فينسيا، أما روما فقد كانت بها حامية فرنسية وقد تعهد فكتور عمانويل ألا يمسها بسوء بعد أن رفضت الانضمام إلى بيدمنت.

ولم يكن مازيني بالرجل الذي ينتظر ما عسى أن تفعل حكومة بيدمنت، ولذلك جعل يتصل

بغاريبلدي لكي يحل العقدة أو يقطعها. وقد آلمه موت كافور عام 1861 على الرغم مما كان بينهما من خلاف.

وفي سنة 1862 هجم غاريبلدي ورجاله على روما فردته جنود عمانويل وأصيب البطل في هذا الهجوم بجرح بالغ على يد رجل من بني وطنه. وكان مازيني قد حضر إلى لوجانو ليكون على مقربة من هذا الجهاد الجديد، ولقد آلمه ما حل بغاريبلدي وبخاصة عندما علم بإلقاء القبض عليه وسجنه، فراح يندد بالملك وحكومته في حماسة وسخيمة لم يسع الملك إزاءها إلا أن يصدر حكم الإعدام عليه للمرة الثالثة.

ولما فشلت حملة غاريبلدي، عاد مازيني إلى إنجلترا، وكان يومئذ في الثامنة والخمسين، إلا أنه كان لطول ما أبلى وناضل يبدو أكبر سناً. على أنه لم يفقد شيئاً من حميته، وظلت له حرارة قلبه وقوة روحه وحماسة عبارته وسحر نظرته؛ وعاودته الفاقة في غربته، ولكنه ازداد أنصاراً ومحبين. وكان يؤلم نفسه أن يرى عمره يتصرم دون أن يستطيع أن يجعل للأدب ما أراد من خدمة. وكان في تلك السنين يتتبع أخبار الحرب الأهلية في أمريكا، واتصل بجماعة التحرير الإنكليزية في لندن. وكان يبدي إعجابه ببطولة الرئيس لنكولن وجهاده في سبيل الوحدة والتحرير ويتمنى لو كان له مثل ما كان لذلك الرئيس العظيم من النفوذ الرسمي. ولما اغتيل الرئيس لنكولن حزن عليه مازيني أشد الحزن، ولكنه كان يرى الفرق بينهما جلياً، إذ لو حضره الموت الآن لمات قبل أن يرى وحدة بلاده، ولم ينعم بها ساعة كما نعم لنكولن قبل موته.

وحاول ملك بيدمنت أن يستعين بمازيني على بعث ثورة في فنسيا وفاوضه فعلاً في هذا، ولكنه عاد فتركه أمام اعتراض رجال حكومته. وفي سنة 1866 أعلنت حكومة بيدمنت الحرب ضد النمسا منتهزة فرصة انشغالها أمام ألمانيا، ولكن جيوش بيدمنت هزمت في البر والبحر هزائم كانت مخزية للملك ورجال حكومته، ولقد أدت هذه الهزائم إلى نشاط دعوة مازيني من جديد إلى الجمهورية، ولقد لقي في تلك الظروف من الآذان الصاغية إليه أكثر مما لقي من قبل؛ والحق لقد أصبح هذا الأعزل الشيخ رجل إيطاليا كلها. وأي رجل يبلغ منزلته وله من جهاده في سبيلها زهاء أربعين عاماً لم يعرف خلالها إلا الغربة والفاقة والعذاب الشديد؟ إن مخالفيه في الرأي ومؤيديه جميعاً ليرون فيه الروح الذي علم الجيل

وأوحى إليه الإيمان والفداء. وهاهي ذي العرائض عليها أكثر من أربعين ألف توقيع ترفع إلى الملك بطلب العفو عن الغريب المجاهد كيلا يغمض عينيه إغماض الأبد في بلد غير إيطاليا التي وهبها حياته، وهاهي ذي ولاية مسينا تختاره أربع مرات متتالية ليمثلها في برلمان إيطاليا كلما أبطلت الحكومة انتخابه عادت الولاية فاختارته.

وبقيت روما لتتم الوحدة وكان قد عاد غاريبلدي عام 1867 بهجوم عليها ولكن الحامية الفرنسية انتصرت عليه فردته عنها. على أن مازيني كان يرجو أن تعلن روما الجمهورية فتكون عاصمة إيطاليا الجمهورية؛ وقد عاد ينشر مبادئه الجمهورية ويأمل أن يبعث آخر ثورة في البلاد تكون هذه المرة ضد ملكية بيدمنت وتكون غايتها إقامة الحكم الجمهوري؛ وقد اتصل مازيني برجل ألمانيا بسمارك ورجا منه المساعدة فماطله بسمارك ثم انقطعت الصلة بينها.

وفي سنة 1870 رحل إلى صقلية ليبدأ الثورة فيها على الرغم من توسل بعض أصدقائه إليه ألا يفعل، وهناك ألقي القبض عليه في بالرمو حيث سيق إلى السجن في جيتا؛ ودخل السجن الزعيم الشيخ وبود حراسة لو لم ينط بهم حبسه. أنظر إلى حارس السجن كيف يدير المفتاح في مدة ثلاث دقائق حتى لا يسمع الزعيم أنه يغلق الباب عليه. . .

ولبث في السجن بضعة أسابيع يقرأ شكسبير وبيرون، ثم أفرج عنه عقب سقوط روما في تلك السنة في بيدمنت وأصدر الملك عفوه عنه ولكنه رفض أن يقبله؛ وشهد الزعيم في أواخر أيامه وحدة إيطاليا، ولكنه كان لا يفتأ يعمل للجمهورية!

وقضى سنتين متنقلاً بين بعض البلاد تحت اسم مستعار حيث زار قبور الشهداء من رجاله وحج إلى قبر أمه في جنوة. وفي مارس من عام 1872 سكت هذا القلب الكبير وانطوت هذه الحياة الحافلة بالجهاد المرير الطويل، وبكت إيطاليا كلها الرجل الذي ظل حتى آخر عمره يكدح ويلاقي صنوف العذاب من أجلها.

(تم البحث)

الخفيف

رمَاد. . .

للأستاذ محمود محمد شاكر

لا تَعْبَثي بفؤادِي ... وأَكْرِمي آلامِي
شَبَبْتِ في القلب ناراً ... من لَوْعةٍ وهُيَام
أضْللتِني عن حَياتِي ... بِلَذْعةٍ واحتِدام
فما أخافُ وَرَائي ... غَيْباً، أراهُ أمامي
أرتابُ حَتَّى أرانِي ... في حَيْرةٍ وظَلاَم
في مَهْمَهٍ من شكوك ... قَفْرٍ من الأعلام
لا أهتدِي لِنَجَاةٍ ... في أُفْقِهِ المُتَرَامي
اسوَدَّ ليْلِي وصُبحي ... مُلفَّفٌ في قَتَام
فلا أرى من دَليلٍ ... يَهْدِي خُطَى أقدامي
صَحِبتُ نفسي، ونفسي ... من صُحبَتي في اضطرام
كأننا في زِحام ... يَرمي بنا في زِحام
مجَرَّحيْن كُلُوماً ... من صَدْمةٍ ولِطام
حتى أُبِيدَتْ قُوَانا ... فنحنُ صَرْعَى مُدَام
ثم استفقتُ فطارتْ ... لَوَاهِبُ في عظامي
قلبي ورُوحي وعَيْني ... - وكلهن ظَوَامي -
لا يَهْتَدِينَ لِبَرْقٍ ... مُبَشِّرٍ بِرِهام
ولا لِنُطْفَةِ ماءٍ ... تَبُلُّ حَرَّ أُوَام
وعُدْتُ فرْداً وحيداً ... يَجُوب غَوْلَ المَوَامي
حَيرانُ أعمى عَجولٌ ... مُصَوَّرٌ من سَقَام
يكادُ يعثُرُ وَهْناً ... بنفسِه في القِيام
تخطَّفَتْهُ شكوكٌ ... جياشةٌ كالصِّرام
لمْ تُبْقِ إلاّ حُطاماً ... يَنْقَضُّ فوقّ حطام
تستقبلُ الأذْنُ منه ... حسّاً كميْتِ الكلام
تخالُه من فُتُورٍ ... مَناحَةُ الأيتام
مُفزَّعِينَ وُجُوماً ... يبكونَ فوقَ رِجَام
يا مَاثِلاً لعُيونِي ... وطائفاً في منامي
وسابحاً في سُكُوتِي ... وسارباً في كلامي

وحاسِراً عن فؤاد ... صَبٍّ فضُولَ اللِّثام
أفْنَى شَكاتي، وأَوْدى ... بِعَتْبِهِ ومَلامي
ما كنتُ أحسبُ دَلاًّ ... يَسيلُ سَيْلَ انتقام
أو أنَّ سُكْرَ شبابٍ ... يحورُ سُكْرَ عُرَام
يَقسُو فيرمي بسهمٍ ... مَهْدَ الجُرُوح الدوامي
أحببتُ مِلْءَ فؤادي ... ومِلؤُهُ أوهامي
حتَّى وجَدْتُ كأني ... أعيشُ منْ أحلامي
ملأتِ دُنيايَ نوراً ... يُضيءُ دُنيا الأنام
فكلَّ مَرْأى عليه ... حَلاوَةٌ من وَسام
يَغْذُوهُ نورُكِ حُسناً ... حيّاً كصَوْبِ الغَمام
فما ترى العينُ إلاّ ... زَهْراً على أكمام
أنفاسهُ عَطِراتٌ ... نشوَى بغير مُدَام
ممثَّلاتٌ لرُوحِي ... مُعَرْبِدَاتَ القَوَام
أُصْغِي، إخالُ، كأني ... أُصْغِي إلى أنغام
تدنو فأدنو، فتفنَى ... أنغامُها في ظَلام
وتارةً هي هَمْسٌ ... كلمحَةٍ من سَلاَم
كأنها في ضميري ... تُسِرُّ بعضَ الغَرام
أو يستطيرُ سَنَاها ... في القلب ضوَء ابتسام
أوَّاهُ من خَطَراتٍ ... تقودُني بزِمام
لا تملكُ النَّفس منها ... إلاّ رمادَ الكَلام
قد كان جَمْراً فنامتْ ... أيقاظُهُ في النِّيام
واستيقظتْ لي هُمُومٌ ... حياتُها من خِصام
أفننتْ شبابَ خيالِي ... وعيَّثَتْ في نِظامي
حتى رأيتُ الليالي ... تطوفُ في أيامي
محمود محمد شاكر
أنا والبحر
للأستاذ خليل شيبوب
أيُّها البحرُ رَجِّعِ الأحلاما ... مثلَ ترجيعِ موجِك الأنغاما
في ظلام الدُّجى تبثُّ شكاوا ... كَ الحزيناتِ تستثيرُ الظلاما
غير أن النِّيامَ لم يسمعوها ... إيهِ ليتَ النيامَ ظلُّوا نياما
ليس فيهم سوى الأذى لمحبٍّ ... موجعِ القلبِ لا يُطيقُ مَناما
في فؤادي موجٌ كموجكَ يبكي ... بدموع الألحانِ تجري انسجاما
ظلماتٌ من فوقها ظلماتٌ ... في فؤادي دَوِيها يَتَرامى
لا تهُم الصخور شكواكَ تَرويها ... كشكوايَ لا تهُمُّ الأناما
نحن إلفانِ ساهران ولكنْ ... ثُرْتَ ماءً وثارَ قلبي ضَراما
إن شكواكَ حالةٌ ثم تمضي ... لا كشكوايَ من شقاءٍ أقاما
أنتَ تصفو حيناً وتهتاجُ حيناً ... وحياتي ما تَستَقِرُّ احتداما
لكّ هذي الآفاقُ تمرحُ فيها ... وفؤادي في الصدر جُنَّ اكتتاما
وإليكَ الأقمارُ ترنو ولكنْ ... كلُّ من قد أحبَبتُ عني تعامى
لك بأسٌ يغادرُ الريحَ صرعى ... لا كضَعفي يصارعُ الآلاما
ويوالي النسيمُ تقبيلَ أمواٍ ... جكَ منشورةً تُرَاحُ جماما
ويوالي الغرامُ نَفْسيَ تعذي ... باً ويُغري السقامَ بي والجِماما
وبقلبي كما بقلبكَ دُرٌّ ... أنْبَتَتهُ الحياةُ خيراً لَزاما
وكِلانا ضَمَّتْ قَراراته الهوْ ... لَ وراعتْ أسرارُها الأفهاما
واصِليني أو قاطِعيني سِيَّا ... نِ إذا كنتُ لا أرومُ مَراما
حبَّذا هجرُك الطويلُ إلى نفـ ... ـسي ويا ليتَهُ يدومُ دَواما
إن في لذَّةِ الوصالِ شكوكاً ... قد أحالتْه عَلقماً وسِماما
لستُ أخشى إلا الشكوكَ التي بي ... كالأعاصيرِ تَكْسحُ الآجاما

ليتني لا أحنُّ وجداً ولا أش ... تاقُ تلكَ العهودَ والأيَّاما
كيفَ لي بالحياة من بعد ما أص ... بحَ يُقْذِي الجمالُ عيني ابتساما
سَوْأةً للحياةِ ما كان أغنا ... نِيَ عنها لو استطعتُ انعداما
وأقولُ الزمانُ يُصلِحُ قلبي ... ويداوي الجِراحَ والأسقاما
وعليَّ الصبرُ الجميلُ لذا رُح ... تُ أعدُّ الشهورَ والأعواما
غير أني أزيدُ يأساً على يأ ... سٍ وأستنجدُ الرَّدى استرحاما
خجِلاً من عواطفي غاضباً كي ... ف أراني معذَّباً مُستضاما
مستلِذّاً ما بي أغالط نفسي ... مُستطارَ النهى رضىً ومَلاما
أيها البحر هاجني نغَمٌ كِد ... تَ به توقظ الصخورَ النياما
أبديٌّ تصغِي إليه الدراري ... رانياتٍ ترُدُّ عنكَ الظلاما
حَمَلَتهُ الأنسامُ فالتفَّ بالمو ... ج يُعاصي الأمواجَ والأنساما
أيها البحرُ ثُرْ وَرُقْ واصفُ واكدُرْ ... قد رَضينا حياتَنا استسلاما
(الإسكندرية)
خليل شيبوب
رسالة الفن
دراسات في الفن
آلو. . . الدكتور عزام؟!
للأستاذ عزيز أحمد فهمي
- يا للنهار! مالك أنت والغناء؟ لك ساعة وأنت تعوي وتنهق بأكره الصوت جادا مجتهداً كأنما تجرب إذاعة لهذا المساء؟ هل زيفت نفسك على ماركوني وألقيت في روعه أنك موسيقي مغن مطرب ملحن؟ أما إذا كنت فعلتها فهي كبرى المصائب، ونكبة النكبات.
- إني لم أفعلها إلى الآن. ولكني أعد نفسي لها، وهي من غير شك أربح الأشغال في هذه الأيام. فقد وصل سعر اللحن عند ماركوني إلى مائة جنيه، ينفق عليه منها عشرة على الأكثر يأخذها تخت كامل وفوق الكامل. ثقي أني سأبدأ العمل وثقي أني أعرف طرق النجاح فيه.
- قل شيئاً غير هذا، وامح علامات الجد هذه من على وجهك فقد كدت أصدقك. . . أمجنون؟!
- سترين أني عاقل عندما تسمعين مصطفى بك رضا بنفسه يقدمني للجمهور من خلال الميكروفون وهو يقول: (آنساتي سيداتي سادتي. أقدم لكم الآن بكل فخر كوكب الإذاعة الجديد الموسيقار العبقري البروفيسور عزيز فهمي في أغنيته الأولى (التختروان) وهي من تأليفه وتلحينه. . . على تخت مكون من كبار رجال الفن).
- وما الذي يمنعك ما دمت واثقاً أن هذا ممكن؟
- لا شيء يمنعني. وإنما كانت الفكرة غائبة.
- وقد جاءت الفكرة وستنفذها. أليس كذلك؟ قل لي الآن بم ستبدأ.
- بالشعر. . . صحيح أني لست شاعراً ولكني أعرف من العروض وأوزان الشعر ما أستطيع به أن أنظم الكلام. ثم إني أعرف الكلام الذي يحبه الجمهور وليس علي أكثر من أن أرصه في النظم رصّاً وهو لا يعدو (النوح والدوح)، والأغاني والأماني، والدموع والخضوع، والغزل والأمل) وسائر هذه الألفاظ التي يقولها القمر للأستاذ أحمد رامي وهو
نائم تحت السرير في الغرفة الغربية المطلة على الحقول من منزله في حدائق القبة. . . فإذا ما انتهيت من القصيدة شعراً بدأت في تلحينها، وهذا شيء أيسر من الشعر، وهو لا يكلفني أكثر من مراجعة ألحان سيد درويش وبعض الألحان الشرقية والغربية مما لم يسمعه الجمهور أو مما قد سمعه، وآخذ لكل شطر أو لكل بيت من أغنيتي لحناً من هذه لألحان، فإذا لاحظت في هذا الترقيع أن يكون منسجماً يمشي بعضه مع بعضه من ير تنافر فإني قد جئت بما لم يجيء به الأستاذ محمد عبد الوهاب نفسه، فنحن لا نزال نرى في مقطوعاته جميعاً التنافر ظاهراً بين أجزائها المجموعة من الشرق والرب. . . فماذا تريدين مني أكثر من التفوق على عبد الوهاب؟
- وبعد؟
- أتفق مع الأستاذ محمد القصبجي على أن يتعهد بمراجعة اللحن مع أفراد التخت

بخمسة جنيهات يأخذها ربحاً حلالاً على هذا، وعلى أن يعزف معي بعوده الممتاز في الإذاعة. . . وهو لن يرفض خمسة جنيهات حلالاً. . . وإذا أخذ الأستاذ إبراهيم العريان وهو سيد العازفين على القانون في مصر جنيهاً واحداً ليشترك معي في الإذاعة فإنه سيدعو لي ليلاً ونهاراً لأنه يقضي الشهور معطلاً لا يكد يدعوه أحد إلا زكريا أحمد الذي يعرف قدره وقدر فنه ولأن الباقين يتقونه خشية أستاذيته. . . وتبقى أربعة جنيهات بعد ذلك أوزعها على أفراد التخت، ولا شيء أخيراً إلا وليمة لرجال الصحافة وبعض الملق والمداهنة وأنا زميل لهم وأظن أنهم يجاملونني.

- طيب والغناء؟ أتغني بصوتك هذا نفسه؟

- ولم لا؟ أليس صوتي أرخم من صوت الأستاذين حسين المليجي وحامد مرسي؟ وما دامت الصحافة ستقول هي وماركوني إني مفن ممتاز عبقري، فلا بد أن يصدق الناس أني كذلك. . . والحق أني كذلك. . .

- تريد أن يجوز هذا عليّ أنا أيضاً؟

- الفنان الحق يا آنستي لابد أن يؤمن بفنه قبل أن يؤمن به الناس. . .

- يا عينك! ولكنك لم تقل لي كيف تستطيع اجتياز العقبة الأولى وهي إقناع مصطفى بك رضا بأنك فنان. . .

- هذه أهون الهينات. . . وهي بيد الدكتور عبد الوهاب عزام الذي لا يزال يذكر أني تلميذه، والذي يعطف عليّ فيما يبدو لي، والذي أعتقد أنه لا يتأخر عن مساعدة رشيقة كهذه. .

- وما للدكتور عزام الأستاذ في الجامعة والذي يكتب عن رحلاته في الشرق والغرب، وهذه (الألعوبة) أو (الألعبانة) التي تريد أن ترتكبها. . .

- الرجل رجل طيب، فذا التصقت به لم يجرؤ على طردي لأنه حيّ خجول، ولأني سأذكره بالحكمة لتي تقول: (من علمني حرفاً صرت له ضيفاً) وقد علمني هو اللغة الإيرانية كلها. . . ولدكتور عزام قريب صاحب المعالي عبد الرحمن عزام بك وزير الأوقاف، والأستاذ مصطفى بك رضا موظف في وزارة الأوقاف فإذا رآني حول الوزير مرة أو مرتين أصبحت عنده شيئاً مذكوراً. . . فإذا دعوته يوماً إلى سماعي ونبهته إلى أن الدكتور عزام سيسمعني معه خف إليّ كالبرق الخاطف حباً في مجالسة الناس الطيبين، فإذا لبى الدعوة هؤلاء الناس الطيبون الذين من عادتهم ن يجبروا خواطر الناس، بدأ الإيمان بي وبفني يدخل نفس ماركوني، فإذا جاملني أحد الناس الطيبين (بآه) أو (بأحسنت) كان هذا مستنداً لي على أني فنان مقتدر. . . فإذا قلت عن نفسي بعد ذلك بأني عبقري وأني نابغة العصر والأوان زيادة على أني شاعر كبير ومثقف مطلع ومفكر عظيم فإني من غير شك واصل إلى الاتفاق الذي أرجوه. . .

- ولكن هذا كله لا يساعدك في شيء. . . فمصطفى بك رضا نفسه موسيقي، وهو نفسه حَكَمٌ في الفن لا يمكن التدليس عليه.

- قد يكون هذا حقاً، ولكن الرجل أعقل من أن يحكم بالفن وحده. . . فهو بلا شك يقيم إلى جانب الفن اعتبارات أخرى يستعينها في الحكم على الفنانين الذين يعملون في الإذاعة. . وإلا فكيف يسمح بالغناء لمن تعرفينهم من المغنين الذين لو استمعوا إلى أنفسهم لما رضوا أن يغنوا. . . ألا يذيع كثيرون من هؤلاء؟

- ولماذا يفعل هذا؟

- اسأليه. . . واعلمي أنه محسوب على السيدة نفيسة فهو تقي جداً وورع جداً ولا يمكن مطلقاً أن يقول غير الحق ولا أن يظهر غير ما يخفي. . . زيدي على ذلك أنه من أسرة كبيرة غنية، وأن له من الحسب والنسب ما يدرأ عنه كل شبهة. . . وإن كان فيه عيب فهو أنه رجل طيب. . . طيب جداً، سبحته لا تفارقه، وشفتاه لا تكفان عن التمتمة والتسبيح، ولعل ماركوني لم يأخذه إلا لأنه بركة. . .

- إذن فقد انتهى الأمر، وإني أوصيك بأن تبدأ. . .

- اسألي لي عن الدكتور عزام بالتليفون، فذا وجدته فقولي له: إن هيئة كبار العلماء ستتغدى عندك اليوم.

- وما لهيئة كبار العلماء هذه أيضاً؟

- هذا اسم كان يطلقه الدكتور عزام على فرقتنا التي كانت مؤلفة من ثلاثة. قال

الأستاذ أحمد أمين يوماً: إن كلية الآداب لم تر مثلهم ولن ترى مثلهم.
- في الجد والتحصيل؟
- لا. في العنف والكفاح والرجاء والإيمان. دعينا من هذه الذكريات. هل وجدت الدكتور؟
- لا. فلننتظر ساعة. والآن قل لي: لماذا اخترت أن يكون اسم أغنيتك (التختروان)؟
- أنا لم أختر هذا. وإنما هو الرد الطبيعي على أغنية (الجندول) التي غناها عبد الوهاب. (فالجندول) هذا مركب أوربي يسير في شوارع البندقية - وهي مياه - ولا يعرف هذا (الجندول) إلا فئة خاصة من المصريين؛ أما (التختروان) فيعرفه المصريون جميعاً والعرب جميعاً، لأنه (الهودج) الذي يوضع على ظهر الجمل فإذا كان (الجندول) الذي لا يعرفه المصريون قد أصبح أغنية فلا عجب في أن يتغنوا (بالتختروان)!
- ليس الذنب في (الجندول) ذنب عبد الوهاب، وإنما هو ذنب الأستاذ الشاعر علي محمود طه المهندس الذي زار البندقية وحدث له (الجندول) فيها فسجله شعراً، ولحنه عبد الوهاب.
- قد يغتفر للأستاذ الشاعر هذا الجندول ما دام قد حدث له ولكن لماذا يغنيه الأستاذ عبد الوهاب؟ وقد خلق الله له موهبة التقليد التي يأبى أن يستغلها.
- لم أسمع أن التقليد موهبة فنية لها مكانتها بين الفنون إلا الآن.
- هي موهبة من غير شك، وهي موهبة عبد الوهاب؛ وهي التي ظهرت فيه منذ طفولته، فقد كان وهو غلام يغني كل ما يسمعه ويوفق في تأديته خير التوفيق، حتى أن المرحوم الأستاذ عبد الرحمن رشدي أخذه معه، وأخذ يعرضه بين الفصول يغني للنظارة بعض أناشيد المرحوم الشيخ سلامة حجازي على ما فيها من قسوة وجبروت، فكان ينال إعجاب الناس، وسمعه بعد ذلك المرحوم أحمد شوقي بك فطرب له فاحتضنه وتبناه وقدمه لأصفيائه وللبيئة التي كان يعيش فيها وهي بيئة الأمراء والكبراء فكان عبد الوهاب يغنيهم من محفوظاته وكان عليهم ن يستحسنوا غناءه؛ فلما مات سيد درويش فوجئ الجمهور بعبد الوهاب الملحن الموسيقار، وكانت المفاجأة بالطريقة التي أريد أنا أن أفاجأ الجمهور بها ومنذ ذلك الحين بدأ عبد الوهاب يتعثر إذ عدل عن الموهبة التي خلقها الله له إلى ما لم يسمح الله له به. على أنه كان غالباً ما ينجح إذا غنى المواليا، ذلك أنها غناء مصري للقاهرة، فيه أسلوب خاص تأثر به عبد الوهاب كل التأثر منذ صباه، وقد سلمت بعض قصائده من التنافر والتخبط لكثرة ما غنى في ماضيه للمرحومين: الشيخ سلامة حجازي، والشيخ أبو العلا محمد؛ أما ما عدا ذلك من الأغاني، فعبد الوهاب يعاني الأمرين في غير شك في صوغه. وقد كان المرحوم شوقي بك يغربل له موسيقاه فلما مات لم يعد عبد الوهاب يسمح لأحد بأن يكون له في موسيقاه رأي إلا السجود لها ولا أقل.
- يا شيخ! لا تكن ظالماً.
- لست أظلمه. ولو أنصف عبد الوهاب لظل كما كان مغنياً يغني لغيره ممن يستطيعون التلحين، أو أن يكون مغنياً بلدياً كغيره من أولاد البلد الفنانين البارزين، وليس هذا عيباً، وليس فيه حطة، فالناس كلهم أو أغلبهم مجمعون على استحسانه في المواليا، وفي القصائد قبل أن يفرنجها. . . أليست (يا جارة الوادي) خيراً من (الجندول)؟ ولكنه أصيب بما في رأسه، وهو لا يريد مطلقاً أن يذكر الجمالية، ولا يأب الشعرية، ولا (حوانيت الترزية. . .) مع أنه أنفق حياته الأولى في هذه. . . وهو فنان، والفنان لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يغفل ماضيه. . . وإن حياة الفنان الأولى التي قضاها وهو بعيد كل البعد عن التفكير في مشاغل الدنيا وأرباحها وخسائره لهي المعين من الفن الذي لا ينصب. . . وإنها أصدق ما يمكن أن يبرزه من الفن، وأصفى ما يمكن أن يطالع به الناس من عواطفه وخلجات روحه. أليس كتاب (الأيام) هو أروع ما أخرجه الدكتور طه حسين بك. وأي شيء في كتاب (الأيام) غير قسط ظاهر من الصدق. . . إن الدكتور طه حسين قد تحول اليوم إلى إنسان آخر غير الطفل بطل الأيام. . . وهذا الإنسان الآخر له مجد وله مكانة وله شهرة، وله منصب وله رتبة، ومع هذا فالطفل (طه حسين) بطل الأيام أحلى من الدكتور طه حسين بك، والدكتور طه حسين بك نفسه يعترف بهذا فلا يهمل هذه المرحلة من حياته

. . .وإنما يكتبها وتخرج من بين يديه خير ما كتب
- . . .إذن فعلى عبد الوهاب أن يغني غناء بلدياً أو يقلد الشيخ سلامة حجازي وغيره
- من غير شك هذا هو خير ما يستطيعه عبد الوهاب، لأن أحلى ما فيه، ولأنه كان هكذا
. . .في طفولته. . . فهذا هو ما خلقه الله له لا ما اختاره هو لنفسه
- ولكن هذا الطريق لن يجدي عليه نفعاً كبيراً. . . فمن الذي يعطيه مائة جنيه في أغنية قديمة؟
- الرزق هذا شيء لا حيلة للإنسان فيه، وإنما حيلة الإنسان في عمله والله يعطي بعد ذلك من غير حساب. . . إن بيتهوفن وسيد درويش ماتا معدمين ولم يجمعا في حيتهما عشر معشار ما جمعه عبد الوهاب فهل هو أنصع منهما فناً؟. . . إن كرستوف كولمبس الذي عثر على أمريكا لم يمت إلا بعد أن استجدى في شوارع نابولي على ما أظن. . .
فالرزق شيء والعمل شيء. . . والفرقة القومية بدأت تفكر في تقديم الأوبرا والأوبريت، وعبد الوهاب من غير شك هو المغني الأول الذي أرشحه لها. . . فمن ذا الذي يستطيع أن يقنعه بقبول هذا العرض؟ . . .
- . . .يهديه الله
- سيهتدي عندما يراني أزاحمه، وعندما يجد معي سر نجاحه، وعندما يلحظ أني سأحسن استعمال هذا السر أكثر مما يحسنه.
- إذن. فأنت لا زلت مصراً.
- . . .من غير شك. . . اسألي عن الدكتور
عزيز أحمد فهمي

(الرسالة)
لا نظن كثيراً من النقاد يشاطرون الأستاذ عزيزاً رأيه في الأستاذ عبد الوهاب.

رسالة العلم
الهندسة وابن الهيثم قديماً وحديثاً
للدكتور محمد محمود غالي

أفاض المتكلمون وأبدعوا، وأخرجوا للعالم العربي ما في بطون الكتب من مآثر، لم نكن نُوليها انتباهاً، فلم يدعوا لي شيئاً بارزاً أذكره لابن الهيثم، ورسموا صوراً هي أقرب الصور إليه سجلوا فيها أعماله ومبلغ تحليله للمسائل وفهمه للأشياء. هذا هو ابن الهيثم، عالم طبيعي له مشاركة في الفلك والعلوم الرياضية والفلسفية وفضلاً عن ذلك نرى الهندسة تقترن باسمه، بل إن شهرته كمهندس غلبت على بقية صفاته، من ذلك ما ذكره القفطي في كتابه: (أخبار العلماء) من أنه الحسن بن الحسن بن الهيثم المهندس البصري، وأنه صاحب التصانيف والتآليف العديدة في علم الهندسة، وهو بعد ذلك يتحدث عنه في بقية الكلام كمهندس أكثر منه عالماً طبيعياً.

والواقع أن دراسة تحليلية لابن الهيثم لقمينة أن تضعه في صفوف علماء الطبيعة أكثر من أن تعده بين المهندسين، وإنما وصل إلى هذه النتيجة من أثره التجريبي لا من أثره في التأليف، ولكنا لا نجزم بهذا الرأي كنتيجة نهائية لبحثنا هذا. فتجاريبه في علم الضوء معروفة، وقد شرحها بمهارة زميلي الأستاذ مصطفى نظيف بك، ولا نزاع في أننا متفقون في التفريق بين الهندسة كجزء من علم الرياضة وبينها كمجموعة لأعمال فنية أو إنشائية. إنما يُعرف المهندس بآثاره الإنشائية أكثر من أثره في التأليف. فأمحوتب مهندس الملك زوسر بأني هرم سقارة، مهندس كشف عن استعمال (الطوبة) وهي تدعو للإعجاب؛ وكيف لا نعجب له حين عرف كيف يُكوِّن من اللَّبِن والحجارة أشكالاً منتظمة، أشكالاً ذات طول وعرض وارتفاع، فيها كل هندسة إقليدس وأكتنيوس ومساعده كليكراتس، عندما شيدا البارثينون أهم معبد فوق الأكروبول، وهو الذي تم تحت إشراف النحات المعروف فيدياس في عهد بركليس الذهبي، كانا مهندسين عظيمين، فإن عملهما الإنشائي لا يزال إلى اليوم جديراً بالتقدير؛ وجارنييه باني أوبرا باريس وإيفيل الذي شيد بها البرج المعروف مهندسان أحدهما في العمارة والثاني في الإنشاءات الحديدية وكلاهما باعث دهشة. تُرى هل كان لابن الهيثم من عمل إنشائي يضعه بين المهندسين الذين يذكرهم التاريخ؟ هذا ما لم يقم دليل عليه كما لم يقم دليل على بطلانه، ومع ذلك فهو صاحب كتاب العقود الذي لم نعثر عليه لنتبيّن غاية ما بلغه من التقدم في أعمال ما زالت أهم ما يقابل

المهندس عند تصميم القناطر والخزانات والأبنية الكبيرة.
ولسنا نغض بهذا من شأن ابن الهيثم كمهندس وهو الذي بين تصانيفه كتب عديدة تمت إلى علم الهندسة وتبحث في علم المساحة والتخطيط، وقد ذكر الكثير منها الدكتور مشرفة بك، وأضيف إلى ما ذكره كتاب العقود، وكتاب أصول المساحة، واستخراج أربعة خطوط، وحساب الخطين، وحلل الحساب الهندسي، ومسألته في المساحة وغيرها.
نرى هل خرج ابن الهيثم من مجال التأليف إلى مجال الإنشاء؟ يغلب على ظننا ذلك، وقد يدلنا التاريخ أو البحث يوماً عن آثار له في هذا، فإن شهرته كمهندس بلغت من الذيوع والانتشار ما جعل الحاكم صاحب مصر من العلويين يتوق إلى رؤيته، وقد نقل له عن ابن الهيثم أنه قال: (لو كنت في مصر لعملت في نيلها عملاً يحصل منه النفع في كل حالة من حالاته من زيادة ونقص، فقد بلغني أنه ينحدر من موضع عال وهو طرف الإقليم المصري) فازداد الحاكم شوقاً إليه وأرسل في طلبه ورغَّبَه في الحضور؛ فشدَّ ابن الهيثم رحاله إلى مصر ولما بلغها خرج الحاكم للقائه على باب القاهرة وأمر بإكرامه، وطالبه بما وعد به من أمر النيل؛ فسار ومعه جماعة من الصناع ليستعين بهم على ما خطر له، فلما جال الإقليم بطوله وتبين آثار الأقدمين، وهي تعد بدعة في الصناعة وآية في الهندسة، تحقق أن الذي يقصد إليه خارج عن طوقه، فإن من تقدموه لم يكن ليغيب عنهم على ما يعلم ولو أمكن لفعلوا، ففترت همته، ووهنت عزيمته، ووصل إلى موضوع الشلالات بعد أسوان وعاينه واختبره فوجد أنه يختلف عما كان قد فكر فيه، وتحقق الخطأ فيما وعد به واعتذر للحاكم.
وليست هذه الواقعة التي سردها بعض المؤلفين لتُقلل من شأن الرجل العالم الذي نحتفل بذكراه، ففي بناء هيكل المعرفة خطا ابن الهيثم المهندس البصري الخطوة الكبرى إلى الأمام، وكان ممن وضعوا حجراً أساسياً في العلوم نتوارثه جيلاً بعد جيل.
جيل يتلو جيلاً، جيل يتَصرَّم ويحل جيل، وطوى الزمن تسعمائة عام على هذا العالم، تغيَّر خلالها وجه الأرض، وحلت مدنية تختلف عما تقدمها من مدنيات، وعصر لا يشبه ما خلا
من عصور، وألفينا أنفسنا أمام صورة جديدة للفن الهندسي ارتبط بالتقدم العلمي ارتباطاً وثيقاً وتفرَّعت الهندسة في غير العمارة إلى هندسة آلية وكهربائية بل وموجية، وأثَّر هذا في مقدرتنا على العمل وأثرنا في الإنتاج، ولو أننا نظرنا إلى أحد هذه الفروع وإلى الهندسة الموجية لوجدنا أننا وصلنا إلى نتائج تستوجب النظر.
أولاً: في الانتشار الصوتي وعلى مَتنِ الأسلاك يستطيع أن يتخاطب بالتليفون مئات الأشخاص أو أكثر على سلك نحاسي واحد في وقت واحد، أمر يحدث اليوم بين العواصم الكبيرة. أذكر على سبيل المثال الخط بين لندرة وبرمنجهام، حيث يتكلم على سلكين للمخاطبات التليفونية وُضِعَ بجانبهما سلكان للتوسع المنتظر في استعمال التليفيزيون حوالي 350 شخصاً في آن واحد، ويفهم كل منهم أخاه دون أن تختلط هذه الأصوات العديدة. بل أرجع السامع إلى محاضرات فورتيسكيو أستاذ جامعة لندن عند زيارته لكلية الهندسة العام الماضي بدعوة من العميد، بل أحِيلُه إلى ظواهر يعرفها منذ عدة سنين كل الذين شغلوا أنفسهم في المختبرات بظاهرة الانتخاب في الظواهر الدورية.
ثانياً، في الانتشار الموجي والتبادل الضوئي الكهربائي استطاع الإنسان أن ينقل الصور الفوتوغرافية إلى مسافات بعيدة، دون استعمال الأسلاك، وكان تطبيق ذلك في نقل الرسائل في الصين بلغتهم المعروفة بحروفها العديدة مما يدعو للإعجاب، وهو الإعجاب الذي استولى على كل منا عندما طالعنا من أربعة أيام في الصحف كيف نقلت باللاسلكي الصور الفوتوغرافية للحوادث البحرية التي جرت في الأورجواي، وهي الحوادث الخاصة بالبارجة (فون شبيه) وكيف رأى البرلينيون صورها ولم يمر على أخذ الصور التي يبعد مكانها عنهم بنصف محيط الأرض إلا كسر ضئيل من الثانية.
ثالثاً: في الانتشار الكهربائي استطاع الإنسان بغير أسلاك أن يسمع الأصوات ويتكلم على مسافات بعيدة تبلغ محيط الأرض بل استطاع أخيراً أن يرى عن بعد الأشياء المتحركة كما لو كانت أمامه.
هذا ما حدث من الهندسة التطبيقية، ولقد كانت خطوات العلوم البحتة أوسع بكثير من

هذه، وجرى العلم الحديث شوطاً لم تستطع الهندسة التطبيقية أن تلاصقه فيه: ثمة اكتشافان عظيمان، النشاط الإشعاعي والتفتت الذري. تُرى ماذا سيحدثه الإنسان الدائب التفكير
الموفور الذكاء في أثرهما من تطبيقات تنشأ عنها مدنية تختلف عن مدنيتنا جدَّ الاختلاف بل تختلف عن كل ما عهدناه من مدنيات.
أو يصبح عصر الكمّ والنسبية والموجية الذي نعيش فيه بداية لعصر أعظم شأواً وأهم قدراً وأعجب في الحوادث؟
إنما يلزم لذلك أناس أذكياء تعودوا الإقامة في المختبرات والتردد على دور الكتب؛ هؤلاء الذين أسميهم أنصار الإنسان موجودون وموجودون دائماً.
عند ذلك يختلف العهد، وينظر اللاحقون لنا نظرة جيلنا لزمان ابن الهيثم. ومع ذلك وبعد الذي ذكرناه لا يجوز لنا أن نذهب في المبالغة شوطاً بعيداً لما حدث بعد عهده، فإن المواد ما زالت تُستعمل في عصرنا على النحو الذي عرفه ابن الهيثم، بل إن هندسة أقليدس القديمة ونظرياته الأربع والعشرين المعروفة التي كانت حجر الزاوية لكل معارفنا الحالية هي الهندسة ذاتها التي تعلمها ابن الهيثم وعرفها وجدد فيها ونقلها قوية مجددة للأجيال التي تلته.
إن الخط المستقيم والدائرة والمثلث وعلم الهندسة وعلم المساحة وما يتعلق بكل هذا من نظريات كان لازماً لنستمتع بما نستمتع به اليوم، وكان من اللازم وجود أمثال ابن الهيثم ليرى الإنسان بعده جاليليه ونيوتن وإلا صادف عصراً بدائياً لا يصلح للتجديد.
نعم إن المعارف القديمة لم تعد تقدم لنا صورة صحيحة لهذا الكون، وقد غدت لدينا صورة جديدة تغاير تلك الصورة البسيطة التي عللها لنا الأولون بقوانين بسيطة سواء في الميكانيكا أو الطبيعة ولا يزال الجامعيون يشهدون يوماً بعد يوم انقلابات في التفكير، ويقفون على أوصاف للكون أدق من صورته التي عهدناها حتى عصر ابن الهيثم، بل عصر جاليليه ونيوتن؛ فلا مادة بالمعنى القديم، بل إن المادة جسيمات صغيرة في حركة دائمة، وفي هذا الكون المتكون من هذه الدقائق المتحركة لا ضوء هناك ولا لون ولا صوت، وكل هذه مظاهر لا تختلف إلا بعدد في الذبذبات والتردد، والذي نسميه مادة أو ضوء ما هو إلا كهرباء، بل لا فارق بين الطاقة والمادة، ويمكن القول اليوم إنهما تمُتَّان إلى أصل واحد، بل إن المادة ذاتها كهرباء والكهرباء مادة.
أجل. إن قوانين هذا العالم المضطرب باتت تختلف وفق صورته الجديدة اختلافاً كبيراً عن
القوانين القديمة التي لم يظهر أنها صحيحة إلا لأنها متوسطات للقوانين الحقيقية للعالم، وقد تعدى هذا الاختلاف في فهمنا لظواهر العالم كل شيء، حتى إن القوانين العادية الخاصة بالزمن والحيز اللذين يحكمان العالم باتت تختلف عن التي تعلمناها في المدارس، والحيز الذي اعتدنا أن نتصور فيه طوبة أمحوتب هو حيز معوج، والمثلث الذي جرينا على اعتبار أن مجموع زواياه يساوي قائمتين هو في الواقع ليس كذلك، والخط الذي اعتدنا اعتباره مستقيماً يلتف من النهاية حول نفسه، والكون الذي اعتبرناه لا نهائياً هو في الحقيقة محدود، بل إن الزمن ذاته يحمل في طياته أغرب القضايا التي تفتقر إلى المعرفة والتعيين.
نعم قد حدث هذا كله، ووصلنا إلى نوع جديد من التفكير والتطور، ترى ماذا سيكون من أثر المعارف الجديدة في الإنسان القادم؟ ومع ذلك فإن هذا النوع من التفكير قد وصل به الإنسان إلى ما وصل إليه لأن البناء كان صالحاً، كل هذا ترتب على هذا النحو لأن المعرفة القديمة كانت عظيمة الأثر، ولأن ثمة رجالاً كابن الهيثم زرعوا فحصدنا ونزرع اليوم ليحصد الغير.
في كثير من المحاضرات نشيد بذكر العلماء الحديثين الذين يساهمون في تشييد صرح العلوم، وقد توجهنا فيما كتبنا هذا العام بمثل هذه التحية لكثير منهم أمثل بلانك وبيران ودي بروي، وجدير بنا ولا ريب أن نحيي في هذه القاعة أولئك الأعلام الذي وضعوا أساس الصرح. لهذا أتقدم في ختام هذه الكلمة بالتحية والإجلال لابن الهيثم، ولست أيأس من أن يقدره مجلس الجامعة قدره فيقرر إطلاق اسمه على إحدى درجات كلية العلوم.
لشد ما يتزايد الميراث العلمي، ولشد ما يشتغل أنصر الإنسان!

في مزاد للكتب كان في القاهرة هذا الأسبوع تصفَّحت الكراسة التي تحوي أسماء الكتب والمؤلفين فإذا بها ما يزيد على عشرين ألف مجلد في الأدب، إنما لفت نظري العدد الكبير من الأسفار للمؤلف الواحد، وقلت في نفسي: من أين الوقت لإخراج هذا الميراث، فلكليمنسو 11 مؤلفاً من هذه المكتبة الخاصة، ولديهامل 28، وللكاتب موروا 24 ولغيرهم الكثير؛ ولما رأيت أن لابن الهيثم ما يربو على السبعين سفراً، وأن من بينها ماله القيمة التي ذكرها إخواني، أدركت حقاً أننا بصدد عالم كبير جدير بهذا الاجتماع العظيم.

محمد محمود غالي

دكتوراه الدولة في العلوم الطبيعية من السوربون

ليسانس العلوم التعليمية. ليسانس العلوم الحرة. دبلوم المهندسخانة

القصص

الإغماء!. . .

أقصوصة مصرية

(مهداة إلى الأستاذ محمود بك تيمور)

بقلم الأستاذ خليل شيبوب

(بقية ما نشر في العدد الماضي)

زارتني سلمى مرة في مكتبي وطلبت مني أن أصطحبها إلى مكتب زوجها، ففعلت، ولما كنا في الشارع، علّقت يمناها بيسراي كأن ذلك طبيعي بيننا، ولم يظهر على وجهها أي استغراب لما فعلته، وصارت إذا جزنا عرض الشارع من رصيف إلى رصيف احتمت بي من السيارات المسرعة، وشدت بذراعها على ذراعي في حركة عصبية عنيفة.

وصرت أفكر طويلاً، هل بدر مني شيء يدل على رغبتي في استدراجها إلي، لأن سلوكها معي لم يعد يحتمل الشك في رغبتها في استدراجي إليها؟ ووقفت حائراً بين أن أفقد صديقين أحبهما حب الإخلاص الصحيح، وبين أن أخون صديقاً ألفته منذ الصبا وأحول صداقة فتاة عرفتها متدارية بثياب والدتها ووالدتي، إلى حب لا أقدر مداه ولا نتيجته.

وكانت كل هذه الأمور تجري وسلمى لم تحرك شفتها مرة واحدة بكلمة ملتوية، ولا تنهدت مرة واحدة في وجهي، ولا لمست مرة واحدة يدي لمسة تحتمل تفسيراً أو تأويلاً. ولكن سرعان ما زحمتني الحوادث وبعدت بي عن تلك الحياة الطيبة التي أذكرها اليوم والأسى يملأ صدري، والدمع يكاد يتفجر من مقلتي.

أجل خاطبتني سلمى بالتليفون تقول: ألا تشرب الشاي معنا اليوم فإني بانتظارك في الساعة الخامسة تماماً لعلنا نخرج في السادسة والنصف إلى السينما.

وإني اليوم بعد طول العهد لا أزال أراني نازلاً من العربة أما باب الحديقة سائراً في الممشى القصير إلى باب المنزل أقرعه قرعة تعرفها الخادمة فتخف إلى الباب تفتحه وأدخل إلى القاعة التي ألفت كل أثاث من مفروشاتها. فهذه مقاعدها المذهبة وحريرها الأحمر المجزع بالبياض، وهذه خزانة البلور التي حفلت بقطع النفائس التي يتأنق عزيز في اقتنائها، وهذه مائدة الرخام المستديرة عليها طاقة الورد الصناعي، وهذه الرسوم المعلقة التي أعرفها وتعرفني، وأحسن ما فيها صورة سلمى الزيتية متقنة كل الإتقان أم صورة عزيز ففيها سطور غامضة والنور منعكس عليها من فوق بينما وجب على الرسام أن يعكسه عن اليمين، وطالما تناقشنا في هذا الرسم وبحثنا في نظرية النور والمنظر. وهذا صندوق اللفائف مصنوعاً من الآبنوس الملبس بالأصداف أتناول منه واحدة أشعلها وأقف أمام النافذة المطلة على المحمودية أنظر مياهها الكدرة المتدفقة إذ كنا في أول سبتمبر وفيضان النيل على أشده.

نعم لا أزال أفكر في هذا كله كأني أراه الآن ماثلاً أمام عيني. ثم طال انتظاري فقرعت الجرس وجاءت الخادمة، فقلت لها: أين الجماعة؟. . . فأجابت: إن سيدتي ترتدي ثيابها، وأما الأستاذ فقد ذهب منذ هنيهة. ثم نظرت إلى الخادمة نظرة لم أرتح لها. وما هي إلا ثوان معدودة حتى جاءت سلمى يموج جسمه في دثار ياباني قد التفت

به حاسرة عن ذراعيها وصدرها. وقد صففت شعرها وعقصته بمشط لين العاج قد انتظمت على حافته حجارة مبرقة، وأصلحت من شأنها في كثير من الاختصار والانسجام. فما أن رأتني حتى مدت إليّ يدها مصافحة، وقالت وهي تبتسم عن مثل اللآلئ صفاء: عفواً لقد جرى ما لم يكن في حسابي، فإن عزيزاً قد استدعي فجأة لأمر هام وهو يأسف لأنه لا يعود قبل الساعة الثامنة. وقد أوصاني أن أحتبسك حتى عودته لنصل جلسة بعد الظهر بالسهرة. . .

ولم أجد رابة في هذا كله بل وجدته طبيعياً وقلت لها: لعلك لولا حضوري كنت تخرجين مساءً. قالت: لا وحقك إني متعبة فاجلس نثرثر قليلاً. . .

وأخذنا في حديث عن الفيضان والبعوض، وكانت سلمى تقول إنها لم تعد تطيق السكنى في هذا المنزل وإنها سوف تنتقل إلى ضاحية الرمل حيث أكثر الأصدقاء والمعارف، ثم اندفعت في امتداح ضاحية الرمل بينما كانت الخادمة تحضر مائدة الشاي، فأصبت كوباً منه وأكلت قطعة من الحلوى، وقدمت إلى سلمى لفافة من التبغ شرعت في تدخينها، وقد قامت وقعدت مراراً تستحضر إما منديلاً أو صحفة أو ملعقة، ورأيت في تثنيها شيئاً من التصنيع والارتباك، ثم نادت الخادمة وقالت لها: إنه يمكنها الانصراف على أن تكون في المنزل في حدود الساعة الثامنة.

وشدت سلمى ثوبها على جسمها، وقعدت بجانبي، فصور الثوب أعضاء جسمها تفصيلاً، وهبَّت منها رائحة عبقة تغلغلت في دماغي، ثم مدت ذراعها وألقتها على ظهر المقعد ورائي دون أن تمسني، ونظرت إليّ نظرة كدت أستريب منها وقالت: ما رأيك في كأس من الكونياك؟ ولم تتم كلمتها حتى وثبت إلى غرفة الطعام، وفتحت خزانة واستحضرت منها زجاجة وهي تقول: إن هذه الزجاجة تزعم أن هذا الكونياك كان شراب نابليون.

فضحكت وقلت: ونحن الآن نقلد نابليون بشربه.

وسكبت لي كأساً ومثلها لنفسها فشربنا وقد تذوقت الكأس وأعجبت بجودة الصنف فعلاً، أما هي فترشفت نصف كأسها، ثم سكبت لي الثانية.

وقد جرى هذا كله في سهولة وبساطة، وسلمى تقول: إن خياطتها أصبحت من الطمع بحيث صارت تفكر في استبدالها وقالت: إنها خاطت لها قميصاً من الحرير هو هذا الذي تلبسه - ثم كشفت دثارها عنه فإذا به يضم نهديها إلى ركبتيها في تموج غريب - وإنها تقاضت منها أجرة وكلفة لا يحتملها القميص.

وكنت تجرعت الكأس الثانية فسكبت لي كأساً ثالثة رفضتها رفضاً قاطعاً لكنها لم تصغ إليّ. ومضت في حديثها عن القميص بينما أخذت أتمصص الكأس، ثم وقفت أنظر إليها مصغياً إلى حديثها أقول: أنتن السيدات لا تعرفن اهتماماً إلا بهذه الخرق الحريرية. . .

فقالت: ألا يعجبك حرير هذا القميص. فابتسمت، فإذا بها واقفة حيالي فاترة العينين ملتهبة الخدين، ثم رفعت ذراعها إلى جبينها وهي تقول: لا أدري ما بي. . . لعل هذا الكونياك قد دار رأسي به. فقلت: لا عليك اجلسي. ولكنها تثنت قليلاً وقالت كأنها تريد أن تصيح: فريد! فريد! اسندني إليك. . .

فذعرت كل الذعر؛ وما أن أسندتها إليّ حتى استرخت بين يدي وضمتني إليها متعلقة بي متثاقلة بجسمها عليّ وأنا أدفع بها في لطف وتؤدة حتى أجلستها على المقعد وقد تلاصقت بي تلاصقاً غريباً وشدتني إلى صدرها شدّاً عنيفاً.

وأردت أن أهرع إلى حيث أستحضر لها كوباً من الماء، ولكن تعلقها بي منعني من ذلك. ولا أدري لماذا خطر لي في إبراق عجيب ذاك الحادث الذي حدثني به زوجها عن تصنع الإماء. فرأيتني في موقف مدهش يقتضي بتّاً سريعاً: إما الخيانة ومسايرتها أو القطيعة والجفاء. وكان دمي يفور ويغلي والعرق يتصبب مني ولا أعرف كيف ولا لماذا قلت لها: - إياك أن يغمى عليك فإني حينئذ أستدعي لك الإسعاف.

ولا شك أنها سمعت كلامي ولم تأبه له وحسبت أكبر حساب لغريزة الرجل فأصرت على إغمائها، وتلطفت في التملص منها وتباعدت عنها ونسيت الماء والكوب والإسعاف وبقيت واقفاً حائراً، وسلمى قد فتحت دثارها وكشفت قميصها وزاد خفقان صدرها ثم أنَّت قليلاً في خفوت واختناق ثم لزمت الهدوء.

فأشعلت لفافة من التبغ وصرت أذرع الغرفة ذهاباً وإياباً وأنا لا أعي ما أطأ حتى عيل صبري. وكلما طال انتظاري وتمادت في غيبوبتها كان الغضب يطرد في صدري وتقوي عوامل الشرف والصداقة والإخلاص، حتى رأيتني واقفاً أقول:

- هذه مهزلة مألوفة وليس مثلك من يمثلها مع مثلي. ونحن أصدقاء العمر فقد أخطأ حسابك، وإذا كنت أتقنت مثل هذه المهازل فجربيها مع سواي.

وإني لأذكر تمام الذكر أن سلمى انتفضت عن مقعدها كالنمرة الضارية، ثم لمَّت دثارها والتفت به ووقفت في وجهي تلهث من الخيبة وتحدجني بلحظ يتقد غيظاً وقالت وهي تتلظى غضباً:

- أنت رجل مغفَّل.

واليوم إذ أستعيد هذه الذكريات أحاول عبثاً أن أستبين كيف مضت الأيام التي تلت هذا الحادث وكيف نزلت بي حمى شديدة استوجبت نقلي إلى المستشفى حيث قضيت أشهراً بين الموت والحياة علمت بعدها أنه لم تعدني فيها سلمى ولا زوجها. وقد فتَّت الحمى في عزيمتي وغادرتني شائب الرأس مهدوم الجسم؛ وهاأنذا اليوم بعد خمس سنين أراني قد انحدرت بي السن أشنع انحدار وتوغلت في الكهولة أيما توغل.

وفي كل هذه المدة لم تقع عيني على الأستاذ عزيز سامر ولا على زوجته سلمى، ولكنني لا أزال أذكر والأسى يملأ صدري والدمع يكاد يتفجر من مقلتي أنني كنت صديقاً حميماً للأستاذ عزيز سامر ولزوجته سلمى.

(الإسكندرية)

خليل شيبوب

من هنا ومن هناك

هتلر والهتلرية

(من تقرير السفير البريطاني ببرلين (سابقاً))

ظهر الهر هتلر والاشتراكية الوطنية نتيجة لهزيمة أمة كبيرة في الحرب وما تبع هذه الهزيمة من الفوضى واليأس. والاشتراكية الوطنية في ذاتها ثورة، وهي كذلك مذهب في الفلسفة الوطنية وعلى النقيض من الديمقراطية التي تجعل الحكومة خاضعة للجمهور تقوم النازية على جعل الجمهور تابعاً للحكومة خاضعاً لها بل للفرد الوحيد الذي يدير دفتها.

كان العالم خارج الحدود الألمانية، لا ينظر إلى الاشتراكية الوطنية بكثير من الاهتمام ما دام أمرها مقصوراً على داخلية البلاد. وكان بعض الناس يذهبون إلى نقد صاحب هذه الحركة وبعضهم إلى استحسانه وبعضهم يراقب حركاته بشيء من القلق؛ ولكن الحكومة الألمانية كانت على الدوام شأناً من شئون الشعب الألماني وحده. فلما انتقلت نظرية الوطنية الألمانية خارج الجبهة الألمانية بدأت الفلسفة النازية تبرز رأسها خارج حدود السلام.

ومن الجهل أن ننكر الإصلاحات التي قام بها ذلك الرجل الذي يقود ألمانيا اليوم داخل بلاده. إلا أن الوسائل الظالمة التي اتبعت في سبيل تنفيذها كانت مما يمجه الذوق الإنساني، وإن كانت لاتهم أحداً غير الألمان.

ولم يكن ضم النمسا والسوديت الألماني هو الذي أثار شعور الكراهية ضد الهر هتلر، وحرك ضده الرأي العام في جميع أنحاء العالم. فإن العالم الذي ذاق مضاضة الحرب 1914 - 1918 كان على استعداد لاحتمال ذلك. فقد كان منتظراً أن تضم إليه تلك البلاد طائعة مختارة ولا يمس السلم بشيء. إلا أن هتلر لم يكن ليقبل الاعتراف بحقوق الغير التي يريد أن يغتصبها لألمانيا. . . والثورة آلة طائشة، إذا تحركت لا تقف، حتى تصل إلى الغاية التي تتحطم عندها. والتاريخ وحده هو الذي سيقول إذا كان في مقدور الهر هتلر أن يسير بالنازية في الطريق المعتدل القويم، أو أنه كان ضحية الحركة التي بدأها، أو أن نوعاً من جنون العظمة هو الذي دفع به إلى تلك الغاية التي كانت المدنية على استعداد لمجابهتها.

خلقان لا يفارقان طبيعة الألماني: عجزه عن إدراك أمر من الأمور إلا من وجهة نظره الخاصة، وقصوره عن فهم معنى الاعتدال.

إن مأساة الدكتاتور كائناً من كان، هي أنه بتقييده حرية الرأي، يفقد معونة خير رجاله وأصلحهم، وأنه لا يحتمل معارضة أي إنسان. فكل من وهبهم الله شيئاً من الشجاعة

لإبداء آراء مخالفة لوجهة النظر التي يراها، يضحي بهم واحداً بعد الآخر، حتى يصبح وليس معه إلا بعض الأفراد المتملقين الذين لا يعرفون غير كلمة (نعم) في سائر الأحوال.

وإذا كان الدكتاتور يتأثر إلى حد ما بمن يلتفون حوله، فإن الهر هتلر لا يعتمد إلا على رأيه في كل ما يتوجه إليه. وقد قل لي (الفيلد مارشال جورنج) ذات مرة: نحن عند البت في أمر من الأمور لا نكون إلا كالحجر الذي تقف عليه الآن، فللفوهرر وحده يرجع البت في كافة الشؤون. . .

يجب أن يتحرر التشيك

هذا عنوان رسالة للاتحاد الوطني التشيكوسلوفاكي بأمريكا جاء فيها: التشيكوسلاف أمة قديمة في أوربا، يرجع تاريخهم إلى العصر المسيحي القديم.

وهم جزء من ذلك العنصر السلوفي الذي حكم أواسط أوربا يوماً ما، وامتد ملكه إلى حدود نهر الألب وجبال الألب من الناحية الغربية، وبحري البلطيق والإدرياتيك من ناحيتي الشمال والجنوب. . .

والثقافة التشيكية تعادل أرقى الثقافات التي ظهرت في قارة أوربا. فقد أتيح لها أن تجمع كثيراً من المدنيات العظيمة، فحملت شجرتها للعالم ثمار المدنيات البيزنطية والألمانية والفرنسية وللتشيك أثر عميق في المدنية الأوربية، وعلى الأخص العصور الوسطى وفجر العصور الحديثة، وقد كان الشعب التشيكي فيما بين القرن الثالث عشر والقرن الخامس عشر عاملاً هاماً في حمل رسالة القرون الوسطى، وكان ملوك (التشيك) رءوس الإمبراطورية الرومانية المقدسة، ولهذه المملكة الفخر في إنشاء أول كلية في أواسط أوربا؛ ولمركزها الممتاز بين مختلف الدول كان لها أعظم شأن في عالم التجارة وبيوت الأموال؛ وقد انتعشت فيها الفنون والعلوم بانتعاش الحالة المالية وتوفر أسباب الترف والعيش الرغيدين للأهلين.

كان التشيك في القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر أبطال حرية الفرد وأنصار الديمقراطية الصحيحة. وكان (جورج بودبراد) ملك التشيك، يدعى دائماً لفض الخلاف الذي يقع بين الألمان أو السادة الهنجاريين، وكان في مقدمة رجال السياسة الأوربية الذين يدعون إلى فكرة الاتحاد الدولي لمحبي السلام من الأفراد والممالك، وإيجاد رابطة قوية منهم لحماية القانون والنظام العام.

ولما فقد التشيك حريتهم في عام 1620 نجحوا في الاحتفاظ بلغتهم وثقافتهم وتقاليدهم على الرغم من المظالم التي أحدقت بهم. وقد أخرجوا إلى العالم في تلك الفترة المظلمة في تاريخهم (كومنسكي) المشهور، وهو من أكبر رجال التربية الذين عرفهم التاريخ.

ولما كان القرن التاسع عشر وضع التشيك لأنفسهم مبادئ عملية لنيل حقوقهم السياسية والوطنية وكانت الديمقراطية والسلم رائدهم في كل الخطوات، وقد برهنوا دائماً على

مقدرتهم على حكم أنفسهم. وكانوا على الدوام أصدقاء مخلصين مسالمين. عرف عن بلادهم أنها ترحب دائماً بالمظلومين والمضطهدين الذين يأوون إليها من البلاد الأخرى.

فالتشكوسلافيون ليسوا حديثين في أواسط أوربا، ولهم حضارة قديمة لا تنكر وأثر خاص في الثقافة الأوربية على وجه العموم؛ وقد برهنوا في حياتهم القديمة وحياتهم الحديثة على مقدرتهم على السير إلى الأمام، والتغلب على القوى المنافسة. وساروا خطوة خطوة مع تقدم الحالة الثقافية والسياسية في أنحاء العالم. وجعلوا مبادئ مزاريك الإنسانية أساساً لمعاملاتهم فيما بينهم وما بينهم وبين العالم، وهي مبادئ تقوم على حب الخير والشرف والتواضع.

الرجل الذي يهابه هتلر

(عن (ورلد مجازين))

من هو الشخص الذي يسند بيده الحديدية عرش هتلر ويحمل وزر تلك الأعمال القذرة، من هو الشخص الذي يدير دفة الحركة النازية في الحياة العملية؟ الجواب: هو هنريك هملر رئيس قوة (الجستابو) الرهيب (البوليس السري) و (الجستابو) ذلك الجيش المدني المتسلط على الأهلين في ألمانيا بجواسيسه ورجاله السفاحين، قد جعل من

رئسه (هنريك هملر) أكبر الطغاة الظالمين في العصر الحديث. وقد تبوأ هملر مركزه من العصابة الهتلرية حين استولى هتلر على الحكم في ألمانيا سنة 1933 وكان إذ ذاك في الثالثة والثلاثين من عمره، ومنذ ذلك الوقت وهو منساق في تيار الظلم والإرهاب بغير هوادة أو تردد.

فقام بعملية التطهير في الحزب النازي، وقضى على الرئيس الأعلى للجيش، وسلط النار والحديد على اليهود. فإذا نظرنا إلى أعماله وأنعمنا النظر قليلاً في تاريخه الحافل بالمخازي لم نشك مطلقاً في أنه يضرب بسهمين على الدوام، فقد كان والده مدرساً بمدرسة كاثوليكية في ميونخ وتربى تربية كاثوليكية واليوم هو يحارب الكنيسة الكاثوليكية بغير رحمة، ويضطهد رجالها بغير وازع أو رادع، إلى درجة لا يجاريه فيها رجل في أوربا غير ستالين.

وقد تطوع في الحرب العظمى سنة 1917، ولكنه عمل على أن يكون دائماً بعيداً عن خطوط الدفاع. والتحق بجماعة هتلر - التي كان نصيبها السقوط - عام 1923، ولكن سرعان ما ابتعد عن ناحية المخاطر، فلم يدع للمحاكمة، وكان أول عمل كبير التحق به هو اشتغاله سكرتيراً خاصاً (لجرجورسترسر)، وقد أثنى هذا على مواهبه، وتوسط إلى هتلر في تعيينه رئيساً لفرقة من القمصان السود، فلما كانت سنة 1934 صوب فريق هذه القمصان رصاص بنادقهم إلى صدر سترسر بأمر هملر في (حمام الدماء) المعروف. . . وقد كان (روهم) صديقاً حميماً له في فرق العاصفة، ولكن هملر كان الرجل الذي نفذ إطلاق الرصاص على روهم تحت إشرافه في (ليلة الدماء).

وقد عينه هتلر لتأليف فرقة قوية، تقوم تحت إشرافه لحمايته شخصياً فلم ينته ذلك العام حتى كان لديه 100 , 000 رجل لهذا الغرض. وقد أسس هملر فريق (الجستابو) بعد ذلك ونظم له المعسكرات وأعده بالمعدات. وأوجد للريخ منه 138 , 470 رجل عام 1933، وبلغ عدد الرجال الذين هم تحت إمرته اليوم 437000 رجل لكل 135 نفساً من سكان ألمانيا. وللجستابو قوة قاهرة في حياة ألمانيا اليوم، فلا يخلو من رجالهم ناد ولا يخلو منهم مصنع. وينبث بوليس (الجستابو) في المصالح والوزارات بما فيها وزارة الحربية ووزارة الخارجية، وتصدر عنه التقارير إلى هملر كل يوم. مثل هذا الرجل لا غنى عنه للدكتاتور ما دام قائماً بواجباته، ولكن هملر معروف بأنه يضرب بسهمين على الدوام، فإذا انقلب على زعيمه أصبح الأخير في مركز لا يحسد عليه. وهذا ما لا يجهله هتلر الآن.

البريد الأدبي

في شمال فنلندة

كان ذلك في (الزمان الطيِّب)، في مزدهر (الشباب الرِّيق). فررت من مصر في شهر يونية لسنة 1934 والحرّ يفتك بالقرائح، أقصد إلى ألمانيا، ومنها إلى بلدان الشمال. وبعد إقامة قصيرة بأسطونية صعدت إلى هلسنكي عاصمة فنلندة، ومن هناك أخذت أتنقل في نواحي الشمال بين البحيرات والغابات حتى (بتسامو) عند بحر الشمال الجامد.

ولن أحدثك هنا كيف هزّتني تلك الطبيعة الغريبة، فلي في ذلك كلام يطول. وإنما أريد أن أروي لك قصة أظنها لطيفة، فأنقلك معي تخيُّلاً إلى بلد هو حديث اليوم في كل مكان، ردَّ الله عنه كيد الظالم العاتي!.

في الطريق الخارج من هلسنكي إلى الشمال عدد من الفنادق ينزل فيها السياح يوماً أو أكثر من يوم. ونزلت مع غيري في فندق نطلب العشاء والنوم؛ فجعلت أرقب موعد الطعام وأنا أتصفح الملحمة الفنلندية الشعبية (كاليفالا في ترجمة فرنسية. وبينا عيناي في الكتاب إذا فتاة تذهب وتجيء وفي يديها أطباق وأكواب فتنضدها على مائدة مبسوطة. وكانت كلما دنت مني تتمهل في لطف وترسل إلى الكتاب نظرة أو نظرتين؛ ولما فرغت من عملها أتتني فقالت: عفواً! أتقرأ (الكاليفالا)؟ قلت: نعم، إني أحبُّ أن أطَّلع على هذه الملحمة الخارجة من غاباتكم وبحيراتكم وهضبتكم. قالت: أتعلم قصتها؟ قلتُ: أعلم أن (إلياس لونروت) ? جمعها ونشرها. قالت: هل تحب أن أعلمك القصة كلها، فهذه الشمس لم تمل بعدُ؟ قلت: بالله اجلسي وخبريني.

فروت لي الفتاة كيف خرج (لونروت) إلى فيافي منطقة (كاريليه) فمكث فيها زمناً يدوِّن أغاني المنشدين حتى استقامت له عناصر الملحمة فربط بعضها ببعض وفضل

رواية على رواية وأسقط الضعيف والمُعاد والتافه. إلا أنه أقام الملحمة ونظر فيها وسوّاها كأنه أحد أولئك المنشدين لاتصاله بهم واستقائه منهم. ثم أخذت الفتاة تحلل لي خصائص (الكاليفالا)، وجعلت تصف وتبين وتستطرد وتعارض في منطق عجيب ودراية نادرة، حتى إنها ذهبت في الموازنة بين طائفة من أغاني الملحمة وأسطورة أرفيوس الإغريقية. فما كادت تتم حديثها حتى سألتها: من أين لك كل هذا العلم؟

قالت: إني دكتورة في الآداب من جامعة هلسنكي، وإنما أجيء هنا في الصيف أطلب الراحة فأخدم في الفندق فأدفع بذلك ثمن ما أطلبه وعلى هذه الحال كثير من زميلاتي.

وهنا كان موعد العشاء فجلست إلى المائدة وما كانت الفتاة تأتيني لنقضي لي حاجة إلا نهضت أمنعها فتقول: لِمَ تمنعني من أداء الواجب؟ أنا هنا لأخدمك. فأقول: لا أدع دكتورة في الآداب تخدمني، فتضحك من حيائي.

قد كنت نويت في ذلك اليوم أن أبيت الساعة التاسعة فلم أغمض عيني قبل الواحدة.

كرّت الساعات وأنا يقظ أستمع إلى أحاديث الفتاة؛ فوقفتني على تاريخ الثقافة الفنلندية وهو قصير؛ ولم تترك باباً إلا طرقته: موسيقى وتصوير ونحت وأدب وفلسفة.

وكنت أجاذبها الحديث كلما أجرته في جانب لا أجهله. من ذلك أني شرحت لها كيف تباعد (وِسْتِرْمَرْك) العالم الاجتماعي الفنلندي عن الواقع عند كلامه على (المهر) عند العرب في كتابه: (نشأة المعاني الأخلاقية وتحولها) إذ يرى أن المهر إنما هو تعويض للأب مما بذله في سبيل تنشئة ابنته.

حدثتني الفتاة عن استواء الثقافة الفنلندية القومية بفضل الموسيقى والمصور والمهندس والقصّاص ? ?. وهنا وقفتني على دقائق الطبيعة الفنلندية، فتذاكرنا قصة (سالانبا): (البؤس القدسي) وراجعنا ما فيها من بساطة جليلة وقوة مطمئنة وبصيرة وقادة.

ولما فرغت من حديثها قلت: أحب أن أخبرك بشيء لعلك أن تجهليه. قالت: أيتصل بأمر وطني؟ قلت: نعم. قالت: أي شيء يكون؟ قلت: إن أول كتاب بُسطت فيه جغرافية فنلندة إنما كتب باللغة العربية وصاحبه الشريف الإدريسي واسمه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)؛ وقد نشره من أربع سنين مستشرق من عندكم اسمه (تلجرين توليو). قالت: وما أدرى العرب بنا؟ قلت: سمعت رفيقة لك تدعوك سلمى.

قالت: هذا اسمي. قلت: هو اسم عربي ولديكم غيره. إن في نسائكم من تسمى سليمى وعدلة وسوسانة، وفي رجالكم من اسمه: ألي وأَمَر وسالم. قالت: هذا حق!

ذلك زمان اتصال من طريق التجارة. وهذا زمان اتصال من طريق الثقافة. مساء الخير! وانصرفت. وإذا الفتاة تجعل على الحاكي أسطوانة للموسيقى (سيبيليوس) اسمها: (فنلندا) أصبت فيها وأنا أعرج في السلّم كآبة تلك الفيافي المترامية وبطء تلك الثلوج المنسابة في بحر يريد أن يجمد.

بشر فارس

شعراء الشرق والطبيعة الغربية

كتب الأخ الأستاذ محمد عبد الغني حسن يعقب على الكاتب الذي أشاد بذكر الشاعر العبقري علي محمود طه وينحى عليه باللائمة أنه نسي كثيراً من الشرقيين الذين وصفوا الطبيعة الغربية في شعرهم.

وإني أعتقد - ومعي كثير - أن وصف طبيعة الغرب ليست موضع فخر للمصري ولا للشرقي ولا تشرفهما في كثير أو قليل.

وإنا لفي حاجة إلى الشاعر الذي يشيد بذكر مصر خاصة والشرق عامة.

ومصر - بحمد الله - جميلة ساحرة، والشرق كذلك جميل فتان.

فمتى ينقل شعراؤنا الغربيون - رحمهم الله - معازفهم ومزاهرهم ونياتهم من لندن وباريس وروما، إلى القاهرة ودمشق وبغداد، حتى يعيدوا إلينا عهد بنتاءور، والبحتري، وشوقي وغيرهم من أساطين الشعر في الشرق. ورحم الله شوقي إذ يقول:

وطني لو شغلت بالخلد عنه ... نازعتني إليه في الخلد نفسي

محمد عبد المنعم سالم

مدرس بمدرسة الخديو إسماعيل بالإسكندرية

مجلات الاستشراق في إيطاليا

(1) مجلة الدراسات الشرقية
تعتبر هذه المجلة العلمية أكبر مجلات الاستشراق في العالم، يصدرها أساتذة المدرسة الشرقية في جامعة روما، ويقوم بإدارتها كبير المستشرقين الإيطاليين البروفيسور مجلنجلو جويدي، مدير المدرسة الشرقية وأستاذ الأصول الإسلامية في جامعة روما ومدير المعهد الشرقي في نابولي وعضو المجمع العلمي الإيطالي.
ونشرت هذه المجلة أقوم المباحث العلمية في الاستشراق لجميع المستشرقين الأوربيين.
ومن أهم مباحث أعداد هذا العام 1939 المجلد الثامن عشر: في تفسير جميل بثينة للأستاذ
فرنشكو جبريلي أستاذ اللغة والآداب العربية في جامعة روما.
والقصيدة في الفقهاء لموسى بن عبيد الله بن حاقان: للدكتور باولو بونسكي.
(2) الشرق الحديث وهي مجلة شهرية في الاستعلام والدراسات لتعميم معرفة الشرق ولا سيما الإسلامي يقوم بنشرها (المعهد الشرقي) بروما.
وقد أسسها المستشرق الكبير المرحوم نالينو وقام بإدارتها مدة 18 عاماً حتى وفاته؛ وقد خلفه في الإدارة الأستاذ أتوري روسي، أستاذ اللغة والآداب التركية في جامعة روما.
وتبحث هذه المجلة ذات المكان الممتاز في جميع أوساط الاستشراق عن جميع ما يهم حياة الشعوب الشرقية الإسلامية.
وتنشر كل شهر مختصراً عن الحوادث السياسية والاقتصادية والثقافية في البلاد الشرقية، ولا سيما العربية؛ وتنشر جميع الوثائق الرسمية المتعلقة بهذه البلاد. ونذكر هنا بعض أبحاثها في هذا العام (المجلد التاسع عشر):
الحقيقة في مسألة قناة السويس للدكتور انجلو سنمركو. تاريخ نهضة الشعوب العربية في كتاب حديث لجورج أنطونيوس للمستشرقة فرجينيا فكا. حوادث تركستان الشرقية الأخيرة للبروفيسور أتوري روسي. الحركة الوطنية في منطقة المغرب الأقصى الفرنسية للبروفيسور أتوري روسي.
(3) المجلة الشرقية الحقوقية
وهي مجلة حقوقية تبحث في العلوم والحقوق والتشريع ويديرها المحامي فنشنزو تاورمينا. وهي مجلة شهرية في عامها الرابع تتناول في أبحاثها الحقوقية ما يتعلق بالشرق المتوسط والشرق الأقصى والمستعمرات. ثم يلي ذلك باب الأخبار التشريعية والحوادث في الشرق فالمباحث العلمية. وهذه المجلة فريدة في نوعها في أوربا.
(عن النشرة الشهرية لمحطة باري)
عدد سكان الأرض
نشرت عصبة الأمم إحصاء بعدد سكان الكرة الأرضية، وهو إحصاء ناقص، لأنه لم يشتمل على التعداد الصحيح لسكان أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية واستراليا. ويتضح
من ذلك لإحصاء أن عدد سكان الكرة الأرضية ملياران و134 مليون نفس. وفيما يلي تعداد بعض البلاد:
الصين 450 مليوناً - روسيا 178 مليوناً - الولايات المتحدة 130 مليوناً - ألمانيا 79 مليوناً
اليابان 72 مليوناً (يضاف إليها 31 مليوناً عدد سكان الأراضي الملحقة بها)
بريطانيا العظمى 47 مليوناً (يضاف إليها 495 مليوناً عدد سكان مستعمراتها والمملكات الحرة)
إيطاليا 43 مليوناً (يضاف إليها أكثر من 8 ملايين في مستعمراتها)
فرنسا 42 مليوناً (يضاف إليها أكثر من 75 مليوناً في ممتلكاتها وراء البحار)
بلجيكا 8 ملايين (يضاف إليها أكثر من 14 مليوناً في مستعمراتها)
هولندا 8 ملايين (يضاف إليها أكثر من 67 مليوناً في مستعمراتها)
البرتغال 7 ملايين (ويضاف إليها أكثر من 10 ملايين في مستعمراتها)
وقد رؤى بعد الحساب أن عدد سكان الكرة الأرضية قد زاد في خلال سنتين 18 مليوناً. . .

تصويب
ورد البيت الآتي في مقال الخوارزمي والبديع هكذا:
لا تنزلنّ بنيسابور مغترباً ... إلا وحبلك موصول بإنسان
وصحته: إلا وحبلك موصول بسلطان
علي الجندي
أصل النور
يبحث كثيرون عن أصل النوَر (الغجر) وكيف وصلوا إلى أوربا فلا ينصرفون من بحثهم إلا بالعجز. وقد وقع لي في بعض مطالعاتي رأي استنتجته من نصوص التاريخ لعل فيه حل هذه المشكلة.
في كتب التاريخ عند الكلام على فتنة الزُطْ (وهم النور) في البصرة، أن أصلهم من أواسط
آسيا (غلبوا على طريق البصرة، وعاثوا فيها، وأفسدوا البلاد) إلى أن تغلب عليهم قائد المعتصم (عجيف بن عنبسة) وأضطرهم إلى التسليم فوجد عدتهم نحو ثلاثين ألفاً بين رجل وامرأة وصبي، فنقلوا بأمر المعتصم إلى قرية من قرى الثغر فلبثوا فيها إلى سنة 241هـ فأغار الروم على القرية وأسروهم جميعاً فاستاقوهم معهم.
فهل يمكن أن يكون انتقالهم إلى أوربا من ثمة؟
هذا افتراض، ولعل في أهل هذا الفن من ينتدب لبحثه وقبوله أو رده. . .
ع. ط
قصر هشام بن عبد الملك ونقله إلى الشام
من أجمل الآثار العربية التي تمكنت دار الآثار في الشام وبعثات النقيب من كشفها في ديار الشام، القصر العربي الأموي الجميل الذي عثر عليه في طريق تدمر، وعرف أنه (قصر الحير) أو قصر هشام بن عبد الملك.
وقد نقل هذا القصر من المكان الذي كشف فيه إلى متحف الآثار في دمشق، حيث يتوفر المهندسون والعمال على وضعه كما وجدوه دون أن ينقص من بنائه وحجارته وزخرفته وكتابته قليل أو كثير. وقد خصصت لهذه الغاية مبالغ كبيرة من ميزانية متحف الآثار أنفقت عليها حتى الآن ثمانية وثلاثون ألف ليرة سورية.
وقد تم بناء نصف هذا القصر، والأعمال لا تزال مستمرة لإنجاز نصفه الثاني.
وشغلت المساحة التي يستوعبها هذا القصر مكاناً لا يقل عن مساحة متحف الآثار كله.
حول ابن تيمية وابن بطوطة
إتماماً لكلمتي المنشورة في (الجزء 331 من الرسالة الغراء) وتأييداً لما ذهب إليه الدكتور عبد الوهاب عزام في (الجزء 330) حيث قال: (لا أجد ما يحملني على تكذيب ابن بطوطة في أمر يدعي أنه رآه وسمعه)، أنقل ما أورده العلامة النقاد ابن خلدون في مقدمته (في الصفحة 89 من طبعة بولاق):
واعتبر ذلك بما نقصه عليك من هذه الحكاية المستطرفة، وذلك أنه ورد المغرب لعهد السلطان أبي عنان من ملوك بني مرين رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة، كان
رحل منذ عشرين سنة قبلها إلى المشرق وتقلب في بلاد العراق واليمن والهند ودخل مدينة دهلي حاضرة (عاصمة) ملك الهند، وهو السلطان محمد شاه، واتصل بملكها لذلك العهد وهو فيروز جوه، وكان له منه مكان، واستعمله في خطة القضاء بمذهب المالكية في عمله؛ ثم انقلب إلى المغرب واتصل بالسلطان أبي عنان. وكان يحدث عن شأن رحلته وما رأى من العجائب بممالك الأرض، وأكثر ما كان يحدث عن دولة صاحب الهند ويأتي من أحواله بما يستغربه السامعون. . . وأمثال هذه الحكايات، فتناجي الناس بتكذيبه. ولقيت أيامئذ وزير السلطان فارس بن ودرار البعيد الصيت ففاوضته في هذا الشأن وأريته إنكار أخبار ذلك الرجل لما استفاض في الناس من تكذيبه؛ فقال لي الوزير فارس: إياك أن تستنكر مثل هذا بما أنك لم تره فتكون كابن الوزير الناشئ في السجن، وذلك أن وزيراً اعتقله سلطانه ومكث في السجن سنين ربى فيها ابنه في ذلك المحبس، فلما أدرك وعقل سأل عن اللحمان التي كان يتغذى بها؛ فقال له أبوه: هذا لحم الغنم، فقال: وما الغنم؟ فيصفها له أبوه بشياتها ونعوتها فيقول: يا أبت تراها مثل الفأر؟ فينكر عليه ويقول: أين الغنم من الفأر؟ وكذا في لحم

الإبل والبقر، إذ لم يعاين في محبسه من الحيوانات إلا الفأر فيحسبها كلها أبناء جنس الفأر. وهذا كثيراً ما يعتري الناس في الأخبار كما يعتريهم الوسواس في الزيادة عند قصد الإغراب. . . إلى آخر ما أورده ابن خلدون.

سيف الدين الحليلي

تحقيق

قرأت للأستاذ عبد المتعال الصعيدي مقالة: بين الأستاذين أحمد أمين وزكي مبارك، ولقد استوقفني فيها شاهد جاء به من الحديث في ذم الشعر إطلاقاً إذ يقول: لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلئ شعراً. وما كنت لأبدئ أو أعيد لو أن الحديث صحيح، أما وهو غير ما ذكرت فإني مورد هنا قصته.

فقد جاء في رسالة (الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة) أن أبا هريرة روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً ودماً خير له من أن يمتلئ شعراً) ولما بلغ السيدة روايته ارتاعت لها وقالت: (لم يحفظ أبو هريرة الحديث، إنما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً ودماً خير له من أن يمتلئ شعراً هجيت به) وهكذا أنقذت السيدة - رضي الله عنها - بسعة علمها ودقة روايتها ثروة طائلة من الكلام الجميل حرَّمها أبو هريرة - غفر الله له ورضي عنه - برواية الحديث ناقصاً!

والغريب أن كثيراً من العلماء، يولون وجوههم شطر هذا الشطر من الحديث يستشهدون به في ذم الشعر! وما جنى الشعر ولا جنى الشعراء، وإنما بغض الشعر إلى النبي، لأنه يجري وراء الخيال، وأن الشاعر يقول ما لا يفعل. فأما النبي فقد اتخذ من الحق نوره، ومن الحقيقة غايته، ومن أجل هذا ولد، وكذلك عاش، وهكذا مات.

عبد الرزاق أمان الدين

الكتب

رحلات

للدكتور عبد الوهاب عزام

هذه رحلات وأسفار، صور شاهدها قلم مبين، وناهيك بقلم يحمله الدكتور عبد الوهاب عزام.

وقراء الرسالة لا شك يعرفون الدكتور الفاضل باحثاً مدققاً وعالماً متمكناً، وناقداً بارعاً، ورجلاً تتمثل كل معاني الرجولة في أخلاقه وفي سلوكه، ولكن قلّ فيهم من يعرفه شاعراً موهوباً من الطراز الأول، يستطيع أن يجري في الحلبة فيسبق، لأنه رجل لا يحب أو قل لا يحسن الإعلان عن نفسه، فهو يجاهد ويجاهد حتى يرضي بالجهاد ربه ونفسه، ثم لا يعنيه بعد ذلك مأرب، فيرضى من الغنيمة بالإياب.

وشاعرية الأستاذ عزام تتجلى في قصائده (المكتمة) أو قل الموءودة، وهو لا شك محاسب بين يدي الله (إذا الموءودة سئلت، بأي ذنب قتلت)، وإن هذه الشاعرية لتتجلى أيضاً في آثار قلمه في الوصف والإفصاح عن إحساسه بالمرئيات، فأنت إذ تقرأ هذه الرحلات، فستجد فيها دقة الباحث، وحكمة العالم، وظرف الأديب، وخيال الشاعر وعاطفته. وأي شعر أبلغ من قول الدكتور، وهو يجيل النظر في أرجاء سيناء: (وأصبحنا نطل على بيداء ليس فيها إلا رمال تتخللها أعشاب وأشواك، ولكنها سيناء! والله ماذا ضمنت سيناء من الخبر والعبر! فيها الطور الذي آنس موسى من جانبه نور الهدى، وعليها مدَّ الزمان وجزر بالغير سعيدة وشقية، والجيوش هازمة ومهزومة، فتمثّل جيوش الفراعنة ذاهبة إلى الشام وآيبة، أو جيوش بابل وفارس مطرودة وطاردة، ثم جيش الإسكندر وجيوش الرومان، ثم جيوش العرب والترك دول بعد دول، وسطور تمحو في صحائف الزمان سطوراً، كما خط في القرطاس سطر على سطر، تزاحمت الذكريات، وترادفت العظات).

بل أي شعر أفصح من قول الدكتور على قبر صلاح الدين الخالد: (ثم رقينا درجات قليلة إلى باب آخر؛ فيالك حجرة جمعت من العظمة سورة متلوة على الدهور، وحوت من عبر التاريخ ما تضيق به السطور! يالك حجرة كعنوان الكتاب الكبير يقتحمه النظر في لحظة، ثم لا يزال ينفتح على الصفحة بعد الصفحة! يالك من مكان وسع ملء الزمان! ويالك من

أحجار طويت على إعصار! مجدر جف به الشرق والغرب، وطأطأ له الصديق والعدو.
هذا مرقد (صلاح الدين)، طفنا بالقبر ووقفنا هنيهة خاشعين، ووقعت أبصارنا على صورة تمثل المجاهد العظيم؛ ثم قال أحدنا: أين التاج الذي وضعه على القبر ملك الألمان غليوم؟ قال دليلنا: أخذه الإنكليز! قلت: إن مجد (صلاح الدين) أعظم من أن يزيده غليوم وأجل من أن ينقصه الإنجليز، فليعطوا أو فليأخذوا، وليمدحوا أو يذموا، فذلك صرح لا تناله أيديهم، ومجد قصرت عنه أمانيهم، وحلبة التاريخ تشهد من كان الفارس الأمجد؟!).
فهذا هو إفصاح الشاعر وخياله وإحساسه. . . وهذا هو الأسلوب الذي صور به الدكتور الفاضل كل المشاهد التي رآها والآثار التي وقف بها في حلب ودمشق وبغداد وبلاد الفرس وموطن الأتراك، ثم في الحجاز مشرق النور المحمدي، وفي أوربا حيث السفوح كلها البهاء والرواء والشعر، فجاءت هذه الرحلات صورة قوية من عقل الرجل وقلبه، فهي فوق ما فيها من علم وتعريف آيات بينات من الأدب الوصفي الرائع، وقطع من العشر المرسل تفيض بالعواطف والأحاسيس، وتملأ نفس القارئ بالعظات والعبر، والحكمة والبهجة. وبهذا المعنى ستظل رحلات عزام خالدة خلود العواطف الإنسانية، باقية بقاء الإحساس القوي في نفس الكبير.

ليلى المريضة في العراق

للدكتور زكي مبارك

هذا كتاب يأخذ موضوعه من التاريخ والعلم والأدب والشعر والحب والبغض والخير والشر، فهو كما يقول المؤلف الفاضل (تاريخ يفصل وقائع ليلى بين القاهرة وبغداد من سنة 1926 إلى سنة 1938، ويشرح جوانب من أسرار المجتمع، وسرائر القلوب).
ولا شك أن قراء الرسالة الكرام يعرفون بعض الشيء عن كتاب ليلى المريضة في العراق، نعم بعض الشيء فإن الدكتور الفاضل قد نشر صدراً منه في الرسالة، ثم أمسك على بقية الحديث، وطوى جوانحه على ما بقي من الشؤون والشجون.
ولقد يبدو هذا الكتاب هيناً في تقدير بعض الناس، على حين تجد بعضهم يمجده حتى ليرتفع به عالياً عالياً. . . إلى السماء، ولا غرو في ذلك، فقديماً كان كتاب (كيلة ودمنة) لمن يقف عند الظاهر ملهاة وتسلية، ولعلم موعظة وحكمة، وللأديب جمال وجلال.
وكذلك كتاب صديقنا الدكتور، فهو في ظاهره شيء، وهو في دلالته ومغزاه أشياء. . . ثم هو في التقدير الصحيح صورة لما في الإنسان من عواطف الخير والشر، وما يصطرع في عالم الناس ودنيا الأدباء من الحلم والجهل، والرشد والغي، والهدى والضلال.
إنها آفاق من المعاني يتحاماها كتاب العصر الحديث، ولقد أراد الدكتور زكي مبارك أن يكفر عن سيئات أولئك الكتاب فيتحمل المشاق في ارتياد تلك المجاهيل، يقول الدكتور: (ولقد اقتحمت تلك الآفاق بلا زاد ولا ماء، وأنا أعرف أني أعرض سمعتي للأقاويل والأراجيف، لأن الناس عندنا لا يفهمون كيف يدخل الطبيب على نفسه ليشرح على حسابها أهواء النفوس والقلوب والعقول.
اقتحمت تلك المهلك وليس لي إلا سناد واحد هو الشعور بأني أؤدي خدمة للأدب والطب!! وهل كنت أملك الفرار من الصنع الذي صنعت).
وصدقني أيها القارئ أن الدكتور ما كان يلك هذا الفرار ولو استطاع ذك لنكص على عقبيه وكان بذلك من القاعدين الغانمين، ولكنه رجل ابتلاه الله بالصراحة والصدق، فهو لا يدين بمذهب (النفعية) في شيء، ولو استطاع زكي مبارك - كما يقول أستاذنا الزيات - أن يتملق الظروف، ويصانع السلطان، ويحذق شيئاً من فن الحياة في المواربة والمداورة،
لاتقى كثيراً مما جرته عليه بداوة الطبع، وجفاوة الصراحة.
ولكن أيفلت مني الدكتور فلا أمسكه بشيء؟ كلا! فأنا أحب أن أسأله عن ذلك التكرار، وتلك الكركرة (الطهوية) إذ يقول: من الذي يستطيع أن يتعقب حركات العقول والأهواء في القاهرة؟ من الذي يستطيع أن يحاور في الصباح والمساء رجال الصحف الصباحية والمسائية؟ من الذي يتسع وقته لمسامرة الصحفيين القاهريين بعد نصف الليل؟ من الذي يستطيع أن يسجل حركات القاهريين قبل الشروق؟ من الذي يفهم أن أهل القاهرة يموتون قبل الأوان بسبب الإفراط في الكدح والكفاح! من الذي

يصدق أن من أهل القاهرة من يملأ الدنيا بالنشط والحركة وفي جوفه خمسون علة؟ من الذي يصدق أن في القاهرة ألف خطيب في فصاحة سحبان، من الذي يصدق أن الأمان ذهب من القاهرة بسبب الإفراط في المنافسة والنضال؟ من الذي يصدق أن زكي مبارك سيؤلف كتاباً في مثالب زكي مبارك؟

أما أنا يا دكتور فذوقي لا يحتمل كل هذه (المنمنة)، وأنا أسألك ولا أريد الجواب، فإني أعلم أن أزمة الورق ستردك إلى ما كنت عليه من الإيجاز في التعبير، والقصد في البيان!

م. ف. ع

العدد 339 - بتاريخ: 01 - 01 - 1940

الرسالة في عامها الثامن

في صباح هذا اليوم يستقبل الناس عامهم الجديد وهو يبرز من حجاب الغيب بروز الجنين من كمام الحياة لا تدل معارف وجهه على خير ولا شر؛ وتستقبل الرسالة معهم عامها الثامن وهو يبصر في ظلام الغد بصيص الأمل في حواشي اليأس لا يُخلد إليه ألا ريب الحذر بعرف ولا نكر. وفي مساء البارحة شيع الناس سنتهم الفارطة وهي ترزح بالحوادث الحسام، وتسفح بالدماء الحرام، وتنذر بالقارعة العامة؛ وشيعت الرسالة معهم سنتها السابعة وعليها سمات وندوب من جهاد الرأي ونضال العيش وعنت الخصومة. وبين الساعة التي نشيع فيها العام الفقيد، والساعة التي نستقبل فيها العام الوليد، يرتسم الحد الفاصل بين ذكرى وأمل، وبين ماض ومقبل، وبين مرحلة ومرحلة من طريق الحياة الطويل الغليظ المبهم. وما يوم الناس إلا ذكراهم للأمس ورجاؤهم في الغد. وما حاضرهم إلا التحسر على الماضي والتخوف من المستقبل. وما عيدهم بين سنة وسنة إلا وقفة استجمام بين سُرىً ملغب أمنوا ضلاله وعلِموا صباحه، وبين سير مجهد يخشون أهواله ويجهلون ليله!

الدنيا حرب دائمة بين الحياة والموت والصلاح والفساد والخير والشر؛ ولكن هذه الحرب الخفية قد أصبحت لضرورتها ولزومها جزءا من نظام الوجود إن لم تكن هي ذلك النظام نفسه. ومن أجل ذلك ألفناها إلفنا قوانين الطبيعة فلا نتبرم بها ولا نضيق. فأنا ونفسي، ومنفعتي ومنفعتك، ورأيك ورأيه، ورغبتها ورغبته، في حرب مشبوبة لا تنطفئ، وعداوة منصوبة لا تنكسر. والحياة مع هذا الصراع المستمر زاخرة، والكون مع هذا الدمار الشامل قائم. ولكن الحرب التي تشنها أمة على أمم فتزلزل الأرض بالقذائف، وتشق السماء بالرصاص، وتخسف البحر بالألغام، وتهلك الحي بالهم والسم والنار والقحط، مثلها كمثل الزلزال والطوفان والزوبعة، لا يتسق معها نظام، ولا يتصل بها عيش، ولا يستقيم عليها أمر؛ ثم لا يميز شياطينها المجرمة المحطمة الهوجاء الضار من النافع، ولا المذنب من البريء.

من الجائز أن تنجو الرسالة من حزب الهوى والخصومة والمنافسة. فإن الحرب في تنازع البقاء هي السلم، والثورة لبقاء الأصلح هي النظام؛ والسلاح الذي لا يخذل في هذه الحرب هو الصدق والصبر والإيمان والمثابرة، وكلها في مقدور المجاهد الصالح. ولكن من المستحيل أن تسلم الرسالة من شر هذه الحرب الهتلرية الطاحنة؛ فإنها على ضراوتها بكل

شر وإضرارها بكل شيء، كانت أقسى ما تكون على الصحافة: قطعت عنها الوارد من الورق والحبر وأدوات الطباعة، فنقصت في الكيف والكم، بقدر ما زادت في النفقة والهم. وقطعت عليها السبيل إلى الأقطار الأخرى بصعوبة النقل وشدة المراقبة وضيق المعاملة، فتعذر وصولها إلى البلاد المحاربة، وقل انتشارها في الأقطار البعيدة. وشُغِل الناس بأخبار الحرب وأفكارها وأوزارها وأطوارها وأزمتها ونتيجتها عن النظر في الأدب اللباب والفن الخالص، فلم يقرءوا إلا ما يتصل من قريب أو بعيد بهذه القيامة القائمة كان من شر هذه الحرب على الرسالة أن كابدت ما كابد غيرها من صحف العالم أزمة الورق، فاضطرت إلى أن تنقص حجمها بعض النقص، وتقتصد في زينتها بعض الاقتصاد. ورأت أن تضمن لنفسها استمرار الحياة في هذا الدهر العصيب فطوت (الرواية) في أحشائها إلى حين ليتوفر لها ما كانت تنفقه أختها من الورق وتهلكه من المادة. وكل ذلك في رأينا ورأي القارئ الصديق أهون من التهور في الهجوم القاتل، أو التعرض للأشر المعطل

على أن هذه الحرب كربة ستنجلي وأزمة ستنفرج. ثم يعود كل شيء إلى خير مما كان وأحسن. ولئن ظهر أثر هذه الحرب الضروس على سمت الرسالة وحليتها، فمعاذ اللّه أن يمتد ذلك إلى تحريرها وخطتها؛ فإن التأثير الخارجي لا يتجاوز الخارج ولا يتعدى الشكل؛ وأما التأثير الداخلي الذي يمس الموضوع والجوهر والكنه فهو انبثاق الإيمان والفن من قلب الكاتب، وانتشار الاطمئنان والثقة من روح القارئ! وهيهات أن يعتور هذين المؤثرين فتور أو قصور أو وهن. وبين الرسالة وقرائها ولله الحمد ألفة وثقة وتعاون؛ ولولا ذلك ما ثبتت هذه الصحيفة الضعيفة على عرك الخطوب وكيد المطامع. ونحن لا نزال نأنس في أسرة الرسالة الكفاية والقدرة على إرضاء القارئ في كل جهات عقله وقلبه إذا استمر يوليها الثقة والمعونة. وسيرى أن الرسالة من غير أن تقطع وعداً أو تجدد عهداً تسير في طريق الكمال بقدم ثابتة وخطى متزنة، فلا تعسف لتضل، ولا تسرع لتكل، ولا تجازف لتنقطع. والرسالة في أناتها وثباتها لا تخرج عن سنن الطبيعة؛ فهي مظهر لرقي الأمة العربية في الفكر والخيال والشعور؛ وهذه المواهب لا ترقي في الفرد والأمة إلا بمقدار

صديقي القارئ، تعودت في مثل هذا اليوم من كل عام أن أستريح إليك بذكر ما لقيت الرسالة في طريقها الجاهد من أشواك وأشراك؛ ولكنني أخذت أستحلي الصَّاب في سبيل المبدأ، وأستعذب في بلوغ الفوز، وأستبقي لنفسي لذة الصبر وثواب الألم. ولئن شكوت لأشكون إلى الله أن كبراءنا عطلوا في أنفسهم حاسة الفن فلم يعودوا يدركون معنى الجميل؛ وأن أدباءنا قتلوا في قلوبهم عاطفة الأدب فليسوا اليوم من كرمها في كثير ولا قليل؛ وأن زعماءنا تفرقت بهم السبل بتفرق الغايات، فلكل غاية دعوة ولكل دعوة سبيل.

(قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني، وسبحان الله وما أنا من المشركين) صدق الله العظيم.

أحمد حسن الزيات

الإنسان والحيوان والحرب

للأستاذ عباس محمود العقاد

غير قليل ما يمكن أن يقال في الإنسان والحيوان والحرب، فإن الحرب تفتح المسارب بين الإنسانية والحيوانية على المصراعين بل على شتى المصاريع. وقد تفتح ما بين الإنسان وبين عالم البطولة والملأ الأعلى كذاك.

ففي وسعنا أن نزيد مقالاً آخر لأصدقائنا القراء الذين استزادونا من الكتابة في هذا الموضوع، وما أحفله بالحقائق والمشاهدات، وما أوسع منادح القول فيه.

الإنسان يتهم الحيوان بعدوى الحرب، ويزعم الحربيون من الأناسي أنها آفة لا معدي عنها ولا دواء لها، مذ كانت وراثة الطبع الحيواني حيث كان، مبتدئاً من الجراثيم ومنتهياً إلى الحيوان وفريق من بنى آدم يبرئون الحيوان من هذه التهمة ويحصرون آفة الحرب في أبناء آدم دون سائر الأحياء.

أمنصفون هم لذرية آدم؟ أصادقون هم في تبرئة الحيوان؟ بعض الإنصاف وبعض الصدق لا مراء.

فهم يسألون: أين الحيوان الذي يحشد الأسراب والقطعان لقتال سرب أو قطيع من جنسه؟ بل أين هو الوحش الذي يجمع أبناء جنسه لقتال جنس آخر من الوحش في الغاب أو في العراء؟ والحق أنهم في هذا السؤال محرجون، فالحرب كما نعلمها في ميادينها البشرية إنما هي خاصة من خواص أبناء آدم: هم دون غيرهم من الخلائق الحية يجمعون بعضهم لقتال بعض، ويخرجون على نية القتال حيث لا يقاتل حيوان وهو يعلم أو ينوي أن يقدم على قتال.

فالحرب ولا جدال إنسانية مقصورة على أبناء آدم، وإن كان العراك قسطاً مشتركاً بين جميع الأحياء.

وآخرون من الأناسيّ الحربيين يزعمون أن الحرب لا تزول لأن الطبيعة لا تتبدل. . . فما كان في النفس قبل آلاف السنين سيبقى في النفس بعد آلاف السنين!!

أصحيح ما يزعمون؟

صحيح بعض الصحة، لأن رأياً من لآراء لن يكون صحيحاً كل الصحة في جميع

الأحوال.
صحيح، والشاهد من عالم الحيوان الذي يحتجون به في استدامة البغضاء والشكاسة والقتل والقتال.
فأين كلب اليوم من أجداده بين الذئاب وأبناء الذئاب وأبناء آوى ووحشي الكلاب؟
كلب اليوم يحرس الحملان والأطفال، ويموت في سبيل الود والولاء. . .
وكلاب الأمس كانوا أخطر شيء على الحملان والأطفال، وأجهل خلق بالمودة والولاء.
فإذا جاز أن ينتقل الكلب هذا الانتقال وليست له حضارة ولا علوم ولا فلسفة ولا حالة عليا يصير إليها من حالته السفلى. . .
ألا يجوز أن ينتقل الإنسان مثله أو مرحلة أوسع من مرحلته، وهو يعبر المسافة بين الجهل الهمج وثقافة المهذبين؟
وللحيوان أنصار كثيرون بين أبناء آدم، أعجب ما في أمرهم أنهم أرفع الآدميين خلقاً وأبعدهم من الحيوانية شقة وأوفرهم من التقدم نصيباً، فهم - من بعض الوجوه - أحق بالانحناء على الحيوان من أولئك الذين يتعقبونه بالانحناء والتنديد، وهم أقرب الناس إليه!
أنصار الحيوان هؤلاء يكتبون العجب هذه الأيام في الذود عنه والرجعة بسيئاته إلى أصحابه من الآدميين. وقلما تخلو كتاباتهم من ظرف وفكاهة. . . أما العلم والإدراك فهما ماثلان أبداً فيما يطرقون من هذه البحوث.
لاحظ بعض العلماء المتفرغين للبحوث النفسية والحيوانية من الإنجليز أن الشجار قد ازداد بين الكلاب بعد نشوب الحرب الحاضرة، فبلغ عدد الكلاب العضوضة التي عالجتها مصحات الشرطة في لندن خلال شهر أكتوبر الماضي أربعمائة وعشرة، ولم يتجاوز في الشهر الذي قبله مائة وثمانية وتسعين!
أكثر من الضعف في الشهر التالي لنشوب القتال. . . فما تعليل ذلك؟
يقول مستر جونت خبير هذه المصحات: إنها عدوى الإنسان!!
فالكلاب، كما يقول: (مرهفة الحس بما يخالج نفوس أصحابها، تضيق صدراً إذا مَلكت صاحبها الحالة التي نسميها بالعصبية الحربية. وأنت إذا غضبت يوماً من قراءة أخبار الغارات الجوية خرج كلبك متحفزاً للوثوب على أول كلب يراه، ولا يعلم في أي شئ يقاتل، وليس لديه ما يسميه الساسة: أغراض حرب أو شروط سلام؛ وحسبه أن صاحبه ثائر، فهو مثله يثور!)
ثم يقول الأستاذ جونت: (ويجوز أن يرجع هذا المزاج الكدر في كلاب العاصمة إلى قلة الرياضة لكثرة الوقايات الهوائية وضرورة المكث الطويل في البيوت، أو لسفر أصحاب الكلاب إلى الريف، ولكن السر الأكبر ولا ريب، إنما هو تلك النزعة القتالية التي تسري إليها من عشرائها الآدميين).
أرأيتم إذن؟
إنه الإنسان الذي يلقح الحيوان بلقاح الحرب والعدوان، وليس الحيوان بالأستاذ السابق له في هذا الميدان.
والمسألة بعدُ واضحة من غير حاجة إلى هذه الدراسات الحديثة وإن كانت هذه الدراسات مضيفة في الغد بعض المعرفة الجديدة بالطبائع والأخلاق.
فواضح قبل هذه الدراسات أن الإنسان يستعين بالحيوان في حروبه، ولم يحدث قط أن حيواناً استعان بإنسان في افتراس ضحاياه واغتيال أعدائه.
ومن قديم الزمن يستعين الإنسان بالحصان والكلب كلما وقع في نزاع بينه وبين أبناء جنسه، وأقل من ذلك عذراً أنه يستعين بالحمامة وهي رمز السلام والسلامة في تبليغ أوامر الفتك والهجوم. فقد يعذر المستعين بالحصان والكلب على أغراض الحرب لأنهما كانا عصراً من العصور الغابرة معدودين في حساب الوحوش. . . أما الحمامة فما عذر من يقحمها هذا المقحم المخيف، وهي في غير ما قاله المعري عنها:
ظلم الحمامة في الدنيا وإن حسبت ... في الصالحات كظلم الصقر والباز
لا تتعرض لاتهام!
ومضى الناس في الحرب الحاضرة على سنة آبائهم من قديم الزمن، فلم يعتقوا الحصان بعد كل ما كشفوه من الآلات والمركبات. ولا يزال رجال من قادة الحرب يقولون إن له لدوراً لا يغنى فيه غناءه شيء ولا يلحقه فيه اختراع.

ولم يعتقوا الكلب بعد اختراعهم من أدوات التجسس والاستنشاء ما يرغم أنوف الكلاب، بل ضاعفوا الحرص عليها وصدرت أوامر الحكومة الروسية بتحريم خروجها من أرضها إلا
أن تكون معها شهادة إعفاء تثبت إنها (غير صالحة للخدمة العسكرية!)
والجديد فيما سمعنا به من مخترعات الحرب الحاضرة أنهم استخدموا الخنازير في بعض الجزر ببحر الشمال للتنبيه إلى الغارات الجوية، فإذا هبطت الطيارة المغيرة إلى الأرض على غرة من الرقباء صرخت الخنازير صرخة معلومة فتنبه الحراس إلى مكان الغارة.
كان الخنزير متهماً بالخبث قبل اليوم في غير برهان
أما اليوم فيحق لمن يقع في شراكه أن يقول مقال الغيظ أو مقال الاعتراف: ياله من خنزير!
ولكن في الحرب براً من الإنسان بالحيوان وليست كلها شراً في شر وعدواناً على عدوان
فإذا قلب الناس غداً صفحات الحروب الناصعة فسيجدون بينها صفحة من أنصع صفحاتها في هذه الحرب الحاضرة: تلك هي المصلحة التي أنشئت خصيصاً بالجزر البريطانية لوقاية الحيوانات أثناء الغارات الجوية. فأعدت الحكومة مئات الألوف من الصفائح التي تنقش عليها مواطن تلك الحيوانات وأسماء أصحابها وعنواناتهم للدلالة عليها وردها إلى مواطنها كلما شردت من الذعر إلى مكان بعيد عنها، وندبت الحكومة ألوفاً من متطوعيها للطواف على البيوت والحقول ابتغاء تسجيل ما فيها من فصائل الحيوانات المختلفة وتزيدها بالعلامات الدالة عليها. وأقامت ملاجئ للإسعاف متفرقة هنا وهناك لإيواء ما يحتاج إلى العلاج والإنقاذ من الحيوانات المصابة أثناء الغارات، ودبرت الأمر للعناية بالآدميين.
صفحة ناصعة في التاريخ الحديث، وحيوان من يجهل أنها مكسب روحي للإنسان قبل أن تكون مكسباً جسدياً للحيوان المصاب، حتى لو كان باعث التدبير فيها مقروناً بباعث العطف والإشفاق.
عباس محمود العقاد
فن كتابة القصة
للأستاذ محمود تيمور بك
يجمل بي قبل الشروع في الموضوع أن أشيرَ إلى أن الكتابةَ القصصية يجب أن يتوافرَ فيها ركنان: الأولُ: الموهِبة، والآخر: جريُ القصة على قواعدَ وأساليبَ متعارَفة. شأنها في ذلك شأنُ الشعر، لابد من توافر ركنين فيه: الشاعرية، وصحةِ النظم
ومما لا جدالَ فيه أننا قد نجد الشاعر الموهوب، أعنى من يَلْهم المعانيَ الشعرية، فيفيض بها وجدانه من غير تعمّل، فإذا حاول النظمَ لم تستقم له الأبيات، لقلة بِضاعته من قواعد العَروض، وحداثة عهده بصوغ الشعر. ومثلُ هذا لا يُعد شاعراً تاماً حتى يُكمل ما نقصه بالتعّلم والمرانة
وكذلك الشأن في القاصِّ، فقد نجد من أوتى الموهبة، أعنى الذي يُلهم فكرةً أو موضوعاً قصصياً له قيمة؛ ولكنه ناقصُ القدرة على معالجة موضوعه أو فكرته بالأساليب المقبولة عند أهل الفن في نَسْق القصة. وفي مثل هذه الحالة لا يسعنا أن نعتبر ذلك الموهوبَ قاصّاً مكتملَ النضج
وإذن يجب أن يتوافر للقاص الكامل هذان الركنان معاً؛ فأما الأول، وهو الموهبةُ، ومَعِينها الخيالُ المنسرح، والذهنُ المتوقد، والعاطفةُ المشبوبة، فلا كلام لأحد فيه، إذا هو شئ طبيعي، فإن وُجد في الكاتب تهيأ ليكون قاصّاً في المرحلة الأولى. وأما الركن الآخر، وهو الاستئناس بالأساليب المتعارفة، فذلك الذي نخصه بالكلام، لأنه صناعة، مرجعُ الأمر في امتلاك ناصيتها للتمرين والاكتساب
وقد يتوهم البعض - ونحن نذكر القواعد التي يجب على الكاتب القصصي مراعاتها - أننا إنما نطغى على حقه في اتخاذ طريقة خاصة تلائم هواه، ونحدُّ من حريته في اتباع المذهب الذي يراه. والواقع الذي لا يمكن التغافل عنه أن هناك قوانينَ عامةً مرعية الجانب في التأليف القصصي، على اختلاف المذاهب والأهواء، وأنه إذا خلت القصة من مطابقة هذه القوانين العامة، شعرَ الناقد لأول وهلة بأن هنا اختلالاً ظاهراً، وأن هنا

شيئاً يجب أن يُبدَل به شيء، لا دَخْل في ذلك للطريقة الخاصة، ولا للمذهب الخاص
وهل ينكر أحد أن كل شأن في الحياة يسير - في جوهره ولُبابه - وفَق نظام وقانون؟ تلكم
هي السيارة، فربما اختلفت أصنافها وأشكالها وعُددها أيّما اختلاف؛ بيد أنها - مع هذا
كله - يجب أن تكتمل فيها أدوات عامة مشتركة، إذا فقدت واحدة منها تعطلت السيارة
على الفور. وما القصة إلا عمل فنّي من نتاج الفكر، يسير كأمثاله من الأعمال الفكرية
على نظام دقيق، خاضع للناموس العام المعترف به في جميع ألوان الأدب
كذلك قد يعترض علينا معترض فيما نلزم الأخذ به من هذه الأصول والقوانين، فيرى أن
الفنان العبقريّ يصدر عنه العمل الفنيّ المشهود له دون تعلم ودراسة، ودون تدّرج
وتدريب. وجواب ذلك أن كبار الفنانين العباقرة، إنما يفهمون هذه الأصول والقوانين
بالفطرة الفذّة، ويهتدون إليها بالسليقة النيرة؛ فهم يخرجون أعمالهم الفنية بوحي من
قرائحهم الممتازة التي يكمن فيها النبوغ. وليس أدلَّ على ذلك من أننا لو سألنا أحدهم
عما صنعه في تأليف هذه القطعة أو تلك، وماذا لاحظ، لم يُحرْ جواباً. لأن ما أنتجه
صدر عن غير وعي منه
وقصارى ما نقرره، أن هذه الأصول والقواعد التي نلخصها في العُجالة التالية، ليست
إلا أقيسةً وموازين استخلصت لتكون أساساً تُبنى عليه الأحكام في تقدير القصص
الفني؛ فأن حرمت أن تكون عادلة كل العدل، لم تحرَمْ أن تكون أدنى إلى الصدق
وأحق بالاعتبار
ثم إن هذه الأصول والقواعد، تبِّصر القَصصي إلى حد ما بصناعة الكتابة في هذا النوع
من الأدب، وترشده إلى الخطوط الرئيسية في القصة، وتَقِفُه على المميزات الأولى
بين الخطأ والصواب في النسق. وما أشبهها في هذه الحالة بعلم البيان والمعاني
والبديع، فعلى الرغم من أن الكلمة الأولى والأخيرة في البلاغة للذوق السليم، وخضوع
الكلام لمقتضى الحال - وضع العلماء قواعد وأصولاً تتوضح بها أركان البلاغات، فقالوا:
هذه كلمة فصيحة، وهذه جملة بليغة، لتُميَّزها بكيتَ وكيتَ، وخلوِّها من كذا وكذا.
ومعلوم أن هذه القواعد لم توضع أولاً، ثم طلب من الكتاب والمنشئين أن يَجْروا
عليها؛ وإنما كانت هذه القواعد نتائج مستخلصة من أمثلة بليغة، أقر أهل البلاغة
بسموها، واتفقوا على جودتها، فاستخرجوا منها الأسباب التي رفعتها إلى هذه الدرجة،
وسرعان ما تحولت هذه الأسباب إلى قواعد.
وذلك هو صنيعنا نحن الآن في القواعد والأصول التي نعالج بسطها، ونقول إن القصة
الجيدة تتميز بها
وأَمَا وقد بدأنا نمسّ جوهرَ موضوعنا، فلنتذكر أولاً أن القصة هي عرضٌ لفكرة مرت
بخاطر الكاتب. أو تسجيلٌ لصورة تأثرت بها مخِّيلَته، أو بسطٌ لعاطفة اختلجت في
صدره فأراد أن يعبر عنها بالكلام، ليصل بها إلى أذهان القراء، محاولاً أن يكون أثرُها
في نفوسهم مثل أثرها في نفسه، وهي تتألف عادة من ثلاثة عناصِرَ رئيسية، هي:
الموضوع، والشخصيات، والحوار. وهذا العنصر الثالث ليس من المقوِّمات المحتومة
دائماً، ولكنه لازم في أغلب الأحيان. فتبدأ القصة بالتمهيد للفكرة، ثم تتطرق إلى
ظهور العقدة، ثم تتوصل إلى حل هذه العقدة أو ما يشبه الحل، وهذا هو الهيكل
المألوف في بناء القصة على وجه عام.
فمن القواعد في كتابة القصة، ما نذكره فيما يلي:
أولاً: أن تكون للقصة وَحدةٌ فنية. وبهذه الوحدة تتوافر فنية القصة. وما الوحدة الفنية
إلا أن يجعل الكاتب همه مقصوراً على إبراز الفكرة الأساسية، مجتنباً جُهدَ الطاقة أن
يتطرقَ إلى أفاق أخرى. وإيضاحُ ذلك أن يُراعِيَ الكاتب حصر عمله في جوهر
الموضوع، خالصاً من طغيان الزخرف، فلا تَطمسُ التفاصيل الثانوية ذلك الجوهرَ
الجدير بالعناية والإيثار. والقدرةُ الكتابية تظهر في التملك لزمام الصميم من الموضوع،
كالفارس القابض على زمام جواده لا يدعه يجمحُ به ما طاب له الجموح.
فواجب إذن أن يُخضعَ الكاتب جراِت قلمه لموضوعه، ولا يدع الموضوع خاضعاً لقلمه
يجرّه حيث شاء. فإن استطاع أن يخلص لموضوعه هذا الإخلاص ظهرت أفكار القصة
متعاشقة، وخرجت القصة بنياناً متراصاً لا حجر فيه لغير معنى.
ثانياً: أن يُراعى في عرض الموضوع جانب التلميح ما أمكن وأن يُحذَرَ جانب التصريح.

فلا يشرحُ الكاتب الموضوع ويحلل الشخصيات في شكل مهلهل، بحيث لا يترك شيئاً لفطنة القارئ وذكائه. فإذا لم يعن الكاتب بهذا الجانب كان مُتهماً قارئه بالغفلة وجمود الذهن إذ يوضح له ما ليس بحاجة إلى توضيح؛ وإذن تخرج القصة مكشوفة لا يجد فيها قارئها لذة التعرف بنفسه ولا يشعر بشوق إلى ما يجئ منها بعد. فلا بد أن يدع الكاتب للقارئ فرجة يستطيع بها أن ينتهي إلى التصريح من التلميح، وأن يُشيدَ الكبير من الصغير، وأن

يشقِ بمخيلتهِ - فيما يقرأ - آفاقاً من التصور والتفكير. وكما أننا نشير بضرورة أخذ الكاتب بالتلميح، نشير كذلك بألا يجنح إلى الإغراق فيه، مخافة التورط في الغموض والإبهام، فيضل القارئ في فَيافٍ لا يقر له فيها قرار

ثالثاً: أن يعني الكاتب برسم شخصياته، وأن يجعلها تصدر في أقوالها وأعمالها من منطق الحياة التي أراد لها المؤلف أن تعيشها بواعيتها الظاهرة، وواعيتها الخفية أيضاً؛ حتى إذا مضى القارئ في تفهم هذه الشخصيات، وتصور ما يقع من أمثالها، لم يجد نفسه مصطدماً بشيءٍ غيرِ مألوف يأباه المنطق أو الذوق. وما أجدر أن يلقيَ الكاتب كلَّ باله إلى هذا الجانب من البراعة في التحليل النفسي، فإنه يتوقف عليه شطر عظيم من فنية القصة.

رابعاً: ألا تكون الشخصيات بوقاً ينقل ما يلقى إليه المؤلف من الكلام، فيكون المتكلم هو المؤلف نفسه على لسان هذه الشخصيات الببغاوية. والواجب أن يكون للشخصيات كيانها المستقل، وأن تكون حية في حركاتها وسكناتها، وأن يُحس القارئ من أعمالها حرارة هذه الحياة، ويتعرف من فِعالها ما تتميز به من شمائل وحقائق. فلا تتكلم هذه الشخصيات إلا بالأسلوب الطبيعي الذي يلائم نفسيتها، ولا تعمل إلا وفق الحوادث على منهجها المرسوم لها. وبناء على هذه القاعدة، لا يجوز أن يدلنا الكاتب على شخصية بائسة، بأن يجعلها تقول: أنا بائسة. ولكن يعالج أن تُفصح الحوادث نفسها عن بؤس هذه الشخصية. وهذا إلا إذا كان الموقف بطبيعته يستدعي أن تتكلم الشخصية بلسانها، لتفصح عن حالها

خامساً: حتم أن يكون لكل قصة معنى، وإلا كانت القصة لغواً لا جدوى له. والقاص - ككل فنان آخر - مصور للحياة في مختلف ألوانها، مترجم عما يعتلج في رأسه وما يجيش في صدره من معان ومشاعر؛ فهو إذا كتب فإنما يكتب لتصوير هذه المعاني وإيضاح هذه المشاعر. ويصح أن نشير في هذا الصدد إلى أن معاني القاص في الغالب، إما مستمدة من الواقع الذي هو ملء مسموعه ومشهوده، وما هو في نطاق الجو المحليّ الذي يعيش فيه. وإما أن تكون هذه المعاني مستخرجة من صميم النفس البشري، تلك النفس الثابتة بميولها، الخالدة بغرائزها. إلا أن المجد الأدبي لا يكون من نصيب القصة التي يحذق كاتبها رد أصولها ومعانيها إلى أوصال الإنسانية الباقية بتلك الميول والغرائز. فرغبتنا إلى القصاص ألا يعنوا كثيراً بالموضوعات العابرة التي تتغير معالمها بتغير الزمان، وللناس حولها في

كل يوم شعور خاص، وحل خاص؛ فإنه إذا تبدل الوقت أصبحت هذه الموضوعات نسياً منسياً، وذهبت قيمتها الاجتماعية والمحلية

سادساً: يجب ألا تكون الفكرة التي يعالجها الكاتب في قصصه مصوغة في قالب موعظة أو حكمة، وألا يظهر فيها تحبيذ شيء أو النهي عن شيء. بل يجب أن تكون الحكمة أو الموعظة مطوية في غضون الحوادث، خالصة إلى القارئ دون معونة ظاهرة من المؤلف؛ وأن يكون التحبيذ أو النهي كامناً في أعطاف السرد، غير ملموس بالكلام المكشوف.

وذلك هو الفرق بين القصة والمقالة، فالقصة ليست منبراً للخطابة وإلقاء المواعظ، بل هي معرض للتصوير والتحليل، يوحي برموزه وظلاله وإشاراته إلى القارئ بالغرض الذي رمى إليه الكاتب القصصي.

سابعاً: يحسن ألا تخلو القصة من عنصر التشويق، وأعني به أن تستحوذ على القارئ في أثناء قراءته نشوة وروعة تدفعانه إلى متابعة القراءة في نشاط وانتباه. ونلفت النظر إلى أننا لا نبغي بعنصر التشويق أن ينقلب الكاتب مهرِّجاً يفتعل الحوادث افتعالا ليصل إلى هذا الغرض، حاسباً أن ذلك هو الذي يبعث الشوق، فإنه حينئذ يقع في أشياء سخيفة مفضوحة يبدو عليها التكلف والاجتلاب. فلابد من الحذق واليقظة في هذه

الناحية بحيث يكون فن الكاتب قادراً على أن يجعل مظاهر التشويق جزءاً طبيعياً من سياق القصة، فإنه بذلك يضمن انتباه القارئ ونشاطه، ويوفر له وسائل اللذة والاستمتاع.

ثامناً: ما يجب أن يجري عليه الكاتب في تحري قصته من وجهة اللغة. ونقدم لذلك بأن اللغة العربية في ذاتها لغة موسيقية، لألفاظها وأساليبها رنين وإيقاع. وقد أرف كتاب العصور المتأخرة في استغلال هذه الموسيقية بالمغالاة في الاستعارة، والإكثار من الترادف، والتزام السجع والطباق وما إليه. فبلغت الصناعة اللفظية مبلغاً كان فيه القالب أكبر من المعنى وأوسع مجالاً. ثم جاء العصر الحديث يزخر بموضوعاته العلمية، وبحوثه الاجتماعية والفنية، مما لا يحتمل البرشقة والزخرف. فأريدت اللغة على أن تكون القوالب على قدود المعاني، في غير إهمال لما تقتضيه خصائص اللغة من الموسيقية الأخاذة. فيجب أن يُعنى الكاتب إذن بلغة قصته، فلا يبالغ في التحاسين البيانية من نحو الاستعارة والتشبيه والترادف، بل يجعل الألفاظ على أقدار المعاني جهد المستطاع. ولا ينسينا هذا أن

بلاغة الكتابة تكون بمراعاة المقام، فالإطناب مستحب في مواقف الإطناب، والإيجاز مطلوب في مواقف الإيجاز. بيد أن هناك شيئاً تجب مراعاته على كل حال، وهو تجنب الأسلوب المبتذل، ونعنى بالابتذال في الأسلوب استعمال الألفاظ الشائعة شيوعاً يفقدها الرونق والرواء، والوقوف عند التراكيب الركيكة التي لا تستبين بها قدرة اللغة على التصرف في الأداء والتعبير. وإذا كان على القصصي أن يعرف للمعنى حدوده في الأداء، فإنه باعتباره أديباً عليه أن يتخير اللفظ الرشيق والتركيب الشريف.

وبعد فليست هذه كل القواعد التي يجب أن تبنى عليها القصة. وإنما هي معالم رئيسية اجتهدنا في استخراجها، ونرى وجوب اكتمالها في القصص الفني.

ونختم كلمتنا مصرحين بأن هذه القواعد نفسها لا تهدي القاص الناشئ، قدر ما يهديه اكتسابه للملكة التي يستفيدها من موفور إطلاعه على الآثار الفنية المعترف بها، وحسن تفطّنه إلى ما فيها من أسرار الجودة والإبداع.

محمود تيمور

نميمة الأسلوب

(لكاتب من الكتاب)

(ينم عليه أسلوبه)

كنت أرسلت إلى مجلة الرسالة كلمة أُحاور بها قلبي، ولم أُذليها باسمي الصريح، وإنما اكتفيت بالإشارة إلى أني (كاتب من الكتاب) فرأيت صاحب (الرسالة) يضيف إلى هذا الرمز عبارة (ينم أسلوبه عليه)

فهل كُتِب عليّ أن أعيش فريسة النمائم فأنتقل من كرب إلى كرب إلى أن تدركني نميمة الأسلوب؟!

وأين المفر من مظالم النمائم إذا صح أني لن أنجو من نميمة قلمي؟. . .

إن الرجل لا ينمّ أسلوبه عليه إلا بعد أن يصبح (كاتباً من الكتاب) تُنصَب لرأيه الموازين، وأنا كاتب من الكتاب منذ أعوام طوال، فما الذي غنمتُ من براعة القلم ورشاقة الأسلوب؟

ما الذي غنمتُ وأنا أمتشق القلم منذ أكثر من خمس وعشرين سنة بعزيمة أقسى من الصخر وأصلب من الحديد؟

ماذا غنمت وقد كنت كاتباً وشاعراً قبل أن يولد فريق من الذين تؤذيني عندهم نميمةُ قلمي؟

وهل أستطيع أن أطمئن إلى أن قلمي سيشفع لي إن قلتُ إن صحبته أضرعتني وإني أحتاج إلى الراحة بضعة أسابيع؟

وهل للقلم دولة في هذه البلاد حتى نجعله وسيلةً إلى الراحة من بعض المتاعب؟

وكيف وما كانت متاعبي في دنياي إلا مكاره ساقها قلمي إلى قلبي؟

وهل يُراعي القراء ما نطوِّق به أعناقهم من ديون؟

لقد غنّيت أهل زماني أناشيد أيقظتُ بها في صدورهم من أحلام غافيات، وأحييت فيها ما في قلوبهم من مَوَات، فأين من يُسعدني بكلمة صدق أدفع بها عُدوان زماني، لأمضي على سجيتي في السجع والغناء، ولأضمن السلامة من نميمة الأسلوب؟

وأين في الدنيا كلها من يتوجع لمصير البلبل حين يسكته المرض أو الموت؟
احتجزني فلان في الطريق ساعة أو بعض الساعة وهو يحاورني في شؤون دقيقة من خصائص حيات الأدبية، فظننته - وهو من أهل الجاه - يحاول أن ينصفني من زماني. ثم عرفت - وا أسفاه! - أنه يجمع المصادر لمقال يكتبه عني يوم أموت!
وفلان الذي صرح ألف مرة بأني شعلة من اللهب المقدَّس هو نفسه فلان الذي يرى اليوم أن أدبي من أعظم ذنوبي، وأن من الواجب أن أتوب!
أتوب؟ أتوب؟
أنا أحب أن أتوب من صحبة القلم، ولكن أين السبيل إلى المتاب؟ وهل يمكن ترك الصديق بسهولة، أيها الناس
أعطوني شيئاً من قدرتكم على نسيان حقوق الأصدقاء، لأتناسى حقوق قلمي!
علّموني كيف أغدر وكيف أخون، لأستطيع التمرد على عقلي وبياني!. . .
خذوني إليكم، أيها الساخرون من صولة العلم والحق، لأخلُص من صحبة العلم والحق!
خذوني إليكم في ملاعبكم وملاهيكم، عساني أنسي جاذبية البؤس في صحبة قلمي وكتابي!
لقد أفلحتم في زعزعة اليقين الذي كنت أفزع إليه حين تكثرني صروف الزمان، فأين أنتم لأشكو إليكم ما جنَتْ أيديكم؟ وأين السبيل إلى ترميم البناء الذي كنت أستظل به من قبل أن أنخدع بالبريق الذي أزغتم به فؤادي؟
أين؟ أين؟
أتذكر الآن كتاب لامرتين عن سِفر أيوب
فقد صْرح بأن الدنيا لو دُكتْ صروحها وذهب ما فيها من روائع الفنون والآداب ولم يبق غير سِفر أيوب، لكان كافياً في تسجيل ما تعاني الإنسانية من معاطب وحتوف.
وهل عانى أيوب في زمانه بعض ما عانيت في زماني؟
أيوب فقد الثروة والعافية ولم يفقد اليقين!
وأنا فقدت الثروة والعافية واليقين. أضاع الله من أضاعوني!
وأيوب استطاع أن يعاتب ربه بقصيد رنّان وهو في أمان من ثورة الجمهور، فظفر بالخلود في عالم الفكر والبيان.
وأنا لا أملك معاتبة ربي بسطر واحد خوفاً من رئيس التحرير، وخوفاً من شيخ الأزهر، وخوفاً من محكمة الجنايات وخوفاً من نميمة الأسلوب!!!
وأين فجيعة أيوب في دنياه من فجيعتي في دنياي؟
كان الدينار لعهد أيوب يُموِّن الرجل شهراً أو شهرين، وأنا في عهد يهان فيه الرجل أن أكتفي بالدينار يوماً أو يومين، فمن يُسلطني على دهري فأسجل رزاياه على نحو ما صنع أيوب؟
وكانت الأرض لعهد أيوب بلا رسوم ولا حدود، فكان المجاهد ينال منها ما يشاء كيف يشاء، وهي اليوم مقسمة تقسيماً يصدّ المجاهدين أعنف الصدود.
وكانت البحار لعهد أيوب مصادر خيرات، وهي اليوم مواقع ألغام ومسارب غواصات.
وكانت السماء لعهد أيوب مساقط غيث ومذاهب نسيم، وهي اليوم معارج طائرات ومصادر خطوب.
وكان النمام لعهد أيوب يؤلب عليه رجلاً أو رجلين أو بضعة رجال، لأن النمام لم يكن يملك غير سفاهة اللسان، أما النمام في هذا العهد فيستطيع أن يؤذيني بمقال في جريدة أو مجلة يقرأها ألوف أو ملايين، ويذهب شرها إلى من أعرف ومن أجهل في المشرق والمغرب.
وكان قوم أيوب يعدون بالألوف، أما قومي فيعدون بالملايين فبلواي بالخصومات أعرض من بلواه.
وكان لأيوب أعداء وأصدقاء، أما أنا، فلي أعداء وليس لي أصدقاء.
وكان أيوب نبياً تهابه الأرض وتؤيده السماء، أما أنا فكاتب من الكتاب تنفر منه الملائكة ويأتمر به الشياطين.
وصارت ثورة أيوب على بلاياه لحناً خالداً يُرتل في الكنائس والصوامع، أما ثورتي على زماني فستضاف إلى الأدب الحزين الذي لا يقام له ميزان.
ومع ذلك كان حزنه أهلاً للحمد، وصار حزني أهلاً للملام!

أيوب!
اسمع كلمتي، أيها الزميل في الأحزان!
إن النبوة عصمتْك من كيد الخاتلين والحاقدين، فلم نذق طعم الإيذاء في سبيل الحزن النبيل، والله الذي لم يولني شرف العصمة أولاني شرف إيذاء في سبيل الحزن النبيل.
فأين مكانك من مكاني، مع أني عبد مذنب وأنت نبيّ معصوم من الذنوب؟
كانت المدائن لعهدك لا تملك من المصابيح ما يشغل بصرك عن نجوم السماء، أما المدائن لعهدي فتعرف المصابيح في النهار قبل أن تعرفها في الليل، ومع ذلك لم تشغل بصري عن نجوم السماء
وكانت الدنيا لعهدك لا تعرف الضجيج، فكانت تملك الخلوة إلى خواطر قلبك
والدنيا لعهدي كلها ضجيج وأزيز وهدير، وأنا مع ذلك أخلو إلى قلبي وأدرس ما فيه من عناصر الوسواس والأحلام والأضاليل
فأن لقيت ربك وفي يمينك كتاب النبوة فسألقي ربي وفي يميني كتاب المحنة بوطني وزماني
فيا نبي الله، كيف تسبقني إلى رحمة الله وأنا أفقر أتليها منك، وأن كنت أحق بها مني؟
أيوب!
أنت تألمت وتوجعت لأن الوباء كان أغتال إبلك وغَنَمك فكيف ألام على التألم والتوجع وقد أهلك الطاعون أصدقائي وأحبابي؟
أيوب!
هل تعرف أني أملك من العزاء ما لم تكن تملك؟
فلو أنك قرأت تاريخ المسيح كما قرأتُ لخّفت مصيبتك وهانت بلواك
المسيحُ، يا أيوب، قد اكتوى بنار حامية هي غدر الصديق.
وقد صارت قُبلة يهوذا مثلاً سائراً في التاريخ، فهل تعرف كيف تكون القبلة شارة الحتف، وهي في الأصل لغة القلب؟
وأنا قرأت من تاريخ محمد ما لم تقرأ، يا أيوب، فقد لقي كثيراً من كيد المنافقين من الأصدقاء
فهل تظن مع هذه الشواهد أنك أجدر مني بالصدارة بين البائسين واليائسين؟
أنت على ما عانيتَ لم تعرف خيانة الصاحب ولا غدر الصديق، ولم تشهد كيف تُعدُّ حسناتك سيئات، ولم تقاس نمائم الأصحاب ولا (وشاية الأسلوب) ولعل الله كان رعاك فلم تر شخصاً تحسن إليه ويسئ إليك
فكيف تسبقني إلى رحمة الله، يا أيوب؟
خذ حظوظي كلها، يا أستاذي في الألم والوجيعة والحرمان، فأنا أحب أن أخرج من الدنيا بلا جزاء، لأستطيع القول بأني عانيت من البلاء ما لم يعان أيوب، عليه الصلوات!
وأنا مع هذا أعترف بأني ساعدت الزمان على نفسي، لأني تجاهلت أخلاق الزمان وما الناس؟ وما الزمان؟
يكفي أن أصبح وأنا برغم الناس والزمان:
كاتب من الكتاب
الأدب الفنلندي
للأستاذ صديق شيبوب
بينما تتجه أنظار العالم إلى فنلندة بمناسبة الحرب الغاشمة التي تخوض غمارها في جرأة وهدوء، جرى حادث أدبي نبه الأذهان إلى آداب هذه الأمة الباسلة، فقد فاز الأديب الفنلندي سيلانبا بجائزة نوبل التي يطمح إلى نيلها كبار الأدباء وعظماؤهم لأنها ذات خطر عالمي.
وقد كان هذا الحادث الأخير مفاجأة لجمهور الأدباء والمتأدبين في العالمين القديم والجديد، لأن الفكرة التي كانت شائعة عن الفنلنديين تتركز في ولعهم بالألعاب الرياضية وتفوقهم فيها، إذا كانوا يشتركون في الألعاب الأولمبية التي تقام في شتى بلدان العالم فيفوز لاعبوهم بأكثر من بطولة.
وقد رأينا - لهذه المناسبة - أن نلم بالأدب الفنلندي لبيان تاريخه ومناحيه.
ينطبع الأدب الفنلندي بطبيعة البلاد التي نشأ فيها وبأخلاق سكانها. وفنلندا قائمة في

الشمال الأقصى من أوربا، ذات غابات كثيفة وبحيرات عديدة، شتاؤها طويل، وصيفها نهار دائم. يسكنها شعب قاسي طول تاريخه أهوال البرد والجوع والحروب، فأكتسب مما قاساه صلابة وقوة، ومن طول الشتاء ميلاً إلى الخيال والأحلام. فلا عجب إذا اختلف في طبيعته عن الشعوب اللاتينية وعن الشعوب الجرمانية التي يمت إليها في أصله، وإذا ظهر أدبه في شكل يلائم أحواله وبيئته.

إنه يبحث في الأدب والفنون عن وسائل للتعبير عما يجول في نفسه تختلف عن وسائل الأمم الأخرى. وقد تظهر هذه الوسائل غريبة عجيبة، أو على الأقل غير منتظرة لشعوب تعودت دقة التعبير ووضوحه، وهما من مميزات شعوب البحر الأبيض المتوسط.

والأمم الغربية قد تأثرت بثقافة فكرية وفلسفية واحدة، غير أن المناحي الثقافية اضطرت أن تتأقلم وفاقاً لطبيعة كل إقليم، فظهرت في شكل يوافق كل بلد، وبدت كأنها تختلف عما هي في البلاد الأخرى.

لذلك نجد الأدب الفنلندي يعبر عن أخلاق سكان هذا الإقليم وما تتميز به من رجولة بارزة، وخيال واسع ذي ميول إلى الكآبة والحزن، وسذاجة القلب والطبع، كما يعبر عن طبيعة البلاد القاسية فيظهر في أسلوبه كأنه قبس مستمد منها، فضلاً عن عناية أدبائه بوصف هذه

الطبيعة وقواها وعناصرها

كان قدماء الفنلنديين يعيشون بين أحضان الطبيعة القاسية، فلا عجب إذا رأيناهم، في عصرهم الوثني، يؤلمون عناصرها ومظاهرها. وقد أستدل الباحثون من الأناشيد التي ترجع إلى ذلك العهد، على أنهم كانوا يصفون بالألوهية كل شجرة أو صخرة، ويعتقدون أن الغابات والبحيرات مأوى للآلهة. وسنعود إلى هذه الاعتقادات في معرض كلامنا عن ملحمة (كاليفالا)

وقد ظل الفنلنديون يدينون بالوثنية إلى القرن الثاني عشر، أي إلى أن بشرهم الأسوجيون بالنصرانية. ولكنهم ما زالوا إلى اليوم متأثرين بتاريخهم وعقائدهم القديمة.

ولما شع عصر الإصلاح في أوربا تأثر به الفنلنديون في أوائل القرن السادس عشر، فصدفوا عن التصوف الذي تميزوا به من قبل وأخذوا بتحكيم عقولهم في أمور الدين المسيحي وتفسير كتبه

مر قرنان بعد ذلك، وجاء القرن التاسع عشر، والأدب الفنلندي في سبات عميق لا يظهر له أثر. ولعل ذلك يعزي إلى أن دولة أسوج التي استولت على فنلندا منذ القرن الثاني عشر نشرت فيها لغتها حتى طغت على لغة أهل البلاد الأصيلة وكادت تزيلها من الوجود لولا أن القبائل المنتشرة في مقاطعة (كاربلي) احتفظت باللغة الفنلندية ونظمت فيها أغانيها الشعبية في تمجيد أبطالها ووصف شجاعتهم وحروبهم

وظلت فنلندا محتفظة بتقاليدها وبتأثرها بالأدب الأسوجي بالرغم من استيلاء روسيا عليها سنة 1809 وضمها إلى إمبراطوريتها.

ولكن الروابط الأدبية والثقافية بين روسيا وفنلندا جاءت على عكس الروابط السياسية. فكلما حاولت روسيا ربط الصلات السياسية والإدارية بينها وبين دوقية فنلندا الكبيرة أزداد الفنلنديون شعوراً بقوميتهم وتعلقاً بمدنيتهم. وهكذا أخذ الأدب الفنلندي يزدهر في أوائل القرن الماضي ولم يلبث أن أرتبط بالحركة الابتداعية التي كانت قائمة في أوربا في ذلك العهد.

كانت العناية بجمع الأغاني والقصائد الوطنية الحماسية وضمها في شكل ملحمة أول مظهر للأدب الفنلندي

كان الشعب يحفظ هذه القصائد ويتناقلها بطريقة الرواية، وكان لزاماً على من يعني بجمعها أن يطوف بالبلاد للبحث عن رواتها ونقلها عنهم

وقد قام (لياس لونرو) بهذه الرحلات فجمع ما استطاع جمعه من تلك الأناشيد الوطنية. وكان يعتقد أن هذه القصائد الشتيتة أجزاء متناثرة من ملحمة شعبية مفقودة زالت لحمتها خلال القرون المتتالية. ويقول النقاد إن هذا الاعتقاد خاطئ، ولكنه نتج عنه عمل يعد نسيج وحده في الأدب العالمي: ذلك أن (لونرو) كان شاعراً، وقد ساعدته هذه الميزة على ضم القصائد وإنشاء لحمة بينها حتى برزت في شكل ملحمة قد لا يجد فيها بعض النقاد الشروط الفنية لنظم الملاحم كما يجدونها في الإلياذة مثلاً،

ولكن الذين يوجهون إليها هذا النقد يقررون أنها فريدة في بابها من حيث أنها الملحمة الوحيدة التي أشترك في وضعها جمهور الشعب.
أما القصص المروية في هذه الملحمة، التي أسماها جامعها (كاليفالا) فساذجة بسيطة. كان الشعب الفنلندي وثنياً يؤمن بالرقي والتمائم ويعتقد أن الطبيعة ملأا بالجن، بعضهم للخير وبعضهم للشر، وأن الجن لا يتداخلون في شؤون العالم إلا إذا طلب إليهم السحرة ذلك. فالسحرة هم بمنزلة الكهان يحفظون عبارة الطلاسم العجيبة التي يستطيعون بها أن يتحدثوا إلى الشياطين لاجتناب أذاهم أو اجتناب خيرهم. وهكذا جعلت هذه الديانة الساحر شخصاً عليماً بكل شؤون الحياة، فهو الحكيم العليم ببواطن الأمور، وهو الطبيب الشافي من كل داء، وهو الشاعر المنشد والمغني المطرب. ويظهر أن الشاعرية عند هذا الشعب قد تفتقت من ألفاظ السحر الغريبة.
وهذه السذاجة في العقيدة لم تساعد على خلق ميثولوجي على الطريقة الرمزية المعروفة عند الشعوب الأخرى حيث نجد العقل المفكر يخلق الآلهة التي ترمز إلى الحياة بأكملها. أما عند الفنلنديين فالحالة على غير هذا، لأن الباحث في ديانتهم يجد آلهة لا يفهم معنى وجودها أو ما ترمز إليه. ولم تحتفظ ملحمة (كاليفالا) بما يستدل منه على الرمز الذي تعبر عنه الآلهة.
فمن أمثلة ذلك خلو الملحمة مما يشير إلى مركز (فانيا موينن) بين الآلهة، ويقول الباحثون إنه كان إله البحر في ديانة الفنلنديين القديمة
ولعل السذاجة في الدين هي التي جعلت هذا الشعب ساذجاً في قصصه، لأن ما ترويه ملحمته الطويلة ليس سوى حكايات أطفال وهو وجه الغرابة فيها، وهو أيضاً ما يجعلها في أكثر الأحيان عذبة جذابة. إن الأطفال إذا وضعوا قصة جاءت لا رأس لها ولا ذنب، كما يقولون، أو لا أول لها ولا أخر، لأنها تعتمد على المفاجآت الغريبة والأعمال العجيبة أكثر مما ترمي إلى أي غرض آخر. ويظهر أن خيال الشعوب في عصرها البدائي لا يختلف عن خيال الأطفال الصغار.
وهناك ظاهرة أخرى تجعل ملحمة (كاليفالا) تختلف عن غيرها من الملاحم. ذلك أن الملاحم القديمة كالإلياذة والأوديسة وغيرهما ترمي إلى غايات مقررة لأنها وليدة مدنية قائمة، بينما لا نجد في الملحمة الفنلندية شيئاً مثل هذا، لأن قصصها وليدة خيال ساذج جامح، بحيث نبحث فيها عبثاً عن رمز للناس والأشياء والآلهة والديانة والأخلاق.
على أن أجزاء من هذه الملحمة تحوي اعتقادات الشعب الفنلندي وتصف العواطف الأصلية في قلب الإنسان.
وقصة الخليقة كما جاءت فيها قطعة لها نضارة الشباب وسذاجة القلوب الطاهرة، وهي تصف في مستهلها العذراء (أيلماتار) إلهة الهواء تزوجت من الموجة وظلت تتقاذفها الأمواج في وسط المحيط العظيم حتى جرى مما ننقله عن الترجمة الفرنسية:
جاء طائر جميل من نوع البط فطار محلقاً باحثاً عن موضع ليبني فيه عشه. . . فطار) شرقاً وغرباً، وطار جنوباً وشمالاً، فلم يقع على موضع يبني فيه عشه الصغير ومسكنه الجميل
طار طويلاً محلقاً في الفضاء يفكر قائلاً (ترى هل أضع عشي على متن الهواء، أم أبني بيتي على صفحات الماء، فيذرو الهواء عشي، وتتقاذف الأمواج بيتي
عندئذ أخرجت عذراء الهواء وأم الأمواج الجميلة من الخضم الواسع ركبتها متيحة) بذلك مكاناً للعصفور ليبني فيه عشه العزيز.
كان العصفور الجميل لا يزال محلقاً فرأى ركبة العذراء قائمة على صفحات المياه) الزرقاء كأنها قطعة أرض معشبة
فخفف من طيرانه، وحط على الركبة فبنى عشه، ووضع فيه بيضه، وكانت ست منها) ذهباً وواحدة حديداً
وأقام الطائر على البيض يحضنه للتفريخ حتى وصلت الحرارة إلى ركبة الإلهة، حضن) العصفور بيضه يوماً، ويوماً آخر، وفي اليوم الثالث شعرت عذراء الهواء وأم الأمواج الجميلة بحرارة حتى ظنت أن ركبتها تحترق وأن جسمها يذوب
فنفضت ركبتها ومدت رجها فجأة فهوى البيض في اليم وغاص في جوف الخضم) وتكسر

ولكن البيض لم يصل إلى قعر البحر، ولم يقم في جوفه، لأن كل جزء منها تحول إلى)
أشياء نافعة صالحة، تحول أسفل قشرة البيض إلى الأرض وأعلاها إلى قبة السماء،
وصار ما يعلو الصفار الشمس الساطعة، وما يعلو المح القمر المنير، وانتثرت قطع
صغيرة من القشر نجوماً ترصع السماء. . .(
يقول بعض النقاد إن في هذه القصة إبهاماً كثيراً، لأنه لا يفهم جيداً ما ترمز إليه الأشياء
المذكورة فيها، فلماذا اختير طير البط؟ ولماذا جعل عدد بيضه ستاً ذهباً وواحدة
حديداً؟ ولعلها كانت وسيلة لخلق صور جديدة، وهي على كل حال صور خلابة ساحرة
إذا تناولت ملحمة (كاليفالا) موضوعاً يمت إلى العواطف الإنسانية كانت مثيرة مشجية.
من ذلك قصة الأم التي فقدت ولدها فسارت في الأرض باحثة عنه حتى وجدته مجندلاً،
فنفخت فيه حياة جديدة؛ وهي ترمز إلى الأمومة بطريقة شعرية بسيطة.
أنظر كيف أخذت الأم تبحث عن أبنها:
بحثت الأم عن الضائع، ونادت أبنها المفقود، فاجتازت المستنقعات كما تجتازها الدببة)
واخترقت البحار كما تخترقها الأسماك وطافت بين الحقول والشواطئ وبحثت بين
الأشجار ثم نبشت الأرض لتنظر ما تحت الطرق وجذوع الأشجار
بحثت طويلاً عن ولدها، بحثت طويلاً وتحدثت إلى الأشجار لتسألها عن المفقود،)
فاضطربت شجرة الصنوبر، وقالت شجرة السنديان: إن لدي من الهموم ما يلهيني عن
أبنك، خلقت لمصير قاس واحتمال أيام مؤلمة، خلقت لوقيد النار أو بناء الأهراء
بحثت طويلاً عن ولدها، بحثت طويلاً فلم تهتد إليه. وتقدم الطريق إليها فانحنت أمامه)
وقالت له: أيها الطريق العزيز الذي عبَّده الله، ألم تر أبني، تفاحتي الذهبية، عصاي
الفضية الصلبة؟
فأخذ الطريق يتكلم، وهذه هي العبارات التي قالها لها(:
لدي طائفة من الهموم تلهيني عن أبنك، خلقت لمصير قاس واحتمال أيام مؤلمة،
صنعت لتدوسني الكلاب وتطأني أقدام الفرسان، وتسحقني الأحذية الثقيلة
بحثت طويلاً عن ولدها، بحثت طويلاً فلم تهتد إليه. وتقدم إليها القمر فانحنت أمامه)
وقالت له: أيها القمر، أيها الكوكب الذي خلقك الله، ألم تر ولدي، تفاحتي الذهبية،
عصاي الفضية الصلبة؟
أجابها القمر، وهو الكوكب الذي خلقه الله، وقال في لباقة: لدي طائفة من الهموم)
تلهيني عن أبنك، خلقت لمصير قاس واحتمال أيام مؤلمة، يجب عليّ أن أهيم على
وجهي فريداً الليل بطوله.
يجب أن أنير في ليالي البرد القاسية، وأن أسهر ليالي الشتاء الطويلة، وأن اختفي في
فصل الصيف
بحثت طويلاً عن ولدها، بحثت طويلاً فلم تهتد إليه. وتقدمت الشمس إليها، فانحنت)
أمام الشمس وقالت لها: أيتها الشمس العزيزة التي خلقك الله، ألم ترى ولدي،
تفاحتي الذهبية الثمينة، عصاي الفضية الصلبة؟
وكانت الشمس تعرف شيئاً عنه، فأجابها كوكب النهار: أسفاً، إن أبنك التاعس قد)
اختفى فاقداً الحياة في نهر (تيوني) ذي المياه السوداء، في مياه (مانا) الأبدية. لقد
أحتمله التيار إلى منازل (تيوني) في وادي (مانالا. . .)
يلاحظ على هذه المقطوعة أنها في شكل أغان شعبية بما فيها من ترديد يزيد في
جمال الشعر، وبما تعبر عنه من عواطف بدائية. والمعروف أن الأغاني الشعبية تعبر
عن مشاغل الحياة وهمومها، ولا تعرض للحياة بمعناها العام وما تبعثه في النفوس من
إحساس عنيف، لأن الشعب لا يهتم إلا لما هو فيه ولأن التعبير عن الحياة بمعناها
المطلق وليد المدنية والثقافة.
(للبحث صلة)
صديق شيبوب
تحية الرسالة في صباح عيدها الثامن
للأستاذ محمود الخفيف
صباحك مثّل أحلامها ... وجدد يا عيد أيامها
صباح تهلل في المشرقين ... وضئ الأسِرَّة بسامها
على جانبيه ترُّف المنى ... وقد فتَّق البشر أكمامها

وتنفى أهازيجه الضاحكات ... كروب الحياة وأوهامها
تهز الفُراتين أصدقاؤها ... وإن من النيل إلهامها
تجاوب بغدادُ هذا الغناَء ... وكم عشقت مصر أنغامها
وكم هزت الكونَ دارُ الرشيد ... وأسمعت الدهر ترنامها
تحمّلها ودها جِلّق ... وقد عودت مِصر إعظامها
وكم بعثت من ربُاها الهتاف ... فحيت على النيل أهرامَها
خمائلُ لبنان تهفو لها ... ويستروحُ القدس أنسامها
لها منهما اللمحاتُ الوضِاءُ ... إذا استلهم الرأيُ أفهامَها
ويصبو الحجازُ وكم طاف منه ... خَيالُ يساور أحلامها
ويزجى الأغاريد سودانُ مصر ... ويختصُّ بالودِّ أعلامها
تهش لألحانه الغاليات ... وتعزو إلى الحبِّ إحكامها
تلقّى الرسالة في المشرقين ... بلاد تُوّشج أرحامها
تلاقى على الضاد أبناؤها ... وإن فرّق الملك أقوامها
لها الشرق إما مضت موطناً ... ويهوى بنو الشرق إكرامها
يطوف به إذ تُلِمُّ اليقين ... فإن من الرُّوح إلمامها
يحبُّ تسامحها كل حُرّ ... وما انفكَّ يكِبرُ إسلامها
يَدين بشِرعتها في الجهاد ... ويعلي عن الشك أحكامها
ألم يَرَ ماضيهَا العبقريَّ ... وقد أرهف الحق أقلامها؟
وَيبْلُ عزيمتها في الأمور ... إذا استعجل العصر إبرامها؟
وكيف مشت تستحث النفوس ... وتكشف في الشرق أسقامها؟
تعلمها كيف تأبى الهوان ... وترغم من رام إرغامها
تروض على البأس في قولها ... شبول البلاد وآرامها
وكم بدعة ساقها المبطلون ... فراحت تحطم أصنامها
غداً يحتمي ببنيها الذِّمار ... كما حمتِ الأسد آجامها
تجدد في العيد عهد الوفاء ... وقد صحب الصدق أقسامها
إذا أبهمت في الخلاف الأمور ... جلت بالصراحة إبهامها
ويعجزُ عن حلمها شانئٌ ... يحاولُ بالمْين إيلامها
وتقدِم لَكنها في الحياِة ... تريك عن الُهجر إحجامها
لها صفحة في سجل الخلود ... تعاجز في الشرق من رامها
تنزه شعري فلم أزجه ... رخيص المدائح نمامها
وما اهتز يوماً لغير العلي ... فغنى هداها وإلهامها
عرفت علاها فغنَّيتها ... وحليتُ بالدُّرِّ أعوامها
بدأت لها أمس غالي العقود ... ولن أبلغ الدْهرَ إتمامها
-

وصف ديك

للأستاذ عبد الرءوف جمعة

وديك كأَن الشمس يسطع ضوءها ... عليه بألوان ترفّ وتزهر
على رأسه المرجان تاجاً يزينه ... ومنقاره العقيان أو هو أنضر
على جيده فُوفُ من الخز لامع ... كمثل ضياء الشمس في الصبح أصفر
وعيناه أصفى من مُدام ابن هانيُ ... ومن طَل نيسان من الورد يقطر
إذا صاح في جوف الدياجى حسبته ... يقول لأهل النسك: الله أكبر
وإن صاح في وجه النهار حسبته ... يقول لمن ناموا: هلاً ويزمجر
أحسّ بما فيه من الحسن فأزدهى ... وراح بصحن الدار نشوان يخطر
ألست تراه شامخ الرأس مثلما ... يتيه على الألمان هِيس وهِتلر

من وراء المنظار

صنع في إنجلترة!. . .

جلسنا نتحدث فمال بنا الحديث فيما مال إلى مبلغ شعورنا بقوميتنا ومبلغ حرصنا على مظهرها، ورحنا نتساءل هل نحن كرماء لضيوفنا حقاً، أم أن في الأمر شيئاً غير الكرم؟ واحتدام الجدال كالمعتاد وعلت الأصوات، وتشعب الكلام واضطرب نظامه، وضاعت

الحجج جميعاً سليمها وسقيمها في ذلك الضجيج المتصل. وكانت أشد الدعاوى إيلاماً لنفوسنا أننا قوم نتلاشى في غيرنا ويسهل على أي قوة أن تسوقنا حسبما تريد وقطع هذا الضجيج دخول صديق لنا في رفقته شاب أخذ يقدمه إلينا، فحيا وحيينا، ثم جلسنا برهة صامتين، ومالت أنظارنا إلى هذا الشاب الذي بدأت معرفتنا به. وما هي إلا برهة حتى فطنت إلى أن منظاري قد وقع منه على شخصية أضيفها إلى ما عرفت من أشباهها من الشخصيات التي لا تكاد تفترق إحداها عن بقيتها في شيء وفي نفسي عن هذه الشخصيات التي عرفت معان استيقنتها فما أشك فيها أبداً، بيد أني أميل إلى تبينها في كل شخصية منها، فقد جرى الأمر في ذلك عندي مجرى التسلية، إن جاز أن فيما يؤلم ما يسلي كما جاز أن في المصائب ما يضحك!

ونظرت فإذا صاحبنا يضطجع في مقعده ويشمخ بأنفه، ورأينه يضع إحدى رجليه على الأخرى أولاً، ثم يمدهما معاً إلى حيث يستقر قدماه على مقعد خال ونعلاه قبالة الجالسين في غير تحرج ولا استحياء. . .

وأدخل يده في جيبه فأخرج بيبته وحشاها وأشعلها، وراح ينفخ في الجو من دخانه، دون أن يشاطرنا ما أخذنا فيه من الأحاديث. وشعرت وشعر أصحابي جميعاً بهذا التكبر السخيف، كأننا لم نكن أهلاً لمحادثيه. وكيف نكون عنده أهلاً لذلك، وليس فينا من خرج من مصر، كما تبين له من كلامنا؟

وكانت تختلج على شفتيه ابتسامة ليس فيها إلا معاني السخرية من عقولنا أو قل من جهلنا، وفي نفسه أننا لا زلنا على عقليتنا الشرقية جامدين ضيقي المعرفة، وتمنيت أن يتكلم لأرى شيئاً من عقليته الغربية التي عاد بها من إنجلترا. . .

ولم يطل تطلعي فلقد أخذ يجيب على سؤال وجه إليه، فسمعت وأنا أجهد في يكتمان ضحكي عبارة بين العربية والإنجليزية، فهي عربية الحروف إنجليزية النطق، الأمر الذي جعلها في جملتها قردية اللهجة والجرس. . . وكانت لا تسعفه ذاكراته أو كان يتكلف أن ذاكرته لا تسعفه ببعض الألفاظ العربية، فكان ينطق بها إنجليزية ثم يسرحها لنا كأنما يثق أننا لا نفهم تلك اللغة فهمه؛ وكان يكرر قوله: (لما كنت في إنجلترا. . .) كأنما يخشى أن ننسى أنه كان هناك، وهو يقدم تلك الحقيقة بين يدي حججه ليجعلها بذلك قاطعة صادعة

وليته ظل ساكتاً فلقد حمدت الله تعد كلامه الطويل على عقليتي الشرقية. . . وحيا الشاب تحية نصفها شرقي ونصفها غربي، وانطلق هو وصاحبه، والتفت إلى أحد أقراني وقال: أرأيت الدليل المادي على صحة ما أقول؟ وقال آخر: ما لهؤلاء لا يتكبرون ولا يزهون وقد افترضت الدولة فيهم الكفاية لمجرد ذهابهم إلى أوربا وإن بدا لها من أكثرهم تقصيرهم في أعمالهم، وافترضت في كثير غيرهم ممن لم ينالوا شرف الاغتراب الجهل وإن بدا لها فطنتهم فيما يناط بهم؟

وقلت في نفسي متى يفهم هؤلاء أن ليس بين التكلف والصعلكة كبير فرق؟ وأن في المصريين من سافروا مثلهم فتلقوا العلم في أوربا، ثم عادوا إلى وطنهم محتفظين بمظاهر قوميتهم فإن قلدوا غيرهم قلدوهم في العظائم، وأخذوا عنهم ما يشرفهم أخذه، ونبذوا ما يشينهم من سخيف المحاكاة. . .

وساورني خيال غريب عن أولئك المتكلفين، وذلك أنهم يضعون أنفسهم موضع السلعة في السوق، والسلع الإنجليزية يكتب عليها عادة (صنع في إنجلترا) لتزحم غيرها في الأسواق، وهؤلاء يباهي الواحد منهم بأنه - على حد تعبيره -

(عين)

الملاحة عند العرب

للأستاذ قدري حافظ طوقان

يهتم الغربيون بالملاحة وينفقون علها الأموال الطائلة لِمَا لها من أثر في الحروب والتجارة وسير العمران. وقد أصبحت مدنية الأمم تقاس إلى حد كبير بدرجة اهتمامها وعنايتها بالشؤون البحرية وبراعتها في بناء الأساطيل. وكان لها - ولا يزال - شأن خطير في مصير الشعوب، وكثيراً ما غيّرت المواقع البحرية مجرى التاريخ واتجاه الحضارة

والأمة العربية - وهي من الأمم التي لعبت دوراً هاماً في التاريخ وكان لها أكبر نصيب في تقدم المدنية - قد وّجهت بعض جهودها إلى ناحية الملاحة وخلّفت فيها مآثر خالدة

اعتمد عليها الأوربيون في ترقية الملاحة والتقدم في صناعة السفن. وقبل البدء في حديثي عن الملاحة لا بد لي من القول إن ناحية الملاحة عند العرب لا تزال غامضة لم تعط حقها من البحث والتنقيب. والذي نرجوه أن يحفز حديثنا هذا الهمم للعناية بالمآثر الإسلامية والآثار العربية في مختلف النواحي التي أدتْ إلى فتوح العرب الواسعة، والتي لا تزال محل دهشة علماء التاريخ

إن في بقض هذه النواحي صفحات لامعة يحق لنا أن نباهي بها أمم الأرض وأن نأخذ منها إلهاماً للاقتداء بالسلف والسير في خطاهم

ومن المؤلم حقاً ألا نجد أحداً من باحثي العرب ومنقبيهم عُني بناحية الملاحة عند العرب وتاريخ إنشاء الأساطيل. وعسى أن تلتفت جامعة فؤاد الأول والكليات الحربية بمصر إلى هذه الناحية، وأن تعمل على إظهار المآثر العربية فيها، وبذلك تكشف عن روح المغامرة التي امتاز بها العرب على غيرهم من الأمم، وتكون قد مهّدت السبيل لخلق روح الإقدام والشجاعة في أبناء هذا الجيل والأجيال التي تليه

والآن نأتي إلى موضوع الملاحة فنقول:

كان العرب في بدء فتوحاتهم يخافون البحر ويهابونه، وكيف لا يخافونه ويهابونه وهم أهل صحراء منقطعون عنه لم يتعودوا رؤيته فكيف بركوبه. ولم يكن الخلفاء الراشدون يشجعون ركوب البحار لخوفهم على أرواح المسلمين، ويُقال إنه حينما استولى المسلمون على مصر كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص يسأله أن يصف له البحر فكتب

إليه (. . . إن البحر خلق كبير يركبه خلق صغير، ليس إلا السماء والماء. إن ركد أحزن القلوب وإن ثار أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة. هم فيه دود على عود. إن مال غرق، وإن نجا برق. . .) فكان هذا سبباً في منعه المسلمين من ركوبه. وجاء أيضاً أن عمر بن الخطاب كثيراً ما عنف الذين يخوضون عبابه، فقد عنف عرفجة بن هرثمة الأزدي لركوبه البحر حين غزوه عمان. ولا شك أن السبب في منع الخلفاء هو خوفهم على أرواح المسلمين لأنهم لم يكونوا أهل بحر ولم يتعودوا السير على أعواده.

وبقي الأمر على هذه الحال إلى أن اتسعت الفتوح الإسلامية وأصبح من العسير بل من المستحيل حماية بعض البلاد ولا سيما وقد أصبح العرب مجاورين الرومان ورأوا أن الحاجة ماسة لحماية الشواطئ، ومن هنا بدأ اعتناؤهم بالملاحة فأخذوا في إنشاء السفن مثل الرومان، وفي مدة وجيزة صارت لهم دراية وخبرة بالبحار وركوبها وطافوا أشهرها وقهروا محيطات العالم واتصلوا بالبلاد البعيدة وعرفوا عنها الشيء الكثير. مهروا في صناعة السفائن وأنشئوا لذلك دوراً عظيمة وصار لهم في مختلف الأنحاء أساطيل أصبحت عرائس البحار وزينة الشواطئ متقنة الصنع كثيرة العد، تفننوا في صنعها وأدخلوا تحسينات جمة على آلاتها ومعداتها، ووضعوا لها الخرائط والمصورات البحرية وكانوا على علم بالأوقات الملائمة لخوض البحار وعلى معرفة تامة بأوقات هبوب الرياح. اتخذوا المنائر في المرافئ وفي المواضع الخطرة لهداية السفن واستعملوا الإبرة المغناطيسية لتعيين الجهات

ولا حاجة إلى القول إن أساطيلهم كان لها أثر كبير في ازدياد قوة الإسلام واتساع رقعته، فلقد تمكن العرب بواسطتها من فتح سردينيا وصقلية وقبرص ومالطة وكريت، وكذلك تم لهم الاستيلاء على كثير من شواطئ البحر الأبيض المتوسط وبعض شواطئ فرنسا. ولقد وصل الأسطول الإسلامي الأندلسي في عصر عبد الرحمن الناصر إلى مائتي مركب، وكذلك أسطول أفريقيا إذ وصلت أساطيل المسلمين في دولة الموحدين من العظمة والفخامة إلى ما لم تصل إليه في أي عصر آخر وبلغت في أيام المعز لدين الله بمصر ستمائة قطعة. وجاء في مقدمة ابن خلدون أن عدد أساطيل المسلمين في أوربا وأفريقيا في القرن الخامس والسادس للهجرة وصل إلى مائة أسطول!. . . وكانت أساطيلهم هذه على أنواع، منها التجارية ومنها الحربية، والأخيرة تتركب من سفن ومراكب مختلفة منها ما هو خاص

للدفاع يقيمون فيها الأبراج والقلاع أطلقوا عليها اسم (الشونة). ومنها ما هو خاص بحمل المنجنيقات التي يُرمي بها النفط المشتعل على الأعداء، وقد أطلقوا عليها اسم (الحراقة)، ومنها الطرادات وهي سفن صغيرة سريعة الجري، ومنها سفن تختلف عن التي ذكرنا لأغراض حربية وغير حربية. وللسفن الحربية معدات وأدوات منها (الزَّرَد) و

(الخود) و (الدَّرَق) - والأخيرة أتراس من جلد ليس فيها خشب. وكانوا يستعملون عدا هذه الرماح والكلاليب وسلاسل في رؤوسها رمانات من حديد. وكثيراً ما كانوا يستعملون قوارير النفط يرمون بها الأعداء وهي في حالة اشتعال. ومن العجيب أنهم كانوا يستعملون أيضاً مسحوقاً ناعماً من مزيج الكلس والزرنيخ يرمون به مراكب العدو فيعمى الرجال بغبارها. وكانوا يعلقون حول المراكب من الخارج الجلود أو اللبود المبلولة بالخل والماء والشب والنطرون أو الطين المخلوط بالبورق والنطرون ومواد أخرى لتخفيف أثر النفط المشتعل. وقد وفق العرب على سر تركيب النار اليونانية بعد أن فتكت بهم في مواقع حربية كثيرة وأوقعت في بعض الحالات خللاً وفوضى في معسكرا تهم وسفنهم وصاروا يستعملونها في حملاتهم البحرية على شواطئ إيطاليا وبعض جزائر البحر الأبيض المتوسط. ويرجع بعض الباحثين أنها تتركب من (زيت النفط) والكبريت والجير والقار بنسب لا تزال مجهولة، وينتج عن هذه المركبات سائل ملتهب يحدث دخاناً وانفجاراً عظيمين كما تخرج منه نار تشعل الأجسام التي تلامسها أو التي تقع عليها. واستعمل الموحدين هذه النار في حصار (لبلة) من أعمال البرتغال في القرن الثالث عشر للميلاد لدفع جيوش ألفونسو العاشر ملك قشتالة. ويقال إنهم (أي العرب) استعملوا آلات يقذفون منها على الأعداء حجارة ومواد ملتهبة يصحبها دوي كالرعد، ويرى بعض العلماء أن هذه الآلات ليست إلا قاذفات النار اليونانية ومن طريف ما يروى أنهم كانوا يستعملون طرقاً مبتكرة أثناء الحروب تدل على فطنة وذكاء وشدة حذر وبراعة في وسائل الحيطة، فقد كانوا يطفئون الأنوار (أي لا يشعلون ناراً)، وكانوا إذا أرادوا تضليل الأعداء والمبالغة في الاختفاء يسدلون على مراكبهم قلوعاً زرقاء حتى لا تظهر عن بُعْد. وهذا يذكرنا بوسائل الوقاية التي تستعملها الدول الأوربية المتحاربة من إطفاء النور واستعمال الضوء الأزرق في السيارات. وجاء في بعض الكتب

أن العرب كانوا لا يتركون ديكا في (المركب) أثناء الحروب، وذلك خوفاً من صياحه الذي قد يستدل منه على مكان المركب

ولسنا الآن في موقف نستطيع معه تفاصيل المعدات الحربية الأخرى التي كانوا يستعملونها، كما أنه ليس هناك مصادر نستطيع منها سرد الطرق التي كانوا يتبعونها في البحار، وقد يطول المقال إذا أردنا وصف الاحتفالات الرائعة التي كانت تجري عند إخراج الأساطيل للحرب. وهذه كلها لا تزال في حاجة إلى من يتعهد جلاءها ويقضي على غموضها. ويؤلمنا أننا لم نسمع عن هيئات علمية أو أفراد اهتموا بهذه الموضوعات أو صرفوا لها بعض جهودهم وعنايتهم. وعلى كل حال فمن مطالعة لبعض الكتب القديمة ومؤلفات جديدة تمكنا من تهيئة هذا الحديث. وقد تجلى لنا منه أن العرب وصلوا في الملاحة إلى درجة لم يصل إليها غيرهم من قبلهم إذ جعلتهم سلاطين البحار وغزارة المحيطات، وكان لذلك تأثير كبير في فتوحاتهم وفي اجتياح كثير من الجزر البحرية وشواطئ البحر الأبيض المتوسط. وبقى العرب أسياد العالم في البحار إلى أن قامت عليهم قيامة الغرب بحروبه الصليبية وقيامة المغول والتتار وهبت عليهم عواصف الفتن والقلاقل فضعف شأنهم وأضاعوا عزهم ومجدهم واستولت عليهم غفلة طويلة وجمود مروع كاد يذهب بالكيان والخصائص التي يمتاز بها العرب على غيرهم وكاد يستحيل كل هذا إلى اضمحلال وفناء. . .

(نابلس)

قدري حافظ طوقان

رسالة الشعر

صلاة محترقة!

إلى بنفسجتي

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

خانَكِ النُّورُ - فلا كان - ودَّسنْكِ الغيوبُ

فَوْقَ سَفْحٍ أُفْقُهُ الغَيمانُ مشبوبُ كئيب

وكَئيبٍ صمتُهُ في الرُّوح وَسواسُ رهيب

تَدْرُجُ الشمسُ عليهِ الرَّوابي وتَغيبُ. . .

وْهوَ مفجوعُ الثَّرَى يا زهرتي يَبكيِ لوَجْدِكِ . . .

مُزْعِج الوَحشيَةِ كالمصْلوب لهفانُ لِبُعدِكْ!
زُرْتُهُ والفجرُ - يا فجرىَ - في الوادي ربيبُ
خَطْوُهُ نحوَكِ سحرُ وصَلاةُ وطُيوب
وأنا خَطْوِيَ أناتٌ وشجوُ ونحيب
فالتقى عندَكِ ضِدَّانِ: شروقُ، وغروبُ. . .
أَلَقُ الشمسِ مِنِ الدُّغْرِ شَليلُ حوْلَ مَهدِكْ . . .
ودُجَى الأحزانِ في نفَسِيَ صخَّابُ لِقيدِكْ!
والنَّدَى أدمُعُ أرْواحٍ حزانى، وقُلوبُ
راعها حُزْنكِ في الفجرِ فأمستْ لا تجيب
كلما ساءَلْتُها عَنكِ تَغشَّاها شُحوب
وبكتْ مِثلي وقالتْ وهْيَ في الصَّوْءِ تَذوبُ:
لَيتنا حبَّاتُ ساجداتٌ فَوْقَ عِقْدِكْ
أوْ شُعاعاتٌ بَراها الله أكماماً لِوَرْدِكْ!
أنا يا دُنيايَ منبوذٌ على الدُّنيا غَريبُ
ودُموعي في تُراب الدّهر أبلاها المشيب
كلما شارفْتُ أنوارِكِ صدّتْني الخطوب
مِثلَما شارفْتُ عن الجاثينَ لله الذُّنوبُ. . .
فابعثي يا ربَّتي طيفاً من النُّورِ لِعبْدِكْ . . .
فهْوَ في ظُلمتهِ الخرساءِ تمثالٌ لعِهْدِكْ!
وعد!. . .
(مهداة إلى شاعر الإسكندرية الأستاذ خليل شيبوب)
للأستاذ أحمد فتحي
لِمَ أَخلفْتَ موْعِدي ... يا حبيبي، وسيِّدي؟!
هل تناسيتَ، أم نسي ... ت، على غيرِ مَقصدِ
أمْ تَلَكأتَ في التَّجَمْ ... مُلِ، إذ قُمْتَ تَرْتدي
زينةُ الُحسنِ عَوَّقَت ... كَ، فأخلفتَ مَوعدي
لستُ أنسى سُوَيْعةً ... قلتُ: يا (ساعةُ) اشهدي
أخلفَ الُحلوُ وَعدَهُ ... ليتهُ كانَ مُسعِدي
ليتهُ كانِ شاهداً ... واصِلاً، غَيْرَ مُبعِدِ
لِيرَى أنْ وقْفَتي ... جَمْرَةٌ. . . في تَوَقُّدِ
عقرَبا الساعةِ البطي ... ئانِ خانا تجُّلدي
فَكأني وقَفْتُ مِنْ ... صُبْحِ أمسى إلى غَدي!
عُدْتُ يَحدُونيَ الملاَ ... لُ، إلى رُكنِ مَعبدي. .
عَبَثاً أطلُبُ النعا ... سَ لِطرْفِي المُسهَّدِ!
أوْ أسرِّى لَوَاعِجاً ... عَنْ فُؤَادِي المشرّدِ
ثمّ ناجَيْتُ صُورَةً ... لَمَعتْ لَمَع فَرْقد. . .
سَحرَتْ جَوْ مَعبدِي ... واسْتعزتْ بها يَدِي
قلْتُ: يا رَسْمَ سَيَّدي ... آهِ، لَو كُنتُ أغتَدي
آهِ، لَو كُنتُ أغتَدي ... مِن حَبِيبِي بِمشهدِ
لِيَرَى مِن صَبابَتي ... كلَّ مَعَنى مؤكَّدِ. . .
وَأرَى مِنْ جَمالِهِ. . . ... كلْ فَنْ مُجدّدِ. . .
وأغَنّيهِ فِي الهَوَى ... كلّ لحْن مخلَّدِ. . .
يَا حَبِيبِي، وَسَيَّدِي ... لِمَ أخْلفْتَ مَوْعِدِي!
تحية الرسالة في عامها الثامن
جان دارك بين العرب
للأستاذ محمود غنيم
مشتْ مثل جان دارك بين العرب ... تشُدُّ عراهم بأقوى سببْ
تشقُّ الصُّفوفَ بعزم وتهتِ ... فُ باسم العروبة واسم الأدب
إذا هتَفتْ قلبَ طيرٌ شدا ... وإن خطرتْ قلتَ ليثُ وثب

تبِّشرُ بالضاد بين بنيها ... وأَكرِمْ بحرمة هذا النسب
وما وحَّدَ الجمعَ مثلُ اللسان ... ولَا اتحد الجمعُ إلا غلب
إذا اتحد الفكر في أمة ... تجمَّع من شملها ما انشعب
قد انتظمت أمم الضاد طُرًّا ... فكانت كعقدٍ وكانوا كحَب
بها تتلاقى العقولُ كما تَ - تلاقى الروافدُ عند المصَب
فذا كاتبٌ من أعالي الفُراتِ ... وذا من دِمشق وذا من حَلب
بكل يراعٍ أسدٌّ من السه ... مِ يغزو القلوبَ إذا ما كتب
فطوراً يمجُّ لُعابَ الأفاعي ... وطوراً يمج عصيرَ العنب
وطوراً له أحرفٌ من ضياءٍ ... وطوراً له أحرف من لهب
تطلُّ على العالم العربيَّ ... وترقُبُ أحداثه عن كثَب
إذا حرَّكتْ غيرَها الشهواتُ ... فلا رغَبُ عندها أو رَهَب
وتعلنُ عن نفسها بالسكو ... تِ عالمةً أنه من ذهب
وما أعلن المرءُ عن نفسهِ ... بمثل الأناةِ ومثل الدَّأب
ألا ما أقلَّ الثمار إذا ما ... تعالى الضجيجُ وزاد الصخب
بدَتْ ولها يومُ وضعِ المسيح ... وعمرُ المسيح الطويلُ الحِقب
تكلم هذا صبيًّا وتلك ... أتتْ وهْيَ في مهدها بالعجب
لقد جاء من خير أمٍّ وجاءت ... سليلةُ (أحمد) من خيرِ أب
فتاةٌ كفاها فخاراً أبوها ... إذا افتخرت غادةٌ بالحسب
تكادُ تسائلُ حين تراها ... هل الوحي بعد الرسول احتجب؟
وكم (للرسالة) من نُدماَء ... هي الكأسُ عندهمو والحَبب
إذا طلعتْ في سماءِ البيا ... ن لم يَسألوا: أيُّ نجمٍ غرَب؟
وقالوا: الرسالة قلتُ: وهل ثمَّ (م) ... أجدرُ منها بهذا اللقبِ؟
مشتْ بالسَّفارة بين البلادِ ... تخطَّى الوهادَ وتَرقي الهضَب
فأقسمُ ما قَّصرَتْ في الأداءِ ... وإن قصَّرَ القومُ عما وَجب
متى يعرفُ الناسُ أن الفتى ... - بلا أدب - دميةٌ من خشب؟
فما هوَ شعرٌ ونثرٌ ولكن ... هو الرُّوح للجسم وهو العصَب
يُمِدُّ الشعوب بكلِّ قواها ... وتذهبُ شوكتهم إن ذَهبْ
(الإسكندرية)
محمود غنيم مدرس بالمعلمين
-
رسالة الفن
دراسات في الفن
388
للأستاذ عزيز أحمد فهمي
- حقك اليوم أن أبخرك. . . كتاب في يدك، وتقرأ في الطريق؟
- ليس هذا كتاباً، وإنما هو دليل المعرض الدولي لفن التصوير الشمسي الذي تقيمه الآن جمعية محبي الفنون الجميلة. . . هل لك أن تصحبيني إليه لعلنا نرى شيئاً جميلاً؟
- يسرني هذا. . . هيا. . . فهي فرصة قد أقتنع فيها بأن التصوير الشمسي فن.
- أو لم تقتنعي بذلك إلى اليوم؟
- أحياناً أقتنع، وأعود في أغلب الأحايين فأشك، وتجئ أحيان أنكر فيها إنكاراً.
- ما دمت تقتنعين أحياناً، ولو قليلة، فإن هذا يدل على أن التصوير الشمسي فن، أما هذه الأحيان التي ينبعث فيها الشك من نفسك، والتي ينبعث فيها الإنكار، فلذنب فيها ليس ذنب التصوير الشمسي، وإنما هو ذنب المصورين الشمسيين، ولكي يتضح لك هذا عودي بالذاكرة إلى الصورة التي أعجبتك، والى الصور التي لم تعجبك، وحاولي أن تلمسي الفروق بين هذه وتلك لترى أنها كانت إصابات من مصورين وإخفاقات من آخرين. . . فبين المصورين من يطوف بآلته يلتقط الصور لكل ما يراه، وهذا يشبه في الشعراء الدكتور زكي أبا شادي الذي لا يستعصي شئ على شعره، فهو يستطيع بقوة الله أن يقول الشعر في الزهرة، وفي السحابة، وفي النملة، وفي البلاطة، وفي القمر، وفي القلقاس وفي كأس الخمر، وفي (كوز حمام)، وفي الراقصة الرشيقة، وفي

(الترسة) المتثاقلة، وفي الزمرد والياقوت وكلورور الصوديوم وبيكربونات الصودا وهناك نوع آخر بين المصورين للواحد منهم محل يذهب إليه الناس ليصورهم بالأجر، وأغلب هؤلاء يشبهون الكتاب العموميين الذين يكتبون للناس ما يريدون كتابته بالأجر أيضاً، والذين يكتبون فيما يكتبون فرحاً وحزناً، وبشرى وإنذاراً وحوادث وأخباراً من غير أن تهتز في أنفسهم خلجة ولا عاطفة، وأقلهم تطيب لهم بعض الوجوه فيخرجون لها أحسن الصور. . . وفي الكتاب

العموميين أيضاً من يفعل مثل هذا إذ تطيب له بعض الموضوعات فينطلق قلمه بأحسن ما يكتب. . . وهناك نوع ثالث بين المصورين له اتجاه خاص، فهو لا يصور كل شئ، وإنما يصور ما يروقه فقط، وإنما تنجذب نفسه إلى معان خاصة يرتاح لها، ومن هذه المعاني ما قد يُسعد ومنها ما قد يغذي الألم في نفس الفنان ويسقيه، وهؤلاء المصورون يشبهون كل فنان من أولئك الذين يمتاز الواحد منهم بطابعه الخاص وبلونه النفساني. . . وفي هؤلاء المصورين جميعاً الصادقون، وفيهم الكاذبون، وفيهم الهادئون، وفيهم المتكلفون وفيهم الجادون، وفيهم الساخرون. . . وللتصوير الشمسي بعد ذلك عالم كما أنه لكل فن عالم، وفي عالم التصوير الشمسي تجار يبيعون ويشترون، وفيه سماسرة يروجون، وفيه ناس طيبون يستهلكون، وفيه أدعياء يتحككون بالفن ويقتنون الصور، ويتأنقون في صنع (براويزها) وهم أبعد ما يكونون عن الفن، أبعد ما يكونون. . .

- كأني بك تريد أن تقول شيئاً في نفسك ولكنك تمسكه

- وهل خلَّيت شيئاً لم أقله؟ إلا أني معجب برئيس مجلس شيوخنا الذي يهتم كثيراً بالفنون الجميلة، وبهذه الروح الطيبة التي يرعى بها الفن كل من المسيو مارسيل فنسينو رئيس البنك العقاري المصري، ورينيه قطاوي بك مدير شركة وادي كوم امبو ويوسف قطاوى باشا الوزير السابق، والدكتور على باشا إبراهيم، وحافظ عفيفي باشا، وسعادة محمد طاهر باشا رئيس لجنة الرياضة الأهلية، وفؤاد أباظة باشا المدير العام للجمعية الزراعية الملكية والمسيو نوس مدير شركة السكر، والمسيو ريشارد موصيري الوكيل المفوض لبنك يوسف نسيم موصيري (أولاده وشركاهم)، وسائر أولئك النبلاء الذين يعطفون على الفن. . . ليس في نفسي إلا أن أنتهز هذه الفرصة لأشكر فيها هؤلاء الرجال الكبار باسم الفن. فهم من غير شك يضحون كثيراً من وقتهم الغالي، والغالي حقاً في سبيل التهذيب الروحي يرقون عن طريقه بأبناء هذه البلاد.

- هل تعرف أن هؤلاء لو اهتموا بالفنانين الذين تؤثر فنونهم في الشعب تأثيراً قوياً لأجدوا على بلادهم خير جدوى. ولازدهر الأدب والتمثيل والموسيقى و. . .

- الله حبب هؤلاء في التصوير الشمسي، وللفنون التي تتحدثين عنها قضاء آخر عند الله هو مقدِّرُه، فاشكري الله على ما قُسم. . واسكتي الآن فقد وصلنا. . .

- الله. . . تعال هنا. . . عند (41) إنها فتاة حلوة رائعة، أليس كذلك. . .

- من غير شك. . . و (28) أيضاً رائعة. . . وأظنك ترين الفرق واضحاً بين هذه وتلك. . . (41) فتاة مليحة اعجب بها مصورها (عزام جمال)، ولا ريب أنه شاب عذب القلب فيه كثير من أخلاق الصبيان. . . و (28) شاب في أواخر الشباب أعجبت به مصورته (آسيا)، وهي لا ريب فتاة عاتية، فإذا كانت رجلاً متنكراً باسم مؤنث، فهو رجل فيه رحمة وفيه حنان ولين. . .

- وهل تعرف أنت (عزام جمال) و (آسيا) وتعرف أخلاقهما؟. . .

- لا يا روحي. . . وإنما نفساهما في هاتين الصورتين. . . فالذي اختار هذا الوجه الصبوح الضحوك المنبسط الذي لا تجاعيد فيه ولا حزون تصوره هذه الصورة، لا بد أن يكون من عشاق الصباحة والضحك والانبساط والصراحة والوضوح. . . وإلا فلماذا اختار هذا الوجه وصوره؟. . . أما (آسيا) فقد صورت هذا الشاب المتكسر الشباب الذي يطل الشقاء من إحدى عينيه ويطل الصبر من الأخرى، فلا بد أن تكون من اللواتي يستهويهن الشباب المولّى واللواتي يطربن إذا رأين في عيون الناس صبراً وشقوة، وهذا لا تحبه إلا نفس الأنثى العاتية. فإذا طرب له رجل فبالرحمة يطرب له، وبالشفقة يستجيب إلى صبره، وبالتعزية يواسي شقاءه.

- ولم لا يكون الرجل قاسياً عاتياً هو أيضاً يحب أن يرى في عيون الناس الصبر والشقاء

- هذا لا يكون إلا في الرجال الجلادين، وأنا لا أظن أن الذي صور هذه الصورة هو (عشماوي) متنكراً باسم آسيا. من يدرى. . . تعال إلى (38) هذه. . . امرأة تنظر من النافذة مهتمة متلهفة هذه الصورة روماني اسمه افرامسكو ويسمنها (انتظار)
- ليت هذا المصور ذاد هذه المرأة عن النافذة قبل أن يلتقط هذه الصورة. . . فقد كانت عندئذ تظهر صورة ساكنة لبيت ساكن. . .
- ولكنه يخيل إلى أنه هو الذي دعاها لتقف في النافذة هذه الوقفة، ولتطل هذه الإطلالة، ولتهتم هذا الاهتمام، ولتتلهف هذه اللهفة. . .
- وأنا يخيل إليّ هذا أيضاً، وهذا هو ما يفسد عليّ الاستمتاع بهذه الصورة، ذلك أن هذه السيدة عند ما أرادت أن تلبي دعوة هذا المصور لبتها بإخلاص شديد جداً له هو، فقد مطت
نفسها في النافذة مطة ثعبانية، ثم نثرت في وجهها من علامات الاهتمام ما لا يمكن أن يبدو على وجه إنسان إلا إذا كان يرقب موكب الملائكة يوم الحشر، وتلهفت تلهفاً لا يمكن أن يتلهفه إنسان إلا إذا كان يرقب انشقاق السماء ليلة القدر حسبما يقولون ويروون. . . ومع أنها أدت هذه النوازع هذا الأداء المكبر، فإنها لم تستطع أن تخفي ما كان يجب عليها أن تخفيه وهو شعورها بأنها تعمل هذا كله كي يصورها الأستاذ أفرامسكو
- إذن فهذه صورة فاشلة. . .
- يؤلمني أن أقول هذا. . . ولكني أعتقد أن في هذا تعزية كبيرة للأستاذ أفرامسكو، فهو دليل صادق جداً على أن هذه الشابة مطاوعة له مخلصة لفكرته تود له من صميم قلبها أن ينجح. . . وهذا أمر من غير شك يرضيه. . .
- من يدري مرة أخرى. . . فلربما كان يريد أفرامسكو أن تفوز صورته بإعجابك وإعجاب غيرك من النقاد، ولو كان ثمن هذا الفوز روح هذه التي تقول إنها مخلصة. . . الست تعرف أصحاب الفن وسخفهم. . . من منهم جازي المخلصة إلا بكارثة. . .
- خذا موضوع آخر لا أوافقك فيه على رأيك هذا على الرغم من أن بعض الظواهر قد تؤيده. . . ولكن هذا ليس وقته. . . تعالى. . . سأختار أنا لك صورة. . .
- تعالى، انظري إلى هذه. . . (388) . . .
- انتظر لأرى من صاحبها. . . إنها من رسم سيدة أسمها مدام رايفون وهي من لندن، وقد سمت هذه الصورة (صورة). . فقط. . . وهي صاحبة (389) أيضاً وقد سمتها (عيد). . .
- عظيم. . . وهل تعجبك (389) هذه؟ فيها جمال حقاً ولكن (388) أبدع، وهي من غير شك أبدع ما في هذا المعرض. . .
- ولكن لا يزال أمامنا جزء من المعرض لم نره لعل فيه ما هو أبدع من هذه الصورة
- قد يكون هناك ما يساويها. ولكن لا أعتقد أن هناك ما هو أبدع منها. . . فقد قالت المصورة في هذه الصورة كل ما يمكن أن يقال.
- ولكني أرى في هذه الصورة تكلفاً كالذي رأيته أنت في صورة التي تنظر من النافذة. . .
- خسئ ما ترين. . . أين هو التكلف؟ . . .
- الصورة صورة شاب لا شك في أنه أوربي، ومع هذا فهو يلبس ملابس المماليك الأتراك أو الشركس، طربوش يوناني أو عثماني كبير كطربوش تمثال إبراهيم باشا، وقميص من الحرير، وصديري مفتوح، وحزام حرير يطل منه خنجر، و (سروال) ارتفع إلى مادون ركبتيه بقليل من أثر جلسته، فظهر جزءان من ساقيه. . . ثم هذه (البلغة الفاسية) التي أظن أنه كان يجب أن يكون مكانها (مركوب) أحمر أو أخضر ليماشي هذه الملابس التي لم يكن أهلها يعرفون (البُلغ) وأخيراً هذه الجلسة نفسها على هذه القطعة المخروطة من الخشب التي لا طبيعة فيها ولا صناعة والتي لا تشبه جذع الشجرة، والتي ليس مثلها كرسي، التي تكاد تكون صنعت خاصة لهذه الصورة. . . أو هناك تكلف بعد هذا كله؟
- هذا الذي تسمينه تكلفاً هو ما أسمه أنا إخراجاً. . . فصاحبة هذه الصورة لها خيال تحبه حققته فيها بهذا الأسلوب الذين ترين. فاختارت هذا الفتى الذي فيه ملامح خيالها المحبوب والذي تتعسفين كثيراً إذ تؤكدين أنه أوربي، لأنه قد يكون كما تقولين وقد

يكون شرقيًّا أيضاً، وهو كما ترين ممن يشهد الرجال لهم بالحلاوة والعذوبة، فما بالك بشهادة النساء؟ جبهة عريضة لم يغطها هذا الطربوش العميق الضخم وإن كان أخفى منها جزءاً وهي جبهة تدل على الذكاء والذكاء محبوب، وعيناه دعجاوان تنبعث منهما نظرة مرتاحة متأنقة كأنما تنتقي وتختار، وأنفه دقيق منتظم جميل، تناسق بتناسق نفسه واعتدل باعتدال مزاجه، ووجنتاه بارزتان بروزاً خفيفاً ينفي عن وجهه تراكم اللحم وغلظ الجلد، وعن روحه ثقل الظل وجمود الحس، وفيه واسع ولكنه يبدو كالضيق لأنه مكون من ثلاثة مستقيمات: واحد منهما متقدم والآخران منكسران عنه بزاويتين إلى الوراء فكل منهما في جانب والفم الواسع ترينه دائماً للمغنين والمتحدثين ذوي اللباقة وحسن التأثير، كما أن له أذنين مرتفعتين غير صغيرتين تفتحتا للسمع والإصغاء وشفتاه لا هما رقيقتان قاسيتان ولا غليظتان بربريتان، وذقنه صغير طرى كذقون الأطفال الأصفياء، وأصابعه طويلة دقيقة خلقت للترفه والعبث وفي إحداها هذا الخاتم المرصع باللآلئ والياقوت استغراقاً منه في جو النساء واصطناعاً منه لما تحبه النساء، وصدره قد انكشف عن القميص فبدا شعره كما بدا الشعر في ساقيه، والشعر في الرجل خشونة تنجذب إليها المرأة الناعمة. . . وهذه الملابس الشرقية التي تسخرين منها هي حلم من الأحلام يتردد في نفوس أهل الغرب، كما يتردد في نفوس الشرقيين الأمل في مشاهدة باريس وفيينا وبوخارست. . . وهذه القطعة من الخشب التي تعيبينها هي القاعدة التي أقامت المصورة عليها هذا الموضوع كله بما فيه من الفكرة والعاطفة والخيال بهذا الأسلوب الواضح المستقيم، والذي لا أظن أن غيرها يشاركها فيه إلا من كان مثلها منساقاً في فنه إلى طبيعته وفطرته. وهذه هي المرتبة العليا من مراتب الفن

- وما رأيك في (389)؟

- هي غطاء لهذه الصورة الجريئة الحلوة، فالسيدة رايفون لم تشأ أن تعرض (388) وحدها لئلا يفهم أن لها اتجاهاً نفسانياً خاصاً فجاءت بهذا (العيد) كما تسميه، وصورته فتاتين أسبانيتين بينهما شاب جميل المظهر حقاً، ولكنه كالدمية البلهاء، حتى إذا رأى الناس هذه الصورة رأوا فيها طهارة تجري مع التقاليد والعرف والآداب العامة، وتمحو أثر الصورة السابقة أو ما يمكن أن يكون لها من أثر، ولعلها جعلت (العيد) تالياً لصورة هذا الفتى تجيء بعدها في الترتيب لهذا الغرض نفسه، ولعلها أمسكت عن تسمية صورة الفتى بأي اسم من الأسماء تكتما أيضاً. . .

- وهل الفن عيب يتكتمه الناس؟

- ليس فيه من عيب، ولكن ناسا يخشون ما فيه من الحق وناساً يسيئون تفهم هذا الحق، وناساً يتخذون الحق سلاحاً يقتلون به الفنانين في نظر الجمهور قتلاً باطلاً وبهتاناً. . . على أي حال. . . إنك فتاة وتستطيعين عني أن تشيعي قبلة الإعجاب إلى صاحبة (388). . .

عزيز أحمد فهمي

الأدب في أسبوع

منهجي في هذا الباب

للأستاذ محمود محمد شاكر

عهد إليّ الأستاذ (الزيات) أن أتولى تحرير هذا الباب من (الرسالة)، فأجبت إرادته بالتسليم، وأنا أجد المعاني في نفسي حائرة لا تكاد تقر؛ فقد لحقتني إرادته والحياة من حولي تفتِّرني حتى ما أحس من فورتها إلا القليل، والنفس منبوذة على حدود النشاط في كسلٍ مجدب بالقحط والظمأ لا يهتدي إليه رِيٌّ ولا شِبَع. وإذا كانت النفس كذلك لم يأت خيرها إلا من طول الإحساس بالحرمان والألم، فهي تريد أن تتكلم من نوازعها بألفاظ ثائرة ضائعة حائرة كأنما تبحث عن نفسها في معانيها. . . ثم لا تتكلم، وثن على ذلك لا تطيق التأمل في المادة التي تعرض لها إلا بمقدار من الرغبة في البحث عن نفسها في سر نفس غيرها لتجد عند ذلك أسباباً تهتاج بها وتضطرب. وإذا لم تجد النفس لذتها المؤلمة إلا في انتزاع الآلام المحرقة مما ترى وتسمع وتتخيل، فكيف تعيش أفكارها إلا في دخانٍ من الأحزان الصامتة صمت الفكرة المختنقة التي لا تجد أنفاسها ولا جوّ أنفاسها. هكذا أجدُني

وهذه النفس المنبوذة بما جنت وبالذي لم تجن من شيءٍ، هي النفس التي أريد أن

أتولى بها النظر فيما يعرض لي من شؤون الأدب في أسبوع من أسابيع (مصر)، ولقد تشاكلا ووقع حافرٌ على حافر في حَلْبة مغلقة. فنفسي الآن هي نفسي التي لا أكاد أجمعها وألم أشتاتها إلا قليلاً، وما هو إلا أن أراها مبعثرة تَفِرّ مني أوابدها في كل وجه، وأقف أنا أتلفت. . . أنظرها وهي تغيب في ظلام الأحزان، وتترك عندي أطيافاً من الذكرى تطوف في تأملاتي مرسلة من مزاميرها ونايها أنغاماً حزينة مهجورة متفجعة كأنما تقول هذا مكان كان أهله ثم بادوا. وهكذا أيضاً أجدني

في بعض الإنجيل هذه الكلمة: (من وجد نفسه أضاعها، ومن أضاع نفسه من أجلي وجدها)؛ أفيكون معنى ذلك أن النفس الإنسانية لا توجد باقية أبداً إلا وهي مستهلكة، وأن الأشياء الشريفة التي تهلك هي بعينها التي تحيى، وأنه لا معنى للشيء الحي إلا أن يجتمع فيه معنى الأشياء الشريفة الموت والحياة معاً؛ وأن استغرق النفس واستهلاكها في الأحزان النبيلة وتعذيبها بها هو استحياؤها وتنعيمها، وأن العمل المهلك والفكر المهلك هما العمل

الإنساني الجليل الذي خلقت من أجله الحياة على الأرض! وعلى ذلك لا تكون النفس حية أبداً إلا وهي سائرة بالحياة في مسبعة من الموت، يتخطفها كل شئ حتى الأسباب التي يستوجب بها الحي صفة الحياة! إذن ما أعجب الحياة

وإذن فقد فرت مني المعاني التي أحمل نفسي الآن على علاجها، واستجهلتني الآلام في عواصفها حتى ذهبت هذا المذهب المزين من القول لأقدم به الكلام في هذا الباب الذي عقده (الزيات) للأدب، ومع ذلك فإني لأرى الصلة التي تصل أصل هذا الباب بالأصل الذي في نفسي، فإن تتبع (الظواهر الأدبية) ينبغي أن توفر له أسباب الاستقرار النفسي حتى يستطيع الكاتب أن يجمع إليه المعاني ويضرب عليها الحصار حتى يفندها أو ينقدها أو يحصيها أو يبين عن غامضها أو يكشف أستارها أو يقدم لها بالنظر والفكر والتوهم - ما يوجب بعض النتائج التي تفضي به الآراء إليها، وذلك يمكنه أن يوجد للأدب ميداناً تستعرض فيه أعماله التي يدأب الأدباء والكتاب والشعراء وأصحاب الرأي في صنعها وتجويدها. فإذا تناول هذا الأمر بالنفس التي لا تستقر ولا تهدأ كان عمله أقرب إلى الثورة - أي إلى الفوضى - من حيث يريد أن ينظم، ومع ذلك فإن الخير كل الخير أن نحاول الحياة كما تحاولنا بالاقتسار والعنف، وأن نقبل عليها وهي مدبرة بالبرهان على إمكان احتمالها جافية كانت أو ناعمة، ومؤلمة كانت أو مريحة، ومنصفة كانت أو باغية، وأن نأخذها من حيث نرى الرأي أنه هو أجدى وأنفع، وأيضاً فإن المصدر الحي للأدب إنما هو النفس، فهو يصدر عنها موسوماً بسمتها، أما مستقرة هادئة مفكرة في جو من الراحة، وأما ثائرة لماحة متخطفة في مسبح الأحلام والآلام والأماني المعذبة بالحرمان، فليس إذن من المنكر أن ينصب امرؤ لا تهدأ نفسه لمثل هذا الباب الذي وصفناه وأن يتناول هذا الأدب بما يتداوله من الإحساس المشبوب والنظر الخاطف والرأي العنيف أو أي ذلك كان

وأحب أن أعهد قبل أن أتكلم، فإني رأيت الأدباء قد أكل بعضهم بعضاً بألسنة كظهر المبرد، وتشاحنوا بينهم للكلمة التي لا ترفع ولا تضع، وتنابذوا على الأهواء الغالبة المستكلبة، ومن كان ذلك هجيراه ودأبه، فهو عند النقد أو الاعتراض كالوحش المجوع الغرثان قد أجهض عن أشلاء فريسته، يكاد ينقد عليه إهابه من الغيظ والحقد والرغبة في الإيقاع بمن يصرفه عن أحلام معدته. وهذا أسوأ الخلق وأبعده عن صريح نهج الأدب،

وأقله غناء في تهذيب الأديب، وما أظن أن في الدنيا العاقلة أديباً تخيل له أوهام (العبقرية) للطائفة به أنه قد سبق السهو والخطأ وبقي النقد والنقاد لقي وراءه يتلوذون بظلاله - في طلب البركة! ومع ذلك فأن بعض من عناه القدر فرمى به في غيل الأدب العربي يتصيد،. . . يقتات من أوهام العبقرية حتى حبط بوهمه في نفسه، واستكرش ونفش بما أكل حتى تضلع، ثم استلقى على الأفياء يتخيل أن الأدب كله قد وقف عليه من عند قدمه إلى رأسه يهدهده حتى ينام في ظلال الملك الهنيء. ومن كان هذا مثاله من الأدباء، وعرضنا لبعض قوله بالنقد، فلا يتخيلن أنَّا نعنيه هو بذاته - فهو موفور الأحلام على نفسه أن شاء الله - وإنما نعرض للقول على أنه كلام مقول يقع فيه السهو والخطأ، وتتعاوره الصحة كما يتعاوره السقم، وأنه كلام مصبوب على الناس وعلى أسماعهم وأذهانهم، فنحن بنقدنا كلامه، إياهم نريد، وإياهم نخاطب،

وعسى بعد أن يكون له في هدأة من نفسه رأي يتابعنا به إن أصبنا أو يسددنا ببيانه إن أخطأنا، وما نألو في الاجتهاد، ولكن ربما حرم الإنسان التوفيق فيما يأتي وما يذر هذه واحدة فيما نبدأ به؛ أما ما يقع بين الأدباء من المجادلات والمنافرات، فحقها من هذا الباب التسجيل، فإن بقي لنا في القول مقال نقوله - نتعقب به الأصل الذي يقع عليه الاختلاف والتنافر - لم نقصر في تحقيق البيان وتحريره، متعاونين في جعل الحقيقة أسرع إلى إثبات وجودها والدلالة على نفسها حتى تتجلى

وأما الشعر والشعراء وما يلوذ بهما، فأنا حين أغمض عيني لأجمع عليّ خيالي ورأيي وفكري، أنتهي إلى مثل الغيبوبة من الحسرة واللهفة والألم. فقد فرغ الشعر من بيانه ومعانية ومعارضه الفاتنة، ووقع إلينا أوزاناً تتخلّج بما تحمل تخلج المجنون في الأرض الوحلة، وما أظنه يعتصم في هذه الأيام إلا بشاعرين أو ثلاثة، ولكل منهم مذهب، وكل قد قذفت به الحياة في مهنتها وابتذالها حتى صار أكثر فراغه مستهلكاً على صناعة أو وظيفة تطعمه العيش وتحرمه لذته، ومع ذلك فهم يقولون ويتكلمون والسامعون ينصرفون عنهم لسوء رأيهم في الشعر الحاضر أول، ثم لكثرة ما يسمعون من كلام لا يحرك عاطفة لأنه لا يصدر عن عاطفة، وما يزال ذلك يتوالى عليهم، حتى أنهمك لا يكادون يعرفون السعر إلا هكذا ثقيلاً غثاً بارداً، فكيف لا ينصرفون عنه، ومن ذا الذي يرضى أن يحمل نفسه إلى

وهو يعد في العقلاء. فكذلك ضاع شعر هؤلاء الثلاثة في غثاثة الكثرة، ثم فترت (ثلاجة) أنفسهم ولا تزال تفتر - إلا أن يشاء الله - لما يجدون من غفلة السامعين عنهم، وليس كلهم يستطيع أن يقول كما قال صاحبهم الأول:

لم يَبْقَ من جُلِّ هذا الناس باقيةٌ ... ينالها الفَهْمُ إلاّ هذه الصُّوَرُ

أهزُّ بالشِّعر أقواماً ذوي وَسَن ... في الجهل، لو ضُربوا بالسيف ما شعروا

عليَّ نَحْتُ القوافي من مَقَاطِعِها ... وما عليَّ لَهُم أن تَفْهَم البَقَرُ

وكذلك نخشى أن يأتي على الناس زمان يضيع فيه الشعر الجيد أو يرفع حتى من صدور هؤلاء الثلاثة. ولست أدري الآن كيف يتاح لي أن أنهج مع الشعر والشعراء نهجاً يكون رضي ومقنعاً وباعثاً على تجويد الأساليب والمعاني حتى ينقذ الشعراء فنهم من الضياع؟ فلتدع هذا إلى حينه، والى رأي الشعراء في (مطالبهم)، فقد صار لكل أصحاب صناعة مطالب وحقوق - حتى النساء، فكيف لا يعرف الشعراء مطالبهم وحقوقهم وهم أرهف إحساساً وأنبل مقصداً وأبين بياناً!!

وأما الكتب التي تصدر في خلال الأسبوع أو قبله بكثير أو قليل فسننهج لها نهجاً مخالفاً لمنهج العرض الكامل أو النقد الشامل، فإن هذا أحق به باب (الكتب) و (النقد)، وإنما نعرض لها من حيث يتوجه لنا الرأي في غرض الكتاب الذي يرمي إليه، وأين يقع منه. ورب كلمة واحدة في صدر كتاب أو ذيله، لم يعرض لها الكاتب إلا شارداً أو كالشارد، ثم تكون هي ترج بمعانيها على الكتاب كله وعلى أغراضه أيضاً، فربما وقفنا عند هذه وقفة تجيش لها النفس من نواحيها، فنحتفل لها أشد احتفال وأعظمه لتكون كالعلم على المعاني النبيلة التي تضيع في خرائب الكتب

وبقيت كلمة. . .، فقد أحسن (الزيات) إذ تنبه إلى هذا الباب - الآن - من أبواب مجلته وقد أغفله كل هذه السنين. فإن الحرب والثورة وما في معناهما هي اضطراب عنيف يهز أعصاب الحياة ويقضقض أوصالها، فلا جرم إذن أن تدور الرؤوس وعقولها دورات كثيرة حول نفسها، فتختل الأوزان والمقاييس في كل شئ، وأن تبدأ الحياة بعد الحروب بدءاً جديداً؛ ويكون الناس إذ ذلك كالناشر من باطن الأرض وقد خرج من أكفانه ليرى ظاهرها كل شئ غريب وغير مفهوم، ومع ذلك فهو جديد لذيذ لا يمل وإن كان كله خطأ وفساداً

واستحالة وسبباً من أسباب الفناء؛ وكذلك يكون الأدب والأدباء بعد الحرب، كما أخرجت الحرب الماضية ثم الثورة المصرية سنة 1919 جيلاً من الأدباء استفحل أمرهم وذاع صيتهم وضربوا في الأدب بأسهم مفلولة محطمة، ومع ذلك. . .

فهذا الباب في هذه الأيام إلى ما بعد الحرب - يصور بعون الله وتوفيقه وهدايته الطرق الذي كان عليه الأدب إلى اليوم، ثم أين انتهى وكيف؟ ثم غيب ذلك كله موقوف على نوع الحرب وأساليبها وما تبدع من فنون الشر، وما تثير من طبائع الإنسان - من أنثى وذكر -، وما تحفز أو تبير من أحلام الإنسانية المتحدرة من أطباق الماضي البعيد مع

الإنسان الوارث الحي على هذه الأرض
محمود محمد شاكر
رسالة العلم
عام جديد
للدكتور محمد محمود غالي
قدمنا إلى القراء في مستهل العام الماضي العلامة الدكتور محمد محمود غالي. ويجب علينا في مستهل هذا العام أن نشكر له باسم القراء في جميع الأنحاء جهده الموفق في وصف الصورة التي يعرفها العلماء اليوم عن الكون، وما وصلت إليه الآراء الفلسفية فيه، وما بلغه العلم التجريبي من تقدم. وقد تابع العلماء والأدباء والطلبة مقالاته الثلاثين في تبسيط هذه الموضوعات العويصة بأسلوب سهل وعرض جميل وقريحة متمكنة. وسيتابعون هذا العام برنامجه الذي عرضه في هذه المقالة مدفوعين بما غرسه فيهم من رغبة الاطلاع ولذة المعرفة.

يسمونه عاماً جديداً، وليس للتسمية من معنى علمي سوى أن الأرض أتمت دورة كاملة في دورانها حول الشمس، شد كوكبنا النشيط فيه رحاله كعادته من نقطة معينة في الفضاء وظل دائراً كعهدنا به إلى أن عاد إلى النقطة التي بدأ منها المسير، واستأنف الكوكب مسيره من جديد فدخلنا فيما نصطلح على تسميته عاماً جديداً، وهو اصطلاح له معناه عند الإنسان. ذلك أنه قد مر من العمر الذي يتطلع إليه كل كائن - جزء له شأنه، فما الحياة إلا بضعة عقود مثل هذا الجزء الذي قد لا يعاود الكثيرين ممن جاوزوا العقد الرابع أمثال له كثيرة. أجل فهو جزء له خطره ومرحلة لها قيمتها من مراحل الأجل المحدود. وقد يتساءل كل امرئ عما قدم من عمل في عامه المنصرم وما اعتزم أن يقوم به في عامه الجديد

ولقد كانت غايتنا في العام الماضي أن نقوم بدورنا في تبسيط العلوم وفي تقريب الميراث العلمي للذين يريدون أن يتذوقوه. وكان ذلك لنا بمثابة مرحله من مراحل الراحة بعمد ما استلزمته السنوات التي قضيناها في أعمال البحث من تعب متواصل في الفكر وفترات طويلة في العمل. وكان واجباً علينا أن نقوم بهذا النوع من التبسيط نحو القراء من المصريين وأهل الشرق بل نحو اللغة العربية، ففي عالم الغرب مئات من المؤلفات في هذه الموضوعات وأمثالها، وقد قام بتأليفها لفيف من كبار العلماء والكتاب في وقت خلت مكتباتنا من أمثالها من المؤلفات، وفي هذه البلاد الغربية لم يتأخر علماء معروفون عن المضي في كتابة المقالات العلمية في المجلات الأسبوعية أو الشهرية يقربون فيها للقراء أقصى ما بلغه العلم وأعظم ما وصلت إليه المعرفة. ويحضرني في الذاكرة مقالات جان فابري القيمة التي نشرها في مجلة (العالمين) ومقالات غيره من العلماء المعروفين في مجلة (الشهر) تعتبر من أرقى وأشهر المجلات العالمية في الوقت الحاضر. بل لم يتردد آخرون في القيام بتأليف الكتب المبسطة كالتي نراها للعالم الكبير لويس دي بروي وشقيقه الدوق موريس دي بروي (وقد أخرجا في العام الماضي ثلاثة كتب من هذا النوع) وكالتي نطالعها للسير جين والعالم الفلكي أرثر أدنجتون، وهم من مشاهير الإنجليز وممن خطوا كتباً رائعة في باب تبسيط العلوم. وقد ظهر للأخير منهم هذا الشهر كتاب في فلسفة العلم الطبيعية لا زالت الحرب تمنع أن تصل إلينا نسخة منه، نستمتع بها فيما نستمتع به من كتبه العديدة التي هي من أبدع ما جاء بها الكتاب في عالم التأليف

ولقد أفسحت لنا الرسالة، وهي التي تسجل مظاهر التجديد في الآداب العربية، المجال للتأليف العلمي، وخصصت لذلك صحيفة معينة، وجعلت في برنامجها رصد ظواهر التطور في الحركة العلمية، وبدأنا استعراضنا في العام الماضي بمقدم استغرقت ثلاث مقالات ذكرنا فيها: لماذا نحاول تصوير الكون وفق الآراء الحديثة؟ وتناولنا بعد هذه المقدمة ثلاثة موضوعات رئيسية، استغرق كل واحد منها سلسلة من المقالات المتتابعة.

الموضوع الأول تكلمنا فيه عن الحياة وهل هي وليدة المصادفة وشرحنا فيه شيئاً عن علاقة ذلك بالنظام الشمسي للمادة. والموضوع الثاني تكلمنا فيه عن الكون، وبينا للقارئ كيف يكبر الكون في مجموعه، وكيف تبتعد جميع العوالم فيه بعضها عن بعض،

وكيف استدل العلماء على ذلك من البحث التجريبي، وكيف أثبت البحث النظري صحة ما ذهبوا إليه. ولعل أظهر ما في هذا النوع من الأبحاث ما ذكرناه للقارئ من وجود علاقة بين الكون في مجموعه وبين أصغر ما فيه وهو الإلكترون. والموضوع الثالث عالجنا فيه الأشعة الكونية، وأردنا بذلك أن نطلع القارئ على أعجب ما نعرفه من الأشعة، وهي الأشعة الخارقة التي تستطيع أن تخترق ما سمكه عشرة أمتار من الرصاص بينما لا تخترق أشعة الشمس غلافاً رفيعاً من الورق، وشرحنا كيف يستدل العلماء على مرور جسيمات هذه الأشعة الخارقة بسماعها، ويحصلون على صور مسارات هذه الدقائق

المتناهية في الصغر، ووصفنا في موضوع الأشعة الكونية الذي بلغ خمس مقالات غرفة ولسون المشهورة التي هي أقصى ما بلغه العلم التجريبي من العظمة والدقة، ووجهنا القارئ بهذا إلى نواح حديثة في العلم التجريبي تبين له منها مسائل جديدة وبحوث عظيمة الأثر. فرأى القارئ مثلاً كيف ساعدت هذه الغرفة في الكشف عن البوزيتون، الذرة الموجبة للكهرباء، وما تبع ذلك من فروض في ماهية وكنه هذه الأشعة العجيبة التي تخترق أسقف منازلنا أينما وجدت وأجسامنا أينما تكون

والموضوع الثالث استغرقنا في كتابته اثني عشر مقالاً ولم ننته منه بعد، وقد تناولنا فيه حبيبات المادة والكهرباء والضوء فتكلمنا عن الجزيء، وبينا أن حركة الجزيئات سبب العمليات الحرارية، وشرحنا فلسفة ليبنز وفكرته في إرجاع الحرارة والحركة إلى أصل واحد، وشرحنا المبدأ الثاني للترموردينامنكا، وذكرنا تفسير بولتزمان لهذا المبدأ الثاني فشرحنا كيف تحتم قوانين المصادفة على الجسم المرتفع الحرارة أن يعمل على تسخين الجسم المنخفض الحرارة، ولماذا لا يكون العكس صحيحاً؟ وخرجنا من ذلك بذكر عقيدة العلماء في الطريقة المحزنة التي ينتهي بها الكون، وهي عقيدة لم نوافق عليها. ولم نستند حتى الآن في عدم موافقتنا هذه إلى أسباب علمية، بل اعتقدنا تعذر قبول الامتداد في الظواهر وقنعنا بصعوبة الحكم على مستقبل الزمن، وكانت الحياة وما تبعث فينا من دهشة، واختلافها عن كل ما نعرفه من الظواهر، سبباً عندنا لمخالفة العلماء الحراريين فيما ذهبوا إليه، وانتقلنا من الكلام عن الجزء إلى الكلام عن الذرة، فذكرنا عمل أفوجادرو ونجاح ماندلييف، وبينا وجه الشبه بين عمل الأخير في الكشف عن العناصر، وعمل في الكشف عن الكواكب الجديدة، التي لم تكن معروفة لسكان الأرض، وانتقلنا بعد ذلك من الذرة إلى الإلكترون فتكلمنا عن الكهرباء وذكرنا أنها كالمادة ظاهرة ذرية، وتحدثنا عن الشقيقين، الإلكترون والبوزيتون، أو السالب والموجب، وأتينا على تجارب مليكان الخالدة التي استطاع بها أن نفصل جسيماً حاملاً لإلكترون حر واحد، وبينا كيف تحدثت الأرقام إلى هذا العالم، وكيف أنه، من عملية حسابية بسيطة هي عملية القاسم المشترك الأعظم استنتج وحدة الكهرباء وقاس شحنة الإلكترون وتوصل بعد ذلك لمعرفة وحدة من أهم وحدات الوجود. هذا ما استعرضناه في عام، وما انتهينا إليه في مقالاتنا السابقة التي

أرجو أن يكون قد أفاد منها عدد كبير من القراء الذين أردت أن أوفر عليهم عناء كبيراً في مطالعة موضوعات باتت من أصعب المسائل العلمية وباتت رموزها لغير المختصين في هذه العلوم كالحروف الهيروغليفية لمن لم يدرسها

وجب علينا بعد ذلك، وقد بدأ عام جديد، أن نتم هذا الموضوع الأخير الذي تعرضنا فيه لحبيبات المادة والضوء والكهرباء، فننتهي من قصة الإلكترون الرائعة ونذكر عمل جان بيران ونتكلم عن حبيبات الكون الأخرى: كالفوتون والنيترون والديترون، وغيرها من المكونات الأولى للخليقة، التي تلعب على مسرح الوجود دوراً هاماً، والتي يجد الإنسان في دراستها علاقات تساعده على فهم الكون وقصة الوجود. فإذا انتهينا من هذا تناولنا على الأثر، وفي بدء هذا العام موضوعات رئيسية ثلاثة: نتمم بها وصف الهيكل الرائع للكون وما يحدث فيه، ونعالج فيها أقصى ما بلغه الإنسان المفكر في المعرفة:

الموضوع الأول يخص فكرة النسبية عند أليرت أينشتاين وهي الفكرة التي أدخلت تفكيراً عميقاً على معارف البشر. والموضوع الثاني يخص التفتت الذري وهو الموضوع الذي يصبو العلماء الآن في تياره إلى الوصول إلى نوع جديد من المدنية، يصبح الإنسان فيه أعظم سيادة في استعمال الموارد الطبيعية، وأعظم شأواً في الاستمتاع بالحياة في وجوه لا نعرفها نحن اليوم. والموضوع الثالث موضوع الكم وعلاقة ذلك

بفكرة القضاء والقدر، وهو موضوع يعتبر العارفون اليوم أن لا غنى عنه في دراسة الفلسفة الحديثة، والتقرب من معرفة قوانين الكون. ونرجو ألا يفوتنا أن يذكر للقارئ شيئاً عن الموجية ومؤسسها دي بروي وشيئاً عن تيارات التفكير الحديث، وأن نختم موضوعنا بكلمة عن الإنسان القادم والآمال المعقودة عليه. بذلك نكون قد تناولنا سلسلة من الموضوعات المتصل بعضها ببعض، يستطيع القارئ عند مطالعة إحداها أن يعرف شيئاً عن أحدث ما نعرفه في التفكير، وعند متابعتها أن يقف على صورة هي أقرب الصور لحقيقة الكون والوجود

ولو أننا أردنا أن نتناول الموضوعات الثلاثة المتقدمة بالعناية والدرس لأمكن أن يستغرق كل منها عاماً أو ما يزيد، ولكنا ونحن نتوجه بكتاباتنا أيضاً لغير المختصين في العلوم، ولأولئك الذين يبغون ألا تظل العلوم الحديثة غريبة عنهم، نكتفي بضع مقالات بحيث نستطيع بعد مضي ثلاثة أو أربعة شهور من العام الجديد أن ننتهي من هذه الموضوعات

العلمية والدراسة الفلسفية ونبدأ عرضاً من نوع جديد

وغرضنا في هذا العرض الجديد أن يقف القارئ على معرفة بعض الاختراعات التي يقابلها في حياته اليومية ويستعملها في كثير من شئونه، ويشعر إزاءها بشيء من الإعجاب. من هذه الاختراعات الراديو ونقل الصور الفوتوغرافية باللاسلكي، كذلك (التليفزيون) أي الرؤية من بعيد

على أن بعض هذه الموضوعات تتصل بعلماء ومخترعين ساقني الحظ للعمل معهم أو التعرف إليهم. أذكر على سبيل المثال بيلان مخترع البلانوجرام، وهو الجهاز المعروف باسمه الذي يستعمل لنقل الصور الفوتوغرافية باللاسلكي، وهو الذي ترك لي بعض هذه الصور المنقولة بهذه الطريقة، والتي تمت في بدء نجاحه، وأذكر روبير بيروه مكتشف (البالون الكاشف) الذي منحني كثيراً من الصور الخاصة باختراعاته، والتي لا يصح أن تكون ملكا لي، بل يجب أن يستمتع بها كل قراء العربية.

ولعلي بهذا وذاك أكون ق وصلت مع القارئ إلى أحد أغراضي في أن يتتبع أحدث ما نعرفه في العلم ويقف على أعجب ما نعلمه من الاختراع، ويكون قد تعود ذهنه على تتبع مسائل تعد في الواقع من باب الموضوعات الصعبة، إلا أنها موضوعات أصبحت لازمة لإتمام حلقة المعرفة.

محمد محمود غالي

دكتوراه الدولة في العلوم الطبيعية من السوربون

ليسانس العلوم التعليمية. ليسانس العلوم الحرة. دبلوم المهندسخانة

القصص

سيدنا. . .

للأستاذ محمد سعيد العريان

كنا في مجلسنا من شرفة النادي حين لمحنا صديقنا الأستاذ ع مفتش التعليم الأولي قادماً من بعيد، يتوكأ على عصاه وهو يميل يمنة ويسرة، ويطول في مشيته ويتقاصر؛ إذ كان في رجله عرج قديم من التواءٍ في إحدى قدميه؛ فلما بلغ حيث كنا جالسين، ألقى إلينا التحية ثم اتخذ له مقعداً على مقربة

ومضينا فيما كنا من الحديث. نتسرح من فن إلى فن، وشئون الحديث تتداعى معنى إلى معنى وحادثة إلى حادثة. وقال واحد من السامرين: (رحم الله سيدنا. . . . . .!) فلم يكد يتم عبارته حتى اعتدل المفتش في مجلسه واختلجت شفتاه في تأثر وانفعال، ثم اهتبل الحديث يقول:

(!سيدنا؟. . . رحمه الله وغفر له)

وتوجهنا بأبصارنا إلى الأستاذ ع، وقد أدركنا من حاله أن خاطراً من ذكرياته قد ألم به الساعة، وأن شيئاً ذا بال في كلمة (سيدنا) قد أيقظ نفسه وهاج عاطفته، فرغبنا إليه في أن يقص قصته؛ فمضى يقول: كان سيدنا الشيخ عبد الجليل له في القرية مكان واحترام، لا يبلغ منزلته أحد من أهل القرية جميعاً. ولا عجب، فهو شيخ القرية وعالمها ومعلم بنيها؛ يستفتونه في أمر دينهم، ويستشيرونه في شئون دنياهم، وما منهم أحد إلا له عليه يد، ولا ذو حاجة إلا كانت حاجته عنده، ولا ذات أمل إلا بلغت مأمولها برقية من

رقي الشيخ أو تعويذة من تعاويذه
وكان له (كتّاب) يختلف إليه طائفة غير قليلة من صبيان القرية يحفظون القرآن ويتعلمون القراءة والكتابة، ويقصد إليه ذوو الحاجات يطلبون مشورته أو يلتمسون بركاته
وكنت - ككل فتى في القرية - أسمع باسم الشيخ وأضمر له في نفسي من المحبة والاحترام مثل ما يضمر له الجميع، وإن لم يتهيأ لي مرة أن أراه رأى العين. وذات صباح صحبني والدي إلى مكتب الشيخ نعبد الدليل ليكل إليه تعليمي. وكنت يومئذ في التاسعة من عمري وقد شدوت من العلم شيئاً في مدرسة أولية بالمدينة حيث كنت أقيم عند خالي.
ومضيت خلف أبي على طول الطريق لا أفكر إلا في السعادة التي تنتظرني ساعة أجلس بين يدي الشيخ المبارك أنظر إليه وأسمع عنه وأحفظ من علمه. . .
ورأيت الشيخ يومئذ لأول مرة. لقد بدا لي أصغر سناً مما كنت أتصوره في خيالي؛ وأحسبه كان صغيراً حقاً؛ فإنه على ذيوع صيته وامتداد شهرته في القرية، لم يكن قد جاوز الأربعين بعد. عرفت ذلك من لحيته السوداء وشاربه المحفوف. وكان في وجهه ذبول وعليه مسحة من صور الزهاد، أنبأتني بذلك عيناه الناظرتان أبداً إلى تحت؛ ولكنه على ما كان يبدو في وجهه وفي عينيه من التواضع والانكسار، لم يكد يرى أبي مقبلاً عليه بالتحية، حتى مد له يمناه؛ فطأطأ أبي رأسه ومال على يده فقبلها! حينئذ لم أملك إلا أن أفعل مثله، أنا الذي لم يقبل يداً قط، حتى يدي أبيه وأمه!
ومنذ ذلك اليوم، صرت تلميذاً من تلاميذ سيدنا الشيخ عبد الجليل. على أني لم أجد في نفسي لذلك من السعادة ما كنت أتوقع؛ فما هي إلا ساعة أو ساعات في مكتب سيدنا، حتى ضاقت نفسي وأحسست مثل إحساس السجين يحاول أن يفر من حراسه!
كان الشيخ جالساً في صدر المكان على فروة قديمة ناحلة، وظهره مسند إلى وسادة حائلة اللون، وبين يديه قميص يرقعه، وعن يمينه دلوٌ فيها جدائل من خوص أخضر؛ وتحت رجليه عصا غليظة يبدو طرفاها من تحت الفروة التي يفترشها؛ وأمامه صبيٌّ من صبيان المكتب متربع في مثل جلسة المعبود (بوذا) وهو يهتز بين يديه في حركة رتيبة، ويقرأ شيئاً من غيب صدره في نعمة واحدة ليس لها لون ولا فيها معنى، وسيدنا مكبٌّ على عمله يرقع قميصه وهو يستمع إلى الصبي، لا يزيد على أن يرفع عينيه إليه بين لحظة وأخرى. وفي المكتب عشرات من مثل هذا الصبي، قد تربعوا أفراداً وأزواجاً على حصير كبير يغطي أرض الغرفة جميعاً، وبين أيديهم كتب وألواح يقرءون مما فيها حيناً، ويتبادلون الحديث من ورائها في نظرات صامتة حيناً آخر؛ والشيخ يخيط أو يجدل ضفائر الخوص، والصبي بين يديه يقرأ. . .
وكنت غارقاً في تأملاتي لا أكلم أحداً ولا يكلمني أحد، لا لحظة عين ولا بنت شفة، حين دوي صوت سيدنا غاضباً يتوعد. . . ومال على فخذ الصبي أمامه يقرصه بغيظ والصبي يتلوى من الألم لا يكاد يسمع صوته من خوف سيدنا!
وكان هذا أول الشر؛ ثم نهض الفتى الذي كان بين يدي سيدنا وحل محله صبي آخر؛ ومضت فترة قبل أن يدوي صوت الشيخ في أذني مرة ثانية وهو يميل على فخذ الغلام يقرصه. ولم يحتمل الفتى من الألم ما احتمل الصبي الذي سبقه، فندت من بين شفتيه صرخة ألم! حينئذ هاجت هائجة الشيخ، فوثب إليه (العريف) يعاونه على تأديب الصبي؛ وفي أسرع من خفقة الطرف كان الصبي مجدولاً على الأرض معلقاً من رجليه في خشبة غليظة يشدهما إليها حبل مفتول، والشيخ يهوى على رجلي الغلام بالعصا في قسوة وعنف، وهو تحت رحمته يصرخ ويتلوى وبعض على شفتيه من ألم الضرب!
أحسست قلبي في تلك اللحظة يكاد يثب من موضعه فرقاً وخشية، فوليت بصري إلى الناحية الأخرى، فإذا صبيان المكتب جميعاً منكبون على ألواحهم ودفاترهم في خوف وفزع، وقد زادت هزاتهم وتتابعت في سرعة كأنما يحركهم محرك غير منظور. ولم ألبث أنا نفسي أن رأيتني أهتز مثل هزاتهم وأحرك شفتي وليس بين لدي لوح ولا كتاب، كأنما هي تميمة أقرأها لترد عني الشر الذي أخاف!
كانت هذه هي عقوبة كل صبي من صبيان المكتب لا يحفظ درسه، سواء في ذلك ابن العمدة وابن الأجير؛ ومع ذلك لم يحاول صبي واحد أن يتمرد على سيدنا أو يشق عصا

الطاعة أو يجرب الإفلات من عقابه. وأني لهم ذلك وإن آباءهم وأمهاتهم جميعاً ليثقون بالشيخ ثقة عمياء، فلا يتسمحون لواحد من بينهم أن يشكو أو يتألم مما نزل به، مؤمنين بأن (عصا سيدنا من الجنة!)

منذ تلك اللحظة، تبدلت صورة الشيخ في نفسي فعاد أبغض شئ إلى، حتى لو استطعت أن أنتقم منه لهؤلاء الصبيان وأفر بنفسي لفعلت. ومالي أخفي عنكم؟ لقد طالما حاولت من بعد أن أسئ إلى سيدنا كلما أمكنتني الفرصة، فتارة أخالفه إلى الأقلام التي تعب في بريها ساعة من نهاره فأقصفها، لا أدع قلماً منها له سن تصلح للكتابة؛ وتارة أعابثه بسرقة علبة السعوط فأستبدل بما فيها تراباً وحصى، وتارات أخرى. . . وما كان سيدنا يعلم من يفعل ذلك، وإن كان على يقين بأن صبيان المكتب جميعاً غرماؤه. . .!

قضيت في مكتب الشيخ عبد الجليل شهراً وبعض شهر، لم ينلني فيها عقاب من عقابه، حتى جاء اليوم المشئوم!

كان عليَّ في ذلك اليوم أن أحفظ جزءاً من القرآن الكريم فلم تتهيأ لي الفرصة أن أفعل؛ وحلَّ ميعادي، فجلست بين يدي سيدنا وأنا أرتجف خوفاً من عقابه، فسألته المعذرة في كلمات خافتة وصوت يرتعش؛ وبدا لي كأن الشيخ قد قبل عذري، حين اكتفى بقرصة مؤلمة في فخذي، ونهضت من مجلسه وأنا لا أكاد أصدق بالنجاة، فقد كان أخوف ما أخافه أن يجدلني على الأرض ويهوى على رجلي بعصاه!

ومضت ساعة قبل أن يحلَّ ميعاد صبيٍ من رفقائي كان عليه وحده تبعة تقصيري في درس اليوم؛ إذ دعاني في عصر اليوم الماضي لصحبته إلى الحقل لنصيد العصافير؛ فما عدنا إلا وقد أرخى الليل سدوله فلم نتهيأ لدرس الغد. . .

وجلس الفتى بين يدي سيدنا مضطرباً منتقع الوجه لا يكاد يبين، ونظرت من خلف اللوح إلى سيدنا فإذا هو في هيئة الغضب، ثم لم يلبث أن سمعته يصيح بالصبي صيحة عرفت ما وراءها، فأخذت أعالج خوفي بهزات سريعة كأني أقرأ، وأذني إلى سيدنا؛ وطرق مسمعي قوله: (وأين كنتما أمس؟ تصيدان العصافير. . .؟)

. . . . . ونادى عريفه فأسرع بأداته إليه، وناداني

وقبل أن أرى صاحبي مجدولاً على الأرض، معلقاً من رجليه في الخشبة، كانت رجلاي تسرعان بي إلى الباب. ووقف العريف في وجهي، فلم أجد أمامي إلا النافذة؛ فاستجمعت قوتي ووثبت!

لم أدر بعد ذلك شيئاً مما كان إلا وأنا راقد في فراشي، ورجلي مشدودة إلى خشب بأربطة من نسيج أبيض، وأمي إلى جانب رأسي تبكي في صمت!

لقد أفلت من عصا سيدنا، ولكني دفعت ثمن ذلك غالياً، فانكسرت رجلي؛ ومن ذلك اليوم لا أمشي إلا مستنداً على عكاز!

وتأوه المفتش وهو يبعث في الأرض بعصاه؛ وغرق السامرون صمت؛ ثم عاد المفتش إلى حديثه:

لم يكن لي طبعاً أن أعود إلى كتاب سيدنا بعد الذي كان؛ فدخلت المدرسة الأولية في المدينة، وانقطعت صلتي بالشيخ وكتابه وعريفه وصبيانه؛ ولكن ذكراه لم تفارقني قط، ذكرى مؤلمة مرة؛ ومن أين لي أن أنسى وهذه رجلي وتلك عكازتي لا تفارقني؟

وتأرث الحقد في قلبي يومئذ لسيدنا، فما كان يخطر ببالي مرة إلا ثارت في نفسي شياطين الشر. . .!

وأتممت التعليم الابتدائي والثانوي؛ وكنت أقضي الصيف من كل عام في القرية؛ فكان لابد لي أن ألقي سيدنا أو تلميذاً من تلاميذه عابراً في الطريق، فأطأطأ رأسي وأوفض في السير خشية أن تنزو بي نازية من الشر فأهوى بعصاي على رأسه فأحطمه!

ترى أكان ذلك شعوري وحدي، أم هو شعور الكافة من تلاميذه الذين ذاقوا من قساوته وعنفه ما لا طاقة لأحد باحتماله؟. . . ولكني أكاد أعرف تلاميذه جميعاً. وهل في القرية كلها رجل واحد لم يكن من تلاميذ سيدنا في يوم ما؟ وإنهم مع ذلك ليوقرونه ويرفعون مكانه؛ وإن منهم لرجالاً في مناصب رفيعة، وإن لي منهم لأصدقاء وزملاء!

وأتممت دراستي العالية، لأكون في أول عملي مدرساً في مدرسة من مدارس البنات الابتدائية، تتبعها روضة من رياض الأطفال، بضم شتيتاً من الصبيان والبنات بين الخامسة والثامنة تعلمهم وتهذبهم على نمط من التربية لم يكن معروفاً لعهدنا في

. . .مثل هذه السن
وكنت أغدو وأروح كل يوم من عملي على هذه الروضة الضاحكة، فيسرني مرأى هؤلاء الأطفال الصغار في ثيابهم المتشابهة، يلعبون ويمرحون في بسيط من الأرض تحت رعاية معلمة عطوف، لها قلب الأم وحرص المربية، تأخذهم في اللعب؛ وتنفذ بكل أولئك إلى قلوبهم وعقولهم؛ فتنشئهم نشأة رقيقة، وتصقل وجدانهم وعواطفهم، وتطبعهم من لدن نشأتهم على الخير والمحبة والسلام!
وعلى قدر ما كان يسرني مرأى هؤلاء الأطفال، كان يتولاني شعور بالأسف على أني لست صبياً. . .!
وكان أدنى هؤلاء الأطفال العزاز منزلة إلى قلبي، هو الطفل (فؤاد)، فإني لأعرفه ويعرفني، وبيتي وبين أبيه صلة من الود؛ إذ كانت نشأتنا في بيتين متجاورين من القرية التي فارقناها معاً منذ آثرنا أن نكون في خدمة الحكومة، وكان أبوه زميلي في كتاب سيدنا، ولكنه لم يفارقه حتى أتم القرآن!
وكان فؤاد يلقاني صباح كل يوم فيحييني تحية طفلية رقيقة، ويود عني في العصر بمثلها، فلا أزال من تحيته بين الصباح والمساء في نشوة وطرب. وكثيراً ما كانت تحضرني إلى
جانب صورته - صورة أبيه في صباه، جالساً على الحصير من كتاب سيدنا، وبين يديه لوحه وكتابه، وهو يهتز هزات متوالية، ويدور بعينيه بين الصبيان يبادلهم الحديث غمزات ونظرات. . . . . .
واستمر المفتش في حديثه يقول:
هل كان هذا الطفل ومثله معه من أطفال الروضة، إلا لعنة حية تذكرني ما كان من جناية سيدنا علي في صباي وتؤرث البغضاء في قلبي!
وتنقلت في مدارس عدة، حتى بلغت أن أكون مفتشاً. . وعلى أني كنت أعلم ما . . . يلقاه المفتشون من المشقة والجهد، وما يتحملون من النصب حين تضطرهم تكاليف الوظيفة أن يبيتوا ليالي عدة بعيدين عن أسرهم وأولادهم متنقلين بين القرى والدساكر - فإني كنت جدَّ مغتبط بما أُسند إليّ من عمل؛ لا زهواً بالمنصب، ولا رغبة في الجاه؛ ولكنها كانت أمنية قديمة في نفسي، ليكون لي منها فرصة لتطهير القرى من مثل كتّاب سيد الشيخ عند الجليل. . .
أكان ذلك مني عن إخلاص وحرص على مصلحة التعليم، أم كان إيحاء من الواعية الباطنة التي تختزن الذكريات إلى إبانها، تحاول أن تخدعني به عن حقيقة الشعور الذي يضطرم في نفسي بالحقد والبغضاء لسيدنا؛ فتدفعني إلى محاولة الثأر والانتقام وهي تسمى ذلك إخلاصاً في العمل وحرصاً على مصلحة التعليم. . .؟
لست أدري، ولكن الذي كنت أوقنه يقيناً لا شبهة فيه، هو أنني كنت فرحاً بذلك، طيب النفس به؛ فما كان لي من بعد إلا أمنية واحدة، هي أن يكون كتاب سيدنا الشيخ عبد الجليل في دائرة عملي!
ومضت سنوات قبل أن تتحقق لي هذه الأمنية!
ورسمت خطتي وحددت نهجي، ودنا اليوم الذي اخترته ميعاداً لزيارة الكتاب الذي . . . دخلته أول يوم ترف على شفتي بسمة الرضا والسعادة، وفارقته يوم فارقته محمولاً على أكتاف الناس غائباً عن الوعي مما نالني من خوف سيدنا؛ ثم لم أمش بعدها إلا متوكئاً على عكاز! وصحبتني أبالسة الشر يومين كاملين في يقظتي وفي منامي قبل أن يحين موعد هذه الزيارة؛ فما انتفعت فيهما بنفسي ولا انتفع أحد
وأشرق صبح اليوم الموعود، فبكرت إلى ما غرمت عليه يصحبني تابع يحمل حقيبتي، ويصحبني شيطاني!
وكان بيني وبين كتاب سيدنا خطوات معدودة حين صك مسمعي صراخ! ودنا مني الصوت رويداً رويداً، وسمعت الناعي ينعى إلى أهل القرية سيدنا الشيخ عبد الجليل!
ما أعجب القدر!
وظللت في القرية طول اليوم حتى أمشي في جنازة سيدنا. . . وما كان لي أن أفعل غير ذلك. . . وأعظم الناس هذه الوفاء، إذ حسبوني لم أقدم إلا لذلك، بقدر ما صغرت نفسي في عيني!
ومشت القرية كلها في جنازة الشيخ، لم يتخلف منهم أحد، وشيعوه محزونين وعادوا

يعدّ دون مآثره لا يذكره أحد منهم بشر!
وعدت إلى مكتبي في المدينة مبكراً، فلم ألق أحداً من الزملاء أحدثه بحديثي؛ وجلست وحدي أنشر الذكريات وأطويها، وفي نفسي ثورة تضطرم، وفي رأسي غليان. لم يكن بي في تلك اللحظة حقد على أحد، لا، ولا كانت لي أمنية أحرص عليها؛ ولكني إلى ذلك كنت في حيرة من أمري، أسائل نفسي: أكنت على حق في حقدي على سيدنا وما أضمر له من البغضاء، وهل كان من السوء بحيث يحق لي أن أحمل له ما كنت أحمل من الكره والموجدة؟
لكم كان لسيدنا على هذه القرية من الأيادي!. . . لقد كان قاسياً، جباراً، عنيفاً؛ ولكنه مع ذلك كان رجلاً للناس لا لنفسه؛ وما نالتْه في يوم ظنة ولا تعلقت به تهمة، فما يذكره أحد من القرية إلا بمعروف أداه أو جميل أسداه، سواء في ذلك أهل العلم من تلاميذه وأهل التوكل والاعتماد!
فإني لغارق في خواطري وذكرياتي، إذ دخل إليّ صديق من أصدقائي ينقل إليّ . . . النبأ الفاجع:
فؤاد ابن صديقنا فلان. . . لقد تعجل آخرته فأزهق نفسه؛ لأن أباه أغلظ له النصح أن) يكون رجلاً، ودعا حلاقاً فقص له شعره. . . وعز على الفتى ما فعل أبوه، فأغلق عليه غرفته فأحرق نفسه. . . هذه هي التربية الناعمة التي نحاول بها تنشئة الجيل الجديد ليحمل تبعات الغد. . .!)
فؤاد! وا حزناه!
وحضرتني في تلك اللحظة صورة فؤاد الطفل الضاحك يلقاني كل يوم بالتحية في غدوي ورواحي على روضة الأطفال، ثم صورة فؤاد الصبي العابث يمزح مع أبيه في مجلس أصحابه وينضح وجهه بالماء يوهمه أنه عطر، ثم صورة فؤاد الفتى الخليع يمشي في الشوارع يتثنى ويتخايل بزينته، وعيناه إلى كل غادية ورائحة؛ لا يعنيه من أمر شيءٌ إلا ثيابه وزينته وشعره المرسل المصقول بالدهان والعطور كما تصقله الفتاة الناعمة؛ ثم صورة فؤاد الصريع مسجي في أكفانه، ومشيع جنازته أول من يلعنه!
وسكت صديقي وسكت، ولكن روح سيدنا الشيخ عبد الجليل ظلت تتحدث حديثها في نفسي. . . . . .
ولأول مرة منذ بضع وثلاثين سنة، شعرت بأن سيدنا كان هبة الله لهذه القرية التي أخلص لها الحب ووقف عليها جهده حتى قبضه الله إليه؛ فهتفت في تأثر:
(سيدنا. . .؟ رحمه الله وغفر له!)
محمد سعيد العريان
من هنا ومن هناك
هل يستطيع هتلر أن يغزو أمريكا
(عن مجلة (كرانت هستري))
لعل أهم ما يشغل عقول رجال السياسة في أمريكا اليوم هو هذا السؤال (إذا انتصر أدولف هتلر في الحرب الأوربية الحاضرة فهل يكون انتصاره هذا مهدداً للولايات المتحدة من الناحية الحربية؟) وعلى جواب هذا السؤال يكون رأينا في دخول أميركا الحرب الحالية أو الوقوف بمنجاة منها. فإذا دخلنا الحرب فمن المشكوك فيه أن يبقى نظامنا الاقتصادي الحر على هو ما عليه اليوم، وأن تبقى سياستنا الديمقراطية سليمة مع الدكتاتورية التي تفرضها ضرورات الحرب. لذلك أستطيع أن أقول إن احتمال مهاجمة هتلر لنا، من المسائل التي نفكر فيها بروية واهتمام
فإذا كانت الضرورة تقضي علينا بأن نقف هتلر عند حده من الآن، حتى يتيسر لنا أن نفوز في الدفاع عن أنفسنا في المستقبل، فمن واجبنا بلا شك أن نعلن عليه الحرب من الغد. ولا تستطيع سلطة حربية أيا كانت أن تقول غير ذلك، ولكن هل يستطيع هتلر أن يغزو أمريكا؟ الجواب (لا) بأوسع ما تحوى هذه الكلمة من المعاني. فكل من له خبرة بالفنون الحربية والبحرية في أمريكا يعد الإدعاء بأن في مقدور هتلر أن يهاجم شواطئنا، باطلاً لا يستند إلى شئ من الحقيقة. فلننظر إلى الأسباب التي تدعو إلى

ذلك
يجب أن نضع نصب أعيننا قبل كل شئ أنه لا توجد قوة تستطيع أن تهاجم شواطئنا الشرقية إلا إذا وضعت يدها على المحيط الأطلنطيقي. فهل في مقدور هتلر شئ من ذلك؟ إن قوة هتلر البحرية معروفة وهي لا تزيد على ربع القوى التي لدينا الآن، فإذا وقعت الحرب قريباً من ديارنا، وكان على هتلر أن يحارب على مسافة ثلاثة آلاف ميل من
دياره، فإن هذه الميزة وحدها تعد بمثابة واحد إلى اثنين أو تزيد
وقد يقول بعض الناس إن هتلر إذا انتصر فمن المحتمل أن يستولي على الأسطول الإنكليزي فكيف نستطيع أن نقفه عند حده آنذاك؟ إنني أستطيع أن أتحدث عن تجربة شخصية في هذا الموضوع، وأستطيع أن أؤكد أن الأسطول البريطاني لا يمكن أن يحاصر أو يقع في أيد غير بريطانية. فإذا قدر لهذا الأسطول المظفر أن ينهزم، فإن النتيجة لا تعدو أمراً من اثنين: إما أن يلجأ إلى شواطئ بعيدة يتحصن بها كشواطئ كندا، ويجعلها قاعدة له، أو يغرق بيد بحارته في أجواف المحيط كما تفعل قطع الأسطول الألماني اليوم
إن نابليون لم يستطع أن يغزوا أمريكا بعد انتصاراته العظيمة، وهي بعد أمة ناشئة، فهل يستطيع هتلر أن يهدد قوانا الحالية بعد هذه لحرب التي تنذره بالدمار؟ إنني أعرف كثيراً عن الحرب، وأعرف كثيراً مما لا يجوز ذكراه الآن، وأستطيع أن أؤكد أن أمريكا إذا احتفظت لنفسها بنظام حربي معقول، فليس لقوة في الأرض أن تهددها أو تتغلب على جيوشها في يوم من الأيام.
من النبات نستمد كل شئ
(عن (ديرلد ديجست))
كم نوفر من المال وكم ندخر من الجهد، إذا أتيح لنا يوماً ما أن نخرج إلى الغابات أو نتمشى في الحدائق، فتقتطف جوارينا من بعض النبات وسجائرنا من آخر، وأطعمتنا من نباتات أخر، ونتناول اللعب لأطفالنا من نبات غير هذا وذاك! هذا حديث قد تبدو عليه سمة من الهزل، أو قد يظهر شئ من الاستحالة في إمكان وقوعه، ولكنه في الحقيقة في حكم المستطاع. ففي عالم النباتات وعالم الأشجار ما يمدنا بهذا جميعه، بل وبأكثر منه إذا أردنا. فإذا تيسر أن يوجد في مكان واحد كل ما نريد من هذه المواد، كان لدينا منها (مخازن نباتية) عظيمة تمدنا بما نشاء مما يوفر لنا أسباب الراحة فإذا ظمئت في غابة من الغابات الاستوائية، ولم تجد قطرة ماء تبل بها ظمأك، أمكنك أن تروي غلتك بينبوع من ماء النباتات، فإذا كنت تفضل اللبن على الماء فلديك شجرة البقرة، وهي شجرة تشبه شجرة المطاط، وتختلف عنه بعصيرها العذب ذي الطعم الشهي اللذيذ،
ويشبه طعم اللبن إلى حد كبير
فإذا احتجت إلى ملابس جديدة فلديك ما يكفيك مشقة البحث عنها، وما عليك إلا أن تمد يدك إلى شجرة (الدنتلا) وهي من أعجب أنواع الأشجار وأنفسها، فتأخذ منها ما تريد. وتتكون أفنان هذه الشجرة من لفافات صغيرة، أشبه بلفافات الورق، فإذا نشرت واحدة منها رأيتها كالصحيفة الرائعة البيضاء. أما جذع هذه الشجرة وساقها والفروع الأكبر سمكا منها فتحتوي على الأقمشة القوية المتينة المحكمة النسج. وتستعمل القطع الرقيقة من هذه المادة غلائل وأغطية للسيدات؛ أما القطع السميكة فيستعملون منها الملابس الثقيلة والسجاد وما إلى ذلك؛ وهي من القوة والمتانة بحيث تصلح لعمل الحبال والسياط
ونستطيع أن نستمد من الأشجار قبعات جميلة معدة للاستعمال وليس علينا إذا أردنا ذلك إلا أن نتسلق شجرة من شجرات البندق، لنجد في أعاليها طلبتنا من القبعات الناعمة الجميلة المحلاة بالأزهار المعدة للرؤوس
وإذا كان من السهل أن نجد في مخازن النبات ما يصلح قبعات لرؤوسنا، فأسهل منه أن نجد فيها أحذية لأقدامنا. ففي غابات المنطقة الحارة أشجار سامقة مهجورة، لا يعني بها أحد وهي صالحة تماماً لعمل أحذية متينة منها. فجذوع هذه الأشجار قوية محكمة النسج من الداخل. فإذا أردنا أن نصنع حذاءنا فمن السهل أن نقطع منها ما يغطي القدم وننظفه وننقيه ونعده للاستعمال

وقد تظن أن هذا كل ما نستطيع أن نناله من مخازن النباتات أو أننا قد أحصينا كل ما يمكن استغلاله منها، والحقيقة أننا نستطيع أن نستمد منها أشياء كثيرة لا يدركها الحصر
حتى أمواس الحلاقة تنمو على رءوس النباتات، فهل تعرف أن بذور بعض الحشائش المتسلقة تصلح لإزالة اللحى، فتجد في كل منها سلاحين حادين لا يقلان عن أقوى أنواع الأسلحة التي تصنع من الصلب

حياة الطالب في باريس

(ملخصة عن (همت جورنال) ستوكهلم)

يقيم في باريس ثلاثون ألف طالب من أبناء فرنسا، وعشرة آلاف من الطلبة الأجانب، ويقطن أكثر هؤلاء الطلاب في الحي اللاتيني حيث يخلعون عليه طابعاً عالمياً فريداً في نوعه. والطالب الفرنسي يختلف عن أمثاله في سائر الأمم. فهو مكلف بأن يعتمد على نفسه في حياته الدراسية على الدوام، وقل أن تمد له الحكومة يد المساعدة في شأن من الشؤون، فعليه إذن أن يعول نفسه مما يدخره هو وما تمده به عائلته من حين إلى حين. والطالب الفرنسي ثالث ثلاثة قيل إنهم يستطيعون أن يعيشوا على الزهيد من العيش الذي يجئ في المرتبة بعد العدم أو اللاشيء وهم الفقير الهندي والعامل الصيني والطالب الفرنسي

فإذا ما دفع الطالب نفقات المدرسة، وثمن الكتب المطلوبة منه للدراسة لم يتبق معه لمطالب المعيشة إلا النذر القليل. فيلجأ - وكذلك الغالبية العظمى من رفقائه - إلى تأجير غرفة في الحي اللاتيني بمبلغ قد لا يتجاوز جنيهاً واحداً أو ثلاثين شلناً في الشهر. ويقوم بنفسه على تحضير وجبة الصباح وعمل القهوة الفرنسية المعتادة أو القهوة الممزوجة من اللبن

ويقضي الوقت من الساعة التاسعة والنصف إلى الساعة الثانية عشرة في سماع المحاضرات، وعليه أن يتناول غداءه بعد ذلك من نقوده الخاصة. وينفق الطالب في غدائه شلناً واحداً وثلاثة بنسات في المطاعم المتوسطة. ولكن قليلاً من الطلبة الذين يستطيعون أن ينفقوا هذا المبلغ، فيلجأ بعضهم إلى تناول بعض الخضراوات أو اللحم البقري في مطعم صغير بما لا يتجاوز ستة بنسات؛ ثم ينفق بنسين في الفاكهة ونصف بنس في قدح من القهوة بأحد مشارب الحي اللاتيني، وعلى ذلك فالطالب يستطيع أن يتناول غداءه ويصرف بعض الوقت في الراحة والتنزه بمبلغ لا يتجاوز ثمانية بنسات ونصف

ويعود الطلاب من الساعة الثانية إلى الساعة السادسة بعد الظهر إلى سماع المحاضرات، فإذا انتهت هذه الفترة وانتهى معها النهار جاء وقت العشاء. ويتولى بعض الطلاب طهي الطعام بأيديهم ويذهب بعضهم إلى تناول عشائهم في مطعم معتدل الأسعار. ثم يأتي وقت السهر لاستذكار الدروس، فإذا تجولت في شوارع الحي اللاتيني وأزقته الضيقة بعد منتصف الليل أبصرت الأضواء الشاحبة تنبعث من خلال النوافذ، وقد تظل كذلك إلى الثلث الأخير من الليل

وفي مساء السبت يجد الطالب وقتاً للتسلية والمرح، فيجتمع بإخوانه في بعض المقاهي والمطاعم - إذ لا توجد نواد رسمية للطالب الفرنسي - فيستطيع أن يتناول معهم كوباً من النبيذ ويقضي بعض الوقت في التحدث. فإذا أراد تسلية أكثر من ذلك ذهب إلى بعض صالات الرقص حيث يقضي ليلة ساهرة بما لا يتجاوز شلنين.

البريد الأدبي

شمال أفريقيا والعروبة

صديقي الأستاذ الزيات

قرأت الكلمة المنشورة في العدد 336 من الرسالة الغراء بتوقيع (أبو الوفاء) وتحت عنوان (شمال أفريقيا والأستاذ الحصري)، ووقعت في حيرة عميقة، عندما علمت بأن الكاتب قد ظن أنني لا أعتبر تونس ومراكش من البلاد العربية. . . في حين أنه لم يخامرني أدنى شك في عروبة تلك البلاد في وقت من الأوقات. . .

لقد نقل الكاتب من مقالي (بين الوحدة العربية والوحدة الإسلامية) بعض العبارات التي قد تفسح مجالاً لمثل هذا الظن غير أنه لو التفت إلى الأسطر التي تلت في

مقالي تلك العبارات، لوجد فيها ما ينفي ذلك الظن نفياً باتاً:
فقد قلت - بعد عشرة أسطر من العبارات التي نقلها الكاتب - ما يلي حرفياً:
لا يمكن لأي عاقل كان أن يتصور حصول اتحاد بين القاهرة وبغداد وأنقرة وطهران) وكابل. . . الخ دون أن نحصل اتحاد بين القاهرة وبغداد ودمشق ومكة وتونس . . .)
فأطمئن الكاتب بأنني لم أقل طول حياتي ولا لحظة واحدة: إن (شمال أفريقية التي تبتدئ من تونس وتنتهي بمراكش ليست بعربية)
بل على عكس ذلك، قلت - في المحاضرة التي ألقيتها في بغداد، على جمع غفير من الشبان - بعد عودتي من المغرب الأقصى: (إن مراكش أجمل البلاد العربية على الإطلاق) كما حاولت أن أصف مدينة مراكش وضواحيها بقولي: (إنها تجمع بين جبل لبنان وغوطة دمشق ونخيل بغداد، وتخلط الأرز والنخل والزيتون بأجمل الصور وأبدع الأساليب)
هذا وأود أن أطلع الكاتب على الأمور التالية، لإظهار مبلغ اهتمامنا ببلاد المغرب، كجزء مهم من العالم العربي
أ - لقد أسسنا في القصر العباسي الكائن في قلعة بغداد معرضاً دائماً لصور الريازة (العمارة) العربية. وخصصنا غرفتين من غرفه لبلاد المغرب، يرى الزائر فيهما صوراً شمسية مكبرة، لأكثر من أربعين بناية عربية، بينها القرويين والكتبية
ب - لقد أسسنا في الباب الأوسط من أبواب سور بغداد الباقي من العهد العباسي متحفاً للأسلحة، عرضنا فيه أنواعاً كثيرة من الأسلحة العربية، والقسم الأعظم من هذه الأسلحة يعود إلى مراكش وتونس، وكنا اقتنيناها باسم دائرة الآثار القديمة خلال رحلتنا الأخيرة
ج - لقد خصصنا غرفة لـ (فنون المغرب الأقصى)، في (متحف الآثار العربية) عرضنا فيها كمية من الأواني الخزفية والمصنوعات الجلدية كنا جمعناها خلال رحلتنا الأخيرة، لزيادة معرفة الناس بتلك البلاد العربية
ولهذه الأسباب كلها، قد تألمت من قراءة الكلمة التي تتهمني بإنكار عروبة أفريقية الشمالية. غير أن ألمي هذا، قد انقلب إلى سرور عميق، عندما قرأت العبارات التي ختم بها الكاتب كلمته وهي: (أن النزعة القومية المتأصلة في دمائنا تضطرنا أحياناً إلى إصلاح غلط إخواننا العرب فينا) . . .
إنني أقدر هذه النزعة القومية، وأبجلها، حتى عندما ما تجور عليَّ، وتتهمني بما أنا براء منه . . .
أبو خلدون
ملحوظة: إنني مستعد لإرسال صور القاعات التي ذكرتها آنفا، حالما أطلع على عنوان الكاتب، لزيادة اطمئنانه على اهتمام مشرق العالم العربي بمغربه
الجواب حاضر!
قرأت الكلمة الكريمة التي نشرتها (الرسالة) لحضرة الأستاذ (م. ف. ع) في نقد كتاب (ليلى المريضة في العراق) وقد شاء له فضله أن يقول: إن بعضهم يمجد ذلك الكتاب حتى ليرتفع به عالياً إلى السماء. وكنت أحب أن يحدث القراء بوضوح عما لم يعرفوا من كتابي، ولو أنه فعل لعرفوا عن طريقه أن هناك فرقاً بين ما نشر في (الرسالة) وما لم ينشر. فالذي نشر في (الرسالة) هو الجزء الأول، وهو جزء مصقول: لأن الزيات - سامحه الله - كان يحذف منه أشياء. وقد ضاعت الأصول الخطية ولم يبق أمامي غير ما وعت صفحات (الرسالة) فاكتفيت به، وقليل النار غير قليل!
أما الجزء الثاني والثالث، فقد أنقذتهما من يد الزيات، فهما صورة صحيحة من عقلي وجنوني، وهما أعز على من الجزء الأول المهذب المصقول بالرغم مني. فمن أراد أن يعرف الفرق بين الأدب المقيد المرسل، فلينظر كيف كانت إساءتي إلى نفسي أجمل من إحسان الزيات حين حذف من الجزء الأول أشياء
ثم ماذا؟ يريد حضرة الناقد أن يمسكني بشيء، فما هو ذلك الشيء؟
تفضل فنقل فقرات جميلة من الجزء الثالث تكررت فيها كلمة (من) وسماه (منمنة) فما رأيه في كلمة (يا لك) التي كررها الدكتور عزام في كلمة نقلها الناقد نفسه؟ هل يسميها (لكلكة)؟

وما رأيه في معلقة زهير، وقد كرر كلمة (من) أربع عشرة مرة في عشرة أبيات؟ وكيف يحرم على ما قلبته الأجيال الطوال من زهير؟
وهناك فقرات للكاتب الشاعر لامرتين ورد فيها مثل هذا التكرار، فهل يحب أن أنقلها إليه ليعرف أن التكرار قد يكون جميلاً جداً إذا اقتضاه المقام؟ وهل يسره أن أفحمه بذكر شواهد من السور القرآنية كان فيها التكرار من أقوى عناصر البيان؟
وما تلك الكركرة الطهوية التي يشير إليها الناقد المفضال؟ هل يظن أن في أسلوبي مشابه من أسلوب الدكتور طه حسين؟ أنا أكرم على نفسي وعلى حضرة الناقد من أن يكون أسلوبي صورة لأسلوب قديم أو حديث، وإن يسرني أن أحاكي الكاتب زكي مبارك:
شعراء الشرق والطبيعة الغربية
حضرة الأستاذ الفاضل الجليل محرر الرسالة
قرأت مقالة طويلة في جريدة يومية سياسية تعليقاً على التصحيح الذي نشرته في الرسالة بعنوان (شعراء الشرق والطبيعة الغربية). وكأن حضرة الكاتب الفاضل لم يحسن الدفاع عن أخي علي محمود طه المهندس فوقع في الإساءة إليّ. وأنا غير مؤاخذه على ما ظهر من مكنون نيته لأمرين: أما أولهما فلأنه (عابر سبيل) كما وقع مقالته. و (عابر السبيل) إن لم يكن موضع إكرام فهو موضع إشفاق. وأما ثانيهما فلأني لا أريد أن أنقل ميدان الأدب السامي من التصحيح إلى التجريح. . .
وأنا لم يؤلمني ثناء (الاجبشان مايل) على شاعرية صديقي علي محمود طه كما يتهمني حضرة (عابر سبيل) ولم يؤلمني إيثارها (علي محمود طه) بالذكر، فذلك موضع الفرحة لا موضع الألم. وإنما آلمني أن يضع كاتب (الاجبشان مايل) حجاباً على عينه وعلى أعين القراء ليقول لهم: أن شعراء الشرق الذين طافوا بالغرب أو عشوا فيه لم يهتموا بوصف جماله وهم أكثر الناس استجابة لداعي الجمال إذا أهاب
وأنا ما زدت في كلمتي في الرسالة الماضية على أن صححت وهم مكاتب (الاجبشان مايل). وإذا كنت قد ذكرت نفسي في عداد من ذكرت من الشعراء الذين وصفوا الغرب فهو أمر ما كنت لأذكره لولا أن أرادني عليه صديقان من أعلام الصحافة والأدب والعلم في مصر. وما كان من طبعي الحديث عن نفسي في مجلس أو مكتب. فتلك خطتي يعرفها عني أصدقائي ومعارفي
ويتهم حضرة (عابر سبيل) شعراء مصر بأنهم قد قصروا عن إخوانهم شعراء الشام في وصف بلادهم ومهد أحلامهم ومراتع صباهم. وهو اتهام لا أجد له نصيباً من الحق ولا مؤيداً من الواقع. وإذا كان إخواننا شعراء الشام قد وصفوا لبنان الخالد والأرز الظليل قبل أن يصفوا الغرب، فإن إخواني شعراء مصر لم يقصروا في حق نيلهم وتاريخهم وبقايا مجدهم قبل أن يصفوا الغرب. ونهار هذه لقضية لا يحتاج إلى دليل؛ فشوقي وصف النيل بقافيته التي مطلعها:
من أي عهد في القري تتدفق ... وبأي كف في المدائن تغدق
قبل أن يصف (التيرول) في النمسا وإيطاليا في قصيدته التي يقول فيها:
تلك الطبيعة قف بنا يا ساري ... حتى أريك بديع صنع الباري
وصديقي الدكتور بشر فارس وصف الطبيعة المصرية في شعر لم ينشر، قبل أن يصف الفصول الأربعة في باريس وبرلين وفنلندا
وإذا كان ذكر الواقع يؤلم حضرة الأستاذ (عابر سبيل) فإنني أستأذنه في أن أذكر له لآخر مرة أن كاتب هذه الكلمة له قصائد في (النيل) تفضلت الأهرام الغراء فأفسحت لها مكاناً طيباً
وما نسى الشاعر مصري ممن أقاموا في أوربا الحنين الدائم إلى وطنه الغالي، ولم تشغله مرابع أوربا ومراتعها عن ذكر النيل وترانيم السنين فيه. . . فقد كان شوقي رحمه الله في أسبانيا وقلبه في مصر
ولعل بشر فارس كان أقرب الناس روحاً إلى مصر وهو أبعد الناس عنها في شمالي أوربا
وهناك شاعر ثالث - لا نذكره هذه المرة لئلا يتألم عابر سبيل! - نشر في الأهرام سنة 1934 أبياتاً في الربيع يقول فيها:

يا طيور الربيع في أرض مصر ... أن قلبي إلى الحمى يتحرق
طال شوقي له وطال حنيني ... كل طير لغصنه يتشوق
وقد أرسل هذه الأبيات إلى مصر الغالية من مقاطعة (ديفون) الجميلة بإنجلترا
وبعد: فلقد أكسبتنا (لأجبشان مايل) بحديثها عن أخي المبدع علي محمود طه موضوعاً طيباً للكلام كما ذكر ذلك لي ولعلي طه، أحد أدبائنا العلماء
وأرجو أن أكتسب معرفة (عابر سبيل) القاهرة) حتى أؤدي له واجب الضيافة فهو له في عنقي دين
والشكر للرسالة الغراء أولاً وأخيراً
محمد عبد الغني حسن
معنى بيتين
سيدي صاحب الرسالة
في الصفحة السابعة من الجزء الأول من كتاب الأمالي لأبي علي القالي عثرت على الآتيين لشاعر لم يذكر اسمه، هما:
وما هاج هذا الشوقَ إلا حمامةٌ ... تغنت على خضراءً سُمرُ قيودها
صدوحُ الضحى معروفة اللحن لم تزل ... تقود الهوى من مسُعِدٍ ويقودها
وقد التبس على معنى (سمر قيودها) في عجز البيت الأول. فأرجو شرحه على صفحات الرسالة الغراء.
(الخرطوم بحري)
ا. م. س
البيتان من شعر لعلي بن عميرة الجرمي، وبعدهما :(الرسالة):
جزوعُ جَمودُ العين دائمةُ البُكى ... وكيف بُكى ذي مُقلةٍ وجُمودُها
مطوَّقةُ لم يضرب القَيْنُ فِضَّةً ... عليها، ولم يَعطلْ من الطَّوْقِ جيدُها
هكذا ذكر الأبيات أبو عبيد البكري في (سمط اللآلي شرح أمالي القالي). قال أبو عبيد: (ولم تختلف الرواية عن أبي علي يعني بها الشجرة وقيودها: أصولها وهم يصفون ما كان متمكن الري من الشجرة بالحوَّة والسواد).
وأما رواية (سمر قيودها) بالرفع فهو من صفة الحمامة، ويعني بالقيود قيود الحمامة وهي ما أحاط بساقها من صغار الريش.
بين ناقد وموسيقار
نشرت (الرسالة) في عددها السابق (338) مقالاً للأستاذ عزيز أحمد فهمي تحدث فيه برأي موزع في اتجاهات عدة أقحمها في دائرة الفن. والعابر بحديثه لا يشك في أن أهداف الكاتب اتجهت في غالبها اتجاهاً شخصياً استعان له بعدة أسماء لشخصيات مشتهرة الشأن في المجتمع المصري ما بين شعراء وموسيقيين وكتاب. وإنه ليحزنني أن أتكلم على غير عادتي فأصارح القراء بما صدمني من امتعاض شديد حين طالعت حديث الكاتب ووقفت على وجهته الأصيلة التي قد ترمي إليها نفسه لا قلمه، وهي محاولة الغض من شخصية الموسيقار النابه النابغ الأستاذ محمد عبد الوهاب على حساب الحديث عن فنه، وإني مع تقديري وإعجابي لكثير من الأبحاث الفينة التي يعرض لها الأستاذ عزيز فهمي على صفحات الرسالة، إلا أنني أرخص هذه النزعة المتفشية بين الأدباء والفنانين المصريين على الإطلاق وهي أخذ الطريق من بعضهم على بعض، والاعتصاب لكل ذي خطوة جديدة في فنه بالغض والتشهير
يا قومنا! إن الفنون لا تمرع في مثل هذه الأجواء الملوثة بالشحناء والسخائم، فدعوا حملة المشاعل يسيرون في طريقهم إلى إنقاذ هذا الوطن المسكين من الجمود الذي ضرب على الفنون الرفيعة فيه. ومن هاجت في قلبه عبقرية النقد فليعلم أن للفن عرضاً يصان ويشان. ومن كان في روحه وإحساسه بريق من إشفاق على سمعة الفن في بلاده، فعليه بالنقد العف البريء والتوجيه السديد. . . وإلا فما كان أغناني عن هذه النبأة التي أهجس بها في سبيل حق لا أعرف ولا يعرف معي إنسان أين مكانه من الأرض!
(م)
إنشاء مكتبة إلى جانب ضريح أبي العلاء
زار مسيو بونور مستشار المعارف في المفوضية الفرنسية العليا ببيروت، معرة

النعمان في شمالي سوريا، للإشراف على إنشاء قبر للشاعر العربي الفيلسوف أبي العلاء المعري
وقد درس مسيو بونور، وهو من كبار الأدباء المستشرقين مع السلطات المحلية مشروع إنشاء مكتبة عربية وأجنبية إلى جانب القبر، تجمع فيها مؤلفات الشاعر والكتب التي تحدثت عنه وعن أدبه وشعره في جميع اللغات والأمصار. على أن يجري الاحتفال بافتتاح هذه المكتبة بعد تشييد الضريح والبناء المجاور الذي سيضم مدرسة للذكور والإناث بحضور مندوبي جميع الممالك الشرقية والأقطار العربية وممثلي جامعاتها وكبار أدبائها وشعرائها
وسيكون هذا المهرجان على مثال المهرجان الألفي لشاعر إيران الفردوسي الذي أقيم منذ سنوات في طهران
وتتقبل بلدية المعرة منذ الآن مع الشكر كل ما يريد المؤلفون والعلماء والمستشرقون وأصحاب المكاتب الخاصة في الأقطار العربية وغيرها إهداءه إلى هذه المكتبة من الكتب المطبوعة والمخطوطة والمجلات التي تحوي أبحاثاً خاصة بأبي العلاء على أن تسجل كل كتاب على اسم مهديه في سجلات البلدية والمكتبة. والبلدية مستعدة لدفع أجور البريد لهذه الكتب المهداة إذا لم يلصق عليها مهدوها الطوابع اللازمة. وهي على ثقة من أن هذا المشروع سيلقى ما يستحقه من المساعدة والتشجيع في جميع الأقطار العربية وغيرها من البلاد الكثيرة التي تعرف أبا العلاء المعري وتحرص على إحياء ذكراه
حديث أبي هريرة في ذم الشعر
قرأت ما جاء في عدد 338 من مجلة الرسالة الغراء عن حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً فَيَرِيَهُ خير له من أن يمتلئ شعراً) وهذا الحديث رواه أحمد والشيخان وأصحاب السنن وغيرهم عن أبي هريرة وغيره، وقد جاء في رواية ابن عدي جابر (لأن يمتلئ جوف الرجل قيحاً أو دماً خير له من أن يمتلئ شعراً مما هجيت به) والروايات يفسر تعضها بعضاً كما هو مشهور في علم
الحديث، ولا يصح أن يفهم من رواية أبي هريرة ذم الشعر على إطلاقه، وتهجين حسنه وقبيحه. وهذا مع أني لم أسقه هذا المساق، لأن أصل كلامي في تفضيل بعض الشعر على بعض، لا في ذم الشعر على الإطلاق. وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم في الشعر أيضاً (إنما الشعر كلام فحسنه حسن وقبيحه قبيح) رواه الدارقطني في الإفراد عن عائشة، والبخاري في الأدب، والطبراني في الأوسط، وابن الجوزي في الواهيات، عن عبد الله ابن عمر، والشافعي والبيهقي عن عروة مرسلاً
وجاء فيه أيضاً: (إن من الشعر لحكمة وإن من البيان لسحراً) وهو حديث مشهور رواه أصحاب الصحاح وغيرهم
عبد المتعال الصعيدي
المسرح والسينما
على مسرح الأوبرا
تستعد الفرقة القومية لإخراج مسرحيتين جديدتين في الفترة الباقية من هذا الموسم، أولاهما رواية تركية ترجمها الأستاذ مطران أسمها في الأصل (كسمت)، وصار الآن (القضاء والقدر)، وهي عربية الموضوع. ويشرف على إخراجها (سراج منير). أما الرواية الأخرى، فهي مصرية موضوعة من تأليف الأستاذ صبري فهمي عضو بعثة معهد التمثيل في فرنسا. وسيخرج هذه الرواية عمر جميعي، ويضع أزجالها بيرم التونسي، وموسيقاها زكريا أحمد؛ إذ أنها تميل إلى (الأوبريت) كثيراً. أما بقية برنامج الفرقة فيما بقي من وقت الموسم، فلم يستطع أحد أن يدلى إلينا بخبر قاطع عنه. ولكننا نستطيع القول بأن الفرقة لا تنوي إخراج روايات جديدة في هذه الفترة الباقية. وسيعاد تمثيل بعض المسرحيات التاريخية القديمة الموثوق من نجاحها.
الموسم الأجنبي
كنا نظن أن منع الإعانة الحكومية عن الفرق الأجنبية التي تزور مصر في موسم السياحة في الشتاء، وقيام الحرب في أوربا بين دول تزور مصر في موسم السياحة في الشتاء، وقيام الحرب في أوربا بين دول كثيرة، أن هذين السببين كافيان لامتناع

الفرق التمثيلية عن زيارة مصر في هذا العام. غير أننا علمنا أن الفرقة الإنجليزية فضلاً عن فرقة إيطالية لا يحضرنا أسمها. وعلى ذلك فلن يحرم رواد المسرح الفرنجي هذا العام متعة عرض بعض المسرحيات الأوربية برغم كل العوائق

رقابة السينما

رقيب السينما في مصر موضع شكايات متصلة، وأحاديث تهمس بخليط من الضيق والاستنكار؛ وسبب عناء دائم للمشتغلين بإنتاج الأفلام المصرية ولمستوردي الأشرطة من الخارج على السواء

ولعل الجمهور لم ينس مهزلة فلم (ماري أنطوانيت) الذي لم يصرح الرقيب بعرضه في القاهرة ثم عاد فأجاز عرضه، ثم منع عرضه مرة ثانية، ثم صرح بعرضه في الإسكندرية،

مثلما حدث في عرض شريط (هنري الهامن) الذي منع عرضه مدة من الزمن بحجة أن فيه تعريضاً بملك إنجليزي سابق، ولم يلبث الرقيب أن صرح بعرضه بعد أن تلقى تصريحاً من السفير البريطاني بأن هذا الشريد قد صنع في بريطانيا وعرض فيها وفي سواها من بلاد العالم! وقد عانى مخرج فلم (العودة إلى الريف) كثيراً من عنت الرقيب، لأن الرقيب لم يهضم فكرة أجزاء من الحوار تقوم على الدعاية للريف من طريق مناقشة يحمل أحد طرفيها على الريف فيدافع الطرف الآخر عنه دفاعاً مفحماً مجيداً!

ولا يمكن أن ننسى الصورة الشائنة التي رسمها شريط (أربع ريشات) للمصريين وموقفهم من فتح السودان، ومع ذلك مر الشريط من الرقابة ولم يحظر عرضه!

وفي مصر عدد وافر من الشبان ذوي الثقافة السينمائية الممتازة لا ندري لماذا لا تستخدم الحكومة في رقابة الأفلام؟ بينما تسند إنجلترا مهمة الرقابة السينمائية إلى رجل ممتاز الكفاية والمركز كاللورد (تيرل)، وتسند الولايات المتحدة نفس المهمة إلى رجل نابه كالمستر (جوزيف براين)؛ كما استعانت فرنسا بأديبها الأكبر (جان جيرودو) فعينته رقيباً عاماً بعد إعلان هذه الحرب، ولكننا بعد في مصر

لجنة الأغاني

في محطة الإذاعة لجنة يقال لها لجنة الأغاني، أعضاؤها جميعاً من موظفي القسم العربي في المحطة، وكلهم مرهق بالعمل في الواقع، وقد نجم عن ذلك أن تعطلت أعمال اللجنة بحيث ظلت لديها بعض الأغاني بضعة شهور بغير أن تنظر فيها أو تقضي برفض أو قبول. مما يجعلنا نطالب الأستاذ لطفي بك بحل هذه اللجنة وإحالة أعمالها على بعض الثقات من موظفي المحطة أو غيرهم

(أبو الفتح الإسكندري)

العدد 340 - بتاريخ: 08 - 01 - 1940

هل خصب الأرض

يستلزم جدب القرائح؟

من الأقوال المأثورة أن الحاجة تلد الاختراع وتفتق الحيلة. وهذه الحاجة التي ضمَّنها الله عمارة الأرض ورقي العالم، هي التي جعلت بيئة الفقر مهبط الإلهام ومنبت العبقرية. فأينما تجد الحاجة تجد العمل والذكاء والقوة، وحيثما تر الغنى تر الكسل والغباء والرخاء. ذلك لأن الفقير يضطره العيش إلى أن يفكر فيجيد التفكير، وإلى أن يعمل فيتقن العمل، وإلى أن يهاجر فيزداد بممارسة الشدائد ومنافسة الناس جلاء في الذهن وبسطة في العلم وسعة في الحيلة. ومواهب العقل كأعضاء الجسد تقوى وتنمو بالكد، وتضعف وتضمر بالعطلة. ولا يصعب عليك أن ترى مصداق ذلك في الفروق الذهنية والعلمية الواضحة بين أبناء الفقراء وأبناء الأمراء، وبين سكان مصر العليا وسكان مصر السفلى، وبين بلد كدمياط وبلد كالفيوم، وبين مدينة كأتينا ومدينة كرومة في الغرب القديم، أو بين قطر كفينيقية وقطر كالعراق في الشرق الغابر. ففي كل من ذكرت لك ترى أن جدب الأرض وضحولة الموارد كانا علة في إخصاب العقول وإنما المدرك وكثرة الإنشاء ووفرة الإنتاج، وأن خصب البلد وسهولة الأرزاق كانا سبباً فيما أصاب بعض الناس وبعض الأجناس من البلادة والقعود والترف والغفلة

تستطيع أن تقول إن مصر في جملتها بلد غني يؤتي أكله كل حين بيسير الجهد وقليل النفقة. فأهله آمنون من موت الجوع، لأن الفقير يملك أن يمسك روحه بنصف قرش،

وما أيسر ما يجد قرشين في اليوم بالعمل الحقير أو السؤال الملحف. ومتى حصل المرء من بلده على الكفاف والراحة والأمن، نشأت في نفسه فضيلة القناعة الزائفة.

والقناعة في الفقير كالثروة لدى الغني، كلتاهما تقتل طموح النفس، وتسكّن قلق الروح، وتخمد نشاط القريحة، وتحمل الرجل على الرضى بالدون والتسلم بالواقع هذا الفقير القانع الذي لا يحس بالحاجة فلا يسعى للغنى، وهذا الغني الوادع الذي لا يشعر بالنقص فلا يطمح إلى الكمال، هما الأثر السيئ لتدليل النيل لبنيه وحَدبَه البالغ على أهله. فالفلاح لا يزال يزرع الأرض بالآلة القديمة على الطريقة القديمة، لأنه لا يجد في نفسه الحاجة التي تحفزه إلى اختراع آلة وابتكار طريقة ما دامت أرضه تغل عليه ما يكفيه بهذه الأداة الرخيصة السهلة

والصانع لا يزال يصنع بيده كل اليوم ما تصنعه الآلة في بعض الساعة، لأنه يجد في جيبه آخر النهار ما يملأ به بطنه بخسيس الطعام وغليظه؛ فعلام يشغل ذرعه بما يقلل النفقة ويكثر الإنتاج ويحسن النوع؟

والطالب يقصر جهده على استظهار المختصرات لأن الامتحان لا يخرج عن هذه المذكرات، والوظيفة لا تطلب إلا بعضاً من الحساب وشيئاً من المصطلحات؛ وما غناء العلم بعد أن ينال المتعلم الشهادة والوظيفة؟

والمعلم يحصر نشاطه في كتب الدراسة وما يتصل بها من مقترح التمارين وموضوع الأسئلة ومحلول المسائل، ثم لا يفكر بعد ذلك في درس مشكلة من مشكلات التربية، ولا حل معضلة من معضلات المجتمع، لأنه ضمن لنفسه المراتب آخر الشهر والعلاوة آخر المدة

والكيميائي أو الفيزيائي يبلغ الدرجة الجامعية العليا في الكيمياء أو الفيزياء، ثم يعلم أن أقرانه في البلاد العاملة الجادة لا ينفكون يسخِّرون للمدنية والإنسانية قوى المادة وأسرار الطبيعة في شكول مختلفة ومظاهر متعددة: في البيت والمدينة، وفي السماء والأرض، وفي السلام والحرب، ولا يفكر عالمنا الكبير أن يزيد في العلم بكشف مجهول، أو يرفه عن العالم باختراع آلة، لأنه لا يبتغي شيئاً وراء اللقب الفخم والمرتب الضخم والحياة الوديعة

والطبيب أو الصيدلي يجعل كل همه في رواج عيادته أو صيدليته، لأن المال هو غايته من الطبابة أو الصيدلة، فإذا بلغها على حساب الطب المحفوظ أو الدواء المجهز فلماذا يكدر صفو عيشه بالاحتباس في معمل ينقب عن جرثومة مرض، أو يجرب مفعول مصْل؟

والسياسي أو المصلح يتوخى بعمله مجد الشهرة وجاه الحكم، فإذا أدركهما بتملق الجمهور أو بعصبية الحزب فلا عليه بعد ذلك أن يظل حزبه من غير منهاج ولا غاية، وأن يزاول عمله الخطير من غير خلق ولا دراية. وإذا كان الرمق في هذا البلد بسد بنصف القرش، والوظيفة تنال ببعض العلم، والمنصب والمراتب يعظمان بمضي المدة، والشهرة والجاه يدركان بإرضاء العامة، والزعامة والحكم يبلغان باحتراف السياسة، فأي شيء يدعو إلى زيادة العلم وإطالة الفكر وإدامة العمل وإضاعة الجهد والعمر في تحرير مسألة، أو تأليف

كتاب، أو متابعة كشف، أو محاولة اختراع، أو وضع خطة للإصلاح، أو تدبير سياسة للحكم؟

حاولوا يا قوم أن تهذبوا القناعة في ذهن الفقير برفع مستوى عيشه وإصلاح فساد ذوقه؛ وحاولوا أن تخلقوا الحاجة في نفس الغنى بتشويقه إلى الكمال المطلق وترغيبه في المثل الأعلى، فإنكم إن نجحتم في زعزعة الرضا في القانع المعتر وفي الواجد المغتر، ساورهما القلق الروحي الحافز الذي لا يقنع بما دون الغاية، ولا يرضى للغير بأقل مما يرضي للذات

حاولوا أن تحملوا العلماء والأدباء والأطباء بالجوائز والألقاب على الإنتاج الأصيل والتأليف المبتكر والبحث المنتج حتى ينشأ فيهم على الزمن والمران حب البحث لفائدة العلم، وحب العمل لمنفعة الناس

ثم حاولوا وحاولوا أن تقيسوا كفايات العاملين وأقدار النابغين بغير مقاييس المحاباة والزلفى والقرابة، فإن كثيراً من الأكفاء إنما يزهدهم في العمل والإصلاح اليأس من

الإنصاف والقنوط من المكافأة!
أحمد حسن الزيات
ماذا ربحت وماذا خسرت
من أسواق السنة الماضية؟
للدكتور زكي مبارك
كتب إليَّ أحد تجار الورق يقول: إنه يرجو أن أرسل إليه ما بقي عندي ليسوي حساب تجارته في سنة 1939
وأنا أيضاً أريد أن أسوي حسابي مع قومي وزماني، حساب سنة 1939 فقط، أما حساب الأعوام السوالف فهو عبء ثقيل والرجوع إليه ضرب من الخذلان. وأين أنا مما فات ومات؟ يرحم الله جهادي في سبيل الأدب والبيان!
ربحت في العام الماضي أشياء، وخسرت أشياء!
وأعظم ربح ظفرت به في السنة الماضية هو الصداقة العظيمة التي تفضل بها قراء مؤلفاتي ومقالاتي، فأنا اليوم أشعر شعوراً قويًّا بأن لي أهلاً وعشيرة في سائر الأقطار العربية، وهذا الشعور يزحزح ما يعترض طريقي من عقبات وأشواك، وبفضل ذلك الشعور أكاد أنسى الأعاصير التي تثور في وجهي من حين إلى حين
والكاتب كالموسيقار يسره أن يعرف أنه موصول الأواصر بالعواطف والقلوب، فمن حدَّثكم أنه لا يهتم بسخط القارئ أو رضاه، فاعرفوا أنه يقترف إثم الغرور البغيض، أو الكذب السخيف.
وتعظُم قيمة هذا الربح في قلبي كلما تذكرت أنه بشيرٌ بقيام دولة قوية للأدب العربي، وهو أدب كان يسيطر في ماضيه على كثير من الأمم والشعوب، فإن استطعنا أن ننتفع بعواطف القراء ونجذبهم إلى الأدب من جديد كان ذلك مجداً ندفع به عدوان أهل البغي على الآداب والفنون
وما الذي يمنع من أن يكون للقلم دولة في هذه البلاد؟
أتصدِّقون ما يمليه الضجر على أقلامنا من وقت إلى وقت حين نتهم مصر بالجحود والعقوق؟
إن مصر في تاريخها القديم والحديث قد استمعت كل قول، واستجابت لكل نداء، فكيف يتوهم الكاتبون والباحثون أنهم لن يلقوا فيها غير الضياع؟
ثم أقول إن العام الماضي كان من الأعوام التي اختبرت فيها أخلاقي. ومعاذ الأدب أن أدَّعي التفرد بكرم الأخلاق، وإنما هي حيلة أتوسل بها لخلق فرصة أنوح فيها على أخي وصديقي محمد الهراوي. وهل ذرف الزيات من الدموع على ابنه رجاء، أو ذرف هيكل من الدموع على ابنه ممدوح، بعض ما سكبت من دم القلب على صديقي محمد الهراوي؟
كان من عادتي أن ارتاد ملاهي القاهرة في المواسم والأعياد لأفهم شيئاً من أسرار المدينة التي تصنع اليوم بأذواق الشرق ما تصنع. فمن يصدق أن شارع فؤاد صار في عيني صورة من صور الإقفار والإمحال، لأنه خلا من وجه الصديق الغالي، وجه محمد الهراوي، وجه الأخ الذي عرفت بفقده كيف يكون الجزع من فقد الرفاق
وهل تسمح الدنيا مرة ثانية بصديق مثل ذلك الصديق؟
وأين الصديق الذي تصحبه عشرين سنة فلا ترى منه غير كرم العهد وصدق الوفاء؟
أين الصديق الذي يرى من السعادة أن يكون رأيه من رأيك وهواه من هواك؟
إن دموعي على محمد الهراوي دلتني على جوانب من أخلاقي، وشرفتني أمام نفسي، وفرضت عليَّ أن أومن بأني رجل له قلب. فلا كان الصبر عنك يا أكرم ذاهب وأعز فقيد
وكان من مغانم السنة الماضية أن تصير اللغة العربية لغة الدرس في كلية الطب وكلية العلوم، وهي دعوة عانيت فيها من الشقاء ما عانيت. فمن قال إنه دعا إلى هذه الفكرة مرة أو مرتين أو مرات فأنا جعلتها حلماً أهتف به في يقظتي ومنامي أكثر من خمس عشرة سنة. وبسبب الإلحاح في نشر هذه الدعوة رآني بعض أقطاب الجامعة المصرية من الثقلاء، وأوصدوا في وجهي كثيراً من الأبواب. فإن قال أعضاء المؤتمر الطبي العربي بعد أسبوعين إنهم قرروا تدريس الطب باللغة العربية في كلية الطب بالقاهرة فليذكروا مشكورين أنهم سفَّهوني علانية يوم التقينا في بغداد سنة 1938

وفي العام الماضي قدمت لكلية الحقوق رسائل لامتحان الدكتوراه باللغة العربية، وقال قائل: إن في ذلك مجاراة للنزعة القومية، فمن واجبي نحو نفسي وأنا رجل مظلوم في وطني أن أقول إن ذلك لم يقع إلا طلباً للسلامة من القلم الذي شن الغارة على من يقبلون رسالة باللغة الفرنسية عن الديِّة في الشريعة الإسلامية ولتلك المعركة ذيول فصلتها في كتاب (البدائع) وفي رسالة (اللغة والدين والتقاليد) وفي كتاب (الأسمار والأحاديث) فأن غضب وزراء

المعارف اللذين حاربتهم من قبل فليعرفوا أني أديت لهم بذلك التوجيه أعظم الخدمات. وحسبهم من الشرف أن يسمعوا كلمة الحق من رجل ليس له في الحكومة عمٌ ولا خال

وفي العام الماضي قررت وزارة المعارف تأليف كتاب للمطالعة في المدارس الثانوية من صميم الأدب الحديث، وأنا صاحب هذا الرأي وقد شغلت نفسي بالدعوة إليه أكثر من عشر سنين.

وفي العام الماضي قضت الظروف بأن تقبل وزارة المعارف إسناد تعليم اللغات الحية في المدارس الثانوية إلى المصريين، فليتها سمعت الدعوة التي أذعتها منذ أعوام طوال، الدعوة إلى أن يكون مدرسو اللغات الحية من المصريين لنخلق جيلاً من المتفوقين في اللغات الأجنبية، وليكون بيدنا الأمر في تكوين الثقة بالعزيمة الوطنية وفي العام الماضي. . . ما هذا؟ ما هذا؟

أراني أنحدر إلى هاوية المنْ الممقوت، فلأرجع إلى تدوين ما خسرت في السنة الماضية:

في سنة 1939 نسيت أني موظف بالحكومة المصرية فوقع قلمي في أغلاط لا يقع فيها الموظفون (العقلاء)

أنا من كتّاب الطبقة الأولى بشهادة أعدائي، ولكني لم أخط خطوة واحدة في كسب حق جديد لحرية الأقلام. كنت أستطيع أن أنتفع بالدكتور هيكل باشا، ولكنني لم لأقابله إلا حين دعاني، وقد هجمت عليه في جريدة المصري مرتين، وكنت أستطيع أن أنتفع بمعالي النقراشي باشا، وهو رجل مُشرق العقل، ولكني قصرت فلم أقابله غير مرتين، كنت في الأولى مهنئاً، وهي زيارة لا تتسع لبحث ولا درس، وكنت في الثانية مقروناً بجمهور المفتشين بالتعليم الثانوي، وهو مقام لا يتسع فيه المجال لغير الشؤون الرسمية

أليس من سوء البخت أن يكون لنا وزير مثل النقراشي باشا ولا أظفر منه بشيء لحرية الأقلام؟

كنت أحب أن أطلب إجازة طويلة لعام أو عامين لأحقق مشروعاً عجزت عن تحقيقه في بغداد وهو تأليف كتاب عن أبي تمام إمام المبتكرين في القرن الثالث، فهل شغلت نفسي بتقديم هذه الرغبة إلى معالي النقراشي باشا وهو من وزرائنا الأدباء؟

وكنت أحب أن أقترح إنشاء قلم خاص بمراجعة ما يُكتب عن مصر في الأقطار العربية، فهل شغلت نفسي بتقديم هذا الاقتراح إلى رئيس الوزارة المحمدية أو رئيس الوزارة الماهرية؟

دونت هذه الآراء في كتاب (ليلى المريضة في العراق) ولكن من يضمن أن يكون هذا الكتاب مما يقرأ الوزراء؟

ماذا خسرتُ في العام الماضي؟ ماذا خسرت؟

كان عندي مشروع عظيم هو ربط الأمم الإسلامية برباط وثيق من الحب والعطف فما الذي صنعت لتحقيق ذلك المشروع العظيم؟

ضيعت العام الماضي - وا أسفاه! - في مجادلات ومشاغبات نفعُها قليل، وانصرفت عن تحقيق ذلك المشروع الجليل

فمن يُسعدني على بكاء ما ضيعت من أمانيَّ وأحلامي؟

وكان في نيتي أن أخلق عُصبة للخير من أصدقاء كلية الآداب، كنت أحب أن أنّظم سلسلة للدراسات الأدبية والفلسفية أصنع بها في القاهرة بعض ما يصنع أساتذة كلية الآداب في الجيزة، فأين أنا مما أردت؟ وأين ما صنعت لكلية الآداب وفوق ثراها سكبت عُصارة صباي؟

وكان في نيتي أن أكوِّن مكتبة عظيمة مما أصدر المتخرجون في كلية الآداب ثم

أسوقها في عربات رزينة إلى قصر صاحب الجلالة الملك فأين ضاعت تلك النية؟ وما مصيرها في تاريخ العقول؟
وكنت أحب أن أقوم بدراسات قوية أحدد بها اتجاه الأدب الحديث في مصر والمغرب العربي والشام والعراق، فأين من يعزيني على ضياع هذا الأمل الغالي؟
وكنت أشتهي أن أزور الحجاز لأكتب عن وطن الرسول كتاباً لا يعرف الزوار ولا الرياء، فأين ضاعت أحلامي؟
وكنت أتمنى أن أؤرق غفوات المغرورين من (أعلام) الأدب الحديث، فإلى أي أفق من آفاق الضياع ضاع أملي في تأديب أولئك (الأعلام)؟
كنت وكنت وكنت، فما الذي صنعت السنة الماضية بأغراضي وأحلامي؟
(للحديث شجون)
زكي مبارك
ألمانيا بين نيتشه وهتلر
(دين القوة)
للأستاذ عبد المجيد نافع
حين أوشكت صحيفة القرن التاسع عشر تطوي نشرت في أوربا راية دين جديد، ذلك هو دين القوة، وكان حامل لوائه بل رسوله المبشر به هو الفيلسوف الألماني فريدرش نيتشه
على أنَّا نحب أن نبدد وهماً قد يعلق بالأذهان، فنسارع إلى القول بأن عبادة القوة والأيمان بأثرها الحاسم في حياة الأفراد والشعوب، دين قديم جديد، اعتنقته الإنسانية في كل مراحل التاريخ من غير أن تجهر به، فكبدها ما أنفقت من دموع ودماء
وفي الحق أنك لو جردت الإنسان من الطلاء المدنية، ذلك الطلاء الذي هو بمثابة القشرة الخارجية التي يصطنعها ليخفي تحتها أطماعه تارة، وضعفه طوراً، لتبدَّى في ثياب الإنسان الأول بكل ما فيه من مظاهر الوحشية والهمجية والقسوة
والحق للقوة - كلمة قالها بسمارك الألماني رجل الدم والحديد. ولو أن النصر لم يعقد بلوائه في حروبه مع الدانمارك والنمسا وفرنسا لنادى بأن الحق فوق القوة. ولو أن القوة حالت بين هتلر وبين أن يزدرد النمسا، ويثني على ازدرادها بتشيكوسلوفاكيا لملأ فمه بكلمات العدالة والحق والمساواة والحرية
ولكن نيتشه، رسول القوة، يتفرد بأمور: منها أنه صيغ الدين الجديد بالصبغة الفلسفسة، ورسم له الحدود والمعالم، ودعمه بأسانيد الواقع والتاريخ. ولعله يتميز بين جبابرة العقول وحملة لواء الفكر الإنساني، بصراحته الوحشية التي مزقت قناع الرياء عن وجه الإنسان
ولا نحسب أن مفكراً طبع العصر الحديث، في الغرب، بطابعه الفكري، مثل نيتشه. وإذا كان ماكيافيللي أستاذ كثير من السياسيين، فإن نيتشه أستاذ الدكتاتوريين، وخاصة زعيم النازية
نعم، هو ملهم النازيين ومهبط وحيهم، هتف بدين القوة والسلطان، وتلقف زعماء ألمانيا الحديثة تعاليمه، فأفرغوها في قوالب التطبيق العملي، غير متأثمين ولا متحرجين، إذا كان تطبيقها يحرج شعور العدالة، أو يثير الضمير الإنساني
كان صاحب دعوة القوة يحمل على الديمقراطية حملاته الشعواء بدعوى أنها من أقوى مظاهر الانحطاط والانحلال في أوربا العصرية، وكذلك يذهب دعاة النازية هذا المذهب. فما كادت ألمانيا تنسحب من عصبة الأمم في عام 1933 حتى قال هتلر، في أعقاب ذلك الانسحاب، لبعض صحبه: (لن تعود ألمانيا إلى عصبة الأمم الديمقراطية بحال. فقد دبت فيها عوامل الفساد، وقضت عليها الديمقراطية بالفناء والدمار)
وينادي زعماء النازي بأن ألمانيا تهيئ الجو لانقلاب جديد، وأن على العالم أن يمشي تحت رايتها. وكان المبشر بدين القوة، بعد أن ظن أنه حطم أصنام الأوهام الموروثة من دين وعلم وفلسفة وأخلاق وديمقراطية، ولأقام على أنقاضها القيم الأخلاقية الصحيحة، واكتشف الإنسان الأعلى، أنه قد مهد الطريق لظهور الإنسانية الجديدة البريئة من شوائب الضعف والانحلال المرتكزة على دعائم القوة والسلطان
وأسر الفوهرر إلى بعض رفاقه أنه على تمام الهبة لأن يضع توقيعه على اتفاق، ويضمن أية حدود، ويمضي ميثاق عدم اعتداء مع كائن من كان، على أن ينقض كل

أولئك، في دم بارد وضمير جامد، إذا اقتضته قوة ألمانيا وعظمتها. وجاهر رسول القوة بأن الضعيف يبتغي السلام والوفاق والمساواة والحرية، لا يشرئب بآماله إلا إلى الاحتفاظ بذاته. ولكن القوي يؤثر أن يثير المشكلات وعظائم الأمور. الضعيف يضمر الكيد فحسب؛ فأما القوي فيهجم غير وان ولا متردد، فإن القوة التي تفيض بها جوانب نفسه تحفزه إلى التوثب والانقضاض

وأعمل نيتشه معاوله حتى ظن أنه نقيض القيم الأخلاقية من أساسها. فالشفقة لديه بغيضة لأنها من أخلاق العبيد، والقسوة في عرفه مرضية لأنها من أخلاق السادة. تلك شرعة الأقوياء. ولا يتحرج من أن يجهر بأن الشفقة هي فضيلة المومس، وينادي مع الشاعر الأساطير الشمالية القديمة: (إن فوتان (كبير الآلهة في تلك الأساطير) قد وضع في صدري قلباً قاسياً). ثم يهتف: (من الواجب عليك القسوة. فعن هذا الطريق وحده يسمو الإنسان إلى أعلى حيث يقابله البرق ويحطمه: فلترتفع إلى البرق ارتفاعاً كافياً). ذلك بأنه يرى القسوة أعظم شيء يفضي إلى تقوية الإنسان وترويضه على ملاقاة الأخطار، وشحذ همته للنهوض بجلال الأعمال، على حين لا شيء أخطر على المجتمع من الرحمة بالضعفاء والعاجزين، إذ تنهض عقبة في سبيل قانون الانتخاب الطبيعي وبقاء الأصلح. فنواميس

الطبيعة تقضي بإبادة الكائنات الضعيفة وإفنائها من الوجود. وأما نحن فنتحدى قوانين التطور، ونعمل على أن نحيل العالم إلى ملجأ الضعفاء والعاجزين.

ومن ذا الذي تداخله إثارة من الشك في أن هذا ما يدين به جماعة النازي؟ أرأيت كيف نكلوا برفاقهم في الجهاد يوم قاموا بعملية التطهير بين صفوفهم في عام 1934 حين زعموا أنهم وقد اختمرت في رؤوسهم فكرة الجريمة، أخذوا يدبرون في الظلام ومن خلف الأستار مؤامرة واسعة النطاق ترمي إلى هدم نظام الحكم النازي، وتحت ستار هذه الدعوى أجهزوا على طائفة من رؤوسهم وفي طليعتهم رويهم، وكذلك لم يبقوا على شليخر وزوجه!

وهل أتاك حديث الجستابو وما يجري من أعمال القسوة في معسكرات الاعتقال التي تضم الخصوم السياسيين الذين يظن فيهم أو يلمح من ثنايا حركاتهم أنهم يعتزمون الانتقاض على الحكم النازي؟

ثم هل جاءتك أنباء تنكيلهم بكل من يحاول كسر القيود من الأمم التي غلبوها على أمرها لحكمهم عنوة واقتدارا؟

ويبرر أولئك الدكتاتوريون قسوتهم بأن سلامة الدولة قبل كل شيء وفوق كل اعتبار ويتخذ النازيون العنف عقيدة ويعدون الرحمة خوراً في الطبيعة ويؤمنون بالقوة إيماناً عميقاً، القوة الخالية من شوائب الشفقة والرحمة، المتجردة من هواجس الضمير ومن عوامل الضعف الإنساني، القوة التي تذهب إلى حدود الوحشية أحياناً؛ فإذا وقف الضمير في وجه القوة، وعاق نهوضها إلى الأمام، كان ذلك آية على الضعف والانحلال، ومظهراً من مظاهر انحطاط الفرد والجماعة

وفي كتابه (كفاحي) لا يكتم زعيم الريخ الثالث ازدراءه لما تواضع الناس على أنه رحمة، وما اصطلحوا على أنه إنسانية.

ويدين جماعة النازي بالمبدأ القائل: (الحرب الدائمة) هي حالة المجتمع الإنساني في المستقبل، وأن على كل أمة أن تعد لها العدة، وأن تتنكر للسلام، ولا تتجهم للحرب. فالسلام يقتل حيوية الأمم، فأما الحرب فتغذي تلك الحيوية، ولا يجنح للأول إلا الأمم المترفة المستسلمة، ولا ينزع لخوض غمرات الثانية إلا الذين يفيضون بالقوة والعزة. فألمانيا تبتغي (تقسيم العالم من الجديد) كما يقول وزير دعايتها جوبلز. لا، بل يزعم فيلسوف

النازية روزنبرج أن الشعب الألماني خلق للسيادة، ولا مندوحة عن أن يبسط سلطانه على العالم، ليهيئ حضارة أعلى

وفي سبيل فرض السيادة على الدنيا يرى القابضون على مصاير ألمانيا أن لابد لها من التسلط على المستعمرات والطرق الرئيسية للبحار

وتطوف بأحلام النازيين خيالات غريبة، وتصور لهم أوهامهم ما لا يمكن أن يتعلق به أمل، فتراهم يقولون إن مأساة مونيخ قد كشفت عن ضعف إنجلترا وشيخوختها، وأن لا بد لهم من إضعاف إنجلترا، وتحطيم الإمبراطورية البريطانية، تلك الإمبراطورية التي

قال عنها كبيرهم أدولف هتلر وهو يحلق في أجواء الخيال: (إن الإمبراطورية البريطانية تمثال ضخم هائل يقوم على رجلين من طين)
فأما فرنسا فيجمح الخيال بزعماء النازي عنها إنها (أمة تحتضر) فلا يقوم لها ميدان الصراع الدولي وزن أو اعتبار!
ولسوف تصدم الحقائق زعماء النازي صدمات قاسية أليمة، وتوقظهم من أحلامهم إيقاظاً خشناً، وإذ ذاك يعلمون إلى أعماق أية هوة ساقوا بلادهم!
ولعلهم حين تساورهم الأحلام فيتعلقون بأهداب تلك الأماني الباطلة يؤمنون في أعماق نفوسهم يقول الفوهرر: (إن كل أكذوبة يمكن أن تساغ وتهضم، على شرط أن تكون من الضخامة بمكان)
وليس يطمح الريخ الثالث في أن: (يتخذ له مكاناً ليعيش فيه) وإنما يتشبث بالأماني الكاذبة فتجمح به القوة الغاشمة إلى حد الطموح إلى ضم الدنيا بأسرها تحت علم الصليب المعقوف! والسياسة العنصرية التي طبعت تصرفات حكومة النازي إنما هي منبعثة عن تلك العقيدة الخاطئة وهي أن العنصر الآري قد خلق للسيادة بينا خلقت العناصر السامية للعبودية!
وترى النازيين ينفخون تلك الروح في شبابهم، ويملئون بها جوانب نفوسهم فينادى نشيد الشبيبة الهتلرية:
(اليوم نملك ألمانيا، وفي الغد نملك العالم بأسره)
والآن فمن الذي أضرم نيران المطامع في نفوس الألمان حتى أشعلوا الحرب الحاضرة؟ إن
الذي أجج تلك الروح إنما هو داعية دين القوة، والمبشر بالإنسان الأعلى، فريدرش نيتشه
لقد تروعك مبادئه وتعاليمه، بل لقد تهولك قسوته وعنفه، ولكن لا مفر من إجالة الفكر في تلك التعاليم والمبادئ إن كنت تبغي مواجهة الحقائق مهما كانت قاسية وأليمة، وكنت تريد أن تعلم من هو موقد نيران الحرب الحاضرة، ومشعل الحرب العالمية من قبل
يذهب نيتشه إلى أن من أقوى الدلائل على الخور والاستسلام الذي أصاب المدنية في القرن التاسع عشر، وتفشي بين صفوف أبناء الغرب، تحصنهم خلف ما يسمونه السلام الدائم، وتذرعهم بما يدعونه الإنسانية التي هي أنشودة الضعفاء، ورمز الانحلال، وعنوان الاضمحلال؛ لأن الحرب الدائمة، على ما فيها من الكوارث وويلات هي الحالة الضرورية لنهضة الأفراد والشعوب.
ويذهب الفيلسوف الهدام إلى الغريزة التي تسير الإنسان وتطبع كافة تصرفاته، إنما هي غريزة حب السيطرة، وإرادة القوة. وعنده أن الخير هو كل ما يعلو في الإنسان بشعور القوة وإرادة القوة، والقوة نفسها؛ وأن الشر كل ما يصدر عن الضعف، وأن السعادة في الشعور بأن القوة تنمو وتزيد، وأن لا رضى، بل قوة أكثر وأكثر، ولا سلام مطلقاً بل حرباً، ولا فضيلة بل مهارة، وأن الضعفاء العجزة يجب أن يفنوا، وأن هذا هو أول مبدأ من مبادئ حبنا للإنسانية، وأن أشد الرذائل ضرراً إنما هي الشفقة على الضعفاء العاجزين.
وينادي نيتشه بأن مذهب دارون في (تنازع البقاء) مذهب بالطل، فليست الحياة تنازع البقاء، وإنما هي تنازع القوة وتنازع القوة وتنازع السيطرة. وما تاريخ الإنسانية إلا سلسة متصلة الحلقات من تنازع السلطان والغلبة والقوة بين السادة وبين العبيد. فأما العبيد فيخترعون قيماً أخلاقية لا غاية لهم منها إلا إخضاع السادة لهم عن طريقها، وإن هي إلا أسلحة مسمومة يستخدمونها رجاء أن يتحرروا من نير سادتهم، ثم الطمع في السيطرة عليهم بمجرد زوال سلطانهم
ويذهب ذاك الذي لا يؤمن بالقوة إلى أن الضعيف يريد السلام والوفاق والحرية والمساواة، لا يبتغي من الدنيا شيئاً إلا الاحتفاظ بالبقاء. ولكن القوي يؤثر أن يخوض غمار المشكلات، ويواجه العواصف والأهوال غير وجل ولا هياب، ويشرئب بآماله إلى تسنم الذروة، وبلوغ العظيم من الأمور. الضعيف لا يرضى أن يخاطر بشيء، فأما القوي فيغامر بكل شيء، إذ

أن حياته كلها عواصف وأخطار، بل يبذل له نيتشه النصح أن (يعيش في خطر) فذاك هو المبدأ الذي يكفل له الاحتفاظ بكل مظاهر القوة

ويبشر نيتشه بظهور الإنسان الأعلى. ولكن كيف السبيل إلى ظهوره حتى ينهض بالإنسانية من كبوتها، ويقيل العالم من عثاره. السبيل أن يؤمن الناس بالأرستقراطية والتميز، ويكفروا بالديمقراطية والمساواة! فبين الكيف والكم خصومة عنيفة. فأما الأول فينادي بالتفرقة وينكر المساواة، ويؤمن بالفرد ولا يعنيه شيء من المجموع باعتباره مجموع وحدات متساوية، فالكومة المكدسة من الرمال لا تساوي كلها مما تساويه حبة رمل واحدة. فأما الكم فكل شيء عنده سواء، يريد أن يخرج الناس جميعاً في صورة واحدة، ويطبق عليهم مقياساً واحداً. فصيحته (المساواة! المساواة) وشعاره (نحن جميعاً متساوون! وليس هناك أناس أعلى من أناس!) وترى أصحاب الكم يتحدثون عن (الأغلبية) و (المجموع) و (أكبر عدد ممكن) حتى انحطت الحياة في جميع مظاهرها إذ أصبحت السيادة والسلطان للدهماء على أصحاب الرؤوس المفكرة والشخصيات الخصبة الممتازة

فأي عجب وتلك تعاليم نيتشه التي تشبع بها جماعة النازي، أن نسمع كبيرهم أدولف هتلر يقول عن أعضاء مجلس الرايشستاج: (لست أدري كيف يعهد بإدارة السياسة العليا للدولة لقطيع من الخراف رؤوسها خاوية)

بل كيف نعجب من إشعالهم الحرب الحاضرة والتهامهم الشعوب، إذا كان أستاذهم نيتشه ينادي بأن الإنسان الأعلى رجل نضال دائم من أجل السيطرة والغزو والظفر، لا يعنيه إلا أن يسير نحو الغاية التي رسمها لنفسه، وأن أبغض شيء إليه السلام، والحرب عنده أقدس شيء

وإذا أنت اطلعت على رأي نيتشه في القيم الأخلاقية لم تدهش لتصرفات بني قومه في أي بلد اجتاحوه. فعنده أن الضعيف يسمى العجزة (إحساناً وطيبة) ويسمي عدم الانتقام والأخذ بالثأر: (صبراً) ويسمى حاجته إلى الآخرين وقصوره عن الاعتماد على نفسه: (رحمة) ويسمي عجزه عن إدراك المطامع السامية والغايات العالية: (تواضعاً). فأما الأقوياء فيسمون الأشياء بأسمائها ولا يبتغون إلا الظفر والانتصار وتحطيم كل من يقف في سبيل تحقيق آمالهم السامية في الحياة غير حافلين بدموع تسكب، أو دماء تسفك، لأن قلوبهم

الصخرية، وعواطفهم المتحجرة، تملأها المطامع والغايات، ولا تجد إليها سبيلاً

ولعلك تسأل عن السر في مغاضبة النازية للمسيحية وإرهاقهم لدعاتها، وتنكيلهم بهم أحياناً؛ وعندنا أنه لاكتشاف هذا السر ينبغي أن نقول لك: (فتش عن نيتشه). فحملته الشعواء على دين عيسى، ورميه هذا الدين بالضعف والانحلال الذي أصاب أوربا في زعمه إبان القرن التاسع عشر، كل أولئك حمل دعاة النازية على أن يعملوا كي تقفر جوانب نفوس الألمان من تلك العقيدة التي تدعو للسلام والرحمة وبذلك تجر للضعف والاستسلام وهم شعب الله المختار الذي خلق لسيادة الدنيا في غير ضعف أو تخاذل!

ولا تحسبن الألمان ينكلون ببني إسرائيل اعتقاداً منهم بأنهم سبب نكبتهم وباعث هزيمتهم في الحرب العظمى. فاليهود في نظر نيتشه هم أول من قاموا بثورة العبيد، وهم الذين حاربوا السادة حرباً لا هوادة فيها، وأدَّنوا في الناس بأخلاق العبيد لتكون سبيلهم إلى التسلط على السادة. وكذلك كانوا يوم قاموا في وجه روما. وهكذا فعلوا حين أشاعوا في الناس أخلاق الضعف والحين والعجز والخور تحت أستار الحرية والمساواة!

والآن أرجو أن أقول إن الذي أوحى إليّ بهذا البحث هو الكتاب القيم الممتع الذي وضعه عن (نيتشه) صديق العالم الشاب الأستاذ عبد الرحمن بدوي. وإن أسلوبه الحار الملتهب، وعباراته التي تنبض بالحياة في كل موطن، وإلمامه الشائق بحياة نيتشه ومبادئه وتعاليمه، وتبسيط لمبادئ الفلسفة الجافة حتى تسيغها العقول والنفوس، وطريقته في عرض الآراء وبسطها كل أولئك قد أغراني بأن التهمه التهاماً فأحببت أن أغري الشبان بمشاركتي في هذا المتاع العقلي.

عبد المجيد نافع

على هامش الأبحاث النفسية والفلسفية

الفصل بين القيم الذاتية

ظاهرة من ظواهر الرقي
للدكتور محمد البهي

كما أن من ظواهر المدنية والحضارة في سياسة الأمة الفصل بين السلطات المختلفة، كذلك من ظواهرهما في وزن الأعمال وتقدير الإنتاج الفردي (الفصل بين القيم الذاتية)، لأن الثقافة تنوعت تبعاً لتنوع الحياة، واصبح لكل نوع من أنواعها قيمته الخاصة لأنه يؤدي غرضاً في الحياة بعينه لا يعوض من طريق آخر.

والنظرة إلى إنسان اليوم غيرها إلى إنسان الأمس، أو يجب أن تكون غيرها، لأن له واجباً في الحياة، وعليه تبعة نحو المجتمع، وله قيمة في أية ناحية من نواحيها. فالشعبي والأرستقراطي سواء في القيام بالتكاليف العامة، وفي استحقاق التقدير على أداء الواجب المكلف به. إلا أن بعض القيم، قد يختلف لا من حيث ذاته، وإنما من حيث نظرة المجتمع إلى ناحية من نواحي الحياة التي تتصل به.

فقيمة الفرد قد تكون في علمه، فهو صاحب قيمة علمية؛ وقد تكون في فنه، فهو صاحب قيمة فنية؛ وقد تكون في سلوكه، فهو صاحب قيمة خلقية؛ وقد تكون في موهبته الاقتصادية، فهو صاحب قيمة اقتصادية؛ وقد تكون في إصلاحه، فهو صاحب قيمة إصلاحية. . . وهلم جرا. وكلها متساوية في ذاتها إلا أن المجتمع وما يسود فيه من نظرة إلى الحياة هو الذي يخص بعضها بالتفضيل. فإذا كان المجتمع مثلاً متشعباً بفكرة الإنسانية كان اتجاه تقديره إلى الصفة العلمية. وإذا كان متديناً أو يغلب عليه إقحام الدين والعادات والتقاليد في آرائه كانت نظرته الأولى في التقويم إلى الصفة الخلقية. وإذا كان في حاجة ماسة إلى الإصلاح الإداري أو الاجتماعي لم يكد يعرف في حكمه على الإنتاج الفردي غير القيمة السياسية. وهكذا في الناحية الفنية من أدب وموسيقى وتمثيل وتصوير. . . الخ

وعلى الفصل بين هذه القيم والاعتراف باستقلالها الذاتي درجت مدنية القرن العشرين، وقام التهذيب الحديث، وتأسس الإصلاح الاجتماعي

فغاية مدرسة اليوم أعداد الفرد للتمييز بين نواحي الحياة والاعتراف أدبياً. بكل مجهود في أية ناحية من نواحيها. غايتها عداده لأن يكون موضوعياً في حكمه على الإنتاج الفردي غير متأثر بميوله ورغباته أو بالإيحاء والتقليد. غايتها تهيئته لأن يكون مستقلاً، وهذا هو السبب الذي من أجله لا يأنف الأوربي أو الأمريكي من مزاولة أي عمل. ومن أجله لا يبخس الغربي قيمة أي فرد في إنتاجه ولا ينظر إليه شزرا إذا كان دخله من عمله أقل من دخله هو مثلاً. هذا هو السبب الذي من أجله ملك الأوربيون كل ميادين النشاط الاقتصادي تقريباً في البلاد الآسيوية والأفريقية

والإصلاح الاجتماعي الحديث يقوم أيضاً على الاعتراف بالفرد - وهو غير الفردية - وهذا معناه الاعتراف بقيمته في أية ناحية. هناك طبقات، ويظهر أن وجودها ضرورة اجتماعية لداعي رابطة خاصة تربط فريقاً من الناس، ولكل طبقة قيمتها. وتفضيل طبقة على أخرى لغلبة نظرة من نظرات الحياة في وقت بعينه؛ ولكن ليس معنى هذا التفضيل احتقار الطبقة الأخرى وإهمالها، لأن الإهمال لم يعد الآن وسيلة من وسائل الحياة المتحضرة، كما أن الاحتقار لم يصبح في جملة الأحكام التقديرية

والطابع الاجتماعي للقرن العشرين الآن هو المساواة. وطابعه السياسي الديمقراطية. حتى داخل الحكومات الديكتاتورية، فهذه قامت على هدم تحكم إحدى الطبقات في الأخرى. قامت على الحدِّ من الرأسماليين والتضييق على الأرستقراطيين

وحقاً إن الفصل بين هذه القيم والاعتراف بذاتيتها من ظواهر التمدن ورقي الإنسان، لأنه دليل على عدم إدخال الرغبات والميول، أي على عدم إدخال الناحية الشخصية في الحكم على عمل الغير وإنتاجه. والفرد لا يطلب حقاً في الحياة أكثر من الاعتراف بقيمته الذاتية في أية ناحية، لأنه على أساس هذا الاعتراف سيعيش معتداً بنفسه، وسيعمل جاداً في عمله، ومسروراً من عمله لأنه لا غنى - في نظره إذاً - لمجتمعه عنه. والمجتمع لا يطلب أكثر من اشتراك أفراده في بناء صرحه، ولا أكثر من أن يشعر كل فرد بسعادته الشخصية ومتعته النفسية

والعصور الماضية إذا قيست بعصرنا الذي نعيش فيه كانت ميزتها في الخلط بين هذه القيم وعدم التفريق بينها عند إصدار الأحكام التقديرية. فقيمة الفرد تهمل، ووجوده يهمل كذلك

إذا كان إنتاجه في غير الناحية التي ينظر إليها المجتمع ويطلبها لعوامل خاصة. فالعالم صاحب القيمة العلمية أو الفنية كثيراً ما اضطهد، ولم يهمل وجوده فحسب، لأن سلوكه في بحثه كان على أساس النقد وعدم التسليم مبدئياً بما فرضه عليه وقته من عقيدة وقد كانت الناحية التي تقوم في ذلك الوقت، وبجانبها تهمل كل ناحية أخرى في التقويم، هي الناحية الدينية أي السلوك طبقاً لأوامر رجال الدين. وبعض الطبقات كان يستعبد ويباع ويشرى، وهي طبقة الرقيق، لان الناحية التي كانت تقدر حينئذ ناحية الشرف والجاه، وليس لهذه الفئة من جاه من ثروتها أو ثقافتها

وهذه الظاهرة، وهي ظاهرة الخلط وإهدار القيم الأخرى ما عدا قيمة الناحية المطلوبة، تشبه في تطور الأمم ظاهرة الطفولة في أدوار نمو الإنسان. فالطفل لا يميز ذاته عما في بيئته؛ وبعبارة أخرى لا يعرف قيما للأشياء إلا بقدر ما تشبع بعض رغباته أو تلبي بعض ميوله. فالحسن عنده ما انتفع به، والقبيح هو ما لم يستطيع السيطرة عليه؛ فأمه (حُوَّة) إذا لبت رغبة له، و (كُخَّة) إذا منعت عنه بعض ما يطلب وبالتالي ظاهرة الفصل بين القيم والاعتراف باستقلالها عند أمة من الأمم تحاكي دور النضوج وبلوغ الرشد العقلي لدى الإنسان. فقدرة تصرف الرشيد معناها التمييز بين النافع في ذاته والضار في ذاته. معناها الاعتراف بالقيم الذاتية واستقلالها

لنا الآن أن نسأل أنفسنا: في أي طور من أطوار النمو تعيش الأمة المصرية؟ هل بلغت طور الرشيد أم تجاوز بعد دور الطفولة؟

لنرجع إلى وصف ما يسود فيها من ظاهرة تتعلق بإصدار الأحكام التقديرية. وعلى أساس هذا الوصف المميز يمكن أن نعرف في أي طور تعيش

طبيعي أنه يسود مجتمعنا ككل مجتمع إنساني نظرة معينة في الحياة. والنظرة الغالبة في مجتمعنا النظرة الدينية أو نظرة التقاليد. وسواء أكانت سيطرة هذه النظرة على مجتمعنا الآن دليلاً على تغلب الناحية (اللاشعورية) وهي ناحية النزعات، أم دليلاً على (إدراكه) لأهمية الدين في تكوين المجتمع فإن ذلك لا يعنينا فيما نحن بصدده.

هل مجتمعنا يعترف بقيمة الفرد العلمية أو الفنية، السياسية أو الإصلاحية أو الاقتصادية - إن خرج في سلوكه الفردي عما رسمته التقاليد؟ ألا يحكم عليه بالفسوق والمروق على الأقل

- عن التقاليد والأخلاق القومية إذا ما أنكر في بحثه بعض التقاليد أو بعض مبادئ هذه الأخلاق؛ وبعبارة أخرى إذا لم يسر وفق ما تتطلبه نظرتنا في مجتمعنا إلى الحياة؟

أغلب الظن أن هذا هو الذي يقع بالفعل. فالعالم جاهل لأنه (متفرنج) أي مقلد غير ما هو شعبي مألوف بيننا، وزنديق لأنه يرى (الاجتهاد) من ضروريات العصر، وهو غير مألوف أيضاً في أبحاثنا. والمفكر لا خلق له، أي ليست له قيمة بحسب نظرة المجتمع لأنه يميل إلى النقد وعدم الإذعان لكل ما هو مألوف في نقلنا الثقافي

وإذا تجاوزنا دائرة العلم والبحث إلى العلاقات الاجتماعية، وجدنا الصديق ينكر على صديقه بالأمس كل قيمة لأنه لم يف بوعد ربما ألجئ لأسباب خاصة إلى عدم الوفاء به. ووجدنا الزميل يأبى إلا تجريد زميله من كل اعتبار لأنه ينافسه في زمالته، وربما كان شريفاً في منافسته. ووجدنا الرئيس يفحص قيمة مرؤوسه لأنه أخذ - أي المرؤوس - عليه خطأ في تصرفه أو خالف المألوف من تملقه . . .

كذلك نجد بعض الأعمال مفضلاً على بعض، وبعض المهن يرفع حتى الذروة، والبعض الآخر يحط من شأنه حتى الحضيض. نجد عامة الشعب لا يُعتَرف بوجودها عملياً، بينما نجد خاصته تمثل دور حكام الإقطاعيات

فنواحي النشاط المختلفة في الحياة، وأنواع الثقافات المتعددة، لم تأخذ بعد في مجتمعنا قيمتها الذاتية. وتقديرها في الغالب مبني على التأثر بما يسود المجتمع من نظرة إلى الحياة ورأى بعينه فيها، مبني على التأثر بالعنصر الشخصي والرغبات والميول

ولهذا أظن أن مجتمعنا لم يزل دور الطفولة، لأنه لا يفصل في تقدير الأعمال وتقويم الإنتاج الفردي بين القيم الذاتية بعضها تجاه بعض، كما لا يفرق بينها وبين ذاته وشخصه.

محمد البهي

في النحو
قد لا يكون
لأستاذ جليل

قال الأستاذ أحمد بك العوامري في (بحوث وتحقيقات لغوية متنوعة) في مجلة (مجمع فؤاد الأول للغة العربية):

نسمع كثيراً، ونرى في الصحف نحو: قد يجئ محمد اليوم، و (قد لا يجئ)؛ ونحو: (قد) نكون لا منصفين إذا قلنا كذا. . . وهو ما لم يرد في كلام العرب. فقد قال ابن هشام في المغنى: وأما (قد) الحرفية، فمختصة بالفعل المتصرف الخبري المثبت المجرد من جازم وناصب وحرف تنفيس. وهي معه كالجزء، فلا تنفصل منه بشيء، اللهم إلا بالقسم أ. هـ ونحو هذا في القاموس. وقال في شرحه عند قوله المثبت: اشترطه الجماهير أ. هـ فلإصلاح العبارة يعتاض من (قد لا يجئ) مثلا قولك: (ربما لا يجئ).

أقول: وقال ابن يعيش في شرح المفصل: (أعلم أن قد من الحروف المختصة بالأفعال، ولا يحسن إيلاء الاسم إياه، وهو في ذلك كالسين وسوف. وهي (أي قد) بمنزلة الألف واللام التي للتعريف، فكما أن الألف واللام اللتين للتعريف لا يفصل بينهما وبين المعرّف كان هذا مثله إلا أن قد اتسعت العرب فيها لأنها لتوقع فعل، وهي منفصلة مما بعدها (فيجوز الفصل بينها وبين الفعل بالقسم)، لأن القسم لا يفيد معنى زائداً، وإنما هو لتأكيد معنى الجملة، فكان كأحد حروفها). وقال الرضيّ في شرح (الكافية): (ولا يفصل قدمن الفعل إلا بالقسم).

قد عناني من أمر هذا البرزخ، هذا الحائل: (لا) ما عني الأستاذ الفاضل العوامري فاستقريت وفتشت فوجدت ما أنا مماليه اليوم في (الرسالة) الغراء. ولو أدمنت على التنقيب لضممت إلى هذا (الإملاء) شيئاً كثيراً:

1 - كتاب (الأم) للإمام الشافعي الجزء (3) الصفحة (65): (. . . كما أكره للرجل أن يشتري السيف على أن يقتل به، ولا يحرم على بائعه أن يبيعه ممن يراه أنه يقتل به ظلماً، لأنه (قد لا يقتل) به، ولا أفسد عليه هذا البيع)

2 - لسان العرب. الجزء (2) الصفحة (311): قال الخليل بن أحمد: الأمور على ثلاثة أنحاء، يعني على ثلاثة أوجه، شيء يكون البتة، وشيء لا يكون البتة، وشي قد يكون و (قد لا يكون). . .

3 - الخصائص لابن جني الجزء (1) الصفحة (19). . . كما أن القول (قد لا يتم) معناه إلا بغيره

4 - الأنموذج في النحو للزمخشري الصفحة (102): ولا لنفي المستقبل، والماضي يشرط التكرير و (قد لا يتكرر) نحو لا فعل

5 - إملاء ما منّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن للعكبري الجزء (1) الصفحة (135): (أن قد صدقتنا) أن مخففة من الثقيلة، واسمها محذوف، وقيل أن مصدرية و (وقد لا تمنع) من ذلك

6 - الفروق لأبي هلال العسكري الصفحة (182): الفرق بين الطاعة وموافقة الإرادة أن موافقة الإرادة قد تكون طاعة، و (قد لا تكون) طاعة

7 - شرح شذور الذهب لابن هشام الصفحة (138): تنعت أي باسم الإشارة كقولك يا أيهذا، والغالب حينئذ أن تنعت الإشارة كقولك:

ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى ... وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي؟

و (قد لا تنعت) كقوله: (أيهذان كلا راديدكما) ومثل ذلك في الصفحة (205) والصفحة (395)

8 - شرح الكافية للرضيّ الجزء (2) الصفحة (373): وأما المنقطعة (يعني أم) فـ (قد لا يتقدمها) الاستفهام، وقد يتقدمها الاستفهام بالهمزة أو بهل. . .

9 - المقابسات لأبي حيان التوحيدي الصفحة (181): سئل أبو سليمان هل يجوز أن يقال: الإنسان ذو نفس كما يقال هو ذو ثوب وذو مال؟ قال: أما على التحقيق فلا، وذلك أن الإنسان قد يكون ذا ثوب وذا مال و (قد لا يكون) ويستحيل أن يكون الإنسان إنساناً إلا وهو ذو نفس إلا على السعة والمجاز. . .

10 - مفاتيح الغيب للرازي الجزء (4) الصفحة (130): (ثم ههنا بحث آخر، وهو أن العداوة والصداقة تمنع أن تحصل باختيار الإنسان، فإن الرجل قد يبلغ في عداوة غيره

إلى حيث لا يقدر البتة على إزالة تلك الحالة عن قلبه، بل (قد لا يقدر) على إخفاء تلك العداوة. ولو أتى بكل تكلف وحيلة لعجز عنه. ولو كان حصول العداوة والصداقة في القلب باختيار
الإنسان لوجب أن يكون الإنسان متمكناً من قلب العداوة بالصداقة وبالضد. وكيف لا نقول ذلك والشعراء عرفوا أن ذلك خارج عن الوسع؟ قال المتنبي:
يراد من القلب نسيانكم ... وتأبى الطباع على الناقل
والعاشق الذي يشتد عشقه قد يحتال بجميع الحيل في إزالة عشقه ولا يقدر عليه. ولو كان حصول ذلك الحب والبغض باختياره لما عجز عن إزالته) ومثل ذلك في الجزء الثالث الصفحة (19) والجزء الثاني الصفحة (352)
11 - الإيضاح للخطيب القزويني الجزء الأول الصفحة (106): (. . . لأن الجملة (قد لا تكون) طلبية كقولنا: نعم الرجل زيد)
12 - الموافقات لأبي إسحاق الشاطبي الجزء (2) الصفحة (200): (وغائبات الأمور (قد لا تكون) معلومة) ومثل ذلك في الجزء (4) الصفحة (8)
13 - البصائر النَّصِيرية لزين الدين الساوي الصفحة (4): وقد يتردد في أمور بعد إدراك المحسات وانتزاع القضايا منها، و (قد لا يجد) إلى الحكم الجزم في بعضها سبيلاً
14 - الفرزدق - وبين الحليفتين عصبة حروف، عصبة أمم. . لا (لا) فقط، والفعل ماض فالخطب أطم -:
فقالت: سوى ابني لا أطالب غيره ... و (قد يك عاذت) كلثم وغلابها
أرى ابنَي نفيل من يكون أباله ... وعما ف (قد يوم الرهان تمهلا)
على من جرى والرافعين أكفهم ... إلى كل فرع كان بالمجد أطولا
تلكم أقوال نحويين ولغويين وأدباء وعلماء متقدمين ومتأخرين، فليس ذاك القول بجرَدى عصري كمما حسب الأستاذ العوامري حتى نحايده. وإن لم تقله العربية الأولى فقد نطق به الآلي تلوتَ كلامهم، وفيهم من فيهم. والنحاة يقولون كثيراً: (هذا جائز وإن لم يرد) وإذا أنتجت الحاجة في الحضارة العربية هذا المسمى بالمولد فجاء من (الكُنْه) (اكتنهه) وما أشبهه، وتقبله الأدب والعلم، ألا يسوغ أن يُتبحبح في (القواعد) بعض تبحبح يُمد اللغة العربية، فتجئ قاعدة مولدة كما جاءت الكلمة المحدثة. وقد قرأنا في (الكليات): (كل مبتدأ عقب بان الوصلية فإنه يؤتى في خبره بالا الاستدراكية أو بلكن مثل (هذا الكتاب وإن صغر حجمه لكن كثرت فوائده) وذلك لما في المبتدأ باعتبار تقييده بأن الوصلية من المعنى
(الذي يصلح الخبر استدراكا له، واشتمالاً على مقتضى خلافه
والمثل الذي أورده أبو البقاء إنما هو محدث والقاعدة مولدة
وإذا قال أبو حيان في شرح التسهيل: (العجب ممن يجيز تركيباً ما في لغة من اللغات من غير أن يسمع من ذلك التركيب نظائر. وهل التراكيب العربية إلا كالمفردات اللغوية، فكما لا يجوز إحداث لفظ مفرد كذلك لا يجوز في التراكيب. لأن جميع ذلك أمور وضعية، والأمور الوضعية تحتاج إلى سماع من أهل ذلك اللسان. والفرق بين علم النحو وبين علم اللغة أن علم النحو موضوعه أمور كلية، وموضوع علم اللغة أشياء جزئية، وقد اشتركا معاً في الوضع) - قيل لشارح التسهيل: إن القوم في الحضارة قد أحدثوا - محكمين مدققين - ألفاظاً ما عرفتها العربية السالفة. وإذا كان ذلك ولم ينكر فهل يُصدُّ (احتياج) أحدث لفاظاً رأى إحداثه، أن يبدع - محتاطا - تراكيباً؟
وهنا هذا الحديث: إن اللغويين لم تحوّش كتبهم ألفاظ اللغة كلها، وقد فر شيء كثير. فهل يستطيع الناحي أن يقول معتزاً: (علُمنا علُم إحاطة) وقد استقْرَت قواعدنا كل تركيب في كلام العرب، وما فرّط (الكتاب) من شيء
هل يستطيعنَّ. . .!؟
(ن)
من الأدب الرمزي
هكذا تكلم بَرَدَى!
للأستاذ علي الطنطاوي
تفتحت أبواب السماء بغيث منهمر استمر ليلة من (تلك) الليالي طولها عشرة آلاف سنة، فأغرق البحر وابتلع البر، ومدْ أصابعه من خلال التراب وادخلها من شقوق الأرض

حتى بلغ (بردى) وهو (جنين) في بطن أمه الأرض، تطيف به أحشاء لينة من جَلمَد الصخر، تحنو عليه وتغذيه، فغمره بالماء حتى ضاق به مكانه، وامتد البلل إلى عظامه فخرج. . .

وكانت الشمس قد طلعت على الأرض بعد (تلك) الليلة تمنحها الدفء وتغمرها بالنور، و (تحدّد) فيها مملكة البر والبحر بعد أن كانت بحراً كلها؛ فوقف (الوليد) ينظر مشدوهاً فيرى سهلاً أفيح جميلاً تحيط به جبال يتهن شبابا ويمس جمالاً، ولكنه عارٍ اجرد، فآلمه عريه وتجرّده، وود لو سعى في أرجائه يزرع فيه الحياة ويضع في تلك السفوح (بذور) المدن والقرى. ولكنه كان ضعيفاً (فلم يستطع أن يمشي)، وتصرم النهار وهو جاثم مكانه لا هو قادر على الرجوع إلى بطن أمه، ولا هو قادر على السير، وأوحشه سكون الليل وظلامه، ولم يعطف عليه الجبل ولا سامره السهل، فلبث وحيداً حتى جاءت فتاة من بنات (الدَّلْب) كانت قد سمعت به فأحبت أن تراه، فلما أبصرته عشقته وحنت عليه، وأضجعته على ركبتيها (تهمس) في أذنيه، أحاديث المدن البعيدة الحلوة والأودية المسحورة. . . حتى نام!

ومرت أيام نما فيها الوليد، فغدا (صبيا) يمشي في السهل، ثم شب فصار (فتى) قويًّا، (يعدو) نحو الوادي عدواً. . .

راع ظهوره أهل تلك الديار فأعرضوا عنه بادي الرأي، ثم مالوا إليه فأحبوه، واتخذوا مولده عيداً، فنشر له السهل أعلامه الخضر، وجمع له باقات الزهر، وفرش له الجبل سفوحه، وزّينها بالورد، وملكوه عليهم. . .

وكان (بردى) الشاب، طموحاً عالي الهمة، فلم يقنع بملك ذلك السهل، سهل الزبداني، ولم يكفه أن خضعت له جبال مضايا وبلدون، وأبى إلا أن يخرج فاتحاً لا يقف حتى يملك الوادي كله، فحشد عسكره، ودخل الوادي بطبوله وراياته يثب على الصخر وثباً، ينشد أنشودته (الهادرة)، ولم يكن في الوادي إلا أميرات صغيرات، ملكهن صخرة يخرجن من

تحتها، وساقية يجرين فيها، فلم يلبثن أن بايعنه وخضعن له، واندمجن في جيشه، وسمعت الأشجار بمسيره فقامت على طريقه صفين تحييه و (تصفق) له

حتى إذا أقترب من (الفيجة) جاءه رائده فقال له: قف، فإن ههنا ملكة جبارة عرشها صخرة هائلة، وجيوشها تملأ الوادي وتمتد إلى أبواب المدينة الأبدية الأزلية التي كانت من قبل، وستبقى بعد المدائن كلها: دمشق!

بردى ضاحكا من حماقة رائده. أي مدينة وجدت من قبله؟ وأي شيء يعرف (فقهقه) القدم والبقاء إلا الله القديم بلا ابتداء، الباقي بلا انتهاء؟ ثم زمجروا أقسم لئن وجد تلك المدينة قائمة من قبله ليدكنها دكا. وإن وجدها تنتظره ليجعلنها بإذن الله سيدة مدن الأرض وأمها ووارثتها. أما تلك الملكة فليحطمنّ عرشها، ويبددن جندها. . .

وتقابل البطلان بردى (الأسمر) القوي (سلطان الزبداني) الغازي الفاتح، والفيجة (البيضاء) الفتانة (ملكة الوادي) واصطف الجيشان هذا من هنا، وهذا من هناك لا يختلطان. ثم أقبلا فاصطرعا. فغلبت رجولة بردى وخضعت له الفيجة وسارت تحت ركابه ذليلة صاغرة، وهي أعزّ منه جنداً، وأسمى نسباً، وأكرم عنصراً

ومشى يجول في الوادي ويصول، ويملأ أرجائه بنشيده الحماسي المرعد

لم يجاوز إلا قليلاً حتى قابل أميرة صغيرة تخطر على السفح الجميل، وفي (عينيها الخضراء) صفاء وفيها وداعة ولها سحر، كأن الناظر إليها يشرب منها خمراً، تلقي أغنيتها بصوت ناعم حالم. كأنه همس القلب في أذن الطيف الحبيب. فأصغى إليها الجبل الأصمّ، ومال من الحنو عليها، وعانقتها الشمس. فلما اضطرت إلى فراقها أحمر جفناها من كثرة البكاء. فذابت من حرارة الوجد قلوب (الثلج) وسالت مدامعها على خدود الجبال فاخضرت منها السفوح، فمن ذلك سميت (الخضراء). ثم لما عادت الشمس بسم الوادي، فمن ذلك سمى وادي (بسيمة) وكان لهذه الفتاة أم وصتها حين ألقتها في لجة الحياة أن تحترس من النهر، وتحذر أن (يخطفها) ثم (يبتلعها) فإنه شاب غدار طياش. . .

لما أحس بها بردى صرخ مختالاً: كم هذا الذي جرؤ على أن يمشي معي في الوادي، وينتزع مني مجدي، وتبسم له الشمس من دوني، وتحنو عليه وتسمع نشيده الصخور الصم ولا تميل عليّ ولا تصغي لنشيدي؟. . .

فلما أبصرها شغفته حباً، ودلهّته غراماً، فعمد إليها ليخطفها، فقامت دونها الصخور ووقفت تحميها (الدلبة) العظيمة التي تعيش هناك، وتلوح بأذرعها مهددّة، فعجز عنها. وأنى له الوصول إليها وهي نائمة في حضن الجبل ومملكته لا تتجاوز الوادي. . . فحطم الحب كبرياءه، وما أجل ما يفعل الحبّ! فتطامن ومشى ذليلاً. فلما رأته فتنته بصمته، وحرْك قلبها بأحزانه فمالت إليه، وشغفت (ببيرق) عينيه وقوته وشبابه، فنسيت وصاة أمها، وتمنّت لو نامت على ذراعيه. فلما جرّبت ذلك حملها وطار بها إلى دمشق ومر على بردى نصف مليون من السنين، وهو السيد المطلق، يجري حراً أبياً، لا يقف في وجهه شيء، حتى يجوز بدمشق، ثم يذهب فيستريح في (الغُتيبَة). . . ثم ظهر الإنسان على الأرض، وظهر بردى على الطبيعة، فويل له من للإنسان!

وفي ذات صباح جاءه طائر يلهث عطشاً. فلما سقاه أحب الطائر أن يجزيه خيراً، فخبره أنه رأى هناك في الرمال المحرقة التي تملأ (الجنوب) أمة من الناس، يمشون في طلب الماء. وقال له: إني أخاف عليك منهم، فهم من أهل الجزيرة التي لا تغلب. من العرب. إنهم بنو الشمس، بنو الصحاري، بنو الموت، أفتظن أن الموت يمس أبناءه؟

فضحك بردى وصرفه بسلام!

ووصل أول رجل من القافلة، وكان من أهل (الجزيرة). وهل خرج إلى الدنيا في فجر الحياة غيرهم؟ فلما رآه صاح باخوته أن تعالوا انظروا كم يحمل من ماء الحياة ونحن هالكون عطشاً. فاقبضوا عليه كي لا يفلت من أيدينا. ضعوا له الحواجز في طريقه كيلا يهرب. . .

وأراد أن يضربهم ضربة واحدة فيهلكهم فلم يقدر عليهم. وقدروا هم عليه فأحس أن نجمه قد شرع في الأفول. . . عطلوه عن سيره، وغلبوه على أمره، ثم صنعوا معه صنع كل عدو غالب. فرّقوا جماعته، وجعلوا أمته الواحدة أمماً سبعاً، فبعد أن كان كله بردى صار بردى ويزيد وتورا وبأناس والقنوات والديراني والقناة، ثوّروا عليه أبناءه حتى استقلوا عنه واعتصموا منه بأكناف الجبلين. . . ثم سلبوه الفيجة واستاقوها (مقيدة بالحديد) إلى دمشق. . .

ولقد غضب بردى مراراً وهاج، فكان يهجم على المنازل وساكنيها، فيشردهم شذر مذر،

ولا يبقى منها حجراً على حجر، ويحسب أنه انتهى منهم، فإذا هم يلدون غير من مات، ويبنون غير ما إنهدم. . . فكل وأيس. . . وأحس أنه صار شيخاً!

ووقفت على بردى وهو يمشي في (المرجة) رحبة دمشق تحت قصر أمية مشية الشيخ العاجز المتهافت، فقلت له: هيه. . . مالك؟ تعَبت؟ أو قد شِخت؟

قال: دعني يا غلام، فإني أساير الأيام، فلما كانت مقبلة جادة كنت أقبل معها عدواً، فلما تؤلت وهزلت. . . تولّيت. .

ومالي لا أني، وقد باد مجدي، وساء جدي؟ ألا يا ليتني ما عرفت الإنسان!

وسكت لحظة، ولاحت على خدّه دمعة تجري مع الماء، ثم قال: على أني رأيت والله ناساً كراماً. . . أجّلوني وعرفوا قدري، وكنت أمرّ بين أيديهم مر الرحيق السلسل. . . وكنت أمشي في الرياض على فتيت المسك، وأنام على غناء، وأصبح على شعر، واضحي على كرم ومجد ونبل. . . فأين أنت يا قصر البريص

وأين أولئك الذين كانوا لباب البشرية، وكانوا مثلها العليا مجسّمة، أولئك المسلمون الذين شادوا مجداً جدع أنف الدهر؟ أين ذلك الرجل الذي مرّ عليّ يوماً وكنت أمشي في الربوة على باب دمشق في الموضع الذي امتلأ هواؤه بجراثيم ذلك المرض الفظيع، فلا مر به أحد إلا أصيب به، المرض الذي يسمونه الحب فلا يذهب إلى الربوة من كان يخاف الحب، لأنه لا يرى هذا الجمال إلا تفتّح له قلبه، فذهب يفتش عمن يحب. . . مرّ عليّ ذلك الرجل العظيم، فرأى الأغنياء لهم في الربوة قصور ومنازل، والفقراء ما لهم إلا حجارة الجبل وحصى الوادي، فلم ينصرف حتى أقام لهم متنزهاً ما رأى الناس مثله، يجري تحته (تورا)، ويجري فوقه (يزيد)، وهو بينهما جنّة، فيهما ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين. فإن اشتهوا تمراً مدوا إليه أيديهم، وإن اشتهوا لحماً ناولته السمك حياً، فنقلوه من الماء إلى المقلاة، وإن أرادوا لذة العين وجدوا ما لا مزيد عليه في دار الدنيا، وعند الله في الآخرة مزيد. . .

فأين أولئك الناس، وأين اليوم أمثالهم؟
. . .وسكت بردى هنيَّهة، ثم رجع يقول
لقد شاقتني أمس تلك القصور وهاتيك المنازل، وقد سدّوا إليها الموارد، وأقفلوا الأبواب،
من شقوق الأرض حتى بلغت قاعة في الدار العظيمة، دار القوتللي، التي (فانسللت) ترى عرصاتها من (منارة العروس) إذا أنت صعدت إليها، ونظرت إلى ما تحتك إلى شمال، وراء قبر الملك الظاهر، ترى عرصاتها فتحسبها حيّا كاملاً، أو أطلال قرية كانت هناك. . . دخلت القاعة فيا أسفي، ماذا وجدت. . .
لا الروض باقٍ ولا أهلوه باقونا. . . ذوى الزهر، وجف الماء، وصارت البرك حفراً قاحلة، وقد كانت تضحك فيها أوانس الماء متراقصة ضحك الحياة في هذه الدار. . . وتعرت الجدران، وقد كانت نقوشها ومُقَرنَصاتها آية في مصحف الفن. . .
اللهم إني استغفرك - ولم يبق من ذلك (الصيني) الذي يملأ (الكبيَّات) والرفوف إلا قطع غاصت في التراب فبدت منها أطرافها، ولا من السجاد الثمين إلا خيوط الله أعلم كم بللتها الأمطار، وكم جففتها الشمس، حتى غدت وليس لها لون يعرف. والرخام الأبيض الذي كان كالمرايا. . . والأشجار والأوراد. . .
لقد انصرف الدمشقيون عن هذه الدور التي كانت مصدر الفن العمراني الأندلسي، منها أخذ وعنها نقل، وكرهوا هذه الجنان، واتبعوا الإفرنج إلى (جحر الضب. . . فآثروا عليها هذه الصناديق المغلقة التي يسمونها دوراً. فمن يفهمهم أنهم يخطئون، وكيف السبيل إلى الاحتفاظ بالبقية الباقية من دور دمشق القديمة، قبل أن تهدمها حماقة المالكين، وفتنتهم بتقليد الغربيين؟
ومتى يعلمون أن أوربة ليست أرقى منا في عادات ولا دين، ولكنها أرقى في الصناعات. فيا ويح القردة المقلدين لقد ذهبوا يدرسون العربية، حتى العربية لغتنا، ذهبوا يدرسونها في باريز!
ودخلت تلك البركة التي طالما شهدت فيها أعراس الحياة أتذكر، فرآني خادم (قال): هرم، فصاح بابنه أن تعال أخرج هذا الماء الآسن من هنا. . .
ماء آسن؟ أنا آسن؟ يا ويحكم. أما كنت طاهراً نقياً أسير في الوادي كما خلقني الله؟ أما أكرمني من كان قبلكم، ورفعوني بالنوافير على الرؤوس، وكانوا يتقون الله فيَّ فلا يمسوني بأذى؟ ويلكم اينا الآسن يا ذوي النفوس الآسنة؟ كنت أصافح من أجدادكم عند الوضوء وجوهاً مشرقة نورانية وأيدياً طاهرة معطرة فصرت لا أرى منكم إلا السوء. دنستموني
وآذيتموني، وألقيتم عليَّ أو ضاركم، وتدَّعون أنكم في عهد النور، وأن عهد أولئك كان عهد ظلام. . .
أعهد ظلام كان، وقد سطع فيه من عندكم نور العلم حتى ملأ الدنيا، وامتد في شعاع الفضيلة حتى أضاء غياهب القلوب فبدد ظلمة الشهوات؟ ورفرفت فيه الراية - رايتكم على نصف المعمور من الأرض - ولو اجتزتم نهراً عرضه خمسون متراً، ولو أخر الله موت عبد الرحمن ساعتين، لرفرفت على النصف الآخر، ولنجا العالم من وحشية الشُّقر الآريين الذين الذين يدعون كذباً أنهم أفضل منكم. دعوى إبليس حين قال: (أنا خير منه)!
لقد هدمنا مجدنا بأيدينا، وأعنَّا عدونا على أنفسنا، فذللنا حين انقسمنا، وأضعنا كل شيء حين ذللنا. أفلا يقظة بعد هذا النوم؟ ألا نظرة بعد هذا العمى؟ ألا زعيم مصلح حقًّا يرجع الناس إلى الجادة التي ضلوا عنها، إلى كتال الله وسنة نبيه، ويخلصهم من بليتين: من إلحاد المتفرجين، ومن شعوذة أصحاب الطرق الحشْويين الجاهلين؟
اللهم تباركت ربنا، لك الملك ولك الأمر، ولا شكاة إلا إليك ولا خير إلا منك. اللهم ما شخت ولا أصابني الونى، ولكن أمرضتني الأقذار التي ألقوها عليّ وهذه البنى المنتنة التي أنشئوها على جوانبي: كعبات الشيطان: تريانون وأولمبيا والليدو وبناية الروكسي (السينما وما فوقها. . .)!
وسكت بردى، وعاد يمشي مشية الشيخ العاجز حزيناً متألماً!
هكذا تكلم الشيخ بردى. . .!

(دمشق)
علي الطنطاوي
الأدب الفنلندي
للأستاذ صديق شيبوب
(بقية الحديث عن ملحمة كاليفالا)
ظهرت الطبعة الأولى لملحمة (كاليفالا) يوم 28 فبراير سنة 1835. ولعل النجاح الذي صادفه هذا الأثر الفني شجع (لونرو) على متابعة رحلاته، وكان قد عنى من قبل بجمع القصائد التي ينشدها سكان مقاطعة (كاريلي)، فتوجه إلى المقاطعات الشرقية ونقل القصائد الشائعة فيها، ثم ضمها إلى ما سبق له جمعه بحيث اكتملت هذه الملحمة وطبعت للمرة الثانية في شكلها الجديد سنة 1848 في ثمانمائة واثنين وعشرين ألف بيت من الشعر وهي الطبعة التي يعتمد عليها اليوم. وقد نقلها إلى الفرنسية في شعر مطلق مقطع وفقاً لتقاطيع الشعر الفنلندي المسيو جان لوي بيريه الأستاذ المعيد للأدب الفرنسي بجامعة هلسنكي.
كان لظهور هذه الملحمة فضل بعث الروح القومية في نفوس الفنلنديين. ويهمنا في هذا البحث من أثرها أنها حملتهم على العناية بلغتهم الأصلية.
قلنا: إن الأسوجيين بعد أن فتحوا فنلندا فرضوا لغتهم على سكانها، فصارت اللغة الأسوجية لغة العلم والأدب، بينما ظلت اللغة الفنلندية شبه لهجة يتحدث بها الشعب. فظلت متأخرة لا سبيل إلى التعبير فيها عن حالات النفس ورغباتها. وظلت اللغة الأسوجية مسيطرة على اللغة الفنلندبة، حتى بعد استيلاء روسيا على دوقية فنلندا الكبيرة. وكانت تعلم في مدارسها وجامعاتها.
ولما أخذ الفنلنديون يشعرون بقوميتهم بفضل ظهور ملحمة (كالفالا) ابتدأ الشعب يناضل للتخلص من اللغة الأسوجية التي لا تزال الطبقة الأرستقراطية متمسكة بها إلى اليوم
فلا عجب إذا احتفى الفنلنديون بهذه الملحمة واحتفظوا بها كاحتفاظهم بمفاخرهم القومية وآثارهم الوطنية التي كشفت لهم عن كنوز ماضيهم الدفينة وأوحت إلى نفوسهم الثقة بمستقبلهم وقوت عزيمتهم لنيل استقلالهم. وقد خصوها بغرفة في المتحف الوطني بهلسنكي جمعوا فيها مختلف طبعاتها وترجماتها
ومن أدلة حفاوتهم بها الحفلات العظيمة التي أقاموها سنة 1935 بمناسبة مرور مائة عام على ظهورها في عالم الطباعة
بقي أن نشير إلى الجدل الأدبي القائم بين الروس والفنلنديين بصدد هذه الملحمة وأصلها، وهو جدل له مظهره الخاص إذا نظرنا إليه على ضوء الحرب الناشبة اليوم بين الدولتين
يقرر علماء (الفولكور) الفنلنديين والألمان أن أناشيد هذه الملحمة جمعت من المقاطعات الواقعة حول مدينة هلسنكي ويتوسلون بها لتدعيم مطالبتهم بمقاطعات (كاريلي) و (إنجري) وغيرهما من المقاطعات الروسية
وينفي علماء (الفولكلور) الروس هذه المزاعم ويؤكدون أن (لونرو) لم يجمع هذه الأناشيد من المقاطعات التي تتألف منها فنلندا اليوم بل من الجزء الشرقي لمقاطعة (كاريلي) وهي المعروفة باسم (جمهورية كاريلي الاشتراكية السوفيتية المستقلة)
وقد نشرت صحيفة (فيتشرنيا ياموسكوفا) الروسية بتاريخ 26 يونيو الماضي مقالاً عرضت فيه لهذا الجدل جاء فيه أن القصائد التي جمعت في الطبعة الأولى التي ظهرت سنة 1835 تلقاها (لورنو) من فلاح يدعى (برتونين) كان يسكن في ناحية (أولونه) من مقاطعة (كاريلي). وقد ذكر المسيو (بيريه) الذي يعد اليوم أكبر حجة في فرنسا في الأدب الفنلندي، أنه ذكر في كتابه (مظاهر الأدب الفنلندي المعاصر) أن الشعب الفنلندي الأمي الذي يدين بالأرثذكسية والذي يقيم بمقاطعة (كاريلي) الروسية قد أحتفظ بتقاليد القبائل القديمة، وأن هذه التقاليد بادت في فنلندا نفسها بتأثير التعاليم البروتستانتية. وأضافت الصحيفة الروسية إلى ما تقدم أنه بينما لا نجد واحداً في الجزء الغربي القبلي من فنلندا يروي هذه القصائد والأناشيد، نلفي شيوخاً كثيرين في (كاريلي) يحفظونها ويروونها، وذكرت اسم سيدتين تسكن إحداهما موسكو. ثم قالت: إن بدعة نسبة أناشيد (كاليفالا) إلى فنلندا لم تظهر إلا في أواخر القرن

الماضي، وحملت الصحيفة الروسية على الذين قاموا بطبع هذه الملحمة باللغة الروسية سنة 1833 لأنهم نسبوا هذه الملحمة لفنلندا ولم يمحصو ما قرره علماء الفنلنديون (الفولكور)
وهكذا يحاول الروس أن ينتزعوا من الفنلنديين ملحمتهم الوطنية التي تعد مصدر إلهام عظيم لشعرائهم وفنانيهم، ومبعثاً للحماس وروح الوطنية في نفوسهم
صديق شيبوب
144
عن جريدة حشرة الملاريا
أنا أدعى أنوفيل ولست يونانيا أو مصريا بل أنا دولي ونحن نسكن في جميع الأقطار ويخشى الناس بأسنا في كل مكان
لقد مضى زمن كنا فيه أقوى من الملوك والقواد وكنا حال ظهورنا مرهوبين كالموت نفسه
آه كم كنت أتمنى لو كنت من جملة السرب الذي قهر بريروس في إيطاليا وطرد الموغول الكبير باربار البنجابي.
فان حشرة واحدة منا تكفي لكي تمحي تماما كل المشاريع الجميلة والسبب كان خفيا لأن هذه الحشرة كانت تعمل في الظلام
ولكننا لم نركن إلى الهدوء خلال هذه القرون الأخيرة فلا يمكن إحصاء المشاريع التي أخفقت بسببنا والسكان الذين محوناهم فنحن نعكر صفاء كل شيء. فلا يزال الإنسان يبني ويهتم بأشغاله وبملذاته وبغتة أظهر أنا أنوفيل وأنا أطن فرحا بهدوء مفتشا عن محل صغير جميل حيث أركز بسرور وأحفر حفرة صغيرة جداً في جلد المسكين فامتص بعض نقط صغيرة من الدم وينتهي عملي فأعيد الكرة وأهدم في ثانية واحدة عملا دام سنين طوالا يظن أني بعوض اعتيادي ولا يعرف أني أنا الأنوفيل ولكن عندما يرتجف من الحمى حينئذ فقط يذكرني
ولكن خطراً كبيراً يهددنا. فيكفي حسب رأي لجنة الملاريا في جمعية الأمم 400 ملليجرام يوميا مدة موسم الحميات حتى يقي الإنسان نفسه من العدوى التي أحملها أنا وقد وصفت هذه اللجنة لمعالجة إصابة الملاريا كمية جرام واحد أو جرام وثلاثين سنتجرام من الكينا يوميا للأخذ منها مدة خمسة أو سبعة أيام فسمي ليس له هذه المقدرة كي يقاوم علاجا بهذه القوة.
من وراء المنظار
القاهرة ليلة الجمعة!. . .
أحب الطواف بأنحاء العاصمة ليلة الجمعة من كل أسبوع فأسير أينما اتجهت بي قدماي لا أدري متى أقف ولا من أي طريق أعود، ولقد أقصد أحياناً إلى حيث تقوم دور الملاهي، وأنا لسوء حظي أو لحسنه - حسبما يرى القارئ - أجدني أبداً غريباً في ذلك الحي، بل إني في الواقع غريب في المدينة كلها على الرغم من أني قضيت فيها من عمري سنين!
وعين الغريب كثيراً ما ترى مالا تراه الأعين التي ألفت ما تقع عليه. ولعل هذا هو الذي يحبب إلي ذلك الطواف الطويل. ولقد كانت آخر مرة طفت فيها بذلك الحي ليلة الجمعة الماضية. . . على أني وددت ليلتئذ لو أن قدمي سارتا بي إلى مكان غير ذلك المكان، فلقد كنت أحس شيئاً من الهم على الرغم من أن جيبي كان لا يزال عامراً بمرتبي الذي تناولته قبلها بيوم، وخشيت أن يؤثر ذلك الهم في تصوير ما تقع عليه عيناي
ووقع ما خشيته فأنا أرى كل شيء بقلبي لا بعيني. فها هي ذي مناظر شاهدت مثلها كثيراً ولكنها تزيدني هماً على هم
هذه (شلة) من الرفاق أنستهم جيوبهم التي أحسب أنها كانت لا تزال عامرة مثل جيبي، وأنساهم شبابهم ما يجدر بأمثالهم من (الأفندية) فأخذوا يتصايحون ويهوشون وينادي الواحد منهم صاحبه بأفظع ما يتصور من عبارات السباب كأنما راحوا يتنافسون في فحش القول. . . ولمحني أحدهم وهو يعرفني، وقد عرفته من قبل وقوراً هادئاً فاندس من الخجل واختفى في أصحابه
ودرت بعيني، ولكنهما وقعتا على قوم آخرين أراهم أجدر من سالفيهم بالوقار

والتحشم، فإن ذلك مما تقضي به على الأقل طرابشهم (الميري) وسراويلهم التي تزينها الأشرطة الحمر المهيبة، ولكنهم كانوا أكثر من السابقين تهريجاً وتبذلاً. ولا عجب فهم فرحون مزهوون بهذه الملابس التي باتوا يخطرون فيها على أعين الناس.
ولكم كنت أضيق بهم حينما كانوا يزحمون الغادين والرائحين وعلى الأخص الغاديات والرائحات. . .
والتفت على صوت هرج شديد فرأيت في مقهى قريب معركة حامية وعلمت من أمرها أن
أحد (اللاعبين) هجم بسكين المائدة على صاحب له لأنه أخذ منه آخر قرش بقي معه ولم يشأ أن يقرضه من تلك القروش شيئاً يعود به إلى عياله
ورأيت حول المائدة الممدودة أولئك الغلمان الذين يلقطون بقايا الدخائن ويترامون على ما يلقى إليهم من فتات تلك الموائد ينازع بعضهم عليها بعضاً كما تفعل الكلاب فيزيدون المنظر بذلك سوءاً وقبحاً
ومضيت أخرج من هذا الحي فلم يعد لي تلك الليلة جلد على رؤيته، فما كدت أنعطف في أول شارع حتى لقيت في المنعطف (لقاء) تكنفه الريبة، فهو يضحك مرتبكاً وهي لا تكاد تضحك حتى يطفئ الخوف والقلق ضحكها. . . ومررت بهما وأنا أسائل نفسي: أله زوجة ولها زوج؟
وكأنما تأبى المكاره إلا أن تأتي في وقت معاً! فهذا مترنح متخلج يمسك أصحابه بذراعيه مخافة أن يقع، وهو شاب بادئ الوجاهة، ولقد سقط طربوشه حينما قربت منه، ولست أدري لم قصدني أنا فالتفت إليَّ ضاحكاً وقال: (من فضلك ناولني البلغة يا أفندي)
وألفيت عند محطة الترام أنماطاً من الشباب فرادى وجماعات، ورأيت منهم من مرت بهم جميع المركبات وهم مع ذلك وقوف في أماكنهم يمدون أعينهم إلى كل مركبة في مكان معين منها. وعلام يستعجل هؤلاء العودة إلى منازلهم ولا تزال بينهم وبين امتحاناتهم شهور؟
وأراد نكد طالعي أن يكون آخر ما يقع منظاري عليه جماعة من الغلمان في إحدى الطرق ينبشون صندوق القمامة يبحثون فيه عما يقتاتون به. . . فرفعت بصري إلى أعلى وقد ضاق بالأرض وما عليها فوجدت القمر من فرجة بين بيتين عاليين، وأحسست أنه في تلك المدينة غريب مثلي. ولست أدري لماذا فسرت ابتسامته في تلك الساعة بأنها سخرية من حياة المدينة هذه ومفارقاتها؟. . . وأشد ما أمضني، أني لم أر شيئاً مما كرهت من أحد غير بني قومنا الأعزاء، على كثرة ما بين ظهرانينا من النزلاء!
(عين)

الأدب في سير أعلامه

بيرون

ذلك العبقري المتمرد الذي غنى أروع أناشيد الحرية، ولاقى الموت في سبيل الحرية

للأستاذ محمود الخفيف

نشأته وطفولته

ستمضي السنون ويبقى بيرون في الغرب كالمتنبي في الشرق يحمل النفوس على الإعجاب به، من أحبه ومن لم يحبه في ذلك سواء. وستظل عبقرية هذا الشاعر الشاب كالشعلة تنتقل من جيل إلى جيل فلا تزداد على الأجيال إلا تألقاً وإيماضاً. وما كان لشعر كذلك الذي جاشت به تلك النفس المتوثبة الثائرة، وغنت به تلك القيثارة الملهمة الساحرة، أن تذهب الأيام بروعته وسحره، مهما تغيرت فنون القول واختلفت ضروب البيان
وما عرفت إنجلترة، بل وما عرفت أوربا كلها شاعراً كاللورد بيرون بلغ في مثل سنه مبلغه من نباهة الاسم وبعد الصيت في القارة جميعاً. وما عرف تاريخ الآداب رجلاً هز عصره هزاً متوالياً عنيفاً كما هز عصره ذلك الشاعر الذي تمرد على كل شيء حتى على نفسه. وما لقي بيرون من الإعجاب الشديد والسخط الشديد. ثم ما أختلف النقاد في رجل اختلافهم في ذلك الذي كانت شخصيته الفذة مجموعة عجيبة من

المتناقضات، ذلك الذي بلغ قمة المجد الأدبي وهو في الرابعة والعشرين ثم غيب في لحده ولم يتجاوز السادسة والثلاثين

ولد جورج بيرون في لندن عام 1788، أي قبل أن تنبعث الثورة الكبرى في فرنسا بعام واحد، كأنما أراد القدر أن تستقبل هذه النفس الثائرة الحياة في عصر كانت تعصف فيه أنواء تلك الثورة العاتية بأوربا كلها. وكانت الأسرة التي انحدر منها ذلك الشاعر من أعرق الأسر في إنجلترة كلها، فلقد جاء رأسها مع وليم الفاتح عند الفتح النورمندي في القرن الحادي عشر؛ وكان بيرون يفخر أشد الفخر بانتمائه إلى تلك الأسرة حتى لقد قيل إنه كان يزهى بحسبه هذا أكثر مما كان يزهي بأنه مؤلف تشايلد هارولد ومنفرد

على أن الشاعر قد ورث من بعض أفراد أسرته هذه بعض ما لا يحمد من الصفات؛ فكان سيئ الحظ من هذه الوجهة بانتمائه إلى هؤلاء. وحسبنا أن نشير منهم إلى اللورد الخامس في هذه الأسرة، ذلك الذي كان ينعت باللورد التعس، فقد كان شاذاً إلى حد يقرب به من الجنون، فهو يبعثر أمواله وهو يحتجب عن الناس، وهو لا يهدأ ذات ليلة حتى يقتل قريباً له في مبارزة دعاه إليها على ضوء شمعة في غرفة مغلقة على أثر خلاف نشأ بينهما وهو يأتي من ضروب اللعب والعبث مالا يفترق به عن الصبية!

وكان لهذا اللورد التعس أخ يعمل في البحرية وقد وصل بجده إلى مرتبة الأدميرال ولكنه كان يعرف بين زملائه ومرءوسيه باسم (الجو العاصف) لأنه ما ركب البحر إلا هبت في إثره عاصفة، وأنجب هذا الأدميرال ولدين كان كبيرهما قسيم المحيا وجيه الطلعة حسن السمت، وقد انتظم في سلك الجندية وهو في سن اليفاعة وخاض غمار الحرب الأمريكية فيمن خاضوا، ثم عاد إلى انجلترة وهو في العشرين من عمره، فكانت وجاهته تحصر الإحداق فيه، إلا إنه عرف بحدة عواطفه وعدم مبالاته وجرأته أكثر مما عرف بجماله، حتى لقد حمل هو أيضاً بدوره لقباً، ذلك هو جاك المجنون وفتن جمال جاك إحدى الحسان وكانت زوج أحد اللوردات حتى هامت به. ولم تتردد حينما مات أبوها وخلف لها أربعة آلاف من الجنيهات كل عام أن تهرب معه إلى فرنسا، حيث خملت منه ثم وضعت بنتاً، ولكن هذه المرأة المسكينة ما لبثت أن قضت نحبها إثر مرض كما يقول بعض الناس أو من جراء سوء معاملة زوجها إياها كما يقول آخرون

على أن جاك ما لبث أن أوقع في حبائله سيدة اسكتلندية إلا تكن جميلة كسابقتها فقد كانت ترث عن أبيها ثروة قدرها ثلاثة وعشرون ألفاً من الجنيهات، وقد شغفها حباً ذلك الشاب الغريب الأطوار ثم بنى بها فأنجبت له بعد أربعة أعوام طفلاً هو الشاعر الذي نحدثك عنه

كانت هذه السيدة الاسكتلندية تدعى كاترين جوردون، وكانت تزهي هي أيضاً أشد الزهو بالأسرة التي تنتمي إليها، فقد كانت تجري في عروق أفرادها دماء من أسرة استيوارت الملكية؛ ولكن هذه الأسرة لم تكن في تاريخها أسعد حضاً من أسرة بيرون، فقد قتل بعض أفرادها، وأعدم البعض، وانتحر آخرون في عدة حوادث، وكان آخر هؤلاء والد كاترين الذي انتحر غرقاً وخلف تلك الثروة لأبنته. وطالما كان رجال هذه الأسرة مصدر رعب

. . .للإسكتلنديين، إذ كانوا يلاقون على أيديهم كثيراً من البطش والانتقام

عاشت كاترين مع زوجها أول الأمر في اسكتلندا وما لبثت أن هالها منه إسرافه وعبثه بثروتها، وقد كان لا ينقطع عن المقامرة، ولا يكاد يفيق من سكره. ثم رحلت معه إلى فرنسا حين ضاقت باحتقار الناس إياها وزوجها المستهتر الماجن؛ وراح زوجها يبعثر الأموال في باريس بغير حساب، وهو لا يسد ديناً إلا وقع في دين. وانتقل الزوجان إلى لندن بعد ذلك، ولكن جاك ترك زوجه هناك وعاد إلى باريس، وصار لا يزورها إلا حين يطلب المال. على أنها ظلت على الرغم من ذلك مفتونة به، وقد ازدادت به تعلقاً حينما وضعت ذلك الغلام الجميل الذي سمته جورج جوردون في مستهل عام 1788 وبدد زوجها ثروتها، حتى لم يبق لها منها إلا ثلاثة آلاف من الجنيهات كان دخلها منها مائة وخمسين كل عام، واضطرت المرأة المسكينة أن تعيش بهذا القدر من المال، ومعها طفلها وخادمتان له، وأخذت نفسها بالاقتصاد الشديد. ورحلت السيدة إلى

أبردين. وجاء زوجها فاختار له مسكناً بقربها، وصارا يتزاوران من حين إلى حين، ولكنهما بقيا منفصلين. وطلب الرجل يومئذ ثلاثمائة من الجنيهات فاستدانها وصارت تدفع رباها من دخلها حتى أصبح ما تعيش به مائة وخمسة وثلاثين، ولكنها ظلت حتى بعد ذلك تحب هذا الرجل حباً شديداً، ولم ينقص من ذلك الحب أنه عاد ثانية إلى فرنسا وتركها وابنها في ابردين، على أنها لم تره بعد ذلك، فقد لقي حتفه منتحراً كما أشيع، وابنه في الثالثة من عمره

وعاش الطفل مع أمه وخادمتيه، وكان شذوذ هذه الأم في كثير من سلوكها لا يقل عن شذوذ أبيه؛ كانت تحنو عليه أحياناً أشد الحنو، وتقسو عليه أحياناً أشد القسوة، حتى لتضربه ضرباً شديداً. ولقد قذفته ذات يوم بملقط النار وهو محمي فكادت تقتله؛ وكثيراً ما رآها في ساعات غضبها تقذف الخادمة بالأطباق فإن لم تجد أمامها أحداً مزقت ثيابها ولطمت وجهها وحطمت قبعتها كأن بها جنة. وينظر الطفل إلى أمه فيعتلج في نفسه الصغيرة الألم والرثاء والإشفاق، وقبل ذلك رأى أباه ورأى مواقفه من أمه ومواقف أمه منه، فكان يتساءل عما يرى مندهشاً لا يقتنع بما تجيبه به خادمته وكان الطفل جميلاً كأبيه، ولكنه ولد وفي إحدى قدميه عاهة فكان لا يستطيع أن يطأ بها الأرض إلا على أطراف أصابعها، ولذلك كان في مشيته عرج ظاهر وكان يتألم من ذلك

أشد الألم، وما كان أشد الألم حينما كانت أمه تعيره بهذا إذ ترميه بالسيل الذي لا ينقطع من شتائمها، ولكنه كان يكظم غيظه وإن نفسه لتنطوي على ثورة صامتة، ولم يتمالك نفسه ذات يوم، حينما دعته بالأعرج، أن يجيبها قائلاً: (هكذا ولدت يا أماه!) وفي هذا الرد نلمس نغمة الشاعر المستقبلة حينما يجري الحوار على ألسنة أشخاص قصصه. ولقد أتى بموقف شبيه بهذا في إحدى رواياته فلقد استقرت مواقف الطفولة في نفسه وما برحت بعد ذلك تظهر في آثاره. وما كان الطفل يصبر على أحد غير أمه يشير إلى عرجه؛ لقيته ذات مرة في الطريق إحدى السيدات وهو لم يتجاوز الثالثة فقالت لخادمته: (ما أجمل هذا الطفل لولا أن له وا أسفاه مثل هذه الساق). فبدت على وجهه إمارات الغضب وصاح بها قائلاً: (كفي عن هذا)، ثم ضربها بكرباج لعبته محتجّاً محنقاً

ويطول بنا الكلام لو رحنا نسرد ما كان يلاقيه الطفل على يد أمه من عذاب؛ وحسبك أنهم انتزعوا منه ذات يوم سكيناً أوشك أن يجريها على عنقه يريد أن يقتل نفسه وقد ضاق بما كان من أمه. على أنه ما كان يفكر في الانتحار وحده فكانت تحدثه نفسه أن أمه تنتوي ذلك. ومما يذكر عنهما أن كليهما ذهب على غير علم من الآخر إلى بائع العقاقير وطلب إليه ألا يبيع الآخر سمًّا إذا هو رغب في شرائه

(يتبع)

الخفيف

رسالة الشعر

الخفاش

حين تميل الشمس عن عرشها ... وتختفي حيناً إلى موعد
تطير في الآفاق روح الأسى ... جوالةً في ثوبها الأسود
خفاشُ عبدَ الليل ماذا ترى ... والفجر في الآفاق لم يولد
وكيف ترضى العيش في ظلمة ... ضل بها الحب فما يهتدي
لما أفاق الصبح وشّى الربى ... وعطَّر الكون بأزهاره
ونقَّط العشب بأندائه ... وحرك الأرض بأوتاره
في كل روض وتر ناعم ... يدعو إلى الحب وأسراره
عرس من النور لها قائم ... الورد فيه بعض زواره
انسل في أثنائه طائر ... واندس في كهف له مظلم
عبد من النور مضى هارباً ... لم يعرف الحب ولم يحلم
حط عليه الليل أعباءه ... وراح في تياره يرتمي
يشاهد الأعراس مجنونةً ... فيه ولا ينفك في مأتم
يا عبدُ حطم من قيود الدجى ... واخرج إلى النور ولا تجزع
أما تمل العيش في ظلمة ... حيران في أطباقها ما تعي

منكصاً ترنو إلى أسفل ... والطير في سلطانها الأرفع
تشاهد الأشياء معكوسة ... وتدَّعي روحك ما تدَّعي
يا عبد، لا تشفق على ظالم ... يا عبد، إن الحر لا يخضع
يا عبد، إن الطير في شدوها ... تدعوك للعود فهل ترجع
يا عبد، اسمع ما تقول المنى ... يا عبد، انظر فالضحى يلمع
العبد في ظلمته قابع=لا يبصر النور ولا يسمع
(حلب)
عمر أبو قوس
موكب النور
(!أيها النور: إن أجمل ما في الوجود قبس من جمالك)
(بيرس شللي)
يا مَوكِبَ النُّورِ أمَا زَوْرَةٌ ... للناسكِ الصوفيِّ في خلوتهْ
كبَّلَهُ الدّهرُ بأمراسهِ ... فباتَ يبْكِي الكون من شقوَتِهْ
!ظَمآنُ للنُّورِ فهلْ رَشفةٌ ... مِنكَ له تُطفي صدى غُلَّتهْ
أَسرجْ لهُ مِصباحَهُ بَعدَ ما ... أطفأهُ الشيطانُ مِنْ غَيرتهْ
أسرِجهُ واسكب ضوءكَ الحلو في ... فؤادِهِ - أنْ شِئت - أو مُقلَته
يا موكِبَ النورِ أصخْ فالدُّنا ... خرْساءُ إلا من لُحُونِ الألم
يَزُفرُها الناسكُ فاسمعْ صدَى ... أناتِهِ مِنْ قَلبهِ المضطرمْ
آمنتُ بالحبِّ فلا تجحدِي ... ما قدَّمتْ رُوحي لذاكَ الصنم
عَفَّرتُ في مِحْرابهِ جَبهتي ... فما أصاخَ الحبُّ لِي أوْ رَحِم
وَعُدْت مِنْ هَيكلهِ ذاهلاً ... كأنني (يا أنت) صخرٌ أصمْ
عِفْتُ الأناسِيَّ فلا مُؤْنِسي ... في وَحدتي غير طُيوفِ العناء
قدّتْ مِنَ النِّيرانِ أثوابُها ... وَحوَّمتْ عندِي ترومُ البقاء
في عَينِها الأهوَاءُ مَجْنونة ... وريُّها في الدهرِ مِنّا الدّماء
وْلحُنها مِنْ نَغَمٍ صادىءٍ ... مَرَّ عَلى البحرِ فكانَ ألهباء
فَيا شُعاعَ النورِ هاتِ المنى ... فأنت سِرُّ الكون: أنتَ الدّماء
(بني سويف)
حسن حبشي
مناجاة. . .
ريقُك الخمرُ. . . سِوَى أنّ لهُ ... نَشوَةً لا تَعرفُ الخمرُ مداها
فأنِلْني منهُ ما يُسْكِرُني ... سَكرَةً تَطرَبُ رُوحي لرُؤاها
يا حبيبَ الروح دَعني أرْتشِف ... وأزِلْ عن هذه النفسِ ظمأها
لا تَقُلْ لي غَدٍ. . . إنّ غداً ... حُجُبٌ صَمَّاءُ قد عَمَّ دُجاها
هذه البسمةُ ما أجمَلَها. . . ... حينَ يَهتاجُ فوادي لِسَناها
كلمَّا عانَقها خُيِّل لي ... أنني أصبْحتُ للحبِّ إلاَها
تسْمُرُ الأنغامُ في آفاقِها ... إنما الأنغامُ مِن رُوحٍ لغاها
حَلتْ اللّثمةُ لي يا صَاحِبي ... بعد أنِ كانت حراماً وسِفاها
فأنِلنيها إلَى أنْ يَرْتوي ... خَلَدٌ يَعبدُ هِاتيكَ الشفاها
هِيَ لِيَ وَحديَ حلالٌ سائغٌ ... ويمُلْكيَها فؤادي يَتباهَى
رَبطَتْ ما بيننا رابطةٌ ... أبْلَغَتْ قوة حبِّي منتهاها
لا تَسلني كيف تُمسي. . إنني ... أقطعُ الليلَ أذّكاراً وانتباها
أنَسَ الليلُ فآويتَ إلى ... حُلكةِ الليل وأطيافِ دُجاها
وكأنَّ الليلَ مَهْدٌ ناعمٌ ... لشريد ضلّ في الدُّنيا وتاها
يا نَجيّ النفسِ في خَلوَتها ... كن لنفسي. . أنت أقصى مبتغاها
!إن يكنْ حبُّكَ ناراً تلتِظي ... فليكن فردوسَ أحلامي لَظاها
(الزقازيق)
العوضي الوكيل
الأدب في أسبوع
الإصلاح الاجتماعي

من عادتي - إذا ما استبهمَ عليَّ نفاذ الرأي - أن أعدل بأفكاري إلى الليل، فهو أحصنُ لها واجمع. فإذا كان الليلُ، وهدأت النائرة، وأوى الناسُ إلى مضاجعهم، واستكنت عقاربُ الحياةِ في أحجارها - تفلَّت من مكاني إلى غرفتي أُسدلُ ستائرها وأغلِّق أبوابها ونوافذها، وأصنع لنفسي ليلاً مع الليل، وسكوناً مع السكون؛ ثم أقعد متحفِّزاً متجمعاً خاشعاً أملأ عيني من ظلام أسود، ثم أدعُ أفكاري وعواطفي وأحلامي تتعارف بينها ساعة من زمان، حتى إذا ماجت النفس موجها بين المد والجزر، ثم قرَّت وسكنت، وعاد تيارها المتدفق رهواً ساجياً كسعادة الطفولة، دلفت إلى مكتبي أستعين الله على البلاء.

وأمس، حين أيقظني من غفوتي داعي (الرسالة) جمعت إلى ما عزمت على قراءته من الصحف والمجلات والكتب - التي هي مادة هذا الباب - وطفقت أقرأ وأقرأ، ولا أكتم أني كنت قرأ في هذا اليوم - على خلاف عادتي في أكثر هذه الأيام - قراءة المتتبع اليقظ المتلقِّف لأضع يدي على أغرز الأصول مادة وأعظمها خطراً وأشدها بنية. . . وأدسمها شحماً، فإن حق القراء علينا أن نتخذ لهم صنيعاً ومائدة تكون أشهى وامرأ وأقرب متناولا وأردَّ على شهواتهم عائدة. فلما فرغت من إعداد ما أعددت لهم وأويت إلى ليلي المختلق المزيف، جعلت أستعيد في نفسي ما قرأت، وأين وقفت منه، وما تنبهت له مما تعودت أن أستشفَّه من وراء الألفاظ المعبرة، ومن تحت السياق المهدف إلى غرضه - مما هو بأخلاق الكتاب وعاداتهم ونوازعهم وخفايا نفوسهم ألصق منه بأغراض الكاتب فيما كتب. فما كدت أقدح الظلام بعيني وأفكرِ في هذا الأمر وأستدرجه إلى نفسي حتى رأيتني أكاد أنفر من مكاني لما عراني من سوء الرأي وقسوة الظن، فإن طول تغلغلي في معاني الكتاب والشعراء، أو في معاني أنفسهم، يدلني على أن أكثر من يكتب إنما يدفع بعض الكلام إلى قلمهم ليعبر عنه، غير محتفل بما يقول، فكذلك يخرج الكلام متخاذلاً مفككا كأنه ناقةٌ من وباء مرض، ويخيل إليّ أن أكثر كتابنا إنما يتناولون المعاني والأغراض من عيبةٍ جامعة غير متخيَّرة ولا منتقاة ولا مصنفة، وأنهم إنما يعرض لهم اشتهاء القول فيقولون للشهوة المستبدة لا للرأي الحاكم، وأنهم إنما يكتبون ليبقوا كتاباً في عقول الناس وعيونهم من طول ما تعرض عليهم المقالات متوجة بالأسماء مذيلة بها، وأن الكلام عندهم هو أهون عليهم من ضغطة النائم المتلفف على زرَّ الكهرباء فإذا هو نور مستفيض لابد للعرب والعربية أن يبرأ هؤلاء من أمراضهم ثم يقولون، وأن يعتدُّوا بجمهرة القراء اعتداد من لا غنى له عنهم ولا فقر بهم إليه، فبذلك أيضاً يصلح ما فسد من القراء الذين يقرءون الأسماء دون معاني هذه الأسماء. ويومئذ لا يشكو الكتاب من بوار أسواقهم، لأنهم يعرضون للناس الحسن الذي ينشئ في القلوب الإحساس بالحسن والرغبة في اختيار الأحسن، ويتشوق الناس الجميل لأنه جميل يسمو بالروح في سبحات المثل الأعلى من الجمال الروحاني. . . ثم لا يجيزون إلا الجميل. وكذلك يترافد الكاتب والقارئ ويمدُّ أحدهما الآخر بأسباب حياته وخلوده بين خوافق الأدب السامي الرفيع. هذا هو بعض الرأي أدعو إليه كتابنا، والأدب على شفا جرف هار إلى البوار والبلى والفساد

والآن، وقد تحدَّثتْ النفس ببعض كلامها، أعود إلى (أدب الأسبوع) ويخيل إليّ أن (وزارة الشؤون الاجتماعية) هذه التي استحدثت بعد أن لم تكن، قد كان من فضل اسمها أن أيقظ أكثر كتابنا إلى حقيقة ملموسة كانوا يغضون دونها أبصارهم لما تلبس صاحبها من لباس الخزي والعار: وهي بقاؤنا بين الأمم أمة لا قوام لها من نفسها وأصلها وتاريخها، وأن مركز مصر الاجتماعي والسياسي والشرقي أيضاً قد سما في ظن الناس ولكنه في حقيقته أقل مما يُحمل عليه من الزينة والتألق والزخرف المستجلب بالإيحاء وإرادة الاستغلال. فقد كتب الدكتور هيكل في (السياسة الأسبوعية) عدد (152) كلمة في (نهضة الإصلاح في مصر) استقصى بها تاريخها وقواعدها وأغراضها من عهد الثورة الفرنسية إلى هذا الوقت. وكذلك كتب الدكتور (طه حسين) في (الثقافة) عدد (52) يقترح إنشاء (مدرسة المروءة). وجاء (الزيات) في ختام فاتحة (الرسالة) لعامها الثامن يشكو إلى الله: (إن كبراءنا عطلوا في أنفسهم حاسة الفن فلم يعودوا يدركون معنى الجميل، وإن أدباءنا قتلوا في قلوبهم عاطفة الأدب فليسوا اليوم من كرمها في كثير ولا قليل، وإن زعماءنا تفرقت بهم

السُّبل بتفرق الغايات، فلكل غاية دعوة ولكل دعوة سبيل). وكل هذه تلتقي على أصل واحد، وهو أن الحياة الاجتماعية لا تزال تحبو في مدارجها، وأن (لين العظام) يُخشى أن يطول علينا بقاؤه في صدر الحياة حتى نقعد دون شبابها، وأن الإصلاح لا بد أن يتعجل حدوثه. . .

ولكن كيف يكون ذلك؟!

وقد ساق الدكتور طه حديثه عن المروءة ساخراً من هذا الجيل الذي طبع على سفاسف الأخلاق، وتحطمت عنده مكارم الإنسانية النبيلة، وامتاز عظماؤه وصغاره باعتبار الأخلاق ضرباً من التجارة يلبِّسها الغش والخلاب والمواربة وتلقي التاجر للبائع بالدهان حتى يكون هو في باطنه أظلم شيء، وظاهره يتلألأ بمعاني الشرف والأمانة والنزاهة وإرادة الموافقة وتغليب منفعة المشتري على منفعته، وغير ذلك من حيل التُّجار والسماسرة. فأراد أن يمزح، فيدعو إلى اقتراحه إنشاء مدرسة للمروءة ليسخر من (تنازع الاختصاص) في وزاراتنا بل في أعمالنا كلها. وهذا كله في مدرجه جيد لا يحاول أحد أن ينازع عليه أو يختلف فيه، ولكن التهكم في هذا الدهر المائج بصنوف العذاب والبلاء لا يكاد يجدي شيئاً في الإصلاح. وهل يظن الدكتور طه أن كل هؤلاء الذين أقامتهم الأمة المسكينة على حياطة شؤونها ومرافقها وأسباب عيشها - لا يستشعرون من ذلك ما نستشعر، ولا يجدون من معانيه مثل الذي نجد؟ أجل؛ ولكنهم كالذي يصف هو فيما ساق من الحديث، فمن أين يأتي الشفاء إذا كان كلُّ الطبيب هو بعض المريض! إن أعمال الإصلاح الكبرى لن تأتي من وزارة الشؤون الاجتماعية، ولا وزارة المعارف، ولا غيرهما إذا بقي الشعب ينظر إلى هذه كلها ليرى ما تعمل. والرأي لا يمكن أن يتجه في هذا الأمر إلى تسديد وزارة المعارف ووزارة الشؤون الاجتماعية وتوقيفها على ما يجب عمله باقتراحات ومذكرات وبيانات. . . إلى آخر هذه الجموع.

إن عمل الإصلاح الآن موقوف على شيء واحد، على ظهور الرجل الذي ينبعث من زحام الشعب المسكين الفقير المظلم يحمل في رجولته السراج الوهَّاج المشتعل من كل نواحيه، الرجل المصبوب في أجلاده من الثورة والعنف والإحساس بآلام الأمة كلها، وآلام الأجيال الصارخة من وراء البنيان الحي المتحرك على هذه الأرض الذي يسمى في اللغة (الإنسان). وليس ظهور هذا الرجل بالأمر الهين، ولا إعداده بالذي يترك حتى يكون؛ بل هنا موضع للعمل وللإنشاء. وكبر ذلك مُلقىً على الأدباء والكتاب والشعراء، وعلى كل إنسان يحترم إنسانيته؛ فالأدباء ومن إليهم قد وقع عليهم التكليف أن يرموا بما يكتبون إلى إيقاظ كل نائمة من عواطف الإنسان، وإلى إثارة كل كامنة من نار الهداية المحاربة التي لا تخمد، ولا يكون ذلك شيئاً إلا بأن يعد كل أحد نفسه كالجندي عليه أبداً أن تكون حماسته هي روح الحرب فيه، فهو يمشي بها في كل عمل، ولو في نقل البريد من مكان إلى مكان. إذن فأول الإصلاح الاجتماعي هو إدماج عواطف الفرد في مصالح الجماعة على أتم صورة من صور الحماسة إي القوة التي تنبعث من الدم لتطهير الدم؛ وهذا بعض ما نتوافى عليه مع الدكتور هيكل إذ يقول في مقاله الذي أشرنا إليه آنفاً (لم يفكر أحد في مشكلاتنا الاجتماعية واضعاً نصب عينيه غاية قومية يريد أن يحققها، بل ترانا إذا فكرنا في الأمر كان الدافع لتفكيرنا فيه عواطف الشفقة أحياناً، والبر بالإنسان أحياناً أخرى، وهذه عواطف قد تحمد في الأفراد، لكنها لا قيمة لها في حياة الجماعة. ويوم فرض الله الزكاة في الإسلام وقرن بها الصدقة لم يقيم الشارع ذلك على أساس العاطفة الفردية، بل أقامه على أساس النظام الاجتماعي).

والكتابة هي زكاة العلم، فيجب أن تقوم على هذا الأصل الفردي المتحمس المتدفق بتياره في أعصاب النظام الاجتماعي، فإذا اتخذها كتابنا على هذا وتكلموا بقلوبهم قبل ألسنتهم وأقلامهم كان ذلك قميناً أن يبعث الرجل الذي سوف يضيء للحياة الاجتماعية

سُدَف الجهل والضعة والبغي والاستبداد

أبو العباس السفاح أمير المؤمنين

أثار الأستاذ العبادي في (الثقافة) عدد (47) مشكلة ابتغي حلها، وذلك أنه وصف حلية (أبي العباس أمير المؤمنين) أول خلفاء بني العباس كما رواها المؤرخون من أنه كان (ذا شعرة جعده، طويلاً أبيض، أقنى الأنف، حسن الوجه واللحية) وكان (شاباً متصوِّناً عفيفاً حسن المعاشرة، كريماً معط) إلى نهاية ذلك من كريمات الخصال. ثم استبعد

أن يكون هذا الإنسان الرقيق أهلاً لتلك الصورة البشعة الطاغية التي تخلعها عليه معاني هذا الحرف (السفاح) من الجريمة وسفك الدم والرغبة في ذلك والمبالغة فيه.
واحتفل الأستاذ للحوادث التاريخية فلم يجد فيها ما يسوِّغ أن يكون (أبو العباس أمير المؤمنين) سفاحاً سفاكا للدماء، وزاد أن ثقات المؤرخين كالطبري والدنيوري لم يذكروه إلا مجرد من هذه الصفة، ثم رجح بدليل بياني جيد أن السفاح محمول هنا على الأصل اللغوي أي الكريم المعطاء الذي يتلف الأموال ولا يبخل بها. ولكن الأستاذ (أحمد أمين) رد عليه بعض أدلته في العدد (49) فردها الأستاذ العبادي عليه في العدد (50) وهكذا إلى العدد (52). وأنا قد أعجبت كل
الإعجاب ببحث الأستاذ العبادي، وإن كنت أخالفه كل المخالفة، وذلك لأنه مبني على منطق تاريخي جيد، ولأنه أراد لأن يفرق فرقاً جيداً بين كتب التاريخ وكتب الأدب القديمة من حيث الحجة في برهانات التاريخ. فإنا نجد كتباً من أعظم كتب الأدب تحمل على الخلفاء من غث الأخلاق ما تناقضه سير هؤلاء الخلفاء كالذي يروون عن الرشيد - وهو بالمنزلة من الشرف والعلم والسياسة وطول الانبعاث للغزو والحجِّ - من معاقرة الخمر والملاهي والاطلاع على الحرم واستباحة الأعراض وغير ذلك مما لا يمكن أن يصح بوجه من الوجوه
هذا، وإني أخالف الأستاذ العبادي، فإنه حين رده الأستاذ (أحمد أمين) رجع عن تفسيره لفظ (السفاح) بالكرم والسخاء لغير علة ظاهرة وأصر على أن (أبا العباس أمير المؤمنين) لم يلقب (بالسفاح) البتة في حياته، ولا ذكر ذلك عنه أئمة المؤرخين وأصر مع ذلك أيضاً على صفات أبي العباس وحيلته تنفي عنه أن يكون سفاكا للدماء؛ ولا كل هذا! فإن هذه الصفات لم يرو لنا إلا أقلها حتى يمكن أن نجعلها أصلاً يستشف خلق أبي العباس من ورائها، وإن الرقة والدعة والجمال ولين الخلق تخفي وراءها أحياناً قسوة لا تدانيها قسوة، كالذي يكون في النساء، فإنهن قد عرِفن بين الناس بالرقة (وهن أغلظ أكباداً من الإبل) وإن المرأة إذا ثارت لم يبلغ مبلغها في القسوة (أقْعد) الوحوش في باب الوحشية! ومع ذلك. . . فهي الزهرة غِبُّ الندى، وهي النسيم في السَّحَر، وهي. . .
وكنت أحب أن استوفي هنا القول في تحقيق هذه الصفة لأبي العباس أمير المؤمنين، ولكني رأيت أن الكلام قد جاوز حده، وأن الدليل يقتضي إثبات كثير مما يخل تركه بالفائدة، فموعدنا الكلمة التالية إن شاء الله.
محمود محمد شاكر
رسالة الفن
دراسات في الفن
أعوذ بالله إنه (مكياج)!
للأستاذ عزيز أحمد فهمي
- ما هذا التخطيط؟ أردت بالأمس أن تلحن فأخفقت، واليوم تصور وتريد أن تكون رساماً؟
- أبعدتموني عن الألحان وقلتم كلاماً معناه: (أسكت)، فهل تريدون اليوم أن تخطفوا من يدي الريشة فلا أصور. . . خذوها أيضاً!
- لا تُغَنِّ ولكن لا تغضب، وارسم وسنرى في رسمك رأياً. . فما تريد أن ترسمه. . . فكرة؟ أو إنسان؟ أو عاطفة؟ أو عاصفة؟
- لا لا. . . إنسان، كل ما أعرفه عنه هو أنه (كاتب من الكتاب) كتب فصلاً في عدد الرسالة الأخير يوازن فيه بين نفسه وبين سيدنا أيوب
- إذن فستكون صورته أشبه الصور بالصورة التي نتخيلها لسيدنا أيوب
- لا. . بل ستكون صورة أخرى. لأن هذا الكاتب نفسه أراد أن تختلف صورته عن صورة أيوب اختلافاً كبيراً
- وأنى لك ذلك؟
- من كلامه هو فهو يقول: (أيوب فقد الثروة والعافية ولم يفقد اليقين، وأنا فقدت الثروة والعافية واليقين. أضاع الله من أضاعوني! وأيوب استطاع أن يعاتب ربه بقصيد رنان وهو في أمان من ثورة الجمهور، فظفر بالخلود في عالم الفكر والبيان، وأنا لا أملك معاتبة ربي بسطر واحد خوفاً من رئيس التحرير، وخوفاً من شيخ الأزهر، وخوفاً

من محكمة الجنايات، وأين فجيعة أيوب في دنياه من فجيعتي في دنياي؟ كان الدينار لعهد أيوب يمون الرجل شهراً أو شهرين، وأنا في عهدي يهان فيه الرجل إن اكتفى بالدينار يوماً أو يومين، فمن يسلطني على دهري فأسجل رزاياه على نحو ما صنع أيوب؟ وكانت الأرض لعهد أيوب بلا رسوم ولا حدود فكان المجاهد ينال منا ما يشاء كيف شاء، وهي اليوم مقسمة تقسيما يصد المجاهدين أعنف الصدود). . . وهو قبل ذلك يقول للذين أضاعوه - فيما يظهر - (لقد أفلحتم في زعزعة اليقين الذي كنت أفزع إليه حين تكرثني صروف الزمان، فأين أنتم لأشكو إليكم ما جنت أيديكم؟ وأين السبيل إلى ترميم البناء الذي كنت أستظل به من قبل أن أنخدع بالبرق الذي أزغتم به فؤادي. . .؟) فهلا ترين أن هناك خلافاً بين الذي يقول هذا الكلام وبين أيوب؟

- أنا لم أقرأ سفر أيوب

- هو رجل أعطاه الله كثيراً، فابتلاه الله، فصبر، فرفع الله البلايا عنه وفاز. فاختاري له ما تشائين من صوره، وانظري معي في هذه الصورة الجديدة فقد يحتمل أن تشبه إحدى صور أيوب

- وأين هي الصورة، فأني لا أرى في الورقة غير خطوط

- الصورة لا تزال في الغيب وسنستدرجها معاً. . . ولنبدأ بتصوير الرجل الذي فقد الثروة والعافية واليقين. . . هذا الرجل ما مظهره؟ وكيف نرسمه؟

- نرسمه أول كل شيء في أثواب من فقد الثروة، وهي ليست أنيقة ولا غالية، وهو بعد ذلك هزيل ضعيف لا قوة فيه ولا صحة، ولا بد أن تظهر الحيرة في عينيه ما دام قد فقد اليقين. وقد يكون بدل الحيرة جزع، وقد يكون بدل الجزع حذر، وقد يكون بدل الحذر قسوة، وقد يكون بدل القسوة غيرها من سائر النزعات التي تستولي على من فقد اليقين. . .

- بعد أسبوع واحد سأنشئ أنا وأنت استديو نصور فيه العفاريت. . . وما رأيك في قوله: أضاع الله من أضاعوني؟ أهي كراهة منه لمن أضاعوه فنرسمها على وجه، أم هي اعتذار عن فقدانه الثروة والعافية واليقين؟. . . فهو يريد به أن يغفر الناس له مظاهر هذا الفقدان؟

- أظنها كراهة، وأظن هذا الرجل مجنياً عليه، وأظنه لو تمكن من الذين أضاعوه لأضاعهم. . .

- وأنا يخيل إلي أن قوله هذا لا هو كراهة ولا هو اعتذار فقد نسيت أن أقرأ عليك من كلامه قوله للذين أضاعوه: خذوني إليكم في ملاعبكم وملاهيكم، عساني أنسى جاذبية البؤس في صحبة قلمي وكتابي!

- عجباً!. . . فهو إذن لا يكره الذين أضاعوه، وإنما يريد أن يكون معهم. فلنرسم إذن على وجهه شيئاً من الغيرة. . . أو لعلها سخرية. . .

- سخرية ممن؟ من الذين يريد هو أن يكون معهم؟ لا. ليست سخرية. وهو بعد ذلك يريد أن يعاتب الله الذي هو الله معاتبة لا تكون إلا من صاحب حق عند نائل منه، ومع هذا، فهو يخشى رئيس التحرير، وشيخ الأزهر. . . فكيف نرسم الرجل الذي له حق عند الله، وعلى علمه بهذا يخشى الأستاذ أحمد حسن الزيات، وفضيلة الأستاذ المراغي. . . كيف يمكن أن نتصور هذا؟ إني لا أتصوره!

- ولا أنا!

- ولا أي إنسان، فأولئك الذين يقرضون الله، ويعطون الله، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. وهم يعرفون هذا من تلقاء أنفسهم لأنهم يعرفون الله ويعرفون أنهم يقرضونه ويعطونه، ويعرفون من هو الله، ومن إلى جانبه رئيس التحرير وشيخ الأزهر. . .

- إذن فأنت تريد أن تقول إنها ناحية مبهمة في الصورة. . .

- بل أقول إنها مكياج. وإنها تشبه دعاءه على الذين أضاعوه في الوقت الذي يريد فيه أن يكون مع الذين أضاعوه في ملاعبهم وملاهيهم. . .

- فكأنه لا أعطي الله ولا أقرضه. . .

- الله أعلم. . . وهو يحسب لأيوب من النعمة أنه ظفر بالخلود في عالم الفكر والبيان

لما عاتب ربه بقصد رنان وهو في أمان من ثورة الجمهور. . . فما الذي يبديه هذا الإحساس في وجهه من الإمارات؟
- . . .إمارات الفكر، لاشك، وعلامات عشاق الخلود
- كلا. فلو سئل أيوب أن يتحدث مرة أخرى عما نال من نعمة الله في عتابه ربه، لذكر أنها هدى ربه، ولما ذكر بيانه ولا قصيده ولا فكره، فما كان أيوب يسعى إلى كلام ينمقه فيحفظه الناس عنه ويروونه له بعد موته، وإنما كان أيوب يتجه إلى الله يطلب منه أن يصلح نفسه، وأن يكشف له عن حكمته فيما ناله من بلوى استعذبها وصبر عليها. . . فأيوب الذي كانت هذه هي نفسه هو الذي تبدو عليه إمارات الفكر لا شك، وعلامات عشاق الخلود
- فمكياج هذه أيضاً؟
ولم لا. . . هذا مقال ظهر في رأس السنة، ورأس السنة عيد يتنكر فيه أصحابه لهواً وعبثاً. . . فلنمض مع صاحبنا هذا، فإنه من غير شك لذيذ. . .
- وهبك وصلت إلى تصويره حقاً. . . فهل تجرؤ على نشر صورته، وهو رجل لا تعرفه، وقد يغضب عليك وأنت أحوج ما تكون إلى عطف الناس لا إغضابهم. . .
- ولماذا يغضب (أيوب الثاني) من كلمتين يقولهما كاتب صغير مفضوح مثلي. . . إنه لو غضب لأكد غضبه لنفسه ما أدعيه من أن صورة أيوب التي يريد أن يرسمها على نفسه إنما هي مكياج. . .
- . . .إذن فامض هداك الله، وهداه معك، وهداني معكما
- آمين. لو كنت قرأت سفر أيوب لكنت رأيت فيه أن أيوب لم يتفجع من فقدان الثروة إلا على أنه مظهر من مظاهر غضب الله. . . ولكن أيوب الثاني هذا الجديد يذكر الفجيعة في الدنيا على أن أفجع ما فيها هو أنها أصابت دنياه فيقول: (وأين فجيعة أيوب في دنياه من فجيعتي في دنياي؟) فبأي الصور تتصورين أيوب الثاني. . .
- بصورة الرجل الذي تهون فجيعة أيوب في دنياه إلى جانب فجيعته فيها. . . وأيوب على ما أظن فقد في الدنيا من الفقر والمرض الخبز وأدنأ ما يسد الرمق، كما فقد الملبس وأهون ما يستر الجسد.
- فهل تظنين كاتباً من الكتاب الذين يكتبون لمجلة رائجة مثل الرسالة تصل به الحال إلى هذا ولا يعاونه صاحب الرسالة وكتابها وقراؤها ولو برغيف وبنطلون؟ أنا لا أظن ذلك. . . وهذه أيضاً مكياج. . .
- إن الرجل يتكلم كلاماً يعتمد فيه على النسبة بينه وبين أيوب، وزمانه وزمان أيوب. . . فأيوب نبي، وعاش في عصر أوفر رغداً من عصرنا. . .
- وهذا هو الذي يقوله هو. . . ولكن لا تنسى أنه يوازن بين نفسه وبين أيوب من ناحية واحدة فقط، وهي هذا الشقاء الذي يفرض أنه قد مسه، وينسى بعد ذلك لأيوب بقية نواحيه وأولها أنه لم يكن يعرف (المكياج) وهي ناحية أساسية في أيوب وفي كل من يريد أن يكون كأيوب.
- فلندع هذه أيضاً. . .
- ولنر إلى قوله إن الدينار والدينارين. . .
- لا لا. . . فلندع هذه. . . فإن الكاتب من الكتاب الذي يشعر بأن الإنسان يهان في هذا العصر إذا اكتفى بالدينار في اليوم أو اليومين. . . فهو من غير شك قد رحمه الله من إهانات يالها من إهانات لو لم يكن ينفق الدينار في اليوم أو اليومين. . . كان الله في عون الكتاب وغير الكتاب من أبناء اليوم الذين ينفقون الدينار في الأسبوع أو في الشهر أو في العام. . . إن هؤلاء هم الأيوبون
- بعدها يا سيدتي قوله: ومن يسلطني على دهري فأسجل رزاياه على نحو ما صنع أيوب؟ فهو لا يسجل على دهره الرزايا إلا إذا سلطه على الدهر أحد، على الرغم من قوله إن الدهر أوجعه وأشقاه. . . فكيف نصوره أمام الدهر؟
- لو كان خائفاً من الدهر لكان قد سكت على الدهر ولم يناوشه ولم يصارحه العداء، ولو كان هاجماً على الدهر لما عبأ بالدهر ولما طلب الذي يسلطه عليه ويمكنه منه، فلا هو خائف ولا هو هاجم. . .
- فماذا يكون إلا أنه صاحب سياسة مع الدهر حكيمة فهو لا يهاجمه على الرغم من عدائه له انتظاراً لمن يسلطه عليه؟. . .

- ولكنه على هذه الحكمة يصارح الدهر بالعداء. . . وليس من الحكمة في شيء أن يصارح الإنسان عدوه بالعداء وهو عاجز عنه خائف منه. . .
- فهذه الحكمة أيضاً مكياج أو هذه الصراحة هي المكياج. . والله أعلم. . . على أنه قد خطرت لي الآن صورة مضحكة قد تجتمع فيها ملامح هذا الاضطراب كله: في الريف عندنا ناس يسلطهم الأعداء على أعدائهم. . . فيكرهون ويعادون ويحاربون ويقهرون؛ تبعاً لما يوحي به إليهم من يسلطهم. . . وهؤلاء من كثرة تدربهم على التسلط والتسليط أصبحوا يتسامحون فيما ينالهم هم من الأذى فلا يأخذون بالثار لأنفسهم ولا يستردون حقوقهم، لأنه لا أحد يسلطهم إلا على أعدائه هو لا على أعدائهم هم. . . فما رأيك؟
- ولكن هذه لا يمكن أن تكون صورة كاتب من الكاتب
- إني قلت ذلك. . . فالمفروض أن الكاتب من الكتاب له رأي خاص وكيان خاص وتفكير خاص؛ وهو يموت ولا يحتمل أن يسلطه إنسان على شيء. . .
- ولكن كيف ذكرت الريف وأنت لست منه ولم تحل به إلا خطفات؟
- لعل الذي دفع صورة الريف إلى ذهني هو قول صديقنا: وكانت الأرض لعهد أيوب بلا رسوم ولا حدود، فكان المجاهد ينال منها ما يشاء كيف شاء، وهي اليوم مقسمة تقسيما يصد المجاهدين أعنف الصدود. . . فالأمر الذي لا شك فيه هو أن ذكر الأرض يكثر على ألسنة الريفيين.
- ولكن الرجل ذكر بعد الأرض البحار فقال إنها كانت مصادر خيرات، وذكر السماء وقال إنها كانت مساقط غيث ومذاهب نسيم وهذا هو ما يدعوني إلى القول بأنه كاتب من الكتاب يزن الكلام ويوازن المعاني، أفكنت تريدين أن يسكت عند ذكر الأرض فقط فتكون منه هذه هي الواحدة التي يهمل فيها (المكياج)؟ إنه كاتب من الكتاب. . . وهو إلى أنه كاتب يرى نفسه مجاهداً، وكان يجب أن تكون الأرض بلا حدود ولا رسوم لينال منها المجاهدون - وهو منهم - ما يشاء كيف شاء. . . إنه يريد الأرض ويريد أن ينال. . . والآن أرشديني وقولي لي كيف تكون صورة هذا الكاتب الصديق. . . هل تستطيعين أن تبحثي لي عن (موديل) له أرسمه. . .
- لا. . .
- وأنا قد بدأت واعترفت بالعجز، ورسمت هذه الخطوط التي رأيتها في الورقة فلم ترضي أن تقري في البدء بأنها صورة إنسان. . .
- ولكن هذا الذي رسمته يا شيخ ليس صورة ما. أعوذ بالله
- هي صورة، ولكنها مرسومة بالأسلوب (المودرن). . . وكم أحب أن أعرف رأي صاحبها فيها - من غير غضب - وعليه مني السلام ومن الله الرحمة والبركات.

عزيز أحمد فهمي

رسالة العلم

قانون نيوتن الثالث

وارتباطه بحياتنا العامة

للأستاذ إبراهيم زكي أباظة

إن معظم القوانين الطبيعية التي وصلنا إليها كانت نتيجة تجارب جاءت إما عفواً، وإما استنتاجاً من قوانين أخرى سابقة. وكثيراً ما عد العلماء ورجال البحث أهمية القانون بتعقده وصعوبة الوصول إلى الحلول التي كشف عنها أكثر مما يلعبه من دور هام في مناح مختلفة من حياتنا العامة، سواء أكانت هذه النواحي مباشرة في ظهورها، أم غير مباشرة في تأثيرها. ولعل الشهرة التي يتمتع بها السر إسحاق نيوتن تتمركز في المكان الأول على قانون الجاذبية العام الذي وضعه، ثم ما تفرع عنه من مشاكل ومسائل طبيعية ورياضية جعلت صاحبه من أعظم الرياضيين.

ففي نفس الطريقة التي كشف بها قانون الجاذبية العام عن مظاهر طبيعية عدة، كان الإلمام بها يعد قديماً من عمل الخوارق. كذلك يمكننا بواسطة عدة تحاليل علمية ومنطقية أن نتوصل إلى أن قانون (نيوتن الثالث)، لا يترك ناحية من نواحي حياتنا إلا وله فيها تطبيق وعمل. وعلى مدى مرونة هذا القانون تبنى أهميته وتجعله في مقدمة القوانين العامة التي تشترك بها جميع العلوم.

ينص هذا القانون على أن لكل فعل رد فعل مساوياً له وفي عكس الاتجاه:

فإذا تكونت في جسم ما قوة من نوع (سالب) عندئذ وجب وجود قوة معاكسة ومساوية لها من نوع (موجب). فإذن وجود الواحدة يعني وجود الأخرى أو الاثنين. فإذا لاحظنا الأمور التي تجري أمامنا، وتبصرنا كل جسم وحيز، كل جماد وحي، وكل غاز وصلب، وجدناها تقع تحت مؤثرات تختلف باختلاف أنواعها ومصادرها. حتى الفكر والعلم والزمن وكل شيء معنوي تتجاذبه مؤثرات متعاكسة النوع تؤثر فيه حسب ناموس قديم متناسق تناسقاً منطقياً يستند على هذا القانون؛ وهذا هو التفسير الذي نبني عليه هذا البحث

فلو أراد شخص رفع ثقل عن الأرض كحجر بواسطة حبل فاقتلعه بقوة لانقطع الحبل، لأن

قوة كبيرة تساوي القوة التي بذلها الرجل في الرفع قد وجدت في الحجر، ولكنها تسير مضادة للأولى، وهكذا تتكون قوتان متعاكستان في المفعول فينتج عن هذا التدافع العكسي تأثير على الحبل يتناسب مع حدة هاتين القوتين المتحاربتين فينقطع. ولكن لو رفع بلطف لما انقطع، لأن القوتين اللتين تعملان في اتجاه معاكس تخف وطأتهما على الحبل لدرجة يستطيع تحملها بعكس ما يحدث في الحالة الأولى هذا مثل من أمثلة عديدة لها أهمية خطيرة في علم الطبيعيات. ولا أظن أن تطبيق هذا القانون في بقية العلوم إلا كاشفاً عن أسرار تساوي أخوتها في الطبيعيات إن لم تفقها.

لقد أثبت علم النفس أن الشرير مهما تمادى في شره، وأن المرأة الساقطة مهما تطرَّفت في انحطاطها، يُكِنان في فؤادهما من الروح الصالح والطينة الطيبة ما يمنع قطع الأمل من إصلاحهما. فكم من متهتكة عاهر أصبحت يوماً ما من أرق القلوب وأعطفها على المظلومين والضعفاء والمرضى، فذهبت تجعل ما بقي من حياتها وقفاً على مواساة المريض وإعانة الضعيف. فبمقتضى هذا القانون - وإن كان طبيعياً - نثبت أن المقدار أو النسبة المئوية من الخلق الشرير لا بد وأن يوجد مقدار مساو له تماماً، ولكن من الناحية المضادة، أي من الخلق الحسن المحمود. وأما تعليل تفوق عنصر على ضده فهو أن ظروف الحياة والبيئة ساعدت على نمو الواحد وعرقلت نمو الآخر بنفس الطريقة التي يبيد بها نوع من المكروبات إناثي حشرة ما، بينما يساعد على بقاء ذكورها، أو يقتل نوعاً من الحشرات ويبقى على نوع آخر. فإن امتد الأجل بذلك الشرير ضعفت العوامل التي ساعدت على تيقظ خصلة خلقية فيه وقتلت المضادة. عندئذ تسنح الفرصة لظهور الطرف الثاني من الكيان الخلقي الذي لبث دهراً مديداً طي الخفاء

ومما نلاحظه كثيراً وأثبته علم النبات أنك إذا بترت غصناً من شجرة فلا بد من ظهور طلع في مكان آخر من الشجرة: أي أن العضو الذي يُعاق نموه في مكان ما يسير اتجاه نشاطه إلى مكان آخر؛ وربما لم يصلح جذع الشجرة كله لظهور طلع جديد بدل المبتور، عندئذ نلاحظ أن طلعاً أو عدة طلوع برزت قرب الجذر. هذا في أغلب الحالات وفي بعضها تحول فاعلية العضو المبتور إلى عضو آخر فتزيد نشاطه مثلاً كأن تزيد نضرة الورق أو نضوج الفاكهة. ونفس النظرية يمكن تطبيقها في جسم الإنسان أو في أي جسم

حي

هذه الأمثال من حيث الظواهر الطبيعية التي فسرت حسب هذا القانون. فنستنتج من ذلك أن كل جسم في الكون حياً كان أم جماداً يتكون من عنصرين: سالب وموجب. ففي الوقت الذي يسيطر فيه أحد العنصرين على الحالة القائمة في الجسم يختفي الثاني - ولكنه لا يزال موجوداً - فكأن نظام تسلط الفرد أو مجموعة من الأفراد التي هي عنصر واحد قائم حتى في خفايا التراكيب الكونية مهما تنوعت أصنافها. وهنا تتاح الفرصة للظروف أن تقرر سيادة أحد العنصرين واختفاء الآخر مؤقتاً - كما في الأخلاق - مع أن توازن الجسم لا يتوفر إلا بوجودهما معاً وإن نشط الواحد وفتر الآخر ففي المثل الأول من مقالنا قلنا إن رفع الحبل بعنف أو بلطف سبب الحالة التي قررنا. فهنالك قوتان تسيران متعاكستين في الحبل وجدتا وتركزتا فيه عندما تم فتله. وهاتان القوتان متساويتان في الجذب؛ وبهذا نعلل كون الحبل لا يتحرك أو لا يتحرك في حالة عدم وقوعه تحت مؤثرات خارجية، فتبقى القوتان ساكنتين، حتى يجيء باعث أو

محرك خارجي فيثيرهما ويجعل لواحدة السيطرة على الأخرى. ففي حالة هذا الحبل سيطرت القوة المعاكسة لثقل الوطأة فقطع، وبالتالي سيطرت القوة الأساسية التي بذلها الرافع فلم ينقطع. فالسالب والموجب إذن موجودان في أي كيان لا يلزمه سوى باعث يثير الواحدة على الأخرى والنصر يعتمد على شدة هذا الباعث أو المحرك

وهنا نظفر بحقيقة في علم الأخلاق على جانب من الخطورة عظيم، إذ يمكننا تحت ضوئها أن نصلح أي خلق شاذ في أي شخص إذا فهمنا روح النظرية وسرنا في تطبيقها بخطوات منطقية متوازنة. فإذا فرضنا أن شخصاً مصاب بعادة الحياء أو الخوف أو الاستكانة، فما علينا إلا أن نعمل على إيجاد الظروف والمناسبات التي تكثر فيها الحوادث التي يعاوده في أثنائها مفعول استحيائه أو خوفه مع الاستعانة في تنبيه فكره بواسطة غير مباشرة إلى ملاحظة ما يترتب على عمله، ولتكن هذه المصادفات متتابعة متلاحقة - ولكن بشرط إعطائه الوقت الكافي للتأمل في أعماله - بحيث يتركز مفعولها وأثره. فما من شك مطلقاً في أن صفة خلقية معاكسة تنشأ وتترعرع حالاً بقوة وتطرف موازيين للقوة والتطرف في الحالة الأولى أي في حالة وجود الاستحياء والخوف، فتنشأ الجرأة بدل الأول والشجاعة بدل الثاني

واستناداً إلى تفسير هذا القانون والنظرية العملية التي استخلصت منه يصبح في مقدورنا التنبؤ بعدة نظريات وآراء علمية عديدة منها ما ظهر وبرهن على وجوده في العلم الذي يتعلق به، ومنها ما يمكن التنبؤ به استناداً إلى هذا القانون، إذا تحرينا في استنتاجاتنا الخطوات المنطقية. ومن النظريات التي تنبئ بها على ضوء هذا القانون - طبعاً بصورة غير مباشرة - نظرية تركيب الذرة ففي الوقت الذي عرفت فيه بواسطة التفاعلات الكيميائية بين المركبات من نوعي الكهارب التي تسير في مداراتها حول نواة الذرة وهذه ما تسمى بالـ عندئذ - عرف وجود البروتون لأن الكهارب هي الشحنات السالبة والبروتونات هي الشحنات الموجبة ووجدت هذه الشحنات المختلفة بنسب متساوية تماماً في الذريرة

وهنالك من الأحياء في الطبقات الدنيا ما لا يزيد تركيبه على خلية واحدة تقوم في نفس الوقت بجميع عمليات الجسم الضرورية كالهضم والتنفس والإفرازات، ومن هذه الحيوانات الـ والـ فلو تصورنا وجود هذه الحيوانات ذوات الخلية الواحدة في أقصى طرف من عمود خشبي يستدق في طرف ويتدرج في الغلظ وتخيلنا هذه الحيوانات الدنيا كأنها تشكل نهاية الطرف المستدق فلا بد إذن من وجود حيوانات تقابل هذه على الطرف الآخر من العمود، وأنها تكون نهاية في الغلظ لوجدنا أنه يتحتم وجود حيوان متناه في قوته وجرمه فائق في دقة تراكيبه الجسمية ووظائف الأعضاء فتكون قوته وحجمه متطرفين بل متناهيين في التطرف بالقدر الذي تكون فيه الأميبا متناهية في الضعف والتلاشي ودقة الحجم. فلو احتجنا إلى مكرسكوب قوي لمشاهدة الأميبا بما فيها من تراكيب غاية في البساطة، لأمكننا أن نتصور بل نتأكد من وجود حيوان كبير جداً يعجز نظرنا عن الإحاطة بجرمه إلا إذا ذهبنا لمسافة بعيدة حيث نتمكن من رؤيته كله. ولهذه الحقيقة ما يؤيدها تاريخياً وهو وجود حيوان يسمى بالدينصور الذي زعم المؤرخون أنه كان هائل الجسم والبطش إلا أنه أنقرض بفعل الثلج في العصور الجليدية. وكذلك الحيوان الذي يقال بوجوده أيضاً ويسمى بالتراخودن من فصيلة الدينصور، ويقدرون قوته وسرعته بأنه يقطع مسافة سبعة أميال بخطوة واحدة من خطاه. وفي البحار ما يقارب هذه الحيوانات كالحيتان، فمنها ما يقابل - تقريباً - في الكبر الأميبا في الصغر

ولا شك أن الحيوان الذي يتمم هذا التقابل قد وجد ورتع يوماً ما على ظهر الأرض وسوف يكشف عنه العلم والتاريخ يوماً ما.

هذه حقائق يمكن أن نتلمسها بالفكر والنظر البعيد. كما أنه من الممكن بهذا القانون التنبؤ بنظريات واقعية تجري مبادئها مجرى العمل في كل مضمار من مضامير العلم. واعتقد اعتقاداً راسخاً أن العلم السائر دوماً إلى الأمام سوف يبرهن عليها بقوانينه وحسابه وملاحظاته وتجاربه إن لم يكف قانون نيوتن الثالث للبرهنة عليها بصورة حاسمة

كما لا شك في أن ما نجده من تناقض واختلاف - حسب ما نعتقده - سواء في مجرى

الأحداث الطبيعية أو شتى شؤون الحياة المتنوعة أو طباع الناس وأخلاقهم، لا نجد له تعليلاً منطقياً غير الرجوع إلى هذا القانون. ولو نجحنا في بعض الأحيان في إيجاد تعليل إلا أن المصدر الأعلى الشامل لتعليل جميع ما نرى من متناقضات وأضداد في مجرى الطبيعة والحياة اليومية وسير التاريخ العام هو هذا القانون الخالد ما خلد صاحبه (نابلس)

إبراهيم زكي أباظة

القصص

الأب. . .

لجي دي موباسان

بقلم الأستاذ مراد الكرداني

تعلقها لحظة سنحت لعينيه. فقد كانت ذات جمال هادئ صارخ، يتسلل إلى الحواس في دهاء ولطف، حتى إذا تمكن واستوى، فعل فعله، ودار فيها على طبيعته حنيناً ورغبة ونداء. ثم كان لِزاماً عليهما أن يتراءيا كل صباح، لأن عملهما كان يقتضيهما أن يهبطا باريس كل يوم مع الهابطين.

لم يكن يعرفها، وما كان رآها، إنما كان يجد نفسه في كل صباح جالساً تجاه فتاة جميلة، سرعان ما أحبها، وسرعان ما ألقت أنوثتها في ذهنه إنها امرأة وديعة لينة، ضعيفة، فشرع يغزوها

كان يحملق في وجهها، وخديها، ثدييها بشراهة عجيبة. وكانت إذ تدرك منه ذلك تحملق فيه، فلا يردُّ عينه عنها، فتضطرب، ويصعد الدم وفيراً إلى وجنتيها، فتزداد جمالاً وفتنة، فيزداد هو شوقاً ورغبة. . .

ولا يدريان: لا هو، ولا هي، هل كان واحد منهما يحرص أن يكون جار صاحبه في مقعد المركبة كل يوم؟ أم هي مصادفة ساقها القدر وفّقت أن يلتقيا هكذا أسبوعاً كاملاً؟. . .

كان لا مفر بعده من أن تجري بينهما بضعة كلمات خفاف قصار في ابتسامة أخف وأقصر، لعلهن كن تمتمة شكر لقاء أن آثرها وأجلسها في مكانه في يوم كانت العربة فيه ملأا بركابها. . .

وفي اليوم التالي تصافحا يداً بيد، ثم تكلما، ثم تصادقا. . . ثم كانت له برغم ذلك شاغلاً يملأ خلايا مخه طول يومه وسواد ليلته، إلى أن يلقاها. . . وإنه ليرقب مشرق وجهها على فؤاده بشوق وحنين، وإنه ليفكر في نصف الساعة التي ينعم فيها بها، حتى إذا بلغا غايتهما، وآن لهما أن يفترقا، شعر بفراغ هائل يداخل نفسه؛ وتعاظمته تلك القسمة الحرام التي قسمت له من زمان حبيبته جزءاً واحداً من ثمانية وأربعين جزءاً. . .

ولما توثق ما بينهما اشتهى أن يكون وإياها رجلاً مع امرأة؛ ولعلها اشتهت مثلما اشتهى لأنها قالت له في صباح يوم سبت من أيام الربيع، وهما يتواعدان أن يلتقيا غداً في مطعم فاخر:

- قبل أن نذهب أحب أن أقول لك كلمة، وأمامنا عشرون دقيقة نستطيع أن نقول فيها كلمات. . .

وتغافل هو عما أحس من اضطراب جسمها واهتزاز ذراعها في ذراعه وهي تلقي إليه قولها، قالت في صوت خافت:

- أحب أن تعلم أنك ستطوي نهارك مع فتاة شريفة لا تحب أن تذهب مع رجل حتى يتعهد باحترامها. . .

وتوهج خداها وحرّت أنفاسها وتعنّف اضطرابها، فلم تعد تملك أمر نفسها فسكتت، وسكت هو لا يدري ماذا يقول فقد كان في حسابه أنه سيمتع نفسه بكل ما يمكن أن يفعله رجل يحب فتاة. وإذ لم يحر جواباً ثنت هي تقول:

- إنني لن أذهب معك حتى تتعهد باحترامي

ولما برحا المطعم الموعود سارا معاً على ضفة النهر يمتعان أعينهما بالماء الحالم في هُدأةِ الأصيل وبالجو السجسج الدافئ. وكانت لمعة الضوء تتكسر على صفحة الماء الحابي، والأسماك تتواثب وتتلاعب ثم تنغمر في الماء. وأشعت الشمس تسيل فتصبغ الماء والحشائش والأفق بلونٍ رهيب. . . كان كل ذلك يزيد من جمال النهر ويكسبه روعة وجلالا

وتفاعلا في روعة هذا الجمال الضافي فراحا يلعبان ويثبان. وراحت هي تشتبك في ذراعه ثم تتركه لتدفعه من ظهره. ثم تجري منه ضاحكة ثم تؤامنه لتنحني فتجمع له الزهر النامي على حافة النهر وتقدمه له أو تلقيه في الماء. وظلا هكذا - كطفلين غريرين - حتى جرت دمائهما. ثم سارا هادئين لحظة لأنها بدا لها أن تقول له:

- ماذا تضن فيّ وقد جئت معك منفردة!

- إن هذا أمر عادي مألوف

- لا. ليس عادياً ولا مألوف، ولكني مع ذلك لا أظن إنني أكره مثل هذا الطيش، ولي أم مريضة ومتعبة كانت أولا بوقتي هذا، ولم يكن يليق أن أتركها وألهو ولكن. . . أرجو أن لا تسيء بي الظن

ولم يكن لديه لهذا الخلط الذي لم يفهمه سوى أن مال عليها فقبلها قبلة أخطأت خدها وأصابت أذنها. فنفرت منه كظبي مذعور وتغاضبت عليه. ولم تطل. . . بل أقبلت عليه تذكره بوعده لتمهد أن يعودا - كما كانا - مرحين لاعبين

وكان الهواء قد رق وصفا. وسرا عطريّ الروحة والغدوة يحمل في طوايا هبته شذاً قوياً يدير الرأس حين يدور فيها عندما بدت لهما من بعد حديقة لفاء يحبو تحتها ماء النهر، وتذّهب ذراها أشعة الشمس الغاربة، كانت تبدو من بعد كسرادق مظلم أو ككهف عظيم. ولما قارباها أخذت هي تحدق فيها بعين بارقة مفتوحة، وقالت في صوت خافت كأنه يأتي من أعماق أعماقها

- ما أجملها. . . ما أجملها!

ولما اقتحماها وسارا فيها بلغا فيها خباء بين دوحتين فارعتين لا تبلغه العين، ولا يبلغه الضوء، إلا قطعاً نثاراً كنقوش الثوب، وملأت رأسيهما فيه ريح عطرة مثيرة قوية! فجلسا حالمين تائهين. . . ثم تقاربا في بطئ وسكون، ثم تضاما، ثم عصفت بهما نار الرغبة فلم تملك إلا أن تحسس فمه بشفتيها. فجعل يعتصرهما بجنون، ويضمها إلى صدره بشوق وقوة وعنف، وقد غابا ونسيا نفسيهما. . .!

ولما أفاقت لم تكن تريد أن تصدق. . . ثم أخذت تصيح وتصرخ. . . ثم هدأت لتبكي. . . ثم لما فرغت لم ترد أن تسمع لكلماته وهو يفرغها في أذنيها ليخفف عنها ما بها من جزع وأسى، بل جعلت تهتف في صوت خافت ضعيف:

- رب ماذا فعلت. . . ماذا فعلت!

وساوره الخوف والفزع مما رأى من حمرة خديها وعمق عينيها وجعل يرتعد وهو يرجوها أن تبقى ليتفاهما، وليدبرا الأمر على قانون الواقع ولكنها تركته دون كلمة أو وداع. . .

ولما لقيها في اليوم التالي ألفاها ساهمة شاحبة ظاهرة الأسى، كأنها خالصة من أعقاب مرض طويل أضناها وذوب قواها. قالت له حين تصابحا في همس:

- أريد أن أتحدث إليك قليلاً. . .

ولما انفردا قالت له في ألم وجد:

- أنه ليحسن بنا أن نفترق، فإن من الخير أن لا نلتقي بعد ذلك، وبعد الذي كان لا أحب أن أراك لأنني كنت ضعيفة ومجنونة، فليس هناك ما يبرر أن أعود لهذا الجنون وذلك الضعف مرة أخرى!

فجعل يتوسل إليها أن تلحق به وهو يؤكد لها أنه سيصلح ما أفسده. وأنه سيتزوجها إن شاءت ومتى شاءت ولكن عبثاً ما حاول فقد رفضت أن تسمع له وتركته ومضت

ولم يعد يراها. ومر أسبوع وأسبوع، ولم يكن يعرف مأواها، ولعله أيس منها أو لم يقطع في أمرها بأمر، لأنه ذهب مرة يفتح الباب لطارق فوجدها هي. وأثلج صدره أن شعر بها فيه، تملأه وتهدهده، ورأى ذراعيه قد التفتا عليها، وجعلتا تضغطانها في رفق وشوق. . .

وعاشا معاً ثلاثة شهور شعر بعدها بالملل منها، فتهابط حبه لها وشغفه بها، ونقصت رعايته إياها وعنايته بها. . . ثم جبن وتسافل حين ذكرت له إن جنيناً يتواثب في أحشائها فكأنما كان هذا النبأ عصاً ألهبته، لأنه فر من وجهها مسرعاً لا يلوي. واختفى. . . لا حذرها ولا أخبرها إلى أين. . . ولا هي ارتضت لنفسها أن تبحث عنه.

لقد طاوعت كبرياءها فلم ترد أن تفعل، ولم تجد في وسع عينيها سوى أمها. . . فتهاوت في صدرها حزينة باكية تشكو لها بثها، وترجو عندها الستر والصفح

. . .والسلوى
وفي الجانب الآخر عاش الخاطئ المسكين عيشة مضطربة قلقة سمجة، لا معنى لها ولا غناء فيها. . . عاش وحيداً منعزلا، لأن عليه أن يعيش. . . كانت الدنيا في عينيه مظلمة قاتمة سخيفة لا خير فيها. ولو لم يكن لديه إلا عمله يرى فيه بضعة وجوه لمات كمداً ومللاً. . . فتخامد شبابه وانطفأ نور حياته في حضيض خطيئته. وغدا على الدنيا شبحاً يود لو ينتهي
وكان يقسو عليه ألمه أحياناً فيضيق بوحدته فيخرج في آصال أيام الأحد ليسير ثقيلاً متباطئاً، وما هي إلا خطى معدودة حتى يجلس ملولاً ضيق الصدر، ليرى الأسر السعيدة مغتبطة هانئة بأطفالها التي تجري حولها بوجوه ضاحكة مستبشرة. وكان هذا المرأى في ذاته يزيد ألمه وحزنه، ويسلمه إلى شعور عنيف يستبد به فيشعر أن قلبه ينسحق تحت معول ضخم، فلا يملك لنفسه إلا أن يطرق ويصمت
وفي ذات صباح وكان يسير شريداً مضيعاً، لمح امرأة تتهادى بين طفلين يلعبان حولها، أما أحدهما فطفل لم يجاوز الرابعة، وأما الثاني فغلام تشرّف على العاشرة اهتز حين رآها وداخله نحوها شعور ما، ولما لم يكن مخطئاً جمد ولم يستطع حراكاً، فقد فَقَدَ هيمنته على نفسه، ولم يعد إلا عيناً تدور وراءها وتتابع حركاتها. وازداد يقينه حين شعر بحنين عنيف يثور في صدره نحو أكبر الطفلين عندما التفت مرة فوضحت ملامحه. . .
في تلك الليلة لم ينم، فقد سهَّده أمل أشرق ثم خبا. فبات فريسة تفكير مضنٍ طويل: تُرى هل هذا ابنه. . . وهل هي هي. . .؟ وإذا كان فماذا أستطيع أن أفعل. . .؟ وزاد بلاؤه أن طُمِس على ذهنه فلم يدر ماذا يستطيع أن يفعل. . . ولكنه غَنِمَ أن عرف أنها تزوجت رجلاً من جيرتها وكان شهماً فاضلاً غفر لها واعترف بابنها وعُنِي بهما .!
وكان إشراق وجه ابنه في سماء حياته المظلمة ألماً جديداً فوق آلامه، إذ أشعره ذلَّ الوحدة وعذاب الحرمان، فاضطرب اضطراباً شديداً، وامتلكه اليأس والأسى، وأصبح لا يرجو إلا أن يضم ابنه إلى صدره ويقبله ليشبع منه شوق السنين، وليطفئ لوعة الحرمان التي شبت في نفسه فغطت آلامه جميعها
وقام في ذهنه أن يعترض طريقها، فأسرع نحوها فأخذها من كتفها؛ فلما التفتت إليه صرختْ صرخة رعب مكتومة، وحنَتْ على ولديها فطوّقتهما وأسرعت تجري بهما ومر شهران يئس فيهما أن يراها أو يرى ولده. وحنق على نفسه أن حرمها رؤية ولده ولو عن بعد. فجعل يكتب لها. . . كتب لها نحو عشرين رسالة لم يتلقّ رد واحدة منها! فأحس مرارة الخيبة تمور في ألم الحرمان فترهقانه وتعذبانه عذاباً أليماً
ولما يئس أن يراها فكر وقدّر، ثم فكر وقدر، فلمعت له في ظلمة يأسه خاطرة هي أن يكتبَ لزوجها. . . ولما جاءه الرد أنه يسره أن يلقاه في مساء يوم معين لم يكن بأسعد حالاً مما لو كان أهمله كما أهملته هي من قبل. فقد كان دَقُّ قلبه - وهو يصعد الدرج - سريعاً مزعجاً. وكان ينتزع رجليه انتزاعاً ويراود نفسه - وهو صاعد - أن يرجع!
وكانت ثيابُ الرجل السود ورهبته فيها وسحنته المتزنة الوقور التي طالعه بها. . . كان كل ذلك قد خلع قلبه وطير ما بقي له من قوة واتزان. وحين أشار له الرجل أن يجلس،
. . .جلس متداعياً مذهوب العقل، ضائعاً
قال الرجل في لهجة عميقة ورنة آسفة:
- إن زوجتي حدثتني عنك. . .
فرد يقول في صوت خفيض متقطع:
- إنني يا سيدي غير سعيد لأنني لا أستطيع أن أرى ولدي وهب الرجل فنادى. . . فدخل غلام في نحو العاشرة مسرعاً إلى الرجل الذي يعيش معه على ظن أنه أبوه. . . ولكنه وقف فجأة حين انتبه إلى أن بالحجرة رجلاً غريباً. . .
وقبله أبوه قبلة كلها حنان وعطف. وقال له مشيراً:
- اذهب وقبل هذا السيد الجالس هناك. وسار الطفل نحو (السيد الجالس هناك) وديعاً خجلاً، ضيق الخطى. وأحس هو - وطفله مقبل عليه - أن دُوَاراً شب في رأسه حين نظر إلى عيني ابنه وهما تطالعانه وتنظران إليه
وقام الرجل (صاحب البيت) فدار على نفسه واتجه صوب النافذة، حين وافى الولد

أباه، وحين فتح له هذا ذراعيه فاحتواه فيهما، وحين أخذ يقبله بجنون في شعره وعينيه وخديه وفمه وذقنه وكل وجهه، وحين انزعج الطفل من هذه القبلات العنيفة وأراد أن يتحاشاها ويبعدها عنه، وهو يدير رأسه إلى كل ناحية ليتخلص منها فلم يستطع، لأن الذراعين اللتين أحاطتا به قد تصلبتا عليه. . . . . .

ثم تراخيا عنه، لأن رقة قلبه شاعت في كل جسمه، فَرَحِمه وتركه، ليمسح . . . . دموعاً انسابت من عينيه، ونهض صارخاً يقول:

- وداعاً. . .

وأسرع فنزل الدرج قافزاً كالهارب، وحين احتواه الطريق انغمر في الظلام كاللص.

مراد الكرداني

من هنا ومن هناك

هذه الحرب ستزيل الحرب

ملخصة عن (فورتنايتلي))

منذ أربعين سنة كان الناس يظنون أن الحروب الدولية هي الطريق الطبيعي الذي يدل عليه المنطق وتستحث إليه البطولة في فض المنازعات. فإذا قتلت إنساناً - وكثيراً ما يحدث هذا - فأنت تقتل شخصاً أجنبياً عنك. أما الحروب الأهلية، فقد كانت من الأعمال الممقوتة، لأن القتل في هذه الحروب كان بمثابة قتل الإنسان لأخيه؛ فكانوا يعدونه خروجاً عن حدود الطبيعة لا يصح أن يقترف على وجه الإطلاق.

وقد كنت مخالفاً لهذه الفكرة منذ عدة سنين. فلم أعتقد في ذلك الحب الأخوي المزعوم، ولم أظن في يوم من الأيام أن الإنجليزي أحق بالحب من الفرنسي، أو الألماني، أو الأمريكي. إن الإنسان حر في أن يحب هذا أو يكره ذاك. ولكني أعتقد أن الحرب الأهلية أقل خروجاً بنا من الحدود الأخلاقية من الحرب الدولية لسببين:

السبب الأول: هو النضال في هذه الحرب لا يقوم لأجل انتزاع الأرض، أو الاستيلاء على المعادن، أو التهافت على السيادة وإنما يقوم على فكرة أو مبدأ.

والسبب الثاني: أن تلك الحرب، حرب شعبية، وثورة ضد الحكم السيئ، تترك فيها الحرية لرجل الشارع في اختيار الناحية التي يريد أن ينحاز أليها.

ويخيل إلي أن الحرب الحاضرة هي من نوع الحرب الأهلية فهي حرب مبادئ، هي ثورة يناضل فيها الألمان إلى جانبنا، أو نحن نناضل إلى جانبهم لمكافحة نوع من الحكم الذي لا يطاق

فليست هذه حرباً دولية، ليست حرباً بين حكومتين، ولكنها حرب بين نوعين من أنواع الحكومات، حرب بين الديمقراطية والدكتاتورية، أو بعبارة أخرى هي حرب بين الحرية والاستعباد

لقد كتب كثير من اللغو عن كلمة الحرية. وأنا أقرر هنا أن الحرية المطلقة أمر ليس في الإمكان. فأنا إذ أقول إنني حر في أن أكتب ما أشاء - هنا - فما لا أستطيع أن اكتبه في ألمانيا أو إيطاليا أو روسيا، لا يصح أن يقال لي أن الصحافة هنا في أيدي أصحاب رؤوس

الأموال، وهم لا يسمحون لك بأن تنشر إلا ما يتفق وأغراضهم. فأنا حر في أن أكون من الرأسماليين، وأخرج صحيفة خاصة بي إذا استطعت، وأنا حر كذلك في أن أنشر آرائي في كتاب خاص بي إذا وجدت الناشر، والناشر حر في أن يقبل أو يرفض نشر هذا الكتاب. وأنا حر في أن أصبح في شلالات نياجرا إذا لم تحد من حريتي قوة المياه المتدفقة. فالإنسان لا يكون محروماً من الحرية إلا إذا حرم القدرة لفعل كل ما يريد فالحرية التي يزدهر نجمها في البلاد الديمقراطية هي حرية الروح، هي حرية الفرد في أن يفعل ما تؤهله له كفاياته وظروفه الشخصية إذا لم تصطدم وحقوق غيره ممن لهم الحق كذلك في الاستمتاع بحرياتهم، وتلك ليست بالحرية الكاملة. فالحرية الكاملة شيء لا وجود له. وكذلك نحن نحارب هتلر لأنه يزعم لنفسه الحرية التامة في أن يفعل كل ما يريد. فهذا نوع من الحرية ترى الحكومات الديمقراطية أن من واجبها أن تكافحه بكل ما لديها من قوة لأنه يتعارض وحرية الأمم المجاورة له

لقد عدنا إلى حياة الغابة اليوم، لآن هتلر يريد ذلك. أليس هذا نوعاً من الجنون؟ فإذا كان في العالم أمة تخضع لشخص واحد أو ليس من الجنون أن يبقى شبحه مهدداً للسلام

إن فكرة الحرب مقضي عليها إذا ارتفعت كلمة الشعب. فإذا كان الأمر على النقيض، وكان صوت الأوتقراطية هو المسموع فسوف لا يرتاح العالم من شر الحروب إن طريق السلام عسير ولا شك، ولكنه واضح النهج بادئ المعالم، يراه كل بصير لا هتلرية في أرض الوطن

(ملخصة عن (سبكتاتور، لندن))

لم يمر على البرلمان ولا على الصحافة وقت أصبحت فيه المهمة الموكولة إليهما في حاجة إلى عناية ويقظة كالوقت الذي نحن فيه. ومما لا شك فيه أن الديمقراطية لا تقدم على الحرب إلا إذا أفرغت كل ما لديها من الوسائل لاجتنابها. إذ الحرب وعلى الأخص الحرب العصرية - لا تخلو من خسارة موقوتة تقع على الديمقراطية نفسها. فالحكومة في هذه الظروف على ثقة من أن حالة الحرب ستبرر كل ما تطلبه من النفوذ الدكتاتوري، ومن ثم تعمل تحت تأثير هذا الشعور. فالحرية الشخصية يجب أن تحد إذا دعا الداعي إلى التعبئة، وإعداد العدة لحماية الوطن من الأعداء. وسائر قوى الشعب يجب أن تكون واحدة لنظام معين، تسير عليه مجبرة إذا اقتضى الحال

هذه الحقيقة لا جدال فيها. ولكن هل معنى ذلك أن قبول الحرب أو الدخول فيها يقضي على الديمقراطية، ويمحو وجودها بحيث يصبح الشعب البريطاني كالشعب الألماني خاضعاً خضوعاً تاما للدكتاتورية العمياء؟ الجواب لا، بلا شك. فهذه الأمة لا ترجو يوماً من الأيام أن تعمل على رفع مستواها الحربي بتوجيه النقص إلى تلك المميزات التي كانت مصدر قواها وفخارها أيام السلم

إن العقلية الإنكليزية ليست كالعقلية الألمانية. فالألمانيون سواء في الحرب أو السلم لا يكرهون الاستعباد، ويريدون أن يكونوا على الدوام تروساً في الآلة الحكومية التي يديرها الحاكمون

ولكنا لا نستطيع أن نستغل الشعب البريطاني إذا حاولنا أن نعامله على هذا النحو من المعاملة. فالإنجليز يفهمون روح التعاون الرياضي فهم يقادون ولكن لا يساقون. فإذا أردنا أن نفوز في هذه الحرب فلن يكون ذلك بمحاكاة الروح الألمانية. ولكن بالمحافظة على روحنا الخاصة، وتنمية فضائلنا المتأصلة وإذكاء روح الحرية وتوجيهها ضد قوى الاستعباد

إن الحرب تجابهنا مرة واحدة بنقائض الديمقراطية جميعاً وهي في أشد أحوالها. فالحالة تقضي بأن يساس أبناء الأمة بشيء من القوة، ولكن دون أن يفقدوا هم سياسة أنفسهم. ولحل هذه المشكلة لجأت الحكومة إلى وجهتين: الأولى هي الاحتفاظ بالحياة النيابية كاملة، وإعطاء الأعضاء الحرية التامة في مناقشة كل شيء. والثانية: حرية الصحافة، ولم يسيء البرلمان ولا الصحافة استعمال هذه الحرية. بل لقد كان الأمر على نقيض ذلك، فقد ظهر كل منهما - وعلى الأخص مجلس العموم - عزمه الصحيح على توحيد الرأي، والعمل على محو كل اختلاف، وقبول كل تضحية في سبيل المصلحة العامة.

البريد الأدبي

اتحاد دولي لضمان السلام

افتتحنا العدد 336 من الرسالة الذي صدر بتاريخ 11 ديسمبر سنة 1939 بمقال عنوانه (سياسة السمك) قلنا فيه أن الدويلات الصغيرة ليس لها بعد انتصار الديمقراطية إلا أن تنظر (في يومها وفي غدها فتعالج ضعفها بما تعالج به الطبيعة ضعف النمل والنحل وهو التجمع والتكتل والتعاون، فيكون بين البلدان المتجاورة كدول البلطيق وأمم البلقان وشعوب الإسلام شبه ما بين الدول المتحدة في أمريكا من اتحاد السياسة الخارجية والدفاع العام والدستور المشرع والرئيس الحاكم. وإذن لا يبقى على الأرض أمة صغيرة يقوم على استعمارها النزاع، ويميل من جرائها ميزان السلامة) ثم ضربنا مثلاً باتحاد بلاد الوطن الإسلامي الأربعة عشر، وقلنا بعد أن ذكرنا الخطأ الذي قام عليه صلح (فرساي): (سيفكر الحلفاء الديمقراطيون متى جلسوا إلى مائدة الصلح فيما جنوا من (عصبة الأمم) ويقررون إذا وفقهم الله أن ينشئوا السلم العالمية الدائمة على قواعد من التركيب لا من التحليل، فيؤلفوا من الأمم الصغيرة المتقاربة في الوطن والجنس والمنفعة اتحادات مستقلة، تتحد في الرياسة والحكومة والدستور، وتشترك

في الدفاع والسياسة والعمل، ثم يربطوا بين الدول العظمى والاتحادات الكبرى بروابط وثيقة من الاقتصاد العادل الذي يضمن لكل أمة سداد عوزها من خير الله وغلة الأرض. . .)

ذلك ملخص ما قلناه في ذلك المقال. ومن توارد الخواطر أننا قرأنا في عدد الهلال الذي صدر في أول يناير من سنة 1940 صفحة 357 أن الكاتب الصحفي الأمريكي (كلارنس سترايت) أصدر كتاباً سماه (الاتحاد الآن) دعا فيه إلى إنشاء ولايات متحدة عالمية على نسق الولايات المتحدة الأمريكية. فهو يقترح أن تتحد الدول الديمقراطية الخمس عشرة معاً ليتألف من جميع شعوبها شعب واحد له حكومة واحدة وبرلمان واحد وقوة حربية واحدة) ثم ذكر الديمقراطيات الخمس عشرة كما ذكرنا شعوب الإسلام الأربعة عشر، ثم قال: (وتحتفظ هذه الدول بملوكها ورؤسائها ووزرائها كما تبقى على لغتها وثقافتها وكتبها التاريخية وألويتها المميزة لها، وتستقل كل منها بإدارة شؤونها الداخلية. أما جيوشها وأساطيلها وسياستها الخارجية فتوحد معاً في قبضة هيئة واحدة تتخذ لها مقراً في جنيف أو أتاوا) إلى

أن قال: (وقد تبدو هذه الفكرة خيالاً بعيد المنال، ولكن هكذا كان الأمر قبل أن تأتلف الولايات المتحدة الأمريكية في شعب واحد وتحت حكومة واحدة. كانت هذه الولايات متعادية متنافرة ولكن حرب الاستقلال ألفتها ووحدتها. فلم لا تؤلف الحرب القائمة هذه الديمقراطيات التي تتهددها الدول الطاغية وتحاول أن تفترسها واحدة بعد أخرى؟)

الشيخ عبد العزيز البشري والعريان

لا تنسينْ تلك العهود، فإنما ... سميت إنساناً لأنك ناس

اختلاف النهار والليل ينسي ... اذكرا الصبا وأيام أنسى

أنشدت بيت حبيب وبيت شوقي لما قرأت هذه الجملة في الثقافة الغراء في آخر أجزائها: (لا أدري لماذا ترك المسكين عريان، لا أثر للنقش، ولا للكتابة فيه؟). وهي في مقالة لآخينا العالم الأديب الكبير الشيخ عبد العزيز البشري عنوانها (فن الإعلان) وقلت: لقد أنسى الشيطان فضيلة الشيخ الأستاذ بيتي الألفية:

وزائدا فعلان في وصف سلم ... من أن يُرى بتاء تأنيث خُتم

ووصفٌ أصليّ ووزن افعلا ... ممنوع تأنيث بتا كأشهلا

وقال صاحب (جوف الفرا):

وكل وصف، تاء أنثى لا تلي ... فاصرف كعريانٍ وما كأرمل

إن العلماء لينسون، وإن الأئمة ليخطئون، وإنما العصمة لله ولرسوله محمد وحدهما. (طنطا)

أزهري

حساب الخطأين لا حساب الخطين

إن إحياء ذكرى ابن الهيثم من أجل الأعمال التي قامت بها الجمعية المصرية للعلوم الرياضية والطبيعية بالقاهرة. وقد قابله العرب في مختلف الأقطار بالشكر والرضى والتقدير، إذ يرون فيه خطوة نحو بعث الثقافة العربية ومحاولة موفقة لأحياء علماء العرب ونوابغهم الذين خدموا الإنسانية وكان لهم فضل كبير على تقدم الحضارة.

ولقد سبق أن نشرنا عدة مقالات عن ابن الهيثم في المقتطف والمعرفة (أيام صدورها) والرسالة. وأتينا على بعض مآثره في كتاب (نواح مجيدة من الثقافة الإسلامية) وأذعنا عنه حديثين في لاسلكي فلسطين ودعونا (ولا نزال ندعو) إلى تمجيد علماء العرب الذين أضافوا إلى كنوز المعرفة إضافات أدت إلى نمو العلوم واتساع أفق التفكير كما دعونا إلى نفض غبار الإهمال وإزالة غيوم الغموض المحيطة بآثارهم ومآثرهم

لهذا كان سرورنا عظيما حينما قرأنا في الصحف نبأ الاجتماع الرائع الذي عقد في قاعة جامعة فؤاد الأول الكبرى إحياء لذكرى ابن الهيثم، وقد شهد هذا الحفل أمير عظيم من أمراء البيت المالك الكريم وجمهور كبير من أساتذة الجامعة وصفوة مثقفة من رجال مصر، وتكلم فيه عدد من أساطين العلم وأمراء البيان

وظهر في الرسالة عدد 338 الكلمة التي ألقاها الأستاذ الدكتور محمد محمود غالي في الحفل المذكور عن (الهندسة وابن الهيثم قديماً وحديثاً) فأقبلت على قراءتها برغبة

وشغف. وقد لفت نظري اسم كتاب ورد في الكلمة فذكر الدكتور كتاب (حساب الخطين) من بين أسماء تصانيف ابن الهيثم التي تمت إلى علم الهندسة مع أن المصادر (أخبار العلماء وطبقات الأطباء وغيرهما) لا تشير إلى كتاب بهذا الاسم، بل تشير إلى كتاب آخر موضوعاته حسابية ليس فيها شيء من الهندسة، والكتاب الذي تشير إليه هو (حساب الخطأين) الذي يبحث في إيضاح طريقة حساب الخطأين - وهي إحدى الطرق الأربع التي كان يستعملها العرب لاستخراج المجهولات. أما الطرق الأربع فهي: طريقة الأربعة المتناسبة، وطريقة حساب الخطأين، وطريقة التحليل والتعاكس، وطريقة الجبر والمقابلة

هذه ملاحظة بسيطة على كلمة الدكتور القيمة، ولي من إخلاصه للحق والحقيقة ما يشجعني على إبدائها ولفت نظره إليها

(نابلس)

قدري حافظ طوقان

تكريم الأساتذة المصريين في كلية الحقوق العراقية

طلاب كلية الحقوق العراقية مشهورون بوفائهم لأساتذتهم فهم لا يألون جهداً في إكرامهم وطاعتهم. وقد أقاموا أمس حفلة شائقة تسر الناظرين تكريماً للأساتذة المصريين الجدد

الذين شرفوا بغداد في هذا العام. وكان يتقدم المدعوين أصحاب المعالي وزراء الحكومة العراقية، وأمراء الجيش وقادتهم، وقناصل الدول العربية وكبار الموظفين. وكانت الحفلة رائعة كل الروعة خطب فيها خطباء كثيرون، وكل منهم أثنى على مصر ثناء عاطراً. وألقى الشاعر مصطفى كامل يأسين قصيدة عصماء استعيد أكثر أبياتها. وبعد أن انتهى الخطباء العراقيون تفضل الأستاذ الدكتور عثمان خليل عثمان فارتجل خطاباً ممتعاً بالنيابة عن إخوانه الأساتذة المصريين كان له أبلغ الأثر في النفوس. وكان مسك الختام خطاب عميد كلية الحقوق الأستاذ الكبير منير القاضي. ودامت الحفلة ساعتين وانفض المدعوون وكلهم يلهجون بالثناء على عميد الكلية وأساتذتها وطلابها

ضياء شيت الخطاب

عبث الناشرين وأصحاب المكاتب

زور أحد الناشرين كتاباً على الدكتور طه حسين بك وقد رأينا في العام الماضي شيئاً مثل ذلك منسوباً إلينا والى الأستاذ توفيق الحكيم. وقد اشترى صاحب مكتبة الجامعة مائتي نسخة من رواية اللصوص كانت باقية لدى مترجمها الأستاذ عبده حسن الزيات. ثم شاءت ذمة التاجر أن يستبدل بغلافها غلافاً آخر كتب عليه من الصفات والألقاب ما أنكره الأستاذ واحتج عليه. وهذه حال من الفوضى المحزنة لا يليق بحماة الحق وحراس العدالة أن يدعوها تستمر.

كلبة يزيد

سألتنا الآنسة فوقية كامل عن تاريخ كلبة يزيد بعد أن سألت (الأهرام) فلم تجد الجواب. وقد بحثنا فيما بين أيدينا من كتب الأمثال واللغة فلم نجد لهذه الكلبة ذكراً ويظهر أن إيراد المثل على هذه الصورة خطأ، فإن أكثر الناس يروية: (أنحل من كلبة ميت يزيد) وميت يزيد قرية من قرى مديرية الشرقية فلعل أديباً من أهلها يروي لنا ما يتناقلونه من قصة هذه الكلبة البخيلة

حول مقال

سيدي الأستاذ الكبير زكي مبارك:

أحييك تحية مصدرها إعجاب بأدبك العالي وحسن نقدك وغيرتك على اللغة العربية والدين. وبعد، فقد وقع في يدي منذ مدة عدد الهلال الممتاز (العرب الإسلام)، فوجدت فيه مقالة عنوانها (تركيا المسلمة ومصطفى كمال والإسلام) بقلم الأستاذ حسن الشريف، وفيها ينتقد اللغة العربية ويقرر أنها غير صالحة للعصر الحاضر من حيث صعوبة حروفها في القراءة والكتابة، وعدم قبولها للاختزال، وتعدد معانيها. ويقول أيضاً: إن الطفل في المدارس الابتدائية يستطيع بعد ستة شهور أن يقرأ معظم المكتوب باللاتينية قراءة تكاد تكون صحيحة، بينما هو لا يستطيع أن يقرأ سطراً عربياً من دون أن يخطئ في قراءة كل كلمة. بل إننا نحن الكبار، وقد درسنا العربية دراسة لا بأس بها لا نسلم من التعثر في دواوين الشعر. . . وقد أورد هنا بيتين من الشعر

دليلاً على ذلك. كما أنه قد تعرض فيها إلغاء مصطفى كمال للمادة التي تنص على أن (الإسلام دين الدولة).

فأرجو من سيدي الأستاذ أن يطلع على هذا المقال ويبين رأيه فيه، ويمحصه على صفات مجلة (الرسالة) الغراء.

سليم الحجيري

اختلاف الأزياء المصرية

إلى حضرات أساتذة العلم ورجال البحث والتاريخ أتقدم إلى ساحة علمهم بالسؤال الآتي وهو: (ما سبب اختلاف زي المصرين)؟

إن الناظر إلى الزي المصري يرى أن له أشكالاً عدة وأنواعاً مختلفة سواء في ذلك ما كان خاصاً منه بالنساء أو الرجال حضريهم وريفيهم، حتى ليختلف زي ريف عن آخر. فنرى أن ما تتحلى به زوج السويفي أو المنياوي ترفضه زوج المنوفي أو الشرقاوي. وقل مثل هذا في أنواع البرد والملاءات حتى في الأحذية

ولقد شغلت ببحث هذا الاختلاف عدة سنين غير أني لم أوفق توفيقاً يرتاح إليه الضمير. فإني إذا رجعت إلى العصور القديمة وقابلت بين أهلها حتى العصر الحديث كما فعل العلامة حفني بك ناصف - رحمه الله - لمعرفة أسباب اختلاف الأزياء وتعدد اللهجات المصرية، غم على الأمر وأشكل؛ فإني إذا عللت مثلاً لبس العمامة الكبيرة البيضاء في بعض مديريات الجنوب بأنها لاتقاء وهج الشمس فلا أجد علة للبس الزعبوط الأسود فوق كل منمنم ومعلم من الثياب. الأمر الذي لا يتفق مع الطقس أو الطبيعة في شيء هناك. فهل ذلك راجع إلى عادات مصرية قديمة؟ وإذا كان الجواب بالإيجاب فهل لتعدد الإقطاعيات والمعودات دخل في ذلك؟ أو أنه راجع إلى حالات نشأت من تعدد الفاتحين لمصر. وإذا كان ذلك كذلك فأيها بقي وأيها ذهب وما علة كل؟

وإذا كان الجواب نفياً فهل يرجع ذلك إلى عوامل محلية للطبيعة والجو والحالة الصحية أو العلمية والفكرية دخل فيها؟ وإذا كان الجواب نعم فبماذا نعلل بقاء ما لا يتفق منها مع هذه العوامل؟

فهل يتفضل حضراتهم ببحث واف شاف في هذا الموضوع

محمد عبد الجواد حبيب

تصويب

ذكرنا حين تكلمنا عن كتاب تاريخ الطب في العراق بالعدد 335 أنه من تأليف الدكتورين: هاشم الأثري، ومعمر خالد الشابندر. وصحة الاسم الأول: هاشم الوتري لا الأثري.

اختلافهم رحمة

قرأت في عدد (الرسالة) المؤرخ 13 نوفمبر سنة 39، مقالة الأستاذ الطنطاوي: (من هو المسلم؟). والأستاذ مهما كان موضوعه عادياً لا بد أن يكسوه بقلمه البارع وإيمانه البالغ حلة قشيبة تستدعي الالتفات إليه والاهتمام به. وهو في نظري من أدبائنا الذين يخدمون بقلمهم الإسلام ويعملون على تجديده، يمدهم في ذلك اطلاع على روح الإسلام ونصوصه لم يتهيأ لغيرهم، ولذلك لا يحق لنا أن نمر بما يكتبه في هذا الصدد مر الكرام. وبهذا النظر أحب أن تتفضل عليّ الرسالة بشطر من صفحاتها القيمة لأشارك الأستاذ في هذا البحث وفي مسألة هامة من مسائله التي ألم بها إلمام المرشد، وهي مما لا يسوغ تعريف جمهرة القراء بها على هذا النمط لا سيما أن الأستاذ لم يتناولها بما عرفنا عنه من النظر المنقب والفكر المجدد، بل اتبع فيها القول الشائع. وأنا لم أتوفر الآن لإعطاء هذه المسألة حقها من البحث، وإنما أريد أن أصحح هذا القول الشائع حتى لا يمر به بعد اليوم من أدبائنا

ومفكرينا من يقيم له وزنا، قال الأستاذ: (إنه لا يضر الناس اختلافهم في الفروع (فكلهم من رسول الله ملتمس) سواء في ذلك الحنفي منهم والشافعي والمالكي والحنبلي. بل إن اختلافهم رحمة من الله وتوسيع على الأمة. ولكن يضر الناس اختلافهم في أصول الدين من العقائد ونحوها، ويكون الواحد منهم مصيباً والباقون على ضلال. لأن الحق لا يتعدد والمصيب هو من اتبع ما كان عليه النبي (ص) وأصحابه والقرن الأول خير القرون)

فالذي يبدو من هذا الكلام أن الأستاذ يجاري متأخري الفقهاء من جعلهم اختلاف الأئمة

رحمة للأمة وتوسيعاً على الناس في عباداتهم ومعاملاتهم ليختاروا من أقوالهم ما فيه اليسر لأحوالهم، كما أنه يرى أن اختلاف أنظار المجتهدين في الأصول ممنوع لأنه يستدعي اختلاف الحق وتعدده. وهذا التعليل نفسه يرد على اختلافهم في الفروع أيضاً. والحق الذي لا ريب فيه أن الاختلاف لم له يكن مورد إلا في الأمور الظنية والمشاكل الجزئية التي يتسع فيها مجال القول ويختلف النظر إليها باختلاف الأحوال والأزمان. وطبيعة الأصول تتنافى مع ذلك فإنها لم تسم كذلك إلا بعد أن أجمع عليها النظار وتناولتها الأجيال بالتسليم والقبول لأنها ليست مظنة اختلاف ولا موضع تأويل بخلاف الفروع. وقد بحث هذه المسألة الإمام الشاطبي في كتابه: (الموافقات) ج4 ص71 فأبان أن الشريعة لا خلاف فيها بالحقيقة أصولاً وفروعاً، وأن منشأ الاختلاف في الفروع الأمور الظنية التي يتسع فيها مجال القول بالنسبة لأنظار المجتهدين لا بالنسبة للشريعة التي نفى الله عنها في كثير من آيات القرآن الاختلاف والتفاوت. وقد تعرض بعد ذلك للحديث المأثور: (أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم) فذكر أنه مطعون في سنده، وهو لا يعارض الآيات الصريحة من حيث التزام لوفاق في أحكام الشريعة. ثم استطرد إلى موقف المكلفين من الاختلاف وقال إن المجتهد لا يسوغ له العمل بأحد الدليلين من غير ترجيح كما لا يسوغ للمقلد العمل بقول المجتهد إلا بعد الاطمئنان والتبصر في حال المجتهدين أن تيسر له ذلك وإلا فلا يحق له اتباع أحد القولين كما يستدعي هواه ويقتضيه حاله (وعليه أن يستفتي قلبه) كما قال الرسول (ص)

وأما ما أثر من مدح لاختلاف في الفروع كما روى عن عمر ابن عبد العزيز إذ قال في اختلاف الصحابة (أما يسرني أن لي باختلافهم حمر النعم) فمناط هذا عدم الحجر على الأنظار فيما ليس فيه قطع وهذه هي السعة التي شرع من أجلها الاجتهاد لا ما يجعل المكلف في حيرة من العمل بالأقوال المختلفة دون تبصر واطمئنان. ثم قال في فصل ثان ما نصه: (وقد أدى إغفال هذا الأصل إلى أن صار كثير من مقلدة الفقهاء يفتي قريبه أو صديقه بما لا يفتي به غيره من الأقوال اتباعاً لغرضه وشهوته أو لغرض ذلك القريب وذلك الصديق. ولقد وجد هذا في الأزمنة السالفة فضلاً عن زماننا هذا كما وجد فيه تتبع رخص المذاهب اتباعاً للغرض والشهوة) أقول وفي زماننا هذا أصبحت هذه القضية مصدر الحيلة لتجار الشيوخ في إجابة المستفتي لحل مشكلة أو تفادي حرمة في الدين. وعلى قدر ما يدفع السائل من المال، تتسع أمامه الحيل وتكثر الأقوال. فماذا يقول أمثال هؤلاء في قول الله تعالى: (وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم)

(نابلس)

حلمي الإدريسي

المسرح والسينما

اقتباس الروايات

والاقتباس من المسرحيات الأجنبية عمل على كثير من الصعوبة؛ ولكننا نلاحظ دائماً أنه يحول دون تصوير جو المسرح الذي يريده المؤلف. ولسنا نعلم لماذا لا تخرج الفرقة ما تريد من المسرح الفرنجي كما هو؟ ولا نعلم سر غرام الأستاذين سليمان نجيب وعبد الوارث عسر بهذه الطريقة! فلا الروايات تبقى فرنجية الحوادث والمناظر والجو، ولا هي يمكن أن تلبس قناعاً مصرياً كاملاً يخفي ملامحها الحقيقية! ونحن نطالب الفرقة في إلحاح بأن تكف تماماً عن إخراج الروايات المقتبسة، فضلاً عن الروايات الفرنجية التافهة التي يضعها كتاب مغمورون. وما دام المسرحي في بلاد الغر ب دائم التجدد، فلماذا لا تعهد الفرقة إلى بعض المجيدين بترجمة أحدث المسرحيات الناجحة لكبار المؤلفين كبرناردشو وسواه؟!

القاتل!

الأستاذ يوسف وهبي ممثل قديم ومؤلف مسرحي قديم أصبح له طابع خاص يميزه ولا يشذ عن معالمه

وهو يذكرنا - مع الفارق - بالفنان الإنجليزي المعاصر العظيم (ناول كوارد) من حيث أن كليهما يضع المسرحيات بقلمه، ويقوم بالإخراج ويرتب المناظر ويوزع الضوء وغير ذلك مما يمكن الفرد الواحد أن يقوم به من أعمال المسرح

وهو يميل إلى الروح المصرية البحت ويصور العقلية والتقاليد والمعتقدات الشعبية بقدر ما يواتيه التوفيق. فهو أحياناً يساير طبيعة الأشياء وجريان أحداث الحياة فتكون العبرة والموعظة الحسنة. وهو أحياناً يسخّر من قلمه أقداراً مجنونة تقتل وتفسق وتسفك الدماء. فيبتعد بهذا كله عن طبيعة الأشياء فيكون الفشل والبعد عن إرضاء الجماهير

ومسرحيته الجديدة (القاتل) هي من طراز مسرحياته الأخرى، مصرية صميمة في كل كبيرة وصغيرة. وليس هنا مجال عرضها أو نقدها في تفصيل. وهذا لا يحول دون التنبيه إليها بوصف أنها عمل فني جديد

!دنانير

جارية كانت لجعفر البرمكي، نسج حولها صديقنا (رامي) هيكل قصة سينمائية تخرجها شركة أفلام الشرق وتلعب دور البطولة فيها (أم كلثوم) وهي تصور عصر الرشيد ونكبة البرامكة، وتعرض لكثير من شخصيات هذا العصر في مقدمتهم الخليفة هرون الرشيد نفسه، والشاعر الأشهر أبو نواس. وسوف يبدأ العمل في استديو مصر في منتصف فبراير القادم

لجان محطة الإذاعة

في محطة الإذاعة لجان كثيرة جديرة بالحديث. هنالك لجنة البرامج العليا يرأسها الدكتور علي إبراهيم باشا وتنظم في عضويتها حسن باشا رفعت وطه حسين بك ممثلين للحكومة، وكلا من المستر (ويللان) والمستر (فرجسون) ممثلين لشركة ماركوني اللاسلكية، ويحضر اجتماعاتها الأستاذ سعيد لطفي بك لتقديم البيانات والإيضاحات التي توضح للأعضاء المجتمعين سبيل بحث ما يعرضون له من المسائل وهذه اللجنة استشارية تقريباً، ولا تعرض لتفاصيل البرامج إلا في النادر، وتجتمع قليلاً جداً، ولا ندري السر في وجودها وتأليف على هذا النحو المختلط

وهنالك لجنة الأغاني، وقد غمزناها لتتحرك في الأسبوع الماضي ولكنها لم تفعل! وهي مؤلفة من رؤساء أقسام المحاضرات والمسرحيات والموسيقى الشرقية والاسطوانات ومساعد المدير الفني الشرقي وهو الأستاذ عبد الرحمن سامي

وقد ناقشنا الأستاذ لطفي بك في تأليف هذه اللجنة على هذا النحو الذي يتيح لغير الفنيين أن يحكموا على آثار شعراء البلاد ومؤلفي الأغاني فيها، فقال إنه يريد أن يعطي لكل الموظفين أقساطاً من العمل والمسئولية، لأنهم شبان يجب أن يتاح لهم

!حظ كاف من المرانة حتى ينضجوا في المستقبل

والمعروف أن الشعراء الذين تفجعهم هذه اللجنة في آثارهم ليس لهم ذنب في أن

!موظفي المحطة شبان يجب لهم التشجيع

هذه اللجنة مفترض في وجودها أن تجتمع كل أسبوع للنظر فيما يقدم إليها من الأغاني، ولكنها لا تجتمع فعلاً إلا كل بضعة أسابيع. وقد تستعلم عن هذا فيقول لك كل عضو فيها

إنه مرهق بعمله الخاص بمكتبه، وعمل هذه اللجنة إضافي (كالسخرة)! وقد بلغ (المخزون) من الأغاني لدى اللجنة ثلاثمائة قطعة. وقد مضى على بعض القطع بضعة

!شهور وأصحابها لا يعرفون عن قبولها أو رفضها شيئاً

وثالثة الأثافي أو اللجان هي لجنة البرامج المحلية التي تجتمع يوم الأربعاء من كل أسبوع. وأعضاؤها هم رؤساء الأقلام؛ ويشهد اجتماعها مدير الإدارة الإنجليزي. وعملها قاصر على تنظيم الإذاعات التي وافقت عليها المحطة، حتى لا تصطدم أجزاء البرامج أو تزيد أجورها عن الاعتمادات المالية المرصودة في ميزانية كل أسبوع

وليس على هذه اللجنة لوم فيما قد يأخذه المستمعون على البرامج فعملها قاصر على الترتيب كما قدمنا. وليس لها دخل في قبول الإذاعات أو رفضها إذ أن سلطة القبول والرفض هي بيد الأستاذ لطفي بك فيما يختص بجميع البرامج العربية. سوى الموسيقى، والأخيرة من اختصاص الأستاذ مصطفى بك رضا وهو رجل مشهور بطيبة

.قلب لا نظير لها

!هذه هي لجان الإذاعة وأعمالها وأعضاؤها، فلمن الشكوى

(أبو الفتح الإسكندري)

العدد 341 - بتاريخ: 15 - 01 - 1940

من مذكراتي اليومية

من عادتي كلما ثقل على الحاضر وضاقت بي الحال أن أعود إلى ماضيَّ فأنشر عهوده وأَجْتَرَّ ذكرياته. وسبيلي إلى ذلك استغراق الفكر فيما سجلت صحائف الصبي من حوادث، أو العيش مع إخواني الذاهبين فيما كتبت وكتبوا من رسائل، أو الرجوع إلى ما دوَّنتُ في مذكراتي اليومية من خواطر. وكان ليناير من دون الشهور نوطة شديدة بالقلب وأثر بالغ في الذاكرة؛ فوقع في نفسي وأنا أهم بالكتابة فيما أوحاه إليَّ أسبوعه الثاني، أن أتصفح مذكراتي لأقرأ ما كتبته فيه سنة من السنين.

فتناولت جزءاً من أجزائها المتروكة وفتحته على موضوع هذا الشهر منه فإذا بي أقرأ في يومه الرابع عشر ما أنقله إليك بحرفه:

يوم الجمعة 14 يناير سنة 1938

في مثل هذا اليوم من سنة 1932 وُلد لي ولدان: طفل وكتاب. اذكر هذا كل الذكر، لأنني في ذلك اليوم المقرور عدت في مُتوع الضحى من دار المعلمين بالكرخ إلى داري بالرصافة، فلزمتها جالساً أمام المدفأة الموقدة أكتب الفصل الأخير من كتابي؛ (العراق كما رأيته). ثم جاءني النبأ من مصر بعد ذلك بأن (رجاء) ولد في هذا اليوم نفسه. وكان طفلي وكتابي أعز شيء عليّ؛ لأن ابن نفسي كان نتيجة أربعين سنة من خير عمري، وأبن فكري كان نتيجة ثلاث سنين من خير عملي

أجل، قضيت ثلاث سنين في تأليف (العراق كما رأيته)! جمعت مادته من الآثار والأسفار والأساطير والكتب والمناظر والأحاديث في سنتين، ثم حررته وأنشأته ببغداد في سنة؛ فلم أكتب منه في القاهرة إلا رحلتي إلى كردستان والموصل وجبال عبدة الشيطان، وإلا عودتي إلى سورية عن طريق دير الزور وحلب. ثم وجهت عزيمتي إلى نشره فهيأته للطبع وتربصت به مواتاة الفرصة. ولكن اثاقلت حتى وفد إلى مصر صديق من رجالات العراق له بصر وخطر، فرغب أن يقرأ فيه ما كتبت عن بعض الناس وما علقت على بعض الحوادث، فحملته إليه في (الكنتننتال) فحبس نفسه عليه نصف نهار لم يبرح فيه الفندق. ثم رده إلى في المساء وهو يقول في سمته الرزين ومنطقه المتئد: (أشهد أن كتابك أول ما كتب عن العراق في صراحة ولباقة وإخلاص وصدق. ولقد طويت عني ما قلته فيَّ، ولكنني بعد أن قرأت ما قلته في غيري أكاد أعرفه بالاستنتاج والحدس. ولعل من الخير لنا ولك أن تؤخر نشر القسم السياسي منه إلى حين. إما قسمه الأدبي والاجتماعي فستكثر حولهما الأحاديث، ولكنهما في الأدب والنقد والتاريخ نصر وفتح) نزلت على رأي الصديق العظيم وعدت بالمخطوط الغالي إلى موضعه من المكتب. ثم أعلنت أني سأنشر بعض صوره الأدبية في (الرسالة)، وقد نشرت بالفعل منه فيها صورتين أو ثلاثاً رقَّت لها الآذان وأصغت إليها الأفئدة

ولكني وا أسفاه! لم يعد للطفل الحبيب نفَس ينسم على نفسي ببرد الجنة، ولم يبق من الكتاب العزيز سطر يشعب فؤادي بذكرى العراق!

وا لهفتاه على ولدي الذي أبدعه الله، وعلى أخيه الذي أبدعته! جاءا معاً في الشتاء، فلم أجد لوجودهما برداً ولا عبوساً ولا كآبة؛ وذهبا معاً في الربيع، فلم أحس لفقدهما دفئاً ولا طلاقة ولا بهجة. أودي بهما القدر العابث خداعاً وغيلة، فسلب العين الكلوء ريبة الحذر، وجرد الدفاع اليقظ من فرصة الحيلة. دب للطفل الموت الوحيُّ في وعكة خفيفة من البرد ظنها الطبيب زكاماً عارضاً فإذا هي الخناق القاتل. ومشى للكتاب القدر المحتوم في ركام من الورق المتروك فذهب به خلسة إلى النار المبيدة!

أخذت ذلك الكتاب ذات يوم من درج المكتب لأختار منه فصلاً للرسالة، ثم جلست في البهو على كنبةٍ بعثرت من فوقها وأمامها تجارب المجلة وأصول المقالات، فاخترت من المخطوط قطعة أدبية ثم ألقيته إلى جانبي، وأخذت أصحح (الملازم) وأطرح (الأصول) حتى فرغت من ملزمتين فدفعتهما إلى غلام المطبعة، وخرجت من البهو لا في يدي ولا في جيبي لأترك هذا الورق المهمل لخادم البيت تكنسه من هنا وهنا، ثم تطرحه على عادتها كل يوم في صندوق الكناسة، ويأتي الزبال فيأخذ ما تجمع في الصندوق ويحمله على عادته كل يوم في زنبيله إلى المستوقد!

وهكذا قضى الله أن تذهب إلى العدم خلاصة العمر وعصارة الفكر في فترة ضائعة من فترات الغفلة! وهيهات أن يكون لهما في الحياة عوض، فإن الفلذة إذا اقتطعت من

الجسم لا ترجع إليه ولا تتجدد فيه، وسحر المنظر الجديد لا يتكرر أثره في نفس زائره ومجتليه
حولت بصري عن الصفحة ثم أطرقته. ولجّ بي الإطراق والاستغراق حتى سقط الدفتر من يدي، وتلاشى الحاضر من نفسي، ووثب الماضي إلى خاطري، ووقفت أما الفاجعتين وجهاً
لوجه، فكأنما لبث من الزمن واقفاً حيث كان، وظل الجرح نازفاً حيث طُعن، وبقى القلب واقداً حيث اشتعل؛ وكأنما أسلمني كل ضعف إلى الجزع، وخذلتني كل قوة حتى الأيمان!
تفصد جبيني بالعرق، ثم أخضل جفني بالدموع، فأخذت نفسي تثوب رويداً إليّ، وتحركت يدي في فتور فتناولت الدفتر ثم جعلت أصحفه، فعثرت في ثناياه على ورقة بالية من مسودات كتابي الفقيد؛ فنشرتها بين يدي ثم أقبلت على قراءتها لهيف القلب زائغ البصر فقرأت:
هذه القهوة الصّحيانة التي رقدت على صدر دجلة النابض، واستغرقت في الدفء . . .) والضوء والسكون، كانت أحب القهوات إلى القلب العميد والخيال الشاعر. وكنت كثيراً
ما أغشاها بُعيد الغداء فأجد جماعة أو جماعتين يلعبون الورق هنا، وفتى أو فتيين يتساقطان الحديث هناك، وبائع (الأبيض والبيض والعَنْبا) يسرق خطاه بين هؤلاء وأولئك
فيذكر بندائه الخافت البطون التي شغلها عن طلب الطعام سكرة القمار أو نشوة المنادمة، فأجعل ظهري إلى أحلاس القهوة، ووجهي إلى وجه دجلة، وعيني إلى جسر مود، ثم أشاهد فلماً عجيب الألوان من الناس والأجناس والصور: فهذا قطيع من الغنم يعبر إلى جسر المجزرة في حمى راعيه، وهو مستسلم لصوته ومنقاد لعصاه استسلام الأمة للطاغية يقودها إلى الحرب، وانقياد الخليقة للقدر يسوقها إلى الموت! وهذا الملك فيصل يعود من قصر العرش إلى قصر الزهور من غير حرس ولا جلبة، فيقف في غمرة الناس على فم الجسر ينتظر أن يعبر القطيع وراعيه! وهنالك تلاقى راع وراع، وتقابل قطيع وقطيع! ولكل إنسان في دنياه مملكة ينفذ فيها حكمه، ودائرة ثم حاولت أن أقرأ بقية الورقة الذابلة الحائلة فلم استطع (. . .ينعقد عليها افقه!
احمد حسن الزيات
فكاهات الحرب
للأستاذ عباس محمود العقاد
الجد ضد الهزل والعبث، ولكنه ليس بضد للفكاهة وملكة السخرية، بل لعله يثيرهما في النفس ويدعو إليهما
فأنت تستغرب استغراب الإنكار والازدراء إذا رأيت رجلاً يهزل ويعبث وهو يواجه الشدة ويقف في الموقف الذي يتطلب العمل والجهد والهمة، ولكنك لا تستغرب هذا الاستغراب إذا رأيته يواجه الشدائد وهو يستخف بها ويتخذ منها موضعاً للفكاهة والسخرية، بل تحمد منه هذه الفكاهة وتعدها ضرباً من القوة والشجاعة، لأن العبث بالجد يفسده ويضعف النفس عن احتماله؛ أما الفكاهة مع الجد فهي معوان عليه ولا شك في أن سليقة الفكاهة مصرف للنفس الإنسانية وعصمة لها وحافز على النهوض بما يثقل عليها من أوقارها
ولهذا تروج النكات و (القفشات) في إبان الحروب والمصاعب. وتعد (النكتة) امتحاناً لطبائع الأمم وعقولها في هذه الأحوال، فلا تجفل من الخطب أمة تستطيع أن تواجهه وهي باسمة، ولا تبتسم الأمة للخطب إلا وعندها قدرة على النهوض به والتصرف فيه وسننقل في هذا المقال بعض الفكاهات التي أسفرت عنها الحرب الحاضرة، ثم نعقب عليها بعض التعقيب الذي يخلق بطائفة من المصريين أن يلتفتوا إليه
تحدث الألمان والروس كثيراً بالحرب الخاطفة أو بضربة البرق العاجلة كما يسمونها بها اكتساب النصر في معركة حاسمة سريعة
فزعم الراوية أن إنجليزياً يسال صاحبه ما هي الضربة الخاطفة؟
فيجيبه الصاحب: إنها هي الضربة التي لا تقع مرتين في مكان واحد
فيصمت السائل قليلاً ثم يقول مصححاً!!. . . يخيل إلى يا صاح أنها شيء أسرع من ذلك: يخيل إلي أنها هي الضربة التي لا تقع مرة واحدة في مكان واحد!
والمعروف عن مولوتوف الوزير الروسي أنه تمتمام يتلعثم في كلامه. فذكره أحد

السامعين له في المذياع لصديقه وهو يقول: أليس بعجيب أن يتكلم هذا التمتمام أمس ربع ساعة ولا يتلعثم مرة واحدة؟
قال الصديق: كلا! لأنه كان يكذب!
ويعرف بعض القراء تمثال الحقيقة وهو على صورة فتاة رزان تحمل مصباحاً وتستقبل السماء بوجه وقور
فنشرت إحدى الصحف هذا التمثال منكساً وقد أخذ بقدميه على الجانبين كل من مولوتوف وجوبلز وهما يقولان:
هذه هي الحقيقة. . . أليست هي بعينها؟
واشتهر جورنج بحب الألقاب حتى ما كاد يرى إلا وعلى صدره صفوف منها يغيرها بين ساعة وساعة
فزعم الراوية أنه قد بات يخشى أن يأتي بعد اليوم بعمل مجيد يستحق من أجله نوطاً من أنواط الفخار
لأنه إذا استحق هذا النوط لم يجد لتعليقه إلا موضعاً واحداً من كسوته
وعندئذ لا يستطيع الجلوس على كرسيه
وقيل إنه مات فأصبح مستريحاً في قبره، لأنه يحب أن يشعر بشيء على صدره!
وقيل إنه ذهب في زيارة إلى مستشفى المجانين فبدا له أن واحداً منهم لم يكترث له ولم يتحرك لوجوده، فأقترب منه وسأله: ألا تعرفني؟
فأجاب المجنون: كلا!
قال: أنا هرمان جورنج
فظل المجنون على قلة اكتراثه كما كان قبل أن يتحدث إليه (الماريشال العظيم)
وكأنما على وجهه علامة استفهام إلى جانب علامة الاستفهام الأولى
فعاد الماريشال العظيم يقول: هلم، هلم، هلم يا صاح! كيف لا تعرف هرمان جورنج رئيس الوزارة البروسية؟
فلم تنقص علامتا الاستفهام على وجه المجنون بل زادتا واحدة جديدة
ومضى الماريشال العظيم يقول: جورنج وزير الطيران!
والمجنون صامت ينظر
ثم يقول الماريشال العظيم: جورنج يا هذا رئيس مجلس الريشستاج!
والمجنون في صمته وقلقه وقلة اكتراثه
ثم يقول الماريشال العظيم: جورنج يا هذا. . . جورنج!. . . ألا تعرف جورنج الصياد الأشهر؟
عندئذ يتجاوز الأمر حد الاحتمال في رأي المجنون، فينصرف مشفقاً وهو يردد بين شفتيه:
. . .مسكين!. . هكذا يبدأ الحال معنا جميعاً في هذا المكان
ويعلم القراء أن ريبنتورب كان يتجر بالشمبانيا والخمور قبل ولايته الوزارة
فكتب أحد الناظمين تحت صورته: هذا هو ريبنتروب، هذا هو صانع المعاهدات الآن
صانع الشمبانيا من قبل. ولكن لا يعلم أحد أيهما ينطلق فقاقيع في قوارير، وأيهما يسيح بغير صوت!
وصاح المذيع النازي في إحدى الليالي بعد الإشارة إلى ما يقال عن نقض هتلر لمواثيقه:
زعيمنا يا قوم لم يتعود قط أن يكسر كلمة من كلماته
فنشرت صحيفة إنجليزية هذه الإذاعة في اليوم التالي وأضافت إليها هذا الكلمات:
(نعم. . . لأن الكسر من خواص المادة نفسها)
وقال هتلر لجورنج عن عرض الصلح:
حسن. . . إذن سأعرض بطاقاتي على المائدة
فأطرق جورنج قائلاً: ليتها بطاقات طعام!
وشاع بين الألمان أن هتلر لا يرى الحقيقة على جليتها فيما يجري من شؤون الحرب والسياسة. فقال القائلون: نعم. يجب أن يتنحى جورنج قليلاً!. . .
وكتبت صحيفة فرنسية بعد غارات الشيوعيين أو الجنود الحمر على شواطئ البحر البلطي، تسأل الجغرافيين: أيصبح البحر الأحمر؟!

وللقريب نصيب وافر من فكاهات الصحفيين الذين لا يشفع لديهم فيه أنه يجيز هذه الفكاهات
ونجتزئ منها بالأبيات التي كتبها ناظم هجاء على (ضريح الرقيب المجهول) قال:
هنا يرقد في النهاية رقيب ثار عليه الصحفيون المحنقون فنام محشواً برصاص مثل) الرصاص الذي لا ينفذ. . . ولعله - والله اعلم - قد تنبه بعد الرقاد فمر على اسمه بذلك (القلم المعهود
تلك نماذج متفرقة من (القفشات) الحربية التي تروج هذه الأيام في البيئات الإنجليزية والفرنسية، وهي كما يرى القارئ على نسق يوشك أن ينتظم في سلك القفشات التي ألفناها من جماعة (أبناء البلد) في هذا الديار، لولا ما يلاحظ على أغلبها من قلة اللعب بالألفاظ وكثرة الاتجاه إلى اللباب
والطائفة التي نود أن نستخرج من هذه القفشات مغزاها الذي هي في حاجة إليه هي طائفة (أبناء البلد) نفسها
لأن الذهن الذي تعودنا أن نسميه بالذهن (البلدي) مصاب بآفة تحجب عنه الكثير من حقائق الدنيا، وهي آفة النظر إلى الأشياء على وجه واحد وصورة واحدة. فإذا ألف أن يقرئ الناس السلام بأسلوب متواتر وألفاظ محفوظة فمن الإخلال بالذوق عنده أن تبدل لفظاً من تلك التحية أو تجريها مرة واحدة على خلاف ذلك الأسلوب
وإذا ألف أن يسمع (القفش) والضحك في مجلس من المجالس وعلى هيئة من الهيئات فليس في وسعه أن يتخيل (تنكيتاً) يدور في غير ذلك المجلس وعلى غير تلك الهيئة وبين أناس غير أولئك الناس
ولعل أكثرهم يفغر فاه من الدهش إذا قيل له أن الأوربيين (يدخلون قافية) كما يفغره دهشاً لو رأى خارقة من خوارق الطبيعة وانقلاباً في أوضاع الحياة، وسمع الخرس ينطقون والعجم يعربون
وإنها لآفة (ذهنية) لا ضير منها على الأمم التي يجهلونها ولا يفهمونها، ولكن الضير الأكبر منها على من يحرمون نعمة النظر الصحيح إلى حقائق الوجود
عباس محمود العقاد
تلك أيام خلت
للدكتور زكي مبارك
في الكلمة الماضية دونت بعض ما ربحت وبعض ما خسرت؛ وسأقصر كلمة اليوم على التنويه بأمور ينفعني النظر فيها من وقت إلى وقت، فأن صح أني قليل الاعتبار بحوادث الأيام، فقد يكون في القراء من ينتفع بالعبرة التي يسوقها هذا الحديث. وآفة الأدب في بلادنا أن الأدباء لا يتحدثون عن عيوبهم إلا قليلاً، وهذا التحرز من سرد العيوب قد يوهم فريقاً من القراء بأن الأدباء تعصمهم مواهبهم من الوقوع في الأغلاط والهفوات. ولو أنهم عرفوا أن الأديب يخطئ ويصيب كسائر الناس، لأدركوا أن التفوق في الأدب ميسور لكل من يتوجه إليه، وهو مزودٌ بقوة العزيمة، ورجاحة العقل، وصدق الوجدان.
فما الذي فاتني من الفوز والنصر في السنة الماضية حتى أرجع على نفسي باللوم والتثريب؟
أعتقد أني ضيعت على قلمي فرصاً لن تعود: كنت في العام الماضي مرهف الإحساس، ولكن قلمي لم يستفد من ذلك.
والكاتب المخلص لفنه لا يترك عواطفه تتبخر وتضيع، وإنما يسارع إلى الاستفادة من فورتها، فيكتب وهو مشبوب القلب ليستطيع السيطرة على القلوب. . .
وما أقول: إني انصرفت عن مصاولة الأزمات الوجدانية، فقراء (الرسالة) يذكرون أني كنت أواجههم بهذه الشؤون من حين إلى حين، ولكني أعترف بأني ظلمت نفسي أقبح الظلم حين تغافلت عن تسجيل ما كان يثور في صدري من العواطف في بعض الأحايين.
حدثني الأستاذ الزيات قال: إن بعض القراء لا يستريحون إلى بعض ما تكتب في الشؤون الوجدانية، وإن من الخير لمن كان في مثل مركزك أن يقف عند حدود الأدب الرزين!
و (بعض القراء) هم المشايخ الذين يسمرون في نادي (الرسالة)، ليجادلوا الزيات فيما

يباح وما لا يباح من المذاهب والآراء، وفيهم من لا يرضى عن كاتب مثلي إلا إن شغل نفسه بشرح (دلائل الخيرات)!

والحق أني راعيت رأي هذا الصديق بعض المراعاة، والزيات صديقٌ أمين، والانتفاع برأيه من أوجب الفروض، ولكن كيف كانت العواقب؟

أضعت على نفسي وعلى (الرسالة) فرصاً لن تعود. . . وهل أملك ردّ العواطف التي ثارت ثم خمدت في تباريح السنة الماضية؟

ولن يردها أسفٌ ولا بكاء (تلك أيامٌ خلت)!

إذا صح أني مفطور على إحساس الفرح والحزن في الحياة، وإذا صح أني أقوى ما أكون حين أفرح أو حين أحزن، فكيف يضيق صدر وطني وزمني عن سماع سجعاتي وزفراتي؟ وبأي حق يحرم عليَّ ما يباح للشعراء في جميع البلاد؟

وهل تصدقون أن الناس يكرهون حقيقةً أن تحدثهم عن أزمات الأفئدة والقلوب؟

وهل صدق الأستاذ فكري أباظه حين حدّث الناس عن طريق المذياع باندهاشه من أن يسمع أغاني الهجر والوصل والدنيا في حرب؟

وهل تظنون أن هذا الخطيب يقضي أيام الحرب في التخشّع والقنوت أمام المحراب؟ الدنيا في حرب، وسيعقب الحرب سلامٌ بعد عام أو عامين، ولكنكم تنسون أن الشاعر يعاني حرباً لا يصد شرها عنه غير الموت، إن صح الموت يريح أرواح الشعراء من البلاء بالتفكير في أسرار الوجود

وما الذي يوجب الخضوع للأفكار العاتية التي تتوهم أن الحرب تقدر على زلزلة السريرة الإنسانية؟

الحرب تستطيع أن تصنع بالسريرة الإنسانية ما تصنع العواصف بأمواج المحيط، فهي تقلقل المنافع من وقت إلى وقت، ولكنها تعجز عن اقتلاع ما في السرائر من جذور الحب والبغض والهدى والضلال

والشاعر ينظر إلى من حوله من الناس نظرات مختلفات: فيرى بكاءهم مرةً كبكاء أطفال، ويراه مرةً زئير اسود. فالطفل لا يذكر من الحرب غير تنقل (التسعيرة) من وضع إلى وضع، ويكون مثله مثل الطباخ الذي انزعج لارتفاع أسعار القطن لأنه رأى ذلك نذيراً بارتفاع أسعار الزيت!

أما الرجل - والشاعر الحق هو الرجل الحق - فيرى أن الحرب لا تكون سيئة العواقب إلا أن استطاعت بفواجعها أن تقتلع من السريرة الإنسانية جذور الإحساس بمعاني الحياة.

وهل في الحياة معانٍ أشرف وأفضل من الحرص والشره والطمع في أنتهاب أطايب الوجود؟

شغلت نفسي مرةً بتأريخ ملاهي الحي اللاتيني في باريس، فجمعت أكثر من خمسين كتاباً تحدث مؤلفوها عن ملاهي ذلك الحي، ثم راعني أن ألاحظ أن تلك المؤلفات كتبت قبل الحرب العالمية، فعرفت أن الباريسيين بعد تلك الحرب فقدوا شعورهم بتذوق الحياة فلم يعودوا يهتمون بتسجيل ما يصادفهم من النعيم في ذلك الحي البهيج فإن استطاعت الحرب الحاضرة أن تشغلنا عن أحاديث الهجر والوصل فسيكون معنى ذلك أننا صرنا أطفالاً ضعافاً لا يهمهم من الدنيا غير اعتدال أسعار (اللّعب والصواريخ)!

أقول هذا وفي مكتبي مقال لم يسمح بنشره الأستاذ الزيات، لأنه خشي أن يفتح لخصومي باب الأقاويل والأراجيف، وهو مقال سجلت فيه إحساسي بفراغ شارع فؤاد من أقدام الملاح يوم تجربة الغارة الجوية. فهل من الحق أن الحرب رجت مصر رجةً تذهب بما يملك شعراؤها من عواطف وأحاسيس؟

وهل من الحق أن أهل مصر لم يعودوا يأنسون بغير حديث البقول؟

أعترف بأني توجعت مرة على صفحات الرسالة من غلاء الورق، وذلك توجُّع مشرِّف، لأن الأمة التي تشكو غلاء الورق هي الأمة التي تُعزّ الأفكار والعقول، وكل شيء في دنيانا من الكماليات إلا الورق فهو عندنا من الضروريات، والمصري المثقف قد يكتفي بالقليل من القوت، ولكنه لا يستغني أبداً عن زاده من الحبر والورق

ونحن قومٌ آذتنا الظروف الدولية أقبح الإيذاء. فليس لنا من السيطرة الاقتصادية أو الحربية ما للأمم الديمقراطية أو الدكتاتورية، ولكن لنا مع ذلك سيطرة عقلية نصول بها في أقطار الشرق.

ولو شئت لقلت أننا نملك من هداية الشرق ما لا يملك الإنجليز والفرنسيس والألمان، ولهذه الدولة الروحية سلطانٌ يحسدنا عليه من يملكون في تصريف السلم والحرب ما لا نملك، فليس من العجيب أن نشكو غلاء الورق في زمن لا يشكو فيه المسيطرون غير غلاء القوت

والشرق ينتظر أن نحدثه عن نفسه بما لا يعرف

فكيف يغيب عنا أن من الواجب أن نكون أفصح من يذيع في الشرق أحاديث السريرة الإنسانية؟

استيقظوا، أيها الغافلون، واعلموا أنكم لن تكونوا شيئاً مذكوراً إلا إذا استطعتم أن تشغلوا الشرق عما في الغرب من ألحان وأغاريد

هل فكر واحد منكم فيما عرف الشرقيون من الآداب الفرنسية والإنجليزية؟ وهل خطر في بالكم أن الأقطار الهندية والأفغانية والإيرانية أقواماً يقرؤون عن العقول الفرنسية والإنجليزية أضعاف ما يقرؤون عن العقول المصرية؟ وهذا يقع مع أن مصر في هذا العهد تستطيع أن تكون قيثارة ترجِّع ألحان السماء لو تركت التزمت الممقوت الذي يفرض التغاضي عن أحاديث القلب والوجدان

سألني أحد الأصدقاء منذ أيام عن الظروف التي ألفيت فيها كتاب التصوف الإسلامي وهو يتوهم أنني لم أذق قطرة من رحيق التصوف، فقلت: ذلك كتابٌ زكّيتُ به عن قلبي. فقال: وهل على القلب زكاة؟

فقلت: آفة الآفات أن تظن أن الزكاة لا تجب على القلوب

والأحاديث الوجدانية التي أهتف بها من حين إلى حين هي نفحة من نفحات التصوف، فكيف يراها بعض القراء من مظاهر الفتون؟ وكيف يرى صديقي الزيات أن نشرها يقوى حجة خصومي واعدائي؟

بل كيف استبحت ظلم نفسي فلم اهجر مجلة الرسالة لأتحدث عن فؤادي بما أشاء؟

تلك أيامٌ خلت! فمتى أرجع إلى مناجاة أو ما هي وأحلامي؟

إن الحديث عن الظواهر لا يحتاج إلى عبقرية، أما الحديث عن ضمائر النفوس وسرائر القلوب فلا ينهض به غير أفذاذ الشعراء. فمتى أجد آذاناً تطرب لأسجاع الروح المفتون بتهاويل الوجود؟ ومتى أجد قلباً يسمع وسواس قلبي؟ ومتى أجد روحاً يأنس بغناء روحي؟

هل سمعتم بما صنعت وما تصنع مشيخة الأزهر؟

هي تستعدي الحكومة المصرية على كل من يطبع كتاباً دينّياً تقع فيه غلطة نحوية أو صرفية أو إملائية!

فهل علمتم في يقظة أو في حلم أن مشيخة الأزهر شغلت نفسها بطبع طائفة من الكتب الدينية؟

كذلك يصنع معي خصومي واعدائي، فلا هم يؤدّون زكاة القلوب، ولا هم يسكتون عمن يؤدي زكاة القلوب

زرت السيد آل كاشف الغطاء في النجف على غير معرفة فقال: من أي بلد قدمت أيها السيد؟ فقلت: قدمت من وطن أبن الفارض. فقال: وطن الذي يقول:

كل من في حماك يهواك لكن ... أنا وحدي بكل من في حماكا

فقلت: بل وطن الذي يقول:

أنت ورد فَهَب محبَّك شوكاً ... أترى الوردَ عاش من غير شوكِ

فإن كنتُ من الشوك فلا بأس، فالورود لا تعيش إلا في حماية الأشواك، والروح اللطيف لا يعيش إلا في قفص من الجسم الكثيف

وسمعت في الأيام الأخيرة أن إحدى المجلات تنوشني منذ أسابيع فرفضت الاطلاع على تلك المجلة لأني أخشى أن تروضني على الشراسة والحقد، وأنا أحب مسالمة الناس لأفرغ لمحاربة قلبي، القلب الجامح الذي يقهرني على الوفاء لأقوام لا يعرفون معنى الوفاء

ثم ماذا؟ سأتحدث في الأسبوع المقبل عن لواعج وشجون يضيق عنها حديث اليوم

زكي مبارك

ذريني. . .!

للأستاذ كامل محمود حبيب

ورأيت النار فلم أر منظر كاليوم قط أفظع، ورأيت . . .)
أكثر أهلها من النساء). قيل: بم يا رسول الله؟ قال: (بكفرهن).
قيل: أيكفرن بالله؟ قال: (يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان. لو
أحسنت إلى إحداهن الدهر كله، ثم رأيت منك شيئاً؛ قالت: ما
رأيت منك خيراً قط)
حديث شريف
ذريني أطِر بين فلجأت الأرض ومصّلات السماء، أستشف بهاء الحياة وجمالها!
ذريني أحطم الأغلال الثقال التي أرسف فيها، لأفر من هذا السجن الأسود، أتنسم روح
الحياة والحرية!
ذريني أنحلل من هذا العبء الفادح، فلقد آدنى، فما عدت أطيقه!. . .
ذريني أر الدنيا، فلقد وجدت فقدها بين طيّات نفسي الوثّابة!
يا عجباً! لقد جفّ قلبي وذوت سعادتي!
فهذا هو القمر يتألق في السماء، والأرض نائمة في سكون، وأنا أرمقه من خلال
همومي، فلا أحس فيه الجمال ولا المتعة. . .
وتنفّس الفجر، فما لمست في نسماته النديّة بَرْدَ الراحة ولا نشوة اللذة. . .
وافترّ ثغر المشرق عن ابسامة الشمس، وأنا - وحدي - جاثم على نشز لا أستبشر
بسماتها. . .
وإن الروض ليضحك، فما أرى في ضحكاته سوى فنون من الكآبة والحزن. . .
وإن الغدير ليعزف على قيثارة لحن الخلود الشجي، فما تتطرب له نفسي. . .
يا عجباً! أفكل هذا لأنك - أيتها المرأة - إلى جانبي تنفثين فيّ روح الشر؟
أيتها المرأة، لطالما فوّقت إلى قلبي سهامك المراشة، فاضطرم بالهوى وتلهب
بالشوق.
والآن ها هو ذا قد شاط بينها فما عاد قلباً، ولكن مضغة لا تتحرك.
ولطالما سهرتُ أُناجيك - وأنتِ في منأى عني - والآن هدّني الإعياء؛ فذريني أقذف
بأعبائي جانباً، لأتوسّد ذراعي على الحصا، في ظلال شجرة وارفة، إلى جانب غدير،
تسكرني نسمات الربيع الهينة، فتستمتع نفسي بحنان الطبيعة وهدوء الكرى
ولطالما أوحى اليّ شيطاني أنك أنت فوق البشرية، أنك بسمة الخالق على الأرض
الحزينة، فماذا. . . ماذا رأيتُ الآن؟
ولطالما استلهمتُ منك جمال الفن، ورسمتك بريشة الخيال في أضعاف قلبي، ثم
لمستكِ، فماذا. . . ماذا وجدتُ؟
أفحقاً أنكِ أنتِ مادة الشاعر حين يتغنى بكلمات تتدفق النشوة واللذة من خلالها؟
أفحقاً أنكِ أنت ريشة المصور التي تعبث بالألوان فإذا هي حياة؟
أفحقاً أنكِ أنتِ لحن الموسيقى السماوي حين يُداعب أوتار قيثارة فتتحدث عن خلجات
القلوب؟
أفحقاً أنكِ أنتِ لمعة الحياة إن شمل الكون ظلام الموت؟
كلا. . . كلا! إنه هو خيال الرجل يُضفيه عليك - حيناً بعد حين - فيبعث فيك الكبرياء
البغيضة، ويسمو بك إلى آفاقه هو، في حين أنك أنتِ. . .
كان هذا خيالي حين استهوتني شياطينك فتمنيتُ. . . ولما خبرتك فزعتُ عنك، لا أطمع
في حديث، ولا أرنو إلى لقيا
ليت هذا الرجل يعلم. . . ليته يعلم أنك قد مرنتِ على الختل والخداع، ودَربتِ على
الشغب والمكيدة، وأحببتِ نفسك فشغلتك فألهتك عن أن تكوني امرأة لرجل، ونزت
بك نزوات الكبرياء فذهبتِ تفزعين من أنوثتك الوضيعة. . . ذهبت تفزعين منها لتكوني
بدعاً في الرجال!
إنني أفرق من جمالك وقبحك، وأفزع من ابتساماتك وعبراتك، وأخاف رضاك
وسُخطك، وأجزع من عطفك ومقتك، وارهب صحبتك وفراقك. . . فماذا. . . ماذا بقى
فيك أطمئن إليه؟
هذه الدار الهادئة قد ملئت بك ضجة تحطم فيّ خواطري الجميلة
وهذا القلب الشاب النديّ قد استشعر الوهن حين مسحت بجمالك على شغافه
وهذه الحياة الوضاءة قد أظلمت حين أشرقتِ في جنباتها

فذريني. . . ذريني - أيتها المرأة - أفتش عن شباب قلبي!
ذريني. . ذريني، يا شقّاء القلب!
ولكن، آه، أين منك الخلاص؟
إن شيطانك ما يفتأ يلاحقني، فإذا أعجزه أن يسيطر عليّ في يقظتي، تبدّى لي، بين أحلامي، في زينته الجذابة
وهذا الجمال الذي تتقزّز منه نفسي لأني أنفذ إلى حقيقته القبيحة، يتراءى لي - في منامي - في صفاء قطرة الندى على الزهرة البيضاء النضيرة، فيأسرني رويداً رويداً
وهذه النظرات التي أرى من خلالها الدَّغل والشر والرياء جميعاً، تنفذ إلى قلب أحلامي فتستخرج أضغان صدري
وهذا القد المضطرب المتكسر يهفو إليّ فيما يرى النائم حلواً يميس في خطرات النسيم بين رؤى نومي
وهذه المرأة التي أنبذها، تسعى إليّ - دائماً - حين يأخذ بنفسي الكرى. . . تسعى لتضمني إليها، خشية أن أفلت منها ومن متاعبها في وقت معاً
ولكن. . . ولكن ذريني، يا شقاء القلب!
آه، لقد طرحتك، أيتها المرأة، فلا أحس بالعطف عليك، وفررتُ منك فلا أحن إليك، وصدفت عنك فلا أصبو إليك، وطرت عنك فلا أسقط عليك. . .
ولكن كيف؟ وقلبي ما يزال يتصدع عن ثغرة يتوثب منها الهوى والحنان، لأن روح الأبوة تتأجج في أعماق قلبي فتسلبني الهدوء والاستقرار
فأين أجد أبني؟. . . وهو جمال الحياة، وبهجة القلب، وفرحة النفس، وزهرة الدار، وشبابي اللمّاع حين يوشك أن يَنْبَتَّ حبل العمر. . .
وا حسرتا! إنني لن أجده إلا فيك. . . فيك أنت أيتها البغيضة!
ويا بني، لست في غنى عنك، فأنا أجد في نأيك فراغ الحياة، وظلام العيش، ووحشة الطريق. . .
فتعال. . . تعال إلى - يا بنِّي - علِّي أجد فيك صورة من طفولتي الجميلة المرحة، أو أجد سعادتي المفقودة. . . حين أجد أبني!
كامل محمود حبيب
النَّاي
(هذه الأغنية منظومة على بحرين مختلفين رغبة في تنويع مجرى النغم، والبحر الأول وضعه الشاعر، وأجزاؤه: فاعلاتن مفاعلتن (مرتين)، وليكن أسمه: المنطق. وأما البحر الثاني فمن البحور المعرفة.)
جَنِّبوا النَّايَ عن أُذُني ... أُذُني زُلْزِلَتْ طَرَبا
مِثْلَ قَلْبٍ تُحَدِّثُهُ ... سَرَّهُ السَّرْدُ فاضطرَبا
أَوْتارُ الخاطِرِ تَغمِزُها ... أَنَّاتُ الناي فَتَرْتجِفُ
فَيَضِجُّ الجَنبُ بِأغنيَةٍ ... حمراَء قَرارَتُها التَّلَفُ
نَغمٌ جاء يَفْتِكُ بي ... ذاعَ في السَّمعِ مُصطَخِباً
مِثْلَ دَمْعٍ يُغالِبُني ... دارَ في العَيْنِ مُلْتهِبا
عَطَفاتُ الناي مُصَعَّدَةً ... في الليل صُلوعاً تَنقصِفُ
صبَواتُ الرُّوحِ يُطوِّحها ... في اليومِ العابسِ مُلتهِفُ
القاهرة، مايو 1934
بشر فارس
صفحة مجيدة من تاريخ المسرح المصري
عبد الرحمن رشدي وأثره في تاريخ المسرح المصري
للأستاذ زكي طليمات
(نص الكلمة التي ألقاها الأستاذ زكي طليمات مفتش شئون التمثيل بوزارة المعارف في حفلة التأبين التي أقيمت بدار الأوبرا الملكية يوم 4 فبراير سنة 940 برياسة معالي وزير المعارف أحياء لذكرى مرور أربعين يوماً على وفاة الممثل الكبير الأستاذ عبد الرحمن رشدي المحامي.)

في هذا المكان وعلى هذا المَمْثل، منذ نيف وسبعة وعشرين عاماً خلت وقف شاب غض الإهاب، فياض القوة، في عينيه بريق، وفي صوته فورة العزيمة وعناد التصميم، تلطف نبراتها حلاوة الحلم الممتع. وقف هذا الشاب في ثياب الممثل يؤثر ويبهر، فحط تاريخ التمثيل العربي الناشئ صفحة المجد الأولى، وأشرق على المسرح المصري فجر وردي جديد

وقف هذا الشاب يمثل، وارتفع الصوت الجهير في رنين أجراس الذهب، فجاوبته صيحات مدوّية منكرة، هي أشبه شئ بصوت انهيار الأنقاض وتصدع الجدران. ذلك لأن العرف المصري الجاري في ذلك الوقت أصيب في أعشاره، وتصدعت منه دعامة قوية شامخة

هذا الشاب هو (عبد الرحمن رشدي) الذي ترك حلبة المحكمة إلى خشبه المسرح، ونضا عنه حُلّة المحامي ليلبس حُلّة الممثل، وهجر عالم القضاء ودنيا الوظائف الحكومية إلى عالم التمثيل ومستراد المرئيات ومجال والوهم المجسم، وزهد فيما كان ينتظره من شارات الشرف في عالم القضاء من أجل تيجان من الورق، وأسمه من الصفيح، وسيوف من المعدن الزائف. . .

أتى كل هذا طائعاً مختاراً وهو في تمام عقله وكامل صحوه، وافتدى صحو العيش بكدره. . . وحياة المسرح في مصر أكدار ومآسٍ. أتى ذلك لأن هاتفا خفياً أهاب به في الساعة التي

ترسم الأقدار فيها رجالها وتختارهم للقيام بأعظم الأحداث وجلائل الأمور

أجل أيها السادة، كان احتراف عبد الرحمن رشدي التمثيل في ذلك العهد حَدَثاً من الأحداث الاجتماعية في مصر

ولماذا. . .؟

كان المسرح المصري يرقى الدرج الأول من مرحلة جديدة. كان يحاول متطوحاً فيها أن يستخلص لذاتيته طابعاً جدياً يمت إلى الفن الخالص من حيث فن التمثيل وإخراج الرواية، بعد أن مهد له (سلامة حجازي) و (عزيز عيد) سبيل ذلك بقدر ما وسعه علمهما وسمح به زمانهما. وكان العاملون في المسرح رجالاً ونساء، أخلاطاً سقيمة ممن خفت حمولتهم في التعليم والتهذيب والتثقيف، ولا أقول من حسن الاستعداد وخصب الموهبة. وكانت كثرتهم الغالبة، ما عدا النذر اليسير الذي لا يؤبه له، ممن تقطعت بهم أسباب العيش عن طريق احتراف المهن المألوفة. وكان الجمهور من أجل ذلك يرمق المسرح المصري والمشتغلين فيه بعين ملؤها الازدراء والحذر، إذ يرى فيهم قطيعاً من شذاذ المجتمع، ونفايات الأوساط، وقناصي الكسب السهل عن طريق حلق الشارب، وتخطيط الوجه، ورفع الصوت بالصياح والضجيج

في ذلك العهد جاء الأستاذ جورج أبيض من أوربا، وشاءت إرادة سيد البلاد إذ ذاك أن يكون للأستاذ أبيض يد في ترقية المسرح، فكان أن ألف فرقته العربية الأولى من أقرب ما بين تلك العناصر التي أجملت وصفها إلى شخصية الممثل الحق علماً وأدباً وهنا جرت الأعجوبة إذ تقدم إلى الصف (عبد الرحمن رشدي) محطماً العرف الاجتماعي السائد، في الأسرة وفي الحرفة التي ينتمي إليهما، مضحياً بمركزه الاجتماعي وبكرامة الرجل الكامل. أقول هذا أيها السادة وأكرر وأؤكده لأنه كان يوجد من الممثلين قبيل ذلك العهد من يحترف كي الطرابيش وبيع الأشربة والمثلجات بالنهار ليحترف التمثيل بعد ذلك في الليل

ولا لوم ولا تثريب على فن التمثيل في ذلك، فقد أتى التمثيل مصر دخيلاً، وفرض نفسه على المجتمع المصري الذاهل كلون جديد من ألوان التسلية. والجديد الوافد من الحرف لا يلقي صدراً رحباً في أول الأمر إلا ممن يعيشون على هامش بيئاتهم الاجتماعية ولا يعمل

فيه غير من نبت بهم طرائق الكسب المألوفة، أو من لم يحظوا منها بما يقوم بحاجاتهم

مضى الأمر واحترف عبد الرحمن التمثيل فكانت بداية ملحمة جديدة قوامها نزول شاب مثقف عامل مستكمل لمقومات شخصيته الاجتماعية الرفيعة إلى عالم ضليل لا يصول فيه غير المكابر، ولا تطولفه غر قامة المشاغب والمداجي والعريض الصوت والمنكبين، عالم تحيط به الريب والشكوك، ويغلفه الكثير من سوء الظن، نزل إليه

عبد الرحمن بأقدام ثابتة، يَعمُرُ قلبه عقيدة راسخة بأن المسرح كالمسجد يؤمر فيه بالمعروف وينهى عن المنكر
نزل وملء حواسه إيمان صادق بأن المسرح المصري الناشئ لن يرقى ولن يؤدي رسالته في التثقيف والتهذيب، ما لم يتوله جماعة على قسط وافر من الثقافة والتهذيب، وما لم يشرف عليه من يعيش له لا من يعيش منه، وما لم يكفله الكفيل الصالح
كان عبد الرحمن محامياً في نظارة الأوقاف، وكان يتقاضى مرتباً شهرياً ثابتاً قدره أربعة عشر جنيهاً، فرضى أن يعمل ممثلاً بمرتب قدره أثنا عشر جنيهاً في هيئة غير ثابتة في فرقة تسير - كما سبقتها الفرق التي تقدمتها - مضطربة حائرة، كسفينة هزيلة البناء في بحر عجاج، وفي هذا ما ينهض دليلاً على أنه لم يحترف التمثيل ليزداد مرتبه، أو ليجمع مالاً عجز عن جمعه في حرفة المحاماة
ومثل عبد الرحمن أدواراً سجلت مواهب الممثل في نسقها العالي؛ ودوّي مجده دوياً أخذ على هواة التمثيل مشاعرهم، فتحركت نفوسهم، وتطلعوا وتتطلع غيرهم ممن أخذوا يعرفون محاسن التمثيل على يد المحامي الممثل، وقامت فرقة جماعة أنصار التمثيل تعمل للفن برياسة المرحوم محمد عبد الرحيم الذي كان يشغل وظيفة أستاذ بالمدارس الثانوية
ولكن عبد الرحمن اضطر بعد شهور - ويا للعجب - أن يترك فرقة أبيض مرفوع الرأس، لأن النزعة المادية كانت تغلب كثيراً نزعة الفن الخاص لدى بعض مديري الفرقة المصرية، فتأذت نفسه من ذلك وفترت آماله. . .
وعاد إلى المحاماة الحرة في مكتب أنشأه بمدينة الفيوم لقي فيه نجاحاً كبيراً. وهكذا عاد النازح إلى بيته واستقر فيه، وحسب الناس أن مغامرة عبد الرحمن في احتراف التمثيل إنما كانت بدوة من بدواة النفس الفتية
يا للهاتف الغامض الذي ينادي النفس فتلبي النداء، ويُغلّبُ القلبَ على الحجا والرواية؟؟
لم يمض زمن طويل حتى رأينا عبد الرحمن يعاود مغامرته الأولى بنفس الحماسة الأولى ويضحي بالربح والواسع الذي كان يدره عليه مكتبه بالفيوم. أتى كل هذا ناسياً ما جرته عليه مغامرته الأولى، ضارباً عرض الحائط بنصائح أصفيائه ممن راعهم أن المسرح المصري ما برح غير جدير بالتضحية من جانب صفوة المتعلمين
ولكن الهاتف المجهول كان يسد مسامعه، والقدر يدفعه إلى أن يستقيم على محتوم قضائه
عاد عبد الرحمن إلى العمل في فرقة الأستاذ أبيض بعد أن أنضم إلى فرقتها وجيه من وجهاء مصر، وسليل بيت كبير من بيوتاتها، وهو عمر سري بك نجل المرحوم حسين سرى باشا؛ وكاد وجيه آخر من طرازه، وهو المرحوم محمد تيمور بك، نجل المرحوم أحمد تيمور باشا، وتشريفي حضرة صاحب العظمة حسين كامل سلطان مصر، كاد أن يأتي نفس المغامرة؛ وكدت بدوري، على الفارق البين، أن أركب نفس الطريق وأترك دراستي الثانوية في مرحلتها الأخيرة. . .
ومهما انتحلت للمرحوم تيمور ولنفسي من الأعذار التي حالت دون احتراف التمثيل في ذلك العهد، فلا أجد بدّاً من المصارحة في هذا الموقف الذي أعطى فيه (ما لله لله، وما لقيصر لقيصر) بأنني وتيمور كنا أوهن من عبد الرحمن عزماً وألين عوداً
وبدأ الدور الثاني من جهاد عبد الرحمن وبدأت معه الجمعيات التمثيلية مرحلة جديدة اتسمت بالجهاد الصادق وبوفرة عدد العالمين في الجمعيات، وجعلهم من صفوة المتعلمين طلبة كانوا أو موظفين
ونضجت لعبد الرحمن طريقة في التمثيل حاكاه فيها ضعاف الشخصية من الهواة والممثلين، وتنبهت الأقلام المصرية إلى واجبها فقام الأستاذان إبراهيم رمزي ولطفي جمعة يدعوان إلى استقلال المسرح المصري برواياته
أيها السادة:
يقولون إن التاريخ يعيد نفسه. . . وما أصدق هذا حتى في أتفه الأمور!
لم يمض وقت طويل على عبد الرحمن في هذه الفرقة حتى اضطر إلى تركها لأسباب لا يسمح المقام بذكرها، ولكنها أسباب تشرف عبد الرحمن، الرجل والممثل، الذي لم

يعمل في التمثيل ليجمع المال من ورائه، وليستثمره كما يستثمر التاجر الملهوف على الكسب متجراً
انتهى إليه في آخر الزمان!
ورجع عمر سري بك إلى قصره العاجي ينفض عن أقدامه غبار طريق شائكة بعد أن ضاق ذرعاً بالفرقة وبنفسه، وبقى عبد الرحمن واقفاً مثبتاً في حلبة الجهاد رجله، وليس لديه ما يدفع عنه غائلة الأيام، بل وآلام الحاجة والضيق إلا قلب كبير يعمره الإيمان بالله، وبالمبدأ، وبالفكرة العاملة
أيتها الحاجة، أنك قاسية!
أيها الجوع أنك كافر، إنك كافر!
ولكن يشاء الله أن يسكب في نفوس أصفيائه من البشر ما يجعلهم يزدرون بالمحن، فتراهم يدفعون الحاجة بالصبر، ويستعينون على الجوع بالكفاف من العيش.
وقف عبد الرحمن هذا الموقف الرائع، فتجلى عناد التصميم وثبات العقيدة وجلال الرجولة في اكمل معانيها.
كان في وسعه أن يعود إلى المحاماة، أو أن يلتحق بوظيفة حكومية تقيه شر ما يلقي.
كان سبيل الخلاص ممهداً أمامه، ولكن عبد الرحمن أبى أن يفعل شيئاً من هذا، لأن رسالته في المسرح المصري لم تكن قد تمت فصولها، وصاحب الرسالة مجاهد وشهيد، والشهداء يأبون إلا أن يكونوا شهداء وقد يكون خلاصهم بين أيديهم.
وسرعان ما انتهى دور الاستجمام والتفكير إلى دور الوثوب والعمل. فألف عبد الرحمن فرقة تمثيلية باسمه، على نظام الحصص وهو نظام جديد، يقضي بتوزيع قدر من الدخل الوارد من أيراد الحفلات تبعاً لما خصَّ به كل ممثل أو ممثلة.
فلا مرتبات ثابتة، ولا أجور مقيدة.
كان تأليف هذه الفرقة حدثاً جديداً في المسرح المصري، لأنها لم تتألف من أنقاض الفرق العاملة، وإنما تألفت في جملتها ولا سيما في عنصر الرجال فيها من شباب جدد مثقفين، ينتمون إلى بيئات اجتماعية لم تسخ بأبنائها على التمثيل، جمعت الفرقة الجديدة الموظف الذي هجر وظيفته، والطالب الذي قطع دراسته العالية أو الثانوية، اجتمعوا كلهم في صعيد واحد، بعد أن أنضجتهم الهواية الصادقة بالعمل في الجمعيات التمثيلية، اجتمعوا بعد أن ترسموا طريق الفداء الذي شقه الزعيم المجاهد عبد الرحمن فضحى كل منهم بما كانت
تعده لهم وظائفهم أو دراساتهم من مستقبل زاهر، أقل مزاياه أنه مستقبل لا يسلم أصحابه إلى العيش من وراء مهنة مضطربة حائرة، غرمها مضمون، وغنمها مشكوك فيه، تكابد إغفال الناس، بل واذدراءهم.
على هذا النحو، ألفت أول فرقة مصرية من عناصر نابهة، فما لبثت أن أثبتت حسن اضطلاعها بمهمتها، واستطاعت أن تشق طريقها، وتركز أعلامها في القطر، من الثغور إلى أقصى الصعيد، ورددت أرجاء هذه الدار نبرات حارة لأصوات فنية، وصارت الفرقة بهيئتها ورئيسها رمزاً للتضحية في سبيل المبدأ، ومظهراً من مظاهر النهضة المصرية، ووجهاً من وجوه اليقظة القومية
في هذا الفرقة عمل الأساتذة سليمان نجيب مدير هذه الدار، ومحمد عبد القدوس، ومحمد فاضل، ومحمد وفيق، والمتكلم أمامكم، عملوا ممثلين محترفين!
أيها السادة
حاذروا زوالاً إذا قيل تم الأمر وبلغ مداه. وحقق مقاصده!
بعد جهاد مستمر، دام ثلاث سنوات وشهوراً، اضطر عبد الرحمن أمام الأزمة الاقتصادية التي شملت العالم بأسره، بعد انتهاء الحرب الماضية، أن يفض الفرقة، وأن يترك الميدان مفتدياً ذلة الخاضع بعزة المغلوب، لأن الكساد الذي شمل سائر مرافق الحياة الاجتماعية بفعل تلك الأزمة، كاد يفرض عليه فرضاً أن ينزل إلى مستوى السواد الأعظم من الجمهور، وأن يتملق رغباته، وكانت رغبات الجمهور في ذلك العهد، عهد الثورة المصرية، متقلبة لا تستقر على حال، ولا تغنى من التمثيل، وهو لون من ألوان التسلية، إلا بما هو سطحي وعابر، لا يكد الذهن ولا يجهد الخاطر
حلت الفرقة، ولكنها حققت الغرض الأول من قيامها، وهو جعل المسرح في ممثليه والقائمين عليه من الطبقة المثقفة التي اجتلبت حسن الظن بفن التمثيل

حلت الفرقة، ولكن بعد أن جعلت من التمثيل العربي حقلاً جديداً للنشاط الذهني من جانب طبقة من الناس ما كنت تأبه له قبل قيامها. وهكذا بدأ عهد اصطلاح في المسرح المصري، وانفتح باب للتجديد فيه، لم يلبث أن ادخله الأستاذ (يوسف وهبي)، نجل المرحوم عبد الله وهبي باشا، ليأخذ المشعل من يد قائد الطليعة، ويعمل للمسرح مجداً متفانياً في جهاده،
مضحياً بثروته الشخصية، وما آل إليه من مال أبيه الراحل
هذا هو مجد عبد الرحمن رشدي، وبهذا يستقر اسمه في رأس قائمة أبطال الطليعة الذين عملوا للمسرح المصري مخلصين للمبدأ
عاد الممثل ومدير الفرقة إلى المحاماة للمرة الثالثة، ولكنه عاد إليها في هذه المرة كسير القلب، لأنه استيقن أن الزمان يضيق به وأن لا سبيل إلى فرض إرادة على هذا الزمان، الذي يأخذ من المصلحين بقدر ما يريد، لا بالقدر الذي يريدونه ويستطيعون تقديمه
وكان ينتابه حنين إلى المسرح، وهو يجالد الأيام وتجالده، فكتب له أحياناً، وعمل عضواً عاملاً في اللجان التي ألفتها الحكومة لترقية التمثيل، وأذكر من مسرحياته:
و (البؤر المرخصة)، و (المأمون) ،(تخت العلم)
وألفت الفرقة القومية بمال وزارة المعارف، فلم يتوان عن تلبية النداء، ورجع القائد والزعيم جندياً متواضعاً يعمل في الصف بالإشارة ولا كبر ولا خيلاء!
أحبك يا عبد الرحمن في تواضعك وسماحتك، وأحني الرأس إجلالاً لك، قائداً كنت وزعيماً، ومؤتمراً أصبحت وجندياً
ولم يطل مكث (عبد الرحمن) في الفرقة القومية، لأسباب خاصة، فتركها في نفس الوقت الذي زهدت فيه العمل فيها
وشاء القدر أن يجمع شملي وشمله للمرة الثالثة في مكان واحد، وأن نعمل لغرض واحد في وزارة المعارف، وهو تهيئة جيل جديد للتمثيل، يقبل عليه ويعمل له، إذا استطاع، مخلصاً ومجدداً
هذا هو بعض عبد الرحمن رشدي، الذي اجتمعنا اليوم مختارين لتأبينه، وتكريم ذكراه، فيبكي كل واحد منا في شخصه قطعة من ماضيه، أو صفة من صفات الرجولة الباهرة، أوسمة من سمات البطولة الحقة، أو مظهراً من مظاهر الجهاد والتضحية
هذا هو عبد الرحمن رشدي الممثل فحسب، وأتجاوز عن سائر نعوته وألقابه، وقد كان المحامي القادر، والموظف الكبير، وأبن البيت الكريم. أفعل هذا عامداً مزهوًّا، لأن الممثل عبد الرحمن رشدي، أكبر من كل هذا، وأنبه ذكرا، وأبعد أثراً من كل هؤلاء في الدور الذي لعبه في حياته، لان الممثل عبد الرحمن رشدي، واحد في نسجه، منفرد بما آل إليه
أمره، وما استقام عليه بمحتوم قضائه
وهاأنذا أختم كلمتي بالهتاف لهذا القائد الذي سقط في حومة الجهاد، وسيفه في يمينه، بعد أن أفرغتُ كلمتي هذه في سمع الزمان الواعي، وهي كلمة تتسم بوفاء التابع الأمين، وخبرة الصديق، وصراحة الفنان.
أقف بعد ذلك صامتاً، وأمسك عامداً عن استنزال شآبيب الرحمة على البطل الراحل، كما تجري بذلك تقاليد البيان في هذا المقام، لأن هذا البطل الحر الطليق، كان يمقت التقاليد؛ وكانت حياته حرباً على التقاليد، ولأن العناية الإلهية التي رسمته مجاهداً، وجلبته مصلحاً ومغامراً، أجل وأرفع من أن يتطاول عليها بالنداء والتنبيه صوت شخصي الضعيف الحزين
بل أن هذه العناية الإلهية الرحيمة، قد شملته منذ أن حان حينه، وتهيأ للقاء الرفيق الأعلى، فعجلت نقلته من هذه الدنيا، ومضى عنها ما بين غمضه عين وانتباهتها. وكأني بها نفست به على المرض الطويل، وضنت به على تجارب الأطباء. وعبث الممرضين، وعصمته من عذاب دونه كل عذاب، وهو صمت الجسد المتداعي عن إجابة الروح القوي، والنفس الوثاب
أعود فأقول: إنني لا أفعل هذا، لأن عبد الرحمن رشدي مبعوث عناية، ورجل أقدار، ونفس من أنفاس الرحمن الرحيم.
زكي طليمات

كبرياء. . .
للدكتور إبراهيم ناجي
نِداؤكَ يا فؤادُ. كفى نداَء ... عفاءً أنضرةَ الدنيا عفاَء
رُوَيدك أيها الجاني، كلانا ... لصاحبه وما يدري أساَء
أنا ظمآنُ لم يلمع سرابٌ ... على الصحراء إلا خِلْتُ ماء!
وأنتَ فَراش ليلٍ كلَّ نور ... تبِعتَ وكلَّ برقٍ قد أضاء
عشقتُ فما شدَوْتُ الشعرَ شعراً ... ولكن اعتصرتُ لكِ الدماء
فإن أكُ في هواك أضعتُ قلبي ... فلست أُضيعُ فيك دمي هباء
غرامك كان محراب المصلي ... كأني قد بَلَغتُ بك السماء
خلعتُ الآدمية فيه عني ... ولكن ما خلعتُ به الأباء
فلم أسجد بساحته رياء ... ولا كالعبدِ ذُلا وانحناء
ولكني عشقتك عشقَ حُرٍّ ... يموت متى أراد وكيف يشاء. . .
ناجي
الفروق السيكولوجية بين الأفراد
للأستاذ عبد العزيز عبد المجيد
أشرت في المقابلة السابقة إلى التجارب التي أجراها مونستربرْج لاختيار سائقي الترام والسيارات وعاملات التليفون وإلى المقاييس التي وضعها لمعرفة الأفراد الصالحين للمهن المختلفة. وأنه لمن الأنصاف التاريخي ألا نترك موضوع (اللياقة المهنية) من غير أن نذكر كلمة عن الدكتور فرانك يارسونز أحد موظفي (إدارة الخدمة الاجتماعية) في بوستن بأمريكا.
كان ذلك في سنة 1908 حينما جمع الدكتور بارسونز التلاميذ الذين أتموا التعليم الأولى في الحي الذي يقطنه والأحياء المجاورة، وكانت الغاية من هذا الاجتماع أن يبحث مع هؤلاء المراهقين أمر مستقبلهم، ونوع المهن التي يريدون احترافها، ولِمَ يؤثرون مهنة غيرها، وما هي الصفات الشخصية والكفايات الفردية التي يتقدم بها كل منهم للمهنة التي يختارها. وما كان اشد عجبه حين ظهر له أن هؤلاء المراهقين لم يعرفوا شيئاً عن الحياة العملية التي يواجهونها، ولا السبب في تفضيل نوع من العمل على غيره، وما الذي تتطلبه كل مهنة من المؤهلات الجسمية والمقدرة العقلية والخلقية. ولقد استطاع بارسونز أن يسدي لهم نصائح فردية، وأن يوجه كلاً منهم إلى الناحية التي تتفق ومواهبه الشخصية ومعلوماته. وكان هذا الاجتماع التاريخي النواة الأولى لتكوين (مكتب الإرشاد المهني) الذي افتتح في نفس العام. وقد أسرع إلى هذا المكتب البنون والبنات بعد إتمام الدراسة الأولية للاستشارة، ومعرفة أنسب الحرف لهم ولهن. ولقد كان الدكتور بارسونز موهوباً القدرة على معرفة خواص الأفراد، ومزاياهم العقلية والخلقية والجسمية، واختار ما يناسب كل فرد من عمل. ولذلك صادف مشروعه هذا نجاحاً وإقبالاً
لم تكن نصائح بارسونز مبنية على اختبارات ومقاييس علمية ولكنها كانت نتيجة لفكرة يكونها عن طالب التوظف بعد سؤاله عدة أسئلة عن ماضيه وحاضره واستعداده ونوع دراسته وآماله
وقد شعر بارسونز بنقص طريقته هذه فوضع نظاماً أحكم ذا ثلاثة عناصر أساسية: العنصر الأول درس كل مهنة من المهن الممكنة ومعرفة نوع العمل فيها، وظروف هذه المهنة
الاقتصادية والصحية والاجتماعية والفنية، وبذلك يعرف الطالب أو الطالبة في وضوح ما تتطلبه المهنة من الممتهن ومستقبلها. والعنصر الثاني أم يكون على صلة بنظار المدارس ومدرسيها، وأن يخبرهم بنتائج أبحاثه ودراساته الفنية المهنية، ويطلب إليهم ملاحظة التلاميذ أثناء الدراسة وكتابة تقريرات عن تحصيلهم ونشاطهم المدرسي، واستعدادهم الفردي وميولهم، والناحية الممتازة في الفرد، حتى يرجع إلى هذه التقريرات عند الحاجة. والعنصر الثالث أن يصلح من الطريقة التي كانت متبعة باستقبال طالبي المهن ووضع أسئلة عامة لهم، حتى يستطيع بالطريقة الجديدة أن يجمع أكثر ما يمكن من معلومات منظمة عنهم
كان أثر هذه الحركة أن انتبهت مجالس التعليم المختلفة وجمعياته في الولايات

والمدن الأمريكية لدراسة مشكلة اللياقة المهنية، والخصائص السيكولوجية للأفراد، فعقدت المؤتمرات، وأسست مكاتب الإرشاد المهني، وعين مستشارون مهنيون لزيارة المدارس - كما يزورها الأطباء - ولإبداء رأيهم في صلاحية من أنهَوا دراستهم من التلاميذ لأنواع المهن المختلفة، كما نشطت المدارس، والمؤسسات العلمية، والمعامل والشركات، والجمعيات، لإمداد مكاتب الإرشاد المهني، والمستشارين المهنيين بالمعلومات التي يحتاجون إليها، وكثرت هذه المعلومات وازدادت. وغدا المستشارون يسدون نصائحهم مبنية على الاجتهاد والتجربة من غير أن يقوموا باختبارات لقياس الذكاء، أو الاستعداد الخاص، أو الصفات الفردية الأخرى، فكانوا ينصحون ضعاف الرئة مثلاً ألا يشتغلوا في المعامل التجارية، أو المصانع ذات الهواء الرطب أو كثير البخار، ولا يشجعون على التوظف في الشركات ذات المستقبل الغامض. وهكذا ابتعدت هذه المكاتب عن الغرض السيكولوجي الذي أنشئت من أجله، وأصبحت (مكاتب استخدام). وقد اعترف المستشارون بذلك، وكانت حجتهم أنه لم تظهر بعد المقاييس السيكولوجية المقنَّنة لمعرفة الفروق الفردية وحتى يمكن الحكم على صلاحية نوع معين من الأفراد لنوع معين من المهن

وضع بارسونز مجموعة من الأسئلة لاختبار طالبي المهن، استطاع بها أن يكشف عن عادات المختبر وميوله وتجاربه، ومن بين هذه الأسئلة ما يأتي:

هل تصرفاتك هادئة أو هائجة، حكيمة متواضعة أو ترمي للإعلان عن النفس؟

إذا كنت مع جماعة فهل تفكر في راحتهم وتعمل عليها؟

هل ابتسامتك طبيعية وبسهولة أو متكلفة؟

هل أنت صريح في رأيك، شفيق في معاملاتك، حريص على اختيار أقوالك وأفعالك؟

هل تخيلاتك وأفكارك طبيعية ومتواضعة، أو اعتدائية، أو مغرورة، أو متشائمة، أو ثائرة؟

ما مقدار درجة انتباهك للشيء إذا كانت الدرجة القصوى الممكنة للانتباه هي مائة؟ ودرجة ملاحظتك، ودرجة ذاكرتك، ودرجة تعقلك، ودرجة تخيلك، ودرجة إدراكك، ودرجة رد فعلك (الرجع) للبيئة الطارئة، ودرجة قدرتك التحليلية للظروف، ودرجة تفكيرك الإنتاجي

هل تستطيع أن تخلق علاقات طيبة بسرعة مع من تتصل بهم؟

هل أرادتك قوية أو ضعيفة، مترددة أو عنيدة؟

أتتمتع بوجودك في المجتمعات، وهل يسر الناس وجودهم معك؟

وكثير غير هذه الأسئلة

وربما كانت هذه الأسئلة مفيدة عملياً لو أن الإجابة كانت عنها صحيحة مبنية على علم المختبر نفسه وميوله وعاداته. وإلا فمن القراء من يستطيع أن يجيب عن كل هذه الأسئلة بدقة وهو مقتنع بصحة الإجابة؟ وما دامت الإجابة موضع شك فما يبنى عليها أيضاً من النتائج موضع شك. وإذاً فطريق الأسئلة هذا لا يمكن الحكم به على خصائص الأفراد وشخصياتهم، ولا أن تكشف عن الفروق السيكولوجية بينهم

وتسمى طريقة استخدام الأسئلة في الدراسات النفسية والإجابة عنها طريقة (التأمل الباطني) وهي طريقة لها عيوبها الكثيرة، ومن بينها أنها ليست موضوعية محضة ولكنها ذاتية شخصية خاضعة لعواطف الشخص وأهوائه وذاته وحالته النفسية لحظة الاختبار والعلوم إنما تعتمد في بحوثها ونتائجها على الطريقة الأولى لا الثانية

وبعد فقد عرضنا حتى الآن تاريخ الفروق السيكولوجية بين الأفراد عرضاً عاماً، وتطورت الاختبارات والمقاييس التي وضعت حتى أول القرن الحاضر. غير أن علم النفس بفروعه المختلفة قد نهج خلال الخمس والعشرين سنة الماضية منهجاً علمياً أكثر دقة، في الطريقة، وفي إحصاء النتائج. كذلك درست خصائص الأفراد العقلية والجسمية والخلقية والمزاجية، كلٌّ طائفة منها على حدة، ووضعت لها مقاييس تختلف كثيراً أو قليلاً من إقليم لإقليم، وقُنِّنَ بعض هذه المقاييس

ويمكن حصر أنواع هذه المقاييس التي استخدمت لمعرفة الفروق السيكولوجية بين الأفراد فيما يأتي:

(1) مقاييس الذكاء العام. ويقاس بها الذكاء العام للأفراد

(2) مقاييس الذكاء الخاص. وتقاس بها المواهب العقلية الوراثية الخاصة، كالموهبة

الموسيقية والموهبة الرياضية
مقاييس الأمزجة والخلق. وهي تقيس عواطف الأفراد ونزاعاتهم الخلقية للأجرام (3)
أو الإصلاح
مقاييس التحصيل المدرسي أو البيئي اللغوي والعلمي (4)
المقاييس المهنية المحضة (5)
وسنعالج كل مجموعة من هذه المقاييس في مقالات قادمة إن شاء الله.
(بخت الرضا. السودان)
عبد العزيز عبد المجيد
الأدب الفنلندي
للأستاذ صديق شيبوب
بينما كان الشاعر (لياس لونرو) يعنى بجمع قصائد كاليفالا وضم أجزائها، وإنشاء لحمة بينها لتتألف منها ملحمة وطنية قديمة
قام شاعر آخر بنظم ملحمة وطنية عصرية يتغنى فيها ببطولة الفنلنديين في العصور الحديثة، وكان اسم هذا الشاعر (جوهان لودنيج أونبرج)
ولد أونبرج سنة 1804 وتوفي سنة 1877، ودرس الطب وامتهنه واشتغل بالأدب والشعر. وفي شبابه وجه عنايته إلى درس أخلاق مواطنيه في كثير من العطف، ثم كتب في ذلك رسالة طويلة كما تناول مظاهر هذه الأخلاق في الأقاصيص العديدة التي كتبها بعد ذلك. وهذا ما جعله في طليعة الأدباء الذين عملوا على إنشاء الأدب الفنلندي بالرغم من استعماله اللغة الأسوجية فيما كتب ونظم، لأنه عرف كيف يصف روح مواطنيه وكيف يعبر عنها تعبيراً صادقاً. وقد تجلت هذه الميزة خاصة في كتابه: (أقاصيص حامل الراية) '
كان الشعر أبرز ما في أدب هذا الطبيب، وله قصائد يعدها النقاد الأسوجيون والفنلنديون من خير ما نظم في هذين البلدين، وهم يقرون أن أحسن شعره ما جمعه في كتابه الذي ذكرناه: (أقاصيص حامل الراية)، وهو في جزأين، ظهر الأول منها سنة 1848، والثاني سنة 1860.
تتألف هاتان المجموعتان الشعريتان من أقاصيص رواها على لسان جندي قديم اشترك في الحرب التي اضطرت أسوج في نهايتها إلى التنازل عن فنلندا لروسيا فوصف معاركها وقص أنبائها، وسجل أخبارها. وقد كان من الجرأة بمكان عظيم أن يختار الشاعر موضوعاً لملحمة وطنية حرباً ختمت بالانكسار والخذلان؛ ولكن التاريخ كان قد سبق الشاعر فدّون الأخطاء التي وقعت فيها قيادة الجيش وحملها مسؤولية الاندحار ووصمها بالجبن والخيانة.
فقائد الجيش الأعلى لم يصدر غير أوامر تقضي بالارتداد والتراجع، وسلم قائد آخر حصن (سيفبورج) الحصين من غير قتال. بينما ناضل الجنود المشهورون ببسالتهم وصبرهم على الأهوال نضال المستميت فأنقذوا شرف الجندية ولكنهم لم يستطيعوا أن يفوزوا وينتصروا.
وقد حمل (رونبرج) في شعره على قائد الجيش وفضح خيانته، ومما قال فيه: (ليغفل ذكر أصله وسلالته حتى لا يتحملوا وزر جرمه، ليحمل وحده عاره، لأنه وحده جدير بالازدراء. ليس لمن خان وطنه أصل ولا سلالة، ليس له ولد ولا والد.)
على أن شجاعة الجنود المقاتلين كانت كافية لتوحي للشاعر قصائده الحماسية التي تغنى فيها ببسالة مواطنيه. وقد قص في شعر رائع أخبار المعارك الصغيرة التي ظهرت فيها بطولتهم والتي تمكنوا فيها من التغلب على الجيش المهاجم فردوه مندحراً. وعنى الشاعر خاصة بأعمال البطولة الفردية التي تجلت فيها المزايا التي تتحلى بها روح الشعب الفنلندي
وصف الشعر الجيش وتحدث في أكثر من أقصوصة عن العلاقات الوثيقة التي استحكمت بين صغار القواد والجنود. وقد أجاد كل الإجادة ووصل إلى أبعد الغايات عند تناول وصف الجنود من طبقة الفلاحين. هذا (ستين دوفا) الذي كان يظنه رفاقه معتوهاً، ولكنه استطاع منفرداً أن يدافع أن أحد الجسور وأن يدفع عنه العدو حتى جاءت نجدة تمكنت من رده.
وهذا (مونتر) الجندي الباسل الذي كانت شجاعته تنبعث من أعماق نفسه في كثير من

السذاجة والتواضع. وقد مات صريعا في ساحة القتال بانفجار قذيفة رماها أحد جنود الأعداء فتلقاها (مونتر) بيده ليردها إليه. وقد رثاه (رونبرج) في ختام قصته بقوله: (لقد كان فنلندياً)

ويطول بنا الحديث إذا شئنا عرض صور البطولة المختلفة الأشكال والأوضاع التي رسمها الشاعر في هذين الديوانين، وقد كان طبيعياً أن يستهل (رونبرج) الجزء الأول منهما بقصيدة حماسية في تمجيد وطنه والإشادة بذكره، ننقل منها بعض شعرها للدلالة عليها. قال:

،بلادنا، بلادنا، وطننا
،دَوِّ عالياً أيها الاسم المحبوب
لا يوجد في بلاد الشمال رواب ترتفع نحو السماء
،ولا أودية تنخفض، ولا شواطئ تغمرها الأمواج
أحب إلى القلوب من بلادنا
من أرض آبائنا
من يستطيع أن يحصي عدد المعارك
،التي خاضها غمار هذا الشعب
،عندما كانت الحرب تستعر في واد بعد واد
عندما كان يحل البرد القاسي حاملاً معه الجوع المضني
من يستطيع أن يحصر الدماء التي أراقها
وأن يصور شدة صبره على احتمال الأهوال

هذه هي (أقاصيص حامل الراية) التي يعتبرها الأسوجيون كأجمل ما كتب بلغتهم. وقد أخذ عليها بعضهم أن ناظمها تحرر في بعض الأحيان من نصوص التاريخ فلم يحترمها، بينما يرى البعض الآخر أن هذا النقد لا يحط من قيمتها لأن (رونبرج) إذا تجاوز ما قرره التاريخ فإنه لم يتعد الحقيقة فكان صادقاً في الصور التي رسمها والوصف الذي أجراه لنفسية الشعب الفنلندي وأخلاقه ومزاياه

(للبحث صلة)

صديق شيبوب

هكذا تكلم هتلر!

(هذه القصيدة مترجمة عن الإنكليزية، وهي تنطوي على دعاوى هتلر وأمانيه، منقولة على لسانه في تهكم لاذع)

طيب القلبَ، محبَّ ال ... خير للناس، أراني
فلماذا صار كل ... الناس يرتابون منى؟
كل فعل لي يسو ... ء الناس بل ودّوا لو أني
مقعدٌ، لم أسْدَ ما أسدَ ... يت عن طيبة قلب
يتبع الألمان ما أو ... حى بتفكير ولبس
بحماس حوليَ التف ... وا، تخطى كل حدس
كلهم عاد بهديي ... ملَكاً في ثوب إنسي
كان هذه بعض ما أسد ... يت عن طيبة قلب
هِمت بالسوديت فإن ... نضم إلى الحِب الحبيبْ
وهفت برلين واسنُن ... شِد (غوبلْز) الخطيب
وهوى (كورنك) تقبي ... لاً على (روبنتروب)
فعلوا إذ فعلوا ذ ... لك عن طيبة قلب
أنا حررت بلاد للتْ ... شيك من حكم غشوم
وعليهم لم أزل أس ... هر كالأم الرؤوم
منفقاً ما ادخروا بال ... أمس من مال عقيم
كان هذا بعض ما أسد ... يت عن طيبة قلب
عدت بالنمسا فأضحت ... تحت ظلي تستضيء
وكما قد حدثوني - ... بنبوغي تستفيء
وهي ذي في قبضة الجس ... تابو كالجدْي البريء
تلك مني منَة تف ... صح عن طيبة قلبي

أسعد الحظ (السلو ... فاك) فشاءوني خليلا
صرت احميهم وأرعى ... ملكهم كيلا يدولا
وعليهم أسبغ الججود ... ولا أبغي بديلا
كان هذا بعض ما أسد ... يت عن طيبة قلب
عمت الفوضى ببو ... هيميا فتاقت لاحتلالي
وغدت (محمية) تن ... عم في أحسن حال
وهي ذي اليوم (بفض ... لي) مضربٌ للاعتقال
تلك مني منة تف ... صح عن طيبة قلبي
ساءني تسويف (بولن ... دا) بتسليم الممرّ
فشننت الحربَ لم ... تبق عليها أو تذر
ويح قلبي، كلما أذ ... كر (بولندا) انكسر
غير أني قد شننت ال ... حرب عن طيبة قلب
عند إغراق (أثينا) ... ساور البعض الهموم
فاتهم ما قاله من ... قبل (صولون) الحكيم:
(يسعد المرء إذا ما ... ت ويحظى بالنعيم)
فبإغراقي لها أف ... صحت عن طيبة قلبي
أكره الغاز فما استع ... ملته في غزواتي
وكذا الحرب، فإن أحر ... قتُ أطفال العداة
ولئن أغرقت من أس ... طولهم بالعشرات
فأنا أفعل ما أفعل ... عن طيبة قلب
لجَّ قلبي ببلاد ال ... أرض حباً واستعر
وتمنى ضمها فيه ... وإشباع الوطر
أنا موهوب، بوسعي ... حكم مجموع البشر
وسأمضي لاحتمال ال ... عبء عن طيب قلب
(بغداد)
(رسول)
-
الأدب في سير أعلامه
بيرون
ذلك العبقري المتمرد الذي غنى أروع أناشيد الحرية، ولاقى
(الموت في سبيل الحرية)
للأستاذ محمود الخفيف

أرسل جروج بيرون إلى مدرسة صغيرة في أبردين وهو دون الخامسة، ولكن أمه لم تطمئن إلى تعليمه فيها فعهدت إلى أستاذين بتعليمه في المنزل إلى جانب المدرسة وقد حبب إليه إحداهما التاريخ وعلى الأخص تاريخ الرومان، فراح يقرأ منه في غير ملل، وعلمه الآخر اللاتينية، بينما أخذ يوحي إليه مبادئه الكلفنية، والطفل يستمع إليه في ذلك مندهشاً متحيراً يتساءل في صمت كيف يقدر الشقاء على قوم قبل مولدهم، وما جريرتهم حتى يشقون وأي فرق بينهم وبين الذي قدرت عليهم السعادة؟ ويستمع الصبي إلى مثل هذا في حديثه مع خادمته ماري، حينما يسألها وهي تتلو الإنجيل قائلاً: وما ذنب قابيل قبل أن يقتل أخاه؟ ويضيق حين تجيبه أنه قدر عليه الشقاء، فيقول في غضب: وكيف يسأل عن جريمته إذاً؟ على أنه يطرب للغة الإنجيل وإن لم يفهم أكثرها ويهتز قلبه لما يتخيله عقله الصغير من صوره

والصبي قوى الخيال يصور له خياله كل شيء ويلازمه ما يتخيل أينما ذهب، وكانت صورة الشيطان الذي طالما حدثته عنه ماري تتملك لبه وتصحبه في الغداة والعشي، فإذا ترك في مخدعه وحده نفت النوم عينيه صورة الشيطان حتى لتمتلئ الغرفة حوله بالأشباح، وإذا أطل من نافذته وجد المقبرة القريبة منه ملأى بالشياطين من كل هيئة ومن كل طول وهي تتعابث وتتراقص

ويستمع الصبي أيضاً إلى أحاديث أمه وخادمته عن أجداده لأمه وأجداده لأبيه وكيف قرنت بالشر أيامهم فيعزو ذلك إلى أنه قد قدر عليهم الشقاء من قبل فكانوا من حزب

الشيطان كما كان قابيل من حزب الشيطان، ويخاف الصبي أشد الخوف أن يكون نصيبه من الحياة مثل نصيب هؤلاء وهو يرى من أثر الشيطان في خلق أمه ما يرى ثم يرى منه في نفسه ذلك
العرج الذي أزداد ألمه منه حينما بلغ السابعة
ويعرف الصبي في المدرسة بحدة ذكائه بقدر ما يعرف بإهماله وانصرافه عن دروسه، ويسمع منه معلموه عبارات يبدو بها أكبر من سنه ويدهشهم منه قراءته الخارجية التي لن يبلغ نصيبه منها عشرة من أقرانه مجتمعين، وكان شغفه بالشرق عظيماً فقرأ قصص ألف ليلة وليلة وألم بقدر كبير من تاريخ أمم الشرق، وفي مقدمتهم الترك، كانت أمه على قصر ذات يدها لا تضن عليه بما يطلب من الكتب، فكان يعد ذلك من أكبر حسناتها إن كان ثمة لها غير هذه من الحسنات
وعرف شاعر الغد بحدة عاطفته وتمرده على القوانين والأوضاع الرتيبة، وعرف كذلك باستعداده للنضال والهجوم إذا استفزه إلى ذلك أحد. عاد إلى منزله ذات يوم يلهث وفي وجهه آثار معركة، فأجاب على تساؤل خادمته عن هذا بأنه تربص بغلام كان أهانه فتوعده حتى وقع عليه في الطريق فأذاقه من بطشه وأتم حديثه قائلاً: (وكيف لا انفذ ما توعدته به؟ ألست بيروني النسب)؟
واستقرت في أعماق نفسه الصغيرة مناظر اسكتلندرة برواسيها الشامخات التي تجلل رؤوسها الثلوج وتعلو بعض قممها على السحاب، وكانت هذه الأجرام التي تجلل رؤوسها الثلوج وتعلو بعض فقممها على السحاب، وكانت هذه الأجرام الهائلة تهز نفسه وتستميله أكثر مما تفعل الزهور والرياض وأشباهها من مناظر الطبيعة الهادئة الوديعة. . .
وتفتح قلب الصبي للحب وهو في الثامنة، فقد رأى في إحدى جولاته مع أمه ابنة أحد الفلاحين فأحبها حتى ما يطيق أن يفارقها؛ ولما فارقها على رغمه كانت تجيش نفسه وهو في تلك السن بمعاني الوجد والحنين. . . على أنه ما لبث وهو في التاسعة أن هام بابنة عم له هياماً استأثر بلبه، فما يفكر إلا فيها وما يرى حسناً يقاس إلى حسنها، وإنه ليحس إذا جالسها بما يملأ قلبه من معاني الوداعة واللين واللطف حتى لينسى عنفه وحدته أتم النسيان، ولا يزعجه إلا خجله من عرجه، وكم يتمنى أن لم تكن العاهة التي يعظم خجله منها أمام ابنة عمه ماري أكثر مما يعظم تلقاء غيرها من الناس. . .
وكانت أمه توقن في قرارة نفسها أن أبنها سيكون رجلاً عظيماً في غده. ولعل مرد ذلك ما تتمناه الأمهات عادة لأبنائهن، ولعل مرده إلى ما أخذته من عرافة ريفية نبأتها بما سيكون
له من خطر في غده. وها هي ذي الأيام توشك أن تحقق جانباً من نبوءة العرافة، فلقد كان للورد الخامس في الأسرة وهو شقيق جده حفيد هو الذي يرث اللقب من بعده فمات هذا الحفيد عام 1794 فلم يبق بين الطفل واللقب إلا أن يموت ذلك اللورد الشيخ، وما لبث أن مات ذلك الشيخ بعد ذلك بنحو أربعة أعوام، فانتقل لقب الأسرة الوراثي إلى الطفل وهو في العاشرة.
وفرحت أمه أشد الفرح ولكن الطفل يتجه إلى المرآة ويسأل أمه عما إذا كانت ترى فيه فرقاً بين يومه أمسه لأنه لا يرى شيئاً من ذلك.
ولكن هذا اللقب سوف يكون عظيم الأثر في حياة شاعر الغد وموقف المجتمع منه، إذ سيكون من أهم ما توافي له من أسباب الإعجاب به وذهاب صيته في الأوساط جميعاً وتأهبت أمه لتذهب به من أبردين إلى حيث يستلم ما ورثه مع لقبه الجديد من ثروة، وكان الصبي يومئذ في سنته الحادية عشرة، ولقد عز عليه أن يغادر أبردين فيبتعد عن ابنة عمه ماري التي أحبها ذلك الحب الشديد وعن مناظر أسكتلندرة، ويحرم مما باتت توحيه إليه شواهقها ووديانها، تلك الشواهق التي ألف تسلق جوانبها على الرغم من عاهته والتي زلت قدماه على سفح من سفوحها ذات يوم حتى أشرف على الموت لولا أن تداركه بعض من كان معه، فلم يزده ذلك إلا تعلقاً بها وأقداماً على معاودة تسلقها
ورحلت الأم وولدها وخادمتهما، وأحس الصبي أنه ينتزع نفسه من ملاعب طفولته انتزاعاً، ولقد استقرت في نفسه مناظرها وطيوفها، وما أعظم ما سيكون لهاتيك الطيوف في غد من الأثر في شعره وخياله

وانتهى بهم السير في نيوستد وحطوا رحالهم في مهد الأسرة العتيق، في ذلك القصر الذي أفنت جدره العتيدة السنين الطوال. ولشد ما أحبه الصبي وآنس في هيكله وأبهائه وحجراته أحلاماً جديدة أضافها إلى سالف أحلامه. . . وأقبل على الخدم يسألهم عما تقع عليه عيناه وعلى الأخص عن تلك الصور المعلقة على الجدران. . . فهذه صورة اللورد التعس الذي ورث عنه الصبي ما ورث، وتلك صورة أحد أجداده الذي أبلى أحسن البلاء في الحروب الصليبية ومات في الأرض المقدسة، وهذه. . . وهذه. . . والصبي معجب بذلك كله إعجاباً شديداً وإنه ليزهى أشد الزهو بأنه اللورد الجديد الذي آل إليه ذلك القصر وما فيه

جميعاً. وغرس الصبي بيده شجرة هناك لتكون ذكرى له

على أن ذلك القصر لم يعد يصلح للسكنى بسبب ما أصابه من التخريب أيام ذلك اللورد التعس، ولم يك لدى أم الصبي ما يتطلب إصلاحه من المال، ولذلك لم تلبث أن تركته وأبنها إلى مدينة نوتنجهام. . . واعتلج في نفس اللورد الصغير الألم لفراق قصره السحري، الذي أمل أن يتسلى به عن ماري دف وقد شف قلبه الوجد لبعده عنها. ولقد كان عجيباً أن يحبها مثل هذا الحب في التاسعة وأن يأسى على فراقها هذا الأسى وهو بعد لم يتجاوز الحادية عشرة، ويذهب بعض علماء النفس إلى أن مثل هذه العاطفة الباكرة بشير بنبوغ صاحبها غداً في مجال الفن؛ ويروي عن دانتي أحد شعراء الدنيا الأفذاذ أن قلبه الغض نبض بحب بياتريس وهو لا يزال في التاسعة من عمرة.

(يتبع)

الخفيف

الأدب في أسبوع

أسواق النخاسة

مازلت أضحك إبْلى كلما نظرَت ... إلى من اختضبتْ أخفافها بدم!

أسيرُها بين أصنام أشاهِدُها ... ولا أشاهِدُ فيها عِفَّةَ الصنم

هكذا يقول المتنبي في صفة أصحاب السلطان الأدبي والسياسي من أهل عصره، ولا يزال هذا ينطبق إلى اليوم على البلاد الشرقية والعربية إلا قليلاً قليلاً. لقد أذكرتني أشياءُ رَمَت إلى - ما كنت أسوس النفس على تناسيه ونبذه والتباعد عنه، ولكن صِناعة الأدب هي من بين الصناعات أشدُّها التحاماً بالحياة. . . لا، بل بالأصول النفسية التي تقوم عليها وبها أسواق المجتمع الإنساني، وهي ترمي بالأديب في تنّور متسعِّر من نزاع الغرائز والشهوات والأحقاد، وهو بين اثنتين: إما أن ينحط في هوى غرائزه التي تثيرها هذه النار الآكلة، فيفسد بفسادها، وإما أن يتحصن دونها، فيروض غرائزه الوحشية، حتى تألف وتنقاد لحكم العقل النبيل والعواطف السامية. فكذلك يوطن نفسه على الحرمان والألم والتفرد والوحشية. . . ثم على الصراع الذي لا رحمة فيه ولا هوادة بين تضرُّم النزعات المستبيحة، وبين زهادة النفس المتورعة المطمئنة. وكان أحق الناس بالتسامي ومطاولة الغرائز في هذه الحرب الموقدة - الأدباء، فالأدب في اصله تنزيهٌ للنفس وكبحٌ من جماحها، ورفق في سياستها؛ فإذا انقلب الأدب تضريه للوحوش الرابضة في الدم من الطبائع والغرائز، خرج عن أصلة وفقدت ألفاظه معانيها، وصارت أسواق الأدب تعتمد في معاملتها على البغي والظلم والعدوان والتهجم والاستبداد.

وفقدت كل معاني الحرية والعدل والإنصاف والتمييز بين الخبيث والطيب، وهي أصول الفطرة الأدبية السامية.

إن الأديب الحر ينتفض تقزُّزاً واشمئزازاً كلما انبعثت روح حقارة المجتمع من وراء الرّمم الأخلاقية المموَّهة بالنفاق، والتي أقيمت عليها أصنام منصوبة للعظمة الباطلة الجوفاء، وهو أشد انتفاضاً وانتقاضاً حين يرمي ببصره إلى الأدب والعلم وهذه المعاني السامية فيرى الأدباء والعلماء أذلاء مستعبدين قد خضعت أعناقهم للحاجة والضرورة والبؤس، فهم نواكس الأبصار إلى الأرض بين يدي فئة منهم قد أخذوا عليهم أفواه الطرق المؤدية إلى

بعض الرزق، حين واتاهم القدر ببعض السلطان والجاه والسيطرة، وأقامتهم الشهرة الذائعة أنصاباً تهوي إليها الأغراض، وتناط بها الوسائل، وتعتمد عليها الحكومات في تقدير العلم والأدب وأهلهما والعاملين عليهما، وكذلك من لا يستطيع أديب أو عالم أو

فيلسوف أن يجتاز إلا بإجازة من أيدهم وبأختامهم، وإلا أن يشهدوا له شهادة التقدير، وأن يعبروا له السِّعر في (تسعيرة) السوق الأدبي الذي أقامتهم الحظوظ عليه حكّاماً ومقوِّمين

إن الشهرة والشهادة هما شيئان لا قيمة لهما في العلم والأدب فبناءُ العلم على نجاح التجربة واستواء المنطق وإقرار العقل، وبناء الأدب على صدق الإحساس وحدة الإدراك وسمو العاطفة وقوة الحشد وبراعة العبارة والأداء. فإذا لم تكن الشهرة من هذا تستفيض وعنه تشرع، فما غناؤها على صاحبها إلا بعض الأباطيل التي تنفش في عقول الأمم الضعيفة والأجيال المستعبدة بالأوهام والتهاويل. والشهادة ما هي إلا إجازة الدولة لأحد من الناس أنه قد تحرر من طلب العلم والأدب على القيود التي تتقيد بها المدارس والجامعات في أنواع بعينها من الكلام، وأنه قد حصل في ورقة الامتحان ما فرض عليه في تحصيله بالذاكرة، ثم ترفع الشهادة يدها عن معرفة ما وراء هذا التحصيل وما بعده وما يصير إليه من الإهمال والنسيان أو الضعف أو الفساد.

فحين يغادر أحدهم الجامعة حاملاً شهادته مندمجاً في زحمة الجماعة تفقد الشهادة سلطانها الحكومي - أو هكذا يجب أن يكون - ولا يبقى سلطان إلا للرجل وأين يقع هو من العلم أو الأدب أو الفن؟

وهل أصاب أو أخطأ؟ وهل أجاد أو أساء؟ وهكذا فهو لا ينظر إليه مغسولاً غفلاً من (مكياج) الدبلوم والليسنس والماجستير والدكتوراه. . . وما إليها، وإذَن، فأوْلى ألا ينظر إليه عن شهادة قوم لم يكن سبيلهم إلى التحكم في أسواق العلم والأدب إلا الشهادات المستحدثة، والشهرة النابغة على حين فترة وضعف واختلاط وجهل كان في الأمة حين كان أقل العلم وأشفُّ الأدب يرفعان صاحبهما درجات من التقدير والإجلال والكرامة

إن هذه التجارة التي تقوم على استعباد العلم والعلماء والأدب والأدباء تجارة باغية ينبغي أن تفنى نخاستها وأن تغلق أسواقها، وينبغي أن يتحرر الأدباء والعلماء المستعبدون قليلاً من أغلال الضرورات المستحكمة ليحاربوا بغي هذه التجارة بالنبل والسمو والترفع، وليهتكوا تلك الأستار الحريرية الرفيعة المسدلة على بيوت الأوثان الجاهلية التي تستعبد

. . .الأحرار باستغلال ضراعة الضرورة والحاجة والفقر؛ ينبغي

وينبغي لكاتب هذا الباب الجديد في (الرسالة) أن يرفع القلم عند هذا القدر الآن، ويعود إليه بالتفصيل والبيان فيما يستقبل

معهد الصحراء بيت الحكمة

كتب صديقي (إسماعيل مظهر) - في مقتطف يناير سنة 1940 - كلمة بليغة يصف فيها (رهين المحبسين) مجِبس الصحراء، ومَحْبس النسيان، وهو معهد الصحراء القائم على مشارف الصحراء المترامية، في (مصر الجيدة)، وقد شيده (الأسد المصريُّ) الملك فؤاد رحمة الله عليه من ماله خاصة، ليكون مأوى للعلماء الذين يدرسون طبائع الصحراء ومعادنها وأجوائها، ولكنه لم يتم بناؤه لما عرض من مرض الملك العالم ثم وفاته على شدة الحاجة إلى جرأته وإخلاصه وعزمه، وإنفاذ هذا العزم بالبصيرة والحكمة والمثابرة

وكنت كلما صحبت أخي (إسماعيل) لبعض الرياضة، تهاوينا إلى البيداء المقفرة الصامتة بأحزانها الحائرة، وسرنا نتقاود في جوفها فترمي بنا أرجلنا شامخ قد أقعى على ربوة من الأرض كأنما يتجمّع للوثبة، ومع ذلك فأكاد أجد في سمعي بيان هذا الأعجم الصموت، وهو يهمهم بأنّاته من ذُلّ الوحشة والأسر والنسيان والخراب، فأنشد (إسماعيل) قول الرضيّ:

ولقد رأيتُ (بذْير هِنْدِ) منزلاً ... ألماً من الضَّرَّاءِ والحَدَثانِ

أغضى كمستَمِعِ الهوانِ، تغيَّبَتْ ... أنصارُهُ وخلا من الأعوانِ

وكان هذا البناء المسكين همةً من همم الملك النبيل رحمه الله. ولقد سمعت أنه قد أحاطه بما يزيد على عشرة أفدنة ليقوم فيها، وفي منتزهاتها، وليؤدي أهله إلى صحراء مصر المجهولة حقَّها من الدرس والكشف والاستنباط

هذا، وقد ضرع (إسماعيل) إلى خليفة (فؤاد) في ملكه وعلمه وعزمه وبصيرته، إلى (الفاروق) صاحب مصر الأعلى وحاميها وهاديها إلى الخير، أن يُتمّ ما بدأ الملك الأول من البناء، وأن يعيد لملكه الزاهر تاريخ العرب والعربية في عصر المأمون الذي أنشأ

(بيت الحكمة)، وجعله مستقر النقلة من العلماء الذين استوعبوا نقل حكمة (يونان) إلى اللسان العربي؛ فأسسوا للعلم ملكاً لم يطاوله في العصور إلا عظمة المأمون. . . قال:

(ومعهد الصحراء - يا مولاي - عظيم الإرجاءْ اتساع العقل الخالد الذي فكر في إنشائه، فهل نطمع في أن يضم إليه بضعة علماء يقفون جهودهم على ترجمة علوم أوربا إلى اللغة العربية؟

وفي مصر - يا مولاي - علماء أقعدهم النسيان عن العمل ومنعهم الخجل عن السؤال، وعزَّ عليهم أن يهينوا العلم باستجداء العطف.

أنطمع - يا مولاي - أن تفيض عليهم من فضلك الواسع ما يسدُّ حاجتهم من حطام الدنيا، ليكونوا نواةً لبيت الحكمة في عهدك، فيتركوا للأجيال القادمة آثاراً لا يبزها من حيث الأثر في العالم العربي إلاّ عظمتك، ولا يفوقها في الجلال إلاّ جلالتك؟)

وكل أديب وعالم مفكر في العالم العربي يضم صوته إلى صوت (إسماعيل) في هذه الضراعة النبيلة إلى (وارث مُلك مصر، ومجد العرب) ويستيقن في قلبه أن (الفاروق) سيحمي العلم والأدب بحماية ملكية ترفع عنه الظلم والاستعباد، وتحرر العلماء والأباء من غطرسة الأدعياء المتشدقين بقليل العلم ومنقوص الأدب، مما أطاقوه وحملوه بفضل الرحلة إلى أوربا بضع سنين، تزودوا فيها بالمعاشرة والمخالطة - لا بالدرس والمثابرة - بعض ما جهله أصحاب الفضل والعلم والأدب من قومهم لقعودهم بالضرورة والعجز عن مثل الذي ساروا إليه، وهم بالعلم والأدب أقوم، وعليه أحرص، وطبائعهم إليه أشد انبعاثاً

الشباب والسياسة

في يوم الخميس السالف (4 يناير سنة 1940) ألقى بهي الدين بركات باشا محاضرة عظيمة القدر فيها معنى (السياسة) وحق (الشباب) في المساهمة في أصولها وفروعها، ودافع عن حرية الشباب في أن يهتم (بالعمل العام الذي يتصل في وقت من الأوقات بتيسير دفة الحكم في البلاد). وهذا هو تعريف السياسة عنده؛ وبذلك يخرج منها النزاع الحزبي الذي شهدته السياسة المصرية خاصة، على وجه من التنابذ والتعادي والتسفيه والاعتداء على حرية الفرد وحرية الجماعة. فإذا أخرج هذا الضرب من معنى السياسة أوجب العقل أن يكون لكل أحد الحق في أن يشارك أصحاب الرأي في آرائهم، بل إن الشعور بالحرية الفطرية توجب عليه أن يشارك بالرأي وأن يضِّحي في سبيل المبدأ الوطني العام الذي لا تقوم الدولة إلا بقيام معانيه في أعمال الأفراد والجماعات، وقد ناقش المحاضر جماعة من الأستاذة ولكنهم في مناقشتهم كانوا لا يزالون متأثرين بالمعنى للسياسة، وغفلوا عن الغرض الذي رمت إليه محاضرة المحاضر في (المصري القديم) الفصل بين ما كان وما يجب أن يكون عليه معنى السياسة؛ وكيف يشارك الشباب فيها بالرأي والعمل. والسياسة - كما قال عزام بك في موقفه - لا يمكن أن تكون بحثاً فلسفياً مجرداً، لأن الإيمان بعقيدة ما يقتضي التضحية في سبيل الدفاع عنها، فإذا كانت السياسة عملاً قومياً يراد به المصلحة العامة ومجد الوطن، فهي أمر يستحق كل تضحية. وأما إذا صارت السياسة إلى المعنى الذي شهدناه في مصر من الخلاف الحزبي على مطامع الحكم فهي أمر لا يستحق أتفه التضحية

ونحن نعتقد أن الإنسان الحر لا يعرف معنى لهذا السؤال القديم: (هل ينبغي أن يشتغل الشباب بالسياسة أو لا ينبغي؟)

فهو سؤال عليه سيمياء الذل والعبودية! إن كل أحد في مصر وغيرها من بلاد العالم - شاباً أو شيخاً غنياً أو فقيراً - عليه دين للأرض التي تغذوه وتعوله وتؤويه وتمده وتحفظ له نسله جيلاً بعد جيل، وأداء هذا الدين لا يكون إلا عملاً في حفظها وحياطتها والمدافعة عنها بالسلاح والعلم والعمل والفكر والنفس، فإذا أخل أحد بشيء من ذلك خان أمانة هذا الدين وأسقط مروءته

وكيف يمكن أن يمتنع الشباب أو الطالب عن الاشتغال بالسياسة؟ أيمتنع عن قراءة الصحف والكتب لئلا يعرض له الفكر في ذلك والتمييز بين صوابه وخطأه والعمل على بيان مواضع الخطأ ومعاونة الصواب على الاستمرار؟ أم يقرأ أخبار الأمم وأحداثها فإذا أقبل على أمر بلاده طوى الصحيفة واستغفر؟ أم يقرأ ويقرأ ولا يكون إلا كالخزانة،

يلقي فيها ما يلقي ليحفظ ويصان من لصوص الفكر التي يطلقها عقله في آثارها؟ أم يقرأ ويفكر، ثم يحبس آراءه بين جدران الجمجمة إلى أن يذهب بها إلى الإهمال؟ وكذلك تضعف النفس وتصدأ وتتآكل، لأن الإيمان بالعمل بأمره هما جلاءُ النفس وصقلها لتبقى أبداً مشرقة.

إن الشباب - ولا بد - مشتغل بالفكر بالسياسة ونصرة مذاهب الحق فيها - كما هو - مشتغل بالعلم والأدب والفن؛ ولكن الإشكال كله في انفساخ القوة الخلقية التي يجب أن يقوم عليها العلم والأدب والفن والسياسة، وكل عمل؛ فتربية الخلق أوَّل، ثم ارموا بالشباب - -

حيث شئتم: فإنهم عصام الشعب، وهم ذادة الوطن، وهم أصحاب المستقبل

المرأة والرجل

لشد ما اجترأت المرأة في هذا العصر!! وإذا أخذت المرأة أسلحتها - من الزينة والتطرية والجمال والفتنة، وجيّشت غرائزها - من الحذر والحيلة والضعف والأغراء، لم يبق للرجل إلا أن يستقتل أو يفر. . . وقد أقامت (وزارة الشؤون الاجتماعية) مناظرة بين الأستاذ (محمد فريد أبو حديد) والسيدة (زاهية مرزوق) وكان غرضها هو (كيف تنهض بالأسرة؟). والظاهر أن السيدة الكريمة قد اعتقدت في قلبها معنى (حرية المرأة) بالإصرار والتعصب فأخذت تنتزع رجولة الرجل شيئاً فشيئاً حتى ليخيل لسامعها أنه مخلوق وحشي منطلق من كل قيود النبل، فهو عندها أناني لا يؤثر على نفسه، وهو معنى متجسم للفوضى في بيت الأبوة والأمومة، وهو جاهل متحامل على ضعف المرأة لا يرحمها ولا يحس بآلامها، وهو فاجر متوقح يستجر الأخطاء ويجنيها ثم يرمي المرأة بها وينسلّ منها

وأنا لا أريد الآن أن أدافع عن الرجل، ولكني أريد أن أسأل السيدة الكريمة ومن يذهب مذهبها من النساء: إذا كانت هذه صفة الرجل في أنفسكن، وإذا تحدثتن بمثله فبلغ الأسماع في بيوت العقائل، فوقع في آذان الأم والزوجة، والفتاة الجاهلة الطياشة، فاعتقدته ومالت إليه أهوائهن، فبأي عين تنظر المرأة إلى زوجها والفتاة إلى خاطبها؟ وأيُّ معاملة يلقاها الرجل بعد على أيدهن وبألسنتهن؟

كلا يا سيدتي، أن المرأة هي تجني أكثر الذنب فيما نعلم، ثم تتنصل، وهي كل الأنانية إلا أن يتصل أمرها ذلك بمصدر الأمومة في غرائزها، فهي عندئذ مثال الإيثار والتضحية،. . .

وهي صاحبة الفضائل كلها إذا أثيرت أمومتها وإحساسها بالمحافظة على النوع الإنساني؛ وأما بغير ذلك، فهي المرأة بضعفها وأنوثتها وحاجتها إلى عون الرجل وتضحيته ورحمته. وليس للمرأة عمل إلا أن تعمل دائماً على أن تجعل الرجل في عينها تمام إنسانيتها، وبذلك تستصلح منه ما عسى أن يكون فاسداً، وتتم ما وقع إليها ناقصاً، ويبني البيت - بَيتهما - على أساس من القوة الداعية للبقاء، فمن الرجل الرحمة والإخلاص، ومن المرأة الاحترام والعفاف، ومنهما النسل الجميل المحفوف بالفضيلة من جميع نواحيه.

أبو العباس السفاح

لم تتسع كلمة هذا الأسبوع لتحقيق لقب السفاح أبي العباس عبد الله بن محمد أمير المؤمنين، فأرجأنا ذلك إلى العدد القادم.

محمود محمد شاكر

رسالة الفن

دراسات في الفن

هشْت. . .!

للأستاذ عزيز أحمد فهمي

- هشت!

- ما قلة الحياء هذه؟ أنداء هذا تناديني به في الشارع؟ . . .

- وماذا أيضاً في هذه النداء يغضبك؟ إنه النداء الذي كان لابد أن تلبيه. وقد لبيته

- ومن أين جاءك هذا التأكيد؟ هل جاءك أني تسميت أخيراً (هشت)؟ أليس لي أسم تناديني به؟

- ومن أين جاءك هذا الاسم؟

- سماني به أبي. . . ثقلت عليك الثواقل. . . ألست تعرف أن لي اسماً؟
- أعرف أنهم يطلقون عليك لفظاً يعلمونك به بين سائر الناس، وأعرف أيضاً أنك رضيت بهذا الاسم وسكت عنه ولم تعارضي فيه، ولكنني لا أذكر أنك أخذت رأيي في هذا الاسم وفي مدى صلاحه لك، وفي قيمة المؤثرات التي أنتجته، وفي تحديد ما كان من هذه المؤثرات طبيعياً، وما كان منها مصطنعاً متكلفاً. . .
- يا دين النبي! أتريد أن نعقد المفاوضات في هذا كله، ثم نتفق على هذا كله قبل أن تناديني باسمي؟ من يدريك أننا قد نقضي العمر في هذه المناقشات قبل أن نتفق على أسم كل منا، فإذا فرغنا من هذا كنا قد أفرغنا قوانا فيه فلا نستطيع بعد ذلك أن نتحدث في موضوع ما، فإذا اجتمعنا بعد ذلك قلت لك وأنا ألهث من متاعب اسمي واسمك: تشرفنا يا من الله أعلم باسمك، فتقول لي: (حفظتم)، ومن يدري فلعلك تسألني: (ومن أين جاءك أننا تشرفنا)؟
- هو هذا. فالاسم إذا لم يكن تعبيراً صادقاً عن المسمى كان اسماً كاذباً، وقد اعتاد الناس أن يسموا أبناهم عند ولادتهم وهم لا يعلمون من أمرهم شيئاً ولا من صفاتهم شيئاً فيسمون (عفيفاً) من قدر الله له أن يكون (دنيئاً) ويسمون مؤمناً من قدر الله له أن يكون (كافراً). . .
ويسمون ما يشاءون، ولله في عبده أسماء وعلامات قد تتفق مع أسمائهم، وقد لا تتفق وكان يمكن للأسماء جميعاً أن تتفق مع مسمياتها ولو في الظاهر، إذا لم يتعجل الناس ويسموا أبناءهم، وإذا تريثوا حتى يقضي كل فرد حياته المقسومة له في الدنيا فينظروا فيها ويستخلصوا منها الوصف الذي غلب عليه فيسموه به. . . هذا هو ما كان يجب أن يحدث ولكن الناس متعجلون، وقد رأوا أن الله وهب لهم ميزة النطق فاستغلوها بالحق وبالباطل، وأعملوا فيها عقولهم، وراحوا يخترعون الألفاظ والكلمات ليقضوا بها حاجاتهم العاجلة، ونسوا أن القدر الذي هيأ لهم النطق قد هيأ لهم اللغة. . . أو هم قد حسبوا أن أمر اللغة هذا موكول لهم فحرروا تصرفهم فيه، ولم يقيدوه إلا بإرادتهم، وإرادتهم كانت في البدء سليمة، ولكنها أخذت تهلهل وتتمزق وتتشعب فأصبحوا يريدون ما لا يصلح أن يكون موضع إرادة، أو متجهاً لرغبة، فبدءوا منذ ذاك الحين يخطئون الكلام، حتى تفرقوا شعوباً لكل شعب إرادة، فتبلنات ألسنتهم وأصبح لكل شعب لسان، ويا ما في هذه الألسنة جميعاً من كلام ما أنزل الله به من سلطان. . .
- يخيل إلى أنك كنت تفضل أن يكون الإنسان حيواناً صامتاً
- بل كنت أفضل أن يتكلم الناس كلهم لغة واحدة. . .
فقد خلقهم الله ناطقين وليس عليهم أن يصمتوا بينما أراد الله بهم أن يسبحوه بكرة وعشياً. . .
- ولماذا لا تدعوه إلى الاسبرانتو. . . مادمت تريد أن يتكلم الناس جميعاً لغة واحدة. . .
- الاسبرانتو لا يمكن أن يتعلمها الناس إلا بالتلقين في المدارس، أما اللغة التي أطلبها فلغة ينطق بها الناس أينما كانوا من تلقاء أنفسهم بلا معلم، ويفهمها الناس أينما كانوا من أنفسهم بلا معلم أيضاً. . .
- وهل هذا ممكن؟ أو أنت لم يعد يريحك إلا أن تشرأب إلى المستحيل؟
- أن الذي أطلبه ممكن وممكن؛ بل أنه أكثر إمكاناً من الممكن، فهو كائن وحادث
- في أي عالم كائن هذا وحادث؟ في أي دنيا وفي أي أرض؟
- في أرضنا ودنيانا هذه، ولكن ليس في عالم البشر، وإنما هو عالم الحمير، وفي عالم الخراف، وفي عالم القطط، وفي عالم الكلاب. . . في هؤلاء العالمين وفي غيرهم. هات قطاً من أمريكا، وهات قطاً من أفريقيا، وهات قطاً من أوربا، وهات قطاً من حيثما شئت، واجمعيها في صعيد وانظريها واسمعيها وهي تموء وتقول (نو) ثم قولي لي بعد ذلك أرأيت أنها تتفاهم أم لم ترى؟
. . أما أنا فأقول لك أن كلا منهما يفهم صاحبه، ويعرف ما الذي يريد وما الذي ينزع إليه .
- أن كل قط يراقب حركات صاحبه فيعرف منها الذي يريده
- أخفى القط عن صاحبه ترى أنهما لا يزالان يتفاهمان

- بأي شيء يتفاهمان؟
- بلغة القطط
- وهل للقطط لغة؟ أنا لم أسمع قطاً يقول غير (نو) فإذا فرضنا أنها لفظة فهل يمكن أن يقال عن اللفظة الواحدة إنها لغة؟
- إنها لغة، وإنها لغة كاملة، والقطط في الحياة الطبيعية تقضي حاجاتها جميعها بها، وهي على هذا الفقر والجدب الذي ترينه تحتفظ بمكانة لا بأس بها بين لغات الأرض، فالنسبة بينها وبين اللغة الصينية كالنسبة ما بين 1، 3000 أو 6000 وهو أقصى إحصاء لاقاني للغة الصينية. . . وهذه نسبة تذكر من غير شك وتستحق التأمل من غير شك. . . فليس هيناً أن يكون شعب من الشعوب عتيقاً مثل الشعب الصيني، ولا تتباعد النسبة بين لغته ولغة القطط أكثر من هذا البعد الطفيف. والنظرة التي أنظر بها أنا إلى الشعب الصيني هي نظرة إجلال وإكبار، فأنا مؤمن بأنه شعب مغرم بالقداسة والطهر والاتجاه بالنفس إلى إرضاء سنن الطبيعة المتطورة المرتقية التي سنها الله، وهذه هو السبب في أن اللغة الصينية لا تزال قليلة الكلمات إلى جانب غيرها من اللغات، فإن أهلها لا يحبون الثرثرة ويستغرقون في التأمل طويلاً، يبحثون عن أنفسهم، وهم لا يتكلمون إلا في الضروري من الحاجات، وضرورياتهم الخاطئة قليلة إلى جانب ضروريات غيرهم الخاطئة العاجلة. . .
- إذا وافقتك على أن الميل إلى الصمت والاستغراق في التأمل هما السبب في قلة الألفاظ عند الصينيين فلا أظن أني أستطيع موافقتك على أن التأمل هو السبب في قلة الألفاظ عند الحيوان. . .
- لماذا لا يكون هذا هو السبب. . . أتنكرين على الحيوان أنه يتأمل وأنه يتفكر؟. . . من التعسف الشديد أن نقول هذا، فالحيوان يتأمل ويتفكر، ويبدو عليه ذلك، وإن للحمار والحصان إطراقة بينة ولها معان، وقد أحس بعض الشعراء والأدباء والفنانين الصادقين هذه المعاني فناجوا الحيوان. . . أفكان هؤلاء مجانين فنانين أصحاب خيال؟ طيب، وما رأيك في سيدنا سليمان الذي كان يكلم الطير والدابة. . . أفكان هذا نبياً وكانت هذه معجزة؟ طيب، وما رأيك في مدربي شركات السينما الذين عملوا رن تن تن وغيره من النجوم الحيوانات التمثيل؟ أليس هؤلاء ممن يتفاهمون مع الحيوان؟ إن التفاهم مع الحيوانات ممكن، وإن للطبيعة لغة! وإن من المخلوقات ما لا ينطق إلا ما توحيه الطبيعة من الكلمات والألفاظ وأن منها ما يثرثر، وليته يثرثر فيما ينفع. . . ثقي أن الإنسان لو كان قد صبر حتى تعلمه الطبيعة الكلام لكان قد اهتدى إلى ألفاظ ينادي بها الجماد فيلبيه
- الجماد الجماد؟
- الجماد وما هو اجمد. ألم يقل الله في قرآنه أن هذا القرآن لو قرء على جبل لاندك؟
- والقرآن عربي
- وهل قلت لك إنه لاتيني أو يوناني. . . ولكن أذهبي وأقرئيه على جبل وانظري أيندك أم تندكين أنت؟ أن الذي يدك الجبل هو القرآن العربي لو قرىء بالروح والإرادة
- ولكن اللغة التي كنا نتحدث عنها لغة قلت لي إن لها ألفاظاً
- وهل أنكرت أنا أن هذه الألفاظ عربية؟! إنما الذي أنكره هو أننا ننطق هذه الألفاظ من أعماقنا. . . أقول لك هذا وأذكرك بأن في القرآن ألفاظاً لم يعرفها العرب قبل القرآن
- تريد السندس والإستبرق وما إلى ذلك؟
- لا. فهذه من صنع الناس أيضاً. . . وإنما أريد (كهيعص)، و (حم)، و (يس)، و (طه)، و (الر) وما إلى ذلك. . . هل تعرفين معاني هذه الألفاظ؟
- لقد اختلفوا فيها أيما اختلاف. . . فهل اهتديت أنت إلى معانيها. . .
- ليتني أعرف معنى إحداها، من يبيعني (يس) بليسانس الآداب ودبلوم التربية؟! هاتين الهباءتين اللتين لا تشهدان على شيء إلا على الاطلاع على ما قال القبعثري وما قالت مونتسوري! هف! أريد أن أتكلم يا رب. . . ولكني أحرك شدقي وأصوت فيتعثر لساني في حروف صفها أجدادي بعضها إلى جانب بعض.
هل سمعت حيواناً يتلعثم؟ هل سمعت يوماً ثوراً أراد أن يقول (بع) فقال (كع) او قال (سع) ولكن الناس يتلعثمون فلماذا يتلعثمون؟ ولماذا لا يتلعثمون إلا عندما يلتفتون إلى

أرواحهم وأنفسهم عند التدبر أو عند الحذر؟ أليس ذلك لأن هذه الألفاظ التي نصطنعها ليست من الطبيعة في شيء وأنها تفلت منا ما لم نوجه إليها انتباهاً خاصاً؟ أليس كذلك؟. . .
- إن هذا سبب لا يمكنك أن تقطع بأنه السبب
- أني أعلم هذا، وأعلم أيضاً أن كل ما قلته لك لا يمكنني أن أقطع به، كما أعلم أن القطع به يحتاج إلى تجنيد علماء النفس، وعلماء اللغات، وعلماء كثيرين غير هؤلاء يتقصون ويدرسون ويشاهدون ويجربون ويقضون في بحثهم هذا السنين، وربما القرون. وقد ينتهون إلى تكذيب هذا الكلام وتسخيفه، ولكن ليس معنى هذا أن أحداً من الناس يستطيع منذ الآن أن يرفض هذا الكلام، فرفضه يحتاج إلى تفكير مثلما يحتاج إلى التفكير قبوله، وأن معي من القرائن والأدلة ما يحتاج إلى جهد قبل تحطيمه. . .
- علىّ منها بدليل وقرينة
- أما دليلي على أن للطبيعة لغة تعلمها للناس فإجماع الأطفال في الدنيا كلها على نداء الأب بقولهم (بابا) وعلى نداء الأم بقولهم (ماما). . . ولا تزال اللغات تحتفظ بالباء أو ما يشبهها فيما أطلقت على (الأب) من أسماء كما لا تزال تحتفظ بالميم وما يشبهها فيما أطلقت على (الأم) من أسماء. وأما القرينة. .
- أن الأطفال يقولون بابا وماما لأن الباء والميم حرفان مفرقعان من حروف الشفتين، وحروف الشفتين هي أسهل الحروف وأسرعها إلى الخضوع والانسياق للإنسان طيب، ولماذا لا يخطئ طفل فيقول لأمه (بابا) ولأبيه (ماما)؟ هل يعلمه أحد هذا؟
- الطبيعة تعلمه إياه.
وفي لفظة (ماما) ما يشبه حركة الامتصاص والرضاعة، وإن في لفظة (بابا) ما يشبه الاستنجاد بقوة الأب. . .
- صحيح أو كأنه صحيح. . . وكنت تريد أن تستشهد بقرينة. . .
- نعم. أن الأرض في اللغة العربية أسمها (أرض)، وفي اللغة الإنجليزية أسمها تنطق إرث و (الإرث) في اللغة العربية ما يورث، والإرث في الأديان جميعاً هو الأرض أورثها الله للإنسان. . . واللغة العربية بعيدة كل البعد عن اللغة الإنجليزية، وعلماء اللغات يوسعون الشقة بينهما، فلا بد أن تكون كلمة الأرض علمته الطبيعة للناس اسماً للأرض، لأن هذه التشابه لا يحدث إلا في هذه الحالة، أو في حالة أخرى، وهي أن تكون لغة من هاتين اللغتين قد أخذت هذه الكلمة من اللغة الأخرى وهذا يستبعد أن يحدث في أسم الأرض التي هي أم الناس جميعاً والتي يعرفها الناس جميعاً، والتي لا يمكن أن يظل شعب من الشعوب غافلاً أو عاجزاً عن تسميتها، حتى يأخذ أسمها عن غيره. . .
- وماذا أيضاً؟
- ليس علىّ أن أصل بك إلى نهاية الطريق، بل يكفيني معك أن أشير إليه، فأسعى إذا شئت، ولكل إنسان ما سعى.
- وهبنا وصلنا إلى هذه اللغة الطبيعية التي تقول عنها. فماذا نصنع بها أكثر مما نحن صانعون بلغاتنا. . .
- أول ما يحدث أن ينمحي من الدنيا الكذب، فكلمات الطبيعة لا يلفظها إلا الطبع. . . عندئذ يستطيع الإنسان أن يستمع إلى صاحبه بإذنه فقط، وألا يتفرس في وجهه بعينيه، ليرى مدى ما ينطق كلامه على ما يختلج في نفسه. . . عندئذ سنكشف الأنفس وتخاطب الضمائر الضمائر. . . فإذا قلت لك (هشت). . .
- قلت لك (كش). . .
- فقلت لك (هم). . .
عزيز أحمد فهمي
القصص
بعد الأوان. . .
للأستاذ محمد سعيد العريان
يا الله! وفي الدنيا هذا الجمال؟
فتاة، وما اعرف مثلها فيمن رأيت!
أتراها كانت تعرف أين هي من أحلام فتيان الحي؟

. . .وكان لها من جاه أبيها جمالٌ إلى جمال، فاجتمعت لها أسباب الفتنة والإغراء
. . .ورآها صديقي فتبدل غير ما كان، وأنه لشاب وإنها لفتاة، ولكنها. . . ولكنه
وجاءني ذات مساء وفي عينيه دموع. . . يا لي مما أرى! صديقي يبكي! هذا الذي كنت
أظنه لا يحمل من هم الدنيا إلا مثل ما تحمل نعله من تراب الأرض! يا عجباً!
وفتحت له صدري فآوى إليه، ومضى يحدثني بخبره
(وما يليق أن أبقى اليوم عزباً. . . وقد جاوزت الخامسة والعشرين . . .!)
وابتسمت؛ فما سمعت صديقي يتحدث قبل عن الزواج بمثل هذا الوقار المحتشم. لقد
استطاعت امرأة واحدة أن تحمله على رأي لم يكن واحد من أصاحبه جميعاً يستطيع
أن يحمله على الإيمان به.
. . .ويا طالما قلنا ويا طالما أجاب!
ومضى صديقي في حديثه:
(وأجمعت أمري على أن تكون لي؛ فما يرضيني أن لي بها كلّ متاع الدنيا. لقد وجدتها،
وهي حسبي من دنياي!)
وراح الرسول عن أمري يؤامرها ويرود لي الطريق؛ وكتم عنها أسمي وخبري ومكاني
بين الناس؛ فما كان إلا أن سألته: وكم جنيهاً يقبض في كل شهر؟
وأجابها الرسول بما أجاب، فضحكت ساخرة وقالت: أثني عشر جنيهاً؟ ياله من
عروس! فكم يعطي الطباخ وكم يعطي السوّاق. . .؟
(. . .وعاد إليّ الرسول بجوابها!)
واطرق صديقي برهة، ثم رفع رأسه وشفته تختلج وفي عينيه بريق. وابتسمت ثانية،
وقالت: فما غضبك يا صديقي مما قالت؟ أن لها في الحياة ميزانها الذي تقيس به
أقدار الرجال؛ وأن للحياة موازينها؛ فما ضرك أن تكون في ميزانها ما تكون وأنت أنت.
إن معك الشباب والقوة، وأن لك غداً يبتسم ويرفّ، وإن دماً في أعراقك يتحدث به
التاريخ؛ فهل يخدعك عن كل أولئك أن فتاة تقول. . .؟
وأمسكت عن تمام الحديث؛ فقد رأيت في عيني صاحبي ما قطعني وردني إلى
الصمت!
وعاد إلى حديثه:
(وددت يا صاحبي لو لم يكن كل أولئك وكانت هي. . .؟)
ورأيتني منه على حال لا يجدي معها إلا أن أسكت؛ فسكت! وودّعني صديقي بالوجه
الذي لقيني به، ومضى لشأنه
يا لقلوب الشباب من سلطان الحب!
ولقيته بعد ذلك مرات؛ ولكنه كان شابّاً غير من أعرف
هذا الذي كان لا يعرف من فروض الحياة على الحي إلا أن يبتسم ويضحك، ويعبث بكل
شيء، ويسخر من كل شيء - قد عاد في عبوسه وتزّمته وصرامة نظرته إلى الحياة
خلقاً آخر!
يا عجباً! أين ما صار مما كان؟
تمرُّ به الجملية الفاتنة قد أخذت زخرفتها وأزَّينت، فما تظفر منه إلا بالنظرة العابرة!
ويسمع النكتة البكر تضجّ لها جنبات المجلس بالضحك والتهليل فما تنال منه إلا بسمةً
خاطفة!
وتتداعى أمانيُّ الشباب في معترك الحديث من حوله فما تسمع منه إلا أنةً خافتة!
ويتبارى الفتيان فيما يحكون من أقاصيص الحب وغزوات الشباب فما ترى على وجهه
من دلائل يقظة الوجدان إلا سبْحة لطيفة من سبحات الذكرى، ثم خفقة طرف وخلجة
شفة!
ثم يسمع أحاديث الزواج والخطبة. . . فتراه كما ترى جنديَّاً في إجازة يتلقى أخبار
معركة حربية مظفرة وبينه وبين الميدان أبعاد وأبعاد!
ترى ماذا يتوقع أن يسمع؟
شئ واحد لم يغيِّره الزمن من أخلاق صاحبي: هو سخاء يده؛ فما عرفت في أصحابي
من
قبل ومن بعد أكرم يداً منه بما يملك!
وترادفت الأعوام، ولم يتزوج صديقي. . . ولم تتزوج صاحبته!

أتراها كانت تعلم من خبره ما أعلم؟ ومن أين لها؟. . . أن لصاحبي من الكبرياء ما يمنعه أن يلتمس إليها الوسيلة بعد ما كان. . . وإن. . . وأن الخطاب لتزدحم أقدامهم على بابها فما تعرف كم ردّت بالخيبة والخذلان!

أم تراها تعرف أسمه؟. . . هذا الذي لا تذكر من صفاته - إن ذكرتْ - إلا أنه شاب يبلغ دخله في الشهر اثني عشر جنيهاً، بعث إليها مرة يخطبها فردّته. . . وكم في خدمة الدولة من شبان يبلغ دخلهم ما يبلغ دخله؛ وحسبه هذا تعريفاً بين آلاف من النكرات!

ولكن صديقي اليوم في منصب رفيع. لقد سماه به جده وعمله إلى ما لم يبلغ أحد من نظرائه! أتراه يوازن اليوم بين ماضيه وحاضره؟

لقد مضى منذ تلك الليلة التي زارني فيها صديقي زيارته خمس عشرة سنة!

ياه. . .! ما أسرع ما تمرّ السنون!. . . أين أنا اليوم مما كنت يومئذ؟

لقد كنت يومئذ فتىً في باكر الشباب، ولم يجر حدّ الموسى على عارضه بعد؛ وأنني اليوم لزوجٌ وأب، وإن في رأسي لشعرات بيضاً ما أن يخفيها ميل الطربوش ولا صنعة الحلاق!. . .

وصديقي لم يزل عزباً. . . صديقي الذي كان يخشى أن تفوته سن الزواج، منذ خمس عشرة سنة!

أين هو اليوم؟ وأين حاضره وماضيه؟

لقد ضربت بيني وبينه ضربات الدهر فلم ألقه منذ أعوام. وددت لو أعرف من خبره وخرجت أمس من داري على ميعاد. فأني لفي طريقي إذ لقيته! يا للحظ!

وأقبلت عليه وأقبل عليّ؛ وهممت أن أسأله حين بادرني بقوله: (إنني أدعوك بعد غد إلى داري. . . . . .)

- تدعوني؟ . . .

- نعم، لقد اتفقنا أن يكون الزفاف بعد غد!

- بمن؟

- وهل حسبتني أرضى يوماً أن لي بها كلَّ متاع الدنيا!

إنها هي. . . لقد ضرب القدر بيننا موعداً فلم يخلفه. إن لكل شئ أوانه!

وكما جلس صديقي مني مجلسه ذات مساء، منذ خمس عشرة سنة ليحدثني . . . بخبره - كان مجلسه الليلة مني. . .

وكان في عينيه غير البريق، ولصوته لحن ورنين، وفي عينيه دموع؛ وكانت الكلمات ترتعش على شفتيه؛ لأن فيها نبضات قلب حي. وصعّدت نظري إليه؛ فرأيت في فوديه شعرات سوداء في شعر أبيض، كأنما كانت لتشير إلى أنه مازال هنا بقية من شباب. ومضى صديقي في حديثه. . .

ولم يعد إليها رسولي منذ كان ما كان؛ وما عرفت أسمي ولا جاءها خبر من . . . خبري بعد؛ وكأنما كان يدخرها لي القدر، فلم تتزوج، وأرتد الخطاب جميعاً عن بابها مخذولين، وآن الأوان. . . . . .

هل جاءك يا صديقي أن مرتبي اليوم في الحكومة ثلاثون جنيهاً في الشهر، غير ما أكسب من أعمالي الخاصة؟. . . . . .

وبعثت إليها رسولاً آخر يؤامرها للمرة الثانية. . .)

وضحك صديقي ضحكة مرحة، ثم عاد يقول:

- أتذكر ليلة جلست إليك أحدثك مثل حديث الليلة، منذ. . . منذ كم. . .؟

وقالت للرسول وقال لها؛ ثم سألته: وكم دخل صاحبك في الشهر؟ فأجابها. . . . . .)

وكان القدر قد هيأ أسبابه، فأجابت. . . وزرتها من بعد، وتم الاتفاق!)

قلت لصاحبي:

- فهل عرفت هي أنك أنت أنت،. . . هل عرفت أنك سعيت لخطبتها مرة منذ خمس عشرة سنة فردتك؟

فقال:

(وماذا يعنيني، عرفت أو لم تعرف؟ حسبي إنها اليوم لي؛ وأن ما أرادته قد كان!)

ووجد المسكين تعبير رؤياه بعد خمس عشرة سنة من عمر الشباب، ووجدت تعبير أمانيها. وباعت المسكينة شبابها وشبابه بثمن بخس، حين تأبتْ عليه، ومعه حرارة الشباب ونضارة

العمر وسعادة الحب لترضاه من بعد وهو شبابٌ مدبر، ونجم آفل، وشعلة إلى رماد!. . .

محمد سعيد العريان

من هنا ومن هناك

قيصر ستالين الرهيب

(ملخصة عن مجلة (باريد) الإنجليزية)

كلما مرت الأيام زادتنا اعتقاداً بأن حالة روسيا الاشتراكية اليوم ينطبق عليها المثل الذي يقول: (تتغير وحالها لا يتغير)

ويقول (هارولد وني) في مجلة (نيويورك مجازين): (كانت روسيا القيصرية فيما مضى توصف بأنها ولاية تحكمها طائفة من السفاحين) ووصف كاتب بلاد السوفييت في عهدها الحديث فقال: (هي دولة بيروقراطية يأتمر بها زمرة من الجلادين).

وهذا قول صحيح إلى حد بعيد، إذا أعدنا إلى الذاكرة عملية التطهير الكبرى التي اجترمت في روسيا ما بين عام 1936 وعام 1938. أما اليوم فقد نكون أقرب إلى الدقة والصواب إذا قلنا أن النظام الحكومي الذي تسير عليه روسيا الآن، هو نوع من الحكم الاستبدادي الشرقي القديم

فروسيا يحكمها رجل واحد هو (جوسيف ستالين) ينفذ إرادته المطلقة فيها بطريقة لم تتح للقيصر في جبروته، بل لم يظفر بها هتلر، وذلك أن النظام السوفييتي متوغل في حياة الشعب الداخلية والخارجية، بطريقة لم يسبق لها مثيل في حياة الإنسان

ومن ثم كان من السهل على (الكرملين) أن يعلن الرأي النهائي في السياسة العالمية - ما بين عشية وضحاها - كما فعل في الوقت الأخير إذ أعلن فصم العلاقات الروسية بالأمم الديمقراطية الغربية وارتباطها بألمانيا. ففي مقدور ستالين أن يتصرف كيف يشاء في سياسة روسيا الخارجية. ولا يجسر أحد أن يرفع صوتاً ما بمعارضته بحال من الأحوال

فروسيا وإن كانت تعد من الناحية النظرية أمة ديمقراطية، بعد أن كانت - نظرياً - تحكم حكماً دكتاتورياً بواسطة الطبقة العاملة، فهي في الواقع لم تكن قط هذا ولا ذاك. قد يكون لينين ورفاقه يرمون إلى قيام دكتاتورية من العمال، وقد يكون في دعوى نظام الديمقراطية الروسية عام 1936 شيء من الإخلاص

إلا أن التجارب التي أكتسبها الاشتراكيون بسلطتهم المطلقة قد أقنعتهم بأن الشعب الروسي يجب أن يقاد، يجب أن يقهر ويقبض عليه بيد من حديد. فأصبح لينين دكتاتوراً ولكن بعقله

وأخلاقه قبل أن يكون دكتاتوراً بقوته وجبروته

وقد تولى ستالين الزمام بعد لينين، فصار دكتاتوراً مطلق الحرية أكثر مما كان لينين. ويرجع نجاح ستالين كحاكم مستبد منقطع النظير في العصر الحاضر، إلى خبثه الزائد واستهتاره الذي لا حد له

ولعل قوة البوليس في روسيا هي المصدر الحقيقي لنفوذ ستالين والبوليس الروسي يقوم على نظام لا يتفق مع العقلية الأوربية على الإطلاق، وهو يقوم بأعمال واسعة النطاق في التجسس وسفك الدماء، وتشجع السلطة السوفيتية التجسس بين أبناء الشعب حتى أن الجار في روسيا يتجسس على جاره والشخص يشي بأفراد عائلته،

وقد تصل بلاغات البوليس إلى حد الاختراع ويضيع بسببها كثير من نفوس بريئة فكل إنسان في روسيا اليوم خاضع لستالين، وفي اللحظة التي تقع فيها الشبهة على إنسان يختفي أثره من الجود

على أن ستالين لا تعوزه الوسائل التي يستحوذ بها على الرأي العام في روسيا. فهو يضع تحت يده الصحافة العامة والإذاعة والمسرح والسينما وكل ما عدا ذلك من وسائل التعبير. فإذا أراد أن يطلب كلمة الرأي العام في المساء كانت بين يديه في الصباح بغير كد أو عناء

فإذا نظرنا إلى ضحايا ستالين من النفوس، وإلى اليد الحديدية التي استولى بها على الشعب الروسي أفراداً وجماعات، أيقنا بأن الحاكم المستبد المعروف باسم (قيصر إيفان الرهيب) لم يكن شيئاً إلى جانب ستالين

التحالف الدولي لأجل السلام

(ملخصة عن (وسترن ميل) نيوكاسل)
منذ بضعة قرون خلت خرّبت أوربا، وشطرتها الحروب بإسم الدين وتأثرت نيران القتال بين البروتستانت وبين الكاثوليك في سبيل السيادة والسلطان، وعادت حروب الأسر التي كان يثيرها الملوك والأباطرة، إذ كانت الشعوب تعامل لديهم كالرهائن، فانصرفت إلى تلك الناحية القائمة على التعصب الديني، وصار كل يعمل من جانبه لإيقاع الشر بالآخرين، بدعوى أنه يؤدي واجبه نحو الله، بدفع أعدائه إلى الجحيم وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر، بدأت تظهر فكرة الوطنية، وأخذ التنافس يدب بين الأمم الأوربية في سبيل السيادة فيما وراء البحار، فزالت فكرة الحروب الدينية، وخلفتها حروب أخرى قائمة على الغلبة، والمنافسة في التوسع التجاري، وإفساح الطريق أمام المهاجرين
ومن ثم تغيرت صفة الحرب، فلم تعد آلة لتنفيذ شهوات الحاكمين أو سلاحاً يشهره رجال الدين لنصرة مذهب على مذهب آخر، فهي وسيلة للحكومات الوطنية التي تسعى وراء التوسع والسلطان.
فما هو الدرس الذي يمكننا أن نستخلص من هذا، للحالة القائمة في أوربا اليوم؟ أن المشاغبات الدينية التي كانت تقع في أوربا في القرن السادس عشر، والقرن السابع عشر، أصبح لها مشابه في مبادئنا السياسية اليوم. فالدكتاتورية والفاشية والبلشفية والديمقراطية لكل منها دعاتها المتعصبون لها، الراغبون في فرض نظامهم السياسي على الأمم الأخرى
نحن نؤمن بالديمقراطية، وبل ونحن على أتم الاستعداد للدفاع عن نظامنا الديمقراطي العتيد، ولكنا لا نرى معنى لفرض هذا النظام على أمة أخرى. فنحن على ثقة بأن الديمقراطية سيكون لها الفوز في كل أمة في النهاية، لأنها خير الأنظمة الحكومية وأليقها ببني الإنسان
فإذا كنا نحارب ألمانيا اليوم، فنحن لا نحاربها لقسوة الحكومة النازية وظلمها، فهذا شأن من شؤون الألمان؛ ولكنا نحاربها لاعتدائها على بولندة وتشيكوسلوفاكيا، فإذا رد الشعب الألماني إلى هذه البلاد استقلالها كان من السهل أن نضع يدنا في يده، وأن ندخله معنا في تحالف دولي عام
إن النازية سوف لا تتفق معنا على مثل هذا التحالف؛ ولكن الشعب إذا أعد نفسه لقبول هذه الفكرة التي لا بد منها لإقرار السلام في العالم، لن يقوى هتلر على مقاومته، ولا يقف أمام إرادته، بل يختفي أثره فتذهب مجهوداته أدراج الرياح
كيف نضطلع بأعباء الزواج
(ملخصة عن مجلة (يو))
نحن نقبل الزواج في العادة لأننا نريد أن نشبع في أنفسنا الرغبة في أن نحب وأن نحب، وأن نظفر بالرفقة الطيبة، ونشعر بالدعة والسلام، ونحس في أعماقنا بأننا نعيش كيف نشاء.
تلك هي الأسس التي تدعم في أنفسنا فكرة الزواج وليست الفكرة الجنسية كما يظن بعض الناس. فإذا أتيح لنا أن نشبع في أنفسنا ذلك الشعور المتأصل في أعماقها جاء التوافق الجنسي تبعاً لها ولا محالة
أن الناحية الجنسية ضرورة فسيولجية ولا شك، ولكني أستطيع أن أقول هنا أنني قد تبينت في تجاربي النفسية، وأنا أصغي إلى حديث الزوجات والأزواج وهم يفرغون على أذني ما بدا وما استقر من متاعبهم الزوجية، حقيقة تتأكد لي صحتها كل يوم، وهي أن الدواعي النفسية هي أهم شيء في الزواج. فإذا نبذت هذه الناحية أو مست بسوء أو عدت عليها بعض المتاعب التي تكدر صفاء تلك الرابطة وتحرمها الأمن والسكينة، تبدد التوافق الجنسي تبعاً لها
إن الزوج الذي لا يعرف التبصر في النهار، جدير بأن يجد زوجته عاجزة عن مبادلته الحب في الليل، والزوج الذي تستهين به زوجته وتمتهنه لا يجد سبيلاً إلى أن يشتهيها أو يشتهي أي شيء آخر، وليس العلاج في هذه الحالة عند الطبيب الذي تندفع إليه ليعالجك ببعض العقاقير أو المحامي الذي تلجأ إليه ليضع حداً بينك وبين زوجك، ولكن العلاج هو حسن التفاهم الذي يظهر بمرور الأيام فيزيل ما في النفوس من الآلام ويمحو ما يخالجها من النزق وقلة الانسجام. وخلاصة القول أننا جديرون في هذه

الحالة بأن نجعل الزواج متفقاً بقدر الإمكان مع الحاجات النفسية التي يريدها كل من الآخر

البَريدُ الأدَبي

عودة إلى المسرح

قلت في مقالي السابق في المسرح (335) إن الفرقة القومية إذا أصرت على أن تتجافى عن الفن السليم الرقيق - ولا أقول الخالص بعد - فلتهجر إلى شارع عماد الدين تنافس فيه ما تشاء.

فهنالك معترك المسرحيات الرثة. و (لويس الحادي عشر) من البضاعة المبتذلة. وإن خطر لك أن تستوحش من ناحيتي فتتوجس مني التشدد، فخذ حكم ناقد بصير من نقاد المسرح في فرنسة وأسمه لوسيان دوبيك و (لويس الحادي عشر) من تأليف ك. ديلافني وهو فرنسي؛ وفي فرنسة برزت تلك المسرحية، وأديت غير مرة.

يقول دوبيك في مؤلفه الضخم: (التاريخ العام المزوّق للمسرح) (باريس 1932 ج 5 ص 45 ي ي): (أن مسرحية الحادي عشر ليست بأحسن من أرذل المآسي الابتداعية (الرومنتيكية)). ثم يبين دوبيك مقدار فساد المسرحية من جهة حقيقة التاريخ وحبك الموضوع ونسج المشاهد

تلك هي قيمة المسرحية، وهي من نوع المأساة المفرطة الملفَّقة تلفيقاً وأما تأديتها على مسرح الأوبرة فلولا براعة الأستاذ جورج أبيض واقتصاده في الأداء، في الفصل الأول والثاني، لانقلبت المسرحية كلها (مهزلة) وضربت إلى لون التهريج وقد لمس النظارة ذلك اللون في الفصل الثالث إذ غالى أبيض في الرجفان واللهاث والحشرجة والتضوّر.

وأثار هذا المشهد من حولي الضحك الفاتر، فحمدت الله على أن زمن طلب الانتفاض الرخيص قد وّلى. وكأني بالأستاذ أبيض - مع إكباري لمسعاه - عزّ عليه أن يترك في ذلك الفصل طريقته الأولى، وقد فاته أن الذوق يسيل ويتحول

وفي الإخراج نفسه مآخذ. من ذلك موقف الأستاذ حسين رياض في حجرة الملك، فأنك تراه ينوي اغتيال الملك فيصيح صياح الذبيحة - كأنه يغالب أبيض في المغالاة - وخلف باب الحجرة حراس كماة ساهرون. إن ذلك الموقف يتطلب الهمس المضطرب والقرّ في الأذن؛ وذلك آخذ للأعصاب من الصياح والولولة. ومن المآخذ أيضاً أن كراسي المخدع كانت منجدة تنجيداً، والمتعارَف أن فن الأثاث في عهد لويس الحادي عشر - أي قبل تأثير الفن

الإيطالي ' في بقايا فن القرون الوسطى - يجهل الفُرُشَ المنجدة، بل يطرح الطارح على المقاعد المختلفة نمارقَ وُبسُطاً ووسائدَ.

ومن المآخذ أيضاً على المخرج لم يُفد من الدَّرَجِ القائم في منتصف الحجرة، المؤدي إلى مخدع الملك. فإنما على ذلك الدرج كان يحسن بالمغتال أن ينقضّ على الملك. وهكذا يكون الانقضاض من علٍ، ويكون الصراع، مع ما يليه من تقلب الملك على الأرض، بيِّناً للنظَّارة

أضف إلى كل هذا أن نفراً من الممثلين لم يحسنوا الإلقاء ولا تنغيم الكلام. ويحزنني أن أخصص فأذكر الآنسة فردوس حسن والأستاذ زكي رستم

بقي أن في الفصل الثاني مشهداً لطيفاً. وهذا المشهد إلى نوع المهزلة قريب، والمهزلة فن نحكمه في مصر، ولذلك يستغيث به المخرجون عندنا لعلمهم أنه عمود النجاة

وهنا ألتفت إلى الأستاذ فتوح نشاطي الذي أخرج منذ عودته من باريس مسرحيتين: الأولى (تحت سماء أسبانية)، وأظنني قلت في تأديتها قولاً حسناً؛ والثانية (لويس الحادي عشر).

ألتفت إلى الأستاذ فتوح نشاطي أصارحه بأني أراه يخرج مسرحيتين يعرف أنه يظفر من ورائهما بالنجاح السهل، إذ أنهما من النوع الذي يرضي من قلت درايته وجفت ثقافته. وهذا نوع يلوذ بالتأثير المباشر والحادث النفّاض، فضلاً عن إغراقه في الأبتداعية الكريهة. ومتى نتخلص منها؟ ألا قد حان الزمن يا أيها الناس!

وكم كنت أود أن أرى الأستاذ فتوح نشاطي يهمس في أذن الأستاذ أبيض: أتريد أن تمثل لويس الحادي عشر، فأعدل عن تلك المسرحية البالية التافهة إلى إحدى

مسرحيتين لبول وأما الأولى فعنوانها (لويس الحادي عشر الرجل الشاذ) , وقد برزت على مسرح (الأوديون) سنة 1921. وأما الثانية فعنوانها (أصفياء الملك لويس الحادي عشر)
وقد برزت على مسرح (الكوميدي فرانسيز) سنة 1926. فهنا تصيب اللطف والنسق فضلاً عن الجدّة والروح الشعري
إن الأستاذ نشاطي أنطلق إلى باريس وأقام بها سنة ونحو سنة ليقفل وبين يديه الطرائف وبين جناحيه ولع بالفن الرقيق
أمنية أرقب من يحققها: جماعة أو فرقة أو شعبة للفن الخالص، الفن الطالع
بشر فارس
نهج البلاغة أيضاً
إلى الأستاذ الكبير النشاشيبي
قرأت بلهفة شديدة فتواكم الأدبية على استفتاء السائل العراقي حول نسبة (نهج البلاغة) وذلك قبل أن أسبر موضوعات الرسالة الغراء، لظني أن جواب حجة الأدب وأعلم الناس بمراجع هذا البحث، كما أتفق على ذلك السائل وخصومه، سيكون شافياً كافياً. ولكن مع الأسف لم يكن كذلك، لأن الأستاذ اكتفى بترجيح قول المنكرين بلا مرجح حيث لم يدعم فتواه بالدليل والبرهان شأن غيره من أهل البرهان وفرسان الأدب وحجاجه. كما أن إحالة السائل ومناظريه على كتابيه حفظه الله (كلمة في اللغة العربية) و (الإسلام الصحيح) غير كافية للحكم.
ثم أن قول حجة الأدب (أن نهج البلاغة من كتب إخواننا الإمامية وهو مجموعة مصطفاة إن لم يحبره سيدنا عليّ (رضي الله عنه) فقد انتقاه وحبره علويين كما زخرف محدثون (كل حزب بما لديهم فرحون)) قول مجرد لا يقنع الخصم. وكان الأجدر بأعلم الناس بمراجع هذا البحث المهم أن يزيح العلة ويشفي الغلة بما لديه من حجج وبراهين وإن كانت التي أوردوها في كتابيه (كلمة في اللغة العربية والإسلام والصحيح) ذلك ليكون القراء على بينة من حقيقة هذه الدعوى وحجة الفتوى التي اضطرتني إلى أن أطلب إلى الأستاذ الحجة وألتمس منه تنويري وأرشاد طلاب وهواة التاريخ بإيضاح النقاط التالية:
1 - من هم العلويين الذين حبروا مجموعة كتاب (نهج البلاغة) المصطفاة، لأن كلمة المنكرين تكاد تتفق على أنه واضعه هو الشريف الرضي وحده بلا معين ولا شريك
2 - هل يقصد بكلمة العلويين الذين يمتون إلى عليّ بصلة النسب أم بالمبدأ والتشيّع له؟
3 - هل تمت مجموعة النهج في عصر واحد أم في عصور مختلفة مع بيان الأسباب والدواعي لوضعها على قدر المستطاع
4 - ما قولكم دام فضلكم فيما أثبته المؤرخون وجهابذة الأدب من قدماء ومتأخرين من غير العلويين في صحة نسبة أغلب المجموعة المصطفاة لسيدنا عليّ كرم الله وجهه
5 - إرشادنا إلى الخطب التي تثبت صحة نسبتها لأبي الحسين عند الأستاذ
6 - إذا عسر على حجة الأدب أن يزيل عنا الإبهام الوارد في جوابه الذي أجاب به السائل العراقي والمنحصر في النقاط المتقدمة، فإلى من تنتسب مجموعة (نهج البلاغة) وهو الكتاب العظيم بعد كلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم. هذا ما نود من صميم الفؤاد ألا يضن حضرة الأستاذ بإعطاء الجواب الشافي عليه، وبذلك يكون قد أسدى خدمة جليلة جديدة للأدب العربي الصحيح.
(بعضوية - عراق)
توفيق الفكيكي
في معنى بيت وإعرابه
قال أعشى قيس في مطلع قصيدته في مدح النبي صلى الله عليه وسلم:
ألم تَغتمِض عيناكِ ليلة أرْمَدَا ... وبت كما بات السَّليم مُسهَّدَا
فقال النحاة: إن (ليلة) فيه ليس منصوباً على الظرفية، لأنه يكون المعنى على ذلك ألم تغتمض عيناك في ليلة أرمد، وهو الذي يشتكي عينيه من الرمد، وذلك معنى فاسد، وإنما هو منصوب على أنه مفعول مطلق، والمعنى عليه: ألم تغتمض عيناك اغتماض ليلة أرمد، أي اغتماضاً يشبه اغتماضه، فحذف المصدر المضاف إلى الليلة

وأقيمت مقامه، فصار إعرابها كأعرابه
وقال صديقي العالم العلامة أبو رجاء في تعليقاته على سيرة أبن هشام: هذا الذي ذكره النحاة مبنى على ان (أرمد) صفة معناها الذي أصابه الرمد، والألف فيه ألف إطلاق، وعندي أن خيراً من هذا كله أن يكون قوله (أرمدا) فعلاً ماضياً مسنداً إلى ألف الاثنين التي تعود إلى قوله (عيناك) وعليه يكون ليلة منصوباً على الظرفية. قال الفيومي في المصباح: (رمدت العين من باب التعب وأرمدت بالألف لغة) ويكون قد حذف تاء التأنيث من الفعل المسند إلى ضمير المثنى المؤنث
وقد تكلف صديقي أبو رجاء هذا الإعراب بناء على تلك اللغة التي ذكرها المصباح، وعلى أن الفعل المسند إلى ضمير المؤنث المجازي يجوز تجريده من التاء في ضرورة الشعر.
ولو أن الأمر يقف عند هذا لسهل الخطب، ولكن المعنى الذي أراده الأعشى لا يتفق مع هذا الأعراب، وهو معنى متقرر عند الشعراء لا ينفرد به الأعشى وحده، وقد ورد في قول أمرىء القيس بن عانس الكندي:
تطاوَلَ ليلك بالأثمُدِ ... ونام الخَليُّ ولم تَرْقُدِ
وبات وباتتْ له ليلةٌ ... كليلة ذي العائر الأرمد
فالأعشى يريد هذا المعنى الذي صرح به أمرىء القيس، وهو ظاهر جداً في أعراب جمهور النحاة، ولا يريد الأعشى أن عينيه اغتمضتا في ليلة إرمادهما، لأنه لم يكن في موقف الشكوى من هذا، وإنما كان في موقف النسيب الذي يبتدأ به القصيد، وهذا ما قررته لطلابي في القسم العام بالجامع الأزهر عند موضعه من المفعول المطلق
عبد المتعال الصعيدي
في عيد القاهرة الألفي
مما عنيت به الجمعية الجغرافية الملكية - لمناسبة عيد مدينة القاهرة الألفي - إصدار كتابين عن المدينة، أحدهما باللغة الفرنسية، وهو يتناول الكلام عنها منذ نشأتها إلى ما قبيل حملة نابليون، كما رآها الرحالون الأوربيون. وقد أضطلع بتأليفه الأساتذة: فييت ومونييه ودوب؛ وأتموا جانباً كبيراً منه.
وسيضم هذا الكتاب الأحاديث الممتعة التي كتبها عن القاهرة كثير من الرحالين الذين زاروها حين كانت أغنى مدن الشرق وأعظمها أتساعاً. ويشتمل إلى هذا، على وصف معالمها والمراسم التي كانت تجري في استقبال سفراء الدول الأوربية في بلاط السلاطين والخلفاء.
وأما الكتاب الآخر، فيتناول موضوع (القاهرة عند الرحالة الشرقيين)، وسيصدر باللغة العربية، وقد أخذ في تأليفه الدكتور زكي محمد حسن والنقيب عبد الرحمن زكي، وهو يتمم الكتاب الأول.
وستعرض الجمعية نموذجاً كبيراً مجسماً لمدينة القاهرة بدئ بعمله منذ حوالي عشر سنوات بفضل رعاية المغفور له الملك فؤاد.
وقد أتمه المختصون في مصلحة التنظيم فجاء مشتملاً على كل مبنى وشارع وبيت في المدينة.
وكذلك تعرض الجمعية مجموعة كبيرة من المصورات الجغرافية والمستندات واللوحات والصور التي تتعلق بعاصمة البلاد وتاريخها في مختلف العصور.
إلى الأستاذ الجليل (ق)
اطلعت في الجزء (340) من الرسالة الغراء على مقالكم القيم (قد لا يكون) وفيه سقتم شواهد على صحة توسط (لا) النافية بين (قد) والفعل. وأنه لعمل عظيم تضيفونه إلى ما أسديتم إلى قراء العربية من أياد يشكرونكم عليها. . .
غير أنه لفت نظري نقلكم هذه العبارة من كلام العكبري - أن قد صدقتنا - أن مخففة من الثقيلة واسمها محذوف وقيل: أن مصدرية (وقد لا تمنع) من ذلك إلى منتهى كلام العكبري.
فأنت ترى معي يا سيدس الفاضل أن (قد) في كلام العكبري مبتدأ خبره قوله: (لا تمنع من ذلك) أي أن وجود (قد) في الكلام لا ينافي أن تكون (أن) مصدرية. فليس مما أنتم بسبيله.
وتقبلوا تحياتي وإجلالي

عوص السيد السمل
ويل للحقائق منا
في العدد (339) من الرسالة الزهراء كتب الدكتور زكي مبارك - وإن يكن أخفى اسمه فقد نم عليه أسلوبه - مقالته (نميمة الأسلوب) وفيها يلوم زمانه وأهل زمانه، ثم يقارن بين حاله وحال النبي أيوب شيخ الصابرين فيقول: (وأين فجيعة أيوب في دنياه من فجيعتي في دنياي؟. . . كان الدينار لعهد أيوب يمون الرجل شهراً أو شهرين، وأنا في عهد يهان فيه الرجل إن اكتفى بالدينار يوماً أو يومين، فمن يسلطني على دهري فأسجل رزاياه على نحو ما صنع أيوب؟)
وفي العدد (340) كتب أستاذنا الزيات آيته: (هل خصب الأرض يستلزم جدب القرائح) فكان مما قاله فيها: (تستطيع أن تقول إن مصر في جملتها بلد غني، يؤتى أكله كل حين بيسير من الجهد وقليل النفقة، فأهله آمنون من موت الجوع، لأن الفقير يملك أن يمسك
روحه بنصف قرش! وما أيسر ما يجد قرشين في اليوم بالعمل الحقير أو السؤال . . .!(الملحف
هذا قول الزيات وذلك قول مبارك، وبينهما التناقض الواضح، لأن الفقير عند الزيات يضمن قوته بنصف قرش، فلا يصعب أن يضمن الغني قوته بقروش. . . ولكن المبارك يوهمنا بأن المكتفي بيننا بالدينار بنفقه في اليوم أو اليومين مهان محتقر!
. . .فأين يقف القراء المساكين من هذين القولين؟
أصرح برغم صداقتي بالدكتور مبارك أن هواي مع أستاذي الزيات، وفكري يميل حيث مال فكره العبقري، والصداقة شيء والرأي شيء آخر يا دكتور . . .
ولقد كان الأستاذ عزيز فهمي المداعب المدقق البارع موفقاً حين أزال عن الدكتور مبارك (مكياجه) و (رتوشه) فقال ساخراً متهكماً: (أن الكاتب من الكتاب الذين يشعرون بأن الإنسان يهان إذا اكتفى بالدينار في اليوم أو اليومين. . . فهو من غير شك قد رحمه الله من إهانات يا لها من إهانات لو لم يكن ينفق الدينار في اليوم أو في اليومين. . . كان الله في عون الكتاب وغير الكتاب من أبناء اليوم الذين ينفقون الدينار في الأسبوع أو في الشهر أو في العام. . . إن هؤلاء هم الأيوبيون - لا الأيوبون يا أستاذ عزيز! -)
سامحك الله يا دكتور مبارك وغفر لك قولك!. . . إذن ألف رحمة وحسرة على كثير من الأدباء في مصر لا يجدون الخبز الأسود إلا بشق الأنفس، وقد ينفقون القرش - القرش لا الدينار يا دكتور! - في اليوم أو اليومين!. . . إذن ألف أسف لذلك العدد الضخم من الكتاب والصحافيين الذين تتلقفهم المقاهي وتتلاعب بهم الأندية أو الطرقات، وهم إلى الصعاليك والمشردين البؤساء أقرب منهم إلى الكتاب والأدباء!. . .
إنك سعيد ومحظوظ ومحسود يا دكتور، أنك تعتبر نفسك مهاناً لأنك تنفق في اليوم أو اليومين - على الأكثر - ديناراً بأكمله. . . يكاد قلمي أن يسطر عبارة لوم واتهام لك، إذ تسبح في بحار النعيم وتخطر في فردوس الغنى، وأمامك الكثير من إخوانك تصرخ أمعائهم جوعاً، وأجسامهم ضنى ومرضاً؛ وأنت لا ترق ولا تلين، فتعطيهم ما يفضل من دنانيرك من قروش ومليمات!. . . ثم لا تكتفي بذلك، بل تذهب فتغالط وتشكو وتتألم!!. . . ويل للحقائق منا يا دكتور!. . .
(كلية اللغة)
أحمد جمعة الشرباصي
أعراب جملة
سيدي الأستاذ الكبير صاحب الرسالة الغراء
في الوسط الأدبي الذي أعيش فيه خلاف على أعراب الجمل الآتية وما في حكمها:
يريد أن يعرب البيت فيعجمه
يريد أن ينجح فيرسب
يريد أن ينهض فيكبو
فهل (الفاء) للعطف فينصب ما بعدها؟ أن يكن ذلك فإن الإرادة تنسحب إلى الفعل الثاني، ومدلوله غير مراد. فلإعجام والرسوب والكبو غير مقصود

وإن لم تكن الفاء للعطف فما معناها وما عملها في الجملة؟
(ديروط)
ع. مصطفى
الوحدة المذهبية في شمال أفريقيا
جاء في الرسالة الغراء بعدد 336 من مقال الأستاذ أبي الوفا بعنوان: (شمال أفريقيا والأستاذ الحصري) العبارة التالية:
أما الوحدة المذهبية فالمغرب من أقصاه لأقصاه على مذهب إمام دار الهجرة مالك) بن أنس وليس فيه طوائف دينية كالرافضة والأباضية وغيرهما (كذا) من بقية الفرق الدينية التي توجد كثيراً في بلدان الشرق العربي والإسلامي
إن مقال الأستاذ يشعر أن الأباضية ليسوا من الفرق الإسلامية. والذي يلفت النظر أن مقاله هذا جاء عقب قوله: (وليس في المغرب أقليات دينية سوى أقلية ضئيلة من اليهود)
كان الأولى بالأستاذ أن يقول بدل جملة الطوائف الدينية:
وليس فيه (أي شمال أفريقيا) مذاهب إسلامية أخرى كالمذهب التي توجد كثيراً. . . الخ.
أما نحن فلسنا الآن بصدد الرد على الأستاذ أبي الوفا لقوله بعدم وجود أباضية بشمال أفريقيا، لأني أعتقد أن العلامة الأستاذ أبا إسحاق اطفيش نزيل القاهرة الآن، وهو من جلة علماء الأباضية بشمال أفريقيا لن يسكت عن الجواب وإيضاح الحقيقة لمن يتجاهل أو يجهل وجود الأباضية المسلمين بشمال أفريقيا بأهم مدنه من طرابلس الغرب وتونس والجزائر ووادي ميزاب وغيرهن من المدن المشهورة، من أقدم التاريخ حتى الآن وإلى ما شاء الله من الزمن، وحسبهم مفخرة تمسكهم بالعروة الوثقى من الدين الإسلامي الصحيح
الحق أن النزعة الإسلامية المتأصلة في قرار نفوسنا تضطرنا لإصلاح أغلاط إخواننا فينا. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل والسلام عليكم
أحمد الكندي
مراقب بعثة سلطنة مسقط - عمان
القصص المدرسية
أخرج الأساتذة سعيد العريان، وأمين دويدار، ومحمود زهران، حلقة جديدة من سلسلة القصص المدرسية التي يوالون إصدارها منذ سنين، ليسدوا النقص البادي في أدب الأطفال العرب؛ وهذه الحلقة الجديدة هي مجموعة من أربع قصص في 160 صفحة: اثنتان منها لكبار التلاميذ في المدارس الابتدائية، والاثنتان الأخريان على المنهج الجديد لتلاميذ السنة الأولى في المدارس الابتدائية لدروس القصص، ورياض الأطفال والقصص الأربع مكتوبة بأسلوب سهل ممتع، معروضة عرضاً فنياً بليغاً يشوق الطفل ويلذه، ويقدم له الفائدة في أسلوب رشيق طلي
وثمن القصص الأربع جميعاً عشرة مليمات
فنرجو أن ينتفع تلاميذ المدارس الابتدائية، ورياض الأطفال بهذه المجموعة الجديدة من القصص المدرسية، وأن يجد مؤلفوها من التشجيع ما يعينهم على الاستمرار في هذا الباب الجديد من أبواب الأدب
رسالة النقد
كتاب (الإمتاع والمؤانسة)
أتحدث إلى القراء عن طرفة من أثمن طرائف الأدب القديم يعد ظهورها في هذا العصر من خير ما أثمرت المطابع المصرية من كتب الأدب الرفيع، كما يعد الاتجاه إلى نشرها من أحسن ما وقفت إلى التفكير فيه لجنة التأليف والترجمة والنشر، على كثرة ما وفقت إليه في تفكيرها. وتلك الطرفة النفيسة هي كتاب:
(الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي)
وإنك لتقرأ هذا الكتاب من أوله إلى آخره، فيملأ نفسك روعة، قبل أن يروعك أدب مؤلفه الفذّ بما تراه فيه من براعة الحسن في جودة طبعه، ودقة في تصحيحه، وصدق النظر فيه، وكمال العناية بكل لفظ من ألفاظه.
وقد قرأت الجزء الأول من هذا الكتاب، وكنت قد اطلعت على عدة صفحات من

نسخته الأصلية المأخوذة بالتصوير الشمسي المحفوظة بدار الكتب المصرية، وهي النسخة والوحيدة لهذا الجزء رغبة في تتميم بعض البحوث عن مؤلفه أبى حيان التوحيدي، وإذا بي أرى جميع سطورها مغمورة بالتصحيف والتحريف، والنقص والزيادة؛ فلا يهتدي الساري في ظلمات هذه النسخة إلا بمصباح قوي من الأدب القويم، والذوق السليم، والمران الطويل، والصبر الذي لا يعرف الضجر.

وقد بعثني على تناول الكتاب من هذه الناحية مقالان قرأتهما في مجلة الرسالة للدكتورين زكي مبارك وبشر فارس تغاضيا فيهما كل التغاضي عما ملئت به صحفه من حسن وإحسان رائعين، وأغفلا كل الإغفال تلك الجهود القوية الملموسة في كل ناحية من نواحيه، وشغلا بعدة كليمات تافهة قد تسقطاها في هذا الكتاب، زاعمين في بعضها زعماً لم يؤيده الواقع في شيء أن مصححيه الفاضلين قد فاتهما تصحيه أو شرحه، وفي البعض الآخر منها أنهما قد صححاه تصحيحاً أو شرحاه شرحاً لا يلائم الصواب.

وقبل أن أتحدث إلى القراء عن هذين المقالين أريد أن أنبههما وأمثالهما من النقاد إلى أنه لا ينبغي أن ينشر في الصحف في نقد أي كتاب إلا ما يتعلق بقيمته الفنية ومنزلته بين أشباهه من الكتب، والمميزات التي تميز بها عن غيره من المؤلفات في فنه، وما كان يفقد هذا الفن

لو أن هذا الكتاب لم ينشر، والفائدة التي تعود على القارئ من قرأته، ثم الحديث عن مؤلفه ومنزلته بين أشباهه من علماء هذا الفن، والباعث له على تأليف هذا الكتاب؛ وما إلى ذلك من الأمور التي تعني جمهور القراء عامة دون فرد أو أفراد

أما تلك الأمور التصحيحية التي تعتبر من جزيئات الجزيئات والتي لا يعنى بها غير مصحح الكتاب وحده دون غيره من القراء، فإن نشرها في الصحف ليس مما تقتضيه العقلية العلمية

وذلك كأن يذكر الناقد كلمة محرفة - في زعمه - بين ملايين من الكلمات الصحيحة، أو حرفاً معجماً حقه الإهمال، أو مهملاً حقه الأعجام بين ملايين الحروف التي روعي إعجامها وإهمالها، أو نقطة في موضع شولة، أو العكس، أو قوسين وضعا موضع خطين، أو خطين وضعا موضع قوسين، أو تفسير كلمة قد استظهره مصحح الكتاب، ثم بدا للناقد تفسير آخر، فإن أمثال هذه الملاحظات لا تساوي ما يبذل فيها من ورق ومداد. وأيضاً فأنه لا يمكن قراء هذه الملاحظات في الصحف معرفة صوابها من خطئها، ولا تميز حقها من باطلها، إذ لا يمكن ذلك إلا بقراءة الملاحظة، ثم مطالعة موضعها في الكتاب وأصله معاً حتى يتبين للقارئ صواب النقد من خطئه، ولا يتأنى ذلك لقراء الصحف غالباً كما هو معروف

وأولى بهذا الصنف من النقاد أن يبعثوا بجميع ملاحظاتهم التي من هذا النوع إلى مصحح الكتاب ليدرسها ثم يستدركها في الطبعة الثانية إن كانت مما يستحق الاستدراك، كما فعل الأستاذ محمد على بك في ملاحظاته على الكتاب الذي نحن بصدده، فإنه بعث بها جميعاً إلى الأستاذ أحمد أمين مختتمةً بعبارات الإعجاب والتقدير والشكر، وقد نشرها الأستاذ أمين في آخر الجزء الأول من هذا الكتاب مقدمة بالشكر الجزيل والثناء الجميل على صاحبها

وبعد، فالمطلع على هذا النقد اطلاعاً منصفاً يرى أنه - على طوله واتساع كاتبيه في شرحه وتبرير ما فيه من الملاحظات - يرجع في جملته إلى اختلاف وجهتي النظر بين المصحح والناقد، والتباين في ذوقيهما أكثر مما يرجع إلى حقائق علمية أو نصوص ثابتة، ولا يعترض بنظر على نظر ولا بذوق على ذوق

ومن أمثال ذلك ما أطال به الدكتور بشر في مقاله من ذكر شولات ونقط، وما إلى ذلك مما

يسمه أرباب الطباعة بالترقيم وضعت في غير مواضعها من عبارات الكتاب كما زعم، وقد استغرق منه هذه الإحصاء قرابة نصف صفحة من مقاله؛ ولم يدر أن هذا الترقيم إنما يمليه الذوق وحده، ولا يرجع وضعه إلى قواعد ثابتة إلا في رسم العلامات؛ فربما قرأت عدة عبارات فتفهم أن بعضها متصل ببعض، فتضع بينها شولات؛ ثم يقرؤها آخر فيفهم أن بينها اتصالاً من ناحية وانفصالاً من أخرى فيضع شولة منقوطة وهكذا، وكلا الفهمين صحيح لا يعترض بأحدهما على الآخر

وقلّما رأيت مصححاً قرأ صفحة ووضع هذه الفواصل بين عباراتها حسب ذوقه في فهم

الكلام، ثم عرضت على آخر بعده فوافقه على ذلك؛ بل لا بد أن يجري قلمه في هذه العلامات بالمحو والإثبات حسب ذوقه هو أيضاً؛ وكذلك لو عرضت هذه الصفحة على ثالث ورابع

وأشهد لقد حسدت الدكتور بشر أشد الحسد على ما منحه الله من أتساع الزمن ورحابة الصدر وقوة الصبر وطول البال حتى استطاع أن يفرغ لتسقط هذه العلامات التافهة الضئيلة والتقاطها من كتاب كهذا فيه الألوف منها

ومن هذه الأمثلة أيضاً ما سماه (تباعداً عن سياق النص) في عبارة أوردها من كلام المؤلف يخاطب الوزير أبا عبد الله العارض قال (أي التوحيدي): (فقلت قبل: كل شيء أريد أن أجاب إليه يكون ناصري) الخ. وقد فهم مصححا الكتاب من هذه العبارة أن التوحيدي يريد من الوزير أن يجيبه إلى كل شيء يريده، ليكون ذلك معيناً له وناصراً على ما يريده الوزير من الإمتاع والمؤانسة بمجلس التوحيدي؛ وقد ضبطا تلك العبارة على هذا الوجه تبعاً لما فهماه منها، وهو فهم صحيح لا غبار عليه ولا مطعن فيه

وقد رأى الناقد أن تضبط العبارة هكذا: (فقلت قبل كل شيءٌ أريد أن أجاب إليه) ألخ فاهماً أن أبا حيان يريد إلى الوزير أن يجيبه إلى شيء واحد قبل إمتاعه ومؤانسته، وهو فهم صحيح أيضاً مع شيء من الضعف، ولا يعترض بفهم على فهم كما قدمنا

وإذا بحثنا كلا الفهمين وأردنا الترجيح بينهما وجدنا أن الفهم الأول أليق بحال أبي حيان مع الوزير أبي عبد الله كما يتبين ذلك من ثنايا كتابه

وأيضاً فلا شك في أن إرادة أبي حيان من الوزير أن يجيبه إلى كل شيء يريده خير من أن يريد منه الإجابة إلى شيء واحد.

ومنها ما سماه: (تجافياً عن أسلوب الكتاب) وما أكثر الأسماء لديه وأقربها إلى قلمه! وذلك أنه رأى عبارة من عبارات الكتاب مختتمة بكلمة: (تجدُّها) وبعدها عبارة أخرى مختتمة بكلمة: (تمدُّها)

هكذا ضبط المصححان الفاضلان هاتين الكلمتين

وقد رأى حضرة الناقد أن الأفضل في ضبط الكلمة الأخيرة (تُمِدها) بضم التاء وكسر الميم، معللاً ذلك بأن الازدواج الذي ألتزمه المؤلف في كتابه لا يتم إلا بالتوافق التام بين (تجدُّها) و (تمدها) في جميع الحركات

ولو تفضل حضرته فألم إلماماً يسيراً بقواعد السجع والازدواج في فن البديع، لرأى أنهما يتمان على أكمل وجه وأحسنه بدون هذا التطابق الدقيق في جميع الحركات والحروف، والتزام الدقة في ذلك يعدُّ من لزوم ما لا يلزم، إذ السجع في هاتين العبارتين تام لا عيب فيه وأن لم يتطابق اللفظان في جميع الحركات

على أن المؤلف لم يلتزم في جميع كتابه تلك الدقة في الازدواج والسجع، بل أن كثيراً ما يكتفي باتفاق أواخر العبارات في الوزن وإن لم تتفق في الحروف، بل قد يغفل الازدواج والسجع إغفالاً تاماً

ومنها ما سماه: (تركا للغامض على حاله من الغموض والإبهام) وقد أورد من ذلك عبارة ذكرها التوحيدي في معرض الحديث عن صيانة النفس والقناعة وصعوبتهما على الإنسان، وشدة احتمالهما، والمشقة الشديدة في التخلق بهما، فقال ما نصه: (وصيانة النفس حسنة إلا أنها كلفة محرجةٌ إن لم تكن لها أداةٌ تجدّها، وفاشيةٌ تمدُّها، وترك خدمة السلطان غير الممكن، ولا يستطاع إلا بدين متين) ألخ. وقد خفي على الناقد الفاضل معنى قوله: (وترك خدمة السلطان غير الممكن) ألخ، فألح في السؤال عما يريد المؤلف بهذه العبارة، وهي عبارة في غاية الوضوح والبيان لا تحتاج إلى توضيح؛ وتوضيح الواضح أكثر مشقة من توضيح الخفي المبهم

يريد المؤلف بهذه العبارة أن صيانة النفس وإعزازها عن مواطن المذلة للملوك والأمراء والعزوف عن خدمتهم، كل ذلك غير ممكن، لما تقتضيه ضرورات العيش وحاجات الحياة؛

ولا يستطيع ذلك إلا من عمر الدين المتين قلبه، وملأت الثقة بالله نفسه. وبعد فإن لنا نصيحة نريد أن نسرها إلى الناقد الفاضل، وهي أنه ينبغي لمن يقدم على نقد كتاب كالإمتاع والمؤانسة أن يكون لديه إلمام يسير بأوليات قواعد النحو، فيعرف حكم الفاعل ونائبه، وبماذا يرفع المثنى والجمع، وما إلى ذلك، وإلا رد نقده عليه، وكان حديثه عن الكتب منه وإليه

قال مؤلف الإمتاع والمؤانسة في تفسير معنى الخَلَق بفتح الخاء واللام ما نصه: (وأما قولهم: هذا شيء خَلَق فهو مضمَّن معنيين) الخ

وقد ذكر الناقد هذه العبارة وكتب تحت قوله: (مضمَّن معنيين): (كذا) حاسباً أنه قد ظفر بغلطة شنيعة؛ يريد حضرته أن في قوله: (معنيين) غلطاً نحوياً! وكان الصواب في نحوه هو: (معنيان)! فما أرى سيبويه والخليل والفراء والكسائي ومن إليهم من أئمة العربية في هذا النحو الجديد؟!

وهل في قواعدهم أن للفاعل نائبين: نائب أصيل ونائب مساعد كما لبعض وزارات الحكومة وكيلان: أصيل ومساعد؟!

ألا يعرف الأستاذ أن ضمّن يتعدى إلى مفعولين؟

الحق أن تلك الزلة تهدم مقاله من أساسه، وتجعل صاحبها غير أهل لنقد كتاب كالأمتاع والمؤانسة الذي نحن بصدده

هذا ما يتعلق بنقد الدكتور بشر. وسنتحدث في المقال الآتي عن أمثلة من نقد صاحبه (ع. ص)

المسرح والسينما

فلما (حياة الظلام) و (العودة إلى الريف)

هذه هي القروش الأربعون التي خرجت من جيبي عن طيب . . . 24 + 16=40 خاطر. وإني أصارح القراء بأني أبكي عليها الآن كما لو كانت أربعين ألفاً من الجنيهات! دفعت المبلغ الأول في شباك تذاكر سينما (ستوديو مصر) ثمن تذكرتين؛ إحداهما لي والأخرى لصديقي الذي أتأبطه في الذهاب ويتأبطني هو في العودة! ودفعت المبلغ الثاني في شباك سينما (الكوزمو) ويا ليتني ما دفعت هذا ولا ذاك، فقد علمت - بعد فوات الوقت - أن المبلغين ذهبا إلى وجه الشيطان!

حرصت على أن أشهد أول عرض في استوديو مصر لشريط (حياة الظلام). وقد كان بودي أن أرى عملاً فنياً رائعاً، فلم أر عملاً فنياً على وجه الإطلاق. وإنما رأيت صوراً تتكلف الحركات، وأفواهاً تتكلف الكلمات، ومناظر تتكلف وتفتعل افتعالاً. . . كل ذلك في قصة لم يكن بها من بأس كقصة، للقراء ولكنها كانت ساقطة أشنع السقوط بوصف أنها سيناريو لسينما ولا ندري فوق ذلك ماذا دهى الآت تسجيل الصوت في أستوديو مصر؛ فقد كان فسادها صارخاً، حتى أن الكلام لم يكن يصل إلى مسامع الجمهور إلا وتصحبه همهمات تخبأ الألفاظ وتلف مخارج الكلمات. ولا ندري أيضاً لماذا يعنى هؤلاء الناس بإبراز هذه الوجوه التي جربوها وفشلت مراراً؛ أو نسي القوم خيبة بطل هذه الشريط في سابقه (فتش عن المرأة)! ولا ندري لماذا لا يفتشون عن وجوه جديدة يعطونها الفرصة لكي تظهر وتنجح؟

والمؤلم أن يضطر الناقد إلى الاعتراف بأن شخصية واحدة من شخصيات هذا الشريط هي التي حظيت بشيء من التوفيق وهي فردوس محمد التي أصبحت مختصة بأدوار الأمهات تقوم بها في إتقان تام ونجاح فائق؛ وعلى الشخصيات الباقية السلام!

أما الشريط الآخر، أو الفضيحة الأخرى من فضائح هذا الموسم، فهو (العودة إلى الريف) الذي آثرت السيدة ملك أن تبدأ به حياتها الفنية كممثلة سينما. فهذا الشريط ليس فيه موضوع ولا تمثيل ولا تلحين ولا إخراج

وقد وضح لنا من البحث أن العمل فيه قد جرى في حدود مالية ضيقة. وليس هذا عذراً يقبله الجمهور المصري الذي لا حجاب بينه وبين الأفلام الأجنبية الكبرى التي ينفق عليها من الأموال ما لا يكاد يصدَّق، ولا عذر للسيدة ملك في قبولها الظهور في شريط كهذا من المحقق أنها كانت - قبل قبولها الاشتراك فيه - تعلم موضوع قصته وتعلم أنه سوف يخرج في مراعاة تامة للظروف المالية الشديدة

أما تسجيل الأصوات فكان فضيحة مستقلة؟ وأما التمثيل فقد كان عاراً يتحرك على الستار. وأما الأضواء فقد كانت قذى في عيون الجمهور. وأما المناظر فقد كانت عنواناً في فشل مهندسها.

وأما الإخراج فقد كان الشيء الوحيد الذي يمكن السكوت عليه!

وبعد، فهل رأى القارئ اثنين من حوذية العربات (الكارو) يشربان الويسكي في شرفة (الكونتننتال)؟ هذا هو موضع هذين الشريطين بين الأشرطة الأجنبية الهائلة التي ظهرت في هذا الموسم

. . .الإخراج. . . الإخراج
وبهذه المناسبة لا نجد مندوحة عن الإشارة إلى فوضى الإخراج السينمائي في مصر. . . والواقع أن أصحاب الأفلام يحاربون بين نارين: فأستوديو مصر على فداحة أجره، يفرض لوناً من الديكتاتورية منقطع النظير. إذ يفرض ممثلين بأسمائهم لا يجد أصحاب الأفلام بداً من قبولهم على مضض! والاستوديوهات الأخرى وأصحابها من اليهود، على قلة استعدادها ورداءة آلاتها، تفرض مثل هذه الديكتاتورية في إسناد الأدوار إلى الممثلين من ذوي الأسماء المعروفة في غير نظر إلى التناسق بين طبيعة الممثل وطبيعة الدور الذي يلعبه في الشريط. يضاف إلى ذلك المعاملة المالية المنقطعة النظير في الرداءة والجشع
لماذا لا تؤسس الحكومة (أستوديو) تؤجره لأصحاب الأفلام وتسند إدارته إلى خبراء فنيين من شبابنا ذوي الثقافة السينمائية الممتازة؛ وهم كثيرون بحمد الله!؟
الأوبريت في الفرقة القومية
أشرنا في كلمة عابرة منذ أسبوعين إلى استعداد الفرقة القومية لإخراج رواية القضاء والقدر، وهي من نوع الأوبريت الذي ليس لهذه الفرقة عهد به.
وقد سمعنا في الأوساط الفنية لغطاً يدور حول الرغبة في إخراج هذا النوع الذي أندثر من حياة المسرح المصري منذ سنين. وقيل إن الحكومة تنوي أن تعين المعهد الملكي الموسيقي على أن ينهض بمشروع جديد يكون من آثاره أن يظفر الجمهور بألحان رائعة في مسرحيات قوية. كما قيل لنا إن ثمة مؤتمراً مؤلفاً من أعلام الموسيقى والمسرح، سوف يبحث المشروع من نواحيه المختلفة.
وإلى أن يتم تأليف (أوبريت) جديدة، لا ندري لماذا لا تقوم الفرقة بإخراج بعض الروايات القديمة الناجحة التي ظهرت منذ عشرين سنة ونيف! كرواية (العشرة الطيبة) التي تمتاز بألحان لا نظير لها من وضع المرحوم سيد درويش؟
(أبو الفتح الإسكندري)
العدد 342 - بتاريخ: 22 - 01 - 1940
من وراء المنظار
سافر صديقي (عين) إلى الريف ليضحي بكبشه المنوفي الأملح هناك. ولصديقي الوفي (عين) ولع بالريف عجيب. فصباباه عرائس شعره، ومشاهده مسارح خياله، ومعاهده ملاعب هواه، ومزارعه صقال خاطره، ومطاعمه عافية بدنه.
لذلك تراه كلما افترض العودة إلى الريف في ساعة من النهار أو الليل أسرع إلى القطار أو إلى السيارة دون أن يشاور أهله ويودع صحبه ويرتب عمله!
دخلت صباح اليوم مكتبه الذي يكتب فيه (من وراء المنظار) فوجدت الكرسي خالياً وليس أمامه خبر، والمنظار متروكا وليس وراءه نظر! فقلت لنفسي: لم لا أجرب هذا المنظار الذي تنفذ منه (عين) الصديق إلى ما وراء الصدور والستور والحوادث؟ أما يجوز أن يكون سر فنّه في هذا المنظار فأرى به ما يصح أن أصورِّه وأنشره؟
سألت عن ذلك نفسي ولم أنتظر ما تقول، فقد أخذت المنظار وتركت الدار ووضعته على أنفي وأنا امشي على طوار الشارع الذي عرفته وألفته، فإذا الناس غير الناس، والمدينة غير المدينة، والدنيا غير الدنيا!
كأنما هذا المنظار من صنع الله الذي أتقن كل شي! فإن فيه أسرار المناظير المعظِّمة والمقرِّبة والكاشفة؛ وفيه غير ذلك قوة التجريد فهو يرد كل شي إلى طبيعته، ويظهر كل شئ إلى طبيعته، ويظهر كل شخص على حقيقته
مشيت به في زحمة الطريق مشية الغريب الجاهل في البلد العجيب المجهول، تزخر نفسه بعواطف شتى من الغضب والعجب والدهش والإنكار والخوف، ثم لا يملك أن يسأل لأن لسانه معقود، ولا يستطيع أن يصبر لأن جَلده مفقود
رباه ما هذا الذي أرى؟ أهذا هو الصديق البر الذي خالصته الود وساهمته الوفاء وعاشرته نصف العمر ثم لا ألقاه إلا صافحني بالكف الناعمة ومازحني باللسان المعسول؟ ما باله قد تساقطت عنه لفائفه الوردية، وحالت عليه أصباغه العبقرية، فبدأ أمامي عارياً ضارياً كالأسد الجائع، تتقد عيناه بالشر، ويتحلب شدقاه بالشره، وتمتد

يداه الباطشتان إلى قوتي الذي لا مساك للنفس إلا به؟ وفي شريعة الوحش لا تتصافح الكفان ماداميت بينهما فريسة.
ولكن الإنسان وحده هو الذي يستطيع أن يسلِّم بيد ويلطم بيد!
أهذا هو رجل الدين الذي عرفته عنوان الفضيلة ومثال الورع ولسان المعروف؟ مالي أراه اليوم قد تهتكت الأسرار عن تنكره البارع، فلحيته المستعارة تكاد أن تسقط، وزهادته الكاذبة تهم أن تفترس، وحلته الدينية تشف عن جسد دنيوي تلهبه الشهوة المسعورة، وتذيبه الرغبة الملحة، ويود لو تنقلب المواعظ والآيات في فمه رُقًى سحرية ينال بها عرض الدنيا وعزة الجاه؟
أهذا هو العظيم المتأبه الذي أشاهده من حين إلى حين يمشي وأنفه في السماء، ولغاديده تكاد تنشق من نفخة الكبرياء، ونظراته وكلماته توزع على من حوله احتقار القوى واستكبار المتسلط؟ إني لأراه الساعة من خلف هذا المظهر المونق والرواء الخلاب جثةً ضئيلةً الأجلاد خبيثة الريح يلتف جلدها الرقيق الشاحب على ضمير مثقل بالخزي ونفس مطمئنة إلى الهُون. وكأني إلى بقايا الإنسانية فيه تخزه في مواطن الحس منه بكلام معناه: يا عز ما بينك وبين الناس، ويا ذل ما بينك وبين نفسك!
ومن هذا؟ أهذا هو السياسي الذي ألف معجما في لغة الوطنية ونظم ديواناً في مدح الدستور؟ أهو من أرى أم ذلك تاجر يهودي السمات يتجر بالكلام كالمضاربين في (البرصة)، ويراهن على الزعماء كالمراهنين على الخيل في السباق ويضحي بالمنفعة اليسيرة لينال مقعداً في البرلمان، أو بالوظيفة الصغيرة ليبلغ كرسيًّا في الوزارة؟
وما خطب هذا الشاب الذي يتجمل بالبذلة المهندمة ويتنبل بالحركة المنظمة، وليس في كيسة قرش ولا في بيته قوت؟ لماذا يجلس في هذه المركبة الفخمة مع هذا الرجل وهذه المرأة؟ أيريد أن يخدع الرجل فيبتز ماله بالصداقة، أم يريد أن يغوي المرأة فيسلب ثروتها بالزواج؟ لقد بأن في المنظار أنة (ابن ذوات) أفلس فتاجر في الاحتيال وسمسر للرذيلة. واللذان معه زوجان أرستقراطيان يقوم زواجهما على الرياء والخيانة؛ فالفتى يبيع الرجل أعراض الناس ويشتري منه عرض نفسه. وهو بهاتين الوسيلتين صديق الأسرة الأدنى وكلبها الممسوح المدلل!
وما حال هذه العصبة التي تندو كل ليلة إلى مجلس شراب أو سامر أنس، فيتنادمون على الكأس بطرائف الأدب وروائع النكت ومداعبات الصداقة؟ لقد كنت احسبهم جميعاً فأصبحوا
في هذا المنظار شتى! فهم لا يتصافقون على الود إلا في مجالي اللهو؛ فإذا تفرقوا تناكروا وبسط كل منهم لسانه في الآخرين بالذم، ودرج بعضهم بين بعض بالوقيعة، وصحح كل واحد لنفسه ما تقسم من الفضل في الجماعة!
أعوذ بالحليم الستار، من شر هذا المنظار! لقد شوه في عيني جمال الوجود كما يشوه المكرسكوب بشرة الوجه الرّفافة. ولا مراء في أن جمال الدنيا خداع وسعادة العيش وهم وحياة الناس تمثيل؛ فإذا أزلت عن العيون غشاوة الإيهام والإيهام فرأت كل شئ على طبيعته وكل شخص على حقيقته، لا يبقى لجميل سحر، ولا لعجيب سر، ثم لا يكون بين أحد وأحد ألفة، ولا بين جماعة وجماعة نظام
فاكتب لي يا صديقي في بطاقة العيد: أتريد أن أرسل إليك منظارك، أم تسمح لي أن أجربه مرة على عين الدكتور مبارك؟
احمد حسن الزيات
لعل الليالي. . .!
(رسالة مهداة إلى الروح الذي أهدي إليه (وحي الرسالة))
الدكتور زكي مبارك
ما هفا القلب لخطرة من خطرات الحب والمجد إلا ترنمت بقول البحتري:
لعلّ الليالي يكتسين بشاشةً ... فيرجعن من عهد الهوى المتقادم
ولعهد الهوى في قلبي وعقلي ألوف من الألوان والظلال. فهو تارة صورة وجدانية، وتارة صورة وطنية، وحيناً نزعة إسلامية، وأحياناً نزعة عربية. وقد يحلّق الفكر فيرتفع إلى الأجواء الإنسانية في كثير من الأحايين
ولا أعرف بالضبط متى تثور في صدري هذه المعاني: فقد تثور للشعور بالتقصير حين أتذكر تخلفي عن أداء بعض الواجبات كالذي وقع يوم أهملت التنويه بكتاب (الأدب

المصري الإسلامي) للأستاذ محمد كامل حسين، مع أن هذا الكتاب قدَّم إلى عقلي فنوناً من الأريحية حين حسبتُ نفسي على قراءته خمس ليال متواليات، وكالذي وقع حين قّصرت بكتاب الدكتور طه بك حسين عن أبي العلاء في سجنه، مع أني قرأته في سهرة واحدة وقيدت بهوامشه ملاحظات كانت خليقة بأن تفتح للقراء باباً من الدرس والتحقيق

وهل أنسى أني فرطت في التنويه بكتاب الأستاذ سعيد العريان عن حياة الرافعي، وهو كتاب شُتِمتُ فيه بغير حق لأني كنت قلت إن العريان لا يدرك أسرار الحب ولا يفهم أين يقع مثل قلبٌ الرافعي حين ينحدر في هواه؟ وكيف يدرك العريان هذه الدقائق وهو لا يصل إلى (شبرا) إلا بدليل مع أن عمله هناك؟!

وكيف أغفر لنفسي السكوت عن الأستاذ عبد المتعال الصعيدي وقد اجترأ على الدخول بيني وبين الأستاذ أحمد أمين والدكتور طه حسين؟ كان هذا الأستاذ جديراً بالالتفات إليه حين أنكر عليّ أن أقول: (إن أبا نواس في فجوره أشعر من أبي العتاهية في تقواه)؟ ولو أني التفت إليه لخلقت فرصة لتحديد الصلات بين الأدب والدين

وفاتني، مع الأسف، أن أتحدث عن كلمة قالها رفعة رئيس الوزراء يوم جمع مديري الأقاليم بمكتبه في وزارة الداخلية: فقد نبههم إلى مراعاة الكفاية قبل مراعاة الأقدمية في ترقية الموظفين، وأعلن بصراحة أن التقيد بالأقدمية يعطل مواهب الأكفاء، ويروض الكسالى على الاطمئنان إلى أن الزمن يصنع في الترقية ما لا يصنع الجهاد في أداء الواجب بأمانة وإخلاص

ولقد كانت هذه النظرة الحصيفة خليقة بأن تُقدَّم إلى القراء في مقال أو مقالين عساها تصبح من التقاليد الأساسية في الحكومة المصرية

وهل ضاعت المواهب في بلادنا إلا بسبب التقيد بالأقدمية؟

إن رفعة رئيس الوزراء فتح مجال النضال لتحطيم هذه الصخرة التي طال عهدها بتعويق خطوات المجاهدين في سبيل الواجب، فكيف نسكت وقد رأينا الكسالى الخامدين يعتمدون على الزمن في تقدير الأنصبة والحظوظ والحقوق؟

ومن الذي يشرح هذه المعاني ويصيِّر الاعتماد على الكفاية عقيدة وطنية إذا سكت عنها الأدباء واكتفوا من الأدب بوصف القمر والشمس والنجوم والأزهار والرياحين؟

وكيف يُحجب الأدباء عن درس الشؤون الأساسية في سياسة المجتمع وقد صار الأدب في بلادنا من المؤهلات الملحوظة في اختيار الوزراء؟

وهل يظن عاقل أن وزراءنا يرضون لأنفسهم ومواهبهم بالتخلف عن مسايرة الحياة الأدبية؟

الأديب المصري هو المسئول عن العزلة التي يعانيها بالبعد عن محيط الحياة الرسمية، فلو أنه كان اهتم بمتابعة ما يجدّ من الشؤون التي تعالجها الدولة بالطب لأمراض المجتمع لنُصبتْ لأدبه الموازين، وصار له في كل مقام مقال؛ ولكن الأديب المصري يتوهم في أغلب الأحيان أن الأدب له مجال غير النظر فيما يهتم به وزراء الدولة من خطير الشؤون

إن الزمن يُسرع، ثم يُسرع، ثم يسرع، وأخشى أن تنقضي حياتنا قبل أن نرى للقلم دولة في هذه البلاد

فمتى يعرف الأديب أن من واجبه أن يُقنع الدولة بأنه خُلق لوصف المجتمع باللغة العربية، وهي اليوم لغة مصر، وعن مصر يأخذ الحجاز نفسه علوم اللغة العربية؟

ومتى يستطيع الأديب بحسن الترفق والتلطف أن يكون له في كل معضلة قول، وفي كل مشكلة رأي؟ متى يغيِّر الأديب ما بنفسه فيدرك أن الدولة تنفق في كل سنة نحو نصف مليون من الدنانير لتخلق الأديب الذي يستطيع أن يشغل الناس بأخلاقهم وأذواقهم ومبادئهم.

والذي يستطيع بسحر البيان أن يروض الجماهير على تذوق معنى الحياة ومعنى العدل؟ الأديب في بلادنا كثير التوجع والتفجع، ولكنه لم يخط خطوة جدية في تجميل الوجود، وهل في الوجود جمال وقبح؟ الوجود هو هو لسائر الناس، ولكنه كالماء يتلوَّن بلون الإناء. والأديب الحق هو الذي يستطيع تحويل الوجود من لون إلى لون، فيُضحك قراءه حين يريد، ويبكيهم حين يشاء، وفَقاً لخطة مرسومة يفرضها الشعور بألوان ذلك

الوجود
وأ ين الأديب الذي سحره جمال الريف المصري وهو يتنقَّل بالسيارة أو القطار من إقليم إلى إقليم فوصف أرض مصر وسماءها وصفاً يخلق الحرص الصادق على الاعتزاز بالمِلكية في أرجاء هذا الوطن الجميل؟
أين الأديب الذي يفكر في بناء دار بالريف يسكن إليها من وقت إلى وقت، كما يصنع أدباء الفرنسيس والإنجليز، وكما كان يصنع أدباؤنا الأقدمون؟
إن الأديب يشكو من تجاهل الدولة لحقه في الحياة، فهل حفظ هو حقه في الحياة؟
أليس من العجب العاجب أن يكون الفلاح اعرف بحقه من الأديب؟
الفلاح المصري هو المثل الأعلى في الوطنية، لأنه لا يبيع شبراً من أرضه إلا بعد أن يبلله بالدمع، وهو يشعر بالخزي أمام نفسه وأمام زوجته وأطفاله حين يبيع فداناً ورثه عن أمه أو أبيه، فأين الأديب الذي يحس هذه المعاني؟ أين وميادين الأدب تُنتقَص في كل يوم ولا تثور زفرة من شاعر أو كاتب أو خطيب؟
وللأدباء أملاك صحيحة ورثوها بأسنَّة الأقلام، كما ترث الدول أملاكها بالمدافع والسيوف، فأين من يعرف تلك الأملاك؟ أملاكنا هي الميادين الذوقية والأخلاقية والاجتماعية ومن العار أن يسبقنا غيرنا إلى العناية بشؤون المجتمع ونحن نملك من قوة الإفصاح عن أسرار المجتمع أضعاف ما يملكون، ونستطيع نقل المجتمع من حال إلى أحوال إذا صرنا من أصحاب المبادئ والعقائد، وفرضنا على أقلامنا الجهاد الموصول في تثقيف المشاعر والعواطف والأذواق
والى من تلجأ الأمة في تهذيب مشاعرها وعواطفها وأذواقها إذا جف قلم الأديب؟
وما قيمة الأديب إن لم يكن لصرير قلمه صوت مسموع في الأكواخ والقصور والمعاهد والمعابد؟
وهل سيطرتْ عقيدة دينية، أو نظرية أخلاقية، أو شريعة ذوقية، بغير سناد من أسنّة الأقلام؟
أخشى أن يكون الأدباء في مصرهم (الأفندية) في فلسطين؛ فالأفندية هناك هم الذين باعوا أملاكهم، الفلاحون في فلسطين فهم الذين عرفوا قيمة الوطن فلم يبيعوا ما ورثوه عن الأباء والأجداد
أين في أدباء اليوم بمصر من يذكِّر بالشيخ محمد عبده، الرجل الفلاح الذي فرض على الدولة أن تحسب لقلمه ألف حساب؟ وهل فينا شبيه للأزهري الفلاح سعد زغلول الذي رجّ مصر والشرق بدعوته الكريمة إلى إعزاز الشخصية القومية؟
إن الأنبياء - وهم مؤيَّدون بروح الله - لم يصلوا إلى القلوب بغير البيان!
فمتى يصير إعزاز البيان في بلادنا شريعة من الشرائع؟
وهل نصل إلى ذلك إلا يوم يعرف أرباب الأقلام أنهم رسل هداية، وأن سواد الحبر في أقلامهم أنفع لوطنهم من بياض الصباح؟
حدثنا الأستاذ مصطفى عبد الرازق بك في مقال نشره بجريدة السفور منذ أكثر من عشرين سنة، أنه رأى زهرة جميلة في أحد أسفاره، وأنه لم يجد من يعرف اسم تلك الزهرة. فقال: عزاءً، عزاءً، أيتها الزهرة، فليس اسمك أول اسم يضيع في هذه البلاد!
وهل صنع الأستاذ مصطفى عبد الرازق أكثر مما يصنع من يتوجعون للحق الضائع في صمت؟
هل نزل من القطار فنقل الزهرة إلى قصره وخلع عليها اسمًا من طرائف الأسماء؟
وهل يذكر الآن مصير تلك الزهرة، وقد توسلتْ إليه أن يرعى وداد لحظة؟
ولتلك الزهرة شبيه من الجواهر المجهولة في هذه البلاد!
عندكم الأديب، وهو أنفع لكم من معدن (الولفرام)، الذي استكشف بغتة في الصحراء الشرقية، وهو معدن نفيس يغنيكم عن أخيه الذي يصدر عن بلاد الصين، وقد استكشفه رجل أجنبي في السنة الماضية. فأين الأجنبيُّ الملهم الذي توفقه المقادير إلى استكشاف العبقرية الأدبية في وطن (حابي) والحابي هو الوهاب، وهو اسم النيل قبل أن يعرفه اليونان؟
تحرَّك، أيها الأديب، ودُلَّ على نفسك كما دلَّ على نفسه معدن الولفرام!
إن ذلك المعدن هو أصلح المعادن لصياغة الأسلاك الكهربائية، ونفسك هي الكهرباء أيها الأديب، فاصعقْ من يجادلونك في عبقريتك، وسيطر بقلمك على الوجود.

زرت عين حلوان، فسمعتها تقول: منذ ألوف أو ملايين من السنين وأنا محبوسة في الصحراء، لا يحس وجودي فرعون ولا خليفة ولا سلطان ولا مَلك!
فاقتديت بالحكيم مصطفى عبد الرازق وقلت: معذرة، يا عين حلوان، فما كنت أول جوهر ينساه أهل هذه البلاد!!
وما عين حلوان؟
هي عين يشفى ماؤها من أمراض الكبد
ولى كبدٌ مقروحة من يبيعني ... بها كبداً ليست بذات قروحِ
أباها عليَّ الناسُ لا يَشترُونها ... ومن يشتري ذا علة بصحيحِ
فأين كانت هذه العين وقد مات ألوف وملايين من أجدادنا الأكرمين بأكباد قرَّحتها مآسي الحب؟
وهذه العين أراد طمسها بعض أعداء مصر بالأسمنت في غفوة الليل ولم يفلحوا فمتى ينتصر الأدب على خصومه الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم!
لن يكون لمصر عَلَم مرفوع إلا يوم تعرف أن الله أعزّها بالقلم، وأنه عزّ شأنه جعل في واديها شعلة الحركة الفكرية في القديم والحديث. ومن الذي يتصور للدنيا حياة بدون مصر وهي صلة الوصل بين الشرق والغرب؟ وهل كان لأنبياء الشرق سناد غير مصر وفيها عاش أعظم الحكماء والرهبان والصوفية؟ وهل اتفق لمدينة في الدنيا ما اتفق للقاهرة من رعاية الصوامع والكنائس والمساجد؟
إن وادينا هو الوادي الأخضر بين وديان العالم، ولن نزكي عن نعمة الله علينا إلا بالتغني بهذا الوادي الجميل؛ ولكن من يسمح لنا بالغناء؟
هل رأيتم جو مصر في يوم 6و11 يناير؟
هل رأيتم؟ هل رأيتم؟
حدثوني في أي بلد يرى الناس مثل هذين اليومين في فصل الشتاء؟
إن يوماً واحداً من أيام الصحو في مصر لأفضل من جميع الأيام في سائر البلاد.
وبفضل أيام الصحو في مصر صح لأحد ملوكنا القدماء أن يرى نفسه إله الأرض والسماوات
ومع ذلك جاز لبعض خلق الله أن ينكر على شعراء مصر نعمة الفنون والجنون
ومتى يُفتَن المرء أو يجنَّ وهو لم ير ضحوة الربيع في ظُلمة الشتاء؟
أيامنا كلها ربيع ولكن أين من يعرف؟
ذلك يوم 6 يناير، وهذا يوم 11 يناير، فاسألوا في أي أرض عرف الناس مثل هذين اليومين؟
لعل الليالي. . .!
لعل الليالي يكتسين بشاشةً ... فيرجعن من عهد الهوى المتقادمِ
لعل الليالي. . .!
لعل الليالي تُحسن مرة واحدة فتلفت بعض الناس إلى الكأس الذي صدعوه بعد أن شربوا ما كان يحوي من رحيق!
لعل الليالي تذكِّر بعض الناسين بالوَتَر الذي قطعوه بعد أن ثملت آذانهم بما كان يملك من رنين!
لعل الليالي ترجع أحبابنا الشاردين إلى عهدهم القديم حين كانوا يحسّون ظمأ الأرواح والقلوب!
إن عشتُ - وعُمر الصادقين في مصر من عمر الورد - فسأنتقم من زماني
وهل أموت قبل أن أساعد على تأسيس دولة للقلم في هذه البلاد؟
وكيف يموت من ينقل الناس بقلمه من ضلال إلى هدى، أو من هدى إلى ضلال؟
يستطيع قومٌ أن يتناسوا فضل القلم في خلق المودّات الصحيحة لمصرفي أقطار الشرق، ولكنهم لن يستطيعوا أن يصدّونا عن الجهاد في الطب لأمراض المجتمع المصري والشرقي. ولن يُفلح من يتوهمون القدرة على تزهيدنا في تذوق معاني الحب والمجد
نحن من صُنع الله، ويد الله لا تمسُّ شيئاً أو شخصاً إلا لتهبه الخلود
لعل الليالي. . .!

لعل الليالي تُلهم شعراء مصر فكرة (نشيد العدل) كما ألهمتهم فكرة (النشيد القومي) و
ولعل الليالي تذكِّر من يسمُرون على شواطئ بَرَدى والعاصي (الأناشيد العسكرية).
ودجلة والفرات وسائر الأنهار العربية والإسلامية أن لهم في مصر إخواناً يُقذون
أبصارهم تحت أضواء المصابيح ليقيموا دولة للقلم العربي، القلم الذي عجزت عن
قصفه مكايد الصروف وعثرات الجدود
لعلّ وليت!! وهل تغني لعلّ أو تنفع ليت؟؟
(ن، والقلم وما يسطُرون)
فإلى الله الذي أقسم بالقلم أرفع نجواي وشكواي، وهو حسبي ونعم الوكيل
فيا فاطر الأرض والسماوات، ويا باعث النور في ظلمات الحبر الأسود، ويا راحمي من
دسائس الكائدين والخاتلين،
ويا مُلهمي وساوس الشك وحقائق اليقين، عليك توكلتُ وإليك أُنيب.
زكي مبارك
حديث حول الشعر
لجان كوكتو وبيبر لاجارد
بقلم الأستاذ صلاح الدين المنجد
هذه محاضرة طريفة، ولكنها ليست كالمحاضرات في شيء، إنما هي أدنى إلى (
التمثيل منها إلى المحاضرات. قام بها ملك الأحاديث الصحفية (بيبر لاجارد)، مع
الشاعر الكبير (كوكتو) في قاعة (الأنال) في باريس في السنة الحالية، وهنا يسأل
الصحفي، الأديب الشاعر، فيجيبه على سؤاله أمام الناس. . .)
(المنجد)
بيبر لاجارد يتكلم:
سيداتي، آنساتي، سادتي:
هذا حديث طريف، سنحاول أن نسمعكموه، وهو يشاكل التمثيل في كثير من نواحيه.
سأدفع شاعرنا (كوكتو) إلى الكلام عن الشعر، بعد أن فرّ من باريس واعتزل في
البروفانس. إنه لم يعدّ للأمر عدته، ولم يحبر الصحائف، ولكنه سيسمعكم صوته
الإنساني المتصعد من أعماق القلب. . .
جان كوكتو
قبل أن أسلم مقالتي لهذا الصحفي البارع، أريد أن أحدثكم عن الصحافة: إنها مهنة من
الطراز الأول، ولكنها تتطلب جهداً وذكاءً، لأن صاحبها يسعى لأن يشق المرء نصفين
ليستطلع خفاياه، والمرء يحاول الصمت أمام هؤلاء ذكاءً أو كسلاً، ولكن مهما حاول
المرء أن يفلت من الصحفيين، تبعوه وأفسدوا عليه هدوءه. إن هذه المهنة هي صيد
للإنسان.
أما الشعر الذي سأحدثكم عنه، فهو جني يستطيع أن يتخذ أشكالاً شتى. . . لقد حسب
(ليونارد دفانسي) أن الشاعر من ينظم لا من يهز، فنظم من الشعر أبياتاً ليكون
شاعراً، ولكنه كان في غنى عن تلك الكلمات الميتة التي صاغها. . . فقد كان شاعراً
في فنه، وشاعراً في لوحاته. . . ولقد كان شعره الذي أودعه الصور والتهاويل، أروع
من شعر الشعراء. سألوه يوماً: أي فرق ترى بين المصور والشاعر؟. . . فأجابهم: إن
للمصور شأناً لا يبلغه الشاعر. سلوا عاشقاً أذبله لوجد، ولاعه الحنين، ماذا تود؟ أأبياتاً
من الشعر الرقيق
تمجيداً لحبك، أم صورة ساحرة له؟. . . يجبكم: أود صورتها.
ولقد حدث بعد (رامبو) أمر ذو شأن: فقد كان في فرنسة قبل هذا الشاعر شعر. . .
ولكن رامبو أطلق الروح الشعري، وكان لا يعني إلا بالروح. . .
وأعني أن الشعر قد أصبح بعده مهنة، فقد كان لا ينظم إلا إذا أثر فيه شيء. . . أما
بعده، فقد أصبح الشعر تحت الطلب!
أنا أعجب (بموليير). إن شعره هو مصدر شعرنا الحديث. لقد كان (موليير) صحفياً،
يؤلف المجلات، ولكنها مجلات رائعة عميقة سريعة. وإن قصيدته (أورونت) هي نبع تَرُّ
لشعرنا اليوم. ولو لم تكن أنشودة الأورونت لما كان (مالارميه) ولما سمعنا أهازيج
أولئك الشعراء الذين يسكروننا بروائعهم

لقد بعث فينا (موليير) الحياة، وجعلنا نتذوق أشياء كثيرة. كنت في (مونتارجيس).
فقرأت (المتشائم) عشرين مرة، وقرأت (بريتانيكوس) عشرين مرة. لأن راسين
وموليير صانعا ساعات، فإذا أردت النظام والدقة فالتمسهما عندهما
لم تكن قصيدة (الأورونت) قط رديئة، كما قالوا، وإنما كانت رائعة جميلة، فيها من
الشذوذ قليل، ولكن ثقوا أن من هذه القصيدة أتى الشعر الحديث
. . .وتستطيع يا صديقي أن تسألني الآن عما تشاء
بيير لاجارد
رأيتم أن من العبث إعداد أسئلة لهذا الشاعر، فلقد حدثكم عما كنت أريد أن أسأله
عنه. ولكن. . . ما هو الشعر يا صديقي
جان كوكتو
تحسن الصنع إن سألتني عما تشاء. أما الشعر فهو دارة لا يستطيع أن ينفذ إليها إلا
رهط قليل. ولن تجدوا وسطاً أرستقراطياً أشد أحكاماً من الشعر. على أنه يجب أن
تعملوا أمراً، ذلك أن الشاعر إذ ينظم قصيدة فيها الشعر الصافي وحده، لا يجد
لقصيدته هذه رواجاً، لأن الخاصة وحدها هي التي تفهمها، وكذلك لا يجد الشعر الواضح
المعاني ما يلاقيه الشعر الدقيق الفكر. إن نصيب الأول يكون نصيب الزهور المتفتحة
التي تذبل سريعاً؛ أما الثانية، فاسمعوا. . . إذا أردت أن تهدي إلى سيدة أو آنسة
أزهاراً، أنك تدهشها إذا أرسلت إليها
الورد المتفتح، ولكنه يذبل، أما يجدر بك لتذكرك دائماً أن ترسل إليها براعم الورد
!. . .لتتفتح بين يديها
وأنا أعتقد أن القصائد التي لا تحدث ضجة عند نشرها هي التي تخلد وتبقى. هذا
بودلير. . . أخرج للناس روائعه، فصدفوا عنها، لأنهم لم يفهموها، ولكنها أصبحت من
بعدُ حديث الناس جميعاً. . . أما هو فكان ينظر إليها كأنها أزاهير وحشية في بساتين
نائية مجهولة
وربما أصاب الناس في تقديرهم القصائد أحياناً. ربما سمعتموهم يقولون عن شاعر
كبير: إنه ليس بشاعر حق، أو عن مطرب بارع: إنه لا يطرب. ذلك لأنهم أحسوا أن
شعر ذلك الشاعر لا يهز ولا يثير، ولأن ما أبدعه متقلب ضعيف
إن الشعر يرفرف على العالم من كل نواحيه، ولكن علينا أن نصطفي ونظهر. فإن في
الصحف شعراً، ولكنه غير منظوم؛ وإن في الحوانيت شعراً ولكن لا يدركه إلا القليل.
ألا تنظرون إلى تلك النقوش وتلك الخطوط التي تزدان بها الصحف؟ ألا ترون تلك
الأشكال الرائعة، وتلك التماثيل العارية التي ظهرت في معارض البيع؟ إن في ذلك كله
شيئاً يبهج النفس، شيئاً اسمه شعر
الحياة ملأى بالشعر يا سادتي. إن مرأى الطائرين الذين تحترق بهم الطائرة،
فيضطربون بين ألسنة اللهب، ويموتون على زئير النار، وهم يستمعون بالمذياع إلى
رقص الفتيات وضحك الزنوج في مسارح مونتمارتر لمملوء بالشعر. وإن منظر تلك
ألام التي أحست الجوع فالتهمت فخذ ابنها الصغير لشعر أيضاً، ولكنه شعر مخيف
مجرم يثير الجمهور لأنه يثير العواطف. إن المرء ليستطيع يا سادتي إقامة معرض
للشعر يلاقى أعظم نجاح وأكبر تأييد
بيير لاجارد
أنت لا تريد أن تحدّد الشعر بالنظم، ولهذا كان ما أخرجته للناس شعراً كله، ولكنه شعر
منثور. لقد صنفت رواياتك، مثل (توماس) و (الأطفال الأشرار) وغيرهما وسميتها
(الشعر الروائي) وعندما تخرج مجموعة من الرسوم الرائعة، أو كتاباً مثل (سر المهنة)
تضعه تحت اسم (الشعر التصويري) أو (الشعر النقدي) فهل هناك صلة بين هذه
الأنواع كلها أو أن في نفسك رباطاً يربط بعضها ببعض؟
جان كوكتو
كل ذلك شعر ولو لم يكن موزوناً مقفى. وأنا شاعر، والشعر مهنتي، كما أن للنجار
مهنة وللحداد صنعة. لكنى لا أحب ما كان فناً منظماً. لقد حاولت أن أحب ما هو منظم
فني، ولكني لم أستطيع
الشاعر طليق، والفنان لا يحب النظام. وإن أولئك الشعراء الذين يودون أن ينيروا كل
جزء من أجزاء ذاتهم، ثم يطلبون فوق ذلك نوراً وأشعة طول حياتهم - لعظماء أنهم

كجيته العظيم. هم يعشقون النور، حتى في اللحظة التي تعرج روحهم فيها إلى السماء. . . ولكنهم قليلون
دع الشاعر. . . إنه يستمد وحيه من كل شيء. . . من كلب حقير ومن ملك كريم إنه يسعى ويفتش لأنها مهنته. . .
- وهل الشعر مهنة؟
- نعم مهنة، ومهنتي قول الشعر
- وهل تستطيع أن تقول الشعر متى شئت
- نعم، أقول الشعر متى أشاء، كما يصنع النجار النضد متى شاء
- إذن لست بشاعر ولكنك ناظم
- إن هذا المعنى للشعر الذي على أنه الوحي الروحاني، لم يعرف إلا بعد رامبو. الدنيا مليئة بالشعر، ولست عبداً، حتى أنتظر الوحي الروحي. . .
إن لنا في الشعر أساتذة، هم شعراء من نوع خاص، لا ينظمون إلا وهم في كهوفهم، ولا يعرفهم إلا قليلون، منهم رامبو، ومالارميه ورايموند روسّه ل. . . هؤلاء كنوزنا التي نفخر بها. هؤلاء هم الشعراء حقاً، منهم نستلهم شعرنا، وعليهم نتعلّم كيف ننظم وكيف نقول.

صلاح الدين المنجد

بعد الفراق

الدكتور إبراهيم ناجي

أَجَلْ أهواكِ أنتِ مُنى حياتي ... وأنتِ أحب من بَصري وسمعي
وهل أنساكِ؟ كلا، كيف أنسى ... هوًى قد كان إلهامي ونَبْعي!
لبستُ من التَّصبُّرِ عنكِ درعا ... فها أنا تنزع الأقدار درعي
وها أنا لا أُداري عنك أمرا ... عَرَفْتِ محبَّتي ورأيتِ دمعي
وهل يُخفي التنكرُ ألفَ جرحٍ؟ ... وهل يُخفي التستر ألفَ صدع؟
تلاشت قوتي وغدا فؤادي ... كأن خفوقَه خلجات نزع
أبِّشره فيرقص في ضلوعي ... وأنظر سود أيامي فأنعى
وقد نضب الخيال وغاض طبعي ... ومات على حياض اليأس زرعي
أُجَرْجِرُ وحدتي في كل حشْد ... وأحمل غُربتي في كل جمع

ناجي

الفروق السيكلوجية بين الأفراد

للأستاذ عبد العزيز عبد المجيد

الفروق العقلية (الذكائية)

في سنة 1857 ولد الفريد بينيه السيكلوجية الفرنسي الشهير، وتخرج في جامعة الصربون. ولما نال دبلوم التاريخ الطبيعي سنة 1890 عين مساعداً للأستاذ بوني مدير معمل علم النفس وعلم وظائف الأعضاء في الصربون. وفي سنة 1894 نال بينيه الدكتوراه، وتقاعد الأستاذ بوني فحل الأول محل الثاني في إدارة معمل علم النفس. ومن ذلك الحين بدأ كلاهما - وانضم أليهما آخرون - في تحرير مجلة (العام السيكلوجي) ' هذه المجلة لسان الحركة السيكلوجية الفرنسية. وفي هذه المجلة - التي سنشير إليها في مواضع مختلفة من هذا المقال - نشر بينيه كثيراً من المقالات عن الذكاء ومقاييسه والفروق الفردية. ولكن حياته الحافلة بالبحث والإنتاج لم تطل، فقد عاجلته المنية سنة 1911

بدأ بينيه تجاربه لمعرفة الفروق العقلية بين الأفراد بقياس الذكاء بالطرق التي كانت معروفة في عهده في معامل علم النفس، كطرق جولتن وكاتل - التي أشرنا إليها في مقالات سابقة - وكقياس سرعة الإحساس، وسرعة الحركة، وسرعة الرجع. ولكنه ما لبث أن نبذ هذه الطريقة التي سماها (طريقة الآلات النحاسية) وفكر في طريقة لا تحتاج إلى آلات بل إلى قلم وقطعة ورق وقليل من الحبر كما يقول هو

وفي سنة 1896 اختبر ثمانين طفلاً بعرض صور متشابهة عليهم، ومطالبتهم بالإجابة عن أسئلة وضعها لهم. وقد وصل بتجاربه واختباراته هذه إلى أن هناك ذكاء وراثيا وثقافة مكتسبة يجب التمييز بينهما، وأنه لقياس الذكاء الوراثي يجب أن تكون الاختبارات متعددة ومتنوعة بحيث نقيس كل مظاهر القدرة على التكييف، تلك القدرة

التي سماها الذكاء
كذلك قرر بينيه أن الذكاء إنما يظهر في التصرفات التي تحتاج إلى بناء وتركيب أي أكثر من التي تحتاج إلى تحليل وفي معالجة الأمور التي تحتاج إلى تنظيم أكثر من أدراك هذه الأمور وتمييزها (أو في كلمة واحدة: الذكاء هو عملية تكوين وتركيب). ومن أجل ذلك استعمل بينيه لقياس هذا الذكاء اختبارات تحتاج إلى بناء وتكوين، كأن يعطي الطفل
صورة مقسمة إلى عدة قطع ويطلب إليه تكوينها، أو قطعة نثرية محذوفاً بعض أجزائها ويطلب إليه ملء الفراغ بكلمات أو جمل مناسبة
راع رجال التعليم في باريس في بضع السنوات الأولى من القرن الحالي كثرة عدد المتخلفين في التحصيل من تلاميذ المدارس بالمدينة. ولم تكن تظهر على هؤلاء التلاميذ علامات الغباء أو ضعف العقل. وقد حاول أولو الأمر أن يعرفوا سبب هذا التخلف، أهو عدم الانتباه، أو إهمال المدرسين، أو قلة ذكاء التلميذ حقيقة، فكونت وزارة المعارف الفرنسية سنة 1904 هيئة - من أعضائها بينيه - لفحص الأمر سيكلوجيا، وإبعاد ضعاف العقول وإرسالهم إلى مدرسة خاصة بهم. وقد كان المتبع حتى ذلك الحين أن يعرف ضعاف العقول بطريق الفحص الطبي وآراء المدرسين شرع بينيه في وضع مقياس موضوعي يعرف به درجات الذكاء بين الأفراد، ويستطيع به تمييز شواذ العقول من غيرهم. وكان كلما وضع نوعاً من المقاييس جربه ثم عاد إلى إصلاحه وتهذيبه ودراسة النقد الموجة له. وكان أول مقاييسه ما وضعه مع زميله تيودر سيمون سنة 1905. ويمتاز هذا المقياس بأنه وضع ليناسب أسناناً مختلفة، وبتدرجه، وبتدرج في الصعوبة وفقاً لنمو العقل. ولكي نعرف الفرق العقلي بين فردين أو أكثر يجب أولاً أن يكونا متساويين في السن حتى نقارن نتائج اختبارهم. ويمتاز هذا المقياس أيضاً بأنه لم يقصد به قياس الاستعدادات الخاصة، بل قياس الذكاء العام وفي سنة 1908 نشر بينيه وسيمون مقياساً منقحاً للذكاء، نجد فيه لكل عمر مجموعة خاصة من الأسئلة. فإذا ما أجاب الطفل إجابة صحيحة عن هذه المجموعة من الأسئلة كان عمره العقلي (ع. ع) يناسب عمره الزمني (ع. ز)، ويسمى ذكاؤه في هذه الحال متوسطاً. مثال ذلك أن يسأل الممتحن الطفل: (1) ما اسمك؟ (2) أنت ابن أو بنت؟ (3) ما عمرك؟ فإذا أجاب الطفل صحيحاً عن السؤالين الأول والثاني كان عمر الطفل العقلي (ع. ع) أربع سنوات، إذ أن تجارب بينيه المتكررة أثبتت أن الطفل متوسط الذكاء يستطيع أن يجيب مصيباً عن هذين السؤالين. ولما كان هذا المقياس عبارة عن مجموعة من الأسئلة تزداد صعوبة درجة بعد درجة كلما ازداد سِنُّ الممتحن أطلق عليه بالفرنسية أي المقياس السلّمي للذكاء. وعيب هذا المقياس أنه لا يعطي أي فكرة عن العلاقة بين العمر الزمني والعمر العقلي، فقد يتفق
اثنان في عمر عقلي واحد - ست سنوات مثلاً - ويكون العمر الزمني لأحدهما خمس سنوات وللثاني عشراً.
وقد شاع هذا المقياس في أوربا وأمريكا، فاستعمله ديكرولي في البلجيك، وجودارد في الولايات المتحدة، وبوبرتاج في ألمانيا وفيراري في إيطاليا
لم يمض على هذا المقياس ثلاث سنوات حتى نشر بينيه - باسمه وحده - مقياساً آخر منقحاً سنة 1911، وكان هذا آخر عمل قام به في حياته. وقد احتوى هذا المقياس على أربعة وخمسين اختباراً موزعة على السنوات المختلفة من سن الثالثة إلى السادسة عشرة. وكان هذا المقياس كسابقه يعين عمر الفرد العقلي من غير تحديد للنسبة بينه وبين العمر الزمني. وقد ترجم هذا المقياس أيضاً إلى لغات أخرى ولاقى رواجاً كبيراً في أمريكا. وفي سنة 1915 نشر البروفسور ترمان - بمعونة زملائه بجامعة استنفورد - ترجمة منقحة ومهذبة ومزيدة لمقياس بينيه سيمون وتعرف هذه الترجمة باسم (مقياس بينيه إستنفورد المنقح).
ويحتوي هذا المقياس على تسعين اختبارً، لكل سنة ستة اختبارات عادة. وهاك بعض هذه الاختبارات:
يطلب المختبر من الطفل البالغ ثلاث سنوات:
1 - أن يشير إلى أنفه ثم عينه ثم فمه ثم شعره، وينجح الطفل إذا عرف ثلاثة من أربعة

2 - يعرض المختِبر على الطفل مجموعة مكونة من (مفتاح، مليم، مبراة مقفلة، ساعة، قلم رصاص) ويطلب إليه أن يذكر أسماء ثلاثة أشياء من هذه الستة
3 - يعرض على الطفل صورة لمنزل هولندي (أو مصري) وأخرى لنهر، وأخرى لمكتب بريد، ويطلب منه أن يذكر أسماء الأشياء التي في الصور واحدة بعد الأخرى
4 - أن يسأل المختبر الطفل الابن (أنت ابن أو بنت؟) أو يسال البنت (أنت بنت أو ابن؟)
5 - أو يسال الطفل عن اسمه واسم أبيه أو عائلته
6 - أن يكرر الطفل وراء المختبر ثلاث جمل بسيطة مثل: أنا عندي كلب صغير. الكلب جرى ورا القط. في الصيف الشمس سخنة

ولم أذكر هنا طريقة الاختبار ولا نسبة النجاح في كل اختبار لأن هذا مما يطول ذكره، ولأن المقصود هنا إعطاء القارئ فكرة عن نوع الاختبارات المستعملة لقياس الذكاء ويمتاز مقياس ترمان بأنه استعمل لأول مرة نسبة الذكاء المسماة بالإنجليزية وهي عبارة عن نسبة العمر العقلي إلى العمر الزمني مضروبة في 100،

وقد أصبحت هذه النسبة معتمدة في مقياس الذكاء وبها يمكن معرفة الفرق بين ذكاء فرد وذكاء آخر مختلف عنه في العمر. ووضع علماء النفس الجدول الآتي لمعرفة نوع ذكاء الفرد بعد اختباره

نسبة الذكاء الفردي	النوع
فوق 140	عبقري
120 - 140	فائق جداً
110 - 120	فائق
90 - 110	متوسط
80 - 90	غبي
70 - 80	على شفا ضعف العقل
دون 70	ضعيف العقل

فإذا فرض أن عندنا طفلاً عمره العقلي 9 سنوات وعمره الزمني 10 سنوات، وأردنا معرفة نوع ذكائه أجرينا العملية البسيطة الآتية:=90، وهي نسبة الذكاء، وإذا نظرنا إلى الجدول السابق وجدنا أن صاحبنا متوسط الذكاء.

(بخت الرضا - السودان)

عبد العزيز عبد المجيد

من عيون الأدب الإنجليزي

مرثية في مقبرة ريفية

لتوماس جراي

للأستاذ محمد مندور

المدرس بكلية الآداب

ليست معرفتي (بجراي بنت ألامس. ولقد سمعت شباب الجامعة بكمبردج يرددون مقطوعاته، وفي جمال اطرادها ما ينسيني هوى نفسي وعهدي بها نزاعة إلى الجائش المضطرب اضطراب نزوات الحياة عندما يسحق عمقها. ومن قديم وصف بوالو هذا النوع من الاضطراب الجميل بأنه منبع آيات الفنون

ولطالما سألت نفسي عن سر إصغائها إلى (جراي) على بعد البون بين ما ألتمس في نفوس الشعراء وما جبل عليه هذا الصديق، فما وجدت جواباً غير راحة النفس المضناة تجد في اطراد النغمات مسكناً لما يجيش فيها بالألم

وفي الحق أن الشعر الإنجليزي لا يعرف قصيدة أمعن من مرثية جراي في اطراد الوزن ونقاء المبنى. فالقصيدة تنتظم رباعيات متعانقة القوافي متلاحقة التفاعيل في غير زحاف ولا علة، بحيث ينطلق فيها البصر، والنفس تلاحقه في يسر ينزل منها منزلة قطرات المطر تتساقط موقعة على زجاج نافذة، فإذا بالنفس قد هدأت وسكن جائشها إلى اطراد النغم. ومن منا يتردد إذن في صداقة رجل كهذا؟

لم يعرف (جراي) ثورات النفس ولا مغامرات الهوى، وفي انتظام حياته ما يملأ القلب إعجاباً، فقد أنفق عمره يطلب العلم بكمبردج، وكأني به يطلب إلى العلم سلوى عن طفولته البائسة. طفولة طفل يولد لأبوين متفاوتي المشارب حتى ليستحيل على أحدهما أن يسكن إلى الآخر

ولأمر ما يحلو لي دائماً أن أتصور (جراي) رقيق النفس رقة النسمات المتهافتة؛ وفي ميوله ما يغريني بهذا الظن، فلقد أولع الرجل أشد الولع بأغاني تلك الأغاني الشعبية التي كانت ولا يزال يرددها سكان جبال إبقوسيا، وساقه أوسيان إلى أساطير البلاد الشمالية

يستلهمها سذاجة الشعر قانعاً بما تعطيه من بديهي المعاني دون ما يمكن أن يكون خلف ذلك من رمز بعيد

وما كان لجراي وتلك طبيعته أن ينصرف عن آداب روما وأتينا ونفوس منشئيها في غضاضة نفسه يوم ابتسمت الإنسانية ابتسامة الطفل توقظه من مهده رقة الصباح. . . نعم ابتسمت الإنسانية فملأت الطبيعة بخيالها الضاحك، وإذا بعرائس الشعر ترقص في كل مكان، وإذا بعذب الأساطير يوقع نغمات ذلك الرقص

هامت نفس (جراي) في هذا العالم المسحور فطرب لآثارهم أيما طرب وود أن لو كان من عشيرتهم فقال الشعر باليونانية وباللاتينية، حتى لأحسب هذا الطرب قد بلغ في نفسه مبلغ الشهوة، ونحن في ذلك لا نتجنى عليه مادمنا نؤمن أن نفساً لا تعرف الشهوة لا يمكن إلا أن تعقم إن لم تتحطم

وأنفق جراي حياته بغير زواج ولا ولد بين جدران كمبردج يستمع إليها تقص من أنباء الماضي أجمل القصص، واطردت حياته على تلك الوتيرة حتى دلف إلى سكون الموت عاشر جراي هومير وفرجيل، فرقت نفسه، ونزعت إلى المثل الأعلى نزوع الطبع المصقول. واتفقت له أثناء ذلك رحلات رأى فيها من جلال الطبيعة ما يسمو بالقلوب قدر ما يلهب الخيال. وكلنا يذكر كيف قاد روسو تلميذه إلى قمم الجبال ليهديه السبيل إلى ربه

أتى (جراي) إلى الألب بفرنسا وحط رحاله إلى جوار (جرينوبل) حيث يقوم معبد الرهبان المتوثقين

هنالك تنهض الجبال عاتية وقد كستها الغابات يرتفع إليها البصر فيعود محملاً بأعمق الآيات ترددها النفس بذكر الله. هنالك يملأ القلب شعور ديني بتفاهة الحياة وإذا بنا نود أن لو استحلنا إلى مثل دمعة عيسى التي زعم الشعراء أنها استحالت إلى ملاك رحمة وسعت رحابه كل نفس حتى نفس إبليس. هنالك يستقر في الحواس إحساس بالجمال يتمثل صوراً تأخذ النفس كارهة أو راضية إلى حيث تلتمس أطيب المثُل. وما غفل جراي عن شئ من هذا، ففي خطاباته لصديقه لكل ذلك أجمل الذكرى

وخالس (جراي) الزمن مرة أخرى فانطلق إلى حيث تنتثر البحيرات الصغيرة بين الجبال فيما يشبه قبلات العذارى على وجه السديم، انطلق إلى إيقوسيا حيث السكون الرهيب لا

تحركه إلا نغمات الناي يرسلها الرعاة من أعلى الجبال فتنساب بين الوديان أو تطفو على سطح المياه وكأنها من روح الله، ونفذ كل ذلك إلى قلب (جراي) فقيد (بيومياته) التي طالما باركناه أن تركها لنا دليلاً يأخذ بنا إلى حيث نرجو أن نجد الجمال

وكرت الأيام و (جراي) يطهر من نفسه إلى أن بلغ ولعه بالمثل الأعلى تلك الدرجة الجميلة التي نجدها عند الكثير من هؤلاء المطهرين الذين لا يزال إنجلترا تغص بهم رغم وفرة من ترحلّ منهم إلى أمريكا حيث وجهوا النفوس هذا الاتجاه الذي أنتج أمثال (نلسن) ممن بلغ بهم الإيمان بالمثل الأعلى مبلغ السذاجة المقدسة

وما كان جراي بحاجة إلى روسو ليحنو على الضعفاء أو ليقدر سذاجة النفوس قدرها، وفي نفسه وفي ملابسات تلك النفس ما يقوده إلى حيث انتهى في تلك المرثية

الخالدة التي كفلت للشاعر الخلود، والتي لم تكد تنشر سنة 1750 حتى تناقلتها جميع الألسن، وحتى أخذت الأمهات أطفالهن بحفظها كما نفعل نحن ببعض آيات كتابنا الكريم، وأكبر ظني أنه حتى اليوم لا تزال تلك القصيدة أكثر القصائد انتشاراً بين القوم في جميع أنحاء إنجلترا

قال (جراي):

1 - دق ناقوس المساء ينعى النهار المدبر، وانسابت القطعان متهادية ثاغية خلال المروج، واتخذ الفلاح المضني سبيله إلى مأواه في خطى متثاقلة مخلفاً العالم لي وللظلام

2 - وتضاءل ما بقى من ضوء خفيف، فامحت من البصر آفاق الطبيعة، وأخذ سكون رهيب يسود الفضاء فلا تسمع إلا الجعل يرسل دوي أجنحته في كل فج، أو أجراس القطعان تنهنه ما انبسط من مروج تنشر فوقها غفلة الكرى

3 - أو نعيق البومة المحزن يحمل إليك من برجها النائي وقد كساه متسلق النبت ما ترسله من شكوى إلى القمر إذ مر بمأواها العتيق الموحش عابرو السبيل فأقضوا منها المنام

4 - تحت هذا النّشم والى ظلال هذا السرو سكن أجداد القرية في نومهم الأخير، كل في قبره الضيق حيث ترتفع تلك الكثبان المنهارة وقد علاها ضعيف الحشائش

5 - رقدوا في متواضع مضاجعهم رقدتهم الأبدية، فما لنسمات الصباح العطرة، وما لتغريد النغير يرسله من أسقف أكواخ العشب، وما لصياح الديك النافذ، أو لما يتردد صداه من صوت البوق، أن يوقظ لهم رقدة

6 - رقدوا فما للموقد أن يرسل إليهم بعد اليوم لهيبه؛ وما لربة بيتهم أن تخف إلى مهامها إذا جاء المساء، وما للأطفال أن يهرولوا إلى أمهاتهم يتمتمون إليهن رجعة أبيهم، ومالهم أن يتسلقوا أرجله يتناهبون ما يتقاتلون عليه من قبلات.

7 - لكم تساقط الحصاد تحت ضربات مناجلهم! ولكم شقت أسنة محاريثهم ما شقت من جوف الغبراء! بأي نشوة كانوا يسوقون قطعانهم إلى الحقول؟ وبأي يسر كانت أشجار الغابات تطأطأ لهم من هاماتها ما أعملوا فيها معاولهم القوية؟!

8 - ما للكبرياء أن تحقر جهودهم المنتجة ومسراتهم العائلية وذكرهم المغمور؟ وما لعظماء هذه الحياة أن يبتسموا احتقاراً لصغار المهام التي شغلوا بها أيامهم؟

9 - وألقاب الفخار، وأبهة السلطان، وكل ما يمنحه المال والجمال. كل هذا ساعة الحتف له بالمرصاد، إذا أن سبل المجد لا تقود إلى غير القبر!

10 - وأنت أيها المتغطرس: ليس لك أن تلومهم إذا لم تر الأسلاب قائمة فوق قبورهم تخلد ذكراهم حيث تتردد أناشيد النصر في القباب الممتدة، وتحت الأقواس المزينة بالتماثيل، حاملة نغمات المديح. . .

11 - وهل لأجمل الأواني نقشاً، أو لأنطق التماثيل بالحياة. أن ترد إلى مأواه ما تصاعد من نفس؟ وهل لأصوات الفخار أن تبعث الحياة في صامت التراب؟ وهل للملق أن يلين من مسامع الموت البارد القاسي؟!

12 - من يدرينا لعل في هذه البقعة المهملة قلباً كانت تسكنه أنوار السماء؟ أو يداً كانت تستطيع أن تأخذ بصولجان الملك، أو توقظ الناي إلى حد الإلهام؟

13 - ولكن العلم لم ينشر أمام أبصارهم صفحاته الطويلة التي أغناها بأسلاب الزمان. فلقد أطفأت برودة الفقر نبل حماستهم، وجمدت مجرى العبقرية في نفوسهم.

14 - كم من جوهرة نقية الشعاع صافيته، ظلت مخبوءة في أعماق المحيط؟ وكم من زهرة تتورد بعيداً عن الأبصار، ثم ترسل عبيرها هدراً إلى بيداء الفضاء؟

15 - من يدرينا، لعل هنا يرقد (هامدن) قريته وقد ثبت بقلب جسور لصغار الطغاة بريفه، أو (ملتون) آخر صامتاً عارياً عن المجد، أو (كرومول) ثانٍ نقى اليد من دم وطنه.

16 - أما تحريك أيدي النواب بالتصفيق، وأما احتقار صيحات التهديد يرسلها الجائعون والمتألمون، وأما در الخير على الأرض المتهللة، وأما قراءة تاريخ الشعوب في أعين أهلها. . .

17 - فذلك ما حرمهم منه القضاء. على أنه لم يمنع فقط حميد خصالهم عن أن تزهر؛ بل منع أيضاً جرائمهم من أن تستفحل. منعهم أن يخوضوا الدماء إلى العروش وأن

يسدوا منافذ الرحمة عن العباد
18 - منعهم أن يخفوا وخزات الضمير إذا أخفيت الحقيقة التي يعلمونها، أو أن يطفئوا حمرة الخجل البريء. منعهم أن يلتمسوا من آلهة الشعر يضرمون بها أضواء المباخر التي يكدسونها ف وق مذابح الكبرياء والرفاهية
19 - عاشوا بعيدين عن المعارك المزرية تعتركها الجماهير المعتوهة فما ضلت بهم المتواضعة. عبروا وادي حياتهم الوارف البعيد عن الجلبة بخطى صامتة مطردة
20 - على أنه حفظاً لعظامهم أن تهان ينهض بالقرب من هذا المكان تمثال ضئيل تزينه قواف خشنة وتماثيل ممحوة الصور. نهض هذا التمثال ليستدر عابر السبيل واجب الزفرات
21 - أسماؤهم وأعمارهم خطها آلهة مقلة من آلهة الشعر لتكون لهم بمنزلة المجد والرثاء فانتثرت حولهم النصوص المقدسة تحدث حكيم الريف كيف يموت
22 - إذ ما من نفس تحس أنها ستسلم فريسة إلى النسيان وتُسلِم تلك الحياة السارة المقلقة معاً، أو تترك تلك الآفاق الدفيئة آفاق الضوء دون أن تلقي إلى الوراء نظرة الحسرة، نظرة الرغبة المتباطئة. . .
23 - فالنفس الراحلة تسكن إلى صدر محبوب، والأعين المغلقة تستدر دموع الوفاء؛ ومن أعماق القبور يصبح صوت الطبيعة كما لا يخمد الوميض فيما يخلف من رماد
24 - أما أنت وقد حرصت على هؤلاء الموتى المغمورين فقصصت نبأهم في شعرك الساذج، فمن يدرينا لعل نفساً قريبة إلى نفسك تقودها الوحدة إلى السؤال عن مصيرك
25 - ولعل شيخاً أبيض الرأس من شيوخ الريف يجيب: - طالما رأيناه عند انبلاج الصباح يكتسح بخطاه السريعة قطرات الندى مهرولاً إلى لقاء الشمس فوق القمم الخضراء
26 - وهنالك إلى جذع البلوط المتمايل - البلوط الذي يرسل جذوره المختلطة عالية بالمرتفعات - كان يستلقي ماداً كل جسمه تحت أشعة الظهيرة ثم يطيل النظر إلى الجداول تخر بجواره.
27 - طوراً يهيم بتلك الغابات وعلى شفتيه ابتسامة السخرية وقد أخذ يردد أحلام الطريق، وطوراً ينطلق في سبيله مقوس الظهر شاحب اللون من البؤس كمن تخلى عنه أحبابه أو ذهبت بعقله الهموم أو حطم نفسه حب عاثر
28 - وفي ذات صباح تفقدته فلم أجده لا على التل المعهود ولا على حافة البراري ولا إلى جذع شجرته المحبوبة، وجاء صباح آخر فما وجدته إلى جانب الجداول ولا بقمة التل بل ولا بالغابة.
29 - وفي اليوم التالي رأيناه محمولاً في طريقه إلى (القبر في حفل الموت وأناشيد الغناء تصحبه. أدن واقرأ (مادمت تستطيع القراءة) تلك المرثية المنقوشة على الحجر (تحت أشواك هذه الشجرة العتيقة:

ما على القبر

1 - تحت هذه الأرض يرقد في راحته الأخيرة شاب جهله المجد كما جهلته الحظوظ. كان نصيبه من العلم نصيباً متزناً بينما وسمته الأحزان بميسمها
2 - واسعةً كانت طيبةُ قلبه، ومخلصة كانت نفسه، وبقدر تلك الطيبة وذلك الإخلاص كافأته السماء

لقد جاد على البؤساء بكل ما يملك، وما كان يملك إلا دمعة. أنالته السماء كل ما تمنى، وكل ما تمناه كان صديقاً
3 - لا تحاول أن تفض الغلاف عن حسناته، أو أن توقظ سيئاته من مكمنها المخيف. فقد اجتمعت الحسنات إلى السيئات متساوية في أمل مضطرب مفزع: أمل من أوى إلى أحضان أبيه، أحضان ربه

ولو علم (جراي) يوم أن كتب تلك المرثية الخالدة أنها ستفتح له أبواب المجد إلى الأزل لعلم أن فتاه ما كان للمجد أو للحظوظ أن تنساه، وفي نفسه هذا المزيج العجيب من قوة الفكر وروعة التصور ورقة العاطفة

تلك الرقة التي حملته على أن يحصر كل ما يتمنى أن تهبه السماء في صديق. وفي الحق

أني لا أدري أنبل من نفس تستطيع أن تخلص الصداقة، والصداقة أبعد المشاعر عن غرائزنا التي نجدها عادة في أسس كل شعور قوي.
قهرت الصداقة الحب في نفس جراي الصافية الرقيقة، بحيث لو أنني أردت أن أضع على لسانه عبارة عن صداقته لهوراس ولبول، لما وجدت خيراً من كلمة مونتين الخالدة، وقد فقد صديقه لابويسيه: (لقد كنا نقتسم كل شيء مناصفة، حتى فقدته فأصبحت اليوم لا أصيب خيراً إلا أحسست أني من صديقي العزيز النصف الذي كان يؤول إليه).
وأما اليوم، فليس لنا إلا أن ندعو الله أن يبارك تلك الأرواح الظاهرة في ملكوت رحمته.
محمد مندور
من وحي الديوان
لَيْلَى
الأستاذ إبراهيم العريض
قلتُ يوماً لابنتي ليلَى - وقدْ ... أخذَتْ ديوانَ قيسٍ تتغنَّى
- فكأنَّ الحُسنَ أولاها يداً ... فأرادتْ باسمهِ أن تتجَّنى
طِبت يا ليلايَ نفْساً فافهمي ... ليس كالشاعر في الأرض معنًّى)
هُوَ مِن أحلامهِ في جَنَّةٍ ... فإذا حدّث عنها قيل جُنَّا
كلُّنا طائِرُهُ في قَفصٍ ... إنما يُطلِقُهُ المجدودُ منّا
لو درَى الضاحكُ في سَكرَتهِ ... أنّه يشرَبُ دمعاً لتأنى
والليالِي يتطاولنَ إذا ... سقطَ النَّجمُ الذي نوّر هُنَّا
قُمْنَ في عافيةٍ مِن حُبِّهِ ... يتباهَيْنَ به ما بَينهنَّا
يحسَبُ الناسُ جَواهُ أدباً ... قَلّ مَنْ شارَكه فيما أجنَّا
ثمّ يَطوِي لَيْلهُ صُبْحٌ فلا ... هو للحبِّ ولا من حَبهُنّا)
فأجابتني غناءً في الصِّبا ... بالذي حيّرَ مَن أكبرُ سنّا
لا تسلني - فوجودي عدمٌ ... طائرُ الخُلدِ هنا كيف اطمأنّا)
هُوَ يَهفو لجمالٍ رُبما ... خفيَت آثارُه قي الكوْن عنّا
فإذا شاهدَهُ في رَوْضةٍ ... أو سحابٍ مثَّل الإحساس فنّا
والذي يُطرِبُنا مِن نَغَمٍ ... مسترقًّا كلّما الليْلُ أجنَّا
لم يكنْ غيرَ نِياط الحبِّ في ... قلبهِ كالوَترِ الحسّاسِ رَنّا
هُوَ في نَشْوَتهِ يُفضي بها ... نَغَماتٍ تمْلأُ الآفاقَ حسْنا
لا تَقُلْ دُنياهُ ظِلٌّ زائِلٌ ... فشعاعُ الحبِّ فيها ليسَ يَفنى
لوْ تجلَّتْ قدْرةُ الخلاّقِ في ... لفظةٍ صاغَ لها الشاعرُ معنى)
وانحنتْ فوْقَ يدِي تَلثِمُها ... خجلاً حين رأتْ رأسيَ يُحنى
ثمّ قالتْ وهْيَ تَلهو بالذي ... قُلدتْهُ دونَ أن تحملَ مَنّا
حسبُ عِقدي أن حوَى واسطة ... مالها في الدُّرِّ صنوٌ فَتُثنَّى
عِشْتَ للشِّعر ولي يا أبَتِي ... أنتَ للشِّعرِ ولي ما أتمنَّى
(البحرين)
إبراهيم العريض
أفانين
بين الخوارزمي والهمذاني
للأستاذ علي الجندي
- 2 -
حين اطمأنَّ المجلس بالشهود في دار النقيب، تطالّت الأعناق، وشخصت الأبصار، وانتصبت الآذان! فافتتح البديع المساجلة بكلام يجمع بين التهكم والتوريط!: إنما دعوناك لتملأ المجلس فوائد، وتذكر الأبيات الشوارد، والأمثال الفوارد، ونناجيك فنسعد بما عندك، وتسألنا فتُسرَّ بما عندنا. ونبدأ بالفن الذي ملكت زمامه، وطار به صيتك: وهو الحفظ إن شئت، والنظم إن أردت، والنثر إن اخترت، والبديهة إن نشِطت، فهذه دعواك التي تملأ منها فاك!
وقد حسب الخوارزمي حساباً لشيخوخته، فخاف أن تكبو به قريحته في الحفظ والنثر،

فآثر المبادهة بالشعر
فقال البديع: الأمر أمرك يا أستاذ
فأجابه الخوارزمي: أقول لك ما قال موسى للسَّحَرة: (بل ألقوا)
فأخذ كل منهما دواة وقلماً، وخط البديع أبياتاً مدح فيها السيد نقيب الأشراف، وفخر بنفسه ما شاء، وأوسع الخوارزمي ذمًّا وسخرياً! منها:
والشعر أصعب مذهباً ومصاعداً ... من أن يكون مطيعُه في فَكِّه
والنظم بحر، والخواطر مَعَبرٌ ... فانظر إلى بحر القريض وفُلْكه
فمتى تراني في القريض مقصِّراً ... عرضّت أذنْ الإمتحان لعَرْكه
أصغوا إلى الشعر الذي نظّمته ... كالدرّ رُصِّع في مَجرَّة سِلكه
فمتى عجزت عن القريض بداهة ... فدمي الحلال له إباحة سفكه
ونظم الخوارزمي أبياتاً امتنع عن إبرازها فيما يقول الرواة، فقال البديع له: إن البيت لقائله كالولد لناجله، فما لك تعقّ ابنك وتضيمه؟ أبرزها للعيون، وخلصها من الظنون، أما تستحي أن يكون السِّنَّور أعقل منك لأنه يجعُرُ فيغطيه بالتراب؟!
فقال النقيب: انسجا على منوال المتنبي:
أرَقٌ على أرق، ومثلي يأرق
فابتدر الخوارزمي قائلاً:
وإذا ابتدهت بديهة يا سيدي ... فأراك عند بديهتي تتقلّق
وإذا قرأت الشعر في ميدانه ... لاشك أنك يا أخي تشقّق
أني إذا قلت البديهة قلتها ... عجلاً، وطبعك عند طبعي يرقق
مالي أراك ولست مثلي في الورى ... مُتموِّها بالترهات تُمَخرق
إني أجيز على البديهة مثلما ... تريانه، وإذا نطقت أصدَّق
لو كنتَ من صخر أصمَّ لها له ... مني البديهةُ، واغتدى يتفلق
أو كنت ليثا في البديهة خادر ... لرُئيت يا مسكين منّيَ تفرَق
وبديهة قد قلتها متنفّسا ... فعل الذي قد قلت يا ذا الأخرق
ثم قال معتذراً عن هلهلة نسجها: هذا كما يجيء لا كما يجب. فقال البديع: قبِل الله عذرك! لكني أراكَ وفّقت بين قواف مكروهة وقافات خشنة، كل قاف كجبل قاف: تتقلق، تتشقق، تتفلق الخ فخذ الآن جزاءً عن قرضك، وأداء لفرضك:
مهلاً أبا بكر فزندك أضيق ... واخرَس، فإن أخاك حيّ يُرزق
يا أحمقاً وكفاك تلك فضيحةً ... جرّبت نار معرَّني، هل تحرق؟
فقال الخوارزمي: يا (أحمقاً): لا يجوز، فإنه لا ينصرف.
فقال البديع: لا نزال نصفعك حتى ينصرف وتنصرف معه! وللشاعر أن يرد ما لا ينصرف إلى الصرف، وإن شئت قلت: يا كَوْدَناً
ثم أردف البديع قائلاً: أخبرني عن قولك في البيت: يا سيدي، ثم قولك: تتقلق، أمدحت أم قدحت؟ فإن اللفظين لا يركضان في حَلْبة، ولا يخطان في خطة
فابتدر النقيب قائلاً: قولا على منوال قول المتنبي:
أهلاً بدار سباك أغيدُها
فارتجل البديع:
يا نعمةً لا تزال تجحَدُها ... ومنة لا تزال تكْنُدُها
فاعترض الخوارزمي قائلاً: الكُنُود: قلة الخير لا الكفران. فأنكر الجميع ذلك وقالوا: أما قرأت قوله تعالى: (إن الإنسان لربه لكَنود) أي لكفور
فحمىَ الخوارزمي وقال: أنا اكتسبت بفضلي ديَةَ أهل همذان فما الذي اكتسبت أنت بفضلك؟ فقال البديع: أنت في حرفة الكُدْية احذق، وبالاستماحة أحرى وأخلق، وأما ما لُك فعندي يهودي يماثلك في مذهبه ويزيدك بذهبه. ثم مال على مغن فقال: أسمعنا خيراً، فغنى:
وشبّهنا بنفسج عارضيْه=بقايا اللطم في الخد الرقيق
فقال الخوارزمي: أنا أحفظ هذه القصيدة، وهو لا يعرفها. فقال البديع: أخطأت، فإن البيت على غير هذه الصيغة وهي:
وشبّهنا بنفسج عارضيه ... بقايا الوشم في الوجه الصفيق
فقال الخوارزمي: والله لأصفعنّك ولو بعد حين!

فرد البديع. أنا أصفعك اليوم وتضربني غداً، اليوم خمر، وغداً أمر! ثم تمثل بقول ابن الرومي:
رأيت شيخاً سفيها ... يقوق كل سفيهِ
وقد أصاب شبيها ... له وفوق الشبيهِ
وقفّي على ذلك منشداً:
وأنزلني طولُ النوى دارَ غربةٍ ... إذا شئت لاقيت امرأ لا أشاكلُه
أحامِقُه حتى يقال: سجيَّة ... ولو كان ذا عقل لكنت أُعاقله
ومازال الجدل محتدماً بينهما حتى ضجر الحضور، ورنق الكرى في عيونهم، فتقوّض المجلس، ونام الناس - كعادتهم - في ضيافات نيسابور، ثم انتشروا في الصباح وقد تشعبت آراؤهم في الحكم على الرجلين، تبعاً لاختلاف ميولهم وأهوائهم. وقد شق على جماعة من الفضلاء أن يبلغ الشقاق بين الرجلين هذا الحد الممقوت! فسعوا في إصلاح ذات البين، وحملوا البديع على طلب المصافاة، وهو دليل على أن العدوان بدر منه، فمشى إلى الخوارزمي معتذراً يقول: بعد الكدر صفو، وبعد الغيم صحو!
وأبى كرم الخوارزمي إلا أن يقبل عذره، وزاد على ذلك فدعاه إلى أن يقضي عنده سحابة
يومه مغموراً بأريحيته وتصافى الرجلان، وحل الوئام محل الخصام
ولكن هذا الصلح كان كصلح (فرساي) يحمل في تضاعيفه جراثيم حرب ضروس! فلم يلبث أعداء الخوارزمي والمستوحشون منه أن سعوا في نقضه فهبت ريح الخلاف مرة أخرى شديدة عاتية! فلم يكن بدّ من عقد مناظرة ثانية تكون فصل الخطاب في هذه القضية الشائكة
وكان أن هُيّء مجلس في دار أبى القاسم الوزير، حضره بعض العلية على رأسهم رجل له مكانته وخطره، وهو الشريف العالم أبو الحسين، وكان البديع سنياً متعصباً للأشاعرة، والخوارزمي مصطبغاً بصبغة التشيع، فرهب البديع جانب أبي الحسين، ورغب في استمالته إليه، فمدحه ومدح آل البيت بقصيدة أولها:
يا معشراً ضرب الزما ... نُ على مُعرَّسهم خيامَهْ
ثم انثال الناس على المجلس من كل صوب وأوْب، حتى حفل بذوي المثالة من رؤساء المدينة وعلمائها وقضاتها ومتصوَّفها. وأقبل الخوارزمي - بعد لأي - في جمّ غفير من أنصاره ومُرِيديه.
وبعد ملاحاة ومشادة بين المتناظرين، تشبه التحام طلائع الجيوش، اقترح عليهم بعض الحضور أن ينشدا على غرار قول أبى الشيص:
أبقى الزمان به نُدُوب عِضاض ... ورمى سواد قرونه ببياض
فابتدر الخوارزمي قائلاً:
يا قاضياً ما مثله من قاضِ ... أنا بالذي تقضى علينا راض
ومنها:
ولقد بُليت بشاعر متهتِّك ... لا بل بليت بناب ذئب غاض
فقال البديع: ما معنى قولك: ذئب غاض؟ فقال الخوارزمي:
ما قلته - هكذا يزعم الرواة - فشهد الحاضرون أنه قاله. فقال: الذئب الغاضي: الذي يأكل الغضا. فقال البديع: استنوق الذئب! صار الذئب جملاً يأكل الغضا!
وهنا هدأت العاصفة بدخول الرئيس أبي جعفر، والقاضي الحربي، والشيخ أبي زكريا الحيري.
علي الجندي
آلام فرتر
فصل للناقد الإنجليزي (ادوارد شانكس)
الأستاذ أحمد فتحي
الأستاذ الزيات . . .:
ليس (جوته) بجديد عليك، فقد أغنيت المكتبة العربية مذ نقلت إلى الضاد العزيزة روايته الباقية (آلام فرتر).
وليس (ادوارد شانكس) بجديد عليك، فانك لأعرف بأنه في صدر نقاد الأدب في بريطانيا.

. . .وليس قلمي بجديد عليك، فقد أفسحت له الرسالة الزاهرة صدرها على الدوام ولكن الجديد هو أن يكتب (شانكس) عن (آلام فرتر)، فيمجدها كل هذا التمجيد الذي يتردد صداه في آفاق الدنيا، بينما يحال بين الطلاب المصريين في مدارس الحكومة وبين الانتفاع بما فيها من الفن الرفيع. ولينظر جمهور الأدب بعد ذلك في أي عصر نعيش؟!

(أ. ف)

أكبر الظن أن كتاباً يصدر بهذا العنوان في أيامنا هذه لا يقدر له حظ من النجاح. ولكن (آلام فرتر) قد ظفرت منذ ظهورها بنجاح فائق، وطافت أرجاء الدنيا باسم شاب في السادسة والعشرين من عمره. بل إن هذه القصة بذاتها قد أبدعت طرازاً طريفاً، واستحدثت مدرسة جذبت مناهجها أتباعاً ومريدين لا حصر لهم. كان الحزن على بطل القصة يستأثر بقلوب معظم؛ بل إن الألوف من شباب أوربا كانوا في وقت ما يجهدون أن يرتدوا من الثياب مثل ما كان يرتدي (فرتر). بل إن بعضهم قد جرى شوطه وانتهى إلى مثل غايته فقتل نفسه!

قرأ (نابليون) هذه القصة سبع مرات؛ واستصحابها طوال أيام مغامرته في مصر، بعد ظهورها بعشرين سنة. وحينما مثل (جوته) بين يديه في (إيرفورت) بعد ذلك باثنتي عشرة سنة أخرى، كان موضوع القصة نفسها أهم الموضوعات في كل ما دار بينهما من الأحاديث. ولقد أبدى الإمبراطور للشاعر أنه هضم القصة هضماً جيداً، وأحبها في إخلاص، مما كان له أثر باق في نفس الشاعر

وإننا لنحاول في هذا الفصل أن نعرض للبواعث التي أوحت إلى (جوته) بتأليف قصته هذه. ففي سنة 1772 فرغ من وضع مسرحية اسمها (برليخنجن) تعتبر في تأثرها بمسرحيات (شكسبير) من بواكر النزعة الرومانتيكية في المسرح الأوربي. ولقد كان لها بهذا الوصف حظ ملحوظ من النجاح. كما كان (جوته) قد كتب في ذلك الحين كثيراً من أروع شعر صباه. يضاف إلى ذلك أنه كان موضع الالتفات إلى جمال قسماته، وإلى ذكائه اللماح، ومظهره الممتاز. غير أن أباه، وكان رجلاً محافظاً شديد القسوة، أراده على أن يرسم لنفسه طريق الكسب في حياته. ومن ثَمَّ رحل ليتم دراسته القانونية في جامعة (ويتزلر). وكانت هذه المدينة حينذاك مقر المحكمة الإمبراطورية في ألمانيا؛ وفيها أحب (جوته) فتاة كانت قد خطبت قبل أن تعترض سبيل حياته إلى رجل آخر. ومنذ بدأ هذا الحب، بدأت فصول قصة (الآم فرتر) التي احتلت مكانها الملحوظ في قلوب الملايين

كان (جوته) في بواكير صباه فتى ملتهب العاطفة متأزم النفس ضيق الصدر مظلم الخاطر، حتى إنه كان يبتئس للخطب قبل وقوعه! ويقدر أنه هالك لا محالة! ولقد كان من آثار ذلك أن رحل عن (ويتزلر) كسير القلب قبل أن تضع الأقدار لقصة غرامه اليائس نهاية حاسمة. ولو أن المعجزة الهائلة كانت وقعت، فآثرت (شارلوت) عاشقها الشاعر الحساس على خطيبها المتبلد الجامد، فأكبر الظن أن هذا الانقلاب لم يكن ليحول بين (جوته) وبين الهرب من بلدة المرأة التي أحبها من كل قلبه، فإن استعداده الفطري للوقوع في حبائل الحب لم يكن يعدله أو يفوقه سوى استعداده الفطري لإيثار العزلة!

لقد زعم بعض من ترجموا له أنه حين رحل إلى (ويتزلر) كان يضيق بأيامه الأولى فيها، لأنه لم يجد فيها فتاة تستأثر بقلبه. غير أنه لم يلبث حين رأى (شارلوت بون) أن وقع في شرك غرامها. كانت في التاسعة عشرة، وكان لها اخوة صغار اثنا عشر توفيت أمهم. وليس من المحقق أن لقاءهما تم على النحو الذي وصفه في لقاء (فرتر وشارلوت) في قصته بعد ذلك، فقد جاء في القصة أن (فرتر) دُعي ليرافق، إلى حفلة راقصة، بضع فتيات وعدنه بأن يجدن له شريكة في حلبة الرقص، فاستأجر لهن مركبة ذهبت بالجميع إلى بيت (شارلوت) التي لم تكن قد أخذت بعد أهبتها للرحيل برفقتهم، إذ لم تكن قد فرغت من تقديم وجبة العشاء لإخوتها وأخواتها الصغار

كان اللقاء على هذا النحو استهلالاً رائعاً لملحمة شعرية بارعة. ومن المحقق أن شارلوت

كانت على أوفر حظ من الجمال والسذاجة والشعور بالواجب. غير أنه كان من سوء حظ (جوته) أن التقى بها بعد أن تمت خطبتها من (ألبرت كتزنر) ولقد كان من سوء

حظه أيضاً أنها لم تنصح له بمغالبة عواطفه نحوها قبل أن يفلت من يده زمامها. ولعلها لقيت من الألم ألواناً من أجل نفسها ومن أجل (ألبرت) الذي آثرته آخر الأمر بطريقة عملية إذ رضيت أن تزف إليه دون الشاعر

ولقد كان وضعاً على أكبر درجة من الشذوذ أنهم أمضوا شهور الصيف التالية للزفاف على نحو لا نظير له، إذ كان الشاعر العاشق يلهو حينذاك بدراسة الحقوق، وينفق كل أوقاته ملازماً (شارلوت). وكان فضلاً عن ذلك فتى وسيما ذكي الفؤاد، قد نال من النجاح في حياته الأدبية فوق ما كان (البرت) يصبو إليه في مستقبله. غير أن ألبرت كان منقطع النظير بتسامحه وسخاء ذهنه، فأحب (جوته) ووثق من شارلوت. ولعله قد أدرك بثاقب رأيه أن التسامح كان خير ما يمكن أن يلجأ إليه في ذلك الوضع الشاذ. ويبدو أن (جوته) قد ترك لخياله الحبل على الغارب، فجعل بصور مشاهد المأساة على النحو الذي توحي آلامه، وقد وجدت المأساة خاتمتها بعد ثلاثة شهور رحل بعدها الشاعر إلى موطنه (فرانكفورت) حيث ظل يراسل الزوجين جميعاً برسائل تفيض بأحزانه

على أن فصول هذه القصة على غناها لم تكن كافية لنسج الثوب الرائع الذي ظهرت به (ألام فرتر) بل أتاحت الأقدار لمؤلفها العبقري حادثين آخرين أعاناه على إظهارها في ذلك الثوب الذي لا مثيل له. . .

ذلك أنه التقى في (ويتزلر) بشاب ممتاز المواهب اسمه (أورشليم) ولم يلبث هذا الشاب أن أخفق في غرام له فقتل نفسه!

وهنا اتخذت القصة خاتمة مقبولة. ولكنه لم يكتبها في ذلك الحين أيضاً، بل هيأت له الأقدار فصلاً بارعاً مما اتفق له من فصول حياته الحقيقية نقله إلى حيث صبه في صلب قصته الخالدة. إذ حدث أنه حل ضيفاً بمنزل كهل من ذوي قرباه اسمه (بيتر برنتانو) كانت له زوج حسناء اسمها (ماكسمليان) لم يرق له ما يبدى الشاعر الشاب من الاهتمام بأمرها. فآثر أن يضع حداً لضيافته وطرده من بيته بدافع من الحرص على الفضيلة! وبعد ذلك مباشرة انزوى (جوته) في عقر داره وعكف على كتابة قصته الخالدة، فظهرت أول طبعاتها عام 1774

كان ظهور هذا الكتاب أشبه ما يكون بالقذيفة المفاجئة. وكانت شارلوت وزوجها ألبرت أول من شعر بذلك. إذ أن جوت حين آثر النهج الواقعي في تسجيل حوادث القصة لم يغير أسماء أبطالها! وإن كان قد غير من سياق حوادثها ومميزات الأبطال أنفسهم، فألصق بألبرت كثيراً من نقائص قريبه برنتانو، تلك النقائص التي كان يعلم أن البرت بريء منها تماماً والتي جعلها ذات الأثر الفعال في انتحار بطل قصته (فرتر)

ولقد تحدى (جوته) مواطنيه جميعاً في تقدمته إليهم إذ زعم أنهم لا يقدرون قيمتها في نظر الجماهير الأخرى ولا يقدرون قيمتها بالنسبة إليهم أنفسهم. ولم يكن مسرفاً في هذا التحدي، لأنه إنما أصاب الشهرة في وطنه بوصف أنه مؤلف (برليخنجن) وحسب، بينما استطاعت (آلام فرتر) أن تتخطى الحدود إلى سائر بلاد الأرض، وأن تغزو أفكار الشباب حيثما وقعت في أيديهم، بما تحمل من صور العبقرية الفذة. وإن كثيرين من هؤلاء قد رسم خيالهم (فرتر) كإنسان نبيل القلب غني العاطفة حي الإنسانية؛ لفظته الحياة فآثر عليها الموت. ولقد بلغ من تأثرهم بصدق هذه الصورة أنهم آمنوا بأن الحياة ليست إلا هذا اللون من الإخفاق الذريع، فجروا مع (فرتر) إلى نهاية الشوط، وقتلوا أنفسهم!

ولقد تبين للمتأخرين من رجال الإصلاح الخلقي أن (فرتر) هذا قد زين الانتحار للشباب. وهذه حقيقة يصعب إنكارها، بل هي وثيقة تسجل لمبتكر شخصية (فرتر) مجداً أبقى على الزمن الباقي من الزمن! ولكن شراً من ذلك أنهم أرغموا (جوته) على أن يضع أبياتاً عقيمة ينطق بها (فرتر) في لحظاته الأخيرة، ناصحاً للشباب بألا يحذوا حذوه. ولكن إضافة هذه الأبيات لم تكن لتجدي في الواقع شيئاً، وكل ما ثار حول الكتاب من النقد إنما كان كله إعلاناً زاد رواجه وساعد على تداوله

ولا يتسع المقام لتعقب الآثار الأدبية التي أحدثها ظهور هذا الكتاب، تلك الآثار التي عبرت إلى القرن العشرين وظهرت في شخصيات الأبطال القصصيين الذين ابتكرهم أمثال (بيرون) و (شاتوبريان). غير أن ثمة ملاحظة أخرى يجب أن تضاف إلى ما تقدم

عن أثر الكتاب في حياة مؤلفه نفسه. إذ لم يقدر له أن يصيب من النجاح في حياته مثل ما أتاح له هذا الكتاب وهو لم يتخط السادسة والعشرين. وقد يكون لقصته الأخرى (فاوست) عدد
أوفر من القراء في هذه الأيام، ولكن لم يكن لها مثل ذلك في أول عهدها بالنشر. وستظل شهرة (جوته) قائمة إلى ما شاء الله بوصف أنه مؤلف (فرتر) وبهذا الوصف دعاه (الدوق كارل أوجست) إلى قصره في (فيمار) حيث بقى إلى أن وافاه القدر وهو في موضع الصدارة بين وزراء الدوق. وإنه إذا تعسر الحكم بوفرة عدد من يقرأون هذا الكتاب في أيامنا الراهنة، فإنه من الكتب التي يتعذر إهمال الحديث عنها. فقد نظم (جوته) فيه أحسن الشعر الذي لم ينظم بعده ولا قبله مثيل له أو خير منه. بل أن هذا الشعر ليبز ببساطته ووضوح تعبيره كل ماعداه من شعر الألمان جميعاً إلى اليوم. والكتاب بعد ذلك وقبل ذلك، حافل بجمال متحرر من كافة القيود والأوضاع، حافل بروح الشباب التي أبرزها الشاعر مرة أخرى في شعر غنائي رائع زان قصته الأخرى (فاوست) تلك الروح التي ودعته منذ ودع شبابه!
(الجيزة)
أحمد فتحي
من الأناشيد المرفوضة
للأستاذ علي الجندي
نحنُ جُندُ النيلِ أبناءُ الفِداءْ ... وكماةُ الحربِ أبطالُ الكِفاحْ
نَرِدُ الهيْجاَء في ظلِّ اللواءْ ... كأُسود الغابِ أو هُوجِ الرِّياح
في خُطانا النصرُ والفتحُ المبينْ
نحنُ أبناءُ الصناديدِ الغُزاهْ ... سادةُ الدُّنيا وأقيالُ الأممْ
اقرأِ التاريخَ واحفظْ ما رواهْ ... عن صلاح الدين أو باني الهَرم
وكذا الآباءُ تُوحي للبنينْ
نحنُ في البرِّ وفي البحرِ أُسودْ ... ونُسورٌ بينَ أعنانِ السماءْ
سجَّلَ النصرَ لنا لوْحُ الخلود ... فوقَ ظهرِ الأرض أو متنِ الهواءْ
فوقَ لُجِّ البحرِ يَرغوا بالسفينْ
منْ يُبارينا إذا جَدّ القتالْ ... ورجومُ الحرب تهوى بالصفوفْ
نحتبي في ساحِها مثلَ الجبالْ ... لا نُبالِي بالمنايا والحُتوفْ
أتهابُ الموتَ آسادُ العرينْ؟
سائِلِ النيلَ بنا والهرَما ... هلْ لنا منْ مشبهٍ بين الشعوبْ
نَرخصُ الأرواحَ إن ربعَ الحمى ... ونفدِّيهِ بحبّاتِ القلوب
ونَفي بالعهدِ إنَّ العهدَ دينْ
مِصرُ يا مهدَ المعالِي والفخارْ ... بَسَمَ السّعدُ ووافتكِ المنى
ذاكَ فاروقُ وهل يخفَى النهار ... فوق عرشِ النيل مرموقَ السنا
ملكٌ يُحي عُهودَ الراشدينْ
قدْ قطعنا العهدَ واللهُ شهيدْ ... أننا للعرشِ نحيا والبلادْ
فاهتفوا يا قومَنا عاشَ الرشيد ... عاشَ فاروقٌ لمصرٍ خيرَ هادْ
ناهضاً بالشعبِ والجيشِ الأمينْ
علي الجندي
الأدب في سير أعلام
بيرون
ذلك العبقري المتمرد الذي غنى أروع أناشيد الحرية، ولاقى الموت في سبيل الحرية
للأستاذ محمود الخفيف
أقام الصبي في نوتنجهام ووكلت به أمه أستاذاً يعلمه اللاتينية وأحبه أستاذه حباً عظيماً وأعجب بذكائه الفائق، ودهش لكثرة ما قرأ من الكتب؛ وفي تلك المدينة أسلمته أمه إلى رجل ادعى أنه قادر على أن يزيل عاهته وكم كان يتألم الصبي حين كان يدلك ذلك الرجل رجله بالزيت، ثم يلويها في عنف ويشد عليها الوثاق بين خشبتين، ولكن كبرياءه كانت تأبى عليه أن يظهر الألم على ما كان من هوله وعدم جدواه. . . ولقد كان ذلك

الرجل الفظ يرسله أحياناً إلى بعض الحوانيت ليشتري له ما يريد كأنه خادمه، والناس يعجبون ويألمون أن يعامل اللورد الجميل هذه المعاملة. . . وكان الصبي ينتقم من طبيبه بكثير من معاكساته، ومنها أن يسأله أسئلة تظهر له جهله فيسخر منه ويطلق لسانه بالتهكم عليه

واستطاعت أمه أن تحصل له من ميراثه مؤقتاً على ثلاثمائة جنية تدفع له كل عام حتى يبيح له القانون أخذ نصيبه كله. وأخذا يحسان اليسر في معيشتهما، ولكن أمه ظلت على حالها من الشذوذ فهي لا تني تكيل له الشتائم وكثيراً ما تطارده تريد أن تضربه فلا تدركه على الرغم من عرجه، ولقد علمه هذا أن يصيبها ببعض تهكماته وأن يناوئها بعناده وتمرده

وهكذا تظهر الظروف خلاله في هذه السن الباكرة، فهو عنيد متمرد ذو كبرياء، وهو متوقد العاطفة مشبوب الخيال، وهو بارع الكلمة حاضر البديهة، ولسوف تكون هذه في غد خواص شعره يوم يحمل أنصاره وخصومه جميعاً على الإعجاب بذلك الشعر

وأدخلته أمه مدرسة في لندن وهو في الثانية عشرة من عمره، وكانت تزوره هناك أحياناً فيبدو للناس من شذوذها ما يخجل اللورد المتكبر منه، وكم كان يضيق بخلانه إذ يعيرونه بحماقة أمه، فيحاربهم تارة ويعرض عنهم تارة أخرى. . . ولقد كان وهو في تلك السن يحمل في جيبه أينما سار مسدساً محشواً، كأنما كان يستعيض به عما لحقه من ضعف

بسبب عرجه. . . على أن لا يستبعد أن يكون ذلك بعض ما تطرق إليه من شذوذ بسبب ما سمع من الأقاصيص عن اللورد التعس فلقد كان الصبي يبدى إعجابه بما كان يقص عليه الخدم من أنبائه في قصر نيوستر

ونقل الصبي وهو في الثالثة عشرة إلى مدرسة تليق به، وكانت من أكثر المدارس شهرة يومئذ، وهي مدرسة هارو؛ وكان يقوم عليها أحد ذوي المكانة من المربين، وسرعان ما فطن ذلك المربي إلى صفات التلميذ الجديد، فلمح عناده وكبرياءه، ولذلك عول على اكتسابه باللين، فنجح في ذلك نجاحاً كبيراً، وأحب التلميذ ناظره واطمأن إلى عدالته، ولعل هذا الشخص الوحيد الذي خضع له بيرون في حياته كلها. . .

وهالت المدرسين والتلاميذ جرأته من أول الأمر، فهو يخرج على ما يحد من حريته، وهو يذهب في ذلك إلى أن يعلن إعجابه ببونابرت، بل أنه ليحمل صوراً له وتمثالاً صغيراً، وهو لا يفتأ يتحدث عن الثورة في فرنسا وما تدعو إليه من حرية، ولو كان على رأس تلك المدرسة رجل غير ناظرها هذا لما صبر على جرأة هذا التلميذ الثائر.

وسرعان ما حمل التلاميذ على الإعجاب بخلاله، فهو جريء في الحق، يظهر من الشجاعة الأدبية في كل المواقف ما ينال به احترام الجميع، وهو لا يعرف الكذب ولا يطيق سماعه، وهو ولوع بالرياضة على الرغم من عاهته، وهو شديد الإخلاص لأصدقائه لا يبخل على أحد بشيء مهما عز، وهو مشتعل حماسة وإقداماً، وهو فصيح اللسان، أخاذ العبارة، ذكي الفؤاد؛ وهو فضلاً عن ذلك كله قد قرأ من الكتب ما لم يقرأ نصفه أحد ممن هم في سنه. هذا إلى إعتداده بنفسه وحرصه على كرامته وطموحه وبعد همته

لذلك لم يمض على بيرون عام في مدرسته حتى كان شخصية فذة فأحبه جميع أقرانه، واحترمه أساتذته، وأعجبوا به على الرغم من تمرد روحه وتكاسله أحياناً عن دروسه، وكان ذوو الصبائر منهم يتنبئون لذلك الغلام بمستقبل فذ وأثر في الأدب خطير

وكان قد ملك قلبه وهو في الثانية عشرة حب جديد فهام بابنة عم له أخرى هي مارجريت باركر، ولقد ذكر بيرون فيما بعد أن أول خطوة خطاها في الشعر كانت بوحي من هذه الفتاة التي كانت تكبره بعام، على أن يد الموت لم تلبث أن قصفت عودها اللدن وهي في الخامسة عشرة، فكان هذا أول حزن أرمض قلب الفتى واستقر في أعماقه حتى نهاية عمره

وكان يراه التلاميذ في هارو يحمل كتاباً ويصعد التل القريب إلى مقبرة هناك فيضطجع على قبر تظلله شجرة ويظل يقرأ ويتأمل في ذلك المكان مدة قد تطول إلى ساعات؛ وكان مما ظهر من صفاته في الرابعة عشرة ميله إلى العزلة أحياناً، وذلك دأب ذوي النفوس الحالمة الحزينة، ولقد اشتهر فيما بعد أمر ذلك القبر الذي كان يضطجع عليه الشاعر، حتى لقد أحيط بسياج من الحديد بعد أن أصبح الشاعر في ذمة التاريخ، وذلك

حين امتدت أيدي الزائرين لهذا المكان إلى أحجاره تحملها كأثر من أثار العبقرية على الرغم من أنهم كانوا يعلمون أن ذلك القبر لم يك قبر بيرون

وأتيح للفتى وهو في السادسة عشرة أن يذهب إلى قصره في نيوستد أثناء عطلة صيفية أجابة لدعوى وجهت إليه من مستأجر ذلك القصر، وكان هذا شاباً يدعى اللورد جراي، ولشد ما أبهج بيرون أن يرى ذلك القصر، وأن يرى تلك الشجرة التي غرسها هناك بيده وقد أخذت تترعرع وتكبر

وكان يقوم على مقربة من نيوستد قصر آخر في موضع اسمه أنسلي، وكانت تملكه أسرة سودرث وهم من ذوي قرباه، وكان بيرون يمتطي جواداً إلى ذلك القصر أحياناً، حيث كان يرى قريبته ماري سودرث وهي فتاة تكبره بعامين، وهي من سلالة ذلك الرجل الذي قتله اللورد التعس في مبارزته

وكانت ماري تحب فتى من أهل تلك الجهة على غير علم من بيرون. . . ولكنها رأت في نظرات بيرون مالا يخفى على عين فتاة في مثل هذه السن، والفتيات يفهمن بغريزتهن لغة العيون إذا ما استبهمت من الخجل لغة الكلام. . . ولقد هام بحبها ذلك الفتى المشبوب الخيال الملتهب العاطفة، واستأثرت بلبه الفتاة حتى ما يرى للوجود معنى غير معنى هيامه بها، ولا يتصور سعادة تقاس إلى سعادته بحبها؛ ولكن قلبها لم يك طوعها يومئذ، فلقد ربطة الحب بقلب غير ذلك القلب الفتي المتوثب، على أنها وجدت في هيام اللورد بها ضرباً من اللذة ومعنى من معاني الزهو فطاوعته وجاذبته أطراف الأحاديث، وجعلت لنومه حجرة في قصرها ليبيت هناك إذا شاء، وأهدت إليه صورة لها وخاتماً

وبات الفتى في فردوسه الجديد يستروح أنسام السعادة ويحلم أحلام الحب، إلى أن كان ذات ليلة من ليالي فردوسه في طريقه إلى مخدعه فسمع ماري تقول لخادمتها وقد حسبته قدر

صار بحيث لا يسمع: (أتظنينني أعبأ حقاً بهذا الفتى الأعرج)؟ ونفذت الكلمات كالسهام إلى قلبه، ورأى جنته قد انقلبت جحيما في مثل خفقت الطرف، فخرج لتوه في الظلام وظل يعدو كالمجنون حتى بلغ نيوستد؛ فأوى إلى حجرته لاهثاً خائر البدن، وبقى شارد اللب ساهد الجفن حتى أصبح الصبح، فعاد إلى أنسلي ولكنه لم يطلع ماري على ما حدث. واستقرت اللوعة في قلبه فأخذ يخفيها مكابراً معانداً، يسفه ذلك القلب ويزجره وإن كان ليكاد ينفطر مما به؛ ولقد كان من أبرز خلاله أنه يطوي على الثورة نفسه فتظل الثورات كامنة فيه حتى تجد متنفساً لها، ولم بك ذلك المتنفس غير شعره. . . والحق لقد كانت هذه الإشارة إلى عاهته أوجع مما سبقها جميعاً وأشدها نيلاً من كبريائه. . .

وحان موعد الذهاب إلى المدرسة فلم يذهب على الرغم من إلحاح أمه عليه وقطعه العهد على نفسه بالذهاب مرة بعد أخرى. . . ثم نشب بينه وبين اللورد جراي شجار عنيف لسبب عقل الخجل الشديد لسانه عن أن يفضي به إلى أمه، ولقد التهب وجهه وهي تستفهمه عنه كأنما سرت في جسده حمى. . . وأخيراً عاد الفتى إلى المدرسة بعد فوات ثلاثة أشهر منذ بدأت الدراسة وقلبه مثقل بالهموم ونفسه منطوية على الثورة

وحاول بيرون أن يتعزى بأصدقائه عما ناله على يد ماري فأقبل عليهم يستزيدهم من أحاديثهم، فإذا مال بهم الحديث إلى الحب راح يسخر من الحب بكل ما في وسعه من معاني السخرية فما الحب في نظره إلا ضرب من الجنون ونوع من الضعف، وإن الوقت الذي ينفقه المرء في الهيام أضيع أوقات حياته وأتعسها. يقول ذلك وإن قلبه لينبض بالحب كأقوى وأوجع ما يكون الحب فيكون مثله في ذلك مثل من يشتد به الحزن لأمر من الأمور، فلا يزيد في دفع هذا الحزن على أن يضحك ويغرق في الضحك ويصيح بأعلى صوته إنه فرح مستبشر حتى إذا خلا إلى نفسه أحس بالجوى أشد لذعاً واقبح وقعاً مما كان عليه قبل هذا المرح المتكلف ولاذ بالكتب لعلها تسرى عن فؤاده، وراح يقرأ منها ما يسفه الحب ويفند أقوال المحبين ويسخر من دعواهم، ولقد كان يرجو من وراء ذلك أن يبرأ من دائه كما كان يرى فيه ما يتفق مع عناده وكبريائه كأنما كان يريد أن يصرف قلبه عن وجهته بالعنف بعد أن عجز أن يعلله بالصبر

وتزايدت على الأيام محبة أصدقائه له وحرصهم على مودته، فكانوا يرجعون إليه في

أمورهم ويعدون الاستمتاع بروحه العذبة من أجمل أويقات حياتهم في المدرسة
ويحسون جميعاً أنهم دون هذا الفتى يحيا حياة الشاعر وإن لم يحمل بعد قيثارة
الشاعر ويعترفون له بالتفوق أرادوا ذلك أولم يريدوا وإن منهم من يبذه في الدروس
المقررة ويظهر عليه في كثير من نواحي الحياة المدرسية وصار يكثر من الذهاب إلى
تلك المقبرة التي أحبها فيقضي ما شاء من الوقت في تأمله وقراءته وأقرانه ينظرون
إليه ويشيرون عن بعد قائلين: هاهو ذا بيرون يصعد التل إلى مقبرته
وازداد تعلقه بالمدرسة وحياتها حتى إنه ليحزنه أن تقرب ألا جازات الدراسية فهو لا
يستطيع أن يذهب إلى أنسلي ولا إلى نيوستد، وليس أمامه إلا أن يذهب إلى حيث
باتت تقيم أمه في سوثول على مقربة من قصره العتيق، وهو كلما تقدمت به السن
ازداد نفوراً من تلك الأم التي ما تزال تشتمه وتعنفه لسبب ولغير سبب حتى ليضيق
بها وبالحياة جميعاً من أجلها على أنه ما لبث أن سكن إلى أخته لأبيه أوجستا وراح
يشكو لها بثه وحزنه وكانت رسائله إليها مفعمة بحماسة قلبه وتوثب روحه وتوقد
عاطفته، وكانت تعدها من أكبر دواعي سرورها كما كان يعد رسائلها إليه، ولما علم
أنها قد مسها عذاب من الحب كتب إليها يظهر توجعه لها ويعلن لها في الوقت نفسه
استهزاءه بالحب وسخافاته وكرهت إليه قسوة ماري النساء جميعاً وصار يعتريه الخجل
إذا طلع عليهن، على أنه حينما علم بقرب زواج ماري ذهب ليراها وقد كتبت إليه
تدعوه ودخلت عليه حيث كان ينتظرها فحيت، فوضع يده في يدها دون أن يتكلم ثم
خرج مسرعاً فامتطى جواده وراح يسبق به الريح
وأحس بيرون في سنته النهائية في هارو حباً شديداً لهذه المدرسة حتى لقد كان يفكر
كيف يطيق الخروج منها، وكان في سنته النهائية قد قارب السابعة عشرة وقد أقام
من نفسه زعيما وحامياً لكن من كانوا دونه في السن، ولقد كان شديد الولوع بهذه
الزعامة عظيم الفخر بها والحرص عليها، وأخذ في تلك السن يكثر من نظم الشعر في
الحفلات المدرسية وفي غيرها من المناسبات غير أن أقرانه ورؤساءه كانوا يرون فيه
خطيب الغد أكثر مما كانوا يرون فيه شاعراً وذلك لما آنسوه من حماسته في إلقائه
كلماته ولما خبروه من بلاغة عبارته وقوة جنانه وانطلاق لسانه
وأقبل بيرون على دراسة اللاتينية والأغريقية وهو في هذه السن فتفوق واشتهر أمره
فيهما كما تفوق في السباحة وفي لعبة الكريكت على الرغم من عرجه
ولما حان يوم الرحيل طاف بالمدرسة كلها طائف من الشجن لفراق بيرون، وثقل ذلك
الفراق على هذه النفس الشاعرة حتى ما درى الفتى كيف يتأسى أو كيف يطيق البعد
عن هذه المدرسة التي خطى خطوات الفتوة بين جدرانها. . . وخرج منها وعبارات
التوديع من أقرانه ملء أذنيه وملء نفسه
وألحق بيرون عقب ذلك بكمبردج وهو دون السابعة عشرة ببضعة أشهر، وأتيح له
يؤمئذ الحصول على خمسمائة من الجنيهات سنويًّا من دخله، وفي كمبردج بدأ بيرون
يستقبل حياة الجد ويخطو خطواته الأولى في مجال الشعر
(يتبع)
الخفيف
الأدب في أسبُوع
التقليد
لم أكد أفرغ من قراءة ما تيسر لي أن أقرأه في هذا اليوم وما قبله حتى
عاودني الفكر في أصول ما قرأت من كلام الكتّاب والشعراء، ووقفت
أستعيد في نفسي تلك التيارات الكثيرة التي تموج بنفوسهم من تحت
اللفظ والعبارة والمعنى والغرض. ولقد ظننت - حين أقدمت على قبول
كتابة هذا الباب من الرسالة - أن أنبعاثي للكتابة وطول ممارستي
لمادتها كفيلان بنهنهة النفس عن بعض ثورتها، ولكني أخطأت، فان
أكثر ما حملت نفسي على قراءاته يكاد يؤرّث النار كلما خبت، ويعيدها
جذعة كلما طفئت، ويدفعني إلى مثل الحريق من الألم والحسرة
والغضب للأدب العربي أن يكون إلى مثل هذا الضعف والفساد والقبح
مصيرُه وعقباه.
إن أصحاب هذا اللسان العربي والناطقين به قد أصابتهم في عصور متتابعة مصائب

الجهل والغفلة والضعف فتحطمت عروش الدولة في بلادهم كلها وعدا عليها كل عاد من ذؤبان الأمم فاستذلوهم وأخذوهم وفتكوا بهم وقضقضوا أوصالهم بالعنف والاستبداد تارة، وبالرفق والسياسة المتدجِّية، تارة أخرى. ثم جاءت أيام بعثت من تحت الليل جمرات تفرقت ثم اجتمعت ثم استطار شرارها فرمى في كل هامدة بعض الحياة، وكذلك ثارت أحلام النائمين بتحاسينها وتخاريخها وفنونها فانتفضوا يطلبون تحقيق أنوار لياليهم في سواد أيامهم، ولكنهم قاموا وهبوا على غير نظام ولا تدبير ولا تعبئة فانتشرت القوى الجديدة وتمزقت، فضعفت وأخفقت، ولم يكن منها ما كان يرجى لها من الغلبة والظفر والسيادة، وبقى الضعف في هذه الأمم العربية وهو عمادها وعماد أعمالها في عصر من القوة الأوربية الطاغية يمتد ويتراجب وينساح في الأرض كلها متدافعاً متدفقاً لا يقف ولا يفتر

ومن بلاء الأمم الضعيفة بنفسها أن انبعاثها إلى التقيد - تقليد القوى - أشد من انبعاثها لتجديد تاريخها بأسباب القوة التي تدفع في أعصابها عنفوان الحياة. والضعف يجعل محاكاة القوى أصلاً في كل أعماله. فلما فسدت قيادة أصحاب الرأي عند هذه الأمم الضعيفة، وكان لابد للمستيقظ من أن يعمل، كان عمل الأفراد متفرقين منسحباً على أصلين: ضعفٌ أورثهم إياه ضياع كيان الدولة السياسي، وضعف كرثهم به تفرُّق القيادة وشتات الأغراض، فلا جرم أن يكون كل عمل موسوماً بسمة من ضعف مظاهر بضعف صاحبه، ولا جرم أن يكون أعظم أعمالنا هو تقليد الناس على الهوى والجهل والدهشة المتصرفة بغير عقل

هذا كل شي تحت أعيننا وبأيدينا: بيوتنا، مدارسنا، بناؤنا، رجالنا، نساؤنا، علمنا، أدبنا، فننا، أخلاقنا. . . كل ذلك على الجملة والتفصيل قد وُسم بميسم الضعف والتفرق وانعدام التشاكل بين أجزائه التي يتكون من مجموعها معنى الأمة، وكلها تقليد قد تفرقت في جمعه أهواء أصحابه من هنا وهنا. والتقليد بطبيعته لا يتناول من الأشياء إلا ظاهرها، فكل مآخذنا من أجل ذلك ليست إلا مظهراً

هذه المرأة - هي فن الحياة الذي يشتهي أبداً أن يبدع حتى في الأذى - ما تكادُ ترَاها عِندَنا إلا دُمْيَة ملَّفقةً من الحضارات وبدعها. . . ثيابها، زينتها، حليها، تطريتها، شعرها، تطر يف بنانها، مشيتها، منطقها. . . كل ذلك أجنبي عنها متكلف منتزع من مظاهر غانيات باريس وعابثات هوليوود، ليس له من جنسها ولا أصلها شبْه تنزع إليه، وأسمجه أنه ملفق لا يتشاكل تشاكل المصدر الذي اجتاب منه بالتقليد

وهذا الكتاب وهذا الشاعر - وهما فن الحياة الذي يعمل أبداً في تجديد معانيها بالتأثير والبيان - لا تجد فيما يكتب أكثرهم إلا المعاني التي نقلت من مكانها بالاعتناف والقسر فوضعت في جو غير جوها فاختنقت فمات ما كان حيا من بيانها في الأصل الذي انتزعت منه

وهكذا. . . هكذا كل شيء تأخذه العين أو يناله الفكر، إنما هو دعوى ملفقة وتقليد مستجلبٌ وبلاءٌ من البلاء. ولا نزال مقلدين حتى يستطيع الأحرار - وهم قلة مشردة ضائعة - أن يبسطوا سلطانهم على الحياة الاجتماعية كلها، ويرد إلى الأحياء بعض القلق الروحي العنيف الذي يدفع الحي إلى الاستقلال بنفسه والاعتداد بشخصيته، والحرص على تجديد المواريث التي تلقاها من تاريخه، ويغامر في الحضارة الحديثة بروح المجدد لا بضعف

المقلد، فعندئذ ينتزع من الحضارة الأسباب التي تنشأ بقوتها الحضارات، ولا يكون موقفه منها موقف المسكين الذليل المطرود من المائدة. . . ينتظر وفي عينيه الجوع ليتقحم من فتاتها

صورة النفس

عرضت لي مقالة في مجلة الثقافة عدد (54) عنوانها (الأدب صورة النفس) كتبها الأستاذ (محمد مندور)، وقد استوقفني عنوانها قبل أن أقرأها، لأن هذه هي الحقيقة التي نقولها ولا نصل فيها إلى حق. وقد تغاوى النقاد عليها ومع ذلك فما نظفر من أقوالهم إلا بالمبهم بعد المُبهم، ولا نجد لأكثرهم شرحاً لها يفي بمدلولها أو بسرها أو يزيل الإبهام عن مسالكها. . . يقول الأستاذ: (وإذن، فالآثار الأدبية والفنية تطلعنا بغير تحفظ على أسرار واضعيها النفسية بأسلوبها الخاص. . . ونحن نقصد بذلك إلى البحث عن نفس الكاتب والشاعر في تضاعيف ما يكتب. . . وعمل الناقد إذن عمل كشف

عن أسرار لا تقع تحت البصر لأول نظرة، وسبيله ذلك لا يمكن أن يكون إلا حساً باطنياً ترهفه التجارب والمعرفة الطويلة بمختلف النفوس. . .)؛ وكل هذا جيد من القول، وهو كالشرح على عنوان المقالة. ولكني رأيت الأستاذ ينظر في آثار أدبية لأستاذين جيلين هما: أحمد أمين وطه حسين، وشرع يتكلم عن بعض آثارهما. تكلم عن مقال (في فيض الخاطر) وهو (صديق) فإذا كل الذي قاله وصف يمكن أن يقع على كل كلام، فيقول (سترى كيف حطم الأستاذ هذا الصديق، فرده إلى عوامله الأولية؟ وقد تقاصرت جمله متجاوبة كأنها ذرات مادية نتجت عن هذا التحليل). . . والنتيجة! والنتيجة أن الأستاذ أحمد أمين أو أسلوبه أسلوب تحليلي، وفيه قوة مخيفة! والأستاذ طموح متقلقل في شتى السبل، لأنه كتب عن الشمس وعن الليل، يستقري ما يجوب في ظلام الليل، وما تغدقه الشمس؛ ولا يصف جمالها أو وحشته! وهكذا، ولا أدري كيف أستخرج شيئاً من كل الذي كتبه يدل على الذي أراده مما نقلناه آنفاً؟ ولا كيف عمل هو في الوصول إلى هذه الأحكام التي دمغ بها الآثار الأدبية وأصحابها؟ ولا كيف كان عمله في التحليل النفسي الذي أحس به إحساساً باطنياً!!

إنه لابد لمن يتناول مثل هذا الموضوع أن يفصل القول، فلا يجمله، لأنه بلا شك موضوع جليل، والكلام فيه سلوك في مجهل غامض يحمل على الإبانة والإيضاح، وإلا كان الكلام فيه على هذا تقصيراً لا ينفع، ويكون أنفع منه أن يترجم لنا الأستاذ كلام النقاد الأوربيين الذين مارسوا هذا العمل وأفرغوا له أوقاتهم واستوعبوا الأصول التي يسار عليها في معالجته، وكذلك تتم خدمته للأدب والأدباء. . .

أبو العباس السفاح

كنت أحب أن أستوعب في هذا التعليق كل الرأي الذي عرض لي في أمر أبي العباس السفاح أمير المؤمنين، ولكني رأيته قد خرج عن أن يكون من مادة هذا الباب، فلذلك اقتصرت على أشياء أرجو أن تعين الأستاذ العبادي في تحقيقه الذي بدأه، وعسى أن يكون في هذا القول بعض الصواب الذي يسعى إليه.

فمن ذلك أن أبا العباس السفاح، وأبا جعفر المنصور أخوان وليا الخلافة العباسية لأول أمرها؛ وكان أبو العباس أصغر من المنصور بعشر سنين، وأن اسم أبي العباس وأبي جعفر في نسبهما هو (عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس)، فأبو العباس هو (عبد الله الأصغر)، وأبو جعفر هو (عبد الله الأكبر). فإذا كان ذلك كذلك، وأبو جعفر قد لقب بالمنصور وأن الذي لقبه بذلك أبوه فيما نعلم، فلا غرو أن يكون أبو العباس كذلك ملقباً، وأن يكون أبوه قد لقبه كما لقب أخاه

وإذا كان أبو العباس (عبد الله) هو الأصغر فالتلقيب هو أولى به للتفريق بينه وبين أخيه أبي جعفر (عبد الله) وهو الأكبر الذي ولد أولاً وسمى (عبد الله) من قبله. ويؤكد أمر هذا التلقيب صيرورته بعد في خلفاء بني العباس جميعاً إلى انقضاء دولتهم، فكأنه كان من (تقاليدهم) وتعاليمهم

وأيضاً فإنه قد وردَ في الحديث عن أبي سعيد الخدْريّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يخرج منا رجل في انقطاع من الزمن وظهور من الفتن يقال له (السفاح) يكون عطاؤه للمال حَثْياً)، وأئمة الحديث لا يصرفون هذا الاسم إلى أبي العباس، وإنما هو نبوءة كبقية النبوءات التي وردتْ في القرآن الكريم والحديث النبوي لا يدري تأويلها إلا أن تكون. . .؛ ولكن الدعوة العباسية فيما يظهر قد جمعتْ بين هذا الحديث وأحاديث أخر هي من باب النبوءات أيضاً وجعلت منها حديثاً اتخذته في الدعوة إلى إقامة الخلافة في بني العباس، فكانوا يروون للناس عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال: (والله لو لم يبق من الدنيا ألا يوم لأدال الله من بني أمية، ليكون منا السفاح والمنصور والمهدي)، وهم الخلفاء العباسيون الثلاثة على التتابع. ولاشك في أن هذا كان قبل قيام الدعوة بالفتح بزمن طويل. فلعل الأمام (محمد بن على) قد لقبَّ ولديه بهذين اللقبين تفرقه بينهما، وتفاؤلاً بالذي يروون في أحاديث الدعوة العباسية

وإذا كان ذلك كذلك فمعنى اللقب أذن ليس من (سفح الدم) - وهو بهذا المعنى مجاز مقصورٌ لغرض بعينه - ولكنه من الكرم والعطاء والبذل كما ورد في الحديث الذي سقناه آنفاً من أن (عطاء السفاح للمال حثْياً) لأنه لا يصح في العقل أن يلقب أحد

ولده بهذا المذمة القبيحة وهو ينصبه للناس خليفة، وقد لقب أخوه من قبل بالمنصور.
نعم قد سمت العرب في جاهليتها بالأسماء المنكرة، ولكن الإسلام جاء فحسم ذلك كله، ولم يبق من التلقيب والتسمية بالمنكر من الألفاظ شيء في أكثر البادية العربية، فكيف في الحضر ثم في أعظم بيوت الحضر، وهو بيت العباس؟ وقد كان لهم في رسول الله أسوة حسنة فهو قد غير أسماء كثير من الوافدين عليه من أصحابه (كزحم بن معبد) فسماه بشيراً، وجميلة امرأة عمر بن الخطاب وكان أسمها (عاصية) وخلق كثير
وعلى هذا الأصل نرى أن الناس في صدر الإسلام سموا (بالسفاح) فمنهم: السفاح بن مطر الشيباني، وهو ممن ولد في النصف الثاني من المائة الأولى للهجرة وكان من أصحاب الحديث؛ والسفاح أخو أبي سلمة بن عبد الرحمن الزبيدي لأمه وهو من التابعين، وقد روى عن أبي هريرة وغيرهما. ولاشك أن التسمية هنا منصرفة إلى المدح لا إلى الذم؛ فصفة أبي العباس السفاح هي إلى العطاء والكرم كما ذهب الأستاذ العبادي أولاً، ثم رجع عنه حين تعقبه الأستاذ أحمد أمين
أما النص الذي نقله الأستاذ عن اليعقوبي من أنه قال: (عبد الله بن علي الأصغر وهو السفاح)، وهو عم أبي العباس والمنصور، فإن أصله من ابن سعد في طبقاته حين ذكر أولاد على بن عبد الله بن عباس فقال: (عبد الله على الأكبر. . . وعبد الله بن على الأصغر السفاح الذي خرج بالشام)، فهذا هو الأصل ولا يرى فيه إرادة التلقيب كالذي يرى من نص اليعقوبي، وإنما هي صفة كالسفاك والقتال. نعم، وأنا لا أدري كيف ادعي الأستاذ العبادي أنه اشتهر بذلك فانتقلت هذه الصفة إلى أبى العباس أمير المؤمنين، فإن الطبري
وأئمة المؤرخين قد ذكروا عبد الله ابن علي عم أبي العباس وأبي جعفر في أكثر من خمسين موضعاً ولم يلقبه أحدهم بهذا اللقب، فكيف يمكن أن ندعى أنه اشتهر به حتى كان من جراء هذه الشهرة أن اختلط على الناس وعلى الأدباء وعلى فلان وفلان كالجاحظ وابن قتيبة فوضعوا صفة (عبد الله ابن علىّ) صفة (لعبد الله بن محمد) على قرب العهد. وكيف جاز أن يقع في ذلك الجاحظ في روايته، وهو أدق العلماء رواية، وهو الذي يردأ كثر رواية ابن الهيثم وابن الكلبي وغيرهما من أصحاب الأخبار؟ وخبره الذي رواه وذكر فيه السفاح في البيان والتبيين ج1 ص 93 أخبره به (إبراهيم بن السندي) وقد قال فيه ج1 ص326 (وكان إبراهيم بن السندي يحدثني عن هؤلاء بشيء هو خلاف ما في كتب الهيثم بن عدوى وابن الكلبي، وإذا سمعته علمت أنه ليس من المؤلف المزور، وكان عبد الله بن علي وداود بن علي يعدلان بأمة من الأمم. ومن مواليهم إبراهيم ونصر ابنا السندي، فأما نصر فكان صاحب أخبار وأحاديث، وكان لا يعدو حديث ابن الكلبي والهيثم، وأما إبراهيم فإنه كان رجلاً لا نظير له. . . وكان. . . وكان. . . من رؤساء المتكلمين وعالماً برجال الدعوة وكان أحفظ الناس لما سمع وأقلهم نوماً وأصبرهم على السهر
فرواية الجاحظ فيما نرى أقوم من رواية غيره، وهي دليل على صحة الصفة التي وصف أبو العباس أمير المؤمنين؛ والجاحظ قد أدرك صدر الدولة العباسية، ولم يكن بين مولده ووفاة أبي العباس السفاح كبير دهر حتى يكون ممن يختلط علية الحق في مثل هذا الأمر، وبخاصة وهو يروي ما يروي عن الثقات في معرفة أخبار رجال الدولة أما سكوت الطبري وغيره - من متأخري المؤرخين عن صدر الدولة العباسية - فليس يعد دليلاً على بطلان هذا اللقب. وإن دل على شيء فربما دل على أنهم جانبوه وتباعدوا عنه وتركوه لما كان قد انتشر في عصرهم من معنى السفاح على أنه السفاك للدماء، وخفاء معنى هذا اللفظ الأول وهو الكريم الباذل الفياض الذي يكون عطاؤه للمال حثياً
هذه كلمةٌ صغيرة إلى للأستاذ العباديّ أرجو أن أكون قد بلغت بها بعض رضاه في التعقيب على رأيه الذي انتهى إليه ووقف عنده. ولعله يعود إلى الذي كتبه فإن له بالعلم بصيرة نافذة مسددة أن شاء الله.
محمود محمد شاكر
رسالة الفن
دراسات في الفن

دعاؤك ثم غنائي
للأستاذ عزيز أحمد فهمي
- كل سنة وأنت طيب
- يا باي! وما لك تكرينها هكذا كأنما أنت آلة. . .
- يا فتاح يا عليم! وكيف كنت تريدني أن أقولها لك؟ أكنت أجثو لك على قدمي وأرفع لك كفي مضمومتين، وألقيها عليك كما ألقى روميو على جولييت تحية الغرام ساخنة؟
- لا يا شكسبيرة الزمن، كنت أريد أن أشعر وأنت تقولينها أنك تريدين حقاً أن أكون طيباً في كل سنة. . .
- كنت تريد مني أنا أن تشعر أنت. . .؟ إذن، فاسمح لي أن آكل نصيبك من غداء اليوم، واشبع أنت. . .
- لو كنت استطعت أن تشعريني بالسلامة في دعائك الأول لكنت استطعت أن تشعريني بالشبع في دعواك الثانية!
- عجباً! تذهب في الجدل إلى هذه النهاية المضحكة فيسهل عليك أن تقرر إمكان الشبع لإنسان إذا أكل غيره. . . ولا تعترف بأنك كنت (تهلوس). . .
- لون كنت أماً لما أنكرت أن الشبع يمكن لإنسان إذا أكل غيره. فالأمهات كثيراً ما يشبعن إذا أكل أبناؤهن. وكثيراً ما يرتوين إذا شرب أبناؤهن. وكثيراً ما يسعدن إذا فرح أبناؤهن. وكثير ما يحقق الله على هذا دعاءهن إذا دعون لأبنائهن. وفي هذا جعل الله الجنة تحت أقدامهن!
- ما شاء الله. أريد أن أفتك بقضاياك هذه جميعاً لولا أنك تقرر بها للمرأة أفضالاً قليلاً ما أظفر منك بالاعتراف بواحد منها. ولكن هذا لا يمنعني من أن أسجل عليك هذا الاعتراف، وأن أسألك بعد ذلك كيف كنت تريدني أن أدعو لك؟
- أتعرفين لماذا كانت صلاة الجماعة خيراً من صلاة الفرد؟ ولماذا كان للمصليين جماعة
أمام يقود الصلاة؟ ولماذا يفزع من طوائف المتدينين المختلفة جماعات في الكوارث يصلون يطلبون من الله أن يدرأها، وفي المباهج يصلون يطلبون من الله أن يباركها؟ وما صلة هذه (الفقهنة) بدعاء هو تحية العيد؟. . .
- الدعاء صلاة لأن الصلاة دعاء. والدعاء قد يكون تحية حقاً، ولكن ليس على هذا النحو الذي تشغلينه كما تشتغلين (البرودري). أنت ألقيت عليّ تحية العيد كما يلقي الناس هذه التحية، وهم يلقونها كما يلقون كل تحية أخرى، تنطلق بها أفواههم ونفوسهم مشغولة عما ينطقون، ولهذا فإن تحياتهم لا أثر لها ولا ثمرة، فكم دعا ناس لناس أن يفوزوا فخابوا! وكم دعاء ناس لناس أن يسعدوا فابتأسوا! وكم دعا أيضاً ناس على ناس أن يصيبهم السوء فلم يصيبهم إلا الخير! وكم دعا ناس على ناس أن يهلكوا فنجوا. . . وكم وكم من دعوات فارغة!
- وهل في الدعوات فارغ ومملوء؟
- الدعوات ككل كلام يقوله الإنسان، وفيه الفارغ، وفيه المملوء حقاً، وفيه المملوء باطلاً، وفيه المملوء أخلاطاً من الحق والباطل. ولا يبقى من هذا كله عند الله إلا المملوء حقاً. وإن له عند الله الجزاء أثراً واجب التحقق. ألم يقل النبي، فيما يروى من الأثر: اتقوا دعاء المظلوم؟! أليس في هذا دليل على أن دعاء المظلوم يتحقق؟ وأي شيء في دعاء المظلوم يميزه عما في غيره من الدعاء إلا أنه مملوء بالحق؟ فإذا كان الامتلاء بالحق هو الذي يضمن للدعاء التحقق فلماذا لا نضمن تحقق الدعاء بالخير إذا امتلأ حقاً؟. . .
- إن هذه (شاطحة كشطحات) المجاذيب!
- انعم بهم! واستمعي لي. وافرضي معي أسوأ ما يمكن أن يفرض في الإنسان من الفروض، وهو أنه بلحمه وعظمه ودمه وأعصابه شحنة كهربائية حدثت على وجه من الوجوه لا شأن لنا به. وافرضي كذلك الأسوأ من هذا وهو أن عواطف الإنسان ووجداناته ليست إلا حالات كهربائية تعرض لهذه الشحنة المتجسدة إنساناً في ظروف مختلفة. . . وافرضي بعد هذا وجود إنسانين بينهما علاقات. . . فكيف تتصورين هذه العلاقات بين هذين الإنسانين اللذين هما شحنتان من الكهرباء؟
- لابد أن تكون ككل علاقة بين شحنتين من الكهرباء. فكيف تكون العلاقة بينهما؟

- تكون أحياناً برقاً يصحبه رعد. وتكون أحياناً إشعاعات تعاون على بعث النور في الظلمات، وتكون أحياناً صواعق. . . وقد تكون على نحو لا أعلمه وأنا ويعلمه الدكتور غالي، وقد تكون على نحو لا أعلمه ولا الدكتور غالي. . .
- فلنتصور أذن هذين الإنسانيين وهما شحنتان مما يحدث البرق فكيف يكونان؟
- هذان يلتقيان فجأة فيتعانقان ويتبادلان القبل مفرقعة ولها هزيم
- والحالة الثانية؟
- أما الحالة الثانية فهي التي تستعين فيها شحنة بشحنة أخرى على بعث النور، أو على تحريك الموتور، أو على بلوغ مقصد ما. . . إنهما من غير شك تتعاونان إذا اتجهتا اتجاهاً واحداً. وهذه هي حالتنا أنت وأنا كما أحب أن تكون. فلو أنك تقصدين معي الهدف الذي أقصد إليه لبلغنا من غير شك أنا وأنت هذا الهدف في مدة أقصر من المدة التي قد أصل فيها وحدي لأدعوك بعد ذلك إلى جانبي. وأنا لا أطلب منك أن تدفعيني بيديك لأني لا أتصدى في هذه الدنيا لعمل استخدم فيه القوة، وإنما أريد منك أن تؤمني بالذي أومن به وأنت تعلمين أنه الله، وقد قلت لي مرات أنك مؤمنة، والله قد رسم للحياة حدوداً وأنت تعرفين أني أخاف كل الخوف من الخروج على هذه الحدود، فسيري إليّ فيها، والزميها في قولك وعملك نكن أنا وأنت شحنة واحدة منطلقة في الكون فيها قواك وقواي وقوة الحق الأكبر من كل قوة. هو دعاء أريده أن ينبعث من قلبك لا من لسانك. اتجهي إلى الله وأنت على القرب مني أو على البعد، فهو لابد معيني من دعائي ولأنه إلى غايتي. . . وأنا لابد أن أشعر به كما يشعر الأب بدعاء أبنائه إلى جانبه وأن لم يصوغوه دعاء. . . ألا يكافح الأب في الدنيا من أجل أبنائه أكثر مما يكافح من أجل نفسه. . . أو تحسبين هذا الكفاح والقدرة عليه إلا من دعوات الأبناء. . .؟
- قد يدعو الآباء إلى أبنائهم، ولكن قليلاً ما يدعو الأبناء إلى آبائهم. . .
- عندما يأكل الإنسان قليلاً ما يقول: إني آكل، وعندما ينام فإنه لا يقول إني أنام، والأبناء يدعون لآبائهم، ولا يقولون إنا ندعو، وهم جديرون بهذا الدعاء وهو جدير بهم لأن أباهم هو عائلهم ولأنهم يأكلون من فيض يديه. قد لا يعرف الأبناء شيئاً من هذا كله، ولكن هذا هو الواقع، والدليل عليه أن الآباء يجاهدون الدنيا أكثر من غيرهم، ويقوون عليها أكثر من غيرهم، ويصبرون على مصاعبها أكثر من غيرهم. . . وإن هذا لا يحدث إلا لأن دعوات الأبناء صادقة. وقد كان القدماء يستكثرون من النسل ليستكثروا من الرزق، لأنهم كانوا أقرب إلى الطبيعة منا، وكان الواحد منهم إذا رزق مولوداً جديداً أحس بأنه رزق قوة جديدة إلى جانب قوته، وكان الواحد منهم إذا شاخ وضعفت شحنته الكهربائية أرتكن على أبنائه يمدهم بالدعوات الصالحات
- وهل كانت هذه الدعوات تفيد. . . وعلى الخصوص إذا اعتبرنا الشيخ شحنة كهربائية ضعيفة؟
- ما من شك في أنها كانت تفيد، فالشيخ كان قبل ذلك قد صقل أبناءه، وقد علمهم طريق الرشاد، ونكبهم طريق البغي، ودلهم على موطن السعادة، ودلهم على موطن الشقاء، فدعاؤه لأبنه بالسلامة إنما هو تذكير له بطريقها وتوجيه له إليه، زيدي على ذلك أن شحنة الشيخ إذا كانت قد ضعفت في مظهرها البدني فإنها تقوى في باطنها المعنوي، وإذا كان الفلاسفة يعترفون للشيخوخة بالحكمة فإننا لا نستطيع أن ننكر عليهم الصفاء والنفاذ إلى الحقائق، فهم يرتدون إلى الحياة كالأطفال طهارة ونقاء ماداموا قد قضوا حياتهم على الحق، ولكنهم يختلفون عن الأطفال في شي وهو أنهم اجتازوا الشطر الأكبر من هذه الحياة فوقفوا على سرها
- وما سر الحياة؟
- انتظريني حتى أشيخ فأعلمه، أو فاسألي شيخاً ممن يعلمون. . . أو فانظري إلى شيخ من الطيبين كيف يعيش وأعلمي أنه يستغل هذا السر ويعيش عليه
- وأين أجد هذا الشيخ الطيب؟
- تجدينه في الريف، وتجدينه في الصحراء، وتجدينه في كل مكان لم تنطبق عليه الحضارة ببراثنها ومخالبها، تجدينه يأكل ويشرب وينام، ويعاشر الأطفال، ويدعو إلى الناس ويتلقى من الناس الدعوات. . . ويصلى لربه ويطلب من الله أن يصلي عليه
- ولماذا يعاشر الشيوخ الأطفال؟

- لأن الشيوخ والأطفال متفقون على معنى واحد للحياة والناس فيما بين الطفولة والشيخوخة يبحثون للحياة عن معاني أخرى.
- وما معنى الحياة عند الشيوخ والأطفال؟
- هو الاستغراق التام فيها، والاستمتاع التام بما فيها
- وعلام تقوم العشرة بين الشيوخ والأطفال؟
- على هذا، ومظهر هذه العشرة الفنون. فالشيخ يجمع حوله الأطفال ويقص عليهم القصص، والقصص فن، ويغنى لهم ويغنون معه والغناء فن، وقد يستخف الشيخ مع الأطفال فيرقص والرقص فن، وقد يمثل لهم المركب ويركبونه والتمثيل فن. . . فهو إمامهم في كل فن، وهم يتبعونه لأنهم يشعرون به يحب هذه الأفاعيل أكثر مما يحب غيرها، ولأنهم هم أنفسهم يحبونها سعداء وهو سعيد. . .
- وكل من هو مثلهم سعيد؟ أليس كذلك؟
- من غير شك
- إذن فالسعادة عندك أن تنقلب الدنيا إلى مسرح لاشيء فيه إلا الغناء والرقص والشعر وما إلى ذلك من اللغو!
- كانت الإنسانية في طفولتها هكذا كما تقولين مسرحاً لا شيء فيه إلا الغناء والرقص والشعر وما إلى ذلك من السعادة الحق، وهي اليوم كادت أن تصل إلى شيخوختها فترتد بعد ذلك إلى هذا الذي ترينه لغواً. وآية ذلك أن الناس اليوم متضجرون من الحياة، وأن حوادث الانتحار تكاثرت بينما القدماء لم يكونوا يعرفون الانتحار لأن أحداً منهم لم يكره الدنيا كراهية تحمله على الاقتناع بوجوب مغادرتها
- ألا يمكن أن تكون سعادة إلا في هذا الفن أو هذا الهوس. . . ألست ترى في العلم سعادة؟
- وأي شيء حقق العلم للإنسان أكثر مما حقق الحس للحيوان. . .؟ اللهم إلا أن هذا العلم عطل عند الناس الإحساس، فكسبوا شيئاً وخسروا شيئاً وكان حقهم أن يكسبوا الاثنين. وسيكسبون الاثنين في اليوم الذي يقنعون فيه من العلم بلذة العلم ولا يسخرونه فيما لم يجعل العلم له. . .
- ولماذا تريد أن تحرم عليهم الإفادة من العلم إذا كانت هذه الإفادة ممكنة؟ . . .
- هي ممكنة، أنا لا أنكر ذلك، ولكنها ضارة. . . أنها كالدغدغة إذا قصد بها التفريح، بينما التفريح لا يكون إلا من عوامل نفسية. . . إن الضحك المنبعث من الدغدغة ليس ضحكاً وإنما هو رعشات عصبية
- وأنت تريد النكتة الطبيعية لتضحك منها.
- لست أدرى إذا كانت النكتة الطبيعية تضحك أم تبكي ولكني على أي حال أطلب من الله أن يقيني الغم وإياك.
- آمين. . .
- انظري، إنك نطقت (آمين) هذه بصدق، ولعل ذلك لأني شملتك بدعائي. . . إنها أنانية منك وحب لذاتك ولكنه على أي حال صدق، والصدق خير من الفراغ، والفراغ خير من الكذب. . . والآن هات منك دعاء صالحاً، ثم انطلق معي نغني كالأطفال والشيوخ. . .

عزيز احمد فهمي

رسالة العلم

أرقام تتحدث

صدى عمل جان بيران

للدكتور محمد محمود غالي

عود إلى قصة الذرات - يتعلق قدر الحقائق بالفروض والخطأ التجريبي - على م استند في أعماله - قوانين الحرارة والضغط - عدد أفوجادرو - ملاحظة لابلاس.

يعود بنا البحث إلى قصة الذرات وأسطورة الإلكترونات فمهمتنا مع القارئ أن نتابع استعراض هذه الحلقة من حلقات المعرفة واستجلاء الخطير من مراحلها. وليس في طوقنا أن نهمل عمل جان بيران في هذا الشأن، أو نتغاضى عن الدور الحاسم الذي قام به هو ومن حوله من باحثين في التعرف على الذرة والتقرب من الألكترون.

وقد تناولنا أعمال مليكان وشرحنا أثره التجريبي في ثلاث مقالات: الأولى (أندروزمليكان والألكترون) والثانية والثالثة (أرقام تتحدث) وهو العنوان ذاته الذي آثرنا

اختياره اليوم لذلك العمل التجريبي المجيد الذي قام به بيران وتلاميذه، فقد تحدثت الأرقام لهم كما تحدثت لمليكان، وكان على بيران أن ينقل هذا الحديث إلى الناس، فنقله شائقاً عذباً للعلماء والباحثين في العهد ذاته الذي نشر فيه مليكان أبحاثه في سنة 1907 وما تبعها من سنين، هذه التجارب وما أدت إليه من نتائج ظلت منذ ذلك الوقت محل تقدير الباحثين وأعضاء المجامع العلمية، وقد ظهر هذا التقدير في صورة جلية عندما قرر المجتمع السويدي منح بيران جائزة نوبل للطبيعة في سنة 1929

لَأن يصل أحد الأفراد من طريق معينة إلى إثبات حقيقة في الوجود، وأن يكون فيما اختطه من طريق تجريبي ما يقوم دليلاً على ما ذهب إليه_أمر له قيمته. ولكن يظل قدر هذه الحقيقة مرتبطاً بعدد الفروض التي اتخذها الفرد مبدئياً للوصول إلى غايته، ويظل مبلغ النتائج التي وصل إليها من الحقيقة مرتبطاً كذلك بقدر الخطأ المحتمل في العناصر المختلفة في طريقه التجريبي، ويظل الأمر عند العلماء الذين يحكمون على درجة قرب النتائج من الحقيقة مرتبطاً بهاتين تين المسألتين: الأولى صحة الفروض، والثانية مبلغ الخطأ

التجريبي. وعلى قدر ما يوجهه الباحثون من نقد جدي في كل هذا، تدخل التجربة ونتائجها بين الحقائق العلمية التي تأخذ مكانها بين ما يُسجل في الميراث العلمي المتداول على كر العصور.

أما أن يكون بعد ذلك للتجارب ذاتها أثر في التقدم واقتراب من حقائق الوجود ومعرفة لقوانين الكون، فهذا أمر آخر يرفع التجربة إلى مصاف الموضوعات الكبرى التي تتصل اتصالاً وثيقاً بحلقة المعرفة، ويرفع الفردَ المجهول إلى مصاف العلماء الذين يعرفهم التاريخ، وتدخل النتائج بين أرقى أنواع المِلكية لمجموعة الإنسان المفكر الذي يعمل على تقدمه على ممر الأجيال ولقد كان عمل بيران وأتباعه من الأعمال التجريبية الكبرى التي ارتفعت في تاريخ العلوم إلى مثل هذه الذروة، وكان بيران من الباحثين الذين وضعهم التاريخ بين العلماء البارزين

إنما يُستدل على هذا من أعماله التي فرغنا من مراجعتها بالأمس، سواء ما نشر منها بالمجمع العلمي الفرنسي أو ما ظهر منها في مؤلفاته، ولم يعتوريني ملل عند مطالعة هذه الأعمال مرة أخرى؛ فقد كنت طالعتها منذ سنين، وكنت أطالعها في شوق ورغبة هذه المرة. والواقع أنه عندما انتهيت من هذه المطالعة الأخيرة وقعت في نوع من الحيرة فيما أقدمه للقارئ منها لأن العمل متسع وجليل، بل ويلزم لاستيعابه مقدمات علمية لأنه مرتبط باكتشافات أخرى سابقة بعضها معروف للقارئ وبعضها قد يكون غير معروف

وهي اكتشافات عاونت جان بيران ليقوم بعمله الجليل الذي توصل فيه كما قدمنا في مقالات سابقة بطريقة مختلفة ولكنها وثيقة، إلى قياس قدرة الذرة وبالتالي إلى استنتاج قدر الإلكترون. هذه الاكتشافات السابقة لأعمال بيران التي تكون الحلقة الأولى فيما وصل إليه من معرفة نتعرض لها في هذه الأسطر ونلخصها في ثلاث خطوات رئيسية: الأولى خاصة بقوانين بويل وجاي ليساك للغازات، والثانية خاصة بما يسمونه فرض أفوجادرو، والثالثة دراسة (لابلاس) لتوزيع الضغط في طبقات الجو ونعود بذاكرة القارئ إلى الخطوة الأولى، فنعود إلى قوانين يعرفها كل من جلس على مقعد في المدرسة، أولها قانون سنة 1660 وماريوت سنة 1675 الخاص بالغازات الذي يتلخص في أن كثافة الغاز تتناسب مع ضغطه وثانيها قانون جاي ليساك الذي بين بصورة جلية في سنة 1810 أنه في الضغط الثابت تتناسب كثافة الغاز مع حرارته بطريقة لا تتعلق بطبيعة الغاز في ذاته

ويتلخص القانون أن حاصل حجم الغاز في الضغط يساوي ثابتاً يسمى ثابت الغازات مضروباً في الحرارة المطلقة

إنما نريد ألا يغرب عن ذهن القارئ أن الغازات هي مجموعة لجزيئات حرة، وبهذا يعتبر أن الكثافة تمثل في الواقع عدد الجزيئات، بمعنى أن زيادة الكثافة في غاز معين تحت تأثير الضغط هو اقتراب جزيئاته بعضها من بعض أي هو زيادة في عدد ما هو موجود منها في الحجم الواحد

أما عن الخطوة الثانية فهي خاصة بما يسمونه فرض أفوجادرو وهو الفرض الشهير الذي فرضه العالم الكبير أفوجادرو عند دراسته لقانون جاي ليساك المومأ إليه، فقد

نبَّه العلماء في سنة 1811 إلى حقيقة جديدة، ظلت منذ ذلك العهد من أعجب ما دخل على الميراث العلمي. ذلك أن الأحجام المتساوية من الغازات المختلفة تحوي، مهما اختلف نوعها، عدداً واحداً من الجزيئات، مادامت هذه الغازات واقعة تحت ضغط واحد وحرارة واحدة

إنما نود أن ينعم القارئ النظر قليلاً في هذه النتيجة التي أرسلها أفوجادرو للعالم أجمع والتي تُعد في نظري كلما تأملت فيها من أروع ما وصل إليه الإنسان الباحث المفكر، ففيها نوع من الاتفاق الجدي بين عناصر الوجود المختلفة التي شاءت ألا توجد إلا على صورة واضحة هي أبسط الصور

وكأني بهذه العوالم المختلفة شكلا ووزناً وكثافة وطبيعة لا تستطع أن توجد في المكان الواحد ذي الحجم والضغط والحرارة الواحدة إلا بعدد واحد لا يتغير، عدد يمتد في سر وجوده إلى طبيعة الكون الذي فيه نحيا ونموت

إنما ننوه بمبلغ الجمال فيما وصل إليه أفوجادرو، ونقف ملياً إزاء هذا العدد العجيب الذي كان له أثر علمي ظاهر في أعمال بيران التي استأنفها بعد نحو مائة عام من ملاحظة أفوجادرو السابقة. وسيرى القارئ أن بيران قد عَيّن هذا العدد بالذات من طريق يبتعد كل البعد عن قصة الغازات؛ وكان من تعيين هذا العدد أن عرف قدر الذرة بل قدر الألكترون، وكان ذلك بطريقة تجريبية أهم ما يُقال فيها أنها لم تستند في جوهرها إلى الاعتبارات

النظرية التي قد تقبل الخطأ بل إنما استندت إلى أعمال تجريبية تصل بنا في معرفة هذه الأقدار إلى درجة اليقين

أما الخطوة الثالثة فخاصة بدراسة قام بها (لابلاس) لمعرفة الكيفية التي يختلف بها الضغط الجوي كلما صعدنا بعيداً عن الأرض. كلنا يعرف أنه كلما ارتفعنا إلى أعلى قلَّ الضغط الجوي بحيث أن عاموداً رأسياً من الهواء يختلف الضغط فيه من نقطة إلى أخرى طوال هذا العامود. وقد توصل لابلاس إلى معرفة القانون الذي يتغير بمقتضاه هذا الضغط، وكان ذلك من طريق رياضية بسيطة يستطيع كل مبتدئ اليوم في العلوم الرياضية أن يقوم بما قام به (لابلاس) من حساب رياضي بسيط، وهذا القانون هو معادلة تجد في أحد طرفيها الضغط الجوي عند مكان معين، وتجد في الطرف الثاني الضغط عند مكان يرتفع عن المكان الأول وكتلة الغاز والارتفاع الواقع بين المكانين كما تجد الحرارة المطلقة للغاز وثابت الغازات الذي أسلفنا ذكره والذي كان نتيجة لقوانين بويل وجاي ليساك. ويمثل قانون لابلاس في الواقع توزيعاً رياضياً خاصاً ومن نتائجه مثلا أن الضغط الجوي ينقص إلى النصف عندما يرتفع الإنسان حوالي 6 كيلومتر وذلك في الحرارة العادية. ولو أن الهواء كله من الأوكسجين لحدث هذا النقص عندما يرتفع الإنسان حوالي نصف الكيلومتر

هذه هي المسائل الكبرى الثلاث التي استند إليها (جان بيران) ليصل إلى غرضه العلمي عندما استطاع كما سنذكر للقارئ فيما بعد أن يعين قدر الذرة وان يتحقق من قدر وحقيقة الإلكترون.

إنما أود أن اجتزئ في هذا المقال بهذا القدر في إيراد المقدمات التي كانت لازمة لمعرفة حقائق هذه الأسطورة الذرية، على ألا يفوتنا أن نأتي على عمل بيران الإيجابي في المقال القادم.

وإن من العجاب أن يصل بيران إلى معرفة عدد (أفوجادرو) بالذات فيعرف عدد ما في حجم معين من غاز من الذرات الموجودة فيه

هذا العدد الذي يُجاوز كل خيال استطاع بيران، وباللجوء إلى طريق تجريبي جديد، وإلى المسائل الأساسية الثلاثة التي ذكرناها، أن يصل إلى معرفته، وان يصل إلى ذلك من طريق لم يستعن فيه بالغازات للوصول إلى معرفة أهم ما نعرفه لها اليوم من خواص

وسيرى القارئ كيف عاونت الحقائق السابقة بيران للوصول إلى مسألة من أعظم ما نعرفه اليوم في العلوم، وكيف استطاع بيران من دراسة معينة قام بها البرت أينشتاين خاصة بالحركة البروانية أن يوسع دائرة بحثه وان يهتدي لا إلى معرفة عدد افوجادرو فحسب بل إلى التحقق من نتائج ذرية وألكترونية أخرى غاية في الأهمية

ولو أن هذا العالم الذي مازال رغم تقدم السن يقوم بأعمال البحث، لم يقم طوال

حياته إلا بهذا التعيين لكفى أن يرتفع إلى سجل العلماء المجددين الذين قاموا للإنسان بأجل الخدمات.

(يتبع)

محمد محمود غالي
دكتوراه الدولة في العلوم الطبيعية من السوربون
ليسانس العلوم التعليمية. ليسانس العلوم الحرة. دبلوم المهندسخانه

القَصصُ

غلطة

للكاتب الفرنسي موريس ليفل

يا دكتور: أريد أن تفحصني وتخبرني هل أنا مريض بالسل؟ أريد أن اعرف الحقيقة؛ وإن لي من الشجاعة ما يساعدني على سماع أسوأ الأخبار. ثم إني اعتبر من واجبك أن تكلمني بصراحة، ومن حقي أن أعرف حقيقة أمري. . . أتعدني بذلك؟

. . .تردد الطبيب هنيهة، ثم اضطجع في كرسيه وقال: أعدك بذلك. . . اخلع ملابسك

وبينما كان المريض يخلع ملابسه، كان الطبيب يسأله:

- أتشعر بضعف؟ أتعرق أثناء الليل؟. . . هل تسعل كثيراً. . . ولا سيما في الصباح الباكر؟. . . ألا يزال والداك على قيد الحياة؟. . . أتعرف المرض الذي ماتا به؟ . . .قال الرجل وقد عرّى صدره: هأنذا يا دكتور

وأخذ الطبيب يفحص المريض بدقة، والمريض يتتبع الفحص في صمت واهتمام. وبعد بضع دقائق وضع الطبيب يده على كتف المريض قائلاً وهو يبتسم:

- ارتد ملابسك. . . إنك عصبي جداً. ليس بك شئ. لا شيء مطلقاً. . . يخيل إلي إنك لست مسروراً بسماع ذلك!. . .

فأمسك الرجل قليلاً عن ارتداء ملابسه وفي عينيه نظرة حادة، وأجاب بصوت فيه سخرية وتهكم:

- أوه. . . نعم. . . إني مسرور وسعيد. . .

وارتدى باقي ملابسه في سكون تام. وكان الطبيب جالساً إلى مكتبه يحرّر (التذكرة) فاستوقفه بإشارة ثم قال: (لا فائدة. . .). وأخرج من جيبه عشرين فرنكا وضعها على المكتب وجلس، ثم قال بصوت متهدج فيه رجفة خفيفة:

- لنتحادث قليلاً يا سيدي. . . منذ ثمانية عشر شهراً، جاءك مريض يسألك كما سألتك أنا من بضع دقائق أن تصارحه بالحقيقة. فحصته سريعاً. . . هذا صحيح. . . ثم أخبرته أنه مسلول وأن حالته مخطرة. . . أوه. لا تحتج، لا تدافع عن نفسك. أنا واثق من كل ما أقول. . . قلت له لا يجوز أن يتزوج، وبعبارة أخرى لا يجب أن يعقب نسلاً فدمدم الطبيب قائلاً: لا أتذكر، ومع ذلك فهذا جائز. . . إن كثيراً من المرضى يزورني كل يوم. . . ولكني لا أفهم ماذا تريد أن تصل إليه. . .

- أريد أن أصل إلى هذا: لقد كنت أنا ذاك المريض. ولقد كذبت عليك حين قلت لك وقتئذ إني أعزب. كنت متزوجاً وأباً لأولاد. . . وبعد أن أقفلت الباب ورائي لم أخطر لك على بال طبعاً. . . لأني واحد من أولئك المخلوقين البائسين الذين يزورون عيادتك كل يوم. . . أما أنا فقد كان لوصفك مرضي على هذا النحو أسوأ النتائج. . .

وأمرّ يده على عينيه ثم واصل حديثه:

- عندما عدت إلى البيت كانت زوجتي وأولادي الصغار في انتظاري. كان الفصل شتاء، ولكن البيت كان يستمتع بالدفء والراحة والسرور. وكنت إلى ذلك اليوم مشغوفاً بساعة العودة. . . والبقاء مع صغاري الأعزاء. كنت أحب قبلات زوجتي ومداعبات أطفالي. . . وفي أثناء النهار كنت أتوق إلى تلك اللحظة التي أصير فيها حراً لأنسى بين هؤلاء الأعزاء متاعب العمل والحياة. ولكنني في تلك الليلة عندما قدّمتْ إليّ زوجتي شفتيها، تراجعت. . . وأبعدت أطفالي الصغار حين أقبلوا إليّ، لأن البذرة التي بذرتها يا دكتور في نفسي بدأت تنمو!

جلسنا إلى العشاء، فكنت أحاول أن أخفي همي، ولكني كنت مكتئباً حزيناً، كسير القلب، أفكر في هذه الكائنات المحبوبة التي سأفارقها قريباً، في أسرتي التي ستفقد عائلها، في أولادي الذين سيكبرون أيتاماً

إن لغيري ممن يعرفون أن موتهم قريب تعزية، وهي أنهم قادرون على أن يضموا إلى صدورهم من يحبون ويملؤوا عيونهم منهم، ولكني أنا. . .! أنا الخطر الداهم لكل من يقترب مني، أنا من يحمل الموت معه. . . لا أزال حياً، وقد انفصلت عن الأحياء، ولم يعد لي حق في مسرات الحياة!

وعندما حان موعد النوم، التف أولادي حولي كما يفعلون كل ليلة، ولكني دفعتهم . . . عني لأن فمي الموبوء لا ينبغي أن يمس أفواههم!

أويت إلى فراشي ثم أخذ كل شيء يسكن في المنزل، وفي الطريق، فأشعلت النور، وبقيت ساهداً بالقرب من زوجتي وهي تنسم أنفاسها الهادئة

أخذت ساعات الأرق الطويلة تمر متثاقلة. كنت أضغط صدري بيدي، وكأني أريد أن أصل بأصابعي إلى موضع الداء في رئتي. لم يكن بي من الألم في الحقيقة ما يجعلني أصدّق حكمك، فإن مثل هذه الأعراض تنتاب كثيراً من الناس!. . وانتهيت إلى الاعتقاد بأنك لابد أن تكون مخطئاً. قلت في نفسي: لا، لست مريضاً بالسل، مستحيل، سوف أستشير طبيباً آخر. . . غير أني سمعت فجأة سعالاً في الغرفة المجاورة. . . فعرتني

قشعريرة. عاد السعال الآتي من غرفة أولادي ثانياً، جافاً، وحاداً ومنتهياً بنوع من الحشرجة. مددت يدي نحو زوجتي ولكن خفت أن أوقظها فسحبت يدي. وعاد السعال مرة أخرى، فقمت بهدوء وذهبت إلى الغرفة التي ينام فيها أطفالي. وفي ضوء القنديل الضئيل، أمكنني أن أراهم وهم نائمون في فراشهم. خيل إلي أن أكبرهم محمر الوجه.

جسست يده فإذا بها دافئة، ملت عليه. سعل عدة مرات متوالية وهو يتقلب في فراشه بضجر. مكثت إلى جانبه وقتاً طويلاً كان يسعل خلاله باستمرار. . . وعدت إلى

غرفتي، ولكني ما كدت أتمدد على فراشي حتى استولت عليّ فكرة مرعبة: هو مسلول مثلي، لاشك في ذلك

في تلك اللحظة كنت أنت تنام ملء جفونك يا دكتور، أليس كذلك؟

واليوم التالي كان فظيعاً. لم أجرؤ على إخبار زوجتي أن طفلنا مريض. لم تكن عندي

الشجاعة الكافية لإحضار طبيب. كنت خجلاً من نفسي، وعقد الجبن لساني فسكت لكن عقلي لم يسكن. استمرت الأفكار السود تحركه. ليست المسألة مسألة العدوى فقط، بل هناك شبح أبشع من ذلك ظلّ ماثلاً أمامي: الوراثة. لقد ورث أطفالي مرضي كما ورثوا عينيّ وشعري. وحتى لو كانوا قد نجوا من حكم هذا القانون المخيف فقربي المستمر منهم لابد أن يكون قد نقل العدوى إليهم

تقول إن ذلك وهم وخيال؟ كلا، أليس ذلك نتيجة طبيعية للمجهود الذي تبذله أنت وزملاؤك بالمحاضرات والمجلات والجرائد لتكشفوا للناس أسرار هذا المرض!

كل ما كنت قد قرأت أو سمعت تجمع في رأسي

زوجتي وأطفالي أعز الناس عليّ، سوف يذبلون واحداً بعد آخر! سوف يقاسون حياة مريرة معذبة في انتظار النهاية المؤلمة. . . وأنا، سوف أشهد ذلك كله في وجوههن الشاحبة، وأجسامهن المتداعية. والعلم عاجز عن تغيير هذا القضاء المحتوم

وسكت لحظة ثم عاد يقول في صوت عميق:

ثم - تابعني جيداً - بعد مرور أيام لم تبرحني خلالها لحظة تلك الأفكار الواخزة، تولد عندي الاعتقاد بأن هناك حالات يكون فيها من واجب الإنسان أن يقف عذاباً يعلم أن لا مفر منه. . . من حقه أن يمحو جريمته، يفني ما خلق، يكون هو يد القضاء التي تنقذ من الشقوة من لا ذنب لهم

أنت ترتجف؟ أنت خائف من أن تفهم؟. . . نعم، بيدي قتلت أطفالي وزوجتي!

أسمعت؟. . . قتلتهم، سمّمتهم، وفعلت ذلك بمهارة لم يفطن إليها أحد

كنت في أول الأمر مصمماً على أن أضع حداً لحياتي أنا أيضاً؛ ولكني كنت في نظر نفسي خليقاً بالعقاب! لا لأني قتلتهم - إذ أعتقد أن عملي في هذه الحالة مشروع - بل لأني أوجدتهم. وأي تكفير أحكم به على نفسي أشد من البقاء منفرداً يائساً أتحمل وحدي عبء تلك الحياة المنكودة التي أنقذتهم منها؟!

والآن، انظر ماذا حدث. بعد موتهم بأسابيع، أخذت تعود إليّ قواي. ذهب الألم الذي كنت أشعر به. لم يعد أثر للدم في بصاقي. بدأت أشعر بشهية للأكل. . . بل بدأت أسمن

اعتقدت في أول الأمر أنه لسبب ما وقف المرض مؤقتاً، وسوف يعود بحالة أشد. إلا

أني بعد بضعة أشهر تبينت الحقيقة المرّة، وهي أني شفيت. أقول شفيت!. . . ولكن، هل كنت حقّاً مريضاً بالسل!. . . وتجسّمت الفكرة أمام عينيّ. أتفهم ماذا أعني؟. . . إذا كنت مسلولاً حقاً، فقد كان واجباً ما فعلت. أما إذا لم أكن، فقد قتلت بلا مبرر، وقتلت من؟. . . زوجتيوأولادي. . .

أمهلت نفسي سنة كي أتأكد، مؤملاً دائماً أن المرض الذي وقف سوف يعود، بل محاولاً بكل وسيلة أن أعيده إلى الظهور. . . ولكن عبثاً، إذ لم يظهر أي عرض من أعراض المرض. وعندئذ وثقت بأنك كنت مخطئاً، بل مرتكباً لأفظع خطأ. استولى عليّ اكتئاب لا قبل لي بدفعه، عيناي اللتان اختزنتا الدموع طويلاً عجزتا عن إبقائها. لقد هدمت حياتي بيدي، قتلت نفوساً بريئة، ألقيت بنفسي في خضم من الأحزان والآلام. ولم كل هذا. . .؟ لسبب خطئك أنت. ولقد أتيت اليوم هنا لأسمعك أنت بنفسك تقر بغلطتك. . .

وانتصب الرجل واقفاً وهو يقول وقد ضم ذراعيه إلى صدره:

- لقد اعترفت أنت بنفسك أن لا أثر للمرض بي. إنك لم تر عيني وأنت تقول: أنت عصبي، ولكن ليس بك شيء، لا شيء مطلقاً، أؤكد لك!. نعم، لأنك لو كنت رأيتهما لارتجفت من الخوف، لقرأت فيهما أني جئت. . .

فقاطعة الطبيب مغمغماً وهو في منتهى الشحوب:

- أنا لست معصوماً. . . إن فكرة السل متغلغلة في الأفكار هذه الأيام. . . وكثيراً ما يتأثر الإنسان دون شعور منه به. . .

من الجائز جداً أن يعطي الطبيب أثناء فحصه أهمية لصوت قد يكون عرضياً ومؤقتاً. . . قد أكون أخطأت. . . أعظم الأطباء كثيراً ما يخطئون في تشخيص المرض. . . ومع ذلك فلكي تتأكد دعني أفحصك ثانية

فانفجر الرجل يضحك ضحكة وحشية مرعبة وقال:

- تريد أن تفحصني ثانية!. . . ها ها. . . أتظنني أبله؟ ليس بي شيء. لقد قلت ذلك منذ هنيهة: (لا شيء مطلقاً!) وأنا في هذه المرة واثق من صحة تشخيصك

- غلطتك جعلتني قاتلاً، فأنت شريكي. شريك عن غير قصد، أنا معك. . . ولكنك كنت العقل المدّبر وأنا اليد المنفذة. وما دامت العدالة واحدة وأبدية، فأنا - العصبي - أتهمك وأحكم عليك وأنفذ الحكم. . . عليك أولاً. . . ثم على نفسي. . .

ودوت طلقتان في الفضاء. واندفع الخادم إلى الغرفة فوجد جثتين مجندلتين؛ وقد سال دم الدكتور على (تذكرته) ولم يكتب فيها بعد سوى:

بروميد 15 جراما

ماء مقطر. . .

صلاح الدين كامل

البَريدُ الأدَبيّ

حول (الإمتاع والمؤانسة)

قرأنا في باب مقالاً قنع صاحبه بأن يجعل توقيعه هكذا: (ع. ص). فمن يخبرني من تحت هذين الحرفين المقطّعَيْن؟ والمقال رد على تعّقبي لفرطات بدرت من جانب الأستاذين احمد أمين فأحمد الزين وهما يحرران كتاب (الإمتاع والمؤانسة) لأبي حيان التوحيدي. وكنت قد صنعت ذلك الاستدراك لوجه العلم وحده ولإتمام الفائدة، لا لتنقص الناشرين الفاضلين، كما زعم ع. ص وقد كنت أرقب الرد من ناحيتهما، وأكثر الظن أن صديقي الدكتور زكي مبارك يرى ما أرى وهذا رد يعمد صاحبه إلى التعمية، فيفر من الميدان قبل أن ننزل إليه وللتعمية سبب جليّ، قصته أن المقال يدور على التلبيس والعنت: على اختلاق القول واجتلاب الحجة.

ووالله لولا دَين القارئ الطُلَعة في عُنق الناقد الكشّاف لحبست القلم اليوم عن الكتابة، وذهني مشغول بقولة العرب: (لا تناظر جاهلاً ولا لَجوجاً، فإنه يجعل المناظرة ذريعة إلى التعلم بغير شكر).

أما التلبيس الذي ذكرتَه ففي قوله: إن تنبيهي على اضطراب الترقيم (استغرق قرابة نصف صفحة من مقالي). والواقع أن ذلك التنبيه جاء كالذيل للمأخذ الأول ووقع في عشرة سطور، على حين أن مقالي في سبعة وثلاثين ومائة سطر

ومن التلبيس أيضاً أنه يقول في خاتمة مناقشته المستكرهة: (هذا ما يتعلق بنقد

الدكتور بشر)، وهو يريد أن يدسَّ في ذهن القارئ أنه ناقش كل ما أخذت على الناشرين. والواقع أنه إنما حاول الردّ على مآخذ أربعة؛ وفي نقدي أحد عشر مأخذاً، كنت استخرجتها من الأربعين صفحة الأول من كتاب (الإمتاع والمؤانسة). ألاَ فليخْبرني (ع. ص) أو من وراءه ماذا صنع بالمآخذ السبعة الأخرى؟ أطواها في الغطاء الذي يلفه؟ أني أرجو من صديقي القارئ أن يعود إلى نقدي ويراجع كلمة (المعانَقَة الخفيَّة) وصوابها (معانِقِه)؛ وجملة (تاه أهله) والوجه (باد)؛ وكلمة (الشهوات الغالبة) والصواب (الغالية)؛ وتفسير (الركاكة) بضعف العقل والرأي دون البَدَن، والأصل هذا؛ وكلمة (مادَّته بالية) والصواب (سايلة)؛ وكلمة (وواد واحد) والصواب (وُهوٌّ). ولعمري أني أعذر (ع. ص) من لزوم الصمت إزاء
هذه المآخذ، فقد غُلِّقت دونها أبواب الاحتيال
ذلك بعض ما في مقال ع. ص من التلبيس. وأما الذي يشينه من ألوان العنت فمتلاحق في مناقشته المغتصبة، وسأختصر الكلام قانعاً بضرب مثلين اثنين:
يقول ع. ص - رجاءَ أن يفلت من تنبيهي على اضطراب الترقيم - ما حرفه: (ولم يدر (يعنيني) أنّ هذا الترقيم إنما يمليه الذوق وحده، ولا يرجع وضعه إلى قواعد ثابتة إلا في رسم العلامات). فمن هنا يتبين لي أن الرجل من الهاجمين على فن الإنشاء. ولا أريد أن انقلب إلى علامات الوقف والتمهل في أدبنا القديم، خشية الإطالة. ولكني اخبر ع. ص. أن فن الترقيم (يرجع وضعه إلى قواعد ثابتة) في اللغات الإفرنجية. فليستعن بأحد إخوانه على تفهم (باب الترقيم) في كتاب لقواعد الفرنسية، في كتاب المختصر مثلاً (والباب في أربع صفحات، ثلاثة أرباع واحدة منها للعلامات التي يعنيها هو، نحو علامة التعجب؛ والباقي للترقيم من نقطة وفصلة أو شولة وغير ذلك). وأما الترقيم المستحدث في العربية فقد استعرناه من قواعد اللغات الإفرنجية محاكاةً لها. أني أثبت هذا وبين يديّ رسالة أمضتها وزارة المعارف العمومية، عنوانها: (حروف التاج وعلامات الترقيم، ومواضع استعمالها) (المطبعة الأميرية 1931) فهذه تسع سنوات يسير التلاميذ في فن الإنشاء على منهج قويم ليس للأستاذ الكاتب ع. ص. علم به بقى أن ع. ص ظَنَّ أنه ظفر بالمقتل حين قال: إن لي نحواً جديداً إذ أثبتَّ كلمة (كذا) في تضاعيف قول التوحيدي: (وأما قولهم: هذا شي خلق، فهو مضَّمن معنَيْن (كذا): أحدهما يُشار به إلى أن مادته بالية (والصواب كما في الأصل: سايلة)، والآخر أن نهاية زمانه قريبة). ألا ترى كيف يتقوَّل عليّ ع. ص ما لم أقله إذ يزعم من الطريق التخمين أني (حسبت) كلمة (معنيين) من الغلط النحوي، وأن صوابها عندي: (معنيان)، فيتشبث لأجل ذلك بورود كلمة (كذا). ياله من غريق يتشبث بالموج الهازئ! فهل له أن يسأل أهل الذكر عن موقع كلمة (كذا) في ذلك الموطن فيخبروه أنها ليست للتخطئة كما وهم، ولكنها لتأكيد حكم المؤلف وتنبيه القارئ إلى التقسيم الذي يليه. وليرجع ع. ص. هاهنا إلى (كتاب الصناعتين) لأبي هلال العسكري (الآستانة 1320ص267، 270) لعله يدرك أن من التقسيم الفاسد أن يدخل أحد القسمين في الآخر. وفي عبارة التوحيدي تقسيم، دليله حكمه:
وقد جاء التقسيم - على حسب رواية .(. . .فهو مضمن معنيين: أحدهما. . . والآخر) الناشرين - فاسداً، وذلك لأن (المادة البالية) داخلة في (الزمان القريب نهايته). وأما (المادة السايلة) (وهي الرواية الصحيحة، كما بينت في نقدي مستنداً إلى دواوين الفلسفة العربية) فعلى خلاف ذلك؛ لأن (السيلان) يفيد التحول من طريق تدافع الأجزاء. وعلى ذلك فإثباتي كلمة (كذا) من باب التأكيد والتنبيه. غير أن ع. ص قليل الإلمام بأساليب الكتابة العلمية. ولو تروّى قليلاً لفطن إلى أني لم أجر في نقدي على التخطئة باستعمال كلمة (كذا)، بل أقول: هذا خطأ، والصواب كيت وكيت. أفقلتُ: والصواب (معنيان)؟ ولكنه الميل إلى التخلص بالملفقات
من كل ذلك يتضح لك ما وراء التعمية من تلبيس وعَنَت مما لا يجلب للعلم منفعة ولا يعود على الناشرين الفاضلين بسَنَد وليعلم (ع. ص) أن قلمي مهملة بعد هذه، فليس من عادته أن يجاذب من يوليه ظهره.
بشر فارس
وفد العراق في المؤتمر العربي
أهلاً وسهلاً ومرحباً!!

كتب إليَّ الأخُ العزيز الدكتور عبد المجيد القصاب يقول: (أنا أتحرق شوقاً إليك)، وأحزم حقائبي للقياك مشتركاً في المؤتمر الطبي رئيساً لوفد الطلبة وعددهم يُنيف على الثمانين من طلاب الحقوق والطب والصيدلة ودار المعلمين العالية. وما شأني والمؤتمر الطبي؟ إنما هي مصر التي أحترق شوقاً إليها، وإنما أعني أهل مصر الذين بارك الله في عقولهم وعواطفهم وتفكيرهم، من أمثال: علّوبة ومبارك والمزني والزيات والسنهوري وعزام وأباظة. ولست أنا وحدي أتلظى بسعير الوجد، بل هنالك العدد الكبير من أطباء وطبيبات وطلاب وطالبات من سكان وادي الرافدين سيحملون إلى سكان وادي النيل تحيات عاطرات. . .)

وإذاً، فسيكون عندنا وفدان للمؤتمر من أهل العراق: أحدهما وفد الأطباء برياسة الدكتور صائب شوكت، والثاني وفد الطلاب برياسة الدكتور عبد المجيد القصاب.

سيكون بالقاهرة في أيام العيد مائة وعشرون ضيفاً من العراق. فيا فرحة القلب ويا طرب الروح بلقاء الأهل والأحباب!! وفي خطاب الدكتور القصاب تحية من الأخ الأستاذ ناجي القشطيني، وتحية كريمة من بعض أخواني بالنجف. . . فيا أيتها الدنيا التي تجيد مضايقتي من وقت إلى وقت، تأدبي يوماً أو أياماً حتى ألقى وفد العراق وأنا في أمان من ثورة النفس على غطرسة الزمان!. . .

وفي الخطاب إشارة رفيقة إلى اشتراك (ليلَى) في المؤتمر الطبي باسم مستعار لتأمن أهل الفضول، وهو يدعوني إلى التأهب لاستقبالها في محطة (باب الحديد)

وحياتِكم وحياتكم قسما وفي ... عمري بغير حياتكم لم أحلف
لو أن روحي في يدي ووهبتها ... لمبشري بقدومكم لم أُنصف

سأكون في عيد، سأكون في عيد، والحمد الله، والشكر للجمعية الطبية المصرية التي عرفت كيف تجعل القاهرة صلة الوصل بين الأمم العربية.

إليك يا ليلى والى أهلك الأكرمين أفتح صدري وذراعيَّ لعناق التلاقي بعد طول البعاد:

ومن بينات الحب أن كان أهلها ... أحبَّ إلى قلبي وعينيَّ من أهلي

زكي مبارك

أقاصيص جديدة لأوسكار وايلد

عثر الأستاذ غيّو دُسيكس على أقاصيص جديدة لأوسكار وايلد لم يتح لها أن تنشر قبل اليوم، ولو أنها نشرت لكانت كتيّباً صغيراً. وسألخص هذه الأقاصيص، وعلّي أعود يوماً فأنقلها إلى القراء:

العين الزجاجية (1)

نجد في هذه الأقصوصة غنيا أوتى الجاه والجمال. وكان مولعاً بالصيد والقنص. وإنه لفي أثر بعض الوحوش ذات يوم، إذ اضطربت بندقيته فأصاب إحدى عينيه رشاش أطفأ نورها. فعمد إلى عين من بلور خاص، وكانت عيناً حلوة رائعة جديرة بأن ينفق من أجلها كل ماله

ووضع العين الزجاجية المرأة؛ فأعجب بحلاوتها وصفق. . . وغدا عاشقاً لها يغدو ويروح ويرنوا إليها

فلما بلغ به الإعجاب كل مبلغ، أراد أن يسأل صديقاً له عنها فقال له:

- كيف ترى عيني الزجاجية؟

- لا يستطيع المرء أن يبدع أكمل منها!

- ولكن ألم تعجب بها؟ إن الحياة لتتدفق منها، وإن النور ليشع فيها. آه يا صديقي، لقد غدوت لا أميّز بين عيني الأولى وعيني الثانية، أنظر فيها. . . وحدق، ثم قل أية العينين هي الزجاجية؟

- تلك هي الزجاجية

- وكيف عرفتها؟

- إنها أحلى العينين!. . .

- أواه! إنك تهزأ. . . لو لم تك رأيتها من قبل لما عرفتها. . .

تعال نسأل الناس، هيا إلى الشارع

وخرج الصديقان. . . فلمح الغنى في زواية الشارع سائلاً يقضقض برداً، فاقتربا منه، وقال له الغني:

- هل تأخذ درهما؟

- درهم. . . درهم. . . ليس أحب إلي منه. . . لقد بت جوعان ليلتين!
- حسن، أنظر إلى عيني. . . فإذا استطعت أن تميز عيني الزجاجية من عيني الطبيعية. . . كان لك ما تشاء!
فحدق السائل، وقال فوراً:
- هاهي ذي يا سيدي
- ويحك! وكيف عرفتها. . .؟
- الأمر سهل يا سيدي، لقد رأيت فيها شفقة ورحمة بي. أما الثانية. . . أما الثانية. . . إنها تقول: لا تعطه شيئاً

جزيرة النسيان (2)

أقلعت السفن تحمل فوقها فتياناً في مقتبل العمر. فخيم الليل عليهم وهم فوق ثبج البحر المطمئن، وكانوا يسمرون وينشدون وإذا بالسماء تعبس ثم تبكي. . . وإذا بالبحر يفتح شدقيه ليبتلع كل شيء. . . وإذا بالرعد يقهقه وهو ينظر ضاحكا وتاه البحارون. . . حتى وصلوا إلى جزيرة نائية، ما عرفها علماء الجغرافية وما رأوها، فنزلوا فيها فلقوا شيخاً قد استقبلهم والوجه مشرق والعين ضحوك لم يكن الشيخ مرتدياً لباساً بل اتخذ من شعره الأسود الذي استرسل على كتفيه وستر ظهره رداءً، ومن لحيته الطويلة التي بلغت ركبتيه صدرة وحفَّ الشباب بالشيخ وسألوه أن يقص عليهم قصته فضحك وقال:
- كل ما أستطيع أن أقوله. . . هو أني أتيت إلى هذه الجزيرة لأنسى
- تنسى ماذا؟
- أوه! لقد نسيت أيضاً!

الرجل الغني وسره (3)

كان لغني ثروة واسعة تنغص عيشه دائماً. فأتاه ذات يوم رجل ذكي محتال وقال له:
- لقد عرفت سرَّك فإن لم تعطني ألف جنيه تكن خاسراً فدب الخوف في نفس الغني وساءل نفسه: أيكون لي سر ولا أعرفه؟ وما هو سري؟ ولكن ربما كان لي سر يعرفه هو ولا أعرفه أنا، فلأعطه ما يريد!
ومضى الرجل وفمه يتلمظ. . . فكان كلما أحس حاجة أو فاقة غدا إليه فأخذ مالاً. . . والغني مذعن خائف وتصرَّمت أعوام. . . وإذا بالموت يأتي الغني!
فنادى المحتال. . . وقال له ونفسه تتقطع حسرات:
- لن أخاف بعد اليوم. . . فقل لي ما هو سري. . . الذي لم اعرفه!

صلاح الدين المنجد

التجديد في العروض

قرأت بالعدد (341) من الرسالة قصيدة بعنوان (الناي) للدكتور المفضال بشر فارس قدم لها بقوله (هذه الأغنية منظومة على بحرين مختلفين رغبة في تنويع مجرى النغم، والبحر الأول وضعه الشاعر، وأجزاؤه: فاعلاتن مفاعلتن (مرتين)، وليكن اسمه: المنطلق. وأما البحر الثاني فمن البحور المعروفة. . . أهـ) ثم مضى في القصيدة فكان الوزن الذي أسماه المنطلق يبدأ بقوله:

جنّبوا النايَ عن أذُني ... أذُني زُلزلت طَرَبَا

والواقع أنه لا يوجد في أوزان البحور المعروفة بحر أجزاؤه (فاعلاتن مفاعلتن) ولكن يوجد هذا الضرب نفسه بأجزاء أخرى هي (فاعلن فاعلن فَعِلُنْ) فهو إذاً الضرب الأول من العروض الثاني من المتدارَك، وهو المجزوء الصحيح، وأقرب أمثلته (لوزن) الدكتور بشر هو الضرب المخبون المرَفَّل من هذا المجزوء الصحيح، ومثاله في متن الكافي هو:

دارُ سُعدَى بشَحْر عُمَانْ ... قد كَسَاها البِلاَ المَلَوَانْ

على أن هناك فرقاً يسيراً قد يلحظه القارئ بين الوزنين، فذلك أن وزن الدكتور بشر ينقصه الترفيل (وهو زيادة سبب خفيف على ما آخره وتد مجموع) والسبب الخفيف - كما هو معروف - متحرك بعده ساكن كقَدْ. فهو يمثل الألف والنون الأخيرتين، في

عمان والملوان، واللتين بحذفهما نحصل على نفس الوزن (المنطلق) الذي جاء به الدكتور بشر. . .
والواقع أنه يصعب جداً، بل يكاد يكون من المتعذر، زيادة (بحر) مستقل على البحور المعروفة، كما سمح الدكتور الفاضل لنفسه في تسميته مجزوءَه الذي له اصل في العروض بحراً. . . على أن له العذر الفني في ذلك، وأقول العذر الفني لأن (البحر) الذي خيل إليه أنه اخترعه لم يقع له إلا في (المتدارك) وهو - كما يظهر من تسميته نفسها - بحرٌ تدارك به الأخفش على الخليل الذي قد نسيه أو أهمله (وقيل هو المتدارِك بكسر الراء لأنه تدارك المتقارب أي التحق به، لأنه خرج منه بتقديم السبب على الوتد، وله أسماء أخرى غير ذلك كالمخترع والخبب. . . عن المختصر الشافي للدمنهوري)
ويلوح لي أن هناك شيئاً من توارد الخواطر بين تسمية الدكتور بشر لمجزئه (بالمنطلق) وبين تسمية المتدارك (بالمخترَع) فكلا التسميتين ترمزان من طرف خفي أو صريح إلى أنه وزن جديد على أوزان الخليل. . . هذا وإن كنت لم أعرف بعدُ مَلحظ الدكتور في اختياره اسم (المنطلق)
وزيادة للفائدة من هذا البحث الجليل، أقول إنني حاولت التجديد في العروض - وكان ذلك منذ سنوات - بزيادة بحور جديدة، فوقعت على بحرين، أحدهما - لِلَطيفِ ما حدَث ظهر أنه هو نفس المتدارك! وكنت قد نظمت لإثباته أبياتاً مطلعها -:
يا أبى إنني ذاهبٌ للوَغَى ... باذلٌ مهجتي في سبيل الحِمَى!
والثاني أخذته عن وزنٍ انجليزي بديع، يمثل طريقة من سير الجياد وهو الأصح عندي بأن يسمي (الخَبَبَ) وقد جعلتُ وزنه: مَفْعُولُنْ، أربع مرات، أو ثمان. . . ولا أذكر ما نظمته فيه، ولكن المجال فيه مفتوح للناظمين. . .
عامر محمد بحيري
ليسانسيه في الآداب من جامعة فؤاد الأول
معنى بيت وإعرابه
للأستاذ عبد المتعال الصعيدي انتقادات ومباحث تصيب مرماها تارة وتخطئه أخرى، وملاحظات تحمل قارئها على التأمل والتبصر في محتوياتها مما جعلني أخالف ما ذهب إليه في إعراب قول الأعشى
ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا ... وبتّ كما بات السليم مسهدا
فإنه أعرب أرمدا فعلاً ماضياً مسنداً إلى ألف الاثنين العائدة على قوله عيناك، وعلى ذلك (فليلة) في البيت منصوبة على الظرفيه لا أنها مفعول مطلق كما يقول الأستاذ (أبو رجاء) نقلاً عن حذاق النحاة
ولننظر إلى معنى البيت على رأي الأستاذ الصعيدي، أيؤدي ما كان يريده الأعشى أم يعارضه وينافيه ويخالف العقل والواقع؟ إنه يكون هكذا: (ألم تغتمض عيناك ليلة كانا مرمدين) مع حمل الاستفهام على التقرير أو الإنكار، فكيف يتأتى انطباق جفون العين وذوق حلاوة الكرى في وقت كان الرمد كالجمر يَحْرِق ويأكل غارساً بذور السهاد والقلق وغير ذلك مما يعلمه الأستاذ؟ إذا كان لهيب الرمد، وحلاوة الهجوع لا يجتمعان، أذن يفسد كل معنى يقول بذلك ويتحقق ما تقوله حذاق النحاة في معنى البيت من أنه يكون هكذا (ألم تغتمض عيناك اغتماض ليلة ألارمد) ولا ريب في أن إغتماض المرمد كله سهد وقلق
وأرق وضجر وغير ذلك مما يتناسب ومراد الأعشى، وخاصة أنه كان كما يقول الأستاذ (لم يكن في موقف الشكوى من هذا، وإنما كان في موقف النسيب). فلا حرج عليه إذا قال: إنه كان في سهر طويل ويقظة شديدة كانت كيقظة الرجل الذي آلمه رمد عينيه، لا أن يقول: إن عيني كانت مغمضة ونائمة ليلة كانت مرمدة؛ وهب أن المعنى قد يتأتى، وينام الرجل والرمد في عينيه، فما هي المناسبة التي تجعل الأعشى أن يقول ذلك وهو في الموضع الذي نبه عليه الأستاذ. هذا ما أردت كتابته والسلام على الأستاذ ورحمة الله
محمد رجب البيومي
رسالة النقد
كتاب (الإمتاع والمؤانسة)

تحدثنا في مقال سابق عن أمثلة من نقد الدكتور بشر فارس لتصحيح كتاب (الإمتاع والمؤانسة) وبيَّناً تفاهة هذا النقد وقلة جدواه. أما نقد صاحبه الدكتور زكي مبارك لتصحيح هذا الكتاب فهو أقل جدوى وأبعد عن الجادة وأكثر تحكما وأشد تعسفاً وتكلفاً من نقد صاحبه

وشئ آخر يمتاز به الدكتور زكي على صاحبه أنه يمسك بخناق الكلمة الصحيحة، ويظل يضرب فيها بعصا غليظة من التأويل البعيد ليجبرها على أن تحكم على نفسها بالغلط. فإذا لم تجبه الكلمة إلى ما أراد حكم عليها هو بالغلط، ولا يكلفه ذلك إلا أن يكتب حرف الغين واللام والطاء

وتلك أمثلة من نقده مع ردنا عليها ليتبين القارئ صدق ما نقول وأن هذا النقد كله لا يستند إلى شيء من الحق:

روى أبو حيان في كتابه الذي نحن بصدده مناظرة طويلة بين أبي سعيد السيرافي ومتّى بن يوسف المنطقي، وفيها سؤال نحوي وجهه السيرافي إلى متى، فلم يستطيع متي الإجابة عليه، وطلب إلى السيرافي أن يفيده عن ذلك. فقال السيرافي: (لو حضرْت الحلْقةَ استفدتَ)

وكتب المصححان الفاضلان على قوله: (الحلقة) ما يفيد أن في الأصل (المختلفة) مكان قوله: الحلقة وهو تحريف

ويقول الدكتور زكي: إن قوله (المختِلفة) ليس فيها تحريف وإنها صحيحة لاشك فيها؛ وفسر قوله: (المختلفة) بأن معناها الطلبة الذين يختلفون إلى المعلم

ونقول: إن قوله (المختلفة) تحريف لاشك فيه كما رأى المصححان الفاضلان، وأن الصواب (الحلقة) كما رأيا، فإن المعلم لا يقول: (إذا حضرت الطلبة استفدت) وإنما يقول: (إذا حضرت مع الطلبة). أو يقول: (إذا حضرت الحلقة) أي حلقة الدرس؛ فهذا أقرب إلى الأحاديث العادية، وأشبه بأسلوب أبي حيان والسيرافي وغيرهما من الأئمة

أما أن يقول المعّلم لإنسان ما: (إذا حضرتَ الطلَبَةَ استفدتَ) فهي عبارة ركيكة لا تلتئم مع أساليب الكتّاب العاديّين فضلاً عن أعلام الكتابة كأبي حيان. ودليل ذلك قوله بعد هذه

العبارة: (فليس هنا مكان التدريس)؛ وهذه عبارة تنادي بصواب ما أثبته المصححان الفاضلان

روى أبو حيان في هذه المناظرة السابقة من كلام أبي سعيد السيرافي الذي وجّهه إلى متي بن يونس المنطقيّ يعنّفه ويلومه، قال: (وإنما يودّكم أن تشغَلوا جاهلاً وتستذلّوا عزيزاً)

وكتب المصححان الفاضلان على قوله: (بودّكم) ما يفيد أن في الأصل: (قولكم)؛ وهو تحريف

ويقول الناقد: (إن لفظ الأصل صحيح لاشك فيه، فلا موجب لتغييره بكلمة أخرى)

ونقول: إن الصواب ما فعله المصححان الفاضلان: فإن قوله: (وإنما قولكم أن تشغلوا جاهلاً وتستذلوا عزيزاً) حسب عبارة الأصل، غير سائغ في أي أسلوب مهما انحط في درجات الكتابة؛ فهي عبارة ممزّقة النسج، فاسدة المعنى، فإن كون المناطقة يشغلون الجاهل ويستذلون العزيز ليس قولاً، وإنما ذلك قصد وإرادة، بدليل قوله بعد: (غايتكم أن تهوِّلوا بالجنس والنوع)

وإذن فالملائم لسياق الكلام أن يقول: وإنما بودكم أن تفعلوا كذا، وغايتكم أن تفعلوا كذا. . .

ومنها ما رواه أبو حيان في هذه المناظرة أيضاً من كلام متي ابن يونس المنطقي، يقول: (لا سبيل إلى معرفة الحق من الباطل والصدق من الكذب. . . إلا بما حوَيْناه من المنطق، وملكْناه من القيام به)

وقد كتب المصححان الفاضلان على قوله: (حويناه) ما يفيد أنه في الأصل: (جربناه) مكان قوله: (حويناه)؛ وهو تحريف ويقول الناقد: أن قوله (جربناه) صحيح لا تحريف فيه

ونقول ردا عليه: إن فعله مصححا الكتاب هو الصواب بعينه؛ وقوله (جرَّبناه) في هذا الموضع تحريف لاشك فيه ولا معنى له؛ فإن قول المؤلف بعد: (وملكناه من القيام به)

ينادي بصحة ما أثبت مصححا الكتاب، فإن (حويناه) و (ملكناه) بمعنى واحد وإن اختلفا في اللفظ، كما هو ظاهر

ومنها ما قاله السيرافيّ أيضاً موجها الخطاب إلى متّي يعرّفه فضل اللغة العربية، قال: (وإذا لم يكن لك بُدٌّ من قليل هذه اللغة من أجل الترجمة)

وقد كتب مصححا الكتاب على قوله: (الترجمة) ما يفيد أن في الأصل: (التجربة) مكان قوله: (الترجمة) وهو تحريف

ويقول الناقد: إن لفظ الأصل صحيح

ونقول: إنه تحريف كما رأى مصححا الكتاب، إذ لا معنى لقوله: (التجربة) في هذا الموضع؛ وإلا فما معنى أنه محتاج إلى قليل اللغة لأجل التجربة؟ وما المراد بالتجربة هنا؟

إنها على هذا الوجه عبارة غير مفهوم المراد منها. على أن سياق الكلام يدل على أن الصواب كلمة (الترجمة) كما رآه المصححان الفاضلان

وأنا أروي لك هذه الجملة والجمل التي بعدها ليتبين لك أن السياق يقتضي لفظ (الترجمة) لا (التجربة). قال: (وإذا لم يكن لك بد من قليل هذه اللغة من أجل الترجمة فلا بد لك أيضاً من كثيرها من أجل تحقيق الترجمة واجتلاب الثقة) (يريد الترجمة من اليونانية إلى العربية)

ومنها ما رواه التوحيدي من كلام السيرافي أيضاً الذي وجهه إلى متى المنطقيِّ يقول له ما نصه: (ثم أنتم في منطقكم على نقص ظاهر، لأنكم لا تفون بالكتب ولا هي مشروحة) أه ومعنى قوله: (لا تفون بالكتب) أنهم لا يقومون بحقها وما يجب لها من الشروح والتعليقات، فهي كتب ناقصة غير مستوفاة

وكتب المصححان الفاضلان على قوله: (لا تفون بالكتب ما يفيد أن في الأصل: (لا تقولون)؛ وهو تحريف أه

ويقول الدكتور مبارك: إن كلمة الأصل صحيحة وإن عمل المصححين لا موجب له

ونقول: ما معنى أن المناطقة لا يقولون بالكتب - كما يرى الناقد -؟ الحق أنها عبارة فاسدة، لأن المناطقة يقولون بالكتب ويؤلفونها ويقرءونها؛ وأن ما فعله المصححان الفاضلان هو الصواب بعينه، بدليل قول المؤلف بعد: (ولا هي مشروحة) فإن هذه العبارة تدل دلالة واضحة على أن السيرافيّ يريد أن المناطقة لا يفون بالكتب وأن كتبهم ناقصة

ومن أمثلة هذا النقد التافه أيضاً قول الناقد في عبارة التوحيدي ونصها: (بل الأشياء منها ما يوزَن، ومنها ما يُكال، ومنها ما يُذرع، ومنها ما يُمْسح، ومنها ما يُحزَر) وقد كتب المصححان الفاضلان على قوله: (ومنها ما يحزر) وهي العبارة الأخيرة ما يفيد أن في الأصل: (ومنها ما يمسح ويحزر) بسقوط كلمة (ومنها ما) قبل قوله: (يحزر) وأنهما قد زادا

هذه الكلمة كما يقتضيه سياق الكلام، فإن المؤلف قد عبر في كل ما سبقها بقوله: (ومنها ما)

ويقول الناقد: (انه لا موجب لزيادة (ومنها ما) وإن الصواب ترك العبارة هكذا: (ومنها ما يمسح ويحزر) كما هي عبارة الأصل أه

ففي أي لغة يسوغ هذا الكلام؟ إن ما يمسَحُ يا دكتور زكي غير ما يحزر، فإن الحذر هو تقديرك الشيء بالحدس والتخمين كما تفعل في نقدك، وما يُمسح معروف

وإذا كان المؤلف قد قال: (منها ما يكال ومنها ما يوزن) الخ ألا يقول: (ومنها ما يمسح ومنها ما يحزر)؟

وقد كان بودّنا أن نترك عبارة المؤلف تردّ بنفسها على الدكتور زكي مبارك دون أن نعلّق عليها هذا التعليق الطويل

تلك أمثلة من نقد هذين الكاتبين الدكتور زكي مبارك وبشر فارس قد أتينا بها ليعلم القراء قيمة ما نقدا به هذا الكتاب القيم في تصحيحه ومادته

ولا نريد أن نقف أمام كل ملاحظة من ملاحظاتهما موقف الرد والمناقشة فشرح ذلك يطول، ولا تتسع الصحف لمثل هذه الفضول. وإن أتفه الأمور المناقشة في توافه الأمور

ولنا عودة إلى الحديث عن قيمة هذا الكتاب من ناحية مادته، وما أودَعَه فيه مؤلفه من

علم غزير وأدب جمّ
ع. ص
العدد 343 - بتاريخ: 29 - 01 - 1940
أثر المؤتمر الطبي ومصرع رستم حيدر
. . .أمل وذكرى

كانت القاهرة في أيام عيد الأضحى حجا للعروبة، كما كانت مكة فيها حجا للإسلام. وكان بين عرفات والمقطم أمواج متعاقبة من شعاع الروح الإلهي تشرق في الأبصار والأفواه والأفئدة فتتعارف وتتآلف وتتكاشف، فيفضي كل قطر إلى أخيه ببنات قلبه وذات صدره وكان ولا شك بين وفود المؤتمر الطبي العربي، كما كان بين حجاج البيت الإسلامي الحرام مذكرات وأحاديث فيما يكرب الأرض ويحزب الناس من انفجار العدوان والطغيان والشر في أكثر بقاع العالم، فكان إصفاق الرأي ولابد على ضرورة الوحدة العربية بأي شكل وعلى أي نظام

والحق أن الوحدة العربية في شتى صورها لم تكن في عهد من العهود ولا في حال من الأحوال ألزم منها لحياة العرب في هذا العهد وعلى هذه الحال. فقد كانت بالأمس سبيلاً من سبل الكمال الإنساني تصد عنها عصبية المكان وحزبية المذهب، ولكنها أصبحت اليوم ضرورة من ضرورات البقاء تدعو إليها طبيعة الحياة وسلامة الذات. لذلك لهج بها وفود المؤتمر وشهوده في حفلاتهم الرسمية والشعبية، واعترف بها ودعا إليها وزير الشؤون الاجتماعية في خطبته الخطيرة بدار الأوبرا الملكية

كان عيد القاهرة بما رأينا من تعاطف الأخوة المؤتمرين مبعث أمل؛ وكان عيد بغداد بما سمعنا عن مصرع الوزير رستم حيدر مثار ذكرى. ولم يكن من السهل على الخاطر - وقد امتلأ البصر والسمع بشباب العراق وأخباره - أن ينصرف عن الفكر في حاضر العراق وماضيه

رحم الله رستم حيدر! لقد كان وحده فصلاً في تاريخ العراق الحديث. وإذا كان في بعض حواشي الملوك رجال للهو والزهو، وآخرون للتجسس والتمويه، فإن رستم حيدر كان وحده في حاشية الملك فيصل رجل الجد والعمل. ولم أر في المهاجرين إلى بغداد مع صقر قريش أعلم ولا أفهم من رستم حيدر وساطع الحصري. وقد أبلى الرجلان في إذكاء النهضة العراقية البلاء الحسن: هذا في ميدان الثقافة، وذاك في ميدان السياسة. وكان بينهما مشابه من جهات كثيرة: فكلاهما مستقل الفكر، له في كل مسألة رأي وعلى كل رأي

اعتراض. وكلاهما متقن العمل، يتقصى أطرافه ويستبطن دخائله. وكلاهما صليب الرأي، يعييك أن يتابعك على ما تريد. وإذا كان بين الرجلين اختلاف، فهو الاختلاف الطبيعي بين رجل السياسة الذي يتأثر بالأحوال والرجال والحوادث، وبين رجل العلم الذي لا يستخدم غير المنطق ولا يتوخى غير الحقيقة

كان المرحوم رستم حيدر ظاهر الوقار، دائم الانقباض، كثير الصمت، خافض الصوت، هادئ الحركة؛ ولكن هدوءه كان كهدوء الماء العميق، تضطرب في جوانبه الأفكار والأسرار وهو ساكن السطح بارد الأديم

وكان منذ اشتغاله بشؤون العراق مستشار المغفور له الملك فيصل في سياسته الداخلية والخارجية، لبصره بعلوم السياسة والمال، وعلمه بمداخل الأمور ومخارج الحيل. فكانت أعمال العاهل العظيم تجد مصاديقها غالباً في أقوال المستشار اليقظ كان من سياسة رستم الاعتماد بعد التامين على الفرات قبل دجلة. لأن الفرات شيعي المذهب، وعلى ضفافه الخصيبة تنزل القبائل البدوية القوية. وفي تقوّيه بالشيعة حيطة من نجد، ومودة لإيران

وكان يشيح بوجهه عن مصر، لأن هواها في ثورة الحسين على الترك كان مع الخلافة، ولأن اشتغال طلبتها بالسياسة كان في رأيه مرضاً مخطراً لا ينبغي أن تسرى عدواه إلى العراق ولعله كان السياسي العراقي الوحيد الذي لا يهتم بأحوال مصر ولا يتصل برجال مصر

وكان من رأيه توسيع التعليم الأولي والمهني، وتضييق التعليم الثانوي، وحصر التعليم العالي في مدرسة لتخريج الموظفين ورجال الإدارة، خشاة أن يكثر المتعلمون فيكونوا مصدراً للشغب والإضراب والفوضى. وفي ذلك العهد الذي أرجع بذاكرتي إليه أغلقت

المدارس العالية جمعاء إلا مدرسة الطب. وكان من أشد المعارضين لهذه السياسة التعليمية الأستاذ ساطع الحصري، لأنه كان يحاول أن ينشئ الثقافة العامة على قواعد العلم الخالص دون أن يحفل بأهواء الطوائف وأغراض الساسة، ولذلك نحى حينئذ عن سياسة المعارف

وكان من خطة المرحوم رستم أن تظل الأراضي الزراعية ملكاً للحكومة لتضمن بمنح الالتزام ومنعه طاعة القبائل وتأديب العصاة. ومتى تحضرت العشائر وتوحد القانون وعمت المدنية الاجتماعية أمكن أن توزع ملكية الأرض على نظام عادل

تلك هي أقوى الأصول التي كانت تنبت عليها سياسة القصر في ذلك الحين، ولا يعلم غير الله مقدار أثر المستشار في وضع هذه السياسة

لقد كان المرحوم رستم حيدر عنيداً في رأيه صلباً في خطته. والعناد والصلابة صفتان لا يحسنان فيمن يتولى أمراً بالعراق

دخلت عليه ذات يوم من عام 1932 وهو وزير المالية أسأله أن يرد على صديقي أمير بني تميم ما أخذته الحكومة من أراضيه الملتزمة وهو يبلغ خمسة عشر ألف فدان، فأجلسني إلى جانبه عن يسار المكتب الذي سفك عليه دمه منذ أيام؛ ثم أخذ يقنعني بالحجج والشواهد أن الحكومة محقة وأن الشيخ مبطل. ثم عزا المصادرة إلى أمور تتعلق كلها بسلامة العشيرة وإقامة العدل. ولم ير نفسه في حاجة إلى ذكر السبب الأول وهو أن سيد تميم عضو قوي في حزب المعارضة! فأدهشتني جرأة الوزير وأعجبتني لباقته، وعجبت كيف يصر على مناوأة الشيخ وفي سبيل خمسة عشر ألف فدان تخشى الخصومة! ولكنه نجا من مناوأة الأمير لأنه طالب مجد، ولم ينج من مناوأة الموظف لأنه طالب قوت

أحمد حسن الزيات

جائزة هذا العام

للأستاذ عباس محمود العقاد

في اعتقادنا أن المحكمين في جائزة نوبل الأدبية والسلمية يلاحظون القضايا العالمية عند اختيار صاحب الجائزة، إذا لم يكن لها مرشح من طراز برناردشو وأناتول فرانس مترلنك ونظرائهم الذين يستحقونها بشهادة العالم قبل شهادة المحكمين

فقد كانت الجائزة من نصيب الكاتبة الأمريكية بيرل بك لأن القضية التي كانت تشغل الأذهان في السنة الماضية هي قضية الصين، وقد اشتهرت الكاتبة الأمريكية برواياتها الصينية العديدة حتى أوشكت أن تقصر على موضوعات الصين كل ما كتبت من الروايات والقصص والمقالات

وكانت الجائزة من نصيب (إيفان بونين) الروسي المهاجر إلى باريس هرباً من طغيان الشيوعيين يوم كانت قضية اليوم هي قضية الحرب بين الحرية والشيوعية وبين عقائد النور وعقائد الظلام في روسيا الحمراء

وقد أصابت الجائزة هذا العام أديباً فنلندياً لم يظهر شأنه قبل ذاك في أمم أوربا الغربية على الخصوص لأن قضية فنلندة هي قضية السلم والحرية وقضية الجهاد النبيل في هذه الأوقات

ومن السهل أن نقرن قبل ذلك بين أصحاب الجوائز وبين القضايا الإنسانية التي نجمت في الهند أو في أيرلندة أو في إيطاليا أو في بولونيا أو في ألمانيا، ولا سيما جائزة السلم التي أصابت كارل فون أوسيتزكي ولم تصل إليه، لأنه كان في قبضة النازيين ولا غبار عندنا على هذا الميزان وإن لم يكن من موازين الأدب الخالص والنقد المجرد، لأن الجائزة المبذولة إنما هي قبل كل شيء جائزة السلم والمروءة، ولا ضير في الجمع بها بين الاعتراف للأديب الذي ينالها والاعتراف للقضية التي يرتبط بها ذلك الأديب إما ارتباط الموطن أو ارتباط المذهب أو ارتباط العقيدة الاجتماعية

وعلى هذا المعنى لا نرى في هذا العام من هو أحق بها من أدب فنلندة (فراتز إيميل سيلانبا) إذا اجتمع استحقاقه إلى استحقاق أمته للتنويه والتشجيع

ونقول هذا لأننا لم نقرأ للكاتب الفنلندي شيئاً من الكتب والروايات قبل ذيوع اسمه لتلك

المناسبة. وليس في وسعنا أن نحكم على أدبه أو على استحقاقه الفني بمعزل عن استحقاق بلاده، فحسبه شهادة وتزكية انه أديب تلك البلاد التي ارتفعت إلى الذروة

العليا من مقاوم البسالة والاستشهاد
لم نقرأ له ولكننا قرأنا عنه فذكرنا ما كتبناه في العام الماضي حين قلنا إن المحكمين يختارون لجوائزهم واحداً من اثنين: (فإما أديب من الأعلام البارزين طبقت شهرته الآفاق وحكم العالم له قبل حكم المجمع ونقاده. . . وإما أديب يخدم الطيبة والمروءة ويشيع بين الناس أواصر المودة والرحمة)
فإن لم يكن (سيلانبا) من الأولين فهو ولا ريب - على حسب أوصاف عارفيه - من الآخرين
ويبدو لنا أن هذا الكاتب الفنلندي قد استطاع ما لا يستطاع في كثير من الأحيان: استطاع أن يوفق بين معيشته ومعيشة أبطال رواياته ومعيشة أبناء وطنه ومعيشة الإنسان في كل زمان بمعزل عن الأوقات والأوطان
فالأبطال الذين يصورهم في رواياته هم فلاحون فنلنديون، وهم مع ذلك أناسيّ صادقون، وهم مع هذا وذاك صدى ما في عيشه هو وعيش أسرته جميعاً من البساطة والسهولة والطيبة وقلة التعقيد
والظاهر أن سيلانبا قد استمد البساطة من نشأته ومن تعليمه على السواء فهو بنشأته فلاح. وهو بتعليمه (بيولوجي) من تلاميذ داروين المعجبين بذلك العلامة العظيم. وليس في الدنيا شيء يعلم المفكر البساطة والسداد في النظر إلى الحياة والأحياء إن لم يتعلمهما من أخلاق داروين وعقل داروين وطريقة داروين في الملاحظة والاستقراء
وقد أبدع سيلانبا في الرواية الفنلندية نمطاً جديداً غير النمط الذي كان شائعاً في وطنه بين كتاب الروايات والأقاصيص
فقد كان الولع بالحبكة والتشويق والإطناب غالباً على الكثيرين منهم، وكان فن الحكاية عندهم غالباً على فن الحياة أو فن الملاحظة الصادقة عن كثب
ولعلهم وقعوا في غلطة الأكثرين من أدبائنا الشرقيين الذين حسبوا أن القريب لا يستحق البحث عنه لمجرد أنه قريب، وأن البعيد خليق بالسعي إليه لا لشيء إلا أنه بعيد. فتركوا
البساطة والقرب وأوغلوا وراء الشذوذ والتعسف، ودلوا من حيث لا يقصدون على صعوبة المطلب القريب واستعصائه على غير العباقرة الملهمين
وجاء سيلانبا فعوّد القراء الفنلنديين كيف يسيغون قصة تقوم على مراقبة أم ووليدها الصغير، أو مراقبة الشيخوخة التي تتشابه فيها الأوقات والخواطر والأعمال، أو مراقبة الأفراد الذين لا يخلقون التاريخ ولا يأتون بالعجائب ولا يخرجون من الغمار، ولكنهم هم الطبعة الشائعة من كتاب الحياة الباقية، وفي هذه الطبعة ولا شك يقرأها من يفتش عن معناها الأصيل
وهو يحسب أن الأفضل الأكمل من مؤلفاته هو ما جاد به عفو البداهة وسخاء الساعة، ومن هنا إيثاره لقصة صغيرة اسمها (هلتووراجنار) وقوله إنها كتبت في سهولة وفيض سريع، وهكذا تكتب أحسن الآثار
لكنه كثير المراجعة لمعظم ما يكتب، فقلما يتركه بغير تنقيح وتصحيح على الهامش. ثم يعاد إليه من المطبعة فيزيد عليه ويحذف منه ولا يستريح إليه إلا بعد تبديل كثير وأشهر رواياته (سيلجا) وهي كما قال قد ظفرت بالحصة الدنيا من التنقيح والتبديل رأيت صورته فإذا هي تنم على تركيب بنية الفلاح الضليع المستنير.
ورأيت صورته بين أبنائه وزوجته الأولى فإذا هي تنم على رب الأسرة القرير العين بمعيشته البيتية وحمايته الأبوية
وقرأت تلخيص كتاباته فعلمت أنه جدير بأن يكتب مثله، لأنها من معدنه وهو من معدنها
زاره الكاتب الإنجليزي إيفور بنسون وكان في هلسنكي عاصمة فنلندا يوم إعلان نبأ الجائزة فقال:
لبثت أنتظره بعد الموعد نحو خمس دقائق أو ست. ثم اندفع إلى الحجرة وعلى شفتيه ابتسامة عريضة وفي إحدى يديه زجاجة من الجعة، وفي اليد الأخرى كوب ملآن إلى نصفه، وبادر معتذراً يقول:
لقد تأخرت لأنني عنيت بالحلاقة الجيدة قبل غد لولا علمي أنني سألقى اليوم إنجليزياً) فلا مناص من (عملها) اليوم. . . إذ يقال إن الإنجليزي يحكم على من يلقاه بأشياء

ثلاثة: أولها حالة ذقنه، ومر بيده على ذقنه مرور الواثق المطمئن؛ ثم لمس رباط رقبته وعلى وجهه
ظل من التوجس ولمحة عصبية ظريفة تشف عن الشك وقلة الوثوق ومضى يقول: أيا كانت الحال فليست هي بالرديئة، وقد أجوز بها الامتحان!
أما الشيء الثالث فهو الحذاء، ثم جلس على مقعد وسحب بيني وبينه كرسياً يحجب قدميه وقال: ولا أخاله ينجح في هذا الامتحان، ولكنك لا تراه!)
قال إيفور بنسون ما فحواه: إن سيلانبا طفق يتحدث إلي بين الاستحياء والتدفق الصاخب حديث الصاحب الذي قد عرفني طوال حياته، وذكر لي أن الذي يعجبه من التحدث إلى الإنجليز أن جرح شعورهم عسير، وأن معاكستهم مأمونة كل الأمان. وكان يلوح عليه أنه كان يفكر تلك اللحظة فيما يفاجأ به أحياناً من ألم يساوره كلما ظهر له أنه قد أتى بإساءة مستغربة على غير قصد منه
وجملة ما يقال في وصفه أنه رجل بين بساطة الفطرة وتثقيف العلم والحضارة، وأنه في أدبه وفنه وأسلوبه على هذا المثال
عباس محمود العقاد
اتقوا الله في أخيكم!
للدكتور زكي مبارك
ذهب الأستاذ الزيات لزيارة صديقه (عين) فوجده مضى لقضاء أيام العيد بين أهله في المنوفية، ثم نظر في غرفة الاستقبال فرأى (منظار) الصديق فوق إحدى المناضد، فوضعه على عينيه ليعرف إلى أي حد تبدو الخفايا لمن يحمل ذلك المنظار العجيب، ثم هام في شوارع القاهرة يتوسم وجوه الناس فرأى فيهم غرائب وعجائب يشيب من هولها الوليد، فتفزّع وقال وهو يحاور ذلك الصديق:
(أتريد أن أرد إليك منظارك، أم تسمح لي أن أجرّبه على عين الدكتور مبارك؟)
وما أحب أن أعود إلى تشريح مقال الأستاذ الزيات، لأنه مقال محزن، وأنا أخاف على نفسي وعلى القراء من النظر فيه من جديد
ولكن لا بأس من النظر في التجربة التي يقترحها أخونا الزيات، وهو يريد أن أرى العالم مرة من وراء ذلك المنظار الذي نقل فهمه للدنيا والناس من حال إلى أحوال وأسارع فأقول: إن ما رأيته بالعين الطبيعية فيه الكفاية وفوق الكفاية، فمن الرفق برجل في مثل حالي أن تعفى عيناه من النظر إلى الناس بمنظار يفضح ما خفي واستتر من دقائق المساوئ والعيوب
الزيات هو الذي يحتاج إلى منظار يرى به خلائق الناس، لأنه كثير التلطف والترفق، ومن كان كذلك فهو قليل التعرض لآفات الناس، ومن هنا يقلّ علمه بما فيهم من دميم الغرائز وذميم الخصال
أما أنا، فقد دخلت على الناس في جحورهم وأوكارهم، وما زلت أهيجهم بقلمي حتى أسمعوني أعنف ما يملكون من هرير ونباح وعواء. وهل ابتلي أحد بأهل زمانه كما ابتليت؟ وهل عانى أحد من لؤم زمانه بعض ما عانيت؟
وهل بين قراء اللغة العربية في مصر والشرق من يجهل بليتي بزماني؟
لقد شكوت دهري وشكوت ثم شكوت، حتى عطف عليّ أعدائي، فما حاجتي إلى منظار أرى به المستور من خلائق الناس، وقد اكتوت يدي واكتوى قلبي بالسعير الذي يتمرد كلما سمع باسمي أو رآني؟
ويزيد في الغم والكرب عرفاني بأني لم أكن رجلاً لئيماً حتى أقاسي من الناس ما قاسيت. وهل رأى الناس في القديم والحديث صديقاً في مثل أدبي وكرمي وسخائي؟
ومن هو الرجل الذي يجرؤ على القول بأنه أعرف مني بالواجب، وأحفظ للعهد، وأحرص على مقابلة الجميل بالجميل؟
وهل كان الذين ينوشونني بألسنتهم وأقلامهم إلا خلقاً بنيت أقدارهم بقلمي ولساني؟
دلوني على صديق واحد أسأت إليه في محضر أو مغيب!
لو كنت رجلاً لئيما لنسفت أعدائي وخصومي في يوم أو يومين ثم استرحت من التفجع على مصاير الناس إلى مهاوي البغي والعقوق؛ ولكني رجل كريم يكره الغدر ويستعيذ بالله من العدوان على الناس، وذلك باب من الضعف الشريف، وأنا به مزهوّ مختال
وما الذي ينكر عليّ أهل زماني حتى يصدوني بغدرهم عن الثقة بأبناء آدم وحواء؟

أنا أعرف ما ينكرون عليّ، فقد ساءهم أن أسجل ما في زماني من صغائر ومعايب وموبقات. ساءهم أن أفضح سرائر الأدعياء، وأن أقهرهم على الاستهانة بالأدب المزيّف لتقبل عقولهم وأذواقهم على الأدب الصحيح
وهل أخطأت حتى ألقي من بغيهم ما لقيت؟
إن أعدائي يقولون في كل وقت إن مصر هادية الشرق، فكيف يلام من يوجه المصريين إلى أصول الصدق والعدل لتصح لهم السيطرة الأدبية على الشرق؟
وهل يعرفون لي ذنباً غير هذا الذنب الجميل؟
إن كان في هذا البلد من يؤمن بأنه ضحّى في سبيل الأدب بأعظم مما ضحيت فليتقدم ليحمل بعض ما أحمل من ثقال الأعباء
ذلك رأيي في نفسي، وهو حق، فليكذبني من يجرؤ على مصاولتي من أهل الأدب والبيان
وما قيمة مصر في الشرق أو في الغرب إذا صح لأهلها أن يقهروا رجلاً مثلي على اليأس من العدل؟
وبأي حق يدعوني الناس إلى التلطف والترفق وأنا لم أر منهم غير الظلم المبين؟
وفي أية شريعة يفرض على الرجل المظلوم في وطنه أن يعلن أنه من السعداء؟
ومن الذي يراجع الظالمين إذا سكت قلم الأديب؟
حدثوني كيف يسكت من يرى أصدقاءه يأكلون لحمه بلا تهيب ولا إشفاق؟
حدثوني كيف يحرم الغضب على رجل يرى تخلّف العقل في بلد يستطيل أهله على الشرق باسم العقل؟
نحن في مصر التي سبقت جميع الشعوب إلى المدنية، فمن حقنا عليها أن نرجو حرية التعبير عما نعاني من معاطب وحتوف
ومن يسمع شكوانا إذا تجاهلت مصر أننا بفضل جبروتها أشقياء؟!
إلى من نتوجه إذا تعامى الوطن الغالي عن مآسينا الدامية؟ آه! ثم آه!!
في وطن الأزهار والرياحين تموت أفئدة وقلوب
وفي الوطن الذي شرع مذاهب العدل بوحي النيل الذي لا يخلف الميعاد تموت أرواح حساسة واعية معدوا عليها بسهام الظلم البغيض
في وطن النيل الذي لا يخلف الميعاد تضيع جميع المواعيد
احذروا، ثم احذروا من أن أراكم بعين الناقد، يا أبناء هذه البلاد
لقد نظرت إليكم بعين المحب فلم أر غير مآثم ومنكرات، فكيف تكونون لو نظرت إليكم بعين الناقد المنصف؟ كيف تكونون وأنتم حرب على الصديق الأمين؟
ويريد الزيات أن أراكم من وراء المنظار الذي كشف له من الطبائع ما لم يكن يعرف، فهل يظن بي السفه والحمق حتى أتعرض للمستور من عيوبكم ومساويكم!
أنتم أجمل الخلق في أعين من يرونكم من بعد؛ ولكنكم (أجمل) الخلق في أعين من يرونكم من قرب، وأنا منكم قريب، فما أعظم شقائي!
إسمعوا، يابني آدم من أهل هذه البلاد
أنتم وثقتم بأدبي، وليس فيكم من يخاف أن أضيع عليه حظاً غنمه بأي سبب من الأسباب، وبفضل هذه الثقة تجترحون ما تجترحون، فخوضوا كيف شئتم في أوشال الأكاذيب والأراجيف، فلن أجازيكم بغير الصفح والغفران
هات المنظار، يا زيات، هات
هات المنظار لأرى به عيوبي، وأنسى التفكير فيما عانيت من أصدقائي، ويرحم الله عهداً كان لي فيه أصدقاء!
حملت المنظار لأرى عيوبي، فماذا رأيت؟
رأيتني أخطأت أعظم الخطأ حين توهمت أن بني آدم هم جميعاً من طراز ذلك الصديق الغادر الذي صعب عليه أن أعيش وكان يحب أن أموت!
وهل هناك جرم أقبح من الجرم الذي اقترفت؟
مضت أعوام وأعوام وأنا أتلقى في كل يوم رسائل من قلوب تقسم بأنها قادرة على الطب لجروح قلبي، فهل استمعت نداء تلك القلوب؟
أنا أتلقى في كل يوم رسائل من فلسطين وسورية ولبنان والحجاز واليمن والعراق وتونس والجزائر ومراكش فهل فكرت في الإجابة عن تلك الرسائل الودية؟

وكيف وأنا أتجاهل ما يصل إليّ من أصوات القلوب في مصر والسودان؟
وكان ذلك لأني يئست من بني آدم بفضل الأصدقاء الذين سقيتهم الشهد فسقوني الصاب!
فما الذي يمنع من الإستجابة لدعاء تلك القلوب؟
ما الذي يمنع وأنا أعيش محروماً من نعيم الصداقة والحب؟
وهل يرفض من يعيش في مسبعة أن يخرج إلى الحواضر المأهولة بأرواح الناس؟
يمنع من ذلك أن أطياف الغادرين تصدمني حيثما توجهت، فالدنيا كلها هي وجوه الذئاب التي شقيت في تربيتها لتقوي على مضغ لحمي وعرق عظامي
الدنيا كلها هي فلان وفلان وفلان الذين خلدت أسماءهم في مقالاتي ومؤلفاتي ليصح لهم البغي عليّ باسم الأدب والدين
هات المنظار، يا زيات، هات
حملت المنظار لأرى عيوبي، وما أكثر عيوبي!
رباه، رباه!!
ما هذا الذي أرى؟
ذلك صديق أهجم عليه هجوماً صوريا لأرفع اسمه بين الأسماء فيراني من الأعداء
وذلك رفيق أدله على الخير فيراني من الآثمين
وذلك صاحب تشغلني الشواغل عن زيارته فيراني من الغادرين
وذلك أخ عزيز لا تهمه غير الظواهر ويغفل قلبه عن الخدمات التي أؤديها إليه في المغيب
فيراني من الجاحدين
فلأية حكمة خلق الله بعض الناس بلا بصائر ولا قلوب؟
أيكون الله أراد أن يمتحننا بخلقه حتى نؤمن صادقين بأنه صاحب الفضل الأول والأخير في الطب لجراحنا الدامية؟
إن كان ذلك ما يريد فقد رضينا بما يريد
ولكن الله يعلم أننا أصغر من أن نأنس بنجواه. ولابد لنا من مخلوقات نساقيها كؤوس الود حين نشاء، ونرى فيها صور أحلامنا وأوهامنا حين نريد، فمتى يمنّ الله علينا بأطياف تلك المخلوقات؟
كم تمنيت أن أراك في خلقك، يا فاطر الأرض والسموات. ولو استطعت لشغلت نفسي بك عن خلقك. وكيف أستطيع وأنا لا أملك السموّ إليك، أيها الروح المسيطر على جميع الوجود؟
أنا أعترف بذنوبي
لي أصدقاء ضيعتهم، وكنت من الظالمين
منهم ذلك الروح الذي شقي في أن ينطق لساني بالاعتراف بأنه صديق، والذي يكتب إلى ما يكتب ثم لا يظفر بجواب
وكان في يدي أن أملك ذلك الروح ملكا أبدياً وأن أصوغ من نجواه رسائل وقصائد أسيطر بها على الخلود
توسل إلي ذلك الروح أن أحفظ عهد الوفاء وأن أعلن أني له صديق ليحدث أهله بأنه موصول الأواصر برجل له قلب
ومن أجل هذا الروح الذي أخلفت آماله كل الإخلاف تحكم المقادير بأن أعيش في دنياي بلا صديق
فيا أيها الروح الذي يحدث أهله بأني لا أنساه ولن أنساه، أيها الروح الذي يدعوني فلا أجيب، اعرف ثم اعرف أن الله انتقم لك مني، فأنا اليوم بلا صاحب ولا رفيق
هات المنظار، يا زيات، هات
هات المنظار لأرى عيوبي، وما أكثر عيوبي!
هات المنظار لأرى الأسرة المكونة من أربعة أرواح، الأسرة التي ودعتني بالدمع المحرق يوم الفراق
فإن سمعتم، يا قرائي، إنني سأقضي بقية العمر في كرب وبلاء، فاعرفوا أن ذلك جزاء الغدر لمن يتناسى فضل تلك الأرواح
غرتني منزلتي الأدبية فتجاهلت أقدار تلك الأكباد الرقاق، فمتى أرجع إلى مساهرة

النجوم في صحبة الأكباد الرقاق؟
فإن قتلني اليأس من عدل الأهل والأصدقاء فقد كنت الظالم الأثيم
والله أرحم من أن يعاقب قلباً يعترف بذنوبه وخطاياه
أنا باقٍ على العهد يا أحبائي، ويرحم الله من قال:
لقد صَدَدنا كما صددتم ... فهل ندمتم كما ندمنا
زكي مبارك
بين دين محمد ودمه
الأستاذ علي حيدر الركابي
وددت الكتابة في هذا الموضوع بالنظر إلى احتدام الجدل بين طائفتين من الناس في بلاد الشرق العربي: طائفة تنتصر للإسلام وهو دين محمد (ص)، وطائفة تنتصر للعروبة المستندة إلى فكرة الدم - دم محمد صلى الله عليه وسلم
أما أنصار الإسلام فهم في الغالب من رجال الدين الذين خشوا أن تطغى الموجة القومية عليه، فانتصبوا في وجهها يحاربون العروبة ومن ينطق بها ظناً منهم أن ذلك يحمي الإسلام، وفاتهم أن الفكرة القومية مهما تطرفت لا تقضي على الإسلام الصحيح، وإنما يقضي عليه بقاؤه على هذه الحال المؤلمة المشوهة من الانحطاط والبعد - بشكله الحاضر - عن فكر الجيل الحديث وروحه. فهم إن أرادوا نصرة الإسلام وجب عليهم أن يقوموا بإصلاحه وذلك بإعادته إلى أصله الصافي
وأما أنصار العروبة فهم في الغالب من الشباب المندفع، الباحث عن فكرة سامية يعتنقها، الشباب الذي وقف حائراً لأنه وجد نفسه ضائعاً ولا دليل يهديه في موطنه، فتوجه بأنظاره نحو الغرب حيث خيل إليه أن الفكرة القومية سائدة فاعتنقها وتحمس لها بدون روية أو تعمق. وإذا ذكر الإسلام لأنصار العروبة نفروا منه لأنهم باتوا لا يرون في بنائه الفخم الرائع في الأصل سوى جدران بالية عبثت بها يد الزمان وشوهتها الحوادث والبدع فحكموا عليها بالهدم بدلاً من أن يسعوا إلى إزالة التشويه وتقويم البناء. وأغلب الظن أنهم اختاروا الهدم لسهولته، ولأنهم يجهلون هندسة القصر الأصلية وتاريخه الفريد فلا يريدون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث والتنقيب
لقد استمر الأخذ والرد بين الفريقين فكانت ساحاته المجالس الخاصة والعامة، ثم انتقل إلى الكتب وظهر على صفحات الجرائد والمجلات، ولعبت أصابع المبشرين وغيرها من الأصابع الأجنبية الخبيثة فقوت الخلاف ونجحت في تحويله إلى نزاع مستحكم سيقضي في النتيجة على كلتا الفكرتين القومية والدينية - أي العروبة والإسلام - وإن لم يتدارك الأمر عقلاء القوم، فهم إن سكتوا عن هذه الفوضى في الأفكار والتردد بين المبادئ جعلونا نضيع المشيتين ونخفق في بناء نهضتنا على أساس قويم
ولكي نجلو كل إبهام قد يعلق بالأذهان لا بد لنا من تحديد معنى الفكرتين القومية والدينية بوضوح حتى نتمكن من معرفة ما إذا كانت إحداهما تعارض الأخرى من حيث الأساس أم لا:
دم محمد (ص)
إن المبدأ القومي السائد كما يفهمه المشتغلون بالقضايا العامة في الأقطار العربية كلها - ذو غاية سامية ثابتة، ألا وهي السعي إلى تحرير العرب وتحقيق الوحدة العربية. قد يختلف العرب على الخطة الواجب اتباعها لنيل استقلالهم، فمنهم من يؤمن بالحرية الحمراء ويبذل في سبيلها دمه وماله، ومنهم من يميل إلى اللين ويعتقد الصلاح في التفاهم والمفاوضة على أسلوب (خذ وطالب). وقد يختلف العرب أيضاً على الشكل الذي ستتخذه الدولة العربية العتيدة والزمن الذي تتكون فيه: أتتألف من ولايات متحدة، أم تتكون من حكومات مستقلة متحالفة بمعاهدات تعقدها على غرار الحلف العربي المعقود بين اليمن والمملكة السعودية والعراق، أم تصبح دولة متحدة في كل شيء: في عاصمتها وحكامها وأنظمتها الخ. . .؟ ومتى يمكن تحقيق هذه الوحدة، أفي المستقبل العاجل، أم في المستقبل الآجل؟ قد لا يتفق العرب على كل هذا، إلا أنهم على اختلاف مشاربهم مجمعون على الهدف الأسمى الذي لا يرضون عنه بديلا، وهو الحرية والوحدة.
هذه غاية القوميين، وهي غاية صالحة بدون شك؛ فإن في الأمة العربية العناصر

الأساسية الكافية لتشكيل دولة متحدة. هناك تاريخ مشترك قد ولد رابطة قوية لا تفصم عراها، وهناك لغة واحدة وتراث آدمي واحد، وبالإضافة إلى ذلك فإن المصلحتين الاقتصادية والسياسية تقضيان بأن يتحد العرب.

أما من الناحية الاقتصادية فإن البلاد العربية اليوم في حاجة ماسة إلى نوع من الاتحاد الذي يوجد بينها تعاوناً وثيقاً لاستثمار الثروات الطبيعية الموجودة في أراضيها، وتصريف المنتجات المحلية، والسيطرة على التجارة. إن أرضاً تضم كنوزاً من الذهب والفضة والنفط والفحم الحجري والقار والكبريت، وتنتج مقادير كبيرة من الحبوب والفواكه والقطن وغيرها، وتجري فيها الأنهار العظيمة، أو تهطل الأمطار الغزيرة فتروي التربة الغنية، وتتمتع بمناخ ممتاز يصلح لمختلف الأعمال في مختلف المواسم، وتقع في مركز متوسط بين دول العالم تستفيد منه تجارتها. . . إن بلاداً هذا شأنها يجب أن تنمو ثرواتها العامة والخاصة بشكل يضمن لها استقلالها الاقتصادي، حتى يصبح لها اعتبار في الأسواق العالمية يمكنها من تسخير مالها الوافر لتشييد صرح نهضتها الشامخ. إن أمة أسبغ الله عليها هذه النعم لا يجوز أن تعيش عيشة المتكل الكسول الذي يكتفي من زمانه بلقمة حقيرة يطعمه إياها من هو غريب عنه: يطعمه القليل بيده اليسرى ويتناول الكثير لنفسه بيده اليمنى، ولن يقضي على هذا الاتكال غير الاتحاد.

وأما من الناحية السياسية، فالأمة العربية ضعيفة في أجزائها قوية في مجموعها. ومن درس التاريخ استنتج أمرين: الأول أن حياة الأمم الصغيرة قصيرة، والثاني أن البلاد العربية - وهي حلقة الوصل بين الشرق والغرب، والجسر الذي تتبارى الدول للاستيلاء عليه - لم تنجح في رد المعتدي إلا عندما كانت متعاونة على دفعه، كما أنها لم تنل حظها من العظمة إلا بالاتحاد. ولذا فلن يبقى للدول العربية الحالية وجود مستقل، ولن تنمو وتتقوى إلا بالوحدة العربية، لأنها عاجزة عن الوقوف، منفردة في وجه الطامع.

هذه حقيقة الفكرة العربية القومية وهذه دوافعها، ومتى أوضح أنصارها مراميهم الآنفة الذكر قضوا على كل اعتراض، لأنها فكرة صحيحة تدعمها الحجج والبراهين القوية. ومع ذلك فإن بعض القوميين المتطرفين يسيئون إلى الفكرة الأصلية باندفاعهم الطائش ولجوئهم إلى نظرية لا لزوم لها، ألا وهي نظرية الدم. فالمناداة بالفكرة القومية المستندة إلى أساس العنصرية الضيقة لا يزيد المبدأ القومي قوة وإنما ينفر بعض العناصر التي تعيش في الأقطار العربية ولكنها لا تنتمي إلى أصل عربي. هذا فضلاً عن أن نظرية الدم فاسدة من أصلها وخصوصاً في الأقطار العربية وذلك بسبب الموجات البشرية التي اكتسحتها في شتى العصور مما أدى إلى اختلاط الدماء حتى بات إرجاع الأفراد إلى أصلهم الحقيقي أمراً يكاد يكون - في الغالب - في حكم المستحيل. إن الأقليات العنصرية الموجودة في البلاد العربية قادرة على تعطيل سيرنا إذا عوملت معاملة الغريب المحروم الاشتراك معنا في تحقيق أهدافنا بدرجة ما هي راغبة في التعاون معنا إذا أدركت القصد الحقيقي من الفكرة العربية، واطلعت على الفوائد الجمة التي ستجنيها هي من جراء اتحادها بأمة متحدة قوية. فلنكن مخلصين ولنبدد مخاوفها التي يغذيها المستعمر. علينا أن نؤكد لها أننا لا نريد القضاء عليها. وعلينا أن نفهمها أنها جزء مهم من أجزاء الأمة العربية التي لا تتألف من جماعة من الناس ينتمون إلى عدنان أو قحطان، بل هي مجموعة من الأفراد الذين اشتركوا في تاريخ واحد فبعثت ذكرياته القريبة والبعيدة فيهم شعوراً مشتركاً ألف بينهم فدفعهم إلى السير نحو هدف واحد يرمي إلى تحقيق حريتهم ووحدتهم. ويضاف إلى هذه الرابطة العاطفية التي هي الأساس روابط أخرى توثق العلاقة بين هؤلاء الأفراد، كاشتراكهم في اللغة وتجاورهم في الديار وأن دين الأكثرية منهم واحد إننا إن عملنا على نشر المبدأ القومي على حقيقته هذه حفظناه من كل شائبة وضمنا نجاحه.

دين محمد (ص)

إن للفكرة الإسلامية مفهومين مستقلين ومتناقضين ويجب بيانهما بادئ ذي بدء: فهي في نظر البعض حركة ترمي إلى (ا) سيادة المسلمين على غيرهم من أتباع الأديان الأخرى و (ب) تحقيق الوحدة الإسلامية الكبرى و (ج) تنصيب خليفة للمسلمين. هذه هي الأهداف التي يتصور أصحاب المبدأ القومي أن كل مؤيد للمبدأ الديني

يقصدها. وهي الأهداف التي يهاجمونها بشدة ويتخذونها سبباً مبرراً لانصرافهم عن كل ما له صلة بالدين. والواقع أن الكثرة من أنصار الإسلام - أو، على الأقل، الشباب منهم - لا تحمل هذه المبادئ، وإنما يعتنقها ويحلم بتحقيقها جماعة من (الجموديين) الذين قبعوا في بيوتهم بعد أن أقاموا بينهم وبين العالم الخارجي جداراً كثيفاً يقيهم حر (التطور) وبرده، ويحفظ آذانهم من أن تصل إليها صيحات المسلمين الضالين في كل قطر. إنهم لا يسمعونها ولذا لا يقومون بإرشادهم إلى تعاليم دينهم البسيطة والتي هم في أشد الحاجة إليها، بل يقفون في مكانهم وهم يرددون بعناد عجيب: (المسلم أفضل من غيره، وسينصره الله عما قريب!. . . الوحدة الإسلامية أولاً وأخيراً!. . . لابد للمسلمين من خليفة!. . .) لقد فاتهم أن المسلم الذي ينصره الله قد كاد ينمحي أثره حتى لم يبق اليوم سوى أشباه المسلمين، كما فاتهم أن الوحدة الإسلامية لن تتحقق إلا بعد أن يعود المسلمون إلى حظيرة الدين وتبعث فيهم الروح الإسلامية من جديد، وأما تنصيب خليفة للمسلمين فهو أضعف مطالبهم، ويكفي أن يعودوا إلى كتبهم ويطالعوا بحث (الخلافة) فيها ليدركوا أن شرطاً واحداً من شروطها غير متوفر الآن، لا في الخليفة العتيد ولا في الرعية. ولذا فإن أهدافهم، مهما سمت، تظل بعيدة عن حدود الإمكان ولا بد من أن يسبق تطبيقها أمور كثيرة تمهد لها السبيل

إن فهم الفكرة الإسلامية بهذا المعنى مما يضعفها ويجعلها عرضة للانتقاد، كما أنه يجعل الأمم والملل الأخرى تنظر إلى كل ما هو إسلامي بعين المرتاب، فضلاً عن أنه يصرف كل مخلص محب للإسلام مؤمن برسالة نبيه (ص) عن الاشتغال بالقضايا الإسلامية.

فما هي إذاً الفكرة الإسلامية الصحيحة الخالية من كل هذه المحاذير؟

(للبحث صلة)

علي حيدر الركابي

بغداد (الرستمية) دار المعلمين الريفية

قصيدة لم تنشر

لشاعر الحب والجمال لامرتين

بقلم الأستاذ صلاح الدين المنجد

عاد لامرتين في عام 1844 إلى نابولي، تلك المدينة التي ألقت قدميها في الماء، وتركت البحر يدغدغها والنسيم يقبلها. وكانت زيارته الثالثة لهذه البلدة التي خلّفها في صباه، وخلّف وراءه فيما (جرازيلا) الحبيبة تعاني فجعة البين، ولوعة الحب، ووله الحنين. وطاب له المقام، فأقام في جزيرة صغيرة بالقرب منها، يرتع بين حلم موشّى، وعيش هادئ، وتذكر قاتل. وطافت به أشباح الأحباب في السنين الخوالي، ورأى جرازيّلا تهدهده بالنغم البارع فوق ثبج البحر، وتحزنه بالشكوى المحرقة في ذلك القصر العتيق. فجاش في صدره شعر باك حزين، برغم السنين الأربعين التي عمرها، وبرغم هذه الشعور التي تشبه غبشة الفجر. وماله لا يقول الشعر الحزين وقد مات الهوى وفقد الحبيب، وهو بعيد عن وطنه، وحيد على سيف هذا البحر الهائج كالغلام اليافع، فقال عشرين بيتاً من الشعر عثر عليها منذ حين في مجموعة نادرة مخطوطة لأشعار لامرتين في مكتبة السيد لويس بارتو الخاصة، ولم تكن قد نشرت من قبل. وهأنذا أنقلها للناس:

عندما كنت فتى، ملءُ بردىّ الفخار،
نشرت أجنحتي أمام أرواح البحار
فحملت شُرُع القوارب أفكاري وسارت
وراحت أحلامي تتوثب فوق مُرّ الأمواج
كنتُ أرى في ثنايا الموج الذي يغرق الأفق فيه
عوالم تزخر بالحياة، وجزائر تطفح بالسرور؛
تطفوا، موشاة بالياسمين، مزدانة بأغصان الكروم.
وكان الحب يناديني منها، والنصر أيمد لي معه اليدين
كنت أغبط كل سفينة يبيضَّ من حيزومها الزبدُ
تسعى جذلانة تبغي الشاطئ المجهول.
واليوم، أجلس على سيف الخليج الثائر

أذكر الماضي، فأخوض تلك الأواذيَّ ثم أعود
لشد ما أحببت هذه البحار التي ما أزال أهواها
كما أهوى حقلاً رفرف الحزن عليه،
دفنت فيه أجنحتي، فمعالمها تنطق في كل مكان:
ذلك، لا كما هويت من قبل عالم المنى والأحلام
لقد رقد هذا الشاطئ بحزن، وأذابت هذه الصخرة نفسي،
وذوت سعادتي في هذا الهدوء الخادع.
وهنا، صعقتني صاعقة هبطت من السماء
فولّت الموجات تسعى، تحمل كل واحدة منها
قطعة من قلبي المكلوم. . .
(دمشق)
صلاح الدين المنجد
الفروق السيكلوجية بين الأفراد
للأستاذ عبد العزيز عبد المجيد
الفروق العقلية
يعتبر الفريد بينيه - كما ذكرنا في المقال السابق - زعيم النفسيين الذين وضعوا مقاييس علمية للذكاء، وقد ترجمت مقاييسه مهذبة إلى الإنجليزية في أميركا وإنجلترا، وإلى معظم اللغات الأوربية، وإلى اليابانية أيضاً. ومن هذه المقاييس المترجمة والمعتمدة حتى الآن مقياس (استنفورد بينيه المهذب). غير أن مقياس بينيه بصيغته ووضعه يتطلب أن يمتحن كل فرد على حدة، وتلك عملية طويلة مملة، ويحتاج إلى زمن ومجهود، كما أنه لا يناسب الأفراد الذين يرهبون الامتحانات الشفهية التي يواجهون فيها الممتحنين، ولذلك فكر علماء النفس في نوع آخر من المقاييس يقاس به الجمع من الأفراد. وكان دخول أمريكا في الحرب الكبرى سنة 1917 من العوامل التي جعلت الحاجة إلى هذا النوع من المقاييس الجمعية ملحة. فقد أرادت السلطات الحربية الأمريكية أن تعزل من المتقدمين للخدمة العسكرية ضعاف العقول لأن هؤلاء لا يصلحون لحمل السلاح ونزول الميدان، كما أرادت أن تختار من بين الصالحين لحمل السلاح أفراداً ذوي ذكاء يمرنون للوظائف ذات التبعات كوظيفة الضباط والقواد، ولم يكن من الممكن عملياً استخدام (مقياس استنفورد المهذب) ولذلك اجتمع علماء النفس الأمريكيون ووضعوا نوعين من المقاييس الجمعية: نوع يسمى (مقياس ألفا)، وهو لفظي تحريري لمن يقرءون الإنجليزية ويكتبونها، ونوع يسمى (مقياس بيتا)، وهو تحريري غير لفظي للأجانب الذين لا يعرفون الإنجليزية والأميين الأمريكيين، وقد طبع كل من النوعين، وكان يوزع في كراسات على المجندين. وبذلك أمكن اختبار آلاف منهم في دقائق معدودة
ومن الاختبارات التي احتواها (مقياس ألفا) عمليات حسابية عادية في الجمع والطرح تتدرج في الصعوبة من أول الصفحة إلى آخرها. وعلى الممتحن أن يقوم بهذه العمليات بأسرع ما يمكن وفي زمن محدود. وكذلك منها صفحة بها عمودان من الكلمات المألوفة، والكلمة التي في العمود التالي إما مرادفة للكلمة التي قبلها في العمود الأول أو مضادة. وكل ما يطلب من الممتحن هو أن يكتب أمام الكلمتين حرف (ر) إذا كانتا مترادفتين، أو حرف
إذا كانتا متضادتين. ومنها صفحة بها جمل كلماتها موضوعة في غير نظام معنوي، (ض) وعلى الممتحن أن يضعها في نظام بحيث يستقيم المعنى مثل: النور شروق يظهر الشمس عند. ومثل جملة: جريمة النفس الدرجة عن القتل للدفاع من الأولى، ثم يذكر إذا كانت الجملة قضية صادقة أم كاذبة. ومنها أيضاً صفحة ملأى بالأسئلة لمعرفة الأسباب المعقولة لحوادث عادية مألوفة كالسؤال: لم يستعمل معدن النحاس في الأسلاك الكهربائية؟ ألانه يوجد في الولايات المتحدة، أم لأنه جيد التوصيل، أم لأنه أرخص المعادن؟ وعلى الممتحن أن يضع علامة على السبب المعقول. وأما (مقياس بيتا) فهو لا يحتاج إلى قراءة أو كتابة لفظية، ومن اختباراته: اختبار تكملة الأجزاء الناقصة في الصور المرسومة في صفحة من الكراسة، كتكملة العين الناقصة في وجه إنسان، أو الأذن في وجه حمار. ومنها تكرار رموز على نظام خاص مرسوم في

الكراسة كهذا النظام مثلاً: + +. . . أو هذا النظام - + - +. . . ولكل من هذه الاختبارات درجة. والنسبة المئوية لدرجات كل فرد تعين مقدار ذكائه. وقد ظهرت صلاحية هذين النوعين من الاختبارات في الجيش الأمريكي، وانتشر استعمالها وبخاصة (مقياس ألفا) في المدارس الأمريكية والإنجليزية. وقد بلغ عدد الجنود الذين امتحن ذكاؤهم بهذين المقياسين نحو مليونين

وقد استرعت نتائج هذه المقاييس أنظار علماء النفس، فقد وجدوا - بصفة عامة - أن أذكى الجنود هم أولئك الذين يحترفون مهناً علمية أو فنية كالمحامين والأطباء والمدرسين والمهندسين الخ ويليهم في الذكاء التجار والكتبة، وبعدهم الميكانيكيون العاديون، وأخيراً يجئ العمال وذوو المهن اليدوية. وليس معنى ذلك أن كل فرد من طبقة المحامين والأطباء والمدرسين الخ أذكى من أي فرد من طبقة التجار والكتبة. لا، بل الذي وجد هو أن الطبقة الأولى كمجموعة أذكى من الطبقة الثانية كمجموعة. وإن كان من بين أفراد الطبقة الثانية من يفوق في الذكاء بعض أفراد في الطبقة الأولى.

وربما يتساءل القارئ: وهل لنوع المهنة أثر في الذكاء؟ والجواب على ذلك هو أن للذكاء أثراً في اختيار المهنة لا العكس. لأن القاعدة العلمية هي أن من لا يواتيه ذكاؤه للدراسات الجامعية أو العالية يقف دونها، وبذلك يختار من المهن ما يناسب مؤهلاته دون الجامعية، ويناسب في الوقت نفسه ذكاءه المحدود

كان من عناية رجال التعليم في أميركا وأوربا باختبارات الذكاء الجمعية، أن استعملوها مع امتحانات القبول بالمدارس مختلفة الأنواع والجامعات. ففي إنجلترا مثلاً يعقد امتحان لتلاميذ المدارس الأولية في سن الحادية عشرة لاختيار من يصلح منهم للمدارس الثانوية، ومن يصلح للمدارس الوسطى الفنية، ولمنح المجانية للمتفوقين ذكائياً. وقد أصبحت اختبارات الذكاء الجمعية مستعملة مع امتحانات التحصيل المدرسي. وأثبتت نتائج اختبارات الذكاء الجمعية تلازماً مع نتائج الامتحانات المدرسية في معظم الحالات. وفي الحالات التي حصل فيها اختلاف ظهر بعد البحث والتحليل مرة أخرى أن اختبارات الذكاء إنما قاست الذكاء الفطري الذي لم تستطع الاختبارات المدرسية كشفه. أو أن الاختبارات المدرسية قاست مقدار التحصيل المدرسي فقط.

ولذلك يوصي المربون وعلماء النفس أن تستعمل اختبارات الذكاء مع الاختبارات المدرسية، حتى نحكم حكماً صحيحاً على ذكاء الفرد وتحصيله

وهناك نوع من اختبارات الذكاء يسمى (الاختبارات العلمية) وميزة هذه الاختبارات أنه يسهل استعمالها مع صغار الأطفال الذين لم يألفوا بعد استعمال الورق والقلم كالتلاميذ عند التحاقهم بالمدارس الأولية، وفيها تقاس أيضاً القدرات الذكائية العملية التي تتطلب الانتباه والتفكير، كما تستعمل بدلاً من مقاييس الذكاء اللفظية التي لا بد فيها أن يكون المختبر ملماً بالقراءة والكتابة واللغة، وفي هذا النوع من الاختبارات العلمية يطلب إلى المختبر أن يكوّن صورة لشيء، أو شخص من عدة قطع من الورق المقوى أو أن يبني مكعباً كبيراً من مكعبات صغيرة في أقل زمن ممكن وبأقل عدد ممكن من محاولات خاطئة أو أن يملأ فراغات منتظمة في لوحة خشبية، كفراغ مثلث أو مربع أو نجمة أو متوازي أضلاع أو جزء من دائرة. وهذا النوع من اختبارات الذكاء هو أقدم الأنواع التي حاولها علماء النفس. وتوجد منه الآن عدة مجموعات مقننة شائعة الاستعمال في المدارس الفنية والمصانع والشركات في أوربا وأمريكا

ولعل القارئ بعد هذا العرض لأنواع مقاييس الذكاء يتساءل: وما هو ذلك الذكاء الذي كثر الكلام عنه، وما طبيعته، وما الفرق بين الذكاء الطبيعي والذكاء المكتسب؟ وموعدنا المقال القادم للإجابة عن هذا كله.

(بخت الرضا - السودان)

عبد العزيز عبد المجيد

من وراء المنظار

أيام في القرية

لن أجد إذا أردت التعبير عن مبلغ حبي لقريتي كلاماً أجمل ولا أصدق من كلام أستاذنا صاحب (الرسالة). ولست أزيد عليه سوى أني أعيش في القرية أبداً إذا جئتها كواحد من فلاحيها؛ فأنا أخالط هؤلاء الفلاحين، وأتكلم بلهجتهم، وأؤدي ما أريد من المعاني بألفاظهم،

وأضرب في الحديث أمثالهم، وأنهج في سوق الكلام نهجهم، لا أتكلف ولا أتعسف؛ إذ لا حاجة بي إلى ذلك، وأنا قروي قبل كل شيء، ومثلي إذا عدت إلى قريتي كمثل النبات، تنقله إلى بيئته، فيبدو لك من خصائصه ما لا يبدو إلا في تلك البيئة. . .

هبطت القرية وبيني وبين العيد يومان، وتركت منظاري لينظر من ورائه صاحب (الرسالة)، فيستعيذ بالله آخر الأمر منه، ويسألني في ختام حديثه البارع الممتع: أيرسله إلي أم يجرّبه على عين الأستاذ المبارك. . . وما درى أن لي في القرية غير ذلك المنظار الذي لا ينفذ فيها إلى مثل ما ينفذ إليه في المدينة، ونسى أن للمبارك عيناً لا تحب المنظار، لأنها تنفذ وهي عارية إلى كل شيء ولو كان بينها وبينه أكثف ستار!

درت بمنظاري هذا فوقع من حياة (القرية) ومجاليها على ما لو طاوعت قلمي في سرده، لضاق عنه عشرة أمثال هذا المجال. وحسبي أن أقصر الكلام على ما كان أعمق أثراً في نفسي بين ما شاهدت. . .

شاعت الخضرة في الحقول، ورف في مزارعه بين بطاح البرسيم نوّار الفول، واهتزت الأرض أخيراً وزخرت بالحياة، بعد أن فعلت بها دودة البرسيم أياماً طويلة ما لا يفعل الجراد، فالتهمت جموعها الخفية العنيدة، البراعم الطرية الوليدة، وتركت الناس حيارى لا يجدون لما أصابهم من علة، إلا أنه غضب من الله. . . وأبهجت نفسي مظاهر الحياة والبشر في النبات الرفيف والشمس الصاحية؛ بيد أني وا أسفاه رأيت إلى جانبها، مظاهر الموت والعبوس في الغدران الناضبة والأشجار العارية إلى جانبيها، ثم في تلك البهائم العجاف الهزيلة التي تلتهم البرسيم في نهم، ولا تنال منه إلا بقدر.

وجاء العيد فكان أجمل معانيه وقعاً في نفسي تحية أهل القرية جميعاً بعضهم بعضاً وتصافحهم إذا ما التقوا لا فرق بين غني وفقير، ولا بين كبير وصغير، ثم تزاور الناس منذ خروجهم من صلاة العيد إلى متوع النهار جرياً على أصول لن تعرف في المدن إلا بين من تربطهم صلة من قرابة أو من صداقة. وكثيراً ما يقوم فيها مقام الشخص ما يدفع إلى الخادم أو في صندوق البريد من بطاقة. . .

وارتاحت نفسي لحظة لهذا المعنى؛ غير أني ما لبثت أن كدرني خاطر طاف بنفسي؛ وهو أن عيد هؤلاء القرويين كطبيعة حقولهم، فهذا البشر الذي يبدو على وجوههم يكاد يشف عما وراءه من همّ جلبته عليهم الأزمة التي حلت بهم من هلاك الزرع وبيع القطن بثمن بخس، ولن تغرب شمس هذا اليوم حتى يعودوا إلى ما كانوا فيه من عناء ونكد

ورأيت العيد في دنيا الأطفال غير العيد في دنيا الكبار، فهؤلاء الصغار هم الذين ينعمون حقاً بالعيد؛ وهم الذين ينجلي بهم معنى العيد؛ ولكم بث مرآهم من النشوة في قلبي، وبعث من جميل الذكريات في أطواء نفسي، فذقت السرور الصادق برهة في تذكري أيامي التي خلت، والتي كان قصاراي فيها حلتي الجديدة وقروشي القليلة وتمتعي ساعة بالأرجوحة التي اسمع صليل (جلاجلها) النحاسية وصرير أخشابها العالية، ولكن بأذن وا أسفاه غير تلك الأذن الصغيرة! وما أعجب هذا السرور الذي يجر في أعقابه الأسف والكآبة. . .

وخرج الصبايا أسراباً عصر يوم العيد كعادتهن إلى الترعة البعيدة، يحملن جرارهن ويتجملن بحليهن ويخطرن في جديد ملابسهن والشباب يأخذون عليهن الطريق جماعات جماعات، وهم مزهوون بحللهم الجديدة وطواقيهم الناصعة البياض وعصيهم الرفيعة من الخيزران. . . ولكن نظرات البنات فاترة ساهمة، فليس من هؤلاء الفتية في هذا العام الباحث الخاطب والزوج المرتقب، وقد قل المال ورفعت الحرب ثمن كل شيء

وتجمعت في الأفق ظلال الغروب وراحت تطوي نور النهار وبهجة العيد معاً، وأويت إلى داري أعد في نفسي ما تصرم من أيامي في القرية وأحصى ما بقي منها، وأعجب لسرعة انقضاء الأيام هنا على هذا النحو، وأقول متى يقبل الصيف لأقضي في قريتي ما أقضي

كل عام من شهوره. وكان آخر سؤال طرأ على خاطري: متى يعني أدباؤنا بالريف وحياته فيصدق هذا الأدب وتتضح معالمه ويذهب عنه ما يعلق به من بهرج زائف وتقليد سخيف

(عين)

أفانين

بين الخوارزمي والهمذاني

للأستاذ علي الجندي

(تتمة)

كان دخول الرئيس أبي جعفر وصاحبيه الحربي والحيري، بمثابة هدنة نَّفست عن المتناظرين، وأتاحت لهما قسطاً من الجمام، فهدأت الشقاشق، وسكنت الزماجر، وأحسبهما أنسا بدخول الرئيس، وارتاحا إلى هذه الهدنة وودَّا أن يمتد أجلها! ولكن الرئيس لم يحضر لفض النزاع وحسم الخلاف، بل أتى كغيره تصاول العقول وتخاطر الفحول في ميدان المعقول والمنقول!

فما إن فرغ من السلام، وأخذ مجلسه بين الصدور المقدمين حتى تولى توجيه المناظرة، فاقترح أن ينشدا روّية على وزن اختاره

فتلمّظ البديع بلسانه، وسرعان ما أنشد اثني عشر بيتاً منها:

برز الربيع لنا برونق مائه ... فانظر لروعة أرضه وسمائه

والترب بين مُمسَّك ومُعنبر ... من نَوْره، بل مائه ورُوائه

والماء بين مُصَندل ومُكفَّر ... في حسن كُدرته ولون صفائه

والطير مثل المحْصنات صوادح ... مثل المغّني شادياً بغنائه

زمن الربيع جلبت أزكى متَجر ... وجلوت للرائين خير جلائه

فكأنه هذا الرئيس إذا بدا ... في خلقه وصفائه وعطائه

ما البحر في تزخاره، والغيث في ... أمطاره، والجوّ في أنوائه

بأجلَّ منه مواهبا ورغائبا ... لا زال هذا المجد حِلْف فنائه

ثم أنشد الخوارزمي على هذا المثال تسعة أبيات لم نعثر عليها في مظانها وقد وصفها البديع: بأنها جمعت بين إقواء وأكفاء وأخطاء وإبطاء! وأنه أخذ عليها عشرين مأخذاً! وذكر أنه اتجه إلى عميدي المجلس الوزير والرئيس، فقال - مشيراً إلى الخوارزمي بعد فراغه من الإنشاد -: لو أن رجلاً حلف بالطلاق أني لا أقول شعراً، ثم نظم تلك الأبيات التي قالها الخوارزمي، هل كنتم تطلقون عليه امرأته؟ فهتف الجماعة: لا يقع بهذا طلاق!

ثم طلب البديع إلى الخوارزمي أن ينقد أبياته المتقدمة (برز الربيع لنا برونق مائه. . .) فقال الخوارزمي: قلت: أنظر لروعة أرضه وسمائه، ويقال: أنظر إلى كذا. فلم تسمع منه الجماعة

وشبهتَ الطير بالمحصنات، ثم شبهتها بالمغنيات. وأي شبه بين المحصنات والطير؟ ثم كيف توصف المحصنات بالغناء؟

فرد البديع: يا رقيع! إذا جاء الربيع كانت شوادي الأطيار تحت ورق الأشجار، فيكن كأنهن المخدرات بين الأستار، والطيور في الخدور كالمحصنات، وكالطير في ترجيع الأصوات

ثم قال الخوارزمي: وقلت: زمن الربيع جلبت أزكى متجر. هلا قلت: جلبت أربح متجر؟ فقال البديع: ليس الربيع بتاجر يجلب البضائع المربحة

ثم قلت: كالبحر في تزخاره، والغيث في أمطاره، والغيث هو المطر. فقال البديع: لا سقى الغيث أديباً لا يعرف الغيث! الغيث هو المطر، وهو السحاب. فصدقه الحاضرون

وهنا قال الإمام أبو الطيب الصعلوكي: قد علمنا أي الرجلين أشعر، وأي الخصمين أقدر، وأي البديهيتين أسرع، وأي الرؤيتين أصنع!

ثم مال المتناظران إلى فنون أخرى ظهر فيها فوقُ البديع، ووافق ذلك ملالة الحضور فشرعوا في الانصراف، وهم يثنون على البديع ويسلقون الخوارزمي بألسنة حداد!

وهمّ الخوارزمي بالقيام فأصيب بإغماء! فانحنى عليه البديع متمثلاً بقول بشر بن

عوانة:
يعزّ عليّ في الميدان أني ... قتلت منافسي جلَداً وقهْرا
ولكن رمتَ شيئاً لم يرمه ... سواك، فلم أطق يا ليث صبرا
ثم أخذ يمسح عن وجهه! ويقبل بين عينيه! ويقول - على سبيل الاستهزاء -: أشهدوا أن الغلبة له!
ثم مدت الموائد وتكوّف حولها الحضور لتناول الطعام، وكأن الظفر فتح شاهية البديع!
فجعل - كما يصف نفسه ويصف خصمه - يكرع في الجفان، ويسرع إلى الرغفان! ويمعن في الألوان! والخوارزمي يتناول الطعام بأطراف الأظفار! فلا يأكل إلا قضماً، ولا ينال إلا شمّا!
وقد بلغ من جفوة البديع وتحجر مشاعره أنه لم يرع للطعام حرمة! فاتخذ خصمه هزئا وسخرية! وتناوله بفنون من التندر اللاذع حتى استكفَّه الوزير بقوله: قد ملكت فأسجح
ولما قام الخوارزمي عن المائدة - وقد خنقه تبريح الغيظ - قال للبديع: لأتركنك بين الميمات. قال: ما معنى الميمات؟ قال: بين مهدوم، مهزوم، محموم، مرجوم، محروم!
فقال البديع: وأتركك بين الميمات أيضاً: بين الهيام، والصدام، والجذام، والحمام والسَّام، والزكام، والبرسام، والسقام! وبين السينات: بين منحوس، منخوس، منكوس، معكوس! وبين الخاءات. من مطبوخ، ومسلوخ، ومشدوخ، ومفسوخ، وممسوخ! وبين الباءات: بين مغلوب، مسلوب، مرعوب، مصلوب، مركوب، منكوب، منهوب، مغصوب!
ثم انفض المجلس وخرج البديع تحفه هالة من أصحاب الشافعي السِّنية، يتبارون في تعظيمه وإجلاله! ويوسعونه ضماً وتقبيلاً!
وقبع الخوارزمي في مكانه حتى غربت الشمس، فعاد إلى داره كسير القلب خافض الطرف كاسف البال!
وكان لهذه الهزيمة وما لابسها من تألب بلده عليه، وخذلانهم له، وقع شديد على نفسه! فدلفت إليه العلل، وألحت عليه الأوجاع، فلم ينقض الحول حتى وافته المنية في شوال سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة هـ ـ
ومن الغريب أن اعتلاله لم يخفف من حقد خصومه عليه! فكتب بعض سفْلتهم إلى البديع يهنئه بمرضه! فرد عليه البديع بكتاب ليس فيه مسوح الرهبان، ومرقّعات الصوفية! ومن الإنصاف أن نشيد بما انطوى عليه من أريحية ونبل ولعل مرد ذلك إلى الصفاء الذي يعاود النفوس بعد أن تهدأ فورتها، وتنجلي عنها غشاوة الباطل! فتوقن أن المجد كله لله والعزة له جميعا! ولعل مرد ذلك أيضاً إلى أن الظفر بالقرن يحلّ الضغينة ويمحو غليل الصدور، بل يستحيل - على تراخي الأيام - إلى عطف ورثاء! وشواهد التاريخ على ذلك كثيرة
قال البديع في كتابه: الحرِّ - أطال الله بقاءك - لاسيما إذا عرف الدهر معرفتي، ووصف أحواله صفتي، إذا نظر، علم أن نعم الدهر ما دامت معدودة فهي أمانيّ، وإن وجدت فهي عواريّ، وأن محن الأيام - وإن مطلت - فستفد، وإن لم تصب فكأن قد، فكيف يشمت بالمحنة من لا يأمنها في نفسه، ولا يعدمها في جنسه، والشامت إن أفلت، فليس يفوت، وإن لم يمت فسيموت. وما أقبح الشماتة بمن أمن الأمانة، فكيف بمن يتوقعها بعد كل لحظة، وعقب كل لفظة، والدهر غرثان، طعمه الخيار، وظمآن شربه الأحرار. فهل يشمت المرء بأنياب آكله؟ أم يسّر العاقل بسلاح قاتله؟ وهذا الفاضل - شفاه الله - إن ظاهرناه بالعداوة قليلاً، فقد باطناه ودا جميلاً. والحر عند الحمية لا يصطاد، ولكنه عند الكرم ينقاد، وعند الشدائد تذهب الأحقاد. فلا تتصور حالتي إلا بصورتها من التوجع لعلته، والتحزن لمرضته. وقاه الله المكروه، ووقاني سماع المحذور فيه، بمنّه وحوله، ولطفه وطوله!
ولما مات الخوارزمي رثاه البديع، ولعله اقتدى في ذلك بجرير في رثائه للفرزدق قال:
حنانيْك من نفَس خافت ... ولبيْك عن كمد ثابت
تحمّلت فيك من الحزن ما ... تحمّله ابنُك من صامت
حلفتُ: لقد متَّ من معشر ... غنيِّن عن خطَر المائت
يقولون: أنت به شامت ... فقلت: الثرَى بفم الشامت
وعزَّت عليَّ معاداته ... ولا مُنَدارَك للفائت
ورثاه أبو الحسن الرقماتي فأحسن وأساء:

مات أبو بكر وكان امرأً ... أدْهَم في آدابه الغرِّ
ولم يكن حُرّاً ولكنه ... كان أمير المنطق الحرّ
ورثاء البديع للخوارزمي قد يصور لنا طَرفاً من الحرقة واللوعة التي يجدها النظير لفقد نظيره! ولكنه لا يكشف عن شيء من فضائل المرثي كما هي سنة الرثاء، حتى لقد قال بعض النقاد: إنه لم يخل من الدس والسعاية!
ومهما يكن من شيء فقد كان البديع أكرم نفساً وأسنى طبعاً وأعف بياناً من الصاحب بن عباد الذي قال حين بلغه موته:
أقول لركْب من خُراسانَ قافل ... : أمات خُوارزْميكم؟ قيل: لي نعمْ
فقلت: إكتبوا بالجص من فوق قبره ... : ألا لمن الرحمن مَن كفر النّعم!
وبانتصار البديع أولاً وبموت الخوارزمي ثانياً، نبه ذكره واستطارت شهرته، ونفقت سوقه لدى الملوك والأمراء والوزراء، وتهادته الأقطار والأمصار، فلم تبق بلدة في خراسان وسجستان وغزلة إلا دخلها، فحسنت حاله وكثر ماله وفشت نعمته وأراد - بعد امتلاء الوطاب وانتفاخ الجراب - أن يستمتع بالراحة، ويتملى النعيم، فتخير (هراة) دار قَرار، وصاهر فيها الحسيب النسيب أبا علي الحسين الخشنامي، فآوى منه إلى ركن شديد، وأقتنى بمعونته ضياعاً فاخرة
ولكن القضاء العادل كان واقفاً له بالمرصاد فأخذه ولم يفلته!
وما من يد إلا يد الله فوقها ... ولا ظالم إلا سيُبلى بظالم
فمن قائل: إنه مات مسموماً؛ ومن قائل: إنه أصيب بالجنون؛
وهناك رواية وثيقة تقول: إنه اعترته غشية فظن به الموت وعجل له الدفن، فأفاق في قبره وسمع صياحه بالليل، فشقوا عنه فأصابوه قابضاً على لحيته وهو ميت من هول القبر ووحشته!
وكان ذلك يوم الجمعة الحادي عشر من جمادى الآخرة سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة هـ نسأله تعالى حسن الخواتيم!

علي الجندي

الفنان

للآنسة زينب الحكيم

الفنان إنسان منقب، يغريه الأمل فيسبح في خيالات خلابة، أو يوئسه القدر فيراع، وهو على أية حال يكونها متنقل متفنن. . .
تعاف نفسه الاستقرار، ويؤلمه الجمود، هو إنسان دقيق مرهف الحس، يدرك من وراء الظواهر ما لا يدركه غيره؛ فإذا أصاب الهدف فبشّره بفلاح عظيم، إذ تسمو مداركه ويمرن نشاطه ويخلد فنه؛ وهو كلما طال وقت اختباراته دقّ إدراكه ونفذ إلى ما وراء خيالاته ومشاهداته، وكلما صمت نطقت ريشته، ودوى نغم وتره. . .

امتحان

اختبر مرة فنان صيني ماهر تلاميذه - فكلفهم رسم جبل في بلادهم يسمى (جبل الأسرار)، ومن فوقه وحوله الهياكل للعبادة.
رسم الطلاب الجبل بإتقان، وأظهروا حوله الهياكل، فجاءت رسومهم نماذج باهرة، وراحوا إلى أستاذهم فخورين؛ ولكن كان نصيبهم جميعاً الرسوب في الامتحان، إذ قال لهم أستاذهم: إن رسومكم التي أرى، إن دلت على شيء، فلا تدل على أكثر من أشياء ظاهرية مادية ساذجة، مما يشير إلى أن خيالكم قاحل وفنكم بدائي، ولم تحاولوا تفهم نفوسكم حتى تستطيعوا نحت شيء منها يخلد به تصوركم لجبل الأسرار وما يحيط به.
لقد كان يكفي تلاميذي أن ترسموا هيكل الجبل من بعيد، وقد اختفت أجزاء منه: إما في ضباب، أو زوبعة، أو وراء السحب؛ وقد كان يكفي الرمز إلى وجود هياكل حوله وعلى قمته بأن ترسموا راهباً أو اثنين يجلبان ماءً من مجرى الماء بالوادي، أو من مساقط المياه القريبة ليصعدا به على الجبل. ويكفي ما يشير إليه عملهما من وجود الرحمة والتضحية والتجرد، كما يكفي هذا لفهم دلالة الرسم على ما قصد به.
هكذا الحياة شك ويقين، ووضوح وغموض، ويأس وأمل، وصدق وكذب، وخداع ووفاء، وشدة ورخاء، وحب وكره، وغير ذلك مما لا حصر له من الأضداد.
مسكين الإنسان يضل بين هذه جميعاً، يخدعه البصر حيناً وتخادعه الحواس أحياناً،

تثيره الموسيقى وتشمعه الفلسفة، فيصير نوراً في الأنوار أو روحاً في الأرواح. حياته نهب بين
الشدائد والتأملات. الشدائد تصقل نفسه من جهة وتنمي خياله التأملات من جهة
أخرى، فيضيف إلى شخصيته شخصيات متعددة كلما مرت به حادثة أو اختلجت قسماته وتأثرت أعصابه. ولكن هل إدراكه محدود؟ هذا ما يحيرني. أما نشاطه فمحدود بتحلل هيكله، ولكن نشاطه الادراكي هل يزول أيضاً وينتهي إلى الأبد كما ينتهي الجسم؟!
صورة
أتخيل الآن تحفة من روائع الخيال والفن الصيني، أهدتها إلي بعثة الإخاء الإسلامية الصينية (نزيلة القاهرة في شهري مارس وإبريل 1939)
هذه الصورة بها أعشاب مزهرة، وبها طيور خواضة. وقف ثلاثة منها معاً على العشب المائي، ولفت نظري سماتها المختلفة
فواحدة كأنما تجدّ في إخفاء وجهها، وتحاول إغماض عينها فلا تريد أن يراها أحد أو ترى أحداً؛ وواحدة تكابد يأساً قاتلاً وهماً مقيماً؛ والثالثة تطأطأ رأسها وقد وقفت على ساق واحدة في إعياء وخفض جناح
والناظر إلى ثلاثتها لا بد أن يشفق عليها، ويعجب من أمرها. وفي أعلى الصورة طائران يحلقان معاً في ضوء البدر الخلاب وقد قاربا أزهار العشب وهما يهبطان بالتدرج، ويطمئن الناظر إليهما لما تضفيان عليه من سمات الانشراح والاطمئنان والسعادة
في الصورة شيء أخر أحاول تذكره فلا تسعفني الذاكرة، وقد صممت ألا أرى الإطار حتى أذكر ذلك الشيء، الذي أذكر موضعه في الجهة اليسرى من أعلى الصورة، ولكني لا أذكر إذا كان جبلاً أو إنساناً أو حيواناً أو غير ذلك. . . غريب هذا! إن جميع ألوان الصورة حاضرة في مخيلتي بجميع دقائقها من ظل وألوان وحجم وتناسق وكل شيء إلا ذلك الشيء المنسي في أعلى الصورة من الجهة اليسرى. . . ترى ما هو وما دلالته، ولماذا أهملته باصرتي وذاكرتي، ولا يمكن أن أتصوره فقد انمحى أثره من مخيلتي تماماً؟!
إن زهر العشب السامق بألوانه المشوبة بالحمرة والصفرة، والمتناثرة زهوره ينطوي فيها كل معاني فصل الخريف، الذي يهيج في كل قلب ما يكمن، ويثير في كل نفس مشجاة شجنها
والطير الممثل في الصورة هو نوع من البط غير الأليف الطيار، يتصف بشدة الوفاء، فإذا
مات إلف وترك أليفه، فإنما قد ورثه الحزن والوحدة، فيموت كمداً وحزناً على إلفه الراحل، فيقاطع الطعام والشراب، ولا يطير إلا منفرداً، ولا يمكن أبداً أن يتخذ إلفاً غير إلفه في الفترة التي يعيشها بعده طالت أو قصرت
وهذا الطير من الطيور المهاجرة (القواطع) فيعرف فصول السنة ويميزها، ولذلك ينتقل من الشمال إلى الجنوب في الشتاء، ولما عرف عن هذا البط الطيار من شدة الوفاء، يهدي للعروسين في بلاد الصين يوم عقد القران لهما دليلاً على الوفاء
أخيراً أذهب إلى الصورة لأرى الشيء المنسي،. . . إنه بيت من الشعر، مكتوب في سطرين باللغة الصينية معناه: (وراء هذه الزهرة تكمن معاني الخريف)
هل كان يصح مني أن أنسى هذا البيت من الشعر وهو الذي يفسر معنى الصورة؟!
لقد مررت وأنا أكتب هذا المقال بمواضع فيها من تداعى المعاني ما يذكرني بالشيء المنسي ولم أذكره، وكان لا بد لي من الذهاب إلى الإطار لأراه
عجباً! كأن المصور اتهم بيان صورته عما أراده منها، أو اتهم الجمهور في فهم بيانه وما تشير إليه صورته؛ إن يكن قد اتهم نفسه فقد قسا في اتهامه، وإن يكن قد اتهم الجمهور فقد عدل فيه، فلا يفهم الصور فيما تشير إليه من معان إلا أهل الفن والخواص من الناس
وإنسان الفن لا يريد إيضاحاً كلاميا، ولهذا كان بيت الشعر بالنسبة للذاكرة شيئاً قليل الأهمية
وكيف يمكن أن أذكر هذا وأنسى براعة الفنان المدهشة في الإلماع إلى كمون معاني

الخريف وراء أزهاره الشاحبة في ضوء القمر الكامل الاستدارة! لقد أخفت أزهار العشب الملوحة بالحمرة والصفرة جزءاً يسيراً غائراً من طرف القمر، فكان قلباً دامياً - نعم يقطر دماً
فيا أيها الفنانون المدعون، هل تسيرون وفق طبائعكم أو تخالفونها - فلا تبصرون ولا تفقهون، ولا تؤدون رسالاتكم المتوقف أداؤها على البصيرة؟!!
زينب الحكيم
رسالة الشعر
موكب الوداع
(بمناسبة مرور العام الأول على وفاة فقيد الأدب والشباب)
(الشاعر (الهمشري)
للأستاذ علي محمود طه المهندس
هذا الرحيقُ فأين كأس الشاعر؟ ... قد أوحش الأحبابَ لَيلُ السامر!
لمَ يا حياةُ وقد أحَّلك قلبَه ... لمْ تؤثريه هوى المحبِّ الشاكر؟
أخليتِ منه يديكِ حينُ حلاهما ... من ذلك الأدب الرفيع الباهر
لو عاش زادكِ من غرائب فنِّه ... ما لا يُشبَّهُ حسنُه بنظائر
وظفرتِ من تمثيلهِ وغنائه ... بأدقِّ مثَّالٍ وأرخم طائر
أملٌ محا المقدارُ طيفَ خياله ... وتخطفته يدُ الزمان الجائر
وأصار فرحتَنا بمُقبِل يومه ... مأساةَ ميْتٍ في الشباب الباكر
متوسِّداً شوكَ الطريق، مُلثمّا ... بجراحه، مثل الشهيد الطاهر
رُدُّوا المراثيَ يا رفاقَ شبابِه ... لن تُطفئوا بالدمع لوعةَ ذاكر
هذا فتًى نظم الشبابَ وصاغه ... وحياً تحدّر من أرقِّ مشاعر
جعل الثلاثين القِصارَ مدًى له ... والخلدَ غايةَ عمره المتقاصر!
غنُّوهُ بالشعر الذي صدحتْ به ... أشواقه لحنَ الحبيب الزائر
غنُّوهُ بالشعر الذي خفقت به ... أنفاسه لحنَ الحبيب الهاجر
تلك القوافي الشارداتُ حشاشة ... ذابتْ على وَتَر المغنِّي الساحر
فتسمَّعوا أصداءها في موكب ... للموت محتشدِ الفواجع زاخر
مشتْ الطبيعةُ فيه بين جداولٍ ... خرسٍ، وأدواحٍ هناك حواسر
ولو استطاعت نضَّدتْ أوراقَها ... كفناً له، والنعشَ غضَّ أزاهر
ودَعتْ سواجع طيرها فتألفت ... أمماً تخفُّ إلى وداع الشاعر!
يا ابن الخيال تساءلت عنك الذُّرى ... والشهبُ بين خوافقٍ وزواهر
وشواطئ محجوبةً شارفتَها ... فوق العواصف والخضمِّ الهادر
أيرُىَ جناحُكَ في السماء كعهده ... متوشِّحاً فَلَقَ الصباحِ السافر!
أيرُى شراعُك في المساءِ كعهده ... متقلداً حلقَ السحاب الماطر؟
هدأ الصراعُ وكفَّ عن غمراتهِ ... من عاش في الدنيا بروح مغامر
وطوى البلى إلا قصيدةَ شاعر ... أبقى من المثل الشرود السائر
شعرٌ تمثَّلَ كلَّ حسّ مرهفٍ ... لا رصفَ ألفاظٍ ورصَّ خواطر
وَدُمّي مفضَّحةَ الطلاءِ كأنها ... خُشبُ المسارح مُوِّهتْ بستائر
تتمثل التاريخ في أزيائه ... بين المصفِّق وابتسام الساخر
من صنع نظَّامين جهدُ خيالهم ... مسحُ الزجاج من الغبار الثائر
متخلفين عن الزمان كأنهم ... أشباحُ كهفٍ أو ظلال مساحر
يا قوم إنَّ الشعر روحانيةٌ ... وذكاءُ قلبٍ في توقّدِ خاطر
نظر الضريرُ به فأدرك فوق ما ... لمستْ يدُ الآسى وعينُ الناظر
متعرفاً صور الخلائق، سابراً ... أعماقَ أرواحٍ وغوْرَ سرائر
هذى عروس الزَّنج ليلتُه التي ... أدمتْ بكفٍّ حُلِّيتْ بأساور
والنجمُ أشواقٌ، فمهجة عاشقٍ ... وذراع معتنق، ووجنة عاصر!
الشعرُ موسيقى الحياة موقَّعاً ... متدفعاً من كلِّ عرق فائر
عشاق (بابل) لو سُقوا بنشيده ... لم يذكروها بالرحيق الساكر
وتنصتتْ أقداحُهم لمغرِّد ... مَرِحٍ يصفق بالبيان الساحر
أو كان كلّمَ برجها بلسانهِ ... والقَوم شَّتى ألسنٍ وحناجر

لم نِشك من عوَج اللسان ووحِّدت ... لهجات هذا العالم المتنافر!

علي محمود طه

الأدب في أسبوع

العيد

أيتها الأيام السعيدة الهاربة من عمل الدنيا ببراءتها من الشقاء،

أيتها الأيام الصغيرة المتلألئة في ظلام الزمن بأفراح السعادة،

أيتها الأيام الذاهلة عن معاني الآلام!

. . .أنت هكذا أبداً، وهكذا أبداً تعودين

ولكن هل تستطيعين أن تمنحي الناس جميعاً بعض سعادتك وأفراحك ولذاتك البريئة؟ هل تستطيعين أن تمنحي العقول المتغضّنة من الهم والكبَر أفكاراً غضّة ناعمة كأحلام العذارى؟

الحرب

كانت أيام العيد هدنة سكنت فيها الأخبار المحاربة بمعانيها في أذهان الناس وعواطفهم؛ وانقطعت الصحف الأخبارية أياماً عن الظهور، فانقطع أكثر الحديث عن الحرب المخيفة بأوهامها قبل حقائقها، وهدأ الناس

أذكرتني هذه الأيام المسالمة بتأثير الحرب في الأدب، وحملت إليّ صوراً كثيرة مما قرأت في الصحف والمجلات الأدبية، ولا أدري، فيخيل إلي أن المجلات الأدبية منذ بدأت الحرب إلى اليوم قد أفرغت كثيراً من صفحاتها للحرب، وشرحت صدرها لكثير مما يتعلق بها، ومع ذلك لا أكاد أجد إلا القليل من هذه الأحاديث يصلح أن يكون من أغراض المجلات الأدبية، وإنما هو بأغراض الصحف اليومية الإخبارية أليق والصق. ومن الوهم المتفشي أن يدّعي مدع أن اثر الحرب لا بد أن يكون كذلك، وأن مثل هذه الأحاديث هي سمة الحرب على أدب الأدباء، فإن أثرها في فكر العامة لا يكاد يخرج عن مثل ذلك. أما أثرها على الأدباء فهو اشد تغلغلاً في طوايا النفس، وأشد هزاً لعواطف الإنسانية. فإذا أقررنا أن الحرب إنما تتدافع في صدور الأدباء والشعراء ورجال الفن لتكون كالتيار الذي يتدافع بالبحر فينشئ له الأمواج المتصارعة المتدفقة مخافة أن يركد فيأسن، لم نجد بدّاً من اعتبارها كالمدد للمعاني الخائفة التي تنزوي في كهوف النفس الإنسانية السامية الطامحة، تجرؤها وتذمرها وتؤلبها من هنا وهنا لتتعارف وتتساند وتندفع إلى غمارها مجدة إلى

المثل الأعلى الذي هو أحلام النفوس الرفيعة الدائبة أبداً إلى الأغراض النبيلة

فإذا كان كذلك، فأثر الحرب إنما هو تنبيه للمعاني والأغراض التي تحيك في صدور الأدباء والشعراء، وتطريق للمسالك الغامضة التي راد منهم أن يمهدوها ويكونوا إدلاء للناس في مجاهلها ومنكراتها. إن الصحف اليومية الأخبارية عليها أن تمد الناس بأخبار الحرب وصفاتها وصفات بلادها المتحاربة، وعواقبها الدانية أو البعيدة لأحداثها، ولكن مهمة الأدباء الذين يمارسون تحرير المجلات الأدبية أن يتعقبوا معاني أسمى من هذه المعاني المبتذلة التي توضَعُ عن أفكار الناس حين تضع الحرب أوزارها؛ عليهم أن يسبقوا أحداث الحرب بتمهيد جديد إلى حياة أخرى تبرأ من الغرائز الدنيئة التي دفعت العالم إلى هذا الشر البغيض الذي لا غرض له إلا استبداد السلطان، واستعباد الناس بعضهم لبعض. وإذن فهم - لا بد - يبحثون عن العلل والأمراض التي داخلت المدنية الحديثة، فجعلت قوة الافتراس فيها هي الأصل الذي بنيت عليه عقائدها وأعمالها، غير متحيزين إلى فئة بعينها. فإن الأسلحة المشرعة الآن في جميع الصفوف لن تعرف بعدُ معنىً إلا معنى الحرب وحدها بوحشيتها وجوعها وقرمها. . . لن تعرف إلا الدَّم وشهوة الدم، وتنقرض العواطف الرقيقة التي تملأ النفس ورعاً وتقوى وحناناً. وإذا استبان لهم مكنون هذه العلل استطاعوا أن يمهدوا السبيل للحياة الجديدة المبرأة من أسبابها الباغية، فمنعونا شرها ثم شر الآثار والعواقب التي تأبى شياطين الحرب إلا أن تزينها للباقين والناجين من أحلامها.

هذا هو عمل الأدباء والشعراء على الاختصار والإجمال. أما أن يتوهم متوهم أن أثر الحرب إنما يكون إذ يلوك أخبارها وأحداثها ويمضغها في لفظه وعبارته مضغ الكلأ، فذلك شيء لا يقع عليه إلا عقل العامة الذين لا ينفذون في المعاني إلا على الوهن والضعف والفساد. إن أفكار الأدباء التي تسموا بألفاظها ومعانيها سمو الروح بين

خوافق السماء، وإن أحلام الشعراء التي تختال في زينتها رقيقة ناعمة أو ثائرة متفجرة - هي أحبُ إلى نفوس الناس في زمن الحرب، لأنها تنفيس عنهم من كرب الحروب، وإخراج لهم من حمأة الدم الذي ينشر رائحته مع كل نَفَس، ثم هي التمهيد الصحيح لتهذيب النفس الإنسانية وتربيتها والتسامي بها عن المعنى الحيواني الضاري الذي تنشئه الحروب في مهد من الأشلاء والدم

!!العقل المصري

كتب الأستاذ (محمود المنجوري) كلمة في السياسة الأسبوعية (155) يريد أن يكشف بها عن (طبيعة العقل المصري، ومدى تأثرها بالانقلابات) الاجتماعية أو السياسية أو الدينية. وساق حديثه فيها إلى وزارة الشؤون الاجتماعية. ونحن نتجاوز عن بعض الخطأ الذي وقع الأستاذ فيه عصبية للعقل المصري كما يسميه، كدعواه أن إنشاء الأزهر كان نتيجة للأسباب الفكرية والاجتماعية والروحية - التي نشأت في مصر فيما يرى - فأريد إقامة الدعوة الفكرية المتميزة عن صواحباتها في سائر العالم الإسلامي بإنشاء هذا المعهد العلمي العظيم. ولا شك في أن هذا تأويل غير جيد لحقائق التاريخ، فإن الفاطميين هم أنشئوا هذا المسجد الجامع الأول فتحهم لمصر، ولم يكن للعقل المصري إذ ذلك كبير شأن ولا صغيره في دفع الفاتحين إلى إقامة هذه العمارة في مصر، وإنشاء الأزهر كان لغرض في نفس الفاطميين أصابوه أو أخطأوه. . . فليس ذلك من شأننا هنا

وأيضاً فأنا إلى اليوم لا أكاد أعرف شيئاً يمكن أن يسمى (العقل المصري) أو (العقل الإنجليزي) أو (العقل الفرنسي) وهلم جراً، حتى يوضع في كفة وحده أعدت له في موازين العقول، وليس قيام المدنيات بأجزائها على (العقل) حتى يمكن أن يقال إن العقل المصري هو استطاع أن يبقى خالداً والمدنيات من حوله تفني وتبيد. حقاً إن مصر - وغير مصر من الأمم التي كانت منزلاً لمدنيات كثيرة متباينة - قد احتفظت مع هذه المدنيات بأشياء امتازت بها، ولكن هذه الأشياء المميزة لم يكن مَرَّدُ أكثرها إلى العقل بل كان مردها إلى الطبائع التي أنشأتها إرادة الإقليم المسيطرة على الطبائع الإنسانية، وإلى العادات المتوازنة التي لم تقاومها هذه المدنيات مقاومة الحرب والإبادة، فلذلك بقيت هذه المميزات قائمة سائرة متعارفة، فيخيل لبعض من لم يَغُرْ إلى أعماق هذه المخلفات أنها ظواهر عقلية مع أن الحق غير ذلك

ونحن نجد الجنس من الناس ينزل أرضاً غير أرض، فما يمضي الجيل أو الجيلان حتى تفنى المميزات الجنسية في نسلهم من أبنائهم وأحفادهم، ويبدأ الوطن الجديد بطبيعته المستبدة في تحويل هذا النسل إلى طبائعه التي تلائم تربته وسماءه وجوه وحاجات سكانه، فكذلك المدنيات إذا نزلت أرضاً خضعت لما يخضع له الإنسان الحي المتحدر من أصلاب قوم غير سكانه الأوائل، وجعلت تتميز بضرورات الإقليم الطبيعية

ولماذا يريد كثير من الكتاب أن يجعلوا عقول أممهم بدعْاً في العقل الإنساني؟ لا أدري؛ وما يكاد يدري أحد من هؤلاء ما هو العقل، وكيف يتميز في الإنسان، أو كيف يتبين في الأفكار أو المدنيات مكان العقل من مكان غيره من الغرائز والطبائع والدوافع وما إلى ذلك من الأشياء التي تشترك في نتاج الفرد ثم في إنشاء المدنيات الاجتماعية؟ ولو استطاعوا لأبانوا لنا - على كثرة ما يقولون - عن موضع واحد يقولون فيه هذا (صنع العقل) الفلانة. إن العقل المصري كغيره من العقول يقبل كل شيء، ولكن طبائع الإقليم تريد أشياء وتنفي أشياء لأنها لا تستطيع البقاء في سلطانها. إن جوهر الأشياء كلها لا يتغير في العقل بعد العقل، ولكن الأعراض هي التي يصيبها التبدُّل والتغيير لأنه من طبيعتها أول، ولأن العقل لا يعمل فيها عملاً إلا للتدبير والتصريف وحسب

وقد عَرض الأستاذ (المنجوري) في مقاله هذا إلى عهد الاحتلال وما صنعت سياسته في أخلاق مصر وتعليمها، وكيف حطم بجوره وعدوانه كل الصلات القوية التي يعتمد عليها ترابط الكيان الاجتماعي؛ فتمزقت الجهود المصرية في الإصلاح، واستبدت الشهوات الجارفة بأخلاق الطبقات كلها، ففشل الاجتماع المصري في إرادته، وقام على أساس فاسد من الأخلاق حتى صار أكثر ما نرمي إليه غرضاً فردياً لا قيمة له في البناء الاجتماعي، ومن هنا استبد المستبد وصارت السيطرة الفردية في كل أعمالنا هي المبدأ، فلم يقم بيننا التعاون على أساس صحيح، وكذلك تنازعت الشهوات أعمالنا

فصار الآخر بأنانيته يريد هدم عمل الأول لينفرد بأحدوثته وصيته، كالذي رأيناه في الحكومات الكثيرة التي تعاقبت على الدولة المصرية فشرعت ووعدت وبدأت وسارت؛ ثم جاءت أختها من بعدها لتقف كل ذلك وتبدأ من جديد بلجانها وتقريراتها واقتراحاتها، تريد أن تخالف وأن تنشئ وان توجد؛ ثم هكذا دواليك حتى غدت وعود الحكومات عند المصريين خاصة والشرقيين عامة إلى مثل التي يقول فيها كثَير عزَّة:

تمتع بها ما ساعفتك، ولا تكن ... عليك شجى في الصدر حين تبينُ
وإن هي أعطتك الليان، فإنها ... لآخرَ من خُلانها ستلين
وإن حلفت لا ينقض النأي عهدها ... فليس لمخضوب البنان يمين

فهذه أمراض وأوبئة لا تزال تنتشر، ولا بد من مكافحتها مكافحة صارمة بغير هوادة. فهل في الذين يصير إليهم السلطان الوازع العامل من يستطيع أن يتجرد لمكافحة هذه الأوبئة، ولو كان في كفاحها كفاح لنفسه وشهواته وأغراضه؟ هل تجد مصر أخيراً طبيبها المغامر؟ ليتها تجد. . .

المنطلق

قرأت في العدد 341 من (الرسالة) أغنية - أو هكذا سماها صديقنا - بعنوان (الناي). قال الأستاذ بشر فارس: وهي على بحرين مختلفين رغبة في تنويع مجرى النغم، والبحر الأول وضعه الشاعر، وأجزاؤه: (فاعلاتن مفاعلتن) مرتين وليكن اسمه (المنطلق) انتهى.

وصديقنا بشر شخصية جوالة في معاني الدعة والرقة واللطف والظرف والابتسام والمرح، وسائر هذه الكلمات الراقصة بألفاظها قبل معانيها. وهو كالبحر الذي زعم انه اخترعه وسماه (المنطلق). . . فهو منطلق في كل أشياء الحياة بأحلام كأحلام الليل جميلة هادئة ساكنة. . . ولكن إذا فجئها النهار تطاردت له هاربة وقد تركت آثارها أخاديد نديّة كذكريات الحبيب الهاجر في قلب العاشق. . .

وهذا البحر (المنطلق) كما يسميه، قد أرسله على مثل هذه الأبيات:

جنَّبوا الناي عن أُذني ... أُذُني زلزلتْ طَرَبَا)
(مثلَ قلب تُحَدِّثهُ ... سرَّه السرْدُ فاضطرَبا

وقد زعم (بشرٌ) أنه وضعه، ونحن نُسلم لبشر ما يقول، ولكن أصحاب العروض هم أبداً كبحورهم لا يهدءون، فقد زعموا أن الأخفش قد تدارك على الخليل بحراً سموه (الشقيق) يزعمونه أخا (المتقارب)، وسموه المحدث والمخترع والخبب إلى غير ذلك وعرف عندنا باسم (المتدارك) - أي الذي تداركه الأخفش على الخليل بن أحمد - وأصل تفاعيله عندهم: (فاعلن، فاعلن، فاعلن، فاعلن) مكررة، وله عروضان تامة ومجزوءة، فالعروض المجزوءة هي: (فاعلن، فاعلن، فاعلن) مكررة.

وهذه العروض المجزوءة من بحر المتدارك، هي زنَةُ شعر بشر قد دخلها من رقّته ما جعلها تتأود عند قوافيها لتستريح؛ فالبحر ليس إذن (منطلقاً)، ولكنه (خليع المتدارك).

وسائر أبيات القصيدة في قوله مثلاً:

(أوتار الخاطر تغمزها ... أَنَّاتُ الناي فترتجف)

هي أيضاً من عروض المتدارك التامة دخلها التشعيث والخبن كقول ابن حمديس

صادَتك مَهاةٌ لم تُصَدِ ... فلواحظُها شركُ الأسَدِ)
(من توحي السِّحر بناظرة ... لا تنفثُ منه في العُقد

هذا في مخترع (بشر) ولكن ما بال هذا الصديق يريد أن يزلزل أذنه، ونحن لم نفرغ بعد من حديث الزلازل التي هدمت ما هدمت في الأناضول. لماذا أيها الصديق؟ ولماذا تريدنا أن نشعر أن أذنك وحدها - دون سائرك - هي التي تطرب، ولا يكون طربها إلا زلزلة

كفى. . . كفى، فإني إذا نقدت (بشراً) فلن أجد الراحة بعد؛ وإن كنت أضن أني لم أفهم الشعر كله جيداً. . . فلعله شعر جديد، والجديد على من بدأ الشيب يغزوه يبليه ويخيفه فينتشر عليه فهمه فلا يفهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله. . .

محمود محمد شاكر

رسالة الفن

دراسات في الفن

فكرة. . .
للأستاذ عزيز أحمد فهمي
- أين قضيت عيدك؟ وماذا نعمت به من الفن فيه؟
- قضيت العيد في البيت والشارع كما أقضي كل يوم، ولم أنعم فيه من الفن المعروض إلا بسهرة في سينما أوليمبيا الوطني الكبير شاهدت فيها فلم العزيمة.
- دائماً متأخر!
- إني على سجيتي ولكنكم تتعجلون!
- وماذا رأيت في العزيمة؟
- كمال سليم
- إنه لم يظهر في الفلم، أنا شاهدت الفلم في سينما أستوديو مصر قبل أن يعرض في أوليمبيا بشهور.
- لم يظهر إلا اسمه، ظهر بعد ما عرضت أسماء الممثلين منسوباً إليه تأليف الرواية وإخراجها.
- وكيف إذن لم تريه؟
- لأنه لم يمثل دوراً!
- آه. . . إذن، فأنت لا ترين إلا بعينيك؟ وإذن فأنت تربحين كثيراً إذا اشتغلت مخرجة سينما في مصر. . .
- ما هذه اللغة؟ تثير مسألة لتروغ من مسألة؟
- لست أنا من يلف، وإنما أنت الثابتة المثبتة لا يتنقل تفكيرك ولا يتحرك إلا إذا اقتعد قاعدة لتسير هي به. . . فأركبي ما أقول يجرك إلى ما أريد. . . إنه مادام قد ألف رجل قصة وأخرجها هو نفسه، فهو صاحب كل ما فيها وإن لم يعرض صورة بدنه للناس قانعاً بصورة نفسه التي يعرضها
- آه!
- حمداً لله على السلامة
- وفيم كان قولك إني أصلح مخرجة؟
- هذه كنت أقصد بها - ولا مؤاخذة - السخرية بكثير من المخرجين في مصر. أولئك الذين يحسبون الإخراج للسينما ليس إلا عرض لوحات من الصور المتتابعة. . . والذي ذكرني بهؤلاء هو قولك أنك لم ترى صاحب العزيمة مع أنك شاهدت الفيلم، وهذا وجه شبه بينك وبين هؤلاء المخرجين الذين يعيشون في الدنيا على أنهم مخرجون وفنانون فلا يقفون بجمهورهم وشعبهم إلا عند كل لوحة ولوح. . .
- وكمال سليم من هؤلاء؟
- ألم تقولي إنك شاهدت العزيمة؟ ثم أليس لك عقل تستطيعين به بعد مشاهدة فيلم أن تحكمي على مخرجه أهو من أهل اللوحات والألواح أم هو من أهل الحياة؟ فإذا كان عقلك لا يقوى على استخلاص الحكم وحده، أفلا تستطيعين أن ترى مدى اهتمام الصحف والناس بهذا العمل الفني لتحكمي بهذا وحده على قدر ما فيه من الدسم؟
- حاسب، حاسب. . . هذه بعثرة لا أطيق التمزق معها. . . قل لي: ما رأيك في فيلم العزيمة، أو إذا شئت في كمال سليم؟
- أول كل شيء أنه ليس من أصحاب اللوحات والحمد لله. فهو مخرج له عقل وراء عينيه. ولهذا فالذي ينتظر منه دائماً خير. ولكني لست أدري إذا كان سيوفق إلى خير بعد (العزيمة) أو أنه سيظل بعدها وقتاً طويلاً إلى أن يواتيه الخير؟. . .
- ولم هذا التشاؤم؟
- لأنه حشد في هذا الفيلم (محصولاً) كان عسيراً على أن أتصوره قد أتيح لشاب في سنه. . . فإذا كان قد أتيح له كل هذا فإني أظن إنه كل ما يملك. . .
- ناس كثيرون قالوا هذا، وأنا قلته أيضاً. . .
- إه! أنت أيضاً قلته؟!. لابد إذن أن يكون الحق غير ذلك؟
- أعوذ بالله منك مشاكساً. . . رأيت رأياً، وكنت تراه، ألأني رأيته تنقض عليه؟
- التجارب علمتني أنك لا ترين الحق. . . فكلما رأيتني اتفقت معك على رأي أدركت أن عقلي نائم. . . إسمعي، لاشك في أن صور الحياة وحوادثها هي موارد المؤلف والمخرج، ولكن الذي لا شك فيه أن كل صورة مفتاح إلى صور، كل صورة منها مفتاح

صور، وأن كل حادثة مفتاح إلى حوادث، كل حادثة منها مفتاح إلى حوادث. وهذا شيء لا نهاية له، ولهذا كان الفنان يستطيع أن يجعل من الحبة قبة كما يقولون
- كلام معقول. فانقضه لأني اقتنعت به
- قد كنت أنقضه لو كنت سبقت إليه. . .
- إذن فانقض ما يأتي: صور الحياة وحوادثها التي يستخلص منها الفنانون فنونهم لها ناحيتان: إحداهما وراء الأخرى. أما الأولى فهي الناحية المادية المتجسدة ولا يستطيع إنسان أن ينكر ما فيها من جمال وروعة لا يخلوان من المعاني، والناحية الأخرى هي تلك الناحية الشفافة (الغائرة) في أعماق هذه الصور والحوادث، وهي أيضاً فيها جمال وروعة ومعان. وللناحية الأولى مخرجون يشغفون بها ويهتمون، وللناحية الثانية مخرجون، وهناك مخرجون لهم في هذه وفي تلك. وعلى كل صورة وحادثة من صور هاتين الناحيتين وحوادثهما تنطبق القاعدة التي قررتها أنت وهي أن كل صورة مفتاح لصور، وأن كل حادثة مفتاح لحوادث. فكما أن أصحاب الصور والحوادث المعنوية لا تفرغ من عندهم الصور والحوادث، كذلك لا تفرغ الصور والحوادث المادية من عند أصحابها لأن آيات الله لا نهاية لها، ولأن كل آية منها مفتاح لآيات كل منها مفتاح لآيات. . . انقض هذا، أو قل لي لماذا تفضل أصحاب المعاني على غيرهم؟
- من قال لك إني أفضل أصحاب المعاني على غيرهم. . . هؤلاء وأولئك من غير شك فنانون
- حرت معك. . . ألم تسخر من أصحاب اللوحات والألواح. . . أنت؟!
- يا هذه!. . . إنما كرهت منهم أن يتركوا ميدانهم وأن يعملوا في السينما، هؤلاء الواحد منهم يصلح لأن يكون مصوراً بالفوتغرافية، يجمع ما يشاء من صور الناس الذين يحلون في عينيه، ومن صور المناظر التي تروقه، ومن صور الحوادث التي يقابلها وتعجبه. . . ليعرضها في (فترينة) أو ليطبعها في كتاب؛ أما أن يلصق عدداً من هذه الصور بعضها إلى بعض ويقول للناس تعالوا شاهدوني إني أخرجت فيلما، فهو إذن يسخر من الناس ويستحق منهم السخرية. . . فالسينما لم تعد كما كانت منذ نصف قرن (صوراً متحركة) يرضى جمهورها (بالزغللة)، وإنما أصبحت السينما اليوم (سينما) أول ما يطلبه جمهورها فيها شيء (يدلك) أرواحهم، فإذا لم يعطهم العاملون في السينما هذا كانوا كأصحاب المقاهي الذين يسقون قصادهم بدلاً من البن فولاً محمصاً مطحوناً مغلياً قهوة لا تمس الأعصاب وإن كان فيها غذاء للمصارين
- لو ضربت لي مثلاً يوضح ما تقول؟
- لو ضربت مثلاً لغضب الدكتور زكي مبارك؟
- زكي مبارك؟ وما له هو والسينما والإخراج وما إلى ذلك؟
- إنه صديق الناس جميعاً ولا يحب من أحد أن ينقد أحداً. . . إن فيه طبع المسالمة
- لم يقلها عنه أحد، فالناس يعرفونه يناوش الحجر. . . أنسيت معركته مع الأستاذ أحمد أمين؟
- هذا لأن الأستاذ أحمد أمين (ابن كاره) كما يقولون. . . وعلى أي حال مالنا نحن وهذا. . . . . ألا تحبين أن نعود إلى ما كنا فيه فنتحدث عن العزيمة
- فلنعد. . .
- فلنعد. . . ما رأيك فيها؟
- لقد كنت أنت الذي تبدي الرأي فأتمم حديثك. . .
- لقد قلت ما كنت أريد أن أقوله. . . أليس لك أنت ملحوظة. . .؟
- لي. . . وهي إن كانت لا تدل على ضعف في الإخراج، فهي تدل على ضعف في نفس المخرج. . .
- يا عظمة! وما هي ملحوظتك هذه يا مدموازيل فرويد. . .
- لقد عني كمال سليم عناية كبيرة بتقديم أبطال قصته بطلاً بطلاً قبل أن يدخل في صلب الرواية، وأظنه لم يفعل هذا إلا لأنه خشي لو بدأ الرواية من غير هذا التقديم أن يضطرب النظارة فلا يحددون كل بطل من أبطالها التحديد الصحيح أو التحديد الذي يريده هو على الأقل. . . وهذا ولا شك اعتراف منه بأنه عاجز عن أن يقدم الأبطال في تلافيف الحوادث تقديماً واحداً

- قد يكون هذا، وقد يكون انه لا يحسن الظن كثيراً بالجمهور المصري، فهو يكلف نفسه في هذا التقديم، وإن كان يعرف فيما بينه وبين نفسه أنه تقديم لا لزوم له. . . أليس لك ملحوظة أخرى؟
- لي. . . وهي أيضاً وإن كانت لا تدل على ضعف في التأليف ولا في الإخراج فهي تدل على فراغ في رجولة كمال سليم. . .
- ما شاء الله. . . إن عقلك اليوم منساب. . . ما ملحوظتك هذه؟
- ليس في روايته امرأة
- ماذا كانت فاطمة رشدي؟!
- بنتاً. كانت بنتاً حتى بعد أن تزوجها البطل. فقد كانت تنساق بسهولة لما يثيره فيها الناس ولما تثيره فيها الحوادث من النزعات، وكانت تقف مواقف صريحة قاطعة، وليس هذا من طبع المرأة وإنما هو في طبع البنت أقرب ما تكون إلى الطفولة والسذاجة. ليست المرأة التي أخرجها كمال سليم امرأة وإنما هي طفلة. . .
- ربما يرجع هذا إلى أن كمال سليم نفسه حينما أحب. . . أحب طفلة صغيرة هي التي أخرجها بطلة لهذا الفيلم. . . ولعله قد حدث له بعد ذلك ما أبعد بينه وبين المرأة، وما زاد على ذلك، حتى حمله على كراهية النساء، فكانت كل نساء الفيلم ما عدا البطلة وأم البطل بغيضات مُنْكَرات أخرجهن جميعاً ولهن مآرب ملتوية وأغراض خاطئة خبيثة. فمنهن من تبيع بنتها وتقسو على زوجها، ومنهن من تسخر في الكارثة، ومنهن من تحرض على السخرية فيها، ومنهن من تفرح لها وتشمت. . . وهذه الكراهية للمرأة التي تسمينها أنت فراغاً في الرجولة يعوضها في هذا المخرج تمكن ظاهر من نفوس الرجال، واهتمام ظاهر بنفوس الصبيان، فقد وفق كمال توفيقاً تاماً في اختيار أبطال قصته من الرجال، وفي إسناد كل دور للممثل الملائم له القادر عليه حتى إنه لا يستطيع الناقد مهما أشتد ومهما تحامل أن يشير إلى ذات واحدة من ذوات الفيلم ويقول إنها قلقة في مكانها غير مطمئنة إلى دورها، وقد أتيح هذا التوفيق لكمال لأنه فيما أعتقد لا يكره رجال الدنيا ولا يحبهم وإنما هو يعيش بين الناس متفرجاً متفحصاً مختبراً متعلماً متذوقاً. . . ولا ريب أن هذا هو الذي أفاده في اختياره لأبطال روايته. . .
- والصبيان؟ . . .
- لقد جعل لبطلة الفيلم أخاً ولم يكن في القصة ما يوجب أن يكون للبطلة أخ. ولكنه لم يستطع أن يحبس ما يجيش في نفسه من الإلمام بأحوال الصبيان، فتنفس عن هذا الصبي الذي جعله أخاً للبطلة وعرضه في صورة من (السهتنة) والخبث المتظاهرين بمظهر البلاهة والبراءة. . . وليس هذا عجباً من فنان ينفر من النساء، ويحب الفتيات الصغيرات، ويستغرق في عشرته للرجال تأملاً ودراسة. . . أنها طبيعته وظروف حياته، ولو كان لي أن أقترح على هذا المخرج موضوعاً لفيلم جديد فإني أقترح عليه أن يسرع إلى موضوع تجري حوادثه في مدرسة للبنين ابتدائية، أو ثانوية. . . ولا يكون في هذا الفيلم امرأة على وجه الإطلاق، وإنما يكون فيه ناظر ومعلمون وتلاميذ وفراشون. . . ولن يستطيع أحد أن يعترض على هذا النوع فقد سبقتنا أمريكا إليه واستقبلته الجماهير بالارتياح والإعجاب، وقد برز من ممثليه سبنسر تراسي، وفريدي بارتولوميو، وميكي روني. . . كما برز من مؤلفيه مارك تواين. . .
- وهل تحسب كمالاً يوافقك؟ . . .
- أنا لا أطلب منه أن يوافقني اليوم، ولكني أبشره بأن هذا النوع هو نوعه، ولا يبعد أن يقتنع بهذه الفكرة قريباً أو غير قريب فيخطو بالسينما المصرية هذه الخطوة الجديدة. . . وإني أحس أن في نفسه أن يصنع شيئاً جديداً. . .
- ولكن أين يجد المخرج الذي يريد هذا - الممثلين بين الأطفال والصبيان بينما أنت ترى أن في مصر أزمة ممثلين وممثلات. . .
- يا ما فيا لمدارس، ويا ما في الشوارع، ويا ما في البيوت! وإني واثق من أن كمالاً إذا بحث وجد. . فإن فيه القدرة على أن يجد. . .
- صديقك كمال أليس كذلك؟
- والله إني لم أراه ولم أعرفه. ولكني رأيته في فنه عيوبه قليلة، ومميزاته هي هذه التي ذكرناها وهي كما ترين جديرة بالاهتمام

عزيز أحمد فهمي

رسالة العلم
الأسماك العجيبة
للأستاذ أحمد علي السيد
الأسماك الطائرة
قد تعجب إن علمت أن هناك بعض الأسماك تطير في الهواء، ولكنها الحقيقة، إذ أن بعض الأجناس البحرية تستطيع الطيران في الجو لمدة محدودة، ثم تهبط إلى مطارها وهو سطح الماء
ولما أن كان الطيران يقتضي تحوراً في شكل الجسم، فإن الزعانف الصدرية في هذه الأسماك قد اتخذت شكل الأجنحة. ويتراوح طول هذه الأسماك بين بوصات معدودات وبين قدمين وتعيش في البحار القطبية والمعتدلة
وأشهر الأجناس الطائرة هو المسمى ويعيش في البحر الأبيض والمحيط الهندي واستراليا والصين، والزعانف الصدرية طويلة تصل إلى الذيل وهذا مشقوق إلى شقين السفلي منهما أطول من العلوي. وطول هذه الأسماك يتراوح بين قدم ونصف وقدمين.
أما كيف تستطيع الأسماك الطائرة حفظ توازنها أثناء الطيران فقد قام جدل عنيف بين العلماء حول هذا الأمر فقال بعضهم: إن أجنحتها (وهي الزعانف الصدرية) تكون منبسطة أثناء الطيران كأجنحة الطائرات، وقال آخرون: إن هذه الأجنحة تكون في حركة مستمرة كما يحرك الطائر أجنحته إلا أن حركتها سريعة فيصعب على العين تميزها بوضوح
والنظرية الأخيرة هي المقبولة الآن لدى الأغلبية من رجال العلم، لأننا لو سلمنا جدلاً بأن الأجنحة تكون منبسطة ولا تتحرك فإن مقاومتها للهواء تكون محدودة بحيث لا تفي بإبقاء جسم السمكة في حالة اتزان في الهواء. على أن الفريقين المتجادلين يسلمان معاً بأن السرعة العظيمة لحركة هذه الأسماك في الماء وقوة اندفاعها من العوامل المساعدة على طيرانها في الفضاء. وأقصى مسافة تقطعها السمكة في الطيران في مرحلة واحدة خمسمائة ياردة، كما أنها لا تستطيع أن تطير لأكثر من نصف دقيقة. ثم تهبط إلى مطارها وتغوص في الماء، على أنها قد تستأنف مرحلة أخرى بعد أن تستجم وتأخذ كفايتها من الأكسجين
المذاب في الماء لتتنفس. والأسماك الطائرة تطير في اتجاه مستقيم إن لم تقاومها التيارات الهوائية أو ترتطم بأمواج الماء، وترتفع في طيرانها قدمين أو ثلاث أقدام عن سطح الماء، إلا أنه في الجو العاصف قد يبلغ ارتفاعها أكثر من ذلك. والسؤال الذي قد يطرأ على ذهن القارئ هو إذا كانت الأسماك قد خلقت لتعيش في الماء فلماذا يطير بعضها في جو غير الذي خلقت لتعيش فيه؟ والجواب على ذلك أن طيرانها هو الهروب من عدو يطاردها، وأعداؤها كثيرون كخنزير البحر والدرفيل وغيرهما. على أنها إذ كانت تطير لتنجو من عدو يطاردها في الماء فقد لا تسلم أيضاً من عدو يطاردها في الهواء كالجَنْقلَة وسائر الطيور المائية، والأسماك الطائرة تصلح كغذاء شهي للإنسان
- الأسماك الحاضنة
حنان الأمومة ورعاية الصغار غريزة سامية وعاطفة نبيلة، ومن آيات الله أن هذه العاطفة التي تدل على شعور مرهف وإحساس عميق تتجلى أيضاً في بعض المراتب الدنيا من الكائنات الحية. وإننا وإن كنا نعلم جميعاً أن الأسماك تضع بويضاتها في الماء ليخصبها الذكر ثم تتركها وشأنها إلا أن بعض الأسماك تتعهد بويضاتها حتى تفقس وإذا ما خرجت منها يرقاتها تعهدتها أيضاً حتى تصبح قادرة على القيام بأمرها بنفسها ثم تتركها بعد أن تطمئن على مقدرتها وعلى أنها قد أصبحت غنية عن مساعدتها لها
ومن الأمثلة الرائعة لذلك أن جنساً من الأسماك المائية العذبة موجوداً في أمريكا الجنوبية وأفريقية واسمه تحمل الأنثى منه البيض في فمها ثم يحفر الذكر حفرة في قاع القناة حيث تضع الأنثى البيض ويتناوب الأبوان حراسته حتى إذا ما فقس وضعت الأم الصغار في فمها لمدة حتى تصبح هذه قادرة على أن تستقل بنفسها وحين تخرج هذه الصغار من الفم تبقى بجانب أمها مخافة أن يهاجمها عدو فإذا هاجمها فتحت الأم فمها بسرعة ودخلت الصغار
وفي بعض أنواع السمك - في مياه البرازيل يقوم الذكر بدور الحضانة فيحفظ

البويضات في فمه حتى تفقس، وفي خلال هذه الفترة تفقد الأنثى والذكر شهية الأكل ما دامت البويضات في الفم، هناك نوع آخر من هذا السمك يعيش في غانا له طريقة عجيبة لحماية البيض، إذ بعد أن تضع الأم البويضات تضغط عليها بالجزء الأسفل من جسمها الذي
يصبح في هذه المدة ناعماً إسفنجياً فتلتصق به البويضات وتحملها الأم حتى تفقس
وفي حصان البحر - يحمل الذكر جيباً يشبه الذي يحمله الكنغر، وفي هذا الجيب تضع الأم البويضات ثم تقفل فتحة الجيب بإفراز لزج فتصبح البويضات في أمان حتى تفقس
وفي أحد الأجناس القانطة بالمحيط الهندي تلتصق الزعنفتان الصدريتان وهما كبيرتان متقاربتان بالجزء الأمامي من جسم السمكة بحيث يتكون ما يشبه الكأس، وهذا الالتصاق لا يحدث إلا مدة إفراز البويضات فقط، وفي هذا الكأس تُحمل البويضات وتثبت في مكانها بسائل لزج من قنوات في خيوط تتكون داخل الكأس وتبقى البويضات حتى تفقس
وفي سمكة - تتكون كتلة البويضات ويلتف جسم الأنثى والذكر حول هذه الكتلة بالتبادل لحمايتها
وفي أسماك - يثقب الأب البويضات برأسه ثم يدفع تياراً مائياً بواسطة حركات نفسه إلى هذه الثقوب فيدخل الماء في البويضات وبذلك يمدها بالأكسجين الكافي، وفي هذه الفترة يكون الأب عصبياً جداً ويهتز جسمه باستمرار
وفي الأسماك الماصة - يوجد قرص على السطح السفلي للجسم تستطيع السمكة أن تلتصق بالصخور؛ وفي هذه الأسماك تضع الأنثى بويضاتها في محار فارغ ويتولى الذكر الحراسة بأن يلتصق جسمه بهذا المحار حتى يفقس البيض
وفي نهر الأمازون وروافده جنس من السمك الصغير تضع الأنثى بيضها على حافة النهر بحيث يكون قريباً ما أمكن من الماء؛ ولكيلا يجف البيض فإن الذكر والأنثى يتبادلان دفع الماء دفعاً قوياً نحو البيض بواسطة حركات ذيلهما ويتعهدان البيض على هذه الوتيرة حتى يفقس

أحمد علي السيد

القَصَصُ

. . .قلب أم

للأستاذ محمد سعيد العريان

صباحٌ ومساء، يقظةٌ ونوم، وأمنيةٌ بالنهار تتراءى حُلماً بالليل، وعجلةُ الزمن تدور .فتطوي العمر وتختزل الحياة. . . هذه هي الدنيا!.

يا ويلتا!. . . وفي الناس من يعيش دنياه كما يدور الثور في الطاحون: يدور ويدور ولا يزال يدور؛ لا يدري أين ينتهي؛ ويمضي على وجهه في طريق طويلٍ لا يقف عند حد ولا ينتهي إلى غاية، وحوله أربعة جدران!

وهل الحياة إلا يومٌ مكرر؟

ما أمس؟ وما اليوم؟ وما غد؟. . . إن هي إلا رسومٌ متشابهة تتعاقب على مرآة مثبتة في جدار قائم. الصورة واحدة ولكنها تلوح وتختفي، وتزعم المرآة أنها ثلاثة شخوص أطافت بذاك المكان!

ولولا خداع النفس وأباطيل المنى ما طابت الحياة!

واستيقضت (الأم) ذات صباح كما تستيقظ كل صباح؛ فأبدلت ثوباً بثوب وجثَتْ في . . . محرابها تصلي لله وتدعو. . .

كانت تعيش وحدها في هذه الدار المتداعية منذ سنوات!

لقد فارقها (الرجلُ) فراق الأبد، وحمله الرجال على الأعناق إلى مثواه؛ ولكن ذكراه بقيت معها في ولديه. . .

وبكرتْ إليه في الغداة تنثر الزهر على قبره وفي نفسها لهفة وفي عينيها دموع؛ . . . ثم تحولت عنه إلى ولديه لتجفف في صدرهما دموعها!

وآلت منذ اليوم أن تكون لهذا الطفل وأخته أما وأباً. . . وبَرّت بما وعدتْ!

كان ذلك منذ أربع عشرة سنة!

أما الفتاة فقد شبَّت واكتملت ونضجت ثمرتُها فانتقلت من دار إلى دار. . . وباحت بمكنونها إلى زوجها الشاب واستمعت إلى نجواه. . . وعرفت دنيا جديدة!. . أتراها

تذكر اليوم أمها؟. . . أَلاَ إن أمها لقانعةٌ راضية بما بلغتْ من أمانيها. . لقد تحققت لها أمنية من
أمنيتين. . .
وأما الفتى فقد قطع في سبيله مرحلتين وانتهى إلى الجامعة؛ فما أهون ما بقى!. . إنه يعيد عن أمه منذ سنوات ثلاث، يجاهد جهاده ليبلغ مأمله، ولم يبق إلا خطوة واحدة!. . .
وأما الأم فإنها في وحدتها من تلك الدار، وما تزال تصلي لله وتدعو ليحقق لها ما بقي!
يا لله! أهذه هي؟ لَشَدَ ما غيَّرَتها الأيام!
كان لها جاه ومال، وكان لها شباب وفتنة، وكانت حياتها أغنية ضاحكة، كلها مَرَح . . . ونشوة ودلال. . . يا للمسكينة! أين هي اليوم مما كانت منذ أربع عشرة سنة؟
أتُرى مرآتها تحدثها بما كان وبما صار، كعهدها يوم كانت. . .؟ أين تلك المرآة؟. . . لقد علاها غبارُ السنين فما لها عينٌ تنظر ولا لسانٌ يصف!
هاتان عينان قد انطفأ بريقهما فما لهما هَمْس ولا نجوى!
وهاتان وجنتان ذابلتان ليس لهما أَرَجٌ ولا شذى!
وهاتان شفتان قد أطبقتا على ابتسامة حزينة ليس لها صوت ولا صَدى!
وهذا الشَّعر - ما كان أجمله يوم كان! - قد خَطَّت عليه الليالي سطوراً بيضاء في صحيفة مسودة؛ إن فيها تاريخَ جهادٍ نبيل، أربعة عشر عاماً بلا وَني ولا كلال!
لقد بذلت لولديها أغلى ما كانت تملك: بذلت المالَ والشباب، وبرّئت من شهوات . . . النفس وأوهام المنى؛ ونسيتْ كل شيء مما كانت تطمح إليه، إلا شيئاً واحداً، عاشت ما عاشت له، وبذلت ما بذلت من أجله، وخاطرت بما خاطرت في سبيله. . .: ولَديها العزيزين!. . . أما إحداهما فقد بلغتْ، وأما الثاني. . .
إنها لقريرة العين على ما جاهدت وبذلت؛ لأنها من الغاية التي تهدف إليها على خطوات!
وفرغت الأم من صلاتها ودعائها؛ فنهضت متثاقلة إلى صوانها، ففتحته، فأخرجت . . . منه كِسرة جافة، فبلَّتها تحت الحنفية وأخذت تلوكها بين فكيها؛ ثم صعدت إلى سطح الدار تتشمس!. . .
وأمسكت عوداً من الحطب تهش به على دجاجها وهي تنثر له الحبّ وفتات الخبز الناشف. إن لها في هذا المكان لسَلوة وأنساً، وإنها لتجد من هذه الطيور أُسرة تأنس إليها وتتسلى بمرآها؛ بضع دجاجات وديك؛ هذا كل ما بقى لها من أنس العشير!
وانحنت على خمَّ الدجاج فأخذت ما فيه من بيض، ثم هبطت الدَرج تستند إلى الحائط حتى بلغت غرفتها، فوضعت ما معها من البيض في كيس النخالة، وجلست في النافذة ترقب ساعي البريد. . .
إنه يوم السبت، وقد تعودتْ أن تلتقي في مثل هذا اليوم من كل أسبوع رسالة من ولدها لتطمئن. . .
وجاء ساعي البريد فسلَّم إليها الرسالة، ففضَّتها معجلةً وقرأت. . .
إنه قادم بعد يومين ليراها. . .
يا فرحتا! إن لها عيداً من دون الناس!
ووفَرتْ الأمُّ من غذائها لعشائها، وقامت إلى الصوان فأخرجتْ ثوبها الجديد الذي خاطته منذ عامين؛ فرتقتْ ما فيه من فتوق، استعداداً ليوم الاستقبال السعيد!
وكنستْ، ونظفتْ، وهيأت فراش الضيف؛ وجلست تعدّ الساعات وتهيئ برنامج الاستقبال؛ ونامت ليلتها تحلم. . .
ومضى اليومان وحلَّ الميعاد، وجلست الأم وراء الباب ترقب تقدم فتاها وقد هيأت ما هيأت لاستقباله. . .
هكذا كانت تفعل كلما حان موعد زيارته وإن له زيارة في كل شهر:
وتلقت الأم ولدها بالترحيب والعناق؛ وكأنما عاد إليها الشباب؛ فإن في عينيها بريقاً، وفي خديها حمرة، وعلى شفتيها ابتسام، وفي جبينها ألق!
وجلس إليها ساعة يحدثها وتحدثه؛ ثم نهض يتهيأ للخروج ليجول في المدينة جولة؛ ومشى يختال في زيَهِ وزينته، وأمه تشيّعه بعينيها من النافذة فرحانة!
لا عليها مما تقاسي من الجوع والظمأ والحرمان وإنه لسعيد! حسبها من سعادة

العيش أن يكون ولدها كما يتمنى لنفسه؛ إنها لتكتم عنه وعن الناس ما تجد من الضيق والحرج وقسوة الحياة؛ وماذا يجدي عليها أن يعرف إلا أن يحزن ويتألم؟

وتوارى الفتى عن عينيها في منعطفات الطريق، فابتعدت عن النافذة وعلى خديها . . دموع وراحت إلى الصوان تفتحه لتخرج صندوقها الصغير، الصندوق العزيز الذي يضم ذكريات الماضي جميعاً؛ ويضم أماني المستقبل. .

في هذا الصندوق أهدى إليها زوجها الذي فقدتْه منذ بضع عشرة سنة - هديةَ العرس الغالية؛ وفي هذا الصندوق كانت تحفظ ما تحفظ من حلاها وجواهرها، يوم كان لها حلي وجواهر؛ وفي هذا الصندوق كانت تدخر ما تدخر من مال لتنفق على ولديها حتى تبلغ بهما مبلغها. . . فماذا يضم صندوقها العزيز اليوم؟

بضعة جنيهات، وقرط مكسور، وسوار من الذهب: هذا كل ما هناك!. . . وإن بين ولدها وبين الغاية التي يهدف إليها بضعة أشهر!. . . ماذا يجدي كل ذلك؟

وتركته في فراشه نائماً يحلم، وبكرت إلى السوق وفي يدها القرط المكسور . . . وسوارها، تشد عليهما أناملها المرتجفة! وعادت بعد ساعة ومعها مال!

واستيقظ الفتى ليقص على أمه رؤياه وهو يضحك في مرح ونشوة، ويمنِّها بما ينتظر من السعادة يوم يكون ويكون! وابتسمت. . .!

ورفعت عينيها إلى السماء وعلى شفتيها نجوى خافتة، وفي قلبها أمل!

وقامت تودعه إلى الباب وأعطته ما طلب، لم تحرمه من شيء في نفسه؛ وانثنت إلى غرفتها لتضع الصندوق الفارغ في موضعه من الصوان!

ومضى الفتى على وجهه لا يبالي ما خلف وراء ظهره!

منذا الذي يرى هذا الفتى المتأنق الجواد فيعرف من يكون؟ إنه هو نفسه لا يعرف!. . . وأمه حيث تركها، تعيش من دنياها بين صباح ومساء، ويقظة ونوم، وأمنية بالنهار تتراءى حُلماً بالليل، وعجلة الزمن تدور فتطوي الحياة وتختزل العمر، وهي لا تدري. هذه هي دنياها! ولكن لها يوماً تترقب مطلعه على شوق ولهفة؛ ولكن متى. . .؟ أترى هذا اليوم حين يجيء يرد عليها الشباب المدبر والعمر الذي ضاع!

وانقضت بضعة أشهر، وحان اليوم الذي كانت تنتظر؛ ودخل إليها زوجُ ابنتها ليزف إليها البشرى. . .! وكانت راقدة في فراشها تحلم. . .

وجلست في فراشها، وأشرق وجهها بابتسامة راضية، وقبَّلت البشير قبلة، ثم مال رأسها على الوسادة. . . وكانت تبتسم. . .!

وهتفت في صوت خافت: الآن أديت واجبي! وعادت الابتسامة إلى شفتيها أكثر إشراقاً وفتنة!

ودارت بعينيها في أرجاء الغرفة حتى استقرت على صورته في إطارها ثم أطبقت أجفانها!

وتراقصت أشعة المصباح الذابل في الغرفة الخالية من الأثاث إلا من سرير محطم عليه جسدٌ محطم!

وهبت نسمةٌ عابرةٌ فأطفأت المصباحَ وعمَّ الظلام!

وخرج الرجلُ ناكسَ الرأس يتعثر في خطاه ليلقي إلى زوجته النبأ الفاجع. . .

وكانت زوجته جالسة إلى المرآة تتزين. . . . . .!

وعلى حين كانت الدار تموج بالأهل والجيران يتهيئون لتشييع الأم إلى مقرها، كان الفتى جالساً في ثلة من أصدقائه وصديقاته يحتفلون باليوم السعيد!

محمد سعيد العريان

من هنا وهناك

الخلق الذي سيكسب الحرب

(عن مجلة (باريد))

للحرب الحاضرة نواح كثيرة يجب أن ينظر إليها قبل أن ينظر إلى تقدير قوى الجيوش المحاربة، وعدد طائرات العدو وحجمها والسرعة التي تسير بها. ومما لا شك فيه أن الجانب الذي سيكون له الفوز النهائي في هذه الحرب، هو الجانب الذي يمتاز العنصر الإنساني فيه بقواه الأخلاقية، ومزاياه العقلية. ولا جرم أن البريطانيين والفرنسيين يمتازون من هذه الناحية عن الألمان.

وقد كتب المؤلف الأمريكي المشهور (فنسنت شيان) في مجلة (رديوك) التي تصدر في كندا مقالاً قيماً تناول فيه أخلاق هذه الأمم بالبحث والتحليل. فقال: إن في الرجل الألماني لا بأس به على وجه العموم، فهو شجاع، صلد، جلد على احتمال الشدائد، ذو مقدرة على الاضطلاع بسائر الأعمال الجسدية، يعمل بيديه وقدميه فيها كما يعمل برأسه.

إلا أن هذا الخلق الألماني بما فيه من العناصر الطيبة، لم يخل من ناحية ضعف لها أثرها السيئ على سائر النواحي القوية فيه. فالشعب الألماني ينقصه الإدراك السياسي الرشيد. فسياسته لا ترتفع عن سياسة العامة، وأخلاقه السياسية لا ترتفع عن الجهالة والسخف

والألماني لا يعرف التشكك في أموره السياسية. وقد عرف النازيون كيف يستغلون هذه الصفات، فاستحوذوا على نفوس الشعب بطرق لا تخلو من المهارة والحذق. فإذا كان الشعب الألماني وعدده ثمانون مليوناً من الأنفس قد اعد لتصديق كل شيء يلقي عليه بغير تردد، فلماذا يكلف النازي أنفسهم إخباره بالحقائق المريرة المتعسفة. والأكاذيب المتقنة والوعود الخلابة أسهل وأجدى

إلا أن هذه الظاهرة المعهودة في الخلق الألماني منذ قرون، لا تلبث أن تثير غضب الرأي العام حينما يصل خداع الشعب إلى أقصى حدوده وتفتضح الحقائق التي كانت في طي

الكتمان، وفي هذه الحالة يكون اليهود وغير اليهود سواء في التألب على هتلر وعصابته وإقصائهم عن الحكم، كما أقصى القيصر وحكومته عام 1918. أمام الشعب يقف الشعبان الإيطالي والفرنسي وهما يستمتعان بالحرية السياسية منذ مائة وخمسين سنة، ويعرف كل فرد من أفرادهما المبادئ التي يدافع عنها

فالإنجليزي لا يسير بالطريقة الآلية التي يسير بها الألماني، وهو يحاسب رجاله على كل صغيرة وكبيرة. طبع على ذلك منذ قرون، وهو يرى الحرية خيراً من الكفاية. وإذا كان الإنجليزي يضيع كثيراً من الوقت قبل أن يدخل مع خصومه في حرب طويلة المدى فهو في الحق من النوع الذي يميل بطبعه إلى الدقة والنظام، ويسير على خير التقاليد دون أن يثير ضجة أو لجباً

والإنجليزي لا ينطق كثيراً بألفاظ البطولة أو التضحية، ولكنه يعرف دائماً كيف يحافظ على الروح المعنوية فيه، ويحتفظ بروح الفكاهة ولو كان على فراش الموت هذا هو الرجل الذي سيقف على قدميه إلى نهاية الحرب. فأعصاب الإنجليزي من النوع الذي لا يعرف السطحيات وإن كانت في الحقيقة أقوى وأشد من الصلب.

والفرنسيون كذلك لهم مقدرة على احتمال الشدائد، وقد برهنوا على ذلك مراراً عديدة في تاريخهم الماضي، وعلى الأخص في حرب 1914 - 1918.

ولعل أهم الميزات التي خص بها رجل الشارع في بريطانيا وفرنسا، هي انه على علم تام بأحواله السياسية. فالصحافة تمد الشعب بكل ما يحتاج إلى علم، والحكومة لا تكتم عنه شيئاً لتظهره فيما بعد، ولا يفكر أحد في خديعته عن الموقف الجوهري الذي يدافع عنه.

ولا يمكننا أن نقول ذلك عن الشعب الألماني، فقد قطع ما بينه وبين الحقائق منذ ست سنوات، إلا أنه إذا عرفها عاجلاً أو آجلاً وتبين له أنه كان مخدوعاً، فسوف لا يوجه غضبته إلى الأجانب، ولكن سيوجهها إلى الذين خدعوه، وهم قادة النازي

لابد من التعاون لتوطيد دعائم السلام

(عن (دان آند أول))

ليس كل أنواع السلام مما يستحق السعي إليه. فالسلام القائم على التعاون بين الأمم كبيراتها وصغيراتها، يختلف ولا شك في جوهره عن السلام الذي يقوم على الغلبة وإخضاع النفوس، فالأول وحده هو الذي يستحق الاهتمام، ولكنا إذا سعينا إليه فلا بد أن نحتاج - عاجلاً أو آجلاً - إلى شيء من التعاون مع الشعبين الروسي والألماني، حتى تكون دعائم هذا السلام موطدة الأركان. وما دام هذان الشعبان يعيشان تحت سلطان الدكتاتورية، التي تنفذ مشيئتها في خصومها السياسيين بالقتل أو السجن، فهما حريان بألا يسعيا وراء هذه المبادئ، لتكون أساساً لعلاقتهما بالأمم الأخرى، وقد نبذوها أنفسهم في حدود بلادهم

على أننا جديرون - على كل حال - بأن نعرف كل العرفان أننا لا نملك الحق في إلزام الأمم الأخرى بتغيير نوع الحكومة التي ترتضيها. فإذا كان الألمان يفضلون أسلوب هتلر في الحكم، أو كانوا على الأقل، لا يستطيعون تغييره من تلقاء أنفسهم، فأي حكومة تقوم في ألمانيا تحت تأثير القوات المسلحة التي لبريطانيا العظمى وفرنسا لا يقدر لها البقاء

فحكومة هتلر هي ثمرة من ثمرات العقلية الألمانية. وقد جاء هتلر نتيجة لانهزام ألمانيا في حرب 1914 - 1918، وليس بمستبعد أن تكون للحرب الحاضرة نتيجة شر من تلك النتيجة، إذا هزمت ألمانيا مرة ثانية. وقد يتعلم الشعب الألماني هذه المرة كيف يؤسس حكومة أقل سذاجة ونقصاً من حكومته الحاضرة. وعلى أي حال من الأحوال فسوف يكون من شانهم وحدهم - لا من شأننا - اختيار الأسلوب الذي به يحكمون بهذا المبدأ نطلب أن يعامل البولنديون والتشك والاستونيون واللتوان، وإن يكن هذا المبدأ لم يساعدنا على إنقاذ السلم العام. هو ضد إخضاع أمة لأمة أخرى. ولكنه لا يعترض مبدأ آخر أكثر أهمية، وهو مبدأ التعاون بين الدول. وقد حُوولت محاولة طيبة في معاهدة عام 1919 للمناداة بهذين المبدأين، فنالت بعض الأمم المستعبدة حريتها، وتخلصت من تبعيتها لأمم أخرى تحت تأثير من تقرير المصير؛ وتم التعاون من ناحية أخرى بين جميع الدول بقيام عصبة الأمم. إلا أن هذا المبدأ مبدأ التعاون الدولي قد سار بخطى وئيدة إلى الغاية التي ينشدها الجميع

بل إن التعاون بين الأمم التي تنتمي للعصبة كان من الناحية العملية محدوداً وغير محقق للرجاء. فكل حكومة كانت تعمل مستقلة لصلاح حالتها الاقتصادية والمالية، وتستغل

الظروف لإصلاح سياستها الحربية. فالتعاون بمعناه الصحيح لم يكن معروفاً في علاقات بعض الدول بالدول الأخرى. وما زالت بعض الحكومات إلى اليوم تعد نفسها غير مسئولة إلا عن مصالح الأهالي الذين ينتمون إليها.

وما زالت هذه الحكومات تقف موقف الصمت بازاء المصالح العامة، وليست هذه هي السياسة التي تؤدي إلى توطيد أسس السلام. إن مبدأ التعاون الذي ننشده لتدعيم قواعد السلام لا بد أن يدخل في سياقه التعاون التجاري والصناعي بين مختلف الأمم؛ ولا بد أن يقضي على فكرة الحرب الأهلية أو حرب الطبقات. وأي حكومة تبيح تلك الحروب الأهلية في بلادها لا تستطيع ولا شك أن تتعاون تعاوناً شريفاً لتوطيد طرق السلام.

النشر والحرب

(عن (ذي سبكتاتور))

قليل من الذين كانوا يشتغلون بالنشر في الحرب الماضية، يعيشون إلى اليوم ويزاولون أعمال النشر بيننا. ومما يدعو إلى العجب أنك لا تجد عند هؤلاء إلا النزر القليل مما يروون عن مثل الحالة التي نواجهها اليوم. فإذا كانت هذه الحالة تماثل ما عرف من قبل فيما بين عام 1914 و1918، فإن عالم النشر سيشاهد بعد المرحلة الأولى من الحرب تجارب لم تتح له منذ عدة سنين

إن الحرب تشجع على القراءة، فهي تؤثر في نفوس المحاربين وغير المحاربين من الأهالي بما يضجر ويقلق مما لا يخفف وطأته شيء كقراءة الكتب. فهي تثير الحماسة الوجدانية وتعد الأذهان لتلقي ما ينتجه العقل، وتجعل النفوس أشد رغبة في أن يفكروا ويحسوا، وتضعها في الوقت ذاته في موقف يكون فيه أشد حاجة إلى الراحة والتسلية من أي وقت آخر. ولا يضيرنا هنا أن نقول إن هذه العوامل لا تقل قوة وتأثيراً اليوم عما كانت عام 1914، بل قد يكون الأمر على النقيض، فالقيود التي تحيط بنا وحالة الشعب العامة قد تساعد على تقوية هذه العوامل

إلا أن عالم النشر تعترضه صعوبات كثيرة إلى جانب الصعوبات المتعلقة بالطبع والتوزيع، مما قد يخفي على الجمهور. وسوف تعاني بيوت النشر والطباعة الكثير من هذه

الصعاب، فعمل الناشر في الحقيقة أكثر دقة مما يتصور الكثير من الناس وهناك صعوبة قد لا تخطر على البال، وقد يكون علاجها من المستحيلات، فما قيمة الورق والطبع وما قيمة الناشرين إذا لم تؤلف الكتب؟ وقد لوحظ هذا العام هبوط

محسوس في عدد الكتب التي قدمت للمطابع وكذلك في نوعها. والسبب في ذلك واضح، فقد أصبح العالم الأوربي منذ اجتماع ميونخ قليل الاهتمام بالأعمال الأدبية، فتلك الأزمات المتوالية، التي تعقبها فترات من القلق والتفكير في مصير المدنية المزعج، كل ذلك من شأنه أن يجفف ينابيع التفكير.

ولكن ما دمنا قد وطدنا العزم على إزالة هذه الهمجية من أوربا، فمن الواجب أن يزول ذلك الشبح المخيف من أذهان الكتاب. فنحن في حرب يشترك فيها العالم كل بما أهل له، وكل ما يطلب من الكاتب - إذا ترك وشانه في هذه الحرب - هو أن يؤلف ويغذي الأفكار

البريد الأدبي

في العروض

في العدد الماضي من (الرسالة) تعقيب عنوانه (التجديد في العروض)، وغايته مناقشتي في بحر (وضعتُه)، وكنت نشرت أبياتاً منظومة عليه (قصيدة (الناي) في العدد ال340، وجعلت اسم البحر: (المنطلق). ولن أجاذب صاحب التعقيب. بل عليّ عهد أني كلما رأيت كاتباً يعرض لي وهو غير مستوثق مما يكتب ولا متقصّ في التدقيق عدلت عن الجدَل إلى ما يجلب لصديقي القارئ بعض الفائدة. ولك أن تسألني عن مواضيع النبوّ في تعقيب الكاتب. وإليك الجواب مختصراً:

يقول الكاتب إن البحر الذي قلت إني (وضعتُه) (وهو: فاعلاتن مفاعلتن، مرتين) قد (خيل إليّ أني اخترعته). وهنا أحب أن أبصّر الكاتب، على عجل، مواقع ألفاظ العربية: فإن (الوضع) غير (الاختراع)

وقد علّل الكاتب كيف (خيل إليّ) وضع البحر بقوله: (يوجد هذا الضرب نفسه بأجزاء أخرى هي (فاعلن فاعلن فَعِلُن) فهو إذاً الضرب الأول من العروض الثاني (يريد: الثانية) من المتدارك، وهو المجزوء الصحيح، وأقرب أمثلته لوزن الدكتور بشر هو الضرب المخبون المرفَّل من هذا المجزوء الصحيح، ومثاله في (متن الكافي) هو:

دار سُعدى بشحرِ عمان ... قد كساها البلى الملوانْ

على أن هنالك فرقاً يسيراً قد يلحظه القارئ بين الوزنين، فذلك أن وزن الدكتور بشر ينقصه الترفيل (وهو زيادة سبب خفيف. . .) والسبب الخفيف متحرك بعده ساكن كقَدْ. فهو يمثل الألف والنون الأخيرتين في (عمان) و (الملوانْ) واللتين بحذفهما نحصل على نفس الوزن المنطلق الذي جاء به الدكتور بشر) 1 هـ.

أولاً: ليراجع الكاتب (متن الكافي) الذي استند إليه، وشرحه (المختصر الشافي) للدمنهوري وغيرهما ليعلم أن للعروض الثانية المجزوءة من المتدارك ثلاثة أضرب هي: فَعِلاتن، فاعلان، فاعلن. فأين (فَعِلُن) الذي أتى به؟ وإذا بدا له أن يتذرع بالخبن، فليذكر أن (الخبن) من (الزحاف) فما هو بلازم في فاعلن، وإن لزم في فعلاتن الوارد هكذا على أنه ضرب.

ثانياً: قرأ الكاتب البيت الذي استشهد به (متن الكافي)، وهو غير مشكول. فسكن النون من

و (الملوانِ). والصواب: كسر النون (عمان، الملوان) - كما يعينّ ذلك موضع (عمانِ) الشاهد من الكتاب - فيكون الوزن (فعلاتن) لا (فعلان)

ثالثاً: والظريف أن الكاتب يزيد أن في البيت ترفيلاً. فيشرح الترفيل، ويضرب المثل بكلمة (قد)، ثم يقول: (إن الترفيل يمثل الألف والنون) من (عمانْ) و (الملوانْ). والصواب: (أنه يمثل النون المكسورة)، مع إشباع الكسرة. وأما (الألف والنون) فالألف تتمة التفعيلة السابقة، النون هي التذييل، فلا ترفيل كما وهم الكاتب

رابعاً: يقول الكاتب إن بين الوزن الذي استكرهه والوزن الذي وضعتُه (فرقاً يسيراً. . . وبحذف اللف والنون (والصواب كما رأيت: بحذف النون مع حركتها المشبعة) نحصل على نفس الوزن المنطلق الذي جاء به الدكتور بشر). فكأن الأوزان على يد الكاتب تنقص وتزيد وتضغط وتمط بجرة قلم. وإن توهم أن الترفيل في العروض لا يقدم ولا يؤخر كما يقولون، فليسأل أهل التلحين والغناء عن النقرة التي تبعد إيقاعاً من إيقاع، والغمزة التي تجنَّب (الصبا) من (البياتي) مثلاً. ولينشدهم (قصيدة الناي) يخبروه هل البحر الأول (وهو في وهمه مجزوء المتدارك) على ميزان البحر الثاني (وهو المتدارك). إلا إن الشعر والموسيقى من منبع واحد. أليس لكليهما دوائر قائمة على

الأسباب والأوتاد والفواصل عند أرباب الفنين؟ ليفطن الكاتب إلى هذا
وخلاصة القول أن أركان صناعة الشعر وشواهدها تختلط على قلم الكاتب وتتلوى.
فكيف أجاذبه فيما انحرف إليه؟ هذا وإن لي حديثاً في (بحر المنطلق): كيف خطر لي
وما أصوله، وإني لسائق الحديث يوم يخرج الديوان تسبقه توطئة
بشر فارس
ثناء ورجاء
أُثني على مطالعة الأستاذ عوض السيد السحل الفاحصة، وأعلمه كي يبتهج أن قد
حُذف القول الخامس من جريدة (قد لا يكون)، وإن أراد الإمام العكبري - كما ظن قبل
(وقيل أن مصدرية، وقد لا تمنع من ذلك) -.
وأرجو من الأستاذ توفيق الفكيكي أن يتفضل بقراءة: (كلمة في اللغة العربية،
والأسلاك
الصحيح). فمقالته الكريمة (نهج البلاغة أيضاً) في (الرسالة الهادية) تخبر أنه لم ير
الكتابين. وإذا تلا قولهما، ولم يقنعاه، فإني أهنيه بإيمانه.
محمد إسعاف النشاشيبي
اقتراح
كنت نشرت في (الرسالة) مقالاً به فصلاً واحداً من كتاب (الإمتاع والمؤانسة) الذي
أخرجته لجنة التأليف والترجمة والنشر بتصحيح الأستاذين الفاضلين أحمد أمين وأحمد
الزين. وقد نبهت المصححين إلى سبع وعشرين غلطة أساسية في ذلك الفصل
الواحد. وبعد أسابيع كتب أديب أخفي اسمه مقالاً مطولاً في الرد عليّ، ولكنه لم
يستطيع أن يثبت أني أخطأت في كلمة واحدة مما نبهت إليه، ومع ذلك دار حول بعض
الألفاظ ليوهم للقراء أنه فند كلامي
وأقول: إنه لا خوف من أن ينخدع القراء بمحاولة ذلك الأديب، وإنما الخوف على ذلك
الأديب نفسه! فهل أستطيع أن أقترح على الأستاذ الزيات أن يدعوه لمقابلتي ومعه
الكتاب لأهديه إلى ما خفي عليه من عبارات التوحيدي. . .
إن كان طالب علم فليحضر (مع المختلفة) للاستفادة، وإلا فليعرف أن وقتي يضيق عن
محاورة من كان في مثل حاله من الجهل بأساليب القدماء.
زكي مبارك
الكهربائية تعتاد
مما استوقف نظر بعض الأدباء في شيء من الإنكار ما جاء به في كتاب (آفاق العلم
الحديث) من مبحث الأستاذين هل وكرم عن الأفعال العكسية الأصيلة والمتحولة
وأساسها في عالم المادة، ذلك أنه قرر أنه إذا اقترن مؤثران في إحداث أثرين معاً،
وتكرر هذا الإحداث عدة مرات، فإن أحد المؤثرين منفرداً يمكنه أن يقوم بعمل الاثنين
معاً في إحداث الأثرين. وهذا التفسير المادّي أراد به إيضاح قاعدة بافلوف في الأفعال
العكسية المؤصلة والمتحولة. والتجربة التي أجراها في هذا الموضوع أنه أتى
بمصباحين كهربائيين أو جرسين متصلين، كلاهما ينير أو يدق بالضغط على زرين،
وبتكرار هذه العملية تمكن من
إيجاد شبه عادة في أن يجعل الكهربائية تسري في السلكين المتفرعين من الزرين،
وأن تنير المصباحين أو تجعل الجرسين يدقان. وتفاصيل هذه التجربة مذكورة بإيضاح
في كتاب (آفاق العلم الحديث)، وهي في الأصل مقال نشر بمجلة المقتطف لأعوام
خلت
ولست أعرف كيف يوجد في الشرق العربي أناس يزعمون أنهم متصلون بالثقافة
الأوربية الحديثة، وأن لهم دراية بآخر نتائج العلم التطبيقي في أوربا، ومع ذلك يجهلون
مثل هذه النتائج التجريبية التي انتهت إليها أوربا، ويعتبرونها من أضغاث أحلام الكتاب
الفرنجة؛ مع أن هذه المباحث ليست نظرية إنما هي وليدة التجربة والاختبار. ولا شك
أنه ليس للأفكار ولا للمنطلق أن ينازع في حقيقتها، ما دامت التجربة والاختبار. ولا
شك أنه ليس للأفكار ولا للمنطق أن ينازع في حقيقتها، ما دامت التجربة تثبتها؛ وهذا
الموقف يذكرني تماماً بتلك المحاولات الفاشلة التي كان يثيرها البعض أمام كل
اكتشاف علمي جديد
ولكم أرجو أن يتمكن أدباؤنا من الأسس العلمية التي تقوم عليها الفكرات الحديثة قبل

التعرض لها
(الإسكندرية)
إسماعيل ادهم
فهم معكوس في معنى بيت وإعرابه
من الخطأ ما يلتمس لصاحبه فيه العذر، وهو الخطأ الذي يكون عندما يستغلق الأمر، ويصعب فهم المراد من الكلام؛ أما الخطأ الذي لا يعذر فيه صاحبه فهو الذي يكون عند وضوح الرأي، وظهور المعنى غاية الظهور، ومن هذا الخطأ الأخير ما وقع فيه الأديب الفاضل محمد رجب البيومي، فقد فهم فهماً معكوساً ما كتبته في معنى بيت الأعشى وإعرابه:
ألم تفيض عيناك ليلة أرمدا ... وبتّ كما بات السَّليم مسّهدا
ومع هذا يبتدئ ما كتبه بهذه الجملة التي لا معنى لها: (للأستاذ عبد المتعال الصعيدي انتقادات ومباحث تصيب مرماها مرة وتخطئه أخرى) ولله الشكوى من مثل ذلك الفهم المعكوس وذلك الاشتباه الظاهر، وفي النفس ما فيها من هذا الزمان وأهله
لقد ذكرت أيها الأديب الفاضل أني أنا الذي أعرب (أرمدا) في بيت الأعشى فعلاً ماضياً مسنداً إلى ألف الاثنين العائدة على قوله عيناك، وعلى هذا تكون (ليلة) في البيت منصوبة على الظرفية، ولا تكون مفعولاً مطلقاً كما يقول الأستاذ أبو رجاء نقلاً عن حذاق النحاة
ولو أنك أيها الأديب الفاضل تأملت قليلاً في كلامي لوجدت أن الإعراب الذي نسبته إلي هو إعراب الأستاذ أبي رجاء، وليس هو إعرابي ولا إعراب حذاق النحاة، لأني أوافقهم على إعرابهم، والذي يخالفهم هو الأستاذ أبو رجاء
ولو أنك تأملت أيضاً قليلاً في كلامي لعلمت أن السبب في فساد إعراب ليلة على الظرفية وأرمدا فعلاً ماضياً هو أن الأعشى لم يكن في مقام الشكوى من رمد في عينيه. أما الذي ذكرته في فساد ذلك فخطؤه ظاهر أيضاً، لأنك ذكرت في فساده أنه لا يتأتى انطباق جفون العين وذوق حلاوة الكرى في وقت ألم السن من الرمد، فأما أن ذلك لا يتأتى في ذوق حلاوة الكرى فصحيح، وأما أنه لا يتأتى في انطباق جفون العين فهذا هو الخطأ الظاهر، لأن اغتماض العين من الرمد لا يمكن إنكاره، وهو الذي يمكن أن يراد في بيت الأعشى على الإعرابيين، ولكنه يكون صحيحاً جارياً على التشبيه في إعراب النحاة، ونابياً عن المقام في إعراب الأستاذ أبي رجاء. أما اغتماض العين في الكرى فبعيد عن البيت كل البعد، ولا يريده من يجري إعراب ليلة على الظرفية.
ونصيحتي بعد هذا إلى الأديب الفاضل ألا يهجم على الكتابة قبل التأمل، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته
عبد المتعال الصعيدي
مميزات بني أمية - محاضرة للأستاذ محمد كرد علي
هذه هي المحاضرة الثانية التي ألقاها الأستاذ العالم محمد كرد علي بك في دمشق. ولقد كنا نقدنا في (الرسالة) محاضرته الأولى (كتبنا وتآليفنا) التي ألقاها قبل شهور، وقلنا إنها محاضرة لا ترتيب فيها ولا استقصاء، وقال عنها الأستاذ الشيخ علي الطنطاوي إنها لا تزيد عما كتبه مؤلفو (الوسيط) للتلاميذ في كتابهم، فلنر هذه المحاضرة ونصيبها من التوفيق
موضوع المحاضرة (مميزات بني أمية) ألقاها الأستاذ في قاعة الجامعة السورية الكبرى
وسمعها ناس كثيرون، من تلاميذ وطلاب ومعلمين، وأساتذة، وموظفي وزارة المعارف، وبعض المتأدبين الناشئين من تلاميذ (أصمعي هذا العصر الشيخ مارسه) كما يقول الشيخ الطنطاوي. وكانت المحاضرة على عين من مدير المعارف العام معالي عبد اللطيف الشطي بك
بدأ الأستاذ ببحث لغوي عن كلمة (أمة) والنسبة إليها، وتصغيرها. ثم خطأ من يقول (أموي) بالفتح وصوب من قالها بالضم، ثم انتقل الأستاذ فأطرف السامعين بحديث عن أنساب أميّة، ملّه الناس منه، لأن الأنساب ليس مما يتحدث به إلى الناس في حفل عام. وذكر أنهم كانوا تجاراً، وبيّن شأن تجارتهم في تلك الأوقات وقال إنهم (أدخلوا مكة في دور مدني، وأن منهم عرفت قريش أرض العجم والروم. .)

وانتقل الأستاذ إلى أبي سفيان، فأفاض في ذكر أحواله في الجاهلية، وانتقل فجاءة إلى معاوية فذكر ما كان يقوله عمر إذا رآه. ثم عاد إلى أبي سفيان فذكر أن له الفضل بنقل الخط إلى الجزيرة، وانتقل بعد ذلك إلى عثمان بن عفان؛ فقال إنه جمع القرآن، ولولاه لكان القرآن اليوم ضائعاً. . . وأنه كان يكرم حرملة الشاعر النصراني. . وانتقل إلى خالد بن يزيد وذكر أنه أول من ترجم الكتب القبطية والسريانية إلى العربية. وتخطى الأستاذ الخلفاء، حتى أتى عمر بن عبد العزيز؛ فقال إنه أول من عنى بتدوين الحديث

ثم رجع القهقري وقال: (ولم يكن بنو أمية من النابغين لما استعملهم الرسول على الولايات. وقد انتقل رسول الله وأكثر العمال من بني أمية، وأنهم كانوا في الجاهلية أمراء، وكذلك كانوا في الإسلام)

وقفز الأستاذ إلى معاوية فقال وأفاض، وأبان عن علم، حتى حسبنا أن المحاضرة قد انقلبت إلى محاضرة عن معاوية لا عن بني أمية. فذكر تشبه معاوية بالروم (وهذه وكل ما سيأتي من مميزاته)، وما اقتبسه من الأمم المجاورة من الأبهة والعظمة، وما ألف من مجالس الوفود، وذكر استخدامه النصارى والعلوج في وظائف الدولة، وقال إن بني سرجون كانوا وزراء المال عنده، وإنه كان ذا عقل ناضج، واستدل على سعة عقله بخبر عبد الله بن قيس إذ لقي في (صقلية) أصناماً من الذهب فأخذها معاوية وأرسلها إلى الهند لتباع ويؤخذ ثمنها. وقال إن معاوية حسن حال الحكومة، واستطاع بدهائه أن يأخذ الخلافة من علي وهو

راض، ومن أبنائه وهم راضون. . . وأنه أول من وضع الحشم للملوك وأمر برفع الحراب بين أيديهم، ونظم الجيش، وأعطى الجند رواتب، ووضع البريد، وعلم الناس التجسس إذ عين صاحب الخبر (أي مأمور استخبارات)، وأوجد في مصر رجلاً كان يطوف على الناس كل ذي ليلة فينادي: (هل ولد فيكم ولد، هل ولدت فيكم جارية، فيقولون ولد لفلان كذا. . . فيكتب اسمه)

وقال الأستاذ إن معاوية كان يعتمد على العطاء ثم الإقناع والرضاء، فإن لم تفد هذه الأشياء عمد إلى القسر، وذكر إسرافه في الأموال ليسكت العلويين والهاشميين، واستخدامه الشعراء والقصاص للدعاية. . . الخ

ويترك الأستاذ معاوية ويأتي إلى عمر بن عبد العزيز فيذكر ورعه وتقواه، وعفته وصدقه. . .

ثم قال: ولقد كانت دولة الأمويين دولة عربية صرفة بكل مظاهرها و. . . (والحق أن هذا القول ينطبق على أيام معاوية!!؟) ثم ذكر مروان بن محمد الملقب بالحمار (ولم يذكر الأستاذ لقبه) وقال إنه كان على جانب عظيم من العقل، وانتقل إلى ذكر قصر الحير الذي بناه هشام في الشام (والذي كشف أخيراً خارج دمشق من جهة البادية، ووضع في متحف دمشق الأثري)

ويجعل الأستاذ من مميزات معاوية جعله الشام (جمعية أمم) فقد رحب بالناصري واليهود والسريان والروم والسود والبيض والحمر والصفر. . . إلى ما هناك من شعوب وأمم، ثم انتقل إلى ذكر ولاة بني أمية، فأشاد بمناقب الحجاج، وأكبر أفعال موسى ابن نصير وعظم غيرهما. . .

وقال الأستاذ: إن هواه كان وما يزال مع بني أمية، لأنهم ظهروا له بعد البحث والدراسة جديرين بهذا الهوى. وقد حاول الأستاذ أن يكذب ما نسب إلى بعضهم من الأخبار التي لا تشرف

وختم الأستاذ محاضرته بقصيدة شوقي في بني أمية. ولعل أحسن ما في المحاضرة هذه الأبيات التي ختم بها الأستاذ محاضرته فأحيت السامعين، وترنحوا منها طرباً ونشوة.

تلك هي المحاضرة لخصتها في هذه الأسطر، والقارئ رأى معنا هذا الاضطراب وهذا التفكك الذي فيها!. . . وما ندري، أأصبح عدم الترتيب والاضطراب في السرد من مميزات محاضرات الأستاذ في هذه الأيام؟ على أننا لا ننكر أن هذه الأخبار التي ذكرها الأستاذ تدل على معرفة واسعة وقراءة دائمة، وهذا ما عرف به الأستاذ. ونحن وإن كنا ننكر عدم الترتيب وذاك الاضطراب، وهنات نحوية بسيطة، فإننا نعجب بالأستاذ وبعلمه، وبتلك الأبيات التي ختم محاضرته بها.

(دمشق)
(ص. م)
توفيق الحكيم في نظر كاتب أوربي
كتب المستشرق المجري الأستاذ جرمانوس أستاذ التاريخ بجامعة بودابست فصلاً عن الأستاذ توفيق الحكيم في كتاب له ظهر بالألمانية حديثاً بعنوان: (الله أكبر) نلخصه فيما يلي:
يميل اليوم كثير من الكتاب المصريين إلى استخدام اللغة الشعبية والتعبير بها عن . . . كل ما يراد التعبير عنه. لكن الكتابة بهذه اللغة اعتبرت بدعة جريئة عن ما قام مفكر حر واستطاع بفضل ما أوتيه من موهبة أن ينفذ عقيدته الفنية. ونعني بهذا المفكر الحر توفيق الحكيم
درس توفيق وعاش في باريس. هناك تغيرت عقليته. وحينما عاد إلى القاهرة ليشغل منصباً رفيعاً في وزارة المعارف، نشر حوله ظلال أفكاره وثمرة تأملاته. أراد أن يكتب كما أحس وتكلم، ثم نقل كل شعوره وإحساسه الفكري إلى العربية مباشرة
اقتبس توفيق الحكيم موضوعاته من تقاليد الإسلام، ووفق لتمثيل خيالاته على أحسن صورة؛ لكن الشكل والأسلوب جديدان تماماً. وهو يصف أسطورة شهرزاد بأسلوب حواري أقرب ما يكون إلى البساطة والرمزية في الوقت نفسه. وهو يعرف - بأزميله الفني - كيف يصب أشخاصه في قوالب من لحم وعظم
وقد قال لي توفيق الحكيم في إحدى محادثاته: (ليس في وسعي أن أكتب إلا في جو الحرية). والواقع أنه بشخصيته المتواضعة، ورقته ودماثة أخلاقه، يمثل لنا الكاتب الشرقي
في أحسن صورة
ثم أردف قائلاً: (إنني أحس أن قلمي وكذلك فكري شبه محجور عليهما في الشرق. إن شعوري متوثب، وفكري متقد؛ ولكن يصعب علي تحديد هذا الفكر ورسمه على الورق باللغة التي أريدها، فإن الفكر والشعور يتجمدان تماماً. نحن لا نملك بعد لغة مرنة ولا نحيا حياة أدبية صحيحة. إننا نعرف من المعاني عظاماً قد تسرب السوس إليها من قرون. لأننا فقدنا شهيتنا لتذوق طعم اللحم الطازج. لهذا السبب أميل إلى الطبقات الشعبية لأنها لم تشبع بعد ولا تزال على فطرتها وسذاجتها. فلعل الشعب يفهمني)
صديقي العزيز توفيق! حقاً! اليوم لا يفهمك ويقدرك حق قدرك سوى بعض المستشرقين الذين في وسعهم مطالعة أعمالك وتفهمها على وجه صحيح، وكذلك فئة قليلة من المصريين المثقفين؛ ولكن صبراً ستتطور إفهام الجماهير، وستنمو لشعبك أسنان جديدة؛ ويومئذ يقبلون على التهام آثارك الأدبية الشعبية
ثم تكلم الكاتب بعد ذلك عن شهرزاد وأهل الكهف وعودة الروح وحياة محمد، ثم ختم مقاله بقوله: ومهما يكن من شيء فإن الذي أعتقده وأؤمن به أن توفيق الحكيم يستحق تعضيد العالم العربي، فيقدر جهوده الفكرية حق قدرها ويعني بتفهمها على وجهها الصحيح لييسر للشرق المضي في السير نحو مثله الأعلى.
الكتب
علي الطنطاوي وكتابه
في بلاد العرب
بقلم الأستاذ صلاح الدين المنجد
وهاهو ذا الطنطاوي يخرج كتابه الجديد بعد تردد، وهاهو ذا يلقى بنفسه بين أيدي . . . أهل النقد لينال ما يناله المؤلفون من نقد جارح وتقريظ ناعم، ومن تهجم لاذع ومداعبة لينة. . . ويرمي بكتابه إلى الناس ليقرءوه ويشرحوه، ثم ليطنبوا في مديحه أو يدركوا به ثأراً قديماً لهم، فينالوه بالتعريض. فلنشمر إذن مع هذا الناس ولننقد هذا الكتاب كما ينقد الطائر الأرض لينبش منها حبها وزوانها. ولنحدث الناس عن الطنطاوي الذي يخشى الناس غضبه، ويخافون على أنفسهم منه، ولنلق بأنفسنا بين يديه يتحدث عنا ما يشاء. فقلد تربصت طويلاً، وحاولت أن انقده كثيراً. ولكني كنت في كل مرة أغلب على أمري. أما وقد أخرج الآن كتابه، فلن أبطئ أبداً، فقد ألقى بنفسه بين يديّ، وأصبح كتابه بين عينيّ. وليت شعري أأمن صديقي على نفسه عندما أهدي إليّ كتابه

. . .!وسألني أن اكتب عنه ما أشاء
لقد سمرت يا صديقي مع كتابك طول هذه الليالي المظلمة التي فاجأنا بها هذا العام الوليد. وكنت أقرأ فيه فأسمع تلك النغمة الحزينة تارة والطروب أخرى التي كانت تتعالى من سطورك وكلماتك، فتهيج حسي كما أهاجته تلك النغمة التي كان يحدثها المطر وهو يقرع زجاج النافذة، ويتساقط على أوراق الليمون والبرتقال التي هزتها الريح المعولة وروعها السحاب الهتون. والحق إني استمعت إلى نغمتين حزينتين: نغمتك وأنت تصف مآسي هذا الوطن الباكي، ونغمة المطر وهي تحدث الأوراق الذابلة. ثم خرجت من الكتاب وأنا أسيان نشوان، طروب معجب. فاسمح لي يا صاحب الرسالة أن أتحدث عما رأيت وما سمعت
لقد قرأت قولك في مقدمة الكتاب إنك كنت في حرب مع الحياة فذكرت بلدك هذا، وكيف أنكرك، فلقد اعتادت الشام أن تعظم الجاهل الغريب، وتحطم النابغ القريب. فلما رأيت ما رأيت تركت دمشق تبتغي مصراً، فعشت بها أمداً اتخذت فيه من الأماكن والناس أصدقاء
لقلبك وأحبة لنفسك، وأنفقت أيامك فيها في دار العلوم طالباً وكلية الآداب مستمعاً، وفي (الفتح) و (الزهراء) كاتباً ومحرراً، وعند خالك محب الدين الخطيب سعيداً ومستفيداً. ثم بدا لك. . . وعاودك الحنين إلى وطنك، فعدت إليه فعينوك للصبيان معلماً، وقدمّوا الجاهلين عليك؛ فهزأت بهم وسخرت منهم، وخرجت من بلدك تبتغي العراق فعلمّت في ثانوياتها الأدب، ثم قصدت الحجاز وعبرت الصحراء، ثم عدت إلى بغداد، ثم رجعت إلى دمشق وإذا بهم يمكرون بك مرة أخرى
. . .ذلك لأنك من هذا البلد. . . وأن هذا البلد قد اعتاد وأد أبنائه
!عفواً يا بلدي الحبيب
فتلك شيمة أبنائك. . . يكرمون الغريب ولو كان جاهلاً، ويفتحون له صدورهم، ويوسعون له في دورهم، ويؤثرونه على أنفسهم. . . ويموتون هم من الجوع. . . فإذا تولى عنهم رماهم بكل قبيح، ولكنهم يصفحون عنه، ويسعون لاستقبال غريب آخر. . . .نعم، تلك شيمتك وشيمة أبنائك يا بلدي
ولقد أعجبني أنك ظهرت في كتابك أديباً حقاً، يهزك كل شيء، وتحن إلى كل شيء. . . والأديب الحق من إذا رأى شيئاً أثر فيه، فحرك نفسه، ودفعها إلى الكتابة. لقد طوفت في ربوع الشام. . . فحركت نفسك روائع دمشق، هذه الزهرة الناعمة التي نبتت على أطراف الصحراء، يسقيها بردى بدموعه، ويحرسها قاسيون الجليل بنفسه، والتي يسعى إليها الملوك ليتمتعوا بنظرة منها، ويستنشقوا عطرها. . . فوصفت ما رأيت وأبدعت. وقد أعرض قومك عن تلك الروائع ولم يحفلوا بها، ثم ذهبت إلى العراق، فرأيت وسمعت، وتذكرت الماضي المجيد يرقص على شطآن دجلة، ويرتع في جنبات بغداد، فقلت عنه ما قلت، ثم أوليت العروس حبك. . . فلما رأيت الإيوان هاج حسك، ثم زرت سر من رأى، فهاجت شجونك. . وأنت في كل مرة تكتب وتغني. ثم ذهبت إلى الحجاز - فذكرت محمداً سيد العالم - عليه صلوات الله وسلامه، ورأيت النور ينبثق من هاتيك النجود، فيغمر الدنيا. . . فذرفت دمعة على الماضي الفخم يواريه أبناؤه التراب ولا يحفظونه، ويستبدلون بالعز ذلاً، وبالحرية قيداً، وبالسيادة عبودية. ثم ذكرت العقيق وأيامه، وسمعت الشعر الطروب والغناء الراقص والحب الرفاف. . . فحننت ووصفت، ثم عدت إلى بيروت
فهمت على سيف هذا البحر الحبيب، وشردت في الجبال الخضر ووصفتها أيضاً، وأنت في كل مرة تذكر وتبكي، وفي كل مرة تحن وتطرب، وفي كل مرة تدع قطعة من قلبك هنا. . . وقطعة منه هناك. . .
!فقل لي ما بقي من قلبك يا صديقي
لقد نثرته هنا وهناك. . . (في بلاد العرب) فكيف تعيش بدون قلب؟ وكيف تحيا بدون فؤاد؟
وميزة أخرى أعجبتني. . . ذلك أنك لست أديباً فقط، ولكنك أديب إقليميٌّ. والأدب المحلي ينقصنا يا صاحبي. وكما أن بمصر أدباً محلياً، فيجب أن يكون مثله في شامنا وعراقنا وحجازنا، وأن تبدو في كل أدب مظاهر القوم وشعورهم وعواطفهم. ومجموع هذه الآداب كلها يؤلف الأدب العربي في القرن العشرين، كما ألف الأدب العربي من

قبل أدب الشام، وأدب العراق، وأدب الأندلس. ولو حاولنا أن نبحث عما أنتجته أدباء الشام في أيامنا، وما ظهر فيه أثر الشام جنة الله، ومهبط السحر، وينبوع الالهام، لوجدته قليلاً نادراً
أين من وصف سورية الجميلة الوادعة؟
وأين من كتب عن سورية أم الأبطال؟
. . .وأين من أشاد بذكر الوطن، فبكى آلامه، ومجد أفراحه، وحن إليه؟
أين الأدب الذي يبدو فيه غلظة نفوسنا عند الكريهة وصفاءها في الأمن والسلم؟
!. . .أين. . . أين
كل ذلك لن تجد منه إلا قسماً واحداً عند أدبائنا كلهم. . . أما أنت. . . فعندك كل شيء. فاهنأ فأنت (كاتب الوطن) .
ولست في كتابك أديباً دمشقيًّا، ولكنك أديب مسلم عربي إنك لم تنس العراق فأشدت بأيامه الخوالي، وبكيت بطله غازي ومجدت أباه فيصل؛ ثم ذكرت فلسطين فوصفت بؤسها وجمالها ورجالها وجبل نارها؛ ثم وصفت مصر وعظمتها، وكتبت عن الحجاز وماضيها وحاضرها. . .
!فيا أهل الشام
. . .إذا أردتم أن تسمعوا الأغاني التي قيلت في بلادكم
وتعلموا أن ربوعكم ربوع شعر وبشر وعطر فاقرءوا هذا الكتاب
!ويا أهل العراق
إذا أردتم أن تسمعوا أناشيد محب لبلدكم، عاشق لها، بكى مليكها، ومجد بطلها، وأشاد بماضيها، فاقرءوا هذا الكتاب
!ويا أهل مصر
إذا أردتم أن تعلموا شيئاً عن هذه البلاد العربية، وتروا ما فيها من جلال وجمال وما أصابها من ألم وأسى، وتسمعوا أقاصيص هذه البلاد التي تهفو قلوبها إليكم. . .
فاقرءوا كتاب الطنطاوي الشامي المسلم العربي: (في بلاد العرب)
(دمشق)
صلاح الدين المنجد
العدد 344 - بتاريخ: 05 - 02 - 1940
. . .الحياة جميلة
الحياة جميلة، وما يشوّه جمالها غير هذا الحيوان المسمى بالإنسان! لم يعش فيها كما تعيش سائر الأنواع على رسم الفطرة وهدى الطبيعة ووحي الله، وإنما عاش على قوانين من وضعه استمدها من أثرته وكبريائه وهواه فكان شرّاً على نفسه وحرباً على غيره
ربما اقتتل الوحش والوحش أو الطير والطير في سبيل القوت أو النسل؛ ولكنه اقتتال الساعة لا يسبقه تدبير ولا يصحبه حقد ولا تلحقه جريرة. أما الإنسان فهو وحده كدر السلام وقذى الحياة! أحيا لنفسه بفضل ذاكرته ماضياً يحفظ الثأر، وخلق لنفسه بفضل بصيرته مستقبلاً يحمل الخوف، فكان حاضره بينهما قتالاً مستحِراً لا ينقطع ولا يفتر، إما دركاً لثأر الأمس الذي يتذكره، وإما كسباً لقوت اليوم الذي يتبصره، وإما درءاً لخوف الغد يتصوره
الحياة جميلة، وأجمل منها الحي الذي يدرك هذا الجمال ويتذوقه ويستوعبه ويكتسيه. فالطائر أجمل من الروض لأنه عرف كيف ينقل ألوانه على ريشه، ويجمع ألحانه في صوته. والأسد أجمل من الغابة لأنه استطاع أن يجعل رهبتها حية في رهبته، وعظمتها ماثلة في عظمته. والجمل أجمل من الصحراء لأنه أندمج فيها فسير جبلها في هيكله. وصور رملها على أديمه. والحوت أجمل من البحر لأنه قطعة من الحياة صيغت من لين مائه وشدة موجه وسرعة تياره. وكأنما يدرك الطبيعة ويسايرها ويتأثر بها كل شيء من ناطق وصامت إلا هذا الإنسان، فقد خرج عن سنة الله في خلقه حتى اختصه بالأنبياء والرسل والمدارس والكتب! وهيهات أن يدخل النور عين الضرير، ويبلغ الصوت أذن الأصم!
الحياة جميلة؛ وليس جمالها قصراً على قوم دون قوم، ولا على طبقة دون طبقة. إنما الجمال وضاءة الفن الإلهي أشاعه الله في الأرض والسماء وهيأ المدارك للاستغراق

فيه والاستمتاع به. فمن كان ذا سمع وبصر وقلب وجده في كل منظر وأحسه في كل حالة. فهؤلاء الذين يمرون عليه وهم معرضون عنه قد فسدت فيهم طبيعة الحياة، وتلبدت فيهم ملكة الحس، فانقطع ما بينهم وبين الوجود الحق والوجدان الصحيح إن الجمال وسيلة الطبيعة لحفظ الحياة وبقاء النوع، تجمع به ما شت، وتؤلف به ما نفر. وهو بعد ذلك سرور النفس ونور القلب وسلام الروح؛ فمن تملاه في صوره الحسية والمعنوية في الكون كان له منه في كل زمان شباب وفي كل مكان ربيع الحياة جميلة، ومظهر الشعور بجمالها المرح والبهجة. فأينما تر الخمود والكآبة تر الشعور الذي أدركه الكلال أو أصداه القبح أو أفسده الشر، فيموت فيه الوعي، أو ينعكس فيه الجمال، أو ينقلب فيه الخير. فالجمال في الطبيعة لابد أن يجاوبه جمال في النفس؛ والصفاء في العيش لابد أن يعادله صفاء في القلب. ومن هنا استسر الجمال والصفو على ذوي الحس المظلم والضمير الخامد

كن جميلاً تر الجمال في كل شيء حتى في الدمامة. ومتى امتلأت قواك المدركة بمفاتنه ومباهجه حَلِي الوجود في صدرك، وساغ المر في فمك، وسعيت إلى مجالي الجمال في النيل والجزيرة والريف فشدوت مع الطير، وطرت مع الفراش، وسبحت مع السمك، واستطعت أن تطاول الأغنياء في العز وتشاهم في الغبطة، وتقول لهم: إن السعادة بالجمال أضعاف السعادة بالمال؛ والمال لكم فجدواه عليكم، ولكن الجمال لله فجدواه على الناس

الحياة جميلة، وأنت يا ابن الحياة وارث هذا الجمال. فلِم تزوي عنه وجهك وترسل عينيك بالحسد والحقد إلى المترفين الخافضين وهم يتلهون بالقنص، أو يتزحلقون على الجليد، أو يتمتعون بالسياحة؟ إن في القاهرة وضواحيها من الجمال المبذول والنعيم المشاع ما يكفكف ثورتك على الغني، ويلطف سخطك على الحياة. هذا هو النيل الجميل يجري بين ضفافه السحر، ويخطر على سواحله الفتون؛ فمن الذي يمنع جمهرة الشعب أن تداعب أمواجه بالمجاديف، وتشق عبابه بالزوارق، وتقيم على شاطئيه مهرجانات السباق ومسارح اللهو؟ إنك لتمر على النيل في أي ساعة شئت من النهار أو الليل فتحسبه من السكون المخيم على شاطئه ومائه يجري في مجاهل الأرض. ولولا أن عليه جسوراً لا مناص من عبورها إلى الشاطئ الغربي لما ذكره القاهريون إلا كما يذكرون المقطم!

إن حياة الكسل والرخاوة والخمود والانقباض التي نحياها ألقت من ظلالها الباردة على النيل والجزيرة، فجعلت النيل في ركود المستنقع، والحدائق في سكون المقبرة ولذلك ترى الناس يمشون على جنباته أو بين جناته مطرقين صامتين كأنهم في مجال التأمل أو في مقام العبرة!

الحياة جميلة، ولكن جمالها يقتضي أن يكون لنا زعماء اللهو يصححون إدراكنا للحياة، ويرهفون أذواقنا للجمال، ويهيئون قلوبنا للسرور، ويشغلون أوقات فراغنا بالمسابقات الرياضية، والمهرجانات الوطنية، والسباحات النهرية، والملاهي الفنية، والمواكب الشعبية. وليس أقدر على هذه الزعامة اليوم من وزارة الشؤون الاجتماعية، فإن هذا الذي ذكرنا داخل في منهاجها وعلاجها؛ وهو يشبه أن يكون غرضاً أصيلاً من أغراض وزيرها المجاهد المصلح، فإن سياسته في تقويم الشباب قائمة على تقوية رجولته وشجاعته بالعسكرية، وتربية خلقه وذوقه بالرياضة

قصة سامراء

للأستاذ أبي خلدون ساطع الحصري بك

قصة مدينة سامراء من أغرب وأمتع قصص المدن في التاريخ: (قطعة أرض قفراء) على ضفة مرتفعة من نهر دجلة (لا عمارة فيها ولا أنيس بها، إلا ديراً للنصارى) تتحول - في مثل لمح البصر - إلى مدينة كبيرة، لتكون عاصمة لدولة من أعظم الدول التي عرفها التاريخ، في دور من ألمع أدوار سؤددها. . . تنمو هذه المدينة الجديدة وتزدهر بسرعة هائلة، لم ير التاريخ مثلها في جميع القرون السالفة، ولم يذكر ما يماثلها بعض المماثلة، إلا في القرن الأخير - في بعض المدن التي نشأت تحت ظروف خاصة - في بعض الأقسام من العالم الجديد

غير أن هذا الازدهار العجيب لم يستمر مدة طويلة، لأن المدينة تفقد (صفة العاصمة) التي كانت (علة وجودها وعامل كيانها) قبل أن يمضي نصف قرن على نشأتها، فتأخذ

في الإقفار والإندراس بسرعة هائلة، لا تضاهيها سوى تلك السرعة الشاذة التي كان تم بها تأسسها وتوسعها
وبعد أن كان الناس يسمونها باسم (سر من رأى) أضحوا يسمونها باسم (ساء من رأى). . . وبعد أن كان الشعراء يتنافسون في مدح قصورها، أخذوا يسترسلون في رثاء أطلالها
فبعد أن قال ابن الجهم في وصف أحد قصورها:
بدائع لم ترها فارس، ... ولا الروم في طول أعمارها
صحون تسافر فيها العيون ... إذا ما تجلت لأبصارها
وقبة مَلك، كان النجو ... مَ تُفضي إليها بأسراها
يرثيها ابن المعتز، بقوله:
قد أقفرت سر من ري ... وما لشيء دوام
فالنقض يحمل منها ... كأنها آجام
ماتت كما مات فيل ... تسل منه العظام
وفي الواقع ماتت سامراء ميتة فجائية بعد عمر قصير لم يبلغ نصف القرن؛ وأمست رموساً وأطلالاً هائلة، تمتد اليوم أمام أنظار الزائر، وتتوالى تحت أقدام المسافر إلى أبعاد
شاسعة لا يقل امتدادها عن الخمسة والثلاثين من الكيلومترات.
عندما يتجول المرء بين هذه الأطلال المترامية الأطراف، ويتأمل في السرعة العظيمة التي امتاز بها تأسس مدينة سامراء وتوسعها من جهة، وإقفارها وإندراسها من جهة أخرى. . . لا يتمالك نفسه أن يسأل عن العوامل التي سيطرت على مقدرات هذه المدينة العظيمة، وصيرت قصة حياتها بهذا الشكل الغريب
إن العوامل السياسة التي لعبت دوراً هاماً في هذا المضمار، لم تكن كثيرة التعقيد؛ بل إنها تتجلى لنا بكل وضوح عندما تُلقي نظرة عامة على أهم الحوادث التي وقعت في عهود الخلفاء الثمانية الذين توالوا على أريكة الخلافة العباسية في سامراء
يجابه الخليفة المعتصم - وهو ابن هرون الرشيد - مشاكل عظيمة في إدارة البلاد، فيرى أن يتغلب عليها باستخدام جيش من الموالي والمماليك؛ فيكثر من شراء الغلمان - من بلاد المغرب والمشرق - وعلى الأخص من بلاد ما وراء النهر بغية تكوين جيش مطيع ينزل على إرادته على الدوام. غير أن تكاثر هذا الجيش الغريب في العاصمة القديمة - بغداد - المزدحمة بالسكان، يؤدي إلى حدوث بعض الوقائع بين العساكر والأهلين. فيقرر الخليفة إزاء هذه الحال إنشاء عاصمة جديدة - بعيدة عن القديمة - ينتقل إليها بعساكره وقواده ووزرائه وندمائه وكتابه وأتباعه، ويدعو الناس إليها، على أن يرتب كل شيء فيها على حسب ما يتراءى له (مفيداً) لتوطيد دعائم ملكه من جهة ولزيادة جلال عاصمته من جهة أخرى
يمضي الخليفة في تحقيق فكرته هذه بعزم قوي وفي خطة محكمة، فينتخب موقع سامراء، بعد التحري والبحث، ويؤسس عاصمته الجديدة هناك، على أساس القطائع المنظمة، فيجعل كل مجموعة من القطائع قائمة بنفسها، مستقلة عن غيرها بمساجدها وأسواقها وحماماتها
و (يفرد قطائع الأتراك عن قطائع الناس جميعاً، ويجعلهم منعزلين عنهم لا يختلطون بقوم من المولدين) ولو كانوا من التجار حتى أنه يفكر في أمر ذريتهم و (يشتري لهم الجواري، فيزوجهم منهن، ويمنعهم أن يتزوجوا ويصاهروا أحداً من المولدين، إلى أن ينشأ لهم الولد فيتزوج بعضهم من بعض)
لا شك في أن هذه الخطة كانت تنطوي على محاولة سياسية خطيرة، بل كانت بمثابة تجربة اجتماعية جزئية؛ كما لاشك في أن التدابير التي اتخذها المعتصم في سبيل تنفيذ هذه الخطة كانت دقيقة وحازمة. ومع هذا فإنها لم تأت بالفوائد التي كان يتوخاها منها، بل أفضت إلى نتائج معاكسة للأهداف التي كان قد رمى إليها معاكسة تامة. ونستطيع أن نقول: إن المعتصم كان قد حسب حساباً لكل شيء في هذا الباب غير شيء واحد، وهو التطور الذي يحدث في نفسية الجيش - بطبيعة الحال - عندما يتكون أفراده وقواده من الغرباء، ولو كانوا في الأصل من الأرقاء. . .
أراد المعتصم - بخطته هذه - أن يتخلص من مشاغبات الأهالي، غير أنه لم يدرك أن

هذه الخطة ستؤدي - عاجلاً أو آجلاً - إلى جعل الخلافة ألعوبة في أيدي الجنود الغرباء وقوادهم الطامعين

وهذا ما حدث فعلاً: فقبل أن تمضي عشرون سنة على وفاة الخليفة المعتصم الذي وضع هذه الخطة وشرع في تطبيقها، تفاقمت سيطرة القواد، ووصلت بهم الجرأة إلى قتل الخليفة المتوكل قتلاً فظيعاً، وبعد ذلك تتابعت الأحداث والاضطرابات وأفضت إلى قتل الخلفاء وخلعهم ثلاث مرات متواليات خلال عشر سنوات، إلى أن تولى الخلافة المعتمد. وبعد أن بذل بعض الجهود في سبيل توطيد دعائم ملكه في سامراء نفسها، رأى أن يقضي على هذه المحاولات كلها، فقرر أن يترك سامراء وأن يعيد كرسي الخلافة إلى بغداد بصورة نهائية

ولذلك نستطيع أن نقول إن الخطة السياسية التي وضعها المعتصم - والتجربة الاجتماعية التي قام بها تنفيذاً لهذه الخطة - انتهت بفشل تام. . .

غير أن قصة هذه المدينة العجيبة، إذا انتهت من الوجهة السياسية بفشل أليم. . . فإنها تكللت - من الوجهة العمرانية - بنجاح كبير يسجله تاريخ الفن والعمران بمداد الإجلال والإكبار. . .

إن إقدام الخليفة المعتصم على تأسيس عاصمته الجديدة كان في عنفوان الخلافة العباسية وعظمتها؛ فكان من الطبيعي أن تتمثل في هذه العاصمة تلك القوة والعظمة أحسن تمثيل. . .

إن الأراضي التي اختارها المعتصم لتشييد المدينة الجديدة، كانت منبسطة واسعة، ولم يكن فيها من المباني القديمة ما يعرقل خطط المباني الجديدة، ولا من التلول والوديان ما يحدد

ساحات البناء؛ فاستطاع الخليفة أن يجعل القطائع كبيرة فسيحة، والطرق عريضة طويلة. . . وسيستطيع أخلافه أن يوالوا عمله هذا، ويمددوا الشوارع ويوسعوا المدينة. . .

إن المملكة التي كان يحكمها الخليفة المعتصم كانت غنية وكثيرة الموارد جداً. فكان في استطاعته أن ينفق أموالاً طائلة لتشييد القصور والمساجد، وسائر المرافق العامة، كما يكون في استطاعة أبنائه أيضاً أن يستمروا على الإنفاق في هذه السبيل بدون حساب

إن المملكة التي تبوأ كرسيها المعتصم كانت فسيحة الأرجاء مترامية الأطراف، فكان في إمكانه أن يجلب أمهر الفعلة والبنائين وأشهر المهندسين والفنانين، من جميع أقطار ملكه العظيم. وفي استطاعته أن يضع تحت تصرف هؤلاء كل ما يطلبونه من مواد الزخرفة والبناء ولو كانت مما يجب جلبها من بلاد بعيدة. . .

إن اجتماع كل هذه العوامل الفعالة بهذه الوجوه المساعدة، سيفسح أمام المهندسين والفنانين مجالاً واسعاً للعمل والإبداع، وسيتحف العاصمة الجديدة بأوسع القصور وأجملها، وأعظم المساجد وأبدعها. . .

وكان من الطبيعي ألا تقف هذه الحركة الإنشائية عند حد القصور والمساجد وحدها. . . بل تتعداها إلى الدور والشوارع والبساتين أيضاً. لأن المعتصم لم يقصد - بعمله هذا - إيجاد (مقر خلافة) و (معسكر جيش) فحسب، بل كان يقصد - فوق ذلك - إيجاد (عاصمة مملكة) بكل معنى الكلمة. إنه أراد إنشاء عاصمة جديدة، تنافس بغداد في السعة والنفوس والعمران. فكان من الحتم عليه أن يستقدم جماعات كبيرة من الناس ومن أصحاب المهن - على اختلاف أنواعهم وأصنافهم -، وأن يقطعهم الأراضي، ويجزل لهم العطايا، ويحثهم على البناء. وكان من الطبيعي أن تتولد من جراء ذلك حركة إنشائية واسعة النطاق شديدة النشاط. . .

غير أن من البديهي أن بناء الحوانيت والدور لا يمكن أن يحاكي بناء المساجد والقصور. فإذا كان في استطاعة الخلفاء وفي مكنة الأمراء أن يزودوا المعماريين والفنانين بكل ما يطلبونه من النفقات، فلم يكن في إمكان الناس أن يقتدوا بهم في هذا المضمار. . . وإذا جاز لمعماري المساجد والقصور أن يبنوا ما يبنونه بأجود المواد الإنشائية - ولو كانت كثيرة الكلفة - وأن يزينوه بأجمل المواد الزخرفية - ولو كانت باهظة الثمن - فلم يكن

معقولاً لبنائي الدور أن يطمعوا في شيء من ذلك، بوجه من الوجوه. بل كان عليهم أن يتسابقوا في إيجاد الطرق والأساليب التي تضمن البناء بأقل ما يمكن من النفقة وأعظم ما يمكن من السرعة، دون أن يبتعدوا عن مقتضيات الطرافة والجمال. . . كان يتحتم عليهم أن يستعملوا المواد المبذولة في محيطهم، ويظهروا قوة ابتكارهم في كيفية استفادتهم من خواص تلك المواد في الزخرفة والبناء. . . ومن حين حظهم أن الطبيعة في سامراء كانت مساعدة على كل ذلك مساعدة كبيرة

لأن موقع المدينة يرتفع عن الضفة الأخرى بعض الأرتفاع، والطبقة الترابية فيه تكوّن قشرة قليلة الثخن تستر طبقة صخرية؛ فالأرض لا تتعرض لخطر الغرق حتى في أشد حالات الفيضان، كما تبقى مصونة من الرطوبة على الدوام. وهناك مناطق طينية واسعة تساعد على صنع اللبِن الجيد. وهنالك أتربة كلسية كثيرة تصلح لتحضير الجص القوي. . . ففي استطاعة البناءين أن يستفيدوا من هذه الوجوه المساعدة؛ فإنهم يستطيعون أن يبنوا المباني الكبيرة باللبِن دون أن يخشوا تأثير الرطوبة والمياه فيها؛ كما أنهم يستطيعون أن يضمنوا متانة تلك الأبنية باستعمال الجص مِلاطا لاحماً بين قِطع اللبن وأسوافها، وبعقد الطوق بالآجر أو بطابوقات مصنوعة من الجص. . وأخيراً يستطيعون أن يستروا رداءة مادة البناء بطلاء الجدران بالجص، كما يستطيعون أن يزخرفوا هذا الطلاء بالتلوين أو بالنقش والحفر

إن هذه الزخرفة يمكن أن تعمل خلال البناء كما يمكن أن تعمل بعد إتمامه؛ والقشرة الجصية التي تتكون عليها هذه الزخارف يمكن أن ترفع بسهولة، كما يمكن أن تعوض بقشرة جديدة تزخرف بأشكال تختلف عن الأشكال السابقة. . .

إن الزخرفة على هذه الطريقة تكون رخيصة، ولذلك تعمم بسهولة. فكل واحد من أصحاب الدور يستطيع أن يزخرف بعض غرفه بمقدار ما تسمح له موارده، كما يستطيع أن يعمم الزخرفة في الغرف الأخرى متى صلحت أحواله المالية، أو يستبدل بها غيرها متى ملّها وأراد الأبدع والأكمل منها. . .

ولهذه الأسباب كلها سيكون أمام الفنانين مجال واسع للعمل في هذا المضمار. . . إذ هناك عشرات الألوف من الدور يطلب أصحابها الزخرفة لمئات الألوف من غرفها. ومن الطبيعي أن هذا الطلب الشديد المستمر سيؤدي إلى تنشئة جماعة كبيرة من الفنانين الماهرين في الزخرفة، وسيحملهم على التسابق في طريق التفنن والإبداع على الدوام

ولهذا كان من الطبيعي أن تزدهر في سامراء صنعة الزخرفة الجصية ازدهاراً كبيراً؛ وتولد طرازاً خاصّاً مع أشكال لا تعدُّ ولا تحصى، فيرتبط اسم سامراء - في تاريخ الفن - بهذا الطراز الخاص من الزخرفة. . . وتمتاز هذه المدينة، بجانب عظمة قصورها العديدة، وفخامة مساجدها الفسيحة، وامتداد شوارعها العظيمة، ونضارة بساتينها الجميلة - بزخارف دورها الكثيرة

كما كان من الطبيعي ألا يبقى هذا الطراز من الزخرفة محصوراً بسامراء وحدها، بل ينتقل - بواسطة قواد المعتصم وأخلافه - إلى القاهرة أيضاً، ويخلف هناك آثاراً باهرة في جامع ابن طولون من جهة، وفي المنازل المبنية في العهد الطولوني من جهة أخرى

لقد مضى على قصة هذه المدينة العجيبة أكثر من عشرة قرون. . . وأما الآثار والأطلال الباقية منها إلى الآن، فتضيف ذيلاً جديداً إلى غرابة مقدراتها المتسلسلة. إذ من الغريب أن آثار دورها المبنية من اللبِن والمزخرفة بالجبسين، قاومت حدثان الدهر، أكثر من قصورها المبنية بالآجر والمزخرفة بالرخام. . . والسبب في ذلك أن القصور تعرضت لتخريب الناس الذين اعتبروها بمثابة محاجر غنية بالمواد الإنشائية الصالحة للاستعمال، في حين أن الدور سلمت من تخريب الناس، ولم تتعرض لتدمير أيد غير أيدي الطبيعة والزمان. . . ويظهر أن أيدي الإنسان قادرة على التخريب - بوجه عام - أكثر من أيدي الزمان!

أبو خلدون

ويسألونك عن القاهرة

قل القاهرة بغداد الأمس وباريس اليوم

للدكتور زي مبارك

أكتب هذه الرسالة وقد هربت من ضجيج القاهرة في مساء العيد. وهل في شوارع القاهرة في مثل هذا المساء موضع قدم لمن يريد أن يزوِّد قلبه وعينيه بما في أعياد القاهرة من مواكب السحر وملاعب الفتون؟

هي دنيا من الغرائب والأعاجيب تسعد بها قلوب، وتشقى بها قلوب. وهل يعرف حلاوة السعادة أو مرارة الشقاء غير قلب تنطوي عليه أحشاء القاهرة في يوم عيد؟

يقال في كل أرض: إن النكتة المصرية هي أبرع ما عرف الناس من صور الذكاء. وهذا حق. . .

ولكن هل فكر أحد في أسباب هذه الخصوصية؟

إن النكتة هي النافذة التي نشرف منها على مروج الطرب والابتسام. ولو خلت حياتنا من النكتة لقتلنا الغيظ على الأيام الجوائر التي لا يلتئم بها شمل ولا يعتدل ميزان

ولعل المقادير لوَّنت القاهرة هذا التلوين العجيب لتَطِبْ لقلوبنا الدامية، القلوب التي مزقها الهيام بالحب والمجد فلم تعرف معنى القرار في صباح أو مساء

قلت لقلبي: أيكون فرارك من ملاعب القاهرة في مساء العيد دليلاً على أنك تُشْبه الطفل الذي يزهد في اللعب؟

فقال: وما حكم الطفل الذي يزهد في اللعب؟

فقلت: ينزعج عليه الأهل، ويستقدمون له الطبيب، لأن الطفل لا يزهد في اللعب إلا وهو عليل

فقال: وأين أهل القلب العليل لينزعجوا عليه ويستقدموا له الطبيب. . .؟ وعندئذ عرفت أن قلبي يعيش في الدنيا بلا أهل!

هنا القاهرة!

نعم، هنا القاهرة. ولكن أين تقع القاهرة مما يريد القلب المفطور؟ أين وهي أصل العلة التي ردّت الفؤاد وهو صديع؟

كانت القاهرة في ماضيها مدينة محدودة النطاق. وكان لها أسوار وأبواب. وكان حراسها يطوفون أرجاءها في ساعة أو ساعتين ثم يصعد رئيسهم فوق منارة ويصيح: (ناموا، أيها المسلمون، فأنتم في أمان)

فأين نحن من ذلك الأمان وقد جَدَّت في دنيانا معاطب غير عدوان اللصوص على المتاجر والبيوت؟

يستطيع كل قاهريّ أن يطمئن إلى أن منزله أو متْجره في أمان من سطوات الليل؛ ولكن أين الأمان من عدوان الشياطين، شياطين الغرائز والنحائز والطباع؟

من يضمن لك الأمان في مدينة القاهرة وهي اليوم مَسْبَعَة عقلية تصطرع فيها المذاهب والآراء، ولا يغمض فيها جفن إلا وهو مروَّع بقلب ساهر لا يعرف السكون إلا يوم تمن عليه المقادير بالموت؟

من يضمن لك الأمان في مدينة مثل القاهرة وأنت من نفسك في حرب، ومن الزمان في قتال، ومن الزملاء في نضال؟

يجب أن تعرف أنك في دنيا جديدة لا يَسلَم من خطوبها وصروفها غير من أمدته المقادير بالصبر عما في القاهرة من اصطراع العواطف واصطخاب الأهواء

فهل أنت من الصابرين؟ وكيف تصبر عن القاهرة، وهي قاهرة وفي دمك وروحك أقباسٌ من سعيرها العَصُوف؟

ألم تسمع ما وقع يوم أقيمت مباراة الأناشيد العسكرية؟

تلقت اللجنة خمسمائة نشيد ولم تختر غير خمسة أناشيد. فقال القائلون: هذا شاهد جديد على أن دولة الشعر يكثر فيها الأدعياء!

وكان ذلك لأننا نعيش في القاهرة مدينة الأناقة والفخامة والزخرف والبريق، وفي مثل القاهرة تُقهر العواطف وتُظلَم القلوب. وإلا فكيف جاز أن ينسى المحكّمون ما في تلك الثروة الشعرية أو النظمية من الدلالة على حرارة الأفئدة وشهامة العقول؟

خمسمائة نشيد؟ معنى ذلك، أيها الناس، أن القاهرة فيها خمسمائة قلب، وذلك مغنمٌ عظيم. ولكن أين من يقيم الميزان لحَيَوات القلوب وهي لا تُوزن ولا تقاس ولا تكال؟

وهل يَشقى في المدائن العظيمة غير أصحاب القلوب؟

هنا القاهرة!
نعم، هنا القاهرة، ولكن أين مكان الأديب في المدينة التي أصبحت عاصمة الشرق؟
أين مكان الأديب في القاهرة وبفضل قلم الأديب صارت القاهرة عاصمة الشرق؟ وهل خُلِّدت ليلى إلا بفضل أشعار قيس؟
أين مكان الأديب في القاهرة، ومن دم قلبه خُطَّ تاريخها الحديث؟ بل أين من تسمح له القاهرة بأن يقول إنه في هواها مجنون؟
إني وإياها كمفتتنٍ ... بالنار تحرقه ويعبدها
هنا - في القاهرة - زاد العقول والقلوب والعواطف والأحاسيس، فأين مكان الأديب يا قاهرة ليؤدي ما أداه عشاق بغداد في القديم وعشاق باريس في الحديث؟
زرت حديقة الأزبكية في صباح اليوم وهو يوم عيد فلم أر فيها غير شراذم من غلف القلوب، فأين الأديب الذي يُشعر الدنيا بأن في القاهرة حديقة اسمها حديقة الأزبكية؟
وكيف جاز أن تخلو هذه الحديقة في يوم العيد من مواكب الحُسن الوضاح، والجمال الفضاح؟ ومتى نعيش إذا ألهانا جِدُّ القاهرة عن مداعبة الملاح في يوم العيد؟
متى نعيش إذا استطاعت مُحرِجات الحياة أن تقهرنا على التفكير في منافعنا الدنيوية في المواسم والأعياد؟ وهل عُمرنا عمر نوح حتى نصبر عن مواسم الأفئدة إلى أجل قريب أو بعيد؟
هي أيام نقضيها مشدودين بسلاسل وأغلال إلى (قطار المفاجآت) في هذه الحياة.
فمتى نلتفت إلى ما أنبت الغيث في صحراء الحياة من أزهار ورياحين؟
سيندم قومٌ على ما ضيّعوا من مواسم القلوب في القاهرة. وسأذكر بعد فوات الوقت أنني جنيت على شبابي حين أضعته بين سواد المداد وبياض القرطاس في زمن لا ينفع فيه غير الاتجار بالتراب. فهل أخرج من داري إلى معاقرة الحياة بالقاهرة في هذا المساء؟ وكيف ولي شواغل تحرمني الحرية في مساء العيد؟
وهل يستطيع قاهريّ أن يُمضي يوماً واحداً بلا كفاح وهو يعيش في مدينة مقدودة من صخور الصبر على مصاولة الحياة
إن هذه المدينة التي تفتنكم لم تُخلق في يوم وليلة، وإنما هي عُصارة العزائم الشداد في
الأجيال الطوال. فمن أقام في القاهرة وله عقل وذوق فليحاسب نفسه على اللمحات واللحظات ليؤدي الزكاة عن قلبه وعقله وذوقه إن كان من الموفّقين، وإلا فهو نفاية ملفوظة في المدينة (القاهرة) التي تنكر خمود الغرائز وجمود الأحاسيس
هنا القاهرة!
أي، والله، هنا القاهرة. وما أسعد من يرى القاهرة أول مرة!
لقد فتنت هذه (القاهرة) من زاروها في هذه الأيام للاشتراك في المؤتمر الطبي العربي، وحمدوا الله على أن جعل للعروبة مدينة مثل القاهرة تتكلم اللغة العربية. فإن لم تكن القاهرة أعظم مدينة في العالم كله فهي بالتأكيد أعظم مدينة في الشرق بفضل ما جمعت من الخصائص الذاتية التي تحكم لها بالفضل على جميع مدن الشرق، وليس ذلك بالقليل
ولكن أين من يعرف أننا بسبب هذه العظمة أشقياء؟
أين من يعرف أن القاهرة لا تعظُم من يوم إلى يوم إلا لتزيد أعبائنا في الحياة؟ وإلى المنصفين من إخواننا في الشرق أقدّم الظاهرة الآتية ليعرفوا في أي جحيم يعيش القاهريون
في كل بلد من بلاد الشرق يستطيع الرجل الوسط أن يعيش لأن الدنيا في بلاد الشرق لا تزال تتسع للأوساط من الرجال
أما مصر - ويرحم الله أهل مصر! - فليس فيها للرجل الوسط مكان
العالم الوسط لا يستطيع العيش
والأديب الوسط لا يجد الرزق
والمغني الوسط يضيع
والطبيب الوسط لا يجد ثمن الدواء حين يمرض
والصحفي الوسط لا يملك الوصول إلى خبر صغير
والمثل الوسط قد لا يجد الفرصة لشهود رواية صغيرة، فضلاً عن القدرة على

الاشتراك في التمثيل
القاهرة تقول في كل وقت: كن قاهريّاً
وهل يستطيع كل مصري أن يكون قاهريّاً؟
أليست القاهرة هي التي فرضت الخمول على مئات من الشعراء لأنهم لم يكونوا في عبقرية شوقي وحافظ وصبري ومطران؟
أليست القاهرة هي التي فرضت الخمول على مئات من الكتاب لأنهم لم يكونوا في عظمة محمد عبده وعلي يوسف وعبد العزيز جاويش ومصطفى المنفلوطي ومحمد المويلحي؟
ومن كتّاب اليوم وشعراء اليوم؟
عندنا مئات من الكتاب والشعراء، ولكنهم سيموتون بغصة الحسرة على أن نشئوا في القاهرة لهذا العهد، عهد الزحام العنيف الذي لا يسلم من كربه غير الفحول الصوّالين لقد قيل إن الرحمة فوق العدل. فأين نحن من الرحمة وأين نحن من العدل؟ أين من يرحم الأديب الوسط أو يعدل في الحكم على الأديب الوسط فيقضي بأن من حقه أن يعيش لأنه قد يكون أقدر من بعض الذين خلّدهم أبو الفرج الأصفهاني؟
وأين الراحم أو العادل الذي يقول بأن في شعراء اليوم، الشعراء الذين أخملتهم القاهرة، من يفوق عشرات من شعراء (اليتيمة) و (الذخيرة) و (قلائد العقيان)؟
القاهرة لا تتسع أبداً لغير الأفذاذ الذين يغلبون الزمان
وهنا جواب السؤال الذي يوجَّه إليّ في كل يوم:
(كيف يتسع وقتك لكل ما يَصدُر عن قلمك من الدراسات الأدبية والفلسفية؟)
وهل عندي وقت وأنا موظف مسئول أمام الواجب؟
إنما أنا قاهريٌ يحبس نفسه في البيت يوم العيد ليحفر بسنان القلم ثقباً يتطلع منه على ضوء العظمة القاهرية عساه يُقنع القاهرة بأنه رجل مجاهد يستحق أن يعيش فإن رأيتم قاهرياً يصنع مثل الذي أصنع فاعرفوا أنه رجل مكدود يحاول الظفر بكلمة ثناء من المدينة العاتية التي حكمت بألا يعيش فيها غير من يقدرون على أمواج المحيط في غضبة العواصف الهُوج، ودهرُنا كله عواصف هُوج يتفزّع من هولها المحيط لا تصدقوا أبداً أننا نسعى في سبيل المجد، فذلك مَطلبٌ لا يخطر لنا في بال، وإنما نسعى للخلاص من شماتة الشامتين وسفاهة الكائدين
آه ثم آه!!
لو كان الماضي ينفع لجاز لرجل مثلي أن يعتمد على ماضيه في خدمة الحياة الأدبية والفلسفية، ولكن القاهرة تعبس في وجه الرجل الذي يعتمد على ماضيه، لأن ذاكرتها تضيق عن مراجعة الأسماء، أسماء المجاهدين الذين عطروا باسمها أرجاء الشرق. هي حسناء لعوب لا تعرف غير العاشق المزوَّد بأطايب الثروة والعافية. فيا ربّ كيف أكون في وطني يوم يتعب قلمي فأنصرف عن الخلوة إليه في يوم عيد؟ حتى يوم العيد نقضيه في نضال؟
في مثل هذا العيد من سنة 1932 كذبت على أبي مرة، ولم أكذب عليه غير تلك المرة. كتبت إليه أقول إني سأقضي أيام العيد في الإسكندرية فلا ينزعج أهلي إن حرمتني هذه النزهة من الأنس بهم يوم العيد في سنتريس
فهل قضيت تلك الأيام في الإسكندرية؟
لم تكن إلا حيلة لأحبس نفسي أيام العيد في البيت لأكتب فصلاً من فصول (النثر الفني) وهو الفصل الخاص بتطور السجع في اللغة العربية
وهل يصنع بنفسه هذا الصنيع إلى قاهري تقهره القاهرة على النضال المميت ليجد مجالاً في المدينة التي تصطرع فيها أقلام المازني والعقاد والزيات والبشري وهيكل وطه حسين، ومن إليهم من الباحثين الذين سيموتون قبل الأوان بفضل الكفاح الموصول؟
القاهرة لا تعرف الرجل الوسط، فافهموا هذه الحقيقة يا أبناء هذا الزمان، وإلا فهناك (سلّة المهملات) تنتظر الألوف ممن يراسلون الجرائد والمجلات؟
يمنّ علينا من يحمله التلطف على القول بأن القاهرة عاصمة الشرق. فهل تعرف القاهرة أن أقلامنا هي التي صاغت لها تلك العقود من الثناء؟ وكيف وعندها (سفح المقطم) الذي وسع الألوف من أجسام العبقريين؟

زرت سفح المقطم منذ أعوام لأستوحي روح ابن الفارض قبل أن أشرع في كتابة الفصل الخاص به في كتاب التصوف الإسلامي، فراعني أن أعرف أن تلك الناحية هي أنفع مكان في القاهرة من الوجهة الصحية. وكذلك أيقنت أن القاهرة تدخر أجمل بقاعها للأموات. وما أحسبها تصنع ذلك وفاءً، وإنما أخشى أن تكون أرادت التنبيه إلى أن عظمة الرجل في مصر لا تكون إلا بعد الموت!

يرحمك الله أيها القلب الذي يشغله الكفاح عن ملاهي العيد!

الآن، وقد انتصف الليل أو كاد، أفكر في مصيري بين قومي

أفكر في الشباب المضيَّع بلا لهو ولا فُتون!

وهل كنت أول من ندم على الشباب المحروم!

ولكن، هل أملك غير الذي صنعت وغير الذي سأصنع؟

فيا أيها الوطن الغالي، تذكَّر ثم تذكر. تذكر أنني كنت ولا أزال مجنون ليلاك! فإن رأيتني صدفتُ عن أفراحك في يوم عيد، فاعرف أن ذلك لم يقع عن جهل أو عقوق، وإنما هي إرادتك العالية التي قضت بأن يعيش أبناؤك وهم دائماً في حومة قتال!

وما أدعوك، أيها الوطن، إلى التصدق عليَّ بنظرة عطف، فأنا لا أقبل الصدقات، وإنما أدعوك إلى مقابلة الجميل بالجميل، فإن رفق الآباء يزيد في بِر الأبناء!

وطني! لقد شقيتُ بعظمتك، ومن أجل هذا أحبك وأستعذب الصاب والعلقم في هواك!

وطني! إليك أسلمتُ قلبي وعقلي، فخذ بزمامي إلى حيث تشاء، يا أنضر دوحة تغنّت فوقها البلابل، ويا أجمل روضة رنَّت فيها القبُلات، ويا أطهر بقعة أقيمت فيها المحاريب، ويا أشرف صحيفة أرهفت آذانها الواعية لصرير القلم البليغ.

زكي مبارك

الفروق السيكولوجية بين الأفراد

للأستاذ عبد العزيز عبد المجيد

الفروق العقلية

ما هو الذكاء؟. . . سؤال طبيعي ومعقول بعد هذه المقالات المتعددة التي شغلت الوفير من صفحات الرسالة. ولعلي لا أستطيع أن أجيب عن هذا السؤال بأكثر مما يجيب القارئ عن هذه الأسئلة: ما هو الزمن؟ وما هي الكهرباء؟ وما هو الثقل؟ والحقيقة أننا حين نقيس الذكاء لا نقيسه مباشرة، لأننا لم نصل بعدُ إلى معرفة طبيعته ومكوناته، وإنما نقيس مظاهره في الحياة والتصرفات والأفعال الذكاوية للإنسان. والمفروض علميّاً أن كل إنسان عنده قدر من الذكاء قل أو كثر، بل إن الرأي الحديث في علم النفس هو أن بعض الحيوان الأعلى كالشمبانزي والغوريلا والكلب على نصيب من الذكاء يظهر في تصرفاته

ولقد حاول علماء النفس منذ أن وضعت أول مقاييس للذكاء أن يحدوه، ولكنهم ما وصلوا إلى رأي متفق عليه. وفي سنة 1921 نشرت مجلة علم النفس التربوية الأمريكية آراء لأربعة عشر عالماً نفسيَّاً كلٌّ يحاول أن يعرف الذكاء. وكان تعريف ترمان صاحب المقاييس المشهورة بأنه (القدرة على التفكير المعنوي المجرد) وعرفه كلفن بأنه (القدرة على التعلم)، وعرفه بكنجهام بأنه (القدرة على العمل والتصرف تصرفاً إنتاجياً تحت ظروف معينة). ومهما يكن من أجوبتهم فإنها تدل على أنهم لم يتفقوا على تعريف الذكاء الذي أنفقوا السنوات الطويلة في بحثه ووضع مقاييس له وفي سنة 1924 صدر تقرير من وزارة التربية البريطانية وضعته لجنة اشترك معها قادة رجال التربية وعلماء النفس الإنجليز للبحث في قوى الذكاء المختلفة، والاختبارات السيكولوجية المناسبة لها. ويشير هذا التقرير إلى أن هناك ثلاث نظريات شائعة حول تعريف الذكاء

النظرية الأولى هي نظرية من يعتبره نتيجة وأثراً لبضع ملكات أو وظائف عقلية عامة. وتعزى هذه النظرية لألفريد بينيه السيكولوجي الفرنسي. وهو يقول في بعض مقالاته عن مقاييس الذكاء: إنه يقيس بها ملكة الإرادة، وملكة الانتباه، وملكة الحافظة، وملكة التعقل. ثم

هو بعد ذلك يتحدث عن الذكاء في مقالة أخرى فيقول: (إن للذكاء ملكة أساسية أصلية، تلك هي ملكة الحكم على الأشياء، وإن شئت فسمها الحاسة العملية. وهي الملكة التي بها يكيف المرء نفسه للظروف المختلفة. . .) ثم هو ينشر مقالاً في مجلة

(العام السيكولوجي) في سنة 1909 بعنوان (ذكاء ضعاف العقول) يرى فيه أن الذكاء العام هو صفة عقلية ذات ثلاثة وجوه على الأقل: (1) إدراك المعضلات والمسائل والاتجاه العقلي المناسب لحلها وتنفيذها (2) القدرة على التكيف المناسب الضروري للوصول إلى غاية معينة (3) القوة التي بها يستطيع أن ينقد المرء نفسه والنظرية الثانية هي نظرية من يرى أن الذكاء إنما هو لفظ يطلق على مجموعة من القدرات العقلية الخاصة المستقلة. وهذه القدرات موروثة ويرتبط بعضها ببعض بنسب مختلفة. وصاحب هذه النظرية هو البروفيسور إدوارد لي تورندايك. وهو يرى أن الطفل إذا كانت قدرته العقلية الموروثة على فهم مسائل الحساب ممتازة وظاهرة فإن ذلك يرجح أن قدرته العقلية الموروثة على فهم موضوعات الجغرافيا فوق المتوسط. ويقول: إن الفرد الذي له قدرة عقلية ممتازة في نوع من الأعمال لترجح هذه القوة فيه أن القوى العقلية الأخرى فوق المتوسط). ويعود فيقرر أن هناك ثلاثة أنواع من القدرات الذكاوية الخاصة والموروثة، وهي الذكاء الذي يظهر في فهم معاني الكلمات والأفكار المعنوية المجردة والذكاء الحركي أو المهارة العملية في استعمال الأيدي، والذكاء الاجتماعي، أو القدرة على التفاهم والانسجام مع من يتصل بهم الفرد في المجتمع. ومن أنصار هذه النظرية أيضاً البروفيسور جودفري تومسون والنظرية الثالثة وهي الشائعة المعتمدة الآن هي التي تقول بوجود عامل عقلي رئيسي عام يؤثر في كل ما يدركه الفرد، ويؤثر في كل المعليات الادراكية الخاصة التي يقوم بها الفرد. ومن أنصار هذه النظرية ويليام شترن الألماني. ويعرف الذكاء بأنه (القدرة على التهيؤ العام للمعضلات الجديدة وظروف الحياة). والأستاذ كارل سبيرمان الذي زار مصر في العام الدراسي الماضي وحاضر في الجامعة وخارجها. أعلن سبيرمان في سنة 1904 النظرية المشهورة (بنظرية العاملين) - وفيها يرد على القائلين بأن القوى العقلية مستقلة بعضها عن بعض - كما في النظريتين السابقتين - ويقول بوجود عامل مركزي

مشترك بين جميع القدرات العقلية. ويسمى هذا العامل بالعامل العام ويرمز له بالحرف وهذا العامل يختلف من فرد لآخر، ولكن يبقى ثابتاً في الفرد الواحد، وبوجود عوامل أخرى خاصة مستقلة إلى حد ما بعضها عن بعض وتختلف قواتها في الفرد الواحد ويرمز لها بالحرف. وسنرمز للعامل العام الجامع هنا بالحرف (ج)، وللعامل الخاص بالحرف (ص). فكل عملية عقلية - على رأي سبيرمان - إنما هي نتيجة مؤثرين: العامل العام الجامع وهو ثابت في الفرد الواحد، والعامل النوعي الخاص بهذه العملية. فقدرة الفرد على حل معضلة حسابية تتوقف على مقدار العامل الذكاوي العام عنده، وعلى العامل النوعي الحسابي الخاص، والحال كذلك في الأعمال الموسيقية والفنية. وقد يكون العامل العام قوياً عند فرد ولكن العامل النوعي الخاص بالرسم مثلاً ضعيف عنده. وقد نجد فردين والعامل العام عند أولهما أقوى منه عند الثاني، على حين أن العامل الخاص بقرض الشعر عند الثاني أقوى منه عند الأول. ولذلك نجد الثاني شاعراً أجود من الأول، مع أن الأول أذكى من الثاني - إن صح هذا التعبير سيكولوجياً، ولا يدخل العامل العام في كل العمليات العقلية بنسبة واحدة، بل نجده في بعضها قوياً وفي بعضها ضعيفاً، فهو يدخل في المسائل المنطقية والتي تحتاج إلى استنباط علاقات أكثر من دخوله في عمليات الرسم النظري مثلاً أو العزف على البيانو. ويفسر سبيرمان هذا بأن بعض العمليات العقلية أكثر تشبعاً بالعامل العام من البعض الآخر. ولكن بِمَ نسمي هذا العامل العام؟ أنسميه الذكاء بالمعنى العادي الذي يفهمه الناس، وهو في الحقيقة جزء من هذا الذكاء بالمعنى العادي؟ إن سيبرمان ليكره أن تطلق كلمة الذكاء بالمعنى المعروف عند الناس على هذا العامل العام، ولكن لا بأس من أن ننفق اصطلاحاً على تسمية هذا العامل العام الثابت بالذكاء ثم يعود سبيرمان ويزيد عاملاً ثالثاً يسمى العامل الطائفي. وذلك أن أية عملية عقلية كحل مسألة حسابية عن القسمة مثلاً تتوقف على ثلاثة عوامل: العامل العام (ج)، والعامل النوعي الخاص بهذه العملية (ص)، والعامل الثالث هو العامل الطائفي (ط) الذي يدخل في كل المسائل الحسابية من جمع أو طرح أو قسمة الخ، ويسمى وقد أثبتت التجارب وجود عدد من هذه العوامل أو القدرات الطائفية أهمها: القدرة

الحسابية، والقدرة اللغوية، والقدرة العملية أو الميكانيكية والقدرة الموسيقية، والقدرة الفنية ومن أنصار هذه
النظرية الأستاذ سرل برث، وقد عرف الذكاء بأنه: (كفاية عقلية عامة موروثة) , ' وقد
أجرى تجارب كثيرة لقياس ذكاء الأطفال بالمدارس الأولية في ليفربول وأكسفورد
ولندن، ووضع مقاييس تناسب الأطفال الإنجليز. وبناها على قياس القدرات العقلية
العالية كإدراك العلاقات بين الأشياء. وهو يرى - بعد التجارب - أن هذه القدرات
العقلية العالية متشابهة بين الأبناء والآباء ولذلك فهي موروثة. وهو يقول بوجود ذكاء
. . .عام وقدرات خاصة كتلك التي ذكرها سبيرمان
ومع أن علماء النفس لم يتفقوا بعد على ما هو الذكاء الذي يقيسونه، فإنهم متفقون
على (ما هو ليس بالذكاء). فهم متفقون على أن الذكاء ليس الخلق ولا المزاج
والعاطفة. وهم متفقون على أن الذكاء ليس المعارف المكتسبة بالتعلم، ولذلك يجب
ألا تتعرض مقاييسه لما يعرفه الطفل بالتعلم: كالقراءة والهجاء والحساب والجغرافيا.
وكذلك هم متفقون على أن أي موهبة خاصة محدودة - كالموهبة الشعرية أو الموهبة
الموسيقية - لست المقصود بالذكاء، لأن الذكاء عامل عام يدخل في كل العمليات
العقلية الخاصة ومن بينها الشعر والموسيقى
عبد العزيز عبد المجيد
لوبيا المجهولة
للأستاذ علي معمر الطرابلسي
قال الأستاذ الجليل الحصري بك في مقاله (بين الوحدة العربية والوحدة الإسلامية) في
الرسالة عدد 328: (إن العالم الإسلامي يشمل: الأقطار العربية وتركيا وإيران
والأفغان وتركستان. مع قسم من: الهند وجزر الهند الشرقية وبلاد القفقاس، وأفريقيا
الشمالية مع قسم من أفريقيا الوسطى).
وردَّ عليه الأستاذ أبو الوفا بقوله: (فالأستاذ الحصري يوهم أن الأقطار العربية هي فقط
مصر والشام والعراق والحجاز واليمن. أما أفريقيا الشمالية التي تبتدئ من تونس
وتنتهي بمراكش، فهذه عنده بلاد إسلامية وليست بعربية. فهل هذا هو الحق يا سيدي
الأستاذ؟) - الرسالة عدد 334.
فالأستاذ ساطع الحصري بك عدد البلاد الإسلامية ولم يهتد إلى ذكر لوبيا منفردة، لأنها
في رأيه ورأي الحقيقة الجغرافية قطر من أقطار أفريقيا الشمالية، لا فرق بينها وبين
تونس والجزائر والمغرب الأقصى. ولكن الأستاذ أبو الوفا لم يصل إلى علمه أنها من
أفريقيا الشمالية، ولم يفهم من كلمة الأستاذ الحصري دخولها في هذا القسم من البلاد
الإسلامية، فذهب يحدد أفريقيا الشمالية بأنها تبتدئ من تونس وتنتهي بمراكش. فأخرج
هذا القطر لذي يدعوه التاريخ (لوبيا)، وموقعه بين مصر وتونس من حساب الإسلام
والعربية.
ولسنا ندري متى انتحل هذا القطر ديناً غير الإسلام، ومتى اختار له لغة غير العربية!
وقد فارقته سنة 1936 وتركته بخير وعافية، وقضيت ثلاث سنين بين تونس والجزائر،
فلم أسمع عنه ما يريب.
لو ترك الأستاذ تبيين كلمة الأستاذ الحصري، أو شرحها بغير هذا الشرح المحصور، لما
سمع منا شيئاً، ولكنه حرك فينا عاطفة قد آذاها ما كانت تراه من إخواننا في تونس
والجزائر والمغرب من إعراض وازورار. وجرحنا مرة أخرى بنكرانه عربية بلادنا
وإسلاميتها بما يفهمه شرحه لكلمة الأستاذ الحصري بك قصد ذلك أو لم يقصد. وقد
آلمه ألا تعد أمته من الأمم العربية، فما رأيه وقد أخرجنا من العروبة والإسلام؟
ما رأيه في إسلام لوبيا وقد سبقته إلى الفتح الإسلامي سنين وكانت معقلاً وممراً
لغزاة
العرب لما أرادوا فتح بلاده وتعريبها؟
ما رأيه إذا أخبرته أن فتح لوبيا كان في زمن عمر، ولم يكن فتح بلاده إلا في خلافة
عثمان؟
لو كانت هذه الكلمة أول ما رأينا من إخواننا في الأقطار الثلاثة لما احتجنا إلى كلام.
ولكنهم - عفا الله عنهم - لا يحبون أن تكون لوبيا من أفريقيا الشمالية برغم ما بذلته
من جهود. وعند الأستاذ عبد الحميد بن باديس الخبر اليقين. ولعله لم ينس بعدُ رحلته

إلى تونس سنة 1936 وما لاقته به البعثة الطرابلسية من حفاوة وما وجهته إليه من لوم وعتاب. ولعله لا يزال يذكر ذلك العهد الذي عاهدهم عليه بحضرة رئيس جمعية الشبان المسلمين. ذلك العهد الذي أكد لهم فيه ألا يتحدث عن شمال أفريقيا إلا ويبدأ من لوبيا، بعد أن حاضر وحاضَر فلم تجرِ له على لسان

إن إخواننا بتونس والجائر والمغرب لا يعترفون أو لا يريدون أن يعترفوا أن لوبيا من الشمال الأفريقي، ولذا لا يرعون لها حق الشقيقة وواجبات الأخوة. وليس يضيرها أن تكون من هذا الشمال أو لا تكون، ما دامت لا ترجو لمستقبلها غير أبنائها.

ولكن يؤلمها أن تفصل عن أخوات يربطها بهن لحمة النسب والأخوة، وأواصر اللغة والدين، ويؤذيها أن تتحبب إليهن فيصغرنها ويتجاهلنها

إن لوبيا، وهي في جهادها الشريف العنيف، تكابد آلامها المرة، وتحمل أعباءها الثقال، بدون مناصر ولا معين - لا يحسن بمسلم أن يؤلم عاطفتها المكلومة وقلبها الدامي، بشيء يشعرها بانفرادها عن العالم العربي الإسلامي. ولا يجمل بإخواننا - وهي فيما هي فيه من محنة وعذاب، أن يزودها ألماً على ألم

إن إخواننا بالأقطار الثلاثة لا يذكرون، أو لا يحبون أن يذكروا أن لوبيا أخت لبلادهم. فهل كانوا في ذلك من المصيبين؟

الحق أنهم أخطئوا خطأً فادحاً، ولن يستطيعوا قطع الجوار وحجز الثقافة، وتفريق اللغة والدين، بفضل ما بذله اللوبيون من جهود، وقاسوه في ربط العلائق من جهاد وإنهم إن استطاعوا أن يتناسوا ذكرها مع أفريقيا الشمالية، فلن يستطيعوا إنكار ما لها في هذه الأقطار من أياد، وما خلفته فيها من آثار

إن لوبيا أيها الناس! ليست بالقطر الذي أغفله التاريخ وعدم المجد والشرف، وهي صاحبة قورناء في التاريخ القديم. إنها لازالت تضرب المثل العليا لبني الإنسان في علو الهمة وطهارة الضمير، وأبناؤها المشردون في البلاد العربية، الشرقية والغربية شهداء على ذلك. فهل وعيتم ماذا أقول؟

هل تذكرون أن من بواعث نهضة الشرق ويقظة العرب صليل السيوف ودوي المدافع في لوبيا؟

ولعلها من أول بلاد أحيت الروح العربية، وذكرت الناس مجدهم المهدوم وتاريخهم الوضاء! فهل تحفظون لها هذا الجميل؟

لم تكن لوبيا ميتة الإحساس ولا خامدة المشاعر، ولم تكن خافتة الصوت ولا الحركة، كما قد يخطر ببال كثير

إن في لوبيا حركة أدبية وعلمية لا بأس بها، لعلها تفوق في ذلك بعض أقطار عربية أخرى، ولكن من ذا يرى مقدار تقدم ثقافتها، ويلمس من قريب دلائل الحياة وسمات القوة فيها؟

هل زارها أدباء عرب طوفوا بالغرب، وعلموا خبايا الشرق، لعلهم يرجعون منها بخبر؟

هل أنبئونا عما شاهدوا فيه من مظاهر الحياة أو نذر الموت؟

هل رأوا ما فيه من مساجد وجوامع وكليات؟

وكيف رأوا حالة المكاتب والمطابع ونظم التعليم هناك؟

إن رجال العربية - عفا الله عنهم - نسوا هذا القطر، وانمحت من ذكرتهم كلمة لوبيا. ولو قدر لأحدهم أن يدخل إيطاليا من بحر العرب، أو يزور صقلية، أو ينتقل من الشرق إلى الغرب، أو من الغرب إلى الشرق، لما حدثته نفسه، أن يقف بمرسى طرابلس، أو يتأمل شواطئ بنغازي، ولما طاوعته إرادته أن يدخل خليج السرت، أو يمتع نظره بجمال الجبل الأخضر

إن لوبيا - أيها الناس - لم تنس حظها في خدمة اللغة العربية، برغم ما يعوقها من عقبات، ويعترض سبيلها من صعاب: فأرسلت بعثات علمية إلى الأزهر كما كان لأخواتها في الغرب والشرق من البلاد العربية، وإن كنت أعترف أنها فقيرة إلى كثير من الإصلاحات

والنظم، وزينت حِلق (الزيتونة) بعدد لا يستهان به وإن كان لا يزال محتاجاً إلى تنظيم أموره وتوحيد مسكنه ورعاية مصالحه، ورأت الحاجة ماسة إلى تعلم بعض اللغات الحية غير العربية، فكونت بعثة أخرى بإيطاليا منبثة في معاهدها

أيها الأستاذ! سأحدثك عما قريب عن العربية والإسلام في هذا القطر، سأحدثك عما

يصطرع فيه من أهواء وآمال، ويتغالب من حقائق وأباطيل
وسأنبئك عن حالة التعليم والثقافة هناك، ومظاهر الحياة والطموح، وسأريك كيف يعمل الرجال في ذلك القطر الذي جهلته وجهله كثير من الناس
سأحدثك كثيراً أيها الأستاذ يوم أرجع من (مجاهل) أفريقيا الشمالية، وأكون بين أهلي وأبناء وطني، أما اليوم فقد لا أستطيع الاتصال بكثير من الحقائق التي تدعم حديثي، وقد تغيب عني كثير من الشئون التي يجب أن أحدثك عنها
ولولا لحظات مسترقات يا سيدي، لما استطعت كتابة هذه الكلمات. وأخيراً أقدم أعطر الثناء إلى كل من ذكر لوبيا بخير وتحدث عنها بالجميل. ولا يسعني إلا أن أزف إلى الأستاذين اللذين حملاني على كتابة هذه الكلمات - الحصري بك وأبي الوفا - أرق التحايا وأزكى التسليمات
(الجزائر)
علي معمر الطرابلسي
شيطانة تتفلسف!!
للأستاذ محمود كامل حبيب
(إن المرأة خلقت من ضلع، لن تستقيم لك على طريقة واحدة، فان استمتعت بها استمتعت بها وبها عوج، وإن ذهبت تقيمها كسرتها، وكسرها طلاقها)
حديث شريف
هي شيطانة شابة فتانة، تخرجت في مدرستها بعد أن نالت حظاً من الأدب والفلسفة والمنطق، وشدت طرفاً من الكيمياء والطبيعة والرياضة، وغذت خيالها بألوان من قصص الحب وروايات الغرام؛ ووعت علم السيما فما تنسى منه حرفاً؛ وتعلمتْ - فيما بين المدرسة والبيت - فنوناً شيطانية خلابة أرسلت الشاب في إثرها يتلمس إليها الطريق - الفينة بعد الفينة - وهي بين الطمع والخوف لا تدفعه إلى اليأس ولا تجذبه إلى الملل
ودار الفلك دورة فإذا هي مُسماة على هذا الفتى. ثم خطبت له
وجلست الشيطانة المتعلمة إلى نفسها - ليلة الزفاف - تتفلسف. . . وتناهي إليّ الحدث كله. وهاأنذا أنقله إلى قراء (الرسالة) الغراء، لا يعبث عقلي برأي ولا يعيث قلمي في خاطرة إلا أن أدير الأسلوب - وهو عَرَض - على طريقة لا أمس بها الجوهر. . .
قالت:
يا صاحبي لا تلمني فإنها جِبلّتي الشيطانية هي التي توحي إليّ
لقد عرفتك فتى ريِّق الشباب، بهيّ الطلعة، لا يعوزك المال ولا العلم، فآثرتُ أن تكون. . .
ولجّ بك الهوى على حين كنتُ أمكر بك وأوسوس لك عَلي أنال بُغيتي
لشدّ ما أفظعني - وأنا في المدرسة - أن أرى أستاذتي العجوز الشمطاء قد خذلها العلم وضيَّعها الدرس، فتناثرت زهرة شبابها وهي تتخبَّط في عَماء الحياة لا تستطيع أن تأوي إلى ركن. . .
وأفزعني أن أكون - بعد سنوات وسنوات - صورة منها، فذهبتُ أتحسس منك
يا صاحبي لا تلمني فما بي هوى لك، ولكن حب نفسي لنفسي
إن المرأة المتعلمة تتفلسف في الحب فإذا هو نظرية فلسفية ذات طرفين: الأنانية والخداع
والحب - في عيني المرأة - هو خداع الرجل عن نفسه وأهله وماله!
هو التضحية العظمى التي أردتك عليها
لقد سلكت إلى قلبكَ سبلاً ضللت أنت فيها، لأجذبك إليّ
أنا لا أحبك، غير أني سأجد في الحب والغيرة مادة عَمى تترهَّج أنت في قَتَمها. . .
وكيف أحبك - يا زوجي - وأنا لا أستطيع أن أنفذ إلى أعماق تاريخك؟ لست أنت من ذوي قرباي فينجذب إليك دمي، ولست رفيق صباي فأرى فيك الذكرى، وأجد في الذكرى نشوة ولذة؛ ولست تِرْبي فأضنّ بك. إنْ هي إلاّ نزوة من نزوات الشباب طارت ثم استقرت فيك!
وبعد، فأنا لا أستبطن لك بُغضاً، لأنه يتراءى لي أن نفسك صافية طيبة.

ولكن. . . ولكن كتابك الذي تعتز به، هو عدوي الذي أفرق منه!. . .
سأستلبه منك بحيلة شيطانية، فلا تفزع!
لا جرم - يا صاحبي - إن المرأة لا تستطيع أن تكون زوجة إلا أن تكون بلهاء، أو يكون زوجها مغفلاً!
فلا معدل لي عن أن أتغفّلك بالرياء، وأغترّك بالتصنُّع، وأخدعك بالحيلة لتكون ابناً لأمي لم تلدك، وولداً لأبي لم يُربِّبْك!
إن أمي تتشوق إلى فتى يملأ الدار حياة، وأبي يتشوَّف إلى شاب يضطلع بأعبائه، وقد كبرتْ سنه. . .
فتعال أنت لتشفي غلّة أمي، وتنقع صدى أبي!
يا صاحبي، إن تنازع السيادة في الدار - بين الرجل والمرأة - صَفَاة تتكسر عليها السعادة
والمرأة الجاهلة تستأسر لزوجها في سهولة، وتتصاغر أمامه في ذلّة، لأن عقلها الفاسد لا يستطيع أن ينفذ إلى قلبه إلا أن ينشر على عينيه ضعفها النسويّ الوضيع
أما أنا فتنسمتُ روح الحرية، وعشتُ عمري سيدة نفسي، لا أخضع لأمر أبي ولا أستسلم لرأي أمي. . . ثم وجدت حلاوة الطاعة حين استذلك جمالي وأسرك حديثي
فهل تطمع في أن تتعبّدني؟
لا ضير، فسأعيش عند رأيك ساعة ليطمئن قلبك؛ ثم أمكر بك المكر الأعظم فأحصّ جناحك فلا تنفلت من لدني إلاّ أن يؤذن لك
ثم أترفق بك فأنتزعك - رويداً رويداً - من بين سُجراء نفسك وأحباء قلبك، لتكون لي وحدي
وأبذر غراس الشقاق بينك وبين أهلك فأصرفك عنهم لتكون ابن أمي وأبي
يزعم الناس - يا صاحبي - أن البيت سجن المرأة
حقاً، غير أني سأحيله بنفثة شيطانية إلى قفص أدفعك بين قضبانه، وأطير أنا إلى حيث يحلو لي
وإذا ورم أنفك وطأتك بابتسامة تصدع كبرياءك
وإن ثرتَ نثرتُ بين يديك ضعفي القوي. . . عبراتي، فتتخاذل لها لأنك تحبني
وإن نازعتني الأمر - بعد هذا وذاك - وأصررتَ على رأيك واستكبرتَ، سْعرتُ في دارك ناراً حامية تعصف بسعادتك، ثم أنفلت أنا لأجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة
وابني. . . ابني الذي يتراءى لك - من وراء حجب الغيب - قرة عين، هو عينيّ مادة شقاء لك إن سولت لك نفسك أمراً
وإذن تسقم معي بالعافية، وتفتقر بالمال، وتشقى بالسعادة، وتضيقُ نفسك بالفَرَج، وتزلّ بالرأي الصواب، وأعيشُ أنا إلى جانبك - أو في منأى عنك - داءك الذي لا تبرأ منه
وإن شئتَ ولدتُ لك كل يوم فلسفة شيطانية تلقي بك في تيهاء مظلمة تحار أنت فيها، وأنا أرى وأبسم
وغداً أدخل دارك أرفل في الحرير والديباج، أتأود في فتنة وأتثنى في كبرياء
فتلقاني - يا صاحبي - بين ذراعي حبك
لأنك لا تعلم بما توسوس به نفسي
ولا تلمني فإنها جبلتي الشيطانية هي التي توحي إلي
(طبق الأصل)
كامل محمود حبيب
من وراء المنظار
شاعر عبقري
رأيت هذا الشاعر العبقري، استغفر الله، بل حظيت بشرف لقائه والاستمتاع مرة بسماع بعض درره الغوالي، وليس بالأمر الهين لقاء مثل هذا الشاعر في زمن قل فيه العباقرة، وحط فيه من قدر الشعر، حتى اعتبره بعض الناس شيئاً لا غناء فيه ولا متعة من ورائه؛ وذهبوا في ذلك إلى أنه لن تمضي سنوات معدودات، ولا يتصل الشعر بحياة هذا الزمن بسبب من الأسباب. . .
ولئن سعد جدك فمثلت ساعة مثلي بين يدي هذا الشاعر، لوقعت منه على شاب

تتوزع الظنون فيه عقلك وخيالك. فإن كنت ممن يجهلون سمات العبقرية، ظللت في حيرتك ودهشتك بل لقد يذهب بك جهلك إلى أن تعزوا ما يبدوا لك منه إلى الحماقة والبله. فتلحد بذلك في الفن من حيث لا تدري إلحاداً شديداً.

والحق أني حرت في أمره برهة حين رأيته. . . فهو يطيل النظر في وجوه جلسائه في صمت عميق، فيحسبونه معهم وما هو معهم. . . ثم هو يرفع عينيه في بطء إلى السقف، ويظل كذلك برهة غير قصيرة كمن أخذته عن نفسه حال من غم أو من ذهول، على أني لم ألبث أن رددت أمره إلى ما علمت عن العباقرة، فهم كثيراً ما يذهلون عن أنفسهم بما تعرج فيه أرواحهم من معارج علوية، وكيف يكون عبقرياً ولا تسبح روحه وتعرج إلى السموات كما تسبح أرواح العباقرة وتعرج؟

ورأيت الشاعر قد أطال شعر رأسه، ثم تركه دون ترتيب، حتى تهدل على فوديه، فغطت خصلات منه أذنيه، وتدلت خصلات فوق عنقه؛ بينما تراكم بعضه على بعض، حتى كان منه ما يشبه الأكمة فوق جبينه. . وهو لا يحرص على شيء من مظهره حرصه على أن يكون شعره هكذا كشعر أقرانه من كبار الفلاسفة ونوابغ أصحاب الفنون دليلاً في رؤوسهم لا يكذب على النبوغ، وبرهاناً لا يخطئ على الفن. وتكلم الشاعر الشاب في نبرات الشيوخ ولهجتهم، فأخذ يشكو من قلة فهم أهل زمانه لشعره وعدم تفطنهم إلى فنه، ولكنه ما لبث أن أشرقت أسارير وجهه حينما ذكره بعض من يفهمونه بأنه جاء قبل أوانه، وأنه لابد أن تعرف قيمة فنه يوم تنجاب عن العقول حجب الغفلة. . . أولم يشك المتنبي بأنه كان في أمته غريباً كصالح في ثمود؟. . . ولكم سر الشاعر بهذه المقارنة البارعة بينه وبين عبقري آخر على شاكلته

وأفاض شاعرنا العبقري في أنه يسير على نهجه رضي الناس - أو لم يرضوا - فإنه إنما يغني خلجات وجدانه، وعرض للمادة والحياة الدنيا وزينتها، فأكد أنه ليس من ذلك كله في شيء. . . ولست أدري لم وثبت إلى رأسي حينذاك قصائده الطويلة - وكنت نسيتها - في مدح فلان وفلان ممن لا يكون مدحهم إلا وجهاً من الزلفى!؟ ولكني لفرط هيبتي من الشاعر، أو قل لفرط إيماني بعبقريته لم أستطع أن أشير إلى شيء من هذا. . وهل أرضى أن أضع نفسي عنده موضع الأغرار والحمقى؟ ولعل ما فعله كان سراً من أسرار العبقرية لا ينهض له خيالي اليوم

وأشار أحد أصحابه إشارة خفية إلى تلك الروح السامية التي ألهمته أغانيه، فبدت على وجهه مثل إمارات الخجل وضحك ضحكة غريبة، ثم رمى صاحبه بنظرة غاضبة كأنما خيل إليه أن ذلك الصديق يشك في وجود تلك الروح، أو يظن أنها بعض ما يجري فيه الكلام في مجالس بني الطين. . . وما كان شعره فيها إلا صلوات قدسية تتنزل عليه من عليين، وهي كعبقريته، أمر لا يعلق به شك إلا في رؤوس الجاحدين والهازلين.

وألح عليه صاحب آخر أن يطربنا ببعض ترانيمه، فتفرس في وجهي يتبين: أأنا ممن تبدو عليهم مخايل الفطنة، أم أنا من الذين لا يفهمون. . . ولعله كان أقرب إلى الأولى، إذ قد أخذ يسمعنا من شعره. . وأشهد لقد وقعت منه على كلام من السحر الحلال تتقطع دون بلاغته الأوهام. . . ولكم وددت لو أني استطعت أن احفظ شيئاً منه، على أني أذكر من أوصافه ما لست أشك لو ذكرتها لك أنك كنت ترى معي أنها آيات من الفن تقصر عنها بدائع ابن هانيء وروائع بشار؛ ويتخاذل دونها فن الطائي وسحر الوليد ومعجز احمد وبدع ابن الرومي وقدرة شيخ المعرة. . . دع عنك شوقي وجيل شوقي ومن خلا من قبله في مصر ومن خلف من بعده من الشعراء. . . وليس يهمه أن ينكر الأغفال في هذا الجيل أسلوبه ومعانيه، فليس عليه أن يُفهم من لا يفهمون

وإنه لينكر على شوقي ما توافى له من ذهاب الصيت، ويستكثر عليه لقبه الذي عرف به، ويعزو ذلك أيضاً إلى غفلة هذا الجيل، وتتحرك في نفسه العبقرية، فيتساءل: ماذا يجد الإنسان لشوقي من الشعر الحق، ولقد كان كلامه مرثيات ومدائح لا روح فيها؟ ولعله لم يقرأ فيما أرى شعر شوقي، ولست أدري، فلعل هذا كذلك سر من أسرار العبقرية.

وتوسلنا إلى الشاعر أن يجود على الناس بنشر ما أسمعنا فرفض قائلاً: إنه يضيق بهؤلاء الناس حتى ليودّ ألا ينظم بعد اليوم بيتاً من الشعر. . . فتوسلنا إليه ألا يفعل

حرصاً على دولة الشعر، وإشفاقاً على مكانة العربية. . .
(عين)
وحي الذكرى والحنين
(ابنة تناجي أباها بمناسبة مرور العام الثاني على وفاته)
للسيدة وداد صادق عنبر

في ظلام ذلك الليل الدامس، وفي صدى سكونه المهيب، جلست مطرقة أفكر فيك وكل فكري دمع، وأبكيك وكل دمعي فكر، فريسة ذكراك، وقد طال حتى حسبت أن ليس له صباح. فيا لطول الليل على حزن الثكلى! ويا لحزن الثكلى من طول الليل!

جلست لمناجاتك فدعوتك أبتاه!. . .

وأجبتني كعهدي بك في الدنيا حاضر الابتسامة حين تخصني بالحديث في كثير من أوقاتك، ترفرف علينا أثناءها العناية الإلهية وقد عادت حدب أبوة وبرَّ بنوة. فوا أسفاه على تلك النعمة السابغة الذيل التي ما تمتعت بها طويلاً حتى بكيت متفجعة على فقدها ورزئت بسلبها، ولولا إيماني بسالبها القدير لأكبرت على القدر أن يفجعني فيك أجل. لولا إيماني لأكبرت عليه أن يفجعني فيك وقد كنت سكناً لقلبك كما كان قلبي سكناً لك. فيا لذاك البث الذي خيم على قلبي ونفسي معاً، والذي لم أجد لهما منه مخرجاً سوى وقوفي أمام قبرك العزيز، فقد أجد فيه بعضاً من سلواهما وبردهما، فأنفح جوه هتافاً باسمك ولثماً لرسمك، وأنفث عن حسرة مما يقدح الأسى على كبدك حين تحس أي جرح هذا الذي فتحه القدر في قلبي فهو لا يبرأ ولا يلتئم، وأي جمهرة من الآلام تركتها فجيعتي فيك في أطواء نفسي، وكل ألم منها في وقعه مني فن من العذاب أستعذب مذاقه ولا أرجو فراقه. وأي كتيبة من الأحزان تحمل علي في عزلتي وأيسرها يسحق النفس وبذورها، ويمحق الحياة ويمحوها. وأي ثورة في نفسي لا تسكن أبداً ولا تهدأ، ومناحة لا تنفض فهي في كل ساعة تبدأ، وأي ضغط ينعصر تحته قلبي الواهن المستطار فيظل على حاله واهناً مستطاراً، وأي همّ وغمّ أخذت به عن نفسي فأصبحت في شبه سكرة أو غمرة. . .

يا حر قلبي عليك من حر قلبك عليَّ! كنت في حياتك تحرص كل الحرص على ألا يسكب دمع من عيني لعارضة تحدث أو نازلة تكون، لأنك أحببتني حباً ضربته الأبوة أعلى مثل، بيد أنه أصبح مثلاً يتيماً من أنه ينظر إليه ولا يقاس عليه على أن العهد بالحزن أن يرثّ على الزمن أو يبلى في القلب الحزين. وإني لأعيذ قلبي أن يرث أو يبلى في حزنه. على أنني أعود فأتخيلك وأنا ذاهلة على وعي قلقة على سكينة، مضطربة على قرار، مأخوذة على استقرار. أتخيلك في سنة نومي إذا دعوتك أجبتني فأدعوك، ثم أدعوك، وأتسمع عليك ثم أتسمع، فإذا هو القبر في سكتته، وإذا هو الحزن في فورته وثورته. وإذا بصدى دعاني يردد إلى نفسي خافتاً خافتاً أبتاه:

إني لألمحك الساعة وأنا أكتب كلمتي في ذكراك الثانية، ألمحك من وراء قبرك، من وراء الموت، من وراء الزمن، من وراء الخلود، قاراً متضوئ النفس رضيها بما أزلفت في حياتك لقومك من بر هم به ذاكروك، وبما تلقى عند ربك من ثواب ما قدمت يداك لأمتك لا لنفسك فخلعت عليها شبابك ونبهت للمجد أترابك، ومن ثمَّ كانت خلاصة حياتك مثالاً سامياً من أمثلة الجهاد والعمل. فحملت نفسك وحمَّلتها غير عابئ بالمرض يداخلك من حيث لا تتقيه، ويهدُّ من صحتك ما لا يَرُمُّهُ العلاج ولا يبنيه لا، بل ألمحك في آثارك الحية بين يدي وكل أثر منها هو قطعة من حياتك عليها طيفك يرف

وألمحك في أخي الوحيد (كمال) الذي كان كل همك حيَّاً وتركزت فيه آمالك وأحلامك، وقد تركته في هذه السن الصغيرة، ملقياً عليه أمانة هي ذلك العبء الثقيل الذي أراه في طريقه إلى النهوض به ناشط الكاهل مرجو لمخايل

ألا فنم هانئاً هادئاً مطمئناً فإنه وإن لم يبلغ مداك، فحسبه أن يسير على هداك رحمك الله يا أبي بقدر ذلك النور الفياض الذي نقتبس منه طريقنا السوي، وأنال ولدك الحظ الذي أملته، وأمطر جسدك الكريم وابلاً من فيض رحمته، وألهمنا بقدر مصابنا فيك السلوى

وإلى يوم الملتقى عليك مني السلام
ابنتك البارة
وداد صادق عنبر
الأدب في سير أعلامه
بيرون
ذلك العبقري المتمرد الذي غنى أروع أناشيد الحرية، ولاقى
الموت في سبيل الحرية
للأستاذ محمود الخفيف
وانصرف بيرون في كمبردج عن دروسه كما كان يفعل في هارو وراح يقرأ ما تحب نفسه من الكتب، وأخذ يتسلى بنظم الشعر في شتى المناسبات؛ ولقد اصطفى فريقاً من الصحاب في الجامعة كما فعل في المدرسة، وظل في الجامعة حريصاً على أن تكون له الزعامة على من هم دونه في السن. وأحب في الجامعة شيئاً واحداً وذلك هو حياتها الحرة الخالية من قيود المدرسة، وعاش في سعة بما أتيح له من المال، وبسط يده لإخوانه كل البسط، وكان من الأمور الشائعة يومئذ لعب الورق وشرب الخمر، حتى لقد كان يعرف الشاب بمقدار ما يشرب من الراح في جلسة، وبمبلغ حذقه في اللعب أكثر ما يعرف بما يحصل من درسه؛ وكان طبيعياً أن يجاري شاب مثل بيرون أقرانه فيما انغمسوا فيه، وإن كان يكره الخمر بطبعه؛ وأقبل الشاب على حياة اللهو، لا يتقيد بعرف ولا يهتم بلوم، حتى نفد ماله، فاستدان بضع مئات. ولما ضاق نطاق الجامعة عن لهوه استأجر مسكناً خارج أسوارها، واتخذ له خليلة ألبسها ملابس الرجال وادعى أنها أخ له، وأطلق لحياة المجون عنانه؛ فهل كان يريد بهذا العبث أن يسخر سخرية عملية من الحب وأحلام الحب، أم هل كان يجري فيه على ما ورث من آبائه من خلال؟ الحق أننا نستطيع أن نرد ما أسرف فيه على نفسه من اللهو إلى الأمرين معاً؛ ونستطيع كذلك أن نضيف إليهما ولعه بالرياضة التي جعلها بعض لهوه، وكان يريد من الرياضة أن يكتنز لحمه فيضمر جسمه، لأنه كان أميل إلى البدانة، وكان كرهه للبدانة شديداً؛ وكانت أحب ضروب الرياضة إليه السباحة التي كان يجيدها والملاكمة التي أخذ يتعلمها على أحد كبار معلميها.
ولما انتهى العام ترك بيرون الجامعة وذهب إلى سوثول حيث كانت تقيم أمه، فما أن وقع بصرها عليه حتى ثارت في وجهه وقذفته بما كان في يدها، فعول على الرحيل مسرعاً وقد
كانت له يومئذ مركبة اشتراها فركبها مع أحد أصدقائه وركب إلى جانب السائق خادم، له واصطحب معه كلبيه وكان يحبهما أشد الحب، وغاب زمناً عن أمه حتى أنفق ماله فعاد إليها على رغمه
وتغيب عن الجامعة عاماً جمع فيه شعره بإشارة من فتاة كان قد تعرف إليها في سوثول حين ذهب إليها أول مرة مع أمه وكانت تحترمه وتكبره فاطمأن إليها؛ ولما تم له جمع قصائده دفعها إلى ناشر تحت عنوان (ساعات الكسل) وذهب إلى لندن ليشرف بنفسه على بيع ذلك الكتيب، وكان مما يشيع كبرياءه أن يرى اسمه في (فترينات) بائعي الكتب؛ وراح يترقب ما عسى أن تنشر الصحف من نقد لشعره، ولما عاد إلى الجامعة كان يطرب فؤاده لما يسمعه من ذيوع شعره بين طلابها؛ على أن هذا الشعر يومئذ لم يكن من النوع الذي يبشر بمستقبل عظيم. وما لبث بيرون أن سمع أن صحيفة أدنبرج حملت عليه حملة شديدة، ولامته على نشر مثل هذا العبث، وكان بيرون في التاسعة عشرة وفد أشار إلى سنه في مقدمة كتابه، فعدت الصحيفة ذلك منه توقياً للنقد فأشارت إلى ذلك المعنى في حملتها عليه ذاكرة أن كثيرين غيره نشروا قصائد وهم في سن مثل سنه أو أصغر منها فكانت خيراً من قصائده كثيراً. ماذا يفعل ذلك المتمرد تلقاء هذا النقد الشديد؟ لقد ثقل عليه الهم أول الأمر، لقد كان يضيق بالحياة بعد ما كان بينه وبين ماري، وظن أن سيكون له في الشعر من ذهاب الصيت ما يتأسى به وما يتخذ به فخراً يرفع به رأسه ويدرأ به عن نفسه بعض الخزي الذي كان يلحقه من عاهته والذي ظل ملازماً له كما يتجلى ذلك في حديث له يومئذ مع قسيس في سوثول كان يجادله ويذكره بما من به عليه خالقه من نعم منها أنه وهبه عقلاً يسمو به على الناس، وكان جواب بيرون أنه يسمو بعقله عن الناس ولكنه

ينحط برجله عنهم
ماذا يفعل ذلك المتكبر المحنق؟ لقد فكر أن يرد لتوه على هذا النقد بقصيدة ثائرة، ولكنه عاد فآثر التمهل ليكون رده محكماً وليفرغ فيه كل ما يجيش في نفسه، وأخذ ينظم وقلبه مملوء بالغيظ والحقد على ناقده وعلى شعراء عصره جميعاً
وأخلى اللورد جراي قصر نيوستد فذهب اللورد بيرون ليقيم فيه وكانت يد البلى قد شوهت جمال ذلك القصر القديم؛ على أن الشاعر ظل على الرغم من ذلك شديد الحب له
والإعجاب به، وكان أول ما التفت إليه عقب عودته شجرته الحبيبة فأزال بيده ما التف بها من الحشائش وما عاق من نموها من متسلق العساليج، وعاش في عزلة عن جيرانه فلا يرد لهم مودتهم ليقطعوها، فإنه بالناس برم منذ يفاعته، على أنه لم يستطع أن يرفض دعوة وجهت إليه من نيوستد فذهب ليرى مارى وقد تزوجت وصار لها طفلة صغيرة وكأنه لم يبتعد عنها أكثر من يوم فلقد نبض قلبه وهو إلى جوارها بما كان ينبض به أمس، وحاول الكلام فلم يطاوعه لسانه إلا بعبارات متقطعة لا معنى لها، وعاد لهفان إلى قصره يلذع الأسى قلبه ويتنازع الهم مشاعره فكتب لساعته قصيدة تعد من أروع قصائده تلمس فيها اللوعة في قوله
ودعاً يا حبيبتي العزيزة: لابد لي من الرحيل، وما دمت أنت سعيدة فليس هناك ما) يكربني، أما أن أبقى إلى جوارك فذلك ما لا أطيقه إذ سرعان ما يعود قلبي طوع يديك. . .
لقد طالما ظننت أن الزمن في دورانه، وأن ما فطرت عليه نفسي من فخار وكبرياء، كفيلان أن يخمدا في قلبي تلك الشعلة الثائرة شعلة الحب أو شعلة الطفولة، ولكنني لم أتبين حتى جلست إلى جانبك أن قلبي لم يزل في كل شيء هو هو. . . إلا من جهة واحدة. . . هي الأمل!
غير أنني على الرغم من ذلك جلست هادئاً بين يديك؛ نعم إني لم أنس تلك اللحظات التي كان يثب فيها قلبي بين ضلوعي عند لمحة من عينيك، أما الآن فالرعدة جريمة، ولذلك التقينا فلم ينبض فينا عرق. . .)
وعول الشاعر على مغادرة قصره الحبيب يلتمس الشفاء في رحلة طويلة في أنحاء القارة أو إلى الشرق، ولكنه بقي حتى يفرغ من كتيبه الذي كان ينظمه للرد على ناقده
واحتفل الشاعر في نيوستد في مستهل عام 1809 ببلوغه السن، فدعا إلى القصر بعض أصدقائه حيث أقاموا ليلة ساهرة صاخبة، ثم ذهب ليأخذ معقده في مجلس اللوردات فاستقبل استقبالاً فاتراً، وقد ذهب إليه بمفرده على خلاف التقاليد التي كانت تقضي بأن يذهب اللورد الجديد في حاشية من أهله أو من أصحابه؛ ولكن اللورد بيرون لم يجد من يصحبه، وسرعان ما ضاق بالمجلس ومن بالمجلس. وفرغ من كتيبه وقد نحا فيه منحى الشاعر بوب في الأسلوب والنزعة التهكمية وملأه بالهجوم العنيف على ناقده وعلى شعراء عصره
لم يستثن منهم أحداً، وإنه ليتساءل كيف يحل لهم النقاد ما يحرمونه عليه؟ ونشر الكتيب فصادف من النجاح أكثر مما قدر له الشاعر الشاب، ولقد ظهرت فيه براعته في التهكم ولباقته في سوق الحج، وتجلت قوة عبارته وإشراق معانيه ولذع سخريته؛
واطمأن الشاعر إلى مكانته وقد ظهر على ناقد من أكبر نقاد العصر، وهو بعد في الحادية والعشرين من عمره، وأحس أنه شفى غليل نفسه فعاد من جديد يسرف في لهوه، وكان قد بات في شغل عن أكثره بما كان يملأ فؤاده من غل. ولم ير الشاعر آخر الأمر بداً من الرحيل فقد آده عبء ديونه، ومل اللهو بعد أن أسرف فيه على نفسه، ولذع الهم فؤاده لوجوده قرب ماري وما له إليها من سبيل اليوم. . . على أنه قبل أن يرحل دعا نفراً من خلانه في كمبردج إلى قصره فقضوا شهراً في العبث والمجون، وحسبك أنهم كانوا يديرون الراح جمجمة آدمية هي جمجمة قسيس أخرجت عظامه من الأرض فأس البستاني. وحان يوم الرحيل فلم يأس الشاعر على فراق أحد غير كلبه؛ ولم يجد حوله من يأسون على فراقه هو، فإنه لم ير أخته منذ فترة طويلة، ونال من نفسه أنه لم ير في وجوه صحابه ما يشعره أنهم يحزنون لسفره. وركب البحر وهو لا يعلم أين يذهب ولا متى يعود
وسافر معه من خلانه شاب يدعى هبهوس، فكانت لشبونة أول أرض نزلا بها، ومن

لشبونة ذهبا إلى قادس، ومنها إلى جبل طارق؛ وكانت أسبانيا يومئذ في صراعها ضد نابليون، وكانت الجيوش الإنجليزية تساعد أهلها على الخلاص من نيره؛ وأعجب بيرون بشجاعة أهل أسبانيا بقدر ما أعجب بجمال طبيعتها

وركب وصديقه سفينة من جبل طارق فبلغا مالطة، ومنها توجها إلى ألبانيا حيث نزلا ضيفين على علي باشا وإلى يانينا، وشد ما أعجب بيرون ببسالة الألبانيين وبمظاهر الحياة الشرقية في قصر الباشا، وكان له من ذلك مادة غزيرة سوف تظهر فيما بعد في آثاره

وذهبا من ألبانيا إلى بلاد اليونان، موطن السحر والحكمة بلاد هوميروس وأفلاطون، وادي الأساطير الخالدة، ووقف الشاعر أمام آثارها يقضي أرب مشاعره مما تحدث من أخبارها وما توحي من معانيه. . . وتوجها بعد ذلك إلى القسطنطينية مدينة الشرق العظيمة، بيزنطة الساحرة ذات المجد التالد والجمال الطريف، وأنس بمظاهر الحياة في عاصمة العثمانيين. . .

وعاد الشاعر إلى وطنه بعد أن قضى في هذه الرحلة زهاء عامين؛ عاد وفي جيبه قصيدة طويلة لم تكن إلا خلاصة مشاهداته في رحلته هذه؛ وتردد الشاعر في نشرها أياماً؛ ثم دفعها إلى صديق له يسأله رأيه فيها فألح الصديق عليه أن يذيعها في الناس فإنها لجديرة بذلك أي جدارة

وفعل بيرون ما أشار به الصديق، ولم تكد تتداول لندن هذا الكتيب الجديد، ويطلع أهلها على ما جاء به من وصف لهذه الرحلة، حتى كان اسم الشاعر اللورد على كل لسان، وفعلت بها براعة وصفه وحماسة شعره وقوة عاطفته ما يفعل السحر؛ وهكذا يتوافى للشاعر بهذا الكتيب الذي خاف من نشره أول الأمر من ذهاب الصيت ما لم يتواف لشاعر قبله؛ بل لقد حاز بيرون من الشهرة ما لم يحز رجل آخر في أي ناحية من نواحي الحياة الاجتماعية، حتى لقد شبه يومئذ بالشهاب اللامع، الذي يخطف بريقه الأبصار على حين غفلة، وقال هو يصف نفسه: (لقد أفقت ذات صباح فوجدتني من ذوي الشهرة)

منذ ذلك اليوم صار بيرون شاعر عصره في إنجلترا، فأخذ ينظم الشعر في سرعة عجيبة أدهشت الناس وحيرت النقاد، وسعى إليه كثير من ذوي المكانة يهنئونه ويثنون عليه، وأصبح يشار إليه في كل ناد، ويبتغي الوسيلة إلى مودته الشباب والكهول، وهو يزداد بذلك شهرة ويمتلئ قلبه زهواً وفخراً. ولم تكن إنجلترا يومئذ خلواً من الشعراء، حتى تعزى شهرة بيرون إلى أنه لم يكن في الميدان غيره؛ فقد كان في تلك البلاد عدد من فطاحل هذا الفن من أمثال: وردثورث، وكلردج، وسوذي، وتوماس مور، وكامبل، وشبلي وولتر سكوت، وغيرهم. وكان معظم هؤلاء أكبر سناً منه وأسبق في قرض الشعر

ولقد فاقت شهرة بيرون شهرة كل من هؤلاء جميعاً على الرغم مما كان لأكثرهم من سمو المكانة في الشعر مثل: وردثورث، وزميله كلردج. وليس معنى ذلك أنه بذهم في ذلك المضمار، فقد كان لكل منهم ناحية تفوق فيها، وإنما اتفق له من الصيت ما لم يتفق لأحدهم؛ الأمر الذي جعل ولتر سكوت على نباهة شأنه يومئذ يترك الشعر ويبحث لعبقريته عن مجال آخر هو مجال القصص قائلاً في صراحة إنه إنما يفعل ذلك لأن بيرون قد أخذ عليه طريق الشعر، وهو قول كان له وقعه في الأندية، وكان له كذلك أثره البعيد في تزايد شهرة الشاعر الشاب، الذي لم يكن يومئذ يزيد على الرابعة والعشرين من عمره

على أن بعض النقاد يعزون ما أصاب بيرون من النجاح إلى عوامل أخرى تتصل بشخصه أكثر مما يعزون ذلك إلى جمال قصيدته؛ فهو شاب في ربيع العمر وهو يتمتع بلقب من اكبر ألقاب الدولة، وهو إلى ذلك جميل الصورة موفور الوجاهة. . . ولكن آخرين ينكرون على هؤلاء رأيهم هذا قائلين إنه نشر قصيدته قبل أن يعرف عنه كل ذلك اللهم إلا بين نفر قليلين من أصحابه. ويلتمس غير هؤلاء وهؤلاء أسباب شهرته هذه في موضوع قصيدته لا في قوة شاعريتها، فهي سياحة في القارة في وقت كانت تتجه فيه الأنظار إلى ما يجري فيها من حروب يبعثها نابليون في أنحائها. . . ولكن القصيدة لم تكن وصفاً لتلك الحروب حتى يصح هذا الرأي

فهل كان ما أصابت القصيدة من شهرة يرجع إلى قوة شاعرية صاحبها فحسب؟ إن

الذين يقولون ذلك أيضاً بعيدون فيما نرى عن الإنصاف بعد سالفيهم، ولما كانت القصيدة أشهر حادث أدبي في حياة الشاعر وأحد العوامل الهامة في الحركة الأدبية يومئذ وجب أن نتبين حقيقة أسباب نجاحها على مثل هذه الصورة الفائقة

(يتبع)

الخفيف

رسالة الشعر

نجوى

اذكري قلبي. . .

للأستاذ محمود محمد شاكر

اذكُري قلبي. . . فقد يَنْضَر من ذِكراك عودي
أنا غُصنٌ في رياضِ الدَّهرِ ظمآنُ الصَّعيدِ
صوَّحتْني غُلَّةُ الوَجْدِ وأَجَّتْ في بُرودي
ومشتَ ناراً على أنوارِ زَهري ووُرودي
فهيَ ألقاءٌ على أَرْضيَ آثارَ وقودِ
فاذكري قلبي. . فقد يَنضَر من ذِكراك عودي
أنا غصنٌ كخيالِ السَّيفِ في وَهمِ الطريدِ
ناحلُ الشخصِ، قضيفُ العودِ، خُمصانُ الغُمودِ
لوّحتْني وَقْدَةُ الشمسِ على وجهي وجِيدي
كمْ شُعاعٍ غارَ في قَلبِيَ كالسهمِ السديدِ
عَبّ في مائي، فغاضَ الماءُ كالحُبِّ الشّرُودِ
فاذكري قلبي. . . فقد يَنضَر من ذِكراك عودي
أنا غصنٌ شاخصُ الطَّرْفِ إلى رِيٍّ بعيدِ
أَسَرَابٌ هُوَ أم ماءٌ؟ فيا ويحَ جُدودي!
أتْبتتني حيثُ أشتاقُ إلى الماءِ البَرُودِ
هِيَ أشواقٌ من الموتِ كأشواقِ الحَسودِ
ترَكتْني مُوقَدَ الغُلّةِ كالصَّبِّ الحَقُودِ
فاذكري قلبي. . . فقد يَنضَر من ذِكراك عودي
أنا غصنٌ حائرُ الأحلامِ كالنائِي الشريدِ
غُرْبةُ الرُّوحِ تَهاوتْ بي إلَى أرْضِ الجُحودِ
قذفتْنِي همةُ الأحرارِ في ذُلِّ العبيدِ
الصدَى، والجَدْبُ، والغرْبةُ، سجني وقيودي
مَزَّقتْ نَضرَةَ أيَّامِي بأنياب الخمودِ
فاذكري قلبي. . . فقد يَنضَر من ذِكراك عودي
أنا غُصنٌ يُفزِعُ الفجرَ بلَيْلٍ من رُكود
يتلقّى مَوْلدَ الشمسِ بأحزانٍ هجُود
لوْ بكيَ عُودٌ من الوَحشة في ذُلِّ الوُجود
لأذابتْ شَخصِيَ الآلامُ. . . كالدَّمع البَديدِ
أنكرتْني الشمسُ والفجرُ ودُولاتُ العهودِ
فاذكري قلبي. . . فقد يَنضَر من ذِكراك عودي
أنا غصنٌ فارَقتْه الطَّيْرُ رَبَّاتُ العُقودِ
مُسكِراتُ الزَّهرِ والنَّوْرِ بألحانِ النشيدِ
نغَمٌ همْسٌ كهمسِ الغيثِ للرّوْض المجُودِ
وشبابٌ ضاحكُ النُّورِ بترْجيعٍ فَريدِ
وأنا. . . الحسرة والأنَّاتُ لَحْنِي ونَشِيدي
فاذكري قلبي. . . فقد يَنضَر من ذِكراك عودي
غُصُنٌ عارٍ. . .، وأغصانكِ في بُرْدٍ جديدِ
قد كساكِ الرِّيُّ والنِّعمةُ من وَشْيِ البُرُودِ
وتَحلَّى عُودُكِ الريَّانُ نُوَّارَ الخُدُودِ
فإذا النشوَةُ هزَّتكِ بأنفاسي. . . فمِيدي

وإذا غَنَّاكِ ساقِي الطَّيْرِ لحْني أو قصيدي
فاذكري قلبي. . . فقد يَنضَر من ذِكراك عودي
محمود محمد شاكر
من وحي الطبيعة المصرية
تحت الشراع
للأستاذ محمد عبد الغني حسن
املئي أُذْني بألحانِ الصباحْ ... واسكُبي فيها شُعاعَ المغربِ
فشَذا العشبِ على الضِّفةِ فاحْ ... وتمشَّى في الأصيل المُذْهَب
وجرى النيلُ على تلك البطاحْ ... فضّةً قد مُزجتْ بالذَّهب
. . .وشدا الملاحُ للركْبِ وراحْ ... يتلهَّى في شِراع المركَب
اسمعي للنيل هَمْساً وخريراً ... مثلَ هَمْسِ الخائفِ المرتقب
موَّجتْه الريحُ. . . فارتدّ كسيراً ... كلُجينٍ ذائبٍ مُنْسكب
. . .إن للموجِ شهيقاً وزفيراً ... كفؤاد العاشق المضطرب
وجرى ماؤكَ يا نهرُ نَميراً ... سائغَ الطعم هنيَء المشرب
الغواني جِئنَ يملأنَ الجِرارا ... يَتَثَنَّينَ كلُدْنِ القُضب
ويسابقن مع الطيرِ النهارا ... نُفُرَ الخَطوِ خِفافَ المؤْثب
آه ما أجمل هاتيك العذرا ... رافلاتٍ في الثيابِ القُشب
آنساتٍ قد تكلَّفنَ الوقارا ... وتعلمن نِفارَ الرِبْرب
والضحى يَسكب في النهرِ لجينا ... فبدا مثلَ بياض السُّحُب
وإذا النهرُ كمرآة تُسنَّى ... في إطارٍ مُثْقلٍ بالعشُب
والنسيمُ الرطبُ فيها يتثنَّى ... ويوشِّيها بمثْلِ الحَبَب
وشدا الطيرُ على الماء وغنَّى ... فوقه من خِفَّةٍ أو طرب
وهنا الصفصاف منشور الذوائب ... كالعذارى النافراتِ العُرُب
وسوادُ الظل في الجدول ذائبْ ... كبياضٍ فاتن مختصب
ترتمي في حضنه تلك القواربْ ... هارباتٍ من لسان اللهب
يلتقي الأحبابُ فيه بالحبائبْ ... ويُثَنَّى جِدُّه باللعبِ
محمد عبد الغني حسن
الأدب في أسبوع
الغذاء العقلي والروحي للشباب
ألقى الدكتور طه حسين في قاعة الجامعة الأمريكية كلمة أريد عليها، كما قال في أول كلامه، فاستغرقت هذه الكلمة من الوقت ساعة أو أشفّ قليلاً، افتتحت بالتصفيق الشديد للدكتور طه حسن خرج على الناس ليتكلم!!
ولستُ هنا في مقام التلخيص لهذه الكلمة، ولكني بالمكان الذي يجب عليَّ فيه أن أشقّ للقراءِ موضع الرأي الذي ينبغي لهم أن يشغلوا أفكارهم به ولو ساعةً من نهارٍ، كما شغل الدكتور طه سامعيه ساعةً من ليل يوم الاثنين 29 يناير سنة 1940. وليس في القراء الذين يعرفون الدكتور طه من يجهلُ أن أولّ ما يتكلم به الدكتور إنْ هو إلا أن يجعل مَردّ كل شيء إلى (يونان) ومدن يونان. . . فلاشك إذن في أن أول نظام عرف للغذاء العقليّ والروحي للشباب، إنما كان في المدن اليونانية والحضارة اليونانية والعقلية اليونانية!! فهذا شيءٌ مفروغٌ منه قد جعله الدكتور طه مذهباً لا يحيدُ عنه، وأسلوباً لا يسُلك غيرَه، ولا بأس بذلك. . . فأنا أعتقد أن اختلاط المدنيات المتعاقبة على الأزمان المتقادمة، قد جعلت لصاحب الرأي سعةً يذهبُ فيها حيث يشاء. فلو قلت أنا مثلاً: إن أول نظام عرفه التاريخ لتنظيم الغذاء الروحي والعقلي للشباب، إنما كان بالصين، وقد فصّله لناً ما بقي من آثار (كونفوشيوس) فيلسوف الصين الأكبر، لوجدت من الدليل ما أستطيع أن أقيم بها عوجَ الرأي، وأردُّ به على مخالفيّ رد إلزامٍ وخضوعٍ. . . وكيف لا أستطيع ذلك وفي كل كلمةٍ من كلام هذا الفيلسوف العظيم توجيهٌ لقوى الشاب الصينيّ إلى الخير المحض، وهو الذي يقول: (من حق الشاب أن ننظر إليه بعين الاحترام، فما يدرينا أن علمه في المستقبل سيكون فوق علمنا في الحاضر؟ أمّا من أسند في الأربعين أو الخمسين من عمره ولم يشتهر بعلمٍ من العلوم، فلا يستحق أن ننظر إليه بعين الاحترام). وقد جَعَل كل جهده في تدبير شؤون

الدولة الصينية؛ يقول: (إن الاضطراب قد مزّق البلاد بالفوضى، فمن الذي يُعيدُ نظامها)، (لا يمكن أن أعاشر الطيور والوحوش. . . وإذا أنا لم أعاشر هذه الأمة، فمن أعاشر؟ لو كانت البلاد تحت سياسة عادلة لما كنت في حاجة إلى أن أحاول إعادة نظامها). . .

هذا وغيره من تاريخ الأمة الصينية وتاريخ فيلسوفها يعلمنا أن أول نظام كما إنما كان بالصين؛ فإن شئت أن أقول الهند وأسوق الدليل فعلت. فأنت ترى أن المذهب يتسع في الحضارات القديمة لكل رأي يحتمل به صاحبه إن شاء. واليونان من الأمم القديمة ذاتِ الحضارات القديمة، وإنما نفَعَها وجعَلَها مثابة لبحثِ كلُّ باحثٍ يريدُ أن يردّ إليها مذهباً من المذاهب، بقاءُ كثير من آثارها، ثم قيام أوربا الحديثة بإحياء ما ظمّ عليه الزمن من مدنيتها، وأخفى أمر الحضارات الأخرى ضياع أكثر آثارها أو بقاؤها في قبر من الإهمال والنسيان، وهمود النشاط في البلاد الشرقية التي هي أحق بإحياء آثارها.

هذا قليل من كثير يمكن أن يقال في مثل هذا الأمر من أمور التاريخ القديم وبعد هذه المقدمة، ساق الدكتور طه حديثه ببراعته التي لا يستعصي عليها غامض ولا بعيد ولا متشامخ. وأنا وإن كنت أظن أن الدكتور طه لم يوفق في كلمته كل التوفيق ولم يمس أغراضها إلا مسَّاً رفيقاً غامضاً بعيداً، فإني أعترف بأنه قد استطاع بحسن تحدُّره في المعاني أن يثير من الآراء ما يجبُ أن يُثَار في أفكار هذا الجيل، حتى يمكن بعد ذلك أن نستصلح من أمورنا ما أفسده طغيان الجهل واستبداد الحاكمين، وتوالي المصائب المرهقة على شعب نائم لا يستطيع أن يدفع عن نفسه أسبابها، ولا أن يذُودَ الوحوش الضاربة التي فَرَضتْ عليه بالاستعباد أقسى ما يمكن أن تبتدعه من ضروب الفتك والعدوان

الدولة والثقافة

فأهم ما تناوله الدكتور في حديثه هذا هو بيانُ موقف الحكومة من الأمة التي رضيتها أن تقبضَ على زمام الأمر فيها تصرفه بما ينفع الناس ويزيدهم قوة على قوتهم. فالأمم كلها قد أسلمت إلى حكوماتها أمر القيام على الثقافة والتعليم، وأعطتها من حُرِّ مالها ما تستطيع أن تنشئ به نظاماً كاملاً للتعليم يكون فيه رضي الشعب وحياطته وتوفير أسباب النهوض العقلي له، وحماية أفراده من أمراض الجهل وأوبئته التي تهد قوى الشعوب وتفتك بالعقول التي خلقها الله لتعمل في تدبير الحياة الإنسانية للوصول بها إلى الكمال الممكن على هذه الأرض

وإذا كانت الحكومة - أو الحكومات - تأخذ من الشعب الأموال المتوافرة الكثيرة بالضرائب التي تفرضها عليه في كثير من مرافق حياته كتجارته وزراعته، لتتخذ هذه الأموال في تدبير الجيش وإعداده وتسليحه وتقويته ليدفع عن الأمة شر المطامع الأجنبية التي لا تلبث أن تغزو البلاد إذا وجدت منه ثغراً مُضاعاً تنفذ إليه منه؛ فمن العبث أن تهمل شأن الفرد الذي يقوم به معنى الجيش، والذي هو المدد الأول للجيش بروحه وعقيدته وفكره وقوته. فالجيش الذي يتكون ويتجمع من شعب جاهل معذب بالجهل محطم بالضعف العقلي والخلقي، لا يمكن أن يكون جيشاً مؤتمناً على ثغور البلاد يحميها من غوائل الحروب

الأغنياء والفقراء

وإذا كانت الحكومات جميعاً لا تفرِّقُ في إمداد الجيش بين طبقات الشعب كلها ناظرة إلى الغنى والفقر، فمن الخطل الذي ليس بعده خطلٌ أن يقوم نظام تعليم هذا الشعب على التفريق بين الغني والفقير؛ فكلاهما قد فرض عليه أن يبذل دمه وماله وقوته وجهده في الدفاع عن أوطانه التي تحكمها هذه الحكومة؛ فمن حقه على الحكومة أن تمده بالأسباب التي يستطيع أن يدافع بها عن هذا الوطن. والأسلحة المختلفة هي بعض أدوات الدفاع، ولكن الأداة الكبرى في الدفاع إنما هي الرجل الذي يحمل هذه الأسلحة، فيجب أن ينصرف أعظم هَمِّها إلى أحياء الرجل في طبقات الشعب غنيها وفقيرها على السواء بالحرص على إعطاء الشعب غذاءه كاملاً من الألوان المختلفة من الثقافات المتعددة، كلٌّ على قدر طاقته ورغبته واستعداده، مكفولاً له الحرية في الاختيار مع التسديد والحياطة والنصح

والحكومة حين تنظر إلى قوى الدفاع تفرض الضرائب على نسبة الأموال التي يملكها الشعب غير مفرقة بين الغني والفقير في نسبة الضريبة التي تتقاضاها منه اقتساراً

وفريضة، فكذلك يشترك الغني والفقير على السواء في تحمل واجبات الحرب. فأولى إذن أن يشترك الغني والفقير معاً في القيام بأعباء التعليم والثقافة ونشرهما والمساواة في منحهما للغني والفقير على المساواة بغير تفريق. وليست تفرق الحكومات على الحقيقة بين الغني والفقير بقانون موضوع، وإنما هي تفرق بما هو أعظم خطراً من القانون الوضعي لأنه قانون الطبيعة وقانون القدر. فالغني يستطيع أن يدخل أبناءه جميعاً بيوت العلم من الابتدائي إلى العالي مستعيناً على ذلك بماله الذي استخلفه الله عليه، والفقير لا يستطيع أن يفعل مثل ذلك فيبقي أبناءه طعاماً للجهل الضاري وبقايا من فرائس الفقر المتوحش

ومن العجيب الذي لا يعجب إلا منه أن يكون في أمة من الأمم رجل تفضي إليه ثلاثة آلاف جنيه في العام، وليس له من الولد إلا ثلاثة أو أربعة يتكلف في تعليمهم ما لا يزيد عن مائة جنيه في العام كله، ورجل آخر يكون مالاً يدخل عليه مائتا جنيه في العام وله من الولد مثل الذي للأول فهو يدفع مائة مثل مائته أي نصف دخله! فما بالك إذن بالذين ينصبّ عليهم من الأموال ما لا يستطيعون التصرف فيه إلا أن يسفكوه على اللذات والمنكرات من النساء والخمر والقمار وحالقات المال والخُلُق وليس لهم ولدٌ، ثم يكون في الأمة آلاف مركومة من الإنسانية إلى ملايين تنسل وتلد وتمد الأمة بأسباب حياتها من الأبناء والبنات ولا يملك أحدهم ما يقوت به نفسه فضلاً عما يقوت به ولده، فضلاً عما يدفعه لوزارة المعارف أجراً للتعليم. . .! إذن فواجب الأمة أن تحمل الحكومات على تغيير نظام التعليم ونظام الضرائب، فتحصل الضرائب من الشعب كله على نسبة رأس المال والدخل، ليستخدم هذا المال المجموع من الضريبة في تعليم الشعب كله على المساواة بين غنيه وفقيره، ويلغى من وزارة المعارف نظام التحصيل، (تحصيل المصروفات المدرسية من أولياء أمور التلاميذ)! ويكون التعليم كله من أوله إلى نهايته مجاناً مبذولاً معرضاً لكل مستطيع وطالب وراغب بغير تفريق

وأحب أن أقول للدكتور طه، ولغيره من كتابنا، إنه حقٌّ عليهم أن يقوموا بالدعوة، وبالكتابة في مثل هذا الغرض النبيل الذي ينفع الناس ويرفع عن أعناقهم نِير العبودية التي يفرضها الجهل مرة والفقر مرات كثيرة. فإن كلمة الدكتور طه التي ألقاها، إنما سمعها عدد من الناس - أكبر الظن فيهم انهم قد طرحوا عبء التفكير فيها حين خرجوا من باب (قاعة يورت التذكارية)، كما تطرح الأعباء المثقلة. وليس شيء يحمل الحكومة على الجادة وعلى سواء السبيل كالصحافة وكتابها إذا أخلصت وتطهرت من الغرض والهوى والحقد والبغي والعدوان. . . فهل يمكن أن يكون هذا في مصر؟ فإن تسألينا: كيف نحن؟ فإننا ... عصافير من هذا الأنام المسخَّرِ

عناصر الثقافة المصرية

وقد حدد الدكتور طه ألوان الغذاء الروحي والعقلي الذي يجب أن يقدم للشباب، فجعله مركباً من ثلاثة عناصر: العنصر المتحدرُ من تاريخ مصر القديم - الفرعوني - وهو الفن؛ والعنصر المتغلغل في مصر الإسلامية، وهو الدين والأدب والفن العربي الإسلامي؛ والعنصر المتلبس بحياتنا الحاضرة منذ اتصلنا بغيرنا من الأمم التي نتعاون معها أو ننافسها، وهو العنصر الأوربي الجديد، وسترى بعد ما هو عند الدكتور طه أما العنصر الأول، وهو الفن الفرعوني القديم، فأنا أدعه للكلمة الآتية، فإن اللّبس كثير فيه، وقد زلّ على مزالقه أكثر أصحابنا ممن فُتنوا به عن صواب الرأي. وأنا أحب أن أتناوله بالبيان الذي يدفع عن مصر شرّاً كثيراً ويحقق لها ما نتمناه جميعاً من الخير وأما العنصر الإسلامي من الدين والأدب والفن، فقد أجاد الدكتور طه في الدعوة إلى العناية به لأنه أصل المدنية، ومن جَهِل في بلاد مصر - أو بلاد العربية على اختلافها - تاريخ الإسلام فقد حطّ في مَهوىً ينقطع به حبله الذي يصله إلى قومه وإلى حضارته وإلى مستقبل هذه الحضارة التي سوف تنبعث بنورها مرة ثانية في جنبات الشرق فيما أرى. ولكن الدكتور طه بعد أن تكلم عن الاجتماع العربي أو الإسلامي الذي عاشت عليه الأمة المصرية هذه الأجيال ولم تجد به بأساً - كما يقول - عاد فاستدرك عليه بقوله: (بشرط أن يتابع تطور المدنية الحديثة). فأنا والدكتور طه وكل عربي قد درِب بالحضارة وجرَّبها يعرف أن البناء الاجتماعي هو أصل المدينة، وأن الاجتماع إذا

صلح استطاعت كل القوى أن تعمل في بناء الحضارة بعقائدها وآرائها وإيمانها وفلسفتها؛ فإذا أردنا أن نجعل النظام الاجتماعي الإسلامي في العمل والتشريع والسياسة هو النظام فمن الخطأ الذاهب في الفساد أن نخضعه لتطور مدنية أخرى قد بُني اجتماعها على المسيحية في التشريع والسياسة والأخلاق. فمصر والشرق الإسلامي إذا أراد أن ينهض فلا بد له - كما قال الدكتور طه - أن يستمد نهضته من أصول الاجتماع الذي يربطه به التاريخ والدم والوطن واللسان والدين والوراثة، وإذا ساير فإنما يساير في فكرة مطلقة وهي (النهضة والحضارة والمدنية الإنسانية) على الطريق الذي يوافق طبيعة هذا الاجتماع. أما المدنية الحديثة فقد بنيت على غير ذلك وقد تطورت على أصوله؛ وليس بعد خطبة الملك جورج ملك الإنجليز ما يدع موضعاً للشك، فقد خطب الملك يوم 25 ديسمبر سنة 1939 في الاحتفال بعيد ميلاد المسيح - صلوات الله عليه - فذكر الاتحاد الإنجليزي الفرنسي للحرب ضد ألمانيا النازية فكان مما جاء في خطبته (ترجمة الأهرام): (إني أومن من أعماق قلبي بأن القضية التي تربط شعوبي معاً، وتربطنا بحلفائنا المخلصين الأمجاد هي (قضية المدنية المسيحية). (وليس ثمة قاعدة أخرى يمكن أن تبنى عليها مدنية صحيحة

ونحن ننظر إلى المدنية الأوربية هذا النظر، وكلام الملك جورج هو من أدق التصوير لحقيقة الحضارة الأوربية في نظر كل باحث نصراني أو يهودي أو مسلم. فإذا أردنا أن نتابع تطوّر هذا الضرب من المدنية بتبديل اجتماعنا - الذي دعا إليه الدكتور طه في حديثه - ليطابقه؛ فكأنما ندعو إلى (تنصير الإسلام). وما أظن الدكتور طه يرضى أن نصير هذا المصير!

والعجيب بعد ذلك أن يذكر الدكتور طه العنصر الثالث وهو الحضارة الحديثة الأوربية، فلا يدعو إلى الأخذ بشيء مما فيها دعوة صريحة إلا في الذي يتصل بالخلق ليكون عندنا الرجل الصريح الذي يتحرى ألا يكذب نفسه قبل اجتنابه الكذب على الناس، والرجل الذي يستطيع أن يقول: (لا) أو (نعم) حين يريد أن يقولها، لا حين يكره عليها!! ألا إن أخلاق المدنية الأوربية قد استعلنت جميعها في هذا البغي المتفجر في الحرب التي لا يعلم خَبْأها إلا عالم الغيب والشهادة، وإن أردنا أن نأخذ - أي نقلد - فلنأخذ من تاريخنا، من ديننا، من أخلاق رجالنا. . . من الذين استطاع أحدهم أن ينكر على عمر بن الخطاب أمير المؤمنين، ويقول له: (أتق الله يا عمر) فيقوم رجل يستأذن عمر في أن يأمره فيه بأمره، فينهاه عمر ويقول: (دعه، فلا خير فيكم إذا لم تقولوها لنا، ولا خير فينا إذا لم نقبلها منكم). فالرجولة هنا ليست أن يقول الرجل، ولكن أن يتقبل صاحب السلطان هذا القول بالخضوع والرضا؛ فهل فينا من يقبلها يا دكتور طه. . .؟ أو في النفاق الأوربي المتلبس بالرجولة طبقاً للمنافع في أكثر أمره إلا مَنْ عصم الله. . .؟ لا أدري

محمود محمد شاكر

رسالة الفن

من أسرار الفن

بطلة شارلي

للأستاذ عزيز أحمد فهمي

- تحدثت الصحف كثيراً عن الفلم الذي يخرجه شارلي شابلن الآن، وعينت موضوعه، وقالت إنه سيتناول حياة الديكتاتور هتلر، وزادت بعضها فسردت ملخصاً للفلم. وقد أهتم العالم كله بأنباء هذا الفلم لأنه سيكون الحرب التي يشنها الفن على القوة. . . ولكن هذا الاهتمام الكبير لم يتجه منه ولا جانب تافه إلى بطلة هذا الفيلم. . . ألست ترى شارلي مقصراً في الدعاية لبطلته، وأن الذي يدفعه إلى هذا التقصير أنانية في نفسه.

- يجب عليك أن تعلمي قبل كل شيء أن شارلي ليس هو المسئول عن هذا، فهو فيما أعتقد أبعد الناس عن الدعاية لأنه أقرب الناس من الفن الصادق. ثم يجب عليك أن تعلمي بعد ذلك أن حياة هتلر خالية من المرأة فيما يرى الناس. فإذا علمت هذا وذاك فإني أظنك ستعودين وتعتذرين لشارلي عن اتهامك إياه بالأنانية لأنه لم يقم الدنيا ويقعدها من أجل ممثلة تافهة سيمنحها المجد حين يبيح لها أن تقف إلى جانبه. . .

- يا سلام! أوليست هذه الممثلة التافهة هي التي سيبلغ بها نصف النجاح الذي ينشده؟

إنه رجل غدار لا وفاء له. وأكثر من هذا أنه يقصر حتى في أيسر المجالات
- بل إن شارلي متسامح. ويكفيه تسامحاً أنه لا يزال يسمح للنساء أن يظهرن على يديه، وأن يرقين إلى المجد على كتفيه، مع أنه بلغ بالمرأة كل الآلام التي تغمره. . . إنه رجل غفار، لا حقد عنده وأكثر من هذا أنه يجامل حتى في المعارك التي يخوضها في حياته. . .
- أية معارك هذه التي يخوضها شارلي في حياته؟
- كل أعماله معارك، وكل رواياته مواقع. وهو ينتصر فيها جميعاً، ويأبى دائماً إلا أن تكون إلى جانبه في كل نصر واحدة من بنات حواء، ينتشلها من غياهب الخمول انتشالاً وسموا بها إلى آفاق الذكر سمواً، ثم يرى نفسه مضطراً بعد ذلك إلى أن يتركها وأن يدعو غيرها. . . فله في كل رواية بطلة. . .
- إن هذا هو ما أعيبه فيه. فقد كان يجب عليه أن تكون له بطلة واحدة يفهمها تمام الفهم، ويحملها بمقدرته على أن تفهمه تمام الفهم، ثم لا يتركها ولا تتركه، فإذا كان قد عجز عن هذا لسبب من الأسباب فلم يكن عليه أقل من أن يعنى باختيار بطلة من المشهود لهن بالنبوغ تقف أمامه في أفلامه. . . فهكذا يفعل كل الممثلين الكبار في كل زمان ومكان. . . فلماذا لا يفعله هو إذا لم يكن الحقد يأكل قلبه، أو إذا لم يكن يخاف أن تكتسحه ممثلة قادرة؟
- وهل تعتقدين أنت أن الله خلق ممثلة تستطيع أن تكتسح شارلي؟ أنا لا أظن ذلك
- إذن فلماذا لا يقف أمام ممثلة نابغة؟ أهو أعظم من جورج آرليس، ووالاس بيري، وبول موني، وهاري بور، وشارلس لاوتون. . .
- ما أبعد الفرق بين هؤلاء وبين شارلي. . . هؤلاء كل منهم يمثل ذاتاً حدثت في زمن ما وفي مكان ما، أما هو فيمثل النكرة الذي يعرفه كل زمان وكل مكان
- وهل كان هتلر نكرة حتى يمثله؟
- إنه على الرغم مما فيه من شر فهتلر معرفة، ولكنه أصاب ذيوع تلك النكرة
- واعتماداً على شهرة هتلر واهتمام العالم بما يثيره فيه فإن شارلي يهمل بطلته. . .
- من قال هذا؟ إنه يهدي إلى العالم في كل فلم بطلة. . .
- إن هذا الجود وهذا الكرم مرجعهما عجزه عن أن يحتفظ لنفسه بواحدة
- بل هو عجزهن جميعاً عن البقاء إلى جانبه
- معذورات! فهو عجوز شاخ
- وما هذا عند التي تريد شارلي! شارلي الذي تحبه الدنيا ولم تشبع منه ولن تشبع. ألا تقبل امرأة واحدة من عرفهن أن تحتفظ به؟ حقاً إن للمرأة ذوقاً لا أدرك كنهه
- لعل شارلي الذي تحبه الدنيا غير شارلي الذي تجده المرأة في البيت. . .
- من غير شك، وإن شارلي الذي تجده المرأة في البيت لهو أروع بكثير من شارلي الذي يعرفه العالم. فهو فنان، وحياته خارج الأستوديو إنما هي تحضير لحياته داخل الأستوديو، فلو أن شارلي وجد التي تحب هذا التحضير كما تحب الوقوف إلى جانبه أمام الكاميرا لوهب لها حياته، ولوهب لها ماله ولوهب لها فنه، ولوهب لها نفسه مختاراً ومجبراً. . .
ولكن شارلي لم يجد هذه الفنانة بين اللواتي عملن معه، وبين اللواتي تزوج منهن، فهو معذور إذا تولى بالتبديل والتغيير بطلاته، وإذا فر من زوجاته. فبطلاته يتعشقنه في عمله يردن منه أن يربحن الثروة والمجد، وزوجاته يتعشقن اسمه وجاهه وغناه ويردن منه بعد ذلك أن يكون خارج عمله لهن هن لا لهذه الدنيا التي يستخلص منها مادة فنه
- أليس هذا حق المرأة على زوجها. . .؟
- قد يكون من حق المرأة على زوجها أن تستخلصه لنفسها إذا لم يكن زوجها فناناً صاحب رسالة. أما إذا كان زوجها مشغولاً حتى عن نفسه بما في الكون من آيات وبدائع، وإذا يعيش في هذه الدنيا مباحاً لكل من يريد أن يتذوقه وأن يأخذ منه، فلماذا لا تنكب عليه هي تستوعب كل ما يمكنها أن تستوعبه منه. . . ولماذا لا تجد في فنه المتعة. . . لماذا؟ إلا أن تكون نفسها عاجزة عن تذوق الفن والاستمتاع به. . .
- وهل تريد من زوجة الفنان أو من تلميذته أن تقضي معه الحياة متنقلة من ملحوظة إلى ملحوظة، ومن عبرة إلى عبرة، ومن أغنية إلى أغنية، ومن قصيدة إلى قصيدة. . .

ولا يكون لها منه ذلك؟
- وماذا تريد منه غير ذلك؟
- تريده هو؟
- وأي شيء فيه هو غير ذلك؟
- فيه أنه رجل، وأنها امرأة
- وإنه رجل وإنها امرأة. . . أوأنكر أحد ذلك؟
- إنه هو الذي ينكره. . . فهو فيما أظن لا يكاد يقيم علاقته مع صاحبته حتى يحسب أنه قد تم له ما يريد من الاستيلاء عليها، ثم يعمد بعد ذلك إلى ما يرضيه هو لا ما يرضيها هي. . . فهو يكثر معها من الحديث عما يراه في الدنيا وفي الكون وفي الملكوت. . . يحدثها عن النجوم والشموس والصراصير والنمل، وقد لا يخطر على باله طول السنين أن يذكر جمالها بكلمة، أو أن يمدح ثوباً من ثيابها أو أن يطري بعض زينتها ناسياً في هذا أن المرأة مخلوق لا يطيق الحياة وحده، وأنها تفزع كل الفزع ما لم تحس التهافت عليها. . . إنها يا أخي قد خلقها الله لغيرها. . . خلقها للرجل وهي لا تقوم بذاتها
- آمنت بالله، وبهذا الحق الذي تذكرين وما أقل ما تذكرين من الحق. . . ولكن ألا ترين يا سيدتي ويا تاج رأسي أن الرجل إذا تزوج من امرأة كان هذا منه كافياً يشهد بأنه معجب بها وبذوقها وبجمالها وبملابسها وبزينتها. . . ثم ألا ترين أنه إذا اختار تلميذة له فوجه إليها اهتمامه وجهوده كان هذا منه كافياً أيضاً يشهد بأنه راض عنها وعن كيانها بما فيه عقلها وجسمها وعلى الخصوص إذا كانت هذه التلميذة ممثلة ممن يلقن أن يكن بطلات في أفلام شارلي. . . إني أعتقد أن هذه الشهادة تكفي، وأنه لا داعي بعد ذلك يدعو شارلي أو غيره من الرجال إذا استيقظ من النوم في الصباح أن يقول لامرأته: ما أبهاك وما أروعك؛ وإذا عاد إليها في المساء أن يقول لها: ما أحلاك وما أجملك؛ وإذا صحبها في عمل أو في لهو أن يقول لها: ما أذكاك وما أبدعك. . . ألا ترين أن هذا لا يمكن أن يكون إلا خداعاً لا طعم له. . . إنني أرى في الصمت والهدوء علامة من علامات الرضى، وأحسب أن شارلي كذلك، فهو ما دام صامتاً وهادئاً مع زوجه أو تلميذته كان معنى هذا أنه راض عنها، وأظن أنه إذا رأى فيها عوجاً لفتها إليه. . . وهكذا يجب أن تكون حياة الناس. . . أساسها التسليم والرضا الصامتان لا تبادل الإطراء والمخادعة. . .
- إنك تقول هذا لأنك خائب مثلما أن شارلي خائب فأنا منذ رماني الدهر في طريقك لم أسمع منك كلمة واحدة ترضيني ولم أجد عندك إلا الكلام الذي يسمم البدن ويكسر النفس. . . تذكر شارلي، وتذكر مواقعه الغرامية في أفلامه، وقل لي بالله عليك هل رأيته يوماً عاشقاً لبقاً. . .
- إذا كانت اللباقة هي صناعة الغرام، فشارلي عاشق غير لبق. أما إذا كانت اللباقة هي الغرام الصادق، فاذكريه يا جاحدة في (أنوار المدينة) كيف عشق العمياء وكيف أخلص لها وكيف كان يضحك الناس من غرامه هذا والدموع يسيلها من مآقيهم تأثراً له وتفجعاً، ثم اذكريه في (العصر الحديث) كيف أحب المشردة الصغيرة، وكيف كان يحنو على اخوتها ويطعمها وإياهم طعامه هو. وإذا استطعت فاذكريه في (البحث عن الذهب) كيف زين مسكنه لحبيبته، وكيف جلس ينتظرها والطعام أمامه لا يذوقه ولا يمسه، وكيف تخلفت عنه وهو مازال ينتظرها إلى أن غفا، فكان الحب أحلامه، وكانت هي عروسها. فلما أفاق وأدرك أنها تخلفت، جن حزناً وطاشت أحلامه، ولكنها ظلت عروس أحلامه الطائشة. . .
إن شارلي من غير شك هو أروع وأخلد عشاق السينما، يقدره حق قدره الذين أحرق الحب قلوبهم وأفنى أفئدتهم، ولكنكن يعجبكن أدولف مانجو المتأنق السمج وكلارك جيبل المتحلي المباهي بقوته. . . أنتن لا يرضيكن إلا المنازلون. . . أما العشاق، فلهن منكن الزراية والسخرية. . . إن شارلي صادق كل الصدق يا هذه، وإن حياته الفنية لهي صورة حقة من حياته الطبيعية. . .
- وهذا هو ما أريد أن أقول. . . فكما أنه في حياته الفنية لا وفاء فيه لممثلة زميلة فإنه في حياته الطبيعية لا وفاء فيه لامرأة
- قلت لك إنه لا يخلص في زمالة امرأة لأنه لم يجد المرأة التي تخلص في زمالته، وهو لا يزال يرتجل بطلات لأفلامه لأنه لا يزال يبحث عن سكنه بين النساء، ولعلك

تذكرين أنه جن يوماً فأخرج فلم (الغلام) من غير بطلة امرأة وزامل فيه جاكي كوجان، وقد كان ذلك لأنه جن يوماً فطاش في الحياة لا يقف عند امرأة ولا يرتاح إلى أنثى.
ولعلك ترين أنه قد عدل أخيراً عن الممثلات الناضجات الأنوثة ذوات التجارب في الرجال إلى ممثلات أخريات صغيرات لم يعرفن الرجال لا الممثلين منهم ولا غير الممثلين، وقد حدث ذلك لأنه في حياته عدل عن تقصي الحب بين النساء ذوات التجارب إلى تقصيه بين الفتيات الساذجات
- وإلى أين سينتهي شارلي في بحثه هذا يا ترى؟
- أغلب الظن أنه إذا لم يسعفه القدر سريعاً بما يصبو إليه من الحب، فإنه ربما عدل عنه، وعندئذ سنرى شارلي في أفلام لا نساء فيها. . .
- وهل يمكن أن يظهر فلم من غير نساء؟ إنه لن يكون غير خرافة، فالدنيا ليست الدنيا مما لم تزينها المرأة. . .
- هذا هو كلامكن، وكلام الذين يضحكون على عقولكن. وإلا فقولي لي من هي المرأة التي كانت في حياة كافور الإخشيدي
- أولم تجد غير هذا الأغا مثلاً. . .
- وهل أبرع وأبرز من مثل هذا العبد يشتريه سادته بالمال فإذا هو الملك الحاكم؟
- إن شارلي نفسه مقتنع بأنه لابد لفلمه من بطلة، وأنا أؤكد لك أن بوليت جودار التي أظهرها في فلمه الأخير (العصر الحديث) سوف تظهر إلى جانبه في الديكتاتور
- ومن أين جاءك هذا؟
- روته صحف أمريكا. بعد أن قيل إن بوليت غادرته. . .
- إذن فلن يكون شارلي أنانياً كما قلت في البدء
- إنه أناني وأناني وأنا لازلت أشك في إخلاصه لتلميذته الصغيرة
- أما هو فثقي أنه مخلص كل الإخلاص، وهو لا ريب يرجو السماء والأرض أن تحفظ عليه بوليت، ولكن الشيء الذي أخشاه، والذي قد يخشاه هو أيضاً هو أن تكون بوليت هذه على الرغم مما يبدو عليها من ملامح الطهر والبراءة. . . امرأة صغيرة قد تنكرت بالطهر والبراءة وركبت بهما ظهر شارلي حتى استطاعت أن تظهر معه في فلمين متتابعين، وهذا من غير شك يعتبر حادثة في تاريخ ذلك الفنان العظيم. . . وبعدئذ. . . من يدري إذا ذاع اسم بوليت، واعتبرها الناس نجمة مستقلة لا تحتاج إلى شارلي ولا إلى اسمه في تجارة الفن، وآمن بهذا المخرجون وأصحاب رؤوس الأموال. . . أتظل على وفائها له فتبقى معه. . . أم تفر منه كما فرت الأخريات. . . من يردي. . . إنها على أي حال تجربة شارلي الأخيرة فيما أعتقد. . .

عزيز أحمد فهمي

رسالة العلم

أرقام تتحدث

طريقة تعداد الذرات

للدكتور محمد محمود عالي

من (أحمس) المصري إلى (بيران) الفرنسي - الجسيمات التي استخدمها (بيران) في تجاربه - كيف تتوزع هذه الجسيمات الدائمة الحركة - يختلف الجو الذي ابتدعه (بيران) عن الجو الذي نعيش فيه

لقد تنفس العالم الكبير (بيران) في القرن العشرين بعد الميلاد الهواء ذاته الذي تنفسه (أحمس) في القرن العشرين قبل الميلاد أو ما يقرب من ذلك العهد، ومع ذلك استطاع الأول بتجارب علمية دقيقة، وعمليات رياضية عالية، أن يعرف عدد ما في حجم معين من الهواء من ذرات؛ بينما وقفت معارف الثاني عند حد معرفة القواعد الحسابية الأربعة: الجمع والطرح والضرب والقسمة، ومعرفة الكسور والتقسيم التناسبي وحساب المتواليات، ولم يكن يجهل معادلات الدرجة الأولى.

والذين يراجعون معنا الآن أعمال (بيران) يدركون كيف اهتدى إلى إحصاء الذرات الدقيقة، دون أن يكون في حاجة إلى رؤيتها، وكيف خلص من هذا إلى معرفة قدر الإلكترون، أصغر ما في الكهرباء وأحد المكونات الهامة في الوجود، دون التجاء إلى استخدام عمليات كهربائية، وهو بتعيينه قدر الذرة وقدر الإلكترون أقام في نفس الوقت الدليل على وجودهما، فقطع بذلك مرحلة من أهم مراحل العلم، تتخلص في

كلمات هامة ومحدودة: ذلك أن التجزؤ المادي وعدم الاتصال في أجزاء المادة حقيقة موجودة.

والذين يستعيدون منا أعمال (أحمس)، ويتلمسون ذلك في كتابه الذي ترجمه (إلْسِنلوهر) إلى الألمانية من الأصل المخطوط على أوراق البردي المحفوظة في المتحف البريطاني يعلمون أنه كان يعرف أن يقوم بحساب أبعاد فاكهة مستديرة أو تحديد مساحة قطعة من الأرض، وأنه كان يعرف قدر الخبز لحجم معين من الدقيق، بل يعرف قدر الطعام الذي يزدرده الإوز وتلتهمه العجول

أما (أحمس) فقد صاغ الفكر في نسق يتسق وما كان يحتاج إليه معاصروه، فلمس ببراعة حاجات هذا العهد، وعرف كيف يعالج ما يعرض له من مسائل بتفكير إنساني منسق، وبمجهوده ومجهود من تقدموه ارتقى الإنسان وصار يثوارث المعرفة جيلاً عن جيل، واحتفظت الإنسانية بطابع من التقدم عهداً إثر عهد، ونمت المعارف فوصلت إلينا سلمية قوية - أما (بيران) فقد وجد ميراثاً علمياً سليماً كانت أعمال (أحمس)، والإغريق من بعده من أهم ما مهد لهذا الميراث العظيم، فلا يستضعف أحد ما ذكرنا من حساب (أحمس) لما تزدرده الإوز وتلتهمه العجول، وغير ذلك مما كان شغله الشاغل عندما نذكر مشاغل إنسان اليوم جلية فيما قام به (بيران) من تعداد للذرات ومعرفة لأقدارها، فعند ظني أن ما عرفه الأول يصل إلى النصف من كل ما ورثناه من علوم، وأننا لسنا إلا على أبواب مرحلة جديدة في تاريخ الفكر البشري

ولندع الآن حديثاً أرجو أن يكون قد بعث في النفس صورة من الماضي البعيد في شيء من التأمل لنعود لبيران فنذكر عمله الإنشائي ونرى معاً ماذا أفاد من المسائل الرئيسية الثلاث الخاصة بالغازات التي ذكرناها في المقال السابق: المسألة الأولى أن ثمة علاقة تربط الضغط والحجم والحرارة للغاز، بحيث أن حاصل ضرب اثنين من هذه المتغيرات يساوي المتغير الثالث مضروباً في عدد ثابت؛ والثانية أن في الحجم الواحد يوجد في الضغط الواحد والحرارة الواحدة العدد ذاته من الذرات الغازية مهما اختلف نوع الغاز؛ والثالثة هو تَغيّر الضغط في عامود غازي وفق متوالية هندسية

ولقد ذكرنا أنه قد أدت هذه المسائل الثلاث إلى استنباط علاقة أوردناها في مقالنا السابق علاقة نعرف منها النسبة الواقعة بين ضغطين في غاز في موضعين تفصلهما مسافة رأسية، إذا عرفنا الوزن الجزيئي للغاز والعجلة الأرضية وثابت الغازات والحرارة المطلقة، ولقد ذكرنا أن النسبة الواقعة بين ضغطين في الغاز في موضعين مختلفين هي النسبة بين عدد الجزيئات في هذين الموضعين، بحيث إذا عرفنا الضغط أو عدد الجزيئات عند مكان معين أمكننا أن نعرف الضغط أو عدد الجزيئات عند مكان يرتفع عنه مسافة معينة، وقد ذكرنا فرض (أفوجادرو) القائل بأن هذا العدد للجزيئات الموجود في الوزن الجزيئي - أي الموجود في الحجم الواحد لجميع الغازات هو عدد ثابت لا يتغير - يسميه العلماء عدد (أفوجادرو) ومن المناسب أن نورد هنا للقارئ فكرة عن هذا العدد الكبير، فهو يبلغ حوالي 68 2210 من الجزيئات، وهو العدد الموجود في 32 جراماً من الأوكسجين مثلاً أو 22. 4 لتراً منه، أو من غاز آخر، وهو العدد الذي حاول (بيران) بعمله الإنشائي أن يعرفه، فيعرف منه قدر الذرة وقدر الإلكترون.

وطبيعي أنه لا يجوز أن يخطر ببال هذا العالم أو غيره أو يحاول بطريقة مباشرة أن يحصل على أحد هذه الجزيئات أو إحدى هذه الذرات ليتمكن من قياس وزنها أو قطرها أو كثافتها فهي متناهية في الصغر إن قورنت بكل ما نستطيع أن نتناوله على حدة من الأجسام، ويكفي القارئ أن يعلم أنها من الضآلة بحيث يمكن أن تندمج في جسمنا بالنسبة ذاتها التي يندمج فيها هذا الجسم في الشمس، أو بالنسبة التي تندمج فيها حشرة صغيرة في جسم الأرض، ولكن (بيران) عمد إلى العثور على هذا النوع من التوزيع الغازي في وسط آخر غير الغازات ذات الجزيئات أو الجسيمات الصغيرة، وسط يستطيع أن يقيس ويزن فيه الجسيمات ويعرف خصائصها بوسائلنا العادية ومقدرتنا المعهودة، فعمد إلى الحصول على كرات

صغيرة من أنواع مختلفة من الأصماغ يبلغ قطر الواحدة منها في معظم تجاربه كسراً ضئيلاً من الميكرون (الميكرون من المليمتر) وقد ترك (بيران) هذه الكرات في عمود 10001 من السائل. ومما يلاحظ أن هذه الكرات الصغيرة، عندما تدخل السائل، تقع في حرب شعواء بين الجاذبية الأرضية التي تدفع بهذه الجسيمات نحو الأرض وبين الحركة البروانية التي سبق أن أشرنا إليها في مقالاتنا، وهي الحركة الناتجة من حركة جزيئات السائل ذاته والتي تدفع بها في كل جهة، بحيث أنه بعد فترة معينة يحدث نوع من الاتزان بين كل هذه العوامل، تتوزع بعدها هذه الجسيمات في السائل أي بين جزيئات السائل توزيعاً خاصاً، بحيث تكون كثيفة العدد في أسفله قليلة كلما ارتفعنا فيه

ومما يجدر بالملاحظة أن هذه الحالة من التوزيع لا تفترق عن حالة توزيع الجزيئات الغازية في عمود غازي أو في الجو مثلاً، وهو التوزيع الذي تحدثنا عنه سابقاً، فهذه الأجسام كلها صُغرَتْ أو كُبرت واقعة تحت تأثير عاملين: العامل الأول اجتذاب الأرض إياها والعامل الثاني حركة الجزيئات نفسها أي الحركة البروانية، وليس ثمة فارق بين الحالتين حالة الجزيئات الغازية وحالة الجسيمات الكولوبدية سوى أنه في هذه الحالة الأخيرة يوجد تفاوت في درجة التوزيع بالنسبة للارتفاع يرجع إلى التفاوت الذي بين وزن هذه ووزن الجزيئات الغازية، فمثلاً يكفي أن ترتفع في سائل يحوي كرات من التي قطرها كسر من الميكرون (وهي الكرات التي صاغها (بيران)) حوالي 201 من المليمتر حتى ينقص عدد الجسيمات في الحجم الواحد إلى نصف عددها الأول حين يجب أن ترتفع في عامود من الغاز مثل الأوكسجين حوالي خمسة كيلومترات لينقص عدد الجزيئات في الحجم الواحد إلى هذه النسبة، وهذا يحملنا على التفكير في أن وزن أحد هذه الجسيمات التي استخدمها بيران يصح أن يكون حوالي مائة مليون مرة قدر وزن الجزيء من الأوكسجين

والواقع أنه كان من الميسور أن يصل الباحثون إلى علاقة تربط نسبة عدد جسيمات ميكروسكوبية متروكة في سائل تتوزع فيه مع عدد (أفوجادرو) السابق الذكر، وهي علاقة يمكن استنتاجها من العلاقة أو المعادلة التي سبق أن نوَّهنا عنها في الغازات التي ذكرناها في مقالنا السابق، وهذه العلاقة الثانية التي نذكرها في هامش هذه الصفحة هي علاقة تجد في أحد طرفيها النسبة بين عدد الجسيمات الميكروسكوبية أي الكولويدية الحائرة في السائل في موضعين مختلفين، وتجد في الطرف الثاني عدة متغيرات وثوابت، أهم ما في هذه الثوابت عدد (أفوجادرو) الذي ذكرناه والذي هو محل بحثنا

ولعل القارئ يرى أن وزن هذه الحبيبات أو حجمها الذي في استطاعتنا الوصول إليه هو الوصلة للأوزان الذرية التي يعتبر الوصول إلى وزنها بالذات خارجاً عن طوقنا ولا ريب في أنه يعوزنا كتاب كامل لنشرح للقارئ العقبات الكبرى التي ذللها (بيران) وتلاميذه للقيام بهذه التجارب التي استخدموا فيها جسيمات قطرها 102 من الميكرون وجسيمات أخرى يختلف قطرها عن هذه. وثمة صعوبات في صوغ هذه الجسيمات بطرق مختلفة ومواد مختلفة، وتتفادى الاستقصاء في وصف الوسائل المختلفة التي عمد إليها هذا العالم في قياس هذه الجسيمات، وسائل تمت إلى التطبيق الهيدروديناميكي طوراً وإلى الطرق الطبيعية تارة أخرى، وهي الوسائل العديدة التي صدرت عنها أطروحات جامعية

عديدة طالعنا بعضها وناقشنا البعض الآخر
ترى هل وجد (بيران) بعد ذلك المجهود وبدراسة هذه الجسيمات الحائرة أبداً ذلك التوزيع اللوغاريتمي الموجود في الغازات؟ وهل استطاع أن يعثر من دراسة هذا التوزيع فيما اختاره من جسيمات على عدد (أفوجادرو) ذاته الذي كان يتوقعه والذي كانت تدل عليه عمليات أخرى تختلف في طريقها وجوهرها عن موضوع (جان بيران) الحالي؟ هذا ما ندل عليه القارئ في مقال قادم حيث يقف على ما استنبطه بيران من ملاحظة مستمرة لهذا الجو الجديد الذي ابتدعه وصنعه لنفسه، هذا الجو الجديد ذو الجزيئات الكبيرة يختلف جد الاختلاف عن الجو الذي نعيش فيه، ففيه تمثل أهرام الجيزة مثلاً مقداراً أقل من الواحد على ألف من المليمتر
وسيرى القارئ كيف أوصلنا عمل (بيران) المضني إلى شيء جدي في الوجود وكيف طلع علينا هذا العالم بأسطورة خالدة من قصص الكون وكيف اقتنع كغيره أن المادة وسط منفصل غير متصل وأنها مكونة من ذرات تحمل في طياتها إلكتروناتها الأبدية وكيف وثق أن للذرة قدراً وللإلكترون قدراً لا يتجزأ وأن هذه وحدات في الكون تُعد من خصائصه كما
تعد الأصابع العشر من خصائص الإنسان.
(يتبع)
محمد محمود غالي
دكتوراه الدولة في العلوم الطبيعية من السوربون
ليسانس العلوم التعليمية. ليسانس العلوم الحرة. دبلوم
المهندسخانة
القصص
الاعتراف
للكاتب الفرنسي موريس ليفل
وقفت لحظة أمام الباب وأنا ساكن متردد في الدخول. ولم أخط العتبة إلا حين نبهتني المرأة التي جاءت بي بقولها: (هنا يا سيدي تفضل!)
لم أر شيئاً عند دخولي سوى المصباح الخافت الموضوع في ركن الغرفة. ثم أخذت أتبين إلى جانب الحائط فراشاً تمدد عليه جسم طويل هزيل حاد التقاطيع. وكانت رائحة النفط تملأ فضاء الغرفة، والصمت شامل كصمت القبور.
ومالت المرأة على الفراش صائحة: (هاهو ذا السيد الذي أرسلتني في طلبه. . .)
فنهض الشيخ المدد على الفراش نصف نهوض وتمتم في صوت خافت:
- حسن. . . حسن. . . اتركينا معاً. . .
فلما أغلقت المرأة الباب وراءها، قال الرجل:
- أدن مني يا سيدي. . . أجلس هنا على الكرسي الموضوع بجانب الفراش. . . إنني أكاد أكون أعمى أصم. معذرة من إقلاقي إياك، فلديّ شيء خطير أريد أن أفضي إليك به
كان وجه ذلك الرجل بارز العظام شديد الشحوب. وقد ظل برهة يحدّق فيّ بعينيه الواسعتين. ثم واصل حديثه بصوت متهدج:
- ولكن قبل كل شيء، هل أنت السيد جرينو النائب العمومي؟
- نعم
فتنفس الصعداء ثم قال:
(إذن يمكنني الآن أن أدلي باعترافي. لقد أمضيت خطابي لك باسم بريبه، وليس هذا اسمي الحقيقي. ومن الجائر أنك كنت تتذكر معرفتي لولا ما غير الموت من معالم وجهي. . . ولكن دعنا من هذا. . .
منذ سنوات كثيرة، كنت وكيل نيابة. كنت واحداً من الرجال الذين يقول الناس عنهم: إن أمامه مستقبل باهر. وكنت عاقداً العزم على تحقيق هذا الرجاء. ما كان ينقصني سوى الفرصة لإظهار مقدرتي؛ وقد هيأت لي تلك الفرصة قضية في محكمة الجنايات. حدثت
تلك الجناية في إحدى ضواحي باريس، وقد أثارت في حينها اهتماماً شديداً بين الناس وخاصة في البيئات القانونية. كانت الشبهات قوية في المتهم، ولكن ينقصها الإثبات

القاطع. ولقد دافع المتهم عن نفسه دفاعاً قوياً حتى أحسست وأنا في كرسي النيابة بشعور الشك بل بالعطف يستولي على المحكمة. وأنت تعلم ما لهذا الشعور من تأثير!
ولكني كذبت بالبراهين المنطقة القاطعة كل ما أنكره المتهم، وأزحت الستار أمام القضاء عن سلسلة من الحقائق لا مجال للشك فيها. ولأستطيع أن أقوي أدلة اتهامي، كشفت عن نفسية الرجل وعن ماضي حياته مظهراً كل ما في خلقه من ضعف وما في أعماله من دناءة. وختمت مرافعتي القوية بطلب القصاص من المجرم! وقام الدفاع بعد ذلك بكل ما في مكنته لتفنيد أدلتي، ولكنه حاول عبثاً. . . وحكم على الرجل بالإعدام
لم يكن للعطف على السجين حينذاك مجال للوصول إلى نفسي. فلقد كنت مندفعاً في إثبات مقدرتي وفصاحتي، وكان الحكم عليه انتصاراً باهراً لي
ورأيت الرجل ثانية في صباح يوم التنفيذ. ذهبت لأراه وهم يسوقونه إلى المقصلة. فلما رأيت وجهه الغامض اعتراني فجأة شيء من الاضطراب والضيق. . . إن تفصيلات تلك الساعة المشؤومة لا تزال ماثلة في مخيلتي!. . . لم يبد أي مقاومة وهم يوثقون يديه وقدميه. لم أجسر في تلك اللحظة على النظر إليه، لأني شعرت بأن عينيه مصوبتان نحوي في هدوء غير معهود. ولقد صاح حين خروجه من باب السجن ومواجهته المقصلة: إني بريء! وخيّم السكون على الحاضرين كأن على رؤوسهم الطير. ووجه الرجل الكلام إليّ قائلاً: أنظر إليّ وأنا أموت، فإن ذلك يستحق بضع دقائق من وقتك. ثم عانق القسيس ومحاميه. . . وكانت برهة من أفظع ما مر في حياتي
في خلال الأيام التي مرت على ذلك الحادث، كنت مبلبل الخاطر مضطرب الفكر. كان موت ذلك الرجل هو الشيء الوحيد الذي يستولي على ذهني فلا يدع مكاناً لسواه. وقد كان زملائي يطمئنونني بقولهم: إن ذلك يحدث دائماً في أول مرة
وكنت أصدقهم. إلا أني أدركت على تراخي الزمن أن هناك سبباً لهذا الاضطراب وهو: الشك! ومنذ اللحظة التي فطنت فيها إلى ذلك لم يهدأ لي بال. كنت لا ألبث أن أسائل نفسي: ترى هل كان الرجل بريئاً؟
جاهدت بكل ما في استطاعتي أن أبعد عن خاطري تلك الفكرة، محاولاً أن أقنع نفسي أنه مجرم؛ ومحال ألا يكون كذلك، ولكني كنت أعود فأسائل نفسي: أي دليل حقيقي على إجرامه؟ وتتمثل في مخيلتي لحظات الرجل الأخيرة وهو واقف على المقصلة في هدوء، ويطن في أذني صوته وهو يقول: إني بريء!
قال لي يوماً أحد الزملاء:
ما كان أبدع دفاع هذا الدفاع عن نفسه! لقد كان من المدهش أنه لم يُبرّأ. . أقسم لك أني لو لم أسمع مرافعتك لاعتقدت أنه بريء!
إذن كان سحر كلامي وقوة رغبتي في النجاح، هما اللذين تغلبا على تردد النظارة، وربما كان لهما أكبر الأثر في تكوين رأي المحكمين. أنا وحدي كنت السبب في قتل هذا الرجل. فإذا كان بريئاً، فأنا وحدي المجرم المسئول عن موت هذا البريء. . .
إن الإنسان لا يتهم نفسه بشيء دون أن يحاول الدفاع عنها وقبل أن يقوم بكل ما يمكن ليريح ضميره. ولقد كان هذا شأني بالنسبة لهذه القضية: فلكي أنجو بنفسي من هذا الشك المؤلم، راجعت أوراق القضية من جديد. . . ولما أعدت قراءة مذكراتي ومستنداتي، وجدت كل ما بها منطقياً معقولاً. . . إلا أنها مذكراتي أنا ومستنداتي أنا، وهي عمل عقلي الذي حكم على المجرم أولاً، ثم راح يبحث عن الأدلة، عمل إرادتي، وقد استعبدتها الرغبة في إثبات الجريمة على المتهم. . . فدرست وجهة نظر الدفاع من جميع وجوهها. . . أعدت قراءة إجابات المتهم وشهادات النفي الخ. . . وقررت أن أتأكد من بضع نقط فيها شيء من الغموض، ففحصت المكان الذي وقعت فيه الجريمة بدقة، وسألت شهوداً كان قد أهمل استجوابهم. فلما فرغت من دراسة هذه التفاصيل انتهيت إلى نتيجة حاسمة: وهي أن الرجل كان بريئاً!
وكأن الظروف أرادت أن تشغل ضميري، فصدر الأمر وقتئذ بترقيتي!. . . ترقية هي في الواقع ثمرة لجريمتي الشنيعة.
كانت الشهامة تقضي بأن أعترف بخطئي على الملأ حتى يكون في ذلك عبرة وعظة لغيري. إلا أني كنت أجبن من أن أفعل ذلك. كنت أخشى غضب الناس واحتقار الزملاء،

فاكتفيت بتقديم استقالتي دون أن أبين بها الأسباب، ثم سافرت بعيداً عن باريس. ولكن وا
أسفاه!. . . إن البعد لا يجلب النسيان
ولقد صار كل همي في الحياة بعدئذ أن أكفر عن خطيئتي التي لا تقبل إصلاحاً. كان الرجل شريداً لا أهل له ولا أصدقاء يمكنني أن أعوضهم عن فقده بالمال. فقررت أن أخصص كل ما أملك من ثروة لمساعدة البؤساء والمنكوبين من أمثاله، عازفاً عن مسرات الحياة. وهكذا عشت وحيداً منسياً حتى هرمت قبل الأوان
ولقد أنقصت نفقاتي الخاصة إلى أدنى حد ممكن. . . ففي هذا الجحر عشت شهوراً وفيه أدركني المرض الذي أموت به الآن. . . والآن يا سيدي قد وصلنا إلى ما أريده منك. . .)
وازداد خفوت صوته حتى صرت مضطراً أن أراقب شفتيه المختلجتين لأستعين برؤية حركتهما على تفهم كلماته
لا أريد أن تموت هذه القصة بموتي. أريد منك أن تعلنها على الناس درساً لأولئك) الذين من واجبهم أن يقتصوا من الناس ولكن بالحق، لا أن يجلبوا العقاب للناس على أي حال. أريد أن تكون هذه القصة ماثلة أمام عيون رجال النيابة العمومية وهم يؤدون واجبهم في طلب رأس المجرم)
فأكدت له أني سأفعل ما يطلبه
وازدادت رعشة الرجل وهو يواصل حديثه قائلاً:
ولكن ذلك ليس كل شيء. . . لا يزال لديّ بعض المال. . . لم يتسع الوقت) لتوزيعه. . . إنه هناك في درج هذه الخزانة. أريد منك أن توزّعه بعد موتي. . . لا باسمي، بل باسم ذلك الرجل الذي كنت سبباً في إعدامه منذ ثلاثين عاماً. . . وزّعه على الفقراء باسم راناي)
فحملقت مردداً:
- راناي؟!. . . لقد كنت أنا المحامي عنه فهز رأسه متمتماً:
- أعرف ذلك. وهذا هو السبب في طلبي إياك. لقد كنت مديناً لك أنت بهذا الاعتراف. أنا ديرو، وكيل النيابة
ثم غمغم ببضع كلمات أخرى لم أتبين منها سوى كلمة راناي
هل خنت سر المهنة؟ هل خرقت القواعد التي تحتمها صناعتي؟ إن المنظر المؤلم لهذا الشخص الذي يموت على تلك الحالة التعسة، قد استدرج الحقيقة إلى لساني رغماً عني، فصحت قائلاً:
- مسيو ديرو! مسيو ديرو! لقد كان راناي مجرماً!. . . لقد اعترف لي وهو في طريقه إلى المقصلة. أخبرني بالحقيقة حين كان يودّعني. . .
ولكن مسيو ديرو كان قد سقط على الوسادة ميتاً
ومازلت حتى الآن، كلما مرّت هذه الحادثة بفكري أحاول إقناع نفسي بأنه سمعني
صلاح الدين كامل
من هنا ومن هناك
لا تلم فرساي!
(ملخصة عن مقال (للمركيز أوف لوثيان))
أود قبل كل شيء أن أقول كلمة عن معاهدة فرساي. فقد أصبح الأسلوب الجديد لدعاية الدكتور (جوبلز) أن ينسب إلى هذه المعاهدة المظلومة كل سيئة. . . إن معاهدة فرساي لا تخلو من أوجه للنقص. إلا أنه من السخف أن نعزو إليها كل شر في الوجود
قال أحد الرجال البارزين من الألمان الديمقراطيين بتمهل: إن ثلاثين في المائة من الأسباب التي أدت إلى ظهور الاشتراكية الوطنية تعزى إلى معاهدة فرساي، وثلاثين في المائة إلى نقص الروح الديمقراطية في نفوس الألمان، وثلاثين في المائة إلى وسائل الضغط التي اتخذت ضد الشعب منذ عام 1929. ولكني أود أن أدخل شيئاً من التحوير على هذا الوضع، فالهتلرية في نظري هي وليد نمته البلشفية وغذته بنظامها الوطني الاقتصادي الذي وضعته ليشمل سائر أنحاء العالم

نحن حريون ألا ننسى تلك المبادئ التي دافعنا عنها دفاعنا المعهود ما بين 1914 - 1920. لقد بدأنا عهداً جديداً في تلك الفترة إذ قضى عالم قديم، وظهر في الوجود عالم جديد. وكانت العلاقات الدولية قبل سنة 1914 تسير على مقتضى السياسة القديمة. فكان من الطبيعي أن تفكر كل أمة فيما يهمها ويهم أبناءها وحدهم، وقل أن تفكر في شأن من شؤون الأمم الأخرى

إلا أننا في سنة 1914 رأينا الأمم الديمقراطية التي كانت لا تهتم إلا بشئونها الداخلية، بدأت تفكر في العلاقات الدولية العامة. والديمقراطية بحكم وجودها لا تحلم بالقوة، ولكنها تحلم بالمثل الأخلاقية العالية. وإذا كانت الأمم الديمقراطية لا تعيش لهذه المثل على الدوام، فمنها ولا شك الكواكب التي تسهر على حراستها، وتصونها من الضياع ومنذ ظهرت عناية الأمم الديمقراطية بالشؤون الدولية العامة، أخذت تفرض مبادئها على سائر الأمم. فالإنسانية في نظرها وحدة لا تتجزأ. وسائر الأمم والأفراد لهم الحق في الحياة والحرية والسعادة. والشعوب المتأخرة لها أن تتخلص من الاستغلال الممقوت وتتمتع بنظام الحكم الذاتي. والدول الصغيرة والكبيرة سواء أمام القانون.

وقد رؤى أن خير وسيلة

لتجنب الحرب هي إيجاد قانون صحيح يحكم بين الأمم

هذه هي المبادئ التي آتت ثمرها الحرب العظمى بعد توقيع معاهدة السلام في باريس عام 1919 وهي مبادئ قويمة ذات أثر لا ينكر في إسعاد العالم. وقد دافع عنها الرئيس ولسن دفاعاً مأثوراً، ولكن الدول الديمقراطية لم تكن تقدر أن العالم لازالت تحركه المطامع وحب السيادة والسلطان، وأن المبادئ القديمة لازال لها أنصار يتعلقون بأذيالها

وليس هذا هو السبب الوحيد في نشوب الحرب مرة ثانية، ولكنه من الأسباب القوية التي أدت إليها، ونحن لا ندري إذا كانت هذه الحرب ستنتهي بنا إلى الحرية المنشودة، أم أنها سترجع بنا إلى همجية العصور الخالية

لقد وفت الدول الديمقراطية بعهودها التي قطعتها على نفسها في معاهدة فرساي، فأعطت كل أمة الحق في تقرير مصيرها، وبذلت ما في وسعها لحماية الأقليات أما هتلر فهو في الحقيقة لا يناضل من أجل الحدود التي قررتها هذه المعاهدة، ولكنه يناضل لهدم فكرة الديمقراطية من أساسها.

الفن والحرب

ملخصة عن (ذي إيفننج نيوس))

يشترك في الحرب الحاضرة عدد كبير من الفنانين رجالاً ونساء، إما بالعمل في ميادين القتال أو المشاركة في الأعمال الأخرى التي تقتضيها الحرب. وقد يجد هؤلاء بعض العزاء فيما يسمعون عن حياة رجال الفكر الذين عاشوا قبلهم في أيام الحروب هل أسكتت الرحب شكسبير؟ أو أخمدت المنازعات صرخات وجنر الغاضبة، أو أثرت في شجاعة بيتهوفن؟ لا، والحمد لله!

لقد نشأ شوبان في بولندا وهي تناضل بغير جدوى لاستعادة استقلالها، وقد كان في (سنتجارت) حين جاءه نبأ سقوط (وارسو) في أيدي الروس، فكان لهذه الحوادث أثر لا ينكر في شحذ قريحته، وإمداد بالإلهام الصادق والدراسة الرفيعة. فلما رحل شوبان إلى باريس صارت له باريس وطناً ثانياً، وأحلته منها مكاناً مرموقاً لما يحمله الفرنسيون لبولندا من العواطف الجميلة. وقد كتبت جورج ساند التي أحبها شوبان وعاشت بعد وفاته - كثيراً

من مؤلفاتها الرائعة ووطنها فرنسا في حرب عنيفة مع الأعداء. لاشك أن الحرب لم تكن عاملاً مخيفاً في تلك الأيام كما هي اليوم، ولكن مهما تكن الحال فإن الفنانين يشعرون بمآسي الحرب أكثر من سواهم، وهذا مما يزيد ارتباطهم بالعالم إبان الحرب أخبرتنا (فيولا مينل) في الكتاب الذي وضعته عن أمها، أن (آليس مينل) كانت تشعر بصدمة قوية في أعماق نفسها عند نشوب الحرب. ومع ذلك فقد كتبت آليس الكثير من أرق وأبدع أشعارها في تلك الأيام العصيبة

وقد يتحرك الشعراء بعامل الدفاع عن الحرية كما فعل (بيرون) باشتراكه في الحرب للدفاع عن استقلال اليونان. ومن الشعراء من هزوا النفوس بأشعارهم في الحرب العظمى 1914 - 1918 مثل روبرت بردك، وليم نويل هودجسون، جوليان جرنفيل،

سيسيل شسرين، إدوارد توماس. وقد ذهبوا جميعاً ولم يعد أحد منهم إلى عالم الوجود. أما الذين عاشوا ليمدوا العالم بمزيد من أشعارهم فمنهم (سيجفريد ساسون) الذي كتب عن الحرب أشعاراً تعد من الحجج البينات التي ظهرت لتوطيد دعائم السلام

وقد قام كثير من المصورين بأعمالهم الفنية إبان الحرب العظمى ومنهم من كانوا يعملون في ميادين القتال، فأخرجوا للعالم تحفاً من بدائع الفن التصويري، يرمزون بها إلى شتى التجارب والاحساسات التي صادفتهم في حياتهم الحربية

وليس من همنا أن نثبت هنا أن الفنانين يؤثرون موضوع الحرب لإبراز روائع فنهم، ولكنا نرى أن من واجبهم الرسمي أن يهزوا القلوب نحو جانب من الجوانب في أيام الحروب

نساء ستالين

(عن مجلة (باريد) عدد فبراير)

لا تنقطع محاولات اغتيال دكتاتور روسيا ولكنها في أغلب الأحيان تظل في الخفاء. ولما كنت أعمل في قلم الاستعلامات الملحق بالكرملين مقر دكتاتور روسيا، فقد أتيح لي أن أقف على تفاصيل آخر محاولة لاغتياله. وكان عملي في الظاهر يتلخص في إمداد مكاتبي الصحف الأجنبية بالأخبار، ولكن في الواقع كانت مهمتي هي العمل على عدم تسرب الأخبار الخاصة بحياة ستالين الداخلية إلى الخارج. وبذلك تمكنت من معرفة تفاصيل هذه

المحاولة الجريئة التي قات بها فتاة جميلة استخدمها الدكتاتور لتقرأ له الصحف الأجنبية مترجمة

في ذلك الوقت كان الرفيق آبل انيكايدز صديق ستالين الحميم سكرتيراً عاماً للجنة التنفيذية لمقاطعات روسيا البلشفية المتحدة، وبذلك كان يتمتع بسلطة لا تحدها إلا سلطة ستالين نفسه. وكان يخضع له كبار رجال الدولة لإشرافه على موارد الترف ورفه العيش، وحتى ياجودا رئيس البوليس السري السابق كان ينحني له، ويمتد إشرافه أيضاً إلى المسارح والهيئات الفنية، ولذلك كان مطمح أنظار جميلات النساء الراغبات في المجد الفني اعتماداً على موهبة الجمال وحدها. وقد أدى تهافت النساء عليه إلى سقوطه السريع. وفي ذات يوم أبدى الدكتاتور رغبته فيمن يترجم له الصحف الأجنبية؛ فعيّن انيكايدز فتاة جميلة تنتمي إلى أصل أرستقراطي قديم. وفي صباح كل يوم يضطجع الدكتاتور الأحمر على أريكة وتجلس الفتاة على منضدة أمامه تقرأ، ولا يكف هو عن السؤال والتعليق، وبجنبه على منضدة أخرى وضعت أطباق الحلوى والفاكهة وراقت هذه القراءات ستالين وسر بها كثيراً. وفي ذات صباح أمر بقدحين من البن التركي الذي يحبه، وبعد أن تظاهرت الفتاة بتذوق فنجالها قامت فوضعت كمية من السكر في القدحين، وبعد ذلك تناولت القهوة فشربتها؛ أما هو فلم يشرب. وبعد ذهاب الفتاة أخذت القهوة، وبعد تحليلها وجد بها قدر كبير من السم فألقي عليها القبض، وألقيت في أحقر السجون مدة ثلاثة أسابيع، ولكنها لم تعترف بوجود شركاء لها. وأخيراً نفذ فيها حكم الإعدام رمياً بالرصاص بأمر صادر من ستالين نفسه وقامت الشكوك في نفسه واتهم إنيكايدز بتدبير هذه المؤامرة ولكنه لم يعثر على دليل لإدانته، ولكن هذا لم يعفه من تهمة مد يد المساعدة للأرستقراطيين أعداء النظام البلشفي، فنفي إلى سيبيريا ويشاع أنه لقي حتفه هناك

وقلائل جداً من يعرفون شيئاً عن زوجة ستالين الأولى التي رزق منها بولد يعمل الآن صانعاً في أحد معامل موسكو، متخذاً أسم دجيفاشفيلي، وهو الاسم الأول لأبيه قبل قيام الثورة

أما عن زوجته الثانية فسأحدثكم عنها بإسهاب لأن ستالين يحبها جداً وقد تزوج بها وهي

في الثلاثين واسمها الأصلي اليلوفا وهي ابنة قسيس. وكان زواجه بها غير معروف عند عامة الناس الذين فوجئوا بنبأ موتها في الصحف ذات يوم. ومما زاد في عجبهم الاحتفال بدفنها بمشهد وطني على غير تقاليد البلاشفة، ولما تضاربت الأخبار عن أسباب موتها أوعز إلى أن أذيع لمراسلي الصحف أنها ماتت بسبب التهاب الزائدة الدودية. ولم تكن هذه آخر الإشاعات عن موتها، فذكر أنها ماتت إثر تناول شاي مسموم أريد به ستالين نفسه، وقيل أيضاً إنها انتحرت متأثرة بكثرة الاغتيالات وحوادث

القتل التي ارتكبها زوجها، ولكن هاك الحقيقة كما وقفت عليها.
من حين إلى آخر يقيم زعماء البلاشفة حفلات للهو العنيف يحضرها النساء، وتسيل فيها الخمر أنهاراً، وفي حفل كهذا أفرط الدكتاتور الأحمر في الشرب وأخذ يبدي ولعاً مكشوفاً بسيدة خاصة، فأحفظ ذلك زوجته (اليلوفا) التي لم تكن أقل منه سكراً فتشاجرا وصخبت زوجته وهددت بأنها ستنتحر، فهزأ منها ستالين أمام النساء اللائى عيرنها بأنها لن تقدم على الانتحار، فما كان منها إلا أن غادرت القاعة، وعلى الأثر سمع طلق ناري، فهرعوا إلى الخارج ووجدوها ميتة برصاصة استقرت في رأسها.
فتأثر ستالين الصخري الفؤاد بموتها وأظهر جزعاً شديداً، فاقترح الحاضرون دفنها بمشهد حافل تعزية له. فدفنت في قبر فخم بكنيسة العذراء بموسكو، ولا يزال ستالين يتردد على قبرها سراً لوضع باقات الزهور
وقد تزوج دكتاتور روسيا للمرة الثالثة بامرأة من مقاطعة جورجيا ولكنها لم تظهر معه أبداً في المحافل الرسمية، وإن كانت ترافقه إلى دور التمثيل أحياناً.
حسن الظاهر
البريد الأدبي
(أذني زلزلت طربا)
في العدد الماضي من (الرسالة) بدا للصديق الصالح الخاشع محمود محمد شاكر أن ينظر في قصيدة (الناي) التي كنت نشرتها في العدد الـ 341. وجاء نظر الصديق على شطرين: الأول في علم العروض، والثاني في فن اللغة عامة والمجاز خاصة فأما قول الصديق إن بحر (المنطلق) الذي وضعتُه إنما هو مجزوء (المتدارك) أو من نحو ذلك فوهم قد سبقه إليه كاتب آخر. وفي هذا المكان من العدد الماضي وقف القارئ على ما يبدِّد ذاك الوهم. ومن الغريب أن كاتباً بمكانة الأستاذ محمود محمد شاكر يخلط (وضع) الشيء بـ (اختراعه). إني لم أخترع البحر يا محمود، بل وضعته. وما أنا بباخل عليك بهذا التبصير ,
وأما الشطر الثاني فمحصور في قول الأستاذ: (ولكن ما بال هذا الصديق (يعنيني) يريد أن يزلزل أذنه، ونحن لم نفرغ بعد من حديث الزلازل التي هدمت ما هدمت في الأناضول. لماذا أيها الصديق؟ ولماذا تريد أن نشعر أن أذنك وحدها - دون سائرك - هي التي تطرب، ولا يكون طربها إلا زلزلة) أهـ.
ألا إن من مساوئ الإكباب على قراءة الصحف اليومية أن يغلب على الألفاظ المتواترة معنىً يقف الخلق عنده فينسوا مُفاده الأول ويُغفلوا ألوان استعماله في الأدب الموروث بجلاله وثروته. فإن الصديق محموداً قنع بزلزال الأرض، والأناضول من الأرض. كيف فاته أن زلزال الأرض معنى طارئ على زل زل؟ ففي (لسان العرب) ج5 ص327: (وفي الحديث: أهزم الأحزاب وزلزلهم - الزلزلة في الأصل: الحركة العظيمة والإزعاج الشديد، ومنه زلزلة الأرض، وهو هاهنا كناية عن التخويف والتحذير، أي: أجعل أمرهم مضطرباً متقلقلاً غير ثابت). هذا، وفي القرآن نفسه - وهو الحجة العليا في مثل هذه المشكلات - تصيب إلى جانب (زلزال الأرض) و (زلزلة الساعة) (سورة الزلزال، والحج) آيتين إليك حروفهما: (1) (وزلزلوا حتى يقول الرسول) البقرة، (أي (أزعجوا إزعاجاً شديداً مما أصابهم من الشدائد): عن البيضاوي) - (2) (هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً) الأحزاب (أي (من شدة الفزع). وعلى هذا، فإنك ترى أن الزلزلة تفيد الاضطراب والتقلقل والتحرك، حقيقة ومجازاً، ثم إنها خرجت من ذلك - من باب إطلاق العام على الخاص - إلى المعنى الذي تمهل عنده الصديق، والذي غلب عند عامة الناس لهذا الزمان. ومن ذلك المعنى الأول، وهو الأصل، ما جاء في حديث عطاء: (لا دق ولا زلزلة في الكيل، أي لا يحرّك فيه)، وفي حديث أبي ذرّ: (حتى يخرج من حلمة ثدييه يتزلزل)، (عن (لسان العرب)). وعلى ذلك أيضاً قولهم: (جاء بالإبل يزلزلها: يسوقها بعنف) (عن (أساس البلاغة) مادة ز ل ل). كيف غاب كل هذا عن صديقي والقرآن في صدره والتفسير والحديث واللغة شواغله. هل زلزل (الناي) ذاكرته؟
وقد خطر للصديق محمود - ومحمود كثير الخواطر - أن يقول لي: (لماذا تريد ألا يكون طرب أذنك إلا زلزلة؟). فإني ألوذ بالصبر فأقول: لأن الزلزلة والطرب على مجاورة. مصداق ذلك أن استعمال لفظ الزلزلة للدلالة على الطرب الشديد قديم في أدبنا.

ففي (الأغاني) (ط بولاق ج6 ص80): (فتغنيت (والمتكلم إسماعيل بن جامع المغني) بصوت لي. . . فتزلزلت والله الدار عليهم) وفي (الأغاني) أيضاً (ج5 ص24) عند الكلام على غناء إبراهيم الموصلي وضرب منصور زَلزَل بالعود في حضرة الرشيد: (فزلزلا الدنيا)، ومن ذلك قول العرب: (والزُلزُل: الطبّال الماهر) (عن لسان العرب)، ولعل اسم (زَلزَل) المتقدم ذكره من هاهنا كذلك

وأما أن تُزلزَل الأذن من شدة الطرب دون سائر البدن فكلام أنزله منزلة الدعابة، وإلا فَليسْتفسرْ الصديقُ العربَ قولَهم: (تزلزلت نفسه: رجعت عند الموت في صدره) (لسان العرب: ز ل ل)، وقولهم في وصف النزال: (وزلزلت الأقدام من ولولة الأنجاد) ((الألفاظ الكتابية) للهمذاني بيروت 1913 ص117 ثم 235). . . إن لكل مقام مقالاً: على هذا تلقَّينا البلاغة!

فالطرب الشديد يزلزل الأذن أية زلزلة حتى إن السامع المطراب يتمنى لو يجنب الناي أو العود خشية الإعياء، كالعاشق أضناه عشقه وعناه فيود لو يفر من معشوقه اتقاء التلف

وإن استكثر محمود زلزلت الأذن أي اضطرابها وتقلقلها ساعة الطرب الشديد، فليسأل صاحب (الأغاني) عن صحة قوله (ج18 ص127): (اندفع عمرو بن الكنات يغني على جسر بغداد أيام الرشيد، فحبس الناس واضطرب المحامل ومدت الإبل أعناقها وكادت

الفتنة تقع). . . ألا إن الطرب لأهله - عفا الله عنهم - وصديقي محمود ربيب بيت صلاح وورع وتحرّج وتقوى وأما أنا فكما قال هو: صاحبُ (مرح وانطلاق إلى سائر هذه الألفاظ الراقصة بألفاظها قبل معانيها) بل إن أهلي أنفذوني إلى باريس يأساً، وفي باريس وغيرها لهوت وعبثت وتلمست الطرب على ألوانه حتى أمست أذني - لا قوّمها الله ولا أصلحها - تنعم بالزلزال

ثم هل الأذن التي تزلزل فوق أقوالٍ للعرب مثل هذه: (طار القلب فرحاً، وخلع الحزن قلبه، ومزق أحشاءه، وفتّ كبده) إلى آخر ما هنالك من التعبيرات التي تذوي اللغة من دونها فينفض لونها

وهكذا ترى أن الأستاذ محموداً خذله الحظ هذه المرة. وذلك لأنه عدّ قصيدة الناي من (الشعر الجديد)، فخف يتلمس في مطاويها النبوَّ. فسقط على مطوي عربي صميم. ولعل الحظ ينصره عند قصيدة خارجة في عدد آت، إذ هي أبعد ذهاباً عن المألوف. وليطمئن الصديق إلى أني لن أجاذبه فيما يدق عن المقاييس القريبة فإنما أكتب اليوم على جهة التسلّي والتلهي

بشر فارس

جواب

عند الأستاذ صاحب الرسالة أخبار وأخبار عن المفتونين والمفتونات بمقالاتي ومؤلفاتي، وهو يتجاهل تلك الأخبار كما أتجاهل، ولكن من العقوق أن أتجاهل الخطاب الوارد من (ليلى من الليالي) على وزن (كاتب من الكتاب) كما تقول تلك الغيداء.

ويظهر أن الدنيا بدأت تبتسم للروح الحزين الذي قضى دهره في نضال وصيال وعطفُ قرائي عليّ هو تلك الابتسامة التي أستعين بها على دفع ظلمات الخطوب، وما خلا دهري من خطوب منذ اليوم الذي تقدمت فيه لرفع راية النقد الأدبي، وعند الله والحق جزائي.

وفي خطاب (ليلى من الليالي) أمرٌ كريم بأن يظل خطابها سرّاً مصوناً، وسيظل كذلك إلى أن ترفع الحجاب وتعترف بأن الأدب كالحب يجوز فيه الافتضاح نفسي فداء الأنامل اللطاف التي كتبت ثلاث صحائف لتعلن فتنتها بأسلوبي!

وسألني ذلك الروح عن قدوم ليلى المريضة في العراق مع وفد المؤتمر الطبي العربي، وأقول إني انتظرت ليلى في محطة باب الحديد إلى منتصف الساعة الثانية بعد نصف الليل مع الأستاذ عبده حسن الزيات ولم تحضر كما وعدني الدكتور عبد المجيد القصاب، ومن أجل ذلك قضيت أيام العيد وأنا حزين

أما بعد فقد وجب عليّ أن أعلن ثنائي، وأن أقول بعبارة صريحة إن عطفهم عليّ هو أثمن ما ظفرت به في حياتي، ولولا الخوف من حسد الزملاء لقدمت الأسماء الكريمة التي أعلنت رغبتها السامية في أن تنصفني من زماني، وهل يقبل الزيات ذلك وهو

يخاف عليّ فتنة الغرور بثقة القراء؟
حَسْبُ الزيات أن يلهو بقراءة ما يصل إليه من أقوال المفتونين بأسلوبي، وأن يحفظها لأطلع عليها حين أشاء، وأن ينشر منها ما يريد، ولكن متى يريد؟
إن لم يصنع فسأنوب عنه وأقول إني كاتب محبوب، والله يختص بكرمه من يشاء
زكي مبارك
حول الكهربائية تعتاد
صديقي الأديب الكبير الأستاذ الزيات
بعد التحية والاحترام طالعت في العدد الأخير من (الرسالة) الغراء ما أشار إليه الدكتور إسماعيل أدهم من تردُّد فريق من الأدباء في تصديق ما ورد في كتابي (آفاق العلم الحديث) عن تجارب تبين أن بعض الأجهزة الكهربائية المعدة خاصة لهذه التجارب تقوم بأعمال من قبيل التذكير والنسيان والتعدد (آفاق العلم الحديث: فصل (دراسة الحياة العقلية بتجارب آلية) صفحة 216 - 223) وقد أنحى الدكتور باللائمة على أولئك الأدباء لترددهم هذا لأن هذه الأقوال (نتائج العلم التطبيقي في أوربا. . . ومع أن هذه المباحث ليست نظرية وإنما هي وليدة التجربة والاختبار، ولاشك أنه ليس للأفكار ولا للمنطق أن ينازع في حقيقتها مادامت التجربة تثبتها) (الرسالة العدد 343 الصفحة 196)
ومن لطف الاتفاق أنني تلقيت أمس بالبريد الأميركي جزء يناير من (المجلة العلمية الشهرية) بعد مطالعة كلمة الدكتور أدهم في (الرسالة) الغراء، فقلبت صفحاتها وإذا صورة الدكتور هَلْ (وهو الذي عزيت إليه هذه التجارب) في رأس الصفحة التاسعة والثمانين منها. وقد نشرت هناك لأنه كان رئيساً لقسم علم النفس (السيكلوجيا) في مجمع تقدم العلوم الأميركي في مؤتمره الأخير. وعلى هذا أيجوز أن نهمل ما يقدمه أستاذ علم النفس في جامعة (بيل) ورئيس قسم علم النفس في (مجمع تقدم العلم الأميركي)؟
إنني أعلم أن الشك أول مدارج اليقين. ولكن هذا الشك يجب أن يستقيم على تقصي الموضوع فيفضي إلى توضيحه بالبحث الدقيق. أما أن نغفل ما يقدمه أساطين العلم الحديث أو أن نتردد في قبوله لأن قولهم لا يوافق هوى في النفس، أو لأنه لا يساير فكرة سنحت في الذهن، فذلك دليل على الضعف والتصلب وأي تفكير صحيح يقوم على هذين الأسَّين؟
ولست أعلم من هم الأدباء الذين أشار إليهم الدكتور أدهم في كلمته ورد عليهم. وإنما استرعى نظري قوله في ما بين العلم والثقافة الصحيحة من صلة موثقة. فاسمحوا لي أن أشير في هذا الصدد إلى فصل نفيس في (ضآلة ثقافتنا العلمية) حواه كتاب جديد للدكتور قسطنطين زربق، أستاذ التاريخ الشرقي في جامعة بيروت الأميركية عنوانه (الوعي القومي)
وتفضلوا بقبول مودتي واحترامي
فؤاد صروف
هل في الإمكان زيادة بحر جديد في العروض؟
إن البحور المعروفة في علم العروض العربي، هي البحور الممكن تأليفها فعلاً من التفاعيل التي تجيء في لغة العرب. وأساس هذا الكلام لا يتعدى معرفة التفاعيل وصيغها التي تجيء في العربية، ثم تركيب الأبحر الممكن مجيئها منها على أساس حسابات الأمثال. والنتيجة أنه لا يمكن زيادة بحر جديد مستقل على البحور المعروفة في علم العروض، وإن أمكن استحداث تركيبات في أجزاء هذه البحور. ولأحد المستشرقين الروس بحث مستفيض في هذا الشأن، نال عليه إجازة الدكتوراه من لينغراد
(الإسكندرية)
إسماعيل أدهم
(يوم سعيد)
إن صناعة السينما في مصر قد نشطت وجدَّت وأخذت تتلمس طرق الفن الصحيح. وهي تخفق مرة وتفلح مرة، ثم إنها أدركت أنه لابد لها من استيفاء العدة على توزع نواحيها: من تصوير وتمثيل وغناء ورقص إلى جانب القصة نفسها.

بدا لنا هذا بمناسبة عرض فلم الأستاذ محمد عبد الوهاب الجديد وهو (يوم سعيد)، ولاشك أن هذا الفلم يدل على تقدم ملموس في صناعة السينما المصرية. فقد وجدنا القصة متساوقة الأغراض لا تبث الملالة والمضايقة في أنفس النظّارة كمعظم القصص التي تعرض هنا. وأما التمثيل، فكان على الغالب غاية في البساطة، فلا تكلف في التعبير، ولا إفراط في الأداء. وكان الإخراج لطيفاً، فيه تبصر وترفق.

وقد جلب المخرج الأستاذ محمد كريم أوجهاً جديدة وعرفها إلى الجمهور. وأنصع هذه الأوجه وجه الفتاة (فاتن حمامة). فكثيراً ما حبست الأنفاس، وحركت القلوب، ومدت الأعناق وهزت الشفاه بالابتسام الرقيق. وكان الأستاذ فؤاد شفيق بارعاً في تمثيل المصري المرح صاحب النكتة المستملحة والقلب الطيب الساذج. وفي الفلم مشاهد كثيرة طريفة. وفيه مشهدان محكمان: الأول إذ تؤدَّى قطعة من مسرحية (مجنون ليلى) لأمير الشعراء أحمد شوقي، وقد جاءت على سبيل التخيل الطريف. والثاني حين يبيع الأستاذ عبد الوهاب الوان الزهر في ظرف أخاذ

بقي الغناء، وقد جاء على لونين: لون الأغاني الشعبية وفيها الشجي المقيم والنغم المحبب إلى نفوس العامة. ولون التلاحين الرفيعة الخاصة بالشعر الرائع الجميل. وفي هذا اللون الأخير بلغ الأستاذ محمد عبد الوهاب مبلغاً فنياً رفيعاً. وحسبه تلحينه الحوار الذي يجري بين قيس وليلى في الصحراء. وقد فطن هنا إلى أن يكف عن المزج المباشر بين النغم العربي والنغم الإفرنجي. وأنا لنرقب من الأستاذ محمد عبد الوهاب مثل هذا التلحين الحسن فنهنئ ممثل الفلم ومخرجه بهذا التوفيق ونرجو أن نعود إلى الحديث عنه مرة أخرى

معنى بيت في الحماسة

في صفحة (81 و82) من الجزء الثاني من كتاب ديوان الحماسة (الطبعة الثالثة) الأبيات الآتية وهي من شعر لعبد الله ابن الدمينة الخثعمي:

ولما لحقنا بالحمول ودونها ... خميص الحشا توهي القميص عواتقه

قليلُ قَذى العينين يُعلم أنه ... هو الموت إن لم تُصْرَ عنَّا بوائقُه

عرَضْنا فسلّمنا فسلّم كارهاً ... علينا وتبريحٌ من الغيظ خانقهُ

وقد جاء في شرحها: (ومعنى الأبيات الثلاثة ولما لحقنا بالهوادج التي فيها الحبيبة وخلفها قيم خفيف اللحم لا يقع القميص من عاتقه على لين وطئ لأن عظامه غير مكسوة باللحم وذلك القيم حاد النظر ليس بعينيه قذىً شديد الغيرة على أهله فنحن من شدة صولته نعلم أنه الموت إن لم تهلكنا دواهيه دنونا منه الخ)

وإني أرى أن الشارح (العلامة التبريزي أو غيره) يشرح جملة (يعلم أنه هو الموت إن لم تُصرّعنَّا بوائقه) بأنه الموت إن لم تهلكنا دواهيه فهو يقابل (تُصرعنَّا) بكلمة (تُهلكْنا) وهذا غير صحيح لأن (تُصرعنَّا) بضم التاء لا يمكن أن يكون معناها تهلكنا وإذا فرضنا أنها (تَصرَعنَّا) بفتح التاء فمعنى الشعر لا يستقيم إذ كيف يكون هو الموت إن لم تهلكهم دواهيه! ولم تكن جملة (إن لم تهلكنا دواهيه) مسبوقة بواو الحال فتفهم أنها جملة حالية!

فالحقيقة أن (تُصرَعنَّا) كلمتان (تُصْرَ) و (عَنَّا) وتُصْرَ فعل مبني للمجهول مجزوم بحذف حرف العلة من صرى أي حبس أو منع. وهنا يستقيم المعنى ونفهم أن الشاعر إنما قصد تشبيه ذلك القيم بالموت إن لم تتلطف بهم المقادير وتحبس أو تمنع عنهم دواهيه.

(الخرطوم بحري)

ا. م. س

(الرسالة): أصاب الكاتب وأخطأ الشارح الذي نقل عنه، وهو غير التبريزي من غير شك؛ فإن التبريزي يقول في شرحه: (يصفه بحدة النظر، وأنه ليس بعينه غمص فهو أحدٌّ لنظره؛ وإنما يريد مراعاته أهله لشدة الغيرة، فنحن نخاف من صولته إن لم تُصْرَ عنا، ويروي إن لم تلْق عنا)

ورواها صاحب الأمالي ج1 ص156 وفيها (إن لم تُلْقَ) وذكر البكري في شرح الأمالي رواية أبي تمام في الحماسة ثم قال وروي: (وإن لم تُسْرَ عنا بالسين والصاد) وقوله (تصر عنا)، من قولهم (صَرَى الشيء صرْياً قطعه ودفعه، وصرى الله عنك شر فلان أي دفعه يقول ذو الرمة

فودّعنَ مُشْتاقاً أصبنَ فؤاده ... هَواهن إن لم يَصرِهِ الله قاتله
وروايتهم (تسر عنا) من قولهم سروت الشيء إذا نزعته وكشفت عنه ومنه قولهم سُرِّيَ عنه تجلى همه وانكشف

الكتب

وحي الرسالة

من واجب (الرسالة) أن تنشر ما يتفضل به عليها الأدباء الزملاء والأصدقاء من صادق النقد وجميل الرأي في كتاب (وحي الرسالة) تسجيلاً للفضل منهم وللشكر منا

قال الأستاذ مصطفى الصباحي في جريدة (الدستور):

كتاب أخرجه للناس الأستاذ أحمد حسن الزيات، وهو جملة من مقالاته التي كان يصدر بها مجلته (الرسالة) كل أسبوع جمعها بين دفتي هذا الكتاب؛ فكان كأنما انتقى من روضة مونقة الربيع أزهاراً ذات أرج خاص في باقة واحدة علم رغبة الناس في تنسم عبيرها، فيسر عليهم سبيل اقتنائها وتشممها والإفادة بما يستروحون له من عبقها دون كبير سعي أو عظيم جهد

وللأستاذ الزيات أسلوب يتميز به على كثير من كتاب العصر، وسياقة لن تجدها لكاتب من أهل العصر، وتفتقدها من لدن ازدهرت اللغة وعمت آدابها في العصر العباسي حتى الآن، فلا تجد إلا نفحات مبعثرة في تاريخ أدبها لا صلة بينها وبين بعضها، فذلك كاتب وقعت له عبارة جزلة، وهذا خطيب أنفق له معنى فحل، وغير هذين جمعت له بعض ألوان من فنون العبارة أو بلاغة المعاني

ولكن قلما وقعت على كاتب وفق في الغايتين فامتلك ناصية العبارة وبرز في خلق المعاني

فأنت إذن حين تقرأ للزيات إنما تجتمع لك طلاوة العبارة وجمال المعاني، وتلك هي الغاية التي تنتهي عندها آداب الكتاب وتقف دونها ملكات المبرزين من أرباب الأقلام وفي زماننا هذا قل أن يعني الكاتب والقارئ إلا بما وراء اللفظ، فإذا برز إنسان في إيراد المعاني الجليلة واتفقت له سلسلة من الآراء والأفكار القويمة تجاوز النقاد من أهل العصر عن ركاكة عبارته وفساد سياقته

ولقد كنت أعجب للتيار الذي نساق إليه هذه الأيام من إهمال الجانب الأدبي في التحرير، وكنت أرجو أن تنقشع تلك الغمة التي دعيت (تجديداً) وهي ليست من التجديد في شيء. . . إذ قنع المنشئون بمحاكاة أهل الغرب في أخيلتهم والأخذ عنهم في إيراد الأحاديث وتقليدهم في الأوصاف ونحوها من فنون الكتابة دون إعارة أصول الأدب العربي شيئاً من

عنايتهم، حتى ذهب كبير من أعلام دولة القلم يتحدث إلي في مجلس خاص فيقول إن اللفظ للمعنى كالثوب على الرجل، فهو إن كان رجلاً فاضلاً لم ينتقص خلق ثوبه من فضله، وإن الرجل مهما يكن لباسه شريفاً ولكن نفسه فقيرة من الفضل وقلبه خلى من العلم لا ينفعه اللباس في شيء!

وعلى الرغم مما في ظاهر هذا القول من تعبير حق عن جوهر الموضوع فإن اللفظ الشريف يزيد المعنى الجليل شرفاً، كما يسبغ الثوب الكريم على الرجل العظيم مهابة ويزيده توقيراً ويكون أدعى إلى احترامه لدى غشيانه المجلس

فإن أول ما يطالبك من الرجل لباسه، وأول ما يفاجئك من المعنى ظاهر لفظه. ورب معان كريمة ضاعت لسوء صياغتها وركاكة أسلوبها. ورب مقالة خلدتها الرواية لطلاوة السياق وبلاغة الإيراد ورقة الحاشية

والزيات كاتب جمعت له إلى رصانة الأسلوب ووضوح السياق حلاوة المعنى، وبلاغة العبارة. ولعله في ذلك متميز بالجمال في الناحيتين. ذلك الجمال الذي تلمس منه ميلاً إليه في شتى صوره وتفصيلاً له في جميع معانيه. فأنت أول ما تطالع من كتابه الجديد مقالة (في الجمال)، فهو يحدثك في هذه المقالة عن الجمال حديث الشاعر الملهم، والكاتب الصادق الحس، ورجل الفن الذي استغرق الفن مشاعره واستجاب لحاسته الفنية الدقيقة.

فهو بهذه الصفات كلها يقولك:

الطبيعة والفن إنما يحدثان أثرهما في النفس، إما بالفكرة وإما بالعاطفة وإما (بالشعور الصادر عن آلات الحس، ومن ذلك تنوع الجمال، فكان عقلياً وأدبياً ومادياً).

هذا مذهب يذهب إليه الرجل وهو يتحدث لا بعقله وحده وإنما بحسه أيضاً، ذلك الحس الذي يشعر بالجمال ويقدره، يشعر به جمالاً عقلياً وأدبياً ومادياً لا يخطئ في الشعور به ولا يغفله في أية صورة ظهر أو خفي. . . وآية ذلك أنه يقول بفعل ذلك الإحساس وحده: (وجمال المرأة يحتفظ بدوامه وسحره مادامت له روح العاطفة تشع في نظراتها، وتنسم في بسماتها، وتشيع في قسماتها، وتنشر أضواءها السحرية على أعصاب الرجل - وهو بطبعه ولوع - فيتمتع بنعمة اختياره ولذة إيثاره، ويجد في الضعف الذي يستسلم ويستكين، الحب الذي يطول ويحكم. .

ثم إن الأستاذ الزيات يتحدث إليك بعد هذه المقالة عن (الربيع) فإذا هو يقول (ففي الربيع يشتد الشعور بالجمال والحاجة إلى التجمل، فترى الشباب بجنسيه يستعير ألوان الرياض وعبير الخمائل ومرح الطيور، ويحتشد في دور الملاهي وصدور الشوارع، فيخلع على الوجود وضاءة الحسن، وعلى الحياة رونق السعادة)

وفي المقالة الثالثة يتحدث الأستاذ عن العيد فيقول: (والأعياد الأجنبية التي تشهدها مصر في ذكرى الميلاد ورأس السنة غاية في نعيم الروح والجسم، وآية في سلامة الذوق والطبع، وفرصة ترى فيها القاهرة - وهي منفرجة - كيف تفيض الكناس بالجلال، وتزخر الفنادق بالجمال، وتشرق المنازل بالأنس. . . الخ)

ألا ترى أن في ولوع الأستاذ الزيات بالحديث عن الجمال وتحليل مذاهبه وترديد أوصافه ما يهديك إلى سر ذلك الأسلوب الرائق الجميل وتلك الديباجة الموشاة البديعة؟

ثم ألا ترى في طريقة أخذه الموضوعات أخذاً منطقياً يشرف به الأسلوب ما يدل على ملكة مطواعة وبديهة مواتية ومقدرة على الترسل فذة عجيبة!

وصل (وحي الرسالة) إلى يدي أمس وكنت قد طالعت فصولاً مما احتوى نشرت قبل في الرسالة، وفيه فصول فاتتني قراءتها، وإني لشديد الحرص على ألا تفوتني، ولكنني تعجلت إرسال هذه الكلمة إيماء إلى فضل الكاتب وعظيم يده على الأدب العربي في العصر الحديث. والكتاب يعد جوهرة نفيسة دائمة الإشراق لا تخلق ديباجتها ولا يخبو بريقها؛ فهي ذخر مقتنيها ومتاع روحه

مصطفى الصياحي

العدد 345 - بتاريخ: 12 - 02 - 1940

الموظفون والناس. . .

ابتليت في هذه الأيام أن أختلف إلى بعض الوزارات في شأن من شؤون الرسالة. وأشيد الأمور على نفسي أن أغشي دواوين الوزارة أو أقسام الإدارة، لأني اعتقد كما يعتقد أمثالي من السوق الأحرار أن الحكومة من الأمة بمثابة الرأس من الجسد، فيه التفكير والتدبير والقيادة، وليس فيه الاختيال والشموخ والسيادة. ولكن الحكومات في أمم الشرق لا تزال تعتقد أن الرأس معناه أن يوضع فوق الجسم ليسمو على أعضائه ويعيش على غذائه. فإذا دخلت دورها لا تجد فيها الروح الوطنية التي تبعث الحياة العامة، ولا الفكرة الاجتماعية التي تدير المنفعة المشتركة، وإنما تجد بها مظاهر شتى للسلطان الجبار والبيرقراطية الصلفة تعطل معنى الإصلاح وتبطل حقيقة العدالة.

ترى أول ما ترى من الشرطة والسكرتيرين والحجاب والسعاة يسد أبواب المكاتب، ويملأ مدارج الطرق، ويشغل فراغ الحجر؛ وهذا الجيش الذي يكلف الخزانة لا ادري كم من المال لا عمل له إلا بث الرهبة وإظهار الأبهة والحيلولة بين الناس وبين القائمين على (مصالحهم) من أولي الأمر. فإذا ساعفتك الفرصة أو ساعدتك اللجاجة فنجوت من شراسة الشرطي أو الحاجب، وخلصت من غطرسة السكرتير أو الكاتب، دخلت على الموظف الكبير بهواً كأبهاء القصور، فرش بالطنافس وأثث بالأرائك وزين بالتحف وأدفئ بالكهرباء وقام في صدره الحالي طرفة من طرف الأثاث يقولون إنها مكتب، ومن وراء هذا المكتب الفاخر كرسي وثير متحرك جلس عليه الموظف العظيم وثيابه تكاد تنشق من ورم الكبر ونفخة السلطة، فلا تستطيع من رهبة السلطان أن تكلمه، ولا يستطيع هو من عزة المنصب أن يكلمك.

هذه المظاهر القائمة على السرف والترف يجب أن تزول أو تخفف، لأنها تحيط الموظف بجو من العظمة المستعارة تزور له ذاته، وتفسد عليه حياته، وتجعل ميزانه الاجتماعي منصوباً على ضميرين مختلفين: يزن في بيته ولنفسه بضمير، ويزن في

الديوان وللناس بضمير. ويا ويل ذي الحاجة إذا دخل على الموظف مكتبه وليس منسوباً إليه ولا معروفاً لديه ولا موصى به! أنه لا يجد إلا النظرة القاسية، والكلمة الجاسية، والإشارة المهينة، والهيئة الوقحة التي تصرخ في وجهه بهذه الجملة:
يا بعد ما بيني وبينك! أنا حاكم وأنت محكوم، وأنا (ميري) وأنت (براني). فإن احتمل المسكين الهون وقف على مضض، وإذا ملكته الحمية انصرف على شجار!
لقيت منذ يومين في فناء الوزارة الفلانية صديقي فلاناً المهندس المقاول خارجاً يزجر من الغيظ وينتفض من الغضب. فقلت له وأنا أربت على كتفه:
- كفاك الله الشر! ماذا بك؟
فقال بصوت يتفجر بالسخط ويتهدج من التأثر:
- والله يا أخي ما أدري أنحن عبيد الموظفين أم نحن وهم عبيد القانون؟ هذا فلان بك. .
- فلان بك؟! إنه الرجل الذي أقصده الساعة في مسألة عامة
- تعال تعال! لا خير في لقائه اليوم. لقد تركنه يفور على الكرسي فوران القدر على الموقد
- ولم كان ذلك؟
طلبت الإذن عليه لأشكو إليه خلل إدارته وإهمال مرءوسيه، فإن لي عملاً يدخل في اختصاصه مضى عليه سنتان، وكان يكفي لإنجاز يومان، فأهملني عند سكرتيره ساعة ثم خرج غير آذن ولا معتذر. فانصرفت خجلان من سوء ايظن بي مدير مكتبه، ثم عدت إليه يوما آخر وطلبت إذنه مع الطالبين وفيهم كما علمت النائب والصاحب والقريب، فدخلوا وخرجوا، ثم دخل قبلي من جاء بعدي، حتى لم يبق في شرف الانتظار إلا أنا ورجلان من أصحاب العمل. حينئذ قال سكرتيره: أن البك مشغول بقية الوقت! فثار في وجهي الدم، وطغى في رأسي الغضب فاقتحمت عليه الباب وقلت له من غير اعتذار ولا تحية: يا سيدي البك! ربما كنت أنا الزائر الوحيد الذي زارك اليوم لعمل من الأعمال التي تجلس لها وتؤجر عليها، فلم يكن من اللائق بأمانة المنصب أن تحجبني مرة بعد مرة لتستجيب إلى طلاب الشفاعات والوساطات من ذوي الصداقة والقرابة.
فحملق البك في وقد استشاط وبربر وصاح: من أنت ومن أذن لك بالدخول؟ فقلت له: أنا فلان! سرى من سراة البلد، وثروة من ثروات الأمة. نشأت في مهد العدم، ثم تعلمت للعمل الحر، وضربت في سبيل العيش الكريم من أفق إلى أفق، حتى أصبح عملي الناجح مرتزقاً لمئات من الأسر العاملة، وأصبحت - وأنا لا أزال في شباب الكهولة - ذا خمسين ألف جنيه ورتبة. أما أنت فالكبير الصغير! كبرك المنصب والمرتب اللذان أدركتهما بمضي المدة، وصغرك العجز والكسل اللذان كشفاك في إدارة العمل. أن سلطان الوظيفة يا سيدي
عرض منفك ومتاع زائل. فإذا شئت أن تعرف أين أنت مني فدع منصبك الحصين وادخل معي في غمرة الدنيا وزحمة الناس، ويومئذ نرى أينا يوطأ بالأقدام، وأينا يرفع على الرؤوس. . .
وهنا رأيت الرجل يكاد يتمزع من الغيظ فأهوى بيده على أزرار الأجراس فصلصلت جميعاً، وقال لحجابه وسعاته: أخرجوا هذا. . . من هنا. فأخرجوني على حال من الهوان لا يصبر عليها إلا رجل حازم أمام موظف أحمق.
فقلت له ونحن نمشي الهويني في طريقنا إلى البيت: هون عليك يا صديقي فإن أكثر الموظفين حالهم مع الناس كحال هذا الموظف معك.
أيها القلم!
لشد ما أتمنى على الله أن يجعلك في يدي سناناً يخز، ومعولاً يهدم! لقد عجزنا يا قلم وعجز الكلام!
أحمد حسن الزيات
اللعب
للأستاذ عباس محمود العقاد
قلتم في مقالكم الجميل (الحياة جميلة):
ولكن جمالها يقتضي أن يكون لنا زعماء للهو يصححون إدراكنا للحياة، ويرهفون . . .) أذواقنا للجمال، ويهيئون قلوبنا للسرور، ويشغلون أوقات فراغنا بالمسابقات الرياضية،

والمهرجانات الوطنية، والسياحات النهرية، والملاهي الفنية، والمواكب الشعبية. وليس
(أقدر على هذه الزعامة اليوم من وازرة الشؤون الاجتماعية
كلام صديق
وربما كان أرفع من تقريظه بوصف الصدق تقريظه بوصف الجمال. فليس كل صادق
بجميل
لكن كم منا نحن المشارقة، يا أخي، يؤمن معك بحاجة اللهو إلى زعامة، وحاجة الأمة
إلى لهو؟
وكم منهم يؤمن معك بأن زعامة اللهو واللعب لها من الشرف والمنفعة كفاء ما
للزعامات في الجد أو في الأمور التي تتراءى صيغة الجد عليها؟
أقل من القليل
أقل من القليل مع هذه الوقائع الناطقة التي تتوالى عليهم كل يوم بفضل الأمم التي
تحسن اللهو واللعب على الأمم التي تتكلف التزمت والوقار.
وأقل من القليل مع تلك الشواهد التاريخية التي ليس بعمى عنها ذو بصيرة تشهد في
الدنيا شيئاً من الأشياء.
فما عرف التاريخ قط أمة أحسنت الجد ولم تحسن اللهو واللعب وما عرف التاريخ قط
أمة من أمم القوة والسيادة لم تكن لها ألعاب لم يكن لها زعماء في هذا المضمار.
وناهيك بالرومان وملاعبهم في كل مدينة وضعوا حجراً في بنائها.
وباليونان ومحافلهم القومية التي كانت تتعاقب كل عام أو بضعة أعوام.
وبالفرس ومواكب الكرة والصولجان، والعرب وميادين الفروسية ومنازه الصيد
والقنص وما اقتبسوه من سائر الأمم والدولات حيثما ارتفع لهم عرش واستقرت لهم
إمامة
أما في التاريخ الحديث فيوشك أن يكون السبق في مضمار اللعب قريناً بالسبق في
مضمار السيادة. ويصدق من يقول أن بريطانيا العظمى تفردت بالسلطان العالمي يوم
تفردت بالسبق في ألعابها، وشوركت في ذلك السلطان يوم شوركت في تلك الألعاب.
فاللعب هو فيض الحياة.
ولن تكون سيادة بغير حياة أولاً. . ثم فيض في الحياة بعد ذاك
لا يلعب الإنسان وهو عليل
ولا يلعب وهو محسور مغلوب
ولا يلعب وهو مسلوب المشيئة
ولكنه يلعب حين يصح، وحين يفرح، وحين يملك زمامه فيشاء ويفعل ما يشاء
فاللعب والحياة الفائضة صنوان، والسيادة والحياة الفائضة لا تفترقان
لكنهم ضعفوا في الشرق فلم يفقهوا لغة الحياة ولم يلحنوا ما تقول حين تتكلم بكل
لسان
رأوا الطفل يلعب وهو قليل العقل
ورأوا الشيخ يتجنب اللعب وهو كثير العقل أو كثير الاختيار فحسبوا أن اللعب ونقصان
العقل متلازمان، وإن الوجوم من اللعب ورجاحة العقل مترادفان.
فأخطئوا
أخطئوا في الفهم كما أخطئوا في الشعور
فما لعب الطفل لأنه اقل من الشيخ عقلاً، ولكنه لعب لأنه أوفر نصيباً من جدة الحياة
وما تزمت الشيخ لأنه أعقل من الطفل، ولكنه تزمت لأنه أعجز منه وأدنى إلى الموت
ولو اجتمعت للشيخ حكمة السن وجدة الطفولة لما منعته والحكمة أن يلعب ويلهو،
ولعلمته بعد ذلك كيف يفتن في لعبه ويزيد في لهوه، ويبز فيهما الأطفال والشبان.
ورأوا المجنون يلعب والعاقل لا يلعب مثله فجزموا باتصال الجنون واللعب كما جزموا
باتصال العقل والسكون.
أخطئوا
أخطئوا في الفهم كما أخطئوا في الشعور
لأن المجنون يلعب من فرط الطلاقة لا من ذهاب لبه واختلاط فكره
وآية ذلك أن بعض المجانين يفقدون اللب والصواب ولا يلعبون، بل ينوحون ويتخبطون
ويبتئسون، لأن جنونهم يسلمهم للخوف والفزع ولا يسلمهم للطلاقة والمراح.

فهل يقال انهم إذن أعقل من العقلاء الذين يلعبون حيناً بعد حين؟
كلا. بل يقال أن الطلاقة تلازم اللعب في كل حين. . . أما الجنون واللعب فلا يتلازمان.
وينبغي أن نفرق هنا بين اللعب الذي نعنيه، وبين ما يلتبس به في بعض ظواهره ودواعيه
فاللعب الذي نعنيه غير التسلية
واللعب الذي نعنيه غير الرياضة
لأن الورق والنرد والشطرنج تسمى ألعاباً ولكنها لا تحتاج إلى فيض حياة ولا إلى تمام الشعور. بل لعلها تحتاج إلى الكسل والراحة والفتور، وهي في لبابها شغل من الأشغال ولكنه شغل فراغ.
ولأن الرياضة وسيلة إلى غيرها في كثير من الأحوال، فهي بين رياضة تراد للحرب، ورياضة تراد للعلاج، ورياضة تراد لاحتمال المشقات، ورياضة تراد للتجميل والتقويم.
أما اللعب الذي نعنيه فهو التعبير الملازم لحالة الفيض والإشراق فلا يراد بعد ذلك لغرض من الأغراض
هو شيء كلمعان الزجاج حين ينتفى عنه الكدر وينجلي عنه الغشاء.
فلا يقال أن الزجاج يلمع لهذا الغرض أو لذاك، ولا يقال أن اللمعان وسيلة مقصودة ليبيعه البائعون ويشتريه المشترون ويصنعه الصانعون.
وكل ما يقال أنه يلمع لأن اللمعان طبيعة فيه، وشعاع من نوره السابغ عليه
وعلى هذا المعنى يدخل في باب اللعب ابتكار الفنان، ووحي القريحة، وتوقان النفوس إلى العظائم، وغرام العقول بالكشف عن المجهول، ولألاء الجمال في الوجوه، ولألاء الجمال في الأرواح.
وعلى هذا المعنى كذلك يعم اللعب فطرة الحياة حيثما وجد الأحياء.
فهو في الطير المغرد، وفي الحوت السابح، وفي الحيوان الطافر، وفي كل ما يفيض بحياته فيندفع في ألعابه، ويوشك أن يخرج من إهابه.
أما التسلية فليست من الفطرة
وأما الرياضة فجانب فيها من الفطرة وجانب من ابتداع الجماعة الإنسانية.
وليس اللعب الذي نعنيه تسلية ولا وسيلة اجتماع.
وإنما هو تعبير لحياة كلما امتنع الحائل بينها وبين التعبير
وتبحث يا أخي عن زعامة للعب واللهو بين المشارقة (الموقرين)!
أعانك الله!
أتسبق الرياسة المرؤوسين؟
أم يسبق المرؤوسون الرئيس؟
علمهم أن يفهموا اللعب على معناه وأنت في غنى بعد ذلك عن تعليمهم معنى الجد أو تعليمهم معنى الحياة، وفي غنى عن انتظار الزعماء وهم ما امتنعوا قط حيث وجد المستحقون لزعامة زعيم.
عباس محمود العقاد
حول استقلال الكلمات في المعاجم
للأستاذ أبي خلدون ساطع الحصري بك
لا أزال أتذكر الحيرة الشديدة التي تملكتني عندما تصفحت المعاجم العربية الحديثة قبل سنوات. فقد كنت أريد تزويد ابني بمعجم صغير يرجع إليه في معرفة معاني الكلمات من جهة، ورسم حروفها من جهة أخرى؛ فاستشرت جماعة من معلمي العربية وعلمائها عن أحسن المعاجم المختصرة التي تحقق هذا الغرض. . . غير أني، عندما قلبت صحائف المعاجم التي دلوني عليها وقعت في حيرة، إذ وجدتها جميعها مرتبة على نمط المعاجم القديمة، وسائرة على خططها، لأنها ترتب الكلمات بحسب موادها الأصلية، ولا تراعي ترتيب الحروف الهجائية إلا في تلك المواد. . .
وحيرتي هذه تحولت إلى دهشة شديدة عندما أفضيت بها إلى جماعة المعلمين والعلماء، ووجدتهم يحارون لحيرتي ويستغربون لاستغرابي، كان الأمر من الأمور الطبيعية التي لا داعي للحيرة فيها، ولا مساغ للاعتراض عليها. . .
ودهشتي هذه وصلت إلى أقصى حدودها عندما رأيت هؤلاء ينبرون للدفاع عن خطط تلك المعاجم. . . إذ قال أحدهم:

- ولكن اللغة العربية لا تشبه سائر اللغات. . .
وقال آخر:
- إن طبيعتها تختلف عن طبيعة تلك اللغات. . .
وما كدت أستفيق من الحيرة التي أوقعتني فيها هذه الكلمات حتى همت بالرد قائلاً:
- وما علاقة المعجم بطبيعة اللغة؟ إن الغرض من المعجم هو ترتيب الكلمات ترتيباً معقولاً، يضمن الوصول إلى إيجاد الكلمة المطلوبة بأعظم ما يمكن من السرعة والسهولة. ولا شك في أن هذه السرعة والسهولة لا تحصلان إلا بترتيب الكلمات بحسب حروفها الهجائية، ومن البديهي أن هذه ليست من الأمور التي تختلف بين لغة وأخرى بوجه من الوجوه.
غير أن معلماً ثالثاً اشترك في البحث سائلاً:
- يعنى، تريد أن تكتب مثلاً كلمة الاستغفار في مادة الألف، وكلمة الغفران في مادة الغين؟
قلت بدون تردد: نعم
فقال المعلم بلهجة المؤمن المعتقد الذي يثورعلى أمثال هذه البدع:
- ولكن هذا لا يجوز في اللغة العربية. . .
فسألته: لماذا؟
فأجابني بحيرة ظاهرة:
- لأننا إذا فعلنا ذلك لا يتعلم الطلاب، مثلاً، أن الاستغفار من باب الاستفعال، وأن مادته الأصلية هي غفر. . . فحاولت أن أقنع مخاطبي ببعض البراهين، فقلت:
- أن لتعليم هذه الأمور ألف وسيلة ووسيلة. . . حتى إن المعجم الذي أتصوره وأقترحه يكون - هو أيضاً - من أحسن الوسائط لذلك: يدرج القاموس كلمة الاستغفار في المحل الذي يتطلبه ترتيب حروفها الهجائية، ويذكر بجانب الكلمة مادتها الأصلية. . . فيجد الطالب الكلمة في المعجم بكل سهولة، ويتعلم - في الوقت نفسه - من قراءة ما كتب عنها أن مادتها الأصلية هي غفر، وأنها تدل على طلب المغفرة. . .
سكت مخاطبي كما سكت زملاؤه. غير أنني لمحت في أعينهم ما يدل على أن هذا السكوت لم يتأت من الاقتناع، بل تأتى من الاعتقاد بأن كل اعتراضاتي هذه ما هي إلا نتيجة عدم إلمامي بقواعد العربية الإلمام الكافي، وعدم فهمي لخصائصها الفهم اللازم. . .
مضى على هذه المناقشة أكثر من عشرة أعوام. . . ثم عدت إلى قضية المعاجم - في هذه الأيام - مرة أخرى، وعلمت - في حيرة جديدة - أن اللغة العربية لم تحظ إلى الآن بمعجم عصري بالمعنى الذي يفهم من كلمة المعجم في جميع لغات العالم. . . كما علمت بأن المجمع اللغوي الملكي نفسه لم يقدر أهمية هذه القضية حتى قدرها، ولم يدخلها في عداد الأعمال التي يسعى لتحقيقها. . .
فرأيت من الواجب على أن ألفت أنظار علماء العربية ومعلميها إلى هذا الأمر إلهام من فوق منبر (الرسالة) الغراء، وأن أدعوهم إلى العمل على إزالة هذا النقص الفادح.
أن المعجم بمثابة مخزن للكلمات، معد لمراجعة جميع الناس، بحيث يستطيع كل شخص أن يدخل هذا المخزن فيتناول منه الكلمة التي يقصدها، دون أن يحتاج إلى مساعدة أحد يدله على موضعها. . . ولهذا السبب تصنف الكلمات في هذه المخازن العامة تصنيفاً يضمن إيجاد ما يراد منها بأسرع الطرق وأسهلها. ولهذا السبب يختلف التصنيف المعجمي عن التصنيف الصرفي والنحوي اختلافاً كلياً، ويكون هذا التصنيف ألفبائياً - بوجه عام - لكي يستطيع كل فرد أن يجد أية كلمة من الكلمات فيه، بمجرد تذكر ترتيب الحروف الهجائية في الألفباء. . .
غير أن المعاجم العربية تشذ عن هذه القاعدة العامة شذوذاً غريباً، لأنها تصنف الكلمات تصنيفاً مفعماً بالالتواء والتعقيد، بحيث لا يستطيع أحد أن يجد كلمة من الكلمات إلا إذا عرف - مقدماً - مادتها الأصلية وكيفية اشتقاقها من تلك المادة بصورة تفصيلية.
فلو أراد أحد أن يراجع المعجم في كلمة (الاستيلاء) مثلاً، فعليه أن يلاحظ بل كل شيء أن هذه الكلمة من باب (الاستفعال)، كما يعرف - سلفاً - أن مادتها الأصلية هي (ولى)،

وعليه أن يبحث عنها - مستنداً إلى هذه المعلومات - في الصحائف الخاصة بحرف الواو فاللام. . . وأما إذا أراد أن يراجع المعجم في كلمة (الاستواء)، فعليه أن يعرف أنها من باب (الافتعال) وإن مادتها الأصلية هي (سوى)، فعليه أن يبحث عنها - مستنداً إلى معلوماته هذه - في الصحائف الخاصة بحرف السين فالواو. . . غير أنه إن كان لا يعرف ذلك فمن العبث أن يراجع القاموس ويقلب صفحاته، لأن القواميس العربية لا تدل على مواضع مثل هذه الكلمات إلا لمن يعرف مثل هذه الدقائق الصرفية واللغوية حق المعرفة.

أليس ذلك مخالفاً لأبسط قواعد التعلم ولأوضح مبادئ التعليم. . .؟

لنأخذ مثالاً آخر: لنفرض أننا طلبنا من أحد الطلاب أن يبحث في المعجم عن كلمتي: الاستعانة، والاستكانة. . . إن هاتين الكلمتين متشابهتان ومتقاربتان من حيث اللفظ والكتابة؛ فإن الحروف الثلاثة الأولى مشتركة كلتيهما، وكذلك الحروف الثلاثة الأخيرة؛ والفرق بينهما ينحصر في الحرف الرابع وحده، مع كل هذا فإن موقع كل منهما في المعجم يتباعد عن موقع الأخرى تباعداً غريباً جداً؛ فعلى الطالب الذي يبحث عن هاتين الكلمتين في المعجم، أن يعرف أن الكلمة الأولى من باب (الاستفعال) من مادة (عون) فيراجع من أجلها حرف العين فالواو؛ كما عليه أن يلاحظ أن الكلمة الثانية قد تكون من باب (الاستفعال) من مادة (كون) أو من باب (الافتعال) من مادة (سكن)؛ فعليه أن يراجع حرف الكاف فالواو نظراً للاحتمال الأول، وحرف السين فالكاف نظراً للاحتمال الثاني.

وهل يمكن للمرء أن يتصور طريقة تصنيف أعقم من هذه الطريقة، وخطة تبويب أسخف من هذه الخطة. . . من وجهة مقتضيات العقل والمنطق من جهة، ومطالب التربية والتعليم من جهة أخرى؟

إن المعاجم العربية الموجودة بين الأيدي لا تزال تضع الاشتقاق في الموضع الأول من الاعتبار، فتهتم بأنساب الكلمات قبل كل شيء وفوق كل شيء، كأنها لا تريد أن تعترف بشيء من حق الاستقلال للكلمات المشتقة، مهما كان مبلغ تخصصها في معنى من المعاني، ومهما كانت درجة تباعد هذا المعنى الخاص عن المعنى الأصلي. . . إنها لا تعترف لها بحق الاستقلال في بيت خاص حتى ولو كانت قد أصبحت رئيسة أسرة خاصة، ومنشأ ذرية كبيرة، كأنها تريد أن تبقيها تحت وصاية مستمرة وتحتم عليها أن تسكن على الدوام، في دار (جدها الأعلى) مع جميع أفراد العشيرة التي تنتسب إليها. . .

فلنترك الألفة المخدرة جانباً، ولنفسح لأذهاننا مجال التفكير الحر خارجاً عن الطرق المألوفة قليلاً: هل من المعقول أن نستمر على هذه الخطة في معاجمنا، ولا سيما في المدرسية منها.

هل من المعقول - مثلاً - أن نستمر على إدخال كلمة المصباح في مادة الصبح، فنتركها في معاجمنا ضائعة بين كلمات الصباح، والصباحة، والصبوح، والصبيحة والاصطباح والاستصباح. . .؟ وهل من المعقول أن نستمر على عدم اعتبار لفظة (الأنبوبة) كلمة قائمة بنفسها، وعلى إدخالها في درج الـ (نب) ونظل نطلب من أطفالنا وطلابنا أن يجدوها هناك؟ وهل من الحكمة في شيء إلا توجد محلاً ملائماً لوضع كلمة (الميزانية) في غير الخزانة المخصصة لمادة (الوزن). . .؟

وعندما ما أكتب هذه الأسطر يتوارد على ذهني أمثلة كثيرة من هذا القبيل، كأنها تتسابق في التباعد عن قواعد العقل والمنطق ومبادئ التربية والتعليم إلى أقصى حدود التباعد. . .

أن كلمة الاستئناف - مثلاً - بالرغم من معناها الخاص الذي يلعب دوراً هاماً في الحقوق والقوانين، وبالرغم من كثرة المحاكم التي تسمى بها لا تزال تلتجئ في المعاجم إلى ظل كلمة (الأنف)!. . .

وكلمة (الاستراحة) - التي يستعملها الناس في كل يوم مئات من المرات - لا تزال محبوسة في المعاجم في دار (الراح)، ومحشورة بين كلمات شتى المعاني والألفاظ: كالرياح والرائحة والأريحية والريحان!. . .

حتى أن كلمة (المدرسة) نفسها لم تكتسب في معاجمنا حق الاستقلال؛ فهي لا تزال تابعة - في نظرها - إلى كلمة الدرس ومجبرة على الاندساس بين كلمات متخالفة

. . .!النزعات مثل (اندراس) المعالم والمباني و (دراسة) الحنطة والحبوب وكلمة (الاقتصاد) التي أصبحت بمعناها الاصطلاحي الجديد من أهم محاور الحياة الاجتماعية - لا تزال مختفية في معاجمنا بين الكلمات التي من طراز القصد والمقصود، والقاصد والقصيدة وبين المعاني التي تدل على موت الكلب، واستقامة الطريق، وأغصان العوسج!. . .

ولكن، لماذا أطيل الكلام في هذه الأمثلة العجيبة؟ إن معاجمنا لم تعترف بحق الاستقلال، حتى لكلمة الاستقلال نفسها! فهي لا تزال تعتبرها تابعة لـ (قل)، فتحتم عليها السكنى في مسكن (القلة والقليل)!. . .

نعم، إن كلمة الاستقلال التي تثير في النفوس ما تثيره من العواطف الجياشة على الدوام، والتي تتكرر في القصائد الوطنية والأناشيد المدرسية كل يوم مئات، بل آلاف المرات. . . كلمة الاستقلال التي كان معناها - ولا يزال - سبباً لتضحيات كبيرة في الجهود والأموال والأنفس - كلمة الاستقلال هذه لم تستقل في معاجمنا إلى الآن. فعلى كل من يود التعرف إليها في القاموس أن يطرق باب الـ (قل) وإن يعرف أنه سيلاقيها بجانب كلمة (لقليل)!

أنا لا أدري بماذا أنعت معاجمنا لاتباعها هذه الخطط العوجاء، وسكوت علمائنا عن هذه النقائض الفادحة. غير انني أميل إلى تعليل هذا الاستمرار وذلك السكوت بتأثير عاملين أساسيين:

أولاً: عمل قانون الألفة الذي يجعل الإنسان لا يشعر بأكره الروائح، ولا ينتبه إلى أفدح النقائض، عندما يألفها ألفة طويلة، ولا سيما عندما تكون ألفته هذه اجتماعية. . .

ثانياً: عمل روح المحافظة التي تطلب إبقاء القديم على قدمه فتعطل نوازع العمل عندما ترمي إلى تغييرات أساسية في الأمور المقررة سابقاً، ولا سيما عندما تكون تلك الأمور
متعلقة بالتقاليد الاجتماعية. . .

إنني أستطيع أن أضيف إلى هذين العاملين الأصليين عاملاً فرعياً ثالثاً، وهو عمل نزعة الاهتمام بالأمور الرنانة التي تلفت الأنظار، أكثر من الانصراف إلى معالجة المسائل الجوهرية التي لا تأتي بنتائج تبهر الأبصار وإن كانت كثيرة الفائدة. . .

إنني اعتقد أن الخروج على هذه العادات والنزعات بوضع معاجم عصرية بالمعنى المشروح آنفا - أصبح من أهم الواجبات التي تجب على رجال العلم والتعليم، ومحافل اللغة والأدب، ووزارات التربية والمعارف - في جميع البلاد العربية. . . كما اعتقد أن وضع مثل هذه المعاجم العصرية التي تعترف باستقلال الكلمات، وتجعل الوصول إلى كل واحدة منها من الأمور المتيسرة لكل شخص - لهو أهم بكثير من البحث عن الكلمات التي تقابل: التلفون، والكلور، والراديوم. . . وحتى من إيجاد الاصطلاحات التي تدل على أسماء الأمراض، ودقائق التشريح.

وأما الخطة التي يجب السير عليها لوضع هذه المعاجم فهي بسيطة وجلية:

أولاً - يجب أن تبذل الجهود اللازمة لوضع معجم مختصر يحتوي على الكلمات التي يستعملها الناس ويحتاج إليها طلاب المدارس الابتدائية. ولتعيين هذه الكلمات يجب أن تستعرض طائفة من الكتب المدرسية من جهة، وتدرس كمية من الأخبار والإعلانات المنتشرة في الجرائد اليومية من جهة أخرى؛ وتستحضر بطاقات خاصة بكل كلمة من الكلمات التي تصادف خلال هذا الدرس والاستعراض؛ ثم ترتب هذه الكلمات حسب نظام حروفها الهجائية، ويكتب إزاء كل واحدة منها معناها الاصطلاحي، كما يشار إلى مادتها الأصلية، وإلى كيفية اشتقاقها من تلك المادة. وأخيراً تذكر أهم الكلمات المشتقة منها، تسهيلاً لمراجعتها في سائر أقسام المعجم.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى تبذل الجهود اللازمة لتنظيم معجم أكثر تفصيلاً من ذلك، ليكون مرجعاً لطلاب المدارس الثانوية والعالية، ولرجال الطبقة المثقفة بوجه عام، على أن تعين كلماته على طريقة استعراض الكتب المدرسية من جهة، ودرس المجلات العلمية والأدبية من جهة أخرى.

وأخيراً يجب أن يسعى لوضع معجم مفصل عام. . . يتضمن جميع الكلمات المستعملة في

. . .الكتب القديمة والحديثة على اختلاف أنواعها وتواريخها
.وأما المعاجم القديمة، فتبقى كمراجع أساسية يرجع إليها العلماء والاختصاصيون
واعتقد أنه لا يحق لنا أن نتوقع تقدماً حقيقياً في تعليم اللغة العربية ما لم توجد مثل
. . .هذه المعاجم. . . ويحمل أمر (مراجعة المعجم) من الواجبات المدرسية
أنا لا أدري كم يكون طول المدة التي ستمضي بين كتابة هذه الأسطر وبين ظهور
المعاجم التي نشير إليها. . . كما لا أدري ماذا يكون مبلغ ونوع مساهمة كل من الكتاب
والناشرين والهيئات العلمية والدوائر الرسمية في تحقيق هذا المشروع المهم عن
. . .طريق العمل المباشر أو التشجيع والمساعدة
مع هذا أتمنى بكل قلبي أن تتضافر جهود الأفراد والهيئات والحكومات في هذا السبيل
- بكل الوسائل الممكنة - لكي تقر أعيننا بمعاجم عصرية من هذا القبيل. . . قبل أن
.يمضي وقت طويل
(بغداد)
أبو خلدون
إنذار
فيم البكاء والاستعطاف والاستجداء؟ إنما المرأة - في دخيلة
.نفسها - تهوى الرجل الذي يستخف بكبريائها
سئمتكِ حتى سئمتُ النساء ... فأمسيتُ أخشى على هزتي
جبينُكِ جفَّ عليه الجمالُ ... كِرهتُ المهابةَ بالميتِ
وطرفكِ يزويه روْعُ الصراعِ ... إن التهبتْ شِرةٌ مقلتي
ونهدكِ يحتالُ طيشي له ... تَدرَّعَ حُمْقَ الحياءِ العتى
وخصركِ خاذلَه الرخصُ حتى ... تماسك حَرْباً على صبوتي
وساقكِ لفتْ بشفِ مصون ... تفاريجه سُخْرةُ العُثَّةِ
مفاتنكِ الفاتراتُ أساطيرُ ... تفترُّ في كتبٍ رثتِ
برلين، فبراير 1935
بشر فارس
إلى الدكتور طه حسين بك
للدكتور زكي مبارك
:أيها الأستاذ الجليل
تلطفت فأوصيتني بكتمان الحديث الذي دار بيني وبينك في حضرة (الصديق العظيم)
الذي يحل وداده من قلبي وقلبك أعز مكان، وأنا أستطيع النص على اسم ذلك
(الصديق العظيم) بلا تهيب لعواقب العتاب، لأن للحديث الذي جرى بين وبينك في
حضرته صلة وثيقة بأصول المذاهب الأدبية التي يشتجر حولها الخلاف في كثير من
الأحايين. فإن قلت أن هذا (الصديق العظيم) خلع على ذلك الحديث حلة من الدعابة
التي نشهد بما يملك من عذوبة الروح، وأنه قد يكره أن يشار إلى اسمه في مجال
الدعابة والظرف، فإني أجيب بأن ذلك (الصديق العظيم) أرحب صدراً مما تظن، وهو
.أكبر من أن يرى أن جلال المنصب يمنع من التندر الجميل
لا خوف من النص على اسم ذلك الصديق، ولكني سأعمل بوصيتك ليصح لي القول
بأني لا أتمرد عليك في كل وقت، وليصح لك الظن بأني اقدر على مراعاة الظروف
.حين أشاء
ثم ماذا؟
ثم أستطيع لنفسي التحدث عن بعض ما شجر بيني وبينك. ويظهر أن المقادير لا تريد
أن أسكت عنك أو تسكت عني، وفي ذلك الخير كل الخير لو تعرف وأعرف. وهل
ارتفع العقل إلا بفضل الخلاف؟ وهل يتصور الناس وجوداً للحيوية التشريعية لو لم يثر
الخلاف بين الشافعية والحنفية؟ وهل تأصلت مشكلات النحو والصرف إلا بفضل
الجدال بين البصريين والكوفيين؟ وهل تفوق العقل المصري في العصر الحديث إلا
بسبب النزاع حول القديم والجديد، والصراع حول المذاهب الاجتماعية والأحزاب
السياسية؟
أن الخلاف نعمة عظيمة جدا، ويا ويلنا إذا لم نختلف فكيف تريد أن أكون صديقاً ظريفاً
لا تسمع منه غير الكلام المعسول؟

وهل قل الظرفاء من أصدقائك حتى تطالبني بما تعجز عنه سجيتي؟
إن (بداوة الطبع) التي كثر الكلام في ذمها وتجريحها لم تكن من المثالب إلا في كلام الشعوبية، وهم قوم أرادوا الغض من الشمائل العربية، ولولا ذلك الهجوم الأثيم لبقيت من
المحامد، فكيف تنكر على رجل مثلي أن يظل بدوي الطبع في زمن توارت فيه الصراحة وكثر فيه تنميق الأحاديث؟
لابد من خلاف بيني وبينك لتجد الأبحاث الأدبية والفلسفية وقوداً يحيا به اللهب المقدس في حياة العقل والوجدان.
فإن ضاق صدرك بهذه الحقيقة واكتفيت بمحاورة الرجل اللطيف الذي يقول أن الصحراء تشكو الظمأ وأن البحر يشكو الري وأن الخير في امتزاج البحر بالصحراء. إن كان ذلك ما يرضيك فشرق في محاورته وغرب كيف شئت وكيف شاء.
ولكن ما رأيك فيمن يصارحك بأن الحيوية لن تشيع في أبحاثك إلا إذا حاورت (الرجل الذي لا يخلو إلى قلمه إلا وفي رأسه عفريت)؟
تلك كلمتك، يا سيدي الدكتور، وأنا عنها راض وبها مختال؟
فما هو العفريت الذي يحتل رأسي حين أخلو إلى قلمي؟
أيكون هو الجن الذي سماه الفرنسيون
إن كان ذلك فأنت تشهد لي بالعبقرية، والقول ما قال طه حسين وهل تكون العبقرية إلا من نصيب من يخاصم رجلاً مثلك في سبيل الحق؟
وما هي المنفعة التي أرجوها من مخاصمتك وأنت رجل يضر وينفع؟
ما هي المنفعة التي أجنيها من مخاصمتك وقد صاحبتك عشر سنين كانت أطيب الأوقات في حياتي؟
يظهر انك لا تعلم انك على جانب عظيم من الجاذبية وأن الرجل العاقل لا يترك مودتك وهو طائع
فما سبب الخصومة بيني وبينك؟
إليك أقباساً من البيان:
منذ أكثر من سبعة أعوام ألقيت محاضرة في الجامعة الأمريكية عن البحتري سجلتها جريدة كوكب الشرق، وشاء (العفريت الذي يحتل رأسي حين أخلو إلى قلمي) أن أنشر في جريدة البلاغ مقالاً عنوانه.
(الدكتور طه حسين يغلط خمس مرات فقط في محاضرة واحدة)
ثم لقيتني بعد ذلك في الجامعة الأمريكية وجادلتني في تلك الأغلاط فأعلنت أني أخطأت، وكان ذلك لأن الجمهور أحاط بنا من كل جانب ليرى كيف أدفع هجومك، وما كان يجوز لي أن أصنع غير الذي صنعت، لأن أدبي لا يسمح لي بمصاولتك أمام الناس، ولان وجهك يشفع لك، فهو وجه لا يلقاه الرجل الحر بغير الإعزاز والتبجيل.
فما الذي صنعت أنت في تصحيح الأغلاط التي أخذتها عليك؟
مضيت فنشرت محاضرتك عن البحتري في كتابك: (حديث النثر والشعر)، وأبقيت تلك الأغلاط، أستغفر الله، بل (تفضلت) فشكلت الكلمات المغلوطة لتقول: إنك لا تعبأ بأي نقد يوجه إليك!!
فما الذي كان يمنع من تدارك تلك الأغلاط؟ وما الذي كان يمنع من شرح رأيك في الهامش إن كنت تؤمن بأني لم أكن على حق؟؟
ثم ماذا؟
ثم حدث في صيف سنة 1929 أن أنكرت على أن أتخذ شواهد لتطور (النثر الفني) من رسائل عبد الحميد بن يحيى. وقلت: إن عبد الحميد بن يحيى شخصية خرافية كشخصية امرئ القيس! وكان ذلك بمسمع من شابين واعيين هما: محمد مندور وعلي حافظ. وكانت حجتك أن عبد الحميد بن يحيى لم يرد اسمه في مؤلفات الجاحظ، فرجعت إليك بعد أيام وأخبرتك أن الجاحظ تكلم عن عبد الحميد بن يحيى مرات كثيرة، وإن مؤلفات الجاحظ تعرف رجلين: أحدهما عبد الحميد الأكبر والثاني عبد الحميد الأصغر، فلم تجب بحرف واحد. ثم ألقيت وأنا في باريس محاضرة قلت فيها: إن عبد الحميد بن يحيى أخذ أشياء من أدب اليونان؛ وفاتك أن تنص على اسم الرجل الذي أقنعك بأنه لم يكن شخصية خرافية.

وقد حملني (العفريت الذي يحتل رأسي حين أخلو إلى قلمي) على أن أسجل هذه القضية في أحد هوامش كتاب النثر الفني، فكانت فرصة اغتنمها صديقك الأستاذ أحمد أمين ليقول في مقال كتبه في مجلة الرسالة: إن زكي مبارك يعوزه الذوق في بعض الأحيان!!

ثم ماذا؟

ثم كانت لك يد مؤثرة في شؤون الدراسة الثانوية بحجة أنها تمهيد للدراسة الجامعية، وكان من أثر ذلك أن فرضت على طلبة السنة الخامسة بالمدارس الثانوية كتاباً في نقد النثر لقدامة بن جعفر لا يفهمه المدرسون إلا بعناء فضلاً عن التلاميذ.

وأقول بصراحة إني لم أفلح في حمل المفتشين على مقاومتك، فبرزت لك بنفسي في مقال نشرته بمجلة الرسالة، فهل استجبت لصوت الحق وأعفيت التلاميذ من كتاب تقوم تعاريفه على منطق أرسططالس وهم يجهلونه كل الجهل؟

أنت عزيز علينا يا سيدي الدكتور، لأنك رجل شهم، ولكن ما رأيك في أغلاطك؟ ومن يدلك عليها إذا سكت عنك؟

هل تذكر كلمة (الصديق العظيم) منذ أيام حين قال لك وهو يبتسم: كيف صيرتم زكي مبارك دكتوراً وهو رجلٌ مشاغب؟

أنت تذكر ذلك ولا ريب، ولكنك تعرف أني لم أنل ألقاب الجامعة المصرية بلا جهاد، وأنت نفسك أسقطتني في امتحان الليسانس مرتين، واشتركت في امتحان الدكتوراه الذي أديته أول مرة مع انك لم تكن عضواً في لجنة الامتحان، وكان لخصومتك الصورية تأثير في الدكتوراه التي ظفرت بها للمرة الثالثة فلم أصل إليها إلا بعد جهاد سبع سنين.

فما فضلك علي أن لم يكن فضل المؤدب الحصيف؟

هل تذكر يا دكتور ما وقع في نوفمبر سنة 1919؟

هل تذكر ما وقع يوم غاب سكرتيرك وكنت وحدي الطالب الذي يفهم العبارة الفرنسية لكتاب نظام الآتينيين لأرسططاليس؟

وهل تذكر انك أعلنت سرورك بأن يكون في طلبة الجامعة المصرية من يفهم أسرار اللغة الفرنسية؟

فمن يبلغك أن الشاب الذي أدخل السرور على قلبك في سنة 1919 هو الكهل الذي تنكره في سنة 1940؟

أنا أعرف ما تكره مني. أنت تكره مني الكبرياء، وكيف أتواضع وقد أعانني الله على بناء نفسي؟ كيف وقد أقمت الدليل على أن الشباب المصري خليق بعظمة الاعتماد على النفس؟ وهل رأيت رجلاً قبلي أتم دراسته في أوربا وهو مثقل بتكاليف الأهل والأبناء؟ هل رأيت رجلاً قبلي يهتف بأوطار الشباب وهو مثخن بجراح الزمان بعد الأربعين؟ هل رأيت رجلاً قبلي يؤلف الكتب الجيدة في البواخر والقطارات والسيارات؟

ومن يصدق أني أنفق في سبيل الورق والمداد أضعاف ما ينفق بعض الناس في سبيل الطعام والشراب؟

إن الدكتور هـ من ذخائرنا الأدبية، ويجب أن يعيش، ونحن سناده في الخطأ والصواب رعاية لمركزه في الجامعة وفي وزارة المعارف، وهو خليقٌ بمركزه في الجامعة وفي وزارة المعارف أيها الأستاذ الجليل:

في صدري أشياء وشؤون وشجون، فمتى أنفض همومي بين يديك وقد رأيت الشيب يشتعل في شعرك الجميل؟

متى نلتقي أيها الأستاذ الجليل لتصفية الحساب؟

إن (العفريت الذي يحتل رأسي حين أخلو إلى قلمي) لا يحضر حين ألقاك، لأني لا أرى وجهك إلا تذكرت أني أحببتك إلى حد العشق.

فمتى نلتقي وحولك أرصاد يؤذيهم أن أصل إلى قلبك الرفيق؟

وهل أجهل أو تجهل أن في الدنيا ناساً عاشوا بإفساد ما بيني وبينك؟ الله وحده يشهد أني لم أخاصمك إلا في سبيل الحق.

والله وحده يشهد أني لم أقل فيك غير ما استبحت نشره في الجرائد والمجلات. ومن

ذلك تعرف أن (العفريت الذي يحتل رأسي حين أخلو إلى قلمي) لم يكن عفريتاً لئيماً، وإنما هو عفريت تلميذك وزميلك وصديقك:
زكي مبارك
الفروق السيكلوجية بين الأفراد
للأستاذ عبد العزيز عبد المجيد
العلاقة بين الذكاء والخلق
الشخصية من الموضوعات التي اهتم بدراستها علماء النفس منذ أوائل القرن الحالي. وقد ذهبوا في تحليلها إلى أنها تتكون من عوامل بعضها فيزيولوجي، وبعضها كيميائي، وبعضها عقلي، وبعضها خلقي ومزاجي. وقالوا إن نتيجة تفاعل هذه العوامل المختلفة تحت تأثير البيئة التي يعيش فيها الفرد هي التي تكون شخصيته. ومعنى ذلك أنه توجد علاقات فعالة بين كل مجموعة من هذه العوامل وبين بقية المجموعات الأخرى. وسأعالج في هذا الحديث موضوع العلاقة بين الذكاء والخلق، وأثر هذه العلاقة في حياة الفرد.
إن قارئاً أو ملاحظاً ليتعسر عليه - من غير دراسة وإحصاء - أن يجزم بوجود تلازم بين الذكاء والخلق الكريم، أو العكس؛ أي بين الذكاء والخلق السيئ أو الغباء والخلق الكريم. لأن الملاحظة العادية تدل على أنه يوجد بين الأذكياء، كما يوجد بين الأغبياء، الشرير المتمرد وكريم الخلق والوديع، وإن كانت بعض الروايات والأفلام نظهر شخصيات المجرمين والمحتالين في مظهر الأذكياء والعبقريين. وقديماً كان الإغريق يبيحون السرقة لأنها آية الذكاء، وكانوا يعاقبون من يقبض عليه سارقاً، أو تثبت عليه التهمة، لأنه غبي لم يستطع أن يفعل فعلته بمهارة ودهاء، فيفلت من أعين الرقباء، شأن الذكي الماهر.
والذكاء - ولاشك - عامل من عوامل النجاح في الحياة فهو الذي يعين الطالب في حياته الدراسية، والمحامي في مكتبه ومحكمته، والتاجر في تجارته، والزارع في حقله وحديقته. ويختلف أثره في نجاح حياة الفرد باختلاف نوع المهنة التي يقوم بها؛ فأثره في مهنة التاجر مثلاً أقوى وأظهر منه في وظيفة عامل البريد. هذا إذا استعمل كل منهما ذكاءه في إجادة عمله، ولكن الذكاء وحده غير كاف ما لم يؤازره خلق كريم متين. والتاريخ يثبت أن عظماء العالم، والعصاميين المبرزين في الأعمال العامة، قد امتازوا بالعقل الذكي، والخلق القوي، وإن من لم يتمتع منهم - إلى جانب الذكاء - بالخلق القويم، قد رأى انهيار عظمته المؤقتة قبل وفاته.
وفي الحياة اليومية يساعد الذكاء على التهيؤ الخلقي المناسب. فالذكي يعرف الظروف
المحيطة به بسرعة، ويدرك ما تتطلبه هذه الظروف، ويعرف أيضاً قانون بيئته الخلقي والاجتماعي، فيتهيأ بلباقة، ويتكيف بمهارة وقدرة ليناسب بين تصرفاته وبين بيئته وفقاً لقانونها الخلقي الاجتماعي المعتمد، بعكس الغبي أو قليل الذكاء الذي لا يدرك بسرعة - أو مطلقاً - العلاقات بينه وبين الأحوال الطارئة عليه، أو بينه وبين القانون الخلقي، فتصدر تصرفاته عن خطل وحمق، ويحاول العمل في تخبط.
وقد يكون ذكاء المرء مصدر شقائه وفساد أخلاقه، فيجعل منه تأثراً على نفسه وعلى المجتمع، أو لصاً ماكراً، أو مجرماً غادراً. ويحدث ذلك في الغالب إذا كثرت حاجات الفرد ومطالبه ورغباته، ولم يقو إنتاجه المادي المحدود، أو لم تساعده البيئة، على الوفاء بهذه الحاجات والرغبات، فهو أما أن يضحي بهذه المطالب ويكبت هذه الرغبات ويكون حينئذ عرضة للنوبات العصبية والاضطرابات النفسية، وأما أن يلجأ إلى تحقيق هذه المطالب وتلبية الرغبات بطريق غير مشروع، فيحتال ويسرق ويغش، ويصطنع كل السبل التي يصل بها إلى غاياته ويفلت من عقاب القانون. وقد يخونه ذكاؤه فيقع في يد القضاء، ويلقى الجزاء. ثم يعود سيرته الأولى بعد الجزاء. ويستسيغ هذا النوع الجديد من حياته الشريرة. لأنه سقط فهوى ولم يجد من ينقذه بمعرفة سبب الجرم؛ فإن كان في نفس المجرم حاول إزالته وتوجيهه إلى الصالح المنتج المفيد، وإن كان في البيئة عمل على محوه وخلق تناسب بين البيئة وبين الفرد. ولذلك نجد في السجون الأوربية معاهد للتثقيف والإصلاح، ولتعليم الفنون والصناعات المختلفة كالزراعة، والتجارة والطباعة، والحياكة الخ حتى يجد السجين أمامه بعد مغادرة

السجن وسائل الحياة التي تتناسب مع ذكائه. والتي تساعده على كسب ما يحقق رغباته فيتجه بذلك ذكاؤه اتجاها مستقيماً صالحاً ويتحقق المثل السائر (السجن مدرسة وتهذيب وإصلاح)

وقد لاحظ علماء القيادة المهنية أن أكثر العمال في المصانع تذمراً، والموظفين في الشركات طمعاً هم أولئك الذين وضعوا في مهنة أو وظيفة دون مستواهم الذكاوي، فيكون هؤلاء دائماً مصدراً للمؤامرات، وتدبير الإضراب، والخروج على النظام. وكذلك وجدوا أن قليلي الذكاء أو الأغبياء إذا ما وضعوا في مناصب ذات تبعة وفوق مستواهم الذكاوي، قصر ذكاؤهم دون القيام بتبعاتهم، فيعروهم الاضطراب والهم، وينغمسون في الشهوات

والملاذ غير المشروعة، ويسرفون، وتكون عاقبتهم الجنون. فعدم التناسب بين الذكاء وبين العمل الذي يقوم به الفرد قد يقود لا إلى فساد الأخلاق فحسب بل إلى الأمراض العصبية والجنون.

أنفق البروفسور سرل برت، رئيس معمل علم النفس وأستاذ المادة بجامعة كوليدج في لندن، ست سنوات يفحص فيها سيكولوجيا الأطفال ويقيس ذكاءهم. وقد قاس ذكاء ما يزيد على مائة ممن تتراوح أعمارهم بين ست سنوات وخمس عشرة، وكان هؤلاء الأطفال يمثلون كل أنواع البيئات المختلفة في لندن، وقد أرسلوا إليه لارتكابهم بعض الذنوب الاجتماعية كسرقة بخس الأشياء، وكالشحاذة والاعتداء على المارة أو على زملائهم بقذف الأحجار، وكإتلاف مال الغير، والسقوط الجنسي، وخروجهم عن طاعة آبائهم. وقد وجد أن متوسط العمر الزمني لهؤلاء الأطفال المتمردين هو 13. 2 بينما كان متوسط عمرهم العقلي هو 11. 3. وقد استنبط من هذه النتيجة (أن الأطفال المتمردين ينقص عمرهم العقلي عن عمرهم الزمني بنحو سنتين) ثم استنبط - بعد دراسة وإحصاء - أن (7 % من هؤلاء الأطفال ضعاف العقول أو ناقصوها) هذا وإذا علمنا أن نسبة ضعاف العقول بين جميع السكان - كما ثبت نظرياً - هي 2 % اتضح لنا مقدار زيادة ضعاف العقول من الأطفال المجرمين والمتمردين. ويقول الأستاذ برت أيضاً: (ولا يتعارض الذكاء الفائق مع التمرد، ولكن المشاهدة تدل على أن وجوده بأية درجة بين المتمردين يعد نادراً)

ويرى الأستاذ في كتابه (الطفل المتمرد) أنه من الضروري أن ندرس الطفل المتمرد لا من ناحية ذكائه وضعفه العقلي فقط، بل يجب أن تدرس بيئته ولا سيما المنزلية، لأن حال الأسرة الوجدانية المضطربة، وإهمال الطفل وترك حبله على غاربه، كل هذا له من الأثر ما لضعف العقل في إيجاد روح التمرد والإجرام عند الطفل. والفتاة البالغة التي لا تجد في المنزل إلا شقاء وسوء معاملة تسرع إلى هاوية الفساد، وبخاصة لأن ضعف عقلها يعرقل نجاحها في الحياة الاقتصادية والعملية والاجتماعية فلا تعرف كيف تحل معضلاتها، وتخلص من شقاء المنزل بطريق تضمن لها الحياة وشرف العرض.

وقد أجرى الأستاذ لويس ترمان بعض التجارب لمعرفة العلاقة بين الذكاء والخلق وقارن بين مجموعة من الأطفال ذوي ذكاء مختلف الدرجات تبلغ 533 ومجموعة أخرى مساوية

لها من الأطفال النابغين، ووجد أن المجموعة الثانية على خلق أسمى من الأولى في صفات الصدق والأمانة والشفقة ويقظة الضمير، كما وجدها تمتاز جداً بالمثابرة والإرادة القوية.

من أجل هذه عنيت الأمم الأوربية والأمريكية بتعيين علماء نفسيين في المحاكم، وفي أقسام البوليس، وفي مجالس التعليم الإقليمية والمدينة، ليعينوا القضاة ورجال البوليس ورجال التعليم بدراسة الأطفال والكبار المتمردين والمجرمين الذين يشك في ذكائهم ومقدرتهم العقلية، حتى يكون الجزاء مبيناً على ظروف الجريمة وحال المجرم العقلية. وفي لندن والمدن الأمريكية الكبرى - غير علماء النفس هؤلاء - عيادات سيكولوجية يرسل إليها المتمردون والمجرمون لفحصهم والتقرير عن حالهم.

(بخت الرضا - السودان)

عبد العزيز عبد الحميد

حول (السفاح) أيضاً

للأستاذ عبد الحميد العبادي

من حسن حظ أمير المؤمنين أبي العباس أن انتدب عالمان جليلان هما الأستاذ أحمد أمين والأستاذ محمود شاكر لمناقشة رأيي في لقب (السفاح) الذي ألصقه بأبي العباس بعض أدباء المؤرخين أو مؤرخي الأدباء ظلماً، كما اعتقد وكما دلني البحث والتتبع. نعم أن الأستاذين الجليلين أخذا برواية المؤرخين الأدباء أمثال الجاحظ وابن قتيبة وأبى الفرج الأصفهاني، ولكن تدليلهما، على طرافته وبراعته، لم ينقض حتى اليوم ما سقت من الأدلة فضلاً عن أن يهدمها. وإني مجمل لقراء الرسالة الغراء رأيي في هذا الموضوع، ثم متبع ذلك باستدراكي على ما اعترض به علي الأستاذ شاكر.

لقد رجعت إلى سيرة أمير المؤمنين أبى العباس قبل الخلافة وأثناءها، فلم أجد فيها ما يسوغ تلقيبه بالسفاح بمعنى القتال. ثم رجعت إلى قصيدة ابن أبى شبة العبلي التي يرثى بها بني أمية، وهي المصدر المعاصر الوحيد لأبى العباس، فلم أجد الشاعر ذكر فيها الكوفة ولا الحيرة ولا الأنبار، وهي المواضع التي أقام فيها أبو العباس في خلافته، في حين أنه ذكر المواضع التي قتل فيها بنو أمية على أيدي عبد الله بن علي وداود بن علي بالشام والحجاز. ثم انتقلت بعد ذلك إلى الرواية التاريخية القديمة القائمة على الضبط والتحقيق كرواية ابن سعد، وابن عبد الحكم، والبلاذري، وأبى حنيفة الدينوري، وطيفور، واليعقوبي، والطبري، والنوبختي، والكندي، فلم أجد من هؤلاء الأعلام واحداً لقب أمير المؤمنين أبا العباس بالسفاح. هنالك ترجح عندي أن لقب (السفاح) لم يكن أصلاً لقب أبي العباس. ثم رأيت أن ابن سعد واليعقوبي وصاحب (أخبار مجموعة)، وصاحب كتاب الإمامة والسياسة، يسندون لقب (السفاح) إلى عبد الله بن علي عم الخليفة أبي العباس وعامله على الشام. ووجدت أن سيرة عبد الله ابن علي هذا مما يسوغ تلقيبه بهذا اللقب كل التسويغ، فهي سيرة جبار طاغية قتال حقاً. فثبت عندي أن اللقب لقب به أصلاً عبد الله بن علي المذكور. ولما كان عبد الله بن علي قد ادعى الخلافة فعلاً وثار على أبى جعفر المنصور بالشام، وخاطبه الشعراء بالخليفة، فقد اصبح معروفاً بالشام لذلك العهد بأمير المؤمنين عبد الله السفاح. ولكن الخليفة أبا العباس هو أيضاً يسمى عبد الله، فقد وجد نوع من اللبس بين الخليفة الأصلي والمدعي للخلافة. ومما يقوي فكرة وقوع هذا اللبس أن ابن الأثير عندما ذكر حادثة تحريض سديف الشاعر على قتل بني أمية أسندها أول الأمر إلى عبد الله بن علي ثم عاد فقال: (وقيل أن سديفاً أنشد هذا الشعر للسفاح ومعه كانت الحادثة) فقد نسب إلى أبى العباس مأساة قتل بني أمية مع أن المرتكب لها على التحقيق هو عبد الله بن علي، والخلط في نسبة الحوادث المفظعة التي أتاها عبد الله بن علي إلى أبى العباس جر معه انتقال لقب (السفاح) إلى أبى العباس. وأني اعترف بأن هذا تأول مني واجتهاد، ولكنه اجتهاد في حدود النصوص والوقائع الثابتة، وليس مجرد ادعاء كما وصفه الأستاذ شاكر في العدد 342 من الرسالة الغراء.

هذه خلاصة بحثي في هذا الموضوع. ولقد نشر الأستاذ شاكر في مجلة (الثقافة) مقالاً قيماً عنوانه (كلمة في التاريخ) امتدح في بعض حواشيه بحثي هذا حتى لحيل إلى أن الأستاذ اخذ بوجهة نظري في هذا الموضوع واغتبطت بذلك أيما اغتباط، ولكني رأيت الأستاذ عاد فأعلن في العدد 340 من الرسالة أنه يخالفني كل المخالفة ووعد ببحث الموضوع. وقد بحثه في العدد 342 من الرسالة، وبحثه يقوم على أمور: أولها أن لقب (السفاح) مضافاً إلى أبى العباس إنما هو للمدح لا للذم، ومعناه الكريم المعطاء للأموال. وثانيها أن أحاديث من أحاديث النبوءات يراها الأستاذ صحيحة قد ذكرت (السفاح) بالمعنى المذكور، فليس بعيداً أن يكون أبو العباس قد لقبه أبوه بهذا اللقب قبل الخلافة تفاؤلاً. وثالثها يقول بوجوب الأخذ برواية الجاحظ التي تلقب أبا العباس بالسفاح. والذي يمنع عندي من الأخذ بالأمر الأول هو أنه ليس له سند تاريخي، واللفظ من حيث اللغة يحتمل أن يكون للمدح وإن يكون للذم. فما النص التاريخي الذي يخصصه للمدح؟ أما من حيث الأمر الثاني فلنفرض أن الأحاديث والروايات الواردة في السفاح والمهدي والسفياني والفخطاني والملاحم صحيحة، فما الدليل على أن أبا العباس قد لقبه أبوه بالسفاح تفاؤلاً واستنجازاً لموعود هذه الأحاديث؟

أما من حيث رواية الجاحظ فلست أدري كيف يوفق الأستاذ شاكر بينها وبين تفسيره السفاح (بالكريم المعطاء فإن السفاح) في كتب الجاحظ وابن قتيبة وأبى الفرج معناه (القتال السفاك للدماء)

أليس يرى الأستاذ شاكر بعد ذلك أن الأدلة التي أقمت عليها رأيي أكثر تظاهراً وتسانداً، وأشد رجحاناً من رواية المؤرخين الأدباء؟ هذا اعتقادي على كل حال.
على أني قبل أن أختم هذه الكلمة، أحب أن اعترف بأني أفدت من بحث الأستاذ شاكر فائدة كبيرة، فقد علمت منه أن نص اليعقوب القائل بأن عبد الله بن علي هو السفاح، منقول عن ابن سعد في طبقاته.

عبد الحميد العبادي

ذكرى مولد الفاروق

11 فبراير

خلدي يا مصر أيام المليك

للأستاذ مراد الكرداني

وهذا يوم من أيامك الزهر الوضاء يا مولاي، يعتز ويتيه على الزمن كله، ويختال . . . على أيام هذا البلد الأمين، بأنه كان فجر السعد وفتح اليمن، وبداءة النصر بعد عنت الجهاد، ولمعة الأمل في ألم الليل الذي تحلك وتدجي، قم امتد واستطال.

هذا يا مولاي أول أيامك على الدنيا يعود، وما يزال يعود. أشرق - يوم أشرق - على هذه البلد السعيد إشراق العز، وهل عليه كصيب الغيث. ثم سعى فيه كسعي النسيم الريان، فكان بشراً بين يدي رحمة الله التي غمرت أقاصي هذا الوادي ودانيه، وكان نعمة فاضت بمددها الذي لا يفيض، وخيرها الذي لا ينتهي، وبرها الموصول أن شاء الله.

هذا يا مولاي أسعد يوم أحق أن أقول فيه. . . عادت مصر به وكأنها نفس سابحة على مد أملها تستشرف العز الذي انحسرت عنه ظلمات الأفق وتستحث المجد الذي بدا صوراً آخذاً بعضها بيد بعض، وتتعجل النصر الذي رصدت مطلعه متلهفة صابرة منذ آماد طوال!

ولقد شاء القدر الراحم أن يكون ميلادك، يا زين الشباب، أول منحة بعد أطول محنة، وإن يكون بهاء بعد رهق البلاء. وذلك فيض من الله عميم، فإن الفضل للمحنة أن تكون طهرة واستعداداً وتهيؤاً لتكون المنحة إثرها وثوباً إلى الغد، وتطلعاً نحو المجد.

ثم أشفق هذا القدر على هذا البلد، وأنت يا مولاي حل بهذا البلد، فوسم أيامك عليه بالخير واليمن وجرى فيه أمداداً متلاحقة من العز واليسر، وتبدي في رحابه رؤى رائعة كلها نصر وتوفيق، حتى بلغ القمة، وتسنم الذروة. . . ثم حمل الراية ومضى يقود الشرق العظيم إلى منازل العزة ومشارف المجد. . .

ومن ثم كانت ذكرك يا مولاي تدرج على ربوع هذا الوادي الأمين. وكأنها منى حلوة تراوح قلب عذراء موعودة. أو كأنها نسمة تناسم روح حبيب فكنت يا مولاي المنى والنسمة. . . وكان شعبك الوفي الكريم، القلب الموعود، والروح المنتظر!

لقد سنحت يا مولاي سنوح الرضا، ولحت كما يلوح الحق بين شبه الباطل، فكنت فينا معجزة إلهية لمحت بالنور العجيب، يتطيف هادياً مشرقاً من نبع قبسه الذي هو أنت.

فكأنك يا حبيب الحبيب عرق من النور الأعلى ما يزال يترسل ويتضوأ على نسقه وطبعه حتى يضح كل الذي حوله. ومن ثم يشرق به ومنه، ومن ثم يتضوءان معاً. . . وأنت يا مولاي كما أنت نور على نور، وهو، لا كما هو، وإنما استحال خلفاً آخر غير الذي كان، اعني أنه أشماس، وكان قبل فجراً من طول ما ران عليه! سبحان الذي ألهمك يا مولاي أن الأسوة خير من القسوة، وإن القدوة أفعل في النفس من القدرة، فجعل كمالك وحياً وحياً يفعل في النفوس على طبيعته وفي طبيعتها، فلا يزال بها حتى يحيلها كمالاً كلها، وطهراً كلها، وسلاماً كلها. كما أنت - يا أمير المؤمنين - جمع ذلك كله. . . والسعود أقدار يا مولاي. . . فلله ما أكرمك عليه حين جعل سبيلها إليك أجر من اهتدوا بهديك وسعوا وراء خطوك. . ولله ما أكرمك عليه، حين عمرت بالشباب أبهاء المسجد، وحين نضرت بهم وجه الدين، ويوم انطوت أيديهم على حبات المسبحة، وكانت قبل لا تفلت الدخينة، ويوم جمعتهم على الهدى وكانوا شيعاً على الحقد والضغينة.

مولاي يا وارث المجدين، ويا فارق العهدين، يا أمير المؤمنين. . . يا سليل الأمجاد، ويا شبل فؤاد، عيدك يا مولاي سيد الأعياد. . . ويومك عزة الأيام. . . وزين الزمان. . .

صان الله شبابك الغالي، وأمدك بالعافية كلها. . . ونضر بالخير أيامك. ووسم بالسعد عهدك وزمانك. . .

وليحفظ الله الأميرة الغالية في مجد المليك، وعز المليكة، وهناءة البيت الملكي الكريم. . .

مراد الكرداني

من وراء المنظار

ساع في الدرجة الخامسة!

بلغها بدمائه خلقه، لا ريب عندي في ذلك. ومن كان في ريب مما أقول فليعرفه من كتب كما أعرفه، ثم لينظر فإن لم يمح اليقين من نفسه الريبة فأنا المخطئ وهو المصيب. . .

وإن أنداده ليعجبون كيف يتخطى أكثرهم إلى تلك الدرجة التي باتت عندهم حلماً من الأحلام، وانهم ليقسمون أنه دونهم في الكفاية، ويستدلون على ذلك، إذا لم يغن القسم، بأخطائه الجسيمة التي لم يسأل قط عن شيء منها، وذلك ما يزيد دهشتهم وحيرتهم.

ولكني أنا أعجب كيف فاتتهم دمائه خلقه ورقة شمائله ولطف معاشرته، واليها مرد ما نال من حظوة! ومتى كانت تقدر الأعمال بالكفاية فحسب؟ وإن من الكفاية ما يلحق بصاحبه الأذى، وإن منها ما يقف بينه وبين ما يشتهي.

رأيته أول مرة فرحب بمقدمي ترحيباً ملك قلبي، وأقبل على يحدثني ويجود على من الألقاب بما كاد يعتريني الزهو ويداخلني الغرور من اجله. وما هي إلا دقائق حتى كنت منه كما لو كان يعرفني من زمن بعيد. وآية ذلك أنه صار يعرفني إلى أقرانه وهو يشير إلى فطنتي وسعة اطلاعي ويثني على كرم خلقي، كل ذلك في طلاقة أدهشتني وإن كادت تضحكني ضحكات لست أدري ماذا كنت أسميها!

وتاقت نفسي إلى رؤيته أمام رئيسه. ولم يطل تطلعي فقد أقبل الرئيس فرأيته يثب من موضعه فينظم وضع طربوشه على رأسه ويزر حلته ويهرول تجاه القادم مبتسماً، حتى إذا دنا منه أقبل على يده في لهفة ولسانه يلهج بالسؤال عن صحة (سعادة البك) وأنجال (سعادة البك) ويجيب في سرعة ونشاط على سؤال وجه إليه بقوله: (نعم كما أمرت سعادتك يا سعادة البك). . . وأعجبني لعمر لحق دماثة خلقه هذه واستيقنت نفسي من أدبه وظرفه.

وانقضى يوم فازددت اطلاعاً على حسن شمائله وجميل تواضعه، فهو يعزو كل شيء إلى همة سعادة البك، وهو لا يفعل شيئاً إلا (بأنفاس سعادته) وهو لا يكتم خبراً ولا يضن بحديث سمعه على رئيسه، فذلك عنده من الأمانة والإخلاص. وإن عبارات الإجلال والتعظيم لهذا الرئيس ليثب إلى ذهنه في سرعة عجيبة ولباقة مدهشة، أعجب معهما لمن ينكرون عليه الكفاية حتى لا يسعني إلا أن أنكرها عليهم هم، وإن كنت في ذلك مثلهم إلا أنني لا تحركني الغيرة للعيب عليه.

ورأيته لا يقع بصره على رئيسه مبارحاً إلا حضر إليه مودعاً ولكنه يمشي على قيد خطوة أو خطوتين وراءه، وذلك لاشك تأدب منه، وإن تقول عليه خلاف ذلك المبطلون الذين يحقدون عليه لبلوغه دونهم الدرجة التي يتحرقون شوقاً إليها.

وهو مرب على رغم ما سماه به بعض المغيظين منه؛ وإنه ليشعر أن من واجبات مهنته أن يوحي إلى تلاميذه دماثته وأدبه وإن يلهمهم الصدق ويعودهم احترام النفس. وأنه ليعتقد أنه يفيد طلابه من هذه الناحية أكثر مما يفيدهم غيره من أقرانه؛ وإلا فمن بلغ مبلغه منهم من الدماثة وكرم الطبع؟

ولن تفوته فرصة لإظهار دماثته تلك التي أصبحت مضرب المثل بين عارفيه، وهو لا يرمي من وراء ذلك إلا إلى أن يكون فيه لأبنائه أسوة حسنة، ولن يبتغي عليه جزاء ولا شكوراً. ومن أروع مواقفه التي لست أشك أنها من خير ما يقتدي به، أنه التقط ذات مرة على مرأى من الطلاب جميعاً دخينة سقطت على الأرض من يد رئيسه فأعادها إلى الرئيس، ولكن ما كان أعظم دهشة الطلاب أن يروا ذلك الرئيس يقذف بها بعيداً بعد أن يأخذها منه وهو عابس الوجه وعلى شفتيه ما يشبه الازدراء وما لا يكون إلا استنكاراً. ولقد قارن الطلاب لاشك بين رقة الأستاذ وغلظة الرئيس، ولست أدري إيهما كانت أقرب إلى نفوسهم البريئة.

وشاعت الحادثة في الزملاء الحاقدين منهم والمسالمين، فقال أحدهم: (ما أراه إلا

ساعياً في الدرجة الخامسة). فقلت: وكيف يكون ساعياً من كان في الدرجة الخامسة؟ فنظر إلى آخر نظرة غاضبة كأنما ضايقه جهلي وقال: وإنك لترى من هؤلاء من هم في الرابعة وإن شئت ففي الثالثة. . . والطريق إليها جميعاً سهل معبد ولكن لمن يرضى أن يكون ساعياً.

(عين)

رسالة الشعر

الأمسية الحزينة

للأستاذ محمود الخفيف

حطت على الأفق ظلال الغروبْ ... كالشجنِ الطارقِ
وراحَ يمحو البشرَ فيهِ القطوبْ ... في خطوهِ السارقِ
هذا السنا عما قليلٍ تذوب ... ألوانهُ في سيله الدافق
صور لي يا عين هذا الشحوب ... برح الضنى في وجنةِ العاشق
يا ويلتا ما بالُ هذا المساء ... يهيجُ أشجانَيهْ
توحي إلى النفسِ معاني الفَناءْ ... أضْوَاؤهُ الفانِيَهْ
والريحُ كم غنَّتِ لسمعي البُكاء ... وأسلَمتْ للوجدِ ألحانِيَه
كم أحزنَتْ روحي هذى الظِّلالْ ... وأزعْجَتْ ناظِري
كم أيقظَتْ في خاطري من خيالْ ... عنْ أمسيَ الدابرِ
كأنما ألمحُ فيها المآل ... لكلِّ موْموقِ السَّنا باهِر
وا لهفتا أغرَى بقِلبي الضلال ... هذا الأسى الحيرانُ في خاطِري
أرقبُ في الأفْقِ تهاويلَهُ ... طافيةً لاعِبَهْ
يا مُجْتلى ما إنْ أرى مثلهُ ... إلا المُنى الكاذِبهْ
تلك التَّصاويرُ التي حَوْلَه ... كم أشبَهتْ أحلامِيَ الذاهبه
بالأمسِ قَلبي كان يَهفو له ... جذْلانَ يهَوَى شمسَهُ الغاربه!
تذكري أنَّ وراَء الأفولْ ... والليلِ صبحاً يُرَى
يُلبِسُ معنى الحُزن هذى الفُلول ... حتى تُرَى أكْدرا
يا ليتَ (لَيْلِى) مُعقِباً إذ يَطول ... فْجَراً أرَجى صُبْحهُ المسفِرا
الله لي في حُلْكةٍ لا تحول ... في يَقظةِ الليلِ ولا في الكرَى!
تَزايُد الكدرةُ بين الغصونْ ... ما ازداد غشيانُها
تُذكَرُ القلبَ غواشي الظنونْ ... وَسوَسَ شَيطانُها
ستشربُ الخضرة هذى الدُجون ... وُيغرقُ الأرْواحَ طُوفانُها
وتُشبِهُ الظُّلمةُ فيها المَنون ... تَعِجُّ بالوحشةِ شُطآنُها
يا ظُلمةَ الليلِ نَسيتُ السّنا ... ونمتُ عنْ رَوْعِتهْ
قلبي المعنَّى قبلَ مَوْتِ المُنى ... كم هامَ في فتْنتِهْ
كم هامَ بالصُّبحِ كسا الأغصُنا ... بالساكِبِ المُنهلِّ من عُرْته
يَرفُّ مأخوذاً بهِ ما دنَا ... وينَهلُ الفَرْحةَ من طَلْعتِه
الويلُ لي! يَزدادُ حولي السُّكونْ ... إلا أنينَ الريّاحْ
كأنما طافَ الكرَى بالغُصونْ ... ولفَّها بالجناحْ
ساهمةٌ تقرأ فيها العيون ... هذا الأسى الساري بكلِّ النَّواح
يا ويَح قلبي أذْهلَتهُ الشُّجون ... حتى كأنْ لم يَدرِ معنى المِراح!
ذابتْ على الجوِّ فلولُ الرَّقيعْ ... وماتَ فيهِ السَّنا
وأنكرَتْ عيناي هذا القطيعْ ... أقبلَ وانِى الخطى
في إثْرهِ يَشكو وما مِن شَفيع ... الصامتُ المكدودُ، طولَ العنا
وَدَوَّمَ الخُفَّاشُ حَوْلي يُذيع ... في خَفقِتهِ قُرْبَ نُزول الدُّجى
وا حربَا ما انفكَّ مرْأى الأصيلْ ... يوقظُ أوهامِيَهْ
يُعيدُ للنفسِ مَساَء الرَّحيل ... وسُودِ أيامِيَهْ
حينَ افترقنا بعد صَمتٍ طَويل ... لا قَوْلَ إلا الأدمعُ الهامِيَه
والشمسُ تمضي غير نورٍ ضئيل ... مُحتضَرٍ يَفنَى كأحلامِيَه
مضَيتُ لهفانَ أذودُ الجوَى ... عَنْ قَلْبَي اليائسِ
أقولُ دَعْ ذكرانَ يَوْمِ النَّوَى ... وعَهْدِهِ الدارسِ

قدْ كنتَ يا قلبُ نَسيتَ الهوَى ... إلاّ بَقايا من أسًى هاِجس
رَبيعُكَ الطّلقُ توَلي سوَى ... وسَاِوس من زَهْرهِ اليابِس
الضَّنَى
الضنى - لامسَّك العمرَ ضنى - ... إنه دنيا بلاء وعَنا
طيفُ عزربلَ إذا دقْ على ... منزل فزَّع فيه السكنا
ومحا الفرحة منه، ومضى ... يملأ الأرجاء فيه حَزَنا
الضنى - لا ذقت أهوال الضنى - ... يَطحن العزم ويُوهِى البدَنا
يومه كالليل، والليلُ به ... وقفة الحشر وأقسى مِحَنا
يتمنَّى الموتَ صرعاه، وكم ... يركب المضطر ظهراً خشنا
صُوَر الدارِ إذا طاف بها ... طائف الأدواء تدمى الأعيُنا
راقد يشكو، وزوج حوله ... ترسل الدمع سحاباً هَتَنا
وأخ يدعو، وأم رفرفت ... روحها حيرَى على ابن وَهَنا
وصغار خشعت أصواتهم ... واستكانوا يَنشدون الوَسَنا
ويحهم! كم زلزلوا الأرض وكم ... غمروا الدارَ صياحاً وِغنا
يا صحيح الجسم نُعماَك! فلا ... تأس إن فاتَكَ موفور الغِنَى
إنما الصحة نْبعٌ طالما ... فاض بالخير ومعسول المُنَى
فريد عين شوكة
خطرة في داء
مطمحي في الشفاء، أين الشفاء؟ ... أقعد العجز همتي والداء
إنما مطمح الحياة شباب ... ما لمن يفقد الشباب رجاء
كنتُ والريح طالما نتبارى ... بجناح تُطوى به الأجواء
كنتُ والطير طالما نتناجى ... بلسان يسيل منه الغناء
فلساني قد أخرسته العوادي ... وفؤادي أودت به اللأواء
أقعدتني عن التنقل رِجلٌ ... لست أدري ما خطبها، ما تشاء؟
تتأذى إذا همتُ بسير ... وإذا ساء جانب لي تُساء
بينما الداء ها هنا يتفشَّى ... يتمشى كأنه الكهرباء
فإذا بالبلاء لا يبرح المد ... نف حتى يجيء منه بلاء
يا عليلاً سميره الألم المضني ... وعواد دائه الأرزاء
هل تهدمتَ، فاعتزمتَ أفولاً ... أو تمثلت أن تدانى انتهاء؟
لم تزل قمة تناديك فانهض ... إنما مطمح الحياة ارتقاء
مد دِامَي الجناح واخفق صعوداً ... تتلقى دماءك الغبراء
يا خيالي! إن أقعدتنيَ رجلي ... فلك الأفق مسرحاً والسماء
إن روحي تأبى التقيد بالج ... سم وتمشي، والغاية العمياء
(حلب)
خليل هنداوي
!صراع
تعاودني الأوهام في كل آنة ... فيا ليت أوهامي تزايل وحدتي
أرى بين هذا الناس فراداً، وإنني ... لجمع كثير لو دروا ما بطيتي
بفكري أضداد تغرب نورَه ... فليس بفكري غير أشباح ظلمة
فطوراً أراني هادئاً متبتلاً ... وطوراً أراني في ضلال وريبة
وقلبي مذعورُ الأناشيد تارة ... وطوراً يغني في صفاء وفرحة
صراع عنيف كدت من لَزَباته ... أعيش بلا رشد ووعي وفطنة
نشأت على الدنيا أغنى. . فليتني ... بقيت على الدنيا أردد غُنوتي
وهتْ من يدي قيثارتي فتركتها ... محطمة تبكي غيابي وغربتي
وسرتُ كأني مدبر من هزيمة ... عليه من الآلام أطياف خيبة
أنا الصارخ الشاكي الحزين فليتني ... أعود لأنغامي ونايي وأيكتي
تشاكيت. لكن لم تفدني شكايتي ... وما زال صبحي غائماً مثل ليلتي
يقولون: مجنون فقلت: نعم نعم! ... وسر جنوني حيرتي وتعلتي
كرهت الذي بالأمس كنت أحبه ... وأحجمت عما كان بالأمس شِرعتي

يعيش بنو الصلصال يلهون في السنى ... ويحيا بنو الأنوار نهب الدجنة
خذوا من فؤادي وهمه وضلاله ... ومدوا على دربي شعاعي وسكتّي
تروني على قيثارتي مترنماً ... أغني أغاريدَ الهوى والمسرة
وأنتم حيالي مطربون . تهزكم ... لحون سعاداتي وأقداح كرمتي
عبد العليم عيسى
الأدب في أسبوع
الفن
كنت أرجأت الحديث عن (الفن الفرعوني) الذي أراد الدكتور طه حسين أن يجعله أحد العناصر في (الغذاء الروحي والعقلي للشباب) في عصرنا هذا، وهو رأى متداول قد عاد إليه فلان وفلان ممن استطارتهم العصبية فعصفت أعاصير بعماد الرأي وحسن البصر وكمال التقدير لما ينبغي أن نقيم عليه حضارتنا المصرية الإسلامية. والعصبية هي دليل الضعف، وهي الآفة التي تتخون الرأي، وهي الهدم الذي يأتي بنيان العقل والعاطفة من القواعد حتى يدمره تدميراً. وسنوجز القول ما استطعنا، فإن الإفاضة والشرح والبيان مما لا يتسع لها هذا الباب.
فالفنان هو القلب النابض الذي يفضي إليه الدم الحي الذي تعيش به حضارة أمته في عصره، وهو الفكر القلق النافذ المتلقف الذي ينقد الحياة الاجتماعية في عصره بألفها أو ينكرها، وهو العبقرية الماردة التي لا تخضع إلا لناموس الحياة الأعظم. والفنان بطبيعته الإنسانية فكرة معبرة عن حقيقة الاجتماع الإنساني الذي يعيش عليه، وعن طبيعة الأرض التي يمشي فيها، والسماء التي يستظل بها؛ وكل أولئك ينشئ للفنان أفكاراً وأخيلة وأحلاماً تستمد غذاءها من ينبوعها الذي يتفجر بين يديه ولعينيه وفي قلبه.
ونحن لو تتبعنا الآثار الفنية وتاريخها في كل أجيال الناس من الهند والصين والعرب والترك والروم، وكل الأمم القديمة، وسائر الأمم الحديثة - لم نخطئ أثر الحياة الاجتماعية في الأثر الفني، ولا أثر الطبيعة الجغرافية في جوه الفني. ونعني بالحياة الاجتماعية كل ما تقوم عليه من الدين وعقائده وشرائعه، وما يتميز به العصر من الأخلاق والعادات والوراثات والأساطير الشعبية التي انحدرت إليه من القدم، ثم سائر أسباب الحضارة المعاصرة بكل مادتها وألوانها وحقائقها وأباطيلها. وأما الطبيعة الجغرافية، فهي صورة الأرض بنباتها وأنهارها وفدافدها وحيوانها وغابها، وما إلى ذلك، وجو السماء بصفائه والتماعه وشمسه وقمره ونجومه وسحابه وثلوجه وصيفه وشتائه وربيعه، وغير ذلك مما يولد في نفس الفنان ألواناً من أخيلة الفن التي يريد تحقيقها أو تمثيلها أو ابداعها؛ والأثر الفني لا يمكن أن يكون خالياً من تأثير هذين العنصرين المميزين.
فالفن - ولاشك - نتيجة من نتائج الاجتماع الإنساني والطبيعة التي تحتضنه، فهو يتأثر بها تأثراً بينا، لمكان الإحساس المرهف البليغ من الفنان القدير المتمكن. فأعظم الآثار الفنية التي يعدها الجيل الأوربي - مثلاً - في طليعة العبقرية الفنية، هي الآثار العظيمة الخالدة، التي نشأت وربت وترعرت وامتدت تحت ظلال الكنيسة والعقائد المسيحية، التي عاش في مدنيتها الفنانون الذين أبدعوها، وتأنقوا فيها وبالغوا في إتقانها؛ ونحن لا نحتاج هنا إلى أن نضرب المثل بفلان وفلان من الفنانين الإيطاليين والفرنسيين وغيرهم، ولا أن نعدد آثارهم التي بقيت إلى اليوم أصلا للفن الأوربي الحديث. وهذه الآثار كما يشاهدها المشاهدون تختلف باختلاف الطبيعة الجغرافية التي هي سبب ثان في إنتاج الفنان. فكذلك الفنون الصينية والهندية تتميز بالاجتماع الوثني الذي يعيش فيه الفنان الصيني أو الهندي، وبطبيعة البلاد الهندية والصينية. ونحن لا نشك أن أعظم الفنون والآثار عامة قد كان نتيجة لازمة للعقيدة الدينية - وثنية كانت أو إلهية - وللطبيعة الجغرافية التي تمد عليها من ظلالها؛ وإن الدين والعقيدة هما عماد الاجتماع وأصله وأعظم مؤثر في توجيه أغراضه وحياطتها وتدبيرها وتوليدها، فهما إذن اصل قائم في الحضارة التي تدين بهما مهما تطورت بعد ذلك وخرجت عليهما فأهملتهما. وذلك لأن الشعوب تحتفظ من الأديان بخصائص كثيرة لا يمكن أن تؤثر فيها تطورات الحضارة المدنية الخاضعة للعلم والسياسة وما إليهما.
الفن الفرعوني

فالفن الفرعوني - بغير شك - ليس إلا نتاجاً مركباً من الوثنية المصرية الفرعونية والطبيعة المصرية الرائعة القوية، وأثرها بين في هذه الأبنية الضخمة بتماثيلها الغريبة المتقنة المختلفة الدلالات على المعاني الدينية المصرية القديمة، وعلى الأصول الاجتماعية الخاضعة للوثنية الفرعونية التي كان يعيش عليها الشعب المصري القديم. فهذه الديانة القديمة الجاهلية التي عبدت أوثانها وتقدست بعقائدها الباطلة، وخضعت لأساطيرها الرهيبة المخيفة، واستمدت تهاويلها من الإيمان بجبرية هذه الأوثان والقوى الطبيعية المختلفة كالشمس والنيل والتمساح وكذا وكذا من الأوهام الغالية، هي أنتجت هذا الفن المصري القديم بمعابده وتماثيله وكتابته الهيروغليفية المعبرة أدق تعبير عن حقيقة المدد الفني للآثار المصرية الفرعونية.

والفنان الفرعوني لم يستطع أن ينشئ هذه الآثار الهائلة الغريبة التي بقيت هذه القرون الطوال تتحدى الزمان المتطاول عليها، ولم يمنحها هذا الجبروت الهائل والاستبداد الطاغي إلا بالقوة التي أنشأتها ودبرتها له عقائده الوثنية الرهيبة، وإيمان المجتمع المصري بها إيماناً خاضعاً متعقباً أيضاً، وأعانتها الطبيعة الجغرافية المصرية العظيمة بشمسها وقمرها وصيفها وشتائها، وصحرائها التي تحف بالنيل العنيف المتدفق بسلطان طاغ كسلطان الفراعنة الملوك. كل أولئك أثار الفنان وأمد إحساسه المرهف بالمادة التي استطاع أن يصوغ فيها فنه الوثني العبقري

وعلى ذلك فيجب أن تقرر أن الفن المصري الفرعوني - على دقته وروعته وجبروته - أن هو إلا فن وثني جاهلي قائم على التهاويل والأساطير والخرافات التي تمحق العقل الإنساني، فهو إذن لا يمكن أن يكون مرة أخرى في أرض تدين بدين غير الوثنية الفرعونية الطاغية - سواء أكان هذا الدين يهودياً أم نصرانياً أو إسلامياً أو غير ذلك من أشياء الأديان.

تمثال نهضة مصر

وهذا (تمثال نهضة مصر) القائم في (ميدان المحطة)، والذي أقامه المثال القدير (مختار)، أنا أراه فلا أرى فيه إلا تقليداً فاسداً لآثار حضارة قد دثرت وبادت ولا يمكن أن تعود في أرض مصر مرة أخرى بوثنيتها وأباطيلها وأساطيرها وخرافاتها. نعم، هو تقليد رائع يدل على قدرة الفنان الذي نحته، ولكنه لا معنى له الآن في مصر الإسلامية. هل يستطيع الفنان الذي نحته وأقامه أن يعيد في مصر تاريخ الوثنية الجاهلية، واجتماع الحضارة الفرعونية، وما يحيط بذلك من الأبنية الضخمة التي شادها أوائله، والتي كانت وحياً للفنان الفرعوني الذي عبد الشمس وخضع لفرعون وأقر له بكل معاني الربوبية، وآمن بالأباطيل والأساطير والتهاويل الدينية الوثنية الضخمة الهائلة المخيفة التي قذفها في قلبه أبالسة عصره من الجبارين والطغاة؟ وهل يستطيع أن يجعل في أرض مصر شعباً وثنياً متعبداً للفراعنة والجبابرة بالخوف والرهبة والرعب حتى يتأثر بمعنى هذا الضرب من الفن المصري القديم؟ ولكن أفي مصر الآن من الشعب من يستطيع أن يجد له معنى أو تأثيراً أو اهتزازاً إلا من القدم وأخيلة القدم؟ كلا. . . كلا.

لقد ذهب كل هذا، لقد دثر، لقد باد. إن الأصول الفنية التي يكون بها الفن فناً قلما تتغير، وهي ممكنة دانية في كل الآثار على اختلاف أنواعها وبلادها وأراضيها وأديانها، ولكن روح الفن هي دين المجتمع وعقائده وطبيعة أرضه وسائر أسباب حضارته، وهي التي تمنح الفنان القوة والقدرة على الإبداع، وهي التي ترفع فنه أو تضعه.

وإذن فدعوة الدكتور طه إلى الاستعداد من الفن الفرعوني - كما استمد (مختار) - ثم دعوته إلى جعل اجتماعنا اجتماعاً إسلامياً، ثم استمدادنا أيضاً من الفن الإسلامي - تناقض عجيب في أصل الرأي، لا يمكن أن يكون ولا أن يعمل به إلا إذا شئنا أن نوجد لمصر حضارة مقلدة ضعيفة ملفقة من أشياء ليست نتيجة ولا شبه نتيجة للاجتماع المصري الإسلامي الحديث الذي تدعو إليه ويدعو إليه الدكتور طه حسين!!

وبشر أيضاً!!

يقول بشار بن برد لخلف بن أبى عمرو في حديث جرى بينهما معابثة ومزاحاً:

ارفْق بعمرو إذا حركتَ نسبته ... فإنه عربيٌ من قواريرِ

وصديقي (بشر) قارورة عطر نشوان من نفحات روحه، قارورة عربية معربدة تختال

بطيها تياهة من الخفة والطرب. وأنا أرفق به ولكنه يأبى - كرماً منه - إلا أن يتحطم في يدي ليسكب طيبه عليها فيعبق بها، ويبقى أبداً يتضوع منها نسيماً يسكر، ويعلق بهذا القلم من عطره أثر خالد كرائحة الحبيبة في ذكرى المحب، و (للرسالة) بعد ذلك من شذاه ما يفور وما يتوهج وما يسطع من نضج عبيره.

وبشر - هذا الإنسان الرقيق - يتجهم لي ويملأ علي (بريد الرسالة) زلزلة ورعداً وبرقاً وصواعق. . . ويبصرني بفروق اللغة بين (وضع بحراً) و (اخترعه)!! وأنا بلا شك لا أستطيع أن أشغل نفسي بتبصيره بمنطق اللسان العربي. ثم لا يكتفي بهذا بل هو يغلو في تقديري فيعدني من (الخلق) الذي يقف على معاني الألفاظ العربية من (إلا كباب على قراءة الصحف اليومية)!! كلا، بل يجوز ذلك فيعلمني مجاز العربية وحقائق بيانها ودقائق ألفاظها!! أوه، بل هو يعرفني بالقرآن لأني (من عامة الناس في هذا الزمان) ممن يفهمون القرآن - كلام الله - بما يغلب عليهم من عامية العصر!! ولا يكون كل ما يكتبه (بشر) من علمه هذا (إلا على جهة التسلي والتلهي)! بلى، فهو يرحمني ويشفق على أن يدخل بي في المقاييس العربية الدقيقة الغامضة التي تستهلك قوة العقل والإدراك، فهو يأخذني من قريب!! وأنا قد أخطأت وأسأت وأثمت وحبط عملي، ومحقني اندفاعي إلى شعر بشر (أتلمس) - هكذا قال بشر - أتلمس له الخطأ!!

ولا كل هذا أيها العزيز، (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة)، وأنا يا بشر لا أطاولك في علم ولا فقه ولا بيان ولا معرفة، فأنت أنت، وأنا حيث أنا من العجز والبلادة، ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه.

ومن جَهِلتْ نَفْسُه قدرهُ ... رَأَى غيرهُ منْه ما لا يَرَى

وأنا يا صديقي أقل شأناً وأضعف من أن أجرى في عنانك، ولكنك - إذ كتبت ورددت وأعطيتني فوق ما أستحق في نفسي - تحملني على المركب الصعب، فكان أولى بك أن تهملني، فإما إذ أبيت فلا بأس عليك إذ أنا أقحمت نفسي معك؛ فاصبر على هذا البلاء (فالحر يظلم أحياناً فيظلم)

وقد زعموا - أيها العزيز - أنه كان رجل عبادي بالحيرة البيضاء، فلاقى ضحضاحاً من الماء لابد له أن يجوزه ويخوض فيه، فاستعان الله وأقبل على الماء - وهو إلى الكعبين حسب - فلما دخله صاح: (الغريق، الغريق!) يستنجد أصحابه، فتناولوه يسألونه: ما دعاك إلى هذا وليس غرق؟ فقال: (أردت أن آخذ بالحزم)

وأنت - أيها الصديق - تأخذ بهذا الزم، فتهرول إلى (لسان العرب)، و (أساس البلاغة) و (الألفاظ الكتابية) تحشد لي ما جاء فيها من مادة العربية في قولهم (زلزل) ولا تكتفي بهذا بل تسعى إلى (الأغاني) (طبعة بولاق!) تقلب أوراقه، تستخرج تراجم المغنين وأصحاب الملاهي كإسماعيل بن جامع وإبراهيم ابن ميمون الموصلي - وغيرهما في دواوين العربية وأصولها - فتفلي ألفاظها وتجري عينيك وراء إصبعك على حروف الكلمات عساك تقع على جملة يكون فيها (زلزل) وما يخرج منها وما يتداعى إليها، ولا تكتفي أيضاً فتتناول من بين كتبك أحد فهارس القرآن الكريم - (وهو الحجة العليا في مثل هذه المشكلات) - كما قلت وإن لم تقل، فتجد اللفظ في آيات بينات منه. فتجمع ذلك كله في مقالك - أو ردك على - حشداً بارعاً عظيما تضاهي به عمل (المستشرقين) الثقات الإثبات المتضلعين المتقنين المجيدين! الذين لا يدعون للحرف مكاناً إلا نبشوه وتقصوه ورموا بعضة فوق بعض (أخذاً بحزم العبادي. . .) الذي عرفت. وهو أسلوب فاسد عندنا لا يعول عليه في الحجة، وإنما هو أسلوب ضروري حسن حين يراد منه المقارنة والتدبر لاستخراج المعاني من الألفاظ وبيان سرها من الحقيقة والمجاز ودقة التصوير للأغراض التي نصبت لها هذه الألفاظ.

والنصوص التي جمعتها وحشدتها ورتبتها تختلف في حقائقها ومجازها في العربية، وأنت لم تشرح حرفاً واحداً منها تبين عن وجه مجازه على العبارة التي وقع عليها، ولو كنت فعلت ذلك أو أحسنته لطويت كل الذي نشرته عليّ وعلى القراء. . . تعلمني به ما غاب عني من (القرآن وهو في صدري، والتفسير والحديث واللغة وهي شواغلي) - كما تقول - وأنا لا أضن عليك، أيها الصديق، بما يجعل لحشدك هذا - الذي رعتنا به حين قذفته علينا - قراناً ونظاماً يسلك فيه ويمضي عليه، ويعرف به من لا يعرف سر

!!البيان وكيف يكون مجازه على طريق اللسان العربي المبين
فأصل الحرف (زلزل) من (زلَّ الشيء إذا زلق فتحرك فتدأدأ، فمر مراً سريعاً في ذهابه عن مستقره). فلما ضعفت العرب الحرف، فقالوا: (زلزل وتزلزل)، ضاعفوا معنى هذه الحركة، فكان معناها الحركة الشديدة العظيمة والاضطراب والتزعزع، وتكرار هذه الحركة مرة بعد مرة، حتى كأن بعض الشيء يزل عن مكانه، فينقض على بعض ويتساقط ويتقوض. وإذن، فشرط مجاز هذا الحرف أن يكون لشيء يتحرك حركة عظيمة شديدة، فالرجل يتزلزل، والأقدام والأيدي والرؤوس والقلوب وما إليها من أعضاء الإنسان المتحركة حركة ما، وكذلك الحيوان كالإبل جاء راعيها بها (يزلزلها) أي يسوقها سوقاً عنيفاً كأنها تزل معه مرة بعد مرة، والمكيل في مكياله كالبر والشعير كل يتزلزل لأنه يحرك فيتحرك، والدار والأرض والدنيا كلها تتزلزل لأنها تتحرك أو يجوز عليها الحركة فيتهدم بعضها على بعض، والنفس كذلك لأنها تضطرب في حيزوم المحتضر اضطراباً شديداً يتجلى في الكرب الذي يلحقه والضيق الذي يأخذه، فينتزع الأنفاس، ويضطرب القلب بالنبض الشديد، ويزيغ البصر، وتتحرك اليد والرجل في الحشرجة حركة كثيرة شديدة بتردد النفس في نزاع الموت والحياة. ومع ذلك فأنا أدع أشياء كثيرة لا أتناولك منها أيها الصديق.
أما الأُذن. . . فالإنسان من بين جميع الحيوان هو الذي لا يحرك أذنيه ألبتة، لا في طرب ولا غضب، فما بالك وهي ليست مجرد حركة، وإنما هي حركة شديدة مهدمة لأنها زلزلة. فإذا علمت ذلك وتلقيت وتدبرته وأحكمته ولم يأخذك العناد عليه عرفت أنه لا يمكن أن تقول (أذني زلزلت) لأن الزلزلة تتطلب أصلها المقرر وهو الحركة والانتقال والزلة بعد الزلة من مكان إلى مكان ولو على وجه المبالغة. فدع أذنك من آذان خلق الله الذين صورهم فأحسن صورهم - إن شئت. وأنا لا أصنع في كلامك هذا تعباً فأتلمس لك الخطأ كما تزعم، ولكن انظر يا بشر كيف يتكلم الشعراء عن الآذان وعن الزلزلة؛ يقول بشار في مغنية:
لعمُر أَبي زُوَّارِها الصّيدِ، إنهم ... لفي مَنظر منها وحسنٍ متاع
وعُيوننا ... إذا ما التقينا والقلوبُ دَوَاع (تُصلى لها آذانُنا)
إذا قَلدَت أطرافَها العود (زَلزلتْ ... قلوباً) دَعاها للوساوِس داعِ
يروحون من تغريدها وحديثها ... نَشاوَى، وما تسقيهم بصُواعِ
لعوبٌ بألباب الرجال وإن دنت ... أطيع التُّقى والغي غير مُطاعِ
فانظر صلاة الآذان بالخشوع والإنصات والسجود للصوت، وتأمل زلزلة أوتار العود التي تزلزل القلب بوقعها وتوقيعها. وكيف أتم المعنى بذكر الوساوس وهي قلق واضطراب.
. . وأما أنت أيها العزيز
فلا تذهبْ بحلْمك طامياتٌ ... من الخُيلاءِ ليس لهن بابُ
فإنك سوف تحكمُ أو تَناهَى ... إذا ما شبتَ أو شاب الغرابُ
محمد محمود شاكر
رسالة الفن
من لوازم الفن
!لو أكلت الشجرة أثمارها
(إلى الذين يريدون مني أن أكون مؤدباً)
للأستاذ عزيز أحمد فهمي
- مالك مقطب الجبين؟
- بعض الذين أحبهم ساخطون علي
- . . .من طول لسانك. تعلم الصمت. . . دارِ الناس. . . تأدب تجدهم يحبونك
- إذا فعلت كذلك كرهت نفسي
- عجباً! ألا تحب نفسك إلا إذا كنت شتاما؟
- لست أشتم أحداً، لكن أرى، وافهم، وأصف. والله يعلم أني لا أقصد من وراء ذلك شيئاً. . .
- هذا أنكى وأمر. فقد كنت أحسب أنك تقصد من وراء ذلك إصلاح الذين تذكر عيوبهم
- ربما كان ذلك يجول بخاطري أحياناً. ولكن عندما تحتد بي الحكمة أشهد على نفسي

بأني عاجز عن هذا الإصلاح. فلهذا الكون إله يديره، وهو قد رضى عن ناس فهداهم، وهو قد أضل ناساً لم يرض عنهم، وقد أنبأ الله رسوله المحمد بأنه لن يهدي من أضل الله، ومن أنا إلى جانب الرسول حتى أزعم أني أهدي وأرشد؟!

- إذن فما لك لا تسكت؟

- لأن الله خلقني ناطقاً، فإذا لم أنطق عطلت رغبة من رغبات إلهي، وأعدمت بيدي مبرر وجودي، وكنت بعد ذلك جديراً بالفناء، فليس لي في هذه الدنيا عمل إلا أن أقول. . .

- تستطيع أن تعمل شيئا غير ذلك. . . ألست إنساناً عاقلاً؟

- إنك تزعم أنك عاقل، وإني أرى أكثر اهتمامك متجهاً إلى التأمل في الناس ودراسة نفوسهم، ولا أكتمك إعجابي بكثير من دراساتك هذى، فلماذا لا تستغل قدرتك هذه على الإلمام بالناس ونفوسهم، في السيطرة عليهم واستغلالهم؟. . . لماذا تصدمني بذكر عيوبي مجسدة مكبرة مهولة، وأنت تستطيع أن تسيطر على وإن تعبث بعقلي ما دمت تعرف مواطن الضعف فيه. . .؟

- هذا الذي تطلبينه يصنعه التاجر، ويصنعه رجل السلك السياسي، ويصنعه الجاسوس، وتصنعه المرأة؛ ولكن لا يصنعه الكاتب، ولا الرسام، ولا الشاعر. . . ألم تقرئي تاريخ المتنبي؟ أو لم تقرئي شعره؟ هل رأيت في الناس من هو أحكم منه، ومن هو أشد خبرة بالنقوش منه؟ إلا تظنين أن المتنبي كان يستطيع العبث بكل ملك من أولئك الملوك الذين قربوه وفضلوه على غيره من المقربين؟ إلا تظنين أنه كان يستطيع أن يبيع سيف الدولة وإن يشتري الإخشيدي؟ أنه كان من غير شك يستطيع، فلماذا لم يفعل؟!

- لأنه كان سخيفاً؟

- قولي أنه كان سخيفاً في هذه، وقولي أنه كان مجنوناً، ولكنني أقلوا أنه كان أميناً.

- أميناً لمن؟ ما كان أميناً لنفسه، فلو كان كذلك لأفاد نفسه، وما كان أميناً لسادته أو أصحابه، فلو كان كذلك لما سبهم وذكر عيوبهم. . .

- كان المتنبي أمينا لك أنت، وكان أميناً لي أنا، وكان أميناً لكل الذين عاشوا بعده وقرءوا شعره، فقد كشف لنا المتنبي عن حقيقة ربما كنا سنظل نجهلها لو لم يقفنا عليها، ولكنه صرح بها، وذكرها وقال لنا: يا خلق الله لا تشتروا العبد إلا والعصا معه، أن العبيد لأنجاس مناكيد. . .

- أو لم يكن المتنبي يعرف أن العبيد أنجاس مناكيد قبل أن تضطره الظروف إلى أن يقول هذا؟

- صدقي أني أكره في المتنبي احتماله الطويل لكافور قبل أن يصفه هذا الوصف، وصدقي أني لا أغفر هذا الاحتمال للمتنبي إلا بهذه الثورة التي ثارها على كافور آخر الأمر، وصدقي أني لو كنت مكان المتنبي ما كنت تقربت من كافور ولا من غيره، لأني رأيت أصحاب السلطان يعتزون بسلطانهم، كما يعتز أصحاب المال بأموالهم، وكما يعتز أصحاب الفكر بأفكارهم، ولا يمكن أن يعاشر معتز معتزاً إلا إذا كان أساس العلاقة بينهما استغناء كل منهما عن الآخر، وكان المتنبي يستطيع أن يستغني كما استغنى أبو العلاء، ولكن أطماعه ثقلت على نفسه فسوأت بعض تاريخه، وإن كانت أطماعه هذه هانت عليه أحياناً عندما استعصت فانقلب عليها مستهجناً ولكن كما يغضب الطفل على مشتهاه إن قصرت عنه يداه.

- فالمتنبي عندك رجل سوء.

- لا. ولا يمكن أن يكون كذلك. فالرجل الذي يغاضب أصحاب السلطة حين يشعر أن كرامته مست لا يمكن أن يكون رجل سوء. وإنما رجل السوء الذي تمس كرامته كل يوم فيرضى، والذي تهون عليه الإساءة بما يأكل من السمن والعسل. . . هبي المتنبي احتمل سيف الدولة، وطأطأ الرأس لغضبه، وهبيه لأن الكافور واستمسك بعشرته وتعلق بنعمائه. . . أفما كان يستلزم منه هذا أن يسكت عن الإفاضة بما يشعر به من وخز الألم، أو أن يفيض بالذي لا يشعر به من الراحة والسعادة؟ وهبيه قد فعل هذا. . . أفما كنا نخسر هذه الثروة الفنية التي خلفها لنا غضبه والتي بعثتها ثورته؟ ثم ألم يكن

المتنبي مضطراً في المجاملة أن يقول شعراً كذباً ككل شعر كذب قيل في عصره فمات ولم يخلد غير شعر المتنبي. . .؟
- ولكن المتنبي قال شعراً كذباً
- أي شعر هذا الكذب الذي قاله؟
- مدحه الأول لكافور. . . أفكان كافور يستحق أن يمدحه شاعر كالمتنبي. . .؟
- ولم لا؟ ألم يمدح الشعراء الحيوانات؟ كافور رجل أحسن الظن بالمتنبي في البدء، وأحسن على هذا استقباله، وأحسن بعد هذا تكريمه، وكل هذا جدير بأن يبعث في نفس الشاعر الراحة وهذه الراحة تبعث في نفسه حب جالبها، وهذا الحب يبعث المدح. . . على أنك إذا قرأت مدح المتنبي لكافور رأيت فيه تحوطاً ملحوظاً، ورأيت المتنبي يقول وكأنه يحس أن مدحه أكبر من ممدوحه، ويكفيك هذا - فيما أظن - تصويراً صادقاً لإحساس هذا الفنان الذي رأى رجلاً هو يعرف النقص فيه ومع هذا فهو يحبه لتكريمه إياه. . .
- إذن فالمسألة تدخل فيها الاعتبارات وليست مجردة منها، والمتنبي كان يحب الذين يعطونه لا الذين يستحقون حب الإنسانية الخالصة. . .
- هذا عيب كان في المتنبي، وأنت تلحظين هذا العيب وتذكرينه، وأنا أوافقك على ذكره وأعده من مساوئ المتنبي لا من حسناته، وأزيد على ذلك فأقول لك أن هذا العيب هو الذي قضي على حياة المتنبي بعد أن قضى على كرامته أيضاً، فأنت تذكرين أنه هوجم في الطريق فأراد أن يهرب، ولكن غلامه ذكره بكلام ينسب له لنفسه فيه الشجاعة، فارتد ونازل مهاجمه حتى لاقى حتفه. . . فلو لم يكن المتنبي يتهاون في الحق أحياناً لما فخر بشجاعته وهو يعلم أنه غير شجاع، ولو كان قد أظهر نفسه على حقيقتها في شعره لما اضطر إلى أن يقف في آخر ساعة من ساعات حياته هذا الموقف المضطرب الذي مات فيه. . إن المتنبي لم ينته هذه النهاية إلا لأنه اضطرب بين فنه وأطماعه. . . بين بيت الشعر الذي يفخر فيه بشجاعته وبين حبه للنجاة ورغبته في مواصلة التجوال بين أرباب العروش. . .
- فإذا كنت أنت في موقفه فماذا كنت تصنع؟
- أما أنا فإني لا أفخر إلا بالذي أتحلى به من الفضائل أن كانت في فضائل، وإني لا أذكرها على سبيل الفخر، وإنما أسردها سرداً كما أسرد كل ما في من العيوب، ولعلك تقرين بأني أكثر من رأيت من الناس إظهاراً لعيوبهم، وهذا من غير شك هو انتقام الطبيعة إلى سلطتني على عيوب الناس ومحامدهم أذكرها وأرددها، فأنا مع نفسي مثلما أنا مع الناس، وما دمت غير شجاع فلا يمكنني أن أقول أني شجاع ومقاتل، وهذا هو الذي كان يمكنني من الهرب عند هجوم العدو لو أني كنت المتنبي. . .
- وما الذي يمنعك ما دمت تعترف بأن لك عيوباً من إصلاح هذه العيوب؟
- لا شيء. ولا ريب أن من ذكر عيوبه كان هذا دليلاً منه على نية إصلاحها، وهو من غير شك ينصلح قليلاً قليلاً، ويتخلص من نواحي الضعف فيه شيئاً فشيئاً، ومهما يكن فإن الصدق الذي يميزه ليس شيئاً هيناً. . .
- أنا لا أوافق على أن يكون هذا الصدق مبرراً يستبقي الإنسان به عيوبه، ويفضح به عيوب الناس. أن هذا صدق قبيح يجب أن يزول. . .
- أما أنه قبيح فانه يكون قبيحاً. . . ولكن هذا لا يعنيني ولا يعنيه، ولا يحط من قدره، فليس بعيب الصبر أنه مر، ولا يعيب الليمون أنه حامض، وإنما الصبر المعيب هو الذي فقد مرارته، والليمون المعيب هو الذي عطب فذهبت حموضته. . .
- يا لباقتك! أما تستطيع أن تحبس هذه اللباقة لنفسك وإن تنتفع بها. . .؟
- يا أنانيتك! أي زهرة في الدنيا تحبس أريجها عن الحياة؟ أنها لا تستطيع ذلك لأنها وجدت للوجود لا لنفسها. . . إن الكون ينادي في الخلائق ما منحها. . . الثمرة تنضج فتقفز من غصنها إلى الأرض إذا لم تقطفها يد، وأنت تريدين مني أن تنضج الفكرة في رأسها وإن أزدردها لنفسي؟ كنت أستطيع هذا لو أكلت الشجرة أثمارها!. . .
- إذن فأنت تطلب من يأكلك. . .
- الذي يأكلني هو الذي يسمعني. . .
- وقد يمقتك من يسمعك فيقتلك. . .

- فلتكن إرادة الله، ولست أجهل أن الله خلق من يأكل ومن يؤكل، ومن يقتل ومن يقتل، وكم مات أصحاب الفكر في إيمانهم
- ستعود فتكسو نفسك بطولة لست أنت أهلها، وأنت وقعت الآن فيما عبت على المتنبي الوقوع فيه. . .
- لا يا هذه، إني لم أقل إني مقاتل مغوار، وإنما قلت إني مؤمن بالله وقضائه، وإني لازم رأيي، وإن شاء الله قضاءه. . . وأما المقاومة، وأما هذه الشجاعة البدنية فإني أعجز الناس عنها. . . إنما أنا كالجرذ أعرف أن لي في الحياة حقا آخذه، وأحاول أن آخذ هذا الحق، ولا يمنعني من هذا علمي بأن في الدنيا قططاً وسنانير هي أقوى مني. ولست أفكر إن لاقيت القط أن أقاومه لأنه لا جرذ يقاوم قطا، وإنما هو يحاول الهرب إذا كان للهرب سبيل، أما إذا فاجأه القط استسلم له، وربما هفا إليه. . . تلك هي الطبيعة، والكائنات - كما قلت لك - تتنادى و (تتهاتف) ويفنى بعضها في بعض ولا يبقى غير وجه الله الكريم. والكائنات تطاوع هذا القانون ولا تتكبر عليه، وحق الإنسان أن يكون انصياعه له أكثر واظهر من انصياع غيره مما لم يميزه الله بنعمة العقل، ولعلك ترين أن أهل الفن وحدهم والصالحين هم الذين يستسلمون لهذا القانون وأن غيرهم من الناس ينتكسون بعقولهم على أنفسهم، ويلحظون في حياتهم من الاعتبارات ما لا تقيم له الطبيعة وزناً. . . مثلما فعل المتنبي. . .
- وهلا تريد أن تحسب المتنبي بين الفنانين؟. . . هذا الشاعر المجيد الخالد؟
- إنه فنان من غير شك، ولكنه - غفر الله له - كان يتذبذب كما قلت لك بين الفن وبين أطماعه في الدنيا، وكان يستطيع أن ينقى من هذا، وأن يصقل في نفسه كبرياءه بأن يحرم عليها الترجي في الخلق دون الله، ولكنه ضعف أمام بهارج الدنيا فاختل. . .
- كيف تقول إنه اختل، مع أنك قلت إنه كان حكيما أو كما قلت أحكم الناس؟
- كان حكيما لأنه كان يراقب الناس، وكان إذا راقب تيقظ عقله ووقف على الحق والباطل من أمثالهم وأقوالهم، وكان مختلاً لأنه لم يكن يراقب نفسه، بل إنه لم يكن يعرف فيم يعيش، فهو يقول عن نفسه: إنه عاقل، وإنه ذكي، وإنه عالم، وإنه حساس، وإنه فصيح، وإنه أهل لكل جاه وكل سلطان؛ ثم لا يفعل شيئاً أكثر من أن يسأل الناس أن يعطوه، فإذا أعطوه فهم فضلاء، وإذا لم يعطوه فهو أهل لهجائه. . . وليس بعد هذا خلل وليس بعده اضطراب.
- وماذا كنت تحسبه يستطيع أن يفعل، والحكمة لا سوق لها ولا ربح وراءها؟
- كان يستطيع أن يرتزق من صناعة أو من عمل، وإلا فكان يستطيع أن يصبر على فاقة الحكمة. . . وأن يسعد بنعمائها.

عزيز أحمد فهمي

رسالة العلم

أرقام تتحدث وتنبئنا عن أسرار الكون

للدكتور محمد محمود غالي

- آنية (بيران) وجوها العجيب - رقصة الكرات في الآنية - نظام توزيعها - أمثلة عملية من هذا التوزيع - في زرقة السماء دليل على مقدار الذرة - عندما نطالع هذه السطور تسيطر علينا الفوتونات.

استغرقت تجارب (بيران) مقالين ولم نتمها بعد، وفي هذه الأسطر نحاول أن ننتهي من أسطورته الخالدة، لهذا نترك المقدمات لنتكلم على صميم عمله التجريبي.

في آنية صغيرة بها سائل يبلغ ما يعنينا فيها من ارتفاع 110 المليمتر أجريت كل تجارب (بيران) الذي ترك فيها عدداً كبيراً من الكرات الصمغية الصغيرة التي يبلغ قطرها كسراً من الميكرون (الميكرون 10001 من المليمتر)، ودرس هذا العالم النظام الذي تتوزع بمقتضاه هذه الكريات في المسائل، وكان عليه أن يرى بعد فترة من الزمن، تتنازع خلالها هذه الجسيمات عوامل مختلفة، هل كان ينتج من ذلك توزيع شبيه بتوزيع الذرات الغازية، وقد وجد (بيران) بالفعل هذا النوع

من التوزيع الذي يتبع متوالية هندسية، وللقارئ نورد مثالاً
للحالة التي توزعت بها كرات صمغية من التي نصف
قطرها 0. 212 من الميكرون كما لاحظها (بيران)
نسبة عدد الجسيمات
الارتفاع الموجودة عنده الجسيمات محسوباً من قاع الإناء ومقدراً بالميكرون
(الميكرون 10001 من المليمتر)
100
5
47
35
22. 6
65
12
95
ويلاحظ أنه بينما اختار (بيران) الارتفاعات المذكورة وهي: 5، 35، 65، 95 التي هي متوالية عددية فإن الجسيمات تبعت في أعدادها ومن تلقاء نفسها الأعداد 100، 47، 22. 6، 12 التي هي متوالية هندسية إذ يلاحظ أن هذه الأعداد تتساوى تقريباً مع الأعداد 100، 48، 23، 11. 1 التي تكون متوالية هندسية مضبوطة.
وفي المثال الآتي يرى القارئ كيف توزعت كرات أخرى
أكبر من الأولى ويبلغ قطرها 0. 25 من الميكرون أي حوالي
من المليمتر، وقد أمكن عد هذه الجسيمات بطريقة 20001
فوتوغرافية بتصويرها في أربعة مستويات يرتفع الواحد منها
عن الآخر بمقدار ميكرون أي 10006 من المليمتر وقد وجد
أن عدد الجسيمات عند هذه المستويات الأربعة (بيران)
كالآتي:
1880، 940، 530، 305
ويرى القارئ أنها مقادير قريبة جداً من الأعداد:
1880، 945، 5288، 280
التي تكون متوالية هندسية.
هذا توافق واضح في الأعداد، ولكن هل أدى هذا إلى أن يصل
إلى عدد (أفوجادرو) الذي ينتظره فعرف عدد ما في (بيران)
الوزن الجزيئي من الذرات؟ هذا ما نتناوله الآن فنبحث ما تدل
عليه الأرقام في المثال الأخير: عندما نرتفع بين طبقات الإناء
مسافة قدرها 10006 من المليمتر نلاحظ أن عدد الجسيمات
ينخفض إلى النصف، على أننا نعلم من تجارب أخرى في
الضغط الجوي أنه لكي نحصل على مثل هذا الانخفاض في
عدد الذرات الهوائية يجب أن نرتفع في طبقات الجو إلى
ارتفاع ستة كيلو مترات أي إلى مسافة تبلغ الألف مليون
مرة قدر الارتفاع السابق، وعلى ذلك فإن وزن جزئ (مليار)
من الهواء يبلغ الواحد على ألف من المليون من وزن إحدى
الحبيبات الصمغية المشار إليها ولو أن الغاز الذي نعتبره هو
غاز الهيدروجين، فإنه من الممكن بنفس الطريقة الحصول
على وزن ذرة الهيدروجين من وزن الجسيم السابق، وهكذا
توصل (بيران) من التجربة السابقة ومن أمثالها إلى معرفة
وزن ذرة الهيدروجين، وكان عليه أن يتساءل بعد ذلك هل
كان هذا الوزن لذرة الهيدروجين يتفق مع الرقم ذاته الذي
أمكن العلماء الحصول عليه من باب آخر يختلف في
موضوعه عن تجارب (بيران)، وهذا ما حدث بالذات عندما
قارن ذا العالم وزن الذرة الذي توصل إليه بوزنها الذي عرفه

العلماء من النظرية السينيتيكية.
وندع للقارئ أن يقدر مبلغ ما كان لهذا من الأثر العميق على نفسه، عند ذلك أراد أن يستوثق العالم من صحة ما وصل إليه فعمد إلى تغيير ظروف التجربة بإبدال الحبيبات حتى جعل حجم بعضها يبلغ الخمسين مرة حجم الأخرى، ولم يكتف بذلك بل غير طبيعة هذه الجسيمات، ثم عمد إلى تغيير السائل ذاته بما يجعل ميوعته تبلغ 125 مرة ميوعة السائل الأول، ولم يفت هذا الباحث الكبير تغيير كثافة المواد المستعملة التي كانت طوراً أضعاف كثافة السائل وتارة أقل من كثافته، إذ تعمل الأرض في الحالة الأخيرة على صعود الكرات بدل سقوطها، بعد ذلك غير حرارة السائل من درجة (- 9) إلى درجة (60) مئوية، ومع كل ذلك وجد (بيران) ومدرسته طوال هذه الحالات المختلفة القوانين ذاتها والأقدار الذرية ذاتها، وكان ذلك بلا ريب فوزاً علمياً كبيراً يذكره له التاريخ.
تلك كانت السبيل عند (بيران) ليتعرف على قدر الذرة من دراسة توزيع رأسي لجسيمات صلبة دخلت في الماء أو في أي سائل، وشاء لها القدر أن تتجاذبها جزيئات السائل فنتج بفعل ذلك، وفعل جاذبية الأرض التوزيع الذي ذكرناه، ونجتزئ الحديث، فلا نشرح للقارئ من عمل (بيران) الجزء الخاص بالحركة البراونية بالذات، فقد عين أيضاً عدد أفوجادرو، كما عين شحنة الإلكترون من دراسة دقيقة قام بها على مسارات الجسيمات كل على حدة داخل السائل، ويكفي أن نذكر أنه بدراسة مستفيضة على الحركة البراونية ذاتها وبتطبيق لقوانين أينشتاين الخاصة بها تمكن من طريق جديد للوصول إلى هذه الأقدار الذرية والإلكترونية.
ولا يمكن في عجالة كالتي نحاولها أن نعطي للقارئ صورة دقيقة لما قام به أينشتاين في سنة 1905 من الناحية النظرية وما قام به بيران في سنة 1908 من الناحية العملية في هذا الصدد، وكل ما يعني القارئ أن يعرفه هو أن الأول قد استطاع الحصول على علاقة يمكن أن نعرف منها عدد أفوجادرو إذا عرفنا المسافة المتوسطة التي يقطعها جسيم يتحرك تحت تأثير صدمات جزيئات السائل، وعرفنا طول الزمن المتوسط الذي يستغرقه الجسيم في قطع تلك المسافة المتوسطة، أما الثاني فقد توصل من متابعة رصد الجسيمات إلى تعيين عدد أفوجادرو فوجد بهذه الطريقة أنه (68. 2 2210)، ومن ثم وجد وسيلة في الواقع لإثبات صحة قانون أينشتاتين، ولقد كان من السهل بدراسة توزيع وحركة جسيمات مكهربة الوصول إلى معرفة شحنة الإلكترون، وهذا ما قام به أيضاً الباحث الشاب في ذلك الوقت من سنة 1908 الدوق (موريس دي بروي) الذي يعتبر الآن من أكبر علماء الأكاديمية الفرنسية عندما درس وتتبع بالميكرسكوب كرات من الدخان أو الأتربة المعدنية المكهربة أن يتحرك جسيم صلب موجود في سائل في إناء على منضدة ثابتة حركة تصادفية هي الحركة البراونية المعرفة التي كشفها (براون) وعرف العلماء أنها ناشئة عن تحرك جزيئات السائل، وأن يتخبط هذا الجسيم بين هذه الجزيئات تتقاذفه ذات اليمين وذات الشمال دون أن يكون ثمة قانون ينتظم كلا من هذه الصدمات، وإن يكون هناك من هذا التخبط الأعمى ومن جاذبية الأرض توزيع خاص شبيه بتوزيع الذرات الغازية في اتجاه رأسي وإن يكون من حساب التوزيع في الحالين سبيل لمعرفة قدر الجسيم الحائر بين بلايين جزيئات السائل وسبيل لمعرفة قدر الذرة بل قدر الإلكترون - فإن ذلك كله لأمر له خطره وموضوع يقف بذاته دليلاً على صحة هذه الأقدار الغريبة عن مداركنا البعيدة عن حواسنا، ولكن هذا التعيين يتركنا في نوع من الشك فيما وصلنا إليه من نتائج إذا ظلت الطريقة المتقدمة هي الطريقة الوحيدة لمعرفة هذه الأقدار. أما أن نصل إلى معرفتها بطريقة أخرى طريقة مليكان التي شرحناها في مقالات سابقة فإن هذا الاتفاق في النتائج بطريقتين لأتمت إحداهما بصلة إلى الأخرى ليقوم دليلاً قاطعاً على حقيقة وجود الذرات والإلكترونات وبرهاناً ساطعاً على صحة أقدارها، ولقد حدث هذا الاتفاق في النتائج بين أعمال (بيران) وأعمال (مليكان) على وجه يبعث على الاطمئنان.
وعند ظني أن كليهما ازدادت ثقته بعمله عندما طالع نشرات الآخر، وثبت في يقينه أن هذا الذي توصل إليه يمثل بلا أدنى ريب حقيقة في الكون، وزادت بينته بأن عمله

الفردي يعيد جد البعد عن أن يكون وليد المصادفة التي لا تمت لقوانين العالم في شيء.
ومع ذلك فثمة ظواهر أخرى عديدة دلت هي أيضاً وبطريقة تختلف عن طريقتي (بيران) و (مليكان) على قدر الذرة وقدر الإلكترون، وعلى أن المادة هي المادة كما عرفها بيران وكما فهمها مليكان.
على أننا نذكر بعض هذه الظواهر الأخرى التي توصل بها علماء عديدون إلى كشف الذرة والإلكترون، والى تعيين أقدارها، ففي دراسة لون السماء أو ميوعة الغازات أو نظام انتشار الضوء في الأرجون، بل في تتبع طيف ما يسميه الطبيعيون بالجسم الأسود أو في تكوين الهيليوم من العناصر المشعة، في دراسة هذه الظواهر الخمسة، المختلفة نشأة، المتباينة طريقة، وجد الباحثون كل بدوره سبيلاً آخر لتعيين عدد أفوجادرو هذا العدد الذي يبلغ في تجارب عديدة 68 2210 وبالتالي وصل الباحثون إلى معرفة قدر الذرة وقدر الإلكترون.
هذه أرقام تتحدث وفي حديثها الشائق دليل على وجود هذا العدد للذرات في حجم معين ودليل على قدرها وقدر الإلكترون بالدرجة التي قررها الباحثون.
أجل. أن تكون السماء زرقاء صافية هذه الزرقة التي نراها والتي تعودتها العيون، وإن يكون للغازات ميوعة تدل عليها النظرية السينيتيكية التي أشرنا إليها وأن ينتشر الضوء في الأرجون بنظام خاص، وأن يكون لطيف الجسم الأسود دلالة معينة، وأن يكون للأجسام المشعة نظام في إشعاعها فإن هذه مظاهر مختلفة ومرئيات متباينة، ولكنها تدل جميعها على وجود الذرات بالحجم والوزن اللذين لها، وتدل على عدد ما يوجد منها في الغازات في الحجم الواحد وتدل أيضاً على ما للإلكترون من كيان.
هذا الاتفاق في النتائج وفي الرقم السابق الذي يتعدى كل خيال يحمل الإنسان المفكر على
أن ينتهي إلى نتيجة حتمية هي أن ما عرفناه عن الذرة وعن وليدها الإلكترون أمر لا شك فيه ولا نستعرض هنا هذه الموضوعات كلا على حدة، فالقارئ الذي يعرف منذ حداثته أن السماء زرقاء وليست بخضراء، وأنها زرقاء هذه الزرقة المعينة أود أن يعرف أن لذلك علاقة بقدر الذرة وإن ثمة سبباً في هذه الزرقة عند الإنسان المفكر يتوسل بها إلى النتائج ذاتها التي وصل إليها أمثال (مليكان) و (بيران). إنما نقصد أن ندفع بالقارئ إلى إيمان علمي بهذه الحقائق التي نود أن تحل عنده محل الإعجاب والاحترام.
إلى هنا انتهينا من قصة الذرات وأسطورة الإلكترونات وهي مكونات المادة التي منها نوجد وعليها نعيش واليها نعود، وليس الإلكترون بالساكن الوحيد في هذا الكون فثمة كائنات أخرى تختلف عنه، ودورها في الخليقة يختلف عن دوره، وإذا كنت عندما تستمع إلى الإذاعة بواسطة المذياع (الراديو) أو عندما تحادث في المسرة (التليفون) صديقاً لك فد استخدمت الإلكترون واسطة جديدة للاستماع أو التكلم، فكذلك لا يفوتك وأنت تطالع هذه السطور أن تفكر في أنك رأيتها قبل أن تطالعها ولا تنس أنه لكي تراها لابد أن تكون هناك مكونات أخرى في الكون مثلت في طريق بصرك ووصلت إلى العين، وهي التي بوجودها وما اعتراها من حركة استطعت أن ترى هذه الأسطر وتقرأها، فاتصل تفكيرك بتفكيري ومجهودك بمجهودي؛ وثمة موجودات هامة لعبت دوراً خطيراً، وبلغت العين، ومن العين إلى الرأس وعاونتك في مطالعة هذا الحديث مطالعة يستطيعها كل من وهب هذه العيون.
هذا الشعاع الضوئي، هذا الذي يقررون أنه مركب من فوتونات كما يقال عن الكهرباء إنها مكونة من إلكترونات هو بدوره مكون هام من مكونات الكون، هذا الفوتون الذي يسافر من الشمس إليك في ثمان دقائق، نريد أن نحدثك عنه وعن غيره من المكونات، حتى لا نكون قد وصفنا قصراً عظيماً له حديقة هي مثار الأحاديث، ولكن فاتنا عند وصفنا إياه أن نذكر أن للقصر حديقة.
هذه المكونات الأخرى سنعمد أن يكون لنا مع القارئ حديث عنها أو اثنان قبل أن نتناول موضوعات النسبية والكم والتفتت، وهي الموضوعات الرئيسية الثلاثة التي نقصد من ورائها أن يكون لدى القارئ أقرب صورة للكون وإن يعرف أحدث الآراء عنه.

محمد محمود غالي
دكتوراه الدولة في العلوم من (السوربون)
ليسانس العلوم التعليمية. ليسانس العلوم الحرة. دبلوم المهندسخانة
القصص
من أدباء الجيل!
للأستاذ محمد سعيد العريان

كانت أشعة المصباح ذابلة صفراء ترتعش لكل نسمة تهب؛ وكان الجو عاصفاً، والمطر يلطم زجاج النافذة فينفذ رشاشه من فروجها، ويسيل قطرات على الجدار؛ وفي زاوية من الغرفة كان الفتى النحيل جالساً إلى نضد صغير يكتب. . .

منذ ساعات، والفتى في مجلسه ذاك يستنزل الوحي ويؤلف أشتات المعاني، لا يكاد يحس شيئاً حوله، والناس نيام! يجب أن يفرغ من إعداد هذه الخطبة التي يكتبها قبل الصباح؛ أن هنالك من ينتظر. . . . . .

ودقت الساعة اثنتي عشرة دقة، فرفع الفتى رأسه عن أوراقه ووضع القلم وفي عينيه أثر الجهد والإعياء. . . وارتفق بذراعه على النضد الذي يتخذه خواناً بالنهار ومكتباً بالليل، فسمع له مثل صرير الباب تضربه الريح. . . ودار بعينيه في الغرفة التي تضم كل ما يملك من متاع، ينقل بصره بين البذلة المعلقة بالشجب، والطربوش الملقى على الوسادة، والفراش المشعث منذ غادره في الصباح الباكر؛ ثم زفر زفرة. . . وخرجت من بين الكتب المركومة إلى جانب الحائط دويبة صغيرة تلتمس طريقها إلى الباب في تثاقل وبطء. . . وارتمى إليها نظر الفتى، فابتسم. . . ثم قلب شفته في رثاء: (آه، حتى أنت يا مسكينة. . . تسهرين الليل مثلي في البحث عن القوت!) . . .ثم عاد إلى مكتبه وأوراقه

وفرغ الفتى من عمله، فأشعل آخر دخينة في علبته. . . ثم أخذ يقرأ لنفسه ما كتب. . .

وأشرق وجهه راضياً، كأنما مسحت على آلامه يد رحيمة؛ ثم هب واقفاً وعلى شفتيه ابتسامة الرضى والسلام، وبسط أوراقه أمام عينيه. . . وعاد يقرأ:

(. . .!أيها السادة

وخيل إليه في موقفه ذاك، أنه هو ما هو بين الناس، في جمع حاشد تشرئب أعناقهم إليه، فلعب به الزهو واستخفته الكبرياء، واستمر يخطب. . .

(. . . شكراً لكم هذا التقدير الغالي. . . إن أمة تحتفي بأدبائها هذه الحفاوة العظيمة. . . .

)

وأحس شيئاً يخزه في صدره فلم يتم. . . (التقدير الغالي. . . والحفاوة العظيمة. . .) أين هو من هذه المعاني؟

إنه منذ سنوات وسنوات يجاهد جهاده للفن والأدب، وينشئ كل يوم في تاريخ الآداب فصلاً جديداً، وها هو ذا اليوم حيث بدأ منذ سنوات وسنوات: لا يذكره أحد، ولا يعترف له إنسان؛ ولم يجد عليه جهاد السنين شيئاً. . . ولكنه مع ذلك مسؤول أن يعمل، وإن يدأب، لا يني ولا يستريح؛ لأنه يريد أن يعيش!

وغام وجهه بعد صفاء؛ وذبلت الابتسامة على شفتيه، وتخاذلت كبرياؤه، وعاد إلى نفسه يفكر فيما عليه من فرائض الحياة

لقد أوشك الصبح أن يسفر، وإن عليه موعداً أن يغدو مبكراً على (الأديب الكبير فلان. . .) ليدفع إليه الخطبة التي أعدها وبذل فيها سواد ليله وعصارة قلبه، ويقبض ثمنها، شأنه معه منذ سنوات. . .!

وطوى الفتى أوراقه كأنما يلف ميتاً في أكفانه؛ ثم أطفأ المصباح وأوى إلى فراشه!

واستيقظ بعد ساعات، فلبس بذلته، ونفض الغبار عن طربوشه؛ ثم سك باب غرفته ومضى يهبط السلالم درجة درجة، وفي يمناه الخطبة التي أعدها ليلقيها الأديب الكبير. في حفلة تكريمه! يا للسخرية. . .!

وسار على حيد الطريق ويسراه في جيبه تعبث بما فيه من قروش، وفي رأسه خواطر تصطرع وتموج. . .

أرأيت إلى الأب يمشي وحيداً في جنازة ولده العزيز ليشيعه إلى مثواه؟ كذلك كان يمشي هذا الفتى وفي يمناه أوراقه مطوية في غلافها!
وعاج على بائع الصحف فاشترى واحدة؛ فأخذ يقلب صفحاتها حتى انتهى إلى الموضوع الذي يبحث عنه، فمضى يقرؤه. . .
لم يكن موضوعاً جديداً عليه، لقد قرأه من قبل مرات حتى ليعرف دلالة كل حرف . . . فيه. أراه يقرأ الساعة من الصحيفة التي في يده أم يقرأ من غيب صدره؟. . .
وانقبضت نفسه حين انتهى إلى الإمضاء؛ ثم ابتسم. . .!
ماذا عليه أن يبيع المجد لطلابه بالمال؟. . . أنه يعطيهم مما يملك لينتفع منهم بما لا يملك. وماذا يجدي عليه المجد والشهرة وذيوع الصيت وأنه لمحتاج إلى الرغيف؟
ليت شعري، أي الرجلين أكثر جدوى على صاحبه؟ ذلك الذي يعطي القرش أم هذا الذي يأخذه؟
وخيل إلى الفتى أنه عرف الجواب، فطاب نفسه وعاوده الشعور بالرضا والاطمئنان!
ونام الفتى في تلك الليلة ملء عينيه وملء بطنه. . . لا يعنيه من أمر الحياة شيء. . .!
وسهر (الأديب الكبير) ليلته يستظهر الخطبة المعدة ليلقيها مساء غد في حفلة تكريمه. . .!
وأشرق الصبح، فنهض الفتى من فراشه ولبس بذلته وخرج لبعض شأنه، وعاج على نادي في الطريق يتناول فطوره، فطاب له المجلس. . .
وجلس إلى جانب الباب يتبع عينيه كل غادية ورائحة في الطريق، وتسرحت خواطره فنوناً من مشهد قريب إلى معنى بعيد، وانفتل من دنياه يجري في عنان الأوهام. . .
فما صحا من أحلامه إلا على صوت النادل يمد إليه يده بورقة الحساب، وعاد إلى الحقيقة، ولكن بعد مشوار طويل في وادي المنى. . .
ودفع ما عليه ونهض، ليعود إلى غرفته فيغلق بابها عليه ويجلس إلى مكتبه يستنزل الوحي ويؤلف أشتات المعنى، وانتهى مما كتب والشمس في صفرة الأصيل. فغادر غرفته عجلان ليشهد حفلة التكريم!
وكانت الردهة الفسيحة ليس فيها موقع لقدم، وقد نصت المقاعد صفوفاً صفوفاً . . . فما بينها فرجة تتسع لعابر؛ واختلطت أصوات المجتمعين فما يبين صوت من صوت، وسكنت الأصوات فجأة حين بدت طلعة الأديب الكبير، وتطاولت إليه الأعناق تنظر. ومضى الأديب الكبير في طريقه ثابت الخطو وهو يرفع يديه إلى رأسه، حتى انتهى إلى مقعده في صدر المكان والعيون ناظرة إليه. . .
ووجد الفتى مكاناً في أدنى الردهة إلى الباب؛ فجلس وإنه ليشعر مما به كأنه غريب في هذا المكان!
وتعاقب الخطباء خطيباً بعد خطيب وشاعراً بعد شاعر، يمدحون الأديب الكبير ويعددون أياديه. وهو مطرق الرأس من خجل، لا يزيد على أن يبتسم!
وخيل إلى الفتى في مجلسه البعيد من خياله أشياء؛ فكأنما هذا الاجتماع الحاشد، وهذا الثناء الرطب، من اجله هو وحده، وكأنه هو هو ولا أحد هناك، فأطرق رأسه من خجل كذلك، لا يزيد على أن يبتسم!
وماذا يضيره أن يجهل الناس اسمه ومكانه وانهم ليعرفون من يكون بآثاره وأدبه؟ ماذا يضيره أن يكون كتابه في أيدي القراء بلا غلاف ولا عنوان. . .؟
ومضت ساعة ووقف الأديب الكبير ليؤدي واجبه لهؤلاء الذين اجتمعوا لتكريم أدبه والحفاوة به، وأخذ يقرأ من غيب صدره:
(أيها السادة!)
(وأشكر لكم هذا التقدير الغالي. . . وإن أمة تحتفي هذه الحفاوة بالنابغين من أدبائها لحقيقة بالخلود. . .)
وقال الرجل الذي يجلس إلى جانب الفتى في الصف الأخير ونظر إليه: لله ما أحكم منطقه وأسد بيانه!
قال الفتى: شكراً!
وسمعها الرجل وابتسم؛ فما يملك أكثر من أن يبتسم، وأنه ليعرف أن مجالس الأدب هي أحفل المجالس بالمجانين
واستمر الأديب الكبير يخطب:

(إني لمدين للأمة بما أبذل لها من أعصابي ومن دمي؛ شاكر لله ما وهب لي من قدرة تهيئني لأن أكون بهذا المحل الرفيع بين أبناء قومي. . .
(. . .إن الأدب الذي يسمو بضمير الأمة، ويشرع لها طريقاً إلى المجد والخلود . . .)
والتفت الفتى إلى جاره يقول: (لقد نسى فقرة طويلة. . . إنها كانت أجمل ما في خطبته!)
ونظر إليه جاره فلم يتمالك أن ضحك؛ فوضع راحته على فمه يكتم ضحكته أن تسمع؛ وتنبه الفتى بعد سهوة، فأحمر وجهه ثم أصفر؛ ثم نهض فغادر المكان. . .!
ونهض الفتى من فراشه مبكراً بعد ليلة ساهدة؛ فقصد إلى دار الأديب الكبير يهنئه على ما نال من إعجاب الناس وما ظفر به من التقدير والمكانة، ويستعينه على أمر. . .
وقرأ صحف الصباح في الطرق؛ فعرف ما فاته مما كان في الليل. . .
ودق الجرس فانفتح الباب، وقدم الفتى بطاقته إلى الخادم، فخلفه واقفاً بالباب ينتظر ودخل يستأذن سيده؛ ثم عاد إليه بعد لحظة يعتذر، لأن سيده نائم!
وأحمر وجهه من الغيظ ولبث واقفاً بالباب برهة، ثم مشى وفي نفسه ثورة تضطرم، ومضى على غير وجه!
وتذكر الفصل البديع الذي انتهى من كتابته أمس قبل أن يغادر غرفته إلى مكان الاحتفال؛ فأخرجه من جيبه ومشى يقرؤه. . .
لا، لا؛ لن يكون بعد اليوم ذيلاً لأحد يبيعه نفسه برغيف من الخبز؛ أنه ليعرف اليوم قدر نفسه أكثر مما عرف في يوم من الأيام؛ لقد قالها الناس أمس كلمة صريحة وعتها أذناه؛ أنه هو هو وإن جهل الناس اسمه ومكانه!
وسعى إلى إدارة الصحيفة التي نشر فيها أول ما نشر من منشآته منسوباً إلى الأديب الكبير؛ وأي الصحف أولى بتقدير أدبه والاعتراف بفضله غير الصحيفة التي عرف منها (الأديب الكبير) أول ما عرف، ثم كانت أول من دعا إلى تكريمه والحفاوة به؟. . . لهو هو وإن جهلت الصحيفة اسمه ومكانه!
واستأذن على المحرر ودخل، فدفع إليه الورقات التي في يده. . .
ونظر المحرر نظرة إلى وجهه هندامه، ثم أثبت وضع النظارة على عينيه واخذ يقرأ هذه الورقات، ولكن من آخرها؛ ثم دفعها إلى الفتى. . . وفي صوت متأنق سمعه الفتى يقول: (يا بني، إنها محاولة، وإني لأرجو أن يكون قريباً ذلك اليوم الذي نشر فيه ما تكتب، بعد أن تأخذ عدتك وتنضج. . .!)
وفتح الفتى فمه وهم أن يتكلم، ثم سكت، واتخذ طريقه إلى الباب في صمت. . .
ومن النافذة التي طالما سهر بجانبها الليالي إلى مكتبه يستنزل الوحي ويؤلف أشتات المعاني، وقف يطل على الناس ساخراً، ثم أخرج الورقات من جيبه فمزقها وأسلمها إلى الريح تنثرها على الرؤوس كسرب مذعور من الطير الأبيض!
وحين نشرت الصحف أن الحكومة قد رصدت من مال الدولة بضعة آلاف لمعاونة الأديب الكبير فلان. . . على تنفيذ مشروعه الأدبي العظيم. . . كان الفتى جالساً يقرأ الجريدة في ظل شجرة على رأس الحقل، ويستريح برهة مما جهد في الحرث ولزراعة؛
وخار الثور المربوط إلى المحراث، كأنما يريد أن ينبه الفتى إلى أنه قد آن أوان العمل!
ولكن الصحف لم تلبث أن عادت فنشرت في الغد، أن الأديب الكبير قد كتب إلى الحكومة يشكر ويعتذر؛ لأنه قد اعتزل الأدب فما له هفوة إليه بعد!
وأسف الناس إذ قرءوا، ولكن شخصاً واحداً كان يعرف، وكان يبتسم!
محمد سعيد العريان

من هنا ومن هناك

الجيش الأحمر في الشرق

(ملخصة عن مجلة (باربيد))

كتب الجنرال (ليشكوف) مقالاً في مجلة (كونتمبروري جابان) التي تصدر في طوكيو قال فيه: إن حركة القبض المتوالية على قادة الجيش الأحمر، قد أوجدت نوعاً من عدم الثقة في ضباط الجيش الباقين. خذ مثلاً حالة الجنرال (بلتشر) الذي كان يوماً ما قائد الجيش الأحمر في الشرق الأقصى، فقد طالما بزغ اسمه أمام الجنود الروسية،

إلى جانب الأبطال المخلصين والقادة المقربين، وطالما ذكر تاريخه مقروناً بعبارات الإخلاص والوفاء، حتى عد من رجال ستالين المقربين وأبتاعه الثابتين. فلم يلبث أن اختفى بين عشيه وضحاها، وصدرت الأوامر بتمزيق صورته ومحو اسمه من الوجود، فإذا سأل سائل عن الأسباب التي انتهت به إلى هذه الغاية، حيكت حوله الأكاذيب ولفقت عليه التهم، وانقلب القائد الذي كان مثلاً أعلى بين رجال الجيش فصار خائناً لبلاده، عدواً لأبناء وطنه.

نستطيع أن نتصور مبلغ تأثير هذا في رجال الجيش - انهم ولا شك يفقدون ثقتهم برؤسائهم المباشرين. فإذا كان القادة العظام الذين كانوا يوما ما فوق متناول الشبهة، قد دلوا على انهم كانوا مجرمين في حياتهم الوطنية والعسكرية، فلا معنى إذن للثقة بغيرهم من القواد الحديثين الذين ليس له ماض يجعلهم أكثر إخلاصاً وأمانة من القواد السابقين. ومن ثم انتشرت بين رجال الجيش الأحمر عقيدة ثابتة بأن رؤساء جميعهم متآمرين مارقون، بل لقد ذهب بعضهم إلى أبعد من هذا فقالوا صراحة ما دام قواد الجيش المخلصون قد ظهروا بمظهر الخيانة لبلادهم، فلا يبعد على هذا أن يتبين قريباً أن ستالين نفسه عدو للشعب. من هنا نستطيع أن نعرف إلى أي حد وصلت الحال، فقد انتشر الشعور بعدم الثقة بين الشعب فسمم أفكار الجميع.

وقد انتشر بين شباب الجيل الحديث، وعلى الأخص ضباط الجيش الأحمر، آلاف ممن يسمون أنفسهم (أعداء السوفييت) الثائرين على النظام، وهمهم أن يهاجموا النظام القائم ويحطوا من شأنه في نظر الشعب، ويرون أن ستالين هو رأس كل خطيئة وإن الجيش الأحمر هو القوة الوحيدة التي في يدها أن تحد من سلطانه وتقف دكتاتوريته المخيفة عند
حدها.

ومما يزيد إضعاف الروح المعنوية بين قوات الجيش الأحمر في الشرق الأقصى، عدم كفاية مواصلات السكك الحديدية، وعلى الأخص في فصل الشتاء، وعدم وجود قواعد محلية للتمرين، مما يتسبب عنه قطع المؤنة عن الكتائب المرابطة في تلك الأنحاء.

ويجد رجال الجيش الروسي صعوبات كثيرة في الحصول على الأماكن الكافية لإيوائهم وإيواء عائلاتهم، فإذا استطاعوا على الرغم منهم أن يقضوا فصل الصيف في الخيام فانهم لا يستطيعون ذلك في الخريف والشتاء حيث تشتد الحالة إلى درجة لا يتصورها العقل. هذا فضلاً عن انتشار الأوبئة والأمراض، مما لا يمكن اجتنابه بحال من الأحوال.

ولا تسل عن الفوضى وضياع النظام في الجيش، إذا نظرنا إلى هذه الحالة، مع فقد نفوذ القواد، وقيامهم بأعمالهم بغير حافز من رغبة أو اقتناع.

الاشتراكية الزائفة في ألمانيا

(ملخصة عن (داي واهرن دتشلاندز))

جرى هتلر في معاملة العمال وتسليمهم إلى طبقة الرأسماليين، وتقوية هذه الطبقة على سائر أبناء الشعب، على أسلوب لا شبيه له في تاريخ الرأسمالية الحديثة على الإطلاق.

فمنذ قضى على اتحادات العمال في مايو سنة 1933، فقدت الطبقة العاملة حقها في الدفاع عن نفسها والمطالبة بتحسين الأجور. وقد حل محل هذه الاتحادات، جبهة العمال التي أسسها مستر (لي) وتقوم هذه الجبهة تحت إشراف لي هتلر على كم أفواه العمال كلما هموا بالشكوى من توزيع الأجور.

لم ير العامل منذ العهود الرأسمالية السحيقة نظاماً كذلك النظام الدكتاتوري الذي وضعه هتلر لإخماد أنفاسه وتجريده من كل قوة.

فمدير المصنع له الكلمة الأخيرة في كل ما يتعلق بالعمال المشتغلين بمصنعه. ويقوم كل رئيس بتقديم بيان لموظفيه، موضحاً فيه الشروط الآتية ليكون على بينة منها.

(1) ساعات العمل اليومية وأوقات الفراغ (2) الأجور والأوقات المحددة لدفعها (3) القواعد التي تتبع في حساب القطعة (4) الشروط المحددة للغرامات وغيرها من أنواع
العقوبات (5) الأحوال التي يفصل فيها العامل بغير إنذار.

أما حقوق العامل الثابتة في اختيار عمله، وهي الحقوق التي طالما رفع هتلر عقيرته بها، فقد تحولت في السنين الأخيرة إلى لعنة أبدية، فلا يصبح للعامل بمقتضاها أن يغير

العمل الذي يشتغل فيه، أو يرفض العمل الذي يقدم اليه، ولا يسمح له حتى بالانتقال من بلد إلى بلد آخر.

لقد كان العبد الرقيق في القرون الوسطى، يستطيع أن يأبق من مقره بالمدن إلى الموانئ إذا رأى قسوة من سيده، ولكن رقيق النازي - على خلاف ذلك - فعليه أن يبقى حيث هو، فاقد الحيلة محروماً من المساعدة إذا نشدها من أي إنسان، أو ذهب يبغيها في أي مكان.

أما صغار التجار فهم يعاملون معاملة أقسى من هذه المعاملة، فبينما هم يعملون على التخلص من منافسة المخازن الكبرى - التي تحولت ملكيتها إلى أيدي الرأسمالية الآرية - إذا بهم يواجهون حرباً لا هوادة فيها تسوقهم بغير رحمة إلى الدمار والضياع. فعلى الرغم مما يعانون من نظام الاحتكار، يرهقون بزيادة الضرائب الفادحة على تجارتهم، مما جعل الإفلاس والدمار يحل بآلاف وآلاف من هؤلاء التجار، فلم يجدوا أمامهم غير الالتجاء إلى المصانع للاشتغال فيها.

وقد أعلنت الحكومة الاشتراكية الوطنية جميع التجار الذين تقل ماليتهم عن مقدار معين، بأن يغلقوا أبوابهم، فترتب على ذلك إغلاق ستمائة مخزن للألبان (بهامبورج) وحدها في نهاية سنة 1938، وكذلك الشأن في غيرها من البلدان. وقد صدرت أوامر حديثة من الحكومة إلى تجار التبغ باعتزامها إغلاق أكثر من أربعين ألف من محلات تجارة الطباق. أما عذر الحكومة في هذا التعسف الغريب، فهو حاجتها إلى العمال لصناعة السلاح.

البريد الأدبي

أدب المازني

قال الكاتب القدير البصير إبراهيم عبد القادر المازني في نقد لكتاب أخرجه لسنة مضت صديق له يوده ويجله: (نحن للثرثرة وهو للعصر والتقتير. وأحسب أني لو تسنى لي أن أكون مثله لضاق صدري لطول ما ألفت السح والهطلان).

وكأني بالأستاذ ههنا يصارح الخلق بخاصية كتابته. والسح والهطلان - في غالب الأمر وأكثر الحال - من الثرثرة، وما هذه بفضيلة في الكاتب. إلا أن استرسال صديقي المازني من الترسل اللطيف: لا استكراه لبسط العبارة ولا فضول في تدوين الفكرة. وإنما الحديث ينبثق ويسهل ويسيح على غير كدر ولا أسن. وإن تنقص صديقي المازني - على سخريته المعروفة - أسلوبه المدود، ففي الناس من يرغب عن قطرات الماء ورشحه إلى بثق النهر وغمره.

غير أن المد مكروه إن انقلب الإنشاء به حذلقة ولغواً. والأستاذ المازني بنجوة من هذين العيبين. فإنه إذا أطلق القلم عرف ما يريد، ثم تخطر له الفكرة، فيصل أطراف السلك بعضها ببعض ويسيرها إلى الغاية التي تشغل صدره. ويعينه على ذلك ما وقع إليه من مفردات اللغة وصيغها - وينافسه في محصول اللغة صديقي صاحب (الرسالة) - وهل أنا أبث سراً إذا قلت: أن المازني لزم كتاب (الأغاني) زماناً فتأدب عليه وأجرى على أنامله من سحر عبارته؟ وليت الكتاب المحدثين يصنعون صنيعه!

ويزين الأستاذ المازني ترسله المحكم بالحديث الموشى، والحديث الموشى - في أدب القصة خاصة - من الخيال لا من الكذب كما زعم بعضهم. وأحسن مثل على تلك التوشية قصة للأستاذ لمازني عنوانها (الجارة) وهي منشودة في كتابه (في الطريق). ولاشك عندي أن للقصة وتداً مرزوزاً في الحقيبة، فجاء الكاتب وصاغ له حادثة من هنا ونسج عليه فكرة من هنا. وصدق كنه هذه القصة ملموس فيما يبرز من خلال مجراها.

وهو أن إشراق المرأة في حياتنا الاجتماعية شاحب وأن معرفة الرجل المصري بنفسية المرأة قليلة. والمرأة في تلك القصة على جرأة والرجل على حياء وإن كان يحلم (بالمغامرات)، وهو يحلم بها لأن المرأة عندنا لا تزال على تحفظ ولان حريتها ضيقة المسالك. وهذه امرأة

القصة على خلاف ذلك، فكيف لا يدور رأس الرجل؟ وقد استطاع الأستاذ المازني - في قصته - أن ثبت من طريق الفن الرفيق لمعان الاضطراب المكتم.

وهذا الصديق يخرج لنا اليوم (مختارات من القصص الإنجليزي). وأسلوبه هنا غير أسلوبه في التأليف، وذلك لأنه ينقل من لغة إلى لغة، وهو يتحرى الأمانة في الترجمة. فتقرأ العبارة العربية فتقول: أن التركيب سليم واللفظ متخير، ولكن الماء غير عربي.

وسيغضب ذلك المتشددين عباد الديباجة للديباجة. وأما أنا وأمثالي ففرحون بالتزام المترجم أسرار الروح الأجنبي. لأنك إذا طلبت ناحية من نواحي الأدب الأعجمي فإنما تريد أن تقف على دخائلها لتميزها مما تعرفه من أدبك، أو لتقتبس منها نحواً جديداً. فجريان الجملة ونبضان الفكرة كلاهما رهين بالأداء، فإذا نقلت على خصائص لغتك وشرائط تفكيرك عطلت طرائف الأصل. وعلى هذا فإن كتاب (مختارات من القصص الإنجليزي) حقيق بالحفاوة والانبساط.

وقد تتبعت الأستاذ المازني - وإن كان فوق التتبع لإحكامه اللغتين - فوجدته يعتنق الأصل اعتناقاً. وربما عبر من الكلمة الإنجليزية المنتشرة بكلمتين أو ثلاث مخافة أن يزيغ المعنى بتمامه (مثلاً: مفتون، متحذلق: ص105) وربما حافظ على الاستعارة الإنجليزية وإن شذت في العربية بعض الشذوذ (مثلاً على رأس مرغريت مادار في اجتماعنا). وهو إلى جانب هذا يحسن استعمال اللفظ الوافي على إيجازه (مثلاً: أقصرت: ص106). ولعل تركيباً أتى به الأستاذ أرى غيره مكانه. ولكن مثل هذا يرجع إلى محض الذوق، وليس لك أن تفرض ذوقك الخاص على غيرك ممن يتصرف في ضروب الإنشاء ألطف تصرف، ويوجه مذاهب الكلام في دراية وتبصر.

بشر فارس

التكتم

في مقالة للباحث الأديب الكبير الدكتور بشر فارس باحث فيها العالم الأستاذ أحمد العوامري بك في أشياء - إلماع إلى ألفاظ في المعجمات في غير مظانها. ومما يضاف إلى الذي ذكره الدكتور المفضال هذه الكلمة: (التكتم) فقد سطوت في القاموس والتاج في مادة (د ل س)

مغفلة أو منسية في مادة (ك ت م). وكان العلامة اللغوي الكبير الشيخ إبراهيم اليازجي استعمل (تكتم) في مجلته (الضياء) فخطأه العالم الأستاذ محمد سليم الجندي قائلاً: (أنه لم يعثر عليها في كتب اللغة التي بين أيدينا)، فرد عيه العالم الأديب الكبير الأستاذ قسطاكي بك الحمصي المشهور دفاعاً عن خليله إبراهيم مستنداً إلى القياس، والقياس لا يعين في كل حين. و (التكتم) هو في اللغة، والإمام البوريني يقول في مقطوعة حين حذق الفارسية:

تعلمت لفظ الأعجمي وإنني ... من العرب العرباء لا أتكتم!

وقد تبع المعجمان (أقرب الموارد والبستان) في هذا الفعل القاموس والتاج ناقلين عنهما، فأورد الأول (تكتم) والثاني (التكتم) في (د ل س) ولم يثبتا الفعل أو مصدره في (ك ت م) والمأمول أن يحظى العرب بمعجم كامل حاشد مجود التنسيق في هذه الدنيا قبل يوم القيامة. . . إذ لا يحتاج في الآخرة إلى مجامع لغوية ولا معجمات ولا بلاغات ولا فصاحات. . .

(طنطا)

(أزهري)

وفاة الدكتور علي العناني

نعى إلينا صباح الخميس الماضي المرحوم الدكتور علي العناني، وهو من رجال الأدب الذين تخرج على أيديهم طائفة ممتازة من شبابنا المثقفين.

تخرج الدكتور العناني في دار العلوم سنة 1909، ثم اتصل بالجامعة المصرية في أول عهدها، فكان هو والدكتور أحمد ضيف أول مبعوثيها إلى أوربا، فدرس الدكتور العناني في ألمانيا الفلسفة واللغات الشرقية إلى جانب دراسة اللغة الألمانية؛ وعاد من أوربا بعد الحرب العظمى الماضية، فاشتغل محاضراً بالجامعة، ثم انتقل إلى دار العلوم العليا أستاذاً للأدب؛ فما زال قائماً بعمله حتى سنة 1938، ثم اختير كبيراً لمفتشي الفلسفة في وزارة المعارف العمومية، وظل قائماً بعمله حتى أحيل إلى المعاش منذ قريب

المنفلوطي في رأى مستشرق إنجليزي

نشرت مجلة (اسلاميك كلنشر) مقالاً عن المرحوم المنفلوطي نلخصه فيما يأتي:

تناول بعض كتاب مصر المعاصرين وفي مقدمتهم العقاد والمازني وطه حسين مقالات المنفلوطي بنقد مر عنيف، ولكن هذه المقالات ذات أهمية خاصة لأنها تمثل مرحلة من مراحل إحياء الأدب العربي

نشرت هذه المقالات الموجزة في الصحف تحت عنوان (النظرات) وقد جمعت بين الأدب العالمي وبين إرضاء ذوق القراء لأنها كتبت بلغة موسيقية صافية، فكانت بمثابة الوحي يهبط على جمهور تعود قراءة أدب الكلفة والتصنع. وقد انتشرت انتشاراً واسعاً بين قراء العربية من بغداد إلى مراكش؛ مما يدل على أنهم ألفوا فيها شيئاً قيماً، كما كانت تمثل الشعور الذي تردد صداه في العالم الإسلامي أبلغ تمثيل.

ومن السهل أن ندرك اليوم قيمة هذه المقالات، فإن رجال الأدب يشعرون بالأثر القوى الذي أحدثته كتب المنفلوطي التي يحفظ منها طلبة المدارس عن ظهر قلب صفحات برمتها ملكت ألبابهم، واستولت على مشاعرهم.

وهي إلى جانب هذا تمثل حالة الأدب في الشرق العربي الذي اصطبغ بصيغة الآداب الغربية.

أما أفكار المنفلوطي، أو بمعنى أصح عواطف المنفلوطي، فيلاحظ عليها التناقص والتضارب. فهو لا يستطيع مثلاً أن يخفى أسفه على الاعتقاد بشفاعة الأولياء وإن كان يرى أن هذه الاعتقادات هي السبب في ضعف العالم الإسلامي ويقول أن اختلاف الآراء هو القانون الأساسي لتقدم الإنسان، بينا يندد بتعدد الأحزاب السياسية في مصر. ويرفض الجمود الديني ويحذر قراءه العربية من اقتباس مدنية الغرب دون تمحيص، مع أنه قد تأثر في أدبه بالطريقة الإبداعية (رومانتزم) في الأدب الفرنسي.

وكان المنفلوطي وطنياً غيوراً، وقد قضى هذا الكاتب الرقيق ستة أشهر في السجن عقاباً له على قصيدة هجا بها الخديو عباس حلمي. وانضم إلى الزعيم سعد زغلول الذي قام يطالب بالحرية لمصر المتحدة الناهضة. وكان إلى هذا رجلاً يحافظ على التقاليد ويرعاها فظل طول حياته يلبس الزي الوطني ورفض أن يستبدل به الملابس الأوربية. أما مطالبته باحترام المرأة والطبقات الفقيرة فإنما يقوم على أساس من قواعد الدين الإسلامي.

البستاني

توالى مجلة (السياسة الأسبوعية) في هذه الأيام نشر ترجمة أناشيد (البستاني) للشاعر

الفيلسوف طاغور، وهي بقلم الأستاذين فؤاد البهي وتوفيق أبو السعد. ولقد كنت أطالع هذه الترجمة في شيء من الإكبار والإعجاب، وأغض البصر والعقل عن أخطاء لا تشوه المعنى ولا تضع من المجهود الضخم؛ حتى كانت القطعة الرابعة في العدد 156 المؤرخ 27 يناير سنة 1940، فذهبت أقابل بينها وبين الأصل الإنجليزي مرة، وبين الترجمة التي حملت نفسي عليها مرة أخرى - كدأبي فيما سبق منها - فألفيت هناك اضطراباً يحط من قدر الترجمة.

وأول شيء أخذته على الترجمة هو أن تحيد عن الطريق الذي اتخذه طاغور لنفسه أول ما كتب أناشيده، فهو قد رتبها على نسق يجعل كل نشيد وحدة قائمة بذاتها قد لا تمت إلى ما قبلها ولا إلى ما بعدها بسبب، فميزها بأرقام هي إحصاء لعدد الأناشيد في كل كتاب من كتبه، هذا الترتيب قد أغضى عنه في القطعة الرابعة مما لا يقر الأستاذين عليه أحد.

ثم ابتدأت القطعة الرابعة - ولست أدري كيف خول الأستاذان لنفسيهما أن يضعا هذا الترقيم - بالنشيد العاشر الذي اختلط آخره بأول النشيد السادس عشر طفرة واحدة، وبذلك يكون قد سقط من الترجمة خمسة أناشيد كاملة تقع في اثنتي عشرة صفحة من الأصل الإنجليزي أو قرابة جزء من ثلاثة عشر جزءاً من الكتاب كله. . . ثم راحت الأناشيد يدغم بعضها في بعض دون أي إشارة تنبئ بأن نشيداً انتهى أو أن آخر ابتدأ. . . وفي النشيد السابع عشر جاء المقطع الثاني قبل المقطع الأول. . . وهكذا. . . وهكذا. . . مما يضيق عنه وقتي ولعل هذا الجهد قد ناء بالأستاذين فأرادا أن يتحللا منه في سرعة أو أن يخلصا إلى آخره في غير عناء.

وإنني أناشد الأستاذين في غير تعنت، أن يبذلا في ترجمة هذه الأناشيد ما تستحقه من جهد، وأن يخصاها بما تحتاجه من وقت لتكون الترجمة أقرب شيء إلى الأصل، والسلام.

كامل محمود حبيب

نقود ذهبية من عهد العباسيين

بينما كان أحد الفلاحين يستخرج السماد من بعض التلال الأثرية بناحية سيدي سالم بمديرية الغربية، إذ عثر على 19 قطعة ذهبية يرجع عصرها إلى الخلفاء العباسيين، وقد صكت
في عهد هارون الرشيد والمأمون والمهدي.
وقد أبلغ الأمر إلى إدارة حفظ الآثار العربية فأوفدت أحد مفتشيها فتسلم القطع الذهبية التي عثر عليها
وقد نقش على أحد وجهيها بالخط الكوفي (لا إله إلا الله وحده لا شريك له) ونقش على الوجه الثاني (محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله) وأرخت بالتاريخ الهجري. وهي من الذهب الخالص في حجم القطعة الفضية ذات القرشين ولكنها أثقل منها وزناً.
شعراء البيوتات
يذيع الأستاذ أحمد عبد المجيد الغزالي سلسلة أحاديث أدبية من محطة الإذاعة بهذا العنوان، وقد سمعناه أخيراً في مساء الاثنين 5 فبراير يتحدث عن الشاعر الأمير أبى فراس الحمداني، فتناول في حديثه جميع أطوار الشاعر، وعرض لفنه ومذهبه في النظر فوفى الكلام في هذا الصدد. ونحن مع إعجابنا بما سمعنا لا نسلم بكل ما جاء في حديثه، فمثلاً يقرر أن أبا فراس لم يكن في غزله كعامة الشعراء، بل كان إذا تغزل تمثل شخصيته العسكرية، وطبيعته الباسلة. ويعنى الأستاذ المحاضر بهذا أن الشاعر لم يذب قلبه في قصائده ومقطوعاته. ويؤيد حكمه على الشاعر بهذه الأبيات:
أراميتي كل السهام مصيبة ... وأنت لي الرامي فكلي مقاتل
وإني لمقدام وعندك هائب ... وفي الحي سحبان وعندك باقل
تسائلني من أنت وهي عليمة ... وهل بفتى مثلي على حاله نكر
ونحن أناس لا توسط بيننا ... لنا الصدر دون العالمين أو القبر
وفي كلتي ذاك الخباء خريدة ... لها من طعان الدارعين ستائر
تقول إذا ما جئتها متدرعاً ... أزائر شوق أنت أم أنت ثائر
والأستاذ الغزالي بقوله هذا ينكر على الرجل عمق إحساسه وشعوره وعواطفه وهي الصفات التي تتفاوت بها معايير الشعر. ولو تروى الأستاذ قليلاً لأدرك أن للرجل في الغزل شعراً يفيض عن إحساس قوى مشبوب، وعاطفة مضطرمة مضطربة. وإن خالجه في هذا شك فليسمع:
إذا الليل أضواني بسطت يد الهوى ... وأذللت دمعاً من خلائقه الكبر
تكاد تضئ النار بين جوانحي ... إذا هي أذكتها الصبابة والهجر
ومن غزله السافر:
بات الحبيب إلى الصبا ... ح معانقي خداً بخدْ
يمتار فيْ وناظري ... ما شئت من خمر وورد
ومن أبيات له:
تثنت فغصن ناعم أم شمائل ... وولت فليل فاحم أم غدائر
كأن الحجى والصون والعقل والتقى ... لدى، وربات الحجال ضرائر
أقول وقد ضج الحلي بجرسه ... ولم تر فيها للصباح بشائر
فيا رب حتى الحلي مما نخافه ... وحتى بياض الصبح مما نحاذر
هذا ولو شئت أن أذكر للأستاذ المحاضر من شعر أبى فراس الذي لا ينهض مع حكمه الجريء على غزله وتشبيبه لما اتسعت هذه الكلمة العابرة لذلك!
عبد العليم عيسى
إلى مؤلف (الأسمار والأحاديث)
هاأنذا يا سيدي أحد هؤلاء القراء الذين فتنوا بأدبك، وغزوت قلوبهم بسحر بيانك.
هاأنذا يا سيدي أحد هؤلاء القراء الذين أنصفتهم في مقدمة كتابك (الأسمار) وصورت لهم خلجات نفسك فكنت كريماً في مناجاتك، نبيلاً في عباراتك.
لقد زخرت العربية بمؤلفات المفكرين بيد أن كاتباً واحداً لم يسجل آراء الناس وأسمارهم بذلك الأسلوب الحكيم الذي يدعو إلى قراءته، والإعجاب به كما تهيأ ذلك لك.
ذاك فن الأسمار الذي نحن أحوج ما نكون إليه في عصرنا هذا وقد أصبح أدبنا بعيداً عن

مجتمعاتنا وأفكارنا.
لقد تهيأ لك ابتكار فن جديد قبل ذلك، حينما نقلت الغزل والتشبيب من الشعر إلى النثر، في كتابك (ليلى المريضة) كما نبه إلى ذلك الأستاذ الجارم بك، واليوم تبتكر جديداً في عالم الأدب فتصور المجتمع وفيه أصحاب العقول الفطرية تصاول العقول المثقفة فتطلق الحكمة
على لسانها سائغة دامغة.
تلك هي (الأسمار والأحاديث)
دراسة واسعة، ونقد صائب، وفكاهة راقية، وتمثيل لصور المجتمع. ولعمري لقد ترددت كثيراً عند كتابة هذه الكلمة بعد أن رأيت المؤلف يوصد الأبواب أمام من يحاول تزكية (أسماره) ولكن إذا كان من حق المؤلف أن يبث القارئ شجونه ويقدم إليه عصارة أفكاره، فإن من حق القارئ أن يصرح بإعجابه.
وإني لأتقدم إلى رجال المعارف أن يقرروا مطالعته في مرحلة الثقافة العامة حتى يتقن الطلبة لغة الحوار والمناظرة؛ ويقفوا على ما يصطرع في الجو الأدبي والاجتماعي من آراء وأهواء، وحقائق وأباطيل، ويتذوقوا جمال اللغة العربية وقد تركت حجر الدراسة إلى تصوير أحوال الناس، وما يدور في المجتمعات.
سيد محمد مسعود
كتاب الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية
صدر المجلد الثالث من تاريخ الأندلس المسمى (بالحلل السندسية) للعلامة الكبير الأمير شكيب أرسلان في نحو سبعمائة صفحة بالقطع الكامل.
وقد أثبت المجلدان الأول والثاني من كتاب (الحلل السندسية) أنه أعظم تاريخ عصري للأندلس.
وقد تناول هذا المجلد الكلام على شرقي الأندلس ومملكة بلنسية ومملكة مرسية وجغرافيتها وأحوالها وأهلها ووصف مدن الأندلس وحصونها وتراجم رجالها وملوكها والكلام على طرطوشة ودول الأندلس وملوك الطوائف وسقوط مرسية وحوادث الموريسك وغير ذلك من الأبحاث الجليلة.
رسالة النقد
آفاق العلم الحديث
للأستاذ فؤاد صروف محرر (المقتطف)
بقلم الدكتور إسماعيل أحمد أدهم
البحوث العلمية لا وجود لها في العالم العربي اليوم، والدراسات العلمية نادرة في لغة العرب، وهي أن جاءت فيها، فعادة تجئ من القسط الشائع من الآراء الذائعة اليوم في العالم الأوربي عن العلم الحديث، وهي بذلك دراسات - غالباً - تدور حول كليات لا تنزل منها للتفاصيل والجزئيات التي تتقوم بها. ومن هنا كانت عامية التفكير العلمي عند الكثيرين من كتاب العرب وخلطهم في المسائل العلمية وما يتصل بها بوشائج الصلة من الآراء والأفكار. ولهذا كانت المحاولات التي تبذلها مجلة (المقتطف) شيخة المجلات العربية منذ نشأتها لا تقدر قيمتها من حيث تعمل على القضاء على عنصر العامية في الفكر العلمي العربي - إن صح مثل هذا التعبير هنا - والنتائج التي تتركها هذه المحاولات في الفكر العربي كبيرة، آثارها غير أن قد لا تبدو اليوم للجميع واضحة، إلا أنه لا شك في كونها مع الزمن ستنكشف وتتوضح خطوطها وتستبين معالمها.
والواقع أن مجلة (المقتطف) منذ عهد مؤسسها المرحوم الدكتور يعقوب صروف، أعطت الدراسات العلمية اهتماماً كبيراً. وهذا الاهتمام يبدو اليوم على صفحات (المقتطف) في الجهود الطيبة التي يبذلها خلفه الأستاذ فؤاد صروف في تقريب صورة العلم كما ترسمها المباحث الحديثة في الهيئة والفيزياء وعلم الحياة والنفس، وفي تقريب الأفكار العلمية إلى الأذهان. وهذه الجهود ظاهرة في الفصول المبسطة التي تنشرها (المقتطف) في كل عدد منها، والتي يجيء معظمها من قلم محررها، والتي يجمعها بعد نشرها في مجاميع، منها كتاب اليوم (آفاق العلم الحديث) الذي خرج بديلاً عن عددي سبتمبر وأكتوبر المنصرمين.
والكتاب مقسم إلى مقدمة وبابين، أما المقدمة ففي أثر العلم الحديث في خلق الغدد، وأما الباب الأول ففي عالم المادة الجامدة وهو ينطوي على سبعة فصول تتدرج من

أقصى آفاق الكون في عالم الأفلاك إلى أدق ما في الوجود، في عالم الذرة والكهرباء والباب الثاني
وقف على عالم الحياة، وهو ينطوي على ستة فصول تتدرج من أسرار الحياة في الخلية المفردة إلى أسرار النمو والخلق والتعبد والتقى في الأحياء المتعددة الخلايا والمركبة التكوين والتي يجيء منها الإنسان، فتم البحث في عقل ونفسية الإنسان.
وهذه الفصول كلها يجمعها وحدة واحدة، الأصل فيها الاستناد إلى التحقيق العلمي القائم على المشاهدة والاختبار، وليس فيها من هنا أحلام وتصورات خيالية أو أفكار أولية مفروضة فرضاً. فكل ما تقف عليه في فصول هذا الكتاب أن يسنده الاختبار البشري القائم على التدقيق والفحص، ومن هنا فهي أسس صالحة لكتاب العربية، لتتطور معها فكرتهم الغيبية عن الوجود والحياة المتوارثة عن الماضي؛ إلى فكرة وضعية إثباتية قائمة على علم اليوم تسندها التجربة والاختبار البشري.
أما مقدمة الكتاب فهي من خير الفصول التي دبجت في اللغة العربية في العصر الحديث عن العلم الحديث وآثاره المشهورة، وفيها ملاحظات قيمة ومطالعات خطيرة - ولكن لمن يتفهمها على حقها - وقد جاءت في سبع فقرات؛ ففي الفقرة الأولى نرى الأستاذ صروف يكشف عن الأثر المشهود للعلم الحديث في مختلف نواحي الحياة اليوم. وهو في الفقرة الثانية يبين مقدار تأثر حياتنا العقلية والدولية ومثلنا الخلقية بالعلم الحديث ونتائجه التطبيقية. وهو في هذه الفقرة يكشف عن منابع العلم الحديث من حيث هي قوة ديناميكية مؤثرة في حياة البشر اليوم، وهو يرى هذه المناهج في ثلاثة مصادر: الأول الانتفاع بنتائج العلم التطبيقية أو بتعبير أدق إمكان الانتفاع. والثاني منطق العلم الذي قلب نظرة الإنسان إلى الكون والحياة ونفسه. والثالث في التحول الدائم في مذاهب العلم، والذي نتج عنه اعتبار الحقيقة شيئاً متغيراً يتطور وينمو مع تطور العلم الدائم الذي لا ينقطع. على أن لنا على هذه الأسس الثلاثة التي يقدرها الكاتب مأخذاً لا نظنه ينكره علينا، وقد أشرت إليه في المحاضرة التي ألقيتها عن (أثر الرياضيات في الحياة البشرية) مساء 18 ديسمبر 1939 بجمعية الشبان المسيحية بالإسكندرية؛ وذلك أنه اعتبر أساس الأسلوب العلمي التجربة والمشاهدة، وهذا صحيح من الناحية الشكلية فقط. أما في الواقع فالعنصر الرياضي الذي يجمع المشاهدات والتجارب والاختبارات في نظم موحدة على أساس العلاقة، هو الأساس في الأسلوب العلمي. أما التجربة والاختبار، فهي بمثابة الآلات أو المنابع التي تقدم المواد الأولية إلى الآلة الرياضية لتشتغل عليها؛ وفهم العلاقة بين الآلة الرياضية والتجربة والاختبار مهم جداً في فهم حقيقة الأسلوب العلمي، وأقل انحراف في ذلك، نتيجته أن يتردى الإنسان في أوهام مثل التي وقع فيها الدارثورادنجتون في كتابيه (طبيعة العالم الفوزيقي) و (فلسفة العلم الفوزيقي). وأظنني قد أشرت إلى هذه المسألة في نقد لي لكتاب (هندسة الكون حسب ناموس النسبية)، نشرناه في (المقتطف) عام 1938، وفيه تعرضت بالبحث لآراء إينشتين وإدنجتون وجينز، وبينت بعض أوهامهم في هذا الموضوع.
فإذا صرفنا النظر عن هذه المسألة، فإن المقدمة تنتظم حلقاتها على أساس دقيق. فالكاتب يتناول في الفقرة الثالثة تطور الفكرة الإنسانية تحت تأثير العلم تجاه كل من الطبيعة والخالق. وهنا تجد الأستاذ صروف يبين كيف أن فكرة القدسية التي كان الإنسان يخلعها على نفسه باعتبار سيد المخلوقات قد انهارت. وفكرة اعتبار الأرض التي يعيش عليها مركز الكون وأنه محط الرعاية الربانية قد تلاشت.
على أننا نلمس هنا بعض الحذر من الكاتب فهو لم ينته بفكرته إلى النتائج الأخيرة التي لابد منها؛ ولعقيدته وبيئة كتابته التي تتسلط عليها الأفكار القديمة، بعض الأثر في التزامه هذه التحوط. وفي الفقرة الرابعة بين الكاتب نشوء شريعة الآداب النفسية كنتيجة للحياة التي عاشها الإنسان في الماضي. وتدرج من ذلك في الفقرة الخامسة إلى بيان أوجه الانقلاب الذي ابتدأ يطرأ على شريعة آداب النفس نتيجة لظهور المدنية الصناعية في الغرب، وكيف أنها عملت على تحطيم القدسية والمثالية المخلوعة على المذاهب الأدبية التقليدية. وهكذا أصبح اليوم في العالم المتمدن الأمومة ضرباً من الاستعباد، والزواج ضرباً من الرق، وخصصت فكرة إخلاف النسل للقواعد العالية التي أخذت تعمل على تقييدها. وكان نتيجة كل هذا أن وقف الإنسان اليوم بين عالمين،

أحدهما ذهب إلى سبيله في جوف الماضي، والآخر لم يولد بعد، أو هو لا يزال في المهد صبيا. . . وهكذا وقف العالم حائراً؛ والكاتب يصور هذه الحيرة في الفقرة السابعة من بحثه تصويراً دقيقاً، ويبين في الفقرة الثامنة والأخيرة. من البحث أن نظريات العلم التي قلبت نظرية الإنسان في الكون ونفسه التي أنشأت هوة سحيقة بين الحياة التقليدية التي ورثها عن الماضي ومستلزمات الحياة التي تستلزمها اعتبارات اليوم تنطوي رغم كل العوامل الهدامة التي تبدو فيها، على بذور لحل المشكلة التي تركت الإنسان عليها الآن، وهذه البذور تكمن في التصوف العلمي وفي النزعة الإنسانية التي أخذت تذيع في الناس بانتشار الفكر العلمي. وفي هذه المقدمة التي عرضنا لك موجزاً لخطوطها الأساسية، تفكير سليم، ومنطق حصيف، لاشك أنه وليد ذهنية صافية أرهفها للتزود من المسائل العلمية الدقيقة وصقلها التمرن على البحوث العلمية، ولهذا جاءت طابعاً وحدها بين العقول العلمية التي تشتغل في الحقل العلمي في العالم الناطق بالعربية.

على أن لنا ملاحظة على استعمال عبارة (المذهب البشري) ناظرة إلى كلمة الإفرنجية. ذلك أننا نعرف أن لفظة تفيد اصطلاحياً الآداب اليونانية واللاتينية لتفشي النزعة الإنسانية فيها (بمعنى الرجوع إلى الإنسان لا إلى الله أو الغيب). وأظن أن صديقنا الأستاذ إسماعيل مظهر نبه إلى ذلك في النقد الذي كتبه لكتاب (البراجتزم) للأستاذ يعقوب قام في المقتطف لأعوام خلت. وفيما عدا ذلك فاللغة مثال اللغة العلمية الواضحة القائمة على التدقيق.

وبالرغم من المآخذ التي أخذناها، وهي لا تنقص من قيمة الجهد الكبير المبذول في هذا الكتاب، فانه يمكن بكل اطمئنان القول بأن هذا الكتاب من خيرة الكتب التي ظفرت بها المكتبة العلمية العربية، وهو كتاب لا يستغني عنه العالم ولا المنشئ ولا الأديب. فالكل يجد فيها ما يفيده، وهو بالتالي موضع الثناء والتقدير. وأظن أن أدباء العربية - خصوصاً الذين لا يعرفون لغة أجنبية، أو ليست لهم ثقافة علمية - بتزودهم من الحقائق التي بهذا الكتاب، سيعلمون على التغلب على عنصر الضعف العلمي الملحوظ على أدبهم، والذي سبقهم إلى التغلب عليه أدباء الغرب.

(الإسكندرية)

إسماعيل أدهم

1

1

العدد 346 - بتاريخ: 19 - 02 - 1940

الربيع الأحمر!

الربيع الأحمر! ذلك هو الربيع المقبل كما يتصوره الشاعر!

لا يزال الربيع في بطن الأرض، وإن الطبيعة لتهيئ لجذوره وبذوره الغذاء المريء والكساء الوضيء من دماء البشر!

سيولد ولادة الملوك على حشد الجنود وخفق البنود وقصف المدافع؛ وسيدرج في ظلاله الأرجوانية الموشاة على فجوات القنابل وأخاديدها، فيبذر الحياة في الموت، وينشر الجمال على القبح، وينثر أزهاره الغضةّ على جثث وقبور! ويومئذ لا تدري وأنت ترى غيم الدخان وبرق النيران، وتسمع صفير الرصاص ورعد القذائف، أنحن في ربيع أبريل أم في شتاء يناير؟

على أن الشتاء كان على الناس سلاماً وبركة! خمدت على جليده لظى الحرب، وجمدت في ثلوجهُ مخالب الموت، واستطاع بفضله الهر الفنلندي الضئيل أن ينشب أظافره في حشا الدب الروسي الهائل؛ ولكن الربيع الذي جعله الله نشوراً للحياة ومعاداً للشباب ومبعثاً للحب، سيعين لؤم الإنسان بدفء نسيمه وصفاء جوه، على أن يجعل الأرض لنفسه مجزرة ومقبرة!

الربيع الأحمر! على ذلك هو الربيع الذي لا يخلقه الله وإنما يخلقه الإنسان! سيخلقه من الذهب واللهب والدم، فيجعل من الجداول خنادق ومن الأغصان بنادق ومن الأدواح مدافع؛ وإذن تصبح الأعشاش الناعمة المغردة المعطارة مثابة بؤس ومناحة شباب ومستودع غاز!

سيعود ربيع الله الأخضر بطيوره وزهوره ونوره وسروره إلى الجنة، وسيستعير

الإنسان مادة ربيعه الدامي من جهنم، فينبت في كل بقعة من بقاع الأرض آجام من شجر الزقوم الباسق الألف، تئز في آفاقها الطوائر، وتعج في أجوافها المدافع، وتدب في مدارجها الدبابات، وتهب في مجاريها السموم، وترتد فيها أناشيد السلام وأغاريد الغزل أنات وصرخات تذوب لهولها الهائل قلوب الشياطين!

تبصروا أيها السادرون من ساسة الشعوب، أهذا هو الربيع الريان الذي جعله الله جدة للحياة ومتعة للحي، أم هو الخريف الميت أحرقته الحرب باللهب، وكفنته بالنجيع، وأخذت عواصفها الرعن تكسح الأرواح الساقطة قبل الأوان لتقذف بها في هوى العدم؟ لم

تستعجلون أمر الله، وتستقدمون يوم القارعة، وتحاولون أن تدكوا الأرض، وتشقوا السماء، وتذروا الكون الذي عمرته القرون وحضرته الأمم كمعبد (داجون) أنقاضاً على شمشون وأعدائه؟

هيهات أن تصيخ اليوم لنداء السلم أذن! لقد جمع الهوى بالعقل جموح الفرق الشموس، فلا هو يسمع الصوت المهيب، ولا هو يطيع اللجام الكابح!

تلك مشيئة الله، وما تشاءون إلا أن يشاء. ولعله، عزت حكمته، يريد من هذه القيامة العاجلة أن يحيى الناس حياة أخرى على نمط من الهداية جديد

الربيع الأحمر! ذلك هو الربيع الخلاق الذي يهز الأرض هزاً فتربو وتنبت! سيهزها هز العافية ليسقط الذاوي وينتعش الهامد. والحرب تشذيب لغرس الله تقوى عليه الغصون ويزكو بعده الثمر. وآفة الحرب أنها تودي بالصالح للحياة وتبقي على الصالح للموت؛ ولكنها كالسيل الآتي يجرف تياره الجني واليابس، ويغرق طغيانه العامر والغامر؛ فإذا انقطعت روافده وجفت مجاريه عادت الأرض به اخصب تربة وأوفر غلة.

مرحباً بالحرب إذا لم يكن من خوض غمارها بد. أنها تقطع الفضول وتنفي الخبث وتذيب الغش وتذهب الوهن. ولعلنا أحوج الأمم إلى طهور الحرب يرحض عنا رخاوة الذلة واستكانة الرق! فقد غبرت على وجوهنا قرون من التبعية المستسلمة لو مرت على الضواري لطمست في جباهها معارف الجرأة، وأماتت في نفوسها معاني الافتراس. كنا نعيش في ظلال المتبوع عيش الأمان والغفلة، لا نعرف الحدود إلا على الورق، ولا نشهد الحروب إلا في السينما، ولا ندرك معنى الدفاع عن النفس في وجود الحامي إلا كما تدركه الزوجة المرفهة في وجود زوجها، والولد المدلل في حضرة أبيه، حتى فشا فينا الجبن، وغلب علينا التواكل، وقعد بنا الرضى، فتركنا ثروتنا للغريب، ووكلنا حمايتنا للحليف، وفرغنا للتنافس في الهزل، والتراشق بالتهم، والتسابق إلى النيابة أو الحكم من غير كفاية ولا غاية!

الربيع الأحمر! ذلك هو الربيع الجبار الذي يأكل غثاء الخريف وحطام الشتاء ليحيلهما في جوفه الناري غذاء لشجره ونماء لثمره!

وهو وحده الذي يستطيع أن يقتطع الحطب، ويقتطع العليق، وينبت على الجذور البالية خلفة نامية زاكية تهيئ الروض الهامد للنضارة والطهارة والإنتاج والبركة

أن روضنا يا ربيع هشيم وخشب! فأحيه بالماء أو بالدم، وعالجه بالغذاء أو بالسم، فقد استعصى يا ربيع علاجه على النيل، ولابد أن يضحي بجيل في سبيل جيل!

احمد حسن الزيات

إلى وزارة المعارف

معارف مصر

في حولية المعارف الأممية

للأستاذ أبي خلدون ساطع الحصري بك

حمل البريد إلي قبل يومين الحولية التي نشرها مكتب التربية الأممي، عن (التربية والتعليم في جميع أنحاء العالم خلال سنة 1939)

فلما أخذت أقلب صحائفها لألم بها إلماماً إجمالياً - استعداداً لدرسها درساً تفصيلياً فيما بعد - كان بعض الفصول يستوقف نظري قبل غيره أو اكثر من غيره؛ وكان الفصل الخاص بمصر (ص180 إلى 201) من جملة تلك الفصول بطبيعة الحال

وما كدت القي نظرة سريعة على الصفحتين الأوليين من هذا الفصل، وأستعرض الأرقام الإحصائية المدرجة فيهما، حتى وقفت على ما يثير الضحك والألم في وقت واحد. . .

يفهم من هذه الإحصائية أن مدارس الأطفال في مصر تربي 2448 طفلاً، والمدارس الابتدائية الأميرية تعلم 29775 تلميذاً، والمدارس الابتدائية الخصوصية تجلس على كراسيها 53489 من التلاميذ؛ وهذا هو كل ما في مصر من مدارس خاصة بتعليم الأطفال - قبل بلوغهم سن الدراسة الثانوية - حسب ما يظهر من هذه الإحصائية. . .
لو لم أكن أعرف حالة المدارس المصرية معرفة سابقة، وكان عرفاني بها مستنداً إلى هذه الإحصائية وحدها، لقلت حالاً:
ما أتعس مصر وما أشق أطفالها. . .
لأن هذه الأرقام تدل على تأخر فظيع، لا بالنسبة إلى الأمم الأوربية والأمريكية فحسب، بل بالنسبة إلى الأمم الشرقية نفسها. وليس هذا التأخر بالكمية النسبية فحسب، بل بالكمية المطلقة أيضاً. . . فإن العراق، يسبق مصر في هذا المضمار بمراحل عديدة. وأما إيران فتسبقها بعشرات المراحل نظراً إلى هذه الأرقام. . .
فان عدد طلاب المدارس الابتدائية الأميرية في العراق يناهز ثلاثة أمثال طلاب تلك المدارس في مصر، مع أن عدد نفوس العراق لا يبلغ ثلث نفوس مصر. . . وأما عدد طلاب المدارس الابتدائية في إيران فلا يقل عن ثمانية أمثال طلاب مصر، مع أن عدد نفوسها أقل من نفوس مصر على كل حال. . .
ولا مجال للشك في أن كل من يراجع الحولية الأممية المذكورة من الأوربيين والأمريكيين سيلاحظ هذه الملاحظة، وسيقول: ما أفظع هذا التأخر المؤلم في بلاد غنية مثل مصر، في شعب عريق في الحضارة مثل المصريين!
قد يقول بعض من يقرءون هذه الأسطر: لابد من أن يكون هناك خطأ في الأرقام. . . ولا يستبعد أن يكون هذا الخطأ متأتياً من نقص المعلومات التي جمعها مكتب التربية الأممي عن المدارس المصرية. . .
غير أن هناك ما ينفي هذا الاحتمال نفياً باتاً: لأن الفصل الذي يرافق إحصائية المعارف في مصر لسنة 1939 تقرير رسمي رفعه مندوب الحكومة المصرية الدكتور محمود فهمي - كما هو مصرح به في أسفل الصفحة 181 من الحولية - فلا يحق لأحد إذن أن يشك في صحة الأرقام المدرجة هناك. . .
ومع كل هذا، فأنا أعرف أن النتيجة التي يصل إليها الباحث - من هذه الأرقام - لا توافق الحقائق الراهنة بوجه من الوجوه. . . أنا أعرف أن هذا المظهر الغريب الذي تظهر به معارف مصر - في مثل هذه الإحصائيات - يعود إلى سبب مهم، كنت قد وجهت إليه الأنظار - على صفحات الرسالة - قبل نحو ثلاث سنوات. . .
أن نظم التعليم المرعية في مصر لا تفهم من تعبير (المدرسة الابتدائية) ما يفهمه رجال التربية والتعليم وغيرهم في جميع أنحاء العالم. فإن المدرسة الابتدائية في مصر، مدرسة من نوع خاص، وهي غريبة شاذة من وجوه عديدة. . .
لقد انتقدت أوضاع هذه المدارس بشدة في المقالة التي نشرتها في العدد 187 من الرسالة - بتاريخ أول فبراير سنة 1937 - وبعنوان (نقد نظام التعليم في مصر)، وشرحت المحذورات الجوهرية التي تتأتى من الاستمرار على تلك النظم. . .
وما كنت أتصور عندئذ أن كل شيء سيبقى على حاله وسيؤول إلى ظهور مصر بهذا المظهر الغريب في الحولية الأممية بعد ثلاث سنوات. . .
(بغداد)
أبو خلدون

إلى الدكتور طه حسين بك
تشريح عاطفة الحب
للدكتور زكي مبارك

أيها الأستاذ الجليل:
سألتني يوم لقيتك بوزارة المعارف في صباح اليوم الثامن من هذا الشهر عن سبب اهتمامي بالحديث عن الحب، وقد جرى ذكر كتاب (ليلى المريضة في العراق)، وكانت الابتسامة التي شع ضوءها في ملامح وجهك، تحمل معنى التعجب من أن تسمح الدنيا بأن أعيش بقلب المحب المتيم المتبول!
فأجبتك بأن شواغلي في الحياة قد تجعل الحب آخر ما يشغل قلبي. ولكن حديثي عن الحب صار مذهباً أدبياً أشرح به ما يتعرض له الناس في ميادين النوازع والأهواء، وأنا

أريد أن اخلق جواً من البشاشة أدفع به ظلمات الزمان!
فابتسمت ابتسامة لها معنى وقلت: اخلق البشاشة في الزمن أن استطعت!
. . .ثم خضنا بعد ذلك في شجون من الأحاديث سأرجع إليها بالتدوين بعد حي
ويهمني اليوم أن أشرح ما كان يجب أن أقول في جواب سؤالك لو رأيتك منشرح الصدر لا تشكو تدخل بعض الناس في شؤون قد يجهلونها كل الجهل، أو يتحمسون لها بعقيدة مدخولة وإيمان مصنوع.
ونحن لم نبتكر الكلام عن الحب، فهو عاطفة عرفتها الأرواح منذ أقدم عهود الوجود.
وما قيمة الدنيا إذا خلت من الحب؟ ولأي غرض يحيا الناس إذا أصيبت أفئدتهم بالاعتلال فلم تحس ذلك الروح اللطيف؟
وهل ينصرف القلب عن الحب وهو في عافية؟
إن المتوقرين والمتزمتين يتوهمون انهم وجدوا الحجج الدوامغ حين استطاعوا أن يقولوا: أن الدنيا في حرب، وان الظروف لا تسمح بالحديث عن الحب!
وأقول: إن ما هتفوا به لم يصدر إلا عن صدور مراض، فالحب لا يغزو إلا قلوب الأصحاء، وهو يساور قلوب الجنود في أصعب أوقات الحروب. وهل كان عنترة بن شداد ماجناً حين قال:
ولقد ذكرتك والرماح نواهلٌ ... منى وبيض الهند تقطر من دمي
فوددتُ تقبيل السيوف لأنها ... لمعت كبارق ثغرك المتبَّسم
وما هتف به عنترة هتف به ضابط مصري سمحت له لجنة الأناشيد العسكرية بأن يقول:
مين زيك عندي يا خضره ... في الرقة يا غصن ألبان
ما تجودي عليّ بنظره ... وأنا رايح عَ الميدان
وهذا الضابط اسمه عبد المنصف محمود، ولا أعرف كيف اهتدى إلى هذه الفكرة الطريفة وهو يعيش في زمن مثقل بآصار التصنع والرياء
لقد قيل إن هذا نشيد لا يصلح للجنود وهم يتأهبون للقتال
وأقول إن هذا النشيد من شواهد العافية، فلكل جندي في الجيش أوطار روحية يحن إليها حنين الأصحاء، وتلك الأوطار الروحية هي الحافز الأعظم للاستبسال في ميادين الشرف والوطنية. والجندي الفارغ القلب من عاطفة الحب لا يصلح أبداً للاستشهاد في سبيل الوطن الغالي، لأن الوطن لا يغلو إلا في صدور أرباب القلوب.
وأنا أنتظر أن يسود ذلك النشيد على سائر الأناشيد، فقد هتف به جندي سليم الجسد والروح، وهو أفضل من الأناشيد التي ينظمها شعراء لم يعرفوا الفرق بين السيف والرمح، ولم يسمعوا صوت المدفع إلا في ليالي رمضان!
من الفضول أن أحدثك عن أهمية الحب، ولك فيه تاريخ، ولكني احب أن أعرف كيف يندر أن نجد بين كتابنا من يهتم بتشريح عاطفة الحب؟ وكيف يرانا من سيدرسون آثارنا الأدبية بعد جيل أو أجيال حين يظهر لهم أننا كنا نحسب الحديث عن الحب فناً من فنون المزاح؟
الحب جده جد، وهزله جد، ولا يتجاهل هذه العاطفة إلا الغافلون عن تأثيرها الحسن أو السيئ في تلوين الوجود.
الحب جد صراح، والاهتمام بدرسه يؤدي خدمات عظيمة لعلم النفس، فكيف نسكت عن درسه وهو يواجه الناس في جميع الميادين؟ كيف نسكت عن درسه وله قدرة قاهرة على الضر والنفع، وله تأثير شديد في توجيه مصاير الرجال؟
وبأي حق يخلو أدبنا من تشريح عاطفة الحب؟
وكيف يجوز أن يقهرني العيش في عصر التزمت على الدفاع عن كتاب (ليلى المريضة في العراق) وهو كتاب أردت به خلق الحيوية الأدبية بين أبناء هذا الجيل؟
إن التوقر الذي يصطنعه بعض الناس قضى على عصرنا بالحرمان من البشاشة والأريحية وقطع ما بيننا وبين ماضينا المجيد يوم كان لنا شعراء لا يهتفون بغير أوطار القلوب.
وأين نحن من العصر الذي عاش فيه عمر بن أبي ربيعه، أو العصر الذي عاش فيه العباس بن الأحنف، أو العصر الذي عاش فيه الشريف الرضي؟
وهل يمكن القول بأن الحاسة الدينية في هذا العصر تفوق الحاسة الدينية في أعصر

أولئك الشعراء؟
لا يمكن القول بذلك، فنحن بشهادة رجال الدين أقل حرصاً على الواجبات الدينية من الرجال الذين عاصرهم أولئك الشعراء، والله يغفر لي ولك ولسائر أهل هذا الجيل!
الفرق بيننا وبين أسلافنا لا يحتاج إلى توضيح
كان أسلافنا أصحاء، فكانت عصورهم تجمع بين أشرف صنوف الهداية وأعنف ضروب الضلال، وكان الرجل الديان لا يتورع عن رواية أظرف قصائد الغزل والنشيب، وكان هناك توازن بين حقوق القلوب وحقوق العقول، فكانت الحياة أشبه بالحديقة الغنية التي تجمع في شعابها بين حياض الأزهار والرياحين ومسارب الأفاعي والصلال.
وأين نحن اليوم من أولئك الأسلاف؟
في مساجدهم رويت طرائف الأشعار، ونوقشت مذاهب الزيغ بلا تحامل ولا إسراف، وفي بيوت أتقيائهم دونت أوهام القلوب والعقول، وعلى ألسنة أصفيائهم جرت أحاديث الشك والارتياب، وبفضل ذوقهم الأدبي والفني عاشت أضاليل لها صلات بحيوات الآداب والفنون
أما عصرنا الذي أعرف وتعرف فهو عصر الرسوم والأشكال، وأخشى أن يمر بلا أثر ملحوظ في خدمة العقل والقلب والذوق
وإلا فأين الرجل الصالح الذي يقهرك روحه على التزام حدود الدين؟
وأين المفكر الذي يقهرك إخلاصه للفكر على التزام حدود العقل؟
وأين الأديب الذي يحدثك عن نفسه فتشعر بأنه صادق كل الصدق؟
ومن اجل هذه الرخاوة الفكرية والأدبية والدينية فترت حماسة الناس للفكر والأدب والدين،
وأصبحت القلوب في مثل حال الشراب المقتول
وهنا أجد الجواب عن سؤالك، أيها الأستاذ الجليل
فأنا أتحدث عن الحب بصفة جدية، وأتعقب أخباره وآثاره في كل ما أرى وما أسمع، وآية ذلك أني لم أنته ولم أنزجر بعد أن رأيت غضبتك في جريدة السياسة يوم ظهر كتاب (مدامع العشاق) وقد قلت انه يحرض على الشهوات، سامحك الله وغفر لك!
وأنا أجد في كل شيء، أجد في الصداقة والعداوة، وأجد في الشك واليقين، وليس أمامي مجال للمزاح، وكيف يتسع وقتي للمزاح وما قضيت يوماً خالياً من الشقاء بالدنيا والناس؟
فما أرضاك عني فهو حق، وما نفرك مني فهو حق، وما خصصتك بغضبي ورضاي إلا لأني أعرف انك تعاقر من فرح الحياة وحزن الحياة بعض ما أعاني. وأنا موقن بأنك تفهم عني ما أريد، لأنك تعرف من سريرتي ما لا يعرف سواك
فما رأيك في الحب؟
ألا ترى انه عاطفة تستحق أن نتأثرها في جميع المسالك؟
وإذا سكتنا عن تشريح عاطفة الحب فمن يتحدث عنها ونحن ندعي النيابة عن الجمهور في تشريح النوازع والأهواء؟
وهل يرضيك أن نصير إلى ما صار إليه من يختارون المحفوظات لتلاميذ المدارس، وقد تحاشوا جميع الأشعار التي تفصح عن إوطار القلوب.
لو كان جميع المعاصرين من (العارفين بالله) لخف الأمر وهان، ولكن معاصرينا من الأساتذة يسمعون حديث الحب من المذياع، ويرون آثاره على الشاشة البيضاء، وفيهم من يتمنى لو سارت أشعاره بين أغاريد أم كلثوم وعبد الوهاب!
يجب أن تعرف أني أخاطب الدكتور طه حسين الذي نقل أروع أحاديث الحب عن أهل الغرب، والذي يحاول أن يطبع الجمهور المصري على تذوق الموسيقى الأوربية، لأنها في رأيه من أصلح الأدوات للتعبير عن العواطف والأهواء.
والأوربيون الذي تعرفهم لا يرون الحب من المزاح، وإنما يرونه عاطفة أصيلة تنقل القلب من مكان إلى مكان، وتسبغ عليه أثواب الصحة والعافية، وتشريح عاطفة الحب هو عندي باب لتربية العواطف.
تربية العواطف؟
أعوذ بالله من الجهل بأخلاق زماني ومن التعرض لسفاهة الأقاويل وشناعة الأراجيف!
نعم، أنا أدعو إلى الاهتمام بتربية العواطف، وليقل من شاء ما شاء.

كل شيء في بلادنا موضع اهتمام إلا العواطف، وإهمال العواطف ستكون له آثام أيسرها رياضة الشبان على رذيلة (عدم الاكتراث) وهي أقبح الرذائل وأشدها تأثيراً في قتل حيوية الشعوب.

وهل تستطيع القول بأن الرأي العام عندنا يحس هذه المعاني؟

وما الرأي العام؟ أليس صدى لآراء الباحثين والمدرسين وهم عندنا قوم هيابون خوافون يرون الحديث عن العواطف من فضول القول؟

وخمود العواطف هو الذي قتل الشاعرية في مصر، وهو الذي جعل المصريين أقل الناس إحساساً بمعاني الوجود، وإلا فحدثني عما أقيم على شواطئ النيل من ملاعب، وما أقيم فوق عبابه من سهرات يغنى فيها الشعر ويرقص الخيال؟

هل عندك نبأ عن حدائق القناطر الخيرية؟ وهل سمعت أن إحساس المصريين بالحياة حمل بعض الشركات على أن تنشئ فندقاً هناك؟ ولمن تقام الفنادق في تلك الضاحية السحرية وليس فينا رجل يشوقه قضاء الليل وهو يسمع هدير النيل في شهر آب؟

وهل عندك نبأ عن حديقة الأزبكية؟

ألم تسمع أن حديقة الأزبكية ليس فيها مكان تشرب فيه فنجاناً من القهوة أو الشاي إذا بدا لك أن تقضي فيها ساعة أو ساعتين لمحاسبة نفسك أو مداعبة خيالك؟

ويتحدث الناس في هذه الأيام عن بحيرة قارون بمناسبة زيارة جلالة الملك لإقليم الفيوم، فهل تعرف انه لا يمكن قضاء ليلة بجوار تلك البحيرة إلا في فندق أقامه هناك أحد الألمان؟

وهل سمعت أو سمع أحد من أصحابك أن شاعراً مصرياً قضى ليلة أو بعض ليلة وهو يداعب سمكات تلك البحيرة؟

وما رأيك في (بحيرة التمساح)؟

هل سمعت لها خبراً في قصيدة أو رسالة أو كتاب لأديب من أهل هذه البلاد؟

وهل خطر لك أن تقضي ليلة بجوار تلك البحيرة عساك تعرف شيئاً من أخبار مدينة الإسماعيلية؟

ولا موجب لتذكيرك بالأقصر وأسوان: فالناس جميعاً يعرفون أن الأجانب هم الذين تشوقهم تلك المغاني، وإليهم يرجع الفضل في إقامة أسواق الحياة بتلك المناسك، على أيامها ولياليها أطيب التحية وأزكى السلام!

وما لي أبعد بك فأنقلك إلى تلك البقاع النائية؟

هل اتفق لك أن تلقى درساً من دروسك بين الأشجار التي تحدق بكلية الآداب؟

وهل فكر أستاذنا لطفي باشا في محادثة طلبة الجامعة عن أرسططاليس تحت الدوح كما كان يصنع فلاسفة اليونان؟

ذلك يشهد بأن إحساسنا بالحياة يكاد يكون في حكم المفقود، فما رأيك في الدعوة إلى الطب لهذا المرض العضال؟

وكيف نطب لهذا المرض ونحن نرى الحديث عن الحب ضرباً من المزاح؟

كيف وقد تهيبت تقديم كتاب (ليلى المريضة في العراق) إلى محرري الجرائد المصرية لئلا أقرأ لأحدهم كلمة تؤذيني بلا موجب معقول؟

وما رأيك إذا حدثتك بأني عجزت في مصر عن بعض ما قدرت عليه في العراق؟

كنت أحب أن أؤلف كتاباً عن (ليلى المريضة في الزمالك) افصل به أسرار المجتمع وسرائر القلوب في هذه البلاد بطريقة روائية تفيض على شبابنا روحاً من أرواح الوجدان، ولكني خشيت ملامة الفارغين من أشباه الأدباء.

فهل أرجو أن يصر قلمك بما تهيب منه قلمي؟

لقد وضعت لك الخطة بكتاب (ليلى المريضة في العراق) فأرني كيف تصنع وكيف تصور عصرك وزمانك كما صورت عصري وزماني. نحن نريد أن نشغل الناس بأخلاقهم وأذواقهم وأوهامهم، نريد أن نسيطر عليهم بالأدب والعقل بعد أن سيطر عليهم السياسيون بالمناوشات الحزبية والسياسية.

فهل أنت مستعد لاقتحام هذا الميدان؟

نحن نفكر في خلق عصبية أدبية تعلو على العصبية الحزبية

ولن نصل إلى ذلك إلا يوم يؤمن الجمهور بأن الأدب هو الترجمان الصادق لشهوات

العقول، وللعقول شهوات أعنف وأخطر من شهوات الأحاسيس، وتثقيف الشهوات العقلية يصل بنا إلى منازل الحكماء، ويطمعنا في الخلود.

ليتني أستطيع مصارحتك بكل ما أريد في خلق الحيوية الأدبية والفنية!

وكيف أستطيع وأنت كثير التلوم والتعتب، ولا يصل إليك الرأي الصريح إلا مشوباً بتهمة التحامل عليك؟

أنت على كل حال من ذخائرنا الأدبية، وأنا أقبلك على علاتك كما تقبلني على علاتي.

فهل يكون من الفضول أن أصارحك بأنك لا تقبل على حياة الوجدان إلا وأنت خائف، مع انك قوي العبارة في الإفصاح عن وساوس نفسك، ونوازع قلبك؟

وما خوفك وقد استقام لك أمر مصيرك الأدبي وصار اسمك من أظهر الأسماء؟

ما خوفك من الاعتراف بأن عاطفة الحب تستحق التشريح؟

وما الذي يدعوك إلى الاحتراس حين أقترح عليك تأليف كتاب عما أحس شعراء العرب من النوازع الوجدانية؟

أتخاف أهل الجمود؟

أطمئن، يا سيدي الدكتور، فهم في شغل عنا بمصايرهم الدنيوية، ولن يفرغوا لنا إلا بعد أن نفرغ من إعلام الناس بما نريد من شرح أوهام العقول والقلوب.

أما بعد فأنا أعلن عتبي عليك، لأنك ابتسمت ابتسامة فيها طيفٌ من الاعتراض على اهتمامي بتشريح عاطفة الحب، وأصارحك بأن هذا مذهبٌ أدبيٌ سأحرص عليه ما دمت أملك القدرة على تشريح العواطف والأحاسيس.

فافتح قلبك، يا سيدي الدكتور، لوحي الحياة والحب، واعلم أن الابتسام الصادق هو أثمن ما يملك الرجال.

وقد شاءت المقادير أن أستطيع مقابلتك في كل يوم بعد أن صرت معنا في وزارة المعارف، وساحولك إلى حزبنا، حزب الأخوة الأدبية الذي يرى أقطار العربية جسماً واحداً إذا شكا منه عضو أسعدته سائر الأعضاء بالسهر والأنين.

وستريك الأيام بعد قليل أن الميزان الذي كنت احتكمت إليه في تقدير العداوات والصداقات لم يكن أدق الموازين. . والله المسؤول أن يديم عليك عافية القلب وشباب الروح.

زكي مبارك

الحق والقوة

للدكتور إبراهيم بيومي مدكور

أستاذ الفلسفة بكلية الآداب

في هذا الجو المملوء بالآلام والويلات، وفي هذه الساعات الرهيبة التي ينبض لها قلب العالم هلعاً وجزعاً من مأساة لا يعلم مداها، وتطاحن لا يستطيع أن يقدر نتائجه؛ في هذه اللحظات التي يعتدي فيها الأقوياء على الضعفاء ويطغي المسلحون على العزل الأبرياء، وفي هذه الأيام التي خفقت فيها موسيقى السلم ذات الألحان الشجية والنغمات الحلوة وحلت محلها نواقيس الحرب ذات الأصوات المدوية؛ بل وفي هذه الأعياد السنوية التي كان يقدسها قديماً الهمجيون أكثر مما يقدسها اليوم المتحضرون، والتي كان يلقى فيها الأسلحة المتحاربون؛ في هذه الظروف كلها رأيت من الخير أن أتحدث عن فكرة الحق والقوة.

وإذا ما تحدثت عن هذه الفكرة فإنما أعرض للمشكلة الرئيسية بين مشاكل الفلسفة السياسية منذ أفلاطون إلى اليوم، فهي مشكلة الماضي والحاضر، ويخيل إلي أنها ستبقى مشكلة المستقبل إلى النهاية. وكأني بالحق والقوة ضدين لا يجتمعان وعدوين لا يتهادنان، يقدر لأحدهما الغلب ثم لا يلبث الآخر أن يعدو عليه وينتزع منه سلطته، وما تنازعهما إلا صراع بين الروحية والمادية، بين المثالية والواقعية، بين الإنسانية والوحشية، بين الحضارة والهمجية. ولن أكون في حديثي هذا المشرع الذي يعني بالقوانين وصوغها بين ما فيها من عقوبات وقصاص تحول دون عدوان المعتدين وظلم الظالمين، ولا السياسي الذي يقدم الحلول المختلفة للمشاكل الدولية الهامة. وإنما سأعرض لموضوع الحق والقوة من ناحيته الفلسفية والأخلاقية والاجتماعية، فأبين كيف نشأت الفكرتان وكيف تطورتا وماذا كان لهما من أثر في حياة المجتمع، ثم أشير إلى أوجه التقابل بينهما وموقف الفلاسفة والأخلاقيين منهما

ليس من السهل أن نحدد بالدقة كيف اتجه الإنسان الأول نحو فكرة القوة، أقاده إليها حسه وبصره وسمعه ولمسه؟ أم هداه إليها شعوره وقلبه وعزمه وإرادته؟ وبعبارة أُخرى هل تبينا القوة لأول مرة في أنفسنا أو في الظواهر الطبيعية المحيطة بنا؟ وهل هي من أصل سيكولوجي أو من مصدر طبيعي؟ وهل هي وليدة العالم الداخلي أو الخارجي؟ وأغلب
الظن أنها نتيجة هذين الجانبين وثمرة هذين المؤثرين، فأدركنا القوى الطبيعية وقوتنا الإنسانية في الوقت الذي اصطدمت فيه الطبيعة بنا واصطدمنا بها. وكيفما كان أمر هذه النشأة فإن الإنسان سلم من قديم بوجود قوى في الكون متعددة: طبيعية وإنسانية، مادية وروحية، ظاهرة وخفية، سماوية وأرضية. فإذا ما سألته عن حقيقة هذه القوى عز عليه كشفها وصعب عليه تحديدها، وجل ما تحظى به منه أن يعرفها بآثارها ويتعرفها بنتائجها، فيقول أنها ما يتم به التغير.
بيد انه على الرغم من كل هذا لم يتردد الفلاسفة والاجتماعيون في أن يبينوا هذه الفكرة الغامضة في نشأتها والخفية في مدلولها، وكان لابد لهم أن يفعلوا ما داموا يدرسون التغير وعلله، أن في عالم الطبيعة أو في عالم الإنسان. فنرى الرواقيين في التاريخ القديم ينتهون إلى مذهب ديناميكي شبيه بذلك المذهب الذي صعد به ليبنتز إلى القمة في القرن السابع عشر. يتصورون أن العالم كائن حي مشتمل على النار والحرارة التي هي المبدأ الفعال والمؤثر في المواد والأجسام المنفعلة، ولا كيان للمادة إلا بواسطة ذلك (النفس الحار) (الإبنيما) الذي يضم أجزاءها ويدفعها إلى الحركة والتغير، فقوة العالم كامنة فيه تسيره على نظام ثابت وتخضعه لقوانين معينة. وان فكرة المادة والصورة التي قال بها أرسطو ولم يوضحها تمام التوضيح ولدت في القرون الوسطى تلك القوى الخفية والخواص الكامنة التي هي مصدر التغيرات الكونية والأحداث الإنسانية، وان كان وراءها قوة عظمى، هي قوة القوى وعلة العلل. وإذا كان لبيكون وديكارت رسالة جديدة في التاريخ الحديث إزاء المسائل الطبيعية فهي أنهما حاولا محاربة الصفات الغامضة والصور الخفية التي رددها المدرسيون. على أن بي كون لم يسلم تماماً من آثار تلك الفلسفة المدرسية، وبدا في بحثه التجريبي وكأنه ينقب عن أمور ذاتية وصفات أولية للأشياء هي سر تميزها وتغيرها، وفكرة الحركة والتدافع التي ذهب إليها ديك أرت ترد التغير في آخر تحليل إلى قوة وحيدة، إلى البارئ جل شأنه. ولعل هذا هو الذي قاد ليبنتز إلى نظرية (النتاد) والذرات الروحية، فكان يتصور الأجسام كلها في صورة معنوية ابلغ مما ذهب إليه الرواقيون، ويتوهم أنها مجموعة ذرات روحية فيها قدر من النشاط والإدراك يتفاوت على حسب مرتبتها، وقد أبدعها ونسقها اله هو روح الأرواح ومناد المنادات، وإذا كان مرجع التغير كله إلى الله فلم نبحث عن قوى وأسباب أخرى سواء؟ والأجدر بنا أن نرد كل شيء إليه سواء أكان من الظواهر الطبيعية أو الأعمال الإنسانية. وهكذا رأى مالبرانش وباركلي أن يردا القوى الظاهرية كلها إلى الله، وقررا أن ليس ثمة قوة في نظرهما غير تلك القوة الوحيدة.
هذا هو شأن القوة فيما يتعلق بالظواهر الطبيعية، وليس شأنها بأقل خطراً فيما يتعلق بالأحداث الإنسانية، فقد دالت بسببها دول وقامت أخرى، وذل جبابرة وعز آخرون. وللقوة في المجتمع مظاهر عدة: فهناك القوة المادية الجسمية، والى جانبها القوة الصناعية والإنتاجية، ثم قوة المال والفكر والعبقرية، وأخيراً قوة العزيمة الماضية وإرادة الشعوب التي بدلت صفات التاريخ. ولا نظننا في حاجة إلى نلاحظ انه إذا كانت قوة الأفراد والطغاة هي التي سادت العالم بالأمس فإن إرادة الشعوب حلت محلها، بل كانت أحياناً أشد أثراً وأعظم إنتاجاً. ومن هذه القوة الشعبية تولدت الحركات الدستورية وبواسطتها تأيدت النهضات الاستقلالية، وعنها صدرت قوة الطوائف والنقابات والأحزاب. وإذا ما تبتعنا الفلاسفة السياسيين في مراحل التاريخ المختلفة، وجدنا أنهم إنما حاولوا أن ينظموا القوى المتباينة أو عولوا على قوة دون سواها. فأفلاطون قديماً أخذ نفسه بالتوفيق بين قوى المجتمع المتباينة: بين حراس المدينة من جانب، والمنتجين من صناع وزراع من جانب أخر، والحكام والقضاة من جانب ثالث؛ فأراد التوفيق في اختصار بين الشجاعة والمنفعة الذاتية والعقل. ومكيافيلي في عصر النهضة أو هوبس في أوائل التاريخ الحديث، ونيتشه بين المعاصرين إنما ناصروا

قوة الفرد وأيدوا الحكومة المستبدة ظناً منهم أنها الوسيلة الناجعة لحكم الجماهير. أما لوك وفولتير وروسو، فقد اعتدوا بقوة الشعب كل الاعتداء، ووضعوا دعائم النظم الدستورية والنيابية الحديثة. والى جانب هؤلاء وهؤلاء نجد جورج واشنطون ومازيني وسعد زغلول على راس النهضات الاستقلالية، كما نجد كارل ماركس يصور قوة اليد العاملة في أوضح صورها، ويعلن حقوقها إزاء أصحاب رؤوس الأموال.

في هذه النهضات على اختلافها والثورات على تنوعها ما يشهد بما للقوة من أثر في حياة المجتمع، بل نستطيع أن نقول أن المجتمع الإنساني مجموعة قوى متعددة، متعاونة أحياناً ومتعارضة أحياناً أخرى. وسعادة الأمة في أن توجه هذه القوى في وجهاتها الملائمة، وان

تتضافر على غرض أسمى. وأي نظام اجتماعي لا ينمو ولا يطرد، بل ولا يحيا ولا يثبت إلا أن كانت وراءه قوى مادية وروحية تغذيه وتعاونه.

(يتبع)

إبراهيم مد كور

قابليات العناصر البشرية

للدكتور جواد علي

نشر الكاتب السياسي الفرنسي (كراف كوبينو) كتاباً في أربعة مجلدات ظهرت بين عامي 1853 - 1855 بعنوان (عدم مساواة العناصر البشرية)؟ فأثار على مؤلفه سخطاً شديداً ولا سيما من الهيئات الكاثوليكية وأنصار مبادئ الثورة الفرنسية، كانت نتيجته طرد الرجل مراراً من السلك الدبلوماسي الذي كان ينتسب إليه.

وقد استقى كوبينو آراءه من مصدرين: مصدر التتبع والبحث الشخصي الذي قام به خلال تمثيله السياسي للحكومة الفرنسية في طهران والهند والبلقان، ومصدر العلم الطبيعي الذي طغى إذ ذاك وتغلب على الطريقة القديمة باعتماده على التجارب والاختبارات. فقال باختلاف الأجناس وتباين العناصر البشرية كما هو الشان في النباتات والحيوانات وقد كانت هذه نظرية قال بها العالم الألماني ألنتروبولجي بلومنباخ (1752 - 1840)، والعالم الفرنسي كوفييه (1769 - 1832). غير انه زاد عليهما بنظريته في اختلاف القابليات البشرية والإنتاج المدني والثقافي، فوصل إلى أن التاريخ البشري والحضارة البشرية نتيجة عقلية واحدة، هي العقلية الآرية التي تشتمل الشعوب الأوربية والهندية الأوربية. ويخص من هذه الشعوب أيضاً الشعوب الجرمانية بأعلى القابليات في الاختراع والابتكار والسيادة والإرادة والزعامة في جميع نواحي الحياة.

وكانت أول أرض أجابت هذه الدعوة هي الأرض الألمانية التي بدأت تنمو فيها الروح القومية، وتظهر بأجلى مظاهرها، ورسالة الفيلسوف الألماني فخته بعثت فكرة القوميات في أوربا وهيأت الجو ولا شك لمثل هذه الآراء. وكذلك فلسفة هيكل الذي قسم العالم إلى أدوار بدأ فيه بالدور الشرقي وانتهى بالدور الجرماني الذي هو في نظره خير الأدوار العالمية وأكملها. أضف إلى ذلك كتابات المؤرخ الألماني الشهير (ترايشكه)، والكاتب الاجتماعي الوطني فردريش جان وغيرهم، والوحدة الألمانية التي قام بتأسيسها بسمارك، وآراء نيتشه في القوة وتمجيده للحرب.

ومن أشهر من تأثر بهذه النظرية الكاتب الإنكليزي الألماني شامبرلين 1855 - 1927 مؤسس الفلسفة النازية الأولى وأول فيلسوف يعتبره أتباع هتلر من بين صفوفهم. والرجل

مع انه إنكليزي يختلف عقلية عن العقلية الألمانية، تأثر بالمحيط الألماني وهجر وطنه وترك لغته وغدا ألمانيا يخلص لألمانيا ويدافع عنها ويطعن على الإنكليز وقساوتهم في معاملة الألمان في الحرب العظمى. اتخذ هذه النظرية قاعدة له في جميع أبحاثه ومقياساً يقيس به للعالم طرّا. وفي كتابه الشهير (أسس القرن التاسع عشر) الذي ظهر في سنة 1899 19 يحمل أفكاره. وقد ترجم إلى لغات عديدة وطبع عشرات المرات

يرى في كتابه هذا أن الحضارة البشرية من أولها إلى آخرها نتيجة العمل الجرماني الآري. وكل حضارة ظهرت أو بقعة ازدهرت لابد أن يكون للعنصر الآري، وعلى الأخص الجرماني، يداً فيها فهو في بحثه كالفاحص الكيميائي يحاول تحليل الحضارات ليجد

العنصر المسبب وهو العنصر الجرماني الذي خص من بين الشعوب بميزة هداية البشرية والقيادة العالمية. حتى الكتابة أو الأرقام يرى أصلها من الجرمان ومن الجرمان انحدرت إلى الشرق. وعلى ذلك ففكرة كونها شرقية خطأ لا يغتفر. وكذلك آراء العلماء في أن الحضارة أصلها من الشرق لا يرى لها مبرراً ولا دليلاً. والشعوب الأُخرى كلها مقلدة لم تنتج من عندها شيئاً. والحضارة العربية التي يراها ظهرت صدفة كسائر الحضارات السامية أن جاز تسميتها حضارة هي صورة ظاهرية لعمل آري مكتوم

أثر كتاب شامبرلين في الأوساط الألمانية أثراً كبيراً ولاسيما في الأوساط السياسية منها والأوساط الشعبية والوطنية المتطرفة، إلى درجة جعلتها تعتقد أن هنالك مهمة واجبة تقع على عاتق ألمانيا الجرمانية، وهي مهمة قيادة العالم وحق الإشراف عليه، مهمة تكاد تكون سماوية وتحدثنا بعض المصادر أن القيصر الألماني كان معجباً جداً بهذا الكتاب أيما إعجاب ولا سيما بعقيدة الزعامة الألمانية والتبشير بالدين الجديد، على أساس القوة والسيادة التي هي من صفات الجرمان، وان الكاتب هذا وكذلك الفيلسوف النمساوي الاجتماعي كانا من أهم أبطال الدعوة إلى الحرب قبل دول ألمانيا الحرب بحجة أن الحرب أساس كل حضارة، ولإثبات أن العنصر الجرماني هو العنصر الفعال الذي تقع على عاتقه وحدة أمور العالم وحقوق التصرف منذ آلاف السنين.

وفي سنة 1894 أسست هنالك جمعية عرفت باسم (جمعية كوبينو) لتقوم بإتمام أبحاث هذا العالم. وقد رأس هذه الجمعية العالم وليمان الذي ألف كتاباً عن عصر النهضة في إيطاليا

وأبى إلا أن يرجع أصل جميع علماء النهضة في إيطاليا وأبطالها إلى أصل جرماني شمالي. يعرف هذا الكتاب بعنوان , 1905 أعقبت هذه الجمعية جمعية أُخرى عرفت باسم: (جمعية العناية بالأبحاث العنصرية) ألفها الفريد بلوتني أخذت على عاتقها مهمة البحث العنصري على أسس طبيعية تجريبية لا على الطريقة التاريخية الفلسفية. فعادوا إلى طريقة بلومنباخ وهي الاستعانة بأشكال قحف الرأس في تقسيم العناصر البشرية، وهيئة الجسم وتكوينه، وتكوين علم خاص يتفرع من علم الأنتروبولوجي وهي الطريقة التي اتبعت اليوم في ألمانيا بعد سيطرة هتلر عليها وخضوع الجامعة لإرادة النازي وآرائه.

راجت عقيدة العنصرية خلال الحرب وبعد الحرب ولا سيما بعد استيلاء اليهود على معظم الكراسي في ألمانيا وتشكيلها المجالس المحلية بعد ثورة شهر نوفمبر سنة 1918 إذ حصلوا على أغلبية كراسي الحكم. وهذا ما روج دعوة أنصار العقيدة العنصرية، إذ تحولت إلى دعاية وطنية غايتها تطهير ألمانيا من العناصر الأجنبية بإعادة الأخلاق الجرمانية القديمة، وهي السيادة والقوة، هذه المبادئ التي تنافي المبادئ الأوربية الغربية الديمقراطية التي حملتها الحرب إلى ألمانيا بطريق اليهودية الحاكمة على ألمانيا ومحاربة كل فكرة تدعو إلى المساواة بين الشعوب والقابليات على حد سواء. فظهر هنالك أساتذة وكتاب أمثال ادلف بارتلس ووغيرهم اتسفادوا من الفرصة وحملوا على اليهودية والماسونية والشيوعية حملات شعواء موجهين نظر الألمان إلى هذه الناحية الحساسة لتمهيد الحكم للدولة الألمانية الثالثة وإعادة حلم الدولة الألمانية المقدسة.

غير أن هنالك جماعة من الفلاسفة شعرت في نفس الوقت بتدهور ألمانيا ووجوب إعادة مجدها. غير أنها رأت تحقيق ذلك عن طريق آخر وهو طريق الثقافة واللغة بتحويل العناصر الغربية والقوميات إلى عنصر ألماني واحد مستدلة على ذلك بأدلة أُخرى ساخرة من قحف الرأس وتركيب الجسم مستدلة بالشعب الأمريكي الذي كون له قحف رأس جديد لا هو إنكليزي ولا هو ألماني ولا هولندي ولا فرنسي، وباللغة التي يدافع عنها ويحاول نشرها مع أن أصله قد يكون من البلطيق أو السويد أو ألمانيا أو غيرها، وكذلك باختلاف شكل الفلاح الألماني وتركيبه عن سكان المدن الألمان، وكذلك أصحاب المهن، وكذلك

الإنكليز الذين هم من عناصر مختلفة، ومع ذلك، فقد أصبح لهم قحف رأس مخصوص، متخذ في الأرض والمحيط عاملاً مهماً في العنصرية والقابلية البشرية. وغايتهم من

ذلك غاية وطنية كذلك، وهي ربط اليهود والألمان الذين في الخارج، وتجنسوا بجنسيات أجنبية عن طريق الثقافة واللغة، وتكوين ألمانيا عظيمة بدلاً من تنفير هؤلاء، وجلب السخط العالمي العام على الشعب الألماني.

غير أن استيلاء هتلر على زمام الحكم قضى على كل معارضة طبعاً للعنصرية، وحرم أي كتاب يعارض العقيدة. وأخذ يصنف للألمان العناصر الموجودة في ألمانيا، فتوصل إلى وجود خمسة عناصر أصلية وخمسة أخرى فرعية في الدماء الألمانية ولم يتوصل إلا إلى نسبة تقدر باثنين في المائة من الدماء الجرمانية الشمالية النقية. ولكن هنالك مع ذلك اختلافاً أيضاً في التقسيم: هل تعتبر المظاهر الخارجية والتركيب العضوي للجسم أساس التقسيم، أو العوامل الروحية والنفسية فقط أو كلاهما؛ فظهرت آراء للأساتذة: وغيرهم. وقد أعدت لأجل ذلك معاهد خاصة ومستشفيات ومختبرات تقوم بالتجارب المختلفة لتكوين علم جديد كسائر العلوم الأخرى أن لم نقل انه أهمها ويمكن أن نعتبر هذا العلم الذي تكون حديثاً قطب العلوم طرأ في ألمانيا الحالية، فعليه أن يقسم العناصر البشرية إلى أصول وفروع، والى أمم منتجة ذات قرابة مع الأمم الجرمانية وصلة، والى أمم كتب عليها ألا تقوم في التاريخ بأي دور أو حدث كالشعوب السامية والحامية وما يتفرع منها. ووظيفة الجامعة الألمانية الحديثة أن تكيف علومها وفق هذه العقيدة. ولاشك أن تلك مهمة صعبة شاقة ولاسيما في العلوم العقلية منها فالتاريخ يجب أن يقلب رأسا على عقب، والقرون الأولى ستبدأ بالجرمان وتاريخ أوربا، ثم ينتقل إلى التاريخ الآشوري والبابلي والمصري والحوادث التاريخية والحضارة البشرية يجب أن تغربل غربلة ليعثر على العنصر الآري الفعال الذي هو بذرة كل حضارة. وتلك مهمة صعبة جداً كما يظهر، لذلك لاقى أساتذة التاريخ خصوصاً المتقدمين منهم صعوبات في هذا الفن، أدت إلى إخراج معظم مدرسي التاريخ من الجامعات وإحلال عناصر جديدة من الشباب محلهم. وكذلك قل عن الفلسفة وعلم التربية والاجتماع والاقتصاد وغيرها بل حتى العلوم الطبيعية منها يجب إهمال أعمال وأسماء الأساتذة الذين ليست لهم صلة بالعرق الآري أو نسب.

أساس الحضارة العالمية والمدنية وكل إنتاج بشري عقلي أو مادي هو (الدماء) فعلى الشعب الآري لذلك أن يحافظ على دمه من الاختلاط بالدماء الأخرى، إذ متى اختلط بالدماء البعيدة حلت بالشعب الكارثة العظمى وذهبت السعادة الأبدية إلى الأبد وفسدت الروح والبدن، وسقط العنصر القوي إلى أسفل درجة من الضعف والاستسلام. على هذا وضعت قوانين (نورنبرك) في منع أي آري في ألمانيا من الزواج بغير الآريين مهددة المخالف بأقسى العقوبات، وكذلك في طرد نصف الآري، أي الذي ينتسب إلى أب أو أم غير آرية، أو ربع الآري أي الذي ينحدر من جد أو جدة غير آرية - من الخدمة لفساد الدماء في مثل الأجسام.

ويرى معارضو هتلر والنازية في عقيدة العنصرية هذه فكرة (الجبر) فما دام الدم هو العنصر المنتج للحضارة فلم إذا هذه المدارس وتلك الجامعات، ولم تلك النفقات الباهظة التي تنفق في سبيل تربية الأحداث؟ ومن الغريب أن هتلر ينعى على اليهودية قولها بنظرية الشعب المختار والنازية نفسها تقول بهذه الفكرة باختيار الشعب الجرماني وحده بين الشعوب وتفضيله على الشعوب الأخرى بالإنتاج والعلم والابتكار.

معالجة مشكلة الدماء تحل كل مشكلة، ولذلك يجب تقوية الجسم والمحافظة على الدم فيه نقياً سالماً. ومتى حوفظ عليه حوفظ على الحضارة العالمية والمدنية البشرية، والسيادة الأوربية. الحضارة هم وليدة الدماء، والقوة هي وليدة الدماء، والجمال والفن كذلك.

هذه هي فلسفة الوطنية الاشتراكية، تجعل الروح وليدة المادة. ومن الغريب أيضاً أن الشيوعية التي يقومها هتلر في كتبه تجعل العوامل الروحية مصدرها المادة، مع أن هتلر وروز نبرك يعتمدان في آرائهما العالمية ووجهة نظرهما الفلسفية على الروح.

بين هذه النظرة وبين مبدأ الأوجينيك قرابة عظيمة. والوطنية الاشتراكية في نظرتها العنصرية مدينة لهذا المبدأ أيضاً. القواعد التي وضعها العالم الفرنسي (1820 - 1911) والتي أطلق عليها الاسم المتقدم لأجل تكوين أجيال صالحة بمعالجة الجسم بقواعد عرفت (بقواعد كالتون) والتي تعتمد على الوراثة في الدرجة الأولى ونظريات

وداروين (1822 - 1884) (1744 - 1829)
أراد نيتشه الفيلسوف الألماني في زمانه إصلاح الأخلاق بالإصلاح العضوي لتقوية الأجسام وتقوية العقل والإنتاج بالطرق المباشرة كالأكل والرياضة لا بالنظريات الأخلاقية والأدبية العقيمة. وأراد فيوبرباخ إصلاح الإنسان بالأكل وطرد الدين. وأرادت الشيوعية إصلاح المجتمع بتقويض الأنظمة القديمة، وأراد هتلر بعث الجرمان والسيادة على البشر بتقوية الدماء. وكل له في هذا العالم مذهب ورأي، ولكل غاية ومثال. ولكن لكل شخص أن يقرأ ويرى كما يرى في دور الصور المتحركة دون أن يسخر من كل رأي أو يضحك من كل فكرة.

جواد علي

خريج جامعة هامبرج بألمانيا

!. . .هذه هي

للأستاذ كامل محمود حبيب

أحب أبا مروان من أجل تمره=وأعلم أن الجار بالجار أرفق

وأقسم لولا تمره ما حبيتهُ ... وكان عياض منه أدنى ومشرق

(غيلان النهشلي)

أطرق الرجل ساعة، وأنا بازائه أتفرس فيه، وهو زري الهيئة مضطرب الهندام: قد تخدد لحمه، وذوى عوده، وأدبر شبابه. . . وإن في عينيه عبرات مكفوفة يدفعها اليأس ويحبسها الحياء، وعلى شفتيه آهة عميقة لا تجد لها متنفساً. . . وتبدت لي خواطره تصطرع في رأسه، وهو يشرب القهوة في نهم، وينفث دخان سيجارته في لذة. . .

فأردت أن أجذبه إلي، فقلت: (ما بالك تكتم عني ذات نفسك، وقد خلا بنا المكان؟)

قال: (إن في النفس حديثاً طويلاً، ولكني ألفيتك رجلاً غير من صورتُ في خيالي!). . .

ورقت رنات صوته، حتى خيل إلي أن آلام قلبه تعتلج في صدره، فتتحدث هي حديثاً كله أنات، ثم قال: (. . . وأنا لا أستطيع أن أؤمن بأنك أنت صاحب (ذريني)، ومن بعدها (شيطانه تتفلسف)، وكيف يتأتى لك أن تكتب ما قرأت وما في دارك إلا الأمر والطاعة، وإلا الهدوء والطمأنينة، وإلا السعادة و. . .)

قلت: (يا سيدي، أن المرأة لا تجلب السعادة، ولكنها أبداً تنضج الشقاء!)

قال: (كأنك تعني أن نصف العالم خلق شقاء للنصف الأخر)

قلت: (ولم لا؟)

قال: (وبماذا رمتك المرأة فتتهدم عليها بمثل كلامك هذا؟)

قلت: (يا عجباً! أفلا ترى أن المرأة كالماء الآسن حين تنعكس عليه أشعة الشمس الذهبية، فيبدو جميلاً صافياً خلاباً، فإذا اغتمرت فيه اغتمرت في النتن والوحل معاً؟)

قال: (وهذا معنى آخر مما يضطرب في نفسك، فهل لك أن تسمع قصة عذابي علك تجد فيها مادة!)

قلت: (هات!)

قال: (أما انا، فقد نالني من المرأة عنت كبير. . . كنا - أنا وهي - زوجين في رغد من العيش، ودعة من الزمان ورخاء في البال؛ وأنا موظف في الحكومة يغل عليّ عملي ما يكفي عدداً، وفي القناعة والرضا، وهي لا تبسط يدها كل البسط؛ وتصرمت الأيام، وأنا أجد فيها سلوه عن الابن، وقد ضنت به الأيام، وعزاء عن الام، وقد سلبتها مني يد القدر. . .)

ثم غدر بي الدهر غدرة واحدة، فقذف بي بين براثن المرض لا أبرأ ولا أستقل. . . وانطوت الأشهر وأنا بين الطبيب والدواء والحكومة في مرض آخر: فالطبيب شره لا يطفئ السيل غلته، والدواء لا يشفي ولا ينقطع، والحكومة من ورائهما تضع من راتبي قليلاً قليلاً. وأحسست بالهاوية التي أنحدر إليها رويداً رويداً. . . فأشفقت على زوجتي أن تجد لذع الفقر وقد أشفيت عليه، أو أن ينسرب إلى قلبها الملل وقد طالت علتي، وفي رأيي أن أسرحها لتنطلق إلى متعة قلبها ولذة نفسها، وهي شابة فيها عقل المرأة ونزعات الأنوثة. . .

ونشرت على عيني أمها حديث نفسي، فراحت العجوز إلى ابنتها توسوس. . . وجاءت الزوجة - وفي عينيها عبرات تترقرق - تزور حديثاً: (كيف أتخلى عنك الآن؟ أفأعيش إلى جانبك سنوات لا أستشعر منك إلا الشهامة والكرم، وإلا الرجولة والتضحية؛ ثم

أفزع عنك وأنت بين المرض والعوز، لأكون معولاً آخر يهدم بقية فيك نترجاها؟)
واطمأنت نفسي إلى حديثها، فاستقرت
لقد كانت فكرة ابرة، غير أنها بعثرت حياتها، فانبعثت هي تكشف لي عن أدران نفسها
ألحت علي الحاجة فتحولت عن داري إلى حجرات ضيقة وضيعة، ومكرت هي بي
فحملت أثاثها إلى دار أبيها إلا حاجات عبث بها البلى، وجاءت أمها تريد أن تعينني على
علتي بكلام يتوثب من أضعافه الصلف والزهو، فأبت كبريائي أن تذل لها، على حين
تعصرني الفاقة ويثقلني الدين، وليس لي من أفزع إليه سوى أخي، وهو بين أولاده
وزوجته ورقة حاله في هموم. . .
وأحسست من الزوجة الشابة الإغضاء والإهمال، فهي تنفلت من لدني - بين الحين
والحين - في تطريتها وزينتها، تزعم أنها تزور أهلها وصاحباتها، وهي تنطوي عني ساعات من
النهار؛ وأنا بين الشك واليقين لا أستطيع أن أمسكها فتجد مس الضيق والملل، ولا أن أرسلها فأذوق مرارة الوحدة وعذاب المرض معاً
وضاق بي صدر الحكومة فلفظتني، وللحكومة قانون يحكم على المرض بالإعدام.
وظلت زوجتي تداجيني وتفتن في مرضاتي حتى أرسلت الحكومة إلي مكافأة مالية لا
ترد عادية ولا تدفع فقراً، غير أن قطرة منها تروي حِرَّني. . . أرسلتها الحكومة فأخذتها
الزوجة وطارت. . . طارت أحوج ما أكون إليها، لتذرني وحيداً على فراش المرض
والضيق، لا أجد إلى جانبي سوى خادم صغيرة لا تستطيع شيئاً).
وسكت سكتة طويلة حين اضطربت الكلمات على شفتيه، وتدفقت العبرات من
محجريه لا يستطيع كبتها. فقلت: (لا بأس عليك، يا صاحبي؟) قال: (هذا ضعفي،
ولعمري لقد كنت أضن به أن يبدو أمام الناس، وهانذا أريقه على عينيك!) قلت: (لا
ضير، لقد طارت فلا تدعها تنفث فيك من هموم الحياة، لقد طارت فماذا كان. . .؟)
قال: (وجاء أخي يرفه عني بكلمات. . . على حين قد حضرني بثي
ثم تماثلت للشفاء وأنا أرزح تحت عبء الدين وشدة الصدمة، وتحدثت إلي رجولتي ساعة من زمان، فإذا زوجتي غريبة عني
وترامى إليها الخير، فهبت تحدثني بلغة المحاكم الشرعية، وللمحاكم الشرعية لغة هي
عقل المرأة انتقام وتنكيل، وفي عقل القاضي ثأر واقتصاص، وفي رأى الزوج مثله
وعبرة، وفي عيني العزب زجر وعظة. ثم هي - دائماً - تقول للزوج (أيها الأحمق، لم
تزوجت؟) وللعزب (أيها العاقل، إياك إياك!)
وعشت سنة لا أبرح السجن إلا ريثما أعود إلى غيابته، وما في يدي ما أستطيع أن أدفع به تهم الزوجة ولا غفلة القاضي)
ثم اطرق وقد نفث حديثه في روح الأسى والحزن، وإن في نفسي غيظاً يحتدم. . . ثم
قلت: (وهي؟) قال: (أما هي فقضت أيام محنتي بين ذراعي حبها الجديد، ثم مكرت به
- بعد أن عصفت بي - فإذا هو زوجها) قلت: (يا الله! ويل للرجل من المرأة)
فقال في هدوء: (من النساء غل قمل يقذفها الله في عنق من يشاء ثم لا يخرجها إلا هو)
قلت: (صدق رسول الله، فعلام إذن تذهب نفسك حسرات، وأنت ما تفتأ في شبابك؟)
قال: (لا بأس، فلقد قرّ رأيي على أن أطوي الماضي لأكون رجلاً غيري)
قلت: (نعم ولتكون رجلاً. . . رجلاً فيك الرجولة)

كامل محمود حبيب

أفانين

أثر الإيحاء في جلب التفاؤل

للأستاذ علي الجندي

- 1 -

للإيحاء سلطان كبير على النفوس، يدفعها إلى القيام بأعمال جليلة ما كانت لتقوم بها لو عداها أثره الحافز القوي
ولا نبالغ إذا قلنا: أن جل الناس يضربون في زحمة الحياة ومعتركها الهائل تحت تأثيرها ذلك الإلهام الباطني وان لم يشعروا به أحياناً لأنه أخفى دبيباً من السحر
وفضل هذا الإيحاء عظيم في انه يشد عزائمنا ويستجيش قوانا، ويملؤنا رجاء وأملاً،

ويهون علينا اجتياز الصعاب والعقبات
فالتاجر لا تتفتح نفسه للتجارة ويقبل عليها بشغف ولذة، إلا إذا ألهم نفسه أن من وراء ذلك المكسب الطائل والربح الوفير
والجندي في ساحة الوغى إذا فقد الروح المعنوية - وهي فن من الإيحاء - فقد أمضى أسلحة القتال، ولم يجد عليه أن يكون شجاع القلب حسن الدربة قوي العدة. وقد عبر عن هذا المعنى بأجلى عبارة فارس الإسلام (علي أبن أبي طالب) حين سئل: بم كنت تنال النصر؟ فأجاب: كنت أبرز للخصم وأنا أعتقد أني أغلبه، وهو يعتقد أني أغلبه، فكنت أنا ونفسه عليه
والإيحاء بمعناه العلمي يؤمن به أطباء هذا العصر كل الإيمان ويستخدمونه علاجاً ناجعاً في شفاء الأمراض العصبية والعقد النفسية والعادات الشاذة. وقد حدثني بعض من درسوا الحياة الإنجليزية أن الأمم هناك تعود طفلها قبل النوم أن يقول لنفسه: (إني سعيد) عشر مرات والغرض من هذا أن يتدسس هذا الاعتقاد إلى عقله الباطن فيخالط نفسه بمر السنين ويمتزج بمشاعره، فيستقبل الحياة مرحاً متفائلاً ريان الأمل بساماً على السراء والضراء.
وأقول بهذه المناسبة: إني شفيت بفضله بعض الشفاء من الخجل المفرط والحياء الغالي، وهو مرض موروث كثيراً ما قعد بي عن غثيان الأندية والمحافل، ومنعني من أداء
الواجبات وزيارة الأصدقاء.
كما أشهد أنني انتفعت به في قرض الشعر؛ ذلك أنني كنت مكثراً منه في مفتتح حياتي الأدبية، ثم صرفتني عنه الكتابة صرفاً تاماً حتى عسر الرجوع إليه، فما زلت أوحي بأن من الجناية تعطيل هذه الموهبة، وإن الشعر أروع ألوان الأدب وأجلها خطراً ولا يسد مكانه غيره، حتى عدت إليه تدريجاً. . . والعود أحمد أن شاء الله. وليس التشاؤم إلا ضرباً من الأوهام تتحكم في ضعفاء الإرادة رقاق الإيمان، فيمكن التخلص منها بالإيحاء.
وهذا الدواء - أعنى الإيحاء - عرفه الناس قديماً لأنه دواء فطري، إذ لا يخرج في حقيقته عن المغالطة التي لجأ إليها الإنسان أحياناً ليدخل الروح على نفسه ويستل منها القلق والاضطراب.
ولنعرض الآن صورتين متشابهتين يغلب في الأولى التشاؤم فيلونها بلون قاتم كريه تقرأ فيه اللوعة والحيرة والتبلبل! ويتجلى في الثانية التفاؤل فيشيع فيها النضارة والبهجة والإيناس!
في الصورة الأولى نرى (ذا الرمة) الشاعر، مر في طريقه بغراب ينعب فوق بانة، فمثل له خياله المظلم أن الغراب نذير الاغتراب! وأن البانة عنوان البين! وقد نمهد له العذر في الغراب، ولكن كيف يسوغ التشاؤم بالبان؟ وبه تشبه قدود الحسان!
قال ذو الرمة:
رأيت غراباً ناعباً فوق بانةٍ ... من الغضب لم ينبت لها ورق نضر
فقلت غرابٌ غراب، وبانة ... لبين النوى، تلك العيافة والزجر
ومثله جحدر اللص في قوله:
ومما هاجني فازددت شوقاً ... بكاء حمامتين تَجاوبانِ
تجاوبتا بلحن أعجميّ ... على غصنين من غرَبٍ وبان
فكان ألبان أن بانتّ سليمى ... وفي الغرَب اغتراب غير داني
وفي الصورة الثانية نرى الأمر على نقيض ذلك مع أن بواعث التشاؤم أشد واكثر، نرى (إباحية النمري) أنشأ سفراً، فسنحت له عقاب، وطالعته حمائم تنوح على شجرة طلح، وهدهد ساقط على غصن بان، تحته بقعة من دم مسفوح!
وكانت هذه المرائي الغريبة التي يسودها التنافر خليقة بأن يتطير منها، ولكنه طرد عن نفسه طوارق السوء، وأوحى لها أن كل أولئك من إمارات الخير والبركة، فما عتم أن انقلب الشؤم في عينيه يمناً، واستحال الليل نهاراً! قال:
بدا يوم رحنا عامدين لأرضها ... سنيحٌ، فقال القوم مرّ سنيحُ
فهاب رجال منهمو وتقاعسوا ... فقلت لهم جاري إليّ ربيح
عُقاب بأعقاب من الدار بعد ما ... جرت نية تسلى المحب طروح
وقالوا حمامات فَحُمّ لقاؤها ... وطلح، فزيرت والمطيُّ طليح

وقال صاحبي هدهد فوق بانة ... هدى وبيان بالنجاح يلوح
وقالوا: دَمٌ، دامت مواثيقُ بيننا ... ودام لنا حُلوُ الصفاء صريح
ويمتد بنا القول إذا وقفنا عند كل شاهد وعمدنا لتحليله، فنكتفي لضيق المقام بإيراد الأمثلة وفيها غنية عن البيان.
دخل الحجاج الكوفة متوجهاً إلى عبد الملك فصعد المنبر، فأنكسر تحت قدمه لوح، ففطن إلى أن الكوفيين قد تطيروا له بذلك، فالتفت إلى الناس قبل أن يحمد الله وقال: شاهت الوجوه وتبت الأيدي! وبؤتم بغضب الله! أئن أنكسر عود جذع ضعيف تحت قدم أسد شديد تفاءلتم بالشؤم؟! ألا وإني على أعداء الله تعالى لأنكد من الغراب الأبقع، وأشأم من يوم نحس مستمر!
وخطب قتيبة بن مسلم على منبر خراسان، فسقط القضيب من يده، فتطير له عدوه بالشر، واغتم صديقه، فعرف قتيبة ذلك فقال: ليس الأمر على ما ظن العدو وخاف الصديق، ولكن كما قال الشاعر:
فألقت عصاها واستقر بها النوى ... كما قر عيناً بالإياب المسافرُ
وكان الوزير أبو نصر الكندري يتولى في أول أمره حجب الناس، وكان الباخرزي رفيقه في الدرس فقال مداعباً إياه:
إقبل من كندر مُسَيْخرةٌ ... للنحس في وجهه علاماتُ
يحضر دُورَ الأمير وهو فتىً ... موضع أمثاله الخَرَاباتُ
ثم ارتقت الحال بالكندري حتى صار وزيراً محكماً، فورد عليه الباخرزي وهو في صدر الوزارة ببغداد، فلما رآه قال له: أنت صاحب (أقبل من كندر مسيخرة. . .) قال: نعم. فقال الكندري: مرحباً وأهلاً! إني تفاءلت بقولك (أقبل. . .) ثم خلع عليه قبل أن ينشده مديحه فيه. ومن الأمثلة الشعرية قول نور الدين المايورقي من شعراء نفح الطيب:
وذهيفٍ راق العيون انثناؤه ... بقد كريّان من ألبان مُورق
كتبتُ إليه: هل تجود بزورة؟ ... فوقع (لا) خوفَ الرقيب المصّدق
فأيقنت من (لا) بالعناق تفاؤلاً ... كما اعتنقت (لا) ثم لم تتفرق
ويقول عبد الرحمن من شعراء اليتيمة:
إذا دهاك الوداع فاصبرْ ... ولا يهولنّك البعادُ
وانتظر العوْد عن قريب ... فإن قلب الوداع (عادوا)
ومن أروع الشعر في ذلك: ما كتب به أبو الفضل الميكالي إلى قوم من أهل (مَرو) انخلعوا من طاعته وحلوا لواءه وتألفوا فرقتين تعيثان في الأرض فساداً! قال:
يا راكباً أضحى يخبُّ بعنسِه ... ليؤمّ مَرْ وعلى الطريق المهْيعِ
أبلغْ بها قوماً أثاروا فتنةً ... ظلَّت لها الأكبادُ رهن تَقطُّعِ
إذ قدَّموا ظلماً على سلطانهم ... بالغدر والخلع الذميم المفظِعِ
وبحلِّ عقد لوائِه وإباحةٍ ... لجنابه وحريمه المتمنع
أبلغهمُ أني اتخذتُ لفعلهم ... فألاً، له في القوم أسوأ موقع
أما اللواء وحلُّه فمخبِّرٌ ... عن حَلَّ عقدٍ بينهم مستجمع
والخلعُ يخبر أن ستُخلع عنهم الْ ... أرواح بالقتل الأشد الأشنع
والغدر يُنبئ أن تغادر في الورى ... أشلاؤهم لنسوره والأضُبع
والفِرْقتان فشاهدٌ معناهما ... بتفرُّقٍ لجميعهم وتصدُّع
ويلاحظ في هذه الأمثلة أنها من نوع الإيحاء الذاتي (إيحاء الإنسان إلى نفسه) وسنتبع هذا المقال بطائفة من غرر الإيحاء الخارجي، فيها قرة العيون وشفاء الصدور والله المستعان!

علي الجندي

من الذروة

هذا القطيع. . .!

(إلى الذين ما مست مزاهرهم يد الله)

ولمحتُ ركباً في الحضيض مُغَيَّباً ... طَمرَ الخَنا تحْتَ النَّشيدِ وَدَسَّهُ . . .
مِنْ كلِّ نَشْوانِ الرَّبابِ طَهارَةً ... وَحَشاهُ للأكْوانِ يُترِعُ رِجْسَهُ
لَبِسَ المُسُوحَ فَقيلَ: قِدِّيسُ الحِمى! ... والجِيفةُ الشَّنعاءُ تَلفِظُ قُدْسَهُ
وبَكى الغرامَ فَقيلَ: أَرْحمُ عاشق ... غَنَّى! وتَنْئُ الفُحشِ يَرْحَمُ نفسَهُ

كَذِبٌ يُجلجِلُ في الصّدى، وخواطرٌ ... إفْكُ الرّحيقِ بها يُعاتِبُ كأسَهُ
فكأنها في الشَّدْوِ مَنطِقُ مُومِسٍ ... نَعْشُ الحياءِ بها يواثِبُ جَرْسهُ. . .!
فمضَيتُ أسألُ: أيُّ جَوْقٍ مُزْعِجٍ ... لِلمُلْهَمِين شدَا ليُطرِبَ رَمْسَهُ؟
فَأجِبْتُ: دَعْ هذا القَطيعَ، فَانهُ=بُومٌ يُؤبِّنُ في المفاوزِ حِسّهُ!!

محمود حسن إسماعيل

من وراء المنظار

من الفأس إلى السلاح

خففت إلى القرية منذ بضعة ايام، وقد أغراني الصحو والدفء أن أنعم بهما هناك يوماً أو يومين في ملاعب صباي ومسارح هواي وجنة أحلامي؛ ورحت في رونق الضحى أثب كالفراشة من حقل إلى حقل ومن غدير إلى غدير، وفي قلبي فرحة الغلام، وفي خيالي أحلام الشاعر.

وجلست أستريح ساعة في مصلى على جانب الطريق، أستند إلى جذع شجرة التوت العتيقة التي جردتها يد الشتاء العاتية من أوراقها، والتي طالما استروحت نسيم الأصل الرخي في ظلها السابغ أثناء الصيف؛ وأخذت عيناي من بعد شخصاً قادماً في زي (الأفندية)، فلما صار بحيث أتبيه، رأيته في زي (الجند) وما لبث أن دنا مني فعرفته، ولما بلغ حيث أجلس نطق بالسلام متبسماً ورفع يده إلى رأسه محيياً بالتحية التي تعلمها في الميدان. . وعجب إذ نهضت واقفاً له وإذ مددت إليه يدي مصافحاً، وأشرت إليه فجلس على استحياء على حافة المصلى.

هذا هو حسن الفتى القروي المرح، القسيم المحيا الذي تعرفه القرية كلها بمواويله الساحرة العذبة التي كان يمليها عليه في الأفراح ما هز قلبه حب عف شديد والتي ما لحق به في مضمارها أحد من منافسيه. . ولقد طالما رأيته بالأمس يخطر في ملابسه القروية في تلك البقاع، ولقد طالما سمعته من قريب أو من بعيد يبدأ أغانيه الحلوة بقوله: (آه. . . يا ما جرى لك قلبي)

واليوم أراه في حلته العسكرية ينتعل ذلك الحذاء الضخم ويضع على رأسه الطربوش ويمسك بيده عصا رفيعة من الخيزران، وقد زال عن وجهه سفع الشمس إلا قليلاً فبدا أكثر وضاءة وأجمل قسامة وأنضر عافية.

ولمحت في عينيه شيئاً من القلق ولكن لم يغب عني سببه، فأنا أعرف أن ذلك المصلى مكان انتظاره لمن يهوى قلبه وهي قافلة من الترعة أو ذاهبة إليها؛ وأشرت إلى ذلك مداعباً ممازحاً فضحك ضحكة جميلة مازج الطلاقة فيها الخجل. . . ولكن إشارتي إلى ما في نفسه زادت قلقه، فوجم برهة، وأدركت انه يهم بالانصراف فأخذت أهدئ بالحديث روعه.

ولم يطل ذلك الحديث فقد رأيت الصفرة تغشي وجهه الخجل يتزايد في عينيه؛ فالتفت فإذا هي مقبلة تحمل جرتها، ورأيتها حينما دنت منا قد أخذتها ربكة المفاجأة فأضطرب هيكلها ثم أسرعت فأخفت وجهها بطرحتها. . . وبدا لي فناديتها حين مرت فأبطأت ولكنها لم ترد ولم تلتفت، فأكدت، فوقفت ثم تغاضبت فأقبلت في حياء شديد، فصحت بها لتقدم وإلا نهضت فجئت بها على رغمها، فجاءت ووضعت يدها في يد خطيبها ثم انتزعتها مسرعة دون أن تتكلم، وأشرت إليه فحط عنها الجرة وأرغمتها على الجلوس، فجلست إلى جانب المصلى تحجب طرحتها نصف وجهها المتورد الجميل.

وانعقد لسان الجندي فلم يدر ماذا يقول (فأنقذت الموقف) أنا بامتداحي حياة الجندية وبثنائي في عبارة يفهمانها على أولئك البواسل الذين يفتدون بلادهم بأرواحهم. . . ولمعت عينا الجندي الشاب، ثم تندت بدموع الفرح وأنسته الحماسة خجله؛ فقال وهو الذي كان يحمل الفأس بالأمس انه يفتدي بلاده بدمه إذا لزم الفداء. . . ونظرت إليه الفتاة نظرة لم أر فيها إلا معاني الإعجاب والارتياح؛ ونهضت قائلاً إني أتركهما برهة ليقولا ما بنفسيها.

وعدت إذ رأيته يضع على رأسها الجرة وواجهتني ذاهبة، فإذا هي مستبشرة راضية تكتم ضحكتها؛ ودنوت من ذلك الجندي أسأله لم لا يصف ذلك في موال من مواويله وهو ذلك الشاعر الذي ما عي لسانه في موقف. . . ولكنه لم ينطق بموال حينذاك، وإنما راح يتكلم عن حب الوطن وعن معاني الفداء والبطولة. ولشد ما أعجبني قوله (الواحد منا ما يستهلش خير بلاده إذا ما دفعش عنها بدمه، والراجل إيه فائدة عافيته

وشبابه؟ يا ترى يقعد زي البنت؟) وأكد لي انه لا يأسف على فراق قريته في سبيل وطنه وله فيها من يهواها قلبه فحب بلاده فوق كل حب!

واستأذن الجندي الفلاح فوقفت أصافحه في حماسة وشيعته بنظرات الإكبار وهو يمشي مشية متزنة سريع، وعجبت كيف تغير الجندية عقلية هؤلاء الفلاحين بمثل هذه السرعة، وأثلج صدري أن أرى في ذلك الفتى المتحمس الدليل الحي على صحة ما يقوم أبداً في نفسي من أن هذا الذي يجيل الفأس في تربة وادينا الوديع الهادئ كفيل بأن يدير في يده السلاح بنفس المهارة إذا هو قلد السلاح. . . ومن أين جاءت جنود تحتمس ورمسيس وابراهيم؟ وكم بين هؤلاء السذج زرق الجلابيب من قادة أمجاد وعلماء أفذاذ وشعراء

فطاحل وساسة أماثل ولكنهم تركوا في غمار الجهل والفاقة لا يعلمون إلا أن يجيلوا الفأس في ثرى الوادي في صمت وصبر جاهدين

(عين)

لقب السفاح

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

هذا موضوع كنت قيدته في مذكرتي منذ سنين تحت هذا العنوان (لمن لقب)، وكان هذا بعد أن قرأت في كتاب (الإمامة والسياسة) المنسوب لابن قتيبة وصف عبد الله بن علي ابن عبد الله بن عباس بالسفاح، وتركه وصف أبي العباس به، وهو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس؛ فالأول عم الثاني، وكان والياً على الشام، وهو الذي تولى فيه حرب بني مروان، وسفك فيه ما سفك من دمائهم، ثم أخذت في تحقيق ما رأيته من الاضطراب في ذلك الوصف، ودونت تحقيقاً في مذكرتي على هذا الترتيب:

1 - جاء في ص127 من كتاب المعارف لأبن قتيبة وصف أبي العباس بالسفاح.

2 - جاء في تاريخ بغداد ص46 جـ10 تلقيبه بالمرتضى والقائم.

3 - جاء في كتاب (خلاصة الذهب) المسبوك للأربلي ص40 تلقيب أبي العباس بالسفاح والمرتضى والقائم

4 - جاء في ص477 ج5 من كتاب (صبح الأعشى) للقلقشندي أن الخلف وقع في لقب السفاح، فقيل القائم، وقيل المهتدي، وقيل المرتضى.

5 - جاء في ص207 من تاريخ ابن العبري أن أبا العباس كان رجلاً طويلاً أبيض اللون حسن الوجه، يكره الدماء، ويحامي على أهل البيت.

6 - قرأت ما كتبه ابن جرير الطبري عن أبي العباس فلم أجد فيه وصف أبي العباس بالسفاح.

7 - جاء في كتاب (الفاطميون في مصر) للأستاذ حسن إبراهيم حسن أن الأستاذ دي غويه كان يرى أن السفاح معناه الرجل الكثير العطايا أو المناح.

وقد وقفت عند هذا في مذكرتي، وشغلت عن الكتابة في هذا الموضوع بما فيها من الموضوعات الكثيرة، إلى أن قرأت في مجلة (الثقافة) الغراء بعض ما كتبه فيه الأستاذان الجليلان عبد الحميد العبادي وأحمد أمين، فكنت والله كأني فقدت بعض أولادي لأن أفكاري تبلغ عندي منزلة الأولاد، وقد تكون أعز منها عندي، وفي سبيلها يهون علي ما ألاقيه من عنت واضطهاد في هذه الحياة.

ثم عزيت نفسي عن ذلك بما أغناها الله به من مثل هذه الآراء والأفكار، وانتظرت ما ينتهي إليه أمر الأستاذين الجليلين في ذلك الموضوع، فلعلهما يتركان لمثلي الكلام بعدهما، ويكون لي ما أعقب به عليهما. فلما فرغا منه وجدت الموضوع لا يزال في حاجة إلى التحقيق، ورأيت أنهما لم يصلا إلى تلك النصوص السابقة، ولو أنهما وصلا إليها لتغير نظرهما في ذلك الموضوع

لقد ذكر الأستاذ العبادي في أول ما كتبه عن السفاح انه كان شاباً متصوفاً، عفيفاً، حسن المعاشرة، كريماً، معطاء، ذا شعرة جعده، طويلاً، أبيض، اقني الأنف، حسن الوجه واللحية، ورتب على هذا رأيه في معنى لقب السفاح الذي عرف به انه بمعنى الكثير العطاء، وليس بمعنى السفاك للدم، لأن مثل تلك الصفات التي كان السفاح يتحلى بها إنما تلتئم مع المعنى الأول للسفاح وهو المعطاء، ولا تلتئم مع المعنى الثاني، لأنه معنى ذم لا يلتئم مع تلك الصفات الكريمة.

والأستاذ العبادي مسبوق بهذه النظرة إلى معنى السفاح الذي لقب به أبو العباس، فقد ذكر الأستاذ حسن إبراهيم حسن في بعض تعليقاته على كتابه (الفاطميون في مصر) أن الأستاذ نيكلسن قال في بعض كتبه: يقول الأستاذ بيفان الذي أدين له بهذه الملاحظات أن ترجمة لفظ السفاح ولو أن استعمالها قد شاع بين الكتاب الأوربيين لا تزال مثار الكثير من الشك، وقد ذهب الأستاذ دي غويه إلى القول بأن السفاح معناه الرجل الكثير العطايا أو المناح، وانه مما يهمنا ملاحظته أن هذا الاسم قد أطلق على بعض شيوخ القبائل في الجاهلية، ويقال إن سلمة بن خالد الذي قاد بني تغلب في موقعة بني كلاب الأولى (ابن الأثير - طبعة ترنبرج ج1 ص246) سمي السفاح لأنه أفرغ مزاد جيشه قبيل الموقعة، ثم قال: والذي أميل إليه انه إنما سمى بهذا الاسم لقوله في أول خطبة له (فأنا السفاح المبيح والثائر المنيح)

وفي هذا النقل بعض من الاستقصاء العلمي الذي عرف به المستعربون الأوربيون، ولكن فيه مع هذا تخليطاً كثيراً نحب أن ننبه هنا إليه، ثم نعود إلى موضوعنا، فقد سميت الموقعة في ذلك النقل موقعة بني كلاب، وهو خطأ في التسمية، وإنما هو يوم الكلاب الأول من أيام بكر وتغلب، وقد جاء في القاموس (وكلاب كغراب موضع وماء له يوم) وكان هذا اليوم

بين شرحبيل وسلمة أبني الحارث بن عمرو ملك بكر بن وائل، فإنهما اختلفا بعد موت أبيهما على الملك، وتواعدا الكلاب، فأقبل شرحبيل في ضبة والرباب كلها وبكر بن وائل، وأقبل سلمة في تغلب والنمر وبهراء ومن تبعه من بني مالك بن حنظلة، وعليهم سفيان بن مجاشع، وعلي تغلب السفاح بن خالد، وإنما قيل له السفاح لأنه سفح أوعية قومه وقال لهم: ابتدروا إلى ماء الكلاب فسبقوا ونزلوا عليه، وقد قتل في ذلك اليوم شرحبيل بن الحارث وجيء برأسه إلى أخيه سلمة، فلما رآه دمعت عيناه، قال:

ألا أبلغ أبا حَنَشٍ رسولاً ... فمالك لا تجيء إلى الثوابِ
تَعَلمْ أن خيرَ الناس طُراًّ ... قتيلٌ بين أحجار الكُلابِ
تداعت حولهُ جُشَمُ بن بكر ... وأسلمه جَعَاسيسُ الرِّبابِ

وكان أبو حنش هو الذي قتله، ثم بعث برأسه إلى سلمة مع عسيف له، ولم يحضر مخافة منه، فقال سلمة لعسيفه: أنت قتلته؟ قال: لا، ولكنه قتله أبو حنش، فقال: إنما أدفع الثواب إلى قاتله، وكان قد جعل لمن يأتيه برأس أخيه مائة من الإبل.

وقد رد الأستاذ أحمد أمين على استبعاد أن يكون أبو العباس سفاحاً بمعنى سفاح ما كان له من تلك الصفات الكريمة، بأن هذا لا شيء فيه، لأن كثيراً من أبطال الجاهلية كان سفاكاً للدماء، ومع هذا كان يتحلى بمثل تلك الصفات التي كان يتحلى بها أبو العباس، كعنترة العبسي وغيره. ورد عليه الأستاذ محمود محمد شاكر بأن الرقة والجمال ولين الخلق تخفي وراءها أحياناً قسوة لا يدانيها قسوة، كالذي يكون في النساء، فإنهن قد عرفن بين الناس بالرقة، وهن أغلظ أكباداً من الإبل. ومع هذا يرى الأستاذ محمود أن السفاح لقب أبي العباس من سفح المال لا من سفح الدم، لأن أبا العباس كان يسمى عبد الله الأصغر، وكان أخوه أبو جعفر يسمى عبد الله الأكبر، وأبو جعفر قد لقبه أبوه فيما يعلم الأستاذ محمود بالمنصور، فلا غرو أن يكون أبو العباس قد لقبه أبوه كما لقب أخاه، ولا يعقل أن يلقب أحد ولده بمذمة سفح الدماء وهو ينصبه للناس خليفة، وقد روى عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم: (يخرج منا رجل في انقطاع من الزمن وظهور من الفتن يقال له السفاح، يكون عطاؤه للمال حثياً) وأئمة الحديث لا يصرفون هذا الاسم إلى أبي العباس، ولكن بني العباس استخدموا مثل هذا في دعوتهم. فالسفاح إذن ليس من سفح الدم، وهو بهذا المعنى مجاز مقصود لغرض بعينه

وإني لا أوافق على أن العباسيين كانوا ينظرون إلى لقب السفاح بمعنى السفاك للدم مثل نظر الأستاذ العبادي والأستاذ محمود شاكر، لأنهم كانوا يريدون منه السفاك لدماء أعدائهم، وهذا عندهم لقب مدح لا ذم، وقد تمدح به أبو العباس في أول خطبة له فقال: (فأنا السفاح المبيح، والثائر المنيح) وفي رواية الطبري (والثائر المبير). ولا شك انه إذا أمكننا أن نحمل السفاح المبيح على معنى سفح المال وإباحته، فإنه لا يمكننا أن نحمل الثائر المنيح أو المبير إلا على معنى إهلاك الأعداء وسفح دمائهم وإناحة أهلهم عليهم. ولا مانع بعد هذا عندي في أن يكون في السفاح معنى سفح الدم وسفح المال،

ورأيي في الحديث الذي جاء فيه ذكر السفاح انه من الأحاديث الضعيفة، والظاهر أنه لم يظهر إلا بعد انقضاء عهد السفاح، وأنه كان يقصد به التقرب إلى العباسيين، كالحديث الذي روى عن ابن عباس أنه قال: لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لأدال الله من بني أمية، ليكونن منا السفاح والمنصور والمهدي.

وأما ما ذكره الأستاذ محمود من أن السفاح بمعنى سفح الدم مجاز فينا فيه ما ذكره الزمخشري في أساس البلاغة، وهو الكتاب الذي يرجع إليه في تمييز المعاني الحقيقية والمجازية، فقد ذكر السفاح بمعنى السفاك للدماء في الاستعمال الحقيقي لمادة س ف ح، ولم يذكر فيه ولا في الاستعمال المجازي معنى سفح المال، وهذا يدل على أن استعماله في الأول أقرب من استعماله الثاني، ولنقف الآن عند هذا الحد، لنتم بحث ذلك الموضوع بعد

عبد المتعال الصعيدي

الأدب في الأسبوع

الهجرة

!!يا نبي الله

إن الإسلام قد قعدَ به أهلهُ، والزمنُ بالناس يعدو، والحياةُ في العالم فكرٌ يتحقق، وهي عندنا حلمٌ يتبدد، هذه أمتك تملأ الارض، ولكن قد فرغت قلوبها من الإيمان والإيمان في دينك قولٌ وعملٌ، كانت به المعجزةُ الإسلامية ولكنه عندنا قولٌ وجدلُ، تكون به الفرقة الجاهلية. . .

فاللهمَّ هِجْرةً كهجرةِ نبيِّكَ بالعزمِ والإيمان

اللهمِّ جهاداً كجهادِهِ يُجدِّد القلوبَ والأوطان

الشباب والأدب

الطفل حياةٌ صغيرة غضه لينة تقبل التشكل وتطاوع على ضغط البيئة التي تكتنفها وتطيف بها وتميل عليها؛ وبيئة الطفل هي أخلاق أبويه، ومعاملتهما وحديثهما وما يحيط بهما من الأقارب والأصحاب والخدم وكل من يعود البيت من زواره. وقد حمل الإنسان طبيعة التشكل من أول عمره ليكون بعد إنساناً اجتماعياً مقتدراً على التصرف في نظام الجماعة بما لا يخرجه من جوها ويقذفه وراء حدودها التي ضربتها عليها الأحوال الاجتماعية التي يتميز بها الجيل من الناس الذين يعاشرهم. وتتصل بهذه الطبيعة من قريب طبيعة أخرى هي التقليد، ليسوغ له أن يثقف الحياة ويتلقف أسبابها وطرائقها وأساليبها في مدى قصير، فلا ينقطع دون إدراك الطلائع الإنسانية السابقة التي بدرت أمامه في الحياة ومارستها وعملت لها وجددت فيها بعض ما يمكن تجديده في نظام الجماعات. ولا يزال الإنسان - من أول عمره - خاضعاً خضوعاً تاماً لهاتين الطبيعتين ولقانونهما المستبد، حتى يأتي عليه زمان يستطيع أن يتحرر في بعض نواحيه بالخضوع لقانون آخر هو قانون الاستقلال الفكري والعملي الذي تقوم عليه رجولة الإنسان وقوته، ولكنه مع ذلك يبقى أبداً متلبساً بأسباب القوانين الأولى التي تخضعه في بعض النواحي للتشكل والتقليد في زحمة الجماعات وضغطها وتأثيرها. فهو إذن لا يبلغ مرتبة الاستقلال إلا بعد أن يكون قد قبل من الأشكال - بالضعف والتقليد - ما لا يستطيع أن ينفك منه أو أن يتفصى من قيوده التي تحبسه على ضروراتها. . .

فمن هنا يبين مقدار الخطرِ الذي تنذر به هذه الفترة الأولى من حياة الإنسان؛ ونحن لا نستطيع أن نحدد عمر هذه الفترة، ولكنها تستمر على الأقل إلى نهاية روق الشباب ما بين العشرين والثلاثين، بل ربما جاوزت إلى نهاية العمر إذا ما انتكست الحياة في الحي وصار إلى حيوانية آكلة شاربة غير مفكرة!

فالشاب حين يخرج إلى الحياة العقلية والفكرية تستهويه أسماء المفكرين من الكتاب والشعراء والفلاسفة فتستهيمه وتذهب بهواه وعقله إلى الأخذ عنهم والاقتداء بهم والسير على مناهجهم، ولا يزال كذلك في تحصيل وجمع وتأثر واتباع حتى يتكون له قوام عقلي يجرئه على الاستقلال بفكره ورأيه ومذهبه. فالقدوة والأسوة هي مادة الشباب التي يتم بها تكوينه العقلي على امتداد الزمن وكثرة التحصيل وطول الدربة، فإذا كان ذلك كذلك فالكتاب والشعراء والفلاسفة وأصحاب الرأي وكل من يعرض نتاجه العقلي للشباب، ويكون عرضة الاقتداء والتأسي والتأثر - يحملون تبعة تكوين

العقول الشابة التي ترث علومهم وأفكارهم ثم تستقل بها وبإنتاجها الخاص، وكذلك يكون هذا الإنتاج الخاص ضارباً بعرق ونسب إلى الأصل الأول الذي استمد منه واتبعه وتلقى عنه.

هذا. . .، فتبعة الكتاب والأدباء أمانة قد تقلدوها وحملوها، ثم ارتزقوا منها أيضاً وأكلوا بها وعاشوا في الدنيا الحاضرة بأسبابها، فهم على اثنتين: على أمانة قد فرض عليهم أن يؤدوها إلى من يخلفهم من الشباب الذي يتبعهم ويتأثر آدابهم، وعلى شكر للمعونة التي يقدمها لهم الجيل الشاب الذي يبذل من ماله ليشتري منهم ما يكتبون وما يؤلفون وما يقدمون للتاريخ من آثارهم ليكسبوا به خلود الاسم وبقاء الذكر.

وشبابنا اليوم قد تهدمت عليه الآراء، وتقسمته المدنية الأوربية الطاغية، وهو لا يجد عصاماً يعصمه من التدهور في كل هوة تنخسف بين يديه وهو مقبل عليها بشبابه ونشاطه واندفاعه وعنفوان قوته في الشوط الذي يجريه من أشواط حياته. والمدارس في بلادنا لا تكاد تعطيه من الرأي أو من الفن أو من الأدب ما يبل أدنى ظمأه إلى شيء من هذه الأشياء؛ وإذن فليس يجد أمامه إلا المجلات والصحف والكتب التي يقدمها له أصحاب الشهرة من كتابه الذين ترفع أسماؤهم في كل خاطرة وعند كل نظرة. وهو لا يني يستوعب منهم أساليبهم وأفكارهم وآراءهم وما يدعونه إليه من موائدهم.

فهل ينصف هؤلاء الكتاب هذا الشباب؟ أتراهم قد عرفوا قدر أنفسهم عند الشباب فعبئوا له قواهم احتفالاً بشأنه وحرصاً على مصيره الذي هو مصير الأمة ومصير مدنيتها؟ أنا لا أرى ذلك إلا في القليل ممن عرفهم الشباب وجعلهم نصب عينه، واتخذ أساليبهم فتنة يهوى إليها

ناقد يتكلم

وأنا أدع أحد الكتاب من إخواننا الشآميين يتحدث بعض ما نحن بسبيله، وهو الأخ (قسطنطين زريق) في كتابه (الوعي القومي) فقد قال في ص (162 - 163):

(لسنا نعيش اليوم في عصر ترف عقلي ورفاهية فكرية. في عصور الترف والرفاهية قد يسمح للكاتب أن يقول: (لي الحق أن أكتب ما أريد وأعبر عما في نفسي كما أشاء). . . إن عصرنا عصر أزمة فكرية وضيق عقلي. وكما أنه لا يسمح للناس في زمن الأزمة المالية أن يبذروا أموالهم في سبيل شهواتهم الخاصة وأمورهم التافهة، فكذلك يجب إلا يسمح لقادة الفكر في عصر الضيق العقلي والأزمة الفكرية أن بددوا قواهم على المسائل الطفيفة والأبحاث الجزئية.

فعلى كل منا عندما يهم بكتابة مقال أن يتساءل بصراحة: (إلى ماذا أرمي؟ أتراني أضيف بمقالي فوضى إلى هذه الفوضى الفكرية التي يتخبط فيها عالمي، وأقذف بعنصر جديد إلى العناصر التي تتطاحن في محيطي، فأزيد في بلبلة أمتي واضطرابها الفكري، أم أنا أعمل لتوجيه قوى هذه الأمة العقلية نحو فكرة صائبة أو عقيدة واضحة؟)

فإذا لم تكن غايته من هذا النوع الأخير، فخير له وللأمة أن تظل كلماته مدفونة في نفسه، وان يبحث له عن طريقة أخرى يخدم بها أمته ولغته). اهـ

إن هذه الكلمات القلائل التي ختم بها الأستاذ زريق بحثه عن الأدب الذي يقود الأمة وشبابها إلى إنقاذ المدنية العربية والإسلامية والشرقية من ردغه الخبال التي تورط أهلها في أوحالها ومستنقعاتها - حقيقة بأن تكون من (محفوظات). كبار الأدباء الذين يرمون عن أقلامهم أراء وعقائد وأساليب لا يمكن أن تكون مما يحتملها مخلص لأمته، ينظر إلى المستقبل الذي هو ثمرة الماضي والحاضر، ونتاج اللقاح الفكري الذي تتقبله عقول الشباب

حين تبدأ تتفتح عن أكمامها لتعمل عملها في إنتاج الثمر إما غضا شهياً وإما فجاً متعفناً موبوءاً.

هل يمكن؟

فهل يمكن أن يكون أدباؤنا ممن يتقبل النصح الخالص الذي لا تحمل عليه ضغينة أو رياء أو حيلة؟ وهل يمكن أن يعرف أحدهم أن ليس في الدنيا أحد هو أعلى من أن يتعلم، ولا أحد أقل من أن يعلم؟ وهل يمكن أن تفرغ النفوس التي نفختها الكبرياء من الروح النافشة التي لا طائل تحتها؟

لقد جعلت مقامي في هذا الباب مقام المذكر الذي يجب أن يؤدي واجبه لمن يقرأ كلامه، فأنا لا أستطيع إلا أن أتكلم بكلامي وإن أغضب من لا يرضى إلا بما يرضيه من الملق والدهان والمماسحة، وقد انقضت أسابيع طوال من أسابيع الأدب، وأنا أزداد كل يوم شكاً في مقدرة أدبائنا على الإنتاج الأدبي الرفيع الذي يمكن أن يخلد في تاريخ الأدب؛ وقد تتبعت أقوال هؤلاء وأساليبهم فلم أجد إلا كل ما يحفزني على المصارحة والنصح وإبداء الرأي مكشوفاً غير مكفن.

وأنا لو كنت أحمل نفسي على تتبع هؤلاء واحداً بعد واحد أنقد أقوالهم على التفصيل دون الجملة، ثم أقيد ما أريد بالكتابة في هذا الباب من (الرسالة) لما كفاني القدر الذي أكتبه، ولما استطعت أن أستوعب الرأي في كل ذلك على أسبوع أسبوع، فلذلك تجنبت جهدي أن أعرض لأشياء كانت تقتضيني أسابيع في تقصيها وتفصيل أجزائها، وبيان مكان الفساد منها، والدلالة على قلة عناية هؤلاء بقرائهم، وصغر احتفالهم بالأدب الذي اتخذوه لهم صناعة عرفوا بها عند الناس، حتى صاروا للشباب أئمة بهم يقتدون.

نعم، وكأنهم لا يعرفون أن ما يخرجونه للناس أن هو إلا غذاء جيل من الشبان يأخذ عنهم ويحتذي عليهم، فإن يكن في الذي يأتون به فساد فهو إلى إفساد الشباب الجديد أسرع، وفي طبائعه اللينة أعمل وأوغل؛ فأيما خطأ صغير منهم فهو عدة أخطاء كبار في الذين يلونهم من الشباب المقلد المسكين.

إن أمثال الدكتور طه حسين والأستاذ أحمد أمين والدكتور زكي مبارك والأستاذ الزيات وفلان وفلان من كبار الأدباء هم من هذه الأمة الشابة من الناس بمنزلة السراج الذي يضيء للشباب معاني الحياة المظلمة بالجهل، فإذا انقلب السراج فإنما هو الحريق وانتشاره ومعمعته ومضغه قوة الشباب بفكين من نار حطمة

الرحلتان

ويذكرني هذا ما يقطع عليّ نهاية الرأي. فقد قرأت أخيراً مقالتين، إحداهما للدكتور طه، والأخرى للأستاذ أحمد امين، وهما بهذا العنوان (رحلة). وقد تعود الأستاذان أن يتقارضا المقالات منذ أسابيع طويلة، وأكثرا في ذلك إكثاراً لا يمكن أن يغضي عنه؛ وكنت أحب إلا أعرض له لعله ينتهي إلى نهايته، فإذا هو شيء لا ينقطع. فمن يوم أن كتب الأستاذ أحمد أمين ما كتب وسماه (مدرسة الزوجات) وقارضه الدكتور طه (بمدرسة الأزواج) ثم (مدرسة المروءة) ثم (مدرسة. . .) إلى آخر هذه الأشياء، وافتتنا بهذه الطاحون التي تدور على دقيق مطحون قد فرغ منه - من ذلك اليوم وأنا لا أرى فيما يكتبان إلا استسلاماً للقلم وبدواته وبوادره، واجتلبا في ذلك من الرأي ما لا يستقر ولا يتماسك.

وفي هاتين الرحلتين رأيت العجب!! فالدكتور طه مثلاً قد أطال في تحقير مصر والزراية عليها وعلى أرضها بما احتمله عليه الغضب الذي رغب في إنشاء مدرسة له يسميها (مدرسة الغضب) رحل الدكتور طه بالسيارة في الطريق الزراعية فغاظه التراب الذي يثور من حوله فيطلق لسانه بهذه الأسئلة (لماذا ندفع الضرائب؟ وفيم تنفق الدولة أموالنا؟ وماذا تصنع الدولة؟ ولماذا ننشئ الدولة؟)

فليخبرنا الدكتور طه عن السبيل الذي نتقي به الزراية على أرض مصر! ماذا تصنع الدولة في طريق عن جانبيه تلك الأرض الخصبة الواسعة التي تسقي لتطعم أهل مصر من خيراتها؟ كيف تتقي الدولة مرور الناس والدواب وأرجلهم تحمل أوحال الأرض الخصبة فتمر بها على الطريق الزراعي الممهد، فتأتي الشمس المصرية الملتهبة فتجفف الوحل فيثور تراباً؟ أن هذا كلام يقال في البلاد الباردة التي لا تفعل الشمس فيها ما تفعل في أرض مصر الغبراء، هناك في (قرية من قرى السفوا أو الدوفنيه أو الكانتال، على قمة جبل من هذه الجبال التي ألف الدكتور طه الاعتصام بها إذا أقبل الصف، والتي فارقها في الصيف وقلبه يتقطع حسرات) أو كما قال. . .! أن مثل هذا يجب أن يلغي من آراء أدبائنا، أن لم يكن من أجل أنفسهم فمن أجل من يتولاهم من الشباب. وليس أكثر آراء

الأستاذ أحمد أمين في هذا المقال بأقل ابتعاداً عن الحق من الذي عرضنا له

!!جناية

والأستاذ أحمد أمين هو الذي حمل على الأدب العربي، وحقر الشعر الجاهلي، ودفع بحجته في وجوب نبذ هذا الأدب وذلك الشعر الجاهلي لأنه كان جناية على أدبنا. وأنا

كنت هممت أن أؤدي واجبي للأدب العربي وبإظهار فساد هذه الآراء التي لم تنضج ثمراتها، ثم رجعت عن ذلك، رغبة أن يترك مثل هذا الرأي حتى يفنى في نفسه، لعلمي بالاستنتاج - أن الأستاذ ليس أديباً ناقداً، والناقد أديب مضاعف، وقدرته على الأدب - أكبر من قدرة الأديب المحض. وقد أحببت أن أقف على كلمة في مقالة الأستاذ أحمد أمين (رحلة) تدلك على أن رأي الأستاذ في الأدب العربي والشعر الجاهلي رأي لا يؤخذ به، فقد قال: (وهاهم أولاء رفقة كأن أخلاقهم سبكت من الذهب المصفى، وكأن شمائلهم عصرت من قطر المزن) وهي جملة لا ينطق بها أديب متمكن ألبته، فما ظنك بأديب ناقد، وأنا لا أعرف كيف يعصر قطر المزن (أي الماء)، وهو لا يمكن أن يعصر. ونحن لا نشك في أن الذنب ليس للأستاذ الجليل، وإلا فهو ذنب الشيخ اليازجي صاحب (نجعة الرائد، وشرعة الوارد، في المترادف والمتوارد). . . الخ، الذي ذكر هاتين العبارتين بنصهما وترتيبهما في فصل (كرم الأخلاق ولؤمها) ص70 الطبعة الثانية، وهما من حشد الشيخ الذي لا يقوم على أصل من البيان والبلاغة.

أجل، إن كثيراً مما وقع في كتاب الشيخ اليازجي - على جلالته -، إن هو إلا مجازات واستعارات كأخيلة المحموم مادتها من الهذيان اللغوي الذي لا يصل إلى الحقيقة بأسباب من منطق العقل. والبلاغة ليست إلا حفظ النسبة بين الحقيقة اللغوية، والمجاز البياني، فكل ما لم يكن كذلك من المجاز والاستعارة فهو لغو يتشدق به من ليس له طبع أدبي رفيع. وجهد اليازجي كان حشداً من كلام العصور المتقدمة في العربية، فأخذ من الجيد والرديء على غير نقد أو تمييز.

فكان واجب الأستاذ أحمد أمين - الآري على الشعر الجاهلي وواصمه بالجناية على الأدب العربي - أن ينقد مثل هذه العبارات الضعيفة المتهالكة التي لا تتصل بسبب إلى البلاغة العربية على اختلاف عصورها - لا أن ينقلها إلى كلامه. وإلا فلينظر الأستاذ إلى أثر هذه

المجازات في بيان الشباب الذي يحبه ويعجب بأدبه، ويتلقى كلامه بالإجلال وحب الاقتداء

محمود محمد شاكر

رسالة الفن

الموسيقى فن وإلهام

للأستاذ محمد السيد المويلحي

أكثر الناس في هذا الزمن يعتقدون أن الموسيقى (علم) ككل العلوم لها قواعد ومبادئ، ولها مناح ونواح متشعبة متفرقة لا يمكن جمعها وهضمها إلا بالبحث والفحص والدرس، بل هم يعتقدون أكثر من هذا؛ يعتقدون أنها تخضع للدأب والكد، وتعطي سرها وسحرها لمن يتعب أكثر من غيره في طلبها. . .!

وليس هذا في مصر والشرق فحسب؛ بل في جميع بقاع العالم، وفي كل البلاد التي بلغت ذروة الحضارة وأدركت نهاية المدنية. . . فهناك المدارس المختلفة، والمعاهد المتباينة، والجامعات المختصة في تدريس كل (مادة) من مواد الموسيقى؛ وهناك الأساتذة الذين قطعوا كل عمرهم أو جله في التخصص والانقطاع لتجويد ناحية واحدة يكررونها صباحا ومساء. . . حتى (الصوت) استطاعوا أن يوهموا الناس أن في مكنتهم السيطرة عليه بل وخلقه خلقاً جديداً. . .!

ولكن هذا ليس من الواقع في شيء، فإن كان للموسيقى فروع وأصول، وقواعد ونظريات، فليس معنى هذا أن كل من يلم بها أو يهضمها يسمى (موسيقياً) أو فناناً يعبر عن خوالج الناس بروحه الشفافة الملهمة.

الموسيقى ليست مهنة تعلم، ولا حرفة تجاد، ولا صنعة تكتسب، وإنما هي فن وإلهام كما قلت في رأس هذا الكلام. . . هي إلهام لأنها أسمى من أن تخضع لقوى البشر الذي يخضع لها، وهي قوة سحرية روحية تفعل في النفوس ما لا تفعله قوى الأرض مجتمعة متضامنة. . . فهي تضحك وتبكي، وتفرح وتحزن، وتسعد وتؤلم في لحظات، فهل ثمة قوة إنسانية (مكتسبة) تستطيع أن تملك مثل هذا السحر؟

إن (العالم) الذي يقسم لك الموسيقى إلى قواعد غربية وقواعد شرقية وموشحات وادوار ثم يقول لك أن الموسيقى عبارة عن (دواوين) وان كل ديوان له درجات أساسية و (نيمات) وعربات و (تيكات) وان بين اليكاه والعشيران كذا من المسافات،

أو أن يقول لك إن الديوان الأول (مثلاً) يحتوي على ثلاثة (تكوك) وسبعة عربات. . . الخ ويروح مقارناً بين
الموسيقى الغربية، والموسيقى العربية، ويفضل إحداهما على الأخرى ناسياً الذوق، والطبع، والعادة، والبيئة - لهو أبعد الناس عن الموسيقى وعن الفن الصحيح وان كان هو يأبى ذلك. فليس الفن أرقاماً تجمع وتطرح وتحفظ وتعرف وإنما هو قوة هائلة معجزة يسوقها الملهم العبقري أمواجاً سحرية ولو كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ولا يعرف النيمات والتيكات والعربات. . .!!
الموسيقار الألماني الخالد عزف وهو في طفولته على البيان والكمان (فموزار) والأرغن من غير أن يتعلم درساً واحداً عليها!! ولعل القارئ يدهش حينما يعلم أنه كان يسبق الأساتذة الذين أتى بهم لتعليمه، وتوجيه عبقريته في الوجهة الصحيحة (كما كانوا يزعمون) حتى إن أحدهم بكى أمام سحر الطفل، وقال لوالده:
ليس عندي ولا عند غيري ما يجهله ابنك، إنه ابن الموسيقى وقد علمته سرها)
الذي كان يطلق عليه (إله الموسيقى) والذي أرهقه أبوه في (وبتهوفن) (!وسحرها طفولته وظن أن كثرة (التعليم والإرشاد) تنفعه. كان يبكى لأمه ويشكو ظلم هذا الوالد ويقول لها: لقد أوشك أبي أن يبغضني في الموسيقى وفي الحياة نفسها. . . فلما تركوه وشأنه كان لا يفارق البيان أبداً إلا ليأكل أو لينام. . .!! وبعدها أخرج آياته الخالدة التي لا تزال إلى اليوم سمواً لا يدانى. . .
قد يقول قائل وما فائدة تلك المدارس إذن، وما فائدة هؤلاء الذين نصبوا أنفسهم للتدريس وجعلوا من أنفسهم حفظة لقواعد الموسيقى وعلومها. . .؟
فائدتهم التوجيه والتهذيب فقط. أما الخلق والابتكار والقدرة والسيطرة والتحكم في ميدان العواطف، أما التغلغل في الأعماق والسريان في الدم والتلاعب بالأرواح، فهذا كله لا يعرف العلم، ولا يخضع للعلماء. . .!
أن الذي يغني أو يعزف لا يصف النظريات، ولا ينتقل من نغم إلى نغم مرسوم موضوع، وإنما هو ينطلق بروحه فتتحكم في لسانه أو بنانه وتروح مستولية على خلجات المستمعين، وطوبى لمن يأسره فنه أولاً قبل أن يأسر غيره لأنه يفعل العجب. . . ولا يهمه بعد ذلك أخرج على (الوحدة) أم ظل محافظا عليها، ولعل من هذا الباب قصة المرحوم (عبد الحي حلمي) الذي كان يشدو ليلة كبلبل نشوان والناس من حوله سكارى من خمر الطرب فخرج
على (الوحدة) فأرشده (عازف القانون) فزجر قائلاً: خلَّ الوحدة لك ولأمثالك، إنني أغني لهؤلاء الذين يفهمون الموسيقى!
ولهذا لا يمكن لمطرب يغني لحن غيره، ويترجم إحساس غيره، أن يصل إلى درجة مطرب يلحن لنفسه ويترجم إحساسه مهما أوتي من حسن الصوت وجمال الإلقاء، لأنه يكون ممثلاً وحاكياً، بل يكون كاذباً في رسالته، والموسيقى لا تعرف الكذب لأنها هي نفسها رسالة صادقة!
رب قارئ يقول إنه يسمع بعض المطربين والمطربات من الذين يغنون تلحينات غيرهم قد وصلوا إلى مرتبة سامية لا تدانى، حتى من الذين يلحنون لأنفسهم؟ وردي على هذا الاعتراض أن القارئ سيقتنع إذا عرف أن هؤلاء المطربات والمطربين لا ينتزعون الإعجاب ولا يسيطرون بسحر فنهم وصوتهم إلا إذا انطلقوا من جو تلحين الموضوع وتصرفوا من عندهم التصرف الذي يمليه إحساسهم. . .
إن بعضنا يسمع (أم كلثوم) مثلاً وهي تغني قطعة موضوعة مرسومة فيظل هادئاً أو مشجعاً حتى إذا تصرفت وترجمت إحساسها هاج وماج وفقد سلطانه على نفسه!
وعبد الوهاب، هناك من هو ألمع منه صوتاً وأصفى نبرة ومع ذلك لا يقاس أليه، لم؟ لأن عبد الوهاب لا يترجم للناس إلا إحساسه، ولا يصور لهم إلا روحه. . .
وما لنا نذهب بعيداً؟ أن القصبجي والسنباطي وزكريا وهاشم ومحمود صبح، وهم أئمة التلحين في مصر والشرق قاطبة، لو غنوا تلحيناتهم بأنفسهم - وبعضهم قبيح الصوت - لأدوها أحسن من غيرهم ولو كان أجمل صوتاً وأقوى أداء، وليس هذا بعجب أو غريب، فلن يكون المقلد كالمقلد أبداً. . .!
لنرجع إلى الفن الملهم والفن المكتسب. . .
في الشرق والغرب بعض العلماء الذي تخصصوا في دراسة النظريات والقواعد

الموسيقية فألموا بها إلماماً تاماً، وأصبحوا (علماء) ينتفع بعلمهم وطرقهم في دراسة الموسيقى الذين يعتقدون أن الموسيقى تخضع للدرس والبحث كما قلنا، ومع ذلك ترى هؤلاء العلماء تساوون مع الجميع - إلا الموهوبين - في العجز عن فهم الموسيقى الحقة وعدم القدرة على الوصول إليها! لأنهم يصفون الطرق والمسالك التي تؤدي إليها ويزعمون أن الإنسان

إذا فحص وصل، فإذا سألتهم ولم لم تصلوا انتم بعد طول بحثكم وفحصكم إلى مرتبة الملهم العبقري الذي لم يقطع زهرة عمره في الجري وراء النظرية والقاعدة؟ قلبوا شفاههم، ولووا رءوسهم، ورأيتهم يستكبرون ويتعامون، ويصفونك مع الملهمين بالجهل الفاضح والعجز الواضح. . .!! ولعلهم معذورون، لأنهم يعتقدون أن الفن يخضع للعلم، وكذلك تراهم - في كل عصر - ينكرون ويحاربون نتاج العباقرة الملهمين. . . وكم شهدت مصر - أيام سيد درويش - من صنوف الدس والتحقير لفن هذا العبقري الأوحد الذي ذاق الأمرين من رجال معهد الموسيقى، لا لشيء، إلا لأنه في عرفهم من الجاهلين، نعم، كم شاهدت مصر - ولا تزال - من صنوف الاضطهاد لفن سيد من هؤلاء الناس الذين لو عاشوا ألف سنة ما استطاعوا أن يصلوا - مجتمعين - إلى فهم قطعة واحدة من قطعه. . .!!

لم يعرف عن سيد أنه كان عالماً يفكر قبل أن يلحن ليخرج تلحينه من نغمة - كذا - كما يريد المغني أو المغنية، بل كان ينتزع اللحن الخالد من صميم الحياة، ومن صميم البيئة المصرية، دون أن يزن أو يقيس بمعيار النظريات ومقياس القواعد والدم، والتك، والوحدة. ومع ذلك، فقد كانت تلحيناته سماوية خالدة يضرب بها لمثل في الربط والضبط. . .!!

وقبل أنت أنتهي، أحب أن أقول: إن الموسيقى فن ملهم أكثر منها علماً مكتسباً، وهي وحي سماوي يهبط من عل فينقله ويترجمه الملهمون لغة تفهمها القلوب والأرواح. . . لغة لا تخضع للقواعد ولا للنظريات، لأنها ليس من صنع البشر. . .!

نعم، إنني أعتقد أن مرتبة (الفنان) أسمى من مرتبة البشر، لأن الله اصطفاه بأنبل ما في الحياة وأطهر ما في الوجود. . . وهو (الفن)، بل وأعتقد أكثر من هذا، أعتقد أن الله اصطفاه (بنفسية) لا تخضع لعوامل الشر، ولا تنتحي أمام مغريات الشيطان، فالفنان لا يعرف الغل ولا الحقد، ولا المال ولا الجاه، لأنه يعيش كما تريد له الحياة أن يعيش، وينتج كما يريد له الله، لا كما يريد له العلم والتعليم. . .!!

محمد السيد المويلحي

القصص

في ظلمة الليل

أسطورة فرعونية

(تحية للأستاذ يحيى حقي)

للأستاذ محمود بك تيمور

في أصيل يوم من الأيام، كان (الشيخ حابي) في بستانه الصغير، أمام داره المتواضعة، يتعهد تخيلاته ويستريض. فاسترعى انتباهه خفق أقدام، فالتفت نحو مصدر الصوت، فإذا بفتى يسير صوبه، وهو يدفع - في جهد - قدميه المتعبتين، وقد علاه الغبار، فاختفت ملامحه؛ بيد أن الناظر إليه يستطيع أن يلمح في عينيه على الفور حيرة الغريب. وكان يحمل في يده صرة؛ فخف الشيخ للقائه، وما إن اقترب منه، حتى سمع الفتى يقول في صوت الهامس:

- الشيخ حابي؟

- هأنذا. . . ما مطلبك؟

ووجد (حابي) الفتى يتخاذل أمامه، فأسرع إليه، وأسنده إلى صدره، محيطاً إياه بذراعيه، وقال له:

- أمريض أنت؟

- بل جائع!

وسار به (حابي) إلى داره في رفق، وأجلسه بجوار الباب على مصطبة عارية، وتركه برهة. . . ثم عاد إليه بإبريق مملوء باللبن، فأخذ يعب منه الغريب، حتى شبع. . . وبعد أن تنفس طويلاً، تمتم بكلمات الشكر لمضيفه، ثم أطرق وقتاً. . . وأخيراً، رفع رأسه،

وسرح بصره في الشيخ، والكلمات تتراءى حيرى على شفتيه. . . وابتسم الشيخ ابتسامة تنطوي على عطف وطيبة، وقال:
تكلم يا بني، ولا تخش بأساً. . . ما حاجتك؟ أن حابي لا يرد حاجة الغريب!
فأمسك الفتى بيد الشيخ، وضغطها في انفعال، وقال:
- لقد حدثوني انك تأتي بالمعجزات، فسعيت إليك أطلب معجزة. . .!
فتأمل الشيخ وجه فتاه طويلاً، يحاول أن يستكنه ما خلف تلك الصفحة المتربة التعبة من خفية نفسه، وقال:
- لست كاهناً يا بني. . . معجزة؟!
- أنت أعظم من كاهن. . .
- أفصح عن غرضك!
- إن قوة تعاويذك وعقاقيرك يا أبت مستمدة من روح الآلهة. . .
- أنا حكيم زاهد، قد أنجح في مداواة النفوس وتطيب الأجسام. . .
وحدق الفتى في الشيخ بعيون جاحظة، ثم هبط أمامه، وقال وقد تشبث بثوبه:
- وحق إيزيس لتنتزعن نفسي من بين جوانجي، ولتلقين بها بعيداً عن جسدي!
- هدئ من روعك. . .
- إني أمقت هذه النفس الخاملة الميتة. . . لتخلقني خلقاً جديداً، ولتجعلن مني رجلاً ذا بأس واقتدار!
وجعل الشيخ يلاطف رأس الفتى، ثم أنهضه في وداعة، وأجلسه بجواره. وبعد حين، قال له في هدوء ورزانة:
ارو لي قصتك يا بني. . . إني مصغ إليك في انتباه!
ودعم الفتى وجهه براحتيه، وراح يرسل الطرف أمامه في ذلك الفضاء العظيم، حيث يبسط الغسق على الكون غلالته السوداء. وأنصت برهة إلى ما يحيط به من صمت شامل. ثم تكلم فإذا به يقول:
أنا راموسي. . . ولكن ماذا يهمك من أسمي؟ أن راموسي نكرة لا يحس وجوده أحد
- تكلم!
- إني أسكن على مسيرة شهر من هنا. . .
- في بلدة رنسي؟
- نعم!
- ذات المعابد الأربعة، والمسلات الخمس؟!
فواصل (راموسي) حديثه، وقد رق صوته وضعف: وحيث تسكن الأميرة أشمس. . .!
وطأطأ رأسه حيناً، ثم رفع عينه بغتة، وسددها في وجه (حابي) وقال في صوت غير متساوق النبرات:
أريد أن أكون عظيما. . . أريد أن أكون مثرياً. . . تزخر خزائني بالأموال. . . أريد. . .!
فابتسم الشيخ في هدوء، وقاطعه قائلاً:
أنه ليس بالطلب المستحيل. . .
فاستنار وجه الشاب بلمعة متلألئة. . . وقال:
إذا ستأتي لي بمعجزة!
- أن ما تسميه أنت معجزة يا بني، أسميه أنا أمراً قد يستعصي على بعض الناس، ولكنه في مقدور آخرين!
فهوى (راموسي) على يدي الشيخ، وانهال عليها تقبيلاً، وهو يقول:
شكراً شكراً، سأذكر لك ذلك الجميل ما حييت، وسأعوضك عنه أضعافاً مضاعفة. . .
ثم رفع رأسه، وقال:
أما الآن، فليس لي ما أقدمه لك سوى. . .
وتعثر لسانه بالكلمات، فسكت وأشار إلى الصرة التي بجواره، وفتحها بيد راعشة أمام (حابي) فنظر فيها الشيخ، فإذا بخليط من قطع المعادن، بينها شيء قليل من الفضة والذهب. وتابع (راموسي) كلامه وقد غض من بصره:
- هي كل ما تبقى لي مما أملك!
- أبقها لك. . .
- إنها قليلة. . . أعرف ذلك!

- كلا، فهي كثيرة إذا كانت منك. وهذا يكفي. . . ولكنني لست في حاجة إلى عطاء الناس. . .
- أبت!
ونهض (حابي) في هدوء وهو يقول:
- إلا ترى يا بني أن الليل قد أقبل يحمل في أعطافه برد المساء، وأنا كما ترى شيخ. . .
- هيا. . .
وتركا المصطبة، ودخلا قاعة غير رحيبة، بسقف منخفض تكاد تكون عارية إلا من حصير وغطاء
وأشعل (حابي) مصباحه الزيتي، ثم جلس وأراح ظهره على الجدار وقد طوى يديه إلى صدره. وجلس (راموسي) قبالته متربعاً، لا يفصله عن الشيخ إلا المصباح. . .
وانقضت برهة لم يتكلم فيها أحد منهما
ثم سمع (حابي) يردد في صوته الرزين:
- إني مصغ إليك!
فلم يحول الفتى عينيه عن المصباح وقال:
- كيف ابدأ لك قصتي. . . حقاً أنه لجنونٌ ما فكرتُ فيه. . . غير أني لست نادماً على شيء. . . لقد كنت أحيا يا أبت متبطلاً، أخرج من داري المهدمة إلى النهر أرتاض على شاطئه حيث بساتين الأمراء، أقضي اليوم كله متنقلاً بينها، أستمتع بمرأى الرياحين، وأستنشق عرفها الزكي. فإذا تعبت استرحت بجوار الماء وأخرجت نايي أناجيه ويناجيني!
- أموسيقي أنت؟
لم أجرب أن أصفر إلا لنفسي. . .
وأخرج (راموسي) من ثنايا ثيابه ناياً من غاب ساذج المظهر، وأراه الشيخ قائلاً:
- أنه زميلي الذي لا يفارقني أبداً. . . زميلي المطلع على سري، العالم بما يجيش في قلبي من أمان وأطماع!
- أمان وأطماع قد تبدو لك بعيدة التحقيق!
- أنني أضعها بين يديك، فافعل بها ما أنت صانع!
- ألم تكن راضياً عن حياتك الهادئة؟
- كل الرضا!
- إذاً (هي) التي غيرت حالك. . .
- من هي؟
- تلك التي ذكرت اسمها، مشرفاً بذكره مدينة رنسي!
- نعم، هي أشمس، أميرة الأميرات، وأقربهن صلة بفرعون الأعلى!
- أتمم حديثك. . .
- رأيتها يوماً تتنزه في بستانها، فسحرني لأول نظرة جمالها؛ رأيتها ترتاد الخمائل في حاشيتها؛ فجعلت أرقبها خلف دغل من الأشجار، وأضاءت نفسي على التو شمس وهاجة أنارت لي دنيا عظيمة كانت مختفية عني. وإذا بي أقطع على نفسي عهداً بأنها لن تكون لسواي. . . ولما عدت إلى داري، وراجعت هجسات ضميري، هزئت بنفسي، وكلي سخط وألم. ولكن عهدي ما زال ثابتاً على الرغم من كل شيء، لا يتقهقر ولا يتزايل، بل يتقدم في جرأة وإقدام. . . ولكن كيف أنفذ ذلك العهد؟ هذا ما كان يحيرني ويحز في قلبي. منذ ذلك اليوم جعلت طريقي إلى بستانها لا أعرف سواه، أقضي على مقربة منه يومي، أراها ولا تراني. فإذا ما صعدت في قصرها انتحيت نحو الشاطئ، وتخيرت مكاناً ظليلاً، وبثثت شكواي للناي، فكنت أسمعه أحياناً يهمس لي: (لماذا لا تحاول التقرب إليها؟. . . . . لماذا لا تكشف لها عن كوامن صدرك؟. . .)
- ولماذا لم تصدع بما أوحي لك به نايك؟
- أتريد مني أن أستمع لذلك الساذج الغرير؟ ألم أقل لك من هي؟ أن فيها من دم الآلهة يا أبت!. . . وكلنا نعلم أن عظاماً تقدموا إليها بقلوبهم، فردتهم خائبين. . . لقد أمضيت يا أبت الليالي الطوال أفكر في مصيري معها. . . لابد أن تقع معجزة تحولني من صعلوك بائس إلى أمير يفوق جميع الأمراء، يرضاه فرعون وترعاها ايزيس. . .

وكان أن اشتد بي الضيق يوماً، فجريت صوب النهر، وهممت أن ألقي بنفسي إلى التماسيح. . . في تلك الساعة الفاصلة، سمعت هاتفاً يقول لي: (اذهب إلى حابي الحكيم، فعنده تتم المعجزة)
فتمتم (الشيخ حابي):
- أقال لك الهاتف ذلك؟
- قسما بإيزيس ربة الأرباب، لقد سمعت صوته واضحاً يرن في أذني. وكانت التماسيح قد خرجت برءوسها تنظر إلي متنمرة فوجدتني في لحظة أقفز متراجعاً عن النهر، وانطلقت أعدوا. . . أكنت أعدو حقا؟ لا أدري! كنت أحس أني محمول بقوة خارقة غير منظورة. . .
وفي الغد بعت ما أملك، واستصفيت مالي، وحملت زادي، وسرت ووجهتي دارك!
فأمسك (حابي) بيدي (راموسي) وضغطهما وقال:
- ستتم المعجزة يا ولدي، فاعتمد علي
- إذاً ستجعلني أمير الأمراء؟ وإذاً ستجعل من أشمس زوجة لي؟
- أن علمي لا يتطاول إلى مثل هذه الأمور!
- كيف؟
- كل ما أقدر عليه أن أعمل على تغيير نفسيتك. . .
- أوضح يا أبت!
- سيتغير فيك كل شيء، شمائلك الأصيلة ستنقلب إلى ضدها، الخمول سيغدو نشاطاً متأججاً، والقناعة ستكون طمعاً صاخباً، والرحمة ستفسح مكانها للقسوة والعنف. . . ستكون حياتك يا راموسي كالبركان الفوار، لا يخبو له لهب، ولا يسكن له زئير!
فطأطأ (راموسي) رأسه، وقال:
- أبت!
- ليس ثمة طريق ينيلك ما تطلب من ثروة وجاه ومجد، إلا هذا الطريق!
وصمت (راموسي) فترة، ورأسه منحن على صدره، وبغتة رفع وجهه إلى (حابي) وقال:
- ولكن حبي، حبي. . . أيعتريه تغير؟
- حبك باق بقاء الروح الخالدة. . . ولكن!
- ماذا؟
- أواثق أنك ستكون سعيداً بنفسك الجديدة، بعد أن تتم المعجزة؟ وانه لن يطول بك الحنين إلى نفسك الأولى؟
-. . . افعل بي ما تريد!
ودارت عجلة الحياة: الأيام تلو الأيام، والأشهر إثر الأشهر. . .
وكان ملك الغرب قد دفعه الطمع إلى امتلاك مصر، فسير إليها الجيوش الكثيفة؛ فغزت المناطق الشمالية في غير عسر، ثم اندفعت في طريقها تكتسح أمامها جند الوطن. ولم يجد تعيين القائد الكبير (رودا) أميراً على الجيش الذي أرسله فرعون لإنقاذ البلاد. . . إذ
أصيب (رودا) بهزيمة نكراء، وقتل في المعركة، وكاد الجيش يتفكك ويندثر، لولا أن قيض الله له شاباً من بين المحاربين تزعمه، فأخذ يجمع شمله، ويبث فيه روحاً جديداً؛ فلم ينقض وقت طويل حتى انقلبت الهزيمة إلى هجوم، ثم انته الهجوم إلى مطاردة للعدو، فاكتساح كامل له. واصبح هذا الشاب قائداً للجيش، ولقب نفسه بالأمير الأسود، إذ كان يرتدي السواد دائماً. . . ولم يقتصر هذا الأمير على تطهير البلاد من جيش العدو، بل تابع زحفه في جرأة غريبة، ففتح (مملكة الغرب) بأسرها، وأخضعها لسلطان مصر، فصارت تابعة لها. . .
كانت (رنسي) المدينة ذات أربعة المعابد وخمس المسلات حاضرة مصر الثانية، تحتفل احتفالاً شائقاً بقدوم الجيش المنتصر، وعلى رأسه أميره الأسود، فقد عاد محملاً بأسلاب وغنائم لم يأت بها قائد منتصر من قبل. وكان موكبه حافلاً بالأسرى العظام من الأمراء والحكام وسراة الدولة المغلوبة. أما بقية الأسرى من الدهماء، فقد اكتفى بقطع أيديهم، وأطلق سراحهم، حتى لا يعطلوا سير الموكب بكثرة عددهم. ولكنه احتفظ بتلك الأيدي، فحملها معه ليقدمها إلى فرعون، رمزاً للخضوع والطاعة!

وتمت مراسيم الاستقبال في عظمة وفخامة جديرتين بالقائد العظيم والفاتح الكبير!. . ولكن الأميرة (أشمس) أولى أميرات البيت الفرعوني، تخلفت عن حضور الاحتفال، وأرسلت تعتذر لفرعون. وكان فرعون يعرف شذوذ طباعها واعتزالها العالم، فقبل عذرها على مضض. ولكن رسول الأمير الأسود جاءها يحمل من الأمير نفسه رغبته في زيارتها قبل الغروب لأمر ذي بال؛ فلم تجد مخلصاً من استقباله، وأمرت أن يعدوا القصر لهذا القدوم.

وأخذ الأتباع يعلمون بجد واهتمام في تزيين القصر، فما كادت الشمس تؤذن بالغروب حتى برز القصر في غبشة الظلام كأنه قطعة من لؤلؤ تتألق؛ وانتشر الطيب الذكي في أرجائه، فكأنه روضة فواحة من الأزاهر النضرة.

وجاء الأمير في الموعد في حفل من قواده، ودخل القصر وهو يضرب بقدميه الصلبتين الأرض ضربات شديدة تردد صداها جوانب المكان، ويلتفت يمنة ويسر بوجهه الرائع الذي تنم كل لمحة من لمحاته على رجولة قوية قاسية. وكانت لعيونه الواسعة إشعاعات قوية باهرة لا تقوى عين أُخرى على تحديها. . .

وما أن دخل البهو الكبير، ورأى الأميرة واقفة في صدره تحف بها وصيفاتها، حتى توقف بغتة، واتسعت حدقتا عينيه، وتفتح وجهه في لحظة بنور متألق تشيع فيه الأحلام. وأمسك بيد رفيق له بجانبه، وشد عليها؛ وطالت وقفته على هذه الحال والناس من حوله صامتون. وأخيراً همس رفيقه في أذنه:

- مولاي! إن الأميرة تنتظرك. . . تقدم!

وتقدم الأمير الأسود بخطوات لم تردد صداها جوانب المكان هذه المرة، وركع أمامها ركعة المتبتل أمام ربه فأنهضته، وهي تقول:

نحن الذين يجب أن نركع أمام المنقذ العظيم!

ورفع وجهه أليها، وقال في صوت خفيض:

عفواً مولاتي!. . . أمام هذا الجمال الإلهي الذي هو قبسة من رع، ونفحة من إيزيس، يستشعر القائد العظيم ظآلة نفسه وتفاهة مجده!

- سيدي!

- ليس ثمة عظيم أمامك يا مولاتي!. . . كلنا من أتباعك المخلصين!

وتهامس الناس فيما بينهم دهشين حيارى:

لم يشاهد الأمير على هذه الصورة، حتى في حضرة فرعون الأعلى!

وبدأت الجموع تتفرق والمكان يخلو للضيف وربة القصر، وأخذ القائد يروي وقائعه، ويعدد أسلابه، ويذكر ما ناله من مال وضياع تتعادل معها أموال فرعون العظيم. وختم حديثه قائلاً:

إن الأميرة لتعلم أن فرعون بلا عقب، وهو الآن شيخ مثقل بالمرض، وقد طالبته الكهنة بتبني أمير يجعله ولياً للعهد، أمير أهل لهذا المنصب الخطير. . .

- وهل وقع اختيار الملك على هذا المحظوظ؟

فابتسم الأمير ابتسامة ذات معنى، وقال:

لقد أتم اختياره سراً، وسيعلنه غداً في الهيكل الكبير!

وصمتت (أشمس) وهي تتفحص الأمير طويلاً. . . ثم انحنت في خشوع وهي تقول:

يسعدني أن أكون أول من يقدم طاعته لصحب التاجين، وريث ملك الفراعنة العظيم!

فأمسك الأمير بيدها، وقال:

هذا الملك العظيم، وهذا النصر الباهر، وهذه الأموال التي لا يستطيع أن يحصيها أحد. كل ما كسبته وما سأكبه، أضعه تحت قدميك أنت يا أميرتي، ويا مولاتي!. . . أقدم لك كل هذا مقابل شيء واحد منك. . .

فأسبلت الأميرة جفنيها، وتابع الأمير حديثه في لهجة مشبوبة:

كلمة منك يا أشمس تجعل هذا الوادي الفسيح بسكانه وكنوزه، هذا الملك الضخم طوع يديك. . . قولي كلمة الرضا، ثم مري، فلن يعصي لك أحد أمراً. . .

ونهضت الأميرة، وهي تقولي في صوت حبيس:

ألا نذهب إلى الشرفة فنلقي نظرة على البستان؟

فأجابها الأمير، وهو حائر:

كما تريدين!
وذهبا إلى الشرفة، وأطالت الأميرة النظر إلى الحديقة، وهي تصعد بصرها في أشجارها وأزاهيرها. ثم قالت:
أيسمح لي الأمير أن أقص عليه قصة صغيرة؟
فأجابها، وهو يزداد عجبا:
إني مصغ إليك يا أميرة!
- كان في الزمان الغابر فتاة من الأثرياء، من أسرة رفيعة النسب؛ تحيا ناعمة البال في قصرها ذي البستان الكبير حياة ترف ورغد، ولم يكن لها مطمع تصبو إليه إلا العثور على أليف تنعم معه بحب ووفاء، شأنها في ذلك شأن كل فتاة. وحج إلى قصرها أعلى الأمراء شأناً، وأكثرهم جمالاً وثراء يطلبونها للزواج فردتهم بلا أمل. . .
- ولم ذلك!
- لأنها كانت مخدوعة بنفسها، مغرورة بجمالها، فلم يرقها واحد من هؤلاء الأمراء!
- ومن كانت تنتظر أن يتقدم لها بعد هؤلاء، وهم صفوة البلد. . .؟!
وتريثت الأميرة في إجابتها، وهي تسرح طرفها في الأفق حيث الظلام مقبل في وحشته وصمته وأسراره. . . وقالت:
- هي نفسها لم تكن تدري، ولكنها على الرغم من ذلك كانت تنتظر وتؤمل!
- وهل طال انتظارها؟
- كلا!
- إذاً عثرت على ضالتها؟!
- نعم أيها الأمير. . .
- أكان قائداً غازياً؟
- كلا!
- أوزير خطير هو؟
- كلا!
- إذا هو ملك من نسل الآلهة!
- ولا هذا أيضاً. . .
- من يكون؟!
- وأرسلت الأميرة تنهدة خفيفة وقالت في صوت الهامس:
- شاب رقيق الحال، مرهف الشعور!
- وما مهنته؟
- ليست له مهنة، كان يقضي أيامه يجوب البساتين، ويتنزه على ضفاف الانهار، يستمتع بمحاسن الطبيعة!
- أنها حياة أقرب إلى التبطل والصعلكة. . .
فتمتمت الأميرة بلهجة الحال، وهي تستقبل بعينيها كتائب الظلام المكدس بعضها فوق بعض:
- قد يكون ذلك، ولكنه الوحيد الذي استطاع أن يصهر كبرياءها، ويحطم تاج غرورها!
فندت عن الأمير صرخة:
هو؟!. . . أممكن ذلك؟
أجل لقد أحبته الفتاة، أحبت فيه ذلك الشاعر المرهف الحس، ينشدها أعذب ألحانه وأرقها!
- أكان شاعراً ينظم لها القصائد، وينشدها إياها؟
- كان ينظم قصائده بلا كلام، وينشدها إياها من مزماره الرخيم!. . .
فأصابت الأمير هزة شديدة، وقال في صوت جياش:
- وهل تقابلا؟
- كلا، فهي لم تره، بل أغرمت به على البعد!. . . ولا تدري أراها، أم لا؟!
- لا ريب في أنه رآها. . .
- ليس ذلك مؤكداً، فعيون هذا الشاعر الجوال، كانت أقصر من أن تخترق خمائل البستان أو جدران القصر، لتكشف عن الفتاة وتلتقي بعيونها!

- يا للفتى البائس!. . . لو علم أنها تضمر له هذا الحب لطار إليها، وارتمى تحت قدميها يلثمها في عبادة. . .
- من يدري أيها الأمير؟. . . أنه فتى غريب الأطوار، يعيش وفق هواه. . . قد يرفض حبها لو تقدمت به إليه!!
- محال!
- ولكنه لو كان يعلم كم أحبته هذه الفتاة، وكيف أنه ترضي أن تعيش معه تقاسمه حياته الطليقة في دنياه الرحبة الوضاءة لقبل منها هذا الحب!
وتمتم الأمير بكلمات متقطعة، وقد شد بيده على حاجز الشرفة حتى كادت أصابعه تدمى، وتابعت الأميرة حديثها:
- لقد برمت الفتاة بحياة الثروة والجاه التي تحياها، وتوضحت أمامها بشاعتها، وأحست ثقلها المرهق يحبس أنفاسها. فرغبت أن تفر من بيئتها، تستبدل الكوخ الساذج الهادي بالقصر المنيف الصاخب، والرداء الخفيف المزين بالأزهار بالثوب الثمين اللامع بأوصال اللآلئ. . . لقد برمت بكل شيء يحوطها، واشتدت بها الرغبة أن تهرب، فتلحق بشاعرها تقضي حياتها في حمى مزماره!!
- ولكنها لم تفعل!
- لقد كادت. . . ولكن الفتى اختفى فجأة!
- أهرب؟
- إن الناس يرجفون بموته، فقد تكون التماسيح أكلته. . . ومن ثم أسدلت الفتاة على حياتها ستراً غليظاً يحجبها عن العالم أجمع!
- قد تسلوه يوماً، فترضى الزواج بأمير كبير!
- إن القصة تحدثنا أن الفتاة قضت في عزلتها عامين، وهي لم تتغير. . . إنها لا تطلب الأمير، ولن تطلبه، بل ستحيا مترقبة شاعرها الفقير كما هو بردائه الساذج، وقلبه الكبير. . . لن تستبدل به أحداً مهما يعظم قدره ويتسع ماله!
- وهنا تنتهي القصة. . . أليس كذلك!
- تكاد تنتهي، والبقية في كلمتين، أتريد أن أتمها لك؟ فقال الأمير، وهو يضغط كلماته في حسرة مكتومة:
- إذا رغبت، أتممتها أنا لك!
فتمايلت الأميرة، وعرضت على وجهها ابتسامة، وقالت:
- كيف؟ أو تعرفها؟
فقال في شيء من السهوم:
- إن حذقك في رواية القصة، قد جعلني أحزر خاتمتها!
وراح الأمير يحد بصره في نجوم الليل البعيدة، كأنه يريد أن يستلهم منها كلمة نصح أو هداية. . . ولكن لم تطل وقفته على هذه الصورة، فانحنى أمام الأميرة، وقال:
- لن أنسى ما حييت حسن احتفائك بي!
وقبل يدها قبلة طويلة عميقة، ثم ترك المكان لا يلوي على شيء. . .
واستقل على الفور عجلته الحربية، واستأذن رفاقه!
وانطلقت به العربة، هائمة في أديم الصحراء، تشق أمامها سجف الظلام شقاً!. . .

محمود تيمور

من هنا ومن هناك

مطلب عادل

(لشاعر الهند (رابندرانات تاجور))

إن علاقة الإنجليز بتاريخ الهند تدعو إلى الإعجاب الكثير. فقد توطدت بيننا وبينهم وشائج القربى، باعتبارهم رسل الثقافة الأوربية، ونالوا من نفوسنا ما لم تنله أمة من الأمم.

وإذا كانت المزنه تحمل إلى الأرض ماء السماء من آفاق بعيدة المدى، فيتغلغل في أعماقها ويسري إلى أحشائها، فيخرج منها نباتاً وأزهاراً تسر الناظرين، فإن سيل الفكر والثقافة الأوربية قد انحدر الينا، فأنبت في قلوبنا حياة جديدة، وأيقظ نفوسنا من سبات طالت عليه السنون.

بدأنا نتذوق الأدب الإنجليزي، ولم تكن فائدته لنا مقصورة على الفن الجديد الذي

يفيض به، أو المتعة النفسية التي يهديها ألينا، فقد حرك قلوبنا إلى إصلاح كثير من أخطاء الإنسان نحو أخيه الإنسان، فدقت لأسماعنا أجراس رنانة الصوت تعلن تحطيم أغلال الإنسانية المعذبة، وخالجت أذهاننا حماسة نحو النضال في سبيل مكافحة الاتجار بالإنسان.

لقد نيفت على السبعين من عمري، وكان عهدي بذلك أول العصر من تاريخنا الذي يجدر بي أن أسميه العصر الاوربي، في منتصف القرن التاسع عشر وهو العصر الفكتوري الذي يسخر منه شباب اليوم. لم تكن أوربا في ذلك العهد قد فقدت عقيدتها في حرية الفكر وحقوق الفرد التي حاربت من أجلها في عصور الإصلاح والثورة الفرنسية، وكان الأخ في أمريكا يحارب أخاه لمكافحة الاتجار بالرقيق. ويصح للعصر الفيكتوري أن يفخر بأنه العصر الذي سمعت فيه كلمات مازيني النبيلة وصيحات غاربيلدي الجريئة، وأنه العصر الذي ارتفع فيه صوت غلادستون مدوياً كالرعد في أنحاء العالم المتمدن، بالحملة على أعمال سلطان تركيا. وقد بدأنا نحن كذلك في الهند نفكر في استقلالنا في ذلك العهد. لم تكن حركتنا تخلو من العداء للإنجليز، ولكنا على الرغم من ذلك كنا على ثقة تامة من الخلق الإنجليزي. فقويت عزيمتنا على المطالبة بمشاركة بريطانيا باسم الإنسانية في الإدارة الهندية.

لقد رأينا الأمم الشرقية تسير قدماً نحو عصر جديد، فأملنا أن نندمج في صفوفهم لنتبوأ

مركزنا من التاريخ، ولكن كم كان ذعرنا شديداً حينما رأينا عجلة التقدم تقف بنا عن المسير. إن الدين الثقيل الذي تطالبنا به إدارة السواحل يثقل كاهلنا ويحرمنا نحن الفقراء المفلسين نصيبنا الضئيل من الحياة. فلا تستطيع أمتنا البائسة أن تزحزح عنها أثقال الهمجية التي ترزح على صدرها كالصخرة الشماء، فتخنق أنفاسها حتى الممات.

مالطة البلطيق

(ملخصة عن (لابرس دي تونسيا))

إن السر في حملة السوفيت على فنلندا هو رغبتها في الحصول على مركز وطيد في الأرخبيل الواقع بين فنلندا والسويد. وقد يجهل الكثير من سكان أوربا الذين يعيشون بعيداً عن منطقة بحر البلطيق أهمية جزر آلند التي يعد موقعها من الناحية الحربية كموقع جزيرة مالطة في البحر الأبيض المتوسط.

تتكون هذه الجزر التي قضت عصبة الأمم سنة 1921 بأن تظل محرومة من التحصينات، من ستمائة جزيرة صغيرة، مائتين منها يعمرهما السكان الذين يبلغ عددهم 28. 000 نفس كلهم من الصيادين.

وتقع هذه الجزر على بعد 50 ميلاً من الشاطئ الفنلندي، و25 ميلاً من السويد و350 ميلاً لننجراد و700 ميل من موسكو و350 ميل من دانزج و300 ميل من ممل و400 ميل من كوبنهاجن. وعاصمتها (ماريهامن) وهي مدينة صغيرة للصيد، ينتشر على أرضها بعض المساكن الخشبية، وتفوح منها رائحة الأسماك الشديدة.

ونظراً لاستقالة عضوين من أعضاء عصبة الأمم (ألمانيا وإيطاليا) التي عرضت عليها مشكلة جزائر آلند أصبح من المستحيل على فنلندا أن تحصن هذه الجزر. إلا أن الاتفاق الألماني السوفيتي قد أتاح لفنلندا في الأيام الأخيرة أن تنال موافقة باقي الأعضاء (بريطانيا العظمى، وفرنسا، واستونيا، والدنمارك) على تحصينها، فقامت حامية صغيرة لحماية ماريهامن وأعد أسطول خاص لحماية الجزر. ومما لا شك فيه أن وجود قوة من البحرية والطيران في جزائر آلند يجعل من السهل على أية أمة أن تسيطر على شمال غربي أوربا. فمن هذه الجزائر تصد أي غارة للسوفيت ودول البلطيق، ويسهل تهديد الدنمارك

والنرويج وشرق بروسيا.

وفضلاً عن هذا فإن جزائر آلند محصنة بحجب كثيفة من الضباب الذي يلفها طول العام فيصعب معه مهاجمتها، فإذا استولت امة على هذه الجزر أصبح لها السيادة على شبه الجزيرة (اسكاندينافيا) وأقاليم بحر البلطيق. ومن اليسير أن تصبح الزاوية المؤلفة من روسيا الغربية واسكاندينافيا وشمال ألمانيا تحت سيطرة هذه الجزر القائمة وسطها، فتحل الدمار بتجارتها في بضعة أيام.

ومن هنا يسهل علينا أن نقدر القيمة التي لجزائر آلند في نظر السوفيت. ونعرف أن

كل محاولات روسيا للاستيلاء على موانئ حرة على دول البلطيق وليتوانيا واستونيا لا قيمة لها بغير هذه الجزر

هل ينبغي لنا أن نكره الرذيلة

(ملخصة عن (ذي إيريان بات) بومباي)

كانت دهشتي عظيمة لحملة النقد الشديد التي ثارت منذ بضع سنين، حول تصريح سير أوليفر لدج الذي قال فيه (إن الرجل الممتاز لا يهتم كثيراً بآثامه، في هذه الأيام) فقد أثار هذا القول غضب رجال الكنائس على اختلاف مذاهبهم، وجعل الوعاظ يبذلون غاية جهدهم لتفنيده، وإقناع الناس بأن أول واجب على المسيحي هو أن يكره الرذيلة.

وهذا مذهب طالما رددته الأوساط الدينية في السنين الغابرة، وهو راجع إلى ضعف طبعي في الإنسان. فقد كان الرجل المتدين يعتقد أن كراهية الرذيلة أسهل كثيراً عليه من حب الفضيلة. ولهذا المبدأ وجوه تختلف باختلاف الطوائف، وكان بعض رجال الدين يعتقدون انهم لا يستطيعون أن يعيشوا في مأمن من الرذيلة التي يكرهونها كل الكره، ويشفقون من الوقوع فيها، إلا بالعزلة والانفصال التام عن العالم.

والطبقة التي يعنيها سير أوليفر لودج بعبارته السابقة لها آراء خاصة في كراهة الرذيلة، فيقول بعضهم: إن الوصية التي تقول أحب جارك كما تحب نفسك. وهي إحدى الوصايا العشر المقدسة لا يمكن التوفيق بينها وبين كراهية الرذيلة. بل أن كره الرذيلة يجعل هذه الوصية في حكم المستحيلات. إذ أن الشعور بالعمل السيئ يسوقنا إلى كراهية فاعله الذي قد يكون جاراً لنا. وهنا لا يمكن التوفيق بين الحب والكراهية.

إن كراهة الرذيلة والخوف منها يساعدان على بقائها. فنحن إذ نجعل من الرذيلة قوة فعالة في حياتنا تعمل على إحياء ما نريد أن نقتله ونقضي عليه، فإنما نخلق (لأهريمن) إله الشر تمثالاً خالداً، وان كنا نصنع هذا التمثال لنبصق عليه. إن النظر إلى الرذيلة أمر فعال في حياتنا، يجعل لشخصية الشيطان شأناً أي شأن في حياتنا اليومية.

كيف تنام نوماً هادئاً

(ملخصة عن (ذي سيكولجست))

الرجال بطبيعتهم أهدأ نوماً من النساء، فأعمالهم الكثيرة تساعدهم على النوم العميق، والرجل الذي ينهمك في الأعمال البدنية أياماً متوالية، ينام في العادة نوماً عميقاً، لما يبذله من الجهد الذي ينهك قواه، في حين لا يظهر بمثل ذلك الرجل الذي يلازم مكتبه طيلة النهار ولا تسمح له أعماله بالحركة والنشاط.

إلا أن المشاغل الفكرية التي تلازمنا في بعض الأحيان كثيراً ما تحرمنا لذة النوم. فإذا لم نتخذ وسيلة لإرقاد همومنا ونحن في وقت اليقظة، فسوف لا تبارحنا حتى تحرمنا الهدوء والراحة عند النوم. فمن الواجب إذن أن نعمل على ترويح النفس وإخلائها من مشاغلها إذا انتهى اليوم وذهبنا نلتمس الرقاد.

فإذا أمسى المساء وجب علينا أن نخلد إلى الراحة، ونأخذ في تصفية حساب اليوم فنعرض على الذهن حوادث اليوم من الصباح إلى المساء: هل كان يومنا يوماً مرضياً؟ إذا لم يكن كذلك، فما السبب؟ ما هو الخطأ الذي جعله كذلك؟ ماذا كان علينا أن نفعل لنوجهه نحو الصواب؟ فإذا آنست من نفسك ضعفاً ولو بسيطاً فيما تقوم به من الأعمال، وجب عليك أن تبحث عن الطريقة التي تساعدك على إزالة هذا الضعف، وتجعل كل همك أن تعرف متى يمكنك أن تقوم بأعمالك على الوجه الصحيح.

أما من الناحية الجسدية فيجب أن تعرف مقدار ما أديته لجسمك من الحقوق. هل كانت أعمالك الفكرية من الكثرة بحيث لا تترك الفرصة الكافية للجسد ليأخذ حقه من النشاط؟ إذا كان الأمر كذلك، فلابد من الموازنة بين حاجات الفكر والبدن، إذا أردت أن تنام نوماً صحيحاً هادئاً.

أن متاعب الليل، هي أثر من متاعب النهار. فمن الواجب أن تتفحص حالتك العامة: هل هي متجهة إلى طريق الصواب من سائر الوجوه؟ هل يقوم جسمك وعقلك وعواطفك بما هو مطلوب منها؟ إذا لم يكن ذلك فإن هذا النقص الذي تراه في الواقع سيكون له أثره في أحلامك عند الرقاد.

من الواجب إذن أن تراقب نفسك مراقبة دقيقة إذا كنت لا تنام نوماً مريحاً، وتصرف

عنك ما يشغلك في النهار لتستريح في المساء.
ماذا يربح كبار المؤلفين؟
(عن (استرليان ديجست))
ماذا يربح كبار المؤلفين؟ هذا سؤال لا نستطيع أن نجيب عنه على وجه التخصيص. ولكننا نستطيع بمراجعة الأرقام التي تنشر من آن لآخر، أن تعرف الشيء الكثير، فمن المعروف مثلاً أن سير جيمس باري خلف بعد موته 174. 000 من الجنيهات الإنجليزية، ويعد هذا المبلغ الكبير من أكثر ما عرف في مخلفات الكتاب الإنكليز. وإذا علمنا أن (باري) أسس مستشفى عظيما في فرنسا إبان الحرب العظمى، وأنه كان ينفق أموالاً طائلة في وجوه الإحسان، أمكننا أن نقدر الأرباح العظيمة التي كان يكسبها من أدبه الغزير. وترك الشاعر الإنجليزي المعروف رديارد كبلنج 155000 من الجنيهات.
ويقال إن شارلس دكنز العظيم ترك بعد موته 93. 000 من الجنيهات، وجورج مور 75. 000 جنيه، أما توماس هاردي فقد خلف 91. 000 جنيه، على وجه التحقيق.
فإذا اتجهنا إلى كل مؤلف وما أفاء على صاحبه من الأرباح، فنستطيع أن نقول أنه دفع (لهارفي ألن)، في حقوق طبع مؤلفه (كارثة أنطوان) في الأربعة الأعوام الأولى من صدوره 40. 000 من الجنيهات لكل عام، ويعد هذا المبلغ من أكبر ما ربحه مؤلف من كتاب واحد، وربح (باري) من قصة (الوزير الصغير) 50. 000 جنيه، وأعطى لماري كورللي 20. 000 من الجنيهات في إحدى قصصها المعروفة، ودفع إلى (إليس مجان رايس) 20. 000 من الجنيهات في قصة مؤلفة من 20. 000 كلمة بمعدل جنيه للكلمة
الواحدة. وألف رديارد كبلنج ثماني أقاصيص، فدفع إليه في كل منها 240 جنيه للطبعة الإنجليزية، وعلى هذه النسبة نستطيع أن نقدر لهذه القصص 8. 000 من الجنيهات للطبع في أنحاء العالم التي يقرأ فيها هذا المؤلف المشهور، ودفع إلى كنلنج 5000 من الجنيهات في حقوق طبع (كم) في إنجلترا وأمريكا، ودفعت إليه مجلة (كولير) الأسبوعية مبلغ 200 جنيه في قصيدة واحدة.
أما بين المؤلفين الأحياء، فقد قدر ربح (سومرست مرجام) 1. 000 جنيه في قصة من نوع القصص الصغيرة وبلغت أرباح (ماك نيل) في مؤلفاته الموسومة باسم (بول دج دموند) 100. 000 من الجنيهات في سبعة عشر عاماً. وبلغت أرباح (بيفرلي نيكولس) 25. 000 من الجنيهات في بضعة مؤلفات عن كوخه وحديقته في هانتنجدن.
وبلغت أرباح لورد مورلي من كتاب (حياة جلادستون) 10. 000، وربح ونستون تشرشل 8000 جنيه في كتاب عن حياة أبيه. وقد بلغت أرباح كل من (درويك ديبنج) و (أ. أ. ميلن) في العام 30. 000 من الجنيهات.
وقد فتحت (هوليود) باباً جديداً للربح لكبار المؤلفين وتتراوح المبالغ التي تدفع لحقوق إخراج مؤلف من المؤلفات للسينما من 1500 جنيه إلى 15. 000 جنيه، وقد تزيد على ذلك في بعض الأحيان. فقد دفع مثلاً في (وودسورث) 32. 000 جنيه. وفي قصة (منظر في شارع) 25. 000 من الجنيهات.
البريد الأدبي
مناقلة ومثاقفة
هذان لفظان أستخرجهما من لغتنا الزاخرة بالمفردات والتعبيرات لأدل بهما على ما يقال له (المناظرة).
والمناقلة في المنطق أن تحدثه ويحدثك، كما جاء في (القاموس) مادة ن ق ل؛ وتجد اللفظة أيضاً في (المخصص) ج2 ص129. وقد استعمل الجاحظ هذا الحرف في رسالته الظريفة (التربيع والتدوير) (مجموعة رسائل، مصر 1324 ص107) إذ قال: (ولو ظهر لما سألته كسؤالي إياك، ولما ناقلته الكلام كمناقلتي لك). وأما المثاقفة فقد استعملها التوحيدي في (الإمتاع والمؤانسة) ص9 حيث قال: (فلعل هذه المثاقفة تبقى وتروى)؛ وشرحها ناشراً الكتاب هكذا: (المثاقفة: المطارحة في العلم والأدب ومذاكرتهما). والمثاقفة حرف حقيق بالحفاوة لهذا العهد، أفلا نستعمل كلمة الثقافة لذلك الجمع من ألوان الأدب وصنوف العلوم وضروب الفنون؟
وأما الذي يحدوني إلى عرض ذينك اللفظين بدلاً من (المناظرة) فانزلاق هذه، على

أقلام المتعالين وصغار الكتبة، إلى المهاترة: تأخذهم بالحجة أخذ عزيز متمكن، فتدور رؤوسهم وتزلزل أقلامهم، فيفزعون من الجدل إلى الثلب. فإذا الذي يكتبونه يذكرك بقول ابن شبرمة: (ذهب العلم إلا غبارات في أوعية سوء). غير أننا صرنا - ولله الحمد - إلى عهد لا تفصل فيه سلاطة اللسان ساعة إفلات البرهان.

وإني ليحلو لي أن أثاقف أشراف الرجال وأناقل أثبات العلماء وأكابر الأدباء. وقديماً ثاقفت المازل في (السياسة والأدب)، وناقلت بعد ذلك الأدب الكرملي والشيخ البشري، ثم الزكيين: مبارك وطليمات. واليوم أناقل (أستاذاً جليلاً) عالماً ثقة. ومما يورث الأسف اني لا أقوى على بث اسمه، وهو اسم عريض الجاه وضاح الحسب. لا أقوى على بثه لأن صاحبه يريد أن يكتمه من الناس تواضعاً؛ فتارة يوقع مقاله هكذا: (ن)، وأخرى هكذا: (القارئ) أو (أزهري (طنطا)). على أن قراء (الرسالة) يعرفون من وراء تلك الرموز.

علق (أزهري (طنطا)) في العدد الماضي من (الرسالة) على مقال كنت نشرته في (الثقافة) (العدد الـ 56) جاء فيه أن أصحاب المعجمات ربما أثبتوا لفظاً في غير مظنته. فأضاف العالم المتواضع إلى الأمثال التي كنت أوردتها مثلاً آخر هو كلمة (تكتم)، ثم ختم مقالته بأمنية تشغل صدور العرب والمشتغلين بالعربية.

وإني متبع تلك الأمثال بمثل جديد، وإليك قصته: كنت استعملت في توطئة (مفرق الطريق) هذه الكلمة: (متمثلات). فجاءني صديق بصير بمفردات اللغة وأنكر على الكلمة فقال: أنها لم ترد في المعجمات، وإنما التمثل - كما جاء في القاموس ولسان العرب - هو اتخاذ الحديث أو الحجة مثلاً، ثم إنشاد البيت، ثم الاقتصاص. وزاد الصديق أن الصواب هو (الامتثال)، من قولهم: (مثله له تمثيلاً: صوره له حتى كأنه ينظر أليه، وامتثله هو: تصوره). فقلت للصديق: ولكني أكره (امتثال الشيء) في هذا الموضع، لأن الامتثال غلب عليه معنى الإذعان و (اتباع الطريقة)؛ ثم هذا نص بين يدي في جانبي: قال الخوارزمي في (مفاتيح العلوم) (مصر 1324 ص92): (يقال تصورتَ الشيء إذا تعمدت تصويره في نفسك، وتمثلته وتخيلته). فقال الصديق - وهو من المتشددين - وهل يستشهد بالخوارزمي؟ فقلت: لك رأيك ولي رأي.

واليوم أخبر هذا الصديق أني عثرت - من باب الاتفاق - على (تمثل الشيء) في مادة وهم من (لسان العرب): (توهم الشيء: تخيله وتمثله كان في الوجود أو لم يكن). ولم أجد هذا في (القاموس)، غير أنك تجد عبارة (اللسان) في مستدرك (تاج العروس) مادة وهـ م.

رجع

وأما قصة (الزلزلة) فلقد فر الكاتب، في عدد الرسالة الماضي، من ميدان المناقلة والمثاقفة إلى ميدان التطاول باللفظ وحده. فقد كنت بصرت الكاتب، في مقالي السابق، وبين يدي الشواهد النواهض، بأمور ثلاثة: الأول أن بحر (المنطلق) ليس من مجزوء (المتدارك) كما وهم أول الأمر، متبعاً وهم غيره؛ فلم ينطق ههنا بكلمة واحدة. والأمر الثاني أن الزلزلة في اللغة ليست بمقصورة على زلزلة الأرض كما وهم أيضاً، إذ هي تفيد الاضطراب والتحرك أول ما تفيد؛ فلم يقو على العناد لأن أحداً من الناس لا يستطيع رد القرآن. والأمر الثالث أن الزلزلة والطرب على مجاورة في لغتنا؛ فلم يقدر على المكابرة لأن أسلوب صاحب (الأغاني) وغيره من البلغاء فوقها، بل جلب إلي شاهداً آخر يعزز قولي (المغنية التي (زلزلت قلوباً))

وعلى هذا فقد سلم الكاتب، مرغماً، باني بصرته بما كان يجهل، في ثلاثة مواطن. غير أني أريد أن أنصف القارئ: فقد تشبث الكاتب - بعد تسليمه ذلك - بدليل فريد، لعله أن ينفي به زلزلة الأذن، أي اضطرابها وتحركها، (ومن يتلمس الخطأ لغيره لابد له أن يتشبث بشيء). فقال غير مزلزل القلم: إن أذن الإنسان - من بين جميع الحيوان - لا تتحرك البتة. وهنا أعود إلى تبصير الكاتب بما تواضع الناس على تلقنه وقبوله. فحسبه ما جاء في كتاب قررت وزارة المعارف المصرية استعماله بمدارسها، وعنوانه: (خلاصة الطبيعة - الجزء الرابع: في الصوت) الطبعة الـ 14، مصر 1930، ص125: (شرح عمل الأذن: عند حدوث صوت بالقرب من الأذن تنقل التموجات الهوائية داخل الأذن الخارجة وتؤثر في غشاء الطبلة فتهتز بحركة مماثلة لحركة مصدر الصوت، لأن

شكل ذلك الغشاء وقوة توتره يمكنانه من الاهتزاز بتأثير أي صوت خارجي). إن الكاتب يظن أن كل الأذن - وهي جهاز السمع - هو ما يراه إذا نظر إلى مرآته - إلا أن في هذا التبصير الجديد الكفاية. وهل تبصر الخلق ببسائط لغتهم ثم بمبادئ العلوم إلا على جهة التسلي والتلهي؟

تشبث الكاتب بهذا الدليل الفريد - وقد عرفت بطلانه - بعد أن سلم بصحة قولي في الأمور الثلاثة التي كان نازعني فيها. على أن تسليمه بأني بصرته بما كان يجهل أوغر صدره، فنثر حول قهره ما نثر من نفاية الكلام؛ وذلك نتركه له، فليتطوق! فكل يتزين بما تملك يده، و (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها).

بشر فارس

الدكتور عبد الوهاب عزام

قصدت (القاهرة) في هذا الأسبوع، واشتريت نسخة من (رحلات) العلامة النابغة الدكتور عبد الوهاب عزام أستاذ جامعة فؤاد الأول. وقد رآني أحد خلصاني من أئمة الفضل من الشاميين أحرث مرقومها مستهدياً مستفيداً. فقال لي: ما هذا الكتاب؟

قلت: (رحلات) عبد الوهاب عزام

فقال: اسمع يا شيخ، أيقن أن (مصركم) هذه لم تفضل سائر الأقاليم العربية أنها أكثر منهن عدداً، ومالاً، وعلم أشياء وحضارة في انحاء، وشبه نظام. ولكنها فضلتهن، وتاهت عليهن

- وحق لها أن تتيه - بمثل عبد الوهاب عزام . . .

سمعت هذا الكلام في (مصر وعزام)، فكتبته حتى ينتشر في مجلة أخيه أحمد حسن الزيات.

(طنطا)

أزهري

فلم (يوم سعيد)

في اعتقادي أن هذا الفلم أبلغ أفلام عبد الوهاب صعوداً في مراقي الكمال. أنه في صميم الفن من حيث التأليف والإخراج والتلحين والتمثيل والحوار. ولعله الفلم الوحيد الذي لا يخزي المصري أن يعرض في غير مصر، لجاذبية سياقه واطراد حوادثه وسلامة لغته وجمال مناظره وبراعة أدائه. ولقد كانت أفلام عبد الوهاب تعتمد في تعويض الفن فيها على حلاوة صوته وطرافة تلحينه. أما هذا الفلم فإذا جردته من قوة الغناء بقى قائماً على فنه. وقد دل على أن الأستاذ محمد كريم أول المخرجين، وأن الأستاذ عبد الوهاب من أوائل الممثلين. وإذا قارنت بين هذا الفلم وبين ما تنتجه الشركات المصرية من الأفلام الملفقة التي تقوم على الشخصيات المهرجة واللهجات الشاذة ازداد يقينك بأننا لا نزال ننجح أفراداً ونفشل جماعة!

الزيات

في المجمع اللغوي

تأجل اجتماع مجمع فؤاد الأول للغة العربية هذا العام لتعذر حضور الأعضاء الشرقيين والمستشرقين بسبب الحالة الدولية. وقد اقتصر المجمع على متابعة العمل في المعجمات واللجان المختلفة. وتتجه الفكرة الآن إلى تعديل تكوين المجمع تعديلاً يتيسر به الاجتماع بأعضاء مصريين ليتابع عمله طول العام.

وينتظر أن يعرض التعديل الجديد على مجلس الوزراء تمهيداً لاستصدار المرسوم الملكي به. والمظنون أنه سيضاف إلى أعضاء المجمع المصريين نحو عشرة أعضاء ينتخبون من كبار المشتغلين بالبحوث العلمية. وستعلن أسماؤهم بعد صدور المرسوم الملكي تمهيداً لعقد دورة المجمع. وربما عقدت هذه الدورة في أواخر شهر مارس المقبل.

العقيدة الأدبية

صديقي

إليك أقدم تحية الأخوة وإن لم أرك، فقد تفضل أخونا الزيات وأطلعني على رسالتين كريمتين خطتهما يمناك، ومن قبل ذلك قدم إلي طوائف من الرسائل شهدت بأني موصول القلب بإخوان كرام أوفياء يرون الصداقة الروحية أعظم وأصدق من الصداقة التي تخلقها المنافع أو لطف الحديث.

ولن يطول الحجاب بيني وبينك، أيها الصديق، فقد اتفقت مع الأستاذ الزيات على إعلان عواطف القراء من حين إلى حين، فيرى قراء الرسالة أسماء كريمة لرفاق أعزاء تجمع بينهم الأخوة في الأدب، كما تجمع أخوة الدين بين الأتقياء والصالحين.

ولا أكتمك، أيها الصديق، أني أتندر على حسابك مع الأستاذ الزيات، فعهدي بك تنص على أنك تحبه كما تحبني، وهذا تلطف يستحق التشجيع، لأن الزيات من اعز أصدقائي، وهو أيضاً رسولك إليّ، والمحب يتلطف مع الرسول!

أنا أعرف منزلتي عندك، أيها الصديق، والزيات يعرف أني عندك الحبيب الأول، فلا بأس عليك إن تجاهلته حين تعلن إعجابك بأسلوب، فقد يكون الزيات - أطال الله في حياته - آخر من يقبل التضحية بحظه من أجل الصديق.

ثم ماذا؟

أريد أن أغتنم الفرصة الذهبية التي جمعت بين قلبي وقلبك، وإن لم أرك، فأفضي إليك بحديث ينفعني وينفعك في الأيام المقبلات

فمن أنت في دنياك؟

يظهر مما قرأت لك انك تريد أن تكون كاتباً يسيطر على قراء اللغة العربية في المشرق والمغرب، ويملك القدرة على تحويل الناس من ضلال إلى هدى أو من هدى إلى ضلال.

وأنا حاضر لإرشادك، أيها الصديق، فما يسرني أن أتفرد بمحنة الأدب والبيان، فهل تعرف جوهر النصح الذي أقدمه إليك؟

إن أساتذتك علموك أشياء ترجع في جملتها إلى فهم علوم اللغة العربية من نحو وصرف ومعان وبيان وبديع وعروض، وهي علوم نفيسة جداً، ولكنها لم تصل بأصحابها إلى شيء، فقد كنت لعهد التلمذة أكتب لأساتذتي ما يريدون توجيهه إلى الرؤساء والوزراء، ولو شئت لقلت إني أديت امتحانات أمام أساتذة فضلاء لم تكن دروسهم إلا قبساً مما جاد به قلمي على أولئك الأساتذة الفضلاء. فما هو سر البيان الذي أريد أن أفضي به إليك؟

هو العقيدة الأدبية، هو العقيدة الأدبية، هو العقيدة الأدبية

ولن تكون كاتباً ولا شاعراً ولا خطيباً بدون تلك العقيدة وإن كنت أعرف الناس بالدقائق من علوم اللغة العربية!

فما هي تلك العقيدة؟ هي روحك، أيها الصديق، ولا قيمة لأديب يعيش بدون روح!

الأدب في جوهره صورة من الروح الشفاف الذي ترتسم عليه صور الوجود، فإن كان لك روح، فأنت أديب، وإلا فأنت نسخة ثانية من الشيخ فلان الذي لا يعرف من الأدب غير قواعد النحو والتصريف.

العقيدة الأدبية هي أن تغار على الأدب، كما يغار رجال الدين على الدين. فأين أنت من تلك العقيدة، أيها الصديق؟

أنت تعرف أن في الدنيا ناساً عانوا أبشع ضروب الاضطهاد بسبب التمسك بعقائدهم الدينية، ومذاهبهم السياسية، فأين أنت من أولئك وهؤلاء؟ وما الذي أعددت من ضروب التضحية في سبيل الأدب، وهو غذاء قلبك وروحك؟

إن الأديب الحق يحدثك عن نفسك بما تجهل من شؤون نفسك. فما جزاؤه عندك وهو يستكشف الخفايا من ضميرك وروحك؟

ما جزاؤه عندك وهو يشقى لتسعد، ويموت لتعيش؟

أنا أعرف جزاء الأديب عندك، أيها الصديق، فأنت خصصتني بكلمات طيبات أرهفت حسي وأذكت بياني، وسأذكرها بالخير ما حييت. ولكن، ما الذي يمنع من أن تتقدم لمعاونتي على ما أحمل من أعباء؟

أتقول: إن الزيات لا يستجيب لندائك في كل وقت؟

إن كان ذلك، فقدم إلي ما يهمك نشره لأحتال في عرضه على القراء بأسلوب يرضيهم ويرضيك، إلى أن تعرف كيف تفرض رأيك وأسلوبك على أولئك القراء!

وتقول انك بكيت ما طاب لك البكاء حين قرأت مقال أحد الكتاب عن (نميمة الأسلوب) وأنا بكيت كما بكيت، ولكن فاتك أن تعرف أن ذلك الكاتب لم يشجك ولم يشجني إلا لأنه تحدث عن قلبه بأسلوب صريح يجب أن أتحدث به عن قلبي أو تتحدث به عن قلبك، وهنا تظهر قيمة العقيدة الأدبية، إن كانت تهمك في كثير أو قليل.

صديقي:
ما أحب أن أطيل القول في مخاطبتك، فأنت تعرف عن نفسك أكثر ما أعرف، وإنما يهمني أن تدرك جيداً أن قلبي معك وأنه لم يقد من الصخور والجلاميد حتى يجهل القيمة الذاتية لعطفك عليه بلا مواربة ولا رياء.
وسيأتي يوم يكون فيه للقلم دولة، وفي ذلك اليوم وهو قريب تعرف فضل روحك في إذكاء المشاعر والعواطف والقلوب.
فإن فاتك أن تكتب كما أكتب وكما يكتب الزيات فلن يفوتك أن تكون من أهل القدرة على تأريث جذوة الأحاسيس.
ومن أنا؟ ومن الزيات؟ ومن الكتاب المصطفون عندك؟
نحن قوم كوتنا صروف الأيام والليالي، فإن اكتوت يدك كما اكتوت أيدينا فستملك من السيطرة على القراء أكثر مما نملك وقد يلقاك الدهر بأفضل وأجمل مما يلقانا، وهو عندنا غادر جحود
قد عيب علينا، يا صديقي، أن نشكو الدهر ونحن في سعة من العيش، وسيرتقي ذوقك فتدرك أن الخواص لا يشكون جوع البطون، وإنما يشكون جوع القلوب.
وآه ثم آه من جوع القلوب!!
زكي مبارك
رأي الأستاذ النشاشيبي في نهج البلاغة
سيدي الأستاذ صاحب (الرسالة الهادية)
الرجاء أن تتكرموا بنشر ما في أضعاف كتابي علامة العربية وأديبها العبقري الأستاذ الجليل (محمد إسعاف النشاشيبي): (الإسلام الصحيح، وكلمة في اللغة العربية) مما يخص (نهج البلاغة). فإن الكتاب الأول ممنوع في العراق (؟!!) - كما يعلم الأستاذ الجليل بالطبع - والكتاب الثاني أندر من رائد الحقيقة في هذا الزمان. . .
وذلك رغبة وشوقاً - والرغبة هنا ملحة، والشوق أكيد لما نعرف من فضل أستاذنا الجليل النشاشيبي وعلمه وخطره، أطال الله بقاءه ونفعنا به - إلى أن نقرأ مقال أستاذ البلاغة في (نهج البلاغة)
مشكور الأسدي
عضو جمعية الرابطة العلمية الأدبية في النجف الأشرف
الكتابان منشوران مشهوران يباعان في مكاتب القاهرة، ولم يقع في علمنا :(الرسالة) أن حكومة العراق منعت كتاب (الإسلام الصحيح)
رسالة النقد
طب العقل والنفس
تأليف الدكتور محمد حسني ولاية
للدكتور إسماعيل أحمد أدهم
الطبيب محمد حسني ولاية من أطباء صحة بلدية الإسكندرية أديب شاب يشارف الثلاثين، متخصص في طب المناطق الحارة والصحة العامة. قضى مدة في مستشفى الأمراض العقلية بالعباسية دارساً، فاسترعى انتباهه أحوال المصابين بأمراض عقلية واضطرابات نفسية، فكان له من ذلك حافز نفسي على دراسة الجنون دراسة علمية من جانبيها النظري والعملي. وكان ثمرة هذه الدراسة كتابه (بين العقل والجنون) الذي أصدره لعامين مضيا. وهو اليوم قد أخرج للناس كتاباً جديداً عنوانه (طب العقل والنفس) وهو ثمرة دراسة نظرية للأمراض العقلية والاضطرابات النفسية، اعتمد فيها على آراء علماء مدرسة التحليل النفسي، وبالأخص فرويد وأرلد ويونج. ويكاد يكون الكتاب في المجموع تلخيصاً لآراء هؤلاء، أو ترجمة لبعض الفصول التي عقدوها عن الجنون والاضطرابات النفسية ومسائل العقل والوجدان والنفس. فمن هنا للكاتب أساس وثيق بآراء زعماء مدرسة التحليل النفسي وهو يقف عند حدود آرائهم فلا يتجاوزها في شيء إلى آراء المدرسة المسلكية، أو النموذجية الألمانية، أو الميكانيكية الروسية في هذه الشؤون.
واعتماد المؤلف في دراسته للموضوع على بضعة مراجع محدودة لزعماء مدرسة التحليل النفسي أبعدت بينه وبين تكوين فكرة واضحة بينة الخطوط ظاهرة المعالم عن الموضوع، فكان من ذلك الاضطراب في تناول بعض الموضوعات (لا كلها). كما

هو ملحوظ في فصل (الحب المتجانس عند المرأة) وفصل (اللاوعي). وهذا الاضطراب قد يبدو أكثر وضوحاً إذا لاحظنا أن المؤلف مثلاً لم يعتمد بالنسبة لفرويد وهو رأس مدرسة التحليل النفسي، إلا على مصدرين: أحدهما منتخبات من آثاره، والأخر مذكرات ورسائل له. وهذا أبعد الكتاب عن الوحدة المطلوبة في الكتب، ومن هنا جاءت فصول الكتاب غير متجانسة، فهذا فصل عن فرويد وأخر عن ارلد وبين هذا وذاك فصل ليونج، وهي بعد ذلك تتناول
موضوعاً واحداً، وهذا لا يجعل إمكاناً لأن يخرج الإنسان بفكرة واضحة عن مواطن الاختلاف ومواضع الاتفاق بين هؤلاء الزعماء الثلاثة لمدرسة التحليل النفسي في المسألة الواحدة. ثم هنالك بعض الاصطلاحات جانب المؤلف فيها المأثور من ذلك استعماله وكأنها تنظر إلى جنس والصحيح أن اللفظ العربي الذي ينظر إليه المصطلح الإفرنجي هو (شق) كما رأى الدكتور محمد بك شرف وجاراه في ذلك المشتغلون بالمباحث العلمية في العالم العربي. ثم عندك استعمال البدوات ناظرة إلى والصحيح - الأوهام - كما قلنا في دراساتنا عن مطران وكذلك استعمال الغرض حيناً والموضوع أحياناً ناظرة إلى والصحيح الوجه الثاني. ثم ترجمة بالعرفي الصحيح والأدبي بالمنتشر والصحيح أن يقال المحتد كما رأى ذلك مظهر سعيد.
كذلك عما يؤخذ على اللغة الاصطلاحية للكتاب فإن المؤلف يقول نفساني ومعلوم أن النسبة تقاس من فعل على وزن فعلي فيقال عقلي من عقل وآدمي من آدم ونفسي من نفس. على انك بعد ذلك تصيب بعض مصطلحات إفرنجية أصاب المؤلف في العثور على المقابل العربي لها، من ذلك استعماله المنضوي مقابلاً لـ وهو أدق من لفظة المنكمش التي استعملها مظهر سعيد
وفي الكتاب مطالعات جديرة بالنظر للمؤلف، تجدها على وجه خاص في بحثه عن أسباب الأمراض العقلية، وهي مطالعات لم يسبقه إلى بعضها أحد. كما تجد في الكتاب آراء ومطالعات تحتمل المناقشة، خصوصاً فيما يذكره يونج عن الزواج التجريبي الذي دعا إليه القاضي وفيما يقدره هو عن العلاقات (الجنسية) التي توجد بين الطلبة.
على أنه بعد ذلك على الرغم من هذه المآخذ، فالكتاب جدير بالنظر والمطالعة فهو يحوي في تضاعيفه مطالعات قيمة عن الحياة النفسية والشعورية وعن الاضطرابات التي تستولي على النفس البشرية، يستفيد منها الإنسان في حياته اليومية، كما يستفيد منها الأديب والعالم في حياتهما الأدبية والعلمية، ومن هنا فالكتاب يشكر عليه صاحبه للمجهود المبذول فيه، وهو خليق بعد بالتشجيع.
(الإسكندرية)
إسماعيل أحمد أدهم
وحي الرسالة - 2
من واجب (الرسالة) أن تنشر ما يتفضل به عليها الأدباء)
الزملاء والأصدقاء من صادق النقد وجميل الرأي في كتاب
(تسجيلا للفضل منهم وللشكر منا (وحي الرسالة)
كتب صديقنا الدكتور بشر فارس في جريدة المقطم:
هذا كتاب يريحنا مما يخرجه بعض المنشئين لهذا العهد، وهم لا يفطنون إلى أن الكتابة صناعة. في فصول هذا الكتاب تصيب المنحى الحسن، والتنسيق المطرد، ثم اللفظ المتخير، والسبك المحكم إلى جانب التبصر. وأسلوب الأستاذ الزيات الترسل في بسط العبارة، والترفق في تدوين الفكرة. ويهدد هذا الأسلوب في غالب الأمر سرد الألفاظ، وتكلف الأداء. وقد نجا أسلوب هذا الكتاب من هذين الخطرين بفضل سليقة صاحبه السليمة وترسمه خطى البلغاء من كتاب العرب الجاعلين للديباجة المكان الأول. ومما ينشأ عن هذا الأسلوب الإطناب المقبول، وإن قال الأستاذ في فاتحة كتابه إن الإيجاز صفته، إلا إذا عنى بالإطناب ساقط الكلام وفضول القول بتطويل وحشو لغير فائدة
وموضوعات الكتاب إن هي إلا معرض ألوان شتى من التأليف: إنشاء ونقد ووصف ونظر في الحياة الجارية، فمن الإنشاء (لماذا ترجمت آلام فرتر) وفيه هفوة القلب ونبضة العرق، ومن النقد (مصطفى صادق الرافعي) و (أحمد زكي باشا) وفيهما تبرز

خصائص الكاتبين في اعتدال إذ تذكر مواضع الإكبار ومواطن الأخذ جنباً لجنب. ومن الوصف ما ينساب هنا وهنا من تصوير لطرق المدينة وحقول الريف وشواطئ البحر وضفاف النيل. ومن النظر في الحياة الجارية تلك المقالات الرصينة مثل (داء الوظيفة) و (الفردية علتنا الأصلية) (وهنا أوثر كلمة التفرد كما بينت في (مباحث عربية)) والزيات في هذه المقالات لاذع القلم نافذ البصر: إنما بغيته التنبيه على جوانب الضعف الخلقي والتنديد بنواحي الفشل الاجتماعي، وكتابة الأستاذ هنا لا تنجذب إلى الأسلوب الفلسفي المجرد ولكنها كتابة مصلح يصف الداء المقيم ويبين آثاره وعقابيله.

وفي تلك الموضوعات، على تنوعها، تطاوع اللغة الكاتب وتتأنى له ألفاظها وتعبيراتها المتواترة، وذلك لأن الزيات يعرف كيف يستخرج المخبآت وينقب عن الدقائق. وهو إلى هذا التضلع من أساليب القدماء يكره التشدد والتنطع، حتى أنك تراه يستعمل اللفظة الأعجمية على وجهها إذا تطلبها السياق. من ذلك لفظة (الإيديال) ص46 و (المثل الأعلى) و (التاكسي) ص468 و (الفترينات والصالات) ص479. واكبر الظن أنه يرقب من مجمع اللغة العربية أن يعالج مثل هذه الألفاظ، وإني لأخشى أن تطول رقابته.

إن (وحي الرسالة) مجموعة مختارة مما سطره الأستاذ الزيات في مجلة (الرسالة)، وهذه المجلة تستقبل سنتها الثامنة. و (الرسالة) في صدارة المجلات العربية لهذا العهد. ومما تمتاز به أنها معترك الحركة الأدبية: من وجه تسجل مجرى الأدب، ومن وجه تعرض المستحدث منه، فخطتها الركز والوثب معاً. ومن هنا ما فيها من التلون. وآفة المجلات أن يركد ماء وجهها. فمن وراء ذلك الشحوب فالزوال. ويعين على ذلك التلون أن أقلام كتاب الرسالة متغايرة في التثقف والمضاء، وإن فيها أبواباً ساكنة وأخرى مائجة. وربما وضعت هذه الأشياء مواضعها في بلد يكثر فيه الاضطراب ويصول الهوى

بشر فارس

وقالت زميلتنا الدستور:

الأستاذ أحمد حسن الزيات كاتب تسمو عبارته على النقد، ويرتفع سياقه إلى مرتبة الإعجاز، وتتصل بلاغته بالقلوب لدقته ورصانة نسجه وسمة الصدق المتجلية في عبارته. وقد أصدر حضرته مجلة (الرسالة) منذ سبع سنوات؛ وألف أن يصدرها كل أسبوع بمقالة من وحي خاطره وفيض بيانه، حتى اجتمعت له باقة من هذه المقالات متخيرة الألفاظ متسامية الطراز، تتيه ببراعة أسلوبها دولة الكتاب وترنو إلى إعجازها أعين الأدباء.

وسنعود إلى عرض بيان الأستاذ الزيات في صفحة الدستور الأدبية المقبلة.

وقد احسن الأستاذ الزيات إذ جمعها في كتاب سماه (وحي الرسالة) ونشره في مطلع العام الجديد مورداً عذباً للأدب والأدباء ومشرعاً سائغاً لطلاب اللذة والمتاع الروحي والفائدة في كل باب. . .

وقالت زميلتنا البلاغ:

يطالع الكاتب الكبير الأستاذ أحمد حسن الزيات قراءه العديدين في مجلته (الرسالة) بافتتاحياته الممتعة التي تعتبر مثالاً عالياً في حسن الأسلوب وفي تخير الموضوع ودقة التعبير عن الفكرة؛ وقد تابعوه سبع سنين ينتظرون بلهف ما تدبجه براعته سواء في الأدب أو في النقد أو في السياسة أو في الاجتماع أو في تحليل الشخصيات، فيكون على الدوام عند حسن عقيدتهم فيه: براعة تفكير، ومتانة أسلوب، وسرعة نفاذ إلى القلوب

وقد تخير الأستاذ الزيات فصولاً مما كتبه للرسالة في ست سنين وجمعها بين دفتي كتاب واحد سماه (وحي الرسالة) وأصدر المجلد الأول منه في هذا الأسبوع في طبع أنيق وورق مصقول، فجاءت هذه الفصول كما قال في مقدمتها: متسمة بالصدق وإن كتبت عفو الخاطر ومجاراة المناسبة

ولاشك أننا في غنى عن أن نقدم (وحي الرسالة) إلى القراء فالأستاذ الزيات في غنى عن كل تقريظ وإنما يقرظه أدبه وأسلوبه وسعة اطلاعه؛ ويكفي أن نقول أن كل قارئ مثقف لا غنى له عن مطالعة هذه الفصول الممتعة مما كتبه الأستاذ الزيات

0
2
العدد 347 - بتاريخ: 26 - 02 - 1940
من بريد الرسالة
على غير انتظار ولا توقع وجدت اليوم في بريد الرسالة كتاباً من السيدة حياة. والذين كانوا يقرءون جريدة (الليبرتيه) على عهد ليون كاسترو، أو مجلة الرسالة في عامها الأول، لا يزالون يذكرون ولاشك هذا الاسم الجميل وذلك الأسلوب الساحر وتلك القريحة النسوية الصافية التي تخلق من الشعر والمنطق صوراً من الفكر الرصين البارع
ذلك الكتاب كذينك الكتابين وردي الغلاف أنيق الخط مصري الروح فرنسي اللغة؛ ولكنه يختلف عنهما بمعان من المحافظة والاعتدال لعلهما رجع المبالغة والإسراف في حياة المرأة المصرية الحديثة
لا أحب أن أفقدك شيئاً من جمال هذا الكتاب بتلخيصه أو اقتضابه، فإنه في ذاته وحدة من البيان الصريح والقول الشارح لا تقبل توطئة ولا تجزئة. فأنا أترجمه إليك ترجمة لا تخالف الأصل إلا في اللفظ؛ أما تأليف الجملة، وتنسيق الفكرة، وتلوين الصورة، فذلك كله لفن الكاتبة.
وإذا علمت أن السيدة حياة إنما تكتب بروح عربية وطبيعة مصرية، سهل عليك أن تدرك سر هذا الائتلاف العجيب بين العربية والفرنسية في قلمها المبدع
أستاذي العزيز
مازلت أوثر أن أكتب إليك بالفرنسية على الرغم من بلوغي في البيان العربي بفضل الرسالة مكانة لا بأس بها. وسبب هذا الإيثار أن المرء يميل بطبعه إلى جهة القدرة لا إلى جهة العجز، ويؤثر بغريزته جانب الكمال على جانب النقص. ولغتي العربية لا تزال عاجزة عن رياضة هذا القلم في يدي، فإذا كتبت بها إليك أهملت ما أكتب فتسيء إليّ، أو أعملت فيه قلمك فتزوره علي. وأنا كأكثر النساء مستكبرة أنوفة، فلا أحب أن أكون من الرجل في موضع الإهمال أو المعونة
أكتب إليك في صباح ليلة ساهرة ثائرة تقسمت مشاهدها العجيبة خواطري ومشاعري، فكأنني لم أشهد قبلها ليلة! والحق أن ليلة (مبرة محمد علي) في هذا العام كانت بدعاً في
نظامها وبرنامجها والاحتفال بها والإقبال عليها والديمقراطية فيها
لقد كان قصر المعرض بالجزيرة معرضاً حقيقياً لمجتمعنا الحديث. فالأميرات والعقيلات والآنسات والممثلات يصاحبهن أو يراقصهن أو يجاورهن الأمراء والكبراء والموظفون ورجال الفن؛ وكلهم على النمط الغربي الرفيع في أناقة الزي ورشاقة الحركة وأسلوب التحية ومراعاة الرسوم وإجادة الرقص، حتى خيل إلي أن الحفلة في (الجران باليه) بباريس لا في السراي الكبرى بالقاهرة
كنت أتنقل أنا وزوجي من مقعد إلى مقعد، ومن مشهد إلى مشهد، في مسرح اللهو، وفي حلقة الرقص، وفي المقصف، وفي (القهوة البلدية)، فأجد أخلاطاً من الناس يشتركون في المظهر، ولكنك تستطيع أن ترجعهم إلى بيئاتهم المختلفة من طريق الهندام ولهجة الكلام واختلاف الوضع. يسهل ذلك التمييز في الرجال ويصعب كل الصعوبة في النساء؛ لأن المرأة بفضل السينما والرياضة استطاعت أن تشأي الرجل في مضمار المدنية الغربية، فهي في إتقان زينتها وفستان سهرتها وانسجام سمتها لا تكاد تختلف عن كواكب هوليود؛ أما هو فبطيء التطور عصي الطبع لا يغشى أمثال هذه الحفلات إلا مسوقاً بإرادة زوجته أو ابنته
لعلك تذكر أني كتبت إليك منذ خمس سنوات كتاباً قلت فيه عن حرية المرأة إنها مسألة لا تتعلق إلا بنا، ولا يكون الحكم فيها إلا لنا؛ وما دخول الرجل فيها إلا أثر من اعتقاده القديم أن في يده زمام هذا الجنس المنكوب يرخيه ويشده على هواه، والأمر لا يخرج عن كونه نظاماً طبيعياً يجري على سنة الحياة من سيطرة القوة على الضعف، وطغيان الأثرة الباغية على العدل الذليل. فحرية المرأة كحرية الأمة، سبيلهما الفعل وحجتهما القوة؛ أما الدفاع بالقول والإقناع بالحق فأصوات مبهمة كزفيف الريح

المحبوسة في مخارم الجبل لا تدل على الطريق ولا تساعد على الفرج
قلت ذلك وما كان يهجس في صدري أن المرأة في هذه المدة القصيرة تستطيع أن تنزع من الرجل قيادتها وحريتها ثم تغلبه على إرادته وكرامته فتروضه هذه الرياضة وتخضعه هذا الخضوع!
لقد كنت أرى المرأة في هذه الليلة تراقص الغريب وتضاحك الكأس، وزوجها أو أبوها يهيئ لها فرصة المعرفة ويسعى لها بوسائل اللذة، فأجدني أنا داعية الحرية النسوية بالأمس، أشد النساء ضيقاً بها وسخطاً عليها اليوم، لأن هذه الحرية - بالقياس إلى الحرية التي كنا ننعم بها وندعو إليها - إباحية وفوضى؛ وذلك في الحق علة ما نرى من التنافر بين الفتى والفتاة، فقد كان الظن أن يزول بالتعلم ما بينهما من تنافر العلم والجهل، فأصبح هذا التنافر معززاً بتنافر الحشمة والتهتك. ومادام الانسجام مفقوداً بين الجنسين إما لتقدم الرجل على المرأة في العلم، وإما لتقدمها هي عليه في المدنية، فهيهات أن تنفرج أزمة الزواج أو تستقيم حال الأسرة
كانت هذه الحفلة في السنين الخوالي مظهراً للحرية القصد والبر الخالص، فمازالت عوامل التقليد والتجديد تلح على مزايا الأنوثة وخصائص الجنس حتى أصبحت معرضاً للجمال والدلال والزينة؛ وذلك بالطبع سر نجاحها ورباحها، وهو مغنم لغايتها الشريفة على أي حال
إني ألمح على المرأة في نادي السيدات وفي بعض الحفلات نزوعاً إلى تعدي الحدود التي جعلها الله بينها وبين الرجل، فإذا لم نعاجله بالفطام والكبح أعضل الأمر وفسد المجتمع
ولعلي يا سيدي أشير في (الرسالة) إلى مواطن الداء الحين بعد الحين ليتسنى لأرباب القلم وصفه، ويسهل على أقطاب الحكم علاجه.
. . .أدام الله عليك التوفيق وأعانك بالسداد على مواصلة الجهاد في تبليغ الرسالة (حياة)
هذا كتابك يا سيدتي قرأته وترجمته ثم نشرته، وسأعود إليه بالتعليق والتحقيق في فرصة أخرى.
أحمد حسن الزيات
في أرجاء سيناء - 1
للدكتور عبد الوهاب عزام
من السويس إلى أبي زنيمة
تواعَد السّفْرُ ميدانَ إبراهيم صباح الأحد حادي عشر ذي الحجة سنة 1358 - (21 يناير سنة 1940)، ووقفنا على مصر الجديدة ريثما يركب الرفقاء الذين يقطنون هناك. ثم سار ركبنا في سيارات ست يؤم السويس، وليس في طريق السويس ما يتحدث عنه إلا بقايا المنارات التي كانت على طريق البريد.
ولما بلغنا السويس تواعدنا أن نلتقي عند منتهى الترعة الإسماعيلية بعد أن تتزود السيارات وسائقوها بما يحتاجون إليه من المدينة. وكان السائقون كلهم من هذه المدينة وممن خبروا طرق سيناء.
فارقنا المدينة ظهراً، فوقفنا بعد قليل عند معبر القناة ريثما قدمنا الأوراق والصور التي تبين أشخاصنا ووجهتنا، ثم عبرنا. وكان الغداء قد حان، فرأينا أن نتزود للبيداء فتفرقنا يأكل كل واحد زاده. . . ولست أقول قول أبي العتاهية:
قد رمى المهدي ظبياً ... شق بالسهم فؤاده
وعلي بن سليما ... ن رمى كلباً فصاده
فهنيئاً لهما كل ... امرئ يأكل زاده
وهي الوجبة الواحدة التي لم يجتمع عليها السفر. وكنا استثنيناها تعجلاً للمسير، فاتفقنا على أن يأتي كل مسافر بالغداء في اليوم الأول.
وكان في اختلاف الأطعمة مثار لأسئلة: ماذا عندك يا فلان؟ وماذا تأكل يا فلان؟ وكان أكثر الناس تطلعاً إلى السؤال بعض رجال التاريخ. وذكرني هذا قول أبي الطيب:
وكثير من السؤال اشتياق ... وكثير من ردّه تعليل
تهيأنا للمسير، وصفر دليل الركب الدكتور حزين إيذاناً بالسير فلم نهيب إقدامنا على مجاهل سيناء وسلوك طريق بني إسرائيل، لأن الطريق مطروقة، والأمن شامل،

. . .والزاد موفور، والسيارات ضمينة بإبلاغنا غايتنا قبل الغروب
سرنا صوب الجنوب فسايرنا القناة حيناً، ثم خليج السويس حتى حالت بيننا وبينه التلال.
وبعد نصف ساعة مررنا بعيون موسى، وهي على 24 كيلاً من معبر القناة. ولم نعرج على العيون إلا في رجوعنا، وكنت رأيتها مرة من قبل. وهي ينابيع متفرقة متقاربة، يرى المتأمل فيها فوران الماء من قاعها إلى سطحها، وكل ينبوع بركة يفيض ماؤها في الرمل فلا يجري، وحولها نخيل وأشجار من الطرفاء؛ وهي اثنتا عشرة عيناً، وقد ذكرت في القرآن الكريم: (وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، قد علم كل أناس مشربهم. كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين).
وذكرت في التوراة باسم إيليم. ففي سفر الخروج (الإصحاح 16): (ثم جاءوا إلى إيليم، وهناك اثنتا عشرة عين ماء وسبعون نخلة، فنزلوا هناك عند الماء)
وقد نقلت الحكومة إليها سمكا لمنع حمى الملاريا
مضت السيارات في أرض مقفرة قليلة النبات، ثم تغير مرأى البيداء، ولاحت أشجار كثيرة من الطرفاء، جاوزناها إلى أرض غير مشجرة يسم وجهها نبات متفرق من العيثران والرتم والسلة وأعشاب مختلفة. ثم دخلنا وادي الطيبة بين جبال عالية مختلفة الألوان والأشكال؛ فتكاثرت الأشجار البرية متفرقة، وبدت على وجه الأرض إمارات الحياة حتى انعطف الوادي إلى اليمين تلقاء البحر، فإذا غيضة يترقرق الماء فيها، ويلتف فيها الطرفاء والنخيل؛ وهو منظر يوحي إلى المسافر الروح والسرور بعد المناظر القاحلة التي طال سيره فيها. وبعد ثلاثة كيلات من هذه الغيضة بلغنا شاطئ الخليج - خليج السويس - بعد أن قطعنا من القناة مائة وعشرين كيلاً
هناك تبعد الجبال عن البحر قليلاً فتترك بينها وبينه أرضاً رملية مستوية، وعلى الشاطئ شركة إنكليزية تستخرج المنغنيز وهو حجر مسود حديدي يستعمل في صناعة الصلب أو الفولاذ. وهناك مبان للشركة ومساكن للعمال وهم زهاء ألف من المصريين، وسكة حديد لنقل المنغنيز إلى الميناء، وميناء لإرساء السفن
سألنا عن منزل الحكومة (استراحة) فسار معنا خادم موكل به، فرأينا بناء جميلاً طبقة واحدة فيها خمس غرف ومرافقها وأمامها طُنُف واسع. وهذا المنزل بني حينما عزم الملك فؤاد رحمه الله على زيارة سيناء. فهو من آثار عنايته بالصحارى المصرية
نزلنا هناك بعد الغروب فأمضينا ليلة سعيدة في هواء منعش معتدل يحيط بنا مشاهد رائعة من الجبال والبحر أضفت عليها القمراء نورها وبهجتها. ولا أنسى مطلع الشمس هناك بين قنن الجبال القريبة ومغربها على ساحل الخليج الغربي عند جبال الزعفرانة تلوح على بعد كأنها قطع السحاب أو الضباب
إن في هذه الأمكنة وما يشابهها لَمَراداً للمصريين يستجمون من عناء العمل، ويمتعون الروح والجسم بين الهواء والماء، وحرية الصحراء والمرائي الجميلة، ويعرفون مجاهل وطنهم وما فيها من معادن ونبات
وأصبحنا يوم الاثنين مزمعين التجوال في البرية ورؤية معادن المنغنيز وآثاراً مصرية قديمة في مكان يسمى سراية الخادم فاستمعنا من الدكتور حزين كلمة عن سيناء وجبالها ومعادنها. ثم سرنا في وادي الطيبة وملنا ذات اليمين حتى رأينا معادن المنغنيز وهي حفر ساذجة تقطع منها الأحجار لا يكلف قطعها عناء ولا تغلغلاً في بطن الأرض.
ثم سرنا نبحث عن الآثار ولقينا في طريقنا بدوياً معه غنمة وجمال تحمل رحله ونساء وصبية، فكلمناه وأخذنا صورته. وسألته عن شجر صغير يكثر في البادية لا جذع له تنبت أغصانه من جذره مستقيمة دقيقة، له ورق مستطيل دقيق. فقال: هذا الرتَم. فذكرت قصة المتنبي حينما خرج من مصر وسلك سيناء وخانه عبيده فضرب واحداً منهم بالسيف فخر على رتمة. وأنشدت قول الراجز:
نظرت والعينُ مبينة الهّم ... إلى سنا نار وقودها الرتَم
شبت بأعلى عاندين من إضم
واسم الرجل مُطير وهو من قبيلة القرارشة
واستأنفنا المسير فبلغنا مكاناً به نخلات وأشجار وزرع قليل، وإذا بئر تسمى بئر النصب ماؤها قريب عذب

تركنا السيارة وسرنا نبحث عن الآثار واستدللنا رجلاً من غير البدو ادعى معرفة المكان فطال سيرنا وبحثنا على غير هدى، ورجعنا وقد استفدنا من المشي، ورأينا من الأودية والجبال والأشجار والعشب ما عزانا عن الآثار المفقودة. ولم نقل: قتل أرضاً عالمها، وقتلت أرض جاهلها.

(للكلام صلة)

عبد الوهاب عزام

في الاجتماع اللغوي

صراع اللغات

للدكتور علي عبد الواحد وافي

مدرس العلوم الاجتماعية بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

يحدث بين اللغات ما يحدث بين أفراد الكائنات الحية وجماعاتها من احتكار وصراع وتنازع على البقاء وسعي وراء الغلب والسيطرة. وتختلف نتائج هذا الصراع باختلاف الأحوال: فتارة ترجح كفة أحد المتنازعين، فيسارع إلى القضاء على الآخر مستخدماً في ذلك وسائل القسوة والعنف، ويتعقب فلوله فلا يكاد يبقي على أثر من آثاره؛ وتارة ترجح كفة أحدهما كذلك، ولكنه يمهل الآخر، وينتقص بالتدريج من قوته ونفوذه، ويعمل على خضد شوكته شيئاً فشيئاً حتى يتم له النصر؛ وأحياناً تتكافأ قواهما أو تكاد، فتظل الحرب بينهما سجالاً، ويظل كل منهما في أثنائها محتفظاً بشخصيته ومميزاته.

وينشأ هذا الصراع عن عوامل كثيرة أهمها عاملان: أحدهما أن ينزح إلى البلد عناصر أجنبية تنطق بلغة غير لغة أهله؛ وثانيهما أن يتجاور شعبان مختلفا اللغة، فيتبادلا المنافع، ويتاح لأفرادهما فرص للاحتكاك المادي والثقافي.

وكلا العاملين ينتهي أحياناً إلى تغلب إحدى اللغتين على الأخرى، وأحياناً إلى بقائهما معاً جنباً لجنب.

وسنقتصر في هذا المقال على بيان الحالات التي يؤدي فيها العامل الأول إلى تغلب إحدى اللغتين على الأخرى، وما يمتاز به هذا التغلب من خصائص، وما يتصل به من شئون، مرجئين تكملة البحث إلى مقالات تالية.

قد يحدث على أثر فتح أو استعمار أو حرب أو هجرة. . . أن ينزح إلى البلد عنصر أجنبي ينطق بلغة غير لغة أهله، فيشتبك اللغتان في صراع ينتهي أحياناً إلى تغلب إحداهما، فتصبح لغة جميع السكان قديمهم وحديثهم، أصيلهم ودخيلهم. ويحدث هذا في حالتين:

الحالة الأولى: أن يكون كلا الشعبين همجياً قليل الحضارة منحط الثقافة، ويزيد عدد أفراد

أحدهما على عدد أفراد الآخر زيادة كبيرة. ففي هذه الحالة، تتغلب لغة أكثرهما عدداً سواء أكانت لغة الغالب أم المغلوب، لغة الأصيل أم الدخيل؛ على شريطة أن تكون اللغتان من شعبة لغوية واحدة أو من شعبتين متقاربتين

والأمثلة على ذلك كثيرة في التاريخ. فمن ذلك أن الإنجليز السكسونيين، حينما نزحوا من أواسط أوربا إلى إنجلترا، لم تلبث لغتهم أن تغلبت على اللغات السلتية التي كان يتكلم بها السكان الأصليون. وذلك لأن عدد من بقي من السلتيين بهذه الأقاليم لم يكن شيئاً مذكوراً بجانب عدد المغيرين؛ وكلا الشعبين كان همجياً منحطاً في مستوى حضارته ومبلغ ثقافته؛ وكلتا اللغتين تنتمي إلى فصيلة اللغات الهندية - الأوربية - والنورمانديون حينما أغاروا على إنجلترا في منتصف القرن التاسع الميلادي واحتلوا معظم أقاليمها، لم تلبث لغة الشعب المقهور أن تغلبت على لغتهم، فأصبح جميع السكان، أصيلهم ودخيلهم، إنجليزيهم ونورمانديهم، يتكلمون الإنجليزية السكسونية. وذلك لأن الإنجليز المغلوبين كانوا أكثر عدداً من النورمانديين الغالبين؛ ولم يكن لأحد الشعبين إذ ذاك حضارة ولا ثقافة راقية؛ وكلتا اللغتين من الفصيلة الهندية - الأوربية

وقد يحدث أحياناً في هذه الحالة أن تتغلب لغة على أخرى من غير فصيلتها. ولكن هذه الظاهرة نادرة الحدوث، ولا يتم التغلب فيها إلا بصعوبة وبعد أمد طويل. واللغة التي تنشأ من هذا التغلب ينالها كثير من التحريف في ألسنة المحدثين من الناطقين بها لشدة الاختلاف بينها وبين لغتهم الأصلية، فتبعد بعداً كبيراً عن صورتها الأولى. فالبلغاريون وهم من أصل (فينواني حينما نزحوا إلى البلقان وامتزجوا بشعوب

الصقالبة (السلافية أخذت لغتهم تنهزم شيئاً فشيئاً أمام لغة هذه الشعوب حتى انقرضت وحل محلها لسان صقلبي. وذلك لأن عدد البلغاريين لم يكن شيئاً مذكوراً بجانب عدد الصقالبة الممتزجين بهم؛ وكلتا الفئتين كانت إذ ذاك همجية منحطة في مستوى حضارتها ومبلغ ثقافتها. وقد حدث هذا التغلب مع اختلاف اللغتين في الفصيلة؛ فلغة البلغاريين الأصلية كانت من الفصيلة الفينية، على حين أن اللغات الصقلبية من الفصيلة الهندية - الأوربية، ولكن هذا التغلب لم يتم إلا بصعوبة، وبعد أمد طويل، وصراع عنيف خرجت منه اللغة الغالبة مشوهة محرفة عن مواضعها في ألسنة المحدثين الناطقين بها، فبعدت بعداً كبيراً عن صورتها القديمة. فالبلغارية الحديثة هي أكثر اللهجات الصقلبية تحريفاً وبعداً عن أصولها الأولى

(الحالة الثانية): أن يكون الشعب الغالب أرقى من الشعب المغلوب في حضارته وثقافته وآداب لغته، وأشد منه بأساً وأوسع نفوذاً. ففي هذه الحالة يكتب النصر للغته فتصبح لغة جميع السكان، وإن قل عدد أفراده عن أفراد الشعب المغلوب؛ على شريطة أن تدوم غلبته وقوته مدة كافية، وأن تقيم بصفة دائمة جالية يعتد بها من أفراده في بلاد الشعب المغلوب، وأن تمتزج بأفراد هذا الشعب، وأن تكون اللغتان من شعبة لغوية واحدة أو من شعبتين متقاربتين

والأمثلة على ذلك كثيرة في التاريخ. فقد نجم عن فتوح الرومان في وسط أوربا وشرقيها أن تغلبت لغتهم اللاتينية على اللغات الأصلية لإيطاليا وإسبانيا وبلاد الجول (فرنسا وما إليها) والألب الوسطى والإليريا مع أن الرومان المغيرين كانوا في هذه البلاد أقلية بالنسبة لسكانها الأصليين. وقد نجم عن فتوح العرب في آسيا وأفريقيا أن تغلبت لغتهم على كثير من اللغات السامية الأخرى وعلى اللغات القبطية والبربرية والكوشيتية؛ فأصبحت اللغة العربية لغة الحديث والكتابة في معظم مناطق شبه الجزيرة العربية وفي مصر وشمال أفريقيا وفي جزء كبير من قسمها الشرقي المتاخم لبلاد الحبشة؛ مع أن الجالية العربية في هذه البلاد كان عددها أقل كثيراً من عدد السكان الأصليين

وفي كلتا الحالتين السابقتين لا يتم النصر غالباً لإحدى اللغتين إلا بعد أمد طويل يصل أحياناً إلى أربعة قرون، وقد يمتد إلى أكثر من ذلك. فالرومان قد أخضعوا بلاد الجول (فرنسا وما إليها) في القرن الأول؛ ولكن لم يتم النصر للغتهم اللاتينية على اللغة السلتية التي كان يتكلم بها أهل هذه البلاد إلا حوالي القرن الرابع الميلادي. ومع ما كان للعرب من قوة الشوكة، ورقي اللغة، واتساع الحضارة، وحماية الدين، وسطوة الغالب، لم يتم النصر للغتهم على القبطية والبربرية إلا بعد أمد طويل. على أن اللغة القبطية لا تزال مستخدمة في كثير من الطقوس الدينية الأرثوذكسية؛ واللغات البربرية لا تزال إلى الوقت الحاضر لغة محادثة لدى بعض العشائر المغربية

وغني عن البيان أن انتصاراً لا يتم إلا بعد أمد طويل وجهاد عنيف لا يخرج المنتصر من معاركه على نفس الحالة التي كان عليها من قبل. فاللغة التي يتم لها الغلب لا تخرج سليمة

من هذا الصراع. بل إن طول احتكاكها باللغة الأخرى يجعلها تتأثر بها في كثير من مظاهرها وبخاصة في مفرداتها

ويختلف مبلغ هذا التأثر باختلاف الأحوال: فتكثر مظاهره كلما طال أمد احتكاك اللغتين وكان النزاع بينهما عنيفاً والمقاومة قوية من جانب اللغة المقهورة؛ وتقل مظاهره كلما قصرت مدة الصراع أو خفت وطأة النزاع أو كانت المقاومة ضعيفة من جانب اللغة المغلوبة. فلطول الأمد الذي استغرقه الكفاح بين لغة الإنجليز السكسونيين بإنجلترا، ولغة الفاتحين من الفرنسيين النورمانديين (الذين أغاروا على بلاد الإنجليز في القرن التاسع الميلادي واحتلوا معظم مناطق إنجلترا كما سبقت الإشارة إلى ذلك) ولشدة المقاومة التي أبدتها اللغة النورماندية المقهورة، خرجت اللغة المنتصرة (الإنجليزية) من هذا الصراع، وقد فقدت أكثر من نصف مفرداتها الأصلية واستبدلت به كلمات من اللغة النورماندية المغلوبة، واقتبست منها فضلاً عن هذا مفردات أخرى جديدة. على حين أن لغة بلاد الجول التي انتصرت عليها اللغة اللاتينية لم تترك في اللغة الغالبة أكثر من عشرين كلمة؛ واللغات القبطية والبربرية المغلوبة لم تكد تترك أي أثر في اللغة العربية الغالبة. وذلك لأن الصراع في هذين المثلين، على طول أمده، لم يكن

عنيفاً، ولم تلق في أثنائه اللغتان الغالبتان (اللاتينية في المثال الأول والعربية في المثال الثاني) مقاومة شديدة من جانب اللغات المقهورة (لغة الجول السلتية في المثال الأول، والقبطية والبربرية في المثال الثاني)

وتختلف كذلك النواحي التي يبدو فيها تأثر اللغة الغالبة باللغة المغلوبة تبعاً لاختلاف الأحوال التي تكون عليها كلتا اللغتين في أثناء اشتباكهما. ويبدو هذا التأثر بأوضح صورة في النواحي التي تكون فيها اللغة المغلوبة متفوقة على اللغة الغالبة. ولذلك تألف معظم المفردات التي أخذتها الإنجليزية الغالبة عن الفرنسية النورماندية المغلوبة، من كلمات دالة على معان كلية وألفاظ تتصل بشئون المائدة والطهي والطعام. وذلك لأن النورماندية كانت غنية في هاتين الطائفتين من المفردات؛ على حين أن الإنجليزية كانت فقيرة فيهما كل الفقر؛ فعمدت إلى خصيمها المقهور واستلبته ما كان يعوزها قبل أن تجهز عليه. وإلى اقتباسها منه الألفاظ المتصلة بشئون المائدة والطهي وألوان الطعام يرجع السبب في أسلوبها الغريب في تسمية الحيوانات المأكولة اللحم. فكثير من هذه الحيوانات يطلق على كل منها

في الإنجليزية اسمان: اسم جرماني الأصل يطلق على الحيوان مادام حياً: , , , واسم آخر فرنسي الأصل يطلق عليه بعد ذبحه وإعداده للطعام: , , ,

والألفاظ الأصيلة للغة الغالبة ينالها كثير من التحريف في ألسنة المحدثين من الناطقين بها (المغلوبين لغوياً)، فتبعد بذلك في أصواتها ودلالاتها وأساليب نطقها عن صورتها الأولى ويبلغ بعدها هذا أقصى درجاته إذا كانت اللغة المقهورة من فصيلة أخرى غير فصيلة اللغة الغالبة كما سبقت الإشارة إلى ذلك بصدد البلغارية القديمة والصقلبية

والألفاظ الدخيلة التي تقتبسها اللغة الغالبة من اللغة المغلوبة ينالها كذلك كثير من التحريف في أصواتها ودلالاتها وطريقة نطقها، فتبعد في جميع هذه النواحي عن صورتها القديمة، ويظهر هذا بالموازنة بين الكلمات الإنجليزية الآتية والكلمات الفرنسية التي اقتبست منها: , , فإن كل كلمة منها تختلف عن أصلها اختلافاً غير يسير في صوتها ودلالتها وطريقة النطق بها. حتى أن الفرنسي الذي لا يعرف الإنجليزية لا يكاد يتبينها أو يدرك مدلولها إذا سمعها من إنجليزي - وليست هذه الظاهرة مقصورة على الاقتباس الناشئ من الصراع بين لغتين، كتب لإحداهما النصر، بل هي ظاهرة عامة تتحقق في جميع الحالات التي يحدث فيها انتقال مفرد من لغة إلى أخرى.

وتقطع اللغة المغلوبة في سبيل انقراضها مراحل كثيرة تمتاز كل مرحلة منها بمظهر خاص من مظاهر الانحلال وضعف المقاومة ففي المرحلة الأولى تقذفها اللغة الغالبة بطائفة كبيرة من مفرداتها فتوهن بذلك متنها الأصلي وتجرده من كثير من مقوماته ولكن اللغة المغلوبة، تظل طوال هذه المرحلة محتفظة بقواعدها ومخارج حروفها وأساليبها في تطبيق الكلمات: فيؤلف أهلها عباراتهم ويصرفون مفرداتهم وفقاً لقواعدهم التنظيمية والمورفولوجية: (السنتكس والمورفولوجيا، أو النحو والصرف). وينطقون بألفاظهم الأصلية وما انتقل إليهم من ألفاظ دخيلة طبقاً لأسلوبهم الصوتي ومخارج حروفهم؛ حتى أنهم ليستبدلون في الكلمات الدخيلة بالحروف التي لا يوجد لها نظير لديهم حروفاً قريبة منها من حروف لغتهم. . . وفي المرحلة التالية تتسرب إلى اللغة المغلوبة أصوات اللغة الغالبة ومخارج حروفها وأساليبها في نطق الكلمات. فينطق أهل اللغة المغلوبة بألفاظهم الأصيلة، وما انتقل إليهم من ألفاظ دخيلة من نفس المخارج. . وبنفس الطريقة التي يسير عليها النطق في اللغة الغالبة. فيزداد بذلك انحلال اللغة المغلوبة ويؤذن نجمها بالأفول. ولكنها تظل طوال هذه المرحلة مستبسلة في الدفاع عن قواعدها الصرفية والتنظيمية (قواعد المورفولوجيا والسنتكس) وفي مقاومة قواعد اللغة الغالبة. فيركب أهلها جملهم ويصرفون كلماتهم وفق أساليبهم الأولى. وفي المرحلة الأخيرة تضعف هذه المقاومة شيئاً فشيئاً، فتأخذ قواعد اللغة الغالبة في الاستيلاء على الألسنة حتى يتم لها الظفر، فيتم بذلك الإجهاز على اللغة المغلوبة. فالقواعد في اللغة المغلوبة أشبه شيء بالقلعة التي تحتمي بها فلول الجيش المنهزم وتقاتل عنها حتى آخر رمق، والتي يتم بسقوطها استيلاء العدو على البلاد.

علي عبد الواحد وافي
ليسانسيه ودكتور في الآداب من جامعة باريس

الحق والقوة - 2

للدكتور إبراهيم بيومي مدكور
أستاذ الفلسفة بكلية الآداب

ليست فكرة الحق بأعلى من فكرة القوة، وليست الحقوق الفردية والاجتماعية من الوضوح بحيث تستلفت النظر كالقوى الطبيعية والإنسانية. ومن المحقق أن الجمعيات الهمجية خضعت لسلطان القوة وانقادت لعوامل البأس والشدة قبل أن تعرف لغة الحق والقانون، ولم تتكون لديها فكرة عن الحقوق واحترامها والتعهدات والتزامها إلا بعد أن خطت خطوات في سبيل الحضارة والمدنية. ولعلها لم تعترف أول الأمر ببعض الحقوق إلا لأنها رأت القوة تلزمها بالاعتراف بها، ثم لم يلبث هذا الاعتراف القهري أن تحول إلى شعور باطني اختياري يدفعها إلى القيام ببعض الأعمال راحة للنفس ومرضاة للضمير. ففكرة الحق إذن بطيئة التكوين، والحقوق الإنسانية لم تثبت ولم تنضج إلا بعد أجيال عدة وحضارات متعاقبة، على أنها لا تزال حتى اليوم خاضعة لسنة النشوء والارتقاء، ولا تزال طائفة منها مختلفاً عليها بين الأفراد والجماعات

ويظهر أن الحقوق في تطورها مرت بأدوار عدة، فكانت في أول أمرها دينية شعبية وشكلية مادية مقصورة على فريق من الناس. فلا حق إلا ما أحقته الآلهة، ولا التزام إلا بما أوجبته التعاليم الدينية، والحقوق في جملتها فريضة فرضتها السماء وطاعة أُعد لمؤديها الثواب المقيم ولتاركها العذاب الأليم. فعن القساوسة ورجال الدين تعلمت الجماعات الأولى بعض الحقوق، وإليها لجأت في إقامة شعائرها والمطالبة بأدائها؛ ولهذا لم يكن ثمة فرق في الشرائع القديمة بين أمر ديني وآخر دنيوي، وإنما الأوامر كلها وحي الآلهة، وترجمة لإرادة عليا يقف البشر أمامها خاشعين خاضعين. . . هذا إلى أن الحقوق كانت في بدء نشأتها شعبية طائفية، فعرفت حقوق الأسرة والقبيلة قبل أن تعرف حقوق الفرد مهما كانت منزلته، وكثيراً ما ضحى به في سبيل قومه وعشيرته دون ذنب أو جريرة، فما كانت له شخصية معروف ولا وجود مستقل محترم. وإذا كانت الحقوق قديماً مظهراً من مظاهر الحياة الدينية، فلابد أن تؤدى على شكل معين وصورة ثابتة، شأنها في هذا شأن الطقوس المختلفة والعبادات المعروفة. وما كانت القبائل الهمجية تفهم من الحق إلا مظهره

الخارجي، وجانبه المادي، فلم يكن هناك حق معنوي ولا التزام روحي. ولا يمكننا أن نتوقع في تلك البيئات المحدودة والقبائل المتخاصمة حقوقاً تشمل الأفراد على اختلافهم، بل لأبناء القبيلة الواحدة حقوق لا يمكن أن يقاسمهم فيها أبناء القبيلة الأخرى، ولا زلنا حتى اليوم نفرِّق بين الأجنبي والوطني في بعض الحقوق والواجبات.

غير أن الحقوق الإنسانية لم تقف عند هذه المظاهر الأولى، بل تطورت وتدرجت، فتولد إلى جانب الحقوق الدينية حقوق أخرى مدنية، وأخذت العادات والتقاليد تنزل من النفوس منزلة التعاليم الدينية، وصيغت في قالب أوامر وقوانين محترمة. ورأينا الفرد يبرز بجانب الشعب والقبيلة، فعرفت شخصيته واحترمت حقوقه؛ ومن أهم مميزات حضارتنا الحاضرة احترام الشخصية الإنسانية وتقديس ما لها من حقوق. ومن آثار هذا التطور أن تجردت الحقوق من قيودها الشكلية ومظاهرها المادية، فنشأت حقوق معنوية وروحية تمتاز كل الامتياز عن الحقوق الشخصية والعينية، وأضحى الإنسان، وكلمته حجة، وتعهده وثيقة لا تقبل النقص. وانتهت الإنسانية أخيراً إلى طائفة من الحقوق يتساوى فيها الجميع ولا يفرق فيها بين صغير وكبير، ولا بين أمير وحقير، ولا بين أجنبي ووطني؛ هي حقوق الإنسان كيف كان أصله ومنبته ومستواه الاجتماعي وجنسيته.

ولم يتم هذا التطور عفواً ولم تتنوع هذه الحقوق اعتباطاً وإنما أثرت فيها على عوامل مختلفة وساعدت على نموها واطرادها أسباب شتى. فغرست الديانات بذورها الأولى، ولولا الدين ما عرفت القبائل الهمجية حقاً ولا احترمت مبدأ، وفي تشعب الحياة السياسية والاقتصادية ما قضى بتنوع الحقوق وازديادها، فالنظم الدستورية تعترف للأفراد بحقوق ما كانت تسلم بها الحكومات الاستبدادية، وكثيراً ما طالبت الجماعات بحقوق تحميها من ظلم الظالمين وعدوان المعتدين. والأجهزة والآلات فرضت للعمال

على أصحاب المصانع ورؤوس الأموال حقوقاً ما كانوا يطالبون بها من قبل، وكلما امتدت وسائل الحضارة في بيئة ما كثرت الحقوق وتعددت المسئوليات، وليست الحقوق في رقيها وتطورها بخاضعة لعوامل اجتماعية فحسب، بل للفرد في هذا التطور دخل كبير، فكثير من الحقوق لم يسلم به إلا بعد أن دافع عنه وناضل في سبيله أفراد متعاقبون، وكم أدخل العلماء والباحثون على فكرة الحق من تهذيب وتنقيح ما كان للجماهير أن تصل إليهما

أظننا، بعد أن عرضنا للحقوق في نشأتها وتطورها، نستطيع أن نفصل في تلك الخصومة المشهورة المتصلة بأصل فكرة الحق وطبيعتها؛ والأخلاقيون، كدأبهم في المسائل العامة والقضايا الكلية، إزاء هذه المشكلة فريقان: فريق مثالي ينظر إلى الحقائق من حيث هي ويصورها بصورها العليا سواء أطابقت الواقع أم لم تطابقه، وفريق آخر واقعي يعتد بالأمور الملموسة ولا يعول إلا على الحس والتجربة. ويرى الفريق الأول أن الإنسان من حيث هو إنسان يستلزم طائفة من الحقوق ثابتة على اختلاف العصور والأزمنة لا تخضع لبيئة ولا لمجتمع، فهي حقوق أقرها العقل واقتضتها الطبيعة دون أن تتقيد بالحياة الاجتماعية أو تتأثر بها، وأما الفريق الثاني فيذهب إلى أن فكرة الحق مكتسبة لم تصل إلى كمالها إلا بعد أن مرت بأدوار عدة وتأثرت بعوامل مختلفة، فليس ثمة حقوق مقدسة لذاتها، ولا مبادئ أقرتها الإنسانية بصرف النظر عما يترتب عليها من أثر، والحقوق الطبيعية المزعومة لا يؤيدها الواقع في شيء، وإذا شئنا أن نوضح فكرة الحق توضيحاً تاماً فلابد أن نلم بهذين الاتجاهين، ونلقي نظرة على هاتين النظريتين

ليست النظرية المثالية حديثة العهد، فهي ترجع إلى القرن السادس عشر، ويأبى أنصارها إلا أن يصعدوا بها إلى التاريخ القديم فيتلمسوا لها أصولاً لدى مشرعي الرومان وبعض فلاسفة اليونان؛ ومُضي المدة كان ولا يزال وسيلة من وسائل ترجيح طرف على آخر. بيد أنها لم تبد في ثوبها الكامل إلا في القرن السابع عشر والثامن عشر لدى كثير من المشرعين والأخلاقيين وفي مقدمتهم الفقيه الهولندي (جروسيوس) والأخلاقيان الكبيران (روسو وكانت) ثم جاءت الثورة الفرنسية فأخذت بها وأعلنت حقوق الإنسان تطبيقاً لها وعول عليها نابليون كل التعويل في وضع قانونه المشهور. وما إن ظهر المذهب الواقعي الذي نادى به (أوجست كونْت) في القرن التاسع عشر وأيده فيه علماء الاجتماع الآخرون حتى أخذت في التضاؤل والتراجع وأصبح الفقهاء والأخلاقيون يشكون في قيمتها العلمية

وتتلخص هذه النظرية في أن العقل الإنساني يقضي بطائفة من الحقوق أقرها الناس أو لم يقروها، فهي ثابتة للأفراد على السواء ولا تسقط بمضي المدة، ومحاربتها في جيل من الأجيال لا تقوم دليلاً على بطلانها، كبعض الفضائل السامية التي لم يستطع أفراد بيئة ما التحلي بها. وهذه الحقوق، فوق أنها عقلية، طبيعية أيضاً، فهي ثمرة من ثمار الطبيعة

الإنسانية وضرورة من ضروراتها، ولا يستطيع الإنسان أن يؤدي وظائفه الجنسية والعقلية ويحقق كماله المنشود بدونها؛ ومن هنا جاء هذا التعبير المشهور: (الحق الطبيعي) الذي يعتبر عنوان النظرية المثالية. وإذن الحق فكرة لا أمر وجودي، ومبدأ عقلي لا ظاهرة واقعية؛ والظواهر الواقعية على اختلافها ما كانت لتصل إلى تصوير الحقوق بهذه الصورة المثلى. وقد يسلم بعض المثاليين بوجود حقوق مكتسبة، ولكنها تختلف عن الحقوق الطبيعية كل الاختلاف، ولا تسمى حقوقاً إلا بضرب من التوسع والمجاز؛ وفرق ما بين الحق الطبيعي والمكتسب أن الأول مصحوب دائماً بعاطفة داخلية وشعور باطني يقدسه ويحترمه وتجمع العقول السليمة على التسليم به

لا نزاع في أن هذه النظرية المثالية تصعد بفكرة الحق إلى مستوى المبادئ الثابتة والحقائق المسلمة، وتريد أن تقول إن الحق لم يكن حقاً لمجرد أن العرف رآه كذلك، بل لأن العقل والطبيعة استوجبت أحقيته، ولا نزاع أيضاً في أن المثاليين بوجه عام يذهبون إلى أن الحق والخير والفضيلة ذات قيم ذاتية قدسها من أجلها الناس، وكل ذلك اعتداد بفكرة الحق وتدعيم لها على أساس عقلي لا نتردد في أن نقدره ونجله. غير أن هؤلاء المثاليين يتناسون الواقع والتاريخ ويغفلون كل التطورات التي مرت بها الحقوق الإنسانية ولا ينظرون إليها إلا في مرحلة كمالها ويزعمون أن الحقوق كلها

نشأت على هذه الصورة. مع أن حقوق الإنسان لم يعترف بها إلا بعد أجيال وثورات عديدة، ولا تزال حتى اليوم مجال أخذ ورد؛ والحقوق الطبيعية ليست من الجلاء والوضوح بالدرجة التي يتصورها بها أنصارها، فإنا لا نفهم حقاً كانت الطبيعة وحدها مبعثه. وفوق هذا ففكرة الحق مصحوبة بشيء من الحرمة والتقديس لا تستطيع النظرية المثالية أن تفسره، فهناك حقوق نرى من الإثم الكبير أن نخل بها أو نعدو عليها، وما ذاك إلا لأن التعاليم الدينية أحاطتها بسياج من الجلال والرهبة. وفي اختصار، لئن كان المثاليون قد تلمسوا في بعض الحقوق أسباباً عقلية وطبيعية تؤذن بأحقيتها، فليس معنى هذا أن هذه الحقوق إنما استمدت من العقل والطبيعة

لذلك أحسن الواقعيون كل الإحسان في دراستهم للحقوق دراسة تاريخية وتتبعهم لنشأتها وتطورها. والنظرية الواقعية أشبه ما يكون برد فعل للنظرية المثالية، نبتت في القرن

السادس عشر؛ ثم نمت نمواً عظيماً في القرن الثامن عشر بفضل جهود بعض المشرعين والأخلاقيين، وبلغت أوجها في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. والواقعيون في الحقيقة قسمان: قسم يرد الحقوق كلها إلى أصل من المنفعة العامة، ويرى أنها لم تنشأ ولم تتكون إلا تحت تأثير هذه المنفعة؛ ويذهب القسم الآخر إلى أن الحق وليد القوة، نشأ في كنفها وتربى على حسابها، ولولا القوة ما عرفت الحقوق ولا سلم بها

وربما كان مشرعو القرن الثامن عشر وفلاسفته أول من بنى فكرة الحق على أساس من المنفعة العامة، وفي مقدمتهم أستاذ القانون الجنائي بيكاريا الإيطالي، والأخلاقي الإنجليزي بنتام، والفيلسوف الفرنسي هلفسيوس. ثم جاء واقعيو القرن التاسع عشر عامة ورجال المدرسة الفرنسية خاصة فساروا في هذا الاتجاه وأيدوه كل التأييد. فنرى في إنجلترة جون استورث مل وسبنسر، وفي ألمانيا جيرنج، وفي فرنسا الفقيه الشهير ديجي؛ وكل هؤلاء يلتقون في نقطة واحدة، وهي أن الحقوق أثر من آثار الحياة الاجتماعية، ولولا المجتمع ما عرف حق ولا قدس واجب. فالحقوق إذن تتغير من بيئة إلى أخرى، وتخضع لمختلف العوامل الاقتصادية والسياسية والدينية. وإذا كانت المصلحة الذاتية تدفع بعض الأفراد إلى التشبث ببعض الحقوق والمطالبة بها، فإن المصلحة العامة هي الحكم الفصل في كل هذه الشئون؛ والشرائع الراقية تتخذ من هذه المصلحة الدعامة لكل القوانين، فلا حق إلا ما طابقها وجاء موافقاً لمقتضياتها، وإذا كان أنصار النظرية المثالية يعتدون بالفرد وحقوقه، فإن هذه الحقوق لم تعرف إلا عن طريق المجتمع؛ وقد سبق لنا أن أشرنا إلى أن الحقوق أول أمرها كانت شعبية طائفية، ثم تطورت على مر الزمان وظهرت حقوق الأفراد بجانب حقوق الهيئات والجماعات

لقد نجح هؤلاء الواقعيون في تفسير الحقوق على ضوء الحاضر والماضي، وربطوا فكرة الحق بالمجتمع؛ فأصبحت ذات وجود خارجي، وبهذا أمكنهم أن يحللوها ويميزوها ببعض الخصائص. ولا نستطيع في العصر الحاضر بوجه خاص أن ننكر ما للمنفعة العامة واعتبارها من أثر في الحياة الاجتماعية، ولكن رد الحقوق كلها إليها يتنافى مع الواقع، فهناك حقوق عمرت طويلاً ودان الناس بها مع مخالفتها الصريحة لها. على أن النظم الاجتماعية لا تخضع لموازنة منظمة بين المنافع المختلفة، وفكرة المنفعة نفسها غامضة

غير قابلة للتحديد في يسر، وقد فشلت في توضيح فكرة الخير والشر، ولن تكون أعظم نجاحاً في تدعيم فكرة الحق. ومن الغريب أن أنصار هذه المنفعة العامة هم الذين يقولون إن حب الذات غريزة أولية في حين أن حب الغير غريزة ثانوية فكيف تستطيع هذه الغريزة الثانوية أن تكوِّن الحقوق وتتغلب على الغريزة الأولى؟ ومهما يكن من أمر هذا التناقض فإن هؤلاء المنفعيين وفقوا كل التوفيق في ربط الحقوق بحياة المجتمع وعدها ظاهرة من ظواهر تخضع لكل ما يطرأ عليه من عوامل ومؤثرات

إبراهيم مدكور

الكلام هو اللفظ المركب المفيد

شرح الأجرومية!

للدكتور زكي مبارك

ابتسم الزيات وقال: ما هذا التعسف الذي يقع فيه أصحابك الصوفية؟
فقلت: وما شواهد ذلك التعسف؟
فقال: ألم تعلم أن أحدهم شرح الأجرومية بطريقة صوفية؟
ثم رجعت إلى نفسي أحاورها في صمت هو أعنف ما يكون من الضجيج، فقد تذكرت أن حالي في دنياي كان حال الرجل الذي شرح الأجرومية بطريقة صوفية، وأخشى أن أصير إلى ما صار إليه، فلا أظفر من الناس بغير السخرية والاستهزاء!
ولكن، هل أملك التوبة من الشطط والجموح فلا أفجع الناس في أوهامهم من وقت إلى وقت، ولا أشرح لهم الأجرومية بطريقة صوفية؟
وكيف أسكت عنهم وأنا أريد أن أطمئن إلى أن لهم وجوداً ذاتياً يسمح لهم بالرضا والغضب، والقهقهة والأنين؟
إن القلم في يد الكاتب هو المشرط في يد الطبيب!
وكنت لعهد اشتغالي بالطب أعرف مصير المريض بعلامة صريحة، هي إحساسه بوخز المشرط، فإن صرخ عرفت أنه مرجوّ العافية، وإن سكت سكوت الجمود لا سكوت الصبر، عرفت أنه صائر إلى الموت. . .
وهل أنسى اليوم الذي سمعت فيه أقبح ألوان السباب من مريض أعملت فيه المشرط بلا تهيب ولا ترفق لأنقذه من أظفار المنية؟!
ثم اتخذت من القلم مشرطاً أعالج به أمراض القلوب بعد أن فرغت من علاج الأبدان، فما الذي رأيت؟
قضيت سنين بدون أن أسمع من مرضاي صرخة جزع أو شهقة بكاء، فكدت أيأس من سلامة مرضاي، وهممت بتوديع مهنة الأدب كما ودعت مهنة الطب، لأرجع فلاحاً يصاحب الفأس والمحراث في حقول سنتريس. . .
ثم لطف الله بمرضاي فهداهم إلى الصراخ والأنين لأعرف أن الأمل في نجاتهم ليس من المستحيلات
أما بعد فقد حان الوقت لشرح الأجرومية والألفية والسنوسية بطريقة صوفية
حان الوقت لشرح عجائب النهار وغرائب الليل
حان الوقت لعلاج العقول والقلوب والأذواق والأحاسيس ولكني أخاف. . .
ما الذي أخاف؟
أخاف من عواقب القلم ما كنت أخاف من عواقب المشرط والدولة تسأل الطبيب الذي يجني على حياة مريض، ولكنها لا تسأل المريض الذي يجني على حياة طبيب
وهل يعرف زملائي كيف هجرت مهنة الطب؟
هجرت تلك المهنة هجراً غير جميل بسبب حادث رأيت به شبح الموت
كنت أعمل المشرط بيمناي في جسد عليل فمسَّ إصبعاً من يسراي فارتجفت، لأن أساتذتي بكلية الطب في باريس علموني أن العلم بخطر المرض قد يفضي بصاحبه إلى الفناء، ومن هنا جاز أن تصنع جرثومة واحدة بجسم الرجل الصحيح ما لا تصنع ألف جرثومة بجسم الرجل العليل
وفي ذلك الوقت عللت نفسي فقلت: إنما هي جرثومة فانية من جسم يدبّ إلى الفناء، ولا خوف عليّ وأنا أطاول الدهر بجسم يضارع أجسام العماليق، وبعد يوم أو يومين أمنت عواقب ذلك الجرح، ثم انصرفت إلى غير رجعة عن مهنة الطب
واليوم يصنع القلم ما صنع المشرط
أسمع صراخ مرضاي فأبتسم، لأن صراخهم يشهد بأنهم أهل للحياة، ولكن ذلك الصراخ تقع فيه أحياناً ألفاظ غلاظ ينزعج لها ذوقي بعض الانزعاج، فهل تكون هذه الألفاظ كتلك الجراثيم؟
إن كان ذلك فسأستشهد في ميدان الأدب بعد أن فاتني الاستشهاد في ميدان الطب، وعند الله والحب جزائي!
وما خوفي من تلك الألفاظ الغلاظ وأنا بعافية وأستطيع التمرد على جميع الأدواء، وفي صدري من اليقين ما يزعزع رواسي الجبال؟
وهل يصل الطبيب إلى شيء إذا عرف المبالاة بأوهام مرضاه؟

لقد كتب مرضاي ما يزيد على ألف مقل، وأسمعوني صراخهم في كل بلد توجهت إليه، ولم أر منهم غير الاستخفاف بصنع الجميل، وكنت مع ذلك آية في الصبر على مكاره العقوق، فكيف أجزع وقد أمدتني الأيام بقوة القلم والمشرط، كما أمدتني بقوة الظفر والناب؟

قال الزيات: الرسالة تنتظر منك مقالاً لعدد الهجرة لا تكفر فيه كما كفرت في مقال السنة الماضية!

سبحان الله

وأنا كفرت في السنة الماضية، يا زيات؟

ألم تعلم، يا زيات، أن مقالي كان فرصة ذهبية لعشرات أو مئات يأكلون الخبز باسم الغيرة على الحق!

إن مقالي عن (النواحي الإنسانية في الرسول) علم أقواماً سهر الليالي في البحث والتنقيب، فكيف تبخل فلا تعد ذلك المقال من حسناتي؟ وكيف تنسى أنني هجت به صدوراً كنت أخشى عليها الموت بالصدأ والجمود؟

وهل تصدق أن في خصومي من يدرك عظمة الرسول كما أدرك؟

إن بيني وبين الرسول صلة وثيقة هي البلاء بالدنيا والناس، فكيف يتوهم قوم أنهم يغارون عليه أكثر مما أغار عليه، وهم لا يتقدمون لنصرته إلا مدفوعين بالثمن الذي أعرف وتعرف؟

إن في خلق الله من يأكلون الشهد بفضل الرياء، فكيف يؤذيهم أن نشرب أكواب الصاب والعلقم بسبب القول الصريح؟

ألم يكف ما نعاني من الإيذاء في سبيل الصدق حتى نشرب السم من أيدي المرائين؟

وإلى متى يستريح المرضى من أمراضهم بالصراخ؟

ألا يتقدم الطب فيجد للمرضى علالة غير الصراخ؟

إن الصراخ كان صوت الطفل وكان أسلوبه في التعبير عن ألمه قبل أن يعرف النطق، فما بال قوم يصرخون وقد علمناهم أساليب البيان بالكلام المفيد؟

ما بال قوم يصرخون وقد هديناهم إلى النطق وشرحنا لهم الأجرومية بطريقة صوفية؟

ما بالهم يصرخون وقد علمناهم أساليب الصبر الجميل؟

ولكن لا بأس فالصراخ فن من التعبير عن الألم، ولا يحس الألم غير الأحياء، ومعنى ذلك أن مرضانا غير أموات، ولله الحمد وعليه الثناء

قلت لنفسي: هذا زيد الذي كان يراني من أشرف الناس، وذاك عمرو الذي كان يراني من أعظم الرجال، وذلك بكر الذي كان يراني من الأبطال، فما بالهم ينوشونني بلا ترفق ولا استبقاء وكنت لهم ظهيراً في أحرج الظروف؟

فأجبت النفس: أولئك مرضاك عاودتهم العافية على يديك فهم يشهدونك على أنهم أصبحوا من الأصحاء

فقلت: أما يملكون من التعبير غير هذا الأسلوب البغيض؟

فقالت النفس: ألست أنت الذي قال بأن الكفر لا يكثر في غير الأمم القوية؟

ومن هذا الحديث عرفت أنني نقلت مرضاي من المرض إلى الصحة، ومن الصحة إلى التمرد، ومن التمرد إلى الجحود

أما بعد، ولي في كل لحظة (أما بعد) لأن ذهني ينتقل في عراك الأفكار من ميدان إلى ميادين بسرعة البرق

أما بعد فقد عشت دهري زاهداً كل الزهد في خلق المودات والصداقات، لأن أهل زماني لا يرون هذه الأواصر الجميلة إلا ضرباً من ضروب المنافع، وفيهم من يرى الشكر على المعروف أعظم من المعروف، فلا يرضيهم إلا أن تعترف بأنك مدين وإن طوقت أعناقهم بقلائد الجميل

وأنا والله راض عما يصنعون، لأن اللغو الذي يلقونني به من وقت إلى وقت يشهد بأنهم يملكون من الصحة ما يقدرون به على شتم الطبيب المجاهد الذي استعذب من أجلهم شقاءه بالدنيا والزمان

ولكن ما أصل البلاء الذي نعانيه من الناس؟

يخاصمني فريق باسم الأدب، ويخاصمني فريق باسم الدين فأين يقع الحق مما يريد أولئك أو هؤلاء؟

هل يستطيعون القول بأنهم لا يبتغون من مخاصمتي غير وجه الحق؟
إن كان ذلك فأين ما هتفوا به من أن الشهرة التي ظفرت بها هي التي تضللني فتحملني
على مجانبة الحق في بعض الأحيان؟
وهذه الشهرة هي أصل تلك الضغائن والحقود، ولكن ما الذي أصنع وقد هربت من الشهرة مليون مرة فكانت تلاحقني بلا هوادة ولا رفق؟
دلوني على جريدة أو مجلة عرضت عليها أدبي بثمن أو بغير ثمن
دلوني على ناد ألقيت فيه محاضرة بدون دعوة
دلوني على عمل توليته بدون أن أستعد له بأهلية الفكر والعقل
هل سمعتم حديث الإذاعة اللاسلكية؟
يسألني الناس كل يوم عن سبب انقطاعي عن الإذاعة، فأين فيهم من يعرف أن لي بمحطة الإذاعة صديقاً كريماً هو الأستاذ سعيد لطفي؟ وأين فيهم من يعرف أن ذلك الصديق يعجب من انصرافي عن الإذاعة مع أن المستمعين يرحبون بصوتي كل الترحيب؟ وأين فيهم من يعرف أن الحرص على الوقت هو الذي يضيع علي شرف التحدث إلى أصدقائي في مصر والأقطار العربية، مع أن لتلك الأحاديث أجراً غير قليل ولو شئت لجعلته أجراً غير ممنون كما يصنع بعض الناس!
وأين يضيع وقتي؟
وهل عندي وقت يصلح للحفظ أو الضياع؟
وهل للموظف وقت غير السويعات التي يتكلف إحياءها بين الأهل والأبناء؟
ومن تلك السويعات أخلق الفرصة لمسايرة الحياة الأدبية فأقرأ جميع الجرائد والمجلات، وأراجع ما يهمني النظر فيه من المؤلفات العربية والفرنسية، وأكتب ما أراه من الملاحظات على ما أقرأ وما أسمع، ثم أخلو بعد ذلك إلى قلمي في صحبة العفريت الذي سمعتم أخباره في خطابي إلى الدكتور طه حسين!
وبهذه المناسبة أذكر أني ركبت المترو منذ أيام فرأيت بالقرب مني فتى يشبه كلود، فقطعت المسافة وأنا مرتاب في أنه كلود، ثم عرفت في النهاية أنه كلود، ولم أسلم عليه لئلا يتوهم أني أغضيت عنه كل ذلك الوقت
فكيف قضت الأيام بأن أجهل وجه ابن أخي، وما عرف في طفولته أن لأبيه صديقاً أعرف مني بالود، وأحفظ للهو؟
ثم أرجع فأقول إن ما تقرءونه بقلمي من وقت إلى وقت هو عصارة تلك السويعات أو تلك اللحيظات، فما غيظ بعض الناس من الشهرة التي جناها الصبر على سهر الليل؟
الليل؟ الليل؟
وأين من يعرفون سهر الليل في هذه الأيام، السهر في صحبة الورق والمداد؟
كان من حقي أن أصوب سنان القلم إلى صدور من يأكلون السحت، صدور الذين يأكلون الخبز باسم اللغة العربية وقد تمضي الأعوام ولا يزوّد أحدهم نفسه بكتاب ثمنه خمسة قروش، فضلاً عن المساهمة في البحث والتأليف
وكان من واجب من عابوا نشاطي أن يوجهوا ملامهم إلى الكسالى الظرفاء من أمثال فلان وفلان وفلان، وهم قوم أعطاهم الزمن حقوقاً لن أنالها ولو عُمِّرت عمر نوح، لأن هيامي بصحبة الورق والمداد سيضيع علي جميع المنافع الدنيوية، وقد أموت بسبب الكدح الموصول قبل أن يموت فلان مع أنه ولد قبل أن يولد أبي. رحم الله أبي وأسبغ على ذلك الفلان ثوب العافية!
ثم ماذا؟
ثم أوجه القول إلى من يتوهمون أنهم أحرص مني على الدين وأمري مع هؤلاء عجب من العجب، فقد شقيت ما شقيت في خدمة الدراسات الدينية، ثم كانت النتيجة أن أتهم برقة الدين وأن يظفروا بحسن السمعة مع أن فيهم ناساً لا يعرفون أخبار المؤلفات الدينية إلا بالسماع
اسمعوا كلمة الحق مرة واحدة، أيها الناس
الإسلام دين العدل والتوحيد، ولكن أين من يخدمه بلا جزاء؟
في (مصر الجديدة) نحو خمس وعشرين مدرسة أسسها رجال لهم عقائد من أتباع موسى أو المسيح. فهل في مصر الجديدة مدرسة أسسها رجال من أتباع محمد؟

وفي (شبرا) نحو خمس عشرة مدرسة أسسها رجال من ذلك الطراز. فهل استطاع أشياخنا أن يحتلوا في (شبرا) غير مسجد واحد أنشأته إحدى السيدات المسلمات؟
وفي أسيوط مدارس أقامها أمثال أولئك الرجال، فهل بين علمائنا من يقول إنه قدم حجراً واحداً لبناء معهد أسيوط الديني؟
وفي الأزهر أكثر من سبعمائة مدرس، فهل فيهم من يرضى أن يعيش باللقمة كما يعيش المكافحون من الفرير والجزويت ولهم مدارس في أكثر بقاع الأرض؟
وفي مصر مدارس كثيرة تديرها الراهبات، فهل بين علمائنا من خلق الروح الديني في زوجته فأنشأت مدرسة لتثقيف الفقيرات واليتيمات؟
. . .إن الأزهر يرسل وعاظاً لبعض الأقطار البعيدة من حين إلى حين
ولكن هل تعرفون مصاير أولئك المبعوثين؟
إذا قامت حرب في الحبشة أو في الصين صرخوا واستغاثوا وكلفوا الدولة ردهم إلى أوطانهم في أقرب وقت!
فهل سمعتم أن مبشراً مسيحيا ترك مقر عمله بسبب الحرب؟
ومع ذلك يقرأ علماؤنا مقالات رجل مثلي حرفاً حرفاً ليبحثوا عن لفظة نابية يثيرون حولها الأراجيف
ومن يكون المؤمنون إذا حرم رجل مثلي نعمة الإيمان الصحيح؟
آه، ثم آه!!
الجهاد في سبيل الأدب ضائع، والجهاد في سبيل الدين ضائع فماذا أصنع وقد شقيت بوطني وزماني؟
من زَغَب الظلم أخذت الخيوط لصياغة الورق
ومن دم الظلم أخذت الحديد لسنان القلم
ومن غضبات الظلم أخذت الكهرباء التي يطالعكم بها بياني
وعن جنون الظلم نقلت إليكم أقباس الجنون، وهو على سنان قلمي أشد تماسكاً من العقل
وبفضل الظلم رأيتموني دائماً من أنصار العدل
زكي مبارك
من الذروة!
شفتاك أغنيتان
للأستاذ محمود حسن إسماعيل
شَفَتَاكِ أُغْنِيَتَانِ نا ... ئِمَتانِ في وَتَرٍ حَزِينْ
صَبَغَتْهُمَا بِلَهِيبِها الْ ... قُدُسِيِّ نارُ الْمُغْرَمِينْ
وَشَدَتْهُمَا شَبَّابَةٌ ... لِلّهِ طاهِرَةُ الرَّنينْ
أَزَلِّيةُ الأَنْغَام تَيَّ ... مَ سِحْرُها قَلْبَ السِّنِينْ
فَاهْتَزَّتا حِيناً، وَنُو ... رُكِ مَدَّ فَوْقَهما السُّكونْ
فإذا هُما شَفَقانِ في ... أُفُقٍ تَضِلُّ به الْعُيُونْ
مُتَوَهِّجَانِ عَلَى سنا ... كِ مِنَ الصَّبابَةِ وَالحنينْ
سَجَدَتْ لِطَيْفِهما التَّما ... ئمُ في شِفاه السَّاحِرِينْ
وَسَجَت جِراحاتُ الْمَسَا ... ءِ عَلَى قُلوبِ الحائِرِينْ. . .
إِلاَّ جِراحاً في مَسا ... ئيَ صَاخِباتٍ بِالأَنينْ
سُلْوَانُها شِعْرُ الشِّفا ... هِ الصَّامِتُ النَّغَمِ الحَزِينْ
محمود حسن إسماعيل
خليفة حافظ
(بحث نشرته مجلة العصبة البرازيلية في عددها الممتاز)
للأستاذ توفيق ضعون
لما كنتُ من عشَّاق الشعر السائغ، السهل المبني، الواضح المعنى، المؤدي صورة صادقة من عاطفة ناظمه وهدفه في الوجود، ومن كارهي الإغراق والتعقيد ومواراة المعنى المقصود وراء أكثف الحجب التي لا تخترقها البصيرة ولا تعين على استجلائها كتب اللغة ومعاجمها، بحيث يصبح الشعر كناية عن رموز وطلاسم لا يحلها إلا الله والراسخون في العلم - فلا بدع أنني كلما وقعت في يدي جريدة أو مجلة رحت أقلب

صفحاتها علّي أعثر على سطور مشطرة فأقرأ مطلعها راجياً أن يستدرجني إلى قراءة ما يليه وإلا اكتفيت به وقلبت الصفحة آسفاً، نادماً على الوقت الذي أضعته، لأن المطلع عندي بمثابة الوجه الذي قد تستهويك النظرة الأولى إليه فتقبل على صاحبه، أو تنفرك فتعرض عنه

وكان خير ما يستهويني، نظراً إلى استيفائه الشروط المقدم ذكرها، شعر حافظ إبراهيم، فلما ارتحل عن هذا الوجود أخذت أفتش في صفحات المجلات المصرية عن خليفة له أجلسه على عرش إعجابي واحترامي فلا أجد، حتى وقع يوماً في يدي جزء من مجلة الرسالة التي وجدت فيها ضالتي من حيث الأدب العالي والثقافة العميقة الدقيقة، فقلبت بعض صفحاته وإذا بي أعثر على أبيات من الشعر استهواني مطلعها واستدرجني إلى الإتيان عليها حتى ختامها. وكنا في إدارة (العصبة) فرحت أتلو على مسامع الإخوان تلك الأبيات التي لمست فيها روح حافظ وأسلوبه الطلي الأخاذ فشاطروني رأيي. وطفقت منذ ذلك الحين أتلمس آثار محمود غنيم الأدبية في تلك المجلة الغنية بنتاج أدمغة المجلين في مضمار الأدب في ذلك القطر السعيد

وعلمت بعد التنقيب أن محمد غنيم مدرس في كوم حماده إحدى قرى الصعيد (الصواب أنها في مديرية البحيرة) يحمل شعره المجنح شكواه من سوء حاله وضيق مجاله، فهو يحسب نفسه سجيناً في تلك القرية يتوق إلى الإفلات منها ولا توق الطائر الغريد إلى الإفلات من قفصه ولو كان من ذهب فكيف به وهو من معدن بخس وخشب. مجال ضيق وعيش على وتيرة واحدة يسئم النفس، وعشرة لا مطمع فيها للأديب الذي يؤثر تغذية روحه على تغذية جسده. وعلام أطيل في تصوير الحال التي هو فيها، وقد وصفها هو على أدق وأكمل شكل في القصيدة التالية وعنوانها (كأس تفيض). قال:

تعللتُ دهراً بالمنى فإذا بها ... قواريرُ من مسِّ الصبا تتحطمُ
لعمرك لا أدري على أيّ منطق ... أُشاهد في مصر الحظوظَ تقسمُ
فمن يكُ ذا قربى وصهرٍ فإنني ... بمصرَ وحيدٌ لا شقيقٌ ولا حمُ
فلا غروَ أني قد سكنتُ بأرضها ... كما سكنتْ أهرامها والمقطمُ
أيذوي شبابي بين جدران قريةٍ ... ببابٍ كأن الصمتَ فيها مخيّمُ
أكاد من الصمت الذي هو شاملي ... إذا حُسب الأحياءُ لم أكُ منهمُ
وعاشرتُ أهليها سنينَ وإنني ... غريبٌ بإحساسي وروحيَ عنهم
يقولون: خضراءُ المرابع نضرةٌ ... فقلتُ: هبوها؛ لست شاةً تُسوَّم
على رَسلكم إني أقيم بقفرةٍ ... يجوز على الأحياءِ فيها الترحم
حياةٌ كسطح الماءِ والماءُ راكدٌ ... فليس بها شيءٌ يسرُّ ويؤلم
وما أبتغي إلا حياةً عنيفةً ... تسرُّ فأرضى، أو تسوءُ فأنقم
حياة كلجّ البحر والبحرُ زاخر ... تدوّي بها الأنواءُ والرعدُ يهزم
حياة بها جدٌّ ولهوٌ، بها رضىً ... وسخطٌ، لها طعمانِ: شهدٌ وعلقمُ
حنانيكَ إني قد برمتُ بفتيةً ... أروحُ وأغدو كلّ يوم إليهمُ
صغارٌ نربيهم بمثل عقولهم ... ونبنيهمو لكننا نتهدّمُ
لأوشك أن أرتدّ طفلاً لطول ما ... أُمثل دورَ الطفل بين يديهمُ
فصولٌ بدأناها وسوفَ نعيدُها ... دواليك، واللحن المكرر يُسأم
فمن كان يرثى قلبه لمعذَّبٍ ... فأجدرُ شخصٍ بالرثاءِ المعلّم
على كتفيه يبلغُ المجدَ غيرهُ ... فما هو إلا للتسلُّق سلّمُ
يقولون: مِنطيقٌ أغرُّ بيانهُ ... فقلت لهم: لكنّ حظيَ أبكم
أرى الحظَّ منقاداً لكلِّ مهرجٍ ... فأما على الأكفاءِ فهو محرّم
ألا فليسُدْ مَن شاَء حسبيَ أنني ... ضننت بماءِ الوجه حين تكرموا

فهل هناك ما هو أوهى من هذه القوارير التي كنى بها عن أمانيه العاثرة، وقد وصفها بكونها تتحطم من مس أخف وألطف النسمات؟ وهل هناك ما هو أدل على حقيقة الواقع من أن لا منطق على الإطلاق في توزيع الحظوظ؟ وربما صح هذا الحكم على الشهرة نفسها إذ لم يقم أديب إلا اختلف الناس في تعيين مقداره، وطالما كانت الشهرة نصيب من لا يستحقها لعوامل وأسباب لا علاقة لها بالكفاية المجردة، كأن تسخر الأقدار لغير كفء ما لا تسخره للكفء من المذيعين والمطبلين والمزمرين

لهوس أو غاية في النفس. وأين نجد صورة للعزلة التامة لمقيم في القطر المصري كالأهرام والمقطم، يلي ذلك وصف الضجر والسآمة، فحياة المعلم والأدوار التي يمثلها، فالاعتصام بعد كل الشكاوي المؤلمة بالصبر والاستمساك بالأنفة والإباء؟
ثم عثرت على صورة ثانية استوثقت منها أن محمود غنيم لا يعدم تعزية، عما هو فيه مستمدة من محيا صغيريه اللذين لا يسأم مداعبتهما كلما عاد إلى منزله عودة الطائر إلى عشه طلباً للراحة والدفء والقوت وهاك ما يقوله في وصف هذا المشهد بعنوان: (حول المدفأة - أنا وابناي):

وأطيب ساعِ الحياة لديَّا ... عشيةَ أخلو إلى ولديَّا
فأُجلس هذا إلى جانبي ... وأُجلس ذاك على ركبتيَّا
وأغزو الشتاَء بموقد فحمٍ ... وأبسطُ من فوقهِ راحتيَّا
وأحسبني بين طفلي (شاهاً) ... وأحسب عشيَ قصراً عليَّا
وما حاجتي لغذاء وماء ... بحسبيَ طفلايَ زاداً وريَّا
فيا ليت شعري أتمتدُّ بي ... حياتي فأجنيَ غرس يديَّا
وأشهدَ طفليَ حين يشبُّ ... فتىً عاليَ النفس شهماً أبيا
أبوك امرؤ من رجال الكلام ... فكن أنت يا ابني امرأً عمليا
فما احتقر الناس إلا الأديب ... ولا احترمَ الناسُ إلا الغنيَّا
أيا ابنيَّ أحبب بما تكسرانِ ... وأهونِ بما تتلفانِ عليَّا

فانظر إلى العاطفة الوالدية الصادقة المتجسمة في هذه الأبيات وأكبر معي التضحية إلى أقصى حدودها كرماً لتلك العاطفة الفياضة بالشعور والحنان، إذ ترافق عدم الإمكان الاستهانة التامة بكل ما يمكن أن يكسره الصغيران المحبوبان، أو يتلفاه إلى حد استحلاء
الإضرار وتشجيعهما عليه، وما يتخلل ذلك من تمنيات وعظات.
ومما تقدم رأيت كل الجمال في روح محمود غنيم. على أني افتقدته في رسمه القاتم في بعض صفحات (الرسالة) شاهداً على أن لا علاقة البتة بين المظهر والمخبر، ولكن حبذا الدمامة في الخلق إذا كانت ترافقها مثل هذه الوسامة في الخلق. وعلام أشكو مما يزيد غنيماً شبهاً بحافظ كما يزيد ترشيحه لخلافته تبريراً!
هذا هو محمود غنيم الذي أقدمه الآن لقراء العصبة فخوراً بأنني أقدم شاعراً مجيداً، إذا لم يضارع حافظاً في أصيله فإنه يجاريه في ضحاه، وها حاضره يبشر بمستقبل ربما كان أخصب وأجدى. ومما يرجح كفته في نظري هو عقم محيطه بالنسبة إلى محيط حافظ أيام كان يطلق صيحاته وأغاريده في القاهرة حيث المجال الرحب والموحيات والمستثيرات على أنواعها، وكلها مما يفجر الشاعرية، ويبعث الكوامن ويعين على الإجادة. أضف إلى ذلك أنه منذ البداءة حافظيٌّ في تأنقه وتدقيقه وبراعته في تخير الألفاظ والبحور والقوافي التي تماشي روح القصيدة، وتكسبها خاصة الإعراب عن مرامي ناظمها، وتساوق حركات وسكنات الحدث الذي تدور عليه أو المناسبة التي اقتضتها
أما مستندي فما سبق وما سيلي مما اقتبسته واجتزأت به مكرهاً بداعي ضيق المجال، من بضع قصائد احترت في ما أختاره وما أهمله من أبياتها الحسان، وهذا بذاته يدعو إلى الإعجاب بخصب قريحة الشاعر وسعة اطلاعه ومقدرته على الإجادة، حتى في أتفه الموضوعات المطروقة وأبعدها عن استرعاء الالتفات؛ إذ يغلب في الشعر أن يكون الجيد منه هو الأندر، فكيف وقد رأيت الندرة نصيب ما يمكن الاستغناء عنه على رغبتي في الاختصار تفادياً من التطويل وخشية الملل؟
شعر تصويري سداه الدقة، ولحمته الأمانة في الأداء ونزعة حرة، وفكر طليق من سيطرة الأوهام، وخيال واسع يتغلغل في الأعماق ويكشف الخفايا، ونفس طموح لا يكبح جماحها إلا الإباء المستحب.
اسمعه يصف راتبه بأبلغ ما يدل على سهولة وسرعة التفلت وقلة الوفاء بالحاجة، ويجيد التخلص إلى نصيحة غالية يسديها إلى أبناء قومه محذراً إياهم من عواقب الوكل، وكارهاً لهم الأعمال ذات الكسب المحدود:

ولي راتب كالماء تحويه راحتي ... فيفلت من بين الأصابع هاربا
إذا أستأذن الشهر التفت فلم أجد ... إلى جانبي إلا غريماً مطالبا

فقل لشباب النيل قالةَ ناصحٍ ... تعافُ له أخلاقه أن يواربا
إذا مصر لم ترفع قواعد مجدها ... بساعدها لم تقض منه مآربا
وإن نك في كل المرافق عالة ... على غيرنا عشنا بمصرٍ أجانبا

وهاك مطالب أخرى لم تفته في أيها الإجادة المبتغاة. فمن قوله مخاطباً ملكة الجمال العالمي المصرية بعنوان (ملكة الجمال) بيتان ضمنهما نزعته الاستقلالية، هما:

كم عاهل ذي سطوة لم يفتتح ... قلباً وإن فتح المدائن والقرى
ما للمها في مصر تحكم عالماً ... والليث يعجز أن يعيش محرراً

وما هي إلا فترة من الزمن حتى يتجلى غنيم فينزع عنه أطمار التذمر والشكوى ويرتدي وشاح الحكمة والاختبار ويتسنم منصة الوعظ والإرشاد، مصوراً حقيقة الحياة، ومزيلاً انخداع البشر بأنفسهم، ومبطلاً ما يدعونه عادة من عفة وتقشف، ويرشحون ذواتهم من أجله لسكنى دار الخلود، كما يضرب الرياء والتظاهر ضربة قاضية، إذ يقول بعنوان (المادة):

فتشت بين الناس عن زاهدِ ... فلم تقع عيني على واحدِ
ما أزهد المرَء إذا لم يجد ... وأبعدَ الزهدَ عن الواجدِ
فقيمةُ الشعبِ إذا قستها ... بقيمة الصادرِ والواردِ
قد يُحسد المرءُ على رزقهِ ... ولا أرى للفضلِ من حاسد
لم يخترِ الناس دياناتهم ... بل أخذوا بالمذهب السائد
ليس جمالُ الطبع في غادة ... مثل جمالِ اليدِ والساعد
يا زاعم العفةِ في حبه ... ما تبتغي من كاعب ناهد؟
لم يتقِ الله امرؤٌ للتقى ... بل لنعيم الجنة الخالدِ
لولا جمال الحور ما لامستِ ... أرض المصلى جبهة الساجد
هل كنت تلقى في الورى ساعياً ... لو كان يسعى الرزق للقاعد
سيان من يسعى إلى قوته ... بالسلب أو بالوَرع الزائد
كم لحية أجدى على ربها ... من ألف سهم بيد الصائد
صاحِ دعِ الروح ودع قدسها ... نحن عبيد الجسد الفاسد

فإذا وقفته على الشاطئ الرملي في الإسكندرية يمتع طرفه بمرأى المستحمات ويشبع نهمه من محاسنهن خلع العذار وأجاد في وصف ذلك المشهد البديع وسال رقة بمقطعات غزلية موشاة منمقة مطرزة كأنها بستان فيه من كل فاكهة زوجان. وهذا بعضها:

أعوارٍ تلك الدُمى أم كواسي ... بلباسٍ يفصّل الأجساما؟
لا وقاه الله البلى من لِباس ... إنّه كان واشياً نماما
أيها المشتكي من الإقلالِ ... متّع النفسَ بالجمال متاعا
لم يُبيحوا لنا شيوعَ المالِ ... وأباحوا لنا الجمال مشاعا
لا تضيقوا بالمعصم المكشوف ... وتقولوا: خير الجمال المصونُ
ما غناءُ الشذى بغير أنوفِ؟ ... قيمةُ الحسن أن تراهُ العيون

وانظر إلى رشاقته في وصف راقصة أخذت عقله بخفتها ومرونة أعضائها وحسن تثنيها إذ يقول:

كأن تحت إخمص ... يها جمرة مشتعله
باسمةٌ يحسبها ... كل فتى تبسم له
أبدلها خالقها ... بكلِّ عظمٍ عضله
جسم كموج عيلم ... تسبح فيه الأخيله
تحسب فيه كل عض ... وٍ وحدةً منفصله
في مرقص لا يع ... رف الهم فؤاد نزله
الهمُّ فيه واقفٌ ... خجلان يُخفي خجله
دعني أضلُّ ساعة ... عبءُ التقي ما أثقله
ما كنت من أهل الم ... سوح والذقون المسبله
كم روعٍ مصطنعٍ ... وعفةِ مفتعله

وأخيراً انظر إليه في النقد الصائب واللوم العادل والتنبيه إلى الواجب، إذ يصف بني قومه الذين يترسمون خطى الغرب دون تخير أو استثناء:

يترسمون الغرب حتى يوشكوا ... أن يعبدوه عبادة الأصنام
ما قلدوهم مبصرين وإنما ... تبعوا نظامهمُ بغير نظامِ
ما صاغ ربك من نضار خالص ... شعباً، وشعباً من حصىً ورغامَ
هذا الكثير المختار من بضع قصائد عامرة قليل من كثير، ولعمر الحق إن شاعراً تقع له مثل هذه الإجادة وتصاد من ساحله كل هذه الدرر، لهو بحر زاخر لا يجوز أن نطمره أو نضع في سبيله الحواجز والسدود، بل يجب أن نهيْ له الحياة التي اختارها وأحسن وصفها فيما سبق لي نقله من أنات آلامه وحشرجات شكاويه ولعل هذا الصوت الضعيف يصل إلى آذان القادرين من إخواننا المصريين، فيجد صدىً في نفوسهم يستفزهم إلى إنصاف هذا الشاعر المجيد المغبون فيعود إلى مصر حافظها متقمصاً في شخص محمود غنيم.

توفيق ضعون

الربيع

في باريس

نظم الشاعر هذه الأغنية وهو موجع الجنب، سنة 1928؛ ثم نظر فيها وزاد عليها. وفي المقطع الثاني من القصيدة إشارة إلى انبثاق الربيع في باريس بعد طول حبس الشتاء له، وإشارة إلى الثلج المغشي وجه الأرض يمحوه الربيع فيعيد المعالم.

عانقِ العودَ وهاتِ ... هَمْسَ أنغامِ الشكاةِ
خفِّفِ اللَّمسَ عن الأَو ... تارِ واضرِبْ في أناةِ
كلَّ ما رنَّ وبثَّ اله ... مَّ نَبْضٌ من فؤادي
يا ربيعاً واثباً كالنَّهْدِ ... من ظُلْمِ حِجابِ
ناثراً فوق مشيبِ الْ - أَرْضِ آياتِ الخِضابِ
هَدأَ اللحْظُ به هَدْ ... أَةَ حيرانَ بهادِ
يا ربيعاً ناسجاً أسْرارَ تَحنانِ الفتاةِ
حولَ أثمارٍ رِطابٍ ... تَتدلّي داعياتِ
فرحِ الطَّيشُ به فَرْ ... حَةَ محرومٍ بزادِ
عُطِّلِتْ عيدانُك الغُ ... نُّ بترداد عِتابي!
جئتَ كالفجر يُعاني ... خدَّه جَهْمَ الضّبابِ
جئتَ باللهوِ فؤاداً ... طاحَ مسلوبَ القيادِ
عانقِ العودَ وهاتِ ... هَمْسَ أنغامِ الشكاةِ
خفِّفِ اللَّمْسَ عن الأَو ... تارِ واضرِبْ في أناةِ
كلَّ ما رنَّ وبثَّ الهَ ... مَّ نَبْضٌ من فؤادي

باريس

بشر فارس

2 - لقب السفاح

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

نقل الأستاذ العبادي البحث في هذا الموضوع إلى ميدان آخر غير الأول، فأنكر أن يكون السفاح لقباً لأبي العباس، وذهب إلى أنه لقب عمه عبد الله بن علي واليه على الشام، وحجته فيما ذهب إليه من ذلك تنحصر فيما يأتي:

1 - أن الرواية التاريخية القديمة كرواية ابن سعد وابن عبد الحكم والبلاذري وأبي حنيفة الدينوري وطيفور واليعقوبي والطبري والنُّوبختيِّ والكنديِّ لم تلقِّب أبا العباس بالسفاح. . .

2 - أن تلقيب ابي العباس بالسفاح من رواية المؤرخين الأدباء كالجاحظ وابن قتيبة والأصفهاني

3 - أن رواية ابن سعد واليعقوبي وصاحب أخبار مجموعة وصاحب الإمامة والسياسة تجعل السفاح لقباً لعبد الله بن علي عم أبي العباس

4 - أنه رجع إلى سيرة أبي العباس قبل الخلافة وبعدها فلم يجد فيها ما يسوغ تلقيبه بالسفاح بمعنى القتال؛ أما سيرة عمه عبد الله وما سفكه من دماء بني أمية بالشام

فتسوغ له ذلك اللقب
ونحب أن نبين ما في هذه الحجة الأخيرة من غفلة ظاهرة، قبل أن نعنى برد ما قبلها من الحجج، فإن أبا العباس هو الذي سلط عمه عبد الله بن علي على بني أمية بالشام، فهو مسؤول عن كل ما فعله معهم، وشريكه في الدماء التي سفكها، والنفوس التي أزهقها، على أن أقسى ما فعل مع بني أمية مختلف في نسبته إليه أو إلى عمه عبد الله بن علي، وهو ما روى أن شبل بن عبد الله مولى بني هاشم دخل على أبي العباس أو عمه عبد الله على اختلاف الروايتين، فوجد عنده عدة من بني أمية نحو تسعين رجلاً، وقد اجتمعوا عند حضور الطعام، فأنشده:

أصبح المُلكُ ثابت الآساسِ ... بالْبهاليلِ مِنْ بنى العباس
طلبوا وترَ هاشمٍ فشفوْها ... بعد مَيْل من الزمان ويَاس
لا تُقيلنَّ عبد شمسٍ عِثاراً ... واقطَعنْ كل رَقلةٍ وغراس
ذُلُّها أظهر التوَدُّدَ منها ... وبها منكم كحدِّ المْوَاسِي
ولقد ساءني وساء سوائي ... قربهم من نمارق وكراسي
أنزلوها بحيث أنزلها الل ... هُ بدار الهوان والإتعاس
واذكروا مصرع الحسين وزيد ... وقتيلٍ بجانب المِهْراس
والقتيل الذي بحرَّان أضحى ... ثاوياً بين غُرْبةٍ وَتَناس

فأمر بهم أبو العباس أو عبد الله فضربوا بالعمد حتى وقعوا، وبسط عليهم الأنطاع، ومد عليهم الطعام، وأكل الناس وهم يسمعون أنينهم، حتى ماتوا جميعاً

وإذا لم يكن أبو العباس هو الذي فعل ذلك فقد سلط عمه عبد الله عليه، وافتخر به في بعض أحاديثه، ونسب ما حصل لبني أمية من القتل والتمثيل إلى نفسه، فروى المسعودي أنه لما أتى برأس مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية ووضع بين يديه، سجد فأطال، ثم رفع رأسه فقال: الحمد لله الذي لم يبق ثأري قبلك وقبل رهطك، الحمد لله الذي أظفرني بك وأظهرني عليك، ثم قال: ما أبالي متى طرقني الموت؟ قد قتلت بالحسين وبني أبيه من بني أمية مائتين، وأحرقت شِلوَ هشام بابن عمي زيد بن علي، وقتلت مروان بأخي إبراهيم، وتمثل:

لو يشربون دمي لم يرْو شاربُهمْ ... ولا دماؤُهُم للغيظ ترْويني

ثم حول وجهه إلى القبلة فأطال السجود، ثم جلس وقد أسفر وجهه، وتمثل بقول العباس بن عبد المطلب من أبيات له:

أبى قومنا أن يُنصفونا فأنصفتْ ... قواطعُ في أيماننا تَقطرُ الدَّما
تورثنْ من أشياخِ صِدْقٍ تقربوا ... بهنّ إلى يوم الْوَغى فتقدَّما
إذا خالطتْ هام الرجال تركنها ... كبيض نعام في الوغى مُتحطِّما

ومن يقرأ هذا يجزم بأن أبا العباس كان يحمل قسطاً كبيراً من دماء بني أمية مثل عمه عبد الله أو أشد، لأن كل هذا الذي سفك من دمائهم لم يكن بحيث يروي ما عنده من الحقد

ولقد كان له سفاح آخر نسيه المؤرخون، ولم يكن بأقل من عبد الله بن علي سفكاً للدماء، ذلك هو سليمان بن علي أخو عبد الله وعم أبي العباس، فقد ولاه البصرة وسلطه على من كان بها من بني أمية، فقتل من كان بها منهم، وألقاهم في الطريق فأكلتهم الكلاب، وكذلك سلط عمه داود بن علي على من كان منهم بالحجاز فسفك دماءهم وأفناهم

وقد تولى هو بنفسه سفك بعض من الدماء أيضاً، ومن ذلك دم سليمان بن هشام بن عبد الملك، فإنه كان قد وفد عليه من الشام فرحب به وقربه واستلطفه، للذي كان بينه وبين ابن عمه مران بن محمد، فكان سليمان يختلف إلى مائدة أبي العباس في كل يوم، فيتغدى معه ويتعشى، وكان كأحد وزرائه أو فوقهم، وكان يجلس أبا جعفر عن يمينه وسليمان عن يساره، ومازال هذا شأنه حتى دخل سديف بن ميمون مولى بني العباس فأنشده:

لا يُغرّنك ما ترى من رجالٍ ... إن تحت الضلوع داء دَويّا
فَضَعِ السيف وارفع السوط حتى ... لا ترى فوق ظهرها أمَويَّا

فأمر أبو العباس بسليمان فقتل، ونسى ما كان من أمانه وإكرامه له، وكذلك قتل وزيره أبا سلمة الخلاَّل، ولم يكن له ذنب عنده إلا اتهامه بالميل لبني علي، وأمر أيضاً

بقتل ابن هبيرة بعد أن أخذ عليه من الأمان ما أخذ، فلما مضوا نحوه خر ساجداً وقال:
ويحكم نحوا عني هذا الصبي لا يرى مصرعي، فضربوه حتى مات ساجداً
ويطول بنا الكلام لو ذهبنا نستقصي ما سفك أبو العباس وأعمامه واخوته من الدماء، ولقد كانوا كلهم شركاء فيها ما عدا سليمان بن علي، فإنه كان أحنهم على بني أمية، وكان يكره سفك دمائهم، ويجير كل من استجار به منهم، حتى كان أبو مسلم يسميه كنف الأمان، وهو الذي كتب في بني أمية إلى أبي العباس: يا أمير المؤمنين، إنا لم نحارب بني أمية على أرحامهم، وإنما حاربناهم على عقوقهم، وقد دفت إلى منهم دافة لم يشهروا سلاحاً، ولم يكثروا جمعاً، فأحب أن تكتب لهم منشور أمان. فكتب أبو العباس منشور أمان لهم، وقد مات سليمان وعنده بضع وثمانون حرمة لبني أمية فهذا هو العباسي الوحيد الذي كره سفك الدماء، ولم يكن يباهي بسفحها كما باهى أبو العباس وغيره من أعمامه واخوته، وهو الذي كان يصح أن يهتم الأستاذ العبادي بنفي لقب السفاح عنه لو ألصق به، أما أبو العباس فإن سيرته بعد الخلافة طافحة بسفك الدماء، ومن التجني على التاريخ أن يقول الأستاذ العبادي إنه رجع إلى سيرته قبل الخلافة وبعدها فلم يجد ما يسوغ تلقيبه بالسفاح بمعنى القتال، وهو في هذا أشد من أبي العباس غيرة على نفسه، أو كما يقولون: ملكي أشد من الملك، لما سبق من تباهي أبي العباس بسفك الدماء، ومن وصفه نفسه في بعض خطبه بما لا يرضي الأستاذ العبادي أن يوصف به
وسنبين للأستاذ العبادي كيف اختلفت الروايات بعد هذا في لقب السفاح بين أبي العباس وعمه عبد الله، وليكن هذا في مقالنا الآتي
عبد المتعال الصعيدي
رسالة الشعر
وحدة
للأستاذ أمجد الطرابلسي
طِرْ أيها الحائر عبْرَ المدى ... على جناح الزمن الدائرِ
واصرخْ، وشُقَّ الجوَّ قبل الصَّدى ... وامخرْ عبابَ الأَلَق الباهرِ
وابحثْ عن السّلوى وناج الهدى ... هيهات! ما فجرك بالسّافرِ
هل من وراء البحث إلا الرّدَى؟
فما ضياع العمر فيه سُدَى؟
. . .كما ذوَى الوردُ وجفَّ النَدَى
أنتَ الذي من قبل أن يولدا ... قُدِّرَ أن ينزلها أوحدا
. . .والغدُ مثلُ الأمس والحاضرِ
فما الذي تَنْشدُ يا شاعري؟
ويحك أنَّي ساورتك الهمومْ ... والجرح يسلو ههنا مَوجِعَهْ؟
في عرس الدنيا تَمَلُّ الوجوم! ... حيث تُجَنُّ الأكؤسُ المترعه
حيث اللذَاذات تؤز الجسوم ... والنور يغري الظلمة المفزعه
فأين ترجو أن يكون النعيم؟
يا ابن الثواني وسليل الرميم!
في اليمّ، أم فوق ظهور النجوم؟
أنت الذي من قبل أن يولدا ... قدّر أن ينزلها أوحدا
. . .والغد مثل الأمس والحاضر
فما الذي تنشد يا شاعري
حيران يا حيران! أين الضياءْ ... إن لم يكن حيث تَشَكَّى العمى؟
. . .الحسن والحبُّ وسِرُّ الهناء ... حيث تَرى هذا المدى المظلما
انظر إلى حولك يا ابن الفناء ... فالوردة الحمراء ليست. . . دما!
تدوس نعلاك كنوزَ العزاءْ
وأنت تمضي ناظراً للعلاء
فما الذي ترجوه عند السماء؟
أنت الذي من قبل أن يولدا ... قدَّر أن ينزلها أوحدا
. . .والغد مثل الأمس والحاضر

فما الذي تنشد يا شاعري؟
أمسِ لدي الأهلِ وبني الصَّحاب ... كنت تُحِسّ السَّأَمَ الراعبا
في صفحةِ الجدول تَلْتقي السَّرَابْ ... وفي الجِنانِ العَدَمَ الشاحبا
واليومَ، في دنيا الهوى والشباب ... تشتاقُ ذَاك الألم الذاهبا
لا راحة. . . لا فرح. . . لا عذابْ!
تزيح كفاك ستورَ الضَّباب
في زَحمة النورِ البَهِيِّ العُجاب
أنت الذي من قبل أن يولدا ... قدِّر أن ينزلها أوحدا
والغد مثل الأمس والحاضر. . .
فما الذي تنشده يا شاعري؟
كرعتَ مما زعموه الجمالْ ... وخُضْتَ للسَّلوى خِضَمَّ البشرْ
شاطرتَهُمْ نُسكَهُمُ وَالضَّلالْ ... فمنك في كل مكانٍ أثر
يا ليت شعري! بعد طولِ النّضال ... هل قد سلا قلبُك. . أم هل شَعَر؟
أنَّي! ولو نلتَ بعيدَ المنالْ
وهِضْتَ في التَّحليقِ جُنْحَ الخيالْ
فأنت في كهفكَ رهنُ الحِبالْ
أنت الذي من قبل أن يولدا ... قُدِّر أن ينزلها أوحدا
والغد مثل الأمس والحاضر. . .
فما الذي تنشد يا شاعري؟
الصخرة الصّماءُ بين الصَّخَرْ ... جرداءُ لكنْ لا تَعي قَفْرَها
سيّانِ حيّاها النَّدى في السَّحَرْ ... أم ألهبَ الحرُّ ضحىً ظَهرَها
يا سعدها! ليستْ تُحسّ الكَدَرْ ... لا ساءها القحطُ ولا سرَّها!
وأنت في قفرك رهن الفِكَرْ
تلمس بالكف طيوف الضَّجَر
يا ويل قلبٍ لم يُصَغْ من حَجَر. . .!
أنت الذي من قبل أن يولدا ... قُدِّر أن يَنْزِلها أوحدا
والغدُ مثل الأمس والحاضر. . .
فما الذي تنشد يا شاعري؟
باريس
أمجد الطرابلسي
اثنان في سيارة
للدكتور إبراهيم ناجي
مِن أي أكوان وأي زمان ... يا ساعةً بسطت ظلال أمان
هل كنتِ حين هبطتِ غير ثواني ... ومداك فوق الظن والحسبان!
العمر أكثره سدى وأقلّه ... صفوٌ يتاح كأنه عُمران!
كم لحظة قصُرتْ ومَدت ظلها ... بعد المغيب كدوحة البستان
وتمر في الذكرى خيال شبابها ... فكأن يقظتها شباب ثان!
مَنْ ذلك الطيف الرقيق بجانبي ... كفاه في كفي هاجعتان!
إني التفت إلى مكانك بعدما ... أخليته فبكيتُ سوء مكاني!
لكأننا والأرض تطوى تحتنا ... نجمان في الظلماء منفردان!
لكأننا والريح دون مسارنا ... خطن في الأقدار منطلقان!
هل كان ذاك القرب إلا صيحة ... هَمَّتْ بها شفتان ترتجفان
هل كان ذاك القرب إلا لوعة ... ونداء مسغبة إلى حرمان!
والناس مُستبقون كلٌ يبتغي ... غرضاً يكافح دونه ويعاني
حُمَّى مقدرة على الإنسان ... تبقى بقاء الأرض في الدوران
وكأنما هذي الحياة بضوئها ... وضجيجها ضربٌ من الهذيان
يا سرَّها. . .!
للأديب محمود السيد شعبان
يا سِرَّها. . . أَنا عَابِدُ الْ ... أَسْرَارِ في مَلَكُوتِ قلْبِي!

. . .أَنا مَنْ سَكَبْتُ الرُّوحَ قُرْ ... باناً عَلَى مِحْرَابِ حُبِّي
!إِنْ كُنْتُ أَهْوَى فيكَ أُح ... لاَمِي فَما حُبِّيكَ ذَنْبِي
!مِنْ طُولِ حِرْمانِي أَلِفْ ... تُ تَعَاسَتِي وَعَشِقْتُ جَدْبِي
يا سِرَّها. . . مَنْ لِلْخُلو ... دِ سِوَاكَ يا ابْنَ النُّورِ مَنْ لَهُ؟
أَشْرَقْتَ في التَّارِيخِ يَحْ ... دُوكَ الْهَوى فَجَمَعْتَ شَمْلَهْ
!. . .وَأَضَأْتَ لِلأَزَلِ الْخَفِيِّ ... طَرِيقَهُ فَهَدَيْتَ عَقْلَهْ
!عَيْبُ الْهُدَى أَنَّ الْهُدَا ... ةَ عَلَيْكِ يا دُنْيَايَ قِلَّهْ
!يا سِرَّها. . . أَهوَاكَ لَ ... كِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ تَعْسِي
أَرْجُوكَ لِي وَحْدِي وَمَا ... أَنَا مَنْ خَلَقْتُ شَقَاءَ نَفْسِي
!ظَمْآنُ وَالْخَمْرُ الْحَلاَ ... لُ تَفيضُ مِنْ دَنِّي وَكَأْسي
ضَيّعْتُ في بِيدِ الحَيَا ... ةِ مَوَاهِبِي وَفَقَدْت حِسِّي
يا سِرَّها. . . مَنْ لِي سِوَا ... كَ إذا تَرَكتَ الْقَلْبَ وَحْدَهْ؟
. . .لاَ الْوَهْم يُؤْنِسُهُ وَلاَ الدّ ... نيَا تَرُدُّ عَلَيْهِ سَعْدَهْ
!أَشْقَاهُ أَنَّ الوَحْدَةَ الْ ... خرْسَاءَ تَرْعَى الْيَوْمَ عَهْدَهْ
!. . .يا لَيْتَ مَنْ يَهْوَى تَصُو ... نُ وِدَادَهُ وَتَحُفُّ مَهْدَهْ
يا سِرَّها. . . أَنَا تَائِهٌ ... ضَلَّ السَّبِيلَ إلى مَرَادِكْ
!أَنَا شاعِرٌ شاقَتْهُ أَطْ ... يَافٌ تَرِفُّ عَلى مِهَادِكْ
!أَنَا عَابِدٌ فِي هيْكلِ ال ... أَشْوَاقِ حَنَّ إلى وِدَادِكْ
!أَهْوَى الحقِيقَةَ فِيكَ فَاحَ ... عَلْ مِنْ حَيَاتِي بَعْضَ زَادِكْ
!يا سِرَّها. . . فِي مَعْبَدِ الْ ... أَلْحَانِ قَدْ بَارَكتُ رُوحِي
!وَمَضَيْتُ وَحْدِي فِي الحَيا ... ةِ تَئِنُّ مِنْ أَلَمٍ جُرُوحِي
!حَيْرَانَ أَحْمِلُ عِبْء آ ... مَالِي وَأَكبَحُ مِنْ جُمُوحِي
!الْجَدْبُ أَتْعَسَنِي وَمَا ... مِنْ قَبْلُ أَسْعَدَنِي طُمُوحِي
!يا سِرَّها. . . هاتِ النَّعِي ... مَ بِجُرْعَةٍ لِي مِنْ دِنَانِكْ
وَاسْكُبْ عَلَى قَلبِي الحَنا ... نَ فَقَدْ ظَمِئْتُ إلى حَنَانِكْ
وَامْسَحْ بِكَفِّكَ كُلَّ آ ... لاَمِي لأَسْعَدَ فِي زَمَانِكْ
!مَا لِلشَّقِيِّ طَغَتْ عَلَيْهِ الْ ... عَادِيَاتُ سِوَى أَمَانِكْ
!يا سِرَّها. . . قَدْ ضَلَّ بِي ... أَمْسِي فَجِئتُ إليك وَحْدِي
!وَدَّعْتُهُ وَمَضَيْتُ يَهْ ... دِيني إلى دُنْيَاكَ وَجْدِي
!النُّورُ مِلْءُ دَمِي فَكَي ... فَ أَضِلُّ يَا نَجْوَايَ قَصْدِي؟
!وَالحُبُّ؟. . . هَلْ كانَ الهوَى ... إلاَّ أَناشِيدِي وَمَجْدِي؟
!يا سِرَّها. . . أَنَا عَابِدُ ال ... أسرَارِ فِي مَلَكُوتِ قَلبِي
. . .أَنَا مَنْ سَكَبْتُ الرُّوحَ قُرْ ... باناً عَلَى مِحْرَابِ حُبِّي
إِنْ كُنْتُ أَهْوَى فِيكَ أُحْ ... لاَمِي فَمَا حُبِّيكَ ذَنبِي
!مِنْ طُولِ حِرْمَانِي أَلِفْ ... تُ تَعَاسَتي وَعَشِقْتُ جَدْبي

الأدب في أسبوع

الشعر والشعراء

أخشى أن يكون أهم أركان إحساس الشاعر بمعانيه إحساساً كاملاً نافذاً متغلغلاً، لا يدعُ للمنطق العقلي المجرد عملاً في تكوين شعوره. وليس معنى ذلك أن يتعرى الشعر من المنطق العقلي المجرد، بل معناه أن ينقلب المنطق العقلي - بكماله وتمامه وقوته واستوائه واستقامته - حاسةً دقيقة مدبرة تعمل في حياطة الإحساس والقيام عليه وتصريفه في وجوهه على هدىً لا يضل معه، فلا يشرد عن الغرض الذي يرمي إليه في التعبير عن الصور التي تنشأ لهذا الإحساس. وإذن فأكبر عمل المنطق العقلي في الشاعر - أن يُمِدَّ الإحساس، بما ليس له من الاستواء والاستقامة والسداد، وكذلك تتداعى إليه الألفاظ التي يريد التعبير بها مقترناً بعضها إلى بعض، بحيث لا تخرج هذه الألفاظ في الكلام حائرة قلقة، تجول في عبارتها من انقطاع الرباط الذي يربطها بالمعاني التي أحسها الشاعر، فهاجته فغلبته فأراد التعبير عنها تعبيراً صافياً مهتزاً متغلغلاً قوياً، فيه صفاء الإحساس واهتزازه وتغلغله وقوته

وأداة المنطق لعقلي هي اللغة، والعقل بغير اللغة لا يستطيع أن يستوي ويتسلسل

ويتصل، ولا أن تتدفق معانيه في مجراها الطبيعي.

فالمنطق العقلي كما ترى هو خزانة اللغة التي تمول الإحساس، فهو يتقاضاها ما تستطيع أن تمده به من المادة التي تمكنه من الظهور والانتقال. فربما أخذ من اللغة ما هو (موصل رديء) للإحساس، وربما أخذ منها ما هو (موصل جيد) يستطيع أن يسرى فيه إلى قارئه أو سامعه. فإذا عرفت هذا أيقنت أن الشعر يتصل أول ما يتصل بإحساس قارئه وسامعه، فيهزه بقدر ما تحمل ألفاظه من إحساس قائله. فإذا أخفق أن يكون أثره كذلك، فمرجع هذا إلى أحد أمرين:

إما أن الشاعر لم يوفق إحساسه في الاستمداد من لغته - ما يطابق الإحساس ويكون (موصلاً جيداً) له؛ لأن منطقه العقلي لم ينبذ إليه من مادته ما هو حق المعاني التي يتطلبها إحساسه، هذه واحدة. أو لأن مادة هذا المنطق العقلي أفقر من إحساس الشاعر، فهي لا تملك عندها ما يكفي للتعبير عن إحساسه، فهذه أخرى. ولهذه العلة الأخيرة تجد كثيراً من

عامة الناس ليسوا شعراء، ومع ذلك فربما كان أحدهم أدق إحساساً وأعمق وأعنف، ويكون إحساسه أحفل بالمعاني وأغنى، وإنما يقطعه عن الشعر هذه العلة، وهي فقر المنطق العقلي من اللغة التي هي مال له. أو انقطاع المنطق العقلي دون الوصول إلى المنطقة التي ينقلب فيها هذا المنطق - بكماله وتمامه وقوته واستوائه واستقامته - حاسة دقيقة مدبرة تعمل في حياطة الإحساس والقيام عليه وتسديده للغرض الذي يرمى إليه في التعبير عن معاني الإحساس، كما قدمنا آنفاً

وأما الأمر الثاني - الذي يخفق بسببه الشعر في التأثير - فمرده إلى القارئ أو السامع. فإذا كان إحساس السامع أو القارئ ضعيفاً بليداً غثاً، فمهما يأته من شعر حافل قوي عنيف دقيق العبارة عن إحساس شاعره - فهو لديه شيءٌ فاترٌ ضعيفٌ لا يهزه ولا يبلغ منه ولا ينفذ فيه؛ وهذا الضرب من العامة الذين لا يتأثرون بالشعر لا يمتد بهم ولا ينظر إليهم، ولكن هناك ضرب آخر يكون بليغ الإحساس جيد التلقي، صالحاً للتأثر بما ينتقل إليه من هزة الإحساس فيهتز لها ويطرب، وقد يكون مع ذلك خلواً من اللغة التي يعبر بها الشعر، إذ ليس له منطق عقلي سامٍ متخير للكلام يختزن اللغة بنفسه إذا فكر، ولفهمه إذا حدث أو أنشد؛ فهو ربما سمع الشعر الجيد فلم يبلغ منه المبلغ الذي أريد له هذا الشعر، وكثر هؤلاء في عصرنا هذا حتى سقط الشعر ولم يحفل به إلا قليل؛ وهم لم يكونوا كذلك إلا لفساد التعليل وقلة احتفاله باللغة وبيانها وأسلوب مجازها، ولأن الجهلاء والسخفاء هم سواد الناس؛ وفساد الطبائع فيهم راجع إلى هذين: فمخالطة الجهالة تورث الجهالة والخبال، وترك التعلم وسوء التعليم ذريعةٌ مفضيةٌ إلى الجهل والبلادة، فكيف - مع هذين - يخلص أحدهم من فقر العقل وبلادة التأثر بالشعر البليغ الحافل بالإحساس المشبوب العنيف؟

فأنت ترى: أن اللغة المتخيرة المرصدة للتعبير عن الإحساس تعبيراً مسدداً بالمنطق العقلي الذي لا يزل على مدارج المجاز فتنقطع صلاته بحقائق المعاني التي وضعت لها هذه الألفاظ اللغوية. . .، ثم المنطق العقلي الذي يختزن هذه اللغة، ويستطيع أن يتحول حاسة دقيقة مدبرة تقوم على الإحساس وتحوطه من الضلال. . .، ثم المعاني التي يتمثلها إحساس الشاعر حين يهيجه ما يؤثر فيه تأثيراً قوياً عنيفاً - هذه الثلاثة هي، مادة الشعر الجيد، فإذا سقط أحدها أو انحط أو ضعف؛ سقط الشعر بسقوطه أو انحط أو ضعف

وأنا أقول: إن أكثر شعر العصر العربي الحاضر قد انحط وضعف وسقط، لأن أكثر الشعراء قد بلغ منهم العيب مبلغاً أفسد كل ما يعتد به من آثار (الشاعرية) التي بقيت فيهم؛ ولم يخلص لأحد منهم جميع هذه الثلاثة التي ذكرنا. ولكن بقى لشاعرين أو ثلاثة ما يمكن أن يلحقهم بأهل المرتبة الأولى من الشعراء العبقريين؛ وهذه المرتبة الأولى إنما نتخيلها ولا نكاد نعرف أحداً استوى عليها، فملك فيها بيان العربية وشعرها يصرفهما كيف شاء، فيكون في تاريخ اللسان العربي عبقرية جديدة كامرئ القيس، ومسلم بن الوليد، والمتنبي، وأبي نواس، والبحتري، وأبي تمام، وغيرهم ممن يعد لساناً وحده. . .

شاعر!!

وأحد هؤلاء الشعراء الثلاثة الذين سيدفعون أنفسهم في مجاز العربية حتى يبلغوا

المرتبة الأولى - فيما نتوهم - هو (محمود حسن إسماعيل): فهو إنسان مرهف الحس دقيقه، متوهج النفس، سريع التلقي للمعاني التي يصورها له إحساسه، وإن إحساسه لينشئ له من هذه الصور والمعاني أكثر مما يستطيع أن يطيق صبره؛ وهو - إذ فقد الصبر على مطاولة هذه المعاني من إحساسه - تراه يثب وثباً من أول المعنى إلى آخره لا يترفق، كأن في إحساسه روح (قنبلة). فلذلك تجد المنطق العقلي في شعره متفجراً أبداً لا يبالي (أوقع على اللفظ من اللغة، أم وقع اللفظ عليه)، ولكنه على كل حال منطق يقظ حساس بعيد الوثبة، يحاول دائماً أن يضبط هذا الإحساس الذي لا يهدأ ولا يستقر. وسينتهي - بعد قليل من المصابرة والمرابطة لإحساس شاعره - إلى القدرة على متابعة إحساسه وكبحه وتزجيته على هدى واحد مؤتلف غير مختلف، وذلك حين يجتاز الشاعر السن التي هي علة التوقد الدائم والاهتزاز المتتابع تتابع البرق إذا خفق وومض وضرب بعضه بعضاً بسياط من الضوء في عوارض السحاب. . . وأما لغته، فقد ملك منها ما يكفيه بقدر حاجة بعض إحساسه، فإذا امتدت يده إلى خزائن العربية التي لا تنفد، وتداخل في أسرار حروفها بالمدارسة الطويلة، تآمرت - ثلاثتها - على تسنية الأبواب له واحداً بعد واحد، حتى يستطيع أن يستوي على سرارة المرتبة الأولى للشعر غير مدافع.

هذا. . . وإن في كثير من شعره الذي نشره إلى اليوم، ما يجعلني على ثقة - إن شاء الله - من أنه مدرك ذلك لا محالة، فهو قد استولى على كل ما هو به شاعر، ولا أظن ظن السوء بقدر الله أن يكون هو قاطعه دون المنهج الذي تعبد بين يديه، ولم يبق له إلا قليل حتى يبلغ الذروة العليا

قصيدة الزلزال

وقد قرأت قصيدته الأخيرة في (فاجعة تركيا) - كما سماها - ثم سمعتها، فوجدت لزاماً علي في هذا الباب أن أثبت بعض رأيي في الشعر والشاعر، ثم في (محمود حسن إسماعيل) خاصة، ثم في هذه القصيدة. وقبيح أن يجهل مريدو الشعر الجيد هذه القصيدة الفذة، التي تكشف عن السر المستكن وراء هذا الشاعر. وإذ قد عرضنا مرة لبعض الشعر الأسود المظلم، فلا بد إذن من أن نمحو آيته ببعض آيات الشعر المشرق المضيء

وقد كان (زلزال الأناضول) عذاباً من العذاب الأكبر بأهواله، حتى قالوا إنه أشد ما عرف من الزلازل وأخطرها وأفضعها موقعاً وأثراً، وقد كان ما تنشره الصحف اليومية من أخباره هولاً هائلاً مفزعاً يكاد يجعل الولدان شيباً. فلاشك إذن أن يكون هذا الرعب الراجف في إحساس شاعر فزعٍ (كمحمود) رجفةً يرعد بها رعدة طائرة مدوية مصلصلة مجلجلة

وأنت إذا بدأت القصيدة:

هات الشدائد للجريحةِ هاتها ... فالصبر في الأهوال دين أساتها
واحشُد صروفك يا زمان فربما ... لهب العظائم شُب من نكباتها
ولعلها خمرٌ تدور فيستقي ... خمر الكفاح الشرق من كاساتها

رأيت الأمر والنداء، نداء الفزع الطامي بطغيان أمواجه على إحساس الشاعر، فلم يملك إلا إسلام نفسه إلى اليأس، فيستزيد من البلاء ويطلبه فيقول: (هات الشدائد) ثم يعود فيقول: (هاتها) ليثبت إيمانه بالصبر على هذا البلاء، فهو إيحاء؛ إذ قد يئس أن يصرف عن إحساسه ما طغى به عليه هول ما سمع من صفة الزلزال. ويدُّلك على أن هذا المطلع قطعة من اليأس، عودته إلى الشك في هذه الشدائد الموقدة بنارها ولهيبها، والتي زلزلت أمة من الناس فكانوا كما قال الله تعالى في صفة زلزلة الساعة: (يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد). فكذلك عاد الشاعر يشك بعد طغيان البلاء عليه - أن ينقلب كل ذلك الرعب الذي اضطرب به الناس سكراً يجري - هذا الشرق المغلوب - على الكفاح، في زمن يرمى من أهواله شدائد ترجف بالشرق رجفة كأشد ما رجفتْ زلزلة الأناضول، فلذلك قال: (ولعلها خمر. . .)

هي أمةٌ زلزلتَ جَنبَ مِهادها ... ونفختَ ريحَ الموت في جَنباتها

وهذا البيت يكاد يكون الحد الفاصل بين يأس الشاعر الذي طغى عليه حتى أنساه روح الزلزلة التي كانت في إحساسه، وهو نفسه الذي يردُّه مرة أخرى فزعاً ثائراً متوثباً تتقاذفه تهاويل إحساسه في رعب بعد رعب

شَوَّهتَ صَفحتها بمديةِ جازِرٍ ... الرحمة انتحرت بحدِّ شَباتِها
مجنونةُ الحدّيْن لو هي لوحتْ ... لانهد ركن الأرض من حركاتها
ذئبية الشهوات جاع حديدُها ... وأرق جوع الوحش في لهواتها

وهنا موضع يوقف عنده، فإن المعنى الذي أراده الشاعر، والصورة التي نشأت من شدة إحساسه بهول الزلزلة - طغت فلم يستطع المنطق أن يضبط اللغة على قياسها؛ فهو يريد أن يقول: إنه يرى هذه المدية الصقيلة الذئبية الجائعة المهلكة المجنونة فيرى على حديها وصفحتيها من فرندها وضوئها ومائها ما ينساب ويَّتريق ويتلألأ ويرمي بأضوائه كأنه ضوء جائع يريد أن يلتهم كل ما يلقاه، وذلك قوله: (وأراق جوع الوحش في لهواتها) فقوله: (وأراق) هنا لا توافق المعنى، وقد أوقعه عليها اختلاط (فرند المدية) - وهو ماؤها - بالمعنى الذي أراده، ولو قال: (يذكي سعار الوحش في لهواتها) أو ما يقارب ذلك لكان أجود

:- ثم يمضي الشاعر في تصويرِ ما تخيله - حين فجأت الزلزلة الأناضول

والناسُ غَرْقى في السكون سَجتْ بهم ... سِنَةٌ يَنامُ الهوْلُ في سَكناتِها
بَيناهُم فَوْق المهودِ عَوَالمٌ ... غشَّى ضبابُ الصمت كل جهاتها
وإذا بقلبِ الأرضِ يرجفُ رجفةً: ... دُكَّ الصباحُ وذابَ في خفقاتِها
وانشَّقت الدُّنيا لديه فلم يَجِدْ ... أرضاً يغيثُ النورَ في ربواتِها
فَطوَى المدائن والقرَى وَهوَى بها ... في سدْفَة تهوِي على ظلماتِها
وبنى اللحودَ على المهودِ وهدَّها ... فنضا ستورَ الموت عن عَوراتها
زأرت جراحُ الأرضِ فاهتاجَ الردى ... وتنهد الزلزال في ساحاتها

وإذا الذي أتى به في وصف الزلزلة إلى آخر القصيدة شيء هائل مخيف تقشعر له الأبدان، وتراه متدفقاً طاغياً لا تكاد تقف على كلمة منه إلا مرتاعاً قد قُّف شعرك عن هول ما تنقل إليك ألفاظه من معاني إحساسه الثائر المتفجر

أنفاسه لهبُ الجحيمِ وخطوه ... خطو المنايا السود في فجآتها

إلى بعض القراء

وبعد، فإن العالم الثقة الثبت المحقق الدكتور بشر فارس قد علم فعلَّم!! وأنا . . . أشكر له ما علمني، فأنا لا أحب أن أكون كالذي قيل في أمره: (لا تناظر جاهلاً ولا لجوجاً، فإنهم يجعل المناظرة ذريعة إلى التعلم بغير شكر). ثم بصرني (بشر) أيضاً بما كنت أجهل من العروض واللغة والبيان، فأوغر صدري، فنثرت حول قهري ما ملكت من نفاية الكلام، وكذلك طوقت نفسي به زينة وحلية أتبرج بها للناس، أو كما قال! وهو كذلك. . .

فأنا أحمد الله الذي كفاني شر الغرور والخيلاء، ولم يجعلني كالجاهلة الخرقاء التي زعموها تأنقت بما ليس فيها، ولا هو من طباعها، حتى ضربوا بها المثل فقالوا: (خرقاء ذات نيقة) والحمد لله الذي لم يجعلني ممن يتزين بما ليس تملكه يداه، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور)؛ والحمد لله الذي جعلني جاهلاً يعرف أنه جاهل، ومن أين لمثلي العلم؟ أليس قد (ذهب العلم إلا غبارات في أوعية سوء) كما قال ابن شبرمة في رواية بشر فارس عن ابن شبرمة: (بريد (الرسالة) العدد 346).

وقد قرر الأستاذ بشر أنه بصرني بأمور ثلاثة، وأني سلمت مرغماً بصرني بما كنت أجهل من أمرها!! وإذا قرر الأستاذ بشر فقد وجب عليَّ وعلى الناس التسليم بما قرر؛ أليس ذلك كذلك؟ بلى، (سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير)

ومع ذلك، فمن غلبة الجهل علينا أن البحر الذي وضعه وسماه (المنطلق)، لا يزال عندنا وعند أصحابنا من علماء العروض - هو من (مجزوءة المتدارك) أدخل الشاعر الأستاذ على ضربها العرج أو الفساد أو الخبن أو ما شئت فسمِّه، ثم ألزمها ذلك في سائر أبياته، ثم قال إنه وضع بحراً. ومن غلبة جهلنا أيضاً أننا نعده وزناً ثقيلاً غثاً كسائر الأوزان الممكنة التي تركتها العرب لثقلها على السمع، فلم تجزها في شعرها؛ ومن

غلبة جهلنا أيضاً أننا لا نزال ندعي أن لن يوجد في أصحاب الألسنة العربية من الشعراء المجيدين من يتابع النظم
على هذا الوزن الجافي من (مجزوءة المتدارك)، وكذلك أهملناه وسنهمله
وأما حديث (الزلزلة)، فلا نزال نقول إن كل حرف من حروف العربية ينقل إلى المجاز، فهو يتطلب دائماً حقيقته، وإلا فسد مجازه. فإذا كان أصل الحرف (زلزل) وحقيقته: أن يزلَّ الشيء عن مكانه مرة بعد مرة، أي أن ينتقل ويتحرك ويسقط ويخرج عن الموضع الذي يستقر عليه، فلابد في كل مجاز لهذا الحرف أن يكون ما يقع عليه فعل الزلزلة - (أي نائب الفاعل أو المفعول) - شيئاً منتقلاً من مكان إلى مكان أو شيئاً يجوز أن ينتقل من مكان إلى مكان، فهذا هو شرط المجاز أو الاستعارة في هذا وأمثاله، وإذ ليست الأذن كذلك، فقولك (زلزل الطرب أذني) مجاز فاسد لأن الأذن ثابتة لا تتحرك
وإذا قال كتاب (خلاصة الطبيعة، في الصوت!!) في باب (شرح عمل الأذن) إن الصوت يهز غشاء طبلة الأذن حين تصكها الأمواج الهوائية التي يحدثها مصدر الصوت، فليس معنى (يهز الغشاء) هنا أنه ينقله من مكان إلى مكان آخر، فإذا كان ذلك كذلك، وكان غشاء طبلة الأذن مثبتاً لا يتحرك أي لا ينتقل من مكانه، وإنما هو اهتزاز يلحقه، فليس في الدنيا (ناي) أو غيره يستطيع أن يجعله يتحرك أي ينتقل من مكانه، ولو كان في قلب هذا (الناي) عشرون فرقة من فرق (الجازَبند). . . ولو كان ذلك فتحرك الغشاء قليلاً عن مكانه لتمزق وانخرق، وكان الصمم. وإذن فليس يجوز في العربية أن يقال (زلزل الطرب أو الناي غشاء طبلة أذني)! وإلا فهو مجازٌ فاسد أيضاً
وأما ما يقال من أن الزلزلة والطرب على مجاورة في لغتنا!! فهو شيء لا أصل له، وهي عبارة لا تؤدي إلى معنى، وهو كلام (يدخل بعد العِشاءِ في العرب)
وأخيراً . .، فمن عظة نبينا صلى الله عليه وسلم قوله: (من طلب العلم ليماري به السفهاء، أو يباهي به العلماء، أو يصرف به وجوه الناس إليه، أدخله الله النار). ونحن نعوذ بالله أن نخالف عن أمر نبينا، أو نكون ممن يستخف بما أنذر به، فنباهي الأستاذ بشر بما نعلم، وإذن فلست أجعل حديثي هذا إلا للقراء وحدهم لأضع به عن نفسي أمانة العلم. . .
حتى إذا ما الصباح لاح لهم ... بيَّن ستُّوقهم من الذهب
والناس قد أصبحوا صيارفة ... أعلم شيء بزائف النسب
فأستأذن القراء وأستغفرهم، فأنا امرؤ لا يحب أن ينصب نفسه لمن هو عند نفسه أكبر من نفسه والسلام
ابن شبرمة!!
ومادمنا في حديث أمانة العلم، فقد رأيت أن الأستاذ المحقق (بشر فارس) روى خبراً عن ابن شبرمة القاضي قدمناه آنفاً وهو: (ذهب العلم إلا غبارات في أوعية سوءٍ). وقد رأيت صاحب العقد الفريد (ج 1 ص 205 طبعة بولاق أيضاً!) قد أورده بهذا النص عينه، وهو يبدو لنا نصاً عربياً مظلم النور
وتحرير رواية الخبر: (ذهب العلم إلا غبرات في أوعية سوء) بضم الغين المعجمة وفتح الباء المشددة. والغبرات جمع غبَّر، وهو آخر الشيء وعقابيله وما يبقى منه. يريد ابن شبرمة: أن العلم لم يبق منه إلا قليل قد وقع في صدور رجال من الفخار والخزف لا تضيء ولا تقبل الضوء
وقد ورد هذا الحرف (غبرات) في حديث عمرو بن العاص يقول لعمر بن الخطاب: (إني والله ما تأبَّطتني الإماءُ، ولا حملتني البغايا في غبَّرات المآلي). والمآلي خرق للنساء يكون فيها الدم، وغبَّراتها بقايا الدم. ومن ذلك أيضاً قول أبي كبير الهُذلي يصف ابن زوجته تأبط شرّاً الشاعر الفاتك:
حَملتْ بِهِ في ليلةٍ مَزْؤودةٍ ... كرْهاً وعقدُ نِطاقِها لم يحللِ
فأتتْ بِهِ حوش الفؤاد مبطناً ... سُهداً إذا ما نام ليل الهوْجلِ
ومبرَّأً من كل (غُبَّر حيضة) ... وفساد مرضعة، وداءُ مغْيل
فهذا تحقيق رواية الخبر على التحرير والدراية، فمن كانت عنده نسخة من (العقد الفريد طبعة بولاق!) فليصححه
محمود محمد شاكر

رسالة الفن
دراسات في الفن:
هما أحدبان
للأستاذ عزيز أحمد فهمي
ما هذه الأرقام التي تحسبها في الورقة؟
- هي تكاليف أحدب نوتردام أحلم بأني سأخرجها في مصر
- بعد أن رأيناها من لون شاني ولاوتون. . . من يخرجها ومن يمثل لك الأحدب في مصر؟
- هذا شيء لا أفكر فيه إلا بعد أن يعطيني الله هذا المال كله
- إذن فلن تفكر فيه أبداً
- ومن يدريك أني لن أفكر فيه غداً. . . (غد غيوب وأقدار وأسرار)
- رحم الله شوقي
- وفيكتور هيجو، ولون شاني، وكل من فتح قلبه لله فألقى الله فيه ما شاء من نوره، أتعرفين كم أحدودب هيجو حتى كتب الأحدب، وكم أحدودب لون شاني ثم لاوتون؟
- أما لون شاني ولاوتون فقد احدودبا أو قل هما اصطنعا أنهما احدودبا حينما كانا يمثلان في الأستوديو فقط، أما هيجو فلا أظنه احدودب، لأن كتابة الرواية لا تستدعي أن يمثل الكاتب صورها. . .
- لم يرد الدنيا أحدب عاش مثلما عاش أحدب نوتردام. فلابد أن يكون هو الأحدب الأحدب، وإنه لكذلك لأنه هيجو لما احدودب. كم في الدنيا من شقي يعيش ويشقى ويفنى، وفي الدنيا شقي يعيش ويشقى ويخلد. . . أولئك يغمرهم شقاؤهم ويبعدهم عن ذكر ربهم، وهذا يمعن في الشقاء بالرضا والتأمل بحثاً عما فيه من عبرة ولذة. . .وهل يجد اللذة من يمعن في الشقاء حتى ليحدودب؟
- وأية لذة؟ ألم يقل هيجو على لسان غجري قصد باريس وأراد أن يمنعه عنها حراسها: (ما هذه الأوامر؟ هذه أرض الله جئتموها أنتم بالأمس وجئناها نحن اليوم!) ألم يقل هيجو
هذا؟
وكيف كان يمكن أن يقوله لو لم يشعر بأن هذه الأرض أرض الله حقاً، وأنه للناس أن يعيشوا فيها كما يعيش الطير في السماء. . . والله يرزقهم. . . وهل في الدنيا شعور باللذة أبلغ من شعور الطلاقة هذا؟ لا ريب أن هيجو كان يشعر باللذة حين كان يشعر بالشقوة ولا ريب أنه عانى في هذا الاضطراب كثيراً، ولعلك تذكرين أنه عبر عن اضطرابه هذا بلسان الأحدب إذ أفلتت منه معشوقته، ورأى أن عليه توديعها لصاحبها: (رب! لماذا لم تخلقني حجراً؟!). . . واحتضن صنما. . .
- فهو كان يرى الحجر أسعد من البشر
- وهذا الذي يراه كل من عجز، وهو الذي يراه أخيراً كل من كفر. . . أما يقول القرآن: إن الكافر سيقول يوم القيامة (يا ليتني كنت ترابا)؟!
- وهل كان الأحدب كافراً؟
- بل كان هيجو مؤمناً. . .
- ما لهيجو؟ إنما نحن الآن في الأحدب.
- والأحدب من هيجو، وليس هو وحده الذي منه، وإنما منه أيضاً كل من في القصة وكل ما فيها، فإذا رأيت أنه يضطرب في الأحدب العاجز حتى ليتمنى أن يكون حجراً، فانظري إليه كيف يختم حياة ملك الشحاذين بثقل ينزل عليه من فوقه في الوقت الذي يتزعم فيه ثورة عنيفة فيها ضرب وكر وفر، وفيها موت يراه بعينيه يتخطف الناس من حوله ولا يحسب لنزوله به حساباً ثم انظري هيجو كيف يغمس في التوفيق شاعر القصة الذي سيق إلى الملك متهماً بإثارة القلاقل وتهديد الأمن العام بالشعر الحانق فما يزال الشاعر المؤمن بشعره يقنع الملك بوجهة نظره حتى يحكم الملك في قضية الشعب حكماً عدلاً يضع حداً للثورة التي لو لم يعمد ملك الشحاذين إلى القوة فيها وانتظر حتى يحق الحق القول الصادق لما لقي فيها حتفه، ولفاز في آخر الأمر بالذي كان ينشد، انظري إلى هذا وانظري إلى غيره تري أن هيجو كان مؤمناً. . . وأنه كان ينظر إلى الأحدب نظرته إلى الكافر

- . . .إذن فقد كان هيجو يكره الأحدب؟
- لا، وإنما كان يرثى له. لأنه لما احدودبت نفسه قدر نعمة الرحمة، وقد نصحه ونصح كل أحدب أن لا يطمع في غير ما هو أهله وأن يرضى بما هو فيه، كما نصح ملك الشحاذين وكل من هو معتز بقوته مثله أن يكف عن القوة والاعتزاز بها. كما أظهر رضاه عن الشاعر الراضي الفيلسوف الذي يصبر على حبيبته أن تحب غيره حتى تهتدي إليه وتحبه، كما أنه حذر الناس جميعاً من التراجع عن تلبية حسهم، حين جعل الملك يحكم الخنجرين في أمر الغجرية إذ عصب عينيها وقال لها: اختاري من هذين واحداً، فإذا قبضت على خنجري فأنت بريئة فإذا أمسكت الآخر فأنت مذنبة، فامتدت يدها أولاً إلى خنجر البراءة ولكنها تراجعت فعانت بعد ذلك ما عانت. . . كل هذه دلائل إيمان وصبر أضاءا في نفس هيجو. . . فأضاءا قصته هذه وخلداها. . . وإلا فما الذي تحسبينه حفظها وأبقاها؟
- . . .أنها مكتوبة بلغة رائعة وأسلوب رائع
- لا. فما خلدت اللغة وما خلد الأسلوب شيئاً فما هما إلا من أدوات الفن وليسا الفن نفسه. . . إن ملايين الناس في الأزمنة والأمكنة المختلفة ليحبون هيجو، ومنهم من لا يقرأ ولا يكتب لا الفرنسية ولا غيرها، ولكنه يفهم هيجو من إشارات الممثلين وأصواتهم ويقنع بهذا. . . إن الناس جميعاً يرون في أحدب نوتردام صدقاً وعدلاً وأحكاماً تجب في مواقف تستوجبها، فالموت لمن يستحق الموت حيث يجب الموت، والهناء لمن يستحق الهناء حيث يجب الهناء. . . لم شذ هيجو عن العدل في حكم من أحكامه ولم يحاب بطلاً من أبطاله، ولم يعط في دنياه هذه التي جمعها حقاً لغير صاحبه، ولم ينزل بها نكبة على مؤمن
- وهذا القسيس النبيل الذي عشق الغجرية فكان في غرامه هلاكه، ما ذنبه؟
- ذنبه ضعفه. . . هذا قسيس وهب نفسه لله، واطمأن بهذه الهبة على حياته ومستقبله، فما له يريد أن يسترد مما أعطى الله شيئاً من نفسه يعطه غانية صغيرة؟. . . ما له يشعر بهذا الضعف، وماله حين يشعر به لا يعالجه بإيمانه وعزمه، وما له حين يضعف عن علاجه بإيمانه وعزمه لا يكون صريحاً في إعلان ضعفه؛ فإما أن يرتد على عقبيه خطوات في طريق تقواه وورعه، فيخلع مسوح القسيس ويدع الكنيسة وينزل إلى الدنيا، كالمؤمن إذا ارتد، يعرض نفسه على غانيته كما يعرض كل رجل عليها نفسه فإذا اختارته سعد فإذا أعرضت عنه كان عليه أن يرضى. . . كان هذا هو الواجب عليه أن يصنعه ولكنه لم يصنع منه شيئاً، بل طرأ عليه الضعف فلم يرض أن يشهر على هذا الضعف سلاحاً من نفسه وإنما غطاه بستر منها كان غشاً لكل من حسبوه قسيساً، وكان حجاباً حال بينه وبين التغلب على نفسه. . . فألم به ما ألم به من تشتت البال في الموازنة بين مظهره الطاهر، وبين الكامن من اللوثة في نفسه. . . هذا القسيس كان سليم المظهر ولكنه كان الكافر المشوه النفس، الذي ترجمه هيجو بذلك الأحدب العاجز ببدنه عن إغراء الغجرية. . . إن هذا القسيس هو أحدب نوتردام أكثر مما كأنه الأحدب. . . فإن الأحدب قد دلته طويته السليمة إلى حركة بلهاء أراد بها أن يغري فاتنته. . . إذ غطى لها يوماً البشاعة في وجهه وكشف لها عن عينه الرقراقة الحلوة، ونظر إليها كمن يقول لها ادخلي إلى نفسي من هذا المنفذ، ولو كان في الفتاة حكمة، ولو لم يكن بها من نزق الجمال والصبا طيش وخفة، فلعلها كانت تحبه إن أنعمت التفرس في عينه تلك، ولكنها لم تكن من الحكمة. . . أو لم تكن من البذل بالرأفة. . . وعلى أي حال فالذي يعنينا هو أن الأحدب وجد في نفسه شيئاً جميلاً عرضه، ولكن القسيس الأحدب الروح لم يجد عند روحه ما يعرضه على غانيته! إنه قسيس، وكان يستطيع على الأقل أن يكون مثلما كان الشاعر المجنون محباً على غير أمل، وكان على هذا يستطيع أن يحملها على حبه، وكان بعد هذا يستطيع أن يسلمها (لنوتردام) مادام قد أقام نفسه في (نوتردام) راعياً. . . ولكنه لم يفعل شيئاً من هذا وانخذل أمام نزوة من نزوات نفسه. . . فكان على علمه وعلو شأنه، وسلامة بدنه أشقى حالاً من الأحدب، فقد رضى الأحدب أن يتمنى الجمود والتحجر وأن يروض نفسه عليهما، أما هو فقد أبى إلا أن يشعل النار في الدنيا وأن يضرب الناس بالناس حقداً وغلاً وعمى عن واجبه وحقه. . .

- إذن فإن هذا هو الأحدب
- إنه على الأقل الأحدب الأول. وقد كنت أحب أن يمثله لاوتون، فهذا الدور من غير شك معرض لعواطف وتقلبات أكثر من الطارئة على الأحدب الآخر. . .
- ولكن هذا الدور لم يلتفت إليه أحد هذه اللفتة، وإنما يعنى أبطال التمثيل بالدور الآخر. . .
- لعل ذلك لأنه أظهر لعيون، ولأن تمثيله يحتاج إلى مكياج بارع يتحدى الممثلون بعضهم بعضاً بإجادته وإتقانه. وهذا عيب من عيوب السرعة الآخذة برجال الفن في هذا العصر، وقد كنت أحسب لاوتون ينجو منها هذه المرة كما نجا منها مرة سابقة في بؤساء هيجو أيضاً. . . فإنه ترك دور جان فلجان لفردريك مارش ومثل هو دور جافيير البوليس السري، وجافيير كان أبأس من جان فلجان نفساً وأشقى روحاً وإن كان يظهر لجان فلجان أنه الأبأس. . . كما أن الناس يحسبون قارع الأجراس في أحدب نوتردام أنه الأحدب بينما ذاك القسيس هو الأحدب. . .
- ولماذا لا يكونان بائسين، وأحدبين؟ . . .
- هما بائسان وهما أحدبان حقاً. . . ولكن البائسين أحدهما تجسد البؤس فيه وظهر فخف عنه تكاثف البؤس وانحباسه في نفسه، والآخر توارى البؤس بين جنبيه واستتر فهو ينفث سمه في داخله ولا ينتثر من بؤسه شيء خارج نفسه، والأحدبان أحدهما تفجر بالقبح بدنه فانزاح القبح عن روحه، والآخر ازدرد هذا القبح وهو لا يفتأ يجتره فهو غذاؤه ومادة عيشه. . . هذه هي شجرة الزقوم التي يأكل منها الكافرون لا تطعمهم ولا تسمنهم ولا تغنيهم من جوع، وأسوأ ما فيها علمهم بغصتها، وأسوأ من هذا نهمهم إليها وشغفهم بها. . . ما كان أروع لاوتون لو أنه مثل هذا الأحدب!. . .
- ومن كان يمثل الأحدب الآخر؟
- أي واحد! بوريس كارلوف مثلاً
- ولكن بوريس جامد أصم
- كان أمام لاوتون لا يستطيع إلا أن يتحرك. . . فبوريس مسكين. كل ما يسندونه إليه من الأدوار شاذة كثيرة الحركة، وما أقل الفرص التي أعطوها ليمثل. . . فإذا لم يكن بوريس يعجبكم فقد كان على لاوتون أن يمثل الدورين معاً وهذا ممكن في السينما. . . إنني حسبت حساب هذا مع هذه الأرقام التي كنت أكتبها. . .
- ولكن هذا عمل شاق قد لا يستطيعه ممثل
- إن لاوتون يستطيعه، ولكنها فكرة لم تخطر له حين كان يدرس الأحدب، فلا ريب أنه أسرع في دراستها أكثر مما أسرع في دراسة البؤساء، فوقع على أحدب المظهر وفاته أحدب المخبر؛ ولا ريب أيضاً أنه وضع في قرارة نفسه نية المباراة مع المرحوم لون شاني. . ولو كان قد أغفل هذه لكان قد خلص فأخلص فاستخلص. . .
- يا للرزية! حتى لاوتون تعيبه. . . فمن يعجبك؟ . . .
- لاوتون حينما يصفو. . . ولاوتون في الأحدب أيضاً. . . بل لقد راعني أكثر مما راعني لون شاني. . . ذلك أني خرجت من (لون شاني) وأنا كارهه. . . كاره الأحدب. . . بينما قد حببني فيه لاوتون. . . أو حملني على الترحم له على الأقل
- إني لا أرى الفرق بينهما محدداً هكذا كما تراه، ولعل ذلك راجع إلى طول عهدنا بلون شاني في الأحدب. . .
- على أي حال فإني لا أجزم بهذا الفرق بينهما وإنما أجزم به في نفسي، وقد يكون مرجعه اختلاف كل منهما عن صاحبه في تذوق الأحدب وتفهمه، وقد يكون مرجعه اختلاف نفسي بين ما أنا عليه اليوم من القدرة على التذوق والفهم، وبين ما كنت عليه فيما مضى، وقد يكون مرجعه كذلك اختلاف دواعي التذوق والتفهم عندي بين اليوم والأمس
- وما دواعي التفهم والتذوق هذه. . .؟
- ربونا على أن يخيفنا (أبو رجل مسلوخة). . . ولم أكن في صباي قد تخلصت مما غرس في ذهني ولم أكن بعد قد أحببت المشوهين والضعفاء والعجزة والمرضى. . .
- وأنت الآن تحبهم؟

- أحسب ذلك. فإذا لم أكن أحبهم فإني على الأقل أتحبب إليهم. . .
عزيز أحمد فهمي
القصص
حلم شاعر
للأستاذ محمد سعيد العريان
الليلة عيد مولده!
أولئك أصحابه وصواحبه قد أحاطوا به فرحين مهللين، يضيء البشر في قسماتهم، وترف على شفاههم بسمات الفرح والمسرة؛ قد تنادوا إلى موعدهم ودعوه معهم إلى ناديهم، ليحتفلوا بعيد مولده!
وإنه لجالس بينهم ولكنه ليس منهم؛ إنه هنا ولكنه هناك!
وفي يده زهرة يعبث بها. . . وضمها بين راحتيه ومال عليها برأسه. ما به أن يشمها؛ فإن عطرها ليأرج حوله وينتشر، ولكنه ينظر ويفكر. . .
وراحت أصابعه تنثرها ورقة تساقط عند قدميه وهو يعد، وعد ثلاثين ورقة، ثم تعرت الزهرة من أوراقها إلا عوداً أخضر ليس له عطر ولا رواء؛ وهمس الشاعر: هذه هي دنيانا. . . واختلجت شفتاه وأطرق؛ وعاد يعد الأوراق المنثورة تحت قدميه. . . ثلاثون ورقة!. . . ذلك كل تاريخ الوردة؛ فما هي بعد الثلاثين إلا عود ذابل متفتر. . . وورقات منثورة على التراب، وكانت وردةً عطرة يعبق بأريجها الجو وتهفو إليها الزهرات الطيارة من فراش البستان. . . فماذا يكون هو بعد الثلاثين وقد غربت شمسها منذ ساعات. . .؟
وعاد ينظر إلى أصحابه وصواحبه، يبادلهم تحية بتحية، وكلمات بكلمات؛ لا يكاد يشعر أن هؤلاء جميعاً قد التقوا على ميعاد ليحتفلوا به في عيد مولده؛ فإن سيلاً من الخواطر والذكريات يتدافع في رأسه الساعة، فما يكاد يرى أو يسمع إلا نجوى نفسه وهمس أمانيه؛ وغامت على عينيه غائمة، فشطح إلى واد بعيد. . . وإن أصحابه وصواحبه من المرح والبهجة لا يكادون يشعرون أنهم هنا وأنه هناك؛ وما اجتمعوا إلا حفاوة بعيد مولده. . .!
وأحس الشاعر إحساس الوحدة، وإنه لبين أصحابه وأصفى الناس له؛ فتركهم لما هم فيه وتركوه، وإن وجهاً في وجه، وإن ابتسامة تجاوب ابتسامة، وإن كلمة تحِّيي وكلمة ترد. . .
وأنفض السامر ومضى كل لوجهه، ومد الشاعر يده يصافحهم ويشكر لهم؛ ثم تفرقت بهم السبل. . .
ووجد الشاعر نفسه وهو يمشي وحده في جنح الظلام، وأحس الوحدة الرهيبة التي يعيش فيها منذ كان؛ فمضى يتحدث إلى نفسه وتحدثه، وخنقته العبرة فأرسلها، ثم تتابعت عيناه. وعاد الزمان القهقري ينشر على عينيه ماضيه ويذكره أمانيه. . .
وقالت له نفسه: هذا سبيلك فامض فيه على هدىً وبصيرة، وانظر ماذا أعددت لغد؟
وقال لنفسه: وهل ترين الغد يا نفس إلا صورة من أمس الذي كان؟ وهل ترينني في غد غير من أنا اليوم وغير من كنت في الماضي؟. . .
لقد تجاوز الثلاثين ولم يزل حيث كان يوم بدأ؛ فماذا يكون غير الذي كان؟
وأوى إلى فراشه وأطفأ المصباح، ليقضي ما بقي من الليل يراوح بين جنبيه في فراشه الوحدة لا يهدأ ولا يستقر!
كان شاعراً بروحه وفطرته قبل أن يكون شاعراً له لسان وبيان: نظر إلى الناس في دنياه فاستوعبهم بنظرة، ثم عاد ينظر إلى نفسه فلم يعرف أين هو من نفسه وأين هو من الناس؛ وشعر بالوحدة منذ شعر أنه يعيش في جماعة. وكان له خيال وفي نفسه أمل؛ فتوزعته دنياه ودنيا الناس؛ فلا هو عاش في دنيا الناس واحداً منهم ولا هو عاش في دنياه وحده!
وألحت عليه ضرورات الحياة، فأبت عليه فطرة الشاعر أن يلتمس بعض وسائل الناس؛ فعاش من ضروراته وفطرته بين قوتين تتجاذبانه، لا سبيل إلى الخلاص منهما معاً إلا أن يعيش روحاً بلا جسد أو جسداً بلا روح؛ وهيهات!
وفكر فيما خلق الله وفكر في نفسه؛ فكأن في كل ما يراه لساناً يحدثه، وفي كل ما

يسمعه معنى يهتف به؛ وكأن في كل منظور حقيقة غير منظورة لا تتكشف إلا لعينيه ولا يسمع نجواها أحد غيره؛ فإن وراء الغمام طيوفاً تتخايل له في شكول وألوان، وإن في لمعان البرق ومضات من الإلهام، وإن في الصمت لكلاماً أبلغ من الكلام، وإن بين السماء والأرض لعوالم غير منظورة تفضي إليه بأسرارها!

. . .وتكشفت له الدنيا ونضت أستارها؛ فألهمته أن يغني

وفاض ما في جنانه على لسانه سحراً من النغم يعبر عن أخفى خفايا النفس وأعمق أسرار الحياة؛ ولكن ألحانه القدسية قد تلاشت أصداؤها في صخب الحياة وضجة الأحياء؛ فلم يستمع إليه أحد!

وضاق الشاعر بوحدته بين هذا الناس وضاقت به دنياه؛ فأعتزم الخلاص. . . ولكن روحاً لطيفاً أطل عليه من سماواته فثبت فؤاده. . .

وابتسمت له فأبتسم، وعادت إلى الحياة نضرتها في عينيه، ووجد أنساً من وحشته حين أيقن أنه ليس وحيداً في دنياه!

وعاد يغني. . . ولكن غناءه اليوم ليس له وحده؛ إنه لحن مؤلف من خفقات قلبين قد اجتمعا على أمل. . .

وغنى بها عن الناس، وغنيت به؛ فما يهمه اليوم أن يسمع الناس ما يصدح به من أغاريد الحب أو يكون لها وحدها شدوه وغناؤه!!

أه. . . لشد ما تقسو عليه دنياه!

كان ذلك منذ سنين أما اليوم فقد عادت تقاليد الجماعة تضرب بينه وبينها بسور ليس له باب؛ وعاد إلى الحياة وحده، لا يدري من أمرها ولا تدري من أمره. . .

وأشرق الصبح عليه صبيحة عيد الميلاد، ومازال يراوح بين جنيه في فراش الوحدة . . . لم تغتمض عيناه!

ما هو؟ وأين هو؟ وما دنياه؟

أنه ليحس من حوله فراغاً هائلاً ليس له قرار؛ وإن الوحدة لتكتنفه، فما يشعر أن ثمة أحداً بجانبه يفزع إليه ليؤنس وحشة قلبه؛ وإنه ليعيش من زحمة الحياة وصخب الأحياء في ضجة يموت فيها النغم ويتلاشى الصدى؛ ففيما العيش؟ وما جدواه؟ وإلى أي غاية يمضي؟

. . .وعاد يلتمس الوسيلة إلى الخلاص!

وقالت له نفسه: أتحسب يا صاحبي أنك قد فرغت من دنياك حين خلوت إلى نفسك؟ فما أنت بشاعر!. . . لئن كنت قد عفت الحياة وكرهت المقام في دنياك لأمر من أمور دنياك - إن الحياة ما تزال تطالبك بحقها عليك؛ فإن أديته. . . وإلا، فلست من شعرائها، ولا كنت. . .!

ما الشعر إلا رسالة الحياة إلى الأحياء تعبر عن أسرار الحياة ومعانيها؛ وما هو إلا . . . قبس من نور السماء يتنزل على قلب بشر لتنير به السماء ما حوله من ظلمات البشرية؛

وما هو إلا إحساس زائد على إحساس الناس يرى مالا يرى ذو عين ويسمع ما لا سمع ذو أذن؛ وما هو إلا وحي يوحي من وراء الغيب إلى إنسان تكون فيه زيادة على الإنسانية؛ وما هو إلا إدراك كامل يكشف عن مظاهر الجمال في الكون ويهدي إلى الحق والخير

أفتراك يا صاحبي قد بلغت رسالة الشعر حين حسبت أنك قد فرغت من دنياك، . . . أم أنت. . .؟

. . .وأطرق الشاعر برهة يفكر ثم نهض لأمره

بلى، إن عليه رسالة يؤديها وواجباً ينهض له؛ فلا عليه من الناس حتى يبلغ، فإذا انتهى من أمره فإن نفسه له خالصة يمضي بها حيث يريد

. . .وأمات في دخيلته دواعي النفس ونوازع الهوى ومضى لغايته

وعاد يغني. . . غير آمل ولا خائف، وما به من شيء ضجر ولا ملالة؛ وأنس وسمت روحه في آفاقها إلى ظل عرش الله، حين قمع شهوات نفسه ونوازع هواه وآثر أن يكون نوراً يضيء للناس وهو يشتعل؛ فلقيت أغانيه من يسمع فيعي!

وأفاق الناس على لحن علويٍ ساحر ينشده شاعر وهب نفسه للدعوة إلى الحق

والفضيلة والجمال؛ ونظروا، فإذا هو هو، ولكنه صار شخصاً غير من كان، لا تتصباه المنى ولا يعبث به هواه، وليس له في الحياة إلا هدف واحد يسعى إليه. . .
وجاءه المجد حين لا حاجة إليه. . .
وأشارت إليه من النافذة بنان مخضوبة وتقول: إنه لهَو! ولكنه لم ير، ولكنه لم يسمع. .
وسعى ساعيها إليه يسأله: أئنك لأنت. . .؟
قال: نعم، قد كان ذلك يوماً!
وعلى باب الكوخ المنفرد على حدود العمران، جلس الشاعر على الرمل مرتفقاً إلى صخرة ناتئة، يسرح بصره في الفضاء الممتد إلى ما لا يبلغ النظر، وفي نفسه أنس، وفي قلبه هدوء ورضا واطمئنان، وعلى لسانه تسبيح وعبادة!
لقد كان في مجلسه ذلك بحيث لا تراه عين ولا تسمعه أذن، ولكنه لم يكن وحده، لأن الله معهّ!
واستيقظ الشاعر بعد غفوة، وابتسم. . .
لقد أدى رسالته، ولكنه لم يكن في أي أيامه أكثر حباً للحياة منه يومئذٍ!
لقد تحقق حلمه بعد لأيٍ ووجد تعبير رؤياه!

محمد سعيد العريان

شجاعة المرأة الكردية

(قصة تاريخية واقعية لم يحن الوقت بعد لذكر أسمائها)

للآنسة الأديبة سانحة أمين زكي

حدث أنه كان في منطقة. . . رجل نبيل مهيب الجانب قد وهبه الله من الشجاعة والكفاية قدر ما وهبه من جمال الرجولة وقوة الشباب، ومن ذلك كان رجاله يحترمونه ويقدسونه حتى ليرفعونه إلى مصاف الآلهة، وقد هيأت له الأقدار زوجة هي صورة مصغرة له ولصفاته، قد حباها الله ثروة من الجمال والذكاء والشجاعة، فهي تجيد الرماية إلى أقصى حد، وتتصدر المجالس سامرة، وتنافس الرجال في أعمالهم، والشعراء في فنهم، والعلماء في علمهم؛ فكانت بذلك مثلاً أعلى لبنات قومها، وصورة بديعة ناطقة للمرأة الكردية

كان الرجل يحب زوجته، وكانت هي تبادله حباً بحب فعاشا مدة من الزمن يرفرف عليهما طائر السعادة بجناحيه، يخرجان معاً للصيد ويتسابقان في العدو، وأتباعهما يشيعونهما بنظرات ملؤها الحب والغبطة وهما في لهوهما لا يحملان هماً من هم الحياة!

وحدث أن قدم الملك. . . إلى هذه المنطقة تمهيداً للاستيلاء عليها وضمها إلى ممتلكاته. فلما تم له الأمر، أولم وليمة فاخرة، دعا إليها جميع نبلاء وحكام هذه المنطقة، وكان من بينهم هذا النبيل، فما كاد الملك يراه حتى أعجب بذكائه، فلما سأل عنه سمع ما زاده حباً له وتعلقاً به، فرغب في ضمه إلى بطانته ليأنس به، ويستمتع بعلمه وفضله ويتخذه سلاحاً من أسلحته؛ فلما عرف هذا النبيل رغبة الملك لقيها بالقبول لما رآه من عطفه على المغلوبين من إخوانه، وتواضعه لمن حوله؛ ورضى أن يكون مرافقاً له، وشد الرحال مع زوجته وخدمه ميممين شطر العاصمة، ولو درى المسكين ما يخبأه له القدر وراء هذه الرحلة من الشر لما رضى أن يرحل ولما خطا خطوة في هذا السبيل

وصل النبيل وحاشيته إلى قصبة الملك، فأفرد له الملك قصراً فخماً، في وسط حديقة غناء، سكن فيه هو وزوجته في أسعد حال وأهنأ بال، واستأنفا ما كانا عليه من قبل: من صيد وقنص ومرح، والجميع يتغنون بمحاسن هذه المرأة وجمالها الذي جلب عليها الوبال فيما بعد. ومازال جمال المرأة منذ كانت أس البلاء ومنبت الشر، ومازال سبباً إلى الكوارث الفاجعة، مادام هناك رجال تسول هم نفوسهم أن نظروا إلى ما لا تملك أيديهم. وكان واحد

من النبلاء - وإن لم يكن في طبعه شيء من صفات النبل وكرم النفس - مقرباً من الملك، صديقاً له، لا يخطو الملك خطوة إلا عن أمره، ولا يقطع في رأي إلا بمشورته؛ فرآها يوماً خارجة لنزهتها المعتادة، منتصبة فوق صهوة جوادها، رافعة الرأس، باسمة للطبيعة يتبعها خادماها الأمينان لا ينفكان يلاحظانها بيعيونهما، كما ينظر الكلب الأليف

إلى صاحبه، ولكنهما على ما كان يبدو عليهما من الضعف بإزائها، كان من شجعان الرجال، قد أخذا الأهبة للذود عن سيدتهما وقتل كل شرير تسول له نفسه الخبيثة أن يحاول الاقتراب منها؛ فلم يجد النبيل سبيلاً إلى التقرب منها أو سماع صوتها واكتفى بالنظر إليها والتملي بمحاسنها على بعد؛ وأحست المرأة بغريزتها أن هناك من ينظر إليها، فالتفتت، وحين التقت نظراتها بنظراته، ورأت ما في عينيه من حديث نفسه الدنيئة. . . ظهر الغضب في وجهها، وأدارت رأسها، كأن النظر إلى وجهه يدنسها. . . لكن ذلك النبيل لم يبال ما رأى، بل ابتسم ابتسامة فيها وعيد وتهديد. وحين رجع إلى بلاط الملك قص عليه قصة هذه الحسناء ووصف له تعلقه بها وحبه لها بلا حياء. . . وأخذ يستعطفه، ويطلب منه العون. . . فأثر ذلك في نفس الملك، وهون عليه الأمر وطلب منه الصبر، حتى يحين الوقت المناسب. . .

والتقت الزوجة بزوجها، فقصت عليه ما رأت، بصوت يرتجف من الغضب، ويدل على ما كانت تشعر به من الذل والمهانة لما أصابها. . . فهدأ الزوج الكريم ثائرتها، وذهب يستطلع الأمر وحين علم أن الملك راضٍ عن عمل صديقه، ثارت نفسه الأبية للدفاع عن عرضه، وزاد في غضبه، ما رأى من سوء معاملة الملك لأصدقائه، واحتقاره لهم، وتنكيله بهم، وما فرض من الضرائب المرهقة على المنطقة التي ينتسب إليها، والتي يشعر أن عليه حقاً لها، وما سلب أهلها من الحرية. . .

هذه العوامل مجتمعة، فعلت فعلها في نفس هذا النبيل؛ فمحقت ما كان يشعر به من الحب للملك، وحملته على التفكير في قتله، ليربح منه، ولينتقم! غير مبال بعاقبة ذلك، مادام فيه صيانة لشرفه، وتخليص لشعبه من آصار العبودية التي يرسف فيها تحت ظل هذا الملك الطاغية!

رجع النبيل إلى زوجته، والغضب يطويه وينشره، وعوامل مختلفة تصطرع في نفسه، وأخبرها أنه ذاهب لقتل الملك، فإن نجح في ذلك فقد بلغ ما أراد؛ وإن لم يتمكن من قتله أو لم يستطع الإفلات بعد تنفيذ عزيمته، فعليها أن تدافع عن شرفها حتى آخر لحظة من عمرها. ثم تمنطق بغدارتين، وودع زوجته وداعاً حارا ومضى لشأنه. وأبت الزوجة الشجاعة أن تلجأ إلى البكاء والنحيب بلا جدوى؛ بل اكتفت بالسكوت وبالنظر إلى زوجها كأنها تحاول أن ترسم صورته في مخيلتها جيدا

وصل الرجل إلى البلاط، وتمكن من الدخول بسهولة؛ لأنه كان معروفاً هناك، ووصل بهدوء إلى غرفة الملك الخاصة، وكان الملك في ذلك الوقت جالساً يطالع غافلاً عما يدبر له. وحين رأى صديقه بالأمس داخلاً والشرر يتطاير من عينيه، استولى عليه حب الحياة، فحاول الهرب، ولكن الرجل لم يمهله، بل أطلق عليه خمس رصاصات من الغدارة الأولى، ولكنه لم يصبه لشدة انفعاله، فأراد أن يرد الغدارة إلى منطقته كي يستعين بالغدارة الثانية، ونسى أنه لا يزال هناك رصاصة أخرى فيها، فما كاد يضعها في منطقته، حتى انطلقت هذه الرصاصة وأصابت منه مقتلاً. فسقط متضرجاً بدمائه الزكية تحت أقدام الملك

أما الزوجة فإنها بعد ذهاب زوجها صعدت إلى أعلى غرفة في منزلها، وتزودت بما قدرت عليه من الطلقات، وحصنت الغرفة بما وضعت من الأثاث خلف الباب كالمتاريس، وجلست في حصنها متأهبة لما يكون، وهي في شك من قدرة زوجها على الإفلات بعد تنفيذ عزيمته، ولكنها لبثت تنتظر! ولم يطل انتظارها طويلاً حتى قدم جنود الملك وأحاطوا بالمنزل، فحينذاك عرفت كل ما كان، وأيقنت أن زوجها قد مات! فتلاشت رغبتها في الحياة، ولم يبق في نفسها إلا سعير يضطرم يدفعها إلى الثأر. وطلب إليها الجنود أن تنزل، فأجابتهم بإطلاق الرصاص فأجابوها ناراً بنار، ودارت المعركة، فما استطاع الجنود أن يصيبوها وهي في ذلك الحصن الحصين؛ على حين استطاعت هي أن تقتل أثني عشر رجلاً منهم. وعلم الجنود أنهم لن يبلغوا منها مبلغاً، وصغرت نفوسهم حيال هذه المرأة الجريئة فلم يجدوا إلا أن يشعلوا النار بالمنزل ليحترق بها وتموت بين الأنقاض، وأيقنت المرأة أنها على شفا الموت حرقاً، فصاحت بالجنود تخبرهم أنها تستسلم على شرط أن يتقدم الرجل الذي سبب هذه الكارثة فيعطيها الأمان ويضمن لها السلامة، ففرح الرجل الفاجر وأيقن أنه قد بلغ أمنيته، وتقدم متبختراً يريد المنزل، فلم يكد يقترب من الباب حتى

أصابته رصاصة في جبينه، فخر على الأرض قتيلاً جزاء وفاقاً على ما سبب لهذه الأسرة الهانئة من الشقاء والبلاء! ولما انتقمت المرأة لنفسها ولزوجها وللأرواح التي أزهقت، هدأت ثائرتها وعلمت أنها قد أدت واجبها؛ فخيل إليها كأن صوتاً من الغيب يناديها إليه، هو صوت زوجها، فوضعت فوهة المسدس على جبينها وهتفت باسم زوجها لآخر مرة ثم أطلقته؛ فصعدت روحها الطاهرة إلى بارئها، وانطفأت شعلة حياتها وهي في ريعان الصبا وزهرة الشباب!

(بغداد)

سانحة أمين زكي

من هنا ومن هناك

إلى أين تتجه إيطاليا؟

(ملخصة عن (ذي كونتمبوراري رفيو))

مهما قيل في تصريح الحكومة الإيطالية في بدء الحرب عن التزامها طريق الحياد، فمما لاشك فيه أن هذا التصريح قد قوبل بالثقة التامة داخل إيطاليا وخارجها.

وقد كانت الصحافة الإيطالية صريحة في التعبير عن نيات موسوليني في حماية المصالح الإيطالية الخاصة. فكتبت جريدة (رجيم فاشستا) بعد إعلان الحرب ببضعة أيام تقول:

إن إيطاليا ستفي بتعهداتها ولاشك، ولكن في حدود مصالحها الخاصة التي تضعها) الحكومة فوق كل اعتبار، وتنظر إليها كما تنظر إلى النجم القطبي، كلما أرادت تحريك الدفة لتوجيه سفينة البلاد. فما هي مصلحة إيطاليا في الموقف الحاضر؟ قد تنضم إيطاليا إلى ألمانيا وروسيا ضد الحلفاء، ولكن الحكومة الفاشستية لا تخطو هذه الخطوة إلا إذا كانت على ثقة تامة من انتصار الدكتاتوريات الثلاث على الديمقراطية الغربية. وإذا صح هذا الفرض، فإن إيطاليا ستعجز عن الوقوف أمام ألمانيا وروسيا إذا أرادت أن تطالب بنصيبها من الغنيمة في البحر الأبيض المتوسط والمستعمرات باعتبارهما صاحبتي السلطة الحقيقية في أوربا وما يتبعها من البلاد. وسوف تنال روسيا ما تريده من آسيا والبلقان فضلاً عما نالته فعلاً في بولندا وولايات بحر البلطيق، وتترك إيطاليا لتلعب دوراً آخر تكون فيه سياستها الخارجية المالية والاستعمارية والثقافية، تابعة لأهواء الألمان المنتصرين.

وهناك الفرض الآخر وهو الأكثر احتمالاً: وهو انتصار الدول الديمقراطية. وفي هذه الحالة تستطيع إيطاليا أن تختار بين صداقة الأمم المنتصرة كما يدل سلوكها مدة الحرب، ومعارضة يدفعها إليها شيء من عدم الثقة، الذي قد يبعثه غموض الموقف ويضاعف تأثيره اختلاف المبادئ السياسية. . . وإذا كنا لا نستطيع أن نصل إلى حل هذه المشكلة التي يرجع أمرها إلى الظروف والأحوال التي تظهر بعد الحرب، فإننا نستطيع أن نحلق حولها، ونلم بأطرافها

إن الذين يقدرون مستقبل الشعوب بالنظر إلى قواها المادية، ويهملون تقدير القيم الأدبية والأخلاقية، يخدعون أنفسهم في الحقيقة، فهذه القيم هي مصدر النصر في النهاية، إذ الدافع

الروحي قوة لا يستهان بها في حياة الأمم

لذلك يرى رجال السياسة الذين يستمتعون بالنظر البعيد، أن يكون إلى جانب حرب السلاح حرب المبادئ والأفكار. يجب أن يعرف المحاربون أنهم يحاربون للمحافظة على القيم الأخلاقية لا للاستيلاء على الأرض والمادة. يجب أن يعرفوا أنهم يحاربون للحرية الإنسانية والدفاع عن الضعفاء والمظلومين

لقد كنا نقول في سنة 1914 إن الحرب قائمة لإنهاء الحرب، ولكنا اليوم نقول: إن الحرب قائمة للدفاع عن الوحدة الأوربية وسلامتها. . .

فهل تستطيع إيطاليا أن تقف أمام أوربا المنتصرة، لتعارض مبادئ الحرية والعدالة التي تدعو إليها بعد الحرب؟. الجواب: لا

العمل والعمال في تركيا

(ملخصة عن (لاجورنال دي روبيه))

ليس في تركيا إنسان واحد بغير عمل، فكلمة (متعطل) لا وجود لها في قاموس اللغة التركية اليوم. فإذا وجد رجل بغير عمل فمعنى ذلك أنه يغير العمل الذي كان يشتغل

فيه. ولا يستغرق (تغيير العمل) أكثر من ثلاثة أسابيع على أكبر تقدير. إذ يذهب الرجل أو المرأة ممن يريدون (تغيير العمل) إلى مكتب خاص صباح كل يوم من هذه الأسابيع الثلاثة فيوكل إليه عمل مؤقت يقوم به ريثما يعين له العمل الدائم. وهكذا أصبحت تركيا الحديثة لا تعرف الكسل ولا الخمول

ولا تعرف تركيا كلمة الحرمان من الحقوق الاجتماعية، فجميع الحقوق التي للرجل تتمتع بها النساء. أما الرجال فقد فقدوا سلطانهم القديم على المرأة. وإن كانت لا تزال لهم بعض المزايا على وجه العموم، إلا أن المرأة على الرغم من الجهود التي بذلت بشأنها لا تزال متأخرة عن الرجل في ميدان الحياة العامة. . . إنني ممن يؤمنون بحرية المرأة؛ إلا أن التجارب العديدة قد برهنت لسوء الحظ على تفوق الرجل على المرأة. وقد أتيح لي كرئيس لإحدى قوات لطيران أن أضع تحت رآستي خليطاً من الرجال والنساء، فلم أجد من يدرك فهم ضرورة النظام بين النساء إلا النذر القليل، وغالبهن ممن يمتزن في الأصل بالذكاء

الشديد، بينما يبرهن الرجال جميعاً حتى الذين لم يرزقوا من الفهم إلا الشيء القليل على فهمهم للنظام وخضوعهم له

لقد جربت الجوع في الأيام الخالية، ولكني لا أجد الآن تركياً واحداً يعرف الجوع. وإذا كنت الإحصاءات الرسمية قد دلت على أن عدداً يتراوح بين ألفين وثلاثة آلاف من الأتراك كانوا يموتون جوعاً كل عام، فقد ثبت أنه لم يمت في خمس السنين الأخيرة تركي واحد بعامل الجوع

وتقوم الحكومة التركية بالإشراف على غذاء كل عائلة، وفحصه من الناحية الصحية مرة كل شهرين. وتكلف رب كل عائلة بتقديم بطاقة عن حالة أفراد عائلته الصحية فرداً فرداً إلى السلطات المختصة مرة كل شهر

وتلتزم الفتاة التركية التي تصل إلى الثانية عشرة من سنها بدراسة منهاج خاص في الأحوال الصحية وتربية الأطفال. ولا يباح الزواج لفتيات إلا إذا اجتزن امتحاناً خاصاً في هاتين المادتين. وقد زاد عدد المواليد في بعض المدن التركية إلى 30 في المائة للعناية الفائقة التي تبذلها الحكومة

وقد بلغ عدد الأتراك الذين يحملون شهادات بإتقان القراءة والكتابة من الذين ولدوا منذ سنة 1918، 95 في المائة من الفتيان والفتيات، ويزاد صداق المرأة في تركيا بمقدار التفوق الذي تظهره في خدمة بلادها.

. . .أما عدد الجرائم والمجرمين فقد نقص إلى حد عظيم في السنين الأخيرة

أليس هذا جميعه دليلاً على أن تركيا تسير بخطوات واسعة نحو التقدم والفلاح؟

البريد الأدبي

في رأي مطران (وحي الرسالة)

تفضل إمام الصناعتين وشاعر القطرين الأستاذ خليل مطران بك فأرسل إلينا الكتاب الآتي:

حضرة الأستاذ الكبير أحمد حسن الزيات

أشكر لك إهداءك إلي نسخة من كتابك (وحي الرسالة) وإنه حقاً لوحي رسالة أقرر أنه وحي رسالة، وما أرمي بذلك إلى محاولة بديعية أستمد منها وسيلة سهلة للتقريظ، بل أرمي إلى غرض أبعد وأسمى، ذلك أنك منذ أجريت قلمك في الترجمة ثم في الإنشاء التزمت ما لم يلتزمه غيرك من سلامة العربية وفصاحتها مع قربها إلى التناول. وكان الأمر غير يسير فذللت له صعاباً، وخضت دونه غماراً. ويعلم الله وأهل الذكر ما يعاني الأديب في هذا المطلب، وإنه لوعر شاق. وإن إدراك الغاية فيه لفخر ما بعده فخر. وقد جعلت بلوغك هذه الغاية رسالة لك، وأعظم بها من رسالة مادام يتحتم على الناطقين بالضاد استبقاء الفصحى، وليس هذا فحسب بل تطوبعها، وهي لا تهي ولا تضعف، ولا تهن ولا تستخف، لأداء أدق الأفكار وأبدع المعاني في هذا العصر، بأصدق ما يكون البيان، وأروع ما يأتي الأسلوب، وأمتن ما تكون التراكيب، بين أصيلة ومتشبهة بها

أمتعتني بمراجعة تلك الفصول القيمة التي جمعتها بين دفتي كتابك، فما زادتني المراجعة إلا إكباراً لها وإعجاباً بها. وإني لأرجو أن يكون من أثرها في نفوس فتياننا، ردهم إلى محجة الصواب التي نكبتهم عنها مولدات عجيبة من مقاطر الأقلام في هذه

الأيام.
فبارك الله فيك ومد في أجلك لتجيد وتزيد، وإليك في الختام خالص التحية مع فائق الاحترام.
المخلص
خليل مطران
هذا الكلام لأفلاطون
روت مجلة (الهلال) الغراء في آخر أجزائها هذا القول عازية إياه إلى عمر بن الخطاب (رضوان الله عليه): (لا تقصروا أولادكم على آدابكم فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم)
وقد جاءت (لا تقصروا) بالصاد، وهي بالسين، وما قيل في الإبدال في هذا الباب معلوم، بيد أن قصة (أبي صالح. . .) تقسرنا على أن نقصر (القسر) على الإجبار أو الجبر و (القصر) على الحبس. والقول المروي ينسبه ناسبون إلى علي (رضوان الله عليه). والحق الذي لا مرة فيه أنه إغريقي سليل إغريقيين، وقائله - كما أخبروا - هو الحكيم أفلاطون. وقد ترجمه أبو الفرج بن هندو فيما عرب من الحكم اليونانية في (الكلم الروحانية) وربما نقل القول من قبل. ولو شاء الخليفتان الثاني والرابع (رضي الله عنهما وعن جميع الصحابة) أن يقولا شيئاً في هذا المعنى لقالا نقيض ذاك الكلام، إذ يستحيل أيما استحالة أن يرى صاحبا رسول الله (صلوات الله وسلامه عليه) أن لكل وقت آداباً، كأن الآداب (أزياء) نساء في المعاهر في باريس، فيوصيا أهل دهرهما بهاتيك الوصية العريقة في الإغريقية
قل: إن ذلك إنما يقوله ويوصي به يونانيون، رومانيون، أوربيون، أمريكيون، عربيون عصريون، لا صحابيون ولا تابعون ولا مهتدون بهديهم
يا كتاب، يا رواة، اعقلوا. . .
(طنطا)
(أزهري)
حول شمال أفريقية
1 - إلى حضرة نصير العروبة الأستاذ الكبير ساطع الحصري:
في جوابكم المنشور في العدد 339 من الرسالة الغراء على كلمة لي سابقة حول رحلتكم إلى (شمال أفريقية) ما يدعوني إلى الخجل إذ كانت سبباً في تألمكم. غير أني سررت لنتيجتها كما سر الشباب المغربي الطموح، فقد كانت باعثة لكم على إفادتنا بأشياء وإطلاعنا على أشياء. وكنت أود تحريضكم على كتابة فصول عن مشاهداتكم في المغرب، إذ نعد ذلك فرصة نرجو ألا تضيعوها علينا، لأن وجود العراقي أو المصري في بلاد المغرب (أندر من وجود المطر في القاهرة). وإذا وهبتمونا قليلاً من وقتكم ووصفتم للعرب في (رسالتهم) بعض بلادهم، فستشكركم العروبة قبل أن يشكركم أبناؤها.
وأما الملحوظة التي ذكرتم عقب جوابكم، فستصلكم مني في شأنها رسالة خاصة لمقركم
بالعراق. والسلام عليكم ورحمة الله
2 - حضرة الأستاذ أحمد الكندي:
جاء في ردك المنشور في العدد 341 من مجلة الرسالة على كلمة سابقة لي ما يفيد أنني أنفي وجود الأباضية من (شمال أفريقية) وهذا ما لا تدل عليه كلمتي قط، لأني إنما نفيت وجودهم في المغرب الأقصى. وهذا نص كلامي (الرسالة339):
(أما الوحدة المذهبية، فالمغرب من أقصاه لأقصاه على مذهب إمام دار الهجرة مالك بن أنس وليس فيه طوائف دينية كالرافضة أو الأباضية أو غيرهما. . .)
وهو كما ترى صريح في نفي وجود الأباضية في المغرب الأقصى (مراكش) لا في جميع شمال أفريقية كما قد فهمت.
أما أنني لا أعتبرهم من الفرق الإسلامية فمعاذ الله أن أقصد ذلك لأني قد حصرت الأقليات الدينية غير الإسلامية بالمغرب في طائفة اليهود وبعض الأجانب من الذين أقاموا فيه بعد الحماية ثم عدت إلى الكلام عن الوحدة المذهبية بالمغرب، فنفيت أن يكون فيه طوائف دينية أعني بها المذاهب الإسلامية غير مذهب مالك

أما المذاهب الإسلامية في الشمال الأفريقي غير المغرب فهي زيادة على الأباضية (التي فصل الكلام عنها صاحب الأزهار في أئمة وملوك الأباضية) يوجد في تونس والجزائر وطرابلس وبرقة المذهب الحنفي والمالكي كما يحتمل وجود غيرها وقياساً على استعدائك على عالم الأباضية إبراهيم طفيش كان ينبغي أن تستعدي على شيخ الإسلام الحنفي بتونس وقاضي الأحناف بعاصمة الجزائر وقاضيهم بطرابلس وبرقة، ومذهبهم أكثر انتشاراً وأعظم أتباعاً؛ وبهذا كان يتم لكم القول بأن (الحق أن النزعة الإسلامية المتأصلة في قرار نفوسنا تضطرنا لإصلاح أغلاط إخواننا فينا) كيف وهذا الاستعداد والاستنجاد من أصله قد بني على فهم خاطئ

وأنا فوق ذلك أحترم نقدك وغيرتك، ولي كامل الفخر بأن أكون أحد الذين يغارون على الإسلام. وعليك من الله السلام

(فاس)

(أبو الوفاء)

أيضاً (البستاني)

قرأت في العدد (159) من السياسة الأسبوعية رداً على نقدي لأناشيد البستاني. وفي الحق لقد أعجبني من الأستاذين فؤاد البهي وتوفيق أبو السعد أن يتقبلا النقد في صدر رحب، وأن يستسيغا في هدوء؛ غير أني لا أستطيع أن أومن معهما بأنهما يريدان أن يعيشا (وهذا الشاعر في لحظات من السمو والقداسة والجمال. . .) لأنني مازلت أرى أن هذا العمل تعوزه الدقة والاهتمام، ويفتقر إلى العناية والأناة

وإذا كان المعربان قد ألقيا مسئولية الغلطات السابقة على عاتق (عامل المطبعة) برغم أن من ورائه من يراجع ويصحح، فلا ضير، فأنا أغتفرها جميعاً (عامل المطبعة)؛ ثم أعود إلى الأناشيد المنشورة في العدد (159) فأقول:

لقد جاء في المقطع الأخير من النشيد الخامس والعشرين: وهنا من تنوء أقدامي بأثقال قلبي. (كذا) وهذه عبارة لا أستطيع فهمها على ما فيها من أخطاء في اللغة والمعنى معاً. فأول ما يجذب النظر في هذه العبارة هي كلمة: أقدامي. فهل كان للشاعر أكثر من قدمين؟ وهذه غلطة تكررت في المقطع الرابع من النشيد الثلاثين حيث كانت الترجمة: أقدامك في حمرة الورد. . . والشاعر هنا يعني قدمي الحبيبة. وفي التعبير اللغوي غلطة أخرى، فهناك فرق بين (تنوء قدماي بأثقال قلبي) وبين (تنوء أثقال قلبي بقدمي) والمعنى الأخير هو الذي يريده الشاعر في نشيده

وجاء في النشيد السادس والعشرين (لو تفضلت علي بزهرة برية فسأحفظها بين طيات فؤادي وإن لم أحظ إلا بشوك واخز) وهذا حديث فيه أخذ ورد بين الحبيبين يجب أن يكون هكذا:

- لو تفضلت علي بزهرة برية فسأحفظها بين طيات فؤادي

- وإن لم تفز مني إلا بالشوك؟ ثم يتم الحديث بينهما وسقط من هذا النشيد ثلثه الأخير وترجمته كما يأتي:

- ليتك ترفعين إلى وجهي نظراتك الحبيبة مرة واحدة. إذ تنفثين في حياتي السعادة الأبدية

- وإذا كانت حدجات قاسية؟

- إذن أدعها تخز قلبي

- نعم، نعم إنني أعرفك أيها السائل الرفيق، فأنت تطلب كل ما أملك

وبعد فإن زحمة العمل تحول بيني وبين أن أفند كل ما أجد في الأناشيد، وإن مقدرة الأساتذين كفيلة بأن توفر علي جهداً أدخره لأشياء أخر، والسلام

كامل محمود حبيب

مجلة العصبة في عامها السادس

دخلت زميلتنا (العصبة) في يناير عامها السادس وهي أقوى ما تكون إيماناً برسالتها العظيمة وصبراً على جهادها الجاهد. و (العصبة) - كما يعلم قراء (الرسالة) - مجلة شهرية للأدب والفن يصدرها في سان باولو الأستاذ المجاهد (حبيب مسعود) وتحررها جماعة العصبة الأندلسية، وهي بحق سفارة الأدب العربي بين أهله في الموطن وبينهم في المهجر، تصل ما بينهم بوشائج روحية من نسب الفكر والبيان والأمل والذكرى، وتلقي في روعهم على الدوام أن لهم تاريخاً ولغة وأدباً وأمة حتى لا يفقدوا على

تراخي الزمن ونزوح الدار مقوماتهم الجنسية والوطنية فيذوبوا في عمار الأمم وبين يدينا الآن عددها الممتاز الذي اعتادت أن تصدره في آخر كل مرحلة من مراحلها البالغة؛ وهو طرفة من طرف الأدب النادرة يقع في نحو 180 صفحة ويمتاز من سوابقه بغزارة مادته ووفرة صوره وجمال تنسيقه وتنوع موضوعاته، وكان المظنون أن يكون أبناء العروبة في أقطارها عوناً لهؤلاء الأدباء المجاهدين الصابرين على رفع لوائها في بلاد العرب، ولكنا نستنتج وا أسفاه من فاتحة هذا العدد وخاتمة هذه المرحلة أن الأدب الحر والصحافة الرشيدة هما في كل مكان تضحية ومحنة. فقد قال محررها الفاضل فيما قال:

أما عدتنا فمحدودة، لأن الفئة التي تقبل على صحيفة من طراز (العصبة) قليل . . .) عددها بالنسبة إلى تلك الفئة التي لا يهمها من الصحيفة غير أن تكون متحفاً للأشخاص لا معرضاً للأفلام

حبذا لو أننا عند آخر كل مرحلة نقول: لا علينا ولا لنا. غير أن (على) حليفتنا الأمينة. وما في ذلك لغز وإبهام، لأن ما ننفقه مستمد أكثره من المشتركين لا من موارد أخرى تغني

عن الاشتراكات. ومع ذلك ليس للتذمر مجال في أنفسنا، لأن الجندي في ساحة الحرب لا يتطلب مائدة تبسط عليها ألوان الطعام والشراب ولا فراشاً وثيراً. وحسبنا (. . .من جهادنا أن نترك صفحة نقية في تاريخ الصحافة العربية في المهجر

اشتراك (العصبة) في السنة ستة دولارات أمريكية وعنوانها:

1812 ,

بين بشر وشاكر

الزلزلة تفيد في اللغة معنى الاضطراب والتقلقل، ولكن هل هذه الإفادة تجيز أن يقال إن (الأذن تزلزل طربا) بمعنى الاضطراب والتقلقل؟

الدكتور بشر فارس يجيز هذا، لأنه يرى مجاورة في لغة العرب بين الزلزلة والطرب، وهو يسوق على ذلك الشواهد ويعزز رأيه بنصوص من كلام البلغاء، ولكن يغيب عنه أن هذه المجاورة - في كل الشواهد التي جاء بها - تعتمد على أساسين: جواز الاضطراب والتقلقل على الشيء أولاً، وإن كان الإحساس والشعور بهذا الاضطراب والتقلقل ثانياً.

وقد لمس الأصل الأول منهما الأستاذ المحقق محمود محمد شاكر، ومن هنا كانت موضع مؤاخذته على صاحبه أن يقول: (أذني زلزلت طربا). وهو يقرر أن شرط مجاز الزلزلة أن يكون الشيء يتحرك ويضطرب ويتقلقل. ومن هنا يصح عنده القول إن الرجل يتزلزل، والأقدام والأيدي والرؤوس والقلوب وما إليها من سائر أعضاء الإنسان المتحركة حركة ما، وكذلك الحيوان كالإبل جاء راعيها (يزلزلها)، ولكن لا يصح عند ظنه القول بأن الأذان تتزلزل من الطرب أو الغضب (أو تحت تأثير أي انفعال آخر)، لأن الأذن لا تتحرك، وهذا صحيح!

ولكن الدكتور بشر فارس يرى الأذن تهتز طبلتها على جانب المماثلة لحركة مصدر الصوت، ومن هنا يجوز عنده أن يقال إن الأذن تتحرك ويصح رأيه في أن الأذن تتزلزل طرباً. ولكن هذه الحركة الاهتزازية لا يمكن الشعور بها، وشرط مجاز الزلزلة ليس الحركة وحدها، وإنما الحركة أولاً، ثم وجوب الشعور بها ثانياً. ومن كل الشواهد والأمثلة التي دارت على قلمي المتناظرين تجد أن الإحساس والشعور بالحركة شرط مجاز الزلزلة للشيء المتحرك. ومن هنا نرى أنه لا يجوز لغة القول بأن الأذن تطرب . . .(أو تنفعل) زلزلة، لأنه لا يمكن الإحساس والشعور بحركة اهتزاز طبلة الأذن على أن تخريج الدكتور بشر بالموضوع طريف، وطرافته تجيء من جهة أن كل عضو من أعضاء الحس تهتز دخائلها. وهذا الاهتزاز حين ينتهي إلى مراكز الإحساس في الدماغ يحدث الشعور بالإحساس. ومن هنا يمكن أن نقول إن العينين تتزلزلان من الجمال. . . ومن الواضح سخافة مثل هذا المجاز!. . .

ومن المهم أن نقول إن نزعة الدكتور بشر فارس التجديدية، وجريه وراء مذهب المجددين المغرقين في تجديدهم في الغرب، هي التي أملت عليه هذه الصورة الشعرية النابية عن الذوق وفن اللغة عامة والمجاز خاصة. ألا ترى بيراندللو يقول في مسرحية له: (واضطربت أذنها وتقلقلت من موسيقى الجاز المزعجة التي كانت تدق

في القاعة) (أنظر فردريك ناردیللي في كتابه - الإنسان المقدس - حياة وآلام بيراندللو، الترجمة التركية، استانبول 1939 ص 118 - 119). إن في هذه الصورة أصلاً لتعبير الدكتور بشر: (أذني زلزلت طرباً)؛ الموروث من طبيعة بدوية، أعرابية، فجاء متخذاً هذا الكساء. والدكتور بشر على الرغم من حبه للتجديد فيه لوثة أعرابية على حد تعبير أسود بن أبي خزيمة (البيان للجاحظ ج 1 ص 70 طبعة مصر)

(الإسكندرية)

إسماعيل أدهم

العدد 348 - بتاريخ: 04 - 03 - 1940

محمد الزعيم

ولدت سنتنا الهجرية الجديدة وا أسفاه في هذه الأيام التي اختبل فيها إنسان الغرب فزلزل جوانب الأرض على نفسه؛ وأبكم في فمه حجة العقل ووحي الضمير فلا يتكلم إلا بلسان النار، ولا يصول إلا ببأس الحديد؛ وراحت المنايا الرواعد تدكدك المدن والناس في فجوات القنابل، فلا ترى اليوم في بلاد الحرب غير مقبور أو منتظر، ولا في بلاد الحيدة غير مذعور أو حذر. ومفزع الشعوب في غشية هذه الخطوب الزعماء والقادة. فليت شعري إلى من يفزع العرب والمسلمون من هول هذه الساعة؟ لم يتح الله لهم بعد محمد وخلفائه زعيماً تجتمع عليه القلوب وترجع إليه الأمور في أقطارهم البعيدة ووجوههم المختلفة؛ وإنما ابتلاهم بالانقسام والفرقة حين ضلوا الطريق فكان في كل قطعة من الوطن الأكبر سرير وأمير، وتوزعت زعامة محمد في كل جيل وفي كل قبيل بين عشرات من الرجال العجاف، فكانت كالشعلة العظيمة الوهاجة تقطعت أقباساً كشموع الأطفال لا تقوى على نسم الريح ولا تظهر في حلك الليل!

تعالوا يا زعماء اليوم عانين خاشعين ألقي عليكم درساً من زعامة محمد! إن فيكم زعماء أحزاب، وليس فيكم زعيم أمة؛ أما هو فكان زعيم الإنسانية جمعاء بلغتم مكان الزعامة الإقليمية عن طريق الحزبية أو الثروة أو القوة، ثم لم تستطيعوا أن تنسوا ضعف القميء الصغير الذي ارتفع على كواهل غيره؛ أما هو فقد بلغ الزعامة العالمية عن طريق الألم والفقر والغربة والجهاد؛ ثم جعل في عشر سنين من الرعاة الجفاة المشتتين على رمال القفر، أمةً متماسكة الأجزاء، متحدة الأهواء، متساندة القوى، متجانسة الطباع، بلغت رسالة الله وحكمت عامر الأرض ومدنت أكثر العالم

إنكم تكونون قبل الزعامة ناساً كالناس، ثم تصبحون بعدها آلهة كالآلهة، تنكرون الخاصة، وتزدرون العامة؛ ثم تمتازون فتدخلون بفضل المبادئ المزورة والمناصب المسخرة في دنيا النبلاء والأغنياء، وماذا بعد هذا؟ أما هو فقد ملك الحجاز واليمن، وجبى الجزيرة كلها وما داناها من العراق والشام، وظل ينام على فراش من أدم حشوه ليف، ويبيت هو وأهله الليالي طاوين لا يجدون العشاء، ويمكثون الشهر لا يستوقدون ناراً إن هو إلا التمر والماء، ويلبس الكساء الخشن والبرد الغليظ ويقسم على الناس أقبية الديباج المخوص بالذهب؛ فإذا أقبل على أصحابه فقاموا إجلالا له قال لهم: (لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً. إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد). وكان ذات مرة في سفر فأمر أصحابه بإصلاح شاة. فقال رجل: عليَّ بذبحها، وقال ثان: عليَّ بسلخها، وقال ثالث: عليّ طبخها. فقال الرسول صلوات الله عليه: وعليّ جمع الحطب. فقالوا: يا رسول الله نكفيك العمل. فقال: علمت أنكم تكفونني إياه ولكني أكره أن أتميز عليكم!

ولما استعز الله بقاسم الفيء وزعيم الجزيرة وسيد الملوك كانت درعه مرهونة عند يهودي في نفقة عياله!

إنكم حينما تتزعمون لا تفكرون إلا في مثوبة الصديق وعقوبة العدو، ثم لا تخرج أعمالكم وآمالكم عن دائرة الحزبية الصغيرة الحقيرة؛ فالمنفعة تقاس بمقياس الحزب، والسياسة تتلون بلون المنفعة. أما هو فكان يعادي في الله ويصادق في الله. اشتط في أذاه المشركون في مكة والمنافقون في المدينة، فلما أمكنه الله منهم بسط عليهم جناح عفوه. وقال لقريش يوم الفتح: يا معشر قريش! ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً! أخ كريم وابن أخ كريم! قال: أذهبوا فأنتم الطلقاء

ثم كانت سياسته كنور الله لا تعرف الحدود ولا الخصوص ولا الزمن؛ إنما هي سر

الخالق العظيم استعلن في سكون الصحراء على لسان الرسول العظيم، ثم دوَّى في غياهب الآفاق ومجاهل الأبد ليكون الشعاع الهادي لكل ضال، والنداء الموقظ لكل غافل

إنكم تسيرون الجنود إلى الخنادق وتبيتون على حشايا الديباج، وترسلون العمال إلى المهالك وتظلون في أبراج العاج؛ أما هو فكان يقاتل مع الجندي حتى يدمى، ويعمل مع العامل حتى ينصب. وكان صحبه إذا احتدم البأس واحمرت الحدَق اتقوا به فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه!

ذلك محمد يا زعماء اليوم وهؤلاء أنتم! فهل تحسون بينكم وبينه صلة، أو تجدون بين سياستكم وسياسته مشابهة؟

لا تقولوا إنه الوحي، فما كانت حياة الرسول كلها ولا سياسته كلها من هدى الوحي؛ ولكن قولوا إنها الرجولة الكاملة والخلق العظيم والعبقرية الفذة والشخصية القوية. وصفة القوة لا تدل على شيء في شخصية الرسول، فإنها لم تظهر في أحد قبله ولا بعده حتى يقوم بها وصف. وما ظنكم بشخصية تخضع لليتيم العديم الزاري على الآلهة والسادة، الرؤوس الطاغية والنفوس العاتية والقلوب الغلاظ، فيسمتون سمته في الخلال، وينهجون نهجه في العيش، ويأخذون أخذه في المعاملة، ويجمعون على حبه وطاعته وتفديته إجماعاً لا يخرقه إلا الكفر بالله. فأقواله سنن تتبع، وأعماله عهود تحفظ، وآراؤه أوامر تطاع، وأحكامه أقضية تنفذ. فعليكم يا زعماءنا بسيرة محمد وسياسة محمد؛ فلعل فيكم من تدركه نفحة من نفحاته القدسية فيجدد ما رث من دعوته، ويجمع ما شت من وحدته، ويصلح ما فسد من أمته! (قد جاءتكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه، ومن عمى فعليها)

أحمد حسن الزيات

الهجرة مبدأ التوحيد والوحدة

لإمام المسلمين الأستاذ الأكبر

الشيخ محمد مصطفى المراغي

شيخ الجامع الأزهر

في سبيل الله هاجر سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه إلى يثرب. هاجر ليجاهد الشرك بالتوحيد ويعالج الشتات بالوحدة. والتوحيد هو روح الإسلام وجوهره، وسبيل الرسول وغايته. وليس التوحيد الذي تضمن سر الدين كله مقصوراً على ما تعارفه الناس من تنزيه الله سبحانه وتعالى عن الشريك والند؛ وإنما يشمل كل ما يكفل للأمة وللإنسانية الألفة والوحدة والتعاون، من توحيد الله وتوحيد العقيدة وتوحيد الكلمة وتوحيد الغاية وتوحيد الدنيا والدين. وفي سبيل التوحيد في شتى مظاهره كابد الرسول ما كابد من عنت الشرك وسفه الجهالة وإفراط العصبية. دعا إلى توحيد الله، وقد كانت الآلهة تتعدد بتعدد القوى والقبائل والأمم، وكان الإنسان أهون على نفسه من الحيوان والشجر والحجر فعبد ما لا يضر ولا ينفع (وحاجه قومه قال: أتحاجونِّي في الله وقد هداني؟ إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليَّ إنما إلهكم إله واحد. ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة؟)

ثم دعا إلى توحيد الرأي والجهد فألف بين الأوس والخزرج، وآخى بين المهاجرين والأنصار، فأصبحوا أشداء على الكفار رحماء بينهم؛ ثم عاهد بين المسلمين واليهود فانطفأت في المدينة بعد الهجرة نار العداوة بين الأهل والأهل وبين الجيرة والجيرة. (إن المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أمة واحدة من دون الناس. . . وإن اليهود أمة من المؤمنين لهم النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم. . . وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم)

ثم دعا الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا إلى توحيد العقيدة بالرجوع إلى مصدرها الصافي وجوهرها الحق: (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، ألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله) (قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى

(وعيسى والنبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم، ونحن له مسلمون
ثم دعا الرسول صلوات الله وسلامه عليه إلى توحيد الإنسانية بمحو العصبية القبلية وقتل النعرة الجنسية وتغيير القياس لدرجات الناس، فجعل التقديم والتكريم بالتقوى، وبذلك زالت الفروق الاجتماعية بين الباهلي والقرشي، وبين الفقير والغني، وبين الأسود والأحمر (إن ربكم واحد. وإن أباكم واحد. كلكم لآدم وآدم من تراب. إن أكرمكم عند الله أتقاكم. لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى)
ثم واءم بين الدنيا والدين وقد كانت الشرائع الأخرى تفصل بينهما كل الفصل، فجعل اليهود الكهانة في اللاويين ثم انصرف سائرهم إلى الصفق والاجتراح. ودعا المسيحيون إلى الرهبانية والنسك وترك ما لقيصر لقيصر. ولكن الإسلام جعل الدين للدنيا كالروح للجسم، فلا تعمل إلا بوحيه، ولا تسير إلا بهديه، فكان خليفة الرسول هو ملك الناس، وكان إمام المصلين هو قائد الجنود
وأنت إذا نظرت في حياة الرسول بالبصيرة، وبحثت في أصول الإسلام بالروية، وجدت مبدأ التوحيد والاتحاد مرمى كل عمل وأساس كل قاعدة. وبفضل التوحيد والوحدة جعل الله العرب القلال الضعاف أئمة للناس وورثة لكسرى وقيصر. فلما انشقت العصا وتمزق المسلمون ونسوا الله وفصلوا بين دينه ودنياهم، ضعفوا ولانوا واستكانوا وأصبحوا بين الأمم القوية قطعاناً تسام وسلعاً تساوم
لقد آن للمسلمين أن يرجعوا إلى ما دعا إليه نبيهم، ويتبعوا ما صلح عليه أولهم، فيوحد زعماؤهم الجهود، وتحدد أحزابهم الخطط، وتستعد شعوبهم للقيام بنصيبهم الأكبر من بناء حضارة روحية جديدة تقوم على العدم، وتستقيم بالمساواة، وتستضيء بالدين، ويرتفع جنباتها المترامية ذكر الله (ولينصرن الله من ينصره، إن الله لقوي عزيز، الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور).

محمد مصطفى المراغي

عبقرية محمد العسكرية

للأستاذ عباس محمود العقاد

خطر لي أن أجعل موضوع مقالي في هذا العدد الخاص بالعرب والإسلام بحثاً مجملاً عن عبقرية النبي عليه السلام من الوجهة العسكرية لتتم المناسبة بين المقال وبين موضوع العدد كله والوقت الذي يصدر فيه وهو وقت قتال أو تحفز لقتال
ولا محل للمشابهة بين الحرب في عهدنا هذا وبينها في عهد الرسالة الإسلامية، لأن الحرب قد أصبحت منذ ابتداء القرن العشرين حرب مواقع، كالحصون المنيعة من خط ماجينو وخط سيجفريد، أو كالخنادق التي كانت غالبة في الحرب الماضية، ولاسيما في الميادين الغربية
أما في القرن الماضي فقد كانت الحرب (حرب حركة) كما كانت قبل أربعة عشر قرناً أو قبل عشرين قرناً بغير اختلاف كبير في المبادئ والأفكار، وغاية ما هنالك أن الرامية حلت محل القوس والسهم، وأن المدفع حل محل المنجنيق، وأن القذائف حلت محل النار الإغريقية وما إليها
لهذا اخترنا أبرع القادة المحدثين على أسلوب (حرب الحركة) وهو نابليون بونابرت، لنبين السبق في خطط النبي العسكرية، بالمضاهاة بينها وبين خطط هذا القائد العظيم
1 - فنابليون كان يوجه همه الأول إلى القضاء على قوة العدو العسكرية بأسرع ما يستطيع، فلم يكن يعنيه ضرب المدن ولا اقتحام المواقع، وإنما كانت عنايته الكبرى منصرفة إلى مبادرة الجيش الذي يعتمد عليه العدو بهجمة سريعة يفاجئه بها أكثر الأحيان، وهو على يقين أن الفوز في هذه الهجمة يغنيه عن المحاولات التي يلجأ إليها جلة القواد
وعنده إنه يستفيد بخطته تلك ثلاثة أمور: أن يختار الموقع الملائم له، وأن يختار الفرصة، وأن يعاجل العدو قبل تمام استعداده
وقد كان النبي عليه السلام سابقاً إلى تلك الخطط في جميع تفصيلاتها
فكان لا يبدأ أحداً بالعدوان، ولكنه إذا علم بعزم الأعداء على قتاله لم يمهلهم حتى يهاجموه جهد ما تواتيه الأحوال، بل ربما وصل إليه الخبر كما حدث في غزوة تبوك

والناس مجدبون والقيظ ملتهب والشدة بالغة، فلا يثنيه ذلك عن الخطة التي تعودها، ولا يكف عن
التأهب السريع وعن حض المسلمين على جمع الأموال وجمع الرجال، ولا يبالي ما
أرجف به المنافقون الذين توقعوا الهزيمة للجيش المحمدي فلم يحدث ما توقعوه
وكان عليه السلام يعمد إلى القوة العسكرية حيث أصابها فيقضي على عزائم أعدائه
بالقضاء عليها، ولا يضيع الوقت في انتظار ما يختاره أولئك الأعداء، وإضعاف أنصاره
بتركه زمام الحركة في أيدي الهاجمين، إلا أن يكون الهجوم وبالاً على المقدمين عليه، كما حدث في غزوة الخندق
2 - وقد كان نابليون مع اهتمامه بالقضاء على القوة العسكرية لا يغفل القضاء على
القوة المالية أو التجارية التي يتناولها اقتداره، فكان يحارب الإنجليز بمنع تجارتهم عن
الوصول إلى القارة الأوربية، وتحويل المعاملات عن طريق إنجلترا إلى طريق فرنسا
وهكذا كان النبي عليه السلام يحارب قريشا في تجارتها، ويبعث السرايا في أثر القوافل كلما سمع بقافلة منها
وأنكر بعض المتعصبين من كتاب أوربا هذه السرايا وسموها (قطعاً للطريق) وهي هي
سنة المصادرة بعينها التي أقرها القانون الدولي، وعمل بها قادة الجيوش في جميع
العصور، ورأينا تطبيقها في الحرب الحاضرة والحرب الماضية، رشيداً تارة وبالغاً مبلغه
من الشطط والغلواء تارة أخرى.
3 - وقد أسلفنا أن نابليون كان يوجه همه إلى الجيش ولا يقتحم المدن أو يشغل باله
بمحاصرتها لغير ضرورة.
ونرجع إلى غزوات النبي عليه السلام، فلا نرى أنه حاصر محلة إلا أن يكون الحصار هو
الوسيلة العاجلة لمبادرة القوة التي عسى أن تخرج منها قبل استعدادها، أو قبل
نجاحها في الغدر والوقيعة، كما حدث في حصار بني قريظة وبني قينقاع، فكان الحصار
هنا كمبادرة الجيش بالهجوم في الميدان المختار بغير كبير اختلاف
4 - لم يعرف عن قائد حديث أنه كان يعنى بالاستطلاع والاستدلال عناية نابليون.
وكانت فراسة النبي في ذلك مضرب الأمثال، فلما رأى أصحابه يضربون العبدين
المستقيين من ماء بدر، لأنهما يذكران قريشاً ولا يذكران أبا سفيان، علم بفطنته
الصادقة أنهما يقولان الحق ولا يقصدان المراء. وسأل عن عدد القوم، فلما لم يعرفا العدد، سأل عن
عدد الجزور التي ينحرونها كل يوم، فعرف قوة الجيش بمعرفته مقدار الطعام الذي
يحتاج إليه. وكان صلوات الله عليه إنما يعول في استطلاع أخبار كل مكان على أهله،
وأقرب الناس إلى العلم بفجاجه ودروبه، ويعقد ما يسمى اليوم مجلس الحرب قبل أن
يبدأ بالقتال، فيسمع من كل فيما هو خبير به، ولا يأنف من الأخذ بنصيحة صغير أو كبير.
. .
5 - واشتهر عن نابليون أنه كان شديد الحذر من الألسنة والأقلام، وكان يقول إنه
يخشى من أربعة أقلام، ما ليس يخشاه من عشرة آلاف حسام
والنبي عليه السلام كان أعرف الناس بفعل الدعوة في كسب المعارك وتغليب
المقاصد، فكان يبلغه عن بعض أفراد أنهم يشهرون بالإسلام أو يثيرون العشائر لقتاله
أو يقذعون في هجوه وهجو دينه، فينفذ إليهم من يحاربهم في حصونهم أو يكفل له الخلاص منهم
وعاب هذا بعض المغرضين من الكتاب الأوربيين وشبهوه بما عيب على نابليون من
اختطاف الدوق دانجان وما قيل عن محاولته أن يختطف الشاعر الإنجليزي كولردج
الذي كان يخوض في ذمه ويستهوي الأسماع بسحر حديثه
ولكن الفارق عظيم بين الحالتين، لأن حروب الإسلام إنما هي حروب دعوة لدعوة أو
حروب عقيدة لعقيدة، وإنما هي في مصدرها وغايتها كفاح بين التوحيد والشرك أو بين
الإلهية والوثنية، وليس وقوف الجيش أمام الجيش إلا سبيلاً من سبل الصراع بين الدعوتين والغلاب بين العقيدتين
فليس في حالة سلم مع النبي إذن من يحاربه في صميم الدعوة الدينية، ويقصده
بالطعن في لباب رسالته الإسلامية، وإنما هو مقاتل في الميدان الأصيل ينتظر من
أعدائه ما ينتظره المقاتل من المقاتلين، ولاسيما إذا كانت الحرب قائمة دائمة لا

تنقطع فترة إلا ريثما تعود
أما نابليون فالحرب بينه وبين أعدائه حرب جيوش وسلاح، فلا يجوز له أن يقتل أحداً لا يحمل السلاح في وجهه أو لا يدينه القانون بما يستوجب إزهاق حياته. وما نهض نابليون لنشر دين أو تفنيد دين، ولا كان للرسول الإسلامي من غرض لو جاز له أن يقبل المسالمة ممن يحاربونه في دينه وإن لم يشهروا السيف في وجهه، فإن الضرب بالسيف لأهون من المقتل الذي يضربون فيه
تلك مقابلة مجملة بين الخطط التي سبق إليها محمد، وجرى عليها نابليون بعد مئات السنين، ومن الواجب أن نحكم على قيمة القيادة بقيمة الفكرة أو الخطة قبل نحكم عليها بفخامة الجيوش وأنواع السلاح.
ولم يتخذ محمد الحرب صناعة، ولا عمد إليها كما أسلفنا إلا لدفع غارة، واتقاء عداوة، ورائده في ذلك ما جاء به القرآن الكريم: (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين. واقتلوهم حيث ثقفتموهم، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم، والفتنة أشد من القتل، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه، فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين. فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم. وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين كله لله، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين)
فإذا كان محمد لم يتخذ من الحرب صناعة وكان يتقن منها ما يتولاه مدفوعاً إليه، فله فضل السبق على جبار الحروب الحديثة الذي تعلمها وعاش لها ولم ينقطع عنها منذ ترعرع إلى أن سكن في منفاه، ولم يبلغ من نتائجها بغض ما بلغ القائد الأمي بين رمال الصحراء.
عباس محمود العقاد
شرعة الإسلام نظام لكل عصر
للأستاذ علي الخفيف
أستاذ الشريعة بكلية الحقوق
جاء الإسلام فكان مبيناً في عقائده، محكماً في دلائله، أسس على اليقين فتمت له قوته، ومثّل الفطرة فكان له بساطتها وصفاؤها وكان لهذا ديناً صالحاً للناس أجمعين، يسوي بينهم جميعاً، فإذا هم أمة واحدة، لها شرعة واحدة ورياسة واحدة. على هذا الأساس شرعت مبادئه حتى تكون على الدوام أساساً لصلاح المجتمع الإنساني
ولقد أطلق الإسلام العقول من قيود الأوهام، وزكى النفوس من دنس الأباطيل، فأبصرت ما في هذا الكون من آيات، فإذا المشرك مؤمن، والجاهل عالم، والضعيف قوي
أما عقيدته التي جاء بها، فهي الفطرة خلصت لله سبحانه وتعالى، فاطرحت كل ما سواه، وقررت أنه هو الإله وحده، وهو الخالق وحده، له الأمر وإليه المصير
ذلك التوحيد، وهذا الخلوص هو ما فطر عليه الناس، وما يجدونه عند مفزعهم، حين ينسون مشاغلهم، وما يحسونه من نفوسهم إذا صفت ورجعت إلى طبيعتها، خالصة مما حاق بها من نزعات شهوانية ورغبات مادية، وليس يسع الرجل الرشيد، وقد تبين له الأمر إلا أن يستجيب لتلك الدعوة، تكريماً لنفسه، وإطلاقاً لعقله، وتلبية لفطرته.
وإذن فعقائد الإسلام مستكنة في النفوس، لا يعوقها عن الظهور إلا ما غشى النفوس من أوهام موروثة، وغطى على القلوب من شهوات مشوبة، وأضعف الضمائر من عادات فاشية، وهي بذلك في غنى عن التعريف بصلاحها، وعن التدليل على عمومها.
وأما أخلاقه وفضائله، فقد جاءت صلاحاً للنفوس وحاملاً لها على الخير
هذان الأمران هما: لب الإسلام وأساسه ودعامته التي قام عليها، وغايته التي يرمي إليها بما شرع بعد من وسائل وما أمر به من أعمال وما نهي عنه من محرمات. عنى بهما الإسلام حين جاء فدعا محمد صلى الله وسلم الناس أول ما دعا إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وأهاب بالوثنيين أن يتركوا أوثانهم، وبالمشبهين أن يتطهروا من تشبيههم، وبالطبعيين أن ينظروا بأبصارهم ويتدبروا بعقولهم، وبالمثلثين أن ينبذوا تثليثهم ويتذكروا في خلقهم. جأر بهذا الدعوة كي يحرر الناس عقولهم ويخلصوا أنفسهم ويطهروا
قلوبهم ويدينوا جميعاً لمن فطر السموات والأرض وما بينهما
قام عليه الصلاة والسلام بهذه الدعوة فقرن بينها وبين دعوته إلى الأخلاق وعنايته

ببيان آثارها وتفصيل حقائقها والموازنة بينها وبين ما شاع في الناس يومئذ من الطبائع الخبيثة والعادات السيئة لتتعاون الدعوتان على إصلاح النفوس لتتهيأ لما سيشرع من نظام يكون به علو كلمة الإسلام في الوجود، ونشر سلامه على العالم. أقام على ذلك جاهداً لا يلويه عن غرضه قوة، ولا يرده عن غايته أذى. إلى أن أمر بالهجرة إلى المدينة؛ فلما اطمأن إلى مقامه فيها، شرع للمؤمنين من الشرائع الاجتماعية ما تقوم عليه دولتهم وتتأسس به حكومتهم، وما يدفع عنهم العدوان، ويقيهم أسباب الانحلال تلك هي غاية الشرائع الإسلامية الاجتماعية والحكمة التي روعيت في فرضها؛ لم تفرض لتكون وسيلة من وسائل العبادة فحسب، ولكنها وضعت لتكون العلاج الذي يشفي النفوس من عللها، ويقي الجماعات من أمراضها

لذلك امتدت وتشعبت حتى انتظمت جميع نواحي الحياة. فانقسمت إلى شرائع مالية تنمي المال وتقرر الحقوق وتقوم على تحقيق الاقتصاد، والى شرائع اجتماعية تبين للأسر حقوقها وتوثق الصلات بين أعضائها حتى تكون لبنة قوية في بناء الأمة، ثم تتجاوز الأسرة إلى شؤون العمل فتحض عليه وتنظمه، وإلى شؤون التربية والصحة وغيرها من الشؤون الاجتماعية فتضع لها الأسس وتبين لها الطرق إلى غاياتها؛ ثم إلى شرائع الزجر منعاً للعدوان؛ والى شرائع الحرب إعداداً للقوة وتحديداً للعلاقات بين المتقاتلين في الأموال، ومعاملة الأسارى، والتصرف في الغنائم؛ ثم إلى شرائع سياسية تنظم العلاقات الخارجية وتعين الإدارة الداخلية من حيث اتصال الحاكم بالمحكوم، وغير ذلك مما يؤسس عليه بناء الدولة، ويقوم عليه عمرانها

هذه هي مناحي الإسلام في تشريعه وهي كما نرى جامعة لكل نواحي الحياة الاجتماعية الحاضرة؛ غير أن تشريعه فيها كان تشريعاً كليا يقرر المبادئ العامة ويضع الأسس الثابتة ويدع المجال للتفصيل والتطبيق ليتم له الخلود، ولم يكن له من مصدر إلا القرآن الحكيم وبيان الرسول الكريم. أنزل القرآن بالأصول العامة وجاء بيان النبي صلى الله عليه وسلم وسنته بالفروع التي تخرج منها أتى القرآن بالإجمال والعموم وتكفلت السنة بالبيان

والتطبيق؛ فإذا قرأت للقرآن وتدبرت آياته وجدت في تشريعه عناية ببيان هذه الأصول العامة وحض الناس على المحافظة عليها. فإن أردت المثال فارجع إلى قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم) وقوله تعالى: (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا. وأحل الله البيع وحرم الربا). (يمحق الله الربا ويربي الصدقات) وقوله تعالى: (ولكم في القصاص حياة. . .). وقوله تعالى: (والجروح قصاص). وقوله تعالى: (الرجال قوّامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم). وقوله تعالى: (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة). وقوله: (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) وقوله: (وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً). وقوله: (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين) هذه سنّة القرآن في التشريع لم تتخلف إلا في النزر اليسير. استنها ليكون تشريعه نظاماً لجميع الأمم، وليبقى صالحاً على مرور الزمن. فهو الشريعة العامة التي تمهد لتحقيق الجامعة الإنسانية وتهيئ العقول لتتجه وجهة واحدة في تبيين الحق وتقدير الجزاء ووضع المعاملات على أسس ثابتة، وإنماء الأموال بطرق خالية من الخداع، وتدبير الشؤون الاجتماعية على نمط يحقق المصلحة العامة؛ ثم هو يقارب بين الأمم المختلفة حتى تتعاون جميعا في العمل إلى خيرهم مجتمعين. ذلك لأن الأحكام الجزئية والفصل في الحوادث المتجددة لا يستقر مع الزمن ولا يصلح لكل مكان، لأن الناس في تطور لا ينتهي إلى غاية، وفي تجدد ليس له نهاية

فإذا رجعنا إلى ما شرعه الإسلام في الأموال من أصل وجدنا أنه أسس التعامل فيها على الرضا إذ يقول (إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم) ويقول (فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً) وإذن فليس علينا عند التفصيل إلا أن نرد كل عقد إليه على ألا يتعدى ذلك حقوقنا وألا نخرج به عن رشدنا، فإن تعدينا الحدود بالخديعة والغش فقد اقترفنا الإثم الكبير وأذنا الله ورسوله بالحرب

يعجب كثير من الناس لتحريم الربا وقد زعموا أنه دعامة التجارة وعماد العمارة ومدعاة
التعاون، وقد أصبح على أي افتراض ضرورة الزمن. زعموا ذلك وكأنهم لا يسمعون بكاء صرعاه، ولا يبصرون مصارع قتلاه. لئن قام عليه بيت فقد خربت به مئات البيوت، ولئن انفرج به يوما ما ضيق فكم ضيق على صاحبه السبل. وماذا فعل الربا بأهل الأسر الكريمة منا؟ ألا نرى أن الدين قد طغى على رأس المال بسبب تراكم فوائده حتى صار أضعافاً مضاعفة على الرغم من أداء ما كان بقي بأكثره إن لم يزد على أصله، وأنهم قد أصبحوا على شفا هاوية الإفلاس المدمر؟
إذا تقدم صاحب المال به لاستثماره وإنمائه فليس له إلا أن يضع نفسه منه حيث يكون إذا اتجر فيه فربح أو عمل فخسر، وفي هاتين الحالتين له ربحه وعليه خسارته، وليس له عن هذا مفر فتلك طبيعة السعي وسنة التجارة، وإذا كان هذا مآله وهو الحريص على ماله الطامع في ربحه فلم يطلب من غيره وقد قام مقامه فيه أن تكون الأسعار في قبضته فلا يتجر إلا ربح، ولا يطلب إلا ظفر، حتى لا يرضى منه أبداً إلا بالربح المقدر أو الثواب المعجل؟ أليس ذلك بالطمع المرذول والتحكم الظالم؟
وكذلك الحال في طريق الحكم وإدارة أمور الدولة، جعل الأساس فيه المشورة فقال (وشاورهم في الأمر) فنفى الاستبداد بأنواعه وقضى عليه بأشكاله، وأقام أمر الناس على الشورى، وجعل لهم بعد ذلك الخيرة في نوع الحكم الشورى الذي يلائمهم ويتفق مع ثقافتهم ويتصل ونشأتهم، ويتدرج مع نموهم ملكياً كان أو جمهورياً بمجلس واحد أو بمجلسين ذلك لأنه لا يوجد نظام معين للحكومة صالح على الإطلاق، إذ الصلاحية وصف عرضي معناه التناسب بين نوع الحكم وحال الأمة التي اتخذته نظاماً لسلطانها
وفي شرائع القتال سن القواعد الكفيلة بمنعه، والمخففة لويلاته إذا وقع، والداعية إلى السلم إذا أمكن، فقال (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا) وقال: (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) وقال: (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) وقال: (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين) وقال: (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله) والحرب إذا كانت للدفاع ومنع الظلم وخلت من العدوان والبغي ولم تتجاوز في أهوالها ما اقتضته الضرورة وانتهت عند حد الدفاع كف البغي، كانت صيانة للسلم وضرورة يتطلبها الوجود، من تركها هلك
أما أساس الروابط بين المسلمين فهي الأخوة. إنما المؤمنون أخوة. وبينهم وبين غيرهم البر والإقساط، لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين. وذلك كفيل بتوثيق العلاقات بين الأمم وتأكيد المودة بينهم ما لم يبغ بعضهم على بعض طمعاً في مال أو علواً في الأرض أو تحكما في العقائد. هذا إلى ما شرعه من القواعد في إصلاح حال اليتامى وإدارة أموال السفهاء، وما فرضه من الحقوق في أموال الأغنياء للفقراء، وما جاء به من الأوامر حاضاً على التعلم والعمل والسعي في الأرض، والمحافظة على الأجسام حتى تتعاون الأمة في إصلاح أمورها والمحافظة على أموالها، والقضاء على الأمية فيها، والقضاء على البطالة، وحتى لا تجد مبادئ الاشتراكية المتطرفة السبيل إلى نفوس أفرادها، ولا الأوتقراطية القاسية الوسيلة إلى المقام فيها
هذه سنة القرآن في تشريعه في جميع نواحي الحياة شخصية واجتماعية، سياسية ومالية، إدارية وقضائية، لم تتجاوز القواعد العامة إلى التفاصيل التي تتطور بتطور الأمم، وتتجدد بتجدد الحوادث، وتختلف باختلاف البيئات، ولذا بقيت مبادئه سليمة، تناسب كل الأمم، فيتسنى لها أن تتخذها أساساً في تشريعها حسب ما تقتضيه بيئتها ومصالحها.
كانت هذه طريقته، إلا في مسائل معدودة عمد فيها إلى نوع من التفصيل والتطبيق، لأن مصلحة الناس في ذكره ومفسدتهم في تركه، فإنه وإن ترك أمر تقدير العقوبة إلى أولي الأمر لابتنائه على ما يحيط بالجاني من ظروف، وما يتصل به من أسباب، وما له من ثقافة وتربية، استثنى من الجرائم خمساً لما فيها من الاعتداء البالغ على الدين والنفس والمال والعرض، وهي السعي في الأرض بالفساد والقتل والزنا والسرقة والقذف، جعل لكل منها جزاء يمكن أولاً أن يتخذ معياراً في تقدير العقوبة

على الجملة مع مراعاة قوله تعالى: (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) فبين جزاء الأول في قوله تعالى (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أو ينفوا من الأرض، ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم، إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم) وجزاء الثانية في قوله: (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى: الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى) وجزاء الثالثة في قوله: (الزانية والزاني، فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة، ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) وجزاء الرابعة في قوله (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله) وجزاء الخامسة في قوله (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة) فهذه عقوبات دائمة تتناسب في شدتها وصرامتها مع عظم آثار جرائمها حتى تكون مانعة من العود مصلحة للنفس، ومن كبير القول وصفها بأنها عقوبات لا تتفق مع هذا الزمن أو لا تتلاءم مع حال هذه الأمة وما وصلت إليه من ثقافة وحضارة وتمدين، لأن حضارتها أو ثقافتها إذا جنبتها هذه الجرائم فقد تجنبت، كذلك جزاءها، وإن اقترفتها كان جزاؤها العلاج الواقي من تكرارها. وقد ترك بعض الأمم عقوبة القتل وما لبث أن عاد إليها، وكذلك أهملت العقوبات الأخرى فانتشر الزنا وعمت السرقة وفحش القول، ولا منجاة إلا باتباع ما سنه القرآن في جزائها، وليس يوزن الجزاء بموافقته الهوى وائتلافه مع الميل وإنما يوزن بما يفيد من أثر في الردع ونتيجة في الإصلاح

وكذلك فعل في تشريع الميراث فعين لكل وارث حظه مما ترك مورثه، لأن المال كان ولازال مثار الفتن، ومصدر البغضاء والإحن، ومنشأ الخصومة والفرقة، والاتفاق على توزيعه بين الورثة عسير، ورده إلى مقاييس معقولة وموازين مسلمة غير ممكن، فكان لابد من أن يجنب الورثة ما يجلب عليهم الشقاء ويشيع فيهم الخلاف وذلك بأن يقسم بينهم الحكيم العادل القسمة المرضية المبنية على كمال الحكمة والمحققة لتمام العدل وسكون النفس ورضا الغير

اقترن التشريع القرآني بالتشريع النبوي وهو المعروف بالسنة فكان الثاني للأول مبيناً لإجماله مطبقاً لقواعده، وليس كل ما يؤثر عن النبي صلى الله عليه وسلم من التشريع، لأنه عليه السلام بشر من الناس له مثل ما لهم من الأمور العادية والمهام البشرية فما يؤثر عنه في هذا المحيط لا يعد من التشريع ولا يتخذ أساساً لأمر ونهي، ولكل إنسان عادته البشرية يتبع فيها قومه وسلفه ويتأثر فيها ببيئته؛ أما غير ذلك مما يتصل بالتشريع للناس وإلزامهم باتباعه فهو السنة المتبعة. غير أن مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه الدائرة كانت مكونة من عملين: الأول بيان التشريع القرآني، والثاني تطبيقه على الحوادث

الواقعة والمسائل المتجددة، فأما البيان فهو متمم للقرآن ولتشريعه وهو لهذا أصل من أصول التشريع الإسلامي واجب اتباعه، وعلى الناس مراعاته. وأما التطبيق على الحوادث بالفصل في الخصومات وفض النزاعات في المشكلات، فذلك يبني على ما لكل حادثة من ظرف، وما لابسها من ملابسات، وما أحاط بها من عوامل مما لا يعيه إلا المتصدي لحلها الذي أقام نفسه لحل إشكالها، فإذا نقل الحكم فيها صعب على ناقله أن يستوعب جميع دواعيه، فذكر منها ما تنبه له ووعاه وما حفظه وأحصاه وما استقر في ذاكرته فلم ينسه، ومن هذا أتى اختلاف الرواة عندما يرون حادثة واحدة، فكان ذلك سبباً في اختلاف الآراء وتعدد المذاهب وتنوع العمل. ومن هذا يتبين أن التشريع النبوي لم يخرج في أغراضه وحكمته عن التشريع القرآني بل الغرض فيهما واحد والحكمة واحدة والغاية واحدة، وهي أن تتهيأ للناس حياة صالحة يستمتعون فيها جميعاً بحرياتهم وتتوافر لهم فيها حقوقهم، ويعتمدون فيها على عقولهم وأفكارهم وتنتهي بهم إلى مجتمع مؤسس على الإخاء والتعاون يقوم على النشاط الفكري ويعتمد على العمل المنتج الاجتماعي ولا يهمل الشأن الفردي.

علي الخفيف

موقعة عين جالوت

للدكتور عبد الوهاب عزام

- 1 -
أردت أن أكتب مقالا للرسالة - لعددها الهجري الممتاز - فنقب فكري في أرجاء التاريخ الإسلامي، حتى عنّ لي هذا الرأي. قلت: لماذا لا يسجل في هذا - العدد الهجري - بعض الخطوب الكبيرة في التاريخ الإسلامي؟ ولاسيما الخطوب التي وقعت في نظائر السنة التي تصرمت، أو السنة التي استهلت. قد تصرمت سنة 1358، وأقبلت سنة 1359، فأستعرض نظائرهما. عبرت سني 58 و 59 من قرون التاريخ الهجري كله، فرأيت أحيانا كثيرة، وغِيَراً عظيمة. فلما هممت بالكتابة، تبينت أن مقالاً يكتب على هذا الشرط، لا يعدو أن يكون ثبتاً للحوادث مختصراً، أو مقالاً مفصلاً يزيد على حاجة المجلة. فلم أجد بدّا من تخيّر بعض الحوادث، فمررت بخطوب جسام، وحادثات صغار، حتى انتهيت إلى عام 658 فوقفت وقفة كدت أمسك فيها القلم لأكتب في واقعة هائلة عظيمة الأثر كانت في هذا العام، ثم جاوزتها إلى واقعات أخرى، حتى بلغت وقتنا هذا، ثم رجعت بي الرغبة إلى تلك الواقعة، إذ رأيتها عظيمة الأثر في تاريخ المسلمين عامة وتاريخ مصر خاصة، فأخذت القلم لأكتب عن (موقعة عين جالوت):

كان عام 628 فاتحة شر مستطير في العالم الإسلامي: سالت فيه جيوش جنكيز من هضاب الصين تفرق كل شيء وتدّمر كل شيء، طغت على التركستان فجرفت عرش ملوك خوارزم ودارت بالمدن العظيمة تخريبا وتدميرا، وفرّ محمد خوارزمشاه وكان كما قال مسلم بن الوليد:

وطار في إثر من طار الفرار به ... خوف يعارضه في كل أخدود

وورث ابنه جلال الدين ملكا في أيدي التتار، ومجداً بين الطعان والضراب، فصبر وصابر وجاهد ما بين نهر السند إلى حدود العراق يحاول جهده أن يلمّ الشمل ويرأب الصدع، ويخلق من الفرقة اجتماعاً، ومن الضعف قوة، ومن الذعر ثباتاً، ومن اليأس رجاء، حتى اغتالته المنون بعد أن أعجزتها مصاولته، وختلته بعد أن أعيتها مجاهرته وانتشر الرعب، وعمّ الفزع، ولم يثبت للتتار جيش ولا حصن في شرقي البلاد الإسلامية

وما لي أكلف نفسي الوصف ولا أستمع لابن الأثير، وقد عاش على شاطئ هذا الطوفان، وأحس لفح هذه النار، يحدّث حديث الوقائع:

هذا الفصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقمت الأيام والليالي عن مثلها عمت الخلائق وخصت المسلمين فلو قال قائل: إن العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتل بمثلها؛ لكان صادقا، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها. . . الخ

- 2 -

مات جنكيز خان سنة624 بعد أن قسم بين أولاده ما فتح من الأرض وما لم يفتح، وامتد الفتح في آسيا وأوربة، وكانت غِيَر، حتى أرسل بنكو قاآن حفيد جنكيز - أخاه هولاكو سنة651 ليفتح حصون الإسماعيلية ثم يفتح بغداد فأخضع أمراء إيران والقوقاز إلى عام ثلاثة وخمسين واستولى على أكثر قلاع الإسماعيلية.

ثم جاءت الطامة الكبرى فاستولى على بغداد، ومحا الخلافة العباسية تاسع المحرم سنة ست وخمسين وستمائة (16 يناير 1258) لقد طوى أجداده الممالك الإسلامية إلى العراق، ثم أصاب هو المسلمين في الصميم إذ أخذ بغداد التي لبثت مقر الخلافة وقبلة المسلمين في العلم والحضارة أكثر من خمسة قرون

ماذا يصد هولاكو عما يشاء؟ من ذا يقف للجيوش التي لبثت ثلاثين سنة تسير من ظفر إلى ظفر، ومن مملكة فتحتها إلى مملكة قدر لها أن تفتحها؟ إن آسيا ما بين قراقروم وبغداد في قبضة أبناء جنكيز، وإن أوربا الشرقية إلى البحر الأدرياتي قد عنت لأمرهم. ليس على هلاكو إلا أن يسير الجيوش فتطوي الأرض، ويثير الحروب فتخر الممالك، ويوعد الملوك فيخذلها جندها، وينزل بالمدينة فتسلمها أسوارها. عزمة تسخر له الشام، وأخرى تقهر له مصر، ثم عزمات تبلغ به بحر الظلمات

- 3 -

سار التتر إلى الشام فلم تستطع حلب لهم دفعا، وهؤلاء المعتصمون بقلعتها لن يجديهم الاعتصام، ولا مناص لهم من الاستسلام بعد شهرين. وسارع أهل حماة إلى حلب فأعطوا

هلاكو مفاتيح المدينة. ولم تثبت للقوم مدينة بين حلب وغزة
وأما أمراء الشام من بني أيوب فمنهم من انحاز إلى التتر مؤثراً العافية، ومنهم من لجأ إلى مصر مستنجدا. والملك الناصر أكبر هؤلاء ترددت به الحيرة بين حدود مصر والشام فلم يجد إلا المسير إلى هلاكو
وأبت مصر التي تجاهد الصليبيين منذ مائة وستين عاماً، أن تذل للتتر؛ فجمعت ما فيها من إيمان وقوة وخرجت في رمضان سنة658 وصمدت للقوم فالتقى الجمعان على عين جالوت في فلسطين. فأما التتر فلم يعرفوا في الحرب إلا الانتصار منذ سال سليهم على البلاد الإسلامية قبل ثلاثين سنة. ماذا يخشون من جيش مصر وقد مزقوا للمسلمين جيشا بعد آخر، ولم تصدهم البسالة والاستقتال دون غاية. وأما جيش مصر الذي جمع المصريين وعرب البادية من مصر والشام فقد أيقن أنها الموقعة الفاصلة، وأن هزيمة في عين جالوت تفتح طريق العدو إلى مصر فالمغرب، فصمموا أن ينتصروا؛ وكثيرا ما تلد العزيمة الظفر. ولم يزلزل عزائمهم أن رأوا بعض أمراء المسلمين في صفوف العدو - ذلك الأمير الشقي المتسمي الملك السعيد
التقى الجمعان يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان عام ثمانية وخمسين وستمائة، واحتدم القتال وصبر المسلمون ثم صبروا، ولقوا من حملات التتار ما يوهن العزائم فلم يهنوا. إلى من يكلون الدفاع عن الإسلام والمجد إذا لم يستميتوا في عين جالوت؟
كتبغا قائد التتر قتيل، وابنه أسير، وجنده مصرَّعون في حومة القتال، وبقايا السيوف منهم يلوذون برؤوس الجبال
علم المسلمون يومئذ أنه يستطاع هزم التتر فلم يثبت القوم في بقعة من بقاع الشام وأسرعوا في الرجوع إلى الشرق
جمع التتر شملهم وأعدوا للحرب عُددهم ثم رجعوا فاستولوا على حلب بعد شهرين من موقعة عين جالوت، ولكن عين جالوت قد فصلت في القضية من قبل وعلمت المسلمين أن الأمل والعزم والإقدام تغلب كل عدو ولو كان التتر جنود هلاكو حفيد جنكيز
اجتمع المسلمون على حمص وسار التتر إليهم. فليشهد القارئ قبل المعركة جمعا من أنجاد العرب يسيرون إلى حومة الوغى:
قال الشيخ شهاب الدين الحلبي: كنت في نوبة حمص في واقعة التتار جالسا على سطح باب الإسطبل السلطاني بدمشق إذ أقبل آل مرا زهاء أربعة آلاف فارس شاكين في السلاح على الخيل المسّومة والجياد المطهمة وعليهم الكزغندات الحمر، والأطلس المعدني والديباج الرومي، وعلى رؤوسهم البيض كأنهم صقور على صقور، وأمامهم العبيد تميل على الركائب ويرقصون بتراقص المهارى، وبين أيديهم الجنائب، ووراءهم الظعائن والخمول، ومعهم مغنية لهم تعرَف بالحضرَمية طائرة السمعة سافرة من الهودج وهي تغني:
وكنا حسبنا كل بيضاء شحمة ... لياليَ لاقينا جُذاماً وحميرا
ولما لقينا عصبة تغلبية ... يقودون جرداً للمنية ضُمّرا
فلما قرعنا النبع بالنبع بعضه ... ببعض تأبى النبع أن يتكسرا
سقيناهم كأساً سقونا بمثلها ... ولكنهم كانوا على الموت اصبرا
ودارت الحرب عند حمص يوم الجمعة خامس عشر المحرم سنة تسع وخمسين وتسعمائة، فإن تسألني كيف كانت عاقبتها فهي العاقبة التي بشرت بها موقعة عين جالوت
فارق التتار الشام إلى غير رجعة
عبد الوهاب عزام
ميراث لا وارث له
للأستاذ عبد الله عفيفي بك
لعلنا أعظم الأمم ميراثا من الذكريات ولعلنا كذلك أقل الأمم نصيبا من هذا الميراث العظيم.
ما تمر بالمسلمين أيام حتى تساق إليهم ذكرى ينحني لها تاريخ الإنسان، وفي سياق هذه الذكرى تسمع الرأي الثاقب، والقول المهذب، والشرح والتحليل؛ ثم تنطوي تلك

الصفحة، ولا يذكر الناس إلا أن شاعراً أرّق من شاعر، وكاتباً أبين من كاتب، وخطيباً أفصح من خطيب!!

وما أسرع ما تستيقظ المشاعر وينتبه الرأي ويثور الوجدان! ولكن شيئا واحدا لا يستيقظ، ولا ينتبه، ولا يثور، وهو الروح. . . والروح وحده مصدر الحياة ومصدر القوة ومصدر العزم ومصدر الاحتمال. . .

وليس بشيء أن تنتبه المشاعر، وتنفطر القلوب؛ فحسب المشاعر لتنتبه، وحسب القلوب لتنفطر، كلمة باكية من ممثل موهوب. وليس بشيء أن يستيقظ الرأي، ويثوب التفكير، فما من أحد من المسلمين لا يعلم علماً لاشك فيه كيف كان المسلمون، وإلام صاروا، وما الذي أخافهم بعد أمن، وبددهم بعد التئام. . .

ما من رجل تراه إلا يعيب الخطيئة بلسان طلق وأسلوب مبين، ثم يجترح الخطيئة بقوة جامحة وهوى مبيح

نحن إذن لا نشكو ضعف الرأي ولا هوان الشعور، ولكننا نشكو خمود الروح وضعف الروح

ومن خمود الروح أن نرى الحق يثقل على الناطق به، والمستمع له، فلا ترى لرسالة الحق من وليّ ولا نصير

ومن خمود الروح أن نبدأ العمل بقوة صاخبة، ثم ما يزال يذوي ويتساقط ويتبدد ذووه حتى ينقضي أثره ويصير خبره حديث السامرين، وسخرية الشامتين

ومن خمود الروح أن نأخذ الهين التافه والغث المبتذل من ألوان المدنية، ونترك القيّم المكين الذي يحتاج إلى جهد وإيثار، حتى أصبحت حياتنا مجموعة من المناظر والصور والأشكال

ففيم الذكرى؟ وفيم القصائد والخطب؟ وفيم الفصول المتناسقة والبحوث المتلاصقة؟

وفيم الكلام عن رسول الله، وأعتقد أن لو بعث رسول الله بعثاً ثانياً للقي من تخاذل هذا العالم أضعاف ما لقي من عناد العالم الأول. كان يجد عالماً مملوءاً بالكيد والأنانية والخداع والرياء - رياء في الدين ورياء في الدنيا، وبيع لجانب الله بالثمن الخسيس من جاه زائف ودنيا زائلة

أرأيت كيف بعث محمد رسول الله عربياً، وكيف قامت رسالته على سواعد العرب؟

لم يكن العرب في شيء من عظمة الدولة، ولا نظام الجماعة، ولا سمو الفكرة، ولا علو الحياة

ولكنهم كانوا في الذروة العليا من يقظة الروح وقوة الروح

وبهذا الروح اليقظ القوي كانوا يعافون الضيم ويأبون الهوان، ويؤثرون النار على العار. وكان الرجل يقول الكلمة فيرتهنها بروحه وأرواح ولده وأهله وعشيرته. وكانوا يشبون الحرب لكلمة جارحة تصيب أدناهم، وقد يصمدون لها أربعين عاما

وكان هذا الروح اليقظ أو هذا الأتون المشتعل في حاجة إلى من يوجهه ويهديه الطريق القويم

وبهذا التوجيه تمت المعجزة التي لم تشابهها معجزة في الوجود فأخرج رسول الله من أبناء الصحراء الغارقين في الدماء، الخابطين في الجهالة الجهلاء، أعلام العلم، وأقطاب الحكمة، وأئمة السياسة، وأبطال الحرب، وكواكب الهداية، وهؤلاء الذين كافحوا في نطاق فارس والروم، ملكوا فارس والروم، وما وراء فارس والروم في طرفة عين

ولعل أروع حادث تمثلت فيه يقظة الروح وقوته وسطوعه بنور الإيمان حادث الهجرة. وما ظنك بهذا الرسول الأمين، وهو في غار نشر الموت ظله عليه، وأطل برأسه على من فيه، فالسيوف الطائشة الظامئة تترصده، والوحشة والظلمات والهوام القاتلة تطبق عليه - ما ظنك بهذا الرسول الكريم وهو في تلك الحال يقول لصاحبه: لا تحزن إن الله معنا؟!!

ثلاثة أيام تتقطع في كل ساعة من ساعاتها نياط القلوب ورسول الله أثبت قلباً من ذلك الجبل الذي يضم ذلك الغار

وهذه الأيام الثلاثة تتمم ثلاثة عشر عاماً أقام بها محمد صلى الله عليه وسلم يدعو أهل مكة

إلى الله ولم يكن في يوم من أيامها أخف عبئاً ولا أقل اقتحاماً من هذه الليالي الثلاث وفي ظل ذلك الموت الجاثم على الجبل وما حوله في ليالي الغار كانت الصبية أسماء بنت أبي بكر تحمل الزاد والماء كل ليلة من دار أبيها فما تزال تخوض بحراً من رمال الصحراء ترفعها رافعة، وتخفضها خافضة، حتى ترتقي الجبل، وتصل إلى الغار، فتقدم الزاد وتلقي ما تعلمه من خبر مكة ثم تعود في جنح الليل، فلا ينبثق الصبح إلا وهي في فراشها كأنه لم يكن ثم شيء

وما كان أقوى تلك الطفلة الناشئة أسماء بنت أبي بكر حين اقتحم رجال قريش عليها البيت وامتحنوها بألوان من العذاب لتدلهم على مكان أبيها فما كان لهم منها من جواب، ولطمها الشريف النذل أبو جهل بن هشام لطمة أطارت قرطها من أذنها لتتكلم فما نطقت إلا بعبرة واحدة سقطت من عينها على الأرض

هي إذاً روح قوي شديد كان ينتظم كل مسلم ومسلمة ولا يقف أمام هذا الروح شيء مما عساه يعترض الناس

فهل في الإمكان أن يستيقظ الروح في صدور مسلمي هذه الأيام؟

إن هذه الأرواح كالأجساد، تختلف عليها الصحة والمرض، والقوة والوهن، والنشاط والخمول؛ وهي كالنحل تجتمع على اليعسوب القوي، وكالجند تقوى بالقائد الفادي المجيد. فهل يقوم في المسلمين داعية من دعاة الله يهب نفسه لله، ويفني ذاته في ذات الله؟

داعية واحد لا يقوم بينه وبين الله شيء، لا يجمع المال ولا ينشد الجاه، ولا يؤثر نعمة الحياة على رضا الله. . . وهو خليق إن وجد أن يجتمع حوله رجال على غراره. . . داعية واحد من هذا الطراز إذا وجد أثمر الأمل وصحت الأحلام

فهل يقوم المهدي المنتظر؟

لا أدري. . لعل أوانه قد آن

عبد الله عفيفي

بلاغة العرب

كليلة ودمنة

للدكتور محمد صبري

البيان في لغة العرب، يجري في منازلها وأساليبها جرى الماء في فروع الدوحة. . ومن ذا الذي لا يحب ظل الدوح وثمره المتهدل الذي يملأ اليد والعين والقلب؟ ومن ذا الذي لا يحس طراوة العيش وبهجة الدنيا في نواحيها؟ ومن ذا الذي لا يحركه السحر الذي يتبرج في كل لون نضير؟

إن لكل لفظة ولكل أسلوب لوناً ولكل لون فتنة، وقد جمع أسلوب ابن المقفع بين الجزالة والسلاسة؛ وكانت كل لفظة منه تنحت من خير مقطع، ومن عجب أن هذه الألفاظ والتراكيب السهلة الممتنعة كان ينظمها ابن المقفع فيخدعك صفاؤها وانسجام نفعها وموسيقاها عما تكبده من تعب وجهد

وأسلوب ابن المقفع في الكتابة كأسلوب البحتري في الشعر: في كل منهما تتجلى روعة الفن والصقل والذوق

قال الطائر فنزة إلى الملك في كليلة ودمنة: (. . . أنا الفريد الوحيد الغريب الطريد قد تزودت عندكم من الحزن عبئا ثقيلا لا يحمله معي أحد. وأنا ذاهب فعليك مني السلام)

وقال البحتري:

وقفة في العقيق أطرح ثقلاً ... من دموعي بوقفة في العقيق

وقال:

أعاتب الخل فيما جاء واحدةً ... ثم السلام عليه لا أعاتبه

هذا نثر منظوم وذاك شعر منثور ينتظمهما نفس واحد وموسيقى واحدة تتحد مع المعنى. . . الأول يطول نغمه ويمتد كموج البحر لأنه يدلل على ثقل العبء الذي يؤوده. . . (قد تزودت عندكم من الحزن عبئا ثقيلا) والثاني يقصر نغمه ويطرد لأنه يدلل على طرح الحمل. . . (وقفة في العقيق أطرح ثقلاً)

وإني أجتزئ اليوم بهذه المقارنة وأقول: إنه يخيل إلي أن إبن المقفع كان محزون النفس لأن وتر الحزن في كتابته يرن بين آونة وأخرى كلما ذكرت الصداقة وكلما ذكر الوطن. .

. . .كانت الصداقة عنده كما كانت عند إسماعيل صبري ظلا يأوي إ ليه كلما كثر النهار
جاء في باب الحمامة: (قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت مثل المتحابين. فحدثني إن رأيت عن إخوان الصفاء، كيف يبتدأ تواصلهم ويستمتع بعضهم ببعض. . .). وجاء فيه أن المطوقة نادت الجرذ باسمه: (فأجابها الجرذ من جحره: من أنت؟ قالت: أنا خليلتك المطوقة. فأقبل إليها الجرذ يسعى)
أظن كثيرين من القراء يعرفون قصص (لافونتين). . . . .(أنا خليلتك المطوقة) ويذكرون باب (المطوقتين الراحلتين) وسؤال إحداهما للأخرى: (هل عند خليلتي الكفاف من الرزق والمأوى؟)
وجاء أيضاً في باب الحمامة المطوقة: (إنه لا شيء من سرور الدنيا يعدل صحبة الإخوان، ولا غم فيها يعدل البعد عنهم). وقالت السلحفاة ترّغب الظبي في الإقامة معها وصحبتها: (نحن نبذل لك ودنا ومكاننا، والماء والمرعى كثيران عندنا). ثم قالت: (لا عيش مع فراق الأحبة، وإذا فارق الأليف أليفه فقد سلب فؤاده وخرم سروره وغشى بصره)
والأمثلة كثيرة في مقدور كل قارئ أن يهتدي إليها، والآن أنتقل إلى الوطن والوطنية، وأرجو أن نقف قليلا على باب (البوم والغربان) فإن فيه بلاغة وفيه دروسا نافعة تتلخص هذه القصة في أن ملك البوم أغار في أصحابه على الغربان فقتل وسبى منها خلفا كثيرا، وكانت الغارة ليلا، فلما أصبحت الغربان اجتمعت إلى ملكها وأخذت تتشاور معه في الأمر، فنصح اثنان منهما بالهرب فقال الملك: (لا أرى لكما ذلك راياً، أن نرحل عن أوطاننا ونخليها لعدونا من أول نكبة أصابتنا فيه ولا ينبغي لنا ذلك، ولكن نجمع أمرنا ونستعد لعدونا ونذكي نار الحرب فيما بيننا وبين عدونا ونحترس من الغرة إذا أقبل إلينا فنلقاه مستعدين ونقاتله قتالا غير مراجعين فيه ولا مقصرين عنه، وتلقى أطرافنا أطراف العدو ونتحرز بحصوننا وندافع عدونا بالأناة مرة وبالجلاد أخرى حيث نصيب فرصتنا وبغيتنا، وقد ثنينا عدونا عنا)
أبى ملك الغربان أن يستسلم للعدو المغير وأن يخلي له وطنه ودياره وأبى إلا أن يقاتل وأن (تلقى أطرافنا أطراف العدو. . .)
وأفتى الثالث بالصلح مع العدو (على خراج نؤديه إليه في كل سنة ندفع به عن أنفسنا ونطمئن في أوطاننا. . .) أو بعبارة أخرى كان يرى في البقاء في الوطن في ظل الاستعباد بعض الطمأنينة، وقد رد الرابع أنه لا يرى هذا الصلح رأيا (بل أن نفارق أوطاننا ونصبر على الغربة وشدة المعيشة خير من أن نضيّع أحسابنا ونخضع للعدو الذي نحن أشرف منه مع أن البوم لو عرضنا ذلك عليهن لما رضين منا إلا بالشطط. ويقال في الأمثال: قارب عدوك بعض المقاربة لتنال حاجتك، ولا تقاربه كل المقاربة فيجترئ عليك ويضعف جندك وتذل نفسك. ومثل ذلك مثل الخشبة المنصوبة في الشمس. . . إذا أملتها قليلا زاد ظلها وإذا جاوزت بها الحد في إمالتها نقص الظل. . . وليس عدونا راضيا منا بالدون في المقاربة، فالرأي لنا ولك المحاربة. . .)
قال الملك للخامس: ما تقول أنت؟ وماذا ترى؟ القتال أم الصلح؟ أم الجلاء عن الوطن؟. . .
قال: أما القتال فلا سبيل للمرء إلى قتال من لا يقوى عليه
وقد كان هذا الأخير أرجحهم عقلا لأنه خشي مغبة قتال القوى ومقاربته كل المقاربة والجلاء عن الوطن. . . ورأى أن يصيب أبناء جنسه حاجتهم من البوم بالرفق والحيلة قال: (وإني أريد من الملك أن ينقرني على رؤوس الأشهاد وينتف ريشي وذنبي، ثم يطرحني في أصل هذه الشجرة ويرتحل الملك وجنوده إلى مكان كذا فأرجو أني أصبر وأطلع على أحوالهم ومواضيع تحصينهم وأبوابهم فأخادعهم وآتي إليكم لنهجم عليهم وننال منهم غرضنا إن شاء الله تعالى)
انطلت على البوم حيلة الغراب وأنست له حتى إذا طاب عيشه ونبت ريشه واطلع على ما أراد أن يطلع عليه راغ روغة فأتى أصحابه وقال لهم: (إن البوم بمكان كذا في جبل كثير الحطب. وفي ذلك الموضع قطيع من الغنم مع رجل راع. ونحن مصيبون هناك نارا ونلقيها في أثقاب البوم ونقذف عليها من يابس الحطب ونتراوح عليها ضربا بأجنحتنا حتى تضطرم النار في الحطب فمن خرج منهن احترق ومن لم يخرج مات بالدخان موضعه. ففعل الغربان ذلك فأهلكن البوم قاطبة ورجعن إلى منازلهن

سالمات آمنات. . .)
لقد أرسل الله إلى البوم من يهلكها ويبيدها، لأنها ظلمت القرى والعباد، وإني لأتمثل الغربان وهن يتراوحن على النار ضربا بأجنحتهن حتى تضطرم في الحطب. . . تلك أجنحة ملائكة. . . ملائكة الرحمة والانتقام. . .
ويعجبني في هذه القصة حكاية الصفرد الذي طالت غيبته عن مكانه فجاءت أرنب فسكنته فلما عاد الصفرد تنازعا وقررا أن يحتكما إلى سنور متعبد بساحل البحر (يصوم النهار ويقوم الليل كله. . .) ما كادا يسألانه أن يقضي بينهما ويقصان عليه قصتهما حتى قال:
فدنوا منه وأعادا عليه (قد بلغني الكبر وثقلت أذناي فادنوا منى فأسمعاني ما تقولان) القصة وسألاه الحكم. فقال:
قد فهمت ما قلتما وأنا مبتدئكما بالنصيحة قبل الحكومة بينكما فأنا آمركما بتقوى الله) قال صاحب (. . .وألا تطلبا إلا الحق فإن طالب الحق هو الذي يفلج وإن قضي عليه كليلة ودمنة:
ثم إن السنور لم يزل يقص عليهما من جنس هذا وأشباهه حتى أنسا إليه وأقبلا عليه) ودنوا منه ثم وثب عليهما فقتلهما(
تلك عاقبة المتنازعين الذين يحتكمون إلى القوي فيخدعهما برياء قوته وجبروته ناسين (أن العاقل لا يغتر بسكون الحقد إذا سكن. فإنما مثل الحقد في القلب إذا لم يجد محركا مثل الجمر المكنون ما لم يجد حطبا فليس ينفك الحقد متطلعا إلى العلل كما تبتغي النار الحطب فإذا وجد علة استعر استعار النار) (باب الملك والطائر فنزة)
أنظر إلى كلمة (المكنون) التي يصف بها الجمر وكلمة (متطلعاً) التي يصف بها الحقد وكلمة (تبتغي) في قوله (كما تبتغي النار الحطب)
هل رأيت أبلغ منها في مثل هذه المواطن؟
ثم أنظر إلى قوله في الحقد:
تر من جمال التعبير ما يرقص له البيان. فإن الكلام (فإذا وجد علة استعر استعار النار) كان يمشي وئيدا ثم اندفع كالنار في الجملة الأخيرة، وكذلك كان الشأن في قصة المطوقة:
فأجابها الجرذ من جحره: من أنت؟ قالت أنا خليلتك المطوقة، فأقبل إليها الجرذ) فإن هذه الكلمات القصيرة المتتابعة (فأقبل، إليها، الجرذ، يسعى) تنم عن (يسعى الحركة السريعة المطمئنة وتؤدي المعنى خير أداء، وإن من البيان لسحرا
محمد صبري
في الطريق إلى يثرب
للأستاذ محمود الخفيف
طافَتِ الذكرى فَطوفي بِقَصِيدِي ... واسكُبي في مِسمَعِ الدَّهرِ نَشيدِي
جَدِّدي قيثارَتي اللَّحْنَ وَهاتي ... مِن حَديثٍ أبلَجِ الذِّكرِ فَريدِ
الهَدي وَالحَقُّ فيهِ والعُلَى ... والبُطُولاتُ وَآياتُ الخُلُودِ
هِيهِ. . . غَنِّينا بِألحَانٍ وِضَاءٍ ... جَدَّ بالقَلْبِ حَنِينُ لِلغناءِ
فَصَّلي أَسْجَاعَها واستَلْهِمي ... كُلَّ نَشْوَانِ الصَّدَى حُلْوِ الأَدَاءِ
رَجِّعي أنشُودَةً خالِدَةً ... كَمْ سَهَتْ عنها أغاني الشُّعَراءِ
أسمِعيها النَّشْرَ شِعراً سَلْسَلاً ... وَأهيبي بِبَنيهِ البُسَلاءِ
سيرَةٌ مِنْ جَانِبِ الله سَناها ... وَمَعان يوُقِظُ الرّوحَ صَدَاها
كلُّ نُورٍ هُوَ مِنها قَبَسٌ ... وَإلَيها كلُّ مَجْدٍ يَتَناهَى
خُطُواتٌ مُبتَدَاها عَزمَةٌ ... دُونَها الوَصْفُ، وَنَصْرٌ مُنْتهاها
إقْبسي قيثارَتي الوَحْيَ وهاتي ... مِن حَديثٍ قُدُسِيِّ اللَمَحَاتِ
أنشِدِينا فِيهِ أَعْلَى مَثَل ... خَطَّهُ التّاريخُ في مَاضٍ وَآتِ
عِظَةُ الأَجْيالِ فيهِ سَاقَها ... مَنْ أتاها بالهُدَى والبَيّناتِ
النَّبِي العَرَبيُّ المصطفَى ... خَاتَمُ الرُّسُلِ سَمَاء المَكرُماتِ
حدِّثي كيفَ اتّقَي كَيدَ الطَّغَامْ ... ومَشَى تَحتَ الدّجى هادي الأنامْ
ثانيَ اثنَين ترامَتْ بِهما ... في سَبِيلِ اللهِ بِيدُ وَرِجَامْ
أيُّها المُخرَجُ في جُنْحِ الدُّجى ... بِكَ يَنْجابُ عَنِ الدُّنيا الظَّلامْ

وَصِفي الصَّدِّيقَ يُخفي البُرَحَا ... في سُرَى يَكْرَهُ أنْ يَفتَضِحاَ
مُرسِلاً عَيْنَيْهِ في سُدفَتِهِ ... كُلَّمَا أبْصَرَ فِيَها شَبَحَا
وهْوَ مَنْ لا يَرْهَبُ اللَّيلَ ومَنْ ... طَلَبَ الصُّحْبَةَ فِيما اقْتَرَحَا
وبَكَى. . . حتى إذا فَازَ بها ... رَاحَ يَبْكي مِن جَديدٍ فَرَحا!
يا دُمُوعَ البِرِّ خَلَدْتِ الوَلاَء ... وَتَسامَيْت شَكاةً وَانْتِشَاء
يا نُجومًا يَتَجدَّدْنَ على الدَّ ... هرِ جَمَالاً وَسَناَء وَضِياَء
يَتَملاَّكِ بنو الدُّنيا إذا ... طلَبوا في هذه الدنيا الوَفاَء
سَتَرَ اللَيْلُ الرَّفِيقَينِ فسَارَا ... كَيْفَ يَجْتَازَانِ في اللَيْلِ القِفاَرَا؟
آثَرَ الصَّدِّيقُ أنْ يَختَبِئاَ ... فَمَضَى يَطْلُبُ فِي البَيْداءِ غَارَا
عِنْدَ (ثَوْر) يَبْتَغِي مَوْضِعَهُ ... قَبْلَمَا يُوحِى لَهُ النَّجْمُ النهارَا
وَمَشى في إثرِهِ صَاحِبُهُ ... يَسْأَلُ اللهَ لِعَبدَيهِ اصْطِبَارَا
يُبْصِرُ الصِّدِّيقَ طَوراً سَابِقاَ ... يُسْرِعُ الخَطْوَ، وطَوراً لاَحِقاً
ويَراهُ بَعدَ حِين قُربَهُ ... صامِتاً، يَرْنو إليهِ مُشفِقاَ
مُرْهِفاً أُذْنَيْهِ فْي البِيدِ إذَا ... هَفَتِ الرِّيحُ بِلَيلٍ أغْسَقاَ
حَذِراً يَرْتَابُ إن كان أمَامَهْ ... فَهوَ لاَ يَأمَنُ في الليلِ طَلاَمَهْ
ومَتى عَادَ إلى خَلْفٍ رَأي ... مَوضِعاً لَيْسَ تُرى فيهِ السَّلاَمَهْ
وَلَئِنْ سَارَ إلى جَانِبِهِ ... لَمْ يُصِبْ في ذَلِكَ السَّيرِ مَرَامَهْ
جُهْدُهُ أنْ يَتَلَقَّى وَحْدَهُ ... إنْ بدا الشَّرُ، من الشَّرِ سِهامهْ
أيُّهَا البَاذِلُ فِي اللهِ الحَياهْ ... يا رَفيقاً فَاتَ في البَرِّ مَدَاهْ
أيُّهَا المُرْخِصُ في إيمانِهِ ... مَا يُعِزُّ النَّاسُ مِنْ مَال وَجَاهْ
سِرْتَ في الدُّنْيا حَدِيثاً عَطِراً ... تَنْشَقُ الدنْيا عَلَى الدهْرِ شَذَاهْ
بَلَغَا (ثَوْراً) وَمَا حَانَ السَّحَرْ ... فمَشَى يَأوِي إليّ الغَارِ القَمَرْ
يَا سِرَاجاً يَنسَخُ اللهُ بهِ ... ما تَدَجَّى مِنْ ضَلاَل وَاعْتكَرْ
قدَّرَ اللهُ لَكَ الظَعْنَ فَكَمْ ... عِبْرَةٍ فيهِ وَذِكرَى لِلْبَشَرْ
إن تَكُنْ أُوذيتَ في اللهِ لَقدْ ... كُنْتَ أسْمَى مَنْ تَأسَّى وَصَبَرْ
لَمَحَ الغَارَ فَأوْمَى عِنْدَ بَابِهْ ... لِلنَّبِيِّ المصطفَى، خَيْرُ صِحَابِهْ
قِفْ! تَمَّهلْ. . . بِأبي أنْتَ وأُمِّي ... رُبَّ شَرٍ خَبَأ اللَّيْلُ لَنَا بِهْ
وَمَضَى يَسْتبْرِئُ الغَاَرَ لَهُ ... لَيْسَ يَخشى ماَ دَعَاهُ لاجْتِنَابِهْ
لَمْ يَخَفْ فِيهِ المُعْتمِاَ ... بَلْ دَعَاهُ حِرْصُهُ أنْ يَقْدُما
مَدَّ في الظُلْمَةِ رِجْلَيْهِ إلى ... كُلِّ رُكنٍ بَاحِثاً لَنْ يُحْجِماَ
رُبَّ رَقْطَاَء أثَارَتْ رِجْلُهُ ... أوْ أثَارَتْ فِي دُجَاهُ ضَيْغَماَ
يَفْتَدِي بِالنَّفْسِ طهَ رَاضِياً ... كلَّ سِلْمٍ عِنْدَهُ أنْ يَسْلَما
لاَذَ بِالْغَارِ الرَّسُولُ المصطفى ... معه الصِّدِّيقُ أوْفى من وَفَا
يَقِظَ الطَّرْفِ بِهِ ذَا أهْبَةٍ ... مُنصِتاً في صَمْتِهِ مُسْتَهدِفاَ
كُلُّ هَوْلٍ عِنْدَهُ مُسْتَعْذَبٌ=في سَبِيلِ الحقِّ حتى يُنْصَفَا
إمْلأي اللَّحْنَ خُشُوعاً وَاحْتِشامَا ... وَاجْعَلي شِعْري صَلاةً وَسَلاَمَا
أسجُدي قيثارَتي واقتَبسي ... مِنْ جَلاَلٍ فاتَ في الأرضِ الكلاما
أعْجَزَ القَوْلَ وَكَمْ هامَ بهِ ... مَنْ رَأى فِيهِ قُصَاراه الهُياما!
كُلَّما إسْتَشْرَفَ ذُو لُبٍّ لَهُ ... كان كالأُفْقِ: تدانى فَتَرامَى!
هلْ رَأى قَطُّ بنو الدُّنيا كِفاحا ... غَيْرَ نُورِ الحَقِّ لم يَهْزُزْ سِلاَحَا؟
هلْ رَأوا قَطُّ يَتيماً مُمْلِقاً ... يَتَحدّى وَحْدَهُ اللُسْنَ الفِصَاحا؟
ذَلِكَ اللائِذُ بالغارِ غَداً ... يَمْلأُ العالمَ رُشْداً وفلاحا
هلْ رَأى قَطُّ بنو الدُّنيا يَقينَا ... مِثْلَ هذا حَيَّرَ المُسْتكْبِرينا؟
ظَلَّ عَشْراً وثلاثاً صابِراً ... يَتَحدَّى سَفَهَ المُستهزِئينا
كُلَّما زادُوه مِن كَيْدِهُمُ ... وَجَدُوا مِنْهُ قَنَاةً لن تَلينا
أيُّها الصّابرُ، بالصَّبرِ غَداً=يَفتَحُ اللهُ لَكَ الفَتْحَ المُبينا
أيُّها الهامِسُ تحتَ الغَلَسِ ... وَهْوَ مَنْ يَحْمِلُ أسْمَى قَبَسٍ!
أيُّها المُخْرَجُ لَيلاً لم يَكنْ ... هَمسُكَ القُدْسِيُّ بالمُحْتَبِسِ
هذهِ الدُّنيا غداً تشدو بهِ ... مِنْ ضِفافِ السِّنْدِ للأندلُسِ

ذلك الغارُ الذي لاذَا بهِ ... جِدَّةُ الدُّنيا غداً مِنْ بابهِ
يَدرُجُ التّاريخُ مِنْ رُقْعَتِهِ ... ويَفيض النُّورُ مِنْ مِحْرابِهِ
يَمحَقُ البَاطِلَ في أصْنَامِهِ ... ويُميتُ الشِّرْكَ في أنْصَابِهِ
يَسَعُ الدُّنيا غداً هَيكلُهُ ... ويَلُمُّ المَجْدَ مِنْ أنسابِهِ
سَوْفَ يَطوي مُلكَ كسْرى لو دَرى ... غَيْرَ بَاغٍ، ويُذِلُّ القَيصرا
مَوْضِعٌ في البيدِ يسمو رُكنُهُ ... للثريا وَهْوَ في أصْلِ الثّرَى
مَوْئِلُ الدّين مشى في هجرةٍ ... أذِنَ الله بها أن يُنْصَرَا
عُصْبَةُ الشِّركِ محا الصُّبحُ دُجَاها ... وَأتَى الحقُّ بما ألْجَمَ فَاها
لَيْتَهَا لما أتَاها أذْعَنَتْ ... وَمَعَ الصُّبْحِ أفَاقَتْ مِنْ كَرَاها
صَدفَت عنهُ عِنَاداً وَمَضَتْ ... تُؤثِرُ الليْلَ عَلَى الصُّبْحِ اتجاها
يَا لها مِنْ عُصْبَةٍ غَاشِمَةٍ ... كَهْلُها يَسْبِقُ فِي الشَّرِّ فتاها
طَلَبَتْ فِي رُقْعَةِ البِيدِ الرسُولاَ ... وَأتَتْ تَسْعَى شَبَاباً وَكُهُولاَ
يَسْمَعُ الصّدِّيقُ جَمْعاً هاهنا ... وَهُنا يَسْمَعُ مِنْ قُربٍ قَلُولاَ
أيُ ثَأرٍ هاجَهَا فَانطَلَقَتْ ... لا تَرَى عن ذَلِكَ البَغْيِ عُدُولا؟
أتُرى تُدْرِكُ معنى الارْتِحَالِ ... وَتَرى أوَّلَ آيات النّضَالِ؟
لو تَخَطّتْ حُجُبَ الغَيْبِ رَأتْ ... مِلَء هَذِي البِيدِ من سُمْرٍ عوالِ
تَرْجُفُ الأرْضُ بِجَيْشٍ لَجِبٍ ... ظَافرِ الإقْدَام نشوانِ النِّصالِ
رَفَعَ الرَّايَةَ فِيهِ سَيِّدٌ ... يَجْعَلُ العَفْوَ بِهِ فَوقَ القِتَالِ
قالَ عِنْدَ الغارِ: يا قوم هِنا! ... قائلٌ منهم. . . ونادى موقنا
ورأى الصّدِّيقُ ما أزْعَجَهُ ... فَشَكا البَثَّ وأبدى الحَزَنا
قال لا آسَي إذا نُجّيتَ مِنْ ... ذا وإن أوذِيتُ أوْ مِتُّ أنا
وَرَأى أحْمَدُ لا يَخْشى العِدَا ... ولَئِنْ كدَّرَهُ ذَاك الصَّدَى
قالَ: لا تحْزنْ! وَصَلِّي قائماً ... يَحْمَدُ الله عَلَى مَا أيَّدَا
أنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ سَكَناً ... وَوَقى الجارَيْنِ مِن شَرٍ بَدا
وَتَوَلْتْ عُصْبَةُ الشِّرْكِ؛ فمَا ... يَفْتَحُ البَاطِلُ حِصْناً مُوصَدَا
أي حِصنٍ صَدَّ هاتيك الجُمُوعا ... فَتَوَلْوا عَنْهُ مِن يَأسٍ رُجُوعا؟
صِيغَ مِن أوْهَنِ نَسْجٍ بابُهُ ... لا يُرى إلا خُيُوطاً وَرُقوعا
مَا دَنَا مِنْهُ فتىً إلا انثَنَى ... وَاجِفَ القلْبِ وَمَا كانَ هُلوعَا
أفْزَعَ الشِّرْكَ مِنَ الغَارِ غِناءُ ... فإذَا أفْئِدَةُ الشِّرْكِ هَوَاء
ذَاتُ طَوْقٍ جَاوَبَتها أُختُها ... يا دُعَاءً رَاحَ يَتْلُوهُ دُعَاء
رَوِّعَا الشِّرْكَ بِلَحْنٍ هاتِفٍ ... إنّمَا كانَ مِن الله النَّجَاء
إنْ أتَى النَّصْرُ مِنَ الله فمَا ... يَنْسِجُ العَنْكَبُ - دِرْعُ وَوِقاء
وَصِفَا مِن جانِبِ الرَّحْمَنِ حَشْدا ... مَلأ البَاطِلَ رُعْبًا لو تَبَدَّى
طافَ بالغَارِ أولو أجْنِحَةٍ ... قَدْ تلاقَوْا عِنْدَهُ وَفداً فَوَفْدَا
مِن جُنُودٍ لم يَرَوْها حُوَّمٍ ... أيْنَ مَن يَحْشُدُ كالرَّحْمَنِ جُنْداَ؟
حَيّيا أسماَء كالطّيْفِ الرَّفِيقْ ... تَسْرِقُ الخطْوَ عَلَى هَوْلِ الطريق!
تَحْمِلُ الزْادَ عَشِيًّا وَحْدَها ... ذَاتُ قَلْبٍ هُوَ بَالخَوْفِ خِليقْ
يا ابْنَةَ الصّديق هلْ منْ نَبأٍ ... للرَّفيقين عَن الشِّرْكِ وَثيقْ؟
أمسِكي عَنْ لطْمَةٍ فاجِرَةٍ ... طَرحَتْ قُرْطَكِ منْ وَغْدٍ صَفِيقْ
هِيِه عَبْدَ الله. . . قُصَّ الخَبَرا ... هاتِ منْ نيّاتِهِمْ مَا ظهَرَا
وَخذ الحيطَةَ وَأحْذَرْ مَكرهُم ... وَتَخَيَّرْ من يُعفي الأثَرا
وتأهّبْ. . . آن أن يَسْتَأنِفَا ... في سبيلِ اللهِ هذا السَّفَرا
تَبِعا في وَحْشَةِ البيدِ الدلِيلاَ ... يَتِوَخّى بهما سيْراً طَويلا
يَدْرُجُ الحقُّ إلى غايَتهِ ... وقد اختَارَ لَهُ الله السَّبيلا
يَنْصرُ اللهُ به مَن هاجَرُوا ... مِنْ جُنُودٍ صَبَروا صبراً جَميلا
آيَة اللهِ انجْلَتْ في هِجْرةٍ ... تَهْتفُ الدّنْيا بها جيلاً فجيلا
هِجرةٌ تَحْمِلُ بُرْهاناَتِها ... وهيَ وحْيُ لِلنُّهَى في ذاتِها
كلّمَا أمْعَن فِيهَا نَاظِرٌ ... كَشَفَ المكنونَ مِنْ آياتِها
قَبسُ اللهِ الذي أنزَلُهُ ... يَنْجَلي لِلنّفْسِ في غاياتِها

ذلك الداعِي الذي يلقى الصِّعابا ... لِمَ يَخْتارُ مِن القَوْمِ العَذَابا؟
وهْوَ لَوْ يَخْتارُ مُلكاً نَالَهُ ... من سَراةِ القَوْمِ طوْعاً لاَ اغْتِصابا
أوْ يشاء المالَ سَاقُوهُ لَهُ ... وهْو مَنْ يَفْنَى لهُ الناسُ طِلاَبا
إنما يَسْعَى إلى اللهِ، وإنْ ... قَذَفوا في وجهِهِ السّمْحِ التُّرابا
لَمَ تكُنْ هْجَرَتُهُ إلا جِهَادَا ... وإباءً وحِفَاظاً وجِلاَدَا
رَاحَ يَسْتأنِفُ في هجَرتِهِ ... في سبيلِ اللهِ؛ أعْبَاءً شِدادَا
سَارَ يَسْتَصرْخُ مِنْ يَنْصُرُهُ ... ليُذِلَّ السَّيْفُ في الشّركِ العنادا
هادِيَ البَيْدَاءَ قدْ طالَ المسِيرْ ... وَرَجَتْ يَثْربُ إقبالَ البشيرْ
إيهِ لا تُبطِئ فهذا فارِسٌ ... يَقْتَفي خَلْفُكَ آثارَ البَعِيرْ
الْتَفِتْ تُبصِرْهُ قَدْ ساخَ به ... فَرَسٌ كادَ مِن الرّهْوِ يَطيرْ
صاح بالرَّكْبِ تَنكّبْتُ الأذَى ... ولَئِنْ أُطْلِقْتُ إنّي لَنَصِيرْ
ومَشَى حَتَّى إذا ما اقْتَربَا ... راحَ يرْوِي لِلرَّسُولِ السّبَبا:
أُرْخِصَ المالُ لمن يَأتي بهِ ... فأتى يَطْلُبُ فِيَمنْ طَلَبَا
مُذ رأى ما حلَّ في السَّيْرِ به ... طَلَبَ الأمْنَ وعافَ الذَّهَبا
أقْبلي يَثْرِبُ من كلِّ البقاعِ ... بَلغَ السَّفرُ ثَنيَّاتِ الوَداعِ
اجعَلِي في كلِّ وادٍ مَوْكِباً ... مُشْرَئِباً، وامْلأي كلَّ يَفاعِ
سِرْتِ في الدُّنيا إلى جَبْهَتِها ... مُنْذُ آوَيتِ بها أشْرَفَ داعِ
الخفيف

الإسلام عدو الشرك والنفاق

للأستاذ محمد عبد الرحمن الجديلي

رأى المشرع الإسلامي: أن يُبقى على فريضة الحج، والحج معروف في تضاعيف الزمان ومن أقدم العهود، أبقى عليه المشرع الإسلامي إبقاءً مهذباً مطهراً خالصاً من أدران الشرك ومن دنس الاعتقاد الرجس. أبقاه الإسلام، بعد أن افرغ عليه من جلال التوحيد، وأفاض عليه من معاني التقوى ما جعله منسكاً حافلاً بالخير.

وأي خير أوفر من شهود المنافع وتعرّف شؤون الأقطار الإسلامية، وشدّ أواصر المجتمع وإعداد النفوس لتلقى أسمى الفيوضات واستلهام الهدى واجتماع الكلمة؟

ونحن بسبيل أن نبين كيف اختار الإسلام موسم الحج ميدانا لإصلاح اجتماعي خطير؟

هذا الإصلاح هو: مهاجمة النفاق والكشف عن المنافقين وتمييزهم عن المجتمع ونبذهم، بعيدين عن المؤمنين لكي يسلم للأمة خلقها وتصح عناصرها. . .

أنزل الله على رسوله - صلى الله علية وسلم - في ختام ما نزل من القرآن سورة (براءة)، أو السورة (الفاضحة) التي فضحت الشرك وكشفت عن المنافقين، أنزلها الله في السنة التاسعة من الهجرة في موسم الحج

وقد كان محمد صلى الله علية وسلم - من قبل ذلك - يعرف خصومه من المشركين السافرين فيحذرهم وينكل بهم. ثم كان يعرف - أيضاً - أن بين أتباعه بعض المنافقين، فكان لا يجيبهم ولا يكشف عن أضغانهم ولا يبرز للمسلمين دخائل نفوسهم، إبقاء على الدعوة الإسلامية وهي في دور النمو والتكوين، حتى لقد بلغ من قسوة تلك الحالة على محمد صلى الله علية وسلم وعلى أصحابه، أن صاروا فريسة لمكائد النفاق وهدفا لمؤامرات المنافقين يدلون المشركين على عورات المؤمنين ويوضعون خلالهم يبغونهم الفتنة ومع هذا، هم لاصقون بالجماعة المحمدية. . .

(يحلفون ب الله إنهم لمنكم وما هم منكم، ولكنهم قوم يفرقون)

وقد بلغ من خطر النفاق على المجتمع يومذاك - أن دفعت أزمة حربية عنيفة للرسول - صلوات الله عليه - ولأصحابه، فكانت سانحة للمنافقين، أرجفوا فيها بموت محمد عليه السلام لتثبيط العزائم، وتمكين الهزيمة، والمؤمنون في ساعة عصيبة يجمعون شملهم

ويربطون على قلوبهم، والرسول عليه السلام ثابت في مكانه لا يريم

تلك الحوادث أبانت عن أنه لا يزال بين المجتمع الإسلامي - بل وسط جماعة المسلمين - قلوب مطوية على الإحن تتربص بالإسلام وبالرسول الدوائر

وإنها لحال تنغص على المسلمين أمورهم، وتهدد كيانهم وتقلقل مجتمعهم

وقد كاد صبرهم ينفد يوم وقف واحد من هؤلاء يعيب على رسول الله صلى الله علية

وسلم قسمه للصدقات ويغمز العدالة المحمدية. هذا الرجل هو (ذو الخويصرة التميمي) دفع به النفاق، فخاطب رسول الله صلى الله علية وسلم، وقال: اعدل يا محمد. . ولا، والله، ما قصد ذو الخويصرة عدلا ولا طلب حقا. ولكنه قصد إلى أن يشكك الناس في العدالة المحمدية، وينبه الأطماع، ويثير الإحن. فقال له الرسول صلى الله علية وسلم: (ويلك، من يعدل إذا لم أعدل؟)

واستمع لهذا الحوار الرجل المؤمن حقا عمر بن الخطاب، فعرف أنها دسيسة. فقال: يا رسول الله، ائذن لي فأضرب عنقه، فأخذ صلى الله علية وسلم يهدّي من نفس عمر، ويذهب عنه الغضب، ويقول: لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه

ونزل في تلك الحادثة من السورة (الفاضحة) قول الله تعالى:

ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أُعطوا منها رضوا، وإن لم يُعطَوْا منها إذا هم) (يسخطون

بقي النفاق - هذا الوباء الأخلاقي - يأكل في أجزاء من جسم المجتمع، ولولا صدق اليقين، ومناعة الجسم، لأودى النفاق بالدعوة الإسلامية

إن لله مواقيت تنتهي لديها أمور وتبدأ من عندها أمور. فلما أذن الله بافتضاح هذا النفاق، وشاء للمنافقين أن يشَهروا ويعلّموا ويؤخذوا بسيماهم، ثم يعزلوا - مرضى موبوئين - عن بقية المجتمع السليم، اختار - عز وجل - لذلك وقتا علا فيه شأن الإسلام، وتمت له الكلمة، وأثخن المسلمون في أعدائهم أسراً وقتلا واستيلاءً وغلبة. فليس يخيفهم أن يبتروا الأعضاء السقيمة العليلة

وكانت الحياة المحمدية المباركة قد آذنت بالانقضاء، ولابد من صيانة مجتمعه وشريعته ودينه من هذا المرض، مرض النفاق المدّمر الفتاك

عند ذلك أنزل الله سبحانه وتعالى السورة (الفاضحة) كما ورد عن ابن عباس رضي الله عنه: نزلت تفضح النفاق، وتكشف عن المنافقين، وتصور ألوانهم وأقوالهم، وتطلع المؤمنين على دخائل نفوسهم، وتنشر للملأ مطويات سرائرهم. . . وقد كانوا من قبلها يخافون ذلك ويحذرونه

ولكن الله أوقع بهم، (يحذر المنافقون أن تنّزَّل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم) فكان ما يحذرون ووقع ما يرهبون

اختار المشرع الإسلامي غزوة من غزوات المسلمين، جعلها اختباراً أخيراً للمنافقين. وهي: غزوة تبوك، آخر الغزوات في حياة الرسول صلوات الله وسلامه عليه، وكان الوقت عسيراً والبلاد جدباء، والحر لافحاً والشقة بعيدة، والأعداء هم الروم الأقوياء الأغنياء

هنا أخذ النفاق يطل برأسه، وينفث في العقد، ويبعث التخاذل، ويحبب التقاعد بين الجيوش الإسلامية. فقال جماعة المنافقين وعلى رأسهم كبيرهم (عبد الله بن أبي): (أيغزو محمد بني الأصفر (الروم) مع جهد الحال، وشدة الهجير، والبلد النائي؟ أيحسب محمد أن قتال بني الأصفر لعب ولهو؟ والله. . . لكأني أنظر إلى أصحابه مقرنين في الأصفاد)

ثم أخذ المنفقون يقولون: لا تنفروا في الحر، قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون

وهكذا جعلوا يعتذرون عن الخروج بأعذار تافهة ورسول الله صلى الله علية وسلم يقبلها، حتى عاتبه القرآن في ذلك وعفا عنه: (عفا الله عنك لِمَ أذنتَ لهم حتى يتبيَّن لكَ الذينَ صدقوا وتعلمَ الكاذبين)

عرَّفت السورة (الفاضحة) أو سورة (براءة) المنافقين، وحددت أوصافهم: فمنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن ومنهم من يلمزك في الصدقات. ومنهم من عاهد الله ثم أخلف عهده. ومنهم، ومنهم. . .

ثم خاطب الله رسوله عليه السلام الخطاب الحاسم في شأنهم فقال: (سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتُم إليهم لتُعرِضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون)

ولقد نكل الله بالشرك في تلك السورة فسميت (المنكلة) وأزرى واحتقر النفاق ورسمه بأنه رجس، فافتضح النفاق

وجاء صدر تلك السورة قضاء حاسماً على بقية الشرك، وإبادة لمرضه الخبيث في أنحاء الجزيرة العربية

فقد اجتمع إلى الشرك مآثم وأوزار وشناعات، لا مناص من القضاء عليها تطهيراً للمجتمع وإصلاحًا
وفي السنة التاسعة للهجرة أمَّر للنبي عليه السلام على الحج (أبا بكر) الصديق. فلما نزلت السورة - المنكلة الفاضحة - بعث صلى الله علية وسلم إبن عمه علي بن أبي طالب على ناقته العضباء ليقرأ في موسم الحج على الناس كافة صدر السورة المنزلة، قضاء على الشرك والمشركين، فلما دنا علي من أبي بكر سمع أبو بكر رغاء الناقة، فوقف وقال: هذا رغاء ناقة رسول الله صلى الله علية وسلم. فلما لحقه علي قال له أبو بكر: أمير أم مأمور؟ قال: مأمور
فلما كان يوم الحج الأكبر - يوم النحر - عند جمرة العقبة قام علي فقال: (أيها الناس، إني رسول رسول الله تعالى إليكم) فقالوا: بماذا؟ فقرأ (براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله، وأن الله مخزي الكافرين، وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله) إلى آخر الآيات الثلاثين أو الأربعين من السورة
ثم قال: (أمرت بأربع: ألا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلا كل نفس مؤمنة، وأن يتم كل ذي عهد عهده)
وفي هذا الموطن الحاشد، وبهذا البيان القاطع تقررت حياطة المجتمع، وصيانة التوحيد، كما تقرر - في أثناء السورة - إبراء المجتمع من داء النفاق بإقصاء المنافقين وتعرفهم بسيماهم؛ ثم نبذهم أحياء أو ميتين
يحلفون لكم لترضوا عنهم،) (ولا تُصَلِّ على أحد منهم مات أبداً، ولا تَقُم على قبره) (فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين
انتهى أمر النفاق، وانتظم شأن المجتمع الإسلامي. فلما كان العام التالي، أراد صاحب الشريعة عليه السلام أن يحج، وترامى ذلك إلى أقطار الجزيرة، فانثال الناس من كل حدب، حتى بلغ الحجيج مائة ألف أو يزيدون. وفي يوم الحج الأكبر، خطب صاحب الشريعة خطبته الجامعة التي بين فيها أصول الدين، وحقوق الإنسان وأعلن فيها المساواة، وحقن فيها الدماء وبين الحدود، وحشد فيها الفضائل الإسلامية
وزاد في جلال الموقف ورهبته إشعار النفوس أن محمدا عليه السلام يودع المسلمين ويتوقع اقترابه من اليوم المحتوم، ويستشرف إلى الرفيق الأعلى
قال صلى الله علية وسلم: (الحمد لله، نحمده ونستغفره ونتوب إليه. ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا. من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله. . . أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثكم على طاعة الله، وأستفتح بالذي هو خير. أما بعد:
أيها الناس، اسمعوا مني أبين لكم، فإني لا أدري. . . لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا، في موقفي هذا
أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام، إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا. ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد
فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذي ائتمنه عليها. وإن ربا الجاهلية موضوع
أيها الناس: إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه ولكنه رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم. ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد
إن لنسائكم عليكم حقا، فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف. وإنما النساء عَوانٍ أخذتموهن بأمانة الله، فاتقوا الله في النساء، واستوصوا بهن خيرا
أيها الناس، إنما المؤمنون إخوة، فلا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفسه. ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد
فلا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم أعناق بعض؛ فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله. ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد
أيها الناس. إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد؛ كلكم لآدم، وآدم من تراب. أكرمكم عند الله أتقاكم. ليس يُعرف فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى. ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم. قال: فليبلغ الشاهد منكم الغائب. . .)

بتلك الخطبة الحافلة بأسمى المعاني الإنسانية، تمت كلمة الله صدقاً وعدلاً، فاكتمل أمر
الدين، وأتم الله نعمته على المؤمنين، وقد أنزل الله في أعقاب ذلك من سورة
(المائدة): (اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام دينا).
أقام صلى الله علية وسلم بمكة بعد ذلك عشرة أيام. وأخذته نوازع الشوق وهو في
موطنه الأول (مكة) إلى موطنه الثاني، إلى دار الهجرة، فسار إلى المدينة. . .
ولما أشرف عليها، وبدت أعلامها كبَّر ثلاثا وقال:
(لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد وهو على كل شيء قدير. . .
آيبون، عابدون، ساجدون، لربنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده

محمد عبد الرحمن الجديلي

في جنازة الشرك!

آلهة الكعبة يسجدون. .

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

أسطورة وثنية جديدة يتخيل فيها الشاعر لونا من الفزع الذي
حل بأصنام المشركين، على ألسنة الجبابرة الخرس من الآلهة
الحجرية: (اللات، والعزى، ومناة!) في اجتماع لهم غداة
أشرق في ظلمة محاريبهم شعاع من نور محمد!)

مَناة (في حال من الكبرياء والجبروت يحي رفيقيه عقيب ليلة طال فيها سجود
المشركين في ساحة الأصنام):

سَلامَ الأُلوهةِ يا صاحِبَيَّ ... وَحَيّيْكُما عِزَّتي العالِيَهْ!
وَحَيّيْكُما مِن شعابِ الجبالِ ... قلوبٌ لأطيافِنا جاثِيَهْ
وَشَعْبٌ عَلَى الأَرْض عاتي الْجباهِ ... تَخِرُّ لنا رُوحُهُ العاتِيَهْ
تأبَّى فَسَوَّى شُعاعَ النُّجوم ... لخَيَّماتِهِ طُنُباً زاهِيَهْ
وَألْقَى الزمانَ على خَطْوِهِ ... حَديثاً لأمجادِهِ السّارِيَهْ
صَحاراهُ أُنْشُودَةُ الأنبياءِ ... وَمَسْرَى شُعَاعَتِها الهادِيَهْ
وَحَقْلُ السّماءِ الّذي فَجَّرَتْ ... عليْه يَنابيعَها الصَّافِيَهْ. . .
بَنُو السَّيفِ وَاليدِ أهلُ الوغَى ... وَأَبْطَالُ دَوْرَتِها الحَامِيهْ
فَمُ الدَّهرِ يَبْلَى وَأشْعَارُهُمْ ... تَظَلُّ الغُيُوبُ لها رَاوِيَهْ!
أُولَئكَ مَنْ طوّفُوا حَوْلَنا ... خُشوعاً لِصَوْلَتِنا الطّاغِيَهْ
وَمَنْ قَدَّسُونا فَكُنَّا لَهُمْ ... حياةً لأَعْمَارِهِم ثانِيَهْ. . .

اللاّت (في تعجب وسخرية):

أَرَاكَ تَغالَيْتَ في ذِكْرِهِمْ ... وَكنْتَ لَهُمْ في الوَرَى دَاعِيَهْ
إلهُ يُمَجَّدُ عُبَّادَهُ ... وَيَكْسُوهُمُ المِدَحَ الغالِيَهْ!
وَيَخْلَعُ مِنْ قُدْسِ أَوْصَافِهِ ... عَلَى رِجْسِهِمْ حُللاً ضَافِيَهْ
لَبِئْس الهُدَى عِنْدَهُ وَالرَّشادُ ... وَتَبَّا لِشِرْعَتِهِ الْغاوِيَهْ!

مَناة (صارخا في وجه (العزَّى) وقد كان في إطراق عميق):

سَمِعْتَ مِنَ اللاّتِ هُجرَ الحدِيثِ ... وَسُخْفَ المَلامِ وَزَيْفَ الْكَلِمْ
وَأطْرقْتَ لم تُلقِ بالاً لَهُ ... ولم يَسْتَثِرْكَ انتِهَاكُ الحُرَمْ
إلهُ وَتَرْضَى بهذا الهَوانِ ... وَتَغْرِقُ في الصَّمْتِ مثل الصَّنَمْ!

العُزَّى (في دهشة واستغراب):

وما أنا إلاّ كما قَدْ نَعَتَّ ... جَمَادٌ عَلَى الأرض خَاوٍ أَصَمّ
وما أنتَ يا صاحِ!. . .

مَناة:

رَبٌّ عَظِيمٌ ... تُرَّجى لَدَيَّ المُنَى وَالنِّعَمْ . . . . . .
وَتمْشِي بِصَوْلَجِيَ السَّافياتُ ... وَتَنهَلُّ مِنْ رَاحَتيَّ الدّيمْ
وَباسمِي تَغَنَّي حُداةُ الجِمَالِ ... وَمَالُوا نَشَاوَى بِسِحْرِ النَّغَمْ
وفي الرَّوْعِ تَجْثُو لَديّ السُّيُوفُ ... وَبي تَسْتَجيرُ، وَلى تَحْتَكِمْ
وَبي تُقْسِمُ البِيدُ في عَهْدِها ... جَلالاً. . .

العُزَّى (يقاطعه):
وَأَهْونْ بهذا القَسَمْ . . .!
كَذَبَتّ ألسْنَا هنا ثلةً ... من الصَّخْرِ خَرْساَء مُنْذُ القِدَمْ؟
تَلَهَّى بِأحْجَارِنا النَّاحِتُونَ ... وَألقَوْا بِنَا في مَهاوي الظُلَمْ
سَكَنّا الحَضِيضَ أَسَارَى البِلَى ... وكانَتْ مَرابِعُنا في القِمَمْ
دُمُوعُ الجِبالِ عَلَى ذُلِّنا ... هي السَّيْلُ يُرزِم فَوقَ الأَكَمْ
أبْعَدَ النَّدَى مِنْ كُؤُوسِ الغَمامِ ... يُصابِحُنا بالرَّحيق الشَّبَمْ!
وَبَعْدَ الرِّياحِ وَتَطْوَافِها ... صَلاةً وَنُسْكاً بِعالي الأطُمْ!
وَبَعْدَ الشَّذَى من خُزامَي السُّفُوح ... تَفَتّقَ نُوَّارُهُ وابْتَسَمْ!
وَبَعْدَ المَهارِجِ دَوَّى بها ... فَمُ الجِنِّ في لَيْلِنَا واحتَدَمْ
وَبَعْدَ المَزَامِيرِ أذْكَى بها ... حنِينَ البَرَارِي رُعاةُ الغَنَمْ!
وَبَعْدَ السُّهُوبِ التي مَوّجَتْ ... أسَارِيرَها البِيضَ كَفُّ النسَمْ
وَكانَتْ مُصَلَّى شُعِاعِ الغُيوبِ ... وَدَيْرَ السَّماءِ، وكَهْفَ الحُرَمْ!
وَبَعْدَ الضُّحى العَبْقَرِيِّ العُبابِ ... عَرايا الصُّخورِ به تَسْتَحِمّ. . .
أقَمْنَا بزاويَةٍ أهلُها ... ذُبابُ القُبورِ، ودُودُ الرِّممْ . . .
وخُفّاشُها وَثَنيُّ الصَّدَى ... يُوَصْوِصُ في جانِبَيْهِ البَكَمْ!
مَعَ الصَّمْتِ صَمّاءُ لا هَمْسَةٌ ... وَلا هَجْسَةٌ غَيْرُ صَوْتِ العَدَمْ!
نصِبْنَا مَذابحَ لِلسَّائماتِ ... وَمَجْزَرَة لِضَحايا النَّعَمْ
تَبولُ الثَّعالبُ في ساحِنَا ... وَتَسْلَحُ فَوْق الجِباهِ الرَّخَمْ
كفانا خداعاً!
اللات:
كفانا هواناً
مناة (في ندم وحزن):
أحِسَّ بِجَنَبيَّ عَصْفَ الألَمْ!
يَدُورُ عَلَى عِزّتي بِالفَناءِ ... وَيَهْوي بها في سَعِيرِ الضَّرَمْ!
أعِينا صَفاتي عَلَى هَوْلِها!
العزَّى:
تَجَرّعْ لَهيبَ الأسَى وَالندَمْ!
(فترة سكون وذهول تخيم على الكعبة، ويشرق خلالها أول شعاع من نور النبي)
اللات:
أرَى قَبَساً في حِمَانا غَرِيبَا ... وألمَحُ في الأفْقِ ضَوْءاً عَجيبَا!
عَلَى الأرْضِ دَفَّقَ أنوَارَهُ ... فَسَالَتْ عَلَى الرمْلِ طُهْراً وَطِيبَا
وَأذْهَلَ بِاللَّمْحِ قَلبَ الشُّمُوسِ ... وَدَاراتِ أفلاكِها، وَالغُيُوبَا
وَرِبَعتْ صُخُورُ الفَلاَ فَارتمَتْ ... عَلَى خَطْوِهِ وَاسْتَحَالَتْ قُلوبَا
أهَلَّ عَلَى جَلْمَدِي فاسْتَطَار ... وَأوْشَكَ مِنْ رَهبَةٍ أنْ يَذُوبَا
أعُزَّايَ مَاذَا؟
العزَّى:
شُعَاعُ الضُحَى ... تَوَهَّجَ في البِيدِ غَضَّا قَشِيبَا!
مَناة:
هوَ النَّجْمُ خَفّ لَنا ساجِداً
اللاّت:
خَسِئْتَ! وخُيِّلتَ طَناًّ كَذوبَا!
فما النَّجْمُ؟ ما ضَوْءُهُ الكَوْكَبِيُّ؟ ... وكم لاحَ يُضْفِي الأسَى والشُّحُوبَا
وما الشَّمْس؟ كَم عَصَّبَتها السِّنِينُ ... وكادَتْ نَضارَتُها أنْ تَشِيبا!
ضَلَلتَ وَضَلّ الّذِي خالَهُ ... عَلَى الدَّهْرِ يَوْماً سَيَلْقَى غُروبا
هُوَ النُّورُ قد رَفْرَقَتْهُ السّماءُ ... يُهَدِّي الحَيَارَى وَيَمْحُو الذُّنوبا
رأى الشِّرْكُ أقْبَاسَهُ فارْتَمى ... وَخَرّ عَلَى صَفْحَتَيها مُنِيبا
وَهذى جنازتُهُ في الفِلاَ ... تَجُوسُ القِفَار وَتَطْوِي السُّهوبَا
فهيّا نُؤَدِّي صَلاةَ الجَمادِ ... وَنَسْجُدُ في الأرْضِ حتَّى نَذُوبا!

(ويسجدون!!). . .
(القاهرة)
محمود حسن إسماعيل
من مذكرات ابن أبي ربيعة
الحقيقة المؤمنة
للأستاذ محمود محمد شاكر
(قال عمر بن أبي ربيعة). . .
فبادرت أعدو يكاد ينشق عليّ جلدي من شدة العدو، فقد أكلت مني السن وتعرقتني أنياب الكبر؛ فما جاوزت روضة قصر أمير المؤمنين حتى تقطعت أنفاسي من الجهد، وتلقاني الآذن: ما عدا بك يا أبا الخطاب؟ فقلت: إِيَذَن لي على أمير المؤمنين (هو الوليد بن عبد الملك)، فقد نزل بنا ما لا رد له، وتبعته. . . ووالله إن فرائصي لترعد وكأني محموم قد جرت عليه هبّة ريح باردة. . . وغاب الآذن: فما هو إلا أمير المؤمنين يستقبلني كالفزع، وقد خرج إلي فقال: أي شيء هو يا ابن أبي ربيعة؟
قلت: والله ما ادري يا أمير المؤمنين، فما كان إلا ومحمد بن عروة (بن الزبير) تحت سنابكها، فما زالت تضربه بقوائمها، وما أدركناه إلا وقد تهشم وجهه وتحطمت أضلاعه!!. . .
وكأنما فارقتني الروح، فما أشعر إلا وأمير المؤمنين قائم على رأسي ينضح الماء على وجهي، وقد قُرِّبت إلى مخمرةٌ يسطع منها ريح المندل الرطب، فلما أفقت ورجعت إلي روحي سألني أمير المؤمنين أن أقص عليه الخبر. . .
قلت: خرجنا أنا ومحمد بن عروة وهشام أخوه نريد منزلنا من قصر أمير المؤمنين، نرجو أن نتخفف من بعض ثيابنا، فقد أنهكنا الحرّ. . . فنظر محمد إلى مرآة من فضة مُجلوّةٍ معلقة في البيت، ثم قال: أتذكر يا أبا الخطاب حجتنا تلك؟ قلت: أيهن؟ فقد أكثرت وعمك الحج، فقال: سرعان ما نسي الشيخ، لقد كبرت والله يا أبا الخطاب! وقد حدثني أبي بالذي كان منك، فقد كنت تسايره وتحادثه، فلم تلبث أن سألته: وأين زين المواكب يا أبا عبد الله؟ فقال لك: أمامك، فأردت تركض راحلتك تطلبني، فقال لك: يا أبا الخطاب، أو لسنا أكفاءً كراماً لمحادثتك، ونحن أولى أن تسايرنا، فقلت له: بلى، بأبي أنت وأمي يا أبا عبد الله! ولكني مغرى بهذا الجمال أتبعه حيث كان، ثم عدلت براحلتك وضربتها وأقبلت إلي، وجعل أبي يتعجب منك ويضحك، وقد استنار وجهه. . . إحدى سوآتك هي والله يا أبا الخطاب. .
فضحكت لقوله وتناقلنا الحديث وإذا هو ساكن ساح كأنما غشيته غاشية هم، فقلت: ما بك يا محمد؟ فزفر والله يا أمير المؤمنين زفرة كأنما انشقت لها كبدي، ثم قال: أرأيت هذا الجمال الذي تبعته يا أبا الخطاب، يوشك أن يكون طعاما يلحسه تراب القبر فما ترى إلا عظما أغبر من جمجمة تقذف الرعب من محجريها. . . لقد روعني والله يا أمير المؤمنين حتى تطيرت وما بي الطيرة؛ فأردت أن أصرفه عن بعض وهمه أن يكون الصيف قد أوقد عليه حره فحيره. فانطلقنا جميعا (يعني هو وهشام ومحمد) إلى سطح البيت نستظل بظُلته ونستروح النسمات وأقبلنا نضحك ونعبث ونلهو من بعض اللهو، وإذا طائر يحوم يصفق بجناحيه ثم رنّق فكسرهما من الإعياء ثم سقط ثم درج ثم اضطرب قد كاد يقتله الظمأ، فجرى إليه (محمد) ليأخذه فيبل ظمأه، فخف الطائر فهوى إليه محمد ليدركه، فما نرى والله محمدا. . . قد اختطفه أجله فجذبه فهوى به إلى إسطبل الدواب، فيقع بينها فيثيرها فتهيج، وإذا (زين المواكب) تحت سنابكها تضربه، فما أدركناه والله يا أمير المؤمنين إلا جثة قد ذهب رأسها، وما نرى إلا الدم. . . رحمة الله عليه، لقد. . .
قال أمير المؤمنين: إنا لله وإنا إليه راجعون، إنا لله وإنا إليه راجعون، فكيف نحتال لهذا الأمر يا ابن أبي ربيعة؟ قلت: فيم الحيلة يا أمير المؤمنين وقد ذهب القدر بما يحتال له! فقال: أههنا أنت يا عمر، نمت وسار الركب، هذا أبوه أبو عبد الله شيخ كبير يوشك أن يصاب في نفسه؛ قلت: يا أمير المؤمنين، هذا مصابه في ابنه، فما مصابه في نفسه إلا أن يكون الخبر إذ يبلغه؟ وسأحتال له. قال أمير المؤمنين: مهلا يا عمر، لقد علمت أن أبا عبد الله (عروة بن الزبير بن العوام) كان قد اشتكى رجله وما زال يشتكي، فبينا نحن الساعة جلوس إذ دخل علينا (أبو الحكم) الطبيب النصراني، فاستأذنت أبا عبد

الله أن يدع (أبا الحكم) حتى يرى علة رجله، فما راعنا إلا (أبو الحكم) يقول إنها الأكلة، وأنها قد ارتفعت تريد الركبة، وإنها إذا بلغت الركبة أفسدت عليه جسده كله فقتلته، فما بد من أن تقطع رجله الساعة خشية أن تدب الأكلة إلى حيث لا ينفع القطع ولا البتر

فوجمت والله لهذا البلاء، وقد اختلف به القدر على شيخ مثل أبي عبد الله في أدبار من العمر، وأخذ أمير المؤمنين بيدي وقام. فدخلنا مجلس الخلافة وإذا وجوه الناس قد جلسوا

إلى عروة أبي عبد الله يواسونه ويصبرونه ويذكرونه بقدر الله خيره وشره؛ وإذا فيهم سليمان بن عبد الملك أخو أمير المؤمنين، وعمر بن عبد العزيز، والقاسم بن محمد، وعبد الله بن عبد الله إبن عمر بن الخطاب، وقد حضره ولده هشام فأرم قد انتُسف لونه من الحزن على أخيه والرحمة لأبيه. وأقبل أمير المؤمنين وأنا معه على عروة؛ فتفرق الناس إلى مجالسهم، وإذا عروة كأن ليس به شيء، يرف وجهه كأنه فلقة قمر وهو يضحك ويقول: لقد كرهت يا أمير المؤمنين أن يقطعوا مني عضوا يحط عني بعض ذنوبي، فقد حدثنا أن أبا بكر قال: يا رسول الله كيف الصلاح بعد هذه الآية (ليسَ بِأَمانِيِّكُمُ ولا أَمانيِّ أهلِ الكتاب مَنْ يَعمَلْ سُوءا يُجزَ بهِ)، فكل سوء عملناه جزينا به؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: غفر الله لك يا أبا بكر؛ ألست تمرض؟ ألست تنصب؟ ألست تحزن؟ ألست تصيبك اللأوَاءُ؟ قال: بلى يا رسول الله. قال صلى الله عليه وسلم: فهو ما تجزون به، فإن ذاك بذاك. لوددت يا أمير المؤمنين أنها بقيت بدائها فهي كفارة تحت الذنب

قال أمير المؤمنين: غفر الله لك، غفر الله لك، وما أعجب لصبرك، فأمك أسماء بنت أبي بكر الصديق (ذات النطاقين) وأبوك حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته الزبير ابن العوام، فرضى الله عنك وأرضاك يا أبا عبد الله

فما كدنا حتى أقبل أبو الحكم، وهو شيخ نصراني طويل فارع مشبوحُ العظام، قد تخدّد لحمه، أحمر أزهر أصلع الرأس إلا شعرات بيضاً قد بقيت له، كث اللحية طويلها، لو ضربتها الريح لطارت به؛ ودخل أبو الحكم وراء لحيته وهي تسعى بين يديه، حتى وقف على عروة بن الزبير فقال: لابد مما ليس منه بد يا أبا عبد الله، وإني والله لأرحمك وأخشى أن يبلغ منك الجهد، فما أرى لك إلا أن نسقيك الخمر حتى لا تجد بها ألم القطع. قال عروة: أبعدك الله من شيخ، وبئس والله ما رأيت! إنا والله ما نحب أن يرانا الله بحيث نستعين بحرامه على ما نرجو من عافيته! قال أبو الحكم: فنسقيك المرقد، يا أبا عبد الله! قال عروة: ما أحب أن أسلب عضوا من أعضائي وأنا لا أجد ألم ذلك فأحتسبه عند الله

قال أبو الحكم: وقاك الله يا أبا عبد الله! لقد ألنت منا قلوبا كانت قاسية؛ ثم التفت (أبو الحكم) إلى رجال سود غلاظ شداد قد وقفوا ناحية فقال: أقبلوا، فأقبلوا. . . فأخذتهم عين عروة فأنكرهم فقال: ما هؤلاء؟ فقال أبو الحكم: يمسكونك، فإن الألم ربما عزب معه

الصبر؛ قال عروة: أما تقلع أيها الشيخ عن باطلك، انصرفوا يرحمكم الله، وإني لأرجو أن أكفيكم ذلك من نفسي، ولا والله ما يسعني أن هذا الحائط وقاني أذاها فاحتمل عني ألمها. أقبل يا أبا الحكم، وخذ فيما جئت له (ربَّنا إننا سَمعْنا مُنادِياً يُنادي للإيمان أنْ آمِنوا بربِّكم فآمنا، رَبنا فاغفِرْ لنا ذُنوبَنا وكفِّرْ عنا سيئاتنا وتوفَّنا مع الأبرار. ربَّنا وآتنا ما وَعدْتَنا على رُسلِكَ ولا تخزنا يومَ القيامةِ إنك لا تخلفُ الميعاد)

فرأيت أبا الحكم وقد برق وجهه وتوقد كأنما أسلم بعد كفر، ثم نشر درجا كان في يده وأخرج منشاراً دقيقاً طويلاً صقيلاً يضحك فيه الشعاع ووضع الطست ومد أبو عبد الله رجله على الطست وهو يقول: باسم الله والحمد لله وسبحان الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله (ربنا ولا تحمِّلنا ما لا طاقة لنا به واعفُ عنا واغفر لنا وارحمنا). تقدم يا أبا الحكم فقد احتسبتها لله

فما بقي والله أحد في المجلس إلا استدار ودفن وجهه في كفيه، وبكى القوم فعلا نشيجهم، وإن عروة لساكن قار ينظر إلى ما يراد به، وكأنما ملك قد جاء إلى الأرض يستقبل آلامها بروح من السماء. ووضع أبو الحكم منشاره في اللحم إلى العظم، وإن عروة لصائم يومه ذاك، فما تضور وجهه ولا تقبض، والمنشار يأكل في عظمه الحي،

وما يزيد على أن يهلل ويكبر ويسبح الله، وكأن الدار والله قد أضاء جوها كأنه شعاع ينسكب من تهليله وتكبيره؛ ودخل رجال يحملون مغارف من حديد يفور منها ريح الزيت وقد غلى فيها على النار، ودنوا فما هو إلا أن فرغ أبو الحكم وقد فار الدم منها وتفجر مثل الينبوع، فأخذها أبو الحكم يغمسها في الزيت فيسمع نشيشها فيه حتى حسم الدم. وإذا عروة قد غشي عليه، وإذا وجهه قد صفر من الدم، وقد مجد فنضح وجهه بالعرق، ولكنه بقي مشرقا نيرا يرف كأنه عرارة تحت الندى. قال أبو الحكم: ما رأيت كاليوم يا أمير المؤمنين إنه الرجل، وإنها الحقيقة المؤمنة، وإن إيمانه ليحوطه ويثبته ويسكنه وينفض عنه الجزع، ثم التفت إلى عروة يقول: جزاك الله خيرا يا أبا عبد الله، لأنت والله تمثال الصبر في إهاب رجل

وما لبثنا، حتى إذا أفاق أبو عبد الله جلس يقول: لا إله إلا الله والحمد لله، ويمسح عن وجهه النوم والعرق بكفيه، وينظر فيرى قدمه في يد رجل يهم أن يخرج بها فيناديه: على رسلك أيها الرجل، أرني ما تحمل؛ فيأخذ قدمه في يده فيرنو إليها وقد سكن وحرك شفتيه،

ثم يقلبها في يده ثم يقول لها: أما والذي حملني عليك، لقد علمت أني ما مشيت بك إلى حرام ولا معصية، اللهم هذه نعمة أنعمت بها عليّ ثم سلبتنيها أحتسبها عندك راضيا مطمئنا إنك أنت الغفور الرحيم، خذها أيها الرجل؛ ثم أضاء وجهه بالإيمان والصبر عن مثل الدرة في شعاع الشمس. . . . . .

قال أمير المؤمنين: غفر الله لك يا أبا عبد الله، وإن في الناس لمن هو أعظم بلاء منك، يا عمر (يريد عمر بن عبد العزيز)، ناد الرجل من أخوالي (يعني من بني عبس) فيقبل عمر ومعه رجل ضرير محطومُ الوجه لا ترى إلا دمامته، فيقول له أمير المؤمنين: حدث أبا عبد الله بخبرك يا أبا صعصعة، فيلتفت الرجل إلى عروة ويقبل عليه فيقول: ابن الزبير، قد والله لقيتَ البلاء، يا فقيه المدينة وابن حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم. وإني والله محدثك عني بخبري عسى أن يرفع عنك: فقد بت ليلة في بطن واد، ولا أعلم عَبسيّاً في الأرض يزيد ماله على مالي، فطرقنا سيل جارف كأنه الطوفان، يتقاذف بين يديه موجا كالجبال، فذهب بما كان لي من أهل ومال وولد إلا صبياً مولوداً وبعيراً نضواً ضعيفاً. فند البعير يوما والصبي معي، فوضعته واتبعت البعير أطلبه، فما جاوزت ابني قليلا إلا ورأس الذئب في بطنه قد بعجها بأنيابه العُصل فاستل أحشاؤه، وإن الصغير ليصرخ، ويركض برجليه الأرض، فكدت والله أسوخ في الأرض مما رأيت، ولكني ذكرت الله واستعنت واحتسبت الصغير فتركته لقدر الله واتبعت البعير، فهممت آخذ بذنبه وقد أدركته، فرمحني رمحة حطم بها وجهي وأذهب عيني، فأصبحت لا ذا مال ولا ذا ولد ولا ذا بصر، وإني أحمد الله إليك، يا أبا عبد الله؛ فاصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور. قال عروة: لقد أفضل الله عليك يا أبا صعصعة وإني لأرجو لك الجنة

قال عمر بن أبي ربيعة: وألاح إلي أمير المؤمنين أن أقبل، فدنوت إليه فأسر اليّ: إن أردت الحيلة فقد أمكنتك، فاذهب إلى أبي عبد الله فانع إليه ولده (زين المواكب)، قلت: هو والله الرأي يا أمير المؤمنين، ثم مضيت إلى عروة وقد غلبتني عيناي بالبكاء فلما قاربته قلت: عزاءك يا أبا عبد الله؛ قال عروة: فيم تعزيني يا أبا الخطاب؟ إن كنت تعزيني برجلي فقد احتسبتها لله، قلت: رضي الله عنك، بأبي أنت وأمي، بل أعزيك (يزيْن المواكب)، فدهش وتلفَّت ولم ير إلا هشاما ولده، فرأيت في وجهه المعرفة ثم هدأ فقال: ما له يا أبا الخطاب؟ فجلست إليه وتحلق الناس حوالينا وتكنفونا، وأخذت أحدثه بشأنه، ووالله ما يزيد على أن يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، إنّا لله وإنا إليه راجعون، فلما فرغت من خبري ما زاد على أن قال:

وكنتُ إذا الأيام أحدثنَ هالكا ... أقول شكوى ما لم يُصبنَ حميمي

ثم رفع وجهه إلى السماء وقد تندت عيناه ثم قال: اللهم إنه كان لي أطراف أربعة فأخذت واحدا وأبقيت لي ثلاثة، فلك الحمد فيما أخذت وأبقيت؛ اللهم أخذت عضوا وتركت أعضاء، وأخذت ابنا وتركت أبناء، وايْمُ الله لئن كنت أخذت لقد أبقيت، ولئن ابتليت لطالما عافيت، سبحانك ربنا وليك المصير، قوموا إلى جهاز أخيكم يرحمكم الله، وانظروا لا تكون عليه نائحة ولا معولة فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى

عن النياحة، ومُرُوهن بالصبر للصدمة فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى على امرأة تبكي صبيا لها فقال لها: اتقي الله واصبري، فقالت: وما تبالي بمصيبتي! فلما ذهب قيل لها: إنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخذها مثل الموت، فأتت بابه فلم تجد على بابه بوابين فقالت: يا رسول الله لم أعرفك، فقال صلى الله عليه وسلم: إنما الصبر عند أول الصدمة

وجزاك الله خيرا عني وعن ولدي يا أمير المؤمنين، (فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين؛ وله الكبرياء في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم)

محمود محمد شاكر

خواطر تلهمها ذكرى الهجرة

للأستاذ عبد العزيز البشري

ليس ما يضرب فيه القلم اليوم بحثا قامت في الذهن حدوده، وبانت طرقه، واتضحت معالمه، واستشرقت مقدماته لنتائجه. إن هي إلا خواطر تجول بها ذكرى الهجرة الشريفة. هي خواطر تتوالى على النفس كما توالى مناظر الخيالة (السينما) في جريدة الأخبار مثلا. على أنها قد تجيء بحكم تداعى المعاني، وبحكم أضعف المناسبات، وأدنى الملابسات

وبعد، فليس من شك في أن مما يستدعي العجب، بل مما يكاد يستهلك كل العجب، شأن أولئك العرب إلى آخر جاهليتهم، وما صاروا إليه بعد إسلامهم بيسير من الزمان: لقد كانوا في جملتهم، قوما أميين جهالاً، لم تفتتح عيونهم على علم، ولم يتذوقوا فنا، اللهم إلا فن الكلام، وهو غير مغن في قيام الأمم إذا أغنى إلا قليلا

لقد كانوا جاهليين حقا لا يرتبطهم بأي لون من ألوان الحضارة أي سبب، ولا تنفذ عقولهم إلى شيء مما وراء تلك البوادي التي يسكنون؛ حتى لو اضطربوا فيما يجاورهم من البلاد التي أخذت بحظ من الحضارة، بحكم التجارة ونحوها، رجعوا إلى قومهم وكأنهم لم يشهدوا شيئاً غريباً من شأنه أن يلفت أنظارهم، ويحرك أفكارهم، كأنما غلقت الأذهان وغلقت القلوب، و (إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) صدق الله العظيم!

على أنهم لم يسلخوا في الإسلام إلا صدراً يسيراً من الزمن حتى حذقوا علوم من سبقوهم إلى الحضارة وفنونهم، بل سرعان ما أنشئوا هم علوماً واستحدثوا فنوناً أوفوا بها على حضارة الزمان!

ولا ينبغي، في هذا المقام، أن يذهب عن المفكر أن ما نقل العرب من علوم غيرهم وفنونهم قد طبعوه أولاً بطابع الفكر العربي، وسوَّوه حتى مريء في مساغ الذوق العربي أيضاً، وهذا وهذا فوق ما وسعوا في آفاق هذه العلوم والفنون، واستحدثوا فيها من القضايا التي ذهبت بها إلى أبعد الغايات.

وأنت خبير بأنه إنما يبعث على العجب في أمثال هذه الغرائب هو غفلة الذهن عن وصل الأسباب بالمسببات. ولهذا قيل: إذا عرف السبب، بطل العجب. . .

ففي الحق أن العربي على ما كان فيه بحكم البيئة من الجفاء والانصراف عن إرسال الفكر في شيء من دواعي الحضارة التي يشهد أو يترامى إليه أمرها. . . الحق أنه - مع هذا - حديد الفطنة، سليم الطبع، مستقيم الفطرة، فلما جاءه الإسلام، وهو دين الفطرة، أذكى مواهبه، وحرر فكره، وأجلى ما كان يرين على قلبه؛ فإذا إنسان كفيء أي كفيء لأسمى النظر وعلاج جلى العظيمات في الحياة، وكذلك يمضي طلقا إلى ابتغاء المجد الحق من كل سبيل!. . .

ولقد كان من المتعين على مفكِّري العرب وقد دخلوا في الإسلام، أن يكون ابلغ سعيهم، وأول ما تتقلب فيه أذهانهم، هو هذا الدين طلباً لحفظ أصوله وتفصيل أحكامه. فجد منهم من جد في جمع أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم بطريق الرواية عن الثقات من التابعين أو تابعيهم، ثم عن الصحابة راوياً بعد راو إلى من سمع منهم بأذنه أو رأى بعينه (ففعل النبي (ص) وإشارته كذلك من السنة)

ولقد أفنى جامعوا الحديث أعمارهم في شدة التحري والتحقيق والتثبت والتأكيد، للتمييز بين صحاح الأحاديث وموضوعاتها. بل للتمييز بين الصحاح، وتبين حظ كل منها من القوة طوعا لحظ رواتها من الثقة والدراية. ثم كان من أثر هذا أن نشأ علم جديد،

هو علم (مصطلح الحديث) ولعله كان من الخير أن يدعى علم (نقد الحديث)
وفي الوقت نفسه اجتهد آخرون في استنباط الأحكام الشرعية من هذه الأصول
الأربعة: الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس، مهتدين جميعا بسلامة الفطرة، وحدة
الفطنة، وصحة التفكير، ودقة الإحساس، حتى لقد ارتجلوا - في هذا الباب - قواعد
وقضايا تخلب باختصارها ووضوحها ودقتها أبرع المشرعين. ولأسق طائفة يسيرة منها
على جهة التمثيل: الضرورة تقدر بقدرها - الأصل بقاء ما كان على ما كان - إن كنت
ناقلا فالصحة، وإن كنت مدعيا فالدليل - ما جاء على أصله لا يسأل عن علته - لا اجتهاد
مع النص - الاعتراف حجة قاصرة - اليد دليل الملك - المعروف عرفا كالمشروط
شرطا - ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. . . الخ
ولعمري لم يكن كل هذا الإبداع والابتكار أثراً لدرس مدرس أو تقليب للفكر في كتاب
مكتوب، إن هو كما قلنا من فضل سلامة الفطر وحدة الذكاء، وصحة التفكير
وإذا كان علماء العرب قد نقلوا بعد ذلك علم المنطق إلى لغتهم عن اليونانية فإنهم سرعان
ما أجالوا في قضاياه هذه الأذهان الحادة وأراقوا عليها تلك الأفكار الخصبة، فابتكروا ما
ابتكروا، واستحدثوا ما شاء الله أن يستحدثوا، طلباً لوفاء هذا العلم على الغاية من
الهداية إلى صحة التفكير، وابتغاء النتائج الحق من صحاح المقدمات.
ثم لم يكفهم هذا، فلقد نقلوا عن اليونانية أيضاً علم (آداب البحث والمناظرة)، وغاية
هذا العلم وسائل المجادلة بين المتجادلين، وإلزام كل من الطرفين حده في الخصام،
وبيان الطرق للأدلاء بحجته، أو إدحاض حجة خصمه. وكذلك تضحي المناظرة مجدية
منتجة، تظهر الحق على الباطل بقيام الحجة الواضحة غير مضيعة بين سفسطة
ومهاترة، أو نقل لموضوع النزاع. على أن العرب كذلك طبعوه بطابعهم، وأفاضوا عليه
من سابغ تفكيرهم، ووصلوه بفنونهم، وأجروا فيه الأمثلة والشواهد مما يعرض لما يعالجون من العلوم
أما وقد عرضنا للقضايا المسلمة وللمنطق ولآداب البحث والمناظرة فقد حق علينا أن نقف وقفة قصيرة لعلنا نرفه بها عن القارئ بعض الترفيه
لا غرو عليّ إذا زعمت أن تسعين في المائة، إن لم أقل تسعة وتسعين في المائة، من
المناقشات والمجادلات التي تدور بيننا، نحن المصريين، سواء أكانت باللسان في
المجالس الخاصة، أم بالقلم في الصحف السيارة، لا يمكن ان تنتهي بالتسليم من أحد
المتحاورين. ذلك بأننا، حتى الكثير من متعلمينا، قل أن يعنوا في جدلهم بترتيب
المقدمات المنطقية الترتيب الذي يفضي بها، في صحيح القياس إلى النتائج الصحيحة.
ولقد يدفعنا الحفاظ للنفس، والرغبة في الفلج والخصم أن ننكر القضايا المسلمة. أما
نقل موضوع النزاع، إذا سطت بنا حجة الخصم، فهذا ما يقع عندنا بغير حساب!
ودعنا الآن من المجادلات العلمية أو الفنية، وخذ بنا في ألوان الحوار التي تجري كل
ساعة بين الأصدقاء وغير الأصدقاء:
يقول لك فلان: إن فلانا صنع كيت وكيت مما يتعاظمك ويروعك لضخامته أو لتعذر
أسبابه، فإذا باديته ولو بالشك فيما يزعم ابتدرك بقوله: (دليه لأ؟) كأن الأصل أن
تضاف إلى الناس الأفعال أو الأقوال، وعلى المنكر أن يقيم هو الدليل على العكس،
أي العدم أو استحالة الوقوع، ناسين أبسط القضايا وأوضحها: (البينة على من ادعى)!
ويقول لك آخر: إن فلانا يرتكب كذا وكذا من المؤثمات؛ فإذا أنكرت منه هذا القول
قال:
في غير ورع ظاناً أنه يقيم الحجة عليك: كيف وأنا أقارف معه تلك المؤثمات؟! وقد
فاته أن الاعتراف حجة قاصرة على النفس، فإذا أشرك الغير كان دعوى تحتاج إلى الدليل!
ولقد تروي، في بساطة، ما انتهى إليك من خبر نشرته إحدى الصحف، أو جعلت تردده
المجالس من أن فلانا اتهم في كذا؛ فيبادرك رجل من شيعته طبعا! حضرتك مبسوط
من كده!. . . وتروي أن الخبر قد التبس على الغبي بالأمنية، اللهم إلا أن يكون فاسد
الضمير فاجر النية!. . .
ومما يضحك ويبكي نقل موضوعات النزاع، إما فراراً من لزوم الحجة، أو طلباً للكيد
والأذى، أو جهلاً وشدة غباء.

وأذكر نموذجاً واحداً مما وقع لي في هذا الباب على جهة التمثيل أيضاً. ولم يكن ثمة موضع نزاع، بل كان هناك سؤال استحال في غير موجب إلى نزاع:

من بضعة أيام طلبت عيادة طبيب الأسنان ليخلع ضرسا ألح عليّ ألمه، وورم له صدغي. . . وبينما أنا في غرفة الانتظار ريثما ينتهي الطبيب من علاج من تقدمني، إذا رجل حسن السمت، أنيق البزة، ويبدأ بالتحية، فأردها بأحسن منها. . . وما يكاد يأخذ مجلسه حتى يطارح الحديث كعادتنا نحن المصريين إلى من نعرف ومن لا نعرف. فمادته الحديث على ما بي. في الأسباب العامة طبعا، ومن حديثه أدركت أنه رجل مزخرف الثقافة مزوَّق اللسان؛ ثم إذا يفاجئني بهذا السؤال: حضرتك من أهل الريف؟ فأجبته من فوري، لا يا سيدي، فأنا مولود في القاهرة، وما زالت موطني إلى الآن. فردّ عليّ في ثورة عنيفة: (ليه! هيه العيشة في الريف وحشة؟!)

لقد ثار ثائري، ونهضت لتوي، وخرجت مسرعا إلى داري مؤثرا وجع الضرس وضرباته على هذا اللون من الحوار!

إذن، لقد كان عليّ قبل أن أخلق، وأن أولد قبل أن أولد؛ حتى إذا بلغت سن التمييز في النشأة الأولى، كان على القدر، أن يخيرني الولادة في الريف والحضر، فأختار أول الامرين، ثم أتبخر في الأثير، ثم أبعث في الريف من جديد! وإلا كنت امرءاً آثماً يستحق اللوم والتأنيب!

وبعد هذه الوقفة المريحة أو المتعبة المعنية نرجع سياقة الحديث على اسم الله:

لقد اقترنت عناية السابقين في الإسلام بعلوم الدين، بعناية غيرهم بعلوم اللسان، من نحو وصرف وأدب وبيان. وذلك لأنها الوسيلة إلى فهم لباب الدين.

وفي أعقاب هذا أو على الأدق، في أثنائه، التفت مفكرو العرب إلى المنطق، على أنه مما ينظم الفكر وييسر الطرق لاستنباط الأحكام الشرعية على الوجه الصحيح. ثم اتجهوا كذلك إلى نقل قوانين البحث والمناظرة على ما تقدم به الكلام

لم يمنع اشتغال مفكري العرب بهذا وهذا وذلك من أن يلتفتوا إلى علوم الدنيا من رياضة وهندسة وطب وفلك وغيرها. فسرعان ما جادوا وما برعوا، وسرعان ما أجلوا ووسعوا، وما ابتكروا وما اخترعوا. . . ولم ينسلخ من الزمن غير يسير بالإضافة إلى أعمار الأمم، حتى صارت هذه العلوم إليهم وكادت تقطع صلتها بغيرهم، فأصبحوا هم المتحدثين فيها والمتحدثين عليها بين أمم الأرض جمعاء. وكذلك أنشئوا أجمل حضارة وأزكاها في هذا العالم!

فإذا تعاظمتك تلك النهضة في مثل ذلك الزمن، فإن مما يدفع عنك العجب أنه قد لاقت تلك الفطرة العربية دين الفطرة. . . دين صاحب الهجرة.

عبد العزيز البشري

مناجاة الهلال

للأستاذ محمود غنيم

ماذا وراءكَ، مرحباً بك عاما؟ ... رحماكَ إن الكون في الدَّم عاما
لم أدر حين بدا هلالُك أحدباً ... أحملتَ غصناً أم شهرتَ حساما؟
وجه البسيطة عابسٌ متجِّهمُ ... فاجعل هلالك ثغره البسَّاما
جفِّف دم الدنيا وكفكفْ دمعها ... وانشر عليها رحمةً وسلاما
ما بال ظهرك يا هلال مقوَّسا ... أحملت أعباء السَنين جِساما؟
أصبحت في زِيِّ الكهول فهل تُرى ... قد شبتَ مثلهمو وكنت غلاما؟
ما بال وجهك شاحباً يا ابن الدجى ... أفنيتَ مثلي في الملاح غراما؟
أم بِتَّ تخشى الحربَ أن ترقى إلى ... أفق السماء فتلحقَ الأجراما؟
في الجو طير كالحمام محلِّقٌ ... لكنه إن طار كان حِماما
فأحذر فإن الحرب منك قريبة ... والجوَّ يمطر يا هلال سهاما
وانصح خيالك في البحار وقل له: ... أوصيك ألا تقرَبَ الألغاما
العالم العُلويُّ سر غامضٌ ... فاكشف لأهل الأرض عنه لثاما
هل ثمَّ أغراض وثمَّ مطامعٌ ... تُجري الدماء به وتَبْري إلهاما؟
أهناك خَلْقُ مثلُنا يقضي كما ... نقضي الحياة تطاحناً وخصاما؟
زعموك مسكوناً، وليتك بلقعٌ ... إن كنت تأوي يا هلال أناما
زعموك مسكوناً كأمك ليتها ... كانت عشية أنجبتك عُقاما

قاد الممالكَ معشرٌ متسلِّطٌ ... هَدَمَ السكينةَ حائطاً ودعاما
فتشتُ في عصر الضياء فلم أجد=إلا شعوباً تشبه الأنعاما
أمم تسبّح باسم أفرادٍ، كما ... كانت قديماً تعبد الأصناما
كم أمةٍ إن يهتدِ الفرد اهتدت ... وتهيم في الظلماتِ إن هو هاما
هذا زمان الفرد ليس ببارح ... هيهات ما دام السَّوادُ سَواما
قل للهلال إلام تسري في الدجى؟ ... يا إبن السبيل أما نويت مُقاما
ساقتك كفٌّ ساقت الدنيا فهل ... تدري علام تسوقها وإلاما؟
حَّتام تُدلج في الظلام كعاشق ... يخشى الرقيب ويتقي اللواما؟
أتبيت في جنح الليل موكلاً ... بالكون تحرسه إذا هو ناما؟
هم شبهوك بِمنْجَل من فضة ... ماذا حصدت، أتحصد الأياما؟
يرد الأنامُ عليك أنت معمَّر ... وهمو يزورون الحياة لماما
يا رُبَ قوم ألهُوك فأومئوا ... لك بالتحية سجداً وقياما
أتت القرون عليك وهي عديدة ... وأراك طفلاً ما بلغت فطاما
يا ابن الدجى حدِّثْ أعرك مسامعي ... فلأنت أصدقُ من (حذام) كلاما
أشهدتَ مجد الشرق في ريعانه ... وسناه إذ كان الوجود ظلاما؟
أشهدت رسْل الله تذرع أرضَه ... تتلو الشرائع فيه والأحكاما؟
أشهدت عيسى والكليم كليهما ... يتلقيان الوحي والإلهاما؟
أشهدت أحمد يوم هاجر أحمدٌ ... يطوي الضلال وينشر الإسلاما؟
إذ جاء يحمل في اليمين هداية ... للعالمين وفي الشمال حساما
فغزا بشرعته الضمائر قبلما ... يغزو بحدِّ حسامه الأجساما
كانت مبادئه القويمة فيلقاً ... يغزو به الأفكار والأفهاما
فإذا بتيجان الملوك وإن علت ... أقدارهم من حوله تترامى
صف لي زمان الراشدين وزهدَهُم ... والأرضَ إذ كانوا لها حكّاما
بالله كيف رعى الشعوبَ وساسها ... من كان يرعى الشَّاءَ والأغناما؟
صف لي بربك قادة الإسلام إذ ... فتحوا العراق ببأسهم والشاما
قل لي بأية قوةٍ جبارة ... نزلوا بمصر وزلزلوا الأهراما؟
ما كان جند المسلمين أشد من ... أعداءهم بأساً ولا إقداما
لكنه الإيمان في ساح الوغى ... ربط القلوب وثبت الأقداما
شاهدت دولة (عبد شمس) فأنْعَها ... وأنعت (معاوية) لنا و (هشاما)
واذكر لنا بغداد كيف رايتها ... تحوي العلوم وتجمع الأعلاما
وأذكر لنا صَلَفَ الرشيد وكبرَه ... لما تحدى في السماء غماما
وأعد على أذنيَّ خطبة (طارق) ... (البحر خلفاً والعدوَّ أماما)
أشهدت شعباً من سلالة (يعرَب) ... في الغرب شاد حضارة ونظاما؟
ما خطب هذا الشعب كيف وجدته ... يقظان إذ كان (الفرنج) نياما؟
حدِّثْ عن الإسلام ذكِّر أهله ... وقِّع لنا تاريخه أنغاما
مجد إذا أجتر الزمان حديثه ... خفض الزمان جبينه إعظاما
ما كان أخلق أن يدوم لأهله ... لو أن مجداً قبل ذلك داما
يا ابن السبيل ألا حملت رسالتي ... قد سار ركبك يسبق الأوهاما
حيِّ العروبة ثم طفْ ببلادها ... مترفقاً واستنهض الأقواما
استرسل الأقوام في أحلامهم ... فاقطع عليهم هذه الأحلاما
واعطف على البسفور والمس جرحه ... إنا نُحسُّ لجرحه آلاما
سترى البعول هناك قد ناحوا على ... زوجاتهم وترى النساء أيامى
وترى كهولا ودعوا أبناءهم ... في مهدهم وترى بنينَ يتامى
وترى أناساً فيه لا مأوى لهم ... أمست أسرتهم حصى ورَغاما
فأذهب إليه باسم مصرَ مواسياً ... عزِّ الأقارب فيه والأرحاما
احمل لهم منا السلامَ مع الأسى ... لا تنسَ أنَّ لهم عليك ذِماما
لا تنس أنك رمزُ مصرَ ورمزُهم ... بك يا هلال نزيِّن الأعلاما
(الإسكندرية)

محمود غنيم
مدرس بالمعلمين
نشيد العام الهجري
للأستاذ علي الطنطاوي
سلوا عنا رمال الجزيرة، وجنان الشام، سهول العراق
سلوا ربوع العجم، ومجاهل الترك، وسفوح القفقاس
سلوا بطاح إفريقية، ومغاني الأندلس، ومساكن الإفرنج
سلوا حفافي الكنج، وضفاف اللوار، وأطراف الدانوب
سلوا عنا كل أرض في (الأرض). . . فعندها كلها خبر من بطولاتنا وتضحياتنا، ومفاخرنا وأمجادنا، وعلومنا وفنوننا. نحن (المسلمين)
نحن (المسلمين). . . هل روى رياض المجد إلا دماؤنا؟
هل زانت جنات البطولة إلا أجساد شهدائنا؟
هل عرفت الدنيا أنبل منا أو أكرم، أو أرأف أو أرحم، أو أجل أو أعظم، أو أرقى أو أعلم؟
نحن (المسلمين). . . لنا في كل أرض شهيد قضى في سبيل الإسلام والسلام والإيمان والأمان، وتحت كل سماء رفرف لنا علم، وامتد لنا حكم، فكان الحكم المسعد العادل، وكان العلم الظافر الغلاب!
نحن بنينا الكوفة والبصرة، والقاهرة وبغداد
نحن أنشأنا حضارة الشام والعراق والأندلس
نحن شدنا بيت الحكمة، والمدرسة النظامية، وجامعة قرطبة، والجامع الأزهر
نحن علمنا أهل الأرض، وكنا الأساتذة وكانوا التلاميذ. . . نحن (المسلمين)!
منا أبو بكر وعمر ونور الدين وصلاح الدين، منا خالد وطارق وقتيبة وابن القاسم، منا أبو حنيفة والشافعي، منا البخاري وابن حنبل، منا الغزالي وابن رشد، منا إبن سينا والرازي والفارابي والبيروني، منا الخليل والجاحظ وأبو حيان، منا أبو تمام والبحتري والمتنبي والمعري، منا إسحاق الموصلي وزرياب. . . لقد أنجبنا خلفاء وقواداً، ومحدثين وفقهاء، ورياضيين وأطباء، ولغويين وكتاباً وشعراء وموسيقيين. . . لقد أنجبنا مائة ألف عظيم وعظيم. . . نحن (المسلمين)!
تنظم في مفاخرنا مائة إلياذة، وألف شاهنامة، ثم لا تنقضي أمجادنا ولا تفنى، لأنها لا تعد
ولا تحصى
من بعد معاركنا المظفرة التي خضناها؟ من يحصي مآثرنا في العلم والفن؟ من يستقري نابغينا وأبطالنا. . . إلا الذي يعد نجوم السماء، ويحصي حصى البطحاء، ويستقري رمال الدأماء!
اكتبوا (على هامش السيرة) ألف كتاب، و (على هامش التاريخ) مثلها، , وأنشئوا مائة في سيرة كل عظيم، ثم تبقى السيرة ويبقى التاريخ كالأرض العذراء والنجم البكر!
. . .نحن (المسلمين)
هل تحققت المثل البشرية العليا إلا فينا؟ هل عرف الكون مجمعاً بشرياً - إلا مجمعنا - قام على الأخلاق والصدق والإيثار؟ إن بين واقع الحياة وبين أحلام الفلاسفة وآمال المصلحين، لحرباً أزلية باقية، ما اصطلحا وما تواءما إلا في صدر الإسلام، يوم كان الواحد منا يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويؤثره عليها ولو كان به خصاصة. وكانوا أطهاراً في أجسادهم وأرواحهم ومادتهم ومعناهم، وكانوا لا يأتون أمراً ولا يدعونه، ولا يقومون ولا يقعدون، ولا يذهبون ولا يجيئون إلا لله. قد أماتوا الشهوات من نفوسهم، فكان هواهم تبعا لما جاء به القرآن. . .
لقد كنا خلاصة البشر، وصفوة الإنسانية، وجعلنا حقاً واقعاً ما كان يراه الفلاسفة والمصلحون أملاً بعيدا، نحن (المسلمين)!
نحن (المسلمين). . قوتنا بإيماننا، وعزنا بديننا، وثقتنا بربنا، وقانوننا قرآننا، وإمامنا نبينا، وأميرنا خادمنا، وضعيفنا المحق قوي فينا، وقوينا عون لضعيفنا، وكلنا إخوان في الله، سواء أمام الدين. . . نحن (المسلمين)!
نحن (المسلمين)، ملكنا فعدلنا، وبنينا فأعلينا، وفتحنا البلاد فكنا الأقوياء المنصفين. سنّا

في الحرب شرائع الرأفة، وشرعنا في السلم سنن العدل، فكنا خير الحاكمين، وسادة الفاتحين. نحن (المسلمين)!

أقمنا حضارة، فكانت خيرا كلها وبركات، حضارة روح وجسد، وفضيلة وسعادة، فعمّ نفعها الناس، وتفيأ ظلالها أهل الأرض جميعا

نحن (المسلمين). . . لسنا أمة كالأمم تربط بينها اللغة، ففي كل أمة خيّر وشرّير؛ ولسنا

شعباً كالشعوب يؤلف بينها الدم، ففي كل شعب صالح وطالح؛ ولكنا جمعية خيرية كبرى، أعضاؤها كل فاضل، من كل أمة، تقيٍّ نقي، تجمع بيننا التقوى إن فصل الدم، وتوحد بيننا العقيدة إن اختلفت اللغات، وتديننا الكعبة إن تناءت بنا الديار. . .

أليس توجهنا كل يوم خمس مرات إلى هذه الكعبة رمزاً إلى أنها مركز الدائرة وقطب الرحى، تدور عليه وتطيف به، مهما اتسمت الرقعة وطال المحيط؟

نحن (المسلمين). . . ديننا الفضيلة الظاهرة، والحق الأبلج، لا حجب ولا أستار، ولا خفايا ولا أسرار. هو واضح وضوح المئذنة. . . أفليس فيها ذلك المعنى؟ هل في الدنيا جماعة أو نحلة تكرر مبادئها وتذاع كل يوم، عشر مرات، كما تذاع من مشارق الأرض ومغاربها عشر مرات كل يوم، مبادئ ديننا نحن (المسلمين): أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله؟

نحن (المسلمين). . . لا نهن ولا نحزن، ومعنا الله، ونحن نسمع كل يوم ثلاثين مرة هذا النداء العلوي المقدس، هذا النشيد القوي: الله أكبر

نحن (المسلمين). . . البطولة سجية فينا، وحب التضحية يجري في عروقنا، لا تنال منها صروف الدهر، ولا تمحوها من نفوسنا أحداث الزمان. . .

نحن (المسلمين). . . كم حلّ بنا من أرزاء، وكم رأينا من مصائب، وكم نزل بساحتنا من كوارث، فهل باد روح البطولة من بين جوانحنا؟

لا. لا. لا نكون مسلمين إذا لم نكن أعزّ في نفوسنا من أهل الأرض جميعاً، وإن لم نعد إلى ربنا، ونستلهم تاريخنا، ونعد أمجادنا، نحن (المسلمين). . . المستقبل لنا. . . قد تيقظنا فلن ننام بعد أبداً. . . المستقبل لنا نحن (المسلمين)!

دمشق - (المدرسة الثانوية الأولى)

علي الطنطاوي

من أسرار غزوة بدر

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

المشهور بيننا أن المسلمين لما انتهوا من غزوة بدر اختلفوا في شأن من أسروه من المشركين، فرأى فريق قتلهم، ورأى فريق أخذ الفداء منهم، فجمع النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه ليشاورهم فيما يفعله مع أولئك الأسرى، وكان يأخذ بالشورى في أموره، ليعلم أصحابه الأخذ بها، وإن كان هو غنياً عنها، لآن من يكون معه وحي السماء، لا يحتاج إلى رأي أهل الأرض، وهو عرضة للخطأ والصواب.

فجمع النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه وقال لهم: ما تقولون في هؤلاء؟ (يعني الأسرى)، فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، قومك واهلك، استبقهم واستأن بهم، لعل الله أن يتوب عليهم، وخذ منهم فدية تكون لنا قوة على الكفار.

وقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله، كذبوك وأخرجوك فدعهم نضرب أعناقهم. مكّن عليا من عقيل (أخيه) فيضرب عنقه. ومكن حمزة من العباس (أخيه) فيضرب عنقه. ومكنّي من فلان (نسيب لعمر) فأضرب عنقه؛ فإن هؤلاء أئمة الكفر!

وقال عبد الله بن رَواحةَ الشاعر المعروف: يا رسول الله، أنظر واديا كثير الحطب، فأدخلهم فيه، ثم أضرمه عليهم نارا. . . وهو رأي يتفق مع طبيعة الشعراء في تأثرهم بالعاطفة أكثر من العقل، وشأن العاطفة المغالاة في الحب والبغض، وشأن العقل الاعتدال فيهما.

فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يجبهم، ثم تركهم ودخل، فقال ناس من أهل المجلس: يأخذ بقول أبي بكر. وقال ناس منهم: يأخذ بقول عمر. وقال آخرون: يأخذ بقول عبد الله ابن رواحة. ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن الله لَيُلينُ قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن، ويشد قلوب رجال حتى تكون أشدّ من الحجارة. وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم. قال: (فَمنْ تَبعنِي فانه مِني، ومَن

عصاني فانك غفورٌ رحيم). ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى، قال: (إنْ تُعذِّبهمْ فانهم عِبَادُكَ، وإن تَغفرْ لهم فإنك أنت العزيز الحكيم). ومثلك يا عمر مثل نوح، قال: (ربِّ لا تذَرْ عَلَى الأرض من الكافرين دَيّاراً). ومثلك يا عبد الله بن رواحة كمثل موسى، قال: (رَبَّنا اطمسْ على أموالهمْ واشدُدْ على قلوبهم، فلا يُؤمِنوا حتى يَرَوا العذابَ الأليمَ).

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اليوم أنتم عالةٌ، فلا يفلتن أحد منهم إلا بفداء أو ضرب عنق. . .

وروى إبن عباس عن عمر أنه قال: فهوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت، وأخذ منهم الفداء. فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر قاعدان يبكيان، فقلت: يا رسول الله أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أبكي على أصحابك من أخذِهم الفداء. لقد عرض عليّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة - لشجرة قريبة منهم - فأنزل الله عز وجل عليه (ما كانَ لِنَبيّ أنْ يَكونَ لَهُ أسْرى حَتى يُثخنَ في الأرْضِ، تُريدوُنَ عَرَضَ الدُّنيا واللَّهُ يُريدُ الآخِرَةَ، واللهُ عزيزٌ حَكُيم. لَولا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمسّكُم فِيما أخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظُيم) فهذا هو المشهور بيننا في سبب نزول هاتين الآيتين (67، 68) من سورة الأنفال التي نزلت في غزوة بدر؛ وهو يفيد أن الله تعالى غضب على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه لهذا العمل الإنساني العظيم الذي أشار به أبو بكر، من البرّ بالأسرى والرفق بهم. وهذا مع أن الذي أشار به أبو بكر هو الذي يتفق مع ما جاء به الإسلام في شأن الأسرى، ومع ما امتازت به الحروب الإسلامية على الحروب السابقة من الإحسان إليهم. على أن الله قد نصر المسلمين في غزوة بدر نصراً عظيما، وشفى نفوسهم من صناديد قريش، فقتلوا فيها كلهم، ولم يفلت إلا قليل منهم، وكان منهم في الأسر النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط، فقتلهما رسول الله في طريقه إلى المدينة، ولم ينتظر بهما ما فعله في غيرهم من الأسرى. ولما اختار رسول الله رأي أبي بكر في الفداء قال له عبد الله بن مسعود: إلا سهيل بن بيضاء، فإني سمعته يذكر الإسلام، قال إبن مسعود: فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما رأيتني في يوم أخوف أن تقع عليَّ الحجارة من السماء من ذلك اليوم حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إلا سهيل بن بيضاء

ولم يبق بعد هؤلاء في الأسرى إلا العباس بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم، وإلا عقيل بن أبي طالب أخو علي، وإلا أمثالهما ممن لم يكن من أولئك الصناديد. وقد حقق الله في كثير منهم رجاء أبي بكر (لعل الله أن يتوب عليهم) فأسلم العباس بن عبد المطلب، وأسلم عقيل بن أبي طالب، وأسلم كثير غيرهما من أولئك الأسرى، والرأي الذي تحققه الأيام لا يليق بحكمة الله تعالى أن يغضب من إيثاره على غيره ذلك الغضب

وإن أرى أن الإسلام إذا كان قد أباح قتل الأسير مع ما أباحه فيه من الاسترقاق والإطلاق بفداء أو بدون فداء، فإنه يجب ألا يصار إليه إلا عند الضرورة القصوى والأسباب الموجبة. وإنه ليعجبني ما روى عن الحسن وعطاء رحمهما الله تعالى أنهما قالا: لا يُقتل الأسير، ولكن يُفادى أو يُمنُّ عليه، وكأنهما اعتمدا في ذلك ظاهر قوله تعالى: (فإذا لقيتُمُ الّذينَ كفرُوا فَضرْبَ الرِّقَابِ حتى إذا أثخنْتموهم فَشُدُّوا الوثَاقَ فإمَّا مَنَّاً بَعْدُ وإمَّا فِدَاءَ حَتْى تَضَعَ الحَرْبُ أوْزَارَها) - المبسوط للسرخسي ج10 ص24 - وهذا الذي يذهب إليه الحسن وعطاء في الأسير هو الذي تذهب إليه القوانين الحربية الحديثة

ولهذا كله لا أرى أن السبب في نزول آيتي الأنفال هو إنكار الفداء الذي أشار به أبو بكر واختاره النبي صلى الله عليه وسلم على رأي عمر وعبد الله بن رواحة، ولاسيما أن هذا الفداء في غزوة بدر لم يكن أول فداء أخذه النبي (ص) من الأسرى، فقد أخذ الفداء فيما حصل قبلها من السَّرَايا، ولم ينكر الله عليه أخذه له، وكان ذلك في سرية عبد الله بن جحش إلى نخلة بين مكة والطائف، فرصد فيها عيراً لقريش تحمل زبيباً وأدماً وتجارة من تجارتهم، فيها عمرو بن الحَضرمي، وعثمان ونوفل ابنا عبد الله

المخزوميان، والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة، فقتلت سرية عبد الله بن جحش بعضهم، وأسرت عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان، واستاقت العير إلى المدينة، فبعثت قريش في فداء الأسيرين، فقبل النبي صلى الله عليه وسلم فداءهما. فأما الحكم بن كيسان فاسلم وأقام بالمدينة حتى أستشهد يوم بئر معونة، وأما عثمان بن عبد الله فلحق بمكة ومات بها كافراً

والذي أراه أن تينك الآيتين نزلتا في أمر آخر حصل في غزوة بدر، وذلك أن تلك الغزوة كانت أهم قتال بدأ به المسلمون بعد هجرتهم إلى المدينة، وكانوا لا يزالون في نشأتهم قلة بالنسبة إلى قريش، وهذا إلى غيرهم من المشركين الذين تعج بهم الجزيرة، فاهتم النبي صلى الله عليه وسلم بأمرها، وأمر الله فيها المسلمين ألا تأخذهم في قتال المشركين رأفة ولا شفقة، وأن يثْخنوا فيهم إذا مكن لهم منهم، حتى يهي أمرهم، ويضعف شأن الشرك

بضعفهم، ويكون ما يحصل لهم عبرة لغيرهم من المشركين. وفي هذا يقول الله تعالى في سورة الأنفال (سَأُلقِي في قلوبِ الّذينَ كَفَروا الرُّعبَ فاضربوا فَوقَ الأعناقِ وَاضْرِبُوا مِنهُمْ كلّ بَنَانٍ) - 12

ولكن المسلمين في هذه الغزوة لم يكادوا يرون النصر فيها بعد أن قتل الله من قتل من صناديد قريش حتى أدركتهم تحيزتهم الأولى في الجاهلية، واستبدلوا الأسر في المشركين طمعاً في الفداء بالإثخان فيهم، والضرب فوق أعناقهم

فلما وضع القوم أيديهم يأسرون، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في العريش، وسعد بن معاذ قائم على باب العريش متوشحاً في نفر من الأنصار، يحرسون رسول الله صلى الله عليه وسلم يخافون عليه كرة العدو - رأى رسول الله في وجه سعد بن معاذ الكراهية لما يصنع الناس، فقال له: والله لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم، قال: أجل والله يا رسول الله، كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك، فكان الإثخان في القتل أحب إليّ من استبقاء الرجال

فهذا هو الإثخان الذي نزل فيه قوله تعالى في الآيتين السابقتين (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض) وهو إثخان تبيحه الشرائع العادلة، ويقتضيه الحزم والتدبير، وقد أمر الله به في أثناء القتال، ولم يأمر به في الأسرى بعد الانتهاء منه، كما هو المشهور في سبب نزول تينك الآيتين

وأما عرض الدنيا الذي قصده الله تعالى بقوله: (تريدون عرض الدنيا) فليس هو الفداء الذي أباحه الله لنا بعد القتال، وإنما هو ما حصل منهم أثناء القتال من إيثار الأسر على القتل طمعاً في الفداء، والقتال في الإسلام لا يصح أن يكون لغرض القتل من أغراض الدنيا، لأن ذلك هو قتالهم في الجاهلية للسلب والنهب والإسلام أشرف من أن يباح فيه القتال لذلك الغرض

وهذا المعنى الذي نقوله في تفسير الآيتين هو الظاهر منهما، لأن العتاب فيهما لم يرد إلا على نفس الأسر، أما تفسيرهما المشهور فالعتاب فيه على الفداء، وهو إنما يصح تفسيرا لمثل: كان لنبي أن يبقيُ على أسرى. وقد قال أبن السبكي في تفسيرهما: إن المعنى ما كان لنبي غيرك أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض. فجعل هذا من خصائصه صلى الله

عليه وسلم، وهو تفسير يخالف التفسير المشهور أيضاً، ولكنه بعيد عن نظم الآية، والذي يتفق مع نظمها هو تفسيرنا.

عبد المتعال الصعيدي

من وحي الصحراء

محمد ينبوع العبقريات

للأستاذ صلاح الدين المنجد

تعالى أغرودتي أسمعك نشيد فتى الصحراء، الذي عشقته الرمال، وقبّلته الشمس، وحضنه الغار، وحنَتْ عليه الجبال. . .!

تعالى. . . فإنّ هذا الفتى الجميل، ذا العينين السوداوين، والبشرة الزهراء، قد فَتنَ الدنيا فهي تناغي اسمه. . . وخلب القلوب فهي ترفُ لذكرهِ، وأعشى بنوره العيون فهي تَغضّ لمرآه. . .!

لقد كان هذا البطل يا فتاتي بشراً وسحراً ورحمة. . . وكان ينبوع نور ومصدر هدى. . .

!. . .إن عالمه مملوء بالترانيم والتسابيح فأنصتي. . . أنصتي إليه
ليتك رأيته يا أغرودتي وهو يرعى الغنمَ فوق البطاح. . . يرف حوله الطُهر والصفاء.
وليتك سمعت نجوى الرمال، إذ رأته، إلى الرمال. . . وليتك رأيته تحف به تلك العصبةُ
من قريش فتنصره وترعاه. . . وليتك بصرتِ بالنور يتألقُ في حواشي الصحراء،
ويتوهجُ في قمم الجبال. . . إذن، لرأيتهِ سيداً بطلاً!. . . ولسمعت حديثاً عجباً!. . .
. . .!ولبصرتِ بما يذهل ويعجب
لقد روَّق الليلُ. . . ولَفّ الوجودَ. . . كان ليلَ الجاهلية والأوثان. . . وإذا باللّهبِ الزاهي
يتمايل في مكة العروس. . . وإذا بفتى الصحراء يخطو في الزمن. . . يدعو الناسَ إلى
!. . .الهدى. . . إلى الله
لقد رفت حوله طيوف الأجيال. . . فغازلته. . . وإذا به يجمع في نفسه العظيمة تلك
العبقريات التي ظهرت منذ بعيد. . . لا، لا. . . بل جمع عبقريات السنين الخوالي
. . .والسنين القادمات
لقد مادت الصحراء وهي سكرى إذ رأته، وضجت الرمال وهي نشوى إذ غازلته. . .
فراحت تقفزُ متوثبةً نحو البيت العتيق تهزج وتقول:
هذا فتانا. . . هذا فتانا
. . .يهدي الدنيا ويحيي الوجود
. . .هو لنا يا رجالُ فلن تؤذوه
هو ابنُ الصحراء. . . فسيقهر العالم
. . .اسعي يا رمالُ إليه. . . وقبلي قدمَيه
. . .ثم أنفذي إلى عيون مناوئيه
!ألا تسمعينه يا أختاه. . . ألا تسمعينه
. . .!إن نشيدَه رخيمٌ ساحر
. . .!إن قرآنه معجز باهر
. . .!إن لحنه عبقريٌ بارع
. . .انظري. . . انظري يا أختاه
. . .إن الجان ينصتون إليه
هاهم أولاء الشياطين يفزعون منه
لقد تمايلت بنات الجبل العابثات لهذا القرآن
هاهنّ أولاء يرددنه بزهو فرحات
يقفزن ليودعْنَه الكهوف، ويسمعنه الأودية ويلقنْه بنات السهول
. . .اسمعي يا أختاه صداه. . . فلقد عمّ وانتشر
!. . .فالله يحفظه يا أختي ويرعاه
. . .أيتها النسيمات. . . تعالي فاحملينا إليه. . . علنا نقبل أقدامه. . . ونسجو بين يديه
!ومضى محمدٌ يا فتاتي. . . وجاء الهدى. . . وتمت المعجزة
!يا لله! أفي يوم وليلة. . . تهدم الأوثان. . . وتحطم الآلهة
!. . .أفي يوم وليلة تُهدي قلوبٌ. . . وترجع إلى الله نفوس
!يا للمعجزة! يا لعظمتك يا محمد. . . يا لسموَّك أيها القرآن
لقد ردّدوه يا فتاتي فخروا سُجّداً. . . وتلوه فشفيت به صدورٌ وبرئت أرواح. . . وكانت
. . .معجزة في الصحراء
انظري. . . أغرودتي. . . انظري
إن هذا النور الذي يرقص على سفوح يثرب، ويسيل من قمم أحد، ما يزال يشع ولا
يخبو.
لقد كانت تلك الرمال الشقر ينبوعه الثَّرّ. . . ولن ينضب وعيشك ما دام في تلك !
!الصحراء رمال. . . وفي مكة كعبة. . . وفي الدنيا إله. . . وعند الناس قرآن
يا لروعة هذه الشعلة المتوثبة ويا لجلالها. . .! لقد هبَّت عليها الرياح الهوج. . . ولعبت
بها الأيادي السود. . . وأقسموا ليطفئونها بأقوالهم ودمائهم. . . ولكن الشعلة مازالت
تتوثب ضاحكة جذلى، رهيبة مخيفة، إنها تصعد قوية زاخرة، لا تعبأ بالشركِ ولا تحفل
بالدسيسة. . . إنها من نور الله. . . إن فيها قوة زلزلت الأرض. . . قوة ما وقف أمامها
كسرى ولا أعوانه. . . وقيصر ولا خلانه. . . لقد تداعت لرؤيتها القصور الشمُّ على

شواطئ دجلة وجنبات فارس، وعربدت لها المروج الخضر في سفوح الأندلس وشطئان المغرب. . . إنها ما انطفأت أبداً. . . ولكنها ما تزال تعلو وتسمو
لقد كان هذا النور يا أغرودتي مباركاً ليناً، كان يلمس القلوب الوجيعة فيبرئها، وينفذ إلى الصدور المظلمة فيضيئها، ويدغدغ النفوس المفجوعة فيواسيها. . . فما للقلوب اليوم تصدف عنه، وما للنفوس لا تَحِنُّ إليه. . .؟
يا حسرتا عليها يا فتاة. . . إنها أشعة الجمال. . . إنها ومَضات الإيمان. . . إنها من نور الله. . .!
وما الحجاز يا أغرودتي لولا محمد وأشعة محمد! أكان الناس يذكرون تلك البطاح لولاه. . .؟ وماذا كانوا يقولون بربك. . .؟ أيقولون بلاد الرعاة أم مرابع الخيام أم وأدة البنات. . .؟ لا وفتاك يا أغرودتي. . . لولا محمد لما كان هناك حجاز، ولما رقّت إليه قلوب وعشقته نفوس، ولما كان للعرب أمر في الدنيا ولا اسم مشرق في التاريخ. . .!
(ولكانت تلك البقاع سماء من غير أضواء، وأصواتاً من غير أصداء، ومساكن من غير أحياء)
فاضحكي لهذا النور، وعبّي من هذا الينبوع. فلقد تدفق من حراء، ثم سقى الصحراء، ثم أقبل يتهادى بين زهور دمشق وعطور الغوطة، ثم فاض فرقص له النخيل وصفق له النيل حتى أدرك البرانس. . . وبلغ هملايا. . .
اللهم إنه دينك الذي أحببت، أتممته ورضيته لنا، فبارك لنا فيه، واهدنا إليه. إنك أنت الهادي الحكيم. . .
وأنت يا قلب!
حدثني. . . من يأخذني إلى تلك البقاع. . . أستنشق عطر الخزامي، وأطأ الرمال التي قبلت أقدام الرسول
حدثني. . . كيف أرى الغار العظيم، ورأى الجبل الأشم، وأهبط الوادي الهادئ. . . وأرى مكة العروس متمددة فوق الرمال. . .!
حدثني. . . متى تقف أمام قبر البطل المشرّع، والفارس المصلح. . . أمام خالق أمة، وواضع شريعة. . . فتخشع في روضته وتردد ألحانه وقصيدته وتنادي:
السلام عليك يا سيدي يا رسول الله
السلام عليك يا أيها النبي الرحيم
السلام عليك يا أيها الرسول العظيم
السلام عليك يا من كنت رحمة للناس وهدى للعالمين. . .
متى تقف يا قلب. . . متى. . . متى. . .!
(دمشق)
صلاح الدين المنجد
نفحة نبوية
صبرا دعاة الحق
للأستاذ محمد عبد الغني حسن
هذا الهُدى فأملأُ به الصُحراَء ... وانشرْه في خِلل الظلامِ ضياَء
وأصْدَعْ بأمر الله لا مُتهيِّباً ... صُرّاً ولا متخوِّفاً بأساَء
من كان في الحق المُبين بلاؤُه ... هَيهاتَ يَخشى في العدوِّ بَلاَء
يأيها الداعي إلى دين الهدى ... وفْيتَ قِسطكَ في الجهاد دُعاَء
شَبُّوا عليكَ النارَ شاويةَ اللظى ... ورمَوا عليكَ الغارةَ الشعواَء
وترصَّدوا لك في الطَّريق مُجاهداً ... فرأوك انفذَ في الطريقِ مَضاء
نثروا عليكَ الحقدَ من شهوَاتِهم ... فنثرتَ من نُبل الخِلاَلِ وَفاء
نُورُ النبوةِ في جبينك ساطعٌ ... يجلُو الدُّجى ويبدِّدُ الظّلماَء
فإذا المجاهلُ قد غَدون معالما ... واليأسُ أصبح في يديك وفاء
بَدَّلت صحراَء الجزيرةِ رَوْضةً ... وجعلتَ منها جنةَ فيحاَء
الجاهليةُ من غراسك أثمرتْ ... وتفجرتْ ظلاًّ هناكَ ماَء
وتألفوا في الله صفاً واحدا ... ونسُوا لديك الحقدَ والبغضاء
يبنون للإسلام ركناً خالداً ... وَيَرَون فيك المنشئَ البنَّاَء
حَجَرٌ أقمتَ على التُّقى أساسه ... فَرَسَا. وأدرك سمتُه الجوزاَء

يمتدُّ في كِسَفِ السَّحاب تطاولاً ... ويزيدُ في كبد السماء نَماء
ويُزلزل الدنيا ويَصْدع ركنَها ... ويهدُّ من نُصُب الضلال بِناء
بَطحاءُ مكةَ أشرقتْ جَنَباتُها ... ما كانَ أكرمَ هذه البَطْحاء!
وُلدَ الهدى فيها فكان محمداً ... وغَدَا لكل المكرَمات سماء
هذا اليتيمُ أتى فألّفَ أمة ... شتَّى، وقوماً فُرِّقوا أهواء
وَيَشُدُّ بينهمو أواصرَ ألفةٍ ... ويزيدُ ما بين القلوب إخاء
سَوَّى من الفانين كلَّ تمايُزٍ ... ومحا بها العصبيةَ العمياءَ
لا يستقيمُ الحقُّ بين جماعةً ... إنْ لم يكونوا في الحقوق سواَء
يأيها الهادي صَبَرتَ على الأذى ... وحملت من أوطانك الإيذاَء
وضربت في الصبر الجميل نواحياً ... وكشفتَ عن نُبل الخِلال غِطاَء
قل للذي سئمَ الجهادَ وملّهُ ... هلاّ اتّخذت من الرسول عزاَء؟
ما قيمةُ الدنيا إذا هي لم تكن ... صَبْراً وأخذاً دائماً وعطاَء؟
يأيها الهادي لِقيتَ إساءةً ... فحملتَ فيها الصفحَ والإغضاَء
إن الكريمَ يغضُّ طرفَ سماحةٍ ... ويردُّ من إحسانه اللؤماَء
لما قدرتَ عفوتَ اجملَ قادرٍ ... وأسرتَ عفواً مَنْ إليكَ أساَء!
تلك الخلالُ الضاحكاتُ خليقةٌ ... أن تستميل لصفِّك الأعداَء
ولقد كرهتَ بأن تُقيمَ على الأذى ... فهجرتَ أرضاً أنبتتكَ وماَء
وتأثَّروك فما خبتْ لك جذوةٌ ... يوماً ولا قَدَرُوا إطفاَء
ووجدتَ في ظل المدينة جيرةً ... ولقيتَ من أنصارها نُصراَء
آواك فيها معشرٌ بك آمنوا ... واستقبلوك مرحِّبين وِضَاَء
عجباً! رأيتَ من المدينة رقةً ... ورأيتَ مكة قَسْوةً وجفاَء
صَبراً دُعاةَ الحق إن نصيبكم ... إن تقطعوا أيامكم غُرباَء
مهلاً دعاةَ الحق إن سبيلكم ... ليست يساراً كلّها ورخاَء
لا تحسبوها بالورد تَزَينت ... أو رفّتِ الدنيا بها أندَاء
لا تحسبوها الظلَّ أفْيَحَ ناعماً ... والعيشَ حلواً والمنى خضراء
هي أن تضحُّوا بالحياةِ رخيصةً ... وتقدِّموها للجهاد فداء
الحقُّ لا يحيا شهيداً بينكم ... ما ضرَّ لو متم له شهداء؟؟

محمد عبد الغني حسن

من ضوء الإسلام

هل من سبيل لنسعد أفراداً وأمة

للأستاذ محمد يوسف موسى

كل منا يلتمس لنفسه الخير ويبذل في ذلك وسعه، وكلنا يزعم أنه برّ بأمته حفي بها، فهو لا يألو جهدا في القيام بالواجب في عمله، وبما يعود على أمته بالسعادة والرفعة. فلِمَ إذا لا يجد المرء أنى تلفت إلا من يندب شقاوة الجد، وخسارة الأمس، واليأس من الغد؟ وليس حال الجماعات بأهون من حال الأفراد. هؤلاء المزارعون يشكون عدم البركة وفتك حشرات الأرض بخيراتها، والمعنون بالشؤون العامة يحز في نفوسهم تفكك وحدة الأمة وتعثرها في طريقها. لماذا هذه الظاهرة التي تدعو للرثاء، وليس منا إلا من يزعم أنه البار بأمته العامل لخيرها؟ في رأيي أن مرد ذلك كله أمران: أحدهما علة شقاء الأفراد، والآخر علة شقاء الأمة

يصبح الواحد ولا هم له إلا الألم اللاذع لما يرى أنه فاته في أمسه، والتفكير المرمض فيما قد لا يكون في غده، فيصرفه ذلك عن تذوق ما في حاضره من لذة وسعادة. تجد هذا الفلاح دائم الحسرة موصول الألم لأنه لم يبع قطنه بأربعة جنيهات كما باعه جاره، والتلميذ دائم الهم خشية ألا يجد عملا متى فرغ من دراسته، وهكذا إذا تقصيت أحوال الناس جميعا، تجد الأسى على الماضي والخشية من الغد، يفوتان علينا التنعم بالحياة وما تفيضه من هناءة وسرور. ليعمل الواحد منا واجبه، وليطرح الأسى الفارغ على الذاهب، والخشية المبالغة من الآتي، وأنا كفيل بأنه سيجد برد السعادة. (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير؛ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم). هل رد الأسى نعيما ذهب؟ وهل يرد الألم مقدما للمستقبل ما قد يجيء به من محنة؟ اللهم لا. إذا فلم يعمل الإنسان

بنفسه لشقائه وتكدير أيامه؟
من المأثور عن إبيكتيت الرواقي أنه كان يوصي بأن يتعرف المرء ما يتعلق به من الأعمال فيعمله على أكمل وجوهه، وما هو لله فيتركه له. للإنسان أن يسعى لغرضه في شرف ونبل أو في غش ودس، كل ذلك ممكن، فليمض إذا قدما لغرضيه في شرف ونبل وليس له أن تذهب نفسه حسرات إن حيل بينه وبين إدراك ما يريد إذا بذل ما في طوقه،
لأن الوصول فعلاً للغايات رهن بإرادة الله وحده. هذه فلسفة لها جلالها وبساطتها وجمالها، ولكن أجمل منها أن أصحابها أخذوا أنفسهم بها. هذا أحدهم وهو هِلفيدْ يُوسْبْرسْكِسْ كان عضوا بمجلس الشيوخ بروما فطلب منه الإمبراطور ذات يوم أن يتأخر عن حضور جلسة خاصة، فكان بينهما هذا النقاش:
- لا أريد أن تذهب للمجلس
- لك أن تفصلني من العضوية، أما أنا فسأذهب ما دمت عضوا.
- إذا شهدت الجلسة فلا تبد رأيك
- لك ألا تطلب رأيي، وإذاً فلن أتكلم
- لكنه إذا حضرت الجلسة فسأضطر لسؤالك رأيك
- إذا فسأدلي بما أراه عدلاً
- ذلك معناه أنك تسعى للموت
- ومتى قلت لك إني من الخالدين! كلانا يفعل ما يتعلق به؛ لك أن تأمر بقتلي، ولي أن أصبر أو أجزع، وإذاً فسأتحمل الموت وآلامه صابراً
لله ما أنبل هذا المبدأ وما أروع تطبيقه! وما أسهل ما يكون المرء سعيداً إذا وثق بالله، واحترم ما فيه من رجولة فأرضى ضميره!
أما الأمة في مجموعها، فأرى أن علة تعثرها في خطواتها، وابتلاءها بكثير من المحن في الأنفس والأموال، وتفكك الروابط وانحلال الأواصر، وتفرق الزعماء - أرى أن ذلك كله يرجع إلى انسلاخنا عن الدين شيئا فشيئا، وإلى مبدأ الأثرة الذي أخذ منا بالزمام. عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كنا جلوساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (كيف أنتم إذا وقعت فيكم خمس، وأعوذ بالله أن تكون فيكم أو تدركوهن؛ ما ظهرت الفاحشة في قوم يعمل بها علانية إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم، وما منع قوم الزكاة إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، وما بخس قوم المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المئونة وجور السلطان، ولا حكم أمراؤهم بغير ما أنزل الله إلا سلط عليهم عدوهم فاستنفدوا بعض ما في أيديهم، وما عطلوا كتاب الله وسنة نبيه إلا جعل الله بأسهم بينهم، أعتقد أنه بالاحتكام لهذا الحديث المبين نجد الأمر واضحا، وأن السبب فيما نحن فيه من بلاء جلي
لم نعجب من حبس الله عنا عونه، وفينا من الرجال المحسوبين على الدين من لا يبالي أن يسخط الله، كما يبالي أن يغضب عبداً من عبيده؟ وما بالنا نجزع من ازدياد الإجراء وسببه الفقر وتأصل الحقد في القلوب ومأتاه عدم القسم في الحقوق والواجبات؟ ولماذا نجأر بالشكوى من استئصال حشرات الأرض لكثير من الزروع والأثمار، وقد منعنا الزكاة أربابها؟ إن الله غني عن صيام النهار وقيام الليل إذا كان لا يصحبهما إعطاء الحقوق لأصحابها. إن تربة مصر لتدر الذهب، فليت شعري كيف تتحجر منا قلوب، فلا تحس الآلام التي تنضح بها نفس الفقير، ولا يجد مواسياً؟! ولماذا نعمى، فلا نبصر الشقاء مجسماً في أناس لم يبق لهم من الآدمية إلا الاسم بفضل جحودنا وأثرتنا؟! إن لهؤلاء المحرومين، وهم شركاؤنا في الإنسانية، وإخواننا في الوطن، حقاً معلوماً فيما رزقنا الله من ثراء يتسع لقضاء الصيف في أوربا وغير أوربا، وتضييع مئات الآلاف من الجنيهات على اللهو الفارغ والمتاع الدون. . .
هل تريدون دليلا على ما يسود أخلاقنا من أنانية ممقوتة وعدم رعاية للصالح العام؟ دونكم أدلة لا دليلا واحدا: ماذا ترون في انعدام التناسب بين صغار المرتبات وكبارها إلى درجة شنيعة، لا توجد إلا في بلاد الشرق المسكينة؟ وفي التفرقة بين الطبقات في كثير من مرافق الحياة؟ بل ماذا تقولون في المريض المعدم لا يجد له راثياً، ولا لآلامه مواسياً، ويطرد من مستشفى لاخر، حتى يموت وعياله وأهله تنفطر نفوسهم

حسرات، بينما يحدثنا القفطي في كتابه (أخبار الحكماء) أن وزير المقتدر بالله العباسي علي بن عيسى وقّع إلى سنان بن ثابت كبير الأطباء (بإنفاذ متطببين، وخزانة من الأدوية والأشربة يطوفون في السواد، ويقيمون في كل صقع منه مدة ما تدعو الحاجة إلى مقامهم، ويعالجون من فيه، ثم ينتقلون إلى غيره). أليس في بعض هذه المثل ما يدل على ما يتملك أمرنا من أثرة هي بعض السبب فيما نحن فيه من بلاء مبين؟

وأخيراً ما هو العلاج؟ هو في رأيي أن ننعم بحاضرنا دون أسى على الماضي، وأن نحارب الأنانية في أنفسنا وفي غيرنا، وأن يعمل كل منا واجبه وإن كان في ذلك أذى له، وأن يطلب حقه من سالبيه ويلح في اقتضائه؛ فإن السكوت عن طلب الحق جريمة تعدل

عندي عدم القيام بالواجب. نسأل الله حسن الحال والتوفيق والسداد.

محمد يوسف موسى

المدرس بكلية أصول الدين

كمال الدين بن يونس

للأستاذ قدري حافظ طوقان

لم يكن عند كمال الدين خبر من أحوال الدنيا، يلبس بلا تكلف، لا يعنى بزي أو هندام منصرفا بكليته إلى العلم بين درسه وتدريسه. تفقه بالموصل على والده وكان ذلك في النصف الثاني من القرن الثاني عشر للميلاد. وفي سنة 571هـ ذهب إلى بغداد وأقام بالمدرسة النظامية يدرس على السلماني والقزويني والشيرازي فقرأ الخلاف والأصول، وبحث في الأدب على الأنباري، ثم عاد إلى الموصل حيث عكف على الاشتغال بالعلوم الدينية والعقلية والأخيرة كانت غالبة عليه؟ (. . . فكانت تعتريه غفلة في بعض الأحيان لاستيلاء الفكرة عليه بسبب هذه العلوم. . .)، وأخذ من أحد المساجد (في الموصل) مكاناً يدرس فيه عُرف فيما بعد بالمدرسة الكمالية. وبقي كذلك إلى أن توفاه الله في منتصف القرن الثالث عشر للميلاد. . .

ذاع صيته وانتشر فضله (. . . فانثال عليه الفقهاء وتبحر في جميع الفنون وجمع من العلوم ما لم يجمعه أحد. . .)

رجع إليه الملوك والأمراء والعلماء في المسائل العلمية، واستعان به ملوك الإفرنج في ما أشكل عليهم من مسائل تتعلق بالنجوم. فقد ورد إلى الملك الرحيم صاحب الموصل رسول من الإمبراطور فردريك الثاني وبيده مسائل في علم النجوم، وقد قصد أن يرد كمال الدين أجوبتها. فأرسل صاحب الموصل يعرفه بذلك ويقول له (. . . أن يتجمل في لبسه وزيّه ويجعل له مجلسا بأبهة لأجل الرسول، وذلك لما يعرفه عن ابن يونس أنه كان يلبس ثياباً رثة بلا تكلف وما عنده خبر من أحوال الدنيا. . .) فاستعد كمال الدين، وعندما اقترب الرسول من داره بعث من الفقهاء من يستقبله، فلما حضر عند الشيخ (كمال الدين) - يقول أحد الحاضرين وهو من بغداد: نظرنا فوجدنا الموضع فيه بسط من أحسن ما يكون من البسط الرومية الفاخرة (. . . وجماعة مماليك وقوف بين يديه وخدام وشارة حسنة، ودخل الرسول وتلقاه الشيخ، وكتب له الأجوبة عن تلك المسائل بأسرها، ولما راح الرسول غاب عنا (يقول البغدادي) جميع ما كنا نراه؛ فقلت للشيخ: يا مولانا، ما أعجب ما رأينا من ساعة من تلك الأبهة والحشمة، فتبسم، وقال يا بغدادي هو علم. . .)

كان كمال الدين متواضعا ذا روح علمي صحيح سما العلم بنفسه وصقل روحه، فإذا الإخلاص للحق والحقيقة يسيطر على جميع أعماله فلم يترك مناسبة دون تبيان الحقيقة وإعلاء شأن الحق وكان يسير على القول السائر: (العلم يزكو بالإنفاق) فكان يجيب على ما يأتيه من مسائل من بغداد وغيرها من حواضر الإمارات ويوضح المشكلات التي ترد عليه من سائر الأقطار في مختلف فروع المعرفة، وجاء أن أحد علماء دمشق أشكل عليه مواضع في مسائل الحساب والجبر والمساحة وأقليدس، فكتب إلى كمال الدين يستفسره عنها فأجابه عليها وقد كشف عن خفيها وأوضح غامضها، وذكر ما يعجز الإنسان عن وصفه. ثم كتب في آخر الجواب: (فليمهد العذر في التقصير في الأجوبة فإن القريحة جامدة والفطنة خامدة قد استولى عليها كثرة النسيان وشغلتها حوادث الزمان. . .)

لقد اعترف له الأقدمون من العلماء والباحثين بالفضل والنبوغ فقال ابن خلكان: (. . .
وكان يدري في الحكمة والمنطق والطبيعي والإلهي وكذلك الطب، ويعرف فنون
الرياضة - من أقليدس والهيئة والمخروطات والمتوسطات والمجسطي وأنواع
الحساب المفتوح منه والجبر والمقابلة وطريق الخطأين والموسيقى والمساحة -
معرفة لا يشاركه فيها غيره إلا في ظواهر هذه العلوم دون دقائقها والوقوف على
حقائقها، واستخرج في علم الأوفاق طرقاً لم يهتد إليها أحد. . .) وفوق ذلك كان عالماً
بالعربية والتصريف، قرأ سيبويه والإيضاح والتكملة لأبي علي الفارسي والمفصل
للزمخشري (وكان له في التفسير والحديث وما يتعلق به وأسماء الرجال يد جيدة. . .)
ولم يقف علمه عند هذا الحد بل عنى بتاريخ العرب وأيامهم فقد كان يحفظ الشيء
الكثير من أشعارهم ووقائعهم، ودرس التوراة والإنجيل، ووقف على كثير من دقائقهما،
وقد قرأهما عليه بعض أهل الذمة واعترفوا بأنهم لا يجدون من يوضحهما لهم مثله: (. .
. وبالجملة، فإن مجموع ما كان يعلمه من الفنون لم يسمع عن أحد ممن تقدمه أنه قد
جمعه) واعترف أيضاً معاصروه بتفوقه، فقال أثير الدين المفضل الأبهري - وهو عالم
كبير في الخلاف والأزياج بفضل كمال الدين وعبقريته - (ليس بين العلماء من يماثل
كمال الدين، وقال موفق الدين عبد اللطيف البغدادي - وهو من كبار علماء القرن
السادس للهجرة - إنه لما لم يجد في بغداد من يأخذ بقلبه ويملأ عينه ويحل ما يشكل
عليه سافر إلى الموصل سنة 585هـ، فوجد فيها كمال الدين بن يونس
متبحراً في الرياضيات والفقه عالماً بأجزاء الحكمة الأخرى، قد استغرق حب الكيمياء
عقله ووقته. وكان فقهاء زمانه يقولون: إنه يدري أربعة وعشرين فناً دراية متقنة،
وكان جماعة من الحنفية يشتغلون عليه بمذهبهم، (. . . ويحل لهم مسائل الجامع
الكبير أحسن حل مع ما هي عليه من الإشكال المشهور وكان يتقن فن الخلاف
والعراقي والبخاري وأصول الفقه وأصول الدين. . .)، وعلى الرغم من ذلك، فقد وجد
في قومه من يتهمه في دينه، وقد يكون هذا الاتهام آتياً من اهتمامه بالعلوم العقلية
وتعمقه فيها. ونظم أحد الشعراء المعاصرين لكمال الدين البيتين الآتيين اللذين تبين
منهما الفكرة التي كانت سائدة عند الناس في دينه:

أجدك إن قد جاد بعد التعبس ... غزال بوصل لي وأصبح مؤنسي
وعاطيته صهباء من فيه مزجها ... كرقة شعري أو كدين ابن يونس

ويقول ابن أبي أصيبعة: (. . . كان كمال علامة زمانه وأوحد أوانه وقدوة العلماء وسيد
الحكماء، قد أتقن الحكمة وتميز في سائر العلوم. . .) برع في الحساب ونظرية
الأعداد وقطوع المخروط وكتب في المربعات السحرية والجبر والسيمياء والكيمياء
والأعداد المربعة والمسبع المنتظم والصرف والمنطق، وقد حل مسألة تتعلق بإنشاء
مربع يكافئ قطعة من دائرة. ويقال إن الأبهري الذي سبق ذكره قد برهن على صحة
حل إبن يونس وعمل في ذلك مقالة. وعلى ذكر الأبهري نقول إن له مؤلفات قيمة في
علم الهيئة والإسطرلاب ورسائل نفيسة في الحكمة والمنطق والطبيعيات
والإيساغوجي

ويقول سارطون: (. . . إن كمال الدين من أعلم علماء زمانه ومن كبار المعلمين - أو
هو المعلم العظيم - ومن أصحاب النتاج الضخم، وهو مجموعة معارف شتى في
العلوم والفنون. . .) ويمكن القول إنه كان لبحوث كمال الدين قيمة كبرى عند علماء
عصره وأثر في تقدم العلوم

لقد سبق كمال الدين غاليلو في معرفة بعض القوانين التي تتعلق بالرقاص، فقال
سمث: (ومع أن قانون الرقاص هو من وضع غاليلو إلا أن كمال الدين بن يونس لاحظه
وسبقه في معرفة شيء عنه. وكان الفلكيون يستعملونه لحساب الفترات الزمنية أبناء
الرصد. . .) ومن هنا يتبين أن العرب عرفوا شيئا عن القوانين التي تسيطر على
الرقاص ثم جاء من

بعدهم غاليلو، وبعد تجارب عديدة استطاع أن يستنبط قوانينه إذ وجد أن مدة الذبذبة
تتوقف على طول البندول وقيمة عجلة التثاقل ووضع ذلك بشكل رياضي بديع وسع
دائرة استعماله وجنى الفوائد الجليلة منه

ونظم كمال الدين الشعر، وله قطع غزلية رقيقة تفيض عذوبة وسلاسة. منها:

ما كنت ممن يطيع عذالي ... ولا جرى هجره على بالي

حُلتُ كما حلتَ غادرا وكما ... أرخصتَ أرخصتُ قدرك الغالي
وله أيضاً:
حتى ومتى وعدكم لي زور ... مطل واف ونائل منزور
في قلبي حب حبكم مبذور ... زوروا فعسى يثمر وصلا زوروا
ومن المؤسف أنه لم يصلنا من نتاج كمال الدين إلا القليل فقد ضاع أكثره أثناء الانقلابات، والفتن التي حدثت في العراق. وورد في المصادر بعض مؤلفاته التي تتعلق بالفقه والمنطق والنجوم وهي: كتاب كشف المشكلات وإيضاح المعضلات في تفسير القرآن، شرح كتاب التنبيه في الفقه (مجلدان)، كتاب مفردات ألفاظ القانون، كتاب في الأصول، كتاب عيون المنطق، كتاب لغز في الحكمة، وكتاب الأسرار السلطانية في النجوم
وخلّف كمال الدين أولادا أتقنوا الفقه، وسائر العلوم (. . . وهم من سادات المدرسين وأفاضل المصنفين. . .) كما يقول ابن أبي أصيبعة.
(نابلس)
قدري حافظ طوقان
أم عربية تضحّي
للأستاذ خليل هنداوي
وتأبى المقادير إلا أن تخلق (ذا قار) ثانية في ضاحية السواد، ولكن وقعة ذي قار الثانية تمتاز عن الأولى بأن العرب حشدوا ما عندهم من المقاتلة يدفعون بصدورهم صدور مقاتلة الفرس الذين أقبلوا من أقاصي فارس وأدانيها يذودون العرب عنهم!
أحست القادسية وطء هذه الجموع الزاحفة بخيلائها وعزائمها وأدركت أنه يوم سينضح ثراها فيه بالنجيع، ويسطع على سمائها كوكب من كواكب عهد جديد!
أشرق الفجر تغمر أنواره الباهتة جموعا تيقظت قبل أن يتيقظ وعلت أصوات تخللها نداء وصهيل ورغاء! والقوم خلال ذلك منكبون على جيادهم يمسحون أعرافها، أو متلمسون مقابض سيوفهم يهزونها، أو مادّون برماحهم إليها ما يسرون! ففريق يتبعه فريق، وكردوس يشد خلفه كردوس، يمشون والأهازيج ملء الفضاء، والنقع يوشك أن يحجب السماء. فهذه فئة مقاتلة تمشي إلى النصر بأهازيجها وتلك فئة منصتة يدوي فيها صوت يرجع صوتا رن منذ عهد لم يطل عليه الأمد فوق هذه الأرض التي أرادت الفارسية أن تقهرها وما استطاعت إلى ذلك سبيلا.
صوت هانئ بن مسعود يدوي كالرعد القاصف: (يا معشر العرب! هالك معذور خير من ناج فرور، المنية ولا الدنية، استقبال الموت خير من استدباره، والطعن في ثغر النحور أكرم منه في الأعجاز والظهور، وإن الصبر من أسباب الظفر، قاتلوا فما للمنايا من بد، فتح لو كان له رجال! يا معشر العرب شدوا واستعدوا، وإلا تشدوا تردوا)
تسمع هذه الأقوام أصوات خطبائها فتحن أنفسها لذلك اليوم الذي هو أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم، وإن هذا ليوم آخر أقبلت فيه الفارسية الوثنية تنازل الجزيرة المسلمة التي تغلي بدم الحياة!
وغير بعيد عن الساحة المستوية التي أعدت للقاء الأبطال - بطحاء انتصبت فيها خيام تقيم فيها الظعائن، وكانت أهازيجهن تجاوب أهازيج الرجال، ومن فوقها الصدى يكاد يلائم بينها، يحملها إلى القيعان البعيدة التي حنت إلى الحرية المكتوبة على أسنة العرب
في خيمة منفردة حمراء الأديم عجوز تخدد وجهها، ولعل الكبر قد نال منها شيئا، لكن أحداث الدهر لم تبق منها إلا على شبح نسيه الموت أو تناساه، تمشي بهراوتها الغليظة مشية وئيدة مستقيمة، وعلى بدنها صدار أسود ممزق الإهاب، يدل على إنه علامة فاجعة قديمة العهد؛ لكنها حية كأنها بنت ساعتها. وقفت في ناحية لا يصل إليها تيار الزاحفين؛ وحولها أربعة فتية ما أنضر الشباب الذي تفيض به أعينهم، وما أسمى العزيمة التي تتلألأ على وجوههم! تلمست العجوز هؤلاء الفتية بيديها، وتلمست محاسنهم وأكبت على رؤوسهم ووجوههم تشم ريحهم، وما أن انتهت من ذلك حتى بادرتهم بوصيتها:
(أي بَنِيّ! إنكم أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين. والله الذي لا إله إلا هو، إنكم لبنو رجل واحد كما أنكم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم ولا فضحت خالكم، لا هجنت

حسبكم، ولا غيرت نسبكم. واعلموا أن الدار الآخرة خير من الدار الفانية. اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون، فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها فيمموا وطيسها وجالدوا رئيسها، تظفروا بالغنم والكرامة في دار الخلد والقيامة (أي بَنِيَّ! اطلبوا الموت توهب لكم الحياة

كانت تسيل هذه الكلمات العاصفة من فمها دون ما تلجلج ولا اضطراب، لم ينل منها موقف التوديع شيئا، وكان أولادها يسمعون خطابها، وكأن نفوسهم ارتابت في شك أمهم منهم، وهم الذين أقدموا إلى الجهاد مختارين بعد أن باعوا أرواحهم واستقلوا ذلك في جنب الله

قبلوا يد أمهم، وودعوها توديع مفارق لن يوؤب، وزحفوا على جيادهم وهي لا تزال تتجه بمسامعها نحو وقع الحوافر حتى تلاشى وقعه، وقرت كل حركة حولها. فعادت إلى خيمتها، وكأنما ضاقت بها نفسها فهي لا تستطيع القعود إلا قليلا فنهضت تتلمس الأرض بعصاها، ولكن أين تريد أن تدب؟ في نفسها خواطر كثيرة، منها ما يتعلق بالمعركة ونهايتها، ومنها ما يخص أبناءها وحدهم. أتلقاهم كدأبها في المساء؟ أم تلقى بعضهم، والآخر أكلته شفرات السيوف! خواطر كثيرة تحاول أن تطغى على طمأنينتها وإيمانها، ولكنها لا تريد الآن أن تعرف شيئا عن رجوعهم وعن مصارعهم، وإنما تريد أن تعرف كيف استقبلوا الموت، بنحورهم أم بظهورهم! ولكن فيم تشك في أشبالها، وما علمتهم يوماً إلا أهل مروءة ونجدة!

قضت يومها تغالب هذه الخواطر، وما أن دنا الأصيل حتى هتفت أصوات البشرى في القوم بهزيمة الفرس. فخرجت النساء يستقبلن البعولة والاخوة والأبناء. ومن مثل الخنساء

تنشط إلى تنسم الأخبار وهي متوكئة حانية على عصاها ترتفع الأصوات من فوقها ومن تحتها، وعن يمينها وشمالها، والظافرون عائدون بالأردية الحمراء، والسيوف المضرجة بالدماء، قد أذهلهم النصر عن النصب، يحيي بعضهم بعضاً وما تحيتهم إلا مصافحة بالسيف أو السنان!

تعلو الضجة آناً وآناً تخفت، وإنها لتدل على أن أكثر المقاتلة أووا إلى بيوتهم إلا مصاباً يتحامل على نفسه، أو فارساً يتضالع به فرسه بعد أن أبلى، ولكن ما لأولاد الخنساء لم يطل أحد منهم على هذه العجوز المرتقبة التي أخذت ترتجف من الريح الباردة! ومن ذا ينبئها بمصيرهم بعد أن أبطئوا عليها

ولكنها اعتقدت أن واحدا منهم أدركه مصرعه، وأن اخوته قعدوا يبحثون عنه بين القتلى لأنهم يؤثرون أن يدفنوه بأيديهم!

هاهي ذي تنتظر! يمر بها أحد رجال القادسية ممن شهدوا مصرع أولاد الخنساء، يراها شاخصة في الناحية التي أطل منها وقد رفعت رأسها تهم بتكليمه لولا أنها خفضت رأسها لأنها تريد أن تكون كلمتها الأولى لأحد أولادها

شاهدها الرجل وغلبت على عينيه دمعتان محرقتان أسقطهما الحزن على هذه العجوز التي نالت منها القادسية أعظم تضحية. حتى لتحسب فيها رمزاً للأمومة التي ضحت بأبنائها في هذه الوقعة. . . آثر أن يمشي وهو يخطو الخطوة ويلتفت إلى خلفه، كأن شيئا - لا يستطيع أن يدركه - يبعث الروع في نفسه. حاول أن يخبرها أكثر من مرة، وتردد أكثر من مرة، وأقل ما يحمله على التردد أنه لا يريد أن يكون ناعيا لأربعة أولاد في يوم واحد، ولكن ماله يكتم عنها ما كان، وماله لا يشفق على هذه العجوز التي تنتظر، والتي لا تزال تنتظر حتى مطلع الفجر! فلينبئها بمصيرهم، وليعزها بكلمة قد تقع موقعا حسنا أو لا تقع، وليصنع الله بها بعد ذلك ما يشاء! وإن أعظم ما ينتظره لها الموت، وما يدريه أنها هي التي تفتش عن الموت بعد مصرع بنيها. فعاود إليها مرة ثانية؛ وسمعت الخنساء وقع الخطا من ورائها فهمت بالاستغراب، ولكنها شعرت أن هذه الخطا تسر أمراً لها وحدها، فناداها:

- يا خالتاه! لا أخالك تألمين إذا أنبأتك أن أولادك الأربعة يسرحون هذا المساء مع شباب الجنة!.

فاه بهذه الجملة، والحزن يكاد يقطع عليه أنفاسه؛ ولم يبلغ كلمة (الجنة) إلا بعد أن قاسى من ألأم النفس مثل ما قاساه من نصب يومه؛ فتقدمت منه وكأن الخبر لم

. . .يعصف بنفسها، ولم يظهر أثره على وجهها
- ويك ماذا تعني؟ أقُتلوا جميعا؟
- رأيتهم الواحد يُصرع بعد الآخر، يذودون عن موقف تهافت العدو على أخذه تهافت الجراد على النار
- أذهبوا متاعا رخيصا؟
- إنهم - وحدهم - كانوا جيشا، كأنما الموت مورد عزموا أن يردوه جميعا؛ كلما فترت عزيمة واحد منهم هتف به الآخر (وصية العجوز يا أخاه)!
وكأن هذه الكلمة أيقظت فيها الروح التي كلمت بها أولادها فقالت:
- ذلك ما يبعثني على أن أقول: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وإني لأرجو الله أن يجمعني وإياهم في مستقر رحمته؛ ولكن أنبئني ما صنع الله بكم؟
- جئنا بالنصر معقوداً على راياتنا
- هذه التعزية المثلى لي فيما تبقى من أيامي المعدودة، لقد مات أخي صخر من قبل، فلم يسعني من دنياي بعده إلا هذا الصدار الأسود، وهيهات أن أجد مكانا للتعزية فيه، وها يموت أبنائي الأربعة فيعزيني عن موتهم هذا الظفر
والتفتت إلى ناحية بيتها، وأخذت تدب وئيداً، والرجل يتبعها صامتا حتى توارت عنه، فوا الله ما إن سمع لها أنة، ولا رأى لها عبرة، وذهب وهو لا يكاد يوقن بأن هذه التي كانت مثل الأخت المفجوعة الحزينة التي لا يسري عنها شيء، والتي قضت أيامها تبكي حتى ابيضت عيناها من البكاء، هذه الأخت الولهى تصبح المثل الأعلى للأم التي تعتقد أن أولادها للوطن والواجب قبل أن يكونوا لها، وإذا أراد الوطن استئثاراً بهم قدمتهم، وإذا استوهب الوطن منهم أنفسهم لم تضن بها ولم يضنوا، وكأنها بعد ذلك كله لم تبذل شيئا ولم تفقد شيئا
في الإيمان سر تنحني الإرادة عنده، وكيف يريد علماء النفس أن يعللوا مزاجين مختلفين
في نفس واحدة، هذه المرأة التي فجعتها إحدى الوقائع بأخيها الجريء الجميل في الجاهلية؛ والتي لم تترك منها هذه الفاجعة إلا لساناً يندب وصدراً يزف! جاء الإسلام، فلم يقدر أن يصرفها عن حزنها، ولكنها أصيبت في الإسلام بفاجعة قد تهون الأولى عندها وهي فاجعة أبنائها، فلم تحرك من نفسها شيئا، لأنها وهبت مصيبتها لله!. . .
فكرت في المصيبة الأولى، فلم تجد ما ينفس عنها، فاحتفظت بأثرها في منطقة منعزلة من مناطق نفسها، تكشف فيها عن ذكرياتها، وتخوض في أرجائها وحدها. . .
أما المصيبة الثانية، فقد تولاها الإيمان الذي فاض على نفس الخنساء كلها، حتى أصبح سواء عندها أفقدت واحداً أو أربعة، أو جميع من في الكون في سبيل هذا الإيمان. . .
رباه!. . . ألست بقادر على أن تحيي الموتى؟!
خليل هنداوي
من الإلياذة الإسلامية
للأستاذ أحمد محرم
الجزء الثاني
بنو غطفان وسيدهم عيينة بن حصن
لما علم أهل خيبر أن المسلمين قادمون لغزوهم بعثوا إلى حليفهم عيينة بن حصن سيد غطفان يستعدونه وقومه عليهم،
ولهم في ذلك نصف ثمار خيبر، وقيل أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث إليهم ينهاهم عن مظاهرة اليهود، فأبوا، وقالوا حلفائنا وجيراننا، ثم خرجوا لنصرتهم، فسمعوا صوتاً في ديارهم وقع في نفوسهم إنه صوت الغزاة من المسلمين، فأخذهم الرعب وارتدوا على أعقابهم مسرعين.
أَمَا تَدَعُ العَمايَةَ (يَا ابْنَ حِصْنِ) ... وَتَسْلُكُهَا مُعَبّدَةً سَوِيَّه؟
أضَلَّتْكَ الْيهُودُ، فَرُحْتَ تَبْغِي ... ثِمَارَ النَّخلِ، يَا لَكَ مِنْ بَلِيَّهْ
لَبِئسَ الأَجْرُ أجْرُكَ مِنْ أنَاسٍ ... يَرَوْنَ الحَقّ مَنْزِلَةً دَنِيَّه
أتَرْضَى أنْ تَكُونَ لَهُمْ حَلِيفاً؟ ... لَعَمْرُكَ إنْهُمْ شَرّ البَلِيه
رَمَوْكَ بِرُسْلِهِمْ يَبْغُوَنَ نَصْراً ... فَمَا وَجَدُوكَ مِنْ أهلِ الرَّوِيَّه

أهَبْتَ بِقَوْمِكَ: انْطَلِقُوا وَرَائي ... فَتِلكَ سَرِيَّةٌ تَتْلُو سَرِيَّه
تُريدُ (محمَّداً) وَبَنِي أبِيهِ ... أُولى النَّجَدَاتِ وَالهِمَمِ العَلِيّه
حُمَاةَ الحقّ، ليس له سواهم ... إذَا غَلَتِ الحَفِيظَةُ والحَمِيّه
نَهَاكَ (محمدٌ) فَأبَيْتَ رُشْداً ... لِنَفْسِكَ، إنّهَا نَفْسٌ غَوِيّه
وَقُلتَ: أنَتْرُكُ الحُلَفَاءَ نَهْباً ... وَنَحْنُ أُولُو السُّيُوفِ المَشْرَفِيَّه؟
رُوَيْدَكَ يَا (عُيَيْنَةُ) أيُّ خَطْبٍ ... أصَابَكَ؟ مَا الحَدِيثُ وَمَا القَضِيّه؟
وَمَا الصَّوْتُ المُرَدَّدُ يَا إبْنَ حِصْنٍ ... وَرَائَكَ في مَنَازِلِكَ القَصِيّه؟
وَرَاءكَ يَا (عُيَيْنَةُ) لا تَدَعْهَا ... فَمَا هيَ عَنْ دِفَاعِكَ بالغَنِيّه
رجَعْتَ بجُنْدِكَ المَهْزُومِ رُعْباً ... فَمَرْحَى، مَا الهَزِيمَةُ كَالمنِيَّه
لَوَ انّكَ جِئْتَ (خَيْبَرَ) وَهيَ ظَمْأى ... سَقَتْكَ مِنَ الرَّدَى كأساً رَوِيَّه
نَوَيْتَ غِيَاثَها، فَشُغِلْتَ عَنها ... وَأمْرُ اللهِ يَغْلِبُ كلَّ نِيّه
بِرَبِّكَ يا فَتَى (غَطَفَانَ) آمِنْ ... فَإنّ لَهُ لآياتِ جَلِيّه
رَجَعْتَ إلى (النَّبِيِّ) تَقُولَ مَالاَ ... يَقُولُ المَرْءُ ذُو النَّفْسِ الحَيِيَّه
ألسْتُ لِمَنْ ظَفِرْتَ بِهِمْ حَلِيفاً؟ ... فَهَبْ لِي مِنْ مَغَانِمِهِمْ عَطِيّه
وَإنِّي قَدْ أبَيْتُ، فَلَمْ أعِنْهُمْ ... عَلَيْكَ، وَمَا تَرَكْتُكَ عَن تَقِيّه
فَقَالَ: كَذَبْتَ، مَالَكَ مِنْ خَلاقٍ ... وَمَا تَخْفَى عَلَى الله الطَّوِيَّه
عَلَيْكَ (بِذِي الرُّقَيْبَةِ) إنّ فِيهِ ... لَمَا أحْبَبْتَ مِنْ صِلَةٍ سَنِيّه
تأمَّلْ: هلْ مَلَكتَ عَلَيَّ أمْرِي؟ ... وَهلْ صَدَقَتْكَ رُؤياكَ الغَبِيّه؟
لُكلٍ مِنْ دُعَاةِ الشِّرْكِ حَرِبٌ ... مُظَفَّرَةُ الوَقَائِعِ (خَيْبَرِيّه)
سَجَايَا المُرْهَفَاتِ البِيضِ أوْلَى ... بِمَنْ جَعَلُوا النِّفَاقَ لَهَمُ سَجِيَّه
أحمد محرم

ذكرى الهجرة النبوية

للأستاذ محمد فريد وجدي

لا يذكر ذاكر الهجرة إلا ذكر القرآن والإسلام ومحمداً، وهي ذكريات حافلة بالأحداث، موقرة بالانقلابات التي تعتبر مبدأ انتقال عالمي لم يسبق للعهود البشرية أن مر بها مثله.

نعم لأن الانتقال الذي أحدثه الإسلام في جزيرة العرب لم يقتصر عليها، ولكنه تناول العالم كله إما مباشرة وإما بواسطة فكان أثره أبعد أثر سجله تاريخ العلم الاجتماعي للإنسانية من لدن نشأتها إلى اليوم

انتقال في فهم معنى الدين، انتقال في إدراك حقيقة العبادة، انتقال في تعيين أهداف الاجتماع، انتقال في اعتبار مكانة العلم، انتقال في الاعتداد بسلطان العقل، انتقال في تقرير حقوق الإنسانية، انتقال في إقامة الحقوق الطبيعية، انتقال في تحديد معنى المساواة والعدل

انتقالات ذريعة في كل ضرب من ضروب الشؤون الإنسانية سرت إلى العالم كله بتقلب المسلمين في البلاد، فأثرت في مجموع البشرية تأثيراً لا يشتبه بغيره من الانتقالات الأدبية، كان من نتائجها تطور بعيد المدى في كل مجالات الحياة العالمية.

فإذا كان الذين استفادوا منه يتثاقلون في عزوه إلى القرآن والإسلام ومحمد فإن أولي العلم يعرفون هذا الحق وقد أعلنوه في مؤلفاتهم (راجع ما كتبه جيبون الإنجليزي ودربير الأمريكي وسديو وجوستاف لوبون وغيرهما من الفرنسيين)

قلنا انتقالات، فأي لفظ أدل من هذا اللفظ على ما نحن بصدده؟

كان الناس قبل القرآن ومحمد يعتبرون الدين ذلاً واستكانة، واستخذاء لذوي المكانة، فلما جاء الإسلام صاح بالناس: ارفعوا رؤوسكم إنما التقوى في الصدر، وعلو الهمة من الإيمان، ولا ينبغي لمؤمن أن يذل نفسه، (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين)

وكانوا يظنون أن العبادات سخرة، فقال لهم الإسلام: كلا إنها صلة بين المخلوق والخالق، وإنها يجب أن تكون ميسرة غير مرهقة (فقم ونم، وصم وأفطر، فإن لبدنك عليك حقا، ولزوجك عليك حقا، ولزورك (أي زائريك) عليك حقا) أن الرجل ليعتبر عابداً لله في كل فاضلة تصدر منه حتى في اللقمة يرفعها إلى فم امرأته

وكانت الجماعات لا تفكر في المقاصد الأدبية المرجوة من الاجتماع، فلما جاء الإسلام قال

لها: إنما الاجتماع للتعاون على استكمال وسائل البقاء، وهي لا تكون مباركة إلا إذا كان فيها تعاون على البر، وتضافر للتأدي إلى أكمل ضروب الحياة؛ أما التعاون على الإثم والعدوان فليس من شرف الإنسانية في شيء

وكانوا لا يقيمون للعلم وزناً إلا ما صدر عن الذين نصبوا أنفسهم بين الناس وبين الله حجاباً، فقال لهم الإسلام: (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون). (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات)

وكانوا يعدون العقل عدوا للدين، ويتعمدون الخروج على أحكامه مشايعة للذين ربوهم على عصيانه، فقال لهم الإسلام: الدين أساسه العقل، ولا دين لمن لا عقل له

وكانوا يتخيلون أن كل من خالفهم في الجنس والدين واللغة أعداء لا يصح أن تجمعهم بهم صلة، فلما جاء الإسلام صاح بأهل الأرض قاطبة: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير). فكان الإسلام بهذا الأصل أول من أوجب أن تكون بين الناس كافة زمالة إنسانية، يتعاونون تحت ظلالها على تحقيق أغراض الحياة العامة، بصرف النظر عما يفرق بينهم من جنس ولغة ودين

وقوَّى هذا الأمر وضوحاً فقال: (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين)

بل وصاهم بالرحمة ومراعاة قواعد العدل مع أعدائهم الذين قاتلوهم ليفتنوهم عن دينهم، وأخرجوهم من أرضهم فقال: (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين)، وقال: (ولا يجرمنكم شنآن قوم (أي ولا يحملنكم بغضكم لقوم) أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان، واتقوا الله إن الله شديد العقاب)

وزاد في التنبيه على وجوب مراعاة الحقوق الإنسانية، فأمر ألا يتعقب المنتصر في الحرب مهزوما، وألا يجهز على جريح وألا يقتل شيخا ولا امرأة ولا طفلاً ولا رجلاً غير محارب حتى خدم المقاتلين، وألا يهدم ديار الأعداء، ولا أن يحرق أشجارهم، ولا أن يعثو فيها فساداً

وكان الناس لا يعرفون الحقوق الطبيعية لإخوانهم في الإنسانية بصرف النظر عن أديانهم وأجناسهم ولغاتهم، فكانوا يجردون من ليس منهم من كل حق، ويسمحون لأنفسهم بقتلهم وسلبهم إن ظفروا بهم، فإن منّوا عليهم بالبقاء استعبدوهم وأذلوهم، فلما جاء الإسلام قرر أن بنى آدم مهما كانت مللهم وبيئاتهم ولهجاتهم حقوقاً طبيعية لا يجوز العدوان عليها بغير حق

وكان الناس لا يدرون كنه المساواة والعدل، فخضعوا لنظام الطبقات ذوات الامتيازات، فكان لرجال الدين والسراة والمحاربين حقوق ليست لغيرهم من أفراد الشعب، فكانوا يبهظون الدهماء بالتكاليف والإتاوات ويخلون أنفسهم منها. فلما جاء الإسلام حطم كل هذه الأوضاع، واعتبر الناس كلهم سواء أمام العدل: (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الأقربين، إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً)

فنحن إذا ذكرنا الهجرة، وهي دور من أدوار الكفاح الإسلامي في سبيل الإصلاح، ذكرنا كل هذه الانتقالات الأدبية التي لو اطلع عليها علماء الاجتماع لدهشوا، لأن كلا منها لم يتقرر في العالم المتمدن إلا بعد ثورات دموية، تلتها انقلابات عنيفة، وسبقتها تطورات عقلية وأدبية دامت قروناً طويلة؛ فإن كانت قد تولدت طفرة على يد خاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم، في مدى أقل من ربع قرن، وفي أبعد البيئات عن توليد أمثالها، فهي كبرى الآيات الإلهية، جاءت مناسبة لموطن الاقتناع من عقول أهل الزمان الأخير، فإنهم قد يرون القمر ينشق، أو الجبال تندك فلا يتأثرون، ويمضون يلتمسون لها عللاً طبيعية، ولكنهم لا يستطيعون أن يلتمسوا لهذه الانتقالات الفجائية الباهرة عللاً طبيعية، ولاسيما في بيئة لا تنتج واحدة منها. ولقد نسيت جميع الآيات التي صحبت الرسالات السابقة ومضت بمضي أيامها، إلا هذه الآية التي خص الله بها خاتم رسله، فستبقى ما بقي الإنسان ذا عقل يجيله في الأمور، وما بقي العلم يجلو كل مستور.

محمد فريد وجدي

الإسلام دين النضال
للدكتور زكي مبارك
خلوت إلى قلمي لأكتب فصلا للرسالة أتحدث فيه عن بعض الخصائص الإسلامية، ثم أخذت أستعرض تاريخ الإسلام في القديم والحديث عساني أجد مسألة واضحة الحدود يصل فيها القلم إلى شيء بعد جهاد ساعة أو ساعتين
وما هي إلا دقائق حتى اهتديت إلى موضوع تضيق عنه الأعمار، ولكنه مع ذلك واضح المعالم لا يكلف القلم إلا بعض العناء، ليصل الكاتب إلى طوائف من الصور تمنحه التشرف بالمشاركة في إحياء ذكرى الهجرة النبوية
اهتديت إلى القول بأن (الإسلام دين النضال). فما معنى ذلك؟
ارجعوا إلى تاريخ الرسول وتواريخ الخلفاء. ومن تلا الخلفاء من الملوك والسلاطين في الممالك الإسلامية، لتعرفوا أن الإسلام في جميع عصوره لم يكن إلا دين نضال وشريعة الكفاح وضع قواعدها نبي الإسلام: فهو أول رسول تجشم مكاره الجندية في سبيل العقيدة، وأول رسول تعرض للقتل مرات كثيرة في سبيل المبدأ، وأول رسول عاش عيش التأهب للقتال في جميع الأحوال
دخلت عليه ابنته وهو يعاني سكرات الموت فتوجعت لما هو فيه من الكرب فنظر إليها وقال: لا كرب على أبيك بعد اليوم! والناس يفهمون أن الكرب الذي تحدث عنه الرسول هو كرب الموت. أما أنا فقد فهمت أنه يشير إلى ما عانى في حياته من أرزاء وخطوب، وقد عاش دهره كله وهو في بلاء بالناس والزمان، فما انتقل من حرب إلا إلى حرب، ولا خلص من عناء إلا إلى عناء، فحياته هي الشاهد على أن المجد لن يكون إلا من حظوظ المكافحين
والعبرة الأصيلة من حياة هذا الرسول هي الصفة الجدية بين شمائله العالية. والصفة الجدية تظهر في سيرته منذ عهده الأول، فقد نشأ يتيماً، واليتم يحمل النفس على الشعور بالغربة في محيط الوجود، والغريب يقهر على اصطناع الجد في جميع الشؤون
ومن هنا يظهر السر في عنايته بتدليل سبطيه الحسن والحسين، فقد كان يشعر أنه يقدم إليهما سروراً فاته الظفر بمثله وهو يتيم
ثم اتفق له في صباه أن يشتغل بالتجارة لحساب زوجته خديجة، فكان مسؤولاً أمام قوة السوق التي لا يربح فيها غير أهل الجد والصدق من الذين يكتوون بنيران المعاملة مع أقطاب الكسب من السريان واليهود، وكانوا في ذلك العهد دهاقين الأخذ والعطاء
لم يحدثنا التاريخ عن تفاصيل الحياة التجارية التي عاناها الرسول، ولكنا نعرف أن التاريخ لم يكن يسمح بالسكوت عن ذلك الرسول لو أنه استطاع أن يأخذ عليه هفوة من الهفوات التي تجرح الأمانة والصدق، وهما فضيلتان لا يتحلى بهما التاجر إلا بعد جهاد شديد للشهوات والأهواء
وبفضل الكفاح الذي عاناه الرسول في ذلك العهد استطاع أن يدرس أخلاق العرب والسريان واليهود، وهي أمم كانت تقتتل في سبيل المنافع أبشع الاقتتال، واستطاع كذلك أن يتصل من قرب أو من بعد بالأخلاق الحبشية والمصرية والهندية والفارسية والرومانية واليونانية. ومن هذه التجارب تهيأت نفسه للإحساس بقيمة الجد والنضال
فإن قيل إن أكثر الأنبياء عانوا رعاية الغنم في طفولتهم ليتعودوا الصبر، فإنا نقول بأن محمداً عانى ما هو أشق من رعاية الغنم، عانى رعاية التجار وهو قوم يأكلون الجمر، ويلتهمون السم، ويدوسون على أشلاء الضمائر والنفوس
ومن المؤكد أن الرسول عرف الثورة على انحطاط الأخلاق بفضل ما شهد من مكاره الحياة التجارية لذلك العهد
ومن المؤكد أيضاً أن اشتغاله بالتجارة هيأ الفرصة للمعرفة العميقة بالأحوال السياسية والاقتصادية في ذلك الزمان
ويغلب على الظن أنه لم يكن يخلو بنفسه من وقت إلى وقت إلا ليجد الفرصة للسلامة من مكايد الناس، وقد عرفهم في ظروف لا يسلم من شرها غير من يعتصمون بالعزلة من حين إلى حين
وفي لحظة من لحظات الصفاء عرف محمد أن العناية الربانية أعدته لغرض أعظم من تثمير الأموال لزوجته الغالية، ولكن كيف يصارح قومه بذلك الغرض وهو في ظاهره

من الكفر المُوبق في بلد قد استراح إلى الأوهام والأباطيل؟
لابد من نضال جديد، وفي ميدان لا تكون حراره من الصخور والجلاميد، وإنما تكون حراره وعقابه من القلوب الغلف والضمائر السوء
لابد لليتيم الكهل من نضال جديد، ولابد من توديع الاتجار بالعروض والأموال للدخول في تجارة جديدة لا يكون فيها الربح غير الهلاك بالقتل والإستشهاد، إن لم يعصمه الله من الناس
وبرز محمد لقومه برأي كان في نظرهم أجرأ الآراء
برز لهم وهو أعزل لا يملك من السلاح غير اليقين، وهو أضعف أدوات القتال في عصور الظلمات
وما كان قوم محمد إلا قوماً فحولاً طاولوا الدهر وصابروا الزمان، وكان فيهم من يملك التصرف بأحلام الأمة العربية، ومن يقدر على إيذاء سمعته بكلمة أو كلمتين. وما هي إلا أيام حتى شاع في جميع القبائل أن محمداً أصيب بالخبال والجنون، وفي أي أرض؟ في أرض بدوية تسير فيها قالة السوء بأسرع من ومض البرق
فما الذي يصنع اليتيم الكهل وقد أشيع أنه مخبول مجنون؟
رجع إلى عزيمته يستفتيها، فحدثته بأن النضال هو اشرف ما يعتصم به كبار الرجال وكانت أيام عرف فيها محمد أن حراسة الغنم أسهل من حراسة الأصدقاء. كانت أيام عرف فيها أنه يعاود حياة اليتم من جديد فما الذي يصنع؟
لابد من نضال، لابد من نضال
لقد انتهى عهده بالنضال الهين الخفيف يوم كان يسهر على زاده وتجارته ليأمن غوائل الأعراب بالليل، انتهى عهده بالجزع على ضياع صرة فيها دراهم أو دنانير يدخرها لسرور زوجته الغالية حين يرجع من أسفاره في تثمير ما تملك من أصول المنافع الدنيوية، وأقبل عهد جديد، هو عهد السهر على الضمائر والقلوب ليحميها من غوائل الشرك، وليقيها شر الفساد والانحلال
ولكن الذين يعنيه أمر هدايتهم يرونه من أهل الفضول، ويسمعونه اقبح عبارات السخرية والازدراء، فماذا يصنع؟
لابد من النضال، ولابد من الترحيب في سبيل العقيدة بالظمأ والجوع والقتل. وهنا تظهر عظمة محمد المؤيد بقوة خفية تهوّن عليه المصاعب والأرزاء
هنا تظهر عظمة الرجل المؤمن بقيمته الذاتية، والذي يرى أن خصومه ليسوا إلا هباء في هباء، وإن تحصنوا بآطام السياسة والمال، وهما أقوى الحصون
وما الذي يخاف عليه بعد ما لقي؟
لابد من نضال، لابد من نضال
والتفت اليتيم الكهل فرأى أنه وحيد مضطهد لا يؤمن قومه برسالته، وإن كان لم يفقد عطف زوجته الغالية في ذلك الظرف العصيب
الله وحده هو الذخيرة الباقية للمضطهدين من أصحاب العقائد والمبادئ. الله وحده هو سناد المكروبين، وغياث الملهوفين. الله وحده هو الذي يحمي أهل الصدق والأمانة من عدوان الكاذبين والخائنين. الله وحده هو الذي يقدر على مواساة المكروب المحزون، وهو وحده الذي يبعث الشجاعة في صدر اليائس من انتصار الحق
الله وحده هو الذي أوحى إلى اليتيم المضطهد أن يستبسل في سبيل الحق، ليرى انتصار الحق على القوة بعد حين
وتلفت محمد فلم ير لرسالته من ظهير أو معين غير القوة الخفية التي تحدثه بأنه قد يصل إلى الفوز إن صبر على المكاره صبر أولى العزم من الرسل
هو إذن نبي، والنبوة توجب التضحية بجميع المنافع، وتفرض الاستهانة بأكاذيب المفترين على العرض والشرف، فلا بأس من أن يشيع كذباً أنه رجل غير شريف، وإن كان قومه عدوه من أقطاب الأمناء، يوم كان لا يجهر بالاعتراض على ما يرتطمون فيه من الزيغ والضلال
لابد من نضال، وهو في هذه اللحظة يقع في ميدان واحد هو الصبر على عدوان المكذبين، فإن انتصر محمد على هذا الكرب فلا كرب عليه بعد اليوم
وصرخ محمد بصوت ارتعدت له الجبال: يا معشر قريش، أنا رسول الله إليكم!
وما كاد يفوه بهذه الجملة حتى ظهرت لعينه وقلبه ألوف وملايين من الأفاعي والصلال

هي وساوس المرتابين في دعوته السامية
ونظر فإذا هو طعام سائغ للسفهاء والأغبياء من أعداء الحق وأنصار البهتان وحدثته النفس بأن طلب السلامة أمر يوجبه العقل
ولكن القوة الخفية سارعت فحدثته بأن الرجل الحق هو الذي يستهين بأراجيف السفهاء
الرجل الحق؟ ومن الرجل الحق بجانب النبي الحق؟
الروح الأمين يحدثه بأنه خاتم الأنبياء، فما الذي يمنع من أن يتحمل في سبيل رسالته أضعاف ما تحمل سائر الأنبياء؟
ومضى محمد يناضل ويقاتل ويجاهد حتى نقل العرب من الشرك إلى الإيمان بعد أن دفع ثمن النصر من دمه الغالي، الدم المسفوك بالأكاذيب والأراجيف والأباطيل
ولكن، لا بأس، فقد سنّ لأتباعه الأوفياء شريعة النضال
زكي مبارك
التوجيه الأول
للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني
اتجه نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى الشام وما جاورها قبل أن يستتب له الأمر في الجزيرة بزمان طويل، بل قبل أن يفرغ من قريش، ويفتح مكة، وصحيح أنه كان قد عقد مع قريش صلح الحديبية، فأطمأن، واطمأنت قريش بذلك بعض الاطمئنان، ووسع النبي أن يتفرغ لغير قريش، ووسع قريشا أن تستأنف تجارتها مع الشام وهي آمنة، ولكن هذا كان قبل فتح مكة بعامين، وكان هناك اليهود أيضاً، وأمرهم غير هين، وقد قضى عليهم بعد عودته من الحديبية، فغزاهم في خيبر، واستخلصها منهم، ثم دعا يهود فدك فخضعوا بغير قتال، وتلاهم يهود وادي القرى بعد قتال يسير. ولكن هذا وسواه لم يكن قد تم لما شرع النبي - أو لما بدا أنه شرع يفكر - فيما وراء جزيرة العرب. وأكبر الظن أن تفكيره في الشمال قديم، فما يسع قارئ السيرة النبوية إلا أن يروعه عمق النظرة، وبعدها، ورحابة الآفاق التي تمتد إليها
ومن أول مظاهر هذا الاتجاه، إرساله إلى هرقل، وكسرى، والمقوقس، وملك الحيرة، وملك اليمن، ونجاشي الحبشة. . . يدعوهم إلى الإسلام؛ وقد كانت هذه دعوة عامة، وإذا تركنا الحبشة: فإنها فيما وراء البحر، واليمن: لأنها داخلة في شبه الجزيرة. فإنه يبقى الشمال، الذي جاءت الحوادث بعد ذلك بما يخصصه. وعسى أن يكون من أول دواعي هذا التخصيص أن الحارث الغساني ملك الحيرة، لما تلقى كتاب النبي بالدعوة إلى الإسلام بعث إلى هرقل ملك الروم يستأذنه في أن يقوم على رأس جيش، لمعاقبة صاحب هذه الدعوة الجديدة، ولكن هرقل صرفه عن ذلك لأسباب لا تعنينا هنا، فما أريد أن أكتب تاريخا حديثا - فقد تكفل بذلك الصديق الزميل - على الرغم من الوزارة والرتبة، الدكتور هيكل باشا، جزاه الله عن المسلمين خيرا. . . وإنما كل ما أقصد إليه من ذكر هذه الدعوة التي وجهها النبي إلى الملوك، هو الإشارة إلى الاتجاه فيها. . .
ومن المحقق أن عين النبي كانت على الشام خاصة، والشمال عامة، وهو يعرفها حق معرفتها؛ فقد سار فيها صبياً، وشاباً، ورجلاً قبل البعث. ولم يكن يخفى عليه أن حياة الجزيرة رهن بتجارتها مع الشام، ولهذا رأى في الهجرة إلى المدينة وسيلة تعينه على السيطرة على مكة، والتحكم في طريق تجارتها، وكانت قبائل العرب قبل عهده، لتفككها، محتاجة إلى مصانعة الملوك المجاورين، لتطمئن على هذه التجارة، على أن النبي - فضلاً عن ذلك - كان يرى أن الشام وما جاورها، هي الطريق الطبيعي لامتداد دولة الإسلام وانتشار الدعوة إليه، وتخطيها حدود الجزيرة، وغير مستغرب أن يتطلع إلى ما وراء الجزيرة، من جاء بدين الحق للناس كافة، لا للعرب خاصة. . .
وقد تأنى، ولم يعجل بفتح مكة، لأنه كان واثقا من الظفر بها في أوانه المقدور، ولكنه وجه إلى الشمال ثلاثة آلاف قاتلوا في مؤتة، وكانت هذه (حملة تأديبية) صارت مقدمة لغزوة ذات السلاسل، ثم لغزوة تبوك، لما بلغ النبي عليه الصلاة والسلام أن الروم يتهيئون لغزو حدود العرب الشمالية. على أن الروم لم يحاربوا بل انسحبوا لما بلغهم أمر الجيش الذي سيره النبي وقوته، فآثر النبي ألا يتبعهم، واكتفى بالإقامة عند الحدود متحدياً متحفزاً عاملاً على كفالة هذه الحدود وتأمينها، وقد خضع له غير واحد من

الأمراء هناك وأعطوه الجزية، وسار خالد بن الوليد بأمره فاستولى على دومة وبذلك أمن النبي عليه الصلاة والسلام الحدود الشمالية، وجعل من البلاد التي تعاهد مع أمرائها، معاقل وحصوناً قائمة بينه وبين الروم، وانتفى كل خوف من العدوان على الجزيرة وأهلها

ولكن النبي لم يكتف بذلك، فما كاد يعود من حجة الوداع حتى أمر بتجهيز جيش عظيم أمر عليه أسامة بن زيد بن حارثة ليسير به إلى الشام. فخرج من المدينة، ولكن الله لم يكتب له الذهاب إلى الشام فقد مرض النبي، واشتد عليه الأمر، فحال ذلك دون مسير الجيش، وكان أن انتقل رسول الله إلى الرفيق الأعلى. فانصرف المسلمون إلى شؤونهم العاجلة، مثل ($) واختيار أمير للمؤمنين، ثم الردة وما استوجبت من التفرغ لقمعها ولكنهم بعد أن انتهوا من ذلك، واطمأنوا إلى استقرار الأمور في شبه الجزيرة، شرع أبو بكر رضي الله عنه، في إمضاء سياسة الرسول، فوجه الجيوش إلى الشمال

والمؤرخون الغربيون يصفون أبا بكر أحيانا بأنه (محمد الثاني) ولا يعنون بذلك أكثر من أنه هو الذي شرع في رفع بناء الدولة الإسلامية التي وضع الرسول (ص) قواعدها وأرساها وقررها، وأن موقفه من المرتدين هو الذي كفل لدولة الإسلام أن تبقى قائمة، وأن يتيسر لها الامتداد. . . على أن هذا موضوع آخر، لا نرى أن نستطرد إليه فنخرج عما

قصدنا إليه، من بيان أن النبي عليه الصلاة والسلام هو الذي وجّه المسلمين إلى فتح الشام وما جاورها، ولو امتد به العمر لتم ذلك في حياته، فقد كان من الجلي أنه بعد أن اطمأن على الجزيرة وبسط عليها سلطان الدين الذي بعث به، صار همه هذا الشمال، ولكن الله اختاره إلى جواره، بعد أن أتم رسالته، وفهم عنه أبو بكر، فاتجه بالمسلمين إلى حيث أراد النبي أن يوجههم. ومن الممكن أن يقال إن أبا بكر أراد بالزحف على الشمال أن يشغل المسلمين بالحرب والفتح، بعد الردة وحروبها، وهذا صحيح، ولكن أصح منه أن هذا هو توجيه النبي عليه الصلاة والسلام، كما فهمه أبو بكر وعمر من بعده. فالنبي لم يجيء بالدين وحده، بل وضع قواعد الدولة المدنية أيضاً، ورسم لها مستقبلها العالمي وعيّن لها اتجاهاتها جميعا

إبراهيم عبد القادر المازني

صيام رمضان

وموازنة بصيام الثلاثين عند الصابئة والمانوّية

للدكتور علي عبد الواحد وافي

لا نعلم على وجه اليقين متى نشأت فكرة الصوم في المجتمعات الإنسانية، ولا نكاد نعرف شيئاً يعتد به عن الأسباب الأولى التي دعت إليه، كما أن ما وصلنا عن النظم الدينية للأمم الغابرة، لا يرشدنا إلى أول شريعة جاءت به، ولا يقفنا على أول شعب ظهر فيه. وكل ما يذهب إليه بعض الباحثين بصدد هذه الأمور يتألف من آراء فطيرة تعتمد في بعض نواحيها على الحدس والتخمين، وفي نواح أخرى على حجج ضعيفة قلقة، لا يطمئن إلى مثلها المنطق السليم.

غير أنه مما لاشك فيه، أن الصوم من أقدم العبادات الإنسانية، ومن أكثرها انتشاراً. فلم يكد يخلو منه دين من الأديان، ولم يتجرد عنه حياة شعب من الشعوب: جاء بملل الطوطميين والمجوس والوثنيين والصابئين والمانوية والبوذيين وعبدة الكواكب والحيوان، كما جاء بشرائع اليهود والنصارى والمسلمين

وقد اختلفت أشكاله باختلاف الأمم والشرائع، وتعددت أنواعه بتعدد الظروف المحيطة به والأسباب الداعية إليه، فمنه ما يكون بالكف عن الأكل والشرب والاتصال الجنسي والكلام، ومنه ما لا يقتضي إلا الكف عن الأكل والشرب، ومنه ما يتطلب الكف عنهما وعن الاتصال الجنسي، أو عنهما وعن الكلام. . . والإمساك عن الأكل والشرب يقع على وجوه كثيرة، فمنه المطلق الذي شمل جميع المأكولات والمشروبات، ومنه المقيد الذي يتم بالكف عن بعض أنواعهما، وهو بجميع ضروبه يقتضي حرمان الجسم حرماناً اختيارياً من بعض حاجاته الطبيعية. . .

ومن أنواع الصيام ما يقتضي الإمساك عن هذه الأمور اليوم كله نهاره وليله، ومنه ما لا يقتضي الإمساك إلا نهاراً أو شطراً من النهار، ومنه ما يبدأ بغروب الشمس ويستغرق

الليل كله، أو شطراً منه
ومن أنواع الصيام ما يكون متتابعاً يجري في أيام متتالية، ومنه ما يكون مقصوراً على يوم واحد أو ليلة واحدة أو جزء من يوم أو ليلة، ومنه ما شرع في أيام غير متتابعة يفصلها
بعضها عن بعض فترات معينة
ومن أنواع الصيام ما هو واجب يتحتم على جميع الطبقات أو بعضها بشروط خاصة، ومنه ما هو مستحب يندب إليه جميع الأفراد أو بعض طوائف منهم. وجميع أنواع الصيام التي شرعها الدين الإسلامي تقتضي الإمساك عن الأكل والشراب والاتصال الجنسي من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس، وليس منها ما هو فرض على جميع المكلفين العاقلين إلا صيام رمضان
هذا، ويشبه صوم رمضان في ظاهره صياماً شرعته ديانة الصابئين والمانوية، وسمي صيام الثلاثين، فقد جاء بالجزء التاسع من كتاب الفهرست لابن النديم أن شريعة الحرانيين المعروفين بالصابئة أو الصابئين (تفترض عليهم من الصيام ثلاثين يوماً أولها لثمان مضين من اجتماع آذار)، وأنهم كانوا يؤدون هذا الصوم تكريماً للقمر، وأنه كان إمساكاً مطلقاً عن جميع المأكولات والمشروبات من طلوع الشمس إلى غروبها. وقال في نفس الجزء في أثناء كلامه عن الثنوية الكلدانيين أو المانوية إنه (إذا أهل الهلال ونزلت الشمس الدلو ومضى من الشهر ثمانية أيام يصومون حينئذ ثلاثين يوماً يفطرون كل يوم منها عند غروب الشمس). وتدل عباراته أن صيامهم هذا كان تقديساً للأفلاك السماوية وبخاصة الشمس
وقد حاول كثير ممن في قلوبهم مرض، وممن وقفوا جهودهم على النيل من الإسلام والكيد له تحت ستار البحوث التاريخية، والتحقيقات العلمية، حاولوا أن يرجعوا صيام رمضان إلى صيام الثلاثين عند الصابئين والمانوية، زاعمين أن محمداً عليه السلام قد اقتبسه من هاتين الشريعتين
ومن هؤلاء الدكتور جاكوب الألماني. فقد قرر في رسالة كتبها في موضوع صيام رمضان، بعد تحقيقات حسابية طويلة وموازنات بين التاريخ العربي والميلادي والبابلي، أن أول سنة شرع فيها هذا الصوم وهي سنة 623 ميلادية كان أول يوم من شهر رمضان فيها يوافق الثامن من شهر آذار، أي أن أول رمضان صامه المسلمون كان موافقا في مبدئه ونهايته لتاريخ صيام الحرانيين، وإن في هذا أكبر دليل على أن محمداً قد اقتبس صومه عن شريعة الصابئين
وذهب العلامة الفنلندي وسترمارك إلى ما يقرب من هذا الرأي حيث يقول في مؤلفه: (إن وجوه الشبه بين صيام رمضان وصيام الثلاثين عند الحرانيين والمانوية لتحمل على الجزم برجوعهما إلى أصل واحد. فلابد إذن أن يكون محمد قد نقل صيامه عن الحرانيين أو عن المانوية أو عنهما معا)
وهذه لعمري شنشنة عرفناها عن معظم من تصدى من الفرنجة لبحث عقائد الدين الإسلامي وشعائره، فتراهم قبل أن يفهموا الموضوع الإسلامي الذي يتصدون لدراسته حق الفهم، يوجهون كل همهم إلى البحث عن نظير له في الشرائع الأخرى، ولا يلبثون أن يعثروا عليه حتى يوحي إليهم تعصبهم أن هذا منقول عن ذاك، ثم لا تعوزهم الحيل والمنافذ لإلباس أهوائهم ثوب الحقائق
ومع أن المقام لا يتسع لرد مفصل على ما زعموه بصدد صيام رمضان، فإن في النقط المجملة الآتية ما يكفل نقض مزاعمهم هذه من أساسها:
(أولاً): لم يحدث في الجاهلية أي اتصال فكري أو ديني بين قريش التي نشأ فيها الرسول وبين الصابئين أو المانوية، وقد حال دون هذا الاتصال أمور كثيرة، ومنها اختلاف اللغة والخط والثقافة والحضارة، ومنها بعد المسافة بين مواطن هؤلاء وأولئك، فقد كانت بلاد الصابئين والمانوية في حدود فارس من الغرب على حين أن القرشيين كانوا يقطنون الحجاز والمواطن المتاخمة له، وكانت أسفارهم التجارية لا تتجاوز طريقي الشام واليمن، يسلكون أحدهما في رحلة الشتاء والآخر في رحلة الصيف، ولم ينقل عن الرسول عليه السلام أنه اتصل قبل بعثته بأحد من الصابئين أو المانوية أو عني بدراسة شرائعهم أو وقف على شيء منها، وظل هذا حاله إلى ما بعد رسالته بأمد غير قصير

إن صوم رمضان يختلف اختلافاً جوهرياً في شروطه وقواعده ومقاصده ووقته :(ثانياً)
وطريقة أدائه وحكمة تشريعه عن صوم الثلاثين عند الصابئين والمانوية، فليس بينهما
من وجوه الشبه إلا الاتفاق في عدد الأيام وتتابعها؛ وهذه ناحية شكلية من التعسف
اتخاذها دليلاً على أن أحدهما منقول عن الآخر. على أنهما يختلفان في هذه الناحية
نفسها اختلافاً غير يسير. فالصيام الإسلامي مدته شهر عربي (وهذا الشهر يختلف
باختلاف السنين، فتارة يكون ثلاثين يوماً وتارة تسعة وعشرين)؛ على حين أن صيام
الصابئين والمانوية مدته
ثلاثون يوماً. والصيام الإسلامي يبتدئ بابتداء الشهر وينتهي بانتهائه، أما صيامهم فيبتدئ
من اليوم الثامن من الشهر وينتهي في الشهر التالي له
إن اختيار رمضان بالذات ليس سببه اتفاق مبدئه في أول عام شرع فيه الصوم :(ثالثاً)
مع مبدأ صيام الصابئين، كما ذهب إلى ذلك الدكتور جاكوب، وإنما سببه - كما صرح
بذلك الكتاب العزيز، وكما يدل البحث التاريخي المجرد عن الهوى - أنه الشهر الذي
أنزل فيه القرآن. فلا غرو أن اختصه الله بهذه المزية من بين سائر الشهور
هذا إلى أن القرآن الكريم ينص على أن ما سن لنا من الشرائع قد سن مثله :(رابعاً)
لكثير من الأمم قبلنا. قال تعالى: (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا
إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى. . . الآية). وقال عز وجل: (يا أيها الذين
آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم. . .) فمن الممكن إذن أن
يكون صيام الثلاثين عند الصابئين والمانوية مستمداً في الأصل من شريعة سماوية
تقادم عليها العهد فدخلها التحريف والتبديل وبعدت عن غاياتها الأولى وصبغت بصبغة
التقديس للكواكب، وأن الدين الإسلامي قد كتب نفس الصوم الذي كتبته هذه
الشريعة، فأحياها طاهرة نقية وقضى على كل ما علق بها من أدران الشرك
وقد ذهب بعض المؤرخين من المسلمين وغيرهم إلى أن صيام رمضان كان منتشراً
عند بعض قبائل العرب في الجاهلية ولاسيما قريش؛ ويؤيدون رأيهم هذا بأن النبي
عليه الصلاة والسلام نفسه كان قبل بعثته يقضي في غار (حراء) شهر رمضان من كل
عام متحنثاً صائماً. وقد اختلفوا في أصل هذا التشريع. فمنهم من يرى أنه من الشرائع
التي جاء بها إبراهيم عليه السلام، ويستدل على ذلك بأن الذين ثبت أداؤهم لهذه
الشعيرة في الجاهلية كانوا من المعروفين باتباعهم لملة إبراهيم؛ ومنهم من يرى أن
عبد المطلب جد النبي عليه الصلاة والسلام هو أول من سنه وسار عليه (وقد أخذ بهذا
الرأي الأستاذ موير في كتابه (حياة محمد))
ولكن لم يثبت بعد شيء من هذا كله بالدليل القاطع. ومهما يكن، فإنه لا يضير الدين
الإسلامي في شيء أن يكون صيام رمضان متبعاً عند العرب قبل بعثة الرسول. فمن
المحقق أن الشريعة المحمدية أقرت كثيراً من عادات العرب وشعائرهم، وأن ركناً كبيراً
من أركانها وهو الحج لم تدخل على أوقاته ومناسكه في الجاهلية تغييراً كبيرا.

علي عبد الواحد وافي

باسمك اللهم

للأستاذ محمد سعيد العريان

اليوم هلال المحرم من السنة السابعة بعد البعثة

وقد وقف أبو الحكم إبن هشام المخزومي موقفه من نادى قومه، واجتمع إليه قبائل
من أشراف مكة وذوي الرأي من قريش يسمعون مقالته؛ وما منهم أحد إلا كان له بلاء
في إيذاء محمد وصحابته حتى بلغوا في الكيد لهم ما بلغوا ولم ينالوا منهم منالاً؛ فإن
أبا الحكم وأصحابه اليوم لفي هم ناصب وأمر عظيم . . .
إن أمرهم ليوشك أن يفلت من أيديهم، وهم أعلى قريش منزلة ومكانة بين سائر
العرب، من الساحل إلى أطراف البادية. وهذا محمد وإنه لرجل فرد ليس له منعة من
أهل ولا عصبية من دم ولا جاه من غنى، وإنه على ذلك ليحاول أمراً يفرق جماعتهم
ويقبل رأيهم ويلحد في آلهتهم وما يعبدون؛ حتى ليوشك لو خلوا سبيله أن يكون هو
صاحب الرأي والسلطان في العرب جميعا. . . وأين هو من هؤلاء وأنى يبلغ؟
ولقد افتنَّت قريش في حربه ومناهضة دعوته والكيد له ولأصحابه ما بلغ بهم الجهد،
ليصرفوه عن وجهه ويفضوا صحابته من حوله؛ فما بلغوا شيئا مما أرادوا، وإن دعوته

لتنتشر وتذيع حتى يتسامع بها العرب، وإن أصحابه ليزيدون ويكثرون، وإن قبائل العرب من قريب ومن بعيد لتسمع عنه وتعرف من خبره ما لا يريد أبو الحكم بن هشام وحزبه أن يعرف أحد؛ بلى، وإن هذه الدعوة لتطوى البيداء وتجتاز البحر من ساحل إلى ساحل حتى تجد الطمأنينة والسلام في بلد المسيحية من مملكة النجاشي!

يا للعاقبة لو بلغ محمد ما أراد!

. . .واجتمع وجوه قريش وأصحاب الرأي في مكة يتشاورون ليدبروا لهم أمراً . . .

وقال أبو الحكم بن هشام:

(يا قوم، أما إنه ليوشك أن يكون أمر شديد! وإن هذا الرجل ليبالغ فيما يدعو إليه حتى كان ما كان من أمره؛ فإن لم يكن قتله واستئصال خضرائه حتى يذهب بدعوته وتذهب به، فليكن تدبير جديد. . .)

وتطاولت الأعناق تترقب ما يكون من تدبير أبي الحكم في جهاد محمد وأصحابه، واسترسل يقول:

(ألا إن هذا الحي من بني عبد مناف هو منا ومنكم حيث علمتم؛ وإنهم ليطلبون غاية ليس إليها سبيل، أفنتركهم وما يحاولون حتى يئول أمرهم إلى أمر؟ . . .

وهذا أبو طالب بن عبد المطلب يمنع ابن أخيه أن يخلص إليه ما يكره، فما لنا سبيل عليه بعد، فليجتمع أمرهم على ما يريدون وليجتمع أمرنا؛ ولتكن براءة قاطعة بيننا وبين هذا الحي من قريش: لا معونة بيننا وبينهم في أمر؛ فلا نبيعهم شيئا، ولا نبتاع منهم، ولا نخالطهم في شيء؛ وكل رحم بيننا مقطوعة حتى يفيئوا إلى أمرنا؛ فإنهم يوشكون إن بلغت هذه القطيعة أن تجف خضراؤهم فيموتوا جوعاً وعطشاً وعرياً، أو يعودوا إلينا مغلوبين وما تجرد سيف من غمده ولا أريق دم!

(يا قوم، فإن رأيتم فهذه يدي، وليكن بيننا عهد مكتوب نعلقه في جوف الكعبة توكيدا لما تقاسمنا عليه. . . وإن أبيتم. . .)

وصاح صائح من أقصى المجلس: (رضينا يا أبا الحكم!)

وجاء كاتبهم منصور بن عكرمة فأملى عليه:

(باسمك اللهم. . .

(هذا ما تعاهد عليه أشراف مكة وذوو الرأي من قريش: أبو الحكم بن هشام، وأبو لهب بن عبد المطلب، ومنصور إبن عبد شرحبيل، وبغيض بن عامر. . . أنهم براء من بني هاشم وبني المطلب، لا يبيعونهم شيئاً، ولا يبتاعون منهم، ولا يخالطونهم في شيء، وكل رحم بينهم مقطوعة، حتى يفيئوا. . .)

وتناول أبو الحكم الصحيفة فطواها، ثم علقها في جوف الكعبة، ليشهد الله أمرهم وأمر بني عبد مناف!

وأوى محمد وأصحابه إلى شعب أبي طالب من شعاب مكة، حتى يقضي الله أمراً بينهم وبين بني عمهم من قريش، ليس لهم مطمع إلا فيما بين أيديهم من طعام ولباس وشراب، ولا يعرفون إلى كم يمتد الحصار المضروب عليهم في هذا الشعب الضيق ليس له إلا باب واحد يقف الأعداء بمرصد قريب منه يمنعون أن يدخل إليهم داخل بشيء من الزاد أو الميرة. . .

وتتابعت الشهور شهرا في أذيال شهر، والمسلمون في معتقلهم من شعب أبي طالب، لا يجدون ما يغني من جوع ولا من اللباس ما يدفئ من قر، إلا ما يتسلل إليهم في جنح الليل من شيء ليس فيه غناء يرسله إليهم من يرسل من أبناء عمومتهم على حذر ورقبة!

وجاء الموسم، وأَمّ الحجيج من قبائل العرب سوق مكة يسوقون الإبل قد أوقرت طعاماً وبزاً ليبيعوا ويشتروا ويتعوضوا

وطمع المسلمون أن يكن لهم من أولئك شيء؛ فإن هؤلاء التجار العرب في حل مما تعاقد عليه بطون قريش، فإن لهم أن يبيعوا أبناء عبد مناف ما يشاءون من بضاعتهم يداً بيدٍ؛ فما كان لهم في تلك (الصحيفة) الظالمة رأي ولا عقد

ويخرج من يخرج من المسلمين ليشتري زاداً من زاد القوم ويبيعهم مما عنده، ويقف على صُبرة من قمح يهم أن يشتريها، ويبصر به أبو لهب فيقوم في السوق مناديا:

(يا معشر التجار، غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا معكم شيئا، فقد غلمتم مالي ووفاء ذمتي، فأنا ضامن أن لا خسار عليكم!)

ويسمع التجار ما قال أبو لهب، فيزيدون على المسلمين في السلعة قيمتها أضعافاً، فيرجع المسلمون إلى أهليهم وما باعوا ولا اشتروا وليس في يدهم شيء يطمعون به؛ ويغدو التجار على أبي لهب فيربحهم فيما معهم من الطعام واللباس!

ومضى عام وعام وأوشك ثالث، والمسلمون حيث حصرهم أبناء عمومتهم من قريش، حتى جهدوا وأشفت نفوسهم على التلف جوعاً وعريا. . .

ويرى محمد ما أصاب أصحابه في سبيل الله، فيثبتهم ويربط على قلوبهم، ويقول: (لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه؛ ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين، ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله!)

فتهدأ نفوسهم مطمئنين إلى العاقبة!

ويبلغ بهم الجهد، حتى يأكلوا ما يسقط على الأرض من ورق الشجر، وحتى يصنعوا ما تصنع الشاة: لا تجد أكلاً إلا ما تتقمَّم من خشاش الأرض ومن بارض النبت في مسايل اللِّوَى. . .

ويشد سعد بن أبي وقاص على بطنه من ألم الجوع حتى يكاد يلتصق بظهره؛ وينال منه الجوع حتى يخرج في سواد الليل يلتمس رمقه، فيطأ على شيء رطب، فيضعه في فمه فيبتلعه، لا يدري ما هو، ولا يجد له في فمه مذاقا!!

ويتضاغَى أطفال المسلمين من الجوع، وتسمع أصواتهم من وراء الشعب صائحين من السغب والمتربة!

والمسلمون على ما بهم: لم ينل منهم الكفار منالاً بما صنعوا لأنهم وهبوا نفوسهم لله؛ فلا عليهم أن يموتوا جوعاً أو يموتوا مجاهدين في سبيل الله!. . .

وتسامع المشركون بما نال محمداً وأصحابه من الجهد والمسغبة فمنهم من سرّه ذلك، ومنهم من ساءَه. . .

ويفرح أبو الحكم بن هشام بما نال المسلمين من الجهد والمسغبة، ويستخفه الفرح حتى يأمل أملاً. . .

ويغضب من يغضب من قريش لما نال إخوانهم وأبناء عمومتهم من بني عبد مناف، وإن كانوا على دين محمد!

ويشفق هشام بن عمرو بن ربيعة على ما نال أخاه لأمه نضلةَ ابن هشام بن عبد مناف، وكان مع المسلمين في شعب أبي طالب، فيأتي ببعيره قد أوقره طعاماً وبزاً. . فيقبل به فم الشعب ليلاً وقريش في غفلاتها، ثم يخلع خِطامَه ويضرب على جنبيه فيدخل الشعب عليهم ليقتسموا ما يحمل من طعام وبز. . . وماذا يغني بعير واحد والمسلمون كثرة يكاد يقتلها الجوع والعرى؟. . .

ويقول أبو طالب لابن أخيه: (لقد بلغ الجهد منا ما ترى، وإن رجالاً من قريش قد استشعروا الندم على ما تعاقدوا عليه، لولا شرف السمعة وتهمة الخيانة لأحلوا أنفسهم مما ارتبطوا به من عهد الصحيفة!)

وابتسم محمد بن عبد الله، وقال: (يا عم، إن الله قد سلّط الأرضة على صحيفة قريش؛ فلم تدع فيها اسماً هو لله إلا أثبتته فيها، ونفت منها الظلم والقطيعة والبهتان!). . .

ويفرح أبو طالب ويقول: (أربك أخبرك بهذا؟)

قال: (نعم!)

وخرج أبو طالب إلى قريش في ناديهم ليتحدث إليهم في أمر. . .

ويصعب على هشام بن عمرو ما يلقى أخوه نضلة والمسلمون معه، فيمشي إلى جماعة من أشراف قريش لهم في بني عبد مناف صهر وخئولة؛ فيحرضهم على نقض الصحيفة، رعاية لحرمات النسب وحفاظاً على حق الدم، فيجتمع على رأيه بضعة نفر، فيتوافقون على ميعادهم إلى حيث كان وجوه قريش مجتمعين في ناديهم من الحجر؛ ويقدمهم زهير بن أمية (وأمه عاتكة بنت عبد المطلب) فيطوف بالكعبة سبعا ثم يقبل على الناس فيقول:

(يا أهل مكة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يباع ولا يبتاع منهم؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة!)

ويرتاع أبو جهل بن هشام لما يسمع، فلا يكاد يرد رأيه حتى تأخذه الأصوات من كل جانب: (مزقوا الصحيفة، لا نرضى ما كتب فيها ونبرأ إلى الله منه!)
تلك كانت أصوات هشام بن عمرو وأصحابه الأربعة: المطعم إبن عدي بن عبد مناف، وزهير بن أمية بن المغيرة، والعاص ابن هشام، وزمعة بن الأسود
ويبلغ الغيظ بابي جهل وأصحابه ما يبلغ، أن رأوا ما أجمعوا عليه يحاول أن يخرج من أيديهم حين ظنوا أنهم من الغاية التي يهدفون إليها على خطوات، وأن محمداً وأصحابه يوشكون أن يفيئوا. . .!
وقال أبو جهل: هذا أمر قضي بليل، وما أحسبكم إلا دبرتموها في غير هذا المكان!
ويقدم أبو طالب بن عبد المطلب في جماعة من بني أبيه قد لبسوا أحسن ما يجدون من الثياب؛ فما إن يسمعون ما يقول أبو جهل حتى يبتدره أبو طالب: (بل هو أمر قد قضاه رب محمد)
والتفت أهل الندى إلى حيث كان أبو طالب في أهله، لا يدرون ما يعني مما يقول!
وتقصف الناس على أبي طالب يستثبتونه عما قال، ومضى في حديثه:
(بلى، وإن بيننا وبينكم هذا العهد المكتوب في الصحيفة، فإن ابن أخي أخبرني من . . . أمرها. . . فهلم إلى صحيفتكم؛ فإن كان كما قال ابن أخي فانتهوا عن قطيعتنا وانزلوا عما فيها؛ وإن كان كاذبا دفعته إليكم فما شئتم فافعلوا به!)
ووثب المطعم بن عدي إلى حيث كانت الصحيفة في جوف الكعبة، وفض غلافها، ونظر،
ونظر القراء؛ فإذا الأرضة قد لحستها لم تترك فيها من شيء يقرأ إلا (باسمك اللهم. . .)
وخرج المسلمون من شعب أبي طالب إلى فضاء مكة كعهدهم يوم كانوا؛ وانفك الحصار الذي كان مضروباً عليهم ثلاث سنين لا يبيعون ولا يباعون؛ وإن كانوا من عداوة المشركين لهم وائتمارهم بهم في أمنع وأبلغ؛ ولكن شيئا من ذلك لم ينل من نفوسهم ولم يوهن عزائمهم
ومضت أربع سنوات أخر؛ ثم انطلق المسلمون من الحصار المضروب عليهم حول مكة كلها مهاجرين إلى حيث يؤلف محمد وصحابته حكومتهم في دار الهجرة؛ ولا تمضي إلا سنوات من بعد، حتى يكون محمد وأصحابه في طريقهم إلى مكة يقودون الجحفل اللجب ليحاصروا مكة كلها ويسلم إليهم أهلها صاغرين!
ودار الفلك دورته؛ فإذا تلك القلة من بني عبد مناف وجيرانهم الذين كانوا بالأمس محصورين في شعب من شعاب مكة لا يجدون ما يأكلون - قد وثبوا أكبر وثبة عرفها التاريخ، فإذا منهم القادة والسادة والأمراء، يضعون يدهم على مفاتيح خزائن الدنيا، ويبشرون بدين الله في أربعة أقطار الأرض. ورفرفت الراية الإسلامية على قلاع فارس والروم وأوربا؛ ومضى جنود المسلمين من أبنائهم وحفدتهم يطئون العروش ويقتحمون الممالك وهتافهم يدوّي حيث كانوا: (باسمك اللهم! باسمك اللهم!)

محمدي سعيد العريان

ضع يدك في يد محمد

للأستاذ عبد المنعم خلاّف

ضع يدك في يد محمد وسر معه في الطريق الذي شقه له بارئ الطبيعة بين السبل المتفرقة إلى الحقيقة والعدالة والسلامة الاجتماعية، وقوة الاعتزاز بالقيوم على السموات والأرض، وشدة الحرص على اتباع أسلوبه في حفظ الفطرة سليمة من زيغ الحس وخداع الهوى وأفن الرأي وألاعيب الذكاء. . . تسلم لك نفسك أولاً، والإنسانية ثانياً، والطبيعة كلها ثالثاً

فلم يبق لك بد أن تفر إلى هذا الرجل وتستعينه في جهاد ما يجتاح الأرض الآن من الشر والتقدير السيئ للنفس الإنسانية والحياة والاجتماع

ولم يبق لك بد كذلك أن تقيم المثل الأعلى الذي رسمه الله في قلب هذا الرجل وعقله وتقذف به على الأمثلة السفلى التي رسمها الأنبياء الكذبة في هذا الزمان

نعم إنك لست في قوة هؤلاء الجبابرة، ولكن من هنا ستكون المعجزة. معجزة محمد في صرع طواغيت الظلم والجبروت والحيوانية وتفريق الإنسانية وردها إلى الوحشية الأولى

إنك عرفت برأيك الحق الذي مع محمد، وتعرف الباطل الذي مع هؤلاء، فاعرف بعزمك وجهدك في أي الصفين يجب أن تقف. ولن يغفر لك رب الحياة القيوم عليها والغيور على اطراد أسلوبه فيها أن تقف شيطاناً أخرس ترى الإنسانية - أثمن ودائع الله في الأرض - تتخطفها الشرور وتتوزعها الأباطيل وتصرفها عن وجه الحقيقة والعدالة وتخرب بناء أجسامها وعمرانها بعد ما طال وسما

لقد سار شباب كل أمة وراء نبي كاذب يقول لهم: نحن! نحن! ولا أحد غيرنا. . . فالشمس والهواء والغبراء والزرقاء لم تخلق في عرف هؤلاء إلا لهم. وهذا كذب صارخ على الله، وحرب مصرحة مستعلنة لما أراده من تنويع الناس، وشرود جامح عجيب من عقل الإنسان ذي الشطحات

ونحن لن نبحث عن رجل آخر نسير وراءه ينعق لنا وننعق له ونطلب منه مبادئ أخرى تجدد حياتنا، وإنما ستبعث محمداً في نفوسنا ونسير وراءه فيهتف لنا ونهتف معه بما هتفت به السموات والأرض وكل قائم حقيق في الفكر والحياة والزمان الأزل الأول وفي الأبد الآخر

فلن نصاب بعبادة الأشخاص وتأليه الأفراد. وهذه إحدى نعم الله في محمد على الديمقراطية وميراثها. فقد كفل الله لكل نفس حق سيادتها واستقلالها بالعلم والرأي حين خولها القرآن: (مأدبة الله في أرضه) وجعل مبادئه واضحة أمامها دائماً: (ولقد يسرنا القرآن للذكر، فهل من مدكر) وعلى قدر الامتلاء من مبادئ محمد و (تمثيل) الأشخاص لها يكون مركزهم من قيادة أمتهم من غير سيادة فردية أو خيلاء عاهرة أو مجد شخصي يطلبونه. . . وإنما هو ظل مجد محمد وقع عليهم فأضفى عليهم لوناً من ألوانه

إن محمداً نفسه لم يطلب مجداً ولم يرد ذكر كلمة المجد الإنساني على لسانه. . . وإنما كان يعرف أن المجد لله كله والتوفيق منه. وما كان قلبه يبيح له أن يطلب هذه الصغائر التي تذهب قيم العظائم. وإنما كان يذكر كلمة (الواجب) والجهاد له كثيرا. . . وإن من طبيعة الرسالة المحمدية أن تحطم الأنانية الفردية والكبرياء والخيلاء والادعاء، لأنها تعرف أن هذه الصغائر لا يقوم معها حق ولا فضيلة ولا دولة ولا سيادة قومية ولا ملية. ولذلك خرج العرب بعدما وعوا ما في ألواح هذه الرسالة خافضي الجوانب من الطاعة والرحمة والتواضع في غير ذله (تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناه) قد يركب عبدهم على دابة والسيد يسير بجواره. وقد يضع ابن البيضاء لابن السوداء خده على التراب استغفاراً من تعييره مرة بسواده وتوكيداً لاعتذاره. . .

لقد أوشك أن يختفي اسم الله عن إنسانية هذا العصر، ويختفي ما كان يحيط بهذا الاسم من عالم الطهر والخير والصبر وانتظار الجزاء من وجهه ذي الجلال، ويظهر وجه الشيطان والإنسان وحدهما. فأبطال الدنيا يخفون اسم الله عن أعين القطعان التي أسلمت قيادها لهم، وهم يجحدون بذلك كل جهاد أولى العزم من الرسل والمصلحين السابقين الذين أوصلوا الإنسانية إلى ما وصلت إليه، ويبدءون فلسفة أنانية، ولا يرون من حقائق الحياة العليا إلا القوة

إنهم شككوا الناس في رحمة الله وعدله وأوشكوا أن يريبوهم في وجوده! وبذلك خبلوهم وصرفوهم عن رؤية أول حق يجب أن يرى. . .

لقد يتساءل بعض الذين لم يتصلوا بأصول الحياة: أين رحمة الله في حرب مثل الحرب العظمى أو هذه الحرب التي توشك أن تكون أعظم؟ واين قيمة الإنسانية التي نزعم لها

القداسة مع أن بعضها ينظر للبعض الآخر باحتقار؟ إن معنى الإنسانية لم يتحقق حتى نعترف لها بالقداسة. إن الأبيض يدوس الأسود، والأحمر يحتقر الأصفر، والأصفر يحقد على الأبيض، وهكذا. . . فهي إلى الآن لم تعترف لنفسها بحق، ولم تعرف وضعيتها في الحياة، ولم تدر غايتها فيها، ولم تتفق على كلمة سواء فيما بينها. وهي لا تزال في بلبلة من آرائها ومعتقداتها ومذاهبها. وهي لا تزال تعيش بمنطق الأحراج والغابات، ولم تقلع بعد عن فجراتها وغدراتها وغفلاتها عن عالم السمو والعلم الذي ما خلقت إلا له. وهذا التساؤل وهذا التشكك لا جواب له ولا شفاء منه إلا في (الكتاب) الذي طبع اسم الله على كل شيء وفي كل وقت حتى يرى الناس به الحق دائما ولا ينسوه. ولن يستقر كل شيء من عالم الآفاق وعالم الأنفس في مكانه إلا إذا طبع اسم الله عليه.

وعبثا يطلب مصلح استقرار النفوس ما لم يكن هذا أداته الأولى. وهذه هي طريقة القرآن في كل آية: أن يذيلها بذكر جانب من صفات الله وشؤونه
إن منطق الإسلام يستمد من قوانين الفطرة الضامنة لكل ما أخرجته من الأحياء حق الحياة وأدواتها، ومن روح الحق الذي يملأ كل ذرة من ذرات الخليقة
إن محمداً اتصل ببارئ الفطرة وواضع قوانينها التي لا تتبدل وأتى بمنطقه ووضعه دائماً أمام أعين الإنسان، حتى لا ينسى أخلاق الله في ملابسته لجميع أعمال دنياه. . .
ألم يقل: (تخلقوا بأخلاق الله)؟ ما أعجب هذا القول! وما أعظم ربطه بين النفس الإنسانية والطبيعة ذات القوانين التي لا تضل ولا تخلف!
وخلافة الإنسان في الأرض هي أن يعمرها على أسلوب الله: أي أن يضمن الحياة لكل حي يستحقها ويقيم العدل الموزون بين العناصر، ويستعمل قدرته، ولا يعطلها بالجهل والمرض. . . ويخلق من طين الأرض وموادها البكر الميتة آلات يقلد بها صنعة الله، ويسيرها بعقله وذكائه كما يسير الله الأحياء بروحه وإلهامه. . . على شريطة ألا يخرجه ذلك عن نطاق الطبيعة فينسى أنه من أبنائها وأشيائها؛ ولكنه دائما يضل وينسى هذا، لأنه ذو اختيار وذكاء وشطحات تباعد بينه وبين أسلوب الطبيعة، وفتنته من هنا. . . فهو يخلق بذكائه جواً صناعياً حوله يجعله منفصلاً عن سير الحياة بما عداه من الأحياء، ويجعل بين عالمها وعالمه حاجزا. . .!
فلو إنه ملك فكره وقدرته حين بدأ سير حياته العقلية، ونظر نظرة في النجوم: نجوم السماء ونجوم الأرض، وقال كلمة للقرآن التي هي معنى الإسلام: (إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً) ومضى مع مواكب الطبيعة حادياً لها بعقله وبيانه، نائبا عنها في النطق باسم ربها وربه. . . إذا لوضحت أمامه طريق الحياة وتراءت له غايتها مما يبعث فيه الطمأنينة واليقين والصبر وحب العمل لها ولما بعدها. والمنطق البسيط المأخوذ من هذه النظرة الواضحة يقول: ما دام الناس متفرقين مختلفين في الفطرة ولهم حق الحياة، فمن الجهل والظلم أن أحتقر جنساً غير جنسي أو أحتكر الحياة لنفسي وحدها مادام كل إنسان لم يخلق نفسه. . . ومن حسن الحظ أن هذه النظرة الأولية الطبيعية تلتقي مع النظرة الناشئة من تتبع الميراث الصناعي لأساليب حكم الجماعة الإنسانية: أي مع أهم مخلفات الحياة الديمقراطية التي ارتاح لها الإنسان السياسي: ألا وهي حق الحياة وحريتها لكل فرد ولكل جماعة. . .
ومن حسن الحظ أيضاً أن حراس الديمقراطية الآن - وإن كانوا أنقص من المسلمين بدرجة عظيمة في تقديرهم معنى المساواة والحرية والرحمة والأخوة الإنسانية - مستعدون أن يسمعوا دعوة الإسلام لها وأن يأخذوا أصواتنا القديمة والحديثة في الدعوة إليها والدفاع عنها ليضموها إلى أصواتهم وهم يحاربون أعداءهم
نعم نحن نفترق عنهم في التقدير وفي الغاية، فنحن نطلب الحق والحرية والعدالة لذاتها واللذة إحساس نفوسنا بسموها إحساساً مستنداً على حرارة الإيمان ويقين العقيدة الدينية، وهم يطلبونها ويقدرونها لحفظ ما في أيديهم من الحطام وأعراض الدنيا
غير أننا يجب أن ننتهز هذه الفرصة لندخل بمبادئ محمد إلى قلوب حراس الديمقراطية، فلعل ما هم فيه من المحن والنكبات يجعلهم يقبلون على الخير والحق لذات الخير والحق. . .
ومادمنا نعتمد على إعانة رب الحياة الذي نستمد من قوته وقهره للدفاع عن أسلوبه في الطبيعة وحفظ فطرته كما أرادها؛ فإننا واثقون أنه سيفتح لنا ثغرا في حياة الغربيين ينفذ منها نوره الذي وضع مِشعاله الأخير في يد محمد
وأحس أن هذا الزمان يتمخض عن انقلاب خطير! إما إلى عصر ارتداد وانتكاس وجاهلية
جهلاء. . . وإما إلى عصر سمو حقيقي للإنسانية. فعلى الذين وهبوا أنفسهم للحق الذي عرفوه أن يأخذوا مكانهم في الصف الذي اختاروه: صف الطبيعة ورب الطبيعة في هذه المواقع الفاصلة بين قوى الخير وقوى الشر
إن قلب الإنسان يفعل الأعاجيب إذا ما اتصل بالخير. . .
إن المرصد الذي يرصد إرادة القدر ووجهاته حين يريد رب القدر أن يفرق أمراً حكيماً أو يبرمه

. . .إنه مذياع أرضي يذيع النداء العلوي المتجدد
ونريد من الذين لا يعترفون بالديانات ولا يؤمنون بالغيب ولكنهم مألومون من حالة الشر التي في الأرض الآن، أن يقفوا في صف محمد على إنه بطل يمثل آراءهم أصدق تمثيل وأقواه
وإن في مبادئه عناصر بشرية خالصة مستمدة من طبيعة الأرض لا من روح السماء فليعيشوا بمبادئه هذه فقط، وليتركوا مبادئه السماوية للذين في قلوبهم نوافذ ترى ما لا تراه القلوب الضعيفة
ولعل النصر الذي يلاقونه من السير وراء محمد يرشدهم إلى أن فيه جانبا آخر، فيحملهم ذلك على الإيمان بمصادر وحيه جميعها
وأؤكد أن ما فيه من السمو المتفرد سيحمل كل منصف على أن يرى تفرد قلبه وعقله بصفات لم يتصف بها أحد. وهذا أول درجات الاعتراف له بالاتصال بعالم خارج عن نطاق الأرض ما دام قد تفرد بين أبطال الدنيا الذين نظروا إلى الحياة من جهة واحدة، بأن قلبه وسع كل حيوات الناس، واستوعب قضاياهم، وأتى من الله بصميم الحق الذي لا يتبدل في الأمم والأمكنة والأزمان. ولا يعرف قدر محمد رسول الله وطبيعة تفرده بين البشر إلا الذي أغرم بقراءة تاريخ أبطال الدنيا. إنه لن يجد قلباً ولا عقلاً وعى ما وعى عقله وقلبه من الحق الصادق والحكمة البالغة ووسائل إمساك الإنسانية على حدود العدالة
وكثيراً ما افترض أني نشأت غير مسلم، وأتخيل حياتي العقلية على هذا الغرض، وقد أصابها ما يصيب أي عقل باحث من الشكوك وآثار استعراض الآراء والمعتقدات، فأجدني حينئذ كأعمى يخبط في صحراء، كل ما لديه من الإيمان ناتج من شعوره بالعجز المطلق
أمام جبروت الكون وإبهامه وإصراره على إخفاء ما وراءه من أسراره. . . فماذا عساه أن يفعل إزاء هذا غير البكاء الدائم من عينيه المغلقتين المظلمتين إن كان محساً بالحياة مقدراً لمصيرها المجهول. . .؟ وغير اللعن الدائم للسموات والسعي بالإفساد في الأرض إن كان بليد الإحساس بالحياة، غافلا عن مصيرها. . .؟ وغير اللّياذ بصنم: بشري أو حجري أو شجر أو شمس أو قمر أو ثعبان أو بقر إن كان محدود النفس جبان الرأي؟
أما الإيمان المشرق الواضح الذي يميز كل شيء ويضعه في مكانه، ويعرّف رب الكون بما يشبع رغبات العقل من غير إفساد لائتلاف العقيدة مع العلم ومع الفلسفة ويضع للإنسان غاية معروفة للحياة. . . فذلك ما كنت أفقده لو لم أنشأ مسلما
وهكذا يبزغ الفجر العقلي الجديد لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، وسيتحول حب المؤمنين به الباحثين فيه إلى حب عقلي وتقدير بمقاييس موضوعية لا ذاتية إذ عرفوا أن رسالته لا تضارعها رسالة حديثة أو قديمة على كثرة تقلب الدنيا في المعتقدات والمذاهب والآراء.
(القاهرة)
عبد المنعم خلاف
خَبّاب بن الأرت
للأستاذ كامل محمود حبيب
رحم الله خباباً، أسلم راغباً، وهاجر طائعاً، وعاش مجاهداً، وابتلي في جسمه أحوالاً، (وإن الله لا ضيع أجر من أحسن عملاً)
(علي بن أبي طالب)
هذا هو (خباب بن الأرت) فتى لم يبلغ الثلاثين من سني حياته، أيدٌ جلد، وثيق الأركان متكتل العضل يغدو ويروح على حاجات مولاته (أم أنمار) وحديث قريش ما ينفك يضك مسمعيه، وهو عنه في شغل. . . ودوّى الحديث في أرجاء مكة يزلزل القلوب والأقدام وعلى كل لسان كلمة واحدة: محمد. . . محمد! وإن زعماء قريش وذوي الجاه فيها ليضطربون يوجسون خيفة مما جاء به محمد
وجلس خباب إلى نفسه يقلب الرأي، وقد فرغ من حاجات سيدته: محمد! أي بأس على الرجل، وهو الصادق الأمين؟ تالله ما علمنا عليه من سوء منذ كان. أفيفترون عليه الكذب بعد أن بدأ الشيب في صدغيه؟ ثم ما هذه الأصنام التي أراهم يعبدون؟

أفحقاً أن فيها آلهة؟ ليت شعري أي الحزبين أهدى سبيلا وأقرب رشدا؟
ثم. . . ثم غدا على مجلس رسول الله (ص) يريد أن يستطلع خبر الدين الجديد؛ وإن رجليه لتختلجان من الرعب، ولإن قلبه ليتفزّع من الذعر، خشية أن تراه أعين شياطين قريش فيبطشوا به، وهو هنا وحده لا تربطه بالقوم آصرة رحم ولا وشيجة قربى فيأمن كيدهم أو ينجو من مكرهم. . وفي مجلس النبي الكريم جلس خباب يسمع، وإن حلاوة الحديث لتبدد وساوس نفسه، وإن الإشراق الإلهي ليتدفق في قلبه فيجلو صدأه، ثم. . . ثم اطمأن قلبه للإيمان، فبدا رجلا غيره، يعلن عن إسلامه في غير رقبة ولا حذر
يا عجباً! أي سر خفي انصب في قلب الرجل فأصبح لا يفزع من شر قريش جميعاً، وهو كان يفرق من أن تراه عين وهو يدلف إلى مجلس رسول الله (ص)؟ لا ريب فهذا هو الإيمان الحق حين يتغلغل في النفس، فينتزع الإنسان من معانيه الأرضية ليكون في معانيه السماوية فحسب
ورضي رسول الله (ص) عن خباب فكان يحبوه بعطفه، ويخصه بعنايته، ويألفه ويأتيه. وتناهى الخبر إلى سيدته (أم أنمار) فحاولت عبثا أن تقف بينه وبين سيده. ولما أعجزها أن تنال بغيتها راحت تذيقه العذاب البئيس في غير شفقة ولا رحمة. ثم. . . ثم انفلت إلى رسول الله (ص) يكشف له عن أثر ميسم أم أنمار في رأسه، وعيناه تتحلبان من فرط الأسى، فدعا له النبي: اللهم انصر خباباً. فما تلبث غير قليل حتى أخذت أم أنمار العلة، فهي تعوي عواء الكلب، وخباب يكوي رأسها بميسم يتوهج، علها تبرأ من علتها أو تذوق وبال أمرها
وكبر على قريش أن يقوم رجل منهم يثاب آلهتهم ويسفه أحلامهم ويعيب دينهم، فشرى الأمر بينهم وبين النبي الكريم، فتذامروا يتواثبون على المسلمين يعذبونهم فنونا من العذاب، وإن الشيطان ليوسوس لهم يريد أن يدفعهم إلى غاية، وهم يرتدغون في الضلالة، ويتخبطون في الظلمات، وقد طم العمى على قلوبهم، وبين أيديهم جماعة من ضعفاء المسلمين: خباب وصهيب وبلال وعمار وسمية و. . . يلبسونهم أدراع الحديد، ثم يلقون بهم بين لفحات الحر ووقدات القيظ، وهم صبر على حر الحديد وأوار الشمس، وخباب من بينهم تسخر شجاعته من غيظ الكافرين.
يا لله! إن في الإنسان نوازع إذا سيطرت عليه استحال إلى حيوان لا يجد في نفسه معنى من معاني الإنسانية، وهكذا كانت قريش حين أخذتهم ثورة الغضب والغيظ ورانت عليهم سورةالسلطان والجاه، فذهبوا يفتنون في أذى المستضعفين من المسلمين. . .
أي شيء جنى خباب فيلصقوا ظهره بالرضف في قسوة وغلظة ثم ما يزالون به حتى يذهب لحم متنه؟
أي ذنب ارتكب خباب فيأخذوه إلى نار تتسعر يسلقونه فيها، ثم ما يبرح الواحد منهم يضع رجله على صدره، فما يتقي الأرض إلا بظهره؟
واستشعر خباب العذاب يأكل لحمه ويفري جلده، وما له مفزع سوى رسول الله (ص) فانطلق إليه يستنصره على ما يلقى من فظاظة قريش وجفوتهم. . . فقال له رسول الله (ص) وإن أثر الغضب ليبدو في وجهه: (قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض، ثم يجاء بالميشار فيجعل فوق رأسه ما يصرفه عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم وعصب ما يصرفه عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير
الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله عز وجل والذئب على غنمه، ولكنكم تعجلون). فخرج خباب ورفاقه من لدن الرسول يستعذبون الأذى في سبيل الله
وفزع المسلمون بدينهم إلى الحبشة، وخباب بازائهم يودعهم إلى مهاجرهم، وعيناه تفيضان من الدمع حزنا على فراق أحباء نفسه في العزاء ورفقاء قلبه في الشدة، ثم هو ما يريد أن يتحول عن مشرق النور من وجه النبي الكريم، على حين يرى فيه السلوة والعزاء؛ وقريش تشتط في عذابه، فما تنال منه أربا، ولا تبلغ منه غرضا وفي قلبه الإيمان. . .
وهاجر - فيمن هاجر - إلى المدينة ليعيش إلى جانب سيده يشهد المشاهد كلها لا يستشعر الوهن ولا يتسرب إلى نفسه الخور، ثم هو بين صحابة الرسول (ص) في

المنزلة والشرف. . .
ولحق النبي الكريم بالرفيق الأعلى، فتهطلت عبرات خباب مدراراً حين أحس لذع الفراق في قرارة نفسه، غير أن الأسى ما كان ليبذر فيه غراس الوهن في دينه أو الضعف في إيمانه، فانطلق إلى غايته يبذل النفس والمال في سبيل الله، وصحابة رسول الله (ص) يعرفون له حقه ويكرمون وفادته. وإن عمر إبن الخطاب في خلافته ليراه يدخل عليه فيقول له: ادن، فما أحد أحق بهذا المجلس منك إلا عمار بن ياسر.
فيأخذ خباب يريه آثاراً في ظهره مما عذبه المشركون. . .
لقد كشف عن ظهره لينشر آلام جسمه على عيني عمر، أو ليكشف عن سمات جهاده في دين الله، فإذا هو قد برص من كثرة ما ناله من أذى. . .
وانشقت العصا ومرج الأمر وراح كل حزب بما لديهم يفاخرون، وخباب بالكوفة بين صحابة علي تحبسه العلة، ويقعده السقام؛ فلا يجد القوة على نصرة علي بنفسه. . .
وألح عليه المرض يدفعه إلى غاية كل حي وفي نفسه أن يتمنى الموت، من طول ما عركه المرض، لولا إنه سمع رسول الله (ص) يقول: لا ينبغي لأحد أن يتمنى الموت. . .
وعاد خباباً نفر من أصحاب رسول الله (ص) وهو في علته التي مات فيها فقالوا له: أبشر يا أبا عبد الله، إخوانك تقدم عليهم غداً. فتدفقت العبرات من عينيه وهو يقول: أما إنه ليس بي جزع، ولكن ذكرتموني أقواماً وسميتموهم لي إخواناً، وإن أولئك مضوا بأجورهم كما هي، وإني أخاف أن يكون ثواب ما تذكرون من تلك الأعمال ما أوتينا من بعدهم. هذا هو
كفني قباطي، ولكن حمزة عم النبي (ص) كفّن في بردة كانت إذا مدت على قدميه قلصت عن رأسه، وإذا مدت على رأسه قلصت عن قدميه حتى جعل عليه إذ خر. ولقد رأيتني مع رسول الله (ص) ما أملك ديناراً ولا درهماً، وإن في ناحية بيتي الآن، في تابوتي، ألف وافٍ. ولقد خشيت أن تكون قد عجلت لنا طيباتنا في حياتنا الدنيا لا ضير، فهذا حديث خباب بن الأرت سادس ستة أسلموا أول ما بزغ النور الإلهي من جبين المصطفى (ص) هو حديث الإيمان المحض الذي ما يزال يتوثب في القلب فيشغله عن آلام نفسه ليذره بين الطمع والخوف
ودفن خباب - أول من دفن - بالظهر من الكوفة
ومرّ عليّ - حين رجع من صفين - بقبر خباب، يشيّع الراحل بكلمات: رحم الله خباباً! أسلم راغباً، وهاجر طائعاً، وعاش مجاهداً، وابتلي في جسمه أحوالاً، وإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.
فرحم الله خباباً.
كامل محمود الحبيب
في دار الأرقم
للأستاذ ناجي الطنطاوي
اختفت شمس مكة وراء الأفق الساجي ساحبة ما تبقى من أشعتها الذهبية على قمم الجبال الشامخة، وعلى صدور الهضاب المتموجة، بعد أن لبثت نهارا كاملا تبعث الدفء والنور والحياة، وغام الأفق في مكة وبدأ ينتشر فيها الظلام، وما هي إلا لحظات حتى لفّها الليل بردائه الحالك وظهرت الكواكب في سمائها تلتمع خافقة واجفة، تزيّن تلك السماء الرحيبة الواسعة كما تزين الأوسمة الفضية الثمينة صدر القائد الكبير؛ وأوى الناس إلى دورهم يستنشقون فيها نسيم الراحة بعد تعب النهار الطويل، ويفيئون فيها إلى الدعة والسكينة بعد صخب النهار الشديد، وبدأت أضواء المصابيح الخافتة في الليل الأسود كأنها رقع في ثوب أو دنانير في جيب
وعمّ جبل أبي قبيس سكون رهيب، وصمت بالغ، وامتد (الصفا) في ذروة هذا الجبل رحيباً واسعاً باسماً جميلاً، يتمشى مع (المروة) جنبا إلى جنب، يحضن بضع دور قامت على جانبيه هي دور نفر من أهل مكة رغبوا عن سكنى مدينتهم التي تعجّ بالآهلين، فأحبوا الانطلاق إلى الفضاء الواسع، إلى الطبيعة الفاتنة، إلى النسيم الصافي العليل، فلم يلفوا خيرا من جنبات الصفا يلقون فيها عصيهم، ويبنون بها دورهم، ويحيون فيها حياة هادئة سعيدة
وكان الناظر إلى هذه الدور القليلة المنثورة هنا وهناك على أرض الصفا، يستقر بصره

على دار قد نأت قليلا وانفردت، دار متواضعة صغيرة شيدت بالطين والقصب، وأحاطت بها الرمال الدكناء والصخور الجرداء، لا يشك أنها دار الأرقم بن أبي الأرقم ذلك الرجل العربي الذي كان يعيش من نتاج ناقته من اللبن، ومحصول أرضه من الشعير، لا يعرفه إلا نفر قليل من صحابه، ولا يدري بوجوده إلا أفراد معدودون من أهله

كان الأرقم مغمور الذكر، مجهول الاسم، يحيا كأكثر رجال قومه حياة ساذجة بسيطة فارغة متشابهة، هي بحياة الحيوان أشبه، يقضي نهاره في جمع الماء والحطب وسقي الزرع واستدرار النوق والأغنام، ويقضي ليله بين أهله يحدثهم ويحدثونه ثم يستلقي نائما حتى الصباح

وقد كان من الممكن أن تظل حياته سائرة على هذا النمط ثم يموت فلا يدري به أحد، كما مات كثير من قومه فمات معهم ذكرهم، وقد كان من الممكن أن تبقى داره متواضعة حقيرة لا يعرفها أحد ولا يهتم لها إنسان، لولا أن الله سبحانه أراد لحكمة بالغة أن يجعل اسم الأرقم في فم الزمان، يتألق في التاريخ الإسلامي كما تتألق الدرة الثمينة في القصر الفخم العظيم، وأن يجعل تلك البنية الخاشعة الصغيرة المشيدة بالطين والماء، منبع حضارة هدت العالم، ومنبثق دين ساد الكون. . . كانت الدار الحقيرة كأمثالها من دور العرب في زمن الجاهلية الجهلاء، يقطنها عربي جاهلي ساذج مع أمه العجوز وزوجه الشابة وصغارهما، يحيون حياة بدوية بسيطة، لا تمت بنسب إلى الحياة الفخمة المعقدة ذات التكاليف والواجبات الثقيلة، أكان يدور بخلده أن حياته ستقلب رأسا على عقب؟ أكان يحلم أن داره ستصبح في يوم قريب أعظم مجلس نيابي قام على الأرض؟ أكان يظن أن شمسا ستشرق من داره فيعم نورها أرجاء الأرض ويحيا بها العالم؟. . .

خرج صباح يوم من داره يجول جولة بين قومه على عادته، يتسقط الأخبار، ويصغي إلى الهمسات والأحاديث. . . فسمع نفرا منهم يتحدثون عن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، حديثا أثار اهتمامه، فأصغى إليه بكل جوارحه، ولاح له من كلامهم أن دعوة جديدة سيئة منكرة يقوم بها هذا الرجل، وبدت له شناعة هذه الدعوة وقبحها من كثرة الشتائم التي سمعها تنهال على صاحبها، فأكبر الأمر، وهاله أن يكون في قومه من يبتدع منكراً من القول يلفت به الناس عن دين آبائهم وعاداتهم وأخلاقهم، وصمم ليفتشن عن محمد، وليجتمعن به، وليسمعن كلامه الجديد. . . ومشى ذاهلاً يتملكه العجب من هذا الذي سمعه، وهو يعرف (الأمين) أحسن قومه خلقاً وأطهرهم نفساً وأبعدهم عن المفاسد والمعاصي، وأكثرهم أدباً وعقلاً ورزانة وحلماً وعفافاً، وأصدقهم، وأرقهم قلباً وأكثرهم عطفاً على المساكين والأطفال واليتامى والبائسين. . . إنه لا يعرف رجلا أطهر ولا أشرف ولا أكرم ولا أصدق من محمد. . . إن قومه لم يعرفوا له كذبة واحدة، ولم يستطيعوا أن ينسبوا إليه عملا سيئا قبيحا واحدا، فما الخبر؟ وما هذه الدعوة الجديدة؟!

وسار الأرقم، وظل سائرا، وهو يسأل الناس الذين يلقاهم عن محمد، حتى دل عليه، ووصل إليه؛ فرآه في جماعة من قومه يدعوهم ويحدثهم، فجلس لا يشعر به أحد، وأصغى،

فسمع محمداً يقول: (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا، وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون)

وسكت محمد رسول الله، وانفض القوم ساخرين، واقترب الأرقم منه وقال: إن كان الإسلام ما تقول، فأنا على دينك، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. . .

قام النبي صلى الله عليه وسلم يدعو الناس إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، ويتلو عليهم بعض آيات القرآن الذي كان ينزل عليه، فلا يجد منهم إلا الإعراض والهزء والسخرية، بل كانوا يتجاوزون ذلك إلى إنزال الأذى به وبأصحابه القلائل الذين فضلوا الإسلام على الشرك، وأمعنوا في الأذية، وتدرع المسلمون الصبر، ورأى الأرقم ذلك فداخل قلبه الهم الكبير والحزن المضني، وعزم على تخفيف آلامهم وشقائهم مهما كلفه ذلك، ووطّن نفسه على تضحية روحه وأهله وما يملك في سبيل هذه الدعوة

الجديدة التي تغلغلت في كل جارحة من جوارحه
جلس في إحدى زوايا داره الصغير يفكر ويمعن في التفكير لقد كنت ضالا فأنعم الله عليّ بالإسلام، وكنت لا أهتم بسوى نفسي وأسرتي فأصبحت يملأ رأسي التفكير في هؤلاء الإخوان الذين تربطني بهم أقوى رابطة في العالم ألا وهي رابطة الإسلام؛ وكان أكبر واجب ملقى على عاتقي هو تأمين معاش هذه الأسرة الصغيرة فأصبح من أوجب الواجبات عليّ اليوم أن أنهض لأدعو إلى الإسلام، لألاقي من الأذى ما لاقاه إخواني، أو أن أحميهم بما أحمي به أهلي وولدي، وكيف لي بحمايتهم؟ أم كيف لي بدفع الأذى عنهم؟ لابد من العمل، لابد من العمل
وراح يستعرض المسلمين في مخيلته ليقف على عددهم، فوجدهم ستة ورأى نفسه السابع، وفاجأته فكرة ملهمة برد لها قلبه واطمأنت إليها جوارحه: إن في داري متسعا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولإخواني المسلمين، وإن فيها أمنا لهم وخلاصا من شقائهم، أفلا أستطيع أن أضمهم فيها على غير علم من المشركين؟
وأسرع إلى رسول الله، فأعلن أمامه الرأي الجديد، وبسط بين يديه الأسباب التي دعته إليها وقال له:
- إننا ضعاف يا رسول الله، لا قبل لنا بهذه الوحوش الكاسرة، وإن الأذى الذي يصيب المسلمين قد اشتدت وطأته أفلا نأوي إلى داري لنجمع شتات أمرنا ونغيب عن أعين أعدائنا وننتظر فرج الله؟
فأكبر فيه الرسول الرحيم صلى الله عليه وسلم هذه التضحية، وأذن له بإيواء المسلمين.
نشر الفجر البسّام أجنحته اللؤلؤية الخفاقة على أرجاء الكون الغارق في السكون، المجلل بالسواد، الرازح تحت أعباء الوحشة، النائم تحت كلّة الليل، فاخترقت سُدف الظلام ومزقتها، وأضاءت أرجاء الفضاء الرحيب وأنارتها، واحتدمت المعركة بين الجيشين: جيش الليل الذي أنهكه طول السهر وكثرة السمر، وجيش النهار الذي يملأ بردتيه عزم الشباب وتدفعه الأماني العذاب، وانجلى النضال عن تبدد العتمة وإشراق النور، وأطلت ذكاء من وراء الأفق البعيد الصافي، باسمة طروبا خلابة، وافترت لوهاد مكة وجبالها ودورها عن ابتسامة مغرية جذابة، فابتسمت لها مكة مجيبة شاكرة، ورقصت على جنبات الأفق الوهاج أطياف من السحر والشعر استيقظ الناس على منظرها الخلاب، وبدأت الحياة تدب في أرجاء مكة التي نضت عنها رداء النوم لتستبدل به درع الجد والنشاط، وهب المشركون غاضبين صاخبين مصممين على إفناء هذه الطغمة التي تضم أفراداً قلائل منهم، فتنوا عن عقيدتهم بعقيدة جديدة تقضي على كل ما خلف لهم الآباء والأجداد من آلهة. وليس بعجب أن يقوموا منذ الصباح الباكر يعدون العدة لعملهم السافل الدنيء؛ فلقد كانوا يحلمون في الليلة الماضية - وفي كل ليلة - بهؤلاء الأفراد الذين تحملوا كل أنواع الأذى في سبيل عقيدتهم، ولم يكن يبدو على أحد منهم أنه سينفذ صبره وتضعف مقاومته، كانوا يعجبون لقوة رسوخ هذا الدين الجديد في النفوس وتمكنه فيها واستهانته بكل أنواع الأذى والعذاب في سبيل بقائه سالما، وكانوا يخشون إن هم خلوهم وغضوا عنهم الأبصار ولم يأبهوا لهم، أن يجذبوا إليهم عددا كبيرا من العرب فيصبحوا قوة لا طاقة للمشركين بها.
وراح المشركون يفتشون عن الأفراد الصابئين في الأسواق وفي الساحات العامة، وفي ظل الحرم، وفي دور مكة المجتمعة، ولكنهم باءوا بعد سعيهم بالفشل، ولم يجدوا لهم أثرا، كأن الأرض ابتلعتهم وغيبتهم، فعادوا خاسرين أذلاء كما يعود الجيش مهزوماً مدحوراً. أجل، لقد اختفى المسلمون في تلك الدار النائية القائمة على الصفا، جمعهم رسول الله صلى الله
عليه وسلم ليخف عنهم الأذى ويزول عنهم الألم، تحلقوا حوله في خشوع وصمت يستمعون إلى آيات القرآن الكريم التي يوحي الله إليه بها، ويصغون إلى مواعظه فتمتلئ أفئدتهم برداً وسلاماً وإيماناً ويقيناً، وتفيض نفوسهم شجاعة وعزماً، فيشعر كل واحد منهم أن في استطاعته أن يقاتل ألفا من المشركين وان يدحرهم ويردهم على أعقابهم خاسرين
جلس إلى جانب النبي صلى الله عليه وسلم فتى في ربيع حياته، كانت له دالة كبيرة عليه حتى إنه كان يدعو نفسه زيد بن محمد؛ لقّب نفسه بذلك حين أخرجه رسول الله

إلى الحجر وقال: اشهدوا أن زيد بن حارثة ابني يرثني وأرثه وكان أول من أسلم من الموالي، وجلس إلى جانبه رجل ربعة حسن الوجه رقيق البشرة، عظيم اللحية، بعيد ما بين المنكبين، وضئ، أبيض مشرب بصفرة، جعد الشعر، ذو جمّة عند أسفل أذنيه، جذل الساقين، طويل الذراعين؛ ذلك هو عثمان بن عفان ذو النورين الذي يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: لكل نبي رفيق، ورفيقي في الجنة عثمان. وجلس إلى جانبه طفل صغير لا يتجاوز العاشرة من عمره هو الزبير بن العوّام حواري رسول الله وابن عمته صفية بنت عبد المطلب علقه عمه في حصير ودخّن عليه ليعود إلى الكفر فقال: لا أكفر أبدا، وظل متمسكا بدينه يحرص عليه حرصه على روحه. وجلس إلى جانبه رجل طويل القامة أبيض مشرب بحمرة، حسن الوجه، رقيق البشرة، أهدب الأشفار، أقنى الانف، طويل النابين الأعليين، ضخم المنكبين، غليظ الأصابع هو عبد الرحمن بن عوف. والى جانبه شاب في العشرين من عمره نشيط قوي حديد النظرات مفتول الساعدين هو سعد بن أبي وقاص. وجلس في الناحية المقابلة رجل مربوع إلى القصر، أبيض يضرب إلى الحمرة، ضخم القدمين، رحب الصدر آدم كثير الشعر ليس بالجعد ولا بالبسط هو طلحة ابن عبيد الله الذي أسلم على يدي أبي بكر. والى جانبه رجل نحيف، معروق الوجه، خفيف اللحية، يبدو عليه الخشوع والتذلل هو عامر بن عبد الله بن الجراح أمين هذه الأمة. والى جانبه أخ لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الرضاع هو عبد الله بن عبد الأسد الذي يكنى أبا سلمة. ولقد أسلم عثمان والزبير وعبد الرحمن وسعد وطلحة على يد أبي بكر الذي كان يجلس إلى يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم ملتفعاً بعباءته متوجها بقلبه وجسمه إلى إخوانه المسلمين يؤنسهم ويكبر فيهم الثبات على الحق

وكانت الغرفة الأخرى في الدار ممتلئة بأفراد آخرين من المسلمين كعثمان بن مظعون وأخويه قدامة وعبد الله وكعبيدة بن الحارث وسعيد بن زيد وامرأته فاطمة ابنة الخطاب. كانوا يتحدثون تارة ويذكرون الله أخرى، ويتواصون بالصبر والثبات على كل أذية حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا

في هذه الدار المنعزلة ولد الإسلام من جديد، وشيّد أول ركن من أركانه، وبزغ أول شعاع من أشعته الوهاجة التي أضاءت العالم. . . إلى هذه الدار المنعزلة كان يأوي كل يوم أفراد من العرب يهجرون أباطيل أجدادهم وأصنامهم ويسلمون على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم وينضمون إلى إخوانهم فيزيدون قوة. . . ولم تمض إلا أيام قليلة حتى أصبح المسلمون فيها تسعة وثلاثين يعبدون الله مستخفين ينتظرون القوة والمدد من الله، ولكن رجلا لا كالرجال أسلم وانضم إليهم وكملوا به أربعين لم يرضه أن يبقوا مستخفين خائفين بل قال: يا رسول الله، ألسنا على الحق؟ قال: بلى. قال: والله لن نبقى هنا، ولابد من الخروج. . . ذلك هو عمر بن الخطاب

وكانت خاتمة هذه الدار التي كانت أول مرحلة من مراحل الإسلام، خاتمة رهيبة عظيمة سارة فخمة، إذ خرج منها المسلمون وهم يكبرون معتزين فخورين، فكأن جدرانها وأرضها وسماؤها وكل شبر فيها قد نفخ فيهم روح العزة والفخار والجرأة، فأصبحوا لا يبالون شيئا في سبيل الإسلام

لك الله أيتها الدار: لقد لمت شمل المسلمين بعد أن كادت تفنيهم وحشية المشركين، ولقد آويت المسلمين وأمنهم وزدتهم قوة بزيادة عددهم. لقد كنت الحصن رد عن المستضعفين قنابل الظالمين، ولقد كنت أول مسجد جمع المؤمنين تحت راية رسول الله وفي كنفه

سنذكرك كلما ألمت بنا النكبات، وحاقت بنا المصائب، ودهتنا الدواهي، وسنتأسى بذكراك كلما رأينا ضعف المسلمين وخذلانهم، وتأخرهم وذلهم، فلن يعرف اليأس إلى نفوسنا سبيلاً ولن يزيدنا الضعف إلا قوة. لقد كان المسلمون فيك أفراداً معدودين لا سلاح لهم إلا إيمانهم وعقيدتهم، تألب عليهم قومهم وناصبوهم العداء والأذى وهم ألوف مؤلفة، ولكن النتيجة كانت للإسلام الذي قضى أيام طفولته في دار الأرقم عليك وعلى صاحبك وأضيافه رحمه الله، وعلى أشرف الخلق صلاة الله وسلامه

(دمشق)

ناجي الطنطاوي

من معاني الهجرة
للأستاذ محمد أحمد الغمراوي

لعل أكبر أيام الإسلام بل أيام الإنسانية كلها بعد يوم الرسالة هو يوم الهجرة لقد كانت الهجرة الكريمة بدء عهد عزة الإسلام وانتشاره، عهد الجهاد الإيجابي في سبيل الله بالنفس والمال. إن النبي صلوات الله عليه كان طبعا يجاهد في سبيل الله بالنفس منذ الأول بتعريضه نفسه الشريفة للخطر الشديد في تبليغ الدعوة قبل الهجرة. أما المسلمون قبل الهجرة فكان جهادهم جهاد المستضعفين: كان جهاد صبر على الأذى وتمسك بالدين رغم الاضطهاد، ومن يقرأ تاريخ الإسلام قبل الهجرة ير عجبا من أمثلة ذلك التمسك رغم الأذى البالغ والعذاب الشديد. لكن الجهاد في سبيل الله يجب ألا يقتصر على الجهاد السلبي، جهاد الصبر على الأذى من غير مقاومة إيجابية للمؤذين. صحيح أن المسلم يجب أن يتمسك بدينه وأن يعمل به رغم كل المثبطات ورغم كل الصعاب لكن يجب عليه أيضاً ألا يقر للذل، ولا يقيم على الضيم، فإن الإسلام دين عزة (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين). فإذا وُجد المسلم بدار مذلة، لا يستطيع أن يقيم فيها دينه كما يجب أن يقام، وجب عليه أن يهجر تلك الدار ولو عزت عليه، وأن يهاجر منها إلى حيث يستطيع أن يعبد ربه ويقيم دينه حرا عزيزا لا يخضع إلا لله، ولا يرى لأحد حقا عليه إلا بحق الله

وهذا هو درس الهجرة الأول. لقد هاجر النبي صلوات الله عليه من مكة وهي أحب بلاد الله إليه، وهاجر المسلمون الأولون وقلوبهم تتلفت إلى ما خلفوا وراءهم من الأهل والمال والوطن. تتلفت ولكن لا تؤثر على الدين من ذلك كله شيئا. إذا لم يمكن إعزاز الدين وإحياؤه وإقامة أحكامه إلا بمفارقة ما يعز من أهل ومال ووطن، فليفارقه المسلم ويهاجر في سبيل الله فراراً بدينه وطلباً لإعزازه. (ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مُراغماً كثيراً وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله) وصدق الله

إن واجب الإنسان الأول هو واجبه نحو خالقه الذي خلقه ورزقه الأهل والولد والمال والوطن. الأهل والولد والمال والوطن والنفس من اجل نعم الله على الإنسان، لكن من الحمق أن يجعل الإنسان نعم الله عليه سبباً لمعصية الله أو الكفر به، من الحمق المطبق أن

يؤثر الإنسان على ربه شيئا مما وهبه ربه، فإيثار الدين على كل ما يعزه الإنسان من مال وأهل ونفس ووطن هو درس الهجرة الثاني، الذي يجب أن يتعلمه المسلم ولا ينساه، هما درسان عظيمان من دروس الهجرة النبوية الكريمة يجب ألا ينساهما المسلم: درس عدم الإقرار للذلة في الدين بأي صورة أو لأي سبب، ودرس إيثار الله ودينه على كل شيء مما خلق الله ومما يعلق به قلب الإنسان

إن قلب المسلم يجب ألا يستشعر خوفا غير خوف الله، ولا رجاء إلا رجاء الله الذي خلقه والذي له مقاليد السموات والأرض وبيده نواصي العباد. هذا هو التوحيد المطلق، وهذا هو الإسلام لله، ومدى التفاضل والتفاوت في هذا واسع عظيم كما نرى، لكن على المسلم أن يجتهد في تحقيقه ما استطاع. عليه أن يحب الله فوق كل شيء؛ ويؤثر الله على كل شيء، ويضحي في سبيل الله إذا لزم الأمر بكل شيء، ولو اقتضى ذلك الخروج في سبيل الله عن المال، والتضحية في سبيل الله بالنفس والأهل والمهاجرة في سبيل الله عن الوطن، إن كان الوطن مما لا يستطيع المسلم أن يقيم فيه الدين

لكن من فضل الله علينا وعلى المسلمين اليوم أن عافانا من ذلك الامتحان الشديد، امتحان ترك الوطن في سبيل الدين. فوطننا والحمد لله وطن إسلام وليس وطن كفر، وهو والحمد لله وطن أمن للدين والمتدينين وليس وطن اضطهاد كما كانت مكة حين هاجر منها الرسول صلوات الله عليه. فموقف المسلمين اليوم في هذا البلد وفي كل بلد مسلم ليس هو موقف الرسول صلوات الله عليه والمسلمين في مكة قبل الهجرة، ولكن هو موقف الرسول صلوات الله عليه والمسلمين في المدينة بعد الهجرة. أعزوا الإسلام فيها ودافعوا عنه كل مهاجم أو مغير، ولم يقبلوا لحظة واحدة أن تكون كلمة في مدينتهم فوق كلمة الله، أو يكون الحكم في أرضهم إلا لله، وهذا هو واجب المسلمين الآن، واجبهم أن يعزوا دين الله في بلادهم كما أعزه رسوله والمؤمنون

الأولون، فلا يقبلوا في دينهم مطعناً، ولا لأحكامه مخالفة، واجبهم أن يثبتوا في بلادهم ويثبتوا الإسلام فيها كما فعل النبي في المدينة، وأن يدفعوا عن دينهم وبلادهم كل مهاجر ومغير
وليس الدفاع عن الإسلام وبلاده بالسيف والمدفع فقط. هذا هو آخر الدفاع، لكن أول الدفاع وأهمه هو الدفاع عن روح الإسلام في بلاده. إن روح الإسلام إذا ضعف في المسلمين فلن
يتحملوا في سبيل الإسلام أذى ولا جهداً، فضلًا عن أن يريقوا في سبيله من دمائهم دماً. إن روح الإسلام وحبه يجب أن يتغلغل في قلب كل مسلم، فإن تغلغل فسيحرص المسلمون على إقامة الدين وسيعرفون كيف يعزونه ويعزون أنفسهم به
لكن أنى لروح الإسلام أن يتمكن من قلب المسلم وهو يجهل الإسلام ولم ينشأ فيه؟ إن النشأة والتربية هي التي تصبغ الناشئ بصبغتها وتوجهه في الحياة. والنشأة الإسلامية مفقودة في الأقطار الإسلامية منذ أمد طويل، ولو كانت موجودة كما ينبغي أن توجد، لعرف المسلمون دينهم كما ينبغي أن يعرفوه، وإذن لعرفوا كيف يحبونه ويعزونه كما ينبغي أن يحبوه ويعزوه. إذن لعرفوا كيف يدفعون شر العوامل الكثيرة التي تحاول أن تضعف الإسلام في نفوسهم وتغزوه في قلوبهم، ولعرفوا ماذا يقبلون من هذه المدنية الغربية المغيرة عليهم وماذا ينبذون. ليتهم عرفوا الإسلام! إذن لأدركوا أن المدنية الغربية ليس فيها ما يحتاجه المسلمون إلا هذا العلم الطبيعي التجريبي الذي هو ملك العقل البشري عامة، والذي ينبغي أن يكون ملكاً للأمم كافة، لأنه نتيجة استعمال العقل الصارم في بحث ما حلق الله وليس نتيجة العاطفة، فليس فيه شيء من خصائص الأمم التي تظهر عادة في آدابها. العلم التجريبي هو كل ما يحتاجه المسلمون من هذه المدنية الغربية. أما اجتماعيات الغرب فليس المسلم في حاجة إلى شيء منها، لأن رب الشرق والغرب وخالق الخلق كلهم هو الذي شرع للمسلم وللإنسانية كلها أحكام الاجتماع وأصوله مفصلة في الإسلام، كما أجمل للمسلم وللإنسانية كلها أمر طلب العلم الطبيعي في القرآن إجمالاً هو أشبه شيء بتفصيل
لكن إذا كان شباب المسلمين قد فاتهم أن يربوا تربية إسلامية، فإن عليهم أن يتداركوا من ذلك في أنفسهم ما ضيعه الناس. ولا يسوفن في هذا، فإن الأمر ليس أمر حياة أو موت، وعزة أو ذلة، في الدنيا فقط، ولكن هو أمر سعادة أو شقاء إلى الأبد في الآخرة. ولا يقولن إن الفرصة فاتت ماداموا لم يتعلموا الدين على وجهه في المدارس. إن الفرصة موجودة والطريق إلى تدارك ما فات مفتوح بسيط ممتع. أو يدري المسلمون وشباب المسلمين ما هو؟ قراءة سيرة الرسول صلوات الله عليه، وقراءة القرآن، وقراءة الحديث! ثم بعد ذلك أو بين ذلك قراءة تاريخ الخلفاء الراشدين
إن القارئين من شباب الإسلام من بنين وبنات يقبلون على قراءة الروايات، فلماذا لا يقبلون على قراءة السيرة النبوية وهي تاريخ نشأة دينهم وحياة نبيهم؟ إنها أمتع من أي رواية صاغها الخيال، وهي بعد ذلك حق وقع، ومنها يعرفون من أمر دينهم، كيف نشأ وكيف نما، ما لا يعرفه كثيرون ممن لم يدرسوا الدين إلا في كتب الفقه والأحكام ثم إنهم يقرأون الأدب العربي: يقرأون لأدبائه المحدثين وقد يقرأون للأقدمين. فلماذا لا يقرأون الأدب السهل الخالص البالغ في كتب الحديث؟ إن كتب الحديث الصرف ليست كتب حواش وشروح كتلك التي يتصورها الشبان تدرس في الأزهر. إنها كلام الرسول صلوات الله عليه يحادث أصحابه: يأمرهم وينهاهم ويعظهم ويهديهم ويشير عليهم فيما يستشيرونه فيه من أمور الحياة. إنها أنفع لطلاب الأدب من أي أدب آخر يمكن أن يقرأوه أو يدرسوه، لأن أمور الحياة كلها يتناولها ذلك الكلام الكريم بأعذب لفظ وأسهل أسلوب: لفظ الرسول صلوات الله عليه وأسلوبه في تبليغ رسالة الله للناس ليأخذ شبان المسلمين أي كتب الحديث الصحيحة شاءوا. ليأخذوا البخاري مثلا وليقرأوه تاركين الأسانيد، أو ليبدأوا بقراءة مختصر البخاري المسمى (مختصر الزبيدي) المحذوف منه الأسانيد الطويلة والأحاديث المكررة، ثم ليرجعوا بعد ذلك إلى البخاري نفسه إذا شاءوا، إذن لرأوا العجب العجاب من فصاحة العربية وبيانها إن كانوا طلاب فصاحة وبيان، ولفقهوا من أحكام الدين وروحه ما لا يفقهه أو يعرفه إلا الذين استقوا من هذا الورد العذب الفياض، وكل ذلك في غير كلفة أو عناء
ثم القرآن! لماذا لا يقرأ الشباب الإسلامي القرآن؟ لماذا لا يجعلون لأنفسهم حصة ولو

قصيرة يقرأونها من القرآن كل يوم؟ لماذا لا يمضي المسلم يقرأ من القرآن كل يوم شيئا يسيراً حتى يتم القرآن كله في الزمن الذي يتمه فيه، قصر أو طال؟ إن القرآن كلام الله عز وجل، حفظه الله للمسلمين وللإنسانية كلها من التحريف والتغيير رحمة للناس، فهل يغفل الشبان عن كلام ربهم سبحانه فلا يقرأونه وهم يقبلون على دراسة كلام الناس؟ ليقرأوا القرآن - فالقرآن سهل يسره الله للذكر - وإذا لم يفهموا كلمة منه فعندهم القواميس، وإذا لم يفهموا آية فليسألوا عنها أهل البصر بالدين. إن فعلوا - وحياتهم ونجاتهم في أن يفعلوا - فسيشعرون، إذا قرأوا القرآن وتدبروه بطهارة نفس واطمئنان قلب لا يجدهما من لا يقرأ القرآن

ليقرأ المسلمون القرآن والحديث وسيرة الرسول وتاريخ الخلفاء الراشدين، عندئذ لا يخشى المسلمون على شبابهم فتنة، ولا تعلق بنفوسهم شبهة، ولا يغلب الإسلام على قلوبهم غالب. عندئذ يستطيعون أن يقوموا بحق الدين بإحسان الدفاع عنه والعمل به، ويعرفون أي نعمة أنعم الله بها عليهم وعلى الإنسانية كلها حين أرسل صاحب الهجرة صلوات الله عليه رسولا منه إلى الناس.

محمد أحمد الغمراوي

بين الذكرى والعبرة

معجزة الإسلام الخالدة

للأستاذ محمد عرفه

(شعب يظهر على شعوب، ودين يعلو على أديان، وحضارة تغزو حضارات، وقوة معنوية تزلزل الأرض وتهد الجبال)

يعجب كثير من الناس كيف استطاع محمد صلى الله عليه وسلم أن يفتح بفئة قليلة من المهاجرين والأنصار الحصون التي كانت حول المدينة ومكة؛ وأن يظهر بهم على إقبال الجزيرة العربية ورجالاتها، وعلى عقائدها وعاداتها؛ وأن يرفع بهم في غيابة الجهل، وضلال العقل وحيرة الإنسانية، لواء الحق والفضيلة، والخير والرشاد، فينشر في أرجاء الجزيرة، بهذه الفئة الصغيرة، هدى السماء، وشريعة التوحيد، ويأتيه أهلها طائعين، يدخلون في دين الله أفواجا؛ ثم كيف استطاع أصحابه بعد أن فتحوا بهؤلاء دول العالم القديم: فارس والروم وبلاد السند ومصر وأفريقية والأندلس. . . وقد كانوا أقل عدة، وأضعف جندا، وأقل دراية بفنون الحرب، ودربه على أساليب القتال - من أمة كفارس والروم.

يعجبون من شأن هؤلاء المسلمين الأولين، لقد كانوا بين تلك الدول والشعوب، وهذه الحضارات والمدنيات، كالشعرة البيضاء في فرس بهيم، وكالطفل الصغير يصارع شجاعاً جباراً.

ولكني لا أعجب عجبهم؛ بل أعجب كيف لم يفتحوا الأرض جمعاء، ثم يحاولوا بعد ذلك فتح السماء؟

كيف أعجب من ذلك؟

لعلي أغفل قانون الكثرة، والقوة المادية، والفنون الحربية

لعلي أغفل البروج المشيدة، والحصون الشامخة، والعساكر والدساكر، والمدن والذخائر، والقوة والمنعة، والعزة والشوكة، والعلم والرأي، والفن والتدبير. . .

لا، لست أغفل شيئا من هذا كله، فقد جعلت لكل أمر قدراً؛ بيد أني لم أغفل القوة المعنوية، فقدرتها حق قدرها، ووازنت بينها وبين كل ذلك؛ فرأيتها ترجح بها كافة. كانت القوة المعنوية في جانب، وكانت القوة المادية في آخر وكان من الحتم أن تتغلب القوة المعنوية على كل شيء عداها. . .

كان في هذه الفئة القليلة من المسلمين قوة معنوية، بعثها فيهم دينهم، وأججها في صدورهم نبيهم، فأتت أكلها كل حين بإذن ربهم، وظهرت بها معجزات الإسلام الخالدة على يد هؤلاء البواسل الأرواح حتى فتحت أرضاً، ونشرت دينا، وفرضت لغة على هؤلاء الأقوياء الظاهرين في الأرض، ثم بعثت الحضارة والمدنية والثقافة والعرفان في الشعوب جميعاً

إنه لخليق بالباحث أن يتبين هذه القوى المعنوية التي كانت تخفق بها قلوب المسلمين، والتي أتت بهذه المعجزات الباهرة الخالدة بعد قليل من السنين لقد فتشت عنها، وبحثت عن مصادرها ومظاهرها، فرأيتها تتجلى فيما يأتي:

الإيمان - 1

آمن المسلمون بشريعة الإسلام؛ وآمنوا بأنهم على حق في عقائدهم وآرائهم وأعمالهم، والناس جميعاً على باطل، ومن حق هذه العقائد الحقة، والآراء الحقة، والأعمال الحقة، أن تعم للبشر وان يؤمن بها الناس جميعاً؛ وآمنوا بأنهم خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقيمون الإنسانية السعيدة على أسس العدالة والحق والسلام. لقد آمنوا بأنهم مصلحو البشر، وهداة الكون، وأنهم إن مكن لهم في الأرض بعثوا فيها هدى ونوراً وعدلاً، وأنقذوها من يد الظلم والوحشية، وحرروها من استبداد الطغاة وقسوة القساة، وغطرسة المتزعمين والمتكبرين (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله). (الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر)

وآمن المسلمون مع ذلك بأنهم منتصرون فائزون، لأنهم على حق، والحق لابد ظافر منصور، يستوي في درك ثمرة النصر الأموات والأحياء، فكل موقعة تقع، وكل حرب تشب نارها، هم فيها الرابحون، وأعداؤهم هم الخاسرون، فالمجاهدون من المسلمين إما أن يقتلوا أو يقتلوا، فمن قتلوا فلهم الفوز بالسعادة الآخرة الباقية، يستبشرون بنعمة من الله وفضل، وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين، ومن قتلوا فلهم النصر والبقاء في الارض، والعزة والدولة

لقد غرس هذا الإيمان المتشعب النواحي في نفوس المسلمين كتابهم الحكيم، ورسولهم الكريم. بعث فيهم الله روح القوة والرجولة، والإباء والبطولة، ووعدهم بالنصر المؤزر والفوز المبين (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلوْن إن كنتم مؤمنين). (أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون)، وزاد الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الروح فيهم اشتعالاً بقوله وفعله. أفلم تسع قريش إلى عمه برجالاتها ووجوهها يناشدونه البقيا على الرحم، والحفظ للجوار، وكف محمد عن تسفيه أحلامهم والسخرية بأصنامهم، فطلب أبو طالب من إبن أخيه أن يبقى عليه وعلى نفسه وألا يحمله ما لا يطيق من عداوة قومه، وخصومة أرومته، فثار هذا الداعي الكريم، ونطق هذا الروح العظيم: (يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته، حتى يظهره الله أو أهلك دونه). وكان هذا القول الفصل بين قريش وبين محمد الرسول الكريم. وضرب بهذا أروع مثل للأجيال السابقة واللاحقة

وقبس المسلمون هذه الروح، فتجلت في أسارير وجوههم، ورسمت على صفحات قلوبهم، وبدت في كلامهم، وفي أفعالهم، كأنها الشهاب الثاقب، أو الصبح المبين فهذا رسول الله يستشير المسلمين في محاربة قريش وقد خرج للقائهم في غزوة بدر الكبرى، فيقول: (أشيروا عليّ أيها الناس). فينطق سعد بن معاذ: (والله لكأنك تريدنا يا رسول الله). فقال: (أجل). فقال: (يا رسول الله، لقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا، إنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر على بركة الله)

وهذا زيد بن الدثنة يرسله النبي صلى الله عليه وسلم في رهط من الصحابة مع وفد من العرب ليقرئوهم القرآن ويعلموهم شرائع الإسلام، فيغدر هؤلاء الأعراب في الطريق بزيد وأصحابه، يقتلون بعضاً ويأسرون آخرين؛ ثم يبيعون زيداً لقريش لتقتله بدل من قتل رجالها بيد المسلمين؛ ويقول له أبو سفيان حين قدم ليقتل: أنشدك الله يا زيد، أتحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك تضرب عنقه وأنك في أهلك؟ فيجيبه زيد: والله ما أحب أن

محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه نصيبه شوكة تؤذيه وأني جالس في أهلي

هؤلاء هم المسلمون، آمنوا فلم يقف في طريقهم شيء في الأرض، وساروا كالسيل العرم لا ترده سدود ولا عقبات، فتنوا في دينهم وعذبوا ونكل بهم وشردوا في الأرض وأخرجوا من ديارهم وأموالهم، فما وهنوا ولا استكانوا ولا ذلوا ولا أخلدوا إلى الأرض، بل صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلا

الاتحاد والألفة - 2
وترى القوة المعنوية في اتحاد المسلمين الأولين وتوادهم، كما رأيتها في إيمانهم ويقينهم، فقد اتحدت قلوبهم، وتحابت نفوسهم، وصاروا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا، وأصبح المسلمون جميعا جسما واحدا، سرت فيه روح واحدة قوية، فكان يشعر بشعور واحد، ويفكر بفكر واحد، إذا اشتكى عضو منه تألم له سائر الأعضاء
وقد بلغ من ذلك الاتحاد المتين والمحبة الصادقة أن أخي رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار حين نزل المدينة ليذهب عن المهاجرين وحشة الغربة، ويؤنسهم من مفارقة الأهل والوطن، ويشد أزر بعضهم ببعض، فكان الأنصاري يقسم ماله بينهم وبين المهاجر، ويؤثره على نفسه ولو كان به خصاصة
وقد ضرب المسلمون في هذا السبيل أبلغ الأمثال للأمم التي تصبو إلى المجد والسؤدد، فكان عطف بعضهم على بعض، ومواساة الغني للفقير، والبرئ للمريض، وتوقير الصغير للكبير، وحنان الكبير على الصغير، كان كل ذلك مضرب الأمثال في مشارق الأرض ومغاربها، ولا يزال ذكراً جميلاً لهؤلاء الأمجاد الأبطال، والأجواد السروات الغطاريف
أين نحن من هؤلاء؟ وأين الأرض من السماء؟ لقد خلف من بعدهم خلف أضاعوا إيمانهم، وبددوا اتحادهم وألفتهم، فتفرقوا شيعا، وتمزقوا بددا، فضعفوا عن كثرة، وذلوا بعد هذه العزة الرفيعة المنيعة
فإذا شاء المسلمون أن يعود لهم مجدهم الباذخ وعزهم التليد، فليبحثوا عن إيمانهم الذي فقدوه، وعن اتحادهم الذي بددوه، وعن ألفتهم التي أضلوها، وليكملوا أنفسهم بهذا تعد الذلة عزة، ويصير الضعف قوة، وترجع إليهم العظمة الدائرة، والسؤدد الدارس
ليؤمن رجال الدين أنفسهم كإيمان السالفين، إيمان قوة وعزم، لا إيمان ضعف وذلة؛ فمجرد
التصديق لا ينقل قدما ولا يحرك ساكنا. إنما الإيمان هذه الحركة المتقدة، والنار الملتهبة، والحمية للحق، والمحبة للبشر، والإخلاص لله، والغيرة أن تنتهك حرماته، وتستباح محارمه، وتعصى أوامره؛ إنما هو العمل على أن يأخذوا بأيدي الناس من الظلام الدامس إلى النور المبين. . . ومتى عاد هذا الإيمان إلى أهل الدين أنفسهم أعادوه إلى الناس جميعا
وإذا أردنا الألفة والمحبة - لنستعيد الماضي المجيد، ونؤسس المستقبل الجديد، . . . على عبر اليوم وعظات الأمس - فلننظر بماذا ألف الإسلام بين قلوب أصحابه، وبماذا غرس فيها المحبة والإخاء؛ لقد جمع الإسلام بين قلوب المسلمين بنزع أسباب الفرقة منهم. كان العرب قبائل متعددة كل قبيلة وحدة يرأسها، يتعصب المرء لقبيلته، وتعادي كل قبيلة الأخرى، فكان بأسهم بينهم شديدا، وحطموا أنفسهم بأيديهم، ووأدوا سؤددهم بلجاجهم في الخصومة والفرقة، وأضعف بعضهم بعضا فضعف الجميع. ثم جاء الإسلام فوسع أفقهم الضيق، وبعد أن كان المرء يرى نفسه فرداً من قبيلة، أصبح يرى إنه فرد من أمة، ورأى الجميع أنهم أعضاء أسرة أوسع، هي أسرة الإسلام؛ وخاف الإسلام أن يعودوا إلى ما كانوا عليه أشلاء ممزقة وقبائل متفرقة، فقسا أعظم القسوة على من يعيد روح التعصب إلى القبيلة جذعة، وعد هذا ذنباً خطيراً وإثماً كبيراً
فلنتبع المنهج الذي ألف به الإسلام بين المسلمين، ولنطبق سياسته الحكيمة الرشيدة من جديد، فسترون المعجزة تتجدد، والرجاء يتحقق، والحياة تبسم لنا، والمجد يصافحنا بعد عبوسها وجفائه
لست خيالياً أسعى إلى توحيد المسلمين جميعا قبل اتحاد الأمة الواحدة منهم، فأطلب الكثير وقد عجزت عن القليل، وأطلب للفرع مضيعاً الأصل
كل أمة من الأمم الإسلامية قد قطعّت أحزاباً، وفرقت شيعاً، ففي مصر لا يتحد المصري، كل يرى نفسه فرداً من حزبه، قبل أن يرى إنه فرد من أمته، وفي الأمم الشرقية الشقيقة كما في مصر من الفرقة والانقسام.
علينا أن نداوي هذا الانقسام الداخلي أولاً، فإذا أحرزناه سعينا إلى الاتحاد الخارجي لقد كان من شرور الحزبية ما سمعتم أولاها وشاهدتم أخراها، حرب وانتقام، وكراهية وانقسام، وإغداق على الشيع والأنصار بالمناسب والألقاب ولو كانوا غير أهل، وحرمان

للآخرين ونقمة عليهم ولو كانوا من ذوي الكفايات
من طاوع العصبية الحزبية فانظروا إليه شذراً واعلموا إنه داعي فرقة وانقسام؛ انظروا إلى الحزبية كما تنظرون إلى الداء المهلك المبيد، والشر الماحق المبير، إنها قطعت أوصالا ومزقت شملا، وزرعت أحقادا ورفعت جهلا، وأقصت علماء وقربت جهلة، إنها أبعدت المصلحة العامة وأدنت المصلحة الفردية الحقيرة الزائلة
حرّموا يا قوم النظر الحزبي، كما حرم الإسلام النظر القبلي، وكونوا أفرادا من أمة لا شيعة من أحزاب
الإيمان والاتحاد
خطوا عليهما يا قوم مجدكم، وارفعوا بهما مستقبلكم تتجدد المعجزة مرة أخرى (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون).
محمد عرفة
فداء الصلح
أبو جندل سهيل بن عمرو
للأستاذ شكري فيصل
جلس أبو جندل بن سهيل بن عمرو في غرفته، وقد طغى الليل على مكة، فلفها برداء من الصمت والسكون؛ فما تسمع فيها إلا همسات الريح، وحديث النجوم؛ وحفيفاً خفيفاً تبعثه أشجار النخيل من أعماق الوادي، كأنها بث الشكاة، أو نجوى المحبين واستسلم الفتى الجريء إلى نفسه؛ وأسلس قياده إلى الذكريات تحمله على جناحيها الرفيقين. . . فتخرج به من هذا الأسر الذي أراده له أبوه، واضطره إليه، لتطوف به في دنياه الحبيبة من الأرض، حيث يشرق النور، وتشع الهداية، ويتنزل الوحي، ويعيش النبي الكريم في طائفة من المهاجرين المجاهدين، والأنصار المدافعين، والصحابة الذين آمنوا بهذا الدين؛ فوهبوا دمهم له، وهجروا عشيرتهم من أجله. . .
وعرضت لعينيه صور، وتدافعت في نفسه أخيلة؛ واتقد في قلبه الحنين؛ وبكى. . . بكى لأنه بعيد عن رسول الله؛. . . وأين منه يد رسول الله تمسح آلامه، وتبارك إيمانه، وتشع في قلبه الراحة والهدوء؟!. . . إن بينه وبينه لآماداً بعيدة؛ ولقد صدوه عن هجرته إليه، وأقاموا من دونه الأرصاد والرقباء؛ ورموا به في هذه الغرفة الضيقة، لا يملك أن يخرج منها أو ينصرف عنها
وتناثرت دموعه على خديه، كقطرات الندى الناعمة. . . فبللت الشعرات المبعثرة على أطراف وجهه، وفي أسفل ذقنه، على غير نظام، كالنبت السائب. . .
ومضى في هذه التأملات العميقة، واستغرق فيها. . . وعاش ساعاً من الزمن، في دنيا الذكريات، وظلال النبوة، وعبق الإسلام. . . وأحس النشوة تجري في عروقه، وتسري في دمه، ورفع بصره إلى السماء، يسأل الله العافية في دينه أن يفتنه عنه أهله وذوو قرباه. . .
ولم يطل به هذا السكون، فقد سمع حركة خفيفة في صحن الدار؛ فقام يسترق الخطو إلى النافذة. . . فإذا فتاة في ريق الشباب ومقتبل العمر، تشق ظلام الليل باشراقتها الرائعة، فيرى لعينيها بريقا، ولجبينها وضاءة، وإذا هو يتحسس في صوتها صوت أخته، فيقبل على الباب يفتحه؛ وما يلبث أن يتبينها حتى يرتمي يقبلها، وترتمي تقبله، في حنان الأخوة،
واتقاد العاطفة؛ وحماس الحب
لشد ما كان يذكرها في أيامه ولياليه!. . . فقد أنس ألواناً من وفائها الحنون، وبرها الجميل؛ حين كان يشتد عليه أذى أبيه، سهيل بن عمرو، فيدفع به إلى رمضاء مكة؛ في لهب الظهيرة واشتداد الهاجرة، مع طائفة من المستضعفين يكتوون باللظى المشبوب، ويلتوون فوق الرمل المكروب، ويذوقون أصناف العذاب الأليم، ليرتدوا عن هذه البدعة التي ابتدعها محمد، فما يزيدهم ذلك إلا إيماناً فوق إيمانهم العتيد ويجلس إليها. . . ويلقى إليها برأسه، فتمر عليه بيديها الناعمتين، تهدهد أحزانه، وتكفكف أشجانه، وتبعث فيه العزم
ويسألها عن أبي بصير عتبة بن أسيد بن جارية، وعن أم كلثوم أخت الوليد، وعن فلانة وفلان، من جيرانه وإخوانه. . . هل ثبت الله أقدامهم، فصبروا على العذاب، وصمدوا للفتنة؛ وسكتوا على الإهانة؟!. . . ويستنطقها خبر (يثرب) والنبي؛. . . وهذا النور الذي

يغالب الظلمات، ويكافح الضلالات ويخترق السحب. . . ما شأنه؟!!. . . ألم تلمح سناه في أفق مكة؟. . . ألم تر بريقه في سماء البيت الحرام؟. . . ألم يبلغ بعد هذا الوادي غير ذي الزرع؛ فينبت في حفافيه الإيمان؛ وينشر في أجوائه الرحمة؛ ويفجر من حجارته الصلدة القاسية ينابيع الخير والحكمة؟. . .

وتتحرك نفسه لهذا الأمل الخاطف يلمع في خاطره، وهذه الأخيلة الفاتنة تداعب روحه الحزين، فيهتز هزة الواثق المطمئن ويتحرك. . . فتسمع لحركته أصوات الأغلال في رجليه. . . فتذعر أخته، ويتملكها الخوف، وتخشى أباها أن تصل إلى سمعه هذه الحركة في هدأة الليل فيكشف من أمرها ما أخفته عنه وتطلب إلى أخيها أن يستقر في مكانه فإن لها معه لحديثاً؛ وإن الكلام ليتدفق في فمها فلا تعرف كيف تبدأ

وينصت أبو جندل إلى أخته، وقد أحس هذه الكلمات تتواثب على شفتيها؛ وأدرك أن وراء هذه الزيارة المفاجئة في حلكة الظلمة وامتداد الليل لأمرا جللا. . . فلعل الله جاعل له فرجا. . . ولعل السماء قد أنصتت إلى صلواته الخاشعة في ساعات النسمة الهادئة

وتلتفت أخته هنا وهناك. . . كأنها تخشى الرقباء؛ ثم تنهض إلى النافذة، وتلقي نظراتها التائهة على غرف البيت وصحن الدار، وتجلس لتحدثه في همس رفيق:

- إن مكة يا أخي لتنام منذ أسبوع في مهاد من القلق، وإنها لتتقلب على الشوك. . . فما تدري ما هي صائرة إليه. . . لقد نمى إليها أن محمدا غادر المدينة (وأنه استنفر العرب ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه)؛ وأنه سار نحوها في سبعمائة رجل. . . يقول إنه يريد زيارة البيت. . . فما تصدقه قريش في دعواه

وتنبسط أسارير أبي جندل. . . وتملأ شفتيه ابتسامة عريضة وتتواثب الآمال في صدره؛ وتتراءى له هذه الجموع في طريقها إلى مكة، ويهم ينادي: (الله أكبر). . . ولكن أخته لا تلبث أن تضع يدها على فيه، تسأله أن يكتم الفرحة الطافرة، ويكبت الصيحة الظافرة؛ ويخفي هذا المرح الشديد. . . فما يرضيه أن يسلط عليها سهيل أبوه سوط العذاب

ويتظاهر أبو جندل بالخضوع للرجاء، ويتمنى عليها بقية الحديث، ويسألها:

- وماذا فعلت قريش يا أختاه؟

- لقد خرجت حين سمعت بمسيره بالعوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمور، وقد نزلوا بذي طوى يعاهدون الله لا يدخلها عليهم أبداً، فلما رأوا أن النبي قد خالفهم عن طريقهم رجعوا منذ أيام إلى مكة، واستقبلهم الناس في فتور، وما أدري ماذا صارت إليه خيل قريش يا أخي. . . لقد كانت زاهية فخورة، تقرأ في وجهها النصر، فإذا هي اليوم كالحة كابية، ليس لها ذاك الزهو، ولا تلك الإشراقة النيرة. . . ترى ألست معي في أن ذلك هو أول الانحلال ومبدأ التراجع، وطلائع الفتح المبين الذي نترقبه من بعيد؟!

- بلى يا أختاه. . . لينصرن الله محمداً ودينه. . . ثم ماذا كان؟

- لقد أوفدت قريش رجالها إلى النبي تستوضح نياته، وتتفهم غاياته، وتسبر أغواره. . . ولقد رجع هؤلاء الرجال يلهجون بذكر محمد ويقولون إنه (كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وأنهم لم يرو ملكا في قوم قط مثل محمد في أصحابه) ويتحدثون عنه أبرع الأحاديث، ويكبرون حجته، ويخشون قوته، ويعجبون ببيانه. . . فلقد قال لبديل إبن ورقاء حين جاءه مع وفد من خزاعة: (انه لم يأت يريد حرباً وإنما جاء زائراً للبيت ومعظماً لحرمته) وأقبلت علينا خزاعة تقول: (يا معشر قريش، إنكم تعجلون على محمد. إن محمداً لم يأت لقتال)

ولكنك تعلم عزة قريش، وهذه العصبية التي تعصف في نفسها، وهذه الحمية التي تتأجج في صدرها، وهذه الزعامة التي تتبوأها من العرب. وقد خشيت لذلك أن يتحدث الناس فيقولوا إن محمداً دخلها عليهم عنوة. . . فلم يطمأنوا إليه، ولم يسكنوا إلى غايته البريئة، فاتهموا وفد خزاعة وجبهوهم. . . ورأيتهم اليوم يتداولون الرأي، ويتبادلون المشورة، ويعقدون المجالس. فهذا أبوك يذهب إلى أبي سفيان؛ وهذا أبو جهل يسير في وقدة الظهيرة، فينتقل من بيت إلى بيت، وقد ركبه الغم وغشاه القلق، وعلت جبينه كآبة المهموم

- يا للبشرى يا أخت عبد الله! من لي بجناحين أطير بهما من هذا الأسر. . . فأكون مع النبي في عمرته وزيارته؟! فأين هو الآن يا أختاه؟ . . .
- إن محمداً وصحبه في (ثنية المرار) يا أبا جندل. . . وإنهم الآن إلى جانب تلك الشجرة الضخمة القائمة هناك. . . ألا تذكر لقيانا إياها في البكور والأصائل. . . والتجاءنا إليها في الظهيرة والضحى حين كنا نمر بها في طريقنا إلى الوادي. . . صغيرين نقسم باللات، ونقدس العزى، ونعبد الأصنام. . .؟! لقد وهبنا الله عقولنا، وبث فيها النور،. . . فآمنا. . . ولن يضيع الله إيماننا يا أخي. . . وسنجتمع إلى النبي، وسنصلي معه، وسنقرأ القرآن. . . وما أحسب إلا أن وثنية مكة تتضيف للأفول. . . وأن ظلامها سينجاب. . . وأن جبالها ستطفح بالنور الذي يملأ الأرض. . . فلقد اضطرب فيها الأمر فقام الحليس بن علقمة سيد الأحابيش يهدد قريشا فيمن يهددها، ويقول في البيت الحرام بملء فيه: (يا معشر قريش. . . والله ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم، أيصد عن بيت الله من جاءه معظماً له. . . والذي نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له، أو لأنفِرنّ بالأحابيش نفرة رجل واحد. . .)
- وهل خضعت قريش لهذا التهديد؟
- إن قريشا لا تدري ما تدع وما تأخذ يا عبد الله. . . وهي منقسمة مختلفة فيما بينها، لا يستقر لها رأي، ولا تستقيم لها خطة. . . وهذا (أبان بن سعيد بن العاص) يجير عثمان بن عفان رسول النبي، وقد وصل مكة اليوم. . . وصافحت عيناه أرضها بعد هجرة سنوات، وجاء يبلغ رسالة محمد إلى أبي سفيان وعظماء قريش. . . فتحتبسه قريش عندها، وتعقد ندوتها. . . ويخرج أبوك منذ الصباح الباكر. . . فلا يعود إلا مع الشعاعات التي كانت تودع المدينة، لتنام في أحضان الأفق. . . ويدخل غرفته لا يكلمنا ولا يتحدث إلينا. . .

ويستدعي أمك يطلب إليها أن تسرج فرسه، وتجمع بعض متاعه، فهو مسافر غدا إلى النبي في ثنية المرار

وتنتصب الفتاة قبل أن تنتهي من كلماتها الأخيرة. . . ويتطلع إليها أبو جندل، فيرى وجهها من جديد على أنوار القمر الضئيلة التي اخترقت النافذة العتيقة، فيود لو أنها بقيت إلى جانبه تؤنس وحدته وتطرد وحشته. . . ولكن الليل مضى إلا أقله. . . وهذا غبش الفجر في طرف السماء، وما من شك في أن أباه سيبتدر الصباح، وسينهض مبكراً ليبلغ النبي قبل أن ترتفع الشمس؛ وقد يمر به ويفتقده قبل غدوه، فليحرص على ألا يرى أثر أخته عنده. . .

وتقترب الفتاة من أخيها. . . وتلامس شفتاه جبينها الوضاء ويطبع عليه قبلته كأنما يشكر لها فيها هذا الحديث الشائق، وهذه البشرى الحلوة. . . ويهم بتركها لولا أن عارضاً مر بخاطره. . . لم لا يهرب من الأسر؟. . . إن أخته لتستطيع أن تعينه بما لها من حيلة، وإن فيه لبقية من عزم لم تأت عليها هذه القيود، وإن في قلبه لإيماناً يدك الجبال. . . وإن كبده الحرى ليذيبها الحنين إلى النبي والى الجهاد. . . وإن أباه ليسافر غداً؛ وستنزاح هذه الغمة الثقيلة التي تظلل سماءه فتفيض فيها الكآبة والعبوس وتتضح هذه الفكرة في رأسه وتتكامل صورها وأجزاؤها. . إن النبي قريب من مكة، فليمض إليه وليسع نحوه ليجد في كنفه الراحة والإيمان والخلاص ويهمس في أذن أخته هذه الكلمات. . . ويسألها في ضراعة ورجاء أن تعينه؛ فقد سئم هذه الحياة الصعبة وبرم بالقيد الغليظ، وإن الله لمنجيه. . . والنصر قريب فلن يلحق بها هي عذاب

ويبيتان الأمر. . . وتنصرف إلى غرفتها، وينصرف إلى فراشه. . . وينام. . . ملء عينيه الأحلام المخضلة، وملء رأسه الأماني الندية

وفي أصيل اليوم التالي كان النبي صلوات الله عليه في مجلسه مع سهيل بن عمرو، وبين يديه علي بن أبي طالب يكتب صلح الحديبية، وإلى جانبه أبو بكر وعمر وعبد الرحمن وسعد؛ وقد تناثرت في السماء قطع من السحاب الخفيف كأنها حمامات السلام البيضاء. . . وغشى الأفق لون وردي جميل من أثر الشمس المتضيفة، وكان يحس الناظر في جانب من جوانبه كتلة نور لا يستطيع أن يحدق فيها. . . والنسيم يروح خفيفاً هيناً يحمل السلام إلى كل نفس والهدوء إلى كل قلب. . . وجماعات الصحابة تقوم لوضوئها، وتستعد

لصلاتها، وتنعم بهذه الهداية الخالدة
في تلك الساعة سمع الناس جلجلة قيود، وأصوات أغلال؛ وأبصروا. . . فإذا شبح لا يبين. . . حتى إذا اقترب رأوا فيه (أبا جندل) يرسف في الحديد؛ وقد انفلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلب جواره الأمان، ويرجو السلام، ويبغي الحياة لله ورسوله. . . فيقبلون عليه بقلوبهم وأفئدتهم. . . وعيونهم تفيض من الدمع
ويدرك النبي الكريم كل شيء؛ وينتفض انتفاضة لا يحسها غير أبي بكر في جواره. فقد كان نفذت منه قوله: (هذا ما عاهد عليه رسول الله سهيل بن عمرو. . .) فماذا هو فاعل في أبي جندل؟
ويرى سهيل ابنه أبا جندل، فيقوم إليه (يضرب وجهه ويأخذ بتلبيبه) والمسكين ينظر إلى رسول الله وينادي: (أأرد إلى المشركين يفتنونني في ديني؟. . .)
ويخفق قلب النبي الرحيم وتطرف عيناه ويغشيهما الدمع؛ ويغمض جفنيه يحبسه أن يتذارف، وتتراءى له في هذه الإغماضة الخفيفة أنوار (جبريل)، وتنتشر من أمامه صفحات المستقبل ويبرز له يوم الفتح وقد أقبل (سهيل) يطلب جوار ابنه ويحتمي به، ثم تعرض له صورة سهيل بعد ذاك (كثير البكاء، رقيقاً عند قراءة القرآن) وتظهر له الجنة في خاتمة هذا الطواف وأبو جندل وسهيل أبوه إلى جنبيه، قد خرجاً من الدنيا شهيدين فيسري عنه، وتخالط أحزانه ابتسامة حلوة، ويتمتم بكلمات صامتة، ويقول: (يا أبا جندل. اصبر واحتسب. فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً. إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله وإنا لا نغدر بهم)
ويخالط الجزع قلوب المسلمين، وتمتلكهم الروعة؛ ويداخلهم الهم لمصير أبي جندل. . . ويقف هذا الشاب يتفرس في الوجوه، وقد اطمأن إلى وعد رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى. . . وتراءت له أيامه القريبة الغر، وقد انفلت من الأسر، وانضوى تحت راية الجهاد. . . وتبرق في نفسه بارقات الأمل، وينصرف بعد أن يقبل يد النبي، ويدس رأسه
في صدره
ويثب عمر بن الخطاب إلى جنبه وهو يقول: (اصبر يا أبا جندل فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب)
ثم لا تكون إلا لحظات. . . حتى يغيب الليل في برده الحالك هذا الفتى الصابر. . . فترتد عنه عيون الصحابة، ولكنها تظل تفكر فيه، وتتبع خطوه، وتتساءل عنه. . . ويسير هو إلى مكانه من البيت، والى موضعه من القيد، وإلى عذابه من المشركين
(القاهرة)
شكري فيصل
الله أكبر! هلكت خيبر!
للأستاذ أحمد التاجي
خرج النبي من المدينة لغزو خيبر في بقية المحرم من السنة)
السابعة وفتحها في صفر)
- 1 -
مر (كنانة بن الربيع) على (حيي بن أخطب) سيد بني النضير فرآه واجماً ينكت الأرض بعود في يده ثم يصعد الطرف بين الفينة والفينة في حصون خيبر
فقال كنانة: أرى هذه القرية قد راعتك بحصونها، وحلت من فؤادك محلاً. طبت نفساً وطابت خيبر!
قال حيي: وكيف تطيب نفسي؟ وهانحن أولاء منذ ثلاث سنوات نعيش في غير أوطاننا مشردين في الآفاق! ونحن الذين بنينا (يثرب) بأيدينا، فأصلحنا أرضها، وأجرينا ماءها، وغرسنا جناتها، وأقمنا حصونها؛ وترانا اليوم ننزل في غير دارنا، ونأكل من غير زادنا، لأن محمداً افتتحها علينا، وأخذها عنوة منا!
لله تلك الأيام العزيزة التي قضيناها هناك أعزاء أشداء!! كنا نقاتل الأوس بالخزرج، ونقاتل الخزرج بالأوس، ونسعر نيران العداوة بينهما ونمدهما بالأسلحة ويمدوننا بأموالهم فما يزالون في تناقص وفناء، وما نزال في نعمة سايغة، وسيادة دائمة. ولكن جاءنا ذلك الساحر الطريد، ففرقهم عنا ونفر موالينا ولا ندري كيف جمع بين

قلوبهم الفائرة، وغسل أحقادهم الثائرة وشفى جراحهم الناغرة، وجعلهم أمة واحدة يأكل بهم يهود والعرب
قال كنانة: ولكنا أحسن حالا من بني عمومتنا فلقد أخذنا من أموالنا ما تحمله دوابنا ونزلنا بخيبر هذه القرية ذات البروج المشيدة فأوينا إلى ركن شديد. أما بنو قينقاع فيا حسرتاه على ما أصابهم، فعندما أخرجوا من المدينة قصدوا (أذرعات) فتناولتهم أوبئة الشام، فما انقضى الحول على نسمة تحت الشمس منهم!
- ونسيت (قريظة) إن قلبي ليطفح بالنيران كلما ذكرتهم! ماذا جنوا حتى يحكم محمد السيف في رقابهم؟ ويح يثرب! خلت من يهود!
- وكأنك أنت الذي جنى عليهم يا حيي، حركتهم ليثوروا على محمد وينبذوا له عهده. وأطعمك في ذلك اجتماع الأحزاب عليه، ولكنه سرعان ما خذل الأحزاب. وفت في عضدهم، وسرعان ما انقلب محمد على بني عمنا، فشفى غيظه منهم
- أجل؛ وما أردت أن يطعن محمد بخنجرين، أقتلهما الذي يأتيه من وراء ظهره! ولكني كلما دبرت كيداً أبطله بسحره، وكأنه ملهم يوحى إليه!!
- أو تشك في أنه النبي؟! وأنت من أهل العلم والكتاب
- كلا، ما ارتبت فيه. ولكنه جاءنا من العرب وحسبناه من إسرائيل! كيف نتبعه فيعلو به أجلاف الأعراب على أهل الكتاب؟ لا ورب موسى لا نلقى إليه انقياد أبدا، وسنظل على بغضه وحربه حتى نفنيه أو نفنى دون ذلك.
- أتظن الرجل الذي خضعت قريش له وطلبت منه السلام في (الحديبية) ينكسر لنا؟ ما أظنه أسكت قريشاً إلا ليثور علينا وعلى قبائل العرب. أليس هو الذي يقول:
(أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا كلمة الإسلام فإذا قالوها حقنوا مني دماءهم)
- ولكن قريشاً لم تقلها
- ستقولها يوم أن يجلب عليها بخيله ورجله، ويخيرها بين الكلمة أو السيف
- ونحن أيتركنا ههنا؟
- أخاله سيتعقبنا
- أو بلغك نبأ؟
- أما من محمد فلا؛ كيف يدري الناس من أمره شيئاً وهو حول قلب؟ إذا أراد أن يحارب شمالاً أتجه جنوباً!
- ومن أدراك إذن بما تقول؟
- إنها رؤيا رأتها بنتك التي تحتي فأولتها
- صفية بنتي! إنها لترى وكأنها ترى بعينيها! ماذا رأت الخبيثة؟
- كأن قمراً من السماء سقط في حجرها
- إنه وايم الحق محمد!
- 2 -
لا هُمَّ لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا
فاغفر فداء لك ما أبقينا ... وألقينْ سكينةً علينا
وثبّتِ الأقدام إن لاقينا ... إنا إذا صيح بنا أبينا
وبالصياح عوّلوا علينا
على توقيع هذا النشيد المطرب، وترجيع صوت الحادي اللين سارت قافلة المسلمين تحت ظلال الراية البيضاء تتبع محمد إبن عبد الله، وما زالت تصعد وتهبط حتى تراءت للعين حصون خيبر شامخة تشق السماء وقد لفها غلس الدجى، وعلى قيد أميال منها وقف النبي يتأملها فوقف الركب معه، فرفع يديه يناجي ربه ويقول:
(اللهم رب السموات وما أظللن، ورب الأرضين وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما أذرين، فإنا نسألك خير هذه القرية، وخير أهلها، وخير ما فيها؛ ونعوذ بك من شرها، وشر أهلها، وشر ما فيها)
وأمضى المسلمون ليلتهم على مرأى منها، فلما أصبحوا قام النبي يقول:
(ألله أكبر، الله أكبر، هلكت خيبر! إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين)
وانطلق المسلمون يكبرون، وكأنهم كلما رفعوا بالتكبير أصواتهم، بالغوا في إظهار إخلاصهم لبارئهم، وإن من الجبال لما يهتز لتكبيرهم ودعائهم، وإن منها لما يتصدع من خشية الله

فقال لهم النبي: (اربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنكم تدعون سميعا قريبا وهو معكم)
وخرج عمال خيبر إلى مزارعهم فراعهم جيش المسلمين فرجعوا إلى أهلهم يصيحون:
- محمد والخميس!
وفزعت خيبر وأغلقت أبوابها، وظل المسلمون يحاصرونها ويضيقون عليها. ومن برج مشيد أطل (حيي بن أخطب) على جيش المسلمين فرأى الراية البيضاء في يمين (علي بن أبي طالب) فكأنما رأى ملك الموت يدلف إليه، فقال:
- تبا لكم! ألا فتى غير هذا يحمل اللواء؟
والله ما ذقنا العذاب إلا تحت لوائه؟
أخرجنا من بيوتنا بيثرب، وهاهو ذا جاء يخرب قريتنا!!
فلمحه الإمام يتكلم بصوت خفيض، فقال له:
- ماذا تقول يا عدو الله؟!
قال حيي: وماذا تريدون منا - معشر المسلمين - ألم يكفكم أن أخرجتمونا من ديارنا وأموالنا؟ فجئنا وحططنا رحلنا بهذه القرية، فما كدنا نستنبت ريشنا بعد أن قصصتم أجنحتنا حتى جئتم إلينا بخيلكم ورجلكم، فإلى أي أرض نهرب من شركم؟!
قال علي: ألست يا عدو الله الذي جمعت علينا الأحزاب من كل فج، فصرنا في أضيق من كفة الحابل، ولم تكتف بذلك حتى هجت قريظة فنبذوا إلينا عهدنا في ساعة العسرة فوقفنا بين شقي الرحى. وحسبت أنك بذلك قضيت علينا، ولكن الله ربنا مشتت شملكم، وكتب على أيدينا قتلكم
قال حيي: إنكم لن تصلوا إلينا، فأنتم في الأرض ونحن في السماء، إن سهمكم لن يخرق حجراً، وخيلكم لن تكون طيراً. فامكثوا ما شئتم وإن لنا في كنوزنا وخيراتنا لسعة
قال علي: أتحسب أن حصونكم ما نعتكم؟! إن الذي دك الجبل تحت أقدام موسى هو الذي يخسف بها الأرض. فنلتقي على سواء وكأني بكم يا بني النضير بعد ليال، فطاحت رؤوسكم، وأصبحتم طعمة للطير والسباع فأسلموا تسلموا
قال حيي: لن يأخذ منا وعيدكم شيئا
قال علي: وأنتم لا تعجزون لله، يا خيل الله اركبي!!
واستمر المسلمون أياماً يحاصرونهم، فلما أجهدوهم نزل اليهود إليهم يبارزونهم، فدارت الدائرة عليهم فأسرت رجالهم، وسبيت نساؤهم وذرياتهم
قال علي لحيي وهو مقدم للقتل: أأغنى عنك حصنك شيئا؟ لولا أويت إلى ركن شديد!
قال: وما هو؟
قال: ربك الذي نسيت، ودينه الذي أنزل! ونبيه الذي أرسل!
قال: خذ رأسي إن كانت لك به حاجة
قال: أجل، إن السيف ليضحك حينما يحز رقاب أعداء الله
وتقدم (دحية الكلبي) إلى صفية بنت حيي وقال لها:
تعالي يا ابنة حيي! لقد وجدت فيك عروسي التي أنتظرها فأمسك بيدها، فانفلتت منه كالمهرة العربية وقالت له:
ومن تكون أنت؟
قال: رجل من بني كلب
قالت: لست هناك! مالك وسيدة قريظة والنضير؟!
قال: ومن تنتظرين؟
قالت: القمر المنير!!
قال: أتطمعين في رسول الله!؟ لشد ما خدعتك نفسك، وحدثتك الأماني. أبعد علج من علوج يهود تطمحين إلى الطاهر الطيب؟!
قالت: إن الكريمة كفء الكريم
وسمع النبي بحديثها فاختارها لنفسه زوجا وجعل لدحية بنت عمها . . .
و ($) النبي بعد أيام بها، وهو في طريقه إلى المدينة تحت قبة ضربت لها. فلما انبثق نور الفجر وخرج النبي لصلاته، رأى (أبا أيوب الأنصاري) متوشحاً سيفه قريبا من بيته فقال له: مالك يا أبا أيوب؟

قال: يا رسول الله خفت عليك من هذه المرأة وهي امرأة قتلت أباها وزوجها وقومها وكانت حديثة عهد بكفر فخفتها عليك
فقال النبي: (اللهم احفظ أبا أيوب كلما بات يحفظني)
وحدث صفية بذلك فقالت:
ولله يا رسول الله لأنت أعز علي من أبي وأمي وأنا على دينك
- 3 -
وبانت قريش بمكة أخبار الرسول مع خيبر، وتمنت أن تدور الدائرة على المسلمين، فتكفيهم يهود شر قتالهم، وبينما كانوا يرصدون الطرق لعلهم يقفون على خبر يبل غلتهم، ويطفئ أوار غيظهم رأوا قادماً في شملة أعرابي من بعيد فتبينوه فإذا هو (الحجاج بن علاط السلمي)
قالت قريش: هذا لعمر الله عنده الخبر!
قال لهم: وما ذاك؟
قالوا: بلغنا أن القاطع خرج إلى خيبر وهي بلد يهود وريف الحجاز
- بلغني ذلك وعندي من الخبر ما يسركم
- إيه يا حجاج!
- هزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط، وقتل أصحابه قتلاً لم تسمعوا بمثله قط، واسر محمد أسراً، وقالوا لا نقتله حتى نبعث به إلى أهل مكة فيقتلوه بين أظهرهم بمن كان أصاب من رجالهم
فصاحت قريش طربا، وقالوا لأنفسهم: قد جاءكم الخبر! وهذا محمد إنما تنتظرون أن يقدم به عليكم، فيقتل بين أظهركم
قال الحجاج: فأعينوني على جمع مالي بمكة، وعلى غرمائي فإني أريد أن أقدم خيبر فأصيب من فل محمد وأصحابه قبل أن يسبقني التجار إلى ما هنالك
قالوا: لك ما تحب وترضى، وأعانوه حتى جمع ماله كله
فلما سمع العباس بن عبد المطلب الخبر جاء الحجاج وهو جازع وقال له:
- ويحك يا حجاج! ما تقول؟
- أكاتم أنت على خبري؟
- إي والله!
- فالبث على شيئاً حتى يخف موضعي، ثم سار إليه العباس فقال له الحجاج: الخبر والله على خلاف ما قلت لهم، خلفت رسول الله؛ وقد فتح خيبر، وخلفته والله معرسا بابنة ملكهم؛ وما جئتك إلا مسلما.
ولكن قريشا تحسبني لا أزال على دينها فاطو الخبر ثلاثا، حتى أعجز القوم. ثم أشعه، فإنه والله الحق
قال العباس: ويحك! أحق ما تقول؟
- إي والله
- ولكنك كذبت الناس، ودينك لا يسمح بالكذب
- استأذنت الرسول في أن أقول فأذن، وكانت حيلة لأجمع مالي وأخرج من بين أظهرهم إلى غير رجعة. والآن أذهب
- على عين الله
فلما كان بعد ثلاثة أيام تخلق العباس وأخذ عصاه وخرج يطوف بالبيت
قالت قريش: يا أبا الفضل! هذا والله التجلد لحر المصيبة
قال: كلا والله الذي حلفتم به، لقد فتح محمد خيبر وأعرس بابنة ملكهم، وأحرز أموالهم
قالوا: ومن جاءك بهذا الذي تزعم؟
قال: الذي جاءكم بما جاءكم به، ولقد دخل عليكم مسلماً، فأخذ ماله، وانطلق لمحمد وأصحابه ليكون معه
قالوا: يا لعباد الله! أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن! أولى له! انفلت عدو الله!
قال العباس: الله أعلم بعدوه ووليه. . .!
أحمد التاجي

من سجل البطولة
روعة التضحية
للأستاذ فريد عين شوكة
كان للخنساء أربعة أبناء أرسلتهم إلى الجهاد في سبيل الله)
فاستشهدوا جميعا في موقعة القادسية فقالت: (الحمد لله الذي
شرفني بقتلهم))
- 1 -
انتفض أهل السواد على المثنى في خلافة عمر، فهبت الدعوة)
إلى الجهاد)
الخنساء:
خبر لافح الشرر ... ناوح القلب فاستعر
ثارت الفرس ثورة ... زعزعت كل ما استقر
واستطالت فخربت ... كل ما شيد أو عمر
سيرى القوم في غد ... كل ما فيه مزدجر
يوم نسقيهم المنو ... ن ونرديهم الحفر
ونخلي حصونهم ... صفصفاً عافى الأثر
يدخل بنوها فيراعون لحالها:
إيه يا أم
الخنساء:
أقبلوا ... قد غدونا على خطر
صرخ الدين يبتغي الْ ... عون في الموقف العسر
أما علمتم جنود الفرس كيف بغوْا ... على المثنى فأجلوه عن الوادي
أحدهم: بلى علمنا
الخنساء:
فماذا صدَّ أنفسكم ... عن الجهاد وأنتم أهل إنجاد
أخفتم الحرب أن تطغى فأقعدكم ... حب السلامة عن بذل وإجهاد
كبيرهم:
رحماك يا أم حاشا أن يكون بنا ... ما تزعمين فإنا خير أجناد
وقد نكون حيال السلم في دعة ... لكننا في الوغى أشبال آساد
وقد صبرنا لنسعى في مضاعفة ... من الكتائب لا في بعض أفراد
الخنساء:
فأجمعوا أمركم وامضوا إلى عمر ... يخمد بكم نزوات الثائر العادي
فإن قتلتم فدار الخلد تجمعنا ... وإن رجعتم فعود الظافر الشادي
أحدهم:
سينفر اثنان منا
الخنساء: بل جميعكمُ
كبيرهم:
لا حاضر يرتضي ما قلت أو باد
ومن يعولك إن متنا وليس لنا ... مال تصيبين منه أقفر الزاد
الخنساء:
بَني أصيخوا إن في النفس حاجة ... سأفضي بها حتى أكون على رشد
لئن كان بغض الحرب منكم مخافة ... عليّ إذا أصبحت بين الورى وحدي
فلا تحفلوا خوفا وهبو إلى الوغى ... ففي الله معوان على النوب الرُّبد
يمينا لأنتم مهجة في جوانحي ... وعين أرى في ضوئها جنة الخلد
أخاف عليكم هبة السوء إن هفت ... وأفديكم بالروح إن عز من يفدي
ولكنني أرمي بكم دون رحمة ... إذا ما دعا داعي البطولة والمجد
إذا الوطن العاني أهاب بأهله ... فكيف تخاف الأم فيه على وُلدْ
كبيرهم:
كفى يا أم ملهبة فإنا ... سنمضي أجمعين إلى القتال

ونصرع في سبيل الله صرعاً ... تقَرُّ به السموات العوالي
الخنساء:
وداعاً يا بني ليوم نصر ... يضوي بالبطولة والجلال
- 2 -
(في ساحة فسيحة يعرض الخليفة عمر جيش المسلمين الذاهب إلى الحرب)
عمر:
مرحى رجال الوغى شيباً وشبانا ... حياكم الله أنصاراً وأعواناً
إني موجهكم للفرس
بعض الجنود:
ويلهمُ ... ومن يشايعهم كفراً وعصيانا
هيا بني العرب هيا
عمر:
بل رويدكم ... حتى أزودكم في الحرب تبياناً
لا تقتلوا الهرم الفاني ولا تخزوا ... مسالماً لم يَردُ للحرب ميداناً
ولا تمدوا يدا بالسوء لامرأة ... ولا تذيقوا طعام الموت صبيانا
الجنود: السمع والطوع
عمر:
فامضوا حول قائدكم ... واسعوا إلى الحرب أبطالاً وشجعانا
يد العناية تحدوكم وتحفظكم ... وأعين الله ترعاكم وترعانا
الجند يسيرون منشدين:
مرحىً صراع الردَى ... مرحىً قراع الخطوبْ
إنا جنود الفدى ... للوطن المحبوب
أهاب داعي الوطن ... بنا فلبيناهْ
فغبري يا محن ... وودعي يا حياه
فكل غال يهون ... في نصرة الأوطانْ
مهد الشباب الحنون ... وروحه الفينان
هيا بنا هيا ... هيا بني العُربِ
نطوي الفلا طيّا ... إلى رحى الحرب
(تسمع الخنساء بالنصر العربي فتسعى إلى لقاء البشير في دار الخلافة)
الخنساء: مرحبا بالبشير
البشير:
أهلاً تماضرْ ... فخر أماتنا وزين الشواعرْ
الخنساء: أنتصرتم؟
البشير: أعز نصر رجوناه
الخنساء:
لك الحمدُ يا مُذِلَّ الأكاسرْ
أيهذا البشير أثلجت صدري ... بأحب المنى وأغلى البشائر
فتحدث بعض الحديث عن الحر - ب فذكرى الوغى تهز المشاعر
البشير:
قد ركبنا القفار سعياً إلى الفر ... س كسيل ينصبُّ في الأرض هادر
فبعثنا الهيجاء واستبسل الجند ... وضجت بنا الجياد ثوائر
واستحر القتال وارتجَّت الأر ... ض وقد وافت القلوب الحناجر
كم أطيحت فيه الرؤوس قوار ... يرَ وفاضتْ به الدماء غزائر
ثم دارت رحى المنون على القو ... م فأهووا كطائر إثر طائر
وانتصرنا فكان نصراً عزيزاً ... زلزل المدن وقعه والدساكر
الخنساء:
عزت البيد كل أبنائها البُسل ... سيوف لدى الطعان بواتر

وبنيَّ هل أبلوا بساحات الوغى
البشير:
أبلوا بلاء لا يفيه جزاء
الخنساء:
ومن استطال به الزمان ومن ثوى ... بين الرجام
البشير:
جميعهم شهداء!
أحد الحاضرين:
لا تفزعي لمماتهم
الخنساء:
لا والذي ... يبقى وكل العالمين فناء
ليس بأموات فإن مماتهم ... في نصرة الدين الحنيف بقاء
ما مات من باعوا الحياة رخيصة ... لله بل هم عنده أحياء
فريد عين شوكة
العدد 349 - بتاريخ: 11 - 03 - 1940
عبقرية محمد السياسية
للأستاذ عباس محمود العقاد
السياسة على معان كثيرة في العرف الحديث. فمنها ما يكون بين بعض الدول وبعض من المراسم والعلاقات، ومنها ما يكون بين هذه الدول من معاهدات وخطط في أعمالها الخارجية، ومنها ما يكون بين الراعي ورعيته أو بين الأحزاب والوزارات من برامج ودعوات، ولكل معنى من هذه المعاني اصطلاحه في العرف الحديث، وإن جمعتها كلمة السياسة في اللغة العربية
وقد تولى النبي عليه السلام أعمالا كثيرة مما يطلق عليه لفظ السياسة في عموم مدلوله، ولكننا لا نعرف بينها عملاً واحداً هو أدخل في أبواب السياسة وأجمع لضروبها وأبعد عن المشاركة في صفة القيادة العسكرية أو صفة الوعظ العلني أو سائر الصفات التي اتصف بها عليه السلام من عهد الحديبية في مراحله جميعاً منذ ابتدأ بالدعوة إلى الحج إلى أن انتهى بنقض الميثاق على أيدي قريش
ففي عهد الحديبية تجلى تدبير محمد في سياسة خصومه وسياسة أتباعه وفي الاعتماد على السلم والعهد حيث يحسنان ويصلحان، والاعتماد على الحرب والقوة حيث لا تحسن المسالمة ولا تصلح العهود
بدأ بالدعوة إلى الحج فلم يقصره في تلك السنة على المسلمين المصدقين لرسالته، بل شمل به كل من أراد الحج من أبناء القبائل العربية التي تشارك المسلمين في تعظيم البيت والسعي إليه. فجعل له وللعرب أجمعين نصبة واحدة في وجه قريش، ومصلحة واحدة في وجه مصلحتهم، وفصل بذلك بين دعواها ودعوى القبائل الأخرى ثم أفسد على قريش ما تعمدوه من إثارة نخوة العرب وتوجيهها إلى مناوئة محمد والرسالة الإسلامية. فليس محمد وأصحابه أناسا معزولين عن النخوة العربية يضعون من شأنها ويبطلون مفاخرها، ولكنهم إذن عرب ينتصر بهم العرب ولا يذلون بانتصارهم، أو يقطعون ما بينهم وبين آبائهم وأجدادهم. فإذا خالفوا قريشاً في شيء فذلك شأن قريش وحدهم أو شأن المنتفعين من قريش بالسيطرة على مكة، وليس هو بشأن القبائل أجمعين
ثم أفسد على قريش من جهة أخرى ما تعمدوه من إغضاب العرب على الإسلام مما دعوا
من قطعه للأرزاق وتهديده للأسواق التي يعمرها الحاج ويستفيد منها الغادون إلى مكة والرائحون منها. فهاهو ذا محمد نفسه يأخذ معه المسلمين إلى مكة كما يأخذ معه من شاء مصاحبته من غير المسلمين قصاد البيت الحرام، فإذا حال بينهم حائل وبين ما يقصدون إليه فتلك جنايته وذلك وزره على نفسه وعلى قومه، ولا وزر فيما أصاب الأرزاق أو أصاب الأسواق على المسلمين
وقد سمعنا كثيراً في العصور الحديثة عن المقاومة السلمية أو المقاومة التي تجتنب العنف ولا تعتمد على غير الحق والحجة.

سمعنا بها في حركة الهندية التي قام على رأسها غاندي وتابعه فيها بعض مريديه، حتى كان لها من الأثر في إزعاج الحكومة البريطانية ما لم يكن للقنابل ولا للمشاغبات الدامية

وقيل يومئذ أن غاندي قد تتلمذ في هذه الحركة للمصلح الروسي الكبير ليون تولستوي. وقيل بل هو أحرى أن يعرفها من آداب البرهميين والبوذيين التي تحرم إيذاء الحيوان فضلاً عن الإنسان قبل أن يشرع ليون تولستوي مذهبه الجديد

والذين قالوا بهذا الرأي الأخير استبعدوا أن يتفق المسلمون والبرهميون والبوذيين على حركة غاندي وتبشيره بتلك المقاومة السلبية لاعتقادهم أن الإسلام قد شرع القتال فلا يوائم المسلمين ما يوائم البوذيين والبرهميين من اجتناب القوة والتزام السلم وترك المقاومة.

لكن المثل الذي قدمه النبي صلوات الله عليه في رحلة الحديبية ينقض ما توهموه ويبين لهم أن الإسلام قد أخذ من كل وسيلة من وسائل نشر الدعوة بنصيب يجري في حينه مع مناسباته وأسبابه، فلا هو يركن إلى السيف وحده ولا إلى السلم وحده، ولكنه يضع كليهما حيث يوضع، ويدفع بكليهما حيث ينبغي أن يدفع، وهو الحكم المتصرف حيث يختار ما يختار، وليس بالآلة التي يسوقها السلم أو الحرب مساق الاضطرار

وقد خرج النبي إلى مكة في رحلة الحديبية حاجاً لا غازياً يقول ذلك ويكرره ويقيم الشواهد عليه لمن سأله، ويثبت نية السلم بالتجرد من السلاح إلا ما يؤذن به لغير المقاتلين

فلم يفصل بهذه الخطة بين العرب وقريش وحسب، بل فصل بين قريش ومن معهم من الأحابيش، وجعل الزعماء وذوي الرأي يختلفون فيما بينهم على ما يسلكون من مسلك في دفعه أو قبوله أو مهادنته، وهو عليه السلام يكرر الوصاة لأتباعه بالمسالمة والصبر منعاً

للاتفاق بين خصومه على قرار واحد، وقلّ من أتباعه من أدرك قصده ومرماه حتى الصفوة المختارين

ولما اتفق الطرفان - المسلمون وقريش - على التعاهد والتهادن كانت سياسة النبي في قبول الشروط التي طلبتها قريش غاية في الحكمة والقدرة (الدبلوماسية) كما تسمى في اصطلاح الساسة المحدثين

دعا بعليّ بن أبي طالب فقال له: (أكتب: بسم الله الرحمن الرحيم)

فقال سهيل بن عمرو مندوب قريش: أمسك! لا أعرف الرحمن الرحيم، بل اكتب باسمك اللهم

فقال النبي: أكتب باسمك اللهم

ثم قال: أكتب (هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل ابن عمرو)

فقال سهيل: أمسك! لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك

وروي أن علياً تردد فمسح النبي ما كتب بيده، وأمره أن يكتب (محمد بن عبد الله) في موضع محمد رسول الله

ثم تعاهدوا على أن من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشاً من رجال محمد لم يردوه عليه، وأنه من أحب من العرب محالفة محمد فلا جناح عليه، ومن أحب محالفة قريش فلا جناح عليه، وأن يرجع محمد وأصحابه عن مكة عامهم هذا على أن يعودوا إليها في العام الذي يليه، ويقيموا بها ثلاثة أيام ومعهم من السلاح السيوف في قربها، ولا سلاح غيرها.

ولو كان عهد الحديبية هذا قد كتب بعد قتال انهزم فيه المشركون وانتصر فيه المسلمون لوجب أن يكتب على غير هذا الأسلوب، فيعترف المشركون كرهاً أو طوعاً بصفة النبوة ولا يردون أحداً من مواليهم أو قاصريهم يذهب إلى النبي ويلحق بالمسلمين.

ولكنه عهد مهادنة أو عهد (إيقاف أعمال العداء إلى حين) كما يسمونه في اصطلاح العصر الحاضر، فلا يعوزه شيء من الأصول المرعية في أمثال هذه العهود من إثبات صفة المندوبين التي لا إرغام فيها لأحد الطرفين ولا مخالفة لدعوى الفريقين، ومن حفظ كل لحقه في تجديد دعواه واستئناف مسعاه

فلو أن النبي عليه السلام شرط على قريش أن ترد إليه من يقصدها من رجاله لنقض بذلك دعوى الهداية الإسلامية، ونقض الوصف الذي يصف به المسلمين. فإن المسلم الذي يترك النبي باختياره ليلحق قريشاً ليس بمسلم ولكنه مشرك يشبه قريشاً في دينها وهي أولى به من نبي الإسلام

أما المسلم الذي يُرد إلى المشركين مكرهاً فإنما الصلة بينه وبين النبي الإسلام وهو شيء لا سلطان عليه للمشركين ولا تنقطع الصلة فيه بالبعد وبالقرب. فإن كان الرجل ضعيف الدين ففتنوه عن دينه فلا خير فيه، وإن كان وثيق الدين فبقي على دينه فلا خسارة على المسلمين

وما انقضت فترة وجيزة حتى علمت قريش أنها هي الخاسرة بذلك الشرط الذي حسبته غنماً لها وخذلاناً لمحمد صلوات الله عليه، فإن المسلمين الذين نفروا من قريش ولم يقبلهم محمد في حوزته رعاية لعهده قد خرجوا إلى طريق القوافل يأخذونها على تجارة قريش وهي أمان في عهد الهدنة بين الطرفين، فلا استطاع المشركون أن يشكوهم إلى النبي لأنهم خارجون من ولايته بحكم الهدنة، ولا استطاعوا أن يحجزوهم في مكة كما أرادوا يوم أملوا شروطهم في عهد الحديبية، ولو قضى العهد بولاية للنبي على من ينفر من مسلمي مكة لجاز للمشركين أن ينقضوه أو يطالبوا النبي بالمحافظة عليه. وتم العهد فعرف من لم يعرف ما أفاء على الإسلام بعد قليل

فجهر بمحالفة النبي من لم يكن يجهر بولائه، واستراح النبي من قريش ففرغ ليهود خيبر والممالك الأجنبية يرسل الرسل إلى عظمائها بالدعوة إلى دينه، وفتح الأبواب لمن يفدون إليه ممن أنكروا بغي قريش وأمنوا أن تكون نصرتهم للإسلام حرباً يبتلون فيها بما لا يطيقون

ويوم نزلت الآية الكريمة على أثر اتفاق الحديبية (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيما) لم يفقه الكثيرون معناها في حينها ولم يتبينوا موضع الفتح من ذلك الاتفاق الذي حسبوه محض تسليم، ولكنهم فهموا أي فتح هو بعد سنتين، وعلموا أن من الفتوح ما يكون بغير السيف وما يشبه الهزيمة في ظاهره عند من يتعجلون ولا يحسنون النظر إلى بعيد وهكذا تجلت عبقرية محمد في سياسة الأمور كما تجلت في قيادة الجيوش فكان على أحسن نهج في سياسته إذ نادى بعزيمة الحج وهو لم يفتح مكة بعدده وعدته، وإذ دعا المسلمين وغير المسلمين إلى مصاحبته في رحلته، وإذ توخى ما توخى من طريقة المسالمة وإقامة الحجة في إنفاذ عزيمته، وإذ قبل العهد الذي كبر قبوله على أقرب المقربين من عترته، وإذ نظر إلى عقباه ووصل به إلى القصد الذي توخاه.

عباس محمود العقاد

إنما يزدهر الأدب

في عصور الفوضى الاجتماعية

للدكتور زكي مبارك

(أقيمت في كلية الآداب مناظرة بين الدكتور زكي مبارك والأستاذ لطفي جمعة برياسة الدكتور إبراهيم مدكور، واشترك فيها فريق من طلبة الكلية، وانتصر الحاضرون للرأي الذي دافع عنه الدكتور مبارك بهذه الخطبة الصريحة، الخالصة من شوائب التودد للجمهور).

تعلمون أن أمثال هذه المناظرات لا يراد بها غير إيقاظ العقول بفرض طوائف من المذاهب والآراء، فالمناظر لا يؤاخذ بالرأي الذي ينحاز إليه، ولا يطالب بالوقوف عندما يؤمن بصحته من الأدلة والبراهين

ليست هذه المناظرات إلا حركة عقلية يراد بها عرض صور مختلفة للوجه الواحد من وجوه الفكر والرأي، فليس من حق أحد أن يقول: إني أدعو إلى الفوضى حين أقرر أنها من الفرص السوانح لازدهار الآداب والفنون

وبعد تسجيل هذا التحفظ أقول: إني مؤمن بالرأي الذي أعرضه اليوم من فوق منبر كلية الآداب، فلا يضيرني أن أتهم بحمد الظروف التي تشيع الفوضى في المجتمع، ولا يؤذيني أن تكون أصواتكم في صف خصمي، وهو صديق أعاديه في هذه الساعة عداوة

مؤقتة
وأسارع فأعترف بأني أخاف أن تكون الهزيمة من نصيبي، لأني اخترت الجانب الشائك من مناظرة اليوم، ولأني أخشى أن يميل السامعون إلى إيثار السلامة، فيعلنوا تأييدهم لرأي الخصم المحترم، حتى لا يقال: إن كلية الآداب تشجع من يرى أن (الفوضى الاجتماعية) قد تعود بالنفع على الآداب والفنون، وهي معهد يثور حوله الغبار من حين إلى حين
وأنا أفترض سلفاً أن الهزيمة ستكون من نصيبي لأواجه المناظرة بعزيمة المستقتل المستميت، ولأجد ما أعزي به نفسي حين تروننني أبليت في الدفاع عن رأيي أحسن البلاء
ومن أجل هذا، زهدت في البراعة الخطابية، وأعددت خطبتي، وقُدِمت بها مكتوبة بلغة صريحة، لتكون حجة باقية على صحة الرأي الذي تعصبت له وانحزت إليه
أنا أرى أن الأدب لا يزدهر إلا في عصور الفوضى الاجتماعية، فما هي الحجج التي تؤيد هذا الرأي الجريء؟
أستطيع أن أقول إن الفوضى الاجتماعية ترجّ الأذهان رجاً عنيفاً، وتفتح أمام الأذواق أبواباً ومذاهب، وتقهر العقول على التفكير في مصاير الإنسانية عند اضطراب المجتمع
وأستطيع أن أقول إن الفوضى هي التي مهدت السبيل إلى ظهور الحكمة على ألسنة الحكماء، ولو شئت لقلت إن النبوات لم تظهر إلا في الأوقات التي غلبت فيها الفوضى على المجتمع
فيكم من قرأ القرآن، وفيكم من قرأ التوراة، وفيكم من قرأ الإنجيل؛ فهل فيكم من يجرؤ على القول بأن تلك الكتب المقدسة خلت من الثورة على اضطراب المجتمع؟
وهل فيكم من ينكر أن أعظم الجوانب في تلك الكتب هي الجوانب الخاصة بالتشريع؟
ولمن توضع قواعد الشرائع إذا اطمأن الأنبياء إلى أن المجتمع في أمان من شر الفساد والانحلال؟
وما قيمة الفضائل التي تمدّح بها الصالحون إذا صح أن العالم صحيح الأديم وأنه لا يعرف التمييز بين الفاضل والمفضول، ولا يشهد الفرق بين الصحة والاعتلال؟
وهل سميت الفضائل فضائل إلا بالقياس إلى الرذائل؟ وهل تصور الناس معنى الحياة إلا بعد أن شهدوا صورة الموت؟ وهل أدركوا رَوح اليقين إلا بعد أن أدركوا قلق الارتياب؟
اسمعوا كلمة الحق
إن سلامة المجتمع من الفوضى والاضطراب لا تصل بالناس إلا إلى غاية واحدة: هي الأمان المطلق، والأمان المطلق يقود الناس إلى هاوية البلادة والغفلة والحمق
وأنا لا أنكر أن السعادة قد تكون من نصيب الأحمق والغافل والبليد، ولكني أنكر أن يكون التفوق في الأدب من نصيب هذا الطراز من (السعداء) فالأدب فن من المحنة باصطراع العقول، واصطخاب الأهواء، واضطرام الأباطيل، وهو التعبير الصادق عما يثور في المجتمع من الاقتتال العنيف بين الرشد والغيّ
هل قرأتم وصف الجنة في الكتب الدينية؟ فيها من كل فاكهة زوجان، وفيها حور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون، فيها كل الطيبات، وفيها الأمان المطلق من المرض والموت.
ولكن هل سمعتم أن الجنة سيكون فيها كتّاب وشعراء وخطباء وجرائد ومجلات وكلية آداب؟
وكيف تكون هذه المعاني في الجنة وقد أراح الله أهلها من صيال الشهوات والأهواء؟
قيل أن أهل الجنة سيكون أكثرهم من البُلْه، وقيل في تفسير ذلك إن البُلْه يقل تعرضهم للموبقات فيخرجون من الدنيا بسلام وقد أهلتهم البلاهة لاحتلال الفردوس
وأقول بغير ذلك التفسير، أقول إن أهل الجنة سيكونون بُلهاً لأن الله سيرحمهم من التعرض لآفات الشطط والجموح في ميادين الفكر والعقل والوجدان
وما حاجة أهل الجنة إلى الذكاء وهو عناء؟ إن الذكاء وسيلة للتخلص من المعاطب، وأهل الجنة في أمان من المعاطب
والأدب في جوهره تعبير عن بلاء الإنسانية بالصراع بين الحُسن والقُبح، والنضال بين الشك واليقين، فما حاجة أهل الجنة إلى ذلك التعبير وهم يُرزقون بلا حساب، ولا يحسون الخوف من تلون النفوس وتقلب القلوب؟

وأنتم تستطيعون الوصول إلى ما يشبه نعيم الجنة في كل وقت، إن رضيتم بحظوظكم في الحياة، ولكنكم لن تكونوا أدباء، لأن الأدب ليس إلا تعبيراً عن ظمأ الأرواح والقلوب إلى غايات عالية لا يدركها الراضون عن حظوظهم في الحياة

الأدب يأخذ وقوده من قلق الأفئدة والأرواح والعقول، ولا يقع ذلك القلق إلا عند اضطراب المجتمع. فليت شعري كيف يجد خصمي حجته وهو ينتظر ازدهار الأدب في رحاب المجتمع الهادئ الرزين؟

الأدب من صور الحياة، والحياة تَقلُّب وتَفزُّع وصراع، وهل يعرف السلام المطلق غير الأموات؟

إن أساتذة الآداب يتحدثون بأن عصور الانحطاط السياسي في الدولة العباسية كانت عصور تقدم في العلوم والآداب والفنون وهم يعللون ذلك بالتنافس بين الرؤساء والأمراء والملوك

فما رأيكم فيمن يذكر لذلك سبباً آخر هو اليقظة التي خلقها انحلال المجتمع السياسي في العصر العباسي؟

وهل كان النزاع بين العرب والفُرس إلا صورة من صور الاضطراب في المجتمع الإسلامي؟ هو ذلك، ولا ريب، فأين من ينكر أن النزاع بين العرب والفرس عاد على الحياة الأدبية بأجزل النفع، وقدم للأدباء فرصاً ثمينة لتشريح خصائص الشعوب؟

وتسمعون في كل يوم أن مصر لها الزعامة الأدبية بين الأمم العربية. فمن أين وصلت إلينا الزعامة وهي حق؟ أترونها نزلت علينا من السماء بعد انقضاء عصور الوحي؟ أترون الأمم العربية قدمتها إلينا هدية؟ لا هذا ولا ذاك، وإنما كانت لنا الزعامة الأدبية لأننا نفوق سائر الأمم العربية في التمتع بأكبر نصيب من اضطراب المجتمع، وإليكم بعض البيان:

في بلادنا تصطرع جميع المذاهب والعقائد وفي بلادنا تقتتل جميع العادات والتقاليد.

وفي بلادنا يلتقي البحران: بحر المدنية الشرقية وبحر المدنية الغربية. وفي بلادنا يجتمع الضب والحوت، وتمتزج أنغام المؤذنين بأصوات النواقيس

عندنا برج بابل المشهور في التاريخ، بل عندنا برجان هما الأزهر والجامعة المصرية، يتجه أحدهما إلى الشرق فيكون خلف الضفة الشرقية للنيل، ويتجه ثانيهما إلى الغرب فيكون حول الضفة الغربية

وهذا اضطراب بلا جدال، لأنه تقلب للوجوه بين الشرق والغرب، ولكن من هذا التقلب ظفرت مصر بالزعامة الأدبية بين الأمم العربية

فالأديب المصري يغرِّب إن شاء فيرى القاهرة في ثياب (أليس) ومرجريت، ويشرق إن شاء فيراها في عباءة ليلى وظمياء

وبفضل هذه البلبلة بين الحضارة والبداوة نهضت قواعد الأدب المصري الحديث

وقد حدثت تلاميذي بكلية الآداب في سنة 1927 أن الأدب لن يسمو ولن يرتفع إلا إذا اشتركت المرأة في سياسة المجتمع

ومعنى ذلك أن المرأة تخلُق في حياة الرجل ألواناً من الرضا والغضب، والقسوة واللين، وتسوق إليه فنوناً من الرفق والعنف والبؤس والنعيم

المرأة مصدر اضطراب في حياة الرجل، وبفضل عصيان جدتها حوّاء عرف جدنا آدم هذه الأرض، فحرث وزرع وحصد، وعرف معاني اليأس والرجاء، ومهّد لأبنائه سبيل الأدب الرفيع بوصف ما في الحياة من أزهار وأشواك، وحقائق وأباطيل

والمرأة الوديعة لا تخلُق الأديب، وهل في الدنيا مرأةٌ وديعة؟

غضبة الله على جميع بنات حوّاء!

وما يهمني أن أدعوكم إلى الاصطباح والاغتباق بما عند الرعابيب من نزق وطيش، فلست من أنصار الفوضى الاجتماعية. واشتراك المرأة في المجتمع يجره حتما إلى الفساد والاضطراب، وإنما يهمني أن أنص على أن الشر الذي يصحب حياة المرأة يؤرث الحاسة الأدبية والفنية، بفضل ما يؤرث من الأذواق والأحاسيس

وفي الدنيا أحبار ورهبان وأشياخ كفاهم الله شر المرأة، فعاشوا سعداء، لا ينتقلون من البيت إلا إلى المعبد، ولا من المعبد إلا إلى البيت، وذلك نموذج للحياة الخالصة من شوائب القلق والانزعاج

ولكن هؤلاء لن يصيروا أدباء، ولن يكون لهم مكان بين أقطاب الفكر والعقل والذوق،

وإن ظفروا بنعمة عظيمة هي السلامة من شر الناس
وما لي أبعُد بكم في عرض الشواهد؟ نحن اليوم في كلية الآداب؟ فما هو السر في تفوق هذه الكلية من الوجهة الأدبية؟ أيكون السر في أنها تدرس علوماً لا تدرس في الأزهر ودار العلوم؟
إن كان اختلاف العلوم هو سر التفوق فمن حق الأزهر أن يقول إنه يدرس علوماً لا تدرس في كليات الجامعة المصرية. ليس السر في المكان، وإنما السر في السكان، كما يقول أهلنا في الريف
إنما تتفوق كلية الآداب بسبب ما تعاني من الفوضى الاجتماعية فهي أول معهد يلتقي فيه الفتيان والفتيات بلا تحجّب ولا مداراة، فإن لم تكن أول معهد يلتقي فيه الفتيان والفتيات في الدرس الواحد فهي أول معهد كثر فيه بنات حواء حتى بلغ عددهن المئات
ومن المؤكد أننا غير راضين في سرائر أنفسنا عن هذه الصورة من صور المجتمع، وليس فينا من يطمئن كل الاطمئنان إلى أن تكون ابنته غرضاً للعيون، يتأثر خطواتها من يشاء من أهل الفضول.
كلية الآداب في فوضى اجتماعية بشهادة الأفاضل من رجال الدين وبشهادة الأستاذ أمين الخولي. وفي هذه الفوضى إثم كبير وفيها منافع، فما هي تلك المنافع؟ هي إذكاء المشاعر
والعواطف والأحاسيس. هي قهر الفتيان والفتيات على تجميل مذاهبهم الحيوية في تناول شؤون الوجود
وهل من العيب أن يقال أن كل فتىً يسرّه أن يكون موضع الإعجاب من إحدى الفتيات؟
اتركوا النفاق لحظة واحدة واسمعوا صوت الحق
إن الطالب في كلية الآداب لا يستطيع ولن يستطيع أن ينسى إنه محوط بأرواح لطاف ستنال حياته الحاضرة بالتغيير والتبديل. وهذا الطالب أحد رجلين: رجل بسيط يتجمل بالظواهر والأشكال فيحرص على هندامه بعض الحرص أو كل الحرص، ليظهر أمام الفتيات بمظهر مقبول. ورجل عبقري الروح لا تهمه المظاهر والأشكال، وإنما يهمه أن يكون رجلاً يملك السيطرة بالمنطق والعقل والبيان
ومن هنا يجوز لكم أن تنتظروا مطلع الشمس من هذه الكلية، يوم يكون فيها طالبات لا يرون الرجولة في المظاهر والأشكال، وإنما يرون الرجولة في فحولة الأفكار والآراء والعقول. وإنما اخترت كلمة (يرون) بهذه الصورة الصرفية لأن بنات هذه الكلية (سيكونون) في إسناد الضمائر (مساوين) للرجال في مضمار المذاهب والآراء
ولن يقع ذلك بدون فوضى اجتماعية، ولكن تلك الفوضى ستصنع الأعاجيب في تأريث القلوب والعقول
أنا أكره الفوضى، وأرجو أن تخلو منها حياتي وحياتكم وحياة الأساتذة بهذه الكلية، إن صح أن فيكم وفيهم من ابتلته المقادير بالشكاية من اضطراب المجتمع الجديد
ولكني أقف هنا موقف المؤرخ لظاهرة من الظواهر الأدبية في معهد قد اشتغلتُ فيه بالتدريس أربع سنين، ومن حقي عليه أن يسمح بأن أجهر في رحابه بقول الحق، فأقرر أن الأدب يزدهر في عصور الفوضى الاجتماعية
وهل أراني في حاجة، بعد الذي سلف، إلى أدلة وبراهين؟
اسمعوا، اسمعوا:
(البقية في العدد الآتي)
زكي مبارك
في الاجتماع اللغوي
صراع اللغات
للدكتور علي عبد الواحد وافي
مدرس العلوم الاجتماعية بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول
ذكرنا في مقال سابق أن الصراع بين اللغات ينشأ عن عوامل كثيرة أهمها عاملان: أحدهما أن ينزح إلى البلد عناصر أجنبية تنطق بلغة غير لغة أهله؛ وثانيهما أن يتجاور شعبان مختلفا اللغة، فيتبادلا المنافع، ويتاح لأفرادهما فرص للاحتكاك المادي والثقافي.
ثم تكلمنا عن الحالات التي يؤدي فيها العامل الأول إلى تغلب إحدى اللغتين على

الأخرى وما يمتاز به هذا التغلب من خصائص وما يتصل به من شؤون
وسنعرض في هذه الكلمة للحالات التي يؤدي فيها العامل الثاني إلى مثل هذه النتيجة
يتيح تجاور شعبين مختلفي اللغة فرصاً كثيرة لاحتكاك لغتيهما فتشتبكان في صراع
ينتهي أحياناً إلى تغلب واحدة منهما على الأخرى فتصبح لغة الشعبين؛ ويحدث هذا في
حالتين:
الحالة الأولى: إذا كانت نسبة النمو في أحد الشعبين كبيرة لدرجة يتكاثف فيها ساكنوه،
وتضيق مساحته بهم ذرعاً، فيشتد ضغطه على حدود الشعب المجاور له، وتكثر تبعاً
لذلك عوامل الاحتكاك والتنازع بين اللغتين. وفي هذه الحالة تتغلب لغة الشعب الكثيف
السكان على لغة المناطق المجاورة له؛ على شريطة ألا يقل عن أهلها في حضارته
وثقافته وآداب لغته. ويتأكد انتصاره إذا كان أرقى من أهلها في هذه الأمور
والأمثلة على ذلك كثيرة في التاريخ. وأكثرها دلالة بهذا الصدد ما كان من أمر اللغة
الألمانية؛ فقد طغت على مساحة واسعة من المناطق المجاورة لألمانيا بأوربا
الوسطى (بسويسرا وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا والنمسا. . . الخ) وقضت على لهجاتها
الأولى
الحالة الثانية: إذا تغلغل نفوذ أحد الشعبين في الشعب المجاور له، وفي هذه الحالة
تتغلب لغة الشعب القوي النفوذ، على شريطة ألا يقل عن الآخر في حضارته وثقافته
وآداب لغته؛ ويتأكد انتصاره إذا كان أرقى منه في هذه الأمور
والأمثلة على ذلك كثيرة في مختلف مراحل التاريخ. فلغة شعوب (الباسك) قد أخذت
تنهزم
أمام اللغة الفرنسية في المناطق التي تغلغل فيها نفوذ الفرنسيين، وأمام اللغة
الإسبانية في المناطق التي تغلغل فيها نفوذ الإسبانيين حتى كادت تنقرض في كلتيهما.
- واللهجات السلتية التي كان يتكلم بها معظم السكان بايرلندا واسكتلندا وويلز قد
أخذت تنهزم أمام اللغة الإنجليزية منذ أن تغلغل نفوذ إنجلترا في هذه البلاد، حتى زالت
من لغة الأدب والكتابة، وكادت تنقرض انقراضاً تاماً من لغة الحديث. وهكذا كان مصير
اللهجة السلتية التي بقيت بمقاطعة البريتون (في القسم الغربي من فرنسا على
سواحل الأطلانطيق)، فقد أخذت تنهزم أمام اللغة الفرنسية منذ أن تغلغل نفوذ فرنسا
في هذه المقاطعة، حتى لم يبق لها إلا آثار ضئيلة في لغة الحديث بين الأميين من
الشيوخ. - واللغة الفرنسية قد تغلبت على لهجات المناطق المجاورة لها ببلجيكا
وسويسرا؛ فأصبحت الآن لغة الحديث والكتابة لجميع سكان والونيا ببلجيكا ولنحو 22
% من سكان سويسرا - واللغة الإيطالية قد تغلبت على لهجات المناطق المجاورة لها
بسويسرا، فأصبحت الآن لغة الحديث والكتابة لنحو 5 , 3 % من سكان هذه
الجمهورية
وعلى هذا الأساس نفسه تتغلب في المملكة الواحدة لغة المقاطعة التي تكون بها
العاصمة أو يكون لأهلها السلطان والنفوذ؛ فلوقوع عاصمة بلجيكا (بروكسل) في
مقاطعة والونيا ذات اللسان الفرنسي، ولأن سكان هذه المقاطعة يتمتعون بقسط
كبير من النفوذ والسلطان في هذه المملكة، أخذت اللغة الفرنسية تتغلب على
الفلامندية (لغة القسم الشمالي من بلجيكا المسمى (فلاندر)) وتنتقصها من أطرافها.
ولوقوع عاصمة سويسرا (برن) في القسم الناطق بالألمانية، ولأن سكان هذا القسم
يتمتعون بأكبر قسط من النفوذ والسلطان وتتألف منهم الأغلبية الساحقة (يتكلم
الألمانية في سويسرا نحو 70 % من أهلها) أخذت اللغة الألمانية تطغي على ألسنة
الناطقين بالفرنسية من السويسريين. وقد أخذت لغة قريش قبيل الإسلام تتغلب على
اللغات المضرية الأخرى، لما كانت تتمتع به من سلطان أدبي، ويستأثر به أهلها من
نفوذ ديني وسياسي
وفي كلتا الحالتين السابقتين لا يتم النصر غالبا لإحدى اللغتين إلا بعد أمد طويل يبلغ
أحياناً بضعة قرون، فالصراع بين الألمانية والفرنسية بسويسرا قد بدأ منذ عهد سحيق؛
ومع ذلك لم يتم بعد للألمانية النصر النهائي. والصراع بين اللغة الفرنسية واللسان
السلتي الذي يتكلم
به البريتونيون (سكان مقاطعة البريتون قد نشب منذ عدة قرون؛ ومع ذلك لا يزال
كثير من شيوخ البريتون في العصر الحاضر يتكلمون بهذا اللسان. ولا تزال اللهجة

السلتية لغة محادثة بين عادة الايرلنديين في العصر الحاضر، مع أن تغلب الإنجليزية عليها قد بدأ في هذه البلاد منذ أواخر القرن الحادي عشر الميلادي. وقد أخذت لغة قريش تطغي على اللغات المضرية الأخرى منذ العصر الجاهلي؛ ومع ذلك ظلت هذه اللغات حية في كثير من المواطن إلى أواخر العصر العباسي

وغني عن البيان أن انتصاراً لا يتم إلا بعد أمد طويل لا يخرج المنتصر من معاركه على الحالة التي كان عليها من قبل. فاللغة التي يتم لها الغلب لا تخرج سليمة من هذا الصراع. بل أن طول احتكاكها باللغة الأخرى يجعلها تتأثر بها في بعض مظاهرها وبخاصة في مفرداتها كما سبقت الإشارة إلى ذلك في العامل الأول. غير أن تجرد العامل الذي نحن بصدد الكلام عنه من عنف النزاع وشدة المقاومة، وحدوث نتائجه في صورة سلمية متدرجة بطيئة، كل ذلك يعمل على وقاية اللغة الغالبة، ويخفف من مبلغ تأثرها باللغة المغلوبة

والألفاظ الأصيلة للغة الغالبة، ينالها بعض التحريف في ألسنة المحدثين من الناطقين بها (المغلوبين لغوياً)، فتختلف بعض الاختلاف في أصواتها ودلالاتها وأساليب نطقها عن صورتها الأولى.

والكلمات الدخيلة التي تقتبسها اللغة الغالبة من اللغة المغلوبة ينالها كذلك بعض التحريف في حروفها ومعانيها وأساليب نطقها فتبعد في جميع هذه النواحي عن شكلها القديم

وتقطع اللغة المغلوبة في سبيل انقراضها نفس المراحل التي أشرنا إليها في العامل الأول فينفذ الانحلال أولاً إلى مفرداتها ثم إلى أصواتها ومخارج حروفها وأساليبها في نطق الكلمات ويتم الإجهاز عليها بالقضاء على قواعدها.

علي عبد الواحد وافي
ليسانسيه ودكتور في الآداب من جامعة باريس

العقلية الألمانية

من خلال الدراسة اللغوية

للأستاذ أبي حيان

كنا في ساعة من تلك الساعات الجميلة التي تتكاشف فيها الأذهان، وتتصافى فيها العقول، وتنطلق فيها الخواطر؛ والتي تدخرها الذاكرة بين أطوائها، لتكون ذخيرة من السعادة، تستمدها النفس في أيام الشقاء، وتنعم باستحضارها كلما طغت عليها الآلام، وحزبتها الأيام. وكنا نتدارس في تلك الساعة طرفاً من علم اللغات المقارن، مما يتعلق بعلامات الإعراب، ومكانها في مختلف اللغات، وأنها سمة من سمات اللغات البادية: كاللاتينية القديمة، واليونانية الأولى. وما بقاؤها في اللغة العربية الشريفة، وقد جازت دور البداوة، وشاركت في بناء الحضارة، وأعرقت في ذلك إعراقاً، إلا مظهر من مظاهر القداسة التي أسبغها القرآن الكريم عليها، بنزوله بها. والقرآن خالد خلود النفس: لا تبديل لكلمه، ولا تغيير في نظمه، ولا تحوير لوضعه؛ وكذلك اللغة العربية التي ارتبط كيانها بكيانه، وأخذت مكانها من مكانه. فهذه العلامات الإعرابية هي في حقيقة وضعها ومرد أمرها، مظهر من مظاهر البداوة الإنسانية في دور من أدوارها.

ولقد تنزل هذا الرأي من عقولنا ومشاعرنا منازل متفاوتة، فمنا من مال إليه وأخذ به لطرافته، ومنا من أنكره لغرابته، إلى غير ذلك من الحالات المختلفة باختلاف المزاج العقلي، ولكنه لم يلبث أن أثار في أنفسنا طائفة من الخواطر متعارضة، فلم يلبث ذلك المجلس الهادئ القار الرزين أن تحول عن هدوئه، حين انطلقت تلك الخواطر متدافعة متضاربة. . . فماج الجو من حولنا وثار، وطال الجدل واشتد. . . وقد اختلفت أساليب المحاجة، وتشعبت طرائق القول وأفانينه، على ما يقع في الخاطر، وعلى ما توحي به المناقشة.

ولكن أحدنا، وكان في معارضة الرأي منذ بدا، وكأنما كان يدخر - لحاجة في نفسه - هذا الوجه الأخير من المعارضة، أخذ يقول: (كيف يستقيم هذا الرأي لكم، وكيف يصح في الاعتبار العلمي، إذا كان بين يدينا ما يأتي بنيانه من القواعد؟ أنسيتم أن اللغة الألمانية من اللغات المعربة التي تلتزم الإعراب التزاماً لا هوادة فيه ولا تسامح في قواعده؟ إذن،

فاعلموا أنكم بين اثنتين لا ثالثة لهما: إما أن تنزلوا عن رأيكم، وتحتسبوا لدى (الجدل المجرد) جهدكم، وإما أن تلجوا في مذهبكم - وأعيذكم من اللجاجة في الباطل حين يكشف عنه غطاؤه - فتزعموا أن اللغة الألمانية لغة متبدية، وأن الجنس الألماني لا يزال في دور من أدوار البداوة. ويا لها إذن من جرأة على الواقع ومجازفة بالقول! إذ ما كان لأحد أن يذهب به وهمه هذا المذهب، فاللغة الألمانية هي - فيما يعترف الناس جميعاً - لغة الحضارة في أوسع معانيها، وأكمل ما عرف من صورها. . .)

ثم أخذ صاحبنا يمد شعب الحديث في كل مذاهبه الممكنة، ويفيض في بيان هذه الحضارة وتمجيد أصحابها، ويستشهد من هنا وهناك، في حماسة متقدة، وبلاغة خلابة، حتى لحسبناه - ونستغفر الله - داعية من دعاة النازي، فهو يجرب فينا أساليبه، ويتخذ منا موضوعاً له. وهكذا لم يلبث الميدان أن تحول - على غير إرادتنا - من بحث لغوي ومدارسة علمية، إلى جدل سياسي، يهدأ ويفور، ويعتدل ويجور؛ وبقيت المسألة الأولى في موضعها حتى اليوم - فيما أعلم - لم يبتّ فيها برأي، ولم ينته فيها إلى مقطع.

انفض هذا المجلس ومضى كل ما فيه، إلا من هذه النفحة الروحية الخالدة - التي أودعها الله فينا - وأطلقنا عليها كلمة (الذاكرة)، فقد أضفت عليه معنى الخلود، ومضت به تختزنه بين ما تختزن، مما يعمل دائباً في تكوين شخصية هذا الإنسان الظاهرة والمستكنة، والحاضرة والمستقبلة؛ حتى إذا هاجته الحوادث، واستثارته الأشباه والنظائر، برز من مكمنه، وأخذ يؤثر في خيالنا، كما تؤثر المحسوسات في حواسنا.

وأنا منذ الحرب القائمة لا تزال الذاكرة تطلق لي صورة ذلك المجلس، وما تفتأ هذه الصورة تختال لي، وترود أمامي، وتتبرج لعقلي. فإذا بي أسائل نفسي: أيكون الشعب الألماني لا يزال يعاني البداوة في دور من أدوارها؟ أليست هذه المظاهر المختلفة في مسلكه من الحرب وإثارتها، وفي تقديره للحرية الشخصية وقيمتها، وفي تلك الدعاوى العريضة التي لا يفتأ يقررها ويلج فيها، وفي غير ذلك من الملابسات التي تنتظم الماضي والحاضر، أليس كل ذلك أشبه بالعقلية البدوية؟ وهذه المظاهر الفخمة المتطاولة التي تزعم للناس أنها واهبة الحضارة، ورافعة بنيانها، ومثبتة أركانها؟ ألا يمكن أن يكون وراءها روح بدوية غلابة متغلغلة في العقلية الألمانية، هي التي تنهج لهذا الشعب سبيلها، وتفرض عليه قوانينها، وتحدد له غاياتها؛ وهي التي بعثته إلى هذا المسلك وإلى نظائره في التاريخ في القريب، مما نحن في مشاهده المنكرة، وآثاره المروعة؟

لعل ذلك كله جائز مقبول، وإن الدراسة اللغوية هي - فيما نعتقد - من صميم الدراسات المتعلقة بعلم الإنسان ومن خير المقدمات التي تهدي إلى معرفة طبائع الشعوب وخصائص الأجناس. فإذا اطردت هذه الدراسة اللغوية مع نتائج الأبحاث الاجتماعية كان ذلك أقوى لها، وأجدر أن يخرجها من دائرة الفروض، ويدنو بها إلى منطقة الحقائق العلمية. فهل لنا أن نذهب ذلك المذهب فيما نحن الآن بصدده؟

أبو حيان

تحقيق تاريخي

عام الفيل وميلاد الرسول

(تقدمة تحية إلى الدكتور محمد حسين هيكل باشا)

للدكتور إسماعيل أحمد أدهم

عام الفيل

كان الرأي الشائع في الدوائر التاريخية العلمية أن المصادر اليونانية لم تتحدث عن تعرض الأحباش للحجاز، ولا عن سفر الفيل غير أن المباحث الدقيقة التي نشرها المستشرق العلامة تيودور نولدكه عن تاريخ صلات الفرس بالروم. بينت أن المؤرخ بروكوب اليوناني تحدث عن تعرض الأحباش للحجاز بتحريض الروم، ومن ذلك الحين اتخذت الدراسات التاريخية وجهة أخرى تبدأ فيها بدراسة الوقائع من وجهة نظر المصادر اليونانية، وتمحص على أساسها ما ورد في كتب المؤرخين العرب، وهذه الوجهة التي مال معها المستشرقون صحيحة الأسس، لأن مؤرخي العرب تأخر بهم العهد نحو ثلاثة قرون من الزمان، تدرجت فيها وقائع الجاهلية العربية على الأفواه وتنقلت على الألسنة في فترة من الزمان، حمل في تضاعيفه من الأسباب القوية ما

يجعله يتناول الواقعات والحوادث التاريخية بتأثيره، فينسج من حول مادتها الأقاصيص المتقومة بروح العصر وهكذا كان أن سلمت وقائع الجاهلية العربية لعصر التدوين في القرن الثاني للهجرة، بعد أن غابت حقائق هذه الوقائع في تيه من الأساطير التي حيكت من حولها والتي غطت على أمرها، ومن هنا تجد للمصادر اليونانية قيمتها التاريخية، باعتبارها مصادر معاصرة للوقائع التي جرت، ومن هنا يمكن اتخاذها محكا لدراسة الروايات العربية، واستخراج العناصر التاريخية منها

يذكر لنا بروكوب إنه في السنة الخامسة من حكم الإمبراطور جوستنيان، أعني حوالي سنة 530 ميلادية، حمل الأحباش على اليمن واستولوا عليها. وهو يصوّر أسباب هذه الحملة اعتماداً على ما يقدره يوحنا المؤرخ اليوناني فيقول: إن يوسف ذا نواس (دومينوس الحميري: عند يوحنا) قبض على بعض التجار من نصارى الروم وقتلهم، واستعبد نصارى نجران، وأخذ يقطع السبيل على تجارة اليونان، فكان نتيجة ذلك أن كسدت التجارة وساءت

الحالة الاقتصادية. وقد تضرر من هذه السياسة أقيال اليمن، فخرجوا تحت لواء أحدهم، وهو (أيدوج) الوثني، وجرت بينهم وبين ذي نواس معارك وحروب لم يثبت فيها، وانتهى أمره بأن قتل، وانتهز الأحباش فرصة تحارب اليمنيين فشنوا الغارة على بلاد اليمن تحت قيادة (أبرهة) - الذي كان في الأصل عبداً لأحد تجار الروم النازلين ثغر أدوليس - وفتكوا بأيدوج، وأخضعوا اليمن لسلطة نجاشي الحبشة

غير أن المصادر العربية تجعل من أيدوج هذا قائداً حبشياً، وتسميه أرياط وأنه باسم النجاشي حارب ذا نواس، وبعد أن تغلب عليه حكم اليمن؛ إلا أن (أبرهة الأشرم) أحد قواد الحملة الحبشية ثار عليه ونجح في إزاحته عن السلطة، وتمكن من قتله وبسط نفوذه على اليمن كلها وحكمها باسم النجاشي. ونقطة الاختلاف هذه من الممكن تحقيقها، لكنها لا تقع من غرضنا في هذا البحث، وإنما الذي يهمنا تقديره أن المصادر العربية تماشي المصادر اليونانية في أن اليمن سقطت تحت حكم الأحباش بعد عهد ذي نواس (دومينوس). وبعد أن استولى الأحباش على اليمن واستقروا فيها مدة، حدث أن أرسل الإمبراطور جوستنيان سفيراً يدعى جوليان، عرض من قبله على النجاشي فكرة عقد محالفة مع الروم ضد الفرس، ويكون دور الأحباش فيها التعرض للفرس من جهة بلاد العرب المتاخمة لجنوب غربي الحدود الفارسية، وذلك لتخفيف الضغط على الروم في صراعهم مع الفرس على تخوم الحدود بين الإمبراطوريتين. وهذه السفارة حدثت في حدود سنة 540 ميلادية، كما يعين ذلك التاريخ المصادر اليونانية، في وقت كانت الصلات قوية ووثيقة بين النجاشي وإمبراطور الروم. ومما لاشك فيه أن جوستنيان اعتمد على هذه الصلات أولاً ووحدة العقيدة الدينية التي تجمعه بنجاشي الحبشة ثانياً، ليطلب مؤازرة النجاشي له في الحرب التي اشتدت بينه وبين كسرى أنو شروان سنة 540 ميلادية

ولم تكن فكرة إمكان مساعدة الأحباش للروم في صراعهم ضد الفرس، إلا فكرة خيالية لا يمكن أن تتحقق في عالم الواقع. إذ لم يكن الأحباش أصحاب أسطول بحري ضخم يمكنهم من غزو فارس من جهة الخليج الفارسي، ولا كان في إمكانهم إرسال حملة من اليمن قاعدتها في بلاد العرب عبر صحرائها للتعرض للتخوم العربية الفارسية، لأن طبيعة تضاريس بلاد العرب، لا تجعل وجهاً لإمكان نجاح مثل هذه الحملة. وقد أمكن النجاشي أن

يدرك هذه الحقيقة، لإلمامه بالموقف الذي غاب عن الروم وقيصرهم ومن هنا كانت المماطلة دائماً من جانب النجاشي والاعتذار عن إمكان تقديم مساعدة فعالة للروم في صراعهم ضد الفرس. فلما اشتد الصراع وبلغ أقصاه سنة540 ميلادية، وأرسل جوستنيان رسولاً خاصاً (سفيراً) هو جوليان، اضطر النجاشي مجاملة أن يأمر عامله على اليمن، أبرهة، أن يرسل قسماً من قواته شمالاً على زعم التحرك للتعرض للتخوم الفارسية. والطريق الطبيعي الممتد من اليمن إلى حدود فارس يمر بمكة وينتهي عند وادي الرمة أحد روافد الفرات فيما مضى. ومما لا ريب فيه أن الأحباش اتخذوا هذا الطريق مسلكهم نحو الشمال. غير أن القوات التي أرسلوها حين انتهت إلى الحجاز، كان التعب قد نال منها والمرض قد أفنى معظم رجالها، والجدري فتك بجنودها فاضطر الأحباش أن يسحبوا قواتهم ويعتذروا بخسائرهم إلى الروم، ويقفوا

عند هذا الحد. غير أن العرب من سكان الحجاز كان قد هالهم تقدم الأحباش في جيش عرمرم (بالنسبة لهم) ورأوا أنهم يبيتون لهم شراً، فلما أصيبوا بالوباء، ورجعوا، أيقن العرب أن ذلك أثر من تدخل العناية الإلهية التي حفظتهم مما كان الأحباش يبيتونه لهم. وهذا هو المصدر التاريخي الذي حيك من حوله كل روايات العرب عن سفر الفيل تروي المصادر العربية أن السبب في تعرض الأحباش لمكة يرجع إلى أن أبرهة الأشرم شيد هيكلاً في صنعاء حاضرة اليمن، وذلك بغية صرف الناس عن الكعبة. غير أننا نعلم من المصادر المسيحية أنها لم تشر البتة إلى مسألة بناء هيكل جديد في صنعاء حاضرة اليمن (العربية السعيدة على عهد أبرهة. هذا فضلاً عن أن المؤرخ أوزيب في بحثه عن (تاريخ الكنيسة)، يتناول بالذكر النصارى من العرب وقساوستهم وأصحاب المآثر منهم على الكنيسة، وهو لا يذكر شيئاً عن أبرهة، وعن تشييد هيكل في صنعاء غير أننا نعلم أن المسيحية كانت منتشرة في نجران، وفي بعض المناطق من اليمن، وأنه كان باليمن قسس من النصارى على عهد حكم الأحباش لها. ولاشك أن هؤلاء القسس الذين يرعون شؤون طائفتهم الروحية، كانوا يتخذون لأنفسهم في حاضرة اليمن هيكلاً، يظهر أنه كان النواة التي حيكت من حولها روايات العرب. هذا، وربما كان الأحباش وهم نصارى اعتنوا بهذا الهيكل وزينوه بما يليق بمكانتهم كنصارى حاكمين للبلاد؛ وربما حمل هذا العمل عند بدو الصحراء وعرب الحجاز على محاولة الأحباش أن يجعلوا من هيكلهم نظيراً للكعبة. ولاشك أن هذا الوهم لم يكن ليمكن تصوره، خصوصاً وأن الأحباش إذا فرض أنهم قاموا بمثل هذه المحاولة التي ينسبها مؤرخو العرب لهم، فستكون هذه المحاولة وقفاً على النصارى من العرب وهؤلاء بحكم دينهم منصرفون عن الكعبة. فإذا جاز أن نحمل هذه المحاولة على الرغبة في التبشير بالمسيحية بين العرب، فلاشك أن مثل هذا الحادث الخطير لم يكن ليمر بدون إشارة في كتب تاريخ الكنيسة الشرقية. ومن هنا لا نرى محلاً لقبول ما يقول رواة العرب عن سبب تعرض الأحباش للحجاز.

إذا صحت استقراءاتنا ونظرتنا للموضوع، فإن الصلة تكون مفصومة بين تعرض الأحباش للحجاز ومكة، وبين وجود هيكل للنصارى بصنعاء. على أنه بعد ذلك مما يستوقف النظر، ما نراه من الاتفاق عند مؤرخي العرب في تسمية الحملة الحبشية بسفر الفيل، وذلك على اعتقاد وجود بعض الفيلة في قوات الأحباش. على أن اعتقاد وجود بعض الفيلة في جيش الأحباش باليمن يسوقنا إلى مواقف على جانب كبير من الخطورة، يميل معها بعض المؤرخين الأعلام من الغربيين إلى إنكار وجود الفيلة في قوات الأحباش. ذلك لزعمهم إنه لا يمكن تصور إمكان الاحتفاظ بالفيلة في اليمن وتسييرها في صحارى نجران. فضلاً عن أن الفيلة الأفريقية (التي قد يكون الأحباش جلبوها إلى اليمن إذا صح هذا الاعتقاد) من الصعوبة ترويضها حتى أن بعض الثقات الأثبات من علماء الحيوان يرون استحالة ذلك وهذه الاستحالة جعلت المؤرخين يرجحون أن تكون الفيلة التي ورد ذكرها في حروب القرطاجنيين قديماً فيلة مجلوبة من الهند غير أن افتراض جلب الأحباش فيلتهم من الهند يقف في سبيل قبوله أن الأحباش لم يكونوا على دراية بترويض الفيلة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لأنهم لم يكونوا أصحاب أسطول يمخر عباب البحر الهندي، حتى يمكنهم جلب الفيلة الهندية على أن هذه الاعتراضات من الممكن ردها إذا لاحظنا أمرين غابا عن هؤلاء الباحثين: الأول أن الأحباش استعانوا بأسطول الروم لنقل جيوشهم عبر باب المندب والبحر الأحمر حين شنوا الغارة على اليمن. وثانياً أنه كان للروم سفائن حربية وأخرى تجارية في البحر الأحمر. وهذا يجعل من الممكن جلب بعض الفيلة من الهند بواسطة سفائن الروم وأن يستعين الأحباش ببعض الهنود في تسيير هذه الفيلة في حملتهم على فارس. ولاشك أن تعاون الروم مع الأحباش أولاً، والغرض من الحملة وهو مساعدة الروم ثانياً يجعل لتفسير تسمية حملة الأحباش بسفر الفيل وجهاً مقبولاً.

تقدم الأحباش بقواتهم شمالاً، لكنهم لم يكادوا يقربون مكة حتى ألمت بهم كارثة أودت بهم. وبعض المراجع العربية ترجح أن تكون هذه الكارثة هي تفشي الجدري في جيش الأحباش. والقرآن الكريم يؤيد كلام المؤرخين العرب

على أن إشارة القرآن إلى أصحاب الفيل، تحمل في تضاعيفها دلائل قوية على معرفة العرب لقصة سفر الفيل من جهة، وعلى أنها حديثة العهد بهم؛ على أن ما قدمه

القرآن لنا في صورة موجزة توسع فيه رواة العرب وخلطوه بالأقاصيص وشحنوا به كتب التاريخ والسيرة والأدب. وهنالك بعض الشعر المزعوم قوله في حادثة الفيل، تجد بعضه منسوباً لابن الزبعري والبعض الآخر لأمية بن أبي الصلت. فمن المنسوب للأول هذه الأبيات:

وتنكلوا عن بطن مكة إنها ... كانت قديماً لا يرام حريمها
لم تُخلق الشعرى ليالي حرّمت ... إذ لا عزيزَ من الأنام يرومها
سائل أميرِ الجيش عنها ما رأى ... ولسوف ينبي الجاهلين عليمها
ستون ألفاً لم يؤوبوا أرضهم ... بل لم يعش بعد الإياب سقيمها
كانت بها عاد وجُرْهم قبلهم ... والله من فوق العباد يقيمها

أما الأبيات المنسوبة لأمية فهي:

ومن صنعه يوم فيل الحبو ... ش إذ كل ما بعثوه رَزَم
محاجنهم تحت أقرابِه ... وقد شرَّموا أنفه فانخرم
وقد جعلوا سوطه منوَلا ... إذا يمموه قفاه كُلِم
فولى وأدبرِ أدراجَه ... وقد باء بالظلم من كان ثَم
فأرسل من فوقهم حاصباً ... فلفَّهم مثل لف القُزُم
تحض على الصبر أحبارُهم ... وقد ثَأجوا كثُؤاج الغنم

ويفهم منها أن الكارثة التي ألمت بأصحاب الفيل كانت مزدوجة: ريح سموم هبت عليهم، ووباء تفشى فيهم، وحمل الوباء عند العرب على الريح السموم. على إنه مما يستوقف النظر في هذه الأبيات ورود لفظة (الأحبار) في البيت الأخيرِ مع أن الأحباش لم يكونوا
هوداً، حتى يصح افتراض اصطحابهم لأحبارهم! والذي عندي أن هذه الأبيات مفتعلة في العصر الإسلامي.

إذا وضعنا أمام النظر كل هذه التحقيقات بان لنا أولاً: أن قصة مسير الأحباش إلى مكة بقصد هدم الكعبة دون غيره ليست جاهلية، وإنما تعود بأصل إلى الإسلام

ومن هنا نجد أن تعليل تعرض الأحباش للحجاز في طريقهم إلى فارس بأن القصد منه محاولة هدم الكعبة وصرف الناس عنها ليست إلا أسطورة نشأت بعد أن قام الإسلام وذاع وانتشر بين العرب واستقر في الشرق وارتفع شأن مكة وأصبحت الكعبة قبلة المسلمين. فعمل الرواة على أن يربطوا بين وجود هيكل النصارى في اليمن وبين حملة الأحباش على الحجاز في سبيلهم إلى فارس فكان لهم من ذلك قصة محبوكة.

ومما لا ريب فيه أننا قد وضعنا اليد على مواضع الصنع في هذه القصة التي ترويها الكتب العربية، وكشفنا عن الخطوط التاريخية التي استمد منها النسيج الأول الذي حيكت بعده بقية خيوط القصة كما تجيء في المصادر العربية. وهكذا تميز معنا الجانب التاريخي من الجانب الأسطوري فيها، واتضحت ناحية خفية من نواحي تاريخ العرب في الجاهلية

ميلاد الرسول

ربط الكثير من مؤرخي العرب ميلاد الرسول (ص) بعام الفيل ليتخذوا من ذلك دليلاً آخر على نبوّة الرسول بأن عناية الله ردَّت كيد الأحباش عن مكة تكريماً له إذ كانت أمه آمنة في ذلك الحين حاملة به. والواقع أن نبوة الرسول تحملِ في ذاتها آيات صدقها، فهي لا تحتاج لدليل خارجي يدعمها. وحياة الرسول تثبت إنه كان مخلصاً طيلة حياته، وهذا وحده يردّ كل محاولة يراد بها التشكيك في نبوته

ولما كانت حملة الأحباشِ التي عرفت بسفر الفيل جرت سنة 540 ميلادية كما ثبت من التحقيقات التي كشفنا لك عنها من قبل، فإن الصلة تبدو مفصومة بين عام الفيل وهي السنة التي كان فيها سفر الفيل وبين ميلاد الرسول (ص)، فنحن نعرف أن محمداً عليه الصلاة والسلام ولد في حدود سنة 570 ميلاديةِ كما حقق ذلك الباحثون. فإذن هنالك نحو ثلاثين سنة تفصل بين عام الفيل وميلاد الرسول. وبعض المؤرخين العرب يثبت هذا، فمثلاً يقول البغوي: إن سفر الفيل حدث قبل ميلاد الرسول بنحو أربعين سنة ومحمد بن السائب الكلبي

ينزل بهذه السنين إلى ثلاث وعشرين سنة. ونلاحظ أن خلفاء أبرهة حكموا اليمن 31 سنة وأنه في سنة 570 ميلادية؟ قوات القدس لتخليص اليمن من الأحباشِ وهذا يجعل

حكم أبرهة الذي أغار على الحجاز حوالي عام 540م وهذا ما يؤيده عن طريق غير مباشر بعض المصادر العربية التي تقرر أن الرسول ولد بعد خمسين سنة من استيلاء الأحباش على اليمن وأنهم طردوا بعد عامين من ميلاد الرسول. وهذا كله إن أثبت شيئاً فإنما يثبت أن الصلة مفصومة بين ميلاد الرسول وعام الفيل وان محمداً ولد بعد عام الفيل بثلاثين سنة تقريباً

ومن المهم أن نقول هنا إن هذه الحقيقة التاريخية برغم وضوحها ورغم ثبوت أن حملة الأحباش على الحجاز كانت في حدود سنة 540 ميلادية وأن ميلاد الرسول كان سنة 570 ميلادية، فإننا نجد معظم المشتغلين بالتاريخ الإسلامي يخطئون، فيجعلون ميلاد الرسول مقروناً بعام الفيل. وربما كان لبعضهم العذر في هذا الخطأ لجهلهم هذه التحقيقات المعروفة في دوائر التاريخ في العالم المتمدن، ولكن ما عذر بعض الأساتذة الجامعيين الذين تجد في مصنفاتهم جميع أصول هذه التحقيقات، وبعد ذلك يخطئون ويقولون أن الرسول ولد في عام الفيل ومهما يكن من شيء فالتاريخ يرفض كل محاولة يراد بها ربط ميلاد الرسول بعام الفيل كما أن التحقيقات التاريخية تبين أن الصلة مفصومة بين التاريخين بنحو ثلاثين سنة. ونرجو أن يكون في هذا البحث تصحيح لما تجري به أقلام الباحثين في العالم العربي من أن رسول الله محمد بن عبد الله ولد عام الفيل.

(الإسكندرية)

إسماعيل أحمد ادهم

دكتور في العلوم والفلسفة من موسكو

ودكتوراه فخرية في الآداب من لينغراد وموسكو

محمد تيمور

الممثل والناقد والمؤلف المصري

للأستاذ زكي طليمات

(نص الكلمة التي ألقاها الأستاذ زكي طليمات مفتش شؤون التمثيل بوزارة المعارف في الحفلة التي أقامتها جماعة أنصار التمثيل والسينما بدار الأوبرا الملكية مساء يوم الأربعاء الموافق 28 فبراير 1940 تكريماً لذكرى المرحوم محمد تيمور، وذلك بمناسبة مرور عشرين عاما على وفاته)

إن الحديث عن تيمور لا تخلق جِدته لمن نَعَم بصداقة تيمور الراحل، ومن قرأه في أشعاره وفي مسرحياته. وحديث اليوم حديث الوفاء لمن عمل إلى جانب تيمور للمسرح وللفن، واتفق وإياه في المبدأ والفكرة العاملة. وحديث اليوم أيضاً هو درس الشباب، الشباب الدارج الذي فاته أن يعرف تيمور أو أن يطالعه في كتبه الثلاثة حينما لبى تيمور نداء ربه منذ عشرين عاماً، وريعت مصر بفقده، وانتظمت جنازته في شبه موكب قومي حافل - لم تشيع السرىَ ابن الجاه الواسع والحسب الأصيل، لم نشيع الشاعر الملهَم فحسب، وإنما شيعنا رجل المسرح المصري الحق، وكبير كتّابه، وأخلص نصرائه

على هذا الاعتبار الذي يطغى على أي اعتبار آخر، شيعنا محمد تيمور إلى مرقده الأخير، ولما يتجاوز العقد الثالث من عمره. وليس في ذلك إرخاص لشباب غض ذوى قبل أوانه، وخُلق رضي متواضع قلما تُلمح مخايله في شباب الأعيان وأبناء الأرستقراطية التي تحسب أن النعم وقف على أبنائها، ولا خفض لشأن البيان الذي كان تيمور من فرسانه؛ وإنما إعلاء لشأن تلك الموهبة الغنية الخصبة التي أمدت المسرح المصري، وهو يرقى أولى درجات نموه بكثير من مقومات كيانه بعد أن ركز فيه تيمور أعلاماً من العمل الباهر والجهاد الصادق

. . .وما اجتمعنا اليوم إلا بنفس الدافع الذي دفع الناس من قبل إلى تشييع جنازة تيمور اجتمعنا لنحيي ذكرى تيمور في جهاده للمسرح المصري ممثلاً وكاتباً وناقداً وقد نجتمع غداً لنفس الدافع، ولعين الغرض، وسيحصل الجيل القادم شرف هذه الرسالة ليسلمها بدوره إلى الجيل الذي يليه. هذا أمر أعتقده وأؤمن به، لأننا، وقد شملتنا اليقظة القومية، لابد من أن نمجد ذكرى من عملوا لهذه القومية.

لأننا، وقد أخذنا بتدعيم أسباب مسرح مصري صحيح، لا مناص من أن نشيد بذكر من

جاهدوا في سبيله، وأن ننتزع من النسيان تلك الوجوه الكريمة، التي شقت أفقاً، ومهدت طريقاً، وأهوت بيدها تنشئ في جدار!. . .

تيمور والمسرح

أتحدث الآن عن ذلك الجيل الذي عاش فيه تيمور، جيل الجهاد الأول من جانب الشباب المثقف لاستخلاص طابع مصري لفن التمثيل العربي، ولإعلاء شأنه، جيل الهواة الذين يرجع إليهم الفضل فيما انتهت إليه الحركة المسرحية اليوم

لئن قلت إن التمثيل كان قبلة تيمور في مختلف أدوار حياته، فإني لا أقرر غير الواقع الذي شهد به كل من اتصل بتيمور

فما كان تيمور المراهق الذي كان يتخذ من أبهاء قصور آبائه مسارح مرتجلة، ومن شقيقيه ومني ومن خلصائه ممثلين لفرقة مزعومة. . .

هذا الجواب الصغير لدور التمثيل في سن لا يُحسن فيها الذهاب إلى دور التمثيل، هذا المقلد (لسلامة حجازي) في إنشاده، ما كان تيمور هذا، إلا ذلك الشاب اليافع، الذي أعجب به الجمهور بعد ذلك ممثلاً في حلقات السمر، وفي حفلات الجمعيات التمثيلية، ثم حياه ناقداً جريئاً، ثم مجده مؤلفاً لمسرحيات مصرية طريفة هي الأولى من نوعها في العهد الذي عاش فيه تيمور

وإذا حاولنا أن نقيم صلة بين هوية تيمور بالمسرح وبين نشأته وبيئته وتقاليد أسرته لما وجدنا إلى ذلك سبيلاً، ولانتهينا إلى أن الإنسان حقاً لا يستقيم إلا على محتوم قضائه ومكتوب سيرته. (فتيمور) سليل بيت عريق في الغنى والمجد وفي التقاليد التي تعتبر التمثيل رِجساً من أعمال الشيطان. و (تيمور) ابن بيت عُرف بالاشتغال بالأدب، فعمته الشاعرة عائشة التيمورية، ووالده المؤرخ واللغوي المحقق أحمد تيمور باشا. و (تيمور) اجتاز مراحل الدراسة في مصر، وسافر إلى أوربا لدراسة الحقوق، ولم يكن بينه وبين نيل إجازته شيء، لولا أن قطعت عليه الحرب الأخيرة سير دراسته. . .

ومع كل هذا فقد اعتلى تيمور المسرح ممثلاً قبل عودته من أوربا وبعد عودته منها وعلى الرغم من تبرم أهله وعشيرته بفن التمثيل. . .

اعتلى المسرح وهو يشغل وظيفة التشريفي لدى عظمة السلطان حسين في قصر عابدين؛ فضرب بذلك المثل الحي على أن التمثيل هوية شريفة جديرة بأن يعمل فيها أكبر الناس حمولةً من العلم والجاه والمركز الاجتماعي الممتاز. وهذا المثل فيه ما فيه من دلالة على أن المسرح يجب أن يكون مما يُعنى به الشباب المتعلم والشباب الكريم المحتد. وأن المسرح ليس بالأرض التي قضى عليها بألا تحمل إلا الأغرار ومن تنكبت بهم سبل العيش ومن خلت مواهبهم إلا من الجرأة والصوت الجهير!. . .

تيمور الممثل

ترأس (تيمور) أكثر من هيئة تمثيلية، وعمل مخرجاً وممثلاً فيها. بيد أن حياته في فن الممثل ليست بالحياة الطويلة، ولكنها على قصرها رسمت فن الممثل في نسقه العالي، وأقامت مدرسة لفن الإلقاء والتجويد لم تكن معروفة في ذلك الوقت، لأنها مدرسة كانت تقوم على الاعتدال والاتزان وصدق التعبير وجمال التأثير. جمع تيمور في إلقائه قوة التصور والإدراك إلى قوة الأداء والتعبير في تلك البساطة الغنية والحذق الباهر الذي يعمل على إرخاص الحواشي وإعلاء جوهر الكلام، والذي يحمل التأثير إلى قلوب المستمعين، لا إلى آذانهم!

هكذا شق تيمور الفجر الأول لما يجب أن يكون عليه الإلقاء والتمثيل من جانب الممثل والملقي

إلا أن الحركة التمثيلية لم تستفد الإفادة كلها من مواهب تيمور الممثل؛ لأنه لم يكن في وسع تيمور - وظروف بيئته على ما أجملنا وصفه - أن يحترف التمثيل في الفرق العاملة

ويقيني أن تيمور لو احترف التمثيل لما أصاب فيه خيراً، ولا اقتصرت مواهبه على تأدية بعض الأدوار، ولا انصرف بذلك عما هو أهم وأجدى، ولتبرم في النهاية بالمسرح ومحترفيه

تيمور المؤرخ والناقد

إذا صح أن المسرح المصري فقد في إمساك تيمور عن احتراف التمثيل ممثلاً قديراً كان في وسعه أن يرقى بفن الممثل إلى الدرج المرغوب فيه، إذا صح هذا فإن

المسرح لم يفقد في تيمور ناقداً له ومؤرخاً لعصر من عصوره
إن ما كتبه تيمور ناقداً ومؤرخاً للمسرح المصري متفرد في بابه بالدقة والصراحة، متفرد في ابتعاده عن التشيع وتلمس العيوب وحرق المباخر تحت ذقون زعماء المسرح المصري
كان تيمور لا يكتب لشهوة الكلام، أو للتظاهر بأنه حذق المسرح وفنونه، ولا لأي غرض من الأغراض التي تدفع بعض نقاد المسرح إلى امتشاق القلم وخوض معارك الجدل، وإنما كان يكتب لينزل الأشياء منازلها الصحيحة، وليخط للنقد المسرحي طريقاً، وليقيم له عرفاً، وليذيع اسم المسرح في كل مكان، ثم ليرسم للعاملين في المسرح الطرق والوسائل التي ترقى بهم وبفنهم نحو الكمال المنشود. ولعل تيمور أول من كتب منادياً بوجوب استقلال المسرح المصري عن المسرح الغربي برواياته وتصانيفه، وبوسائل تأدية ممثليه
لو قال تيمور هذا وسكت لقلنا إنه إنما يزف نظريات استلهمها من تاريخ المسرح الغربي وتطوره، وهو المسرح الذي نهل منه تيمور أعذب الموارد
تيمور المؤلف
ولكن تيمور قرن القول بالعمل والنظر بالتنفيذ، فألف للمسرح مسرحيات تمتاز بطابع مصري أصيل، هذبت حواشيه وصقلت صميمه مطالعات بعيدة وتأملات واسعة في نفائس الأدب المسرحي العام، امتزجت بوفرة الاستعداد وخصب الموهبة وروح الشاعر
كتب تيمور ثلاث مسرحيات (العصفور في القفص)، و (عبد الستار) و (الهاوية) كما وضع مسرحية (العشرة الطيبة)، والجديد في هذه الروايات أنها عالجت موضوعات منتزعة من صميم الحياة المصرية والشرقية في أسلوب أخذ نصيبه الوافر من طرافة الحوار، ووضوح الفكرة، وتغلغل هابطاً في أعماق النفس البشرية ليسجل منها أصدق الخلجات وأخلص المشاعر
والجديد في هذه الروايات أيضاً، أنها كتبت باللغة العامية، وهذا موضع العجب، لأن تيمور كان يملك ناصية البيان العربي وله شعر رصين ينم عن تعمق في دراسة اللغة، والأخذ ببيان الأقدمين.
وكان التأليف للمسرح من جانب من هم على شاكلة تيمور في ثقافته وأدبه إنما يجري باللغة العربية الفصحى
تيمور واللغة العامية
يفسر هذا أن تيمور كان يعتقد - كما سبق أن جاهر بذلك في مقالات عديدة - بأن لغة المسرح يجب أن تكون غير لغة المقال والأدب، وأنه يجب مخاطبة الجمهور المستمع باللغة التي يفهمها ويحذقها، أيّاً كانت لهجة هذه اللغة ونصيبها من البيان، وأنه في سبيل ذلك لا ضير على المؤلف للمسرح أن يكتب باللغة العامية مادامت هذه اللغة في متناول كل الأذهان ومختلف الطبقات، وأن لا ضير من إهمال جانب العربية في الكتابة للمسرح حتى يجتاز التمثيل المصري المرحلة الأولى من مراحل تكوينه، وهي مرحلة نشره وإذاعته بين الجماهير
كان تيمور أول من سن هذه الشرعة الفنية في وقت كانت تصدر فيه أغلب المسرحيات في أسلوب عربي لو اهتم كاتبه بمقتضيات الفن في نسج الرواية اهتمامه بتنميق اللفظ وإشراق البيان، لكان للمسرح المصري اليوم روايات عربية مقطوع بصحتها الأدبية والفنية معاً
تيمور والمصرية
وفوق هذا فقد كانت تعمر قلب تيمور فكرة (المصرية) وهي فكرة ترمي إلى أن يكون الأدب المصري مستقلاً عن الأدب العربي، لا في مناحي التفكير فحسب، ولكن في العبارة وأسلوبها إذا لزم الأمر
وهذه (المصرية) تجلت في كل ما كتبه تيمور قصاصاً وشاعراً.
والمصرية اليوم فكرة قد لا تلقى ترحيباً لدى بعض الرؤوس المفكرة، ولها ما لها عند البعض، وعليها ما عليها عند البعض الآخر، إلا أنني أقول - وقد أخذت عن تيمور الكثير من ثقافتي الفنية والأدبية - إنه ستكون للمصرية، ولاشك، دولة في القريب العاجل مادمنا

قد استكملنا مظاهر استقلالنا السياسي، وما دمنا قد استشعرنا العزة القومية، وأخذنا بأسباب نهضة ترمي في الصميم إلى استقلال الفكر والأسلوب في جميع نواحي الحياة الاجتماعية

ولم يك غريباً بعد أن أصدر تيمور مسرحياته باللغة العامية وهي تعالج موضوعات مصرية، لم يك غريباً أن يقيم مدرسة جديدة في الأدب المصري، والأدب العربي المستحدث، اجتذبت نحوها مريدين وأنصاراً

وقد ننسى أن تيمور كان ممثلاً فذاً، وكان ناقداً جريئاً، وأنه أضاف جديداً إلى دولة الشعر والبيان، وأنه دبّج للإصلاح الاجتماعي مقالات عديدة. قد ننسى كل هذا، ولكننا لا نستطيع أن ننسى أن تيمور عمل للقومية المصرية الحقة بتأليف مسرحيات جديرة بالخلود لوفائها بشرائط الفن الرفيع، مسرحيات تعتبر بحق من أحسن ما أخرجته الأقلام المصرية الدائبة على أن تجعل المسرح شقة من الأدب العربي المستحدث

كذلك لا نستطيع نسيان شيء آخر، وهو نزول شاب عريق في الحسب والجاه، إلى العمل في حقل جديد، في فن وافد حديث العهد بفنون هذه البلاد وتقاليدها، ترمقه الأكثرية الغالبة من الناس بعين ملؤها الشك والازدراء. . .

لا ننسى أن تيمور كان سبباً في أن أخذ الناس يحسنون الظن بهذا الفن. وشد ما يحتاج هذا الفن إلى حسن ظن الناس به! وأنه عمل له مجاهداً فدائياً بقدر ما وسعته بيئته وزمانه، وأنه لم يلق قلم الجهاد حتى الساعة الأخيرة، ويا لها من ساعة سقطت فيها زهرة ندية بقطر الشباب، تتنفس عن عطر فاغم، بعد أن جادت بروائها وبنورها وبعطرها لتبقي منابت الورد وموارد الإلهام وحصاد الخيال ومباعث الحنان. . .

أيها السادة:

إن الذي نحتفل اليوم بتمجيد ذكراه، شاب قضى في ميعة العمر ونضوج الصبا. . . فحيوا معي العروس المختضر، وأرسلوا البسمات صافية، لأن الدموع على الشباب الراحل ضرب من السخرية، ولون شائع من الحزن الرخيص. . .

زكي طليمات

من وراء المنظار

مجلس ظريف

شهدت من كثب ذلك المجلس في مقهى، ومن عجب أن تقع عيناي على مجلس ظريف في مثل ذلك المكان. أقول ذلك وإن عجب القارئ لقولي؛ على أني أرجو منه المعذرة، فأنا أكره المقاهي حتى ما أطيق الجلوس فيها إلا لضرورة. ولئن أنكرت وجود مجلس ظريف في أحدها فمرد ذلك إلى جهلي بها لا ريب في ذلك. . . ولست أدري لم أسأل نفسي أبداً كلما مررت بمقهى: أيتفرج الجالسون فيه على السابلة، أم هم أنفسهم صنف من المعروضات يتفرج عليهم المارة فيما يتفرجون عليه من معروضات الشارع؟ أما عن نفسي فأنا أتفرج دائماً على هؤلاء الجلوس ضاحكا؛ وكم يذهب خيالي في تصويرهم لي مذاهب لن أطاوع قلمي في ذكرها

ذهبت في المساء أطلب في أحد أطراف المدينة فملت إلى مقهى هناك كاد يكون خالياً، وقد اجتذبني ما بدا لي من هدوئه. وجلست وحدي في ركن من أركانه أمني النفس بجلسة تعيد لي خيال منعزلي في القرية؛ ولكني لم أكد أستشعر الهدوء حتى أقبل جماعة لم أشك أنهم من طالبي الهدوء مثلي. وآية ذلك أنهم كانوا يضحكون في جلبة شديدة، ويقطع بعضهم على بعض الحديث قبل أن يأخذوا أماكنهم! ورأيتهم جلسوا في نصف دائرة أمام واحد منهم جعلوا له الصدارة، وقد دل مظهره على إنه جدير بهذه الصدارة. والحق لقد كان في مجموع شكله يخيل إلي إنه نكتة تمثلت بشراً!

وبدأ الحديث أو قل استمر، فهم لم يمسكوا منذ رأيتهم مقبلين. وكأنما اعتزم هؤلاء أن يضحكوا أكثر ما يستطيعون من الضحك كما لو كانوا واثقين أن هذه آخر فرصة للضحك في حياتهم!

كانوا إلا واحداً أو أثنين قد جاوزوا الأربعين بقليل كما تراءى لي. أما كبيرهم فأحسبه كان يحبو للخمسين من عمره المبارك، وكانوا جميعاً يشتركون في صفة واحدة؛ ذلك أن عليهم طابع الديوان، فما تلبث العين - ولو بغير منظار - أن ترى فيهم نفراً من

هؤلاء الذين يتربعون أمام المكاتب أثناء النهار وقد ارتسمت على وجوههم إمارات الجاه واتضحت دلائل الحكومة
ودار حديثهم أول ما دار حول (عزومة) كانوا خارجين منها لتوهم، فلم أسمع إلا النكتة تتلو النكتة. ولقد غابت عني لسوء حظي أكثر هاتيك النكات فيما كان ينطلق من أفواههم من قهقهات عالية متواصلة! ورأيتهم يرسلون ضحكاتهم العريضة قبل النكتة وبعدها، فما تنفرج شفتا زعيمهم حتى تنبعث الضحكات مجلجلة من بين شفاههم، وإن لم يسمعوا ما يقول. فلقد كان يضحك الواحد منهم أحياناً ملء شدقيه، ثم يميل على جاره يسأله: ماذا كانت النكتة؟ وكانت تسمج بعض النكات، ولكن الضحك يظل على حاله من الشدة، حتى لا أدري أيحمل هنا على المجاملة أم أن سخف النكتة إذا اشتد قد يكون في ذاته باعثاً من بواعث الضحك منها؟ على أنني رأيت للمجاملة هنا شأناً كبيراً، فكل من هؤلاء يضحك لكي يضحك لقوله الآخرون بدورهم، وإن جاوز في السخف أبعد حدوده. . .
ومن غريب أمر هؤلاء الظرفاء أنهم لم يتورعوا عن ذكر اسم مضيفهم المسكين أكثر من مرة، ولم يتركوا شيئاً مما قدم لهم من الطعام، ولا مما رأوه من متاع بيته إلا جعلوه موضعاً لظرفهم وقلبوه على أوضاعه جميعاً، فهذا زفت مجسم سمي (بالكفتة)؛ وهذه (الفتة) كان ينقص أن تقدم في طست الغسيل؛ وهذا الصنف جيء به من (المسمط)، وهذا الخبز سيسأل عن تقديمه لهم بين يدي الله، أو ذلك البرتقال من (سوق الكانتو) وتلك الأطباق والملاعق لاشك وقف عزيز من أوقاف المرحوم جده. . .
وأنه إذا أراد أن ينتقم غداً من الرئيس فلان فليس أبلغ في الانتقام منه من أن يدعوه إلى مثل هذه (الأكلة). . .
وليتهم استمروا فيما هم فيه، ولم يخرجوا منه إلى استعراض الكثير غيره من أعراض الناس في مجلسهم الظريف، وللحديث شجون كما يقولون، وليس يبالي هؤلاء القوم في ساعة (حظهم) إلى من يتطرق الحديث، ولا أي موضع يتناول
وشبعت نفسي مما طلبت من هدوء، فانصرفت مسروراً برؤيتي هذا المجلس الظريف؛ وأنا أقول في نفسي كم يوجد من أشباه هذا المجلس الظريف ونظائره في الطبقات الأخرى من المجتمع وفي غير أركان المقاهي من النواحي، فما تلك المجالس إلا براهين قاطعة على أننا قد بدأنا نأخذ أنفسنا بالجد من الأمور، وأننا إذا لهونا فإنما نحسن اللهو كما نحسن الجد في هذه الحياة.
(عين)
ذكرى أخي الهراوي
للأستاذ علي الجندي
قبل وفاة صديقي المرحوم الهراوي بشهر، أرسل إلي بطاقة لطيفة حملها (ألف قبلة وتحية) ورجاني فيها أن أزوره بمقر وظيفته ليحادثني في شأن من الشؤون الأدبية. وقد عدتني عواد عن تلبية هذه الدعوة في حينها، ثم ذهبت بعد ذلك إلى دار الكتب فسألت عنه، فقال لي البواب: (تعيش) لقد توفي أمس إلى رحمة الله!
كانت الصدمة عنيفة أذهلتني عن كل شيء حتى عن واجب العزاء لأسرته، وحاولت أن أرثيه فلم أستطع، فقد غال الحزن بياني وغشى على مشاعري، وكان أنكى علي من ذلك ما تهامس به بعض الناس: من أني أخللت بواجب الإخاء! كأنهم لا يدرون - عفا الله عنهم - أن من الألم ما يحمي صاحبه الكلام كما يحميه الطعام!
والآن وقد انكسر الحزن ورسب سعيره في الأعماق، أهدي إلى روح صديقي في مسراه العلوي هذه الطاقة الشعرية مستنزلاً عليه الرحمة والرضوان العميم:
جهلَ العاذلونَ فيكَ مُصابي ... فأطالوا مَلامتي وعتابي
وأذاعوا: أني بخلتُ بدمعي ... ورثائي على أبرِّ الصِّحابِ
وعزائي عِلْمي بأنّك تدري ... ما أعاني من حُرقة واكتئاب
رُبَّ باك يذري دموع التماسي ... ح من الموجعات خالي الوطاب
وجليدٍ يفترُّ عن سنٍّ جذلا ... ن طوَى كشحه على الأوصاب
وخليّ الفؤاد من لاعج الحبّ ... (م) يُرى صابياً وليس بصابي
أعذَرُ الناس من دهتْه الرزايا ... ونَهَتْ دمعَه عن التَّسكاب
فهنيئاً لهم بكوْا فاستراحوا ... وكتمت الجوى، فطال عذابي

أيها اللائمون عَدُّوا عن اللو ... م وقُيتمْ - على الإساءة - ما بي
لو بكم ما بنا، وبان عليكم ... لَلبِستمْ به سوادَ الغراب
لا يُحسّ الآلام من دينه الله ... وولا يدْرَكُ الصبى بالتصابي
كثرت بيننا الجِياد ولكن ... قصبُ السبق للمذَاكي العِراب
وحمامُ الرياض يبكي فنشجَى ... حين تبكي مطوّقاتُ الرِّقاب
كيف ينسى الوداد مثر من المج ... د رفيع الذُّرا كريم النِّصاب
مُعْرقٌ في الوفاء يجري على العر ... ق ويسري في بُلجة الأحساب
لا وربي لم أنقض العهد يوماً ... لا ولا بتّ سالياً أحبابي
أنا أكسوهم المدائح أحيا ... ءً، وأروي صداهمو في التراب
وأصوغ الرثاء فيهم رياحي ... ن تمجّ الشّذا على الأحقاب
يا أخي في الوداد، والودُّ أبقي ... أثراً من علائق الأنساب
ومُعيني على نوائب دهر ... أنا منها ما بين ظفر وناب
ومَناري إذا دجا الشك حولي ... وتنكبت عن طريق الصواب
وصفيي، وجُلُّ من أصطفيهم ... صُورُ الإنس في طباع الذئاب
كنت أخشى طوارق السوء إلا ... طارق الموت لم يقع في حسابي
أين أيامنا نواعم كالغي ... د تخايلْنَ في رقيق الثياب
بين صبح مُفضّض، وأصيل ... شرِق الأفق بالنُّضار المذاب
نسجتها يد الزمان من البه ... جة والأنس والأماني العِذاب
فهي من عمره الربيعُ المُوشّى ... وهي من عمرنا لُباب اللّباب
وليال كأنها من سَناها ... ومضات الأحداق خلف النقاب
نَتساقَى بها الودادَ سُلافاً ... أين منها سلافة الأعناب
كيف مرّت بنا عِجالاً فكانت ... كحباب طفا على الأكواب
أو كطيف الحبيب يدنو به الغم ... ض وتُقْصيه رقصةُ الأهداب
خُلَسٌ من بشاشة العيش ولّتْ ... تستحث الخطا لغير إياب
آه لو سامني زمانيَ فيها ... بشبابي، شريْتها بشبابي
فجعتنا المنون بالشاعر المل ... هم آي البيان والإعراب
بالأديب المِفنّ من يسكب المع ... نى رحيقاً في المنطق الخلاّب
بِمُحيل الطروس روضَ مجان ... مُونِقاً للعيون والألباب
بسجيج الطبع الرقيق الحوا ... شي وسريّ الخُلْق النقيّ الثياب
بمؤدّ حق الأخلاّء في النا ... دي وحق الإله في المحراب
جامع الخَلّتين: ظرف الألبّا ... ء، ونُسْك المُطهّر الأواب
يا لذكرى هاجت بلابل صدري ... وأعارتْ قلبي جناحيْ عُقاب
قَلِقٌ تَحتيَ الوسادُ كأني ... أتنزَّى على رؤوس الحراب
بين ليلَيْن: من دجى وهموم ... ناهضات إليَّ من كل باب
مَثّلا لي الخضمَّ يغشاه موجٌ ... تحت موج مجلل بسحاب
كلما طار في السماء شهابٍ ... طار قلبي وَثْباً وراء الشهاب
أو ذكا كالبرق في الدُّجنّة ناراً ... شب نار الأحزان ملء إهابي
تُسعد الذكرياتُ أهلها، وألقي ... ذكرياتي محطّم الأعصاب
يا صديقي لبيت دعوة (رضوا ... ن) وخلّفتني لحَرِّ المصاب
لم تزوّد أخاك بالنظرة العجْ ... لى على وَشْك نيةٍ واغتراب
ووداع الأحباب فن من السل ... وى وعون على احتمال الغياب
ليت آذنتَ بالفراق، فكنّا ... ننثر الدمع في طريق الركاب
كذَب الشعر ما لمن حان عِلمٌ ... بالذي سجلتْه (أمُّ الكتاب)
إن من مِنة الإله علينا ... أن توارتْ أسرارنا بالحجاب
لو درى الناس ما تستّر عنهم ... قعدوا عن تناول الأسباب
لمع الغيب للظماء سراباً ... ضلّ صاد يجري وراء السراب
روّض الغيث قبر من كان روضاً ... حالياً بالعلوم والآداب
بان عنا، فبان كلُّ جميل ... فعزاءً للآل والأصحاب

علي الجندي

لقب السفاح - 3
للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

وعدت في مقالي الثاني أن أبين للأستاذ العبادي كيف اختلفت الروايات في لقب السفاح بين أبي العباس وعمه عبد الله ابن علي، وقد سلك الأستاذ العبادي في اختلاف هذه الروايات مسلكاً ليس من الإنصاف العلمي في شيء، فجعل تلقيب أبي العباس بالسفاح من رواية المؤرخين الأدباء كالجاحظ وابن قتيبة والأصفهاني ولهذا لا يوثق بها عنده، وإنما يوثق بالرواية التاريخية القديمة التي سكتت عن تلقيب أبي العباس بهذا اللقب، كرواية ابن سعد وابن عبد الحكم وغيرهما. ويؤخذ بما رواه غير أولئك المؤرخين الأدباء من تلقيب عبد الله بن علي بالسفاح، وإنما كان هذا ليس من الإنصاف العلمي في شيء، لأن سكوت أولئك المؤرخين عن تلقيب أبي العباس بالسفاح لا يصح أن يطعن به في رواية من لقبه به، لأن من حفظ حجة على من لم يحفظ، وهذه قاعدة مشهورة عندنا معشر الأزهريين، ولا يمكن أن يجادل فيها الأستاذ العبادي، وإنما يصح الطعن برواية أولئك المؤرخين إذا وردت بنفي ذلك اللقب عن أبي العباس، وحينئذ يكون معنا ناف ومثبت، وقد اختلف علماء الأصول في تقديم أحدهما على الآخر. على أن الأستاذ العبادي لا يمكن أن يدعي أنه استوعب الرواية التاريخية القديمة كلها في ذلك، وقد فاته من هذه الرواية رواية أبي الحسن المسعودي المتوفى سنة 346هـ، فقد جاء في كتابه (مروج الذهب) تلقيب أبي العباس بالسفاح، والمسعودي مؤرخ مشهور، وقد كان معاصراً للطبري المتوفى سنة 310هـ وهو ممن عده الأستاذ العبادي في أصحاب الرواية التاريخية القديمة فيكون المسعودي من أصحابها أيضاً، وسيجد الأستاذ العبادي بعد هذا كله إنه لا تعارض بين هذه الروايات، وأنّا لسنا في حاجة إلى إنكار بعضها أو ترجيحه على الآخر

وقد أراد الأستاذ محمود شاكر أن يسلك هذا الطريق في الجمع بين هذه الروايات المختلفة، فذكر أن قول اليعقوبي (عبد الله بن علي الأصغر وهو السفاح) منقول من ابن سعد في طبقاته حين ذكر أولاد علي (عبد الله بن علي الأكبر وعبد الله بن علي الأصغر السفاح الذي خرج بالشام)، ولا يريد ابن سعد بذلك التلقيب كما يرى من اليعقوبي، وإنما ذلك صفة كالسفاك والقتال، وبهذا لا يكون السفاح لقباً لعبد الله بن علي، وإنما يكون لقباً لابن أخيه

أبي العباس عبد الله بن محمد بن علي، وقد كان يسمى عبد الله الأصغر أيضاً، كما كان أخوه أبو جعفر يسمى عبد الله الأكبر. ثم ذكر الأستاذ محمود أن أبا جعفر قد لقبه أبوه بالمنصور فيما يعلم، فلا غرو أن يكون أبو العباس قد لقبه أبوه بالسفاح كما لقب أخاه بالمنصور

ولما قرأت هذا للأستاذ محمود سألته عما يعتمد عليه في إسناد تلقيب أبي جعفر وأبي العباس بالمنصور والسفاح إلى أبيهما محمد ابن علي، فلم أجد عنده ما يعتمد عليه في ذلك. وقد بحثت بنفسي لعلي أجد ما يؤيده فيه، فلم أجد إلا ما ذكره صاحب العقد الفريد، من أن محمد بن علي ولد له من امرأته الحارثية ولدان سمى كل واحد منهما عبد الله، وكنّى الأكبر أبا العباس، والأصغر أبا جعفر ولم يذكر أنه لقبهما بذينك اللقبين، بل الظاهر مما سننقله فيما يأتي عن صبح الأعشى أن أبا جعفر تلقب بالمنصور بعد انتقال الأمر إليه من أخيه أبي العباس

والرأي عندي أن أبا العباس لم يلقبه أبوه بهذا اللقب قبل أن تقوم دولتهم، ولم يلقب هو نفسه به بعد أن صار إليه الأمر، لأن مثل هذا اللقب لا يتفق مع الألقاب الإسلامية التي عرف بها الأمراء قبل أبي العباس وبعده، وإنما هو لقب لصق به لصوقاً، وأطلقه عليه الناس وكثير من المؤرخين، لوصفه نفسه به في خطبته عندما بايعه الناس، فقد ذكر الطبري أنه لما بويع صعد المنبر فقال: الحمد لله الذي اصطفى الإسلام تكرمة، وشرفه وعظمه، واختاره لنا وأيده بنا، إلى أن قال مخاطباً أهل الكوفة: وقد زدتكم في أعطياتكم مائة درهم، فاستعدوا فأنا السفاح المبيح والثائر المبير

وقديماً لقب العرب كثيراً من الشعراء بمثل ما لقب به أبو العباس، فلقبوا عائذ بن محْصَن بن ثعلبة العبدي بالمُثَقِّب لقوله:

رَدَدْنَ تحية وكنَنَّ أخرى ... وثَقَّبنَ الوَصاوص للعيون

ولقبوا عمرو بن سعد بالمرَقَّش الأكبر لقوله:

الدار قَفْرٌ والرسومُ كما ... رقَّشَ في ظهر الأديم قَلَمْ
وكذلك كثير من الشعراء غيرهما
وإذن يكون لقب السفاح في أصله وصفاً بالنسبة إلى أبي العباس، كما كان في أصله وصفاً
إلى عمه عبد الله ابن علي، ثم اشتهر به أبو العباس عند بعض المؤرخين، كما اشتهر به عبد الله بن علي عند بعض آخر منهم، ولكل منهم في ذلك رأيه واختياره، وليس فيه شيء من الغلط والاشتباه الذي يدعيه الأستاذ العبادي
وعلى هذا لا يكون لقب السفاح هو اللقب الحقيقي الذي اختاره لنفسه أبو العباس، وإنما هو لقب غلب عليه عند المؤرخين بذلك السبب السابق، حتى أنسى الناس لقبه الحقيقي الذي اختاره لنفسه بعد أن صار إليه الأمر، بل دعا هذا إلى عدم الاهتداء إلى لقبه الحقيقي بيقين، وإلى ذلك الخلاف الذي سنذكره فيه، ولكنه مع هذا هو اللقب الذي يصح أن يضعه لنفسه مثل أبي العباس، ويتلاءم مع ألقاب من أتى بعده من العباسيين.
قال الخطيب البغدادي: عبد الله أمير المؤمنين السفاح بن محمد ابن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، يكنى أبا العباس، ويقال له أيضاً المرتضى والقائم، ثم قال: أخبرنا محمد بن أحمد بن رزق، أخبرنا عثمان بن أحمد الدقاق، حدثنا محمد بن أحمد بن البراء قال: أبو العباس المرتضى والقائم عبد الله بن محمد الإمام بن علي السجاد ابن عبد الله الحبر ابن عباس ذي الرأي ابن عبد المطلب شيبة الحمد.
وذكر القلقشندي أن خلفاء بني أمية لم يتلقب أحد منهم بألقاب الخلافة، وأن ذلك ابتدئ بابتداء الدولة العباسية، فتلقب إبراهيم بن محمد حين أخذت البيعة له بالإمام، وأن الخلف وقع في لقب السفاح فقيل القائم، وقيل المهتدى، وقيل المرتضى، ثم تلقب أخوه بعده بالمنصور، واستقرت الألقاب جارية على خلفائهم كذلك إلى أن ولي الخلافة أبو إسحاق إبراهيم بن الرشيد بعد أخيه المأمون، فتلقب بالمعتصم بالله، فكان أول من أضيف في لقبه من الخلفاء اسم الله، وجرى الأمر على ذلك فيما بعده من الخلفاء
وفي هاتين الروايتين وخصوصاً الأخيرة من العناية بتحقيق تلك الألقاب ما يجعلنا نثق بهما، ونطمئن إليهما، وفيهما لا يدخل لقب السفاح فيما قيل إنه لقب أبي العباس، وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه فيه، وقد جاء بعد أبي العباس من تلقب بالقائم بأمر الله، ومن تلقب بالمهتدي بالله، ولم يتلقب أحد بالمرتضى بعده، فلعله كان اللقب الذي اختاره لنفسه، على أن ظاهر رواية الخطيب البغدادي أنه كان يقال له المرتضى والقائم معاً هذا ولا يفوتنا في ختام كلامنا أن نبين حقيقة ما جاء في تاريخ ابن العبري عن السفاح، من
أنه كان رجلاً طويلاً أبيض اللون، حسن الوجه، يكره الدماء، ويحامي على أهل البيت، فإن هذا لا يراد منه إلا كراهته لدماء أهل البيت وحدهم، بدليل ما قدمنا من أمره في دماء غيرهم؛ على أن العبري يقيس في ذلك أمره بأمر من جاء بعده من العباسيين.
عبد المتعال الصعيدي
رسالة الشعر
البعث. . .
للدكتور إبراهيم ناجي
يا جمالاً وجلالًا يتدفَّقْ ... رجع البلبل أم عاد الربيعْ!
بهر النور عيوني فترقَّقْ ... حين تدنو إنني لا أستطيعْ!
أيها الورد الذي طاف بنا ... أيها الطلُّ الذي بَلَّ الغما
لا أراك الله حالي وأنا ... أطأ الشوكَ ويغزوني الظما
يا أمانيَّ وحبي وخيالي ... لا تضيِّع لحظة فالعمر ضاعْ
لا أراك الله حالي والليالي ... كاسفات ليس فيهن شُعاعْ!
قد بلوتُ الويل فيها لا بَلَوتا ... وأنا أبدأ يومي بالمساء
وعرفتُ الضيق ضِيق القلب حتى ... لم أجد في الكون ثقباً من رجاءْ!
لا وربي ليس للدنيا ختامْ ... حين يغدو البعثُ نجوى من حبيب
حين يستيقظ قلبٌ من منامْ ... والمنادى أنت! والحب المجيب!

مطارف الربيع
(إلى الصاخبين دائماً على الأيام المرة القاسية)
للأستاذ محمد عبد الغني حسن
ما لهذا الرَّوضِ ظمآنا؟ ... ما لهذا الزَّهْرِ نعسانا؟
ما لتلك الأرض قدَ لبست ... من نسيجِ الموتِ أكفانا
ما لهذا النَّجمِ مُرْتقبا ... وَمَضاتِ البرقِ حَيْرانا
ما لقرص الشمس مكتئبا ... عابسَ الألحاظِ غضبان
ما لهمسِ الريح منطلقا ... مثلَ عَزفِ الجن مِرْنانا
ما لتلك الأرضِ ثائرةً ... مثلما تسمعُ بُركانا
ما لهذا الطفلِ منسربا ... تحت جنْح الليلِ عُريانا
يتشكَّى البردَ آونةً ... ويعاني الجوعَ أحيانا
الشِّتاء المُرُّ فارقَنا ... والربيعُ الحلوُ واتانا
مِطْرَفٌ وشّاهُ صانعهُ ... وحباهُ الحُسنَ ألوانا
ما لتلك الأرضِ فاتنةً ... ما لهذا الروض سكرانا
ما لهذا الزَّهرِ مؤتلقا ... يَنفحُ الأرواحَ رَيْحانا
ما لهذا الطيرِ مُنطلقا ... يملأُ الأنحاء ألحانا
ما لهذا النُّور منسكبا ... قد أصارَ الكونَ غَرقانا
ما لقرص الشمسِ ملتهبا ... ضاحكَ الألحاظ فتَّانا
ما لهذا الطفلِ مُنْسربا ... في المروج الخُضْرِ جَذْلانا
يتمنَّى في خمائلها ... لو قَضى الأيام وَسنانا؟
نرتجي الأيامَ صافيةً ... آه لَوْ صَافْينَ إنسانا!
قُلْ لمن ضاقتْ مسالكهُ ... بالليالي حَسْبُكَ الآنا
الشتاء الْجَهْمُ يعقبه ... الربيعُ الطَّلقُ مُزْدانا
أناشيدي!. . .
للأديب محمود السيد شعبان
هُنا دُنيا أَناشِيدي! ... فَعِشْ يا قَلْبُ للذِّكرَى
بنَيناها كما شاءتْ ... لَنا أَوْهامُنا السَّكْرَى!
وَصُغناها مِنَ الأحْلا ... مِ والإلهامِ أَلْحَانَا. . .
فَهيَّا نَلْقَ فيها سَا ... عَةً يا قَلْبُ سَلْوانا
وَنَترُكَ هذهِ الأَشْجَا ... نَ في دُنيا الأسَى حَيْرَى!
ونملأُ بالرِّضى والبِشْ ... رِ والأفرَاحِ دُنيانا
أَلاَ يا رَبَّةَ الألْحَا ... نِ مَنْ عَنَّاكِ أَلْحَاني؟!
وَمَنْ يا فِتْنَةَ الدُّنيا ... سَقَاكِ السِّحْرَ مِنْ حَاني؟!
أَنَا الشّادي. . . وَأَنْتِ صَدَى ... أَغارِيدِي وَأَنفَاسي!
إِلَيْكِ قدْ اهْتَدَى وَهْمِي ... وَلكِنْ ضَلَّ إِحْسَاسي!
كِلانَا يا هُدَى رُوحي ... نَزيلُ العَالَمِ الفاني
خُلِقنا لِلْخُلُودِ مَعاً ... وَإِنْ كُنَّا مِنَ النَّاسِ!
مَلكْنا هذهِ الدُنيا ... وَصُغْنَاها كما نَهْوَى
مَلاعِبُ فِتْنَةٍ أَصْداَ ... ؤُها سِحْرٌ مِنَ النَّجْوَى
فَيا قِيثَارَ أَحلامَي ... تَعَبَّدْ لِلْجَمَالِ هُنا!
وإِنْ أبْصَرْتَ وَلْهاناً ... يَطُوفُ بِهِ. . . فَذَاكَ أنا!
إِلى الماضي رَجَعْتُ أُرو ... مُ في ذِكْراهُ لِي سَلْوَى
فَكَمْ خَلَّفْتُ في وادي ... هِ مِنْ بَعْدِ الهناءِ مُنَى!
فَيا شِعْرِي! خَلَقْتُكَ مِنْ ... هُدَى قَلْبِي وَمِنْ وَجْدِي!
وَهَبْتُ لكَ الخُلودَ فلا ... تَخَفْ إِنْ عِشْتَ مِنْ بَعْدِي
وَصُغْتُكَ مِنْ دَمي فِتَناً ... وَأَوْهاماً أُتَاجيهَا. . .
فَخُذْ أنفَاسِيَ الوَلْهى ... إِلَيْكَ صَبَتْ أمَانيها!
مَلَكْتُ بِكَ الحياةَ فمَا ... أَرَدْتُ أَخَذْتُهُ وَحْدِي
وَهَل كانَ الهوى والشِّعْ ... رُ إِلاّ خَيْرَ ما فيها!!

رسالة الفن
تأملات في الفن:
يا علماءنا. . . نريد أن نعرف!
للأستاذ عزيز أحمد فهمي
- خذ كل من هذا الحمص. إنه من السيد البدوي
- وهل كنت في طنطا؟
- نعم. ضيفة عند ناس
- أو لم يعجبك شيء في طنطا غير الحمص؟
- السمن هناك جيد، والخضار أجود
- همُّ بطنك ولا شيء يشغلك غيره، ألم تفكري في زيارة السيد البدوي الذي تأكلين حمصه هذا؟
- زرته. ولم أنس أن أدعوه لك
- شكراً. فلست أدعو غير الله. . . أو لم يعجبك شيء في مسجد السيد البدوي؟
- لا أذكر، فهو مسجد كبقية مساجد ربنا
- صحيح. ولكن فيه منبراً هو نفسه صلاة صامتة قائمة دائمة
- يا سلام. . . لم يلفتني أحد إليه
- وعيناك هاتان المبرقتان تحملقان ولكنهما لا تريان. امرأة!. . .
- تركنا منبر السيد البدوي وعدنا إلى امرأة ورجل، ما لها المرأة؟ كل ما حدث أني شغلت عن النظر إلى المنبر بالنظر إلى السيد نفسه. . .
- ولا السيد. بل قولي إلى الزوار
- آي، كنت أنظر إلى الزوار. أليس في النظر إلى الرجاء المتألق في وجوههم لذة؟
- وأي لذة عند المرأة أحلى من أن ترى الرجاء متألقاً في وجهه
- كان الزوار كلهن نساء
- ولماذا هذا التخصيص، ولماذا أسرع إلى ذهنك هذا الخاطر السيئ فتسرعي إلى إنكاره
بهذا الحسم الجازم. . . أفتظنين أنك هربت من السوء إلا إلى الأسوأ؟
- وهل يسوء مجتمع النساء أكثر مما يسوء إذا اختلطن بالرجال؟
- من غير شك. فهن بين الرجال قد يخجلن فيحتشمن، ولكنهن إذا انفردن انطلقن تتفرس كل منهن في الأخرى. وتفترس كل منهما الأخرى. وما أعجبها إذن معمعة حين تشب في ضريح أو مسجد، ينقلب المسجد من مطهرة إلى. . . إلى مدرسة!
- مدرسة؟! على أي شكراً لله فقد توقعت أن تقول شيئاً آخر. . . ولكن لماذا تقول إن اجتماعنا في المسجد يقلبه إلى مدرسة. . .
- لأنكن بطبيعتكن، إما أن تكن تلميذات، وإما أن تكن معلمات، ولا يمكنكن أن تكن غير ذلك إلا إذا فسدت طبيعتكن. فإذا وصف إنسان اجتماعاً من اجتماعاتكن بأنه مدرسة كان يبني وصفه هذا على خير الفروض فيكن. . .
- كلامك محتاج إلى برهان
- هذا يحتاج برهاناً؟ لا بأس. . . اسمعي. . . منبر السيد البدوي. . .
- عدنا إلى منبر السيد البدوي. . . لن نعود إلى ذكره حتى ننتهي مما كنا فيه. . .
- سننتهي منه ومما كنا فيه معاً. . . أريد أن أقول لك إنه آية فنية رائعة، وإنه على ضخامة حجمه وتعقيد تركيبه، مؤلف من قطع صغيرة التحم بعضها إلى بعض من غير غراء ولا صمغ ولا مسمار واحد، وإنه صنع في عهد واحد من الخديويين المتأخرين. ولقد أقيم للأستاذ الذي صنعه أستوديو أو (أتيليه) خاص كان مؤلفاً من عدة خيام، وإن الخديوي طلب يوماً أن يشرف هذا الأستوديو بالزيارة ليشاهد المنبر أثناء تاليفه، فأعتذر الأستاذ بأنه لا يستطيع أن يعمل إذا كان عليه رقيب غير الله. . . كما إنه لا يستطيع أن يصلي وبينه وبين القبلة إنسان ممتنع عن الصلاة جالس أو واقف ينظر إليه ويحصي عليه حركاته وسكناته. . . فهو لا ريب يشغله ويعوقه عن إحسان الصلاة على الأقل. . .
- عجيبة! ومن هو هذا الأستاذ الفيلسوف، وماذا كان رد الخديوي عليه. . .
- ما كان الخديو محب الفن إلا ليقدر مثل هذا الاعتذار وأن يجيزه إكراماً لفن الأستاذ

(علي جَلَّطْ)!
- علي ماذا؟ جلط؟! يا له من اسم مضحك!
- و (ميكيلانج) أليس اسماً مضحكا؟! ألأِن علياً مصري تضحكين من اسمه، ولأن الآخر من سادتكم أهل الغرب تستسيغين اسمه على ما فيه من عجمة؟. . . إن ميكيلانج وميكي ماوس ليسا من أسمائنا، وإنه من أسمائنا (جلط)، وبهنس، وغلوش، وزينهم وما أشبه. . . فلماذا نتحرج من أسمائنا ونضحك منها ساخرين، وحقنا أن نضحك - إن ضحكنا - معجبين بما فيها من النكتة فلا ريب أن هذه الأسماء الغريبة لا تطلق في مصر إلا لمناسبات
- أريد أن أسألك عن هذه المناسبات، ولكني أخشى أن نخرج من الأستاذ علي إليها، فلا نعود منها، وقد كنا قبل هذا وذاك في موضوع آخر هو موضوع (المدرسة)، الذي أظن أنك لا تزال تذكر أننا تركناه معلقاً. . .
- امرأة مرة أخرى: لا تغفل ولا تنسى، وهو من شروط التلميذة الناجحة، والمعلمة البارعة. . . أما الأستاذ علي يا أبلة، فلعلهم لقبوه بلقبه، لأنه (جلط) يوماً لحيته بزجاجة أو حدث منه شيء كهذا. . . وأما منبره يا آنستي، فهو الآية الفنية التي لا يمكن أن توصف، وإنما يجب أن ترى وان تدرس، وأما أنت فامرأة، ولم تلتفتي إلى هذه الآية الفنية العجيبة، لأن أحداً لم يلفتك إليها، وهذا شأن التلميذات، وأنا أراهن أنك إذا زرت السيد البدوي بعد اليوم، فإنك ستصحبين صاحبة أو اثنتين، لا لشيء، إلا لتلفتيهما أنت إلى المنبر لتكوني لهما معلمة وتكونا هما تلميذتين، ولست أراهن على هذا إلا لثقتي منه، ولست واثقاً منه إلا لعلمي بأنه شيء في طبعكن، فالله أعدكن لتكن أمهات، والأمهات مربيات، والمربيات معلمات، والمعلمات يكن تلميذات قبل أن يصبحن معلمات. . . ولا شيء غير هذا يا زين البنات. . .
- تلفيقات وترهات! فنحن أكثر مما تظن، فمنا الآن مهندسات وطبيبات وفنانات ومحاميات. . . كما إنه منا معلمات!
- هؤلاء جميعاً تلميذات، حتى المعلمات. . . كي ترتاحي وتسكتي. . .
- أسكت؟ إن سكت عن خطل الرأي، فلن أسكت عن تراجعك وانتقاضك على ما سبقت وقررته. . . كيف أسكت وقد رددت المعلمات تلميذات؟!
- لأنهن هكذا، فليست فيهن واحدة. . . لها طريقة خاصة بها في مهنتها أو فنها. . . وعلى الرغم من أن الله قد أعدهن ليكن معلمات، فإنهن لا يعلمن إلا ما تعلمن. . .
- وهل تريدهن يعلمن ما لم يعلمن؟. . .
- أفهن لا يعلمن إلا إذا تعلمن؟. . . لماذا لا يتعلمن هكذا من الحياة رأساً. . . أفنامت عقولهن عن تجاربهن وخبرتهن ومشاهدتهن في كل شأن من شؤون الدنيا إلا المسألة الدنيا؟
- كلا! إني لا أوافقك في هذا. فإن فينا إمامات وعلى الخصوص في التربية وفي الفنون. كيف يمكنك أن تجحد المربية مونتسوري، والممثلة جريتا جاربو، والمغنية جريس مور، والراقصة جنجر روجرز و. . . و. . . و. . .
- أما مونتسوري فمعلمة جاد بها الزمن في القرن العشرين بعد أن ظل الزمن يجود بالمعلمين من قبل سقراط وأرسطو. وعلى أي حال فإن مدام مونتسوري لا تزيد على أن تكون مخترعة لبعض ألاعيب الأطفال. وأما الباقيات اللواتي ذكرتهن هؤلاء فلا أزال أقول إنهن تلميذات. فجريتا جاربو لم تكن شيئاً قبل أن يكتشفها أستاذها المخرج السويدي الذي نسيت اسمه وأظن أنك تذكرينه، وأما جريس مور فإني أتحداها أن تغني شيئاً إذا لم يلحن لها الملحنون الأغاني، وأما تلك التي ترقص كالعفاريت التي اسمها جنجر روجرز فقد جربت أن تنفصل عن أستاذها فريد أستر فأخفقت فعادت إليه ومع ذلك فهي لا تزال تتطاول عليه وتقول عنه إذا ذكرتها إنه زميلها وليس قائدها وأستاذها. . .
- وكاي فرانسيس التي تحبها؟
- أنا أحب عينيها أكثر مما أحب فنها
- عينيها؟ لقد قلت مرات إنها ممثلة نابغة
- لو لم يهبها الله هاتين العينين ما كانت نابغة وما كانت ممثلة. هما عينان لو رزقهما

رجل لما استطاع إلا أن يكون قديساً ربانيا من غير ما شيء يعرقله. . فيهما صفاء وشفافة فهما ينضحان بما وراءهما من فكرة أو عاطفة، فصاحبهما لا يستطيع أن يكذب إلا إذا أغمضهما أو سبح بهما في الفضاء لا يوجههما إلى عيني محادثه. وهذا شيء يدل على الكذب والصدق أهون منه، فإذا داوم صاحب هذين العينين الصدق عجزاً عن الكذب في أول الأمر فإنه سيداومه بعد ذلك اعتياداً له، ثم يداومه أخيراً حباً له، والصدق كما قلت لك مرات هو الخطوة الأولى نحو الله. . . وعلى هذا كانت كاي فرانسيس بهاتين العينين
مقصرة حين انتهى أمرها عند أن تكون ممثلة نابغة. . . فهمتِ؟!
- إذن فقد انقلبت على نفسها إذ تمارس الآن الكذب؟ فليس التمثيل إلا الكذب
- لو كانت كاي فرانسيس تكذب ما كانت أعجبتني، وإنما هي تصدق، ولا تمثل إلا ما تحسه أو ما أحسته، ولعلك تلحظين أنها لا تكثر من الظهور، ولعلك أدركت أن سبب هذا هو أنها تنتظر حتى يوافيها الدور الذي يلائمها والذي تكون قد أحاطت بمثله في حياتها. . . وحياتها كما أظنك تعرفين فيها ما فيها، وأبرز ما فيها أنها تمثل بهاتين العينين الصافيتين الشفافتين. . . فرغ الحمص. أليس معك غيره؟
- خذ، ولكن بعد أن تعترف ولو لكاي فرانسيس وحدها بأنها أستاذة.
- ليس ما يمنعني من ذلك. فقلها أن تكون أستاذة، ولك أنت أيضاً ذلك إذا زرت منبر السيد مرة أخرى وأديت له حق التأمل والدرس والترحم على صانعه، ولم يشغلك في زيارته النظر إلى الزائرات من أترابك والتحقق من ملبسهن وزينتهن ولغاتهن
- ولكنك قلت إن هذا من طبع المرأة
- هو طبعها في التلمذة، وأنت تريدين أن تكوني أستاذة، والأستاذة هي التي فرغت من النظر إلى غيرها وبدأت نفسها تفيض بما فيها. . . وأظن أن المرأة لا تكره هذا إلا لسبب واحد. . .
- ما هو هذا السبب أيضاً؟
- هو خشيتها من الكبر، فبهذه الخشية تدمن النظر إلى غيرها تخدع نفسها متخيلة أنها صغيرة لا تزال في حاجة إلى التعلم. . . حتى إذا ما فاجأتها التجاعيد آمنت بأنها أستاذة، ولكنها بعدئذ تقضي الحياة في حسرة بدلاً من أن تقضيها في عمل. . . سنة الله التي شاءت لكن أن تقبعن في بيوتكن. . .
- سأقبع ولن أزور المنبر. . .
- زوريه أو لا تزوريه، فستعرف الدنيا خبره يوم ترقى مصر ويبحث علماؤها عن تاريخ علي جلط ومحمد البقري وغيرهما من أهل الفن العربي الذي يقدره الغربيون حق قدره ويردون إلينا من أقصى الأرض وأدناها لينعموا بمشاهدته وليأخذوا عنه، حتى إذا سألونا عمن أنتجه من آبائنا قلنا: اللهم إنا لا نعرف
- أما الأستاذ علي فقد عرفته بمنبر السيد، ولكنك لم تذكر لي من هو محمد البقري. . .
- صاحب الزخرفة العربية الرائعة التي يتحلى بها (بنك مصر) وتياترو حديقة الأزبكية. . . وإذا كنت أنا أعرف هذين فإني أجهل صاحب السلطان حسن وصاحب مسجد القلعة والمؤيد والرفاعي، وغير ذلك من الآثار العربية الخالدة. . . فهل لك أن تسألي لي واحداً من علمائنا عنهم؟. . .
- بإذن الله سأسأل. . . ولكن لماذا لا تهتم أنت بتتبع أخبار هؤلاء وهو أمر شديد الصلة بعملك؟. . .
- قد يكون هذا حقاً، ولكن الوثائق تعوزني، فإن أغلب الآثار العربية، قد أرخت منسوبة إلى الملوك الذين أنشئت في عصورهم، ولم تنسب إلى الفنانين الذين عصروها من دمائهم، وقد جربنا على هذه السنة حتى في عصرنا الحديث فنحن لم نذكر (علي جلط) ولا (محمد البقري) في آثارهما مع أنهما محدثان قريبان وهما لم يعنيا بهذا لأنهما كانا أخلص للفن من أمثالهما الغربيين، ولم يكونا يسعيان بالفن إلى الذكر الباقي ولا إلى الربح المادي، وإنما كانا يؤديانه زكاة عما وهبهما الله من ملكة وبصيرة ونظر. ولقد كانا يتعبدان به عبادة، ولو أنه خطر لأحدهما أن يستغل فنه استغلالاً مادياً لخلف الأموال الطائلة والصيت الرنان. . . ولكن الواحد منهما كان لا يعمل إلا إذا احتاج إلى القوت، فإذا عمل تفانى في عمله وجاء فيه بالمعجزات المحيرة. . وهو الأمي الذي لا

يقرأ ولا يكتب، والذي إذا سئل عن نفسه قال إنه (نجار دقي)!
- فأي شيء هو؟ . . .
- إنه مهندس زخرفة ينفذ بيده ما يتصوره عقله من غير أن يستعين على ذلك برسم التصميم على الورق. . . وهذا شيء لا يستطيعه إنسان في الغرب وعلى الخصوص إذا تصدى للزخرفة العربية المجردة المعقدة المتجددة

عزيز أحمد فهمي

رسالة العلم

الكون يكشف عن نفسه

خفايا الضوء

للدكتور محمد محمود غالي

أينحصر الكون في ست وحدات أصلية يرد إليها كل ما فيه؟

عندما تطالع هذه السطور فانك تراها بفضل أحد هذه الوحدات الدقيقة وهي كائنات نحاول أن نتعرف إليها

نشيد داراً للسكنى وتدخل مواد عديدة في تشييدها من أحجار البناء إلى الحديد، ومن رخام الدرج إلى ما يحيط سياجه من نحاس، ومن أخشاب النوافذ إلى ما يتوسطها من زجاج، ولا نذكر ما تحتويه الدار من العناصر الكثيرة والمركبات العديدة وأن في الزجاج وحده من العناصر المتعددة والمركبات المتباينة ما يجعلنا نفطن إلى العدد الكبير من المواد التي نستخدمها في إقامة البناء، بل إن مواد من نوع آخر، مواد عضوية تدخل أيضاً في تشييد الدار، وشد ما يختلف ما في حديقتها من أشجار وزهور عن سائر ما في البناء: هذا النبات له دور من المراهقة كدور الإنسان ومن الشباب كشبابه ومن الهرم كهرمه، وله أعمار تنتهي عندها الحياة، فيضع البستاني غيره من النبات ينصبه مكانه كما ينصب الابن نفسه مكان أبيه بعد أن يتوارى هذا في الزمن، ويترك الابن الدار بدوره لحفيد يستمتع بها ما بقيت أجزاؤها متماسكة تسمح بالحركة بينها وبالحياة في أنحائها، يقضي الحفيد فيها سنين طويلة وسط هذه الأجزاء من المادة بين المرح طوراً وظلمة الأيام تارة، بل إن مواد حية غير المعدنية والعضوية قد تدخل بين مكونات الدار تستمتع فيها كما يستمتع صاحبها وتقاسي فيها كما يقاسي ربها، فقد نشيد في الحديقة أحواضاً للسمك أو نقتني داخل الأقفاص أنواعاً من طيور الزينة، وما هذه وذاك إلا مجموعة من العناصر المعقدة تدخل هي أيضاً في مجموع الدار الفسيحة، ولا تختلف عن الأولى إلا بما لها من مزاج يشبه مزاجنا وآمال تقارب آمالنا

عديدة هذه العناصر ومتباينة هذه المركبات التي دخلت الدار بعمل المهندس وفعل البستاني، فنشأ عنها مكان صالح نثوي إليه بعد النصب ونقضي فيه ساعات من العمر بين لحظات مجدودة وفترات مكدودة؛ ولو أن امرأ قال إن الدار مكونة من عشرات العناصر ومئات المركبات لما كان في قوله انحراف عن الواقع، ولو أنه قال أيضاً إنها مكونة من ست وحدات أصلية في الكون وإن كل ما نراه فيها من عناصر عديدة ومركبات متباينة يتكون من هذه المكونات الستة فإنه قد لا يعدو الحقيقة، ولو أنه خطر ببال أحد أن من يسكن الدار من أحياء كأولادنا، ومن يؤمها من زائرين كأصدقائنا، وما يعيش بين جدرانها من أسماك وطيور يدخلون أيضاً في عداد المكونات الستة المتقدمة، فإن ثمة علماء عديدين يعتقدون اليوم بصحة ما خطر بباله، ولديهم من الأسباب العلمية ما يستطيعون بها محاولة إقناعه بأن ما ذهب إليه ليس مما يتطرق إليه الشك

ولا يدور بوهم أحد بعد الذي ذكرنا أن ما نعنيه بهذه المكونات الستة هي (عناصر) مثل الحديد والنحاس، فإننا بذلك نصل إلى تعداد العناصر جميعها التي تبلغ 92 عنصراً والتي تعثر على الكثير منها فيما استخدمناه في رفع البنيان؛ ولا يعتقدن كذلك أننا نعني بها بعض المركبات كالماء والحجارة فلا مشاحة أن ما يوجد من هذه المركبات في المنزل يبلغ المئات، إذ أن هذه المكونات الستة إنما هي وحدات كونية نستطيع أن نرد إليها كل ما يتعلق بهذه الدار.

هنالك أمر آخر أود أن يحظى بعناية القارئ، ذلك أن الوحدات الست التي تكون كل ما يتعلق بالدار، والتي من بينها وحدة يتسنى لنا بها رؤية الدار وما فيها، هي بذاتها الوحدات المكونة لمجموع الكون، فهي كافية اليوم ليرد العلماء كل ما عرفناه في

الكون إليها
هذه المكونات الستة تعد معرفتها من السائل الثقافية التي يحسن معرفة شيء عنها، فهي اليوم موضع بحث أقطاب العلم، ولذلك نذكرها للقارئ في الجدول الآتي، فيعرف شيئا هاماً عن منشأ الدار التي يسكنها، بل الكون الذي يحيا فيه ويموت
المكونات أو الوحدات التي يتكون منها الكون في مجموعه بما فيه من مادة أو كهرباء أو إشعاع أو طاقة
الشحنة الكهربائية
مكونات كهربائية وسالبة
خفيفة
الإلكترون
-
ثقيلة
غير معروفة
مكونات كهربائية وموجبة
خفيفة
البوزيتون
+
ثقيلة
البروتون
+
مكونات مادية
خفيفة
النيترينو أو الأرجون
صفر
ثقيلة
النيترون
صفر
مكونات ضوئية
الفوتون
صفر
مكونات معقدة
الديبلون
الهيليوم (نواة الهيليوم)
+
+
إذا رمزنا لوحدة الشحنات الكهربائية بالرمز والقدر فان شحنة الإلكترون أي الوحدة الكهربائية السالبة تكون (- وشحنة البوزيتون أي الوحدة الموجبة تكون (+ وفي هذه الحالة تكون الشحنة للوحدات الأخرى كما هي مبينة في الجدول
هذه المكونات باتت الأصل في كل شيء، فهي تكون الهواء الذي نستنشقه كما تكون الرئة التي نستنشق بها هذا الهواء، وهي التي تتكون منها السمكة التي تسبح في حوض الحديقة كما تتكون منها النجوم النائية والسدم البعيدة، وما المنزل والزائر والطير، بل وما يعلوها من كواكب وعوالم إلا أمور ترجع أصولها إلى هذه المكونات الستة التي يشاد منها الكون
نعود فنتأمل الجدول السابق الذي يلخص لنا موقف العلماء من الكون، ونود أن يعتبر القارئ وهو يطالع هذه المسميات العلمية التي قد تكون جديدة لديه أنها من المسائل التي يلزم معرفتها، وكيف لا يجب علينا أن نعرف ما يُكوِّن منازلنا والأرض التي تحملنا والعوالم التي تعلونا والكون الذي يحتوينا بل ما يكوَّن أجسامنا، ومهما يكن من أمر الكون، فإننا لا نستطيع أن نستوعب فيه الأشياء إلا على الصور التي عهدناها فيه، والأوضاع التي ألفناها عنه. ثمة عدد ضئيل من الأوضاع نستوعبها في الكون طوراً

ونستوعب الكون فيها تارة، وهذه الصور أو الأوضاع هي المادة والكهرباء والإشعاع وكذلك الطاقة، وقد ذكرنا في الجدول هذه الصور، ورجعنا بالكون إلى وحدات كهربائية ومادية وضوئية، كما ذكرنا في ذيل الجدول مكونات أخرى معقدة

أما المكونات الكهربائية، فهي سالبة كالإلكترون، وموجبة كالبوتيزون، وقد حدثنا القارئ عنها في سلسلة من المقالات كذلك البروتون الذي يكون نواة الهيدروجين. أما المكونات المادية، فهي وحدات أخرى لا تحمل الكهرباء، وهما وحدتان النيترينو أو الأرجون والنيترون وقد تناول بالبحث هذه الوحدة الأخيرة حديثاً سنة 1933 أيرين كيري وقرينها جوليو من أساتذة السوربون. ولا يفت القارئ أن الكهارب أو الإلكترونات موجودة في

المادة مع النيوترونات. وكما أن الكهرباء في تكوينها ترجع إلى هذه الوحدات الأولى التي يسمونها: إلكترونات أو بوزيتونات، كذلك الضوء يرجع في تكوينه إلى وحدات أصلية يسمونها فوتونات جمع فوتون وباعتبار أن الوحدة الثقيلة للكهرباء السالبة غير معروفة، وباعتبار أن الوحدات المعقدة كالديبلون والهيليون قد ترد في تكوينها إلى غيرها من الوحدات، فإنه يغلب على ظني أن الكون يمكن أن نرده بما فيه من مادة أو إشعاع أو كهرباء أو طاقة إلى وحدات ست هي: الإلكترون والبوزيتون والبروتون والنيترينو والنيترون والفوتون.

وقد يصل العلماء إلى الكشف عن وحدات جديدة، ولكن يغلب على الظن أن عدد الوحدات سيظل قليلاً وسيظل اللاعبون على مسرح الكون بهذا القدر الضئيل.

ندع الآن المسميات لنتعرف على أحدها وهو الفوتون أو الذرة الضوئية، وهو الكائن العجيب الذي يعاوننا في مطالعة هذه السطور

عندما نرى في الليل بريق النجوم اللامعات، أو يخطف العين ضوء إحدى المنارات في الليل البهيم، أو تقع العين ذاتها على صورتنا في المرآة، أو نحصل بواسطة الجهاز الفوتغرافي على صورة شمسية، أو نرى على الشاشة حوادث العالم، أو نرى بالمرناه (التليفزيون) إحدى هذه الحوادث في حينها، فإننا قد استخدمنا الذرة الضوئية أو الفوتون كأداة كبرى لنستمتع بهذه الأشياء

وليس في عزمي التعرض في هذه المقالات للتركيب الطبيعي للفوتون، وأذكر على إنه لويس دي بروي مكون من نصفي فوتون، وإنما أكتفي بأن ألفت النظر إلى ثلاثة أمور: الأول أنه أحد المكونات الثلاثة في الكون غير المكهربة إذ لا يوجد في كل ما نعرفه من وحدات كونية غير الفوتون والنيترينو والنيترون كوحدات لا تمت للكهرباء بشيء. والثاني أنه المكون الوحيد الذي لا يوجد إلا في حالة حركة بالنسبة للمادة. ويسرني أن أذكر أن للأستاذ الدكتور علي مصطفى مشرفة بك أبحاثاً قيمة في علاقة المادة بالإشعاع أود أن أعود لذكرها فيما بعد. والثالث أنه كائن سريع جداً بالنسبة للمادة وتبلغ سرعته أي سرعة الضوء (299800) كيلو متر في الثانية

ولقد توصل العلماء بوسائل جديرة بالإعجاب إلى قياس هذه السرعة العظيمة والى الوصول إلى معرفتها معرفة دقيقة. وللقارئ أن يتصور عظم هذه السرعة إذا ما عرف أن الضوء يقطع المسافة من مصر للإسكندرية في أقل من واحد على ألف من الثانية وقبل أن نستمع للمذياع (الراديو) بعشرات السنين، استطاع علماء عديدون أن يقيسوا سرعة الفوتون، هذا الكائن العجيب، وكان لقياس هذه السرعة ولما عرفناه عنها أثر كبير في معارفنا الحديثة. وقد تعدى هذا الأثر كل شيء، حتى أنه تدخل تدخلاً فعليا في معرفتنا قوانين الكون

ولعل القارئ الذي نفرض ونحن نتوجه إليه بهذه السطور أنه من غير المشتغلين بالعلم أو المختصين في العلوم الطبيعية - قد سمع بالدور الهام والمرحلة الكبرى التي تمت في العلوم من معرفة سرعة الضوء في اتجاه ومعرفة سرعته في اتجاه مغاير للاتجاه الأول، وما كان لذلك من الأثر في تدعيم نظريات (أينشتاين) الحديثة في النسبية. ولعل القارئ يستنتج الآن نوع الاتجاه الذي أحاول أن أوجهه إليه فيما سأعمد إليه من مقالات قادمة، ولعلنا في النهاية قد وفقنا بعض الشيء لكي نصف له شيئاً من الدار التي يسكنها والكون الذي يعيش فيه.

محمد محمود غالي

دكتوراه الدولة في العلوم الطبيعية من السوربون

ليسانس العلوم التعليمية. ليسانس العلوم الحرة. دبلوم المهندسخانة

القصص

نهاية الطريق

للكاتب المعروف دي فيرستاكبول

للأستاذ محمد بدر الدين

. . .في سنة 1913 كنت أجول في أنحاء إيطاليا، أطوف بمواطن الروعة والجمال فيها وكنت أستقبل فصل الخريف، حين خلفت روما ورائي، وسرت نحو جبال الأبنين، دون أن أحمل من المتاع سوى حقيبة صغيرة، ودون أن أترك عنواني لأحد، كيلا أدع الفرصة لشخص يراسلني، فمن الخير أن تطوف وحيداً، إذا أردت أن تشاهد بلداً من البلدان أو أن تدرسه خير دراسة

انطلقت في طريقي وحيداً لا ترافقني غير مزارع الكروم والحقول المخضوضرة النضرة، والسماء الزرقاء، و. . . فلاحي إيطاليا ذوي البشرة السمراء، لوحتها أشعة الشمس الحامية. فاستطعت أن أرى إيطاليا تتكشف أمامي على حقيقتها، وإذا بها رغم الطرق الحديدية التي تخترق أرجاءها، ورغم مخترعات ماركوني المنبثة في بقاعها، لا تزال نفس إيطاليا القديمة، التي كانت في عهد آل بورجيا

وفي ذات أصيل، أفضت بي الطريق إلى فندق قام في معزل إلى اليمين، لا يلوح إلى جواره منزل أو بناء، وكأنما أقيم في مكانه هذا ليرحب بالقادمين الذين أنهكهم المسير، وليغريهم على التماس الراحة، وعلى استعادة النشاط في كأس مترعة من الشراب. . .

أغراني الفندق المنفرد في عزلته، والذي بدت لي عند بابه حروف زرقاء باهتة ألهبها شواظ الشمس، تعلن عن اسمه. . . (أوستريا ديل سولي) فتقدمت، فإذا بكهل يجلس إلى يمين المدخل، على مقعد طويل، يمتع النفس بشمس الأصيل. وقد استلقت إلى جواره قطة سوداء. وما لبثت أن عرفت فيه صاحب النزل الذي قدم نفسه إليّ باسم (الفريدو باولي). . . وسرعان ما كنا نجلس في غمرة الأشعة الدافئة، نتجاذب أطراف الحديث، ونحن نجرع خلاله كؤوس (الكيانتي) الذي قدمه الرجل إكراماً وترحيباً. . .

. . .تكلمنا عن إيطاليا، وعن محصول الكروم، وعن الضرائب، وعن ذكرى غاريبلدي الذكرى التي عادت بالرجل إلى سني عمره الباكرة. وما لبثت أن عرفت أن المدينة التي كنت أسعى إليها، تبعد عن النزل بما يعادل ستة أميال. فاقترح الرجل أن انزل عنده تلك الليلة، وراح يغريني بما سوف أجده في حجراته من نظام وراحة ونظافة، قائلاً:

- إنه ليس بالفندق العادي. . . فنحن هنا لا نرتقب من الضيفان غير الرحالة الذين يدفعهم النصب إلى التماس كأس من الشراب. ولكن حديثك يطيب لي، حتى لقد ملت إليك، فأنت على الرحب والسعة

كان ينبغي لرحالة مثلي يجوب البلاد على قدميه حاملاً معه مالاً، أن يخشى من وراء دعوة كهذه شراً، أو أن يتوقع غيلة من أجل هذا المال الذي يحمله. بيد أنني لم أك بطبيعتي ممن يستسلمون للهواجس والريب، كما أنني لم أر في باولي العجوز، الشخص الذي يستطيع الإقدام على سرقة أو قتل. . .

ومع ذلك فقد سلبني نوم ليلة. . . وقتل راحة كنت أنشدها فما أن قبلت دعوته حتى اضطجع في مجلسه ونادى صائحاً:

- جيوفانا!

فأجابه صوت نسائي من داخل الدار، ظهرت على أثره امرأة رزح ظهرها تحت عبء السنين. فأمرها - والشمس ترسل شعاعها الأخير - أن تعد العشاء، وأن تهيئ الحجرة كما تملي واجبات الضيافة، فتلقت الأوامر صامتة، ثم كرت عائدة إلى الداخل، بينما تحولنا إلى حديثنا عن غاريبلدي نتابعه

فلما فرغنا من تناول العشاء، عدنا إلى مقعدنا خارج الدار ثانية، وراح الكهل يقص عليَّ قصته. . . قصة شبابه التي لم أسمع في حياتي مثلها، ولم أصغ لقصة من قبل أو بعد، إصغائي لها فقد مضى يتكلم كما لو كان يفضي بقصة سواه، وقد لاح كما لو كان الزمن قد حوله إلى كائن يغاير كل مظهر إنساني، تتخلل حديثه حيوية المتفنن الذي

يتفانى في عشق فنه، وحرارة الخطيب يحاول أن يأسر بفصاحته وبلاغته ألباب المستمعين. . .

قال: ولدت في بيروجيا، وهي غيرها اليوم، وكان والدي تاجر عاديات، يقوم متجره على ناحية الطريق التي تصل ميدان البابا برحبة واسعة تتراءى خلفها تلال (أومبريان) ولقد يخيل إليك - لأول وهلة - أن الموقع كان رديئاً. بيد أن والدي لم يكن بالرجل الذي ينصب شراكه في مكان غير ملائم، إذ كان يعرف كيف يجتذب العملاء ويغري الزائرين على الابتياع منه.

وكانت أسرته تتكون من ابنين. . . أنا وأرتورو، وقد كنا توأمين متشابهين كل الشبه. غير أن أرتورو كان ذا روح مغامرة، حببت إليه البحر، فما لبث أن غدا بحاراً، بينما مارست أنا - وكنت أكبره بخمس عشرة دقيقة - تجارة العاديات، فصرت مساعداً لأبي كانت المهنة - رغم أنها تتطلب دراية تامة بالأشياء وبنفسيات الأشخاص - تعتمد كل الاعتماد على الخبرة التامة بتقدير ثمن السلعة والتأكد من أنها حقيقية غير زائفة، وقد كانت لوالدي هذه الخبرة بالسليقة، إذ أنحدر من سلالة تعشقت هذا الفن، هواية أو احترافاً. . كما كانت لي نفس الخبرة إلى حد ما، فقد كانت إيطاليا القديمة تتمشى في دماء والدي، كما كانت تسري في عروقي بكل ما كان فيها، وبكل ما كانت تتميز به، و. . . بكل ما عرف عنها من عواطف ومن حقد وكراهية. . .

وسارت الحياة سهلة لينة، حتى بلغت العشرين ربيعاً، وإذ ذاك جاء يوم تغيرت فيه حياتي

ففي ذات يوم، قابلت في طريق (دي بونتمبن) فتاة كثيراً ما صادفتها من قبل، وطالما تلاقيت وإياها في بعض المناسبات، إذ كانت تصلها بي قرابة بعيدة. وكانت تسكن في ذلك الميدان الذي يطلق عليه الآن اسم (فيكتور عمانويل). . . ثم كانت تنحدر من أسرة نشأت في جنوا. فأضفى عليها أصلها هذا، جمالاً أشقر رائعاً، تبدى لي في ذلك اليوم في أبهى روعته. . . فقد تمثلت لي يومذاك، فتنة الشباب، وجمال الربيع، في (جيوفانا باتسيتا)، ولاحت لي، مع أنني كنت أعرفها - كما ذكرت - وكأنني لم أرها قبل ذاك اليوم. . .

وبالرغم من أنني كنت أحس جمالها. . . إلا أنه لم يبعث في نفسي يوماً أكثر من إعجاب وقتي، لا يلبث أن يتلاشى. . . أما في ذلك اليوم، فقد لاح لي أكثر فتنة وسحراً. فما هي إلا نظرة من عينيها حتى وقعت في شراكها. . .. . .

وحتى هذه اللحظة، لم يبد لي الأمر جدياً يثير اهتمامي، فلو أنني سمعت إذ ذاك نبأ موتها، لما نال مني كثيراً. . .!

لم أقل لها إذ ذاك شيئاً، ولم أنبس ببنت شفة، بل مضيت في سبيلي، كشخص عثر بغتةً على كنز في طريقه، فأسرع يخبئه في ثنايا ردائه، وانطلق بجد في خطاه نحو بيته. . .

حتى إذا كان اليوم التالي، قابلتها مرة أخرى. . . وفي هذه المرة أيضاً، أفضت إلي عيناها بما لم أجرؤ أن أصدقه. .

كنت حديث عهد بالهوى، فلم أدر ما أفعل. . . ولو أنني خلوت بها في مكان ناء لكان في وسعي أن أقدم على تصرف سريع، دون أن أتفوه بحرف واحد. أما وقد كنت في بيروجيا فلم يك أمامي غير أن أزورها حيث تسكن، أو أن أبوح لها بحبي على قارعة الطريق، في جرأة أستمدها من أناة أتذرع بها. . .! وما كنت لأجد في نفسي هذه الجرأة، فما عتمت أن تحولت تاركا الأمور تجري في أعنتها. . . ولكنها لم تلبث أن غادرت المدينة. . .!

لم تك غيبتها هذه إلا نزهة قصيرة ما كانت لتستغرق الشهر أبداً، بيد أنني كدت أقضي حزناً وأسى، إذ أذكى البعاد أوار الحب في قلبي، وأصبحت أرى في البقعة التي كنت أصادفها عندها، قبلة أحج إليها. كما كنت أقف في الأمسيات أمام دارها، وقد غمرني شعاع القمر، والوجد يلهب أحشائي، والأسى يمزقني بأنيابه الحادة القاسية. . . حقاً، إن الحب جنون. . .!

لست أود أن أثقل عليك، ولكنني أحببت أن أريك كيف شاء القدر أن يسعى للقضاء علي. . .

وأمسك الرجل برهة ليفرغ في جوفه بقية كأسه، بينما انبعث صوت العجوز من داخل

البيت:
- الفريدو. . . إننا الآن في ساعة متأخرة
فضحك سائلاً إياها أن تدعه وما يشاء، ثم عاد يتابع حديثه:
- برح بي الهوى حتى لم يبق مني غير هيكل بال لرجل ضعيف. فلم أعد أهتم بالعمل، أو آبه للفن حتى لطالما اشتجرت مع والدي إذ أضعت عليه كثيراً من الصفقات المربحة
ولو أن الأمور سارت على هذا المنوال، لغادرت بيروجيا إذ ذاك مطرحا عملي، هاجراً موطني. غير أن الأقدار أشفقت علي، فساقت إلي الشفاء يوماً. فقد عادت جيوفانا إلى المدينة، وقابلتها في الطريق، فلم أتردد في البوح لها بما يعتلج بين جوانحي من غرام. فأطرقت تصغي إلي برهة، ثم تحولت فحدقت في عيني، وابتسمت. . . عند ذاك، أيقنت أنها أصبحت لي، فصرت رجلاً آخر
كانت ثروتي وفيرة لا بأس بها، وكانت أخلاقي حميدة لا عيب فيها، فلم أجد معارضة من والدي جيوفانا عندما تقدمت لطلب يدها. وصار لنا أن نلتقي كل مساء، فننعم بجولة بديعة خارج المدينة، عند الكروم الغناء. . . ملتقى العاشقين. . .
وقررنا أن يكون الزواج في الصيف. . .
ثم حان عيد (الكرنفال)
كان (الكرنفال) في تلك الأيام الخوالي أكثر مرحاً وبهجة منه الآن. فكان الناس يطرحون عنهم شؤونهم، وينصرفون عن كل شيء، ليندمجوا في ملاهيه وأفراحه
وفي آخر ليالي (الكرنفال) كنت على موعد مع جيوفانا عند بقعة قريبة من (دومو)، وقد حلا لها أن تتنكر في رداء غانية أسبانية، بينما اخترت أنا للباسي حلة مزركشة وقناعاً قرمزياً. ولما كانت صحة والدي معتلة فقد لزم البيت طيلة اليوم بعد أن أخبرته بالأماكن التي أعتزم ارتيادها، وبالمواقيت التي سأكون فيها هناك، حتى يكون في وسعه الاتصال بي، إذا كانت ثمة حاجة لهذا الاتصال
كان موعدي مع جيوفانا في الساعة السادسة إلا عشر دقائق عند (فونتي مادجيوري) على مقربة من (دومو). وقد يخيل إليك أنني كنت هناك قبل الموعد شأن كل عاشق مستهيم. . . بيد أنني في الواقع وصلت إلى مكان الملتقى متأخراً. إذ كان بساعة صديقي مانفريدي الذي قضيت عنده فترة الظهيرة، خلل جعلها تؤخر في الوقت. بينما تعمدت أن أترك ساعتي في البيت خشية أن يسلبنيها اللصوص الذين كانوا يندسون وسط المهرجانات في مثل هذا العيد. . . فلما وصلت إلى فونتي مادجيوري، كانت النواقيس تدق، فلم أكد أصدق سمعي، ولا بصري، عندما ترامت الدقات إلى أذني، ولم أجد جيوفانا. . .
ثم حدست ما وقع. . . فلابد أنها حضرت في الموعد، حتى إذا لم تجدني انصرفت عائدة. ولو أنني فكرت في هذا، لأدركت مدى استحالة بقاء فتاة وحيدة في الانتظار عند فونتي مادجيوري في ليلة العيد، ولأنحيت باللوم على نفسي بدلاً من أن أسمح للغضب أن يطغى فيجتاح قلبي. . .
كنت أعلم أن جيوفانا رغم ليونتها ورقتها، ذات طباع حادة قاسية. فظللت واقفاً أتلفت حولي وهذه الفكرة توحي إلي بما يذكي نيران الغضب ويزيد شعلتها لهيباً. بينما كان القوم
يمرون بي في طريقهم إلى الساحة لمشاهدة موكب العيد، وهم في أحاديثهم وضحكهم عني لاهون. . . ثم تحولت إلى حانة، فاتخذت لنفسي فيها مجلساً، وطلبت شراباً قوي التأثير، رحت أحتسيه وأنا غافل عن رجل أسمر، كان يجلس إلى منضدة قريبة. . .
لم أسرف في الشراب قط مثلما أسرفت في تلك الليلة. فقد لاح لي الكحول ساحراً بدد غضبي وأبدل به شيئاً من اليأس، الذي لم يلبث أن تحول إلى شعور من عدم المبالاة. وسرعان ما تناسيت جيوفانا، واندمجت في الحديث مع الرجل الأسمر، الذي عرفني وناداني باسمي، يدعوني إلى مجالسته
كان الرجل أحد تجار التحف في بيزا، وقد رأيته في متجر والدي يومذاك، إذ ذهب - رغم العيد - يسعى وراء صفقة. بيد أنه لم يحظ بفائدة لمرض والدي. وكانت لديه تحف رائعة ثمينة يبتغي بيعها بثمن بخس، إذ حصل عليها في سرقة ارتكبها فوجد أن من

الخطر استبقاءها في حوزته في بيزا. وقد أراني منها بوديني - إذ كان هذا اسمه - صليباً من الذهب المرصع ببعض الأحجار الكريمة، وقرطاً، وخنجراً من الخناجر الفلورنتينية ذا مقبض فضي. فعرضت عليه أن أبتاعها منه، غير أنني لم أك أحمل الثمن الذي ابتغاه. فلم يأبه لذلك، إذ كانت معاملاته معنا على ما يرام لذلك تناولت منه هذه الأشياء، فوضعت الصليب في صدر ردائي، ودسست الخنجر - وقد غاب في قرابه - في جيب خفي. . .

وما أن فارقني بوديني، حتى عدت ثانية، نهبة للهواجس وفريسة للهموم. ولما بارحت الحانة، كانت الأضواء تتلألأ مؤتلقة في المدينة وقد تصاعد ضجيج الجماهير المندمجة في مهرجانات (الكرنفال) كهدير الأمواج الصاخبة. فوقفت برهة موزع الخاطر متحيراً، ثم تحولت نحو ساحة الاحتفال، وأنا أسائل نفسي. . . أما كان يحسن بي أن أيمم شطر بيت جيوفانا؟. . .

لاحت لي المدينة كمجنونة اكتسحتها نشوة الفرح التي يبعثها العيد، وقد تراءت كشعلة من النيران، وبدا الناس وهم صرعى نوبة من الخبل المرح، يحيطون بالساحة يشاهدون (مصارعة الثيران) فاندمجت بينهم، وقد تناسيت جيوفانا. حتى إذا انتهى الصراع، وتشتت القوم متفرقين وجدتها أمامي!

كانت في صحبة رجل. . . وقد أولياني ظهريهما فلم يرياني، بينما أحاط الرجل خصرها بذراعه، ومضى يشق لكليهما طريقاً وهما يضحكان في حبور. فدوت ضحكاتهما في مسمعي كقصف الرعد. إذ كان يخيل لي أنني الرجل الوحيد في بيروجيا، الذي اصطفته جيوفانا خليلاً، وتعرفت إليه. . .

وقفز الخنجر من جيبي إلى يدي، فكدت أغمده في ظهر رفيقها لو لم تندفع كوكبة من الخيل إلى الساحة تتسابق، فحالت بيني وبينهما. فلما مضت لم يك ثمة أثر لجيوفانا ورجلها!. . .

ولك أن تتصور موقفي، وقد أعمتني ثورة الغضب، بينما أخذ الخنجر يخز راحة يدي، وضحكات القوم تستثيرني وتوهمني بأنهم جميعاً يعرفون قصتي ويسخرون مني. بيد أن إرادتي كانت قوية فلم ألبث أن أعدت الخنجر إلى جيبي وأنا أحمل النفس على الصبر وأعللها بالأماني. . . واندفعت مع القوم

وما لبثت أن ظفرت بثمرة صبري، إذ عثرت على جيوفانا ورفيقها في طريق (بيكولو امبرتو)، فرحت أقترب منهما حتى بات في وسعي أن أحصي الشعيرات خلف رأسها، أو أن أحل الرباط الذي يثبت القناع على وجه صاحبها. ولكن يدي لم تعد تتحسس الخنجر هذه المرة؛ فقد وجدتني في أهدأ الحالات، أتحين اللحظة الملائمة لإنفاذ انتقامي دون أن أعرض نفسي لأتفه الأخطار تبعتهما في طريق (بيكولو امبرتو) وهما يسيران في عزلة عن القوم لاهين، وقد غابا في غمرة سعيدة أنستهما ما حولهما، حتى أنهما لم يلتفتا نحوي مرة واحدة. . .

. . . ثم. . . لحظة واحدة يا سيدي

وهم باولي من مجلسه فحمل زجاجة الشراب الفارغة، وغاب في المنزل. . . وسمعته يسأل جيوفانا عن مفتاح المخزن، فأجابته بصوت نم عن غضبها لإقلاق راحتها، وكأنما كانت متذمرة لبقائه ساهراً حتى تلك الساعة المتأخرة، في جو الليل الرطب البارد، يتناول الشراب مع شخص أجنبي لم يسبق لهما التعرف إليه. . .

ثم عاد يحمل زجاجة جديدة من الشراب، فاتخذ مجلسه ثانية وتابع حديثه وكأنما لم يقطعه على نفسه. . .

اتبعتهما في الطريق، حتى وصلنا إلى أخرى تفضي إلى بيتها. وقبيل باب الدار، افترقا. . .

لم أصدق عيني وأنا منزو في مخبأ في الطريق. فقد كانت بيروجيا بأسرها - لا الحي وحده - تعرف أنني خطيبها وأننا سنصبح عما قليل زوجين. ومع ذلك، فهاأنذا أراها قبيل الزواج ببضعة أشهر تساير شخصاً غريباً على أثر إهمال بسيط صدر مني عفواً ودون إدراك مني. . . شخصاً التقطته من بين الأفواج المتدفقة في ساحة (الكرنفال)!

وولجت هي بيتها، بينما عاد هو في الطريق يصفر فرحاً جزلان، فما أن ابتعد عني ثلاثين خطوة، حتى تسللت في أثره، وقد قررت - بعد أن رأيت ما بينه وبينها من علاقة - أن أقدم له الجزاء الذي يستحق. . . كان يجب أن يموت، وكان ينبغي أن تموت هي

أيضاً، ولكنه الأجدر بالأسبقية في تلقي الجزاء!
كان من السهل أن أغتاله في تلك الطريق ذات الأضواء الضئيلة، التي لا تكاد تقوى على مكافحة الظلام الطاغي. . . ولكن. . . ألا يجوز أن يقبضوا عليّ، فتفلت هي من انتقامي؟. . .
وصمت العجوز مرة أخرى، لينزع عن الزجاجة سدادها، فيملأ الكأسين، بينما كان القمر قد اعتلى كبد السماء، وازداد ضوؤه الفضي تألقاً، حتى تراءى لنا المنظر المحيط بنا، وكأنه يبدو في وضح النهار. حتى إذا أفرغ كأسه في جوفه، عاد يقول متابعاً قصته:
(لعلك تقدر موقفي يا سيدي، فقد كان عليّ أن أحرص على حياتي، حرصي على كنز ثمين، حتى أتم انتقامي كاملاً، وهذا لا يتأتى إلا إذا فرغت من حساب جيوفانا على ما قدمت. . .
ومع ذلك، ظللت أتعقب الرجل!. . .
والظاهر إنه كان قد أختطف ألعوبة (شخشيخة) أحد المهرجين، أثناء المهرجان، فراح طيلة الطريق يهزها يمنة ويسرة ويضرب بها ظهور الناس خلال الزحام، وهو يضحك ساخراً لاهياً في غفلة عن الذي يتعقب خطاه، معداً خنجره للقضاء على حياته
كان يلوح كمن يبتغي اجتذاب أنظار القوم. فكان يسخر من كل فتاة أو شاب يعترض طريقه، ويهزأ بكل عجوز أو كهل يصادفه، مرسلاً قهقهته عالية في الجو. وكأنما هو لم يكتف بما نعم به من سعادة في رفقة جيوفانا، فما لبث أن أوقع في أحبولته فتاة أخرى، أحاطها بذراعه ثم دفعها معه، وقد تبعتها صويحباتها وهو غير مكترث بهن. ولعله كان
يحمل نقوداً وفيرة إذ لجأ إلى مشرب راح يبعثرها فيه بغير حساب. . .
ما كنت أرى وجهه، فقد كان ظهره نحوي. بيد أنني كنت أرى إنه قد وفق في أن يغدو الروح الحية التي ظهرت في المشرب فطغت على كل من فيه، ثم. . . تفرق الجميع كل إلى وجهته، فعاد وحيداً يسلك طريق (أندريا دوريا)
وهنا. . .!. . . وجدت الفرصة الملائمة
كانت الطريق مقفرة، ولم يك ثمة من يرانا، وحتى لو وجد هذا فقد كان الظلام الضارب فيما بين المصابيح، لا يدع لأحد الفرصة كي يتأملنا جيداً؛ فلم ألبث أن أمسكت بكتفه، ورحت أنظر إلى وجهه الذي كان شاحباً، تعلوه كآبة تبعث في النفس الرغبة في تهشيمه. . . كنت مجنوناً، وقد أخذت الوقائع التي حدثت في ذلك اليوم تتتابع متزاحمة في رأسي. . . كان هناك حبي لجيوفانا، وغيرتي، وحقدي، ثم. . . مفعول الكحول القوي. . . كل هذا كان يدفعني نحو الجنون، بينما أخذ الشاب يقاومني في نضال، وأحسست بسكين تصيب كتفي الأيسر، ثم هويت إلى الأرض بينما كنت أغمد خنجري في قلبه بكل ما واتاني به الحقد والغيرة من قوة!. . .
سقط الرجل عند قدمي جثة هامدة شاحبة، وما يزال الخنجر مدفوناً في صدره. ولكنني لم آبه لذلك، ولم أسع إلى الفرار. . . ولعل هذا أغرب ما حدث. . . فقد كنت أنوي قتل جيوفانا، ثم أنتحر، ولذا لم أجد ما يبعث على الفرار!
لم أك أدري لكل هذا سبباً. غير أنني أدركت فيما بعد، أن عقل الإنسان لا يطيعه في كل الأحوال، وإنما هو - في المآزق الحرجة والمآسي المروعة - يتمرد عليه ليعمل بإملائه ووحيه. . .
جررت الجثة إلى مدخل المباني القائمة في الطريق فأسندت ظهرها إلى الباب حتى بدا صاحبها تحت ضوء المصباح الغازي الصغير المعلق فوق المدخل، وكأنه ثمل غلبه النعاس. ثم انطلقت في طريقي بعد أن تحققت من المكان الذي تركت فيه جثة غريمي
لم يعد أمامي بعد هذا إلا أن أحاسب جيوفانا، لذلك يممت شطر بيتها، ودققت الباب ثم ولجت. . .
كانت أسرتها ما تزال غائبة في (الكرنفال)، وكانت هي لم تأو بعد إلى فراشها، فما لبثت
أن هبطت للقائي. . .
وكنت أقف في الحجرة التي اقتدت إليها عند حضوري، متكأً إلى منضدة في قبالة الباب، عندما قدمت. فما رأتني حتى حدقت في وجهي دهشة وتساءلت:

- لماذا عدت ثانية؟
فأطلقت ضحكة عالية، ولم أنبس ببنت شفة. وإذ ذاك تراجعت وقد لاح على محياها الفزع؛ غير أنني لم أفكر في أن خوفها هذا قد يكون منبعثاً عن غرابة مظهري وعن إخلاصها لي. وإنما خلت أنها فطنت إلى أنني كشفت خيانتها، فكان هذا مصدر جزعها، لذلك صحت بها:
- ما اسمه؟
- اسم من؟
- من!؟ الرجل الذي أوصلك إلى باب هذا المنزل منذ ساعة
- إنني لم ألتق بسواك هذا المساء. . .
لاح لي أنها كانت تنطق عن حقيقة وصدق. فبدأت أفهم الأمر. . لابد أن ثمة شخصاً أتخذ مظهري وتقدم إليها منتحلاً شخصيتي. فلما أفضيت إليها بما ساورني ضحكت قائلة:
- لقد كنت أنت الذي رافقني، وقد وضعت على وجهك قناعاً زائفاً. . . ثم كان موعدنا وملتقانا عند فونتي مارجيوري، وهذا ما لا يعرفه سوانا. . .
فصحت:
- يا لله!. . . ولكنني لم أقابلك إذ تأخرت عن موعدنا. . .
خيل إليّ أنها ظنتني مجنوناً أو كاذباً. . . وتراءى لي الأمر كحلم، فظللت صامتاً يداخلني الشك في صحة قواي العقلية؛ بل أيقنت أنني مجنون، فرفعت القناع القرمزي عن وجهي وأطرقت إلى الأرض. ثم. . . تذكرت الرجل الذي خلفته مستنداً إلى الباب في تلك الطريق القفرة بعد أن سلبته الحياة. وإذ ذاك خيل إليّ أن ثمة قوى خفية تسيطر عليّ وتدفعني إلى أن أغادر البيت. . البيت الذي دخلته لأقضي على جيوفانا، فخلفته وأنا نصف مجنون، تسوقني قوى خفية - رغم إرادتي - إلى حيث لا أدري. . .
وجدتني أخيراً عند باب بيتي. . . وكان المنزل مظلماً عندما ولجته، فأغلقت الباب خلفي وتقدمت. وإذ ذاك سمعت والدي يصيح متسائلاً عن القادم، إذ كان ملازماً حجرته لمرضه.
فلما وصلت إليه، وجدته جالساً في الفراش، متدثراً بالأغطية، وعلى ركبتيه كتاب مفتوح، والى جانبه المصباح. فما أن رآني حتى بادرني:
- آه، أهذا أنت؟. . . وأين أرتورو؟. . .
والآن. . . لعلك تذكر أنني أخبرتك في بداية القصة، أنه قد كان لي أخ أحب البحر فعمل كملاح. وأنه كان يشبهني كل الشبه، إذ كنا توأمين
صحت بدوري أسأل والدي:
- ماذا تعني؟. . . إن أرتورو في البحر. . .
بيد أنني لم أتم كلماتي حتى خالجني شعور رهيب، كاد قلبي أن يقف له عن الوجيب، بينما سمعت والدي يقول:
- لقد عاد أرتورو اليوم، فانطلق يبحث عنك، بعد أن أخبرته أن في وسعه أن يعثر عليك عند فونتي مادجيوري في الساعة السادسة، إذ أخبرتني أنك ستلقى جيوفانا. . .
وإذ ذاك، شعرت بالأرض تميد بي، فتهالكت على مقعد بجوار فراش أبي، ومضيت أقول دون وعي:
- لقد تأخرت عن الموعد، وسبقني أرتورو إلى هناك، فظنته جيوفانا إياي، وتقدمت إليه، ولما كان يعرف أنها خطيبتي فقد شاء - حباً في المزاح - أن يدعها على اعتقادها، وبعد أن طاف برهة في رفقتها، أوصلها حتى باب دارها ثم ودعها وهو ما يزال منتحلاً شخصيتي. اتخذ طريقه عائداً، يساوره الأمل في أن يلقاني فيضحك معي للفصل الذي أتقن تمثيله. بيد أنه لم يك يدرك أنني أتعقبه طيلة ذلك الوقت، ظاناً أنه شخص غريب سلبني خطيبتي، وأوقد في أعماقي نيران الغيرة
فانتفض والدي بغتة في فراشه، وكأنما أصابته رصاصة، وصاح:
- ماذا تقول؟. . . ما الذي تعنيه؟. . . أين أرتورو؟ فأجبته: لقد مات غيلة بخنجري الذي لا يزال في صدره. . .
فهت بهذه الكلمات وأنا هادئ كل الهدوء، كما لو كنت أنقلها عن شخص آخر كنت لا

. . .!أستطيع أن أتصور ما فعلت، وأن أعتقد حقاً أنني ارتكبت تلك الجريمة
أجل يا سيدي، كان هذا عين ما حدث.
وأطرق الرجل برهة، وكأنما غلبه الأسى لتلك الذكرى، ثم ما لبث أن عاد يقول:
غير أنهم لم يعاقبوني، إذ أخذتهم بي الشفقة عندما رويت لهم قصتي، كما أرويها لك - الآن. . .
. . .وما لبثت بعد ذلك أن تزوجت جيوفانا، سافرنا إلى بيزا معاً فاستقر بنا المقام هناك
كان هذا منذ سنوات، وقد مضينا عقب ذلك في الحياة، دون أن نوفق إلى جمع ثروة أو عقار، اللهم إلا هذا الفندق الذي امتلكناه أخيراً. . .
. . .ومع ذلك فإننا في نهاية المرحلة. . . فماذا يهمنا؟
وفرغنا من الشراب، فقادني إلى الغرفة التي أعدت لنومي. وفيما كنت مستلقياً في فراشي، يقظاً أتأمل شعاع القمر، وقد تساقط على جدار حجرتي، وأنصت إلى حفيف أشجار الزيتون، يداعب أغصانها نسيم الهزيع الأخير سمعت جيوفانا تقول ساخطة
هل أويت إلى فراشك أخيراً؟. . . جميل حقاً، أن تدعني يقظة حتى الآن في انتظارك!!. . .
محمد بدر الدين
البريد الأدبي
رجعاق
1 - قرأت كلمة العالم الثقة المتواضع (أزهري (طنطا)) في العدد الـ347. وفيها نبه الكتاب والرواة إلى أن أفلاطون هو الذي قال: (لا تقصروا (تقسروا) أولادكم على آدابكم، فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم). ويحلو لي أن أعود إلى مناقلة ذلك العالم ومثاقفته، فأخبره بأن هذا القول ورد منسوباً إلى أفلاطون أيضاً، على قلم أسامة بن منقذ في (لباب الآداب) - مصر 1935 ص 237
2 - كنت استشهدت في مقالي (مناقلة ومثاقفة) (الرسالة 346) بكلمة بليغة لابن شبرمة، وهي: (ذهب العلم إلا غبارات في أوعية سوء). فذهب صاحب (الأدب في أسبوع) في العدد التالي إلى أن هذه الكلمة (تبدو له نصاً عربياً مظلم النور). فقال - معترضا -: إن تحرير روايتها يكون بوضع: (غبرات) (أي: بقايا الشيء) موضع: (غبارات). وجلب لأجل ذلك قولاً لعمرو بن العاص وآخر لأبي كبير الهذلي، وردت فيهما كلمة (غبّر) وجمعها (غبرات (المآلي)) لبقايا دم الحيض (المعذرة أيها القارئ!). ثم خرج المعترض من وراء (تحقيقه على التحرير والدراية)، يأمر الناس يقول: (فمن كانت عنده نسخة من العقد الفريد (طبعة بولاق) فليصححه)، (وذلك لأن تلك الكلمة مثبتة في العقد وروايتها (غبارات)).
ألا إن مثل هذا الضرب من التحقيق ينطوي تحت ما يسميه علماء الفرنجة لهذا العهد في المنهج الذي يجرون عليه في تحرير المخطوطات والمطبوعات: (التحكم في رفض رواية النص). ومنهج القوم في ذلك هو معتمدنا اليوم (وهو على كل حال سنّة العلماء من عرب وأعاجم في عهد ترسخ فيه قواعد العلم). وفي نقدي لكتاب (الإمتاع والمؤانسة) (الرسالة 327) مثل على ذلك التحكم. وبيان هذا أن نص رواية من الروايات لا يرفض إذا صح لغةً وأداءً وبياناً؛ وليس للقارئ أن يستبد بذوقه فيحمل القدماء على أن ينطقوا على هواه أو على مبلغ (تحريره ودرايته)، وإن صحّ رأيه من جانب. وعلى هذا، فمعلوم أن الغبارات - أي الشيء الحقير القليل - تعلو الوعاء المهمل لفساد ما فيه وتطمئن في زواياه. فلا حاجة بك إذن إلى اجتلاب استعارة قد ينبو عنها بعض الأذواق. ولو كان استشهد المعترض بنص ورد فيه قول إبن شبرمة و (الغبارات) فيه (غبرات) لكان رأيه نجا من نصف التحكم؛ ولو كان جلب نصاً فيه (غبرات (المآلي)) تليها (أوعية) سوء أو نحو ذلك لكان رأيه مقبولاً
هذا والغبارات وردت في غير طبعة بولاق (مصر 1293) للعقد الفريد. فإنك تصيبها في طبعة المطبعة العثمانية مصر 1302 ج 1 ص 205، والمطبعة الشرفية مصر 1305 ج 1 ص 155
وبعد، فإني أريد أن أكون عند حسن ظن المعترض بي. ألم يكتب عن غزير فضل: (إن العالم الثقة المثبت المحقق الدكتور بشر فارس قد علم فعلّم). وهأنذا في دار الكتب

المصرية - أبقاها الله حصناً للمحققين - وإلى جانبي الصديق الكريم (وفي الناس من تكرم صداقته) الأستاذ كامل المهندس رئيس قسم الفهارس العربية، والأستاذ عبد الرحيم محمود المصحح بالدار، وبين يديّ جانب من نسخة مخطوطة، قديمة تصعد إلى المائة السادسة، مشرقة الخط، مشكولة، إن هي إلا (الجزء السادس من كتاب العقد وهو بعض كتاب الياقوتة في العلم والأدب). وفي أسفل الورقة الـ22 ما حرفه بالشكل الكامل المحكم: (ذهب العلمُ إلا غُبَارَاتٍ في أوعيةِ سَوْء)
هذه كلمة لن أردفها بثانية مهما خطر للمعترض أن يقول.
بشر فارس
دكتور في الآداب من جامعة باريس
(ارتجال المصادر)
طالعت في العدد347 من الرسالة مقالاً في البريد لكاتبه الأستاذ إسماعيل أدهم يحاول فيه أن يرجع تعبيراً للدكتور بشر فارس هو (أذني زلزلت طربا) إلى تعبير إيطالي يقاربه، في زعمه، للكاتب المسرحي لويجي بيراندللو عن ترجمة تركية ونحن لا نريد أن نناقش هذا الأسلوب في ترجيع تعبير إلى آخر في غير اللغة التي كتب بها مباشرة (من الإيطالية إلى التركية ثم إلى العربية)، وإنما نريد أن نبين للقارئ كيف يواصل الأستاذ أدهم طريقته في (ارتجال المصادر) (راجع هنا ما قاله الدكتور بشر فارس نفسه في هذا الصدد: الرسالة 329 و330) وإليك الحديث:
قد كنت وضعت رسالة عن الكاتب المسرحي لويجي بيراندوللو ونشرتها تباعاً عام 1935 على صفحات مجلة الحديث الحلبية، وذلك بمناسبة فوزه بجائزة نوبل، وكنت أثبت في هذه الرسالة المصادر الإفرنجية التي اعتمدت عليها في اللغة الفرنسية، ومن بينها كتاب مستعرض أوربا ' لمؤلفه الناقد وفي هذا الكتاب وغيره وردت مصادر إيطالية وجدت من تتمة البحث أن أذكر عناوينها، ومن هذه المصادر كتاب ' أي (الإنسان الخفي) لمؤلفه فردريكو ناردیللي
وقد تبين لي بعد ذلك أني أخطأت في ترجمة عنوان هذا المصدر بأن ذكرت (الإنسان المقدس لمؤلفه فردريك ناردیللي) وجاء هذا الخطأ نتيجة وهمي أن كلمة تفيد (مقدس) والصواب أن الكلمة التي ترادف (مقدس) هي بالإيطالية وهكذا يرى القارئ أن مصدر الخطأ جاء من تقارب خروج حروف اللفظتين الإيطاليتين
هذا وقد استند الأستاذ أدهم في مقاله المذكور آنفاً إلى هذا الكتاب، وادعى أنه راجع ترجمته التركية (ص118 - 119)؛ فذكر عنوان الكتاب هكذا: (الإنسان المقدس).
ونحن نقول إن هذا الكتاب لو كان ترجمه أحد إلى اللغة التركية حقيقة لكان أصاب في ترجمة العنوان وهو سهل الألفاظ واضحها، (وإلا فكل الترجمة خطأ ولا يعول عليها إطلاقاً)
والحقيقة أن الأستاذ أدهم سطا على هذا العنوان بخطئه - كما رأيت - من صلب الرسالة التي كنت نشرتها في مجلة الحديث عام 1935 كما قدمت
ونزيد على هذا أن الأستاذ أدهم في محاولته في مقاله المذكور استند إلى الترجمة التركية (؟!!) على حين إنه في كتابه (توفيق الحكيم - الفنان الحائر) أثبت عنوان هذا الكتاب ذاته في جدول مصادره باللغة الإيطالية كأنه اطلع عليه. فلم يعمد إلى ترجمة تركية لكتاب سبق أن اطلع عليه في لغته الأصلية إلا لأنه يعرف أن التركية الحديثة غير شائعة عندنا، فمن يتتبعه؟
وإذا كابر الأستاذ أدهم في هذا الصدد فليرسل إلى إدارة مجلة الرسالة الترجمة التركية المزعومة لمجرد الاطلاع عليها والإفادة منها
محمد أمين حسونه
الحجز على المتاع
سيدي الفاضل الأستاذ الزيات
تحية وسلاما. وقع نظري على إعلان حجز نشر في جريدة البلاغ يوم الجمعة الماضي أو السبت الذي يليه على ما أذكر؛ فقد أردت أن أحتفظ بالعدد المنشور فيه هذا الإعلان لولا عبث أطفالي به وهم لا يأبهون بما فيه، ولكن إليك ملخصه (ولك أن تراجع أعداد البلاغ المشار إليها للتحقق منه)
في يوم 4 مارس سنة 1940 سيصير بيع المنقولات الآتية وهي: حلة وأنجر (وكيلة)

ذرة) ملك. . . وهذا البيع بناء على طلب حضرة صاحب المعالي وزير الأوقاف وفاء (لمبلغ. . قرشاً
وكان بودي لو تعيرني قلمك لأعلق على هذا الإعلان المؤلم؛ بيد أني خشيت أن يكون في يدي قصبة لا روح فيها أو كالمهند في يد طفل ضعيف. والموضوع يحتاج إلى صرخة مدوية تهز أوتار القلوب، وأنت فارس هذا الميدان، ولنفائس يراعتك ما ينفس عن القلوب المكلومة، وفيك الرجاء في معالجة الأمر بحد القلم الذي حرك أولي الأمر في أكثر من حادثة
إن بعض القوانين تحرم الحجز على كثير من أنواع المتاع فما بالك بالحجز على القوت الضروري؟ فهل بلغ الحرص بوزارة الأوقاف على أموالها هذا المبلغ وهناك الكثيرون من أبناء الأثرياء الذين أضاعوا أموالهم على الخمر والميسر وأنواع الفجور، أصبحوا يعيشون في رغد من المرتبات التي تصرف لهم من الأوقاف من غير استحقاق أو عمل يعملونه لأنفسهم ولبلادهم، وناهيك بغير هؤلاء ممن تعرف
ومما يزيدنا تألماً أن يصدر هذا التصرف الشاذ في عهد وزير خلق وزارة الشؤون الاجتماعية لخدمة الإنسانية
فمتى نعرف البر بالفقير إذا كانت وزارة البر والإحسان تأخذ اللقمة من فم الفقير لتطعم بها أبناء الأعيان أو تؤثث بها غرف موظفيها بأنواع الأثاث الفاخر؟
يا لله. . . وزارة الأوقاف تنزع من فقير (حلة وأنجر وكيلة ذرة) وهي بالطبع كل ما يملكه من حطام الدنيا!
أين الرحمة! أين الشفقة!. . . يا للإنسان من ظلم الإنسان!
أحمد محمد علي
استفهام
في كتاب (تاريخ الأدب) المقرر بالمدارس الثانوية تحت عنوان: (نماذج من شعر المخضرمين) شعر لأبي دهيل الجمحي على أنه مخضرم، وعلى أنه قيل في مدح رسول الله عليه الصلاة والسلام، وأول الأبيات هو:
إن البيوت معادن فنجاره ... ذهب وكل بيوته ضخم
ويروي الأغاني في الجزء السابع (طبعة دار الكتب ص134) أن هذه الأبيات في مدح عبد الله بن عبد الرحمن الملقب بابن الأزرق، والى عبد الله بن الزبير على بعض أعمال اليمن. فأي هاتين الروايتين نصدق؟ ومم استقى الأساتذة الأجلاء المؤلفون الرسميون روايتهم تلك؟ وكيف يحتمل أن يكون مخضرما وقد عاش إلى خلافة عبد الملك بن مروان؟
هذه أسئلة غرضي منها تعرف الحقيقة فحسب، فلعلي أظفر بمن يهدي إليها (محموداً مشكوراً)
قناوي
البروفسور ويلسن
وصل إلى القاهرة عن طريق الجو في الأسبوع الماضي البروفسور دوفر ويلسون أستاذ البلاغة والأدب الإنجليزي في جامعة أدنبرة، قادماً إلى مصر بدعوة من المجلس البريطاني، والاتحاد المصري الإنجليزي، لإلقاء طائفة من المحاضرات العامة، يدعى إليها كبار رجال التعليم في وزارة المعارف والجامعة، كما إنه سيباح الاستماع إليها لكل راغب في ذلك
وسيلقي الأستاذ دوفر أولى محاضراته في الساعة السادسة من مساء يوم 14 مارس الحالي، بقاعة الجمعية الجغرافية الملكية، تحت رعاية الاتحاد، ويتحدث فيها عن (شكسبير وعصره)
ويلقي بعد ذلك محاضرات أخرى عن نظم التعليم الحديثة في إنجلترا وعن الحياة الاجتماعية والسياسية في لندن يلقيها في المعهد البريطاني وفي قاعة يورت التذكارية. ثم
يلقي محاضرات أخرى في الإسكندرية وبور سعيد والسويس
وللأستاذ ويلسون أبحاث قيمة عن شكسبير ومؤلفاته، وإليه يرجع الفضل في إخراج الطبعة الحديثة من مؤلفات هذا الشاعر العظيم التي أصدرتها جامعة كمبردج أخيراً. وقد أخرج في شؤون التعليم ونظمه كتباً يسترشد بها رجال التعليم في إنجلترا إذ كان

أستاذاً للتربية والتعليم في جامعة لندن، ثم أستاذاً للأدب الإنجليزي في جامعة كمبردج
حول لقب السفاح
قرأت في مجلة (الرسالة الغراء) في الجزء342 وغيره ما كتبه الكاتبان (الأستاذ محمود شاكر والأستاذ الصعيدي) في (لقب السفاح). وعجبت لقول الأستاذ العبادي - على ما نقله الأستاذ الصعيدي -: إن الرواية التاريخية القديمة كرواية ابن سعد وابن عبد الحكم والبلاذري والدينوري وطيفور واليعقوبي، والطبري والنوبختي والكندي لم تلقب (أبا العباس) بالسفاح
فالمؤرخون كالمجمعين على تلقيبه بذلك، بل هو أشهر من لقب بهذا اللقب جاهلية وإسلاماً
ولعل من المفيد أن أنقل ما قاله الحافظ بن حجر في كتابه (نزهة الألباب في الألقاب) من مخطوطات دار الكتب المصرية. قال: (السفاح: أول خلفاء بني العباس، هو أبو العباس عبد الله ابن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس. ولقب به من القدماء سلمة بن خالد بن كعب التغلبي رئيس بني تغلب أحد فرسان الجاهلية، وقيل له ذلك لأنه سفح الروايا يوم الكلاب الأول)
غسان صلاح الدين
حول لوبيا المجهولة
حضرة الأستاذ علي معمر الطرابلسي
قرأت مقالك المعنون بلوبيا المجهولة في العدد 344 من مجلة الرسالة الغراء، فكانت دهشتي منه كبيرة، ولو كنت تعلم أن الإنسان الذي حملت عليه تلك الحملة الهوجاء يحمل في قلبه غيوماً من الأسى الممض والألم المبرح على شقيقتنا (طرابلس الغرب) الإسلامية العربية - لما أقدمت على إذابة قلبه بكتابة ذلك المقال. . . لو كنت تعلم أن ذلك الإنسان لا
يعترف بالوطنية الضيقة، بل هو يعتبر كل وطن إسلامي - بله العربي - وطناً له يعتز به ويفخر بالانتساب إليه ويعتقد أن له عليه من الحقوق مثلما لوطن المولد - ما جرحت قلبه يمثل ذلك الرد
ومع ذلك فالذنب ليس ذنبك ولا هو ذنبي، إنما هو ذنب (السياسة ومراعاة الظروف) وكفى بأستاذنا الزيات شاهداً على أنني ما أغفلت ذكر طرابلس الغرب من كلمتي ولا سهوت عن تعطير قلمي بها
لقد ذكرت طرابلس الغرب على انفراد وفي أسطر خاصة، لأن لها في قلبي مكاناً ممتازاً؛ ثم جاء قلم من الأقلام فحذفها جملة رعياً للظروف الحاضرة. ولم أجعلها في ضمن بلدان (الشمال الأفريقي) لأن هذه اللفظة بفضل السياسة أصبحت لا يراد بها إلا الأقطار الواقعة تحت حماية فرنسا أو استعمارها وهي: تونس، والجزائر، والمغرب. . . أفترانا يا حضرة الأستاذ مقصرين في حقوق الجارة الشقيقة وجاهلين بجهادها وبلائها ومحنتها التي ينفطر لها كل قلب عربي مسلم؟
ثم أسألك كيف جاز لك أن تسمي طرابلس الغرب (لوبيا) وهو لفظ أطلقته عليها السياسة لتمحو به المعنى العربي، والتاريخ العربي لهذه البلاد، وتنقل السامعين له فوراً إلى عهدها الأول قبل الإسلام يوم كانت أحد أجزاء الإمبراطورية الرومانية؟ وأنت طرابلسي فهل ترضى أن ننسبك إلى لوبيا؟
إن المسلم حين يسمع لفظة (الأندلس) يمر بخياله تاريخ مجيد للإسلام والعروبة، مضى وترك مآسيه منقوشة في القلوب؛ ولكنه قد لا يمر بخياله شيء من ذلك إذا سمع لفظة (أسبانيا)، مع اعترافي بأن طرابلس الغرب أمة عربية خالدة بخلود الزمن فيأيها الأستاذ، لتكن شديد الثقة بأن العرب وحدة لا تتجزأ، وأن الدم العربي أينما حل لن تنقطع وشائجه ولن تنفصم أواصره مهما جار عليه الزمان وبدد شمله على الأوطان، والسلام عليكم ورحمة الله.
(فاس)
(أبو الوفاء)
تصويبات في العدد الممتاز
جاء في آخر المقال الافتتاحي (محمد الزعيم): (قد جاءتكم بصائر من ربكم) والصواب جاءكم

وفي مقال الأستاذ العقاد: (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) والصواب حذف (كله)
وفي مقال الأستاذ فريد وجدي: (ولو على أنفسكم أو الأقربين) والصواب (ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين)
وحي الرسالة - 3
من واجب (الرسالة) أن تنشر ما يتفضل به عليها الأدباء)
والزملاء والأصدقاء من صادق النقد وجميل الرأي في كتاب
(تسجيلا للفضل منهم والشكر منا (وحي الرسالة)
قالت زميلتنا المقتطف في عددها الصادر في أول مارس:
قال الزيات: (قارئي العزيز، اخترت لك هذه الفصول مما كتبته للرسالة في ست سنين. وكان من عادتي أن أكتب الفصل منها أصيل السبت من كل أسبوع، ثم لا أكتبه طوعاً لتأثير قراءة، أو تحرير فكرة، أو تخمير رأي. وإنما كان أثراً لوحي ساعته أو حديث يومه أو صدى أسبوعه. فالزمن جزء منه متعمم لمعناه: يبين ملابسته للحادث، ويعين مناسبته في التاريخ، لذلك أعقبت كل فصل بذكر اليوم الذي كتب فيه ليتضح موضعه بفعله وحاله وظرفه)
هذا خير ما يوصف به هذا الكتاب. فأنت ترى أني لا أستطيع أن أزيد في صفته من حيث التأليف والتبويب، ولكني أستطيع أن أقدم بين يدي قارئه بعض الرأي في أدب صاحبه
وأنت إذا تناولت هذا الجزء فقرأت فهرسه، رأيت مائة وعشرين بابا من أبواب القول قد افتتحها (الزيات) بقلمه وسناها برأيه، ومهدها بحسن بيانه، ولكل باب منها غرض، ولكل غرض أسلوب، ولكل أسلوب لفظ يصلح عليه ولا يصلح عليه غيره. وإذا كان الكتاب كذلك كانت المشقة فيه أعظم من مشقة التأليف المرسل إلى غرض واحد لا يتميز إلا بالاتجاه، فإن الغرض الواحد قلما يخرج أسرار البيان من قلب الكاتب ولسانه، لأن الأسلوب إليه قلما يختلف. فإذا اختلفت الأساليب باختلاف الأغراض محصت قدرة الكاتب على ما اعترض له وهمّ إليه من الكتابة
فإذا أنت أخذت هذا الكتاب بين يديك وسايرته فصلاً فصلاً وأسلوباً أسلوباً، عرفت الجهد الذي لقيه صاحبه في إبداعه، ورأيت (الزيات) في كل أسلوب هو (الزيات) لا يختلف ولا يتنافر، والكاتب إذا صار إلى هذه المرتبة - حيث تراه هو هو مهما اختلفت الأغراض وتباينت الأساليب - فاعلم أنه إنما يشتق لك كل ما يكتبه من حر نفسه، فيضنيها ويهلكها
مخلصاً صابراً لا يملّ. وإذا كان الكاتب كذلك فهو كاتب لا يزيف لك ولا يقبل الزيف، وهو يعطيك ولا يسألك، ويبذل لك ولا يمن عليك، ويعلمك ولا يدعي لك إنه أعلم منك. . ذلك بأنه قد بلغ من العقل والفكر والصفاء والبيان حيث يعلم أنه ملك قارئه لا أن القارئ ملك له، وأنه مرشد لا مسيطر، وأنه أخوك الذي يناقلك الحديث وإن كان بمنزلة الأب
و (الزيات) - كما عرفته من كتابته - روح هادئة متكتمة مسترسلة، يكاد يختفي في نفسه حين يفكر كأنه فيلسوف من فلاسفة الصين: يمشي هادئاً، ويفكر ساكناً، ويحاسب نفسه ولكن على التسامح والرضا والاستسلام؛ فإذا أراد أن يقيد أحلامه وأفكاره وهواجسه كان هو الهادئ الساكن المتسامح، فإذا اشتد وحمس وأراد أن يتفجر، خيّل إليّ إنه عينٌ حَّمةٌ ترسل لواذعها سكْباً ساخناً حامياً كالماء إذا إلى ثم هدأ أول هدأة لا يضرب بعضه في بعض. ولذلك ترى نقده إذا نقد شديداً بالغاً، ولكنه رفيق غير عنيف، ولكنه على ذلك مما تخشى صواعقه. وهذه الروح التي وصفناها هي التي تجعل كل كلامه قطعاً مزينة ناضرة محكمة مقدرة الألوان لا يختلط شيء منها بشيء، ولا يجوز لون منها على لون. وهي التي تجعل كل لفظه مبنياً على الإيجاز دون الإطناب، وعلى مذهب الحكمة دون المذهب الكلامي؛ وإذا أردت أن تتبين كل ذلك حقيقة التبين فلا تتكلف أكثر من أن تقرأ إهداء كتابه. يقول لولده (رجاء) الذي احتسبه عند ربه في سنة1936:
(إلى روحك اللطيفة العذبة - يا ولدي رجاء - أقدم هذا الكتاب، فلولاك ما أنشأت الرسالة، ولولا الرسالة ما أنشأت هذه الفصول)

فإن في هذه الكلمات القلائل لوعة مستكنة باقية إلى يومها هذا، ولكنها ساكنة راضية هادئة لا تثور ولا تتأجج، ولكنها تسري وتدب وتمشي في روحه الهوَينا الهوَينا هذا سر أسلوبه. وأما أسلوبه وبيانه واقتداره على عربيّته وحسن تصريفه لألفاظه في وجوه أغراضه ومراميه، فالزيات - ولا أشك - هو بقية أصحاب الأقلام العربية التي لا تخلط ولا تتقمم من هنا وهنا - فأنت إذا نفذت إلى كل جملة من كلامه في هذا الكتاب لم تجد إلا عربية خالصة مطاوعة لينة، لا ينافر حرف منها حرفاً - على كثرة الأغراض التي رمى إليها واختلافها، وعلى ظن من لا يعلم أن العربية لا تطيع في التعبير عن الضرورات الحديثة التي قسرتنا عليها مدنية القرن العشرين من ميلاد المسيح فلو أتاح الله لهذه العربية من يخلص لها في معاهد التعليم على اختلاف أغراضه وأنواعه، وأراد أن يرد على العربية شباب أيامها حتى تكون لغة مدنيتنا في الأدب والعلم والفن، لوجد في الذين أبادوا شبابهم بالعمل لإحياء اللسان العربي في هذا العصر قوماً قد استطاعوا أن يجعلوا عربيتهم أصلاً في الحياة، إذ جعلوا الحياة أصلاً فيها، وبقية هؤلاء هو (الزيات)

العدد 350 - بتاريخ: 18 - 03 - 1940

بعد إسدال الستار على مأساة فنلندا

. . .فشل العقل

فشل العقل في السياسة كفشل القلب في الطب معناه الانخذال والانحلال والموت. وليس في مقدورنا نحن أصحابَ الكلام وأرباب الأقلام إلا أن نصنع ما يصنع صاحب القصر الأبيض في واشنطون ورب القصر المقدس في روما: نصوغ اللفظ والدمع مرائي ومآسي وأكاليل كلما فشل الضمير والعقل، فمات بفشلهما الحق والعدل، وكان لذلك ضحايا من الأمم والناس ذهبوا أشلاءً ودماء بين الألم والعَدم!

أُسدل الستار الختامي أول أمس على المأساة الفنلندية الفاجعة بعدما ظلت ثلاثة أشهر ونصفاً تمثل على مسرح من الجليد والدم اصطرعت عليه القوة والحق، والبغي والعدالة، والكثرة والشجاعة، والنذالة والحميَّة، والعالم كله يشهد هذا الصراع الهائل وهو شاخص البصر مشدوه اللب لا يملك إلا التصفيق للبطل والتصفير للنذل!

كان كل واحد من الفنلنديين أمام ستين من الروس! وكان هذا الواحد ضئيل الحظ من الميرة والذخيرة والسلاح والمدد؛ وكان هؤلاء الستون وراء صفوف متلاحقة من آلات الحديد والنار، ومع ذلك استطاع هذا الواحد أن يمعن في أولئك الستين تقتيلاً وتنكيلاً وأسراً، وهو يغوص في الثلج ويكز من البرد ولا يكاد يجد الدفء ولا القوت ولا النوم!

ذلك هو الإيمان الصادق الصابر الذي يأذن به الله أن تغلب الفئة القليلة الفئة الكثيرة. وتلك هي البطولة القائمة على عزة النفس وكرامة الجنس وإيثار التضحية وتقديس الوطن. فلو أن العقل السياسي في جارتي فنلندة ساعد هذه المزايا النادرة فنهضتا لمناصرتها، ومكنتا الحليفتين من مؤازرتها، لخنس ستالين خنوس الجبان، وذلّت البلشفية ذل الأبد!

حاربت فنلندة مكرهة ثم سالمت مكرهة. أكرهها أعداؤها على الحرب، وأكرهها أصدقائها على السلم، فدافعت عظيمة، ثم صالحت كريمة. والجاني عليها في الحالين هو فشل العقل فيمن عادى وفيمن صادق. فلو أن ستالين لم يصب باحمرار العقل في مفاوضته لفنلندة قبل الحرب، لظفر منها بخير مما ظفر به بعد الصلح. إنه اقتطع من الوطن الفنلندي مقاطعات عزيزة، ولكنه أخذها بعد أن جعلها المرشال البطل مانِرْهايم مقبرة هائلة، دفن فيها مائتي ألف جندي من الروس معهم ألف وخمسمائة دبابة وسبعمائة طائرة؛ وكل أولئك مكفن بهيبة الجيش الأحمر وكرامة قواده وقيمة عتاده!

ولو أن الدول الشمالية لم تصب بشلل العقل لفكرت قبل هذه الحرب أو أثناءها فيما تفكر فيه اليوم من التحالف العسكري بينها، فإن ذلك كان عسِيّاً أنه يشفي الدب من غروره ويكسر من طماحه

ولو أن الدول الديمقراطية لم تصب بتردد العقل لخرقت حياد السويد والنرويج لتدفع الموت المحقق عن الجارة الباسلة الصغيرة. وهل عليك من بأس إذا وطئت حمى الجار لتطفئ الحريق في بيت جاره؟

إن فنلندة حاربت في سبيل الحق والسلام والمدنية، وكان لها على المجاهدين في هذه

السبيل الحفيظة والنصرة. ولو لم يكن لها وللحلفاء قضية عادلة مشتركة توجب التضامن والتعاون، لكان من شهامة الطبع المدني ألا يدعوا هذه البطولة العجيبة التي أدهشت العالم في مغربي الأرض ومشرقيها تيأس من النصير فتستكين للظلم وتستنيم للمذلة!

فما أحرى الذين فرطوا في جنب فنلندة بالأمس أن يتداركوا عواقب تفريطهم اليوم! لقد تثاقلوا عن إسعافها حتى اندك القائم وأقفر الآهل وأجدب الخصيب، فأصبح أربعمائة ألف من أهلها لا يجدون مورداً ولا مأوى. إنهم ساعدوا العدو سلباً على التدمير، فليساعدوها إيجاباً على التعمير. ومن لم ينهض ليقيك الطعنة النفاحة، فلا أقل من أن يساعدك عليها بالضماد والمرهم

هذا أوان الثمر المرجو من عطف الديمقراطية في أوربا وأمريكا على فنلندة البائسة. ولن يخالجنا الشك في أن دعاة الحرية وحماة المدنية سيذكرون اليوم أن فنلندة أصيبت بنقص شديد في الأنفس والأموال والثمرات، ففقدت من شبابها البر العامل خمسين ألفاً بين قتلى وعجزة، وخسرت من ثراها الغالي المثمر ثلاثين ألف كيلو متراً من أزكى الأرض تربة وأوفرها ثروة. وسيذكرون غداً متى جلسوا للصلح على أنقاض البلشفية والنازية أن صلح فنلندة قد انعقد على دخن، وجرحها قد اندمل على بغي، وسيرون يومئذ أن هذا الجرح لا يزال تحت جُلبته الخادعة يجيش ويقيح ويضرب. فهي حرية أن تعد محاربة معهم بالقوة، وإن لم تستطع مباشرة هذه الحرب بالفعل إن في أخطاء الناس وأرزاء القدر عبراً لا تنقضي الإفادة منها. فاستشهاد بولندة واستخذاء

فنلندة نذيران للأمم الصغيرة بخطر التواكل والتخاذل والعزلة. وقد قلنا مرة في هذا المكان إن سياسة الاتحاد هي وحدها الأمان من سياسة السمك. فإذا أرادت الدويلات المجاورة التي حكمت عليها الطبيعة بالضعف لقلتها أو جهالتها أن تحفظ على نفسها الحياة وتضمن لشعوبها الحرية، فليس لها غير سبيل الولايات المتحدة الأمريكية؛ فإن في الاتحاد القائم على صلاة الدم والروح والجوار الخيرَ المتصل للعالم، والضمان الدائم للسلام!

احمد حسن الزيات

في أرجاء سيناء

للدكتور عبد الوهاب عزام

- 2 -

من أبي زنيمة إلى الدير

خرجنا من أبي زنيمة والساعة ثمان من صباح الثلاثاء ثالث عشر ذي الحجة، فسرنا على الساحل بين البحر عن يميننا والجبل عن يسارنا صوب الجنوب زهاء أربعين دقيقة، ثم ملنا ذات اليسار تلقاء الشرقية في سهل واسع كثير الحجارة والتلال قد استبانت فيه الطريق واستقامت، فأسرعنا عشر دقائق حتى بلغنا وادياً تشرف على جانبيه جبال رملية مصفرّة ثم جبال حمراء شاهقة، أدّى بنا إلى صخور عظام عليها نقوش بخط سرياني، فنزلنا عندها قليلاً والساعة عشر، ثم ركبنا فمررنا بعد ساعة بواحة ناظرة جميلة وجبال رائعة شاهقة محمرّة لا مختلطة الألوان. وجبال سيناء كثيرة الأشكال والألوان، قد ألحّت عليها الشمس والرياح والأمطار على مرّ العصور تحطيماً وتشكيلاً وتلويناً، فما يزال الرائي في عجب من اختلاف مرائيها وكثرة أشكالها. وقد وجدت فيها تفسيراً بيّناً للآية:

(ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها، ومن الجبال جُدَدٌ بيض وحمرٌ مختلفٌ ألوانُها وغرابيب سود، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك. إنما يخشى اللهَ من عباده العلماء).

وبعد نصف ساعة من الراحة الأولى رأينا أشجاراً ونخيلاً تملأ الوادي، فعرفنا أننا في وادي فاران. وبعد مسيرة خمس دقائق في هذه الخضرة بلغنا ديراً عليه سور قصير وفيه حديقة، وهو دير فاران التابع لدير سنت كترينا الكبير. نزلنا هناك لنستريح في الدير ونرى ما فيه.

دخلنا الدير فرأينا مجرى ماء بارد عذب، فعررنا أنه ينبوع الحياة في هذه الواحة الكبيرة. وصعدنا على سفح الجبال المشرفة على الدير فإذا بناء قديم من اللِبن مهدم

هو بقية كنيسة. ورأينا على عدوة الوادي الثانية وفي بسطته أنقاض أبنية وآجر وحجارة منثورة قيل إنها آثار مدينة فاران، وصوامع كانت لتعبد الرهبان فيه.

وهي على 12 كيلاً شمالي الطور وعلى 130 كيلاً إلى الجنوب والغرب من قلعة النخل.

وهي مذكورة في التوراة في أخبار إبراهيم وموسى. ففي سفر التكوين أن إسماعيل سكن برية فاران وأخذت له أمه زوجة من مصر. وفي التثنية: (هذه هي البركة التي بارك فيها موسى رجل الله بني إسرائيل قبل موته فقال: جاء الرب من سينا، وأشرق لهم من سعير، وتلألأ من جبل فاران. . .).

وعلى مقربة من الوادي جبل شاهق جداً يفرع الجبال كلها يسمى جبل سربال، ويقال إنه جبل المناجاة الذي تجلى فيه الله سبحانه لموسى عليه السلام.

وبعد أن طعمنا خرجنا من الدير والساعة واحدة بعد الظهر فسرنا بين أشجار ونخيل متكاثف خمساً وعشرين دقيقة بالسيارات. ورأينا على عدوة الوادي اليسرى أنقاباً في الجبل، يقال إنها قبور قديمة كان أهل فاران يدفنون موتاهم فيها.

والنخيل في هذا الوادي متروك بطبيعته لا يؤبر ولا يقلع فسيله فترى نخلات كثيرة من أصل واحد، وترى جريد النخلة أو كربه يابساً حول جذعها طبقات بعضها فوق بعض لا يقطع ولكن يجف فيسقط أو يبقى معلقاً في الجذع.

وقد سألت رجلين هناك: لماذا لا تقطمون الجريد؟

قالا: لنصعد عليه.

قلت: إن النخل لا يثمر كثيراً إذا لم يقطع جريده كل عام.

هل تعرفون ما يفعل أهل مصر بالنخيل؟

قالا: نعم.

قلت: فلماذا لا تفعلون فعلهم فيكثر ثمر نخيلكم؟

فسكتا.

وبعد خمسين دقيقة من فاران، رأينا أشجاراً كثيرة من الطرفاء، ثم سرنا في أرض جرداء إلى أن مررنا بجبلين متقاربين مشرفين على الطريق، بينهما ممر ضيق يسمى (بويب فاران)؛ ثم عطفنا إلى اليمين إلى واد يسمى (واد الشيخ)، أو وادي النبي صالح، وسأذكره فيما بعد.

وجئنا إلى أرض مرملة ساخت فيها بعض السيارات وتقدمت السيارات التي تجنبت هذه الورطة، فوقفنا عند تل عليه مقابر وقباب من الطين فيها بعض القبور، وكنيسة وقبر يقال إنه قبر هارون عليه السلام، وينشعب الوادي وراء هذا التل إلى اليسار، فيرى السائر جبالاً شاهقة جداً، بينها واد ضيق ينتهي إلى بناء كبير أبيض يلوح من وراء الشجر ويتضاءل على ارتفاعه بجانب الجبال الشاهقة المشرفة عليه، وهذا الدير (دير سنت كترينا).

وقبل أن أصفه، أنقل ما ذكره صاحب مسالك الأبصار نقلاً عن الشابشي:

وهذا الطور هو طور سيناء الذي صعِق عليه موسى عليه السلام. والكنيسة في أعلى الجبل، مبنية بحجر أسود، عرض حصنه سبعة أذرع، وله ثلاثة أبواب من الحديد، وفي غربيّه باب لطيف، وقدامه حجر لقيم، إذا أرادوا رفعه رفعوه، وإذا قصدهم متغلّب أرسلوه، فانطبق، فلا يعرف أحد مكان الباب. وداخلها عين ماء، وخارجها عين أخرى.

قال:

زعم النصارى أن بها من أنواع النار الجديدة التي كانت ببيت المقدس، يوقدون منها (في كل عشية السراج، وهي بيضاء ضعيفة الحر، لا تحرق. ثم تقوى إذا هم أرادوا أن يوقدوا منها).

وهو عامر بالرهبان. فلا يخلو من أحد من أهل البطالات للتفرُّج فيه والتبرك - على رأيهم - به.

وهو من الديارات الموصوفة والأماكن المقصودة. وممن وصفه ابن عاصم. قال فيه:

يا راهبَ الديَّر، ماذا الضوءُ والنورُ ... فقد أضاء بما في دَيْرك الطور؟

هل حلَّتِ الشمسُ فيه دونَ أبرُجها ... أو غُيّب البدر ' فيه فهو مستور؟

فقال: ما حلَّه شمسٌ ولا قمرٌ، ... لكن يُقَرِّب فيه اليومَ قَوْرير!

عبد الوهاب عزام

الحرب ومستقبل الإنسان

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

كما قرأت أن الحكومة تجرب أسباب الوقاية المدنية من الغارات الجوية، أو رأيت خندقاً محفوراً وعلى جانبيه أكياس الرمل، أو سمعت صفارة تنطلق بالإنذار والدعوة إلى الاختباء وإطفاء الأنوار، أراني أتساءل: (أترى سيعود الإنسان إلى حياة الكهوف والغيران؟) ولست أعني الكهوف بالمعنى الحرفي، وإنما أعني الحياة في جوف الأرض. وماذا يكون مصير الإنسان يا ترى إذا دفعه الترقي في القدرة على التخريب إلى باطن الأرض؟!

وتذكرت هـ. ج. ولز وكتابه (آلة الزمان) وهي آلة يتصور الكاتب أن صانعها يذهب بها مطوفاً في الزمن (في الماضي أو المستقبل كما يشاء) كما نذهب الآن شرقاً أو غرباً وشمالاً أو جنوباً - ويقول ولز إن رحالته بعد أن قطع مرحلة كافية من الزمن الآتي، ألفى الإنسان قد صار إنسانيين - واحداً يعيش في جوف الأرض وواحداً بقي فوقها. فأما الذي دخل فيها، وألف الحياة في السراديب والظلام، فقد ارتد إلى الحيوانية في مظهره وطباعه وعاداته، فهو يمشي على أربع، وبدنه يكسوه الشعر، وعينه واسعة ترى في الظلام ويُعشيها النور، وتفزعها النار. ولهذا الإنسان السفلي صناعاته وآلاتها، وهو يستدرج إلى سراديبه أبناء العالم العلوي ويفتك بهم، ويأكل لحمهم. وأما الذي بقي فوق ظهرها فهذا من سلالة المترفين الأغنياء، وقد انحط وضعف وتشابه ذكوره وإناثه، في اللين وصغر الجسم، وفَقَدَ القدرة على العمل والاحتيال والسعي، وصار معوله في حياته على العالم السفلي، وخوفه منه، لفرط ما انتابه من الانحطاط والطراوة.

ويقول ولز إن بداية هذا الانقسام ظهرت في زماننا، وإن الإنسان شرع ينحدر إلى باطن الأرض. فبُنانا ومصانعنا لها طبقات تحت الأرض، وفي عواصمنا تجري القطر في سراديب إلى آخر ذلك.

وقد كنت وأنا أقرأ كتاب ولز هذا قبل حوالي عشرين عاماً، ثم وأنا أنقله إلى العربية منذ عامين أو نحو ذلك، أقول لنفسي إن ولز مبالغ، وإن الدخول في جوف الأرض لا يستدعي أن يصبح الإنسان إنسانيين متميزين على نحو ما يصف، وإن الناس يختلفون ويتفاوتون ولكن تفاوتهم لن يبلغ من أمره أن يصير بهم إلى مثل هذا المصير المرعب الذي يصوره ولز كأنه يراه.

ثم جاءت هذه الحرب، وعرفنا ما صنعت الطيارات الألمانية في بولندا، وما فعلت الطيارات الروسية بالمدن الفنلندية، وشهدنا صوراً من آثار التخريب فيما تعرضه دور السينما، وكنا قبل ذلك رأينا مناظر تخريب الطيارات اليابانية في الصين، ولكن الحرب اليابانية الصينية كانت لبعدها تبدو لي كأنها تدور في غير كوكبنا، ولم أكن أتصور أن تدور الحرب على هذا النحو في عالمنا القريب. ثم أخلفت الحوادث هذا الظن السخيف وغرقت عواصم الأمم المتحاربة وبلدانها الكبيرة في ظلام دامس، وقامت حكومتنا تتخذ الأهبة لدفع الأذى عن المدن وأهلها، إذا امتدت الحرب إلينا فأطفأت الأنوار إلا أقلها، وحفرت الخنادق، وبنت المخابئ، وأطلقت الأنوار الكاشفة في الليل، ونصبت المدافع فألفيت نفسي أتساءل: أتراني لا أزال أعد ولز مبالغاً في التخيل ومشتطاً في التصور؟

ماذا تصنع الأمم بعد هذه الحرب؟ أتظل ترفع البنى وتعليها فوق الأرض وتقيم المصانع على ظهرها؟ لا أظن؟ إلا إذا اهتدت إلى مادة لا تنال منها القنابل الهادمة والمحرقة، وعسير بلوغ هاتيك جداً - كما يقول الشاعر. وهبها فعلت واهتدت، فإن العلم الذي يوفقها إلى ذلك خليق أن يدلها على ما يهدمه، فإن البلاء والداء العياء أن كل ما يثمره العلم، يسخر لأغراض الحرب كما يسخر لأغراض السلم، فلا سبيل إلى السلامة إلا بالفرار إلى باطن الأرض، وحريي بذلك أن يكون له أثره في هندسة البناء، أو بعبارة أدق في شيوع طراز جديد، فقد ظهرت في البلاد المحاربة مبان ذات طبقات ممتدة في جوف الأرض يلجأ إليها الناس ويحتمون بها من الغارات الجوية

وفي هذا المعنى يقول الجنرال بوشيري في فصل له نشرته مجلة ونقلته عنها صحف بريطانية (إن الحرب الحديثة تعرض سكان البلاد كلها لأخطار القتال، وتفرض على الأمم أن تتخذ الأهبة الكافية للدفاع السلبي، وهذا يستوجب أن تجري الأعمال الحيوية كلها - من مدنية وعسكرية - في جوف الأرض، ومن الجلي أن المساكن الجديدة يجب أن تكون لها طبقات سفلية أو متصلة بمبان سفلية مجاورة لها تصلح أن تكون بديلاً من المساكن العلوية، إذا اقتضت الحاجة الالتجاء إليها)

ونحن أبناء هذا العصر، نستغرب أن تنتقل حياتنا من فوق ظهر الأرض إلى قلبها، فإن ظهر الأرض مقرون في أذهاننا بالحياة، أما باطنها فمقرون بالموت والدفن، ولكن أحفادنا لن يستغربوا هذا التحول، أو ينكروه، لأنهم سيألفونه من الصغر. ويا ليت من يدري هل تندس المدارس والمستشفيات، كما تندس المصانع في جوف الأرض؟ وإلى أي عمق يا ترى يضطر الإنسان أن يحفر وينقب، ويسوّي ويوسع؟

وعلى الأيام - بل الحقب الطويلة والأدهار المديدة - يألف الإنسان باطن الأرض، وتطول حياته فيه، ويقل خروجه إلى نور الشمس، وتكر آلاف السنين ومئات الآلاف، والناس أكثرهم يعملون تحت الأرض ولا يكادون يبرزون إلا في الندرة القليلة والفلتة المفردة. فيكتسب الإنسان خصائص الحيوان الذي يأوى إلى الجحور، ويصدق ما تنبأ به هـ. ج. ولز في كتابه (آلة الزمان)!

وكيف تكون الحروب يا ترى في ذلك المستقبل البعيد، إذا بقيت الحروب تدور بين جماعات الإنسان؟ أحسب أن اندساس الإنسان في جوف الأرض سيكون بداية انحطاطه، فما أغرب أن يكون رقيه العلمي مفضياً إلى انحداره وهويّه؟ وتلك جناية استخدام العلم في الحرب، فإذا بقيت الحروب فهذا مآل الإنسان، ولا نجاة له من هذا المصير إلا بالقضاء على الحرب، فيما أرى، أي بإعفائه من بواعث الاحتماء بجوف الأرض والسكون إلى الحياة فيه.

مآل الإنسان مرتهن بالسلام الدائم، لا الطويل فحسب، على الرغم مما يقال من أن طول عهد السلام يفضي إلى اللين والتطري والرخاوة؛ وكفى بالكفاح في سبيل العيش واقياً من هذا التطري، وعلى أن التطرّي خير آلف مرة من الارتداد إلى الحيوانية. ولأن يكون المرء طرياً ليناً، آثر عندي من أن يكون أرنباً!! واللين عيب أو ضعف في دنيا تقوم فيها الحياة على العنف، ويكثر فيها الفتك والبطش، ويحتاج الإنسان فيها من أجل ذلك إلى القوة والخشونة. أما في دنيا تنعم بالسلام ولا يزعجها خوف من الفتك وتوقعه، فما ضير أن يلين الإنسان ويطرى، إذا بقيت له قوة العقل؟

إبراهيم عبد القادر المازني

إنما يزدهر الأدب في عصور الفوضى الاجتماعية

للدكتور زكي مبارك

(بقية ما نشر في العدد الماضي)

أيها السادة:

يقال في كل يوم إن جو مصر معروف بالاعتدال، فما الذي جنينا في ذلك الاعتدال؟ كانت النتيجة أن نخاف من الاضطراب في بقاع الأرض. وكانت النتيجة أن نشعر بالغربة حين ننتقل حُلوان إلى قَليوب. وكانت النتيجة أن تخمُد العواطف بفضل ما نحن عليه من قرار وسكون.

أعترف بأن مصر استفادت من اعتدال الجو فائدة عقلية، هي التفوق العظيم في التأليف، فمصر أقدر الأمم الإسلامية والعربية على التفكير المنظم الدقيق بفضل هذا الجو المعتدل الجميل.

ولكن مصر في ماضيها تخلفت في ميدان الأدب عن الشام وفارس والعراق، لأن الفوضى الجوية، لا يحسها المصريون كما يحسها الشاميون والفرس والعراقيون؛ وإلا فأين وصف الثلوج والأمطار والأعاصير في أشعار من يعيشون في ضيافة النيل؟ ثم شاءت المقادير أن تتفوق في الأدب بعد تخلّف، فما مصدر ذلك التفوق؟ لم نعرف قسوة الطبيعة كما يعرفها الناس في الشام وفارس والعراق، وإنما رمتنا المقادير بقسوة أعنف من قسوة الطبيعة، هي الثورة الجائحة التي نحس أعاصيرها الفواتك في الأذهان والعقول والقلوب

نحن كلَّ يوم على شفا الهاوية: إن اصطرع الشرق جزعنا، وإن أضطرم الغرب نظرنا.

ألم تسمعوا أنه كان معروفاً عندنا أن الميدان الأول في الحرب الحاضرة سيكون حول ضفاف النيل؟
ومن هذه المحرجات التي تتجدد كل يوم، إن لم أقل في كل ساعة أو كل لحظة، من هذه المحرجات خُلقت لنا مكاره سياسية تفوق المكاره الجوية في الشام وفارس والعراق
وما هي نقطة الارتحال من وضع إلى وضع في الأدب الحديث؟
لن أرجع إلى ما فصلته في مؤلفاتي ومقالاتي، ويكفي أن أنص على أن الأدب في مصر لم يرتق إلا بفضل الفوضى السياسية، وهي صورة من الفوضى الاجتماعية.
النهضة الحقيقية للأدب الحديث ترجع إلى عهد مشئوم، هو النزاع بين الرجلين العظيمين: عدلي يكن وسعد زغلول. ففي ذلك العهد صارت الكتابة والخطابة عنصرين أساسيين في تكوين الأدب المصري الحديث. وبفضل النزاع بين عدلي وسعد خُلقت جرائد ومجلات وأندية صار لها في نهضة الأدب مكان ملحوظ. وبفضله استطعنا أن نذيع في الشرق فنّاً جديداً، هو الأدب السياسي، وهو فنٌّ كان انقرض بانقراض النضال بين أشياع بني أمية واتباع بني العباس. وإليكم هذه النكتة:
كان شاع أني أخاصم الأستاذ الدكتور طه حسين، فكتبت في الهجوم عليه مقالات كان لها وقعٌ حسنٌ أو سيئ عند قراء اللغة العربية، واطلع الأستاذ محمود بسيوني على بعض تلك المقالات فانزعج أشد الانزعاج وسعى للصلح بيني وبين الدكتور طه في حفل مشهود حضرهُ العمداء وكبار الأساتذة بكليات الجامعة المصرية، فهل تعرفون نتيجة ذلك الصلح المشئوم أو الميمون؟
تلقَّت الناس متوجعين لضياع فرصة ثمينة هي فرصة الجدل حول المذاهب الأدبية، فهل فيكم من يتفضل بالسعاية بيني وبين الدكتور طه حسين لأرجع إلى مصاولته من جديد؟
كان بيني وبين الدكتور طه ودٌّ وثيق، ولكن رعاية ذلك الود لم تنفع الأدب بشيء، لأن كل ما يصدر عنه كان يقع من نفسي موقع مقبول، فلما ثار عليّ وغضبت عليه أتيت في مصاولته بالأعاجيب، فمن ذلك الذي يتفضل فيفسد ما بيني وبينه لأجد الوقود لسنان قلمي؟ أليس فيكم دساس ظريف ينقل إليه أنني اغتبته من فوق منبر كلية الآداب؟
اتقوا الله وأفسدوا بيني وبينه وبين سائر الأساتذة لتسمعوا صرير القلم الذي تعرفون!
وهل فيكم من ينكر أن مجموعة نهج البلاغة من أعظم الذخائر الأدبية؟ فهل كان يمكن أن يظفر الأدب بتلك المجموعة النفسية لو أعتدل الميزان فصار عليّ ابن أبي طالب أول خليفة أو ثاني خليفة بعد الرسول؟
إن غيض ابن أبي طالب على أهله وزمانه هو الذي أرَّث في صدره نيران الحقد على الدنيا والناس فزفر بتلك الخطب الروائع غالبت الدهر وصابرت الزمان
وما هي الظروف التي خلقت مواهب الشيخ محمد عبده؟
هي ظروف الفوضى الاجتماعية في انتقال الأزهر من حال إلى أحوال، يوم كان تدريس العلوم الحديثة موضع خلاف، ويوم كان القول بكروية الأرض يلقى ألف اعتراض
والشيخ المراغي من أكابر هذا الزمن، ولكنه سيذهب بعد عمر طويل بلا تاريخ طويل، لأن بيئة الأزهر قد صلحت واستنارت فلم تعد تحتاج إلى مصلح يتشرف بعدوان الاضطهاد
فإن أراد الأزهريون أن يكون لشيخهم تاريخ طويل فليتكلفوا الغفلة عن مطالب العصر الحديث ليجد شيخهم فرصة الدعوة إلى اعتناق مذاهب التفكير في الجيل الجديد
أرجوكم للمرة الثانية أو الثالثة أن تذكروا أني لست من أنصار الفوضى الاجتماعية، وإنما أنا مؤرخ لظاهرة من الظواهر الأدبية والفلسفية، والمؤرخ غير مسؤول عن حوادث التاريخ
وكم تمنيت السلامة من مكارة الفوضى التي تثور في صدري والتي قضت بأن يكون ميدان قتال بين الملائكة والشياطين
في صدري أتُّون يأخذ وَقوده من الأحلام والأوهام والحقائق والأباطيل، ثم يقول في كل

لحظة: هل من مزيد؟
وهذا الأتون يفرض عليَّ أحياناً أن أُلقم فم الشره الأكول بأكداس من الآراء تُشْبه الحطب المعطوب ليسكت عني لحظة أو لحظتين، كما يقدم الأعرابي لناره الموقدة أكداساً من العظام والتراب! ويشهد الله أني أكره أشد الكره بعض ما يصدر عن قلمي، ولكن ماذا أصنع وفي صدري نار تأكل الحجر والطوب حتى يعييها أن تجد الوقود الصالح من جذوع الشجر والنخيل؟ ولكني أتعزى كلما ذكرت الحكمة التي تقول: (لو أنصف الناس استراح القاضي). فشيوع المظالم بين الناس هو الذي خلق الثروة التشريعية، وهو الذي قضى أن يكون في الدنيا قضاة ومفتون ومحامون. ولو سلم المجتمع من الاضطراب لأغلقت المحاكم، ولم يبق أمام الأستاذ لطفي جمعة إلا الفرار إلى الريف ليأخذ قوته مما تخرج الأرض بجهاد الفأس والمحراث، ويومئذ يُحرَم الأدب من خطبة نفسية يحاورني بها في المدرَّج الأكبر بكلية الآداب، وتحرمون تكلُّف الرفق في التصفيق له بغير حق!
لو أنصف الناس واستراح القاضي لخلت الدنيا من المؤلفات النفيسة التي صدرت عن الرومان والعرب والفرنسيين في أصول التشريع. لو أنصف الناس واستراح القاضي لخلت الدنيا من الأدب الرائع الذي صدر عن رجال الأخلاق من الذين سمعتم أخبارهم ودرستم آثارهم مع منصور فهمي ومصطفى عبد الرزاق وأحمد أمين. لو أنصف الناس لمات سقراط غير مسموم، ولم نقرأ الوثيقة الأدبية الرائعة التي جاد بها قلم أفلاطون، والتي فتنت لامرتين حين قرأها بترجمة كوزان فنظمها بقصيد رائع يفتت الجلاميد.
لو أنصف الناس لحُرِمنا نفثات ابن مسكويه في أدب الصديق. لو أنصف الناس لضاع على الأدب حظٌّ نفيس هو أشعار أبي العلاء في نقد أخلاق الحُكام والقضاة والفقهاء. لو أنصف الناس لأمِن هابيل شر قابيل فلم يصنع التمثال الرائع الذي نراه في متحف (البثي باليه) في باريس. لو أنصف الناس لحُرِم الأدب قصائد ابن الرومي في تشريح ثائرة الحقد والبغضاء. لو أنصفت الطبيعة لحرمت الإنسانية من عبقرية باستور في حرب الجراثيم. لو أنصف المجتمع لأمن بعض الرجال شر الاغتراب وهو فرصة ليقظة العقول. ولو أنصفت ليلى - عفا الحب عن ليلى - لحُرِمتم نفثات المجنون القديم والمجنون الجديد.
أنا أكره الفوضى لأنها كدرت حياتي، ولأنها جعلت صدري ميداناً لاصطراع الهدى والضلال، وع ذلك أجد العزاء حين أشاء.
فبفضل الفوضى في تقسيم الحظوظ نشأت مذاهب أدبية وفلسفية واقتصادية صنعت ما صنعت في توجيه الأذهان والعقول بالشرق والغرب. وبفضل الفوضى في توزيع الممالك كانت الحروب التي صاغت عزائم الأبطال. وبفضل الفوضى في تكوين مدرس اللغة العربية قام النزاع بين الأزهر ودار العلوم والجامعة المصرية، وهو نزاع محمود العواقب، وسيؤتي ثماره بعد حين. وبفضل الفوضى في تصور الغاية الساسية للأمم العربية والإسلامية خُلِقتْ عبقريات الكواكبي وجمال الدين ومحمد عبده ومصطفى كامل وسعد زغلول. وبفضل الفوضى في فهم الغاية الأدبية كان الصراع بين أنصار القديم وأنصار الجديد. وبفضل الفوضى في أحوال الجو كان التنويع الطريف بين الربيع والصيف والخريف والشتاء. وبفضل الفوضى في الأخلاق والعقائد كان الجمال المرموق في تزيين الوجود بالحرب بين الفجور والعفاف والكفر والإيمان. وبفضل الفوضى في تحديد الآراء كانت المناظرات التي تنظمها المعاهد والأندية والجمعيات. وبفضل الفوضى في فهم الغاية
الصحيحة لمصاير الإنسانية كان النزاع بين الديانات، وكان الصراع بين المذاهب المختلفة في الدين الواحد، وتلك فتنٌ جوامح نشأت عنها آداب وفنون لا ينكرها إلا غافل أو جهول.
لما تلطفت وزارة المعارف العراقية فدعتني لتدريس الأدب العربي بدار المعلمين العالية في بغداد، سألت عن مبلغ بغداد من الحضارة فقيل لي إنها تشبه طنطا، فجزعت أشد الجزع، لأن طنطا يقلّ فيها الصراع بين المذاهب والآراء، وإن كانت عامرة بالقصور والمتنزهات، وهي البلد الوحيد الذي لا أبيت فيه حين أمضي إليه لمهمة رسمية ودخلت بغداد فرأيتها أقل من طنطا في الحضارة والعمران، ولو شئت لقلت إن أصغر شارع في طنطا أجمل من أكبر شارع في بغداد. . . وكذلك أحسست

قسوة الوحشة حين دخلت عاصمة العراق، ولولا الخوف من غضب (العقيدة الأدبية) لرجعت في السيارة التي أقلتني إلى هناك
وبعد يومين اثنين رأيت أن بغداد البدوية غير طنطا الحضرية في طنطا شوارع عريضة وقصور شوامخ، ولكن سكانها لا يعرفون الصراع الجميل بين المذاهب والآراء، لأنها مدينة مصرية صميمة يقل فيها الأجانب، ويكثر فيها ائتلاف الأذواق، وهو باب من السكون والخمود
أما بغداد الجافية التي لا تعرف الحضارة في غير شارع واحد فهي مضطرب عريض لاختلاف المذاهب والمشارب والأذواق، فيها عصبيات عربية وفارسية وهندية وكرديه ويهودية، وفيها جاليات فرنسية وإنجليزية وأمريكية، وفيها على جفوتها بقايا من الحضارات المختلفة، وفيها ألف مجال ومجال لاضطرام الأذواق والأحاسيس
وكذلك ألقيت نفسي في ضرام بغداد فكتبت في نحو تسعة أشهر ألوفاً من الصفحات نشرتُ منها ما نشرت وطويت ما طويت
في طنطا الحضرية يعيش شعبٌ واحد، وفي بغداد البدوية تعيش شعوب، ومن الاختلاف والائتلاف يحيا الأدب الرفيع
ليس في بغداد كلها قصر يشبه أصغر قصر من قصور حاضرة (الغربية) ولكن بغداد فيها جرائد ومجلات وأندية لا تعرفها حاضرة (الغربية) لأن الهدوء في طنطا عجز عما قدر عليه القلق في بغداد. وكذلك فهمت أن الأدب يزدهر في عصور الفوضى الاجتماعية وفي
أقطار الفوضى الاجتماعية، بدليل ازدهاره في القاهرة وبغداد وباريس ولندن وبرلين، على شرط أن تقع الفوضى في قوم أصحّاء، لا يُقلقهم الاضطراب، وإنما يزيدهم قوةً إلى قوة ومضاءً إلى مضاء. وما رأيكم في الشواطئ المصرية؟ ألم تسمعوا أن رجال الدين اتفقت كلمتهم على أنها من الأرجاس؟ ألم تروا حيرة شيخ الأزهر في تخليص سمعة مصر من مآثم تلك الشواطئ؟
لا جدال أن شواطئنا في الصيف تمثّل الفوضى الاجتماعية أعنف تمثيل، فهي مضطرَبٌ طويل عريض تثور حوله الآراء في الإسكندرية وبور سعيد ودمياط، ويمتدّ شرُّه حتى يصل إلى بحيرة التمساح، ثم تنتقل عدواه إلى حمامات مصر الجديدة والمعادي وحلوان
ينظر الرجل المؤمن إلى هذه الشواطئ نظرة مخطوفة، ثم يهتف: اللهم أن هذا منكَرٌ لا يرضيك! وأقول وأنا صادق أني أنظر إلى شواطئنا أحياناً بعين الغضب والمقت؛ ولكن هذه الشواطئ المُجرمة خلقت فنًّا جديداً في اللغة العربية هو (أدب الشواطئ)، وقد ألفتُ فيه كتاباً سأنشره يوم أطمئن إلى أن الجمهور يفهم أن المؤرخ غير مسئول عن حوادث التاريخ.
ويوم يُنشر هذا الكتاب ستعرفون أن مصر دانت الأدب العربي بثروة طريفة من تشريح العواطف والأهواء، وسترون الغرائب حين تعرفون أن تلك الشواطئ أنطقت رجال الدين أنفسهم بأقوال هي من عيون الأدب الرفيع
كان الأستاذ الأكبر قد اتفق مع سعادة حامد باشا الشواربي على تخصيص جزء من شاطئ الإسكندرية للنساء بلغة العصر القديم، أو السيدات بلغة العصر الحديث، وتسامع رجال الأزهر بذلك فأمطروا شيخهم الكبير وابلاً من برقيات الثناء ثم ماذا؟ ثم أَعِدَّ الشاطئ النسوي إعداداً محتشماً وأزيلت منه القهوات المخضرَمة التي تجمع من الأشربة ما نعرف وما نجهل ثم ماذا؟ ثم ماذا؟
ثم شاع أنه حمام خاصٌّ بالعجائز فلم تقبل عليه ستٌّ ولا ستُّوته ولا بنتٌ ولا بنّوتة، ورفعت أسواره بعد يومين اثنين؟
لا تظنوني خلقتُ هذه النكتة، فما هي إلاّ واقعةٌ وقعت، ولها حواش وذيول ستعلمون أنباءها بعد حين
حياة الشواطئ إفك وسفاهة وضلال، ولكن الأدب يستفيد من كل شئ، لأن مهمة الأدب هي الوصف والشرح والتعليل، وحياة الشواطئ تمدّه بوقود رائع جزيل
الشواطئ كلها مآثم، ولولا الخوف من بغي الحاسدين والحاقدين لقلت إن المآثم لا تخلو من بريق يزلزل القلوب والأذواق والعقول، ومن هذه الزلزلة تكون الرجفة التي تثير شياطين الشعر والخيال. والشواطئ المصرية لها سوابق في تاريخ الأدب العربي.

وقد وقعت تلك السوابق فوق أرض مقدسة تعطر ثراها بأقدام الرسول. هل تعرفون ما أعني ومن أعني؟ عندكم عمر بن أبي ربيعة وعندكم الشريف الرضي، وهما شاعران جعلا مواسم الحج معالم صبابة ومدارج فتون

عمر بن أبي ربيعة فاجر بحسب الاصطلاح، وهيامه بزائرات مكة هيام أثيم، ولكن أشعار ذلك الفاجر صارت من ذخائر الأدب العربي. وقد شرَّقت وغرّبت حتى قهرت بعض الجامعات الأوربية على إفراد أشعاره بدرس خاص

كان يقال: ما عُصِيَ الله بشعر أكثر مم عُصِي بشعر عمر بن أبي ربيعة

وهذا حق؟ فهل تضمنون أن يرفع اسمه من مطبوعات وزارة المعارف؟ وكيف وهو من الذين ستحفظ أقدارهم في كتاب (أعلام الإسلام) بدراسة يقدمها الأستاذ عباس العقاد؟

وتسمعون في كل يوم أن مصر تحارب الخمر لأنها في طليعة الأمم الإسلامية، ولكن رجال الأدب في مصر لن يستطيعوا غض النظر عن (خمريات أبي نواس) لأن الأدب وإن فَجَر في بعض نواحيه له سلطانٌ قهار لا ينكر جبروته غير الأغبياء!

أنا أبغض الفوضى أشد البغض، وأرجو الله في كل وقت أن يحفظ عليَّ نعمة السلامة من مكايد الشياطين، ولكني أؤرخ الأدب، والمؤرخ لا يصدُق إلا إن تناسى منافعه الذاتية، ونظر في الحوادث بلا غرض، والنزاهة عن الغرض هي التي تقفني هذا الموقف الشائك فأسجل على نفسي القول بأن الأدب لا يزدهر إلا في عصور الفوضى الاجتماعية، وهو قول يعرّضني لقوارص الاغتياب والتجريح

ولكن ماذا أصنع وأنتم دعوتموني لمواجهة المنطق والعقل فوق منبر كلية الآداب بين شباب وكهول لا يلقاهم الرجل الحازم بغير الصراحة والصدق؟

أحب أن أعرف كيف يطيش السهم الذي صوبته إلى صدر الباطل بهذه الكلمات التي شقيت

في تحريرها ليلتين طويلتين؟ أحب أن أعرف كيف يضيع الرجل الصادق في هذه البلاد؟ أحب أن أعرف كيف ينال خصمي أصواتكم بعد هذه البينات، وعلى ضوء هذه الكهرباء؟ له أن يصول ويجول كيف يشاء، ولكم أن تحكموا له أو عليه كيف شئتم، فما أملك من القدرة غير صرير القلم وهدير الوجدان. ولكن، ما الذي يستطيع أن يقول؟

أيقول: إن النظام أفضل من الاضطراب، وإن الأدب الذي يصدُر عن الحالة الأولى أفضل من الأدب الذي يصدر عن الحالة الثانية؟

آمنت وصدقّت! ولكن هل يستطيع القول بأن النظام صدر عنه أدب رفيع؟ وما حاجة الناس إلى الأدب حين يعيشون في نظام وأمان؟ وهل للآمنين أدب وهم يعيشون في غيبوبة بفضل الراحة والاطمئنان؟

الأدب حظُّنا، جماعةَ المكتوين بالدنيا والناس، وليس لسوانا غير الأحلام، أحلام الناعمين بهدآت الليل!

عنّا يصدُر قلق الفِكر وانزعاج البال، وهما مصدر يقظة الرأي والعقل. فما بال قوم يتوهمون أنهم قادرون على مساورة الشعر والخيال وهم يشاركون الأموات في الهدوء والاطمئنان؟ عنا يصدر الإحساس بالدنيا والوجود، لأننا أشقياء بالدنيا والوجود، فما بال قوم يتوهمون القدرة على اقتحام جحيم الأدب وهم بفضل نعيم النظام سعداء؟ عنا يصدر الأدب الصحيح لأننا أصحّاء، وهل يحس وخز الألم غير من يملك عناصر العافية؟

من أنتم، في عالم الفكر والعقل، أيها الوادعون في ظل الأمن المكفول برعاية القوانين؟ أنتم أشبه بالأطفال الذين يعيشون في ظلال ما ورثوا عن الآباء والأجداد، ولن تحسوا من الدنيا أكثر مما يحس هؤلاء، أما نحن فقد كتب علينا أن نعيش بحس مرهف وذوق مشبوب، بفضل البلاء بالدنيا والناس، والفرق بيننا وبينكم أبعد مما تظنون، فجرِّبوا الاطمئنان إلى الوهم الخادع إن صح للمريض بالهيام أن ينخدع بالسراب!

النظام قرار، والاضطراب حركة، والحركة أدلّ على الحياة من السكون، جعلني الله وإياكم من الأحياء!

زكي مبارك

أفانين

أثر الإيحاء في جلب التفاؤل

للأستاذ علي الجندي
- 2 -
أوردنا في مقال سابق أمثلة للإيحاء الذاتي، كان سبباً في ردْء التشاؤم عن أصحابها، وجلب التفاؤل إليهم
وسبيلنا في هذا المقال أن نسوق شواهد طريفة للإيحاء الخارجي، أي إيحاء الإنسان إلى غيره
وطرافة هذه الشواهد أن جلها بل كلها وقعت عفو البديهية ومسارقة الخاطر! ولولا ذلك ما كان لها هذا الأثر الذي يشبه فعل السحر! لأن مجيء الإيحاء في وقته أشبه بمعالجة المرض إبان طروئه. هذا إلى إن ذلك يطبعه بطابع الإلهام العلوي والنفحات اللّدنية! ويجعل له وقع البُشرَيات التي تنفرج عنها سجوف الغيوب في الحين بعد الحين!
وطبيعي أن هؤلاء السحرة أو الرُّقاة - على الأصح - الذين استطاعوا أن يتلعّبوا بالنفوس، فأروْها النحوس سعوداً، والسواد بياضاً! واستنقذوها من القلق والشك والارتماض، لم يكونوا إلا جماعة من أهل اللسن والبيان! ومن أقدر من أهل اللسَن والبيان على قلب الحقائق والتصرف في أهواء النفوس؟ وإن من البيان لسحراً!
بل الحق أن البلاغة وحدها لا تغني غناءها في هذا المواقف المتضايقة، ما لم تسعدها شدة العارضة ودقة الفطنة وحسن التأني وبراعة الاحتجاج وقوة التعليل
وسنذكر هذه الشواهد فيما يلي مرتبة بحسب الزمن قدر الاستطاعة:
1 - بنى عبد الملك بن مروان باباً من أبواب المسجد الأقصى ببيت المقدس، وبنى الحجاج باباً إلى جانبه، فنزلت صاعقة فأحرقت باب عبد الملك، فتطيّر بذلك وشق عليه! فبلغ ذلك الحجاج فكتب إليه: بلغني كذا وكذا، فليهن أمير المؤمنين أن الله تقبَّل منه! وما مثلي ومثله إلا كابنيْ آدم إذ قرَّبا قرباناً، فتُقُبِّل من أحدهما ولم يتقبَّل من الآخر
فلما وقف عبد الملك على الكتاب سُرِّي عنه وأستبشر
قال صاحب المثل السائر: وهذا معنى غريب استخرجه الحجاج من القرآن الكريم، ويكفي الحجاج فطانة الفكرة أن يكون عنده استعداد لاستخراج مثل ذلك
2 - خرج المنصور العباسي إلى قتال أبي يزيد الخارجي في جماعة من الأنصار. فلما واجَه الحصن سقط الرمح من يده، فأخَذه بعضهم فمسحه وقال:
فألقت عصاها وأستقرّ بها النوى ... كما قرّ عيناً بالإياب المسافر
فضحك المنصور وقال: لم لا قلت: فألقى موسى عصاه؟
فقال الرجل: يا أمير المؤمنين، العبد تكلم بما عنده إشارات المتأدبين، وتكلم أمير المؤمنين بما أنزل الله على النبي من كلام رب العالمين
فكان الأمر على ما ذكر، فأخِذ الحصن وتم الظفر للمنصور
3 - قلّد المأمون خالدَ بن يزيد بن مَزْيد ولايةَ الموصل، فمر خالد ببعض الدروب فأندقّ اللواء! فأغتمّ خالد بذلك وتطّير منه! فقال أبو الشّمقمق:
ما كان مُنْدَقُّ اللواء لطيرةٍ ... يُخشَى ولا سوءٍ يكون معجَّلا
لكنّ هذا العُودَ أضْعَفَ مَتْنَهُ ... صِغَرُ الولاية، فاستقلّ الموْصِلا
ففرح خالد! وكتب صاحب البريد بذلك إلى المأمون، فزاده ديار ربيعة، وأعطى خالدٌ أبا الشمقمق عشرة آلاف درهم
4 - كان المنصور بن أبي عامر الأندلسي إذا سار لغزوة، عقد لواءه بجامع قرطبة ولم يسرْ إلى الغزوة إلا من الجامع
فاتفق أنه في بعض حركاته للغزو توجه إلى الجامع لعقد اللواء، فاجتمع عنده القضاة والعلماء وأرباب الدولة، ورفع حامل اللواء اللواءَ، فصدهم ثريّا من قناديل من قناديل المسجد فانكسرت على اللواء، وانسكب عليه زيتها! فتطير الحاضرون من ذلك، وتغير وجه المنصور!
فقام رجل وقال: أبشر يا أمير المؤمنين بغَزَاة هيّنة وغيبة سارّة! فقد بلغت أعلامك الثريّا، وسقاها الله من شجرة مباركة!
فاستحسن المنصور ذلك، وكانت هذه الغزوة من أبرك الغزوات!

5 - كان سيف الدولة بن حمدان، قد ضرب خيمة كبيرة عجيبة الصنع (بميّا فارقين) فهبت
ريح شديدة فقوضتها، فتكلم الناس في ذلك وأكثروا، فقال المتنبي:
أيقدح في الخيمة العُذَّلُ ... وتَشملَ منْ دْهرَها يشمل
وتعلو الذي زُحَلٌ فوقه ... مُحالٌ لعمرك ما تُسْأل
تضيق بشخصك أرجاؤُها ... ويركض في الواحد الجحفل
وكيف تقوم على راحةٍ ... كأن السحاب لها أنمُل
فلا تنكرنَّ لها صرعة ... فمن فرح النفس ما يقتل
ولو بلغ الناس ما بُلِّغت ... لخانتهمو حولك الأرجل
ولما أمرت بتطنيبها ... أشيع بأنك لا ترحل
فما اعتمد الله تقويضها ... ولكن أشار بما تفعل
فما العاندون وما أمَّلوا ... وما الحاسدون وما قوَّلوا
همو يطلبون فمن أدركوا؟ ... وهم يكذبون فمن يَقبلُ؟
وهم يتمنوْن ما يشتهون ... ومن دونه جدُّك المقبل
6 - كان أبو إسحاق إبراهيم عبد الله البحتري يوماً عند أبي المسك كافور الأخشيدي فدخل عليه الفضل بن عباس فقال: أدام الله أيام سيدنا الأستاذ (بخفض أيام وحقها النصب)
فتبسم كافور إلى أبي إسحاق البحتري! فقال مرتجلاً:
لاغرو إن لحن الداعي لسيدنا ... وغص من هيبة بالريق والبهر
فمثل سيدنا حالت مهابته ... بين البليغ وبين القول بالحصر
فإن يكن خفض الأيام من دهش ... من شدة الخوف لا من قلة البصر
فقد تفاءلت في هذا لسيدنا ... والفأل مأثرة عن سيد البشر
بأن أيامه خفض بلا نصب ... وأن دولته صفو بلا كدر
7 - كان لعضد الدولة أحد الرؤساء أبن خُلِعَ عليه خلعة سنية، وركب إلى منزله والناس بين يديه - فعثرت به فرسه فسقط من فوقها، ثم ركبها ثانية من ساعته فلهج الناس بالقول في الطيرة، فقال الوجيه الشاعر:
لا تعذل الفرسَ التي عثرتْ ... بك أمسِ قبل سماعك العذْر
قالت مقالاً لو علمتَ به ... لم تولها لوماً ولا هجرا:
لما رأى الأملاك أنَّ على ... سرجيَ فتىً أعلى الورى قدرْا
رفَعَتْ يدي حتى تقبَّلها ... شغفاً بها فهوت يدي الأخرى
8 - كان السلطان حسن الناصري المصري يريد أن يبني لمدرسته (مسجد السطان حسن) أربع منائر. فلما بنيت ثلاث منها سقطت المنارة التي على الباب، فهلك تحتها ثلاثمائة من الأيتام الذين كانوا يقرءون القرآن وغيرهم من الناس!
فتحدّث الناس أن هذا نذير بزوال الدولة! فقال في ذلك الشيخ بهاء الدين السبكي:
تلك الحجارة لم تنقضَّ بل هبطتْ ... من خشية لله، لا للضعف والخَلَل
وغاب سلطانها فاستوحشت فرمتْ ... بنفسها لجوىً في القلب مُشْتعِل
لا يقرب البؤسُ بعد اليوم مدرسةً ... شيدْتَ بنيانها للعلم والعمل
ودمت حتى ترى الدنيا بها امتلأتْ ... علماً، فليس بمصر غير مشتغل
ومما يتصل بهذا وإن لم يكن منه أن الناجم دخل على ابن الرومي، وهو ينظم قصيدة في مدح أبي العباس المرثدي ويهنئه بابن وُلدَ له وكان أول القصيدة:
شمسٌ وبدرٌ ولد كوكبا ... أقسمت بالله لقد أنجبا
فقال الناجم: لو تفاءلت لأبي العباس بسبعة من الولد لأن معكوس أبي العباس: أبو السابع، إذاً لجأ المعنى طريفاً! فقال ابن الرومي:
وقد تفاءلتُ له زاجراً ... كنيتَه، لا زاجراً ثعلبا
إني تأمْلتُ له كنيةً ... إذا بدا مقلوبها أعَجبا
يصوغها العَكْسُ أبا سابع ... لا كذّب اللهُ ولا خيَّبا
بل ذاك فألٌ ضامنٌ سبعةً ... مثل الصقور استشرفت مرقبا
يأتون من صُلب فتيً ماجد ... وذاك فألٌ لم يَعُدْ مُعْطبا
وقد أتى منهم له واحدٌ ... فَلْنَنتظرهم ستّة غيَّبا

في مدةٍ تغمرها نعمةٌ ... يجعلها الله لهُ تَرْتَبا
حتّى نراه جالساً بينهم ... أجلَّ من رضْوَى ومِن كبكبا
كالبدرِ وافي الأرض من نوره ... بين نجوم سبعة فاحْتَبى
وليُشكر النَّاجمُ عن هذه ... فإنها من بعض ما بَوَّبا
سَدَّي وَألحمتُ أخٌ لم أزَلْ ... أشكر ما أسْدى وما سَبَّبا

هذه الشواهد وما قبلها تدل دلالة واضحة على أن التفاؤل والتشاؤم من عمل الإنسان نفسه، وأن المصاب بمرض التطير يستطيع بقوة الإرادة، واصطناع الرجاء، والنظر إلى الحوادث بمنظار أبيض وهاج، في ظل الثقة بالله وبشاشة الإيمان، أن يبرأ منه برءاً تاماً ولله الخلق والأمر.

علي الجندي

تأملات - 1

في يوم سبت من يناير من عام منصرم تحركت عاطفة مكنونة فإذا هي تضطرم، وإذا ظرفها الطارئ يطبع أربعة عشر عاماً من حياتي بطابع خاص. كانت العاطفة في غضونها مودة فحسب، اشتدت حيناً وفترت أحياناً، وتفاوتت درجاتها بتفاوت الظروف لكنها بقيت مودة يغذيها ميل وألفة وجميل وعرفان؛ حتى كان يوم السبت، فحالت العاطفة شيئاً آخر بدأ غبطة يكتنفها ذهول واستسلام؛ ثم تنبه القلب إلى زائر جديد لا يعرف الاستئذان وأستقر بين الضلوع شئ نسيت على مر الأيام اسمه، فأحسست اليوم فعله، وكان جارفاً، أطار كل شئ من لب ونوم، وبسط على نفسي الهادئة سلطانه، فاضطربت واضطرمت، ولم تك تدين من قبل لسلطان كهذا يشبه البُحران ومضت بين السبت والسبت سبعة أيام لزمت فيها الفراش يومين، ومخدعي ثلاثة، وحرت في بقيتها بين البيت والمكتب، تارة آلم، وتارة أنغم، وطوراً تفترسني كآبة تبيت معها قوتي ضعفاً، ولا أملك أن أرفع فيها جفناً. أما طبعي الذي لم يبال في حياتي أحداً، فخانني هذه المرة، فكففت عن أن أكون ما كنت

كنت أحب الوحدة، والظلام الذي لا يقربه الخفاش، لأنه تضيئه التأملات. وكنت أوزع مودتي على غير واحد من بني البشر، وأحس الميل الجامح إلى غير واحدة من بناتهم. فلم أعرف في التوزيع غير القسطاس. وكنت أعجب أحيانا كيف أحب الناس هذا الحب العادل، وكيف أتحرر إلى هذا الحد من سلطان التحيز والتحامل، لكني هذه المرة قد اضطرب ميزاني، فإذا بي أميل إلى ناحيته كل الميل، وإذا تلك التي رجحت كفتها تستبدي من دون أن تعلم، وتستحوذني على عظم جرمي في طي إشارة لو شاءت، وهي بعد لم تشأ ولم تدِر. بل قل: إنها تدري ولكن لا تدرك. وكيف تدرك وهي تبعث، والأمر عندي جد وهي تلهو، وأنا جدٌّ حزين؟

ما بك يا فتاتي! الشباب الذي ترفلين في غفلته، وتخطرين في روعته، وتمر فيه نظراتك واهنة، فتصمي مع هذا إصماء السهم؛ ثم لا شي في ذهنك غير الفراغ، وكل شي يضطرب به ذهني، ويدمي، ويتألم. . .

أأحسست دفء الإيمان في راحتي حين احتوت راحتك الدافئة بدم الشباب؟

إذن فدعيني أذكر لك يا فتاتي بعض الذي بي: أحبك حبّاً خالط كل حواسي، فأنا أبداً على ذكر منك، وأنت على مرأى ومسمع مني.

رسمك أبداً ماثلاً لعيني، حاضر في ذهني، فأنا في الحياة أعيش بك وأنساق بإرادتك. أكون مع الناس جميعاً في كل مكان، ولا أكون إلا معك. . . الغبطة التي تطغى على مصدرها أنت؛ والألم الذي يهد كياني مبعثه أنت. والمشاعر على اختلافها تتناوبني منك ولا أملك أن أشعر لنفسي وبإرادتي.

أتحبين يا فتاتي أن أصارحك بما ساورني ليلة أمس؟ إن نظرتك الواهنة التي خلتك تؤثرينني بها نظرة للجميع، فهي من هذه الناحية عادلة وهي مما خلالها ظالمة خادعة. إنك يا فتاتي لغز، ميزتك الكبرى جاذبيتك، فأنت تجذبين محبيك ومبغضيك على السواء. ولا يملك المرء ألا يكترث لك

ليس جمالك بالفاتن ولا بالذي يلفت النظر. وقد تمرين بالألوف من دون أن تستوقفي أحداً، ويمر بك الألوف مر الكرام. لكن كيانك جميل كل الجمال، فاتن كل الفتنة، ولا بد من الوقوف عندك والتأمل فيك ليعلقك من يشاء ومن تشائين، ويأسره منك إلى الأبد

تلك النظرة الواهنة، والابتسامة الحائرة، والوجه الذي لا يمتاز بشيء في تفاصيله ولكنه في جملته وحدة أخاذة
ما قولك يا فتاتي فيمن ظل أربعة عشر عاماً على رأي واحد فيك، وميل واحد نحوك، وكنت في خلالها طفلة في العاشرة، وزهرة في الرابعة عشرة، وثمرة شهية في العشرين، فما فكر في غير الحدب عليك، واستنشاق عبيرك، والتطلع إليك. لكنه لم يقطفك ولم يخنك
كانت زهرتك تغري بالقطف، لكنه كان فيك ما يرد الأيدي عنك. وكانت ثمرتك ناضجة شهية، لكنها كانت الثمرة المحرمة. وكنت عزلاء إلا من ذلك العفاف الذي ينبعث من كيانك طهراً وبراءة
ثم سددت يوماً إلى قلبي نظرتك المعهودة وفيها بريق غير معهود، ومعها حاشية طيعة من الضحك الواهن الغالب عليه الحياء. وألفيتك في مجلسي مرحة قد وسع فهمك مغازي الكلام، ودقت إجاباتك عليها
ثم ظللت جبينك العالي غمامة فأطرقت برأسك، واحتوتك كآبة وخفت صوتك، وكان سكون طال عليه الزمن أو قصر لا ندري، أو على الأقل لا أدري
واحتوت راحتك راحتي فإذا هما شعلتان، وحاولت أن أحدق في عينيك فلم ترفعيهما إليَّ، وألقيت عليك كلمة من عفو الساعة فلم تردي عليَّ
!ولبثنا هنيهة على هذه الحال من الصمت فإذا نحن نتساءل معا: هل أسأت إليك؟
وكيف تسيئينني يا فتاتي وقد أشعرتني الهناء الذي كنت أحوِّم حوله أيام الشباب ولا أناله، حتى كان يوم السبت من يناير من عام منصرم فخلقتني خلقاً آخر يدين لك بالوجود
(م. د)
من وراء المنظار
عرفان الجميل
نهضت للقائه وقد أقبل عليّ هاشّاً محيياً، وصافحته شاكراً له تحيته مجيباً عليها بأحسن منها، وجلست وجلس وهو يحمد الظروف التي جمعت بيننا في القرية على غير انتظار
وكان يعلم أني لا تتاح لي فرصة للمجيء إلى القرية إلا اغتنمتها فمال بالحديث إلى ذلك المعنى، وأخذ يبدئ ويعيد في بيان مبلغ كرهه للقرية، وهو لن يرى أبلغ من أن يقول إنه يكرهها بقدر ما أحبها؛ وإنما يجئ إليها مضطراً في بعض عمله ثم يغادرها بأسرع ما يستطيع
ولما كنت أفهم العلة الحقيقية لتلك الكراهية لم أشأ أن أناقشه فيما أبداه من غيرها من العلل الزائفة، بل لقد ثقل عليّ كلامه وأنكرت ما يفيض به من تكلف سخيف وما ينطوي عليه من خبث بغيض
ورأيته يبالغ في الحذر على ملابسه أن يعلق بها التراب فهو لذلك يمسحه عنها بمنديله بين آونة وأخرى لا يمل ذلك ولا يفتر عنه؛ وكيف يطيق أن يرى الغبار على حلته (الإفرنجية)، وإنه ليزهى أكبر الزهو بأن يخطر فيها على أعين الناس في القرية يذكرهم بها كيف أنه أصبح ذلك (الأفندي) الوجيه الذي لا يقل في وجاهته وعظمته شأناً عن سراة القرية ووجوهها. ولعل هذا المظهر الذي تبهج له نفسه وهو وحده الذي يجعله يطيق البقاء يوماً أو بعض يوم في تلك القرية
وقطع علينا الحديث قدوم شيخ أربي يما قدرت على الستين يتوكأ على عصا غليظة، ويكاد من الضعف لا تقوى على حمله رجلاه، ولم يكن ذلك الشيخ المتهدم إلا والد ذلك الأفندي الوجيه؛ ونهضت أستقبله مظهراً له حفاوتي به؛ وعجبت أن أرى ابنه يقف متثاقلاً متباطئاً؛ وأسند الرجل عصاه إلى أحد المقاعد وهمّ ليجلس على الأرض فأمسكت بيده وأجلسته بعد إلحاح على المقعد. . .
وأطرق الرجل لحظة، ولكني تبينت في عينيه كلاماً؛ وفطنت إلى أنه يرتاح لوجود ابنه معي في تلك الآونة إذ يستطيع أن يسمعه ما يريد ويشهدني على قوله ويبثني شكواه؛ وزدت وثوقاً من ذلك بما رأيته من اضطراب وغيظ على ملامح ابنه الوجيه.
وتنهد الرجل تنهدة طويلة ثم أنطلق يتحدث ولم يعد يتحدث إلا شكاة مره موجعة من هذا الذي أنفق عليه الرجل ماله جميعاً حتى صار إلى ما صار إليه. وذكر لي فيما ذكر والدموع تبلل لحيته البيضاء، أنه ذهب إلى بيت أبنه في المدينة فأنكر الابن وجوده

هناك، فذهب أبوه يطلبه في مقر عمله فدله عليه بعض الخدم، فانتحى به الابن جانباً وهو يحاول كتمان غيظه ثم صرفه بعد دقائق، فما كاد الرجل يبلغ عتبة الحجرة حتى سمع ابنه يقول لزملائه ضاحكاً: إن هذا الرجل كان فيما قبل مزارعاً أجيراً عند أسرته وإنه يطلب إحساناً. . . وخنقته العبرات لحظة ثم عاد إلى حديثه يسألني: هل يكون ذلك نتيجة التربية؟ وهل يكون جزاؤه على بيع ما كان يملك في تعليم ابنه أن يقابله بما يقابله به؟ والتفت أطلب الجواب من الوجيه المتعلم الذي يكره القرية وحياة القرية، فهالني ما سمعته من عبارات فاجرة أخذ يوجهها إلى الذي كان سبباً في نعمته، دون أن يستحي، وكانت أقل تهمة ألصقها بأبيه أنه قد صار شيخاً خرفاً لا يؤاخذ

وبلغ بي الغيظ كل مبلغ فنصحت إلى الرجل أن يرفع إلى القضاء، دعواه، فنظر إليّ نظرة شكر ولكنه قال: (يا بني نضحك علينا البلد ونسمع بنا الناس؟ لا، أنا عندي أموت من الجوع ولا يقول الناس إن ابني ناكر الجميل)

وأخذت أسري عن الرجل بما أستطيع من الكلام وقد عزني في هذا الموقف الكلام. كل ذلك وابنه صامت كأنه جماد، ثم وعدت الشيخ أني سأبذل قصارى جهدي من أجل راحته وودعته مواسياً مشفقاً

وهم ابنه بالانصراف بعده فمددت إليه يدي على كره مني؛ وجلست وأنا أقول: أيكون بعد ذلك غريباً أن نجهل القرى وحياة ساكني القرى وأن نظل وكأننا بما بيننا وما بين هؤلاء المساكين من قطيعة شعبان يعيش أحدهما من كد الآخر؟ وإذا كان هذا شأن بعض الأبناء مع الآباء فكيف تكون الحال فيمن لا تربطهم بأولئك المساكين بنوة أو قرابة؟

(عين)

حول لقب (السفاح) أيضاً

للأستاذ عبد الحميد العبادي

وأخيراً يدلي الأستاذ عبد المتعال الصعيدي دلوه في دلاء وينبري للبحث عن لقب (السفاح) لمن هو على التحقيق.

وقد كتب الأستاذ في هذا الموضوع ثلاث مقالات نشرت في الأعداد 346 و347 و349 من (الرسالة) الغراء. ونحن لا شأن لنا بالمقالة الأولى من هذه المقالات، لان الأستاذ ذهب يدلل فيها على إننا مسبوقون إلى تفسير لفظ (السفاح) بالمعطاء للمال، وفاته وهو يكتب تلك المقالة إننا نزلنا على هذه الدعوى عندما ثبت عندنا ان الذين لقبوا الإمام أبا العباس بذلك اللقب لم يقصدوا إلى مدحه بل إلى ذمه ووصفه بأنه سفاك قتال.

أما مقالتاه الثانية والثالثة فهما اللتان نعنى بمناقشتها اليوم.

وقد حاول الأستاذ في المقال الثاني إن يفند قولنا إن أبا العباس لم يكن سفاحاً، كما حاول في المقال الثالث أن يبين لنا كيف اختلفت الروايات في لقب السفاح بين أبي العباس وعمه عبد الله بن علي.

وقد كبر الأستاذ الصعيدي أن نقول: (إنا رجعنا إلى سيرة أبي العباس قبل الخلافة وبعدها فلم نجد فيها ما يسوغ تلقيبه بالسفاح) فاندفع يرمينا بالغفلة الظاهرة والتجني على التاريخ ويزعم أن سيرة أبى العباس بعد الخلافة (طافحة) بسفك الدماء ولقد ظننت الأستاذ سيأتي في الأمر بجديد فإذا به يعزو إلى أبى العباس ثلاثة حوادث: أولها قتله ابن هبيرة غدراً، وهذا ما نبهت أنا عليه في أول مقال نشرته لي الثقافة في هذا الموضوع. وثانيها قتله أبا سلمة الخلال، ولم أعد أنا أبا العباس مسئولاً عن هذا الحادث شخصياً، فالباعث عليه من قبيل ما نسميه الآن بتهمة الخيانة العظمى، ولذلك لم أعتد به على أبي العباس. على أن هذا الحادث قد تولى كبره أبو مسلم الخرساني من غير مراء. الحادث الثالث قتل أبي العباس سليمان بن هشام بن عبد الملك بعد أن آمنه، ولو تتبع الأستاذ قصة هذا الأمير في أقدم مظانها وأصحها وهو تاريخ ابن جرير الطبري لعلم أن الطبري يتتبع أخبار سليمان هذا بكثير من العناية والإسهاب حتى سنة 129 وثم لا يعود إلى ذكره بعد ذلك التاريخ، وسياق حديث الطبري يفيد أن هذا الأمير قتل في وقعة مرو الشاذان التي كانت سنة 129 بين

جيش ابن معاوية الثائر بفارس وبين جيش ابن هبيرة أمير العراق؛ وإذاً يكون سلمان ابن هشام قد فارق هذه الحياة قبل قتله المزعوم على يد أبي العباس بنحو أربع

سنوات على اقل تقدير. وإذاً لا يمكن أن ينسب من هذه الحوادث إلى أبي العباس إلا حادث واحد فقط هو مقتل ابن هبيرة، وحتى هذا لا يعدم عند تدقيق النظر توجيهاً وتأويلاً. فقد كان ابن هبيرة زعيماً عربياً قوياً، وكان له حزب عربي عظيم في مدينة واسط، وكان أبو العباس يعتقد أنه يرقب الأمور، ويتربص الدوائر ليثب وثبة ترد عليه ما ضاع منه، فرأى أن يعالجه قبل استفحال شأنه

ولما لم يجد الأستاذ الصعيدي من حوادث القتل ما يصح أن ينسبه إلى أبي العباس رأساً أخذ ينحله جرائم غيره، فزعم انه هو الذي قتل تسعين من بني أمية كانوا على مائدته بتحريض سديف الشاعر؛ مع أن هذا الحادث الفظيع إنما كان بفلسطين وهو المعبر عنه في تاريخ الطبري بيوم أبي فرطس، والمسئول عنه هو من غير نزاع عبد الله بن عليّ وحده. بل إن الأستاذ الصعيدي ليجعل أبا العباس مسئولاً عمن قتل عبد الله بن علي بالشام وداود بن علي بالحجاز وسليمان بن علي في البصرة، لأنه هو الذي (سلطهم) على بني أمية في البلدان المذكورة. وهذه قصة الذئب مع الخروف معادة بشكل آخر. ولست أدري على أي مسدر يعتمد الأستاذ في دعاه هذا (التسليط) فالمصادر لا تذكر إلا لفظ (التولية) على تلك البلدان. والتولية ليس معناها (التسليط) بطبيعة الحال. ثم أين عدالة الإسلام وأدب القرآن الذي يقول (كل نفس بما كسبت رهينة) (ولا تزر وازرة وزر أخرى)؟ وأين مبدأ شخصية الجريمة العقوبة وهو من الإصلاحات العظيمة التي جاء بها الإسلام، وكانوا في الجاهلية ربما أخذوا القبيلة كلها بجريرة فرد واحد منها؟ الحق أن أبا العباس كما بينت في مقالاتي السابقة كان مغلوباً على أمره لأبي مسلم بالمشرق ولعمه عبد الله ابن علي بالشام، ولو رجع الأستاذ الصعيدي إلى تاريخ الطبري وقرأ فيه سيرة أبي العباس لتبين له ذلك بأجلى بيان، فلعله فاعل إن شاء الله

وقد بلغ من الحرص الأستاذ الصعيدي على اتهام أبي العباس أن وقع في تناقض عجيب حقاً. فقد كتب في مقاله الثاني يقول: (ولقد كان له (أي لأبي العباس) سفاح آخر نسيه المؤرخون، ولم يكن بأقل من عبد الله سفكاً للدماء.

ذلك هو سليمان بن علي أخو عبد الله وعم أبي العباس، فقد ولاه البصرة وسلطه على من كان بها من بني أمية، فقتل من كان بها منهم وألقاهم في الطريق فأكلتهم الكلاب) وبعد أسطر قليلة يقول الأستاذ الذي يرمينا بالغفلة: (ويطول بنا الكلام لو ذهبنا نستقصي ما سفك أبو العباس وأعمامه واخوته (مع العلم بأن التاريخ لا يعرف لأبي العباس أخوة سفاكين يسأل عن جرائمهم) من الدماء. ولقد كانوا كلهم شركاء فيما عدا سليمان بن علي فإنه كان أحنهم على بني أمية وكان يكره سفك دمائهم، ويجير كل من استجار منهم الخ) والظاهر أن الأستاذ أحس هذا التناقض العجيب وأراد أن يتلافاه فكان أعجب وأغرب، إذ عقب على الفقرة الأخيرة بقوله في هامش المقال الثاني: (هكذا روى عنه صاحب العقد وهو ينافي ما ذكرناه من قتله من كان في بني أمية بالبصرة. . . فلعل هذه الشفقة أدركته أخيرا عليهم). ولولا أن الأستاذ الصعيدي جاد فيما يقول لقلنا إنه تعمد أن يورد في هذا البحث الدامي فصلاً مضحكا يرفه به عن القراء

والواقع أن لا أبو العباس ولا عمه سليمان بن علي يمكن أن يوصفا بأنهما سفاحان سفاكان، وذلك لسبب واضح هو أنه لم يكن في العراق في وقتها أمويون يمكن أن يبسطا إليهم يد القتل والمثلة. فمن يتعمق درس التاريخ الأموي يعلم أن العراق لم يكن في وقت من الأوقات موطناً لبني أمية وبخاصة في أخريات عهدهم عندما انبثقت عليهم فيه البثوق التي زعزعت ملكهم، وكادت تأتي على سلطانهم قبل زحف العباسيين من المشرق.

إنما كان موطن بني أمية ومحل عصبيتهم الشام ثم الحجاز. فإذا سكتت المصادر التاريخية القديمة عن أن تنسب إلى أبي العباس قتل بني أمية أو قال صاحب العقد إن سليمان بن علي كان شديد الحنو على من يلجأ إليه من بني أمية، كان هذا السكوت وذلك القول هو المعقول والمتفق وحقيقة الحال. وإذا اقتصر الطبري على ذكر من قتل الأمويين إنه إنما كان في الشام والحجاز كان ذلك منطبقاً على الحقيقة والواقع مما تقدم يرى القارئ أن الأستاذ الصعيدي على عنف محاولته (إدانة) أبي العباس وتسويغ تلقيبه بالسفاح لم يكن موفقاً، بل هو لم يخرج في واقع الأمر قيد شعرة عن

مضمون قولنا: (إن سيرة أبي العباس قبل الخلافة وبعدها لا تسوغ تلقيبه بالسفاح بحال من الأحوال)

ولننتقل الآن إلى مناقشة موقف الأستاذ الصعيدي من المصادر واختلافها في لقب السفاح

بين أبي العباس وعمه عبد الله بن علي. وهو موقف عجيب حقاً، فالأستاذ الصعيدي ينظر إلى المؤرخين والأدباء الذين تعرضوا لسيرة أبي العباس وأخباره نظرة واحدة، ويضعهم في مرتبة واحدة من حيث العدالة والضبط والحجية، لا فرق عنده بين متقدم ومتأخر، وبين متخصص في الرواية التاريخية وغير متخصص فيها، وبين من يتتبع الرواية بإسنادها إلى من شهد الواقعة ومن يتسقط الأخبار من هنا وهنا. وما هكذا كان السلف الصالح من علماء المسلمين. فإنهم كانوا يزنون الرجال والأخبار بأدق موازين النقد؛ وما علم الحديث منا ببعيد، فقد رجحوا كتب البخاري على غيره من كتب الحديث، لأنه أقل من غيره رجالاً تُكلم فيهم بالضعف، وأقل من غيره أحاديث شاذة أو معلولة. فإذا جئنا إلى التاريخ، وجدناهم يقولون: إن أصح التواريخ تاريخ ابن جرير، وإن كتاب (فتوح البلدان) للبلاذري لم يؤلف مثله في موضوعه، وإن طبقات ابن سعد أقدم وأعظم كتاب في السيرة وتاريخ الصحابة والتابعين. وقالوا في ابن قتيبة إنه قليل الرواية

ولقد أدى هذا الموقف الأستاذ الصعيدي إلى نتيجة هي عجب من العجب، فالمصادر التي لقبت أبا العباس بالسفاح صادقة لأن، أبا العباس عنده سفاح، والمصادر التي لقبت عبد الله بن علي بنفس اللقب صادقة لأنه كان سفاحاً. والمصادر التي سكتت عن تلقيب هذا أو ذاك باللقب المذكور لا يصح الطعن بها في رواية المصادر التي ذكرت هذا اللقب (لأن من حفظ حجة على من لم يحفظ) وهي قاعدة مشهورة عند الأزهريين ويقول الأستاذ إنه ليمكن أن أجادل فيها. وأنا لا أجادل في القاعدة ولكن أجادل في تطبيقها فليس هذا محل تطبيقها، والمسألة ليست مسألة حفظ وتضييع، وإنما هي مسألة تخليط وعدم تخليط، فهل يسلم الأستاذ بقول من يقول (إن من خلط حجة علي من لم يخلط)؟

أما نحن فنظرنا إلى المصادر نظرة نقد وتقدير كما فعل الأقدمون من علماء الحديث؛ فوجدنا أن أقدمها وأوثقها وأشدها تخصصاً بالرواية التاريخية لا تلقب أبا العباس بالسفاح، وتصور هذا الخليفة في الصورة التي أجملناها غير مرة، ووجدنا المصادر التي شوهت صورة هذا الخليفة ولقبته بالسفاح ونسبت إليه الفضائع هي من وضع رجال ليسوا متخصصين في الرواية التاريخية الجدية ولا معروفين بالعدالة والضبط الذين يعرف بهما أصحاب الرواية التاريخية القديمة كابن سعد والبلاذري والطبري وغيرهم. هذا هو موقفنا

بإزاء المصادر القديمة من حيث موضوع (السفاح)

وبعد فلئن كنت حزنت لشيء وأنا أقرأ هذا المقال الثالث والأخير للأستاذ الصعيدي فلقد حزنت للعبارة التي علق بها على جملة لابن العبري المؤرخ المسيحي المتدين الزاهد. فقد قال ابن العبري: (وكان أبو العباس رجلاً طويلاً ابيض اللون حسن الوجه يكره الدماء ويحامي على أهل البيت) فعلق الأستاذ الصعيدي على ذلك بقوله: (إن هذا لا يراد منه إلا كراهته لدماء أهل البيت وحدهم) مع أن المؤرخ وهو يترجم لأبي العباس لم يسند إليه حادثة قتل واحدة، ومع أنه في تاريخه السرياني المطول والمترجم إلى الإنجليزية لا يلقبه بالسفاح مطلقاً.

عبد الحميد العبادي

من وحي الفوضى

الدكتور مبارك يناظر

للأستاذ شكري فيصل

منذ أيام وقف الدكتور (زكي مبارك) يناظر الأستاذ (لطفي جمعة) في موضوع: (يزدهر الأدب في عصور الفوضى الاجتماعية). وكان طبيعياً أن يؤيد الدكتور المبارك هذه الفكرة وأن ينتصر لها، ويدافع عنها؛ ويجرد حملاته على خصومها ويسوق عليهم القوى والهجمات من منطق العقل ومنطق العواطف

وقد ود الناس لو سمعوا الدكتور خطيباً يرتجل حججه وسط هذا الحماس المضطرم،

وينتزع آراءه من قلب هذا التيار العاصف، ويمتع سامعيه بلفتاته الذهنية البارعة. ولكن الدكتور زهد - كما يقول - في البراعة الخطابية، فانصرف عنها، وأوى إلى قلمه في ساعة من ساعات الفوضى والاضطراب فكتب خطابه في دائرة محدودة وصفحات معدودة ونهج بيّن

وكان هذا في الواقع صدمة شديدة الأثر. . . تناثرت معها أماني وأحلام. فالناس يعجبهم من هذه المناظرات أنها متعة من متع الفكر، يستفيق فيها الحس؛ وستفتح معها الذهن وتضطرم فيها الحياة، وتنبثق في خلالها المعاني والخطرات كما ينبثق الماء الثر فإذا هم - هذه المرة - في نطاق من الفكر، وفي مدى من الجدل، وفي مجال ضيق قد رسمت فيه الخطوط، وعينت الاتجاهات وصدرت عن أصل مكتوب

ولئن فات الناس أن ينعموا ببراعة الدكتور الخطابية التي زهد فيها، فقد عوضهم أن يروا نظراته المزدوجة (المتفلسفة) من فوق عينه

وأنا أشهد يا سيدي الدكتور أنك استطعت أن تأسر الناس، وأن تأخذهم بالإعجاب بك، والتصفيق لك، والانسياق معك في هذه الوديان المترعة بالحسن التي حملتهم إليها، وهذه الربوع المليئة بالجمال التي دفعتهم نحوها. . . وتلك الأجواء العبقة التي حلقت بهم فيها. . .

ولقد حدثتَ يا سيدي حديث العواطف الثائرة والشعور الطاغي والقلب الذي كونه النار والصدر الذي اضطرم فيه اللهب. . . وسمعك الناس تقرأ لهم صفحة من بلائك بالدنيا، وصدامك مع الناس، وحربك مع هذا العالم. . . وأنصتوا يصغون لهذا النشيد الدائم الخالد: نشيد (الأحلام والأوهام) و (الحقائق والأباطيل) و (الأزهار والأشواك) و (العقول والقلوب). . . فنفثت فيهم ببراعتك لباقتك السحر والعطر والجمال. . .

ولم تنس يا سيدي أن تقص علينا طرفاً من حياتك. . . فأنت في كلية الآداب، ولكلية الآداب في تاريخك صفحات وصفحات. . . فَلِم لا تنشر هذه الصفحات في مدرج الكلية، وعلى عيني طلبتها وطالباتها. . . ليروا مدى برّك بها، وميلك إليها، وغيرتك عليها؟! ولم لا تغتنم هذه الفرصة فتضع أيديهم على أمور وأمور تعتقد أن من واجبك أن تنبه إليها، وتتحدث عنها؟!. . .

وحديث ليلى يا سيدي. . . حتى ليلى هذه كان لها في خطابك نصيب، وفي موضوعك حظ. . . وفي أوراقك ذكر. . . وكانت ليمينك يمين. . . ولجيشك جناح. . .

ولقد استطعت يا سيدي بما آتاك الله من طلاقة ووهبك من اندفاع وبما أفضت من روعة ونثرت من رياحين أن تهدئ ثورات وتسكن نفوساً، وتسكت غاضبين. . . وأن تخرج من وسط الضجة الناقمة، والصخب الثائر بالهتاف الذي ملأ الجو، والتصفيق الذي كان يمثل نبضات القلوب الخافقة. . .

وضمن لك هذا الأسلوب البارع، وهذه القدرة الخطابية، أن تمر بكثير من القضايا. . . فتعرض على الناس طرفاً منها ووجهاً لها؛ ثم تخلص منها إلى غيرها على أنها قضية مسلمة، وحقيقة واقعة. . . ولقد بلغت أكثر من ذلك. . . حين خضت طرفاً شائكاً وعراً. . . وقدت الناس فيه، وخرجت منه مظفراً. . .

لم تدم لك قدم، ولم يقف في طريقك ما يقف في طريق الناس من عقبات وحواجز. . .

ولكن، أليس من حق الناس، وقد اكتسبت المعركة، وظفرت بالنصر، واكتسحت الخصوم الأقوياء، أن يقفوا عند هذه القضايا التي طويت عليها كتابك أمس. . . فيتحدثوا عنها، وقد هدأ الحماس الثائر، وسكنت الأكف المصفقة، وتنفس الصبح عن الوضح المبين؟!. . .

نحن نحب أن نتساءل عن قولك: (إن أكثر أهل الجنة من البَله). كيف استطعت أن تنجو معها من إخواننا الأزهريين الذين كانوا يملئون جنبات المدرج؛ وكيف سكتوا عنها حتى لكأنك لم تمر بها؟. . . إن تعليلك طريف حقاً. . . ولكن هل ترضاه الآن بعد أن خرجت من ميدان المعركة؟!

وشئ آخر يا سيدي. . . إنك تقول إن الأدب لا يزدهر في البيئات الساكنة، وإن رجال الدين ومن في مثل منزلهم لم يصدر عنهم أدب صحيح قيم. . . فهل أنت مؤمن بهذه الدعوى العريضة؟. . . وهل يستطيع أحد أن ينكر أن للبيئة الهادئة أدبها الهادئ الجميل.

. . وأن كثير من الرجال الدين والمتدينين قد صاغوا من هذا الهدوء الذي نعموا به، وهذه اللذاذات العقلية التي عاشوا فيها الوجدانيات من الأدب الرفيع؟!
وهل يغفل الإنسان عن الحقيقة الناصعة في أن طائفة كبيرة من أدباء الشرق العربي في جيل الماضي وفي الجيل الحاضر هم من هموم من رجال الدين الذين قرأ لهم الناس الشعر، وقرءوا لهم النثر، وكانوا من عمد هذه النهضة الجديدة؟!. . .
أو ليس صحيحاً أن الأكاديمية الفرنسية تضم فما تضم بعضاً من رجال الأكليروس. . . أم أن ذلك كان بعد رجوع الدكتور من باريس؟!. . .
وماذا بعد؟ إني لأحاول أن أجوز إلى الناحية الثالثة التي استوقفتني في خطاب الدكتور لولا أني أخشى أن أهتم بالعصبية أو الإقليمية أو الهوى. . . وإنما هواي مع مصر، وعصبيتي لها. . . ولكن ما يمنعنا أن نكون أقرب إلى الدقة والى الأنصاف؟!. . . وهل يعاب الحق إن هو لم يساوق بعض الأهواء الجامحة؟!
ما علي إذن إن أنا وقفت عند كلمة الدكتور: (إن مصر أقدر الأمم الإسلامية على التفكير الدقيق وعلى التأليف) وما عليّ أن أتساءل ويتساءل معي كثيرون، وأن نرجوا الدكتور أن يكون متئداً هادئاً، لا يدل ولا يتيه فمصر زعيمة العالم العربي. وهي موطن أمله، وموضع رجائه، ومحط أمانيه؛ وهي بلد رجاله ومنبت أبطاله، ومبعث النور فيه. . . ولكن هذا لا يعني يا سيدي الدكتور ألا تكون الأقطار الإسلامية الأخرى قادرة على مثل هذه الدقة في التفكير، وهذه الكثرة في التأليف. . .
والذين هم في مكان القيادة يا سيدي، ليأخذوا بيد الضعيف، ويمدوا في قوة العاجز، وينيروا السبيل للضال. . . لا يعيبون على الضعيف ضعفه، ولا يأخذون عليه عجزه، لأن هذا لا يتسق مع تواضع النعمة؛ وحق الاخوة، وشكر الله. . .
وفي الأقطار التي تعنيها يا سيدي نهضة وحركة. . . وقدرة على (التفكير الدقيق) غير أن
ألواناً من الجهاد تطغى على هذه النهضات، وتكبت هذا النشاط، وتفل هذه القدرة، وتحاول أن تطفئ شعل النور فيها. . .
لقد كنت وقفت منذ حين أرد على الذين أعماهم الغرور في لبنان وغير لبنان، فادّعوا الدعاوي وتقوّلوا الأقاويل وحاولوا أن يغمزوا الأدب المصري وأن ينالوا منه، وأن يتعرضوا لطائفة كبيرة من الأدباء. . . وأنا أجدني اليوم مضطراً أن أقف مرة ثانية موقفاً لا يختلف في حقيقته عن الموقف الأول. . . فنحن في الأقطار الإسلامية الأخرى نؤمن بكل هذه الجهود التي تبذلها مصر؛ ونحن نكبر هذا النشاط الذي يتراءى في أجوائها ساطعاً كالنور؛ ونحن نغذي نهضتنا وأدبنا بكل ما ينطلق من قيثارة شعرائها، وصفحات كتابها؛ ونحن ننعم بهذا العطر الذي تنشره مع النسائم، وهذا الألق الذي تشمه في سموات الفكر. . . ولكننا نريد أن لا نُغفَل هذا الإغفال، ولا نُهمل هذا الإهمال إن زعامة مصر أمر لا شك فيه. . . وليس ثمة من يناقش في الأمور البديهية المسلمة؛ فلم نخرج بالأمور إلى مفاضلات ومقارنات لا تفيد في تقرير رأي، ولا تنفع في الوصول إلى نتيجة، ولا يكون من ورائها إلا اللغط؟
وبعد. . . فإن لك يا سيدي في قلوبنا حرمة، وفي نفوسنا منزلة، ونحن نحاول هنا أن نحملك على أن تجلو هذا الذي استغلق على الناس، ولقد متعهم بصفحة رائعة؛ ووقفت منهم موقف الخطيب الموفق. . . واهتزت لك أفئدة وتولاّك الإكبار من كل جانب. . . وتهافتت عليك البطاقات معجبة راضية مغتبطة، فتقبلتها باسماً ضاحكاً مغتبطاً. . . فهلا تقبلت معها هذه الكلمة؟. . .
(القاهرة)
شكري فيصل
النسر المهيض
للأستاذ محمود الخفيف
حُلْمكَ القَيْصَرِيُّ كَيْفَ تَقَضّي ... أَيُّهَا السَّاهِمُ المُلَقَّى الْهَوَانَا؟
ضَاقَ عَنْكَ الْفَضَاءُ طولاً وَعَرْضا ... وَتَعَالَيْتَ لَسْتَ تَحْفِلُ بُغْضاً
لاَ وَلاَ كُنْتَ أَمْسِ تَحْفِلُ حُباً
لِبَنِي الطِّينِ، أَوْ تَهَابُ الزَّمَانَا
كنْتَ بالأمْسِ الإمبراطورَ تُدْعَى ... بَعْدَ نَعْتٍ بالْكرْسِكِيِّ الصَّغيرِ

تتَهَاوَى أَلقْاَبُ مَجْدِكَ صَرْعى ... وَتَرَى مَنْ وَالَوْكَ كَرْهاً وَطَوْعَا
بَيْنَ رَاثٍ وَشَامِتٍ يَتَشَفَّى
في مَصِير مَا مِثْلهُ مِنْ مَصِيرِ!
لمْ تَرَ الأرْضُ مثلَ عُقْبَاكَ عُقْبى ... هَلْ رأَتْ مِثلَ ما بَلغْتَ ارتِقَاءً؟
نلْتَ مَا نِلْتَ مِنْ زَمَانِكَ غَصْبَا ... لمْ تَجِدْ في الحيَاةِ سَهْلاً وَصَعْبَا
ثُمَّ حَلَّقْتَ تَبْتَغِي غَيْرَ وَانٍ
أَيُّهَا النَّسْرُ أَنْ تَنَال السَّمَاءَ!
قُضِيَ الأمْرُ! هلْ رَضِيتَ القَضاَء ... أَيُّهَا اللاَّغِبُ المَهِيض الجَناحِ!
كَيْفَ تَرْضَى وَمَا عَرَفْتَ الرِّضَاَء ... مَرَّةً أَمْسِ أو عَدِمْتَ الرَّجَاَء
أَيُّهَا الوَاحِمُ العَبُوسُ تَلاَشَتْ
خُدَعُ الحلْمِ فِي يَقِينِ الصَّبَاحِ
قَدْ تَزَيَّدْتَ فِي غُرُورِكَ حَتَّى ... كِدْتَ تُنْمَى لغَيْرِ هذَا الوُجُودِ!
وَتَأَتَّي من زورِه ما تأَتيَّ ... فَتَغاَبيتَ فِي مَوِاطنَ شتِىَّ
لَشَجَانِي بِرَغْمِ ذَلِكَ مِرْأى
شَبَحِ الذلِّ في العُقَابِ الصَّيُودِ!
تصِفُ العَيْنُ فِي مُحَيَّاكَ خَوْفاً ... وُابتِئَاساً وذِلَّةً وانكسَارَا
لاَ يُوَفِّيكَ غير مَرْآكَ وَصْفاً ... عُدْت كَالنَّاسِ بْلِ لقَد زْدتَ ضَعْفَا
ليْتَ شِعْرِي يا مَنْ هَزَمْتَ المنايا
كيف تَحيا؟ هل تستطيع اصطبارا؟
بَهَر النَّاسَ في صُعُودَكَ بَرْقُ ... لم يَرَوْا في سَناهُ مِنْكَ العُيوبا
كلُّ إفنٍ أَرْدَتْه فَهْوَ حَقٌ ... وتَحَدِّى الزّمَان عْندَكَ سَبْقُ
تْشفُق العَيْنُ أن ترَى الشَّمْسَ حَتَّى
تتراءَى لها تُريدُ الغروبا
كَمْ تَرَى العَيْنُ في غُرُوبكِ مِمَّا ... يَمْلأُ القَلْبَ من شَتِيتِ المعاني
أَنْتَ فِي الأرضِ من بني الأرض منهما ... مَلاَئكَ الحَياة وَهما وعَزْما!
عَبْقَريَّ الحروبِ، كَمْ كُنْتَ تبدو
أَمْس كالطِّفْلِ أطْمَعَتْهُ الأماني!
رُحْتَ كالطَّفْلِ لاعِباً بالعُروشِ ... لَعِباً حَارَ جُنْدُ عَرْشكَ فيهِ!
النَّجِيعُ الصَّبِيبُ أَبْهَى النْقُوشِ ... والدُّمَى من أَسِرَّةٍ وَنُعُوشِ
كرَةَ الأرض بَيْنَ رجْلَيْكَ حَيْرَى
والمَنايا تَجْري بما تَشتهِيهِ
وَيْكَ! قد كُنْتَ كالشِّهاب التماعا ... وَسَنَاءً وَرَوْعَة وانطِلاقاً
كلَّماَ زادَ في السَّماءِ ارتفاعاً ... وَتَبَدَّي لِلْعَيْنِ أَبْهَى شُعاعا
وَمضَى يَخْطِفُ العُيُونَ سَناهُ
لمْ يَزِدْهُ المضاء إلاَّ احتراقا
أَشبَهتْ مُلكَك الفَقَاقِيعُ مَعْنىً ... وبناءً وبَسطْةً وَفناَءِ
بهرْجُ المجدِ كان زوراً وَإِفناً ... وَبَريقاً يكْسُو الفقاقيعَ جُسْناً
وَهْيَ مِثْلُ الهَواءِ أَوْ هِيَ أَوْهَى
وَهْيَ كَالبَرقِ وَمْضَةً وَانْطِفاءَ!
الخفيف
إعصار
للأستاذ أمجد الطرابلسي
هذي الليالي السودْ ... كيف أُقصِّيها؟
أشدو وهل في العودْ ... من وَتَر مشدودْ؟
والكأس. . . هل فيها!
الريحُ، نجواها ... تنشدها الآفاقْ
والليلُ أوَّاها، ... قد ذاب أمواهاً
تهوي من الأعماقْ. . .
وتلك أبوابي ... يلطمها الإعصارْ. . .

أطيافَ أحبابي! ... أشباحَ أوْصابي!
كيف عرفتِ الدار؟
. . .يا ذِكَرَ الغابرْ ... بِيني كما بانا
لا تقلقي السادرْ ... في وَحشِة الحاضرْ
. . .دعِيهِ سهمَانا
هذه الليالي السْوُدْ ... كيف أقضِّيها؟
أشدو وهل في العودْ ... من وَتَرٍ مشدودْ؟
. . . هل فيها؟ والكأس
(باريس)
أمجد الطرابلسي
تحت الليل
للأستاذ محمود محمد شاكر
أهِيمُ. . وقْلبِي هائُم. . وَحُشَاشَتِي ... تهيمُ. . فَهلْ يبقَى الشَّقِيُّ الَمبعُثَرُ؟
وهلْ يهْتَدِي غاوٍ أَضَاعَ حَياتَهُ ... بحيثُ يَضِيعُ الطامحُ الُمتَجَبَّرُ؟
وهلْ تَسكُنُ الدُّنيا ويَسكُنُ صَرفُها ... ويسكنُ هذا النَّابضُ المُتَفَجَّرُ؟
وهلْ تُطفِئُ الأيام نيرانَ ظُلْمِهاَ ... وَتَطْفَأُ نارٌ في دَمِي تَتَسعَّرُ؟
لئِنْ أبْقَتَ الآمالُ منِّي، لَطالما ... تَقَلَّبْتُ في آلامِها أَتَضَوَّرُ
تَنَازَعُنِي من كلِّ وَجْهٍ بِساحِرٍ ... يُمَثِّلُ لي إِقْبالَها وَيُصَوِّرُ
فيَهْوِي لِها بعِضي وَبَعْضِيَ مُوثَوقٌ ... بأشواقِه الأخرى إلى حيثُ يَنظرُ
أَضاليلُ من سِحْرِ الحياةِ وَفِتْنَةٌ ... تَهاوَى إليها مُسْتهامٌ مُسَحَّرُ
أَبَى القلبُ إِلاّ أَنْ يَرَاها قريبةً ... كأنّ رضَاها مُزْنَةٌ تَتَحَدَّرُ
يَرِفُّ شبابُ القلبِ في قَسَماتِها ... تكادُ تراهُ ضاحكاً يَتَحَيَّرُ
تُضِئُ لِيالِي هَمِّهِ بِخَيالِها ... كما سَلَّ همَّ اللّيْلِ نَجْمٌ مُنَوِّرُ
وهيهاتَ! ضَلَّ القلبُ إِنّ بقاءَها ... بَقاءُ رَبيعِ الزَّهْرِ أو هُوَ أَقْصَرُ
سَرتْ فِي دَمٍ يَغْلِي كأنَّ اندفاقهُ ... منَ القلب ينْبُوعٌ من الوجْدِ يُسْجَر
تُمَّرُ به الأفكارُ وَهْيَ نِدَّيةٌ ... فما هِيَ إِلاَّ جَمْرَةٌ تَتَدْهَورُ
إذا سكَنَتْ في اللّيْل كلَّ خَفِيَّةٍ ... سمعتُ صَليلاً في دَمِي يتحدَّرُ
فَهَلْ ترحَمُ الأيامُ أو تهدأ المنَى؟ ... أبى حُبُّهَا إِلا شَقَاءً يَدِّمرُ
محمود محمد شاكر
رسالة الفن
تأملات في الفن:
مدرسة الإحساس
للأستاذ عزيز أحمد فهمي
- لا تنهري القطة بهذه القسوة. كوني صاحبة إحساس وكوني ذات رحمة
- أرحمة بلصة تسرق طعامي؟
- ليس مكتوباً عليه بلغة تقرأها هي أنه طعامك، وإنما هو عندها رزق يسره الله
- ولكنها كانت تدب إليه مشفقة حريصة محاذرة متنبهة متلفتة يمنة ويسرة كاللص الذي يدرك حين يعتزم السرقة أنه يعتزم المنكر
- هي معذورة فقد تعلمت هذا التلصص منا؛ فهي لا ترانا نفترس ما نأكل وإنما ترانا نربي الحيوان والطير ثم ندب إلى فريستنا منهما دبة اللص فنختلس حياته اختلاساً لا يسبقه صراع، ولا يسبقه إنذار. . . ولم يكن القط هكذا إلا منذ استأنس، وقبل ذلك كان يفترس، أو يأكل ما يخلفه كبار السباع
- . . .وهل في القط ذكاء يدرك به هذا كله؟
- إن الأمر لا يحتاج إلى ذكاء، وإنما هو يحتاج إلى إحساس. ألست تدخلين على جماعة من الناس فتعرفين إذا كانوا على حزن أو على فرح، أو على صدق أو على غش؟
- . . .قد أعرف ذلك مما أرى في وجوههم من أثره
- ومن الناس من يعرف وهو مطرق إلى الأرض، ومن الناس من يعرف وهو مغمض العينين والأذنين، ومن الناس من يعرف وهو على البعد لا يتمكن من نظر ولا سمع باللاسلكي؟!

- نعم؛ ففي قلب كل مؤمن جهاز يدله، ومن هذه الأجهزة طويل الموجة، ومنها ما هو متصل بتيار لا ينقطع، ومنها ما يعبأ (ببطاريات) تفرغ وتملأ، ومنها ما يستقبل القريب فقط، ومنها ما يستشف المحطات البعيدة. . . وهكذا، فالكون كله إذاعات واستقبالات جلّت على ماركوني وإن سلست للأستاذ حسن كامل
- هذا العجوز الذي ظهر سكيراً في فلم العزيمة؟ إنه ممثل ممتلئ حقاً ولكني لم أكن أحسب أنه يعلم ما لا يعلمه ماركوني. . .
- ويعلم ما لم يكن يعلمه فرويد كذلك
- ما شاء الله! لعله اخترع آلتين تتزاوجان وتنجبان البنات من الآلات والصبيان!
- بل تمكن من إيجاد إنسان يعيش من غير غريزة فرويد فيستطيع أن يتحادث مع الطير والحيوان
- على طريقة سيدنا سليمان؟
- إذا لم تكن هناك إلا طريقة سليمان فهو إذن على طريقة سليمان. وهو إذن يعيش بين دجاجه وأرانبه وإوزه وكلابه ومعيزه ملكا مدبراً حكيماً إلا أنه يأكل رعاياه
- وكنت تريد ألا يأكل منها
- ربما كان هذا أحلى؛ ولكن الذي يصنعه على أي حال حلال؛ فلا ريب أنه للإنسان على ما هو دونه ومن في حماه حق الرعاية بالحكمة وله أن يتقاضاه روحاً وحياة
- أنت تجعل الذي بيننا وبين الحيوان عشرة أظن لها عندك قوانين وأصولاً
- الطبيعة فرضت هذه القوانين والأصول، وقد كان القدماء شديدي الاعتراف بها، ولا زال الفلاحون يحترمون هذه القوانين والأصول فيما بينهم وبين ما ينفهم من الطير والحيوان، وإن كنا نحن في المدن قد أنكرنا هذه القوانين إنكاراً استدعى أن تقوم فينا جمعيات للرفق بالحيوان تصيح في آذاننا تطلب له الرحمة كان يجب علينا أن نحسها من تلقاء أنفسنا لولا أننا قد تحجرت نفوسنا وتخشبت من شدة إقبالنا على عشرة الحديد والحجر والخشب. . . فلم يعد أحد منا يعطف على حيوانه عطفه على ولده الذي في عنقه
- هذا الذي تطلبه كثير، وهو ليس من الطبيعة في شئ
- لو لم يكن من الطبيعة لذبح إبراهيم ولده
فلو أنك كنت تشعرين بالحياة حولك، لكنت تبادلت الحس مع الحيوان. . . ولكنت أدركت الحق فيما أقول. . . ولكن كيف أطلب منك الإحساس بالحيوان وأنت منصرفة حتى عن الإحساس بالناس، وحتى عن الإحساس بنفسك. . .
- حتى نفسي ترميني بإغفالها والبعد عنها؟ . . .
- ولست وحدك هكذا، وإنما أغلب أهل هذا العصر هكذا وأكثرهم ترديا فيه أهل المدن، وأكثر أهل المدن ترديا فيه وانطماساً أولئك الذين يتعلمون في المدارس، وأكثر المتعلمين تخبطاً فيه وانغماساً أبناء معاهد الفن في مصر، فهؤلاء يستعرضون صوراً مختلفة للحس، ولكنهم لا يقفون عند واحدة منها وقفة التأمل والتذوق، وإنما هم يحصونها عداً ويحسبون هذا الإحصاء علماً، فيخرجون به إلى الدنيا ونفوسهم مشوشة مختلطة حائرة. . . ومع هذا كله، فمغرورة متكبرة. . .
- وهذا فيمصر وحدها أو في العالم كله؟
- أظنه في مصر وحدها. . . فهم في الغرب إذا كفروا لم يكفروا حتى يؤمنوا بكفرهم، ونحن هنا ننتظر حتى يكفروا فنجري ورائهم، فإذا آمنوا آمنا، فإذا كفروا كفرنا ونفوسنا فارغة لا يعمرها إيمان ولا كفر. . .
- وهل يعمر الكفر النفوس؟ . . .
- إذا كان كفراً خالصاً لوجه الحق كذلك الكفر الذي شاع في أوربا في القرن الماضي وفي سوابقه، إذ تفتحت عيون عشاق الحق هناك على أباطيل رأوا أهل الدين يتمسكون بها، فقالوا لهم تعالوا ندع هذه الأباطيل ونحرر أنفسنا ونفكر بعقولنا، فقال لهم أهل الدين، ليس لنا عقول إذ ردتنا العقول عما وجدنا عليه آباءنا، وإنه لدين آمنا به ولن نحول عنه، فقالوا لأهل ذلك الدين: فليكن إذن لكم دينكم وليكن لنا ديننا، ثم قالوا للناس جميعاً: إنما نحن نسعى إلى الحق بعلومنا وعقولنا، وليس لنا شأن بأخصامنا، ولسنا ندعو الناس إلى جنة أو نار، فالجنة والنار حديثهم، وإنما نحن نقول إن عباد الشمس الأزرق يحمر إذا أضيف إلى حمض، كما نقول إن الهيدروجين أخف من

الأوكسجين وثاني أكسيد الكربون، وإن الأرض مجذوبة إلى الشمس، وإن الشمس تسبح في الفضاء وإن وإن. . . وليستمع لنا من يريد وليستمع لهم أيضا، فإذا شاء أن يودع عقله بين أيديهم فليستثن عن عقله وهو عندهم حتى إذا جاءنا استحضره. . . هذه حال حدثت في أوربا، ولأنها حدثت في أوربا فقد أحدثنا مثلها قولاً في كلية الآداب عندنا وقلنا إن العلم شئ وإن الدين شئ، مع أن ديننا هو العلم نفسه، وهو العقل نفسه، ولم يحدث أن احتضن يوماً خرافة، أو أظل باطلاً. . . وإن كان بعض أصحاب الغرض قد رشقوا في حواشيه بعض ما ينافيه، مما هو ظاهر للعين زيفه وغرابته عن سلامة الفكرة وحكمة الحق. . . وقال الغرب يوماً إننا لن نؤمن بشيء حتى نبدأ بالشك فيه وتعقله بعد ذلك إلى نهايته حتى نصل إلى حقيقة أمره، فنراها فنؤمن عندئذ بها، ولم يقل الغرب هذا إلا من ثقل ما كان يراد به أن يحشره في إيمانه من أوهام، وأكاذيب. . . فقلنا نحن أيضاً مثلما قال الغرب: لن نؤمن بشيء حتى نشك فيه أولاً وبدأنا نشك في أغلى تراثنا حتى لقد شككنا في قصة إبراهيم يوماً

- وهل اثبت التاريخ قصة إبراهيم؟ العلم لا يرضى إلا بالإثبات العلمي، وللإثبات العلمي شروط

- وهل أثبت التاريخ أن الأرض كانت جزءاً من الشمس إثباتاً علمياً بالشروط إياها؟

وهل يستطيع التاريخ أن يثبت كل حقائق الوجود؟ إذا كان الأمر كذلك فقولي لي كيف يثبت التاريخ أن هانيبال كان يتنفس مثلما نتنفس نحن مع أن هذا الشيء لم يرد في وثيقة تاريخية واحدة مستوفاة التحقق والتحقيق التي تطلبنها! بل إنه لم يرد في وثيقة أصلاً!

أفتستطيعين أن تشكي في أن هانيبال وأباه كانا يتنافسان لأنه لا وثائق تثبت ذلك؟ فإذا ضاعت منك شهادة ميلادك ظننت أنك ربما تكونين قد انعدمت لأنه لا ورقة رسمية معك تعترف بك؟ حتى لو حلف الناس بوجودك وشهد أهل بلدك بنسبك؟

فتذوقي العلم. . . وتذوقي الأدب. . . وتذوقي الفن. . . وتذوقي الحياة. . . عيشي على مهل، تفرسي في كل شئ. . . أيقظي إحساسك، ولا تقفزي بعقلك إلا بعد أن يرتاح إحساسك إلى ما أنت فيه. . . فلو فعلت أنت هذا، ولو فعله الناس جميعاً، ولو فعله أهل الغرب على الخصوص، لخفت كوارث البشرية ولهان من مصائبها الكثير. . . أفلو تريث أولئك الذين يخترعون الغازات السامة والقنابل والبلاوي الزرق الفتاكة بالناس، وحاسبوا عقولهم بضمائرهم واستشعروا ما تجره اختراعاتهم على إخوانهم من ويلات. . .

أكانوا يبرزونها للناس كالحمى المجنونة، حملها من الجحيم الشيطان أثيم. . . لو أن هؤلاء العلماء العقلاء تريثوا، وحادثوا أنفسهم لما أطلقوا الخراب من مكامنه عاصفاً يلهف البريء وغير البريء. . . ولكنهم علماء تريدين أنت أن تكوني عالمة

- وأي شبه بيني وبين هؤلاء؟

- هؤلاء يجمعون من الحقائق ما يقتل الناس، وأنت تجمعين من الحقائق ما يقعد على الإحساس، وهؤلاء لو أنهم استغنوا عن استغلال حقائقهم لوفروا على الناس هلاكاً لا غناء فيه، وأنت لو أنك استغنيت عن حقائقك التاريخية لوفرت على نفسك هلاكاً لا غناء فيه كذلك. . .

- وهل أنا هالكة؟

- وأي هالكة يا من لا تعنيك في قصة إبراهيم إلا أن تعرفي إذا كانت قد حدثت أو إذا لم تكن، ولم تحاولي أن تتذوقيها. . .

مسكينة أنت. . . ما أحوج أمثالك إلى أن تنشأ لهم مدرسة للإحساس!

عزيز أحمد فهمي

رسالة العِلم

الأسماك العجيبة

للأستاذ أحمد علي الشحات

تحدثنا في مقال سابق عن بعض الأسماك التي تجلت فيها غريزة الحنان، فدفعتها إلى القيام بالمحافظة على بيضها والصغار التي تخرج منه، وألممنا ببعض الطرق الطريفة التي تقوم بها هذه الأسماك في سبيل حماية نسلها.

وسنرى في حديث اليوم كيف أن تلك الغريزة تدفع بعض الأسماك إلى القيام ببناء

مأوى لصغارها يقيها شر هجمات عدو يفترسها، حتى يستقيم عودها وتستطيع أن تذود عن نفسها. وأشهر هذه الأسماك هي المسماة: (ذات الأشواك الظهرية)؛ ففي النوع ذي ثلاث الشوكات على الظهر، يتجلى نشاط الذكر في الربيع والصيف بأن يقوم ببناء عش على أرض عمقها قليل، والمواد المستعملة في بنائه هي النباتات المائية، والحشائش والقش وغيرها؛ ويشد بعضها إلى بعض مادة مخاطية يفرزها الذكر، ولهذا العش فتحات جانبية؛ فإذا انتهى من بنائه أخذ يبحث عن أنثى يدعوها لتضع بيضاً في هذا العش، فان لم تخضع، أخذ يطاردها بعنف إلى أن تذعن لأمره. وقد يحدث أنها لا تضع من البيض الكمية التي يقنع الذكر بها، عندئذ يبحث عن أنثى أخرى لتزيد كمية البيض، ويقوم بتنظيم وضع البيض في العش، ويخفره ومحتوياته الثمينة ليل نهار. وإذا اقترب غريب منه أثخنه بالجروح بفعل أشواكه ليحمي عشه، حتى إذا كبرت صغار السمك هدم الأب الجزء الأعلى من العش، واستطاعت الصغار أن تنطلق في الماء تسعى لرزقها

ولعل أطرف عش يبني هذا الذي تعمله سمكة الجنة التي تعيش في الصين، وليس هذا العش إلا فقاعات هوائية يخرجها الذكر من فمه ويتماسك بعضها ببعض بمادة لزجة، فإذا تم بناء هذا العش العجيب العائم على سطح الماء احذ الذكر يبحث عن أنثى، فإذا ما وفق ابتدأت تضع البيض واحدة واحدة يلتقطها الذكر بفمه ويرفعها إلى العش، ويلتصق هذا البيض بالمادة اللزجة. ولما كانت الأنثى شرهة تأكل بيضها إن لم يحمه الذكر، فإنه يتولى المحافظة عليه حتى يفقس، ويظل لمدة أسابيع أخرى يرعى صغاره خشية أن تنقض الأم عليها وتأكل أولادها

وفي أحد أجناس الأسماك الغضروفية المسمى - وهي كلمة تشتق من يلتصق، بمعنى صخر، وسمي بذلك لأنه يلتصق بالصخور بواسطة فمه - يتعاون الأبوان في عمل جحر صغير حيث تضع الأم البيض، ثم يحركان الأحجار المحيطة به فينتج عن ذلك أن ينهار سيل من الرمال يغطي الجحر فيصبح محجوباً عن أعين الأحياء المائية الأخرى التي تبحث عن غذاء لها

وهناك أسماك في كاليفورنيا تحمي بيضها بدفنه في رمال الشاطئ حين يجرفها المد إليه، ويبقى هذا البيض جافاً وبعيداً عن الماء لمدة تناهز أسبوعين حين يغمر الماء الشاطئ ثانية فتكشف المياه عن البيض الذي تنطلق منه الصغار آنئذ إلى الشاطئ.

الأسماك الذهبية

وهي أسماك قد حبتها الطبيعة لوناً جميلاً وذكاء تستطيع به أن تقوم ببعض الألعاب المسلية، ولذا فأنه يحتفظ بها في أحواض للزينة، وعلى الغاوين أن يتعهدوا هذه الأسماك بتربية أجمل الأفراد منها بعضها مع بعض حتى ينتج نسل ذو لون زاه. وإلا فإن الأجيال الناتجة تفقد تدريجياً بهاء الألوان التي كانت لسلفها، وقد حدث هذا فعلاً عندما وفد على أوربا ممثلو إحدى الجزائر الواقعة في المحيط الهادي، وأعجبوا بهذه الأسماك فحملوا حين قفلوا راجعين إلى بلدهم الآلاف من هذه الأسماك وأطلقوها في أنهارهم. ولما أن كانت محاربة الطبيعة لا تجدي نفعاً بل تنتج ضرراً، كما حدث مثلاً حين نقل الإنسان الأرانب إلى استراليا، فإنها زادت وقتئذ زيادة بليغة فانطلقت تبحث عن غذاء لها فلم تبق على أخضر هناك رغم ما قامت به الحكومة من مجهودات للقضاء على هذا الحيوان. فكذلك هذه الأسماك حين نقلها أهل الجزيرة إلى بلدهم، فمع أنها فقدت بهاء ألوانها لأنه لم يعن بتربية أزهى الأفراد لونا مجتمعة فإنها قضت على النوع الوحيد من السمك الذي كان يعيش في مياه تلك الجزيرة والذي كان يعتمد الأهالي عليه في غذائهم.

وليست هذه الأسماك بالذهبية اللون دائماً فقد يكون بعضها فضياً أو أحمر، وقد تكون الزعنفة الظهرية عالية وتقوم بمهمة قلاع المركب حين تسبح السمكة. ولبعض هذه الأسماك عيون محمولة على نتوءات بارزة من الرأس، وتسمى بذات الأعين التلسكوبية، ولا تظهر هذه النتوءات إلا بعد أشهر من عمر السمكة

وتستطيع هذه الأسماك أن تعيش خارج المياه لمدة محدودة، فقد وضع العلامة (فرنك بكلاند) بعضها وسط حشائش رطبة وأحاطها بقطعة من سجاد، فظلت محتفظة بنشاطها مدى أربع وعشرين ساعة. ويراعى أن تزود هذه الأسماك في أحواض تربيتها بمقدار وافر من الماء، ويتكون غذاؤها من قطع صغيرة من لحم الثيران ودود الأرض

ويرقات الناموس وبيض النمل.
ومن الميسور تدريب هذه الأسماك على القيام ببعض الألعاب المسلية، كدقها ناقوساً إذا كانت في حاجة إلى طعام. وكيفية ذلك أن يربط ناقوس بقطعة من مادة تطفو كالفلين، ويتدلي خيط إلى قاع الحوض الذي به السمكة، وتتصل بهذا الجهاز الصغير كأس بها الغذاء الذي يقدم للسمكة، فإذا ما جاعت شدت الخيط إلى أسفل فيدق الناقوس وتنقلب الكأس فتنزل إليها محتوياتها.
ويمكن تمييز الذكر عن الأنثى في دور التناسل بخشونة جسمه في منطقة الخياشيم لوجود بروزات صغيرة لا توجد في جسم الأنثى وتستطيع الأنثى أن تضع سبعين ألف بويضة، إلا أنها عادة تضع أقل من ذلك، فحين تكون في الثانية من عمرها تضع ألفي بويضة وكلما تقدم بها العمر تضع مقداراً أكبر، ففي الثالثة مثلاً تضع خمسة وعشرين ألف بويضة تقريباً، والأنثى في هذه الأسماك شرهة جداً حتى أنها لا ترحم صغارها بل تلتهمها، ولذا يجب في أحواض التربية فصل الكبير منها عن الصغير.
الأسماك العمياء
هناك أسماك قد حرمت نعمة البصر إلا أنها تروح وتغدو تبحث عن غذائها بنفسها، وقد يكون عجيباً أن تستطيع سمكة ضريرة أن تبحث عن غذائها بنفسها، وأن تحافظ على حياتها في وسط حيوانات ينقض أحدها على الآخر تلتهمها غذاء لها. إلا أنا نعلم أن رحمة الله قد وسعت كل شئ، فالإنسان الضرير مثلاً قد منح غالباً قوة في استراق السمع وفي حاسة اللمس، فكذلك هذه الأسماك قد زودت بحساسية في السمع وبأعضاء لمس حساسة. وقد يكون فقد البصر فيها كلياً فلا توجد عيون لها البتة، وقد توجد في بعضها بحالة أثرية، حتى أنها تكون عديمة الفائدة كعضو إبصار. وتجريد مثل هذه الأسماك من العيون لا يلحق بها أذى لأنها تعيش في ظلام دامس. فلو فرض أن كانت لها عيون لما استطاعت الإبصار
في هذا الجو المظلم. والظلام هنا مرجعه إلى العمق البعيد عن سطح الماء حتى أن الأشعة الضوئية لا تستطيع اختراق هذه المسافة الطويلة إلا أنه لا يتحتم أن تكون جميع الأسماك التي في قاع البحار عمياء لأن هناك ضوءاً ينبعث في قاع البحار ليس مرجعه إلى الأشعة الضوئية التي تخترق الطبقات العليا، وإنما مرجعه إلى إشعاعات فسفورية تنبعث تقريباً من كل الكائنات التي تعيش في قاع البحر ولا توجد هذه الإشعاعات في المياه العذبة.
وتتناول هذه الأسماك غذائها مما يعلق بسطح الماء، ولذا تحور شكل الفم فأصبحت فتحته تقرب من السطح العلوي، وقد يستطيع الإنسان أن يمسك سمكة منها بيده حين تصعد إلى سطح الماء إذا لم يحدث أدنى صوت، وإلا فأنها قادرة أن تشعر بأقل حركة وعندئذ تختفي سريعاً.
أحمد علي الشحات
كيميائي بمعمل السكة الحديد
القصص
قصه واقعية
حقيبة الذكريات
للأستاذ محمد سعيد العريان
في حارة (قصر الشوق) من حيّ الجمالية بالقاهرة، وإلى الشمال الغربي من مسجد (أبي عبد الله الحسين) حيث لا تزال القاهرة التي بناها المعز لدين الله قائمة في هذه القباب والمآذن، وتلك الدُّروب والمسارب، وهذه الدُّور الرحيبة المتقادمة التي تفضي إليها من باب إلى باب إلى أبواب. . .
هناك، حيث التاريخُ الغابر ما يزال حيّاً ناطقاً في كل ما تقع عليه العين من مشاهد . . . وآثار وناس؛ كأنما اجتمع تاريخ مصر الإسلامية كله في زمان ومكان، فلا يزال النظر يتنقل من منظر إلى منظر يذكّر بالماضي كعهده يوم كان، من جيل إلى جيل إلى أجيال. . .
هناك، حيث لا تزال ترى وتنظر ألواناً من الناس في سمات وأزياء وملامح، كأنما . . . تشهد بقايا من سلائل الفاطميين وأبناء المماليك وجند السلطان سليم. . .
هناك في هذا الحي نشأ (توفيق) . . . .

تراه، فلولا طربوشه الأحمر ولسانه العربي لحسبتَه واحداً من أولئك السياح الأجانب الذين يفدون إلى بلادنا كل شتاء للدرس أو الرياضة. أما أبوه فله في الحيّ جاه واعتبار، وإن له ميراثاً من تاريخ هذا الحي العريق يمتد إلى أجيال، منذ دخلت مصر جيوش السلطان سليم. وأما أمه فنازحة من دمياط، فلعلها بقية من سلالة بني أيوب. وأما هو فإنه ابن أمه وأبيه. . .

ونشأ نشأة أهله عل صلاح وتقوى ودين؛ لا يعرف له طريقاً إلا إلى المدرسة أو المسجد، فلم يبعثْ به الهوى مرة ولم يَغْترَّه الشباب. . .

وأتم في التعليم في مرحلتين، فأراد أبوه أن يلحقه بالجامعة، ولكن ميراثاً في دمه كان يزين له ركوب البحر فسافر إلى إنجلترا ليدرس فنون الملاحة ويتهيأ لما أراد. . .

وانتقل توفيق من جو إلى جو: من حي الجمالية في ظلال القباب والمساجد وأضرحة الأولياء؛ إلى دنيا الهوى ومسارح اللهو وملاعب الجمال. . . ورأى، وسمع، وعرف. . .

ونظرت إليه جارته الحسناء، فما كان إلا نظرة وجوابها حتى كانا ذراعاً إلى ذراع. . .

وعاد توفيق إلى غرفته في الفندق وقد أوشك الصبح، وإنه من صاحبته على ميعاد؛ وكأنما كان في حلم فاستيقظ؛ فلم يأو إلى فراشه إلا بعد ما أخرج دفتره ليكتب في مذكراته. إنها لحادثة جديرة بأن يذكرها في تاريخه - ثم أغمض عينيه ونام. . .

وعرف توفيق منذ اليوم أن في الحياة أشياء غير ما كان يعرف!. . . . . .

وكان في طريقه إلى صاحبته ذات مساء، حين اعترضت سبيله فتاة؛ ونظر ونظرت، ثم كان تاريخ، وذاق توفيق لوناً جديداً من ألوان الحب!

وعاد إلى غرفته ليكتب في مذكراته، وطوى صحيفة وبسط أخرى، وكتب. . .

وخلع توفيق وقاره وألقى بنفسه في تيار الحياة؛ وتتابعت حوادثه في فصول وأبواب، وامتلأت حقيبته صوراً وذكريات. . .

وتجرَّد توفيق من ماضيه، فلم يبق في ذكراه من صورة الأمس إلا رسوم حائلة يكاد يبليها النسيان؛ ولكن شيئين اثنين لم يغفلهما توفيق: دروس الملاحة التي هجر من أجلها وطنه وأهله ومذكراته التي يثبت فيها مغامراته في الحب كل ليلة قبل أن ينام!

وانتهى توفيق من دروسه؛ فالتحق بشركة كبيرة من شركات الملاحة الإنجليزية التي تجول في البحار بين سواحل القارات الخمس؛ وركب ظهر البحر يتنقل بين البلاد، وفي يده (حقيبة الذكريات) يثبت فيها فصلاً من مغامراته كلما هبط ميناء من الموانئ.

لم ينس واجبه قط في ليلة من ليالي الأرض أو ليلة من ليالي الماء. . .

لكأنما كان يجوب البحار على هذه السابحة لغاية واحدة، هي أن يذوق الحب في كل ميناء تّرسي فيه السفينة فيكتب ويصف. . .!

وذاق الحب في كل ألوانه، إلا اللون الواحد الذي يكون معه الدمع!

لقد كان يخلع حبه دائماً في الظلام قبل أن يفارق الغرفةَ المسدلة الستائر ويغلق الباب وراءه؛ فإذا عاد إلى غرفته من الفندق أو من السفينة بسط أوراقه وكتب؛ وتنتهي قصة حب؛ فلا يبقى منها إلا سطور مكتوبة!

ومضى توفيق على وجهه، والشر يغري بالشر. . .!

واجتازت السفينة مضيق جبل طارق في طريقها إلى الشرق، وأسرَّ إليه صاحبه (ماجدو) حديثاً فابتسم؛ ومضت السفينة بهما تمخر عباب الماء، واجتازت الدردنيل إلى البحر الأسود، لترسى في ميناء (كوستازا) على ساحل رومانيا، بلاد الجمال والحب وهبط توفيق وصديقه إلى البر، وراحا يضربان في المدينة ليذوقا الحب. . . الحب الذي ينتهي في الظلام، في غرفة مسدلة الستائر مغلَّقة الأبواب!

وقال ماجدو: إن في هذا المتجر يا صديقي فتيات للحب. . . لقد أخبرني صديقيَّ زار (كوستازا) من قبل. . .!

ودخل الصديقان المجر وراحا ينظران، ووقف (ماجدو) يتحدث إلى بائعة المناديل وذهب توفيق إلى جارتها؛ ونظر إليها ونظرت إليه، وتحدثت عينان إلى عينين؛ وقالت الفتاة بصوت مطرب: هل يريد سيدي. . .؟

ولكن توفيق لم يكن يريد شيئاً غيرها. . .

لقد ذاق توفيق من الحب ألواناً وفنوناً، ولكنه لم ير من قبل مثل هذا الفن وهذا الجمال!

لكأنما كان ينتقل في البحار من شرق الأرض إلى غربها ليدرك موعداً واعده القدر في

هذا المكان!
وإن صوتها لينفذ في أعماقه وله رجع بعيد كأنما كانت تهتف به من وراء البحار: إلي يا حبيبي إلي فأني أنتظرك منذ أزمان!
وأحس لأول مرة أنه وأنها. . . وأحست، وتواعدا على اللقاء!
والتقيا على موعدهما، وجلسا يتحدثان، وقال وقالت، وعرفت أن صاحبها مصري، فصاحت فرحانة: مصري؟ ما أجمل هذا! إن بيننا نسباً يا صديقي. إن أبي من تركيا، أعني جدِّي. إنني لست رومانية خالصة، ومع ذلك. . .
وسكتت (مارتزا) فلم تتم. لقد رأت في عيني صاحبها نظرة زعمت أنها تفهم معناها وأحس توفيق إحساساً جديداً منذ الساعة. إنه ليشعر كأنما يتحدث إليه القدر بلسان هذه الفتاة حديثاً لا يكاد يعيه. . .
وتناول يدها بين راحتيه، ومال عليها فقبَّلها، واغرورقت عيناه!
لقد جلس توفيق مثل هذا المجلس من قبل مراتٍ ومرات؛ ولكنه لم يكن في مرة منها في مثل حاله الليلة
هذه فتاة لم يعرفها إلا منذ ساعات؛ دعاها إلى خلوة للهو والشراب فما تأبَّتْ - ماله يُحس في مجلسها هذا الإحساسَ الغامض حتى لا يكاد ينظر إليها نظرةَ رجل إلى امرأة! وما باله يشعر في مجلسه منها كأنه قد ارتفع عن بشريته حتى ليستشعر الندم لأنه دعاها إلى هذا المجلس من مجالس اللهو الحرام!
وشعر كأن روحاً خفيّاً يهمس في نفسه، وشعاعاً لطيفاً من نور الله ينفذ إلى قلبه؛ فكأنما قام بينهما حجاب من الوهم يمنعه أن ينفذ إليها ويمنعها.
وأطاف به طائف فأطرق، ثم رفع إليها عينيه ونظر. . .
وامّحت فيه كلُّ معاني (الجنس) لتحل فيه معاني (الإنسان). . .
وفاء إلى نفسه بعد برهة فسخر من نفسه، وراح يقاوم هذا الطارئ الجديد في قلبه ويسكب في كأسها وفي كأسه؛ وأخذا يشربان!. . . وانتصف الليل وصحبته الفتاة إلى غرفته. . . فإنها لتعرف أن عليها لصديقها حقاً ينبغي أن تتهيأ له؛ فما يَدْعوها مثُله من رواد البحار إلا لمثل ذلك. . .!
ولكنه. . . ولكنه في تلك الليلة كان غيرَ من كان، ونام ونامت كما يقتسم الأخَوان الفراش. . .!
ولما قام ليودِّعها في الصباح إلى الباب، كانت مطرقة برأسها إلى الأرض وفي عينيها دموع!
وتلاقيا من بعد مرات، ودَعَتْه إلى زيارة أهلها فلبَّى، وتوثقت بينهما عقدة الحب على طهر وعفاف!
وذاق توفيق لوناً من الحب لم ينعم بمثله فيما فات من أيامه!
وقال لها: مارتزا! سنفترق يا حبيبتي؛ وستبحر السفينة بعد أيام لتضرب في مجاهل البحار؛ فاذكريني، واكتبي إليَّ كلما تهيأت لك فرصة!
وتغرغرت عينا الفتاة وقالت: توفيق! بربك لا تذكر الفراق! خذني معك! إنني لا أطيق!
وفكر الفتى قليلاً، ثم ذهب إلى الرُّبان يرجوه أن يقبل مارتزا وصيفة في السفينة. ولكن
السفينة لم تكن في حاجة إلى وصيفة على من فيها؛ فعاد توفيق إلى صاحبته ينوه بهمه!
وأبحرت السفينة بعد أيام، وراحت مارتزا تودِّع صاحبها، وهي تتجلد؛ ووقفت على الرصيف تلَّوح بيدها ويجيبها؛ ثم صفرت السفينة، وراحت تشق الماء، وسقطت الفتاة بين يدي أمها في غشية!
وحملوها إلى دارها، وجاء الطبيب؛ ولكن مارتزا كانت من الصدمة التي نالتها بحيث لا يجدي عليها احتيال طبيب!
وجلست أمها بجانب فراشها تبكي، ووقف الطبيب جيران، ولم تفق مارتزا من غشيتها!
وراحت السفينة تشق البحر بحيزومها، وعلى ظهرها توفيق وخلَّفت على الشاطئ فتاة بين الحياة والموت!
ولكن السفينة لم تكد تمضي على وجهها، حتى جاءتها الأنباء بأن المجاز مغلق في

طريقها، فعادت أدراجها إلى كوستازا، حتى يصدر إليها الأمر بالمسير
وأرست السفينة، فهبط توفيق مسرعاً إلى البر ليرى فتاته ويأنس بها ساعة، وهو لا يعرف من أمرها شيئاً
ودق الباب ودخل، وكانت تهذي باسمه، وفزع توفيق، وجرى إليها وهو يصيح: ماريتزا! ماريتزا!
وأفاقت ماريتزا بعد غشية يومين، وشفاها لقاءُ حبيبها حين عجز الطبيب
وثابت إلى الفتاة قوتها رويداً رويداً، ولكنها لم تفارق فراشها ولم يفارقها توفيق.
ومضت أيام، وصدر الأمر إلى السفينة باستئناف رحلتها. وخاف توفيق أن ينال الفتاة ما نالها أول مرة لو علمت أنه موشك أن يفارقها؛ فأسر الخبر إلى أمها لتحتال في أمرها. . .
ومضى توفيق ليؤدي واجبه في السفينة، وهو محزونٌ أَسوان وكان باقياً على إبحار السفينة ساعات حين جاءه الربان يسأله: (توفيق، إنك تعرف فتاة كانت تريد أن تعمل وصيفة في السفينة! فهل يمكن أن تدعوها الآن؟ إن إحدى وصيفاتنا مريضة وقد غادرت السفينة إلى المستشفى ونحن في حاجة إلى بديل!)
ولم يتلبث توفيق؛ فما هو إلا أن أسرع إلى صديقته يدعوها، وأبحرت السفينة وعلى ظهرها الحبيبان. . .
وكانت على رصيف الميناء امرأة عجوز تلوح بمنديلها!
توفيق وأخته، هكذا كان يعرفهما ركاب السفينة جميعاً: الملاحون والركاب
ومضت السفينة بهما تشق البحار من الشرق إلى الغرب، ومن الجنوب إلى الشمال، ينعمان بالحب وسعادة اللقاء، لا يظنان أن سيفرق بينهما شئ. وتمازجت روحهما حتى ليس بينها سر، وسالمتهما الليالي. . . ومضت سنوات. . .
وكانا في أحد الموانئ حين جاءت الفتاة برقية بأن أمها تحتضر!.
وكان الفراق؛ وباعدت الحادثات بينهما، ولكنه لم ينس، ولكنها لم تنس؛ فإنه ليكتب إليها وإنها لتكتب إليه!
وفعل به الفراق ما فعل حتى لا قرار له؛ فليس له أمنية من بعد إلا أن يعود ما كان!
وتصرمت السنون، والفتى في حنين دائم وشوق لا يُغْلَب!
وحنَّ توفيق إلى أهله، فآثر العمل في شركة مصر للملاحة ليكون جهاده لبلاده؛ ولم ينس (حقيبة الذكريات) فإنها لمعه أين يكون؛ يستروح منها نسمات الحب ويأنس إليها في ساعات الوحشة. . .
ومضت الباخرة (زمزم) تتهادى من ميناء السويس في طريقها إلى (جدة) في ديسمبر سنة 1938 وعلى ظهرها الملاح (توفيق) ثم أرستْ، وركب الحجاج الفلك إلى رصيف ميناء جدة، ومعهم توفيق مُحْرِما بالحج
وطاف الحجيج بالبيت ملبين ضارعين، ووقف الفتى حيث بدأ الناس، لا يتقدم ولا يتأخر؛
وحضرته الذكرى فرأى كتابه منشوراً على عينيه بما فيه من خطايا وآثام؛ وهمَّ يرفع رأسه، فما أطاق، كأنما يحمل أوزار السنين على كاهله؛ وتدَّنت عيناه بالدمع. . . وتذكر يوم كان. . . فتى يخطو إلى العشرين، في حارة (قصر الشوق) لا يحمل من هم وليس له ماض؛ فترامى على أستار الكعبة نادماً يستغفر، وانهملت دموعه على خديه. . .
وعادت (زمزم) تخطر على ثبج الماء، وعلى ظهرها ركابها مهللين داعين ترف على شفاههم بسمات الرضا والاطمئنان!
وعاد توفيق إلى غرفته من السفينة راضياً مبتسماً طاهر القلب كما كان يوم ركب السفينة أول مرة من ميناء الإسكندرية منذ تسع سنين ليتعلم الملاحة
ونظر إلى متاعه فرأى. . . وكأنما برزت حقيبة الذكريات لعينيه أول ما نظر لترده إلى ذلك الماضي الذي رماه عن كتفيه منذ قريب!
ونازعته الذكرى فَخار عزمُه وأحس في نفسه الوَهن؛ واصطرعت في نفسه قوتان، فعاد ينظر إلى الحقيبة بين لهفة وندم وإشفاق، ثم دنا منها فتناولها ومشى بطيئاً ثقيل الخطو حتى بلغ ظهر السفينة. . . وطوَّح بها وهو يقول: (أيها الماضي الذي كان، اذهب إلى غير مَعَاد!)
وفرغ صديقي من قصته؛ فما كان يبلغ نهايتها حتى اختلجت شفته وتندَّت عيناه بالدمع؛ ثم أردف. . .

يا صديقي! لقد أذكرتَني ما كنت أريد أن أنساه وحسبتُني قد فرغتُ من أمره منذ عام وبعض عام؛ فإني لأحسُّ الساعةَ أن الجرح الذي اندمل قد عاد يَدْمَي!. . . لا لا، ولكنه ماض قد انطوى وفرغتُ من أمره!

وصمت ساعة، وانطفأ بريق عينه وأطرق؛ ثم عاد فرفع رأسه وكأنه عائدٌ من سفر بعيد. . . ثم تناول قلمه وبسط بين يديه ورقة وراح يكتب إليها:

(عزيزتي مارتزا!

(. . . . . .)

محمد سعيد العريان

من هنا ومن هناك

هل تصبح أوربا ولايات متحدة نازية

(ملخصة عن (ذي ساين) نيويورك)

إذا انتصرت ألمانيا في الحرب الحاضرة، فليس لهذا الانتصار غير نتيجة واحدة: هي أن تصبح أوربا ولايات متحدة نازية. فهل وازن مستشارو دول وسط أوربا هذا الاحتمال؟ أم أنه مجرد وهم وتخمين؟ لقد طرحت هذا السؤال للبحث مع عضوين من كبار رجال السلك السياسي البريطاني. أحدهما يقيم في (صوفيا) والآخر في (ببودابست).

فجاء في حديث الأول عن الدول البلقانية: أن كل إنسان في الجنوب الشرقي لأوربا يشعر بأنه مهدد بالموت من يوم لآخر. فقد أصبحت ألبانيا خنجراً مصوباً إلى قلب البلقانيين. وسواء أكانت السلم أم كانت الحرب، فلا يخال أحد أن موسليني يخرج من هذه الأزمة، ولا ينال من الفطيرة نصيبه الأوفى. قد يكون موسليني أكثر صبراً من هتلر وأبعد نظراً، ولكن مما لاشك فيه أنه أكثر رجال السياسة الحاليين نظراً للواقع. وإذ كان موسليني مؤسس الإمبراطورية الرومانية الحديثة، فهو على هذا الاعتبار يعد من المتهمين بمذهب التوسع

وقد جاء في حديث الثاني: أن ثمانين في المائة من تجارة هنجاريا تتقاسمها دول المحور. ويبلغ ما تدفعه ألمانيا إليها في تجارة الحبوب ضعف ما تدفعه الدول الأخرى أما إيطاليا فتستورد ما لديها من البرتقال والليمون، وزيت الزيتون والحرير. ولا يصح هنا أن نهمل الصلات الجغرافية والاقتصادية التي تربطها بتلك البلاد. لا شك أن هؤلاء الهنجاريين الذين يبلغ عددهم أحد عشر مليوناً، شعب شجاع منتج؛ ولكننا ونحن لا نعدو أن نكون أصدقاء نراقب الأمور عن كثب، لا نشك في أن هنجاريا لا تستبقي اليوم من استقلالها أكثر مما كان للنمسا قبل الحالة التي طرأت عليها أخيراً. إن اليوم الذي يموت فيه الأدميرال (هورثي) وهو في السبعين من عمره الآن، سيكون علامة لتغير جوهري في حياة تلك البلاد

ومن رأيي أن سادة النازي يقصرون وقتهم للسعي وراء السيادة. وهم اليوم في حاجة إلى هنجاريا باعتبارها قنطرة بين الريخ والبحر الأسود. وينقل الزيت، والحبوب، والخشب، والمعادن من الشرق إلى الغرب عن هذه الطريق. ويرى هتلر، وجورنج وفرانك هيس أن

الألمان يجب أن يطعموا شيئاً غير البطاطس هذا الشتاء.

وفضلاً عن هذا، فإن هنجاريا تعد عاملاً قوياً في نظر النازي للتوغل في رومانيا. ففي اللحظة التي يشعر فيها الهنجاريون بأن قوى الريخ الحربية من ورائهم سيثيرون العاصفة على الجبهة الرومانية. أما روسيا التي أصبح لها مركز ممتاز في البلطيق، فهي تطمع في توطيد مركزها في البلقان، فقد كانت فكرت الحصول على نافذة تطل على البحر الأبيض المتوسط حلم رجال السياسة الروسية منذ عهد بطرس الأكبر. ومن السهل مهاجمة القسطنطينية وهي العاصمة السابقة للبلاد التركية من الناحية البرية

وإذا كانت تركيا تقف اليوم بين عدوين قويين، فإننا لا نستطيع أن نعرف موقف الدتشي في هذه الظروف. إن الدتشي قد ينذر أو يحذر أو يهدد بالحرب، ولكنه في الواقع لا يستطيع أن يتقدم أو يتحرك. إذا جد الجد تبين مواطن الخطر!

إن المشكلة الحقيقية التي يعانيها موسوليني، هي ارتباطه مع هتلر لإلغاء معاهدة فرساي في وقت لم يستطيع أن يقدر فيه موقف الشعب الإيطالي بإزاء فرنسا التي ارتبط معها بصلات لم تنفصم عراها منذ 125 عاماً.

إن الوقت والمال يعملان لمصلحة الحلفاء، ولا شك أن الوقت والمال يعملان لمصلحة الحلفاء، ولا شك أن الذهب في هذه الحروب الطويلة له الغلبة على السلاح. فإذا لم يقدم موسوليني لموازنة القوى، فقد وصل حليفة أدولف هتلر إلى نهايته

البلشفون هم فاشيون

(عن مجلة (باربيد))

كتب الصحفي والمؤلف المشهور (فنست شيان) مقالاً في العدد الحديث من (كارنت هستوري) التي تصدر في نيويورك قارن فيه بين البلشفية والفاشية

ويقول (فنست شيان) في هذا المقال إن البلشفية هي في الحقيقة نوع من الفاشية في ثوب اشتراكي خداع. والفاشية قائمة على التغرير بعقول الناس بالادعاءات والوعود الخلابة والآمال التي لا ظل لها من الحقيقة، فتخلع على العبودية المريرة ضوءاً خلاباً من ألفاظ البطولة والتضحية حتى تكون آلامها ومتاعبها سائغة المذاق إلى حد ما. وقل أن تختلف الوسائل التي تتبع في ألمانيا عنها في روسيا، فالشعب في كلا البلدين يقوم بأشق الأعمال

ويتناول عنها أقل الجزاء. وهكذا أتيح للحكومات الفاشية والبلشفية أن تخدع الملايين من المستعبدين!

إن حجر الزاوية في الحكم الفاشي هو تمجيد التضحيات القاسية التي تفرض دون حد على الأهليين، وإخضاعهم للعبودية الممقوتة بإذكاء عواطفهم نحو الرقي والتقدم. وقد سار هذا المبدأ بنجاح في روسيا كما سار في ألمانيا على حد السواء. وما زال الملايين من العمال في روسيا، وكذلك في ألمانيا مساو بين كل حق. فلا يستطيعون اختيار العمل الذي يريدونه، أو المكان الذي يسكنون فيه، ونوع التسلية التي يرغبونها معتقدين - وهذا ما يسمعون على الدوام ولا يسمعون شيئاً غيره - بأن هذا هو النوع الرفيع من الحياة التي يجب أن تسود العالم أجمع بفضل جهادهم ولكن الفاشية الروسية كانت أو ألمانيا ليست في الحقيقة نظاماً دولياً عاماً سواء من الناحية الفكرية أو الناحية العملية. بل هي على النقيض من ذلك، فقد ثبت أنها تقدس العصبية وترفع الوطنية إلى حد لم يسبق له مثيل في تاريخ العالم

وتعمل الدعاية الروسية بكافة الوسائل لإقناع الشعب بأن حكومة روسيا السوفيتية تمتاز في سائر أعمالها على حكومات العالم، وأن الشعب الروسي خير من سائر الشعوب، وأن الجيش الروسي أفضل الجيوش التي في العالم.

لقد كانت البلشفية التي دعا إليها لينين وتروتسكي على شئ من المنطق، لذلك كانت غير فاشية، وكذلك كانت تحمل معنى الدولية أما بلشفية ستالين، فتبدأ بنظرية (الاشتراكية داخل المملكة المنفصلة)

فإذا فرضنا أن الفاشية أتيح لها أن تتغلب على أوربا، فسوف لا يستقر لها أمن أو سلام، إذ أن مبادئها القائمة على تأليه الجنس، وتقديس الوطنية، ودعوى التفوق والامتياز سوف تصطدم بمبادئ الأمم الأخرى التي تزعم لنفسها مثل هذه المزاعم

إن الفاشية لا تحتمل دعوى التفوق أو المساواة من أي شعب من الشعوب. والعقل الفاشي يعتقد كما يقول موسليني - أن السلم ما هو إلا فترة بين الحروب - وخير ما تفعله الإنسانية هو أن تقضي هذه الفترة في التدريب والتأهب على الدوام

فإذا أصبحت أوربا قارة مقسمة بين فاشية ستالين وهتلر وموسليني، فمعنى ذلك أن أوربا لا

تخرج من الحرب إلا لتعود إليها، ولكن الحرب في هذه المرة لا تكون إلا بين الفاشيين المتنافسين

البريد الأدبي

كتاب كريم

تفضل إمام المسلمين الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر فقرأ كتاب (وحي الرسالة) ثم أرسل إلينا هذا الكتاب الكريم:

عزيزي الأستاذ أحمد حسن الزيات

إن كثير الثناء عليك ليقل بجانب ما تسديه للأدب والعربية والثقافة من جهد وفضل. فما أنا ببالغ حق الثناء عليك وإن أطلت وتأنقت، ولاحق تقديرك وإن أطنبت وجودت. وعجيب آلا يكون لوحي الرسالة، فما هو إلا جني أشجارها، وزهرات أغصانها، جمعت

في باقة واحدة بعد أن كانت متناثرة، وقربت إلى اليد بعد أن كانت متباعدة. ولقد كنت في هذه الفصول مترجماً صادقاً منصفاً للتاريخ فيمن ترجمت لهم من الرجال؛ وكنت مصوراً ماهراً فيما صورت من عيون الجميع وآلام الحياة، وأبرزت خفايا النفوس ودبيب الهواجس حتى لتكاد تلمس وتحس؛ وقبل هذا كنت محيطاً أحاط دقيقة بما عرضت له من بحوث. كل أولئك بأسلوب رصين نقي الجوهر تتصل فيه بأسلافك الأولين من فحول العربية والأدب، ممن أثاروا فيك فجريت على سننهم دون أن تقصر، وسرت على نهجهم دون أن تحاكى

ولست أملك بعد إلا أن أدعو لك بحيات طويلة سعيدة يدوم لك فيها الإلهام، فتثابر على رسالتك حتى يقرأ لك الناس مجلدات عديدة من وحي الرسالة

والسلام عليك ورحمة الله

(مارس سنة 1940 6)

محمد مصطفى المراغي

غبرات لا غبارات

قال شيخنا أبو عثمان الجاحظ في (كتاب الحيوان) يذكر ما يعرض للكتاب المنسوخ من آفات الناسخين:

(. . . ثم يصيرُ هذا الكتاب بعد ذلك لإنسان آخر، فيسير فيه الورّاقُ الثاني سيرةَ الورَّاق الأوّل؛ ولا تزال تتداوله الأيدي الجانية، والأعراض مفسدة، حتى يصير غَلَطاً صرفاً وكذِباً مُصْمتاً. فما ظنكم بكتاب يتعاقبه المترجمون بالإفساد، وتتعاوره الخطّاط بشرٍّ من ذلك (أو بمثله . . ، كتاب متقادِم الميلاد دهريّ الصنعة

ولم يزل أئمَّتنا وعلمائنا وأصحاب العقول من شيوخنا، يريدون الكلام المنقول المكتوب إلى العقول - بعد التحري للفظه المكتوب - اتقاءً لما عرفوه من تحريف الناسخين، وانتحال المبطلين وغفلت الجاهلين. نحن إنما نمضي على سنتهم - أن شاء الله - ولا نقف عند القول نخرُّ عليه تعبُّداً لحروفه، وخضوعاً لنصِّه. ولئن فعلنا لمحق الله منا نصف العقل وبقى النصف الآخر متردِّداً بين قال فلان وكتب فلان

وعلى ذلك، فقد صححنا قول ابن شبرمة في رواية صاحب العقد الفريد في العدد . . . (347) من الرسالة، فجعلناه (ذَهبَ العلم إلا غبرات في أوعية سوء)، ورفضنا نص العقد هو: (إلا غبارات). ثم رأيت في البريد الأدبي من الرسالة (349) كلمات للدكتور بشر فارس يردّ ما ذهبنا إليه بثلاثة براهين نثبتها بالترتيب من تحت إلى فوق:

الأول: أن الحرف (غبارات) قد وَرَد كذلك في جميع نسخ العقد الفريد المطبوعة، وكذلك في مخطوطة منه بدار الكتب يُظَنُّ أنها كتبت في القرن السادس

الثاني: أن هذا النص يصحُّ لغة وأداءً وبياناً. وإذا صحّ كذلك فمن الاستبداد أن يُرَد على الهوَى

الثالث: مخالفة نهجنا في ذلك لنهج علماء الفرنجة (المستشرقين). وجوابنا على الترتيب من تحت إلى فوق:

أننا أدرى بأساليب هؤلاء الأعاجم الذين اتخذوا العربية عملاً من أعمالهم - من أن نخالفهم في الجيد من مذاهبهم، فتحرير النص ومراجعته على جميع النسخ التي ذكر فيها وما إلى ذلك عملٌ ضروريٌ لكل باحث. ولكن هؤلاء الأعاجم تقعد بهم سلائقهم عن معرفة أسرار العربية، فلم يتجاوزوا الوقوف عند النص المكتوب، وذلك لعجزهم عن بيانها. فلما عرفوا ذلك من أنفسهم، كان من أمانتهم أن يتوقفوا، فلا يقطعون برأي في صواب أو خطأ. وهي أمانة مشكورة لهم

ولكن العربي إذا أخذ بأسبابهم، فلابُدَّ له من أن يهتدي بعربيته إلى ما عجزوا عنه باعجميتهم، فكذلك فعلنا في كلمة ابن شبرمة وقلنا (إنه نصٌّ عربيٌّ مُظلم النور). وبيان ذلك

أنه ليس من قياس العربية أن يجمع (غبار) على (غبارات) ولا غيرها من الجموع، وأن ابن شبرمة لم يُردْ تحقيرَ العلم نفسه فيجعل ما بقى منه (غباراً)،

وإنما أراد أنه بقي من العلم شي هو من صحيح العلم، ولكنه وقع في صدور رجال من أهل الباطل يفتونَ الناسَ يضِلّ بهم من يضِلّ إذ يحسبونهم لا ينطقون بباطل ما داموا أصحاب فقه ودين وعلم. ولم تكن الشهادات وألقابها عرفت لعهد أبن شبرمه حتى تكون هي التي تقدر العلماء وتميزهم للناس، وإنما كانوا يتميزون بالعلم، فإذا لم يكن

علم لم يعدهم الناسُ في العلماء. ثم إن الغبارَ لا يمكن أن يُوكى عليه في وعاء حتى يصح أن يجعل - ما أغلقت عليه صدورهم من بقية العلم - غباراً. فلو صح نص العقد لكان المراد تحقير العلم وأصحابه جميعاً

وأخيراً، فنحن نرفض نص العقد من جهة بيان العربية وتحريرها، ونقول: إنه لا يصح أن يروى إلا هكذا: (ذهب العلم إلا غبرات في أوعية سوء). وإذا كان الدكتور بشر أو غيره يريد أن ينحاز إلى رأينا بنص آخر، فلا بأس علينا أن ندله عليه فقد روى ابن عبد البر في كتابه (جامع بيان العلم وفضله) - المطبوع في سنة 1346 عن نسختين قديمتين: إحداهما للإمام الشيخ الشنقيطي، وعليها خطه في الجزء الأول منه (ص 153 سطر 6) بإسناده إلى محمد بن سيرين (وليس ابن شبرمة) قال: (ذهب العلم فلم يبق إلا غبرات في أوعية سوء). فهذا نص، وهناك نصوص غيره؛ فمن شاء أن يبحث فليبحث، ونصيحتنا إلى من عنده نسخة من العقد - أي الطبعات كانت - فليصححها بالذي أثبتناه، وما سوى ذلك، فهو - كما قال - أبو عثمان: غلط صرف وكذب مصمت. . . والسلام

محمود محمد شاكر

الأدب الإنجليزي والروح الإنجليزية

ألقى الأستاذ دوفر ويلسون، أستاذ البلاغة والأدب الإنجليزي في جامعة أدنبره، بعد ظهر الاثنين الماضي في المدرسة الإنجليزية بالإسكندرية، أولى المحاضرات التي دعي إلى إلقائها من إنجلترا، وكان موضوعها (الأدب الإنجليزي والروح الإنجليزية). فأستهل كلامه بقوله إن بريطانيا استطاعت أن تعمر نصف أقطار العالم، وإنها تعد مهد الديمقراطية

ومؤسسة الصناعات الحديثة، وفيها نشأ باكون ونيوتن وداروِن. وقد تسنمت من الخيال الذروة العليا حيث يتربع شاعرها العظيم شكسبير كأنه إمبراطور تقدم له أمم العالم فروض الطاعة والولاء

ثم قال إن الأدب الإنجليزي أقدم أنواع الأدب الحديث، إذ يرجع عهده إلى القرن الخامس الميلادي، أي قبل أن يجد الإنجليز والسكسونيون طريقهم إلى بريطانيا، وبين هذا التاريخ وبين غزو النورمانديين للبلاد مضت ستة قرون، كانت حافلة كلها بالشعر والنثر.

وعرض للصفات التي كان يتحلى بها من ترنموا بالشعر في هذا الحين، فأبان أنها كانت هي نفسها ما يتحلى به الخلق الإنجليزي الآن، فالبريطانيون يذهبون إلى الحرب وكأنهم ذاهبون إلى مشاهدة مباراة في كرة القدم.

ثم أبان أن تاريخ الأدب الإنجليزي كان دائماً تاريخاً لقوة هذه الأمة يتمشى مع انتصاراتها في مختلف الحروب التي خاضتها، قال: إن أهم الظواهر التي تلفت النظر فيه اعتماده على آداب اللغات في البلدان الأخرى إلى حد كبير. ولقد ظهرت في أوربا اليوم اصطلاحات كثيرة كالأوتقراطية والعنصرية، ومقدرة الدولة على سد حاجاتها بنفسها، فلم يلفت هذا نظر الشعب الإنجليزي ولم يثر إعجابه، لأن قوة إنجلترا تتوقف على اختلاط أجناسها ومقدرتها على إدماج العناصر الجديدة فيها. لهذا كان قليلاً أن تجد لغات ركب أصلها من عدة عناصر كاللغة الإنجليزية، وكان أقل من ذلك أن تجد أدباً اعتمد على مختلف المصادر كالأدب الإنجليزي.

وقد رد الأستاذ ولسون هذا إلى أن الكتاب الإنجليز نهلوا من كل مورد، وضرب كثيراً من الأمثلة: فقال: إن الشاعر العظيم شوسر، من أكثر شعراء الإنجليز الذين تأثروا بشعر الفرنسيين والطليان. ومنذ عهد الإصلاح إلى مستهل القرن الثامن عشر كان الأثر الروماني والإغريقي هو السائد في الأدب الإنجليزي. وفي خلال هذا القرن تلقى الإنجليز أصول الأدب على الفرنسيين. وفي أوائل القرن التاسع عشر كانوا يدينون لألمانيا إلى حد كبير. وفي الوقت الحاضر تدين الدراما الإنجليزية بوجودها للشاعر النرويجي ابسن. وكذلك تأثر كتاب الروايات القصصية من الإنجليز بالكاتب الروسي الشهير دستوفسكي.

ثم قال إنه إذا صح القول بأن إنجلترا منفصلة عن أوربا، فإن هذا الوصف لا ينطبق عليها

في الواقع من ناحية الأدب. وقد يكون من متناقض القول أن شعباً كالشعب الإنجليزي عرف بأنه أنجب في ميادين السياسة والعمل والتجارة رجالاً أفذاذاً لا يكون أيضاً من

أوائل الشعوب في ميادين الأدب بجميع أنواعه
وذكر المحاضر بعد ذلك أن إنجلترا لم تتزعم دول العالم في الصناعة والتجارة فحسب ولكن في الرياضة أيضاً. وإن الإنجليز في الوقت نفسه أكثر الشعوب تديناً. وقد يكون أهم ما يلفت النظر عند زائر إنجلترا أن يلاحظ أن الشعب الإنجليزي شعب لا يعرف اللهو، أو هم كما يسمونهم (يلهون بحزن) ولكن قلما يوجد شعب آخر في بساطة الطفل ووداعته مثلهم.

وبعد أن ذكر الأستاذ ويلسن أنه يجوز أن تتحد هذه العناصر من الرياضة والشعر والخوف من الله، وتؤلف ظاهرة غريبة، فإن رجال الأدب في إنجلترا هم بدون شك من أشد الناس تمسكاً بأهداب الدين والفضيلة قال إن الفلسفة والفضيلة كانتا على الدوام رائد الشعراء الإنجليز فيما أنتجوا. فهذا ملتون كان يعمل في كتاباته ليظهر للناس طريقهم إلى الله. وكذلك كان يفعل من قبله لانجلاند وسبنسر وبوب ووردثورث وتيسون وبراوننج وغيرهم؛ حتى شيللي، ولم يكن يعترف بالله، كان يبشر في كتاباته بإنجيل اجتماعي جديد. وقد ابتدأ ذلك منذ العصر الفيكتوري، وما زال حتى الآن يحمل لواءه أشهر الكتاب الحاليين أمثال برناردشو وولنر وهيكسلي

وهناك من يتهم هذا النوع من الكتابة بأنه ليس من الأدب في شئ، ولكن الأدب لم يكن في يوم من الأيام يتوقف على عقيدة الشخص، وإنما يتوقف على أسلوبه، وهذه كتابات بانيان التي لا تخرج عن أنها دعاية دينية، فهي تعد عملاً أدبياً عظيماً.

ولما كان الإنجليز في جميع العصور يدينون سياسياً إما بمبدأ الأحرار، وإما بمبدأ المحافظين، فإنه ليس غريباً أن كان لهذين المبدأين شأن أي شأن في الأدب الإنجليزي.

وقد كان شوسر من أصحاب المذهب الأول، وقد عرف عنه العطف على كل مخلوق، وإحساس رقيق، واهتمام خاص بالحياة العادية للرجل العادي في حين كان معاصره لانجلاند على نقيضه، إذ كان من أنصار الأحرار الذين يعتقدون بالمثل الأعلى للإنسان وأما من وجهة شكسبير، فهي تماثل شوسر ولكن على نطاق أوسع، فقد كان شكسبير من أشد رجال الأدب الكاثوليكيين في العالم تديناً.

وفي نفس هذا العصر ظهر ميلتون أكبر شاعر بروتستنتي دعا إلى التعصب لمذهب الراديكالية البريطانية في أوسع حدودها. وكان يعتقد بالقضاء والقدر في حياة الإنسان.

وبعد أن أبان المحاضر أن هذه التفرقة نفسها قائمة بين أشعار وردزورث وشيللي، ختم كلامه بقوله: لقد كان للحرية في كل عصر أنصارها المتحمسون؛ ومع أن ثمن الحرية غالٍ مرتفع، فإن إنجلترا قبلت أن تدفعه عن طيب خاطر ولو كلفها ذلك دم أعز أبناءها. ولكي يفهم الأجنبي الروح الإنجليزية على حقيقتها يجب عليه أن يدرس الشاعر وردزورث الذي تتميز أشعاره بإنجليزيتها عن جميع الشعراء.

وكما حارب الإنجليز في عام 1911 الدانمركيين وهم لا يحملون لهم حقداً ولا ضغينة، كذلك نرى هذه الروح هي المتغلبة عليهم في جميع حروبهم وهي نفسها الروح التي تتسلط عليهم في حربهم الدائرة رحاها اليوم.

اختراع جديد في طب الأسنان

نشرت المجلة الطبية الأمريكية أن طبيب أسنان من ميشيجان وفق إلى إجراء عمليات جديدة في جراحة الأسنان ستحدث قريباً ثورة في عالم طب الأسنان. وتقول المجلة المذكورة أن الطبيب يخلع الأسنان الفاسدة والمسوسة من أفكاك مرضاه؛ وبطريقة خاصة من اختراعه يردها إلى مكانها من الفك بعد تنظيفها وإزالة الأجزاء الفاسدة والتي مشى فيها السوس.

وتعاد السن إلى التجويف وتستقر في مكانها الأصلي بواسطة جبيرة من الذهب حتى تنمو حولها اللثة والنسيج. والأسنان التي تعد بهذه الطريقة تصلح للعمل مدة أقلها عشرة سنين.

حول آلهة الكعبة

قرأت العدد الممتاز من رسالتكم الزاهرة الخاص بذكرى هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم، فأقدم لكم جميل الشكر والثناء على عنايتكم بهذه الذكرى المباركة، كما

أتقدم بالحمد لحضرات الكتاب الكرام الذين عاونوا على إصدار العدد بما جادت به قرائحهم. بارك الله
فيكم وجزاكم عن نبيه وعن الإسلام والمسلمين خير الجزاء
ولقد استوقف نظري عنوان قصيدة الأستاذ الشاعر محمود حسن إسماعيل (آلهة الكعبة) بإضافة آلهة إلى الكعبة. فالتحاور في القصيدة محصور بين مناة واللات والعزى، وليس واحد من هذه الثلاثة من أصنام الكعبة، بل لم يكن واحد منها داخل الكعبة ولا حولها. فمناة كان منصوباً على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد بين المدينة ومكة. واللات كانت بالطائف وكانت موضع منارة مسجد الطائف اليسرى اليوم. والعزى كانت بواد من نخلة الشامية يقال له حُراضٌ بإزاء الغمير عن يمين المصعد إلى العراق من مكة. راجع كتاب الأصنام لأبي المنذر هشام بن محمد الكلبي: ص13 و16 و18
وقد يعتذر عن هذا الإبهام بأن إضافة آلهة إلى الكعبة لأدنى ملابسة كما يقول النحويون في مثل هذا، كما قد يقال أيضاً إن ما تضمنته القصيدة إنما هو أسطورة غير واقعية بل خيالية فاضت بها قريحة الشاعر، وقد أشرتم إلى هذا في الرسالة. غير أنه حدث أن بعض طلاب العلم كانوا يزورونني وأحدهم يسمعني بعضاً من المقالات والقصائد من عدد الرسالة حتى قرأ (آلهة الكعبة) فتبادر إلى ذهن البعض منهم أن هذه الأصنام كانت في الكعبة فصححت لهم مما ظنوا. وتبن لي أن ما اشتبه على هؤلاء ربما أشتبه على غيرهم؛ لذلك رأيت أن أكتب إليكم هذه النبذة إيضاحاً وكشفاً لهذا الإبهام غير المقصود:
ومما يناسب هذا البحث ما رواه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم مكة أبى أن يدخل البيت (الكعبة) وفيه الآلهة، فأمر بها فأخرجت، فأخرج صورة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في أيديهما الأزلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قاتلهم الله! أما والله لقد علموا ما اقتسما بها قط، ثم دخل فكبر في نواحي البيت. (مسند الإمام أحمد ج1 ص 334)
محمد صبري
إلى الأستاذ إسماعيل أحمد أدهم
قرأت مقالك في عام الفيل وميلاد الرسول فأعجبني رأيك في تحقيق ذلك الميلاد، وكنت موفقاً كل التوفيق في تأييدك وجود الفيل في حملة الأحباش. وقد أشكل علي في مقالك أمور
أعرضها عليك لتتفضل بإيضاحها
1 - ذكرت أن النجاشي كان يرى أن فكرة هذه الحملة خيالية لا يمكن تحقيقها، فكيف يعلم النجاشي هذا وهو من شعب فطري، ثم يغيب على الروم وهم أهل علم وثقافة ودراية بفنون الحرب وطبائع البلاد؟
2 - وذكرت أن مساعدة النجاشي للروم لم تكن ممكنة من جهة الخليج الفارسي، لأنه لم يكن له أسطول ينقل به جنوده إليه، مع أنك ذكرت أنه كان للروم أسطول بالبحر الأحمر والمحيط الهندي، وأن هذا الأسطول هو الذي نقل جنوده الأحباش إلى اليمن، وكانت الأفيال تأتي به إليهم من الهند
3 - وذكرت أن الأحباش تعرضوا للحجاز بتحريض الروم، ثم عدت فذكرت أن الأحباش لم يكن قصدهم التعرض للحجاز، وإنما كانوا يقصدون مساعدة الروم
4 - ويفهم من كلامك أن المرض والوباء الذي حصل للأحباش عند وصولهم إلى مكة لم يكن بعناية إلهية، وأن أهل الحجاز هم الذين فهموا ذلك حين فهموا خطأ أن الروم يقصدون هدم الكعبة، ولكن الأمر في هذا لا يقف عند فهم أهل الحجاز فقد جاء القران الكريم موافقاً لما فهموه من تلك العناية، وذلك في قوله تعالى: (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل، ألم يجعل كيدهم في تضليل) الآيات
5 - وقد جعلت الرواية اليونانية تناقض الرواية العربية في سبب حملة الأحباش، مع أنه لا يتناقض بينهما، والشيء الواحد قد تتعدد أسبابه، ولا يضير الرواية العربية أن تجهل أمر سفير الروم إلى النجاشي، لأن ذلك جرى بين النجاشي وجوستنيان، ولم يكن العرب في ذلك الوقت في حالة تمكنهم من الاطلاع على هذه السفارة
(قارئ)
سؤال

جاء في مقال الأستاذ الكبير عبد الله عفيفي بك بالعدد الممتاز (ميراث لا وارث له):
(وما كان أقوى تلك الطفلة الناشئة عائشة بنت أبى بكر حين اقتحم رجال قريش عليها البيت. . . ولطمها الشريف النذل أبو جهل بن هشام لطمة لطارت قرطها من أذنها لتتكلم
فما نطقت إلا بعبرة واحدة سقطت من عينيها على الأرض).
وجاء في قصيدة الأستاذ محمود الخفيف بالعدد نفسه (في الطريق إلى يثرب):
حيِّيا أسماَء كالطيف الرفيق ... تسرق الخطو على هول الطريق
يا ابنة الصدِّيق هل من نبأ ... للرفيقين عن الشرك وثيق
أمسكي عن لطمة فاجرة ... طرحت قرطك من وغد صفيق
فيتضح من مقال الأستاذ عفيفي بك أن لطمة أبى جهل كانت لعائشة بنت أبى بكر، ومن قصيدة الأستاذ محمد أن اللطمة كانت لأسماءَ. فعلى أي شئ جاء هذا الاختلاف؟ أَسَهَا أحدهما فأورد القصة على غير ما هي، أم ماذا؟
(صا الحجر)
السيد محمد أحمد الفقي
(الرسالة):
الصحيح أن اللطمة كانت لذات النطاقين أسماء، أما ذكر عائشة فهو سهو
(جواب)
سأل (قناوي) عن كلمة وردت في كتاب (تاريخ الأدب) الذي ألَّفه مؤلفو وزارة المعارف العمومية! حيث زعموا أن أبا دهبل الجمحي من شعراء المخضرمين (بين الجاهلية والإسلام) وقالوا إنه مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبياته التي أولها:
إنّ البيوت معادنُ، فِنجارُه ... ذَهَبُ وكلُّ بيوته ضَخْمُ
ونحن نقول إن الأساتذة المؤلفين قد بلغوا الجهد وسلكوا الحجَّة واهتدوا بأساليب الثقاتِ من أصحابهم في الاستنباط والتحقيق العلمي، فأهدوا إلى العربية ما كانت تجهل من ميلاد أبي دهبل الجمحي! وكان طريقهم إلى ذلك أنهم رأوا في شرح الحماسة للتبريزي ج 3 ص 75 ما نصه:
ثم ذكر الشعر، (قال أبو دهبل الجمحي - وقالوا يمدح النبي صلى الله عليه وسلم) فاستخرجوا من ذلك أن أبا دهبل مخضرمٌ. وهذا نهايةٌ في التحقيق
أما تحقيقنا فهو يخالف ما ذهبوا إليه، فإنك إذا قرأت شرح هذا البيت رأيت التبرزي يقولُ
في شرح قوله (وكلّ بيوته ضخمُ): (يعني ما اكتنفه من أخواله وأعمامه من بني هاشم وأمية ومخزوم) والتبريزي لا يجهل بلا شك أن بني أمية وبني مخزوم ليسوا من أعمام رسول الله وأخواله، وهو يعلم بلا شك أيضاً أن الأبيات في مدح عبد الله بن عبد الرحمن ابن الوليد بن عبد شمس بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم المخزومي (ابن الأزرق) كما جاء في الأغاني، وهو الذي أعمامه وأخواله من بني هاشم وبني أمية وبني مخزوم
وإذن فصوابُ العبارة في التبريزي على ما نظن: (وقالوا: وهو أحق بمدح النبي صلى الله عليه وسلم) فوقف عليها بعض النساخ فلم يفهمها، فحذف قوله (وهو أحق)، فصار الكلام (وقالوا يمدح النبي. .) وصار أبو دهبل في زماننا هذا مخضرماً بعد أن عرفه علماء العربية كل هذه القرون شاعراً أموياً.
(م)
الكُتب
من التاريخ الإسلامي
تأليف الأستاذ علي الطنطاوي
يصدر في الأيام القريبة هذا الكتاب الأستاذ علي الطنطاوي مصدراً بهذه المقدمة (البليغة. ونحن نسارع إلى نشرها تعريفاً بالكتاب تعريفاً بالكتاب وتشويقاً إليه)
لو رجعت إلى أصول هذه القصص التي يشمل عليها هذا الكتاب، لرأيت أنها لا تجاوز بضع صفحات (من التاريخ الإسلامي) متفرقة في مواضيع منه شتى، وفصول مختلفة لا يتنبه إليها القارئ ولا يقف عليها. وليست أروع ما في تاريخنا ولا هي من أروع ما فيه، وإنما هي أخبار عادية استطاع قلم الأدب أن ينسج منها هذه القصص وأن يعرضها على

الناس شيئاً جديداً أو هو كالجديد. فكيف إذا تولاها قلم أقوى من هذا القلم؟ وكيف إذا اختار لها مواقف من التاريخ رائعة عظيمة حقاً؟

وإذا كان أصل هذا الكتاب الذي تفرع عنه، وأساسه الذي بني عليه، بضع صفحات من هذا التاريخ العظيم فكم صورة رائعة، وكم قصة بارعة، وكم من الآثار الأدبية الخالدة يمكن أن تخرج من هذا التاريخ؟

أما إن ذلك ليزيد عن العدد ويجل عن الحسبان، وإن السيرة وحدها لتمد الأدب بألف كتاب أدبي. . . ولكن أدباءنا لم يردوا هذا المورد!

وليست هذه القصة كاملة ولا هي الثمرة الناضجة لهذه الدوحة الباسقة، ولكنها بواكير ثمارها، وإن فيها لنقائص وعيوباً أدرك أما الآن بعض منها، وإن عشت وقدر لي الله أن أسلك سبيل الأدب سلوك المسافر المطمئن، لا المتعثر الضال، وأراحني مِّن هم الكد للعيش ونكد الحياة النمطية الجافة (حياة الموظف).

فلأخرجن على الناس بقصص من التاريخ تبكي منها عيون الصخر ويرق قلب الجماد.

وإني لأقرأ في التاريخ ما يزلزل شعوري وهو على اختصاره وجموده على أساليب العلماء، فما له لا يصنع الأعاجيب إذا فصل ووسع وطار في آفاق الأدب؟

وإن لنا من تاريخنا لثروة ما لأمة مثلها. لنا منه عالم يفيض بالحب والإخلاص والنبل والتضحية والبطولة والخلود فيه مآس وفيه ملاحم وفيه من كل فن من فنون الأدب. ولكن

عيب هذا التاريخ أنه لنا، وأنه ليس لأمة من (تلك) الأمم الحية، وأن علماءنا - أعني الفقهاء والمحدثين والمفسرين - قد انصرفوا عنه جملة، وكانوا يعدونه إلى عهد قريب من فضول الكلام، ويرون الاشتغال به مضيعة للوقت. ثم إنهم إذا عرفوه لم تفدهم معرفتهم به، فيما نحن بصدد الكلام عنه، لأنه ليس لأكثرهم أقلام، ولا بصر لجمهورهم بالأدب، ولا يعرفون من البلاغة إلا حدودها الجافة وتعريفاتها الجامدة التي بقيت في الكتب واشتملت عليها (شروح التلخيص) فهم يعرفون الاستعارة وأقسامها ولكنهم لا يستعيرون؛ ويحفظون أنواع المجاز ولكنهم لا يتجوزون. فاترك العلماء وقف على الشبان الذين اشتغلوا بهذا الفن، وكانوا هم المرجع فيه وكانوا معلميه، تر أكثرهم قد تلقى تاريخنا على غير أهله، وقرأه في غير كتبه، ولم يأخذ من التاريخ رواياته، ولا عن الرجال نقولهم، ولكن أخذ آراءهم وأغراضهم وحسب أن التاريخ يكون بالعقل، وأنه يرتجل ارتجالاً، ونسي أو هو لم يعرف أن العقل لا يصنع في التاريخ شيئاً إن لم تكن معه الرواية، وأن القيمة فيه للنص الصحيح، وأن نصوص التاريخ عندنا لا عند غيرنا. . . والبلية بهذا النفر من الناس كبيرة. ثم أن هؤلاء كلهم أو من عرفنا منهم لا يكتبون ولا يبينون عن أنفسهم، وأنهم في البعد عن الأدب كالعلماء، إلا أن العلماء حفظوا قواعد النحو والصرف والبلاغة، وقرءوا فيها الشروح الضخمة والحواشي، وهؤلاء استراحوا من ذلك كله. . . بقي الأدباء فسأل الأدباء، أن ما حال بينكم وبين التاريخ وما منعكم أن تمدوا أيديكم إلى هذا الكنز العظيم؟ وانظر ماذا يقولون!

على أن من الإنصاف أن نقرر أن هذا التاريخ الذي انصرف عنه علماؤنا وعدوه من فضول الكلام، وأخذه الشباب من غير مأخذه، إنما هو التاريخ السياسي، تاريخ الملوك والأمراء، والحروب والوقائع، وهو أضعف جانب في تاريخنا - على قوته وعظمته إذا قيس بتواريخ الأمم الأخرى - أما تاريخنا القوي حقاً، الحافل بالأمجاد الطافح بالعظمة فهو تاريخنا العلمي الذي عني به العلماء بعض العناية، وانصرف عنه الشبان الانصراف كله، ولم يكونوا منه في القليل ولا كثير، لأن دراسته تحتاج إلى آلات لا يملكونها، من اطلاع على اللغة وتمكن منها، إلى معرفة بمصطلحات أهل الحديث والفقه، إلى وقوف على التفسير ومعرفة بالأثر؛ فإذا عرضوا له على جهل بهذا كله، فإنما يعرضون نفوسهم إلى

الفضيحة وافتضاح الجهل كما افتضح من هو أعلم منهم، من (أولئك) القوم، واتضح جهلهم، وظهرت أغراضهم. إن تاريخنا القوي حقاً العظيم الماجد هو التاريخ العلمي، تاريخ الرجال. وابدأ فيه بسيرة سيد البشر ومعلم الخير سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم التي ألفت فيها المئات من الكتب، ثم عرج على سير الصحابة فاقرأها في الإصابة أو في أسد الغابة أو في الاستيعاب، ثم انظر العمل الذي قام به مؤرخو رجال الحديث، ومبلغ ما وصلوا إليه من الإحاطة والتدقيق والصدق، وانظر هل أفلت منهم

خبر، أو خفيت عليهم حقيقة. وهل صنع علماء أمة كانت أو تكون كالذي صنعوا، أو تصوروا إمكان هذا الصنيع المعجز الهائل؟ لقد صنفوا في الرجال الكتب الجامعة، وافردوا الضعاف والمتروكين بالتأليف، ووضعوا الكتب في ضبط الأسماء وبيان ما تشابه منها وما اشتبه وبحثوا في تواريخ الوفاة، وحققوا الأسانيد. . . ثم انظر ما ألف من كتب لرجال في سائر العلوم والفنون، كطبقات الأطباء وأخبار الحكماء، والنحاة، والأدباء، وفي المذاهب كتاب السبكي الجليل القيم، طبقات الشافعية، والديباج في أعيان المذهب المالكي، وطبقات الحنابلة والحنفية، وما ألف منها في المدن كتاريخ بغداد الذي ترجم لكل من دخل بغداد فلم يبق ولم يذر، والكتاب الذي لم يؤلف في بابه مثله كتاب ابن عساكر العجيب الذي عجزت دمشق عن طبعه ونشره. . . وما ألف بحسب العصور، وعندنا سلسلة كاملة لأعيان كل عصر من العصر السابع إلى الثاني عشر الهجري، وما كان منها جامعاً كوفيات الأعيان الكتاب النفيس الممتاز، وغير ذلك مما يتعسر الإحاطة به، وتقصى خبره في مثل هذا المقام، وفي كل صفحة من هذه الكتب مبعث إلهام للأديب، وأصل قصة للكاتب، وكنز من كنوز العقل والقلب لا يفنى ومعلمو التاريخ لا يدرون بهذه الكتب ولا يعرفونها، بل هم ينفِّرون منها على جهل بها، وينعتونها بالكتب الصفراء. وإذا عرفوا المشهور منها لم يعرفوا التفريق بين رواياته، ولا دراية لهم برجاله. وإذا وقع أحدهم على خبر في تاريخ الطبري أو ابن الأثير طار به فرحا، يحسبون أن كل ما بين دفتي الطبري في درجة واحدة من الصحة، مع أن الطبري يروي القوي الثابت من الأخبار وما دونه، وهو حين يذكر سند الرواية يسقط عن نفسه تبعتها. وعليك أنت أن تعرف السند الموثوق به من السند الواهي - ومن الرجال من هو

معروف بالكذب كابن الكلبي - ومع ذلك فقد رأينا مدرساً من (هؤلاء) المدرسين يعتمد عليه في رواية عرضها ابن الكلبي بصيغة التضعيف، ويقرر لتلاميذه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يسجد للأصنام في الجاهلية، وأن ذلك معنى قوله تعالى: (ووجدك ضالاً فهدى).

ومنهم من ادعى حل الخمر عند فقهاء العراق ظناً منه أن النبيذ معناه الخمر المعروف. . .

ومما يقع فيه (هؤلاء) المعلمون الذين يحملون يداً فيها (الشهادة الرسمية) ورأساً مثل فعل (قال) في الصرف. . . أنهم لا يعرفون درجات الحديث ولا مصطلح أهله. وهم لذلك يروون الحديث الموضوع على أنه صحيح، ويأخذون الأحاديث من كتب الأدب والمحاضرات. ولقد قرأت في كتاب لأديب من أدباء هذا العصر نسبة حديث إلى الصفحة (كذا) من كتاب الأغاني، وإثباته ذلك في حاشية الصفحة كما يعزو العالم إلى (البخاري) أو (مسلم)!

وأكثر (هؤلاء) المعلمين، يدرِّسون التاريخ بالهوى، ويسيرون فيه بالغرض، ويضعون النتائج أولاً، ثم يختلقون لها المقدمات، فعل أساتذتهم من المستعمرين. فالشيوعي منهم يدرس التاريخ بهوى شيوعيته ويسوقه مساق هواه، ولو جار على الحق أو خالف الرواية؛ والقومي (النازي) يبحثه بقوميته وإلحاده، فيكذب فيه على الواقع فيقول بأن العرب كانوا بالغين ما بلغوه ولو لم يأتهم الله بالإسلام، وأن الإسلام فرع من العروبة، ويموِّه على ضعاف العقول بقوله: (نحن عرب قبل أن نكون مسلمين) مع أن العرب ما كانوا شيئاً لولا الإسلام، وأن تاريخ العرب الحق يبدأ بسيد كل عربي خاتم الأنبياء محمد رسول الله إلى الناس كافة، الذي قال: (لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى). وقديماً حرف التاريخ ذوو الأغراض والنحل وصرفوه إلى غاياتهم وأغراضهم.

وبعد فهذه طائفة قليلة من القصص التاريخية، ليست كاملة ولا مبراة من العيوب، ولكنها باكورة الثمار وهي مكتوبة في أزمنة مختلفة في أسلوبها تفاوت، ولعل الله يوفق إلى الثمار الناضجة، ويكتب لنا وللمشتغلين النجاح، ويلهم الكسالى العمل، ويجعل منا أمة كالأمة التي كتبت بفعلها هذا (التاريخ العظيم).

الثانوية الأولي (دمشق)

علي الطنطاوي

رضا الشاه بهلوي

تأليف الأستاذ احمد محمود الساداتي

بين مصر وإيران صلات تاريخية عريقة، وقد توثقت هذه الصلات بالمصاهرة الكريمة بين الأمتين الخالدتين، وكان أن انتهزها الكتاب والباحثون فرصة حميدة للإشادة بمجد الشعبين وتمكين التعارف بينهما تعريفاً رباطه الدين والعلم، وقوامه الآمال المشتركة، والأغراض المتفقة، وغايته المودة والأخوة الكاملة

وهذا الكتاب الذي كتبه الأستاذ الساداتي إنما هو ثمرة من تلك الثمرات الطيبة، فقد أراد أن يشيد برجولة رضا الشاه بهلوي وما قام به نحو شعبه من ضروب الإصلاح، ولكنه رأى من حق البحث أن يرجع إلى الماضي السحيق يستقبل تاريخ إيران من عهد الإمبراطورية القديمة، ثم الإمبراطورية الوسطى، ثم ما كان من شأن آل ساسان، وما زال يتدرج بالبحث حتى انتهى إلى نهضة إيران الحديثة، وما كان يصطرع فيها من نزاع بين الشرق والغرب، والجمود والتقدم، والرجعية وروح الإصلاح؛ ثم ما كان من جهود رضا شاه البهلوي في إنقاذ بلاده والسير بها في سبيل الرقي والتقدم حتى بلغت إلى ما وصلت إليه وما زالت تواصل الجهود. . .

فهذا الكتاب في الواقع هو كما يقول الدكتور عبد الوهاب عزام في تقديمه: يتضمن طرفاً من تاريخ إيران وجغرافيتها وأحوالها الحاضرة، وهو يجدي كثيراً على قراءة العربية في التعريف بأمة إسلامية لها مكانتها في ماضي الإسلام وحاضره، ويعد فاتحة طيبة لكتب أخرى تفصل الكلام في تاريخ إيران ومكانتها بين الأمم عامة، وصلاتها بالأمم الإسلامية، خاصة، وحسب الأستاذ الساداتي أنه السابق

ولاشك أن الأستاذ الفاضل قد وجد عناء كبيراً في كتابة كتابه، لأن المصادر التي تناولت تاريخ إيران فيها كثير من الشبهات وبعضها قد كتب بروح التعصب وخصوصاً ما كتبه الاستعماريون الذين حقدوا على إيران في نهضتها وأزعجتهم جهود رضا شاه فراحوا يزبعون عنه الأراجيف والأكاذيب، وقد اجتهد الأستاذ في الابتعاد عن هذه الشبهات، وحرص على تخير الصحيح الثابت من الروايات، وهذه لاشك مهمة تحتاج إلى كثير من الذكانة والحذر والفطنة التي تنفذ إلى ما وراء الظواهر.

العدد 351 - بتاريخ: 25 - 03 - 1940

التبشير عدو للسلام

وهو في مصر عمل لا يليق

كان التبشير والتجارة رائدي الاستعمار السياسي منذ اعتزم الغرب الطموح الإغارة على الشرق الغافل. وكان التبشير أشد الرائدين تدخلاً في شؤون الناس، وتغلغلاً في أصول المجتمع، لما تهيأ له من شتى الوسائل في التعليم والتطبيب والتمريض والاستشراق والخدمة العامة، فاستطاع أن يرهج بين الأمة المتحدة الغبار الخانق، ويزرع بين الملة الواحدة الزرع الخبيث، ويخلق في كل شعب من شعوب الشرق بالعصبية الدينية والتربية المذهبية قلةً حاقدة تعارض الكثرة في الرأي، وتخالفها في الهوى، وتغري بها الشر، وتمالئ عليها العدو، وتحاول أن تتحيز في السكن والعمل، وتتميز بالشعار والجنس، فلا تكون من قومها في دنيا ولا آخره

ليس التبشير بهذا المعنى ولهذا الغرض من ألسنة الدين ولا من سبل الحق؛ فإن الدين مهما تعددت أسماؤه وغير فيه أبناؤه لا يزال في حقيقته الحبل الذي يصل به الله من انقطع ويجمع عليه من تفرق. وإن الحق مهما تفرقت سبله وتنوعت وسائله لا تزال له غاية واحدة يهتدي إليها من ضل، ويتوافى عليها من تأخر. وإذن لا يكون هذا التبشير القاطع المفرق إلا وسيلة من وسائل السياسة الماكرة، أو حيلة من حيل العيش الرخيص

وأعجب العجب أن الدولة الديمقراطية الثلاث هي التي تحضن هذا النظام الطفيلي وتعوله وتقوده وتحميه. وكان أقرب الظن بها أن تنكره بعد ما أمكن الشرق من يده وخلى بينها وبين ميراثه؛ فإن السلام والوئام والحب هي التي تقرب إليها من تسوس، وتحفظ عليها ما تملك. وهؤلاء المبشرون الذين اضطرهم اليأس أو البؤس أو العجز إلى الاتجار بالدين والعيش على ضلالات العقول وحزازات النفوس وسفاهات الألسن، لا يستطيعون أن يبذروا غير الخلاف، ولا أن يحصدوا غير الضغينة

إن ميدان الدعوة إلى الله لا يكون بالطبيعة إلا في بلاد الوثنية والجهالة. هنالك يجد المجاهدون في سبيل الحق والخير ملايين من عمي القلوب يخبطون الظلام ويطئون

الشوك ويعانون الحيرة ويكابدون اللغوب، فيخرجونهم إلى نور الله ويلحقونهم بركب الإنسانية. ولكننا لا نرى جمهرة المبشرين ولا معركة التبشير إلا في مصر، كأنما انحصر جهد هؤلاء المتعطلين في فتون المسلم عن دينه، وإخراج المسيحي عن مذهبه! فهل حسب أولئك الناس أن الإسلام بالنسبة إلى المسيحية كفر، وأن الأرثذكسية بالقياس إلى البروتستانتية فسوق؟ لا يمكن أن يقع هذا في حسبان عاقل؛ والقوم قد جاوزوا العقل والفطنة إلى الدهاء والخبث؛ فهم أكيس من أن يجهلوا حقيقة الإسلام وينكروا أثره الإلهي المحمدي في تكريم الإنسان وتنظيم العيش وإصلاح الأرض؛ ولكن الأشبه بالحق أنهم اطمأنوا إلى العيش الغرير في ظلال النيل، فأمنوا وسمنوا وخاروا، وعز عليهم أن يبعدوا عن مصاب الدولار والجنيه والفرنك في بنوك القاهرة، فأدخلوا في روع الشيوخ والعجائز من المؤمنين المثرين في أوربا وأمريكا أن البلد الذي يقوم فيه الأزهر هو المكان الذي لا يزال يصلب فيه المسيح. واستعانوا على خديعتهم بما افتراه قساوسة القرون الوسطى على الإسلام من الزور الغبي والكذب الأحمق. وأوهموهم أنهم إذا أمدوهم بالمال ورفدوهم بالنفوذ جندوا الجنود، وأحكموا الخطط، وهجموا على الإسلام فصرعوه في عقر داره من أجل ذلك كان المبشرون حراصاً على أن يجمعوا الأزهريين للمناظرات أو المحاضرات بشتى الحيل؛ فإذا ما اجتمعوا أخذوا صورهم في أروقة الكنائس أو في أفنية المدارس، ثم بعثوا بها إلى مرسليهم ومموليهم مدسوسة بين صحيفتين بارعتين إحداهما تبشر بتنصير (العلماء)، والأخرى تلح في مضاعفة الجزاء!

وفي سبيل أن ينعم المبشرون بالطعام الدسم، والشراب السائغ، والفراش الوثير، والفراغ الوادع، تتمزق العلائق بين الأخوة في النسب والوطن والعقيدة، وتكون الجفوة بين المسلم والقبطي في مصر، وبين المسلم والماروني في لبنان!

إن التبشير عدو للسلام، لأنه تأريث للعداوة وتشتيت للوحدة في غير طائل. وهو في مصر عمل لا يليق، لأنه إهانة وقحة لدينها وعقلها، وإن لهما في تاريخ الحضارة والثقافة والمجد صفحات لا يزال إشراقها السماوي يضئ جوانب الحاضر ويبدد غياهب المستقبل

لقد آن للديمقراطيات التي تقاتل عصبية الجنس في ألمانيا، وتناضل عصبية المذهب في روسيا، أن تخلص سياستها من عصبية الدين؛ فإن ذلك أخلق بالسلام الأدبي الدائم الذي تحارب الطغاة على سلطانه، وتريد أن تقيم العالم الجديد بعد الحرب على أركانه

إن للتبشير في مصر فواجع لا تزال الضلوع محنية منها على نار. ولعل أرمضها للقلب وأبعثها للدمع مأساة ابنة الوزير الذي حال المبشرات بينه وبينها بالقوة لأنها نذرت نفسها للمسيح، ثم أخفوها عن العيون حيناً من الدهر، ثم نقلوها على رغم الأسرة والحكومة إلى فرنسا فانقطعت الأسباب بين أهلها ودينها ووطنها إلى الأبد!

ذلك ما خطر لي أن أكتبه ساعة قرأت ما كتبته مجلة التبشير الدولية عن حركة التنصير في مصر. وإن في ذلك المقال الخبيث من اقتراح تأليف مجلس مسيحي وطني لتنظيم التبشير وتعميمه في المدن، وإنشاء المدارس الإلزامية لفتنة الصبية والأيفاع في القرى، لبلاغاً للقائمين على سلامة التربية وحماة العقيدة من لصوص الضمائر وشياطين القلوب!

احمد حسن الزيات

عبقرية محمد الإدارية

للأستاذ عباس محمود العقاد

في الإسلام أحكام كثيرة مما يدخل في تصرف رجال الإدارة كما نسميهم اليوم وفيه وصايا كثيرة عن المعاملات، كالمساقاة والمبايعة والاستقراض والشفعة والتجارة وسائر شؤون المعيشة الاجتماعية يقتدي بها المشترعون في جميع العصور

ولكنا لا نريد بما نكتب عن النبي أن نسرد أحكام الفقه ونبسط وصايا الدين، فهي مشروحة في مواطنها لمن شاء الرجوع إليها

وإنما نريد أن نعرض لأعماله ووصاياه من حيث هي ملكات شخصية وسلائق نفسية تلازمه حيث كان مؤدياً لرسالة الدين، أو مؤدياً لغير الرسالة من سائر أعمال الإنسان

كذلك لا يعنينا مثلاً أن نتكلم عن (الإدارة) كأنها نصوص المنشورات و (اللوائح) التي تدار بها الدواوين وتجرى عليها تفصيلات الحركة في مكاتب الحكومة، فإن هذه وما

إليها هي أعمال منفذين مأمورين وليست أعمال مديرين آمرين
وإنما نعني الملكة الإدارية من حيث هي أساس في التفكير من اعتمد عليه استطاع أن
يقيم بناء الإدارة كلها على أسس قويمة، ثم يدع لغيره تفصيلات الأضابير والأوراق
فليس في وسع رجل مطبوع على الفوضى مستخف بالتبعة أن يؤسس إدارة نافعة ولو
كان فيما عدا ذلك كبير العقل كبير الهمة
أما السليقة المطبوعة على إنشاء الإدارة النافعة فهي السليقة التي تعرف النظام
وتعرف التبعة وتعرف الاختصاص بالعمل، فلا تسنده إلى كثيرين متفرقين يتولاه كل
منهم على هواه
وقد كانت هذه السليقة في محمد عليه السلام على أتم ما يكون
كان يوصى بالرياسة حيثما وجد العمل الاجتماعي أو العمل المجتمع الذي يحتاج إلى
تدبير. ومن حديثه المأثور: (إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم). ومن أعماله
المأثورة أنه كان يرسل الجيش وعليه أمير وخليفة للأمير وخليفة للخليفة إذا أصيب
من تقدمه بما يقعده عن القيادة
وكان إلى عنايته بإسناد الأمر إلى المدبر القادر عليه حريصاً على تقرير التبعات في
جميع
الشئون ما كبر منها وما صغر على النهج الذي أوضحه صلوات الله عليه حيث قال:
(كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راع وهو مسئول عن
رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها
وهي مسئولة عنه، والعبد راع على مال سيده وهو المسئول عنه. ألا فكلكم راع وكلكم
مسئول عن رعيته)
وقد كانت أوامر الإسلام ونواهيه معروفة لطائفة كبيرة من المسلمين أنصاراً كانوا أو
مهاجرين، ولكنه عليه السلام لم يترك أحداً يدعى لنفسه حقا في إقامة الحدود وإكراه
الناس على طاعة الأوامر واجتناب النواهي غير من لهم ولاية الأمر وسياسة الناس
فلما قتل بعض المسلمين غداة فتح مكة رجلاً من المشركين غضب عليه السلام وقال
فيما قال من حديثه المبين: (. . . فمن قال لكم إن رسول الله قد قاتل فيها فقولوا إن
الله قد أحلها لرسوله ولم يحللها لكم يا معشر خزاعة. . .)
ولما أراد أن يصادر الخمر نهج في ذلك منهجاً يقصد به إلى التعليم والاستنان كما جاء
في رواية ابن عمر حيث قال:
أمرني النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن آتيه بمدية، فأتيته بها. فأرسل بها فأرهفت)
ثم أعطانيها فقال اغد علي بها. ففعلت، فخرج بأصحابه إلى أسواق المدينة وفيها زقاق
الخمر قد جلبت من الشام. فأخذ المدية مني فشق ما كان من تلك الزقاق بحضرته ثم
أعطانيها، وأمر الذين كانوا معه أن يمضوا معي ويعاونوني، وأمرني أن آتي الأسواق
(كلها فلا أجد فيها زق خمر إلا شققته ففعلت، فلم أترك في أسواقها زقاً إلا شققته
وهذا تصرف المدير بعد تصرف النبي الذي يبين الحرام ويبين الحلال
فالخمر شربها وبيعها ونقلها حرام يعلمه جميع المسلمين من تفقه منهم ومن لم يتفقه
في الدين، ولكن المحرمات الاجتماعية ينبغي أن تكون في يد ولي المسلمين لا في يد
كل فرد يعرف الحلال والحرام. وليست المسألة هنا مسألة تحريم وتحليل ولكنها
مسألة إدارة وتنفيذ في مجتمع غافل يشتمل على شتى المصالح والأهواء ولا يصاب
ببلاء هو أضر عليه من بلاء الفوضى والاضطراب واختلاف الدعاوى وانتزاع الطاعة
وتجاهل السلطان؛ فلم يكتف النبي بصريح التحريم في القرآن، ولا اكتفى بإسناد الأمر
إلى غير معروف الصفة في
تنفيذ الأحكام، بل خرج بنفسه ثم أمر رجلاً بعينه وأناساً بأعينهم أن يمضوا في إتمام
عمله، ولم يجعل ذلك إذناً لمن شاء أن يفعل ما شاء
وما أكثر ما سمعنا في أيامنا الأخيرة عن الأمن والنظام، وتوطيد أركان الشريعة
والقانون، ولكننا لا نعرف في كل ما قيل كلاماً هو أجمع لوجوه الصواب في هذه
المسألة من قول النبي: (السمع والطاعة حق ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية
فلا سمع ولا طاعة) ومن قوله فيما رواه عبادة بن الصامت (. . . ألا ننازع الأمر أهله إلا
أن تروا كفراً بواحا عندكم من الله فيه برهان) ومن قوله: (الإمام الجائر خير من
الفتنة، وكل لا خير فيه. وفي بعض الشر خيار) ومن قوله: (إن الأمير إذا ابتغى الريبة

في الناس أفسدهم) إلى أحاديث في هذا المعنى هي جماع الضوابط التي تقوم عليها الإدارة الحكيمة، والخطط السليمة المستقيمة، بين آمر ومأمور: نظام وفوق النظام سلطان، وفوق السلطان برهان من الشرع والعقل لا شك فيه، وجميع أولئك على سماحة لا تتعسف النزاع ولا تتعسف الريبة ولا تلتمس الغلواء

هذا الإلهام النافذ السديد في تدبير المصالح العامة، وعلاج شئون الجماعات، هو الذي أوحى إلى الرسول الأمي قبل كشف الجراثيم، وقبل تأسيس الحجر الصحي بين الدول، وقبل العصر الحديث بعشرات القرون، أن يقضي في مسائل الصحة واتقاء نشر الأوبئة بفصل الخطاب الذي لم يأت العلم بعده بمزيد، حيث قال: (إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها)

فتلك وصية من ينظر في تدبيره إلى العالم الإنساني بأسره لا إلى سلامة مدينة واحدة أو سلامة فرد واحد. إذ ليس أصون للعالم من حصر الوباء في مكانه، وليس من حق مدينة أن تنشد السلامة لنفسها أو لأحد من سكانها بتعريض المدن كلها لعدواها

على أن الإدارة العليا إنما تتجلى في تدبير الشؤون العامة حين تصطدم بالأهواء وتنذر بالفتنة والنزاع، فليست الإدارة كلها نصوصاً وقواعد يجرى الحاكم في تنفيذها مجرى الآلات والموازين التي تصرف الشؤون على نسق واحد، ولكنها في كثير من الأحيان علاج نفوس وقيادة أخطار لا أمان فيها من الانحراف القليل هنا أو الانحراف القليل هناك

وذلك هو المجال الذي تمت فيه عبقرية محمد في حلول التوفيق واتقاء الشرور أحسن تمام.

فما عرض له تدبير أمر من معضلات الشقاق بعد الرسالة ولا قبلها إلا أشار فيه بأعدل الآراء، وأدناها إلى السلم والإرضاء

صنع ذلك حين اختلفت القبائل على أيها يستأثر بإقامة الحجر الأسود في مكانه، وهو شرف لا تنزل عنه قبيلة لقبيلة، ولا تؤمن عقبى الفصل فيه بإيثار إحدى القبائل على غيرها ولو جاء الإيثار من طريق المصادفة والاقتراع فأشار محمد بالرأي الذي لا رأي غيره لحاضر الوقت ولمقبل الغيب المجهول. فجاء بالثوب ووضع الحجر الأسود عليه وأشرك كل زعيم في طرف من أطرافه، وكان من قسمته هو على غير خلاف بين الناس أن يقيمه بيده حيث كان، وأن يتسلف الدعوة وهي مكنونة في طوايا الزمان، ولو علموا بها يومئذ لما سلموا ولا سلم من عدوان وشنآن

وصنع ذلك يوم هاجر من مكة إلى المدينة فاستقبلته الوفود تتنافس على ضيافته ونزوله وهو يشفق أن يقدح في نفوسها شرر الغيرة بتمييز أناس منهم على أناس أو اختيار محلة دون محلة، فترك لناقته خطامها تسير ويفسح الناس لها طريقها حتى بركت حيث طاب لها أن تبرك، وفصلت فيما لو فصل فيه إنسان كبير أو صغير لما مضى فصله بغير جريرة لا تؤمن عقباها بعد ساعتها ولو أمنت في تلك الساعة على دخل وسوء طوية

وصنع ذلك يوم فضل بالغنائم أناساً من أهل مكة الضعيف إيمانهم على أناس من الأنصار الذين صدقوا الإسلام وثبتوا على الجهاد. فلما غضب المفضولون لم يكن أسرع منه إلى إرضائهم بالحجة التي لا تغلب من يدين بها بل تريه أنه هو الغالب الكاسب، وأنها تصيب منه المقنع والإقناع في وقت واحد: (. . . أوجدتم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار. . .)

كلام مدير فيه الإدارة والرياسة هبة من هبات الخلق والتكوين، فهو مدير حين تكون الإدارة تدبير أمور، ومدير حين تكون الإدارة تدبير شعور، وهو كفيل ألا يلي مصلحة من المصالح تعتورها الفوضى ويتطرق إليها الاختلال، لأنه يسوسها بالنظام وبالتبعة، وبالاختصاص وبالسماحة. وما من مجتمع يساس بهذه الخصال ويبقى فيه منفذ بعدها لاختلال أو انحلال، أو لخطل في إدارة الأعمال.

عباس محمود العقاد

ليلة نابغية!
للدكتور زكي مبارك
أخي الأستاذ الزيات:
في نيتي أن أريح قراء (الرسالة) من شطحات قلمي شهراً أو شهرين لأفرغ لواجبات أدبية لا يصح معها الانشغال بمواجهة القراء من أسبوع إلى أسبوع، وهي واجبات كواجبات القراء
وقبل أن أشرع في تناسي الشوق إلى قرائي، وهو تناس موجع، أصور لك ولهم ما وقع بيني وبين الأستاذ لطفي جمعة ليلة المناظرة بكلية الآداب، وكانت مناظرة عنيفة لا يزال صداها يقرع سمعي فيبدد ما أشتهيه من الأنس بالهدوء والصفاء
وما ذكرت تلك المناظرة إلا جزعت، وتولاني الندم على الاشتراك في جدال يضيق به صدر الغالب والمغلوب، لأنه لم يمض بلا هنوات مزعجات
ولهذه المناظرة تاريخ:
سألني فريق من أعضاء اتحاد كلية الآداب أن أشترك في مناظرات هذا الموسم، وعرضوا عليَّ طوائف من الموضوعات لم يرقني منها غير موضوع:
(يزدهر الأدب في عصور الفوضى الأخلاقية)
ولكني اقترحت أن يعدل فتوضع (الفوضى الاجتماعية) مكان (الفوضى الأخلاقية)، فراراً من التجني على كلية الآداب باسم الغيرة على الأخلاق!
ومضت أيام وأسابيع، والاتحاد مشغول بالبحث عمن يناظرني من أساتذة كلية الآداب، ثم علمت أن الأساتذة لم يرقهم أن يناظروا (المشاغب الأكبر) على حد تعبير الدكتور هيكل باشا. وهل من العقل أن يتقدم أحد الأساتذة لمناظرتي وقد شاع وذاع أني أكبر المشاغبين؟!
هي تهمة ظالمة، كما تعرف، ولكنها حقت علي، وسأقضي بقية العمر في الدفاع عن نفسي، ولكن بلا نفع ولا غناء، لأن الناس عندنا يؤذيهم أن يصححوا رأيهم في رجل ظلموه بلا بينة ولا برهان!
وأخيراً، ظفر اتحاد الكلية برجل يناظرني. ولكن، أي رجل؟ كاتب مشهور كانت لي معه وقائع في بعض الجرائد والمجلات؟ فقلت في نفسي: هي مكرمة من مكرمات الأستاذ لطفي
جمعة، فقد هداه القلب الطيب إلى أنني رجل ينهاه الأدب والذوق عن الاستخفاف بأقدار الزملاء
واتصلت به تليفونياً لأقول له: إني أريد أن تكون هذه المناظرة مثالاً في التلطف والترفق، وإني سأبدأ خطبتي بكلمة في الثناء عليه، وإني أنتظر أن يقابل الجميل بالجميل!
وكنت صادقاً فيما قلت، لولا خاطر واحد كدر صدقي بعض التكدير، وهو الحرص على أن يبقى هذا المناظر فلا يطير من يدي، كما طار من كنت أرجو مناظرتهم من أساتذة الكلية. صفح الله عنهم وعفا عني!!
كان الأستاذ لطفي جمعة متردداً في القبول، ثم قبل بعد تمنع؛ والحر قد ينخدع في بعض الأحايين!
وفي تلك الأثناء نقلت الإذاعة اللاسلكية مناظرة قامت بين الدكتور طه والدكتور هيكل في كلية العلوم، مناظرة مرتجلة قام بها الرجلان بدون استعداد، فقلت: يجب أن أستعد لتكون مناظرة كلية الآداب أقوى من مناظرة كلية العلوم، ولأعطي الدكتور طه والدكتور هيكل درساً في وجوب الاحتفال بمقامات الكلام، ولأحمي نفسي من شر المرجفين، وأنا أدافع عن رأي شائك لا ينظر إليه المجتمع بغير الاستخفاف
ورجعت إلى مذكرات كنت أعددتها يوم عرض على الموضوع أول مرة، ولكني لم أجد تلك المذكرات، فأقبلت على الموضوع من جديد وشغلت به نفسي سهرتين طويلتين ليصل في الجودة والقوة إلى ما أريد
وبعد أن فرغت من تحريره وتحبيره دعوت أحد أبنائي ليقرأه علي فكانت فرصة لدرس طريف من دروس التربية، فقد عرفت أن الرجل لا يدرك ما في أسلوبه من نبوات إلا حين يسمعه من رجل سواه، وكذلك غيرت بعض الألفاظ وعدلت بعض التعابير، فظهرت الخطبة وهي فن من الكلام المصقول

ثم مضيت إلى كلية الآداب في أصيل اليوم الأول من أيام آذار، ولا يمكن الوصول إلى كلية الآداب إلا بالسير في شارع فؤاد الذي يعبر الزمالك مرة ويعبر النيل مرتين، ثم انعطفت السيارة فسايرت النيل حتى وصلت إلى شارع الجامعة المصرية، عليه وعليها أطيب التحيات!

هو اليوم الأول من أيام آذار، وأيام مصر كلها آذار، فما تعرف بلادنا غير نضرة النعيم في جميع الفصول

ونظرت في الساعة فلم أجد من فسحة الوقت غير خمس دقائق، وهي مدة لا تسمح باجتلاء المحاسن في شارع الجامعة، الشارع الجميل الذي كان يستهويني فأسير فيه بتأدب واستحياء رعاية لحقوق العين والقلب في البقعة التي صارت مراتع ظباء، ومرابض أسود

الله أكبر ولله الحمد!

هذه كلية الآداب التي قضيت فيها مواسم شبابي، يوم كنت فتىً عارم العزيمة يؤذيه أن يقال إن في الدنيا كتاباً لم يطلع عليه، ويوم كنت معمور القلب بأرواح الأماني، ويوم كنت أتوهم أن الجد في طلب العلم لا يظفر صاحبه بغير الإعزاز والتبجيل، ويوم كنت أخال أن الكفاح في سبيل الأدب قد تنصب له الموازين، ويوم كنت أومن بأن الجهاد لا يضيع في هذه البلاد!!!

تقع كليتنا الغالية على يمين من يدخل حرم الجامعة المصرية، جامعة فؤاد الأول. وسميت بذلك، لأن فؤاداً العظيم كان أول رئيس للجامعة المصرية. وكليتنا الغالية لها روح قهار، لأنها شرعت للناس مذاهب التفكير في الآداب والفنون، ولأنها أول معهد في مصر فتح أبوابه لحرية الفكر والعقل بلا تمييز بين العقائد والآراء

كاد الدمع يطفر من عيني حين دخلت كليتنا الغالية، فقد خيل إلي أن أحجارها لا تنطق، وإلا فكيف غاب عني تفصيل ما فيها من حجرات وغرفات؟ وكيف نسيت الأماكن التي كنت ألقي فيها دروسي ومحاضراتي على قرب العهد؟ وكيف غفلت عتباتها عن الوثوب لمصافحتي وقد صحبتها طالباً ومدرساً من سنة 1913 إلى سنة 1937 ودرت معها من ميدان الإسماعيلية إلى ميدان الفلكي، ومن حي المنيرة إلى قصر الزعفران، ثم إلى حديقة الأرمان، ولم يزاحم هواها في فؤادي غير الأعوام التي قضيتها بكلية الآداب في جامعة باريس؟

وزاد في أساي وشجاي أني سأخرج مهزوماً في المناظرة التي تقام بكليتنا الغالية، لأني سأدافع عن رأي جرئ لا يقول به إلا من يخاطر بنفسه فيتعرض لغضب المجتمع. ولكن لا بأس فكليتنا الغالية قد علمتنا الثورة على أوهام المجتمع

وألفت ما تبدد من شمل عزيمتي وصعدت إلى غرفة الأساتذة، الغرفة التي صاولت فيها من صاولت، وكايدت من كايدت، يوم كنت أحسب أن مغايظة الرجال لن تكون لها عواقب سود. . . فماذا رأيت؟

رأيت الأستاذ لطفي جمعة قد انحاز إلى شابين من طلبة الكلية يدبر معهما خطط النضال، فأردت أن أفسد ذلك التدبير بدعوته إلى المسارعة بالنزول إلى المدرج الأكبر حيث ينتظر جمهور المستمعين. ولكن لم أفلح، فقد تعلل بأنه ينتظر فنجاناً من القهوة، ورجاني أن أعفيه من حضوري لحظات!

وسألت عن نصيري في المناظرة فرأيت فتاة حيية اسمها ليلى، وفتىً ناشئاً اسمه صادق، فحدقت فيهما وقلت: أين تقعان مما أريد؟!

ونزلت إلى المدرج بعد أن أعلن الدكتور إبراهيم مدكور أن الطلبة هم الذين سيبدءون ثم تقع الموقعة بيني وبين غريمي

وبعد تلبث وتمكث حضر الأستاذ لطفي جمعة ومعه نصيراه من الطلبة، ونصير ثالث هو الدكتور أحمد موسى، وهو فيما سمعت أديب متمكن من ناصية الفكر والبيان

ثم صرح رئيس المناظرة بأنه أستاذ ونائب، وأنه سيطبق اللائحة الداخلية إذا وقع بين المتناظرين شجار، فعرفت أن الأمر جد في جد، وأنى سأعاني من هذه المناظرة ليلةً نابغية

وشرعت ليلى تتكلم، ليلى يوسف، وهي فتاة جملها الله بالأدب والحياء، فما كانت إلا دمية مصقولة صيغت من العقل والذوق، وسيكون لها في حياة الأدب تاريخ، وقد تفوق الفتاة المبغومة الصوت التي نضجت قبل الأوان فأضر بها الزهو والخيلاء

ولكن ليلى ستلحن كما تلحن سائر (الليالي) ستلحن لحناً خفيفاً في مواطن لا تسلم فيها ألسنة (بعض) الأساتذة، ومع ذلك يثور الجمهور ويصخب ليصح له أن يضايقني ويضايقها باسم الغيرة على قواعد اللغة العربية!

ثم يتكلم الشيال أفندي فيقترح أن يحال الدكتور زكي مبارك إلى المعاش لأنه من دعاة الفوضى الاجتماعية ولأن مؤلفاته تشهد بأنه يستهين بالعادات والتقاليد!

ويتكلم بعد ذلك محمد عبد الرحمن صادق أفندي بأسلوب يشهد بأنه من طلبة كلية الآداب، كليتنا الغالية التي نذكر عهدها بالحب والعطف، ونعرف فضلها في تثقيف الأذواق والعقول

ويميل بدير متولي أفندي على أذني فيسر إلي أنه قد يستبيح ما لا يباح في تحقير الرأي الذي أرتضيه، فآذن له بذلك، لأني من أقوى أنصار حرية الرأي، ولكن الفتى يخلف ظني به كل الإخلاف فيعلن عجبه من أن أكون مفتشاً بوزارة المعارف مع أني من دعاة الفوضى الاجتماعية، ويدعو الجمهور إلى الحذر من آرائي!

ويجئ دوري في الكلام فأبدأ بالثناء على الطالبين اللذين شتماني بلا ترفق ولا استبقاء، لأنهما من طلبة كليتنا الغالية، ولأنهما سمعا أصوات مصطفى عبد الرزاق وطه حسين وشفيق غربال، ولأننا حضرنا لتمرينهم على النضال والصيال

ثم أشرع في الخطبة التي أعددتها في سهرتين طويلتين، وبعد لحظات يقوم شاب ثائر فيقاطعني مقاطعة عنيفة ويؤلب عليَّ الجمهور بشطط وإسراف، وأنظر فأراه أحد تلاميذي، التلاميذ الذين كنت أشقى في سبيلهم إلى عهد قريب

ويدور رأسي من هول ما أراه، فهذا الشاب كان موضع ثقتي، وكنت أكرمه لنفسه ولأخيه ولقرب بلده من سنتريس

وتطوف بذهني أخيلة مزعجة: فليس هذا الشاب أول من يغدر ويخون، وليست ليلتي هذه أول ليالي في المحرجات والمضجرات، ولن تكون آخر العهد بشقائي في رحاب كلية الآداب، فسأرجع إليها لخدمة الأدب والفلسفة بعد عهد قريب أو بعيد، يوم يعتدل الميزان. وأنظر فأرى الأستاذ لطفي جمعة قد اطمأن واستراح، وأرى أنصاره في جذل وانشراح

هي إذن معركة جديدة سأنهزم في ميدانها المشئوم وسيلحقني عارها الباقي، والله الحفيظ!

وينهض رئيس المناظرة فيهدد الشاب الذي يقاطعني، يهدده بالطرد، فيخشع الشاب ويستكين، ويصفق الجمهور إيذاناً بالشوق لسماع صوتي، فأمضي في إلقاء خطبتي وأنا جريح، وأضيف إلى خطبتي كلمة أقول فيها: إني اشتغلت بالتدريس في كلية الآداب أربع سنين ومن حقي عليها أن تسمح بأن أجهر في رحابها بكلمة الحق

وما قيمة الاشتغال بالتدريس أربع سنين في معهد مصري وقد صرح شاعرنا شوقي بأن كل شيء في مصر ينسى بعد حين!

ما قيمة الاعتماد على الماضي وهو ذخر الفانين؟ وبأي حق أغضب على شاب يقاطعني وقد أخذ عني أصول الثورة والصيال؟

ثم أمضي في خطبتي كالسيل الجارف فأفتن الجمهور فتنة ماحقة يضج لها خصومي بتصفيق الإعجاب ليسلموا من سخرية الجمهور الذي سحره بياني

ويميل الأستاذ لطفي جمعة على أذني وهو يقول: أهنئك على أن عرضت سمعتك للأراجيف في سبيل الحق. فأبتسم وأنتظر أن يصنع كما صنعت ليظفر بتهنئتي! وينهض الخصم الشريف فيسلك في تحقيري جميع المسالك، ويدعي أني فوضوي أثيم، وينهي الجمهور عن الانخداع بآرائي، ويعلن عجبه من أن يكون لي كتاب اسمه التصوف الإسلامي في مجلدين كبيرين مع أني من أنصار الفوضى الاجتماعية، ويقضي في تحامله وتجنيه ساعة وبعض ساعة وأنا ساهم مطرق أكاد أذوب من الخجل والحياء وأعود إلى نفسي فأندم على تعريض سمعتي لهذا الضيم البغيض وأعرف أني أخطأت في قبول المناظرة مع هذا الخصم الشريف، وأعاهد الله على اعتزال الناس إلى يوم الممات. وما الذي يغريني بصحبة بني آدم ولم أر منهم غير شجا الحلوق، وقذى العيون؟

لقد أقمت داري على حدود الصحراء لآنس بظلمات الليل، ولأنسى أنني موصول الأواصر بهذا الخلق، ولأناجي موات البادية حين أشاء، ثم قهرني حب العزلة على أن

أغلق نوافذ داري فلا أرى الوجود إلا بأوهام من طيف الخيال
لطفي جمعة الرجل الفاضل الذي أثنيت عليه في خطبتي يقضي في شتمي ساعة
!وبعض ساعة؟ تلك إحدى الأعاجيب، إن كان النكر في زماننا من الأعاجيب
أين أنا من دهري وزماني؟ أمثلي يشتم جهرة في كلية الآداب، وقد حملت على كاهلي أحجار الأساس؟
هو ذلك، وعلى نفسي أنا الجاني، فقد عرضت سمعتي للجدال الذي يسمونه
مناظرات! وينتهي الأستاذ لطفي جمعة من خطبته بعد أن مزق آرائي كل ممزق، وبعد أن شفي صدره مني، وكانت بيني وبينه ترات وضغائن وحقود
ويعلن رئيس المناظرة أن ليس لي غير خمس دقائق. وما الذي أستطيع أن أصنع في
خمس دقائق وقد جرحت أشنع تجريح؟ ما الذي أستطيع أن أصنع وقد سمعت ما أكره
في معهد يؤذيني أن أذكر فيه بغير الجميل؟ في خمس دقائق يعرف الأستاذ لطفي
جمعة أن لحمي مر المذاق، ويؤمن وهو كاره بأن التطاول على رجل مثلي لا يمر بلا جزاء،
ويعرف من قاطعوني أن شأني أعظم مما يظنون. في خمس دقائق تحول السامعون
إلى من حال إلى أحوال فصاروا جميعاً من أنصاري، في خمس دقائق شهدت أحجار
كلية الآداب بأن المنطق أعظم من التنكيت، في خمس دقائق عرف غريمي أن سهر الليل في الاستعداد للحرب أمر يوجبه العقل الصحيح
وبعد كلمات ألقاها الأستاذ مندور والدكتور موسى طلب رئيس المناظرة أصوات
الحاضرين فكانوا جميعاً في صفي، وهتف هاتف: (تحيا الفوضى الاجتماعية!)
فأجبت: (تسقط الفوضى ويحيا النظام!)
والآن، يا صديقي الزيات، أحب أن أسجل في مجلتك ظاهرة من شمائل الجيل الجديد،
لتعرف أن اليأس الذي يساورنا قد يكون من الأوهام في أكثر الأحايين
وهذه الظاهرة هي يقظة الجمهور في هذا العهد، وقلة انخداعه بالتزاويق والتهاويل.
وأؤكد لك أنه كان مفهوما عند أنصاري أني لن أخرج من تلك المعركة بغير الهزيمة،
وأن التعلق بالشكليات سينفع خصومي فيظفرون بالنصر المبين
وقد أراد الأستاذ لطفي جمعة أن يغض من جهودي فقال إني شغلت نفسي بالموضوع
أياماً وليالي، ولكن هذه السخرية لم تنفع، لأن الاستعداد للنضال من أصول التشريف،
وهو يقابل عند الجمهور بالإعزاز والتبجيل. وهل كان يجوز لي أن أستخف بمناظرة تقام في كلية الآداب؟
وهذا النصر الذي نظفر به من وقت إلى وقت هو الذي ينسينا ما قد نجني من الحنظل
!في الحياة الأدبية، وهو الذي يهون ما نعاني من عقوق الزملاء، أو (بعض) الزملاء
وقد حدثتك في مطلع هذا الحديث أني سأريح قراء الرسالة من شطحات قلمي شهراً
أو شهرين، فلتعلم وليعلموا أني قد أشتاق إليك وإليهم فأرجع بعد أسبوع أو أسبوعين،
والسلام.
زكي مبارك

في الاجتماع اللغوي

صراع اللغات

للدكتور علي عبد الواحد وافي
مدرس العلوم الاجتماعية بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

ذكرنا في المقالين السابقين أن عوامل الصراع بين اللغات يرجع أهمها إلى عاملين:
أحدهما أن ينزح إلى البلد عناصر أجنبية تنطق بلغة غير لغة أهله، وثانيهما أن يتجاور
شعبان مختلفا اللغة فيتبادلا المنافع، ويتاح لأفرادهما فرص للاحتكاك المادي والثقافي.
وقلنا إن نتائج هذا الصراع تختلف باختلاف الأحوال: فتارة ترجح كفة إحدى اللغتين
المتنازعتين فتصرع اللغة الأخرى؛ وتارة تتكافأ قواهما أو تكاد فتعيشان معاً جنباً لجنب
ثم عرضنا للحالات التي يحدث فيها تغلب إحدى اللغتين على الأخرى. فذكرنا أنها ترجع
إلى أربع حالات: اثنتان منها تتصلان بالعامل الأول (نزوح عناصر أجنبية إلى البلد)
واثنتان تتصلان بالعامل الثاني (مجاورة شعبين مختلفي اللغة). فأما حالتا العامل الأول فهما:

1 - أن يكون كلا الشعبين همجياً قليل الحضارة منحط الثقافة، ويزيد عدد أفراد أحدهما

عن عدد أفراد الآخر زيادة كبيرة. ففي هذه الحالة تتغلب لغة أكثرهما عدداً سواء أكانت لغة الغالب أم المغلوب، لغة الأصيل أم الدخيل؛ على شريطة أن تكون اللغتان من شعبة لغوية واحدة أو من شعبتين متقاربتين: كما كان شأن الإنجليزية مع النورماندية

2 - أن يكون الشعب الغالب أرقى من الشعب المغلوب في حضارته وثقافته وآداب لغته، وأشد منه بأساً، وأوسع نفوذاً. ففي هذه الحالة يكتب النصر للغته، فتصبح لغة جميع السكان، وإن قل عدد أفراده عن أفراد الشعب المغلوب؛ على شريطة أن تدوم غلبته وقوته مدة كافية، وأن تقيم بصفة دائمة جالية يعتد بها من أفراده في بلاد الشعب المغلوب، وأن تمتزج بأفراد هذا الشعب، وأن تكون اللغتان من شعبة لغوية واحدة أو من شعبتين متقاربتين: كما كان شأن اللاتينية مع لغات كثير من الأمم التي تغلب عليها الرومان في العصور القديمة؛ والعربية مع لغات معظم الأمم التي تغلب عليها العرب في العصور الوسطى

وأما الحالتان اللتان يؤدي فيهما العامل الثاني (مجاورة شعبين مختلفي اللغة) إلى هذه النتيجة، فهما:

1 - أن تكون نسبة النمو في أحد الشعبين المتجاورين كبيرة، لدرجة يتكاثف فيها ساكنوه، وتضيق مساحته بهم ذرعاً، فيشتد ضغطه على حدود الشعب المجاور له، وتكثر تبعاً لذلك عوامل الاحتكاك والتنازع بين اللغتين. وفي هذه الحالة تتغلب لغة الشعب الكثيف السكان على لغة المناطق المجاورة له؛ على شريطة ألا يقل عن أهلها في حضارته وثقافته وآداب لغته؛ ويتأكد انتصاره إذا كان أرقى منهم في هذه الأمور: كما كان شأن الألمانية مع لغات المناطق المجاورة لألمانيا بسويسرا وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا والنمسا

2 - أن يتغلغل نفوذ أحد الشعبين في الشعب المجاور له. وفي هذه الحالة تتغلب لغة الشعب القوي النفوذ؛ على شريطة ألا يقل عن الآخر في حضارته وثقافته وآداب لغته؛ ويتأكد انتصاره إذا كان أرقى منه في هذه الأمور: كما كان شأن الفرنسية والأسبانية مع لغة شعوب الباسك بمناطق البرانس؛ والإنجليزية والفرنسية مع اللغات السلتية بأيرلندا واسكتلندا وويلز ومنطقة البريتون

وسنختم هذا البحث في مقال اليوم بالكلام عن الحالات التي تعجز فيها كلتا اللغتين عن التغلب على الأخرى

فيما عدا الحالات الأربع السابقة تتكافأ قوى اللغتين المتنازعتين فتعيشان معاً جنباً لجنب، وتسلك كل منهما في سبيل تطورها المنهج الذي يتفق مع طبيعتها، وترسمه لها نواميس الارتقاء اللغوي

والأمثلة على ذلك كثيرة في تاريخ الأمم الغابرة وفي العصر الحاضر.

فاللغة اللاتينية لم تقو على اللغة الإغريقية، مع أن الأولى كانت لغة الشعب الغالب، وذلك لأن الإغريق، مع خضوعهم للرومان، كانوا أعرق منهم حضارة وأوسع ثقافة وأقدم لغة. وقد سبق أن انهزام لغة الشعب المغلوب أمام لغة الشعب الغالب لا يحدث إلا إذا كان الشعب الثاني أرقى من الشعب الأول في جميع هذه الأمور ولهذه الأسباب نفسها لم تقو لغات الشعوب الجرمانية التي قوضت الإمبراطورية الرومانية الغربية في فاتحة العصور الوسطى على التغلب على اللغة اللاتينية في البلاد التي قهرتها بمناطق (فرنسا) وما إليها

واللغة اللاتينية لم تقو على التغلب على لغات أهل بريطانيا العظمى، على الرغم من فتح الرومان لبلادهم واحتلالهم إياها نحو مائة وخمسين سنة، وعلى الرغم من أن الشعب الغالب كان أرقى كثيراً من الشعب المغلوب في حضارته وثقافته. وذلك لأن الجالية الرومانية في الجزر البريطانية لم تكن شيئاً مذكوراً، ولم تمتزج امتزاجاً كافياً بأفراد الشعب المغلوب. وقد تقدم أن الغلب اللغوي يتم في مثل هذه الحالات إلا إذا أقامت في البلاد المقهورة جالية يعتد بها من أفراد الشعب الغالب، وتم الامتزاج بينها وبين أفراد الشعب الآخر

واللغة العربية لم تقو على الانتصار على اللغة الفارسية، على الرغم من فتح العرب

لبلاد فارس وبقائها تحت سلطانهم أمداً طويلاً، وذلك لأن الشعب العربي لم يكن إذ ذاك أرقى حضارة من الشعب الفارسي، ولقلة عدد الجالية العربية بفارس وضعف امتزاجها بالسكان، ولانتماء اللغتين إلى فصيلتين مختلفتين (فالعربية من الفصيلة السامية، والفارسية من الفصيلة الهندية - الأوربية)

واللغة العربية لم تقو على الانتصار على اللغات الإسبانية على الرغم من فتح العرب للأندلس وبقائها تحت سلطانهم نحو سبعة قرون. وذلك لانتماء العربية إلى فصيلة غير فصيلة اللغات الإسبانية ولعدم امتزاج الشعوب القوطية بالشعب العربي

واللغة التركية لم تقو على التغلب على لغة أية أمة من الأمم التي كانت خاضعة للإمبراطورية العثمانية بأوربا وآسيا وأفريقيا، على الرغم من بقاء هذه الأمم مدة طويلة تحت سلطان تركيا، وذلك لاختلاف فصائل اللغات (فالتركية من الفصيلة الطورانية، على حين أن لغات معظم الأمم التي كانت خاضعة لتركيا من الفصيلة السامية - الحامية أو الهندية - الأوربية)، ولأن الترك كانوا أقل حضارة وثقافة من معظم الشعوب التي كانت تابعة لهم، ولقلة عدد جاليتهم في بلاد هذه الشعوب، ولضعف امتزاجها بالسكان

ولم تقو الإنجليزية على التغلب على اللغات الهندية، على الرغم من خضوع الهند لإنجلترا منذ أمد طويل، وذلك لأن شعوب الهند أعرق حضارة من الإنجليز، ولقلة عدد أفراد الجالية

الإنجليزية بهذه البلاد، وعدم امتزاجها بالسكان

والجوار بين فرنسا وإنجلترا وإيطاليا وأسبانيا والبرتغال لم يؤد إلى تغلب لغة شعب منها على لغة شعب آخر. لأن احتكاك لغاتها لا ينطبق على حالة من الحالتين اللتين يحدث فيهما التغلب بالمجاورة.

ولهذا السبب نفسه لم يؤد الجوار بين الفارسية والعراقية والتركية والأفغانية إلى تغلب لغة منها على لغة أخرى

وكذلك شأن الإنجليزية في الولايات المتحدة بأمريكا الشمالية مع الأسبانية المجاورة لها في المكسيك، وشأن البرتغالية التي يتكلم بها في البرازيل مع الأسبانية التي يتكلم بها في الجمهوريات المتاخمة للبرازيل بأمريكا الجنوبية؛ وشأن الحبشية مع الصومالية. وهلم جرا

ولكن عدم تغلب إحدى اللغتين لا يحول دون تأثير كل منهما بالأخرى.

فقد تأثرت اللاتينية بالإغريقية في أساليبها وآدابها، واقتبست منها طائفة كبيرة من مفرداتها.

وقد تركت اللغة العربية آثاراً قوية في الأسبانية، وبخاصة في المناطق التي كانت تسمى بالأندلس أو أندلوسيا دام سلطان العرب عدة قرون.

والصراع بين العربية والفارسية، وإن لم ينته إلى تغلب إحداهما قد ترك في كل منهما آثاراً واضحة من الأخرى؛ وبخاصة من ناحية المفردات.

والصراع بين التركية ولغات الأمم التي كانت خاضعة للإمبراطورية العثمانية، وإن لم ينته إلى تغلب لغوي، قد ترك في التركية آثاراً قوية من هذه اللغات، وبخاصة من اللغة العربية وترك كذلك في كثير من هذه اللغات آثاراً ظاهرة من التركية وقد بلغ هذا التأثير مبلغاً كبيراً في بعض هذه اللغات: فلغة العراق في العصر الحاضر مثلاً قد أخذت عن التركية كثيراً من المفردات وبعض الأصوات التي لا نظير لها في العربية، (كالصوت الذي ينطق به بين الشين والجيم المعطشة في مثل (عربنجي)) وطائفة من القواعد الصرفية كقواعد النسب والنعت والإضافة في مثل (عربنجي) (نسبة إلى العربة)، (خوش ولد): (خوش كلمة فارسية الأصل معناها: حسن) - كتبخانة (دار الكتب)

والإنجليزية الحديثة في إنجلترا والفرنسية الحديثة في فرنسا تتقارضان المفردات منذ أن

أتيح للشعبين المتجاورين فرص للاحتكاك وتبادل المنافع.

وكذلك تفعل الفرنسية بفرنسا مع الألمانية بألمانيا ومع أخواتها المجاورة لها في الجنوب الشرقي والغربي بإيطاليا وأسبانيا والبرتغال.

وتجاور التركية والفارسية، وإن لم يؤد إلى تغلب إحداهما على الأخرى، قد ترك في

التركية آثاراً واضحة من الفارسية، وبخاصة في المفردات، وترك كذلك في الفارسية بعض آثار من التركية
وتجاور الفارسية والعراقية في العصر الحاضر، وإن لم ينته إلى تغلب لغوي، قد نقل إلى كل منهما كثيراً من آثار الأخرى في المفردات والقواعد والأساليب
ومجاورة الجرمانية واللاتينية في العصور القديمة، وإن لم يؤد إلى تغلب واحدة منهما على الأخرى، قد نقل إلى أولاهما كثيراً من مفردات الثانية، وترك في الثانية بعض آثار من الأولى
وقصارى القول: متى اجتمع لغتان في بلد واحد أو تجاورا لا مناص من تأثير كل منهما بالأخرى؛ سواء أتغلبت إحداهما أم كتب لكلتيهما البقاء. غير أن هذا التأثر يختلف في مبلغه ومنهجه ونواحي ظهوره ونتائجه في الحالة الأولى عنه في الحالة الثانية.
فإذا كان الغلب كتب لإحداهما نراها تسيغ كل ما تأخذه من الأخرى مهما كثرت كميته؛ فيستحيل إلى عناصر من نوع عناصرها، فتزداد به قوة ونشاطاً، بدون أن تدع له مجالاً للتأثير في بنيتها أو تغيير تكوينها الأصلي. على حين أن المغلوبة لا تقوى على مقاومة ما تقذفها به الغالبة من مفردات وقواعد وأساليب، ولا تكاد تسيغ ما تتجرعه منها، فيتخمها ويضعف بنيتها، فتخور قواها، وتفنى أنسجتها الأصلية شيئاً فشيئاً حتى تزول: كما كان شأن الإنجليزية مع النورماندية، والعربية مع القبطية
وإذا كان البقاء قد كتب لكلتيهما تعمد كل منهما إلى ما تأخذه من الأخرى فتسيغه، وتفيض عليه من حيويتها، وتقاوم آثاره الهادمة. فتبقى كل منهما متميزة الشخصية، موفورة القوى سليمة البناء: كما كان شأن الفارسية مع العربية.

علي عبد الواحد وافي
ليسانسيه ودكتور في الآداب من جامعة باريس

الإنتاج العقلي للأمم

للدكتور جواد علي

كانت الفكرة السائدة حتى أوائل القرن الثاني عشر تقول بتطور البشرية تدريجياً من نقص إلى كمال، ومن جهل إلى علم. وقد اختلفوا في المبدأ، هل كان الإنسان في بدء خلقته كاملاً، ثم انتكس وتدهور لخطيئة وقع فيها، ثم بدأ يستغفر من ذنبه، ويكفر عن سيئاته، أو أنه بدأ كما نعرفه الآن، ثم هو آخذ في التطور إلى التكامل شيئاً فشيئاً، حتى يعود الإنسان الكامل ذا المثل العليا التي يريدها بعض الفلاسفة وأصحاب الأحلام البعيدة. غير أن تطور العلم الطبيعي، وانتصار أوربا في ساحات الفن والصناعات الضخمة والاستعمار، زلزل هذه الفكرة وولد في نفوس العلماء من أبناء تلك القارة، فكرة الاستئثار بالزعامة والقيادة العالمية. فقسمت الشعوب العالمية إلى طبقات وأجناس لكل منها خواص وأوصاف كما هو شأن عالم الحيوان والنبات. وإذا كان علماء النبات أو الحيوان يقسمون العالم النباتي أو الحيواني إلى فصائل وأجناس، فلم لا يقسم علماء الأجناس البشرية، البشر إلى فصائل وأجناس كذلك؟ تستأثر أوربا بالفصائل العالية والأوصاف الراقية؛ ثم تعطى ما تجود به للفصائل التي تمت إليها بصلة وقرابة، ثم الأبعد فالأبعد.
وبعض الآراء المعتدلة ترى العالم مؤلفاً من مجموعة حضارات مستقلة لكل منها روحية خاصة ونفسية سماها (نفسيات الحضارة كما هو رأي الفيلسوف تمر عليها جميع أدوار الحياة المعروفة من ولادة وطفولة وسباب ثم شيخوخة فممات، تستغرق هذه المدة حوالي ألف سنة، وأن ثلاث حضارات جاءت على التوالي تكمل الواحدة الأخرى وهي الحضارة اليونانية وسمتها والحضارة العربية وخاصيتها والحضارة الأوربية الجرمانية وهي بينما رأى الفيلسوف الألماني الآخر (كراف هرمان كيسرلنك مؤسس مدرسة الحكمة في مدينة دارمشتد) تنوع الحضارات البشرية كذلك واختلاقها ولكنها ترجع كلها إلى أصل واحد ومنبع منظم هو القوة الخارقة الموجودة في البشر التي تدفع الأمم بالسير إلى الأمام. قد تكون هي الحكمة لذلك كان يرى وجوب الاستفادة من الحكمة بدلاً من العلم المجرد
وقد نشأ من جراء البحث المتوالي في اختلاف عقليات الأمم وقابليات إنتاجها بحث خاص يسمى التعمق في دراسة أمم الأرض، واستخراج الأسباب التي أدت إلى ازدهار

الحضارات أو هبوطها. وقد قسم العالم إلى أربع طوائف:
1 - الشعوب الفطرية، أو التي تعيش على الطبيعة الأولى ?
2 - الشعوب المتوحشة ?
3 - أو الشعوب المتمدنة ?
4 - المتحضرة. ولكل من هذه الأقسام درجات ثلاث: واطئة، وسطى، وعليا
ولكن هنا مشكلة عظيمة تجابه الباحث، وهي الدوافع الخفية التي تدفع بالشعوب إلى الحضارة وإلى إنتاجها الروحي، هل هو عامل داخلي يدفعها إلى ذلك دون مؤثر خارجي، أو عامل خارجي بحت كما يذهب إليه الماديون وأتباع كارل ماركس، أو دوافع المحيط الخارجي كالزمان والمكان كما هو رأي (ولد1873) (أنظر ص 193 ? وبين المبدأين بدون شاسع كما يظهر. ومن أتباع المذهب الأول العالم (1841 - 139) في ألمانيا في أمريكا. جعلوا العنصرية العامل الأساسي في تكوين الحضارة. ومن هذه النظرية استحدثت النازية رأيها من أن الحضارة العالمية نتيجة العقلية الآرية فقط، وأن العالم يتألف من طبقات ثلاث حسب رأي هتلر مؤسس هذا المذهب، من:
1 - شعوب أسست
2 - وشعوب تنقل الحضارة دون أن تضيف إليها شيئاً أو تغير فيها ?،
3 - وشعوب هدمت الحضارة وأفسدتها سماها: ? هذه الشعوب الروسي البلشفي، ولا أدري أغير رأيه الآن بعد اتفاقه مع البلاشفة أم لا
وتتلخص فكرته في أن الحضارة البشرية نتيجة عاملين فقط: الدم والأرض والعنصرية هي المظهر الخارجي للروح
على عكس هذه النظرية تماماً نظرية (كارل ماركس) (1818 - 1883) مؤسس المذهب المنسوب إليه والبلشفية والشيوعية التي تتخذ المادة كأساس في كل شيء إذ يقول: (الآراء السائدة في زمن ما تمثل آراء الطبقة الحاكمة في ذلك الزمن) وكذلك قوله: (غيروا الوضع السياسي والوضع الاقتصادي تغيروا بذلك البشر) ولذلك تحارب البلشفية النظام الرأسمالي لأنها تعتقد أنه مصدر كل شر، وبإزالة هذا النظام تتغير العقلية البشرية وتفكيرها ويظهر تفكير عالمي جديد. وهذا الرأي مأخوذ بصورة مكبرة عن المبدأ المادي
الذي يجعل المادة أساس كل شيء والروح نتيجة عمل الدماغ. بل لقد غالى الفيلسوف فويرباخ (1804 - 1872) قال: (الإنسان يكون حسبما يكون أكله)
لست بمعترض للنقد هنا ولكن أقول: للطرفين غلو عظيم، وكلا الرأيين قديم في تأريخه يرجع إلى عصور اليونان وربما يرجع إلى أقدم من ذلك. وإني أرى أن هنالك آراء عامة تطرق إليها عقل كل إنسان، كل على حسب قابليته ومحيطه، ومن هذه الآراء هذه المشكلة، ولكن الأساليب في معالجتها تختلف والكلمات تتغير؛ والاكتفاء بالدم والأرض في تعيين الإنتاج العقلي للأمم أمر يخالفه الواقع. ونرى أن التطور الاقتصادي مثلاً قد قلب أوربا رأساً على عقب وغير مقاييسها الأدبية والأخلاقية والنزعة الروحية التصوفية التي سادت ألمانيا والعالم بعد الحرب العظمى، وأن حب التشاؤم الذي ساد كذلك، وظهور ما يسمى ? الميول الشاذة بأجلى مظاهرها ومعالجتها علناً، وظهور مذهب ومذهب على أن المادة مؤثرة في الروح لا محالة. وكذلك من باب المغالطة جعل الإنسان آلة تتحرك بمؤثر خارجي كالآلات الصماء التي تشتغل في المعامل. وما نجده من العوامل الروحية في الطفل وفي حالات المجرمين بالطبيعة، والذكاء أو الجمود الفكري يناقض النظرية المادية تماماً
ولكن ما هي المقاييس التي ستنتخب للحكم على أمة بأنها متحضرة وعلى درجة حضارتها؟ أجد أن الأساليب المتبعة الآن في أوربا في تعيين الحضارات كلها مقاييس واهنة، إذ هي تقيس كل حضارة بالنسبة إلى المقاييس التي لديها، وبالنظر إلى العرف أو العادات أو الذوق الذي تراه، وهذا ما يدعو إلى الحكم المخطئ طبعاً. أضف إلى ذلك أن دراسة الإنتاج الروحي أمر عسير جداً ويحتاج إلى إلمام كثير بالظروف والأحوال التي تحيط بتلك الأمة التي ستدرس أو يحكم عليها. فالعزم يجعله كتاب أوربا اليوم من أهم ميزات الأوربي، وكذلك حبه لو حللنا الظروف والأحوال التي حطمت هذه الميول، وجو الشرق المحرق وخيراته الكثيرة لوجدنا أن تلك لم تعد ميزة عقلية، إنما هي ناحية وردت عن طريق الحاجة والمحيط

إن الفيلسوف نيتشه يجعل الحضارة ترادف (العزم على العمل) التي يرددها دائماً. وقد أخذت الفاشية ذلك، وموسوليني من أكبر المحيين لفلسفة نيتشه، فجعل الإمبراطورية تشمل الناحية الروحية كذلك، فهو ينص في كتابه الذي ألفه في مبادئه على أن السيطرة
والاستيلاء لا تقصر على السيطرة بكثرة الجنود والأراضي، بل تشمل سيادة العالم الروحي وتقوية الإرادة والعزم. وضعف هذه معناه الانحطاط والتدهور
جواد علي
خريج جامعة هامبرك بألمانيا
تأملات
لا أدري يا فتاتي كنه نظراتك، ولا أخدع النفس بتصوراتي؛ إنما بعينيك سواد يغمر ضوؤه فؤادي، ويذيب حره جناني. أسمع صوتك المتهدج تحاولين أن تخلعي عليه المستحيل من ثباتك، وأحس خفقان قلبي يعلوه هذا الشحم واللحم، فتخفى ضرباته على وجدانك.
تضربين يا فتاتي في حدود الثلاثين، ولما تكادي، وأغز أنا السير والأربعون من ورائي؛ فبيننا ما يسوغ لك مناداتي بيا أبي. وكم يحمل هذا النداء من عطف ومن مرثية! وكم تتجلى فيه الحقيقة المرة، وتشرق به النفس الظمأى إلى فيض الحب!. . . كم يردني إلى اليأس قدر ما أرتد إلى الأمل. . . لكن، يا فتاتي، قد آثرتك بحواسي، وهي تهتف بك وتهبب، فهل تستجيبين؟
وكيف تستجيب يا صديقي، وقد كان ما مضى كله عبثاً في عبث. . . لقد فتحت عيني عليه، وكانتا مغمضتين، فروعني ما رأيت: رأيت سداً هائلاً يقوم بيني وبينها، هو فرق ما بيني وبينها من سن. . . دروجي إلى الكهولة، وخطرها في مطارف الشباب هو الذي أترع قلبي غماً وأزال الغشاوة عن عيني. . .
رأيت الأوهام بعين الحقيقة تمضي فراراً لا تلوى على شيء. وكأنها خشيت أن تلقاني وجهاً لوجه، فأبصق من مر الحقيقة على وجهها. خجلت أوهامي فانحسرت عن بصيرتي، وخلفت أثرها في الكآبة التي لا تبرح تلازمني
ظلمتني يا فتاتي حين أرخيت لي في حبل الأمل فتعلقت به وشددت عليه، وتشبثت وكأني أتشبث بالحياة، وأية إيماءة حادة كانت تكفي لقطع الحبل لأنه من عمل الشذوذ ومجانبة الحقائق، والعمى عن الحدود. لكن حبلي لم ينقطع بشيء حاد. نظرة لا حياة فيها، لأنه لا اكتراث فيها، كفت لأن تقطع حبل آمالي بعد إذ كانت تحييها في سالف الأيام نظرة أخرى. وفتور أدل إلى التثاؤب وأوهى منه، طعنني في الصميم فكانت الصرخة التي فتحت عيني على حلمي المنكوب
بلى يا فتاتي! لقد نكبت كما لم ينكب غافل، وعاودني الرشد غير رشيد، وحزت الحسرة في فؤادي ولن تزال تحز إلى الأبد
كنت ماثلة لعيني، في اليقظة وفي المنام، في السر وفي العلن، وخلياً ومشغولاً، ومغتبطاً ومكموداً
ومثلت لعيني بعد الخيبة أجلي ما تكونين، وأنضر ما تكونين، تعلو شفتيك تلك الابتسامة الحائرة فتزيد في حيرتي وتثير من حسرتي
شربت المر ليعوضني من حلوك، وألزمت حواسي حدها لأفر من طيفك. ثم عمدت إلى مخيلتي وقد خفت على نفسي الخبال فمسحت منها صورتك إلى حين. ثم ضبطت خيالك متلبساً بالسطو على رأسي المضطرب وأعصابي المحطمة وليس بها لمثلك غناء فأقصيته، وأغمضت عيني دونه، وذهبت ألتمس السلوان
وكيف تسلو يا صديقي، بل كيف تجبن عن احتمال الذكرى وتتهيب وجه الحبيب؟ أتراك خشيت الألم ولوعة الهوى، وما الهوى من دون لوعة وألم؟ أتريد المتعة الرخيصة؟ إنك إذن لأناني أو عابث؛ وإني لأعيذك يا صديقي أن تكون هذا أو ذاك
فليغش نومك طيف الحبيب، وذهنك رسمه؛ وليكن تفكيرك فيه وعيشك به وله؛ وليكن بعد ذاك ما يكون. فالنار التي تتأجج في قلبك، والجرح الذي يحسه صدرك، يطهران نفسك التي بين جنبيك. وما هو إيثار الروح على الجسد إن لم يكن في تعففك وعفافها، واطراح الإغراء من جانبك وجانبها
ليكن جمال نفسها هو الذي يستهويك لا فتنة الجسد. وليكن صوتك في سمعها كصوتها

في سمعك رحمة وخيراً لا شراً وإغراءً
ستألم حين لا تطفئ المتعة نار قلبك المتأججة، فما نفعك بمتعة تطفئ الإيمان وتميت القلب؟ إنما نفعك بالألم الذي يرهف حسك، ويضيء نفسك، ويخضع جسدك. إنما نفعك في البقاء لا الفناء، في بقاء نارك متأججة، ونفسك نيرة، بقاء للحب الذي لا تعرفه المادة ولا ينبغي أن تعرفه، بقاء لروحانية البشر التي تتمثل في الألم، الألم يا صديقي ولوعة الحب والكآبة التي تذيب جسدك كالشمعة لتحترق وتضيء
كل أولئك يا صديقي عناصر تجعل منك الإنسان المنشود لا الإنسان الموجود.
(م. د)

من وراء المنظار

مجلس أدباء

طالما رغبت أن أرى هذا المجلس حتى أتيح لي هذا الحظ العظيم فقادني إلى حيث ينعقد أحد الرفاق؛ وكان المجلس لحسن حظي ليلة خففت إليه حافلاً لم يغب عنه كما علمت إلا واحد أو اثنان ممن يشتركون في حلقته
وأنا رجل طالما أحسنت الظن بالأدباء حسن ظني بالكتب فيما سلف وإن كان أكثرهم ليزعمون أني متكبر أعيش في علبة لأني ظللت حتى تلك الليلة لا أعرف أكثر هؤلاء إلا في آثارهم
جلست بين هؤلاء الشباب صامتاً أنقل بصري من وجه إلى وجه، وأتبين الأشخاص من أحاديثهم، وهم قد وضعوا أنفسهم بحكم رسالتهم في مركز وسط بين الملائكة والناس؛ ولم تمض لحظة حتى عرفت من كلامهم أولاً أنهم جميعاً شعراء؛ ثم تبين لي بعد ذلك أن كلا منهم يسمو في فنه على الباقين حتى ما يلحق به أحد وإن كان لا يصرح أحدهم بذلك، وإنما يشير إلى ذلك المعنى في لباقة عجيبة
وأعجبني منهم لعمر الحق أنهم كانوا يديرون بينهم كؤوس الثناء بدل كؤوس الصهباء إن جاز في ذوقهم هذا التعبير. فهذا يثني ما وسعه الثناء على القصيدة الأخيرة لجاره؛ وذلك يمتدح ديوان صاحبه حتى ليجعله من مفاخر العصر ومآثر الجيل، وفلان يستزيد فلاناً من طرفه. . . وهكذا يتبادلون بينهم الثناء حتى لا يتركون معنى من معانيه
ولكنني ما لبثت على الرغم من ذلك أن تبينت في حلقتهم أحزاباً، وساعدني على فهم ذلك ما عرفته من سالف كتاباتهم، فهذا شخص أعرفه من قبل قد جعل لصاب له الزعامة فيما كتبه عنه، وأراه في المجلس يقبل عليه إقبالاً شديداً فما تبدو منه نكتة إلا انطلق وراءها مقهقهاً مستحسناً مهما بلغ من تفاهتها، وما يبدي رأياً إلا انحاز فيه إليه مهما خالف فيه كل قياس وخرج به على كل ذوق. . . وهذا شخص آخر يعلم أن بين فلان وفلان حقداً وهو يحقد على أحدهما فيما أعرف فلا يزال يمتدح الآخر بكل ألوان المديح، وألمح أنا الامتعاض على وجه المغضوب عليه فأفطن وأبتسم
وأعجب لهذا التناقض الغريب، وهم كانوا قبل ذلك يبدون لي وقد ألف الفن بين قلوبهم وملأها بالمحبة. . .! وينتقل بهم الحديث من تبادل الثناء ثم من اللمز إلى المباهاة والمفاخرة. فهذا تنهال عليه رسائل الإعجاب حتى ليترك بعضها دون قراءة لكثرتها؛ وذلك بتهافت على قصائده كبار الملحنين ولكنه يضن بها ضناً بالشعر عن التكسب والتبذل؛ وثالث يقول في خجل مصطنع إنه يشار إليه في كل ناد ويتهامس الفتيان والفتيات باسمه، ويرد عليهم من يذكر كيف يحرص على مودته أصحاب الصحف اليومية والأسبوعية على اختلاف نزعاتها؛ ويسكت أحدهم تاركاً لصاحبه المفتون به أن يتلو عليهم من حالاته ما يعجبون معها لشذوذه المحير، ذلك الشذوذ الذي يصل به إلى الجنون، ولكنه بأي حال لا يفسر إلا بأنه شذوذ العبقرية وجنون الملهمين، وإن كانوا ليعلمون أنه متكلف يبلغ غاية السخف في تكلفه. . .
واجتمع هؤلاء الشباب على رأي واحد، وذلك هو رأيهم فيمن سموهم شيوخ الأدب فأولئك عندهم قوم نالوا من الشهرة ما لا يستحقون، وليس فيهم إلا من يحقد على الشباب وعبقرية الشباب وطموح الشباب، ولذلك فهم يحاربونهم ويضعون في طريقهم العقبات، ولكن الغلبة في النهاية لا شك للجيل الناهض. . .
ويحمل هؤلاء الملهمون حملة صارمة على هذا البلد الجاحد ويألمون لحظهم فيه، ويتساءلون: لم أطبقت الغفلة على هذا الجيل إلى مثل هذا الحد؟ فإذا مال الحديث إلى من أصول الأدب رأيت بين هؤلاء الذين يرمون الجيل بالغفلة تناقضاً وتبايناً واختلافاً

شديداً حتى ليصعب على من يقرأ مثل آرائهم أن يصدق أنهم يعيشون في عصر واحد وفي بلد واحد، وكيف يلتقي هؤلاء على ذوق أدبي والمسألة بينهم رياء وتقارض ثناء؟ وبعد أفلا يسهل على بعد أن بلوت مبلغ صدق هؤلاء بعضهم تلقاء بعض أن أصدق ما يقال عن مبلغ صدق أكثرهم في فنهم؟ ذلك الصدق الذي ترى من آياته أن ينظم أحدهم فيما رأى من جمال الربيع وهو لم يخرج من مكتبه، أو يصف الشروق والغروب والليل في القرية وهو لم ير مدى عمره قربة، أو يتوجد ويتوجع ويشتكي إلى ملهمته وهي لا توجد إلا في مخيلته! لقد أسرفنا في الهزل فمتى نجد، وبالغنا في الاستهتار فمتى نستحي؟

(عين)

رسالة الشعر

من شكوى الزمن

للدكتور إبراهيم ناجي

يا ويلتا من عُمري الباقي ... هذا سوادٌ تحت أحداقي
هذا بياض الشيب وا عجبي ... من مَغْربٍ في زِي إشراق
ويلي على كأس معربدة ... وعلى دم في الكأس مُهراق
وعلى سراب خادع وعلى ... متألق اللمحات بَرَّاق
طاف الزمان به على نفر ... مالوا بهاماتٍ وأعناق
صُرعوا وكنت تظنهم سكروا ... مات الندامي أيها الساقي!
يا دهر لم أشك الكلال ولا ... مَلكتْ خطوب الدهر إرهاقي
عذبت أيامي بِعِفتها ... وقتلتني بصفاء أخلاقي
يا كَمْ غرستُ وكم سَقَيتُ وكم ... نصَّرتُ من زهر وأوراق
ما حيلتي والأرض مجدبة ... سيّانِ إقلالي وإغداقي
أين الذين رفعتُ فانحدروا ... وبنيتُهم بُنيان خلاق
إن الوفاء بضاعة كسَدَتْ ... ومآل صاحبها لإملاق
إفلاس أرواح وَمَصْيعةٌ ... لقلوبنا في شر أسواق
إن كنتُ لم أغْنَمْ فقد ظفروا ... مني بمغفرتي وإشفاقي
لكنني والجرح يُلهب لي ... حِسَي ويكون كيَ إحراق
هيهات أنْسى أنهم عبثوا ... وَوَفيتُ لم أعبث بميثاق
احترق. . . احترق!

للأستاذ أمجد الطرابلسي

لا تقف يا قطارْ ... لا تهِن يا خَفِقْ
نَخَلات الديارْ ... من وراء البحارْ
لَمَعَتْ فِي الأفُقْ
ويك! لا تحترقْ
قد بلغنا الفِناءْ ... بعدَ كَدِّ المسيرْ
ليس دونَ اللقاءْ ... بعدَ هذا المساءْ
. . .غيرُ بعض العصورْ
. . .وبحارٍ تمورْ
سرْ بنا سرْ بنا ... في الّدجى يا أملْ
الهوَى نايُنا ... والمدَى. . . غايُنا
يا هَنَا مَنْ وَصَلْ
. . .بعدَ فَوْتِ الأجَلْ
. . . . . .
قفْ بنا يا قطارْ ... واسترِحْ يا خفِقْ
بيننا والديارْ ... غَمَرَاتُ البحارْ
وظلامُ الأفُقْ
احترق. . . احترق!

يومان

للأستاذ صالح جودت

اليوم الأول
(المنظر: هو وهي على الشاطئ)
هي: ما لعَيْنَيْكَ يا رهيبُ تُثيرا ... نِ طيوفَ الأوهام حول أماني؟
هو: أنا يا فتنةَ الوجود؟
هي: أجل أنت
هو: وكيف اتهَمْتِ؟
هي: مجنونتان!
فيهما حيرةٌ وغمرةُ شَكٍ ... ومعان ما تُرجمتْ بلسانِ
كم عَلَتْني غِشاوةٌ عند لُقيا ... ك فأنكرتُ رؤية الإنسان
لستَ كالناس!
هو: هل أكون ملاكاً؟
هي: حيرتي في الملاك والشيطان!
هو: أنتِ يا مَنْ سكبتِ خِمرةَ إلْحَا ... دي وأترعْتِني من الإيمانِ
عند عينيكِ تنتهي أَعْيُنُ الَلل ... هـ فأنْي مضيتُ شارفتاني
سهدُ جَفْنَيهما من السَرْمَدِ الخا ... لدِ مهما استطال لا يَغْفَوَان
غير أني أحسن سراً دفينا ... وهما دون غَيْبِهِ مُغلقان
هي: ثم ماذا؟
هو: أهواكِ يا ربة الْحُسْنِ!
هي: وماذا أعددتَ للقربان؟
هو: كل ما شئتِ لا يعزُ، وإن كا ... نَ محالاً فإنه لك دَانِ
هي: قمْ بهذا الكُرازِ أَنْضِبْ لِيَ البَحْرَ!
هو: وهل أستطيع ما فوق شاني؟
هي: خَلَهِ عنكَ. . قم وأَنْضِب من الشا ... طئ بعض المياه
هو: يختلطان
هي:
كاختلاط الشهْوات بالأثْرِة العمي ... اء في لجةٍ من الوجدان
واختلاط الحِجَي ببوقتة الجن ... س فَتْبني من المحال الأماني!
أَوَ ما قلتَ إنه لِيَ دانِ؟ ... ما لَكَ الآن نَؤْتَ بالبرهان؟
هو: لستُ رباً!
هي: وما أنا؟
هو: أنتِ عندي ... رَبَة في سماوة الفَنَان
هي: كيف ترجو إذَنْ هواي وما أن ... تَ بصنْوٍ مكانه كمكاني؟
هو: اجعليني فيما مَلَكْتِ قطيناً ... أو هبيني مُوَكلاً بالْجِنَانِ!
هي: هل رأيتَ الْجِنَاتِ؟
هو: في جسمِ أُنثى ... عبقري الظلال والألوان
فعَلَى صدرها الثمار وفي الثغْرِ ... من الخمر سلسبيل المعاني
وعلى شَعْرها المذَهَبِ أشبا ... حُ قصورٍ ما شَيَدَتْها يدانِ
اليوم الثاني
(المنظر: هو وهي خارجين من الصومعة)
هي: كنتَ في الليل راعياً في الْجِنَانِ
هو: ليل أمس في ذمة النسيان
كنتِ فيه إلهةً!
هي: ما أنا الساعةَ؟
هو: لاشيء، أنتِ كالجثمان
أنتِ مخلوقةٌ تعيشين بالْجِسْمِ ... وتُفْنِيكِ شهوة الحيوان
هي: قُبلةً!
هو: ما وراءها؟
هي: هِيَ معنىً
هو: هَتَكَتْ شهوةُ الجسوم المعاني

ونَضَتْ سِتْرَ ناظريك وذاع السـ ... رُ فيما فَقَدْتِ من أكوان
هي: أَوَ أَنْزَلْتنِي عن العرش لما ... ذاع سرى لديكَ؟ أي بيان!
:. . . . .
. . . .
:. . . . .
:. . . . .
. . . .
غادرٌ أنتَ؟ :
هو: نحن للفن نحيا ... ونراكم له من القربان
فنُضَحي بكم على مَذْبح الفكر ... ليُهدَي بالفكر جيلٌ ثان
صالح جودت
الأدب في أسبوع
العودة
إن بعض الحوادث في حياة الرجل لتنزل منزلة الآية المحكمة: ننسخ ما كان قبلها، ثم يأتي بعضها كالقنبلة: تخسف الأرض أمامه فلا يرى إلا هوة وغبارها، فإذا تلاحقا لم يدري المرء ما يستدبر من أمره ولا ما يستقبل، وإنما هو الحيرة والظلال والرعب، والتردي كلما أقدم أو أحجم. . . بلى، إن علينا أن نصارع الحياة بالقوة، وأن نداورها بالحيلة، حتى نخلص إلى الأرض المطمئنة، ولكن هل يستطيع أحدنا بعد ذلك أن يصل إلى هذه الأرض؟! لولا أن اليأس هو باب الموت، لكان هو - في الحقيقة - إحدى الراحتين. . .
كتب
ولنعد. . . أصدرت المطابع المصرية في الأسابيع الماضية طائفة كثيرة من الكتب العربية، بعضها لأصحابنا من المعاصرين، وبعضها مما أنقذه المعاصرون من المكتبة العربية المدفونة في خزائن الكتب، فنحن نختار من هذه الكتب ثلاثة يجرى الحديث فيها مجرى واحداً في الغرض الذي نرمي إليه، وهي كتاب: (التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية) وهو دراسات لكبار المستشرقين مثل: بكر، وجولد تسيهر، ونلينو، ومايرهوف. ترجمها إلى العربية الأستاذ عبد الرحمن بدوي؛ وكتاب (الرسالة) لإمام المذهب محمد بن إدريس الشافعي. نشره العالم المحدث الثقة الشيخ أحمد محمد شاكر، وكتاب (الذخيرة) لأبي الحسن علي بن بسام، نشرته كلية الآداب مستعينة بمراجعة الأساتذة محمد عبده عزام، وخليل عساكر، وبخاطره الشافعي؛ وأشرف على عملهم أساتذة الجامعة: أحمد أمين، ومصطفى عبد الرازق، وعبد الحميد العبادي، وعبد الوهاب عزام، وطه حسين
وهذه الكتب الثلاثة لا يجمعها باب واحد من حيث موضوعها، فالأول آراء للمستشرقين في فروع من الحضارة العربية والآراء الإسلامية، ورسالة الشافعي هي أصل علم (أصول الشريعة). والثالث في تاريخ الأندلس، وشعرائها، وبلغائها، وكتابها. فالذي حملنا على جمعها في باب واحد من كلامنا هو الرأي في المستشرقين، وما يجب علينا أن نتابعهم عليه، وما ينبغي لنا أن نحذره منهم
المستشرقون
فقد قرأت مقدمة كتاب (التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية) - كتبها الأستاذ (بدوي) بحرارة الشباب التي تتضرم في دمه، وجعل يتهدم فيها على التراث العربي بآراء كالمعاول: تضرب في الجذع بعد الجذع على غير هدى ولا كتابٍ منير. فلما توغلت في الكتاب رأيت أن آراء المستشرقين - الذين ترجم لهم كلامهم - هي التي وضعت في يديه هذه الفأس ليعمل بها؛ ونحن لا نرى أن مثل ذلك مما يضر بالتراث الإسلامي بشيء، ولكنا نرى أنه يضر بأصحابه والعاملين عليه أول، لأنه يأكل قواهم في شيء لا يمكن أن ينال منه شيء (ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً). والمشكلة كلها هي فتنة أكثر الناس بأسماء المستشرقين، وأن ما يكتبون في التاريخ الإسلامي والعربي ينزل من قلوب كثير من شبان الجامعة وغيرهم منزلة الكلام القدسي: تحريف معانيه إبطال لقوة (الاستشراق) التي فتنتهم. ونحن - حين قرأنا بعض آرائهم التي ترجمها الأستاذ (بدوي) - وجدناها عملاً صالح المذهب من ناحية مدرجه، وأما من ناحية التحقيق

العلمي، والغاية التي يرمى إليها، فهو عمل غير صالح. فكان هذا الذي عرفناه هو الذي دفعنا أن نخصص هذه الكلمة للكتب الثلاثة المذكورة آنفاً، ولمذاهب المستشرقين في تناول الكتب العربية القديمة بالتحقيق لنشرها، ثم مذاهبهم خاصة فيما يعالجون من تاريخ الفكر الإسلامي أو الحضارة الإسلامية. وليس غرضنا هنا أن نعرض لنقد شيء بعينه من آرائهم، وإنما نريد أن نثبت لهم حقهم الذي وجب لهم بما بذلوه من جهد، ونحذر شباننا من الافتتان بباطل من باطلهم

وينقسم أمر المستشرقين كما ترى إلى عملين: أحدهما عملهم في الكتب العربية القديمة التي نشروها من بدء توجههم إلى هذا الغرض، والآخر ما كتبوه من دراساتهم في الآثار العربية، وما أرخوه من تاريخ الإسلام، وتاريخ آرائه ومذاهبه العلمية والفلسفية.

نشر الكتب العربية

فالمستشرقون حين بدءوا فنشروا الكتب العربية القديمة لم يقصروا في بذل المال والوقت لاستجلاب الأصول التي يطبعون عنها هذه الكتب، ثم يتفرغ أحدهم لمقارنة الأصول بعضها ببعض، وإثبات الاختلاف بين النسخ الكثيرة التي تقع لهم، وتحرير ذلك بالحرف والنقط والشكل على ما هو عليه في أصل من الأصول، وأمانتهم في إبقاء المحرف على

تحريفه والخطأ على صورته. . . إلى غير ذلك من الدقة والأمانة في إعطاء القارئ صورة كاملة في نسخة واحدة من الكتاب المطبوع - لعدة نسخ مختلفة متباينة من الأصول المخطوطة. حتى إنهم ليثبتون في (الهامش أو الاستدراك) ما هو خطأ بين لا يصح على وجه من الوجوه، وإنما هو جهل ناسخ وإفساد كاتب، ثم لا يعطونك رأياً يرجحون به لفظاً على لفظ. . . وحتى إنهم ليثبتون الخطأ الصرف في صلب الكتاب ويكون صوابه في الاستدراك، وحجتهم في ذلك أنهم يعتمدون أقدم النسخ عندهم، يطبعونها كما هي، وأما اختلاف سائر النسخ فهو من حق المستدرك وإن كان هو الصواب الذي لا صواب غيره

وهذا - على علاته - عمل جيد وأمانة صحيحة. ثم جاءتنا هذه المطبوعات في بلادنا على فترة جهل وإهمال، وعلى زمن كل أصحاب المال الذين ينشرون الكتب فيه، إنما هم عامة لا يعنيهم إلا الربح من طبع الكتب حروفاً قد جمع بعضها إلى بعض على غير نظام ولا تحرير ولا فن؛ فلما قارن بعضنا هذا بهذا ونحن عرب وهم أعاجم لا يعنيهم من عربيتنا ما يجب أن يعنينا - انبثق بثق الفتنة، ومجد الناس همة هؤلاء المستشرقين الأعاجم - وحق لهم - وجعل جماعة ممن لبس عليهم يدفعون القول بعد القول في تعظيمهم والمغالاة فيهم بغير الحق. . . ثم مضى ذلك وانسحب التبجيل على آرائهم في الفكر الإسلامي والتاريخ العربي كما انسحب على أعمالهم في نشر الكتب. . . وأين هذا من ذاك؟

ثم انبثق بثق آخر، فظن بعض المغالين أن المذهب الذي سلكه المستشرقون في التصحيح، هو المذهب لا مذهب غيره، وجعلوا ينعون على من يخالفهم من أصحاب اللسان العربي في طريقة نشر الكتب العربية. ومع ذلك فهم على الحق في بعض ما يقولون، ولكنه ليس كل الحق؛ فإن المستشرقين لم يذهبوا هذا المذهب، ولم يقفوا هذا الموقف من اختلاف النسخ، إلا لعجزهم عن ترجيح بعض الكلام العربي على بعض، وذلك لعلل بينة: أولها جهلهم بالعربية على التمام، فإن تمام العربية هو السليقة التي لا تكتسب، كما أن تمام الإنجليزية والفرنسية هو السليقة والنشأة والاندماج في الوسط الإنجليزي أو الفرنسي من بدء المولد والحضانة؛ والثاني أنه قلما يوجد فيهم المتخصص في فقه علم بعينه حتى يكون حجة فيه، اللهم إلا أن تكون الحجة - عندهم - في جمع نصوص كثيرة في موضوع واحد من كتب شتى، ولكنهم لا يدعون أبداً أنهم أصحاب رأي في البيان والتأويل والترجيح

رسالة الشافعي

ويجب أن نضرب المثل هنا (برسالة الشافعي) التي طبعها العالم الجليل الشيخ أحمد محمد شاكر، فهو طبعها عن أصول مخطوطة ومطبوعة، وأقدمها نسخة منها بخط الربيع بن سليمان تلميذ الشافعي وراوي كتبه؛ فالأستاذ الشيخ شاكر حجة في علم الحديث النبوي، وفقيه متيقن للسنة التي هي أصل من أصول الدين، فلما تناول

(الرسالة) يعدها للطبع لم يترك شاردة ولا هائمةً من اللفظ إلا ردها إلى مكانها من عربية الشافعي وأصوله التي في كتبه، وأثبت الاختلاف ورجح بعضه على بعض، وعمل في ذلك عمل العقل المفكر بعد أن ضبط كل اختلاف رآه إلى غير ذلك من أبواب التحرير والضبط. فإذا أنت قرأت الأصل دون التعليق رأيته قد سلم من كل عيب، وصار بياناً كله، بعد أن كان في الطبعة الأولى من (الرسالة) شيئاً مختلفاً يتوقف عليه البصير، فما ظنك بسائر الناس ممن يقرأ وليس له في هذا العلم قديم معرفة أو مشاركة؟ وأنت إذا قارنت هذه الرسالة بأي كتاب من الكتب التي أتقنها أصحابها من ثقات المستشرقين، وجدت الفرق الواضح، وعرفت فضل العربي على الأعجمي في نشر الكتب العربية، إذا هو حمل أصولها على أصول الفقه والدراية والتثبت، ولم تخدعه فتنة برأي لعله غيره أقوم منه وأجود

وأنا أذكر بهذه المناسبة أن الأستاذ قد أرسل إلي في (إبريل سنة 1932) يسألني عن كلمة وردت في حديث من مسند أحمد ابن حنبل، ولم أكن قرأتها قبل ذلك، فكتبت إلى الرافعي رحمه الله أسأله عنها وعرضت له ما رأيت من رأي، فخالفني الرافعي، ثم لم تمض أيام حتى وجدت في الطبري ما يوافق بعض رأيي أو يدل عليه، وأبى الرافعي أيضاً. ثم لم ألبث أن وجدت نصاً بعينه على الذي رأيته، وهذه الكلمة هي في الحديث. . . (رجل قد جرد نفسه، قد (أطنها) على أنه مقتول)، فرأيت أن قراءتها: (أطنها) والهمزة فيها منقلبة عن الواو فهي (وطنها) وكذلك وردت في الطبري، ولكن أصحاب كتب اللغة لم يثبتوا ذلك في كتبهم كما أثبتوا (وكد وأكد، ووثل وأثل) إلى غير ذلك. فأنت ترى أن الطبع والسليقة ربما هدت إلى ما لا يقع إلا بعض طول التنقيب والبحث والتجميع

الذخيرة

وهذا أيضاً كتاب (الذخيرة) فإن الجهد الذي بذل في تصحيحه وضبطه على الأصول المخطوطة التي طبع عنها وبيان اختلاف النسخ، قد أوفى على الغاية، وقل من المستشرقين من يستطيع أن ينفذ إلى إجادة مثله في التحرير، ومع ذلك فقد وقع فيه بعض ما كان يمكن تجنبه، لولا أن الأساتذة المصححين قد تهاونوا في تحطيم أسلوب المستشرقين الأعاجم، في التوقف الذي لا معنى له عند العربي، ونضيف إلى هذا علة أخرى، هي أنهم ليسوا ممن تخصص لشيء بعينه من تاريخ الأندلس وأدبه، فكذلك بقى بعض الخطأ كما هو، وأثبت على ذلك وليس له أي معنى. وترك مثل ذلك للقارئ مما لا يصح ولا يستحسن، ولنضرب لذلك مثلاً أو مثلين: ففي ص82 (. . . دبروا جميعاً عليه فقتلوه ليلاً. . .) وفي نسخة أخرى (بدروا)؛ وكلا الحرفين لا معنى له في الجملة، والصواب عندي أن يكون (اندرأوا عليه. . .) أي هجموا عليه واندفعوا، ومن قرأ النص عرف أن هذا هو حق السياق، وكذلك في ص110 (وفارس ميدان البيان، وذات صدر الزمان) وفي نسخة (وأذات) وكلاهما ليس له معنى، وهو محرف عن (ودرة) أو أي شيء يكون حلياً للصدر. . . ونحن لا نتتبع وإنما نقلب بعض أوراقه الآن على غير ترتيب، ومع ذلك فهو أجود بكثير من أغلب كتب المستشرقين

هذا. . .، وليس كل المستشرقين ممن يصح الاعتماد عليهم في كل شيء، فقد طبعوا كثيراً من الكتب. . .، وأقل كتاب وأردأه مما يطبع في مصر هو خير من مثل هذه الكتب. فلو أخذت مثلاً (كتاب الزهرة) لابن داود الظاهري، الذي طبعه الأستاذ (لويس نيكل) بمساعدة الأخ (إبراهيم طوقان) لوجدت أكثره خطأ، بعد الذي بذله الأستاذ طوقان في الاستدراك عليه. . . ولو شئنا أن نضرب المثال بعد المثال على ذلك لضاق المكان عن إتمام ذلك

مباحثهم

أما مباحث المستشرقين فهذه هي موضوع الإشكال كله، والمستشرقون - كما لا يشك أحد - ثلاث فئات: فئة المتعصبين الذين تعلموا العربية في الكنائس لخدمة التبشير، وهم الأصل، لأن الاستشراق في أوله كان قد نشأ هنالك بين رجال الدين. .؛ وفئة المستشرقين الذي يخدمون السياسة الاستعمارية في الشرق العربي، وفئة العلماء الذين يظن أنهم تجردوا من الغرضين جميعاً. . . فأما الفئة الأولى والثانية فما نظن أكثر أقوالهم في المباحث الإسلامية إلا جانحاً إلى غرض أو مركوساً بقوله إليه، وهم أكثرية المستشرقين، ولا

نظن أن كلام هؤلاء مما يمكن أن يعتمده أحد إلا أن يكون مفتوناً جاهلاً. وأما الفئة الثالثة، فهي أيضاً موضع الإشكال؛ فمن غير الممكن فيما نظن أن يتجرد هؤلاء عن الغرض الخفي الذي يدب من وراء الكلام؛ هذا على أنهم كما قدمنا ليسوا أصحاب سليقةٍ في فهم النصوص العربية على التحري لموضوعها، وتمام الفقه لمعانيها التي يتعاطونها؛ وإذن فمن واجب قارئ كلامهم أن يقف عند آرائهم موقف الناقد الذي لا يقبل إلا ما تقبله الطبيعة الفطرية للغة في المعاني التي يستخرجونها من الكلام. ومع ذلك أيضاً فمن عيوب هذه الفئة أنهم ربما استخرجوا قولاً ضعيفاً فاسداً ليس بشيء في تاريخ الإسلام والعربية، ثم يكتبون وقد اتخذوا هذا القول أصلاً ثم يجرون عليه سائر الأقوال ويؤولونها إليه، ثم يحشدون لذلك شبهاً كثيرة مما يقع في تاريخ مهمل لم يمحص كالتاريخ الإسلامي، وكذلك يلبسون على من لا يعلم تلبيساً محكما لأنه حشد وجمع، وتغرير بالجمع والاستقصاء الذي يزعمون. وسنتناول ذلك بعد قليل بعرض بعض الآراء التي ترجمها لنا الأستاذ بدوي في كتابه لنحقق كل ذلك إلى نهايته، حرصاً على أن نحصر الفساد في أضيق محيط

العقاد

وأنا لا أحب أن أختم هذا الحديث بغير مثل أيضاً. فهذا الأستاذ (العقاد)، وكلنا يعلم أنه قلما كان يتناول الأغراض الإسلامية بالتحرير والبحث، ولكن منذ العدد الهجري للرسالة كتب مقالة عن عبقرية محمد صلى الله عليه وسلم العسكرية، ثم عن عبقريته السياسية، فاستوفى القول في ذلك وأشبعه، ورد كثيراً من الشبه التي كان يلبس بها الأعاجم على الأغرار من شبابنا: وليس يستطيع مستشرق أن ينفذ في فهم التاريخ العربي، والاجتماع الإسلامي، والفلسفة الإسلامية، كما يستطيع كاتب قارئ مطلع كالأستاذ العقاد. ثم هو فوق ذلك أديب عربي يستطيع أن يجعل فطرته العربية الأدبية عوناً له على التغلغل في أسرار تاريخية مطموسة، لا يطيقها المستشرق بفقدانه مثل هذه الفطرة؛ ثم لأن البيئة العلمية والاجتماعية التي نشأ فيها وتثقف على أساسها لا تطاوعه أو تلين معه، حتى يكون في نظره إلى التاريخ العربي أو الفلسفة الإسلامية، خراجاً ولاجاً على طبيعة العرب وطريقتهم في تداول معاني حياتهم، وحياة أفكارهم وفلسفتهم. ونحن نرجو ألا يخلي الأستاذ العقاد مباحثه من هذا النوع الجديد من الفكر في تاريخ تنقذف عليه كل يوم جهالات كثيرة مفسدة ليس لها أصل ولا بها قوة.

محمود محمد شاكر

رسالة الفن

تأملات في الفن:

نبئيني غداً بما تسمعين

للأستاذ عزيز أحمد فهمي

- لست أدري لماذا تحب أن تسمع موريس شفالييه وهو يغني بالإنجليزية، مع أنه إذا غنى بالفرنسية كان أبدع

- من غير شك يكون أبدع، ولكني أسمعه يغني بالإنجليزية لكي أضحك لا لكي أطرب؛ فهو ينطق الإنجليزية بلكنة فرنسية فيزيد هذا الشذوذ تهريجه حلاوة وخفة

- وهل موريس شفالييه مهرج؟

- وأي شيء هو غير هذا؟ إنما هو مستساغ ومحبوب لأن تهريجه في طبعه، فلو لم يكن شفالييه مهرجاً محترفاً يربح من تهريجه المال الوفير، لكان مهرجاً في أي عمل يعمله وأينما كان وكيفما كان

- ليت عندنا مهرجين مثله

- وهل عندنا غيرهم. . . ولكن الذين لا يحترفون التهريج ويدعون الوتار ويصطنعون والتعالي عن سفاسف الأمور

- مثل من؟

- دعينا من هذا، فأهلنا هنا في مصر يوجعهم الحق. بنا إلى موريس شفالييه واذكري له حسنة أخرى إلى ما ذكر من حسنة التهريج الصريح

- خفة روحه

- إنها مع تهريجه وفي خلاله، بل إنه منها وبها. نريد له حسنة أخرى لا صلة لها بالتهريج.

. .
- مثل ماذا؟
- مثل لكنته هذه. أليست تدل على شيء طيب في نفسه أليست تشهد بأن موريس شفالييه قوي الشخصية، ومن قوي شخصيته هذه القوة الفرنسية التي لم تخذلها رغبته في الربح وطعمه في الدولار الأمريكاني الرنة الإنجليزي اللغة. . . إني أرى في شفالييه هذه الحسنة
- ولكني أرى هذه سيئة لا حسنة. فالممثل هو الطيع النفس الذي يستطيع أن يتشكل بسهولة لا الجامد النفس الذي يستعصي عليه التلون
- هذا حق. وإني أعتقد أن موريس شفالييه إذا مثل شخصية إنجليزية معينة فإنه سيكون في تمثيله هذا أقرب إلى سلامة (التجنلز) منه وهو يمثل شخصيات غير محدودة لا ينطق الإنجليزية بلسانها بضرورة فنية، وإنما لضرورة تجارية ألزمته إياها شركات السينما الأمريكية. . . ولو لم تكن الأدوار التي يخرجها موريس شفالييه كلها تهريج ومرح ومجون وفكاهة لا تجب معها المؤاخذة على سلامة كيانها الفني لفشل موريس شفالييه ولعاد إلى التمثيل بلغته الفرنسية كما عاد إميل جاننجز إلى التمثيل بلغته الألمانية على ما تكبد في ذلك من خسارة مادية هائلة، إذ كانت أمريكا تعتبره ممثل الدنيا الأول
- أو إلى هذا الحد يصعب على الإنسان أن يمثل بلغة غير لغته؟
- إذا كانت لغته متغلغلة في نفسه قابضة على زمام روحه
- وكيف يكون هذا وكيف لا يكون؟
- اللغة هي لسان فريق من الناس يقال لهم شعب، لأنهم تشعبوا من أصل البشرية إلى اتجاه إنساني خاص يستدعي سلوكه مميزات نفسية خاصة. وهذه المميزات يظهر بعضها في التفكير، ويظهر بعضها في الذوق، ويظهر بعضها في الأفعال والحركات، ويظهر بعضها في اللغة وفي طريقة إلقاء هذه اللغة. وكلما تأصلت هذه المميزات في نفوس الشعب وضحت آثارها في المظاهر التي ذكرناها، وليس هذا الوضوح إلا دليلاً على تمكن هذه المظاهر من تلك النفوس، وشدة ارتباطها بها، فإذا أكرم شعب من الشعوب أفراده تأصلت في أفراده مظاهره حتى لتكون هي الطابع الذي يطبعهم، وإنهم لينمون هذا مدفوعين إليه بالذي يشعرون به من الاعتزاز بانتسابهم إلى أنفسهم، وهم لا يشعرون بهذا إلا إذا كانوا عل خير، وإذا كانوا بهذا الخير راضين. وليس هناك شك في أ، موريس شفالييه يعتز بانتسابه إلى فرنسا، كما أنه ليس هناك شك في أن إميل جاننجز يعتز بانتسابه إلى ألمانيا، كما أنه ليس هناك شك في أن شارلي شابلن يعتز بانتسابه إلى العبرية، أما موريس فإنه رأى الناس لا يطلبون منه إلا أن يضحكهم وأن، يمازحهم، فلم يعبأ بأي لسان يتحدث إليهم
ويغنيهم، فهو ينطق أحياناً بالفرنسية وأحياناً بالإنجليزية، ولو كفل له استديو مصر حاجته من المال لمثل بالعربية ولم يجد مانعاً من ذلك ما دام غرضه وغرض الناس منه هو العبث، وأما شارلي شابلن فإنه يمثل من غير أن يتكلم لأنه لا يهرج، وإن كان يضحك الناس على أنفسهم، ولأنه يريد أن يحسه الناس جميعاً مجرداً من كل بلبلة مما فرق البشرية وشعبها، وقد كان شارلي يستطيع أن يمثل بالإنجليزية وهو مولود عليها، ولكنه يشعر بالحق فيما بينه وبين نفسه أنها لغة طارئة على تكوينه غريبة على نفسه ذات المميزات العبرية الشرقية التي أنعم الله بها على بني إسرائيل، وهذا الشعور مع رغبته في الشيوع مع النفوس المختلفة هما اللذان يلزمانه التمثيل الصامت وإلا فقد كان يمثل بالإنجليزية وهي لغة جمهور السينما
- أو العبرية وهي لغته
- ولكن أهلها قليلون جداً وحرام أن يخصهم شارلي وحدهم بفنه مثلما خص إميل جاننجز أهله الألمان وحدهم بفنه بينما كان الواجب الإنساني عليه أن يظل في أمريكا يمثل صامتاً مثلما يفعل شارلي، وقد كان ينجح كل النجاح ويوفق كل التوفيق فهو في الممثلين آية. أذكر أني رأيته مرة في فيلم يبكي بضلوع ظهره بكاء أبكاني وأبكى كثيرين معي، وليس كل ممثل بقادر على هذا
- فما الذي منعه؟

- لست أدري، وإن كنت أظن أن إميل لو كان صاحب ثروة مدخرة لبقى في أمريكا وفعل الذي يفعله شارلي ولما اضطره الفقر إلى أن يقف موقف الاختيار بين ما يريده الأمريكان من التمثيل الناطق، وما يريده الألمان من النطق بالألمانية وحدها
- إذن فلو كان إميل غنياً لكان قد تخلص من ألمانيته، فالألمانية إذن ليست متغلغلة فيه كما تدعي، وما دام الأمر كذلك فقد كان يمكنه أن يظل في أمريكا وأن يمثل بالإنجليزية
- لا. إن الألمانية متغلغلة فيه، فلا أحد ينكر أن الألمان من الشعوب الذين يعتزون بأنفسهم، بل الذين يصل بهم اعتزازهم بأنفسهم إلى أن يصبح صلفاً وتكبراً مذمومين، وكل الذي كان يستطيعه إميل مع هذه الألمانية المتمكنة فيه من ألوان الكفاح هو سترها بالصمت، ولكنه لم يكن ليقوى على أن يسترها إذا نطق فبأي لسان نطق ظهرت ألمانيته، وظهر فيها صلفه
وكبرياؤه وغروره، والصلف والكبرياء والغرور من الصفات التي يراها البشر عامة شذوذاً وانحرافاً عن الفطرة الإنسانية السهلة السمحاء وليس يقبل فريق من الناس أن يكون الإنسان ذا صلف وكبرياء وغرور إلا الألمان، لأنهم كلهم هكذا أصحاب صلف وكبرياء وغرور، فمجتمعهم مملوء بهذه الصفات حتى إنهم لم يعودوا يرون فيها غرابة ولا شذوذاً ولا عيباً، وقد يقبل الناس من غير الألمان أن يروا إميل جاننجز في دور تمثيلي فيه صلف وغرور وكبرياء، ولكنهم لن يقبلوه في هذا الدور بهذه الصفات إلا إذا كانت هذه الصفات مما يستدعيه الدور، كأن يكون دور قائد من المحاربين المغامرين المفتونين، أو حاكم من الحكام المستبدين المغرورين، أما إذا لم يستدع هذا الدور هذه الصفات وظهرت هذه الصفات في لهجة إميل جاننجز وإلقائه للإنجليزية أو الفرنسية فإن الناس سيضحكون عليه من غير شك لأنها صفات غريبة على الدور خارجة عن طبيعته. . . أولا تضحكين أنت من المتكبر المغرور إذا لم يكن له جاه يبرر - ولو للعرف - كبرياءه وغروره؟. . . لهذا عجز إميل جاننجز عن التمثيل بالإنجليزية
- وهؤلاء الممثلون جميعاً الذين يمثلون في هوليوود باللغة الإنجليزية وهم من شعوب مختلفة ولهم ألسنة مختلفة، ألا يراعون هذا الذي يراعيه إميل جاننجز وشارلي شابلن وموريس شفالييه؟
- أما شفالييه، فهو لا يراعي شيئاً كما قلت لك، واللذان يراعيان هما شارلي شابلن وإميل جاننجز، فهما من عشاق الكمال الفني، وقد تركزت في كل منهما خصائص قومه، فهو في فنه يمثل شعبه في حياته، فهذا شارلي ضاقت العبرية به، فصمت وانتشر بصمته في الأرض، كما ضاقت الأرض المقدسة عن بني إسرائيل، فصمتوا عنها وانتشروا في الأرض، وهذا إميل جاننجز ضاقت به الألمانية، فتشبث بها وانحصر في حدود بلاده يجتر كبرياءه وصلفه وغروره كما ضاقت ألمانيا نفسها بأبنائها فلم يصمتوا عن صلفهم وكبريائهم وغرورهم، وإنما انحصروا في أرضهم يأكلون صراخاً وزعيقاً وصخباً وجلبة. ولو كانوا على شيء من الحكمة، لنزلوا عن شيء من صفاتهم هذه، ولكانوا كالإنجليز معتدين بأنفسهم ولا غرور، أو كانوا كالمسلمين معتمدين على الله ساعين في أرضه الواسعة بالحق والسلام والصبر في البأساء ويوم البأس. . . كم أريد أن أسمع صوتاً مسلماً: في حديث أو غناء أو ترتيل أو تمثيل لحال أو موعظة تلقى. . . ولكن أين نحن من هذا. . . إنه لن يكون إلا إذا أسلم كاتب من الكتاب، فاهتدى إلى موضوع مسلم، فكتبه، فعهد به إلى مخرج مسلم، فسلمه إلى ممثلين مسلمين وملحنين مسلمين ومغنين مسلمين، فعندئذ فقط نسمع الصوت المسلم. . .
- وهذه الأصوات التي تسمعها؟ ألا يشبعك منها ولا صوت جورج أبيض؟ . . .
- فيه رنة لذيذة كرنة الذهب، ولكن فيه أيضاً عجمة غريبة تشربها في فرنسا حيث تعلم التمثيل، وإنه في هذا يشبه الدكتور طه حسين بك في إلقائه، فهو ينطق الحروف العربية سلة مسلمة نقية مجودة، ولكنه إلى هذا يموج صوته في إلقائه تمويجاً فرنسياً فيه التلطف، وفيه القصد إلى التأثير، وفيه التأنق في الاسترسال والتأنق في الوقف، وهذا شأن مستشرق فرنسي تعلم العربية فأجادها، وليس شأن عربي يتكلم. والدكتور طه معذور في هذا فقد تعلم في مصر ولكنه تربى في فرنسا وقد اختار أن يتفرنس ثم يستشرق لأنه رأي المستشرقين الفرنسيين أرقى علماً وأخصب حالاً من المصريين

ومن العرب، وأنا مؤمن بأن الدكتور طه لو كان قد احتك بمثل إنساني حي أعلى منه ومحبب لديه من المسلمين أو المصريين أو العرب لكان قد مكن لغته العربية من نفسه على مثال تمكنها من نفس ذلك المثل الذي لم يره فلم يجد بداً من أن يبحث عنه بين المستشرقين، كما تعلم الأستاذ جورج أبيض التمثيل على يد أستاذ فرنسي فطوع له نفسه حتى تترجمت إلى نفس فرنسية تلقى العربية برنة فرنسية هي صدى لأسلوب الإحساس الفرنسي الذي دربه عليه أستاذه. . .

- وهل للإحساس أساليب؟

- من غير شك. تصيب المسلم المصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، ويقبل على الحياة مجاهداً وهو يقول: لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، والمؤمنون لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وتصيب الكافر المصيبة فيهلع لها ويتخبط من جزعه في أرجائها فلا يخرج منها - إن خرج - إلا منهوكا زادته المحنة كفراً وبعداً عن الله واستغرقاً على نفسه، له أسلوبه في الحس وللمسلم أسلوبه، وأسلوب الكافر ظاهر في لهجته وكلامه، فهو نضطرب حائر يلفظ الكلمة يكاد يخفيها أو يأكلها خشية أ، تفضح ما في نفسه، فإذا أفصح انفضح اضطرابه وهلعه وجزعه، وأسلوب المسلم ظاهر في لهجته وكلامه، فهو مطمئن هادئ مستبشر واثق من رحمة ربه. . . ولكل شعب من الشعوب أسلوب في الحس ومختار من الإحساس يحبه ويغذيه من نفسه وينميه فيها فيظهر في لهجته وكلامه. فالألمان يعتقدون أنهم أقوى ما في الدنيا ولذلك فإنهم يقبلون على الدنيا بهذا الإحساس يتحدون كل قواها مقعقعين بلغتهم وكلامهم كأنهم المدافع، والفرنسيون يعتقدون أنهم أجمل ما في الدنيا وأشد ما فيها عصفاً وهم لهذا يقبلون على الحياة مدللين متأنقين متلطفين مغرين الناس بأنفسهم قد أرهفوا انتباههم إلى مسة تخدشهم فما تخدشهم حتى يثوروا فما يسترضون حتى يرضوا. . . طبيعة الجميل المدلل الأنيق المتلطف؛ وكل هذا باد في لغتهم ومطاتها الرشيقة ووقفاتهم الأنيقة كما يبدو في عواصف إلقائهم وزوابعه إذا هم غضبوا. . . وأهل لبنان في إلقائهم للعربية بداوتهم الباقية وعنجهيتها الفخور. . . وأهل المغرب في سرعة إلقائهم ومضغ الحروف و (كركبة) الألفاظ بعضها فوق بعض لا يزالون في الهلع الذي أصابهم منذ أريحوا عن الأندلس بما كانوا يلهون فيها. . .

- وأهل مصر؟

- تسمعيهم أنت. . . ونبئيني غداً بما تسمعين

عزيز أحمد فهمي

رسالة العلم

تضارب في الرأي يؤدي إلى كشف خطير

للدكتور محمد محمود غالي

الفكرة الموجية والفكرة الحديثة - لماذا تمذهب العلماء بالفكرة الحديثة أو الموجية - ظاهرة التداخل الضوئي والاستقطاب

فيم كان التضارب؟ وفي أي المناحي ظهرت أزمة علمية؟ لقد كان في أهم مرحلة من المراحل العلمية التي تتصل بفهمنا للكون ورؤيتنا له، للقارئ بيان ذلك

حاولنا أن نرجع الكون في مجموعه إلى ظواهر أربع: الكهرباء والمادة والإشعاع والطاقة. وحاولنا أن نرجع كل هذه الظواهر إلى ست وحدات أصلية، وذكرنا أن ظاهرة الإشعاع ترجع إلى ذرة ضوئية يسمونها الفوتون، والواقع أن ظاهرة الإشعاع تتكون من الفوتون ومن موجة مستصحبة له، وذكرنا أن هذه الذرة الضوئية تسافر بسرعة عظيمة تبلغ حوالي ثلاثمائة ألف كيلو متر في الثانية. ولا نتوسع اليوم مع القارئ في شرح الطرق التجريبية المختلفة التي توصل بها العلماء لقياس سرعة الفوتون الذي لا يمكن أن نعثر عليه إلا وهو في حالة حركة سريعة بالنسبة للمادة، ولكنا نستعرض مناحي التفكير في فهم الظاهرة الضوئية، والوسط الذي ينتقل فيه الضوء، والكيفية التي تصور بها الباحثون هذا الوسط الذي يتصل في أساسه بالكون وبالوجود والحالة التي اضطر لها العلماء في تعديل تصورهم والاتجاهات العلمية التي تناولت هذا التعديل، وبهذا نستعرض موضوعاً تضاربت فيه الآراء، وأزمة كانت من أشد الأزمات العلمية، أزمة لم تنته إلا بتطور علمي جديد، عدل تصوراتنا عن الكون وهذب طريقتنا لمعرفته

ولا عجب في ظاهرة ترجع في تكوينها وفي معرفتنا لها إلى ظروف معقدة يجعل بنا أن نذكرها، فالضوء الذي ترسله إلينا الشمس مثلاً أو المصباح يصل لنا في الحيز من أجسام مادية، لا نعرف على وجه التدقيق ما حدث فيها من عمليات يصل أثرها إلى حاسة من أهم حواسنا هي البصر نعرف به صور الأشياء بالمظهر ذاته الذي يراه كل من وهب هذه العيون

كذلك عندما يتلقن الطفل أن هذا اللون هو اللون الأحمر وذاك هو الأخضر، فإنه بعد المران يعرف دائماً الأحمر من الأخضر، ولا يحدث خلاف بين بني الإنسان في تمييز لون معين من بين الألوان، فثمة اتفاق عام على أن هذا أحمر وذاك أخضر، تلك مسألة نقررها بتجاربنا اليومية، ولكنها تجارب بدائية تقف في حد ذاتها عن الكشف عن طبيعة الظاهرة التي تجعلنا جميعاً نتفق في هذا التعيين

وقد يكون غريباً على القارئ أن نقول له إن الضوء عملية موجية، وإن اللون يترجم عدداً من الذبذبات في الزمن، وإنه إنما يميز الأحمر من الأخضر، لأن ثمة عدداً من الذبذبات في الثانية أثرت على العين ليرى اللون الأحمر. وثمة عدد آخر من الذبذبات يختلف عن العدد الأول وصل إلى العين ليرى اللون الأخضر، ذلك أن القارئ لا يرى هذه الذبذبات، وليس في تجاربه اليومية ما يؤيدها، ولكنا نطالبه أن يتبعنا قليلاً ليرى معنا ماذا تكنه هذه الظاهرة العجيبة التي عرف عندها الأشياء بصورها واستوعب الألوان بحالتها

أول معارفنا عن الضوء ترجع لملاحظة الظواهر العادية التي تتصل بما يسمونه الضوء الهندسي يبين مسيرات الأشعة الضوئية. كلنا يعرف أن الضوء يسير في خط مستقيم ما دامت المادة التي يسير فيها لا تتغير، ويعرف أن الأشعة تنكسر عند انتقالها من مادة إلى أخرى، وما السراب إلا ظاهرة حادثة من انكسار الضوء في الهواء الذي يتكون منه في الواقع طبقات تختلف كثافتها لاختلاف درجة حرارتها وقد عرف نيوتن ظاهرة انكسار الضوء في الزجاج، ودرس من ذلك ظاهرة تحليل الضوء الأبيض إلى الألوان المعروفة، وبذلك عرف أ، الضوء الأبيض الذي يصلنا من الشمس خليط من أشعة مختلفة ألوانها وقد أثبت ذلك بأن جعل الضوء يمر في منشور زجاجي فيتحلل إلى الألوان المعروفة: الأحمر، والبرتقالي، والأصفر، والأخضر، والأزرق، والأرجواني، والبنفسجي، وهي ظاهرة الطيف التي نشاهدها أيضاً في قوس قزح حيث تلعب كرات الماء المنتشرة في الفضاء دور المنشور فيتحلل الضوء عند اختراقها إلى ألوانه السبعة

ويرى القارئ في الشكل (1) تحليل الضوء بواسطة المنشور، ويرى المنطقة التي يكون فيها اللون الأحمر واللون البنفسجي، كما يرى المنطقة التي تكون فيها الأشعة تحت الحمراء وفوق البنفسجية

ولو أننا وضعنا - كما فعل نيوتن - أمام الأشعة المبعثرة عدسة فإن هذه الأشعة تتجمع مرة أخرى بعد خروجها من العدسة وتكون الضوء الأبيض من جديد

ولقد كان الانكسار في الضوء الأساس في اختراع كل الأجهزة الضوئية: كالمنظار الفلكي (التلسكوب) والمجهر (الميكروسكوب) والجهاز الفوتوغرافي. بهذه الأجهزة جال الإنسان بنظره وفكره من العوالم البعيدة إلى الدقائق التي لا تراها العين، واستطاع أن يحتفظ بصورة الأشياء والحوادث، اجتماعية كانت أم علمية؛ وهكذا بتعديل في شكل الزجاج خرجت صناعة هامة هي صناعة العدسات، واقترنت هذه بأعمال الإنسان حتى بات فريق كبير يحملها على العيون ليرى للعالم صورة أوضح من التي تسمح له بها حواسه، وكان ذلك امتداداً عجيباً لوظيفة العين البشرية، امتداداً لحياتنا البيولوجية

لم تكن هذه الظواهر: من مسار الضوء في خط مستقيم، وانكساره عند اختراقه المواد، وتحليله إلى ألوان مختلفة - بكافية لنتعرف حقيقة الضوء؛ وكان على الباحثين لمعرفة ذلك أن يدرسوا خواصه دراسة وافية، وهذا ما عكف عليه العلماء الذين ذهب التفكير بهم إلى افتراض احتمالين:

الأول أن يكون الضوء مكوناً من جسيمات صلبة مقذوفة في الحيز

والثاني أن يكون الضوء حادثة وقعت على جسيمات أخرى مادية، وليس هو الجسيمات بذاتها، وفي الحالة الثانية يكون الكون بأسره مملوءاً بهذه المادة التي سموها الأثير

وهذه المادة لا نراها بالذات إنما نرى ما يحدث فيها من تعديل أو تموجات، وظل الرأيان يتناوبان المكان الأول عند العلماء الذين اعتقدوا أولاً في الفكرة الشيئية (أي الجسيمية) ثم اعتقدوا ثانياً في الفكرة الحدثية (أي الموجية)، ولأسباب سنذكرها هنا انتصرت الفكرة الأخيرة عهداً طويلاً، وظلت النظرية الصحيحة إلى أن حولت النظريات الحديثة ونظرية الكم مرة أخرى العقائد نحو الفكرة الأولى

أما النظرية الشيئية فقد أسسها نيوتن أن الضوء مكون من جسيمات صلبة صغيرة مقذوفة في خط مستقيم في الفضاء، وكان لما يتكون من ظل لأي جسم موضوع أمام منبع ضوئي دليل عند نيوتن على ما احتجزه الجسم من هذه الكرات التي حال الجسم دون مرورها

أما النظرية الحديثة، فقد أسسها الرياضي الهولاندي ويجانز في المبدأ على اعتبارات نظرية وحسابات قام بها هذا العالم، وكان لابد من أسباب علمية هامة لكي يهجر العلماء نظرية نيوتن الجسيمية ما لمؤسسها من مكانة ليتمذهبوا بالمذهب الجديد.

على أننا نلخص المهم من هذه الأسباب التي خرج بها علينا العلم التجريبي:

السبب الأول كان في ظاهرة يسمونها (التداخل الضوئي) والسبب الثاني كان في ظاهرة يسمونها الاستقطاب وللقارئ نوجز الظاهرتين:

عندما يقع شعاع على جسم يضيئه شعاع آخر، فإنه من البديهي أن يزداد توهج الجسم بهذا الشعاع الثاني، وهي نتيجة حتمية لنظرية (نيوتن) التي تقول بازدياد عدد الجسيمات الضوئية الواقعة على الجسم، وبرغم هذه الحقيقة التي نشاهدها في تجاربنا العادية توصل العلماء إلى تجارب من نوع معين يتبين منها أن هذه الإضافة لشعاعين من الضوء ينتج عنها ظلمة حالكة بدل أن ينتج عنها زيادة في الضوء وقد كشف هذه الظاهرة الطبيب والطبيعي المعروف توماس يونج وتتلخص تجربته في أنه وضع حاجزاً به ثقبان أمام منبع ضوئي وشاهد على حاجز آخر موضوع خلف الأول سلسلة من الخطوط المضيئة والمظلمة المتجاورة، ذلك أن هذا الحاجز يضاء بما ينبعث من ضوء خلال الثقبين، وفي الشكل (2) يرى القارئ صورة لهذه الظاهرة التي لا يمكن تفسيرها بنظرية (نيوتن) ويمكن تفسيرها بالوسائل الرياضية إذا اعتبرنا الضوء ظاهرة موجية، ذلك لأن موجتين متضادتين وحادثتين في مكان واحد تمحو إحداهما أثر الأخرى، ويظهر ذلك في هذه الخطوط السوداء التي رغم تعرضها للمنبعين لا يظهر عليها أثر للضوء. وليس المجال هنا لنذكر التجارب المختلفة التي وفق فيها العلماء لرؤية هذه الظاهرة، ولابد أن يكون قد رآها كل من أتيحت له فرصة عمل تجارب في إحدى كليات العلوم، مثل التجارب المعروفة باسم حلقات (نيوتن) أو (مرآة فرنل) وغيرها. كذلك لا ندخل في تفصيل التطبيقات العديدة التي استخدمت فيها ظاهرة التداخل لكل مهندس تتاح له الفرصة في معرفة ما تقدمه العلوم الطبيعية من تطبيقات مفيدة يعلم أنه يستطيع أن يعرف درجة تمدد أو ضغط إحدى الأعتاب الحاملة للجسور الحديدية بواسطة أجهزة ضوئية تستند إلى ظاهرة التداخل الضوئي، كما يعرف أنه من السهل الآن تعيين سمك لوحة رفيعة أو دراسة ما على سطحها من تعاريج أو حركة بالالتجاء إلى أمواج الضوء، واستخدام ظاهرة التداخل في القيام بما يصعب قياسه بالطرق العادية

أما الظاهرة الثانية فهي ظاهرة الاستقطاب التي تفرغ لدراستها أيضاً المهندس والعالم (فرنل) ونشرحها هنا في كلمتين:

ثمة نوعان من الأمواج في الظواهر الطبيعية المختلفة، أمواج طويلة حيث تتذبذب الجسيمات في اتجاه سير الموجة، وأمواج مستعرضة حيث تتذبذب الجسيمات في اتجاه عمودي على سير الموجة. وأظهر مثال للأخيرة تلك الأمواج التي نشاهدها على سطح المياه حيث يرتفع الماء ويهبط في مكانه عموديا على الاتجاه الظاهري لمسار الموج دون أن يتحرك الماء من مكانه نحو هذا الاتجاه، ولقد أثبت (فرنل) أن الضوء ظاهرة موجية من النوع الأخير فهي كموجة الماء تتذبذب في اتجاه عمودي على مسار الموجة، ولا تختلف عنها إلا في أنها مع مرور الوقت تدور هذه الذبذبة في المستوى العمودي الذي تتذبذب فيه، وقد لاحظ (فرنل) أن الضوء عندما يخترق نوعاً من البلور فإنه يتذبذب عمودياً كما كان قبل اختراقه البلورة، ولكن الذبذبة تتخذ صفة جديدة، ذلك أنها تتذبذب في اتجاه واحد، ويسمى هذا الشعاع مستقطباً وقد بين (فرنل) أن

ظاهرة التداخل لا تحدث بين شعاعين من هذا النوع إلا إذا كانا مستقطبين في اتجاه واحد. وظلت فكرة (فرنل) التي تتلخص في أن الضوء ظاهرة موجية مستعرضة تستلزم وجود مادة أثيرية لحدوث هذه الموجات فكرة غير مقبولة من العلماء الذين لم يؤمنوا بوجود مثل هذه المادة في الكون، وهي المادة التي لجأ إليها كل من (فرنل) و (ويجانز) لتفسير ظاهرتي التداخل والاستقطاب التي صعب تفسيرها بنظرية (نيوتن) الجسمية، وظل الأثير وسطاً يتطلب الدراسة

وهكذا لم يكن من المستطاع التعرف على الضوء كحالة موجية دون أن يكون هناك هذه المادة الأثيرية التي تملأ الكون، وكان شأن الأثير من الضوء شأن الماء في بحيرة سقط فيها حجر، وإلا فكيف تصل لنا آثار الحجر إذا لم يوجد الماء، وكيف تصل لنا هذه الدوائر على سطح البحيرة تتسع رويداً رويداً حتى تبلغ الشاطئ إذا خلت البحيرة مما يحمل هذه الدوائر، ومع ذلك ظل الأثير فرضاً لا نعرف عن خواصه شيئاً، ولكل ما نعرفه أنه مادة خفيفة شبيهة بالغازات، لا نستطيع تفريغها مهما كانت أجهزتنا قوية، فهو يملأ المصباح الكهربائي مهما كان مفرغاً، وبواسطته يمر الضوء من السلك المعدني إلى الغلاف الزجاجي

وإلى ما وراء هذا الغلاف

ولقد صادفت فكرة (فرنل) عن الموجات الضوئية ووصفها بأنها مستعرضة عقبة جديدة، ذلك أن الأثير باعتباره مادة شبيهة بالغازات لا يقبل غير الموجات الطويلة، وقد استمسك (فرنل) برأيه في أن الضوء أمواج مستعرضة حتى أنه، عندما تشبث (بواسون) التموجات الطويلة هي وحدها الكائنة في الأجسام الغازية، لم يسع (فرنل) إلا أن يطلب من هذا العالم أن يصحح رأيه في خصوص الأثير الذي قد يكون له خواص الأجسام الصلبة، ويقول (ريشنباخ) تصميم (فرنل) هذا كان سبباً لكي يمتنع زميله (أراجو) أن يوقع معه النشرة العلمية النهائية الخاصة بهذا الموضوع. وفي القرن التاسع عشر عكف العلماء على القيام بتجارب عديدة يتبنون منها وجود هذا الأثير ويتعرفون بها على شيء من خواصه، وتساءل بعضهم ماذا يحدث في الأثير عندما يتحرك جسم فيه؟ ثمة احتمالات ثلاثة:

الأول أن يحمل الجسم معه الأثير بأسره المحبوس بين جزيئات الجسم. والثاني أن للأثير مرونة عظيمة تسمح أن يمر الجسم فيه دون أي احتكاك ظاهر

والثالث أن يكون للأثير حالة متوسطة، أي أنه يشترك جزئياً مع حركة الجسم، وهو رأي مال إليه (فرنل) وعززه بحسابات أراد منها أن يعرف درجة اشتراك الأثير في مثل هذه الحركة

وقد عمد فيزو لتحقيق ما ذهب إليه فرنل، وفي تجربة معروفة أرسل شعاعاً في أنبوبة مملوءة بالماء الجاري كما أرسل في الأنبوبة ذاتها شعاعاً آخر في الاتجاه المضاد، بحيث يسير مع الماء أحد الشعاعين ويسير بعكسه الشعاع الآخر، وباعتبار أن المادة الحاملة للضوء هي الأثير وأن هذا، وفق النظرية المتقدمة، يتحرك مع الماء بعض الشيء؛ فإنه يجب أن تختلف السرعة لشعاعي الضوء في الحالتين. وباللجوء إلى طريقة دقيقة استخدم (فيزو) فيها لقياس السرعة ظاهرة التداخل الضوئي استطاع أن يقيس الفرق بين السرعتين، فأيدت صحة هذه التجربة فكرة (فرنل) عن وجود الأثير وعن معرفة شيء عن حركته

على أن تجربة أخرى تعد في نظري من أهم التجارب التي أحدثت انقلاباً في التفكير الحديث قام بها العالم المعروف (البرت في سنة 1881، وكان لها أثر في عقيدة العلماء

فيما يخص الأثير، هذا الوسط الوهمي، وسيرى القارئ كيف سببت تجربة ميكلسون تضارباً في الرأي وأحدثت أزمة علمية عصيبة، وماذا كان أثرها على التفكير الحديث في فهم الكون.

محمد محمود غالي
دكتوراه الدولة في العلوم الطبيعية من السوربون
ليسانس العلوم التعليمية. ليسانس العلوم الحرة. دبلوم المهندسخانة

القصص
عفراء الغجرية
للأستاذ محمود الخفيف

كان على صهوة مهره الجميل ذات صباح من إصباح بشنس البهيجة في طريقه إلى حقل من حقول أسرته المترامية البعيدة، وقد برزت الشمس من وراء كلتها الوردية، وأخذ ذوبها العسجدي يرف في ذرى الأغصان وأطراف السعف وأجنحة الطير. وكان نسيم الصباح الني ينفح الناس والشجر والدواب في تلك البطاح المنبسطة التي لم تبق فيها مناجل الحاصدين إلا جذور القمح، والتي تلمح العين فيها على أبعاد، مزارع القطن الخضراء، وقد أخذت تدب القوة في شجيراته المومومقة المصفوفة. . .

وكانت الحقول آهلة بالناس، فهنا وهناك جماعات الحاصدين قد تحلقوا حول الفطير والعسل، أو تمددوا على فرش الحصيد، أو انحنوا فرادى على السنابل الذهبية يجذونها بمناجلهم. . . وهنا وهناك حاملات الفطور بين غاديات ورائحات، ولاقطات السنابل لا يزال بعضهن يلتقطنها؛ بينما يخطر بها الأخريات حزماً على رؤوسهن يزداد بها قوامهن رشاقة وملاحة؛ والطرق إلى القرية تتقاطر فيها الإبل تحمل السنابل ويتغنى خلفها الفلاحون - وهم بين هاتف وزامر - وبينهم بعض البدو ممن يهبطون القرى بجمالهم في هذا الموسم لنقل أحمال الحصيد إلى البيادر. . .

كان كل شيء باعثاً على البهجة، فما ترى العين ولا تسمع الأذن إلا فيض السرور؛ ولكن (حيناً) كان يحس وجده الانقباض وسط هذا المرح الغامر. . . وكم كان يحسد هؤلاء الفلاحين على ما رأى من مظاهر هناءتهم، وكم كان يتمنى لو أتيح له مثل ما يتاح لهم من نعيم، ولو اشتراه بما يملك جميعاً! بل لقد كان يحسد مهره، وقد خيل إليه كأنما طاف به طائف من هذا السرور، فهو يتبختر تبختر النشوان، حتى لو تكلم لباهى بفتوته وجمال غرته، ولام صاحبه على ما يبدو عليه من هم!

وتنهد الفتى، وقد ذكره ذلك السرور شجونه، واستحث مهره يريد أن يصل به سريعاً إلى حيث كان يريد أن يقضي النهار في منعزله، في ذلك الكوخ القائم على ضفة الترعة الكبيرة، بالقرب من أكواخ تلك الأسرة البدوية التي تقيم هناك منذ سنين لحراسة الزراع؛

وما كان يأوي حسين إلى ذلك الكوخ إلا حين كان يضيق بهمه، وتثقل على نفسه الحياة وانعطف به مهره عند نهاية قناة طويلة تجري وسط مزارع أسرته، فلم يكد يتجه اتجاهه الجديد، حتى وقعت عيناه خلف شجرة كبيرة على بعض أخبية للبدو لم يرها من قبل هناك، ينبعث الدخان من كوانينها، وتنبح الكلاب المارين بها. ونظر، فإذا هو يرى بأحد هذه الأخبية فتاة مضطجعة، عجب لأول وهلة كيف يتأتى وجود مثلها في خباء من الشعر، وهي لولا ملابسها البدوية، وحليها البدوية، لظنها الرائي إحدى غانيات القصور، ففي وجهها الرائع القسمات، وفي بدنها البض، مخايل النعيم والترف، وفي سمتها معاني الكبرياء والأنفة، هذا إلى بياض بشرتها على نحو لا يكون إلا في الناعمات البيض من ربات الجمال. . .

ورشقته الفتاة بنظرة من عينيها الدعجاوين الرائعتين، نظرة فهم بفطرته منها كثيراً من المعاني: ففيها الإغراء والدلال، وفيها الإعجاب به وبمهره الجميل، وفيها الأنفة وعدم المبالاة، وفيها الإقرار بما يبدو عليه من جاه، وفيها الإيحاء إليه بجاهها هي وإن كان من نوع آخر غير جاهه، نوع كم ذل له كل جاه، وكم دانت له من جباه. . . وسار، وقد انطبعت في مخيلته صورة هذه البدوية الجميلة، ورآها بين من أحطن بها كأنها وردة رائعة في بقعة من الشوك. . . وحدثته نفسه وهو من لا يهاب ولا يضطرب أن يرجع، فيجلس ساعة بين هذه الأخبية ليرى مبلغ كبرياء تلك الفتاة، وهو لم ير هناك رجلاً ولا فتى، ولن يضيره أن يحضر الرجال جميعاً، فهم يقيمون في ملكه، ولا يسعهم إلا الإذعان لسلطانه. . . ولكنه ما لبث أن رغب عن ذلك، ومضى في سبيله إلى منعزله. . .

وبلغ كوخه فترجل وأسرع إليه صبى من البدو المقيمين هناك فأخذ المهر إلى مربطه؛ وجلس حسين في الكوخ ينظر إلى الماء في الترعة الساكنة الهادئة ويمني نفسه بيوم هادئ؛ وطافت برأسه أول الأمر طيوف همه، ثم طاف بها خيال تلك البدوية الجميلة، وتمثلت له عيناها الجريئتان الساحرتان، فسرى عنه بعض ما به لحظة أسلمه بعدها

إلى وجد عميق إذ تداعت إليه آلام حبه ولواعج قلبه. . . وأفاق من أحلامه على صوت ارتفع من قرب بالتحية. . . ونظر فإذا الشيخ مصطفى مقبل نحوه، وامتعض حسين ولكنه أخفى امتعاضه بابتسامة متكلفة قائلاً: (وعليكم السلام يا عم الشيخ مصطفى. من أين أنت قادم؟)

- من عزبة علي بك، حيث كنت أحادثه في شأن الأطيان التي يريد عمك البك استئجارها وقد قضيت الليل عنده

- هنيئاً لعمي ما يملك وما يستأجر. . . أما أنا. . . ولكن ماذا أقول ربنا موجود يا عم الشيخ مصطفى

- يا سي حسين بك دائماً تشكو، قريباً تأخذ ملكك وتتمتع به، المسألة زيادة حرص من سيدنا البك عليك

- قريباً. . . نعم قريباً، بمشيئة الله وبإرادتي أنا لا بإرادة سيدنا البك

وخشي الشيخ مصطفى أن يسمع عن سيده ما لا يحب، فاستأذن ونهض يريد الانصراف، ومد يده إلى حسين فسلم عليه وهو مضطجع والشر يلمع في عينيه وقال له وفي وجهه جذوة الغضب: (قل لسيدنا البك إن حسين لم يعد صغيراً وهو لن يطيق بعد اليوم أن يحيا هذه الحياة وله عندك أكثر من ثلاثمائة فدان. . . كفى. . . كفى أني انقطعت عن التعليم بسبب شحة علي وكنت قريباً من النهاية. . . لا! لا! الصبر بعد اليوم مذلة)

ومضى الشيخ مصطفى، يشيعه، حسين بلعناته، وقد كان هذا الرجل من أبغض الناس إليه، لما عرفه عنه من الملق والمداهنة وشدة المكر، هذا إلى أنه لا يذكره عند عمه إلا بالسوء كأنه يرى في ذلك وجهاً من الزلفى

وتشاءم حسين بمرأى الشيخ مصطفى كاتب زراعة عمه ونائبه في أعماله وزاده مرآه هماً على هم؛ وتذكر أنه ما كان يراه مرة أيام كان طالباً إلا رسب في امتحانه أو أصابه المرض إن لم يعقب مرآه امتحان

والتفت حسين نحو الترعة يريد أ، يغيب في سكونها ثورة نفسه فأبصر تلك البدوية الحسناء وقد حسرت ثوبها عن ساقيها الجميلتين ونزلت في الماء تغترف منه في إناء صغير من الفخار، وتبدت لعينيه كأنها تلك الجنية التي كان يسمع من أوصافها وهو صغير ما كان يخفق له قلبه رعباً. . . ولقد خفق قلبه الآن لمرآها ولكنها اليوم خفقات الإعجاب بهذا المنظر الساحر الفاتن. . .

وكأنما كانت بما تأتيه من حركاتها الرشيقة تدعوه ليحدثها وما كان بحاجة إلى هذه الدعوة فقد خف إليها وحياها في جرأة فردت في فتور وهي تغريه بعينيها وتتكلف الحياء فتشيح بوجهها عنه وهي منحنية على الماء، وسألها عن اسمها فتباطأت لحظة وهي تبسم له ابتسامة نفذت إلى قلبه ثم قالت: (خادمتك عفراء. . .) ووثبت إلى الشاطئ ووضعت الإناء فوق رأسها وهمت معجلة بالانصراف، فاستوقفها فتأبت، فقال: إنه لن يسمح لها بالسير إلا على موعد. فضحكت وقالت: حتى ترى القمر في الضحى؛ وأجاب من فوره: ها قد رأيته، وأشار إلى وجهها الجميل. . .

ولم تكد تخطو حتى مر بالكوخ فتى في نحو الثلاثين كره حسين مرآه، ففي لفتته لفتة الذئب ورآه ينظر نحو عفراء نظرة ملؤها الغضب والغيرة

عاد حسين إلى القرية بعد عشرة أيام قضاها في منعزله على ضفة الترعة، حيث كانت توافيه إليه عفراء كل ليلة فتجلس معه ساعة أو بعض ساعة

ووصل إلى منزل عمه وقد غربت الشمس فوجده جالساً على كرسيه أمام داره وحوله جلساؤه وعلى مقربة منه كاتب زراعته؛ وألقى الفتى إليهم السلام فردوا جميعاً إلا عمه فقد نظر إليه نظرة كريهة لمح فيها لأول مرة إلى جانب البغض ما يشبه التشفي. . . وعجب حسين أن رأى معاني الرثاء واضحة في نظرات من لقيهم من الخدم وقرأ على وجوه الخادمات وبخاصة عزيزة أن كلا منهن تريد أن تفضي إليه بنبأ، فاضطرب قلبه في جوانحه وقد فهم كل شيء. . .

ونادى عزيزة فأقبلت عليه لا تدري كيف تفضي إليه بما تريد من نبأ، فارتسمت على شفتيه ضحكة متكلفة حزينة كأنما يقول لها بها: هيه لا تخافي. وقالت عزيزة (يا سيدي حسين ستي ثريا هانم خطبوها خلاص وكتب الكتاب بعد شهر. . .)

وأحس كأن قلبه يدمي في جوانحه؛ وتقطعت أنفاسه كأنما مسه نصب شديد، ولكنه تجلد ريثما صرفها، ثم أسند ظهره إلى حائط البيت يخشى أن يسقط على الأرض. . . ثم مشى يجر رجليه فأوى إلى مضجعه وجلس في الظلام ساعة . . .
وبث اليأس في قلبه البأس والقسوة فلن يعبأ بعد اليوم بشيء وهو يريد أن يعرف أولا ماذا ترى ابنة عمه فيما أريد لها، ولذلك وثب من مكانه لا يدري أين يذهب ولا من يسأل، وفي مخيلته نظرة عمه وما فيها من معاني التشفي، وفي نفسه وساوس وهواجس ونيات سود فزع حتى في ساعة يأسه منها. . . وما قيمة حرمانه مما يرث إلى جانب حرمانه من أمله
الذي لا يرى للحياة معنى من دونه؟ ولم يكد يخطو من منزله إلى منزل إلى منزل عمه حتى رأى عزيزة فناداها وهم بسؤالها ولكنه لم يعرف كيف يدير الحديث إلى غرضه ففهمت ما يريد فقالت في لهجة الواثق: (ما تخافش أبداً يا سيدي حسين أنا عارفه. . .)
- عارفه إيه؟ هل قالت لك حاجة؟ لازم أعرف
- لا ما فيش حاجة إنما أنا عارفة وبكره تشوف وأبقى قول عزيزة قالت لي ولي عندك الحلاوة
وانصرفت عزيزة مخافة أن يراها سيدها، ووقف حسين في مكانه يدير كلامها في عقله متسائلاً هل أتت به من عندها أم سمعت شيئاً من سيدتها ولكنها لا تذكره لأنها لم تؤمر بذكره؟ وفزع بآماله إلى الرأي الثاني فهدأت ثورته قليلاً
مضى حسين إلى (دوار) عمه، وجلس وحده في ركن هناك، وظل يتفكر في همه مطرقاً حتى أحس بيد على كتفه فرفع بصره فإذا هو ابن عمه أحمد، وكان هذا على خلاف أبيه، يبدي المودة لحسين، ويكاشفه بما في نفسه. . . ومال الحديث بين الفتيين أول الأمر إلى الأرض التي يريد أن يستأجرها البك بالقرب من عزبة علي بك، وأظهر أحمد خوفه من عاقبة هذا العمل، ثم أفضى إلى حسين أن علي بك يستأجرها كل عام من البنك، وعلي بك رجل خطر فتاك وبينه وبين أبيه ضغائن وإحن قديمة وليس من الحكمة أن يأتي أبوه هذا العام فيغري البنك بأن يأخذها هو نظير زيادة في الإيجار، وليست به حاجة إليها، بينما يحتاج إليها علي بك أشد الحاجة لأنها تفرج عنه ضائقته التي يعانيها منذ بضع سنين، فضلاً عما في فعل والده من معنى التحدي والتعدي وهو أمر له خطره الشديد عند الأسر
ووثبت إلى ذهن حسين صورة ذلك الفتى الذي مر به غداة ذهب إلى كوخه، والذي كره حسين مرآه ورأى الإجرام واضحاً في وجهه الشبيه بوجه الذئب؛ ولم يدر حسين لم يذكر الآن ذلك الفتى ولم يبعث تذكره في قلبه الرهبة ويشيع في نفسه الكآبة. ورأى حسين في وجه ابن عمه أنه يريد أن يحدثه في أمر، فسبقه حسين إليه وقال ضاحكاً: (مبارك النسب الجديد يا سي أحمد)
- لا دي مسألة وتفوت. عمك يريد معاندتك. . . إحنا كلنا معك، مين يفوت ابن العم ويفضل الغريب - لا تهتم غاية ما في الآمر لا تعاند عمك. وازدادت المحبة في قلب حسين لابن عمه أحمد، وقد تبين في لهجته الجد والصدق
لم ينم حسين ليلته إلا غراراً وقد ذهبت به الهواجس كل مذهب، ولما أخذته سنة رأى في نومه أنهم قد ذهبوا به إلى القبر وأنه فزع من ضمة القبر وظلمته؛ وأنقذته الديكة بتصايحها من حلمه المخيف، فهب، ولكنه تمنى لو كان الحلم حقيقة. . . أنزف ثريا إلى غيره وهو حي؟. . . ثريا ابنة عمه التي ما أحب غيرها وهي منذ الصغر مسماة عليه؟ أكان يفعل عمه ذلك لو كان أبوه حياً؟ وماذا جنى حتى يطعنه عمه تلك الطعنة؟ لا شيء إلا أنه يطالب بحقه. . . وما قيمة الحياة مع هذا الهوان؟
وتمثلت له أيامه الجميلة، أيام سعادته بحب ابنة عمه، أيام كان يناقلها الأحاديث العفة، وهي مطرقة في سذاجة حلوة تستروح نسمات الحب، وتحلم أحلام الحب، وترى في ابن عمها دنيا آمالها، ويرى فيها جنة أحلامه. . .
وعول من فوره أن يذهب إلى منعزله على ضفة الترعة، فما يطيق العيش على مقربة من عمه. . . بل إنه ما يطيق الوجود كله، وامتطى مهره وانطلق بعد أن قابل عزيزة؛ ومر في طريقه بخيام البدو فلم ير عفراء هناك. . . على أنه كان من همه في شغل عنها وعن سالف لهوه معها.

- كيف الحال يا شيخة العرب؟
- الحمد لله. . . ربنا يخليك يا سيدنا البيك
- مين هوه الجدع اللي كان هنا الغريب ده؟
- ربنا يكفينا شره. . . الله يسهل له. . . دا بعيد عنك. . . دا يقتل الرجل بجنيه أو بكيلتين حب
- ولم يأتي عندكم؟
- دا يروح عند أي جماعة من العرب، ما حدش يقدر يكلمه. . . يا ما يأخذ من هنا خبز ولحم وشاي. . .

وكان حسين يعرف الكثير من أحوال هؤلاء الأعراب الذين يحترفون القتل، وليس يدري لم لاح له شبح الجريمة منذ رأى ذلك الأعرابي. . . هل جاء لقتل عمه؟ يفعلها علي بك ولا يبالي. . .

فكر حسين وأطال التفكير، وبينما هو يقلب الأمر على وجوهه، إذ لمح عفراء مقبلة فحيت باسمة ولمحت عيناها السرعتان اللهم في وجهه، فقلت مداعبة:

- أعف البخت وأقرأ الضمير. . . فهل تريد؟
- أين الرمل والودع؟
- لا. . . يكفي هذا الطمي. . . أرمي بياضك

ودهشت الغجرية أن رأت حسيناً يرمي إليها جنيهاً براقاً كعين الشمس، ولم تصدق أنه لها أول الأمر حتى استيقنت من ذلك فراحت تقول وهي تخطط الطمي بإصبعها:

- عدو جديد. . . أحذره، ولكن الوردة لك لا لغيرك. . . صلي على النبي. . . واحد يكرهك وواحد يوز عليك والباقي يحبونك وأنت منصور. . . شر كبير ولكن يفوت وربنا يسلم

وسكتت العرافة وتلعثم لسانها، وجرت صفرة في وجهها الوردي، واختلجت عيناها واضطربت أصابعها، ثم قالت:

- وفيه وردة ثانية، لكن آه! تعرفك وتتملى نورك، وأنت موش داري
- وفهم ما تريد ولكنه تغابى، ودنت العارفة منه وهمست في أذنه كلاماً دق له قلبه وانطفأت حمرة وجهه وارتعدت مفاصله. . . وانطلقت وبودها لو عرف الوردة الأخرى وشمها شمة. . .

إذاً فقد أصبح الوهم حقيقة. . . فهذا الذئب ما جاء إلا يفتك بعمه، ولكن من أدرى عفراء؟ لعلها سمعته يفضي بسره إلى زميل له من البدو. وماذا يفعل حسين؟ لقد مرت برأسه فكرة ارتاع منها وانتفض لها جسمه. . . لا، كيف يسكت؟ أيطيق أن تفجع ثريا في أبيها؟. . . وهو؟ أليس هو عمه على الرغم من كل شيء؟ ألم ينحدر هو وأبوه من صل واحد فهو بذلك قطعة من أبيه. . .؟ وكيف يلقى الله ودم عمه على يديه؟ وكيف يهنأ بعيشه بعد الجريمة. . . إنه يحس أن سكوته اشتراك بكل معاني الاشتراك ويوسوس له الشيطان فيقول: هبك لم تعلم ومات عمك أفلا تتمتع بملكك وحبيبة قلبك؟ كلا. . . كلا. . . إن الدم لا يهون؛ وهو يعلم ما يبيت لعمه. . . ولكن كيف تزف ثريا إلى غيره ثم لا يحدث ذلك إلا نكاية فيه؟ ويحه ما باله! تنازعه هذه الهواج والأمر بين؟ ماله يلتفت نحو الترعة؟ أيريد أن يعبر إلى العدم لجتها؟

قضى ليلته مشرد اللب خائر البدن تفزعه الرؤى السود وتنهش أحشاءه المخاوف، وات يخشى على نفسه هو، ومن يدريه فلعل ذلك الذئب قد علم من حيث لم يدر هو ولم تدر عفراء، بما أفضت به إليه. . . لعله رآها تهمس في أذنه ومثله من يرتاب في كل شيء ومن يفهم باللمحة الخاطفة، وأغمض جفنه، فرأى وهو ين اليقظة والنوم أنه ماثل أمام أبيه مغلول اليدين والدماء على ملابسه ويديه، وعمه في أكفانه ينظر إليه من كثب ولا يستطيع أن يتكلم. . . ومرت بوجهه أنفاس الفجر الندية فقام وهو لا يكاد يقوى على القيام. . . ثم عقد النية أن يخبر الشيخ مصطفى بما علم وهو الكفيل بأن يقضي على الذئب قبل أن يقضي الذئب على عمه

وأرسل من جاءه بالشيخ مصطفى، وجلس كاتب عمه بين يديه ساكتاً، وسكت حسين لحظة

- تألمت والله يا سيدي حسين لما علمت بنبأ الخطوبة الجديدة

- . . .ليه؟ هذا نسب عال
- على كل حال أنت أولى من الغريب ولكن ما الحيلة؟
- يا سيدي دي قسمة وربنا هو اللي عمل كده. . . هل يكون العقد بعد شهر صحيح؟
- لا، ربما كان قبل ذلك فالبك مستعجل
وأمسك حسين وصمم على كتمان ما علم، ولكنه حار كيف يصرف الشيخ مصطفى. . . واستأذنه لحظة وراح يمشي على ضفة الترعة جيئة وذهاباً وهو ضائق بما كان يبدو له من نظرات التشفي في وجه الشيخ مصطفى وإن بالغ في إظهار تألمه. . . وناداه فأفضى إليه بما علم، ثم صحبه إلى القرية وقد أصبح يخاف من كوخه وانقضت أيام، أخذ يزداد فيها حسين قرباً من عمه بعد أن كان موضع الريبة والحذر الشديد، فقد اتهمه الشيخ مصطفى عند عمه بتدبير الجريمة، ولكن الشيخ مصطفى ما لبث أن جاء من لدن عفراء بالخبر اليقين. . . وأجل العقد الذي أريد من قبل ليحل محله عد التخلص منه عقد أخر. . . وأخذت الأيام تبتسم لحسين بعد عبوس مخيف طويل، ولم يعد يكدر على الأسرة صفوها إلا خوفها وحذرها البالغ على حياة البك، ذلك الحذر الذي كان يتجلى في إحاطة منزله ليلاً بالحرس الساهرين
ولم تحل يقظة الحراس دون أن تفزع الأسرة كلها بعد العشاء ذات ليلة من صوت انطلاق بندقية استقر مقذوفها في كتف البك وهو في مدخل الحارة المؤدية إلى بيته وهرع إليه ذووه يعتقدون أنه قد فارق الحياة. . . ولكن الله سلم فحالته لا تنذر بالخطر. . . لقد أخطاء الجاني مرماه؛ وشغل الناس هول الفزع عن تعقب المجرم، فتسلل تحت جنح الظلام وهو من يعرف كيف يفلت مهما نصب في طريقه من الفخاخ ولئن أخطأ الذئب مرماه هنا فلقد أصابه بعد ساعة أو بعضها في مكان آخر؛ فهؤلاء البدو يهبون من خيامهم مذعورين على صوت المقذوف. . . أعقبه صرخة، ونظروا على ضوء مصباح صغير فإذا الدم الحار يتدفق من قلب عفراء، ووجهها الجميل لا تزال عليه بسمة أحلامها وهو متجه إلى السماء. . .
الخفيف
من هنا ومن هناك
الحصار لا يكفي
(ملخصة عن (ذي كونتمبوراري رفيو) لندن)
كثير مما يقال عن تأثير الحصار في الحرب العظمى، ويلغط به الناس، يحمل طابع المبالغة. فعلى الرغم من موقعنا الجغرافي الممتاز وتفوقنا البحري العظيم، فإن هذا الحصار لم يؤت ثماره إلا بعد اشتراك أمريكا في الحرب. إن تنفيذ مبدأ كهذا المبدأ على البضائع التي تصدرها دولة قوية محايدة كالولايات المتحدة يعد من الأمور المستحيلة. فإذا حاولنا ذلك تعرضنا لمشاكل سياسية لا نهاية لها. ومما لاشك فيه أننا كنا إلى منتصف عام 1917 غير قادرين على منع كثير من البضائع الهامة التي ترسل إلى ألمانيا عن طريق اسكاندينافيا وغيرها من الأمم المحايدة
ولم يكن للحصار تلك القوة القاهرة التي تقضي على خصومنا القضاء المبرم كما يعتقد الكثيرون، حتى حين أصبح أمراً واقعاً على الأعداء. فلا نعرف أن خطة حربية ذات أهمية تذكر أخفقت بسبب نقص السلاح أو الذخيرة وكان الحصار السبب المباشر لهذا النقص. ولم يشك أحد من قواد الألمان في جميع الميادين نقص السلاح أو الذخيرة طيلة الحرب، وإن كانوا يشكون قلة الرجال. ولا نستطيع أن نعزو انعدام الدبابات في الجيش الألماني إلى الحصار كما أننا لا نستطيع أن نقول إن الطائرات الألمانية أو الغواصات نقصت بهذا السبب
ولكن ضغط الحصار كان واقعاً في الحقيقة على السكان المدنيين دون الجنود أو البحارة أو الطيارين. ولم يكن حتى هذا الضغط بالذي يؤدي إلى كبتهم وشل حركتهم كما يعتقد الكثيرون ويستدل من الكتاب الذي ألفه (جنرال واندوهر) بعنوان (الجوع) - وهو كتاب موضوع في هذا الشأن - على أن ضغط الحصار لم يكن إلا نوعاً من حرب الأعصاب التي تضايق السكان بحرمانهم من الحصول على المواد التي اعتاد الرجل المتوسط الحال أن يحصل عليها في سهولة ويسر، ولم يكن بذي أثر فعال يصل إلى الإضرار بأجسامهم ونفوسهم كما قد يفهم وهذه نتيجة أستطيع أن أعززها بملاحظاتي الشخصية

ولا يفهم من هذا أن الحصار كان عديم الفائدة أو أن العدو لم يعان من أجله مصاعب لا
يستهان بها، ولكني أرمي إلى الحقيقة التي لا شك فيها، وهي أننا نستطيع أن نحاصر ألمانيا وأن نحكم عليها هذا الحصار، ولكن لا يمكن أن نلجئها بذلك إلى التسليم
قد يكون من المعقول أن يفوز الملاكم على خصمه إذا وقف أمامه موقف المدافع في جميع حركاته، حتى إذا أنهكت قواه تغلب عليه بقوة الاحتمال، ولكننا لا نعرف فيما نعلم أن ملاكما نال جائزة التفوق على خصمه بهذه الوسيلة
وقد يكون من المعقول كذلك أن تتغلب أمة عظيمة على أمة أخرى بإحكام الحصار عليها، ولكننا لم نر ولم نسمع أن حرباً اكتسبت في الواقع بهذه الوسيلة، ولا نستطيع أن نستثني الحرب الحاضرة من هذا الوصف
فإذا أردنا أن نربح الحرب يجب علينا أن نضع خطة حربية إيجابية نقدم عليها بكل ما لدينا من القوة، فإذا كنا سنتعرض في سبيل ذلك إلى بعض الأخطار، فإن هذه الأخطار ستكون عوناً لنا على قهر الأعداء
يجب أن نفهم الفرنسيين
(ملخصة عن (ذي نيو ستيتسمان) لندن)
منذ بضعة أسابيع دعا أحد الرجال الإنجليز البارزين ممن يدعون إلى فكرة الاتحاد الدولي، شخصية ممتازة من الرجال الفرنسيين البارزين إلى اجتماع في أكسفورد. فشرح الإنجليزي رأيه في النظام الأوربي الحديث، وصور لضيفه الفرنسي نظرية الاتحاد الدولي الأوربي، والأساس الذي يقوم عليه، ثم استطرد قائلاً: (سوف ينتخب المجلس بطبيعة الحال من الدول القوية، وسوف يكون عدد الممثلين فيه بنسبة عدد سكان كل دولة). فاعترضه الضيف قائلاً: (ولكن عدد الألمان 80. 000. 000 وعدد الفرنسيين 40. 000. 000، فهل تعني أن يكون عدد ممثلي الشعب الألماني ضعف عدد الممثلين الفرنسيين). قال الإنجليزي: (أو ليس هذا هو المنطق المعقول)؟
لقد وقع هذا الحوار بين رجلين من رجال الأعمال. ولعل الفزع الذي أوقعه كل منهما في نفس الآخر، هو مقياس ما بين وجهتي النظر البريطانية والفرنسية في السياسة الخارجية. فهذا الإنجليزي ينظر إلى الحق بالطريقة الحسابية المجردة، وينظر إلى جميع الاعتبارات
التي نسمها باسم الضمان الوطني، كشيء لا يتفق مع قواعد الأخلاق. بينما يهتم الفرنسي بالضمانات الحربية التي تطلبها بلاده، ويرى أن فكرة الحكومة الدولية، ما هي إلا فكرة (يوتوبية) خيالية أو سياسية ميكافيلية للعود إلى موازنة القوى الدولية ضد فرنسا. ومن ثم غادر أكسفورد وصدره يغلي بالضغينة وفؤاده يفيض بالسخط
إن من الواجب علينا قبل أن نطالب حكومتنا بالبيانات الوافية عن المقاصد الحربية، وقبل أن نتقدم إليها بمزيد من المقترحات، أن نضع حلاً للمشكلة الإنجليزية الفرنسية. فكل ما نشأ منذ نهاية الحرب الماضية، من الاختلافات التي قد تعكر صفاء العلاقات الودية بين الدولتين في بعض الظروف، لم يكن منشأه اختلافاً جوهريا في المبدأ، فنحن مرتبطين مع الفرنسيين برباط وثيق من تقاليد المدنية الغربية العتيدة منذ زمن بعيد، ولكنه يرجع في الغالب إلى اختلاف الطبيعة نظراً للفوارق الجغرافية والتاريخية بين البلدين
يزيد هذا الاختلاف تأثيراً، أن كلتا الدولتين ديمقراطيتان، فبينما تستطيع الدول الدكتاتورية أن تتفاهم فيما بينها على إهمال الرأي العام، وعدم الاهتمام بآرائه ومعتقداته يظل رجال السياسة الديمقراطية مرتبطين بشعور الرأي العام وهو ينظر إلى الظروف الحاضرة من وجهة نظره المحدودة الضيقة
فالرأي العام الفرنسي والبريطاني كلاهما يعانيان تلك النظرة الديمقراطية المحدودة. فإذا أردنا أن نجد حلاً لهذه المشكلة يجب أن نضع قواعد وأسساً صالحة لفهم وجهتي النظر التي تذهب إليها كل من الدولتين. فبدلاً من مناهضة فكرة الضمان التي تغالي بها الوطنية الفرنسية يجب أن نفكر فيما إذا كنا نستطع أن نعود منها بفائدة صالحة للدولتين
البريد الأدبي
(وحي الرسالة)

تفضل صديقنا الأستاذ توفيق الحكيم فبعث إلينا بهذه الرسالة الكريمة:
صديقي العزيز الأستاذ الزيات:
أتيح لي أن أستمتع ساعات بقراءة ذلك الكتاب النفيس: (وحي الرسالة) الذي تفضلت بإهداء نسخة منه إلي. وليست هذه هي المرة الأولى التي أتعرف فيها إلى سمو أسلوبك، وبلاغة تعبيرك، واتساع أفق خيالك؛ ولكنها قد تكون المرة الأولى التي ترتبط فيها وتتركز تلك الفصول، والآراء، والأفكار، والمشاهد الفنية التي تمخضت عنها مواهبك، فيضمها كتاب ينعكس على كل صفحة من صفحاته شعاع من جمال روحك، وفيض من نبع ثقافتك، وذكريات غالية عرفت كيف تحرص عليها وتحتفظ بها، ثم تنشرها تذكرة للناس وموعظة لهم.
إن أدب المقال يا صديقي من فنون الأدب الكبرى. وقل أن تشهد أديباً فحلاً لم يضمن أدبه وعمله الفني آراء اجتماعية ونظرات فكرية، واتجاهات ثقافية. و (حي الرسالة) الذي أشرت إليه. فهو في الواقع مجموعة دراسات عميقة ناضجة للمجتمع، وتصوير بارع للتطورات الخلقية والنفسية، وإشارات دقيقة وجولات موفقة في الأدب والحياة، استقرت عواطفك في أجمل بقاعها، وتغني قلمك الرصين بأبهج مفاتنها.
جميل منك إذن أن تحرص على تدوين هذه الذكريات الغالية، وتنشر هذه الفصول القيمة، لتكون ذكرى للماضي، وعظة للحاضر، وإيماناً بالمستقبل.
المخلص
توفيق الحكيم
الأدب الجاهلي في فجر الإسلام
كتب الأستاذ سليم الجندي عضو المجمع العلمي العربي (بدمشق) مقالاً رائعاً عن المناهج التي تتبع في دراسة الأدب العربي، تطرق فيه إلى الرد على بعض ما وهم الأستاذ أحمد أمين في بحثه عن الأدب الجاهلي في كتابه (فجر الإسلام) وقد رأينا أن من الخير لقراء الرسالة أن ننقل إليهم قسما من مقال الأستاذ ليتبادل أدباؤنا الرأي وتظهر الحقيقة.
قال الأستاذ الجندي: (وأنت إذا أنعمت النظر وتبينت أن البلية كل البلية أتت اللغة من الكتاب البحثين، وهؤلاء أتتهم البلية من التهاون في البحث وعدم الاستقراء. مثال ذلك أن صاحب فجر الإسلام قال في الجزء الأول من كتابه ص55: إن ألفاظ اللغة في العصر الجاهلي كانت في منتهى الدقة والسعة إن كان الشيء الذي وضع له اللفظ من ضروريات الحياة في المعيشة البدوية. فالإبل خير مأكلهم ومشربهم ومركبهم وعماد حياتهم، ولذلك لم يتركوا صغيرة ولا كبيرة تتعلق بها إلا وضعوا لها لفظاً أو ألفاظاً (وإذا انتقلت من الجمل إلى السفينة رأيت اللغة في غاية القصور فهم لم يوفوها حقها كما وفوا الجمل، ولم يحصوا كل أجزائها، ولم يضعوا اسماً لكل نوع من أنواعها. نعم إن هناك ألفاظاً تتعلق بذلك، ولكنها لا تكاد تذكر إذا قيست بالألفاظ الموضوعة للإبل وشؤونها. بل إنك إذا فحصت الألفاظ المستعملة ف السفن ومتعلقاتها وجدت كثيراً منها معرباً غي عربي كالسيابجة واليماسرة. . . وكثير منها لا نشك في أنه وضع بعد العصر الجاهلي) انتهى كلام الأستاذ أحمد أمين
قال الأستاذ الجندي: (وأنت إذا رجعت إلى كتب اللغة تبين لك أن هذا الحكم قائم على استقراء غير تام، وأن العرب في الجاهلية ما غادروا صغيرة ولا كبيرة تتعلق بالسفينة المعروفة في عهدهم إلا وضعوا لها لفظاً أو ألفاظاً غير ما أدخل بعد ذلك ف العصور التالية، وأنهم نعتوها وشبهوا بها
وإذا تذكرنا أن السفينة في ذلك العهد كانت تتألف من أجزاء بسيطة، وليس لها أنواع كثيرة التفاوت في الأشكال والمقادير، ونظرنا ما وضع لها ولأجزائها من أسماء ونعوت، وجدنا أن اللغة ليست في قصور في هذا الأمر.
انظر إلى دقة لوضع في التفريق بين الأنواع والأجزاء عند الجاهليين، فإنهم قسموا ما يركبه الإنسان فوق الماء إلى أنواع. فإن كان من قرب تنفخ ويشد بعضها إلى بعض فتجعل كهيئة سطح فوق الماء سمي طوفاً ورمثاً، وربما كان من خشب أو غيره. وما عدا ذلك فهو سفينة. ويقال للسفن الصغيرة زورق وقارب وركوة ومعبر. وللكبيرة: فلك وخلية وقرقور وماخرة ومصباب وجارية وجفل وعدولي. وما يتخذ للقتال منها

بارجة
ووضعوا لكل جزء اسماً مختصاً به. فالسقائف ألواحها، والدمر خيوط تشد بها الألواح أو المسامير، والطائف ما بين كل خشبتين منها، والشراع رواق السفينة، والصاري خشبية في وسطها يمد عليه الشراع، والقلس حبل الشراع من ليف، والصابورة ما يوضع في بطنها من الثقل، والمعايير خشب فيها يشد بها الهوجل، والمردى خشبة يدفع بها الملاح، والمقذاف خشبة في رأسها لوح عريض تدفع به السفينة، والمرساة حديدة تلقى في الماء، والكفر القير الذي تطلى به
وكذلك اختصوا كل قسم منها باسم: فالمرنحة صدرها، والكوثل مؤخرها، والسكان ذنبها، والجمة الموضع الذي يجتمع فيه الماء الراشح
وجعلوا لكل عامل فيها اسماً خاصاً به: فالملاح سائس السفينة، والداري الملاح الذي يلي الشراع، والردفان ملاحان يكونا في مؤخرها، والربان رئيس الملاحين
وقد وضعوا لكل حالة تعرض لها اسماً يميزها من غيرها، فقالوا مخرت السفينة إذا جرت تشق الماء مع صوت، وسخرت إذا أطاعت وطاب لها الريح، ودسرت الماء بصدرها إذا عاندته، وجمحت إذا تركت قصدها فلم يضبطها الملاحون، وجنحت إذا انتهت إلى ماء قليل فلزقت بالأرض فلم تمض، وماهت إذا دخل فيها الماء، وكبت إذا جنحت إلى الأرض فحول ما فيها إلى أخرى، وقمص البحر بها إذا حركها الموج. . .
ولولا أن الإطالة تدعو إلى السأم لأتينا على كثير مما يتعلق بالسفينة. فلا يجوز بعد ذلك أن يقال إن اللغة في غاية القصور، وإنما القصور في البحث والتقري. وإذا كان ما جمع من كلام الجاهلين في الجمل أكثر مما جمع في السفينة فذلك منشؤه أمران: الأول أن صاحب المخصص إنما ذكر فيه ما أحاط به علمه في السفينة، وليس هذا كل ما يتعلق بها. الثاني أن السفينة لا تساوي الجمل في كل شيء فهو أكثر أجزاء وأطواراً وأعرضاً وأمراضاً وأغراضاً. . . والسفينة في ذلك العهد مؤلفة من أجزاء قليلة بسيطة. . الخ. آه)
هذا ما كتبه الأستاذ الجندي. والقارئ يلاحظ معنى أن الأستاذ أصاب الحقيقة، وبدد الوهم الذي وقع فيه الأستاذ أحمد أمين فما قول أولئك الذين يرمون اللغة بالقصور؟
صلاح الدين المنجد
مكانة اللغة العربية في العالم
نشرت جريدة (يور كشير بوست) البريطانية مقالة افتتاحية عن المركز الهام الذي تتبوأه اللغة العربية بين لغات العالم جاء فيها: (للغة العربية جاذبية خاصة تجذب الشعب البريطاني في الشرق. ولقد كان هنالك فيما مضى كثيراً من المستشرقين ولكنا لا نغالي إذا قلنا إن بريطانيا هي التي اطلعت العالم في الأعوام الأخيرة على أند ثمار الثقافة العربية)
كثيراً ما كانت الإمبراطورية البريطانية تعجز عن إدراك أهمية اللغة العربية، ومع ذلك) فهي اللغة الرسمية في مصر والسودان والمتغلغلة في صميم أفريقيا حتى البحيرات العظمى. وهي اللسان السائد في جميع أصقاع شبه جزيرة العرب، كما أنها أداة التخاطب في العراق. وهي اللغة التي يستخدمها مسلمو الهند - إخواننا في الرعوية وعددهم ثمانون مليون نسمة - كل يوم في صلواتهم وفي تلاوتهم القرآن الكريم. وهي تعد لغة مراكش، والجزائر وتونس
وهي اللغة التي يستطيع بها العلماء في إيران وأفغانستان أن يدرسوا أحاديث النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم. ولا تقل الحروف العربية انتشاراً عن الحروف الرومانية، فهي لست قاصرة على اللغة العربية وحدها، وإنما هي أساس اللغات الفارسية والهندستانية ولغات البوشتو والهاوسا والأردية وغيرها من اللغات الشرقية
ولا مراء في أن اللغة العربية من أعظم ينابيع المعرفة التي يغترف منها العالم وبينما كانت أوربا تعيش في ظلمات الجهالة كان علماء العرب في بغداد وقرطبة خير أمنا على مدنية اليونان والرومان وأورثوهما للعالم فيما بعد
ومما يبرهن على أهمية هذه اللغة العظيمة، أنها كانت أولى اللغات التي استعملتها هيئة الإذاعة البريطانية. ويزادا عدد المتكلمين باللغة العربية يوماً عن يوم، وتتسع حدودها. فهي لغة التخاطب في زنجبار وتنجانيقا وفي بلاد بعيدة كجزر الملايو، وتتبوأ اللغة العربية مكان الشرف في مدرسة اللغات الشرقية بلندن

ولقد أدركت الحكومة البريطانية أهمية اللغة العربية، فلا تسمح لأي موظف من موظفيها بالاشتغال في الشرق الأدنى والأوسط ما لم تكن له مؤهلات في اللغة العربية

نقد وتصويب

وافانا العدد (349) من مجلة (الرسالة) الغراء بقصيدة خلابة للأستاذ علي الجندي يرثي فيها صديقه الحميم المرحوم الحاج محمد الهراوي، والقصيدة من مطلعها حتى الختام تتجلى فيها براعة الشعر، ودقة التصوير، ورقة الأسلوب ورصانته، ومع تقديري لعبقرية الشاعر فإني لا أرى مانعاً من لفت نظره إلى بيت من الأبيات لاحظت فيه خروجاً عن الوزن وهو:

تسعد الذكريات أهلها وألقىّ ... ذكرياتي محطم الأعصاب

وأرى أن لو كان كما يلي لكان أحكم:

يسعد الذكر أهله وألقىّ ... ذكرياتي محطم الأعصاب

أبو الفضل السباعي ناصف

إلى الدكتور مبارك

قرأت محاضرتك الظريفة ووقفت عند فقرة بشطرها الثاني المنشور بالعدد 350 من الرسالة الغراء هاك نصها: (الشواطئ كلها مآثم ولولا الخوف من بني الحاسدين والحاقدين لقلت إن المآثم لا تخلو من بريق يزلزل القلوب والأذواق والعقول. ومن هذه الزلزلة تكون الرجفة التي تثير شياطين الشعر والخيال) آه ثم رحت أستعيد المعاني الباقية في ذهني لمعنى الزلزلة مما تفضل بشرحه الأستاذين شاكر وبشر فارس، فخلصت إلى أن البريق لا يزلزل القلوب والعقول قياساً على أن الطرب لا يزلزل الآذان. وأظن سيدي الدكتور لا يزال يذكر هذا النقاش حول كلمة الزلزلة فهل للأستاذ أن يتفضل بشرح هذه الكلمة التي شككنا فيها الأستاذ شاكر، وله الفضل والشكر

محمود الأشرم

الكتب

بطل الاستقلال الاقتصادي

طلعت حرب

تأليف الأديب مصطفى كامل الفلكي

هذا كتاب وضعه مؤلفه لبيان ما لزعيم مصر الاقتصادي طلعت حرب من أثر في نهضة مصر الحديثة؛ فبدأ بالإشارة إلى أحوال مصر الاقتصادية والسياسية في أواخر القرن الماضي، مبيناً ما كانت تتطلبه مصر من أوجه الإصلاح وعلى الأخص في الجانب الاقتصادي، مشيراً إلى حاجة البلاد يومئذ وتطلعها إلى (المصلح المنتظر) حتى أذن الله فمن عليها بطلعت حرب

ثم تتبع المؤلف جهاد الرجل العظيم منذ استهلال القرن الحالي، حتى ظفر بتحقيق أمنيته، فظهرت المعجزة في هيكل بنك مصر وشركاته؛ وأورد المؤلف كلمة عن كل شركة من هذه الشركات المباركة الميمونة. وهذا لا ريب من خير البراهين على ما أسدى هذا الرجل العظيم من خير لبلاده، فإنما يعرض المؤلف صحيفة أعماله الجليلة. ولما كان المؤلف كما يذكر: (قد أتيحت له فرص حسان ألم فيها بكثير من دخائل ذلك النضال السلمي الرائع)، فإن بحثه لا ريب بحث الخبير العليم. والكتاب مطبوع طبعاً جيداً ومحلى بكثير من الصور للزعيم العظيم في كثير من مواقفه المشهورة، وهو خليق بأن يطلع عليه بنو هذا الجيل ليكون لناشئتهم نبراساً ولرجالهم قدوة.

رحلة الباخرة المصرية مباحث في المحيط الهندي

تأليف الدكتور حسين فوزي

يذكر قراء العربية ذلك الكتاب القيم الذي نشره في مصر منذ عامين الدكتور حسين فوزي مدير معهد الأحياء المائية بعنوان (سندباد عصري) وضمنه أثر رحلته في بعثة السير جون موري على ظهر الباخرة المصرية مباحث في المحيط الهندي سنة 1933. ذلك كان كتاب الأديب والفنان والشاعر؛ أما الكتاب الذي نتحدث عنه اليوم فهو كتاب العالم والباحث والرحالة، يصف فيه الدكتور حسين فوزي الرحلة منذ بدأت حتى انتهت، فلا يترك صغيرة ولا كبيرة مما تهم معرفته والاطلاع عليه إلا عرض لها بأسلوب

شائق، ووصف كاشف. والكتاب يقع في أكثر من 120 صفحة من الحجم الكبير، وهو مطبوع طبعاً أنيقاً على ورق فاخر، ومحلى بكثير من الصور الجميلة
وقد صدره صاحب المعالي الأستاذ سابا حبشي وزير التجارة والصناعة بمقدمة تدل على قيمة هذه الرحلة التي يتحدث عنها الدكتور فوزي، كما يتحدث عن قيمة هذا الكتاب.
وهذا الكتاب على أن المقصود به أن يكون وصفاً علمياً - لم يستطع مؤلفه أن يتجرد من روحه الأدبية وإحساسه الفني في وصف بعض ما يعرض له، فجاء كتاباً جديداً في فنه وفي أسلوبه.
وقد ختم الكتاب بفهرس كامل للموضوعات والصور.
أخطاؤنا في الصحف والدواوين
تأليف الأستاذ صلاح الدين سعد الزعبلاوي
هو كتاب جديد في اللغة، جعله مؤلفه في بابين: باب للموضوعات، وباب للمفردات؛ وعرض فيه لكثير من الأوهام اللغوية التي تشيع على أقلام الكتاب في الدواوين والصحف؛ ثم فرع هذين البابين إلى فصول، فباب الموضوعات أحد عشر فصلاً جمع كل فصل منها ما تداخلت أو تجاذبت مباحثه؛ وأما الباب الثاني وهو باب المفردات فقد توزعته الفصول على تتابع أحرف الهجاء. وقد حذا المؤلف في ترتيب المواد طريقة الجمهور في اعتبار أوائل الكلمات، ثم جعل في خاتمة الكتاب فهرساً للموضوعات والمفردات التي تناولها بحثه حتى لا يتعب القارئ في التماس موضوعه
وقد تناول المؤلف في كتابه طائفة من المباحث اللغوية التي يهم كل قارئ وكاتب عربي أن يلم بها، وعالجها علاجاً يدل على اطلاعه وصحة نظره
والكتاب يقع في 320 صفحة من الحجم المتوسط، وهو مطبوع طبعاً جيداً على ورق مصقول في المطبعة الهاشمية بدمشق
علم الصحة
تأليف الدكتور عبد الواحد الوكيل بك
هذه هي الطبعة الثانية من كتاب (علم الصحة) للدكتور عبد الواحد الوكيل بك، وقد صدرت الطبعة الأولى منه منذ سنوات فاستنفدها إقبال القراء؛ فزاد فيه ما زاد من الفصول ثم أصدره في هذه الطبعة الجديدة
وكتاب علم الصحة من الكتب التي لا يصح أن تخلو منها مكتبة قارئ يلتمس أسباب الوقاية مما قد يعرض له أو لأهله وولده من المرض؛ وفيه عون كبير للمعلمين والمعلمات في المدارس على النهج الذي يدرسون لتلاميذهم من علم الصحة الوقائي؛ وفيه للوالدات والمولدات والممرضين ومعاوني الصحة وطلاب الخدمة الاجتماعية نفع لا يجزئ بما فيه كتاب غيره.
ويقع الكتاب في نحو ستمائة صفحة من الحجم المتوسط، ويباع في مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة.
4 - وحي الرسالة
(من واجب (الرسالة) أن تنشر ما يتفضل به عليها الأدباء
الزملاء والأصدقاء من صادق النقد وجميل الرأي في كتاب
(تسجيلا للفضل منهم وللشكر منا (وحي الرسالة
قالت جريدة (الأهرام) الغراء:
للأستاذ الكبير أحمد حسن الزيات، أسلوب فني امتاز بالأناقة والطلاوة وحسن البيان
وقد عرف قراء العربية هذا الأسلوب العذب فيما أخرجه المؤلف من كتب بعضها مترجم وبعضها الآخر من تأليفه؛ ثم عرفوه في مجلة الرسالة، حيث ظل الأستاذ الزيات سبع سنوات يطالع قراءه كل أسبوع بمقال افتتاحي يمس فيه مختلف الموضوعات. فكان له من قرائه الكثيرين ما للمطرب النابغ من معجبين. أليس هؤلاء المعجبون يحاكون مطربهم، ويرددون أناشيده وأغانيه؟ نعم، وفي هذا إذاعة لسر نبوغه وإن للأستاذ الزيات لمعجبين من هذا الطراز الرفيع يذيعون سر نبوغه بمحاكاة أسلوبه القوي الرصين، وهذا في الواقع ليس كسباً للزيات بقدر ما هو كسب للبيان العربي الصحيح

ولقد أخرج الأستاذ الزيات منذ أسابيع: الجزء الأول من (وحي الرسالة) وهو مختارات مما نشره في مجلته (الرسالة)، ولعل هذا التعريف الموجز يكفي للدلالة على ما لهذا الكتاب من قيمة أدبية عظيمة. وسنقف عند ذلك، إذ أنه في رأينا معنى من معاني الإطراء يحسن الوقوف عنده

وكتاب (وحي الرسالة) يقع في 480 صفحة من القطع الكبير، طبعت طبعاً أنيقاً على ورق صقيل، وهو يباع في جميع المكتبات العامة، وثمن النسخة الواحدة منه خمسة وعشرون قرشاً.

(ش)

وقالت مجلة (الشعلة) للغراء في عددها الأخير:

نغمط الأستاذ أحمد حسن الزيات حقه ونقلل من قدره إذا كنا نحاول أن نقدمه هنا إلى القراء. فالأستاذ الزيات أعظم من أن يحتاج اليوم إلى تقديم، لا هنا في مصر وحدها بل وفي أنحاء الشرق كله.

ولقد أخرج الأستاذ الزيات منذ أسابيع كتابه الجديد (وحي الرسالة) فكان هذا سبباً في حيرة وحرج تملكانا

ماذا نقول في هذا الكتاب؟

أنتكلم عن أسلوب الزيات الأخاذ الجذاب؟ أنتكلم عن أناقته وذوقه الممتاز في انتقاء ألفاظه؟ أنتكلم عن (الفكرة الرائعة) يقدمها الزيات إلى قرائه في عبارة قوية ومنطق متين؟

ولكن هذا كله معروف، وإعادته وترديده هو من قبيل تحصيل الحاصل. أنسكت إذن ولا نكتب شيئاً عن الكتاب؟ ولكن هناك تقليداً، تواضعت عليه الصحف جميعاً، أن تقول كلمتها عن كل ما يجد في عالم التأليف!

وأخيراً فكرنا في تقليد جديد: أن نذكر هنا أن الزيات قد أخرج كتاباً. والقراء من أنفسهم يعرفون!

وهنيئاً للزيات كتابه الجديد.

وهنيئاً للكتاب الجديد مؤلفه.

وهنيئاً لقراء العربية أديبهم، وهنيئاً لهم كتابهم الجديد.

العدد 352 - بتاريخ: 01 - 04 - 1940

فقهاء بيزنطة

فقهاء بيزنطة هم الذين كانوا يجادلون في البيضة والدجاجة: أهذي أصل تلك، أم تلك أصل هذى، بينما كان محمد الفاتح يرسل الصواعق دراكاً على أسوار القسطنطينية، فلا يخرجهم من شدة الخلاف وحدة الجدل ما فوقهم من حمم المنايا، ولا ما حولهم من صرخات الفزع!

وفقهاء بيزنطة هم الذين يجادلون اليوم في محراب المسجد بعد ألف ومائتي عام: أهو سنة فيبقى، أم هو بدعة فيزول؛ وفي محمل شجرة الدر: أهو موافق للشرع فيسير، أم هو مخالف له فيقف! يجادلون في هذا وفي ذاك بين أعمدة الجرائد والمساجد، ويسرفون في الجدال حتى يتشعب الخلاف ويتمادى، ويتقسم الرأي ويتعادى، فيكون لكل شيخ شيعة، ولكل شيعة عصبية جاهلة تمزق ما وصل الدين به القلوب من وشائج الإخاء والمودة

نعم يجادل فقهاء بيزنطة اليوم في المحراب والمحمل، ومن قبل كانوا يجادلون في زر العمامة أيبتر أم يضفي، وفي شعر الذقن أيحفى أم يعفى، وفي قبر الميت أيسوى بالأرض أم يقام؛ حتى أدخلوا في روع العامة من طول ما شغلوهم بهذه الصغائر أن الدين هو هذا وليس غير هذا. فلو تسنى لك أن تكشف عن عقيدة الإسلام في ذهن العامي أو شبهه لما رأيت إلا صورة مشوهة من رسوم العبادات وأوضاع العادات وألوان الأدعية. أما الإسلام الذي وضع الدساتير الخالدة لسعادة الفرد والأسرة والأمة والإنسانية في كل زمان وفي كل مكان، فذلك معنى لم يجر في شعوره ولم يدخل في علمه. والعوام وأشباه العوام هم جملة الأمة الإسلامية اليوم، فما تسمعه من هذا تسمعه من ذاك، وما تراه هنا لابد أن تراه هناك. وعلة هذه الجهالة الفاشية هي طريقة أهل الدين في تعلمه وتعليمه ونشره، فهم يقفون في تحقيقه عند النقل، ويقتصرون في تطبيقه على الشكل، ويكتفون في نشره بهذه المظاهر الصوفية الباطلة؛ فكان

من جرائر ذلك عليهم أن قصرت مداركهم عن مداه، وبان على القدر الذي شدوه منه الضيق والضحل والجمود، ووهم الناس أن ما عندهم هو الدين كله فزهدوا فيه ونفروا منه.

إي والله تزال فقهاء بيزنطة يفرقون بين الناس بصدعات الرأي والهوى في المحراب والمحمل، وفيما هو أدنى عن المحراب والمحمل، وهم يعلمون أن الأديان البشرية التي وضعها الطغاة تحدياً لله وتهجماً على دينه، تحاول بقوة الجيش وحجة المدفع ودعاية المذياع أن تخفت ذكر الله في كل أرض، وتطفئ نوره في كل سماء. وهذه المذاهب

الأرضية إنما تجادل خصومها فيما تزعمه لنفسها من قتل البؤس ومحو الفروق ونشر العدالة، لا فيما تتخذه بشعائرها من بنىً، أو تبتدعه لمظاهرها من شكول

ثم جعلوا غاية الدين أن يتزيوا بالورع، ويتفقهوا في علومه بتشقيق الجمل وتوليد الألفاظ وتعديد الفروض، فإذا زادوا على ذلك شيئاً فهو الوعظ الذي يميت الطموح ويخمد العزيمة ويحقر الدنيا ويهيئ النفوس المثقفة التي أعوزها النور الهادي والصوت المهيب لأن تصغي لما يتقوله المبشرون على الإسلام من الأباطيل ويزورونه عليه من الشبه.

ليس من البر بالدين يا ورثة الأنبياء أن تخذلوا دعوة الله لتنصروا دعوة الإنسان

إن الدعوات السياسية التي تتخذ شعار الإصلاح، أو تلبس مسوح الدين، تسلك إلى النفوس المؤمنة المطمئنة سبل الغرور والغي في غفوة من العقل أو سورة من الجهالة، فتزعزع إيمانها بالشكوك، وتذهب اطمئنانها بالفتن. فماذا أعددتم لحماية هذه النفوس الغريرة الغضة من وساوس الفتنة وهواجس الجهل؟ إنني ألقي هؤلاء النشء في كل يوم، وأحدثهم في كل لقية، وأكشفهم في كل حديث، فلا أجد عندهم من الإسلام إلا ما كان عند نصارى القرون الوسطى منه؛ ثم لا تسمع منهم إلا غماغم من الألفاظ المنكورة المكرورة عن الزواج والطلاق وحرية الفكر ومجافاة التمدن. فإذا أخذت تقرر لهؤلاء كيف كان الإسلام بتوحيده بين الدين والدنيا علاجاً لأدواء المجتمع ونظاماً لفوضى الطبيعة، وتدلل على أن ميزة الإسلام التي تفرد بها هي أنه يساير التطور ويطاول الزمن، فلا يمكن أن تكون فيه مناقضة للمدنية الصحيحة ولا معارضة للتقدم الحق، سألوك دهشين: وأين نجد بيان هذا؟

والمعضلة التي لم نجد لها إلى اليوم حلاً هو إجابتهم عن هذا السؤال: وأين نجد بيان هذا؟ الواقع الذي يكسف البصر ويرمض الفؤاد أنك لا تجد في مكتبة الدين الإسلامي على ضخامتها وسعتها كتاباً واحداً يشرح للناس عبقرية هذا الدين وفلسفة تشريعه ووجوب إصلاحه وأسباب خلوده، على ضوء العلم الكاشف ونظام التأليف الحديث. وما أظن ديناً من الأديان قد نكب في نفسه وفي أهله بمثل هذه النكبة!

فلو أن الله وفق (جماعة كبار العلماء) فألفوا هذا الكتاب بدلاً من تأليفهم في (المياه التي يجوز بها التطهير) مثلاً لدفعوا عن أنفسهم معرة الجود وعن دينهم نقيصة التخلف.

ولكن كبار العلماء لم يدخلوا هذه (الهيئة) إلا ليعظم القدر ويضخم المرتب، فكيف نجشمهم

أن يبطلوا كيد المبشرين بوضع هذا الكتاب، أو يفصلوا بين المجادلين المتقاتلين في المحمل والمحراب؟

أحمد حسن الزيات

في أرجاء سيناء - 3

للدكتور عبد الوهاب عزام

دير سنت كترين

- 1 -

عطفا إلى اليسار في شعب من وادي الشيخ، فمررنا بأبنية قليلة الملاط كأنها حجارة مرصوصة، وعرفنا من بعد أنها كانت للجنود الذين رافقوا عباس باشا الأول حينما أقام في هذه البقعة من سيناء، وقد رأينا بناءً كبيراً على جبل شامخ قريب من الدير وهو قصر عباس باشا، وكان يحب الإقامة في البراري، ولا سيما في برية سيناء. وبلغنا الدير قبيل الغروب، فإذا حديقة إلى اليمين ذات سور قصير، بينها وبين الجبل طريق

ضيقة تؤدي إلى الدير
والدير بناء واسع عال يحيط به سور متين علوه أحد عشر متراً وفي جداره الغربي باب صغير دخلناه إلى باب آخر وراءه باب ثالث إلى اليمين. وهذا السور الضخم، وهذه الأبواب الصغيرة المتتابعة تدل على ما كان يخشاه أهل الدير من غارات البدو وغيرهم في العصور السالفة. وللدير في أعلى جداره الشمالي باب عليه وقاية من الخشب أعد للدخول إلى الدير وقت الخوف. فيرفع الداخل في سلة معلقة ترفعها حبال على بكرة كبيرة تسمى (الدوار)، وتشد الحبال إلى عمود له ترس كبير يدور به عدة رجال، فتلتف الحبال وتمر على البكرة فترفع السلة، من هذا الباب أدخلت أمتعتنا
دخلنا إلى أبنية كثيرة لا يتيسر وصفها، فإنها لم تخط في وقت واحد، بل بنيت في عصور مختلفة. صعدنا درجاً إلى مستوى، ثم صعدنا مرتين فلقينا رئيس الدير فدخلنا إلى حجرة كبيرة، فجلسنا نتحدث وقدمت إلينا القهوة على الطريقة المصرية وعرض علينا النبيذ، والنبيذ يصنع في الدير وفي الواحات التابعة له في أنحاء سيناء، وهو من التمر، ولخمور الأديرة صيت ذائع في الشعر العربي، ومن أجل هذا كثر ذكر الأديار في الشعر منذ عهد أبي نواس، كان الشعراء يقصدونها لبعدها عن البلدان ونزاهتها وما فيها من خمور.
ثم خرجنا من الحجرة لنرى الحجر التي أعدت لنزولنا، فصعدنا إلى طبقة ثم أخرى في الجهة الغربية، فإذا مكتب رئيس الدير، ثم غرفة كبيرة للجلوس والمائدة، ثم مطبخ، ثم صف من الحجر أمامها طنف يفضي إلى الجناح الجنوبي من الدير، وقد عمر حديثاً بالأسمنت المسلح فكان شذوذاً في هذه الأبنية العتيقة
ويفضي الدرج الصاعد إلى هذه الطبقات العليا إلى سطح تحده من الشمال والغرب شرفات السور المطلة على حديقة الدير ومدخله. وهناك مدافع صغيرة يقال إن بعضها من أيام السلطان سليم، وقد أهديت إلى الدير لمدافعة المغيرين
أكرم القوم مثوانا فأنزلونا في عشر حجرات في كل حجرة سريران. فأمضينا ليلتنا مستريحين
- 2 -
بني هذا الدير القيصر جستينيان حوالي سنة 545م، باسم كترين زوجه التي عرفت من بعد باسم سنتا كترينا، في موضع يعلو سطح البحر بنحو خمسة آلاف قدم، وهو يشبه مربعاً طول ضلعه ثمانون متراً. وله أوقاف كثيرة في سيناء ومصر وبلاد اليونان. وكان له أوقاف كثيرة في بلاد الروس استولى عليها البلشفيون. له في سيناء بساتين كثيرة وأديرة وكنائس، وله أبنية في القاهرة الإسكندرية والسويس، ويقيم مطران سيناء في القاهرة وقت الشتاء
وأعظم غلات الدير الآن ريع مائة فدان في سرياقوس وهبها له عباس باشا الأول. وكان دخل الدير زهاء ستة آلاف جنيه نقصت كثيراً بعد استيلاء الروس على أوقافه وينفق بعض الريع على أعراب سيناء، يعطون الخبز كل يوم ولكل واحد من الأعراب الذين يقصدون الدير أن يأخذ الخبز يوماً بعد يوم، ثلاثة أرغفة لكل إنسان. وكان في الدير رهبان كثيرون ثلاثمائة أو أكثر وهم الآن زهاء الأربعين.
- 3 -
وفي صبيحة يوم الأربعاء 15 ذي الحجة (23 يناير) سار معنا أحد الرهبان ليرينا بعض أبنية الدير فذهبنا إلى الكنيسة الكبرى: باب ضخم من الحديد ثم باب خشبي دقيق الصنع عتيق يقال إنه من عهد جستنيان
ويلقى الداخل بهو كبير على جانبيه صفان من عمد الجرانيت ثم رواقان وراء الأعمدة. وفي الكنيسة من النقش والتذهيب ومن الصور والألواح ما يعيي الناظر إحصاؤه بله التأمل فيه ومعرفة دقائقه
ومما أذكر من هذه المناظر منبر إلى اليمين عليه صورة للدير واضحة ملونة، وهي من تصوير الأب كرنارس الكريتي من مصوري القرن الثامن عشر الميلادي؛ ومن الصور القديمة صورة للسيدة مريم تحمل عيسى عليه السلام ويقال إنها من صنع لوقا الإنجيلي، وصورة أخرى يقال إنها صنع جستنيان
ويعلو هيكل الكنيسة عقد قد صور عليه المسيح والرسل والأنبياء بالفسيفساء في جمال وإتقان الخ

ووراء هذه الكنيسة كنيسة صغيرة لسنت هيلانة وتسمى كنيسة العليقة ويقال إنها في مكان شجرة العليق التي رأى فيها موسى عليه السلام النار، وفي الجدار الشرقي كوة تقابل صدعا في الجبل. وتدخل الشمس يوم 23 مارس من الصدع إلى الكوة فتقع على مكان الشجرة. ووراء الجدار شجرة يزعمون أنها هي شجرة موسى، ولكني لم أرها

ويلزم داخل هذه الكنيسة الصغيرة بخلع نعليه اقتداء بموسى عليه السلام في القصة التي ذكرت في القرآن الكريم: (فلما أتاها نودي يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى)

وخرجنا من الكنيسة إلى مشاهد أخرى منها مكتبة الدير وفيها كتب دينية كثيرة قليل منها باللغة العربية. وقد رأيت هناك تمثالاً لإسماعيل باشا الخديوي فسرني جداً أن رأيته في هذا المكان فشعرت أن سلطان مصر ممتد إلى هذا الدير

ثم رأينا مسجد الدير، ولا ريب أن القارئ سيعجب حين يقرأ هذا التركيب المتناقض: (مسجد الدير)، ولكنها حقيقة، ففي الدير مسجد صغير ملاصق كنيسة صغيرة. وهو مسجد ساذج له منبر قديم قد وضعت عليه أعلام مزركشة جديدة مصنوعة في مصر؛ على العلم الأمامي (أنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) من فؤاد الأول. وعلى كل من العلمين الجانبيين: لا إله إلا الله الملك الحق المبين محمد رسول الله صادق الوعد الأمين. من فؤاد الأول. والتاريخ 1349

وفي جانب المسجد منضدة عليها كسوتا ضريحين مصنوعتان في مصر أيضاً أهداهما الملك فؤاد رحمه الله؛ إحداهما لقبر النبي هرون والأخرى لقبر النبي صالح، وتؤخذان في مواسم الزيارة، ثم تردان إلى الدير فتحفظان في المسجد

وبجانب المسجد مئذنة مربعة لها سلم خشبي وفيها ثلاث طبقات أو أربع صعدت فيها مع بعض الرفاق وشاقني الأذان هناك فأذنت، ولعل هذا الأذان كان إيناساً لهذا المسجد المعطل المستوحش

وكنت قرأت في كتاب نعوم شقير عن سيناء، أن على منبر هذا المسجد كتابة قديمة، وأن فيه كرسياً قديماً، ولكني لم أجد الكتاب ولا الكرسي، فسألت المطران، فقال: حفظناهما في المكتبة. ولست أدري لماذا لم يحفظا في موضعهما من المسجد. وكان المرحوم أحمد زكي باشا زار الدير ونسخ الكتابة التي على المنبر والكرسي. فأما الكتابة الكوفية التي على المنبر فهي مصورة في كتاب شقير، وهذا نصها:

(بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير. نصر من الله وفتح قريب، لعبد الله ووليه أبي علي المنصور، الإمام الآمر بأحكام الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه المنتصرين أمر بإنشاء هذا المنبر السيد الأجل الأفضل أمير الحرمين سيف الإسلام ناصر الإمام، كافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين أبو القاسم شاهنشاه عضد الله به الدين وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين وأدام قدرته وأعلا كلمته. وذلك في شهر ربيع الأول سنة خمسمائة. أثق بالله)

والخليفة الآمر الفاطمي تولى الخلافة من سنة 495 إلى سنة 524

وأما الكتابة التي على الكرسي فهي أعظم خطراً ودلالة على عناية الفاطميين ببناء المساجد في هذه البقعة:

(بسم الله الرحمن الرحيم. أمر بعمل هذا الشمع والكراسي والجامع المبارك الذي بالدير الأعلى والثلاث مساجد التي فوق فاران والمسجد الذي تحت فاران الجديدة والمنارة التي بحضر الساحل، الأمير الموفق المنتخب منير الدولة وفارسها أبو منصور أنوشتكين الآمري)

والآمري نسبة إلى الآمر بأحكام الله. فالكرسي والمنبر صنعا في زمان الخليفة الآمر (للكلام صلة)

عبد الوهاب عزام

مزامير للنفس العربية!

للأستاذ عبد المنعم خلاف

تمهيد:

استوحى روح مولى نفوسنا وسيد عقولنا وآخذنا إلى رب الحياة ومقدمنا إليه بسنته

وحنيفيته السمحاء (محمد)، ليملأ قلبي ويفيض على قلمي ويهديه ويسدده في وفائه له ولقوميته التي حملت أجمل الأمثال العليا في الفكرة والفطرة والخلق والمعاملة
أستوحي هذا الروح الأكبر، ويتعرف قلبي الصغير إلى قلبه الكبير، كما يتعرف الجدول الضحضاح إلى النهر البراح؛ وأستعينه في خدمة النفس العربية بالمساهمة في حملها على إدراك فضائلها وحاجة الإنسانية إليها.
وإنما أتوجه إليه إذ هو باعث روح أمته العجيبة ومخلدها على مر الأيام وكر الأعوام، وموحد شملها، وفارض أمجادها على القلوب والعقول
وأومن إيماناً لا يتزعزع أن أمته هذه لا ينقصها إلا الوحدة في القلوب أولاً كما توحدت على يديه حتى تعود فتنهض بجسمها العملاق الهائل فتستلم الشمس من المشرق لتسلمها إلى المغرب
وأستوحي المهد الأول الذي درجت فيه هذه الأمة العجوز وانبثق منه ينبوعها الأزلي. . . ذلك المهد الناطق بالصمت، العامر بالنجوم، الحصين بالتجرد والتفرد، المبني بالجبال، المفروش بالرمال، مراد الأرواح، ومجتلى الإلهية، ومبعث النبوات، ومركز المعمور، وملتقى الشرق بالغرب. . .
كما أستوحي بلادها الثانية التي فاضت عليها أمواجها، وتلاحقت أرتالها، ونشرت عليها سلطانها الروحي واللغوي، وسطرت على أديمها تاريخها بعروشها وفتوح سيوفها وأقلامها
وحينما أستوحي كل أولئك أجد السماء تنطق والأرض تنطق وكل شيء يوحي ويلهم ويدفع القلم دفعاً إلى التسطير والتحرير لبعث هذه الأمة والتفاني في خدمتها والتفادي في إحياء مثلها الأعلى الذي رسمه الله في قلب أبيها محمد، وملء أسماعها بأناشيد مجدها وترانيم وحدتها حتى تعود فتملأ الدنيا وتشغل الناس وتنثر أشخاصها وكلماتها الصامتة والناطقة في مجاهل الأرض كما تنتثر النجوم في مجاهل السماء
غير أني أبادر فأبرأ إلى الله من العصبية القومية الجاهلية وضيقها وسفاهتها على غيرها، وإنما أرجو أن تقوم العربية كما قامت أول أمرها على يد أبيها محمد أداة تنظيف للبشرية وتوكيد لوحدتها. . . ولذلك أبادر فأنبه إخواننا وأصدقاءنا من الجنسيات الإسلامية الأخرى إلى هذا حتى يستيقنوا أننا لا نريد مفاخرة ولا منافرة جنسية دموية قائمة على زعم فروق جوهرية بين الأجناس والألوان؛ وإنما هي دعوة للعرب - وهم مادة الإسلام الأولى وقوم القرآن - إلى الاعتداد والاستمساك بالمثل العليا التي اختار الله القومية العربية لحملها إلى الناس، وبالصفات الطبيعية العربية العليا التي كانت سنداً لهذه المثل
وقد دعاني إلى اختيار هذا الزمان للبوح بهذه الأناشيد التي طالما ترنمت بها نفسي معاني مطلقة حرة غير مصبوبة بالألفاظ، أنني وجدت الأقدار تنزل فيه وتتلاحق بسرعة وتتولى تغيير مقدرات الأرض وأوضاعها النفسية والجغرافية، ووجدت صراع القوميات الآراء والمعتقدات والفلسفات في رءوس الناس وقلوبهم لا يقل قسوة وعنفاً واحتداماً عن صراع القوى الحديدية العمياء النارية التي تأكل الأخضر واليابس وتحطم القائم والحصيد وبين هذين الصراعين يقف قومي العرب متفرقي الرأي ف الحاضر مختلفي التقدير للمستقبل حائري الألباب لا يكادون يعرفون في أي النواحي موضعهم، ولا من أي الآفاق مطلع مستقبلهم. ولا يكادون يعرفون ما في مصاحفهم ودساتيرهم من المثل العليا التي تستطيع أن تجمع أمم الأرض كلها على حدود العدالة والسلامة الإجماعية متى وجدت قوماً يؤمنون بها ويحسنون ذلك الإيمان، ويمثلونها خير تمثيل ويدعون إليها بأسلوب هذا العصر الذي يعتمد على براعة الاستلفات والإعلان
وذلك لأن قومي فقدوا (الأب) الواحد الذي يجب أن (يلدوه) في كل جيل ليتكلم بلسانهم ويتبنى قضيتهم ويتولى حراسة ميراثهم القلبي والفكري والمادي حتى لا تمحوه الغفلة أمام الأقدار التي لن تزال تغير أوضاع الناس ومقدرات الأمم، ولا ترحم الضعيف الكسلان المتواني في حراسة حقه وأمجاده بالسيف والقلم، ولا تقيم وزناً لمن لا يقيم وزناً لقوانين الطبيعة وسنن الله فيكتفي بالأماني والأحلام وتزويق الكلام ويترك ما آمن الله به وأولو العلم وهو الوحدة والعدالة والعلم والعمل
فإلى أن يوجد الأب الواحد العادل العالم العامل، فيتولى بوحدة فكره وفنه وضع القضية

العربية الوضع المحكم وتنسيق قواها التنسيق البديع، ويتولى بعدله توزيع الاهتمام والشعور على كل بقعة في الوطن العربي الأكبر، ويتولى بعلمه الإحاطة بالتدقيق والجليل من شئون أمته في بطون وديانها وشعاب جبالها في صحرائها وخضرائها، في حواضرها وبواديها، من الخليج الفارسي إلى الأطلسي، ويتولى بعمله جمع أيديها حتى تكون يداً واحدة، تصفق بها في مواثيقها وعهودها صفقة واحدة، وتلوح بها لأعدائها قبضة واحدة وتضرب بها قيودها وأغلالها ضربة واحدة أقول إلى أن يوجد ذلك الأب لا أقل من أن ينشد لها القادرون على الإنشاد والبيان بمزامير وأبواق تهتف في أرضها النائمة بنداء اليقظة والانبعاث في فجر الحياة الجديدة التي لا بد فيها لطالبي المجد من التبكير للسبق في المضمار

وإن قدر الله - لا قدر! - فأفلت الحاضر الراهن من أيدي العرب من غير أن يجمعوا أمرهم ويخفوا في طريق الحياة مع الزمن الذي يجري بالناس، ويخضعوا أجسامهم وعقولهم لضرورات العلم والقوة والاتحاد ملاقاة الصعاب بجبهة متحدة، فسوف تموت آمال تحبط أعمال وتحدث أهوال!

ولست أعلم زمناً أصلح للسعي إلى تحقيق الجبهة العربية الواحدة، وأدعي إلى الإيمان بها من هذا الزمن الذي تداس فيه الأمم الصغرى، ولا يكون فيه لغير القوميات الكبرى وزن، أو اعتبار في أي معيار. .

ولست أعلم كذلك قوماً لهم مثل أوطاننا المتصلة المكونة من مجموعة نادرة فريدة من الوديان والسهول والجنات والأنهار، ولهم مثل أعلى واحد في العقيدة والتقاليد والأخلاق، ولهم لغة واحدة يفرغ عليها التاريخ والدين جلالاً وسحراً، ثم يتوانى قادتهم وزعماؤهم في استغلال هذه الظروف والفرص هذا التواني الذي وراءه التفكك وتبديد الميراث

ويشهد الله أنني لا أتمنى قيام القومية العربية للانتفاع فقط بما فيها من العزة لكل فرد ينتسب إليها، ولا لما فيها من الخيلاء والكبرياء اللتين تصاحبان الغرور القومي لدى أكثر الأقوام. . . ولكنني أتمنى قيامها للاعتزاز أولاً بمثلها الأعلى الذي رفعته ورفعت الحياة به أيام أن كان لها السلطان والصولجان. . . ذلك المثل الذي لا يتحقق التوازن الدولي، والعدل الطبيعي إلا به، ولا يضع علاقات مودة، ومعاني بر جديدة بين شعوب الأرض إلا

هو. لأنه مثل أعلى يقوم على كلمتين من كلمات الله رب الناس جميعاً وجاعلهم صنوفاً، وأنواعاً وأجناساً، وألواناً كما يصنف البستاني أزهار البستان. . .: على كلمة ناطقة تدور بها الألسنة وتستوحي منها الأفكار، وهي القرآن! وعلى كلمة صامتة مستخفية فيها أسرارها وأوتارها وأشواقها وأوطارها وهي القلب العربي!

وفي الكلمة الأولى اعتمد الله على بلاغة هذه الأمة وفصاحتها وصراحتها في الكشف عن كل مخبوء في الضمير وفي الشعور وفي الفكر وتسجيله بلغة موسيقية موجزة مبينة، وإلقائه على الأسماع والإفهام آيات منزلة من حول العرش. . .

وفيها يضع الله كل شيء في الطبيعة في موضعه أمام الفكر البشري (أنا كل شيء خلقناه بقدر) (أعطي كل شيء خلقه ثم هدى) فلا يجوز الاعتراض والثورة على نظام الكون ومحاولة تبديله (لا تبديل لخلق الله)

وفيها ينظر الله إلى أمم الأرض كأمة واحدة (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون)

وفيها يحطم الله الأصنام الحجرية والبشرية ويسحق (العجل الذهبي) وعباده، ويكسر كل قيد يقيد النفس بالمادة ويجعلها تخلد إلى الأرض وتتخذ الأهواء آلهة وتشبع الشهوات السفلى وتعيش في الأرض في غفلة عن الجمال الأعلى؛ فيخرج الإنسان بعد هذا كله طليقاً حراً قديس الروح نظيف الجسد متجرداً من كل شيء لله الذي أعطاه كل شيء. . .

وفيها يعقد الله بينه وبين الإنسان صلة مبنية على منطق الفكر ومنطق الوجدان، فما يقدره الله في الطبيعة ويحترمه يقدره الإنسان ويحترمه، وما يبغضه الله ويمتهنه يبغضه العقل الإنساني ويزدريه؛ فالعقل البشري صورة مصغرة من العقل الأعلى الذي يدير الكون ويحرسه ويمسكه أن يزول. ألم يقل: (ونفخت فيه من روحي) (إني جاعل في الأرض خليفةً)؟

وبدهي بعد ذلك أن يصدر العربي من بين يدي القرآن الذي يضعه في الحياة هذا الموضع الأكرم الأعلى، وهو معتقد أنه قوة من قوى الله مستخلفة لحراسة الأرض وحراسة النفس والإنسانية من فتن الحياة وقوى الشر ونوازع الإثم، وأن ينظر إلى الناس كما ينظر إليهم الله نظرة رحمة وغيرة على مصالحهم وسعي حثيث لها، لا كما ينظر الملحدون إلى أنفسهم

وإلى الناس نظرة ضياع وحيرة بين القوى العمياء، ولا يعتقدون أن القوة المتسلطة على الكون تأبه لهم أو تقيم لهم وزناً، فهم كذلك لا يقيمون لقوانينها في الطبيعة وزناً، وإنما يدخلون الحياة ويخرجون منها كما تدخل وتخرج السباع إن كانوا أقوياء، أو كما تحيا وتموت الخراف البلهاء إن كانوا ضعفاء

وبدهى كذلك أن تكون هذه الصداقة المعقودة بين العربي ورب الطبيعة مبعث اعتزاز وقوة واعتصام بقوة الذي بنى السماء والأرض، يتحول بها إلى قوة مندمجة في قوى الكون التي في يد الله. وينظر بها إلى ما في السماء والأرض وكأنه ينظر إلى أشياء موضوعة مهيأة له في دار أبيه. . .

أما القلب العربي، وهو الكلمة الصامتة، ففيه حيثما كان وراثات مدخرة من بساطة الحياة في الصحراء واتساعها وعزلة الفكر فيها عن المؤثرات الصناعية، وإشراق النجوم عليها، واحتكاك الفكر فيها بالسماء دائماً، وانطلاق النفس من غير سدود وقيود، واعتداد الإنسان فيها بنفسه، واعتماده على قواه الذاتية، وسبح الخيال وراء المجهولات والغيوب، وتجرد الحياة فيها من الزينة الصناعية والتكليفات الوضعية التي لا تطلق النفس لدواعي الفطرة بل تجعل عليها ركاماً من قيود التقاليد

يضاف إلى هذه الوراثات الاستعداد الدائم لبذل الدم والمال في سبيل الشرف وحسن الأحدوثة، وعدم الارتباط بالأرض إلى درجة التضحية بالحرية والخضوع لسلطة مذلة واستبداد مهدر لكرمات الإنسان وحرمات الحياة. . .

وهذه صفات ترشح قومها لحمل دعوة كالدعوة الإسلامية التي تطلب الدم والمال للوصاية على كل حق في الحياة. ولن تستطيع نفس مترفة معقدة الفكر بتعقد الحياة التي نشأت فيها، معقدة النفس بتعقيد التربية السياسية ذات الأوضاع والقوانين الكثيرة، محبة للحياة حريصة عليها لما فيها من الترف والنعمة، بعيدة عن الطبيعة لأنها عاشت سجينة بين الجدران أو مكبة على عبادة الزراعة والصناعة، مثقلة بالأموال والخيرات الكثيرة فليس لها فراغ للفكر في الكون وربه. . . لن تستطيع هذه النفس أن تحمل ما تحمل النفس العربية من رسالة البساطة والمساواة والرجوع إلى قوانين الطبيعة والنظر إلى أوليات الحياة ومبادئها والتجرد من التعقيد وركام التقاليد

ومن أجل ذلك لم يصطف الله أمة من الأمم المتحضرة كالرومان والفرس لحمل رسالة الإسلام مع أنهما كانتا على علم كثير وحضارة عظيمة، بل اصطفى العرب لتلك الرسالة، رسالة الفطرة والبساطة، لأنهم أقرب الناس في حياتهم من مبادئ الحياة العامة التي تجعل الإنسان شيئاً من الطبيعة غير منفصل ولا معزول عنها بجو صناعي، ولأنهم يكونون وهم الغالبون أسرع من المغلوبين إلى ما يحقق العدالة والمساواة، إذ لا يشعرون بفرق كبير بين حياتهم في الحكم وأبهته، وبين حياتهم على قدم المساواة مع أقل الناس تكاليف

واعتقادي أن الرجل الأوربي أو (الرجل الأبيض) على العموم لا يمكن أن ينهض برسالة المساواة بين الناس، لأنه يجد في شكله جمالاً وفي قده اعتدالاً وفي عقله تركيباً، وفي حياته على العموم زيادات لا يجدها عند سواه. . . بل إن بعض أنواع الرجل الأبيض - وهم الجرمان - قد بدءوا فلسفة جديدة في الفروق الجنسية لا يمكن مطلقاً أن تقوم معها عدالة أو مساواة حتى بين أنواع الرجل الأبيض نفسه. . .

وقد يكون للبيض بعض العذر من ملاحظة الفروق الظاهرة بين بيئاتهم وبيئات الأجناس الملونة، فلا يجدون أنفسهم تطاوعهم على تناسيها، والنزول بين غيرهم من بني البشر على قدم المساواة، لأنهم أولاً معزولون من قديم الزمان عن الاتصال بالأجناس الملونة التي تسكن في وسط الأرض وحوله، فلا يعلمون جوهر نفوسهم ولأنهم ثانياً يعتدون بشكليات الحياة اعتداداً كبيراً، ولذلك ملئوا حياتهم بها؛ فلا يمكن مطلقاً أن يغتفروا الفرق بين الجلدة البيضاء والجلدة الصفراء والسوداء والحمراء. . . وإنهم ليغفرون الفروق بين الإنسان والكلب، فيحتضنون الكلاب ويقبلونها ويبكون رحمة لها

ويعاملونها بالحسنى، ولكنهم يأنفون من رؤية الرجل الملون ويهينونه ولا يرحمونه ولا يجتهدون في رفع حياته وإنقاذه من وثنياته وخرافاته. مع أنهم فتحوا دياره بالقوة منذ أكثر من قرن، وعندهم من وسائل إخضاعه للتعليم والتهذيب بالإحسان والقوة الشيء الكثير. . . ولكنهم مشغولون فقط بالبحث عن الذهب الأصفر والذهب الأسود!. . .

والذين شاهدوا الشريط السينمائي الذي عرض في بعض دور السينما بالقاهرة منذ قريب عن حياة (لفنجستون) الكاشف الإنجليزي المشهور، يدركون تماماً ما يرمى إليه واضع هذا الفلم ومخرجه من نقد، لإهمال التبعات الملقاة على عاتق الرجل الأبيض في تحضير هذه البقايا من الإنسانية الباقية على وثنياتها وخرافاتها وانقطاعها عن حياة العلم والدين. . .

دع عنك المؤثرات الطبيعية والصناعية التي جعلت الرجل الأبيض يهمل في واجباته نحو إخوانه من بني البشر هذا الإهمال وتعال معي ننظر إلى نعم الله على القومية العربية حيث وضعها هذا الوضع الوسط العجيب بين أجناس الناس وبقاع الأرض. . .

إن وضعها هكذا من الخليج الفارسي إلى المحيط الأطلسي وسطاً بين أمم الشرق والغرب والشمال والجنوب لتلتقي عندها الألوان والأجناس والدماء والأجواء والثقافات والحضارات والطباع والأمزجة، فتأخذ قلوبها من جميع القلوب، وعقولها من جميع العقول، وأجسامها وألوانها من جميع الأجناس والألوان، ثم يمتزج كل أولئك ويصهر في طبيعتها المعتدلة ويخرج للناس بعد هذا ثقافة نفسية وسياسية يلتقي عليها الشرق والغرب لقاء يحطم القيود ويجتاز الحدود. لأن فيها من كل جنس رفداً، ومن كل عقل مدداً، ومن كل قطر ورداً. . .

فإذا خاطب الله برسالته الأخيرة وكلمته الخاتمة هذه الأمة التي في مركز الأرض فإنما يخاطب البشرية جمعاء متمثلة في هذا الجنس

وإذا خاطب العربي المتحضر أمم الشمال والغرب المتحضرة، أخذوا عنه خطابه وعقلوه لأن فيه مسحة من بياضهم وثقافتهم، ولأنه أقرب الأجناس إليهم وأكثرها اختلاطاً بهم

وإذا خاطب العربي المتبدي أمم الجنوب والشرق، أخذوا عنه وعقلوا منه، لأن فيه بساطتهم ومعارفهم، ولأنه من أقرب الأجناس إليهم وأكثرها اختلاطا بهم

وتلك نعمة عظمى حتم على العرب أن يتفطنوا لها ويبنوا جهادهم ورسالتهم عليها ويدركوا امتنان الله عليهم بها في قوله: (وكذلك جعلناكم أمةً وسَطاً لتكونوا شهداءَ على الناسِ)

(القاهرة)

عبد المنعم خلاف

نشر الثقافة وكيف يكون

للأستاذ محمود العمري

نشرت الصحف في المدة الأخيرة أن وزارة المعارف قررت تكليف بعض المؤلفين وضع كتب في سير أبطال الإسلام، وعهدت إلى بعض المترجمين ترجمة مؤلفات أجنبية إلى اللغة العربية

ولا شك أن عناية وزارة المعارف بنشر الثقافة أمر توجبه عليها مهمتها، إذ الحقيقة التي لا مفر من الاعتراف بها أنه لا يغنى عن البلاد كثرة حملة الشهادات الدراسية فيها، وليس مما يشرفها أن يقال في التدليل على انتشار التعليم إن الناجحين في امتحان شهادة كذا بلغ عددهم كذا ألفاً. ولكن الذي يدل دلالة حقيقية على انتشار التعليم أن يقال إن أحد المؤلفات قد بيع منه كذا ألفاً. فهذا وحده هو القياس الصحيح الدال على أن التعليم انتشر انتشاراً حقيقياً كان له أثره في أمرين لا غنى عنهما في كيان أمة، أولهما انتشار الثقافة وسريانها سرياناً طبيعياً اختيارياً تتكيف به حياتها الفكرية، وثانيهما عيالة طبقة من المؤلفين

أما أن تقتصر الحياة العلمية على البرامج الدراسية وتحصيل الشهادات فحالة سطحية مصطنعة. وقد شعر المفكرون منذ مدة بعدم كفاية هذه الشهادات في تكوين الحياة الفكرية، بل لقد نزل مستوى التعليم لدى حامليها، وفطنت الأمة إلى ذلك بعد أن قطعت شوطاً بعيداً في الإكثار منهم. كما تبين أن من أكبر أسباب ضعف التعليم المدرسي عدم وجود المؤلفين والباحثين الذين يتغذى التعليم بمؤلفاتهم وبحوثهم،

وتقوم الحركة العلمية على جهودهم قياماً مستقلاً يرفعها إلى حيث تمد البرامج بعناصرها وتنشئ المثل الفكرية العليا نشأة قائمة بذاتها مما يجعلها أساساً للتعليم والتطبيق بدلاً من أن تكون مقصورة عليهما

ولا شك أيضاً أن مساهمة وزارة المعارف في زيادة الثروة الفكرية على النحو الذي انتحته لا تخلوا من فائدة، ولا سيما إذا أحسنت الاختيار وتوخت ملء فراغ، كما فعلت في سير أبطال الإسلام، وفي ترجمة كتاب هانوتو في تاريخ الأمة المصرية

إن أولى الكتب بالنقل إلى العربية وأحقها بالجهود المحدودة التي في طاقتنا في الوقت الحاضر الكتب التي لا تفقد شيئاً من معانيها إذا هي ترجمت إلى لغتنا، والتي تتسق مع حياتنا الفكرية في المرحلة التي نجتازها الآن. أما مؤلفات شكسبير وإضرابه من أعلام

الأدب الغربي الذين ترجمت وزارة المعارف كتبهم في عهود مضت وتزمع الآن ترجمتها، فإن كثيراً منها يعد نقلها إلى العربية من الكماليات

يعرف الملمون بالأدب الغربي أن اختيار المؤلفات التي تفيد ترجمتها أمر في غاية الدقة، إذ أن كثيراً منها ترجع قيمته إلى اللغة الأصلية وإلى الفنون الأدبية والأوضاع الاجتماعية المحلية، فهي حافلة بإشارات لها مدلولها في ذهن قارئها في بلادها أو على الأكثر في البلاد القريبة الشبه بها في البيئة. ولسنا نأتي بجديد إذا قلنا إن الناحية الفنية في الأدب الغربي تتأثر كثيراً بالنقل إلى العربية لبعد الشبه بينها وبين اللغة الأصلية. بل

إن المعاني الأدبية العميقة في الأدب الأوربي العويص كثيراً ما تخفى على غير المتعمقين فيه من المبتدئين في الاطلاع، معتمدين على مجرد فهم المعنى اللفظي دون أن يغوصوا إلى ما وراء اللفظ وما بين السطور

فخير لوزارة المعارف أن تختص بعنايتها بالنقل إلى العربية الكتب التي تستساغ لدى قراء العربية دون غيرها من اللغات، فتنسجم ضمن غذائهم العقلي ولا تفقد معانيها شيئاً بالترجمة لأنها تتناول مادة عامة وعلى الأخص الكتب التي تتناول مادة أصلها عربي ككتاب هانوتو، فإن معانيها تزداد في العربية وضوحاً

والكتب التي من هذا القبيل كثيرة في اللغات الأوربية، من أهمها كتب المستشرقين في تاريخ العرب والإسلام، وقد سبق أن عرض كتاب هذه السطور مقترحاً بترجمتها أيام وزارة المرحوم زكي باشا أبو السعود، كما تكلم في هذا الشأن مع المرحوم الشيخ شاويش

ولا جدال في أن ترجمة المؤلفات المذكورة تعد من قبيل رد مادة إلى أصلها العربي فتزداد بالترجمة وضوحاً كما أنها تدخل مع ثقافتنا في نسق واحد مستساغ

على أن أهم ما أقصده من كتابة هذه الكلمة أن أتناول الرأي الأساس في نشر الثقافة عن طريق تكليف بعض المؤلفين أو المترجمين وضع كتب أو ترجمتها

هذا الرأي على عدم خلوه من فائدة كما قدمت لا يؤتى في النهاية إلا ثمرة محدودة الفائدة، وليس فيه دواء حاسم للمشكلة الأصلية وهي فقر الثقافة وعدم انتشارها

لا شك أن أفاضل المؤلفين والمترجمين الذين كلفتهم الوزارة القيام بذلك العمل سيبذلون جهداً مشكوراً وستظهر لهم كتب قيمة، إلا أن الداء الأساسي سيظل كما هو

قامت الوزارة منذ مدة بعمل آخر في تشجيع الثقافة فجرت على عادة شراء مقادير من المؤلفات التي تصدر من وقت إلى آخر تعضيداً للمؤلفين وتعويضاً لهم عن قلة ما يباع من كتبهم. ولا ريب أن هذا التشجيع بشراء الكتب ولو لوضعها في مخازن الوزارة كان فيه بعض الفائدة في ذاته، إلا أنه كان من قبيل دخول الحكومة في سوق القطن بالشراء إنقاذاً لقيمة المحصول من أن يباع بقيمة دون قيمته، وضنا بثمرة جهود المنتجين أن تضيع هباء، وتشجيعاً لهم على المضي في الإنتاج

غير أن الناس لم يلبثوا أن فطنوا إلى ما نبه إليه المستر طود الاقتصادي المختص بشئون القطن وهو أن هذا العلاج محدود الأثر؛ فإن القطن الذي تشتريه الحكومة اليوم لابد أن تبيعه غداً، وعندئذ يزيد المعروض فيهبط السعر. وإن شراء الحكومة ليس شراء بمعنى الكلمة لأنها ليست مستهلكة له في واقع الأمر، وإنما الشراء الحقيقي من الوجهة الاقتصادية شراء المصانع التي تستهلكه في الصناعة وتستبعده نهائياً من عداد المادة الخام وتقوم بتصريفه في شكل جديد

يحضرني عند التفكير في حل هذه المشكلة حلاً طبيعياً أساسياً ذكر ما توصلت إليه

دول أوربا للنهوض بالزراعة ووضعها على أساس علمي
بذلت تلك الدول في أول الأمر جهوداً عظيمة من الناحية المباشرة فذهب عناؤها هباء. ثم أتتها فترة تهيأت فيها ظروف ساعدتها على رفع أسعار المحاصيل الزراعية بسبب اتساع الأسواق العالمية وسهولة النقل، فما هي إلا أن أصبحت الزراعة مهنة رابحة، وسرعان ما انشحذت الملكات وانطلقت نحو الزراعة بأقصى ما أوتيت من قوة فازدهرت الفنون الزراعية من الناحيتين العلمية والعملية. وهكذا عولجت المشكلة من صميم أسبابها.

عانت فرنسا في السنين الأخيرة أزمة نسبية هي ضعف انتشار المؤلفات الفرنسية وذلك لأسباب منها انتشار الراديو والسينما والألعاب الرياضية، فخشي مفكروها ضعف ثقافتها وهي سند مدنيتها، وخافوا أن يهبط بذلك نفوذ بلادهم الأدبي في العالم كما خافوا أن ينحط الإنتاج الفكري عندهم لقلة ما يباع من مؤلفاتهم عن القدر الكافي لعيالة طبقة مؤلفيهم وشحذ هممهم

أجمع هؤلاء المفكرون أمرهم وأنشئوا جماعة برياسة جورج دوهاميل الكاتب المشهور واستعانوا بوزير معارفهم جان زاي وهو الوزير الذي رآه المصريون عندما جاء منذ عامين لافتتاح معرض الفن الفرنسي الذي كان للكتب الفرنسية فيه حظ كبير؛ وقد تمت إجراءات مهمة بتعاون الوزير المذكور مع تلك الجماعة.

لا شك أن تصريف الكتب في مصر قليل جداً لأسباب تختلف عن أسبابه في فرنسا، وأن ما يباع عندنا من الكتب لا يكفي لسد حاجة البلاد إلى طبقة من المؤلفين المحترفين الذين يستطيعون أن يعيشوا من ثمرة أقلامهم. فعبثاً نحاول أن تخرج البلاد ما فيها من الملكات إلا بإيجاد الحافز.

قال أحد الأدباء في عصر شبيه بعصرنا: (كان الناس في الزمن الغابر يسألون: ما صناعة هذا الرجل؟ فيقال: هو أديب. والآن إذا عرفوا أدبه يسألون: ما صناعة هذا الأديب؟!)

هذه حال لا يصح السكوت عليها، ولا سيما أن لنا مزية انتشار لغتنا في خارج حدودنا انتشاراً من شأنه أن يجعل لمؤلفينا من القراء في غير بلادنا ما يزيد على عددهم في مصر أضعافاً مضاعفة.

لا أريد في هذه الكلمة أن أتكلم عن أسباب قلة الميل إلى القراءة، ولكنني لا أشك في أن الكتب، حتى على أساس هذا الميل القليل غير منتشرة، وأن عدم انتشارها أمر غير طبيعي؛ ومن الأدلة على ذلك كثرة انتشار الصحف والروايات الخفيفة انتشاراً يدل على أن عدم الإقبال على القراءة قد بلغ هذا المبلغ المشاهد في الكتب.

صحيح أن الجمهور أميل إلى القراءة الخفيفة السطحية، غير أن هذا السبب لا يكفي لتعليل البون الشاسع بين انتشار الصحف وانتشار الكتب. إنما العلة الكبرى أن للصحف والروايات الخفيفة أصحاباً يتعهدون نشرها على أساس تجاري وإداري محكم.

أما الكتاب في مصر فيتيم ليس له من يتولى أمره، إذ أن كل مؤلف على حدته لا يستطيع شيئاً، والحركة التجارية غافلة عنه، وذلك لسببين: أولهما أن التجارة في مصر رائجة لسبب نأسف له وهو نشاط الأجانب، وهؤلاء لا يقبلون على الكتب العربية إقبالهم على النواحي الأخرى. والثاني أن تجارنا تعوزهم ملكة الابتكار، فتجارة الكتب تختلف عن غيرها في أن الطلب في أمرها يتبع العرض إلى حد بعيد، مع أن العرض في أمر غيرها يتبع الطلب بدرجة عظيمة. وهذا ملموس في كل بلاد وفي كل جهة ليخيل للإنسان أنه لا يوجد ميل

إلى الاطلاع إلا بين الذين اعتادوا المرور في حي معين فيه مكتبة يستوقف ما في واجهتها من الكتب نظر المارة، بل قد يدخل أحدهم بغير قصد شراء كتاب بذاته فيخرج وإذا بيده كتب

يعرف المؤلفون في مصر أن كتبهم لا تباع إلا حيث توجد المكتبات في مدينة واحدة وهي القاهرة، فيخيل إليهم أن الميل إلى القراءة غير موزع بين سكان القطر وأنه مقصور على حي معين. ثم ما هي إلا أن يتطوع صديق في جهة نائية فيبيع له عدداً كبيراً

لا ريب أن تشجيع نشر الكتب أمر حيوي وفيه شفاء للعلة الأصلية من أساسها بشكل يؤدي حتى في ظروفنا الحالية إلى انتشار الثقافة فتربح التجارة، وتنشط المطابع،

وتقوم في البلاد طبقة من قادة الفكر على أساس الدافع الطبيعي الذي لا يقتصر على ما لابد منه للمؤلفين من الاستقلال المادي والأدبي. بل إن في انتشار مؤلفات أحدهم ما يقوم في نفسه دليلاً على أنه أدى رسالته، كما أن في الإقبال على كتبه انتخاباً من القراء له وعملاً فيه الكثير من الصدق في التعبير عن أنهم أولوه زعامة طبيعية نابتة من الحركة الفكرية في ذاتها

ولست أريد أن أرسم خطة معينة تتبعها وزارة المعارف في تنفيذ برنامج عملي لنشر الثقافة عن طريق الكتب، ولكنني أورد على سبيل المثال ما يعن لي من الوسائل:

1 - أن تتفق الوزارة مع مراقبات مناطق التعليم ومجالس المديريات على أن تقصر معاملاتها بقدر الإمكان على المكتبات الواقعة في الجهات نفسها

2 - أن تتفق مع مصلحة البريد على إعطاء الأفضلية في بيع طوابع البريد وطوابع التمغة للمكتبات دون الصيدليات ومحلات العطارة وحوانيت التبغ

3 - أن تحفظ لديها سجلاً بالمكتبات في كافة جهات القطر ليرجع إليها الناشرون وأصحاب المطابع والمؤلفون للتعامل معهم، وأن تقوم مراقبات مناطق التعليم بالاستيثاق من أن هذه المكتبات مكتبات حقيقية

4 - أن تذيع بالراديو أسماء الكتب وخلاصات مشوقة موجزة عن محتوياتها

5 - أن تتفق مع وزارة الشؤون الاجتماعية على أن تدمج في المراكز الاجتماعية التي تزمع إنشاءها برامج ثقافية

6 - أن تشجع على إنشاء هيئة مركزية في القاهرة تجمع لديها فهارس ما يصدر من الكتب وتوزعها على جميع المكتبات في القطر، ويشترك أصحاب المكتبات في هذه الهيئة بضمان أو تأمين لكل منهم بمائتي جنيه مثلاً يجعل لكل منهم حق أخذ كتب بقيمتها حسب اختياره عن طريق الهيئة، وكلما سدد ثمن ما أخذه فتح له اعتماد بدلاً منه بقيمة ما يسدد، حتى إذا كان نشاطا في البيع دار معه مبلغ الضمان خمس مرات أو عشراً، فيكون قد اتجر في رأس مال قدره ألف أو ألفا جنيه دون أن يدفع شيئاً، اللهم إلا ضماناً قدره مائتا جنيه. وهذه الطريقة تتبعها شركة من شركات المنسوجات الأجنبية في مصر

ولابد لي أن أختم هذه الكلمة بتكرار ما قلت فيما سبق، وهو أنني لم أتعرض لمعالجة موضوع عدم الميل إلى القراء، إذ أن هذا أمر يتصل بمشكلة التعليم وبالرأي السائد في البلاد وفي الحكومة عن غاياته وأقيسته

محمود العمري

في الاجتماع اللغوي

تفرع اللغة الواحدة إلى لهجات ولغات

وأثر انتشارها في هذا التفرع

للدكتور علي عبد الواحد وافي

تختلف اللغات الإنسانية في مبلغ انتشارها اختلافاً كبيراً فمنها ما تتاح له فرص مواتية، فينتشر في مناطق شاسعة من الأرض، ويتكلم به عدد كبير من الأمم الإنسانية؛ كما حدث للاتينية والعربية في العصور القديمة والوسطى؛ وللإنجليزية، والأسبانية، والبرتغالية، والفرنسية، والألمانية في العصور الحديثة. ومنها ما تسد أمامه المسالك، فيقضي عليه أن يظل حبيساً في منطقة ضيقة من الأرض، وفئة قليلة من الناس؛ كما حدث للأبنو والبسكية والليتونية. ومنها ما يكون حاله وسطاً بين هذا وذاك، فلا تتسع مناطقه كل السعة، ولا تضيق كل الضيق؛ كما هو شأن الحبشية والفارسية

هذا، ولانتشار اللغة أسباب كثيرة يرجع أهمها إلى ما يلي:

1 - أن تشتبك اللغة في صراع مع لغة أو لغات أخرى وتقضي نواميس الصراع اللغوي المتقدم ذكرها في المقالات السابقة أن يكتب لها النصر، فتحتل مناطق اللغة أو اللغات المقهورة، فيتسع بذلك مدى انتشارها، وتدخل أمم جديدة في عداد الناطقين بها: كما حدث للاتينية في العصور القديمة، إذ تغلبت على اللغات الأصلية لإيطاليا وإسبانيا وبلاد (فرنسا وما إليها) والألب الوسطى فأصبحت لغة الحديث والكتابة في منطقة شاسعة في القسم الجنوبي الغربي من أوربا بعد أن كانت قديماً مقصورة على منطقة ضيقة في وسط إيطاليا، هي منطقة اللاتيوم وكما حدث للغة العربية إذ تغلبت على كثير من اللغات السامية الأخرى وعلى اللغات القبطية والبربرية والكوشيتية،

حتى بلغ الآن عدد الناطقين بها نحو 40 مليوناً ينتمون إلى نحو خمس عشرة أمة بعد أن كانوا قديماً لا يتجاوزون بضعة آلاف يقطنون منطقة ضيقة في الجنوب الغربي من بلاد العرب؛ وكما حدث للألمانية إذ طغت على مساحة واسعة من المناطق المجاورة لها بأوربا الوسطى (بألمانيا وسويسرا وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا والنمسا. . . الخ). وقضت على لهجاتها الأولى،
فأصبحت الآن لغة الحديث والكتابة لنحو 70 مليوناً من سكان أوربا بعد أن كانت قديماً مقصورة على بعض المقاطعات الألمانية

2 - أن ينتشر أفراد شعب ما - على أثر هجرة أو استعمار - في مناطق جديدة بعيدة عن أوطانهم الأولى، ويتكون من سلالاتهم بهذه المناطق أمة أو أمم متميزة كثيرة السكان، فيتسع بذلك مدى اتساع لغتهم، وتتعدد الجماعات الناطقة بها، ويكثر أفرادها. والأمثلة على ذلك كثيرة في العصور الحديثة. فقد نجم عن استعمار الإنجليز السكسون لأمريكا الشمالية وأستراليا ونيوزيلندا وجنوب أفريقية أن انتشرت الإنجليزية في هذه المناطق الشاسعة، فبلغ عدد الناطقين بها نحو 170 مليوناً موزعين على مختلف قارات الأرض، بعد أن كانت قديماً محصورة في منطقة ضيقة من الجزر البريطانية. ونجم عن الاستعمار الأسباني في الدنيا الجديدة أن أصبحت الأسبانية لغة المكسيك وجزر الفيليبين وجميع دول أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية ما عدا البرازيل، فبلغ عدد الناطقين بها نحو 70 مليوناً ينتمون إلى نحو خمس عشرة أمة، بعد أن كانت محصورة في منطقة ضيقة في الجنوب الغربي من أوربا. ونجم عن الاستعمار البرتغالي في الدنيا الجديدة وأفريقيا والأوقيانوسية أن أصبحت البرتغالية لغة سكان البرازيل بأمريكا الجنوبية وسكان المستعمرات البرتغالية بأفريقيا وجزر المحيط الهندي، فبلغ عدد الناطقين بها نحو 50 مليوناً ينتمون إلى عدة أمم، بعد أن كانت محصورة في منطقة ضيقة في بلاد البرتغال نفسها

3 - أن يتاح لجماعة ما أسباب مواتية للنمو الطبيعي في أوطانها الأصلية نفسها فيأخذ عدد أفرادها وطوائفها في الزيادة المطردة، وتنشط حركة العمران في بلادها، فتكثر فيها المدن والقرى وتتعدد الأقاليم والمناطق، فيتسع تبعاً لذلك نطاق لغتها ومدى انتشارها، كما حدث لليابانية والفرنسية والإيطالية. فبفضل هذا العامل بلغ عدد الناطقين باليابانية في اليابان نفسها نحو 60 مليوناً، وبفضله كذلك مع مساعدة العاملين السابقين بلغ عدد الناطقين بالفرنسية نحو 50 مليوناً وبالإيطالية نحو 45 مليوناً.

ومتى انتشرت اللغة في مناطق شاسعة من الأرض تحت تأثير عامل من العوامل السابق ذكرها، وتكلم بها جماعات كثيرة العدد، وطوائف مختلفة من الناس، استحال عليها الاحتفاظ بوحدتها الأولى أمداً طويلاً، فلا تلبث أن تتشعب إلى لهجات، وتسلك كل لهجة من هذه
اللهجات في سبيل تطورها منهجاً يختلف عن منهج غيرها، فلا تلبث مسافة الخلف أن تتسع بينها وبين أخواتها، حتى تصبح لغة متميزة مستقلة غير مفهومة إلا لأهلها، وبذلك يتولد عن اللغة الأولى فصيلة أو شعبة من اللغات يختلف أفرادها بعضها عن بعض في كثير من الوجوه، ولكنها تظل مع ذلك متفقة في وجوه أخرى، إذ يترك الأصل الأول في كل منها آثاراً تنطق بما بينها من صلات قرابة، ولحمة نسب لغوي. وكثيراً ما يبقى الأصل الأول لغة أدب وكتابة بين الشعوب الناطقة باللغات المتفرعة منه؛ ولكنه لا يلبث أن يتنحى عن ذلك بعد أن يكتمل نمو هذه اللغات.

ولهذا القانون خضعت اللغات الإنسانية من مبدأ نشأتها إلى العصر فاللغة الهندية - الأوربية الأولى، قد انشعبت في ضحى الإنسانية إلى مجموعات كثيرة، وكل مجموعة منها تفرعت إلى عدة طوائف، وكل طائفة انقسمت إلى شعب، وكل شعبة إلى لغات وهكذا دواليك. . . ومثل هذا حدث للغة السامية الحامية الأولى ولجميع الفصائل اللغوية الأخرى.

وقد شهدت عصورنا التاريخية نفسها كثيراً من آثار هذا القانون، فاللغة اللاتينية، وهي إحدى لغات الفرع الإيطالي المتشعب من الهندية - الأوربية، قد أخذت هي نفسها في أواخر العصور القديمة وفي العصور الوسطى تتشعب إلى عدد كبير من اللهجات، وأخذت كل لهجة من هذه اللهجات تسلك في سبيل تطورها منهجاً يختلف عن منهج

أخواتها، حتى انفصلت عنها انفصالاً تاماً، وأصبحت لغة متميزة مستقلة غير مفهومة إلا لأهلها. وقد بقيت اللاتينية مدة ما لغة أدب وكتابة بين الشعوب الناطقة باللغات المتفرعة منها (الفرنسية والإيطالية والأسبانية والبرتغالية ولغة رومانيا. . .) ولكنها لم تلبث أن تنحت عن ذلك بعد أن اكتمل نمو هذه اللغات

والعصر الحاضر نفسه يشهد كثيراً من آثار هذا القانون. فلانتشار اللغة الأسبانية في مناطق شاسعة من الأرض ولاختلاف الطوائف المتكلمة بها، أخذت تفقد وحدتها، فانشعب عنها في أمريكا الجنوبية لهجات كثيرة تختلف كل منها عن الأسبانية الأصلية اختلافاً غير يسير في كلماتها وأصواتها؛ بل إن بعض هذه اللهجات أخذ يختلف عن الأسبانية الأصلية في القواعد نفسها

وهذا هو ما يحدث الآن للإنجليزية والألمانية. فقد أخذت إنجليزية الولايات المتحدة بأمريكا

تختلف عن إنجليزية الجزر البريطانية في كثير من المفردات وأساليب النطق؛ وأخذت ألمانية سويسرا تبتعد عن أصلها ويزداد تأثرها بجارتها الفرنسية، حتى توشك أن تكون لهجة متميزة عن ألمانية الألمان وقد اتسعت مسافة الخلف بين اللهجات المتشعبة عن العربية حتى أصبح بعضها غريباً عن بعض؛ فلهجة العراق في العصر الحاضر مثلاً لا يكاد يفهمها المصري. غير أنه قد خفف من أثر هذا الانقسام اللغوي بقاء العربية الأولى بين هذه الشعوب لغة أدب وكتابة ودين

والعامل الرئيسي في تفرع اللغة إلى لهجات ولغات هو سعة انتشارها. غير أن هذا العامل لا يؤدي إلى ذلك بشكل مباشر، بل يتيح الفرص لظهور عوامل أخرى تؤدي إلى هذه النتيجة. وباستقراء هذه العوامل في الماضي والحاضر يظهر أن أهمها يرجع إلى الطوائف الآتية:

1 - عوامل اجتماعية سياسية تتعلق باستقلال المناطق التي انتشرت فيها اللغة بعضها عن بعض، وضعف السلطان المركزي الذي كان يجمعها ويوثق ما بينها من علاقات. وذلك أن اتساع الدولة وكثرة المناطق التابعة لها، واختلاف الشعوب الخاضعة لنفوذها. . . كل ذلك يؤدي غالباً إلى ضعف سلطانها المركزي، وتفككها من الناحية السياسية، وانقسامها إلى دويلات أو دول مستقل بعضها عن بعض. وغنى عن البيان أن انفصام الوحدة السياسية يؤدي إلى انفصام الوحدة الفكرية واللغوية

2 - عوامل اجتماعية نفسية تتمثل فيما بين سكان المناطق المختلفة من فروق في النظم الاجتماعية والعرف والتقاليد والعادات ومبلغ الثقافة ومناحي التفكير والوجدان. فمن الواضح أن الاختلاف في هذه الأمور يتردد صداه في أداة التعبير

3 - عوامل جغرافية تتمثل فيما بين سكان المناطق المختلفة من فروق في الجو وطبيعة البلاد وبيئتها وشكلها وموقعها. . . وما إلى ذلك، وفيما يفصل كل منطقة منها عن غيرها من جبال وأنهار وبحار وبحيرات. . . وهلم جرا. - فلا يخفى أن هذه الفروق والفواصل الطبيعية تؤدي، عاجلاً أو آجلاً، إلى فروق وفواصل في اللغات

4 - عوامل شعبية تتمثل فيما بين سكان المناطق المختلفة من فروق في الأجناس والفصائل الإنسانية التي ينتمون إليها والأصول التي انحدروا منها، فمن الواضح أن لهذه

الفروق آثاراً بليغة في تفرع اللغة الواحدة إلى لهجات ولغات

5 - عوامل جسمية فيزيولوجية تتمثل فيما بين سكان المناطق المختلفة من فروق في التكوين الطبيعي لأعضاء النطق فمن المحال، مع فروق كهذه، أن تظل اللغة محتفظة بوحدتها الأولى أمداً طويلاً

فانقسام المتكلمين باللغة الواحدة، تحت تأثير هذه العوامل، إلى جماعات متميزة، واختلاف هذه الجماعات بعضها عن بعض في شئونها السياسية والاجتماعية، وفي خواصها الشعبية والجسمية والنفسية، وفيما يحيط بها من ظروف طبيعية وجغرافية، كل ذلك وما إليه يوجه اللغة عند كل جماعة منها وجهة تختلف عن وجهتها عند غيرها، ويرسم لتطورها في النواحي الصوتية والدلالية وغيرها منهجاً يختلف عن منهج أخواتها، فتتعدد مناهج التطور اللغوي حسب تعدد الجماعات، ولا تنفك مسافة الخلف تتسع بين اللهجات الناشئة عن هذا التعدد، حتى تصبح كل لهجة منها لغة متميزة مستقلة غير مفهومة إلا لأهلها

ويبدأ الخلاف بين هذه اللهجات من ناحيتين: إحداهما الناحية المتعلقة بالصوت، فتختلف الأصوات (الحروف) التي تتألف منها الكلمة الواحدة، وتختلف طريقة النطق بها تبعاً لاختلاف اللهجات؛ والأخرى الناحية المتعلقة بدلالة المفردات، فتختلف معاني بعض الكلمات باختلاف الجماعات الناطقة بها

أما سواء في ذلك ما يتعلق منها بالبنية (المورفولوجيا) أو ما يتعلق منها بالتنظيم (السنتكس)، فلا ينالها في المبدأ كثير من التغيير. وإليك مثلاً اللهجات العامية التي انشعبت عن العربية بالعراق والشام والحجاز واليمن وبلاد المغرب. . . فإنه لا يوجد بينها إلا فروق ضئيلة في نظام تكوين الجمل وتغيير البنية وقواعد الاشتقاق والجمع والتأنيث والوصف والنسب والتصغير. . . وما إلى ذلك؛ على حين أن مسافة الخلف بينها في الناحيتين الصوتية والدلالية قد بلغت حدا جعل بعضها غريباً عن بعض، كما سبقت الإشارة إلى ذلك

ولكن هذه الوحدة في القواعد لا تقوى على مقاومة عوامل التفرقة إلا لأجل معلوم؛ ثم تهن قواها وتستسلم لهذه العوامل، فيصيبها منها ما أصاب الصوت والدلالة من قبل، وحينئذ تقوى وجوه الخلاف بين اللهجات، وتبدأ مرحلة تحولها إلى لغات مستقلة، ولا تنفك تذهب

حثيثاً في هذا الطريق حتى تبلغ غايته

غير أنه يبقى بها، على الرغم من هذا كله، وجوه شبه قريبة أو بعيدة في أصول المفردات وبعض مظاهر القواعد العامة. وإليك مثلاً طوائف اللغات الهندية الأوربية، فعلى الرغم من استحكام ما بينها من حلقات الخلاف، فإن الأصل الأول قد ترك في كل منها آثاراً تنطق بما بينها من صلات قرابة وتشهد بتفرعها عن أرومة واحدة

ومن هذا يتبين أن اللغة لا تموت حتف أنفها. فما لم تصرعها لغة أخرى على الوجوه التي تقدم شرحها في المقالات السابقة، لا يتطرق إليها الفناء. وخلودها هذا يبدو في أحد مظهرين. فأحياناً تحتفظ بوحدتها، وذلك إذا ظلت حبيسة على منطقة ضيقة وفئة قليلة، وأحياناً تتشعب إلى لهجات ولغات، وذلك إذا انتشرت في مساحات شاسعة من الأرض وتكلم بها طوائف مختلفة من الناس

ومن ثم يظهر كذلك خطأ من يحاولون علاج تعدد اللغات بإنشاء لغة عالمية (إسبرنتو يتحدث بها الناس من مختلفي الأمم والعصور. وذلك أن هذه اللغة الصناعية على فرض إمكان اختراعها وإلزام الناس باستخدامها، لا تلبث بعد تداولها على الألسنة أن تخضع لجميع القوانين التي تخضع لها اللغات الطبيعية والتي خضعت لها أول لغة تكلم بها الإنسان. فما دام أفراد الأمم الناطقة بها مختلفين في أصولهم الشعبية وفي التكوين الطبيعي لجسومهم وأعضاء نطقهم، وفي الظروف الجغرافية والطبيعية والاجتماعية المحيطة بهم، وفي قواهم الإدراكية والوجدانية، وما دامت سنة الطبيعة تقتضي أن يختلف كل جيل عن الجيل السابق له في كل هذه الأمور، فلابد أن تختلف هذه اللغة الصناعية في كلماتها وأصواتها ودلالاتها وقواعدها باختلاف العصور وباختلاف الشعوب الناطقة بها، وتنقسم إلى لهجات يختلف كل منها عما عداه، وتتفرع منها لغات عامية، وتتسع الهوة بين لهجاتها قليلاً حتى تنفصل كل لهجة منها عما عداها انفصالاً تاماً وتصبح غير مفهومة إلا لأهلها، شأنها في ذلك شأن غيرها من اللغات، وهكذا لا يمضي زمن قصير أو طويل حتى يتولد من هذا العلاج نفس المشكلة التي يحاولون القضاء عليها: (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة، ولا يزالون مختلفين، إلا من رحم ربك، ولذلك خلقهم. . .). (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن في ذلك لآيات للعالمين)

علي عبد الواحد وافي
ليسانسيه ودكتور في الآداب من جامعة السربون

من وراء المنظار

صاحب الديوان

إياك أن تظنه صاحب (ديوان شعر)، فمثل هذا أهون من أن يحفل به إلا من كانوا مثله من ذوي الأحلام والأوهام في هذه الدنيا التي باتت لا تحفل بالأحلام ولا بذوي الأحلام. . .

ولعلك فطنت بعد هذا إلى من أعنيه بهذا اللقب؛ ثم لعلك فهمت لِمَ أسميه (صاحب

الديوان)، فما كان لفظ (الموظف) و (المستخدم) وما يجرى مجراهما مما يفي بالغرض في معرض الحديث عن ذلك الذي توافي له من أسباب الجاه والسلطان ما يسمو به على الناس، رضوا بذلك أو لم يرضوا؛ وما أرى نعته بمثل تلك الألقاب المتواضعة إلا ضرباً من الخطأ أسبق مجمع اللغة في تلافيه، فأضع له هذا الاسم الجديد، وبودي لو وقعت له على اسم آخر أكثر فخامة وأضخم جرساً وأبلغ رهبة ولست أدري وقد وقع منظاري على أنماط وأشكال من أصحاب الديوان إلى من أدير الحديث منهم أولاً فأجعله في طليعة أصحابه فإني لست بمعفيهم جميعاً من حديثي ولو لحقني بعدها من سطوتهم ما أعض إصبع الندم عليه

أأبدأ بالحديث عن ذلك الشاب الماجن المتظرف الذي لا تساوي الدنيا في نظره شيئاً؟ أم أبدأ بصاحبه المتزمت المتبرم الذي يحمل الدنيا كلها على رأسه؟ أم أدعهما إلى ذلك الكهل الذي أخلق برد الشباب على مقعده وهو يلتفت إلى الماضي في حسرة ويحتمل الحاضر في ملل وينظر إلى المستقبل في يأس، ولا يني عن احتقار من هم دونه والحقد على من خلفوه وراءهم وكانوا وإياه في صف واحد عند بدء الشوط؟ أم أبدأ من عل غير متهيب، فأتحدث عن ذلك الذي يخضع له هؤلاء جميعاً ويتملقه أكثرهم وليس فيهم من لا يكره أن يودع كرسيه في أقرب فرصة؟

الحق أني حائر، ولا مخرج لي من هذه الحيرة إلا بأن أعرض عليك في هذه الكلمة صورة لفريق من أصحاب الديوان في قاعة من قاعاتهم، على أن أتناول هذا الإجمال بعد بالتفصيل

دجلت تلك القاعة في شأن من الشؤون فوجدت نحو خمسة عشر من هؤلاء ينصتون إلى من يتلو عليهم حديثاً وهم على مكاتبهم يرنون إليه حتى إذا فرغ من قصته انطلقوا يضحكون في صخب عظيم، ثم أخذ كل منهم يسابق الآخر في التعقيب عليها بما يسعه من نكتة أو قصة مشابهة، ومضى على ذلك وقت ليس بالقصير، وأنا واقف في ركن عند مدخل القاعة لا أدري من أقصد ولا أجد من يلتفت إلى كما لو كنت (صاحب ديوان) مثلهم لا حرج علي ولا غرابة في أن أكون معهم في حجرتهم

وكان قد مضى على بدء العمل أكثر من ساعة، ولكن أغلب المكاتب كان لا يزال خالياً من الأوراق، وبعضها كانت خالية حتى من أصحابها؛ ونظرت إلى الباب فإذا فريق من الصبية يدخلون وفي أيديهم أصناف (الصينيات)، فهذا يحمل (الفول)، وذلك يقبل (بالطعمية)، وثالث لا يحمل غير القهوة . . .

وأخذ أصحاب الديوان في تناول طعام فطورهم أو في شرب القهوة، اللهم خلا ثلاثة أو أربعة، راح أحدهم يقرأ في جريدة الصباح وراح الآخر ينظر إلى السقف كأنما يفكر في حل معضلة، ولعله كان ينتظر أن يفرغ صاحبه من جريدته ليتناولها بعده، وأخذ الثالث يفتح أدراج مكتبه ويغلقها ولا يخرج منها شيئاً، أما الرابع فقد تناول بعض (الدوسيهات) وصار ينظر فيها واحداً بعد الآخر ثم فتح أحدها أمامه وأخذ يصفر بشفتيه لحناً جميلاً

وكنت قد جلست على مقعد خال بجانبي، وليس ما يمنع وإن لم يكن في يدي عمل أن أكون أحدهم، ولعلهم ظنوا - إن كان فيهم من عنى بأن يظن - أني انتظر أحد الغائبين بناء على موعد سالف؛ وكان علي في الواقع أن أنتظر ولكني كنت أنتظر الحاضرين حتى يفرغوا من طعامهم وشرابهم أو من قراءة صحفهم لأستطيع أن أعرف فيهم من يوجد لديه حل مسألتي

وأزف موعد عملي، ودخل السعاة بأضابير من الأوراق وأخذوا يوزعونها على أصحابها، وحال ذلك دون أن أتقدم إلى أحد، فخرجت على أن أعود مرة أخرى إلى الديوان

(عين)

عقيدة النازي المالية

للدكتور جواد علي

سمَّيت سياسة الوطنية الاشتراكية المالية وآراءها الاقتصادية (عقيدة)؛ لأن الهتلرية لا تعتقد بالنظريات العلمية، ولا تعترف بالقواعد التجارية التي تسير عليها الدول الأخرى؛ بل تدين بعقائد ثابتة مكتوبة ونصوص تخضع لها ولا تحيد عنها: هي نصوص العنصرية والدم والأرض وهي المفتاح لكل حضارة أو مدنية في العالم، والتجارة والثروة من نتائج الحضارة البشرية، والحضارة البشرية هي المظهر الخارجي للعامل الداخلي الأساسي المختفي: الدماء

لذلك فاقتصاديات شعب مرتبطة بقوته وبسلامة العنصرية من الامتزاج بالدم الأجنبي الدخيل. والروح التي تكون في كل جسم، كما أنها في كل أمة، هي التي تغير اقتصاديات أمة وتكيفها حسبما تريد؛ لا الإنتاج كما هو مذهب كارل ماركس إذ يقول: (غيروا الإنتاج تغيروا البشر). ولا المادية كما عليه البلشفية وأصحاب المادة؛ والروح ليست من قبيل الأحلام أو الأفكار أو الاصطلاحات العلمية أو بالمعنى الذي ورد في فلسفة أفلاطون؛ بل هي حقيقة واقعة لا شك فيها، عاملها الدم لا التفكير البارد فقط وبما أن لكل شعب روحية خاصة وعقلية تميزه عن عقليات الشعوب الأخرى، فاقتصاديات كل أمة ونظمها التجارية يجب أن تكون وفق نظمها وقواعدها السياسية والعقائد الاجتماعية والتاريخية وآرائها الثقافية العالمية. وعلى ذلك يجب أن نجعل القواعد الاقتصادية وأساليبها خاضعة لمصلحة جماعة الأمة لا أن نجعل الاقتصاد خاضعاً لنظريات وقواعد عالمية وأصول علمية وضعتها أدمغة العلماء بصورة مجردة نظرية لم تستند إلى قواعد العنصرية والظروف التي تحيط بكل أمة. فهي لذلك تضحك من كل علم يحاول وضع قواعد عامة مسلمة أو آراء أممية يجب السير عليها. وهي تفتخر بأنها ألغت نظريات العلم الشائعة اليوم واتخذت قواعد مكتوبة وفق آرائها وعقيدتها. وهي تحارب فكرة حرية التجارة وإلغاء الرسوم الكمركية ومبادئ (آدم سميث) و (ريكاردو) وجميع وهي بالجملة تقارب أصحاب فكرة حماية فكرتها، وتحذو حذو مذهب ال الذي يحاول أن يجعل الدولة المسيطرة على جميع اقتصاديات المملكة ومواردها التجارية ولكنها تختلف هنا عن الشيوعية والبلشفية في نظرية إشراك الدولة في المسائل الاقتصادية رأساً. فالوطنية الاشتراكية تريد كما تدعى حق الإشراف المطلق على سياسة الأمة الاقتصادية فتسيرها وفق مبادئها وآرائها، فلا تتساهل مع كل متوان أو متجاهل لأنظمة النازي بواسطة القوانين التي تضعها والمحاضرات التي تلقيها على التجار وبواسطة الهيئات التجارية التي تعينها من بين رجال حزبها لا بطريقة الانتخاب وبواسطة هيئة وضع الأسعار التي يشرف عليها قوميسير الأسعار إلا أنها لا ترى وجوب اشتراك الدولة في البيع والشراء وإدارة المعامل والإنتاج رأساً، ولو أنها تتدخل في الحقيقة في كل شيء، ولها في كل معمل أو محل رجل معين من قبل الحزب يسمى بمثابة عين على كل عامل، وذلك ما يخالف مبدأ البلشفية والمركسية الذي يدير المعامل رأساً وكذلك الاقتصاديات الكبرى.

رأت الهتلرية أن خير حل لمشكلة العمل والعمال هو الاعتراف بمبدأ الملكية الشخصية ولكنها ترى أن صاحب المال أو المعمل من جهة أخرى هو مدير لماله أو لمعمله أو قائداً يتصرف به وفق الأنظمة والقوانين والطرق الشرعية الشريفة، فسمته مدير محل، ولم تسمه مالكاً إذ يتصرف المالك قانوناً كيف يشاء بينما سلب منه هذا الحق هنا. وعلى ذلك فوضع الأسعار والأجور وأوقات العمل وأسعار التصدير إلى الخارج أو البيع في الداخل لم يعد من حق أصحاب المال بل من حق الحكومة فقط. وكل من يحاول استغلال ماله عن طريق يخالف مبادئ النازية يكون نصيبه العقاب الصارم أو الإعدام لأنه خائن للأمة ولص خطير. كما أن كل عامل رجل مؤتمن على العمل فعليه الإطاعة والخضوع لأنظمة العمال التي هي أنظمة الشعب والدولة وإطاعة أوامر من هو أعلى منه درجة، وكل مخالفة تكون عاقبتها العقاب الصارم أو الإعدام أيضاً تعترف الهتلرية بالأنانية وحب الذات كصفات غريزية في البشر، لذلك ترى مكافحتها بقاعدة (النفع العام قبل النفع الخاص وهذه القاعدة تستدعي وضع تربية سياسية جديدة تكون أسسها مرتكزة على العواطف قبل التفكير وعلى الإطاعة قبل إدراك السبب أو الباعث وهو الطابع الحديث الذي تنطبع به فلسفة الوطنية الاشتراكية. ونظراً إلى ذلك وجب مراقبة الأرباح التي تدعو إلى كل مشكلة وتخليص البشرية من عبودية المرابين،

وذلك بجعل أصحاب المال تحت سيطرة سياسة الدولة رأساً لا الدولة تحت سيطرة أصحاب رؤوس الأموال الذين يطلقون عليهم لقب هو الشأن في الدول الديمقراطية والأمريكية، ولذلك يجعلون هؤلاء مصدر كل حب وبغض إلى الألمان ويتهمون هذه الدول بكونها تخضع للسياسة اليهودية التي تنتمي إلى هذه الطغمة

ولإنقاذ الشعب والحكومة من عبودية الربا وجب تنظيم الأرباح على قاعدة (الربح على قدر العمل والقضاء على بيوتات البيع الكبرى والشركات الاحتكارية وتقسيمها إلى

محال صغيرة فنحو (100000) اسكاف خير من وجود خمس شركات كبرى، لأن من طبيعة المحال الكبرى الميل إلى الأرباح دون الالتفات إلى التحسين، وبتخليص الفلاح من الديون. والفلاح هو رمز العنصر الشمالي الآري وكل سياسة اقتصادية لا تستند إلى محصولات تكون سبباً لهلاك الشعب وتدهوره. والتاريخ يرينا كما يقول هؤلاء أن سبب سقوط الشعوب هو إهمالها الزراعة، وبسبب تقدم الصناعات الكبرى توسعت المدن وظهرت روح جديدة هي روحية المدن بأمراضها المختلفة وازدراء الفلاحة وسكان الأرض وهذا معناه الانحطاط الثقافي. لذلك كان من واجب الوطنية الاشتراكية مقاومة توسع المدن وإرجاع السكان إلى العمل في الأراضي خارج المدن واتخاذ سياسة استيطان جديدة وإلغاء القوانين التي تجعل الفلاح في عزلة عن أهل المدن أو أقل منهم ثقافة واجتماعاً، وتحويل المدنيين إلى شعبيين؛ وبذلك تعود الحضارة البشرية والروح الجرمانية التي يحلم بها هتلر، وتختفي الفروق الموجودة بين الشعب الواحد، وتنفيذاً لهذه السياسة ترى وجوب الإشراف على بيع الأراضي وتوزيعها بحيث تضمن ما تراه بصورة عملية

أما التجارة الخارجية للشعب فيجب أن تشرف عليها الدولة كذلك وتحدد أسعارها. وتقوم بذلك الدول فيما بينها بعقد معاهدات تجارية حسب رغبات الدول وحاجاتها لا على قواعد علم الاقتصاد ومبادئ حرية التجارة أو المبادئ المالية الأخرى، وتكتب هذه المعاهدات بلغات الدول المتعاقدة لا باللغة الفرنسية كما هو الشائع الآن. وأساس هذه المعاهدات هو نظام المقايضة أو تبديل بضاعة ببضاعة، وهو نظام تراه الوطنية الاشتراكية أكمل نظام طبيعي، وقد كانت تتبعه قبل الحرب العظمى فسبب حصول التوتر الشديد فيما بينها وبين بريطانيا وهو الذي يدعو إلى قلق الأمريكيين دائماً وخوفهم من تفوق التجارة الألمانية على

أسواق أمريكا الجنوبية، وذلك الذي تطلب منعه واتخاذ أساس الشراء الحر ونظراً إلى أن ألمانيا فقيرة في المواد الابتدائية فمن الواجب إيجاد مصادر لها في الخارج وهي المستعمرات. وتقسم ألمانيا مبدئيا العالم إلى قسمين: أمم متحضرة مستهلكة ومصدرة، وأمم كتب عليها أن تشتغل لتزويد هذه البلاد المختارة. ولكن ما هي المقاييس التي تتخذ قاعدة في الشراء؟ الذهب أو الإنتاج؟ إن خلو ألمانيا من الذهب يجعل هتلر يرفض قاعدة الذهب ويطعن في البلاد التي تتعامل به. وإن والعمل هما رأس المال فقط. وعلى ذلك فكل دولة تشتغل بنشاط وتكافح في سبيل قوتها تكون هي المملكة الغنية في العالم، ولهذا وضع مشروعاً سماه مشروع أربع السنوات غايته الاعتماد على المنتجات الداخلية واستخراج كل ما يمكن من الأرض الألمانية بتفضيل كل ما هو ألماني على غيره ولو كان أقل جودة وأردأ نوعاً. فالمطاط يجب أن يستخرج من مواد ألمانية سرية، وكذلك السلولوز والنفط والبنزين من الفحم الألماني، وكل مملكة تسد نقصها من الخارج فهي دولة منحطة متأخرة؛ حتى قوائم الأكل يجب أن تكون ألمانية بحتة، ولذلك تستخدم لجنة مشروع أربع السنوات كل ما لديها من وسائط في سبيل إقناع الأمهات وخصوصاً العجائز منهن بعدم شرب القهوة أو الشاي بكثرة، وبعدم أكل القشدة المحبوبة لدى المسنات على الأخص بإفراط اقتصاداً وحفظاً للنقد الألماني من الذهاب إلى الخارج. ولكن ذلك ليس من السهولة بمكان، فقد اختفت الأقمشة الصوفية الجيدة من الأسواق الألمانية، وظهرت عوضاً عنها الأقمشة الصوفية السلولوزية المنتجات المتينة ولكنها أخذت تنافس أحسن الأقمشة البريطانية في الخارج، وتنافس بضاعات الأمم الأخرى حتى في أسواقها المحلية. كل ذلك لجر النقد الأجنبي إلى ألمانيا وتغطية العملة الورقية فيها

جواد علي

خريج جامعة هامبرك بألمانيا

أيها الأطفال!

للأديب أحمد محمود فهمي

أنتم أولاد الطبيعة أما نحن فأولاد الحياة!

أنتم تصورون لنا الطبيعة في شكل آدمي لأنكم صورتها الآدمية!

تغريكم الدمى وتسركم الأضواء وتبهركم الألوان

لا تحتاجون إلى أسرار أيها الأنقياء الأطهار.

وما حاجتكم إلى صدر زاخر بالأسرار وأنتم الذين لا تقبلون الحياة إلا بسيطة سهلة لا تعقيد فيها ولا إشكال
خير عندكم من كل مباهج الكبار ومسراتهم، دمية صغيرة محبوبة، تدورون بها في مجال المرح والسرور
يقينكم أنه ليس لكم يقين، وظنكم أنكم لا تعرفون الظنون أأنتم لاهون عن الحياة أم الحياة لاهية عنكم؟
تمر عليكم قافلة الحياة حافلة بشتى المعاني والألوان، وأنتم عنها لاهون، كأنكم من غير أعين ولا آذان
لا تعرفون من الحياة إلا طفولتكم، ولا تعرفون من الطفولة إلا الفطرة والسذاجة والإخلاص!
نحن نحتاج أحياناً أن نجالسكم لنتذكر في ظل طفولتكم أيام كنا مثلكم، وننشق من عرف لهوكم وعبثكم ما كان لنا في ماضينا الطفلي العجيب من لهو عابث وعبث لاه، في قلوب مطمئنة متوثبة معاً، تعرف كل شيء، ولكنها لا تعرف شيئاً!
حياتكم هادئة مطمئنة لا يفزعكم فيها شيء؛ ونحن نثوب إليكم دائماً كلما ثارت بنا الحياة، أو اضطرب عليها هدوءنا وطمأنينتنا، فنراكم في حجر الطبيعة الأم الحنون، تهدهدكم وتنثر بين أسرتكم الورود والرياحين
إن الحياة تفسد الطبيعة، ولكن الطبيعة تصلح الحياة، وإلا فما كانت الحياة تسلب من علّتْ به السن معالم الطبيعة ونقاء الفطرة
أيها الأطفال!
أراكم تجرون في العمر تريدون أن تلحقوا بنا في مضمار الحياة، ونحن كذلك نجري في طريق العمر إلى مدى لا يعلمه إلا الله
إن منكم من سيظل طفلاً برغم تقدم الحياة والسن، لأن لون الطبيعة قد انطبع على إهابه
وإن منكم من ستسلب منه الحياة فطرة الطبيعة، فيصير كأهل الحياة، يتعلم مكرهم وختلهم، وتتلاشى من نظراته تلك الأضواء البراقة التي عرفها في طفولته أسلوباً من لغة الطبيعة. والناس بهذا الوضع سيندفعون مع التيار، وتنغمر عواطفهم في العباب
ليت الطفولة لا تفارق الناس في كبرهم، ولكن هل كانت الحياة تستقيم على هذا المنهج؟
إننا إذا خرجنا عن نطاق الفلسفة أو دخلنا في نطاقها وجدنا أنفسنا أحوج ما نكون إلى أن نتخلق ببعض أخلاق الطفولة، فليست كل مميزات الطفولة غير صالحة؛ فإن بين طباعها الطهر والنقاء والصفاء؛ وما أحوجنا في كل حين أن نكون أنقياء بكل معاني النقاء!
إن الطبيعة والحياة لا تتنافران، بل ما أحوج المجتمع أن يمزج بين عناصرهما ليتحقق الانسجام والاعتدال
يريد المصلحون أن تقل من المجتمع الشرور والآثام، وهل يتحقق ذلك إلا إذا مزجنا حياة الكبار بطبيعة الأطفال
وماذا يمحو الشر والإثم غير الصفاء والنقاء. . .؟
الواقع أننا في حاجة إلى مدرسة للطفولة نعلم فيها الكبار فطرة الأطفال، نعلمهم أو نذكرهم فيها طبيعة الطفولة فيما تفردت به خصائصها ومميزاتها من الفطرة والسذاجة والنقاء
وهل ينسى من فارق مجال الطفولة أنه كان من أبناء الطبيعة فأصبح من أبناء الحياة!
أحمد محمود فهمي
رسالة الشعر
. . .عيد الربيع
للأستاذ أحمد محرم
هتف الداعي، فلبوا يا رفاق ... واجمعوا شمل الهوى بعد الفراق
مورد العيش صفا، والجو راق ... فهو طلق الساح، فضي الرواق
ما لمن يزهد فيه من خلاق
عاد في بهجته عيد الربيع ... يزدهي في معرض الحسن البديع

هو يا أهل الهوى عيد الجميع ... ليس للهاجر فيه من شفيع
عيدكم عيد اجتماع وتلاق
كان للهجر زمان، فانطوى ... وخلت من شره دنيا الهوى
كم جريح فيه بالشوق اكتوي ... كم جريح فيه بالدمع ارتوي
كم مشوق بات مشدود الوثاق
يا شفاه الزهر، ما أبهى الشفاه ... اضحكي بالله يا دنيا الحياة
وانظمي شعر الهوى، إني أراه ... سلوة الصب المعنى في هواه
اسكبيه سلسلا عذب المذاق
لك من شعري ربيع دائم ... كل بيت فيه عيد باسم
كل معنى فيه حب هائم ... كل حب فيه معنى حالم
كل حلم يملأ السبع الطباق
مرحباً بالعيد، عيد الشعراء ... قادة الحب، وأبطال الوفاء
اعرفوهم، إنهم حول اللواء ... صفوة القتلى، وخير الشهداء
اعرفوهم واستعدوا للّحاق
يا قلوب الناس، ما هذا الجمود؟ ... أجنوب تلك منهم؛ أم لحود!
أنتِ موتي؛ وبنو الحب شهود ... ليس في الدنيا حياة أو وجود
حيث لا يوجد حب واشتياق
لا يحب الله من لا يعشق ... يشهد العقل؛ ويرضى المنطق
كل حسن أو جمال يخلق ... فهو منه؛ وعليه يطلق
وإليه في معاليه يساق
كل حب، فهو منه وإليه ... وقلوب الناس ما بين يديه
عالم الغيب، فلا يخفى عليه ... كل ما في الكون مسطور لديه
في كتاب أزلي العهد باق
يا كتاب الحب، ما هذى السطور ... حِكم الإنجيل أم آي الزبور!
هي كالفرقان نور فوق نور ... إن فيها لشفاءً للصدور
وغنى للناس عن آس وراق
رددي يا طير آيات الحنين ... وتغني بحديث العاشقين
نبهي الأشواق في رفق ولين ... نبهيها في قلوب الراقدين
الهوى استيقظ، والحب استفاق
عبقُ الريحان، يُهديه النسيم ... وجمال الورد في الروض الوسيم
وصفاء الجو في دنيا النعيم ... ووفاء الصاحب السمح الكريم
كل هذا من أناشيدي الرقاق
كلما رددت آيات الكتاب ... في محاريب الهوى بين الصحاب
ضجت الدنيا وظلت في اضطراب ... إنما الدنيا عذاب في عذاب
وبنو الدنيا بلاء لا يطاق
تلك خمري يا رفيقي خذ وهات ... ودع الهم لأهل الترهات
نحن في المعبد نقضي الصلوات ... هات كأسي يا صريع النشوات
يا لها يا صاح من كأس دهاق
نحن في عالمنا السامي الجليل ... ديننا الإيمان، والحب النبيل
لا نبالي في كثير، أو قليل ... كل من لام خليلاً في خليل
ما لكم والحب يا أهل النفاق!
يا رفيقي ليس للحب مدى ... وقلوب الناس لم تخلق سدى
أين من يعقل، أو يبغي الهدى ... لا أرى إلا غويًّا مفسدا
يتمادى في ادعاء واختلاق
طال عهد الزهر بالوادي الخصيب ... وتمادت وحشة النائي الغريب
وأتى (آذار) من بعد المغيب ... فتلاقى، من محب وحبيب
بين تسليم، ولثم، وعناق
يا نشيد الحب من ذا صنعك! ... غن يا (قيس) وقل ما أبدعك
كل طير يشتهي أن يسمعك ... هذه (ليلاك) يا (قيس) معك

كاذب من قال (ليلى) بالعراق
أحمد محرم
وحي الطبيعة الغربية
الجبل الأبيض
بشاموني - فرنسا
(مهداة إلى الدكتور بشر فارس تذكاراً لزيارة ممتعة)
للأستاذ محمد عبد الغني حسن
يُطلُ على الكونِ من شاهقٍ ... كنسرٍ يُرفرفُ مِنْ حالق
وتلمعُ فوقَ ذَراهُ الثَلوجُ ... وتَبرقُ كالأمل البارقِ
له قِمَّةٌ كلَّلت بالمشيب ... على ظهره الأدكنِ الغامق
وشابَ. . . ولكنَّه لم يَزَلْ ... فَتِيَّ ألغوا رب والعاتق
فما قوَّسَتْهُ همومُ السنينَ ... ولا ضَرْبةُ الزمنِ الصاعق
تَسامَى إلى جَنباتِ السماء ... وطال على رأسِها السامِق
يلوحُ عليه اتَّزانُ الوَقورِ ... وتَبدو به ثقةُ الواثق
تمرُّ عليه تَوالي العُصورِ ... ثِقالَ المؤخرِ والسابق
. . .وتطرقه حادثاتُ السنين ... فيهزأ بالقَدَرِ الطارق
هُناك صعدنا إلى مَتْنه ... وطُفنا على نَبْعه الدافق
وقد ثار جدولُه ثورةً ... تذكرني غَضبةَ الحانق
صعدنا هناك إلى عالَمٍ ... لذيذِ المنى خالصٍ رائِق
!تَخَلَّصَ من صَرَخات الحياةِ ... ومن إنْسها الناعبِ الناعِق
. . .وَمِنْ زَفْرة الحِقْدِ بين القلوبِ ... ومن دُخْنَة النَفَسِ الخانق
هناك رأيتُ شعاعَ الغروب ... يَدبُ على الثلج كالسارق
. . .وقد طالَ وجهُ النهار الضَّحوك ... كما طال ليلٌ على العاشق
وسار بياضُ الثلوج الكثيفِ ... على حُمرة الشفَقِ الغاسقِ
وقامت على مَزْج ألوانِه ... يَدُ الصانعِ الماهرِ الحاذق
تُصَورُ كل طريفِ الجمالِ ... وكلَّ بديعِ الحلي شائِقِ
محمد عبد الغني حسن
الفيلسوف المجهول
(إلى روح المرحوم الدكتور علي العناني بك)
للأستاذ عبد الرحمن الكيالي
ضلت ركاب الفكر عن أخباره ... فسعت تحت الخطو في آثاره
سبق الزمان إلى الزمان فقصرت ... عن شأوه الأيام في مضماره
هتفت بأذنيه الهموم وجلجلت ... في صدره الهمسات من أفكاره
فسمت به فوق السماء وأرسلت ... نغماته بالسحر من أوتاره
كالنجم أفرط في العلو وإنه ... ليذود لحظ الطرف عن إبصاره
لم يصبه للمجد طيف لم تزل ... همم النفوس تُساق في تياره
ورمى الخلود بنظرة لو صادفت ... طوداً أشم لدُكَّ من أقطاره
ما الخلد في عينيه إلا ومضة ... للوهم ترفل في شفيف دثاره
فتكت بأوطار النفوس ولم تكن ... لتفوز باللمحات من أوطاره
ما ضره ليل تجهم حوله ... وأحاطه بالسود من أستاره
والعود يذهب في الرماد إذا التلظي ... وهج اللهيب يشف عن أسراره
فليرتفع عن دهره متكبراً ... وليجف هذا الدهر عن إكباره
وليشد في مزماره مترنماً ... ويرى النعيم الحق في مزماره
فدعوه لا تتسمعوا نغماته ... نغماته وقف على إسكاره
لا تنفحوه بالكؤوس فقلبه ... كأس تصفق في يدي خماره
ملئت بمعسول العقار ولم تكن ... لهواتكم تسمو لرشف عقاره
فليطلع الفجر الوضئ وخلفه ... حجب ترد العين عن أنواره
وليكتم الروض الأريج عبيره ... عن كل مشتم سوى أزهاره
وليحم ذو اللب الكبير شعاعه ... أن تُخطف الأبصار من إسفاره

نفحاته قدسية جياشة ... فاضت بماء القلب من قيثاره
ما بالها سلكت سبيلاً موحشاً ... يرتاح فيه العقل من أسفاره
نسلته من دنيا الفتون ولم تكن ... ترضى بهذا الكون من سماره
فنضا الكرى عن مقلتيه مغرد ... للفجر يهتف بانتعاش نهاره
كشف الصباح لناظريه فأبصرا ... صبح الأنام يموت في أسحاره
دفن الرقاد قلوبهم برموسه ... وحبا الرياء نفوسهم بشعاره
فانساب تحت الليل يقبس لمعة ... كالمستجير من الصقيع بناره
وازوّر عن أفق الظلام مُغبراً ... تتقطع الأعناق دون غباره
متبتل ترك الأنام وراءه ... ونجا يحطم من وثيق إساره
حتى إذا نسج الظلام حياله ... ثوب الفناء ولفه بإزاره
أرست نوازعه وأشرق لبه ... ورمى الأزمة في يدي أقداره
فتطايرت آماله من قلبه ... مذعورة النسمات من إعصاره
وترنمت في ثغره ضحكاته ... بالسخر ترسل من فحيح جماره
ورد الحياة وفر عن آفاقها ... مستهزئاً بقدومه وفراره
(الخليل - فلسطين)
عبد الرحمن الكيالي
الأدب في أسبوع
توطئة. . .
كتبت - في هذا الباب - منذ أسابيع بعض رأيي في الشعر والشعراء، ولم يكن همي أن أستوفي كل الرأي فيهما وليس من عملي الآن أن أفعل ذلك، وإنما هي إشارات في لمحات يأخذ بها من يأخذ، ويدعها من شاء أن يدع؛ وأنا أحب أن أقدم بين يدي كلامي. . . فإن بعض من يغافل نفسه عن حدود الألفاظ ومعانيها ينطلق من ورائها يمد منها بأوهامه مداً بعيداً حتى يخرج بما نكتبه عن المعنى الذي نريده إلى أحلام ووساوس وخطرات يحم بها ثم يغلى ثم ينتفض. . . ثم لا يكون رأيه فينا إلا وهماً، من فوقه وهم، من فوقه عناد، ظلمات بعضها فوق بعض
فأنا حين أهجم على الغرض الذي أريده من النقد أو البيان، لا أتلجلج دونه لما أخشاه من قالة السوء التي يوكل بها بعض من فرغ زمانه إلا من الفراغ الذي يستهلكه في اختلاق الأوهام واقعة وطائرة، رائحة وغادية، ثم هو يجلس إليها - بعد أن تفصل عنه - ليتأملها ويملأ عينيه وأذنيه من مفاتنها وألحانها! وأنا أحب أن يعلم من ليس يعلم أني حين أكتب عن صديقي وكأن ليس بيني وبينه سبب من مودة، وأكتب عن عدوي وكأن ليس بيني وبينه دخان من غضب. فإذا خُيَل لبعض من يتخيل أني أماسح صديقي أو أتلفف على عدوي فقد أخطأ، وإنما العيب منه لا منا. . . وذلك عيب علمه أن هذا عدو وهذا صديق، فيرى من وراء اللفظ ومن تحته ومن فوقه ومن بين يديه معاني ليست منه ولا تتداعى إليه، وإنما نحن نستوفي الكلام ونعطيه حقه على وجوهه في الرضا والغضب، ونأخذ أنفاسنا بذلك ما استطعنا، فإن الحق في هذا الذي نكتبه هو حق القارئ لا شهوات من يكتبه؛ ثم هو بعد ذلك رأينا أصبنا أو أخطأنا، وليس علينا أن نوافق هوى قارئ لأنه هواه، بل علينا أن نجتهد له في إمحاض الرأي الذي نراه ليأخذ منه أو يدع على قدر من اقتناعه أو مخالفته؛ فهذه كلمة أوَطئُ بها ما بيني وبين القراء، ليسيروا إلينا ونسير إليهم في مهاد مذلّل من الرأي والنصيحة. . .
ويعتَدُه قومٌ كثيرٌ تجارةً ... ويمنعُني من ذاك ديني ومنصِبي
الملاح التائه!
أما (الملاح التائه) فذاك هو الصديق الشاعر المهندس (علي محمود طه)، وقد عاد بعد خمس سنوات فألقى على شاطئنا ديوانه الثاني (ليالي الملاح التائه) ثم نشر شراعه ومضى. وقد أحدث ظهور هذا الديوان الجديد - في معرضه الأنيق وشعره القوي الجميل - آثاراً في توجيه أنظار الناس إليه وإلى صاحبه ثم إلى الشّعْر خاصة، ثم اختلف الأدباء عليه بأحاديثهم وآرائهم، ولغوْا لغواً كثيراً في الأغراض التي اشتملتْ عليها صفتا هذا الديوان الثاني من شعر (الملاح التائه). ونحن لن نعرض لشيءٍ مما قيل في ذلك إلا كما يدرج الكلام على أغراضه بالإشارة والتنبيه والبيان على مجاز السياق

والشعر أيضاً
ولأبدّ من أن نعود مرة أخرى للحديث عن الشعر عامةً، ليكون بعض الرأي فيه مدخَلاً للكلام عن (الملاح التائه)، فإن أكثر ما قيل - عن ديوان هذا الشاعر - إنما مرُّده إلى آراء فاسدةٍ في معنى الشعر، وما هو، وكيف هو؛ وإلى الجَهْل بطبيعة الشاعر وفطرته ومن أين تأتي، وأنى تتوجَّه، وكيف تجري به إلى أغراضِها على نِظامٍ لا ينفَكُّ عنه أراد أو لم يُرِدْ
وليس يشكُّ أحدٌ أن الشَّعْر في أصله هو معانٍ يريدُها الشاعِرُ، وأن هذه المعاني ليست إلا أفكاراً عامّةً يشتركُ في معرفتها كثير من الناس، وأنها دائرةٌ في الحياة على صورتها التي تأخُذُها بها كل عين، ويتداولها من جهته كل فِكْرٍ، وأنها - إذ كانت كذلك - ليست شيئاً جديداً في الحياة ولا في معانيها وأوصافها وحقائقها، وإنما تصيُر هذه المعاني شعراً حين يعرِضُها الشاعر في معرضٍ من فّنّهِ وخياله وأدِائه ولفظه، فيجدد لك هذه المعاني تجديداً ينقلها من المعرفة إلى الشعور بالمعرفة، ومن إدراك المعنى إلى التأثُّر بالمعنى، ومن فهم الحقيقة إلى الاهتزاز للحقيقة، فتجد المعنى القريب وقد نقلك الشاعر إلى أغواره الأبدية وأسراره العظيمة وكأنه قد خرج عن صورته التي ضُربت عليه في الحياة السَرّ الأول الذي أبدع هذه الصورة، وإلى الصلة التي تصل ما بين المعلوم إلى المجهول البعيد الذي لا يُرى ولا يلمس
فالشعور والتأثر والاهتزاز هي أصل الشعر، ولا يكون شعر يخلو منها ومن آثارها وتأثيرها إلا كلاماً كسائر الكلام ليس له فضلٌ إلا فضل الوزن والقافية وهذه الثلاثة لا يكتسبها الكلام من المعاني من حيث هي معان معقولة مدركة، وإنما هي فيه من روح الشاعر وأعصابه، ونبضات الشوق الأبدي التي تتنزى في دمه؛ فأيُّما معنًى عرفه الشاعر، وأيُّما صورة رآها، وأيُّما إحساس أحس به، فهو لا يكون من شعره إلا حين يتحول في روحه وأعصابه ودمه إلى أخيلة ظامئة عارية تبحث عن زيها ولباسها من أسلوب الشاعر وألفاظه، ثم تريد بعد ذلك زينتها من فن الشاعر لتفصل عنه في مفاتنها الجميلة كأنها حسناء قد وجدت أحلام شبابها في زينتها وأثوابها. وبقدر نقصان خزائن الشاعر مما تتطلبه أخيلته الظامئة العارية، يكون النقص الذي يلحق العذارى الجميلة التي تسبح في دمه من معانيه
والشعر على ذلك هو فن تجميل الحياة، أي فن أفراحها الراقصة في نسمات من الألحان المعربدة بالحقيقة المفرحة؛ وفن أحزانها النائحة في هدأة التأملات الخاشعة تحت لذعات الحقيقة المؤلمة؛ وفن ثوراتها المزمجرة في أمواج من الأفراح والأحزان والأشواق، قد كُفَّتْ وراء أسوار الحقيقة المفرحة المؤلمة في وقت معاً
وهو على ذلك فلسفة الحياة، أي فلسفة السمو بالحياة إلى السر الأبدي الذي بث في الحياة أسرار المستغلقة المبهمة التي تُرى ولا تُرى، وتظهر ولا تظهر، وتترك العقل إذا أرادها حائراً ضائعاً مشرداً في سبحات من الجمال تضيء فيه بأفراحها كما تضيء بأحزانها، وتفرح بكليهما وتحزن، فرحاً سامياً أحياناً، وحزناً سامياً أبداً
وإذا كان الشعر هو فلسفة السمو بالحياة، فمعنى ذلك أنه النظام العقلي الدقيق الذي يبلغ من دقته أن يكون منطقه إحساساً مسدداً لا يخطئ ولا يزيغ ولا يبطل ولا يتناقض في أسلوبه الفني ونظامه الشعري البديع، وهذا النظام العقلي النابض الذي يتلقف مادة أفكاره من الحياة لا يستطيع أن يشعر أحياناً، ولا يشعر أحياناً، كما قال بعضهم، ولا يستطيع أن يتقيد بزمان ومكان يستوحى منهما الشعر ثم لا يكون هو يستوحي من غيرهما، كما ذهب بعض أصحاب الكلام إلى القول حين ظهر (ليالي الملاح التائه) في شعر الطبيعة المصرية، وشعر الطبيعة الأوربية وما إلى ذلك من فضول الحديث
إنّ هذه الحاسَّة العاقلة المفكرة النابضة في الشاعر تأخذ مادتها من مساقط الوْحي في كل أرضٍ وتحت كل سماءٍ؛ وربَّ خمول أو فِترة تأخذُ هذه الحاسة في موطنها ومنشئها
ومدْرجها ثم تكونُ البلاد البعيدة في مطارح الغُرّبة هي التي تنفُض عنها غبارها وتمسحه حتى تجلوها جلاء المرآة، أعداداً لها لتتلقى صُورها التي تجري في مائها إلى دم الشاعر ثم إليها مرة أخرى، ولا تزال كذلك بين الأخذ والإعطاء حتى ينبثق ماءُ الينبوع من صخرة الحياة الشاعرة
فلا يخدعنَّك ما يقول فلانٌ وفلانُ، فإنْ هم إلا أسماء قد ركبتْ على ألقابها تركيباً مزجياً

على خطأ وفساد، كما ركَبّتْ حضرمَوت وبعلَبك تركيباً مزجَّياً على صحة وصواب
ليالي الملاح التائه
كل هذا الديوان شعْر من شعر (علي طه) بعد رحلتيْه من مصر إلى أوربا في خلال هذه السنوات التي انقضت بعد نشره الجزء الأول من ديوانه وهو (الملاح التائه). وقد كانت هاتان الرحلتان وحياً جديداً في نفس الشاعر وأعصابه وأحلامه، وكانتا تغييراً في حياته عامة وفي أفكاره خاصة، ولم يكن بد إذن أن يجد قارئ هذا الديوان فرقاً بيّناً بين شعر (الملاح التائه) و (ليلي الملاح التائه). وليس هذا الاختلاف بشيء ألبته، فإن شاعرّيته لم تزل هي ما هي في كليهما على نمط لم يختلف، ولكنه نزع في هذا الطَّوْر الجديد إلى السهولة والرَقة ومعابثةِ المعاني والألفاظ بغزل رقيق من عواطفه. وعلةُ ذلك فيما نرى أنه انطلق من قيود مصر في أول رحلته وخرج شارداً يستجلي روائع الحياة الأوربية الزاخرة ببدائع الفن ومعجزات الحضارة والعلم، ونزلَ المنازل المتبَّرجة بفتَنها في عواصم المدن الأوربية، وعبَّ من مُسكرَاتِ الجمال الفطريَّ والصناعَّي البديع الذي تستجيده أناملُ الحضارة الرقيقة العابثة اللاهية، والتي لم تدع للفنَ معقلاً إلا لعبت به واستخرجت كنوزه وتلاعبتْ بها على أصول أخرى غير التي بنى عليها الفن القديم البارع المحكم، وعرضت له الصور التي تفتن الناس بجمالها وتهدمهم بفتنتها، وتقعُ في دمائهم موْقعاً لا تلبث معه إنسانية الإنسان أن تشتمل من جميع نواحيها بلهيب من اللذة والسكر والفرح. . كل ذلك هزَّه وهزَّ أعصابه وألقى عليه من وحيه وتركه يقول من الشعر على السجية غير متكلّف ولا مُنقَّح ولا راغبٍ في الكد والعناء و. . ،، والحنبليَّة الفنية التي تريد البديع، فإذا أدركته طلبت الأبدع، فإذا بلغت تسامت إلى ما هو أبدع منهما؛ لا تهدأ ولا تقرُّ ولا تستريح إلى جميل
كان هذا - فيما نرى - وكانت نفسه الشاعرة المتلقّفة - والتي تهجم بعينيها على أبكار المعاني بنشوة الشباب العِربيد - تتلفت تلفُّت الصائد، تكاثُر الصيد بين يديه، فما يدري ما يأخذ وما يدع، وهو مع ذلك لا يزال يذكر صِغاره وأحبابه وهوى قلبه، ومن يريد أن يصنع لهم حياةً من صَيده؛ فهو يتلفَّت إليه بقلبه حنيناً وذكرى وصبابة. فهذه العواطف الدائبة في تكوين شاعريته، والتي تلونها بألوّانها وتخاريجها، هي التي جنحت به إلى السهولة والرقة والغزل الحُلو بينه وبين معانيه وألفاظه، ومن غير الممكن أن يتقيد الغزل الشعري بقيودٍ تضبطه، وإلا انقلب تكلفاً واستكراهاً وجفوة.
الجندول
وإذا أردت أن تعرف صدق الذي قلنا به من العوامل الجديدة في تلوين هذا الشعر، فخذ هذه الأغنية الجميلة التي ترنَّم بها الشاعر الموسيقي، ثم أعطاها الموسيقيّ البارع (عبد الوهاب) جوّ تغريدها في ألحان هي من شعر الموسيقى. . .
فإن الشاعر حين لعبت به فتن (عروس الإدرياتيك) في كرنفالها المشهور، وَدفِيءَ دَمهُ في أنفاسها الحبيبة المعطَّرة، وفاجأته فتنة من فِتَنِهِ التي عرضت في صبابته. . . أرقَّ فِتنة في أحلى جوّ في سِحر الليل المضيء في أجمل فن الحضارة في أحفل الليالي باللهو والعبث، والضحكات التي تتردد بين أضواء الكهرباء، حتى كأنها أمواجٌ من الضوء تضحك ضحكها - لم يستطيع أن يضبط تلك الأمواج الفرحة المعربدة في إحساسه الشاعر، فبدأ يترنَّم:
أين من عينيَّ هاتيك المجالي ... يا عروس البحر يا حلْم الخيال
أين عُشاقُك ُسُمار الليالي ... أين من واديك يا مهد الجمال
ثم انطلق يصف عاطفته وجو عاطفته وعطر عاطفته، كل ذلك بألفاظٍ غزلةٍ عاشقةٍ، تتنفس أنفاسها من المعاني المرحة، حتى في بعض اللوعة المستكنة وراءَ نفسه، والتي استعلنت في قوله:
(أنا من ضيَّع في الأوهام عمره)
بعد أن قال:
ذهبيُّ الشعر شرقيْ السماتِ ... مرح الأعطاف حُلوُ اللفتات
كلما قلت له: خذ، قال: هات ... يا حبيب الرُّوح، يا أُنس الحياة
كل ذلك والشاعر في مرح ونعمة وخيال وافتتان، وكأنه نسي الدنيا التي ولد فيها كما (نسي التاريخ أو أنسى ذكره). . . ولكنه لا يلبث يتلفت بعد ذلك تلفتاً مؤثراً عجيباً، هو دليل الشاعرية الصحيحة التي اشتمل عليها تكوينه العصبي. . . يقول:

قال: من أين؟ وأصغي ورنا ... قلت: من مصر، (غريب) هاهنا
هذه كلمة النفس الشاعرة في مكانها من العاطفة وفي أقصى مدَّها من ،(غريب)
التأثير، إنه حرف يبكي من الغربة والحنين والذكرى، ولو سقطت هذه الكلمة من
الشعر لسقط كل الشعر ولسقط معه رأينا في العوامل التي عملت في شعر (علي
طه) بعد رحلته إلى أوربا، لو قال: (من مصر) وسكت، أو أتى بذلك الحشو الذي لا
معنى له، والذي يكثر في شعر الضعفاء، لا نسلخ عن الشعر إلى سؤال يتلقاه المرء
من فضولي قائم على طريق السابلة، وجواب استخرجه الفضول واللجاجة. . . ثم هي
بعد ذلك التفات يخيل لك معه أن الشاعر قد رد فقال: من مصر، ثم انفتل بوجهه إلى
مصر، وتلقى دمعة يموّهها بيده ويمسح أثرها بمنديله - في هذا الجو المرح العابث
اللاهي - وهو يقول: (غريب هاهنا)
هذا. . . وقد أخذت هذا الموضوع وحده من القطعة لشهرتها الآن وليتدبر من يسمعها
فإن فيها من أمثال ذلك كثير، مما هو دليل الشاعرية الناضجة التي لا تخطيء معانيها.
ولو أخذت سائر شعره على هذا الأساس الذي كشفنا لك عنه في حديثنا عن الشعر
لوقفت على روائعه التي هي روائعه
محمود محمد شاكر
رسالة الفن
نحو التربية الفنية
هذا أستاذ
للأستاذ عزيز أحمد فهمي
- هل تستطيعين أن تساعديني على ترشيح صاحب ديوان (الجداول) ليكون أستاذاً في
كلية الآداب؟
- ما ديوان الجداول هذا، ومن صاحبه، وأين هو، وما الذي يميزه على غيره حتى تطلب
له أن يكون أستاذاً في كلية الآداب عندنا، وأنت تعرف أن للأستاذية فيها شروطاً، منها،
أن يكون الأستاذ حاصلاً على الدكتوراه؟
- ديوان الجداول هو مجموعة من شعر إيليا أبي ماضي، وهو به يستحق أن يكون
أستاذاً في كلية الآداب، أما الدكتوراه فشهادة يمنحها القارئون الكبار للقارئين الصغار،
ولكن إيليا أبا ماضي لم يعد قارئاً، ولا كاتباً، وإنما هو إنسان ينفذ من هذا الوجود
المحسوس إلى ما بعده، ثم يعود إلى الناس يروي لهم ما رأى وما سمع وما أحس وما
أدرك. . . وهو من كثرة تجواله في آفاق الكون ألم بالكثير من دروبه، وأحاط بالكثير
من طرقه، فهو يستطيع أن يكون رائداً لجماهير من التلاميذ تتبعه، يرشد منهم من
يسترشد، ويوجه منهم من يحار، ويعلم منهم من يرتبك، ويهدي منهم من يضل. . .
وهذا هو عمل الأستاذ. أستاذ الأدب
- هذا عمل الفارغ من حياته المستغنى عن عمره وليس عمل أستاذ الآداب
- ولن يكون الإنسان أستاذاً للآداب إلا إذا فرغ من حياته واستغنى عن عمره، واشترى
بهذه الدنيا شيئاً آخر، هو الأدب. والأدب ليس كما تحسبين كلاماً منمقاً مزوقاً لبعض
الناس قدرة على تخليقه، والبعض الآخر عاجزون عنه، وإنما الأدب تربية نفسية يجاهد
اليتيم في تقويم نفسه بها، وغير اليتيم يسعد بما يربيه عليه أبوه أو أستاذه. واليتامى
مساكين، قليلاً ما يوفقون إلى الهدى وكثيراً ما يفلت زمام أنفسهم من أيديهم
فينطلقون في الحياة ونفوسهم مشردة معربدة تنغمس في الرذيلة حيناً، وتتخبط أحياناً
بين الرذائل والفضائل، ولكنها لا تستقر على فضيلة إلا ما فرضه عليها مجتمع اليتامى
المشردين الذين يحيطون بها، وليس
يفرض هذا المجتمع كثيراً من الفضائل، فهو كمجتمعات المشردين والمشبوهين من
اليتامى والمساكين الذين ترينهم ملقَين في الشوارع. . .
- وهل فرغ إيليا أبو ماضي من حياته حقاً وتوفر على تأديب نفسه، فهو إذن قادر على
أن يؤدب غيره؟ وإذا كان قد فرغ من حياته حقاً فمن أين يأكل. . . وكيف يعيش؟
- إنه يأكل كما تأكل الطير في السماء، ويعيش كما يعيش الحر الكريم؛ منذ سنوات
وسنوات هبط مصر وأراد أن يستقر فيها، فاتخذ لنفسه محلاً يبيع فيه السجاير والدخان
ووقع عليه أنطون الجميل بك فرآه يكتب شعراً في الدكان، فقرأ شعره فأعجبه
فنشره في مجلة كان يصدرها، فقامت قيامة الأدباء والشعراء المصريين عليه

فأوسعوه نقداً، وأوسعوه تجريحاً، وتناولوا ألفاظه ولغته وراحوا يناقشونه في هذه الفاء ما موقعها من الإعراب، وهذه النون لماذا هي مفتوحة وهي في الأصل مضمومة، وهذه الهمزة، لماذا قطعها وهي همزة وصل؟ وتكاثروا عليه، وكان في مصر إذ ذاك أمير للشعراء هو المرحوم أحمد شوقي بك، وكان رحمه الله يستطيع أن يقول كلمة ينقذ بها إيليا من بين براثن هؤلاء الذين ينقدون الشعر بغير ما يصلح نقداً للشعر، وكان رحمه الله يستطيع أن يقول لهؤلاء النقاد: إني أربأ بالشعر أن يعيبه هذا الذي تروون مما يعيب اللغة والعروض والنحو وسائر ما يحصل بالقراءة والدرس، وإني أرفع الشعر فوق هذا كله، فهو حديث النفس والنفس من الله وليس لله لسان مما ننطق به. كان شوقي بك رحمه الله يستطيع أن يقف من إيليا هذه الوقفة ولكنه - رحمه الله - كان مشغولاً بشعره هو وبنفسه هو، وبالملك العريض الذي أرسله فيه الزمن، فلم يشعر مطلقاً بالذي حدث لأبي ماضي، ولم يطق أبو ماضي صبراً على هؤلاء المهاجمين فشد رحاله إلى أمريكا، حيث يتكلم الناس بالإنجليزية، وحيث لا عرب إلا الباحثون عن الرزق، والخارجون من أوطانهم وأيديهم صفر، ثم استطاعوا هناك في أشد معامع الحياة ازدحاماً واصطراعاً أن يجمعوا المال وأن يعيشوا به كراماً، لا ذل يرهقهم إلا الغربة ولا مستعبد يزيحهم عن الأرض؛ وإنما لكل امرئ هناك ما سعى، ولقد سعى أبو ماضي فأنشأ هناك مجلة اسمها السمير ويقولون: إنه أنشأ متجراً للدخان والسجاير أيضاً؛ وراح بعد ذلك يتأمل الدنيا ويرنو إلى الآخرة، ويقيد على الورق ما يتكشف له من الحقائق، وما يلمحه من المبهمات، ويسجل على نفسه بلوغها وقصورها، وخيرها وشرها،

وهداها وحيرتها أفلا يصلح هذا أستاذاً لأدب النفس؟ فإن كان لا يصلح، فمن ذا الذي يصلح؟!

- ولكن هذا الذي رويته من حياته يدل على أنه من رجال الدنيا المغامرين الذين يجرون وراء الرزق والمادة من آسيا إلى أفريقيا إلى أمريكا فكيف تقول إن هذا رجل فرغ من الحياة واستغنى عن مادتها؟

- البلبل يطير من فنن إلى فنن يتلقط رزقه، ولكنه لا يقضي كل وقته في البحث عن طعامه، وإنما يقضي أغلبه في الشدو والترتيل فهما طبعه وقد اختص بهما، وليس الأكل من طبعه إلا كما هو من طبع الخلائق، وليس الشدو والترتيل من خصائص غيره إلا من كان على طرازه من الخلائق. فأبو ماضي لم يجد رزقه في الشام فطار إلى مصر، فوجد فيها الرزق مقدوراً عليه فطار إلى أمريكا، فوجد فيها رزقاً مباحاً طاهراً قد يكون كثيراً وقد يكون قليلاً ولكنه نقي غير محسود، فلا عجب إذا اطمأن أبو ماضي هناك. . . ولكن ثقي أنه يحن إلى الشرق، ولعل أغلب حنينه يهتاج إلى مصر فهو يقول:

وطنان أشواق ما أكون إليهما ... مصر التي أحببتها وبلادي
ومواطن الأرواح يعظم شأنها ... في النفس فوق مواطن الأجساد
حرصي على حب الكنانة دونه ... حرص السجين على بقايا الزاد
بلد الجمال خفيه وجليه ... والفن من مستطرف وتلاد
عرضت مواكبها الشعوب فلم أجد ... إلا بمصر نضارة الآباد. . .

- ولكن هذا شعر يسير المعنى قريب اللفظ. . . أليس له شعر أحلى؟

- له. . . له كل هذا الديوان الذي في يدي، وله غيره. . . وبارك الله لصاحب الرسالة الذي ينشر فيها بين الحين والحين شيئاً من شعره، وكم أريد أن أقول أيضاً بارك الله لوزارة المعارف لو أنها عطفت على تلاميذها وطلابها ويسرت لهم شيئاً من هذا الشعر. . .

- ولكنه لا يزال حياً يرزق، والدولة لا تخلد إلا من فارق الحياة

- فأل الله ولا فألك، فوزارة المعارف تخلد كلام الأستاذ الجارم الموظف بوزارة المعارف، ووزارة المعارف تخلد كلام الأستاذ أحمد أمين عضو لجان وزارة المعارف، ووزارة المعارف تخلد كلام الدكتور طه حسين بك مراقب الثقافة بوزارة المعارف، ووزارة المعارف تكاد لا تلتفت إلا لمن كان في وزارة المعارف، منذ حسنين باشا صاحب كتاب الطبيعة، وعبد الفتاح صبري باشا، وكل ما في الأمر أن الصور تتبدل وتتغير، وأن الكلام يتلون ويتشكل، ولكن الأمر لا يزال كما كان: موظفون يؤلفون كتباً. ثم يؤلفون لجاناً. فتقرر اللجان الكتب. . .

- اخسأ. لا تقل عن هؤلاء الأساتذة الإجلاء إنهم أصحاب أهواء ولا مطامع فهم الأدباء الذين في البلد، وهم الشعراء وهم الكتاب، فإذا لم تأخذ الوزارة كتبهم فأي الكتب تأخذ؟
- إن أساتذتنا هؤلاء هم أساتذة الجامعة، فأحرى بهم أن يوفروا أنفسهم للعلم؛ لأنهم على العكس من إيليا أبي ماضي. . . هو يتاجر في الدخان ليأكل منه وليفرغ للأدب لا يذل نفسه، وهم يتاجرون بالأدب ليأكلوا منه لا يعتزون بأنفسهم، ولا يشكرون الله على ما يسر لهم من وظائف. . .
- ثق أنك مخطئ، وثق أنهم أرفع نفساً مما تحسب، وثق أنهم يتجشمون في سبيل تثقيف البلد ما أسأل الله أن يجزيهم عنه خيراً. . .
- آمين. . . أسمعي أبا ماضي يصف الشاعر:

أتقولون إنه مجنون
أتقولون إنه مفتون
أتقولون شاعر مسكين
كم مليك كم قائد كم وزير ... ود لو كان شاعراً مسكينا
عاش ملتن فلم يكن مذكورا
وهو ميروسْ كالشيخ كان ضريرا
ولقد مات أبن برد فقيرا
أرأيتم كما رأى العميان ... أفلستم بنورهم تهتدونا؟

- هل هو زاهد؟
- نعم، وهو يقول في الزهد:

قيل: أدرى الناس بالأسرار سكان الصوامع
قلت: إن صح الذي قالوا، فإن السر شائع
عجباً! كيف ترى الشمس عيون في براقع
والتي لم تتبرقع لا تراها؟ . . .
لست أدري. . .

- إذن فهو يسخر من الزاهدين. . .
- إنه لا يسخر من شيء مطلقاً وإنما هو متطلع إلى الوجود يتعلم الحكمة فكلما تعلم حكمة تفتقت له من ورائها حكمة، فهو لا يزال كلما تعلم علماً تبين له في نفسه جهل حتى يقول:

إنني جئت وأمضي، وأنا لا أعلم
أنا لغز، وذهابي كمجيئي طلسم
والذي أوجد هذا اللغز لغز مبهم
لا تجادل. . . ذو الحجى من قال إني. . .
لست أدري. . .

- لعله كافر. . .
- الكافر لا يقول للناس:

لو دخلتم هياكل الإلهام
وسرحتم في عالم الأحلام
واجتليتم سر الخيال السامي
وعرفتم كما عرفنا الله ... لخررتم أمامنا ساجدينا

- إذن فهو مؤمن. . .
- ومسلم في مسيحيته، لو عرفتِه لوافقتني على ترشيحه للأستاذية في كلية الآداب يعلم طلابها الإيمان والحكمة شعراً، ويؤدب نفوسهم أدباً، فإذا تعذر هذا أو صعب فلا أقل من أن يعرض على التلاميذ ديوانه.

عزيز أحمد فهمي

رسالة العلم

تضارب في الرأي يؤدي إلى كشف خطير

للدكتور محمد محمود غالي

من الفكرة الشيئية إلى فكرة الأثير - هجرة العلماء الفكرة

الشيئية واعتناقهم الفكرة الحديثة - تجربة (ميكلسون) والأثير
هجر العلماء الفكرة الحديثة وترددهم فيها - تطور يتفتح -
عن تعديل في الميكانيكا النيوتونية - لا تعديل في الضوء

نرافق القارئ في مرحلة من العلوم تضاربت خلالها الآراء، تلك المرحلة التي حاول الإنسان فيها أن يفهم الظاهرة الضوئية، ويتعمق في معرفة كنه (الفوتون)، وهو الذرة التي تتكون منها الأشعة على اختلاف أنواعها، والتي كانت عند (نيوتن) جسيما صلباً، وعند (فرنل) موجة، وهي اليوم عند (دي بروي) جسيم وموجة مستصحبة له، وقد شرحنا للقارئ النظرية الشيئية للضوء التي أسسها (نيوتن) والتي موجزها في أن الضوء مكون من جسيمات صغيرة مقذوفة في الحيز في خط مستقيم وبسرعة كبيرة، وذكرنا أن ظواهر الضوء الهندسي من تكوين ظلال الأجسام عند وضعها أمام منبع ضوئي ومن انكسار الأشعة الضوئية عند اختلاف نوع المادة التي يخترقها الضوء، يجوز تفسيرها بالنظرية الشيئية النيوتونية، وعرضنا للقارئ ظواهر أخرى للضوء مثل ظاهرتي التداخل والاستقطاب اللتين كشف إحداهما أيمكن تفسيرها بالنظرية الشيئية المتقدمة، ويمكن ذلك باللجوء إلى فكرة فرضية، فكرة أثيرية أسسها الرياضي (ويجانز) والمهندس الطبيعي (فرنل) ونذكر للقارئ اليوم أن ظاهرتي التداخل والاستقطاب لم تكونا وحدهما سبباً لهجر الفكرة النيوتونية واعتناق المذهب الأثيري، بل إن ثمة ظاهرة أخرى من أهم الظواهر المعروفة وهي ظاهرة (الحيود) في الضوء يتيسر تفسيرها أيضاً باللجوء إلى فكرة نيوتن، وأمكن تعليلها بالنظرية الأثيرية أو الموجية المتقدمة، وتتلخص هذه الظاهرة في أنه قد ثبت بالملاحظة، عند ظروف معينة، أن الضوء لا يسير في خط مستقيم كما هو المعتقد منذ القدم، بل إن الأشعة الضوئية عند مقابلتها جسماً محدداً بحافة مستقيمة تميل بحالة تدل على حيدها عن مسارها، وتتضح نتيجة ذلك من ظاهرة تشبه ظاهرة التداخل التي تكلمنا عنها

وأمام ظواهر طبيعية لم يكن يعلمها الأقدمون شيد (ويجانز) الهولندي هيكلا رياضياً رائعاً، وقام (فرنل) بتجارب بالغة حد الإتقان وحسابات لا يتطرق إليها الشك، وهجرا، عن عقيدة، النظرية الشيئية للضوء، وأسسا افتراضاً لفهم الظواهر الضوئية موجزه في أن الضوء حادثة أو أمواج وقعت في مادة تملأ الكون بأسره، وهي مادة الأثير التي طالما سمع القارئ عنها في الكتب العلمية البحتة وفي البحوث الفلسفية، والذين يراجعون اليوم منا تلك الحسابات الباهرة لويجانز وفرنل ويعيدون بعضاً من هذه التجارب الرائعة يتجولون في الواقع في هيكل من أجمل الهياكل التي شيدها الإنسان المفكر ويشاهدون ناحية من أبدع مناحي العلم التجريبي، وهكذا كانت ثقة فرنل بالوسط الأثيري الذي افترضه افتراضاً ثقة علمية ذهبت به إلى حد معاملة (الأثير) معاملة الأوساط المادية، وذلك بالقيام بحسابات رياضية حاول أن يعلم منها الدرجة التي يتحرك بها هذا الأثير عندما تتحرك المادة فيه، وقد دلت تجربة فيزو الذي قام بقياس سرعة الضوء في أنبوبة تحمل ماء متحركا على أن سرعة الضوء في اتجاه حركة الماء تختلف عن سرعته في الاتجاه المضاد، وبذلك بيَّن بطريقة تجريبية حركة للأثير توهمها فرنل الذي نظر إليه كمادة موجودة في الوجود تسري عليها قوانينا الطبيعية ونعاملها معاملة ميكانيكية، ولم يصبح الأثير بذلك فرضاً رياضياً فحسب، بل مادة كائنة في الوجود نطبق عليها قوانين: (جاليليه) و (نيوتن) الميكانيكية، وكانت ظواهر التداخل والاستقطاب والحيود السبب في انتصار هذا النوع من التفكير، وفي تأييد نظرية أثيرية موجية يصح أن نسميها هنا لأول مرة: (النظرية الفريجانزية) نسبة لاسمي فرنل وويجانز.

ولكن رغم هذه الانتصارات المتتابعة ظل الأثير وسطاً عجيباً، إذ يجب أن يكون له خواص الأجسام الصلبة بحكم أن الضوء أمواج مستعرضة، وليس أمواج طويلة، وكانت الفكرة في مولد الأثير عن فرض نظري لتفسير وقائع معينة سبباً جعل العلماء ينظرون إليه بشيء من عدم اليقين، ولم يكن هناك لإثبات وجوده وحركته غير تجربة واحدة لفيزو، لا تكفي باعتبارها تجربة واحدة وصادرة من مصدر واحد أن تقوم دليلاً قاطعاً على وجوده

هذا الشك في الوسط الوهمي الذي افترضه العلماء افتراضاً جعل العالم الكبير ميكلسون يقوم بتجربته الشهيرة التي وإن مضى عليها الآن ستون عاماً إلا أن الأثر الذي أحدثته لم يكن بالأمر الهين، وهي التجربة التي أراد أن يعرف منها كيان هذا الأثير، بل يعرف شيئاً عن وجوده أو حركته

لجأ ميكلسون إلى استنباط جهاز يتركب من ذراعين اب اج طولهما واحد وأحدهما عمودي على الآخر، ووضع مرآة في طرف كل ذراع كما هو مبين بالشكل (1) ووضع عند امنبعاً ضوئياً وأرسل منه في الاتجاه اب شعاعاً ضوئياً يصل للمرآة ب وينعكس مرة أخرى إلى امتتبعاً السهمين اب ب ا، كذلك أرسل من اوفي الاتجاه اج شعاعاً آخر يصل للمرآة ح وينعكس إلى اوفق السهمين اح ح ا

وبديهي أنه في الحالة التي لا يتحرك فيها الجهاز في الأثير، فإن الضوء يأخذ الوقت ذاته لعمل الرحلة اب ا، والرحلة اح ا. كذلك في الحالة التي يتحرك الجهاز فيها في الاتجاه اب مثلاً، ويتحرك الأثير في الاتجاه ذاته بنفس السرعة، فإن الزمن للشعاعين يجب ألا يتغير، ولكنا نعرف من تجربة فنرو السابقة أن الأثير يتحرك بحالة ضعيفة في اتجاه الجهاز، وعليه فيجب أن يكون هناك فارق في سرعة الشعاعين، ويدل الحساب على أن الشعاع اب ا، يجب أن يأخذ فترة من الزمن أطول من الفترة التي يأخذها الشعاع اح ا؛ ومن الواضح أنه يجب لنجاح التجربة أن يتحرك الجهاز بأكبر ما يمكننا من السرعة، حتى يكون في الإمكان قياس الفرق بين الحالتين، نظراً لعظم سرعة الضوء، ولا شك أن القارئ يتساءل الآن: أنَّى لنا هذه السرعة للجهاز التي تجعلنا نستطيع أن نقيس الفارق بين سرعته وسرعة الضوء التي تبلغ 300 ألف كيلومتر في الثانية؟

ولكن ميكلسون وجد ذلك في الأرض نفسها، ذلك أن الأرض غير ثابتة، وتسير حول الشمس سيرها الأبدي بسرعة تبلغ 30 كيلومتراً في الثانية، وعلى ذلك، فقد كان على ميكلسون أن يعتبر الأرض ذاتها كجزء من جهازه، ويبحث دون تحريك الجهاز عما إذا كان هناك فارق في الوقت الذي يتخذه كل من الشعاعين

ترى ماذا كانت النتيجة التي وصل إليها (ميكلسون)؟ لقد وصل إلى نتيجة غير منتظرة بل نتيجة عجيبة. ذلك أنه لم يجد أي فارق بين سرعة الشعاعين رغم أن دقة التجربة كفيلة

بأن تظهر أقل من ذلك الفرق. وهكذا كانت تجربة ميكلسون بمثابة ضربة قاضية على وجود الأثير.

ومع ذلك فإن وجود حالة موجية للضوء أمر لا يقبل الجدل وهي حالة تستدعي وجود مادة أثيرية لها خواص الأجسام الصلبة - من ذلك حصلت أزمة علمية عصيبة، فلا المتذهبين بمذهب نيوتن بقادرين على تفسير ظاهرتي التداخل والاستقطاب وغيرهما ولا الآخذين برأي الموجية ووجود الأثير وهم التابعون لفرنل وويجانز بمستطيعين أن يفسروا لنا تجربة (ميكلسون)

وإزاء هذه الصدمة العنيفة كان يجب أن يبحث العلماء عن طريقة جديدة، وقد انتهى بهم البحث بعد وقت ليس بالقصير إلى أن الضوء ليس هو الذي يجب أن يكون موضع التعديل إنما هي معارفنا عن الميكانيكا وعن الحيز والزمن هي التي يجب أن تعدَّل، وكان على العلماء أن يتفهموا الكون وقوانينه بطريقة غير الطريقة النيوتنية، التي اعُتبرت صحيحة سنوات طوال، والتي كانت في الواقع طريقة تقريبية لكي نفهم الدار التي نعيش فيها، ولكنها لم تكن كافية لكي نفهم تفاصيل هذه الدار

هنا ينحني جيلنا أمام معادلات لورنتز التي سنتكلم عنها، وهي المعادلات التي أدمج فيها الزمن في الحيَّز والحيز في الزمن، بل وينحني جيلنا أمام تفكير أينشتاين الذي أفاد من هذه المعادلات فخرج بنا من المأزق السابق، وأفهمنا الكون على صورة غير التي عهدناها له، ولعل القارئ قد أفاد من تتبع هذه الأزمة الطبيعية التي بدأ بتمثيل الدور الأول منها شيخ علماء الأجيال المنصرمة (نيوتن) والتي ظهر في آخر فصولها شيخ علماء الجيل الحالي (إينشتاين)

ولكنا نورد، قبل الدخول في تفسير معادلات (لورنتز) ونظرية (أينشتاين)، ملخصاً عن الضوء كظاهرة كهربائية وعنه كظاهرة مادية، وسيعلم القارئ منها أن الموجات الضوئية ما هي إلا سلسلة تموجات عامة في الكون، تبدأ بموجات كبيرة أطوالها بضعة كيلو مترات، وهي الأمواج الكهربائية أو (الهرتزية) نسبة للعالم (هرتز) والتي نعرف

منها الأمواج الطويلة والوسطى التي تتنقل من مكان إلى مكان متتبعة منحني سطح الأرض ونعرف منها الموجة القصيرة، وهذه الأخيرة تصل من مكان إلى آخر بالانعكاس على الطبقات العليا من
اليونات الجوية
تلي هذه السلسلة من التموجات الموجات تحت الحمراء ثم الموجات المرئية من اللون الأحمر إلى البنفسجي، ثم تلي ذلك الموجات القصيرة غير المرئية، التي تبدأ من الأشعة فوق البنفسجية وتستمر إلى الأشعة السينية بإشعاع الراديوم وبالأشعة الكونية التي كتبنا عنها
وسيتبين للقارئ من استعراض الضوء كظاهرة مادية ما للضوء من ضغط على المادة، وهو الضغط الذي أمكن حسابه وقياسه، كل ذلك يقودنا إلى فكرة النسبية وإلى نظرية الكم نتناولهما قبل أن نتناول موضوع التفتت الذري الموضوع الذي يتطلب الإنسان من ورائه مستقبلاً أرقى مما وصل إليه، ويتطلع إلى نوع من المدنية عجيب، قد يختلف جد الاختلاف عن المدنية التي نستمتع بها اليوم.
محمد محمود غالي
دكتوراه الدولة في العلوم الطبيعية من السوربون
ليسانس العلوم التعليمية. ليسانس العلوم الحرة. دبلوم المهندسخانة
القصص
أمٌّ بلا ولد!
للأستاذ محمد سعيد العريان
كانت خديجة في الخامسة والعشرين من عمرها، أو لعلها قد جاوزتها، وإن كانت تبدو لمن يراها أصغر من ذلك؛ فهي قد نالت شهادة (المعّلمات) منذ سبع سنين؛ فكم كانت سنها يومئذ؟. . . على أن ذلك لم يكن يعنيها كثيراً، ولعلها لم تشغل نفسها يوماً بحساب عمرها؛ وماذا يجدي عليها ذلك وإنها لسعيدة بحياتها التي تحيا؛ فما لها فكر في غد ولا أمل يمتد إلى ما وراء غد!
وهل يشغل نفسه بحساب عمره وما مضى من أيامه - إلا ذو أمل يعيش به من يومه في غده، أو عاشق تتجاذبه لهفة الذكرى وخطرات المنى؟
منذ سبع سنين لم تغير خديجة شيئاً من نظام حياتها، فهي تغادر مدرستها كل يوم قبيل العصر بعد أن تودع تلميذاتها وتلاميذها، لتلقاهم في صبيحة اليوم التالي أشوق ما تكون أمٌ إلى بنيها وبناتها!
وفيما بين مسائها وصباحها لم يكن لها من عمل إلا أن تأوي إلى غرفتها تقرأ في كتاب، أو تشارك في عمل هين من أعمال البيت، أو تخرج لزيارة بعض جاراتها وصديقاتها منذ أيام الدراسة؛ فإذا بدا لها يوماً أن تخرج إلى بعض الحدائق العامة للرياضة، أو تشاهد رواية جديدة في السينما، أو تقصد إلى بعض المشاهد التي يؤمها الناس للتفرج - فلابد لها يومئذ من رفيقات أو رفقاء من تلاميذها الصغار في روضة الأطفال يشاركونها في الرحلة والتفرج!
على أن هذا الحب العجيب الذي كانت تمنحه هؤلاء الصغار لم يكن بلا جزاء؛ فقد كان تلاميذها يبادلونها حباً يفوق ما يمنحون آباءهم وأمهاتهم اللائى ولدنهم!
وما كانت خديجة هي المعلمة الوحيدة في روضة الأطفال؛ فإن سبع معلمات يحملن معها أعباء العمل المدرسي؛ ولكنها هي وحدها - بهذه العواطف الأمومة الصادقة - كانت في عيون أطفالها هي المعلمة الوحيدة. لا جرم كانت خديجة بذلك أسعد زميلاتها وأكثرهن شعوراً بمسرات الحياة!
وغنيت خديجة بدنياها تلك عن المنى والأحلام؛ فما طوعت لنفسها أن تحلم أو تتمنى، ولا هجس في قلبها أن وراء هذه الحياة التي تنعم بهدوئها حياة تتخايل في أوهام كل فتاة في فنون وألوان!
وكان صباح، وجاءها ساعي البريد بخطاب. . .
ونظرت الفتاة في غلافه قبل أن تفضه فأطالت النظر، وكأنما أحست وراءه عينين تنظران إليها نظرة لم تفهم معناها ولا رأت مثلها لذي عينين؛ وقرأت على الغلاف: (الآنسة خديجة. . .) من يكون صاحب هذا الخط؟. . . وترددت برهة، ثم همت أن

تفضه لتعرف ما فيه، ولكنها لم تفعل؛ لقد خيل إليها أن أربع عشرة عيناً تنظر إليها لتعرف قبلها ما في هذا الخطاب؛ إن زميلاتها في المدرسة على مقربة!. . . وتصنعت عدم المبالاة ووضعت الرسالة في حقيبتها وما قرأتها. . .

ولأول مرة أحست خديجة أنها في حاجة إلى أن تبتعد عن أطفالها لتخلو إلى نفسها برهة، وكما تحاول الأم أحياناً أن يبعد عنها أطفالها وهم أحب إلى قلبها لتخفى عنهم بعض أسرار الأمومة، كذلك فعلت خديجة. . .!

وأوت إلى ركن قصي تقرأ رسالتها. . . . . .

(عزيزتي خديجة!

تُرى هل تذكرين؟ أو تعرفين؟ . . .

إن أياماً لا أتمتع فيها بمرآك، ليست من الحياة؛ إن هذا القدر الذي أبعدني عنك إلى حين، قد صدع صدعاً في أيامي!

وفاجأني الفراق وأنا بين غفوة الأمل وصحوة الحلم؛ فلم أودعك يا عزيزتي، ولم أتحدث إليك، وسافرت وما تدرين. . .

تُرَى بماذا تحدثك نفسك الآن يا عزيزتي؟. . . ليتني قريب منك، فأرى، وأسمع، وأعلم. . . بل إنني لأعلمُ علمَ قلبي وإن لم تحدثيني. . . وستعرفين عذري، وتغفرين لي. . .

وسنلتقي من بعد يا عزيزتي فأحدثك وتحدثينني، وأضحك وتضحكين معي حين نذكر هذا الحاضر بعد أن تطويه الأيام في مدرجة الماضي. . .

لست أغفر لنفسي ولكنك ستغفرين لي؛ ويوم يجمعنا القدرُ الذي فرَّق بيننا يا عزيزتي،

ويعود ما كان. . . وأراك. . . ويعود الربيع النضر طلقاً ضاحكا يتهلل. . . يومئذ أقول لك. . . لا؛ لستُ قائلها اليوم، ولن أقولها غداً، سأجعلها رسالة على فم طفل صغير يلثغ بها همساً في أذنك؛ فتضحكين، وأضحك، ويضحك الطفل الصغير كأمه وأبيه وإن لم يعرف لماذا يضحكان. . .!

كيف أنت الآن يا عزيزتي؟ هل رضيتِ وسرّى عنك؛ إن كان كذلك فاكتبي إليَّ لتهدأ نفسي. . .

مضى يومان وأنا في هذا المنأى البعيد كأنهما ليلٌ مطبق ليس وراءه نهار؛ فكيف تمضي الثلاثون؟

ارقبي مطلع الهلال يا عزيزتي فإني أرقبه كل مساء لأعرف متى يحين اللقاء!)

(وأترك قلبي لديك وديعة إلى معاد!)

محبك: كامل

كانت أناملها باردة كالثلج، وكانت شفتها تختلج، وكانت الصحيفة مبسوطة تحت عينيها ولا تكاد ترى؛ وأحست فجأة، وقد بلغت آخر الرسالة، مثل إحساس من يهبط من علو شاهق مغمض العينين إلى واد من أودية الجنة كان مخبوءاً عن عينيه فلما وطئته رجلاه فتّح فرأى. . .

وعادت تقرأ الرسالة ثانية وثالثة، وكل مرة تُجدّ لها فكراً وتوقظ معنى؛ ثم طوت الكتاب برفق وأودعته غلافه، وراحت تفكر. . . وسألت نفسها: (تُرى من هو؟ وأين هو؟ ومتى رآني؟ وأين. . .؟)

وتوزعتها الصور والأوهام، وراحت تكدّ خاطرها، لتذكر وتعاقبت على مخيلتها صور ورسوم، ولكنها لم تعرف. . . أيّ حيرة؟ فتى يبلغ حبها من نفسه هذا المبلغ، فيكتم هواه عنها وعن الناس، ويقنع منها بالنظر على مبعدة وهي لا تدري؛ ويطوى جوانحه على ألم الحب، وبرجاء الوجد، وشقة النوى؛ وهي لا تعرف من أمره، ولا تسمع من خبره، ولا تحس وقع نظرته، حتى إذا أبعدته بعض شئون الحياة عن طريقها، وحيل بينه وبين أن يراها، غلبه الهوى على الكتمان فباح بحبه وأمانيه في رسالة.

أيُّ فتىً ذاك؟ وأين مثله في الشباب؟ يا له من رجل!

وأحست الفتاة بعد فترة، أنها قد غابت كثيراً عن أطفالها؛ فأصلحت شأنها وعادت إليهم؛ ولكن خديجة التي فارقتهم غير خديجة التي عادت. . .

ودق الجرس، وقامت خديجة لتودّع أطفالها وتمضي لشأنها، ولكن أين تذهب اليوم؟ . . .

وأخرجت الرسالة من حقيبتها وأخذت تقرأ. . .

(عزيزتي خديجة!)
إنه يعرف اسمها، على حين لم تكن تعرف اسمه ولا تحس وجودَه؛ بلى، وإنها إلى الساعةِ لا تعرف من اسمه إلا الكلمة الواحدة التي جعلها في ذيل كتابه؛ وكم مرة رآها، وأتبعها عينيه، واستمع إليها تحدّث صواحبها في الطريق، وهي لا تدري .!
وعادت تقرأ:
(وفاجأني الفراقُ وأنا بين غفوة الأمل وصحوة الحلم؛ فلم أودّعك يا عزيزتي، ولم أتحدّث إليك. . . وسافرتُ وما تدرين .!)
وخفق قلبها، وأحست مثلَ إحساس المفارقِ حِيلَ بينه وبين الكلمة الأخيرة؛ وعضت على شفتها؛ واستمرت تقرأ وفي قلبها وجيب، وفي دمها سعار تلهب!
وجلست خديجة في الشرفة في المساء ترقب مطلع الهلال وتحصي ما بقى من ليالي البعاد!
تغيرت حياة خديجة بعد ذلك اليوم؛ فكأنما هي تعيش في دنيا غير الدنيا التي عرفتها منذ كانت؛ وتضاعف إحساسها بالحياة مذ عرفت أن وراء اليوم غداً، ورأت في عيون أولئك الصغار الذين تعيش معهم نصف حياتها - معاني جديدة لم ترها في عيونهم من قبل؛ إذ كملت في نفسها معاني الأمومة حين بزغ في قلبها الحب. وعمر ليلها بالأحلام!. . .
ولمحت طفلاً يهمس في أذن رفيقه؛ فاشتاقت أن تسمع رسالة على فم طفل صغير يلثغ بها همساً في أذنها فتضحك ويضحك شخص ثان!. . .
ووسع خيالها ما لم يكن يسع!
وتعاقبت الأيام، والأحلام تطاولها وتمد لها. . .
ولما خلت إلى نفسها في غرفتها بعد أسبوعين من تلك الرسالة، اعترفت لنفسها بصوت مسموع أنها تحبه، وأنها تكاد تعرفه لو رأته. . . بل إنها لتعرفه يقيناً لا شبهة فيه. . . هكذا زعمت وهي خالية إلى نفسها تحدثها!
وارتسمت في خيالها صورة كاملة للرجل الذي جاءتها رسالته ولم تره قط، ورسمت لنفسها صورة أخرى من خيالها يوم تراه فتعاتبه ثم تصفح عنه!
وبقى يومان على مطلع الهلال. . . . . .
وكانت واقفة في الشرفة تستروح َرَوْحَ الربيع، حين سمعت رنين الجرس. . . وكن ثلاثاً من صديقاتها؛ وجلسن وجلستْ معهن في غرفة الاستقبال. ومضى الحديث يتنقل من فن إلى فن إلى فنون. . .
وقالت واحدة لجارتها: (متى زفاف أخيك؟)
قالت: (لقد أذكرتني أمراً. . . فقد أرسل أخي رسالة إلى خطيبته غداة سفره فلم تجبه؛ فغضب وكتب إليَّ يشكوها؛ وذهبتُ أزورها أمس فإذا هي غضبانة كذلك، تشكو إلى أن أخي لم يكتب لها منذ سفره. . . أرأيت. . .؟)
واعتدلت خديجة في مجلسها وقالت: (عجيبة! تقولين إنه كتب إليها فلم ترد؛ ففيم غضبها؟)
قالت: (هنا المشكلة؛ فإن رسالة كامل لم تبلغها!)
واختلجت خديجة، وهجس في نفسها هاجس، وأردفتْ صديقتها: (وبذلك كتبت إلى أخي ليعرف الحقيقة!)
واختلجت خديجة ثانية وقالت: (أتعنين. . .؟)
قالت الفتاة: (أعني أن رسالته لم تصل إلى خديجة. . .!) . . .
ووضحت الحقيقة كاملة لعيني الفتاة، وعرفتْ، واستيقظت من الحلم الرائع الذي عاشت منه عُمراً سعيداً في أيام. . .
ونهضت متثاقلة إلى غرفتها لتفتح حقيبتها فتعود بالرسالة التي ضلت طريقها إلى صاحبتها لتضل هي بها. . . ثم دفعتها إلى صديقتها وهي تتمتم معتذرة. . . وتهاوت على مقعدها خائرة!
وصفا ما بين الحبيبين وفاء قلباهما إلى الرضا، وتحطم قلب ثالث . . . . . .
ولما بصرتْ بهما خديجة بعد أيام يمشيان ذراعاً إلى ذراع، أتبعتهما عينيها في ألم ولهفة، ثم دارت على عقبيها، ورجعت من حيث أتت

وعادت إلى أطفالها الذين كانوا، تلتمس بينهم العزاء والسلوى؛ فما وجدتْ أطفالها ولكن
أطفالَ الناس!
واستنجدت أمومتها، فإذا أمومتها التي كانت عدتها من قبل في تأليف هؤلاء الصغار - هي أمومة الأثِر الغَيران الذي يتشهى ولا يجد، ويرجو ولا يجد سبيلاً إلى تحقيق الرجاء!
ونظرت، فإذا طفلٌ يهمس في أذن رفيقه، فابتسمت، ثم قطبت، ثم مدت يدها إليهما بالعصا!
وهم طفل أن يناديها، فأخطأ النداء ونطق على عادته: أمي!
فلوت وجهها لتخفي عن أطفالها دمعة!
وأحس الصغار إحساس الطفولة الملهَمة فداروا بها يسألونها عما بها محزونين وفي كل عين دمعة!
ونظرت ثانية، فابتسمت وسُرّى عنها؛ ثم ضمت أطفالها إلى صدرها وهي تتمتم:
(لا عَليَّ يا أحبّائي ما دمتم معي! أنتم بنيّ وبناتي، وأنا لكم أم، أم بلا ولد!)
محمد سعيد العريان
البريد الأدبي
عام الفيل وميلاد الرسول
كتب أستاذ فاضل بتوقيع (قارئ) كلمة في باب البريد الأدبي من العدد 350 من الرسالة، جاء فيها عدة أسئلة إليَّ بخصوص بعض ما استشكل عليه فهمه في مبحثي (عام الفيل وميلاد الرسول) المنشور بالعدد 348 من الرسالة. والذي أراه أن الروم (البيزانس) كانت معرفتهم ببلاد العرب نظرية، ومن هنا كانت الخطة التي وضعها إمبراطور هم جوستنيان مع قواد جيشه بارعة، كخطة تجري على خريطة الشرق الأدنى. فقد كان هو سيقوم بمهاجمة تخوم فارس المتصلة بحدود إمبراطوريته في الوقت الذي يتعرض فيه حلفاؤه الأحباش بقوات جسيمة من الجنوب الغربي لفارس، فيضطر الفرس أمام هذا الهجوم المزدوج أن يقسموا قواتهم، فيخيف مجموعهم أمام الروم، ويتمكن هؤلاء من ضربهم الضربة القاصمة التي تقضي على نفوذهم خارج بلادهم
وهذه الخطة لو رجعت بها إلى (الخريطة) لوجدتها سهلة، تدل على براعة؛ ولكن كل قيمتها تضيع حين تخرج للتطبيق، فتصطدم بعالم الواقع، لأن الوضع الاستراتيجي لفارس إزاء الحبشة لا يجعل مجالاً لهجوم كبير عليها، سواء عن طريق البحر بالتعرض للخليج الفارسي، أو عن طريق البر بمهاجمة التخوم الفارسية من جهة العراق العربي. ففارس تبعد عن الحبشة بحراً مسافة تتراوح بين 2000 و2500 كيلومتر، كما أنها تبعد مسافة 1000 كيلومتر وأكثر براً من اليمن قاعدة الأحباش في بلاد العرب. ونجاح حملة عسكرية على فارس تهاجمها من جهة البحر، تحتاج على أقل تقدير إلى مائة ألف مقاتل، وبالتالي إلى أكثر من ألف سفينة تنقلهم إلى الشواطئ الفارسية. ولم يكن الروم ولا الأحباش ولا الاثنان مجتمعين يمتلكون مثل هذا الأسطول الضخم في البحر الأحمر والمحيط الهندي. ومن هنا كانت فكرة مهاجمة فارس بحراً غير ممكنة.
ولا تناقض في هذا القول مع القول بنقل الروم بأسطولهم الصغير في البحر الأحمر قوات الأحباش إلى اليمين، وهي قوات لم تزد على بضعة آلاف تقدمت لسواحل اليمن واحتلتها، وبقيت تنتظر تجريدات وإمدادات أخرى، كان هذا الأسطول الصغير يقلها من الحين للحين، من الساحل الإفريقي المواجه لليمن، إلى اليمن. ولا شك عندي أن اليمن لو كانت متحدة، ولو لم يكن النزاع يأكلها
والصراع على أشده بين أقبالها وبينهم وبين مليكهم، لما نجح الأحباش في فتحها والاستيلاء عليها بقوات صغيرة. وفي هذا حل للأشكال الثاني الذي استشكله (قارئ).
أما نجاح الهجوم الحبشي برًّا، فقد كانت تضاريس الجزيرة لا تجعله ممكناً؛ والأحباش كانوا يعرفون هذا لدرايتهم بشؤون الجزيرة من الوجهة العسكرية عن طريق التجارب، إذ كانوا يجردون التجريدات العسكرية على نجران بين الحين والحين إخضاع القبائل الثائرة، ومن هنا كانت الصعوبات التي يلقونها مضرب المثل. فلا عجب إذا كانت فكرة الأحباش أقرب إلى الواقع من فكرة الروم، رغم تفوق الروم عليهم في المعارف والأفكار. ولا يبعد أن يكون الروم لا يجهلون هذه الصعاب، ولكن الحرب التي طالت

بينهم وبين الفرس، جعلتهم يتعلقون بالأوهام والخيالات علّها تأتيهم بمخرج مما هم فيه. وهذا الموقف تجد له شبيهاً اليوم في الأحلام التي تداعب رأس هتلر، في إمكان مهاجمة حلفائه الروس الهند وضربهم إنجلترا فيها، مع أن هذا الحلم دون تحقيقه من الصعوبات مالا يغيب على أحد، والهنود يعرفون اليوم استحالته، والألمان تدفعهم الرغبة لتحطيم بريطانيا لتصوره، بل وتصور نجاحه. وهذا لا يضعف بأي حال من الأحوال من ثقافتهم وعلومهم التي جعلتهم متفوقين على معظم أمم الأرض. فإذا وضعنا هذا موضع النظر فإن الإشكال الأول يزول من نفسه، خصوصاً إذا عرفنا أن معنا حكم التاريخ الحاضر وليس الماضي

بقى أن الفاضل (قارئ) لاحظ أنني قلت في صدر بحثي أن بر وكوب اليوناني تكلم عن تعرض الأحباش للحجاز بتحريض الروم، مع أن الأحباش لم يكن قصدهم التعرض للحجاز بل مساعدة الروم. وهذا صحيح، ولكن كما قلت (ص451 عمود2 من العدد 348 من الرسالة) إن إلحاح الروم على النجاشي اضطره أن يأمر عامله على اليمن بالتحرك شمالاً ومهاجمة التخوم الفارسية، ولما كان الطريق الطبيعي إلى هذه التخوم يمر بأرض الحجاز، فإن القوات الحبشية قد ابتلاها الله بالجدري الذي فتك بجندها فاضطروا إلى الرجوع والاعتذار للروم عن تقديم المساعدة إليهم. وتكون بذلك حملة مساعدة الروم وقفت عند حد التعرض للحجاز، ولم تتجاوزها إلى ما بعدها، فاتخذت في الظاهر شكل حملة على الحجاز، وكان العنصر المحرض فيها الروم، بدون أن يكون الغرض منها الحجاز نفسها في حال من الأحوال. وكان يحسن بقارئ أن يراجع نصوص بر وكوب وشروح نولدكه

وكأتاني وملاحظاتي على هذه الشروح في المصادر التي أثبتها في هوامش البحث، وفيها سيجد أن بر وكوب يقدر أن الأحباش بتحريض الروم، حاولوا مساعدة جو ستنيان بمهاجمة فارس، غير أن محاولتهم وقفت عند حد الحجاز فلم تتعدها، وهذا هو تفسير الكلام، وليس فيه تناقض ولا تضارب مع ما يجيء بعده

إسماعيل أحمد أدهم

أبيات في ديوان إسماعيل صبري ليست له

في ديوان المرحوم إسماعيل صبري باشا الذي طبعته ونشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر مقطوعة في وصف النيل وردت في صفحة 130 منسوبة إلى الشاعر وهي لابن خروف النحوي المشهور نظمها حينما وفد إلى مصر ورأى نيلها الميمون.

قال الأستاذ الباحث الشيخ محمد الطنطاوي المدرس في كلية اللغة العربية في كتابه (نشأة النحو) صفحة 111: ومن شعره (يعني ابن خروف أبا الحسن الأشبيلي المتوفى سنة 603) في وصف نيل مصر:

ما أعجب النيل ما أحلى شمائله ... في ضفتيه من الأشجار أدواح

من جنة الخلد فياض على ترع ... تهب فيها هبوب الريح أرواح

ليست زيادته ماء كما زعموا ... وإنما هي أرزاق وأرباح

والمقطوعة برمتها موجودة في كتاب (بغية الوعاة في طبقات النحاة) للسيوطي المتوفى سنة 911هـ

فننبه اللجنة الموقرة إذا قامت بطبع الديوان مرة أخرى أن تلتفت إلى تلك الحقيقة.

زكريا علي عبد الله

كلية اللغة العربية

وفاة الأستاذ المستشرق مرجليوث

نعت أخبار لندن في الأسبوع الماضي المستشرق الإنجليزي المشهور الأستاذ مرجليوث.

وقد تلقى علومه في جامعة أكسفورد وتولى تعليم العربية فيها من سنة 1889. وقد نشر كتباً عربية هامة، منها معجم الأدباء لياقوت، كما نشر رسائل أبي العلاء مع ترجمتها إلى الإنجليزية. ونشر آثاراً عربية مختلفة تاريخية وشعرية، منها قطعة بردى عربية كانت في مكتبة أكسفورد. وألف في مشاهد أورشليم ودمشق كتاباً، وكتاباً آخر بالإنجليزية في السيرة النبوية

والأستاذ مرحلبوث من علماء المستشرقين الأقلاء الذين يعتز أهل العربية بما أدوا إلى

لغتهم
نشر المودة بين العالم
ألقى الأستاذ كاتسفليس وكيل جمعية (الأصدقاء في العالم) محاضرة في قاعة (بابازيان) بالإسكندرية استهلها بقوله: إن من يدقق النظر في العالم يدهشه أمران: أولهما تعدد أسباب الموت والفناء من جراء الأعراض الطبيعية مثل البراكين والزلازل والعواصف والأمراض والوحوش المفترسة وغيرها. وثانيهما: ثبات الحياة وتغلبها على عوامل الفناء. ومما يلفت النظر أن ذوات الأجسام الضئيلة كالنمل والذباب تجد أسباب معيشتها على الرغم من وجود أعداء لها أكثر منها قوة وبطشاً
ويتحقق هذا أيضاً في الحياة الاجتماعية، إذ أن كثيراً من ضعفاء الأجسام والعقول يجدون طرق المعيشة إلى أمد طويل، في حين أن المتعلمين وأقوياء الإرادة يصعب عليهم أحيانا أن يجدوها
وهكذا، فإن الأمل لا يمكن ملاشاته من قلب الإنسان. وقد شوهد في جزيرة صقلية وغيرها، حيث قضت الزلازل على مئات الألوف من السكان، أن الذين ظلوا على قيد الحياة منهم سرعان ما أعادوا بناء منازلهم في الحال، وعلى مقربة من البركان الذي كان سبب الكارثة. وهذا ما حدث أيضاً في بلاد الصين واليابان وسواهما
ثم استطرد المحاضر فقال: إن الذي نستخلصه من ذلك هو أن قوة الحياة تتغلب على القوى الأخرى المضادة لها، وأن الأمر يجري على هذا النمط في المجتمع الإنساني، فإن قوة المودة ستنتصر في النهاية، على الرغم من وجود أسباب الخصام والشرور والحروب والمنازعات. على أنه يجب بث هذه الفكرة، فكرة المودة والمصافاة، وتمهيد الطريق لها
ولهذا الغرض قد تأسست (جمعية الأصدقاء في العالم)، وجمعيات أخرى مماثلة لها وقال: إن كثيراً من الناس يحبذون فكرة جمعية (الأصدقاء في العالم) ولكنهم يقولون بأن تحقيق أمانيها مستحيل، لأن الناس كانوا منذ بدء الحياة وعلى تعاقب الأجيال في خلاف وحروب مستمرة
ولكننا نؤكد أنه ما دامت الإنسانية قد فازت على الطبيعة، وحققت التقدم المادي بالاختراعات والاستكشافات: كالطيران والإضاءة الكهربائية والراديو وغيرها، فلا شك في أنها جديرة بتحقيق التمدن الأدبي وهو الأهم، ولهذا السبب، أي لكونه الأهم، فإنه سيستغرق وقتاً أطول مما استغرقه التمدن المادي، إذ أنه يستلزم كفاح النفس ضد شهواتها وميولها. وهذا الكفاح صعب على الطبيعة البشرية، ولكنه ليس من المستحيل. والبرهان على ذلك وجود كثير ممن فازوا وتغلبوا على ميولهم الأولى كالغضب والبخل، وأصبحوا بكفاحهم الداخلي ذوي حلم وكرم
وانتقل المحاضر إلى القول بأن المساعي لم تنجح حتى الآن في نشر لواء السلام، لأن الداعين إليه يريدون تأسيسه على الماديات فقط لا على ما تكنه الصدور، أعني على القلب
ثم ختم محاضرته بقوله:
إذا سقط رجل في الشارع مصاباً بصدمة سيارة وشهده جمع من المارة، ألا يتهافتون) (لمساعدته شفقة عليه دون أن يعنيهم مذهبه أو جنسه أو لأي حزب سياسي ينتمي؟
فهذا يدل بلا شك على أن هناك شعوراً مكنوناً في صدر الإنسان، وفي أعماق قلبه يمكن بوساطته التفاهم، وإيجاد المحبة بين الجميع. ذلك الشعور هو الأساس الذي يجب أن ينشأ عليه العالم الجديد الذي تسعى إليه جمعيتنا، ذلك هو عالم المودة والوفاق والرقي الأدبي والروحي، أي التمدن الحقيقي
وإذا اعترض أحد قائلاً: (ما هي فائدتي الشخصية في السعي لإيجاد المودة بين الناس كما تقترحه على جمعيتكم؟) لأجبته قائلاً: (لأنك لو حققت السلم في الوسط الذي أنت فيه لعرفت ما هي نفسك التي تجهلها الآن، ولوجدت في أعماقها ينبوع الحياة والسعادة التي لا تزول)
نقد وتصويب
تحت هذا العنوان لفت نظري الأستاذ الفاضل أبو الفضل السباعي ناصف، إلى بيت في

قصيدة الذكرى ندَّ عن الوزن المعروف، وأبى إلا أن يمعن في كرمه فأزاح علة الشعر وأصلح زيفه.
وعذري أنني مع دراستي الوافية للعرض لا أعتمد عليه بتاتاً في الوزن، بل أستشير أذني مساوقاً النغمات الموسيقية، وهي حال قد يضل معها الإنسان أحياناً وبخاصة إذا كان قد نال منه الجهد
وإني لأشكر للأستاذ جميل ثنائه وجم أدبه ورقيق إرشاده وبارع علاجه، والسلام عليه ورحمة الله
علي الجندي
رأي الأستاذ النشاشيبي في نهج البلاغة أيضاً
سيدي الأستاذ الجليل محمد إسعاف النشاشيبي المحترم
تحية العروبة والإسلام
أما بعد فقد تفضل الأستاذ الكبير صاحب الرسالة الهادية المهدية فأدرج لي في (البريد الأدبي) من العدد الـ 346 كلمة صغيرة رجوته فيها نشر ما في تضاعيف كتابيكم الثمينين: (الإسلام الصحيح، وكلمة في اللغة العربية) مما يخص (نهج البلاغة)، لأن الكتاب الأول ممنوع في العراق، والكتاب الثاني نادر الوجود عندنا وذلك تطميناً لرغبتنا الصادقة في الاطلاع على رأيكم في (النهج)
وفي نشر الأستاذ (الزيات) لكلمتي دون مقالتكم دعوة ضمنية لحضرتكم إلى تلبية طلبنا بنفسكم، فأنتم صاحب المقالة ولكم الحق الأول في نشرها وعدمه
وقد صدر بعد العدد الـ 346 ثلاثة أعداد ولم تُتْحَف بمقالتكم، كما لم نتلقّ من حضرتكم كلمة في الجواب على رجائنا
وهذا يحملنا على التساؤل: تُرى لماذا امتنع أستاذنا الجليل العلامة النشاشيبي عن نشر مقالته في (النهج)؟
هل تراءت له جوانب جديدة في التحقيق - وهو هو المحقق المدقق الثبت الأمين - تنسف، أو تلطف من حدة تلك المقالة فلم يشأ أن يدوس على وجدانه العلمي فينشر رأياً في
مسألة خطيرة لا يؤمن به - الرأي - الإيمان كله.؟
أم هل خشي النقد - ونريد من النقد هنا النزيه الخالص لوجه العلم والحقيقة لا يدلف إلى سواهما - يطلع به عليه بعض علماء العراق بعد أن يكونوا قد وقفوا على مقالته؟
إن كانت الأولى: فإن واجب العلم والإخلاص له يحتمان على حامله ألا يتخلف لحظة في نشر ما يتوفق إليه من تصحيح أو تنقيح لآراء خطيرة سبق أن أذاعها وبسطها إلى الملأ من الناس، وأديب العربية الفذ الأستاذ النشاشيبي، والحمد لله، من علمائنا الذين لا يدعون الكمال - إذ الكمال لله وحده - ويعترفون بما قد يقعون فيه من خطأ عن غير عمد (بالطبع)، والذين لا يبخلون قط في الإفاضة من علمهم الغزير بأسلوب هو غاية في الروعة والتواضع وكرم النفس، وقراء الرسالة المدمنون على حرثها والإفادة منها يعرفون جيداً هذه الخلة في أستاذنا الجليل (صاحب التواقيع المستعارة العديدة)
وإن كانت الثانية: فإن عهدنا بالنشاشيبي - ذلك الأديب الألمعي الفحل الصريح الشجاع المرفوع الرأس - لا يخاف في الحق - الذي يؤمن به - لومة لائم، أو نقد ناقد، أو تحامل جاهل
فكيف إذن نوفق يا أستاذ بين هذا وذاك؟؟
وكيف نفسر عدم إجابتكم لرغبتنا الشديدة في نشر مقالتكم الخطيرة القيمة عن (نهج البلاغة)، في مجلة العروبة والإسلام المفضلة (الرسالة) الغراء؟؟
لعلنا نحظى بالجواب. . .
مشكور ألا سدي
عضو جمعية الرابطة العلمية الأدبية في النجف الأشرف
في رأي سيدة فاضلة (وحي الرسالة)
سيدي حضرة الكاتب الألمعي الأكبر الأستاذ الزيات:
كبرت مكانتكم الأبوية في نفسي، فهي لك فيها ولاء وعلى لساني دعاء. . . وبعد، فقد خرج سفرك القيم، وقرأه كل المعجبين به وبك إلا التي كان يجب أن تكون أول من

تقرؤه، ولكن حظي السعيد أبي حرماني التمتع بحكمة البليغة، فقرأت منه ما قرأت، وإذا بي بين (وحي
الرسالة)، وقد جاء طرفة هي في معانيها طرف عِدّة وتحفة في مجاليها تزداد على الزمن طرافة وجدّة. وإذا به خرج مخرج صدق في هذه الفترة التي ندر فيها من يعالج أدبنا واجتماعياتنا، وفتر وحي القرائح الخصيبة في دقائقها، وشحت الملكات المجيبة بأسرارها، فكان كالمنبهة لأهل البصر بهما معاً، والحذاقة فيهما أن يشحذوا همتهم من كلالها، ويبرئوا ذمتهم من تبعة إهمالها، ويدأبوا دأبهم على خدمتهما، تارة بالتأليف يراجعون به ما انقطع، وأخرى بابتكار الجديد من عوامل النهضة بهما
وقصارى القول أنك فيه لم تدع غاية في التحقيق إلا ابتكرتها، ولا نهاية في التدقيق إلا استبقتها
ولقد عبرت كتابك هذا عبرة، وجمعته لفظاً ومعني بنظرة، فإذا لمحات من التحقيق لفن الذوق الأدبي تطبع على غراره الملكات فيكون فيها بلاغة فوق البلاغة، وبياناً أسمى من البيان
فلك الشكر المثنى كفاء ما جهدت في عملك، والله المسئول أن ينفع به قارئيه ويكثر في المؤلفين من أمثالك بمنه ويمنه وتوفيقه والسلام. . .
المخلصة وداد صادق عنبر
ذكرى الشاعر المصري إسماعيل صبري باشا
فكر قسم المحاضرات بجماعة الإخوان المسلمين بالمنصورة أن يحيي ذكرى الشاعر المصري الجليل (أستاذ الشعراء) المرحوم إسماعيل صبري باشا بمناسبة ذكرى وفاته في مارس سنة 1923
ورغبة في أن يكون للحفل من الجلال: بما يتناسب مع عظم الفقيد العظيم لهذا نتوجه إلى أبناء الدقهلية عموماً وشعرائها وأهل العلم والفضل فيها أن يكتبوا باسم (الأستاذ إبراهيم عبد الوهاب) الإخوان المسلمين ـ المنصورة. بما تجود به قرائحهم من قصائد أو بحوث أو أفكار ليتسنى للجنة التي ستجتمع بعد خمسة عشر يوماً أن تقرر منهج الحفل وموعده ثم ندعو حضرات الأدباء والشعراء لإلقاء كلماتهم
ولنا كبير الأمل أن نجد للربيع الذي نستقبله والذي كان الشاعر الفقيد خير لسان له الأثر
المرجو.
والله أكبر ولله الحمد.
الكتب
نشأة النحو
تأليف الأستاذ محمد الطنطاوي
بقلم الأستاذ محمود مصطفى
هذا أول كتاب من نوعه فيما أعلم؛ إذ قد جرت العادة في الكتب التي تؤرخ فيها العلوم والآداب، أن يشغل الحديث فيها عن كل فن أو علم بضع صفحات يلم فيها المؤلف بمجمل من تاريخ ذلك العلم أو الفن. فأما أن يملأ الحديث عن علم واحد كتاباً تصل صفحاته إلى الخمسين بعد المائة من القطع الكبيرة فذلك ما لم نعهده من قبل أن يخرج إلينا الأستاذ الجليل والعالم المفضال صاحب الفضيلة الشيخ محمد الطنطاوي المدرس بكلية اللغة العربية كتابه (نشأة النحو)
والحق أن هذه التسمية (نشأة النحو) تسمية يتجلى فيها التواضع العلمي تمام التجلي فالكتاب ليس عن نشأة النحو فحسب ولكنه يتناول نشأته ودروجه ثم شبابه وكهولته ثم شيخوخته وهرمه وليس ذلك في قطر واحد من الأقطار العربية، بل هو حديث مفصل من كل هذه الأطوار في كل قطر من الأقطار. حديث يتناول المذاهب واختلافها وأسباب نشوئها وعلل تمايزها وينوه بالأعلام من رجالها وما كان لهم من آثار بارزة في خدمة علمهم وتجلية غامضة وتسهيل سبله
قد يتناول الباحث في تاريخ العلوم والآداب دراسة علم أو فن لم يدرسه دراسة وافية مستوعبة ولم يكن له به صلة وثيقة، فيكون همه جمع ما كتبه الكاتبون من ذلك العلم وترتيب أقوالهم بما يملك من قدرة على التقسيم والتبويب، فيخرج عمله معجباً من يطلع عليه، مرضياً من يريد الوقوف على تدرج هذا العلم وتسلسل أطواره، ولكنه مع

ذلك لا يستطيع أن يكشف عن أسرار العلم كما يكشف عنها عالم مارسه ودرس كتبه وألم بمسائله وأطال مناقشتها ووازن بين أقوال العلماء فيها، وتكونت له ملكة الحكم وبيان الصحيح الجيد من الزائف المبهرج. وذلك شأن مؤلفنا الفاضل في هذا الكتاب.

فهو إذا وازن بين قولين رأيت الحجة في قوله واضحة المحجة، والبرهان يدعم البرهان؛ كالبنيان يشد

البنيان. وكذلك من فضل العالم الذي يؤلف لعلمه أن ترى أثر الاجتهاد ظاهراً في بحثه

فهو يضيف إلى أقوال السابقين ما يصبح مادة جديدة في البحث، والفضل في ذلك

راجع إلى هداية الفكر الصائب والذهن الواعي لمسائل العلم ومباحثه المتشعبة

وفي هذا الكتاب نجد الأستاذ الطنطاوي ظاهراً موازياً تمام الموازاة لآثار السلف الذين نذكر لهم صنيعهم بالشكر، فقد ذكر المؤلف حفظه الله كثيراً من مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين وتلك مسألة ألف القدماء فيها الكتب وأحصوا فيها كل ما كان من ذلك بين أهل المذهبين، ولكن المؤلف حفظه الله لم يشأ أن يكون ناقلاً فحسب بل إنه

وازن بين المذهبين وكانت له بينهما جولة رجح فيها بحق مذهب البصريين على الكوفيين داعماً قوله بالشواهد الصحيحة والعلل المعقولة فكان الناقد الألمعي والحكم الرضي. كذلك نراه يعرض لأثر البغداديين أو المغاربة في علم النحو فيجمع من آرائهم

التي اشتغلوا بها، ما تفرق في ثنايا الكتب مما لم يعن أحد قبل الشيخ الطنطاوي

بجمعه وضم شتاته، فهذا مظهر من مظاهر الاستقلال في التأليف نذكره لصديقنا بالإعجاب الفائق

وبعد فكتاب (نشأة النحو) سجل واف لتاريخ هذا العلم منذ فكر في وضعه الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه إلى أن انتهى المتأخر ون من تنسيقه وتبويبه فلم يتركوا بعدهم مجالاً لقائل إلا أن يكون في مثل فضل الأستاذ الطنطاوي الذي أرخ لدولة النحو من بدئها إلى ختامها تاريخاً لم يغادر من أمرها صغيراً ولا كبيراً إلا أحصاه، فالله يتولاه ويمنحه على هذا الجهد المشكور أتم سرضاه وأجزل نعماه.

محمود مصطفى

المدرس في كلية اللغة العربية

العدد 353 - بتاريخ: 08 - 04 - 1940

خواطر يثيرها سائل

للأستاذ عبد المنعم خلاف

إلى السائل المجهول في بيروت

أحسب أن ما عندك من العلم والرأي كفيل أن يردك إلى الاطمئنان متى حرصت على

أن ترى دائماً بدهيات الحياة ولا تنساها، وعلى ألا تترك النظرات الفلسفية الشاردة تقودك إلى الخروج عن حدود الواقع العملي الذي لا نرى غيره في الحياة متسلطاً على عقول الناس.

إن النظرات الأولية للحياة، هي التي تفرض علينا الإيمان، فإذا جاوزناها، لابد أن يكون لنا من القدرة على الرجوع إليها ما يضمن لنا الاعتصام بصخرة النجاة والطمأنينة على الحياة وقيمتنا فيها.

وينبغي لرجل الفكر أن يتذكر دائماً أن إنكار وجود الله، أو القيمة السامية لحياة

الإنسان هنا، أو المصير السامي لحياته الأخرى هناك: معناه تخبيل العقل وتشريده.

ولئن كان في الإثبات بعض الإشكال عند من لم يتصل بأصول الحياة، ففي الإنكار كل الإشكال.

وأمامك فرصة من التسامح المطلق لتوازن بين فكرتي الإثبات والإنكار؛ وأنت مجرد من أي تأثير نحو إحداهما، لترى النتائج العملية لكل منهما.

وعلى هذا، هب أن كل ما في نفسك من الإيمان تحول إلى كفر ونكران، وكل ما في

خلقك من البراءة والطهر تحول إلى نجس وعهر؛ أفتتخيل أنك واجد الطمأنينة

والسعادة ووضوح الحياة بعد هذا التحول؟ لا شك أن مثلك يجيب: كلا. . . ذلك لأن الكفر المبني على فكر، ليس معه طمأنينة ولا استقرار على شيء، بل هو في ذاته كل

القلق وكل الضياع الذي يجعل الإنسان في الحياة كطائر في قفص يرى قضبانه

محكمة متينة، ومع ذلك يطفر ويحاول تحطيمها والانطلاق منها، وليس له على ذلك طاقة، (ولن نُعجزَهُ هرَباً).

فالإيمان ضرورة فكرية للراحة في الحياة قبل أن يكون تقليداً موروثاً عن الأم والأب والبيئة. ثم إن حياة الإثم والانطلاق وراء الشهوات والآثام ليست مبعث سعادة عند ذوي الأفكار ولا عند الأغرار والسفهاء أنفسهم. واسألهم ينبئوك أنها ظمأ لا يرتوي. دع عنك عقابيلها من الأوجاع والضياع؛ ولا يمكن للجماعة أن تقرها، لا لأن الدين ينهي عنها بل لأن حياة الاجتماع تأباها وتعلن الحرب عليها بعد أن اختبرت نتائجها السيئة

فالدين لم ينزل بالفضيلة من المساء، وإنما الاجتماع الإنساني هو الذي قررها. ثم جاء الوحي فأقرها، لأن الحسن والقبح عقليان يدركان بالعقل قبل الوحي، ولذلك عبر القرآن عن الحسن والقبيح (بالمعروف) و (المنكر) أي ما يتعارفه الناس، وما ينكرونه بطبائعهم العامة وأذواقهم المشتركة

ثم الواقع أن الخير الشخصي جزاؤه فيه والشر الشخصي جزاؤه فيه في هذه الدنيا قبل الآخرة. وكذلك الخير الاجتماعي والشر الاجتماعي جزاؤهما معهما في هذه الحياة إذا ما كان المجتمع حارساً متيقظاً لحقوقه وواجباته

هذا دفاع سلبي عن فكرة الإيمان بالله وفكرة الخير كأصل من أصول الحياة الاجتماعية. وقد سبق لي في العام الماضي أن كتبت في هذه المجلة سلسلة مقالات في الإيمان كحقيقة من الحقائق العليا في الحياة، وعرضت فيها لكثير من القضايا والشبه التي تشغل بالك وأوردتها في كتابك الأخير إليّ، فأرجو أن ترجع إليها فلعل ما فيها وما أنا بسبيله الآن يقع من قلبك الموقع المأمول

إن الذي عناني أكثر من غيره مما أوردته في كتابك هو شكك في القيمة السامية للإنسان ومحاولتك أن تجعل حياته كحياة النبات والحيوان والحشرات: ليست أكثر من ظواهر طبيعية ودورات أبدية تأتي بها أيام وتذهب بها أيام

ومعرفة قيمة الإنسان هي في رأيي أول المعاني الدينية؛ لأن الذي يذهل عن قيمة حياة الإنسان لا يمكن أن يتيقظ لشيء آخر. فلن يفكر في الكون ولا خالقه. فالذي لا يسترعي انتباهه هذا الجسم المتحرك المريد الناطق المتنوع الفكر لا يمكن أن يتنبه للصمت المطلق والسكون المطلق والاطراد المطلق في الطبيعة. ودع ما وراءها من العالم الخفي الذي لا يناله الإنسان بالحواس. . .

وأسألك: هل رأيت نوعاً آخر متسلطاً على الأرض بغير أوضاعها ويتصرف في موادها ويسخر قواها وينقح الطبيعة، يزيد فيها وينقص منها، متنوع المرافق متجدد الأفكار، له حياة فكرية وقلبية تكاد تكون لا حدود لمظاهرها؟

وهل رأيت غير الإنسان اخترع شيئاً يزيد عن ضرورات حفظ حياته؟ هل رأيته يكتب تاريخه أو يتطلع لمستقبله، أو يركب آلات معقدة، أو يغني أغاني مُقَنَّنَة، أو يستخرج أصواتاً موسيقية من الجلد والخشب والمعادن، أو يقيم أهراماً وعمارات ذات أرصاد وأوضاع محبوكة وفنون بارعة؟

وهل رأيت نوعاً آخر اخترع طيارة وسيارة وراديو وتلغراف وتليفون وتلفزيون وغيرها وغيرها مما يصيد به الأصوات ويقتنص الأضواء والمسافات؟

ثم هل رأيت نوعاً آخر يسكر (ويحشش) ويدخن (ويشم) ويقامر ويقيم مهازل ومساخر بذكاء ومهارة؟ هل رأيت غيره يزارع ويتاجر ويضارب بعمليات اقتصادية معقدة غاية التعقيد؟

هل رأيت غيره يحارب بآلات كلها إبداع وبراعة تكاد تجعلها عند المتطلعين لما يولد في الكون من عجائب والمتوسمين لما في حياة الإنسان من بدع، فرجة من فرج القلوب تعلى شأن الحروب؟!

تخيل جميع الأساطيل الجوية والبحرية وجميع الجيوش البرية انطلقت في الجو والبحر والبر، يعبئها ويزجيها وينسقها الإنسان ذو الجمجمة العجيبة. . . تملأ الأثير بلمعات فكره وومضات خواطره لتعلم أيُّ فن إلهي هذا الإنسان المخلوق من ماء مهين!

تخيل مدينة عظيمة كنيويورك أو لندن أو برلين أو القاهرة بما فيها من فنون الحياة والأفكار والشعور. وما يغمرها من الأضواء والألوان وما يضطرب في أحشائها من المصانع والمعاهد والمعابد، وما يثوي فيها من دور الكتب والآثار ومخازن التحف وأدوات الجمال، وما تسيل به شوارعها من وسائل الأنتقال، وما تضج به من الأصوات والمقالات والخطب والأسمار ولأحاديث، وما يتوزع فيها من الأعمال والأموال والحرف تخيّل هذا ثم قل: هل رأيت في الحياة منذ دخولك إليها نوعاً غير الإنسان يقيم أسواقاً

للحياة مثل هذه الأسواق؟ ثم هل رأيت نوعاً آخر يعلو بالحياة حتى يأتي في علوه بالعجب العجاب. . . ويسفل بها حتى يأتي في السفالة بالعجب العجاب؟. . . وهل رأيت نوعاً آخر يتفنن في وسائل متاعه هذا التفنن الذي تراه في السينما والمسرح ومخازن الملابس والفرش وأدوات الزينة؟. هل رأيت. . وهل رأيت؟
وأخيراً هل رأيت نوعاً آخر يترقى في سلم الحياة باطراد وخطى ثابتة وقياس متناسب بعد أن أتى عليه (حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً) كما قال القرآن؟
فكيف بعد هذا تسوي بين قيمة هذا الإنسان أبي العجائب وبين قيم النبات والحيوان، وتريد أن تسلكه في سلك الفناء المطلق الذي يأتي على أجسامها وأرواحها بدون مآل أسمى ومصير أكمل؟!
وكيف تريد أن تضرب عليه ما ضربته عليها من الأحكام المنحطة وتحشر أفراده في مليارات أفراد الحيوان والحشرات التي تعيش على العشب والجيف والروث والعفونات؟!
إني لأستعرض تنوع حياة الأمم والأفراد وأتصفح الوجوه والنفوس، وأسمع حديث الأطفال والعجائز والنساك والفتاك والفقراء والأغنياء والعلماء والجهلاء والذكور والإناث. . . فأجدني بعد هذا الاستعراض في دوار من الفكر!
وإني لأخرج بعد هذا الاستعراض وأنا أشعر كان لابد أيضاً في الأرض مما نسميه الشر والضلال ليدوم ظهور أسرار التكوين!
إن الإنسان خلق ليكون أشبه بمِجْهَرٍ تمر من خلاله الطبيعة الأرضية بخصائصها التي كانت (غَيْباً) مستوراً قبل ظهور هذا النوع. فكل شيء في الطبيعة الأرضية كان لابد أن يمر من حواس هذا النوع وفكره ليأخذ حدوده ومميزاته ويرمز إليه بكلمة بيانية يضعها خليفة الله في الأرض. . .
وإذا صح ما أثبته علم تحليل ضوء العناصر من أن العناصر التي في النجوم والكواكب هي بعينها العناصر التي في الأرض كان في هذا زيادة في النظر لقيمة الإنسان كمترجم أيضاً ومحدد لعناصر الطبيعة في غير الأرض. . .
إن شئت فقل إن الإنسان آلة في يد الخالق يتمم بها التنويع والتفريع والتركيب في خلق المادة الميتة الجامدة وتصويرها وصقلها وتزويقها وتوشيعها حتى تصل إلى الدقة المتناهية في تركيب تروس الآلات ومساميرها الصغيرة، وإلى الزركشة والنمنمة و (المونوكير) في ثياب المرأة وأظافيرها! وعندئذ يكون الإنسان امتداداً لعوامل التكوين والإنشاء والتعمير التي في يد الله. . . يكون إزميلاً في يد الفنان الأعظم، وريشة بين إصبعيه يشكل بهما المادة أشكالاً ويملؤها بهما تزاويق وتهاويل!
وإن شئت فقل: إنه (مِجْهر) يلتقط آثار الصنع العظيم في المواد (الخام) فتتساقط على عينه أنوارها وظلماتها وعلى سمعه نغماتها وأصواتها، وعلى خياشيمه عطورها ونفحاتها، وعلى
ملامسه نعوماتها وخشوناتها، ويقع على إحساسه العام ثقل المادة وصعق الكهرباء وشد الجاذبية، ويمر على فكره معاني الوجود ومعاني العدم. . . . ثم يترجم كل هذه الكلمات الصامتة بكلمات ناطقة من بيانه الذي اختصه به بارئ الطبيعة. . .
إن رب الطبيعة أراد أن يترجم هذا الطين الذي سواه بيديه ونفخ فيه من روحه بعض كلماته الصامتة في أسرار التكوين والخلقة، وكانت قبل الإنسان غيباً في السموات والأرض لا يعلمها أحد غيره حتى الملائكة
ولذلك كان العلم بأسرار الطبيعة أشرف عبادات هذا النوع ما دام متوجهاً فيه إلى رب الحياة ومتعرفاً إليه به. أما الملائكة فعبادتهم طاعة عمياء ليس لهم على غيرها طاقة
واقرأ إن شئت بعد هذا قصة خلق الإنسان في القرآن لترى منها العجب الذي رأيناه:
(وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة. قالوا أتجعل فيه من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟ قال إني أعلم ما لا تعلمون. وعَلَّم آدمَ الأسماءَ كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين.
قالوا سبحانَك لا علمَ لنا إلا ما علَّمتَنا إنك أنت العليم الحكيم. قال يا آدم أنبِئْهُم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلمُ غَيْبَ السموات والأرض وأعلمُ ما تُبدُون وما كنتم تكتمون؟)
وأرجو أن تقف طويلاً أمام قوله تعالى: (إني أعلم ما لا تعلمون) رداً على سؤال

الملائكة: (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء. . .) لتعلم أن الله نظر نظرة سماح واغتفار لما تستلزمه حياة الإنسان في مجموعه بالجسم الحيواني من بعض الآثام والشرور، إذ علم ما وراء فتوح الإنسان في (غيب السموات والأرض) من آثار علمية ترجح على ما يرتكبه من شرور. . .

فلا يهولنك ما تراه من الجريمة والفساد والأوباء والنكبات التي تحتاج حياة لإنسان. . . فإن الذي خلق هذا النوع متيقظ له دائم الرعاية عليه يسوقه في طريق مرسوم حتى يبلغ غايته برغم كل ما نسميه الشر والفساد لأن الشر والفساد والباطل ما خلقه إلا للحق والصلاح. . . فلولا الأمراض ما ظهرت علوم الطب التي كشفت لنا عن ملايين من عوالم الجراثيم. . . وكانت حياتها مستوردة في (غيب السموات والأرض). . . ولولا الحروب، والجرائم ما ظهرت أدوات الانتقال السريع، واختزال المسافات وما تنافس الناس على استخراج ما في المناجم من الركاز. . . وكان كل ذلك (غيباً) محجوباً في الأرض. . . ولولا الغرائز السفلى كالطمع والجشع والأنانية ما رأيت في الأرض هذه الحياة العنيفة الحركات في التعمير والاقتناء والتسابق على كشف بقاع الأرض المجهولة وإظهار عيوبها، وإقامة الحياة العلمية المتحضرة فيها

ولولا البأس الشديد في الحديد والنار ما تكونت الإمبراطوريات الواسعة التي ربطت بين كثير من أمم الأرض برباط التفاهم والحب والخدمة المشتركة. . . وما ابتدأت البشرية الآن تفكر في جامعة عامة لجميع الشعوب والأمم تجمعها على حدود العدالة والسلامة الإجتماعية، وخدمة العلم خدمة مشتركة، وتقيها من شرور التدمير والتخريب وما تتجه الحروب

ونظرة إلى تاريخ البشرية ترينا التقدم المطرد في سبيل التجميع والتوحيد. فقد كان الإنسان فرداً ثم صار أسرة ثم صار قبيلة ثم صار أمة ثم صار إمبراطورية وولايات متحدة ثم بدأ يصير (جامعة أمم) ولا بد من ذلك في يوم ما قريباً كان أم بعيداً. والشر هو الذي يدفع دائماً إلى الجهاد للخير. (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض) (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم) فإن الأرواح لا تقوى إلا بالمجاهدة كما أن الأجسام لا تقوى عضلاتها إلا بالمقاومة. فلا تذهبن من نفسك قداسة الإنسان فإنه الابن البكر للأرض يعمر ديارها ويستقبل ليلها ونهارها

وقد كان يجوز الشك في قيمة الإنسان السامية أيام الجهل والغفلة والحيرة قبل عثوره على مفاتيح العلوم الطبيعية وابتدائه فتح أبوابها باباً فباباً. . . أما الآن بعد أن تيقظ الإنسان لحياته وابتدأت الأرض والسماء تحدثه أخبارها وتوضحت أمامه معالم طريق الحياة؛ فلن يرضي لنفسه الارتداد ولن يجوز الشك في قدسيته وامتيازه وإن قيادته إلى الله رب الطبيعة قد صارت الآن من أسهل الأمور لأن العلم قد ألقي كثيراً من أشعته على مواقع يد الله في الطبيعة وعلى كثير من الأبواب التي توصل إليه. . .

ولكن كثيرين جداً من الذين يحترفون قيادة الأرواح أغبياء محدودون عميان. . . فكيف يقودون في طريق مملوءة بكثير من جثث الخرافات والأباطيل التي لصقت بالدين في زمن الجهل والظلام، والتي صرعها العلم الواضح والعقل الطلق المستنير؟!

(القاهرة)

عبد المنعم خلاف

عقيدة النازي المالية

للأستاذ عباس محمود العقاد

قرأت في العدد السابق من الرسالة مقالاً عن عقيدة النازي المالية أو عن فلسفة النازيين في علم الاقتصاد للأستاذ جواد علي العراقي (خريج جامعة هامبرك بألمانيا) فرأيت عرضاً صحيحاً لتلك الفلسفة من جانب واحد وهو الجانب الذي يكتبه النازيون ليبقي حبراً على ورق أو لينشروا به الدعوة ويكسبوا به الأنصار

ولهذا وجب أن نلم بتلك الفلسفة من جانبها العملي الواقعي تصحيحاً للآراء فيها وبياناً للحقيقة عن مقاصد أتباعها وأعمال المبشرين بها. فإن الجانب المكتوب والجانب المعمول من فلسفة النازيين الاقتصادية يختلفان كثيراً فيما هو حادث الآن، بل يتناقضان كل التناقض في أكثر الأحيان

مثال ذلك يقول الأستاذ جواد في تلخيص بعض المبادئ النازية إنهم: (لإنقاذ الشعب والحكومة من عبودية الربا وجب تنظيم الأرباح على قاعدة الربح على قدر العمل، والقضاء على بيوتات البيع الكبرى والشركات الاحتكارية. وتقسيمها إلى محال صغيرة، فنحو مائة ألف إسكاف خير من وجود خمس شركات كبرى، لأن من طبيعة المحال الكبرى الميل إلى الأرباح دون الالتفات إلى التحسين. . . أما التجارة الخارجية للشعب فيجب أن تشرف عليها الدولة كذلك وتحدد أسعارها. وتقوم بذلك الدول فيما بينها بعقد معاهدات تجارية حسب رغبات الدول وحاجاتها لا على قواعد علم الاقتصاد ومبادئ حرية التجارة أو المبادئ المالية الأخرى).

هذا ما يقولون عن الأرباح، وشركات الاحتكار. أما ما يعملون فهو تسليم شركات الاحتكار زمام التجارة والثروة في جميع مرافق البلاد. فإن مديري (الغرف الاقتصادية) المشرفين كذلك على فروع الصناعة والتجارة هم جميعاً من رجال الاحتكار المعدودين كالهر كارشر مدير المصانع في إقليم السار الذي اشتهر بالقسوة البالغة على العمال، وكالمصرفي البارون فون شرودر مدير غرفة أقاليم الرين، وكالهر بيتزش مندوب الشركات الكيمية ومدير الغرفة الاقتصادية في بافاريا. . . وقس على ذلك سائر المديرين

وقد اصدر النازيون قانوناً سموه قانون إصلاح السهوم أو حصص الشركات حرموا فيه بقاء الشركات التي يقل رأس مالها عن مائة ألف مارك بعد نهاية سنة 1940، ولم يوجبوا التصفية على الشركات التي يبلغ رأس مالها خمسمائة ألف مارك بل أوجبوا على كل شركة تؤلف بعد التاريخ المحدود ألا يقل رأس مالها عن ذلك المقدار وكان النازيون يقولون قبل ولاية الحكم إنهم سيضعون أيدي الحكومة على المصارف، ويمنعون الاتجار بمناصب الإرادة فيها، فصنعوا نقيض ما دعوا إليه وباعوا المصارف مرة أخرى جميع الحصص التي كانت الحكومات السابقة قد اشترتها منها تدعيماً لرؤوس أموالها ومساعدة لها على مقاومة الصدمات التي استهدفت لها في أيام الكساد، وهذا ما حدث في مصرف الديتش ومصرف درسدنر ومصرف التجارة وغيرها من المصارف الكبيرة والصغيرة

وكان المستشار برونتج قد أعلن في مرسوم الطوارئ الذي صدر في الحادي والثلاثين من شهر أكتوبر سنة 1931 ضرورة النقص من مكافآت رجال الإرادة والرقابة على الشركات والمصارف. فلم يزد النازيون في المادة الثامنة والسبعين من قانونهم على الوعد بأن تكون (المكافآت مناسبة للأعمال التي يؤديها المديرون والمراقبون)، ثم اكتفوا بتحريم الاشتراك في أكثر من عشرة مكاتب للشركات والهيئات الاقتصادية من جهة المبدأ. . . ومعنى (من جهة المبدأ) هذه أن الاشتراك في أكثر من عشرة مكاتب جائز من جهة الواقع. مع أنها لو حرمت الاشتراك في أكثر من ذلك العدد تحريماً باتاً لما صنعت شيئاً فيما زعمته إصلاحاً تحتاج إليه تلك البلاد

وعلى خلاف ما أذاعوه عن مكافحة الاحتكار أصبح المحتكرون وهم مالكون لزمام التجارة الخارجية في كثير من القطار. فعقد الهر أوتوولف اتفاقاً مع حكومة منشوكيو باسم المحتكرين للحديد في ألمانيا الغربية يقرضون تلك الحكومة بموجبه مليوني جنيه، ويشترطون عليها فيه أن تقصر الشراء عليهم دون سائر الشركات، وكذلك انعقد الاتفاق بين مصانع كروب وبين اليابانيين على أمثال هذه الشروط

ويقول الأستاذ جواد: إن الهتلرية رأت (أن خير حل لمشكلة العمل والعمال هو الاعتراف بمبدأ الملكية الشخصية ورأس المال، ولكنها ترى أن صاحب المال أو المعمل من جهة أخرى هو مدير لماله أو لمعمله أو قائد يتصرف به وفق الأنظمة والقوانين والطرق

الشرعية الشريفة. . . وكل من يحاول استغلال ماله عن طريق يخالف مبادئ النازية يكون نصيبه العقاب الصارم أو الإعدام. .)

وهذا أيضاً من الحبر على الورق الذي لا أثر له في عالم الواقع. فقد سمعنا عن ألوف العمال الذين قتلوا بمحاكمة أو بغير محاكمة، والذين أرسلوا إلى معسكرات الاعتقال أو حرموا العمل في أنحاء البلاد كافة لأنهم يطالبون بحقوقهم أصحاب المصانع والشركات، ولكننا لم نسمع بصاحب مصنع واحد قتل أو أرسل إلى معسكرات الاعتقال أو أغلق مصنعه لأنه ظلم العمال أو حرمهم حصتهم من الربح والأجر المعقول

وقد ظل التفاوت عظيماً بين أرباح المديرين وبين جملة الأجور التي يعطاها العمال.
فإن الهر كوتجن ? مدير شركة يقبض وحده ثمانمائة ألف مارك في السنة أجراً لإدارته، عدا الأرباح والمكافآت التي يتقاضاها على الإدارات الأخرى. وفي مصرف التجارة السابق ذكره ستة مديرين يعطون تسعمائة وستة وخمسين ألف مارك في السنة، ولا يبالون تنقيص أجور العمال الصغار لزيادة الأرباح
واقترح بعضهم في الشركة الأولى، شركة أن توزع حصة من الأرباح على عمال الشركات من قبيل المكافأة لأن الأرباح العامة قد أربت في تلك السنة - 1937 - على عشرين مليون مارك. . فرفض النازيون الاقتراح
وقس على ما تقدم سائر المبادئ التي يدقون بها الطبول لإفهام العمال أنهم ينصفونهم ولا يحابون المحتكرين والمتجرين بالثقة في الأسواق
أما التجارة الخارجية فكل ما صدقوا فيه من قواعدها النازية أنهم خرجوا على قواعد علم الاقتصاد ومبادئ حرية التجارة والمبادئ الاقتصادية الأخرى، وأداروها على النصب والغش الصريح
وهذه خلاصة السياسة الاقتصادية التي يعاملون بها الأمم الأجنبية:
يغزون تلك الأمم بمعاملتهم فيعرضون عليها أثماناً أغلى من الأثمان التي تبيع بها محصولاتها في الأسواق الأخرى
ثم يأخذون تلك المحصولات فيعرضونها في الأسواق بأثمان أرخص كثيراً من أثمانها التي اشتروها بها
ثم يعطون البدل مقايضة لا نقداً ولا عملة تشبه النقد في السداد العاجل، فيعرضون مصنوعاتهم وأدواتهم بدلاً من المحصولات الزراعية التي هم في حاجة إليها
ثم يتحكمون في الأمم التي اشتروا منها تلك المحصولات الزراعية فلا يعرضون عليها إلا المصنوعات التي يستغنون عنها ولا حيلة لها في رفضها، لأنها لا تعرف وسيلة غير هذه الوسيلة للوصول إلى حقوقها
فماذا تكون النتيجة؟
تكون النتيجة أن الأمم التي تعاملهم تخسر (عملاءها) الأولين لأنهم يشترون محصولاتها من النازيين بأرخص من الأثمان التي يشترونها بها منها
وتكون النتيجة أن الأمم تضطر إلى قبول مصنوعات لا تحتاج إليها. ثم تقبلها شيئاً فشيئاً بأثمان أغلى من أثمانها بعد أن تصبح مضطرة إلى البيع للنازيين والشراء من النازيين دون سائر (العملاء) الآخرين
وقد يُسَّمى هذا الأسلوب اختراعاً أو فلسفة أو مهارة كما يشاء السماسرة النازيون المعجبون بأمثال هذه الأساليب
لكن الواقع أنه هو أسلوب التجار المجازفين اليائسين من قديم الزمان، وعندنا يقول العامة عمن يباشر هذه المراوغات في التجارة والمبادلة (إنه يلبس طاقية هذا لذاك)، وإنه يعطي بالشمال ويأخذ باليمين. ولو سلك تاجر مثل هذا المسلك في مدينة من المدن لضاع شرفه وضاعت سمعته بعد أشهر معدودات
نحن في الشرق نسمع كثيراً عن فلسفة النازيين في الاقتصاد، وفلسفة النازيين في التربية، وفلسفة النازيين في السياسة، وفلسفة النازيين في القوانين وغير القوانين.
ومن الواجب أن نسمع كثيراً عن جميع أولئك على شريطة أن نسمع كل شيء وان نحيط بكل جانب وأن نسمع الجعجعة ونحاول أن نرى الطحن الذي وراءها
وعندئذ نعرف الحقيقة ونعلم أنها جعجعة ولا طحن في كل شيء وفي كل مضمار ونفهم أن (النازية) أكذوبة كبيرة حشوها الغش والخداع والأعراض الزائلة والتهويش الذي ينخدع به الأغرار ولا يجوز على أحد من المنصفين
عباس محمود العقاد
بابر
للدكتور عبد الوهاب عزام
- 1 -
لقد أعقب موت تيمورلنك عصراً من الاضطراب السياسي في إيران وما وراء النهر. وقد استطاع ابنه شاه رخ أن يثبت سلطانه على معظم ملك أبيه، ويكبح الثائرين من أقاربه. فلما توفي سنة 850، عم النزاع، وأشتد الاضطراب، حتى نشأت الدولة

الصفوية، فكان انتصار الشاه إسماعيل في موقعة شرور سنة 907 بعد قرن كامل من وفاة تيمور فاتحة حروب مظفرة مدّت سلطان إسماعيل إلى أفغانستان ونهر جيحون، فشمل هذه البلاد سلطان واحد.

ولقد كان لبني تيمور على ما كان بينهم من حروب، وعلى قصر زمان كثير منهم، أثر محمود في الفنون والآداب، وقد نبغ منهم جماعة من ذوي الآثار الواضحة في ذلك العصر مثل شاه رخ وألوغ بك، والسلطان أبي سعيد، والسلطان حسين مرزا.

- 2 -

ونتكلم الآن في سيرة عبقري من سلالة تيمور تقلبت به غير الدهر بين هزيمة وانتصار، ونجاح وخيبة، فكشفت عن خلال من الهمة والطموح والشجاعة والصبر، انتهت به إلى إقامة دولة من اعظم الدول التي عرفها تاريخ الإسلام، وبقيت سيرته في صفحات التاريخ عبرة لذوي الهمم، ومثلاً لأصحاب النفوس الكبيرة.

ذلكم محمد ظهير الدين بابر الذي يصل نسبه بتيمور أربعة آباء: بابر بن عمر بن أبي سعيد بن محمد بن مير انشاه بن ييمور.

ويمتاز هذا الرجل العظيم بأنه ترك للتاريخ سيرته مفصلة بينة مصورة صورة صادقة طبيعية بعيدة من التكلف والرياء في كتابه (بابر نامه) الذي سنذكره من بعد، ولست أعرف بين العظماء رجلاً كتب سيرته بيده في بيان مسهب ممتع طبيعي صريح كما فعل بابر.

- 3 -

كان أبوه عمر شيخ أميراً على فرغانة تولاها سنة 870 من قبل أبيه السلطان أبي سعيد؛ واستمر أميراً عليها بعد وفاة أبيه إلى أن توفي سنة 899. وهنا تستمع حديث بابر عن أبيه في (بابر نامه):

(كان حنفي المذهب، صحيح العقيدة، مواظباً على الصلوات في أوقاتها. قد قضي جميع ما فاته من الصلوات، وكان يديم تلاوة القرآن، وكان من مريدي الشيخ عبد الله - وهو المعروف بخواجه أحرار - يحرص على صحبته والتبرك به، ويدعوه الشيخ ابنه وكان يحب الأدب، قرأ منظومات نظامي والمثنوى والشاهنامه، وكتباً في التاريخ؛ وكان قادراً على نظم الشعر، ولكنه لم يحفل به وكان عادلاً تبين حبه للعدل من هذه الواقعة: بغتت عاصفة شديدة من الثلج قافلة آتية من بلاد الخطا على سفوح الجبال شرقي أندجان. فلم ينج من ألف رجل إلا رجلان فلما بلغه الخبر بعث رجالاً أحرزوا أموال القافلة وأتوا بها فحفظها لأهلها مع احتياجه إلى المال. فلما عرف ورثتهم بعد سنة أو سنتين دعاهم وسلم إليهم أموالهم وكان سخياً حسن الخلق فصيح الكلام حلوه، شجاعاً باسلاً يحسن الضرب بالسيف، وكان وسطاً في الرمي بالسهام شديد اللكم لا يثبت للكمته مصارع إلى أن يقول: (وكان يكثر من الخمر ولكنه اقتصد من بعد فكانت مجالس أنسه يوماً أو يومين في الأسبوع الخ. . .)

وقول: (كان عمر شيخ مرزا قصير القامة مستدير اللحية بدينا ممتلئ الوجه يلبس ثوباً ضيقاً جداً فإذا شد أربطته ضغط على بطنه وكثيراً ما تقطعت الأربطة بعد أن يشدها، وكان لا يتكلف في ملبسه ومأكله، يلف عمامته لفة واحدة، وكانت العمائم إذ ذاك أربع لفات وكان يلفها دون طيّ ويترك لها عذبة. ويلبس في أكثر أوقات الصيف خارج الديوان فلنسوة مغولية)

ويقول عن أمه إنها من بنات يونس خان وهو من ذرية جفتاي بن جنكيز. وبعد أن يتكلم عن نسب يونس خان وسيرته يذكر أولاده واحداً واحداً إلى أن يقول: (وكانت بنت يونس خان الثانية أي قتلق نكار، وقد رافقتني أكثر أيام كفاحي ومحني وتوفيت رحمها الله عام 911 بعد استيلائي على كابل بخمسة أشهر أو ستة)

ويذكر أولاد أبيه فيقول: (ترك ثلاثة بنين وخمس بنات، وكنت أنا ظهير الدين محمد بابر أكبر أبنائه وأمي تدعى قتلق نكار)

- 4 -

مات عمر شيخ سنة 899هـ فورث ابنه بابر ملك فرغانة، وهي ولاية على نهر سيحون وكانت سنه إذ ذاك اثنتي عشرة سنة

ومن الممتع أن نقرأ في بابر نامه الفصل الأول الذي يفتتحه بابر بقوله:
(في شهر رمضان من سنة 899 وفي الثانية عشرة من عمري صرت ملكاً على
فرغانة وهي من الإقليم الخامس من طرف المعمورة تحدها كشغر من الشرق
وسمرقند من الغرب وجبال تبرخشان من الجنوب، وكان في شمالها مدن عظيمة. (ثم
يفيض في ذكر مدن فرغانة وأنهارها وحيوانها ونباتها)
لم يكن ملك فرغانة مسيراً لبابر، فقد مرت عليه أحداث عظيمة لم يستقر فيها ملكه
إلى أن أخرج منه طريداً بعد عشر سنين من موت أبيه
طمع أعمامه في ملكه أول الأمر وحاولوا أن يغصبوه عرش فرغانة، فلم يبلغوا ما أملوا
يقول بابر: (لما توفي عمر شيخ مرزا فجأة كنت في جهارباغ في أندجان
(ويوم الثلاثاء 15 رمضان جاء الخبر مدينة أندجان فركبت جوادي على عجل وصرت
إلى القلعة فيمن كانوا في خدمتي فلما بلغت باب مرزا أمسك (شيريم قفاي) بعنان
الفرس، وصار إلى المصلى (نمازكاه) وكان قد خشي أن يأتي السلطان أحمد مرزا
في جيوشه الكثيرة فيسلمني الأمراء إليه مع المملكة، وأراد أن يذهب بي إلى أزكند
على سفح جبل آلاتاغ، فإذا سّلم الأمراء الولاية للسلطان أحمد نجوت أنا وذهبت إلى
(آلاجه خان أو السلطان محمود خان من إخواني
كان هم بابر منذ ورث ملك فرغانة أن يستولي على سمرقند ليكون خليفة جده تيمور
في دار ملكه. فما زال حتى فتح سمرقند سنة 903هـ (1497م) ثم ثار بعض الكبراء
في فرغانة فأخرجوها من سلطانه، فخرج ليردها إلى حكمه فخذلته جيوشه ففقد
سمرقند أيضاً ولكنه استطاع أن يسترد فرغانة وسمرقند بعد جهاد ومحن
ولم يستقر له الأمر طويلاً فقد أخرجه الأزبك من سمرقند، وفرغانة معاً سنة 906هـ
فبقي بابر سنين ثلاثاً يطوف في البلاد ويحاول استرجاع ملكه؛ وهو يحدث أنه هزم مرة
ففر في ثمانية من أنصاره وتعقبهم العدو وأعيت الخيل، فتخلف بعض رفاقه، وبقي
معه اثنان، فلما
أعيا فرسه نزل له أحد الرفيقين عن فرسه، فسار حتى أعيا الفرس الثاني، فقدم إليه
الرفيق الأخير حصانه، وسار وحده ووراءه اثنان من الأعداء حتى جن الظلام، فترجل
وأوى إلى صخرة ليعتصم بها ويرمي من يتعقبه بالنبال. وذلك مثل مما مر بهذا الرجل الشجاع الصبور
ولابد لمثل بابر أن يكون ملكاً، فلما عجز عن استرجاع فرغانة وسمرقند عزم على أن
يختط بالسيف مملكة أخرى، فما كان له بد من أن يكون ملكاً طوعاً أو كرهاً، فها هو
ذار يجتاز جبال هند كوش الثلجية ويفتح كابل ثم يمد سلطانه في أرجاء أفغانستان
بابر اليوم ملك مسلط على أقاليم من أفغانستان ولكن همته تحاول ملكاً أعظم،
وعزمه لا يقر بالعجز عن استرجاع عرش آبائه فيما وراء النهر. وهاهو ذا السلطان
إسماعيل الصفوي يطوي الأرض من أذربيجان إلى أفغانستان فيحالف بابر إسماعيل الصفوي على عدوه من الأزبك
سار بابر إلى سمرقند سنة 914 فأخذها ولكنه أخرج منها بعد حين وهزم هزيمة شنيعة أبلغته كابل بعد أن أشفى على الهلاك
يئس بابر من سمرقند بعد هذه الخطوب أو كاد ييأس منها فمنالها اليوم بعيد. فماذا
يفعل؟ أيقنع بما ملك من أفغانستان ويرتقب الحوادث لعلها تتيح له فرصة، أم يقهر
الحوادث على الخضوع لمشيئته ويوسع سلطانه في أرض الله الواسعة؟
كانت جيوش بابر تشرق إلى حدود الهند أحياناً فما الذي يمنعه أن يحاول ملكاً عظيماً في هذه الأرض العظيمة؟
غزا الملك الطموح أطراف الهند سنة 925هـ (1519م) واستولى على بعض الأقاليم
ثم رجع إلى كابل فانتقضت عليه الأرض التي فتحها، ولكن هذه الغارة مدت عينيه إلى
هذه الأرض الغنية الواسعة

كان السلطان في وهلي إذ ذاك إبراهيم اللوري الأفغاني الأصل استولت عليها أسرته
سنة 855. وكان إبراهيم ولوعاً بأبهة الملك يريد أن يخضع رؤساء الأفغان لآداب وسنن

لم يألفوها. كان يلزمهم أن يقفوا في حضرته صامتين مطرقين، فسخطوا عليه واجتمع بعضهم
على أخيه جلال فحاول أن يقاسم إبراهيم الملك، وثار آخرون فقابل إبراهيم ثورتهم بالشدة والقسوة، وقتل بعض زعمائهم، وتعاقبت الثورات في أرجاء المملكة حتى وفد عمه علاء الدين إلى كابل يلتمس عوناً من بابر على ابن أخيه؛ وتلك هي الفرصة التي لا يضيعها بابر، والأمنية التي كان يتمناها والمغامرة التي يميل إليها وينشط لها، وكان محبّاً للمخاطرة والمغامرة
أسرع إلى انتهاز الفرصة حتى بلغ لاهور فإذا جيوش وهلي قد انتصرت على (الثائرين دولت خان)، فقلب بابر انتصارهم هزيمة وتعقبهم في شوارع لاهور، ثم أسرع ففتح ديبل بور وترك علاء الدين اللوري فيها ورجع إلى كابل
وفي سنة 931 (1525م) رجع بجيوشه إلى الهند وقد أعد لها عدته فلقيه (الثائرين دولت خان) محارباً، وكان قد أوهمه انه سيؤيده، ولكن جنده تفرقوا حينما اقترب بابر.
وتقدمت جيوش كابل للقاء جيوشه وهلي. وكان السلطان إبراهيم خرج للحرب في مائة ألف مقاتل ومائة فيل. وجعل بابر مدينة باتيبات إلى يمينه وجعل على يساره خنادق وحاجز من الأشجار، ووضع أمام جيشه عربات المدافع مشدوداً بعضها إلى بعض وجعل بينها فرجاً تتسع الواحدة منها لمرور مائة فارس ورتب جيوشه خلفها، ووقف إلى أقصى اليسار وأقصى اليمين سرايا من المغول للمفاجأة حين الحاجة
وفي ليلة الثامن من رجب سنة 932 (21 إبريل سنة 1526) فاجأ بابر جيش السلطان إبراهيم فلم يفلح غير أنه أخرج عدوه من معسكره، وعند الفجر تحركت جيوش إبراهيم فهجموا دون تلبث، وحسب بابر أنهم يقصدون في جناحه الأيمن فأمده، ولما جاءت الجيوش الهاجمة إلى الخنادق والحواجز وصف العربات المشدودة ترددوا وضغطتهم الجماعات إلى ورائهم، فاضطرب أمرهم، فانتهز بابر الفرصة وأرسل سرايا المغول من الفجوات التي بين العربات فداروا حول العدو وشرعوا يرمونه من الخلف، ووقف بابر كالصقر يرقب المعركة، فلما تقدمت جماعة من ميسرته على غير حذر فزلزلهم العدو سارع إلى إمدادهم، ولما اشتد ضغط العدو على ميمنته أسرع إلى إمدادهم أيضاً، وكان الأستاذ علي رئيس المدفعية في مقدمة الجيش ناشطاً موفقاً في عمله
وانجلت المعركة عن السلطان إبراهيم قتيلاً بين خمسة عشر ألفاً من جنده.
يقول بابر: (كانت الشمس قد ارتفعت حينما بدأ الهجوم واستمرت المعركة إلى الظهر فكانت هزيمة العدو، وتم انتصارنا ويسر الله العظيم لي هذه المصاعب ومحق هذا الجيش الكبير في نصف يوم)
وغنم في هذه الموقعة وبعدها من الذهب والجواهر والسلاح والخيل ما لا يحصى ففرقة بابر غير ضنين به ولم يحرص على ادخاره
وبادر بابر فأرسل سريتين فاحتلنا وهلي واكراز، وفي يوم الجمعة 14 رجب سنة 932 خطب لبابر في جامع وهلي فبدأ في الهند تاريخ الدولة الإسلامية العظيمة التي سيطرت على الهند كلها حيناً وبقي سلطانها في تلك البلاد إلى سنة (1275هـ - 1858م)
(البقية في العدد القادم)

عبد الوهاب عزام

في الاجتماع اللغوي

نشأة اللغة الإنسانية

للدكتور علي عبد الواحد وافي

تمهيد في أنواع التعبير الإنساني

للتعبير الإنساني طرق كثيرة يرجع أهمها إلى قسمين رئيسيين
القسم الأول: التعبير الطبيعي عن الأنفعالات، ويشمل جميع الأمور الفطرية غير المقصودة التي تصحب مختلف الانفعالات السارة والأليمة؛ كالصراخ، والضحك، والبكاء وتفتح الأسارير وانقباضها، واتساع الحدقة، وإغماض العينين، واحمرار الوجه واصفراره، ووقوف شعر الرأس، وارتعاد الجسم. . . وما إلى ذلك من الظواهر الفطرية التي تبدو بشكل غير إرادي في حالات الفرح والحزن والألم والخوف والخجل

والاشمئزاز. . . وما إليها، والتي تعبر عن قيام حالة وجدانية خاصة بالشخص الصادرة عنه
وتنقسم هذه التعبيرات من حيث الحاسة التي ندركها عن طريقها إلى نوعين:
1 - تعبيرات بصرية، أي تصل عن طريق البصر كالحمرة والصفرة والرعشة وانقباض الأسارير وانبساطها واتساع الحدقة وإغماض العين ووقوف شعر الرأس والعدْو. . . وما إلى ذلك من الظواهر الجسمية التي تصحب مختلف الانفعالات
2 - تعبيرات سمعية، أي تصل عن طريق حاسة المسع، كالضحك والبكاء والصراخ. وما إلى ذلك من الظواهر الصوتية الفطرية التي تصحب حالات الفرح والألم والحزن والسرور. . . وهلم جراً، ويتألف هذا النوع من أصوات مبهمة (تشبه أصوات الحيوان وأصوات مظاهر الطبيعة) وأصوات لين (حروف مد) مختلطة أحياناً ببعض أصوات ذات مقاطع (حروف ساكنة)
(القسم الثاني): التعبير الإرادي عن المعاني، ويشمل جميع الوسائل المكتسبة التي يستخدمها الإنسان بشكل إرادي للتعبير عن المعاني والمدركات. فهذا القسم يختلف عن القسم السابق في منشئه وطرق استخدامه وما يعبر عنه. فهو كسبي في منشئه، إرادي في استخدامه، معبر عن معان ومدركات؛ على حين أن القسم الأول فطري النشأة، يصدر بشكل غير إرادي، ويعبر عن تلبس الشخص بحالة وجدانية انفعالية.
وتنقسم هذه الطائفة من التعبيرات، من حيث الحاسة التي ندركها عن طريقها، إلى نوعين مشابهين لنوعي الطائفة الأولى: أحدهما التعبيرات الإرادية البصرية، وثانيهما التعبيرات الإرادية السمعية:
1 - أما التعبيرات الإرادية البصرية، فهي التي تصل عن طريق حاسة النظر، وتشمل جميع الإشارات الحسية التي تستخدم بقصد الدلالة. وهي على ضربين:
(أحدهما) إشارات مساعدة ونائبة، أي تساعد لغة الكلام أو تنوب عنها في حالات خاصة أو لضرورة ما.
فمن هذه الطائفة الإشارات البحرية، وهي التي يستخدمها عن بعد بحارة سفينة مع بحارة سفينة أخرى، وهي إشارات دولية معروفة لجميع البحارة وتدرس في مدارس البحرية.
ومنها كذلك إشارات الصيد وهي التي يستخدمها الصيادون بعضهم مع بعض، حتى لا يسمع صوتهم الحيوان المطارد.
ومنها الحركات اليدوية والجسمية التي يستخدمها الصم البكم للتعبير عما يجول بخواطرهم.
ومنها الإشارات التي يلجأ إليها الفرد أحياناً للتعبير إذا كان المخاطب لا يفهم لغته؛ والتي جرت العادة في بعض الأمم الأولية أن يستخدمها أفراد العشائر المختلفة اللهجات بعضهم مع بعض. وقد عثر علماء الاجتماع والإتنوجرافيا على شواهد كثيرة من هذه الظاهرة عند كثير من عشائر السكان الأصليين لأمريكا واستراليا وعند بعض القبائل الإفريقية. فقد روي الأستاذ كوهل أنه إذا التقى أحد الهنود الحمر (السكان الأصليين لقسم من أمريكا الشمالية) بآخر من غير عشيرته، مختلف عنه في لغته، فإنهما يلجأن في تعبيرهما إلى لغة الإشارات التي تنزلها هذه العشائر منزلة لغة دولية. وقد مهر الهنود الحمر في هذه اللغة أيما مهارة. ففي إمكان المتخاطبين أن يظلا يوماً كاملاً يتحادثان عن طريق الإشارات باليد والأصابع والرجلين، وأن يقص كل منهما على الآخر كل ما يود قصه عليه
ومنها الإشارات التي تستخدم في بعض الشعوب في حالات الصيام الديني عن الكلام. وهذا النوع من الصيام متبع عند كثير من الأمم الأولية وبخاصة عند السكان الأصليين لأستراليا وأمريكا. فقد ذكر الأستاذان سبنسر وجيلين في كتابهما عن سكان استراليا الوسطى حالات
كثيرة من هذا القبيل، منها أن المتوفى عنها زوجها يجب عليها أن تظل مدة طويلة، تبلغ أحياناً سنة كالمة صائمة عن الكلام. ويظهر أن شيئاً من هذا كان متبعاً عند اليهود، بدليل قوله تعالى على لسان مريم: (إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسيًّا، فأشارت إليه. . . الآية)

ومنها الحركات التي يستعين بها في أثناء حديثهم أهل اللغات الساذجة الناقصة لتكملة ما ينقص تعبيرهم وما يعوزه من دلالة. وقد لوحظ هذا في كثير من الأمم الأولية. فقد روي عن البوشيمان (عشائر أولية تسكن بعض مناطق في أفريقيا الجنوبية) أنهم إذا أرادوا المحادثة ليلاً أشعلوا النار ليتمكنوا من رؤية الإشارات اليدوية التي تصحب كلامهم فتكمل ناقصه وتحدد مدلولاته

ومنها الإشارات التي تصحب حديثنا نحن لتوكيد المعاني، أو لتمثيل الحقائق، أو لزيادة التوضيح؛ والتي تستخدمها وحدها للدلالة على الإيجاب والنفي والاستحسان وما إلى ذلك: كالإيماء بالرأس للتعبير عن القبول، وتحريك السبابة حركة مستعرضة للتعبير عن الرفض أو النفي، ومد الشفتين ووضع السبابة عليهما للأمر بالسكوت. . . وهلم جرا

إشارات أصيلة عامة، وهي التي يتكون منها لغة كاملة مستقلة تستخدم (وثانيهما) وحدها في جميع الشئون والظروف. . . . وقد استخدم هذا النوع من اللغات عند بعض الجماعات الإنسانية ولا يزال مستعملاً في بعض العشائر. فقد عثر في الأمم الأولية على جماعات كثيرة لا تكاد تستخدم في تعبيرها غير الإشارات اليدوية والجسمية. ومن هؤلاء بعض قبائل السكان الأصليين لأمريكا واستراليا وبعض عشائر أفريقيا. ويطلق على هذا الضرب من التعبير اسم (لغة الإشارات) أو (الإشارات التحليلية) وقد عني بدراسته عدد كبير من علماء الأتنوجرافيا والاجتماع من أشهرهم مولري وتيلور ورومان ولوبوك وسبنسر وجيلين وليفي برول وريبو والدكتور فيشر الألماني

وقد صور الدكتور (فيشر) هذا النوع من اللغات وقربه إلى الأذهان إذ يقول:

إذا التقيت بأحد الهنود الحمر وأردت أن أخاطبه بلغة الإشارات لأسأله هل رأى ست عربات يجرها ثيران ويصحبها ستة سائقين منهم ثلاثة مكسيكيون وثلاثة أمريكيون وواحد ممتط صهوة جواده، فإنني أشير إلى شخصه بيدي للدلالة على كلمة (أنت)، ثم أشير إلى

عينيه للدلالة على فعل (الرؤية)، ثم أبسط أصابع يدي اليمنى وسبابة يدي اليسرى للدلالة على عدد (ستة)، ثم أكوّن صورة دائرة بإلصاق نهايتي السبابتين الإبهامين إحداهما بالأخرى وأمد يديّ إلى الأمام وأحركهما كما تتحرك عجلات العربة وهي تسير للدلالة على (العربة)، ثم أضع الكفين ممدودتين بجانب الجبهة ممثلاً قرن حيوان للدلالة على (الثور)، ثم أمد ثلاثة أصابع من يدي اليسرى وأضع يدي اليمنى تحت شفتي السفلى وأنحدر بها إلى صدري ممثلاً اللحية للدلالة على (ثلاثة مكسيكيين)، ثم أمد مرة ثانية ثلاثة أصابع وأمسح جبهتي بيدي من اليمين إلى الشمال ممثلاً وجهاً شاحباً للدلالة على (ثلاثة أمريكيين)، ثم أرفع إصبعاً واحداً وأضع بعد ذلك سبابة اليسرى بين سبابة اليمنى ووسطاها ممثلاً الراكب للدلالة على (رجل واحد راكب حصاناً)

وأضاف إلى ذلك أن الوقت الذي يقضيه أحد المتكلمين بهذه اللغة في أداء هذه الحركات لا يزيد كثيراً على الوقت الذي يستغرقه تعبيرنا باللغة الكلامية عن هذه المعاني

وذكر الأستاذ تيلور بصدد هذه اللغة أن لها قواعد إشارية لربط أجزاء العبارة بعضها ببعض وترتيب عناصرها؛ وأنها في مجموعها تكاد تكون متحدة عند جميع الشعوب التي تستخدمها، فهي من هذه الناحية أشبه شيء بلغة دولية، وأنه يمكن أحياناً للتعبير بها عن حقائق دقيقة كعظات وضرب أمثال وقص حكايات؛ وأنها في جملتها ومعظم تفاصيلها تشبه لغة الصم - البكم. فقد جمع مولري بين رجل أصم - أبكم وطائفة من الهنود الحمر المتكلمين بلغة الإشارات، فأخذ الأصم - الأبكم يقص عليهم بالإشارات قصة طويلة تتعلق بحادث سرقة، وعقب على هذه القصة بتعليقات من عنده، فلم يفتهم فهم أي حركة من حركاته، لاتحادها مع حركاتهم اللغوية

وذهب العلامة (ريمو) إلى أنها قابلة للإصلاح والتهذيب، وأنه لو طال استخدام الشعوب الإنسانية لها لسارت في سبيل الارتقاء، ولأصابها كثير من أسباب التنقيح تحت تأثير الرقي العقلي ومطالب الحياة الاجتماعية، واتساع حاجات الإنسان، وأعمال المخترعين والعلماء. . . وما إلى ذلك

غير أنها مهما ينلها من التهذيب فلن تخلو من مساوئها الذاتية، فهي تستأثر باليد،

فتحول دون القيام بأي عمل آخر في أثناء التعبير. ويتوقف إدراكها على النظر، فلا يمكن التعبير
بها عن بهد ولا في الظلام وهي قائمة على تقليد الأشياء المحسة، فلا تكاد تقوي على التعبير عن المعاني الكلية أو وصف المشاعر والوجدان هذا إلى أنها عارية عن الدقة في كثير من مظاهرها، وأنها تقتضي إسرافا كبيراً في الوقت والمجهود
2 - وأما التعبيرات الإرادية السمعية، فهي التي تصل عن طريق حاسة السمع، وهي الأصوات المركبة ذات المقاطع التي تتألف منها الكلمات
وهذا النوع هو الذي تنصرف إليه كلمة (اللغة) إذا أطلقت وهو وحده الذي يهمنا في بحثنا. وإنما ذكرنا الأنواع الأخرى لاستيفاء مظاهر التعبير من جهة، ولأننا قد نحتاج إليها من جهة أخرى في بيان نشأة هذا النوع، أو في ضرب الأمثال، أو الموازنة، أو مناقشة النظريات وتوضيحها. . . وما إلى ذلك من الأمور التي ستعرض لها، بصدد نشأة اللغة، في المقالات التالية إن شاء الله.

علي عبد الواحد وافي
ليسانسيه ودكتور في الآداب من جامعة السربون

أفانين

أبو النجم الرجاز وهشام بن عبد الملك

للأستاذ علي الجندي

في عصر بني أمية لعمت ثلاثة مت الرُّجاز، زاحموا الشعراء بالمناكب على أبواب الخلفاء والولاة، وقاسموهم جزيل الصَّلات وسنيّ الهبات، بل أكرهوهم على أن ينظروا إليهم بعين الجلّة والإكبار، ويروا فيهم منافسين يُخشى بأسهم، وترهب صولتهم، فاضطروا إلى مجاراتهم في هذا الفن الناهض، ليفوزوا بالحسنيّين، فكان جرير والفرزدق من الشعراء الرجاز
هؤلاء الثلاثة الذين سمْوا بالرجز من الحضيض إلى الذروة، واستنفذوا أهله من الخمول والضّعة: هم: العجّاج التميمي وابنه رُؤبة، وأبو النجم العِجْلي، وفيهم يقول أبو عبيدة: ما زالت الشعراء تقصر بالرجاز حتى أبو النجم:
الحمد لله العلي لأجلل
وقال العجاج: قد جبر الدين الإله فجُبرْ
وقال رؤبة: وقاتم الأعماق خاوي المخترق
فانتصفوا منهم!
لم يكن للرجز في الجاهلية نباهة شأن، فقد كان البدوي يصوغ منه بضعة مشطورات في الحرب والمفاخرة والسَّباب، أو يرسها في غرض تافه كوصف ظبي أو ظلم أو ثور وحشي، حتى جاء شيخ الرجاز وأرصنهم قولاً: الأغلب العجلي من المخضرمين؟ فأطاله قليلاً على عهد الرسالة، فكان مثله في الرجاز مثل المهلهل التغلبي في الشعراء ولكن في هذا العهد - عهد بني أمية - وثب الرجز وثبة قوية موفقة، فبارى الشعر في جُلّ خصائصه كما بارته الرسائل الأدبية في أواسط العصر العباسي، فاستعمل في المدح والهجاء والفخر والرثاء، وذكر الديار والظعائن، والوقوف على الأطلال والرسوم والدَّمن، وبكاء الشباب ووصف الرحلة إلى الممدوح، والتمهيد بالنسيب، والتخلص منه إلى المدح والذم إلى غير ذلك من أغراض الشعر الصميمة
وحسبك فيما بلغه الرجز من رفيع المنزلة، قول المنتجع لرجل من الأشراف: ما علمت ولدك؟ قال: الفرائض. قال: ذلك علم الموالى لا أبالك! علمهم الرجز فإنه يُهَزِّت أشداقهم (يوسعها)
ويقتضينا الإنصاف أن نقول: إن السابق إلى تقصيد الرجز وتضمينه فنون الشعر: العجاج. ولذلك عده الرواة في الرجاز كامرئ القيس في الشعراء
والذي يعنينا من هؤلاء الثلاثة الصدور المقدمين هو أبو النجم العجلي
واسمه المفضّل أو الفضل بن قدامة، يرتفع نسبه إلى عجل ابن لجيم بن صعب بن علي بن بكر بن وائل
وقبيلة بكر من القبائل المعرقة في الفصاحة والبيان! ويكفيها فخراً أنها أخرجت للعرب الأغلبَ وأبا النجم من الرجاز، وطرفة ابن العبد والحارث ابن حِلّزة وأعشى قيس من الشعراء أصحاب المعلقات!

كان أبو النجم يمتاز من صاحبيه: العجاج ورؤبة - على ما لهما من مزايا - بأشياء:
كان بارعاً إلى الغاية من البراعة في النعوت
وكان حاضر البديهة سريع الخاطر: يحدث الأصمعي أنه قال أرجوزته: الحمد لله العلي
الأجلل، في قدر ما يمشي الإنسان مسافة غلوة أو نحوها (مقدار رمية سهم)
وكان أحسن الناس إنشاداً، وكانت له في الإنشاد عادة غريبة! وهي أنه يُرغى ويُزيد
ويرمي بثيابه فيضفي عليه ذلك رهبة وهيبة!
وروعة الإنشاد لا يفكر أثرها في الغلبة والفلج! وبخاصة في عصر يعتمد فيه على
المشافهة والسماع، ويتلاقى فيه الخصوم وجهاً لوجه في المواسم والأسواق
بل إن الإنشاد لم يفقد روعته في عصرنا هذا - عصر القراءة والكتابة - فقد كان عدة
(حافظ) في لتلعب بعقول الجماهير، وانتزاع التصفيق منهم، حتى لقد كان يقوم له
ذلك مقام البراعة والإبداع في شعر (شوقي)
ومن شعرائنا المعاصرين من تسمع شعره ثم تقرؤه، فإذا الفرق بين ما سمعت وما
قرأت كالفرق بين الدر والخزف لكثرة ما يتحاسن في إنشاده ويتصايح ويمعن في
التأوّه والتباكي والشهيق والزفير!
وكان أبو النجم - فوق تمكنه في الرجز - شاعراً مجيداً وقد تغنت في بعض مرّفقاته
عُلَيْة
بنت المهدي، كما أنه انتصر على الفرزدق وجماعة من الشعراء من مجلس سليمان
بن عبد الملك، وحاز الجائزة دونهم بقصيدته الفخرية التي أولها:
(علق الهوى بحبائل الشعثاء)
ومن المقرر في عرف النقدة: أن كل مقصّد يستطيع الرجز - وإن لقي في ذلك بعض
المشقة - وليس كل راجز يمكنه التقصيد. والشاعر الراجز أعلى مقاماً ممن حظه
الشعر أو الرجز فحسب، فإذا اجتمع الشعر والرجز والمقطعات لإنسان سمي:
الكامل. وقد ظفر الفرزدق بهذه المرتبة، ثم أبو نواس من المحدثين.
ولم يكن بد أن تستحرَّ المنافسة بين أبي النجم وبين العجاج وابنه رؤبة، وقد أظلهم
عصر واحد، وجمعتهم صناعة واحدة. ولكن الباحث المتقصي يستطيع أن يرد هذا
الصراع إلى سبب أعمق من المعاصرة: وهي العصبية القبلية؛ فالعجاج وابنه من تمي
ثم من مضر، وأبو النجم من بكر ثم من ربيعة، وبين تميم ابن مُرّ وبكر بن وائل إحن
ومضاغنات في الجاهلية والإسلام! وبين مضر الحمراء وربيعة الفرس حقود وحزازات
حملتها قبائلهما إلى كل بلد نزلت فيه!
وكان العجاج ورؤبة يحذرن أبا النجم ويداريانه، لما عرف عنه من شكاسة الطبع
وزعارة الخلق!
يقول عامر بن عبد الملك السمعي: كان رؤبة وأبو النجم يجتمعان عندي، فأطلب لهما
النبيذ، فكان أبو النجم يتسرع إلى رؤبة حتى أكفَّه عنه!
ويحدثون: أن فتيانا من عجل قالوا لأبي النجم: هذه رؤبة بالمِرْبَد يجلس فيسمع شعره،
وينشد الناس ويجتمع إليه فتيان من تميم، فما يمنعك من هذا؟ قال: أو تحبون هذا؟
قالوا: نعم قال: فأتوني بعسٍّ نبيذ، فأتوه به فشربه، ثم نهض قائلاً:
إذا اصطبحت أربعاً عرفتني ... ثم تجشّمعتُ الذي جشّمتني
فلما رآه رؤبة أعظمه، وقام له من مكانه وقال: هذا رجّاز العرب
ثم أنشدهم أبو النجم أرجوزته اللامية، فقال رؤبة: هذه أم الرجز
ومن طريف مراجزاته للعجاج: أن العجاج خرج محتفلاً، عليه جبة خزّ وعمامة خزّ، فوق
ناقه له كَوْماء (عظيمة السنام) قد أجاد رحلها، حتى وقف بالمِربد - والناس مجتمعون
-
فأنشدهم أرجوزته الرائية:
(قد جبر الذين لإله فجبر)
فذكر ربيعة وهجاها، فجاء رجل إلى أبي النجم، فقال له: أنت جالس، وهذا العجاج
يهجونا بالمربد قد اجتمع عليه الناس.
فقال أبو النجم: صف لي حاله وزيه الذي هو فيه، فوصفه له، فقال: ابغني جملاً وأكثر
عليه من الهناء، فجيء بالجمل إليه، فأخذ سراويل له فجعل إحدى رجليه فيها، وأتزر
بالجمل إليه، فأخذ سراويل له فجعل إحدى رجليه فيها، واتزر بالأخرى! وركب الجمل

ودفع خطامه إلى من يقوده حتى أتي إلى المربد
فلما دنا من العجاج قال للقائد: أخلع خطامه؛ فخلعه، وأشتد أبو النجم أرجوزته:
(تذكر القلب وجهلاً ما ذكر)
والجمل في أثناء ذلك يدنوا من الناقة ويتشّممها! والعجّاج يتباعد لئلا تفسد ثيابه ورحله بالقطران!
حتى إذا بلغ أبو النجم إلى قوله:
إني وكلُّ شاعر إذا شعرْ=شيطانه أنثى، وشيطاني ذكرْ
فما رآني شاعر إلا استترْ ... فِعْلَ نجوم الليل عايَنْ القمرْ
وثب الجمل على الناقة!!
فهرب العجاج والناس يضحكون قائلين:
(شيطانه أنثى وشيطاني ذكر)
وكان أبو النجم ينزل سواد الكوفة وينتجع بقصيده ورجزه خلفاء بني أمية وولاتهم، فيحسنون لقاءه وينفحونه بالعطاء
وله مع الخليفة هشام بن عبد الملك أخبار طريفة ونوادر حِسان كان يجري فيها على سجية الأعراب لا يُوارب ولا يحتشم!
فمن ذلك: أن هشاماً قال له يوماً: حدثني يا أبا النجم. قال: عني أو عن غيري. قال: بل عنك. قال: إني حين علتني الشيخوخة كان يعرض لي البول في اللهيل، فوضعت عند رجلي شيئاً أقضي فيه حاجتي. فقمت ذات ليلة لأبول، فخرج مني صوت! فتشدّدت
وتماسكت، وعدت مرة أخرى، فخرج مني صوت آخر! فأويت إلى فراشي، وهتف بزوجي: يا أم الخيار هل سمعت شيئاً؟ فقالت: لا، ولا واحدة منهما!
فضحك هشام وأمر له بصلة
ومن نوادره المضحكة المبكية: أن ورد على هشام في الشعراء، فقال لهم: صفوا لي إبلاً، فقطروها وأوردوها وأصدروها، حتى كأني أنظر إليها
فأنشده الشعراء وانشده أبو النجم أرجوزته التي مر ذكرها:
(الحمد لله العلي الأجلل)
وهشام يصفق بيديه استحساناً لها! ومضى أبو النجم في إنشاده على أن بلغ قوله في وصف الشمس:
حتى إذا الشمس جلاها المجتلي ... بين سِمَاطيْ شفق مرعَبل
صَغواء قد كادت ولما تفعل ... فهي على الأفق. . . . . .
كان تمام البيت: كعين الأحول
وهنا تذكر أبو النجم - بعد فوات الأوان - أن هشاماً احول! فامتُقع لونه، وتخاذلت أوصاله، وجمد لسانه في فمه!
وأراد أن يغير البيت فخذله شيطانه! وحار في أمره فأطرق واجماً!
ولم يفطن هشام للسبب، فضجر وصاح به: أجز! فلم يسع أبا النجم إلا أن يصدع بالأمر فقال:
كعين الأحول!
نطق بها كحشرجة المحتَضر! والقافية (تعذر)
وكان هشام - على عقله وكيْس - فظاً غليظاً خشناً!
فاستشاط غضباً! وأمر بوجْء عنقه! فتبادر إليه الخدم يدفعون في قفاه! حتى خرج من المجلس وهو لا يصدّق بالنجاة!
ولم يكتف هشام بذلك، فأمر الربيع صاحب شرطته ألا يريه وجه أبي النجم بعد هذا! وأن ينفيه من الرصافة!
ولكن وجوه الناس شفعوا له عند الربيع، فأقرّه فيها
ولم يكن أحد يُضيف في الرصافة، غير سليم بم كيسان الكلبي، وعمر بن بسطام التغلبي؛ فكان يتغدى عند سليم، ويتمشى عند عمر! ويؤم المسجد ليلاً فيبيت فيه!
(البقية في العدد الآتي)
علي الجندي

تأملات
في ذهني صورة منك تنسخ كل صورك: صورة استسلام يحمل كل معاني المنعة، ويعصمك من عيني ومن يدي ومن حسي، وكان خليقاً أن يغريني بك، فلم يغرني. . . ملأني إكباراً لك وتدلهاً بك، لأن فيك شيئاً مقدساً يحميك دائماً من الأعين والأيدي، وحول رأسك هالة من الطهر تحوطه مرفوعاً ومطرقاً فاختلاس النظر إليك نوع من العبادة لا يخفره إليك الشيطان، وأنت في صمتك بليغة، تتحدثين بألف صوت كالسينمفوني. . .
جوارحي دائماً مشغوفة بك، مشوقة إليك، يطربها حديثك ويناجيها صمتك، وتستلهم الوحي من إطرافك. . .
تُرَى يا فتاتي، بمن كان شغلك، وفيم كنت تطرقين؟. . . لا يغرنَّني الغرور، فأحسب اتجاهك كان إليّ، وأنت إلى غير الغرض تتجهين. . . بل أنت في أكبر الظن تتساءلين: ماذا تحسين؟ أخداع هو أم يقين؟. . . وتقولين في نفسك: أيجوز أم لا يجوز أن أجيب نداءً ليس بعد من القلب، ولا هو من وراء القلب. . . ولكنه يوشك أن يصدر عن الصميم؟؟
تقولين في أكبر الظن: إني فتاة عديمة التجربة، وهاأنا ذي أتعرض للتجربة، أأقدم أم أحجم؟ وإذا أقدمت ماذا يكون؟ إنني لا أملك الإقدام، لأنه شر، ولا أملك مع هذا الإحجام. . . إنني أتردد وسأبقى مترددة إلى يوم الدين، ومن كان مثلي فسلامته في الاعتصام لا في الإقدام. . . وقد اعتصمت بحبل الله، وحفظت جميله، ومنحته ودي، وجازيته على حبه حباً عذرياً طاهراً. . . أحس الغبطة فيه، ويثير مع ذلك في نفسي الأشجان
إذن فليكن ما تشائين ولي نقف في حبنا يا فتاتي على قدم المساواة؛ فأنت عندي أسمي من أن أقف وإياك في مستوى واحد، وأكرم من أن أحشر وإياك في صعيد واحد. . . وإني بذلت لك من نفسي أكثر مما بذلتِ لي من نفسك. . . لكن العبرة بقيمة ما أبذل وما تبذلين؛ وقد بذلتُ لك عاطفة جياشة لم أحبسها، وبذلت عاطفة مكبوتة جاهدت في كبتها، فجاءت عاطفتي الجياشة أرخص من العاطفة التي زلتِ تكبتين. . . وتجاوزت إليك الحدود، ووقفتِ أنتِ دائماً مني عند حد. . . فأنا أسخو بما لا يكلفني جهداً، وأنت تبذلين جهداً جباراً فيما تكبتين وتكبحين
لا أدرك مبلغ ألمك لأنك صبوحة دائماً، لكني أحس الصراع في نفسك بين واجبك نحوي وواجبك نحو الله وقد تبدو المقابلة بين الموقفين نابية، لكن الواقع لا ندحه عن ذكره والإشارة إليه، والواقع أني أجاهد في ربط مصيرك بمصيري بهذه الصلة الروحية، ويريد الله أن يكون لكل منا مصير؛ وأنت بما أودعك الله من وداعة تصرفين السوء عن نفسك، وكل شيء يرعاك حتى تلك العين التي ترنوا إليك، واليد التي تتلمس يدك، والحس الذي يهفو إليك بليته ليغمرك أو تغمر به
كوني يا فتاتي ما تشائين فلن تكون مشيئتي غير مشيئتك، وليكن ما يجيش به صدري وفقاً على هذا الحيز الضيق حتى يضيق به فيكون من أمر الله ما يكون
سأبقى أميناً كما كنت شهيداً كما تكونين، ولن أنساك في قيامي وقعودي وركوعي وسجودي ولو ذهبت صلاتي غير مأجورة ولا مثابة، فحسبي أنها خالصة لوجه الله
أنت يا فتاتي شهيدة كأقدس ما يكون الشهداء، قديسة كأكرم ما يكون القديسون. ليست عندنا أديرة ولكنك تلجئين في نفسك الممتنعة إلى دير حصين، وقد تبقين هكذا طوال حياتك وأتقلب أنا مع الأيام، فتبقين لي مثلاً أعلى، وأبيت أنا بشراً ككل الأنام
(م. د)
من وحي الحنين
آذار. . . حدثني. . .
(مهداة إلى الأستاذ الزيات)
للأستاذ شكري فيصل
آذار. . . يا مُطلِق الحياة من قيود الشتاء. . . وباعث النور في أرجاء الكون. . . حدثني. . . كيف ضمعت إليك (دمشق) بعد هذا الفصل القاتم، وذاك الجو الغائم؛ وتلك الليالي القريرة؟!. . . هل أزحت عنها أثقال السحاب. . . وجبت ظلام الضباب. . . ونشرب الروح في جنباتها الحلوة. . . أم أنها لا تزال بعدُ غارقة في صمت الشتاء، صابرة على

. . .!أذى الفرّ. . . تنذرها السماء؛ وتهددها العواصف؟
آذار!ـ . . أيها المنطلق هنا على حفاحي النيل. . . تستمع إلى أنشودته الصامتة؛ وهمسه الخفيف. . حدثني عن (بردي) هذا النهر الوادع. . . ألا يزال ثائراً مضطرباـ . . يحملـ الخوف، وينشر الذعر، ويبث الاضطراب، ويفيض على أطرافه وجنباته كأنما ملّ مظاهر الجور ومهازل الحياة. . . أم أنه عاد سيرته الأولى. . . يحمل الأمان إلى النفوس، ويشع الحياة في المهج؛ وتصطفق أمواجه الفانيات وتنصت إليه أفئدة وقلوب. . . لتسمع أغنيته الخالدة، ولحنه البارع. . . وتنتشر على ضفتيه طوائف الناس تنعم بهذا الرحيق السلسل، وهذا الصفاء الجميل. . . وتقرأ في صفحاته آيات المجد الذي انبثق مع (الغساسنة) وترعرع في جنبات قصورهم الناعمة؛ وتكامل في عهد (أميَّة) وفي ظلال سلطانهم الواسع. . . ثم غاب حيناً من الدهر. . . فبكاه هذا النهر. . . بدموعه وعبراته. . . حتى إذا ولد من جديد في تاج (فيصل) وملك (فيصل). . . وفتح عينيه للنور، ومدَّ ذراعيه يريد أن يحبوـ . . انتزعه الدهر؛ في ليلة سوداء كالحة، ورمى به في صحراء اليأس المجدب . . .
آذار!. . . أيها المرح هنا في ربوع (الأرمان)؛ وملاعب الجزيرة، وحدائق النيل. . . حدثني. . . هلا حملت المرحـ إلى وطني الآخر. . .؟ هلا زرعت البسمات على الشفاه. . ودفعت الدم في العروق، وأحييت موات الأمل في القلوب. . . .؟ أم أن القوم في شغل عنك. . . يقارعون الدهر العصيب، ويجالدون الزمن الغادر، ويدارون الأحمق السفيه؟
آذار. . . أيها الضاحك هنا على شفاه الأزاهير الفوّاحة. . . حدثني. . . عن أزاهير دمشق. . . هل تفتحت عنها براعهما بعد هجعة طويلة ثقيلة. . . وهل نشطت الحياة في هاته الشجيرات الفتية القائمة في وسط الحدائق كأنها زمرة غانيات في موكب زفاف. . . ترقص مع خطرات النسيم، وتهتز مع أنداء الفجر، وتصفق كلما ذهب بها الهواء هنا وهناك؟. . . وهل استفاقت هذه الجنات الفيح يا آذار. . . فنثرت الزهر، ونشرت العطر، وطبعت على وجه الدنيا قبلتها الضاحكة. . . كأنها تنفخ فيها روحاً من النشاط؟
والغوطة. . . هل اكتست الغوطة ذاك الثوب الزاهي يا آذار! بعد عرى طويل. . . فنبت في أرضها العشب الأخضرـ . . ريّان نديَّاً. . . ينفح الفتوة، ويمور بالحياة، ويستقبل الشمس مع الصباح بقطرات من الندى المبعثر. . . البراق كالماس. . . ويودعها مع المساء وهو يقبلها كأنه يتمنى ألا تزول عنه. . . ثم يبكي فراقها في الليل بدموعه الصافية اللألاءة؟. . .!
والزهر المتشقق على مبسم الغصن يا آذار!. . . هل رقت أوراقه الملونة لنجوى . . . المحبين، وآهات الشاكين، وقلوب المتيمين؟ وهل خرج الناس يشهدون هذا السحر الحلال، وهذه الروعة الضاحكة. . . وينعمون بهذه الأجواء المعطرة، والدنيا المتأنقة، وينشقون في هوائها الأرج والعبير، ويطوفون بها كما يطوفون في جنات الخلد. . . ويقرءون آيات الله البارعات في الغصن المائس والفروع المهتزة، والماء الذي يخرج به نبات مختلف ألوانه؟!
ومواكب الزهر يا آذار!. . . هل شهدت (دمشق) هذا العام مواكب الزهر؟. . . . . وهل ضحكت هذه الدنيا الصابرة لصروف الزمان وعبث الدهر. . . وهل صافحت عيناها من جديد. . . هؤلاء الفتيان الذين يذهبون هنا وهناك. . . مع شعاعات الفجر الأولى، يستقبلون الصباح، ويرتعون في الحقول، ويمرحون في الجنان، وينتقلون. . . كالفراشات الطائرة. . . من شجرة إلى شجرة، ومن غصن إلى غصن. . ويصفقون مع أمواه النهر، وينتشون من هذا السحر؛ ويقضون يومهم لله ولأنفسهم. . . ثم يعودون. . . وفي أيديهم هذه الحمالات من الورد؛ وهذه الباقات من الزهر؛ ينشرون عبيرها في رحاب المدينة وأحيائها. . . في صدورهم البشر، وفي وجوههم المرح؛ وعلى ألسنتهم نشيد الوطن الغالي؟. . .!
والريف البعيد يا آذار!ـ . . هل انتفض من نومه العميق. . . وهل فتح أهلوه أبواب دورهم بعد أن سدتها الثلوج، فحالت بينهم وبين الخروج. . . فظلوا في حصار الطبيعة شهراً أو بعض الشهر لا يغادرون هذه المدافئ المبنية في زاوية من زوايا الغرفة. . . وهل بدءوا حياة الربيع الوادع. . . يتفقدون زرعهم الذي دفنوه في الأرض، ووكلوه إلى

الله، وانتظروا موسم حصاده؟!
وهل خرج أطفالهم يتسابقون في طرق القرية، ويتسلقون قمم الجبل؛ ليظفروا بالثلوج المتجمدة. . . يتراشقون بها، ويتزحلقون عليها، على طريقتهم الساذجة الأولية؟!. . .
وفتيات القرى يا آذار!. . . هل انتصبت قاماتهن؛ بعد أن حناها الشتاء؛ في . . . طريقهن إلى ماء القرية، يستقين منه، وقد علتهن الجرار، ولثمت خدودهن هذه النسمات العليلة؛ وعبثت بخمرهن؛ فحركتها ذات اليمين وذات الشمال. . . واجتمعن حول الورد ينشدن في همس خفيف، وتمتمة ناعمة، ويتحدثن حديث القرية وضيوفها ومواسمها وأعراسها. . .؟
وحديث الجبال يا آذار!. . . هل اتشحت بوشاحها الأخضر الزاهي؛ وهل نبتت فوق تربتها هذه الحشائش القصيرة، على أنقاض الثلوج، وبقايا السيول. . . وهل خرجت القطعان تسرح في شعاب هذه الجبال؛ وفي صعابها؟. . . وهل سمعت يا آذار. . . أصوات أجراسها حين تتضيَّف الشمس إلى الغروب. . . وتنسحب غلائلها على صفحة الأفق الوردية. . . وتتراءى صفحة السماء رائعة جميلة. . . وتظهر الشمس كدائرة من النار الملتهبة، تغطس في بحر الظلام فيخمد لهبها ويطفأ نورها، وتمَّحي شعاعاتها من السماء. . . فتبكيها هذه القطعان. . . بأصوات أجراسها الحزينة؛ وتلتفت لتعود إلى القرية. . . في جنح الليل، وستار الظلام. . . والرعاة، يا آذار. . . هؤلاء الذي شرفهم الله، فجعل منهم الأنبياء. . . هل تسلقوا الجبل مع قطعانهم، وحملوا مزاميرهم في أيديهم، ووقعوا عليها نشيد الحياة الهادئة التي تتعالى عن الأرض، فلا تعرف المكر والغل. . وتتقرب من السماء، فلا تعرف إلا الإيمان والنور والحق. . . وهل أنصت إلى نغماتهم الحلوة يا آذار التي يرسلونها في هذه الوحدة كأنها وحي السماء، ونغمة الكون المتسقة، فتنتقل أصداؤها في الجبال مع خفقات الريح. . . ويلقنها الطير ليذهب يرتلها على الناس في الوديان
والحقول والبساتين. . .
حبذا يا آذار. . . حبذا لو استطعت أن تحملني على جناحين رفيقين من نسماتك . . . اللطاف. . . إلى مجالي الأنس، وربوع الحياة إلى مطارح الصبا وملاعب الفتوة. . . أطفئ هذا الحنين الذي يأكل كبدي، وأقنع هذا الشوق الذي يضطرم في صدري. . . برشفات من بردي. . . ونسمات من (قاسيون)
حبذا يا آذار. . . حبذا. . .
(القاهرة)
شكري فيصل
من وراء المنظار
صاحب الديوان أيضا
مضيت إلى الديوان للمرة الثانية، وأنا أمني النفس أن أحظى هذه المرة بما لم أحظ به في المرة السالفة من حل مسألتي؛ ولقد حرصت على أن يكون حضوري إلى الديوان في وقت لا يدع مجيء إليه فيه مجالاً للشك في بدء العمل به؛ فكنت هناك في نحو الساعة العاشرة من صباح أحد الأيام.
ورأيت في إحدى الردهات من توسمت فيه أنه صاحب ديوان فاتجهت إليه مبتسماً محيياً، ورجوت منه أن يدلني أين أذهب للسؤال عن كيت وكيت، فأجاب دون أن يقف، وأنا أسرع الخطو لألحق به، كأنما كان في سبيله لتلافي خطر من الأخطار الداهمة: (عند حسني أفندي في الشطب هناك على شمالك وراء السلم)
وذهبت إلى (الشطب)، فإذا هو قاعة كبيرة، فيها نحو عشرين من أصحاب الديوان، ورأيتهم جميعاً لأول نظرة، والحق يقال، منكبين على أوراقهم. فقصدت أقربهم إلى الباب، فحييت وقلت: (حضرتك حسني أفندي؟) فلم يزد أن أشار بإصبعه إلى من أردت دون أن تنفرج شفتاه ولو برد التحية، ولعله كان في شغل بعملية حسابية معضلة أو بتدبير حل لمشكلة من مشاكل عمله
ونظرت إلى حسني أفندي وأنا أخطو إليه، أحاول أن أتبين شيئاً عن خلقه من مظهره، فخانتني فراستي إما لقصر المدة، وإما لأني رأيت منظره يدل على ألف معنى فلا يدل من أجل ذلك على معنى!. . . ووقفت أمام مكتبة فحييت في هدوء مبتسماً متظرفاً

أحرص الحرص كله على أن أكون خفيفاً ظريفاً على نفسه ما وسعني الظرف. . .
ولكن ظرفي أو قل تظرفي ذهب عبثاً، فإنه لم يرفع رأسه من بين أوراقه ليراه؛
ولمحت دلائل الغضب على محياه فتهببت! ولكني استعنت ثانية بابتسامة عريضة
وكررت التحية فرفع رأسه هذه المرة ونظر إليَّ قائلاً: (أهلاً وسهلاً يافندم) ثم عاد إلى
أوراقه كأني ما جئت إلا لأتبادل وإياه عبارة التحية على هذه الصورة الجميلة ثم انصرف!
وانتظرت برهة، وهو ينقل عينيه من هذا الدفتر إلى ذاك، ويكتب هنا كلمة وهنا
سطرين، دون أن يخطر على باله أن هناك أحداً يريد التحدث إليه. . . ولعله قد تعود ذلك فما يأبه
لمن يقف أمام مكتبه. ولو ظل هناك إلى موعد الانصراف
وطال انتظاري حتى أوشك أن ينفد صبري، والمرء على أي حال لا يطبق مهما بلغ من
حلمه ألا يأبه به الناس في غير داع إلى ذلك. . . على أني عدت فتلطفت وإن كرهت
من نفسي هذا التلطف الذي أخذ يسمج كسماجة ذلك الذي لا يريد أن يلتفت إليَّ؛
وناديته باسمه في صوت مسموع ونفسي تحدثني أنه قد يكون بانكبابه هذا على العمل من ذوي النشاط فعسى أن أفيد من نشاطه
وأخيراً بدا له أن يستجيب إليَّ؛ فقال في كثير من التؤدة وعدم المبالاة (نعم يا أفندي)
فأخذت أشرح له أمري، ولكنه ظهر كمن لا يعي مما أقول حرفاً وبدا في وجهه
التململ والامتعاض ثم مد يده إلى أوراق كنت أعددتها في يدي، فنظر فيها نظرة ثم
قال: (لا، دا هناك في المستخدمين عند عزت أفندي). . . . وعاد بعدها قبل أن أدير ظهري إلى ما كان فيه من جسيمات المشاكل
وانطلقت أبحث في (المستخدمين) عن عزت أفندي هذا لأخبره بما قال حسني أفندي
الذي في (للشطب) فكان حالي معه كما كان مع سلفه: تشاغل عني وصلف في الرد
عليّ، وما كان جوابه سوى أن قال هو أيضاً: (يا فندم موضوعك ده في الحسابات عند
مراد أفندي)؛ خرجت من لدنه أسأل نفسي أأخرج إلى غير عودة ن الديوان، فقد
آلمني ما ألاقيه وليس في مسلكي ولا في مظهري ما يستأهل هذه المعاملة، أم
اعتصم بالصبر فأحظى بالمثول بين يدي مراد أفندي أيضاً؟ وملت بعد تردد إلى الرأي
الثاني؛ ولكن مراد أفندي أكد لي أن مسألتي عند حسني أفندي في الشطب وإلا فهو لا يعرف في الديوان شيئاً
ولعله كان بين مراد وحسني ما جعل أولهما ينهض ليذهب معي إلى الثاني، وعدت إلى
حسني أفندي في الشطب وبين يدي هذه المرة صاحب ديوانه مثله، وبعد نظرات
كريهة رماني بها حسني وبهد مشادة ليست بالهينة بين صاحبي الديوان تبين أن
المسألة عند هذا الذي أحالني من أول الأمر على غيره!. . . ولكنه لم ينظر فيها بل استمهلني إلى غد، ولم يسعني، وقد رأيت ما رأيت إلا أن أخرج وأمري لله!
(عين)

رسالة الشعر

. . .رَجْعُ أيامي

للأستاذ محمود الخفيف

كَنْتَ يا قَلْبُ قَدْ نَسِيتَ الْحَنيناَ ... وَتَأَسَّيْتَ عَنْ هَواكَ سِنيناَ
أَخْرَسَ اليَأسُ لحنَ ماضِيكَ دَهْراً ... وَأَلِفْتَ الْجَوَى وَعِفْتَ الأَنيناَ!
تخفقُ اليومَ لِلزَّمان الغَرِيضِ ... طَافَ بالدِّفْءِ والسَّعى المُسْتَفِيضِ
خَفْقَةَ الرَّاسِفِ الْجَرِيحِ المُعَنَّى ... رَفَّ لِلطَّيْرِ بالْجَناحِ المَهِيضِ
هَتَفَتْ في الضُّحَى شوادِي الرَّبيعِ ... وكَسَا السَّحْرُ كلَّ وَادٍ مَرِيعِ
وَجَرَتْ مِنْ أَرْغُوِ لِهِ فَرْحَةُ المَوْ ... سِمِ لَحْناً وَهَامَ رَاعى القطيعِ
لَمَحَاتُ الرَّبيعِ في تَرْنامِهْ ... والرَّخِيُّ الشَّذِيُّ مِنْ أَنْسَامِهْ
فَسَّرَ اللَّحْنَ كلُّ مُصْغٍ طَرُوبٍ ... بالْمُنَى الضَّاحِكاتِ مِنْ أَحْلاَمِهْ
رَفَّ في لَحْنِهِ شَبَابُ الزَمانِ ... وَخَيالُ الصِّبا وَضِحْكُ الأمانِي
وَشَدَا فِيهِ حُبَّهُ فَكَسَاهُ ... رَجْع أَحْلاَمِهِ أَحَبَّ المعانِي
كلُّ حَيٍّ هَفاَ إلَى أَلْحَانِهْ ... ومَعَاني الرِّضاءِ في تَحْنَانِهْ
أنَا وَحْدِي اللَّهِيفُ فُي فَرَحِ الكَوْ ... ن الوَحيدُ الغريبُ في مِهْرَجَانِهْ!

أَيْنَ منِّى في الرَّوْضِ فِتْنَةُ أَمْسِى ... أيَّ سِحْرٍ فَقَدْتُ؟ والَهْفَ نَفْسي
أوَ لَيْسَتْ يا قَلْبُ هَذي رُبوعي ... وَرُؤَى جنَّتِي وَبَهْجَةُ حِسِّي؟
كلُّ حُسْنٍ أَرَاهُ بَيْنَ يَدَيَّا ... هَامِسٌ بالرِّثَاءِ في أُذُنَيَّا
غابَ سِرُّ الجمالِ عَنْ مَوْسِمِ الرّ ... هْرِ وَهَيْهاتَ أن يُردَّ عَلَيَّا!
أَسْلَمَتْني نواَضِرُ الزّهَرَاتِ ... لِمعَاَني الذُبُولِ مِنْ خَطَرَاتي
صَوَّحَتْ وَيْلاَهُ خُضْرُ الأماني ... وانْطَوَى السَّحْرُ من رَبَيعِ الحَياةِ
أَينَمَا سِرْتُ ذَكَرَتنِي مَآلي ... بَعْدَ عَيْشي الغَرِيرِ، هَذِي المجالي
أيُّ شيء أَخّافُ ثَمَّ عَلَيْهِ ... بَعْدَ مَوْتِ المُنَى، وَشِيكَ الزوالِ؟
زَمَنُ الوَرْدِ كَمْ هَفَا لإبايِهْ ... أمسِ قَلْبي وَتاَق بَعْدَ ذَهَابِهْ
كَمْ رَفَفْنَا مِثلَ الفراشاتِ فيهِ ... وَنَهَلنَا السُّرُورَ مِن أكوابِهْ
كَمْ غَنِمْنَا الجمَالَ في أيسحَارِهْ ... وَاجْتَلَيْنَاهُ فِي مُنُوعِ نَهارِهْ
وَعَشِقْنَا النَّارَنْج في الروضِ تَسْرِي ... نَفَحَاتُ الرَّبيعِ مِن نُوَّارِهْ
وَهَشَشْنَا لِلِكَرْمِ حَوْلَ الصِّفَافِ ... أَرْقَطَ الظِّلِّ، خَافِقَ الألفَافِ
نَاضِرِ العُودِ، كَم تَرَى العَينُ فيه ... لِلرَّبيعِ الجدِيدِ مِنْ أَطيَاف
زَهْرَتِي فِي الرَّبيعِ أَنْضَرُ حُسْناً ... مِنْ بَوَاكِيرِهِ وَأَجْمَلُ يُمْنَا
وَهَيَ أَشْهَى شّذًى وَأَبْهَجُ بِشْراً ... وَاهْتِزَازاً بِهِ وَأَرْهَفُ غُصْنَا
تُنْقِصُ الوَرْدَ سِحْرهُ وَجْنَتَاهَا ... وَسَنَى الكَوْنِ لَمْحَةٌ مِن سَنَاهَا
تَقْطَعُ الرَّوضَ كالفَرَاشَةِ وَثباً ... لَيْسَ غيرُ الجَمالِ دُنْيَا مَنَاها
كم حَلَلْنَا عَلَى الصِّفَافِ مَقِيلا ... وَعَرَفْنَا الكُونَ لَحْناً جَمِيلا
وَاسْتَرَحْنَا هُنَاكَ حَتَّى تَرَامَتْ ... رُقْعَةُ الظِّلِّ فانتَهَبْنا الأصِيلا
نَجْعَلُ الصُّبْحَ إنْ طَلَبْنَا الرَّوَاحَا ... مَوْعِداً نَسْتَعِيدُ فِيهِ المِرَاحَا
فتَرَانَا الرّياضُ وَالصُّبْحُ وَسْنَا ... نُ سَبَقْنَا إلى الشُّرُوقِ الصَّبَاحَا!
إنْقضَى الحُلْمُ في ظِلاَلٍ وَوَرْدِ ... أنا ذا اليومَ أَثْقُلُ الخطْوَ وَحْدِي
أَوْحَشَتْ جَنَّتي وأضحت رؤاها ... وشذاها البَهيجُ مَبْعَثَ وَجْدِي
كم حَوىَ اليَوْم كَلَّ وَادٍ عَشِيبِ ... مِنْ طُيُوفٍ تَلجُّ فِي تَعذِيبي
يُوجِعُ النَّفْسَ فيه مَرْأَي خَلِيٍّ ... وَمُحِبٍّ يَصْغِى به لِحَبيبِ
قَدْ تَوَلّى بَعْدَ الثّلاثينَ عامُ ... فيمَ يا قَلْبُ هّذِهِ الأَوْهَامُ؟
أَيُّها القَلْبُ لَمْ تَعُدْ طِفْلاً ... فِيمَ تَصّبو؟ هَلْ تَنفَعُ الأحلامُ؟
(الخفيف)

وحي الطبيعة الغربية

النبع المتدفق

(زار الشاعر نبع (إيفيان) بفرنسا فأوحت إليه هذه الزيارة العابرة بهذه الأبيات)

للأستاذ محمد عبد الغني حسن

تَدَفقْ على جانبِ الصَّخْرِ ماَء ... وَطُفْ بالعِطاشِ وَرَوِّ الظَماَء
وَفِضِ فِضَّةً أين منها النضارُ ... إذا لاح في صُفْرة أو تراءى
ورأيتُ لديكَ مراضَ الجسوم ... وقد عقدوا في يديكَ الرجاء!
يعزُّ عليهم شفاءُ الطبيبِ ... فيلتمسون لدّيكَ الشِّفاَء
تعالى الذي بثَّ فيكَ العلاج ... وَأَوْدَعَ في قطرتيكَ الدَّواء. . .
وبعضُ الصُّخورِ على عُنفها ... تَمدُّ إلى الظامئين الرِّواَء
وتعطى بلا كبرياءِ الغَنيِّ ... وفي الناسِ ما أكثَرَ الكبرياَء!
تدفّقْ فإن قلوبَ الأنام ... دماءٌ. . . ولكن تحب الدماَء
قسونَ فكنَّ كبعض الصخور ... جموداً وزدنَ عليها الرياَء. . .
لقد أحكموا سَتْرِ سَوْءاتهم ... وخاطوا لها من نفاقٍ كِساء. . .
يُزَخْرِفُ كذَابُهُمْ في الكلام ... ويَرمى بآفاتِه الأبرياَء. . .
تدفّقْ فإن معانِي الحياة ... نَضَبْن وأصبحن فيها هباَء
تدفقْ، كفكرِ الشُّجاع الجريءِ ... يُشعُ على الآخرينَ الضِّياَء
تدفق، كحدِّ الحُسام الحديدِ ... إذا زاد في كل هولٍ مضاء
تدفق هناكَ صفاءً فإنا ... عدمنا بتلك القلوبِ الصَّفاء. .

وكيف يُصفَّى سليلُ التراب ... وقد كان بالأمسِ طيناً وماَء؟
محمد عبد الغني حسن
الأدب في أسبوع
الربيع
أَيَّامُهُ كالغِيدِ، نَضَّرَها ... تَرَفُ الصِّبا وَغَضَارةُ الحبِّ
زُهْرُ نَوَاعِمُ في نَضَارَتِها ... سَحْرُ الحَياةِ وَفِتْنَةُ القَلْبِ
تَمْشي بأَنْفَاسٍ مُعَطَّرَةٍ ... تُحْيي بِرَيَّا الحُبِّ أَوْ تَسْبي
تَنْسَابُ في الصَّبَوَاتِ عَابِثَةً ... عَبَثَ الدَّلاَلِ بِرِقَّةِ العَتْبِ
وَتَدَبُّ في الأَرْوَاحِ نَشْوَتُها ... هَفَّافةً، نَفَحَاتُها تُصْبِي
عَطرُ الحَبِيبِ عَلَى نَسَائمَها ... يُذْكِي غَرامَ الهائمِ انصَبَّ
تُدْنِي إِلَيْهِ خَيَالَ مَمتَنَعٍ ... بالذُّلِّ، مُبْتَعِدٍ عَلَى القُرْبِ
وَتُرِيحُ أَشْوَاقاً مُعَذَّبَةً ... طَمْآي، بِلَذَّةِ مَنْهَلٍ عَذْبِ
!هّذّا رّبيعُ النَّاسِ، واحَزَني، ... وَرَبِيعِيَ الأَشْوَاكُ في قَلْبِي
أَغْضَي شَبابي في مُلاَوَتِهِ ... كالشَّيْخِ تَحْتَ عَمائمِ الشَّيْبِ
وَدَلَفْتُ بالأَيَّامِ مُتَّئِداً ... حُمْلَتُها خَطْباً عَلَى خَطْبِ
أَمْشِي بأَفْكَارٍ مُحيَّرَةٍ ... بالشَّوْقِ آوِئةً وبالرُّعْبِ
هَذَا شَبَابي، سَائرٌ أَبَداً ... برَبِيعِه في مَقْفِرٍ جَدْبِ
!أَحْيَا الشَّبابَ رَبِيعُ حُبِّهِمُ ... - نَعِمُوا بِهِ - وَأَمَاتَنِي حُبِّي
(شاكر)
الرأي العام
كتب الأستاذ (الزيات) في العددين الماضيين من الرسالة كلمتين جليلتين، إحداهما عن (التبشير) والأخرى عن (فقهاء بيزنطة): أي فقهاؤنا وعلماؤنا. وهما تنزعان جميعاً إلى بيان أصل واحد، وهذا الأصلُ هو غفلتُنا وإمهالنا، ثم غثاثة آرائنا وضآلتُها؛ وهذه مردّها إلى عِلل كثيرة قد توغَّل داؤها في أعصاب الأمم الإسلامية، حتى صار الدواء لها باطلاً أو كالباطل، وذلك لغلبة الجهل علينا، وفي الجهل العناد، وفي العناد المكابرة، وفي المكابرة اللجاجة، واللجاجة أمٌ ولودٌ كل أبناءها أباطيل، ومنْ طلب علاج الأباطيل وترك أمهاتها
تَلدِ، فقد جعل علاجَه باطل الأباطيل
وهذه الأمة المصرية وسائر الأمم الإسلامية قد خضعت من قرون طويلة لسيطرة الجهل وبغيه، وامتدت عليها حقبٌ طويلة أظلتها بالغفلة والنسيان والموت، وحجبت دونها شمس المعرفة ونور العلم، حتى انحنت على أساطير التراب تجدُ فيها كل معاني الفكر والعقل والقوة، وصار همُّها الأرض وما تنتج مما يكفي شهوات النفوس المستغلة باللذة، أو يردُّ مسغبة النفوس المحطمة بالعمل. ثم جاءت الذئابُ الذكية العاقلة المدّرة، فعرفت صيدها وقالت له: أعمل عَملك، فهذا طريقُك، ولكنها خشيتْ أن تتمزّق الظُّلَلَ وتسقطَ الحُجُب، وتهبَّ تلك القوة العلوية الرابضة في دمِ الإنسان، فترى أشواقَها فتندفع إليها اندفاع الوحش المجوّع في مَهوى الريح التي تحملُ أنفاسَ فريسته، وعندئذ تعجزُ الحيلة في دفع هذه القوة وردّها إلى ما كانت عليه تحت أطباق الخمول والخمود والغفلة. وعمِلَ ذكاءُ الذئاب عمله، ورأي أن قمع القوة العلوية بالاستبداد والفجور في الاستبداد هو الشر عين الشر، وأنه كقمع البخار في قماقم الحديد ومن تحتها جاحم من النار يتضرم، فما يعقب إلا الانفجار والتصديع والأذى. فنكبوا عن ذلك إلى تصريف هذه القوة العلوية حين تستيقظ في هذا الشرق تصريفاً يكفل لهم معها أمرين:
الأول التنفيس عن هذه القوة، واتخذوا لذلك أبرع الأساليب، فحاولوا أن يظهروا وكأنهم هم الذين يعملون على إزالة غشاوة الجهل عن العيون المحجبة، فأنشئوا المدارس وتلبَّسوا بالنصيحة للتعليم في معاهدة كلها، وجعلوا خلال ذلك يضعون ويقرون أصولاً تؤدي بهم إلى أغراضهم، ليسيروا بالتعليم إلى حالة ترضيهم وتنفعهم، فلا يخرجون من هذه المعاهدة جيلاً يقف أمامهم كما تقف القوة للقوة وكما يناهض العقل العقل؛ ثم يزاحم في إنشاء الحضارة بالقوة العاملة والفكر المبدع
والأمر الثاني: وهو بناء على ذلك البناء، وذلك اجتهادهم - بكل أساليب التنبيه والدعاية

والمثال وغير ذلك - في توجيه الرأي العام في نواح بعينها إلى العصبية الفردية والإجماعية، ثم صرف هذا الرأي العام - أي أهله - عن الاهتمام بتقرير الأصول العامة التي تسير عليها السياسة الخلقية والعقلية والإنشائية والعملية؛ وعن العمل في توحيد الرأي العام للشعب توحيداً يكفل للأمة أن تستغل كل قواها في تدبير المستقبل على نظام ثابت
مستقر ماض على أسبابه إلى النهاية غير مختلف ولا متنافر

وقد كان من نتائج هذين الأمرين العظيمين - حين استيقظنا وأبصرنا - أن تعددت الثقافات في الشعب الواحد، وتنابذت العقول على المعنى الصحيح، واختلفت المناهج المفضية إلى الغايات، وعاون ذلك ما ورثناه من الجهل الداعي إلى العناد والمكابرة واللجاجة؛ فاستشَرى داء العصبية وأصبح العمل عندنا لا يكون عملاً حتى يحاول أن ينقُض كل ما سبقه من العمل، وتعاقبت على الأمة أطوار بعد أطوار ولا نزال في عهد الإنشاء، ولا تزال اللجان تجتمع عاماً بعد عام لتقرر وتضع، وليس إلا التقرير ولوضع وحَضَانة المذكرات!!

وكذلك احتل نظام الرأي العام، وهو لا يكون إلا من اشتراك الجماعة في الأصول الثقافية كلها، واختَل أيضاً مكوِّن الرأي العام، وهو الصحافة وما ينزل في ذلك منزلتها، فتكَون من الصحف المختلفة المبادئ آراء متخالفة، لا بل متباعدة، لا بل متعادية؛ كلا بل هي في الواقع لا تمس جوهر حياة الشعب العامل المستَهلك في الزراعة والصناعة والجهْل أيضاً. . . وحتى لا نجد صحيفة واحدة قد بَنَتْ دعوتها على أصولٍ بينة موافقة لحاجة هذا الشعب، وعلى هذه الأصول تأخذ وتدع، وتحبذ وتنقد، وتهدم وتبني، على تعاقب السنين وتغير الظروف والأحوال
التبشير

وأحدُ الأمورِ التي ابتُغىَ بها العملُ على إضعافِ الشعب والتفريق بين أهله، وإيجادُ ضروب من الثقافات في بلد واحد يجب وجوباً قطعياً - كما يقولون - أن تتوحد ثقافته - هو ما اتخذوه من التبشير ومدارسه المختلفة، وما يبطن أصحابها وما يظهرون. وليس التبشير هو الدعوة الصريحة إلى الدين المسيحي، فإن هذا لا يمكن أن يكون في بلد جل أهله من المسلمين، وخروج المسلم من دين الإسلام إلى دين غيره يكاد يكون مستحيلاً في العامة من الشعب، ويكاد لا يصح عند المتعلمين وأشباه المتعلمين. وهذه حقيقة يعرفها المبشرون قبل أن يعرفها المسلمون، وإذن فليس الغرضُ من التبشير هو المفهوم من لفظه، ولكنه الذي أشار إليه الأستاذ (الزيات) في مقاله، ثم إيجاد ضرب من الثقافة الأدبية والخلقية والعقلية يناقض ضروباً أخرى من الثقافات المختلفة في مدارس الأجانب والمدارس الوطنية، وبذلك تتعدَّد المناهج الفكرية في حياة الشعب، ويعسر بعد ذلك أن تتحد
هذه الثقافات على رأي عام يقوم عليه الشعب ويحرص على تنفيذه، ويأخذ في الإعداد للوصول إليه درجة بعد درجة. وكذلك يبقي الشعب إلى النهاية وهو بدء لا ينتهي وفي اختلاف لا ينفضُّ، بل يصير ولابد إلى المعاداة والمنابذة والأحقاد التي تورثها السياسة الاجتماعية الخفية التي طغت على الشرق من قِبَل حضارة قوية باهرة عظيمة كالحضارة الأوربية

ولا يزال أهل الشرق مختلفين ما بقيت هذه الثقافات المتعددة من مدارس التبشير إلى المدارس الإلزامية، تمد الرأي العام بأصحاب الآراء المختلفة والعقول المتباينة. ولن يصلح أمر هذا الشعب حتى يناهض ذلك كله بانصرافه إلى مدارسه ابتغاء توحيد ثقافته على أصل واحد. والأصل الضعيف الموحد في ثقافة الشعب خير وأنفع من الأصول المتعددة القوية، لأن هذه تغري بالتفرقة والعداء، وذلك يؤلف ويوفق ويضم أشتاتاً ويقيم القلوب على الإخلاص والتفاهم
فقهاء بيزنطة

وهذا مثل جيد ضربه الأستاذ الزيات لاختلاف عامة المسلمين على بعض أحكام الفقه الإسلامي والسنة النبوية، وبغي بعضهم على بعض في ذلك، وتركهم الأصول الإسلامية التي ترفع المسلم إنسانية فوق إنسانية، وتمحِّصه من الجهل والضعف والفساد والذلة. وكيف يختلف علماء المسلمين على فروع من دينهم ويدعون الأصل لا ينفذ نوره إلى قلوب هذه الملايين من المسلمين، فيطهر أدرانها ويزيل غشاوة العمى التي ضرب

عليهم أسدادها.
وضرب الله مثلاً فقال: (ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة، ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم على العالمين. وآتيناهم بينات من الأمر، فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ثم جعلناك على شريعة من الأمر، فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون).
فقد بين الله سبحانه أن اختلاف من سبقنا لم يكن إلا بغياً من بعد أن جاءهم العلم، وأنه جعل المسلمين على شريعة من الأمر وحق ذلك ألا يقع الاختلاف بين المسلمين إلا في رأي لا يفضي إلى فرقة، وعلى ذلك كان السلف من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتبعوا قوله: (لا تختلفوا فتختلف قلوبكم)، وقد نهى عن الجدل والمراء وتناهي أصحابه عنه حتى قال ابن عمر: (لا يصيب الرجل حقيقة الإيمان حتى يترك المراء وهو مُحِقّ)
ونحن قد صرنا الآن إلى زمن قد غلبت فيه بدع كثيرة ليست من الدين ولا تنزع إليه، ولكنها من محدثات الأمم وفتن الأهواء. ونحن أيضاً في زمان ضعف وقلة وتفرق، والأمم من حولنا تتباغى على أنفسها وعلينا، فما يكون اختلافنا على البدع والمحدثات وبغي بعضنا على بعض، ومصير ذلك كله إلى العداوة والبغضاء وأن يكفر بعضنا بعضاً - إلا إعانة لهؤلاء على النيل منا ما شاءوا. ثم نحن في زمان جهل بالدين، فليس من أمر الله أن ندع أصل الدين مجهولاً وننصرف إلى فروع نحاول على إبطالها أو تحقيقها
وقد روي البخاري: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اقرءوا القرآن ما ائتلفت قلوبكم فإذا اختلفتم فقوموا عنه)، فإذا كان من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحسم أصل الخلاف بترك مجلس الخلاف في القرآن وهو أصل الإسلام كله، فأولى أن نقوم عن مجلس الخلاف في فروع وسنن، لئلا يفضي ذلك إلى مثل الذي نراه بيننا اليوم من التعاند على بعض السنن بالعداوة، حتى صار لكل صاحب رأي فريق يحامي دونه ويعادي عليه، ثم يقع بعضهم فيما هو أشد نكراً من أصل الخلاف، ألا وهي الغيبة والتفريق بين المسلمين

سياسة الإسلام

والإسلام في بنائه قائم على مصلحة الجماعة، وجعل المسلمين يداً على من سواهم، وأن يكونوا كالبنيان يشد بعضه بعضاً. وهذه مصلحة مقدمة على كل المصالح الأخرى، وهي مقدمة على فروع الفقه الإسلامي، كما قدم الجهاد في سبيل الله على كل عمل من أعمال الإسلام
والإسلام في أصله أيضاً لا يعرف من نسميهم اليوم (رجال الدين) فإنما هم من المسلمين يعملون أول ما يعملون في حياطة الجماعة وإقامة كيانها الاجتماعي والسياسي بالعمل، كما يعمل فيه سائر الناس في وجوه العيش وضروب البناء الاجتماعي. وليس الانقطاع للجدل في الفقه والسنن والتوحيد عملاً من أعمال الحياطة إلا أن يبنى على المسامحة والأخوة والرضا وترك اللجاج والمعاندة، وإلا فهو شرٌ كبيرٌ يجب على المسلمين أن يحسموا أصله
فإذا استقرَّ البناءُ الاجتماعي للأُمم الإسلامية على أصولِ الإيمان المُبِصر والتقوى الهادية،
وتبرأت النفس والقلوبُ من غوائل الضعف والذّلةِ والخُضوع، وقام على الأمم الإسلامية قرآنُها يَهديها، ويُهذِّبُ شُعوبها، ويرقِّق أفئدتها لدين الله، ويؤلف قلوبها على إعلاء كلمة التوحيد، ويجمعها على دستور الإسلام في التشريع الواضح الحازم القوي، ويجعل الاجتماع في كل بلد إسلامي اجتماعاً بريئاً من فتن الغواية ومحدثات الشر، ثم تكون للمسلمين حضارة من أصل دينها تضارع الحضارات التي تناوئ شعوبها وتستذلها، - إذا كان ذلك كله - فعندئذ يستطيع الحكم الإسلامي أن يرد ما يبقي من البدع التي غلبت على أهل الجهالة بالسلطان الحاكم لا بالكلام المفرق بين الناس وإذن فأجدرُ العملين برجال الإسلام من أصحاب الفقه والشريعة والتوحيد أن يعملوا على إنقاذ المجتمع الإسلامي من أسباب ضعفه بهدايته بأسباب القوة الأخلاقية والفكرية التي جعلت المسلمين في ثمانين عاماً سادة حاكمين على الإمبراطورية التي جاهد الرومان في بنائها ثمانمائة عام. . . وإلا فلن يكون بعد مائة عام محمل في حج

ولا محراب في مسجد
محمود محمد شاكر
رسالة الفن
تأملات في الفن
في معرض مختار
للأستاذ عزيز أحمد فهمي

كان الزوار جميعاً في ركن ملتفين حول هدى هانم شعراوي، وسيدتان مفردتان في ركن آخر تحومان حول التماثيل، إحداهما من أصحاب المعرض تشرح للأخرى الزائرة، فعرجت إليهما ووقفت على مقربة منهما أدعي أني أنظر في تمثال، بينما أنا أتسمع إلى ما تقولان، لأرى كيف تتحدث السيدات عن التماثيل. . .

ووقفنا أمام تمثال (المنجد). . . الزائرة تنظر إليه في حيرة كأنها تخاف أن تظهر الإعجاب به، بينما يكون هو مما لا يستحق الإعجاب، وتخاف أن تزدريه، بينما يكون هو من روائع المعرض فوقفت الزائرة ساكتة كأنها مستغرقة في تأمل التمثال، وكأنها ممن لا يتسرعن إلى إصدار الحكم على الأشياء لغرام عندها بالتحقيق والتدقيق، وتقليب أوجه النظر، واستقصاء المحاسن والعيوب، كيلاً يكون حكمها آخر الأمر إلا الحكم الفصل الذي لا يقبل النقض

ورأت صاحبتها أنها لو انتظرتها، حتى تقول كلمة في المنجد أو تعبره من غير كلام، فإنها قد تقضي الدهر واقفة مع زائرها وهي تمثال آدمي لطيف أنيق (أريستكرات)، ينظر إلى تمثال من حجر متواضع ديمقراط. . . فقطعت صاحبة المعرض هذه السكتة الباردة وقالت:

- مدهش التمثال. . .

فبلعت الزائرة ريقها لأنها سمعت كلمة خرجت من فم صاحبتها وفي نبراتها معنى التأكيد فأدركت أن هذه الكلمة حكم على التمثال، ولكنها لم تلبث حتى زاغت روحها مرة أخرى كأنها لم تفهم ما إذا كانت كلمة (مدهش) هذه مدحاً للتمثال أو ذماً، وكادت روحها تتكاسل وتقنع بهذا الزيغ فتظل في التيه الذي انتقلت إليه حتى تستدرجها صاحبتها إلى عالمنا هذا بكلمة أخرى. . . غير أن الله ألهمها أن كلمة (مدهش) هذه قد مرت بها قبل ذلك فقلبت عينها في محجريها فاستدارتا فبان بياضهما وحده، واتجه إنساناهما إلى داخلها

يفتشان في أعصابها وحنايا نفسها عن كلمة (مدهش) هذه ما معناها. . . وأخيراً اهتدت، وظهر عليها أنها ذكرت، وأغلب الظن أنها ذكرتها بمجلة من المجلات العصرية التي تكتب أنباء الطبقة الراقية فقد خدمت هذه المجلات اللغة العربية إذ حملت بعض كلماتها إلى أهل الطبقة الراقية هؤلاء. . فلها الشكر. . .

وكأن صاحبة المعرض أدركت أن زائرتها قد فهمت أخيراً أن هذا التمثال مدهش، ولكنها إلى جانب هذا أدركت أن هذه الزائرة الصغيرة، لا تزال تريد أن تعرف لماذا كان هذا التمثال مدهشاً، فأسرعت وقالت:

- إنه مدهش لأنه ولأنه حلو. . .

وكانت صاحبة المعرض تستطيع أن تقول (بسيط) و (جميل) ولكنها خشيت ألا تفهم الزائرة من كلامها شيئاً، وهي زائرة عليها مظاهر اليسار، وأمثالها وحدهن هن اللواتي يشترين التماثيل ليضعنها في الصالونات لتكون موضوعاً لحديث الزائرين والزائرات ومجال الإشارة إليهن والتنويه بهن في الصحف والمجلات. . .

وانتقلت الزائرة من أمام تمثال المنجد إلى أمام تمثال بائع العرقسوس وهو تمثال كبير في الحجم الطبيعي وقد صنعه صاحبه من الورق المقوى صناعة اهتم فيها بمظهر التمثال وملابسه وأدواته اهتماماً كبيراً

ورأت الزائرة ألوان التمثال فانبهرت، وكأنها قالت في نفسها لابد أن يكون هذا التمثال هو بطل المعرض فليس غيره تمثال مزوق منمق لابس ملابسه كلها، وليس ينقصه إلا أن يمشي في المعرض يبيع للناس مما يبيع. . . وهنا تفتفت في رأس الزائرة مسألة جديدة هي هذا الذي يبيعه الرجل. . . الورقة مكتوب عليها بائع العرقسوس، ولكن ما هو العرقسوس؟. . . بنات الطبقة الراقية لا يعرفن العرقسوس!. . . فسألت صاحبتها:

- دي جيلاتي. . .؟!

وصدمني هذا السؤال فضحكت، وشعرت الزائرة بأني أضحك ساخراً منها فاصطنعت السعال وأرادت صاحبة المعرض أن تنقذ زائرتها فرطنت إليها بالفرنسية كلاماً قد يكون معناه: لا تعبئي بهؤلاء الشعب. وأدركت أني إذا وقفت بعد ذلك على مقربة منها أو تبعتها فإني سأفسد الشغل على المعرض وأصحابه، وأنا من أول الأمر لا فائدة مني للمعرض ولا
نفع فلا أقل من أن أكون غير ذي ضرر. . فانتحيت جانباً أفيض حسرة على متابعة هذا الحديث الشهي الدائر بين هاتين السيدتين. . . أريد أن أسمعه إلى آخره وأن أعتصر كل ما في أسئلة الزائر من بله، وأن أستمتع بكل افي أجوبة صاحبتها من صبر وسخرية. . .
ولكني ابتعدت مجاملاً، وعدت إلى تمثال المنجد عساني أرى فيه شيئاً أكثر مما أشارت صاحبة المعرض لزائرتها. . .
التمثال يمثل شاباً مصرياً منجداً في جلباب قاهري لعله كان من (الزفير) أو (العبك)، وهو جالس على الأرض جلسة المنجدين وفي يده القوي يضرب به القطن. . . وقد كتب عليه أنه من صنع الآنسة جلاديس بولاد وأنه نال الجائزة الأولى
التمثال كله مصنوع بمهارة وحذق ولباقة ورقة، وهو منسجم مستريح سليم لا عيب فيه إلا شيء واحد فقط. . . ذلك أنه إذا أقسم لي أهل الأرض وأهل المريخ بأن الآنسة جلاديس قد نقلت هذا التمثال عن شاب منجد حقاً فإني أصر على رفض هذا القسم ممتنعاً على الاقتناع به. وإنما وجه هذا التمثال منقول عن وجه شاب يخيل أليّ أنه من بيئة مهذبة تهذيباً عالياً، ما يخيل إلى أنه نفسه من المفكرين الذين لا يفتأون يحاسبون أنفسهم ليلاً ونهاراً ويتأملون في كل ما يسنح ويعرض لهم من البوادي والظواهر، كما أني أرى فيه ما هو أعمق من هذا وأشد انطباعاً في نفسه، ذلك أنه لابد أن يكون ذلك الشاب الذي نقل عنه هذا التمثال عاشقاً مدلهاً معذباً أنكسر قلبه من الحب وهو يمسك بعقله خشية أن ينكسر هو أيضاً. . .
كل هذا ظاهر في ملامح الوجه الذي ربط على جسم هذا المنجد، فإما أن يكون هذا التمثال منقولاً عن شاب لا صلة له بالقوس ولا بالقطن، وإما أن يكون هذا المنجد من قراء الدكتور غالي الذين يدوخون في تفهم النسبية والإلكترونات وما إلى ذلك من المصاعب، على أن يكون هذا القطن الذي (ينجده) قطن معشوقته التي ستزف إلى منافسه في الغرام. . .
وعلى وجه غير هذين الوجهين لا أستطيع أن أفهم هذا التمثال ولا أن أستسيغه، فأيهما كان هذا الشاب صاحب هذا التمثال؟ على أي حال إن هذا أمر لا يعنينا وإنما يكفينا أن نلمح هذا اللون أو ذاك من الحياة في التمثال، فليس لنا عند الفنان أكثر من أن يسقينا شهده، وليس لنا عليه أن يكون هذا الشهد ما نعرف أو مما سبق لنا أن ذقناه. . .
إنه (منجد) رأته هكذا الآنسة جلاديس بولاد. . . ولها أن تفخر بأنها رأت شيئاً وبأنها تحس
وتدرك ثم تعبر عما تقف أمامه زائرة كالتي رأيناها لا تعرف الفرق بين بائع الجيلاتي وبائع العرقسوس. . .
انتهيت من هذا (المنجد) ونظرت يمنة ويسرة فلفتني تمثال لغجرية تبين (زينا) لامرأتين قرويتين استند إلى كتف إحداهما طفل. . . كنت على بعد خطوات من التمثال أراه ولا أرى تفاصيله وملامح وجوهه، فجذبني إليه (موضوعه) واقتربت منه أبحث عن فعل لفنان فيه، فالغجرية امرأة لها عقل أبرع من بقية العقول، ولها نظرات أنفذ من بقية النظرات، ولها إشارات أكثر امتلاء بالمعاني من بقية الإشارات، والنسوة اللواتي يجلسن إلى الغجرية يستفتينها في شؤونهن لسن هادئات ولا نائمات، وإنما تثور في نفوسهن رغبات، وتصطرع فيها آمال، وتتخبط فيها نزوات ولواعج، والصبي الذي يستند إلى كتف أمه ويقف يسمع الغجرية تحدثها لا يمكن أن يخلو من الفضول وحب الاستطلاع، ولا بد أن يظهر في وجهه تفرس يتتبع به هذا الكلام العجيب الذي يسمعه والذي يحسه لا يشبه غيره من الكلام. . .
دنوت من التمثال لأرى فيه هذا كله فماذا رأيت؟
رأيت الغجرية نائمة والمرأتين ناعستين والصبي المستند إلى كتف أمه شارد الروح. . . بل إن شارد الروح يدل على نفسه، فيعرف الناظر إليه أنه قد سرح إلى دنيا غير هذه

الدنيا، فهو موجود فيها، وإن كان مفقوداً في دنيانا. . . أما هذا الطفل، فقد ظهر عليه أنه ابتلع روحه، فهي في بطنه محبوسة لا تكسوه حياة الأرض ولا تنتقل به إلى حياة أخرى. . .

كان هؤلاء الجماعة أشبه الجماعات بتلاميذ المدارس في لحصة الخامسة بعد أكله العدس. . . متهافتين إلى النوم، متبلدين عن الفهم، ولم يكن فيهم ما يكون في غجرية وجماعة مصغين إليها. . . فكسف دخل هذا التمثال هذا المعرض؟ وأي شيء فيه أغرى المعرض بعرضه؟. . . هذا ما يعلمه الله وما يعلمه أولئك الذين يقولون: إنهم يشجعون الفنانين الناشئين. والذين أريد أن أقول لهم: إن تشجيع الفنانين الناشئين لا يصح أن يكون على حساب الفن، ولا يصح أن يتعدى حدود التشجيع إلى أن يكون تحريضاً على الفن، وإكراهاً له أن يخضع ويذل لمن لا يكرمه ويفسح له روحه ونفسه. وهذه كلمة شديدة لا أريد منها إلا أن تحفز صاحب الغجرية على أن يمعن في التأمل إذا تأمل وأن يثابر في تجويد التعبير

إذا أقبل على تمثال جديد، فإذا لم يجد في نفسه القدرة على ذلك استرزق الله عملاً آخر غير الفن. . .

وبدأ الزحام الذي كان محيطاً بهدى هانم شعراوي في الركن البعيد ينحل قليلاً قليلاً، فقصدت إلى ذلك الركن فكان أول ما استرعى نظري فيه تمثال آخر صغير لبائع العرقسوس حسبته أول ما رأيته أنه من صنع آنسة أو سيدة لما رأيت فيه من حنان وإعجاب ذاعا في تكوينه ونحته، وتفصيل جوارحه تفصيلاً لا يمكن إلا أن يكون استجابة لطرب كانت ترقص به اليدان اللتان نحتتا هذا الجسم الفارع المشرق الأنيق. حسبت هذا ولكنني علمت أنه من صنع شاب هو سيد زيدان، فهنأته به ولم أكتم عنه ما خطر لي فابتسم في استحياء كمن لم يكن يحب أن يقال له كلام كهذا، ولكني هونت عليه بأنه لا حرج على الفنان الرجل أن يعجبه جمال الرجال. . . وإني أعتقد أنه لو كان زيدان قد اهتم بوجه تمثاله هذا على نحو ما لكان قد عرض إلى جانب هذا الجسم الحلو وجهاً فيه شيء ما نذكره له إلى ما ذكرناه من جمال البدن في تمثاله، ولكنه استغرق في الذراعين والساقين والكتفين، وغير ذلك واكتفى بذلك. . .

واكتفيت أنا أيضاً وهممت أن أنصرف، لولا أني رأيت عبد السلام الشريف ينطلق إلى تمثال (عازف الربابة) ليقرأ اسم صاحبه فقرأت الاسم معه وسألته رأيه في التمثال وصاحبه فقال: التمثال بديع وصاحبه أحمد صدقي مثال محسن

وعبد السلام الشريف فنان في الصف الأول من الفنانين المصريين، له أسلوب في الرسم والزخرفة لم يسبقه إليه إنسان، وقد أحدث القارئ عنه في فرصة قريبة، وفنان هذا شأنه لا بد أن يكون لشهادته قيمتها. والحق أن تمثال العازف على الربابة تمثال بديع ولو أنه لم ينل جائزة، وميزته أنه منحوت على المنهج الفرعوني وفق الطريقة التي أحياها المرحوم مختار، ومع هذا فإن صاحبه احتفظ (بقاهريته) في وجه التمثال فلم ينحته عن واحد من أبناء الصعيد أو أبناء الريف، وإنما صوره وجهاً قاهرياً فيه تأنق القاهريين، ولطربوشه ميلان التأنق الذي يصطنعه أبناء القاهرة، ولشاربيه انتظام شواربهم وإحسان تنظيمها

ولا ريب أن هذا التمثال كان أحق بالجائزة من التمثال الذي نال الجائزة الثانية، ولكنهم قالوا لي: إنهم منحوا الجائزة الثانية لآنسة متعمدين كي يشجعوا الجنس اللطيف على غزو

ميدان الفن

وأنا منذ اليوم أنذرهم بان ليس في الجنس اللطيف هذا أمل كبير في الحصول على فن من صنع يديه، فعليهم في المسابقات المقبلة أن يراعوا الحق فذلك خير.

عزيز أحمد فهمي

رسالة العلم

في بيوت النمل

للأستاذ أحمد علي الشحات

ما من حشرة أكثر انتشاراً على سطح المعمورة من النملة، وقد يبدو عجيباً أن تستطيع هذه الحشرة الصغيرة أن تهيئ نفسها للأجواء والبيئات المختلفة؛ فكما أنها تعيش في أوربا تعيش كذلك في أفريقية - وفي الجبال والأودية، وفي الغابات

والصحارى، وعلى شواطئ الأنهار والبحيرات. وقد أحصى العلماء ستة آلاف نوع من النمل تختلف في الحجم والشكل والعادات واللون، فمنها ما لا يزيد طولها عن ملليمتر ومنها ما يصل طولها إلى بوصة. ومنها الأسود والأحمر والبني والأصفر والأخضر وما تضاربت وجهات نظر العلماء كما تضاربت في تعليل عادات النمل ونشاطه وهل مصدرها التفكير أم الغريزة؟

والنملة في الاجتهاد والمثابرة يضرب بها المثل. فمن الهزيع الأخير من الليل إلى غروب الشمس تظل دائبة على العمل في نقل غذائها وتخزينه، أو بناء مأوى لها، وتستطيع أن تحمل ما يزيد على أضعاف وزنها من المواد، فقد أجرى العالم فوريل بعض التجارب فوجد أن النملة تستطيع أن تحمل ما يفوق وزنها ستين مرة.

وقد درس فرولوف وهو عالم روسي يشتغل بدراسة الأحياء بعض عادات النمل، فأتى بصندوق ونزوع أحد جوانبه واستعاض عنه بلوح زجاجي شفاف حتى يشاهد منه حركات النمل، ونزع كذلك السطح العلوي ليدخل الهواء منه إلى الصندوق، ولكنه وضع نسيجاً شفافاً مكانه حتى لا يهرب منه النمل، وسد ما قد يكون من ثغرات دقيقة بمعجون ليضمن عدم خروج النمل، ووضع أمام اللوح الزجاجي ستاراً ليحجب الضوء عنه - وبمجراف ودلو أخذ جزءاً من كوم طبيعي صغير للنم - بما احتواه منه ومن بيض وبقايا نباتات، وما يكون قد وجد فيه غير ذلك - من غابة تبعد ثمانين ياردة عن معمله ووضعه في الصندوق. فلما استعاد النمل هدوءه بعد نقله من موطنه الطبيعي بدأ نشاطه وأخذ ينظم بيته الجديد فخصص مكاناً أميناً للبيض ونقله بعناية إليه، وأقام مما حوله بيتاً منظماً ذا غرف عديدة، وفتحات للدخول وأخرى للخروج، وردهات يجتمع فيها. وظل النمل يومين كاملين يشتغل في موطنه الجديد كأن قد طاب له المقام فيه، حتى إذا ما أقبل الصباح الثالث ورفع العالِم

الستار ليرى النمل، فلشد ما كانت دهشته حين وجد أن ما قد أقامه النمل وتعب في تنظيمه قد دك دكاً، وأن البيت الجديد قد هدمت قواعده فتطرق إلى ذهنه أنه لظروف ما غير ملائمة قد مات النمل ففتح الصندوق ولكن كانت دهشته أعظم حين لم يعثر على نملة واحدة أو بيضة واحدة رغم ما قد اتخذه من احتياطات تكفل له عدم هروب النمل فعاد إلى الكوم الصغير ثانية، فوجد أنه قد أعيد بناؤه ولو أنه لم يبلغ في ارتفاعه ما كان عليه أولاً، فأخذ منه كمية أخرى، وزيادة في الاحتياط طلى ظهر أغلب النمل المأخوذ بلون أحمر ونقله إلى الصندوق فبدأ النمل يعيد سيرته الأولى في البناء والتنظيم ليومين متتالين، إلى أن كل الصباح الثالث فوجد كما وجد في مثيله. البيت تهدم والنمل لا أثر له وكذا البيض، فعاد إلى الكوم الصغير فتملكه العجب أن وجد هناك النمل المطلي على ظهره قد عاد أغلبه إليه؟ أما الباقي فربما كان قد وصل إلى الكوم ثم خرج يبحث عن غذاء، أو قد علك في الطريق، أو لم يصل بعد إلى الكوم، ووجد بعد بحث دقيق بعدسة مكبرة أن النمل قد أحدث ثغرة دقيقة في النسيج الشفاف الذي يقوم مقام السطح العلوي للصندوق ومنها هرب

ولكن كيف اهتدى النمل إلى بيته الأول مع أنه يبعد ثمانين ياردة عن الصندوق وقد حمل حملاً في دلو حين نقل إليه؟ وكذلك ما الذي جعله على عزم أكيد للعودة إلى بيته الطبيعي؟ ففي مرتين يهرب، وكذلك لم حمل البيض معه؟ وإذا كان النمل قد عزم على العودة، فلم كان يشقى كل مرة ويجد في بناء البيت الجديد ثم يهجره بعد بنائه؟ أغلب الظن أن النمل لم يفكر في مثل هذه الأمور، ولكنها الغرائز هي التي دفعته إلى تنظيم موطنه الجديد، وهي التي دفعته إلى الحنين إلى بيته الأول، وهي التي دفعته إلى حمل البيض حفظاً على النوع

ويعيش النمل في جماعات تتكاتف أفرادها في عمل ما ينفعهم كبناء بيت، أو الحصول على زاد وتخزينه، كما تتكاتف في دفع الضر كمهاجمة عدو، فتشتبك الجماعات في معركة يستعر أوارها بسبب القوت غالباً، إذ تتنافس جماعتان في الحصول عليه، فتشتبكان في الملحمة، ومن انتهت رأيت مكان الموقعة، وقد تناثرت عليه أشلاء القتلى، فمن أرجل مبتورة إلى رؤوس مقطوعة إلى أجسام ممزقة. وكثيراً ما تشاهد هذه الظاهرة في النمل الأبيض الذي يعيش في أمريكا. وقد يندفع الفريق الغالب نحو بيت المغلوب ويلتهم البيض. وما العجيب أن الفريق المغلوب قد يتجه نحو بيضه ويشاطر الغالب التهامه بعد أم كان

يحرص عليه حرصاً شديداً
ويختزن النمل غذاء كافياً ليستهلكه في الشتاء، إلا أنه في بيوت بعض الأجناس لم يعثر العلماء على غذاء مخزون للشتاء، كما أن مثل هذا النمل لا يخرج شتاءً للبحث عن غذاء له. وبعد بحث وجدوا أن مثل هذا النمل يكون شتاء في حالة ركود أشبه ما تكون بالنوم. فلا يحتاج في هذه الفترة إلى قوت، حتى إذا لاحت تباشير الدفء في الجو بإقبال الربيع خرج يسعى لرزقه.
وقد توجد حشرات أخرى تشاطر النمل مسكنه وغذاءه، وقد أحصى العلماء خمسمائة حشرة مختلفة تعيش معه نظير أن تقوم ببعض الخدمات كتنظيف البيت، أو إعطاء بعض لإفرازات من جسمها حلوة الطعم كالتي يمنحها إياه بعض أنواع القمل، إذ تضغط النملة بقرني الاستشعار على مؤخر جسم القملة، فيخرج سئل تمتصه. إلا أن بعض الحشرات قد لا ترعى أصول الضيافة وتلتهم الغذاء المخزون للشتاء، عندئذ ينتقض النمل عليها يطاردها وقد يلتهمها
وللنمل أعداء كثيرة أشهرها: (آكل النمل الذي يستطيع أن يبتلع الآلاف منه دفعة واحدة رغم ما يخرج من جسم النمل في فم آكله من سائل حمضي هو حامض النمليك.
ويمكن استحضار هذا الحامض كيميائياً من جسم النمل بالتقطير
ويتعهد النمل إحدى يرقاته الصغيرة حين تخرج من البيضة بغذاء خاص حلو الطعم يعرف بالغذاء الملكي. وتصبح هذه اليرقة فيما بعد ملكة على النمل، وهي وحدها القادرة على وضع البيض؛ أما اليرقات التي لا تطعم هذا الغذاء فتصبح ما يسمى (الشغالة) وظيفتها استحضار الغذاء والتنظيف ومهاجمة العدو؛ ولكن لا تستطيع أن تضع بيضاً
وللنمل في سبيل المحافظة على النوع مشاهد عجيبة، فقد أخذ العالم (لوبوك) يوماً نملة من كوم صغير النمل ومعها مئات من البيض ووضعها جميعاً في كأس صغيرة، فما كان من النملة إلا أن استمرت طيلة اليوم ترجع واحدة ثم واحدة من البيض إلى الكوم وقد أخذت هذا العمل المضني على عاتقها بدون مساعدة، حتى أفرغت وحدها الكأس كلها
أحمد علي الشحات
بكالوريوس العلوم ودرجة الشرف
أرانب بغير أب
توصل جاك لوب لأول مرة منذ أربعين عاماً إلى طريقة (الإخصاب الكيميائي) أو (التوالد البكري الصناعي) فأثبت ببحوثه المدهشة أن البيض البكر لقنفذ البحر يستطيع بعد غمره في محلول حمضي أو مالح ذي تركيب مناسب، أن ينمو بطريقة منظمة حتى تتوالد منه يرقات تامة التكوين والتماثل لتلك التي تولد من الإخصاب الطبيعي، فاستطاع الإنسان بذلك أن يعتاض بوسائل المعمل عن الإخصاب لطبيعي من الذكر
وبعد عشرة أعوام أجرى العالم البيولوجي الفرنسي الكبير تجربة (التولد البكري الصناعي) على الحيوانات الفقارية، فاستطاع أن يوفق إلى تحديد النمو الكامل للبيض البكر للضفدعة بواسطة تلقيحها بالمادة الليمفاوية أو بالدم، وقد حق بعض هذه الضفادع الوليدة بغي أب هذا الانقلاب ونمت حتى صارت ضفادع طبيعية
وقد عادت هذه النتائج بفائدة جليلة من الوجهة البيولوجية والفلسفية، فقد كان يظن أن هذه التجربة قاصرة على كل حال على الحيوانات الدنيا. وكان يشك في إمكان تطبيق طريقة التوالد البكري على الحيوانات الراقية، فإن البيضة في الواقع عند طبقة الحيوانات الثديية التي ينتمي إليها الإنسان، هي خلية صغيرة لا تكاد ترى بالعين المجردة، ويتم نموها في داخل الأعضاء الأنثوية
ولتحقيق التوالد البكري الصناعي في الحيوانات الثديية، يجب مواجهة سلسلة من العمليات المتناهية الدقة، وهي الحصول على البويضات البكر، ووضعها تحت علاج ناجع دون تعرضها للهلاك، ثم وضعها في رحم مستعد لقبولها، وهذه كلها مجموعة من الصعاب تبدو ذات طبيعة أكثر المختبرين مهارة
إلا أنه يلوح أن العالم الأمريكي (جوبجوري بنكس) قد تغلب على هذه الصعاب، فاستطاع إنماء يويضة الأرنب بالتوالد البكري، وهو كسف عظيم الدلالة، لو أنه كان في وقت قليل الاضطراب لاعتبر كأنه حدث كبير

أخذ ينكس بعض البيض البكر ووضعه تحت تأثر محلول ملح أو حرارة مرتفعة (47)
وبعد أن نشطه على هذا المنوال نقله إلى رحم أرنبة أخرى كأن قد أعدها ن قبل في
حالة حمل كاذب، أي في الحالة التي يكون للأنثى استعداد لقبول وتغذية البيض، فنما
بعض هذا البيض (3 في المائة) بطريق التولد البكري إلى درجة متقدمة في التطور
الجيني، بل لقد
أفرخت بيضة منها أرنباً حياً ولد في موعده
ونجاح بنكس إلى هذه الدرجة يذهل، حتى ليصعب على الإنسان ألا يشك في غلطة
أثناء التجربة، ولكنه يجب أن نذكر أن هذه النتائج قد أعلنها بيولوجي مشهور أعطى
كثيراً من الأدلة على رسوخه الفني، وندين له بأعمال باهرة في تربية بيض الحيوانات
الثديية
ولكن من المحتمل على الأقل أن يكون أرنب بغير أب قد رأى النور بفضل العلم،
فالعلم لا يتبطل. وقد رأينا التوالد البكري الصناعي لقنفذ البحر في سنة 1900
وللضفدعة في سنة 1910 وللأرنب في سنة 1939. فمتى يكون للإنسان؟
(عن ماريان)

القصص

. . . .!كلاب. . . وكلاب

للأستاذ عبد الله حبيب

(إلى هذا الشيخ الجاثم في حفرة بين القابرة كما يجثم العقاب)
الهرم، وإلى وحيدته فاطمة الراقدة تحت أطباق الثرى، وإلى
هذه الكلاب التي ترفل في نعيم الدنيا، وإلى الصعاليك من بني
آدم أهدي هذه القصة)

ع. ح

- 1 -

كان البدر يتألق في صفحة السماء، وكان الليل مشرق الجبين فتهلل وجه الطبيعة،
وانقشعت غياهب يومنا العابس المطير
وكأن صحو هذه الليلة ولإشراقها قد أشاعا الدفء في الأرجاء فنسينا أننا في ليلة من
ليالي الشتاء
وكنت مع صاحبي ليلتئذ - في داري التي اخترتها لسكناي بالضاحية النائية على حافة
الصحراء - نطوف بالذكريات في ركب الأيام ومواكب الأعوام، وطال بنا الجلوس
فمللنا البقاء وهممنا بالخروج ننشق نسيم هذه الليلة التي تشبه ليالي الربيع، وكنا
نسير إلى غير قصد معلوم
قال لي صاحبي:
- ألك في رحلة قصيرة نجتاز بها هذا الجانب من الصحراء إلى تلك القرية الصغيرة عل
سيرة ربع ساعة ننعم في خلالها بالبدر يسطع فوق رمالها البيضاء، وبالليل نبدد سكونه
بما يحضرنا من حديث؟
وكان تألق البدر في الصحراء يغري بالمضي إلى حيث شاء صاحبي فأجبته إلى ما أراد
ونعمنا في طريقنا إلى القرية بسكون الليل وفتنة القمر ما شاء الله أن ننعم. ثم أراد
صاحبي أن نسلك في عودتنا طريقاً أخرى. . .
- وماذا نبغي من هذه الطريق؟
- لنمر بمقابر هذه القرية لعلنا نجد الشيخ الكفيف المسلوب العقل في صحوة من
صحواته هناك فأريك منظراً عجباً، وأحدثك حديثاً أعجب من العجب. . .
- شيخ كفيف مسلوب العقل يسكن هذه المقابر وهو حي؟
- أجل، وفي حفرة عميقة تشبه الجب لا يبرحها ليلاً أو نهاراً إلا إذا ثارت ثائرته فنهض
منها ينفض عن بدنه وثيابه ترابها، ويمتشق عصاه فيلوَّح بها في الفضاء صائحاً:
كلاب! كلاب. . .
- وما شأن هذا الشيخ؟
- إن أكثر سكان الضاحية يعرفون خبره ومصرع ابنته فاطمة. إنهم يمرون به في
طريقهم إلى السوق فيحسنون إليه بإلقاء بعض الطعام في حفرته دون أن يدنو منه
أحد. إنه على ضعفه وكبر سنه وذهاب بصره وتخاذل قواه يفتك بمن يقترب منه. إنه

يعاف ما يلقي إليه من الطعام فيظل أياماً لا يأكل منه شيئاً، كأنه يريد أن يعجّل في أجله فنأبى عليه الأقدار العاتية إلا أن يتعذب. . .
- وما خطبه صنع الله له؟
وكنا في مسيرنا قد أشرفنا على مقابر القرية، فبدت لأعيننا في وحشة الليل وجلال الصحراء كالأشباح المترامية بين الوهاد والآكام
لزم صاحبي الصمت، وسرت بجانبه مأخوذاً برهبة الموت، فلا هو استطاع أن يسترسل في حديثه عن الشيخ ولا أنا أصررت على أن يجيب
وكنا كلما اقتربنا من هذه المقابر الجاثمة في الفضاء زادت وحشتنا من سكون الليل الرهيب
- 2 -
الآن نحن على حافة الحفرة العميقة التي اتخذها شيخنا المسكين مقراً، وهاهو ذا ملقى على ترابها في ثيابه المهلهلة بغير غطاء، وتلك عصاه التي حدثني عنها صاحبي يقبض الشيخ عليها وهو في غفوته ساكن لا يتحرك، وتلك أنفسه المتقطعة كأنها حشرجة الموت لا نسمع
سواها في وحشة الليل وسكونه
إنه الآن يتململ في ضجته، لقد أيقظه السعال!! - ما أشد وقع هذه اللحظات الرهيبة على نفسي - هاهو ذا يئن متهالكاً على نفسه. . . إنه يعتمد على عصاه فيقف وكأنه ميت قام يجرجر أكفانه. . . وهاهو ذا يتحسس الطريق إلى الأرض المستوية
إنه يمد عنقه، ويتسمع بأذنه، ويتشمم الهواء. كأنه أحس أنفاساً غريبة في جو . . . المقبرة. وهاهو يتمتم بكلمات متقطعة
لقد ابتعدنا عن حافة حفرته حين صعد إلى الأرض المستوية. لكنني غالبت الخوف والرهبة فبقيت على مقربة منه أنظر إلى وجهه على ضوء القمر الساطع. . .
ما أروع هذا الوجه وما أحفله بالأسرار والمعاني. عينان أطفأ نورهما فعل السنين وجبين خطت فيه الشيخوخة سطوراً متعرجة من الغضون والتجاعيد، وأنف أشم أقنى، ورأس ضخم جلله المشيب، وجسم ناحل ضامر
وقف يجمجم بكلمات لا تبين، ثم لم لبث على هذا الحال كثيراً، وكأن قوة عاتية سرت في خذا الجسم النحيل الذاوي، فانتفض كالأسد الهصور يلوح بعصاه ويعدو في الفضاء كان المسكين يحارب الهواء، وينازل الأصداء، وكنت في هذه اللحظة أحبس أنفاسي، وأتحاشى مواضع جولاته ومطارح عصاه. وكان في هذه الثورة الجارفة يكرر كلمة واحدة بصوت قاصف كالرعد: كلاب!! كلاب. .
ثم خارت قواه وانطفأت جذوة غضبه فراح يتهالك على نفسه ويجر قدميه يتمس مكان الحفرة التي صعد منها، وما زال كذلك حتى أحست إحدى قدميه مكانها فألقى بنفسه فيها فإذا هو جاثم كما يجثم العقاب الهرم لا حركة ولا نأمة
ودنا مني صاحبي - وكنت أستند إلى جدار مقبرة نائية كالمسحور لا أقوى على الحركة أو الكلام - فاجتذبني من يدي لنواصل السير، فمشيت بجانبه مأخوذاً من هول ما رأيت ذاهلاً عن كل شيء. وما زلنا حتى ابتعدنا عن هذه المقبرة وجوّها المفزع لرهيب، ثم بدأ صاحبي يقول:
- يوم رأيت هذا الشيخ أول مرة تولاني من الفزع مثل ما تولاك. أما اليوم فقد ألفت مرآه، وإن كنت لا أزال أرثى لحاله وأجزع عليه أشد الجزع كلما تذكرت مأساته الدامية. .
- وهل للمسكين مأساة غير ذهاب بصره وعقله وارتمائه في هذه الحفرة بين الأموات؟
- إن هذه الحال الأليمة التي شاهدتها إنهما هي آخر مأساته. أما أولها فهو آلم وأوجع مما شاهدت. . .
- 3 -
ومضى صاحبي يتحدث عن هذا الشيخ فقال . . .:
كان المسكين وجيهاً في قومه وأحد أغنياء قريته، مرموقاً بين أهلها بالتجلة والاحترام، واستنار في صباه بما قرأ من كتب الأقدمين والمحدثين، واستطاع بما وهبه الله من بصيرة نّيرة وإحساس مرهف مشبوب أن يدرك مقدار ما يعاني فقراء قريته وعمالها

المكدودون، وأرَّقه همُّ التفكير في شأن هؤلاء المساكين وما يعانون من ظلم الأغنياء وتحجر قلوبهم، فوهب حياته وماله في سبيل نصرتهم وحثهم على إدراك ما لهم في أعناق أولئك العتاة من ذوي النعمة واليسار، فراح يجمعهم حوله وينادي فيهم بمبادئه السامية. وكان عمدة القرية رجلاً عاتياً ظالماً فجمع لمحاربته كل قواه، وأخذ يكيد له من الجهر والخفاء ويوقع به في كل فرصة. وما زال الرجل يتلقى ضربات هذا الطاغية فيصمد لها مرة ينهزم أخرى حتى أوشك ماله أن ينفذ

وظل المسكين يجالد الأيام ويناضل العتاة من أهل قريته، وينفق من صبابة ماله على مواساة ذوي الحاجة والمعوزين حتى نضب معين ثروته فتنكرت له القرية بأسرها، وشمت به أعداؤه، ونفر من حوله أنصاره الذين أنفق في سبيلهم ماله وشبابه وجاهه. واسترسل عمدة القرية في النكاية به فألب عليه هؤلاء الأنصار الذين نعموا بثروته، واستناروا بآرائه، وجرَّد منهم جيشاً للتنكيل به وإيذائه

وأصبح المسكين؛ فإذا هو في القرية البائس اليائس الذي لا يملك من حطام دنياه غير دار صغيرة لا يفي ثمنها بما هي مثقلة به من الديون

وفي ذات مساء جلس الرجل في داره حزيناً كئيباً يتحدث إلى زوجه الوفية الحنون وينفض بين يديها جملة حاله، وقد جدعت الحاجة أنف العزة، فكاشفها بما آل إليه أمره، وكان يخفي عنها كثيراً مما أصابه من الخيبة والفشل. . .

ورأى آخر الأمر أن يرحل عن قريته تحت ستار الليل تاركاً داره دون أن يشعر بهجرته أحد، واستقر رأيه على أن يصحب زوجه وابنته فاطمة التي كان قد رزق بها في آخر أيامه

وكانت الأيام قد غالته في بصره، فأصبح كفيفاً يدب على عصاه، وتألبت عليه الكوارث، فألحت علة الصدر على زوجه لوفيه، وأعوزه المال، فلم يجد منه ثمن الدواء!

خرج المسكين في جنح الظلام يحمل بعض الثياب والزاد. . . وخرجت معه زوجه تقوده إلى ظاهر القرية، وابنته الصغيرة تدرج إلى جواره، وهي لا تعرف من شأن هجرة أبيها وأمها شيئاً

وكان قد أجمع الرأي على أن يقصد العاصمة علة بحد بين أغنياءها محسناً كريماً يدفع عنه غائلة الحاجة فيمد إليه يد الرحمة بقية أيامه

وليست العاصمة بقريبة من قريته، فالشقة بعيدة والزاد قليل والبرد قارص، وزوجه المريضة يتولاها السعال، وتقسو عليها علة الصدر. كلما جد بهم السير. . .

لكن الشيخ إبراهيم مجاهد - وهذا اسمه - رجل غالب الأيام وصبر على أذاها، فهو لا يزال رغم ذهاب بصره وماله وشبابه الرجل القوي الشكيمة، وقد أراد أن يصل إلى العاصمة، فلا بد أن يصل. . .

ورأى الشيخ إبراهيم أن يجعل مسيره ليلاً ليتقي بالمسير غائلة البرد، ولكيلا يراه سكان القرى القريبة في غدوهم ورواحهم نهاراً، فظل يسير الليل ويستريح النهار حتى صار قريباً من العاصمة. . .

لكن العلة كانت قد اشتدت وطأتها على زوجه، وأنهك السير وحيدته لطفلة، وهو لا يزال - مع ذلك - يسكب في آذانهما كلماته العذبة الرقيقة يغريهما باقتراب العاصمة ويمنيهما بالراحة الدائمة في كنف المحسنين من سكانها العظماء!!

وكان قارص البرد يوغل في القسوة والشدة يوماً بعد يوم، واحتمال الزوج المريضة والطفلة الناعمة ينفد يوماً بعد يوم. . .

- 4 -

في ليلة من تلك الليالي الجاهدة كان الشيخ إبراهيم وزوجه ووحيدته قد أشرفوا على قرية من قرى القليوبية. وكان السائر في طريق تلك القرية يرمي في هجعة الليل وإغفاءة الفجر

ثلاثة أشباح تترنح في الظلام الدامس من فرط الإعياء والجوع والبرد. أولئك هم التعساء الثلاثة في طريقهم إلى القرية

وقال الشيخ لزوجه: اسمعي يا عائشة!! هذا صوت المؤذن يجلجل: الله أكبر الله أكبر حي على الصلاة أن الفجر يوشك أن ينبثق. سنصل إلى هذا المسجد القريب فأدرك الصلاة الصبح، وهناك نحتمي من هذا المطر المنهمر وننعم بدفء الشمس في الصباح. . هيا يا عائشة انهضي، اعتمدي علي منكبي فقد أوشكنا أن ندرك الغاية

وكانت المسكينة قد أخذتها نوبة السعال، والمطر ينهمر، والرعد يقصف، والسماء غاضبة، والليل موحش. وتهالكت على نفسها فنهضت تخفي بين جوانحها ما تعاني من ألم وضعف وتخاذل ومشت إلى جواره خطوات، ثم اشتدت عليها وطأة الداء، وأعياها المسير فسقطت تحت أقدام زوجها الضرير وظلت تئن وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة.
والزوج يتحسس مكانها ولا يراها، ويتشمم أنفاسها الخافتة، ويتسمع دقات قلبها الموجع. . .
وفي هذه اللحظات الرهيبة دوَّي صوت المؤذن مرة أخرى: (الله أكبر. الله أكبر)
وكانت الزوج قد لفظت آخر أنفاسها وأصبحت جثة ملقاة في وحل الطريق، طريق العاصمة. . .
وأدرك الشيخ أن زوجه قد ماتت فألهبت الفجيعة رأسه وراح يتخبط كالمجنون، ويصيح فتذهب صيحاته في سكون الليل بدداً. . .
وكان المؤذن لا يزال يدعو الناس إلى الصلاة فاختلط صوته بصوت ذلك المفجوع الذي وقف في الطريق يدعو الناس إلى عونه في مصابه
وظل الشيخ الضرير يتشمم جثة زوجه الوفية ويبلل وجهها بدموعه. أما وحيدته فاطمة فقد كان منظرها في سواد الليل وإلى جوار جثة أمها تصطك أسنانها من شدة البرد وتبكي من ذوب قلبها دموعاً - منظراً يذيب قلب الحجر. . .
ثم مضى الليل! فوا رحمتاه! كيف مضى؟ . . .!
وكان الصباح. . .
وبكر فلاحو القرية بالماشية إلى مزارعهم، وانتشروا على ظاهر الطريق يتلاقون على تحية الصباح، ثم رأوا ذلك الشيخ الضرير يحنو على جثة زوجه، ورأوا وحيدته الطفلة وقد ارتمت في أحضان أمها خائرة تبكي وتئن
واجتمع أهل القرية على فعل الخير فأعانوا هذا الضرير المرتحل فواروا جثة زوجه التراب. وظل الشيخ مع ابنته في مقبرة القرية أياماً طوالاً لا يبرحها ولا يكف عن النحيب، ووجد زاده من جود أهل القرية، فكانوا يمدون إليه يد الإحسان يوماً بعد يوم ثم رأى الشيخ أن يرحل عن المقبرة إشفاقاً على وحيدته الطفلة، وأن يمضي بها إلى غايته، فقد أصبح على مقربة من العاصمة. . . فليعش من أجل هذه الطفلة الغريرة، وليجد لها سبيل العيش في كنف رحيم من ذوي اليسار هناك

وصل الشيخ إلى ضاحيتنا على حافة الصحراء، واقترب من المدينة الآهلة بذوي البر والثراء وأصبحت منه على بضعة كيلو مترات، وجلس يستريح من وعثاء الطريق، وراحت ابنته تلعب من حوله وتطفر في دفء الشمس لاهية
ونظرت الطفلة فرأت قصراً كبيراً تحيط به حديقة غناء ذات سور من القضبان الحديدية، وكان أبوها قد أحس ببعض الراحة وبعض الدفء فأغفى إغفاءة المتعب المكدود، وعدّت الطفلة نحو سور القصر تنظر من بين قضبانه لترى أشياء وأشياء لم تكن رأت مثلها من قبل، وأطلت على الحديقة، فلم يكد نظرها يقع على ما في ادخلها حتى عادت إلي أبيها تعدو فأيقظته - وقد راعها ما رأت - ثم راحت الكلمات تتناثر من فمها الصغير في غير ترتيب
- قم يا أبي، قم ولا تنم، تعال انظر ما في هذه الحديقة، وكأن المسكينة نسيت أن أباها لا يستطيع أن ينظر. . . تعال يا أبي لأريك دنيا غير دنيانا. نظرت هنا يا أبي من بين القضبان في حديقة هذا الدار الكبيرة فرأيت الأرض كلها مفروشة بشيء أخضر يشبه الزرع الذي نزرعه في بلادنا، لكنه ناعم ملتصق كله بالأرض، ورأيت الأرض التي يمشي عليها الناس مفروشة بشيء أصفر يشبه الدقيق لكن الدقيق أبيض، ورأيت رجالاً كثيرين يذهبون إلى آخر الحديقة من الجهة الأخرى ويفتحون أبواباً صغيرة فتخرج منها كلاب تجري في الحديقة. . . أي والله إنها كلاب يا أبي تشبه كلاب بلدنا، إنها كثيرة جداً أكثر من كلاب بلدنا جميعها؛ إن الناس هنا يا أبي يلبسون الكلاب ثياباً خضراً من القطيفة كالتي كنت ألبسها وأنا صغيرة ويصغون في رقابها أطواقاً تلمع مثل الذهب كالتي كانت أمي
تلبسها في رقبتها. إنها كثيرة جداً يا ألي، إنها كلاب حقيقية، لقد سمعتها تنبح مثل كلابنا تماماً. تعال يا أبي نطلب من هؤلاء الرجال طعاماً من الذي وضعوه الآن لهذه الكلاب،

إنني رأيتهم يحملون آنية كبيرة وفيها الثريد وعليها الحم ودخان الثريد يتصاعد في الفضا، اللحم هنا يا أبي كثير جداً، لقد سممته بأنفي ورأيته بعيني. قم يا أبي، قم ولا تنم إن الدنيا هنا جميلة والأكل كثير. . .

تناثرت هذه الكلمات - في لهفة - من فم فاطمة الصغيرة وأطرق أبوها عند سماعها ما شاء الله أن يرق، ثم حاول أن يصرفها عن ذكر هذا الذي رأت بمختلف الأحاديث ووعدها أن يقوم بعد قليل ليحضر لها الطعام

أما هذا القصر فهو قصر (عظيم) من عظماء العاصمة بناه في ضاحيتنا النائية ليقضي به بعض أيام الشتاء. وقد ورث عن أبيه العظيم مالاً وعقاراً وضياعاً. وكان مما نزعت إليه نفسه أن ينتقي أكبر مجموعة من كلاب الصيد وكلاب الحراسة وكلاب الزينة فاجتمع لدينه منها ما يزيد على المائة. وقد عني ببناء أوْ جرة نظيفة مفروشة تأوي إليها هذه الكلاب، وجعل لها غذاء في اليوم خمسين أقة من اللحم!!!

ورأت فاطمة الصغيرة ما رأت - وكان الجوع والإعياء قد فعلا بها فعلهما - فعادت إلى أبيها - في براءة الطفولة الغريرة - تستحثه على النهوض ليطلب لها من خدام الكلاب لحماً وثريداً مما يحملون. . .

أما أبوها الضرير فقد ظل مكانه مطرقاً، وأما وحيدته الجائعة فلم يستقر لها من الجوع قرار. . .

- 6 -

تركت الطفلة أباها في إطراقته الحزينة، وتسللت من جانبه نحو سور الحديقة، وكان الحراس والخدم لا يزالون يحملون اللحم والثريد إلى الكلاب. . . وطغى الجوع على الإنسانة الصغيرة وسال لعابها، فاندفعت من بين القضبان دخل السور الحديد، وعدت إلى قصعة من القصاع، فمدَّت إليها يدها تأخذ قطعة من اللحم، ولم تكد الجائعة الضاوية تمد إلى الحم يدها، حتى أطبق عليها كاب ضار من كلاب الحراسة، فأعمل أنيابه الحادة في بطنها، فتفجر دمها الإنساني وخرجت أمعاؤها. . . ودّت في الفضاء صرخة واحدة وصلت إلى

أذن أبيها الضرير، فعرف صوت وحيدته وأيقن أن مكروهاً أصابها، فنهض يعدو متخبطاً يسأل الغادين والرائحين عن مصدر الصوت، فلا يجيبه أحد. . .

كانت الصرخة التي دوّت في الفضاء صرخة واحدة، وكان الوالد الضرير يرقب صرخة أخرى. . . علَّه يهتدي لها إلى مكان ابنته. . . لكن الأقدار العاتية أبت عليه، حتى هذا الرجاء، فظل يعود هنا وهناك بقلب مفجوع وكبد تتمزع. . .

وكان مصرع الطفلة بين أنياب كلب العظيم الضاري قد أثار ضجة بين الحراس والخدم، وتسمع الوالد المفجوع إلى هذه الضجة فقصد إلى مكانها. . .

لكن الأسوار شاهقة منيعة!!. . .

صاح الرجل صيحات مدويّة جمعت الناس حوله. . . ثم راح يستنجد بهم أن يدلوه على مكان ابنته. . . وتطلَّع الناس إلى داخل الحديقة، فرأوا الطفلة ملقاة على الحشائش ينزف دمها، والخدم من حولها يتصايحون. . .

قال أحدهم:

- إنه يجب أن نلقي بها خارج الأسوار قبل خروج الباشا حتى لا نتعرض لغضبه وعقابه، سيوقع بنا العقاب لأننا غفلنا عن العناية بالكلاب وحراسة طعامها من أيدي المتسللين!

وقال أخر:

- يجب أن تبقى علّ الباشا يرق لحالها فيواسي أهلها المساكين. ثم قر الرأي بعد هذا الخلاف على أن يلقي بالطفلة خارج الأسوار. . .

وعرف الوالد الضرير مصرع وحيدته وراح يتشمم جثتها، ويذرف فوقها الدمع فيختلط بدمائها القانية

واجتمع أهل الضاحية فأعانوا الغريب المرتحل على مصابه. لكن الغريب المرتحل كان قد ذهب عقله. . فلم يدرك لصنيعهم معنى، ولم يعرف بعد ذلك شأن الدنيا إلا أن يتبع جثة فاطمة إلى المقبرة وأن يرتمي في تلك الحفرة العميقة بجوارها إلى آخر أيامه وهو كما رأيت الليلة لم يبق على لسانه غير هذه الكلمة الواحدة يكررها ثم يكررها: كلاب!!! كلاب!. . . .

- 7 -

كان البدر - أول الليل - يتألق في صفحة السماء، وكان إشراق الطبيعة في تلك الليلة يغري بالحركة والنشاط
ولم يكد صاحبي يحدثني ذلك الحديث الدامي خلال عودتنا إلى ضاحيتنا حتى تجاوبت أصداء الرياح في الأرجاء، وغام على البدر المتألق سحاب متكائف فزمجرت السماء، وانهمرت الأمطار، وصارت الطرقات مظلمة خرساء
. .!وآويت إلى مضجعي مطرقاً حزيناً ثائر النفس مضطرم الجوانح أرقب طلائع الصباح
.
عبد الله حبيب
من هنا وهناك
لماذا تحارب ألمانيا
(عن حديث (لمستر هوربليشيا))
أمام ألمانيا النازية الآن ثلاثة أبواب: فإما أن تحاول قهرنا في البر والبحر والهواء، أو تقف أمامنا موقف المسالمة والهدوء أملاً في انصرافنا عن مهاجمتها وكبح جماحها قبل حلول الوقت الملائم، أو خداعنا بعرض بعض شروط السلام
وقد دلت التجارب الحربية الحديثة على أن مهاجمة المواقع الحربية الكاملة التحصين الوافية العدد أمر من المستحيلات. فبولندا لم يكن لها خط كخط ماجينو لتدفع عن نفسها شر البلاء الذي منيت به. ولكن الجبهة الغربية تتمتع بحصون قوية متينة تزداد كل يوم ثباتاً ورسوخاً، وكل محاولة يقوم بها العدو لمهاجمة تلك الحصون تكلفه غالياً. ولم ير قوادنا أن يستبقوا الوقت ليخاطروا بأبناء الأمة الذين يتكون منهم جيشها، بغير ضرورة ملجئة
وقد أخلفت هذه الحرب كثيراً من الظنون التي كانت تخطر بالبال، فقد كان الكثيرون توقعون المواقع العنيفة في البر والبحر والهواء , وكنا نظن أن الخطر السريع قريب من جبهة الوطن، فواصلنا الليل بالنهار في سبيل الاستعداد والتأهب للعمل وإن كنا قد رأينا الأسابيع تمر تلو الأسابيع دون أن نواجهه شيئاً من الأخطار التي نستعد لها وعلى الرغم من الهدوء الظاهر فقد أمكننا أن نكسف عن نيات خصومنا. فمنذ رفعت ألمانيا عقيرتها بالمطالبة بإطلاق يدها في الشرق، أخذنا نتبين مطالبها العديدة التي كانت بولندا أحدها فألمانيا ترى ن دول بحر البلطيق يجب أن تكون تحت سيادتها. ولكنا رأيناها ترد عن هذه الغاية بمطامع روسيا في تلك المنطقة. وترى أن رومانيا يجب أن تحتلها ألمانيا النازية عن طريق بولندا ولكن روسيا قد وضعت سداً منيعاً بينها وبين ورمانيا من هذه الناحية. أما خط برلين - بغداد فقد وقفت تركيا عقبة في سبيله. وتركيا أمة قوية شريفة وكذلك العراق وهي حليفة راسخة متينة
فإذا اتجهنا إلى الناحية الغربة، نجد أن الحملة البريطانية قد وصلت فرنسا سالمة آمنة بحراسة الأسطول التجاري، وستزود برجال الماليشيا والمتطوعين من كل سن تليق بالخدمة الحربية، وسوف يكون عمادنا القويم ما تخرجه مصانعنا من الأسلة والمؤن لقد أصبحت الممتلكات الحرة على استعداد للقيام بنصيبها إلى جانبنا في هذه الحرب. وقد تبوأت الكتائب الهندية مراكزها في كثير من المواقع وأبدت الهند وغيرها من أنحاء الإمبراطورية استعدادها لزيادة نصيبها في هذه الحرب. فإذا تقدمت الأيام وجد الجد فسوف ترى ألمانيا هذه الجموع الزاخرة محتشدة أمامها. ومما لا شك فيه أن الزمن سيكون إلى جانب فرنسا وبريطانيا والإمبراطورية
فإذا أراد الخصم لياذاً من هذه النكبة التي كان هو أول من أرث نارها، فهذا هو الموقف الذي يجب أن نقابله بحذر. إذ أن كل سلم يعتمد على الكلمة المرضوضة لا تقوم له قائمة على الإطلاق. ولا ضمان للسلم إلا بقيام نظام جديد بعيد عن ظلم النازيين
إن لهذه الحرب أهدافاً أسمى وأعظم من مصادمة الجيوش ومكافحة الطائرات ومغالبة الغواصات، ذلك هو الصراع بين قوة الخير وقوة الشر. فأي القوتين ستكون لها السيادة على العالم؟ أي القوتين يكون لها الغلب على عنصر الإنسان
نحن لا نحارب لإعادة الحكومة التشكوسلافية، أو رد الحكم إلى بولاندا كما قد يظن الكثيرون، فنحن لا نحارب من أجل الجبهة الجغرافية، ولكنا نحارب لإنقاذ الجبهة الإنسانية
الحرب فلسفة الألمان

(عن كتاب (الروح البروسية في ألمانيا))

ثلاثة عوامل كان لها أبغ الأثر في توجيه الفكر البروسي في القرنين الأخيرين: حب الحرب في ذات نفسها، وسوء الظن بالسياسة السليمة والصدوف عن فكرة الاتحاد الدولي بكافة أنواعه والتأثر بنظرية (كلوزويتز) القائلة بأن الحرب وسيلة من وسائل السياسة والسياسة وسيلة من وسائل الحرب؛ وثالثاً عقيدتهم بأن الحكومة - وعلى الأخص الحكومة البروسية - يجب ألا تهتم بشأن غير شئونها الخاصة، ويرجع حب الألمان للحرب إلى فجر التاريخ الألماني. فقد ذكر عن خطيب إغريقي عظيم أن الإمبراطور الروماني (جوليان) احتج ذات مرة على قبيلة (توتونية) لأعمال السلب التي تقع منها، وعاداتها الشبيهة بالعادات الحربية. فجاءه منها هذا الجواب، (إننا نجد في حياة الحروب سعادة لا تعدلها سعادة) وما زالت هذه الأمثلة تتكرر في تاريخ بروسيا منذ عهد فردريك الأكبر الذي

جعل الحرب (صناعة بروسيا القومية) إلى العهود الحديثة، حتى نصل إلى هتلر، فنظرية الحرب السريعة المبهجة - وقول (مولتاك) :-

وجدت الحرب لتنفيذ إرادة الله في العالم. ولولا الحرب لغرق الكل في بحور المادية) كلها آراء بروسية عريقة. وقد كان (تريتشك) يقول إن عظمة التاريخ تبدو في (العميقة التنازع الدائم بين الأمم)

وقد كتب (فردريك) في أخريات أيامه إلى (فولتير) يقول إنه في كل عشر سنوات من حياته يرى حرباً جديدة، وسيدوم ذلك على ما يظهر بغير انقطاع. والضابط الحربي له مركز ممتاز في الدولة يرفعه على من عداه من المدنيين، ما عدا كبالر رجال الحكومة ويقول (فردريك): (إنني استقبل كل ضابط صغير في بلاطي قبل أي لورد من المنتظرين)

وقد جرت العادة في بروسي منذ زمن بعيد على أن يتقدم للدخول في سلك الجندية جميع أبناء الأرستقراطية. وتختلف نسبة عدد ضباط الجيش من أبناء الطبقة العليا والطبقة الوسطى باختلاف العهود. على أن الضابط الألماني يرتقي إلى درجة (الجنتلمان) بمجرد التحاقه بالجيش وانتسابه إليه، وإن كان من أصل وضيع، فتصير له حقوق الأرستقراطية من حملة السيف. وقد بلغ مجموع ما ألف من الكتب في ألمانيا عن الحرب في اثني عشر شهراً عام 1913 سبعمائة كتاب. وإذا كان المسيح يقول: من يحمل السيف يقتل بالسيف، فإن شباب ألمانيا اليوم يقولون: من يمت بالسيف يمت ميتة شريفة. ويقولون: إن الحرب ضرورة لتطهر حياة الأمم

الغواصة الطائرة

عن (لاجورنال دي روبيه))

تعمل مصانع اليابان منذ عام في بناء نوع من الغواصات، سيكون له أثر كبير في الحروب، نظراً لما يمتاز به من السرعة. هذا النوع هو غواصة الجيب. فهذه الغواصة وإن كانت لا تزيد في طولها على ست أو سبع ياردات، فقد نجحت نجاحاً عظيماً في قذف الطربيد، وسرعة السير، وقوة المحاورة، لما تمتاز به عن الغواصات الكبيرة من الخفة وحسن النظام

ولدى اليابان الآن عشر غواصات من هذا النوع الصغير، وهذه الغواصات العشر تستطيع أن تقضي قضاء تاماً على فرقة كاملة من أسطول كبير. ونستطيع أن نؤكد أن هذا السلاح الجديد الذي صنعته اليابان لا يتيسر للألمان بحال من الأحوال. وذلك أن عشرين في المائة من القطع الضرورية لصناعة هذه الغواصة تصنع من معدن الألمونيوم، وليس لدى ألمانيا مصدر لهذا المعدن. وقد دعي منذ بضعة أسابيع خمسة عشر من الرجال الأخصائيين وثلاثة من المراسلين لمشاهدة بعض التجارب في مرفأ صناعة السفن بياسو، فشاهدوا هذه الغواصة الصغيرة ترتفع إلى سطح الماء فتسير مسافة قصيرة، ثم ترتفع إلى السماء حيث تحلق في الجو كالطائرة المائية وقام بإدارة هذه الغواصة المهندس الذي اخترعها وأسمه (تسنوما) فدفع بها إلى اليم فرأينا جسماً على صورة السمكة، يغطس ويختفي تحت المياه في سرعة وخفة عجيبتين. وبعد عشر دقائق ظهرت على سطح الماء، ومن ثم برزت أجنحتها واحدة فواحدة، ويبلغ طول هذه الأجنحة من 18 إلى 20 ياردة ولم تلبث أن ارتفعت إلى أجواء السماء

هذه السمكة الطائرة كما يقول دكتور (جود) مساعد (تسنوما) مخترع هذه الآلة - تستطيع أن تقطع تحت الماء من 15 إلى 20 ميلاً ولا يمسها خطر. فإذا كانت غير محملة بشيء تستطيع أن تقطع 600 ميل، فإذا كانت حمولتها خفيفة قطعت 300 ميل، ومن السهل عليها أن تجعل أربعة طوربيدات لاستخدامها تحت الماء أو في عرض السماء , ولهذه السمكة الطائرة ثلاث آلات محركة قوة كل منها 60 حصاناً وقد صنعت أجنحتها من نوع خاص من الحرير. ولا زالت هذه الغواصة في دور التجربة، ولكن مما لا شك فيه أنه سيكون لها شأن كبير في عالم الحروب فتكون في الموقعة الحربية كالبعوضة تقتل الأسد

ولما كانت صناعة هذه الآلة تحتاج إلى مقادير عظيمة من الألمونيوم فسوف لا تستطيع ألمانيا أن تستخدمها على الإطلاق في حين أن لدى بريطانيا وفرنسا ما يكفيها لاستخدام هذا السلاح

البريد الأدبي

إلى عميد كلية الآداب

إليك - وقد أمسيت عميداً لكّليتنا الغالية - أوجَّه السؤال الأتي بأدب ورفقك سمعتك عن طريق المذياع وسمعك معي ألف وملايين، سمعتك تقول:

(نحن لا نعرف كيف نقضي أوقاتِ فراغنا)

بنصب كلمة (أوقات) بالكسرة، كأنك تظنها جمع مؤنث سالماً، وكان المفهوم عندي منذ أعوام طوال أن (أوقات) جمع تكسير لا جمع تصحيح

وقد نظرتُ في أصل كلمة (وقت) مرة ومرتين ومرات بعد إذ رأيتك تنصب (أوقات) بالكسرة نيابةً عن الفتحة فلم يصح عندي أن على حق، مع الاعتراف بأن الخطأ لا يجوز على مثلك في مثل هذه الشئون!

فهل لك أن تتفضل فترشدني إلى الصواب، ولك من الله الأجر والثواب؟

أما إذا اعترفت بأن الحق معي لا معك في إعراب كلمة (أوقات) فسيكون ذلك فرصة للتوبة مما أسرفتُ في محاسبتك بالمقالات التي جاوزت العشرين، إن كان الجهر بقول الحق يستوجب المتاب

وتفضل - يا حضرة العميد - بقبول التحية من الصديق القديم

زكي مبارك

السفاح أم المهدي ولقب أبي جعفر وابنه محمد

قرأت في الرسالة المحبوبة ما دبجته براعة الأساتذة الكرام حول لقب السفاح في عددها 346 و349 وكان لكل من حضراتهم رأى قد استصوبه فيما ارتآه. إلا أنهم ومن كتب حول لقب السفاح والمنصور حتى المستشرقين ومن أخذ عنهم ما اهتدوا إلى المصادر التي فيها ما يبتغون. وأما أنا وأعوذ باله من قول (أنا) ما زلت أستقصي منذ أكثر من عشر سنوات ولا زلت بقصد تأليف كتيب قد أسميه (الثورة العباسية) وقد توصلت في مبحثي إلى ما جعلني أطمئن بصحته، وبه أرجو أن أكون قد اهتديت إلى معرفة اللقب الذي طالت المناقشة حوله. كما أنني لا ادعي أنني قد أصبت الهدف المقصود، وإنما كلي أمل في أن أرشد إلى ما فاتني وخفيّ عليَّ، فأعرض ما يأتي:

1 - إن المسعودي لقب أبا العباس بالسفاح في مروج الذهب ثم يعود فيذكر في كتاب التنبيه والإشراف الذي ألفه بعد كتاب المروج وهو مختصره وبه استدرك ما فاته ذكره في كتاب المروج. ومما رواه في التنبيه والإشراف عن لقب أبي العباس أنه (قد كان لقب أولاً بالمهدي ص290) فنفهم من هذه الرواية أن أبا العباس لقب بالسفاح أخيراً وقد غلب على لقبه الأول وهو (المهدي) ومما يؤيد هذه الرواية التي لا مرية فيها بيت من قصيدة لسديف إذ يقولك

ظهر الحق واستبان مضيا ... إذ رأينا الخليفة المهديا

2 - وأما سبب تلقيب محمد بن أبي جعفر بالمهدي فهو أن أبا جعفر أرسل أحد من يعتمد عليهم وقال له أجلس عند منبر محمد بن عبد الله النفس الزكية فاسمع ما يقول. فقال الرسول: سمعته يقول: إنكم لا تشكون أني أنا المهدي وأنا هو. فأخبرتَ بذلك أبا جعفر فقال: كذب عدو الله بل هو (ابني) (مقاتل الطالبين لأبي فرج الأصفهاني ص166) وجاء في (المقاتل) أيضاً ص171 ما نص (قال مسلم بن قتيبة:

أرسل إليَّ أبو جعفر فدخلت عليه فقال قد خرج محمد بن عبد الله وتسمى بالمهدي ووالله ما هو به، وأخرى أقولها لك لم أقلها لأحد قبلك ولا أقولها لأحد بعدك وابني والله ما هو بالمهدي الذي جاءت به الرواية، ولكنني تيمنت به وتفاءلت به)

ومما يؤيد هذا هو ما جاء في كتاب الجهشياري ص127 إذ يقول الراوي: قال محمد المهدي لأبيه يا أمير المؤمنين أنت ترشحني لهذا الأمر، وتروي أني المهدي الذي بعدك في الناس.

وأما أبو جعفر فقد لقب بالمنصور عقب قتل محمد وإبراهيم (التنبيه والإشراف ص - 3 295)

وأما الخلفاء الذين تلقبوا بالألقاب المعلومة، فقد كانت تختار لهم أو هم أنفسهم كانوا يختارونها، وهكذا جرت العادة عند كل الخلفاء

(بغداد)

عبد المجيد الساكني

تقي الدين بن تيمية ومذهبه السياسي والاجتماعي

يشغل المسيو هنري لاوست منصب السكرتير العام في المعهد الفرنسي في دمشق.

وقد انخرط في سلك الجندية على أثر إعلان التعبئة العامة في فرنسا. ولكنه حصل أخيراً على إجازة قصيرة ليتقدم إلى السوربون لمناقشة الرسالة التي وضعها لإحراز الدكتوراه

أما رسالته فموضوعها (تقي الدين أحمد بن تيمية ومذهبه السياسي والاجتماعي) وهي تقع في اكثر من 700 صفحة ودق طبعت بمطبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة

وقد تناول المؤلف بالبحث ترجمة حياة ابن تيمية والبيئة التي عاش فيها، وتكوينه الفكري، ومذهبه السياسي والاجتماعي، وما كان له من الأثر في المذهب الوهابي وفي آراء المغفور له السيد رشيد رضا منشئ المنار

وكان طريفاً أن يرى المسيو لاوست - ذلك الجندي - وقد ترك السيف والمدفع وجاء إلى الجامعة ليناقش في رسالته

كاتب فرنسي يزور بلاد الشرق الأدنى

وصل إلى بيروت المسيو بيير بنوا عضو الأكاديمية الفرنسية، بعد أن زار الشرق أيضاً المسيو جيروم نادو والمسيو أندريه سيجفريد. والمسيو بنوا هو الرسول الثالث للفكر الفرنسي الذي يزور الشرق بضعة أسابيع

اختراع مصري

نشرت (المصري) أن الأستاذ عباس محمد شلبي أفندي المهندس بالإسكندرية قد أخترع طائرة تسع 50 شخصاً وترتفع رأساً وتهبط كذلك، وتسير بسرعة من 600 إلى 800 كيلو في الساعة. وقد صنع المخترع لها نموذجاً مصغراً وكتب إلى أولي الأمر وحضر إلى القاهرة لعرض النماذج على ولاة الأمور بناء على دعوة أرسلت إليه من رياسة الطيران

وقد قابل سعادة حسن عبد الوهاب باشا في هذا الصدد فحدد له موعداً لعرض النماذج أمام هيئة من كبار رجال الطيران

مجلة المستمع العربي لمحطة الإذاعة البريطانية

أعلنت جريدة (التيمس) أن العدد الأول من مجلة شركة الإذاعة البريطانية التي أطلق عليها أسم (المستمع العربي) سيظهر في هذا الأسبوع، والمأمول أن تساعد هذه المجلة على تعزيز روابط الصداقة القائمة بين لعالمين العربي والإنجليزي

وستكون هذه المجلة أول صحيفة مصورة تطبع في لندن باللغة العربية. وهي على مثال أختها الإنجليزية (لسنر) والغرض منها تسجيل الأحاديث العربية التي تذاع من محطة لندن ليطلع عليها الذين فاتهم الاستماع إليها وتعزيرها بما يهم القارئ العربي

وتقع المجلة الجديدة في 16 صفحة وتظهر مرتين في الشهر

أكثر أهل الجنة البله

قرأت في العدد (349) من مجلة الرسالة الغراء كلمة الكاتب العبقري أستاذي الدكتور زكي مبارك في موضوع (إنما يزدهر الأدب في عصور الفوضى الاجتماعية). ولقد لفت نظري بنوع خاص ما جاء فيها من تفسير الأستاذ المفضال للحديث الشريف (أكثر أهل

الجنة البله)، فقد ذهب الأستاذ إلى أن المراد من هذا الحديث هو أن أهل الجنة سيكونون بلهاً لأن الله سيرحمهم من التعرض لآفات الشطط والجموح في ميادين الفكر والعقل والوجدان، لا ما ذُهب إليه في تفسير الحديث من أن البله يقل تعرضهم للموبقات فيخرجون من الدنيا بسلام، وقد أهلتهم البلاهة لاحتلال الجنة

وعندي أن تفسير الأستاذ للحديث المذكور على الوجه الذي ارتضاه لا يأتلف وما ورد فيه من كلمة (أكثر) لأنه لو كان المقصود منه أن أهل الجنة سيكونون بلهاً لما كان هناك من حاجة إلى ذكر كلمة (أكثر) فورود هذه الكلمة فيه يجعلني لا أتردد في القول بما قيل في تفسير من أن البله يقل تعرضهم للموبقات فيرحلون عن الدنيا وقد أعدهم ما فيهم من بلاهة لدخول الجنة. وهذا التفسير للحديث المذكور هو الذي يحتمله بالنظر إلى ما اشتمل عليه من لفظه (أكثر)

وختاماً أرجو أن أكون موفقاً في تنبيه أستاذي المفضال إلى ما وقع فيه سدد الله خطاه، ونصره في نضاله، واكثر لخدمة الأدب العربي أمثاله، إنه سميع مجيب

(بغداد)

عبد الكريم جواد

أخطاؤنا في الصحف والدواوين

اعتادت الكثرة من الناس أن تنظر إلى ما جاء به الشيوخ في اللغة أو الأدب، المتقدمون أو المحدثون، نظرة يقطر منها التقديس والتقدير. فدفعهم ذك إلى الاعتقاد بأن ما جاؤا به لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا من فوقه أو تحته، وفي هذا من الاعتراف بالعجز، وضعف الحكم، وهزال العقل الشيء الكثير

على أن صديقنا الأستاذ صلا الدين معدي الزعبلاوي، لم ينظر تلك النظرة الخاطئة، بل نبذ ذلك الرأي وراء ظهره، وحمل بيده معولاً وراح يستقرئ ما كتبه أئمة اللغة، أو ما وهمه بعض من أدعى العلم باللغة والاختصاص بها، فهدم الفاسد وأظهر ضعفه وسخفه، وجلىّ عن الصحيح وأبان عن جماله ونفاسته، فجاء كتابه (أخطاؤنا في الصحف والدواوين) مرآة تعكس علم صديقنا الأستاذ وتظهر مبلغ تحقيقه وتدقيقه

ولقد أخذ على شيوخ اللغة المتقدمين مآخذ شتى ثم أنفصل إلى الشيوخ المحدثين، فأخذ على اليازجي مجازفته في القول في اغلب الأحايين، دون أن يتدبر الأمور أو يتروى في إطلاق الأحكام، وأخذ على (المنذر) خلو كتابه من التقصي والتدقيق وبين أخطاء الأستاذ داغر، وبعض ما وهمه الأستاذ العوامري

وقد جعل الأستاذ كتابه بابين: الباب الأول وقد أفرده الموضوعات. أما الثاني فقد خصه بالمفردات. أما الموضوعات التي ذكرها فهي: فساد السنن التي تتبع في كتابه القرار أو المرسوم في دواوين الحكومة، خصائص بعض حروف الاستفهام ودفع الأخطاء والأوهام التي يقع فيها كثير من الأدباء والمتأدبين، قياس النسبة، العدد في تمييزه وتعريفه، قياسه الصفات المشتبهة، المصادر اليائية، تصحيح بعض من جموع التكسير، صوغ أسم المكان من معتل العين الثلاثي ومكسورها السالم، تأنيث أي، ضوضاء، وغيرهما، ثم تطرق إلى البيان عن هزال بعض الأساليب الشائعة، وهو في ذلك كله لا يدع مسألة حتى يستقصيها، ولا يصدر حكماً حتى يحقق فيبالغ في التحقيق، ويدقق فيغالي في التدقيق، هذا مع استقراء صائب وحكم صحيح

أما باب المفردات، فقد سرد كثيراً من الكلمات الشائعة التي تدور على الأسنة فصححها، وفي هذا الباب أخذ على المحدثين من علماء اللغة مآخذ فاضحة، وخصوصاً على داغر والمنذر. ثم رد هذه الكلمات إلى أصلها. فذكر صحيحها ونبذ فاسدها

والكتاب في جملته موفق جيد، والحق أنه جدير بالقراءة والمطالعة، لأنه إن لم يجعل قارئه لغوياً كبيراً، استطاع أن يفقهه في لغته وأن يقوِّم به لسانه وقلمه.

صلاح الدين المنجد

العدد 354 - بتاريخ: 15 - 04 - 1940

العقيدة الساذجة

تلك هي الكثرة الكاثرة من مسلمي اليوم! وربما كان الأشبه بالحق أن نصفها بشر من السذاجة؛ فإن أيلولة الدين في نفوس أهله إلى هذا القدر العامي من العبادة الشكلية، والزهد الكاذب، والتفويض الذليل، والورع المنافق، والتصرف المشرك، هي الفساد بعينه. وماذا بعد أن ترى كتاب الله وسنة رسوله يقرآن لالتماس البركة لا لاكتساب

الفقه، ودستورَ الإسلام وفلسفة وحيه يدرسان لمجرد العلم لا لإرادة العمل؟
وماذا بعد أن ترى الأحكام والآداب والأنظمة التي أصلحت الأرض ومدنت الخليقة، تصبح في الجوامع والمجامع رهبنة وشعبذة لا يستقيم عليها فرد ولا تنتظم بها جماعة؟
لقد كان من أثر فساد العقيدة في النفس أن فسدت آثارها في الناس؛ فالفقه في الدين تفيهق وجدل، والصلاح في الدنيا تبطل وفشل، والعبادة مظاهر آلية لا أثر فيها للروح ولا صلة لها بالقلب، والأخلاق مياسم وراثية تنطق بالحق على ذلة الماضي وجهالة السلف، والمعاملة ألاعيب اجتماعية تخادع الله وتزعم لنفسها الرضى والسكينة!
تذكر معنى الزكاة في دين الله ثم قل لي أين منها ما كان يصنع أحد شيوخ الأزهر وقد كان يملك في القاهرة شوارع بما عليها من البُنى عن شمال ويمين؟ لقد حدثوا أنه كان يجعل زكاة ماله كلما حال الحول في قفة؛ ثم يغطي الذهب والفضة بطبقة من الحنطة؛ ثم يأمر فيأتونه بأحد المساكين الذين يتكففون على حاشية الطريق، فإذا أدخل عليه قال له:
(هذه زكاتنا يا رجل آثرناك بها ابتغاء مرضاة الله)
فيدعوا المسكين ويهم بأخذ القفة؛ ولكن الشيخ قارون يريد أن يخفف عنه ويختار له، فيبادره بقوله: (وماذا تصنع بها يا رجل وليس عندك من تطحن وتعجن وتخبز؟ أتبيعني إياها بكذا قرشاً؟) فيلهج المسكين بالدعاء، ويبالغ في الحمد والثناء، ثم ينصرف بالقروش وتعود مئات الدنانير المروّعة آمنة إلى صدر الخزانة الحنون!
تدبر فكرة الصدقة الجارية في سنة الرسول ثم أخبرني أمنها ذلك البناء المربّع الذي أقامه أحد القضاة المتقين قي وسط شارع حسن الأكبر، ثم أجرى في قلبه الماء، وأوقد على رأسه النور، ووقف على نفقته المال، وجعله مورداً للسابلة فكان مزرعة للجراثيم ومصدمة للناس!
تصور حكمة الإنفاق في سبيل الله على قواعد الدين الذي شُرع ليضمن للفرد السعادة وللأمة السلامة وللبشرية الألفة، ثم تعال أنقل إليك ما روته (الدستور) في يوم الاثنين الماضي عن مراسلها ببغداد:
كان من ضيوف العراق لعامين مضيا الزعيم الشعبي الهندي السردار طاهر زين الدين، وهو من أنداد أغا خان في الزعامة المقدسة والثروة العريضة، فلما زار ضريح الإمام عليّ رضوان الله وسلامه عليه، نشأ في نفسه أن يقيم للخليفة الراشد ضريحاً يكون مضرب الأمثال على تعاقب الأجيال في نفاسة المادة وبراعة الصنعة وضخامة النفقة.
ولم يكد يرجع إلى الهند حتى استحضر أمهر الصناع وأقدر الفنانين وتقدم إليهم بما أراد، ووصل أيديهم بكنوزه العجيبة، فصنعوا ضريحاً من الآبنوس سَمْكه إحدى عشرة قدماً وقطره عشرون، ثم زخرفوه بروائع النقش الهندي، وغشوه بخمسة عشر وطلاً من صفائح الذهب وبمثلها من سبائك الفضة حتى بلغت تكاليفه اثنين وأربعين مليون جنيه على ما روى المراسل، أو اثنين وأربعين مليون رُبيّة على ما أرجح!
هل قرأت؟ اثنان وأربعون مليون جنيه كميزانية مصر، أو اثنان وأربعون مليون ربية كميزانية العراق، تنفق في مقصورة تقام على ضريح الإمام الزاهد المجاهد الشهيد علي كرم الله وجهه! فهل تحسب أن هذا المؤمن الساذج قد بلغ بما أنفق مكانة الزلفى من الله وموضع الرضا من إمامه؟ لا والله! إن الله الذي يقترض من عباده القرض الحسن ليضاعفه لهم لا يقبل هذا القرض العقيم، وإن الإمام الذي كان يطوي الأيام ليطعم على حب الله المسكين واليتيم والأسير لا يرضى هذا الإحسان الميت. لو كان هذا الغني الأمي صحيح الفقه في الدين، واسع الأفق في الفكر، بعيد النظر في الإصلاح، لعلم أن عليا كان سيف الإسلام ولسان الدعوة وإمام القضاء، فكان خير ما يتقرب به إليه أن يعطي حكومة العراق هذه الملايين لتنشئ بها أسطولاً جويا في بغداد على حب فاتح خبير، ومعهداً علمياً في الكوفة على ذكر صاحب نهج البلاغة لذلك وشبهه يكون القرض حسناً والإحسان جميلاً يا سيدي الزعيم. أما أن تصفّح الضريح بالذهب والفضة، وترصعه باللؤلؤ والجوهر - وفي وطن الإمام الفقيرُ الذي لا يجد القوت، والمريض الذي لا ينال الدواء، والجاهل الذي لا يستطيع التعلم، والجندي الذي

لا يملك السلاح - فذلك فن من العمل الباطل لا يليق أن يجترح باسم الدين في سبيل إمام أئمته وقطب أبطاله!

لقد قرأت في أنباء اليوم أنهم فضوا وصية المحامي الأمريكي اليهودي صموئيل أونترماير منذ أيام فإذا به يوصي بجزء عظيم من تركته الضخمة لبضع جامعات أمريكية؛ ثم كان نصيب الجامعة العبرية في القدس منها مائة ألف دولار!

فليت شعري متى يعلم هذا الذي ينفق دماء الشهداء على ملاهي القصور، وذلك الذي يبذر أموال الأحياء على شواهد القبور، أن الحياة من غير إحسان موت، وأن الإحسان في غير موضعه إساءة!

احمد حسَن الزيات

بابر

للدكتور عبد الوهاب عزام

(بقية ما نشر في العدد الماضي)

- 1 -

لم تخضع الهند لبابر بعد موقعة بانيبات فقد بقي أخو السلطان إبراهيم مطالباً بالملك والبلاد كارهة غارة بابر، وكثير من المدن والقلاع متأهبة للدفاع، وكادت جيوش بابر تهلك جوعاً على كثرة ما بأيديها من الغنائم، وزاد حالتهم سوءاً شدة الحر. نقرأ في بابرنامة هذه السطور: (لما جئت إلى اكركان وقت الحر وكان الناس قد فروا من الخوف فلم نجد حبًّا لنا ولا علفاً لدوابنا، وكانت القرى قد نهبت إعناتاً لنا وكراهية فينا، وأفسدت الطرق. . . إلى أن يقول: (وكان الحر هذه السنة أشد من المعتاد، وكثير من الناس سقطوا كأنهم أصيبوا بالسموم وماتوا في مواضعهم) شرعت جيوش بابر تتذمر كما تذمرت جيوش الاسكندر حينما فتح الهند من قبل، وهموا بالرجوع إلى كابل وقد ذكرهم هذا الحر هواءها البارد؛ فجمعهم بابر وذكرهم أنهم تحملوا ما تحملوا وقاسوا ما قاسوا من أجل هذه الغاية التي بلغوها اليوم: (إن عدواً قوياً قد هزم وإن تحت أقدامكم مملكة عظيمة، فهل نترك كل ما كسبنا بعد أن بلغنا الغاية التي سعينا إليها ونفر إلى كابل كأننا جيش مهزوم مطارد؟ من كان يزعم أنه صديقي فليقلع عن هذه الوساوس. ومن لم يستطع أن يقسر نفسه على البقاء فليذهب). وخجل الجيش فلم يحر أحد منهم جواباً

وجاهد بابر لتهدئة البلاد بالرغبة والرهبة، ولم يكن له بد من لقاء عدو هو أكبر الأعداء في الهند. ذلكم رأنا سانجا زعيم الأمراء في رجبوت، قد جمع مائة وعشرين قائداً وثمانين ألف حصان وخمسمائة فيل، وأيده أمراء آخرون وجاءته الجيوش من أرجاء مختلفة

وخرج إليه بابر سنة 934هـ (11 فبراير سنة 1527) بعد سنتين من موقعة بانيبات وهي أول مرة يتقدم فيها لحرب عدو من غير المسلمين. وعسكر بابر عند سكري التي سميت فيما بعد فتح بور، وبنى فيها جلال الدين الأكبر قصوراً عظيمة وظل خمسة وعشرين يوماً يحصن معسكره وينشر السكينة في قلوب قومه وقد ملكهم الرعب مما سمعوا

ورأوا من شجاعة الرجبوتيين. في هذه الشدة هجر بابر الخمر وكسر أقداحها وأراق دنانها ثم جمع جنده فخطب فيهم: (أيها الأمراء والجند، لا بد لمن يجيء لهذا العالم أن يفارقه؛ وإنما البقاء لله الذي لا يتغير. وكل من جلس على مائدة الحياة شارب كأس الموت لا محالة، وكل من طرق نزل الفناء هذا فهو لا بد راحل يوماً عن دار الحزن. أولى بنا أن نموت أحراراً من أن نعيش أذلاء

إن من فضل الله علينا أن ضمن لنا إحدى الحسنيين، فإن متنا متنا شهداء، وإذا ظفرنا ظفرنا في سبيله. هلموا نقسم جميعاً بالله العظيم ألا نفر من هذا الموت وألا نرهب مآزق الحرب حتى تفارق أرواحنا أجسادنا)

فأقسموا جميعاً على القرآن. وتقدم بابر في جموعه وعبأ جيشه كما فعل في بانيبات من قبل، ثم ركض جواده بين الصفوف يحض الناس على القتال والصبر ويعلمهم ما يجب عليهم حين تنشب المعركة

والتقى الجمعان في كنوها (16 مارس سنة 1527) واحتدم القتال واشتدت حملات الرجبوتيين واستمر الجلاد وجهاً لوجه ساعات كثيرة. ثم أرسل بابر سرايا المغول

لمفاجأة العدو من الخلف وانتهى الأمر بهزيمة عدوه بعد أن استمات في القتال تاركاً آلاف القتلى في المعترك. وفر سنجا مثخنا بالجراح ومات بعد قليل، ثم لم يتعرض أحد من ذريته من بعد لحرب أحد من سلالة بابر بهاتين الموقعتين في بانيبات وكنوها حطم بابر أعظم القوى المخالفة في الهند. ثم استطاع أن يقضي على مخالفيه واحداً بعد الآخر في مواقع كثيرة آخرها موقعة هزم فيها المقاومين من سد مملكة دهلي وحلفاءهم من جيوش بنغاله بعد سنين من موقعة كنوها

عاش بابر بعد هذه الموقعة الأخيرة سنة ونصف سنة أمضى معظمها في أكرا مجتهداً في تنظيم مملكته الجديدة

- 2 -

كان محمد ظهير الدين بابر سويَّ الخلق محكم البنية قوياً فارساً ماهراً رامياً حاذقاً حمل رجلين تحت ذراعه وجرى بهما على سور إحدى القلاع. ويقول في بابر نامه: (اجتزت نهر الكنك سباحة وعددت ضربات ذراعي فوجدتني قد اجتزت النهر بثلاث وثلاثين

(ضربة، ثم أخذت نفسي وسبحت إلى العدوة الأخرى

وكان جلداً على ركوب الخيل. وكثيراً ما قطع ثمانين ميلاً في اليوم. وقد أمضى معظم حياته في الأسفار والحروب

ولكن نوبات الحمى وكثرة تطوافه وتقلب الغير بها دهراً، والشدائد التي قاساها، والخمر التي لم يسلم منها أحد من بني تيمور، ثم الأفيون - كل هذا أنقض ظهره وناء بجسمه القوي. فها هو ذا على فراش الموت في قصره الجميل وحديقته في مدينة أكرا

مات بابر سنة 937هـ في سن التاسعة والأربعين (26 ديسمبر سنة 1530م) بعد سبع وثلاثين سنة من تملكه في فرغانة

- 3 -

وكان بابر كسائر بني تيمور مولعاً بالآداب والفنون، يقرأ الشعر وينظمه، ويعجب بالأبنية الجميلة، ويهتم بتنسيق الحدائق وغرس الأزهار، ويكلف بالغناء والموسيقى.

ونحن نراه في (بابر نامه) يفزع إلى نظم الشعر في أشد أوقات محنه، كما نراه يتحدث عن الأدباء الذين اجتمعوا في هراة حول السلطان حسين ووزيره العظيم مير علي شير مواني حديث عارف ناقد. وله ديوان صغير بالتركية تتخلله قطع فارسية.

وفي هذا الديوان منظومة في نحو 250 بيتاً وهي نظم الرسالة الوالدية بعين الله المعروف باسم خواجه احراء من كبار الصوفية، وتعرّفنا بابر نامه الأحوال التي نظمت فيها هذه الرسالة. وأنا أثبت هنا ترجمة هذه النبذة من الكتاب لتكون مثالاً من أسلوبه في تسجيل الحوادث وتفصيلها:

(يوم الجمعة 23 من هذا الشهر (صفر)، أحسست الحمى في جسدي، حتى لم أستطع أن أؤدي الصلاة في المسجد إلا بمشقة؛ ولم أستطع أن أصلي الظهر في خزانة كتبي إلا بعد تأخير، ومع جهد كبير. وفي اليوم الثالث، يوم الأحد، خفت الرعشة قليلاً. ويوم الثلاثاء 27 صفر، خطر لي أن أترجم نظمي الرسالة الوالدية مولانا عبيد الله. التجأت إلى روح الشيخ وقلت لنفسي: إن قبلت هذه القربة عند الشيخ كان إبلالي من هذا المرض آية القبول كما خلص صاحب البردة من مرضه.

نظمت هذه الليلة 13 بيتاً، وشرطت على نفسي ألا أنظم أقل من عشرة أبيات كل) يوم،

وقد وفيت بهذا الشرط إلا يوماً واحداً

كانت الحمى في السنة الماضية كلما انتابتني دامت ثلاثين أو أربعين يوماً، ولكن) بفضل الله وبركة الشيخ أبللت من هذه النوبة يوم الثلاثاء 29 من الشهر.

وفي يوم السبت 8 ربيع الأول أكملت نظم الرسالة. وقد نظمت يوماً اثنين وخمسين) (بيتاً

كتب في نهاية الديوان هذه العبارة (حرره بابر دوشنبه 15 ربيع الآخر سنة 935). وفي ذيل الصفحة الأخيرة رباعية وفي حاشيتها هذه الجملة (هذه الرباعية التركية، والاسم المبارك بالتحقيق خط أعليحضرت ساكن الجنان بابر بادشاه الغازي أنار الله برهانه. حرره شاه جهان بن جها نكير بادشاه بن أكبر بادشاه بن همايون بادشاه بن بابر

بادشاه)
وأما كتابه بابر نامه فهو في موضوعه نادرة من نوادر التاريخ؛ فما عرفنا قبل بابر ملكا أمضى حياته في عراك الحوادث ثم استطاع أن يصف مشاعره، ويسجل وقائع سيرته، وسيرة أقاربه وأعوانه في بيان واضح مفصل بعيد من التكلف يتجلى فيه اهتمام الكاتب بما يرى ويسمع ودقته في الإدراك والوصف
وهو في لغته وأسلوبه ذخيرة أدبية تسجل لنا لغة جفتاي في القرن العاشر الهجري وتبين محاولة ملك عظيم أن يذلل هذه اللغة للنثر الأدبي كما ذللها للشعر منذ سنين قليلة الوزير الكبير مير علي شير. والكتاب بعد هذا وذاك فصول ممتعة بل ساحرة يكلف بقراءتها كل من حاولها، فعرف ما تبعث في نفس القارئ من سرور وإعجاب وما تتضمن من فوائد للعلم والأدب والتاريخ
وقد ترجمت هذه السيرة إلى لغات كثيرة. ترجمت إلى الفارسية بأمر حفيدة جلال الدين الأكبر (963 - 1104) ثم ترجمت في العصور الأخيرة إلى لغات أوربية وطبعت أول ترجمة إنجليزية لها قبل مائة سنة، ولا تزال موضع عناية الباحثين في تاريخ الشرق الإسلامي وآدابه.
ولعل معهد الدراسات الشرقية في كلية الآداب من جامعة فؤاد الأول الذي افتتح هذا العام يجعل ترجمتها إلى العربية باكورة أعماله إن شاء الله.
عبد الوهاب عزام
. . .أعرابي في سينما
للأستاذ على الطنطاوي
وطالت غيبة (صْلَبي)، حتى لقد استيأست منه، فنسيته وطرحت همه عن عاتقي، وعدت أدور مع الحياة كما تدور الساقية، مغمض العينين، أطوف في مفحص قطاة، فلا غاية أبلغ ولا راحة أجد، أغدو إلى كدّ للعقل وعذاب النفْس، وجفاف الريق وانقطاع النفَس، وأروح، وما بقي فيَّ بقية لعمل، ولا طاقة على كتابة، فألقي بنفسي على كرسي أو سرير، أنتظر عذاب اليوم الجديد. . .
وإني لغادٍ إلى المدرسة ذات يوم، وإذا أنا بأعرابي في شملته يشير إليّ. . . وهو يسير بين تلك المواخير: تريانون وليدو ولوازيس - حائراً يتلفَّت. . . فقلت: لعلّه ضالٌّ أحب أن يستهديني ووقفت له، فلما دنا وتبينته، لم أملك من الفرح فمي. . . فصحت في السوق وسط الناس. ومالي لا أصيح وقد وجدت (صلبي) بعد طول الغياب. . . وحييته وحياني تحية ذاكر للصحبة، حافظ للود، وطفق يحدثني حديثه. . .
قال:
أتذكر يا شيخ ما ابتلاني به الله من أمر الحمام؟ لقد وقعت في داهية أدهى. . . ولقد والله كرهت الحضر، وعفت المدن، وأصبحت أخشى فيها على نفسي، فما أدري ماذا سيكون من أمري بعد الذي كان؟. . .
قدمت الشام قدمة أخرى، فكان أول ما صنعت أن قصدت صاحبي، وكنت قد . . . عرفت داره في (الميدان). . . فأكرمني وأحسن استقبالي، أحسن الله إليه، وذبح لي خروفاً، ولم يكتف بذلك من إكرامي بل أزمع يأخذني إلى سنمة. . . قلت: ولكني لا أعرف سنمة هذا، ولا أدري من هو، فكيف تأخذني إليه؟ قال: لا بد من ذلك. فاستحييت منه وكرهت أن أخالفه بعد الذي قد صنع في إكرامي. . . وقلت في نفسي: لولا أن سنمة هذا صديق له، عزيز عليه، ما سار بي إليه. ولقد قال المشايخ من قبيلتنا: صديق صديقك صديقك. . . فرضيت وقلت له: على اسم الله!
ولكن الرجل لم يسر بل أدركه لؤم الحضر فصاح بابنه أن هات الجرائد حتى نرى الرواية، فتوجست خيفة الشر، وقلت: إن الرجل قد جنَّ، وإلا فما بال الجرائد؟ وهل تراه يضربني بها؟ إذن والله لأريته عز الرجال ولضربته ضرباً يبلغ مستقر اللؤم في نفسه. . . وخشيت أن أتريّث أو أتلوّم فأخيب وأفشل، وذكرت حكمة حَمَدْ بن عْلوي: (الغلبة لمن بدأ) فشد ذلك من عزمي وصرخت: (يا هُو. . .) ووثبت وثبة أطبقت بها على عنقه، وقلت: سترى لمن الجرائد والسياط، الابن المدينة الخوار الفرار، أم لابن البر الحر؟
فارتاع وأبيك وجعل يصيح من جبنه: ادركوني، انقذوني! النجدة، العون، يا فلان (لابنه)

أقبل. . . ويلك يا صْلَبيَ، يا مجنون، كف عني، ويلك ماذا اعتراك؟
فأخذتني به رأفة فكففت عنه، وقعدت محاذراً أرقب أهل المنزل، وقد اجتمعوا ينظرون إلي بعيون من يهم بفري جلدي. فقال لي: ما أردت بهذا ويلك؟ وبم أسأت إليك حتى استحققت منك هذا الصنيع؟ قلت: بالجرائد. . . امثلي يضرب بالجرائد، لا أم لك؟
فضحك والله وجعل يكركر حتى لقد شبهت بطنه بقربة جوفاء أدخلتها الماء. وضحك كل من كان حاضراً من أهله وبنيه ضحكا ما شككت معه أن القوم قد أصابهم طائف من الجن، فقلت: قبحكم الله من قوم، وقبحني إذ أنزل بمثلكم وهممت بالانصراف.
فصاح بي وعزم عليّ إلا ما رجعت، فبررت بيمينه وقفلت راجعاً فقال لي:
وأنت حسبت الجرائد مما يضرب به؟ ألم تبصر جريدة قط؟ قلت: ويحك فكيف إذن؟
أنا من بلاد النخيل، تبوك حاضرتي
قال: وتحسبها جرائد نخيل؟ قلت: إذن فجرائد ماذا؟ قال: خذ؛ هذه هي الجرائد وألقى إلي صحفاً سوداً بها من دقيق الكلم مثل دبيب النمل، فعجبت منها وسألته أن يقرأ عليّ مما فيها فأستفيد علماً ينفعني في آخرتي، فإن الرجل لا يزال عالماً ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل. ولقد سمعت أنه جاء في الأثر (كن عالماً أو متعلماً أو مستمعاً ولا تكن الرابعة فتهلك)
فضحك وقال: وهل تظنها كتب علم؟ قلت: فماذا فيها مما ينفع الناس؟ قال فيها أخبار البشر - من سافر منهم أو حضر - أو تزوج أو ولد له، فما يصنع أحد من شيء إلا دوّن فيها، ولا ينبغ من عالم أو أديب أو يقدم مغنّ أو تجيء قينة أو تأمر الحكومة أو تنهى إلا ذكر ذلك فيها، حتى أن فيها صفة الخمر والإعلان عن الميسر، وأخبار دور الدعارة، والدعوة إلى الروايات الخليعة. . .
فلما سمعت ذلك طار عقلي وأخذت هذه الجرائد فمزقتها شرّ ممزقّ، وعلمت أن الله مهلك هذه القرية، وعزمت على مفارقتها ونويت ألا أعود إليها بعد الذي سمعت من خبر جرائدها. . . وما ظننت أن مثل ذلك يكون، ولم يجتزئ صاحبي بما أعلمني من علمها بل عمد إلى صحف أخرى كانت في أيدي صبيانه وبناته فيها صور قوم عراة تبدو عوراتهم، ونساء ما يسترهن من شيء إلا شيئاً ليس بساتر، فأرانيها، فسقط والله من عيني وقلت، هذا القرنان الذي لا تأخذه على أهله غيرة، وما كنت أحسب أن رجلاً يؤمن بالله واليوم الآخر يفعل ذلك. . .
ولست مطيلاً عليك الحديث. . .
وذهبنا نزور سنمة فسرنا حتى بلغنا قصراً عظيما على بابه خلق كثير، وله دهليز تسطع فيه الأضواء، فقلت، هذا قصر أمير البلد، هذا الذي يدعونه رئيس الجماهير. . . وألهاني ما رأيت وشغلني ففقدت صاحبي وسط الزحمة. . . ولكني لم أبال، وأقبلت أصعد الدرج فمنعني أغلمة بثياب ضيقة حمر ما رأيت مثلها، وعلى رؤوسهم كُممٌ لها رواق من فوق عيونهم كالذي يوضع على عيني بغل العجلة. . . وأفخاذهم مكشوفة فعل أهل الفسوق والتهتك، فهممت أن آخذ اثنين منهم فأكركبهم على الدرج فأزحلق بِعَدهم عن مواضعها، ثم قلت، ترفق يا صلبي لا تجنّ فما أنت في البادية، أنت في قصر الأمير وهؤلاء مماليكه وإنك إن مسستهم لم تجد أمامك إلا ضرب العنق. . .
ووضعت يدي على عنقي أتحسسها فعلمت أني لا أزال أحتاج إليها
ولو أنني في السوق أبتاع مثلها ... وجدك ما باليت أن أتقدما
وسألت الغلمان الكاشفي الأفخاذ ماذا يريدون مني أن أصنع، فأشاروا إلى كوّة ازدحم عليها الناس، فعلمت أن الدخول من هناك، وأقبلت أزاحم وأدافع وهم يردونني حتى بلغت الكوة. فإذا هي غرفة ضيقة كأنها القفص وإذا فيها رجل محبوس والناس يتصدقون عليه، فقلت في نفسي: هذا رجل ضرب مماليك الأمير فحبسه هنا لتضرب عنقه في غداة الغد، وحمدت الله على السلامة، وتوجهت بوجهي إلى رجل توسمته أسأله: متى تضرب عنق السجين؟ فنظر إلي ولم يجب، ثم ولّاني قفاه وانصرف، فعلمت أن الأمير يمنع الناس من الكلام في هذا، ولولا ذلك لأجابني. ودنوت من كوّة السجين فأعطيته قروشاً كانت معي وقلت له: هذا
لأولادك من بعدك، لهم الله فلا تحزن، فلم يقبضها حتى عّدها فرآها كثيرة فرد إلي بعضها وقبل بعضاً، فلم ألحف عليه وأخذتها منه وأخذت معها ورقة صفراء أعطانيها لم

أدر ما هي، ولكني لم أشأ كسر قلبه بردّها، ووضعت ذلك كله في كميّ وعمدت إلى الكوة لأدخل منها فوجدتها عالية، فوثبت فأصبت بقدمي وجه رجل ممن كان هناك، فما باليته وقلت سأعتذر إليه، وقد رأيت أهل المدن يؤذون إيذاء العدو، ثم يعتذرون اعتذار الصديق. وأدخلت رأسي في الكوة، فصاح السجين صياحاً أرعبني والله، وشبهته بصراخ كلب ديس على ذنبه، وأجلب الناس، وطفقوا يشدون برجلي وثيابي، وأنا أرفس بقدمي رفساً لا أبالي موقعه من أجساد الناس، والسجين اللئيم الذي أحسنت إليه يدفع برأسي ويشد بشعري، ولم يكن عضو من أعضائي إلا وهو مشغول، فيداي أتمسك بهما، ورجلاي أذود بهما عن نفسي، ولم أجد ما أدفع به أذاه عني إلا بصقت في وجهه، فأقبل يضربني فعضضت يده، ثم دنوت من وجهه فعضضت أنفه. . . وكان أنف ذليل لا يزال خبث طعمه على لساني. . .

ثم أخرجوني قسراً جبراً - وجاء مماليك السلطان فحجزوا بيني وبينهم - وأخذوا . . . الورقة الصفراء، وأدخلوني من باب كان هناك إلى بهو واسع صح معه ما كنت قدرت من أن سنمة هذا سلطان البلد، ورأيت الناس قد صفوا كراسيَّهم كصفِّ الصلاة، وإذا بعضهم يولي بعضاً دبره، فقلت: ما ألأم أهل المدن، والله ما كنت مولياً مسلماً ظهري إلا في الصلاة. وعمدت إلى الكراسي لأديره فإذا هو مثبت بمسامير من حديد، فتركته واستدرت أنا، فجلست على قفاه، وجعلوا يضحكون مني، فما ألقي لهم بالاً، حتى جاءت امرأة، فجلست قبالتي، فقلت: يا أمة الله استتري. فأقبلوا يزبرونني، وإذا هي فيما قالوا (شاب) وليس امرأة، فجعلت أعجب. . .

ولبثت أنتظر خروج السلطان فإذا بالمماليك يديرونني فيجلسونني من حيث يجلس الناس، فلم أملك إلا الطاعة، وقعدت أنتظر فلم أنشب أن جاء مملوك آخر، فقدم إلي صفحة من خشب قد صف عليها فراني وشطائر وقال: تريد؟ قلت: أريد والله. . . وهل يأبى الكرامة إلا اللئيم؟ وأقبلت آكل فأجد طعاماً هشَّا تحت الأسنان، حلواً في الحلق، خفيفاً على البطن، فقلت: هذه هي البقلاوة التي وصفوها لنا، وجعلت آكل فلا أشبع، وهو يقدم إلي متعجباً

حتى استنفدت ما كان معه. فمسحت شفتي بيدي وقلت: الحمد الله، جزاك الله خيراً فظل واقفاً ولم يمض، فقلت: الحمد الله، لقد شبعت. قال: يدك على الفلوس؟ قلت: ويحك ماذا تريد؟ قال: أكلت ثلاثين قطعة كل قطعة منها بسبعة قروش فهذه مائتان وعشرة. . . قلت: قبحك الله من عبد لئيم! تأخذ من ضيوف السلطان ثمن القرى؟ وكان ما أكلت قد شدَّ صُلْبي فوثبت إليه ووثب إليّ، وقام الناس، وزلزل البهو بأهله، وكادوا والله يطردونني لولا أن ظهر صاحبي فانفرد بالمملوك فأرضاه عني، وجاء فقعد معي

وإنا لكذلك يا شيخ، وإذا بالأنوار تنطفئ، وإذا بالخيل تهجم علينا مسرعة حتى كادت والله تخالطنا. فقلت: لك الويل يا صُلَبي، ثكلتك أمك، إنه الغزو فما قعودك؟ وقفزت قفزاتي في البادية، وصرخت وهجمت أدوس على أجساد الناس وهم يضجّون ويصخبون، فلما كدت أبلغ الخيل اشتعلت الأنوار وفر العدوّ من خوف بطشي هارباً، وجاء عبيد السلطان ليخرجوني فردَّهم عني صاحبي وكلمهم. . .

فقلت: هذا والله العجز والذل، فقبح الله من يقيم عليهما ترون العدو قد خالطكم وتلبثون قعوداً؟ ما أكرهكم إلي يا أهل المدن، ما ظننت والله إلا أنكم ستحملون إلي صلة السلطان على أن رددت عدوّكم وهزمته. . .

فضحك اللئام، وجعل صاحبي يحذرني العودة إلى مثلها؛ ولم ألبث حتى أطفأت الأنوار كرّة أخرى؛ ففزعت ونظرت فما أحسست إلا امرأة قد قبض عليها رجل خبيث وأنا أسمع صياحها ولا من مغيث؛ فثارت الحمية في رأسي وسللت الخنجر وأقبلت أريده، فاختفى والله حتى كأن لم يكن هنالك من أحد. وعادت: الأضواء، ورجع الصخب؛ فقلت: والله ما أقيم، وجعلت أصيح أخرجوني ويلكم. . . حتى أخرجوني. . .

قال صُلبي: فخرجت وقد علمت أن جرائدكم يا أهل المدن تنشر الفجور وتهتك ستر الله عن الناس وتفضحهم، وأن شبابكم بنات، وأن أمراءكم سحرة يسحرون أعين الناس حتى يروهم ما لا يُرى. . . ثم إنكم لا تغارون على أعراضكم، ولا تبالون كشف عورات أبنائكم وبناتكم. لا والله ما أحبكم. . .

وذهب مولياً عني مسرعاً يمشي بين تلك المواخير القذرة: ترياتون وليدو وأوليمبيا. . . .
تلقاء سوق الحميدية والأموي حيث المدينة الطاهرة الفاضلة. . . حيث دمشق التي سمَّاها شوقي (ظئر الإسلام)!
(ثانوية - دمشق)
علي الطنطاوي
الأمومة عند العرب
للأستاذ رفعة الحنبلي
تمهيد
ذهب أكثر علماء الاجتماع، حتى أواسط القرن الثامن عشر إلى أن الأبوة هي أقدم عهداً من الأمومة في تاريخ الأسرة، وأنها قد تتشابه والأسرة الحديثة تشابهاً كلياً من حيث المنشأ والتكوين، إلى أن ظهر كتاب (الأمومة) للعالم الألماني الكبير فأحدث انقلاباً تاماً في تاريخ الأسرة وفي آراء علماء الاجتماع فيه. إذ ذهب إلى أن الأمومة هي أقدم عهداً من الأبوة، وأبعدها أثراً منها في الهيئة الاجتماعية
ليست الأمومة أقدم نوع في تاريخ الأسرة بل هي - كالأبوة - أحد الأنواع التي مرت على هذا التاريخ منذ ما أخذت الجماعات الإنسانية تفكر في تكوين الأسرة وخلقها أراد علماء الاجتماع بالأمومة بأنها القرابة من ناحية الأم، كما أرادوا بالأبوة بأنها القرابة من ناحية الأب، ذلك أن الولد في الحالة الأولى ينتسب إلى أمه كما أنه ينتسب إلى أبيه في الحالة الثانية
وقد اختلف العلماء في أمر نشأة الأمومة وتباينت آراؤهم في أمر ظهورها، فذهب إلى أنها نشأت من نكاح المشاركة أو بعبارة ثانية من نكاح الاختلاط فتولد من هذا النوع من النكاح الفوضوي الأمومة؛ إذ ليس من السهولة أن يعرف الولد أباء فينتسب إليه ويلتحق به، ولذا كان النسب محصوراً في الأم وقرابتها وحسب، وأصبحت لها مكانتها العالية، ومقامها الرفيع عند القوم، لأنها - في الحقيقة - الوالدة الوحيدة المعروفة من أبوي الولد مما أدى بها إلى تزعمها الهيئة الاجتماعية ردحاً من الزمن
إلا أن العالم الإنكليزي يخالف فيما ذهب إليه في أمر نشأة الأمومة، ويردها إلى التباين الموجود بين نوعين من أنواع الزواج: الزواج الخارجي والزواج الداخلي ذلك أن عندما أراد البحث عن تاريخ الأسرة، وجد أن هنالك عادة لا تزال شائعة عند بعض الشعوب المتوحشة حتى في بعض الأمم المتمدينة أيضاً، هذه العادة هي خطف الخطيب لفتاته، أو اغتصابها، فأيقن أن هذه الظاهرة ليست إلا بقية من عادة قديمة أخرى تشير إلى تزوج رجل قبيلة في قبيلة ثانية. وقد توصل في بحثه هذا إلى معرفة تلك العادة وسبب تأصلها
في الأمم الغابرة، فاعتقد أنها ناتجة عن وأد الفتاة وقتلها، مما أدى إلى قلة عدد النساء، وزيادة عدد الرجال زيادة بينة، فأقدم هؤلاء على مخالطة امرأة واحدة مما نشأ عنه تعدد الأزواج وبالتالي الأمومة، التي يعنى بها معرفة أم الولد دون أبيه
وخالف العالم الألماني زميله في اجتهاده مخالفة تامة فذهب إلى أن الأمومة ظهرت بظهور (عصر الزراعة) وعهدها؛ ذلك أن الأم - في ذلك الوقت - كانت تتعهَّد الأرض بالغرس والزرع تعهداً كليًّا، وكانت تشرف على البيت إشرافاً تاماً لا ينازعها السلطة عليه أحد، متحملة التبعات العظيمة التي ألقيت على عاتقها مما جعلها تهتم بالناحيتين الداخلية والاقتصادية، بينما كان الرجل بعيداً عن البيت وعن هذه المظاهر المختلفة، إما للقيام بواجب الدفاع أيام الغزوات والحروب، وإما لإشباع رغبته في القنص والصيد، وهو إلى هذا قد لا يفكر في الاجتماع بأسرته وزيارة امرأته - أم أولاده - إلا عندما يرغب في الاتصال بها
حدث من هذا الابتعاد أن التف حول المرأة أولادها - وهي التي غذتهم بلبنها وقامت على تربيتهم - فأنشأت لنفسها مركزاً سامياً بين أعضاء أسرتها، أي لدى أولادها واخوتها وأعمامها، وأخذت الأسرة تتركز فيها، فاحترم القوم هذه الأم، وأنزلوها منزلة رفيعة، وأمست محور الأسرة ومحور البيت معاً. . . وهكذا اتجهت الأمومة نحوها
إلا أن لم ينتبه إلى أهمية (التوتمية) في نشأة الأمومة؛ هذه الكلمة تشير إلى رمز ديني اتخذته الأسرة أو القبيلة القديمة إلهاً لها، وهي إلى ذلك من الرموز الدينية التي لها

الفضل الأكبر في تكوين الأسرة الأولى. يقول: (إن الأسرة الأولى لم تقم إلى على التوتمية، وحسب المرء لكي يعد عضواً في الهيئة الاجتماعية أن يكون تابعاً أو منتسباً لتوتم واحد ومن صفات التوتم أن يكون محصوراً في نسل المرأة، أي أن يتبع الولد توتم أمه. وليس الولد هو الذي يتبع أو ينتسب إلى هذا التوتم فحسب، بل تشترك الأسرة والقبيلة في هذا الانتساب أيضاً. فالتوتمية لها إذن الأثر الأكبر في تكوين الأمومة وظهورها

وإذا كان الولد لازم أمه في عصر الزراعة كما نوه بذلك وما إليها وانتسب إلى أسرتها، وتوثقت علاقته الاجتماعية بها، فإن كل هذه الظواهر لم تكن نتيجة هذا العصر، بل كان الباعث لها التوتمية

الأمومة عند العرب

مما لا ريب فيه أن الأمومة كانت فاشية عند أكثر شعوب العالم إن لم يكن كلها، ونكاد نلمس آثارها جلية واضحة عند بعض الجماعات: كقبائل الأراواك في غينيا، وقبائل الدياك في بورنو؛ كما أننا نشعر باضمحلالها عند البعض الآخر حيث خلفتها الأبوة. وإذا ما رجعنا إلى تراث كل أمة من الأمم الغابرة نجد أنها عرفت هذا النوع من أنواع الأسرة. والأمة العربية لم تخل في سالف عهدها، قبل الإسلام، من شيوع الأمومة فيها ومعرفة العرب بالتوتمية فالتوتمية كلمة أشار بها هنود أمريكا الشمالية إلى الحيوان المقدس الذي تعبده القبيلة وتسمى باسمه وتنتسب إليه. فالقبيلة التي تأخذ الحمامة توتماً لها، فإنها تعتبرها ملاكاً كريماً، وروحاً طاهرة وحارساً أميناً لها، فتتلقب بها، ويعتقد رجالها جميعهم أنهم أقرباء لها ولسائر أنواع الحمام أيضاً

ولو رجعنا إلى تاريخ الأمة العربية، في جاهليتها، لوجدنا أن كثيراً من قبائلها كانت تعرف بأسماء بعض الحيوان أو بأسماء بعض الآلهة، ودليلنا على ذلك أنْ بعض القبائل العربية كانت معروفة بقبائل أسد، وثور، وكلب، وعقاب، وغيرها، حتى أن المستشرق سمث يعتقد أن لهذه الأسماء معاني دينية، وأن لها علاقة بعبادة الحيوان كما هو مشاهد في التوتمية؛ كما أن البعض الآخر من القبائل العربية تتلقب بأسماء الآلهة التي عبدها كقبائل بني هلال وبني شمس وبني بدر وغيرها الذين كانوا ينتسبون إلى تلك الآلهة التي كانوا يعبدونها أيضاً؛ فالقبائل العربية كانت، عهدئذ، توتمية أي أنها كانت تقدس الحيوان وتعبده، وعنه اتخذت ألقابها. على أن من صفات التوتم، كما قدمنا، أن يكون محصوراً في نسل المرأة أي أن يتبع الولد أمه دون أبيه، كما هو مشهور عن هنود أمريكا الشمالية إذ لا يزالون حتى اليوم على الأمومة

والأمومة عند العرب نشأت عن عدم معرفة أبي الولد، ذلك أن الهيئة الاجتماعية العربية القديمة لم تهتم بالزواج الشرعي بل كان الزواج فوضوياً أو زواجاً مشتركاً أي أن المرأة لم تكن ترتبط مع الرجل برباط شرعي متين بل كانت تتصل بأكثر رجال قبيلتها

إلا أن العالم يذهب إلى أن الأمومة نشأت عند العرب عن تعدد الأزواج الذي كان في بادئ الأمر غير مقيد، بمعنى أنه لم تكن صلة قرابة بين الأشخاص المالكة لامرأة واحدة،

لكنه أصبح فيما بعد مقيداً ومحصوراً أي أن المرأة أصبحت تخص جملة أشخاص معينة من أسرة واحدة أو من أم واحدة. غير أن الفيلسوف الإنكليزي (يعد تعدد الأزواج من الأمور الشاذة التي نتجت عن قلة النساء) فالأمومة كانت إذن سائدة في الوقت الذي كان فيه زواج الاشتراك شائعاً عند الأمة العربية، قبل أن تعرف الزواج الشرعي أو الزواج الفردي الذي تعرفه الهيئة الاجتماعية الحاضرة وتعمل به

ولابد لنا من أن نتساءل: هل كانت الأمة العربية في جاهليتها، تعرف هذا النوع من الزواج - زواج الاشتراك - أم أخذت بنوع آخر أي بتعدد الأزواج؟

لقد اخبرنا أحد المؤرخين اليونانيين القدماء - سترابون - عن أمر الزواج عند عرب الجاهلية بأن (الأملاك عندهم مشتركة أي أنها تخص جميع أعضاء الأسرة التي يرأسها شيخ، وهو أكبرهم سناً، ولهم جميعاً امرأة مشتركة يختلفون إليها، فمن جاء منهم قبلاً دخل عليها، وترك على الباب عصاه، ليشير بذلك إلى اختلائه بها . . .

لكنها، في الليل، لا تكون إلا مع أكبرهم سناً) نفهم من هذه العبارة التي أوردها هذا المؤرخ اليوناني أن تعدد الأزواج كان فاشياً بين العرب ومعروفاً عندهم، وهذا ما

اعتقده المستشرق سمث.
وأعقب هذا المؤرخ عبارته تلك بعبارة ثانية خالف بها ما ذهب إليه في الأولى إذ قال: (وهم يتصلون بأمهاتهم ويعاقبون الزاني بالموت، ويريدون بالزاني من اتصل بامرأة من غير قبيلته). يعني بذلك أن رجال القبيلة الواحدة أباحوا لأنفسهم الاتصال بنسائها بحرية تامة، فلم تكن المرأة يستأثر بها رجل معين، أو جماعة معينة، وهذا ما يجعلنا نؤمن بشيوع زواج المشاركة عندهم لا تعدد الأزواج
يقول أحد علماء الاجتماع: (إن العرب في الجاهلية لم تكن تعرف زواجاً مستمراً ترتبط به المرأة مع رجل إلى وقت محدود؟ ذلك أن العرب كانوا يفضلون النكاح الوقتي على غيره). وقال أيضاً: (والعرب يقضون عمرهم في التجول والتنقل ونساؤهم يتصلن بمن أردن من الرجال لأجل معين، بعد أن يأخذن منهم أجورهن فريضة. هذا النكاح الوقتي يشبه نكاح المتعة الذي أباحه النبي العربي الكريم لأصحابه في أول عهد الإسلام، وقد عرفه بعض علماء الشرع بأنه نكاح يعقد إلى أجل معين، ثم يحل بعد انقضاء هذه المدة. وفسره البعض
الآخر: بأنه - أي نكاح المتعة - يعقد إلى أجل، لا ميراث فيه، وفراقه يحصل بانقضاء الأجل من غير طلاق)
ولنبحث قليلاً عن نكاح المتعة، فإن لنا فيه بعض الفائدة لهذا البحث، لنقف منه على مدى تلك العلاقات الزوجية القائمة بين الرجل والمرأة.
أشار القرآن الكريم إلى هذا النكاح، نكاح المتعة، في عدة آيات. فقد جاء في سورة النساء (. . . وأحل لكم وما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين. فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة، ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة. . .) أختلف المفسرون في تفسير هذه الآية. فبعضهم يفهم من مدلولها أنها إشارة إلى الزواج الشرعي أو الزواج الفردي، وأن كلمة أجورهن يراد بها مهورهن لأن المهر ثواب على البضع وبعضهم يرى فيها أنها إشارة إلى زواج المتعة أو الزواج الوقتي حتى قيل أن هذه الآية نزلت في المتعة التي كانت ثلاثة أيام حين فتح الله مكة على يد رسوله الكريم ثم نسخت.
كان الرجل ينكح المرأة وقتاً معلوماً ليلة أو ليلتين أو أسبوعاً بثوب أو غير ذلك ويقضي منها وطره ثم يسرحها؛ وسميت متعة لاستمتاعه بها أو لتمتيعه لها بما يعطيها
وهاك بعض الأحاديث التي تدل على أن النبي العربي الكريم أباح المتعة يوم فتح مكة، ونهى عنها بعد ذلك. جاء في صحيح البخاري: أن النبي، صلوات الله عليه، نهي عن نكاح المتعة آخراً. وعن أبن عباس حينما سأل عن متعة النساء فرخص؛ فقال له مولى له: إنما ذلك في الحال الشديد وفي النساء قلة أو نحوه فقال أبن عباس: نعم
يتبين لنا مما تقدم، أن النبي العربي الكريم أباح نكاح المتعة في الظروف المتقدمة، وحرمها تحريماً أبدياً. قال مستشرق في كتابه (تاريخ تمدن الشرق) عن زواج المتعة ما معناه: (وكان شائعاً بين العرب قبل محمد نوع من النكاح يكاد لا يستحق هذا الاسم، وهو المعروف بنكاح المتعة؛ كان يعقد لأجل بقيمة معلومة تدفع للمرأة سلفاً؛ لكن محمداً أبطل هذه العادة الرديئة)
فالمتعة إذن ليست إلا النكاح الوقتي، وكانت من عادات العربي في الجاهلية، ولو لم تكن من عاداتهم قبل الإسلام لما نزلت الآية القرآنية، ولما أحلها وحرمها النبي العربي الكريم؛
لقد تأصلت هذه العادة في نفوس القوم، وتمكنت من أخلاقهم، وتأصلت في طباعهم حتى أننا نلمس أثارها بعد الإسلام وبعد هذا التحريم. روى الرحالة الإنكليزي أنه (رأى في أكثر شوارع مدينة (سنان) - وهي من أعظم المدن في اليمن - سماسرة للنساء، فكل غريب لا مأوى له في المدينة يمكنه أن يتزوج ويتبلد فيها بقيم زهيدة وبطريقة بسيطة، وهو أن يتفق مع المرأة، بعد أن يراها وتعجبه على الثمن، فيحدد لها المدة التي يمكنه أن يقيمها معها أسبوعاً كان أم شهراً أم سنة كاملة ثم يحضر معها أمام القاضي أو حاكم المدينة فيسجلان أسميهما في كتاب عنده ويكتبان الشروط التي اتفقا عليها، وكل ذلك لا يكلفه إلا بضع دريهمات، ثم يضع الرجل يده في يد المرأة أمام القاضي فيتم الزواج ويعد ذلك شرعياً حتى انقضاء المدة المعينة؛ هذا وكل منهما حر أن يفترق عن صاحبه متى أراد أو أن يرتبط معه ثانية بعد انقضاء المدة المعينة، أما إذا

افترق أحدهما عن الآخر قبل انقضاء هذه المدة فعليه أن يدفع لصاحبه القيمة التي تسلمها منه أو اتفق معه عليها طبقاً للشروط التي عقدت بينهما، وبعد ذلك يمكنه أن يتزوج على الصورة عينها متى شاء)

لو لم يكن النكاح الوقتي فاشياً بين العرب لاستحال وجود نساء يهبن أنفسهن ببضعة دريهمات ولأجل معين، ذلك أن الأمة العربية في جاهليتها لم تكن تعرف الزواج الشرعي الدائم.

(البقية في العدد القادم)

رفعة الحنبلي

أفانين

أبو النجم الرجاز وهشام بن عبد الملك

للأستاذ علي الجندي

(بقية ما نشر في العدد الماضي)

تركنا في المقال الأول أبا النجم في رصافة هشام أو رصافة الشام، على حال تسرّ العدو وتسوء الحبيب! منبوذاً من البلاط خائفاً يترقب! لا طعام إلا ما يصيبه من مائدة الكلبي والتغلبي، ولا مأوى إلا بيت الله يبيت فيه بلا وطاء ولا غطاء مع طُرّاق الليل وأبناء السبيل!

وقبل أن نقتصَّ بقية أخباره نريد أن نعرف: كيف رانت الغفلة على عقله، وكيف غاب عنه شيطانه الناصح! فزلّ زلة ما كان أيسر أن يشيط بها دمُه لولا أن حقّه لطف الله الخفي! وأي زلة أكبر من أن يعيب شاعر الخليفة في وجهه بين غاشيته وخاصته؟

الحق أن لأبي النجم بعض العذر؛ فإنه لم يكن في مقام المادح للخليفة المخاطب له بالشعر حتى يُعدَّ مجبّها له، وإنما هي أرجوزة أنشئت من قبل في غرض خاص وسمعها الخليفة عرضاً، وليس من المعقول أن نعطل التشبيهات، ونُبطل الوصف ونئد الفن إكراماً لحَوَل عينٍ ولو كانت عين هشام! فالكلام في ذاته بريء من العيب، وإنما العيب من المصادفة السوداء!

والحق أيضاً في أشرَّ مما وقع أن جمهرة من الشعراء قبل أبي النجم وبعده وقعوا في أشرَّ مما وقع فيه، وبعضهم لم يكن بادياً جافياً مثله، بل كان حضري الشمائل، رقيق الحواشي، مصقول الخاطر، أنيق الطبع كأبي نواس! ولا يتسع المقام لإيراد الشواهد؛ فقد نجرد لها مقالاً خاصاً، ونكتفي منها بمثال واحد:

يذكر الرواة أن ذا الرمة الشاعر ورد على عبد الملك بن مروان فاستنشده شيئاً من شعره، فأنشده أول قصيدته البائية:

ما بال عينك منها الماء ينسكب؟ ... كأنه من كلى مفرية سرب

وكان بعين عبد الملك شعرة فهي تدمع منها أبداً، فتوهم أنه عرّض به! فقال: وما سؤالك عن هذا يا أحمق؟ وأمر به فأخرج

وقد علل ابن رشيق انزلاق الشعراء إلى هذه المآزق، فقال: إنما يُؤتي الشاعر في هذه الأشياء من غفلة في الطبع وغلظ، أو من استغراق في الصنعة، وشغل هاجس بالعمل يذهب مع حسن القول أين ذهب

ثم قال - ينصح لهم -: والفطن الحاذق يختار للأوقات ما يشاكلها، وينظر في أحوال المخاطبين، فيقصد محابهم ويميل إلى شهواتهم، وإن خالفت شهوته؛ ويتفقد ما يكرهون سماعه فيتجنب ذكره

ورأيي أنه كان واجباً على هشام في أبهة الخلافة وجلال الملك وبهاء المنصب، أن يتغاضى عن هنة غير مقصودة من شاعر نقي الفطرة، سليم دواعي الصدر مثل أبي النجم، وأحسب أن هذه السقطة لو وقعت في بلاط معاوية أو المأمون أو الواثق، ما زادوا على أن أسروها في أنفسهم، أو ضحكوا لها ضحكة مدوية! ولو أن هشاماً جعلها دُبَر أذنه ما كان لها هذا الشأن التاريخي ولأكبر الناس رحابة ذرعه، ورجاحة حلمه، ورموا أبا النجم بالفدامة وفساد الذوق!

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر نقول: إن حولة هشام لها نوادر مذكورة في الكتب! يحدث المسعودي في مروج الذهب: أن هشاماً عرض الجند يوماً بحمص الشام، فمر به رجل من أهلها على فرس نفور فقال له: ما حملك على أن ترتبط فرساً نفوراً؟

فقال الحمصي: لا، والرحمن الرحيم، يا أمير المؤمنين ما هو بنفور، ولكنه أبصر حولتك فظن أنها عين غزوان البيطار! فصاح هشام: تنح! فعليك وعلى فرسك لعنة الله!
وكان غزوان هذا بيطاراً نصرانياً بناحية حمص يشبه هشاماً كل الشبه
ويحكي المبرد: أن سالم بن عبد الله بن عمر، دخل إلى هشام في ثياب وعليه عمامة تخالفها، فقال له هشام: كأن العمامة ليست من الثياب، قال: إنها مستعارة. قال: كم سنك؟ قال: ستون. قال: ما رأيت ابن الستين أبقى كدنة منك! ما طعامك؟ قال: الخبز والزيت. قال: أما تأجمهما؟ قال: إذا أجمتهما تركتهما حتى أشتهيهما.
ثم خرج من عنده وقد صُدِع! فقال: أترون الأحول قد لقعني بعينه؟ فمات من تلك العلة!
ونحب أن نقول بهذه المناسبة: إن الحول قد يعده بعض الناس - وأنا في طليعتهم - من
سمات العيون المستملحة كالحور والانكسار والدعج، وبخاصة إذا كان الحول خفيفاً وهو ما يسمى بالقَبَل.
ففي ترجمة ابن سريج: أنه كان في عينه قبل حلو لا يبلغ أن يكون حولاً
وفي أخبار أبي الأسود: أنه اشترى جارية حولاء فغارت منها زوجه وابنة عمه: أم عوف. فكانت تشارُّه في كل يوم وتقول: من يشتري حولاء؟ فلما أكثرت عليه قال:
يَعيبونها عندي، ولا عيبَ عندها ... سوى أن في العينين بعض التأخر
فإن يك في العينين سوءٌ، فإنها ... مهفهفة الأعلى، رداح المؤخر
وقد عد بعض العشاق حول عينيه نعمة من الله تستوجب الشكر والحمد! وساق ذلك في شعر طريف علق عليه أبو هلال العسكري بقوله: إنه لا أظن له شبيهاً!
قال العاشق الشاعر الأحول:
حمدت إلهي إذ بليت بحبها ... على حول يغني عن النظر الشزْر
نظرت إليها، والرقيب يظنني ... نظرت إليه، فاسترحت من العذر
ونعود إلى سياقة قصة أبي النجم فنقول: إن محنته لم تطل، فقد تأذّن الله بكشف الغمة عنه وهيأ لذلك أسبابه!
فأمسى هشام ذات ليلة لَقِس النفس منفّر المنام! وهو عارضٌ كثيراً ما يعتري الخلفاء لما يكابدونه من جهد في تصريف أمور الملك وتدبير شئون الرعية، وإعمال العكر في سدّ الثغور ورتق الفتوق. وكانوا في مثل ذلك يفزعون إلى السُّمار الظراف يتفكهون بأحاديثهم ومُلحَهم. فتقدم هشام إلى خادم له أن يبغيه محدثاً، وأن يكون أعرابياً أهوج شاعراً راوية! ومن يكون ذلك المحدث الأعرابي الأهوج الشاعر الراوية غير أبي النجم؟
وذهب الخادم يبحث عن طلبة الخليفة فقاده حسّه اللطيف إلى أحد المساجد، وإذا برجل نائم فضربه برجله وقال: قم، أجب أمير المؤمنين. فقال الرجل: أنا أعرابي غريب. قال: إياك أبغي، فهل تروي الشعر؟ قال: نعم، وأقوله. فأقبل به من المسجد حتى أدخله قصر الخليفة وأغلق الباب وراءه؛ فذكر الرجل حادثته مع هشام فرجف قلبه وأيقن بالشر المستطير! ولكنه أسلم الله أمره واستقاد للخادم؛ فأدخله إلى أمير المؤمنين في بيت صغير من بيوت القصر، بينه وبين أهله ستر رقيق والشموع تزهَر بين يديه. فلما بصر به هشام قال: أبو النجم؟ قال: نعم، طريدك يا أمير المؤمنين. فإذن له بالجلوس وسأله عمن كان يُضيفه؛ فأخبره خبر الكلبي والتغلبي. قال: وكيف اجتمعا لك؟ قال: كنت أتغدى عند أحدهما وأتعشى عند الآخر. قال: وأين كنت تأوي؟ قال: في المسجد حيث وجدني رسولك
وأطرق هشام برهة لعله راجع فيها نفسه فندم على ما كان منه مع أبي النجم! ثم رفع رأسه وقال له: مَا لَكَ من الولد والمال؟ قال: أما المال فلا مال لي، وأما الولد فلي ثلاث بنات وبُني يّقال له: شيّان. قال: هل أخرجت من بناتك؟ قال: نعم، زوجت اثنتين وبقيت واحدة تجمِز في أبياتنا كأنها نعامة. قال وما وصيت به الأولى؟ - وكانت تسمى برَّة - قال:
أوصيتُ من بَرةَّ قلباً حُرا ... بالكلب خيراً والحماةِ شرَّا
لا تسأمي ضرباً لها، وجَرا ... حتى ترَى حلو الحياة مُرَّا

وإن كستك ذهباً ودرُا ... والحيّ عُمَّيهم بشرٍّ طُرَّا
فضحك هشام، وقال: فما قلت للأخرى؟ قال: قلت:
سُبَّي الحماة وأبهتي عليها ... وإن دنتْ فازدلفي إليها
وأوجعي بالفِهْر ركبتيْها ... ومرفقيها، واضربي جنبيها
وقعَّدى كفيْكِ في صُدْغيها ... لا تخبري الدهَر بذاك ابنيْها
فضحك هشام حتى بدت نواجذه، وسقط على قفاه! وقال: ويحك! ما هذه وصية يعقوب لولده! قال: ما أنا كيعقوب يا أمير المؤمنين ولا ولدي كولده
قال: فما قلت للثالثة؟ قال: قلت:
أوصيك يا بنتي فإني ذاهب ... أوصيك أن يحمدك الأقارب
والجار والضيف الكريم الساغب ... لا يرجع المسكين وهو خائب
ولا تني أظفارك السلاهب ... لهن في وجه الحماة كاتب
والزوج، إن الزوج بئس الصاحب
قال: فأي شيء قلت في تأخير زواجها؟ - وكان اسمها: ظلاّمة - قال: قلت:
كأن ظلامة أخت شَيَّان ... يتيمة ووالداها حيَّان
الرأسُ قملٌ كله وصِئبان ... وليس في الرجلين إلا خيطان
وقُصَّة قد شيَّطتها النيران ... تلك التي يفزع منها الشيطان
فضحك هشام حتى ضحكت النساء لضحكه! وقال للخِصيّ: ما فعلت الدنانير المختومة التي أمرتك بقبضها؟ قال: هاهي عندي ووزنها خمسمائة. قال: ادفعها إلى أبي النجم ليجعلها في رجلي ظلامة مكان الخيطين!
علي الجندي
من وراء المنظار
صراع...!
سألتُ صديقي الأستاذ (عين) أن يعيرني منظاره ساعة من زمان، علَّي أرى من خلاله ما توسوس به نفوس قوم قضيت بينهم عمراً من عمري، أحسن الظن بهم، وأقربهم إلى نفسي خشية أن يستشعروا الوحدة، وأنزل لهم عن بعض مالي خيفة أن يجدوا لذع العوز، وأواسيهم في البأساء ضناً بقلوبهم أن يأكلها الأسى و...؛ فلما أعرضت الأيام عني، انطلقتُ أفتش عبثاً، وإذا أنا على حَيْد الطريق، وحيداً تكاد تعصف بي أعاصير الحياة لولا بقية من أمل...
وأراد صديقي الأستاذ (عين) أن تكون له عندي يد أخرى، فقدَّم إلي منظاره في رضى، فوضعته على أنفي في خيلاء، ودلفت إلى الشارع في أناة وتؤدة، وهو من ورائي يشيعني بنظراته الباسمة
وخشيت أن ينزلق المنظار من على أنفي وأنا أتخطر في مشيتي، ومالي عهد بالمناظير، فيتحطم وأنا به ضنين؛ فانتحيت ناحية أصلح من شأني وشأنه، وأزوَّر في نفسي أمراً، فما راعني إلا صوت يناديني باسمي
والتفت فإذا صديقي (م) وزوجته يسيران الهوينى جنباً إلى جنب وذراعاً في ذراع، وقد عرته حمى الضحك حين رآني أقلب المنظار بين يدي، أضعه على عيني مرة، وأخلعه مرة، في حيرة وتردد؛ غير أني تغاضيت عن مجونه وأنا أدنو منه
لقد نشأ صاحبي (م) - كما نشأت أنا - بين ربوع الريف في ظل القرية الوارف الجميل، لم تلوث المدينة دمه الطاهر، ولا دنست الحضارة قلبه الزكي. عرفته وعرفني أول عهدي بالمدرسة، فهو أول من جلست إلى جانبه في فصل، وأول من تحدثت إليه في مدرسة، وأول من سكنت إليه في درس، وأول من لاعبته... ودرجنا ودرجت معنا الصداقة الجميلة الرفّافة، والأيام تجمع بيننا وتفرق، ونحن على عهد من الود لا نقطعه، وميثاق في الهوى لا نخيس به، وفي القلبين أواصر لا تستطيع نوازع الحياة أن تعبث بها، ولا تطمع حاجات العيش في أن تطغى عليها
وبهرت المدينة صاحبي أول ما هبط القاهرة، وهو قد هبطها طالباً في الجامعة، فاستلبه
بهرجها من وقار القرية وحيائها ليقذف به في هذر الحياة ومجونها، وحرفه التيار وهو عنيف، فما استطاع أن يخطو الخطوة الأخيرة من تعليمه الجامعي إلاّ وهو يلهث من أثر الإعياء والبهر، ثم أرخى لنفسه العنان

وتعرف إلى ابنة (فلان) بك، وهو عين من أعيان القاهرة استطاع أن يخلق من جاهه وظيفة مرموقة يقدمها مهر الزواج إلى زوج ابنته الوحيدة. . . إلى صاحبي وشاء (البك) ألا يحرم النظر إلى وحيدته، وهي قرة عينه وفرحة قلبه، وما في القصر سواها بعد أن ماتت عنها أمها، وسوى زوجته الجديدة، وهي فتاة في فجر العمر وثورة الشباب تزوجت من (البك) وفاء دين كان على أهلها، فلمست فيه برد شبابها المضطرم، وأحست بعد ما بين شيخوخته الذاوية وبين نضارتها المتألقة، فانطوت على نفسها تبكي حظها العاثر، ثم. . . ثم أشرق صاحبي الشاب في الدار فابتسمت له حين وجدت في غدوه ورواحه حياة تتوثب

وعاش الفتى في هذه الدار يتغنى بالسعادة ويترنم بالهناءة، وهو يحدثني حديثه - بين الفينة والفينة - فأستبشر لكلماته ويطمئن قلبي

لا جرم، فالآن قد نفذ بصري من خلال المنظار إلى الحقيقة التي لا يعرفها صاحبي، الحقيقة التي إن جاشت بها نفس الزوج طمّت عليها ابتسامات الزوجة الرقيقة. . .

هذه هي الزوجة الطيعة الوفية تتراءى لي وهي تنظر إلى زوجها الريفي الساذج في احتقار وسخرية، وفي نفسها أنه صنيعة أبيها ويد من أياديه، أقامه وهو يتكفأ في مضطرب الحياة، ولمّ شعثه من شتات، وخلق منه رجلاً ذا مال وأنق وهو على خطوة من التصعلك، ثم هي لا تحس باحترامه ولا تشعر بكرامته، وكيف؟ وهو قريب عهد بآداب الجماعات والحفلات، لا يعرف الرقص، ولا يتقن (البوكر)، ولا يصبو إلى الأصفر والأحمر من شرابهم وإن حمرة الخجل لتربط على لسانه إن هو جلس إلى فتاة غريبة، وإن فورة الغيظ لتسيطر عليه إن جلست هي إلى شاب غريب، وهي فتاة من بنات الشارع ترى في طباعه تزمت الأغبياء، ورجعية الفقراء، واضطراب الجهلاء، فتعبث به، وهي في مأمن من ثورته، لأنه عبد أبيها. . .

ورحت أحدق في الزوجة لأتغلغل إلى خلجات ضميرها. . . وهي تتصاغر في عيني، وهو يتضاءل تحت منظاري، حتى بلغنا سيارة (البك)، وفيها زوجته الشابة تنتظر. . . لقد أرادت أن تخلو إلى نفسها ساعة تدبر أمراً. . .

وعجبت أن رأيتها تلتصق بصاحبي تريد أن تستشعر الدفء من شبابه، وهي تحاول أن تصرفه عن زوجته رويداً رويداً لتستمتع به، وفي قصر زوجها، غير أنها كانت تخشى صولة (البك) ونظرت إلى زوجة صاحبي فألفيتها لا تستطيع أن تلمس خواطر تتنزى في قلب زوجة أبيها، لأن حياتها المائجة كانت قد أسدلت على عينيها ستاراً لا ترى من فروجه إلا الحفلات والسهرات، وإلا الزينة والسمر، وإلا. . . فأوشك البيت أن يتداعى عليها

وعجبت لهذا الصراع النفساني يحوم حول صاحبي وهو عنه في غفلة؛ فرفعت بصري إلى السماء أحوله عن بعض ما رأيت؛ غير أني ذهلت أن رأيت صفحة من صفحات القدر منشورة أمامي أقرأ فيها: أن (البك) قد مات، وأن النزوات المكبوتة قد ثارت. فيا ترى من ذي التي تفوز

وأنت يا صاحبي لا تلحني فلقد كتبت لك سطراً من حياتك علك تجد لنفسك مخرجاً قبل أن تتردى

(مشتهر)

كامل محمود حبيب

من تاريخ الأدب الإنجليزي

في عهد الملكة اليزابث

1558 - 1603

للأديب مصطفى مشعل

مقدمة

تعتبر القصة منذ أقدم العصور فناً قائماً على قوة التخيل، واستخلاص أفضل النتائج التي يحسن توجيه الشعب إليها، وبث العقائد أو المثل العليا التي يدين بها الكاتب ومن المعروف أن أدب القصة هو الأدب الذي يتأثر به القارئ أكثر من تأثره بسواه، وأنه الأدب المحبوب الذي يتذوقه المطالع تذوقاً شهياً دون ملل، أو إرهاق فكر. فهو إذن أشد الآداب اتصالاً بالروح، وتصويراً للشعور، ووصفاً للبيئة، ومعالجة للحياة في جميع أوضاعها. . . فالقصة هي أحسن أدب يمثل الحياة.

ولا شك في أن الكاتب الروائي يستطيع - إن ملك القدرة على نسج الخيال بالحقيقة، واستطاع سرد قصته دون أن يمل قارئه النجاح - بسهولة في جعل هذا القارئ يعيش ويحيا مع أبطال قصته، فيفرح لفرحهم ويتألم لألمهم كأنهم أشخاص يعيشون على مسرح الحياة لا مسرح الخيال

ومن الحقائق المعروفة أيضاً عن الأدب القصصي أنه أداة فعالة في النفوس، فنحن مثلاً إذا سمعنا قصة حياة شبيهة بحياتنا نشعر بفرح هائل يملك علينا إحساسنا، إذ نرى في احساسات غيرنا وشعوره صورة ناطقة لشعورنا وأحاسيسنا، حتى ولو كان ذلك الشعور وهذا الإحساس ألماً لشيء أو أسفاً عليه، فالطبيعة البشرية تجد في هذه المشاركة في الشعور والوحدة في الألم أملاً جديداً، وشجاعة تواجه بها الأحداث والمتاعب

أما إذا كان الوصف والتصوير الذي نطالعه هو وصفاً وتصويراً لحياة جديدة لا نعرفها ولا نحياها فسرعان ما نلمس في نفوسنا حناناً لهذه الحياة متأثرين بما نقرأ عنها من وصف. . . مشغوفين بما نتخيله عنها سواء كان هذا التخيل الذي يدفعنا إليه الكاتب يتجه نحو النور أو الظلام. . . نحو الفرح أو الحزن؛ وهكذا ينمو ذلك التأثر وهذا التخيل حتى ندخل في

حمأة الحياة الجديدة ونعيش فيها شاعرين بلذة لا توصف، لأننا شاركنا أبطال القصة في حياتهم، وفي فرحهم وترحهم

ونحن نستنتج من هذا أن القصة الواقعية التي تصف حياة رجل أو امرأة وصفاً حقيقياً تفوز بعطفنا وإعجابنا، ولكننا سرعان ما نشعر بفتور يستولي علينا، لأن أبغض شيء إلى المرء هو أن يرى الآم حياته تمثل أمامه أو تسرد عليه مرة أخرى. . إنه يكتسب من ذلك أملاً ولكنه لا يكتسب لذة. . . وذلك لأن القصة الواقعية قد عدمت في سطورها ذلك الشيء المجهول الذي نشعر به ولا نعرفه، واللذة غير الأمل. . . فاللذة التي يحسها القارئ لقصة مزجت فيها الحقيقة بالخيال البلوري هي تلك اللذة التي يحسها كل بشري عقب استطلاع شيء مجهول. . . عقب الخوض في عالم جديد لا يعرفه ولم يحيى في

ومن ذلك نرى أنه كان لزاماً على القصاص أن يخترع المواقف والمفاجآت التي يوحيها خياله ليضمن تتبع القارئ له تتبعاً مستمراً غير منقطع. . . وكان عليه أن يشوق القارئ إلى النهاية المحبوكة، وأن يجعله يعجل القراءة محاولاً أن يصل إلى آخر مرحلة من مراحل هذا الخيال المسترسل وإلى خاتمة هذه المفاجآت المتصلة، لأنه - أي القارئ - لا يستطيع أدارك نهاية القصة ولا يستطيع أن يحزرها حزراً يقرب من الصواب، لأنه لم يشعر ولم يتذوق مثل الحياة التي تصفها القصة وتصورها

ماجن ورولاند

كان هذان الرجلان هما أول من بذرا بذور هذا النوع الذي تحدثت عنه، فأستقبله الكتاب الواقعيون بشيء غير قليل من اللهفة والشغف والرغبة القوية في التقليد، فما زالوا يفكرون بين مترددين ومقدمين حتى جرفهم التيار فإذا بهم مقلدون. وهكذا شاع وذاع هذا النوع السائغ السهل الهضم في المعدة الأدبية، وابتدأ الخيال يلعب دوره في القصة ويشتط شططاً كبيراً ويجمح جموحاً غريباً حتى اعتاده الناس وتقبلوه تقبلاً حسناً ولكن الكتاب أمعنوا فيه إمعاناً شائعاً مبتذلاً، فكان ذلك وبالاً على هذا النوع من القصة إذ تحول القراء عنه. وهكذا راح يخبوا ويندثر ليظهر على أعقابه نوع جديد من الأدب الذي كتب واصفاً بعض حوادث التاريخ القديم وسمي بالقصة

قصة (يوفيسن) لجون ليلي

إذا أراد الكاتب أن يتحدث عن العصر الإليزابثي ومخلفاته وأن يتكلم عن القصص الموفق الذي ظهر وأحدث ضجة كبيرة لما وجد أمامه إلا قصة رائعة بل هو أروع آثار هذا العهد إطلاقاً من حيث قوة الفكرة وحسن الأسلوب ولما اشتملت عليه من مغزى كتب هذه القصة شاب نابه يدعى جون ليلي وكان اسمها (يوفيس)، ونحن إن أردنا تحليل الأسباب والدوافع التي كانت سبباً في ظهور هذه القصة وتفوقها على كل ما عداها استطعنا ذلك بقليل من الاستنتاج. فالقصة لم تكتب جزافاً ولم يضعها صاحبها لمجرد الرغبة في الكتابة أو الشهرة، بل إنه أراد بها مغزى عظيماً، إذ حاول أن يظهر ويصف التأثير السيئ والانحطاط الخلقي الذي كانت الحياة الاجتماعية في إيطاليا

تؤثره في صغار الشبان الإنجليز النازحين إليها لتلقي العلم والمعرفة
لقد كانت إيطاليا في ذلك الوقت بلاد النور الخلاب يتهافت عليها طلاب العلم، وتفيض هي على العالم علماً وعرفاناً، حتى لقد كان يحج إليها كل متعلم أراد أن يتم حظه من الثقافة أو يزيد نصيبه من العلم. واقتبست إنجلترا هذه العادة عن غيرها من الأمم منذ رحل إلى إيطاليا بعض المجدين من طلبة العلم الذين أظهروا نبوغاً في الأدب من أمثال: كوليت وليناكر وجركن لدراسة اللغة اللاتينية وآداب الإغريق الكلاسيكية التي كانت دراستها باعثاً قوياً في نهضة أدب المسرح والقصة. . . واستمرت هذه العادة عند الطبقة الراقية كتقليد لابد منه لكل من أتم دراسته حتى بعد أن شرعت الجامعات الإنجليزية في تدريس هاتين المادتين
ولم يكن جون ليلي هو أول من فطن إلى ذلك، بل إن أول من أراد منع هذا التقليد هو مؤدب الملكة روجر آشام فلقد أدرك روجر أن هؤلاء الذين يحجون كل عام إلى إيطاليا بحجة الدراسة إنما يرحلون دون نية أو مقصد حقيقي لذلك. فلقد كانوا يجتمعون هناك في مدرسة واسعة حيث كانت الآداب الإغريقية الرائعة تعتبر فيها مادة للهو والتسلية، إذ كانت تترجم إلى اللغة الإيطالية الدارجة بأسلوب وضيع ولغة فجة، فتحولت عن مغزاها العالي الذي كتبت من أجله إلى أداة للاستهتار والتسلية ليس إلا. فأشار روجر إلى كل ذلك في كتاب ثقافي وضعه وحمل فيه على العقائد والمثل العليا في إيطاليا حملة شعواء، وبيّن الأخطار الهائلة التي تعود على الأمة من جراء إرسال أبنائها وصفوة شبابها إلى بلاد لا
يدين قومها بشيء، بل هم ساخرون هازلون بالعقائد الإلهية والقوانين المرسلة. . .
ولكن الكتاب رغم ذلك كله لم ينل النجاح الذي قدره روجر له ولم يف بالغرض الذي أراده، لأنه كتب بأسلوب علمي لا يشجع على القراءة، وإن كان قد مهد به لبحث مسألة حيوية لجيل من الشباب.
كان روجر صادق النية في محاولة تخليص أمته من تأثير إيطاليا، ولذا لم يرض هو نفسه عن كتابه هذا. . . كان يريد كتاباً من نوع آخر. . . كتاباً يقرأه الخاص والعام، فيخرج منه متأثراً منضما لروجر في فكرته، مؤيداً له في وجوب القضاء على هذه العادة. . . ولكنه لا يستطيع كتابة هذا الكتاب لقلة فراغه وكثرة مشاغله. . . فماذا يفعل؟ . . .
تذكر الشاب المغمور جون ليلي وعرف فيه القدرة على وضع الكتاب المنشود والبراعة في الوصف والتأثير على القارئ، فأوحى إليه أن يضع قصة يبين فيها آفات المجتمع الإيطالي وخطره العظيم على شبيبة ناشئة والنتيجة السيئة لهؤلاء الذين يعيشون في وسطه وما زال دم الشباب يجري في عروقهم حاراً عنيفاً. . . وما زال بهم ظمأ شديد للعب والوثب. . . وظمأ أشد للحب والمرأة. . . وشغف لا يقاوم بحياة الليل المسممة بين رنين الكؤوس وأصوات القبل.
وكان ليلي عند حسن ظنه به فدرس المؤثرات التي يستهدف لها الفتى الإنجليزي في إيطاليا وبلادها وجعلها موضوعاً لقصته العظيمة (يوفيس)
كان اسم (يوفيس) اسماً مقتبساً عن الإغريقية، ولعل هذا هو ما حدا به لأن يجعل بطل قصته شاباً من شباب أثينا المفتونين أنهى دراسته ثم رحل إلى إيطاليا للدراسة، وفي طريقه عرج على (نابلي) وهناك التقى بآخر يدعى إيبوليس. . . ولكن هذا الأخير عاقل في بلدة أجدبت من العقلاء؛ فهو ينصح يوفيس، ولكن يوفيس لا ينتصح. . . وهو يلومه ولكنه لا يرعوي. . . وهو يحاول أن يفيده والآخر لا يريد؛ فإذا ما مل نصحه ويئس من إصلاحه صمت على مضض. . . ولكن رغبته في إصلاح صديقه لا تلبث أن تعود فيضرب على الناحية الحساسة في نفس يوفيس قائلاً:
- أي يوفيس البائس. . . اعمل لأجل الله ولا تعمل لأجل نفسك، واجعل حبه لا حب البشر هو المسيطر عليك، وأحذر أن تغضبه منك، فإنك لو عملت له، وأخلصت لذاته العظيمة، باركك ورعاك، فإنه عادل يحب المخلصين
ولكن أنى للجاهل العربيد أن يثوب إلى رشده ويعود إلى حظيرة الله ما دام الشيطان يطوف حوله ليسكب في أذنيه أغاني الشر وأهازيج الدمار
لقد أنخرط الأثيني الشاب في زمرة الكسالى، وراح معهم يعيشون في أنحاء نابلي فساداً يبحثون عن اللذة أينما وجدت، ويتذوقون كل محرم ويفخرون بما يأتونه كل يوم

من ضروب المجون والعبث
وتصل القصة إلى أكثر أجزائها شدة وقوة فيعمد ليلي إلى ختم قصته ختاماً موفقاً حقاً
إذ أرجع (يوفيس) إلى أثينا. . . (رجلاً حزيناً عاقلاً). . . بل لقد جعل منه رجلاً آخر
مخالفاً لشخصيته الأولى. . . لقد أدرك آثام الماضي وشروره فراح يكتب الرسائل
الطويلة إلى أصدقائه باسطاً فيها الآراء الناضجة الكاملة الشيء الكثير، شأن العارف
الدارس بأسرار الحياة
ولعلك تستطيع أن تلمح من بين سطور القصة قوة المؤلف الذي استطاع أن يصف ما
أراد من نزق وجنون، وعبث ولهو، ثم ندم واستغفار. . . ووقار وحكمة
لقد أراد ليلي أن يجعل الناشئة تتمسك بأهداب الفضيلة بأن أخذ يسرد عليهم سرداً
قويا التقاليد السيئة المتبعة ليجتنبوها ودعا فيما دعا إليه إلى دراسة الكتاب المقدس
ليستوحوا منه العظات ولكي يستطيعوا التغلب على نزعة الإلحاد التي كانت تنتشر في
إيطاليا بلد العلم والعرفان!
وهكذا لم تلبث القصة أن ذاعت ذيوعاً عظيما حتى لقد صارت أحب الكتب الأدبية إلى
الناس
كانت حديث الطبقات الراقية. . . بل لقد تناقل الإعجاب بها موظفو البلاط الملكي
نفسه
على أنه مما ليس فيه شك أن هذه القصة لو لم يعرف مؤلفها أدواء الجيل لما لقيت
من هذا النجاح الفذ قليلاً أو كثيراً، بل لما سمع عنها في هذا الوقت، فإنما قامت
شهرتها على قوة أسلوبها وقوة بصيرة مؤلفها وقدرته على معالجة الحوادث الخارجية
التي كانت تحيط بالناشئة، والتي كان الشعب يجهلها رغم أنها كانت سائدة بينه. . .
فعلى هذا الأساس المتين نالت القصة هذا المركز الفذ الذي لا يداني في العهد
الإليزابثي كله
الأساليب القصصية
كانت الدراسة الطويلة للآداب الإيطالية وأساليبها من أقوى المؤثرات في الأسلوب
الذي ساد في هذا العصر. . . لقد عنى الكتاب بالمظاهر في أسلوبهم أكثر مما عنوا
بالفكرة في كتاباتهم. ونحن إذا تعمقنا قليلاً في الأساليب التي استعملت في هذا العهد
وجدنا فيها شيئاً غير قليل من محاولة التلاعب بألفاظ وحروف اللغة ومحاولة جعل
أوائل أو أواخر الكلمات متشابهة في جرسها أو رنتها الموسيقية كالسجع في اللغة
العربية مثلاً
وقبل أن أنتقل بالقارئ إلى نوع آخر استعمل في الأسلوب الإنجليزي لهذا العهد أحب
أن أنقل هنا جملة من الأسلوب الذي تحدثت عنه وهي من قصة (يوفيس):
أما النوع الآخر فقد سموه أسلوب التباين أو الموازنة المضادة وأنا أنقل منه هنا بضع
جمل لسهولة الفهم:
وإليك جملة أخرى ,:
,
وتفيض كتابات هذا العصر بمثل هذا الأسلوب الأخير، كما تفيض بالأسلوب الأول. وبقدر
ما كان لهذه الأساليب من ميزة إن صح أن كان لها ميزة، كان الشعور العميق
والاختلاجات الحقيقية صعبة الإظهار. . . صعبة البيان. . . تحتاج إلى كثير جداً من
المهارة والحنكة والتصرف والإلمام بكلمات اللغة. . . وخلق المرادفات التي لا
يستثقلها السمع ولا ينبو عنها الذوق، وفي كل هذا من الإرهاق والجهد ما يفوت
المقصد الحقيقي على الكاتب، بل ويمعن به في البعد عن الموضوع إمعاناً معيباً جرياً
وراء هذا السجع، أو ذاك التباين، فإنه مما لا شك فيه أن محاولة تصيد الحروف الأولى
للكلمات أو الحروف الأخيرة تقف - في غير الشعر - حجر عثرة في سبيل الأسلوب
المستقيم.
هذه هي أهم الأحداث في تاريخ الأدب القصصي في هذا العهد الذي ابتدأ عام 1558م
إلى 1603م
ولا شك أن القارئ لاحظ معي أنني قصدت الكلام عن قصة يوفيس، ولكني لم أفعل
ذلك إلا لأن هذه القصة هي أعظم أثر أدبي لهذا العصر فضلاً عن أنها تمثل في أكثر
أسلوبها

الأسلوب الذي ساد. . . الأسلوب الذي كان أشبه ما يكون بالطلاء اللامع الذي يخفي وراءه عيوباً كثيرة، حتى لقد سخر عميد اللغة الإنجليزية وليم شكسبير منه إذ كان يجريه على لسان بعض أبطال قصصه البلداء الفكر

قصة جديدة لجون ليلي

كتب ليلي هذه القصة عام 1579 بعد قصته الأولى بعام واحد وهي عبارة عن رواية لزيارة (يوفيس) لإنجلترا وانخراطه في الحياة الاجتماعية الإنجليزية وكانت القصة محتفظة بروح المؤلف. . . ونقد فيها العادات الإنجليزية والجامعات الإنجليزية، لا بقصد التشهير والهدم، وإنما للإصلاح ووضع القواعد الثابتة الناجحة لمساعدة الشبان الناشئين وكان يوجد بجانب ليلي بعض الكتاب الذين ساهموا بنصيب وافر في خدمة أدب القصة في هذا العصر، ومن هؤلاء كاتبا المأساة لودج وجرين، والأخير كتب عدداً كبيراً من القصص القصيرة اقتبسه عن الإيطالية. . . واشتهّرت كتابته بميسم الحزن والألم؛ ولعل ذلك يرجع إلى المرض الذي عاناه والذي جعله ينظر إلى العالم بمنظار أسود، حتى لقد كتب عن هذا اليأس والحزن قصة طويلة جعل اسم بطلها (روبرت) وهو اسمه الأول

أما الكتاب الآخرون، فلم يظهروا إلى جانب من ذكرت إما لضعف أسلوبهم أو لقلة ثقافتهم

الإسكندرية

مصطفى مشعل

رسالة الشعر

رحلة عابسة

للأستاذ أحمد محرم

من دمنهور عاصمة البحيرة التي هي مقر الشاعر إلى القاهرة، ومن القاهرة إلى الإسكندرية عن طريق الصحراء، انطلقت به السيارة هو وصديق له، فمر في طريقه بدنشواي والقناطر الخيرية والأهرام، فتنكرت شاعريته لكل هذه المشاهد، أو هي قد تنكرت لهذه الشاعرية الساخطة، وحسبه أن يكون في جوف الصحراء فيحسب أنه في نفق من الأنفاق، وأن يكره الشمس فيراها تخلع رداء الحسن والإشراق، ويشهد الروض يكره نفسه، فيلقي بما فيه من زهر وأوراق. وهذا ما يقول في هذه الرحلة العابسة:

عَصَفَ الْهَوَى بَجَوانِحِ المُشْتَاقِ ... وَهَفَا الَحْنينُ بقَلْبِهِ الَخْفَّاقِ
مَا يَصْنَعِ الْقِلْبُ الطَّرُوبُ إذ الْهَوى ... بَلَغَ القَرارَ، وجَالَ في الأعْمَاقِ؟
يا صَاحِبي: فِيمَ المُقَامُ عَلَى الأذَى؟ ... سِرْ فالْبِلاَدُ فَسِيحَةُ الآفاقِ
اركَبْ جَنَاحَ الرِّيحِ وَاسْتَبِقِ المَدَى ... بَعْدَ المَدَى (بالشَّاعِرِ السَّبَّاقِ)
ماذَا تَظُنُّ بِناَ المَدَائِنُ والْقُرَى؟ ... الرَّكْبُ رَكْبِي، والرِّفاَقُ رِفاقِي
وَأَناَ الَّذِي أَحْبَبْتُهاَ، وَجَعَلْتُهاَ ... دَارَ الهوَى، وَمَحَلَّةَ الأشْوَاقِ
وَلَكَمْ سَقَيْتُ رُبُوعَها مِنْ أدمُعِي ... وَالبَاكِياتُ جَوَامِدُ الآمَاقِ
لاذَتْ بأرْوِقَةِ الْبَيَانِ فَلَمْ تَجِدْ ... في الَحْادِثَاتِ النُّكْرِ مِثْلَ رِوَاقِي
أدب تَحَصَّنَ بالْمرُوُءةِ فارْعَوَى ... عَنْهُ المُسَاوِمُ، وَاتّقَاهُ الرَّاقي
ما كُنْتُ أَحْسَبُ وَالُخْطُوب كثِيرةٌ ... أَنّ الْقَرِيضَ يبُاَعُ في الأسْوَاقِ
قُلْ للْجَدَاوِلِ وَالزُّرُوعِ: تَحَدَّثي ... في غَيْرِ مَا وَجَلٍ، وَلاَ إشْفاَقِ
ماذَا يُمَارِسُ مِنْ شَدَائِدِ دَهْرِهِ ... مَنْ أنْتِ كلُّ رَجَائِهِ، وَيُلاَقِي؟
وَلِمَنْ جَنَاكِ؟ أَللَّذِي هُوَ زَارِعٌ؟ ... أَمْ أنْتِ للِجَاني بِلاَ اسْتِحْقاَقِ؟
وْيلِي عَلَى (فَلاّحِ مصْرَ) أَمَا كَفَى ... ما ذَاقَ مِنْ عَنَتٍ وَمِنْ إرْهَاقِ؟
يُغنِي أَلُوفَ المُتْرَفينَ بمالِهِ ... وَيَعِيشُ في فَقْرٍ وَفي إمْلاَقِ
سُبْحَانَ مَنْ شَرَعَ السَّبِيلَ لِخَلْقِهِ ... أَكَذَا يَكُونُ تَفَاوُتُ الأرْزَاقِ؟
وَلَقَد مَرَرْتُ (بِدِنْشِوَايَ) فَهَاجَني ... وَجْدٌ عَلَى مَرَّ الحوَادِثِ باقِ
تِلْكَ السَّياطُ عَلَى الجُلُوْدِ وَهذِهِ ... سُودُ الْحِبالِ تُشَدُّ في الأعْناَقِ
وَأَرَى دُمُوعَ الثَّاكِلاتِ هَوَامِيا ... تَجْرِي فَتَغْرِق في الدَّمِ المُهْرَاقِ

تُرْمَي النُّفُوسُ وَمَا بِهاَ مِنْ قُوَّةٍ ... تَزَعُ الرُّماة وَمَا لَهَا مِنْ وَاق
عِرَفَ (الحَمامُ) مُصَابَهاَ فَكَأنّماَ ... لَبِسَ الأسى في هذِهِ الأطْوَاق
لوْلاَ الأُلَي حَمَلُوا السَّلاَحَ لِصَيْدِهِ ... لمْ يَسْقِهاَ المَوْتَ المُسَمَّسمَ سَاق
سِرْ يا رَفِيقي، لَيْتَني في مَحْبَسِي ... وَلَسَوْفَ أَمْنَعُ أَنْ يُحَلّ وَثَاقي
أَهِيَ (القَنَاطِرُ) في بَدِيعِ جَمَالِهَا؟ ... أَمْ تِلْكَ بَعْض مُقَاَبِرِ الأخْلاَق؟
لاَ تَظْلِمُوا الْعُشَّاقَ يَا قَوْمي، فما ... أَبْصَرتُ غَيْرَ مَسَارِحِ الْفُسَّاق
وَدَعُوا العُهُودَ، فما وَجَدْتُ لِمُدَّعٍ ... في الحُبَّ مِنْ عَهْدٍ، وَلاَ مِيثَاق
الحُبُّ مَا صَرَف القُلُوبَ إلى الهدَى ... وَسَمَا إلى الجَوْزَاءِ بِالأَحْدَاق
دِينُ الْمُرُوءةِ وَالوَفَاءِ، وَإِنْ هُمُو ... زَعَمُوهُ دِينَ تَصَنُّعٍ وَنِفاَق
القَبْرُ أَطيَبُ مِنْ فُؤَادِ مُنَافِقٍ ... خَدَعَ النفُّوسَ بِظَاهِرٍ بَرَّاق
مَا هذِهِ (الأهرامُ)؟ مَا لِبُنَاتِهَا ... سَاقُوا أُمُورَ المُلْك شَرَّ مَسَاق
هَدَمُوا الْقُوَي فِيها يُشَدُّ بِنَاؤُها ... وَيُقَامُ أَطْبَاقاً عَلَى أَطْبَاق
هيَ إِنْ أَرَدْتَ الْحقَّ شَاهِدُ قَسْوَةٍ ... يُخْزِي الوُجُوهَ وَآيةُ اسْتِرْقاَق
أَفَمَا تَرَاها، كُلَّمَا اسْتَنْطَقْتَهَا ... زَادَتْكَ مِنْ صَمْتٍ وَمِنْ إطرَاق؟
خُرْسٌ يُجَّللُهَا الَحْيَاءُ، وَمَا بها ... إلاّ ضَلاَلُ (السَّاسَةِ الحُذَّاق)
قالَ الأُلي فُتِنوُا بها: مُسْتَوْدَعٌ ... لِلسّرَّ، غَودِرَ مُحْكَمَ الإغْلاَق
دَعْ مَا يُرِيبُكَ مِنْ وَسَاوِسِ مَعْشَرٍ ... عَكَفُوا عَلَى التهَّوْيلِ وَالإغرَاق
دَارٌ تُجِيرُ مِنَ الزمَانِ وَصَرْفِهِ ... وَتَصُونُ مَا أَبقَى مِنَ الأرْمَاق
خَيْرٌ مِنَ الصَّرْحِ المُقَامِ لِظاَلِمٍ ... جَافي الطِّبَاعِ إلي الأذَى تَوَّاق
سِرْ في الْقِفَارِ البِيدِ، مَا لِرِكَابِناَ ... مِنْ حَابِسٍ فيها، وَلاَ مُعْتَاق
رَحُبَتْ جَوَانبُهَا، فَنَحْنُ نَظنُّهَا ... أَخْلاَقَ حُرّ مَاجِدِ الأعْرَاق
أَتَظُنُّ أَنَّا في فَسِيحِ فَضَائِهَا ... أَمْ نَحْنُ في نَفَقٍ مِنَ الأنفَاق؟
اِصبِرْ، وَلاَ تَعْجَبْ لِمَا أَناَ قائِلٌ ... فالْهَمُّ وَيحَكَ آخِذٌ بِخِناَقِي
وَكَأَنَّمَا أَنَا والأحِبَّةِ حُضَّرٌ ... حَوْلي صَرِيعُ نُوًى وَنِضْوُ فِرَاق
إنّا اجْتَمَعْنَا لِلرَّحِيلِ، يَضُمُنَا ... فَكَأَنَّناَ لَمْ نَجْتَمِعْ لتلاَق
ذُقْتُ الخُطُوبَ فما وَجَدْتُ مَرَارَةً ... كَمرَارَةِ الحِرْمَانِ وَالإخْفَاق
مَا كُنْتُ أُوثِر أَنْ أُفارِقَ مَوْضعِي ... لَوْلاَ الْقَضَاءُ وَحِكْمَةُ الْخَّلاق
مَالِي رَأَيْتُ الشَّمْسَ حين كَرِهْتُها ... خَلَعَتْ رِدَاءَ الْحُسْنِ وَالإشْراق؟
وَلَقَدْ شَهِدْتُ الرَّوْضَ يَكرَهُ نَفسَهُ ... لَمَّا رَمَى بالزَّهْرِ وَالأَوْرَاق
لِلعَبْقَرِيةِ مِنْ هَوَى أَرْبابها ... عِلْمٌ تُحَوَّدُهُ، وَفَنٌّ رَاق
أُمُّ الْبَدَائِعِ، مَا يُحَدُ نِطَاقُهَا ... إنْ حَدَّدَ الأَقوَامُ كلَّ نِطاَق
هِيَ لِلرَّجَالِ عَلَى الَخْصَاصَةِ وَالْغِنَى ... أَغْلَى الْكُنُوزِ، وَأَنْفَسُ الأَعْلاَق
أحمد محرم

آمال كاذبة

للدكتور إبراهيم ناجي

لا البرء زار ولا خيالك عادا ... ما أكذب الآمال والميعادا
عجباً لحبك يا بخيلة! كيف يخ ... لق من جوارح عابد حسادا؟
إني لأهتف حين أفترش المدى ... وأرى الجحيم لجانبَّي مهادا:
آهاً على الرأس الجميل سلاَ وأغ ... فى مطمئناً لا يحس سهادا
فَرشَتْ له الأحلام واحتفل الهدو ... ء به ومدَّ لهُ الجمال وسادا
يا حبها ما أنت ما هذا الذي ... جمع الغريب وألّف والأضداد
كمْ أشرئب إلى سماك بناظري ... مستلهماً بك قوةً وعمادا
ولَكَمْ أبيتُ على السآمة طاويا ... في خاطري شبحاً لها عوَّادا
فأراك تعبث بي كطفل في السما ... ء يصرَّف الأقدار كيف أرادا!
ولكم أقول هوًي كما بدأ انتهى ... فإذا الهوى وافى النهاية عادا
مات الرجاء مع المساء وإنما ... كان الممات لحبنا ميلادا
ماذا صنعت بناظرٍ لا ينثني ... متطلعاً متلفتاً مرتادا
وأنا غريب في الزحام كأنني ... آمال أجفان حُرِمْن رقادا
ولقد ترى عيني الجموع فما ترى ... دنيا تموج ولا تحس عبادا

فإذا رأيتك كنت أنتِ الناس وال ... أعمار والآماد والآبادا
وأراك كل الزهر، كل الروض أن ... تِ لديَّ كلُّ خميلة تتهادى
ناجي
سأغني
(. . .مهداة إلى (لولو) الصغير)
للأديب عبد العليم عيسى
ظمِئتْ روحي وضاقت رَحَباتي
واحْتَوت قلبي المدمَّي كرُباتي
فاتركوني أتغنَّى في حياتي
ذاهلاً عن كل موجودٍ وآت
سأغني! سأغني!! فدعوني ... إن روحي ترتوي من نغماتي
لستُ منكم. . . فاذْهَبوا عني بعيدا
ثم ضِجوا واقصِفوا قصفاً شديدا
واملئوا الكونَ صُراخاً لن يبيدا
إن أحلاميَ لا تهوى الرعودا
دْربكم خالف درْبي وطريقي ... فاتركوني هائماً في سَبَحاتي
قد كذبتم. . . وأنا كنتُ صدوقا!
وغلِظتم. . . وأنا كنت رقيقا!
وقسَوْتم. . . وأنا كنت رفيقا!
ورسِفتم. . . وأنا كنت طليقا!
فلِماذا. . . تحْسبوني مثلكم ... من بني الطين وعبد الظلمات
اسْألُوا عني السَّواقي والزهورَا
وضفافَ النهرِ والحقلَ النضيرا
أنا أهواها. . . ولا أهوى القصورا
فجَّرتْ قلبي فغنَّيتُ كثيرا
وهْيَ تدري هجسَاتي ومُيولي ... وطِباعي ونزُوعي وصفاَتي
الأدب في أسبوع
نقد
كتب الأخ الفاضل الأستاذ سلامه موسى في مجلة اللطائف (8 إبريل سنة 1940) كلمة يتعقب بها كلامنا في (الفن الفرعوني، وتمثال نهضة مصر) المنشور في عدد الرسالة 345 في 12 فبراير سنة 1940 وجعل عنوان نقده (تعارض التيارات الفكرية، وضررها على التطور الاجتماعي والثقافي) وسنلخص لك نقده ثم نتبعه ببعض ما يجب علينا من تحرير رأينا، وتقدير رأي الأستاذ الفاضل، يقول: إن الأفكار تتعارض في كل أمة حرة ولكنه لا يخرج بها عن أسلوب الحياة العامة من التوافق إلى التناقض والتنافر، فيفضي ذلك إلى اختلال التوازن الاجتماعي، فيعتاقُ الأمة عن الرقيّ والإصلاح. ويقول: إن بعض الآراء في مصر ليتناقض كما يكون التناقض بين أمتين متخالفتين، وإن (العقلية المصرية) التي تفكر بها مصر في أنظمتها الاقتصادية، والثقافية، والاجتماعية، والتعليمية، والحربية: هي ضرورة الوضع الجغرافي والاحتكاك السياسي بأوربا، وإننا لا نعيش فقط في القرن العشرين، بل في سنة 1940 من هذا القرن. ويقول ما نصه:
ونستطيع أن نضرب الأمثال على هذا الاختلاف الذي يقارب التنافر. فقد ألَّفَ الدكتور) طه حسين بك كتاباً يدعو فيه إلى أن نجعل من الفن الفرعوني أحد العناصر في (الغذاء الروحي والعقلي للشباب) فتناول هذه الدعوة الأستاذ محمود محمد شاكر بالاستنكار حتى قال في مقاله بالرسالة: وعلى ذلك، فيجب أن نقرر أن الفن المصري الفرعوني - على دقته، وروعته، وجبروته - إن هو إلا فنٌّ وثنيٌّ جاهلي قائم على التهاويل، والأساطير، والخرافات التي تمحق العقل الإنساني، فهو إذن لا يمكن أن يكون مرَّة أخرى في أرض تدين بدين غير الوثنية الفرعونية الطاغية - سواء أكان هذا الدين يهودياً أم نصرانياً أم إسلامياً أم غير ذلك من أشباه الأديان. . .) ثم استمر فنقل بعض رأينا في الذي قلناه عن تمثال نهضة مصر

وهذا تعارض عجيب، كما يرى الأستاذ سلامه موسى، واختلاف في التيارات الفكرية يحمله على أن يدعو الاجتماعيين أن يحاولوا التوفيق بين هذه الآراء حتى لا يصير اختلاف الرأي الحر تناقضاً في العقائد المجزومة، وحتى نُصْبح أمة متمدنة تستطيع أن تنصت إلى الرأي المخالف في تسامح وأن تعبر عنه في اعتدال ينأى عن الحدة والتهور ثم يقول الأستاذ الفاضل إنه يتوهم مما كتبته أن الدكتور طه أو المثال مختار يريدان منا أن نحنط الموتى ونعبد (رعْ) مع أن حقيقة ما طلبه كل منهما أن نستوحِيَ هذا الفن المصري القديم. ثم يقول عني وعن الدكتور طه: (إن الاختلاف بين الكاتبين هنا يرجع إلى أكثر من ذلك، وهو أشبه بالتنافر بين القائلين بعقيدتين متناقضتين، ومصلحة الأمة تقتضي إزالة هذا التنافر بين الذين يكلفون هذه المهمة، وكل رجل مثقف يهتم بالانسجام الاجتماعي في الأمة)

وهذا نهاية الرأي في كلام الأستاذ سلامة موسى نقلنا أكثره بنصه أو ما يقربُ منه. ونحن نشكر الأستاذ سلامة موسى على حُسن مقصده ورغبته في تحقيق الإصلاح الاجتماعي بإزالة كل العوامل المفرَّقة بين الناس

التيارات الفكرية

ومن الغريب أن اليوم الذي صدرت فيه هذه المقالة في اللطائف، هو نفسه اليوم الذي كتبنا فيه عن (الرأي العام وسياسته) في العدد الماضي من الرسالة، وقلنا إن تعدد الثقافات في الشعب الواحد قد أفضى إلى شر آثاره، حيث تنابذت العقول على المعنى الصحيح، واختلفت المناهج المؤدية إلى الغايات، وكذلك يبقى الشعب إلى النهاية وهو في بدءٍ لا ينتهي، وفي اختلاف لا ينفضُّ. وكما يرى الأستاذ سلامة موسى أن هذا التعارض البغيض بين الآراء مما يعتاقُ رقيَّ الشَّعب، ويمنعه من الاجتماع على رأي، ويحرمه فضيلةَ القوة التي تنفُذُ به إلى غاياته. . . كما يرى نحن نرى، ونرى وراءَ ذلك كله ما هو أسوأ وأقبحُ - مما يستعاذ منه وتخشى مغبَّتُه. فهذا إذن أمرٌ مفروغٌ من تقريره بيننا وبينه، وهي رغبة نتوافى جميعاً على العمل لها، ونَشْريٍ أنفسنا في سبيل إنفاذها

وكان جديراً بالأستاذ سلامة موسى أن يرى مثل هذا الرأي في الذي كتبناهُ ويعلم عِلمْ ما طوبناه في نقدنا لرأي الدكتور طه، ولعلّه لم يقرأ كل ما كتبناهُ في العدد 344، 345 من الرسالة، ولعلّه لم يتتبَّع ما نقولُ به من الرأي في باب (الأدب في أسبوع)، ولو قد فَعَل لعرف أن الرأي بيننا وبينه في ذلك غير مختلف إن شاء الله

القرن العشرون

وما دمنا في حديث تعارضُ هذه التيارات الفكرية، فقد كنت أحبُّ أن ينزّهَ الأستاذ سلامة موسى كلامه عن بعض التعريض. . . وذلك تنبيه لنا أننا نعيش في القرن العشرين، وفي سنة 1940 منه. فهل يَظُنّ الأستاذ أننا نعيش في غيره أو أننا نرى أنفسنا رِمَماً تاريخية عتيقةً قد انبعثتْ في أجلادِ إنسان (القرن العشرين)!

الزمن لا يكون هو العلة في إنشاء الحضارة، وإنما تُستجدُّ الحضارة بالروح . . . الإنسانية وبالإنسانية الروحية، وإنما الزمن وحدوده تبع للإنسان الحي، ولا يكون الإنسان تبعاً للزمن إلا حين تفقد الروح إنسانيتها العالية، وتفقد الإنسانية روحانيتها السامية. . . وترتد الحكمة والحضارة والتهذيب وجميع الفضائل إلى منزلة الغرائز الدنيا التي تصرَّف العجماوات من الأحياء في سبيلها، وعلى سنّتها، وبقانونها، ومن مدارجها النازلة إلى أغوار الحيوانية الفطرية

إن من أخطر التيارات الفكرية التي تهاوى فيها أكثر كتاب القرن الماضي، والمخضرمون من كتاب القرن العشرين اعترافهم بالقرن العشرين وما فيه اعترافاً (تعبُّدياً) يكاد يكون إيماناً وعقيدة، فما أقنع منه بالبرهان والحجة فهو ببرهانه وحجته، وما لم يقنع فهو مردود إلى الأسرار الأزلية للحضارة، وأنه هكذا كان. . . وأنه هكذا خلق، وأنه ما دام موجوداً في حضارة القرن العشرين، فوجوده هذا هو برهانه وحجته. . .!!

وأنا - مع الأسف - لا أعتقد في هذا القرن العشرين اعتقاداً قلبياً مطمئناً بالإيمان، لا لأني أريد أن أرتدَّ إلى الماضي لأعيش في ظلماته وكهوفه وتهاويل خرافاته، بل لأني أرى أن حضارة الإنسانية يجب أن تتجدد بمادتها النبيلة السامية التي كل أجزائها فضائل. أما هذه الحضارة الأدبية العصرية للقرن العشرين، فهي حضارة حيوانية

الفضائل، ليس في أعمالها إلا فتنة بعد فتنة. ولا نقول هذا في العلم - معاذ الله - فإن العلم الحاضر قد استطاع أن ينفذ في بعض أسرار الكون بأسباب كأسباب المعجزات، ومع ذلك، فقد كان هذا العلم نفسه، هو ما اتخذوه تدليساً في تمجيد حضارة القرن العشرين، ليفتنوا الناس بها عن حقيقة الإنسانية الروحية المتجردة من أغلال الحيوانية النازلة المستقلة

الحرب

ويكفي أن تكون هذه الحرب التي أحدَّث أنيابَها ونشرت مخالبها، وزأرت زئيرها، ثم أسبابها التي نشأت عنها من المطامع الاستعمارية المستكلبة الضارية، ثم ما سيكون من آثارها في الأرواح الإنسانية والمدنية الروحية. . . يكفي أن تكون هذه الحرب - من جميع نواحيها وأطرافها، وبجميع خلائقها وزمن هذه الخلائق - توصيما كتوصيم الفجور الأسود في الأعراض النقية البيضاء

هذه الحرب الفاجرة المتعرِّية من جميع الفضائل برذيلة الكذب والخداع مما يسمونه الدعاية والسياسة - هي البرهان الحي في أذهاننا جميعاً - أهلَ القرن العشرين، على أن مدنية هذا القرن، مدنية حيوانية الأصول والفروع، هي مدنية مفترسة متوحشة، لا تعترف بالحق ولا تعرف الحق، وليس إلا. . . الغذاءَ الغذاءَ. . . الصيدَ الصيدَ. . .: هذا نداؤها وهذا دينها وهذا إيمانها. ثم لا تكون مغبّة أعمالها إلا تمزيقاً وقضقضة وقضما، وتدميراً لبنيان الله الذي يسمى (الإنسان)

الحرية!!

إن هذا القرن العشرين أُسطورة مهَولة قد انحدَرت من القدم إلى هذا الزمن، في دمها كل الأساطير الحيوانية المرجفة في تاريخ الإنسانية. إنه أسطورة عظيمة كاذبة مكذِّبة على الناس، وإن في مدنيته من الباطِل مِلئ علومِها حقا. إنَّ الأجيالَ الإنسانية النبيلة لتصرخ من وراءِ أسوار التاريخ تريدُنا أن ننقذ أنفسنا من أوهام (القرن العشرين)، ومن خرافاته الجميلة المزينة بالعلم، المثيرة باللذة، المندلعة بألسنة من نيران الشهوات والأهواء، الصاخبة بعبادةِ الأوثان التي تجُولُ في أدمغةِ البشر حاملة ندها وبخورها ومجامرها وطيبها، وكل ما ينفذ عطره إلى أعمق الاحساسات يثيرها لتقديس البشرية المتجسدة بلذاتها وشهواتها

يجب - في هذا الزمن - أن نتحرر من أباطيل القرن العشرين وأباطيل القِدَم معاً، يجبُ ألا نعرف الحاضر بأنه هو الحاضرُ وكفى، ولا الماضي بأنه هو الماضي وحسْبُ، يجبُ إلا نَتعبَّد بشيءٍ من كليْهما، يجبُ أن نأخذَ الحاضر والماضي بالعقل والعلم والفضيلة، وما لم يكن كذلك مما مضى ومما حضر فهو نَبذٌ يجب أن ننبُذَه ونتجافى عنه، يجب أن نتحرر،

. . .يجب أن نتحرَّر

إننا الآن أمم تريدُ أن تسيرَ إلى غايتها في إبداعِ حِضارتها التي سترث جميع الحضارات التي سبقتها، والحضارة التي تأتي من التقليد ليستً حضارة، وإنما هي تزييفٌ وكذبٌ ووثنية جاهلية تنحدر إلى هذا الزمن عن السلالات التي قال الله فيها: (وإذا قيلَ لهم: اتّبعوا ما أنزلَ اللهُ، قالوا بل نتَّبعُ ما ألفيْنا عليه آباءِنا، أو لوْ كان آباؤهم لا يعقلونَ شيئاً ولا يهتدون؟!)

لن نبلغ شيئاً حتى تكون (الحرية والحب) نقيين طاهرين مَبَّرأين كاملين متواضعين، فهما القوة التي تسير بهما الحضارة إلى مجدها وروائعها. إذا عرفنا الحرية وجرتْ في دمائنا فيومئذ تتهدّم كل هذه الأباطيل التي تعوقنا وتقف بين أيدينا من قمامات الرذائل الإنسانية التي قُذفِتْ في طريقنا من أباطيلِ الماضي وترهات القرن العشرين!!

الفن الفرعوني

والأستاذ سلامه موسى قد بنى نقده على ما يسميه (العقائد المجزومة)، وعلى عقيدته في (القرن العشرين)!! ونحن - مع الأسف - لا نبني أبداً كلامنا على (العقائد المجزومة)، ولا على التعصب (للقرن العشرين)، ولو رجع الأستاذ إلى المقالين اللذين نشرناهما في الرسالة عدد 344 و345 عن محاضرة الدكتور طه، ولو رجع خاصة إلى حديثنا عن (الفن) ما هو، وكيف هو؟ وعن الفنان وعمله في فنَّه - لعرفَ أن دعوتنا كلها مبنيةٌ على تحريرِ أعمالنا من قيود الماضي والحاضر معاً على أساس من العقل والعلم والفضيلة، فلا يُزرِي عندنا بالقديم قِدمَه، ولا يُرغِّبنا في الجديد جدّته. وإن القول

في (القديم والجديد) على إطلاق اللفظ، وجعله لفظاً تاريخيًّا زمنيًّا محصوراً باليوم والسنة، إنْ هو إلا تلذذ بالكلام كما يتمطق آكل العسل بعد أكله من تحلب الريق وشَهْوة الحُلْو، ولو كان في هذا العسل السم الناقع

إن حديثنا عن الفن الفرعوني، وأنه لا يصلح أن يكون شيئاً يستمد منه الفنان في زماننا، لا يمت بصلة إلى الرأي الذي ذهب إليه الأستاذ سلامة موسى في فهم كلامنا، لأننا نظرنا إلى شيء واحد، وهو تحرير الفن من التقليد، ثم معرفتنا أن الفنان لا يستوحي كما يقول الأستاذ سلامة من فنون غيره. بل إن الفنان عندنا هو القلب النابض الذي يفضي إليه الدم الحي الذي تعيش به حضارة أمته في عصره، والفن إن هو إلا نتيجة من نتائج الاجتماع

الإنساني والطبيعة التي تحتضنه، والعقائد التي تسيطر على الشعب وتملأ قلبه بالإيمان بها والفكر فيها، فإذا لم يكن الفن ناشئاً من ثَمّ، فاعلم أنه ليس بفن وإنما هو كذب مضرَّج بتحاسين قوس قزح، وما أسقط الفن الرفيع في زماننا وفي بلادنا إلا أنه نتاج العقول المزيفة بالتقليد، والخيال المدلس بالسرقة، وهذا الهمج الهامج من الفنانين والأدباء والشعراء والعلماء أيضاً ممن يعيشون بأدواتهم تحت جناح الليل الأسود وفي ستره، ثم يقبلون على الناس إذا أصبحوا فيقولون: أين كنتم؟ يقولون: كنا نستوحي، ثم يخدعون الناس بزيفهم وبهرجهم. لأنهم لا يعلمون من أين يأتي هؤلاء هذا الوحي. . .

ولو علموا إنما وحيهم وحي اللص الذي يبدع له المال، وإنما هو دبيب واستخفاء وحرص، و (طفاشة) تهشم بها أقفال خزائن بعض الناس، يستخرجون كنوز غيرهم ليتنبّلوا بزينتها وجمالها

الحرية هي أصل الفن كما بينا، وكما هو ظاهر كلامنا، وأما الاستيحاء من فنون القدماء لإنتاج فن لا يتصل بمدنيتنا بسبب إلا القدم والوراثة وتاريخ هذه الأرض، فهو إبطال للفن ومعنى الفن وقيمة الفن، وإلا فما الذي فعله الأستاذ المثال القدير (مختار) إلا أن نقل صورة لا معنى لها في عقائد الشعب المصري الحاضر، هي صورة أبي الهول، وليس فيها معناه القديم الباسط ذراعيه في جوف رمال الصحراء هناك، ثم ماذا؟ ثم جعله مقعياً بعد أن كان باسطاً متطامناً، ثم ماذا؟ ثم ألصق إلى جانبه فتاة تضع يدها على رأسه. . . سبحان الله هذه نهضة مصر، وهذا هو فن القرن العشرين!!

إذا كان الأستاذ سلامه موسى أو غيره يريد أن يناقشنا في هذه الآراء، فليناقش على أساس واحد، هو أساس الفن، وما هو، ومن هو الفنان. أما (القرن العشرين)، وأنظمة مكافحة الأوبئة، والنظام الاقتصادي، والعلوم، وما إلى ذلك، فليس له مدخل أو سبب في الطبيعة الفنية، وتقدير الآثار الفنية، وهل يمكن أن تكون فناً إذا كانت تقليداً واستيحاء وتشاكلا ذكياً بارعاً؟

كل فن يأتي من التقليد واستيحاء فنون الناس، وكل فن يتولد من شهوة التقليد وبلادة العزيمة وعبودية الروح، فهو فن كالمولود السَّقط في آخر تسعة أشهر من حمله. . .

فيه صورة الحي ولكن ليست فيه الحياة، فيه قوة المشابهة للحي ولكن ليست فيه قوة استمرار الحي على الحياة

محمود محمد شاكر

رسالة الفن

فوزية الجديدة:

أميرة الربيع

لها تاج الجمال والفرح والفن

للأستاذ عزيز أحمد فهمي

بإذن الله. . .

لما زغرد البارود سلاماً لمقدمها كانت ساعة أصيل احمرت الشمس فيها خجلاً منها فبدأت تتوارى إذ أشرقت فوزية

ولكنها قبل أن تمضي انتفضت عن مفاتنها، فهي إذ تتباعد كانت تلوّح للعيون بمنديلها الذهبي توديعاً وتمويجاً لنسمات أصيل من أصائل الربيع كان أسعد أصائله لما حمله الغيب إلى الوجود فوزية

وغمزت الشمس بعينها للأطيار غمزة فإذا هي كلها تشدو أغنيات السعادة والفرح بفوزية

وغمزت الشمس لأزهار غمزة فزهت، وانتعشت ونفثت في الجو من عطرها طيباً، وبعثت من ألوانها حلية وزينة لعيون فوزية. . .

كانت ساعة مباركة على الكون، وعليّ. ومن كان له أن يفرح مثلما كان لي أنا أن أفرح، فها هو ذا شهر مولدي يعود وقد عفا الله عني، أجرى قلم الفاروق عفوه، فوهب له على الربيع فوزية بوركت وبورك مقدمها

كان الشعب يدعو الله - كما كنت أدعوه - أن تكون صبياً تقر به عينا الملك، ولكن حكمة الله شاءت أن توائم بين الوليد وزمن المولد. فهذا الربيع أجدر به أن ينفتح عن زهرة، وهذا الأصيل الجميل كان أجدر به أن ينثر عند مطلعها كل ما أدخره له اليوم من جمال وحسن وروعة

وهذا أقرب إلى طبيعة الصبية

عشت للجمال والفرح والفن يا أميرتي فوزية. . .

إذا تقدمت بك الأيام، وشببت عن الطوق، ورأيت. . . فإنه لن ينطبع في ذهنك إلا كل صورة من الجمال والحسن، ولن تستقر عيناك إلا على كل بهجة وزينة، فهذا هو أول ما عرضت عليك الحياة من ألوانها. . .

إذا مرت بك السنون وسمعت. . . فإنه لن يطرق أذنيك إلا نغم حلو لين سلس كهذا الغناء الذي أنشدته الأطيار يوم مقدمك

إذا جازت بك الأعوام. . . وامتلأت نفسك حسناً فأغدقي على الدنيا من حسن نفسك كما يغدق على الدنيا من حسن النفس الفنان. . .

هذه الأفراح التي تشيع في نفسك أشيعيها في الكون شعراً، وليكن شعرك إحساناً فأسمى الشعر الإحسان. وكم شاعر يتلهف إلى الإحسان، وكم تستطيعين يا أميرتي أنت من ضروب الإحسان. . .

كلمة التقدير الحق من الأميرة فيها الغناء، ومن أقدر على التقدير الحق من أميرة الربيع التي لما طلعت رأت الجمال الحق أول ما رأت، وسمعت الغناء الصدق أول ما سمعت، واستنشقت العطر الأصيل أول ما استنشقت، فهي تعرف الجمال الحق من الجمال الزائف، وهي تعرف الغناء الصدق من الغناء الملفق، وهي تعرف روائح الله من روائح المعمل وما تؤلفه اليدان

أميرة الربيع! يا أميرة العفو والرحمة يا أميرتي. . . هلا شببت اليوم، فأنت عروس ومصر في مهرجان، ودولة الفن غير الدولة القاعدة فيه الآن. . .

قرب اللهم هذه الأيام. . . إذ يرفعون إليك أسماء الذين اختاروهم ليحيو المهرجان. . .

فتقولين لهم: لا. . . لا تمنعوا عني خاملاً لأنه خامل، ولا تجيئوني بالمعروف لأنه قد تحدث بذكره الركبان، وإنما أريد أن أستمع إلى فلان وفلان. . . فأنت يا أميرتي قد فتشت قبل ذلك في المكتبة، وقرأت ما يكتبه هذا وما يكتبه ذاك. . . فعرفت بما منحك الله من طبع الحسن موطن الحق عند هذا، ومخبأ الزور عند ذاك. . . وأنت يا أميرتي قد أصغيت قبل ذلك إلى كل ما يذاع من اللحن والغناء، فعرفت أي هذا الغناء صدر من القلب، وأيه كان ضرباً على خشب العود، فهو ليس إلا غناء الأخشاب. . .

رعاياك من أهل الفن يا أميرة الربيع مشوقون إلى يوم من أيام الإنصاف. . . الحياة ثقلت عليهم، والناس انشغلوا عنهم، ومالوا إلى حيث يخلبهم سحرة مهرة لا الصدق عندهم، ولا

الحق ولا الجمال. . . وإن هي إلا (الشطارة) والإعلان. . .

سترين ذلك عندما تتقدم بك الأيام. . . وستكرهينه. . . وسيكون على يديك تحطيم الأوثان. . .

سيعلمك أبوك. . . فكم جدد هو أيضاً في ملكه، وكن وحد الله لم يعبأ بالنصب ولا الأصنام. . . فهو الملك الذي عصف بالجمود، والذي جرف ما أعقبته لنا الأيام من وجل وخوف فأمننا من الخوف، وأبقى علينا ثلث حقه عندنا مثلاً ضربه لأولى الألباب منا لو أنهم تبعوه لأطعمنا جميعاً من الجوع، كما آمننا جميعاً من الخوف. . .

والأيام مقبلة. . . وستفرغ مصر من الحرب حين تفرغ منها الأمم، وسيرى عندئذ أولو الألباب وغيرهم أنه لا مفر من انتهاج الطريق الذي شقه أبوك المبارك وليد الشتاء. . . ومن للملك كوليد الشتاء له السيطرة على تدفقه ونشاطه كما أن لك السيطرة على الحسن والجمال. . .

. . .يا أميرة الربيع
كم يسعد عروبتنا أن يكون لك فن، ولماذا لا يكون لك فن وقد كان نبينا يستمع إلى الخنساء. . . فليكن في النبي شعرك، أو فاكتبي فيه نثرك، وخذي من أبيك حب الإسلام انظميه درراً، فقليلاً ما يفكر أهل الفن عندنا في الإسلام، وكثيراً ما يحسبه بعضهم تنظيما لعلاقة من في الأرض بمن في السماء فإذا نظروا إلى السماء تساءلوا. . . ما الذي في السماء؟
فدليهم أنت على الذي في السماء. . . قولي لهم: هو الذي سماه المسيح المحبة، والذي سماه القرآن السلام. ثم انشري بإيمانك وسلطانك بين الناس آيات المحبة وألوية السلام، وما أشد حاجتنا في مصر إلى أن ترفرف علينا وتظلنا، فليس ينقص وطننا إلا المحبة والسلام يشيعان فيه فإذا هو جنة الأرض، وموطن الرغد والأمان. . .
أعيدي على مسامع هؤلاء الخلق في مصر وفي غيرها تلك الأناشيد التي استقبلتك بها الدنيا يوم مولدك؛ وقولي للناس هؤلاء الذين يتخبطون خبلاً في هذه الأيام بماذا كانت تسبح العصافير لله: أطعمها، وسقاها، وأجرى لها الدفء ورعاها، وطيب لها الصبح وضحاها، وليلها إذ غشاها، فما حقد منها عصفور على عصفور، وما طغى منها واحد على أخيه. . .
وإنما كن يخفن النسر والصقر والعقاب، فلما سترهن الله بليله بتن وهن يقلن: حمداً لله الذي في الأرض وفي السماء. . . ألف حمد وألف شكر لله. . .
والنسر والصقر والعقاب، كلها أيضاً سبح لله. . . إن انقض واحدها على فريسة فهو أصدق الطلب، طلب القوة الجائعة، يأخذ من أصدق العطاء عطاء الضعف والفناء.
فعلمينا يا أميرة الربيع كيف نكون مع الحب والرحمة أقوياء. تسمعي إلى السماء، وقصي علينا ما سمعت من السماء. . .
هاتي الذي سمعت يا رحمة الله. . .
اللهم قرب هذه الأيام. . .
لست أطمع أن تقرئي اليوم هذا الذي أكتبه، فدونك ودون القراءة لم تزل أعوام، ولكني أسأل الله أن يقع هذا الذي أكتبه بين يديك في يوم قريب من الأيام، فلست أدري لماذا أشعر بأن تنبؤي لك فيه شيء من الإلهام. . .
لعلها الفرحة التي زفها الله إليّ على مقدمك، ولعله خيال صورته لنفسي عن زهرات الربيع ونسماته وملائكته الذين يبعثهم الله إلى الأرض هدى ورحمة، ولعله الرجاء في أن الله قد رضي عن الفن وأهله فهيأ لهم راعية وقديسة. . .
لعله هذا، ولعله حق لمسته عن غير قصد ولا تدبير. . . فإذا كان هذا أو كان ذاك فلست أطلب من الله أكثر من أن يحقق هذا الخيال. . . أو هذا الرجاء. . .
عشت. . . وعاش أبوك برًّا بك ورؤوفاً بالناس. . .
عزيز أحمد فهمي

رسالة العلم

الحرب والرياضيات

للأستاذ قدري حافظ طوقان

تتقدم فروع المعرفة ويتناولها التغيير والتبديل، وكلما اقتربت من الأرقام زادت دقة ونحَتْ نحو الكمال. قال أحد الفلاسفة: (يكون العلم دقيقاً إذا استعمل العلوم الرياضية في بحوثه. . .) ولم يستطع العلماء أن يستفيدوا من فروع الطبيعة أو الهندسة ولا أن يتفننوا في صنع السابحات في السماء، والعائمات على الماء، ولا أن يغوصوا إلى أعماق البحار، ولا أن يطوّقوا القارات بالأسلاك الكهربائية، وأن يملئوا الجو بعجيج الأمواج اللاسلكية، وقد حملت على أجنحتها الأنباء والأخبار والصور - أقول لم يستطع العلماء أن يسيطروا على الطبيعة هذه السيطرة القوية إلا بفضل الرياضيات.
قد يكشف العالم بعض النواميس الطبيعية، ولكن لا يستطيع أن يتوسع فيها، ولا أن يخضعها لتقوم بأعمال المدنية الحديثة المعقدة إلا إذا استعان بالرياضيات.
فلقد أحدث اكتشاف (فراداي لإحداث التيار في لفة السلك حين أمرارها في حقل ممغطس أثراً بعيداً عظيم الخطر في الصناعة. . . هذا الاكتشاف قد يبدو بسيطاً ولكن أليس من العجيب المدهش أن كل الصناعات الكهربائية بنيت عليه؟ والأعجب أنه لم يكن في الإمكان جعل هذه الصناعة بمحركاتها ومولداتها في حيز الإمكان إلا حينما

دخلت الأرقام والمعادلات قوانين (فراداي) بعد توسيع نطاقها.
ولقد تنبأ (فراداي) أيضاً بأنه لا بد أن يأتي يوم يثبت فيه أن هناك صلة بين الضوء والاهتزازات الكهربائية المغناطيسية في الأثير، ثم جاء كلارك ماكسويل العالم الرياضي الشهير، وبعد درس وتحليل خرج بمعادلات رياضية أثبت منها أن في الفضاء اضطرابات كهربائية مغناطيسية تتصف بصفات الضوء، أي أن الاضطرابات الناشئة من شرارة كهربائية تبدو في مظهر أمواج في الأثير لا نراها، ولكنها كالأمواج التي تُحدث الضوء والحرارة والطاقة الكيميائية تسير جميعها بسرعة الضوء التي هي (186000) ميل في الثانية. وجاء بعد (ماكسويل) غيره من العلماء وجروا على القواعد التي وضعها فأحدثوا هذه الأمواج وأرسلوها في الفضاء مسافة ثم التقطوها، وبذلك صار تحقيق التلغراف
اللاسلكي محتملاً، وقد تنبأ به السير وليم كروكس ثم حققه لودج على مسافات قصيرة، ثم تلاه علماء آخرون فأتقنوه وتوسعوا في صنعه؛ فإذا المخاطبات اللاسلكية على أنواعها منتشرة ومتغلغلة في العمران
لم يكن في الإمكان أن يسخر العلماء بحوث الضوء لخير الإنسان إلا بعد أن أفرغوا قوانين الانكسار في قالب رياضي، وبذلك استطاعوا أن يستعينوا بالمعادلات والأرقام في العدسات لإصلاح عيوب العين وتكبير الصور وعمل التلسكوب والسبكترسكوب والميكرسكوب على اختلافها
إن الصناعة الحربية قائمة على الرياضيات، فالأسلحة على تعددها وتنوعها تعتمد في صنعها على الكهرباء والمولدات والمحركات وآلات ميكانيكية أخرى معقدة وعلى دقة لا تأتى إلا عن طريق المعادلة. فصناعة الغواصات والطائرات قائمة على مبادئ ميكانيكية وكهربائية وطبيعية تدعمها قوانين رياضية لولاها لما كان في إمكان الأولى أن تغوص إلى الأعماق ولا الثانية أن تجوب رحاب الفضاء
لقد برع المهندسون في صنع الآلات المقاومة لبعض أدوات القتال، فلقد (تفننوا) مثلاً في صناعة كاشفات الأصوات (الهيدروفين) الذي جعل الغواصات بواسطته أقل خطراً وخفاء من ذي قبل. ويمكن القول إنهم استطاعوا أن يتخلصوا من خطرها إلى حد كبير، ولا سيما بعد أن أدخل بعض علماء الإنكليز تحسينات على هذا الجهاز تمكنوا بها من تحديد مكان الغواصة بالضبط. وفوق ذلك فقد جهزوا الطائرات المائية بآلات دقيقة تستطيع أن تكشف مسافات من أعماق البحار. وتقوم جميع هذه الآلات وغيرها على حسابات دقيقة أساسها الجداول والمعادلات الرياضية
وكذلك هناك أجهزة دقيقة قائمة على مسائل عويصة معقدة من شأنها إصابة الطائرة بإحكام. وتقوم هذه الأجهزة بعمليات حساب مدى ارتفاع الطائرة عن الأرض وحساب سرعتها التي تسير بها، كما أنها تحدد النقطة التي تصل إليها الطائرة في اللحظة التي تصل فيها قذيفة المدفع. ومن الغريب أن هذه العمليات لا تستغرق أكثر من نصف دقيقة، وفي هذه المدة لا تستطيع الطائرة تغيير اتجاهها، ويمكن عندئذ وعلى ضوء هذه الحسابات إطلاق القنابل إلى المكان الذي تلتقي فيه بالطائرة أو مكان قريب جداً من الطائرة تنفجر فيه وبذلك
تصاب الطائرة بالقنبلة أو برشاشها لقد تقدمت صناعة الطائرات على اختلافها من مطاردات وقاذفات ومهاجمة تقدماً سريعاً، وتفنن مهندسو الدول في صنعها وثبت أن المصانع البريطانية امتازت على غيرها في إنتاج طائرات من نوع المطاردات، وتحقق لدى خبراء الطيران العسكري أن خير المطاردات، هي المطاردات المعروفة باسم (قاذفات اللهب). وسرعة هذه المطاردات تزيد على 362 ميلاً في الساعة وتستطيع أن ترتفع من أرض المطار إلى علو (11) إلف قدم في أقل من خمس دقائق، ومداها (600) ميل، وهي مجهزة بثمانية مدافع رشاشة، بينما المطاردات الألمانية لا تزيد سرعتها على (350) ميلاً في الساعة، ومداها (600) ميل، ومجهزة بأربعة مدافع رشاشة. أما المطاردات الفرنسية، فسرعتها (305) أميال في الساعة، ومداها (600) ميل، ومجهزة بمدفعين رشاشين ومدفعين آخرين قطر كل منهما (120) مليمتراً
أما طائرات الهجوم أو قاذفات القنابل، فعلى نوعين: المتوسطة والضخمة: فقاذفات القنابل المتوسطة البريطانية لها سرعة (315) ميلاً في الساعة، ومداها (1900) ميل، وحملها من القنابل (2000) رطل إنكليزي يقابلها في السلاح الجوي الألماني (280)

ميلاً للسرعة و (1400) ميل للمدى و (1900) رطل للعمل، وفي الفرنسي (300) ميل للسرعة و (1290) ميلاً للمدى و (3300) للحمل
وأما القاذفات الضخمة، فأقصى سرعتها (220) ميلاً للإنكليزية، ومداها (1315) ميلاً، وحملها (400) رطل يقابلها في الألمانية (205) أميال للسرعة و (995) ميلاً للمدى و (8100) رطل للحمل، وفي الفرنسية (200) ميل للسرعة و (750) ميلاً للمدى و (9300) رطل للحمل
وعلى ذكر القاذفات الضخمة نقول: إن أحدث ما أخرجته المصانع الأميركية طائرات تعرف باسم القلعة الطائرة تفوق مثيلاتها في البلاد الأخرى في السرعة والمدى، فسرعتها (260) ميلاً (يقابلها 220 ميلاً في الإنكليزية و (200) ميل في الفرنسية و (205) أميال في الألمانية) ومداها (2000) ميل. ولقد أخرجت المصانع البريطانية طائرة ضخمة جديدة تفوق (القلعة الطائرة) بلغت سرعتها (267) ميلاً في الساعة وحملها (4600) رطل ومداها (3600) ميل، وهذه الناحية - ناحية المدى - محل دهشة مهندسي الأمم وإعجابهم
وهناك اختراعات واكتشافات لم يتوسع نطاق استعمالها واستغلالها لمنافع الإنسان إلا على أساس التجربة والمعادلة الرياضية
ويمكن القول إن علمي الفيزياء والفلك بفروعهما المتنوعة قد وصلا إلى درجة كبيرة من الدقة والكمال بفضل الأرقام والمعادلات. جرّدْ هذين العلمين من رياضياتهما بل جرد الكيمياء الحديثة من معادلاتها وقوانينها فلا يبقى إلا تعاريف ومبادئ أولية لا يمكنك ولا بحال الاستفادة منها أو تطبيقها فيما يعود على البشرية بالنفع والخير. ولن يستطيع العالم مهما كان قوي العقل خصب الفكر أن يقف على أسرار الطبيعة والكون، بل لن يستطيع الغوص ليقف على كنوزهما وعجائبهما إلا إذا ألمّ بالرياضيات وكانت عنده خبرة بها. وإن الكيمياء الحديثة لفي حاجة إلى الرياضيات حاجتها إلى التجربة والاختبار، وناهيك بالكيمياء فهي الأساس الذي شيد عليه صرح الصناعة في هذا العصر، وقد ازدهرت ازدهارها العجيب. إن هذا العصر لهو عصر الهندسة والآلة. وكل هذه في حاجة إلى الرياضيات، ولا يمكن الاستفادة منهما أو تطبيقهما على مقتضيات العمران إلا بذلك، ويمكن القول: (إن مدنيتنا التي ترتكز على الاستفادة من الطبيعة والسيطرة على عناصرها مبنية على أسس العلوم الرياضية) وقد أثبت العالم الأمريكي الشهير (ملكن أنه (إذا أزلنا من العمران الحالي أحد القوانين الرياضية التي ابتدعها وحققها نيوتن لوجب أن نزيل كل آلة تجارية وكل محرك ومولد كهربائي بل كل آلة تستعمل لتحويل القوة إلى حركة لأنها كلها بنيت على هذا القانون الرياضي الشامل. ولسنا بحاجة إلى القول إن نيوتن لم يقصد من قانونه استنباط آلة تجارية أو سيارة أو طائرة. ولكن أليس من المدهش حقاً أن هذه المخترعات وغيرها بنيت على قانونه وأننا إذا أزلناه تهدم عمراننا كأنه بيت من ورق). فالهندسة بأنواعها والملاحة والصناعات المختلفة أكل هذه تحتاج إلى الرياضيات، ولا يمكنها أن تزدهر وتثمر بدونها، بل إن أسس إنشائها وتقدمها قامت على الأرقام والمعادلات. وما يقال عن هذه يقال عن علوم أخرى إلى حد ما، فإن هذه كلما تقدمت وكلما استطاعت أن تدخل الأرقام والمعادلات في بحوثها أصبحت دقيقة واقتربت من الكمال. فالعلوم على اختلافها وتعددها إذا اقتربت من الكمال فإنها لا بد محلقة في سماء الرياضيات وفي جواء من المعادلات والأرقام
(نابلس)
قدري حافظ طوقان
القصص
الدرس الأول
للأستاذ محمد سعيد العريان
(هل كانات (قدرية) في أوّليَّتها تتوقع هذه الغايةِ التي انتهى إليها أمرُها)
هكذا سألني صديقي وهو يحدثني حديثها:
كانت تجلس في الصف الأخير من حجرة الدراسة، فقد كانت أطول قامة وأبعد نظراً؛ فما يشق عليها ولا يعنيها أن تجلس في الصف الأول أو في الصف الأخير؛ على أنها كانت أسبقَ التلميذات جواباً عند الاختبار، وأكثرهن عناية بالعمل المدرسي؛ فلا جَرمَ

كانت بذلك أدنى منزلة إلى قلوب معلميها ومعلماتها. وكانت على إرثٍ من الأدب والفضيلة، يبدو في طرْف غضيض، وصوت خفيض، ولسان عَذْب التحية عف الخصام؛ وكانت إلى كل ذلك مليحة رشيقة، مقبلة ومُدْبرة!. . . وإني لأعجب لنفسي كيف لم أتبيَّن ما فيها من رشاقة وخفة إلا في تلك الليلة التي كانت. . . حين بدأت حوادث هذه القصة؟. . . على أن المعلم في مدارس البنات، قلّما يُعنى بالنظر إلى وجوه تلميذاته، ولعله لو سئُل الرأيَ في تفضيل واحدة على واحدة من بناته في هذا الباب، لأخطأ الرأي والنظر، ولكانت أَدَمَّ الدميمات هي عنده الجميلة التي لا تباريها واحدة ولا تقاربها؛ فإن طول العشرة ودوام المخالطة خليقٌ بأن يلوِّن رأيه بلون غير اللون الذي ينظر به كل رجل إلى كل امرأة؛ ومن ذلك لم يهجس في نفسي يوماً أن فلانة من تلميذاتي أجملُ أو أَدَمُّ من فلانة؛ وكذلك لم أكتشف ما كان في (قدرية) من جمال وفتنة إلا في تلك الليلة وإنها لتلميذتي منذ ثلاث سنين!

كان ذلك في يوم من أيام الربيع، وقد تبرَّجتْ الدنيا بزينتها وأخذتْ زخرفَها ونَضَت الكائناتُ عن سرَّ الإبداع العبقري الذي أودعه فيها الصانع الأعظمّ!

وكان العام الدراسي في أخرياته، وقد فرغ المعلّمون أو كادوا مما عليهم من فرائض العلم، وتأهب التلميذات لواجبهن استعداداً ليوم قريب. . .

ورأت المدرسةُ أن تجري على تقاليدها احتفالاً بانتهاء عام؛ على أنها رأتْ أن يكون في حفلتها هذه السنةَ شيءٌ جديد، محاكاة لمدارس أخرى، ومساهمة في بعض أعمال البر؛ فاعتزمت أن يكون احتفالها في مسرح كبير مشهور، يُدعْى إليه طائفةٌ من أهل البذْل والمعروف، لتستعين المدرسة بما تجمع منهم على البر بطائفة من الفقراء. . .

هي سنَّة جديدة سنها بعض القائمين على شئون التعليم فَجَرَت قاعدة؛ فِلَم نتخلّف نحن وقد سبقتْ إلى هذه السنة الجديدة مدارس؟

وأعدّت المدرسة برنامجاً حافلاً، فيه تمثيل، ورقص، وموسيقى؛ وما بّدٌ أن تجتمع هذه الألوانُ الثلاثة في كل حفلٍ مدرسي يراد منه أن يغل إيراداً يعين على بعض أعمال البر. . . وإلا فماذا تقدَّم المدرسة من وسائل التسلية ثمناً لما تطلب من أهل البذل والمعروف!

وقالت معلَّمةٌ لأخرى: ينبغي أن تكون حفلتنا. . .

فقاطعتها الثانية: نعم، وستكون أفخمَ ما أُقيم من حفلات المدارس في هذا الموسم. . .!

واختيرت الرواية، واستؤجر المسرح الكبير، ودُعي فنانٌ كبير من أهل الكفاية. . . ليدرَّب التلميذات على اصطناع شخصيات الرواية، كل واحدة بدورها، راقصة أو ممثلة!

وطاف المدَّرب بالتلميذات في صفوفهن يختار منهن ذواتِ الوجوه والأجسام. . . الفنية!

واختار (قدرية) لدور ذي خطر. . .

وتأبَّت الفتاةُ بما في طبيعتها من الحياء وما في دمها من إرث أجدادها؛ وعجب البناتُ أن تأبى قدريةُ وإن كل واحدة منهن لتتمنى؛ واستمعت قدرية إلى أحاديث البنات صامتة، ثم. . . ثم قبلت فخوراً مزهوة، وغلبتها غريزة الأنثى الغيور على ما في دمها من إرث الآباء والأجداد!

ووقف المَدرِّب يلقِّنها ويستمع إليها، ووقفت هي مصغية تستمع إليه وتحاكيه، تجهر بصوتها حيناً وحيناً تخافت به؛ وعرفت من مخارج الصوت ما لم تكن تعرف، ولانت أعطافها بعد خشونة ويبس، وأحسنتْ أن تدورَ على عقبها، ثم تنثني وتنهض، وأجادت تمثيل اللفتة المتكبرة، والنظرة العابرة، والرَّنوة الآسرة ثم تبكي وتضحك في وقت معاً. . . . . .

وقال المدرب الفنان: يا لها من فتاة! إنها لفنانة موهوبة!

وأطبقت الفتاة جفنيها في حياء وهي تشكر له، فبدت في كلمتها وحركتها أبرع فناً مما ظن مدربهُا. . .!

ولم يُمانع أبوها وأمها أن تكون ابنتهما راقصة ممثلة ساعة في ليلة من ليالي البر؛ وأين

يبدو لهما وجه الاعتراض والمدرسة هي التي اختارتها لذاك؛ وإن المدرسة لأعرف منهما بما ينبغي وما لا ينبغي؛ وإن عليها وحدها أن تختار لتلميذاتها من وسائل الرياضة والتثقيف ما يؤهلهن للحياة. . .!

وجاءت الليلة الموعودة بعد تدريب طويل وإعداد شاق. . . وكان على أبواب المسرح الكبير معلمون ومعلمات لاستقبال المدعوَّين، وغص البهو والشرفات بالآباء والأمهات، والأصدقاء والصديقات، و. . . والمربين والمربيات. . .

وراحت طائفة من التلميذات تجوس خلال الصفوف في ثياب بديعة ومظهر فاته، يبعن الزهر والحلوى مما صنعت أيديهن من قبلُ استعداداً لهذا اليوم ومساهمة في أعمال البر. . .

وكانت (قدرية) خلف الستارة بين أيدي المواشط يهيئنها للظهور، وأمامها مرآة . . . كبيرة تريها من نفسها ما لم تكن ترى أو تعرف، وابتسمتْ ابتسامة الإعجاب والرضا حين رأتْ وعرفت. . .!

وخرجتْ إلى المسرح مجلوة ملونة كما لم تبد في يوم من أيامها، وانسكبت عليها الأشعة من أربع جوانب المسرح تشبُّ لونها وتزيدها ملاحة وفتنة، ووقفت متأهبَّة. . . ورن الجرس، ثم ارتفعت الستارة، وضج المسرح بالتصفيق فانحنت في رشاقة وخفة وهي تكشف عن ساق ممتلئة مصقولة كأنما يجري فيها شعاع الشمس، ونثرت ابتساماتها يمنة ويسرة ترد تحية بتحية. . .

ولم يكفّ التصفيق حتى ارتفع صوتها يغني. . . واستدار بها البنات يرقصن ويغنين. . . وغنّتْ ورقصت، وضحكت وبكت، وتأمَّرتْ ثم زلّت، واستعطفتْ ثم دلَّتْ، ووعدتْ ثم تأبَّتْ، ومنعتْ ثم نوَّلت، وقالت عيناها. . . وقالت عيونُ الناس. . .

وكأني لم أر قدرية قبل تلك الليلة؛. . . لقد بدا لي من جمالها وخفتها ما لم يكن لي به عهد من قبل؛ أهذه هي. . .؟

ولما أسدِلت الستارة في الخاتمة، كان تحت قدميها أكداس من الزهر؛ وفي أذنيها أنغام من هتاف الإعجاب؛ ولكن قلبها كان أحفلَ بمعانيه. . .!

وحين لقيها أبوها بعد، كانت في عينيه دموع، وطبع على جبينها قبلة. . . وأقّلتهْا السيارة

بين أمها وأبيها إلى البيت وهي صامتة، لأن معاني ذات خطرٍ كانت تُطيف برأسها. . .

ونامت تلك الليلة بين هتاف وتصفيق وأكداس من الزهر: لقد كانت عيناها مغمضتين ولكن قلبها يقظان؛ وتمثل لها في أحلامها كلَّ ما رأت وسمعَت وشعرتْ، وراحت أحلامها تنسج لها أمانيها. . . وتلقَّت الدرسَ الأول في تلك الليلة، فنسيت به كل ما تعلمت من دروس!

لقد ذاقتْ قدريةُ من اللذة الفنية ليلتئذٍ ما لم تذق طوال سنيها التي عاشت، فشاقها أن تستزيد. . .

ولما عادت إلى المدرسة بعد يومين، وسمعتْ ثناءَ معلَّميها ومعلماتها، أجدَّ لها ما سمعتْ معاني أحست في أعماقها صداها ووجدت فيها غذاءَ لأمانيها. . .

وتناولت (المجلةَ) التي تعودتْ أن تقرأها في كل أسبوع، فراحت تعبر صفحاتها . . . معُجلة حتى انتهت إلى صفحة (الفن) فتلبثتْ، وأخذت تنظر إلى صور الراقصات ونجوم المسرح معجبة متمنية. . . وفي أذنها صدًى بعيد من هتاف النظّارة وتصفيق المتفرجين. . .!

ولما حان عيد مولدها وأرادت أن تتصوَّر - على عادتها في كل سنة - لم يحلُ لها إلا وضعٌ واحد تبدو فيه صورتهُا، فلبستْ ثوبها الذي كانت ترتديه ليلتئذ ووقفت بعضَ مواقفها واستحضرتْ صورةَ ما كان. . . فانطبعت في الورقة صورةٌ من مشاهد ذلك الماضي، وتمثلتْ في نظرة عينيها تمامُ صورته!

ووقفتْ ذات مساء على باب مسرح كبير من مسارح اللهو تجيل عينيها في إطار كبير يضم شتيتاً من صور الراقصات وربات الفن، وطالت وقفتها؛ ثم انصرفت؛ وفي الليلة التالية كانت جالسة في الصف الأول من بهو المسرح تشهد التمثيل وحدها، ليس معها أحد من ذويها؛ واستطاعت في ختام الليلة أن يكون لها رأي فيما شهدت من ألوان الفن وفي عيوب الممثلين وغلط الراقصات. . .!

وفي الصباح كانت جالسة إلى بعض زميلاتها في حوش المدرسة تحدثهن حديثاً طويلاً

عن عيوب الفن المصري في الرقص والتمثيل والغناء، وتشخّص العلة وتصف الدواء؛ وأمَّن صديقاتها على ما قالت؛ فما تشك واحدة منهن في أن من حق قدرية أن يكون لها رأي في الرقص والتمثيل والغناء؛ وإنهن ليسمعن من حديثها كل يوم ما يشهد بكفايتها وسعة معارفها
في تلك الفنون. . .!
وتلقت قدرية بعد الدرس الأول دروساً كثيرة، في المسرح والسيما، والصحف، والكتب؛ وما نسيت مع كل أولئك شيئاً مما رأت في تلك الليلة التي كانت. . . لقد استقرت في أعماقها أصداء الهتاف والتصفيق الذي سمعت ليلتئذ. . . ورنين كلمات الإعجاب والرضا التي وعتْها أذناها، وصورتها بين الأشعة الملونة تنسكب عليها من جوانب المسرح وتحت قدميها أكداس الزهر. . . وبقي كل أولئك في نفسها مشهداً حياً كأنها ما تزال بين أشعته وألوانه، فإنها لتجد لتذكّره لذة فنية تحبب إليها حياتها وتجدد لها في كل يوم أمانيها. . .
وانتهى عهدي بقدرية وانتهى عهدها بي؛ فقد أتمت دروسها بالمدرسة ومضت لشأنها؛ وتصرمت سنون. . . ونسيت أمرها وما كان. . .
وفي ليلة من ليالي الصيف الماضي، دعوت أهلي إلى سهرة في بعض ملاهي الإسكندرية؛ قصدَ التسلية والرياضة. ووقفتُ بباب الملهى العائم بين الأمواج المصطخبة، أقرأ البرنامج المنشور على الباب وأشاهد الصور؛ ورأيت صورة، فهجس في نفسي هاجس لم يلبث أن تلاشى. . .
ودخلنا، واتخذنا مقاعدنا على مقربة من المسرح. . . ومضت لحظات، ثم رن الجرس ورفعت الستارة؛ وتتابعت المشاهد فنوناً توقظ الفكر وتجلو صدأ النفس وتُسري عن الهموم؛ وفجأة برز أمامي مشهد رائع. . . يا لله. . .! من كان يظن. . .؟ هذه تلميذتي قدرية!
وبدت لي في مثل هيئتها التي رأيتُ أول مرة على المسرح الكبير في القاهرة منذ سنوات. . .
ثوب منفوش، كأنما اجتمعت أجزاؤه من أوراق الزهر، يكشف عن ساق ممتلئة مصقولة، كأنما يجري فيها شعاع الشمس، وانحنت في رشاقة وخفة، وهي تنثر ابتساماتها يمنة ويسرة، ترد تحية بتحية، والمسرح يضج بالتصفيق والهتاف باسمها الجديد الذي سمعتُه لأول مرة في تلك الليلة. . .
وغنت ورقصت، وضحكت وبكت، وتأمرت ثم ذلت، واستعطفت ثم دلت، ووعدت ثم تأبت، ومنعت ثم نولت. . .
وقالت عيناها. . . وقالت عيون الناس. . . وقالت لي نفسي. . .
وانتثرت أكداس الزهر على قدميها، وأسدلت الستارة. . .!
ليت شعري، هل كانت قدرية في أوّليتها تتوقع هذه الغاية التي انتهى إليها أمرُها؟ وهل كانت خواطرها تخيَّل لها هذا المصير الذي بلغته، يوم كانت تجلس مجلسها من الصف الأخير في حجرة الدراسة؟
وهل. . . وهل عَرف من عَرفَ: كم بين الدرس الأول والدرس الأخير. . . وأين ما بدأ مما انتهى. . .؟
وانفض السامر، وتهيأ أهلي للانصراف، وما زلت في مجلسي أفكر، ثم نهضت؛ فإني لألتمس طريقي في الزحام على الباب إذ حانت مني التفاتة فرأيت؛ فتنحيت عن طريقي، وقلت للتي بجانبي: تفضلي! وكانت سيدة ورجلها وبينهما طفل؛ أما السيدة فأعرفها؛ فما تخفى عليَّ ملامح تلميذة من تلميذاتي مهما باعد بيننا الزمان؛ وأما الرجل فزوجها؛ هكذا يعرف كل من يراه ويراها؛ وأما الطفل. . .
هذه فتاة أخرى من تلميذاتي تبرز لعينيَّ فجأة بعد غياب سنين. . . هذه واحدة و (تلك) واحدة. . .
ليت (تلك) التي توارت خلف الستارة منذ قريب قد رأت ما رأيتُ لعلها تعلم ماذا باعت وما اشترتْ!
وشيعتُ (الأسرة السعيدة) بعينيّ ثم ارتد نظري إلى الوراء لأشيِّع الأخرى. . .
وكأنما اجتمعت لي هاتان الصورتان في زمان ومكان ليشغلني أمرهما من بعدُ ما

يشغلني، فلا أزال أسأل نفسي كلما حضرتْني الذكرى: أيهما خير. . .؟
محمد سعيد العريان
من هنا ومن وهناك
الجندي المجهول
(عن مجلة العصبة البرازيلية)
كم بين ملايين الجنود الذين التهمتهم الحرب العالمية الماضية من اختفت آثارهم فلا صليب يدل على رفاتهم ولا دمعة تذرف على تربتهم. أولئك هم الجنود المجهولون الذين تركوا أهلهم وأحباءهم وبذلوا دماءَهم من أجل أوطانهم فإذا هم بعد حين شيءٌ ضائع فلا ذووهم يعرفون مثواهم ولا وطنهم يعلم مصيرهم
على أن ذلك الجندي المجهول الذي فرض عليه الواجب الوطني التضحية فقضى غير مذكور قد لقي بعد موته تكريماً لتضحيته لم ينله الأبطال واحتراماً لذكراه لم يظفر به الشهداء. رفعت له الأنصاب التذكارية الضخمة، وأقيمت له الأضرحة الرمزية البديعة فأصبحت مزاراً رسمياً يتوارد إليه الناس ليذكروا البطل المنسي ويؤمهُ الملوك وأصحاب الشأن ليمجدوا التضحية
ومن هو الجندي المجهول؟
(هو ابن كل الأمهات اللواتي فقدنَ أبناءهن ولا يعرفنَ مثواهم)
هذا هو تعريف (الجندي المجهول) الذي اصطلحوا عليه بعد الحرب. أما الفكرة فمبعثها فرنسا، وهي اليوم أنصابٌ وأضرحة ترمز إلى التضحية الصامتة وتمثل الشرف الوطني
في سنة 1920 أصدرت حكومة الوزير جورج ليغ القرار التالي:
مادة أولى - يتناول شرف (البانثيون) رفات أحد الجنود المجهولي الهوية الذين ماتوا في ساحة الشرف في خلال 1914 - 1918
مادة ثانية - يُدفن رفات (الجندي المجهول) تحت قوس النصر
وتم تنفيذ ذلك القرار باحتفال رائع حضرته هيأة الحكومة وقواد الحرب وقد كتب على الضريح العبارة التالية:
(هنا يرقد جندي فرنسي مات من أجل الوطن 1914 - 1918)
واقتفت الدول الأخرى التي اشتركت في تلك الحرب أثر فرنسا، ففي بلجيكا ضريحان أحدهما للجندي المجهول الفرنسي والآخر للجندي المجهول البلجيكي وكتب على الأول:
هذا الضريح يضم رفات جندي فرنسي صرع في بلجيكا (ناحية إيبر) في غضون 1914) - 1918 على عهد الملك ألبر. إكرام بلجيكا للجندي الفرنسي المجيد)
وكتب على الآخر:
(هنا يرقد جندي مجهول بذل حياته في سبيل الوطن 1914 - 1918)
وفي قصر وستنمستر بلندن الذي يضم رفات ملوك إنكلترا وعظماء رجالها تقرأ على قبر الجندي المجهول الكتابة التالية:
تحت هذا الحجر يرقد رفات جندي إنكليزي مجهول الاسم والرتبةُ جلب من فرنسا) ودفن هنا بين رفات أعاظم رجال الوطن يوم تذكار الهدنة في 11 نوفمبر 1920 باحتفال وطني كبير حضره جلالة الملك جورج الخامس ووزراء الدولة وقائد حربيها. بهذا يُذكر الرجال الذين بذلوا في خلال الحرب الكبرى 1914 - 1918 كل ما يستطيع امرؤ أن يبذله: الحياة نفسها من أجل الله والملك والوطن والأهل والمنزل والإمبراطورية، وأخيراً من أجل قضية العدل المقدَّسة، وحرية العالم).
وفي مقبرة كرنستون بالولايات المتحدة كُتب على ضريح الجندي المجهول ما يلي:
(هنا يرقد بشرف ومجد جنديٌ اميركاني لا يعرفه غير الله)
وفي إيطاليا بُني ضريح الجندي المجهول إلى جانب نصب رومه، وهذا ما كتب عليه:
(جندي مجهول - سليل شعب باسل ومدنية ألفيّة، ثبت بلا وجل في الخنادق، وبرهن على بطولة في أدمى المعارك، ووهب حياته ولا أمل له إلا النصر من أجل عظمة وطنه - 24 أيار 1915 - 3 نوفمبر 1918)
وفي فارسوفيا عاصمة بولونيا يحمل قبر الجندي المجهول العبارة التالية:
(هنا يرقد الجندي البولوني الذي مات من أجل الوطن)
وفي البرتغال كتب الكلام التالي:

من البورتغال الخالدة بحراً وبراً إلى جنديها المجهول الذي مات من أجل الوطن في) (الحرب الكبرى 1914 - 1918
وفي جنينة كارول برومانيا أُقيم قبر الجندي المجهول، وكتب عليه:
هنا يرقد الجندي المجهول، الذي ضحى بنفسه في سبيل الوحدة الرومانية. إن رفاته) (مدفون في أرض رومانيا الكبيرة 1916 - 1919
وفي يوغوسلافيا على جبل أولفالا الذي يبعد نحو ستة عشر كيلومتر عن العاصمة بلغراد، أقيم القبر الذي يضم رماد الجندي المجهول وكتب عليه:
(إلى الجندي المجهول الذي لم يعرف رسمياً)
وفي مستشفى براغا مصلّى تاريخي قديم أقام فيه التشاك قبر جنديهم المجهول الذي مات في معركة زبوروف، حيث انتصرت شرذمة تشاكية على الروس وأسرت منهم ألف جندي

بماذا تستهوي المرأة الرجل؟

للشعب الأمريكاني ولعٌ بالإحصاءات الغريبة، والإحصاء التالي قامت به لجنة من محبي الاستطلاع بعد ملاحظات واختبارات استغرقت شهرين في مختلف المدن الأميركانية، إن الرجال، بناء على الإحصاء المذكور، يستهويهم في المرأة الأعضاء والأشياء التالية من ألف رجل 550 رجلاً يستهويهم في المرأة سيقانها، و200 عيناها، 100 عنقها، و 40 ملابسها، و30 يداها، و30 زينتها، و20 محفظتها، و10 شعرها 5 حذاؤها أما الخمسة عشرة الباقون من الألف فهم الذي يتغلب عليهم الذهول فيمرون بالمرأة فيرونها دون أن يلفت أنظارهم شيء فيها

صناعة الجمال

إن الصناعة الوحيدة التي لم تصبها الأزمة المالية بسوء هي صناعة الجمال التي) يدعمها الجنس اللطيف ويحييها بنفقاته الهائلة، ففي الولايات المتحدة تنفق النساء على من يجملهن 450 مليون دولار أو 800، 21 مليون فرنك سنويا.
وهذا إحصاء رسمي لا مبالغة فيه، فكم تنفق النساء إذاً في العالم كله؟ في أوربا ما أنفقت النساء قط على أدوات الزينة من ينفقنه في أيامنا.
أما هذا الإسراف فسببه الرئيسي الحرية الواسعة النطاق التي تتمتع بها المرأة في عصرنا والتي تجعلها أقل تصوناً من ابنة جنسها الماضية.
ولكن هل نساء اليوم أجمل من نساء الأمس وهل في وسع النساء أن يصرن جميلات؟ فجوابي على السؤال الأول: أن الجمال يختلف باختلاف النظر والذوق؛ ففي الناس من يفضلون الورد على كل أنواع الرياحين، وفيهم من يفضلون أحقر الأزهار على الورد. وإنما لا ينكر أن المرأة العصرية قد استطاعت أن تحافظ على رونق جمالها حتى في كهولتها بأساليب التجمل الحالية
أما جوابي على السؤال الأخير فينحصر في (لا) لأن جمال المرأة لا يتوقف على مظهرها الخارجي بل على جمال نفسها أيضاً، فليست هي كالإناء الذي ينحصر جماله (في شكله الخارجي وقد يكون في داخله عشًّا للحشرات

شيء عن المكروبات

ليس للمكروبات على الإجمال ألوان خاصة وإنما يمكن صبغها لأجل درسها وفحصها، وتعتمد على الأكثر المواد الأنيلية. والمكروبات في ذلك تماثل الخيوط والأنسجة، فمنها ما لا يقبل بعض الألوان أو يقتضي عناء كبيراً وزماناً معيناً لقبولها، ومنها ما يأخذ اللون بسهولة وسرعة، ومنها ما يصطبغ بلون دون غيره وطرق تلوين المكروبات لتمييزها ومعرفتها بدقة أصبحت علماً قائماً بذاته وعليها قامت مهارة كوخ العالم الألماني بإظهار كيفية صبغ باشلس السل
لا بد للمكروبات لكي تتوالد وتنمو من بيئة موافقة وغذاء ملائم. وهي تُبذر وتزرع كما يبذر وُيزرر النبات في مستنبت سائل أو جامد. والحرارة ضرورية لحياتها ونموّها؛ وأصلح درجة للجراثيم المَرضية حرارة قريبة من حرارة الحيوان الذي يصاب بها وهي نحو الدرجة 37 فوق الصفر، ومنها ما يعيش في جليد القطب الشمالي.
والبحَّاثون قد يعوّدون الميكروب درجة لم يكن ألفها من قبل. وربّ ميكروب لا ينمو إلا بدرجة 39 لكنه لا يموت إلا بدرجة 54 وبزره بدرجة 110
أما البرد فهو أقل فتكا بالمكروبات، فخمير الجعة يتحمل درجة 90 تحت الصفر دون

أن يفقد خواصه التخميرية وبزر الجمرة أي مرض الطحال والبثرة الخبيثة يبقى حياً عشرين ساعة بدرجة 130 تحت الصفر غير أن ميكروبه نفسه لا يقوى عليها فإن لم يمت يفقد قوته

للنور تأثير كبير في المكروبات فهو أكبر عدو للجراثيم وقد تحقق الجراثيميون فتك النور بميكروب الجمرة وببزوره أيضاً الذي يموت بعد ثلاثين ساعة على تعريضه لنور الشمس،

وبنور الشمس أضعف الميكروبات إلى درجة جعلتها لقاحاً واقياً. أما ميكروب السل فإذا سلط نور الشمس عليه فيموت في منبته بعد ساعتين، وفي البصاق بعد 48 ساعة، ولكنه في الظلمة أو الأماكن الرطبة لا يموت إلا بعد أشهر أو سنين

ومتى حلت الميكروبات في مادة غذائية جزأتها وحللتها وحولتها ولولاها لما كنا نتصور ولا نفهم كيف يتحول عصير العنب إلى نبيذ ويصير مسكراً، أو كيف يصير الشعير جعة: أو كيف تتلاشى الجثث ولا يبقى منها أثر بعد أيام، فإن المايكروبات قد فعلت فيها ما لم تفعله الكواسر، فحللتها إلى غازات وتراب

ومن الميكروبات ما تفوح من مستنبته روائح عطرية تميز بها فقضيبات السل مثلاً تولدّ في مستنبتها رائحة ذكية أشبه برائحة السوسن. ومنها ما يفرز مواد ذات لون كميكروب الصديد الأزرق فإنه يولّد مادة براقة ميالة إلى الزرقة

أما نمو الميكروبات وسرعة توالدها فأمر مدهش وقد ترى في بصقة المسلول الواحدة ملايين من ميكروب السل فالميكروب الواحد إذا وافقته البيئة قد يصبح في يوم واحد عشرات الملايين

(العصبة)

البريد الأدبي

مصر ولغة الضاد

كتب الأمير الجليل (مصطفى الشهابي) وزير معارف سوريا سابقاً مقالاً قيما في عدد أبريل من (المقتطف) الأغر عنوانه (مصر ولغة الضاد). والمقال في مجموعه محاولة طيبة كريمة لإعزاز اللغة العربية. واقتراحات عملية للنهوض بها حتى لا تتخلف عن عصر بلغ التقدم العلمي فيه مبلغاً يقتضي بذل جهد كبير لجعل اللغة العربية مسايرة للنهضة العالمية الحديثة وما يجدُّ من النهضات

وفي المقال عتب على المصريين (لأن الوسائل المادية والمعنوية التي تيسرت لهم تمكنهم من النهوض بأضعاف الأعمال التي نهضوا بها حتى الآن في موضوع اللغة العربية) و (لهذا فالعالم العربي مهما يشكر لهم خدمة لسان الآباء والأجداد، فهو يراهم مقصرين في الخدمة)

وهذا العتاب الكريم هو عتاب الأخ الودود، لا عتاب الخصم اللدود، وعتاب التمني لا عتاب التجني. لهذا استحق هذا المقال المخلص من أمير عربي كريم أن نقف منه وقفة قصيرة على صفحات (الرسالة) الغراء. واختيار (الرسالة) لسببين: أما الأول فلأن سموّ الأمير أشار إليها في مقاله لما قرأه في العدد (346) منها من أن في نية الحكومة المصرية تعزيز المجمع بنحو عشرة أعضاء مصريين ينتخبون من كبار المشتغلين بالبحوث العلمية. وأما الثاني فلأنني رغبت أن أهيئ لمن لم يطلع على مقال الأمير في المقتطف فرصة في (الرسالة) حتى يعرف رأي أمير عربي في نصيب مصر من خدمة اللسان العربي، وما ينتظر منهم لإتمام الصنيعة، لو كان في حفظ تراث الآباء والجدود ما يصح أن يسمى صنيعة

والأمير لا ينكر على بعض الأدباء المصريين اعتدادهم بما أتاهم الله من فضل في الأدب. ولا ينكر على بعضهم أنه غلا في التمادح وأفرط في التباهي، (فمصر جديرة بأن تكون مباءة الأدب، وخليقة بأن تكون قلب بلاد العرب). وإذا كان هذا رأي الأمير في مصر، فنحن يسرنا - لا على سبيل تبادل المدائح - أن نقرر أن البلاد العربية كلها تحمل قسطها من النهضة بقدر. ولا ننسى هؤلاء المجاهدين في الأميركيتين،

فآثارهم في الشعر والنقد والأدب، ستضيف ثروة عربية خالدة إلى التراث العربي بعد حين. . . ويكفي أن نعد منهم على سبيل المثال: أمين الريحاني وميخائيل نعيمة وأيليا أبو ماضي والياس قنصل والمرحوم جبران خليل جبران - على ضعفه اللغوي - وللأمير اقتراح طيب، وهو اتخاذ قرار حكومي يقضي بأن تكون جميع إعلانات المتاجر

مكتوبة بالعربية. وليس في تنفيذ هذا الاقتراح صعوبة عملية
وينتقد الأمير التعليم في بعض كليات الجامعة المصرية بغير العربية. وهو انتقاد له وجاهته وخطره، فإن العربية لم تثبت بعد عجزها عن أن تكون لغة العلم. وليس الكلام هنا ملقى على عواهنه، فقد أثبت المعهد الطبي في دمشق صلاح اللسان العربي لتعلم الطب مع التكميل فقط بالفرنسية. ولم يكن قول المرحوم حافظ إبراهيم على لسان اللغة العربية:
وسعت كتاب الله لفظاً وغاية ... وما ضقت عن آيٍ به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة ... وتنسيق أسماء لمخترعات؟
أنا البحر في أحشائه الدر كامن ... فهل سألوا الغواص عن صدفاتي؟
لم يكن هذا القول خيال شاعر. وإنما هو حقيقة أدركها حافظ المتبحر في اللغة والأدب
ويشير الأمير إلى (الرسالة الغراء) لما نشرته خاصاً بنية الحكومة تعزيز المجمع بعشرة أعضاء مصريين، ويشك في قدرة هؤلاء العشرة على وضع معجم عربي تعرّف فيه الألفاظ تعريفاً علمياً جامعاً مانعاً كما في معجم لاروس الفرنسي. وليأذن لنا سموه أن نقول إنه يسيء الظن بهمم العلماء من العرب. وإذا كان هؤلاء العشرة - غير مسمَّيْن - عاجزين عن وضع معجم عربي أفرنكي حديث؛ فليس معنى هذا أنهم يعجزون عن وضع معجم عربي دقيق. فالأول عمل عظيم يحتاج إلى زمن طويل وصبر طويل وجهاد طويل، أما الثاني فهو عمل يحتاج إلى قليل من الصبر وكثير من التنظيم. . . فإن واضعي المعجمات العربية - رحمهم الله وأحسن إليهم - كان ينقصهم كثير من (الفن النظامي) لوضع المعاجم.
إني مع سمو الأمير الجليل في أن معجماتنا القديمة لا تشتمل على كل اللغة. ولا تعرف الألفاظ العلمية تعريفاً جامعاً. وهذا واضح لمن يبتلي منها كل يوم بهذا التعريف (نبات معروف) أو (حيوان معروف). والله يعلم أنه مجهول إلى الأبد. . . وأزيد عليه أن معجماتنا رجراجة كالزئبق مطاطة كالكاوتشوك. فبعضها ينكر الفعل (سدل) الثلاثي إنكاراً صريحاً، وبعضها ينكر الفعل (أسدل) الرباعي إنكاراً صريحاً ويجيز (سدل) الثلاثي إجازة مطلقة والقارئ يقف متحيراً بين الاثنين. . . ثم لا يسعه إلا أن يستعملهما معاً، لأنهما صحيحان على التخريجين. . . ومن هنا جاءت ظاهرة أسميها (الميوعة اللغوية) أو عدم التماسك. وهذا مشاهد لمن يعاني دراسة العربية أو تدريسها. ولعلي أوفق إلى الكتابة عن هذه الظاهرة في الآتي من أعداد الرسالة الغراء.
محمد عبد الغني حسن
أستاذ الأدب بالخديو إسماعيل
في جمعية هواة الفنون الجميلة بالإسكندرية
ألقى الأستاذ الشاعر عثمان حلمي مساء الجمعة 5 إبريل الجاري بصالة المحاضرات بجمعية هواة الفنون الجميلة محاضرة تناول فيها الحياة الأدبية في الإسكندرية خلال ربع القرن الماضي وعرض لكل شاعر وأديب أنتج في هذه الفترة نتاجاً أدبياً
وقد أعقب الأستاذ المحاضر نخبة من كبار الأدباء في الثغر فأعلنوا رأيهم في موضوع المحاضرة وملاحظاتهم على الأستاذ المحاضر فتكلم الأستاذ عبد اللطيف النشار عن الأدباء السكندريين الذين نزحوا إلى القاهرة معتبراً إياهم سكندريين برغم انتقالهم منها، ومعتبراً أدبهم أدباً سكندريا أيضاً
وتبعه الأستاذ محمود عوض البحراوي فعرض لناحية أخرى من الموضوع إذ تكلم عن مدى تقدير عظماء الثغر وأغنيائه للأدب والأدباء محملاً إياهم تبعة ذلك الخمود الذي يلمس في الحياة الأدبية السكندرية الآن. ثم تكلم الدكتور إسماعيل أدهم فعرض الموضوع من ناحية أخرى حاول أن يقرر بها أن العوامل التي ساعدت على ازدهار الأدب في الثغر ليست عوامل محلية، ولكنها عوامل خارجية أتت إليه من سوريا وغيرها من البلدان عن طريق النازحين إلى الإسكندرية من بلاد الشام
وقد حدثت بينه وبين الأستاذ البحراوي مناقشة شديدة في هذا الصدد أعقبها الأستاذ النشار بكلمة أخرى دعا في ختامها الدكتور أحمد زكي أبو شادي إلى الإدلاء برأيه في الموضوع،
فتقدم الدكتور أبو شادي وعرض للمسألة في أناة وهدوء، ونوه بما لجو الإسكندرية من تأثير في وجدان الشاعر ونفسه، وذكر أشياء من خصائص الأستاذ عثمان حلمي كشاعر

سكندري، ثم تكلم الأستاذ حسن كامل كلمة ختامية انتهت بها هذه المناقشات الحادة في هذا الموضوع
وأعقب ذلك حفلة سمر اشترك فيها قسم الموسيقى بالجمعية، وألقى بعض أدباء الثغر قصائد في الربيع، واختتمت الحفلة بالسلام الملكي.
تصويب
جاء في مقال الأستاذ على الطنطاوي في عدد الرسالة الممتاز هذا التعبير (يستقري رمال الدأماء). فعجبت عجباً يستنفد كل العجب! ذلك أن يخطئ الأستاذ في معنى (الدأماء) وهو (البحر) فيضعها موضع بيداء أو دهناء. . .
. . .وسبحان من تفرد بالعصمة والجلال . . .
البصرة
محي الدين إسماعيل
بين أما ومهما
إلى الأستاذ الكبير مؤلف (النحو والنحاة)
أجمع النحويون في إعراب (إمّا زيد فمنطلق) على تأويل (أمّا) بمهما يكن من شيء، وإنما دعاهم إلى هذا وجود فاء الشرط في الكلام. . . وبحثوا عن فعل الشرط وأداته فلم يجدوهما فأولوا (أمّا)، بمهما يكن من شيء، وجعلوا جملة (فزيد منطلق) جواب الشرط، وهذا تأويل لا غبار عليه من حيث تأدية المعنى
ولكن الذي لا يستساغ هو أن تكون (أما) الحرفية التي لا تركيب فيها كما يدعون دالة على هذا المحذوف كله
ورأيي أنّ أمّا ليست بسيطة وليست دالة على (مهما يكن من شيء كما زعم النحاة) وإنما هي أن الشرطة وما التي بمعنى شيء، وأصلها (أنْ ما) وأن بفتح الهمزة شرطية وهي (إن) المكسورة نفسها كما يرى الكوفيون، ورجحه صاحب المغنى بأدلة هي في غاية
الوجاهة والقوة، و (ما) نكرة تامة بمعنى شيء. . . إلا أنه قد بقي أنَّ (أنْ) حرف شرط فلا يليها إلا فعل فأين هذا الفعل وكيف تقديره؟
الجواب أن الفعل محذوف تقديره (كان) كما قَدَّره النحاة في (إن خيرٌ فخير) فقالوا التقدير (إن كان خير)
فتقدير (أمّا) - إن كان شيء - فكان تامّة فعل الشرط وشيء فاعلها، والجواب هو الجملة المقترنة بالفاء، فتقدير (أمّا زيد فمنطلق) إن كان شيء فزيد منطلق، أي إن وُجِد شيء فزيد منطلق
لقد وقف الأستاذ الكبير محمد عرفه من النحاة الأقدمين موقف الذّائد الحامي الذمار فهل يظفرون بدفاعه البارع في موقفي هذا الذي أنقدهم جميعاً فيه. وإني لمنتظر رأيه الفصل
محمود فرج العقدة
الكتب
المطبوعات العربية القديمة في سنة 1939
للأستاذ كوركيس عواد
ظفرت المؤلفات العربية القديمة في سنة 1938 بفوز كبير. فقد نِشرَ منها خلالها طائفة حسنة، لبعضها خطر وأهمية لا يقدران. لا غرو أن تكون جهود العلماء والباحثين المبذولة في سبيلها أثناء تلك السنة قد جاءت بفتح جديد في مناحي الثقافة العربية، فكشَفت بعض مخبآتها وكنوزها، تلك الكنوز التي ظلت طوال قرون عديدة بعيدة عن المطابع والانتشار، منزوية في بعض خزائن الكتب، طامسة في ظلام الإهمال والنسيان. . . أجل! كُتِبَ لتلك الكنوز أن تحيا حياة ثانية، وقدَّر لها أن تلقى من إقبال العلماء والباحثين وعنايتهم ما يستحقون عليهما أوفر الشكر وأعطر الثناء ثم تَلَتْها سنة 1939، فأصابت المطبوعات العربية القديمة في أثنائها حظاً حسناً ونالت حركة لا بأس بها؛ غير أنها لم تكن لتجاري حركة السنة التي تقدمتها. ولعل أوضح الأسباب لهذا التناقص ما كان ناجماً عن الأحوال السياسية المضطربة التي أحاطت بكل المرافق، وأحدقت بجميع المشاريع والأعمال، وبضمنها حركة النشر كما لا يخفى. . .
وقد خطر لنا أن نتتبع ما نشرته المطابع من هذه الكتب العربية القديمة خلال السنة

المنصرمة، أعني بها سنة 1939، فإذا نحن أمام جملة نفيسة منها، تبلغ في عَدِّها نحو خمسة وثلاثين كتاباً، بينها ما يتكون من مجلد واحد، وبينها ما يتكون من بضعة مجلدات، كما أن بينها عدداً آخر يكمل مجموعات أو ينتظم في سلسلة نشرت بعض حلقاتها في سنين ماضية والعمل على إصدار بقيتها لا يزال مستمراً

ونحن على يقين أنه فاتنا من هذه الكتب طائفة، قد تكون غير قليلة، منها ما نشر في المغرب أو في إيران أو في الهند أو في غيرها من الأقطار. ولعل لنا في ذلك بعض العذر: فإن كثيراً من المطابع أو المكتبات أو شركات النشر في البلدان الشرقية تفرِّط أشد التفريط في إصدار الفهارس المفصِحة عن الكتب، ونشر القوائم التي تفي بالمرام وترشد القارئ، من حين إلى حين، إلى ما يصدر من تلك المطبوعات فَتُيسَّر له طريق الحصول عليها فالانتفاع منها

وعلى ذكر هذا أقول: إن شركات الكتب في البلدان الغربية قد قطعت شوطاً بعيداً في هذا المضمار وأمعنت في تحسين عملها وتنظيمه، فلا يكاد يصدر كتاب من الكتب حتى ترى الإعلانات عنه توزع بجد واهتمام على كل الجهات والأوساط التي يُنتظَر منها أن تهتم له، وترى قوائم الكتب قد أتت على ذكره مُبيّنة أهم أوصافه، فيقف متصفحها على شيء من أمر هذا الكتاب. وقد يتكرر الإعلان عن الكتاب الواحد، فيأخذ أشكالاً وأساليب مختلفة، فإن لم يصب أحدها المرمى من نشره، فقد يكون من رفيقه ما يؤدي المطلوب. . .!

هذا من الوجهة التجارية. وهناك في هذا السبيل ناحية علمية محترمة تسمو على هذه الناحية: فقد يعمد بعض العلماء إلى حصر ما نشر في منحى من مناحي البحث والتفكير في أوقات معينة أو غير معينة، فيقفون القراء، بأيسر الطرق وأوضحها، على ما ظهر في العلم الفلاني أو الفن الفلاني من المطبوعات التي لا تقتصر على الكتب فحسب، بل تتعداها إلى الرسائل والمقالات أيضاً. وعلى هذا الوجه ينيرون السبيل أمام هؤلاء القراء

وما لنا نذهب بعيداً، وأمامنا الآن ثلاثة أجزاء من نشرة سنوية جزيلة الفائدة يصدرها المستشرق ماير بمؤازرة جمهرة من أرباب البحث، بعنوان (حولية منشورات الفن والأثريات الإسلامية) وهاهو ذا قد أصدر مؤخراً نشرة شبيه بتلك، غير أنها تتعلق بالكتب أو المقالات التي ظهرت في فرع (المسكوكات الإسلامية)، وهي لعمري خدمةٌ تذكر فتشكر! ومثل هذا شيء كثير يصدر في بلاد الغرب، ونحن عن مثله منصرفون

فمتى يا ترى نجد بيننا من ذوي الاختصاص من يتقدم إلى زملائه، من وقت لآخر، لتصنيف مثل هذه النشرات التي من شأنها أن تفتح أمامهم مسالك البحث، وتذلِّل لهم بعض العقبات، وتجعلهم على علم بما ينشر في الفرع الذي يشتغلون به

وفيما يلي ثبت موجز بالكتب العربية القديمة التي ظهرت في سنة 1939، وهو كل ما استطعنا الوقوف عليه. وقد كان بودِّنا أن نصنفها بحسب موضوعاتها، كما هو الأصلح في مثل هذه الشؤون، غير أنها لما كانت قليلة العدد آثرنا أن نرتبها بحسب تسلسل عنواناتها، مع الإشارة إلى سنة وفاة مؤلفها ما أمكن

1 - الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة: لبدر الدين الزركشي (794هـ). نشره الأستاذ سعيد الأفغاني (المطبعة الهاشمية - دمشق، 228ص)

2 - الأحكام السلطانية: لأبي يعلي الحنبلي (458هـ). نشره الأستاذ محمد حامد الفقي (مطبعة مصطفى الحلبي - القاهرة، 292ص)

3 - أزهار الرياض في أخبار عياض: للمقري (1040هـ). نشره الأساتذة مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة، ح + 371 ص)

4 - أسرار البلاغة والبيان: لعبد القاهر الجرجاني (471هـ). نشرته ثانية مطبعة دار المنار - القاهرة بتصحيح الشيخ محمد رشيد رضا والشيخ الشنقيطي (368 ص)

5 - الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني (سنة 356هـ). المجلد العاشر، نشرته دار الكتب المصرية في القاهرة، وهو كسابق أجزائه من حيث العناية بالتعاليق والفهارس (المجلدات 1 - 9 ظهرت خلال 1927 - 1936، والكتاب لما ينته)

6 - الإمتاع والمؤانسة: لأبي حيان التوحيدي (سنة 400هـ) الجزء الأول. نشره الأستاذان أحمد أمين وأحمد الزين (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة)

7 - أنساب القبائل العراقية: للسيد مهدي القزويني الحسيني (1300). نشرته المكتبة المرتضوية بالنجف (العراق) (90 ص)
8 - البداية والنهاية في التاريخ: لابن كثير (774هـ) المجلد العاشر، مطبعة السعادة - القاهرة (المجلدات 1 - 9 ظهرت قبل هذا، والكتاب لم ينته)
9 - البلدان لابن واضح اليعقوبي (المتوفى بعد سنة 292هـ) نشرته المكتبة المرتضوية بالنجف، 132 ص
10 - بلوغ المرام في شرح مسك الختام فيمن تولى ملك اليمن من ملك وإمام: للقاضي حسين بن أحمد العرشي (المتوفى بعد سنة 1330هـ). نشره العلامة الأب أنستاس ماري الكرملي، مع حواش، وملاحق، وفهارس، ومقدمة بالفرنسية (مطبعة البرتيري - القاهرة، د + 442 ص)
11 - بيان مذهب الباطنية وبطلانه (منقول من كتاب عقائد آل محمد) لمحمد بن الحسن الديلمي (ألف كتابه سنة 707هـ) نشره المستشرق شتروطمان مطبعة الدولة - أستانبول، يه + 137 ص (النشريات الإسلامية لجمعية المستشرقين الألمانية، رقم 11)
12 - تاريخ ابن الفرات: لناصر الدين محمد بن عبد الرحيم ابن الفرات (807هـ). المجلد الثامن، نشره الدكتور قصطنطين زريق والدكتورة نجلا عز الدين (المطبعة الأميركية - بيروت، 284 ص. في هذا المجلد حوادث السنين 683 - 696هـ. المجلد التاسع منه نشر في قسمين سنة 1936 - 1938، فيهما حوادث السنين 789 - 799هـ)
13 - تاريخ الطبري: لابن جرير الطبري (310هـ) نشره محي الدين عبد الحميد (8 مجلدات، مطبعة مصطفى محمد - القاهرة)
14 - تاريخ اليعقوبي: لليعقوبي (المذكور في رقم 9). نشرته المكتبة المرتضوية بالنجف (3 أجزاء، 717 ص)
15 - التبصير في الدين: لأبي المظفر طاهر بن محمد الاسفرائيني. نشره الأستاذ محمد سليم النعيمي (مطبعة النهضة بنهج باب السعدون - تونس، 184 ص)
16 - الحيوان: للجاحظ (255هـ). المجلد الثالث، نشره الأستاذ عبد السلام محمد هارون، بتعاليق وشروح وفهارس (مطبعة مصطفى الحلبي - القاهرة، 584 ص. المجلد الأول والثاني صَدرَا سنة 1938، والكتاب لما ينته)
17 - ديوان ابن الساعاتي: لبهاء الدين أبي الحسن علي أبن الساعاتي (604هـ). الجزء الثاني، نشره الأستاذ أنيس الخوري المقدسي (المطبعة الأميركية - بيروت، 437 ص. المجلد الأول صدر سنة 1938)
18 - رحلة ابن الفقيه إلى نهر الفلجا: لأبن الفقيه الهمذاني (المتوفى في أواخر القرن الثالث للهجرة) نشرها على الأصل المستشرق في ليدن مع ترجمة ومقدمة وشروح وتعاليق بالروسية. كما أن فهارس الشروح موضوعة بالروسية والعربية
19 - رسالة موسيقية: لمؤلف مجهول (قدمها إلى السلطان العثماني محمد الثاني، الذي حكم أثناء 855 - 886هـ). ترجمها ديرلانجه إلى الفرنسية ونشر هذه الترجمة (دون النص العربي) في الصفحة 1 - 255 من المجلد الرابع من مجموعة في الموسيقى العربي المطبوع في باريس لدى الكتبي بول غوتنر
20 - السلوك لمعرفة دول الملوك: للمقريزي (845هـ). القسم الثالث من الجزء الأول، نشره الدكتور محمد مصطفى زيادة مع تعاليق ملاحق وفهارس كلها في غاية الدقة والفائدة
(مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة، 532 ص. في هذا القسم أخبار السنين 678 - 703هـ. أما القسمان الأول والثاني من الجزء الأول فقد صدرا في سنة 1934 - 1936 والكتاب لما ينته).
21 - سيرة أحمد بن طولون: لأبي محمد عبد الله بن محمد المديني البلوي (ألّف كتابه بعد سنة 312هـ) نشره الأستاذ محمد كرد علي مع تعاليق وفهارس (المكتبة العربية - دمشق، 400ص)
22 - صورة الأرض: لأبن حوقل (ألّفه سنة 367هـ) القسم الثاني نشره المستشرق كريمرز (مطبعة بريل - ليدن، 280 ص. القسم الأول ظهر سنة 1938، وسيتلوهما

الثالث وبه يتم الكتاب. وكان المستشرق دي غويه قد نشر هذا الكتاب في ليدن سنة 1873 بعنوان (المسالك والممالك) وهو المجلد الثاني من (المكتبة الجغرافية العربية). إن طبعة كريمرز هي (الثانية) باعتبار طبعة دي غويه كانت الأولى)

23 - طبقات الشعراء في مدح الخلفاء والوزراء: لعبد الله ابن المعتز (296هـ). نشره الأستاذ عباس إقبال، على الأصل، مع مقدمة بالفرنسية (كمبردج، 226 + 55 + ص، مجموعة تذكار جب، السلسلة الجديدة، رقم 13)

24 - عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب: لابن عمبة (وقيل: ابن عمبسة) (الحسني (828هـ). نشرته المكتبة المرتضوية في النجف. 12 + 370 ص

25 - الفتحية في علم الموسيقى: لمحمد بن عبد الحميد اللاذقي (قدَّمها إلى السلطان العثماني بايزيد الثاني الذي حكم أثناء 886 - 918 هـ). ترجمها ديرلانجه إلى الفرنسية، ونَشَرَ الترجمة هذه (دون النص العربي) في الصفحة 257 - 498 من المجلد الرابع من مجموعه في الموسيقى العربي (المذكور في رقم 20)

26 - كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة: لأبن أبي الفضائل الحمادي اليماني (من أهل القرن الخامس للهجرة). نشره الأستاذ عزة العطار مع مقدمة للشيخ محمد زاهد الكوثري (مطبعة الأنوار - القاهرة، 44 ص)

27 - اللباب في تهذيب الأنساب: لعز الدين بن الأثير (630هـ) الجزء الأول، نشرته مكتبة القدس بالقاهرة، 591 ص

28 - لسان العرب: لأبن منظور (711هـ). الجزء الخامس. نشره الأستاذ عبد الله إسماعيل الصاوي (مطبعة الصاوي - القاهرة، 180 ص. المجلدات 1 - 4 صدرت قبل هذا، والكتاب لما ينته)

29 - المجازات النبوية للشريف الرضي (406هـ). نشره الأستاذ محمود مصطفى (مطبعة مصطفى الحلبي - القاهرة 34 ص)

30 - المستجاد من فعلات الأجواد: للمحسن التنوخي (384هـ. نشره المستشرق بولي بنر الشرقية، رقم 23 (26 + 213 ص)

31 - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: لابن تغري بردى (874 هـ). المجلد السابع، نشرته دار الكتب المصرية بالقاهرة، 466 ص (المجلدات 1 - 6 صدرت خلال 1929 - 1931، والكتاب لما ينته)

32 - نخب الذخائر في أحوال الجواهر: لابن الأكفاني السنجاري (749 هـ). نشره العلامة الأب أنستاس ماري الكرملي، مع تعاليق وملاحق وفهارس ومقدمة بالفرنسية (المطبعة العصرية القاهرة، 188 ص)

33 - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: للمقَّري (أنظر رقم 3). المجلد العاشر، نشره الدكتور أحمد فريد رفاعي، بتعاليق الأستاذ يوسف نجاتي، مع الفهارس. القاهرة (المجلدات 1 - 9 ظهرت قبل هذا، والكتاب لمّا ينته)

34 - النقود العربية وعلم النُمِيَّات: هي مجموعة رسائل عربية في هذا الموضوع، نشرها العلامة الأب أنستاس ماري الكرملي، مع تعاليق وملاحق وفهارس ومقدمة بالفرنسية. (لمطبعة العصرية - القاهرة، 529 هـ) تتألف هذه المجموعة من:

(1) كتاب النقود: للبلاذري (279 هـ). وهو فصل من كتابه (فتوح البلدان)

(2) كتاب النقود القديمة الإسلامية: للمقريزي (أنظر رقم 21) وهي الرسالة التي طبعت سابقاً غير مرة بعنوان (شذور العقود في ذكر النقود)

(3) تحرير الدرهم والمثقال والرطل والمكيال، وبيان مقادير النقود المتداولة بمصر على مقتضى ما حدد بدار الضرب سنة 1256 هـ لمصطفى الذهبي الشافعي (من أهل القرن الثالث عشر للهجرة)

(4) أقوال ابن خلدون (808 هـ) في النقود الإسلامية (نقلاً عن (مقدمة ابن خلدون))

(5) أقوال القلقشندي (821 هـ) في النقود الإسلامية (نقلاً عن كتابه (صبح الأعشى))

35 - نهاية الأرب في فنون الأدب: للنويري (732هـ) المجلد الثالث عشر، نشرته دار الكتب المصرية بالقاهر، 277 ص (المجلدات 1 - 12 صدرت خلال 1923 - 1937 والكتاب لما ينتهي)

هذا ما تيسر الوقوف عليه وكان بودنا أن نذكر في هذا المقام بضعة كتب أخرى أطلعنا على أسمائها في بعض القوائم أو المجلدات، غير أنه لم يشر لدى الكلام عليها هنالك

إلى سنة صدورها، مما جعلنا في ريبة من صحة نسبتها إلى سنة 1939؛ ولما لم تصل إليها يدنا في الوقت الحاضر، فقد اضطررنا إلى تركها على غير رغبة منا. ولعل بين القراء الأفاضل من يقوم بإكمال ما فاتنا منها أو ما لم يتأتّ لنا الوقوف عليه، وله منَّا أبلغ الشكر

(بغداد)

كوركيس عواد

العدد 355 - بتاريخ: 22 - 04 - 1940

في سبيل الأزهر الجديد

من بشائر الأمل في النهوض ودلائل الثقة بالفوز أن النفوس الشابة مهيأة لدعوة التجديد ورسالة الإصلاح؛ فهي كالأرض الطيبة تشتمل على مذخور الحياة وموفور البذر ثم لا تنتظر غير الفلاح والغيث

منذ أخذنا على بعض العلماء اشتغالهم بالمراء الباطل والبحث العقيم، وقوفهم عند المماحكة في اللفظ والمعاياة بالاعتراض، وتركهم أصول الدين تشتجن عليها الأضاليل والبدع، والرسائل تنثال علينا من شباب المراغي في أقسام الأزهر وكلياته يشايعوننا على الرأي ويسألوننا أن نزيد.

و (شباب المراغي) تعبير لم نضعه، وإنما وجدناه في جميع الرسائل التي ألقيت إلينا؛ فهو إما إلهام جاء من اتحاد النية، وإما اتفاق أُبرم على إدارة الإصلاح.

نعتقد مخلصين أن الأزهر إذا استكمل أداة التعليم وساير حاجة العصر نهض بالشرق نهضة أصيلة حرة، تنشأ من قواه وتقوم على مزاياه وتتغلغل في أصوله. ذلك لأن ثقافته المشتقة من مصدر الوحي وقانون الطبيعة متى اتصلت بتيار الفكر الحديث تفاعلت هي وهو فيكون من هذا التفاعل ما يريد به الله تجديد دينه وكفاية شرعه وإدامة ذكره.

كذلك نعتقد مخلصين أن رجعة الأزهر إلى ماضيه البعيد خير له وللناس من جموده على شأنه الحاضر. والرجعية لا يمكن أن تكون في منطق الطبع سبيلاً إلى التقدم، ولكنها في نظام التعليم الأزهري خرق لهذا القانون لا ينكره العقل. ذلك لأن رجعية الأزهر معناها العودة في استنباط الدين إلى منابعه الأولى من صريح الكتاب وصحيح السنة، وفي فقه الأحكام إلى مثل كتابي الأم والرسالة للشافعي، وفي تعليم النحو إلى كتاب سيبويه وخصائص ابن جني، وفي تدريس البلاغة إلى كتب عبد القاهر وأبي هلال. وفائدة هذه الرجعية الخلوص من أمثال الجمع والهمع، وما حشد الأعاجم في عصور الشروح والحواشي والتقارير مما أفسد الملكات وأفند العقول وصرف الأذهان عن جوهر الدين ولب العربية وسر البلاغة.

إن الدين الإسلامي ينفرد عن سائر الأديان باعتماد دعوته على الأدب وقيام معجزته على البلاغة. فإذا حثر ذوق العربية في رجاله بما قمش السكاكي والفنري وملا جلبي من الغثاء والهراء، تقطعت الأسباب بينهم وبين محمد فضلوا سبيله وجهلوا علمه. فالدين الإسلامي

والأدب العربي متلازمان تلازم المعنى واللفظ أو الفكر والأداء. ولا يتسنى لرجل الهداية والإصلاح أن يبلغ دعوة محمد إلا إذا تمكن منهما تمكن الجاحظ والزمخشري ومحمد عبده ورشيد رضا والمراغي. أما المضمضة بالألفاظ الاصطلاحية والجمجمة بالجمل المعقدة على أنها هي العلم والأدب، فتطور إلى العكس لا يجوز أن ينتج إلا ما نحن فيه

من الطبيعي أن ينشئ هذا الكلام في ذهنك هذا السؤال فتلقيه عليَّ: إذا كان المراغي أجدر الناس بإصلاح الأزهر كما نعتقد؛ وكان شباب الأزهر راغبين في هذا الإصلاح مؤمنين بقدرة شيخهم عليه كما نرى؛ فما الذي يعوق هذا الإصلاح ويعارض هذه الرغبة؟. . . والجواب المفصل عن هذا السؤال يقتضي شيئاً من الصراحة لا تحتمله بعض النفوس فيما أظن. فإذا وقفنا عند الأسباب الظاهرة المباشرة قلنا إن إصلاح الأزهر لا يمكن أم يتم في سنتين أو في أربع، لأن ملاك هذا الإصلاح منوط بأمرين اثنين: أحدهما إعداد المعلم، والآخر تأليف الكتاب

فأما إعداد المعلم فيقوم على أن يكون متمكناً في علوم الدين وصاحب ملكه في الفقه، وأن يكون متبحراً في فنون العربية وصاحب قريحة في الأدب، وأن يأخذ بعد هذا

وهذا من ثقافة الغرب بأوفى نصيب. وهذا الإعداد على هذه الأساس لا يؤتي ثمرة قبل عشر سنين إذا أخذوا منذ اليوم يتنخلون ممن تخرجهم أقسام التخصص المختلفة في كل سنة نوابغ الفقهاء والأدباء، ثم يبعثون بهم إلى جامعات إنجلترا وفرنسا وألمانيا ليبلغ كل منهم أقصى الدرجات في العلم الذي أخصى فيه. ولك في الأساتذة البهي وماضي ومحمد يوسف موسى شاهد صادق على فضل هذا الإعداد وأثره

وأما تأليف الكتاب فلا يتيسر إلا بعد إعداد المعلم، لأنه هو وحده الذي يدري كيف يؤلفه ويدرسه. ومتى توفر للأزهر المعلم والكتاب في ظل هذه الإدارة البصيرة صح لك أن تقول: (إن مصر ظفرت بجامعتها الصحيحة التي تُدخل المدنية الغربية في الإسلام، وتجلو الحضارة الشرقية للغرب، وتصفي الدين والأدب من شوائب البدع والشبه والركاكة والعجمة)

ذلك فيما نعتقد ما كان يعنيه صاحب الجلالة المغفور له الملك (فؤاد) حين قال لأحد كبار العلماء: (إن أنجع الوسائل في إصلاح الأزهر أن يغلق عشر سنين ثم يفتح من جديد)

وذلك فيما نعتقد أول الإصلاح الأزهري وآخره. وما دام التعليم الديني قائماً على براعة المعلم في حل المعميات وخلق الاعتراضات، وإمعان الكتاب في الاستطراد والاستغلال والحشد، فهيهات أن يتجدد الأزهر وإن شيد بالمرمر وفرش بالطنافس وأنير بالكهرباء!

أحمد حسن الزيات

في أرجاء سيناء - 4

للدكتور عبد الوهاب عزام

وفي يوم الثلاثاء رابع عشر ذي الحجة خرجنا إلى حديقة الدير فدخلنا ساحة ذات أشجار اتخذت مباءة لغنم الدير، رأينا فيها عدة من الضأن والمعز معها سخالها، ورأينا في جانب الحديقة ناقة معها فصيلها، وهي لحمل ما يجلب إلى الدير. هناك بئر واسعة قريبة الماء

ثم دخلنا إلى ساحة صغيرة فيها قبور قليلة هي مزرعة الموتى؛ فأما حصاد هذه المزرعة ففي حجرة واسعة متصلة بهذه المقبرة. في هذه الحجرة أكداس من الجماجم والعظام قد رتبت وصنفت، فالجماجم على حدة، وعظام الأذرع على حدة، وعظام الأرجل على حدة، لم تختلط كما توجس أبو العلاء المعري في قوله:

لا يغيّركم الصعيد وكونوا ... فيه مثل السيوف في الأغماد

فعزيز عليَّ خلط الليالي ... رمّ أقدامكم برمّ الهوادي

ذلكم لأن موتى الدير يدفنون في المقبرة الصغيرة ثم تستخرج العظام بعد حين فتجمع في مكانها وتخلى الأرض لمن يفد إليها من وفود الموتى المتتابعة على مر العصور

ربِّ لحد قد صار لحداً مراراً ... ضاحك من تزاحم الأضداد

ودفين على بقايا دفين ... في قديم الأزمان والآباد

ثم خرجنا من دار الفناء والعبر فدخلنا إلى حديقة واسعة فيها أنواع من البقول وضروب من السرو وأشجار الفاكهة، تسقى من آبار فيها، ومما يجلب إليها من آبار داخل الدير

وحديقة الدير مرأى جميل في حضيض الجبال الشاهقة المشرفة عليها

إلى جبل موسى

الجبل العظيم المطل على الدير من الجنوب يسمى جبل موسى ويقال: إنه الجبل الذي تلقى فيه موسى عليه السلام الألواح.

تواعدنا الخروج إلى الجبل بعد الظهر، فسار الرفاق يدلهم أحد الرهبان، فخرجوا من باب صغير في حديقة الدير إلى الجبل ليصعدوا زهاء ثلاثة آلاف درجة منحوتة في الحجر أو مرصوفة، وللجبل طريق أخرى على مقربة من الدير تصعد على السفح متعرجة إلى ثلثي الجبل، ويستطيع الجمل أن يصعد فيها. وقد آثرت أنا هذه الطريق، فركبت جملاً، وسار

صاحبه يقوده. فأما الجمل فاسمه درويش، وأما صاحبه فاسمه حميد من أولاد سعيد صعدنا زهاء خمسين دقيقة، وأنا مشفق على هذا الحيوان السهلي يكلّف هذا المرتقى الصعب، بل سفينة الصحراء التي تسام صعود الجبال.

وكان بيني وبين صاحب درويش حديث ممتع:
قلت: ما تسمي هذا الذي أركب عليه؟ قال: الغبيط، والذي تحته البدار، وقد وضعت الغبيط على بدار الحمل، لأني جئت بدرويش إلى الدير محملاً، وما حسبت أنه يركب. قلت: الغبيط بلغة أهل مصر ما يحمل فيه التراب ونحوه على الدابة، ولكنه في الشعر القديم كما تقول. قال: هذا الخشب المكسوّ الذي يركب عليه هو الغبيط، والبدار هذه الحشيّة التي توضع تحت الغبيط. قلت: فما تسمي هذا الحزام الذي على صدر الجمل؟
قال: هو البطان قلت: صدقت. ويقال في المثل التقت حلقتا البطان والحقب. فما الحقب؟ وهل تسمى الحزام الخلفي حقباً؟ قال: لا، هو الحبك. قلت في نفسي: ليس هذا بعيداً من قياس اللغة وسماعها. ثم قلت: فما الحبل الذي في يدك؟ قال: الرسن. قلت: ألا تسميه المقود؟ قال: المقود هذه - وأشار إلى طرف الحبل الذي في يده وقد جعله كالحلقة - قلت: يا حميد! فما الحبل الذي على خدّ الجمل. قال: العذار. قلت: صدقت. تذكرت قول أبي الطيب:
فقرّحت المقاود ذفربيها ... وصعّر خدّها هذا العذار
قلت: فأين الغارب؟ فوضع يده على أمام الغبيط من ظهر الجمل، وقال: والكَثَب هذا؛ ووضع يده على ما يلي العنق.
قلت في نفسي: الذي عرفناه في اللغة الكاثب وجمعه كواثب،
كما قال النابغة:
لهن عليهم عادة قد عرفتها ... إذا عرض الخطّى فوق الكواثب
قلت: فأين الثفنة؟ قال لا أعرف. قلت: ألا تسمى الركبة ثِفنة؟ قال: لا، ولكن الدَّفنة هذه. وأشار إلى ما يقع على الأرض من رجل البعير الخلفية إذا برك. قلت في نفسي: قد قُلبت الثاء ذالاً في لغة حميد وقومه
ثم سألته عن نبات مرَرْنا به حتى قلت: أهنا ثمام؟ قال: لا، ولكن في وادي كذا ثمام كثير. قلت: نحن نقرأ في كلام القدماء: (هذا الشيء على أطراف الثمام). قال: نعم، كذلك نقول
إذا كان الشيء كثيراً قريباً، لأن الثمام قصير. قلت: أفادك الله يا حميد
قال حميد: لا يصعد الجمل بعد هذا الموضع. فنزلت وربط هو درويشاً؛ وسار معي يدلني الطريق إلى حيث يصعد المتوقل إلى القمَّة. فمشينا زهاء خمس دقائق، فنادى: هؤلاء أصحابك. فرأيت جماعة من الرفاق قعدوا من الإعياء، فعرّفوني أن جماعة خلفهم وآخرين سبقوهم إلى القمّة. شرعت أصعد في درج متمهلاً أقرأ بين الحين والحين على الصخر ما كتبة أحد الرفاق السابقين من كلمات تواسي الصاعد وتحرضه على المثابرة، وبعد نصف ساعة بلغت القمة
على القمة فجوة بين الصخور قال دليلنا الراهب: إنها حيث رأى موسى الملك. وهناك كنيسة صغيرة جميلة على جدرانها صور متقنة تمثل ما يدور حول هذا المكان من ذكريات منها صورة تمثل موسى يتلقى الشريعة من الله تعالى
وفي جانب من القمة مسجد ساذج جدرانه غير مطلية وسقفه غير محكم وأرضه غير مفروشة. قالت نفسي: هذه أمارة على إهمال المسلمين أمورهم، فخطر لي أنه مع هذا أمارة على يسر الإسلام وقربه إلى الفطرة. وبجانب المسجد عند حافة القمة غار صغير يُهبط إليه درجات قليلة فيه أثر نار. يقول العامة: إنه حيث أقام موسى أيام الموعد، وإن هذه النار من آثار ذلك الزمان
وتشرف هذه القمة العالية على جبال وأودية كثيرة، ومناظر بعيدة وقريبة، وتسمو بجسم الإنسان وروحه حتى يكاد يتوهم أنه من طير الجو أو سكان السماء
أقمنا قليلاً ثم شرعنا نهبط وأمامنا الراهب لم يعيَ بالصعود والهبوط على كبر سنة (وكل امرئ جار على ما تعوّدا)
مازلنا نهبط ثم نهبط؛ كلما رأينا وادياً في الجبل قلنا قاربنا الأرض، فإذا بلغناه وجدناه قمة عالية تشرف على مهاوٍ أخرى بعيدة. وتشرف المخارم فوقنا عالية عاتية مهيبة ملساء صمّاء، ونشرف نحن على هُوى سحيقة وأودية بعيدة، دواليك حتى غربت الشمس وطلع القمر متمهلاً فوق الجبل الشرقي كأنما أصابه من الإعياء ما أصابنا. ثم أشرفنا على الدير وقد بلغ منا التعب مبلغه فتحاملنا حتى هبطنا إلى مستوى الدير بعد ساعة ونصف من مفارقة القمة.

(للكلام صلة)
عبد الوهاب عزام
على هامش الأبحاث النفسية والفلسفية
أساليبنا في البحث وعلام تعتمد؟
للدكتور محمد البهي
كتبت مرة في مجلة أزهرية كلمة حول تطور فكرة (الشر) في القصص الميثلوجية والأبحاث الفلسفية، وكيف دخل كثير مما قيل فيها من آراء في شرح ما جاء في الديانات السماوية السامية من التعبير (بالشيطان) على لسان المفسرين العقليين فكتب (باحث) آخر يلاحظ أن كلمتي اشتملت على (غموض وإبهام)، وأني قد (أطلت من غير داع)، وأن (كل اعتمادي على الفكر الخيالية) ولم تكن (لمقدمتي الطويلة كبير فائدة تذكر للمسلمين وغيرهم). وليتني (إذ تعرضت للفلسفة أتيت منها بما يستند إلى البرهان العقلي أو التجربة والمشاهدة كما هو أساس الفلسفة الحديثة التي انتهت إلى إثبات الأرواح المجردة علوية وسفلية. ولكني لم أفعل، بل أتيت بما هو منقوض بنفس الفلسفة الحديثة التي انتهى إليها تفكير الفلاسفة العصريين في أبحاثهم)
وهكذا كان (بحثه) مملوءاً بمثل هذه الأحكام والملاحظات. وقد ختمه بأن وعدني (بالمناقشة باعتبار أني مسلم)
مثل هذا الكاتب ليس بالقليل، وطريقته في البحث غير مجهولة. وهو فقط مثل جزئي لظاهرة تطبع تفكير الكثير من (باحثينا) وكتابنا
لهذا لا أقصد من كلمتي هذه سوى شرح تلك الظاهرة وتعليلها من ناحية البحث التاريخي الفلسفي، وإرجاعها لحالة معينة من الحالات العقلية التطورية للجماعة من وجهة البحث البسيكولوجي
كثيراً ما نقرأ (للباحثين) أمثال هذه العبارات: ما أقوله (أنا) حق، أو هو الحق الصراح، أو واضح وضوح الشمس في رائعة النهار. وما تقوله أنت (للخصم) باطل، أو غامض مبهم، أو لا يستند إلى الواقع ولا إلى العقل والمنطق؛ والحس ينكره والتجارب لا تؤيده. . . . . الخ
هل وضع مثل هذا الكاتب مقياساً علمياً مجرداً عن التأثر الشخصي لمعرفة الحق والباطل؟ هل أتخذ فاصلاً من الأساليب اللغوية لتبين النص والصراحة والوضوح من اللبس
والاحتمال والإبهام؟ هل أراد من الواقع الواقعَ الذي له اعتبار عام، أم ذلك الذي يدركه هو من أفق ومحيط؟ هل أراد بالعقل العقلَ الإنساني، بغض النظر عما لكل فرد من ثقافة وعادات وعن الفروق الفردية والبيئية، أم أراد به الشائع المعروف كالذي يحكيه الفارابي عن المتكلمين في زمانه من أنهم كانوا يقولون: هذا يقبله العقل، هذا لا يسلم به العقل، ويقصدون بالعقل الشائع المتعارف بينهم، وبذا فهموا المنطق الصوري خطأ واستخدموه خطأ كذلك؟ ماذا قصد من الحس وأي شئ أراده بالتجارب؟ أأراد بها ما يتعلق به خاصة أم أراد تلك التي تكوِّن قواعد العلوم العامة؟
هذه أسئلة يعلق العلماء على جوابها الفصل بين بحث وبحث. فإذا كان الباحث متأثراً بشخصه في وضع (مقياس) الحقيقة سمي المقياس شخصياً. وعليه فالذي يجعل من ثقافته الخاصة، وواقعه الخاص، وعقله وعاداته الخاصة، ونظرته الخاصة في الحياة مقياساً للبحث كان مقياسه شخصياً
والباحث الذي يبعد كل هذه العوامل الشخصية في البحث عن الحقيقة يكون قد قصد إليها متجرداً، وتكون حقيقته التي وصل إليها حقيقة مجردة وعلى قدر تجرده في بحثه مما هو شخصي يكون ظهور حقيقته ناصعة، أي لم يسدل عليها أي غشاء شخصي لا دخل له في ماهيتها الذاتية
والمقياس الشخصي اعتباره بالنسبة إلى الشخص الذي وضعه فحسب؛ فلا تلزم نتائجه غيره ولا تبني عليه أحكام عامة. أما المقياس المجرد فاعتباره عام، لأن تجرده من الأثر الشخصي يبعد عنه نزاع الأفراد ويحمل كل فرد (تقريباً) على الاعتراف به، ولهذا تكون لنتائجه وأحكامه قوة القوانين والمبادئ العامة
وقد كان الشخص نفسه في القديم معيار المعارف والعلوم، متخذاً ذاته أساساً لبحث الحقيقة والحكم على التصرفات والسلوك الإنساني بأحكام خلقية، فما تخليه حقيقة

فهو حقيقة (في الواقع) وما وقع حسنه في نفسه فهو حسن (في الواقع). وأصبحت المعرفة لذلك عبارة عن حقائق شخصية، وأصبح الشيء الواحد له أكثر من حقيقة. ولم يلبث أن أصبحت هذه الطريقة مذهباً فلسفياً عرف بالمذهب الشخصي كما عرف أتباعه بالشخصيين (وهم السفسطائيون في العهد الأول)

ومع أن الفلاسفة الذين جاءوا بعد السفسطائيين، مثل أفلاطون وأرسطو حاولوا التدليل على أن (حقائق الأشياء ثابتة) أي غير متعددة تبعاً لتعدد الأفراد، وغير متغيرة لما بينها من مغايرة وفروق بحكم هذا التعدد، وضعوا لتعرفها قانوناً عاماً يسمى آلة العلوم ومعيار العلوم وهو المنطق الصوري؛ ومع أنهم وصوا بعدم إقحام العادات والعقائد الدينية في البحث لم تخلص معارفهم ولا أحكامهم التي كونوها عن الله، والعالم، والإنسان - وهي فلسفتهم - من التأثر بثقافتهم الخاصة، وبيئتهم الخاصة، ونظراتهم الخاصة إلى الحياة، وهي ما نلمسها في افرق بين فيلسوف وفيلسوف

اتجه التفكير بعد ذلك، وهو البحث الفلسفي، إلى الإمعان في الفصل بين المؤثرات الشخصية، والنظر إلى الأشياء على ما هي عليه في الأبحاث العلمية؛ أو بعبارة أخرى مال إلى تجريد المقياس الذي يتخذ أساساً للبحث من الخصائص الفردية. ولم يستطع العقل (الحر) أن يسير خطوة في تحقيق هذه الرغبة إلا منذ عصر النهضة؛ أي بعد أن أخذت شعوب أوربا تتحر من سلطان الكنيسة

وقد كان لموقف الإسلام تجاه الأبحاث الفلسفية منذ القرن التاسع الميلادي إلى القرن الثاني عشر أثر كبير في التشجيع على عملية الفصل هذه. فبينما كانت الكنيسة في الغرب تفرض أن تكون العقيدة الكنسية المبدأ الذي يأخذ منه البحث مجراه، كان المسلمون في الشرق، ثم في الغرب أيضاً يبحثون في فروع الفلسفة المختلفة؛ في الطبيعة والرياضة حتى في المسائل الإلهية، والأبحاث لنفسية الخلقية، في جو مملوء في عمومه بحرية البحث وأنتج من الفلاسفة المسلمين من استطاع أن ينتج. ووصلت فلسفتهم مميزة الفروع، أي لم يراع في بحثها مبدأ واحد كمبدأ العقيدة مثلاً، إلى أوربا عن طريق أسبانيا

فلما احتك العقل الأوربي الراغب في التخلص من الجولان حول نقطة واحدة، نقطة العقيدة، بالعقل الشرقي الإسلامي الذي لم يتحكم في تفكيره اتجاه خاص، ازدادت رغبته في بحث الكون من الكون نفسه، فترك العقيدة جانباً، أي ترك أهم عامل من العوامل التي تؤثر في بحث الشخص والتي تجعل مقياسه العلمي شخصياً، وعمل على تخلية نفسه من كل اعتبار آخر غير اعتبار (الحقيقة) لذاتها

وكان ديكارت أول فلاسفة عصر النهضة الذي نفذ هذه الرغبة في صورة منظمة كاملة. ثم

نحا كثير من الفلاسفة نحوه وهو العمل على وضع مقياس علمي مجرد عن الأثر الشخصي، مقياس ولم يكن اختلافهم الذي بدا في مذاهبهم المنسوبة إليهم اختلافاً في وجوب اعتماد المعارف الإنسانية وفي حاجة يقينيتها إلى مثل هذا المقياس، بل كان في كمية الشروط وفي كيفها التي تحقق مثل هذا المقياس المنشود

وإذن أصبحنا نرى في تاريخ الفكر البشري مقياسين للمعارف: المقياس الشخصي، والآخر غير الشخصي (المجرد)، ونرى كذلك لإنتاجه طابعين: الطابع الشخصي والطابع الذي يتعدى الفرد والشخص

والتفلسف لم يقم - منذ أن قام - إلا لإيجاد المقياس غير الشخصي، وإلا لأن يطبع أبحاث الإنسان وعلومه بطابع الاعتبار العام كي يتخذ منها أساساً واضحاً، بعيداً من النزاع الفردي، في إرشاد الإنسان نفسه وفي تمكينه من السيطرة على بيئته، وبالتالي في تقريب أفراد الجماعة الإنسانية بعضهم من بعضهم من بعض وفي تكوين ما يسمى (بالعقل الإنساني)

والفلسفة في بدئها ونهايتها، وفي قديمها وحديثها، لم تعمل لغير هذه الغاية. وما يبدو في معارف الإنسان الأولى من خيال أو وهم أساسه استخدام المقياس الشخصي في بحثها، وما يبدو في علومه لآن من عقل ومنطق أساسه التقرب بقدر ما يمكن من المقياس الثاني، والتخلي بقدر المستطاع عن العوامل الشخصية في البحث

وعلماء النفس حينما نظموا الأبحاث النفسية الحديثة، فرضوا (للجماعة) نفساً كنفس الفرد سواء بسواء، وطبقوا عليها لذلك مظاهر التطور النفسي من طفولة فمراهقة

فرشد وبلوغ
وجعلوا من مميزات الطفولة (الأنانية) أو ما يسمى (بأنا) لأن الطفل في أحكامه يصدر عن (ذاته) وليس عن الواقع المجرد عن شخصه ونفسه. وجعلوا من مظاهر المراهقة الوقوف بين بين، إذ أحكامه وتصرفاته غير واضحة المصدر. ولذا نراه يعيش كثيراً في الخيال الذي لا يمت إلى الحقيقة الراهنة بصلة وثيقة. وأحياناً يساير الواقع؛ ولكنه في خياله ملك ممتع، وفي حقيقته إنسان ضعيف يكثر البكاء والملل من هذه الحياة؛ لأن القلم الذي يسطر به في صحف الخيال لا يقدر على متابعة الكتابة فوق صخرة الواقع.
وجعلوا من مظاهر الرشد أو النضوج ربط التصرف بالواقع، وعدم إقحام المؤثرات الشخصية في الحكم عليه،
والنظر إليه (بعين الحقيقة) لا يعنيه هو
وكذلك حكموا على الجماعة فأطلقوا عليها جماعة ساذجة، أو لم تزل بعد في دور الطفولة، إذا كانت تجعل الفردية أو الشخصية أساس المعرفة؛ وحكموا عليها ببلوغ طور المراهقة إذا حاولت الفصل بين الشخصي والواقع، وببلوغ طور الرشد والنضوج إذا اتجهت في أبحاثها نحو الواقع أكثر من تأثرها بالعوامل الشخصية
وعلى هذا فالتفلسف، أو بحث الإنسان العقلي داخل الجماعة البشرية، يمثل دور الطفولة في الوقت الذي كان يسيطر فيه المذهب الشخصي ويحكى دور المراهقة في الزمن الذي بدت فيه الرغبة إلى الفصل والعمل على تنفيذ تلك الرغبة.
وفي عصرنا الحديث يدخل في دور الرشد والنضوج لأن السائد في أبحاثه مذهب الـ
هذا عرض تاريخي موجز لأساليب البحث في القديم والحديث بالنسبة للفلسفة والتفلسف، وفي أطوار نمو وتدرج الجماعة في التفكير من الوجهة البسيكلوجية.
وفي ضوء هذا نعود إلى هؤلاء الباحثين، أمثال ذلك الباحث (الأناني)، الذين تتصل أحكامهم صلة وثيقة بذواتهم، وتتكون مما لهم من ثقافة خاصة ونظرة في الحياة لنقول لهم: إن هذه الأبحاث مادام مصدرها (أنا) وغايتها (أنت) سوف يكون اعتبارها شخصياً لا تؤدي نصيباً في الإنتاج الفكري العام.
ثم إلى هؤلاء الأقلاء الذين يسلكون في أبحاثهم طريق (العقل الكلي)، عقل الإنسانية - لا ذلك العقل الجزئي - لنقول لهم أيضاً: عليكم وحدكم يتوقف توجيه أمتنا في حياتها العقلية وعليكم وحدكم يتوقف مستقبل التفكير في مصر والسير به إلى طور الرشد والنضوج!
محمد البهي
دكتوراه في الفلسفة وعلم النفس
من جامعتي برلين وهامبورغ
مزامير للنفس العربية!
للأستاذ عبد المنعم خلاف
خمائر المهد الأول - 1
نحن الآن في قلب الجزيرة. . . في جاهليتها الأولى، الثرية بمعاني طفولة البشرية التي تملأ الحياة شعراً وتهاويل وأوهاماً. . .
نخوض في بحر من الرمال يغلي بالحرارة، ويبسط على الجلود لفحات من لظى تصيب الأجسام بقشعريرة من بَحَران الحمى التي تصهر الأجسام، وتجعلها جمرات مشبوبة المشاعر، ثائرة العناصر، حديدة المزاج، مكشوفة الرماد عن الطبع الخالص، والفطرة الصريحة. . .
ننقل الخطأ على تراب آبائنا الأولين، ونبحث فيه عن عظامهم التي غابت في التلال والرجام. . .
ونشم فيه دماءهم التي ابتلعتها الرمال المتعطشة أبدا مع ما ابتلعت من دموع الغمام. . .
ونحدق في الأضواء والظلمات إلى صورهم التي طبعت في ألواح الأثير مع ما صبته الشمس والكواكب من الأضواء والظلال. . . ونتسمع إلى أصواتهم التي فنيت في الصمت المطلق. . .
فتطالعنا من وراء الغيب أشباح لها وجوه سمراء، حادة النظرات، دقيقة الأنوف، عريضة الجباه، عليها سيما الكبرياء والاعتداد، وسهوم العزلة والتفرد. . .

. . .يمتصون حرارة الصحراء، وينضحونها دماء حارة، وحرية حمراء
ويصيدون النغم الذائب في الأجواء، ويصوغونه شعراً منثوراً ومنظوماً ببيان يقتحم
. . .الآذان، ويلقف العقول
. . .ينشدونه في هياكلهم المبنية بجدران من جبال، وأعمدة من نخيل فارعات كالمَردَة
ويتغنون به في مواسم الحُب والحرب على حواف الآبار، وشواطئ بحار السراب
. . .والآل
ويقيمون للبيان أسواقاً يعرضون فيها لعب الجن بأرواحهم وقلوبهم وألسنتهم، ويتركون
. . .أنفاسهم خالدة في ألفاظهم ميراثاً محفوظاً لمن يأتي بعدهم
منثورون في صحرائهم محجوبون بها عن عيون الأمم الطامعة كأنهم جن متخفية في
. . .عالم بعيد
سيوفهم شائلات كأذناب العقارب يضربون بها دفاعاً عن الحرمات، وعشقاً للحريات،
. . .وشراء للشرف والمكرمات
. . .إبلهم تهدر في صمت الصحراء بأصوات كالأمواج المحبوسة والزلازل المكتومة
تسيل بها الأباطح راقصة برقابها البيض والسود ورؤوسها الصغيرة ذات العيون
. . .الساهمة
يحدو لها إنسانها بأصوات صادرة من قلوب عميقة تيمها الحب والشوق الأبدي،
وجرحها الفراق الدائم في سبيل الرعي والانتجاع وحب الأسفار والفرار من ثأر أو
. . .لإدراك ثأر
يظعنون بها قوافل، عنق جمل في ذيل آخر، في خطوط طويلة ترتسم على الآفاق في
الأماسي والأسحار والضحوات والأصائل. . . تحسبها أشباحاً ضالة تهيم في خيال
. . .شاعر
حتى إذا وصلوا إلى شواطئ الحضارة في الشمال أو الشرق أخذوا حاجاتهم المحدودة
من أسواقها، وتسقطوا أخبارها، ثم عادوا بجُر الحقائب بركب موسوق تعربد قلوبهم
من الشوق إلى الحبائب اللواتي هن النعيم العزيز الوحيد للقلب العربي الذكي
المحروم
والخيام تخفق فيها هبوات الريح على الرُّبا والتلاع، أمامها نيران موقدة تنادي بضوئها
. . .عيون الضالين الغرقى في أمواج البيد والظلمات
. . .والنيران راقصة عارية تغازلها عيون الرجال من بعيد
. . .والصبية والجواري يرقصن ويغنين بأصوات فيها أنغام محدودة مكررة
. . .وتحمل النسائم أصواتهن إلى آذان الخيل فترقص في حماسة وخيلاء
!ثم يفنى كل هذا في صمت الصحراء
أمة اندمجت في الطبيعة، غابت فيها بأشخاصها، وعبدت مظاهر القوة فيها، وتسمى
أفرادها بأسماء الجماد والنبات والوحش فقالوا: أسد وذئب وكلب وثعلب ونمر ويربوع
. . .وحجر وحنظل وجندب ومرة وزهرة وأنف الناقة
ووضعوا قلوبهم على كل شئ فيها يتحسسون نبض الحياة، كما يعلق الفنان المستغرق
. . .قيثارته على الأغصان يتسمع بها إيقاع الريح ووسوسة الحصى واصطفاق الأمواج
ثم خلعوا من أوهامهم الشاردة على الحجارة صوراً وتماثيل لمسوها بأيديهم وعبدوها
في غيبوبة فكر وثوران قلب وقلة علم
والكهنة والعرافون - وهم الأذكياء منهم - اختلطت في نفوسهم رُؤَى الكون المبهم،
وهم محرومون من تعليل العلم وهدى النبوات؛ فصارت الحياة أمامهم رموزاً وألغازاً
شردت نومهم وجعلتهم يهيمون في أرض عبقر مع الجن والخفاء والخوف وصرخات
. . .الإنسان الضائع الفريد
هؤلاء هم خميرتنا التي انحدرت منها إلينا عناصر ورواسب في الدماء وخصائص في
. . .الأعصاب
نزلت في موجات وأنسال وأجيال إلى الهلال الخصيب في العراق ووادي النيل وجنات
. . .الشام في أدوار يعرفها التاريخ القديم
هؤلاء هم الذين دائماً تلدهم الجزيرة الولود، ثم تقذفهم على أحضان بناتها و (داياتها):
. . .العراق والشام ومصر. ليخففن عنها الحمل ويتعهدن ما تلد
هؤلاء هم الذين كانوا يلقحون دائماً ضعف أوطاننا بالقوة، ومرضها بالصحة، وتعقيدها

بالبساطة. . .
هؤلاء هم الذين ولدوا الفراعين من عهد (مينا) في مصر، والآشوريين والبابليين في العراق، والفينيقيين في الشام؛ وهم الذين عمروا العالم القديم. . .
هؤلاء هم الذين ولدوا إبراهيم أبا أنبياء العالم المتحضر، فأخضعوا أشرف ما في الحياة لسلطانهم الروحي المتجدد على أيدي موسى وعيسى ومحمد
هؤلاء هم الذين اكتسحوا في موجتهم الكبرى جميع فروق التي كانت أبناء ما يحيط بهم وطَوْوا الجميع في الدين الواحد واللغة الواحدة والعادات الواحدة
وهؤلاء لا يزالون يعمرون بوادي الجزيرة محتفظين بحياتهم مبعثاً لقوتنا وتخليداً لدمائنا واحتفاظاً بميراثنا وبياناً لعراقتنا في الحرية والمساواة والعزة والفطرة
فواجبنا أن نلقي ببذورنا وغراسنا الناشئة إليهم في دور من أدوار التربية والتكوين لتتصل الطبائع بينابيع القوة. . . فنجعل الحياة معهم فترة من الزمن فرضاً محتوماً على الشباب
من جميع أقطار الوطن العربي. . . فإن هذه الحياة الحرة القوية الصريحة الطبيعية سوف تترك خمائرها وآثارها في مقاومة الضعف والخناثة والبعد عن منطق الطبيعة وأسلوب الفطرة
وكما أن حياة البحر جزء من تكوين الإنجليزي فكذلك يجب أن تكون حياة البادية جزءاً من تكوين العربي حيثما كان. فالإنجليز يعتزون بحياة البحر وبالأخلاق المكتسبة منه كالصبر ومواجهة الصعاب والاعتداد بالنفس وحب الرحلة والكشف. . . فيجعلون الخدمة في الأسطول أمنية الأماني أمام الشباب
وكذلك يجب أن يعتز العربي بحياة البادية والخدمة في (أسطول الصحراء)؛ فإنها تترك نفس الآثار والنتائج التي تتركها خدمة البحر في النفس
إن العربي بقوامه الممشوق الذي ليس فيه ترهل وفضول، وبمجموعته العصبية القوية، وبملامحه الحادة ومنطقه السريع المحكم المبين، وبشهامته وكرمه وشجاعته وتقاليد فروسيته، وشاعريته - ثروةٌ عظيمة تغنى الناس بكثير من الأخلاق التي يفتقدونها الآن فلا يجدونها. وقد صارت له صورة رمزية شعرية في أذهان الأمم يحيد بها إطار من هذه الأخلاق
وهو إن كان في باديته معدوداً من الإنسان البُدائي فإن اختياره هذه الحياة وتجميلها بصفات ربما لا يحظى بشرفها غيره من سكان العالم المتحضر، قد جعل الأمم تنظر إليه نظرة خاصة غير النظرة التي تأخذون بها من هم في مستواه الاجتماعي والاقتصادي في البوادي والحواضر
في قلب الجزيرة الآن دولة هي معجزة من معجزات هذه الأمة التي طالما ملأت التاريخ بالمعجزات
دولة هي في سلامها وأمنها حديث صامت من أحاديث القدر يرسله في القرن العشرين درساً لمن ملأوا الدنيا قوة ودساتير وشرائع لكفالة النظام والسلام، ومع ذلك لا يزالون مطاردين من الهدم والفوضى والإجرام
دولة أقامها ووطدها رجل لا يعرف تزويق الكلام ولا مضغ الأحاديث، إنما عرف الطبيعة والفطرة واستمد من أحكام كتابهما وميراث رسولهما. . . فأقام دولة الأحلام التي زعموا أن
الذئب رعى فيها الأغنام. . .
دولة مجدت الطبيعة العربية وأبرزتها في إطار من فن البداوة في القرن العشرين، وجلت ميراثها القديم الذي صار من إيغاله في القدم جديداً طارفاً وبدعاً مستحدثاً. . .
وكان لابد من قيامها في نهضة العرب هذه لرد الإيمان إلى قلوبهم وبعث الحنين في نفوسهم إلى مهدهم الأول وعرشهم الأبدي. . . فهي عنوان عريض ودليل جديد على أن أصول حياتهم عريقة واشجة في مناجم الحياة ومنابت الناس. . .
فليحتفظ العرب دائماً بخمائر حياتهم ووراثات مهدهم الأول مجردة من الوثنيات والجهالات. . .
وليسبغوا على الحياة في قلب الجزيرة جواً من فن الفكر وشعر الروح. . .
وليفروا إليه فترة من الزمان ليخلعوا عن أنفسهم آثار الحياة في التعقيد والتكلف والضعف الذي يستلزمه الخوض في الطين والحرير والطرق المعبدة التي ليس فيها

. . .شوك وقتاد
إنما الإسلام في الصحرا امتهد ... ليجئ كل مسلم أسد!
(القاهرة)
عبد المنعم خلاف
في الاجتماع اللغوي
نشأة اللغة الإنسانية
للدكتور علي عبد الواحد وافي
اختصاص الإنسان باللغة ومراكزها
عرضنا في المقال السابق إلى أهم أنواع التعبير الإنساني، فذكرنا أنها ترجع إلى أربعة ضروب:
1 - التعبير الطبيعي عن الانفعال بأمور مرئية، كتفتح الأسارير وانقباضها، واحمرار الوجه واصفراره، ووقوف شعر الرأس وارتعاد الجسم وما إلى ذلك من الظواهر المرئية الفطرية التي تصحب مختلف الانفعالات
2 - التعبير الطبيعي عن الانفعال بظواهر مسموعة، كالضحك والبكاء والصراخ، وما إلى ذلك من الظواهر الصوتية الفطرية التي تصحب حالات الفرح والألم والحزن والسرور
3 - التعبير الإرادي عن المعاني بأمور مرئية، كالإشارات اليدوية والجسمية التي تستخدم مستقلة أو مع غيرها بقصد الدلالة على المعاني والمدركات
4 - التعبير الإرادي عن المعاني بظواهر مسموعة، وهي الأصوات المركبة ذات المقاطع التي تتألف منها الكلمات.
وهذا النوع هو الذي تنصرف إليه كلمة اللغة إذا أطلقت
وسنشرح في مقال اليوم مدى مشاركة الحيوانات للإنسان في كل نوع من هذه الأنواع الأربعة
تشترك معظم فصائل الحيوان مع الإنسان في النوعين الأول والثاني من أنواع التعبيرات السابق ذكرها (التعبير الطبيعي عن الانفعالات بمظهريه المرئي والمسموع). فانفعالات الحيوان، جسميها ونفسيها: كالجوع والعطش والسرور والفرح والاطمئنان والحزن والاشمئزاز والغضب. . . وما إلى ذلك، يثير كل منها لدى المتلبس به طائفة خاصة من الحركات الفطرية غير المقصودة، وهذه الحركات بعضها بصري، أي يصل عن طريق حاسة النظر: كاتساع الحدقة وضيقها، وبسط الأذنين وخفضهما، والتكشير عن الناب، ووقوف الشعر، وانتفاخ الجسم والأوداج، والهرب والاختفاء. . . وما إلى ذلك؛ وبعضها سمعي، أي يتمثل في صوت يصل عن طريق الأذن: كرغاء الناقة وبغامها، وصهيل الفرس وقبعه عند نفوره من شئ وحمحمته عند الجوع أو الاستئناس، وشحيج البغل، ونهيق الحمار، وخوار البقر، وثغاء الغنم، وزئير الأسد، وعواء الذئب، وتضوره وتلعلعه عند الجوعه، ونباح الكلب، وضغاؤه إذا جاع، ووقوقته إذا خاف، وهريره إذا أنكر شيئاً أو كرهه، وضباح الثعلب، ومواء الهرة، وضحك القردة، وصرصرة البازي، وقعقعة الصقر، وهدير الحمام، وسجع القمري، وزقزقة العصفور، ونعيق الغراب، وفحيح الحيات وكشيشها وحفيفها عند تحرش بعضها ببعض إذا انسابت، ونقيق الضفدع. . . وهلم جراً. . .
وتشترك كذلك بعض فصائل الحيوان مع الإنسان في التعبير الإرادي البصري، وهو التعبير بالإشارة. ويبدو هذا على الأخص لدى الحيوانات التي تعيش جماعات كالنحل والنمل والقردة والبقر والغنم والوعول وما إليها - فقد ثبت أن كثيراً من هذه الفصائل وغيرها تستخدم أحياناً بعض إشارات جسمية للتعبير بشكل مقصود عن بعض شئونها. ففحل الأوعال (الأيل) يستخدم في أثناء قيادة قطيعه بعض إشارات برأسه وقرونه للوقوف فيقف جميع أفراد القطيع، وبعض إشارات للسير فيسير جميع أفراد القطيع؛ ويستحث المتخلفات بأن ينطح كلا منها نطحاً خفيفاً. ويستخدم الأذكياء من الكلاب مع أفراد فصيلتها

ومع الآدميين بعض إشارات بالرأس وغيره للتعبير بطريق إرادي عن أمور خاصة، كأن تمر بأظافرها على الباب ليفطن أصحابها إلى وجودها فيفتحوا لها، أو تدفع إناء طعامها برأسها للتعبير عن حاجتها إلى الغذاء. . . وهلم جرا

وتستخدم كذلك فصائل القردة، وبخاصة الفصائل العليا منها (الغوريلا والشمبانزيه والجيبون والأورانج - أوتانج)، وفصائل النحل والنمل بعض شارات من هذا القبيل. فقد كشف العلامة كوهلر عن ظواهر كثيرة من هذا النوع عند فصائل القردة العليا: منها ما يعمله الشمبنزيه حينما يريد أن يرافقه آخر في طريقه، أو يرغب أن يعطيه أحد زملائه شيئاً مما في يده، أو يطلب نداءه عن بعد: فإنه في الحالة الأولى يحتك به بخفة ويجذبه من ذراعه محدقاً فيه ومتقدماً بعض خطوات في الطريق التي يود أن يسلكاها معاً؛ وفي الحالة الثانية يمد يده إلى زميله مد الاستجداء؛ وفي الحالة الثالثة يمد يده ويقبض كفه ويبسطها كما نفعل نحن في مثل هذه المناسبة. وقرر الأساتذة فرانكلين وكيربي وسبنسر وبورميستر وهوبير , , , , أن كثيراً من طوائف النحل والنمل يستخدم أفرادها، بعضها مع البعض، إشارات مقصودة للتعبير بها عن بعض شئونها، وأن هذه الإشارات تتمثل في احتكاك بعض أعضاء المتكلم أو أطرافه أو ذؤاباته بجزء من جسم المخاطب بطريقة خاصة. قام العلامة لوبوك هذا الصدد بطائفة كبيرة من التجارب، فتبين له صدق ما ذهب إليه هؤلاء الأساتذة

وأما النوع الأخير من أنواع التعبير التي أشرنا إليها أول هذا المقال، وهو اللغة بالمعنى الكامل لهذه الكلمة، أي الأصوات المركبة ذات المقاطع التي تتألف منها الكلمات، فيظهر أن الإنسان قد اختص بها من بين سائر الفصائل الحيوانية

حقاً إن بعض طوائف الحيوان تصدر عنه أصوات شبيهة في ظاهرها بهذا النوع من التعبير، ولكن بالتأمل في هذه الأصوات، يتبين أنها عارية من خصائص اللغة في صورتها الصحيحة، وأنها ترجع إلى فصيلة أخرى من فصائل الأصوات. وسنعرض فيما يلي لأهم ما يبدو عند الحيوان من هذا القبيل، معقبين على كل مظهر منها بما يبين وجوه الفرق بينه وبين اللغة الصوتية بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة

يرجع أهم ما يلفظه الحيوان من هذه الأصوات إلى ثلاث طوائف:

(الطائفة الأولى) أصوات فطرية الأصل يستخدمها الحيوان قاصداً بها التعبير عن بعض شؤونه: كالحمحمة التي ترددها الفرس بشكل إرادي عند رؤية صاحبه للتعبير عن حاجته إلى العلف، والمواء الذي يلجأ إليه الهر لينبئ به عن جوعه، والنباح الذي يلفظه الكلب قاصداً به إيقاظ أهل المنزل أو إرشادهم إلى أن شخصاً أجنبياً يحوم حول البيت. . . هلم جراً

وهذه الطائفة ليست في الواقع من اللغة الصوتية في شئ وإن أشبهتها في ظاهرها ووظائفها. ذلك أنها أصوات مبهمة عارية عن المقاطع والكلمات وغير متميزة العناصر. ومن أهم خصائص الكلام، كما لايخفى، اشتماله على مقاطع وكلمات وتمييز عناصره بعضها من بعض. هذا إلى أنها في الأصل أصوات فطرية تصحب الانفعالات، وأن كل ما يعمله الحيوان حيالها في هذه الحالة أن يرددها هي نفسها بشكل إرادي للدلالة على نفس انفعالات التي تعبر عنها في شكلها الفطري أو للدلالة على أمور انفعالية قريبة منها (الجوع، العطش، الخوف. . . الخ). وأصوات هذا شأنها لا يصح عدها كلاماً؛ لأن أهم خصائص الكلام أنه أصوات موضوعة للدلالة، أنه يعبر عن معان لا عن انفعالات

(الطائفة الثانية) أصوات متنوعة تلفظها القردة في اجتماعاتها بطريقة يتبادر منها إلى الذهن أنها وسائل تعبير إرادي، وأن أفراد القردة تتجاذب بها الحديث بعضها مع البعض. وتبدو هذه الظاهرة بشكل واضح في الفضائل العليا من القردة وبخاصة (الجيبون) وهذه الطائفة كذلك ليست في الواقع من اللغة الصوتية في شئ وإن أشبهتها في ظاهرها ومناسبات استخدامها. فقد ظهر بالبحث فيها أن بعضها تعبير طبيعي عن الانفعال، وبعضها مجرد ترديد إرادي لهذا التعبير، وبعضها من ظواهر التداعي الآلي أو العدوى الصوتية أو تقليد الحيوان بطريق فطري غير إرادي لأصوات نفسه أو أصوات غيره. - هذا إلى أنها على الرغم من تنوعها، وعلى الرغم من تشابه أعضاء النطق عند فصائل القردة بأعضاء النطق الإنسانية أصوات مبهمة بسيطة عارية عن المقاطع والكلمات وغير متميزة العناصر. ومن أهم خصائص الكلام، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، اشتماله على مقاطع وكلمات وتمييز عناصره بعضها من بعض

أصوات مركبة ذات مقاطعة تلفظها بعض الطيور كالببغاء، وما إليها (الطائفة الثالثة) من
الفصائل التي امتازت أعضاء صوتها بخصائص طبيعية تتيح لها إخراج هذا النوع من الأصوات.
وهذه الطائفة كذلك ليست في الواقع من اللغة الصوتية في شئ، وإن أشبهتها في الظاهر. وذلك أن الطائر لا يقصد بهذه الأصوات التعبير، فهي تصدر عنه في ثلاث حالات كلها فطرية آلية عارية بتاتاً عن هذا القصد:
الحالة الأولى: حينما يكون الطائر متلبساً بانفعال جسمي أو نفسي. وهي في هذه الحالة من نوع التعبير الطبيعي عن الانفعالات: تصدر عن غير قصد، ويثيرها بشكل آلي الانفعال المتلبس به الطائر. وإثارتها مؤسسة على الروابط الطبيعية الفطرية التي تربط أعضاء الصوت بحالات الجسم والنفس بطريقة تجعل هذه الأعضاء تتحرك وحدها بشكل آلي أو منعكس، وتلفظ أصواتاً مركبة ذات مقاطع عند وجود حالة من الحالات الجسمية أو النفسية المرتبطة بها. فهي حينئذ من قبيل الضحك والبكاء وما إليهما من مظاهر (التعبير الطبيعي السمعي) وكل ما هنالك أن التعبير الطبيعي السمعي يبدو عند الحيوانات الأخرى في صورة أصوات بسيطة مبهمة، ويبدو عند هذه الطيور أحياناً في صورة أصوات مركبة ذات مقاطع
والحالة الثانية: حينما تكون محاكاة لصوت إنساني سمعه الطائر. وهي في هذه الحالة كذلك تصدر بشكل آلي عار عن قصد التعبير بل عن قصد المحاكاة نفسها. وذلك أن هذه الفصائل مزودة بروابط طبيعية تربط جهاز سمعها بجهاز صوتها بطريقة تجعل أعضاء الجهاز الثاني تتحرك وحدها وتلفظ بشكل آلي نفس الأصوات التي يحسها الجهاز الأول. فكلما وصل الصوت إلى سمعها، في ظروف خاصة، انبعث صداه من أفواهها
قد تسمع الببغاء أحياناً كلمات أو أصواتاً في مناسبة ما فتكررها كلما (والحالة الثالثة) حدثت هذه المناسبة أو المناسبة أخرى تشبهها يتبادر منها إلى الذهن أنها تقصد بها التعبير عن أمر معين: فقد تسمع مثلاً أصحابها ينادون طفلاً باسمه فتكرر هذا الاسم كلما رأت الطفل أو رأت دميته أو متاعاً من أمتعته
وهذه الأصوات كذلك ليست من اللغة في شئ وإن التبست بها في بادئ النظر، وذلك أن الطائر لا يقصد بها، في الواقع، التعبير عن أمر ما؛ وإنما تصدر منه بشكل غير إرادي
على صورة التي تصدر فيها ظواهر (التداعي الآلي). فمن كثرة تكرار الكلمة أمام الطائر، بحضرة الشخص أو الشخص أو الشيء الذي تدل عليه، يرتبط صوتها بصورة مدلولها، فينبعث الصوت من الطائر بشكل آلي كلما ظهر أمامه المدلول أو ما يتصل به
هذا، ولا يمتاز الإنسان بهذا الصدد عن بقية فصائل الحيوان باللغة الصوتية فحسب، بل يمتاز عنها كذلك بطائفة من المراكز المخية التي تشرف على مختلف مظاهر هذه اللغة: (مركز إصدار الألفاظ، مركز حفظ الكلمات المسموعة. . . هلم جراً) . . .
فقد ثبت أن هذه المراكز ليس لها نظير في مخ أي فصيلة حيوانية أخرى، حتى الفصائل العليا من القردة نفسها.
فالبحث في نشأة اللغة يتطلب إذن دراسة موضوعين اثنين: أولهما نشأة الكلام في الفصيلة الإنسانية؛ وثانيهما نشأة مراكز اللغة في المخ الإنساني.
وسنعرض لهذين الموضوعين في المقالات التالية إن شاء الله.
علي عبد الواحد وافي
ليسانسيه ودكتور في الآداب من جامعة السربون
الأمومة عند العرب
للأستاذ رفعة الحنبلي
(بقية ما نشر في العدد الماضي)
هناك نوع آخر من أنواع النكاح اشتهر به العرب، كما اشتهرت بالنكاح الوقتي، أعني به: نكاح الذواق الذي كان يعقد دون شريطة ما، ويحل من نفسه إذا أراد ذلك أحد الطرفين متى لم يجد فيه اللذاذة والتنعم، ومتى فقد منه الميل والعطف

على أن هنالك بعض أنواع من النكاح كان شائعاً بين العرب في أيام الجاهلية شيوع الناكحين السابقين. جاء عن عائشة زوج النبي العربي: أن (النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء: فنكاح منها، نكاح الناس اليوم يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها؛ ونكاح آخر كان الرجل يقول لأمرته إذا طهرت من طمثها أرسلي إلى فلان فاستبضِعي منه ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة منه في نجابة الولد، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع؛ ونكاح آخر يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة، كلهم يصيبها، فإذا حملت وضعت ومر عليها ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها؛ تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت فهو ابنك يا فلان: تسمي من أحبت باسمه، فيلحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع منه الرجل؛ ونكاح رابع يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها، وهن البغايا كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً، فمن أرادهن دخل عليهن فإذا حملت إحداهن، ووضعت حملها، جمعوا لها ودعوا القافة ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون فالتاط به ودعي ابنه لا يمتنع من ذلك

لم تكن تلك الأنواع من الزواج إلا عادات تأصلت في أخلاق القوم، وتمكنت من نفوسهم، فبقيت ظاهرة مدة طويلة بين العرب حتى بعد الإسلام، وبعد أن هدم صاحب الشريعة الإسلامية نكاح الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم، ذلك أن العرب لم تثنهم الأوامر الإلهية، ولا الشرائع السماوية عن هذه العادات التي ورثوها عن آبائهم الأولين، جيلاً بعد جيل، ولم تحملهم دفعة واحدة على التمسك بالزواج الشرعي

تبين لنا مما تقدم شيوع تعدد الأزواج ونكاح المشاركة وغيرها بين العرب، إذ لا سبيل إلى معرفة الأب بل ولا حاجة إلى معرفته أبداً، إذ لم يكن الزواج معروفاً، وإذ كان الولد يتبع أمه ويتعلق بها في جميع أموره، على أن الرجل أخذ يشعر بالميل نحو طفله، وبالعطف على ولده الذي كان هو سبب وجوده في هذا العالم، واشتد ميله إلى الاعتناء به وضمه إليه، وإلحاقه به، فنشأ عن هذه الظاهرة الجديدة، عادة تعين أباً اختيارياً للولد، معتمدين في ذلك على الظواهر خارجية وعلامات خاصة، وقد يكون تعين هذا الأب أندر في زواج المشاركة منه في تعدد الأزواج الذي كان يملك فيه بعض الأقارب - أو بالأحرى بعض الأخوة - امرأة واحدة. ففي هذه الحالة كان الأخ الأكبر أو من تنتخبه المرأة، أو من تعينه القافة، يأخذ على عاتقه تربية وليدها ويتبناه، كما أنه يعد - غالباً - أباً له، وإن لم يكن في الحقيقة أباه. ولم يأخذ العرب بهذه الظاهرة الجديدة، إلا بعد شيوع تعدد الأزواج ونكاح المشاركة، وظهور أول مبادئ الزواج الفردي في المجتمع الإنساني، إذ أنه لو كان دائماً للولد أب حقيقي أو كان يعين له والد ولو بتلك الطريقة الاختيارية، لصعب على كل باحث أن يدرك الأسباب التي دعت إلى حصر القرابة في الأم. فكثيراً ما نجد أن الولد في الجاهلية، ليس له أب حقيقي بل لم يكن أحد يتبناه وهذا ما أدى إلى شيوع الأمومة في العرب أو التمسك بقرابة الأم.

ومن الأدلة الواضحة على شيوع الأمومة عند العرب، قبل قيام نظام الأبوة عندهم، لفظة (بطن) التي تستعملها العرب حتى اليوم بمعنى العائلة أو القبيلة، ولا ريب، أن هذه الكلمة بمعناها الحقيقي تدل - في زمن مضى - على أن المرأة كانت مصدر العائلة ومحورها.

ومن آثار الأمومة أيضاً، اعتقاد العرب بانتقال الصفات الطبيعية من الرجل إلى ابن أخته، وإن لم يكن بينهما في الحقيقة صلة رحم تجمعهما، وهم إلى ذلك يؤمنون أن الولد ينشأ على غرار خاله، في أخلاقه وميوله وعاداته، دون أبيه، لأنهم وثقوا بصلة داخلية جد قوية بين الخال وابن أخته، يوم كان الولد يتبع نسب أمه وينتسب إليها؛ فكم من أمير من أمراء الجاهلية خلفه ابن أخته في زعامته، وورث عنه ألقابه وأمواله، دون أولاده؛ لذا كان العرب يفخرون بالخؤولة فخرهم بالأمومة.

وكذلك الرق، فإنه أثر من آثار الأمومة، انتقل إلى الإسلام من الجاهلية، ومن صفاته أن الولد يتبع أمه، وحالته تتوقف على حالتها، وهذا ما يعرف عند العلماء بأن (الولد يتبع الرحم)، بمعنى أنه إذا كانت الأم حرة، فولدها حر، وإن تزوجت عبداً؛ وإن كانت أمة، فولدها عبد، وإن كان زوجها حراً. وفي كلتا الحالتين، يتبع الولد أمه في حالتي الحرية

والرق.
ذكر مؤرخو الأدب، أن عنترة العبسي، الشاعر الجاهلي الكبير، كانت أمه حبشية، وأبوه من سادات بني عبس؛ أنف أبوه أن يلحقه بنسبه فجعله في عداد العبيد، وكان عنترة عند أبيه منبوذاً بين عبدانه يرعى له أبله وخيله، فربأ بنفسه عن خصال العبيد، ومارس الفروسية ومهر فيها، فشب فارساً شجاعاً هماماً، وكان يكره من أبيه استعباده له وعدم إلحاقه به، حتى أغار بعض العرب على عبس واستاقوا إبلهم، ولحقتهم بنو عبس وفيهم عنترة لاستنقاذ الإبل. قال له أبوه كر، يا عنترة؛ قال: العبد لا يحسن الكر، إنما يحسن الحلاب والصر؛ قال له: كر فأنت حر، فقاتل قتالاً شديداً حتى هزم القوم واستنقذ الإبل.
لا ريب إذن في أن الأب الحر، لا يقدر أن يجعل من أبنه ولداً حراً، إذا كانت زوجة أمة، ولو كان زواجهما شرعياً؛ والأم الحرة تستطيع أن تجعل من أبنها ولداً حراً، ولو كان زوجها عبداً رقيقاً. إن هذا التفاوت بين حقوق الأرقاء، إن هو إلا بقية من بقايا الأمومة التي نشأت عنها طبقة الأعيان عند العرب يوم كانت تؤثر نسب المرأة على نسب الرجل، في حفظ شرف أسرتها.
يقول المستشرق سميث إن العرب كانت، في عصر الجاهلية، على الزواج الخارجي واستشهد على ذلك بما قاله الذي رد هذا الزواج إلى العادة التي كانت شائعة بين العرب عن وأد الفتاة أو قتلها مما أدى إلى قلة النساء وزيادة عدد الرجال زيادة بينة، فاضطر الرجال إلى طلبهن في غير قبائلهم.
لا نكران أن بعض القبائل العربية كانت تمارس هذه العادة، وكانت تئد بناتها بعيد ظهورهن؛ قيل (كان الرجل إذا ولدت له بنت فأراد أن يستحيها ألبسها جبة من صوف أو شعر ترعى له لإبل والغنم في البادية؛ وإن أراد قتلها تركها حتى إذا كانت سداسية - أي لها من العمر ستة أعوام - فيقول لأمها طيبيها حتى أذهب بها إلى أعمامها، وقد حفر لها بئرا في الصحراء فيبلغ بها البئر فيقول لها انظري فيه ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها
التراب حتى تستوي البئر بالأرض) وقيل (كانت الحامل إذا أقربت حفرت حفرة فتمخضت على رأس الحفرة؛ فإذا ولدت بنتاً رمت بها في الحفرة، وإن ولدت ابناً حبسته)
وورد في أمثال العرب ما يفهم منه أنهم كانوا يرتاحون إلى وأد البنات؛ من ذلك قولهم: (تقديم الحرم من النعم)، و (دفن البنات من المكرمات). أما السبب في وأد البنات، فهو إما خوفهم من لحوق العار بهم من أجلهن أو للتخلص من مؤونة تربيتهن أو مخافة السبي والفقر والإملاق؛ بل كانوا يقولون إن الملائكة بنات الله فألحقوا البنات به فهو أحق بهن. ولما ظهر صاحب الشريعة الإسلامية، النبي العربي الكريم، نهى الله عن هذه العادة وحرمها فقال: (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق، نحن نرزقهم وإياكم، إن قتلهم كان خطئاً كبيراً).
ويقال إن العرب، قبيل الإسلام، عدلت عن هذه العادة أو كادت؛ فقد عرف صعصعة بن ناجية أنه كان يقاوم وأد البنات، ويفدى كل موءودة بناقتين وجمل؛ فلقب بمحي الموءودات وبه افتخر الفرزدق إذ يقول:
ومنا الذي منع الوائدات ... فأحيا الوئيد فلم توأد
لم تكن هذه العادة من الأسباب التي دعت الرجال إلى طلب النساء في غير قبائلهم، ولم تكن أيضاً سبباً من أسباب شيوع الزواج الخارجي عند العرب كما زعم , إن ظاهرة طبيعية غفل عنها العالمان ولم يتنبها إليها، هذه الظاهرة حرية بالتفكير والتأمل، ذلك أن إحدى المفكرات ذهبت إلى أن الإناث في المخلوقات جميعها تفوق الذكور منها عدداً، وإذا تمشينا على هذه القاعدة نجد أن عدد البنات كان ولا يزال أكثر من عدد الصبيان، فضلاً عن أن الرجل يتعرض دائماً لأخطار الحروب والأمراض أكثر مما تتعرض لها المرأة، ومهمة الرجل كانت تقوم على محاربة العدو لحفظ كيان قبيلته من الفناء، وعلى قتال وحوش الغابات والأحراش للحصول على أهم ما يحتاجه من مأكل وملبس وإذا ما سلمنا جدلاً مع هذين العالمين، أن وأد البنات كان من أسباب شيوع الزواج الخارجي، فكيف سمحا لنفسيهما أن يتجاهلا نتيجة هذا الوأد في القبائل

الأخرى؟ فإن قل عدد النساء في قبيلة واحدة، وجب أن تقل في قبيلة أخرى، وهذا ما يجعل الزواج الخارجي عسيراً إن لم يكن مستحيلاً. . .

فليس السبب الحقيقي إذن في شيوع الزواج الخارجي بين العرب وأد البنات، بل هو شدة كراهة العرب لزواج القرابة. قال المستشرق إن من جملة الأقوال الحكيمة التي أبقاها عمرو بن كلثوم صاحب المعلقة الشهيرة وصيته لأولاده: (لا تتزوجوا في حيكم فإنه يؤدي إلى قبيح البغض) ثم أتى بمثل يشتم منه كراهة العرب للزواج داخل الحي، أي الزواج وهو: الغرائب ولا القرائب

فالعرب إذن كانت في الأزمنة الغابرة على النكاح الخارجي وإن أخذت بالزواج الداخلي حيناً من الزمن، إذا أصبح رجال القبيلة الواحدة يتزوجون من نساء قبيلتهم، وليس في قبيلة أخرى؛ إلا أن هذا الزواج لم يكن شائعاً شيوع الزواج الخارجي.

ولقد رافقت الزواج الخارجي ظاهرة جديدة أخذ العرب بها، هذه الظاهرة هي التحاق الزوج بزوجه وبالتالي بأسرتها وبقبيلتها فبقاء المرأة، بعد زواجها، في قبيلتها، وحملها زوجها على الإقامة حيث تقيم بين أهلها، تعد هذه الظاهرة صفة من صفات الأمومة، وكان من أمر هذا أن تبع الولد أمه والتحق بنسبها

فطن العرب إلى أهمية الزواج الخارجي من الناحية الوراثية، إذ يكون النسل قوياً عقلاً وجسماً، فأخذوا به، بينما أهملوا الزواج الداخلي لاعتقادهم أن الزواج من القرابة يولد الفقر في العقول، والضعف في الأجسام فنأوا عنه؛ وهذه النظرية التي أخذوا بها تطابق - ولو إلى حد ما - النظريات الوراثية الحديثة

إلا أن هذا الاعتقاد يخالف ظاهراً ما أشتهر به العرب قديماً من أنهم كانوا يفضلون نكاح بنات العم على غيرهن، لكن في الواقع، لا نجد أي تناقض في هذه المسالة. ذلك لأن كل عربي يلقب محبوبته وخطيبته ببنت عمه، وحماه بعمه، وإن لم يكن بين الطرفين وشيجة رحم أو صلة قرابة، وليس بوسع الباحث أن يرد سبب إطلاق كلمة العم على الحم، وبنت العم على محبوبته، إلا لتمسك العرب، منذ القدم، بالأمومة والزواج الخارجي الذي نتج عنهما الزواج بين أولاد الأعمام، أي أنهم كانوا يسمحون لأولاد الاخوة الذين أمهاتهم من قبائل مختلفة أن يتزوج بعضهم من بعض، لفقدان صلة القرابة بينهم باعتبار أن الأمومة تتطلب من الولد أن ينتسب إلى أمه، وأن يتبع خاله بعدها دون أبيه

فالزوج لم يكن إذاً في ذلك العهد بين أولاد الأعمام وبنات العم زواجاً فيه قرابة، بل فيه

بعد، في حين أن الرجل كان يحجم عن التزوج بابنة خاله لاعتقاده أن الخؤولة أكثر قرابة من العمومة، ولربما كان هذا الاعتقاد من الأسباب التي دعت إلى إطلاق كلمة بنت العم على المرأة عامة

(بيروت)

رفعة الحنبلي

النقابات الإسلامية

للأستاذ برنارد لويس

ترجمة الأستاذ عبد العزيز الدوري

أكثر الكتاب والمؤرخون في سرد الوقائع، ووصف أبهة القصور وعظمة السلطان، وجعلوا التاريخ سلسلة حوادث متفرقة، متباينة، وأغفلوا التيارات الاجتماعية التي كان لها أكبر الأثر في سير التاريخ، يظهر هذا خاصة في التاريخ الإسلامي. ثم تنبه بعض المستشرقين لذلك، وحاول أن يسد بعض هذا النقص. ولدينا في هذه الرسالة (النقابات الإسلامية) عرض عام لنتيجة البحوث عن أهل الصناعات والحرف في الإسلام

وقد ترجمت هذه الرسالة لأنها تعطي القارئ العربي فكرة عن نظر بعض المستشرقين إلى بعض مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية في التاريخ الإسلامي.

وقد نشرت هذه الرسالة في مجلة

, , 1973

ولكن النص العربي يحوي إضافات ومعلومات لم تنشر هناك، وهي النتائج الأخيرة لأبحاث المؤلف عن موضوع؛ إذ تفضل بإضافتها أخيراً
(ع. د)

إن طوائف أهل الصناعات والحرف هي من أهم ظواهر الحضارة الإسلامية في القرون الوسطى.

يندر أن يجد الإنسان أثراً لما نسميه روحا مدنية (نسبة إلى مدينة)، أو تنظيماً بلدياً (نسبة
إلى بلدية) في البلاد الإسلامية فقد كانت المدن الإسلامية في القرون الوسطى وقتية الظهور على الأغلب، تتمتع بازدهار تجاري أو ثقافي لمدة قرن أو نحو قرن، ثم تتضاءل أو تختفي. وبهذا ندر وجود طوائف بلدية معينة، أو حدات متحضرة دائمة. إذ أن روح التكتل والتنظيم المحلى التي كان لها أهمية كبرى في أوربا في القرون الوسطى، منعت من الظهور في الحقل السياسي بتأثير الأوضاع السياسية المضطربة في البلاد الإسلامية، وسيقت تلك الروح لأن تجد لها منفذاً في الحياة الاقتصادية. وهكذا نجد في أصناف الحرف في الإسلام ما يساوي تلك الحياة المحلية القومية التي هي من أبرز مظاهر تاريخ أوربا في القرون الوسطى.

كانت النقابة مهمة في الحياة الإسلامية لدرجة أنَّ تخطيط المدينة - التي كانت تبنى على أساس سوق تجارية - كان يقرر في كثير من الأحيان حسب حاجات أصحاب الحرف. فنرى أن المدن الإسلامية من مراكش إلى جاوة ظهرت بتماثل عجيب متمركزة حول ثلاث أو أربع نقاط أساسية

فأول نقطة ثابتة هي سوق الصرافين، وهو مركز هام دائماً في النظام الاقتصادي الثنائي الأساس في العملة، كما كانت الحال في البلاد الإسلامية في القرون الوسطى ونجد حواليه جامعي المكوس، ثم دار الضرب (إن وجدت هنالك واحدة)، ثم سوق المزايدة، ثم المحتسب وهو ملاحظ الأسواق. وهنا نجد الحمالين أيضاً

والمركز الثاني هو القيصرية - وهي بناية محكمة تخزن فيها البضائع والنفائس الأجنبية ويحتمل أن يكون الاسم بيزنطي الأصل. والمركز الثالث هو سوق العزل - حيث يأتي النساء لبيع إنتاجهن اليدوي. وهنا نرى المتعاملين بالحاجات التي يشتريها النساء كالقصابين والخبازين وبائعي الخضر الخ. . .

والمركز الرابع هو الجامعة أو المدرسة. وهي ملحقة عادة بمسجد، وفيها يكوِّن الطلبة والأساتذة نظام نقابة حقيقة.

ويشتغل أهل الحرف حول هذه المراكز الأربعة، كل صنف في سوقه الخاص. يلاحظ من هذا أن توزيع النقابات يتبع هذا النظام في المدن المختلفة حيث توجد هذه المراكز الأربعة.

دعنا الآن ننظر في منشأ هذه النقابات، وهو بحث يلاحظ فيه أنه لم يتقدم بالقدر الكافي

هناك رأي يقول بأن هذه النقابات هي متممة للنقابات البيزنطية التي سبقتها، إذ كانت توجد نقابات متعددة في المقاطعات البيزنطية كسوريا ومصر حتى القرن السابع الميلادي. وليس من المحتمل أنه قضى عليها من قبل الفاتحين العرب الذين كانت سياستهم كما نعلم ترك الهيئات الإدارية والاقتصادية التي خلقها البيزنطيون كما كانت عليه تقريباً. ومع ذلك لا نرى أية إشارة إلى وجود نقابات إسلامية قبل القرن العاشر الميلادي؛ أي بعد ثلاثة قرون (مع بدء الفتح)، كما أن هذه النقابات كانت من نوع يختلف تماماً عن النقابات الموجودة قبل الفتح الإسلامي. وليس لدينا إلا ملاحظات قصيرة متقطعة (عن النقابات) خلال هذه الفترة وأولها جملة في تاريخ ابن عذارى المراكشي إذ يقول عن والي أفريقية والغرب سنة 770م (155هـ): (وكان يزيد (بن حاتم) هذا حسن السيرة فقدم أفريقية وأصلحها ورتب أسواق القيروان وجعل كل صناعة في مكانها)

ومع أن الكتاب الذي يحتوي هذا النص قد كتب في القرن العاشر فلا مانع من قبول صحة هذا الخبر وهو خبر طريف في ذاته، إذ أنه يظهر أن الأمير العربي وضع العمال والأسواق في القيروان، وهي مدينة جديدة بناها العرب الفاتحون، تحت نفس الإدارة والمراقبة كما كان يفعل الحاكم البيزنطي في المدن المجاورة. ولكن يظهر لي أن

استنتاج وجود نقابات عربية في القيروان من هذه العبارة، كما فعل (فون كريمر و آتجر غير مؤيد بالبيانات الموجودة)

وفي نهاية القرن التاسع الميلادي نجد عدداً لا بأس به من المصادر يشير إلى وجود شئ من نظام التكتل بين التجار وأصحاب الحرف. ولكن هذه الأصناف لم تصل بعد إلى درجة يصح اعتبارها كنموذج للأصناف الإسلامية. وإنما هي مجرد تنظيم عام وضبط للأسواق والحرف من النوع الموصوف في المصادر البيزنطية المعاصرة يمكن أن نستنتج من هذه الإشارات أن الأمراء المسلمين احتفظوا بأشكال السيطرة العامة التي كانت للإدارة البيزنطية على الحرف - على الأقل في معاملاتهم مع الصناع من غير العرب وغير المسلمين - وربما امتد ذلك حتى إلى المسلمين أنفسهم. وعلى كل حال فإننا نجد في القرن التالي تطوراً ظاهراً فيما يسمي بالأصناف الإسلامية، وحينئذ نجدها من نوع لا يصح تعليله بالتأثير أو التراث البيزنطي. وتوجد نظرية أخرى بجانب هذه النظرية يتطلب

فحصها الانتقال إلى موضوع قد يجهله غير المستشرقين

بدأ المستشرقون في السنوات الأخيرة يتأكدون أكثر فأكثر أن المذهب السني في العصر الأول للخلافة لم يكن أبداً مذهب الطبقات العامة، وكلما ازدادت دراسة الباحث في الأدب الإسلامي في القرون الوسطى ازداد الاتضاح من المذهب السني كان ينظر إليه في كل محل كدين طبقة مسيطرة، دين الدولة وميزة الأرستقراطية العربية الحاكمة وقد كانت هذه نظرية الفاتحين أنفسهم في الأدوار الإسلامية الأولى، ولقد كانت الأكثرية الساحقة بين رعايا الخليفة - لقرون عديدة بعد الفتح الإسلامي - غير سنية تكره المذهب السني كرمز لسطوة طبقة أجنبية حاكمة تتمتع بامتيازات خاصة ومع ذلك كان الشعور الديني قوياً بين الطبقات العامة، وقد تجلى هذا الشعور بظهور سلسلة فرق متزندقة منشقة منذ القرن الثامن الميلادي حتى الفتح المغولي، وتتصف جميع هذه الفرق تقريباً بفلسفة خاصة تحتوي عناصر مقتبسة من فرق سبقت العصر الإسلامي كالأفلاطونية الحديثة والمانوية والمزدكية وبفلسفة اجتماعية ثورية فيها عامل المساواة بين الأفراد وبتنظيم سري يشبه النظام الماسوني، وهي عادة من أفراد من مختلف الطوائف مع درجات من التنشيئ والتهذيب، ونجد مثلاً عصرياً لنجاح هذه الفرق وفشل المذهب السني في حالة الهولنديين في الهند الصينية (إندونيسيا) والفرنسيين في أفريقيا الغربية، حيث على الرغم من قواها المتفوقة نجد البعثات المسيحية تتقدم بين السكان الوطنيين بنجاح اقل من نجاح الدعوة الإسلامية. فهنا أيضاً يرى الزنجي أو الإندنوسي أن المسيحية متصلة بحكم أجنبي، فيفضل أن يكون مسلماً من الدرجة الأولى على أن يكون مسيحياً من الدرجة الثانية

بلغت هذه الحركات الدينية أوجها في القرنين العاشر والحادي عشر. فقد كانا مرحلتي تطور صناعي وتكتل حضري. فظهور نظام راق للبنوك مركزها بغداد، تغطي فروعها الإمبراطورية، ساعد على تجهيز الدولة بالنقود وعلى حفظ النقود بصورة عامة أساساً للاقتصاد. وقد أثر هذا على النمو الصناعي، فأنتج تمركزاً في رأس المال والعمل كما ولد النمو السريع في رأس المال حسب المنتظر مشاكل اجتماعية خطيرة. إذ نقرأ عن سلسلة اضطرابات خطيرة في بغداد، وعن ثورة الزنج في أسفل العراق في القرن التاسع، ثم عن

ظهور فرق دينية باستمرار. وفي هذا العصر زلزل العالم الإسلامي بحركة ثورية سياسية اقتصادية ثقافية في نفس الوقت أنتجت الخلافة الفاطمية في القاهرة. فالحركة الإسماعيلية (أو القرمطية) - ما تسمى هذه الحركة تبعاً لأسم أهم شعبها وأكثرها أهمية - تميزت بآراء حرة عجيبة. إذ وجهت دعوتها إلى مختلف الفرق الإسلامية - من سنة وشيعة - ومختلف الأديان من يهود ونصارى،، وزرادشتية على السواء باسم الحركة الثقافية والعدالة الاجتماعية، ويصعب البت في فلسفتها الحقيقة لأن مصادرنا إما سنية فتكون شديدة العداء متحيزة، أو إسماعيلية تنتمي إلى عصر متأخر عند ما طرأ على المبادئ الأولى تعديل واسع. فمثلاً نرى أن فخر الدين الرازي وصم الغزالي والشهرستاني والبغدادي بالتعصب وقلة فهمهم لأراء خصومهم. إذ روى عن حديث له عن المسعودي عن الكتب قال: (فقد ذكر المسعودي كثيراً منها إلى أن ذكر كتاب الملل والنحل للشهرستاني. فقلت: نعم، إنه كتاب حكى فيه مذاهب أهل

العلم بزعمه إلا أنه غير معتمد عليه، لأنه نقل المذاهب الإسلامية من الكتاب المسمى بالفرق بين الفرق، من تصانيف الأستاذ أبي منصور البغدادي، وهذا الأستاذ كان شديد التعصب على المخالفين، فلا يكاد ينقل مذهبهم على وجه الصحيح، وقد أدرك الغزالي الخاصة الاجتماعية للمذاهب المنشقة، وقال في الكلام عن الباطنية: (فاستبان أن ما ذكروه تلبيس بعيد عن التحقيق وأن العامي المنخدع به في غاية العمى، لأنهم يلبسون على العوام) ثم قال أيضاً عنهم: (فما هولوا من خطر الخطأ مستحقر في نفسه عند المحصلين من أهل الدين، وإنما يعظم به الأمر على العوام الغافلين عن أسرار الشرع). وعند الكلام على الدعاة الباطنيين قال: (وهؤلاء الدعاة تواطئوا على هذا الاختراع ليتوصلوا به إلى استتباع العوام واستباحة أموالهم فيتوصلون به إلى آمالهم)

ومن الواضح على كل حال أن الحركة الإسماعيلية كانت مبنية على نوع من التفكير الحر تعترف بقرابة الأديان جميعاً وتنبذ الشريعة الإسلامية، وتستند إلى مبدأ من العدل والتسامح والمساواة التامة؛ وبطريقة حاذقة من التفسير تعرف بالتأويل أسندت هذه المبادئ بنصوص من القرآن والكتب الدينية الإسلامية وكذا عوملت كتب اليهود والنصارى المقدسة بنفس الطريقة. . .

وقد ذكر عبد الله الإسماعيلي في عرضه للأسس الاجتماعية للإسلام أنه (ما وجه ذلك إلا

أن صاحبهم حرم عليهم الطيبات وخوفهم بغائب لا ينقل وهو الإله الذي يزعمونه وأخبرهم بكون ما لا يرونه أبداً من العبث من القبور والحساب والجنة والنار حتى استعبدهم بذلك عاجلاً، وجعلهم له في حياته ولذريته بعد وفاته خولا، واستباح بذلك أموالهم بقوله: لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى (الشورى 23) فكان أمره معهم نقداً وأمرهم معه نسيئة، وقد استعجل منهم بذل أرواحهم وأموالهم على انتظار موعود لا يكون. وهل الجنة إلا هذه الدنيا ونعيمها؟ وهل النار وعذابها إلا ما فيه أصحاب الشرائع من التعب والنصب في الصلاة والصيام والجهاد والحج).

روى هذا النص مؤلف سني توفي سنة 1037، كمثل من زيغ القرامطة وشك بعض الباحثين في صحته. لكن النص وإن كان ركيك التعبير، فأنه لا يوجد فيه غير الحط من شخصية الرسول، لا يمكن تأييده بنصوص من الكتب الإسماعيلية القديمة القليلة أو المتأخرة التي لدينا.

(يتبع)

عبد العزيز الدوري

رسالة الشعر

بين الجد والفكاهة

بيوت الشعراء

للأستاذ محمود غنيم

كسوت الناسَ خزاًّ من ثنائى ... وبتُّ من البِلى أرفو كسائي

فوا لهفي على أبياتِ شعرٍ ... أشيِّدها ولكن في الهواءِ

أأنشئُ كلَّ يوم ألف بيتٍ ... وأسكُنُ بعد ذلك بالكراء؟

فلو طاب المُقام ببيت شعرٍ ... إذن لأقمتُ في أعلى بُناء

إذن لملأت شطَّ النيل دوراً ... فلم تَرَ فيه شبراً من فضاء

وآويتُ الأراملَ واليتامىَ ... ولم أترك شريداً بالعَراء

ولم أُوقِعْ على السكّانِ حجزاً ... ولو عجز الجميع عن الأداء

إذن لملكتُ أحياءً بمصرٍ ... تناطح دورُها هامَ السماء

أطوف بهنَّ داراً بعد دارٍ ... فصيفي هاهنا وهنا شتائي

ولكن لا مُقامَ ببيتِ شعرٍ ... يطيب، ولو بناه أبو العلاء

ألا من يشتري أبياتَ شعري ... بكوخٍ شيدَ من طينٍ وماءِ؟

فليس الطينُ أكرمَ من فؤادي ... وليس الماءُ أغلى من دمائي

المنبوذ

للأديب فؤاد بليبل

جَائِعٌ لفَّهُ الضَنَى بِرِدَائِهْ ... أَيْنَ نَارُ الجَحِيمِ مِنْ أَحْشَائِهْ

لَفَظَتْهُ الحَيَاةُ فَهْوَ شَرِيدٌ ... يَصِلُ البُؤسَ صُبْحَهُ بِمسائِهْ

شَاحِبُ الوَجْهِ نَاحِلُ الجِسْمِ طَاوٍ ... تَتَمَشَّى الأوصابُ في أعْضائِهِ
وَعَلى جِسْمِهِ بَقَايَا رِدَاء ... تتبدَّى العظامُ منْ أجزائه
باهتِ اللونِ مثل بشرتِهِ شَكْ ... لاً، يضُمُّ الشقاَء في أنْضائه
خِرَقٌ رَثَّةٌ عَلى جَسَدٍ با ... لٍ وَقَدْ زادَ الضنى في ألتِوائه
شَبَحٌ منطوٍ على كبدٍ حرِّ ... ى ونفسٍ قد رُوِّعَتْ بشقائه
غائرُ المقلتينِ أنهَكَهُ الجو ... عُ وأذكَى الاوارَ في أمعائه
فكأنَّ السقامَ ما يرتديه ... وكأنَّ الشقاَء من أسمائه
وكأنَّ الجحيمَ ما هو فيه ... وكأنَّ الزمانَ من أعدائه
كلّما شامَ بارقاً من رَجاء ... فجعَ اليأسُ قلبَهُ برجائه
ضائِعٌ في الوُجودِ جدُّ شقّيٍ ... يجمعُ البؤسَ كلّه في كسائه
ضاربٌ في النجادِ لا جادَهُ الغي ... ثُ ولا شوكها أرتوي من دمائه
ركبَ العُمْرَ لُّجْةً وَهْوَ فيها ... زَوْرَقٌ نازحُ الشواطئ تائه
هشَّم الموجُ جانبيهِ وألقَى ... بِشِرَاعَيْهِ في غياهبِ مائه
وَرَمَاهُ الإعصارُ في كلِّ قاعٍ ... واحتَواهُ الخِضَمُّ في أنوائه
نَالَ منهُ القنوط كلَّ منالٍ ... وتنحى أهلُ الوَرَى عن عزائه
هائمٌ في القفارِ لم يؤوِهِ ع ... شٌ ولا ابتلَّ رملها من بكائه
يتلقى على الهجيرِ شقياً ... أينَ لفحُ الهجيرِ من بُرَحَائه
لائذٌ بالفرارِ من دهره الطا ... غي وأينَ المفرُ من أرزائه
آبقٌ والشقاءُ جيشٌ لُهامٌ ... زاحفٌ من أمامِهِ وورائه
كلّما هَزَّ للزمانِ قناةً ... حَطَمَتْهَا الأيامُ في أحشائه
أنْكَرَ الناسُ ما يقاسي وقالوا ... مجرمٌ يخدع الوري بريائه
وأشَاحوا عنه الوُجوهَ احتقاراً ... وتواصَوا بنَبْذِهِ وازدرائه
زَعَمُوهُ عبئاً عليهم ثقيلاً ... وَهُمُ المُثقلون من أعْبائه
حَمَّلوُهُ آثامَهم وأحَلُّوا ... دَمَهُ لا بتئاسِهِ واجتدائه
عَذَبوهُ بالجوع ظُلْما وراحوا ... يشبعونَ الذئابَ من أشلائه
طَرَدُوهُ عن أن يشاركَ حتى الك ... لب في ما يَعَافُهُ من غذائه
شَرَّدُوهُ في الأرضِ من خوفهمِ مِنْ ... هـ وَجَدَّتْ جُنُودُهم في اقتفائه
أيَّ شرٍ يخشونَهُ من شريدٍ ... يتبارى الجميعُ في إيذائه؟!
ألهَذا الطريدِ أنْشَأتُمُ السج ... نَ وأعْدَدْتُمُ القنا للقائه؟!
ألهذا الضعيفِ أشرعتم الرم ... حَ وَخِفْتُمْ من بطشهِ واعتدائه؟
ألهذا الفقير هَيْأتُمُ السو ... طَ وحَذَّرتُمُ الورى من عطائه؟
أيُّها المفترونَ مِمّ تخافو ... نَ أمِنْ ذُله وفرط عيائه؟!
وتردِّيه في التعاسةِ والبُؤ ... سِ وطولِ اكتآبه وبلائه؟!
أم هُوَ الدهر أعزَّ أولى اليُسْ ... رِ وأخنى ظلماً على فقرائه!
سفَّهوا رأيهُ وربَّ فقيرٍ ... تُسْتمدُّ الآراءُ من آرائه
وأَبى الأغنياء أنْ ينصفوه ... ويحَ هذا الزمان من أغنيائه!
لا تَلَومُوه إن تمرَّد أو ثا ... رَ وهزَّ الوُجُودَ مِن أرْجَائه
أَنْتُم سقتموه للإثْمِ سَوْقاً ... فعذروهُ إن لجَّ في غُلَوَائه
هاجَهُ ظلْمُكُم فثَارَ عليكم=وأثَارَ الكمينَ من شحنائه

نشيد العمل
للمدارس التجارية والطبقات العاملة
للأستاذ علي الجندي

نَحْنُ أبْنَاءُ العمل في مَيادِينِ الحَيَاهْ
كلُّنا حُرٌّ بَطَلْ تُحْرِزُ التِّبْرَ يَدَاهُ يَحْمَدُ النِّيلُ خُطَاهْ
نحنُ أبناءُ العملْ
نَحْنُ للشَّعبِ عِمادْ نحنُ للنيلِ دِعامْ
نحنُ للناسِ رشادْ نحنُ لِلمالِ قِوامْ نحنُ للعَيْشِ نِظامْ
نحنُ أبناءُ العملْ
نحنُ للسعي خُلقنا كالطيورْ والذي يَسعى ينالْ

لا نُبالي ما لقينا كالصُّخور حَيَّ أحرارَ الرِّجالُ حَيَّ أبطالَ النِّضالْ
حَي أبناءَ العملْ
نحنُ رمزٌ للدَّأبْ ومِثالٌ للشَّبابْ
عصرُنا عصرُ الغلَبْ من تواني فيهِ خابْ
لا ترَى فينا الكَسِلْ لا تَرمي فينا الوَكِل
نحنُ أبناءُ العملْ
نحنُ لا نرضى الغِنَى في ظِلالِ المنْصِبِ
فالتمسنا رزقَنا منْ طريق المكسَب
وَسَعْينا جُهْدَنا واقتديْنا بالنَّبي
فَبَلَغْنَا سُؤْلَنَا وَقَهرْنا الأجْنَبي
نحنُ أبناءُ العملْ
مِصْرُ هبَّتْ من كَرَاها سَدَّدَ الله خُطاها وَرَعى عَرْشَ البِلاَدْ
نَحْنُ الخطْبِ فِدَاها نحنُ نَرْمي مَنْ رَماها نحنُ فُرْسَانُ الجِهَادْ
نحنُ أبناءُ العملْ
إيَّاك أَعْني. . .
للأستاذ محمد كامل حتة
!يَا مَنْ جَهِلْتَ حَقِيقَتِي ... فأَفَدْتَنِي بالجهلِ عِلْماً
!جُوزِيتَ عَنِّي مِنْ جَهُو ... لٍ زَادَنِي عِلْماً وحلما
أَنْكَرْتَنِي فَعَرَفْتُ ... نَفسِي، يا لمَعْرِفَةِ النفوسْ. . .
!هِيَ جَنَّةُ الرُّوح الشَّرِ ... يد وَبَسْمَةُ القلَبِ العَبُوسْ
!لاَ بَلْ هي النارُ التي ... يَشْقَي بها العقلُ السعيدُ
وَيظلُّ يهفو كالفَرَا ... شَةِ نَحْوَها يرجُو المزيدُ. . .
هامتْ مع الآمالِ في ... وَادِي الهَوَى المسحُورِ نَفْسي
!فَضَلَلْتُ عنها، وانثَنَيْ ... تُ أُحُبُّ في أذيالِ يَأسِي
كم رُحْتُ أنشُدُها ب ... كلِّ مِظَنَّةٍ وبكل وادِ. . .
!حيرانَ أضربُ في فِجَا ... جِ الأرضِ مُضطَّرِبَ القِيَادِ
كم إذا شَقِيتُ بِغُرْبَتِي ... في هذه الدُّنْيا الكَنُودْ. . .
!فَطَفِقَتُ أندُبُ وحْدَتِي ... وَزَّهِدْتُ في هذا الوجودْ
ماذا لَقِيتُ مِنَ الحيا ... ةِ وَصَفْوُهَا كَدَرٌ مَرِيرْ؟
!هِيَ مِحْنَةُ العقلِ البص ... يرِ ونعمةُ القلبِ الغَرِيرْ
!لَوْلاَكِ - نفسي - ما شَق ... يتُ بما أَعَانِي مِنْ قَلَقْ
وَلَقَرَّ بين جَوَانِحِي ... قلب يَوَدُّ لَو انْطَلَقْ. . .
نفسي! عَرَفْتُكَ مُنْذُ أن ... كرني الجَهُولُ المُدَّعِي. . .
!وَبهِ اهتديْتُ إليكِ في ... هذا المُقامِ الأرفَعِ
كَفَى مَلاَمَتَهُ فمَا ... هو بالمَلاَمَةِ يَجْدُرُ
ما ضَرَّهَا شَمْسُ الضُّحَى ... ألا يَرَاها الأَجْهَرُ؟
الأدب في الأسبوع
مولده
سكن الكون وأصغى، وتعبَّأت كل القوى الأبدية لحشدها، وعبَّ التيار الإلهي الذي يموج به الكون، وسعت الملائكة بالبشرى بين خوافق السماء والأرض، وتهللتْ أجيال النبوّة بأفراح خاتمها الذي أتم الله به نعمته على الناس، وسَرَتْ في الكائنات أسرار الحياة الجديدة فاهتزت وربت واستشرفت إلى النور الخالد الذي ينبع من أفق الإنسانية العالي البعيد، ووسوست رمال الصحراء بتسبيحة المجد لله، تستقبل الأقدام التي تطؤها بالنور الذي سيمشي أولَ ما يمشي على حصبائها، ثم يمشي بأصحابه في أرجاء الأرض يحييها بعد موت، ويطهرها بعد دنَس

سكن السكون وأصغى، وسكنت نأمةُ الشياطين في مخارمها ومهاويها وآفاقها، وخشعت وساوس إبليس بالرعب والفزع، وثبتت في مساربها جائلات الجِبتِ والطاغوت، وتحيَّرت في مستقرها أباطيل الأوثان وهام الالوهة المزيفة على الناس ثم اهتز الكون كله بالفرح، فتداعت أبنية الأجيال الوثنية الباطلة، ثم أخذت تتداعى تحت

. . .الأشعة النبوية التي نشرت على الدنيا نورها بالحق والعدل والتوحيد والسلام سكن الكون وأصغى، ثم اهتز بنوره وتطهر، صلى الله عليه وسلم. والسلام عليك يا رسول الله، سلاما من كل قلب، وفي كل زمن، والحمد لله الذي أرسلك بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون

أعيادنا

أعياد الأمم هي الأيام التي تستعلن فيها خصائص الشعوب وذخائرها وخلائقها الأدبية والعقلية والنفسية والسياسية. هي الأيام المبتهجة التي تنبض بالحياة وأسبابها في الأمة، لتدل على السر الحيوي الساري في أعصاب الحياة العملية اليومية المتتابعة على نظام من الجد لا يكاد يختلف

واحتفال الشعب بأعياده أمر ضروري لإعطائه المثل الأعلى وإمداده بالروح التي تدفعه إلى مجده، أو إلى المحافظة عليه. فهو من ناحيتيه يظهر ما في الشعب من خصائصه ومحامده وعيوبه؛ ويبقى على المثل الأعلى بالتجديد والبهجة والزينة

فأعياد الأجانب الأوربيين مثلاً تكتشف عن قوتهم واعتدادهم بأنفسهم، وتعشقهم لجمال الحياة الدنيا إدماناً وإغراقاً، وعن جعلهم المجاملة أصلاً أخلاقياً في أنفسهم وأهليهم، وعن غرورهم واستهتارهم واستهانتهم بأكثر الفضائل الإنسانية حين تجري في دمائهم عربدة الطغيان الإنساني المتوحش الذي يرتد إلى الغرائز الحيوانية المستأثرة باللذة، المجردة من الورع والتقوى

وأعيادنا نحن تهتك الحجاب عن ضعفنا وذلتنا، واستكانتنا لما نشعر به من الضعف والذلة، وتبين عن ذهول الشعب عن نفسه وعن تاريخه، وعن مجده، وتعلقه بترهات الحياة، وقلة مبالاته بجمالها، وانصرافه عن معرفة الأحزان الخالدة في طبقاته بخلود الفقر والجهل والبلادة

فهل يزدلف إلينا ذلك اليوم الذي تتمثل فيه أعياد الشعب الإسلامي صورة السيطرة والسيادة والقوة، وتتبدى عليه أفراح الحياة الراضية المؤمنة المطمئنة، وتعود إليه الأخوة الإسلامية التي ساوت بين الناس غنيهم وفقيرهم وعالمهم وجاهلهم، وجعلتهم سواء لا فضل لأحد على أحد إلا بالخلق والتقوى؟ هل يأتي ذلك اليوم السعيد الذي يجعل أعيادنا صورة من مدنية دين الله التي تبدأ بالرحمة والحنان والتعاطف، وتنتهي بالعمل والجد والصبر والتعاون؟ يومئذ تكون السيادة العليا للمدنية المستقبلة، مدنية الحرية التي لا تشتهي أن تفجر، والعلم الذي لا ينبغي ن يكفر

التعليم

فاز الأسبوع الماضي في مجلس النواب بإثارة انتباه الناس إلى شأن التعليم وسياسته التي درجت عليها وزارة المعارف من سنين تطاولت، وقد قدمت اللجنة المالية تقريرها عن ميزانية المعارف، وتناولت في هذا التقرير سياسة التعليم وأغراضه، وعيوبه وما ترجو به له الإصلاح، وناقش المجلس بعض هذه الآراء، وعرض حضرات النواب بعض آرائهم وملاحظاتهم. ونحن - على أننا لم نحضر هذه الجلسة بل قرأنا ما اختصر مما جرى فيها - نظن أن حديث النواب كان يدل دلالة قاطعة على أن وزارة المعارف التي انقضى على قيامها بهذه المهمة ما يربو على قرن من الدهر لم تقرر فيها أصولٌ صحيحةٌ للتعليم، ولم تجر سياستها على منهج يستمر بها إلى غاية تريدها على تدبير وحياطة

أفلا ترى أن الوزارة لا تزال تسمع من الناس ومن النواب ومن أصحاب الرأي ما يجب عليها للتعليم الديني في مدارسها، وما ينبغي في مناهج تعليم البنات، وما تتطلَّبه أنظمة التعليم الإلزامي، وهل أدى الغرض منه إلى يوم أو لم يؤده؟ وما تفرضه الوطنية من النظر الصادق في ترقية التعليم الحر حتى يصل إلى الدرجة التي تليق به وبالأمة التي تتولى هو بعض الرعاية على بعض أبنائها، وغير ذلك من الشؤون الابتدائية في سياسة التعليم

فهذا عجيب أن تبقى وزارة المعارف إلى هذا اليوم، ولم تتقرر لها سياسة كاملة تتناول حياة الأمة العلمية والأدبية والخلقية والبدنية بأدق النظر وأحسن الرأي، فلا ينبغُ لها نابغ يسددها إلى هذه الآراء الأولية التي يفرض كل أحد أن الوزارة قد انتهت من إقرارها والسير عليها والتدبير لها بكل الوسائل التي تكفل للشعب تربية أبنائه تربية تامة كاملة مهيَّأة لتحمُّل الأعباء المثقلة التي سيحملها جيلهم من بعد هذا الجيل

وقد سارت وزارة المعارف في السنين الأخيرة على سنة لا يمكن إلا أن تفضي إلى توهين الروابط الثقافية التي تربط الشعب كله بعضه إلى بعض؛ وذلك كثرة تبديل المناهج وتغييرها عاماً بعد عام غير ضرورة ملجئة في أكثر هذا التبديل والتغيير. ولا بد أن تحزم وزارة المعارف أمرها على خطة واسعة متراحبة ترمي إلى أبعد مدى على أنم حذر، ليتسنى لها أن تمحو كل أخطاء الماضي التي لعبت فيها الأيدي الاستعمارية والسياسية بكل ما من شأنه أن يسلب الشعب قدرته على التحفز والتوثب والتجمع، وما ينشئه على الحرية العقلية والنفسية، التي ترفعه إلى درجات السامية التي يجب أن يرقى إليها كل شعب يريد أن يتحرر ويسود ويفرض مدنيته على الأرض التي يعيش عليها

وإذا أرادت وزارة المعارف ذلك الآن، فإن في همة وزيرها لذي لا يَمَلَ ولا يتأخر عن دواعي الوطن، إنفاذاً لهذه الإرادة. فوزير المعارف رجل معروف بالجد والإخلاص والمثابرة وقوة العزيمة، فلو اجتمع له كل أصحاب الرأي ممن يحب أن يساهم في شأن التعليم مساهمة الدرس والكفاح للمستقبل، لأمكنهم أن تنقذوا وزارة المعارف من البلبلة التي لا زالت تتساقط بها من ذلك العهد القديم المعروف بأغراضه في تحطيم قوى الشعب استعبادياً مستبداً. فنرجو أن يضمَّ وزير المعارف إلى رأيه جماعة من أصحاب التدبير السياسي للتعليم غير متقيِّد بشيء من الرسوم القديمة - وهو الرجل الحر - فإن القيود هي التي جعلتنا إلى هذا اليوم نسري في ظلام دامس من الأهواء التي غلبت على شأن التعليم فيما مضى

تعليم العربية

وبهذه المناسبة أذكر أني قرأتُ في الأسبوع الماضي أيضاً كلمة عن أسباب ضعف الناشئة في اللغة العربية، وأن الكاتب ردَّ هذا إلى أسباب من المعلم والكتب وغير ذلك، وزعم أن أكثر كتُبنا لا يصلح لتعليم الناشئة لسان أمتهم. وإن يكن في هذا بعضُ الحقِّ فليس هو كلَّ الحقِّ، فان أسبابَ ضعفِ النشء في العربية ليس يُردُّ إلى المعلم والكتاب، بل مردُّه إلى المنهج الذي يُقيد المعلم بقيود كثيرة ترفع عنه التبعة في نتيجة التعليم، ويقيد الكتاب بمثلها، ويُعطى النشء ما لا يَصْلُح عليه لسانٌ ولا يستقيم به

تعليم لغة

فلو أنت نظرت لما رأيت شعباً من شعوب الأرض المتعلمة، يفعَل بلغته ما نفعل نحنُ، من التجاهل للآثار الأدبيةِ وقلة الاحتفال بتزويد الناشئ بمادتها التي تحفظها لتكون أبداً على مدِّ الذاكرة وفي طلب اللسان. ولو أنت سألت أي مُتعلِّم من أهل الأمم الأخرى أن يُسمعك من روائع شعر أُمته ونثرها وحديث بلغائها لاحتفَلَ لك بالكثير الذي تظن مَعَه أنه إنما أعدَّ لك الجواب لعِلمه أنك قد أعددتَ له السؤال. فلو أنتَ جئت بعدَ ذلك إلى أحد المثَّقفين المكثرين المتنفخين من المتعلمين عندنا وسألته مثل ذلك لَنحا إليك بَصرَه فأتأرَ النَّظَر فابتسمَ فضَحك فستهزأ بك فولاَّك ظهره فمضى يعجب من غفْلتك وحماقتك وقلّة عقلك

وإن بعضهم ليقول: ليس لنا ما لهم، أين للطالب المصري أو العربي ما يغريه بالقراءة كما يغري شكسبير وملتون وبيرون وشيللي وفلانٌ وفلانٌ من الشعراء والكتاب؟ بَلى أين؟ وإن يكن هذا كله حقاً فافترضناه كذلك، فليس يكون لنا مثل شكسبير وأصحابه إلا باستيعاب قديم كتابنا وشعرائنا، والحرص على آثار محدثيهم، فإذا كان ذلك أخرج الشّعْبُ يوماً أمثالَ هؤلاء لمن يلينا من أهل أمتنا. وإلا فإننا سائرون إلى ضعف أبداً ما دُمنا نرىَ الطالب لا يطيقُ أن يستوعبَ من شعر البحتري إلا قصيدة واحدة ومن المتنبي مثلها، ثم يكون ذلك آخر عهده وأوله بدراسة الآثار الأدبية العربية

إن الحفظ الأول للآثار الأدبية الرائعة قديمها وحديثها هو الذي يخرج الأديب والكاتب والشاعر. أنظر إلى المنفلوطي والرافعي وشوقي وحافظ والبارودي والزيات وطه حسين،

كل هؤلاء لم يكونوا كذلك إلاّ لأنهم نشأوا وقد حفظوا القرآن أطفالاً فحملهم ذلك على متابعة حفظ الآثار الأدبية الجليلة، ثم حفز هذا المحفوظ ما انطووا عليه من الطبيعة الأدبية التي استقرَّت في أنفسهم وأعصابهم، فلما استحكموا استحكمت لهم طريقتهم في الأدب والشعر والإنشاء، ولولا ذلك لما استطاعوا أن يكونوا اليوم إلا كما نرى من

سائر من تخرجهم دور التعليم بالآلاف في كل عام ينقضي من أعوام الدراسة
مشروع
كتب الأستاذ (محمد خلف الله) كلمة جليلة الغرض تحت عنوان (مشروع) في المجلة
الثقافة العد (68) الماضي، وخلاصة هذا المشروع: أن تؤلف جماعة من الباحثين
يمثلون اللغة والأدب وعلم النفس والاجتماع يكون من أغراضها أن تدرس النواحي
المختلفة للاجتماع المصري الحاضر وما يكون فيه من الظواهر المختلفة التي يخشى
أن تدرج وتبيد ولم نستفد من الحرص عليها إن كانت نافعة، أو الاستعانة بها في درء
الأمراض الاجتماعية عن الشعب فيما يستقبل إن كانت من السوء بحيث تكون كذلك
وقد عَدّ الأستاذ خلف الله بعض الأمثلة فيما يجب أن تتوجه إلى دراسته هذه الجماعة
كمخارج الحروف وأصواتها في كل الأقاليم المصرية، ورد ذلك إلى أصوله الأولى التي
انحدر عنها من تاريخ القبائل، وكذلك اللهجات الكثيرة في الوجه البحري والقبلي مما
هو - ولاشك - نتيجة لإقامة بعض العرب في هذه الجهات، ثم دراسة الأدب الشعبي من
قصيد وموال ومثل وفكاهة وسمر، ودراسة الخلق المصري؛ وعيوبه وفضائله، وما
يتعاوره من الغلو والضعف , ويكون ذلك كله إعداداً لمعرفة حقيقة هذا الشعب معرفة
صحيحة، ثم نشر كل ذلك على التتابع في رسائل قد استوفت شروط المنهج العلمي
للدراسة الاجتماعية واللسانية والفنية
وكلما يرحب بهذا المشروع الذي نستطيع معه أن نخدم الشعب خدمة عظيمة
باستظهار ما يستسر من قوته، وما يستعلن من ضعفه، فيكون ذلك أحرى بأن يهدينا
إلى إصابة الدواء الذي يحسم مادة الداء التي تلتهم أسباب رقيه سبباً بعد سبب. وهذه
الدراسات المفصلة للشعوب على طبيعتها التي تتعامل بها في السوق والحقل
والمصنع والمدرسة والبيت، وهي النجاة لنا من شر كبير قد أوقعنا فيه الاضطراب
وقلة الخبرة. ولو علمت أن أكثر
الأمم المستعمرة تلجأ إلى هذا الطريق نفسه في دراسة الشعب الذي تريد أن تستبد
به، ليتسنى لها أن تعمل على إضعافه وقتله بتقوية ضعفه وإضعاف قوته دون أن يشعر
أو يتألم بل يحسب أنه يسير إلى غايته على تدريج طبيعي - لو علمت ذلك علمت ما
نستطيع أن نستفيده من نتائج هذا المشروع الجيد إذا أحكم تنفيذه، ولم تَغْلبْ على
اختيار رجاله محاباة، ولم تتحكم في هؤلاء لرجال شهوةٌ أو هوىً
محمود محمد شاكر
رسالة الفن
تأملات في الفن
العشرة الطيبة
للأستاذ عزيز أحمد فهمي
منذ زمن طويل والكتاب يدعون أستوديو مصر إلى إخراج العشرة الطيبة للسينما، وقد
كان رجال الأستوديو يترددون دائماً حيال هذه الأوبريت الرائعة ويشفقون من إخراجها
بسبب واحد وهو أن قصة العشرة الطيبة تصور الحياة المصرية في حقبة من الزمن لا
تشرف المصريين، وهي تلك الحقبة التي حكمها فيها الأتراك والمماليك معاً، والتي كان
هؤلاء الحكام يعبثون فيها بحقوق الناس عبثاً شديداً سخيفاً ضعف إزاءه المصريون،
واستلانوا له وجعلوا شعارهم معه قولهم: (من تزوج أمي قلت له يا عمي) وقولهم:
(إن كانت لك عند الكلب حاجة فقل له يا سيدي) . . .
ولقد حاولت أكثر من مرة وفي أكثر من صحيفة أن أنزع من أذهان رجال أستوديو
مصر هذه الكراهية الخاطئة التي يصبونها على العشرة الطيبة لهذا السبب وحده،
ولعلي ضربت لهم يوماً مثلاً برواية هنري الثامن التي مثلها شارلس لاوتون لإحدى
الشركات الإنجليزية، والتي لم يتورع ذلك الممثل الإنجليزي الكبير حين مثلها أن يصور
هنري الثامن الملك الإنجليزي بصورة هي أقرب الصور لما كانت عليه حقيقة هذا
الملك، ولم تكن حقيقة هذا الملك مفخرة من مفاخر بريطانيا العظمى، ولا مثلاً طيباً
لحكمها وملوكها، وإنما كانت حياته كما روى التاريخ وكما أظهرتها السينما حياة كلها
صيد وزواج، وأكل، وطلاق، وفتك بالنساء وبالحيوان وبالتقاليد، واستخفاف بشريعة
النصارى التي لا تبيح انفصال الزوج عن زوجه إلا للسبب الشنيع الواحد الذي لم يحاول
هنري الثامن مطلقاً أن يجعله وسيلة إلى التخلص من نسائه لأنه كان يرى نفسه فوق

. . .التحقيق والتدقيق واستقصاء الأسباب وإبداء الأعذار
ومع هذه البشاعة كلها، ومع هذه العتمة والظلمة والسواد فإن الإنجليز لم يكرهوا شارلس لاوتون، لأنه أخرج هنري الثامن على حقيقته، بل إنهم على العكس من ذلك أحبوه
وقدروه، وبدءوا منذ أخرج هذا الفلم يعتبرونه فنانهم الأول في هذا العصر، وهنري الثامن ذات حقيقية فعل بها شارلس لاوتون هذا كله تحت أعين الإنجليز وأسماعهم، بل إنه استعان على فعله هذا بأموالهم وبكفايات الذين ساعدوه من رجالهم. أما (العشرة الطيبة)، فليس فيها ذات حقيقية واحدة ممن يعتز بهم التاريخ المصري، أو ممن ينتسبون إليه ويخشى إن هو أظهرهم للناس أن يلصقوا به نقائصهم وعيوبهم. . .
وإنما هي قصة خيالية تصور كاتبها المرحوم محمد تيمور أن حوادثها جرت في مصر، وقد كان يستطيع أن يتصورها جرت في الهند، كما كان يستطيع أن يتصورها جرت في كوكب آخر غير هذه الأرض، لولا أنه آثر أن تكون حين تنسب إلى مصر أقرب إلى نفوس المصريين، واشد إغراء لهم بالإقبال عليها والاستمتاع بها. وقد كانت (العشرة الطيبة) فعلاً من أحجار الأساس الأولى التي وضعت في بناء المسرح المصري
وقد ترامى إلينا أن أستوديو مصر بدأ يفكر في هذه الأيام في إخراج العشرة الطيبة، وأن رجاله بدءوا يتخلون عن تلك الفكرة العجيبة التي ظلوا يتشبثون بها زمناً طويلاً والتي حالت بينهم وبين إخراج (العشرة الطيبة) هذا الزمن الطويل، ولا ريب أن أستوديو مصر إذا نفذ هذه الفكرة فإنه سيفتح بها فتحاً جديداً في تاريخ أوبريت السينما في مصر، ففي هذه الرواية مجموعة من الألحان يشهد الموسيقيون المصريون جميعاً قبل النقاد وقبل الجمهور بأنها خلاصة الموسيقى التمثيلية المصرية، وأول من شهد بهذا هو المرحوم الشيخ سيد درويش الذي وضع موسيقى هذه الأوبريت. فقد سئل رحمه الله يوماً بعد أن أنشأ لنفسه فرقة خاصة أخرج فيها روايتي (البروكة) و (شهرزاد) عن أحب آثاره الفنية إليه فقال إنها العشرة الطيبة، وكان السائل يحسبه سيقول عن إحدى هاتين الروايتين اللتين أعدهما لنفسه ولفرقته واللتين لن تأخذهما منه فرقة من الفرق
وإنني لا أشك في أن سيد درويش رحمه الله كان على حق في تفضيله للعشرة الطيبة على غيرها مما لحن، فهي أصفى وأنقى من كل رواياته، ونفسه منطلقة في ألحانها كل الانطلاق لا يقيدها قيد ولا يكتفها شرط
ولعل القراء يعرفون أن موسيقى سيد درويش كانت تصيبها أحياناً آفات لم يجد سيد درويش نفسه بداً من أن يسمح لها بأن تصيب فنه، بل إنه هو الذي كان يبلو فنه بهذه الآفات، لأن احترافه التلحين للفرق المختلفة هو الذي كان يجبره عليه. هذه الآفات تظهر بموازنة ألحان سيد درويش للفرق المختلفة بعضها ببعض. فألحان سيد درويش لمنيرة المهدية، غير ألحانه للريحاني، غير ألحانه (للعكاكشة. . .) وذلك يرجع إلى أن سيد دروش كان يتقمص أبطال الغناء والتمثيل حين يلحن لهم، وكان يتدفق في تلحينه لهم بروح هي أقرب إلى أرواحهم منها إلى روحه هو، وبأسلوب هو أقرب إلى أساليبهم منه إلى أسلوبه هو، وليس معنى هذا أن سيد درويش كان يفقد نفسه في هذه الألحان التي كان يعطيها غيره، وإنما معناه أنه كان يتنكر بصور مختلفة في أثناء تلحينه. . .
ومن هذه الصور - صور المغنين والممثلين - ما هو خفيف جميل رائع، ومنها ما هو ثقيل سمج أقتم الظل. . . ومع الثقيل السمج الأقتم الظل لم يكن سيد درويش يستطيع أن يسبل عليه من الحسن إلا بمقدار ما تستطيع شركة السكر أن تبعث الحلاوة في ملاحة رشيد. . .
وكان سيد درويش رحمه الله يعارك الثقلاء من أبطاله، ويسبهم ويلعنهم، وكان يثور على بعضهم ويضربهم لكي يطاوعوه ويسايروه، ويحملوا أرواحهم على التأثر بروحه، وأذواقهم على التبسط في الغناء والتمثيل، وترك الشعوذة والتطريب، ولكنه لم يكن يجني من هذا كله إلا أن يحترق دمه وأن تتهدم أعصابه، ويظل الثقلاء من أصحاب الفرق وكبار المغنين. . . على ما هم عليه من فساد الذوق و (العصلجة)، فكان المسكين لا يرى بداً في بعض الأحيان من أن يعطيهم موسيقى لهم هم، وتروق الناس أيضاً، ولكنه هو كان أول من يعرف أن عنده خير منها وأروع. . .
أما حين وضع سيد درويش ألحان (العشرة الطيبة) فقد كان حراً متحرراً من كل قيد،

ومن كل اعتبار خارج على إرادته
ذلك أن نجيب الريحاني كان له في ذلك الوقت فرقتان، فرقة كان يلعب بها (كشكشياته) الرشيقة وفرقة أخرى أسلمها العزيز عيد يخرج بها فناً دسماً. وكانت رواية تيمور هذه أول ما وقع عليه اختيار هذه الفرقة، وكان بديع خيري إذ ذاك لا يزال يشق طريقه إلى مجده الغني الزاهر فلما عهد إليه بوضع أزجال هذه الرواية بثها روحه كلها لم يقتصد ولم يدخر وسعاً في إجادتها والتأنق فيها، فلما تسلم سيد درويش هذه الأزجال ليلحنها حراً أعطاها هو أيضاً كل نفسه، لم يقتصد كذلك ولم يدخر وسعاً في إجادتها والتأنق فيها. ولم يزل الريحاني
ينفق على (بورفات) هذه الرواية الأشهر الطويلة حتى اكتمل ما أنفقه ألف جنيه، فضج وراح يزور هذه البروفات ليرى أي شئ فيها يستدعي هذا التريث كله، وهذه النفقات كلها. . . ولم تشعر به الفرقة وهو يتجسس عليها متسمعاً لأحد ألحانها، ولكنها شعرت به عندما فرغت من ذلك اللحن وهو يقول موجهاً الحديث إلى عزيز عيد: (لقد كان في عزمي أن أضع اليوم حداً لهذا الإسراف، ولكني بعد ما سمعت هذا اللحن أراني مضطراً إلى أن أترككم وشأنكم فليس هذا الذي تصنعونه بالشيء العادي)
وقد كان نجيب محقا، فالعشرة الطيبة من غير شك معجزة
وهنا قد يسألني سائل: لماذا كانت العشرة الطيبة (درويشية) أصفى من شهرزاد والمبروكة، مع أن هاتين الروايتين الأخيرتين قد وضعهما سيد درويش لنفسه ولفرقته لم يتقيد فيهما هما أيضاً بقيد، ولم يراع فيهما ذوق أحد غير ذوقه الخاص؟
وإجابة عن هذا السؤال نقول: إن سيد درويش لحن العشرة الطيبة أوائل حياته الفنية أو في أواسطها، بينما لم يلحن شهرزاد والبروكة إلا قبيل وفاته. وقد حدث أن تأثر سيد درويش بعد العشرة الطيبة بالأساليب الغربية في الإلقاء المسرحي، وقد ظهر هذا التأثر واضحاً جلياً في ألحان رواية البروكة الغربية الحوادث والأبطال، كما ظهر هذا التأثر باهتاً غير جلي في ألحان شهرزاد. وليس هذا التأثر بالروح الغربية مما يعيب هاتين الروايتين فلا يزال تقليد الغربيين في الفن الشرقي هو مقياس الفلاح، ولكنني أنا الذي أكره هذا التأثر، كما أحب أن أجد عند كل فنان مصري روحاً مصرية خالصة، هي من غير شك مهما هانت وتواضعت، لن تكون إلا أصدق من روحه إذا قلد بها الغربيين وأساليبهم.
ولكن سيد درويش كان معذوراً في التفاتاته للموسيقى الغربية وآلاتها وأدواتها وطرائقها وأساليبها، وتوزيع الأصوات فيها، فقد شاءت الظروف أن يكون هو الموسيقى المصري الذي ألقت عليه النهضة المصرية أعباء الفن ليثب به من حالة الركود والإنشاد التي سبقته إلى حالة الحياة والصخب والتدفق والتفرع والشمول التي كانت على أيام سيد، والتي يريد من جاءوا بعد سيد أن تكون على أيامهم.
فلو أن سيد درويش عاش أكثر مما عاش لكان قد استتب له تقرير ما يصلح أخذه من الأساليب الغربية في الموسيقى واصطناعه في موسيقانا، ولكان قد أدرك أنه لا يقل شيئاً
عن وجنر وفردي وغير هذين من أعلام الموسيقى الذين كان يتوق دائماً إلى أن يكون في صفهم، ولم يكن إلا في صفهم بمواهبه وصفاء روحه، وإن كان قد أعوزه ما لم يعوزهم من التثقيف الفني الذي لا يعدو أن يكون حساب الموسيقى وتطريزها لا الموسيقى نفسها. . .
ولنعد الآن إلى أستوديو مصر لنسأله: هل صحيح ما نشرته بعض المجلات من خبر اعتزامه إخراج العشرة الطيبة. . .
أما إذا كان هذا الخبر صحيحاً فإنه خبر يغتبط له الشرق كله لا مصر وحدها. وإن لنا صحة هذا الخبر رجاء نتجه به إلى أستوديو مصر ورجاله وهي أن يشترك عزيز عيد ونجيب الريحاني معاً في الفلم على أي نحو وعلى أي وجه، فلهما من خبرتهما وذكرياتهما - على الأقل - ما نطمئن به على أن تعود الحياة إلى العشرة الطيبة على النحو الذي أراداه لها مع صاحبها. . .
والله الموفق.
عزيز أحمد فهمي
-

القصص
الكتابة على الأرض
(مقتبسة عن أسطورة قديمة)
للكاتبة الأسوجية سلمى لاجيرلوف
بقلم الأستاذ صديق شيبوب
كان قد صدر الحكم على المرأة الزانية، وكانت تعرف أنها سوف تعدم. . . إن الذين ألقوا القبض عليها، متلبسة بجريمتها، قادوها إلى الهيكل أمام الكهنة ورجال الشريعة، فأصدروا حكمهم عليها وفاقاً لشريعة موسى التي تقضي بإعدام الزانية رجماً بالحجارة. . .
كانت هذه الزانية هزيلة الجسم، وكانت ثيابها ممزقة وجهها دامياً من أثر الضرب الذي انهال عليها. . . وكانت لفرط ذعرها شبه ميتة، وقد ظلت ساكنة صامتة أمام قضائها. . . فلم تحاول أن تدافع عن نفسها، ولم تقاوم قبل ذلك الرجال الذين ألقوا القبض عليها وقادوها إلى الهيكل، أولئك الذين يدفعون بها الآن إلى المكان المعد لتنفيذ الحكم الصادر عليها. . .
على أنها بالرغم من مظاهر الضنك البادية عليها، كانت روحها مليئة بغضاً، ودمها يفور في عروقها غضباً. . . وكان واضحاً جلياً أنها لا تشعر بوخز ضميرها الهزيمة. . . فقد كان زوجها شديد القسوة في معاملتها، وكان يضربها ضرباً مبرحاً، ويحتم عليها أن تشتغل وتكد من غير أن يوجه إليها كلمة مؤاساة طيبة. . . لذلك لم تكن تعتقد أنها مدينة له بالأمانة والوفاء. . . وكانت نساء الحي يعرفن ما تقاسيه ويعجبن لصبرها على تحمل المضض، وطاعتها لأوامر زوجها، وأنها لا تقابل الشر بالشر. . .
وشعرت فجأة بالمصير الذي ينتظرها. . . فصرخت صرخة مدوية، وتراجعت إلى الوراء. . .
سمعت منذ نعومة أظفارها أحاديث كان الناس يتناقلونها همسا فيقولون: إنه يوجد في هيكل أورشليم مكان مخيف لا يقصده الناس إلا مرغمين؛ وكان هذا الموضع ساحة ضيقة في شكل مربع ذات أرض سوداء تحيط بها جدران عالية مشيدة بحجارة ضخمة. . . لم يكن في تلك الساحة مذبح، أو أقفاص حمام، أو مكاتب صيارف. . . لم يكن فيها غير كومة
كبيرة من أحجار عادية كالتي توجد في الحقول، حجارة رمادية اللون بحجم رأس الإنسان. . . ولم تكن المرأة قد رأت هذا المكان قبل ذلك، ولكها عندما نظرت من فجوة باب مرتفع، ورأت الحجارة الرمادية اللون، فهمت لساعتها أي مكان يحتويها. . .
كانت تشعر برعدة وخوف كلما سمعت الناس تحدثون عن الساحة الخالية إلا من كومة من الحجارة حيث تكفر النساء الزانيات عن جرمهن وفقاً لشريعة موسى، وقد ظهر لها هذا المكان أشد شؤماً من جهنم، وهاهي ذي تقاد اليوم إليه
ماذا ينفعها الصراخ والمقاومة؟ لقد دفعها الرجال بعنف فدخلت الباب وبعد ذلك لم يهتموا بأن تظل واقفة، فتركوها ترتمي على الأرض فجرت نفسها جرا إلى أحد أركان الساحة حيث قبعت في مكانها مذعورة مشدوهة، وعيناها لا تفارقان كومة الحجارة لأنها مصدر روعها وخوفها
على أنه بالرغم من وجلها ظل البغض والغضب يضطرمان في نفسها ويحولان دون شعورها بحقيقة جرمها. ولو أنها استطاعت الكلام لما حاولت ان تنكر فعلتها أو تستدر عطف أحد عليها. كلا، بل لصاحت في وجه متهميها بأنهم أخطئوا نحوها أكثر منها نحوهم، وأن إله إسرائيل سوف يعاقبهم إذا انتزعوا منها الحياة التي تنبض فيها ولكنها في تلك الساعة لم تكن تستطيع التفكير إلا في كومة الحجارة القائمة أمامها، لذلك لم تدر من أين جاء الرجل الذي وقف فجأة بينها وبين تلك الكومة المشؤومة، أكان في موضعه قبل وصولها أم هو من أولئك الفضوليين الذين تبعوها إلى فناء الهيكل؟
لماذا يقف بينها وبين كومة الحجارة؟ ماذا يريد؟ أتراه الذي يبدأ بتنفيذ الحكم؟ كان الرجل مديد القامة يرتدي ثوباً أسود، ويتدثر بدثار أسود. وكان شعره ينحدر على كتفيه مضفراً غدائر متساوية، وكان وجهه جميلاً، ولكنه كان يشيع حول عينيه وفمه تجاعيد خدّدها الألم، وكانت تفكر في نفسها: (إني أعرف حق المعرفة أني لم أسيء

إليك من قبل يا هذا، فلماذا تحكم على وتنالني بقضائك؟)
لم يخطر ببالها لحظة واحدة أن حضوره لهذا المكان قد يكون لإعانتها والأخذ بيدها. على أنها أحست بتغير فجائي عند ما رأته. إن وجود هذا الرجل الغريب قد خفف الضيق الذي كان يلازم صدرها وحسن تنفسها الهواء، فلم يعد هذا التنفس يشبه حشرجة الموت
أما الرجال الآخرون، أما أبوها وزوجها وأخوها وجيرانها الذين قادوها إلى هذا المكان والذين كانوا يتأهبون لقتلها فقد تمهلوا إلى حين دون هجومهم الوحشي عليها، وإذا ببعض الرجال من الذين قضوا النهار في الهيكل يصلون ويجادلون في كتب الدين قد دخلوا فناء الهيكل المظلم وأمر أحدهم بوقف تنفيذ الحكم.
فسمعت الزانية همساً من ورائها، وخيل لها أنها تسمع من يقول: (سوف يمتحنون هذا الرجل، إنه النبي الناصري، لنغنم هذه الفرصة السانحة ونرَهل يجرؤ على معارضة شريعة موسى!
وعندئذ تقدم من الغريب ذي الثياب السوداء اثنان من رجال الشريعة، وكانا شيخين ذوى لحية فضية، يتدثر كل واحد منهم بدثار صنعت حواشيه من الفرو، فانحنيا أمامه، وقال له أحدهما: (يا معلم، لقد قبض على هذه المرأة متلبسة بجريمة الزنا، وقد قضت شريعة موسى على أمثالها بالرجم بالحجارة، أما أنت فماذا تقول؟)
رفع الغريب الذي لقبوه بالمعلم أجفانه الثقيلة ونظر إلى محدثيه ثم أجال نظره في أب المحكوم عليها وزوجها وأخيها، والرجال الذين رافقوهم إلى الهيكل، ورجال الشريعة والفريسيين وكل خدمة الهيكل
وبعد أن طاف بنظره محدقاً في وجه كل واحد منهم انحنى على الأرض وأخذ يكتب بإصبعه عليها، كأنه لم يجد من المناسب أن يرد عليهم. على أنه عند إلحاح الشيخين اللذين تقدما إليه نهض وقال لهم:
(من لم يرتكب منكم خطيئة فليرمها بأول حجر)
فرد عليه الرجال بضحكة ساخرة، ماذا يريد من قوله هذا؟ إذا كان الأمر كذلك فلن يلقى مجرم عقابه الحق
تصاعدت من صدر المرأة أنه ضعيفة، وكانت قبل ذلك قد أحست بالرغم منها بالأمل في أن هذا الغريب سيقول كلمة تنقذها من الموت. أما الآن فقد فهمت أن كل أمل ضائع مفقود، فأحنت رأسها وقبعت في مكانها مطوية الجسم في انتظار سيل الحجارة الذي سيهوي علينا، بينما كان الرجال الذين سينفذون الحكم فيها قد أخذوا ينزعون عنهم ما يتدثرون به ويشمرون عن سواعدهم. أما الغريب فظل في مكانه وانحنى من جديد ليكتب شيئاً على
الأرض السوداء
كان أول من تقدم من كومة الحجارة أبو المرأة الزانية، لأنه رب الأسرة وأول من أصيب بعار جريمتها فمن حقه أن يبدأ. فانحنى ليلتقط حجراً، وفي هذه اللحظة وقع نظره على الكتابة المخطوطة على الأرض وقرأ فيها مكتوباً، لا بالحروف بل بطريقة واضحة مفهومة، قصة إثم هائل ارتكبه منذ سنوات خلت، وهو لا يزال إلى اليوم يحرص على إخفائه فتراجع الأب مذعوراً مرتاعاً عند رؤيته ذلك وجرى نحو الباب هارباً من غير أن يعني بأخذ دثاره الذي كان قد انتزعه من قبل
فأسرع ابنه ليقوم مقام والده ويغفر سلوكه الشائن، وقد ظن أن سبب هذا الهرب ضعف الشيخ وتخاذله أمام ابنته، ولكنه عندما انحنى بدوره ليلتقط حجراً ويرمي به أخته التي جلبت عليه العار وقع نظره على ما كتب على الأرض فرأى مخطوطاً، لا بحروف بل بطريقة واضحة مفهومة، قصة سرقة دنسة ارتكبها في نزق شبابه، وهي لو عرفت كان من جرائها فقدانه حقوقه كمواطن إسرائيلي
فذعر وحاول أن يمحو برجليه ما رآه مكتوباً على الأرض، ولكن الكتابة ظلت جلية تشع بلمعان لا سبيل إلى إطفائه. وعندئذ فر ممعناً في هربه مقصياً في عنف كل من حاول أن يسد عليه طريقه
تحركت المرأة الزانية من الركن الذي قبعت فيه، وكان شعرها ينحدر على جبينها فأزاحته عنه وأخذت تسوي ثيابها المهلهلة
وعندئذ تقدم زوجها، وكان قد غاظه ما رآه من سلوك أبيها وأخيها الشائن، فتأهب

ليلتقط حجراً بينما كان كل جسمه يصرخ بالثأر للشرف المهان: لتقتل هذه المرأة التي ألبسته العار. يا لها من لذة يشعر بها في ثأره هذا، ولكنه بينما كان ينحني نحو الأرض خيل إليه أن بعض كلمات أو إشارات سطرت عليها أخذت تلتهب فجأة، وكانت هذه الكلمات تزيح الستار عن مؤامرة دبرت ضد الحاكم الروماني، وكان الرجل مشتركاً فيها، وهي لو فضح أمرها لكان الشنق العقاب الذي ينتظره

فانتصب واقفاً، وأوحت له خبرته بالحياة أن يتظاهر بالشفقة فغمغم كلمات معناها أنه لا يريد أن يقيم نفسه حكماً. ثم غادر المكان

ورأى رجلا الشريعة هذا التخاذل فاندهشا وخافا. ثم تقدما من الكومة لا ليلتقطا حجراً بل لينظرا ما خطه المعلم على الأرض بعد أن رأيا ما كان لهذه الكتابة من أثر عظيم فرأى أحدهما سطراً أنه في أحد الأيام اغتصب جزءاً من حقل جاره إذ نقل الحد الفاصل بينهما، ورأى الثاني أنه استولى على جزء كبير من أموال قاصر كان وصياً عليها

فانحنى الرجلان عندئذ أمام المعلم متظاهرين بالشفقة والحنان وانصرفا بوقار

وبعد أن خرج الرجلان اللذان كانا بين قضائها، انتصبت الزانية على ركبتها لأن الشجاعة أخذت تعاودها. إنها لن تفهم جليّاً ما جرى، ولكنها أحست بأنها ستنجو، أو أنها قد نجت بالفعل. فشعرت بلذة الحياة تفيض على نفسها غبطة وسعادة، وتمشت في جسمها رعشة عجيبة فأحست بميل إلى الرقص

ولكن الخطر لم يكن قد زال تما لأن بعض الحاضرين تهافتوا لينفذوا فيها الحكم. على أنهم لم يلبثوا أن تراجعوا الواحد تلو الآخر بعد أن ألقوا نظرة الأرض، وكانوا، بدلاً من أن يلتقطوا الحجارة، يولون الأدبار وقد علت وجوههم صفرة الوجل وسرت في أجسامهم رعدته، ثم يمعنون في الهرب، وقد حولوا أنظارهم وخفضوا رؤوسهم وعندما ما لم يبق في فناء الهيكل أحد انتصبت الزانية واقفة قد استعادت عيناها لمعانهما كما استردت وجنتاها الشاحبتان لونهما الوردي. . . وظلت حيناً جامدة لا تحرك ساكناً. وكان فرحها بالحياة يختلط بلذة رؤيتها أعداءها ينصرفون مذعورين ذليلين. فانتشت بحلاوة الانتقام وأحست برغبة ملحه في الرقص في هذا المكان المرذول وأمام الحجارة التي كانت ستنقض عليها فتسحقها. فاستقامت في وقفة المستعدة للرقص، وكأنما فتنها الموقف فطفقت تضحك

ونظر إليها المعلم المجهول سائلاً: (أين قضاتك؟ ألم يحكم عليك أحد؟)

فأجابته: (لم يحكم أحد يا سيد)

وبينما كانت ترد عليه كانت تقول في نفسها إنها لا تستطيع كبح جماح سرورها الذي كان يدفع بها إلى الرقص

ولكن المعلم ظل ينظر إليها

كان يرى تلك الغبطة الحيوانية الجامحة التي استولت عليها، ويلاحظ أنها لا تشعر بأي ندم، وأن نفسها مليئة بالبغض عطشى إلى الانتقام وإلى إشباع الشهوات الجسدية على أنها فهمت نه كان يرى ما بنفسها ففارقتها رغبتها في الرقص وأخذت تحس بالخوف من الرجل الذي أنقذ حياتها. كانت تراه يشع بنور سماوي فشعرت برهبة شديدة تستولي عليها. هل جاء دور هذا الرجل لمحاكمتها. سوف يكون حكمة أشد قسوة من الحكم الأول لأن من حقه أن يستنكف الخطيئة التي ارتكبها

وبينما كانت تتنازع نفسها عوامل الخوف والرهبة سمعته يقول لها:

(وأنا أيضاً لا أدينك. اذهبي بسلام ولا تأثمي بعد اليوم)

عندما انتهت إلى نفس المرأة الخاطئة هذه الكلمات الحاملة لمعاني الغفران والمحبة تمت المعجزة في قلبها. ذلك أن شرارة صغيرة هي قبس من الضياء السرمدي اشتعلت فأوقدت شعلة مضطرمة أثارت ظلام القلق والنضال اللذين كابدتهما أياماً وليالي عديدة. وكانت تود في بعض الأحيان لو تنطفئ هذه الشعلة لأنها كانت تجد أن روحها ليست جديرة بزانية مثلها. ولكن الشعلة لم تنطفئ بل خطت في قلبها كتابة لا تمحى عن بشاعة الخطيئة وجمال العدل. وقد ظلت متقدة حتى امتلأت بقدسيتها نفس تلك المرأة الضالة.

صديق شيبوب

. . .الدَّين
عن (موباسان)
بقلم الأستاذ مراد الكرداني
خرجت لتبحث عن القوت فرجعت ومعها جائع!
زحف الظلام فلفَّ باريس كلها. وغشيتها موجة من البرد القارس. وجثمت على صدر المدينة اللاهية الضاحكة غاشية من هم ثقيل حبست الناس إلى دورهم، وحلَّقتهم حول مدافئهم. وقد خَلت من رُوادها المسالك والطرقات. وهجعت مدينة النور - على كُرْهها - تحت أطواء ليل بارد مظلم طويل
ولكن (فأنى) التي طوت نهارها طاوية لم تكن لتأبه لذلك البرد القاسي، فإن الجوع قد لوى أمعاءها وخمصَ بطنها، وأشاع في نفسها الخوف من أن تتضور في غدها كما تضورت في يومها؛ فخرجت - ككل أمسية - لترابط على رأس طريق تنتظر فيه من يمنحها الخبز الرخيص لقاءَ أن تهبه جسدها ساعة أو بعض ساعة
وفي تلك الليلة القرة كان الرجال يمرون بها مراً لا يحفلون بها، لأنها لم تكن تحسن دعوتهم، ولأن لذع البرد لن يدع في نفوسهم سوى أن يصلوا إلى مكان دفئ كنين، فلم تُلفتهم تلك الهسهسة المرتجفة التي كانت تقع من أذهانهم موقع الظِّنَّة والعجب من هذه الفتاة التي تهزأ بهم وتسخر منهم في هذا الليل المثلوج!
كانت شابة جميلة تقف على قمة العشرين، تفور أنوثتها في كيانها فتنضح حسناً في وجهها وامتلاء في جسدها، وشهوة تتألق في عينها الشرهة ونظرتها الآثمة. . .
تلك (فاني) التي سطع نجمها فبهر باريس من أقصاها، إلى أقصاها، وشغلها عن كل غانية سواها، تدور الليلة يهرأها البرد ويلويها الجوع فلا تجد من يشبعها أو يأويها. حتى إذا خَدرِت قدماها من طول ما وقفت، وسرت في قديمها وفخذيها رطوبة الأرض المصقوعة همت راجعة وهي تغمغم قائلة:
- لم يعد ثمت أمل فلأرجع إلى بيتي
وكأنما شق عليها أن تنتهي غمرتها هذه النهاية المحزنة المؤلمة، لأنها حين دارت بجسمها لتأخذ طريقها دارت عينها تفحص الظلام حولها عله يتفتق عن رجل. . . فلمحت شبحاً
يسيراً مضطرباً متثاقلاً يتلفف في معطف بال مهلهل. . . كان بين الخطوة والخطوة يتأنى ويتمهل كأنه يستوضح الطريق أو يدبر المصير
وحين تبينته ظنته طلبتها التي إليها تهفو فرصدت سبيله، وطفقت تهمس له في صوت داعر مرتعش لفته حين ملأ سمعه. . . فاستدار لها وقصدها متوجساً منها مسرعة إليه!!
لم يكن مخموراً كما حسبت، ولا كانت خاطئة كما ظن. . . إنما كان جائعاً . . . شريداً. . . مهزولاً، ذرع المدينة الغارقة في الثلج يومين كاملين حتى عصبه الجوع وأزحفه السير والسرى
قالت له في حنو وإشفاق، وهي تسنده في لفة ذراعها وتقبله في نهزة الظلمة والسبيل خالية:
- مسكين. . . مسكين! لا تحزن. . . تعال معي فهي حجرة على أي حال وفيها دفء وقرار. . .
ووصلاً معاً. . . وحين دلفا إلى الحجرة، واستشعر دفئها صاح في جذل وسرور . . . وهو يلقي بنفسه إلى الأرض إلقاءً:
- ما أهنأني بهذا المكان. . . إنه ولا شك أفضل من الشوارع. نعم إنه أفضل من الشوارع لقد أمضيت دهراً في الشوارع وفتحت (فاني) خزانتها وَعَيْثت فيها، وكانت تحوي كل ما تملك من ملابس وطعام وشراب! إن كانت الكسر التوافه التي ضربت فيها العفونة تسمى طعاماً. . . أو إن كان القليل من النبيذ الرخيص يصلح أن يكون شراباً. . .
قدمت له كل ما عندها، بعد أن عجفت نفسها عنه، فشبع وروى جهد ما وسعها أن تشبعه وترويه. . . وحين أهجأه الطعام شرع يقص عليها قصصه وقد طامنت جوعها واطمأنا معاً. . . قال: (قضى جدي منذ زمن قصير ولم يكن لي سواء وكان مصوراً مغموراً. . . وقبيل موته أوصى بي أحد معارفه هنا، وحملني إليه رسالة مكتوبة ناشده

فيها أن يعني بأمري، ويعلمني حرفة التصوير وكنت احمل - حين قدمت باريس - نيِّفاً وثلاثين فرنكاً كانت كل ما أملك من متاع الدنيا. . .
طفقت أبحث عن الرجل فما وقعت له على أثر. إذ كان نقل مسكنه إلى حيث لا يدري أحد من جيرته فلبثت ستة أشهر أنفق مما معي إنفاق الحريص الشحيح حتى نفذت ثروتي عن آخرها منذ سبع ليال! فهمت على وجهي متسولاً في الطرقات، وفي تلك الأيام التي يجمد فيها الدم وتجنُّ فيها الريح. . . آه يا سيدتي. . . عندما لقيتك لم أكن قد طمعت شيئاً منذ ثمان وأربعين ساعة!)
وكان التعب والدفء قد فعلا فيه فعلهما فلم يقوَ أن ينهض ليخلع عنه أخلاقه. فنهضت تساعده وتنضوها عنه في رقة وحرص. . . ثم احتوته في صدرها في عطف وحنو، وأخذت تقبله وتدلّله وقد شاعت فيها الرحمة وأنساها بؤسه بؤسها. ثم تم تركه لتخلع ملابسها هي أيضاً. . . ثم صعدا إلى فراشها وكنَّتْه في حضنها كطفل عليل، وناما - ملء عيونهما - إلى ضحوة النهار
واستدانت ثمن غذاء رخيص في مطعم حقير، وحين جاء الليل تأدَّتْهُ أن تغيب . . . . . عنه بعض الوقت. . . وحين عادت أفرغت بين يديه أثني عشر فرنكاً قائلة إنها كسبتها وإنها أحسن حظاً من الليالي السالفات، وإنها تدين له بهذا الحظ الوفير، ثم قبلته وتركته كَرَّة أخرى إذ كانا - لا يزالان - أول الليل. . . . . وأوغل الليل. . . ثم انتصف. . . ثم تهوَّر ولم تعد (فاني) فقلق عليها. ولكن لم تداخلْه في خِفْيتها ريبة. . . وأسفر الصبح ولم تعد أيضاً. . . ولما علا النهار غادر الحجرة. إذ كان عليه أن يعول نفسه ويعودَ ثانياً فيطرق شوارع باريس العديمة القلب، وإن كانت ستغنيه تلك الفرنكات القليلة التي تركتها له - تلك التي لم يعرف اسمها - عن التشرد بضعة أيام!
أما هي فكان من تَعَسِها أن احتجزها رجل الشرطة، لأنها كانت تسير عبْر شارع محظور على مثلها أن تسلكه أو تظهر فيه. . . ومن ثَمَّ أعدوا لها - جزاءَ ما اجترأت - مكاناً في سجن البغايا في (سانت لازار)
ودارت عجلة الزمان خمس عشرة دورة، تحولت الحال فيها غير الحال، وتبدَّل فيها كل شئ. . . ذاقت خلالها (فاني) من صابِ الحياة وحلوها ويسرها وعسرها ما تذوقه كل طريدة مثلها. . . وهبت نفسها للائم والخطيئة. . . فعلا التيار بها وهبط ومد جزر. حتى استقر المطاف بها أخيراً فإذا هي - بعد جهد السنين - غانية باريس الأولى وزهرة مجتمعاتها وحفلاتها وكوكبها الذي إذا ظهر أخذ وبهر، وإذا غاب شغل وأسر. . .!
كذلك، وفي وثبة واحدة بلغتِ (فاني) الأوج وارتفعت إلى ذروة مالاً وجمالاً وشهرة وبُعدَ صيت. وأثرتْ تلك الفتاة المعدمة الشريدة التي آوتها الطرق ليالي وأياماً وربَّتها الحادثات، والتي عانت الجوع والعرى ألواناً وأعواماً؛ وتدفق في يديها الذهب، وأقبلت عليها الدنيا، حتى سار المثل بغناها وبذخها واندفعت في نزق وجنون تنتقم من يومها لأمسها، فأسرفت في اقتناء الجياد والمركبات واستعمال الخدم والنُّدُلِ، وجُنَّت بالترف البالغ والسرف الطائش حتى طاولت بقصورها قصور السادة والأمراء، وطار ذكرها فعبر فرنسا كلها وجاوزها، فتهاوت تحت قدميها أفئدة الرجال، واحتولها السادة، وتحلَّقها الخاصة، واحترق في وَهَجِهَا الشباب النُّضرُ من كل صَوْب وفج، وذابت في لَذْعةِ السحر من عينيها الأخاذين الأموالُ الكريمة. والضياع الوَساع، واختفت في أبهاء قصورها وبُهْرَات ملاعبها ومغانيها ثروات السفهاء البُله من سادة الحكم ووزراء الحاكم وأمراء المال من كل بلد وقطر!
وظَلَّت (فاني) فترة من الزمن ملكة الجمال الفاتن والبذخ العريض، ليس في باريس وحدها ولكن في دائرة مركزها باريس ومحيطها عَبْر المحيط. . . تمسكُ أفئدة الخاصة - بل خاصة الخاصة - بخيوط جُمْعُها في يدها. فتؤوِي من تشاء وترْجي من تشاء، وتَتَحظى من تريد وقت ما تريد. وبلغ بها هَوسها أن تألهتْ فقسمت الحظوظ بين عُبَّادها وفَرَقَتْهُمْ، فمنهم شقي وسعيد!
وأَوفت الفتنة في هذه (المخلوقة) وبها على الغاية حتى ذل فيها الأعِزة الشمُّ من . . . الحافين حَولها، وحتى هلك في سبيلها من حقَّت عليه كلمتها. فقضى من أجلها من قضى، وجُنَّ فيها من جُن. . .

وكأنما بَرِمتْ باريس بهذه الداهية الوافدة التي شغلتها برهة من الزمن فعالجها . . .
القدر وهي في عقدة عِزِّها، إذ توالت عليها المصائب ودهمتها الحوادث بغتة ومن غير
تمهل، فأخذت تنحدر سريعاً كما ارتفعت سريعاً. . . وفعلت تلك الحياة العابثة الصاخبة
فِعلها في أعصابها وكيانها. . . فأصابتها لَوثةٌ جعلت تخبط فيها على غير هدى. . . ثم
ركبتها الديون. . . فاضطربت رأساً لقدم، وأخذتها العزة فلم تَقْوَ أن ترى الدائنين
يجترئون عليها فيقتحمون مقاصيرها. ومخادعيها - على عينيها - ليستوفوا أموالهم بعدل
. . .!!ما تحوى من كنوز ثمينة وطرائف عجيبة ونفائس غالية
وأسلمها الخبل إلى الجنون، وتضاءلت شهرتها وانفضت من حولها حاشيتها. وتقلص ظلها
الممدود وهو النجم الذي تضوَّأ فأفل - من وهج نوره - كل نجم سواه. . . واختِصرت
الدنيا العريضة التي وسعتها، وصارت حجرة. . . حجرة بسيطة في مستشفى المجانين
. . .!لا تليق أبداً بـ (فاني) العظيمة
وقرأ الفنان العظيم (فرنسيس جويرلاند) خَبَرَ ما أصاب (فاني) غانية فرنسا، فلم يلفته
النبأ بَدْءَ الأمر، ولكن الصورة المنشورة أرجعت عقله - حين توضَّحها - إلى الوراء بعيداً
بعيداً. . . حتى عثر في طواياه على ذكرى سحيقة. . . وذكرى تلك الليلة. . . . . وحين
عرف أن (فاني) الحسناء لم تكن سوى تلك الفتاة التي أطعمته وأدفأته وحنت عليه
حنو الأم على وليدها والتي ذهبت عنه فلم يرها ولم يسمع بها، والتي جَدَّ في البحث
عنها فلم يجدها حتى أيس منها، والتي كانت تصحو ذكراها في زوايا قلبه فيردِّد شكرها
في أعماقه ويتمنى لو يراها. . . حين عرف كل ذلك آسفتْه هذه النهاية المفجعة لهذه
الغانية الطيبة القلب. . . ثم عجب لنفسه كيف جهل أن (فاني) التي لهجت بسيرتها
كل شفة وشغلت بجمالها كل إنسان لم تكن سوى فتاته التي تركت له أثني عشر
. . .فرنكاً ومضت
قال يحدث نفسه بعد أن رجع من غياهب الماضي الذي غَرِق فيه:
- إنه لا يحسن أن تنهي حياة (فاني) هكذا، وفاض فؤاده نحوها بحنان غزير. واعتزم أن
يعمل من أجلها عملاً ما، ومع أنه حَمِدَ للقدر أن هيأ له أن يراها ليبثها شكره وامتنانه،
وليرد لها جميلها الذي لا يستطيع أن ينساه، إلا أنه حزن وأسى وود لو كانت لقياهما
في ظروف أحسن من هذه
ولم يكن الفنان النابه ثرياً إنما كان يحيا حياة وسطاً قوامها ما كان يربحه من فنه
كمصور، فباع كل ما يملك ليستطيع أن يجد لها مكاناً خيراً من الذي هي فيه وجواً
أرجى وأنقى. وعناية أتم وأكمل حيث تراعى وتعالج ويعني بحالتها النفسية، وحيث
تقوم على أمرها ممرضة تحنو عليها وترعاها. . . وهناك تحسنت صحتها تسناً ظاهراً
شجعه أن يحملها إلى بيته ليخدمها بنفسه. وليدخل على قلبها لوناً من المسرة
والبهجة، سيكون له - بإذن الله - أثر في تقدم صحتها، ولكن الطبيب عارضه وأنكر
عليه ونصحه قائلاً:
- ستعود بها إلينا ثانياً. . . أن لهذا المرض نوبات تعاودها حيناً بعد حين. وقد قضي عليها
إحدى هذه النوبات
فلم يرضخ لنصح الطبيب، وقال له:
- إنه لابد أن تعيش معي، إنها أشبه بأمي. . .
وفي منزله اعتنى بها وخدمها بإخلاص، وسهر عليها في حنو وصبر. وكانت الصدمة قد
كهلتها فتخاذلت وابيض شعرها، ولم تستطع أن تعي حقيقة أمرها، ولا أن تعرف شيئاً
عن الرجل الذي يأويها ويقوم على شأنها، ولم يشأ هو أن يذكرها بنفسه، بيل ذهب إلى
أبعد مدى في نبل وإنكار الذات، إذ تركها تعتقد أنها في رعاية شاب ثري فُتن بها
وأحبها لنفسها حباً حقاً خالصاً موقناً أن هذا الحلم السعيد الذي تعيش فيه مطمئنة
وادعة، والذي قدَّمَ لها خيوطه الحريرية فنسجته هذا النسج البديع اللائم سيسرع بها
. . .نحو العافية
ولكنها عُقبى نوبة قاسية من نوبات دائها أسندت رأسها إلى صدره هانئة سعيدة . . .
وأسلمت نفسها تحت عينه وبين ذراعيه وحين أراح على فراشها جثمانها الساخن ذكر
ليلة أن طعم ودفئ وبات هانئاً سعيداً ملء حضنها وبين ذراعيها وغمغم يقول:

- هل دفعت الدين يا فاني؟ . . .!
مراد الكرداني
من هنا ومن هناك
أطفال ولا طفولة
(ملخصة عن (نيوز بورخ زوتنج))
لا يختلف الطفل في أمريكا الجنوبية عن الشاب البالغ إلا بأنه أقل سناً وأقصر قامة. ولكنه لا يختلف عنه من الناحية النفسية على الإطلاق.
والطفل في كل مدينة وكل إقليم يشترك في مظاهر الحياة العامة على اختلافها. ومن المظاهر المألوفة في (كويتو) أن يرى الطفل البالغ من العمر ست سنوات يطوف الشوارع في ثيابه الرسمية وعلى قبعته الرقم الذي يشير إلى وظيفته في الخدمة العامة
فإذا بلغ الطفل الثالثة من عمره أخذ أهله في تدريبه وإعداده للمزاحمة في الحياة. ويشاهد الأطفال في تلك البلاد وهم في الخامسة من أعمارهم في الأسواق العامة يبيعون السجائر والفاكهة والمجلات وأنواع الحلوى. ويرى المكاريون والسعاة من بين الأطفال الذين في الثامنة أو التاسعة من أعمارهم
والطفل في أمريكا الجنوبية في السنتين الأوليين من حياته، بعد لعبة طريفة عند والديه، يلبسانه ثياب الخز والديباج ويعرضانه في زهو وعطف على أصدقائهم. فإذا بلغ الثالثة أو الرابعة من سنه بدأ يتبع نسق الحياة الذي اتخذه والداه. فإذا كان من الطبقة الفقيرة كان عليه أن يكسب بعض النقود عند ما يبلغ الخامسة من عمره.
وقد تشاهد في منتصف الليل كثيراً من البنات اللاتي لم يتجاوزن السابعة من أعمارهن على عرض الطريق يبعن الحلوى والأزهار. وكذلك الغلمان في هذه السن وهم يحملون أوراق النصيب أو علب (الورنيش). ولا ينقطع هؤلاء الأطفال عن لشارع في الليل أو النهار، فلا تعرف في أي وقت يخرجون وفي أي وقت ينصرفون؟!
والطفل في جنوب أمريكا يعد عضواً في أسرته، يرتدي زي الكبار وله ما لهم من الحقوق. البنت الصغيرة مثلاً تتحلى بالخواتم وتلبس لأقراط وترتدي ثياب الحرير وتضع الطلاء
وتتعطر بالروائح الزكية. وتصفف شعرها كما تفعل أمها على حد سواء. وكذلك يتزيا الصبي بزي أبيه فيلبس القبعة الفاخرة ويرتد الملابس الطويلة ويقتني الحلي والجواهري
إن جهاد هؤلاء الأطفال في الحياة العملية ليدعو حقاً إلى الإعجاب. فقد رأيت طفلاً في العاشرة من عمره يقوم بعمل حارس الليل في سفينة على نهر (كانالمبا) في فنزويلا. حيث الملاريا والحمى الصفراء والدسنطاريا والتماسيح، لا يساعده في هذه العزلة الموحشة إلا امرأة واحدة، وهو بعد مسؤول عن صحة الركاب الذين لا يقلون عن مائة شخص، مسئول لذلك عن راحتهم؛ ويقوم بأعمال النُّدُل في بعض القطارات أطفال في العاشرة والحادية عشرة من أعمارم، ويدير مصلحة تنظيف الشوارع في مدينة (كويتو) أطفال في السابعة ويقومون بعملهم على أحسن وجه
نابليون في منزله
(عن (ذس ويك))
كان نابليون من ذوي العبقريات الحربية النادرة التي عرفها العالم، وكان من أعظم رجال السياسة والإدارة الذين عرفهم التاريخ. وقد أشرفت شخصيته الجبارة على أوربا ولما يبلغ الخامسة والثلاثين فماذا عسى أن تكون حياته المنزلية؟
كان نابليون يستيقظ من رقاده في أي ساعة من ساعات الليل، فيستحم بالماء الساخن، وكان يجلس في حوض الماء وعلى رأسه لفافة كالعمامة يتدلى طرفاها على عنقه. وكان يأمر بتدليك صدره بفرجون من الحرير في كثير من الأحيان
ويقوم خدمه بإلباسه في الوقت المعتاد. فإذا أراد أن يحفى لحيته، غمر كل شئ في وجهه بالصابون إلا منابت الشعر، ويتناول (الموسى) في تعسف، فلا يكاد يمر بها على وجهه، حتى يملأ خده الناصع بالجروح. وكثيراً ما كن يشرد لبه وهو يقوم بهذا العمل، فيترك جانباً من وجهه كما هو، ويحفي الجانب الآخر
ولم تكن أحذيته أنيقة المنظر، أو جيدة الصنع، ولكنها كانت دائماً مبطنة بالحرير. أما

قبعاته، فكانت مهدمة الأركان ممزقة من بعض النواحي. إذ أن القبعات الجديدة كانت تحز في جبهته وتجلب إلى رأسه الصداع. ولم يكن نابليون يلبس الحلي أياً كان نوعها، ولم يكن
يحمل كيساً للنقود ويضع في جيوبه شيئاً منها.
وكان يحب من الذين يقومون بخدمته أن يجيبوه أجوبة سريعة حازمة، وإن كان قل أن يصغي إلى ما يقولون. فإذا كان معتدل المزاج فلا بأس من أن يفرك لأحدهم أذناً أو يصفعه مداعباً على خده. وكان نابليون سريع الغضب في أكثر الأحيان، وكثيراً ما كانت تعتريه نوبات نفسية عنيفة تطغى على أخلاقه، ولكنه كان سريعاً إلى الهدوء سريعاً إلى الصفح
وكانت تصيبه نوبات عنيفة من سوء الهضم لعدم عنايته بمضغ الطعام، فيستلقي على الأرض وتأخذ زوجته برأسه فتضعه على صدرها وتدلك بيديها على جبهته وصدره، وكان يكره تناول العقاقير على اختلاف أنواعها
ومن عادته أن يلعب الورق مع زوجه وأصدقائه عقب الغداء، إذا لم يكن مصاباً بعسر الهضم
وكان يقرأ الكتاب؛ فإذا لم يعجبه ما فيه ألقى به إلى النار. فإذا رأي أحداً من أصدقائه يقرأ في كتاب لا يوافقه أخذه من يده ودفع به إلى النار
وكان نابليون سريع التأثر بالبرد حتى إنه ليأمر بتدفئة فراشه بالطرق الصناعية في جميع فصول السنة. وكان مصاباً بعادة قرض الأظافر. ومن المعروف عنه كان يغار على زوجه إلى درجة تشبه الجنون إلا أنه كثيراً ما كان يخضع لها ويسألها العفو وإن كان الخطأ في جانبها. هذه صورة مصغرة لحياة الرجل الذي هزم إيطاليا وهو في السادسة والعشرين، وفتح مصر في الثامنة والعشرين وكان دكتاتوراً لفرنسا في الثلاثين وسيداً الأوربا في الثانية والثلاثين من عمره: نابليون بونابرت
البَريدُ الأدَبي
هذا أديب
كان عندنا في مصر أديب فلسطيني راجح العقل، وافر الذوق، أسمه، سمه خليل سكاكيني؛ وكانت بيني وبينه مطارحات تصل أحياناً إلى الصيال، ولكنه لم يكن يعرف الحقد ولا الضغن
فكان يتلقى هجومي عليه بالصفح الجميل، ثم يحمله الكرم على المبالغة في الرعاية لما كان بيننا من صداقة وإخاء
ولا أذكر بالضبط متى انتقل من القاهرة إلى القُدس، فقد شغلتني عنه أيامي، ولم يبق لي منه إلا هدايا أدبية من كتبه النفيسة يرسلها إليّ من إلى حين بدون أن يتلقى مني كلمة ثناء، إلا أكون وُفقت إلى الكلام عن بعض مؤلفاته أعوام كنت أحرر الصفحة الأدبية بجريدة البلاغ، وأنا رجلٌ يعاوده الوفاء في بعض الأحايين!
تلقيت يوماً رسالة مطبوعة من الأستاذ خليل السكاكيني، فنظرت فيها فرأيتها مجموعة من خطابات الأشواق كتبها إلى ابنه سرِيّ وكان اغترب لطلب العلم في أمريكا
فماذا رأيت؟
لم أجدها رسائل أب إلى ابنه، وإنما وجدتها رسائل عشق إلى معشوق!
رأيت رجلاً يقول لابنه إنه تذكر وجهه الأصبح وهو في مثل ضوء الشَّفَق وقد صِيغَ مثالاً للجمال الشائق الفنان. رأيت رجلاً يقول لأبنه إنه يتذكر طُرْفة الجميلة المصفوفة على أروع ما تكون الغدائر التي تفتن العيون فيهتاجه التذكر والاشتياق
رأيت رجلاً يتغزل في ابنه بعبارات صريحة فقلت: هذا أديب يطبع الحب الأبويّ بطابع الوجدان
وفي هذا المساء - وقد رجعت من سفر لا يخلو من عناء - وجدت رسالة مطبوعة من الأستاذ خليل السكاكيني وعليها صورة امرأة جميلة فقلت: لعلها معشوقة يتحدث عنها هذا الأديب، وهل عرفت الدنيا أديباً خلا قلبه من العشق؟
ومن هذه المعشوقة الغالية؟
هي حليلة السكاكيني، هي أُمُّ سَرِي التي خُلِّدت في أشعار الأستاذ معروف الرصافي وأقبلت

على الرسالة فقرأتها في دقائق مع أنها تبلغ الثمانين من الصفحات
فماذا رأيت؟
رأيت رجلاً يكرم زوجته فيصف جمالها الفتان بعبارات صريحة فقلت: هذا أديب يضيف ثروة جديدة إلى اللغة العربية، لأن الحلائل في لغتنا لم يُبكين إلا قليلاً، وهنَّ أجدر مِن المعشوقات بالبكاء
ورأيت رجلاً يعتز بنفسه فيصرح بأن جمال امرأته كان يحتاج إلى فتى في مثل رجولته، فقلت: هذا أديب فيه سمة من فتيان قريش
ورأيت رجلاً يبلغ به الحزن على زوجته الغالية إلى التفوه بعبارات هي أفظع ما يكون من الكفر الموبِق، فقلت: هذا أديب يغلبه الحزن فيخلع قناع التأدب مع الشرائع والأديب الحق يستبيح في عتاب الأقدار ما لا يباح
والأدباء كأهل بدر تغفر لهم جميع الذنوب، وستعرفون صدق ما أقول يوم نلتقي في حضرة الواحد الديان، إن كان من الممكن أن يكون لأعداء الأدب مَعاد، وإن جاز أن يُنصب لأعداء الأدب موازين يوم يقوم الحساب، وهم في شِرعة العقل من المهملات وسوف تعلمون مصايركم يا أعداء الأدب الرفيع!
السكاكيني مبتكر في بكاء حليلته لأنه أديب حق، وقد كفر من أجلها كفراً هو صورة من الإيمان الصحيح. وبعض الكفر إيمان، ولكن أكثر الناس لا يفقهون!
والسكاكيني يعجب من أن ينكر الناس البكاء، ويقول إن مقاومة البكاء إفساد للفطرة، ويدعو المحزونين إلى تنفيس كروبهم بالنوح والأنين كما كان يصنع القدماء
قال السكاكيني في بكاء زوجته كل شيء، والمفارق يقول ما يشاء وما أصيب الفراق!
يلطف الله بك ياخليل، ويلطف بأبنائك المفجوعين بفراق أمهم الغالية!!
وكيف خطرتُ في بالك، ياصديقي، بعد فراق الأعوام الطوال؟ أتريد أن آسى لأساك، وأشجى لشجاك؟
إن كان ذلك ما أردتَ فقد حزنتُ لحزنك حتى خفتُ أن أصبح عاشقاً لذلك الحسن المكنون الذي أمسى في وديعة التراب أتريد أن أعرف أنك كنت زوجاً لامرأة جميلة كان يقتتل في سبيلها الخاطبون؟
هو ذلك، وإلا فكيف قدمتَ لنا صورها الجذابة في عهودها المختلفات؟!
أسمع، يا خليل، أسمع ثم أسمع
أنت رفعت المرأة درجات، حين جعلتها أهلاً للتفجع والتوجع والأنين
وفي النساء أمهاتنا وأخواتنا وبناتنا وزوجاتنا، وهنّ جميعاً أهلٌ للعطف والحب. والحمد لله الذي أعزها بوقوفك على قبرها ولم يذلها بوقوفها على قبرك، على حدّ التعبير الجميل الذي قرأته منذ أعوام بمجلة المرحوم سليم سركيس. . . وسلامٌ عليك من الصديق الحافظ للعهد:
زكي مبارك
حول الأمومة عند العرب
اطلعت على الجزء الأول من مقالة الأستاذ رفعة الحنبلي (الأمومة عند العرب) المنشور في العدد (354) فاستوقف نظري قول الكاتب نقلاً عن أحد المؤرخين اليونانيين القدماء وهو (سترابون) إن العرب في الجاهلية لم يكونوا يعرفون الزواج الشرعي الدائم، وإنه يفشو بينهم تعدد الأزواج، وإنهم كانوا يتصلون بأمهاتهم
وجواباً على المسألة الأولى أقول: إن الزعم بأن العرب في الجاهلية لم يكونوا يعرفون الزواج الشرعي الدائم هو زعم غير صحيح
فقد روى البخاري في صحيحه وأبو داود في السنن عن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، قالت: كان النكاح في الجاهلية على أربعة أنحاء (أنواع) نكاح الناس اليوم يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها، ثم ينكحها. ثم ذكرت الأنواع الثلاثة تتمة الأربعة وفيها تعدد من يتصلون بالمرأة؛ إلى أن قالت: فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق هدم نكاح لجاهلية كله إلا نكاح اليوم. التاج ج 2ص 368
ويعلم المطلعون في التاريخ الأمة العربية أن الشعوبية - من أعداء الغرب وشانئيهم - هم أول من عمد إلى الطعن في أنساب العرب ووضعوا أخباراً ولفقوا كتباً في مثالبهم وتحقير شأنهم، ومن أشهر هؤلاء الشعوبية الهيثم بن عدي، وكان دعياً، فألف كتاباً في مثالب العرب أراد به أن يعرّ أهل الشرف تشفياً منهم. قال الألوسي: (ثم نشأ غيلان

الشعوبي الوراق - كان زنديقاً ثنوياً - فعمل لطاهر بن الحسين كتاباً خارجاً عن الإسلام بدأ فيه
بمثالب بني هاشم، وذكر مناكحهم وأمهاتهم، ثم بطون قريش، ثم سائر العرب؛ ونسب إليهم كل زور ووضع عليهم كل إفك وبهتان) ص 160 ج 1
وقال في ص 173ج 1: (إن جميع ما ذكره الشعوبية في شأن مناكح العرب وما أوردوه من باب الطعن في أنسابهم بما كانوا يتعاطونه في الغارات من سبي للنساء واسترقاقهم ووطئهم من غير استبراء من طمث ونحو ذلك لا أصل له. وكتب التواريخ صارخة بتبرئتهم مما رماهم به خصومهم وأعداؤهم، وقد نطق الشعر الجاهلي بما كانوا عليه من الحمية والغيرة ومزيد الاعتناء بأنسابهم وحفظ حريمهم والذب عن أحسابهم وعشائرهم)
وجواباً على المسألة الثانية أقول: ليس صحيحاً أن العرب في الجاهلية كانوا يتصلون بأمهاتهم، لأن هذه عادة مجوسية، ولأن الله تعالى نهاهم في القرآن عن محرمات النكاح ولم يذكر أنهم فيما سلف كانوا ينكحون أمهاتهم، بل خص ذلك بزوجة الأب والجمع بين الأختين. فقال سبحانه: (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلا) وقال عز وجل: (وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف) ويدل على هذا ما روى هشام بن عبد الله عن الإمام محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة أنه قال: (كان أهل الجاهلية يعرفون هذه المحرمات كلها التي ذكرت في هذه الآية وهي: (حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم) الخ إلا اثنتين إحداهما نكاح امرأة الأب والثانية الجمع بين الأختين. ألا ترى أنه قال: (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف، (وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف) ولم يذكر سائر المحرمات (إلا ما قد سلف) قرطبي ص 119 ج 5
وبعد أقول ليس بعيداً أن يكون ذلك المؤرخ الأجنبي الذي نقل عنه الكاتب أن العرب في الجاهلية كانوا يتصلون بأمهاتهم قد ألتبس عليه الحال فتوهم أن امرأة الأب - التي كان بعض العرب في الجاهلية يتزوجونها - هي الأم مع أنها غيرها قطعاً ولو فرض أن هناك رجلاً أو نفراً من الجهلاء العرب كانوا قد اقترفوا هذا الإثم واتصلوا بأمهاتهم فليس من الصواب جعل هذه النقيصة عامة لكل رجال الأمة العربية (ولا تزر وازرة وزر أخرى) وأختم كلمتي هذه بتوجيه نظر حضرة الكاتب وغيره ممن يخوض في مثل هذا البحث الدقيق ألا يهملوا الاستدلال بما في المراجع العربية فهي المصدر الذي اقتبس منه المستشرقون كما أنها هي التي عنيت بتفنيد ورد ما افتراه وضعه الشعوبيون
محمد صبري عامر
العقيدة الساذجة
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد: فقد راعني مقالكم (العقيدة الساذجة) وسرني - شهد الله - هذا الاتجاه منكم لعلاج أمراض المسلمين، ونواحي النقص فيهم بقلمكم الصناع، وأسلوبكم الساحر، لاسيما نواحي العقيدة التي أساء الناس فهمها، واتجهوا فيها اتجاهاً لا يرضاه الدين إن لم ينافه في أصله وقواعده
وغير خاف أن ذلك الزعيم الهندي الكبير ليس هو الوحيد في هذا الشأن (زخرفة القبور) بل إن من بين أيدينا، وعن أيماننا، وعن شمائلنا لمثلاً كثيرة للخروج على عقيدة الإسلام وتعاليمه.
وإني لعلى يقين من أنكم ستستعذبون هذا اللون من الجهاد حتى تنبهوا الأمة من سباتها العميق
سدد الله خطاكم، وأمدكم بروح من عنده.
وقد لفت نظري في هذا المقال قولكم: (وإن الإمام الذي كان يطوي الأيام ليطعم - على حب الله - المسكين، واليتيم، والأسير لا يرضى هذا الإحسان الميت) تشيرون بذلك إلى معنى قوله تعالى: (ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً) التي رووا فيها قصة صوم علي كرم الله وجهه، وبنيه، وزوجته وجاريته وهذه القصة موضوعة لا أصل لها ولا ينبغي أن يحمل كلام الله تعالى على قصة هذا شأنها، وإن أقل تأمل في هذه القصة يدل على أنها مصطنعة.
محمود محمد سويلم

واعظ سمالوط
مجمع فؤاد الأول للغة العربية في رأي لجنة المالية. بمجلس النواب
ترى اللجنة أن الدرجة الثقافية التي وصلت إليها مصر الآن تجعلنا نشعر بالفراغ الكبير وبالحاجة الكبرى لوجود قاموس عربي جامع منسق على أحدث الطرق وأسهلها. وكما أن مصر والشرق العربي كله يطمعان في تحقيق أملهما في وجود دائرة للمعارف عربية، تستجمع ثمرة إنتاج العقل الإنساني في مختلف العلوم والفنون والمعارف، أسوة بدوائر المعارف الكبرى الموجودة الآن بكل أمة وبكل لغة إلا اللغة العربية، وهي الوحيدة بين اللغات الحية المحرومة من دائرة معارف للآن
لذا تأمل اللجنة أن تتوجه وزارة المعارف بخطوات جدية حاسمة في سبيل تحقيق هذا الأمل العزيز
وترى اللجنة أن مجمع اللغة العربية، على ما أفاد به في حدوده الضيقة ومباحثه المحدودة، لم يشبع في كثير ولا قليل هذه الأطماع الثقافية الكبيرة. ولعل الوزارة على ضوء رغبة اللجنة السابق ذكرها، تسرع بالعمل على إعادة النظر في تكوين هذا المجمع، من حيث تنوع معارف أعضائه والزيادة في اختصاصه، حتى يكون الأداة الحية المرجوة لتحقيق وجود دائرة المعارف والقاموس، وغيره من البحوث الأدبية واللغوية والعلمية التي يفتقر لها جماعات مثقفون في العالم كله
الفؤاديات
مجموعة من الشعر الوجداني الرقيق، نظمها المرحوم (فؤاد بك محمد)؛ ثم نشرها بعد موته ابن عمه الأديب عبد القادر يوسف تمجيداً لذكراه وتخليداً لفنه؛ ثم تفضل فأهدى إلى (الرسالة) مائة نسخة منها لتوزعها هدية على من شاء من قراءها تحقيقاً للغرض الذي طبعت من أجله، وهو الإشادة بفضل الفقيد الشاب والإفادة من نشر أدبه الرفيع
الشيخ عبد الرحمن قراعة كأديب
رأي الأستاذ (محمود علي قراعة) من الوفاء للأدب، والإخلاص لعمه المغفور له الشيخ (عبد الرحمن قراعة) مفتي الديار المصرية سابقاً أن يتحدث عنه كشاعر وناثر ليهيئ أذهان تلاميذه وأصدقائه إلى إدراك منزلته العالية في الأدب والعلم فينشروا ديوانه ويظهروا فضله. فتكلم عنه كصديق ومحسن ومتدين وفقيه ومعاشر وحكيم، كلام العارف البصير؛ ثم نشر ذلك في مجموعة وأهدى إلى (الرسالة) منها مائة نسخة لتوزعها على من شاء من
قرائها، فله الحمد على ما هدى، والشكر على ما أهدى.
رسالة النقد
ليالي الملاح التائه
ديوان الأستاذ علي محمود طه
للأديب عبد العليم عيسى
الشعر كالحياة من حيث مظهره ومصدره؛ فهو من حيث المظهر متفاوت التقدير عديد الألوان، ومن حيث المصدر واحد لا يتجزأ ولا يقاس ولا يتنوع. . .
فالحياة في الثعلب هي بعينها الحياة في الأسد؛ ونحن لا نعظم الحياة في الأسد لأنها أشرف وأجمل من الحياة التي تسير الثعلب، ولكن لأنها قد اتخذت لها في الأسد مظهراً واسعاً مكتملاً عريضاً أوسع وأكمل وأعرض من المظهر الذي اتخذته في الثعلب. . .
على هذا القياس الحق، ترانا نفضل هذا الشاعر على ذاك الشاعر، وترانا نستحسن هذا الشعر ولا نستحسن ذاك، ونحن في هذا التفضيل والاستحسان لم نرد إلا أن المظهر الذي ظهر فيه شعر الأول أحسن وأتم وأوسع من المظهر الذي ظهر فيه شعر الثاني؛ أما شعرها من حيث القيمة فهو واحد لا تفاوت فيه. . .
من بين شعرائنا الذين نقدرهم ونستحسن شعرهم، شاعر رقيق رشيق هو الأستاذ علي محمود طه فهو شاعر يسقي قلمه من ينابيع قلبه الجياش بالعواطف، وروحه الهائجة السبوح. وهو شاعر عانقت روحه الكون الجميل، فجاءت أشعاره واسعة متفتحة ناعمة، تسمع فيها دقات أنباض الحياة، وتتنسم منها نسمات الجمال والخلود. .

.
قرأت (لياليه) فشعرت بلذة روحية عجيبة، وأحسست بانفعالات تهزني وتنعشني، وتوقظ نفسي وترهف حسي، وتفتح أمامي آفاقاً من النور والجمال والبهاء. . .
وهل أنا أطلب من الشاعر غير هذا؟. . . كفى بالشاعر أن ينقلني من عالمي المادي الحقير، إلى عالم سماوي نضير، تحير فيه أطياف الحسن والسحر والفتون، فأنسى فيه - ولو قليلاً من الزمن - رغبات الأرض وشهوات ابن التراب!! وأنت لو ذهبت تعد شعراءنا جميعاً علك تجد فيهم من يسمو بك إلى عالمه، ويشعرك بالحياة المتدفقة الفائزة مثل هذا الشاعر، ما وجدت - للأسف - غير شاعرين أو ثلاثة على الرغم من وفرتهم وتبجحهم وجعجعتهم!
إن من بين شعرائنا من هم إذا كلفوا بشيء آخر كلفهم بالشعر، لجاءوا بالعجب العجاب ولب اللباب؛ ولكنك إذا ذهبت تصارحهم بهذا رأيتهم هاجوا وماجوا، كأنك تريد أن تسلبهم أرواحهم! ومن العجيب أنك لا تلبث أن تسمع منهم من يقول في غطرسة وكبرياء: (أنا المجلي وغيري نابع تال) . . .
وآخر يقول:
قد صرت وحدك في الملو ... ك وصرت في الشعراء وحدي
وثالث يقول:
لولا غنائي وشعري ... لمات روح الوجود
وهكذا وهكذا تسمع ما يؤلم قلبك. . . ويشجي روحك!
إذن يجب علينا أن نفرح بظهور الشاعر الحق فرحنا بظهور الوليد الجديد، ويجب علينا أن نحبه ونقدره ونجله؛ وما حبنا وتقديرنا وإجلالنا، إلا حب وتقدير وإجلال للحق والخير والجمال وهي القيم المنشودة التي تسعى إليها البشرية وتبحث عنها في جميع أطوارها ومراحلها. وشاعرنا المحظوظ (علي طه) هبة سماوية أطلعتنا على آفاق جديدة فيها جمال وخير وفيها أحلام وآمال . . .
قلت إن شاعرنا محظوظ، وأنا أقصد بهذا أنه يحيا حياة شعرية مليئة بالأفراح واللذات، مترعة بالأحلام والمغامرات. فليس فيها آلام ولا أحزان، وليس فيها أهوال ولا شكوك، ولا تردد ولا حيرة. . . وأنت لو فتشت في ديوانه كله ما عثرت على بيت واحد يشعرك أن هذا الشاعر مرت عليه أوقات فيها تنغيص وفيها ألم، ولكنك تعثر على أبيات كثيرة فيها اللذة السامية، وفيها النشوة السارية، وفيها الفرح الشامل . . .
هو اليوم في مدينة (فينيسيا) عروس الأدرياتيك حيث الجمال والحسن المشاع، وحيث الجنادل المزدانة بالمصابيح الملونة والضفائر الوردية. فلا يلبث أن يوحي إليه هذا الجو الفاتن أنشودة (الجندول) الموسيقية الرائعة الرقيقة الخالدة . . .
وهو اليوم في (بحيرة كومو) التي جذبت إليها كثيراً من الشعراء فألهمتهم أرق أشعارهم وأعذب أغانيهم؛ فلا يلبث أن تلهمه أنشودة بارعة، ويهديها إلى صديقة أمريكية كانت ترافقه
وهو اليوم في مدينة (زيوريخ) على شاطئ بحيرتها، حيث الاحتفال بعيد سويسرا الوطني الأكبر، بين المواكب الصاخبة المرحة، وأنوار المشاعل، والأسهم النارية، وأضواء معرضها العظيم؛ فتوحي إيه المفاتن الساحرة. . . أنشودته الساحرة (تابيس الجديدة)
وهو اليوم على ضفاف (نهر الرين) ذلك النهر الذي يتفرد بجنبات أعنابه، وأشجاره الباسقة، وقصوره التاريخية؛ فيوحي إليه هذا الجو الرائع الجميل قصيدة (خمرة نهر الرين) ثم يهديها إلى صديقة سويسرية التقى بها هناك . . .
وهكذا وهكذا ترى شاعرنا سارحاً متنقلاً في أمكنة الفتون والجمال، وهو في كل مكان سعيد محظوظ مغامر. له فيه محبوبة سعيدة محظوظة مغامرة؛ فجاءت أشعاره لها طابع خاص تمتاز به من بين سائر الأشعار . . .
أكبر الظن أن شاعرنا ليس عاشقاً متيماً ولا غزِلاً متهالكاً فهو يوافق (دانزيو) الشاعر الإيطالي العظيم في قوله: (ما معنى أن يخلص الشاعر لامرأة واحدة، وهل في وسع الشاعر أن يجمع الجمال كله في وجه واحد أو في منظر واحد؟ لابد لخيال الشاعر من

أفق لا نهائي دائم التجدد دائم التحول دائم الحركة) ولقد أجهدت نفسي في أن عرف لشاعرنا من شعره محبوبة واحدة تشقيه وتسعده وتهجره وتصله حتى يشعر في حبه بالحرمان والسعادة فما وصلت إلى ما أردت أن أعرفه. . . وقد يكون هذا (في عقيدتي) هو السر في أن شعر شاعرنا غنائي فطري، له جرس ورنين في مفرداته وتراكيبه، تشيع فيه المسرة والبهجة وتغمره البشاشة والطلاقة. . .

يعجبني من شاعرنا أنه صريح صادق، يعبر عن إحساسه وشعوره وحياته بلا تدجيل أو مداواة؛ فأنت لا تكاد ترى شاعراً من شعرائنا المعاصرين من يصرح فيقول:

ملأت بتفاحتها راحتي ... وبت لكرمتها عاصرا

أو يقول في التي (علمته كيف يحب وكيف يكره):

إذا فتح الباب تحت الظلام ... فكيف ارتماؤك في صدرها؟
وكيف طوى خصرها ساعداك ... ومرت يداك على شعرها
وما هذه؟ رعشة في يديك ... أم الكأس ترجف من ذكرها
لقد دنس الجسد الآدمي ... حياة حرصت على طهرها
بكى الفن فيك على شاعر ... تسائله الروح عن ثأرها
نزلت بها وهدة كم خبا ... شعاع وغيب في قبرها

كذلك لا ترى معاصراً يقول مثل قوله يحث صديقته في (بحيرة كومو) على أن تنفي الحذر عنها وأن تعذره إن طغت روحه، أو ثأر جسمه:

ما تسرين؟ أفصحي ... إن في عينك الخبر
الغريبان ههنا ... ليس بجديهما الحذر
نحن روحان عاصفان ... وجسمان من سقر
فاعذري الروح إن طغى ... واعذري الجسم إن ثأر

(أو مثل قوله في تاييس الجديدة):

أأنا الغريب هنا وملء يدي ... أعطاف هذا الأعيد المرح
خفقت على وجهي غدائرها ... فجذبتها بذراع مجترح
عرضت بفاكهة محرمة ... وعرضت لم أنطق ولم أبح
يا رب صنعك كله فتن ... كيف الفرار، وكيف مطّرحي

هذا شعر رائع جميل، له وقع في النفس، ونشوة في القلب وما روعته وجماله إلا من صدق تعبيره، وصراحة أدائه، ثم من حيويته واتساعه وغليانه. . .

كذلك يعجبني من شاعرنا الرقيق أنه شاعر مصري صميم - على الرغم مما يعيبونه به من أنه شاعر الطبيعة الغربية - فهو لا ينسى بلاده حتى في تلك الأوقات الجميلة التي يقضيها في هذه الأجواء السحرية الناضرة. بل إنه ليكون غارقاً في لذته وبهجته وسكرته، ثم يهزه الحنين لنيله الجميل، فيمسك قيثارته ويغني في فخر ومباهاة:

قلت: والنشوة تسري في لساني ... هاجت الذكرى فأين الهرمان
أين وادي السحر صداح المغاني ... أين ماء النيل أين الضفتان
آه لو كنت معي نختال عبره ... بشراع تسبح الأنجم إثره
حيث يروي الموج في أرخم نبره ... حلم ليل من ليالي كيلوبتره

وهناك في (بحيرة كومو) - حيث الجمال والسحر - يهز الشاعر حبه لوطنه، فينطلق قائلاً، وهو جالس بين كؤوسه وغادته، غارق في نعيمه وحظه وصفائه:

أين وادي النخيل أم ... قاهرياته الغرر؟

إن مما يزيدني إعجاباً بهذا الشاعر أنه صاد في شعره. وفيّ لفنه، وأنه ذو شخصية مستقلة لا تندغم في شخصية أخرى، وأن لشاعريته وجهاً يميزها عن كل شاعرية، ولألحانه رنة تعرف بها من بين سائر الألحان، وفي كل ما ينظمه نكهة تختلف عن كل نكهة. . .

لكم وددت لو كان بإمكاني أن أتخطى بالقارئ خطوة خطوة مع شاعرية صاحب (ليالي الملاح التائه) فهي في تجوالها قد سلكت شعباً كثيرة، وطرقت أبواباً عديدة، ومن كل سياحة ساحتها قد عادت بآثار طريفة وتذكارات ثمينة. والديوان حافل بمثل هذه الآثار والتذكارات التي تفسح مداه وتفرج صدر قارئه. . .

وأخيراً. . لقد انتهيت بدون أن أنقد شاعرنا الملهم، ويعلم الله أنني كنت أود أن عثر على أغلوطة أو سقطة؛ ولكني عبثاً حاولت. غير أنه يسرني أن أطلع شاعرنا على

(هنات طفيفة ما أخالها شيئاً، فمثلاً قول الشاعر في أغنية الجندول:
قلت والنشوة تسري في لساني ... هاجت الذكرى فأين الهرمان
كان الأحسن من ذلك أن قول (في كياني) لأني لا أتصور ولا يتصور أحد معي تلك النشوة التي تسري في اللسان. وفي الأغنية نفسها اضطراب في صورها، فليس فيها وحدة ولا اتساق. ولقد رزقني الله حلاوة الصوت. فكنت إذا غنيتها على عودي وأنا منتقل على خيالي في الجو الذي نظمت فيه شعرت باصطدام وحواجز تقفني عن متابعة طربي خصوصاً في مقطعها الأول. وفي الأغنية مقطع رائع وهو:
آه لو كنت معي نختال عبره ... بشراع تسبح الأنجم إثره
حيث يروي الموج في أرخم نبره ... حلم ليل من ليالي كيلوبتره
وأنا أذكر أني قرأت هذا المعنى الجميل البارع الذي يعد أحسن ما في الأغنية مترجماً عن الإنجليزية. فهم يذكرون أن الشعراء الثلاثة كيتس وشلي وليهند اتفقوا على أن ينظم كل واحد منهم قصيدة في النيل فكان مما قاله ليهند هذا المعنى الجميل. وما كنت لأشير إلى هذا لولا أن الأدباء يرفعون هذا المعنى إلى السماء. فأردت أن أبين أصله. . . ويقول الشاعر (في بحيرة كومو):
ثمر ناضج الجني ... كيف لا نقطف الثمر
وأنا أفهم أن الثمر هو الجني
ويقول الشاعر في (مصرع الربان):
وغاب كل مشيدٍ غير قبعة ... ذكرى من الشرف العلي وتذكار
والذكرى والتذكار معناهما واحد
ويقول الشاعر في (مهرجان الزفاف) يريد السيوف:
أو ما لها الماضي فجن حديدها ... حتى تكاد بغير كف تمشق
والمتنبي يقول: (حتى تكاد بغير كف تضرب) وهو طبعاً أحسن من الأول. فكان حقه أن يأتي بالمعنى كاملاً
وهذه طبعاً هنات طفيفة لا تغض من قيمة شاعرنا العزيز. وكفاه رفعة وسمواً أن تكون هذه مآخذنا في وقت أصبحت فيه الدواوين الشعرية مهزلة وسخفاً!. . .
عبد العليم عيسى
العدد 356 - بتاريخ: 29 - 04 - 1940
ساعة مع الأستاذ الأكبر
كان مما لابد منه لمن يكتب في الإصلاح الديني والأزهري أن يستضيء برأي الإمام الذي هيأه الله واختاره التوفيق لزعامة الثقافة الإسلامية في أشد العصور افتتاناً بالعلم وامتحاناً للعقيدة وهزاً للشعور واستعداداً للتطور
والأستاذ المراغي إذا قيلت كلمة الحق فيه إمام هذا العصر بإعداد من الله تجلى في فهمه الدقيق لرسالة دينه، وإدراكه الصحيح لحاجة عصره، وعلمه الراسخ بطبيعة قومه، وملكته السليمة في أدب لغته، وأفقه الرحيب لاقتران المشكلات الاجتماعية فيه تحت ضوء من الفكر الثاقب يبدد عنها ظلام الإشكال فترجع إلى طريقها الواضح من الدنيا أو الدين. وآية المصلح الديني في الإسلام علمه بأن رسالة الدين هي إصلاح الدنيا، وعمله لتوجيه الحكم والسياسة والاجتماع إلى الخطة التي رسمها الحق للحق في دستوره السماوي الخالد
دخلت على الإمام المراغي مكتبه العظيم الفخم في إدارة الأزهر منتصف الساعة الثانية، وكانت الأصوات والحركات قد خشعت في المكاتب والمسالك، فساعدتني الحال على الظفر بجلسة طويلة مع الإمام لم يقطعها عمل ولم يكدرها زائر
تلقاني شيخ الشيوخ بوجهه المنبسط وبشره الرزين، فسهّل عليَّ أن أجد نفسي وأتسرّح في حديثي وأراقب انعكاس الإشراق الروحي على ملامحه الناطقة فأفهمه من قرب. وللمراغي إشعاع على محادثه عجيب؛ وهذا الإشعاع دائم الانبثاق من عينيه وشفتيه فلا تنفك المشاعر منه في غَمر من الإعجاب والإجلال والحب مهما توثقت الألفة وزالت الكلفة وطال الحديث. وأشد تأثير المراغي على النفس القابلة ينبعث من سر نظرته وسحر بسمته ولهجة حديثه وحلاوة جرسه وفصاحة منطقه. أما توقد ذهنه ولطافة حسه ووزانة قوله ورصانة عقله وسراوة خلقه، فتلك خصائص شخصيته وفضائل نبوغه

لا أستطيع أن أنقل إليك نص حديث تدفق وتشقق في ساعة ونصف، ولا أريد أن أقطع سرده بما سألت أو أجبت، فإن همك وهمي أن نسمع إلى الأستاذ. فأنا أروي لك خلاصة الجانب العام من الحديث على اطراد وتساوق لتصل إلى وجه الرأي من أخصر طريق

قال الأستاذ الإمام وقد تزاور عن مكتبه واتجه بكرسيه الدوار إلَّى:

لقد سرني أن تتجه الرسالة إلى معالجة شؤون الأزهر، فإن في النقد الخالص من الهوى حثاً للهمم الوانية، وتذكيراً للنفوس الغافلة؛ ولكني أحب أن يكون النقد على خلوصه رفيقاَ ليطمئن إليه المنقود ويستفيد منه

أنا لا أسلم بأن الأزهر جامد على حاله القديمة، وأرى أنه يتقدم مع الزمن تقدماَ يتفق مع طبيعة أهله في الأناة والروية.

ولو قارنت بين حاله اليوم وبينها منذ أربعين سنة تجلى لك الفرق واضحاً لا غبار للشك عليه. ففي أيام طلبك بالأزهر قلما كنت تجد عالماَ أو طالباً يكتب أو يخطب أو يؤلف أو يتصل بالحياة العامة؛ أما اليوم فأنت ترى أكثر العلماء والطلاب يفكرون ويحررون ويحاضرون ويناظرون ويؤلفون في فصاحة منطق وحسن صياغة وسلامة فكرة أذكر وأنا مفتش بالأوقاف أنا اقترحنا على العلماء إنشاء طائفة من الخطب المنبرية في الأغراض الاجتماعية المختلفة، فجاءنا أربعمائة خطبة لم نجد من بينها واحدة تستحق النظر. ولكنك اليوم تجد الخطباء في المساجد والوعاظ في المجالس ينشئون الخطب البليغة، أو يرتجلون العظات البالغة فيما تقتضيه الحال من المعاني العامة على أني أشعر بحاجة الأزهر الشديدة إلى الإصلاح. وأوافق الرسالة على أن الأمر يكاد ينحصر في طريقة المعلم ووسيلة التعليم. وقد أخذنا بالفعل نعالج الإصلاح في هذه الناحية، فضاعفنا العناية بطلاب التخصص لأنهم مناط أملي في المستقبل وموضع ثقتي في الإصلاح، فأنا أتعهد تعليمهم وأتفقد أحوالهم وأشدد امتحانهم، حتى لم ينجح من ثلاثة وعشرون غير ثمانية. ومن هؤلاء أرسلنا وسنرسل البعوث إلى بلاد الغرب ليتصلوا بتيار الفكر الحديث، ومكنا لمن لا يبعث منهم أن يتعلم لغة أوربية في الكلية ليتسنى له بواسطتها أن يزيد في ثقافته.

أما مسألة الكتاب فإني أوثر أخذ العلم من كتب الأئمة السابقين القادرين على صوغ العبارات العلمية في أسلوب ناصع البيان، ولكني أوثر كذلك الإبقاء على طائفة من الكتب المؤلفة على المنهاج التقليدي من تحليل ألفاظ الجملة وتقليب وجوه الفكرة، فإن ذلك سبيل التعمق والاستقصاء والمران لمن عرف كيف يسلكه ويخرج منه. وفي اعتقادي أن غموض النص في نفس التلميذ ناشئ من غموضه في ذهن المعلم. فإذا استطاع الأستاذ أن يحلل عبارة النص في الكتاب ويجلو غامضه من جهة، وأن يجمع أشتات الرأي في الموضوع ويمحص حقائقه من جهة أخرى، تيسر له بعد ذلك أن يلقيه على الطلاب في محاضرة متناسقة الفكر متساوقة الأجزاء محكمة الصياغة، ومن مجموع هذه المحاضرات في العلم الواحد يتألف الكتاب الذي تريده

على أن الكتاب يتضاءل شأنه كلما سمت قدره المعلم، فإنك تذكر أن أستاذنا الإمام رضوان الله عليه كان لا يجعل في يده وهو يفسر كتاب الله غير (الجلالين)، ومع ذلك كان يستبطن بفكرة النفاذ أسرار الآي ثم يكشفها للناس في معرض من البيان المشرق

وفي الكليات طائفة من المعلمين القادرين يستطيعون أن ينهضوا بالتعليم الأزهري نهضة صادقة. ومِلاك ذلك أن يقفوا حياتهم على العلم، ويقصروا جهودهم على التعليم، وأن يتصلوا بأبنائهم اتصالاً روحياً ليغرسوا فيهم حب العلم فيطلبوه لذاته ولذته كان أشياخنا يقولون: (أعط العلم كلك يعطك بعضه) وكان منهم من لا ينقطع عن التدريس حتى في المرض، ولا يذوق طعم الراحة حتى في العطلة، ولا يرى (أخذ الدرجة) صارفا عن التحصيل، ولا منصب القضاء عائقا عن الأزهر.

قال لي الإمام محمد عبده وقد زرته بعد نجاحي في (العالمية) بثلاثة أيام: أتستطيع أن تعرِّف العلم؟ فأجبته بلهجة الواثق المطمئن: نعم. وأخذت أسوق إليه ما أعرف من التعريفات المختلفة، ولكنه زيفها جميعاً وقال: العلم ما نفَعك ونفع الناس. فهل ما

عندك منه ينطبق عليه هذا التعريف؟ فقلت له: لا. قال: إذن لا تملك من العلم الصحيح شيئاً. إنما هيأت لك دراستك وشهادتك السلم، وعليك وحدك بعد ذلك أن تصعد

إن الذي يظهر الأزهر في هذا المظهر الجامد يرجع بعضه إلى إخلاد القادرين إلى الراحة، وبعضه إلى مجافاة أسلوب العصر مع حسن الاستعداد وتوفر وسائل الاجتهاد ومواتاة أسباب النهضة. أليس من العجيب أن تكون عُدد الاجتهاد التشريعي عندنا أكثر منها عند مالك، وذرائع الابتكار الأدبي في عصرنا أوفر منها في عصر الجاحظ، ثم لا نجد فينا فقيهاً يجتهد بعض اجتهاد صاحب الموطأ، ولا أديباً يؤلف بعض ما ألف صاحب الحيوان؟ لقد كان مالك لا يملك من ثروة الحديث النبوي غير ما صحت له روايته منه، وكان الجاحظ لا يجد من مصادر الأدب العربي غير ما وقع من السماع فيه، ومع ذلك صار لمالك مذهب متبع في الفقه، وانتشر للجاحظ مذهب معروف في الأدب. أما نحن فبين أيدينا كل ما ورد عن الرسول من الأحاديث، وما روى عن الأئمة من الأحكام، وما أثر عن الفقهاء من

الكتب؛ وفي خزائننا كل ما خلف العرب وغير العرب من لباب الأدب وعصارة الفكر، ومع هذا اليسر في الوسائل وهذه القوة في الاستعداد لا ترى إلا فراغاً يثير الظنون ويغرى بالأزهر التهم

إن العلماء إذا استاروا بسيرة السلف في الإخلاص للعلم والانقطاع إلى التعليم يستطيعون أن يصلحوا فساد الطريقة ويكملوا نقص الكتاب ويصلوا بالأزهر إلى الغاية التي نرجوها من أداء الرسالة الإسلامية على الوجه الملائم لطبيعة العصر وعقلية الناس

وحينئذ كانت الساعة الثالثة، فلم أر من اللائق أن أعوق الإمام عن غدائه أكثر مما عقت، فاستأذنت وانصرفت وأنا موزع القلب بين الإعجاب بالمحدث والاغتباط بالحديث

احمد حسن الزيات

حديث الإسكندرية ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

في ليلة الاحتفال بالمولد النبوي أقامت جمعية الشبان)

المسيحية في الإسكندرية احتفالاً سمته (عيد الورد)، ودعت

إليه جماعة من أدباء القاهرة، وفيما يلي خطبة الدكتور زكي

(مبارك في ذلك الاحتفال

في هذا المساء أيها السادة يحتفل المسلمون بعيد المولد النبوي، وتحتفلون بعيد الورد، فالمسلمون يحتفلون بعيد الحق، وأنتم تحتفلون بعيد الجمال، والصلة وثيقة جداً بين الحق والجمال

أما بعد، فقد اقترح صديق عزيز أن تكون خطبتي عن الإسكندرية حديثاً ذا شجون، فما الذي ينتظر ذلك الصديق من تلك الشجون؟

أيكون لاحظ أنني كثير الحديث عن الإسكندرية، وأن هواي بها وصل إلى حدَّ الافتضاح؟ هو ذلك، ولكن هل يعرف لأي سبب تزداد شراهتي في انتهاب مفاتن الإسكندرية كلما سنحت الفرص في الصيف أو في الشتاء؟

السبب يرجع إلى أني دخلت الإسكندرية أول مرة وأنا حزين: دخلتها في قفص، دخلتها في سيارة مقفلة من سيارات السلطة العسكرية في أيام الثورة المصرية. دخلتها في الظلام، فلم أر من جمالها غير أطياف، ثم نقلني ذلك (السجن المتحرك) إلى مقرِّ الاعتقال في ضاحية نائية، هي اليوم ملاعب صبابة ومدارج فتون. ومن يصدِّق أن ضاحية (سيدي بشر) كانت معتقَلاً يُسجن فيه من هتفوا باسم الحرية والاستقلال؟

قضيت في هذه المدينة شهوراً طوالاً بدون أن أشهد من جمالها غير ما يطوف بالأوهام والظنون. ولن أنسى أبداً كيف كان هدير البحر يقرع سمعي وقلبي في غفوات الليل. ولن أنسى كيف فرحت يوم خرجت من المعتقل لأرى الإسكندرية بعينيّ، ولأطوِّف في رحابها حيث أشاء بلا حارس ولا رقيب، ولأقول لنفسي: إن شهور الاعتقال قد ذهبت إلى غير مَعاد. . .

هذا هو السبب في هيامي بالإسكندرية، ولن أشبع منها أبداً. فجنوني بها هو انتقام من الزمن الجائر الذي قضى بأن أراها أول مرة في ظروف أفظع وأشنع من أعمار الأحزان

أحب أن أفرح في الإسكندرية. أحب أن أرى فيها أيام نعيم بعد أن رأيت فيها شهور بؤس. أحب أن أراها وتراني في بشاشة وأريحية وصفاء. فخذي بزمامي إلى حيث تشائين، يا مهد الشهامة والنضارة والجمال

لك قلبي، يا إسكندرية، فامنحيني من العطف ما أنسى به تلك الأيام السود، أيام الاعتقال. واصفحي عني، يا إسكندرية، إن افتضحت في هواك، فما يكون تلاقينا إلا بَلْسماً لجرح عميق تعتادني آلامه من حين إلى حين. . .

أيها السادة

لمدينتنا هذه تاريخ وتواريخ

فيها وقعت أعظم فاجعة غرامية، وهي فاجعة صيرت الحب شريعةً من الشرائع. ألم يكف أن يصل اسم كليوباترة إلى جميع البلاد وأن تؤلف فيه المئات من الأقاصيص؟

ومدينتنا هذه هي التي حفظت ذخائر الفلسفة اليونانية بعد غفوة العقل اليوناني

ومدينتنا هذه هي التي عرفت الاستشهاد في سبيل المسيحية أعوامَ اضطهاد المسيحية

ومدينتنا هذه هي التي استقبلت طلائع الجيش الإسلامي وجعلت للإسلام دولة على شاطئ المحيط، وقد كان بحرنا هذا أول بحر خفقت فوقه الراية الإسلامية، وسيظل إلى الأبد صلة الوصل بين حضارة الإسلام في الشرق وحضارة النصرانية في الغرب، ولن تكون شواطئه الشرقية إلا بأيدينا مهما بغى الاستعمار واستطال

ومدينتنا هذه هي التي خلدت اسم من نسبتْ إليه. وما بناها الاسكندر كما يتوهم الجاهلون، وإنما بنى حيًّا من أحيائها، وسيأتي يوم لا يُعرف فيه مَن الإسكندر إلا بوصل اسمه الفاني بهذه المدينة الباقية على الزمان

وقد سميت باسم الإسكندرية مدن كثيرة في المشرق والمغرب، ولكنها ذهبت جميعاً، ولم يبق غير مدينتنا هذه لأنها مصرية، ومصر عريقةٌ في الخلود

أيها السادة

كتب أحد أدبائكم يقول إن الإسكندرية تقتل الروح الأدبي، وهو أديب لا أسميه لئلا أعرِّض سمعته للإيذاء، فهل ترونه على حق؟

اسمعوا ثم اسمعوا

في مدينتنا هذه خُلقت المعارضة السياسية بطريقة صريحة لأول مرة بعد الثورة المصرية. وفي مدينتنا هذه وجد الناس من الشجاعة ما يقاومون به سعد زغلول وكان اسمه قد ملأ جميع الأرجاء

وما يهمني أن أقول إن تلك المعارضة كانت بحق أو بغير حق، فلذلك حديث غير هذا الحديث، وإنما يهمني أن أقول إن أول معارضة ثارت في مصر بطريقة صريحة كانت المعارضة الموجَّهة إلى مشروع ملنر، وتلك المعارضة لم ترفع رأسها إلا في الإسكندرية بجريدتين سيذكرهما التاريخ وهما جريدة (الأمة) وجريدة (الأهالي) فكيف جاز أن يسيطر سعد زغلول على سائر المدن المصرية ولا يجد مقاومة في غير هذه المدينة؟

لا تتهموني بالعصبية للحزب الوطني، فأنا في نفسي أعظم من كل عصبية وإن اعتمدت على الحق، وإنما يهمني أن أسجل محامد مدينتنا هذه فأقول إن سكانها الوطنيين يرجعون في الأغلب إلى عنصريين اثنين: العنصر الوافد عليها من الصعيد وهو عنصر معروف بالعناد، والعنصر الوافد عليها من المغرب بعد سقوط الأندلس في أيدي الأسبان وهو معروف بقوة المراس، ومن أجل هذا ترون الإسكندريين الوطنيين قوماً غلاظ الأكباد يغضبون بسرعة ويستوحشون من الدخلاء كأهل المغرب وأهل الصعيد، أما سكان الإسكندرية من أهل الوجه البحري فهم أقلية، وهم مصدر اللطف الذي نلمحه في الإسكندرية من وقت إلى وقت في غبية الغضب واللجاجة والعناد

وهنا يسمح المقام بتسجيل خاطر غريب

في هذه المدينة الثائرة بالفطرة وبوحي البحر نرى شواهد من النظام لا نجده في أية مدينة مصرية

في هذه المدينة وضعت قواعد النظام للمعاهد الدينية، فأول معهد ديني نظامي هو المعهد الإسكندري، وقد أشرف عليه رجل صعيدي حادّ الطبع،، ولكنه في روحه مفطور

على نظام هو أستاذنا الجليل المرحوم الشيخ محمد شاكر الذي كان يرضي ويغضب في لحظات،
والذي كان يمثل قلق الإسكندرية، وحمية الصعيد، وسكينة القاهرة، ومن الإسكندرية نقل النظام إلى سائر المعاهد الدينية، وهو نظام ثار عليه الأزهر ثورة عنيفة لن أنساها ما حييت لأنها عطلتني من الدرس أسابيع وأسابيع قبل أن تولد عرائس هذا الحفل البديع
والمعهد الإسكندري ُمنسيٌّ في هذه الأيام، ولكن الذين عاشوا قبل الحرب الماضية يذكرون كيف استطاع أستاذنا الشيخ عبد المجيد اللبان أن يقيم به زعامة دينية يصل روحها إلى أكثر المدن المصرية
وإن كشف غطاء التاريخ فستعرفون أن الشيخ اللبان كانت له يد في تأريث الثورة المصرية، فهو الذي جمع بين أعضاء الحزب الوطني وبين حضرة صاحب السمو الأمير عمر طوسون، ومن تلك الحركة تهيأ الجو لحركات شهدتها سنة 1918 ثم استفحلت في سنة 1919 ثم ما كان إلى أن شهدتم سقوط الحماية وإعلان الاستقلال
فما معنى هذا؟ معناه أن الإسكندرية التي ألقى فيها مصطفى كامل أعظم خطبة وطنية هي الإسكندرية التي سبقت إلى الثورة على الأحكام العرفية في أعقاب الحرب الماضية والتي سنت لأهل مصر شريعة النضال في سبيل الاستقلال
وهل سمعتم بحديث الدكتور محجوب ثابت؟
بفضل الإسكندرية جاز أن يكون في مصر نائب عن العمال، وهذا شيء غريب في بلادنا ولم يقع أول مرة إلا في الإسكندرية. وله مدلول يشهد بأن مدينتنا هذه مدينة أصيلة في قوة الشخصية. ألم يكف أنها تحتفل الليلة بالمولد النبوي احتفالاً أفخم وأعظم من جميع الاحتفالات بسائر المدن المصرية؟ ألم يكف أنها أول مدينة في الشرق بعد القاهرة مع أن القاهرة تملك من السحر ما تعجز عنه جميع المدائن في الشرق؟
أيها السادة:
إن الحديث ذو شجون، فهل سمعتم أن الإسكندرية تسيطر في هذه الأيام على وزارة المعارف؟
قيل إن النقراشي إسكندري المولد. وقيل إن السنهوري إسكندري المولد. وقيل إن شفيق غربال إسكندري المولد، فهل هذا صحيح؟ إن صح هذا فانتظروا متى ثورة تزلزل رواسي الجبال، فما يرضيني أن يكون لمدينتكم كل هذا السلطان؟
ولكن ما الموجب للثورة وأنا أعرف مقاتل هؤلاء الرجال؟ فالنقراشي العنيد اسكندراني تأسره قوة المنطق، والسنهوري أضعف الضعفاء أمام القانون، وشفيق غربال يعجز كل العجز عن مقاومة الحق
وأرجوكم باسم الذوق ألا تظنوا أنني أجامل رؤسائي، فما خُلقت للمجاملات، وإنما أدلكم على مقاتل هؤلاء الرجال، وهذا ينفعكم أجزل النفع، يوم يبدو لأحدكم أن يستفيد من قوة الحق والمنطق والقانون
ومدينتنا هذه التي وضعت قواعد النظام للتعليم الديني هي أول مدينة بعد القاهرة تقوم فيها جامعةٌ مَدَنيّة في العصر الحديث فكان لها فضل السبق على المنصورة وأسيوط، مع الاعتراف برشاقة المنصورة ورزانة أسيوط
ولأول مرة في تاريخ مصر يُحرَم الوزراء بَدَلَ السفر حين ينتقلون لشأن من الشؤون، وما حُرِّم ذلك إلا بالنسبة إلى الإسكندرية، فهل كان ذلك لأن الإسكندرية تستهوي الوزراء فتحملهم على تكلف أسباب الانتقال؟ لا، إنما كان ذلك التحريم لأن الإقامة في الإسكندرية غنيمة من الغنائم، ومن واجب الدولة أن تمنّ على الوزير بأن مصالحها هيأت له الفرصة للإقامة يوماً أو يومين بالبلد الذي يَفتن في الصيف وَيشُوق في الشتاء
ومع أن الإسكندرية سبقت القاهرة إلى البلاء بقسوة اشتباك المنافع مع الأجانب فقد صحّ للإسكندرية أن تسبق القاهرة إلى استخلاص بعض المنافع من الأجانب، فأول (تِرام) سيطرت عليه الحكومة هو ترام الإسكندرية، وفي ذلك ما فيه من قوة الشخصية
والإسكندرية تفوق القاهرة في أشياء

فالوافد على الإسكندرية من الجنوب تَلقاه المنازل البيض الخفيفة الروح، وتَلقاه نخلاتٌ بواسق تأنس برؤيتها العيون، أما الوافد على القاهرة من الشمال فتلقاه منازل مهدَّمة تقبض النفس، فمتى تفطن حكومتنا إلى هذه الظاهرة؟ ومتى تمدَّ يدها لرفع تلك الخرائب وتحويلها إلى حدائق ورياض ليشعر الوافد على القاهرة بأنهُ مقبلٌ على مدينة تفهم قيمة الجمال؟

آن للقاهرة أن تعرف أنها تسئ إلى سمعة مصر بالعفو عن تلك الخرائب التي تواجه من يَقْدَم عليها من الشمال. آن للقاهرة أن تعرف أنه لا يجوز أن تلقى القادمين بغير الابتسام، وتلك الخرائب الشبراوية تُدخل على أرواح القادمين أثقالاً من الانقباض البغيض

أتذكرون المحطة القديمة، محطة الإسكندرية؟

لقد كان الداخل إليها يشعر بأنه يفد على أطلال، وقد عزّ ذلك على الملك فؤاد رحمه الله فأشار بأن يكون للإسكندرية محطة تناسب ماضيها الجليل وحاضرها الجميل ومحطة القاهرة هي رابع محطة في العالم من حيث الفخامة والرونق، فكيف يجوز أن ندخل إلى القاهرة في مضايق محفوفة بمنازل محرومة من نضرة النعيم؟

يجب أن تسارع الحكومة إلى تجميل مدخل القاهرة، فمن العيب أن تكون لها تلك الحواشي المطرَّزة بأكواخ البائسين

ويوم يتمّ ذلك أستطيع أن أتحدث في موضوع جديد هو تغيير الشاطئ الذي تدخل فيه البواخر إلى (عروس الماء)

فالشاطئ الذي يستقبل البواخر مطرَّزٌ بحواش يُقْذِى مرآها العيون. ويجب تغييره أو تجميله في أقرب فرصة، فما يجوز أن يكون أول ما يقع عليه البصر عند دخول الإسكندرية شوارع ضيقة ومنازل دميمة وحوانيت ترجع في تكوينها إلى ما قبل التاريخ

!!!الجَمال، الجَمال، الجَمال

ليس الحديث عن الجمال هزلاً، وإنما هو جِدٌّ صُراح، والأمم التي لا تقدِر الجمال لا تستحق نعمة الوجود

فهل خطر في بال من يثورون على التبرج في شواطئ الاستحمام أن من واجبهم أن يثوروا على الدمامة في مراسي السفائن؟

وهل فيهم من حدثته النفس بأن ينظر في البقعة الموحشة التي تستقبل الوافدين من روما ولندن وباريس وبرلين؟

!أين المحافظ وأين مدير البلدية وإليهما يتوجه من يتألمون من التبرج في الشواطئ؟

هل عند هذين الرجلين علمٌ بما نعانيه حين ندخل مدينتنا هذه بعد قضاء شهور أو أعوام في ديار الغرب، الغرب الذي يرى الزينة مطلوبة في جميع المواطن وجميع الأشياء؟

قلتم في الدعوة إلى (عيد الورد) إن الإسكندرية لها حقٌّ على الجميع. فمن حقي عليكم وعليها أن تسمعوا وتسمع هذا القول وأنا أدعو إلى تغيير أو تجميل موقع الميناء، فأين من يسمع وأين من يجيب؟

الحديث ذو شجون، أليس كذلك؟ فما الذي يمنع من القول بأن مدينتكم أخلفت الظن بها كل الإخلاف؟

هل تصدقون أن مدينتكم هذه كان لها صوت صحفي مسموع في أيام مصطفى كامل وأيام سعد زغلول؟ فأين صوتها اليوم وهي صدى لأصوات القاهرة؟

أنا أعرف أن الساعة الثامنة صباحاً والساعة السابعة مساءً موعدان لقدوم الجرائد والمجلات وأحسُّ لوعة الشوق إلى هاتين الساعتين لأنهما موعد اتصال الإسكندرية بالقاهرة، ولكني أتوجع كلما تذكرت أن الحكومة المصرية التي تُعسكِر بالإسكندرية في الصيف لا تسمع صدى أصواتها إلا بفضل جرائد القاهرة، فمتى يستيقظ النائمون من أهل هذا الثغر الجميل؟

أيها السادة

أترك حديث المؤاخذات إلى حين، والتفت إلى حديث القلب فأقول: سيأتي يوم قريب يجتمع فيه زعماء مصر حول شواطئ بحر العرب الذي سُمِّيَ خطأ بحر الروم، وسيقام في الإسكندرية مؤتمر يؤلف بين أهواء الرجال ويغسل الضغائن ويدفن الحقود

ويومئذ نقيم (عيد الورد) وفي ليلة الاحتفال بعيد (المولد النبويّ)

ويومئذ نطمئن إلى أن بحرنا يسمى (البحر الأبيض المتوسط) لأنه جمع بين بياض

القلوب، وتوسِّط في جمع أهواء النفوس
ويومئذ ننسى أن الهيام بشواطئ الإسكندرية يجرح رجال الدين، لأننا سنكون يومئذ ملائكة رفع الله عنهم إصر التكليف المستقبل لنا، بإذن الله صاحب العزة والجبروت
وهذا البحر لنا، بإذن فاطر الصباحة والملاحة والجمال
ومصر لنا، بفضل سواعدنا وعزائمنا وقلوبنا
فمن أراد بنا السوء فلينتظر غضبات الأسود عند جياع الأشبال.
نحن حفظنا مصر للعروبة والإسلام ثلاثة عشر قرناً، وسنحفظ لأبنائنا وأحفادنا وأسباطنا هذا التراث الغالي. والله مع المجاهدين.
زكي مبارك
في سبيل الأزهر
اعتراف ورجاء
للأستاذ محمد محمد المدني
المدرس بكلية الشريعة
كتب الأستاذ الكبير صاحب الرسالة الغراء، سلسلة من مقالاته القوية الممتعة في الأزهر وما يتصل بالأزهر من فقه ودراسة وخلق
وقد أثارت هذه المقالات في نفسي باعتباري مسلماً، وعالماً، ومدرساً في الأزهر، عاملين مختلفين: أحدهما عامل الأسف والحزن والخجل من هذا السيل المتدفق الذي ينصب على رأس الأزهر في الحين بعد الحين، بل مع كل مطلع شمس ومغربها، حتى أصبحنا لا نقرأ مقالاً، ولا نستمع إلى حديث، ولا نتصفح كتاباً إلا رأينا فيه لوناً من ألوان النقد العنيف موجهاً إلى الأزهر في جموده وخموله، وركود الحياة العلمية فيه، وقصوره عن مجاراة الزمن، ومسايرة الحضارة العلمية التي رجت العالم، وتغلغلت في كل نواحي الحياة!
أما العالم الثاني فهو عامل الأمل والرجاء، في أن هذه العلل ما دامت غير مستحكمة ولا متأبية على الإصلاح، فهي قابلة للشفاء، وأن هذه الوخزات ما دام يحس بها أبناء الأزهر فهي دليل على الحياة فيه، وهي لا بد ستوقظه من سباته العميق، وستحمله على أن ينفض عن نفسه غبار هذا الكسل، وينخلع من هذا الثوب البالي الذي جلله بالعار، وديثه بالصغار، وسامه الذل والهوان!
لقد ساءلت نفسي: أحقاً أن في الأزهر كل هذه العيوب التي يرميه الناس بها، أم أنهم يتجنون عليه ويتندرون على حسابه؟
وسرعان ما أجبت عن هذا التساؤل، فاعترفت بكثير من هذه العيوب، وعذرت الذين يلومون:
في الأزهر من غير شك نواحي نقص عظيمة، ويجب أن نكون صرحاء إلى أبعد حدود الصراحة. وإذا جاز لكاتب مهذب كالأستاذ الزيات أن يجامل الأزهر، فلا يذكر كل ما يعرفه من عيوبه، حين يتناوله بالنقد، فإن ذلك لا يجوز لأزهري يصطلي ليله ونهاره هذه النار المحرقة التي لا مناص له من اصطلائها بحكم عمله وطبيعة اتصاله ببيئته
لقد تدبرت هذه النواحي التي من أجلها يلام الأزهر ومن قبلها يؤتي، فوجدت أهمها عقيدة الأزهر في نفسه وأسلوب الدراسة فيه.
فالأزهر مازال - على الرغم من بزوغ شمس الإمام المراغي في أرجائه - يدير حركته الفكرية على نحو من التعصب الجامد لكل ما يعلم، والرفض الجامد لكل ما يجهل. وما يزال فيه من يقول: كفر فلان، وألحد فلان، وتزندق فلان، لأنه أخذ برأي غير مألوف، أو خالف شيئاً قال به إمام من الأئمة السابقين!
وليس هذا التكفير والحكم بالفسق والزندقة شيئاً يرمى به غير الأزهريين فحسب، ولكن للأزهريين منه نصيباً غير قليل! وإنك لتري غباراً يتطاير وشرراً يلمع، وتسمع دوياً يملأ أذنيك وضجة تدور من حولك، فتقول لنفسك هذه معركة علمية قد احتدمت، ولا بد أن تنجلي عن حقيقة يحسن السكوت عليها كما يقولون، أو عن فكرة إصلاحية تفيد منها الأمة فائدة تحفظها لرجال الأزهر
ويصدق ظنك من بعض نواحيه، فإذا هو عراك ولكن في غير معترك، وشجار ولكن في غير مشتجر، ثم تنجلي هذه المعركة كما بدأت، فلا الحقيقة العلمية وصلت إليها، ولا الأمة أفادت ما كان ينبغي أن تفيد؛ بل قل إنها تنجلي عن حالة هي أسوأ مما بدأت.

فإذا كانت المعارك الحقيقية تسفر في كثير من الأحيان عن كذا من القتلى، وكذا من الجرحى؛ فإن معاركنا الأزهرية تسفر كذلك عن كذا من الكفرة، وكذا من الفسقة، وكذا من الجهلة. . . الخ

لست مبالغاً، أيها القارئ، وإنها للحقيقة المرة

لقد قال بعض العلماء رأياً في (الشيطان) في حديث له أذاعه بالراديو، خلاصته: أن (الشيطان) قد ورد ذكره في القرآن على أساليب شتى، وأن المعنى المشترك في كل الآيات التي عرضت للشيطان، أنه قوة الشر وعنصر الفساد في هذا الوجود

وهذا الرأي الذي يدل على تفكير ناضج وعقل رشيد، ويلتئم مع أحدث الآراء العلمية الصحيحة، ولا يعارض في نفس الوقت شيئاً صريحاً من الدين - لا يمر كما يمر سائر الكلام، ولكن يوقف عنده، لا ليشكر صاحبه على توفيقه بين نصوص الدين وآراء العلم، ولكن ليُتهم بمخالفة النصوص، وإنكار ما في القرآن، والخروج على الأحاديث!

ولولا أن صاحب الرأي رجل قوي، محترم الرأي، مرموق المكانة، لا يؤكل لحمه، لترددتْ في هذا المجال كلمات الإلحاد، والفسوق، والزندقة، والمروق، ولكن الله سلم!

على رسلكم أيها السادة! لماذا تفرضون دائماً في كل من يخالفكم في الرأي أنه سيئ النية، متهم الغرض؟ ولماذا تفرضون دائماً في أنفسكم أنكم قد وصلتم في كل ما زعمتم إلى الحق، فتدخلون في كل بحث وكل نقاش على هذا الأساس ومع استحضار هذه الفكرة

وعمن أخذتم هذه الطريقة؟ أعن كتاب الله، وهو الذي يعظم شأن البرهان ويحكم العقل في كل شئ حتى في الإيمان بالله وينهى عن التنابز بالألقاب؟

أم عن الرسول صلى الله عليه وسلم وقد كان المثل الأعلى في حلمه وسعة صدره وصبره على الحوار والجدال؟ ألم يكن الأعرابي الجلف يأتيه فيناديه باسمه المجرد، ويغلظ له في القول، ويعنف عليه في السؤال، فلا يفسد ذلك من حلمه، ولا يوهن من صبره؟

فإذا لم تكونوا قد أخذتم هذه الطريقة عن الله ورسوله فعمن أخذتموها؟ أعن علماء السلف ورجال المذاهب الأولين الذين كانوا يتناقشون ويتحاورون ويرجع بعضهم إلى رأي بعض، ويخالف بعضهم بعضاً، فلا يدفعهم ذلك الخلاف إلى تجريح أو تكفير؟

أم أخذتموها من كتب البحث والمناظرة التي قتلتموها بحثاً وأفعمتموها شرحاً، ولست أذكر أن فيما رسمت من أساليب الحوار سوى التدليل ودفع البرهان بالبرهان ومنع المقدمات. . الخ وليس فيها الوصف بالخروج على الآيات وإنكار الأحاديث!

هذا معنى في الأزهر ما زال موجوداً، وهو موجود على أشده في بيئة أزهرية معنية يعرفها الأزهريون ولها صلة وثيقة بالجمهور!

فإذا رجعت إلى أسلوب الدراسة والكتب المقررة وجدت العجب العجاب. وكلمة (العجب العجاب) هذه كانت تقال في زمن عبد القاهر الجرجاني وأبي هلال والشاطبي وغيرهم. كانوا يقولونها في نقدهم لآراء مخالفيهم؛ أما في عصرنا الحاضر، حيث النظريات الصحيحة الثابتة في شتى نواحي العلوم، وحيث السرعة والحرص على الزمن، فإني أرى كلمة (العجب العجاب) غير كافية للتعبير عما أقصد. وأعترف بالعجز عن اختيار لفظ مناسب يوصف به هذا التسكع العلمي الذي نسميه دراسة، مع أن الدراسة دائماً تنتج الوضوح وحل المشكلات، وهذا التسكع يقوم دائماً على التعقيد وخلق المشكلات!

لو أردت أن أضرب أمثلة كثيرة لهذا النوع من الدراسة، لأتيت بالكثير ولوجد فيه قراء الرسالة طُرفاً لا تدور لهم بخلد، ولا تخطر لهم على بال، ولكني أكتفي الآن - والآن فقط - بأن أصف ما كان لذلك من أثر تحس به مناهج الدراسة!

مازال علماء بعض الكليات يقرءون في المنطق من أول العام إلى اليوم، (وأرجو أن يلاحظ القراء أنه لم يبق من العام الدراسي إلا أيام معدودات)، فلم يخرجوا بعد عن مقدمات هذا العلم، ولم يصلوا إلى بحث من صميم أبحاثه!

وما زال الذين يدرسون علم الأصول من أول العام يتحدثون عن أدلة التشريع. أستغفر الله، بل يسردون أدلة التشريع التي هي الكتاب والسنة والإجماع والقياس، فأين هم اليوم؟ إنهم لم يتجاوزوا تعريف الكتاب تعريفاً فنياً إلا منذ عهد قريب، ومضى العام في

معرفة ما هو علو الأصول، وما منزلته بين العلوم، وما ثمرته، الخ. بل ليس في هذه الموضوعات خالصة، فإن فيها على كل حال بحثاً علمياً مفيداً، ولكن في العبارات التي عبر بها المؤلف عن هذه المسائل، وفيما نقده من هذه العبارات شراح الكتاب وحواشي الكتاب! فأي ضياع هذا الضياع؟ وعلى حساب من؟
لماذا نحتفظ بأمثال هذه الكتب، ونحرص عليها، وفيها هذا الإرهاق وهذا البطء؟ ولماذا نأزم بها أنفسنا وأبناءنا؟ ألأنها أثرية؟ فأقيموا معهداً للدراسات الأثرية إن كنتم حريصين على الدراسات الأثرية إلى هذا الحد
هذه بعض العيوب التي يحس بها الأزهريون الناهضون أنفسهم قبل أن يحس بها الناس لهم. وفي الأزهر شباب ناهضون مستعدون للإنتاج والعمل، شباب أحسن الأستاذ الزيات في تسميتهم (شباب المراغي) لأن الأستاذ الإمام هو قائدهم الروحي، ليس في الإدارة فقط، ولكن في العلم والخلق والإصلاح
ولقد وجد فيه الأزهر الحديث ضالته المنشودة، فهو أول شيخ للأزهر لا يتعصب على الثقافة الحديثة. وهو أول شيخ للأزهر اشترك اشتراكاً عملياً في التشريع لخير البلاد. وهو واضع قانون الطلاق ومذكرته التي هي المثل الكامل للفقيه الذي تتطلع إليه آمالنا. وهو الذي اشترك اشتراكاً فعلياً في إلقاء الدروس على طلبة كلية الشريعة، لتكون مثالاً يحتذى، ويمضي على سننه المدرسون
وهو في كل هذا وبعد كل هذا القدوة الحسنة لعلماء الأزهر وشبابِ الأزهر في تفكيره، وخلقه، وعلو همته، وسمو أغراضه
فمادام الأستاذ الأكبر المراغي يقود الأزهر، وما دام (شباب المراغي) مؤمنين بروحه، مقتفين لآثاره، فإن في الأزهر حياة، وفي إصلاحه أملاً إن شاء لله
وليستبشر الأستاذ الزيات، فان صرخته قد وجدت صداها، ولن تضيع!
محمد محمد المدني
خواطر يثيرها سائل
للأستاذ عبد المنعم خلاف
- 2 -
عودة إلى قيمة الإنسان - نظرية النشوء والترقي - سعي الإنسان للخلود - الانقلاب الإسلامي - انقلاب القرن السابع عشر - لماذا التشاؤم؟ - دين الله بغير عنوان - بعض أسباب الإلحاد - ثياب رجال الدين - وحدة التعليم الديني والمدني - جنايات الجمود في عصر إسماعيل
لما كتبت كلمتي الأولى تحت هذا العنوان آثرت أن أبدأ الحديث فيها بدفاع سلبي عن فكرة الدينية، وطلبت من حضرة السائل (البيروتي) أن يوازن بين حياة الإيمان وحياة الجحود كفرضين عقليين، وهو مجرد من أي تأثر نحو أحدهما، ولم أتعرض للمبحث الإيجابي في الأصول الأولى للدين - وهي: الإلهية، والنبوة، ومصير الإنسان إلى حياة أخرى - إنما أعطت السائل - ويلوح لي من كتابته إلى أنه من الدارسين للدين والفلسفة والتصوف والعلوم - إلى فكره هو أولاً، وإلى المقالات الإيجابية التي سبقت لي عن الإيمان، ثم بسطت الحديث في قيمة الإنسان، لأنها في رأيي أساس الاعتراف بكل الحقائق الدين والعلم والفلسفة.
وكنت أرجو أن تكون قراءة أمثال هذه البحوث، قراءة غير سطحية، حتى يتفطن القارئ لجميع حلقاتها، ويخلص إليه منها نتائج واضحة محدودة، ولكن - مع الأسف - جاءتني رسالة أخرى من مجهول آخر هو (ح. م)، يلفت نظري فيها إلى حياة مجتمعات النحل والنمل، وكثير من الحيوان والحشرات التي تعيش في نظام محكم لا تحيد عنه، ويبدو منها فيه إدراك واختيار. . .
وأنا لم أجهل نظم الحيوان والحشرات التي أشار إليها، بل إني مغرم بقراءة المباحث التي فيها، ولم أنكر عليها الإدراك والاختيار في مرافق معيشتها. وقد قال القرآن قبل أن يقول
العلم: (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم). . .
ولكني أنكرت أن يسوي بين حياتها وحياة الإنسان أبي العجائب. . . الإنسان الذي يفكر فيها ويدرسها ويصورها ويكتب عنها ويتصرف فيها ويتغلب عليها، وهي لا تفعل شيئاً من

ذلك! الإنسان الذي يولد وهو أقل منها قدرة على التغذي والدفاع عن نفسه، ثم ينمو ويترقى إلى ما لانهاية له في الفكر والعلم بما يزيد عن ضرورات حياته، بينما هي تقف في نموها وإدراكها عند حدود حفظ حياتها. . . الإنسان الذي خلقت هي له بدليل تسخيره لها في خدمته، ولم يخلق هو لها بدليل أنها لم تتغلب عليه وتسخره وتتصرف فيه. . . الإنسان الذي خطأ في خمسة آلاف سنة - هي عمر التاريخ الذي نعرفه - خطوات واسعة ثابتة متلاحقة، فتغيرت حياته من العرى والبساطة في المسكن والملبس والمدرسة والحرفة والعبادة، تغيراً عجيباً يكاد يجن منه آباؤنا الأولون، لو بعثوا ورأوا ما وصلنا إليه. . . بينما الحيوانات والحشرات واقفة كما هي منذ عهد أجدادنا الأولين بها.

وهنا الدليل القاطع على وجود روح سام من الله في الإنسان يدفعه إلى الأمام دائماً في هذا العالم، حتى يكشف عن كل سر في الطبيعة ويتصرف فيه، يدفعه إلى إدراك الكمال التام الذي ينتظره في عالم آخر.

فإن لم نعترف بقيمة سامية الإنسان خارجة عن نطاق حياته الحيوانية، فسوف تختلط أمام الفكر المثل، وتلتوي السبل، ونضل ضلالاً بعيداً يؤثر في خدمتنا للعلوم والآداب الرفيعة والعمران تأثيراً رديئاً.

وإن سوء الفهم لنظرية النشوء والترقي من أكثر الذين درسوها دراسة سطحية هي التي لونت نظرة الكثيرين إلى قيمة الإنسان بهذه الألوان المزرية التي تبعث على تحقيره وإسقاطه عن العرش الذي أجلسه عليه الدين منذ أقدم العصور. فبناء على تلك النظرة المبنية على سوء فهم للنظرية ذهبت عن الإنسان قداسته، واختلت مقاييس الأخلاق وموازينها، وكان في هذا أكبر دافع إلى التحاكم إلى قوانين الأدغال التي لا مجد فيها إلا للقوة العمياء والشهوات، والسيطرة الوحشية التي لا تعترف بخدمة الفكر، والعلم، ولذة الحياة في مثل أعلى.

وعلى فرض ثبوت نظرية النشوء - وهي للآن لا تزال فرضاً نظرياً يحتاج إلى حلقات مفقودة ليصير حقيقة علمية - لا يجوز لنا أن نخلط بين الحياة الآلية التي هي (مضروب مشترك) في أجسام جميع الأنواع، وبين الروح الإنساني الملموح في رقي الإنسان الدائم السريع، ونزوعه المستمر إلى العالم الأكمل، ونفاذ فكرة في عالم المعاني المجردة، التي تبدو عجيبة رائعة في الرياضيات العليا والخفقات الروحية العليا، والمثاليات العليا التي لا يمكن تفسيرها تفسيراً (بيولوجياً) أو (فسيولوجياً)

ولقد أحس الإنسان حتى في عصوره جهالته بتفرده وامتيازه على سائر ما يحيط به في الطبيعية إذ وجد نفسه أقوى قدرة، وأوسع حيلة في التغلب على المشقات، وفي الرقي بالحياة رقياً مطرداً، ولذلك لم يستطع أن ينظر إلى القبر كأنه نهاية أبدية لتلك الحياة؛ بل وجد في إلهامه أن لابد وراء موته من امتداد لحياته على أسلوب آخر أو على أسلوب الدنيا. . .

فما بال الإنسان يشك الآن في قيمته السامية بعد أن تضخم أمامه ميراث علومه وآدابه، وعمر الأرض عمراناً، وافتن فيها افتناناً وصار فطناً لما فيها من جمال وأسرار؟!

إنه ما فتى منذ وجوده وهو يسعى لخلوده ليظل مغموراً بهذا الإحساس العجيب بالحياة، ولم يكن يستطيع أن يتصور الخلود في أول الأمر بأكثر من أن يعطي شعلة حياته إلى ولده. وقد وجد في ولده أكبر عزاء له عن موته وفنائه؛ ولكنه لم يقنع بهذا بل ظل يبحث جاهداً عن وسائل خلود جسده هو بذاته، فحنطه ونقش صورته على الألواح والتماثيل، ثم خطأ خطوة أخرى فخلد فكره بالكتابة، ثم خطا خطوات متلاحقة في العصر الحديث نحو هذه الغاية فخلد صورته الحقيقية (بالفوتوغراف) وصوته (بالفوتوغراف) وأنغام نفسه (بنوتة) الموسيقى وحركات جسمه بالسينما، ثم تصرف في الصوت والصورة والحركة ونقلها على أمواج الأثير فاخترق الحدود والكثافات بالراديو والتلفزيون في أقل من لمحة، ثم هو الآن يتجه ببحوثه إلى عالم الروح لعله يستطيع أن يتصرف فيها. . . والله أعلم بمستقبل هذا النوع العجيب الذي ارتضاه خليفة له في أرضه. . .!

فأنت ترى أنه مشغول دائماً بخلود حياته إذ يحس إحساساً فطرياً وعقلياً أنها لا يليق بها الفناء الأبدي الذي يرجعها إلى العدم المطلق. . .

وأحب أن ألفت الفكر إلى أمر هام جداً وذي قيمة كبرى في النظر إلى قيمة الإنسان: وهو
أن الحياة هذا النوع منذ ابتداء تيقظه لها في العصر التاريخي، وتقييد خطواته فيها حياة مطردة الرقي سائرة بسرعة إلى الوضوح والانكشاف وتحقيق الغاية من خلق النوع ولقد عاش أدهاراً طويلة وهو يجهل أجناسه وأنواعه، غائباً في أوطانه الضيقة يحسبها هي وحدها كل الدنيا، لا يعلم حدود اليابس والماء، منثوراً لا رابطة تجمعه، جاهلاً بما في الكون من عوالم وأسرار، وقد كانت أديانه أدياناً خاصة. كل قرية فيها نذير يسدد حياتها بحسب ظروفها هي وحدها

ولقد كان الانقلاب الإسلامي قمة النضوج في العقيدة الدينية إذ جعلها عقيدة دولية وضع فيها الأسس لوحدة البشر، وتلاقيهم على معان مشتركة حتى يتأتى من وراء ذلك السعي إلى وحدة العمل والخدمة المشتركة، ولذلك لم تقبل الأرض أن يأتيها هدى من السماء على يد رسول بعد رسول الإسلام، وقد علم الله ذلك فأغلق باب الوحي وجعل محمداً (خاتم النبيين)، وقد صدق الزمان ذلك فلا مجال للجدال. ولم تعد الإنسانية تقبل ظهور البطل في صورة نبي، وقد فطن إلى ذلك (كارليل) في كتاب الأبطال، وهذا هو معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبة الوداع: (إن الزمن قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض) أي أن الإنسانية قد بدأت بعد الانقلاب الإسلامي دورة زمنية جديدة، وحقاً يجد كل من يتفرس ويستقرئ التاريخ أن عصراً عقلياً جديداً قد ابتدأ بظهور الإسلام وانفساح الإمبراطورية العربية التي احتضنت جميع علوم العالم القديم ومعارفه وأنمتها وحملتها إلى العالم الحديث. فالانقلاب الإسلامي ينبغي أن تجعله الإنسانية بدء تاريخ رشد للعقل ووحدة للدين، وستفعل ذلك في يوم لا ريب فيه

والآن صارت الأرض كقطر واحد بأدوات الاتصال السريع وكل أمة تعلمت لغات غيرها، وارتبطت مجموعات كبيرة من الأمم برباط واحد. واختلط الأبيض بالزنجي والشرقي بالغربي وسكان الجزر النائية الغائبة في المحيطات بسكان للقارات، وصار الإنسان العادي يطلع في كل صباح ومساء على أخبار العالم الأرضي كله، ويرى حياة جميع الأمم في السينما. . . وهذه كلها مقدمات لنتائج لا شك فيها عند من يقيس ويعتبر بالماضي

وإذا ثبت أن الانقلاب الإسلامي كان بدء عهد عقلي وقلبي للإنسان، فقد ثبت أن القرن السابع عشر الميلادي كان بدء عهد عملي وعلمي له. وبذلك طار الإنسان بجناحين قويين
من الحياة الفكرية والحياة العملية إلى الغاية من خلقه

فليس من الصواب ولا من الإنصاف أن ننظر نظرة تشاؤم إلى حاضره ومستقبله بعد أن رأيناه يبني حياته على العلم والفكر والنظام بناءً كان يعد في الماضي من أعمال السحر والإعجاز وخوارق العادات. . .

ومن النظر العامي أن نزعم أن الإنسانية الآن أحط منها في الماضي. . . ولست أدري ما مبعث هذا الزعم؟ أهو ملاحظة فساد في العقيدة الدينية؟ إن العقيدة الدينية الآن أصح منها في الماضي؛ فهي في أكثر الأمم المتعلمة بعيدة عن الشرك والوثنيات والخضوع الأعمى للكهنة. . . وما أصدق أن عاقلاً يخلي الطبيعة من عقل يدبرها ولكنه ليس إله الكهنة؛ وعما قريب يذهب ما في بعض الأديان من بقايا الوثنية والإشراك ولن يبقى للإنسانية إلا دين الفطرة والعقل بغير عنوان من يهودية أو مسيحية أو بوذية أو غيرها. وهذا هو المعنى الحرفي اللغوي لكلمة (الإسلام) (فالإسلام) ترجمة ل - (دين بغير عنوان). فأي أمري، يؤمن بخالق واحد للطبيعة ويحسن العمل في الدنيا فهو (مسلم) والمعنى الحرفي لكلمة (إسلام) هو الانقياد لحكم الله في الطبيعة

وأقرأ إن شئت: (وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم. . . قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين. بلى من أسلم وجهة لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون). . . والآيات كثيرة في هذا، ولا محل الآن للخوض في هذا الموضوع. . .

وقد صارت الأديان التي تحتضن بقايا الوثنيات تختفي وتفر من نور العلم والفكر الحر ويزعم سدنتها أن الدين لا مناقشة، ولا تحاكم للعقل فيه. . . وهذا أول الاعتراف منهم

بأنهم على باطل عما قليل يذهب مذموماً مدحوراً إلى قبور الخرافات والأباطيل
وأؤكد أن كثرة حوادث انفلات المتعلمين من العقيدة الدينية ليست ناشئة من أن
عقولهم لم تقتنع بالأفكار الأولية الرئيسية فيه. . . وإنما منشؤها أن هذه الأفكار
الرئيسية قدمت لهم في هلاهل من الخرافات والمتناقضات والألغاز، ولأنهم وجدوا أن
تاريخ رجال الدين مع الأسف الشديد تاريخ مملوء بالجمود ومواقف العداوة للعلماء
الطبيعيين الأولين الذين كان لهم فضل الاهتداء إلى مفاتيح العلوم التي نالت الإنسانية
منها كثيراً من الخير والبركات
وصار رجال الدين الحاليون أنفسهم يتمتعون بها ويأخذون بمنافعها كما يأخذ سائر
الناس بعد أن كان أسلافهم يصبون عليها شآبيب السخط واللعنات ويحرقون وينكلون
. . .بمن يجرؤ على التحدث عنها في الفلتات بعد الفلتات
ومنشؤها كذلك أن رجال الدين منعزلون عن حياة أكثرية الناس لهم لباس خاص
ويكادون يكون لهم منطق خاص بهم وحدهم. والحياة الحالية حياة عظيمة السلطان
على النفوس تغري جميع بنائها بالاندماج في موجاتها، وتعد من يعتزلها وينأى عنها رجلاً
فيه مس ونقص وشذوذ. وكل مخلص للدين مقدر آثاره في الحياة وفقرها إليه
وفسادها بدونه، يرى من الخطر أن يظل لرجال الدين ثيابهم الكهنوتية وطقوسهم التي
ما أنزل الله بها من سلطان لأنها توهم الناس أن الدين في تلك الثياب والرسوم
العجيبة، ويرى من الخطر أيضاً أن يفرق شباب الأمة فئتين: فئة لعلوم الدنيا منذ
التعليم الابتدائي وفئة لعلوم الدين منذ التعليم الابتدائي. وليس بين الفئتين مرحلة
يسيرون فيها جنباً إلى جنب حتى يتنفسوا في جو واحد ويقيسوا بمقياس واحد. وإذا
كان هذا التفريق قبيحاً في أي أمة فهو في الأمة الإسلامية أقبح القبح! لأن الإسلام هو
المعيشة بالجسد والروح عيشة متناسبة، وهو دين يجعل التمتع باللذات المحللة عبادة
إذا ذكر اسم الله فيها. . . ويجعل خدمة العلوم الدنيوية المفيدة فرضاً يحاسب الله
على إهماله، ويطلب من الإنسان أن يعيش عيشة رحبة عميقة بكل قوة في تكوينه.
فلماذا التفريق في التعليم وفي اللباس تفريقاً يوحي إلى النفوس بمعان من التعصب
!والانحياز، ويلقى في روع الناس أن حياة الدين منفصلة عن حياة الدنيا؟
إن اليوم الذي توحد فيه برامج التعليم في المرحلتين الابتدائية والثانوية في جميع
المدارس المدنية والمعاهد الدينية بحيث تحتوي البرامج على التربية الروحية التهذيبية
والعلوم المفيدة للجميع. ويوحد فيه الزي بين أبناء الأمة جميعاً سواء أكان عمامة
للجميع أم أي لباس للجميع، هو اليوم الذي تصير فيه الحياة الفكرية والروحية مزيجاً
مؤتلفة فيه جميع عناصر الحياة اللازمة لكل نفس بدون تكلف أو احتراف. وهذا هو ما
كان عند الرعيل الأول من المسلمين في زمن الرسول وخلفائه. فقد كان الرسول
جندياً مع جنوده، وعاملاً بيده مع عماله، وعابداً وحاكماً ورجلاً يعيش بجميع قوى جسده
ونفسه، يلبس جميع ألوان ثياب قومه، ولم يكن يتميز على أصحابه في شئ من
السمات الظاهرة. فمن تبعه صار
يلبس مثله. ولذلك كانوا كلهم في مظهرهم رجال الدين ودنيا يتفاضلون ويتمايزون
بالعقل وكثرة العلم لا بالسمات والشارات. فمن كان عنده علم من الدنيا أفتى فيه
وبذل منه وعرفه الناس به فقصدوه من أجله، ومن كان عنده علم من الدين أفتى فيه
وبذل منه عرفه الناس به فقصدوه. وليس وراء ذلك فارق ما. فلا جرم بعد ذلك ألا
تكون هناك شقة خلاف وهوة شقاق بين الدين والدنيا عند المسلمين الأولين بمثل ما
هما عند المسلمين المتأخرين الذين ورثوا ميراث هذا الخلاف عن أمم الغرب، وزعم
المبطلون أنه أصل عندنا كما هو عندهم
وقد كان من الواجب - لو فطنت الأمم الإسلامية - أن تظل الدراسات الكونية ضمن
نطاق العلوم التي تدرس في المعاهد الدينية، كما كان الشأن عند المسلمين في
الدولة العباسية والدول التي تلتها إلى أن جاءت نظم العصر الحديث في عهد محمد
علي. إذاً لظل العلم بما في الدين وما في الدنيا وحدة غير مجزأة يخرج الإنسان
المتحلي بها كامل القلب والعقل تلتقي عنده الثقافات ويمرن على التوفيق بينها، وبناء
الحياة الاجتماعية عليها. فما كان عند المسلمين سبب يدعو إلى التفريق في المعاهد
وإخراج علوم الدنيا عن نطاق الدراسات الدينية. وقد ظل الأزهر والنجف والزيتونة،
وجامع القيروان، ومساجد بغداد، ومعاهد الشام يدرس فيها الفلك والحساب،

والرياضيات والطب، والطبيعيات والموسيقى إلى أن أتى العصر الحديث.
وقد كان المتعلم لا يخرج إلا من هذه المعاهد وأمثالها. ولذلك أخذ محمد علي - منشئ دراسات العلم الحديث في البلاد العربية - أغلب أفراد بعثاته إلى أوربا من طلبة الأزهر، إذ كانوا هم الطبقة المثقفة من الشباب. وقد كان بعض العلوم الدينية يدرس في عهد محمد علي في المدارس التي أنشأها للهندسة والطب وغيرهما
ولكن جمود بعض المشايخ في عصر إسماعيل وامتناعهم عن إدخال العلوم الحديثة بنظمها الأوربية في الأزهر، هو الذي جني على الإسلام كما جني عليه امتناعهم عن إنشاء قانون مستمد من جميع مذاهب الشريعة الإسلامية يساير روح العصر الحاضر ويكون منطبقاً على ما جد في الحياة من مشاكل ومطالب. حتى اضطروا إسماعيل إلى فتح مدارس خاصة وإنشاء محاكم تحكم بغير الشريعة الإسلامية
،إن الأوربيين اضطروا إلى انتزاع دراسة العلوم الكونية من أحضان الأديرة والكنائس لأنها لا تسمح بالاعتراف بالحقائق التي تناقض وتهدم تعاليمها، بل كانت تئدها في مهدها، حتى جاءت الثورات الإصلاحية التي ألزمت الكنيسة حدودها، وجعلت الناس يدخلون الكنيسة بعقل خاص، ومعاهد العلوم بعقل آخر. ونحن المسلمين ولله الحمد لم تحدث عندنا معارك وخصومات بين الفريقين تجعل العلاقات بينهما مستحيلة، وليس في ديننا ما نخاف عليه من حقيقة كونية، بل بالعكس ديننا يخدم بالعلم الطبيعي. فلا يصح أن نفرد هذا بمعاهد خاصة وذاك بمعاهد أخرى. بل الواجب أن يسير جميع التعليم في مجرى واحد إلا في مرحلة التخصص
وفي هذا تدارك سريع لحالة تخشى عواقبها على الدين والأخلاق، وفيه توحيد وتوجيه لقلوب الشباب وعقولهم إلى مثل أعلى واحد. وفيه توكيد لذلك المعنى السامي العظيم: وهو أن الدين عندنا عقل وعلم، والعلم عندنا دين وخلق.
(القاهرة)
عبد المنعم خلاف
زفرة مصدور!
للأستاذ علي الطنطاوي
إلى أخي شكري فيصل:
قرأت كلمتك التي أوحى إليك الحنين معناها، فوعيت وحيه وبلغته (الرسالة) وأهديته إلى صاحبها فأثارت قراءتها ألماً في نفسي دفيناً، وبعث فيها شكاة ميتة، فأخذت القلم أكتبها لتكون جواباً لكلمتك. وليغفر لي القراء النحو الذي نحوت إليه فيها، وليغفر الزيات فإنني متألم. . .
ولابد من شكوى إلى ذي مروءة ... يواسيك أو يسليك أو يتوجع
وما عجب أن أدخل بينك وبين الأستاذ الكبير الزيات، فإنه أخي الأكبر، وأنت أخي الأصغر، وأنا أحمل له من الحب والإكبار، على أني لم ألقه أبداً، مثلما أحمل لك من المودة والحب على طول معرفتي بك ناشئاً وشاباً، وعلى أني سأعرفك أديباً كبيراً إن شاء الله
أنا الآن في شرفتي التي تعرفها. . . أطلّ على دمشق من فوق خمس جواد علوها مائتا متر، فأراها كلها كصفحة الكف، وقد انتصف الليل، وانصرف السامرون آنفاً بعد ما أحيوا ليلة من الليالي التي تعرف مثيلاتها في دارنا، وسكن الكون وشمله الجلال، وأنا جالس وحدي أفكر، لا أفكر في دمشق التي حننت إليها، وشاقتك ذكراها، دمشق التي باكرها الربيع فضحك في غوطتها الزهر، وغمر جوّها العطر، وماست في جناتها الحور الفاتنات، من الحور والصفصاف ومن بنات أمنا حواء، لا أفكر فيها لأن قلبي لا يتفتح الآن لإدراك الجمال، وقريحتي لا تنشط لوصف الربيع، ومكان الشعر من نفسي مقفر خال. ومالي لا تخمل قريحتي، ويذوي غصن الشعر في نفسي، وقد عدت إلى دمشق، على طول شوقي إليها وازدياد حنيني، وتركت أهلاً في العراق كراماً، وبلداً طيباً، وأمة حية، تحمل اللواء، وتهز العلم، وتتقدم لتجمع الشمل الشتيت شمل العرب المتفرق، وتوحد الشعب وترجع المجد والجلال، وتؤلف بين أهل الضاد من حاضر وباد. . . تركت ذلك كله وعدت إلى بلدي الأول، ويا ليت بغداد كانت هي بلدي الأول. . . فلم أجد في دمشق إلا النكران والأذى ولم أجد إلا ما يسوء ويؤلم. . .
ولكن هل يشكو امرؤ بلده؟ هل يهدم بيده داره؟

إن تكلمت قال الحساد بغي وظلم وإن سكت قال الشامتون رضي أو عجز، والقلب بالسكوت يتفطر، والصدر من الصمت يتمزق، والكلام. . . هل يجوز الكلام؟
يا ليتني بقيت بعيداً أقنع من بلدي بهذه الصورة الحلوة التي تتراءى من خلال أحلام المشوق الولهان، ويوحي بها الحنين الطاغي، يا ليتني، وهل تنفع شيئاً ليتني؟
فاقنع أنت بهذه الصورة ودع دمشق. ولكن لا، إنك لست مثلي، إنك ستعود فتلقى مكانك في غرفة المدرسيّن معداً لك ينتظرك. وسيظلمونك فيسوّون بينك وبين هؤلاء المساكين الذين بعثوهم ليتعلموا العربية في ديار العجم فجعلوهم بذلك سخرية الساخرين. أما أنا فلم أبلغ مرتبة هؤلاء، ولا أنا ببالغها في يوم من الأيام، وقد عمي أولو الأمر والنهي عن أدبي وعلمي وعما نشرت في الكتب والمجلات والصحف وهو شئ يملأ ثلاثة آلاف صفحة على أقل تقدير. هبْ أن فيها كلاماً مرصوفاً لا معنى وراءه تجد أني حملت في كتابتها ورصفها عناء، فكيف وكلها ثمرة التأمل الطويل، ونتيجة كد الخاطر وعصر الدماغ، وما منها شئ سرقته عن أديب من أدباء فرنسا ولا إنكلترا!. . . عمي أولو الأمر عن هذا كله ولم يعدلوه بهذه الورقة السحرية التي جاء بها أولئك من ديار العجم يشهد لهم فيها من يسكن هناك، بأنهم صاروا يفهمون العربية، وغدوا أهلاً للتصدر لتدريسها. . . ولم يجدوني أهلاً لأكثر من (أستاذ معاون)!
أفيكون ظلماً مني وعدواناً، إذا أعلنت ما أصابني، وشكوته إلى القراء، وهم أصدقائي، لم يبق لي من صديق غيرهم؟ لم يبق لي صديق في هذه الحياة، إنك لتعلم ذلك، ولكني لا أشكو!
إنهم يقولون إني عنيد، وإني مشاغب، وإني أثير المشاكل؛ ولست أفهم لهذا كله إلا معنى واحداً، هو أني أوثر الصدق وأعلمه ولا أفعل ولا أقول إلا ما أطمئن إلى أنه الحق. . .
وهل كان ذنباً أنى حميت للفضيلة تمتهن، وللأخلاق تهان، فناضلت عنها وقاتلت، وقلت لتلاميذي ناضلوا عنها وقاتلوا؟. . .
وهل كان ذنباً أني غضبت لمحمد أن ينكر نبوّته ويجحد رسالته، جاهل غرير، في حفلة أقيمت لتكريم محمد وتمجيد ذكراه؟ وهل كان ذنباً أني لا أقول لسواد الليل أنت أبيض مشرق، ولا أقول للأعور ما أحلى عينيك؟. . .
هذه هي ذنوبي التي خسرت من أجلها صداقات الأصدقاء وكسبت عداوات الرؤساء، وربحت خصومة الجاهلين، وعُددت بها من كبار المشاغبين. . .
لقد قارب الفجر، وانطفأت أنوار المدينة. . . لقد مرّ عليّ ساعتان وأنا أفكر، وكل شئ من حولي ساكن ميت، وكذلك حياتي!. . . إنها خالية منذ سنوات، ليس فيها شئ متحرك. . . فأنا أعيش عيش الحالمين، أرقب أبداً الحادث الذي يهز حياتي الساكنة، ويحرك مواهبي الخاملة، ويدفعني إلى العمل، ولكن انتظاري قد طال حتى كدت أيأس من الانتظار. . .
إنك تعزيني بما حصلت من شهرة وما نلت من مكانة، ولعل في ذلك تسلية لي لو كنت أحس به أو ألمسه، إنني لا أحس والله بهذه الشهرة، إنني كالمغني الأصم الأعمى، يطرب الناس فيصفقون له ويهتفون، ولكنه لا يسمع ولا يري، فينصرف حزيناً يحسب أنه خاب وأساء. . .
إن أهل بلدي ينكرون عليّ كل شئ حتى الأدب
لقد قرأت أمس مقالة سقطت إليّ عرضاً، فرأيت فيها مقالاً يخبط فيه صاحبه خبط عمياء، فيعد أدباء دمشق أو الذين يراهم هو أدباء، فيذكر فيهم كل موظف في وزارة المعارف، وكل تلميذ يدرس في أوربة، وكل مدرسي التاريخ والجغرافيا، ولكنه لا يذكر علي الطنطاوي ولا سعيد الأفغاني؛ أفسمعت أبلغ من هذا الجهل وهذا النكران؟
هذه حالنا في دمشق التي تحن إليها، وتحيي الليالي تفكر فيها، وتتراءى لك صورتها حيال الأفق وأنت قائم عند قنطرة الزمالك أو مرتق ذروة الهرم، وتساهر النجم تفكر فيها وتعد الأيام للوصول إليها، دمشق صارت كالهرة تأكل من حبها بنيها
لقد حمل إليَّ البريد رسائل جمة ممن أعرف ومن لا أعرف يسألني أصحابها لم لا أكتب في الرسالة في هذه الأيام؟ فوجدت في هذه الرسائل عزاء، وشكرت لأصحابها، وتوهمت حين قرأتها أن في الدنيا من يفكر في، ويقرأ ما أكتب، ولكني لم أجب واحداً منهم، وبماذا أجيبهم؟ وكيف أقول لهم إن دمشق قد قتلت في نفسي روح الأدب؟

كيف أشكو دمشق التي أحبها؟ وكيف أذمها بعملها؟
ثلاثون سنة ما خرجت منها إلا بشيء واحد، هو أني رأيت الحياة كمائدة القمار، فمن الناس من يخسر ماله ويخرج ينفض كفه، ومنهم من يخرج مثقلاً بأموال غيره التي ربحها، ومنهم
من يقوم على الطريق يمسح الأحذية، ومن يمد ' إليه حذاءه ليمسحه له، ومن ينام على السرير، ومن يسهر في الشارع يحرس النائم، ومن يأخذ التسعة من غير عمل، ومن يكد ويدأب فلا يبلغ الواحد، وعالم يخضع لجاهل، وجاهل يترأس العلماء، ورأيت المال والعلم والخلق والشهادات قسماً وهبات، فربَّ غني لا علم عنده، وعالم لا مال لديه، وصاحب شهادات ليس بصاحب علم، وذي علم ليس بذي شهادات ورَبّ أخلاق لا يملك معها شيئاً، ومالك لكل شئ ولكن لا أخلاق له، رأيت في مدرسي المدارس من هو أعلم من رئيس الجامعة، وبين موظفي الوزارة من هو أفضل من الوزير، ولكنه الحظ الأعمى، أو هي حكمة الله لا يعلم سرَّها إلا هو، ابتلانا بخفائها لننظر أنرضى أم نسخط
ولكن ما أضيع أيامي في مدرسة الحياة، إن كان هذا كل ما تعلمت منها في ثلاثين سنة!
لقد أذَّن الفجر وأنا ساهر، وأضيئت منارات دمشق التي لا يحصيها عدّ، ورنَّ صوت المؤذنين في أرجاء الوجود صافياً عذباً: الله أكبر. . . الله أكبر. . .
الله أكبر من كل شئ، اللهم إني أرفع إليك شكاتي. . .
اللهم إني قد نفضت يدي من الناس، وإني أسألك أمراً واحداً، ألاّ تقطعني عنك، وأن تدلني عليك، حتى أجد بمراقبتك أنس الدنيا، وسعادة الأخرى. . .
علي الطنطاوي
النقابات الإسلامية
للأستاذ برنارد لويس
ترجمة الأستاذ عبد العزيز الدروي
- 2 -
كانت الحركة الإسماعيلية قوة تهذيبية عظيمة، اختصت بإنشاء مدارس وجامعات أشهرها جامعة الأزهر في القاهرة وبتصنيف دائرة معارف واسعة تذكرنا بحركة التأليف الأنسكلوبيدية في فرنسا في القرن الثامن عشر. وفي هذه الموسوعة المسماة (رسائل إخوان الصفا) نجد تقريباً كل الآراء التقدمية في ذلك العصر وإشارات قليلة ثمينة إلى نظم تشكيل الجمعيات، ومنها نعلم بوجود جمعيات لإخوان الصفا في جميع أنحاء الإمبراطورية تعمل لبث آرائها بين كل طبقات الشعب وخاصة بين الصناع وأصحاب الحرف
يرى الأستاذ ماسنيون أن الحركة الإسماعيلية هي التي أوجدت الطوائف الإسلامية وأعطتها ميزتها الخاصة التي حافظت عليها حتى الآن، إذ يقول: إن الطوائف الإسلامية كانت قبل كل شئ سلاحاً شهره الدعاة الإسماعيليون في كفاحهم لضم الطبقات العاملة في العالم الإسلامي لتكوين قوة منهم تستطيع قلب الخلافة وكل ما تمثله؛ وللتوصل إلى استغلال أصحاب الحرف أوجدوا الطوائف وسيطروا عليها. وهكذا أصبحت لها خاصيتان: (أولاً) كونها أصنافاً للحرف و (ثانياً) كونها مؤسسات أخوية إسماعيلية
دعنا نفحص الدلائل التي تؤيد هذه النظرية. يجب قبل كل شئ ملاحظة اهتمام الإسماعيلية العظيم بطبقات أصحاب الحرف فقد خصص فصل كامل في رسائل إخوان الصفا للنظر في الحرف اليدوية وتبويبها وتصنيفها ونبلها. وتهمنا بصورة خاصة الفقرة التي قسم فيها الذين لا يمتهنون الحرف كما يلي: قسم لا يمتهن الحرف كبرياء وأنفة، وقسم لزهده كالأنبياء، وقسم يقلدهما لكسله وقلة نشاطه كالشحاذين وغير الماهرين من الصناع أو لتراخ في الطبيعة وضعف في العقل كالنساء وما يشبههن من الرجال. فالإشادة المقصودة بأصحاب الحرف بينه، والأمثلة الأخرى على اهتمام الإسماعيلية بالحرف كثيرة. وهناك عامل ثان وهو الفرق بين وضعية الطوائف في عهد الفاطميين وبينها في عهود الدول

السنية. إذ كانت الطوائف تحت الحكم السني مضطهدة وخاضعة لقيود لا تعد، ومحرومة من حقوق قانونية. وكان هناك موظف حكومي يدعى المحتسب مهمته الأساسية مراقبة الطوائف وقتل أية محاولة للعمل المستقل فيها منذ المبدأ، ولدينا أدب ممتع ضد هذه الطوائف يظهر قلة ثقة الدول السنية بها، ويظهر ذلك خاصة في كتب الحسبة أي الكتب التي كتبت لفائدة المحتسب عن أخطر أهل الصنائع وعن احسن الطرق للسيطرة عليهم، وقد وصلتنا هذه الكتب من محلات متباينة كالقاهرة وحلب ومالقة

نلاحظ الفرق في وضعية الأصناف تحت حكم الفاطميين، إذ كانت تتمتع برخاء عظيم. فقد كانت معترفاً بها من قبل الدولة، ويظهر أنها كانت تتمتع بامتيازات كثيرة، وأنها لعبت دوراً هاماً في النشاط التجاري الذي حصل في العهد الفاطمي، ففي هذا العصر نشأت نقابة الأساتذة والطلاب التي تؤلف الجامعة العظيمة أي الأزهر الذي مر ذكره. ثم قضى صلاح الدين على الخلافة الفاطمية 1171م، وأعيدت مصر إلى حكم السني وفي الحال جردت الطوائف من أكثر حقوقها وامتيازاتها وأخضعت لنظارة دقيقة وهنالك عامل ثالث يؤيد هذه النظرية، وهو الأثر القوي الذي تركه النفوذ الإسماعيلي في الطوائف بعد اختفاء الدعوة الإسماعيلية بزمن طويل. إذ يقول الأستاذ كوبريلي إن الطوائف في أناضوليا في القرن الثالث عشر كانت لا تزال تحتفظ بنظام متدرج في التنشيء يشبه بدقة النظام الإسماعيلي، كما أن دراسة أصناف مختلفة في أنحاء مختلفة من العالم الإسلامي أظهرت آثاراً مماثلة. وتظهر رسالة لأحد الأصناف المصرية كتبت في القرن السادس عشر - كتاب الذخائر والتحف في بير الصنائع والحرف - كرهاً شديداً للحكم العثماني الذي يعتبر سبب تعاسة رجال الأصناف، ونجد في الرسالة فكرة انتظار المهدي لينقذ البؤساء

وهكذا نجد الآثار الإسماعيلية التي هي ضد التعاليم السنية تستمر بين الأصناف، ونلاحظ العبارة التالية في هذه الرسالة (إن العلم يعطلونه وبعد أن تذهب دولة العثمان يطلبونه ويقوم سيدي محمد المهدي لكل حرفة لها صدر في الصحابة ويأمرهم بإتباع الطريق فيدخلون السياج ويسألون كل نقيب عارف يصير الأمر له محتاج حتى يقوم الدين ويصلح اليقين ويبطل العقد والثلاث ويضرب أعناق النقباء الجاهلين والمشايخ المتلبسين)

وأهم من ذلك وجود أفراد من طوائف مختلفة بين أفراد الأصناف، وهي خاصة تميز هذه الأصناف بدقة عن النقابات الأوربية، إذ يقبل المسلم والمسيحي واليهودي تحت نفس الشروط فيها، حتى إن بعضها يغلب فيها غير المسلمين كأصناف الأطباء والمتعاملين بالمعادن الثمينة. . . الخ. وهذا يظهر الرابطة الدقيقة بين الأصناف والدعوة الإسماعيلية

يتضح من كل هذا أن الحركة الإسماعيلية لعبت دوراً هاماً في تطور الأصناف الإسلامية، وأنها تركت أثراً عميقاً خالداً في حياتها الداخلية، وإن لم يوجد برهان واضح يبين أن الحركة الإسماعيلية أوجدت الأصناف، ولكن الأكثر احتمالاً هو أن الإسماعيلية أعطت مصدراً جديداً ومعنى جديداً لتشكيلات كانت موجودة من قبل. فهل كانت هذه التشكيلات من أصل بيزنطي، أو كانت تقليداً لمؤسسات بيزنطية معاصرة خارج حدود الإمبراطورية الإسلامية؟ هذا ما يستحيل البت فيه. فأثار تشكيلات الحرف في الفترة التي سبقت الحركة الإسماعيلية والعامل الإغريقي العظيم في الأفكار يؤيد تفسيراً من هذا القبيل

وهكذا تكون النقابات الإسلامية عبارة عن نظام يتركب من هيكل موروث من العالم اليوناني الروماني وسلسلة من الآراء جاءت على الأخص من الحضارة الفارسية الآرامية وأنتجت حركة إسلامية إغريقية تهذيبية فلسفية تكتلية (على هيئة جمعيات) في نفس الوقت

وفي أوسط القرن الثالث عشر حدثت فاجعة الفتح المغولي الذي حطم الخلافة وأخضع المسلمين من سنيين وغيرهم على السواء إلى سيطرة شعب أجنبي كافر، وأفضى إلى طمس التمييز الاجتماعي بين الاثنين (السنة وغير السنة) وسهل نوعاً ما اعتناق الجماهير للمذهب السني. وباختفاء الحركة الإسماعيلية تحرج مركز الأصناف في المجتمع السني، إذ بقيت بعض الصعوبات، فأصحاب الحرف بقوا غير آمنين في نير

الطبقات الحاكمة في الدولة. وربطوا أنفسهم بميول دينية هي وإن لم تكن خارجة عن الدين لم تكن دائماً فوق الشك، وهذا هو التصوف، فإلى زمن قريب كانت تصدر بعض التهم من علماء السنة ضد الأصناف كالأحكام التي أصدرها الفقيه السوري العظيم ابن التيمية، أو التي أصدرها الشيخ العثماني (منيري بلغرادي) في القرن السابع عشر.

وعلى كل فبالرغم من كل هذا العداء كانت حالة الأصناف في الفترة التي تلت الفتح المغولي متوطدة، واستمرت كذلك حتى حركة الإصلاح التركي في القرن التاسع عشر التي انتهجت خطة أدت إلى انحطاط

الأصناف بصورة عامة. وترجع أكثر الوثائق وكل الأخبار التي لدينا عن النظام الداخلي للأصناف إلى فترة التي تلت العهد المغولي

وقبل النظر في النظام الداخلي يجدر بنا أن نفحص مشكلة هامة في تاريخ الأصناف الإسلامية. فحوالي نفس الوقت الذي نجد فيه الأصناف تختلط بطرائق الدراويش والصوفية نجدها على اتصال أشد بنظام جديد وهو الفتوة. أما أصل حركة الفتوة فغامض جداً، وليس هذا بمحل البحث عن ذلك. ويكفي القول بأن تشكيلات الفتوة انتشرت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر في جميع البلاد الإسلامية. وجمعية الفتوة هي مجموعة شبان (فتيان) يربطهم قانون أو دستور ديني وأخلاقي يحتوي على واجبات وشعائر منظمة. فهم مسئولون عن ممارسة بعض الفضائل والقيام بخدمة عسكرية لخير الإسلام. ويظهر من هذا أن الفتوة تشكل نظاماً إسلامياً يوازي الفروسية عند الأوربيين حتى أن فون همر ذهب إلى أن أصل الفروسية الأوروبية إسلامي

وفي الفترة التي تلت الفتح المغولي مباشرة نجد الفتوة تميل أكثر فأكثر إلى الاتصال بالطرائق الصوفية وبأصناف الحرف بواسطة رابطة العضوية (أي الانتماء إليها في نفس الوقت). بدأ هذا التطور في الأناضول، وأنتشر بسرعة في أنحاء العالم الإسلامي، ولم يمضي زمن طويل حتى أصبحت كلمتا صنف وفتوة ذاتي مدلول واحد. أما كيف بدأ هذا الامتزاج، وعلاقة هذه التشكيلات المختلفة، فأمر غامض لم يوضح بصورة كافية حتى الآن

يلاحظ تشنر ثلاثة أدوار في تاريخ الفتوة، وهي ثلاث خطوات لانحلال اجتماعي مطرد: فيقول إن حركة الفتوة بدأت كحركة فروسية أرستقراطية، ثم تحولت فصارت حركة الطبقة المتوسطة في القرن الثالث عشر، وأخيراً انحطت في القرن الخامس عشر إلى أكثر من ذلك وأصبحت حركة للعوام. وهكذا اندمج الفتيان في أصناف الحرف. ومن جهة أخرى يقول ثورننج أن الصوفيين وأصحاب الحرف قلدوا جمعيات الفتوة مقتبسين شعائرهم ومثلها العليا وأخيراً اسمها. وأكثر هذه التعليلات إقناعاً هو تعليل (كوردلفسكي) الذي يتفق مع كوبرولو على أن زمن اندماج مجموعات الفتوة بالأصناف هو في القرن الثالث عشر في الأناضول، ويربط ذلك بنظام هام هو نظام (أخيان روم) أو (أخوة الأناضول). فقد ظهرت أخوة في أناضوليا لأول مرة في السنوات التي تلت الفتح المغولي مباشرة، إذ كانت

الفترة فترة فوضى واضطراب عام؛ فالمغول الذين دحروا الدولة السلجوقية عجزوا عن التعويض عنها، وبذا اضطربت الإدارة. وفي هذا الدور الحرج تظهر الأخوة كمؤسسة قومية واسعة لها الرغبة والقدرة على التنظيم.

(يتبع)

عبد العزيز الدروي

من شجو الربيع

عيناك. . .!

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

عَيْنَاكِ لِي قَبَسَانِ فِي ... زَمَنِي المُحَيِّرِ هَادِيَانْ
وَشُعَاعَتَانِ مِنْ الطُّهَا ... رَةِ وَالقَدَاسَةِ وَالحَنَانْ
وَسَكِينَتَانِ بِوَاحَةٍ سَجْ ... وَآء عَذْرَاء الجِنَانْ
سِرُّ الإلهِ بهاَ خَفِيٌّ ... الغَيْبِ مَعْصُومُ اللِّسَانْ
أَشْجَتْ خَيالِيَ مِنْهُمَا ... في وَحْدَتِي أُنْشُودَتَانْ
تَتَهادلاَنِ عَلَى رَبَابٍ ... لَمْ تُلاَمْسَهُ بَنَانْ

عَيْنَاكِ لَوْ تَدْرِينَ ... فِي صَحَرَاءِ عُمْرِيَ وَاحَتانْ
وَبُحَيْرِتان بِعَالمٍ فَوْ ... قَ الغُيُوبِ رَهِيبَتَانْ
بالحُبِّ والأَنْغَامِ وَالـ ... خَمْرِ المُقَدَسِ تَخْفُقَانْ
الله أكبر! بَلْ هُمَا ... مِنْ نأي رَبِّكِ هَمْسَتَانْ
وَهُمَا لِرُوحِي فِي السَّنَا الْ ... جَاثِي لَدَيْكِ عِبَادَتَانْ
بَلْ نَشْوَتَانِ، وَسَجْدَتَا ... نِ وفِتْنَتَانِ، وَتَوْبَتَانْ
وَهما لِحُبِّيَ لَوْ عَلِمْ ... تِ مِنَ الضِّيَاءِ تَمِيمَتَانْ
تَقيَانَ قَلبيَ مِنْ ... أذى الدُّنْيا وَشَعْوَذَةِ الزَّمَانْ
. . . .
. . . .عَيْناكِ عَبْدُ سَنَاهُما ... يَفْنَى وَلاَ
. . . . !لاَ تَدْريانْ
(ديوان المعارف)
محمود حسن إسماعيل
من وراء المنظار
صاحب الديوان الظريف

أما أنه ظريف حقاً فذلك ما تبين من هذا الحديث الذي أسوقه عنه، ولكم تمنيت لو كان أصحاب الديوان جميعاً على شاكلة هذا الشاب الذي ساقتني الظروف السعيدة إليه. . .

ولن يتسع المجال إذا أردت أن ألم بنواحي ظرفه جميعها ولذلك فحسبي أن أقصر الحديث على آخر لقاء كان بيني وبينه

دخلت حجرة عمله فما رآني مقبلاً عليه حتى خف للقائي ضاحكاً مرحباً يمد لمصافحتي يمناه ويقدم إليّ كرسياً بيسراه على صورة لفتت أنظار الكثيرين ممن حوله من أصحاب الديوان، وأمثال هؤلاء لن يلفت أنظارهم الرصينة المنكبة على حل المعضلات إلا أمر غير مألوف

وجلست ترمقني العيون برهة وحرت أول الأمر كيف أبدأ الكلام وما جئت زائراً، ولا أنا بصديق لهذا الذي أسرني ظرفه، وما كانت معرفتي به إلا من كثرة ترددي عليه في أمر لي عنده.

وبدا هو الكلام فقال: (قهوة وإلا قرفة وإلا شاي يا سعادة البيه؟)؛ واعتذرت شاكراً فما زاده اعتذاري إلا إلحاحاً بل وتوسلاً أن تنازل فآخذ شيئاً مما ذكر، ولست أدري ماذا كان يبلغ من قوة إلحاحه لو تبين على وجهي أمارة القبول، على أني والحق يقال لم أر في وجهة إلا أنه جاد، وإلا فبماذا يفسرهذا التوسل الذي ما فتر والذي لم ينته في الوقت نفسه آخر الأمر إلى شيء؟

وابتسمت وتواضعت وتصنعت الحياء وقلت في رفق يتناسب مع ما لقيت من ظرف: (لعلك انتهيت من مسألتي) فقال: (أيوه يافندم قربنا. . . حالاً إن شاء الله، الحكاية كثرة عمل والمدير كل ساعة يطلبنا، وكل عام وأنت بخير إجازة المولد. . . على كل حال كن مطمئن احنا محاسيب يافندم. . .)

وجاء أحد السعاة فاستدعاه لمقابلة المدير فنظر إلى كأنما يقول هكذا لا يني المدير عن طلبه، وأخذ في يده مجموعة من الأوراق كان ينظر إليها في اهتمام واستأذنني وهو يرجو أن يعود فلا يجدني.

وجلست أنا متعجباً حائراً كيف يكون هذا الذي أرجو منه حل مسألتي محسوباً لي، وهو لا يعرفني كما ذكرت إلا من ترددي عليه!؟ وتنازعني الضحك والغضب، فأما الضحك فمن هذه الحركات (البهلوانية) المحكمة، وأما الغضب فلأنه يظن أني لست أفهم أنه يسخر مني، دع عنك إهمال أمري الذي استمهلني آخر مرة جئته فيها من أجله ثلاثة أيام، فما عدت إليه منذ ذلك اليوم إلا بعد ثلاثة أسابيع، ومع ذلك فهو يقول (قربنا) والمسألة في غير مبالغة لا تستغرق منه أكثر من ربع الساعة!

وعاد فوجدني لا أزال في موضعي، فتلاقي في وجهه التجهم والابتسام في وقت واحد، وهو من كثرة مرانه يعرف كيف يبتسم بناحية من وجهه، ويتجهم بالناحية الأخرى. . . ثم غلبت ابتسامته تجهمه في أسرع من ارتداد الطرف، ونظر إلى من ابتسم إليه من أصحاب الديوان ابتسامة فهمت منها أنهم يضحكون منه لأنه لم يستطع أن يصرفني أو

يضحكون من أني على الرغم من ألاعيبه بقيت ثابتاً لا أتحول
وجاء شخص غيري رقيق الحال يلبس جلباباً عليه معطف يسأله هو أيضاً عن مسألته
فقال في نفس ظرفه وأدبه: (حاضر يا عم إن شاء الله تجينا بعد يومين تكون مبسوط) ولما شكا الرجل وغضب قال له باسماً: (حلمك يا بويا إن الله مع الصابرين
قلت لك إن شاء الله تكون مسرور) ولما أدار الرجل ظهره لينصرف نظرت إلى صاحب الديوان فإذا به يخرج له لسانه، وابتسم ابتسامة عريضة وضحك من رآه من أصحاب الديوان، وكثيراً ما أضحكهم بمثل هذه الأمور كما قرأت ذلك على وجوههم واتجه إليَ قائلاً: (شرفت يا بيه) وفهمت معناها فليست إلا مطالبة بالانصراف؛ وهممت أن أنصرف، وقد تأكد لي ما سبق أن عرفته من أن الأوراق عند أصحاب الدواوين قسمان، قسم يعلم به المدير أو الرئيس، وهذا هو الذي ينجز ويعد، وقسم لا علم للرئيس به، هذا لا يتناوله أصحاب الديوان ولو بمجرد القراءة، وعلى مصالح الناس ألف سلام!
وسلمت فنهض يصافحني في ظرفه ولباقته، وهو يقول: (ما تأخذناش يابيه، والله الواحد خجلان. . . حالاً إن شاء الله) ومضيت ولكني التفت عند الباب أنظر إليه فلست أدري لم ألقى في روعي أنه ظل يخرج لي لسانه منذ ودعته. . .
(عين)

رسالة الشعر

صخرة المكس

للدكتور إبراهيم ناجي

تعال نزف للثغر السلاما ... ألست ترى على الثغر ابتساما
ألم تشعر كأن يديْ عزيز ... مسحن لك المواجع والسَّقاما
كأن خطى العُبابِ خطى حبيب ... كأن الموج أفئدة ترامى!
سلاماً يا عروس الماء إني ... أحبك لا أملَّ بك المقاما
أسير إلى لقائك نضو شوق ... وأرجع عن ربوعك مستهاما
أراك فتنتشي روحي وقلبي ... كأني قد سقيت بك المَداما
وإن طوى البساط فنصب عيني ... عليك خيال أحبابي القدامى
وإن طاح الزمان بكأس حبي ... فلا الساقي نسيت ولا الندامى!
فؤادي قم بنا نذكر شجانا ... لصخر في جوار المكس قاما!
تعال ولا تقل هذا جماد ... وكيف تروم بالصخر اعتصاما؟
فكم في الحيّ من قلب أصم ... تنكر أو تجاهل أو تعامى
وكم صخر أحس بما عنانا ... وما عرف الحديث ولا الكلاما
وكم في الناس من رجل قوي ... شديد البأس يقتحم اقتحاما
تعرض للحوادث لا يبالي ... تلقاها نصالاً أم سهاما!
فإن عرضت له الذكر الخوالي ... رأيت الكون في عينيه غاما
عرته الرجفة الكبرى وراحت ... جيوش الصبر تنهزم انهزاما!
بربك أيها الأنوار ماذا ... صنعت بساهر ألِف الظلاما
بربك أيها الأمواج ظلت ... على الشطآن ترتطم ارتطاما!
أتيتك أبتغي منك التأسي ... وانشد في نواحيك السلاما!
أراك فتحت لي شجناً جديداً ... وكنت أروم للماضي التآما!
وهيتُ، وخانني جلدي، وإلا ... فهذى الدمعة الحرَّي علاما!
أيا بلد التأسي كيف أنسى ... زماني فيك كهلاً أو غلاما!
ويوم أتيت مكتئباً عليلاً ... أحس البين يدنو والحماما!
أجرجر فيك أقدامًا ثقالاً ... واجمع من عزيمتي الحطاما!
وعلاتي وأدوائي كبار ... شربن دمي وأبلين العظاما!
أراك فلا أبالي بالمنايا ... واحمد عند شاطئك الختاما
وكم طاف الرفاق وغادروني ... كعّواد ومرّوا بي كراما!
تمر بي الحياة ولست أدري ... أيوم مَرَّ أم قضيت عاما!
عرفتك والشتاء يمد ظلاً ... وينشر في جوانبك الغماما
عرفتك والمصيف عليك زاه ... وقرن الشمس يضطرم اضطراما

عرفتك والعواصف فيك غضبي ... نشرن على محياك القتاما!
عرفتك و (الفلائك فيك بيض) ... مجنحة يحاكين الحَماما
عرفتك هادئاً والفجر غاف ... كأن البحر وسده فناما!
عرفتك كالصديق بكل حال ... وكنت شراب روحي والطعاما
وملحك في دمي، وشذاك باق ... وهذا الصوت أسمعه دواما!
تعاليْ صخرة الماضي أجيبي ... وقوفك وانتظارك ذا إلاما
لقيت من العباب كما لقينا ... من الأيام قرعاً واصطداما!
كأنك للورى هَدفٌ وهذي ... جموع تبتغي أمراً جساما!
إذا ما أخفقوا رجعوا فرادى ... وإن همّوا وجدتهم زحاما!
فؤادي إن تغيرت الليالي ... فمثلك من رعى فيها الذماما!
بلغنا كعبة الآمال فاخشع ... ودعنا في مناسكها قياما
خذ السلوان من حجر صموت ... فما أحْرَاك بالحجرِ استلاما!
بربكِ أين أحلامٌ غوالٍ ... وعمرٌ قد قطعناه نياما
نسقاه أمانيَ أو خيالاً ... ونطعمه قصيداً أو غراما!
وعهد كان فيكِ ربيع وَرْد ... كهذا اليوم حسناً وانسجاما!

ناجي

العمر الضائع

(مهداة إلى الشاعر الملهم الأخ أحمد فتحي)

للأستاذ خليل شيبوب

ضَيَّعْتُ عمريَ في هواكِ فضاعا ... وأعاضني الأسقامَ والأوجاعا
وغدوتُ لا أملٌ أعيشُ به ولا ... قصدٌ أطالعُ وجهَهُ استطلاعا
إني لأعجبُ منكِ كيف طَلَبْتِنِي ... ومددتِ تُغْويني يَداً وذراعا
ونبذتِ داعي الكبرياءِ مهانةً ... حتى تَرُدَّني إليك خداعا
ونَسيت في الماضي القريب مواقفاً ... لك صكَّت الأبصارَ والأسماعا
لكنْ إبائي ردَّني فكأنه ... حولي أقامَ معاقلاً وقلاعا
مِنْ بعدِ ما عَثَرَ الفؤادُ بنفسه ... والأمرُ أَفْلَتَ من يديه وضاعا
فأفادني نُبلي بحبكِ شِقوةً ... رضى الفؤادُ بحكمها وأطاعا
متجانفاً عما أردتِ من المنى ... متكافئاً خلُقاً به وطباعا
قد أَرْهَقَتْني عزلتي فكأنني ... من قبل دفْني قد دُفنْتُ تباعا
أصبحتُ مثلَ المومياءِ محدّثاً ... عن غابرٍ لي لم يكن ليُذاعا
عهد به جَرَّبتُ فيكِ حوادثاً ... صَدَعَتْ حشاىَ صروفُها فتداعى
غيرى تمرُّ به تجاريبُ الهوى ... مرَّ الكرامِ فلا يُحِسُّ صراعا
لكنني غَلَبَتْ حجايَ مشاعري ... فبقيتُ محترقاً بها ملتاعا
خِزْياً لحبكِ إنه البحرُ الذي ... غالَ الغريقَ وما أراهُ القاعا
بُعْداً لحسنِكِ إنه الليلُ الذي ... ضَلَّ الحليمُ به وراباَ وراعا
بعضُ المحاسنِ لو علمتِ مَسَبَّةٌ ... لمليحةٍ لا تفهمُ الأوضاعا
نُشِرَتْ شِباكاً فاَعْتَلقت بها وما ... أَحْسَنتُ عن قلبي الضعيفِ دفاعا
إني رأيتكِ منية علويةً ... ورآكِ غيري في الزمان متاعا
ولقد أبيتُ سوى التفَرُّد في الهوى ... وأبيتِ إلا أن أراكِ مشاعا
فإذا الأبيُّ مُدَفَّعٌ عن نفسه ... وإذا الغبيُّ مُمَتَّعٌ إمتاعا
وإذا ثمارُ الحسنِ قد أطْعَمْتها ... نفَراً يجيئون الطعامَ شباعا
من كل مكظوظٍ يراكِ علالةً ... يلهو بها ساعاً ويسأمُ ساعا
وَحَرَمْتِ قلباً قد طوى يأساً على ... يأسٍ وعاش مُفَجَّعَا مرتاعا
يا بُؤْسَ قلبٍ في هواكِ مُضَلَّل ... لم يَعْرِفِ التمويهَ والإيقاعا
قد كانَ يملكُ في الحياةِ إرادةً ... لكن هواكِ قد اشتراهُ وباعا
أُعْطِيته ملكَ الهوى فتصرَّفي ... فيه ولا تَرْعَيْ له ما راعى
وخُذِيهِ لا بوركتِ فيه لأنني ... آبى لِما أَعْطَيْتُهُ استرجاعا
الصدرُ يطفح بالمرارة ثائراً ... والنفسُ واجفةٌ تطير شعاعا
وتُمِضُّني ذكرى هواكِ كأنني ... في كل يومٍ أَسْتَجِدُّ وداعا

وأُظلُّ مذهوبَ الفؤادِ لأنني ... ضَيَّعتُ عمري في هواكِ فضاعا
خليل شيبوب
الأدب في الأسبوع
الأزهر
الأزهر - كما يجب أن نعرفه - إن هو إلا تاريخ مصريٌّ عربي إسلامي كاملٌ متتابعٌ قد أمتدَّ على مَدْرَجةِ التاريخ ألف سنة يجدِّد فيه ويتجدَّد به، ويعيشُ عيشه هذا في التاريخ كالمدد المتلاحق الذي يستفيضُ بمادَّته لينشئ القوةَ في رُوح الجيش المرابط وأعصابه وأفكاره وأعماله المجيدة. وهذا التاريخ العجيب الذي لا يزال حياً في هذه الأرض، وهو كالتاريخ الإسلامي والعربي كله مجهولٌ متروك لم تَنفُضْ عنه الحياةُ العربية الجديدة غبار السنين المتقادمة والأجيال المتطاولة التي تعاقبت عليه بالنسيان والإهمال والهجر. وإذا نظرنا إلى الأزهر على مقتضى هذه النظرة وبسبب من هذا الرأي - علمنا أنه كهذا التاريخ الإسلامي قد تعاورته القوَّة والضعف، وحزَّت فيه سيما العلم وميسم الجهل، وتغلغل فيه النبوغ الفذُّ السامي والنبوغ الشاذُّ النازلُ: النبوغ السامي الذي أرتفع بروحانية الشعوب الإسلامية وأخرجها من سُلطان الشهوات والجهالاتِ، فمدَّت بذلك سلطانها على جزء عظيم من العالم والنُّبوغُ النازل الذي هَوىَ بروحانيةِ هذه الشعوب إلى الجَدَل والفُرقةِ والمذاهب والآراء الخاضعة لسلطان الشهوات العقلية المريضة، فقلَّصتْ ظِلَّ هذا السلطان عن هذا الجزء العظيم من العالم
والأزهر - كان - مجتَمَع القُوى المختلفة التي عملتْ في إنشاء الحضارة الإسلامية والعربيِّة التي عاشَتْ في التاريخ الماضي وملأنه بالألوان المختلفة من مميزات هذه الشعوب الإسلامية المتباينة، المتباعدة في مطارح الأرض ما بين الصين إلى الغرب الأقصى. واستمرَّ على ذلك مئات من السنين تتلوها مئات، وكذلك مهدت هذه السنين للشعب العربي المصري في هذا العصر - عصر النهضة الجديدة في الشرق - أن يكونَ هو قِبلةَ الأمم العربية والإسلامية. وذلك لأن روح الشعب المصري، وثقافته الموروثة في تفكيره وأخلاقه وطباعه، وحضارته القديمة التي تبرجتْ على ضفاف النيل - هذه كلُّها ليست إلا خلاصة هائلة مُصفَّاة من أرواح الشعوب الإسلامية كلها وثقافاتها وحضاراتها. وكان الأزهر هو المصدر الذي استمدَّتْ منه مصر هذا الفيض العظيم الجاري في أودية التاريخ المتقدم، لأنه هو كان الجامعة الوحيدة في هذه الديار، وكان أكبر جامعة وأعظمها
في سائر الديار العربية الإسلامية. وبهذه الخلاصة التي اجتمعت في الأزهر، ثم انتشرت منه في أرجاء مصر قديماً وحديثاً استعد الشعب المصري بطبيعته لأمر مقدور، هو أن يكون زعيماً للشرق في عصر النهضة الجديدة، لأن كل شعب من الشعوب العربية والإسلامية يرى في هذا الشعب صورة من نفسه مكملة بألوان أخرى من صور سائر الشعوب التي تمت إليه بسبب من الدين واللغة والحضارة والثقافة والفكر والدم
ونحن نأسف إذ نرى الناس إنما ينظرون إلى الأزهر نظرة محدودة ضيقة لا تتراحب ولا تنفذ إلى حقيقة هذا التاريخ القائم في أرض مصر. فهم يعدونه معهداً دينياً، ويكون تفسير كلمة الدين هنا - على غير الأصل الذي يعرف به معنى الدين في حقيقة الفكرة الإسلامية التي ختم الله بها النبوات والأديان على هذه الأرض. وهذا المعنى الجديد المعروف في زماننا لهذه الكلمة كلمة (الدين) ليس إسلامياً، لأنه لا يلائم روح الإسلام في شيء. . . كلا، بل هو يهدم أعظم حقيقة حية أتى بها هذا الإسلام ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وليجعل الذين آمنوا فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة، ويجعلهم الوارثين. وهذه الحقيقة الحية الجميلة هي جعل كل عمل من أعمال الإنسان المسلم في الحياة عبادة تقربه إلى الله. . . فليس البيع والشراء، أو تدبير أمور الناس في الملك، أو العلم والتعليم، أو تربية الولد، أو الخدمة التي يؤديها الرجل لمن يخدمه. . . ليست كل هذه الأشياء الاجتماعية في منزلتها من الدين الإسلامي: إلا كالصلاة والصيام والزكاة وسائر الأعمال التي يفهم بعض الناس الآن أنها هي الدين حسب. فالأزهر الإسلامي هو الذي تتمثل فيه حقيقة الإسلام - أو يجب أن تتمثل فيه هذه الحقيقة -، وتاريخه الماضي كان صورة صحيحة للحياة الاجتماعية الإسلامية بكل ألوانها وأنواعها، مع ما كان قد عرض فيها من العيوب التي أدركت الشعوب الإسلامية وجعلتها تنزل عن

المرتبة الأولى التي كانت لها في تاريخ الحضارات السالفة التي سبقت الحضارة الأوربية لهذا العصر. فلما هجمت علينا الحضارة الحديثة من أوربا بعواملها المختلفة، وسياستها القوية التي تغلبت على كل سلطان في الشرق، ثم اندست العوامل الغريبة في الأمم الإسلامية، وعملت الأيدي العدوَّ عملها في تمزيق الروابط بين طبقات الشعب. . . رجع الأزهر إلى غيله يستتر فيه، وقبع أهله عن صراع الحياة الجديدة صرعاً يراد منه الظفر، وكذلك سار الناس ناحية، وسار الأزهر ناحية أخرى، وكان ذلك أول البلاء على الأزهر وعلى الشعب نفسه!

إصلاح الأزهر

وقد أحس كثير من المصلحين من أهل الأزهر وغير أهله - ممن يعرفونه أصلاً كبيراً في الحياة المصرية والعربية والإسلامية - بما تقتضيه طبيعة الموقف الذي صار إليه في هذا العصر، وبما توجبه حقيقة الدين الإسلامي، فهبوا إلى إصلاحه والنظر في شأنه مرة بعد مرة. وكان العمل لذلك شاقاً كثير المتاعب غير قريب المنافذ، فاضطربت الأيدي واختلفت الأغراض، وسار هذا الزمن السريع بقوة واندفاع، لا يملك معه المصلح الانطلاق في آثاره على مثل سرعته واندفاعه وكذلك لم يزل الأزهر الآن في منزلة غير المنزلة التي يوجبها له قيامة ألف سنة على التاريخ الفكري والثقافي والعملي في الحضارة الإسلامية

وقد كتب الأستاذ (الزيات) - في فاتحة العدد الماضي من الرسالة - كلمته الجليلة (في سبيل الأزهر الجديد) يطالب الأزهر بالرجوع إلى المنابع الأولى للدين واللغة والأدب والعلم. وحب (الزيات) للأزهر، ورغبته في المبادرة إلى علاج الأدواء التي تلبست به من أمراض الأجيال السابقة، هي التي حملته على أن يكتب كلمته لتظفر مصر (بجامعتها الصحيحة التي تدخل المدنية الغربية في الإسلام، وتجلوا الحضارة الشرقية للغرب، وتصفي الدين والأدب من شوائب البدع والشبه والركاكة والعجمة)

نعم إن الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر لم يقصر في اجتهاده أن يجعل الأزهر مثابة للعلم الإسلامي الصحيح، ولم يتخلف عن النصيحة له بما توحي به الرغبة الصادقة في تحريره من آصار قديمة عاقته عن بلوغ غايته التي يحق له أن يبلغها. فقد وضع الأستاذ الأكبر من عشر سنين نظامه الجديد للكليات في الأزهر وجعل أحد قسمي التخصص في هذه الكليات موقوفاً على مادة من مواد الشريعة أو اللغة أو الأدب أو التفسير والحديث أو المنطق والفلسفة أو الأخلاق والتاريخ وعلم النفس وما إلى ذلك. وأمد هذه الكليَّات العالية - في دراستها لما خصصت له - بالكتب الأصول المعتمدة في بابيها ككتاب سيبويه، وخصائص ابن جني، وسر صناعة الإعراب لابن جني، وتصريف المازني، وكتاب فيلسوف النحو رضي الدين الإستراباذي صاحب شرح الشافية، وشرح الكافية، وهما عمدة أصحاب النحو والتصريف. وكذلك جُعلت كتب عبد القاهر - دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة -، وكتاب الصناعتين لأبي هلال، وأدب الكاتب والكامل والأمالي وغير هذه من أصول الأدب واللغة هي مادة الدراسة في هذه الكليات

وقد قام على التدريس في هذه الكليات جماعة من خيرة من أنجبهم الأزهر فاستقلوا بتدريس هذه الكتب الجليلة خير استقلال، فنرجو أن يظهر الأزهر الجديد بعلمه الجديد الذي استمده من الكتب الأصول، وأن يعتمد فيما يستقبل من أيام نهضته كل الأصول الأولى في تدريس الفنون المختلفة التي تقوم ببثها بين أبنائه ومريديه وطلبته. هذا ونرجو أن نحقق روح الأزهر - التي تتصل بالشعب المصري وسائر الشعوب الإسلامية - معنى الإسلام الصحيح الذي يطالب المسلمين بالسيادة والقوة والغلبة، ولا يكون ذلك إلا يوم يتصل الأزهر اتصالاً تاماً بجميع ألوان الثقافات العالمية، ليوجد للشعب المصري والعربي والإسلامي ثقافة تضارع كل هذه الثقافات، مبرأة من عيوبها التي فرضتها عليها البيئة غير الإسلامية التي نشأت تحت ظلالها وفي رعايتها.

وأنا أكتفي بهذا القدر من القول، وسأعود قريباً لأبدي بعض الرأي في أنواع من الإصلاح تراد للأزهر وغير الأزهر أرجو أن تنال بعض الرعاية ممن يتولون شأن هذا الإصلاح

المجمع المصري للثقافة العلمية

بدأت في الأسبوع الماضي جلسات المؤتمر السنوي للمجمع المصري للثقافة العلمية

برياسة حضرة صاحب السعادة حافظ عفيفي باشا، وهذا هو المؤتمر الحادي عشر لهذا المجمع العلمي الصامت الذي يجاهد في إنشاء الثقافة العلمية العربية في الشرق بما يسعه جهده وماله: والمجمع العلمي هو أهم ما يحتاج إليه الشعب العربي الذي ابتعد به الزمن عن متابعة النهضات العلمية المختلفة التي تجددت بالحضارة الأوربية الحديثة. وقيام هذا المجمع بنشر الثقافة العلمية - في حدود طاقته - قد أوجد للأمة العربية ذخيرة عظيمة تقع في عشرة مجلدات، كلها مباحث علمية عظيمة مكتوبة باللغة العربية مع قلة الاصطلاحات العربية العلمية التي تؤدي المعاني العلمية الجديدة التي لم تقرر لها بعد مصطلحات ثابتة في مادة هذه العلوم

وهذا المجمع العلمي العظيم لا يلقى - مع الأسف - ما هو حقيق به من الحفاوة والاحتفال في الأوساط الأدبية والعلمية التي توجب عليها مهمتها الشاقة إمحاض النصيحة للأمم

العربية، بتشجيع القائمين بأعمالهم المجيدة في صمت وسكون ورفق. ومن أعجب العجب أن تعقد المحاضرات والمناظرات الكثيرة التي تعتمد أكثر ما تعتمد على الثرثرة ومضغ الأحاديث والتمطق بمبذول الكلام، وتجتمع لهذه المحاضرات والمناظرات فئات كثيرة من طبقات الناس. وفي صدرهم كثير من أصحاب الأمر وعظماء الأمة ثم يعقد هذا المجمع مؤتمره مرة في كل عام - فلا يلقى من هذه الفئات ولا من هؤلاء العظماء ما هو أهل له من المتابعة والاهتمام أو المجاملة إن شئت

وكان الظن أن تعمل وزارة المعارف والجامعة وسائر المعاهد والوزارات التي يتناول المجمع - بعض ما يخصها أو يقع في حدود أعمالها - بالبحث والدرس والتحقيق والكشف: كان للظن أن تمهد هذه له سبيل إبلاغ صوته إلى أكبر عدد ممكن من المثقفين، تشجيعاً له للقائمين عليه، طلباً للمنفعة التي تأتي من إثارة اهتمام هذه الجماهير بنتائج الأبحاث العلمية وأنواعها، وضروبها المختلفة التي يقوم المجمع وأعضاؤه على إعدادها ومتابعتها والعمل على نشرها، لتكون سبباً من أسباب اليقظة العلمية التي تقتضيها النهضة الحديثة في الشعوب العربية

وقد جمعني مرة مجلس فيه فئة من كبار الأساتذة في بعض المعاهد العلمية العالية، فلم أجد عند أحد منه خبراً يعلمه عن هذا المجمع، فما ظنك بعمله أو إنتاجه أو غايته التي أريد لها إنشاؤه وتأسيسه؟ وهذا أمر يؤسف له، ويوجب على المجمع وعلى كل ذي رأي أن يعمل على تنبيه الوزارات والمعاهد إلى قيمة هذا العمل الذي يقوم عليه المجمع، وإلى توجيه أنظار الناس إليه بكل سبيل، حتى يستطيع أن يؤدي إلى الناس ما يرغب فيه من نشر الثقافة العلمية التي يحتاج إليها هذا الشعب في كل أغراضه وأعماله، وفي بعث الروح العلمية التي تكفل له القيام بالعبء المثقل الذي يريد أن ينهض به في بناء الحضارة الجيدة التي يتهيأ الشرق لوراثتها عن الحضارات التي هي في سبيل إلى الهلكة والتدمير والبوار

هذا وقد بدأ المجمع مؤتمره لهذه السنة بالمحاضرة التي ألقاها الدكتور حافظ عفيفي باشا عن (الأصول العلمية الحديثة وتطبيقها على الزراعة)، وقد عرض فيها لأهم ما يشغل الأسواق المصرية في هذا الوقت، وهو نظام الحاصلات والأسواق الداخلية، فأبان كل البيان عن وجه المصلحة التي يجب أن يقصدها القائمون على أمر الشئون الزراعية في

هذه الأوقات العصيبة المنذرة بأشد الأزمات على الأسواق التجارية. ثم تبع ذلك بحث في أهم ما يخاف منه وما تخشى عواقبه في أزمان الحربِ، وهو تفشي الأمراض والأوبئة، وما يجبُ على الشعب المصري وحكومته أن تعمل على تفاديه بكل سبيل. فألقى الدكتور عبد الواحد الوكيل: (حاجة البلاد إلى تعديل خططها الطبية والصحية)، وقد أبانت هذه المحاضرة عن هول الحالة الحية التي تختفي في كل ناحية من نواحي هذا الشعب المهمل المسكين

آلهة الكعبة

كنت قرأت في البريد الأدبي من عدد الرسالة 350 كلمة للأخ محمد صبري في قصيدة الأخ الشاعر محمود حسن إسماعيل ينكر فيها أن (اللات، والعزى، ومناة) من آلهة الكعبة، قال: (وليس واحد من هذه الثلاثة من أصنام الكعبة، بل لم يكن واحد منها

داخل الكعبة ولا حولها). ثم استشهد قول ابن الكلبي في كتاب الأصنام، حين ذكر مواضع هذه الأوثان الثلاثة وقد كان اعترض بعض أصحابه قبل ذلك - في مجلس لأستاذ الزيات - بمثل ما اعترض به الأخ صبري، فرُمتُ أن أقول: إن وجود هذه الثلاثة في الكعبة أو حولها ليس يمتنع. وذلك لأن أبن سعد ذكر في طبقاته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طاف بالبيت - بعد فتح مكة - وهو على راحلته، وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً، فجعل كلما مر بصنم منها يشير إليه بقضيب في يده ويقول: (جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً). فيقع الصنم لوجهه. وابن الكلبي لم يعد لنا في كتابه الأصنام غير أسماء ثلاثين صنماً، وزاد زكي باشا عليها خمسة وأربعين صنماً، فهذه خمسة وسبعون، فأين هي من ثلاثمائة وستين؟. . . وما كانت كل هذه الأمة من الأصنام إذن - إن لم يكن منها اللات والعزى ومناة، وهي أشهر أصنام الجاهلية، وهي المذكورة في القرآن في سورة النجم، وقد كان نزولها بمكة؛ وما أظنها تذكر بأسمائها إلا وكفار قريش يعظمونها فإذا عظموها اتخذوها في الكعبة وهي بيتهم المعظم، كما كانوا يتخذون الأصنام في بيوتهم ودورهم. ثم رأيت أخيراً أن ابن سعد يذكر في فتح مكة أن رسول الله بث السرايا إلى الأصنام التي حول الكعبة فكسرها، منها: (العزى، ومناة، وسواع، وبوانة، وذو الكفين. فنادى مناديه بمكة: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدعْ في بيته صنما إلا كسره)

ثم جاء كلام أبي جعفر الطبري في تفسير سورة النجم ج 27 ص36 يقطع الشك باليقين إذ يقول. (وكان بعض أهل المعرفة بكلام العرب من أهل البصرة: يقول (اللات والعزّى ومناة الثالثة - أصنام من حجارة كانت في جوف الكعبة يعبدونها)، وهذا هو المعقول، وليس من المعقول أن تخلو كل هذه الأمة من الأصنام التي كانت حول الكعبة من تماثيل منصوبة للات والعزى ومناة الثالثة، وهذا ليس يمنع أن تكون القبائل غير قريش مكة قد اتخذت لها أنصاباً نصبتها في الأماكن التي ذكرها ابن الكلبي وغيره.

محمود محمد شاكر

رسالة الفن

تأملات في الفن

العب يا ميمون العب!

للأستاذ عزيز أحمد فهمي

- من هذا الذي معك؟ يا أمَّه! قرد؟

- نعم. واحد من أبناء عمك ميمون. أبوك آدم رقاه الله، وأبوه هو أستحسن أن يظل يلعب، فظل يلعب

- لعبت عليه نفسه! وأين لقيت أبن عمك أنت هذا؟ وإياك أن تكون قد دعوته إلى مكث طويل هنا؟

- ليته يقبل. . . إنما هو مرتبط بخمسة أصدقاء أستأذنهم وجاء يحييك ثم يعود إليهم عند الباب

- أبالباب خمسة قرود غير هذا؟ لم لم تقل لي إن أسرتك الكريمة هاجرت إليك فكنا نوسع لهم بيننا نزلاً؟

- ربما لم يكن هؤلاء الزوار جميعاً من الأهل وربما كانوا! أولهم على أي حال أخ من بني آدم، وثانيهم حمار، وثالثهم جدي، ورابعهم كلب، وخامسهم أوزة

- أعز الأهل، أنعم بهم وأكرم. تعال نستقبلهم وهات ابن عمك، فمنذ سنين وانا لم أر أسرة كهذه، وكنت أراها وأنا طفلة وأسر وأضحك؛ ولكن لم أكن أتوقع يوماً أن تنسب إليَّ أو أن أنسب إليها. . . لا أنا ولا أنت

- تعالى! هاهي ذي الأسرة. انظري إلى كل فرد من أفرادها وقولي لي: ما هو؟ لا تقولي هذا قرد وهذا حمار، فإني أعرفك تعلمين أسماءها، وإنما أريد أن أراك هل تعرفينها هي أو أنك تجهلينها كما كنت أجهلها أنا حتى عرفني بها صاحبها هذا الغجري الذي يقودها؟

- وماذا قال لك أكثر من أن الحمار حيوان من ذوات الأربع له أذنان طويلتان وصوته منكر وهو يستخدم في حمل الأثقال. . .

- هذا كلام يصفون به قشر الحمار للتلامذة، ولكن هذا الغجري يعرف عن الحمار مثلما

يعرف عنه حمار مثله
- وأنت يا هنيئاً لك أخذت عنه هذا العلم. . . انهق لي به انهق. . .
- لا بأس. ولكن ألا ترينه واجباً أن نرى الغجري قبل أن نرى القرد والحمار؟
- وهل في الغجري شئ يرى وهو ليس في غيره من الناس؟ رجل مسكين يحتال على الرزق بتلعيب الحيوان
- وكم في الناس القادر على تلعيب الحيوان؟ إن الإنسان ليستعصي عليه أن يلقب نفسه. ومن استطاع ذلك فهو الفنان
- فكل حيوان من هؤلاء فنان، وهذا الغجري بينهم مثل سيسيل دي ميل أستاذ على الممثلين والممثلات. . .
- هذا التشبيه صحيح لولا أنه معكوس. فسيسيل دي ميل هو الذي يحاول أن يكون في عمله كهذا الغجري ولكن أنى له ذلك إلا إذا عاش عيشة الغجري، وكم قلد الغجرَ أفراد من أهل الفن فكان كل منهم كالمسخ ما لم تكن فيه طبيعة الغجر يسترسل بها في الحياة استرسالهم. ولا بد أن تكون قد رأيت واحداً من هؤلاء الذين ينفشون شعرهم ويطلقون لحاهم، ويهدّلون ثيابهم ويعربدون في الأرض سكارى مستذئبين على أنفسهم وعلى الناس قائلين إنّا نحن بوهيميون. هؤلاء هم الذين يقلدون الغجر كما أن من أهل الفن من تضطره الحياة إلى أن (يغجر) نفسه فإما أن يكون غجرياً في فنه وإما أن ينزلق فيكون غجرياً في سلوكه مع الناس فيحتال على رزقه كما يحتال هذا الغجري بتلعيب نفسه، وتلعيب عشرائه، فهو محتال بارع ممن يعرفون كيف ينطبقون على الفريسة ومن أي مدخل سهل ضعيف يتسللون إلى نفسها، وأي لسان من الألسنة المعسولة يعجبها، وأي شكل من الأشكال المنمقة المزوقة يرضيها، وأي مطلب من المطالب تنزع إليه وأي شئ يسرها وأي شيء يغضبها، وأي كلمة تثيرها وأي كلمة تردها إلى هدوئها، وأي إشارة تحفزها، وأي إيماءة تثبط همتها إلى غير ذلك مما تمكن الغجر منه وأتقنه معهم الكهان من الناس، والمتكاهنون.
- فالغجر كهان؟
- هم أبرع الكهان إذا أرادوا، ولكنهم كعمنا ميمون استحسنوا الأمر ما أن يلعبوا وما زالوا يلعبون، ولو أنهم أرادوا أن يفتكوا بهذه الإنسانية لفتكوا بها وسلاحهم ما يعلمون من شئون
النفوس وأمورها، ولكنهم يؤثرون على هذا أن يفروا من البشرية إلى مرحهم وغنائهم ورقصهم، فهم لا يلمون بالناس إلا حين تعوزهم حاجة، فعندئذ ينزلون على الناس ليأخذوها، وهم آخذوها إن أباحها الناس لهم أو منعوها، وهم آخذوها إن حللتها الشرائع أو حرمتها، لا يستطيع إنسان أن يردهم، ولا أن يمسكهم بها، ولا أن يستردها منهم. . . غجر أولاد شيطان. .
- وهذا الشيطان عمنا هو أيضاً كعمنا ميمون؟
- لا، بل إنه خالنا أخو أمنا حواء الذي قال لها: رَجُلك خواف، رجلك ضعيف، شحيح إن أطعمك ما أطعمك، فإنه بضن عليك بالتفاحة. . . يا حلاوة التفاحة!
- صحيح، إن في عينيه بريقاً كما تلمع عيون الشياطين. . . أعطهم شيئاً وتعال. . .
- انظري إليهم وهم ذاهبون يحيطون به. . . الحق أنه ما في الأرض من يمثل سيادة الإنسان على بقية الخلق كهذا الغجري والغجر جميعاً، فهم البقية الباقية من الناس الذين كانوا يعاشرون الأرواح ويأتلفون بها قبل أن تهيم البشرية حباً بالحديد والحجر، هؤلاء الغجر لهم أحاديث في كيمياء النفوس أعجب من العجب، ليت علماءنا يستمعون إليهم ويحاولون تحقيق أحاديثهم. . .
- وما كيمياء النفوس هذه أيضاً؟. . .
- هذا بحر فيه ماء وملح يلقى الشمس فيتبخر منه الماء ويبقى الملح، ويصعد الماء إلى السماء بخاراً. فيلقى البرد فيرتد إلى الأرض ماء حلواً ليس فيه ملح، ويجري على الأرض في هضاب ووديان ويسري في النبات والحيوان والإنسان، وفي الأحجار أيضاً يسري، ويتبخر منه عندئذ بعضه ويبقى بعضه، ويعود منه إلى البحر بعضه ويضيع منه في الخلائق بعضه. . . هذا البحر. . .
- معقول. . فكيف يقيس الغجر النفوس بهذا المثل؟
- هم يقولون هذا إنسان. فيه نفس وجد. يلقى الحياة وما يزال يتلقاها حتى تتبخر

نفسه ويظل جسده في الأرض، وتصعد روحه إلى السماء فتجد حجاباً فترتد إلى الأرض تبحث عن قوة تمكنها من خرق الحجاب إذا عادت مرة أخرى إلى السماء وهذه القوة في قولهم تواتي النفس بالتطهر والتلطف، والتطهر والتلطف يجيئان في قولهم بالتدريب. فإذا كانت
نفس إنسان قضت حياتها الأولى ثائرة ساخطة وتبخرت وهي ثائرة ساخطة فثقل بها السخط وثقلت بها الثورة عن خرق الحجاب عادت إلى الأرض تتعلم الصبر والرضى فإذا أسعدها الحظ صادفت غلافاً حماراً ينحدر إلى الدنيا فحلت فيه، ونزلت به إلى الدنيا تقضي حياة كلها صبر وكلها احتمال وهوان. . . ورضا، وبهذا إذا تبخرت هذه النفس مرة أخرى خفت أكثر من ذي قبل، وربما استطاعت أن تخرق الحجاب وأن تمضي إلى عالم غير هذا العالم، وربما عادت إنساناً أو حيواناً أو شيئاً مما يخلق الله ويعلمه ونحن لا نعلمه. . .
- ولكن هذا القياس فيه فارق. فهم قد حولوا الإنسان إلى غير الإنسان بينما مثلهم الذي يقيسون عليه بحفظ الماء ماء مهما تعددت أشكاله
- فلنصلح لهم نحن هذا المثل فهم لم يتوفروا على كيمياء المادة مثلما توفروا على كيمياء النفس، ولست أخالك تنكرين أن الذي يقولونه عن تحولات النفس يشبه الذي يقوله علماء المادة عن تحولاتها، ولست أخالك تتركين هذا التشابه يمر بك من غير أن تسجليه على الأقل، أما أنا فإني لا اكتفي بتسجيله في ذهني وإنما أربط بعضه إلى بعضه وإن كنت إلى الآن لا أدري مثلما قد يدرون هم أي شئ سأربطه بعد ذلك في هذين السببين وإلى أين سأصل بهد هذا الربط. . .
- إلى. . . (العباسية) من غير شك
- حتى إذا وقفتك معي على أوجه الشبه بين الذي يقوله الغجر وبين الذي يقوله علماء المادة
- إن وقفت معك فأنا أيضاً في حاجة إلى علاج للرأس.
- العلاج على أي حال خير من إهمال المرض. اسمعي.
ألا يقول علماء المادة إن هذه الأرض كلها تتشعع وتريد أن تتلاشى في الفضاء؟ ألا يقولون إن لهذه الأرض غلافاً من الأثير وهو مادة ولكنه أخف من المادة وألطف منها وأشد شوقاً إلى التشعع والذهاب؟ ألم يكتشفوا أخيراً عناصر من المادة لا تزال نادرة جداً وهي أقدر المواد على التشعع والتطاير؟ إن هذه المواد هي أرقى ما في الأرض مادة، وهي أخف العناصر وألطفها، وهي لا تزال نادرة لأنها طلائع الدور الجديد الذي بدأت مادة الأرض تدخل فيه، والأرجح أن الأرض جميعاً ستتحول على مرور الدهور إلى هذه العناصر
الخفيفة اللطيفة المتطهرة حتى تصل عندئذ إلى ما تتوق إليه من الخلاص من هذا الوضع وهذا الشكل إلى سياحتها الجديدة في الكون. وإذا كان الماء هو أكثر ما في الأرض اليوم، والراديوم (مثلاً) هو أقل ما فيها، فالماء إذن هو الحلقة الأولى من حلقات الحياة المادية في الأرض والراديوم هو الحلقة الأخيرة بحسب ما نرى. . . أو قولي إن الأثير هو هذه الحلقة الأخيرة. . . ثم قولي إن ما بين الماء والأثير من الخلائق المادية إن هو إلا تشكلات وتطورات وتحولات تنزع بها المادة إلى الانطلاق. وقيسي على ذلك النفوس كما يقيسها الغجر، ولست أطلب منك ولا من نفسي أن نعرف ما يعرفون هم إذا نظروا إلى إنسان ماذا كان قبل أن يكون إنساناً، وماذا سيكون. فهم يدعون أنهم يعلمون هذا بالنظرة، ولست أستطيع أن أنكر عليهم قولهم ما دمت أرى في علماء المادة من ينظر إلى الحجرة فيقول كانت شجرة وستصبح بعد قرون فحمة. فلماذا نقبل كلام علماء المادة هؤلاء ولا نقبل كلام الغجر؟ ألأنهم غجر؟ نحن الذين دعوناهم غجراً، أما هم فيعتبرون أنفسهم أصحاب هذه الدنيا يذرعونها من الشرق إلى الغرب، ومن الجنوب إلى الشمال لا يخضعون إلا لقوانين الطبيعة الخالدة، ولا تفسد أنفسهم غيرها من القوانين المصنوعة التي وضعتها العقول بحساب بعد أن نسيت أول قوانين الحساب وهو أنه لا بدء ولا نهاية، وبعد أن نسيت كذلك أن لكل حساب حساباً يعطله حتى بطل عمل الحساب وصار هذا البطلان هو أساس بغير حساب. . .
- على هذا الأساس أستطيع أن أستمع منك إلى كلام الغجر، فلا تحسب أني سأقتنع به، فدون ذلك تشمع عقلي وطيران منطقي وتفكيري، ودعني الآن أسألك على سبيل

العبث والفكاهة لا أقل ولا أكثر: أي نفس كانت نفسي قبل هذه الحياة. . . وأي نفس ستكون؟
- أنت؟ لا أدري، ولكني أعرف واحداً كان إوزة وسيكون حماراً
- من هو؟
- مالك أنت وماله؟ وإنما قولي: كيف هو، فأقول لك إنه كلما اطمأن إلى الحياة تمكن منه البله، فهو يلعب في الأرض ويلعب في الماء ويحب كل شئ، ولكنه لا يكاد يعطى من نفسه شيئاً لأحد إلا أن يجد عنده لذة، وهو غر يصدق كل ما يحيط به، ومن سقاه شربة ماء استطاع أن يذبحه؛ وهو إلى جانب هذا رعديد خواف، لأنه يعرف أنه عاجز عن رد الأذى بأذى. . . كالإوزة. . . له هذه لأخلاق والطبائع من نشأته فلعلها كانت طبعه الأول، ومن عرف فيه هذا تمكن منه ولعب عليه ما شاء أن يلعب وقد لعب عليه ناس كثيرون حتى كاد أن يذبح مرة؛ وإني أقول لك إنه سيكون حماراً، لأني أراه إذا أفاق إلى نفسه أخذها بالصبر وبالرضا والاحتمال، فلعله إذا تمكن هذا منه كان أصلح البشر (للحمارية) في حياته المقبلة، ومن يدري فربما اكتفى القدر منه بصبره في هذه الحياة، وطهره في حياته المقبلة من نقائص أخرى غير بادية لي فيه الآن، فكان عندئذ أخف، وألطف، وأظهر مما عرفناه الآن، وكان عندئذ أصلح للبقاء في أثير الأرواح انتظاراً لموكب من نوعه يلحقه فيدفعه في فضاء الله إماماً لمن يتبعه ومأموماً لمن سبقه. . . من يدري؟
- لا أحد، ولا أنت، ولا الغجري. ولكن هذا الكلام يشبه ما يقوله الهنود عن تناسخ الأرواح فهل أصل الغجر هؤلاء من الهند؟
- الموجة البشرية المشرفة على غرب أوربا كلها أصلها من الهند
- ولكنك لم تقل لي ماذا كنت أنت؟
- يقول داروين إن الناس كانوا قردة، ويقول القرآن إن من الناس من ردهم الله قردة. . . .. . وإني أقبل القولين في حق نفسي وإن كنت لا أصدق فيك أنت قول داروين

عزيز احمد فهمي

رسالة العلم

أفق جديد

الكهرباء والضوء يلتقيان

للدكتور محمد محمود غالي

أزمة الأثير - فراداي والكهرباء - نبوءة ماكسويل - أعمال هرتز - (برانسلي) يخترع اللاسلكي ويموت محتمياً من اختراعه

لو أننا أعدنا اليوم مطالعة الصفحات المجيدة التي خطها وويجانز ووقفنا عند هذا القدر دون متابعة التطورات العلمية، لأيقنا أن البناء الذي شيَّداه لا يمكن أن يعتوره خلل، ولو أننا جلنا في الوقت ذاته في الهيكل الرياضي الذي شيده (نيوتن) العظيم، واشترك في إقامته (أيلر) ولاجرانج لأدركنا في غير عناء لماذا طبق فُرنِل الميكانيكا النيوتونية في تفسير الظواهر الضوئية الدقيقة، التي اعتبر أنها ذبذبات حادثة في وسط مرن افترضه افتراضاً، ولكن تجربة (ميكلسون) تقف عقبة في طريق التقدم في هذا السبيل، وتتطلب من الباحثين تفسيراً يختلف والميكانيكا النيوتونية.

إن أرضاً تجري حول الشمس بسرعة كبيرة تحمل مصباحاً والمصباح يرسل في طريق سير الأرض شعاعاً ضوئياً كما يرسل في طريق عمودي على الطريق الذي تسير فيه الأرض شعاعاً له طبيعة الأول وسرعته، وهذان الشعاعان يعودان في اللحظة ذاتها إلى النقطة التي خرجا منها، في وقت لم تكف الأرض فيه عن الجري في مستقرها الأبدي حول الشمس، لأمر لا يسيغه عقل ولا يقبله منطق، إذ كيف لا يحدث رغم رحلة الأرض المستمرة وسرعتها الملحوظة، أي فارق في الوقت لمسافرين لهما في الواقع ظروف مختلفة؟ كان لابد من طرق أبواب جديدة في التفكير للإجابة على ذلك. ولقد كان للنظريات الكهربائية شأن في هذا الميدان الأثيري ولندع الآن هذه الأزمة جانباً، لننعم النظر في أمر جديد. ذلك أن الضوء الذي يتموَّج على النحو الذي ذكرناه هو جزء من الكهرباء، وإدماج

الجزء في الكل يحتم علينا أن نعرف شيئاً عن خواص الكهرباء، وسيري القارئ أنه بمعرفتنا هذه الخواص، ينتفي السبب في افتراض وجود هذا الوسط الأثيري، ولعل هذا التفكير الجديد يكون خطوة لازمة قبل أن نعرض عن الميكانيكا النيوتونية، ونستعين بميكانيكة جديدة لا نيوتونية، تفهم بواسطتها الكون على شكل أكثر وضوحاً من الشكل الذي نعرفه له.

عند ما يَهم عامل لإصلاح خلل في الشبكة الكهربائية في منازلنا قد لا يفوتنا أن ننبِّهه ليتخذ الحيطة لنفسه، ذلك أننا نعلم أنه يكفي أن يلمس العامل خطأ طرف أحد الأسلاك المكهربة لكي يفقد حياته، ويصبح بين طرفة عين وانتباهتها في عداد الأموات، ولو أن العامل الذي يلمس السلك الكهربائي كان ممسكاً بيده الأخرى واحداً أو أكثر من زملائه؛ فإن جميع المتصلين به يفقدون حياتهم في اللحظة ذاتها، وقد حدث أن قُضيَّ على ثلاثة أشخاص العام الماضي في حي بولاق بالقاهرة بلمس أحدهم سلكاً كهربائياً. بيد أننا نشعر بالطمأنينة لو اقترب العامل من السلك دون أن يمسه، إذ أننا واثقون بأنه في هذه الحالة لن يُصاب بأذى، كما أننا واثقون بأنه لا يشعر عندئذ ولا يشعر من بجواره بوجود الكهرباء بمجرد الاقتراب من الأسلاك الحاملة لها، ولهذا بالطبع أثره في اعتقادنا أن الكهرباء سارية في الأسلاك لا تتعداها إلى خارجها

ومع ذلك وبالرغم من مقدرة الجسم الإنساني على الإحساس بالكهرباء بلُمسها فإنه لم تكن أجسامنا يوماً ما أجهزة لائقة للتعرف على المحيط المتأثر بها، وكما أن العين ليست الوسيلة الوحيدة لمعرفة الظواهر الضوئية، كذلك اللمس ليس الوسيلة الأولى والأخيرة لمعرفة الظواهر الكهربائية، فلقد كانت هاتان الحاستان في حاجة لوسائل أخرى يتسنى لنا بها استجلاء هذه الظواهر في صورة أدق من تلك التي نعرفها لها، ولقد تقدمت الوسائط الطبيعية في معرفة الظواهر المختلفة حتى باتت حواسنا الخمس وحدها في المرتبة الأخيرة لمعرفة حقائق الكون إنما نروم من هذه الأسطر أن نلفت نظر القارئ إلى عبقرية (فراداي) الذي أدرك أن الكهرباء غير مستكنة في الأسلاك فحسب، وإنما في الفضاء المحيط بها أيضاً، فقد لاحظ أنه يمكن لكرة متصلة بمنبع كهربائي ذي ضغط عال أن تجذب كرة صغيرة معزولة موضوعة بالقرب منها، واستخلص من هذا أن الكهرباء كائنة في الفراغ

المحيط بالكرة. ولقد لاحظ (فراداي) أنه بتقريبه إبرة ممغطسة من دائرة كهربائية تدور الإبرة حول محور دورانها

ما أسعد العالم بهذه المشاهدة الأخيرة لفراداي، وإذا كانت مركبات الكهرباء تجوب المدن الآن بسرعتها المعهودة، وإذا كان المصعد يعمل في عماراتنا بلا ملل طول اليوم صعوداً وهبوطاً؛ فما هذا أو ذاك إلا تطبيق مباشر لمشاهدات فراداي التي قصها لقرينته في يوم من أعياد الميلاد، ومات فراداي ولم يستمتع بركوب الترام ولم يشاهد المصعد، وهكذا نظر الباحثون من عهده إلى الكهرباء لا كمادة في الأسلاك فحسب، بل كمجال حولها أيضاً

أما اليوم فشدَّ ما تتابعت الطفرات العلمية، ولم يعد القارئ بحاجة ليستحضر إبرة ممغطسة ليرى آثار الكهرباء عن بعد، بل إنه يشاهد ذلك في تجاربه اليومية. ومن منا لم يشعر وهو يجوب بسيارة عرض المدينة بالتأثيرات المختلفة التي تحدثها أسلاك الترام على (الراديو) الذي أصبح في السيارات الخاصة في مصر والعامة في أوربا من دواعي الرفاهية؟

وقد يتساءل القارئ مالنا واللجوء إلى هذا الموضوع الذي يُعد من أبدع ما وصل أليه الإنسان في التقدم ولم ننته بعد من حل الأزمة العلمية الكبيرة التي ذكرناها له وشغلنا ذهنه بها في مقالات متواصلة؟ وهو بهذا التساؤل لا يرى صلة بين الظواهر الكهربائية وما ذكرناه من عدم استساغة الفكرة الأثيرية بعد تجربة (مبكلسون)، ولكننا لم نذكر مشاهدة (فراداي) عبثاً، فلم يكن انتباهه التجريبي ليمر دون أن يفيد منه البشر فقد تناول (مكسويل) الإنجليزي مشاهداته، ووضع نظريات هامة أصبحت بعده أساس الدراسة لأهم الظواهر الكهربائية، ولم يكتف (مكسويل) بتفسير الظواهر التي شاهدها الإنسان حتى عهده بل كان واثقاً من طريقه الرياضي وثوقاً جعله يتنبأ بظواهر أخرى لم تكن قد اكتشفت بعد ولم يكن قد دل عليها في زمانه العلم التجريبي، ذلك أنه استنتج من معادلاته الأساسية مجموعة أخرى من المعادلات أثبت بها أن الكهرباء

تنتشر في الفراغ بحالة موجبة، وبهذا تنبأ بوجود الموجات الكهربائية، ولم يكن في عهده سبيل لإحداث هذه الأمواج والتثبت من صفاتها على هذا الشكل الموجي، ولكن (مكسويل) اعتبر أنها موجودة، واعتبر أن الموجات الضوئية ليست إلا أمواجاً كهربائية من هذا يدرك القارئ لماذا نذكر الكهرباء مع الضوء الموجي وقبل أن نفسر كيف ساعدت

هذه الخطوة الجريئة من (مكسويل) العلماء على التخلص من الأثير الذي افترضوه افتراضاً نذكر أولاً النتائج التجريبية العظمى التي خلص بها العالم من تفكير مكسويل الرائع ومن أداته الرياضية البديعة.

ولقد كان لهرتز الألماني الفضل الأول في الحصول على موجات كهربائية غير متصلة بموصل كهربائي، وتخترق الفضاء، واستطاع أن يعاملها كما نعامل الأشعة الضوئية فيعكسها مثلاً كما نعكس هذه الأشعة، واتجه كثير من الباحثين إلى دراسة هذه الناحية للأمواج الهرتزية، أو لم تتجه (ماري سكلودوفسكا) ذاتها المعروفة باسم مدام (كيري) شطر الأمواج الهرتزية قبل انشغالها بالنشاط الإشعاعي، وكشفها للراديوم؟. إننا نعرف أنها حاولت أن تتخذ لها مكاناً في معامل الأبحاث الطبيعية في السربون التي كان يديرها في ذلك العهد (ليمان المعروف بكشفه لفوتوغرافية الألوان، ولم يكن المكان ليتسع للأجهزة التي أرادت أن تستخدمها في بحثها، فاتجهت الطالبة البولونية شطر العالم (بكارل) في الوقت الذي كشف فيه أشعة الأيرانيوم، ولا نسرد الوقائع التي يعملها كل من تابع مقالاتنا، وما كان من أمر هذه الفتاة بعد ذلك فيما أوتيت من حظ في بحثها الموفق، فقد خرجت على العالم بالراديوم سنة 1897، وقبل ذلك العهد اتجه (برانلي) الفرنسي سنة 1891 عن غير قصد نحو الأمواج الكهربائية بدراسة طبيعة الكهرباء، ففاز بالكشف عن اللاسلكي؛ وكرت السنون وتقدم (برانلي) و (كيري) لعضوية المجمع العلمي الفرنسي، وفاز (برانلي) وخُذِلت (كيري). أو كان فيما قدمه (برانلي) للعالم ما جعل نصف هؤلاء الذين يسمونهم الخالدين يعرضون عن أعظم امرأة عرفها التاريخ؟ هذا ما سيدركه القارئ في هذه السطور

ليس المجال هنا لنشرح للقارئ جهاز (الراديو)، وسنعمد إلى ذلك عندما تنتهي من قصة العلم الشائقة ومن سرد التطورات التي حدثت في معارفنا عن الكون؛ ولكنا نوجز هنا من الخطوات التجريبية ما له علاقة بحديثنا، وهي خطوات كانت إلى حد كبير أساساً للانتشار الموجي الكهربائي

درس (برانلي) الضوء البنفسجي المنبعث من الشرارات الحادثة من (زجاجات ليد) وتوصل من هذه الدراسة إلى ما يسمونه اليوم التفريغ الموجي للمكثف الكهربائي فتوصل في الواقع إلى عمل مرسل للاسلكي، ولقد وضع (برانلي) في حجرة مجاورة للحجرة التي

كانت بها زجاجات (ليد) (جالفانوميترا) ذا مرآة، وكان يستخدمه في دراسة المقاومة الكهربائية للوحة زجاجية مغطاة براسب من البلاتين وهي دراسة لا ترتبط في شئ ما بدراسة الشرارات الحادثة في الحجرة المجاورة وقد حدث في ساعة كان (برانلي) قريباً من (الجلفانومتر) بينما كان أحد مساعديه يشتغل على زجاجة (ليد) في الحجرة المجاورة. أن رأى (برانلي) رأي العين حركة فجائية سريعة في (الجلفانومتر) لفتت نظره ليدرس السبب في تغير التيار في هذه اللحظة التي لم يعمد فيها إلى تغييره، وبالأحرى أراد أن يعرف لماذا تغيرت المقاومة الكهربائية لهذه القطعة من الزجاج المغطاة بالبلاتين دون أن يسبب هو هذا التغيير. هذا البلاتين توزع بشكل معين وتجمعت جسيماته بشكل خاص كما تتجمع أو تنتظم البرادة الحديدية عند هزها، وقد فهم (برانلي) أن ثمة علاقة بين هذا الحادث وحادث التفريغ الكهربائي في الحجرة المجاورة. وبهذا توصل إلى اختراع أول نوع من المستقبل اللاسلكي يسمونه جهاز التماسك وبذلك يكون قد اخترع هذا العالم المرسلَ والمستقبِل، واستطاع بهما أن يرسل ويستقبل لمسافة تزيد عن 20 متراً وخلال الجدران الإشارات المنبعثة من دائرة كهربائية باعثة، وقد نشر (برانلي) كشفه فعُرف في أنحاء أوربا، وتطلب الباحثون الحصول على نتائج أهم من التي وصل إليها

ولقد كان الفضل في سنة 1899 - وبعد عشرة أعوام من تجارب برانلي الأولى - لماركوني الإيطالي في أن يبعث بإشارات تلغرافية لاسلكية تعبُر بحر المانش، فبعث

بأول رسالة إلى (برانلي) نفسه، مشيراً بذلك إلى فضله الأول في الكشف عن اللاسلكي
وشاء الزمن للرجل الذي كشف جهاز التماسك أن يظل حياً حتى اليوم الذي رأى فيه رأي العين (التلفزيون))؛ وهذا يجعلنا نلمس السرعة الخارقة التي تقدمت فيها الكهرباء الموجية في الأربعين سنة الأخيرة
من كان يدري - عند ما عرف (أراجو) و (أمبير) و (أيرستد) آثار التيار الكهربائي لمسافة قريبة، وعندما تنبأ (ماكسويل) عن آثاره لمسافات بعيدة - أن سيصل الإنسان في فن الراديو للحد الذي وصل إليه اليوم؟
من كان يدري أن سيصل (ماركوني) و (فربيه و (فلمنج) إلى اختراع الصمام (اللمبة الإلكترونية) العجيبة فأتموا بها الأعمال الأولى والعظيمة للاسلكي
أما (برانلي) فقد عاش فقيراً يلقي دروساً لطلبة (البكالوريا) وفي الأيام الأخيرة أنشأ المعهد الكاثوليكي معملاً له، وهو معمل مُغطى في أجزائه بطبقة من النحاس، فهو بذلك معزول تماماً عن الذبذبات الكهربائية الموجودة في أنحاء المدينة، تلك الذبذبات التي كانت تؤثر على أجهزته الدقيقة، فقد كان يمقت في سنيه الأخيرة الإذاعات اللاسلكية المستمرة التي تمنعه عن مواصلة أبحاثه، وحبس نفسه في ذلك القفص النحاسي لينجو من آثار كشفه الأول إلى أن وافتنا الأنباء بوفاته في الشهر الحالي عن 96 عاماً.
وأستميح القارئ عذراً في سرد جزء أصبح في الواقع بعد وفاة (برانلي) من أبواب التاريخ، فقد ذهب (برانلي) للتاريخ يحكم على أعماله، ولكن العمل الذي قدمه يستحق منا أكثر من هذه السطور
وسأحدث القارئ في المقال القادم عن سبر العلماء لمراحل الإشعاع المختلفة من الراديو إلى الأشعة النافذة مشيراً إلى عمل (لويه) وسيرى القارئ من كل ذلك أن الضوء والكهرباء أمواج كونية واحدة، بحيث لو أننا فقدنا البصر لأمكننا أن نعرف الموجودات، وسنطلعه على شيء يدور بخلدنا، ولمناسبة ما نخوض فيه الآن، عن احتمال قد يكون لصفات الأحياء التي لا زالت فرضية والتي قد تكون موجودة في الكواكب الأخرى. هذه تأملات تبدأ تأملات، ولكنها تصبح برنامجاً للقارئ نحدثه عنه قبل أن نحدثه عن الضوء كمادة في الوجود، وقبل أن نشرح له نوع التفكير الجديد للعالمين الكبيرين لورانتز وأينشتاين.

محمد محمود غالي
دكتوراه الدولة في العلوم الطبيعية من السوربون
ليسانس العلوم التعليمية. ليسانس العلوم الحرة. دبلوم المهندسخانة

القصص

عيد الربيع

للأستاذ محمد سعيد العريان

منذ عام لم تكن (نُضار) في مثل حالها اليوم. . . شتان بين ما كانت وما صارت!
هاهي ذي تخرج اليوم من محبسها الذي اعتزلت فيه الناس أشهراً لا تراهم ولا يرونها إلا كما ينظر العابر العجلان إلى تمثال قائم في عرض الطريق!
لم يكن ثمة ما يربطها بالناس بعد ما مات أبوها وهجرها خطيبها؛ فما شأنها وشأن الناس وما ترجو منهم وما يرجون؟
لقد عرفت من طباع الناس وهي معتزلة بعيدة أكثر مما كانت تعرف وهي تخالطهم وتعيش بينهم؛ وكذلك لا تتكشف حقائق الأشياء لمن يراها إلا على مبعدة!
منذ عام مات أبوها، وما كان لها في الحياة غير أبيها وغير خطيبها (رشيد)، وكانت تعيش من بيت أبيها في نعمة سابغة وظل وارف؛ ولم يكن لأبيها - منذ ماتت زوجهُ - غاية يسعى لها غير إسعاد ابنته؛ فَقَصر عليها عواطف قلبه ونوازع وجدانه وعاش لها، لا يرى لنفسه حقاً في متاع من متاع الرجال ما دامت ابنته سعيدة!
وكان لأبيها وظيفة ذات أبهة ومظهر، وكان لها جمال يفتن ويسحر؛ فتهافت الشبان على التماس رضاها والحظوة عندها، ولكن فتى واحداً هو الذي استطاع أن يحملها على الإذعان والرضا؛ وعرفها رشيد وعرفته، وعرفه أبوها، وتواعدا على ميعاد تنتقل

فيه (نضار) من بيت أبيها إلى بيت رشيد!
وعاشت حيناً سعيدة بأحلامها، لا يشغلها همٌّ من هم الحياة واستيقظت فجأة من . . . أحلامها حين وجدت أباها مُسَجَّى في فراشه والطبيب بجانب سريره ناكس الرأس أسوان؛ ورأت في عيون الرجال من عُوَّاد أبيها دموعاً تترقرق فصرخت في لهفة: أبي. . .! وتلاشى الصدى ولم تسمع جواب أبيها. . . ودنا منها خطيبها يواسيها وفي . . .صوته نبرة حزن، ولمعت دمعة بين أهدابه فأطبق جفنيه ولوى وجهه
وخرج أبوها من الدار إلى غير مَعاد، وخرج خطيبها يشيع الجنازة فلم يعد، ولبثت الفتاة . . .وحدها تنتظر
وخرس جرس الباب فما عاد يستأذن عليها أحد. . . وما عادت تسمع خفق أقدام أبيها عائداً من الديوان بعد الظهر، ولا صوت نداء خطيبها قادماً لزيارتها في المساء؛ أما . . .أبوها فإنها تعلم أين ذهب، وأما خطيبها
بلى لقد عرف رشيد من شئون صاحبته ما لم يكن يعرف. . فاتخذ طريقاً غير الطريق التي كان يسلكها كل يوم، وماذا يحمله على الزواج من فتاة ليس لها جاه من أهل ولا غنى من مال، وهو لو شاء لوجد عند غيرها الجاه والمال والسعادة. . . هكذا قالت له . . .نفسه، فمضى وخلّفها!
لقد كان أبوها هو كل ما تملك من غنى وجاه، وقد مات أبوها، فماذا بقي؟
ومضى شهر، وراحت نضار تقبض (المعاش) الشهري الذي فرضته لها الحكومة بعد موت أبيها. . . وعادت وفي يدها ثلاثة جنيهات. . . ذلك كل ثروتها، وكل العوض من أبيها الذي مات!
وفي اليوم التالي كانت عربة نقل كبيرة تحمل متاعها من البيت الذي عاشت فيه هي وأبوها ما عاشت. . . إلى غرفة مفردة على سطح بيت كبير من بيوت الحي؛ وكانت . . .الخادمة تحمل صرة ثيابها ذاهبة
وتغيرت منذ اليوم عيشة نضار، وانقادت صاغرة لما فرضت عليها الحياة!
ولزمت غرفتها على السطح، لا تفارقها إلا لحاجة، واعتزلت الناس لا تراهم ولا يرونها إلا كما ينظر العابر العجلان إلى تمثال قائم في عرض الطريق!
ومضى عام. . . وهاهي ذي اليوم تفارق محبسها لغير حاجة، تلتمس جديداً في حياتها المملولة الجافة التي تحياها منذ مات أبوها. . . اليوم عيد الربيع. . . وقد خرج الناس من بيوتهم جماعات مبكرين إلى شاطئ النيل، وإلى حدائق الجزيرة ورياض الجيزة والقناطر الخيرية، يتملون جمال الحياة ويتمتعون بما أحل الله وما حرم من طيبات . . .وخبائث
وذكرت نضار ما كان من ماضيها. . . مَن ذا يراها في مجلسها ذاك على المقعد الخشبي في شارع (مسبيرو) وعليها ذلك الثوب الأسود الحائل، وفي عينها تلك النظرة الساهمة، وفي وجنتيها هذا الشحوب. . . مَن ذا يراها في مجلسها ذلك فيعرفها ويذكر ما كانت. . .؟
لقد آثرت ذلك المكان القصي الذي لا يطرقه أحد ممن تعرف من سكان الحي، لتكون بنجوة
من عيون الفضوليين؛ أفكانت تحسب أن أحداً من أهل الحي يعرفها حين يراها، أو يذكرها؟. . . ولكن فيها بقية من حسن الظن بالناس!
ومرت بها مواكب الأطفال في ثيابهم وزينتهم، يحملون في أيديهم طاقات الزهر، وينفح من أعطافهم عطر الربيع وريحانه؛ وتتابعت أسراب الفتيات في غلائلهن الموشاة وأزيائهن الفاتنة يتمايلن ضاحكات عابثات عبث الصبى والدلال؛ ومضت طائفة من الفتيان في آثارهن يغنون ويتطارحون أناشيد الهوى والشباب والأمل المنشود؛ وكان على الشاطئ فتيان يقرعان كأساً بكأس؛ وعلى المقعد القريب فتى وفتاة . . .يتناجيان في همس؛ ومرت سيارة تتهادى وفيها اثنان ينشئان قصة حب
ونضار جالسة على مقعدها وحدها، تسمع وترى وتذكر صوراً من ماضيها، وذكرت فتاها . . .الذي كان، وذكرت أباها
في مثل هذا اليوم. . . منذ عام. . . كانت وكان. . . وعادت إلى ماضيها، واستغرقت . . .في حلم طويل
ومر بها فتى، وتبادلا نظرتين، وأطرقت نضار من حياء وعادت إلى ذكريات ماضيها،

وخطا الفتى إليها خطوة، وكانت على شفتيه ابتسامة. . . وفي عينيه نظرة تعبر عن معنى. . . وقال لها: أنت وحدك وأنا وحدي!. . .

وتضرمت وجنتاها حياءً وغضباً وسكتت؛ وعاد الفتى يتم حديثه. . . ونظرت إليه ثانية وهمت أن تتكلم، ثم أمسكت. . . فليقل ما يقول ثم يمضي لشأنه؛ ليس ينبغي لمثلها أن ترد على مثله. . . وخطا الفتى خطوة أخرى جلس على طرف المقعد؛ فجفلت الفتاة ونهضت وفي عينيها غضب وسخرية!. . .

واستيأس الفتى فمضى لشأنه، وعادت الفتاة لشأنها. . . وتعاقبت على عينيها صور. . . وترادفت مواكب الفتيان والفتيات، وتجاوبت أناشيد الهوى والشباب، ورن الصدى في أذنيها؛ وذكرت فتاها. . . وحنت إليه، واصطرعت في نفسها عاطفتان، فرضيت ثم سخطت، وترقرقت في عينيها عبرة. . .

واتخذت نضار طريقها إلى مأواها وفي نفسها ألم، وإن ضحكات المرح والمسرة . . . تتجاوب حواليها؛ ومضت تحدث نفسها وتستمع إليها، وفجأة برز لعينيها منظر. . . هذا رشيد وفتاة معه، يا ويلتا! إنه لهو، وتلك صديقتها (سعدية) وما لرشيد وسعدية؟. . . وأين وأيان اجتمعا؟. . . أتراه حين هجرها أبدل بها صديقتها؟. . . ولكن سعدية مسماة منذ سنوات على ابن عمها. . . أتراها هجرته بعد أن مات أبوه. . .؟

وخنقتها عبرة، ودار رأسها وكادت تسقط، فاستندت إلى الحائط؛ وتوارى الفتى وفتاته في زحمة الناس؛ وثابت نضار إلى نفسها، فاستأنفت السير؛ وكان فتيان وفتيات يزحمون الطريق مثنى مثنى، وكأن كل اثنين من نجواهما في خلوة. . ومضت تشق طريقها وفي نفسها عواطف تصطرع وتثور؛ وهتف هاتف في أعماقها: أكل أولئك. . . وأنت وحدك. . .؟

وهمت أن تعود من حيث أتت، فتجلس ساعة على المقعد الذي كانت تجلس عليه في شارع مسبيرو، على الشاطئ النيل. . . حيث قال لها فتى منذ قليل: أنت وحدك. . . وأنا وحدي. . .! فمالها طاقة على مثل هذه الوحدة الذليلة. . . واليوم عيد الربيع!. . .

وصرت أسنان الفتاة، وقمعت خواطرها، واستأنفت السير، وراحت تسائل نفسها: أكذلك الحياة؟ ليتني لم أكن أعلم!. . .

وراحت تصعد السلم درجة درجة وهي تعد، وكان البواب جالساً يهمس في أذن ضيفه؛ ورنت ضحكة البواب وصاحبه في أذنيها، فوقفت وأحمر وجهها من الغضب؛ أتراه يحدّث صاحبه عنها؟ فماذا يقول؟. . . أم تراه يحسبها فتاة كبعض مَن رأت اليوم؟ ومِن أين له أن يعرف حقيقتها؟. . .

وما ظنُّ الناسِ بفتاة عزباء، تعيش وحدها في غرفة على السطح، ليس لِباب السطح بواب، تخرج حين تخرج وحدها وتعود حين تعود، لا يعرف أحد أين ذهبتْ ومن أين جاءتْ؟

وتماسكتْ من ضعف، واستأنفت الصعود. . . وبلغتْ غرفتها فارتمت على سريرها . . . باكية!

وأخذتها غفوة واستيقظت أحلامها؛ ولما صحْت من غفوتها بعد ساعة؛ كانت نظرتها إلى الحياة غير ما كانت. . . وماذا يجديها أن تحرص على التزام الجادة والناس هو الناس، وكل فتاة عندهم ككل فتاة؟

وجلستْ نضار إلى المرآة تتزين - المرآة التي لم تجلس إليها منذ عام مجلسَ . . . فتاةٍ إلى مرآتها، ونفضت الغبار عن حقيبتها، وراحت تبحث فيها عن شئ من تراث الماضي. . . .. . وخلعت ثوب الحداد الذي لم تغيره منذ لبسته!.

وسمعتْ طرقاً على الباب. . . وفتحت. . . فابتدرها البواب يُؤذنها أن فتى بالباب يسأل عنها، وابتسم. . . وشحب لونها، وقالت في صوت يرتعش: ما اسمه؟ وماذا يريد؟. . .

ولكن البواب لم يكن يعرف أسمه ولا ماذا يريد؛ فما كان يعنيه إلا أن يؤذنها أن زائراً يسأل عنها، ثم هبط مسرعاً. . .

وأطلَّتْ الفتاة وراءه لترى، ولكنها لم تر. . .!

لقد غشيتها الدموع وحضرتها الذكرى فما تستطيع أن تسمع أو ترى أو. . . تفكر . . . منذ عام لم يهتف هاتف باسمها ولم يزرها زائر. . . فمن يكون هذا الطارق؟. . .!

وعاد إليها البواب برسالة في يده قبل أن تجد نضار جواب سؤالها؛ وتناولت منه

الرسالة بيد ترتجف، وراحت تقرؤها وهي في طريقها إلى غرفتها. . . وسقطت دمعتان على القرطاس في يدها وكانت تبتسم. . . ولم تفطن إلا بعد حين أن البواب لا يزال منها على مقربة؛ ولأول مرة منذ سكنت هذه الغرفة المفردة، شعرت أن من الواجب عليها أن تمنح البواب شيئاً. . . فعادت حقيبتها الصغيرة ومدت يدها إليه بقروش .!. . .
وأغلقت بابها وراحت تعيد قراءة الرسالة؛ ثم رفعتها إلى شفتيها فقبلتها قبلة، وهمست: نعم، أحبك لأنك أنت. . .
وحتى في خلوتها لم تنس أنها امرأة. . فعادت تقول: نعم. . .
لأنك أنت تحبني حين لم يذكرني أحد!
ثم طوت الرسالة وأخفتها في صدرها. . .
كان (سامي) يعرفها من زمان، وكانت تعرفه؛ ورآها ذات ليلة تحدثه في منامه ويحدثها فطمع. . . وكان مجمعاً أمره على خطبتها حين جاءه النبأ بأنها سمَّيت علي رشيد، فطوى جوانحه على آلامه وسكت. . .
وضربت بينهما الأيام فصعدتْ بها إلى غرفة في السطح، ورمت به النوى من بلد إلى بلد إلى بلاد، ثم عاد ليعرف من أمرها ما عرف. . . فكتب إليها. . .
وتم أمرهما على ما أراد! وأظلهما سقف واحد، وابتسمت لها الأيام بعد عبوس . . . !
ومضى عام وجاء عيد الربيع، وقال لها: أين تريدين يا عزيزتي أن نمضي يوم العيد؟ وتغشَّتها الذكرى فأطرقتْ وفي قلبها عواطف تصطرع، ثم رفعت رأسها وقالت وهي تبتسم: أتريد يا سامي؟. . . إنني أفضل أن نجلس على مقعد خشبي على شاطئ النيل، في شارع مسبيرو، ثم نعود. . . . . .
وضحك سامي دَهِشاً وهو يقول: على مقعد خشبي؟ في شارع مسبيرو؟ يالها فكرة! بربك لماذا؟ وأي خاطر ألهمك؟
قالت وفي عينيها بريق وفي صوتها حنان وفي أعطافها نشوة: تسألني لماذا. . .؟ لأنكَ أنت هناك. .! حيث التقينا أول مرة في خطرة فِكر وخفقة قلب، وكنتُ وحدي هناك ولكني كنتُ معك. . .!

محمد سعيد العريان

البريد الأدبي

الفرقة القومية تحتفل بمولد الأميرة فوزية

كانت ليلة الثلاثاء الماضي صفحة مجيدة في تاريخ الفرقة القومية، فقد احتفلت فيها بمولد صاحبة السمو الملكي الأميرة فوزية احتفالاً جديراً بمكانتها وكفايتها افتتحه مديرها الأستاذ خليل مطران بك بقصيدة عصماء أنشدها بين يدي المليك، ثم مثلت الفرقة رواية (عبيد الذهب) التي نقلها إلى العربية الأستاذ أحمد الصاوي محمد، فكانت الرواية ببراعة ترجمتها، وطرافة موضعها، ورشاقة أسلوبها، وقوة إخراجها، وحسن تمثيلها نظاماً متسقاً من الفن والجمال واللذة قلما شهدناه في ماضي الفرقة. والحقيقة التي أثبتها هذه الحفلة أن الفرقة إذا ساعدها الكتاب بالاختيار الموفق للموضوع، والترجمة الملائمة للرواية، ظهرت براعتها في الإخراج والتمثيل ظهوراً يجذب إليها هوى الجمهور، ويعقل عنها لسان النقد.

فقهاء ببزنطة

قرأت افتتاحية العدد ال 352 للسنة الثامنة من مجلة الرسالة الغراء بعنوان (فقهاء بيزنطة) لحضرة رئيس التحرير الأستاذ الكبير السيد أحمد حسن الزيات. وقد أعجبني نقده رجال الدين لتشاغلهم بصغار الأمور عن معاليها التي جاء الإسلام بها؛ ووصفه الأستاذ بأنه (هو الذي وضع الدساتير الخالدة لسعادة الفرد والأسرة والأمة والإنسانية في كل زمان وفي كل مكان)؛ ولانصراف أهله عن حقيقته ومقصده، وقد لبسوه كما يلبس الفرو مقلوباً. ونقل العلامة أحمد فتحي باشا زغلول في مقدمة كتاب: (الإسلام خواطر وسوانح): أن السيد رشيد منشئ المنار قال في أمثال من ينتقدهم الأستاذ الزيات: (إن الجبر صار عندهم توحيداً، وإنكار الأسباب إيماناً، وترك الأعمال المفيدة توكلا، ومعرفة الحقائق كفراً أو إلحاداً، وإيذاء المخالف في المذهب ديناً، والجهل بالفنون والتسليم بالخرافات صلاحاً، واختبال العقل وسفاهة الرأي ولاية وعرفاناً، والذلة والمهانة تواضعاً، والخضوع للذل والاستسلام للضيم رضى وتسليما، والتقليد الأعمى لكل متقدم علماً وإيقاناً)

أعجبني نقد الأستاذ كما أعجبتني شكواه من الضعف النشء في معرفتهم الدينية التي يتلقفونها عمن هم حجب على محاسن الدين ومزاياه الحميدة، وقد شعر السيد الإمام كما شعر حضرة الأستاذ الجليل، حينما اختبر أمثال هؤلاء، وألقيت عليه أسئلة كالتي ألقيت
على الأستاذ صاحب (الرسالة) الغراء، وحل السيد رشيد المعضلة التي رجا الأستاذ حلها، وتمنى أن تشرح للناس عبقرية هذا الدين وفلسفة تشريعه ووجوه إصلاحه وأسباب خلوده على ضوء العلم الكاشف ونظام التأليف الحديث (بالوحي المحمدي) وقد طبع في سنتين ثلاث مرات، واتفق على الشهادة له كبار العلماء والأدباء على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم ومختلف أقطارهم. ولو شئت أن أذكر أسماءهم وأنقل جملاً من رسائلهم، لاحتجت إلى صحائف من مجلة الرسالة. على أني أكتفي بأن أورد كلمة من خطاب الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر الشيخ محمد مصطفى المراغي إلى السيد رشيد في وصف كتاب الوحي:
إنكم وفقتم لفتح جديد في الدعوة إلى الدين الإسلامي القويم، فقد عرضتم خلاصته) من ينابيعه الصافية، عرضاً قل أن يتيسر إلا لفرع من فروع الشجرة النبوية المباركة. وقد استطعتم أن توفقوا بين الدين والعلم توفيقاً لا يقوى عليه إلا العلماء المؤمنون. (فجزاكم الله عن الإسلام أحسن ما يجازى به المجاهدون
وكلمة للأستاذ محمد لطفي جمعة في كتاب الوحي المحمدي:
وفي الحق أنه كتاب جليل يلفت النظر بما أورده الأستاذ مؤلفه من الأدلة العقلية) والحجج النقلية، بوضوح وجلاء، على طريقة حديثة لم تسبق للمؤلفين في المسائل (الدينية
وكلمة للأمير شكيب أرسلان: (. . . وقد كتب السيد رشيد هذا الكتاب أيضاً لكل من نشأ نشأة أوربية أي خالية من التربية الإسلامية التي يكون الناشئ قد ارتضع فيها مبادئ الإسلام مع لبن أمه فيقال إنها رسخت فيه من الصغر، ولما كان جميع من يقرءون العلوم العصرية اليوم ويتعلمون بحسب برامج الحكومات الإسلامية الحاضرة هم في الحقيقة أشبه بناشئة الأوربيين ولو كانوا مسلمين نسباً. كان هذا الكتاب موجهاً أيضاً إليهم لأنهم في حكم الأوربيين من جهة فقد التربية الإسلامية أو على ما يقرب من ذلك)
وفي هذا القدر كفاية من شهادة هؤلاء العلماء الإجلاء بأن كتاب الوحي المحمدي هو الحل للمعضلة التي تسألون عن حلها وهو الضالة المنشودة التي تبحثون عنها لتجيبوا سائليكم عن وجود كتاب يبين أن (الإسلام بتوحيده بين الدين والدنيا علاج لأدواء المجتمع ونظام لفوضى الطبيعة وأنه يساير التطور ويطاول الزمن فلا يمكن أن تكون فيه مناقضة للمدينة الصحيحة ولا معارضة للتقدم الحق) وبالله التوفيق.
عبد الرحمن عاصم
معرفة طمي النيل باللاسلكي
يعرض الأستاذ الدكتور محمد محمود غالي أمام الجمعية المصرية للعلوم الرياضية والطبيعية التي هو عضو في مجلس إداراتها بحثاً جديداً يناقش فيه الأهمية العلمية في القطر المصري لتقدير كميات المواد المعلقة في مياه النيل أو الترع مدة الفيضان، ومعرفة الحالة التي تتغير بها في الحيز وفي الزمن. وتتصل هذه المعرفة بموضوع رسوب الطمي في ترع الري أو رسوبه أمام خزان أسوان
وسيتكلم عن طريقته الخاصة لمعرفة كمية الطمي وتحليلها من الناحيتين النوعية والكمية بتعيين سرعة ووزن جسيمات الطمي في الماء بطريقة ضوئية، كما سيتكلم عن طريقة أخرى استخدم فيها ظاهرة التبادل الضوئي الكهربائي لمعرفة سرعة جسيمات كروية في سائل أو غيوم كطمي النيل في الماء، وهي طريقة يتعين بها كمية الطمي المحمولة بالنيل ودراسة الحالة التي يتوزع بها
وسيبين بعد ذلك امتداداً للبحث الأخير توصل بواسطته إلى طريقة لمعرفة كمية الطمي المحمولة بالماء عن بعد دون الالتجاء إلى استخدام الأسلاك الكهربائية، بمعنى أنه يتسنى من القاهرة مثلاً تسجيل كمية الطمي المحمول بالنيل في أي وقت من اليوم وفي أي جزء من النيل مثل العطبرة أو النيل الأزرق أو أمام أسوان
وسيلقى هذا البحث في يوم الثلاثاء 30 أبريل الساعة 6 مساء أمام الجمعية في كلية

العلوم بسراي الزعفران بالعباسية
إلى الأستاذ صديق شيبوب
تحية وإعجاباً. . . وبعد:
قرأت قصتكم الممتعة البارعة التي ترجمتموها عن الكاتبة القديرة (سلمى لاجيرلوف). فأخذتني روعتها فكرة وأسلوباً؛ ومن ثَمَّ جئت أتمنى عليك، مشكوراً مني ومن جمهرة القارئين، أن تدأب على ترجمة آثار هذه القصصية العالمية القادرة
ولكن حبي لآثارك الروائع، وحرصي عليها أن تبدو رائعة كاملة، دفعني أن أشير لك في رفق وهون إلى لفظة جاءت في آخر القصة أعتقد (أنا) أن الأوفق أن تبدل بأنسب منها. رعاية لسياق الكلام، وانسجام المعاني، وأمانة لفن القصة
فقد حكيت في ختام القصة عن شعور الزانية، وتطهر روحها من دنس رجسها (. . . لا تمحي عن بشاعة الخطيئة، وجمال العدل. . .) وكان الأنسب أن تقول: (وجمال الرحمة) لأن العدل لا يجعل في نفوس البشر. إذ كانوا أبداً خاطئين
ولست أدعي أنني رأيت الأصل الفرنسي، ولكني أرجح وفقاً لذوقي أن تكون الكلمة في هذا الأصل هي (الرحمة) بدلاً من (العدل)
على أني أسارع فأقرر أن الرأي لك، وللأصل الفرنسي، ولأصله السويدي. . . وإنما الأمر خلاف ذوقي فقط. . . لا يمس روعة القصة في قليل أو كثير
وتحياتي لك - أيها الأستاذ - مقرونة بتقديري وإعجابي
مراد الكرداني
عدد التلاميذ بالمدارس المصرية في السنة الماضية
يؤخذ من آخر إحصاء رسمي أصدرته وزارة المعارف أن عدد التلاميذ الذين كانوا يتلقون العلم في السنة الدراسية الماضية (1938 - 1939) بالمدارس الأميرية غير الأولية بلغ 77. 029 طالباً
من هذا العدد 64. 682 مسلماً و12219 قبطياً، ومنه أيضاً 76. 729 مصرياً و128 سودانياً، وواحد حبشي، و9 يمنيون، واثنان أردنيان، و18 سورياً، وواحد أرمني، واثنان من الإنجليز، وستة من العراقيين، و31 فلسطينياً، و35 من العرب، و4 من الهنود، وواحد من أهل سيام وخمسة من الأفغان. وستة من أهل جاوا، وواحد ألباني، واثنان أسبانيان، واثنان تركيان و3 من اليونان، و3 من طرابلس، وواحد إيطالي و7 من حضر موت، و16 مراكشياً، و3 من زنجبار، وواحد صيني، وواحد من الجزائر، وخمسة من إيران، و6 من الفرنسيين
ويؤخذ من الإحصاء المتقدم ذكره، أن عدد التلاميذ الذين يتلقون العلم بالمدارس الخاضعة لتفتيش وزارة المعارف 76. 736 طالباً وأن عدد التلاميذ المقيدين بالمدارس الأولية
والمكاتب العامة مليون و119. 47 تلميذاً منهم 640. 790 بنين، 478. 681 بنات
الجندي المجهول
سيدي الأستاذ الزيات:
شغلتني شواغر جمة عن الاطلاع على مجلة الرسالة (العدد 354) الموعد المعتاد فلم أطلع عليها إلا اليوم، ولما وصلت إلى ما نقلتموه من مجلة العصبة البرازيلية وجدت به خطأ أردت أن أنبه إليه إذ قالت في حديثها عن الجندي المجهول إن فكرته نشأت في فرنسا. الحقيقة أنها نشأت في مخ قس إنجليزي سنة 1916. وفي أغسطس سنة 1920 تحدث بها إلى رئيسه الذي نقلها بدوره إلى رئيس الأساقفة، ونفذت الفكرة وأحضر الجندي واحتفل به في نوفمبر سنة 1920. أما طريقة إحضاره فلها قصة طريفة قد تقرأها يوماً في الرسالة إن شاء الله
هذا ما عن لي، وإني لشاكر لكم فضلكم لإفساح صدركم لكلمات القراء المتواضعة
محمد فخري مهنا
كياني أو لساني؟
سيدي الأستاذ الكبير مدير الرسالة
قرأت ما كتبه الأديب الفاضل عبد العليم عيسى عن (ليالي الملاح التائه) للأستاذ الشاعر علي محمود طه فأعجبني منه أنه كان بعيداً عن الغرض والهوى، صريحاً بارعاً في حكمه على شعر الشاعر ومنزلته بين شعرائنا المعاصرين. غير أني أخالفه في أن

لفظة (كياني) أرق من لفظة (لساني) في البيت:
قلت والنشوة تسري في لساني ... هاجت الذكرى فأين الهرمان
فهي في موضعها أدق وأبرع بكثير من الأولى، فضلاً عن أنها لفظة شعرية خفيفة موسيقية. أما قوله: إنه لا يتصور تلك النشوة التي تسري في اللسان. فهو دليل على أنه ليس من أرباب الكاس والطاس. وقديماً قال الشاعر العربي حسان بن ثابت:
كلتاهما حلب العصير فعاطني ... بزجاجة أرخاهما للمفصل
وفسر المعري المفصل باللسان، وهكذا ذكر اللسان والقاموس

حامد القوصي
مدرس بالقاهرة

رسالة النقد
في سبيل العربية
تصحيح نهاية الأرب
جزؤه الثالث عشر
للأستاذ عبد القادر المغربي

ص3 س3 قوله: (وتفوهت بأخبار من نبغ من أهلها) أي أهل كل دولة من دول التاريخ، ومعنى (تفوهت) نطقت. ولا يقال في مثل هذا المقام (نطقت) وإنما يقال (نوّهت) ففي كتب اللغة: نوّه فلان بفلان إذا رفع ذكره ومدحه وعظّمه. وهذا هو المراد هنا. فإن المؤلف يمدح النابغين من كل دولة ويشيد بذكرهم.

ص3 س9 قوله: (ولم أعرج في الآخر إلا بالإشارة إليها) فعل التعريج يتعدى بعلى لا بالباء. ففي التاج (التعريج على شئ الإقامة عليه، وفي الحديث: فلم أعرج أي لم أقم ولم أحتبس) فالمعنى في عبارة المؤلف إنني لم أحبس قلمي على شئ إلا على الإشارة إليها، ولم نجدهم ذكروا أن فعل التعريج يتعدى بالباء، ولعل تعديتها بها هنا من ذهول المؤلف لا من خطأ الناسخ

ص11 س21 قوله: (ففتحها) صوابه (ففتحهما) إذ أن الضمير يرجع إلى العينين، وهو خطأ مطبعي

ص25 س14 لما أخذ الله الميثاق على ذرية آدم وهم في ظهره كان أول من أجاب وخرج سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قال المؤلف: (ونادى إلى ذات اليمين وهو يقول. أنا أول من يشهد لك بالتوحيد. الخ) فقوله (ونادى إلى ذات اليمين) صوابه: (وأوى إلى ذات اليمين. أي مال ولجأ إلى الجهة اليمنى فتبوأها صلى الله عليه وسلم ونزل بها، منه قوله تعالى: (إذ أوى الفتية إلى الكهف) (أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة) وفي انحيازه صلى الله عليه وسلم إلى جهة اليمين إشارة إلى أنه من أهل الميمنة السعداء لا من أهل المشأمة الأشقياء

ص29 س14 لما أخرج آدم وحواء من الجنة اضطرا إلى قضاء الحاجة فبكيا (ثم أمرهما الملك أن يمسحا بالمدر، ثم يغتسلا بالماء) يعني أنه علمهما آداب الاستنجاء في الإسلام، كما علمهما الوضوء فتوضآ وضوء الإسلام. وآداب الاستنجاء كما قال الفقهاء هي الجمع بين المسح والغسل بالماء. فقوله (ثم يغتسلا بالماء) صوابه (ثم يغسلا) أي محل النجو بالماء بعد أن يكونا مسحاه بالمدر أي التراب

ص61 س1 قوله: (وإن شئت بقاء سبع نوايات من تمر) يسأل الملك لقمان إذا كان يريد أن يبقى في الحياة الدنيا بقاء سبع نويات تمر. والنويات جمع نواة فقوله (نوايات) بألف بعد الواو خطأ والصواب حذف الألف

ص67 س11 قوله: (فقال فتىً منهم حَدَث السن) خطأ صوابه (حديث السن) وعبارة المصباح (يقال للفتى حديث السن فإن حذفت السن قلت حدث بفتحتين) أي من دون إضافة حدث إلى السن

ص91 س6: وأمرَ الله الرياح الأربع (فضمَّت ما كان لأهل الرسّ من متاع الخ) هذا حين أراد الله إهلاكهم بسبب عصيانهم. وفعل الريح في كسح ما كان على وجه الأرض من متاع وفتات يسمى كنساً وقمًّا لاضمّاً، فصواب (فضمّت): (فقمت)، يقال: قم البيت قمًّا كنسه. والقُمامة: الكناسة ص93 س2: كان أهل الرسّ يعبدون شجرة صنوبر يقال لها (ساب درحب)، وقوله (درحب) كتبت بحاء مهملة وباء موحدة. وصوابه: (درخت)

بخاء معجمة وتاء مثناة في الآخر، وهي كلمة فارسية معناها الشجر، ومنه الشجر المسمى (أزدرخت)، وأصله بالفارسية (آزاد درخت) ويحرفه عوام الشام إلى (زنزلخت) و (زلزلخت) واسمه بالعربية (قيقب) و (قيقبان) ومما يحسن ذكره أن شجرة الصنوبر التي يعبدها أهل الرسّ ويسمونها (ساب درخت) كلمة (ساب) فيها تذكرنا بكلمة الفرنسية التي معناها شجرة الصنوبر. فهل هذه من تلك يا تُرى؟

ص93 س2: (كان يافث غرس شجرة الصنوبر المذكورة على شفير عين يقال لها (دوسات). وكلمة (دوسات) كتبت بسين مهملة وتاء مثناة في الآخر. وصوابها (دوشاب) بشين معجمة وباء موحدة. قال الخفاجي في كتابه (شفاء الغليل): (الدوشاب نبيذ التمر معرب. وذكرت كلمة الدوشاب في شعر لابن المعتز، وكذا في شعر لابن الرومي، وفسرها شارح ديوانه بالنبيذ الأسود. وقال السمعاني الدوشاب هو الدبس بالعربية. أه - قول الخفاجي. وسألت إيرانياً من سكان دمشق عن (دوشاب) في لغتهم، فقال هو الشيرا. لا يخفى أن (الشيرا) لفظة تركية معناها عصير العنب الذي اعتصر حديثاً فأصبح حامضاً ولم يصل إلى درجة الإسكار، وهو المسمى بالعربية (مسطار) بضم الميم أو كسرها. وقد اختلفوا في أصل مسطار حتى قال بعضهم إنها رومية تلقفها أهل الشام من سكان سوريا الأصليين. والحاصل أن (الدوشاب) شراب يتخذ من عصير العنب سميت به عين الماء التي غرس يافث عليها شجرة الصنوبر المسماة (ساب درخت)

ص96 س19: (وهو الذي أنشأ كوثاربا من أرض العراق). قوله (كوثا) كذا بالألف، وصوابه (كوثي) بالياء المقصورة لأن (كوثي ربا) ليس كلمة واحدة بل كلمتان: (كوثي) مضافة إلى (ربا) قال صاحب كتاب (مراصد الاطلاع في أسماء الأمكنة والبقاع: (وكوثي بالعراق في موضعين (كوثي الطريق) و (كوثي ربا) وبها مشهد إبراهيم الخليل عليه السلام، وهما قريتان الخ. وقد كتبت (كوثي) بالياء المقصورة في آخرها. وفي القاموس وشرحه (وكوثي بلدة بالعراق وتسمى (كوثي الطريق) و (كوثي ربا) من ناحية بابل بأرض العراق أيضاً وفيها ولد الخليل وطرح في النار) اهـ. وقد كتبت (كوثي) بالياء المقصورة كلما ذكرت. فالواجب تصحيحها في هذه الصفحة وص98 وص111 وكل صفحة سواها

ص 105 س18: (وبينما إبراهيم قاعداً) كذا بالنصب وصوابه (قاعد) بالرفع على الخبرية كما ورد مرفوعاً في أول ص 169 إذ قال ثم: (فبينما هو مشتغلٌ بالذكر)

ص 108 س 10: (وأدخل - أي إبراهيم الخليل - المضيق تحت الأرض) وصوابه: (المطبق). قال في مستدرك التاج: (المطبق كمحسن سجن تحت الأرض) ويؤيد هذا ما جاء في الصفحة نفسها س15: (وكان إبراهيم يسلّي أهل السجن)

ص112 س1: (فأمر بالتنور فأُسجر فطُرح إبراهيم فيه) قوله: (فأسجر) مصدره الأسجار. ولم أعثر عليه في كتب اللغة وإنما هو ثلاثي سجره سجراً، ومن التفعيل سجَّره تسجيراً ولا دخل للناسخ في هذا الخطأ بل السهو فيه من المؤلف في غالب الظن

ص115 في السطر الرابع وسطور أخرى تلته ورد أسم (سارة) زوجة إبراهيم الخليل مشدّد الراء، ولعل الصواب تخفيفها، لأنها كلمة عبرانية معناها (أميرة) كما في قاموس الكتاب المقدس. وقد نبهت دائرة المعارف البستانية إلى تخفيف راء (سارة) مذ كتبتها بالحروف اللاتينية هكذا وتخفيفها هو الشائع على الألسنة في بلاد المشرق حتى أن معاجم اللغة العربية لم تشر في مادة (سرور) إلى أن (سارة زوجة الخليل مشددة الراء حتى يكون عربياً بل سكتت عن ذلك. ولعل في سكوتها ما يشعر بأن اسم (سارة) ليس من مادة السرور العربية. وعندي أن هذا هو الصواب إذ لا يعقل أن (ماحور) العبراني والد سارة يسميها باسم عربي في معناه عربي في اشتقاقه، اللهم إلا إذا ادعى مدع بأن اسم (سارة) المخفف نقله العرب إلى لغتهم ثم عربوه وأفرغوه في قوالبها فشددوا راءه. وروي صاحب القاموس عن اللحياني (امرأة سرّة وسارّة تسرّك) وسمعت فتى يذكر أختاً له فسماها (سارَّة) وشدد الراء فقلت: ولماذا شددت الراء والناس يلفظونها مخففة قال: إن جدي هو الذي سماها وأوصى ألا يلفظ أسمها إلا مشدداً قلت: لا كلام إذن وكأن جدك يعتقد أن أسم (سارة) عربي مادة واشتقاقاً. وأما إذا كنا نتحدث عن السيدة (سارة) العبرانية فيحسن أن نلفظ أسمها مخففاً كما

سماها أبوها (ما حور).
ص125 س20 (ثم خرجت امرأة لوط وبيدها سراج كأنها تُشْعل) ضبط فعل (تشعل) بلعين المهملة المفتوحة على البناء للمجهول من فعل شَعَل النار وأشعلها إذا ألهبها. ولا معنى لذلك هنا، ولعل صوابه (تشغل) بالغين المعجمة من الشغل والاشتغال، والمعنى أن امرأة لوط لما علمت بضيوف زوجها من الملائكة وهم على شكل غلمان حسان، خرجت في الليل وبيدها السراج توهم زوجها الذي استكتمها الخبر أنها مشغولة بأمور المنزل كتفقد خادم أو علف دابة وبذلك تسنى لها أن تخلص إلى فساق قومها فتخبرهم بخبر الضيوف. على أنه يصح أن تكون (تشعل) من إشعال النار لكن يكون صوابه (تشعله) بضمير النصب والبناء وللمعلوم أي توهم زوجها أنها تريد أن تشعل السراج وتوقده لتستضئ في خدمة بيتها ثم انسلت إلى فساق قومها
ص127 س7 قوله: (حتى بلغ بها إلى البحر) صوابه (بلغ بها البحر) من دون حرف الجر لأن فعل البلوغ يتعدى بنفسه، والقول بأنه مضمن معنى الوصول تكلف لعدم ما يدعو إليه من نكت البلاغة التي تزيد في إيضاح المعنى أو تأكيده أو تورث الكلام حسناً أو غير ذلك من الاعتبارات التي يراعيها البلغاء عادة في التضمين وإلا كان خطلاً
ص132 ص10 (غيابت الجب) كذا بتاء طويلة أو مجرورة وصوابه (غيابه بتاء مربوطة كما هي قاعدتها. نعم إنها تكتب في المصحف الشريف (غيابت) إتباعاً للرسم المأثور
ص139 س7 (وقيل إن النساء خلون به ليعدِّلنه لها) يعني أن نسوة المدينة لما بلغن خبر جفوة يوسف لزليخا امرأة العزيز خلون به ليعدلنه، وقد ضبط فعل (يعدلنه) بالدال المهملة المشددة من فعل عدَّله إذ أقامه وسواه. فالنسوة بذلن جهدن في تعديل يوسف وتقويمه لأجل امرأة العزيز ولأجل أن يواتيها على ما تريد منه، ولكن ليس المقام مقام تربية ولا تقويم غلام اعوجت أخلاقه والتوت طباعه، وإنما المقام مقام حب وجفاء، ونسوة أقمن أنفسهن وسطاء أو شفعاء. فالأصوب والأليق بالمقام أن تكون (يعذلنه) بالذال المعجمة من العذل الثلاثي (أو التعذيل المزيد على الثلاثة للمبالغة) على معنى أن النسوة خلون بيوسف وأخذن في عذله ولومه على ما كان من جفوته لسيدته وإعراضه عنها وقد فعلن ذلك خدمة لها وفي سبيل مصلحتها
ص 154 س14 قوله: (تيناك) صوابه (أتيناك) وهو خطأ مطبعي
ص181 س15 أم موسى دخلت على آسية امرأة فرعون فلم تعرفها آسية (لأن أم موسى دخلت عليها في حلبة المراضع) (حلبة) كذا بالباء الموحدة، والحلبة خيل السباق ولا معنى لها هنا وصوابه (حلية المراضع) بالياء المثناة قال في المصباح الحلية الصفة وقال في الأساس: عرفته بحليته أي بهيأته. فآسية لم تعرف أم موسى لأنها دخلت عليها بصفة مرضعة وعلى هيئة المراضع وهو أيضاً خطأ مطبعي
ص 8س: أفواج الملائكة كانت تمر على موسى فكان منهم فوج (لهم نحيب 213 بالتسبيح والتقديس) النحيب البكاء أو أشده أي أنهم كانوا يبكون بسبب تسبيحهم لله. وهو ظاهر، ولكن الأظهر منع بل الأشبه في هذا المقام أن تكون (نحيب) مصحفة عن (نحيت) بتاء مثناه في آخرها وهو اللهث وشدة تتابع النفس أي أن هذا الفريق من الملائكة من شدة ما لّجوا في التسبيح وألّحوا جعلوا يلهثون حتى كاد يلحقهم البُهر وهو انقطاع النفس
ص 8س: في صفة أمة محمد صلى الله عليه وسلم أنهم (يُصَفُّون في صلاتهم 220 صفوفاً كصفوف الملائكة) وقد ضُبط فعل (يُصفون) بضم ياء المضارعة مجهولاً أي أنهم قد صفّهم صافّ. والأفصح أن يضبط معلوماً يقال في الفصيح صفَّهم فصَفّوا أي اصطفوا. فهو لازم متعد. ومن اللازم قوله تعالى في وصف الملائكة أيضاً (والصافات صفاً) أي أقسم بجماعات الملائكة المصطفة في مراتبها لعبادة ربها. وفعل الصف إذا أسند إلى من يصطف بنفسه استعمل معلوماً يقال: صف الجند وصفّت الملائكة وإلا استعمل مجهولاً: صُفَّت النمارق (ونمارق مصفوفة) صُفّت السُرر (على سُررُ مصفوفة)
ص220 س 9 في صفة أمة محمد أيضاً: (لا يدخل النار منهم أحد إلا من الحساب مثلما يرمي الحجر من وراء الشجر) قوله (إلا من الحساب) محرّف، وصوابه (إلا مَرّ الحُسْبان) والحسبان جمع حسبانة ضرب من السهام صغار قصار كالمسال. يعني أن أمة محمد لا يدخلون النار إلا مروراً كمرور السهام. ومرور السهم ومروقه يضرب مثلاً

لسرعة النفاذ. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم في صفة الخوارج: (يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية) وزاد هذا المعنى وضوحاً قوله بعده: (مثلما يرمي الحجر من وراء الشجر) فلا جرم إن الحجر إذ ذاك يمر خلال غصون الشجر بسرعة ثم يخلص إلى الجهة المقابلة من دون أن يمكث في الشجرة أو يعلق عليه شئ منها. وهكذا أمة محمد تمر في النار على هذا النحو. وكتبت (مثل ما) هكذا مفصولة. ولعل الصواب أن تكتب متصلة كما كتبناها آنفاً

ص242 س2: (فعرفوا الخضر فحملوه بغير نول) قوله (فحملوه لعل صوابه (فحملوهما) أي حملوا كلاً من الخضر وموسى وإن كانوا لم يعرفوا إلا الخضر. ويشهد لما قلنا قوله بعد: (فلما ركبا في السفينة) بألف التثنية أي الخضر وموسى

ص258 س12 (لولا بنو إسرائيل لم يخثر الطعام ولم يخبث اللحم) قوله: (يخثر) بالثاء المثلثة أي يغلظ بعد أن كان مائعاً. ولا يستقيم المعنى عليه هنا وإنما صوابه (يخْنز) بنون وزاي: خنز اللحم والجوز والتمر فسد وأنتن، أي أن الطعام أصبح معرضاً للفساد والنتن بسبب عصيان اليهود لأوامر الله تعالى. ويدل على صحة ما قلنا قوله بعده: (ولم يخبث اللحم) فإن خبثه يمنع من أكله. وأصبح المقام يتطلب أن يلحق الطعام آفة تمنع من أكله أيضاً وتلك الآفة هي خنوزة، ونتنه أما خثوره أي غلظه واشتداده فلا يمنع أكله. على أن الطعام لا ينسب إليه الخثور وإنما الخثور للبن: يقال خثر اللبن خثراً وخثوراً وخثراناً غلظ واشتد بعد أن كان رقيقاً مائعاً

ص 259 س20 (تقول العرب فوموا لنا أي اختبزوا) ضبطٌ فعل (فوموا) بالتخفيف أي بضم الفاء والميم ثلاثياً على وزن قوموا. وصوابه (فَوِّموا) بتشديد الواو من التفعيل كما ضبط كذلك في اللسان والتاج قالا: (يقولون فَوِّموا لنا بالتشديد يريدون اختبزوا)

ص270 س10 وس15 وس16 زمزي بن شلوم تزوج كستي بنت صعور مرغماً الشريعة التوراة، فغضب موسى وأصيب بنو إسرائل من جراء ذلك بالطاعون. فدخل فنحاص العيزار القبة على العروسين وطعنهما بحربته الحديد الثقيلة فانتظمهما وخرج بهما إلى القوم رافعاً حربته، قد أخذها بذراعه واعتمد بمرفقه على خاصرته وأسند الحربة إلى لحيته فرفع الطاعون، قال: ومن أجل ذلك يعطي اليهود ذرية فنحاص من كل ذبيحة الخاصرة والذراع واللحية. أقول: لا يخفى أن اللحية هي الشعر النابت على الذقن أي عظم الحنك. والشعر المذكور لا يمكن أن يكون نقطة ارتكاز لحربة من حديد تحمل جثتين بشريتين، بل إن عظم الحنك نفسه لا يصلح لذلك، وإنما صوابه: وأسند الحربة إلى (لبته)، وكذا في السطرين الآخرين (اللبة) مكان (اللحية) ولبته مكان لحيته واللبة على الصدر حيث تقع القلادة أو نقول هي الزوْر وهو ما ارتفع من الصدر إلى الكتفين. وما زلنا في المواسم ومواكب المحمل نرى حملة الأعلام والرايات الكبرى لا يستطيعون حملها ما لم يسندوها إلى لباتهم أي أعلا صدورهم لا إلى لحاهم ولا إلى ذقونهم، على أن الذبائح التي يُعطى منها أولاد فنحاص لا يُقل أن يعطوا منها مع الخاصرة والذراع شعر اللحية، ولا لحي للذبائح ينتفع بشعرها وإنما يعطون لبّاتها وأزوارها

ص270: في آخر هذه الصفحة يحكي خبر (بلعام) وقد قدِم على بن إسرائيل راكباً أتانه قال (فلما عاين عسكرهم قامت به الأتان وقد وقفت فضربها بلعام الخ) معنى (قامت به) وقفت به قال صاحب القاموس (قامت الدابة وقفت عن السير) فقوله: (وقد وقفت) بعد قوله: (قامت به) مستغنى عنه إذ يصبح المعنى به (وقفت به الأتان وقد وقفت) وهو تكرار. فلعل قوله: (وقد وقفت) مما كتب على الهامش تفسيراً لقوله: (قامت به) فألحقها الناسخ بها في المتن أو هي مما جاء في صلب المتن تفسيراً لقامت، ويكون أصل الجملة هكذا (قامت به الأتان أي وقفت) فحرف الناسخ كلمة (أي) التفسيرية إلى كلمة (وقد) التحقيقية فأصبح تركيباً ظاهر البطلان

ص271 س5: (قال موسى يا رب بما سمعت دعاء بلعام عليّ فاسمع دعائي عليه) قوله (بما سمعت) لعل صوابه (كما سمعت) أي اسمع دعائي كما سمعت دعاءه، وإلا فإن (بما)
لا يصح معها معنى الكلام إلا على تخريج بعيد ظاهر التكلف.

(دمشق)

عبد الله المغربي

العدد 357 - بتاريخ: 06 - 05 - 1940
إشعاع الإيمان
لكل إنسان إشعاع ينتشر عليك من روحه كلما جلست أليه أو دنوت منه. وهذا الإشعاع يختلف في القوة والضعف وفي الكثافة واللطف باختلاف الروح في أولئك كله. ولكن لرجل الدين ورجل الحكم إشعاعًا عرضيًّا آخر ينبثق عن العالم مادام متصلا بالله، ويصدر عن الحاكم مادام متصفاً بالسلطان. فإذا انقطع ما بين أحدهما وبين هذه القوة السماوية أو الأرضية انقلب كسائر الناس يُشع على حسب اقتداره واعتباره
تدخل على رجل السلطان أو تلقاه فتغشاك منه مهابة تطأطأ من نفسك وتكسر من نخوتك، فإذا خرجت من مدار هالته، أو خرج هو من ملكوت سلطانه، وجدته في رأيك الحر أشبه بالجذوة الواهجة إذا ما تحولت إلى رماد بارد
وتجلس إلى رجل الدين أو تراه فتغمرك منه جلالة تثلج صدَرك بالرضا وتنقع نفسك بالسكينة، فإذا قمت عن مجلسه بقى في بصرك نوره وظل في بصيرتك هداه. وذلك هو الفرق بين قوة تسيطر بمادة الإنسان وقوة تؤثر بروح الله
كان هذا الإشعاع الإلهي من رجل الدين يفعل فعله في القلوب والأبصار من إرشاد ولا وعظ. كان العالم أو شبه العالم إذا دخل قرية أشرقت أرضها بنوره واهتز أهلها لمقدمه، فيهرعون إليه ويعكفون عليه ويجدون فيه الدليل إلى الله، فمصافحته عهد لا ينقض، وإشارته حكم لا يرد، ودعوته بركة لا تنقطع. وكنا في ذلك العهد أحداثا ننظر إلى الشيخ وهو بُهرة المجلس كأنه برهان الله، وهو صامت، ويؤثر وهو ساكن، والقوم من حوله مطرقون مستغرقون فرغت قلوبهم من مطامع الدنيا، وخلت صدورهم من وساوس الشر. فإذا ترك القرية خلف بها عهد الله يتصل به ما انقطع من الأسباب، ويقوى عليه ما وهن من المودة
ذلك لأن الشيوخ كانوا يومئذ يسمتون سمت الأنبياء فيجعلون دينهم ودنياهم وحدة لا تتجزأ، فإذا قالوا وعظوا، وإذا فعلوا أرشدوا، وإذا صمتوا كانوا كأعلام البر تدل بالإشارة، أو
كمنائر البحر تهتدي بالشعاع. فلما تشوف العلماء إلى زهرة العيش، واستشرفوا لعزة المنصب، انطفأت من حولهم هالة الورع فأصبحوا كالناس يفعلون فيرمُون بالرياء، ويقولون فيُتهمون بالكذب.
تعال أقص عليك حديثاً من أحاديث لواقع لا يزال الناس يرونه كلما حلا لهم أن يوازنوا بين عالم يجري دينه على لسانه فيذهب في قوله، وعالم يجري دينه في قلبه فيشع من مسامه:
كان الشيخ. . . ففيهاً من النمط القديم، قد شغل فكره بالدين، وقصر جهده على العلم، وهب وجوده للأزهر، فهو يقضي النهار وطرفي الليل في التدريس والمطالعة والصلاة؛ لا يكاد يخرج من درس إلا إلى درس، ولا يترك ملزمة إلا إلى ملزمة. فإذا جاء يوم الجمعة خرج ماشيا إلى زيارة الأولياء في المقابر أو في المساجد، ثم يعود مع المساء قرير العين مطمئن النفس إلى حجرته الأزهرية ذات الفراش الخشن والضوء الشاحب ليعدّ درسه الذي سيلقيه في فجر السبت
وفي ذات يوم من أيام الجمع وقع في نفسه أن يصلي الجمعة في مسجد أبي العلاء ببولاق، فخرج من الأزهر في ضحوة النهار وأخذ يسأل عن الطريق إلى المسجد والناس يدلونه أو يضلونه حتى دفعه القدر إلى المكان الرسمي للمومسات
كان الشيخ يسير في هذا الشارع العاهر بعمته العظيمة وجبته الفضفاضة كما يسير الجمل في شارع من شوارع لندن!
كان موضعاً للنظر الساخر وموضوعاً للتنادر البذيء؛ ولكنه كان يمشي ناكس للطرف مشغول الخاطر فلم يفطن إلى شيء. نعم فطن إلى انتقاض وضوئه حين لمست يده بغي من البغايا تريد أن تعبث به. فاستغفر الله وحوقل، ثم سأل صبياً من صبيان ذلك الحي أن يدله على مسجد يجدد فيه وضوءه، فقد كان يكره أن يمشي على غير وضوء؛ وكان الصبي خبيث الفطرة فاحش الدعابة فدله على بيت مومس وقال له: هذه يا سيدي دورة المياه!

دخل الشيخ الدار فإذا فتاة كصورة (القارئة) في متحف اللُّفر قد اضطجعت على كنبتها الوثيرة وهي نصف عارية. فلما رآها أسبل عينه وغمغم بالاستغفار والدعاء ثم قال لها:
- استري نفسك يا بنيتي فقد قربت الصلاة وأوشك المصلون أن يجيئوا
فنهضت الفتاة وقد اعتراها نوع من الوجوم ينشأ بين الدهش والعجب فوضعت عليها بعض ثيابها وقالت:
- ماذا تريد يا سيدي الشيخ؟
- أريد أن أتوضأ. نادي أباك يقودني إلى الحنفية!
ألست ابنة خادم المسجد؟
فأجابت الفتاة وقد أدركت كل شيء:
- بلى يا سيدي أنا ابنته؛ وسأقودك بنفسي إلى الحنفية.
فافتح عينيك واتبعني فقد لبست
وأرشدت المومُس العالمَ إلى مكان الطهارة وهو مغْسلها الوردي الأنيق، فوقف أمامه ذاهلاً يرى أداة الزينة ويجد رائحة العطر، ولكنه لم يسترب ولم يستريب؟ أما يجوز أن يكون في القاهرة طراز من المساجد لم يره؟
وفتح الشيخ الحنفية وتوضأ، وجاءته ببشكير أوبرَ فأمَّره على وجهه فسطعه أريجه. ثم أقسمت عليه المرأة ليجلسن على الكنبة ريثما تهيئ له فنجاناً من القهوة. فجلس الشيخ يذكر الله، وجلست هي بجانبه تغلي الكنكة وتديم النظر إلى وجهه. فلما تمزز الفنجان سألته: إلى أين يذهب؟ فقال لها: إلى مسجد السلطان أبي العلا. فخرجت أمام الدار ونادت عربة من عربات الركوب فأجلست الشيخ فيها، ثم أعطت الحوذي الأجرة وأمرته أن ينزله أمام الجامع. ورغبت الفتاة أن تقبل يد الشيخ، ولكنه أدخلها مسرعاً في ثوبه وقال: لقد ضاق الوقت يا بنيتي عن وضوء جديد. أسأل الله لك الهداية والمغفرة
قالوا: ورجعت المومس إلى دارها وعليها من الشيخ شعاع نفذ إلى ظلام نفسها فأشرقت بالصلاح والخير؛ ثم لم تُرَ بعد ذلك اليوم إلا في ثوبها الأسود قاعدةً تخيط أو قائمة تصلي!

احمد حسن الزيات

صوت فضولي!

للأستاذ عباس محمود العقاد

منذ أسابيع كانت محطة الإذاعة المصرية تنقل إلى الناس أحاديث شتى من مكان في أرباض القاهرة على ما يظهر
وكانت الأحاديث تجري على صيغة السؤال والجواب، أو الاستيضاح والتوضيح؛ وإن السائلين ليسألون، وإن المجيبين ليجيبون، وإن الأدوار لتتوالى دوراً بعد دور، إذا بصوت لم يدعه أحد، ولم يأذن له أحد، ولم ينتظره أحد، ولم يسأله سائل أن يجيب، قد شق الفضاء وحيداً ثم ذهب بعيداً. . . حتى توارى في حجاب الصمت، وغاب عن الأسماع كما هو غائب عن الأبصار صوت فضولي!
لكنه أحق من أصحابْ الدار، ومن المدعوين الأصلاء، ومن سائر الأصوات أن يسمع في هذا الأوان
لأنه صوت الكروان
الكروان في المذياع، يقتحمه اقتحاماً بغير داع
أذكرني هذا الصوت الفضولي احتفال الأمريكيين بذكرى الشاعر الإنجليزي العظيم وليام وردزورث منذ أعوام
فإنهم أقاموا في صومعته التي عاش فيها أكثر أيام حياته مذياعاً ينقل إلى عشاق أدبه ما كان يسمعه بأذنيه، ويترجمه لحناً في قصيده. فلما كان الموعد المعروف أصغى المحتفلون في القارة الجديدة إلى أصداء الأثير المنطلقة من الصومعة، فإذا هم يسمعون زقاء العصافير ودقات الساعة القديمة وحفيف الأشجار وخفقات الهواء، وكل ما كان في سمع الشاعر وقلبه وخياله، وفي أوزان شعره وآيات وحيه، كأنهم نقلوا عالم الأطياف كله، فنقلوا أطياف العصافير ومناظر الربيع، كما نقلوا طيف الشاعر من العالم الآخير ومن حصن الخلود المنيع
لكن أطيار (وردزورث) كانت مدعوة منتظرة في موعدها المعروف.

أما كروانتا في مصر، فلم يسمع دعوة من الناس. بل كان كل ما سمع دعوة من الربيع ونداء من الأرض والسماء، فلبّي وأطاع، ولم يضره أنه فضولي في عرف المذياع.
ويح هذه الأطيار!
من أدراها بمواسم الأفلاك؟ ومن أدراها بعدد السنين والحساب؟ ومن أدراها بمواعد الأرض والسماء، ومواسم الصيف والشتاء؟
إنها لتدري!
إنها لتقرأ الخط وتفسر الأرقام وتدرس الأزياج وترقب الأرصاد
إنها لقارئة وحاسبة وفلكية وميقاتية، وكل ما شئت من أوصاف العلم والدراية
مالك لا تصدق؟ ما لك ترتاب؟ اسمع سؤالاً وجوابه، وأنت خليق أن تعلم بعد ذلك من منا على خطأ، ومن منا على صواب:
فقد سأل أناس: لماذا تغرد الطير في الربيع؟ لماذا تتغزل وتتغنى في هذا الأوان؟
فحار بعض العلماء في الجواب، وبحثوا ونقبوا، وفحصوا وقلبوا، ثم عادوا إلى السائل قائلين، وهم على أيقن يقين:
إن الطير تغنى في الربيع لأنها تجد طعامها موفوراً فيه، وإنها لتشبع من ذلك الطعام فتسري فيها حرارة الشبع، فتعرف الحب فيلهمها الحب الغناء!
جواب علماء. . .!
فقل لي بحق العلم عندك: أيهما أحق بالتصديق: أن يسألك السائل كيف تعرف الطير المواسم فتجيبه إنها تعرفها لأنها تدرس الفلك وتقرأ التقاويم وتحسن الحساب، أم يسألك السائل لماذا تغني في الربيع فتجيبه إنها تغني لأنها تجد الطعام؟
ماذا على هؤلاء العلماء لو فهموا أن الحياة التي تنبت الشجر وتكثر الحب وتملأ السنابل بالطعام لن تقف مغلولة اليدين مع الأحياء، ولن يتأتى أن تعطي الأرض ما تعطي وأن تعود إليهم وحدهم بغير عطاء؟
لماذا تثمر الأرض وتشرق الأزهار في الربيع؟
إن هذا لأعجب من تغريد الطير وحركة الحيوان. فإذا استطاع الربيع أن ينفخ الحياة في بذرة ورقة، وفي غصن وثمرة، فما باله يعجزعن ابتعاث الطير وتحريك الأحياء؟
وما بالنا نرجع إلى الطعام ولا نرجع إلى الذي نفخ الحياة في الشجر الأعجف فأصبح طعاماً يأكله من يشاء
لماذا لا يفهم العلماء هذا؟
لأنهم لو فهموه لأصبحوا شعراء. . . وقد يتفق العلم والجهل؛
أما العلم والشعر فمعاذ الله لا يتفقان!
ولا نحب أن نسأل العلماء عن الربيع، فإن الربيع لمن يحسونه لا لمن يدرسونه، والذين يحسونه لا يستكثرون عليه أن ينطق الجماد بالألحان، فضلا عن البلبل والكروان
فلنسأل الشعراء
والشعراء يقولون إن الربيع شباب الزمان. صدقوا، أي تعريف للربيع أبلغ من هذا التعريف؟
ثم ما الشباب؟
قالوا: والشباب ربيع العمر. . . وصدقوا أيضاً. فأي أوان في العمر هو أشبه بالربيع من أوان الشباب؟
لكن ما الربيع والعمر معاً معشر الشعراء؟
هنا يسكت أصحابنا الشعراء، لأنهم لا يحبون الاستقصاء، ولا يتعقبون الأشياء تعقب الأعداء والرقباء
فليكن الشباب ربيع العمر
وليكن الربيع شباب الزمان
وكفى بذلك تعريفاً لمن يحسون. أما الذين لا يحسون فما هم بعارفين، ولا هم معرفون
وكثير من الذين يحسون قد عرفوا للشباب علامات، وإن لم يحصروه بالكلمات، ولا بالأوقات
فقال الموسيقار موريز روزنتال: (إنك لشاب إذا استطاعت امرأة أن تسعدك واستطاعت أن تشقيك، وإنك لكهل إذا استطاعت إسعادك ولم تستطع أشقاءك، وإنك لشيخ فان إذا عجزت معك عن هذا وذاك)

وقالت ظريفة باريسية: إنك شاب إذا أكلت علبة من الحلوى كل يوم واستمرأت أكلها، وإنك لأكبر عمراً إذا قلت إن الحلوى لسم زعاف، ولكنك تأكلها مع ذاك. وإنك لشيخ يائس إذا انقطعت عن أكلها وعن ذمها وعن اشتهائها

وقالت: (إنك لشاب إذا أنت أحببت الكتب والروايات ومناظر السينما التي تبكيك، وإنك لأكبر عمراً إذا أنت آثرت عليها ما يضحكك ويسليك، وإنك لشيخ يائس إذا أعرضت عنها وهي مبكية ومسلية على السواء)

وقالت تخاطب النساء: (أنت شابة إذا نظرت أول ما تنظرين إلى عيني الرجل، وأنت أكبر عمراً إذا نظرت أول ما تنظرين إلى يديه)

وقالت: (أنت شابة إذا راقك الثناء على ذكائك، وأنت أكبر عمراً إذا آثرت الثناء على جمالك ومرآك)

وقالت: (أنت شابة إذا أسفت على وقت ضاع منك في النوم. وأنت أكبر عمراً إذا علمت أن وقتاً تنامينه ليس بالوقت الذي ضاع)

علامات صادقة، لأنها أصدق من توقيت الشباب بالسنة واليوم، ومن حصره بالمصطلحات والتعريفات

وهي صادقة أيضاً لأن المغالطة فيها تجوز حين لا تجوز في مواقيت السنين أو في سمات الشيب والغضون

كان كليمنصو يوم بلوغه الثمانين يتمشى مع صديق في الشانزليزيه، فعبرت بهما صبية فاتنة، والتقت أعين الصديقين، فإذا بعيني الوزير الجليل تلتمعان وإذا به يهتف كأنه يمزح: (ليتني أعود إلى السبعين كرة أخرى؟)

لم قال السبعين ولم يقل العشرين أو الثلاثين. . . أو الأربعين والخمسين؟

لو كان يعلم أن الأمنية تستجاب لتمنى العشرين والثلاثين، ولم يتمن السبعين لكنها لا تستجاب، فخير له إذن ألا يشهد على نفسه بالفناء وألا يوسع الفارق بينه وبين أيام الغرام. فلأن يكون رجلاً بينه وبين متعة الحياة عشر سنوات، خير من أن يكون حطاماً بالياً بينه وبين المتعة خمسون سنة، ولو في لغة الأماني والأحلام!

سل الشعراء إذن عن علامات الشباب ودلالته، ولا تسألهم عن حدوده وأرقامه، فهم مجيبوك إن سألت هذا السؤال جواباً كجواب العرافين والعرافات يرضي كل سائل ويعجب كل سن ويفتح باب المغالطة على مصراعيه

ومن الذي يأبى أن يثبت شبابه إذا كان الدليل عليه بكاء من رواية أو صورة متحركة أو كتاب؟

ومن الذي يعجز عن إثبات شبابه إذا كانت السبعون أمنية المتمنين؟

الشباب هو ربيع العمر، وربيع العمر له علامات وليست له حدود

والربيع هو شباب الزمان، والزمان في شبابه يستمع إلى غناء الطير وهتاف الكروان، ولا يحسبه من أهل التطفل والفضول

فليكن كروانا فضولياً في المذياع بين حوار العلماء والأدباء، فما هو بالفضولي في الربيع بين أزاهر الأرض وزواهر السماء

هو مدعو بكل ورقة على كل شجرة

هو صاحب بيت

هو داع في ربيعه الخالد: ربيع الطير الذي ينفث الحياة، وليس بربيع الإنسان الذي ترقبوه لإزهاق الأرواح وتمزيق الأبدان.

إن صوت الكروان لصوت فضولي في هذا الربيع، لأنه نشوز بين صفير الرصاص ودوي القذيفة، وياله من نشوز جميل!

عباس محمود العقاد

فن الحياة

للدكتور إبراهيم ناجي

الحياة فن جميل. لا، بل عدة فنون متصلة مندمجة، تكون فناً واحداً، هو فن الحياة وأكثر الناس لا يعرفون كيف يعيشون. أجل، أكثر الناس يتخبطون في ظلام دامس. ولذلك تكون حياتهم شقاء هم السبب فيه

قد تعترضون بأن من أسباب الشقاء ما لا قبل لنا به ولا يد ولا رأى؛ ولكني أرد بأن أكثر الشقاء - ولا أقول كله - هو من مخيلتنا ومن اعتيادنا ومن البيئة التي نوجد فيها

قلت أن الحياة فنون!
ولكن ما هي الحياة أولاً؟ وما هي الفن ثانياً؟
الحياة مطابقة لما بين الدنيا الخارجية والدنيا الداخلية. والفن هو المعرفة مضافة إلى الطبيعة؛ أي الملاءمة بين الداخل والخارج فالحياة والفن من عنصر واحد. فالحياة الفن والفن الحياة
قلت إن الحياة ملائمة بين ما في الخارج والداخل. ويسمى العالم الخارجي (الما كروكزم) أو العالم الكبير، والعالم الداخلي (الميكروكزم) أي العالم الصغير فما معنى هذا؟
معناه أن انعكاس العالم الخارجي على مرآة أنفسنا هو الذي يشكل الحياة ويعطيها الصورة الخاصة بكل منا، وكلما كانت الصورة المنعكسة على مرآة أنفسنا مطابقة للأصل كانت الحياة أقرب إلى الفن والكمال
وكلما كانت الصورة مشوهة أو مقلوبة أو مبتورة كانت الحياة بعيدة عن الفن والكمال
كيف إذن نجعل هذه الصورة مجلوة على حقيقتها، كحقيقة السماء في أعمق بحيرة في صيف جميل؟
إننا في الحياة نقوم بأشياء كثيرة ملخصها ثلاثة أشياء:
التفكير والحب والعمل
والتفكير فن والحب فن والعمل فن. . .
وقد قسم العلماء التفكير إلى نوعين: التفكير بالجسد، والتفكير بالكلمة. . .
والتفكير بالجسد أقواها وأضبطها، ولكنه محدود ضيق الأفق. فمن ذلك التفكير تفكير القطة التي تثب، والملاكم الذي يضرب. فهذان يفكران بالعين واليد أو القدم، وهذا يسمى تفكير الغزيرة. ويقول أندريه موروا: إن أرقى أنوع التفكير هو الذي ينتقل من التعقل من الغزيرة. يعني بذلك الذي ينتقل من دور التحليل والمنطق إلى دور التنفيذ السليم بوساطة الغزيرة التي تملي على أعضاء الجسد فتقوم بالعمل وتؤديه على أحسن حال.
وهناك التفكير بالكلمة، وهو أشد أنواع التفكير خطراً وأبعدها مدى، وهو كذلك أكثرها تفككاً وإبهاماً. فإن كلمة واحدة تثل عروشاً، وتقلب دولاً، وتغير نظاماً. وإن كلمة واحدة في ميدان السياسة أو الاقتصاد لتفسر ألف تفسير وتؤول ألف تأويل
ما هي قواعد التفكير السليم؟
إن التفكير السليم لشيء نعتاده كما نعتاد أي شيء
فالإنسان (حزمة) من العوائد كما قال ويليم جيمس
والتفكير السليم يكون أساسه أمرين:
الأول: الإيمان بالقواعد التي أثبتت الأجيال صحتها، واتفقت التقاليد المتوارثة على التسليم بها. تلك أصول ثابتة في النفس الإنسانية لا سبيل إلى إنكارها ولا الخلاص منها، وعبث محاولة التفلت من جذور امتدت في أعمق أعماق السرائر الإنسانية وبقيت هناك، وإنما الشجرة التي تنمو من تلك الأعماق وتصل إلى النور والشمس هي التي يباح لها أن تحلق وتتساءل وتبحث. مثل ذلك مثل الطيار الذي يستكشف وهو بعد جزء من الجيش الذي ينتظر إشارته ليهتدي، ثم ينتصر
والأمر الثاني، الأساس الثاني للتفكير هو أمر ديكارتي محض. ديكارتي أي يوقن بعظمة العقل الإنساني وإمكانه التحليل والتعليل والوصول. وهو يبني قدرته على الشك المستند إلى قواعد ثابتة من القضايا المنطقية التي أسلمتها الإنسانية من جيل لجيل ويتفرع من الأمرين أمر جدير بالتدبر
وهو أنه لكي تكون الصورة المجلوة في نفوسنا سليمة والمرآة غير مجرحة، يجب أن تستبعد الأوهام والخزعبلات والأباطيل، يجب أن تستبعد الفكر الزائفة والأقاويل السخيفة والترهات.
هذا أساس التفكير وهو الفن الأول
أما الفن الثاني فهو الحب؛ ويتفرع منه الصداقة أو هو أبوها وسيدها
إن رأي فرويد أن الدنيا قامت على الحب وعلى الحب وحده؛ وقد تختلف صوره وتتباين أشكاله. فهو حب للوالدين حيناً وللرفاق حينًا وللجنس المخالف ما تبقى منه. وهو عند فرويد خط مرسوم كالقطار يسير من محطة إلى أخرى ما بتر منه أو اقتصد

فيه أو شوه، يغير وجه الحياة بحالها
ويقول علماء التناسل: إن الشاب والشابة في سن المراهقة ينشغلان بتصوير المثل الأعلى كل في ناحيته، والأصل في المثل الأعلى عند الشاب امرأة، وعند المرأة رجل، ولكنه لما كان في تلك السن يستحيل تحقيق ذلك المثل، فإن المراهق ينصرف إلى تخيل المثل الأعلى على هواه، فحيناً يكون ذلك شعراً، وحيناً يكون موسيقى، وحيناً تصويراً.
وهنا منشأ الفنون الجميلة
فإذا أراد الله تحقيق حلم من أحلام الشباب وجب أن يعلم كل منهما كيف يحب وكيف يستبقي ذلك الحب
وإذا علم كيف يستبقي حبيبه علم كيف يستبقي صديقه
فيجب على الرجل أن يلم أولاً بطبيعة الحب، وثانياً بطبيعة المرأة. ويجب على المرأة أن تلم أولاً بطبيعة الحب، وثانياً بطبيعة الرجل، فأكثر الخلاف بينهما ناشئ من قلة الفهم. كل يتهم الآخر بما ليس فيه، أو يضيف إليه ما ليس عنده
فالحب ليس عنصراً واحداً بسيطاً، بل هو مزيج مركب من الإعجاب، والجنس، وحب الملك، والاعتياد
فلا بد من الإعجاب أولاً. لابد من تلك الصدمة التي تعتري الإنسان أولاً. وثانياً، لابد أن يكون طبيعياً كما أرادت الطبيعة. وثالثاً لابد من أن يحب الواحد منهما الآخر حباً يغرى بالانفراد، ثم بكشف النفس وفتح مغاليق القلب في غير تكلف ولا تصنع. ثم أخيراً لابد أن يعتاد الواحد الآخر، لابد أن يتآلفا باتفاق الميول وتشابه الأهواء. ويقول العلماء إن هذا الاعتياد هو الأسمنت الذي يربط العناصر الأخرى بعضها ببعض
وطبيعة الرجل في أساسها أنه مغامر مفروض فيه القوة والجبروت والقدرة على الحماية،
مفروض أنه الجندي المحارب
وطبيعة المرأة في أساسها الأمومة. وما يتفرع عن ذلك من حنان
وهي التي تهيئ الوسادة المريحة للجندي، وتبني له العش الهادئ الجميل. فمفروض إذن أنها تنال بالبساطة والوداعة والصبر، مادام أساس طبيعتها الحنان، حنان الأمومة. فمهما عصفت وثارت، يجب أن يعرف الرجل أنه في وسط العاصفة كالربان الماهر في البحر الثائر يصبر على العاصفة ولا يكرهها، ويتنكر له البحر ولا يزال يحبه.
وبهذا المقدار من الفهم عند كليهما تبقى المحبة بينهما ثابتة. ويبقى أن نؤكد أن أساس المحبة والصداقة معاً، أن يتجرد الإنسان من الأنانية. يجب أن يعطي لكي يأخذ، فأكثر الناس يأخذون ولا يعطون، وبذلك يفقدون أحبابهم ويفقدون أصحابهم.
ونؤكد أكثر من ذلك أن أساس المحبة والصداقة أمور صغيرة تقوم عليها الحياة، وتقوم عليها الدنيا، وتقوم عليها المحبة والصداقة
فالعظائم لا يقوم بها الرجل الذي لا يقوم بالأمور الصغيرة في شكل عظيم، وكيف نقوم بالأمور الصغيرة في شكل عظيم؟
إننا في الغالب ننسى المناسبات الصغيرة التي لو انتهزناها فتذكرنا أصدقاءنا أو أحبابنا لقيدت تلك السلسلة الرقيقة أحبابنا أو أصدقاءنا بقيود مدى الحياة، كلمة صغيرة، هدية تافهة، لحظة تنتهزها للسؤال عنهم، رنة التليفون في عيد الميلاد، تلك أشياء ينساها أكثرنا، وبذلك تفتر الصداقات وتموت المحبات ووقودها تلك الأمور التوافه. . .
هذا فن الحب، ويبقى فن العمل
العمل قوام الحياة والدعامة التي تقوم عليها. بل هو الدريئة التي نستتر وراءها لننسى متاعبنا وأشجاننا؛ فما دمنا نعمل فنحن في شاغل من عملنا، لا نبالي بسفالات الناس، ولا بأقاويلهم، ولا بسخافاتهم. ولكن هل مجرد العمل يكفي؟
كلا، لابد أن يكون العمل مثمراً. لابد من الجني الشهي، لابد من الراحة بعد التعب. والراحة ذلك الجني الشهي!
حقيقة أن المواهب تختلف، وأن الله ينعم على هذا بالعبقرية ويجعل ذلك في مستوى العامة
ولكن حتى العبقرية تموت إذا لم يتعهدها العمل المنظم.

ورحم الله شوقي حين قال: (السيف يزدهي بالصقال!)
فقد كان جيته لا يخجل من ترتيب عمله
وكانت ساعات عمله منظمة، وهو العبقري المشهور
وكان لا يخجل أن يطرد عنه الزائر البغيض
وكان يقول الذي يشغله في جرأة: أرجوك أن تنصرف، فإني مشغول
وفي الأمثال: أثقل الثقلاء من شغل مشغولاً!
ولكننا نتورط، ونجامل، وبذلك نضيع وقتنا
ومن أسرار السعادة أن نتبع الأفضل، ولا نتبع سبيل المجاملة. وقد قال المرحوم أحمد عبد الوهاب باشا: إن من أسرار النجاح أن تقول (لا) حين يجب أن تقولها
إن هذا التورط ضرب من الفوضى، ضرب من قلة الضوابط التي يتبعثر بوساطتها الزمن وتتمزق الجهود
وقد قال أحد عظمائنا: إن آفة الشباب عندنا أنهم يجاملون وسطاً فيه (فرامل) لا يستعملها أهلها!
قال إديسون: إن العبقرية 99 % عَرَق!
يعني أن العبقرية لا تعني الكسل، بل الجهد الدائم، والحيوية المتدفقة
ولقد يخيل للذي يرى أثر العبقرية في الفنون، أن القصيدة أو الرسم، الذي قد يقوم به العبقري في ساعة أو بعضها من نتاج العبقرية وحدها. وهو واهم فإن خطاً واحداً يرسمه مصور هو جهد سنين، وبيت شاعر قد يلوح بسيطاً، ولكن هاته البساطة خلاصة عهود وأزمان من النصب والتعب
ويشترط في العمل أن تتخلله الراحة، ولا يهزأنَّ أحد بذلك، ولا يتخيلن أحدٌ أن الإنسان في راحته تنقطع الصلة بينه وبين عمله. . . كلا. فالعقل الباطن يشتغل دائماً، والإنسان في الراحة يستجم
هذه أسرار الحياة وفنها الرفيع
فلعلي أكون قد أصبت الحقيقة، والسلام عليكم ورحمة الله
إبراهيم ناجي

في الاجتماع اللغوي

نشأة اللغة الإنسانية

للدكتور علي عبد الواحد وافي

استأثرت هذه المشكلة بقسط غير يسير من نشاط الباحثين في مختلف العصور، وذهب العلماء بصددها مذاهب شتى يرجع أهمها إلى أربع نظريات:
(النظرية الأولى) تقرر أن الفضل في نشأة اللغة الإنسانية يرجع إلى إلهام هبط على الإنسان فعلمه النطق وأسماء الأشياء. وقد ذهب إلى هذا الرأي في العصور القديمة الفيلسوف اليوناني هيراكليت وفي العصور الوسطى بعض الباحثين في اللغة العربية، كابن فارس في كتابه الصاحبي. وفي العصور الحديثة طائفة من العلماء على رأسها الأب لامي في كتابه فن الكلام ' والفيلسوف الفرنسي دو بونالد في كتابه التشريع القديم
ولا يكاد أصحاب هذه النظرية يقدمون بين يدي مذهبهم دليلاً بمطلب يعتد به. أما أدلتهم النقلية، فبعضها يحتمل التأويل، وبعضها يكاد يكون دليلاً عليهم لا لهم. فالمؤيدون لهذا الرأي من باحثي العرب يعتمدون على قوله تعالى (وعلم آدم الأسماء كلها) وهذا النص، كما ترى، ليس صريحاً فيما يدعون، إذ يحتمل أن يكون معناه - كما ذكر ذلك ابن جني في كتابه الخصائص وذهب إليه كثير من أئمة المفسرين - أن الله تعالى أقدر الإنسان على وضع الألفاظ. أما القائلون بهذه النظرية من الفرنجة، فيعتمدون على ما ورد بهذا الصدد في سفر التكوين إذ يقول: (والله خلق من الطين جميع حيوانات الحقول وجميع طيور السماء، ثم عرضها على آدم ليرى كيف يسميها، وليحمل كل منها الاسم الذي يضعه له الإنسان، فوضع آدم أسماء لجميع الحيوانات المستأنسة ولطيور السماء ودواب الحقول)
وهذا النص كما ترى لا يدل على شيء مما يقول به أصحاب هذه النظرية؛ بل يكاد يكون دليلاً عليهم. ومهما يكن من شيء، فلا صلة للدليل النقلي بمقام البحث العلمي
(النظرية الثانية) تقرر أن اللغة ابتدعت واستحدثت بالتواضع والاتفاق وارتجال ألفاظها

ارتجالاً. وقد ذهب إلى هذا الرأي في العصور القديمة ديمو كريت (من فلاسفة اليونان في القرن الخامس ق م)، وفي العصور الوسطى كثير من الباحثين في فقه اللغة العربية، وفي العصور الحديثة الفلاسفة الإنجليز آدم سميث وريد ودجلد ستيوارت , , وليس لهذه النظرية أي سند عقلي أو نقلي أو تاريخي. بل إن ما تقرره يتعارض مع النواميس العامة التي تسير عليها النظم الاجتماعية. فعهدنا بهذه النظم أنها لا ترتجل ولا تخلق خلقاً، بل تتكون بالتدريج من نفسها. هذا إلى أن التواضع على التسمية يتوقف في كثير من مظاهره على لغة صوتية يتفاهم بها المتواضعون. فما يجعله أصحاب هذه النظرية منشأ للغة يتوقف هو نفسه على وجودها من قبل فلسنا هنا بصدد نظرية جديرة بالمناقشة، بل بصدد تخمين خيالي وفرض عقيم يحمل في طيه آية بطلانه. وقد ذهب المتعصبون له في تصوير منشأ اللغة مذاهب ساذجة غريبة تدل أبلغ دلالة على مبلغ انحرافه عن جادة الصواب ونطاق المعقول. وإليك نبذة مما يقوله بعضهم بهذا الصدد: (إن أصل اللغة لا بد فيه من المواضعة. وذلك كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعداً فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء فيضعوا لكل منها سمة ولفظاً يدل عليه ويغنى عن إحضاره أمام البصر. وطريقة ذلك أن يقلبوا مثلاً على شخص ويومئوا إليه قائلين: إنسان، إنسان، إنسان! فتصبح هذه الكلمة اسماً له. وإن أرادوا سمة عينه أو يده أو رأسه أو قدمه، أشاروا إلى العضو وقالوا: يد، عين، رأس، قدم. . . ويسيرون على هذه الوتيرة في أسماء بقية الأشياء، وفي الأفعال والحروف وفي المعاني الكلية والأمور المعنوية نفسها. وبذلك تنشأ اللغة العربية مثلاً. ثم يخطر بعد ذلك لجماعة منهم أن يضعوا كلمة (مَرْد) بدل إنسان، وكلمة (سَرْ) بدل رأس . . .وهكذا، فتنشأ اللغة الفارسية . . .)

(النظرية الثالثة) تقرر أن الفضل في نشأة اللغة يرجع إلى غريزة خاصة زود بها في الأصل جميع أفراد النوع الإنساني؛ وأن هذه الغريزة كانت تحمل كل فرد على التعبير عن كل مدرك حسي معنوي بكلمة خاصة به، كما أن غريزة (التعبير الطبيعي عن الانفعالات) تحمل الإنسان على القيام بحركات وأصوات خاصة (انقباض الأسارير وانبساطها، وقوف شعر الرأس، الضحك، البكاء. . . الخ) كلما قامت به حالة انفعالية معينة (الغضب، الخوف الحزن، السرور. . . الخ)؛ وأنها كانت متحدة عند جميع الأفراد في طبيعتها وظائفها وما يصدر عنها؛ وأنه بفضل ذلك اتحدت المفردات وتشابهت طرق التعبير عند الجماعات الإنسانية الأولى فاستطاع الأفراد التفاهم فيما بينهم؛ وأنه بعد نشأة اللغة الإنسانية الأولى لم يستخدم الإنسان هذه الغريزة؛ فأخذت تنقرض شيئاً فشيئاً حتى تلاشت كما انقرض لهذا السبب كثير من الغرائز الإنسانية القديمة. ومن أشهر من ذهب هذا المذهب العلامة الألماني مكس مولر والعلامة الفرنسي رينان

وقد اعتمدت مكس مولر في تأييد هذه النظرية على أدلة مستمدة من البحث في أصول الكلمات في اللغات الهندية الأوربية. فقد ظهر أن مفردات هذه اللغات ترجع إلى خمسمائة أصل مشترك؛ وأن هذه الأصول تمثل اللغة الأولى التي انشعبت منها هذه الفصيلة، فهي لذلك تمثل اللغة الإنسانية في أقدم عهودها. وتبين له من تحليل هذه الأصول أنها تدل على معان كلية؛ وأنه لا تشابه مطلقاً بين أصواتها، وما تدل عليه من فعل أو حالة.

ففي دلالتها على معان كلية برهان قاطع على أن اللغة الإنسانية الأولى لم تكن نتيجة تواضع واتفاق، كما يذهب إلى ذلك أصحاب النظرية الثانية السابق ذكرها، لأن التواضع فضلاً عن تعارضه مع طبيعة النظم الاجتماعية كما تقدمت الإشارة إلى ذلك، يتوقف هو نفسه على وسيلة يتفاهم بها المتواضعون. وهذه الوسيلة لا يعقل أن تكون اللغة الصوتية، لأن مفروض أن المتواضع عليه هو أول ما نطق به الإنسان من هذه اللغة؛ ولا يعقل كذلك أن تكون لغة الإشارة، لأننا بصدد ألفاظ تدل على معان كلية أي على أمور معنوية يتعذر استخدام الإشارة الحسية فيها

وفي عدم وجود تشابه بين أصواتها وما تدل عليه برهان قاطع على أن اللغة الإنسانية لم تنشأ من محاكاة الإنسان لأصواته الطبيعية (أصوات التعبير الطبيعي عن الانفعالات) وأصوات الحيوانات والأشياء كما يذهب إلى ذلك أصحاب النظرية الرابعة التي سنتكلم عنها قريباً

وإذا بطل أن اللغة الإنسانية كانت نتيجة تواضع واتفاق؛ وبطل كذلك أنها نشأت عن محاكاة الإنسان لأصواته الطبيعية وأصوات الحيوانات والأشياء، لم يبق إذن تفسير معقول لهذه الظاهرة غير التفسير السابق ذكره: وهو أن الفضل في نشأة اللغة يرجع إلى غريزة زود بها الإنسان في الأصل للتعبير عن مدركاته بأصوات مركبة ذات مقاطع، كما زود باستعداد فطري للتعبير عن انفعالاته بحركات جسمية وأصوات بسيطة

وهذه النظرية على ما فيها من دقة وطرافة وعمق في البحث، فاسدة من عدة وجوه:

1 - فهي لا تحل شيئاً من المشكلة التي نحن بصددها، بل تكتفي بأن تضع مكانها مشكلة أخرى أكثر منها غموضاً، وهي مشكلة (الغريزة الكلامية)

2 - هذا إلى أن ما تقرره يعتبر - من بعض الوجوه - من قبيل الشيء بنفسه. فكل ما تقوله يمكن تلخيصه في العبارة الآتية: (إن الإنسان قد لفظ أصواتاً مركبة ذات مقاطع ودلالات مقصودة لأنه كانت لديه قدرة على لفظ هذا النوع من الأصوات) وهذا، كما لا يخفى، مجرد تقرير للمشكلة نفسها في صيغة أخرى

3 - على أن قدرة الإنسان الفطرية أو المكتسبة على لفظ هذا النوع من الأصوات ليست موضوع البحث، وإنما الذي يهمنا هو الوقوف على أول مظهر لاستغلال هذه القدرة والانتفاع بها في تكوين الكلام الإنساني؛ أي البحث عن الأسلوب الذي سار عليه الإنسان في مبدأ الأمر في وضع أصوات معينة لمسميات خاصة، والكشف عن العوامل التي وجهته إلى هذا الأسلوب دون غيره

4 - وأكبر خطأ وقعت فيه هذه النظرية هو ذهابها إلى أن الأصول الخمسمائة السابق ذكرها تمثل اللغة الإنسانية الأولى. فهذه الأصول، كما تقدم، تدل على معان كلية. ومن الواضح أن إدراك المعاني الكلية يتوقف على درجة عقلية راقية لا يتصور وجود مثلها في فاتحة النشأة الإنسانية. وهاهي ذي الأمم الأولية التي تعد أصدق ممثل للإنسانية الأولى تؤيد ما نقول. فقد أجمع علماء الأتنوجرافيا الذين قاموا بدراسة هذه الأمم بأمريكا واستراليا وأفريقيا وغيرها على ضعف عقليتهم بهذا الصدد وعجزها عن إدراك المعاني الكلية في كثير من مظاهرها. وقد كان لهذه العقلية صدى كبير في لغاتهم؛ فلا نكاد نجد في كثير منها لفظاً يدل على معنى كلي. ففي لغة الهنود الحمر مثلاً يوجد لفظ للدلالة على شجرة البلوط الحمراء، وآخر للدلالة على شجرة البلوط السوداء، وهكذا؛ ولكن لا يوجد أي لفظ للدلالة على شجرة البلوط؛ ومن باب أولى لا يوجد أي لفظ للدلالة على الشجرة على العموم. وفي لغة الهورونيين (من السكان الأصليين لأمريكا الشمالية) يوجد لكل حالة من حالات الفعل المتعدي لفظ خاص بها؛ ولكن لا يوجد للفعل نفسه لفظ يدل عليه. فيوجد لفظ للتعبير عن الأكل في حالة تعلقه بالخبز، ولفظ آخر للتعبير عنه في حالة تعلقه باللحم، وثالث في حالة تعلقه بالزبد، ورابع في حالة تعلقه بالموز. . وهكذا؛ ولكن لا يوجد فعل ولا مصدر للدلالة على الأكل على العموم أو الأكل في زمن ما. ولغة السكان الأصليين بجزيرة تسمانيا (بقرب استراليا) لا يوجد من بين مفرداتها لفظ يدل على الصفة؛ فإذا أرادوا وصف شئ لجئوا إلى تشبيهه بآخر مشتمل على الصفة المقصودة؛ فيقولون مثلاً فلان كشجرة كذا، إذا أرادوا وصفه بالطول

ولذلك يرى المحدثون من علماء اللغة، ومن علماء الاجتماع اللغوي أن الأصول الخمسمائة السابق ذكرها لا تمثل في شئ اللغة الإنسانية الأولى كما يذهب إلى مكس مولر؛ بل إنها بقايا لغة حديثة قطعت شوطاً كبيراً في سبيل الرقي والكمال، ولم تصل إليها الأمم الإنسانية إلا بعد أن ارتقت عقليتها ونهض تفكيرها. ويذهب بعضهم إلى أبعد من هذا فيقرر أنها مجرد أصول نظرية، وأنها لم تكن يوماً ما موضوع لغة إنسانية

تقرر أن اللغة الإنسانية نشأت من الأصوات الطبيعية (أصوات التعبير (النظرية الرابعة)

الطبيعي عن الانفعالات، أصوات الحيوانات، أصوات مظاهر الطبيعة، الأصوات التي تحدثها الأفعال الإنسانية وغيرها. . . الخ) وسارت في سبيل الرقي شيئاً فشيئاً تبعاً لارتقاء العقلية الإنسانية وتقدم الحضارة واتساع نطاق الحياة الاجتماعية وتعدد حاجات الإنسان. . . وما إلى ذلك. وقد ذهب إلى هذا الرأي معظم المحدثين من علماء اللغة وعلى رأسهم العلامة وتني وذهب إلى مثله من قبل هؤلاء كثير من فلاسفة العصور القديمة ومن مؤلفي العرب بالعصور الوسطى. فقد تحدث عنه ابن جني (المتوفى سنة 392 أي من نحو ألف سنة) بكتابه الخصائص في أسلوب يدل على قدمه وكثرة

القائلين به من قبله
فبحسب هذه النظرية يكون الإنسان قد افتتح هذه السبيل بمحاكاة أصواته الطبيعية التي تعبر عن الانفعالات كأصوات الفرح والحزن والرعب. . . وما إليها، ومحاكاة أصوات الحيوان ومظاهره الطبيعية والأشياء كدوي الريح وحنين الرعد وخرير الماء وحفيف الشجر وجعجعة الرحى وقعقعة الشنان وصرير الباب وصوت القطع والضرب. . . وهلم جرا. وكان يقصد من هذه المحاكاة التعبير عن الشيء الذي يصدر عنه الصوت المحاكي أو عما يلازمه أو يصاحبه من حالات وشئون، واستخدم في هذه المحاكاة ما زود به من قدرة على لفظ أصوات مركبة ذات مقاطع؛ فكان يحاكي هذه الأصوات المبهمة بوضعها في أصوات مقطعية قريبة منها (قه قه مثلاً للتعبير عن صوت الضحك). وكانت لغته في مبدأ
أمرها محدودة الألفاظ، قليلة التنوع، قريبة الشبه بالأصوات الطبيعية التي أخذت عنها، قاصرة عن الدلالة على المقصود. فكان لا بد لها من مساعد يصحبها فيوضح مدلولاتها ويعين على إدراك ما ترمي إليه. وقد وجد الإنسان خير مساعد لها في الإشارات اليدوية والحركات الجسمية، وهذا المساعد الإرادي قد نشأ هو نفسه عن الحركات الفطرية التي تصحب الانفعالات؛ فكان في مبدأ أمره مجرد محاكاة إرادية لهذه الحركات؛ ثم توسع الإنسان في استخدامه فحاكى به أشكال الأشياء وحجومها وصفاتها. . . وما إلى ذلك، فازدادت أهمية في الحديث، وسد فراغاً كبيراً في اللغة الصوتية. ثم أخذت هذه اللغة يتوسع نطاقها تبعاً لارتقاء التفكير، واتساع حاجات الإنسان ومظاهره حضارته. وتستغني شيئاً فشيئاً عن مساعدة الإشارات، وتبعد عن أصولها الأولى تحت تأثير عوامل كثيرة كالتطورات الطبيعية التي تعتور الصوت، وأعضاء النطق الإنساني وكعلاقات المجاورة والمشابهة التي تعتور الدلالات. . . وما إلى ذلك
وهذه النظرية هي أدنى نظريات هذا البحث إلى الصحة وأقربها إلى العقول، وأكثرها اتفاقاً مع طبيعة الأمور وسنن النشوء، والارتقاء الخاضعة لها الكائنات وظواهر الطبيعة والنظم الاجتماعية
ولم يقم أي دليل على خطأ هذه النظرية، ولكن لم يقم كذلك أي دليل قاطع على صحتها، وكل ما يذكر لتأييدها لا يقطع بصحتها وإنما يقرب تصورها ويرجح الأخذ بها ومن أهم أدلتها أن المراحل التي تقررها بصدد اللغة الإنسانية تتفق في كثير من وجوهها مع مراحل الارتقاء اللغوي عند الطفل، فقد ثبت أن الطفل في المرحلة السابقة لمرحلة الكلام، يلجأ في تعبيره الإرادي إلى محاكاة الأصوات الطبيعية (أصوات التعبير الطبيعي عن الانفعالات، أصوات الحيوان، أصوات مظاهره الطبيعية، أصوات الأفعال. . . الخ) فيحاكي الصوت قاصداً التعبير عن مصدره أو عن أمر يتصل به؛ وثبت كذلك أنه في هذه في المرحلة وفي مبدأ مرحلة الكلام يعتمد اعتماداً كبيراً في توضيح تعبيره الصوتي على الإشارات اليدوية والجسمية. ومن المقرر أن المراحل التي يجتازها الطفل في مظهر ما من مظاهر حياته تمثل المراحل التي اجتازها النوع الإنساني في هذا المظهر
ومن أدلتها كذلك أن ما تقرره بصدد خصائص اللغة الإنسانية في مراحلها الأولى يتفق مع
ما نعرفه عن خصائص اللغات في الأمم الأولية. ففي هذه اللغات تكثر المفردات التي تشبه أصواتها أصوات ما تدل عليه، ولنقص هذه اللغات وسذاجتها وإبهامها وعدم كفايتها للتعبير لا يجد المتكلمون بها مناصاً من الاستعانة بالإشارات اليدوية والجسمية في أثناء حديثهم لتكملة ما يفتقر إليه من عناصر وما يعوزه من دلالة
ومن المقرر أن هذه الأمم، لبعدها عن تيارات الحضارة وبقائها بمعزل عن أسباب النهضات الاجتماعية تمثل إلى حد كبير حالة الإنسانية في عهودها الأولى.
علي عبد الواحد وافي
ليسانسيه ودكتور في الآداب من جامعة السربون
نفسية الطبقات
للدكتور جواد علي
لاحظت خلال إقامتي الطويلة في برلين وهامبرك والمدن الألمانية الأخرى اختلافاً

كبيراً بين مقاطعة ومقاطعة، وبين طبقات مدينة واحدة أحياناً في اللغة والأخلاق والمعاملات والمثل العليا وشكل الوجه وتركيب الجسم. وقد زاد انتباهي هذا موضوع البحث العنصري الذي استولى على الجامعة والمدرسة والحانوت والحياة اليومية في ألمانيا الهتلرية. فقلت: ما دام الشعب الألماني شعباً جرمانيّاً واحداً من دم وعنصر واحد، فلم هذا الاختلاف بين المقاطعات؟ ولم هذا البون بين الطبقات في المدينة الواحدة؟ صرت أسجل ملاحظاتي هذه وميزات كل طبقة وأخلاقها في كل المدينة أنزل بها وفي كل بيت احل به. كذلك فعلت أثناء زياراتي للندن وبعض مدن انكلترة وباريس وليون وأشتراتسبرك ومارسيليا وروما، وأكثر مدن إيطاليا وجنيف وبرن ولوزان وبراغ ومارينباد ويسبادن وغيرها من مدن جيكوسلوفاكيا (المرحومة)؛ وكذلك بولندة والنمسا ودول البحر الأبيض المتوسط

توصلت إلى نتيجة، وهي أن قواعد التفكير العامة، وطراز المعاملات متقاربة ومتشابهة بين الطبقات الواحدة في الممالك المختلفة أولاً، وهي أيضاً مع تركيب الجسم وشكل الوجه والملامح ثانياً. فالطبقة الرابعة من سكان المدن مثلاً، وهي التي يطلق عليها في أوربا اسم تستعمل لها لغة خاصة عامية وتضع لها مصطلحات تصطلح عليها وتقضي معظم أوقاتها في المحلات المنخفضة في الأرض (كالسراديب والدهاليز)، وتأوي بكل سرور إلى المحلات المظلمة ذات النور القليل والمحلات المؤثثة بأثاث خشن ابتدائي، يميل الشاب منهم إلى تجميل شعر رأسه وتجعيده، مع أن ملابسه ممزقة رثة لا يهتم بها، يميل كذلك بصورة عامة إلى الألوان (الغامقة) كالأحمر أو الأسود أو الأصفر. وتميل بصورة عامة إلى المخاطر إذ لا تفزع منها، فإذا ركب أحدهم دراجة هوائية (بايسكل) أسرع بها كأنه في سباق. كذلك لا يبالون في جمل الأشياء الثقيلة من خطر صحي، وهم يميلون بصورة عامة إلى رسم الأشكال المختلفة بالزرقة والحمرة على بشرتهم، وإلى موسيقى غير موزونة مرتفعة مضطربة. ولا يبالون بإنفاق كل ما يحصلون عليه في مدة قليلة، ولو أنهم حصلوا عليه بشق الأنفس ومخاطرات عظيمة، فاللص ينفق المال الذي يسرقه بأقل من لمح البصر كما هو معروف وكذلك النشالون وقطاعو الطرق.

كذلك للطبقة الثالثة وهي العمال آداب ومعاملات ومثل خاصة وفن وذوق تنفرد به مع ميل إلى التبذير والكرم. وأجسام هذه الطبقة بصورة عامة أقصر من أبناء الفلاحين أو سكان المدن من الطبقتين طبقة الأعمال العقلية وطبقة الأشغال العملية والتجار ولكنها أكثر إنتاجاً في النسل من طبقتي سكان المدن، وأقل من الفلاحين كما أن شكل رأسها أصغر من الطبقات الثلاث، ويميل إلى الاستدارة. وفي المدن الصناعية تميل إلى لحم الخنزير وإلى اللحوم الباردة لأن النساء لا تترك المعامل لذلك فليس لها الوقت الكافي للطبخ. أما الطبقة الثانية وخصوصاً أصحاب رؤوس الأموال والتجار، فهي تتكلم مثلاً بصورة أسرع من الفلاحين أو العمال، ولا يميلون إلى التفكير العميق المنطقي، وكذلك لها ذوق خاص تجاري في التأثيث وفي الفن والمعيشة بينما الطبقة ذات أجسام طويلة وشكل الرأس كبير بالنسبة إلى الجسم فيها، والعظام فيها دقيقة والعضلات غير مفتولة بالنسبة إلى الفلاحين أو العمال، والوزن أثقل من العمال، والطفل الفقير في المدرسة يرى أصغر بعام تقريباً من طفل الغني الذي في عمره العمر. وهذه الطبقة - وخصوصاً الغنية منها - غير مخصبة في إنتاج النسل، وقد علل ذلك تعليلاً كثيراً لا يدخل في هذا الموضوع. ونرى من إحصائية عن قابلية النسل في السويد أن كثيراً من العائلات العريقة تضمحل وتفنى لانقطاع نسلها

والفرق بارز كذلك جسمياً وعقلياً بين سكان المدن وأبناء الأرض من الفلاحين والزراع فقحف الرأس والملامح الجسمية وشكل العظم، وكذلك طراز التفكير واللغة، تختلف مظاهرها عن مظاهر سكان المدن، وقد دل الإحصاء على أن 41 في المائة من سكان مدينة برلين كانوا لائقين للخدمة العسكرية بينما كان 61 في المائة من سكان الأرض يصلحون في نفس الوقت. فهذه النقاط تجعل المرء يسبح في بحر من التعليل. وتدفع به إلى الاعتقاد بتأثير المهنة والمحيط على الإنسان عقلياً وجسمياً. وزاد في اعتقادي ذلك ما وجدته بصورة عملية من تقارب بين موسيقى الأكراد سكان المنطقة الكردية العراقية ورقصهم واختيار ألوان ملابسهم وبين سكان منطقة بايرن في ألمانيا مثلاً مع

ما بين الشعبين من الاختلاف. وهذا ما يدفع الإنسان إلى دراسة عقليات الطبقات المختلفة، والبحث عن القواعد المشتركة التي تتميز كل طبقة بها عن الأخرى
عللت الماركسية ذلك بتأثير الإنتاج على الجماعات؛ فالعمل المادي الاقتصادي في نظرها هو العامل الأول في هذا الاختلاف وقد جاءت بأمثلة تحاول إثبات نظريتها هذه وجاءت بفلسفة مبنية على ذلك، وعلى هذا الأساس تحاول إشعال نيران ثورة ليتخلص العمال وهم الأكثرية من نفوذ الأقلية المسيطرة، ليبسطوا تفكيرهم وحضارتهم على الطبقة الصغيرة التي تعتبر رمز الحضارة العالمية في العصر الرأسمالي الحالي. وهي تأتي بأمثلة من حياة الفرنسيين في القرنين السابع والثامن عشر، وكيف كان البلاط ورجاله يعتبرون أثقف طبقة في المملكة يحتذي بهم وتقلد حركاتهم لنفوذ البلاط بينما كان الوضع بالعكس في إنكلترا لنفوذ (الكونتيه واللوردات) فيها. حيث كان كبار المزارعين هم ممثلو إنكلترا في عالم الثقافة والحضارة ويرون من جراء ذلك فكرة الوطنية فكرة ثانوية اصطناعية يمكن التعويض عنها بفكرة الوطنية المهنية والمصلحة المشتركة ويرون في الكاثوليكية العالمية مثلاً نوعاً من الوطنية والاستقلال فلم لا يتفق عمال العالم ويكونون لهم وحدة واحدة على أساس دكتاتورية العمال وتقارب المصلحة والفكر، يدعمون رأيهم ذلك بما يبديه الاشتراكيون على اختلاف حكوماتهم من تعاون تام واتفاق في الطريقة والعمل والفكر وتقاربهم كلهم في الفكر وهذه تعارض النازية تماماً، تلك النظرية التي تدعي بالعنصرية وتفوق الجنس الآري على الأجناس الأخرى وتعارض كذلك حوادث التاريخ أيضاً. وقد قلنا إن هذه الطبقات تكيف لها لهجة خاصة تتكلم بها، وهذا يعني أن عقلية تلك الطبقة قد تغيرت عن عقلية الطبقة الثانية، والذي يلاحظ بصورة عامة أن اللصوص والسراق لغة خاصة واصطلاحات تتكلم بها، وكذلك يفعل النشالون ولهم طريقة خاصة في إخراج الأصوات، وسكان نابولي في إيطاليا أو صيادو الأسماك في انكلترة وألمانيا وغيرها من البلاد يخرجون الكلمات بصورة تختلف عن المزارعين أو التجار فهي بصورة عامة طويلة عريضة بينما نجد لغة التجار سريعة وقصيرة. هذه أشياء لوحظت وشوهدت بالتجربة، ونطق الإنكليزي الذي ينزل فكه إلى تحت يختلف عن نطق الفرنسي الذي يمد فتحه فمه إلى الجانبين وذلك يعني أن اللغة تتغير أيضاً مما لا مجال لبيان سببه في هذا الموضوع. ولكن في ذلك رداً بصورة عامة على من يقول إن اللغة تساوي العنصرية تماماً. نعم هي تمثل جزءاً من روحية الشخص ولكن ليست روحيته تماماً إذ لو كان ذلك لكان زنوج
أمريكا الذين ينطقون اللغة الإنكليزية إنكليزاً بالعقل والتفكير ولأصبح مولدو أمريكا الجنوبية أسباناً بالنفس والخلق تماماً. وقد أجريت تجارب على أطفال أخذوا حين الولادة من أمهاتهم من زنوج ويابانيين لقنوا الألمانية فقط ونشئوا في محيط ألماني بحت فصاروا يتكلمون الألمانية وكأنهم ألمان أباً عن جد. وقد أول ذلك الذين يقولون بهذه الفكرة بأن في البشرية قابلية للنطق مطلقاً وفي كل طفل في نفس الوقت ميل إلى الشذوذ عن نطق الأجداد قليلاً لا يشعر به يتعاظم بمرور السنين فيصبح لهجة خاصة، وأن ذلك يطرأ ولو كان العنصر سليماً نقياً من كل امتزاج. وهم يدعون أن أوربا لو كانت مأهولة من جنس واحد، وكانت معزولة عن كل عامل خارجي من زمن الأهرام حتى الآن لظهر عليها اختلاف اللهجات رغماً من ذلك على أننا نلاحظ أن يهود ألمانيا يتكلمون مع ذلك بلهجة محسوسة، وكذلك في البلاد الأخرى، وتميزها عن كيفية إخراج الكلمات لدى المواطنين، ولكنهم يجيبون عن ذلك بأن اليهود يعيشون بصورة عامة في محيط واحد متكتلين
وحاول زعيم العنصرية في ألمانيا أن يبرهن على أن الجرمان لم يبتعدوا عن اللغة الجرمانية الأصلية، أنها هي هي لم تتغير. ولكن اختلاف اللهجات الألمانية، وكذلك أشكال لجسم والعداوة الموجودة بين المقاطعات، مثلاً بين سكان بروسيا بسكان بايرن، والاختلاف الكبير بين عادات سكان هامبرك وبرلين، يدل على أن بحث العنصرية لا يستطيع التغلب على المشاكل التي بحثنا عنها، ويجد حلاً معقولاً لذلك علمياً.
والبشرية تتقدم، وبتقدمها تظهر أشكال وقحوف رؤوس جديدة وهي غير متشابهة، منها المنتج ومنها الخامل لعوامل مختلفة، وللملامح وتركيب الجسم والمحيط والأكل

والمهنة أثر فعّال في تكييف الفرد، وكل أمة في الحقيقة عبارة عن بضع أمم مختلفة في المصالح، ولو أنها متحدة في الدين أو اللغة مثلاً، ولكل منها وجهة نظر خاصة، وهدف يصطدم مع هدف غيرها، وهذا مصدر الحزبية والنزاع، وسقوط الدول في نظري، والأمة التي تستطيع تقريب وجهات النظر بين هذه الطبقات تتمتع بوحدة، والتي تترك هذه الطبقات تزيد في قوة كيانها، تعرض نفسها إلى تمزق لا يلبث أن يظهر بصورة كتل مستقلة ذات تفكير مستقل ومظهر غريب خصوصاً في المحيط الشرقي الذي لا تربط بين أجزائه طرق مواصلات جيدة ولا صلات تفكيرية قوية.
لازالت حاجة الأقاليم في المملكة الواحدة بعضها
إلى بعض غير شديدة. فكرة الحاجة إلى المجتمع والتعاون لم تتغلب على روح (أنا) فيه كما هو شأن كل أمة في ابتداء تكونها.

جواد علي
خريج جامعة هامبرك بألمانيا

في أرجاء سيناء - 5

للدكتور عبد الوهاب عزام
علي ظهر هديان

أزمع أكثر الرفاق أن يذهبوا يوم الخميس إلى جبل سنت كترين وهو أعلى جبال سيناء ترتفع قمته إلى 8536 قدم، وفي قصص الرهبان أن القديسة كترينا حينما ماتت في الإسكندرية سنة 307م حملت الملائكة جثتها إلى هذا الجبل، وقد بقي منها جمجمة وذرائع يحفظان في الدير إلى اليوم
وآثر بعضهم أن يعكف على مطالعة الكتب في مكتبة الدير، وأما أنا فأزمعت أن أركب جملاً فأسير به في وادي الشيخ إلى القبر الذي يسمى قبر النبي صالح. قيل لي كيف تطيب نفسك عن رؤية الجبل العظيم أعلى جبال سيناء؟ قلت إن برحلي عقابيل من جبل موسى فلست أقوى على الصعود اليوم؟ قيل ولكن قمة سنت كترين تشرف بك على جبال بلاد العرب. قلت قد رأيتها عن كثب قيل: وتريك الخليجين معاً: خليج السويس وخليج العقبة قلت: لا أحتاج في تصديقكم إلى أن أرى بنفسي. قيل: إنه مشهد يتمناه كثير من الناس. قلت: ما كل ما يتمنى المرء يدركه
سار الرفاق إلى الجبل وخرجت فإذا جملان مرحولان فركبت أحدهما وركب محمد أفندي حشيش الطالب بكلية الآداب الثاني، وسرنا مغتبطين بهذه الرحلة الممتعة القريبة. فلما أفضى بنا الشعب الذي فيه الدير إلى وادي الشيخ أبصرنا الحاج سيد محرم الطالب بالكلية راجعاً من حيث توجه إخواننا إلى الجبل. قلت: ما خطبك؟ قال: تلبثت لأصور بعض المرائي فانقطعت عن الرفقة. قلت: خار الله لك سر معنا نتعاقب على الجمل. رحم الله حاتماً:

وما أنا بالساعي بفضل زمامها ... لتشرب ماء الحوض قبل الركائب
وما أنا بالطاوي حقيبة رحلها ... لأبعثها خِفّا، وأترك صاحبي
إذا كنت ربّا للقلوص فلا تدع ... رفيقك يمشي خلفها غير راكب
أنخها فأردفه فإن حملتكما ... فذاك وإن كان العقاب فعاقب

سألت صاحب جملي: ما اسم الجمل؟ قال هِدَيّان. وما اسمك؟ قال: فرحان. وسألت الآخر
فقال: اسمي جبلي واسم الجمل صبيح وكان سادسنا صبيّاً فطناً لقناً يسمى سعداً، رآنا نتأهب للركوب عند الدير فتطوع لصحبتنا عسى أن يناله خير. مشى سعد وقد جعل يديه وراء ظهره تحت حزامه وأطبق أنامله بعضها على بعض، واستقام على الطريق يوحي إليك بمشيئته وحديثه اعتداده بنفسه. وهو صبي يكدح لرزقه ورزق أمه، فهو يحمل من أعباء الحياة ويشعر بكفايته لما يحمل. والرجولة بين العرب تبتدئ في العقد الثاني من سني العمر، لا تمتد الطفولة والصبي بينهم امتدادهما في المدن حيث ترى الرجل صبياً وقد جاوز العشرين وطالباً إلى أن يجاوز الثلاثين، وكهلاً متصابياً يعُدّ نفسه للزواج عند الأربعين. ومن أجل ذلك أمر رسول الله صلوات الله عليه أسامة بن زيد على جيش وهو في السابعة عشرة. وفتح محمد بن القاسم الثقفي الهند وهو في هذه السن. قال بعض الشعراء:

إن المروءة والسماحة والندى ... لمحمد بن القاسم بن محمد

ساس الجيوش لخمس عشرة حجة ... يا قرب ذلك سؤدداً من مولد!
وقال آخر:
ساس الرجال لسبع عشرة حجة ... ولداته عن ذاك في أشغال
قلت لسعد: ماذا يسمى حزامك هذا؟ قال: مريرة. قلت من قولهم أمرّ الحبل إذا أحكم فتله
وكنا سألنا ونحن في الدير عن دجاج لطعامنا وكلفنا سعداً أن يفتش عن بعض الدجاج.
وقابلنا طائفة من البدويات يقصدن الدير ابتغاء رزقهن من الخبز، ومال سعد إليهن فسلم عليهن وكلم إحداهن. وقال أحد الجمالين: هذه أم سعد. وسألت سعداً فجمجم ولم يجب ثم قال: عند امرأة دجاجة واحدة. قلت: ما عسى أن تغني دجاجتك الواحدة يا سعد؟ وحسبت أن سعداً استحى أن يقول إن التي حادثها أمه وإن الدجاجة دجاجته
وأحس شيئاً من الخجل أن يبيع لنا دجاجة، وكذلك قال صاحب الجمل حينما سألته: لماذا لا يقول سعد إن المرأة أمه.
وعرف سعد من سؤالي عن ضروب النبات أني معني بها فوجد له عملاً يبرِّر مصاحبته إيانا، ويجعل له يداً عندنا. فكان لا يمر بنبات إلا سماه وقلعه أو قطع فرعاً منه، وناولني إياه فأضعه في الخرج
ناولني شجرة من الشيح فسألته عن القيصوم وكنت رأيته بالبادية على مقربة من البصرة، فأسرع بعد قليل إلى نبتة وقال: هذه قيصومة وناولني منها، وهي تشبه الشيح، وتمتاز عنه بلون زهرها، ولا يدرك الفرق بينما إلا النباتي أو البدوي المرن على تمييز ضروب النبات وإن تشابهت. ثم مررنا بنبات صغير لا طئ بالأرض له عصارة لزجة فقال: هذه لبّيدة. رأى شجرة من الشوك كبيرة فقال: هذه سلة وما أكثر السلة في سيناء، ثم سمي من ضروب النبات التي مررنا علينا الوراقة، وهي نبت قليل الشوك تأكله الإبل، والكَباث وهو يشبه السلة إلا أنه أضعف شوكاً، وكان هديّان إذا مرّ بكباثة أبى إلا أن يميل إليها لينال منها. والكباث في معاجم اللغة ثمر الأراك، وهو غير هذا: ومما رأينا النعمان والحزماع، وهو شجيرة تنبت كالعصا لها فروع قصيرة. وقد رأيت منها واحدة يابسة فأشرت إلى سعد فجرى إليها وحاول خلعها فاستعصت عليه فناديته أن اتركها، فأبى وما زال يقوم بها ويقعد بها حتى أتى بها. وأراني سعد النعمان وأصابع العجوز والمرُورة والبركان والدهميّ، وكلها نبت ضعيف صغير. وكنت أمتحن سعداً فأسأله عن النبات الواحد مرة بعد أخرى فأعرف أنه ينطق عن معرفة. ومما رأينا الزعتر وهو نبات طيب الرائحة معروف في مصر والعثيران، قال سعد: وهو نبات الحمير، وهو نبات صغير له فروع وورق دقيق ورائحة طيبة، والهنيدة والجعدة والشكاع الخ
وقصارى القول أنه ليس في البرية نبتة صغيرة أو كبيرة إلا يعرفها الأعراب باسمها وصفها وخصائصها
ولقينا في وادي الشيخ أعرابيتين معهما قربتان صغيرتان، فكلمهما جبلي وكان يعرفهما. وسألته أين الماء؟ فقال: هنا وأشار إلى سفح الجبل، فنزلنا وصعدنا بين صخور عظام، حتى بلغنا فجوة بين الصخور فيها ماء بارد، فجلست الأعرابيتان تملآن قربتيهما
والأعرابيات في سيناء يلبسن ملابس ضافية، حواشيها مطرزة ملونة، وهي من نسيج أيديهن، ويلبسن براقع محلاة بقطع كثيرة من المعدن، ويحلين صدورهن بخرز كثير، فلا يبدو من المرأة إلا عيناها. وقد استأذنا المرأتين أن نصورهما، فقالت إحداهما ضاحكة: بالفلوس، قلنا: أجل.
ثم بلغنا الشيخ صالح بعد ساعتين: حجرة صغيرة مضلعة، عليها قبة ساذجة، وفيها قبر يقول الأعراب إنه النبي صالح، وأكبر الظن أنه رجل من الصالحين اسمه صالح وللشيخ صالح موسم يأتي البدو إليه فيبيتون وينحرون ويذبحون ويلهون
وقد أمر الملك فؤاد رحمه الله بصنع كسوة لضريح النبي صالح وهي مودعة في دير سنت كترينا كما ذكرت قبلاً
لم نلبث كثيراً عند الشيخ صالح فرجعنا أدراجنا، وقد عرَّج سعد إلى اليسار فغاب قليلاً، ثم رجع وفي يده دجاجة. قلت: يا سعد، أصررت على الإتيان بدجاجتك؟ قال: ليست دجاجتي قلت: ولكنها واحدة، ولا تغني شيئاً. قال: ما وجدت غيرها قلت: فلم جئت بها؟

ثم سار سعد والدجاجة، حتى وقفنا وقفة فأفلتت منه. فقلت: لا يظفر بها. فما لبث أن جاء بها فوضعها في كيس خلف ظهره، فلم نسمع لها حساً، حتى بلغنا الدير. قلت: يا سعد، لم يجد الطباخ دجاجاً، ونحن أكثر من عشرين فماذا نفعل بهذه الدجاجة؟ فوجم. . . قلت: ارجع بدجاجتك وخذ هذه القروش، ففرح وزدناه بعض الخبز

خرجنا من الدير صباح يوم الجمعة فألفينا صبية بأيديهم أشياء يقدمونها إلينا؛ ناولني سعد نباتاً قائلاً: هذه هنيدة. قلت: لم تزدني على الأمس شيئاً. وقدم إلي صالح عصاً من الورد البري كثيرة الشوك فأخذتها ذكرى، ثم زرعتها في حديقتي بعد أيام فأورقت. وقدم الصبية الآخرون أفماماً للسجاير من هذا الورد لا يحسن الإنسان إمساكها لكثرة شوكها

ثم أزَّت السيارات فسارت والساعة ثمان ونصف فرجعنا أدراجنا في الأودية التي ذكرتها آنفاً

ونزلنا في دير فاران الذي وصفته من قبل ثم استأنفنا المسير في وادي فاران. وبعد ساعة من دير فاران توقفنا قليلاً فأبصرت صبياً يرعى غنماً فقصدت قصده وقلت: ما اسمك يا ولد؟ قال: اسمي ولد - وكأنه لم يعجبه هذا الخطاب - قلت: اسمك محمد؟ قال: ربيع. قلت أتبيعنا خروفاً من غنمك؟ قال: لا. ثم سألته عن ضروب العشب، قلت: ما هذا؟ وأشرت إلى نبات ضعيف يشبه البصل. قال: بَرْوق، أقول: البروق معروف في كتب اللغة والأدب والنبات. وتقول العرب هو أشكر من بروق لأن البروق يعيش بأدنى ندى يقع على الأرض. وقالوا: أضعف من بروقة. قال جرير:

كأن سيوف التيم عيدان بروق ... إذا نضيت عنها لحرب جفونها

ثم سألت ربيعاً عن نبات آخر قال: هو الرمث. قلت: قد رأيت الرمث في العراق وهو أكبر من هذا، فهل يطول الرمث أكثر مما أرى؟ قال: لا. قلت: إن رمثك هذا عجيب. وتذكرت قول أبي الطيب في قصيدة ابن العميد يصف ناقته:

تركت دخان الرمث في أوطانها ... طلباً لقوم يوقدون العنبرا

ثم سالت ربيعاً عن نبات تنبسط على الأرض فقال: سفيراً. فأعدت السؤال، فقال: سفيرا عزيزة. فعجبت أن تكون السفيرا عزيزة اسم نبت في الصحراء، ثم سألت أعرابياً من بعد فقال نعم يسمى بهذا الاسم - ولم أعرف كيف سمي به - وبعد مسيرة نصف ساعة توقفنا للغداء، عند جبل يسمى جبل الزمرد ولكنا لم نهتد إلى الزمرد فيه، ويقال إن به حجارة زرقاء وإن الزمرد يكون في حجارته

وقد حدثت أعرابياً هناك، وسألته عن نبات ضعيف له زهر بنفسجي فقال هو البَهَك ينبت بعد المطر

ثم سألته عن نبات له ثمر مستدير ذو شوك. فقال: السعدان قلت: أهذا هو السعدان الذي ملأ صيته كتب الأدب، والذي ضرب المثل بجودته فقيل: مرعى ولا كالسعدان، ويضرب المثل بشوكة: حسك السعدان، ولكن السعدانة التي رأيتها كانت خضراء لم يمتد شوكها ويبس

وابلغنا السير أبا زنيمة عشياً، وأصبحنا إلى السويس فالقاهرة

فألقت عصاها واستقرت بها النوى ... كما قر عيناً بالإياب المسافر

عبد الوهاب عزام

الأغنياء. . .

للأستاذ محمود محمد شاكر

كانت ليلة السبت السالفة من الأسبوع الماضي، فوقع في دنياي أمرٌ مُفظعٌ مُفزِعٌ كنتُ معه كمن عَمِي دهراً من عمره ثم أبصر. فأخذتني الحيرة أخذاً شديداً، وتضرَّبتْ نفسي كما يتضرَّبُ الماء في مرجله على معركة من النار تشتعلُ من تحته وتتسع، وتقاذفَتْني الهموم كما يتقاذفُ تيَّارُ البحر الأعظم موجةً هائمة من موجِهِ، وتنزىَّ قلبي بين ضلوعي كما تتنزَّى الكرَةُ مقذوفة من علُ، وهاجَ هَيجي واضطَربَ أمري وتغولتْني الأفكار الخائفة الحزينة المجرَّحة التي تدْمَي أبداً، فلا تحسم الدَّم، وانقلبتُ بهمي أدورُ في نفسي دَورة المجنون في دنيا عقله المريض المشعِّث. وهكذا قَضَّيتُ ليلَ أيامي، وليس لمثل هذه الأيام نهارٌ

ودعوت ربي جاهداً، وكنت من قبل أدعوهُ، انه هو البرُّ الرحيم. . .، وكنتُ أرى الدنيا كلها وكأنما ارتدتْ لعينيَّ غلالةً من سرابٍ تخفقُ عليها وتميدُ وتتريعُ، وإذا الأرض غيرُ

الأرض والناس غيرُ الناسِ، وإذا كل شئ يجئُ ويذهبُ، ويبينُ ويَخفى. . .، وفقدتْ الأشياء معانيها في نفسي، فما أرى إلا بؤساً وخَصاصة وجوعاً وعُرْياً، وإذا كلُّ شئ بائسٌ فقيرٌ جائعٌ عارٍ لا يستره شئٌ. . . اللهم إني فوضت أمري إليك وألجأت ظَهري إليك. . . ومضيتُ أنسابُ في أيامِيَ البائسة، حتى إذا كان الليلُ في أوله مُذ أمس، أويتُ إلى بيت كتبي آخذُ كتاباً لا ألبثُ ألقيه كأنْ بيني وبينه عداوةٌ أو حقدٌ قديمٌ.

فضِقتُ ثم ضقتُ وخَنقني خانقُ الضْجر واليأس، وغاظني ما غلبني على عقلي وإرادتي، فأهوبتُ بيدي إلى كتاب عزمتُ ألا أدعه، وإذا هو: (إغاثة الأمة، بكشف الغُمَّة، للمقريزي). وفتحتهُ وانطلقتُ أقرأ، فما أجوز منه حرفاً أولَ إلا وجدتُ الألفاظ تتهاوى في نفسي وفي عقلي، وكأنها تُقذفُ فيهما من حالقٍ، حتى لَوجدتُني أسمع لها فيهما صلصلةُ ودوياً وهداً شديداً شديداً، كأن في نفسي وعقلي أبنية تنقضُّ وتتهدمُ في كفِّ زلزلة

وإذا بحر يموجُ لعيني أسمعُ هديرَه وزئيرهُ وزمجرة أمواجهِ في الريح العاتية، وإذا هو أحمرُ كالدم يَفُورُ ويتوثب، وإذا صرخة تخفت زمجرة الأمواج، وإذا هو هاتف يهتف بي: (قم إلى صلاتك، فقد أظلتك الفجر!!). فانتبهت فزعاً وإذا أنا أقلب الصفحة التاسعة والعشرين من هذا الكتاب، وإذا خطوط حمر قد ضربتها فوق هذه الأسطر: (ودخل فصل الربيع فهب هواء أعقبه وباء وفناء، وعدم القوت حتى أكل الناس صغار بني آدم من الجوع، فكان الأب يأكل ولده مشوياً ومطبوخاً، والمرأة تأكل ولدها. . . فكان يوجد بين ثياب الرجل والمرأة كتف صغير أو فخده أو شئ من لحمه. ويدخل بعضهم إلى جاره فيجد القدر على النار فينتظرها حتى تتهيأ، فإذا هي لحم طفل. وأكثر ما يوجد ذلك في أكابر البيوت) أين يعيش أحدنا وهو يقرأ؟ هذه تسع ساعات يخيَّل إلى أني قضيت ثمان ساعات منها وأنا أقرأ هذه الأسطر القليلة أُقلبها لعيني فتتقلب معانيها في نفسي، إذ كانت تنزع في معناها إلى الآلام المتفجرة بدمي في قلبي، فلا يكون الحرفُ منها إلا أفكاراً تتسع وتتراحب وتتداعى وتتوالد ويَنسَخ بعضها بعضاً. ولو ذهبتُ أكتب ما قرأته في نفسي من هذه الأسطر، وما تحدثت به النفس من حديث أكل ثماني ساعات من أول الليل إلى مطلع الفجر لملأ ذلك ما يقع في كتاب مفرد، ولكن. . .

لماذا لا تكون هذه القسوة المتوحشة إلا من أعمال القلوب المتحجرة في بيوت الأغنياء والأكابر؟ ولماذا يكون أقسى القسوة في قلب المرأة الغنية، فتكون هي أعظم استهانة بجريمة أكل ولدها الذي ولدته؟ ولماذا يكون الفقير والفقيرة دائماً هما مثالُ الرحمة والحب والعطف والحنان؟ أليس الناس جميعاً - غنيُّهم وفقيرهم - سواء في هذه الحياة؟ بَلَى، ولكن. . .

ألا إن هذا المال نعمة من نعم الله التي استخلف الإنسان عليها في الأرض، وفي هذه الحياة الدنيا؛ ألا وإن المال عصام هذا الكون الممتلئ بأسراره العجيبة التي لا يقضى من أعاجيبها عجب، ألا وإنه للنظام الطبيعي الذي يجعل من قانونه سر الحياة الإنسانية التي لا تسمو إلا بالمنافسة والرغبة فيها والإصرار عليها، ألا وإنه لأعجب شيء في الحياة، إذ يكون هو كل شيء، ثم هو ليس بشي على الحقيقة، وإذ يكون في وَهْم للفقير سر السعادة؛ ثم يكون عند الغني المسترخي فلا يعرف به ظاهر السعادة. ألا إنه العجب والفتنة إذ يكون سر الحياة الإنسانية المدنية على الأرض، ومع ذلك فهو إذا ملأ الغنيّ أفرغه من إنسانيته، وإذا فرغ الفقير منه امتلأ إنسانية ورحمة وحناناً، ثم يكون بينهما أشياء في هذا وفي ذاك تختلط وتضطرب ويرمي بعضها في بعض حتى يصبح كل شيء فساداً لا صلاح له

و (أكثر يفعل ذلك النساء) إنه ليس عجيباً ولكنه (!أكثر ما يوجد ذلك في أكابر البيوت) مؤلم، إنه ليس بعيداً ولكنه مفزع، إنه هو الحقيقة الدائرة مع معاني الثراء الغنى والترف والرفاهية، ولكنها الحقيقة الضارية المتوحشة التي انطلقت من قيودها حين أزَمتها الحاجة والقحط والجوع داء المعدة التي تتلوى أمعاؤها كما تتلوى الحية الجائعة على & المتجسدة في فريستها. ليس هذا هو كل شئ، وليس القحط وحده هو الذي يُضَرى عبيد المال فيأكلون بنيهم وبناتهم أكل الوحش الطاغي بطغيان حيوانيته التي تريد البقاء لنفسها، ثم لا تعرف غير نفسها، ولا تعبد إلا نفسها. إن كل أزمة تطلق في أعصاب الأغنياء - إلا رحم بك - وحشاً آكلا طاغياً مستأثراً لا يرى إلا نفسه ولا يريد

البقاء إلا لنفسه. فإذا وقع القحط بين صديقين أحدهما غني كان صديقه طعاماً تفترسه الصداقة الغنية! وإذا وقع القحط بين حبيبين أحدهما ثري مترف تثاءب عنه يريد النوم لأنه شبع من حبه حتى تملأ! وإذا وقع القحط بين أخوين أحدهما غني، كان حق الرحم عليه أن يشرب ما بقي من دم أخيه يستولغ فيه حتى يَروي!

إن الترف والنعمة والكفاية، وأحلام الغنى وكنوز الثراء، إن هي إلا الماحقات الآكلات التي تمحق العواطف الإنسانية النبيلة حين لا ملجأ إلا إلى الخشونة والشدة والصبر وحقيقة الفقر. إن الفقراء هم أكثر الناس رغبة في النسل على ضيق رزقهم، والأغنياء أقل الناس إقبالاً عليه على ما يجدون من السعة. الفقراء اشد حزناً على من فقدوا من أبنائهم وأحبائهم، ولكن أولئك لا يحزنون إلا ريث يشعرون الناس أنهم حزنوا، ولئلا يقول الناس إنهم لم يحزنوا على أحبائهم. . . الأغنياء، الأغنياء. . . نعم هم زينة الحياة الدنيا، ولكن مع الزينة الخداع، ومع الخداع الضعف، ومع الضعف القسوة حين تجد ما يتلين لها أو يتساهل أو يستكين. . . أو يثق.

فمن صادق غنياً فليحذر، ومن آخى ثرياً فليتحصن، ومن عامله فليرهب، فإذا بلغ المرأة الغنية فأحبها فخيلت له أنها أحبته فوثق بها فقد هلك، وإنما هو ملهاة من ملاهي الترف إذا فقدت لذة اللهو به نبذته لما به

محمود محمد شاكر

يا ابنة الشارع. . .!

للأستاذ كامل محمود حبيب

على رسلك، يا ابنة الشارع، وادفني حزازات صدرك إن أنا انطويت عنك، فلقد لمستُ خواطرك أشياء جذبتني عنك

إن التاريخ قلبينا ابتدأ في الشارع، وشب واشتد في الشارع، وتوثقت بيننا أواصر الحب تحت شجرة وارفة في روضة أنف

ولج بنا الهوى فتساقينا أكؤسه على حيد الطريق تحت ستر الظلام في (الجزيرة) و (الزمالك) و. . . حيث لا حس ولا حركة

وصحوت - يا من أحب - من غفوتي، فإذا أنا إنسان تريدين أن تنفثي فيه روح الذئب. وأحسست مرارة تلك الخلس تتفجر في قلبي، فعزفت عنها

ثم أردتُ وأردتِ، فانطلقت إلى أبيك أحدثه حديث زواجي منك فما تمهل، وإلى أمك فشاعت النشوة في مفاصلها، وأنتِ تمهدين الطريق. . . فسميت على

غير أني انطويت عنك حين لمست في خواطرك أشياء جذبتني عنك، فلا تحقدي علي، يا ابنة الشارع

ولما خرجت إلى الشارع - أول ما خرجت - أخذ زخرفه وازين وتلقاك في ابتسامة حلوة رقيقة؛ لأنك كنت زهرته اليانعة النضيرة، ونوره المتلألئ الوضاح

ورآك الشاب - أول ما رآك - فانبسطت أساريره، وأفسح لك من رقته مكاناً سامياً وتيارى الشارع والشاب، كل منهما يحتفل بك فنوناً، وفي رأيه أنها ساعة من زمان، ثم ينقلب الطائر الغريد إلى وكره

ولكن شيطانيتك الثائرة أبت أن تلم من نفسها، فاندفعت إلى شر غاية حين سَركِ أن تغترقي الطرف وتسيطري على القلب

واستشعر الشارع فيك عاره فراح يقذف بك من جانب إلى جانب في بغض وكراهية، وعبث بك الشاب حين رأى فيك لهو نفسه وشغل فراغه، على حين قد أغضيتِ أنتِ وحاولت أن أدرك عن غوايتك فأغلقت من دون حديثي مسمعيك، فانطويت عنك، فلا تحقدي عليّ، يا ابنة الشارع

وأوضعت في عمايتك، وأنا أريد صلاح أمرك، وجئت تناقشين وتفاطنين وفي حديثك الزور، كأنه بعض هاتيك الأصباغ التي تموهين بها على الناس، وأنطلق لسانك يطمع في أن يدلل على أن المرأة هي نور الحياة وبهجتها وجمالها الساطع

وتبدت لي فلسفة المرأة الفجة في كلماتك الخاوية، وفي عيني أن المرأة عذاب القلب والنفس والعقل والدار جميعاً، لا يخلص الرجل من واحدة إلا ليرتدغ في واحدة وسخرت من الدار، فسخرت هي من انصداع شملك وتشعب غايتك؛ وانفلتّ من حدود المرأة، فانفجرت لك الحياة عن مأساة لا تنتهي، وأصبحت أضحوكة الشارع، لأنك تمثلين على مسرحه كل يوم مهزلة؛ وتصنعت للرجل فألفيت فيه الصاحب، وافتقدت

فيه الزوج
ولمزت فتاة الدار فرقاً من أن تسمو عليك، فذهبتُ أثير فيك نوازع مكفوفة على أستل جماع رأيك، فقلت: (لا ريب ففتاة الدار هي في رأينا مطية الدار، وهي بنت الحجن، وهي عَيْر الحي و. . . ثم كيف تجد الزوج، وهي في غياهب البيت وظلام الحياة؟)
فقلت: وإذن ففتاة الشارع قد حطمت هذا القيد الذهبي لتبحث. . . لتبحث عن الزوج؛ وهي في بحثها تقارن وتختار اختياراً فاجراً، وتعرض على عيني الرجل الغريب، في سوق الزواج، محاسنها القبيحة وقبحها الفتان. ولا عجب إن هي ضلت الطريق ففقدت الدار والزوج معاً!
وقلت: إن اختلاط المرأة بالرجل يعلمها حكمة لا ينطلي عليها خداع الشاب ولا مكره ولا حيلته، وللشاب أساليب ملتوية يغتر بها الشيطانة. فقلت: يا سيدتي، إن الجدار سد يحول بينك وبين خير الشاب وشره
وقلت: إن المرأة تجد - خارج الدار - حياتها وعملها وكسبها. فقلت: لقد خلقت المرأة لتكون أماً، وليس في الشارع أطفال سوى اللقطاء
. . .وقلت وقلتُ
ثم أعيتني الحيلة فانطويت عنك لأنك ترفعت عن أن تكوني سيدة الدار، وفي رأيي أنك هويت لتكوني ابنة الشارع
أتذكرين يوم أن جئت لك بقناع يدرأ عنك العين المتطفلة النهمة؟ لقد كان صفيقاً هوناً ما، يا عزيزتي، فطرحته جانباً وأنت تقولين (لو كان رقيقاً!) فاستبدلت به غيره، غير أني رأيت
الكراهية في ناظريك، فحبوتك غيره. . . ثم اشتريت أنت نقاباً يروق لك، فجاء يسخر منك لأنه لا يواري إلا ما يواري الأبيض والأحمر من مقابحك
وهذا الجورب الذي أرغمتك على لبسه كان موضوع جدال يحتدم مرة ثم يخبو، لأنك تعلمت في مدرستك التعنت في الرأي
لقد تلقنت في المدرسة علماً ألقى بك بين أحضان الشارع لأنه فتح أمامك باب الحرية، وهو أيضاً قد قذف بالشاب ليتسكع في تيهاء من أمره لأنه سد أمامه باب العمل
وهذا اللباس القصير، إنه يكشف عن شئ، ليتألق فيجذب إليك البصر
أفرأيت - يا صاحبتي - الزهرة تزهو بلونها لتجذب إليها الحشرة فتمتص رحيقها ثم تطير وقد قضت منها وطراً؟
لا ضير، فلقد صُم على الأمر وضلت فيك فلسفتي؛ فانطلقت التمس راحة نفسي وهدوء خاطري
وخلفتك من ورائي، في هذا الشارع، تضطرين بين آذى الحياة المتلاطم
ويا عزيزتي، هذه السيارة الجميلة التي أتأنق فيها، إنها من وحي غطرستك، فهل تجدين لذع فراقها؟
وهذه الدار الصغيرة قد رتبتها يدك على نسق ونظام لتكون لك عشاً آمناً فهل وجدت فقدها؟
وتلك الأيام الناعمة البهجة، أيام الهوى الغض، حين كنا نتلاقى عند الأصيل على شاطئ النيل، نتجاذب أحاديث الغرام ونفتن في أساليب الحب، وهذا الأمل الذي سطع في قلبك وقلبي. . . ثم خبا، أفتذكرين سطراً من هذا التاريخ؟
كلا، كلا! فأنا قد رأيتك بالأمس تسيرين إلى جانب شاب يخدعك وتمكرين به فعرفت أنك أنت ابنة الشارع، لا عهد لك ولا ذمة، ولا غرو فلقد خرجت إلى الشارع تفتشين عن الزوج
فهذا عذري إليك حين انطويت عنك وفي رأيي أن حرية المرأة هي فجورها، وأن خروجها من دارها هو فسقها فيا ابنة الشارع، كوني من تشائين إلا أن تكوني زوجة لي (مشتهر)
كامل محمود حبيب
من شجو الربيع
!. . .عطرٌ من الله

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

ولَمَّا وصَلْتُ (القَصْرَ) كَبَّر خافِقٌ ... بِجَنْبَيَّ أوهَي حِكْمَةَ الجِنِّ جُرْحُهُ . . .!

ورُوعَ لَيْلٌ لِلْهَوى ماتَ فَجْرُهُ ... وفي واحَةِ النِّسيانِ وريَ صُبْحُهُ!

وجُنَّ بِصَدْرِي بُلْبُلٌ ذَابَ شَجْوهُ ... عَلى فَمِهِ، وارْتَدَّ لِلرُّوحِ نَوحُهُ!

وشَقَتْ صَبَابي هَالَةٌ لَيْتَ نُورَها ... = يُخَلِّدُ في آفاقِ عُمْرِيَ لَمْحَهُ

وكادَ يُزَاحُ السِّتر لَولاَ قَدَاسَةٌ ... تَعالَى بها عَنْ عَالَمَ النَّاسِ جُنْحُهُ!. . .

فيا طائِراً هَدَّتْ يَدُ الرَّيحِ عُشَّهُ ... ونفَّضَ أحْلاَمَ الاليفَيْنِ دَوحُهُ

عَذَابُ الهَوى عِطرٌ مِنَ الله نافِحٌ ... يُطَهِّرُ آثاَء الشقِيِّينَ نَفحُهُ. . .

(ديوان المعارف)

محمود حسن إسماعيل

صفحة من كتاب

مع الغروب

للأستاذ شكري فيصل

- 1 -

هذا منصرفي الآن من (المكتبة)ـ لقد قرأت الفصل الطويل الذي كتبه (الطبري) عن (صفين). وخرجت منه دامع الطرف، حزين القلب، تعلو وجهي كآبة مرة. . . ولكن الدنيا المشرقة تريدني أن أضحك؛ فكل ما حولي جميل ناعم. . . إن صفحة السماء لتوحي إلى بكثير من المعاني؛ وأنها لتبعث في نفسي ألواناً من الحنان؛ وإني لأشعر بيد ناعمة طرية تدغدغ قلبي فيستكين لها وينبسط معها؛ وتشيع فيه بوارق الأمل. . . كأنها كلمات السماء تُلقي إليه في يأسه وخموله، فيصحو وينتفض ويثب ويهفو مع النسمات البليلة، ويتحسس هذا الجمال المبعثر هنا في أفق السماء وجنبات الأرض

لقد طرق سمعي صوت الساعة الضخمة القائمة في حرم الجامعة، كجرس . . . الكنسية!ـ . . كأنها كانت تنعى هذا النهار المدبر إلى الناس الغافلين. . . فأنوار الشمس الساطعة تستحيل شيئاً فشيئاً إلى أنوار باهتة ليس لها ذاك الجبروت ولا تلك القوة، والنسمات اللطاف تترنح في هذا الجو، والشجيرات القائمة على حفافي الشارع تبدأ رقصتها الفاتنة، وتثنِّيها الرائع، والعشب النامي يتماوج بكل فتوته الناشئة كأنه يشارك الكون نغمته المتسقة البارعة

- 2 -

لشد ما ازدهتني هذه الأمسية الحلوة. . . فانطلقت معها أطوف في هذه . . . (الضاحية الجامعية) وأنعم بالهدوء الذي يلفها بردائه الرفيق الرقيق في مثل هذه الساعة المتأخرة من النهار حين يفارقها ضجيج المحاضرات وجلبة الطلبة ورنين الأجراس، فلا تحس فيها تلك الحركة، ولا تجد لها ذاك الاضطراب. . . وإنما يغمرك إحساس رفيع من قدسية العلم، وسمو المعرفة، وجلال الطلب

لقد أخذت أذرع هذا الشارع الجميل الذي تنسحب على جانبيه الحدائق، وتنبت في . . . أطرافه الزهور؛ وتتغنى على شجيراته جماعات الطير. . . ولقد كان هذا الشارع إلى ساعات قريبة يمور بالحياة، ويفيض بالنشاط، ويتقد فيه العزم، ويودع طوائف من الطلبة، ليستقبل طوائف أخرى. . . ولكنه الآن ساكن هادئ. . . إني لأخطو فيه وحيداً ليس معي إلا هذه التأملات العميقة التي يثيرها في ذهني السكون الشامل. . . وإني لأهيم بعد. . . فأمضي حيث تقودني قدماي؛ لا آخذ جهة، ولا أحدد قصداً. . .

- 3 -

هاأنذا في منبسط من الأرض، ممتد واسع. . . تنطلق فيه صفحة السماء واسعة عريضة، كجنة الأمل؛ وتتراقص فيه الأرواح مرحة عابثة بسنابل القمح القريبة؛. . . لقد بعدت عن العمران القائم، والأبنية الضخمة. . . لكأني أخطو الخطوات الأولى في الريف. . . فأنا لا أسمع حركة (الترام)، ولا جلبة السيارات. . . وأنا لا أرى من برج الساعة، وقبة الجامعة، إلا القمة العالية التي تشبه رأس الصخرة الطافي على سطح البحر وليس من حوالي إلا مزارع وحقول، وتتبعثر فيها الأكواخ، وتمتد من حولها أبسطة العشب الندى

يا لروعة المساء!. . . كانت الشمس تجمع خيوطها المتناثرة لتنحدر نحو الأفق . . . البعيد. . . وقطع السحاب الرقيق تسربل أجزاء من السماء كأنها ثوب ممزق على

جسم إنسانة فقيرة. . . والأكواخ المتواضعة تودع النور الحبيب لتغوص في لجج الليل. . . والأفق الزاهي يصطبغ بهذه الألوان العجيبة الماتعة. . . والدنيا كلها ترقب هذا الخط البعيد الذي تتصل فيه السماء بالأرض

لقد كنت إلى حين أجفو أضواء الشمس، وأنأي عنها وأحتمي منها بالظلال. . . . . ولكنني الآن أتقرب منها وأتحسسها وألحق بها من مكان إلى مكان، كأني أرثي لها هذا المصير، وأخشى عليها سطوة الليل، وأتمنى لها ألا تزول؛ وأحاول أن أمسك بهذه الشعاعات. . . ولكنها تفر مني حتى لا تبقي منها إلا خيوط واهية على قمم الأشجار السامقة

وتقبل هذه الأشجار الأنوار الآفلة؛ وترتعش أغصانها من حمى الوداع. . . وتنطوي الشمس على نفسها قرصاً رائعاً في الأفق البعيد تلقى آخر نظراتها التي بللتها الدموع القانية على الأرض

لطالما أعشت هذه الشمس عيوناً ونواظر؛ كانت تتجه نحوها تحاول أن تنظر إليها، ثم ارتدت عنها خاسئة حسيرة. . . ولكنها الآن في لحظتها الأخيرة تبيح للناس أن يحدقوا فيها فقد ركبها العجز. وما عليها من ذلك! وهي سجينة أسيرة في يد الليل يحاول أن يقذف بها في أحشائها العميقة. . .!

ورقبت هذا الصراع الهادئ بين أضواء النهار وظلمة الليل. . . لقد جمعت له . . . الشمس كل ما تستطيع. . . حتى هذه الأنوار البعيدة التي كانت تغطي رأس (أبي الهول) وقمة (الهرم). . . ولكنها لم تجد سبيلاً إلى النجاة؛ ولا يزال الليل يغير عليها. . . ولا يزال هذا القرص الذهبي يتضاءل ويتضاءل. . . والدماء الوردية تنسكب منه فتتناثر في أطراف السماء. . . لقد أضحى دائرة صغيرة آخذة في انحدار سريع. . . وإن الدائرة لتمس خط الأفق، ثم تغطس في خصمه الهائل. . . وتستسلم. . . وترسل نظراتها الأخيرة في ضراعة وداعة وحب. . . حتى إذا غامت فيه؛ كان جناحاها الهشيمان الممتدان على طرفيه، يضطربان ويهتزان كما يهتز المصباح الضئيل قبل أن ينطفئ

وانطلقت في الدنيا نسمات سريعة كأنها كانت تحمل نبأ الصراع، ونهاية . . . المعركة. . .

وسكنت الطيور إلى أعشاشها تخاف على نفسها شر الليالي السود . . .

وأويت أنا إلى غرفتي مكدوداً. . . بعد الطواف الطويل . . .

سينجاب الليل. . . وستشرق الشمس غداً على العالم. . .

وستتجدد الحياة في أضوائها الساطعة. . . ترى هل تنزاح الظلمات التي تملأ نفسي. . . وهل أخرج من هذا الليل الطويل الذي أخبط فيه. . . وهل يقدر لهذا القلب أن ينعم بالضوء والدفء والحياة المرحة؟!!

ترى هل يقدر؟!. . نورك اللهم . . .!. . .

(القاهرة)

شكري فيصل

شبلي

قصة حب. . .

(يا شاعري: إنك تحكي ما في نفسي. . . فتعال في خطى

بطيئة وبيدك هذه الباقة الصغيرة تقدمها في صفاء. . .)

تختلط الينابيع بالنهر

وتنساب الأنهار من المحيط

وتنزل الرياح القادمة من السماء

إلى النسمات الوادعة.

ليس في الحياة من يحيا وحده

كل ما فيها يمتزج

بقانون أزلي ثابت

فلم لا نكون: أنا وأنت

أنظري الجبال تقبّل السحب

والأمواج يعانق بعضها بعضاً
والزهرة الصغيرة لن يغتفر لها أحد
أن تتناسى أخاها الشقيق
نظري. . .
ضياء الشمس يلامس الأرض
ولأشعة القمر تقبل المحيط
هذه القبلات كلها ما نفعها
إذا لم تقبليني أنت.
م. وهبة
دعوة الرسالة إلى تجديد الدين والأزهر
للأستاذ محمود أبو رية
لما قرأت مقالكم الممتع (فقهاء بيزنطة) في العدد 352 من الرسالة، أعجبني أيما إعجاب ما وصف قلمكم البليغ من الأمور التي يجادل فيها مشايخنا فشغلوا الناس بها، وأوقعوا الفرقة بينهم من أجلها؛ ذلك بأن من يطلع من أهل البصر على أكثر أبحاث شيوخ الدين عندنا ومجادلاتهم، سواء أكان ذلك في مجتمعاتهم أم على صفحات مجلاتهم لا يصدق أنهم يعيشون في هذا العصر، أو أن الدين الذي ينتسبون له ويناقشون في مسائله هو الدين الإسلامي الذي جاء به محمد (ص). ولكني - ولا أكتمك الحق - قد وقفت عند جعلكم البحث في أمر تسوية القبور أو إقامتها من هذه المباحث البيزنطية، لأن هذا الأمر إنما يتصل بأصل الدين الإسلامي وهو (التوحيد) الذي هو أصل رسالة محمد (ص) وقاعدة دينه، بل هو أول ما يدعو إليه كل رسول بقوله: (اعبدوا الله مالكم من إله غيره) وذلك بأن يعبد الله وحده ولا يعبد غيره بدعاء ولا بغيره، وروح التوحيد كما لا يخفى على كل مسلم صحيح الإيمان، هو إخلاص العبادة لله تعالى والاستعانة به والتوكل عليه والنذر له، وما نكب المسلمون بشيء نكبتهم بالقبور المشرفة والأضرحة العالية فقد أصابتهم من نواح كثيرة في دينهم ودنياهم. أفسدت عقائدهم فأصبحوا كما قال الله تعالى: (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون)، وأذهبت أموالهم فيما لا خير فيه ولا نفع منه وذلك بما يبذلونه في إقامة القباب ورفع الأضرحة؛ وشلت قواهم، وكبلت هممهم، وهذه الناحية هي أشد ضرر اجتماعي ضرب في مفاصل الأمة، ذلك بأنهم قد تركوا الأسباب التي من كسبهم ودابروا سنن الله في عملهم، تلك السنن والأسباب التي أخذت بها الأمم، فكانت سبب نهوضها ومرقاة سعادتها. أرتكنوا على أصحاب هذه الأضرحة ليقوموا بشؤونهم ويقضوا من حاجهم حتى صرنا في ساقة الأمم لا حول لنا ولا قوة، ورحم الله حافظ إبراهيم في قوله يخاطب الأستاذ الإمام محمد عبده:
إمام الهدى إني أرى القوم أبدعوا ... لهم بدعاً عنها الشريعة تعزف
رأوا في قبور الميتين حياتهم ... فقاموا إلى تلك القبور وطوفوا
وباتوا عليها جاثمين كأنهم ... على صنم الجاهلية عكف
ويرحمه الله إذ قال:
أحياؤنا لا يرزقون بدرهم ... وبألف ألف ترزق الأموات
للسيد البدوي ملكٌ دخله ... خمسون ألفاً والحظوظ هبات
وأنا أعذب في الوجود وليس لي ... يا أم دَفْر ما به أقتات
من لي بحظ النائمين بحفرة ... قامت على أرجائها الصلوات
يسعى الأنام لها ويجري حولها ... بحر النذور وتقرأ الآيات
ويقال هذا القطب باب المصطفى ... وسيلة تقضي بها الحاجات
وقفت عند هذا القول في مقال صاحب الرسالة وعجبت أن يصدر منه وهو جد خبير به وبضرره حتى قرأت مقاله البليغ (العقيدة الساذجة)، ورأيت في القول المحكم عن الضريح الذي أنشأه بالعراق السردار طاهر زين الدين الزعيم الهندي لعليّ رضي الله عنه؛ فوجدت قلمه قد ضرب في الصميم ومسَّ أصل الداء الذي أصاب بلاد الإسلام جميعاً وقلت: لقد اقترب صاحب الرسالة من العمل الحق للدين - لما لم يجد أهله يعملون له - بعد أن كان أكثر عمله للأدب، ولا غرو فإن الدين الإسلامي لكما قال هو: (ينفرد عن سائر الأديان باعتماد دعوته على الأدب وقيام معجزته على البلاغة) ثم

وددت لو أني قرأت في هذا المقال أدلة النهي عن إقامة القبور وزخرفتها من لسان صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم ومن عمل رضي الله عنه في مثل هذا الأمر نفسه لا ليشد مقاله بها فإنه شديد متين ولكن ليعرف المتعصبون والقبوريون أن ما تدعو إليه الرسالة إنما هو دعوة محمد (ص) فلا يفتروا الكذب بأنه رأى مفتجر لا يؤيده دليل ولا يظاهره نص. كنت أود أن يقرأ الناس في هذا المقال الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم عن أبي الهياج الأسدي قال: قال لي عليّ: ألا أبعثك على ما بعثني على رسول الله (ص)؟ ألا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبر مشرفاً إلا سويته - وفي رواية ألا (تدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته

وقد ذكر الإمام الشافعي في الأم ونقله عنه النووي في شرح مسلم أنه رأى الأئمة بمكة يهدمون ما شيِّد من القبور ويسوونها بالأرض عملاً بهذا الحديث، والحديث الآخر الذي رواه مسلم عن جندب قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت بخمس وهو يقول:

ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور) (مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك

وما أخرج ما لك في الموطأ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد

نعم. وددت ذلك وتمنيت لو أن صاحب (الرسالة) قد نهض كذلك، وهو ذو القول البليغ المسموع والرأي الموفق المقبول فواصل الكتابة في هذا الأمر، حتى جاء العدد 355، ورأيت صدره قد تحلى بمقاله (في سبيل الأزهر الجديد)، حينئذ طابت نفسي وانشرح صدري وقلت: لقد وضعنا أيدينا على المفتاح الإصلاح، لأن هذا المقال، إنما هو الصيحة المباركة لا في سبيل تجديد الأزهر فحسب، ولكن في سبيل تجديد الدين.

لقد ضرب قلمكم البليغ في صميم الإصلاح الديني فقال: إن إصلاح الأزهر من ناحية الدين إنما هو في العودة إلى استنباط الدين من منابعة الأولى (من صريح الكتاب وصحيح السنة)

إن الدعوة التي تقوم بها الرسالة اليوم هي التي اتبعها خبر القرون واستمسك بها من بعدهم العلماء المحققون أمثال ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وغيرهما. وهي التي وضع بذرتها في العصر الحديث جمال الدين وأنبتها الإمام محمد عبده، وقام على تربتها السيد رشيد رضا حوالي أربعين سنة والتي أفصح عنها بكلمة حكيمة يجب أن تكون أساس كل إصلاح ديني في هذا العصر وهي:

أقول في الدين بقاعدة الإمام مالك وهي الوقوف في العقائد والعبادات عند نصوص) القرآن، وبيان السنة النبوية له، وسيرة السلف الصالح فيه قبل حدوث الآراء والبدع ومراعاة مصالح الأمة العامة في الأحكام الدنيوية من مدنية وسياسية وغيرها؛ وأما ما فوضه الشارع إلى الناس من أمور دنياهم ووكله إلى علمهم وتجاربهم في قوله صلى الله عليه وسلم: (أنتم أعلم بأمور دنياكم) وقوله (ص): (إنما أنا بشر مثلكم إذا أمرتكم بشيء من أمر دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر) رواهما مسلم في صحيحه

أما هذا فأنا أدعو فيه إلى أحدث ما انتهت إليه علوم البشر وفنونها وإلى ما لا يعرف له حد من الزيادة عليها بقصد إعزاز الأمة وإعلاء شأن الملة بها، ولا بد فيه من المحافظة (على مقومات الأمة ومشخصاتها التي كانت بها أمة في وسائلها ومقاصدها

هذا هو منهج الإصلاح الديني الذي بينه أفصح بيان السيد رشيد رضوان الله عليه فسر يا صاحب الرسالة بتوفيق الله في هذا الطريق حتى يتجدد الدين ويبلغ مكانته اللائقة في هذا العصر وفي غيره، وبذلك تكون الرسالة قد نهضت بخير عمل ثوابه عند الله أكبر ونفعه للناس عظيم

(المنصورة)

محمود أبو ريه

من وراء المنظار

في عيد الفسيخ

أرجو ألا يحمل القارئ تسميتي هذه على المزاح، فلست لعمر الحق مازحاً، وما أستطيع أن أسمي الأشياء بغير أسمائها حتى في هذا الزمن الذي يسمى كل شئ فيه

بغير اسمه
وإنما تسمى الأعياد بأبرز خصائصها. على هذا النحو كان عيد الأضحى، وعيد الفطر، وعيد الميلاد. وليس في القراء من يستطيع أن يجادلني في أن الفسيخ قد أصبح ابرز خصائص ذلك اليوم الذي نسميه شم النسيم؛ فليت شعري وهذا هو شأن الفسيخ فيه لم لا نسميه عيد الفسيخ، وقد تلاشى في جمال الفسيخ كل جمال؟
الأصل في هذا اليوم أنه عيد الربيع، عيد الورد، عيد النسيم الذي ينفح بالعطر ويزخر بالحمال، ولست أشك في أصله؛ ولكني لست أدري ماذا جعل الفسيخ فيه يطغى على الزهر؟
ولعمري ما أرى أي رابطة بين هذا وذاك، وليس من ينازعني حتى المولعين بالفسيخ أنفسهم أن هذا شئ وذاك شئ آخر أبعد ما يكون عنه عنصراً ومعنى؛ وإن كان في الناس من يقول: (يخلق من الفسيخ شربات)
درت بمنظاري فحار المنظار أو حارت عيني من وراء المنظار، ماذا تسجل وماذا تدع؟ أأستطيع أن أمر، دون أن أضحك، بهؤلاء الذين جلسوا للطعام على بُسُط الربيع، فما كان أمام الكثرة المطلقة منهم إلا هذا الصنف من الطعام الذي يجب أن يكون آخر ما يؤكل خارج المنازل، إن جاز أن يؤكل في أي مكان قط؟ وكان يبعث ضحكي من هؤلاء أنهم يعانون رهقاً شديداً في تناوله، ومع ذلك فهم يقبلون عليه في شراهة جعلتني أعتقد أن أسم الجمال عندهم في هذا اليوم هو في ذلك (السلخ) وذلك (النتش) وما يصحبهما من تلويث الأيدي والملابس فضلاً عن تلويث الجو كله برائحة احتبست منها أنفاس الزهر! دع عنك مخلفاته الثمينة التي تزيد بتناثرها هنا وهناك هاتيك البساتين جمالاً على جمال!
وما كان هذا المنظر وحده هو الذي انقبضت له نفسي، فلقد كان ما رأيت في النهار كله دليلاً لا يكذب على أن الناس ما خرجوا من دورهم لاجتلاء جمال الربيع والاستمتاع بصفاء الربيع، وإنما جاءوا ليشوهوا جمال الربيع عامدين بكل ما في وسعهم من أسباب
التشويه
على أي وضع من أوضاع الذوق والجمال يعتبر منظر هؤلاء (الأفندية) الذين تحلقوا على الحشائش فما خفت لهم صوت منذ جلسوا، وما جرت ألسنتهم إلا بكل عوراء مخزية من النكات والحكايات؛ حتى لعبت برؤوسهم بنت زجاجاتهم فازدادوا نكراً وقحة وعلى جوانبهم أسر فيها أوانس وسيدات؟
وعلى أي وضع من أوضاع الذوق والجمال يعتبر منظر هؤلاء الشباب المتعلمين الذين يأخذون السبيل على كل غادية ورائحة، ولا يتنادون إلا بأشنع السباب وأوقح الأسماء والذين لا يطربهم أكثر من عبارات السب توجه إليهم ممن يغزلن (ويعاكسن)؟
ثم ما هذه (الشلل البلدي) الذين اصطحبوا من اصطحبوا ممن كن وإياهم على موعد في هذا اليوم الجميل فجاءوا وجئن يضيفون إلى معاني جماله هذا المنظر المخزي البغيض؟
بل ما هذا الأفندي الوجيه الذي خلع سترته وألقى بطربوشه ووقف يرقص في حركات بهلوانية وحوله من يصفق له ممن يعرفونه ومن لا يعرفونه، وهو لا يزداد على التصفيق إلا جنوناً وانتشاء، ثم هو لا يفتأ يعاود حركاته كلما استخفه التصفيق ممن أولعوا باستخفافه؟ وما هؤلاء الشحاذون الذين انتشروا هنا وهناك، فكانوا أثقل على الهادئين من المهرجين ومن الذباب ومن رائحة الفسيخ؟ وما هذا الضجيج، وما هذه الفوضى التي تلاشى فيها جمال الربيع وصفو الربيع واستخذى لها وجه الربيع، حتى لو استطاع ربيعنا لبحث له عن أرض غير هذه الأرض، وناس غير هؤلاء الناس!
رأيت هذا، فذكرت يوم شم النسيم في القرية، وطاف برأسي عذارى الريف يسبقن الفجر زرافات إلى الترع فيستحممن ويملأن جرارهن ويغطينها بالريحان والنوار، وبعدن مغنيات ضاحكات تنفحهن أنفاس الفجر الندية الرخية، وترمقهن باحتشام عيون الشبان في طريقهم إلى شجر التوت وفي أيديهم الريحان والسعد والنعناع والورد، فلا يكون بين هؤلاء وأوليائكن إلا الابتسامة الحلوة أو التحية العفة، ويكون نهارهم ونهارهن فيضاً من الجمال والهدوء والانبساط، ومما شاءوا وشئن من هوى عذري تبقى ذكراه

وذكرى المسرة في نهاره سحر العام كله.
(عين)
النقابات الإسلامية
للأستاذ برنارد لويس
ترجمة الأستاذ عبد العزيز الدوري
- 3 -
انتشرت حركة الأخوة بسرعة كبيرة في المدن والأرياف - بالتكتل والكرم - كدستورهم، وطبقة أصحاب الحرف كأساس اجتماعي لهم، وقتل الطغاة وصنائعهم كواجب من واجباتهم؛ فكانت حركة اجتماعية سياسية دينية عسكرية في نفس الوقت. وقد لاحظ أحد الزائرين في عهد متقدم أن أعضاء كل جمعية من جمعيات الأخوة كانوا أصحاب حرفة واحدة. ولابد من أن الاتحاد التام لجمعيات الأخوة مع الطوائف قد حصل في زمن متقدم، وربما كان ذلك في بدء حركة الأخوة. كما أن حركة الأخوة لم تكن مجرد تنظيم لأصحاب حرفة واحدة، وإنما جعلوا واجبهم حفظ العدل ووقف الظالم عند حده، واتباع قانون أخلاقي وديني، وتنفيذ واجباتهم العسكرية إن دعت الحاجة للدفاع عن حقوقهم، ولم تكن العضوية مقصورة على المسلمين فقط إذ نجد عدد المسيحيين عظيماً جداً في طور متأخر
وهكذا تحقق في حركة الاخوة لأول مرة اتحاد الطوائف والفتوة والطرائق الدينية. وقد أتى كورد لفسكي ببينة ممتعة تؤيد تأثر الطوائف بالنفوذ الإسماعيلي إذ يلاحظ الأستاذ أثراً قوياً لآراء ابتداعية (لا توافق قواعد الإسلام) عند الأخوة، ويرجع أصل ذلك إلى إخوان الصفا. ويذهب (كوبرولو) إلى أبعد من ذلك ويؤكد أن الأخوة كانوا في الحقيقة متطرفين ملحدين في بدعتهم وخروجهم وأنهم من طراز القرامطة أنفسهم
ولدينا وصف هام للأخوة في الأناضول ورد إلينا في رحلة ابن بطوطة من أهالي طنجة زار الأناضول في القرن الخامس عشر الميلادي
وبظهور السلطنة العثمانية وتوحيدها فقدت الأخوة كثيراً من سلطتهم ونفوذهم، وبعد مقاومة عنيفة غير ناجحة اضطروا إلى التخلي عن مهمتهم السياسية والعسكرية، ولكنهم لم ينحطوا أبداً إلى درجة أصحاب حرف عادية فقد استمرت بينهم روح العصر الأول. وحافظت الطوائف حتى القرن العشرين على حياة روحية داخلية وقانون أخلاقي
وامتزجت نظم الطوائف والفتوة والأخوة في الأناضول بسرعة وتم ذلك في كل البلاد الإسلامية المتوسطة (مركزاً) في القرن الخامس عشر. وقد جاءت معظم وثائقنا عن النظام الداخلي لهذه الطوائف بوساطة طوائف الفتوة. فكان لكل طائفة قانون يحتوي على قواعد وعادات وشعائر يتلى شفهياً عادة. وكان هذا القانون يعرف بالدستور (كلمة فارسية معناه: إذن. مؤخراً. نظام) وكانت تكتب هذه القوانين في بعض الأحيان وقد وصلنا عدد كبير من هذه الكراريس ترجع إلى القرن الرابع عشر وما بعده. ويعتبر كتاب الفتوة أو (فتوت نامه) كما تسمى هذه الكراريس بالعربية والتركية على التوالي مع عدد من كتب الرحلات والجغرافيا المصدر الأساسي لمعلوماتنا وتتألف جميع هذه الكتب تقريباً حسب خطة واحدة من ثلاثة أقسام. القسم الأول يحوي أساطير تتعلق بأصل الحرفة ومغامرات مؤسسها الذي تنتمي إليه، وهي تعطى عادة حلقة من التنشيئ مثلاً: الله علم جبريل، جبريل علم محمد، محمد علم علياً، عليّ علم سلمان الفارسي، وسلمان علم الأبيار (وهم حماة أصحاب الحرف حسب تقاليدهم) والأبيار علموا الفروع (وهم الحماة الثانويون للشعب المختلفة لأصحاب الحرفة الواحدة). وهؤلاء الفروع علموا بدورهم رؤساء الأصناف العاديين. وهذه الأساطير تظهر عادة تأثيراً قوياً للإسماعيلية والصوفية. القسم الثاني: يحوي عادة قائمة بأسماء الأبيار والفروع لمختلف الحرف، وهؤلاء عادة أشخاص اقتبسوا من التوراة والقرآن ومن التاريخ الإسلامي، وهكذا نجد آدم حامي الفلاحين والخبازين، وشيت حامي الحياكة والخياطين، ونوح حامي النجارين، وداوود حامي الحدادين والصياغ وإبراهيم حامي الطباخين وإسماعيل حامي صناع الأسلحة. والقسم الثالث يحوي التعاليم لتثقيف المبتدئين، والأسئلة فيه تظهر اتصالاً قوياً بآراء الدراويش. ويمكننا من هذه الكراريس (كتب الفتوة) أن نصور نظام الطوائف لحد ما. ويحسن بنا أن نتذكر في عملنا هذا أن

وثائقنا جاءت من حقل تاريخي يمتد منذ القرن الرابع عشر حتى القرن العشرين ويشمل كل البلاد الإسلامية. ومهما كان التغيير قليلاً خلال القرون، فإنه يوجد تباين محلي عظيم. لذا سنحاول أن نعطي صورة شاملة مع ملاحظة الفروق الأساسية تبعاً للمحل والزمن

يرأس الطائفة الشيخ ينتخبه الأساتذة من بين رجال الحرفة، وبعد انتخابه يكون حاكم الطائفة الأوحد ويجمع وظائف رئيس وأمين صندوق وكاتب، وهو (أي الشيخ) موجود في جميع الطوائف الإسلامية وفي بعض الطوائف مصر في القرن السادس عشر الموصوفة في (مخطوط كوثا) ونجد له مساعداً، وهو النقيب، ومنزلته بالنسبة إلى الشيخ (كمنزلة الوزير من السلطان) ويظهر أنه كان رئيس التنفيذ لأوامر الشيخ ومنظم الحفلات أيضاً. ويليه الاختيارية أو المسنون بين الأساتذة الطائفة يتعاونون معه على إدارة الطائفة؛ ثم يأتي الأساتذة ويدعى الواحد عادة أسطى أو أحياناً (معلم)، وهم يشكلون القسم الرئيسي من الطائفة. أما الصانع فلا يلعب دوراً هاماً في الطوائف الإسلامية ولا وجود له عادة إذ يكون الانتقال من مبتدئ إلى أسطى رأساً؛ ويوجد في بعض النقابات دور وسط يدعى العامل في خلاله خلفه أو خليفة، وهذا الدور وقتي فقط

وتتم الحلقة بالمبتدئ وفي أغلب الحالات لا يحدد وقت الدور الذي يقضيه المبتدئ ولا يطلب منه صنع شئ مثالي متقن جداً بالمعنى المفهوم عند الأوربيين. فزمن الدراسة والإجازة يعين من قبل الأستاذ الذي يشتغل معه المبتدئ. وتختلف النصوص في مسالة تطبيق النظام فيقول البعض إن الشيخ يطبقه أو ينفذه منفرداً. ويقول آخرون إنه يفعل ذلك بمساعدة الاختيارية

هناك نوع آخر من التنظيم في الطوائف الأناضولية المتأخرة وصفه كورد لفسكي إذ يطلب هنا من المبتدئ قضاء ألف يوم ويوم في هذا الدور. كما أنه لا يأخذ في هذا الدور أي أجر ولكن له الحق أن يحصل على بعض المكافأة (البقشيش) ووليمة عند انتمائه إلى الطائفة، ويدربه أستاذ في شئون حرفته كما يحصل على دراسة أخلاقية في الزاوية في نفس الوقت. وإذا تتلمذ الجراق لأستاذ معين، فعليه أن يبقى مع أستاذه ولن يقبله أستاذ آخر كتلميذ له. وفي نهاية هذا الدور يطلب منه عمل شئ مثالي متقن في صناعته ثم يجاز في حفلة عامة من قبل - الأصناف باشى - أي شيخ الحرفة، وال - يكيت باشلرى - أي الاختيارية، وبعد هذا يصبح خلفه ويجب عليه أن يبقى ستة أشهر على الأقل وبعد انتهائها يستطيع أن يمارس حرفته كأستاذ - وفي هذا يساعده أستاذه وغيره من الأساتذة من الوجهة المالية عادة.

وترأس الطائفة هيئة تدعى لونجة هيئتي تتشكل من شيوخها أي الرجال المسنين ويكون القرار النهائي للرئيس الذي ينتخب عادة لتقواه. وتجتمع الهيئة مرة كل أسبوعين، وينفذ الأوامر والعقوبات الجاويش أوال - أوش باشي - وتحرص الطوائف كثيراً على كيفية نوع المنتج ويعاقب صاحب الإنتاج الرديء بطرده مؤقتاً من الطائفة تشتري المواد الأولية تحت رقابة الشيخ، ولأصحاب الحرفة الفقراء حق الأقدمية في هذا على الأغنياء، ويعقد اجتماع عام سنوياً.

يمكننا أن نلاحظ الدور الهام الذي يلعبه اللباس الخاص لرجال الطوائف في حياتها. فميزة الفتوة الظاهرة في أوائل عهدها كانت السروال، ويتكلم الكاتب العرب عن لبس السروال كعلامة للانتماء إلى الفتوة، ثم أصبحت هذه العادة متبعة في الطوائف، وصارت حفلة الانتماء إلى عهد قريب تتصف بارتداء بعض الملابس: والسروال والشد والحزام والبشتمال أو الصدرية. هي من الأهم بين الملابس.

لدينا وصفان مفصلان للطوائف الإسلامية يستحقان الفحص كل على انفراد أولهما وصف في رحلة سائح تركي يدعى - أوليا جلبي - الذي صنف قائمة مفصلة بأسماء الطوائف وهيئات أصحاب الحرف في أوائل القرن السابع عشر بناء على طلب السلطان، وفي هذا المؤلف نجد لأول مرة وصفاً كاملاً لنظام الطوائف في مدينة إسلامية. ويبدأ أوليا جلي وصفه للطوائف بفتوت نامة - كتاب الفتوة - الذي يظهر أنه نص منقول يحتوي على الأساطير والتعاليم الاعتيادية وكذا وصفه حفلة الانتماء إلى

الطائفة. أما تركيب الطائفة الذي يحويه الوصف فهو الشيخ الرئيس) والنقيب (نائب الرئيس) والجاويش والأوسطة (الأستاذ) ثم الشاكرد (المبتدئ). أما الصانع أو العامل البسيط فيلاحظ أنه لا ذكر له.

ثم يعدد (أوليا جلبي) جميع الطوائف الموجودة تحت سلطة لملالي (جمع مُلاّ) الأربعة في القسطنطينية مع عدد حوانيتهم برجالهم وشيوخهم إذ ينقسمون إلى سبع وخمسين شعبة تحتوي بمجموعها على ألف طائفة وطائفة تحوي الشعبة الأولى طوائف لجواويش (ج جاويش) وموظفي البوليس والغلمان والانكشارية لجدد (أكم أو غلان) والزبالين والقندلفتية (حفار القبور - الحانوتية -) وعمال المناجم، والبلطجية والأحداث والنقاش. وفي المعارض العامة يتقدم هؤلاء في السير لأن من واجبهم تنظيم أو تسوية الطرق التي يسير الآخرون بعدهم. أما الشعبة الثانية فهي تحت إدارة رئيس الطوائف - الذي عين لهذا المنصب من قبل السلطان محمد الفاتح (1451م - 1481م) وهي تحتوي على أصناف العسس والشرطة والجلادين، واللصوص، وقطاع الطرق، وزمرة المسخرين في العسكرية أو البحرية) وسواس الخيل، وممرني الخيل، الحرس. ويبين أوليا أن أصناف اللصوص، وقطاع الطرق، كذلك المفلسون وغيرهم من وضيعي الأخلاق لا يظهرون في المعارض العامة، ولا يعرفون شخصياً، ولكنهم يدفعون خوة (ضريبة) لرئيسي الشرطة المدعوين (أسس باشي) (وصوباشي)

لا يتسع المجال هنا للنظر في وصفه للسبع والخمسين شعبة، ولنلاحظ كمبدأ عام أن كل شعبة يرأسها شخص واحد، وهو عادة رأس الطائفة المهم في الشعبة ووظيفته أرفع وظيفة. أما الشعب القليلة التي يترأسها موظفون كـ (صوباشي)، فهي مستثنيات، والسبب هو كون الحرف نفسها رسمية أو شبه رسمية، وتعمل الطوائف عرضاً تاماً على هيئة استعراض مرة واحدة سنوياً، ووصفه أوليا كما يأتي: (يبدأ الموكب الملكي بالسير وقت الفجر ويستمر الموكب في السير طول النهار، حتى الغروب، يفتتح الاستعراض من قبل الجاووش لر المسمى الآي جاويش ويناهز الموكب ألفي رجل والكل مدجج بالسلاح كأنه بحر زاخر، ومن العادة المتبعة أن كل طائفة عند الرسول قرب الحديقة الجديدة أمام تذكار خسرو باشا تعرض نفسها أمام قاضي استانبول لأنه صاحب السلطة لتفتيش جميع الأوزان والمقاييس، وجميع الطوائف. وهناك قاعدة أخرى وهي أن كلا من هذه الطوائف يهدي إلى قاضي القسطنطينية البضائع التي عرضوها في معرض عام. ولكن بعض هذه البضائع كان يخفى بهذه المناسبة، وبعد تقديم الاحترام لأول حاكم في العاصمة تصحب الطوائف رؤساؤها إلى محلاتها المختلفة وينصرف كل إلى بيته. وتتوقف كل تجارة وحرفة في القسطنطينية بمناسبة هذا الاستعراض لمدة ثلاثة أيام يملأها ضجيج وفوضى الاستعراض). ويظهر أن أهمية عظمى كانت تعلق على نظام الأقدمية (في السير). ويعطي أوليا جلبي وصفاً ممتعاً لنزاع من هذا القبيل (أي حول حق الأقدمية) بين. القصابين وبين تجار مصر، ثم صدر الحكم النهائي من قبل السلطان في جانب التجار.

(يتبع)

عبد العزيز الدوري

رسالة الشعر

هل بعد الشباب شباب؟

للأستاذ حسين شفيق المصري

أبعد اكتهال في الضلال صواب ... وهل صادقٌ بعد المشيب متاب
أرى الشيخ من بعد الغواية زاهدا ... كما خاف حراس الكروم غرابُ
تشوب له الغادات بالسُّخر ودَّها ... ويسخو على جُلاّسه ويُعاب
فيهلك ما يقني ويمضغ حسرة ... لها في اللهى بعد السُّلافة صابُ
ويعتزل اللذاتِ في ثوب راهب ... ومن تحته للمخزيات ثياب
فينهض في المحراب يسأل ربه ... ثواباً، وما للمفسدين ثواب
وفي نفسه عند السجود لو أنه ... يتاح له في الموبقات وثاب
وقد يتمنى لو يُنيبُ، وبينه ... وبين فنون المغريات حِذاب
فلا هو للدنيا، ولا هو ديِّن ... وقد مات، لولا جيئةٌ وذهاب

ويا رُب حي يخفض الذلُّ رأسَهُ ... وميت يُعلَّى قبرُه ويهابُ
ألا لو درى الأشياخ في زمن الصبا ... بعقبى الهوى لاستدبروه وآبوا
وشقوا إلى العلياء كل مخوفة ... تشق رؤوسٌ عندها ورقاب
وكائن ترى من مُترف ورِثَ القُرى ... وركن الحجي فيما لديه خراب
تطير به الأهواء حتى ينوشَهُ ... من الفقر في جو الرفاء عُقاب
وآخر ضاو مسَّهُ اليُتم بالطوى ... ودارت به الأيام وهي غضاب
فسار على درب الشباب إلى المنى ... وئيداً، فما استعصى عليه طِلاب
وخالس عيشَ الكدِّ ساعاتِ لذةٍ ... تعيد صفاَء النفسِ حين تُشاب
فلما دنا من شيبه بشبابه ... تربع في دست عليه حجاب
فتى العصر هل بعد الشباب شباب ... إذا غزلٌ ولى به وشراب
أكل الصِّبا حب ولهو ونشوة ... وهجر وشكوى لوعةٍ وعتاب
أفي كل ناد ملعب ومجانة ... وفي كل ليل صبوة ودعاب
أتذهب أيام الشباب على الهوى ... أليس لأيام المشيب حساب
شبابك هذا فرصة إن تركتها ... فليس لها بعد المضي مآب
وليس لمجد في الفتون شريعة ... وليس لجاه في المجون كتاب
فخذ في سبيل السابقين إلى العُلا ... وليس لها غير الجهادِ ركاب
ولا تنسَ والأيام خُضْرٌ وريقة ... نصيبَك منها والغصُونُ رِطاب
فإن كان حب فلتصنه نزاهة ... وإن كان لهو فليزنه صواب
ألم ترني أبصرت بعد عمايتي ... وما زال مغشّياً عليّ حجاب
كما إنجاب ليل في فلاة فسيحة ... فأخفى ضياء الشمس عنك ضباب
كشأنِ صحاب عاصروني مع الصبا ... فشبت على دين المجون وشابوا
قضوا في حوانيت الشراب شبابهم ... فلما علا الشيبُ الرؤوس تصابوا
كأن بهم وهناً يصد عن العلا ... وأعوادهم رغم المشيب صِلاب
وداعي الهدى لا يسمع الشيخ صوته ... ولكنه يدعو الفتى فيجاب
حسين شفيق المصري
-
لقاء. . .
للأستاذ حسن حبش
يا لَحْظَةً أَفْدِيكِ بالخُلْدِ ... جِئْتِ العشيَّة دُونَ ما أَقْصِدِ
أبْصَرْتُ فيكِ أَشِعَّةَ المجْدِ ... وشَذَى الرَّبِيع، ونفْحَة الوِرْدِ
هِيَ لَحْظَةٌ جَمَعَتْ فؤاَدَيْنِ ... رَبَطَ الهَوى بَعْضاً إلىَ بَعْضِ
بَعْدَ الفِرَاقِ ولَوعَةِ البيْنِ ... كانَتْ شُعَاعَ اللهِ في الأرضِ
خفق الفُؤَادُ لِطَلْعَةٍ عَكَسَتْ ... نُورَ الخُلودِ وبَدَّدَتْ ضَعْفِي
مَدَّتْ يَداً فِيهاَ المُنَى جُمِعَتْ ... يا لَيْتَ ثَغْرِي كانَ في كَفِّي
أنْتِ الحَيَاة لِشَاعِرٍ عَاشِق ... جَعَلَ الجَمَال إلهَهُ السَّامِي
يَهْفُو إلىَ النهْرِ الدَّافِقْ ... هَيْهَاتَ يَرْوي قَلْبَه الظَّامِي
أَقْسَمْتُ أَنَّكِ مَشْرِقُ الحُسْنِ ... ورَبيعُهُ النَّضَّاح بالأمَلِ
ورَأيْتُ أَنَّكِ دُمْيَةُ الفَنِ ... سُكِبَتْ مِنَ الألْحانِ والْقُبلِ
أَأَظَلُّ في دنياىَ طَمْآناً ... والخَمرُ في كأسِي بيُمْنَاياَ؟
وأظلُ أَقْضي العُمْرَ حَيْراناً ... والنُّورُ أنتِ، وأنتِ دنْيَايَا؟
أمسي ومَا أمْسِي سِوىَ لَحْنِ ... قد وَقَّعتْهُ أناملُ الْحُبِّ
فشربْتُهُ لَهْفَان بالأذْنِ ... وجَمْعُتُه سَكْرَانَ في لُبِّي
يا ذَلِكَ الأمْسِ ولَّى ... مَا كنْتَ مِنْ ذَيَّالِكَ الزِّمَنِ
ودَّعْتُ فيكِ أَمانياً هَلاَّ ... أبقيتَ لِي ذِكرى سِوىَ الشَّجَن
يا خافقاً في الصَّدْرِ ما بَرِحاَ ... يَهفو إلىَ المجْهولِ من دَهرهِ
ما أنتَ أولُ طاَئرٍ جُرِحَا ... أو ضلَّ مَسلَكهُ إلى وكرِهْ
أيُرِيش رُغبَ جَنَاحك الدَّمْعُ ... هَيْهَاتَ مَا لِلْدَمْعِ مِنْ جَدْوى
فَخُذْ اليقينَ فِيهِ دِرْعُ ... ودَعِ البُكَاَء ودَائمَ الشَّكْوى
إن تَبْكِ تُذْهبْ رَوعَةَ الأمسِ ... وجَلاَلَهُ الباقي إلى الأبَدِ

فاَلْقَ الدُّجى لُقْيَاكَ للشَّمْسِ ... واسْخَرْ بِمَا يَأتِيكَ مِنْ نَكَدِ
يا لحظةً سَتَظَلُّ فِي خَلَدي ... رَفَّافَةَ الأَضواءِ والسَّحرِ
نغَّمْتِ أَمْسَ الشاعِرِ الغَرِدِ ... وغَمَرْتِهِ بِالنورِ والعطرِ
(بني سويف)
حسن حبشي
-
أغنية الربيع
(مهدأة إلى صديق الأستاذ محمود تيمور)
للأديب مصطفى علي عبد الرحمن
أشرقتْ مثلَ ابتساماتِ المنى ... ضحكات الزهرِ في الصبح الوديعْ
وسرت عطراً وحُسناً وسنا ... لمحات البشرِ في وجه الربيعْ
وجرى الجدولُ ما بين النخيلْ ... حالماً يخطُرِ في رفقٍ ولينْ
والطيورْ
تتغنى فوق عذبٍ سلسبيلْ
في سرورْ
ضمَّها ظلٌّ من الغصنِ ظليلْ ... مسبلُ الأهدابِ يستهوي العيونْ
مرت الأنامُ سكرى فتهادتْ
وسقاها الطلُّ خمراً فتناجتْ
وترى السوسنَ فيَّاح العبيرْ ... سافرَ الحسنِ تراءى للعيانِ
وعذارى الأيك أرخين الشعورْ ... فتنت بالسحرِ سكانَ الجِنانِ
وصحا النرجسُ من ليلِ الشتاءْ وتثنَّى
باسماً يختال في ثوبِ الضياءُ مطمئِنَّا
وغديرٌ حمت الطير أليهِ
راقها رشفُ اللمى من شفتيهِ
والفراشاتُ طليقاتٌ عليهِ
حيثما تهوى تهيمْ
في صفاء ونعيمْ
يا ربيعاً لاح موفورَ الجنى ... فاتن الطلعةِ لماح السنا
فرشفنا منه أكواب المنى ... ليت هذا السحرَ تبقيه لنا
ليت هذا الحسن للدنيا يدوم
(الإسكندرية)
مصطفى علي عبد الرحمن
رسالة الفن
بواطن وظواهر
عندنا فنانون. . . ولكن!
إلى أستاذي الدكتور زكي مبارك بعد مقاله: (عندنا أدباء)
(. . .ولكن))
للأستاذ عزيز أحمد فهمي
1 - من الكتاب
الدكتور هيكل باشا
شارلي شابلن هو أعظم فنان في الدنيا الآن، فلا يجوز لأحد أن يغضب إذا قيل له إن فيه من روح شارلي شابلن وظله وتكوينه، إلا إذا كان ممن يكرهون الفطرة الصافية، وسهولة النفس الصادقة. ولا يمكن أن يكون الدكتور هيكل باشا من هؤلاء، ولذلك أبيح لنفسي على الرغم من أنه باشا في الشرق الذي يقدس كبراءه ويتحرج في التحدث إليهم والتحدث عنهم. . . أن أقول له: إني ما رأيته حتى تفتحت له نفسي كما تتفتح لشارلي شابلن، فما أذكر أنه باشا حتى أعود فأتكتم نفسي أمامه ترهيباً وتوقيراً. . .
قد كنت أحب ألا يكون الدكتور هيكل. . . باشا. بل قد كنت أحب ألا يكون دكتوراً، فالدكتوراه قد ألزمته فيما يكتب الواقع الثابت المؤكد يتحراه فيما ينشئ، وفيما يبحث ويدرس، وفيما ينقد ويوجِّه. . . والتزام الواقع الثابت المؤكد في هذا كله حرمنا أن نقرأ

وحي عاطفته وأن نطالع نسيج خياله، والعاطفة والخيال أغلى ما في الفنان. . . فهّلا أعطانا منهما الدكتور هيكل باشا ما ننعم به مثلما ننعم بما يعطينا من فكره؟
الأستاذ الزيات

اسمع صوته تعرف أنه لا يزال إلى يوم طفلاً لا تعقيد في طبعه ولا مكر ولا تخابث. وإنه لمسالم ولكنه يعرف ندرة المسالمة في الناس، فهو يخشاهم ويتوقاهم ويسأل الله النجاة من

إساءتهم ومن إحسانهم أيضاً. وقد أورثه هذا الشعور (التأنق) الذي عرف عنه في كتابته، فهو إذا أراد أن يلقى جبلاً على رأس قارئة لوماً وعتاباً وتعنيفاً كلف نفسه في البدء أن ينسف الجبل، ثم أن يدق حجارته وصخوره فإذا هي حصى، ثم أن يطحن الحصى فإذا هو دقيق ناعم، ثم أن يحرق هذا الدقيق فإذا هو دخان، ثم أن ينفخ في هذا الدخان فإذا هو. . ماذا؟. . سراب أو أثير يرجم به الأستاذ الزيات ما يكره من الصور والفِكَر والحوادث. وهو إلى جانب ذلك التلطف كله يقول: اللهم غفرانك فما أردت إلا الإصلاح! مسالم جداً!

وإذا جاء يوم كان اللطف فيه عيباً، فإنه يجئ يوم يرى الناس الإسفاف فيه فضيلة. وقد وقى الله الأستاذ الزيات الإسفاف بما وهب له من الرقة وأناقة النفس، فهو حريص كل الحرص على قلمه أن ينزلق إلى فكرة نابية أو كلمة فاجرة. وهو على الرغم من احترافه الكتابة السنين الطويلة لا يزال يتأنق فيها. وهذا دليل على حبه إياها وشغفه بها. وثمة دليل آخر على ذلك هو أنه أكرمها فلم ينزل بها إلى أسواق يروج فيها الرخيص الغث منها، وإنما ظل بها في سموات أدناها (الرسالة)

إني أحبه لأنه كان شجاعاً في عطفه عليّ في أشد ما عرفت من محن الحياة، فقد فتح لي أبواب الرسالة بعد ما كنت في نظر الناس مكروباً
الأستاذ أحمد أمين

قُدَّمت إليه سنة 1928 وكانت معي كراسة أكتب فيها أشياء شغلتني إذ ذاك وأنا في الرابعة الثانوية. فقرأ منها شيئاً ثم سألني: ماذا تريد أن تدرس بعد البكالوريا؟ فقلت له: اللغة العربية في كلية الأدب عندكم. فسألني: لماذا؟ فقلت له: لكي أكون أديباً.

فقال لي: لسنا نخرج الأدباء المنشئين وإنما نحن نخرج الأدباء الواصفين. . . قالها وابتسم زعماً منه أني سأسأله وأنا التلميذ الجاهل في المدرسة الثانوية عن الفرق بين الأدباء المنشئين والأدباء الواصفين هؤلاء، فإن هذا الفرق موضوعاً لدرس من دروس السنة الثانية من قسم اللغة العربية في كلية الآداب، ولكني كنت قد قرأت كتاب (في الأب الجاهلي) كما كان الأستاذ أحمد أمين قد قرأه، فعرفت منه ما عرفه، فلما سمعته يقول ما قال لم أسأله شيئاً وإنما بادرتني الحسرة على نفسي لأن الأستاذ أحمد أمين أنذرها بأنه لا معين في كلية الآداب على بلوغ ما تنشد. . . فقلت من ساعتها: الاعتماد على الله

وجئت من الإسكندرية ودخلت كلية الآداب، واضطررت إلى احتراف الكتابة، فما كان ينهاني عنها أحد أكثر من الأستاذ أحمد أمين، فكم قال لي إن العلم لا يمكن أن يتفق مع الكتابة في المجلات والصحف! وكم خيرني بين الاستمرار في طلب العلم عندهم في كلية الآداب أو طلب الرزق بالكتابة، حتى سألته يوماً أن يربط لي من مرتبه خمسة جنيهات في الشهر تكفيني وأتعهد له بها أن أتوفر على الدرس حتى لا يلحقني فيه طالب، فانتهت المشكلة بيننا عند هذا، ولكنها بدأت بين الأستاذ أحمد أمين ونفسه عند هذا أيضاً. فقد بدأت تظهر أعراض الكتابة على الأستاذ أحمد أمين، فإذا له في الرسالة قطعة مترجمة تحت عنوان (نفسية قطة) وإذا له بعد ذلك مقالات أخرى، وإذا له آخر الأمر مجلة أسبوعية تربح ولا تخسر!

فهل لي أن أسأل الآن الأستاذ أحمد أمين: أتستطيع كلية الآداب اليوم أن تخرج الكتاب المنشئين ولو في مدة عمادته، أم هي لا تزال قانعة بإخراج الأدباء الواصفين الذين ملئوا البلد بأنفسهم وبوصفهم وإن كان لا يراهم أحد ولا يسمعهم. . .؟

ثم هل لي أن أسأله أيضاً: أتتفق حياة العلم اليوم مع الكتابة في المجلات والصحف، أم أن هذا أمر يجوز للعمداء والأساتذة الذين استوعبوا العلم كله، وانتهوا منه كله، ولم يعودوا يجهلون شيئاً مطلقاً، ولم تعد ضمائرهم تسألهم عن إصلاح الفاسد مما وظفتهم الدولة لإصلاح والإشراف عليه. . . بينما هو لا يجوز للأولاد الجهلاء الذين عليهم أن

يموتوا ضيقاً أو يجدوا الفسحة في كتابي فجر الإسلام وضحاه وثمن النسخة عشرون قرشاً؟
في القرآن ظاهرة عجيبة، وهي أنه عند ما يقول عن الله إنه الغني يرفها بقوله إنه الحميد. لماذا يلتزم القرآن هذا الإقران أو لماذا يكثر منه على الأقل؟ لعل ذلك لأن الله وحده هو الذي يستطيع أن يكون غنياً وحميداً. والله أعلم
من الممثلين - 2
الأستاذ الريحاني
تزوره فتقول له: إذا أغلقت عليك حجرتك امتنع عنك الهواء فسلمت حنجرتك من العطب فيغلق عليه حجرته فتمضي عنه. ويزوره زائر آخر يقول له: إنك أغلقت عليك فامتنع
عنك الهواء فارتفعت درجة حرارتك فأنت إذا خرجت أصابك البرد ونال حنجرتك العطب، فيفتح الباب والنافذة. ويمضي هذا الزائر ويجئ زائر ثالث فيقول له: إنك وقد فتحت الباب والنافذة قد عرضت نفسك للتيار، والبرد إذا أصابك نال حنجرتك العطب فاكتف إما بالباب وإما بالنافذة، فيغلق النافذة ويبقى الباب مفتوحاً. ويمضي عنه هذا الزائر ويجيئه زائر رابع فيقول رابع له: إنك وقد فتحت الباب عرضت نفسك لإلمام الثقلاء من الزائرين بك وأنت رجل عمدتك في عملك على أعصابك إذا هدأت، ونفسك إذا اطمأنت ولم يقلقها ضيق أو ضجر، فيقوم ويغلق الباب ويفتح النافذة. ويمضي هذا الزائر ويجيئه زائر خامس يقول له: إنك وقد فتحت النافذة ردمك الغبار، ودخل إلى (خياشيمك) وتراكم على سقف حلقك فعطل صوتك وربما آذى عينيك أيضاً، فيغلق النافذة. فإذا مضى عنه هذا الزائر ألفى نفسه وقد أغلق على نفسه الحجرة نافذتها وبابها وذكر أن زائراً قال له كلاماً معقولاً منعه به من إغلاق النافذة والباب، فيقوم ويفتحهما، ولكنه عندئذ يذكر أيضاً أن كلاماً معقولاً قيل له لما فتحهما أول مرة وأنه أقتنع به وأنه قام على أثره فأغلق الباب وأبقى النافذة مفتوحة. فيقوم ويغلق الباب ويستبقي النافذة مفتوحة، ولكنه عندئذ أيضاً يذكر مرة أخرى أنه اقتنع في ساعة ما بوجوب إغلاقها فيقوم ويغلقها هي أيضاً، ثم يعود فيرى أنه عاد إلى ما كان فيه، فلا يرى مخرجاً من هذا الدوران إلا أن يغادر حجرته وأن يجلس في القهوة يلعب الورق، فإذا ما سأله أفراد فرقته لماذا ترك (الشغل) بسط لهم المسألة وسألهم حلاً للمعضلة فإذا هم كل واحد وله رأى وإذا هو ساخر منهم لعجزهم عن الاهتداء إلى الحل القريب الذي اهتدى إليه هو، وهو الإضراب عن الحجرة، ويدخل في ذلك الإضراب عن العمل.
الأستاذ يوسف وهبي
لا شك في أنه ضحى للفن بثروة طائلة؟ ولا شك أيضاً في أنه منذ ظهر لا يزال يضرب الرقم القياسي في إقبال الجمهور على فنه. فكيف يتفق لفنان أن يكون أروج الفنانين ومع ذلك يكون أخسرهم؟
المظهر: هو يتفق على مظهره ربحه كله وأكثر، ويرجع السبب في هذا أنه يشعر في قرارة نفسه بأنه وإن كان ممثلا فهو غير الممثلين، وأول فرق بينه وبينهم أنه دخل إلى التمثيل وفي جيبه مال
اتهمه خصومه بكثير من التهم، ولكن الواقع يشهد بأنه برئ من تهمة واحدة - على الأقل - وهي تكلف الهواية التي وهب نفسه لها، فهو يمثل لأنه يحب التمثيل، وهو يمثل ولو خرب في سبيل التمثيل، وهو يمثل لأنه إذا لم يجد مسرحاً يؤويه انطلق في الحياة يمثل صوراً تتراءى له. وأكثر هذه الصور ترقصاً أمام عينه هي صور الزعامة والقيادة والحكم، ورواياته الأخيرة التي ألفها تشهد كلها بذلك، فهو فيها جميعاً إما زعيم حزب، وإما رئيس شركة أو إدارة، وإما مستشار أو قاض في محكمة، وإما ضابط كبير في الجيش
وإني لا أرتاب في أنه إذا أراد أن يكون زعيم حزب في مصر لا ستطاع أن يكونه في نجاح كبير
الشيخان
جورج أبيض وعزيز عيد:
اشتركا يوماً وألفا فرقة، وطافا بها في الوجه البحري والوجه القبلي، وعادا إلى القاهرة ومعهما ألفان من الجنيهات كانت في جيب الأستاذ جورج أبيض، وبعد يوم من

العودة ارتاحا فيه من مشقة السفر ذهب الأستاذ عزيز عيد إلى الأستاذ جورج أبيض يطالبه بنصف الأرباح حسبما اتفقا. . .
عزيز عيد - يا أخي يا جورج. أين الألف الذي لي؟
جورج أبيض - معي يا أخي يا عزيز. في جيبي
عزيز عيد - طيب. هاتها
جورج أبيض - ليتني أستطيع. ثق أنني أرثى لك، ولكن ثق أيضاً أنني عاجز عن مواساتك
عزيز عيد - ولم المواساة ونحن لم نفقد شيئاً. . . أما قلت إن الألف معك؟
جورج أبيض - وهذا ما أنت جدير بالمواساة فيه. . . فجنيهاتك معي أنا وليست معك أنت. . .
عزيز عيد - وأي شئ في هذا؟ أعطني إياها تكن معي وينته الأمر
جورج أبيض - وكيف السبيل إلى هذا؟
عزيز عيد - ضع يدك في جيبيك وأخرجها وهاتها، ولا غير
جورج أبيض - أنا؟ أنا أضع يدي في جيبي، وأخرج منه ألف جنيه، وأعطيك إياها بكل سهولة هكذا، وأنا حي أرزق، وقوي صحيح أستطيع أن أحمي نفسي وما في جيبي؟. . .
عزيز عيد - ولكنه مالي أنا
جورج أبيض - وهل أنكرت أنا ذلك يا أخي؟ كل ما في الأمر أني لا أطيق أن أخرجه بيدي
عزيز عيد - إذن فأخرجه بيدي أنا. . . في أي جيب من جيوبك المال؟
جورج أبيض - هنا يا أخي يا عزيز. . . في جيبي هذا. . .
عزيز عيد - طيب. اسمح لي. . .
جورج أبيض - لن يحدث هذا إلا إذا فقدت آخر قطرة من دمي. . . حذار يا عزيز أن تمد يدك. . .
عزيز عيد - عجيبة!
جورج أبيض - العجيب أن يخرج من جيبي ألف جنيه لا أن أحتفظ بها. . .
ويؤكد الأستاذ عزيز عيد أن هذا المحادثة كانت آخر صلته بالألف الجنيه، وإن لم تكن آخر صلته بالأستاذ جورج ابيض. . . الاثنان فنانان ولا ريب!
هذه صور مررنا بها سريعاً، وقد كنت أحسب أن براحي في هذا العدد من الرسالة سيتسع إلى صور غيرها لبعض الشعراء وبعض الموسيقيين وبعض المغنين وغيرهم من الفنانين ولكنه امتلأ بهؤلاء؛ فإلى عدد مقبل بإذن الله نعود فيه إلى المرور بصور سريعة أخرى نرى فيها من بواطن أعلام الفن عندنا وظواهرهم ما يهدينا الله إليه نسأله الهداية إلى الحق رائدنا وغايتنا
عزيز أحمد فهمي
القصص
الصدأ. . .
للقصصي الفرنسي جي دي موباسان
لم يكن له في حياته سوى (غِيةٍ) واحدة، غية نهمة، لا تعرف الشبع: (الصيد!) كان يصطاد كل يوم من الصباح إلى المساء في لهفة وشوق، وكان يصطاد في الشتاء والخريف وفي الربيع والصيف، وكان يصطاد في الغدران حين كانت الأنظمة تحظر الصيد في الغابات والإحراج، وكان يصطاد بجميع أنواع الصيد: بالعدو، وبالكلب المتحفز والكلب الراكض، والكمين، والمرآة والفتاش. . .
ولم يكن يتحدث عن شئ غير الصيد، ولم يكن يحلم بشيء غير الصيد!. . . ولم يكن ينقطع عن التردد: يا لشقاء من لا يحب الصيد!. . .
ومع أنه تجاوز العقد الخامس من حياته، فإنه صحته لا تزال جيدة، بحيث لا يظن أنه تخطى عتبة الشباب، بالرغم من الصلع الذي فتك بشعر رأسه؛ وهو إلى ذلك شديد البأس قوي البنية ضخم الجسم
وكان يحلق ما تحت الشارب ليكشف جيداً عن شفتيه، ويجعل دائرة الفم حرة ليسهل عليه النفخ في البوق
ولم يكن أحد في المنطقة يدعوه بغير اسمه الخاص: (السيد هيكتور)، مع أن اسمه

البارون هيكتور غونتران دي كورتلين
وكان يقطن في وسط الإحراج، في مزرعة صغيرة انتقلت إليه بالإرث؛ ومع أنه كان يعرف جميع الطبقة الأرستقراطية في المقاطعة، ويتقابل مع جميع أفرادها الذكور في أماكن الصيد، فإنه لم يكن يتردد بصورة فعلية على أكثر من أسرة واحدة هي أسرة (كورفيل) التي تقطن بجواره وتخلص له الود، والتي عقدت أواصر القرابة بين أسرته وبينها منذ أجيال عديدة
وكان حبيباً إلى هذه الأسرة عزيزاً لديها، مكرماً محترماً؛ وكان كثيراً ما يقول لأفرادها:
- لو لم أكن صياداً لما وددت الابتعاد عنكم قط! وكان السيد دي كورفيل صديقه ورفيقه منذ عهد الحداثة، وكان مزارعاً شريفاً يعيش عيشة هادئة مع زوجه وابنته وصهره السيد دي
دانتو الذي لم يكن له عمل، بحجة أنه منقطع لأبحاث تاريخية خطيرة.
وكثيراً ما كان البارون دي كورتلين يتناول عشاءه على مائدة أصدقائه ليحدثهم عن الصيد خاصة، وكان يروي لهم قصصاً مطولة عن الكلاب والفتاش، وكان يتحدث عن هذه الأشياء كما لو كان يتحدث عن شخصيات بارزة له بها صلات وثيقة، فكان يكشف عن نياتها ومقاصدها، ويشرح حركاتها وإشاراتها:
عندما رأى فيدور - اسم كلبه - أن العصفور هو الذي يضطره إلى أن يعدو سريعاً هكذا، قال في نفسه: انتظر أيها اللعين، أنا لن نلبث أن نضحك وأن نضحك كثيراً. ثم أشار إليَّ برأسه أن أذهب وأتوارى في حقل النَفَل، وأنطلق يبحث ويبحث ملتوياً تارة ومنحرفاً تارة أخرى في شئ غير يسير من الجلبة وهو يتسلل بين الأعشاب ليوصل العصفور المطارد إلى زاوية لا يستطيع الإفلات منها. وقد تم كل شئ كما توقعه، ولم يلبث العصفور أن سقط في أقصى الحقل، إذ لم يكن في إمكانه أن يذهب إلى أبعد من ذلك من غير أن يرى. فقال له فيدور: هاأنت وقعت بين يدي. . . ثم أكب على رجليه متخفياً والتفت ينظر إلى، فما كدت أشير إليه حتى سمعت (برررررر) فطار العصفور فرفعت البندقية إلى كتفي وأطلقت منها النار: (بان) وإذا بالعصفور يسقط، فحمله فيدور إلى وهو يحرك ذنبه كأنه يريد أن يقول: أرأيت كيف نجحت الحيلة يا سيد هيكتور؟
وكان كورفيل ودارنتو والسيدتان يضحكون ضحكاً شديداً من هذه القصص الغريبة التي يرويها البارون بكل ما أوتي من فن وبراعة، فكان يحرك كتفيه ويشير بجميع أعضاء جسمه، حتى إذا وصل إلى موت العصفور انفجر يضحك ضحكاً عريضاً وهو يسأل هذا السؤال الذي يتخذه خاتمة لقصته: إنها لجميلة هذه القصة. أليس كذلك؟.
ولا يكاد الحديث ينتقل إلى موضوع آخر حتى ينصرف عنه سمعه، ويشرع يدمدم بعض أغاني الصيد، كما كان يفعل حين يسود الصمت بين جملتين، فإن الهدوء لا يكاد يقطع ضجة الحديث حتى تنطلق منه على حين غرة: طن. . . طن. . . ويظل البارون يرددها وهو ينفخ خديه كأنه ينفخ في بوق
وهو لم يتعلق بالحياة إلا لأجل الصيد، وكان الهرم قد بدأ يدب إليه شيئاً فشيئاً. وذات يوم أصيب بداء المفاصل ولزم الفراش شهرين متواصلين، فكاد يقضي كآبة وضجراً. ولما لم
يكن لديه خادم تتولى شئون بيته عهد إلى إحدى العجائز بأمر إعداد الطعام. . .
ولم يكن في استطاعته أن يحصل على كمادات حارة، ولا أن يظفر بما يفتقر المرضى إليه من عناية، فتخذ من قائد كلابه ممرضاً له، وصار هذا الأخير يضجر بقدر ما يضجر سيده على الأقل، فصار ينام ليلاً ونهاراً على الكراسي بينما البارون يشتم ويجدف محنقاً مغتاظاً في سريره
وكانت السيدة كورفيل وابنتها تعودانه أحياناً، فكانت الساعة التي تقضيانها بقربه أحي الساعات إليه، ينعم بالهدوء والراحة، إذ تغليان له ما يحتاج إليه من مشروبات حارة وتتعهدان الموقد وتقدمان له فطوره على حافة سريره؛ فكان يدمدم حين انصرافهما:
- كان عليكما أن تقطنا هنا؛ فتغرق السيدتان في الضحك وتوصدان الباب وراءهما
ولما تحسنت صحته وعاد يصطاد في الغدران ذهب ذات مساء لتناول العشاء على مائدة أصدقائه، ولكنه لم يكن كعادته مرحاً نشطاً، إذ كان يخشى الانتكاس وعودة الآلام قبل افتتاح موسم الصيد؛ فلما نهض يريد الانصراف هرعت السيدتان إليه تلفان

حول عنقه وشاحاً حريرياً، فترك نفسه للمرة الأولى في حياته بين أيديهما؛ ثم أخذ يتمتم بلهجة يائسة:
- إذا عادت الآلام إليَّ قضى عليّ لا محالة!
وعندما انصرف قالت السيدة دارنتو لأمها:
- يجب تزويج البارون!
فسرَّ الجميع لهذه الفكرة وعجبوا كيف أنهم لم يفكروا في ذلك إلى الآن، وطفقوا يبحثون طيلة السهرة بين الأرامل اللواتي يعرفوهن، وانتهى بهم الأمر إلى أن وقع اختيارهم على سيدة في الأربعين من عمرها ما تزال جميلة موسرة، حسنة الطباع جيدة الصحة تدعى (برت فيلرس)
فدعوها لتمضية شهر في القصر، ولما كانت تضجر وحدها في بيتها لبَّت دعوتهم، وكانت كثيرة الحركة والمرح، وراقها السيد كورتلين لأول نظرة، وأصبحت تسر بوجوده كما تسر بلعبة تنبض فيها الحياة، وصارت تقضي الساعات الطويلة تسأله في خبث عن عواطف الأرانب وحيل الثعالب. فكان يندفع برزانة في تمييز وجهات نظر مختلف الحيوانات ناسباً إليها خططاً دقيقة كما ينسب مثلها إلى معارفه من الرجال وقد استحسن الالتفات الذي كانت تعيره إياه، وأراد أن يبرهن على تقديره لها فدعاها لمرافقته إلى الصيد، وكانت هذه الدعوة أمراً لم يقدم عليه إلى الآن مع أية سيدة أخرى. وقد بدت لها هذه الدعوة مضحكة إلى درجة لم تر مانعاً من قبولها وتعاون الجميع على إلباسها لباس الصيد. فصار كل واحد يقدم لها شيئاً، ثم ظهرت وقد ارتدت ثيابها على طريقة سكان (الأمازون) في رجليها حذاءان ضخمان، تنفرجان عن سروال من سراويل الرجال، فوق قميص قصير تغطيه سترة من القطيفة تضيق عند النحر، وعلى رأسها قبعة من قبعات الخدم الذين يقودون الكلاب
وكان يبدو على البارون أنه شديد التأثر كأنما هو سيطلق أول طلقة من بندقيته، وشرع يشرح لها بدقة اتجاه الهواء ومختلف أنواع وقفات الكلاب، وطرق اجتذاب الحيوانات والطيور لصيدها. ثم دفع بها إلى أحد الحقول وراح يسير في إثرها خطوة خطوة كأنه مرضع تسير وراء رضيعها عندما يبدأ يمشي لأول مرة
وصادف (فيدور) طائراً فأكب على رجليه ووقف.
ثم رفع إحدى رجليه، وكان البارون وراء تلميذته يرتجف كريشة في مهب الرياح يتمتم:
. . .انتهى. . . حجـ. . . لات
ولم يكد يتم كلمته الأخيرة حتى دوى طلق شديد، وارتفع من الأرض برررررر. . . فارتفع على الأثر سرب من الطيور في الهواء وهي تضرب بأجنحتها ضرباً عنيفاً
ومن شديد التأثر أغمضت السيدة فيلرس عينيها وأطلقت طلقتين، وتقهقرت من أثر رجة البندقية، فلما استعادت رباطة جأشها أبصرت البارون يرقص حولها كالمجنون وفيدور يعود بحجلتين بين فكيه
منذ ذلك اليوم بدأ السيد كورتلين يعشقها!
. . .!وأنشأ يقول عنها وهو يرفع بصره: يالها من امرأة
ومنذ ذلك اليوم صار يأتي كل مساء ليتحدث عن الصيد. وذات مرة، بينما كان السيد دي كورفيل يودعه والبارون مندفع في امتداح صديقته الجديدة سأله:
لماذا لا تتزوجها؟
فجمد البارون كالمأخوذ وقال:
. . .أنا؟. . . أنا؟. . . أتزوجها!. . . ولكن. . . فعلاً -
وصمت ثم هز يد صديقته بسرعة وتمتم:
- إلى اللقاء يا صديقي
. . .واختفى في ظلام الليل وراح يبتعد بخطوات واسعة
ولم يعد البارون طيلة أيام ثلاثة، ولما عاد كان الشحوب قد صبغ وجهه بصفرة داكنة لشدة ما عاناه من التفكير الممض. وكان هذه المرة أكثر رزانة من قبل، فتوجه إلى السيد كورفيل وأخذه على طرف ثم قال له:
- لقد خطر لك وجيه، فأرجوك أن تعمل على تهيئتها لقبولي زوجاً لها. . . يا لله. . . لكأن هذه المرأة خلقت من أجلي، إذ نستطيع أن نذهب للصيد معاً دائماً
ولما كان السيد دي كورفيل متأكداً من أنها لا ترفض، أجاب:

- أطلب يدها حالاً يا عزيزي. . . أتريد أن أقوم بهذه المهمة؟
ولكن البارون اضطرب فجأة وصار يتلعثم:
- كلا!. . . كلا!. . . . ينبغي قبل ذلك أن أقوم برحلة قصيرة. . . برحلة قصيرة إلى باريس، وسأجيبك حال رجوعي الجواب النهائي. . .
وامتنع عن بيان أسباب ذلك. وفي اليوم التالي سافر. . . مضى أسبوع. . . أسبوعان. . . ثلاثة. . . والسيد كورتلين لم يعد، فاستغربت ذلك أسرة كورفيل وقلقت عليه، ولم يعد أفرادها يدرون ماذا يقولون للسيدة فيلرس التي أطلعوها على رغبة البارون، وصاروا يرسلون كل يوم إلى داره من يتسقط أخباره، ولكن لم يكن بين خدمه من تلقى شيئاً منه
وذات مساء، بينما كانت السيدة فيلرس تغني وهي تعزف على البيان اقتربت الخادم بحذر كبير من السيد كورفيل، وهمست في أذنه بصوت خافت جداً: إن بالباب رجلاً يريد مقابلته
وكان هذا الرجل البارون وهو ما يزال في لباس السفر، وقد بدا عليه كثير من الشحوب والهزال والهرم، وما كاد يقع بصره على صديقه حتى أسرع إليه وأمسك بيديه، وقال له بصوت ضعيف متعب:
- وصلت في هذه اللحظة يا عزيزي ومع ذلك فقد أسرعت إليك لأقول لك. . .
ثم صمت برهة، وفي شئ من الارتباك والتردد استأنف:
- أريد أن أقول لك. . . حالاً. . . إن القضية. . . التي تعرفها لا يمكن. . . أن تتم. . .
فنظر إليه السيد كورفيل دهشاً:
- كيف. . .؟ ولماذا لا يمكن أن تتم؟
- أوه!. . . أرجوك ألا ترهقني بالأسئلة، إذ يشق على كثيراً أن تضطرني لبيان السبب، ولكن كن واثقاً كل الثقة أنني لا أفعل إلا ما يفعله كل رجل شريف. . . . إني لا أستطيع. . . بل ليس لي الحق في أن أتزوج هذه السيدة. . . أفهمت؟. . . وسأنتظر مغادرتها داركم لأعود إليكم. . . لأن مشاهدتها تمضني كثيراً. . . فإلى اللقاء. . . وانصرف هارباً
فاجتمعت الأسرة كلها وأخذت تتشاور وتتناقش وتفترض الافتراضات المختلفة، وانتهى بها الأمر إلى أنه لابد أن يكون في حياة البارون سر خطير، فقد يكون له أولاد طبيعيون، وقد تكون له علاقات غرامية قديمة. . . وأدركت أسرة كورفيل أن الحالة على جانب عظيم من الرصانة، ومنعاً لتعقيدات أخرى تسلحت بلباقة فائقة لإطلاع السيدة فيلرس على الواقع. . . فعادت هذه السيدة أرمل كما قدمت. . .
ومضى على ذلك ثلاثة أشهر. وفي ذات مساء أفرط السيد دي كورتليه في تناول العشاء، وصار يترنح وهو يدخن غليونه مع السيد دي كورفيل، كم كانت دهشة هذا الأخير عظيمة حينما فاجأه البارون قائلاً:
- آه لو كنت تعلم كم أفكر في صديقتك، إذن لأشفقت علي!
والسيد دى كورفيل الذي استاء من سلوك البارون في هذه القضية أجاب بصراحة:
- كان عليك يا عزيزي، ما دام في حياتك الماضية أسرار ألا تقدم على ما أقدمت عليه، إذ كان في إمكانك بكل تأكيد أن تفكر من قبل في السبب الذي سيضطرك للرجوع من عزمك
فبدت على البارون علامات الخجل، وقال بعد أن توقف عن التدخين:
- كان ذلك ممكناً وغير ممكن في وقت واحد. . . ولكني لم أكن أصدق إمكان حدوث ما حدث
فقاطعه لسيد دي كورفيل بفارغ الصبر:
- كان عليك أن تفكر في إمكان حدوث كل شئ!
فألقى السيد كورتلين نظرة على الظلام الذي يكتنفهما، وبعد أن تأكد من أنه ليس حولهما من يسمعهما قال بصوت منخفض:
- ألاحظ أنك مستاء من تصرفي، وسأفضي إليك بكل شئ لتمن عليّ بالعذر. . . منذ عشرين سنة وأنا لا أحيا يا صديقي إلا للصيد. . . والصيد وحده دون كل شئ آخر. . . أنا كما تعلم لا أحب شيئاً غير الصيد، ولا أهتم بشيء آخر سواه. . . ولذلك خطر لي

قبل أن أوقع عقد الزواج مع هذه السيدة أن. . بل حصل في ضميري تردد. . . إذ منذ الزمن الذي انقطعت فيه عن. . . عن الحب. . . لم أعرف إذا كنت لا أزال أقوى على. . . على. . . أفهمت؟؟. . . تصور أنه مضى عليّ أكثر من ست عشر سنة لم. . . لم. . . أفهمت؟ وليس من السهل في هذه المقاطعة أن. . . أفاهم أنت؟. . . ثم إنه كان لدي شئ آخر أعمله. . . كنت أفضل على ذلك أن أطلق طلقة من بندقيتي. . وبكلمة مختصرة حين عزمت على أن أتعهد إزاء الكاهن وإزاء المأمور الرسمي على أن أقوم بواجب الزوجية خشيت أن أكون. . . والرجل الشريف لا ينقض عهوده ولا يخل بتعهداته. . . وكان علي أن أقطع لهذه المرأة عهداً مقدساً بأن. . . وأخيراً، ولكي أكون واثقاً من نفسي قررت أن أسافر إلى باريس وأن أقضي فيها ثمانية أيام، ولكن الأيام الثمانية انقضت ولم أستطع أن أعرف شيئاً مطلقاً، ولم يكن ذلك ناشئاً عن قلة ما قمت به من تجارب، إذ ترددت على أحسن ما في باريس من جميع الأنواع وجميع الأجناس، وأؤكد لك أن أولئك عملهن كل ما باستطاعتهن. . . ولكن ماذا تريد. . . كن جميعاً ينسحبن مغمغمات. . . متمتمات. . . وإذ ذاك قررت أن أنتظر خمسة عشر يوماً. . . فثلاثة أسابيع رجاء أن. . . وقد أفرطت في تناول الأطعمة المفلفلة، الأمر الذي أجهد معدتي إجهاداً عظيماً. . .

ورغم كل ذلك لم أستطع شيئاً مطلقاً!. . . وفي هذه الحال وإزاء فشل جميع المحاولات لم يكن لي بد من الانسحاب. . . وهذا ما فعلته!. . .

وكان السيد دي كورفيل أثناء ذلك يدور على نفسه ويبذل جهداً عظيماً ليحول دون انفجاره بالضحك، فلما فرغ البارون من روايته هزَّ يديه برصانة قائلاً:

إني لأشفق عليك حقاً

ورافقه إلى منتصف طريق منزله. . .

ولما خلا السيد كورفيل بزوجه، أطلعها على كل شئ وهو يكاد يختنق من شدة الضحك،

ولكن السيدة دي كورفيل لم تضحك قط وإنما كانت تنصت إلى زوجها بانتباه، حتى إذا فرغ من حديثه ابتدرته برزانة:

إن البارون أبله يا عزيزي. . . فإذا كان لم يستطيع شيئاً فلأنه كان خائفاً. . . وسأكتب حالاً إلى برت أن تعود

فأنشأ السيد دي كورفيل يحتج بفشل جميع المحاولات البارون ولكن زوجته أسكتته بقولها:

- يجب أن تعلم أن الرجل إذا كان يحب زوجته واتته القدرة دائماً!

فلم يحر السيد دي كورفيل جواباً إذ اعتراه هو نفسه شئ من الخجل. . .

ابزاك شموش

البريد الأدبي

في سبيل الأزهر

تلقينا من الأستاذين عبد اللطيف السبكي وسيد نايل المدرسين بكلية الشريعة كلمتين عقبا بهما على مقال الأستاذ المدني (في سبيل الأزهر) تعقيباً لم يتجاوز أسلوب النقد ولهجة الناقد، فرأينا من الحكمة أن نتريث في نشرهما حتى لا يعوقنا الجدل في الشكل عن البحث في الموضوع. وما دامت الآراء مطبقة على حاجة الأزهر للإصلاح فلا بأس أن تتسع الصدور لما يسيل على الأقلام من مبالغة في عرضه أو شدة في طلبه. ومما لا ريب فيه أن أبناء الأزهر أجمعين سواء في المحافظة عليه والإخلاص له والجهاد فيه؛ ولكن أهواءهم إذا تفرقت في سبيل حبه، فقامت هنا صيحة تدعو إلى الإصلاح، وقامت هناك ضجة تخزّل عنه وقف بينهما المصلح موقف المتأني الحائر، لا يطمئن للوقوف ولا يثق بالتقدم.

قانون صنع التبشير في مصر

وقع صاحب الجلالة الملك مرسوماً بإحالة مشروع القانون الخاص بمنع التبشير إلى البرلمان، وهذا نصه بعد الديباجة:

المادة لأولى: تمنع الدعوة الدينية بأية طريقة كانت، خارجاً عن المحال المعدة لإقامة الشعائر أو الأمكنة المرخص بذلك.

المادة الثانية: تعتبر الأمور الآتي ذكرها دعوة دينية إذا وقعت في معاهد تعليم:

(1) إشراك التلاميذ أو تركهم يشتركون في دروس ديانة غير ديانتهم.
(2) إشراك التلاميذ أو تركهم يشتركون في صلوات تخالف عقائدهم الدينية، أو إسماعهم أو تركهم يستمعون إلى خطب دينية كذلك.
(3) توزيع كتب أو نشرات على التلاميذ تخالف عقائدهم الدينية
وتسري الفقرتان الثانية والثالثة السالفتان على المنشآت الطبية أو المعاهد الخيرية إذا كانت الدعوة الدينية موجهة إلى المرضى أو اللاجئين إلى تلك المعاهد.
المادة الثالثة: لرجال الضبطية القضائية دائماً حق الدخول في الأماكن المشار إليها في المادة السابقة للتحقق مما قد يقع فيها مخالفاً لهذا القانون
المادة الرابعة: مع عدم الإخلال بتوقيع عقوبة أشد حيث يقضي بذلك قانون العقوبات، يعاقب على المخالفات لأحكام هذا القانون بالحبس لمدة شهر وبغرامة قدرها عشرة جنيهات مصرية، أو بإحدى هاتين العقوبتين فقط
المادة الخامسة: يعاقب بالحبس لمدة لا تزيد على سنة، وبغرامة لا تتجاوز مائة جنيه مصري، أو بإحدى هاتين العقوبتين فقط كل من حاول تلقين حدث تقل سنه عن ثماني عشرة سنة كاملة عقائد تخالف دينه أو عقيدته، حتى ولو كان ذلك برضاه.
ويعاقب بنفس العقوبات كل من أعطى أو منح شخصاً عطية أو هبة من نقود أو أوراق أو عروض أو فوائد أخرى أو عرض عليه شيئاً من ذلك أو وعده به، سواء أكان ذلك بالذات أم كان بواسطة الغير، وسواء أكان للشخص نفسه أو للغير، وذلك بقصد التأثير على عقيدته الدينية أو تحويله عنها
ويعاقب أيضاً بنفس العقوبات كل من استعمل مع شخص آخر لهذا الغرض القوة أو التهديد أو الإرهاب أو أخافه من فقد خدمة، أو من تعريض نفسه أو أهله أو ماله للأذى، أو استعمل معه المخدرات أو التنويم
المادة السادسة: يعتبر من رجال الضبطية الفضائية فيما يتعلق بتطبيق هذا القانون، موظفو وزارة المعارف وموظفو وزارة الصحة الذين يندبهم لهذا الغرض وزير المعارف أو وزير الصحة بالاتفاق مع وزير الداخلية
المادة السابعة: على وزراء الداخلية والمعارف والصحة تنفيذ هذا القانون؟ كل منهم فيما يخصه، ويعمل به من تاريخ نشره في الجريدة الرسمية
وقد أرفقت بالمشروع مذكرة إيضاحية أشير فيها إني أن الدستور يعلن حرية العقائد ويحميها كما يحمي حرية القيام بشعائر الأديان، طبقاً للعادات المرعية في الديار المصرية، وذلك في حدود النظام العام والآداب، وأن هذه المبادئ تتفق وأصول التسامح الذي درج علية الإسلام
وقديماً أحسنت مصر معاملة أهل الأديان المختلفة، وأقطعتهم الأراضي الواسعة وكانت تعفيهم من أغلب الرسوم وتتركهم يباشرون في حرية تامة ما تقوم عليه جمعياتهم ومؤسساتهم ومنشآتهم من أعمال التعليم والبر، غير أن بعض هؤلاء انصرفوا إلى التبشير
بدينهم، وتوسلوا إلى ذلك بوسائل أقل ما يقال فيها إنها استهانة بكرامة المسلمين، وتحد لعواطفهم الدينية
وإذا كانت الدعوة الدينية تتصل في بعض صورها بحرية العقائد، فإنها إذا بوشرت خارجاً عن محال العبادة أو الأماكن المخصصة لهذا الغرض والمرخص لها بذلك قد تحدث الفتنة وتصبح إخلالاً بالنظام لا يجدر السكوت عليه. لذلك وضع مشروع هذا القانون ليحظر الدعوة الدينية على أية صورة، خارجاً عن تلك الأماكن؛ ثم تضمنت المذكرة الكلام عن مواد المشروع
تعبانٌ وظمآنٌ
تعبان على وزن فعلان، وهذا الوزن يمنع من الصرف إذا توفر فيه شرطان زيادة الألف والنون، وكون أنثاه على وزن فعلي كسكران وغضبان وما شابهه، فإن أنثاه فعلى كسكري وغضبي. . . أما إذا كان فيه زيادة الألف والنون ولم تكن أنثاه على فعلى نحو تعبان وتعبانة فإنه لا يمنع من الصرف، فنقول مثلاً: استيقظت تعباناً، وهو تعبانٌ. وفي هذا يقول أبن مالك في الألفية:
وزائدا فعلان في وصف سلم ... من أن يرى بتاء تأنيث ختم
وأما ظمآن فإن أنثاه ظمأى فهو ممنوع من الصرف لأنه منطبق على القاعدة، وقد

نص عليه صاحب اللسان فقال: (رجل ظمآن وامرأة ظمأى لا ينصرفان نكرة ولا معرفة)

والذي حدا بي إلى الكلام عن هذين اللفظين أنهما وردا في عبارتين لأديبين من كبار الأدباء على غير وضعهما الأصلي فأحببت أن أنبه عليهما لئلا يقلدهما القراء لأنهما ممن يقتدي بهم ويقتفي أثرهم، فالعبارة الأولى جاءت في أول الجزء الثالث من كتاب (ليلى المريضة في العراق) للأديب الكبير الدكتور زكي مبارك قال: (واستيقظت في الساعة التاسعة تعبان) وصحتها أن تكون (تعباناً) لما قدمنا، والرجاء من الدكتور مبارك أن يستيقظ نشيطاً حتى لا يتعبنا ويتعب نفسه مرة ثانية والعبارة الثانية. والعبارة الثانية جاءت في العدد 70 من الثقافة في مقال الدكتور محمد عوض محمد قال: (ورأى الزعيم، الذي لم يزل ظمأناً إلى فتح جديد) وصحتها ظمآنَ لما قدمنا أن مؤنثه ظمأى فهو ممنوع من الصرف.

إبراهيم يسن القطان

النقد والتصويب

صاحب الرسالة الأستاذ الكبير أحمد حسن الزيات

لك مني تحيات وإعجاب

وبعد فإنني معجب تمام الإعجاب بحضرات الشعراء البارعين الذين يتحفون رسالتهم بجرائدهم البليغة. وأبداً لا تعدو عيناي عن واحدة مما ينشرون. غير أن هنالك أمراً كنت أتمنى كثيراً أن ينهجه أرباب الدراية في العربية وبحور الشعر. ذلك هو النقد والتصويب الذي رأيته لأول مرة على ما أذكر لحضرة الأستاذ أبي الفضل السباعي ناصف الذي أحكم بيتاً ند عن الوزن في قصيدة ذكرى المرحوم الهراوي للأستاذ علي الجندي. وكم كان جميلاً أن يعلن الأستاذ الجندي شكره للناقد المصوب. إن هذا النقد والتصويب الذي يجمل بالأساتذة أن ينهجوه على النمط المتقدم أرى ألا يقتصر على ما تنشره الرسالة وغيرها، بل يتعدى إلى ما يسمع في المحافل من مناظرات وخطب وإذاعات، كما جرى عليه الأستاذ الدكتور زكي مبارك - أدام الله عليه التوفيق وأصلحه مع زمانه - فقد ناقش ببراعته المعروفة الأستاذ الكبير أحمد أمين في كلمة (أوقات) التي نصبها الأستاذ بالكسرة إذ كان يلقى نفثاته عن طريق المذياع. ومن المؤكد أن الأستاذ أحمد أمين يدري يقيناً أنها تنصب بالفتحة كما هو معروف ولم يلفظها مكسورة إلا سهواً، ومع ذلك يجب أن تعلن كلمة الحق وهذا حسن

لقد قرأت في العدد (353) من الرسالة قصيدة (رجع أيامي) للأستاذ محمود خفيف وهي من القصائد الرقيقة المعجبة، ولكني لن أسكت على شطر منها كما لم يسكت الأستاذ أبو الفضل السباعي ناصف. ذلك قوله: (صوحت ويلاه خضر الأماني) فهل سها الأستاذ الخفيف عن وضع النداء بين كلمتي (صوحت) و (ويلاه) حتى يصح الوزن على هذا الوضع؟ (صوحت يا ويلاه خضر الأماني). أن الأستاذ وضع حرف النداء وابتلعته المطبعة على كل حال أعلن نقدي وتصويبي لهذا الشطر راجياً أن يتحفنا الأستاذ الخفيف وغيره من المبدعين دائماً بآياتهم البالغة الباهرة، وأن يتوالى النقد والتصويب على هذا الطراز

(نابلس)

محمد البسطامي

أندونسيا

جاء في مقالة الأستاذ عبد العزيز الدوري (النقابات الإسلامية) المنشورة في العدد (355) ما نصه: (ونجد مثلاً عصرياً لنجاح هذه الفرق وفشل المذهب السني في حالة الهولنديين في الهند الصينية (أندونسيا) الخ. ولا شك أن الأستاذ يقصد بذلك جزائر الهند الشرقية الهولندية لا الهند الصينية، لأن الأخيرة - كما نعلم - تابعة للفرنسيين لا للهولنديين، وجزائر الهند الشرقية هذه هي التي أجمع أهلها الوطنيون في الأعوام الأخيرة على تسميتها بأندونسيا - أي جزائر الهند -، وكان العرب يطلقون عليها أسم (جاوة) - إحدى جزائرها - من قبيل تسمية الشيء ببعض أجزائه

حسن أحمد باكثير

القرن العشرون

في العدد 354 من الرسالة قرأت في باب (الأدب في أسبوع) تحت عنوان: (القرن

العشرين) ما يأتي بعد كلام: وذاك تنبيه لنا أننا نعيش في القرن العشرين، وفي سنة 1940 منه). والمعلوم أن (من) للتبعيض وبالضرورة يعود الضمير فيه على القرن العشرين فيكون معنى ذلك أننا نعيش في سنة 1940 من القرن العشرين؛ والواقع أننا نعيش في سنة 40 فقط من هذا القرن وفي سنة 1940 من العشرين قرناً، ففي أي سنة نعيش؟

إبراهيم عقلة

معهد القاهرة

الأبيات الحائرة

للحجاج بن يوسف الثقفي مع الشعراء أحاديث طوالٍ. وقد فر جماعة منهم من وجهه وهربوا منه، ومن هؤلاء (سوار ابن المضرب) و (محمد بن عبد الله بن نميرٍ الثقفي) وهو الذي شبب بزينب أخت الحجاج ولما ظفر به عفا عنه. وغير هذين كثير.

وليس يعنيني الآن أن أستقصي أحاديث هؤلاء، ولكني أعرض لأبيات تتصل بالحجاج وتلك هي:

إن تنصفونا آل مروان نقترب ... إليكم وإلا فأذنوا ببعاد

فإن لنا عنكم مزاحاً ومرحلا ... بعيس إلى ريح الفلاة صوادي

فماذا عسى الحجاج يبلغ جهده ... إذا نحن جاوزنا حفير زياد

فقد ذكر ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء أنها (لمالك أبن الريب) وكذلك ذكر المبرد في كتابه (الكامل جـ1 ص 301 طبعة المكتبة التجارية. والبيت الثالث من شواهد النحويين وقد أجمعوا في كتب النحو والشواهد أنها لمالك هذا. ولكن المعروف أن هذا الشاعر مات في عهد معاوية وكان في بعث (سعيد بن عثمان بن عفان) إلى خراسان وقد مات في الطريق ورثى نفسه بقصيدته اليائية المشهورة - وهو أول من رثى نفسه - فليست الأبيات له إذن فلمن هي؟

جاء في (معجم البلدان لياقوت الحموي جـ3ص304 الطبعة الأولى) أنها للبرج بن خنزيرٍ التميمي، قال: وكان الحجاج قد ألزمه البعث إلى المهلب لقتال الأزارقة فهرب منه إلى الشام وقال. . . الأبيات:

وقد رضى الشيخ المرصفي رحمة الله عليه هذا الإسناد وشنع على المبرد (رغبة الأمل ج 5 ص 27) ولكن صاحب الحماسة نسبها إلى (الفرزدق) جاء ذلك في جميع الطبعات التي بين أيدينا لحماسة أبي تمام، وقد ارتضى بعض أساتذتنا هذا

فلمن هذه الأبيات؟ لعلنا نظفر بجواب ممن عنده تحقيق هذه المسألة

علي محمد حسن

كلية اللغة العربية

الثاني والآخر

قرأت في العدد 67 من مجلة الثقافة مقالاً بعنوان: (حديث أمس) للأستاذ أحمد أمين جاء فيه:

قال أحدنا: جزءاً من العقد الفريد، وآخر: جزءاً من الأغاني وثالث: نهج البلاغة، ورابع: مقدمة ابن خلدون

والمعروف في اللغة أنه لا يسوغ أن تقول آخر إلا إذا كان هو الأخير، فلا تقفي بعد ذلك بأعداد أخرى؛ وأن الواجب أن تقول: قال أول وثان وثالث وآخر إذا لم يبق إلا واحد بعد ثالث، أو إن شئت قلت (رابع)

وأحسبك لم تنس استدراكهم على من قال: ربيع الثاني وجمادي الثانية بأن الصواب ربيع الآخرِ وجمادي الآخرة ما دام ليس هناك ثالث ورابع؛ وعندي أن هفوة ربيع الثاني. . . أهون من قولنا: قال أول وقال آخر وقال ثالث. . .

(الفشن)

م. م. إبراهيم

العدد 358 - بتاريخ: 13 - 05 - 1940

رأي الرافعي في الأستاذين طه والعقاد

بمناسبة ذكراه الثالثة

ذكرتُ بذكرَى الرافعي وعداً درجت الأيام عليه ولم أوفّ به. ذلك أن أذكرِ لقراء

الرسالة الرأي الصريح المجرد لصاحب (السفود) و (تحت راية القرآن) في خصميه العظيمين طه والعقاد. وفي ظني أن تسجيل هذا الرأي قد يصحح ما شاع في أجواء الأدب من نقد مسه الهوى وحكم أفسدته الخصومة.

فإن الرافعي رحمة الله عليه كان من أبصر الناس بِصَرف الكلام وأقدرهم على نقده؛ ولكن تعقبه للأدباء الأحياء قلما كان يبرأ من مجاملة الصداقة أو منافسة الحرفة. فإذا أردت استنباط رأيه الحر من غوره البعيد لا يتيسر ذلك منه إلا في الخلوة حين يأمن الأذن الخصيمة والقلم المسجل

جلسنا معاً ذات يوم من أيام الإسكندرية على قهوة (أتينيوس) بعد غداء ضاحك هنئ على مائدة صديقنا المرحوم فليكس فارس. وكان الرافعي برد الله ضريحه شديد الحساسة بالجمال قوي الرغبة في اللذة؛ ولكنه كان يطلبها من طريق المحال أو الحلال فتعييه. كان يتمنى أن يكون كأصحاب الجنة: يصبو من غير فجور وينتشي من غير إثم. فلما أعجزه الدرَك أغلق فؤاده من دون نفسه؛ ثم فتح للجمال عينيه وأطلق في نعيمه لسانه، فلا يدع معنى من معاني اللهو ولا لوناً من ألوان العيش إلا صرَّف الكلام فيه وأدار الرأي عليه

كان حديث الرافعي على المقهى الأنيق الوادع أفانين من النكات والأفاكيه يدور أكثرها على سكرات الجمال في الكرنيش، وسطوات الشباب على الشاطئ، وحسرات الحرمان فيما بين ذلك. ثم توافدت زمر المصطافين على المقهى، فأخذ يتحفظ في الحديث ويخافت به حتى رده مرغماً إلى الأدب؛ فسألني كيف أكتب ومتى أكتب وماذا أشرب حين أكتب. فلما أجبته أني لا أفكر إلا أول الكتابة، ولا أكتب إلا آخر الوقت، ولا أدخن التبغ ولا أشرب القهوة ولا أكركر الشيشة، عجب كيفتواتي القريحة على هذه الحال الكليلة، وذكر لي ما يتملق به قريحته من المطاعم والمشارب والعقاقير، ثم روي لي الأعاجيب مما يُلقى عليه إلقاء في النوم، وما يلهَمه إلهاماً في اليقظة، وعزا ذلك إلى قوة إلهية ترفده وتسنده. فقلت له ضاحكاً: وهل تعتقد أن من إلهام هذه القوة تلك الفصول المقذعة التي كتبتها في

النقد؟ فأجاب بلهجته الطفلية الحاسمة:

أما ما كتبته (على السفود) فأكثره رجس من عمل الشيطان، وأما ما أدخلته (تحت راية القرآن) فكله إلهام من روح الله

فقلت له، أو بالحري كتبت، لأن مناقلة الحديث كانت لصممه تحريرية مني وشفوية منه:

أتستطيع في هذه المناسبة يا صاحب (تاريخ آداب العرب) أن تجرد نفسك من ملابسات الخصومة وتُجمل لي رأيك الخالص في طه والعقاد؟

فأجاب الرافعي وعلى محياه الوردي سيما المعترف المقر:

- أما لك فأقول الحق. وما دمت لا أكتبه فلا أبالي أن تنشره:

إن طه عجيب التكوين جليل المواهب. وهو مدين بنبوغه لتوقد ذهنه ودقة حسه وقوة ذاكرته ولباقة حديثه ومزايا عاهته. ولو أنه انتهى كما بدأ لكان اليوم أحد عباقرة الدنيا. ولكنه بلغ المنزلة المرجوة قبل الأوان لأسباب غير طبيعية، فأعفى طبعه واطمأن إلى منصبه المضمون ومجده المكتسب

علمه علم الأديب يأخذ من كل شئ بطرَف، وأدبه أدب الصحفي تصرفه السرعة عن الإجادة، وأسلوبه أسلوب الوادي المنحدر يشتد جريانه ويقل عمقه

ذهنه لمَّاع الذكاء ولكنه لا ينفذ، وقريحته واسعة الحيلة ولكنها لا تخلق. لذلك تجده مغسول الكلام لا أثر فيه لروعة الفن ولا لبراعة الفكرة. ولكنه قوي الشخصية جياش الحركة عذب السياق جميل العرض. وهو أشبه الناس بمهندس العرض في بيوت التجارة، يعرض البضائع في البترينات منسقة على نظام يملك البصر، ولكنها تظل بعد التنسيق كما كانت قبل التنسيق ملك غيره. وأحسبه إذا تنفس به العمر على هذه الحال يعود رجلاً له رأي مسموع في التأديب، ولكن ليس له أثر خالد في الأدب.

ويلوح لي أن طه تعوزه العقيدة التي تخلق المبدأ، ومن هنا كان التناقض الظاهر في كل ما يصدر عنه من قول أو فعل

أما العقاد فإني أكرهه وأحترمه: أكرهه لأنه شديد الاعتداد بنفسه قليل الإنصاف لغيره.

ولعله أعلم الناس بمكاني من الأدب، ولكنه يَنْفِس عليَّ قوة البيان فيتجاهلني حتى لا أجري معه في عنان
وأحترمه لأنه أديب قد استملك أداة الأدب، وباحث قد استكمل عدة البحث. قَصرَ عمره وجهده على القراءة والكتابة فلا ينفك بين كتاب وقلم. ومن آفة الذين يديمون النظر في كلام الناس أنهم يفقدون استقلال الفكر وابتكار القريحة، وليس كذلك العقاد؛ فإن رأيه لقوة عقله وسلامة طبعه يظل متميزاً عن رأي الكتاب مهيمناً عليه؛ يؤيده أو يفنده، ولكنه لا يسمح له أن يذوب فيه أو يتأثر به
أسلوب العقاد أسلوب الأديب الحكيم، تبرز فيه الفكرة الدقيقة في مجتلى من الفن الرفيع، فيجمع بقوة تفكيره ودقة تعبيره طَرَفيْ البلاغة. والعقاد مخلص لفنه فلا يخرج للناس ما لا يرضاه. فهو لذلك أبعد الأدباء عن استغلال شهرته واستخدام إمضائه
فقلت له وأنا أختم الورقة التي أحدثه عليها: هيهات يا صديقي أن يخلص رأيك من هواك. إن رأيك في الأستاذ العقاد رجوع إلى الحق، ولكن رأيك في الدكتور طه إمعان في الباطل!

أحمد حسن الزيات

في ذكرى الرافعي

طريقته في تأليف كتبه

للأستاذ محمد سعيد العريان

قلت عن طريقة الرافعي في تأليف مقالاته ما وسعني أن أعرفه بنفسي حين كنت أكتب له؛ فقد أملى عليّ أكثر من مائة مقالة كنتُ شاهدَه فيها إذ يُلَقَّى الوحيَ، ويهذب الفكرة، ويرتب المعاني، ويتألف الألفاظ، حتى تفصل عنه المقالة إلى نفس قارئها كما هي في نفسه.
وأحسب أن طريقته العامة في كل ما كتب من المقالات هي ما وصفْتُ عن عيان وملاحظة، ولكن لم يتهيأ لي أن أشهده حين يؤلف في موضوع من موضوعات العلم، مما يقوم على التتبع والاستقراء، وتقليب الصحائف، وبعث الدفائن، والارتفاق إلى الكتب، والاستعانة بما انتهى إليه السابقون من حقائق العلم ونتائج البحث والروية، ثم التهدِّي من ذلك إلى رأي ينتهي بمقدماته إلى نتيجة.
وطريقة الكتابة غير طريقة التأليف؛ أعني أن الطريقة لإعداد مقالة أو فصل أدبي من مثل (رسائل الأحزان) أو (السحاب الأحمر) أو (المساكين) - غيرُ الطريقة في إعداد كتاب مثل (تاريخ آداب العرب)؛ فإن الشأن بين هذين مختلف باختلاف موضوعهما؛ ذلك أن في كل نفس معانيها التي تعَّبر بها عن الحب والبغض والقطيعة وما إليها من خلجات الوجدان أو مدركات الحس، بأسلوبها وعلى مقدارها؛ فما يحتاج الأديب لتصويرها وإبرازها إلى شئ غير الأداة الطبيعية التي يؤديها بها إلى الناس كلاماً مقروءاً يصل نفساً بنفس وينقلها من خطرة قلب إلى إدراك حس. أما تأليف الكتب العلمية فله سبيل غير هذه، لأنه يقوم على الجمع والتفريق، وعلى النقد والتصفح، وعلى الاستقراء والملاحظة.
وأنا قد قرأت الجزء الأول من كتاب تاريخ آداب العرب منذ بضع عشرة سنة، وألممت منه بما ألممت، واهتديت به ما اهتديت؛ ثم عدت إلى نفسي أسائلها: أين وأيان اجتمع لمؤلف هذا الكتاب هذا القدْرُ من المعارف في شئون العرب والعربية فألَّف بين أشتاتها في هذا الكتاب؟
وظل هذا السؤال قائماً في نفسي زمناً، وما أزال من مطالعاتي في الأدب القديم أقع على شئ بعد شئ في صفحات متفرقة من كتب عدة يُنسى آخرها أولها من تباعد الزمان بينها،
وكلها مما اجتمع للرافعي في كتابه. وكان ذلك يزيدني عجباً وحيرة؛ فإنه ليس من الطبيعي أن يعرف إنسان كل من يراه في طريقه من الناس بحيث يتهيأ له أن ينسب بعضهم إلى بعض ويعرف القريب منهم والجنيب بما بينهم من تشابه في الخلقة؛ ولقد يكون ممكناً أن يجلس أخَوان بإزائي فأعرف ما بينهما من النسب بالمشابهة والفراسة، ولكن هيهات أن أهتدي إلى ذلك لو رأيتهما متفرقين على تباعد الزمان وانقطاعالصلة. من مثل ذلك كان عجبي وحيرتي
وهممت أن أسأل الرافعي مرة، ولكني لم أفعل؛ وهممت أن أعرف بنفسي فلم . . .

أبلغ؛ ثم عزوت ذلك إلي ذاكرة الرافعي وسرعة حفظه؛ وقلت: متفرقاتٌ قد عرفها في سنين متباعدة فوعتها حافظته، فلما هم أن يؤلف كتابه أمدته الذاكرة بما وعت منها، وكان مستحيلاً عليه أن يجمعها لو لم تجتمع له من ذات نفسها، واطمأننت إلى هذا الاستنتاج ونسبتُ إليه عدم ذكر الرافعي للمراجع التي استعان بها في هذا الكتاب؛ لأنه يروي عن ذاكرته!

ثم قرأت له بحثه في (الرواية والرواة)؛ فإذا هو يتحدث عن أثر الحفظ في مؤلفات العلماء وينادي بإحياء هذه السنة، سنة حفظ العلم واستظهار كتبه؛ فتأكد لي ما رأيت، وكان وهما من الوهم عرفت حقيقته فيما بعد. . .

أما الحقيقة التي عرفتها بعد، فما أزال في شك منها وإن كان برهانها ماثلاً لعيني؛ ولكنه شك المتعجب الذي يفجأه ما لم يكن يتوقع. . .

منذ بضعة أشهر وكل إلي القيام على تصحيح بعض مؤلفات الرافعي التي تطبعها الآن إحدى دور النشر الكبرى في القاهرة؛ فأخذت أهبتي للعمل. . .

وزرت المكتبة التي خلفها صاحبها أوراقاً مركومة وكتباً تستند إلى الحيطان؛ أريد بذلك أن أبحث فيها عما يكون هناك من مستدركات على بعض الكتب المطبوعة، فأزيدها عليها؛ وأبحث عن (أصول) الكتب التي لم تطبع بعد، فأرتب فصولها وأعدها للطبع. وفتحت أدراج الدولاب، فرأيت وعرفت السر. . .

رحمه الله!

ذلك جهد لا يقوى على مثله جند سليمان ولكنه قَويَ عليه وحده، ثم مات وخلَّفه شاهداً على

ما بذل في حياته لخير هذه الأمة فلم يلق من يعرف يده!

وإلى القارئ أصف ما عثرت عليه:

يعرف قراء العربية أن كل كتب المراجع في لغتنا ليس لها فهارس تعين الباحث على التماس ما يريده منها في أقصر وقت، إلا بضع كتب من المطبوعات الحديثة؛ فالأغاني، والأمالي، والعقد الفريد، والكامل، والعمدة، والخزانة، والحيوان والبيان والتبيين، وكتب الطبقات، وحتى كتب الفهارس والتراجم، ليس لها فهارس يمكن الاعتماد عليها عند البحث؛ فمن أصاب منها غرضاً فعن طريق المصادفة والاتفاق، أو بعد المطاولة وضياع الزمن؛ وحسبي أن أذكر أنني ذات مرة أنفقت ليلة كاملة في البحث عن كلمة في البيان والتبيين ثم لم أعثر بها فطويته على سأم وملالة؛ فلما كنت بعد أيام، وقد فات عليّ الغرض الذي كنت أقصد، فتحت الكتاب عرضاً فإذا الكلمة التي كنت أريدها أمامي. . .

هذه الحقيقة يعرفها كل من عانى مشقة البحث في هذه الكتب؛ فهي كتب للقراءة المجرّدة لا للبحث والتنقيب العلمي. . . عرف الرافعي ذلك فاتخذ له طريقاً

وكان أول ما صنع أن انتخب كل الكتب التي يعينه أمرها فيما يمهد له من البحث، فقرأها كلها قراءة درس؛ وهي كتب ليست بالقليلة، وحسب القارئ أن يعرف أن كل فصل في كتاب تاريخ آداب العرب للرافعي قد اعتمد فيه على عشر مراجع من المطولات أو يزيد، ليدرك من ذلك كم كتاباً قرأ قبل أن يؤلف كتابه الذي ذكرت. . .

قلت إن الرافعي انتخب طائفة من الكتب يرجو أن تعينه على البحث فقرأها كلها، أعني نَفَضَها نَفْضاً بحيث لم يفُتْه منها معنى يتصل بموضوعه

ثم شرع يعمل، فكتب لكل كتاب مما قرأ ملخصاً يضم المجلدات الكثيرة في كراسة أو كراسات؛ يرجو أن تغنيه عن أصولها المطولة

ثم عاد إلى هذه الملخصات فرتب أجزائها ترتيباً يضم القريب إلى القريب بحيث يجد طلبته عند النظرة الأولى من غير أن يتعب في تقليب الأوراق

ثم كانت الخطوة الرابعة فزاوج بين ملخصات الكتب المختلفة يضم الأشباه منها إلى الأشباه

ثم كتب. . .

ثم عاد إلى المكتوب فقرأه قراءة الباحث: يزاوج بين رأيٍ ورأي ليخرج منهما رأي ثالث.

واجتمعت له من ذلك المقدماتُ التي تبلغ به النتيجة. . .

ثم كانت المرحلة الأخيرة هي التهذيب والصقل الفني، من صناعة البيان وتحكيك

الألفاظ وتجميل المعاني وتزيين الأسلوب
سبع مراحل بين البدء والنهاية. . ثم خرج الكتاب لقارئه ليسائل نفسه في عجب: أين
وأيان اجتمع لمؤلفه ذلك القدرُ من المعارف في شئون العرب والعربية فألف بين
أشتاتها في هذا الكتاب؟
سؤال كنت أسأله نفسي قبل أن أرى وأعرف وأضع يدي على تلك الأوراق التي كانت
. .في درج مكتبه فتكشف لي السر
بين يديَّ الآن الجزء الثالث من تاريخ آداب العرب، أرجو أن أفرغ منه ليكون في أيدي
القراء بعد أيام؛ وهو كتاب ألفه في سنة 1911 أو قبل ذلك، ثم شغلته شئون الحياة
عن إخراجه فخلَّفه أوراقاً مصفرّة يكاد يبليها التقادم. . . في هذا الكتاب وجدت مفتاح
السر، وسيقرؤه قراؤه بعد أيام فيعرفون في بعض فصوله أين بدأ مما انتهى وعند أي
. . .مرحلةٍ وقف. . . ثم يذكرون مؤلفه فيترّحمون عليه
وفي مكتبته كتاب آخر أرجو أن يعينني الله عليه ما أعانني على هذا الكتاب. . . .
وهناك غير ذلك كراسات عدة وأضابير مطوية. تلك هي الفهارس التي كتبها ثم
استكتبها. . ولكنها - فيما تبدو لي - ألسنةٌ خُرْس
قلت كانت المرحلة الأولى في تأليفه أنه اختار طائفة من الكتب. . . وأقول إن أول ما
اختار من ذلك كتب التراجم؛ مثل الفهرست لابن النديم، ووفيات الأعيان، ونحوهما
وطريقته في التحصيل من هذه الكتب، أن يقرأ الكتاب ما بين دفتيه؛ ثم يكتب ملخصه
بحيث يشمل من أسماء أهل الفنون الأدبية وامتياز كل منهم، مثل الشعراء، والخطباء،
والكتاب، والرواة؛ ثم أسماء الكتب، وموضوعها، فنون العلم، ومعارضات العلماء
بعضهم لبعض؛ ثم الطرائف الأدبية التي تشير إلى معنى يتصل بشيء من موضوعه.
وفي كتب التراجم من هذه الطرائف ما ليس في كتاب
وأستطيع أن أقول جازماً: أن الرافعي أعتمد على كتب التراجم في الجمع لكتابه
(تاريخ آداب العرب) أكثر مما أعتمد على الكتب الخالصة للأدب؛ وكان اتجاهه إلى ذلك
سبباً في
توفيقه إلى ما لم يوفق إليه غيره في موضوعه
ويذكِّرني اعتدادُه بكتب التراجم في هذا الشأن، ما ذكرته في كتابي (حياة الرافعي)
عن استمداده منها أكثر ما كان يكتب لقراء الرسالة من قصص لم ينسج على منوالها
كاتب من قبله ولا من بعده؛ فكأن هذه الكتب كانت عوناً كبيراً له على ما أبدع في
الأدب بنوعيه: الإنشائي والوصفي
لست أشك في أن طريقة الرافعي هذه كانت ذات فائدة كبيرة، ولكنها كانت حقيقة
بأن تكون أكثر جدوى وفائدة لو أن هذه الملخصات والفهارس التي صنعها ليستعين بها
كانت على غير النظام الذي وضع، ليمكن انتفاع غيره بها؛ فلو أنه عني بأن تكون تلك
الفهارس كاملة وعامة، لكان بذلك قد كمل نقصاً في تلك الكتب التي أخذ عنها وزادها
فائدة ولكنه - رحمه الله - لم يكن له غاية من صنع هذه الفهارس إلا الاستعانة بها على
!الجمع لكتابه، فبلغت به ما أراد، ثم بطل عملها
وقد يسأل سائل: كيف تهيأ للرافعي الزمن الذي قرأ فيه تلك الكتب التي أخذ عنها
ولخصها، ثم ألف منها كتابه؟
وهو سؤال لا أجد جوابه، على أنه مما يزيدني دهشة أن الرافعي قد بدأ يعد لكتابه
تاريخ آداب العرب في سنة 1909 وفرغ منه - بأجزائه الثلاثة - في سنة 1911؛ فأنظر
ما عسى أن تتسع له سنتان من عمر فتى لم يتجاوز الثلاثين وهو أب وزوج وله عمل
في الحكومة يشغل نصف نهاره؟
وقد قال لي قائل مرة وقد جاء ذكر الجزء الأول من تاريخ آداب العرب: إنه كتاب
!يتحدث عن كل شئ إلا عن آداب العرب
قلت: قد يكون ذلك رأيك ورأي طائفة معك، ولكنه على كل حال كتابٌ يغني عن مائة
كتاب؛ وأسأل معلِّميك: من ألف في تاريخ آداب العرب قبل الرافعي؟
رحمه الله بما قدم لهذه الأمة وأجزلَ ثوابه
محمد سعيد العريان
من مذكرات الأستاذ محمد كرد علي
للأستاذ محمد كرد علي مذكرات تتناول مشاهداته وتاريخ حياته من يوم وعى لنفسه،)

وقد تحدث فيها كثيراً عن مصر ورجالات مصر، ويسرنا أن نقدم إلى قرائنا هذه الصفحة منها.)

أخلاق القضاة

لم أرَ فيما رأيتُ من أنواع العداوات أشد من تعادي المشايخ، ولا أكثر من غمط بعضهم حق بعض، ولا أعظم من تكالبهم على حُطام الدنيا، ولا أشد تهالكا منهم على أبواب الأمراء والحكام. ولقد رُويت لي عنهم روايات ما كنت أصدقها لولا أن روايتها ممن لم يعرفوا الغيبة والنميمة. ولما أخذت أتعرف إلى الرجال رأيت ما هالني، وآلمني أن كان من يُطلب منهم الصدق هم من أول الكاذبين، ومن تفترض فيهم الأمانة هم في مقدمة الخائنين؛ وأيقنت أن القليل منهم عرفوا الكرامة وعزة النفس. وهم هم جعلوا مسلكهم بضعتهم علامة ضَعَة وصَغار، وكان علامة شرف وفخار. وأصيبوا بغرور وزهو ظنوا معهما أن سلطانهم القديم على الملوك، فمن دونهم، يبقى لهم بهذا الجهل وهذا الفساد

قلت يوماً لعالم درس تاريخ الإسلام درس تدبر، وعرف استخراج عبره: (أما كان في العصور الماضية قضاة جاهلون فاسقون سارقون، فكتب الأدب تتعرض لذكر كثير مما كان يتهمون به أليس ما روي عنهم صحيح أم صنعوه للنكتة؟) فأجاب: أكثر ما روي في سيرة القضاة قديماً صحيح، والجهل وسوء الخلق لا ينقطع دابرهما من الأرض، ولكن إذا فرضنا أنه كان في المملكة الإسلامية ألف قاض في القرون الغابرة، وألف مثلهم في هذه الأيام، فإن الألف السابقين كان فيهم عشرة فاسدون لا يصلحون، أما الألف اللاحقون فالفاسدون منهم يعدون بالعشرات بل بالمئات. وأظن السلطان بيلديرم بايزيد العثماني هو الذي جمع قضاة مملكته لما ثبت له قلة دينهم وتلاعبهم بالحكومة وأمر بقتلهم كلهم؛ فلما حقت عليهم كلمة العذاب لجئوا إلى أحد حاشيته وندمائه ورشوه بمبلغ من المال (وداوني بالتي كانت هي الداء)، فذهب إلى السلطان لابساً ألبسة السفر، فسأله السلطان عن الداعي إلى اكتسائه هذه الكسوة؛ فقال: إنه ذاهب صاحب القسطنطينية - وكانت يومئذ بأيدي الروم - ليأتي من عنده بقسيسين يتولون القضاء في بلاد السلطان. فضحك هذا وعفا عن القضاة على ألا يعودوا إلى سالف سيرتهم القبيحة

ومازالت حال القضاة في تدهور العصر بعد العصر حتى كانوا هم السبب الأعظم في إدخال قوانين الغرب على الدولة العثمانية والحكومتين العربية والتونسية لكثرة ما أساءوا إلى الشرع الإسلامي وعبثوا بأصوله وفروعه، فكانت المحاكم الشرعية بؤرة فساد، وأحكامها سلسلة من الخلل والعلل، فأكرهت أوربا الدولة على قبول قوانينها، ظناً منها أن الفساد آت من الشريعة، وما العيب إلا من جهل المنفذين لأحكامها وفساد أخلاقهم. وقد شاهدنا تحسناً ظاهراً في قضاة الشرع لما أنشأت الدولة مكتب النواب في الآستانة وكان المتخرجون على أساتذته إلى الاستقامة والعلم أكثر ممن سبقوهم بكثير. ومثل ذلك شاهدنا القضاء في مصر يتولاه اليوم الأخيار وكان في القرن الماضي يتولاه الأغمار والأشرار. بحثت سيرة من أهمني أمرهم من القضاة فقلّ جداً من اقتنعت بذمته منهم، ومن نعده مستقيماً قد لا يتعفف عن قبول الهدايا من أرباب المصالح

قصة لطيفة وقعت لقاض من أهل دمشق كان في دومة من الغوطة، وكان مضحاكا خفيف الروح يحفظ كثيراً من النوادر والفكاهات، وهذا جل رأس ماله في القضاء على ما يظهر. أتاه ذات يوم رجل اسمه محمد عبد النافع أحد ظرفاء دومة بكتاب يقول له فيه إن الله خلقه بغير إرادته، وأنى به إلى هذا العالم ولم يستشره، وزين له أن يتزوج ففعل، ورزقه أولاداً ليقربهم عيني والديهم فكانوا علة إفلاس والدهم وشقاء والدتهم، وإن فقره يزيد كلما زاد عدد أولاده؛ فهو لذلك يتلمس من القاضي أن يجلب إلى محكمته العادلة المدعي عليه وهو الله سبحانه وتعالى ليتقاضى معه؛ فرأى القاضي أن صاحب الدعوى من أصحابْ النكتة، فانتظر حتى أنجز أرباب الأشغال مراجعاتهم وأغلق باب المحكمة ولم يترك فيها غير

الموظفين والقائم مقام، وطلب المدعي وهو والحاضرون يصطنعون الجدِّ، فسأله عن دعواه على الحق تعالى، فقال إن دعواه مكتوبة في القصة التي قدمها. فقال القاضي للمدعي بعد أخذ ورد قليل: هل تسقط دعواك يا شيخ إذا أعطيت من مال الله خمس ليرات عثمانية وكيس طحين؟ قال: أفعل. قال: القاضي أنا سائلك سؤالاً تجيبني عليه بصراحة.

فقال: الأمر لسيدي. فقال القاضي: جاء هذه البلدة قضاة كثيرون قبلي فَلِمَ لم تتقدم إليهم بهذه الشكوى لينصفوك ممن تدعي عليه سبحانه وتعالى؟ فقال: لم يكن القضاة الذين يقدمون لتولي القضاء في بلدنا مثلك، كانوا يخافون منه. فصفق الحاضرون تصفيقاً شديداً استحساناً لهذا الجواب. وربما قال القاضي في سره والله لصادق؛ فأنا أعلم من نفسي أن معظم القضاة لعهدنا لا يخافون الله، هم لصوص على رؤوسهم عمائم بيضاء، وإن طعامهم ولباسهم من أموال اليتامى والأيامى. وهكذا كان هذا القاضي يقول لزوجته مفاخراً، وما أشك أنه من قضاة النار. . .

هزل مصر

ومنها من فصل عنوانه (هزل مصر):

في مصر اليوم عدة جماعات ومجتمعات تظفر في بعض حواشيها بأفراد ممتازين . . . يختلفون إلى المقاهي ويزهدون في الاجتماع في بيوتهم، وكذلك الحال في بلاد الشام، وكانت فيها الأندية الخاصة أو (البعاكيك) في كل حيّ من أحياء المدن والقرى الكبيرة. ولي جماعة في بار اللواء أمام إدارة جريدة الأهرام بالقاهرة، وهم بقايا صالحة من أرباب الثقافة العالية والوطنية الحقة الصامتة، ومنهم صديقي القديم الأمير محمد بك علي المهندس، وقد وقع لي، وأنا أسير معه في بعض الشوارع، وأمه سودانية وهو أسود البشرة محمود الصفات خدم السياسة المصرية بما يخدمها به الرجل الشريف أعواماً طويلة وما طلب على عمله لوطنه مكافأة ولا طمع في مظهر من المظاهر التي يطمع فيها المتجرون بالوطنية

وقع لي أن لاقيت على الجادة صديقاً لي آخر اسمه صالح أفندي السوداني وهو أسود أيضاً بلون محمد بك علي، وهو من أرباب الأقلام ومن المخلصين في خدمة مصر فقلت لهما: خطرت ببالي الآن قصة وقعت لي في بلدي وأنا في صدر الشباب، كان لنا جار وهو أخي من الرضاع اسمه رشيد الهبل من أبناء البيوتات القديمة وقد خلف له أهله ثروة جيدة،

وكان أسود اللون قاتمه مثلكما، ولكما المثل الأعلى، فكنا يومئذ نركب الخيل وعنده وعند والدي منها عدة نمتطي بعضها عند الأصيل وتخرج إلى المنتزهات بين البساتين. فقال لي والدي يوماً: إنك يا بُنيَّ تثبت كل يوم حسن ذوقك؛ أما رأيت في هذه المدينة الكبيرة أجمل طلعة من جارنا ابن الهبل تصحبه إلى نزهتك؟ ودعا لي بالتوفيق والغبطة! والتفت إلى الصديقين وقلت لهما من باب مطابقة الحديث للترجمة: أليس قول والدي يصدق علي الآن؟ ولا شك أن الناس هنا أدق شعوراً فيضحكون إذ يرونني بينكما. فضحكنا ضحكاً كثيراً . . وتالله إني لأفضل هذين الأسودين بما فيهما من صفات غُرّ على كثيرين من البيض أصحاب الصحائف السود.

محمد كرد علي

خواطر يثيرها سائل

للأستاذ عبد المنعم خلاف

- 3 -

سنة الله - التحرر من التاريخ - الطفولة موضع أمل - عصر العمل - شرود النساك - عالم الأجسام - فلنعش هنا - معنى العبادة - الدين ابتهاج لا كآبة - دعوة الأغنياء للدين - الحياة لعب ولهو - جناية الدولة على حياة الروح

لا يزال أكثر الناس يجهل سنة الله واتجاه إرادته في الطبيعة على الرغم من كثرة عدد العلماء الطبيعيين، ولا يزال كثير من الأمم يأبى أن يبني الحياة الإنسانية الفردية والاجتماعية كما بنى الله الطبيعة بقوانين لا تخطئ ولا تستثنى ولا تهمل، مع أن الحل الوحيد الموفق السعيد لجميع المشكلات هو أن يبني الفرد حياته وتبني الجماعة حياتها كما بنى الله الحياة العامة على الحرص الدقيق واليقظة التامة والعلم الشامل والقوة القاهرة والتصميم النافذ والاستيعاب الكامل للجزيئات والتوزيع العادل للقوى

والعناصر؛ فبرزت في هذا التناسق والانسجام والجمال
ومع هذا الجهل الفاضح من الناس (لسنة الله) نجدهم في غاية الجرأة إذ يقدمون على محاكمة الله بعقولهم الصغيرة المحدودة التي لم تعرفه بعد ولم تعرف اتجاه إرادته الظاهر في الطبيعة
إن الله احتجب عنا فلن ندركه بأبصارنا إذ لا قدرة ولا طاقة لنا على ذلك. ولكنه وضع أمامنا (خريطة) الكون مفصلة واضحة لنرى فيها تخطيطه وأسلوبه في إيجاد الحياة وتنظيمها والقيام عليها
وقد وضع الله في الإنسان قوة أشبه بمرآة تنطبع فيها جميع صور الطبيعة ونظمها وهي (العقل)، وكان من المحتم لو سارت التربية سيرها الطبيعي أن ينتقل سنة الله في الطبيعة إلى تلك القوة وينطبع فيها فتحفظه وتتنبه إليه دائماً وتسير بإرشاده في بناء الحياة الإنسانية. ولكن قوة (الاختيار) التي في الإنسان من جهة وحبه (لاختيار) كل أفق (واستطلاع) كل شئ في الحياة هما السبب في عدم تقيده بما يوحي إليه أسلوب الله، وفي خلقه لنفسه جواً صناعياً جعله يبتعد بالتدريج عن الطبيعة التي هي كتاب الله إليه وصورة
من علمه تعالى واتجاه إرادته
وشئ آخر غير (الاختيار) وحب الاستطلاع والاختبار يؤثر في إدراك الإنسان وعقله تأثيراً رديئاً. . . شئ هو كل شئ. . . هو التاريخ المسطور في الصحف الموروثة وأدمغة العجائز والشيوخ الذين هم قناطر وجسور دائمة تعبر عليها وراثات من الجاهليات الأولى متحدرة في الدماء والأعصاب والألسنة هي آثار من المحاولات الأولى المغلوطة التي حاولها الإنسان لإدراك الله وإدراك اتجاهه في الطبيعية
إن خمائر التاريخ السيئة التي تعوقنا عن رؤية الحق الصريح إنها جعلتنا أناسً صناعيين لا طبيعيين. . . فلا يزال في التاريخ كثير من الأمراض والظلمات التي كنا فيها قبل أن نشب عن الطوق وندرك الرشد، إنه من اكبر أسلحة الشر لمقاومة تقدم الإنسانية. . . إنه يربينا بما كان يربي عليه الأولون من العواطف والأفكار المغلوطة، ومن العجيب أن الاحتفاظ بخرافات التاريخ وجد له شرعة عصرية تحلله بحجة الإبقاء على (التقاليد) حتى الدين العقلي الطبيعي وهو الإسلام لم يستطيع أن يمحو مصائب التاريخ ومواريثه السيئة من الأمم التي تدين به فدخل كثير من الناس فيه من غير أن يغتسلوا غسلاً تاماً من مواريث الوثنيات والأباطيل واكتفوا بتغيير عنوان حياتهم العقلية القلبية من غير أن يخلعوا ما وراء العناوين، ولو ذهبت أتقصى بقايا الوثنيات في ديار الإسلام وفي أفكار المسلمين لطال بي المقال، وحسبي أن أحيل كل قارئ على علمه بما يجرى، وإذا كان هذا ديار الإسلام فما بالك بما في ديار غيره. . . وقد انحدرت إلينا هذه المواريث سائرة مع أصول الدين جنباً لجنب ولم تنتبه إلى ازدواج شخصياتنا تبعاً لذلك، وإني أتخيل جيلاً من الأطفال ربي بأيدي حكماء تحرروا من كل باطل واسترشدوا بأسلوب الطبيعة وسلامة الفطرة ولم يأخذوا الأفكار العامة عن الحياة والدين من التاريخ والبيئة الملوثة. . أتخيل ذلك فتسطع أمامي في هذه الأرض أنوار من الجنة الموعودة في السماء. . .
ولم يستطع نبي أن يتلقى الوحي عن الله إلا بعد هذا التجرد من التاريخ. . . إن النبوة في مبتدأها تجرد من كل شئ موروث ثم! إيغال في الوصول إلى أصول الحياة، ثم رؤية يد الله وهي تضع هذه الأصول وتحفظها، ثم سماع الله بعد ذلك. . .
والطفولة هي موضع أمل الإصلاح. . . ولكن هل تترك الإنسانية المصلحين يبنون مستقبلها؟ هذا سؤال قبله سؤال آخر: هل هي تدرك المصلحين وتعرفهم؟ نعم تدركهم ولكنها تحسدهم؛ لأن الغرائز السفلى وقوى الشر دائماً تسلط الحسد ليكون طليعة في الدفاع عنها وبقاء وجودها. .
قلوب الأنبياء والحكماء كقلوب الأطفال. . . لأنهم يرتدون دائماً إلى مبادئ الطبيعة وأوليات الحياة البسيطة التي لم تلتو مع ميراث النفاق الاجتماعي والإثم الصناعي. فهم دائماً ينظرون بفرحة وبهجة إلى الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكل شئ. . . وكل شئ. وكأنهم في ابتداء حياة جديدة كل يوم بل كل ساعة. . . وتترقى نظرتهم بترقي إدراكهم حتى ينتهي بهم الأمر إلى أن ينظروا إلى الوجود نظرة خالق الوجود! نظرة وراءها وصاية كل شئ واهتمام به وحرص على

استمرار نفاذ قوانين الحق على سنة الله وطريقته
قد كان من الواجب على الإنسان أن يقلد أسلوب الله منذ وجوده. وأسلوبه يتمثل في العمل والصمت الدائم. . . ولكن الإنسان أخذ يلهو ويعبث ويتكلم! وفرح بالكلام وقضى في علوم الكلام دهراً طويلاً من عمره، حتى جاء العصر العملي الذي لا نزال في فجره وبواكيره. وهذا العصر العملي كثير البركات على الإنسان، إذ كشف له عن كثير من أبواب كنوز الطبيعة ومفاتيحها. وكان من أول الواجبات بعد هذا العصر أن يشرع الإنسان في تعديل غرائزه السفلي وتهذيبها (وتطويرها) حتى لا تشغله بسفالاتها القديمة وصراخها الصبياني
وإني لأعجب من العلماء الطبيعيين الذين كشفوا عن كثير من الأسرار العملية في الطبيعة، ثم استمروا بعد ذلك خاضعين للغرائز السفلى ومواريث التاريخ الجاهلي! كما أعجب من النساك والعباد الذين يتنسكون ويتركون الجهاد للحياة العملية والاندماج في موجاتها!
إن الله بنّاء بنى السماء والأرض والجبال. . . وصانع صنع جسام النبات والحيوان. . . وسقَّاءٌ يسوق السحاب الثقال. . . وزراع يخرج نبات كل شئ، ومعلم هدى كل شئ إلى طبيعته. . . وفنان طرَّز حواشي الوجود، وصبغ الخدود، وزركش الأرض بالورود، ورقق أنفاس الرياح، ونشر العطر الفياح، ورقرق الأنهار، وجلا النهر، وزين الظلام بالمصابيح الوضاء. . .
(فالجمال هو توقيع الله على الأشياء)!
فكيف يأبى النساك أن يعملوا للحياة عمل الله؟!
إنهم لم يعرفوه! فلو عرفوه لساروا على أسلوبه، ولأقاموا أسواق الحياة عامرة. . . لأنه خلقهم ليعمروها لا ليتركوها غامرة صامتة صمت الخراب والقبور. . .
إن حياة التأمل في الله بدون عمل قليلة المحصول جالبة للخبال (ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا)
الأجسام! الأجسام! هي أداة الحياة في الدنيا، فيجب أن نحيا بها حياة كاملة، ولا نعطلها في البحث وراء العالم الخفي. . . يجب أن نخرجها إخراجاً جميلاً قوياً فإنها محاريب من محاريب الطبيعة أيضاً. . . بل يكاد يكون الجسم الإنساني الجميل المكتمل أجمل شئ في الوجود. . .
لعل النساك يحرمون أنفسهم هنا لينالوا ما هناك؟. . . كلا! ليس وجود الآخرة معناه ألا نحيا هنا حياة طيبة بقدر ما تسمح به طبيعة الحياة الدنيا. . . إن الآلام هي سبب الكفر والجرائم التي تحرم من جنة السماء فلنحاربها ولنمحها إذا استطعنا لنضمن الرضا عن الحياة والرضا عن الله
لماذا ننشد نعيم الآخرة بشقاء الدنيا؟! ألا يجوز الجمع بينهما؟ بلى! وإلا فالحياة مأساة! ويقيني أن صلاح الدنيا صلاح للآخرة
إن الدين لم يكلفنا بعمل أشق من الموت في سبيل الله وما معنى الموت في سبيل الله؟ أنه الموت لتكون كلمات الله هي العليا. ولن تكون كلماته كذلك إلا إذا سار الإنسان على أسلوب الله في الطبيعة فضمن سلامة الحياة من إجرام الغرائز السفلى وظلمها، فكأنه أشق عمل ديني فرضه الله وسيلة لإصلاح الدنيا. فصلاح الدنيا هو المطلوب الأول لأننا نحيا حياتنا هذه قبل حياتنا الأخرى
يقول النساك المعتزلون للحياة: إنهم يطلبون وجه الله بالعزلة. . . ولكن وجه الله الحقيقي لا يرى. . . وفي الحديث: (إن الله احتجب عن الأنظار، وإن الملأ الأعلى ليطلبونه كما تطلبونه أنتم). ذلك قول قالته أعظم نبوة رأتها الأرض، وعليه طابع جلالها وعمقها وصدق تجربتها في البحث عن وجه الله
ولكن صور وجه الله تظهر جلية رائعة في الطبيعة وفي آفاق الحياة الإنسانية. فعلينا أن
نبحث فيها عن الله وأسراره. وما خلقنا بالأجسام إلا لنعرفه في عالم الأجسام. . . علينا أن نلبس الحياة لبساً واسعاً شاملاً وأن نحسها في كل شئ إحساساً عميقاً. وتلك هي حقيقة عبادتنا. فالدين هو الإحساس بالحياة إحساساً دائماً يكون معه الفكر في الله مبدع الحياة. وبهذا أجد تفسير (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) وبهذا التفسير تتبين غاية الخالق من خلق الناس متحققة واضحة جلية. أليس كذلك أيها الأخ

البيروتي أو ليس كذلك أيها الأخ الآخر (ح. م)؟
فالإحساس الصادق بالحياة والعمل بمقتضى هذا الإحساس هو عبادة الله. وعلى هذا تكون كل حياة الإنسان في الأرض عبادة. . . حتى خدمته لنفسه وشعوره بلذاته المحللة وكشفه العلمي وعمله للرزق ما دام وراء كل أولئك فكر في الله وتنبه إلى سر إيجاده للحياة
وتبتدئ العبادة حين يحس الإنسان أنه دخل هذه الحياة مكرهاً من غير إرادة، فصبر على ما فيها من آلام ومشقات حتى يتوفى الله نفسه من جسده. . فالمنتحر كافر لأنه لم يتحمل آلام التجربة والاختبار في هذه الرحلة الأرضية التي لابد أن يكون وراءها غاية عقلية عند الذي دعانا إليها وحملنا عليها. المنتحر شخص وهبه الله الحياة فردها في وجهه. فما دمت قد شعرت أني لست أنا الذي خلق نفسي ودفع بها إلى هذا البيت الهائل العظيم فصبرت وانتظرت وفكرت في صاحبه دائماً فأنا عابد لله؛ لأنني صرت طائعاً مع أبناء الحياة، ومواكب الطبيعة التي تسير أمام عصا القهر طائعة ساجدة والفرق بين أعظم القديسين وأعظم الكافرين هو اتجاه الفكر والنية إلى رب الحياة في كل عمل وفي كل وقت. . . فالقديس كل أعمال حياته مسبوقة باتجاهات ونيات منظور فيها إلى رب الحياة. . . والكافر كل حياته غفلات يأخذ بعضها برقاب بعض فلا يفيق منها إلا عند الموت. مع أنه حين يدخل متحفاً أو بيتاً جميلاً يسرع فكره إلى السؤال عمن بناه أو نظمه. . .
لقد أفسدنا المعاني الدينية بأخذها تقليداً من دون فكر وروح وإحساس بها وبتلقينها للأحداث قبل أوان تفتحها في أرواحهم وعقولهم بمناسباتها. فحسبنا العبادة هي أداء رسوم الصلوات والزكوات والصوم وغيرها. . . كلا! إن العبادة هي الإحساس الصادق بالحياة والشعور الملازم بالله والفكر فيه، وفي أسلوبه وتقليد أعماله في الطبيعة من أول الوعي للحياة إلى
أن تحين سكرة الموت. . . وأما الصلوات وما وراءها مما يسمى عبادات، فهي فيض النفس بتلك المشاعر والأحاسيس والأفكار فيضاً يتمثل ويتشكل ويظهر في عالم الأجسام بعد امتلاء الروح. . .
والدليل على ذلك أن هذه الأعمال تكون باطلة إذا خلت من التوجه والنية. . . فكأنها مواقف (استعراض) لأجسام الذين تمثلت فيهم الحقيقة الدينية كمواقف استعراض الجنود الذين يجيشون لغاية ما، ولن يعد الجندي بلباسه وشاراته وسماته الظاهرة إلا إذا كان عامر القلب بمعاني الوطنية والغاية التي جند من أجلها.
شئ واحد ينبغي للإنسان أن يحرص عليه، حتى يحقق الغاية من خلقه: هو أن يحيى رب هذه الحياة بتحية بسيطة قبل أي عمل أو متاع، ومع كل ألم. . .
فإذا استطاعت التربية في بيوتنا ومدارسنا أن تجعل هذه الخاطرة الصغيرة عادة ملازمة للإنسان فقد قام الدين وأقيم أساسه في النفس، ثم تأتي سائر رسومه وأشكاله بعد ذلك فيضاً نفسياً وفعلاً اختيارياً
وإن إدراكنا لله في القرن العشرين يجب أن يكون أوسع منه عند جماهير الناس في القرون السالفة. وهذا منوط بالتربية، والنشأة الطبيعية تحت التأثير المباشر للطبيعة أقل ضرراً وإفساداً لنفس الطفل من التربية المغلوطة التي فيها مواريث ومقاييس فاسدة
والدين يجب أن يعلم على أنه بهجة وفرح بالحياة التي أتاحت لنا أن نعرف الله في هذه الرحلة السعيدة التي دعانا إليها على الزورق الأرضي
ولشد ما يغيظ ويؤلم أن ترى حياة التدين عند أكثر الناس ملازمة للكآبة والضعف والحزن والفقر!. . . وسوء الطريقة من دعوة الأغنياء والأقوياء للدين، هي التي حرمتهم منه وحرمته منهم، حتى صار معلوماً عند الناس أن عبادة الله لا تكون من قوة ولا غنى، وإنما تكون من الفقر والضعف الذي لا يملك على الأرض صرفاً ولا نصراً.
وعدم التفريق بين ما لابد منه في الدين لأنه ضروري وبين ما منه بد لأنه كمالي هو مما جنى على حياة التدين بعدم انتشارها بين الأغنياء والأقوياء
ثم إن مفاجأة الأغنياء والأقوياء بألحان الكآبة والحزن والموت والقبر وجهنم، وغمرهم بكثرة التكليفات التي لا يقوم بها إلا الورعون، هي التي جعلت نفوسهم تضيق بهذه القيود

القاسية التي تحبسهم عن حياة المتاع الحلال والحرام الذي لم يبين لهم سبب معقول لتحريمه إلا الخوف من عذاب جهنم. والدين إذا لم يبن على الفكر والتعليل أو شك أن ينهار بناؤه، حتى في نفوس الدعاة إليه. وخصوصاً إذا كان ديناً يهيمن على شئون الدنيا ويقيم لها حدوداً كالإسلام

أمن الحق أن يوجه فكر الإنسان دائماً إلى الموت على أنه هو المطلوب الأول من الحياة؟

وهل من الحق أن نجعل المثل الأعلى للحياة الدينية هو التفرغ لما يسمى عند الناس بالعبادات؟

قال الغزالي: (واعلم أن العلم غذاء والدين دواء، فمن جعل الدواء غذاؤه مرض. . .)

وقول الغزالي هنا قول فصل، لأنه قول خبير في هذا المقام ومن قواعد الدعوة الإسلامية الأولى أن العامة والجماهير ينبغي ألا يحملوا على الورع والزهد والتزمت. . .

والقرآن يعترف بسلطان الحياة على النفوس ويقول: (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث. ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب). ويقول: (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد). ويكرر هذا المعنى في غير موضع. فلماذا نريد نحن أن نفرض للحياة صورة عقلية كلها جد مؤلم مستمر وصرامة. ونريد أن نحمل الناس عليها، مع أن العقل والشرع والتجربة الأزلية تقرر أن هذا مستحيل؟ وهل كل ما في الحياة إلا تكوين وتخريب كلعب الأطفال؟ وهل الرجال والنساء إلا أطفال كبار يلعبون في الحياة لعبها المعهود بالجمع والطرح؟

إننا نصنع من طين الأرض وموادها الميتة آلات تسعى وتطير وترى وتسمع. . . ثم نخربها بالاستعمال والامتهان ونكون غيرها وهكذا. .

إننا نشقى في جمع المال والاقتناء والاستكثار ثم نترك كل هذا لغيرنا يعبث فيه ويبدده. أليس هذا عبثاً أو شيئاً أشبه بالعبث في نتائجه؟ ولكننا محمولون على هذا من الطبيعة ولن نملك لأنفسنا غيره، ورجال الدين مثلنا مع أننا نعلم ما تقول الحياة وما قال القرآن عن الدنيا من أنها (متاع الغرور)

فلماذا لا ننظر إلى الحياة على حقيقتها هذه ثم لا نتشاءم من كثرة ظواهر الشرور فيها،

حتى لا يحملنا التشاؤم على اليأس وترك الكفاح، ثم نحاول أن نتلطف في الدخول على الطبيعة البشرية اللاهية اللاعبة فنقنعها بواجبات الجد والعمل في الأوقات القليلة التي لم يطلب الله في غيرها من الإنسان أن يؤدي عملاً؟

وكما تلطفت التربية في الدخول على طبيعة الأطفال، فعلمتهم مبادئ العلوم، ودربتهم على مبادئ الأخلاق عن طريق اللعب من غير شعور، ينبغي أن تفعل مثل ذلك مع الأطفال لكبار: الرجال والنساء. . . وتلك هي رسالة رجال الروح. . .

ولكن الدولة قد جنت على الحياة الروحية أكبر جناية حين أباحت الانتساب إلى الدين لمن لا تؤهله عقيلته، ولا ثقافته، ولا تكوينه الجسمي أن يكون قائداً من قواد الروح، وعنواناً جذاباً للدين. . . وإلى الآن لم يتيقظ كبار رجال الروح إلى ضرورة وضع حد لهذه الحالة مع أنهم يدرسون في علوم العقائد أن الله لم يرسل رسولاً إلا بعد الانتقاء والاصطفاء، وأنه لا بد أن يتحلى بالصدق والأمانة والتبليغ والفطانة والخلو من العيوب المنفرة. . .

ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة فقد كان ذكياً قوياً جميلاً لطيف الروح دمث الأخلاق رحب النفس نظيف الجسم والثوب يمشط شعره ويعطر ثيابه ويخضب لحيته

ولقد عاش رسول الله بجسده عيشة رحبة كما عاش بروحه فسابق وصارع وركب وحارب ولبس الدروع واقتنى السيوف والخيل وأكل من الطيبات وتمتع بالنساء، وأمر بالهرولة في السعي إظهاراً للقوة، واستعرض الجنود. . . ولذلك خضع لقوانين الأجسام ولم يشرد على المجتمع هائماً ولم يعش منطوياً على نفسه يأكل خواطره وتأكله خواطره

فكذابون أفاكون هم الذين يزعمون أن الله لا يريد أجسامنا، إنه ما خلق أرواحنا إلا فيها ولم نعرفه إلا من نوافذها وحواسها وهي أدوات علومنا وإحساسنا بالحياة، وهل نرى

في الحياة غير الأجسام. . . إن حياة الروح الخالص لا تكون في الأرض إلا كلمعات البرق
لقد ضاع الحق من المسلمين لما أهملوا قوانين عالم الأجسام والتفتوا إلى عالم البدوات والأماني والأحلام والكلام. فضاعت القوة لما ضاع الحق فهما صنوان متلازمان: فالحق قوة، والقوة حق!
(القاهرة)
عبد المنعم خلاف
الفقه الإسلامي ورعاية الصالح العام
للأستاذ محمد محمد المدني
المدرس بكلية الشريعة
(الفقه الإسلامي) مستنبط من الشريعة الإسلامية وهذه الشريعة تمتاز بأنها شريعة الفطرة، وشريعة العقل، وشريعة الرحمة:
فهي تعترف بالحقائق، ولا تحاول الخروج على السنن الكونية ولا تصطدم بالعلم، ولا تضيق صدراً بالإصلاح، ولا تكلف الناس ما ليس في استطاعتهم!
ذلك بعض ما كانت به الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، وجعل لها هذا الاعتبار العام، ولم يكن فقهها معه شخصياً ولا موضعياً
وليس معنى هذه الصلاحية أن كل جزئية من جزيئات الفقه التي استنبطت لا تقبل التغيير ولا التعديل، فإن ما صلح للأولين لا يعقل أن يكون هو بعينه، وفي جميع جزيئاته، ما يصلح للآخرين ذلك أن شريعة العقل والرحمة لا تجهل أن الأحوال دائماً في تغير، والدنيا في تقلب، ولكل قوم عادة وعرف
ولو كان هذا هو المعنى المقصود من قولهم: (إن الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان)، لوقعنا منه في حرج عظيم، وتكليف لا يحتمل
أيجوز مثلاً أن نرجع بالمساجد إلى حالتها الأولى، فنجردها من الفرش والبسط، ونكتفي بأن نفرشها بالرمل أو الحصباء، لأن سنة السلف في مساجدهم كانت كذلك؟
أيجوز مثلاً أن نلزم القاضي بأن يكون له في المسألة الواحدة قضاء واحد من غير تفرقه بين أحوال المتقاضين وبيئاتهم؟
لقد سمعت أن قاضياً شرعياً عُرضت عليه قضية أهان الزوج فيها زوجته بألفاظ جارحة - وهما زوجان من وسط راق - فطلبت الزوجة التفريق، فقضى لها به القاضي
فهل يجوز للقاضي أن يقضي بمثل ذلك في قضية يكون الزوجان فيها من وسط قد ألف ذلك فيه، بل ألف فيه ما هو أشد منه كالضرب مثلاً؟
أيجوز لنا مثلاً أن نلزم وزارة الدفاع أن تلبس جنودها العمامة البيضاء تحقيقاً للخبر الذي يروون: (تعمموا فإن الشياطين لا تتعمم)؟
إن هذا وما يماثله هو الحرج الذي لا يرضى الله به ولا يرضى به رسوله، ولا تقول به شريعة العقل والرحمة!
يقول أبن القيم (إن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد، في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها وحكمة كلها، وكل مسالة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة، وإن أدخلت فيها بالتأويل!)
فالمعنى إذن في صلاحية الشريعة لكل زمان ومكان، أن الشريعة قد بنيت أحكامها على رعاية المصالح، ولما كانت المصالح تختلف باختلاف الناس، وتتكيف بتكيف الظروف والبيئات، وتتغير بتغير العوائد، اعترفت الشريعة بذلك ففتحت باب الاجتهاد وأباحت للناس أن يستنبط أولو الرأي منهم ما يصلح لهم، وينهض بهم في حدود ما رسمت وبينت
وآية ذلك أن الشريعة الإسلامية تركت كثيراً من الفروع من غير نص على أحكامها، وأنها تعني - قبل كل شئ - بالأصول العامة والمبادئ الأساسية، دون التفاصيل والجزيئات!
وفي هذا المعنى يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدوداً فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها. وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان، فلا تبحثوا عنها)

فهذه الأشياء هي موضع اجتهاد المجتهدين، وقوله (فلا تبحثوا عنها) أي فلا تطلبوا فيها نصّاً فتحرجوا أنفسكم. هذا معنى قوله تعالى:
(يا أيها الذين آمنوا لا تَسْألوا عن أشياء إنْ تُبْد لكم تسؤكم، وإن تسألوا عنها حينَ يُنزَّل القرآن تبد لكم، عفا الله عنها، والله غفور حليم. قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين)
وليس اعتبار الظروف والأحوال، ورعاية الصالح العام، في الفقه والأحكام، بالشيء المستحدث، فقد وجد منذ وجد التشريع، وكان حيث كان الفقه والاجتهاد
وإننا نسوق أمثلة من أحكام الرسول، صلوات الله عليه، وأمثلة من أحكام الصحابة ومن بعدهم من الفقهاء والأمراء
1 - في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها، أن قريشاً أهمهم أمر المخزومية التي سرقت، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله؟ وهل يجترئ عليه إلا أسامة؟ فلما كلمه أسامة قال: (أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة؟ إنما هلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد. والذي نفسي بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها!)
2 - وروي أبو داود أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن تقطع الأيدي في الغزو
فهذان حكمان لرسول صلى الله عليه وسلم في شئ واحد هو الحد: تراه في الأول يصر على إقامته، ولا يقبل تعطيله، مع أن السارق امرأة من أكبر القبائل وأشرف البيوت، ومع أن أمرها أهم قريشاً وأزعجهم، ومع أن الشفيع صاحب من أحب أصحابه إليه!
وتراه في الثاني ينهى أن تقطع الأيدي في الغزو، فهل كان إصراره الأولى لأن أمراً كهذا لو دخلته الشفاعة، وقبلت فيه الوساطة، وفرق بين الشريف والوضيع، لضاعت الحكمة المقصودة فيه، وبطلت الغاية المرجوة منه!
وهل كان نهيه في الثانية إلا خشية أن يترتب عليه ما هو أضر على المسلمين، وأبغض إلى الله، وهو لحوق المقطوع بالعدو حمية وغضباً. ولكن التشديد الأولى، والتسامح في الثانية، يدعو إليهما أمر واحد وإن اختلفا ظاهراً، وهو الحرص على أمور المسلمين، أن يفضي إليها الخلل، أو يلحقها الاضطراب والفساد.
وقد روى مثل ذلك عن أصحاب رسول صلى الله عليه وسلم:
1 - قال علقمة: كنا في جيش في أرض الروم ومعنا حذيفة بن اليمان، وعلينا الوليد بن عتبة، فشرب الخمر، فأردنا أن نحده، فقال حذيفة: أتحدون أميركم وقد دنوتم من عدوكم فيطمعوا فيكم؟
فهل ترى فهم حذيفة، ونصيحته للمسلمين حين فهم ونصح إلا فقها تملية السياسية الرشيدة، والنظر الصحيح؟
2 - وشبيه بهذا ما روى من أن سعد بن أبي وقاص كان قائد المسلمين يوم القاسية، فأتى بأبي محجن، وقد شرب الخمر، فأمر به إلى القيد فلما التقى الناس قال أبو محجن:
كفى حزناً أن تطرد الخيل بالقنا ... وأترك مشدوداً على وثاقيا!
ثم قال لامرأة سعد أطلقيني، ولك عليَّ إن سلمني الله أن أرجع حتى أضع رجلي في القيد،
فإن قتلت استرحمتم مني. فحلت وثاقه، فوثب أبو محجن على فرس لسعد يقال لها البلقاء، وكانت بسعد يومئذ جراحه فلم يخرج، ثم أخذ أبو محجن رمحاً وخرج فجعل لا يحمل على ناحية من العدو إلا هزمهم، وجعل الناس يقولون: هذا ملك! لما يرون من صنيعه، وجعل سعد يقول وهو يرقب المعركة: الضبر ضبر البلقاء والطعن طعن أبي محجن وأبو محجن في القيد!! فلما هزم العدو رجع أبو محجن فوضع رجليه في القيد، وقصت امرأة سعد على سعد ما كان من الأمر، فقال سعد: والله لا أضرب اليوم رجلاً أبلى هذا البلاء للمسلمين، فخلى سبيله! فقال أبو محجن: قد كنت أشربها إذ يقام علي الحد فأطهر منها، فأما إذ أبطلته عني فو الله لا أشربها أبداً
قال في أعلام الموقعين (إن سعداً قد اتبع في ذلك سنة الله تعالى فإنه لما رأى من تأثير أبي محجن في الدين، وجهاده وبذل نفسه لله ما رأى درأ عنه الحد، لأن ما أتى به من هذه الحسنات غمر هذه السيئة الواحدة، لا سيما وقد شام فيه مخايل التوبة

النصوح وقت القتال، إذ لا يظن بمسلم إصراره في ذلك الوقت الذي هو مظنة القدوم على الله، وهو يرى الموت
وأيضاً فهو بتسليمه نفسه، ووضع رجليه في القيد اختياراً قد استحق أن يوهب له حده، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم للرجل الذي قال له: يا رسول الله، أصبت حداً فأقمه علي، فقال: هل صليت معنا هذه الصلاة؟ قال: نعم، قال: فاذهب فإن الله قد غفر لك حدك!)
وهذا هو الفقه!
3 - ولقد كان عمر بن الخطاب، وهو في الفقه والعلم من هو، يعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعطي المؤلفة قلوبهم، وأن أبا بكر كان يعطيهم، وأن الله يقول: (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم. . . الآية) ولكنه مع ذلك كله لا يعطيهم، ويقول لهم: إن الله أعز الإسلام وأغنى عنكم، فإن ثبتم عليه، وإلا فبيننا وبينكم السيف!
فهو قد علل الإعطاء بالمصلحة، إذ كان الإسلام بحاجة إلى استرضاء هؤلاء وتأليف قلوبهم، فلما ارتفعت هذه الحاجة بعزة الإسلام، لم يبق إلى استمرار الحكم من سبيل
4 - ولقد ولى زياد بن أبيه إمارة البصرة من قبل معاوية، فوجدها وكراً من أوكار الفساد، وموطناً من مواطن الفجور، فخطب فيهم خطبته (البتراء) التي كان بها أول من أعلن
الأحكام العرفية في الإسلام فقال: (وإني أقسم بالله لآخذن الولي بالمولي والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والمطيع بالعاصي، والصحيح منكم في نفسه بالسقيم أو تستقيم لي قناتكم. . . فإياي ودلج الليل، فإني لا أوتي بمدلج إلا سفكت دمه. . . وإياي ودعوى الجاهلية فإني لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه. . . وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة، فمن غرق قوماً غرقناه، ومن أحرق قوماً أحرقناه، ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه، ومن نبش قبراً دفناه حياً)
وقد سكت معاوية عن ذلك فلم يعلم أنه راجعه فيه، فهل كان هذا الفعل من زياد، وهذا السكوت عليه من معاوية ألا اجتهاداً وسياسة، استباحا بهما إحداث ما لم يكن من الأحكام وفي مثل هذا يقول الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز: تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور
وإنك لتجد في فقه المذاهب كثيراً مما علق الحكم فيه على العادة والعرف، واعتبر فيه تغير الزمان
1 - يقول المالكية: إن المرأة إذا مات عنها زوجها يستحب لها أن تلبس السواد زمناً، رعاية لحقه ووفاء له، ثم يقولون: إلا إذا كان السواد زينة قوم البياض حدادهم، فإن حدادها عليه حينئذ لبس البياض!
2 - إن النبي صلى الله عليه وسلم فرض صدقة الفطر صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير أو صاعاً من إقط؛ وهذه كانت غالب أقواتهم بالمدينة. فأما أهل بلد قوتهم غير ذلك، فإنما عليهم صاع من قوتهم، كمن قوتهم الذرة أو الأرز أو التين أو غير ذلك. فإن كان قوتهم من غير الحبوب: كاللبن واللحم والسمك؛ أخرجوا فطرتهم من قوتهم كائناً ما كان، وهذا قول جمهور العلماء
وقد اجتهد علماء الأحناف إلى أبعد من ذلك، فنظروا إلى العلة التي من أجلها فرضت الزكاة في هذا اليوم، وهي الترفيه عن الفقير وإغناؤه عن المسالة، فأجازوا إخراج قدرها من المال، لأنه أنفع له وأيسر لسد خلته!
3 - وكثيراً ما تجد في كتب الحنفية قولهم هذا: تغير عصر وأوان، لا تغير حجة وبرهان. يقولون هذا تعليلاً لاختلاف المروي عن أمامهم أو أحد أصحابه في المسألة الواحدة فالمسألة إذن مفروغ منها، والأمر فيها بين واضح، وأساسها المصلحة التي جعلها الله أساساً لكل شئ!
ولقد جنى على الشريعة الإسلامية حملتها في بعض ما مضى من الزمان، فأظهروها للناس بمظهر الشريعة الجامدة في أحكامها، التي يضيق صدرها بما يحدث للناس من نظم، أو يرون الأخذ به من أسباب، ولم يحاولوا أن يدرسوا هذه النظم والأسباب ليتبينوا أمرهما، فإن وجدوا خيراً وصلاحاً فإن الله لا يأبى الخير والصلاح، ولا بد أن يكون في الشريعة السمحة منفذ إليهما، وإن كانت الأخرى أنذروا قومهم، وأقنعوهم

بالضرر فيما هم عليه مقبلون، أو به آخذون
لم يفعلوا ذلك ولكنهم اكتفوا بالصياح والشغب على الناس وتنكبوا طريق أهل العلم في الإقناع أو الاقتناع، والشغبُ والصياح لا يجديان شيئاً في قضايا العلم، ولا يصلحان أداة له في هذا الزمان!
على الأزهر الحديث إذن أن يرأب ما أثأت يد الغفلات إذا أراد أن ينظر الناس إلى الفقه فيما يأخذون به من تشريع، ويسنون من قانون
على الأزهر الحديث أن يلبي مطالب الزمن، وأن يعرف مواضع الحاجة القومية فيجتهد في وضع حلول من الفقه الواضح الجيد لهذه المشاكل التي تعرض للناس في حياتهم الاجتماعية: في بيوتهم، وتجارتهم، واقتصادهم، وقضائهم، وعقوباتهم!
عليه أن ينظر فيما جد من الأقضية والأحداث والنظم، فيعرض كل ذلك على الفقه ليعرف الوجوه التي كانت بها مخالفة له، والوجوه التي يمكن بها أن توافقه أو يقنع الناس بأنها أشياء في غيرها غنى عنها وعوض منها
وهانحن أولاء نشهد طلائع على يد طائفة من مفكري الأزهر وبقيادة شيخه المصلح العظيم
ولن يمضي زمان طويل حتى يكثر فينا هذا الصنف من الفقهاء، المنتجين المجددين، وحتى يسحب الزمان ذيل العفاء على (فقهاء بيزنطة) الجامدين!

محمد محمد المدني

في الاجتماع اللغوي

نشأة مراكز اللغة

للدكتور علي عبد الواحد وافي

يمتاز الإنسان بصدد التعبير عن بقية الفصائل الحيوانية بأمرين: أحدهما اللغة الصوتية، وثانيهما المراكز المخية التي تشرف على مختلف مظاهر هذه اللغة (مركز إصدار الألفاظ، مركز حفظ الكلمات المسموعة، مركز الكلمات المرئية. . . الخ) فقد ثبت أن هذه المراكز ليس لها نظير في مخ أية فصيلة حيوانية أخرى حتى الفصائل العليا من القردة نفسها
فالبحث في نشأة اللغة يتطلب إذن دراسة موضوعين اثنين: أولهما نشأة الكلام في الفصيلة الإنسانية؛ وثانيهما نشأة مراكز اللغة في المخ الإنساني
وقد درسنا أول هذين الموضوعين في المقال السابق، وسنعالج ثانيهما في هذا المقال
اختلف الباحثون اختلافاً كبيراً في نشأة مراكز اللغة في الفصيلة الإنسانية
فالقائلون باستقلال النوع الإنساني في نشأته عن الأنواع الحيوانية الأخرى يذهبون إلى أنه قد خلق مزوداً بهذه المراكز كما خلق مزوداً بخصائصه الأخرى كاعتدال القامة وإدراك المعاني الكلية. . . وما إلى ذلك. ويرون أن هذه المراكز كانت في مبدأ الخلق ساذجة قاصرة؛ ثم ارتقت في بعض الشعوب حتى وصلت إلى درجة كبيرة في الدقة والنضج؛ على حين أنها جمدت في شعوب أخرى فلم تتزحزح كثيراً عن الحالة الساذجة التي خلقت عليها. ويرجع الفضل في ارتقائها إلى عوامل كثيرة منها كثرة استخدامها في وظائفها وما تمرن عليه من عادات مكتسبة واتساع الحضارة الإنسانية وارتقاء التفكير. . . وهلم جرا. فشأن مراكز اللغة في ذلك شأن أعضاء الحس وأعضاء الحركة في الجسم الإنساني: تخلق مزودة بالقدرة على القيام بوظائفها، وتظل قابلة للارتقاء في هذه الناحية ما أتيحت لها الوسائل المواتية، فإن لم يتح لها ذلك قصرت عن القيام بوظائفها أو جمدت على الحالة التي كانت عليها في نشأتها الأولى
وأما القائلون بمذهب الارتقاء وتفرع الإنسان عن غيره من الفصائل الحيوانية، فيرون أن الفضل في نشأة هذه المراكز عند الإنسان يرجع إلى الظروف التي أحاطت به في مبدأ نشأته، وإلى الأمور التي ألجأته إليها مقتضيات حياته، وبخاصة ما يتصل منها بشؤون
دفاعه عن نفسه. وقد اختلفوا في تصوير هذه النشأة على الرغم من اتفاقهم على الأسس السابق ذكرها. وأشهر نظرياتهم بهذا الصدد نظرية دارون التي تتلخص في أن الإنسان كان في الأصل من الفصائل المتسلقة الأشجار؛ ثم اضطرته ظروف قاهرة إلى العيش على الأرض، حيث تعرض لغارات الحيوانات القوية وسطوها عليه. فاستخدم في مبدأ الأمر في مقاومتها أنيابه وأعضاء جسمه كما كان يفعل من قبل

وكما تفعل أفراد فصيلته. ولكن هذه الوسيلة كانت تضطره إلى الارتماء في أحضان عدوه فتعرض حياته الخطر. فهدته غريزة المحافظة على الحياة إلى وسيلة أخرى تدفع عنه عدوان الحيوان بدون أن تضطره إلى الاصطدام به. وذلك بأن يقذف عليه عن بعد قطعاً من حجارة أو خشب أو معدن، أو بأن يمسك بطرف عصا ويدفعه عنه أو يضربه بطرفها الآخر. وقد كان لهذا الأسلوب الجديد أثران كبيران في حياة الإنسان:
أحدهما أنه يضطره إلى الوقوف على رجلين اثنين في أثناء دفاعه عن نفسه. ومن تكرار هذه الوقفة أخذت قامته تعتدل شيئاً فشيئاً حتى استوى القسم الأعلى من جسمه مع أطرافه السفلى، وأخذت عادة المشي على أربع تضعف بالتدريج حتى انقرضت (وإن كانت تظهر في بعض مراحل الطفولة الإنسانية وفقاً لقوانين الوراثة النوعية التي تقضي بأن يجتاز الطفل في سبيله من الطفولة إلى الرجولة نفس المراحل التي اجتازها النوع في سبيله من الحيوانية إلى الإنسانية ومن الوحشية إلى الحضارة)
وثانيهما (وهو الذي يهمنا في موضوعنا) أن هذا الأسلوب الدفاعي قد أعفى الإنسان من استخدام فكه وأسنانه في الدفاع عن نفسه؛ فتعطلت هذه الأعضاء عن القيام بجزء كبير من وظيفتها ونجم عن ذلك تقلص العضلات والعظام الصدغية التي تتحرك مع الفم؛ وترتب على هذا التقلص أن اتسع مجال النمو للجمجمة، فزاد حجمها عما كان عليه؛ وباتساع حجم الجمجمة اتسع مجال النمو للمخ، فزاد حجمه ونشأت به مراكز جديدة لم تكن به من قبل، من أهمها مراكز اللغة التي نحن بصدد الكلام عنها
ولتأييد هذا الأثر الأخير، قام العلامة أنتوني بتجربة على عدد من الجراء (الكلاب الصغيرة)؛ وذلك بأن استأصل جزءاً من عضلاتها وعظامها الصدغية، وتتبع نمو جماجمها بعد هذه العملية؛ فتبين له أنها أخذت تتسع أكثر من المعتاد.
وقد تصدى كثير من العلماء المحدثين للتحري عن هذه الحقائق، فثبت لهم فسادها من نواح كثيرة لا يهمنا منها الآن إلا الناحية المتعلقة بنشأة مراكز اللغة. فقد ظهر لهم بهذا الصدد أن تعطيل الفك والأسنان، وإن نجم عنه اتساع في الجمجمة، لا يترتب عليه مطلقاً اتساع في حجم المخ أو اختلاف في تعاريجه أو شكل تكونه. والتجربة التي قام بها أنتوني تدل هي نفسها على صحة ذلك. فقد ظهر له أن جماجم الجراء قد انحسرت عن أمخاخها، بدليل أن الآثار التي تنطبع عليها من ملاصقتها للمخ قد انمحت. فاتساع الجمجمة الناجم عن تقلص عضلات الصدغ وعظامه لا يتبعه إذن اتساع في حجم المخ أو نشأة مراكز جديدة كما يزعم دارون
وكثيراً ما تتسع الجمجمة عند بعض الناس اتساعاً غير عادي لسبب آخر غير تقلص عضلات الصدغ وعظامه، ولكن لم يحدث مطلقا في حالة من حالات هذا الاتساع أن زاد حجم المخ أو تغيرت صورته. وعلى العكس من ذلك نمو المخ نفسه، فإنه يرغم الجمجمة على الاتساع ويشكلها بالشكل الذي يتفق مع نموه. فإن قاومته بأن كان عظم اليافوخ (حيث يتلقى عظم مقدم الرأس بعظم مؤخره، وهو الذي يكون ليناً في الصبي) قد اشتد قبل أوانه، تغلب على مقاومتها، وشق لنفسه طريقاً على أي وجه. فأحياناً يدفعها إلى الأمام فينشأ الشخص بارز الجبهة؛ وأحياناً يدفعها إلى الخلف فينشأ الشخص أحدب الرأس؛ وأحياناً يدفعها إلى أعلى فينشأ مُسَنِّم الرأس؛ وأحياناً يدفعها من ناحيتين أو أكثر فينشأ مُدَنَّخ الرأس. وهكذا فالطريق الطبيعي للارتقاء - إن كان ثمة ارتقاء - هو أن يتسع المخ أولاً وتوجد فيه مراكز لم تكن موجودة من قبل، ويتبع ذلك اتساع في الجمجمة، لا أن تتسع الجمجمة أولاً ويتبعها اتساع المخ كما يقول دارون ومن نحا نحوه
على أن الارتقائيين لم يكونوا في حاجة إلى هذه الفروض التعسفية لتعليل نشأة مراكز اللغة بطريقة تتفق مع مبادئهم. فقد كان في إمكانهم أن يذهبوا إلى أن هذه المراكز لم تنشأ من العدم، بل كانت نتيجة تطور لمراكز قديمة أو لأجزاء من مراكز قديمة. كان في إمكانهم مثلاً أن يذهبوا إلى أن جزءاً من مراكز الحركة الخاصة بعضلات الوجه قد تخصص في حركة أعضاء النطق، ومع تقادم الزمن وكثرة مزاولته لهذه الوظيفة تشكل بالشكل الذي يتفق معها واستقل عن غيره وأخذ يسير في سبيل الارتقاء حتى وصل إلى

الحالة التي هو عليها الآن، كان في إمكانهم أن يقولوا هذا بصدد مراكز الكلام ويقولوا مثله بصدد المراكز اللغوية الأخرى، فيتقوا معظم ما وجه إلى فروضهم السابقة من اعتراضات، ويكون مذهبهم أدنى إلى القبول وأكثر اتفاقاً مع حقائق الأمور، وذلك أنه بالموازنة بين مخ الإنسان وأمخاخ الحيوانات القريبة منه، يظهر أن مراكزه اللغوية - على فرض أنها لم تكن موجودة في أصل خلقته - كانت نتيجة تشكيل جديد لبعض المراكز الموجودة في أمخاخ هذه الحيوانات.

علي عبد الواحد وافي

ليسانسيه ودكتور في الآداب من جامعة السوربون

الأزهر والحياة العامة

للأستاذ محمود الشرقاوي

كان مفيداً وقيما ذلك الحديث الذي أفاض به صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي (للرسالة) منذ أسبوعين، واستطاع صاحب (الرسالة) أن يركّزه وأن يلخصه لقرائها في بيان واضح وفكر واضح

وكان قيماً ومفيداً ما كتبه صاحب (الرسالة) في مقاليه عن الأزهر ورجاله وأبنائه وحاله في القديم والجديد وما نرجوه ويرجو منه المسلمون في العصر الحديث

وقد أثار حديث الأستاذ الأكبر وأثار مقالا الأستاذ الزيات مثاراً من المقالات والمناقشات في الرسالة وفي غيرها من الصحف، وكان بعض ما نشر من ذلك فيه كثير من الشطط

وكان من أقوم ما كتب عن ذلك ما نشره صديقنا الدكتور زكي مبارك في مجلة أسبوعية على طريقته من الصيال

وقد حرك في نفسي حديث الأستاذ الأكبر ومقالا الرسالة وما نشر بسببهما من الآراء والمناقشات شوقاً لأن أكتب بعض الملاحظات عسى أن يجد فيها الأستاذ الكبير صاحب الرسالة شيئاً من الحق وشيئاً من الإفادة

ونحن اللذين تعلمنا في الأزهر وقضينا فيه خير الأشطر من شبابنا لا نفتأ نشعر بالحنين إليه ونديم التفكير فيه، مهما تباعد بيننا وبينه الأيام

يكتب الكاتبون وقول القائلون إن الأزهر الحاضر متأخر متخلف عن عصره وعن الحياة الجديدة في العالم، وأنه قديم في الفهم قديم في التفكير. ويكتب الكاتبون ويقول القائلون يطلبون أن يخرج الأزهر علماء كرجال الدين في أوربا، ثقافة ذهن، واستنارة فكر، وسعة عقل، ومرونة تفكير، ولياقة أداء ودعوة، وأن يكون طلبته على شاكلة ما يكون أندادهم في بلاد الغرب تهيؤاً واستعداداً

وهؤلاء الذين يقولون ذلك لاشك في أنهم مخلصون في أمانيهم، ولا شك في أن الأزهر لن يقوم بما يجب عليه في حياة مصر وتقدمها، وفي حياة الشرق وتقدمه، ولن يساهم بنصيبه وقسطه في توجيه الحياة الروحية والدينية والخلقية في الشرق (وأوشك أن أقول في العالم كله) - إلا إذا كان علماؤه كما يكتب الكاتبون، ويتمنى المتمنون، وكان طلبته كما يكتب

الكاتبون ويتمنى المتمنون

وقد روى عالم من أكبر علماء الأزهر كلمة للمغفور له الملك فؤاد هي نبراس ما يكتبه هؤلاء ولا نشك في صوابهم فيه

روى أن الملك فؤاد حدثه بأنه يريد أن يرى علماء الأزهر كأندادهم رجال الدين في أوربا، وأن هذه أمنية من أعز أمانيه

ولكن هؤلاء الكاتبين والباحثين ينسون أن الأمنية شئ والحقيقة شئ. ويفوتهم أن المشتهي المرغوب والمتمني المطلوب شئ والأمر الواقع الذي لا مناص منه شئ

فالأزهر ليس كجامعة اللاهوت في أوربا، وعلماء الأزهر ليسوا كرجال الدين فيها، وطلبته ليسو كطلبة الجامعات أو الدراسات الدينية فيها. ولكن هذا لا دليل فيه على أن الأزهر رجعي وأنه قديم في الفهم قديم في التفكير

فإن هؤلاء الباحثين يقيسون الأزهر ورجاله وأهله على قياس أشباههم في بلاد الغرب، ويقارنون بينهم وبين رجال الدين فيه؛ ولا شك في أن هذا القياس شطط وأنه بعيد عن الحكمة وعن الصواب

فالحياة المصرية والحياة الشرقية كلها بعيدة عن الحياة الغربية: الحياة العقلية والحياة

الثقافية والحياة الأدبية وكل نوع ولون من أنواع الحيوات وألوانها وشكولها، شتان بين الشرق والغرب فيها

ومن الشطط والبعد عن الإنصاف أن نفصل بين الأزهر وبين أنواع الحياة المصرية الشرقية وألوانها وأن نقارن بينه وحده وبين أوربا. بل الإنصاف يقتضينا أن نقارن بين الأزهر وبين غيره في مصر، وأن نوازن بين الحياة العقلية والحياة الذهنية والحياة الأدبية فيه، وبين هذه الحيوات في مصر

والذين يقيمون الميزان بين الأزهر وبين أوربا نقول لهم: هل يرضيكم أن نقيم الميزان بين الجامعة المصرية وجامعات أوربا؟

وأن نقيم الميزان بين المدارس في مصر والمدارس في أوربا؟ وأن نقيم الميزان بين الحياة الأدبية والذهنية والثقافية ي مصر في أي مظهر من مظاهر نشاطها وبين نظائرها وأشباهها في أوربا؟

ليقل لنا الدكتور زكي مبارك، وقد خبر الجامعة والتعليم في المدارس ويعرف كلمة الحق: هل رضي عن شئ من مظاهر الحياة العقلية الأدبية والتعليمية في هذه أو تلك؟ وليقم لنا الميزان بين هذه الجامعة وهذه المدارس، أو ليقم لنا رجال الجامعة أنفسهم والمنافحون عنها والمستطيلون بها الميزان بين الجامعة المصرية والمدارس المصرية وبين جامعات أوربا ومدارسها، ليقيموا لنا ميزان العدل وقسطاس الحق ثم ليدلونا أيها الراجح وأيها المرجوح

فالأزهر يجب أن يحدد مكانه وأن يوزن نشاطه وأن تقوم المقارنة بينه وبين غيره في مصر، لأنه جزء منها ولا يستطيع أن يسير وحده ولا أن يتقدم وحده ولا أن يسبق في جيش من المتخلفين، والحياة الاجتماعية كعربة ذات عجلات أربع، الأزهر واحدة منها، ولا يمكن أن تسير عجلة من العربة فتسبق، ولو كان ذلك لما استقامت العربة في سير ولا حركة، أو هي كالكائن الحي لا يمكن أن يسبق منه عضو عضواً في النماء والحياة، وإلا كان الكائن الحي كله منتهياً إلى الهلاك والموت أو للتشويه والنقص.

فإذا أقمنا بعد ذلك الميزان بين الأزهر وبين غيره في مصر والشرق، وإذا وازنا بين الحياة الثقافية والذهنية والتعليمية فيه وبين ذلك كله في غير الأزهر من المعاهد في مصر والشرق؛ فعند ذلك يستقيم الميزان ولا نكون قد بعدنا عن الشريعة الإنصاف؛ وعند ذلك أيضاً لا نظن أن الأزهر كفته تشيل، ولا أن كفة غيره تميل، ولا أن يكون غيره الراجح وأنه المرجوح.

ومن الإنصاف أيضاً أن نقارن بين الأزهر الجديد وبين الأزهر في الماضي، حتى القريب منه، وقد أشار الشيخ الأكبر إلى هذه الملاحظة في حديثه للرسالة وفي غيره، وهي مقارنة لا تحتاج إلى كثير من الكلام

ومن العنت أن نهمل التراث الزمني والتقاليد القاسية عندما نتكلم عن تطور معهد هو بطبيعته ركن الأركان في التقاليد، بل هو الركيزة التي تثبت فيها الحياة العامة كلها فلا تنحرف ولا يجرفها التيار القوي من مغريات التجديد والاندفاع

ولا نريد بعد ذلك أن نقول إن الأزهر عظيم عظيم، ولا إنه يقوم بواجبه، ولا إن التفكير فيه والحياة الذهنية فيه والتعليم فيه مما تغتبط به النفس وينشرح له الصدر ويبشر بمستقبل الخير. لا نقول ذلك ولا شيئاً منه؛ ولكنا نقول إلى جانب هذا إن الجامعة المصرية

والمدارس الحكومية، وإن الحياة الذهنية والحياة العقلية والحياة الأدبية في مصر والشرق، ليست مما تغبط به النفس وينشرح له الصدر ويبشر بمستقبل الخير ما دام هذا الحال، ونريد أن نتمنى بعد ذلك ما تمناه الملك فؤاد لرجال الأزهر ومساواتهم بأندادهم رجال الدين في أوربا، ونزيد على أمانيه التمني بأن تستوي الحياة المصرية كلها والحياة الشرقية، وأن يتساوى الشعب المصري والشرق بهذه الأمم ذوات السيادة في الغرب وأن نكون لهم أنداداً في حياتنا كلها وفي نشاطنا كله

وفي حديث الأستاذ الأكبر و (تصحيح) صديقنا الدكتور زكي مبارك له، موضوع آخر نترك الكلام عنه إلى عدد قادم من (الرسالة) فقد طال بنا اليوم الحديث.

محمود الشرقاوي

عالم من الأزهر

من وراء المنظار
صاحب الديوان المجد
مجد في عمله، لا يعرف في جده هوادة؛ فإذا رأيته يقرأ جريدة من الجرائد أو مجلة من المجلات؛ فمن أعظم التجني عليه أن تحمل عمله هذا على أنه مضيعة للوقت في غير جدوى، فما هو إلا استجمام لابد منه لمن يعاني مثل عنائه المتصل؛ وإذا رايته يبدأ عمله عند العاشرة أو في منتصف الحادية عشرة، فاعلم أن ذلك من أثر إجهاده نفسه وتحامله على أعصابه في اليوم السالف، لا شئ غير ذلك؛ وإذا رأيته يتزاور عن مكتبه، فيحرق دخينة في إثر دخينة، أو يرتشف القهوة في هدوء وسكون، ويقضي في ذلك ساعة أو بعض ساعة، فترفق بهذا الجسم الذي أنهكه الجهد، ولا تأثم فتظن بصاحبه الظنون
وصاحب الديوان هذا لا يطيق أن يرى وجوه الناس، فإذا أبصر أحدهم مقبلاً، أحس كأنما عليه مكروه من مكاره الزمن فيلقاه متأففاً متبرماً، وإنه ليتمتم حين يراه بألفاظ لا أدري أيسوقها ضد القادم الكريم، أم ضد الزمن اللئيم الذي وضعه حيث يستقبل هؤلاء الذين يصرفونه عما هو فيه من جد لا يعرف معه هوادة؟!
دخلت عليه ذات يوم قبيل العاشرة، فرأيته لسوء حظي أو لحسن حظي - لست أدري أيهما الصواب - يترك مكتبه ليغادر الحجرة إلى حيث لا أعلم من الحجرات أو من الجهات؛ فحاولت أن أستوقفه مترفقاً، فاستمهلني دقيقة واحدة وهو عابس ثم ازور عني في حركة سريعة خيل إلي معها أنه يخشى أن أرجعه بالقوة إلى مكتبه!
ولبثت أنتظره في مقعد تفضل به علي أحد زملائه، ومرت اللحظات ثقالاً طوالاً ولم يعد، حتى إذا يئست من رجوعه وهممت بالانصراف رأيته مقبلاً، وجاء وفتح بعض أدراج مكتبه وأغلقها ولكنه لم يأخذ منها شيئاً ولا وضع شيئاً، وفعل ذلك دون أن يجود بنظرة علي أو أن يخطر بباله أن أحداً من عباد الله ينتظره لأمر متصل بعمله ولن يؤديه سواء!
واعترضت طريقة إذ رأيته يتأهب للخروج مرة ثانية،
وما التقت أعيننا وانفرجت شفتاي في ابتسامة هادئة عن قولي: من فضلك. . . حتى أشاح بوجهه عني مقطباً قائلاً في تبرم وضيق (عن إذنك دقيقة يا أفندم). . . ومضى وإنه لضائق بثقلي وثباتي في موضعي، وخيل إلي بل لقد أيقنت أنه عقد النية على ألا يكلمني
ما دمت هناك كأنه لا مفاوضة عنده هو أيضاً إلا بعد الجلاء!
وصممت من جانبي ألا أنصرف أو يكلمني، وإن أخذتني الحيرة كيف أحمله ولو على أن يلتفت إلي فضلاً عن أن يحادثني؛ ولقد كنت أرجح عودته إلا إذا غادر الديوان إلى داره وترك طربوشه حيث كان على مكتبه يحدث كل سائل عنه أنه هنا وأنه قادم بعد دقيقة، وإن تتابعت في غيابه الدقائق بل الساعات!
وجاء أخيراً فاستوى على كرسيه وفتح دفتراً كبيراً وراح ينظر فيه وعلى وجهه أمارات الجد وأمارات تجاهله وجدوي في وقت واحد ثم قطع عليه جده المصمم زميل له فأخبره أن فلاناً وفلاناً من الرؤساء استفهموا عنه، فأجاب متكلفاً عدم المبالاة أنه ما كان يلعب وأنه هلك من الجري هنا وهناك في (الأرشيف) و (المستخدمين) و (الحسابات) وتحت وفوق باحثاً عن أوراق تتصل بما في يديه من المسائل
وظللت ساكتاً لحظة، فأقبل شخص بادي الوجاهة، يطأ أرض الحجرة في صلف وينظر نظرة ذي الجاه، وفرحت إذ رأيته يتجه إلى صاحب الديوان المجد فيسأله في لهجة الآمر عن مسألة طال به انتظار الإجابة عنها؛ وتهجم له صاحب الديوان ولم يعبأ به، ولما تهدده الرجل أن يرفع الأمر إلى رئيسه، انطلق صاحب الديوان مزمجراً ونهض واقفاً يخبط المكتب بقبضة يده عدة مرات حتى لقد أشفق ذلك الرجل أن تمتد واحدة منها إلى صدره أو إلى بطنه فتراجع قليلاً، وقد تطايرت الأقلام من مكامنها، وسال المداد من المخابر، وتناثرت الأوراق، وزلزلت الدفاتر، وخشعت الأصوات في جوانب الحجرة، والتفت أصحاب الديوان يتفرجون على عاصفة جديدة كم رأوا قبلها من عواصف؛ وانطلق لسان المجد الثائر بعبارته المألوفة: (يا أفندي أنت بتهددني؟ من فضلك ما تعطلنيش يا أفندي. . . أما شئ غريب والله. روح اشتكي زي ما أنت عاوز. . هو أنا فراش عندك؟ الواحد طول النهار هلكان من العمل وجاي حضرتك تفلقنا؟) .

ولم يكن لي بعد هذا الذي رأيت إلا الجلاء بلا قيد ولا شرط، وقد أصابني من دوار العاصفة ما زعزع إيماني بقوتي، ولم لا أقرر الحق فأقول: إني منذ أن رأيت أهاويل الشر في وجه صاحب الديوان قد رضيت من الغنيمة الإياب؟

(عين)

في سبيل الأزهر

للأستاذ عبد العزيز محمد عيسى

أعتقد أني لا أتجاوز الحقيقة حين أقول إن كلمات الأستاذ الزيات تنزل برداً وسلاماً على قلوب المخلصين للأزهر؛ وإنهم يرون فيها بريقاً من النور يضئ لهم سبيل الإصلاح فيما يبتغون للأزهر من إصلاح.

وللرسالة في الأمة المصرية وفي الشرق الإسلامي جميعاً مكانتها السامية الممتازة التي تجعل لكل ما تعالج من موضوعات أهمية خاصة، لا يستطيع أحد معها ألا يعطيها ما هي حقيقة به من التقدير والعناية

لذلك كانت دعوتها لإصلاح الأزهر جديرة بألا تمر كغيرها من دعوات الإصلاح، وكانت جديرة بأن يتجاوب صداها في أجواء الأزهر مدوياً عالياً، فيردده رجاله عارضين صوراً من أدوائه راجين أن تعالج علاجاً ناجعاً، حتى تنحسر عنه ولا تنتقل عدواها إلى أبنائه الناشئين.

الأزهر من غير شك محتاج إلى الإصلاح في كثير من نواحيه، والأزهريون الآن متطلعون إلى من يداوي ما يحسون به من علل ليست من صنيعهم ولا يد لهم فيها، وإنما انحدرت إليهم مع الزمن ميراثاً ثقيلاً؛ وما دامت النفوس مستعدة والنيات خالصة فسيأتي اليوم الذي ينفض فيه الأزهر عن نفسه كل ما يشوه جماله أو يسئ رسالته وإن من البشائر التي تطمئن على نجاح هذا السعي ونفاذ هذه الدعوة إلى القلوب، اشتراك الأزهريين أنفسهم في معالجة هذه العيوب ومحاولة التخلص منها؛ ولن يقدر أحد على إصلاح الأزهر كما يقدر عليه أبناء الأزهر؛ فقد حاولت ذلك حكومات فيما مضى فلم يتأت لها ما تأتى لابنه البار (محمد عبده) ولم يقدر أحد على ما قدر عليه في هذا الشأن مع ما وضع في سبيله من عراقيل وما أرجف به عليه من ترهات وأكاذيب؛ لأن دعوة الحق لابد أن تجد سميعاً ولا بد أن تتغلغل في النفوس وأن ينصرها - من حيث لا يشعر - أولئك الذين يعملون جاهدين على كيدها والصد عنها، ودعوات الإصلاح يخدمها خصومها كما يخدمها أنصارها

وها قد أصبح يؤمن بمبادئ الأستاذ الإمام ويتتبع مناهجه، ويدل بذلك حتى صار من فخر الرجل في الأزهر الآن أن ينتسب إلى الأستاذ الإمام تلميذاً أو مسترشداً أو صديقاً، بعد أن كان في حياته هدفاً لسهام الطاعنين ونبال الحاقدين.

وفي يد الأزهر الآن فرصة ثمينة لا يسوغ له أن يضيعها أو يهمل استغلالها، هي قيام الإمام الثاني الأستاذ المراغي على رياسته وتوجيهه، ومن ورائه في ذلك طائفة من المخلصين للأزهر المقتنعين بفكرة الإصلاح قرأت خطبه وأحاديثه ودرستها دراسة فاحصة ممعنة فاتخذت لنفسها وجهة الخير منها، وحرصت أن تهتدي إلى طريق النجاح بها. ولست أحب أن أسمي هؤلاء كما سماهم الأستاذ الزيات (شباب المراغي) فإن روح المراغي لم تكن قاصرة على التأثير في شباب فحسب، وإنها لأشد قوة وأبعد أثراً من ذلك فقد أثرت فعلاً في شيوخ قد جاوزوا عهد الشباب وخلفوه، فأجدر بنا أن نسمي هؤلاء وهؤلاء (مدرسة المراغي)

ولسنا نلقي هذا الكلام على عواهنه فإن الأستاذ المراغي حينما خطأ خطوته الجريئة في إصلاح بعض القوانين المتصلة بالأحوال الشخصية وقف في طريقه إذ ذاك كثير من العلماء، وعلى رأسهم عالمان فاضلان ألفا رسالة ذكرا فيها أنه لا يجوز الخروج عن المذاهب الأربعة التي أجمعت عليها الأمة؛ فهل تدري أيها القارئ أنهما الآن يعملان عضوين بارزين في لجنة الأحوال الشخصية التي لا تقف فيما تختار عند المذاهب الأربعة! أليس هذا أثراً لروح المراغي واستجابة لرجة الإصلاح التي يستوي عندها الشيب والشباب؟

هذه المدرسة الصالحة يعلق عليها الأزهر الحديث آمالاً جساماً وتنتظر منها الأمة نهضة قوية تساير نهضتها في كل نواحي التقدم؛ تنتظر منها أن تخرج للناس كتباً واضحة الأسلوب جديدة المعنى خالية من التعقيد والغموض، وأن نفهم الجو المحيط بها فهماً

صحيحاً فلا تكتفي بالعيش في ظلال كتب تمثل عصوراً خلت، ربما كانت هذه الكتب صالحة لها موفية بحاجتها، وهي الآن عاجزة عن حل المشاكل التي تعترض الناس في معاملاتهم ونظم حياتهم؛ تنتظر منها اشتراكاً فعلياً في توجيه الثقافة القومية في البلاد، في الأحاديث التي تذاع، والمقالات التي تنشر، والمحاضرات التي تلقى، وفي تعليم الشعب وإرشاده بأسلوب لا يجافي روح العصر الذي نعيش فيه؟ فقد مضى عهد الجمود والوقوف
عند النصوص من غير مراعاة لروحها وظروف أحوالها والعوامل التي أثرت فيها، تنتظر منها كذلك أن تبين بالعمل لا بالقول أن الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان حتى ينخلع من أذهان الواهمين ما اعتقدوه من تنافر الدين مع ألوان الحضارة ومجافاته أساليب الرقي العلمي والفكري
إن الأمة تضع الأزهر في مكان القيادة منها، أو هي ترجو ذلك فيه؛ فليعرف هذه المنزلة وليحرص عليها، وليعمل على الاحتفاظ بها، ولا يمتعض رجاله من كلمة الحق تقال في صراحة سافرة على منبر عام أو خاص، فإنها إنما بإخلاص لمصلحة الأزهر وخيره، والإبقاء على منزلته ومكانته
إن النفور من دعوة الإصلاح، والهرب من مواجهة العلل وإغماض العين ولوى العنق سياسة غير صالحة في هذا العصر، وإنه لا يكفي أن تقنع في نفسك بأنك خير الناس ليعتقد الناس فيك هذا، ولكن يجب أن تبرهن لهم عملياً على ذلك وتشعرهم بأنك تحس بإحساسهم وتفكر في حل مشكلاتهم، ولعلنا ننتفع بما أرشد إليه أستاذنا الأكبر في خطابه الأخير من قوله: (إني أرحب بالنقد البريء، وأنصح لكم ألا تضيق به صدوركم، فإن كان حقاً فاشكروا الناقد وأعملوا على الخلاص من الخصال التي كانت سبب النقد، وإن كان غير حق فادفعوه بالحسنى وأظهروا براءتكم مما وجه إليكم)
لقد كان للأزهر فيما مضى موقف سلبي فيما يتصل بتنظيم الفقه وتحويره وتعديله للانتفاع به في القانون والتشريع؛ ومازال هذا الموقف السلبي وصمة في تاريخ الأزهر، تغمض العين منها على قذى موجع، وتنطوي الأحشاء منها على ألم ممض؛ ولقد كان من أثر هذا الموقف المعيب الذي حرص أصحابه عليه (تورعاً) فيما زعموه أو فيما زعم لهم بعض الناس، أن تحاكم المسلمون إلى غير شريعتهم، وألزموا بغير قوانينهم، وهو ما نأسف له جميعاً؛ فهل يكون موقف العلماء اليوم كموقف أسلافهم بالأمس؟ أو هم مستعدون لإصلاح هذا الخطأ وإقناع الناس بأن الشريعة الإسلامية السمحة غير عاجزة عن مسايرة المدنية في أجلى مظاهرها، وإدراك غاية الإصلاح الاجتماعي وتلبية حاجاته ومطالبه، فيصدروا في فقههم عن هذه الروح التي لا تغفل ما جدّ للناس من نظم ومعاملات؟
إن اليوم الذي يخرج فيه العلماء للناس بهذه الفقه النافع لهو النصر الذي يتمناه المسلمون
جميعاً؛ وهو اليوم الذي يصل فيه الأزهر - كما يقول الأستاذ المراغي - إلى الغاية التي يرجوها من أداء الرسالة الإسلامية على الوجه الملائم لطبيعة العصر وعقلية الناس وكم نرجو أن يتحقق ذلك في هذا العهد المبارك لنمحو من الأذهان موقف السلبيين، وليشهد التاريخ أن الأزهر في عصر فاروق غيره في عصر إسماعيل، وأنه على عهد المراغي غيره كذلك على عهود من سبقه من الشيوخ
عبد العزيز محمد عيسى
مدرس بمعهد القاهرة
إذا شبت الحرب في البحر الأبيض
للأستاذ فوزي الشتوي
خطوة متوقعة
لا تعتبر الخطوة التي اتخذتها الأميرالية البريطانية بإخلاء البحر الأبيض المتوسط من سفنها التجارية خطوة مفاجئة، فقد تنبأ رجال البحرية منذ سنين بأن خطة إنجلترا إذا اشتعلت الحرب لن تخرج عن ثلاث وسائل
أولها - إغلاق البحر الأبيض المتوسط إغلاقاً تاماً ومنع الملاحة فيه، على أن تترك بعض السفن الحربية الخفيفة للدفاع عن شواطئ البلاد الموالية للحلفاء.
ثانياً - أن تسير الملاحة في طريقها الطبيعي، على أن تقسم حماية طرق الملاحة بين

الأسطولين البريطاني والفرنسي، فيتولى الأسطول البريطاني حماية الجزء الشرقي، ويتولى الأسطول الفرنسي حماية الجزء الغربي

وثالثاً - الالتجاء إلى خطة وسط، وهي تقضي بإخلاء البحر الأبيض من الأساطيل التجارية وحدها، مع إغلاق جبل طارق وقنال السويس وعدن في البحر الأحمر، وتوجيه قوات الحلفاء إلى القضاء على القوات المعادية

ويظهر من التدابير التي اتخذتها إنجلترا أخيراً أنها ستنفِّذ إحدى الخطتين الأولى أو الثالثة؛ فإذا طال أمد الحرب أخليت جزيرة مالطة؛ فإن قربها من مواقع إيطاليا الحربية مع صغر مساحتها بجعلها قاعدة جيدة للهجوم

اتفاقات سرية

ونظرة واحدة إلى خريطة البحر الأبيض المتوسط والمواقع الحربية التي تسيطر عليها الدول المتحاربة تبين خطورة الموقف وما يكفله الصراع لتأمين مواصلاته من تضحيات غالية، فلإنجلترا وفرنسا مواقع بحرية كثيرة انتشرت في أخطر مواقعه ممتدة من شرقه إلى غربه، ومن جنوبه إلى شماله، بحيث يتيسر لقوات هذه الجهات التحكم في جميع طرق الملاحة، فضلاً عن سيطرة إنجلترا على أبوابه في جبل طارق وفي قنال السويس. أضف إلى ذلك ما يقال عن وجود اتفاقات سرية تضع موانئ الدول المحايدة تحت تصرف الحلفاء

أما إيطاليا فطبيعة موقعها الجغرافي تشطر البحر الأبيض إلى شطرين: الجزء الشرقي والجزء الغربي. والقسم الأخير شديد الخطورة نظراً لكثرة مواقع إيطاليا البحرية عليه، ولأن شواطئها تكون جزءاً منه يمتد من ميناء جنوة بطول الساحل الإيطالي حتى جزيرة صقلية إلى جزيرة بنتلاريا التي تقف في وسط المضيق فتتحكم في طرق الملاحة

تونس

ولا يضايق هذا الخط إلا شاطئ الإفريقي في تونس، وقد أنشأت عليه فرنسا ميناء بيزرت؛ ولعل هذا الوضع يوضح خطورة مطالبة إيطاليا بتونس التي تجعل خطها مقفلاً لو تيسر لها الاستيلاء عليه، ويساعد هذا الخط المواقع البحرية التي أنشئت على جزيرة سردينيا الإيطالية، فلا يقتصر تهديده على مواصلات البحر الأبيض بين شرقه وغربه، بل يتعدى إلى تهديد خطوط المواصلات بين فرنسا ومستعمراتها في أفريقيا وهذه المواصلات هامة جداً في نظر فرنسا، لأنها الطريق القصير لنقل قوات المستعمرات إلى فرنسا لتغذية قوات خطماجينو، ولم تغفل فرنسا خطورة مواقع القواعد الإيطالية، فأعدت في قورسيقا مينائين خطيرين لهما من حصانتهما ما يكفل إفساد الخطط الإيطالية. وقد اشتغل فيما أمهر المهندسين الفرنسيين، حتى جعلوهما من أمنع المواقع؛ وما زالت أسرار دفاعهما وهجومهما سراً محظوظاً في صدور منشئيهما؛ ولم تتح زيارة بعض مواقعهما إلا لصحافي واحد لم يخرج من زيارته لهما إلا ببعض معلومات زهيدة وصور شائعة.

ولا يسع الباحث أن يتجاهل موقف أسبانيا في هذا الصراع فإن حكومتها الحالية وليدة الأطماع الدكتاتورية في إيطاليا وألمانيا ولها جزر الباليار التي قيل أثناء الحرب الأهلية الأسبانية إن إيطاليا أعدتها لقطع مواصلات فرنسا مع مستعمراتها؛ فإذا انحازت إلى جانب الدكتاتورية، فإن الخط يتضخم، على أنه لن يحد من نشاط الحلفاء، فيسهل تحويل طرق الملاحة إلى المحيط. ولن تستطيع القوات المعادية أن تقترب من الشواطئ الإفريقية لخطورة المواقع البحرية التي أنشئت عليها بطول الساحل من المرسى الكبير إلى بيزرت.

الحصر الاقتصادي

ولاشك أن الحلفاء سيتخذون إقفال البحر الأبيض وسيلتهم لتجثو الدولة المعادية على ركبتيها؛ وأول نتائج هذا الإقفال عزل إيطاليا عن مستعمراتها في شرق أفريقيا وفي شمالها؛ وبهذا الحصر تخسر إيطاليا 86 ? من ملاحتها خسارة لا يمكن الاستعاضة عنها، لأنها لا تملك شواطئ على غير البحر الأبيض، بينما تتمتع فرنسا بشواطئها على خليج بسكاي، وعلى بحر الشمال

وعدد البواخر التجارية التي تصل أو تغادر إنجلترا يومياً 815 سفينة، متوسط حمولة كل منها ثلاثة آلاف طن يخترق منها البحر الأبيض 57 سفينة فقط يحول طريقها إلى

رأس الرجاء الصالح. وتخسر فرنسا 20 ? من بترولها الذي تستورده من العراق، ولكن خسارة إيطاليا في هذا المادة الأساسية للحرب خسارة فادحة. فهي تستورد من العراق 70 ? من البترول الذي تستهلكه وهو يرد إليها عن طريق جزئه الشرقي ومركزها فيه أضعف من مركزها في الجزء الغربي، فليس لها فيه إلا خط مشاغب يبدأ من جزيرة ليروس في جزر الدودكانيز، وينتهي في طبرق. وقد أعدت هذه الموانئ لتكون قواعد جوية للطائرات وقواعد بحرية للغواصات

ولكن هذين الموقعين مهددان بمواقع الحلفاء وخصوصاً من جزيرة قبرص، التي فاقت جزر الدودكانيز في صلاحيتها للاستعدادات العسكرية من مطارات برية وبحرية ومن قواعد للأساطيل البحرية. وهي لا تبعد عن جزر الدودكانيز إلا 220 ميلاً تقطعها قاذفات القنابل في أقل من ساعة

قبرص والإسكندرية

ولميناء حيفا أهمية خاصة في نظر الحلفاء، ففيها تنتهي أنابيب البترول العراقي، ولكن طبيعة أرضها لم تعدها لتكون ميناء حربياً جيداً. فاتخذت الاحتياطات للدفاع عنها من قبرص والإسكندرية فبعدهما عنها قصير، وهي تمثل الزاوية الثالثة من مثلث ضلعه من قبرص إلى الإسكندرية يواجه الخطر الأجنبي.

وإذا نشبت الحرب فإنه ينتظر أن تصبح الإسكندرية قاعدة الأسطول البريطاني، فإن جزيرة مالطة لا تصلح في رأي الخبراء البحريين لحرب طويلة الأمد، وإن كانت في أول

الحرب تتخذ كقاعدة خطيرة للهجوم على مواقع الدولة المعادية، فهي لا تبعد عن صقلية إلا عشرين دقيقة بالطائرات. وأكبر عيوبها ضيق مينائها مما لا يساعد على الحركات البحرية

ويختلف رجال البحر ورجال السياسة إزاء إخلاء هذه الجزيرة، فيدعى فريق أن إخلاءها يحط من هيبة إنجلترا في نظر حلفائها، ويرى الفريق الآخر أن إخلاءها هو الخطوة الأولى لنصر محقق، وخصوصاً إذا تم هذا الإخلاء من بدء الصراع، لأن التجاء الأسطول إليها يجعله في مركز حرج ويعرضه للهجمات المعادية، ويرون الاستعاضة عنها بميناء الإسكندرية التي تعتبر أصلح، ولا سيما بعد التحصينات التي أضيفت إليها.

كوروفو والإدرياتيك

وقد يظن البعض أن بحر الإدرياتيك يصبح بحيرة إيطاليا الحصينة، وخصوصاً بعد ما استولت على ألبانيا، فقبضت بذلك، على مدخله من الجانبين، ولكنه يقال إنه توجد اتفاقات سرية مع يوجوسلافيا واليونان تقضي بوضع موانيهما تحت تصرف أساطيل الحلفاء، ومعنى ذلك سهولة مهاجمة سواحل إيطاليا المكشوفة من الغرب، كما يسهل على موانئ فرنسا مهاجمة شواطئها الشرقية من تولون ومرسيليا وأجاكسيو وغيرها. أضف إلى ذلك وجود جزيرة كورفو القريبة من هذا المدخل، وبواسطتها يسهل حصر أسطول الإدرياتيك الإيطالي.

ويجمع الرجال العسكريون على أن دخول إيطاليا الحرب بفتح الطريق أما قوات الحلفاء لمواجهة قوات ألمانيا، سواء من إيطاليا أو من يوجوسلافيا، إذ يهاجمون النمسا من المقاطعة المعروفة باسم سلوفانيا وحصون ألمانيا من ناحيتها أضعف منها في أي مكان آخر. أضف إلى ذلك أنه يتيسر لهم جعل حصارهم الاقتصادي فعالاً؛ فإن إيطاليا ودول البلقان هي أكبر ممول لألمانيا، والغالب أن يجر دخول إيطاليا الحرب إلى حرب عامة تحرم المحور من خاماته سواء كانت حربية أم مدنية فتجوع بطون الرجال، ويبطل عمل الأدوات من مدافع وطائرات ومدرعات

فوزي الشتوي

بكالوريوس في الصحافة

ريفية!

عَرَّافَةُ الزَّهْر. . .

(السنبلة)

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

سَمِعْتُ مِنْ سُنْبُلَةِ القَمْحِ

أُنْشُودَةً تَبْكِي عَلَى السَّفْحِ

لاَ دَمْعُهَا دَمْعِي! وَلا نَوْحي
مِمَّا أذَابَتْ فِيهِ حُزْنَ الحُقُولْ
وَأتْرَعَتْهُ مِنْ شُجُونِ الأَصِيلْ
فَغَابَ فِي أَوْتَارِها وَانْطَوَى
حَفِيفَ أحْلاَمٍ بَوادِي الهَوَى
اسْتَلَّ نَارَ الشَّوْقِ مِنْ جُرْحى ... وَبَعْثَرَ الآهَاتِ فَوْقَ السُّهُولْ!
فَقُلْتُ: يَا مَخْضُوبَةَ الرَّأسِ
بِذَائِبٍ مِنْ وَجْنَةِ الشَّمْسِ
يا خَمْرَةً مَخْبُولَةَ الكَأسِ
دَارَتْ عَلَى الدُّنْيَا بِعَذْبِ الرَّحِيقْ
وَخَلَّفَتْ عَاصِرَهَا فِي الطَّرِيقْ!
. . .عَلاَمَ تُبكِينَ؟ أَلِلْبَائِسِ
غَارِسِكِ المُسْتَضْعَفِ التّاعِسِ؟
أَمْ قَدْ نَقَلْتِ الشَّجْوَ عَنْ نَفسِي ... وَشَجْوَهَا كالبَحْرِ طَامٍ عَمِيقْ!
قَالَتْ ولَمْ تَسْمَعْ صَدَىَ شِعْرِي:
إِنِي هُنَا عَرَافَّة الزَّهْرِ
أبْحَثُ في الكُثْبَانِ عَنْ سِرِّ
أَشْتَفْتُ بِهِ الفَلاحَ كَفَّ الغُيُوبْ
وَهَا أَنَا يَطْوِي حَيَاتِي المَشِيبْ
وَلَمْ أَزَلْ أبْحَثُ عَنْ حِكْمَتِه!
عَلامَ بَارِي الخُلْد في جَنَّتِهْ
يأتِي لَهَا عُرِيَانَ فِي الفَجْرِ ... وَيَرْتَدِي ألاكْفَانَ عِنْدَ المَغِيبْ
-
سمفونية شعرية
. . .مع الماضي
. . .إنني أحلم وحلمي هو الماضي
لازلت أذكرك ووراءك موسيقى آتية من مكان لا أراه. . . أدواح متباعدة، وأرض //
مخضوضرة. وليس هناك إلا أنا وهذه الموسيقى، وخيالك بارزاً من الماضي إليَّ!
. . .أين ليالينا والظلام
إن صدرك ما زال يضطرب، والهواء البارد يرطب وجهك وعنقك؛ وصوتك الخافت
اللاهث يردد أنشودة الحب في الليل
إنني أحلم وحلمي هو الماضي
. . .لقد عشنا معاً، أياماً وليالي
كنت معي: شعرك المرسل يرف علي، ويداك الدقيقتان تبحثان عن لا شئ
. . . .آه
رأيتك في ثوبك الأبيض ذات أمسية بعيدة؛ وكنت صامتة مجهدة، وكان في صمتك نداء
يوم مقبل
وجاء اليوم بطيئاً كخطى العذارى. وكنت لا تتكلمين، فأخذت بيدك وسرنا جنباً إلى جنب
حيث لا أدري. ولم أسألك إلى أين. لقد كنت حالماً أسبح خلف الضباب. إلى أين كنت
ذاهبة يا ساحرة؟ كنت مشغولاً بك عن كل شئ
جلسنا نسترجع حلماً حلمناه منذ أزمان
وتحت المصباح الخامد وصدرك إليَّ سألتك: أتحبينني؟ فقلت: نعم
وفي أذنيَّ المفعمتين بألحان الغاب وأنات السواقي، استطاعت كلمتك أن تحيا هادئة
واضحة كماء البحيرة وسط الشجر الألفّ
(م. وهبة)
الأدب في الأسبوع
نجوى الرافعي
أيها العزيز!
في القلب تعيش الأرواح الحبيبة الخالدة التي لا تَفنَى وفي القَلبِ تُحْفَرُ القبورُ)

(العزيزة التي لا تُنسى
هكذا قلت (وعواطفي تشيِّع الميت الحبيب مطرقة صامتة) واليوم ماذا أقول؟ أما إنك لتعلم - أيها الحبيب - أن الذي بيني وبينك دنيا تمشي الأحزان في أرجائها نائحة باكية. . . لستُ أكفر بأنعم الله عليَّ أو عليك. . .، كلا، كلا!! لقد ذهبتَ إلى ربك راضياً مرضياً فرحاً بلقائه، مؤمناً بما زَّين في قلبك من الإيمان، وبقيتُ أنا لأبحث عن أحبابي بعدكَ،. . . لأفقِدِ لذَّة المعرفة التي يفيض فيضها من الصداقة والحب،. . . . لأتلدَّدَ هاهنا وهاهنا حائراً أنظر بمن أثق،. . . لأجدَ حَرَّةَ القلب وكَمد الروح وألمَ الفكر من حبي وصداقتي،. . . لأسير في أوديةٍ من الأحزان بعيدة: أمشي وحدي، وأبكي وحدي، وأتألمّ وحدي. . . .،. . . لا أجدُ من أنفُضُ إليه سرَّ أحزاني
ذهبتَ وبقيتُ. . . لأتعلَّم كيف أُنافق بصداقتي بعضَ النفاق لأنهم يريدون ذلك. . . لأجيد مهنة الكذب على القلب لأنهم يجيدون ذلك،. . . . لأتعلَّم كيف أنظر في عيونهم بعينين لئيمتين يلتبس في شعاعهما الحب والبغض، لأنه هو الشعاع الذي يتعاملون به في مَوَداتهم،. . . لأفْنِيَ بقائي في معانيهم المتوحشة إذ كانوا هكذا يتعايشون،. . . لأحطم بيدي بنيان الله الذي أمرنا بحياطته، وأتعبد معهم للأوثان البغيضة الدميمة التي أنشأتها أيديهم المدنسة القذرة،. . . لأجنِي الثمار المرّة التي لا تحلو أبداً ولكنهم يقولون لي: هذا ثَمَرٌ حُلْوٌ، فلماذا لا تأكل كما يأكل الناس؟
ذهبت - أيها الحبيب - وبقيت. . .، في الحياة التي أولها لذةٌ وآخرها لذْعٌ كأحرِّ ما يكون الجمر حين يتوهج، بقيتُ للحياة التي تريد أن تسلبَ القلبَ براءةَ الطفولة لنملأه إثماً وخداعاً وشهوةً. . . بقيتُ على الحياة في الأرض التي تميد وترجف وتحتدم من تحتي، لأنها تنكر الإيمان الذي يمد بسبب إلى السماء. . . بقيتُ بقاءَ حبة القمح في رمال الصحراء المجدبة لا أجد مائي ولا تربتي. . . ولا من يزرَعُني. . .
شدَّ ما اختلفتْ عليَّ أحداث الحياة من بعدِكَ أيها الحبيب!
كنتُ أشكو إليك ما أُلاقي من ظمأ الروح الهائمة، وهي تطوف بحسراتها على ينابيع الحياة لا تنتهي ولا تستطيع أن تردَ. . . كنتُ أبثُّك كأحزاني وهي جالسةٌ توقِد النارَ على نفسي وتؤرِّثها بأفكاري القلقة التي لا تهدأ ولا تنقطع. . . كنتُ أشكو إليك آلامَ الشَّوْكِ الذي تنْبِتُهُ في قلبيَ الشكوك العاملةُ الناصبة التي جعلتْ همَّها تعذيبي بالحيرة والخوفِ والحرمان. . . والحقيقة المؤلمة أيضاً. . . كنتُ أجدكَ حين ينبغي أن أجدَك، لأقول لك ما يجب عليَّ أن أقول. . .
شدَّ ما اختلفتْ علي أحداثُ الحياة من بعدك أيها الحبيب! وهاأنذا أريد أن أجدَ بعدكَ من أضعُ في يديه الرفيقتين هذه الجروح الدامية النابضة التي أسمِّيها قلبي. . . أريد أن أضع أفكاري التائهة في بيداءِ الظنون المغفرة، بحيثُ تجدُ مَن يتولى أمر إرشادها إلى رَوضَة اليقين الناضرة. . . أريد أن أجدَ مَلْجئ المؤمن حين تطارِدُني من الظنِّ صعاليكه الكافرة. . . أريد أن أعرف لذَّة الصداقة والحبِّ حين لا أجدُ من الحياة إلاَّ آلام صداقتي وحبي. . أريد. . أُريدُ!. . . أُريدُ مَنْ أقول له: ها أنذا بعذابي وضَعفي وخُضوُعي؛ فيقول: وها أنذا بصبري وقوَّتي وحبي لك. . أريد من أقولُ له: هذه جروحي التي تَنْفُثُ الدمَ لا ترقأ ولا تستريحُ ولا تبرأ إلا على وعي من دَمِها؛ فيقول لي: وهذا طِبِّي الذي يحسمُ هذا الدم لتستريحَ وتبرأ من ألم النزيف، يا بنيَّ. . .!
هذه طفولتي، أريد من يحنو علي بها حنو الأم على صغيرها الذي هو كل (. . . .يا بني) أشواقها الرقيقة من قلب نبيل رقيق. . . (يا بنيَّ. . .)، هذه طفولتي، أريد من يمسح بها أحزاني التي حيَّرت بصري لأعرف من بعد طريق رجولتي التي تريد أن تعمل وأن تسير وأن تصل إلى سر أشواقها البعيدة الجميلة. . . (يا بنيَّ. . .)، هذه طفولتي، أريد من يعرف أني طفل وديع حين أؤوب من كدي وكدحي، فيتلقاني بين ذراعيه إلى قلبه لأشعر بحنان من الروح يطفئ غُلتي، ويرسل في أعصابي ربها من الحب، الحب الذي هو فجر الحياة بنعومته ورقته وطهره، الحب الذي يرد القلب الظامئ زُهرة تتفتح في جو من النور والندى والشباب. . . (يا بني،) من يقولها لي يضع في نبض أحرفها نبض الحب. . .
أين أنت أيها الحبيب؟ كنتَ أخي وصديقي ومن أستودعه سر قلبي المعذب في تنور الحياة

المتوحشة التي يضطرم جوها بالصمت المتوهج والوحدة المستعرة. . . كنت أخي وصديقي، وأنا أبيد كما تبيد الأيام والليالي في كهوف الحياة الدنيا. . . كنت أخي وصديقي، وعواطفي تزأر وتجأر في باطني كأنها وحش جريح متألم ثائر لا يرى من جرحه لينتقم. . . فالآن وقد جددت الدنيا أساليب تعذيبي عذاباً ضعفاً من الآلام. . . الآن وقد أوجدتني الحياة ما أريده، ثم وضعت بيني وبينه سداً يصف ما وراءه من أشواقي ويقف دوني فلا أنفذ منه. . . الآن وأنا أشتعل وأتفانى من جميع نواحي. . . الآن وأنا أتوثب في قيود مرخاة تمنحني الحركة وتمنعني دون الغاية. . . الآن وأنا أمزق جو حياتي بزئيري وأنيابي ومخالبي، وأحرقه بوجدي ولوعتي واشتياقي. . .

الآن أين أنت أيها الحبيب؟ يا أخي وصديقي

أنظر إلي - أيها الحبيب - من وراء هذه الأسوار المنيعة التي تفصل بين الحياة والموت. . . الأسوار التي تمشي إليها الحياة كلها ساعة بعد ساعة دائبة لا تقف، فإذا بلغتها ابتلعتها من حيث لا تشعر ولا تتوقَّعُ. . . انظر إليَّ - أيها الحبيب - وتكلَّم بكلامٍ من شعاع مضيءٍ حيٍّ يُفهمُني حقيقتي الحية، ويضئ لعيني هذه الظلمات التي تعتبركَ بين يدي في مد عيني. . . انظر إليَّ - أيها الحبيب - وأسكبْ في قلبي وروعي حقيقة الإيمان الحيّ الذي لا يموت. . . أنظر إليَّ واصحبْني فأنا الذي لا يصاحبُ الأحياء من الناس، لأنهم لا يعرفون معنى الحياة إلا فائدة تلد فائدة، كما يلد بعضهم بعضاً في مشيمة من الكره والعنت وآلام المخاض وأمشاجٍ من الدم يشخب من حولها ويتضرجُ ويقبحُ بعضه في بعض

ولكن. . . ولكن ما أكذب النَّفس على النفْس! أنت هناك بحقيقتكَ الخالدة التي تحيا بأمر الله في جو السماء، وأنا هنا بحقيقتي الفانية التي تموت يوماً بعد يوم بأمر الله في جو هذه الأرض. . . أنت هناكَ وأنا هنا، بينهما البرزخ الذي لا تجوزه الروح إلا بعد أن تتطهر من أدران هذا الدم المتجسِّد في أجلاد الإنسان. . . أنت هناك وأنا هنا، فكيف أنخلعُ من ثروتي التي أنا بها أنا؟ كيف أنخلع من جسدي؟ ومع ذلك. . .

ففي القلب تعيشُ الأرواح الحبيبة الخالدة التي لا تفنى وفي القلب. . . تحْفَر القُبُور (العزيزة التي لا تُنسى لم أفقدكِ - أيها الحبيب - ولكني فقدتُ نفسي ذكرى الرافعي

لستُ أدري! فأنا أذكر الرافعي. أعرفهُ أديباً شاعراً فيلسوفاً. . . رجلاً قد انصرف بهمّه إلى الأدب والفكر يجيدُ فيما ما يجيد، ولكني حين أذكره لا أجده في نفسي إلا الصديق وحده. لم أعاشره طويلاً حتى أقول إني أعِي للناس خبره وأعرف عنه ومن أمره مالا يعرفه غيري، كلا لست أدعي ما ليس عندي ولكني كنت أبداً معه بحبي له وصداقتي، وكان هو أبداً يحوطني بروحه في أنفاس من حنانه وحبه. كنا روحين تناظرتا من بعيد وتناسمتا من قريب فعرفته وعرفني. كان بيننا سرٌّ جامعٌ لا أدري كيف أصفه، ولكن كان من يعرفني ويعرفه يجد آثاره ويرى من بعض بيناته ما لا أُحبُّ أن أحدِّثَ به. ومع ذلك فأنا أقصر في حقه ما لم يقِّصر أحد ممن توجبُ عليه الصداقة بعض واجباتها، ولم يكن ذلك، لأني لا أريد، بل لأني لا أستطيع ولا أطيقُ. فما زالت كلما ذكرتُ الرافعي - وقد مضت سنوات - أجد لذعةَ حُزن في قلبي تُرسل آلامها في كلّ سابحة من دَمي ولكن الله لم يُخلِ حقَّ الرافعي من رجُلٍ يقوم عليه ويحسن النظر فيه، فهيأ له الأخ (محمد سعيد العريان) يردُّ - بوفائه لذكرى الرافعي - كل ما وجب على أصدقاء الرافعي وأبنائه وتلامذته والمتبعيه. فقد بادر (سعيد) بعد وفاة الرافعي، فأنشأ يحث الناس أخباره ما دق منها وما جلَّ، ويضع بين أيدي الأدباء أكثر العوامل التي يتكون منها تاريخ الرافعي، والتي كانت تعمل في إنشاء أدبه وتوجيه بيانه. وفتح (الزيات) باب القول في الرافعي له وعليه حتى اجتمعت من ذلك طائفةٌ من القول صالحةٌ لدراسة أدب الرافعي دراسة جيّدة لمن ينصبُ نفسه لها. ولكن الأخ (سعيد) لم يرض أن يقنع بما كتب هو عن الرافعي وجمعه في كتابه الذي طبعه بعد وسماه (حياة الرافعي)، فدأب على إظهار ما لم يظهر من آثار الرافعي قديمها وحديثها، وقد كان آخر جهد بذله في ذلك سعيه لإنقاذ مؤلفات الرافعي كلها من الضياع. فانتدب لجمعها وتصحيحها ومراجعتا وطبعها بعد ذلك سلسلة واحدة تقوم بنشرها (المكتبة التجارية) وقد كاد يفرغ من طبع أكثرها، وأنا أعلم أن بين يديه الآن كتاباً من كتب الرافعي التي لم يتمها وكان أصولاً مبعثرة رديئة الخط كثيرة الإضطراب، وهي أصول الجزء الثالث من كتابه

الجليل (تاريخ آداب العرب) واستخراج هذا الجزء وحده دون سائر كتب الرافعي يعد عملاً عظيماً ووفاء نبيلاً لرجل هو كسائر الأدباء: حياته حياة أدبه، فإذا مات لم يجد في هذا الشرق الغافل من ينفخ الحياة في آثاره الأدبية مرة أخرى

إن هذا التراث الذي خلفه الرافعي للأدب العربي، قد جعله الله أمانة بين يدي (سعيد) فهو يؤدي اليوم إلى الناس هذه الأمانة وافية كاملة لم ينتقص منها شئ - إلا شيئاً يعجزه أن يهتدي إليه أو يقع عليه، وغداً يجد الناس بين أيديهم كل ما كتبه الرافعي حاضراً لم يضيع شئ منه وكذلك يجد من يريد سبيله إلى معرفة الرافعي من قريب وتقديره والحكم إما له وإما عليه

مصر المريضة

ألقى الدكتور عبد الواحد الوكيل بك، أستاذ علم الصحة بكلية الطب، في المؤتمر الحادي عشر للمجمع المصري للثقافة العلمي - محاضرة هي تصوير للآلام التي تعانيها الصحة في مصر، وتمثيل للحقائق المؤلمة المخيفة التي تعمل عملها في هدم البناء الصحي للأبدان المصرية. وقد نشر صديقي الأستاذ (فؤاد صروف) قسماً من هذه المحاضرة في مقتطف مايو سنة 1940، فأخذتها وقرأتها وأنا أرجف بالرعب والفزع لما مثل لعيني من تلك الحقائق البشعة الشنيعة، وهي على بشاعتها وشناعتها متفشية منتشرة تغزو مصر من جميع نواحيها غزواً مهلكاً مبيراً، ثم لا تجد من يرده عنها من الجنود المجندة المقالة التي هي كل صناعة الطب وأسباب صناعته

لقد عمد الدكتور الوكيل إلى الإحصاء الصحي في مصر، فبان منه أن البلاد إذا لم تتدارك أمر الصحة بأوثق العزم وأحكم التدبير وأسرع العمل، فسوف تنتهي إلى فناء محقق يأكل القوة المصرية كما تأكل النار يبس الهشيم. ونحن في فاتحة عصر رهيب قد بدأ بالحرب المجتاحة، تأتي معها الأوبئة والأمراض وتجر في أذيالها أوبئة أخرى وقحطاً ومجاعة - إلا أن يشاء الله - والعالم كله يخشى ويتأهب ويستعد، فهل عمدتْ مصر إلى جعل الوقاية الصحية تدبيراً ممتداً مع أسوأ الفروض التي يمكن أن توحي بفرضها أوهامنا ومخاوفنا وتشاؤمنا من الأيام المحاربة والأيام التي تلْقي عن عواتقها أوزار الحرب بعد أن تأكل القوة بعضها بعضاً في ميادين البغي والقتال؟

يقول الدكتور الوكيل: (ونحن إذا رجعنا إلى نسبة الوفيات العامة سنة 1937 في مصر وثلاثين دولة أخرى في مختلف القارّات متدرجين من الأسوأ إلى الأفضل، اتضح لنا أن مصر في رأس هذه القائمة؛ ومن هذه البلدان: الهند واليونان وبلغاريا وفلسطين). . . لا،

بل أكثر من ذلك، وهو أن الإحصاء دلالة على أن الأطفال هم 55. 8 ? من مجموع الموتى، وأن هذه النسبة في صعود متواصل حتى في هذا العهد الذي نحن فيه. بل انظر إلى الأصل فالدكتور الوكيل يقول: إنا إذا أخذنا الأمراض المتفشية كالبلهارسيا والأنكلستوما والرمد والسل والأمراض العقلية والملاريا والتيفوس والتيفود والدفتيريا والأنفلونزا الحادة والحمرة وغيرها، ثم جمعنا بعضها إلى بعض مرضاً مرضاً كانت ما يربو على 50 مليون مرض، فإذا وزعت هذه الملايين على المصريين أصاب كل شخص ثلاثة أمراض في وقت واحد

وهذه النتيجة المؤلمة قد أفضت إلى هذه الغاية باهتمام القائمين على أمر الصحة والتعليم بالحضر دون الريف، وبالذي كان من طغيان الجهل واستبداد الفقر بطبقات الشعب التي يتكون منها السواد الأعظم. وقد وضع الدكتور الوكيل مشروعه لمكافحة هذه الحالة، فهل يمكن أن تكون الوزارات المختصة قد عرفت حق مصر فهبت إلى القيام بواجبها في الدفاع عن البلاد لإنقاذها من براثن هذه الأعداء المتعادية المتحالفة على قتال الروح والحياة في الشعب المصري؟ ذلك ظننا، والله خيرٌ حافظاً وهو أرحم الراحمين.

محمود محمد شاكر

رسالة الفن

بواطن وظواهر

عندنا فنانون. . . ولكن!

للأستاذ عزيز أحمد فهمي

من النقاد - 3

الأستاذ بيرم التونسي:
كل ما يكتبه رائع، ولكن أروع ما يكتبه هو النقد، وقد كنت أقرأ للأستاذ بيرم فأحسبه كتبه بعد كراهية عقلية لما ينقده، واقتناع فكري أو خيالي بأن هذا الأمر الذي ينقده قائم على أخطاء يجب أن تزال حتى لا ينهض عليها من الأخطاء ما سيتدعي النقد.
فلما لقيت الأستاذ بيرم رأيت فيه أنه يكره بقلبه كراهية التحريم كل هذه الأمور والشخوص التي ينقدها، وقد يعلم القارئ أن كثيراً جداً من نقد بيرم منصب على الرجال الذين يسميهم (خناشير) تذكيراً بغيضاً بخشونتهم وتبشيعاً لها وانتصاراً منها لرقة الأنوثة ودلالها. . . قد يعلم القارئ هذا. . . فهل يعلم القارئ أني رأيت الرجل هكذا حقاً يكره الرجال ويستثقل ظلهم ولا يكاد يطيق صحبتهم، ويمقت من يقول إن فيهم حسناً وإن في عشرتهم راحة. وهو لذلك يفر من الناس فراراً ويستخفي في الشارب العامة في زواياها على نواصي الشوارع المائجة ويجلس مغمض العينين ولكنه يرى. . . وهو يرى من ثقب في إحدى عينيه - لعلها اليمنى - ولا أدري كيف انثقب وإن كنت أراه تجويفاً استدار في ملتقى الجفنين منهما فراغ هو نصف الدائرة. . وكلما مر في الطريق رجال هرب الأستاذ بإنسان عينه من وراء الثقب فلم يرهم، فإذا مر في الطريق غير الرجال تألق الإنسان من وراء الثقب وارتعد
ومن هذا الثقب يرى الأستاذ بيرم كل شئ، ولعل هذا هو السر في أنه يرى أبعد وأعمق مما يرى الناس، فهو كعدسة الميكروسكوب تجمع الأشعة للعين في مستقيم واحد حيزه مجموع وهدفه دقيق. . .
وكما أن بصر الأستاذ بيرم مكرسكوب، فإن بصيرته ميكروسكوب أيضاً. . . فضاح لا يغيب عنه إلا ما يشاء الله أن يخفيه وإذا شاء الله أن يخفي على الأستاذ بيرم شيئاً حفز فيه قوة انتباهه، فيستيقظ في نفسه سوء الظن بما يسمع ويرى، فيخطئ الحكم. وسبحان الذي لا يغفل ولا يخطئ . . ..
الأستاذ محمد الههياوي:
أعوذ بالله من غضب الله ومن غضبه. هو صاحب القلم الذي كان سعد زغلول ينتظر قوله فيه أسبوعاً بعد أسبوع، ليطمئن على كيانه أسبوعاً بعد أسبوع. فكما كان سعد أزهرياً فناناً عبقرياً؛ فالأستاذ الههياوي أزهري فنان عبقري، كانت وقفاته من سعد كوقفات سعد، وكانت كلماته في سعد من الرواج مثل كلمات سعد؛ فلعله كان أشد الناس حزناً على وفاة سعد، إذ فقد الههياوي بوفاته قريعه وضريبه الذي كان يستنبع من زعامته مادة فنه، والذي كان يستخلص بالبراعة والحدة من كلامه وفعاله أهدافاً لهجومه ونقده. بل لعله كان أشد الناس حباً لسعد وقتما كان يبدو للناس أنه أشد الناس مضياً في خصومته وعداوته، فأنا لا أستطيع أن أتصور فناناً عبقرياً يمقت فناناً عبقرياً، والنبي كان يطلب للإسلام أن يعزه الله بعمر، فلم يكن سعد أيضاً يكره ناقده.
الدكتور طه:
ويا لطول شقائي بالدكتور طه! الناقد الجبار الذي لم يستطع أن ينقذني أنا! كنت أنقش وأنا في العباسية الثانوية على أركان كراساتي وكتبي أربعة أسماء. . . نقشتها على كل كراسة وعلى كل كتاب هي: (مصر. سعد. طه حسين. سيد درويش) وكان أساتذة اللغة العربية في العباسية الثانوية ينهونني عن الدكتور طه والكفر، فكنت أثور وأعرض نفسي لسخطهم وعقابهم ما لم تنقذني شفاعة من أحد الأساتذة الثلاثة المستنيرين الذين يحبون معي الدكتور طه وهم: محمود مرعي، ومصطفى السقا، وأحمد الشايب. وسماني زملائي في الثانوية باسمه من فرط ما كنت أقلده في تفكيره وأسلوبه. وأحسب نفسي لا أزال إلى اليوم مطبوعاً بطابعه. ولما كنت في كلية الآداب كنت أضع على عيني منظاراً أسود إمعاناً مني في (الطحسنة). وفي معهد التربية كان زملائي وبعض أساتذتي يجلسونني إليهم ويطلبون مني أن أحدثهم أي حديث وأنا الدكتور طه. . . وعندما كان الأستاذ الههياوي مشرفاً علي في أول عهدي بالكتابة كان يقول لي: إني أخاف عليك أن تكون نسخة ممسوخة من الدكتور طه. وعاب علي الأستاذ الزيات يوماً أنني أفقد توازني أحياناً فيما أكتب للرسالة فأضمحل وأذوب ويتبلور من بقاياي بعد ذلك طيف من الدكتور طه يكتب هو ويقول ما يريد
والدكتور طه الذي غزاني هذا الغزو لا أدري كيف لم يشعر بي، وكيف لم يعطني من

نفسه ولو عشر ما احتل من نفسي. . . كلما أقبلت عليه صدني، وكل ما قيل له عني فيه صدقه. . . وإلا فأي شئ كان يبغضه فيّ. . . لقد كان من أثر ذلك أني تابعته بالذي تعلمته منه. . . الصد بهجر، والنكران بخدش

وأين أنا من أستاذي الذي إذا كره أمراً حرض الناس عليه حتى إذا رآهم أجمعوا على كراهيته معه، عاد هو فكره أن يكون معهم في إجماعهم فراح يعلن حبه لهذا الأمر ويحرض للناس على حبه حتى يعودوا إلى حبه معه، فيعود هو فيكرهه ويحرضهم على كراهيته. . . وهكذا

من الفلاسفة - 4

لطفي السيد باشا:

هذا الفيلسوف شرد عن نفسه بالفلسفة فلا هو يعرف أنه يعيش في مصر وإنما هو يحسب أنه يعيش في أثينا، ولا هو يعرف أن الزمن دار ودار حتى وصل التاريخ إلى القرن العشرين بعد الميلاد وإنما هو يحسب أن العصر لا يزال عصر سقراط وأرسطو

رشح نفسه يوماً لانتخاب الجمعية التشريعية وقال للناخبين إنه رجل ديمقراطي. فسمع بذلك منافسه الفلاح فقال للناخبين: وأنا رجل مسلم. فسأل الناخبون منافس الباشا: وهل الديمقراطي غير المسلم فقال لهم: الديمقراطي كالماسوني، مبادئه الإخاء والمساواة بين المسلمين والنصارى واليهود، والرجل والمرأة، والسيد والخادم والكبير والصغير، والعالم والجاهل، والقادر والعاجز، والسليم والأجرب. . . وغير ذلك وذلك أنه يمنح لكل إنسان أن يكون حراً في حدود القانون، فالذي لا يصلي حر، والذي لا يصوم حر، والذي يسكر حر، والذي يفعل ويفعل حر مادام القانون محفوظاً لم يمس. . . وقانوننا في الأصل فرنساوي

وزار لطفي السيد باشا دائرته الانتخابية، فسأله الناخبون: هل حقاً أنت ديمقراطي؟ فقال

لهم: نعم. فسألوه: أمساواة وإخاء وحرية كالماسون؟ فقال لهم تماماً ولا فرق! فسألوه: والمسلم كالمجوسي؟ فقال لهم: سواء بسواء! فسألوه: والمرأة كالرجل، والسكران كالصاحي؟ فقال لهم: أمام القانون لا كبير ولا صغير. . والسكران ما لم يؤذ أحداً حر في نفسه. . . فقالوا له: عال. . . إن فلاناً يتهاون في الصلاة فلا يؤديها فقال لهم: هو حر. . . فقالوا له: إنا نعوذ بالله من (ديمقراطكم). . لكم دينكم ولنا دين. . . !

وفاز الفلاح منافس الفيلسوف في الانتخاب. أما الفيلسوف المفكر فإنه لم يفز، وكان عيبه عند ناخبيه أنه ديمقراطي!

فهل الذي لا يعرف كيف يتفاهم مع ناخبيه فيلسوف؟

إنه فيلسوف ولكنه لا يعيش في هذا البلد ولا في هذا العصر

الأستاذ شهاب:

هو عبد السلام بن حسنين بن شهاب بن أبي شامة البشبيشي، واصل الدراسة في الأزهر الشريف حتى أشرف على امتحان العالمية فتكاسل عنه. والتحق بفرقة تمثيلية يؤلف لها الأغاني والأناشيد وكان جمهور هذه الفرقة خليطاً من الناس ذوي المشارب المتباينة والأذواق المختلفة، فكانوا جميعاً يجودون ما يرضون عنه فيما كانوا يسمعون.

ثم شارك حلاقاً في صالون، لعبا برأس ماله في (اليانصيب) فلم تصبهما ثروة، فالتقطه واحد من أصحاب المجلات الأسبوعية كان يدير تجارة إلى جانب المجلة فعمل الأستاذ شهاب في تجارة وفي المجلة حتى رأى صاحبه يسلمه يوماً لواحد آخر من أصحاب المجلات الأسبوعية، ولم يعلم أنه باعه له المال إلا بعد زمن طويل، وانتقل من المجلة القديمة إلى المجلة الجديدة يكتب فيها شعراً وزجلاً ونثراً مما يعيه الشعب ويفهمه ويتلذذ به وهو ماكث في (الإدارة) لا يخرج منها، ويعمل ويأكل وينام على المكتب. . . ثم طرأ له أن يخرج يوماً فخرج وغاب فلم يعد، فدار صاحب المجلة يبحث عنه في الأقسام والمستشفيات وهو متلهف عليه يقول: يا عالم إنه لا يعرف الطرق ولا الشوارع ولكنه كان قد عرف الطرق والشوارع ومن بينها شارع الأمير قدادار، وهو الطريق إلى دار الهلال التي يعمل فيها الآن محرراً لإحدى المجلات التي تصدرها، يكتبها بعد أن يجمع له المندوبون معلوماتهم، ومن أولها إلى آخرها

وهو أزهد من رأيت في الجاه والشهرة، وأقدر من رأيت في الحكم على النفوس، وأقوى من رأيت في إقامة الحق إذا أراد إقامته، وفي إزهاقه إذا أراد إزهاقه، وأشد من

رأيت استسهالاً للعبث بعقول الناس، فهو يبدأ يقص عليك القصة، فلا تلبث بعد أن يقطع معك مرحلة طويلة فيها أن تفيق فتجد نفسك قد سمعت كلاماً كثيراً مرتبطة أجزاؤه بعضها إلى بعض، ولكنه ذاهب إلى حيث لا تدري؛ فإذا أحببت أن تعود أدراجك إلى بدايته لم تعرف كيف تروح معه ولا كيف تجئ

يشترط عليه الأستاذ إميل بك زيدان إذا أراد أن يحادثه في أمر أن يمتنع عن مناقشته فيه، لا لشيء، إلا لأنه جرب مرات ومرات أن مناقشة الأستاذ شهاب تنتهي عادة بأن تقر دار الهلال نقيض ما تريده، وما تكون قد أعدت العدة له

من آرائه أن مصر ستظل هكذا في انتظار زعيم لابد أن يكون دينياً، وأن اللحم سيد الطعام، وأن أسعد الناس هم سكان التكايا؛ وأن الأستاذ محمود حسن إسماعيل شاعر قبطي بدليل الرهبان والصلبان والأجراس التي ترن في شعره كثيراً، وأن طلبة كلية التجارة يجب عليهم أن يقضوا مدة التمرين في المذبح وعند أبي ظريفة وغيره من تجار الفول، على أن لا تزيد مدة التمرين هذه على ثلاثة شهور يعطى الطلبة بعدها دبلوم التجارة ليغزوا هذين الميدانين من ميادين التجارة القومية الرابحة ربحاً مؤكداً ومركباً أيضاً؛ وغير ذلك له آراء كثيرة كم اختلستها منه نشرتها منسوبة إليه في (الرسالة)، فأعجبت من قرأها

حفني محمود بك:

هو أيضاً عجيب في تفهمه للناس وإدراك تكوينهم النفساني وهو يثأر للناس بعلمه هذا من الأشرار الذين يفتكون بهم. ولا تأخذ عند هذا الثأر رحمة ولا شفقة، وجمهور من الناس يحسبون (حفني بك) مهذاراً ماجناً، وهم يروون حوادثه على أنها نوع من العبث والمزاح، وقد اصطنع بعض المتظرفين أسلوبه في السخرية من الناس، ولكنهم لم يحرصوا على ما يحرص عليه هو وهو أن ترمي كل نكتة من نكاته إلى معنى حق، وأنه لا يمكن أن يصيب بمزاحه ضعيفاً أو مسالماً، وأنه لا يؤذي به إلا من هو جدير بالأذى. . .

كان غني من أغنيائنا في أوربا في شهر يوليو. وهذا الغني صاحب ذمة واسعة تقدم منه حفني بك وهو في بار اللواء وقدم إليه ورقة من ذوات الخمسة الجنيهات وهو يقول له: أشكرك كل الشكر يا سعادة البك. هذه وهي الجنيهات الخمسة التي أقرضتني إياها في عيد فرنسا في كازينو سان استفانو. فقبل الغني الورقة وهو يقول: العفو العفو!. . . من غير أن يفكر في أن عيد فرنسا لا يكون إلا في 14 يوليو، وأنه كان في أوربا في ذلك الوقت، فلم يكن من الممكن أن يلقى حفني بك في سان استفانو ولا أن يقرضه شيئاً. . .

تلك كانت ضربة قضى بها حفني بك على المسكين من غير شك. . . ولكن أليس هذا المسكين جديراً بهذه الضربة. . . إنه على أي حال لم يتألم منها ولم يشك وجعها. فنفس كهذه لا يقتلها السم إذا نقع معه قرش لا جنيهات خمسة

الأستاذ محمود بسيوني:

صاحب البطاقة السهلة التي يستطيع أن ينالها منه كل قاصد تقديماً وتوصيةً. وصاحب الصدر الرحب الذي يفتحه لكل من يريد أن يرتمي في أحضانه. ولكن كم من الناس يستطيع أن يقول إن بطاقة بسيوني بك نفعته أوأن وساطته قضت له حاجة؟

هذا رجل كاهن. استطاع أن ينجح في المحاماة إلى أبعد حدود النجاح لأنه استطاع أن يتغلغل ي نفوس الفلاحين إلى أبعد حدود التغلغل. . . رآهم يحبون الرجل الطيب فكان أطيب رجل، ورآهم يأمنون الرجل الصالح فكان أصلح رجل

رأيته يوماً يدخل بنك مصر ومعه عميل من الريف، فلم يصعد به السلم إلى المكتب الذي كانا يقصدانه، وإنما طاف به في بهو (البنك) طوفة متأنية متريثة، أخذت أعصاب الرجل الريفي تتفكك فيها وتنحل رويداً رويداً من أثر الروعة التي كانت تشع عليه من جدران البنك. . . فلما تم له هذا أخذه وصعد به إلى حيث كانا يقصدان؛ وقد آمن الرجل إيماناً بأن بنك مصر هو خير من ألف بنك

وهذه من غير شك أطيب دعاية وأكرم خدمة يؤديها محام وطني لعميله الوطني وللبنك الوطني ولإحساسه الوطني أيضاً. . .

عزيز أحمد فهمي

من هنا ومن هناك
أركان الحرب محور الدفاع الوطني
(عن مجلة (لموا الفرنسية))
يظن الكثيرون أن مهمة أركان الجيش محصورة في رسم خطط المعارك وإصدار الأوامر لقوّاد الجيوش، ويتساءلون دهشين: (بأية وسيلة أو أعجوبة يتلقى قوّادنا في المكان المحدود والساعة المعينة القوات المستمدة والكميات المطلوبة من الذخائر والمؤن والملابس وسائر المعدات الحربية؟)
من المعلوم أن شعب فرنسا يعمل بأسره في سبيل الجنود الذين يحاربون من أجله، ومن المجهول تلك القوة الخفية التي تُعدُّ وتنظم الجنود وتجهّز وتوزّع المعدات الحربية. وقد لا يخطر للكثيرين أن تلك القوة مصدرها أركان الجيش التي تتخذ باريس قاعدتها ووزارة الحربية مركزها. وإذا جاز لنا أن نشبّه القوى العسكرية بالجسم البشري، فالجنرال غملان يمثّل الرأس وأركان الحرب تمثّل القلب وإذا كان القلب هو مصدر الحياة في الجسم والمحرك الدائم الحركة الذي إن توقف لحظة شلّت كل الأعضاء حتى الرأس نفسه، فأركان الحرب هي مبعث كل قوة ومصدر كل تنظيم في الجهاز العسكري
لدى أركان الجيش جيش صغير من الكتّاب يعمل نهاراً وليلاً في ساعات معينة بإدارة بضع مئات من الضباط والاختصاصيين المسؤولين، وفي مكتب رئيس أركان حرب الخرائط الحربية والخطط العسكرية والمعلومات الوافية التي تنبئ دائماً عن مواقف الجيوش في ساحات القتال وعما لديها من الذخائر والمؤن وغير ذلك مما يطول شرحه
ولنذكر الآن شيئاً مما تبذله أركان الحرب في إعداد المعدات الحربية. فمن المعلوم أن في فرنسا بضعة آلاف من المصانع الحربية يعمل فيها مليون عامل وعاملة، وقد كان نتاج هذه المصانع في الحرب الكبرى يفوق نتاج أية دولة من الدول المحاربة والمحايدة، وعلى رغم احتلال ألمانيا لمقاطعاتنا الصناعية في الشمال فقد كنا نمدّ حلفائنا بما يعوزهم من المعدات. فإذا طلبت القيادة من أركان الجيش مثلاً بضعة آلاف من لوالب مدفع 75 فما هي إلا دقائق معدودة حتى يباشر تجهيزها في المصانع، وفي أقل من يومين تتسلم أركان الجيش الطلب وترسله إلى القيادة. ولكن إذا روعيت هذه الدقة في الحرب الحاضرة التي لم يعرف جنودنا فيها حتى الآن المعارك الحامية والإنسحابات القاهرة فكيف تراعي في مثل تلك الأيام التاريخية الحرجة حين انسحبت جنودنا من شارلروا أمام الزحف الألماني ووقت أن هجم الألمان على باريس وبلغوا كمبيان وسان كنتن؟ لقد خبر جيشنا الساعات المشؤومة التي كانت تهدد فرنسا بالهوان ولكن تنظيمه العجيب كان يفوق كل ارتباك وتشويش. إن تقهقر الجيش يعني وقوع ألوف من الأسرى ومئات من المدافع في حوزة العدو، إخلاء مراكز للمدفعيات والطيارات، إهمال المستشفيات والنقالات، وأخيراً ترك كل شئ أمام العدو المطارد. ومع ذلك كان جنودنا الذين شهدوا مثل هذه المآسي يعلمون جيداً أن وراءهم مدافع جديدة جاهزة بدل المفقودة وكميات هائلة من الذخائر والمؤن عوض المتروكة
وقد أطروا كثيراً التنظيم الألماني وأركان الحرب الألماني، ولكن ذلك كان فوق الواقع. ولماذا لا يحق لنا أن نعجب بالتنظيم الفرنسي الذي برهن في أشد المواقف حرجاً على دراية وحسن إدارة نادرتين؟
ومن مهام أركان الجيش تعهد طرق المواصلات والعناية بأسرى الحرب من جنود ومدنيين. أما المهمات الكبرى، فهي تموين الجيش وكفى بها عبئاً ثقيلاً يقتضي الجهد الكبير والعمل المتواصل، فإن تموين خمسة أو ستة ملايين رجل منتشرين في مئات من الكيلومترات لمن أشق الأمور وأعقدها
وقد تستعظم المهمات المذكورة مع أننا لم نأت إلا على شئ منها ولم نذكر إلا بعض ما يفرض على أركان الجيش من الواجبات.
من السهل أن نطلع على ما يقال ويجري عندنا وما تصدره أرضنا وتخرجه مصانعنا، ولكن علينا في زمن الحرب أن نعرف أيضاً ما يقال ويجري عند الآخرين من أعداء ومحايدين وما تغله أرضهم وما تنتجه مصانعهم، فكل حركة حربية يتوقف نجاحها غالباً

على معرفة الحالة الاقتصادية والمعنوية في بلاد العدو. من ذلك أن الهجومين الظافرين على بلغاريا وتركيا في الحرب الماضية لم يفلحا لولا التعليمات التي تلقتها من أركان الجيش، ومنها عرف أن ليس في طاقة الجيش البلغاري أن يواجه حملة عنيفة، وأن الشعب البلغاري قد سئم الحرب.

وعلى مكتب أركان الجيش أن يقدم تعليمات دقيقة عن الحالات المعنوية والاقتصادية والحربية في بلاد الأعداء، وأن يطالع الصحف الأجنبية ويستخلص منها ما يفيد القيادة العليا ووزارة الخارجية، ثم يدرس أساليب التنظيم الحربي عند الدول الأجنبية ويستطلع مستحدثاتها الحربية. ومن شؤون هذا المكتب إيفاد البعثات إلى الخارج ونقل البريد والاتصال الدائم بأركان جيوش الدول المحالفة والمحايدة وغير ذلك مما لا نذكره اجتزاء

وهناك مكتب آخر من مصلحته تقديم التعليمات السرية عما يجري في بلاد العدو، وهو الذي أفادنا في الحرب الماضية أن القروض الألمانية والنمساوية منيت بالفشل وإن تكن حكومتا برلين وفينا أذاعتا نجاحهما الباهر. ومن مصلحته أيضاً الإفادة من نتائج الحصار ودرس الوسائل التي تضعف العدو

ومن المهام الخطيرة المفروضة على أركان الجيش نقل الجيوش. وكلنا يذكر النظام التام الذي تم فيه نقل جيوشنا سواء في أغسطس من سنة 1914 أو في سبتمبر من هذه السنة. فلا اضطراب، ولا فوضى ولا تشويش. وقد أدت سككنا الحربية خدمات جليلة، وكانت من أهم أسباب انتصارنا في الحرب الفائتة. ومنها توزيع الرسائل على جنودنا سواء في فرنسا أو في الخارج. ولكي يتصور القارئ مشقة هذه المهمة نقول إن ما يرسله جنودنا من الرسائل وما يرسل إليهم يملأ ثلاث مركبات

إن ما ذكرناه ليس إلا صورة مصغرة للخدمات الكبيرة والمهمات الخطيرة التي يؤديها أركان جيشنا محور الدفاع الوطني وقلبه النابض

ممتلكات إنجلترا

(عن مجلة (العصبة))

من الأقوال الشائعة أن الشمس لا تغيب عن أملاك إنجلترا. وتلك حقيقة ليس فيها أقل مبالغة، فأني توجهت تر لبريطانيا العظمى علماً مرفوعاً ومدفعاً منصوباً وسفينة جارية. محطات حربية في أهم وأمنع المواقع، قواعد تجارية منتشرة في كل صقع، ممتلكات ومستعمرات لا تقل مساحتها عن خمسة وثلاثين مليون كيلو متر مربع، عمارات من السفن الحربية والتجارية تغشى البحار ليل نهار. هذا هو المشهد الأول من عظمة الإمبراطورية البريطانية.

يخفق العلم البريطاني في أوربا على: إنجلترا، إيرلندا، مالطة، جبل طارق

وفي أمريكا على: كندا، الأرض الجديدة، لبرادور، أرخبيل برمودا في الأطلانطيكي، أرخبيل باهاما في الأطلانطيكي جزر برلافنتو، جزر سوتوفنتو، جزيرة جاميكا، جزيرة باربادس، جزيرة تريندا، جزيرة تاباكو، هوندوراس البريطانية، غيانا البريطانية، جزائر فلكلان وجورجيا في الأطلانطيكي الجنوبي

وفي أفريقيا على: الاتحاد الإفريقي الجنوبي، روديسيا الجنوبية، تانغانيكا، أوغندا، زنجبار، كينيا، الصومال الإنجليزي، السودان الإنجليزي المصري، غامبيا، الشاطئ الذهبي، توغو (قسم منها)، جزيرة سانتا هيلانة، جزيرة إسنسيون، جزر سيشل، جزر موريشاس، جزيرة سوقطرا، سيراليون

وفي آسيا على: الهند، سيلان، قبرص، فلسطين، شرق الأردن، عدن ونواحيها، سنغافورة، ملَقة، هونغ كونغ، بورينو الشمالية، ساراوك، بروني، واي هاي واي، البحرين اندمان ونيكوبار

وفي الأقيانوسية على: أستراليا، زيلاندة الجديدة، فيجي، غينيا الجديدة، بابو، سلمون، تونغا، ساموا الغربية، نورو وغيرها من جزائر الباسيفيكي العديدة

35 مليون كيلو متر مربع تتدفق خيراتها على الجزر البريطانية وخمسمائة مليون نفس يمتثلون لأحكام السلطة الإنجليزية.

وقد بلغ التوسع البريطاني أشده في القرنين الأخيرين؛ ففي سنة 1800 كانت مساحة الإمبراطورية البريطانية 3. 883. 320 كيلومتراً مربعاً فبلغت سنة 1919 نحو 35. 467. 656 كيلو متراً وعدد سكانها 475 مليون نفس.

تبلغ مساحة كندا وحدها نحو تسعة ملايين كيلو متراً مربعة يسكنها نحو عشرة ملايين نفس، وهي تشغل المرتبة الثالثة في العالم بما تغله أراضيها من الحنطة، وقد استخرجت في سنة 1936 نحو 116 طناً من الذهب و 77 ألف طن من النيكل.
والاتحاد الإفريقي الجنوبي مساحته 1. 225. 000 كيلومتر مربع وعدد سكانه 8 ملايين، وهو موطن الذهب فقد استخرج منه في سنة 1936 نحو 352 ألف كيلو.
وأستراليا ومساحتها نحو 8 ملايين كيلومترا مربعة بقدر عدد مواشيها بنحو 120 مليوناً استغلت في سنة 1936 أكثر من 450 ألف طن من الصوف. والهند ومساحتها نحو 5 ملايين كيلومتر
مربعة وعدد سكانها 350 مليوناً أنتجت في سنة 1936 ما يزيد على 57 مليون طن من الأرز وهي الأولى بين كل بلدان العالم بمحصول الأرز.
وأنتجت أيضاً في تلك السنة 4 ملايين طن من السكر و10 ملايين طن حنطة ومليون طن من القطن ومليوني طن من الخيش أي 99 في المائة من محصول العالم كله، وفي الهند من البقر ما يقدر بمائة وخمسين مليوناً.

البريد الأدبي

وحي الرسالة

تفضل كاتب العربية الأستاذ الجليل عباس محمود العقاد فلخص في هذا الكتاب البليغ رأيه القيم في كتاب (وحي الرسالة). وإنا لننشره شاكرين للناقد الكبير جميل رأيه في الكتاب وصاحبه:

أخي الكاتب البليغ الزيات

وحي رسالتك أصدق ما قرأت في الكتابة العربية الحديثة من مصداق لرأي القائلين: إن الرجل هو الأسلوب

فأنت أسلوبك وأسلوبك أنت: إتقان واستحياء وسلاسة، صُوِّرت في عالم الخلق فكانت إنساناً، وُصورتْ في عالم الفكر فكانت وحي الرسالة

إتقان صيغة في غير ظهور ولا ادعاء، يوشك من يتبينه أن يلمسه ليعرف موضع الجودة فيه، كما يلمس المسّوم النسيج المتين الذي وعى المتانة سراً من أسرار منواله وخلا من الزخرف والبريق، لأن إتقان تلك الصيغة كإتقان هذا النسيج، في حقيقتها وليس على مرآها، وعلى صفحة محياها دون سواها

واستحياء يخفى مزاياه ولا يفوته شئ بأن يخفيها، لأنها أثبت من أن يحجبها الإخفاء وسلاسة تطوع العصي وتملك الزمام في الوعر والسهل على السواء. فإن ما تصف من ألم نفساني يلهب مراق الحشا ويَبْده الضعف الإنساني بأقصى ما يطيق وفوق ما يطيق، لكالذي تصف من ألم يباشر الفكر قبل أن يباشر اللحم والدم، ويحسب من قضايا الرأي كما يحسب من قضايا الفؤاد إتقان واستحياء في المعنى لا في اللفظ وحده، وفي موضوع الكتابة لا في بنيانها وتركيبها وكفى، وعلى السيماء وفي الطوية سواء

وتلك هي الأساليب التي تضاف إلى لغة العرب فيقال معنى إنساني في كلام عربي، ولا يرتد المعنى إلى بني الإنسان حيث كانوا ثم لا يبقى منه للعربية ما تحرص عليه

وحي رسالتك في كتاب أحمد

والسلام عليك وعلى من اتبع هداه

عباس محمود العقاد

مصر الحلوة

تحت هذا العنوان الجميل جمع الكاتب الفرنسي الكبير جان لوجول رئيس تحرير البورص إجبسيان طائفة من الفصول الفرنسية الرائعة القصيرة كان قد نشرها متفرقة في مدى عشر سنين. وهي صور صادقة للحياة المصرية في شتى مظاهرها ومناظرها وأحداثها وعاداتها، رسمها قلم فنانٌ صَنَاع وجد إلهامه في حب مصر وأهل مصر، وقصد بعرضها في هذه الألوان الجميلة أن يوثق بها التعارف والتآلف بين الصديقتين القديمتين فرنسا ومصر في هذا العهد الذي قضى فيه إلغاء الامتيازات وما سيعقبه من إلغاء المحاكم المختلطة أن يعيش المصري والأجنبي عيشة أهل الوطن الواحد لا تفرق بينهما فوارق السياسة والاجتماع.

وقارئ هذا الكتاب القيم يستطيع أن يقول على الجملة إن مسيو لوجول من الكتاب

الأجانب القلائل الذين فهموا مصر وعرفوا كيف يُفهمونها من يجهلونها بأسلوب يشرق فيه الحب والصدق والإخلاص
' مصر المزدهرة
وذلك عنوان آخر جعلته الكاتبة الفرنسية الشاعرة (فلنتين دي سان بوان) حفيدة (لامرتين) لمجموعة من المقالات الممتعة قصدت بها تصوير مصر الجديدة في عهدها الفاروقي المبارك تصويراً دقيقاً يجلوها في أوضاعها المختلفة من اجتماعية واقتصادية وفكرية ودينية وأدبية وفنية. وقد آثرت أن تكل هذا التصوير لمن كان لهم يد في التجديد والإحياء من المصريين وبعض الأجانب، فاستكتبت أكثر من أربعين رجلاً من سراة الكاتبين والمفكرين ونشرت آراءهم وصورهم في هذا الكتاب الأنيق بعد أن زينت صدره بطاقة من الشعر الفرنسي الرفيع قدمتها إلى صاحبي الجلالة الملك والملكة. وهذا الكتاب كسابقه دعاية وتعريف لمصر الناهضة. وهما فوق ذلك نموذج نريد من الفن العالي في التحرير والتصوير والطبع، ودليل جديد على اعتراف الأدب الفرنسي بالجميل لوادي النيل.
حول الأزهر
أعيذ الرسالة وصاحبها أن يكونا كأصحاب صحف أخرى عرفت بأنها تنشر الخطأ في الدين ولا تنشر الصواب وتنشر الطعن ولا تنشر الرد وأعيذها مرة أخرى وقد تعرضت لنشر بحوث دينية أو علمية أن يفوتها فيما تنشر مغمز من قول أو فلتة من لسان ولا تعلق عليه كما هو شأن الصحف الراقية بعلمها الجمّ ومعرفتها القيمة، فهي غنية بمعرفتها عن اتخاذ أخصائيين لها في هذه الشئون
جاء في كلمة الأستاذ المدني حول الأزهر أن مدح أحد الشيوخ لقوله إن الشيطان إنما هو قوة الشر المنبثة في العالم وأخذ يدبج لهذا الشيخ الثناء، ويكيل له الإعجاب، وينتقد الذين انتقدوه في القول وحمل عليهم وقال كان من حق الأزهريين جميعاً أن يقابلوا هذا الرأي العجيب الذي يوافق الدين والعلم الحديث بالإعجاب إلى آخر ما قال من لون من القول كان الأولى بمن يكتب النزوع عن مثله في التحدث عن الفريقين ومن الأسف أن الأستاذ المدني وصاحبه إن كان لا زال مصمماً على ما قال مخطئان كل الخطأ في الدين وفي العلم الحديث معاً. وما العلم الحديث ومسائل لا تعرف إلا عن الوحي؟
ذلك لأن الجن والشياطين والملائكة والجنة والنار حقائق إسلامية لا تعرف إلا من طريق الوحي، وليست مجالاً للرأي ولا للعلم الحديث في شئ، ولا هي ضارة بالعلم الحديث في شئ أيضاً، فهمها العرب الذين نزل القرآن الكريم بلسانهم مؤمنهم وكافرهم كما عناها القرآن وأرادها. وهذه أوليات مسلمة في الإسلام في قسم الغيب الذي يجب الإيمان به كما جاء وليس للبحث العلمي إليه من سبيل، ومنها الإيمان بالبعث والحشر والنشر وصورة ما تكون عليه تلك الشئون، ولا يطلب في ثبوت ذلك إلا صحة الدليل النقلي من كتاب أو سنة صحيحة. فالتحكك بخلق جدل وخلافات دينية في موضوعات دينية ليست موضع جدل، هو فضول من القول وشغل للقراء بغير ما يليق بالكاتب الأمين أن يشغلهم به
وأولى بمن يتكلم باسم الدين في الناس أني شغلهم بالنواحي العملية منه ويبعدهم عن الجدليات، لأن الدين نفسه ينهى عن الجدل والمنازعات كما ينهي عن المنكرات. وفي النواحي العملية الإسلامية ما يشغل ألف كاتب وكاتب أعماراً طويلة، لأن هداية الناس وجملهم على العمل بالدين في شئونهم اليومية والاجتماعية، وتحليهم بأخلاقه واحترامهم لمبادئه وآدابه، وخصوصاً بعد أن رأوا إله الحضارة الحديثة والمدنية الجافة قد سقط، وأنه آن الأوان لسلطان الإسلام الحق ومبادئه العادلة أن يسود وأن يقود العالم مرة أخرى مديدة إلى حياة السعادة والهناءة والأمن على النفوس، وأن ينقذهم من دبلوماسيات هذا العصر
ويكبح جماح العلم الحديث فلا يستعمل إلا في خير الإنسانية. فلا بد للعلم الحديث من دين يكبح جماحه، ولا بد للدول من أن تعترف بالإله الحق الذي سخر لهم الطبيعة وأنزل لهم الشريعة وأنذرهم من آلاف السنين في كتبه المقدسة بما صدقه التاريخ وبما هو حاصل اليوم وواقع على رؤوسهم
فعلى رجال الدين الإسلامي أن يثبتوا في مراكزهم ولا يتزحزحوا عنه بالتأويل والتحوير

إرضاء لعدوهم فالعاقبة لهم إن كانوا مؤمنين حقاً بدينهم. . . والله يدعوا إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم

محمد عبد السلام القباني

المدرس بكلية الشريعة

تعقيب على مآخذ

1 - ذكر الأستاذ القطان كلاماً حول لفظي تعبان وظمآن فقال إن تعبان تمنع من الصرف، لأن مؤنثه تعبانة ولا يمنع من الصرف إلا ما كان مؤنثه على وزن فعلى وكان زائد الألف والنون. نعم إن القاعدة مسلمة، ولكن هل وردت كلمة تعبان في كتب اللغة أم هي كلمة عامية والعربي غيرها. أجمع أساس البلاغة وتاج اللغة والقاموس وشرحه وأقرب الموارد واللسان والصحاح على أنه يقال: هو تعب ومتعب ولم يقولوا تعبان. إلا أن المنجد ذكر هو تعب وتعبان، ولا ندري من أي مصدر استقاها. من هذا يتبين لنا أن تعبان ساقطة من أساسها على الأصح لأنها لو كانت موجودة في اللغة لذكرها الأشموني مع الأربعة عشر لفظاً التي مؤنثها فعلانة وإذن نأخذها على الدكتور زكي مبارك غلطة لغوية. أما ظمآن فقد ورد في القاموس ظمآن وظمآنة، وفي أقرب الموارد هي ظمأى وظمآنة. أما في اللسان وتاج اللغة والصحاح فهي ظمأى، وما دامت قد وردت ظمآنة في بعض أمهات الكتب يصح قول الدكتور محمد عوض لم يزل ظمآناً.

2 - الأبيات الحائرة: يذكر الأديب علي محمد حسن أن كتب النحو والشواهد أجمعت على أن الأبيات الحائرة لمالك بن الريب، ولا أدري أين هذه الكتب التي أجمعت على أنها له؛ فإن كتب النحو والشواهد أجمعت على أنها للفرزدق. ففي حاشية الصبان على الأشموني

نقلاً عن التصريح، وفي فرائد القلائد في مختصر الشواهد لمحمود العيني أنها للفرزدق. وقد ارتضى ذلك الأستاذ أحمد زكي صفوت في كتابه الكامل في النحو، والأستاذ الشيخ محمد محي الدين في شرحه على ابن عقيل. أما في شرحه على الأشموني فقد ذكر ما ذكره العيني ثم أورد رواية ياقوت في معجم البلدان. والذي يرجح أنها للفرزدق عدة أمور (1) إن ما ذكره أبن قتيبة في الشعر والشعراء، والمبرد في الكامل من أنها لمالك بن الريب خطأ محض، إذ أن مالكاً مات في زمن معاوية ولم يدرك الحجاج (2) شبه الإجماع من كتب النحو والشواهد على أنها للفرزدق (3) إن رواية أبي تمام أقوى من رواية ياقوت التي تنسبها للبرج بن خنزير، إذ أن أبا تمام توفي سنة 231هـ، فهو أقرب إلى الفرزدق المتوفى سنة 114هـ من ياقوت المتوفى سنة 626هـ. ولم نجد كتاباً آخر ينسبها للبرج غير ياقوت (4) إن البيتين الآتيين من القصيدة نفسها:

فلولا بنو مروان كان ابن يوسف ... كما كان عبداً من عبيد إياد

زمان هو العبد المقر بذله ... يراوح صبيان القرى ويغادي

بالفرزدق ألصق لما له من اعتزاز وتيه وذكر للآباء والأجداد، ولكثرة مناوشاته مع الولاة بل مع الخليفة أحياناً.

3 - الآخر والثاني: يأخذ الأستاذ م. م. إبراهيم على الأستاذ أحمد أمين قوله: قال أحدنا: جزءاً من العقد الفريد، وآخر: جزءاً من الأغاني وثالث الخ. . . ثم يقول: والمعروف في اللغة أنه لا يسوغ أن تقول آخر إلا إذا كان هو الأخير فلا تقفي بعد ذلك بأعداد أخرى الخ. . وأظن الأستاذ قد خلط بين آخر بكسر الخاء ضد أول وآخَر بفتحها بمعنى غير أو واحد. كما أحسب أنه لم يعرف أنها ربيع الآخر وجمادي الآخرة بكسر الخاء فيهما، ولو كانت بالفتح لقالوا: جمادي الآخرى مؤنث الآخر بالفتح لأن الآخرة مؤنث الآخر بالكسر. فاللغة إذن لا تمنع أن يقال جاء رجل وغيره وثالث ورابع.

عبد الستار أحمد فراج

القصص

عاصفة القدر

للمرحوم مصطفى صادق الرافعي

(عثر في أوراق المرحوم الرافعي على أقصوصة نحسبها لم تنشر، فوجدنا من حسن المناسبة أن ننشرها في يوم ذكراه)

على شاطئ النيل في إقليم (الغربية) من هذا البر قرية ليس فيها من جبل ولكن روح الجبل في رجل من أهلها، فإذا أنت اعتبرته بالرجال قوة وضعفاً رأيته ينهض فيهم بمنكبيه نهضة الجبل فيما حوله، وهو بطل القرية ولواء كل معركة تنشب فيها بين فتيانها وبين فتيان القرى المتناثرة حولها، ولا تزال هذه المعارك بين شبان القرى كأنها من حركة الدم الحر الفاتح المتوارث فيهم من أجيال بعيدة ينحدر من جيل إلى جيل وفيه تلك القطرات الثائرة التي كانت تغلي وتفور، وهي كعهدها لا تزال تفور وتغلي، ويلقبون هذا الرجل الشديد (بالجمل) لما يعرفونه من جسامة خلقه وصبره على الشدائد واحتماله فيها وكونه مع ذلك سلس القياد سليم الفطرة رقيق الطبع، على أنه أبطش ذي يدين إن ثار ثائره، وله إيمان قوي يستمسك به كما يتماسك الجبل بعنصره الصخري، إلا أنه يخلطه ببعض الخرافات؛ إذ لا بد له من بعض الجرائم الشريفة التي يحمل عليها فرط القوة والمروءة في مثله مع مثله. وليس في تلك القرية من بحر غير أن فيها شاباً أعنف طيشاً وعتواً من الموجة على بحرها في يوم ريح عاتية، حلو المنظر لكنه مر الطعم، صافي الوجه لكن له غوراً بعيداً من الدهاء والخبث، وهو ابن العمدة البلدة وواحد أبويه والوارث من دنياهما العريضة يبسط يديه على خمسمائة فدان، وقد أفسدته النعمة، وأهانته عزته على أهله، ولو اجتمعت حسنتان لتخرج منهما سيئة من السيئات بأسلوب من الأساليب لما وسعها إلا أسلوب نشأته من أبويه الطيبين، تعلم وهو يعرف أنه لا حاجة به إلى، فجعلت تلفظه المدارس واحدة بعد واحدة كأنه نواة ثمرة إنسانية، فإذا قيل في ذلك قال إن خمسمائة فدان لا تسعها مدرسة. . . وذهب إلى فرنسا يطلب العلم الذي استعصى عليه مصر، فأرهف ذلك العلم. . . خياله وصقل حسه، ورجع من باريس رقيق الحاشية خنثاً متظرفاً لا يصلح شرقياً ولا غربياً.

وليس في تلك القرية غابة كن فيها عذراء تلتف من جسمها في رداء الجمال الطبيعي . . .

الرائع، ولها نفس أشد وعورة مما تنطوي الغابة عليه، ففي ظاهرها الرونق الذي يفتن فيجذب إليها، وفي باطنها القوة التي تلتوي فتدفع عنها؛ وهي ابنة عم (الجمل) واسمها (خضراء)؛ وكأن فيها زهو خضرة الربيع، ولم تكن تعشق إلا القوة، فما يزيِّن لها ن الرجال إلا ابن عمها، وهي شديدة الإعجاب به وإنما إعجاب المرأة برجل من الرجال مفتاح من مفاتيح قلبها

وكانت (خضراء) جاهلة كنساء القرى، بيد أنها تلميذة بارعة لطبيعة التي نشأت فيها وزاولت أعمالها، فهي بذلك أقوى نفساً وأشد مراساً من الفتيات المتعلمات؛ إذ اتخذت شكلاً ثابتاً من أشكال الحياة، والحياة هي صنعتها هذه الصنعة وأقامتها على هذه الهيئة على حين أن المتعلمات يمضين أيام النشأة وسن الغريزة في التلقي عن الألفاظ والكتب، وفي توهم الصور المختلفة للاجتماع دون مباشرتها، وفي توقي أعمال الحياة بدلاً من مخالطتها، فيؤول ذلك منهن إلى قوة في التخيل قلما ترضى الحقيقة الإنسانية المؤلمة حين تصادمها يوماً، وتتم الواحدة منهن ولكن باعتبار أنها تمت تلميذة للمدرسة، لا امرأة للحياة بما فيها مما يعجب وما لا يعجب

وكانت خضراء أشبه بدودة النهار تفتح أجفانها على أشعة الفجر كل يوم، ولا تزال نهارها في دأب وعمل، فنفي ذلك عن أخلاقها ما يجلبه السكون من الخمول والميل إلى العبث والدعابة، وحصلت لها من الحياة حقيقة عرفت منها أن المرأة عامل من أكبر العوامل في النظام الإنساني عليه أن يصبر على الكد والتعب إذا أراد أن يظهر بطبيعته الحقيقة لا بطبيعته المزورة المصنوعة؛ ورأت الرجل يستأثر بجلائل الأعمال ولا يترك للمرأة إلا كما يترك عقرب الساعات لعقرب الثواني في الرقعة التي تجمعهما، فهذا الصغير لا يبرح يضطرب في (دائرته الضيقة) يهتز من جزء إلى جزء، حتى إذا أتم الدقيقة في ستين هزة كاملة ذهب الأول بفضلها كلها وخطأ بها خطوة واحدة. ثم يعود المستضعف المسكين إلى مثل عمله، ولا يزال هذا دأبهما وإن أكثرهما عملاً وتعباً هو أقلهما قيمة وظهوراً. ولكن هذا الضعيف المغبون لم ينله ما ناله إلا من كونه هو وحده الذي بني في هذا النظام على فضيلة الصبر والدقة ليكون أساساً للآخر.

فعرفت (خضراء) كيف تقيد طبيعتها من تلقاء نفسها وتقرها على الصبر والرضا والسكون إلى حظها الطبيعي والاغتباط به، إذا كان

فضل الرجل على المرأة ليس في كونه أكثر منها فضلاً الرجل على المرأة في كونه أكثر منها فضلاً أو أسباب فضل، بل في كونها هي أكثر منه حباً وتسامحاً وصبراً وإيثاراً؛ ففضائلها لحقيقة هي التي جعلته الأفضل، كما تجوع الأم لتطعم ابنها

ورآها ابن العمدة، ولما تمض أيام على رجوعه من أوربا، وقد عبث هناك بضع سنين، وكان عهده بالفتاة صغيرة، فوثبت إلى نفسه في وثبة واحدة، ورأى شباباً وجمالاً وروعة زينتها في قلبه وسولت له مطمعاً من المطامع وجعلته يرى ما يرى بمعنى ويفهم منه ما يفهم بمعنى غيره

وكانت حين رآها واقفة على النيل تملأ جرتها مع النساء من نوعها وهن يتعابثن ويتضاحكن، كأن لخصب الأرض في أرواحهن أثراً بادياً، فإذا ما أقبلن على النهر لشأن من شؤونهن تندت روح الماء على ذلك الأثر فاهتز واهتزت المرأة به؛ فإن كانت ذات مسحة من جمال رأيت لها رفيفاً كرفيف الزهرة حين يمسحها الندى، وذهبت لتموج في جسمها، وقد حسرت عن ذراعيها، ولمس الماء دمها الجداب، فأرسل فيه تياراً من العافية والنشاط يتصل منها بقلب من يراها إن هو كان شاعراً يحس؛ فإن كانت روح الرجل ظمأى ورأى المرأة على هذه الهيئة، فما أحبه أن يشرب منها بعينيه شرباً يجد له في قلبه نشوة كنشوة الخمر. . . وكذلك وقعت الفتاة من نفس هذا الفتى، فزينها له الخبث الذي فيه أضعاف ما زينها له الجمال الذي فيها، وقذفها القدر إلى قلبه ليخرج من هذا القلب تاريخ جريمة، فوقف يتأملها بعين أحد من آلة التصوير لا تفوتها حركة، وسلط عليها فكرة وذوقه، وأيقظ لها في نفسه المعاني الراقدة، فنصبت في قلبه عدة تماثيل الجمال تجسّدت في كل واحد منها على شكل كأنما أفرغت فيه إفراغاً

وكانت نفس ابن العمدة من النفوس الخيالية المتوثبة، إذ قامت من نشأتها أن تطلب فتجاب، وتأمر فتطاع، وتشتهي فتجد، وكأنهما خلق إلا ليستعبد قلبي والديه، وكانا ساذجين لا يعرفان من علم التربية إلا أن للحكومة مدارس للتربية، وموسرين لا يفهمان من معنى الحاجة في هذه الدنيا إلا أنها الحاجة إلى المال، ومنقطعين من النسل إلا منه، فكأنه لم يولد لهما بل هما قد ولدا له. . . فله الأمر عليهما من كونه لا أمر لهما عليه، وبذلك أسرفا له من فضائل الرقة والحنان والإشفاق وما إليها، وهي في نفسها فضائل ولكن متى أسرف بها

الآباء على أولادهم لم تنشئ في أولادهم إلا ما يكون من أضدادها، كالشجر يفرط عليه الري فلا يحدث فيه إلا اليبس والذوى، وإنما أنت تسقيه الموت ما دمت ترويه بمقدار من هواك لا بمقدار حاجته

ونشأ الفتى في أحوال اجتماعية مختلفة جعلت من أخص طباعه تمويه نفسه على الناس، والتباهي بالغنى والتنبُّل بالأصدقاء. والحاشية من وزرائه وعماله، والتهيؤ بالثياب والأزياء، فانصرف باطنه إلى تجميل ظاهره، وردَّ ظاهره على باطنه بالشهوات والدنايا وأعانه على ذلك أنه جميل فاتن خلقت صورته (للصفحة الحساسة) من قلوب النساء. وذلك ملك عظيم لم يكن أبوه الرجل الطيب منه إلا كما يكون وزير مالية الدولة. . . ولما أرسل إلى باريس وقع منها في بلد عجيب كأنه خيال متخيل، لا يؤمه رجل في الدنيا من كامل أو ناقص، وعالم أو جاهل، وشريف أو ساقط، إلا رأى فيه ما يملأ كل مداخل نفسه ومخارجها، فلو قامت مدينة من أحلام النفوس الإنسانية في خيرها وشرها، وطهرها وفجورها، واختلالها ونظمها، لكانت هي باريس. وانقطع الشاب هناك إلى نفسه وإلى صور نفسه من أصدقاء السوء، فلا أهل فيلزموه الفضيلة ولا إخوان فيردوه إلى الرأي، ولا خلق متين فيعتصم به، ولا نفس مرة فيفئ إليها ولا فقر. . . فيحد له حدوداً في الشهوات يقف عندها. وما هو إلا خيال متوقد ومزاج مشبوب وتربية مدللة وطبع جرئ ومال يمر في إنفاقه، ومن ورائه أب غني مخدوع كأنه في يد أبنه كرة الخيط: كلما جذب منها مدت له مدا، ثم ما هنالك من فنون الجمال ومتع اللذات وأسباب اللهو مما يتناهى إليه فساد الفاسد وما هو في ذاته كأنه عقوبة مستأصلة للأخلاق الطيبة فكان الشيطان الباريسيُّ. . . من هذا المسكين سمعه وبصرة ورجله ويده يوجهه حيث شاء. وبالجملة فقد ذهب ليدرس فدرس ما شاء ورجع أستاذاً في كل علوم النفس المختلة الطائشة وفنونها، وأضاف إلى هذه وتلك كلمات يلوي بها لسانه من علوم وأقاويل ليس فيها إلا ما يدل الحاذق على أن هذا الشاب لم

يفلح قط في مدرسة فلما وقعت (خضراء) منه ذلك الموقع وأخذت مأخذها في نفسه، اعتدها نزوة من نزواته، فما بمثله أن يحب مثلها ولا هي كفايته في شئ، إلا أن تكون لهو ساعة من ساعاته، أو حادثة تجري فيها حال من أحواله الغرامية. وحسبها امرأة ليس لقلبها أبواب تمتنع على مثله، فقدر أن غناه وفقرها يقتلعان باباً، وعلمه وجهلها يحطمان باباً آخر، وجماله وحده يضع ما يبقى من الأقفال عما بقي من الأبواب، وكان يحسب أن جمال المرأة من المرأة كالحلية من بائعها فكل من ملك ثمنها فليس بينه وبينها إلا هذا الثمن؛ ولكن الأيام جعلت تأتي وتمر وهو لا يزيد على أن يعرض لها وهي ترميه من صدورها كل يوم بداعية من دواعي الهوى، وكان لا يجد نفسه قوة أن يزيدها على النظر شيئاً، وترك لوجهه وثيابه ونظراته وغناه أن تصل بين قلبه وقلبها بسبب، فلم ينل طائلاً وتمادي في حبه واستولت عليه فكرة غمرته بهذه المرأة، أما هي فأشعرتها غريزتها بما في قلبه منها وكانت مسماة، لأبن عمها، فكانت تتحاشى هذا الشاب وتحذره حذراً شديداً، وتتوهم أن الناس يحصون عليها النظرة والالتفاتة ويحصون عليه من مثلهما، ووقع في نفسها أن لهذا الرجل شأناً غير شأن الرجال الآخرين، فهم لا يستطيعون معها حيلة وهو يستطيعها بغناه ومنزلته وكان للرجل خادم داهية قد تخرج في مجالس القضاء. . . من كثرة ما حكم عليه في تزوير واحتيال وغش وادعاء وإنكار ونحوها، وقد استخلصه لنفسه واتخذه مؤنسا ورفيقاً وجعله دسيساً إلى شهواته السافلة، كان يسميه فيما بينه (إبليس) فلما أراد أن يرميها به قال يا سيدي هذه قضية احتيال عليها، فإذا دخل ابن عمها خصماً في الدعوى كانت قضية احتيال على عمري أنا! قال: ويحك أيها الأبله! فأين دهاؤك ومكرك؟ وإنما أرسلك إلى امرأة فقيرة عيشها كفافها، وأنت تعدها وتمنيها وتبذل عني ماشئت، ومتى أطعمتها في المال فإن هذا المال سيوجد ملا يوجَد في مكان فيشرى ما لا يشرى ويبيع ما لا يباع قال (إبليس): نعم يا سيدي وكذلك هو، ولكن خوف العار يطرد حب المال. قال: فأنت إذن لا تقبل. قال: ولا أرفض. . .

قال الشاب: قاتلك الله لقد فهمت سأشتريها منك بثمنين أحدهما لك والآخر لها، ولكن أخبرني كيف تصنع معها ومن أين تبلغ إليها؟ قال (إبليس): لما كنت بالسجن عرفت لصاً فاتكاً أعيا قومه خبثاً وشراً، وهذا السجن يحسبه الناس عقاباً وردعاً ومنهاة عن الإثم على أنه المدرسة التي تنشئها الحكومة بنفسها لتلقِّي علوم الجريمة من كبار أساتذتها، إذ لا يمكن أن يجتمع كبارهم في مكان من الأرض إلا فيه. فالسجن طريقة من طرق حل المشكلة الإنسانية ولكنه هو نفسه يحدث للإنسانية مشكلة لا تحل. قال الفتى: ويحك! أين يذهب بك؟ إنما أرسلك إلى المرأة لا إلى السجن. قال: نعم ترسلني أنت إليها ولكن لا يعلم إلا الله أين يرسلني أبن عمها، إلى السجن أم إلى المستشفى. . . فاسمع يا سيدي، كان من نصائح أستاذي في ذلك السجن أن الحيلة على رجل ينبغي لإحكامها أن يكون في بعض أسبابها امرأة، والكيد لامرأة يجب أن يكون في بعض وسائله رجل. . . صه. انظر! انظر! فالتفت الشاب فإذا (الجمل) مقبل يتكفأ في مشيته، وكان غليظاً، فإذا خطأ شدَّ على الأرض بقدميه، وتكدس بعضه في بعض، وكان منطلقاً وقتئذ إلى بعض مذاهبه، فلما حاذاهما قال السلام عليكم. فردا جميعاً؛ ورمى ابنَ العمدة بنظرة ثم مضى لوجهه. فلم يجاوز غير بعيد حتى بلغه صوت الشاب يناديه: يا فلان! فانكفأ إليه: فقال له الشاب: لقد بعُد عهدك بالقوة على ما أرى. قال فما ذاك؟ قال: أما بلغك أن فلاناً في هذه القرية التي تجاورنا، سيقترن بزوجته بعد أيام. وأنت تعرف الموقعة التي كانت بين بلدنا وتلك البلدة يوم عرس فلان في السنة الماضية، وكيف اندفعوا على أهل بلدنا وحطموا فيهم تلك الحطمة الشديدة، ولولا أنت أدركتهم ورميتهم بنفسك حتى دفعتهم عن الناس وسقتهم أمامك سوق النعاج، لكانت بلدنا اليوم أذل البلاد، ولاستطالوا علينا بأنهم غلبونا. ولقد حدثني صاحبي هذا كيف تلقيت بهراوتك يومئذ خمساً وعشرين هراوة فأطرتها كلها في جولتك وهزمت أصحابها بعد أن أحاطوا بك وتكالَّبوا عليك؛ فأنت فخر بلدنا وصاحب زعامتها، وما أرى لك إلا أن تنتهز هذه الفرصة وتسرع الوثبة إليهم برجالك فتجزيهم في أرضهم صنيعاً بصنيع مثله

فهز الجمل كتفيه العريضتين وقال: بل سأنتظرهم في يوم عرسي بابنة عمي. . . قال الشاب: أبلغت؟ ما أرى فإنك لتخافهم! قال: لا أخافهم ولكن أخاف الحكومة أن تؤخر

يوم زواجي. . . سنة أو سنتين. قال الفتى: فإن عملك هذا لا يشد من نفوس رجالنا، ولا بد أن أولئك سينتظرونكم ويعدون لكم؛ فإذا لم تناجزوهم في بلدهم عدوها عليكم هزيمة من الهزائم وكأنهم ضربوكم بلا ضرب

قال الجمل: هم لا يعرفون معنى الضرب بلا ضرب لأنهم رجال، والذي يضرب بلا ضرب لا يكون رجلاً. . . والسلام عليكم. . . ثم انطلق. فلما أبعد قال الشاب: لقد بدأت الحرب ولابد لي أن أحطم هذا الفلاح اللعين، ولقد عرفت الآن من وجهه أن عينه عليّ، ولست أشك في أن بنت عمه لا تمتنع بقوتها بل بقوته، ولولا معرفتي أنه من انحطاط الغريزة كالوحش في الدفاع عن أنثاه لـ. . .

قال (إبليس): لقد تأملت القصة فرأيت أنه لا سبيل لك إلى الفتاة؛ فإذا هو وصل إلى امرأته قطعت أنت بهذه الخطوة نصف الطريق إليها. . . وستبلو هي من غلظته وخشونة طبعه ما يسهل لك أن تعلمها قيمة ظرفك ورقتك؛ وستجد من سوء معاملته وقبح تسلطه ما يفتح قلبها لمن يأتيها من قِبل الرفق واللين؛ وستصيب عنده من ضيق المعيشة وقلتها ويبسها ما يُفهمها معنى العيش الحلو الخضر الذي تعرضه عليها ثم أنه لابد مبتليها بغيرته العمياء بعد ما عرف من حبك إياها، والغيرة منك هي توجد بينهما دائماً ويتنبه المرأة إليك كلما كرهت من رجلها شيئاً لا ترضاه

ولم تكن إلا مدة يسيرة، حتى أهديت المرأة إلى زوجها، وإنما تعجل الزفاف ليأتي له أن ينصب يده القوية حجاباً بينهما وبين هذا المفتون، وليكتسب من القانون حقاً لم يكن من قبل إذا هو مد هذه اليد وعصر في قبضتها تلك الرقبة التي تتطلع إلى امرأته، ورأى الشاب أن هذه الحال لا تعتدل به وبخصمه معاً، وكانت الغيرة تأكل من قلبه أكلاً، وكان يعرض للمرأة كلما خرجت بمكتلها إلى السوق أو بجرتها إلى الماء، لأنه حينئذ يكون في الطريق الذي لا يملكه أحد. . . فكانت إذا رأته لم تزد على ما يكون منها إذا هي أبصرت حماراً يمد عينه إليها. فعمد إلى امرأة مغنية تزف العرائس، وهي التي زفت (الخضراء)، فأكرمها وأتحفها وسألها أن تسعفه ببعض ما تحتال به، وأن تكون سبيله إلى المرأة؛ وتحمل عليها (بإبليسه) حتى استوثق منها، فكانت تتحدث عنه أمام (خضراء)، وتستجرّ بذلك أن تلفتها إلى نعمته وجماله، ولكن المرأة أغلظت لها وسبتها وحذرتها أن تعود إلى مثل كلامها، قالت لها آخر ما قالت: وأعلمي أنني لو دُفعت إلى طريقين، وكان لابد من أحدهما، ثم كان أحدهما، حصاه الدنانير وهو الطريق العار، الآخر حصباؤه الجمر، ويفضي إلى الشرف إذن لتنزهت أن أدنس نعلي بالذهب ولنثرت لحم قدمي على الجمر نثراً.

وأما الحب فلا يبقى حباً أبداً، فإما فاز فبرد ورجع سلواً، وإما خاب فاضطرم وتحول إلى حقد ونقمة؛ وكذلك انفجر الشاب غيظاً، ووجد على الخيبة موجدة شديدة، وأخذ يدير رأيه، ففتقت له الحيلة أن يقتل الرجل الشهم بشهامته، والمرأة العفيفة بعفتها، فواطئ إبليسه على أن يدفع إلى تلك المغنية منديلاً من الحرير - عقد طرفه على دينار من الذهب - تلقيه في صندوق (خضراء) وتدسه في طي من أطواء ثيابها، فذهبت المرأة ومازالت (بخضراء) تستصلحها وتعتذر إليها حتى استلت ضغينة قلبها، ثم سألتها أن تأتيها (بالعيش والملح) لتصيب كلتاهما منه وتتحرم بحرمته، فلما نهضت تأتيها أسرعت الخبيثة إلى الصندوق فدست المنديل في أبعد مواضعه وأخفاها، وكان مندى بالعطر لينم على نفسه إذا لم ينم أحد عليه؛ ثم رجعت بما فعلت إلى الشاب فأطلق خادمه يهمس لبعض أصدقاء الجمل أنه رأى اليوم في يد (خضراء) ديناراً ذهباً على ندرة الذهب وعزته، فجعل هذا الدينار يطير من نفس إلى نفس بقوة الذهب الذي فيه والحب الذي أعطاه والجمال الذي أخذه، ثم انتهى إلى الجمل فكأنما حمله وطار به إلى داره كالمجنون، وقد حمى دمه الحر وجاش جأشه العنيف، ولم تكن امرأته في الدار، فنثر ما في الصندوق وما كادت تفعمه رائحة العطر حتى نفخ الشيطان به نفخة الغضب الكافر، ثم عثر على المنديل ورأى بصيص الدينار فدارت به الأرض وأيقن أن العار قد طرق بابه وأن الباب قد فتح له؛ ثم رد نفسه على مكروهها ورد معها كل شئ إلى موضعه، وتلفف رأيه على جريمتين وخرج وروحه تصرخ من ضربة بمنديل وهو الذي كانت تتهاوى عليه الضربات القاتلة تهشم منه ولا يتأوه

وذكر أن (حماته) أثنت من عهد قريب على أبن العمدة ووصفته بالرقة والغنى، فوجه إليها أن تأتي فتبيت عند امرأته لأنه على سفر، وكان كالأعمى في ضلالته لا يرى الأشياء إلا كما يتخيلها في نفسه دون ما هي في نفسها، فسألته زوجته: أين أزمعت وما تبغي من سفرك وكم تلبث عنا؟ فكأنه سمعها تقول: ارحل إلى مكان بعيد وغب عنا زمناً طويلاً فبنا إلى غيابك حاجة شديدة، وكاد يبطش بها ولكنه كاتم صدره اللوعة وذكر اسم جهة بعيدة ومضى ولانكسار يعرف فيه

فزع الناس بعد أيام في جوف الليل فإذا بيت الجمل يحترق من أرضه وسمائه واقتحموه فإذا المرأة وأمها فحمتان، وانطلقت أسرار الألسنة وقبض على الرجل في بلدة أخرى، وتولى ابن العمدة توجيه البينة عليه، وشهد الشهود على الدينار، وشهد الدينار على النار، وأنكر (الجمل) ولم يقصر في إقامة الحجة، ودافع عن امرأته وبالغ في أمانتها وعفتها، وشهد أنه لا يعلم عليها من سوء وأنها أطهر النساء وأبرهن، ثم كان الحكم أن قضى عليه بالموت شنقاً

فلما كان يوم إنفاذ الحكم سئل الرجل: هل من شئ تريده؟ فطلب دخينة فقدمها له قيم السجن فأشعلها ونفخ من دخانها نفخة ثم أخذ يتكلم وعمره يفنى مع الدخينة نفساً في نفس، وعاد هذا الدخان المتطاير كأنه سحاب يسبح فيه الوحي بين حدود الدنيا وحدود الآخرة. قال المسكين: لم أتعلم، ولو تعلمت ما وقفت هنا، ولكن ربما كنت خرجت نذلاً كبعض المتعلمين الذين يعيشون أشرافاً وفيهم أرواح القتلة واللصوص.

لم أقر لأحد بجريمتي خشية أن تذكر كلمة العار مع أسمي، وآثرت أن أموت بالشنق على أن أحيا ويموت اسمي بالعار

ولكني سأعترف الآن أمامكم، وأنتم الساعة على قبري فكونوا كالملائكة: لا يشهدون بما عرفوا إلا عند الله وحده

أعترف أني قتلت زوجتي وأمها، وقد تقولون إنه ليس من عمل الرجل أن يقتل امرأة فضلاً عن اثنتين. إنني رجل سأشنق؛ أما النساء فلا يشنقن وإنما يُرسلن الرجال إلى المشنقة. . لم أر أبي إذ تركني طفلاً، ولكن يقال إنه كان رجلاً، فأنا رجل وأبن رجل ولم يذلني رجل قط؛ ولكن لو خلق الله قوة مائة جبار في جسم رجل واحد لأذلته امرأة

إنه ليس من شيمة الرجل أن يقتل النساء؛ ولكن المرأة تذل الرجل ذلاً يهون عليه قتل نفسه فكيف لا يهوِّن عليه قتلها؟ علموا المتعلمين ليصيروا في الشرف والأمانة والعفة كرجل جاهل مثلي، لا يرى للحياة كلها قيمة إذا كان فيها معنى العار، ويقدم عنقه للمشنقة حتى لا ينكس رأسه للذل

أصلحوا القانون الذي يحكم بالموت شنقاً ويزهق الأرواح الكبيرة في حين تغلبه الأرواح الصغيرة بحيلها الدنيئة

ومع ذلك سألقي الله وهو يعلم سريرتي إن كنت بريئاً أو مجرماً

قيم السجن: ستلقاه طاهراً

السجين: أريتم مني خلق سوء. . . .؟ أتعتقد علي ذنباً مدة سجني؟

القيم: كلنا راضون عنك

السجين: هذا مثل من أخلاقي والحمد الله على أن آخر كلمة أسمعها من إنسان على الأرض كلمة الرضا

. . . . . .

اشهد أن لا إله إلا الله. وأن محمداً رسول الله

نظرت ريشة من زغب العصفور إلى النجوم فحسبتها ريشاً متناثراً. فامتطت العاصفة وقالت: إلى السماء، ودارت بها العاصفة ما شاء الله أن تدور ثم رمت بها حيث وقعت لم تبال في موضع نفع أو ضير. فأقبلت الريشة تتسخط وتزعم أنها فوضى ثائرة لا حكمة في خلقه، وأن الرياح بعثرة في نظام العالم. . . وكان إلى جانبها شجرة تهتز ولا تطير. . . فلما وعت مقالتها أقبلت عليها فقالت: أيتها الريشة! إن الرياح لا تكون بعثرة في نظام العالم إلا إذا كان العالم ريشاً كله

مصطفى صادق الرافعي

-

الشيطان ذو الأجنحة

إن لسكان جزيرة سيلان أسطورة مقدسة تخبر بالشعر عن تاريخ سيلان مدة تزيد عن أربعة وعشرين جيلاً. ويستنتج من هذه الأسطورة أن الجزيرة التي زارها بوذا مراراً كي ينشر فيها تعاليمه بنفسه مرت بعهود من الرفاهية لم تعرف مثلها إلى لك الوقت، ومن المحتمل أن يكون سكانها اكثر عدداً من الآن، فآثار الهياكل الكثيرة والبحيرات الاصطناعية التي أهملوها لا تزال برهاناً على ذلك.

ولا داعي للبحث بعيداً جداً عن أسباب نقص عدد السكان فالجزيرة المباركة قد اجتاحها مراراً المرض الوبائي بقساوة فإن أهالي الجزيرة وكذلك أيضاً البرتغاليين الذين احتلوها في الجيل السادس عشر والهولانديين الذين طردوا هؤلاء وأخيراً الإنجليز الذين ملكوا بعد ذلك سيلان قد قاسوا كثيراً من تفشي هذا الوباء، وقد نشر الهولانديون أيضاً سنة 1642 خريطة عن سيلان وقد تركت مناطق كاملة بيضاء مع أنه لم يكن المقصود من ذلك أنها أراض مجهولة إذ كان الإنسان يقرأ على هذه البقع البيضاء هذه الكلمات التي لا تدع مجالاً للشك جهات أفقرها المرض.

ففي سنة 238 مسيحية على عهد (دهامابو) قد اجتاحت الحميات والأمراض هذه المناطق وأهلكت السكان على ما يؤكده الرواة بدرجة، أنهم عجزوا عن أن يزرعوا الأرز وقد نتج عن ذلك مجاعة طويلة المدى فنسوا هذه البلية إلى حين الشيطان ذي الجوانح وسعوا إلى لتجنبه بواسطة الرقص حسب الطقوس الدينية ولكن الرواة يؤكدون أن سكان سيلان لم يجدوا السعادة مع ذلك طالما أن الشيطان ذو الأجنحة السوداء لم يقتل بعد.

وقد قامت الحكومة الإنجليزية بمحاربة بعوض الملاريا بنشاط كبير في سيلان يمكن الإنسان أن يأمن الآن بعد ثمانية عشر جيلاً بأن الساعة قد حانت أخيراً كي يرى نهاية حكم الشيطان ذي الجوانح كما يقول الرواة. وقد بنوا أيضاً مستشفيات كثيرة. وفي بحر هذه السنوات الأخيرة عندما عمت الملاريا بشكل وبائي قد وزعوا مراراً ألوف الجرامات من الكينا خلال ستة أشهر إما على سبيل الوقاية وإما على سبيل التداوي، والطريقة التي تصفها لجنة الملاريا في جمعية الأمم تلخص في تطبيق العلاج السريع بالكينا أي مقدار جرام واحد أو جرام وثلاثين سنتجرام يومياً مدة خمسة أو سبعة أيام وهي سلاح قوي لشعب يجند بأكمله ضد الشيطان ذي الأجنحة وتوصى على سبيل الوقاية بأخذ 450

ملجرام من الكينا يومياً طول مدة موسم الحميات.

العدد 359 - بتاريخ: 20 - 05 - 1940

مصطفى كامل

بعد ثلث قرن

بمناسبة إزاحة الستار عن تمثاله

كل شيء في مصر ينسى بعد حين كما قال شوقي وليست مصر بدعاً من الأمم في ذلك. فإن الرجل أو العمل لا ينطبع ذكره في الذهن إلا إذا كان ندى الصوت قوي الأثر. ومصر في عهدها القريب إنما كانت تجري في خلاء من التاريخ لا يكاد يظهر فيه إلا فقاعة تنفجر أو ومضة تنطفئ. وليس لهذه أو تلك من الأثر ما يملأ الشعور ويشغل الذاكرة

على أن السائر في الصحراء مهما ضعف وعيه واشتدت غفلته لا بد أن يذكر المنار الذي دله على الطريق، والواحة التي أعادته إلى الحياة. وهيهات أن تعرض القلوب عن ذكر محمد علي ومصطفى كامل وسعد. وإذا جاز للزمن العابث أن ينال من رجل الدولة أو بطل الثورة فإن مصطفى كاملاً يظل على تراخي الحقب أنوط بالقلب وأعلق بالذاكرة. ذلك لأن زعامته كانت أشبه بالنبوة في تهيئة الفطرة وثبات العقيدة وعصمة النفس واختيار القدر. وهو الزعيم الوحيد الذي لم تلده الظروف، ولم تبعثه المطامع: لم تلده الظروف لأن مصر كانت في إبان حداثته قد استأمنت إلى الجهل والاحتلال فنامت في ظلها نومة الضاجع الأبله. وكانت دعوة الأفغاني قد جمعت من ومضات الأذهان النيرة شعلة أضاءت جانب الطريق فسلكه العرابيون؛ ولكنهم لم يكادوا يبعدون حتى أدركهم الظلام في التل الكبير. فلا يصح في العقل إذن أن نقول إن مصطفى كان أثراً للأفغاني وعرابي، كما نقول أن سعداً بعد عبقريته كان أثراً

لهؤلاء الثلاثة. إنما أرسل المصطفى على فترة من رسل الوطنية. وكان إرهاصة وهو في المدرسة الثانوية أن الوزير علي مبارك باشا زار مدرسته يوماً فسأله فيمن سأل من التلاميذ: ماذا اعتزم أن يعمل بعد الشهادة؟ فأجابه مصطفى اليافع في خطاب طويل: (إن أرفع الرجال شأناً من يحرر بلاده. وسأكون أنا ذلك المحرر الذي يكتب ويخطب حتى ترفع الأغلال عن عنق مصر). وكان إرهاصه وهو في مدرسة الحقوق أن أنشأ مجلة سماها (المدرسة) أشرقت فيها نفسه الكريمة إشراقة النفس الزعيمة، فتهافت على ضوئه طلاب المدارس العليا يؤيدون دعوته ويرددون كلمته ويترسمون خطاه، حتى نال إجازة الحقوق ففرغ لرسالته وخلص لوطنه. وحينئذ رأيناه يكتب إلى أمه الروحية مدام

جوليت آدم يقول: (إنني لا أزال صغيراً، ولكن لي آمالاً كباراً. أريد أن أوقظ في مصر الشيخة مصر الفتاة. هم يقولون أن وطني لا وجود له؛ وأنا أقول إنه موجود بدليل ما أشعر له في نفسي من الحب الشديد الذي سيتغلب على كل حب سواه سأنفق في سبيله كل قواي، وأفديه بشبابي، وأجعل حياتي وقفاً عليه. . .)

ثم اضطرمت في ذلك الجسد الناحل روح الله ففار فورة الجبارين، وثبت ثبات الرسل، وقام في وحدة النبي وإيمان الشهيد يجاهد الإشراك بالوطن والكفران بالأمة، ويقارع بالحجج الثائرة الملزمة طغيان المحتل، وأمته يومئذ علة العلل ودولة الدول!

ومصفى لم تبعثه المطامع، لأنه أدرك وهو في طراءة الشباب زعامة الأمة وثقة العرش ورضى الخلافة وخصومة المحتل، وكان في مقدوره إذا شاء أن يستغل هذه القوى العظيمة في سبيل الثراء والحكم، ولكنه زهد في ذلك كله زهادة الحكيم، فعاش للمبدأ والفكرة، ومات للقدرة والعبرة

وهل أدل على نزاهة مصطفى ونبل نفسه من نبوه على عباس وانحرافه عنه حين رآه يستيئس ويستكين بعد الاتفاق الودي الذي أبرم بين إنجلترا وفرنسا سنة 1904؟ لقد كان في مسايرة الخديوية ومياسرة الاحتلال ما شاء الطامع من جاه وألقاب وسطوة وثروة. ولكن مصطفى كان يريد أن يقود لا أن يسود، ويطلب أن يخدم لا أن يحكم. والزعيم الحق هو الذي يدافع عن أمته ولا يحاول أن يحكمها. لأنه متى حكمها أدركته حقارة الإنسان فاستطال وترفع وفاش وطاش حتى يصعب عليه أن يوفق بين رغائب نفسه وبين مطالب الناس!

وهكذا قضى الصدق في الجهاد والإخلاص للمبدأ على مصطفى العليل الواهن أن يحرك ساكن شعبه بوجيب قلبه، ويذكي خمود جيله بحرارة دمه، ويضيء ظلام وطنه بوميض روحه؛ ثم يموت رضوان الله عليه ميتة الأنبياء، لا (عمائر) تحجب سماء المدن، ولا (دوائر) تشغل أرض القرى

لو أن زعيمنا الخالد كان قد سعى ما سعى لينال كرسياً في (وزارة) أو مكتباً في (شركة) لما أقمنا له هذا التمثال بعد ثلث قرن؛ فإن الزعيم الذي يجعل همه السياسي أن ينتفخ لغدوده وجيبه لا يمكن أن يعيش في ذاكرة الناس هذا العمر. ولكن مصطفى عاش كأصغرنا وسعى كأقدرنا ومات كأفقرنا، فكان حقاً علينا أن نقيم تمثاله رمزاً للوطنية التي لا تتاجر،

والوطني الذي لا يداجى، والزعيم الذي لا يخون

أحمد حسن الزيات

الورق الأزرق

للأستاذ عباس محمود العقاد

إلى الورق!

إلى الورق مرة أخرى!

فلا وسيلة غيره على ما يظهر لحفظ النور ولو أطبق الديجور، وأحاط بالدور ظلام كظلام القبور

وقديماً عرف الناس الورق الذي يحفظ النور للعقول والسرائر وهاهم أولاء يعرفون الورق الذي يحفظ النور للعيون، حين يصبح النور خطراً من أكبر الأخطار

وهل كان النور قط إلا خطراً من أكبر الأخطار، وهدفاً للشياطين والفجار، وللجهلاء والأغرار، ولكل من يكره الإبصار، لأنه مخلوق لعالم العماية، غريب في عالم الأبصار؟!

من الذي ضربوه لأنه في الظلام؟ ومن الذي تركوه لأنه في النور؟

إن الذي في الظلام لآمن مستور
وأن الذي هو هدف الرماة في الحرب والسلم وفي الأرض والهواء وفي الغيبة والحضور، لهو الذي في النور في هذه العصور وفي جميع العصور
وما صنعت (وقاية المدنيين) في أيامنا هذه إلا أن كشفت السر (للجمهور)، وهو أغنى الأسرار عن الكشف وأحقها بالظهور.
والأمر هين بحمد الله: لفة من الورق الأزرق أو لفتان أو لفات ثلاث، والنور محفوظ لعينيك من وراء الحجرات، محجوب عن طيارات الخيال وطيارات الواقع. . . لا سمحت بها السماء، ولا اتسع لها الفضاء
وإني لأحمد الله على تجارب الوقاية، لأنها خليقة أن تحبب الاعتكاف إلى أكثر الناس، وإن كان بعض الناس ليخافون العزلة أشد من خوفهم أخطار التجارب والغارات
ونحن المصريين محتاجون إلى تجربة الاعتكاف، لأننا من أقل الأمم طاقة به وصبراً عليه. وما ظنك بمصري يمكث في بيته ثلاثة أيام لا يريمه ولا يبرم بمكثه فيه؟ ذلك في رأي نفسه شهيد أعجب في استشهاده من ماكسويني وصبره عن الطعام ستين يوماً أو تزيد!!
والاستقلال بالنفس نعمة من نعم الأخلاق نود لو وفر منها حظ هذه الأمة في بداية استقلالها وفي تجاربها التي تجربها لحماية حوزتها ورد العادية عنها
لأن الرجل الذي يعيش بين الجماهير ولا ينعم بالوقت إلا وهو غارق في غمارها مدفوع في تيارها هو رجل ضائع في الزحام، أو صفر لا ينفرد عما جاوره من الأرقام، أو هو شخصية بغير استقلال وبغير حدود، كأنه يأخذ حياته على المشاع ولا يأخذها مستقلة معروفة الحدود والأقسام
فمن الواجب أن يستطيع الإنسان الاعتكاف في بيته والاعتكاف في شخصه، وأن يكون مالكاً لزمام نفسه ولا يكون مملوكاً لزحام المجالس وضجة الرائحين والغادين على المشاع
وأعجب ما يلحظ في هذا الباب أن الأمم التي تعرف العزلة وتطيق الانفراد هي أصلح الأمم للاجتماع وأقدرها على سياسة الناس
ونقول أعجب ما يلحظ ولا نعني إلا العجب في الظاهر دون الحقيقة الواقعة، وإلا فاستقلال النفس ضمان الحرص على الحقوق وأن يكون لكل حده الذي يقف عنده ولا يخطو وراءه، وأن يضن بحريته ولا يجور على حرية غيره، وتلك هي أكرم صفات الاجتماع والمقارنة، وهي هي لبابها صفة الاستقلال والقدرة على الانفراد
وفي العصر الحديث مخترعات كثيرة تعين على العزلة من يشاء أن يعان عليها فالكتاب والصحيفة جليسان أنيسان، والمذياع ينقل العالم إلى البيت فينفي الوحشة ويعود من يصغي إليه أن ينفرد وأن يقنع بالقليل من الجلساء، ثم هذه التجارب التي نجرب بها قوة نفوسنا وقوة مدافعنا: أليس فيها معين على الاستقلال من غير ناحية الحرب والأهبة للدفاع؟
بلى! فإنها لتنقل الوحشة إلى الطريق أو إلى المجالس العامة، فينفر منها من تعود الأنس فيها وعز عليه أن يصيبه بمعزل عنها
وتعلمنا أن نركن إلى نفوسنا، وأن نغوص في أعماق ضمائرنا وأن نجد فيها ذخيرة تغنينا وتشبعنا فلا نشكو الخلو في الخلوة، ولا نبحث عن القوة في كل مكان إلا المكان الذي ننفرد فيه
ولعلنا إذ نتعود الخلوة ينتهي بنا الأمر أن نحسبها خلوة اطمئنان إلى النفس والأقربين، لا خلوة الخوف من العدو المغير والفزع مما يضمره الفضاء أو القضاء
فمن الناس من يذكرون الغارات فيبالغون في الحذر والحيطة ويظنون أن الدنيا كلها خطر ذو عيون وأقدام، وأن القنابل تبحث عنهم في كل مكان
ومنهم من يذكرون الغارات فيبالغون في التواكل ويقولون كما يقول المتواكلون في أوربا: إن يكن أسمك مكتوباً على قنبلة فلا فائدة من الوقاية ولا أمل في النجاة
ومنهم قوام بين ذلك لا ينزعجون ولا يهملون، ولكنهم (يعقلون ويتوكلون) أو يحسبون الحساب وهم مطمئنون، لأنهم فرغوا من واجب الاحتراس فلم يبقى إلا واجب الاطمئنان
فالإهمال لا يليق بكرامة الإنسان ولا بالمزايا الآدمية، لأنه أشبه بصفات الحيوان السائم

الذي لا يدري ما يضره وما ينفعه ولا يتصرف في مقاومة الحوادث التي تهدده واجتناب الهلاك الذي يفرض عليه اجتنابه
أما المبالغة في الاحتراس والوسواس فهي الجبن الذميم بعينه؛ وليس بين الصفات التي تشين الإنسان اقبح من صفة الجبان
ولقد دلت التجارب في أوربا على فائدة لهذه التجارب غير الفائدة المقصودة منها، وهي نقص الجرائم والسرقات في هذه الأوقات خلافاً لما كان مظنوناً في البداية
وعللوا نقص الجرائم والسرقات بأمور كثيرة نشترك في بعضها وتنفرد الأقطار الغربية ببعضها الذي لا نجاريها فيه، والحمد لله مرة أخرى
فمن هذه الأمور كثرة الحراس ورجال الأمن القائمين بالتجربة في الطرقات ومنها شكوك اللصوص إذ يميزون في أوقات السلم بين البيت النائم والبيت اليقظان ولكنهم يعجزون عن تمييز هذا وذاك متى تساوى الظلام في جميع الأنحاء
ومنها - ولعله أهمها في أوربا وأضعفها عندنا - أن السراق يصعب عليهم الهرب بالسيارات بعد اقتراف الجريمة لتقييد حركة السيارات وتشديد الرقابة عليها
ولا ندري علام تسفر التجربة في بلادنا ولم يبلغ لصوصنا بحمد الله مبلغ اللصوص الموسرين الذين يعتمدون على الهرب في السيارات، ولا يزالون يهربون على الأقدام كما كانوا يهربون قبل ألف عام، في ظلام كان يخيم على الأيقاظ والنيام، في أيام الحرب أو أيام السلام؟
والذاكرون للحرب الماضية في بلادنا لا ينسون حوادث النشالين بالليل والنهار، وقلما سلم
منهم إنسان
ولعلهم أول من اخترع من زمرة اللصوص رد الأمانات إلى أصحابها متى استغنوا عنها. . .!
فقد كانوا يأخذون لأنفسهم الورق النفيس ثم يلقون بالمحفظة أو الكيس في صناديق البريد، فيعود ما فيه من المحفوظات إلى أصحابه، ولعله أنفس لديهم من النقود إلا مرة واحدة - أو مرة واحدة على ما نعلم نحن - أخذوا فيها المحفظة كلها وليس فيها نقود ولا ورق أنفس من النقود
وذاك أن صديقاً لنا أديباً خرج يوماً من عند المصور وفي جيبه محفظة - أو غلاف من الورق على الأصح - فيه أثنتا عشرة صورة شمسية لا تنفع أحداً غيره
قال لنا: سأذهب إلى مكتب البريد القريب فلا شك عندي في رجعتها
ولكنه ذهب وعاود الذهاب والمحفظة الذاهبة لا تعود
فحار في أمر هؤلاء اللصوص، وسأل موظف البريد مرة وقد كان من الظرفاء: (عجبي لهم ما بالهم لا يردون هذه الصور التي لا قيمة لها عندهم وهم يردون الوثائق والسفاتج والأسانيد التي قد تشترى وتباع؟)
قال موظف البريد متظاهراً بالدهشة: (أتقول لا قيمة لها عندهم يا أستاذ؟ كيف هذا؟ إنهم لو وزعوها على زملائهم لأراحوا أنفسهم على الأقل من اثنتي عشرة محاولة أخرى بغير فائدة!
وهذه من طرائف النشالين في الحرب الماضية، ولكن طرائف النشالين خاصة ليست بالتي يستحب فيها التكرار أو التي تؤمن في جميع التجارب. فلا نخال أن أحداً سيتفقدها في الحرب الحاضرة، أو يلوم الحكومة على وقاية المدنيين منها!
بدأت أكتب هذا المقال من وراء الورق الأزرق الذي يحجب السماء وفيه شبه منها ثم فتحت النافذة فإذا السماء تشاركنا في التجربة من طرفيها فهي كالمدنيين تحجب ضياءها، وهي كالمغيرين ترسل غبارها وحصباءها
قلت: الحمد لله مرة أخرى!
إذا اشتركت السماء في التجربة فلا خوف مما يرسله الفضاء، وعسى أن تمضي التجربة
وهذه الغارات الوهمية أقصى ما نعانيه في بلادنا، فتظل في حرز من الغارات الحقة إلى يوم السلام.
عباس محمود العقاد

في سبيل الأزهر أيضاً
فائدة الأربعاء
للأستاذ محمد محمد المدني
أعتقد أن (الرسالة) لم تأت فيما مضى من تاريخها بمثل هذا العنوان، ولولا أن أدخل في الحكومة بعض الغيب - كما يقول الجاحظ - لزعمت أنها لن تأتي بمثله في مستقبل عمرها الطويل!
وأعتقد أيضاً أن كل معنى من المعاني التي يحتملها هذا التركيب سيرد على الذهن إلا معنى واحداً: هو معناه المقصود!
يا سيدي القاريء، هو اليوم الخامس من أيام الأسبوع كما تعلم؛ أما الذي لا تعلمه - ولم أكن أنا أيضاً أعلمه - حتى علمته بالأمس القريب، فهو أن لهذا اليوم (الأربعاء)، فائدة، وأن هذه الفائدة هي موضوع تحقيق علمي من الطراز الأول، لا يقوم به رجل من عامة العلماء، أو من صغار رجال الأزهر، ولكن يقوم به عالم خطير وفيلسوف كبير قد عرف بأنه فيلسوف الإسلام والمسلمين، وتبوأ مقعده من جماعة كبار العلماء منذ زمن طويل!
وهي لهذا جديرة بأن نجعل منها مقال اليوم، فنشغل بها قراء (الرسالة) هذا الأسبوع، كما اشتغل بها في الأسبوع الماضي قراء مجلة أخرى حين نشر البحث فيها باحثه الجليل!
كتب كاتب من (قنا) إلى الشيخ الكبير قال:
(إن كثيراً من أهل قنا وضواحيها وغيرها من البلدان، خصوصاً بعض أهالي جرجا، قد اعتادوا أن يقوموا بعمل فائدة تسمى: (فائدة الأربعاء)، وميعادها قبل الظهر بساعة تقريباً في اليوم المذكور من كل أسبوع بضريح سيدي عبد الرحيم القنوي رضي الله عنه؛ والجميع - يا صاحب الفضيلة - يعتقدون نفعها ويرجون بركتها، وهي مجربة بين الآلاف المؤلفة من المسلمين.
وإلى فضيلتكم كيفية هذه الفائدة:
(يذهب من أراد قضاء حاجة (هكذا)، أو تفريج كربة في اليوم والوقت المذكورين سالفاً، ويجلس في ضريح سيدي عبد الله القرشي - وهو على مسافة قريبة من ضريح سيدي عبد الرحيم (رضي الله عنهما) - ويكون على وضوء، ثم يقرأ سورة يس مرة أو ثلاث مرات،
بنية قضاء الحاجة، أو تفريج الكربة، وبعد ذلك يخرج من الضريح، ثم يصلي ركعتين لله تعالى بنية قضاء الحاجة أيضاً، وهو عاري الرأس، في مكان متوسط بين الضريحين، وبعد تمام هاتين الركعتين يأخذ عمامته في يده وحذائه تحت إبطه، ويتوجه إلى ضريح سيدي عبد الرحيم، ثم يتجه إلى القبلة، ويدعو بالدعاء الآتي عاري الرأس أيضاً: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بحبيبك محمد صلى الله عليه وسلم، وبأبينا آدم، وأمنا حواء، وما تناسل بينهما من الأنبياء والمرسلين، والأولياء والصالحين، وبعبدك هذا سيدي عبد الرحيم، أن تقضي حاجتي، وهي كذا. . .)
قال السائل: ولكن ظهر في هذه الأيام عالم من المتصدين للوعظ والإرشاد، ينكر هذه الفائدة قائلا: إن هذه الفائدة لم تكن في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا في عهد خلفائه الراشدين. ولقد حدثت فتنة كبيرة بسبب ذلك بين المعتقدين لها، وبين العالم المذكور، لذلك رأيت أنا ولفيف من إخواني المسلمين أن نلجأ إلى فضيلتكم لتفتونا في هذه الفائدة لنكون على بصيرة منها لما نعهده فيكم من العلم، والحرص على نفع المسلمين، وتعريفهم أمور دينهم الخ)
هذه هي القضية! فماذا قال فيها (أبو حسن!)؟
قال - نفع الله الناس بعلمه -:
(الجواب عما سألت عنه من فائدة يوم الأربعاء، أن ذلك جائز لا شك فيه، بل هو مرجو البركة، وبركة الأولياء لا ينكرها إلا مخذول. ولست أدري: أي شيء في ذلك؟ وهل فيه إلا عدة أمور بعضها جائز، وبعضها مندوب إليه؟ ولا شك أن المساجد محل الرحمات والبركات، والتوسل بالأولياء والصالحين جائز لا شيء فيه، وقد ورد الأمر به، وفي الحديث عن عثمان بن حنيف وأظنهم يعرفون مولانا؟؟) ولست أدري من هم الذين يظنهم!

ولعله يريد الواعظ المسكين الذي يشير إليه صاحب السؤال!
قال الشيخ: وتوسل عمر بالعباس، ولو كان الأمر على ما ظن هؤلاء ما صح أن يقول عمر: اللهم إنا نتوسل إليك بعم نبيك العباس، والمتوسل طالب من الله، مستشفع إليه بأحبابه فلا معنى لتلك الترهات، لأن لهم منزلة عند الله، وسيشفعون بمقتضاها في الآخرة، والأولياء أحياء عند ربهم يرزقون، ومن اعتقد أن من ينتقل من الدنيا يلتحق بالعدم فهو
مكذب أو جاهل بما ورد في ذلك من المتواترات. . . الخ. . . الخ
ثم قال بارك الله للمسلمين في حياته:
وبعد، فلست أدري لماذا لا يشنون الغارة على المنكرات في المجمع عليها؟ وما) أجدرنا أن نخاطبهم بقول الشاعر:
أفتتركون المنكرات سَبَهلَلاً؟ ... وتحاسبون على اقتراف الذَّرَّةِ
أفتصلحون البيت من شرفاته؟ ... ما أنتمُ إلا كأهل الكوفةِ الخ
عفواً، يا قراء الرسالة وصبراً، فإنما أردت أن أهدي إليكم طرفة من الطرف التي وعدتكم بها يوم كتبت مقالي الأول (في سبيل الأزهر) وقد أبى الله إلا أن تجيء هذه الطرفة من حيث لا أحتسب، على يد أستاذ مبرز من جماعة كبار العلماء في الأزهر الشريف!
ولست أريد أن أنقد هذه الفتوى، لأني رجل من صغار العلماء، وليس من الأدب الذي درجنا عليه وأخذنا به أن يتطاول الصغير إلى مقام الكبير. وفي منصب الإفتاء رجل علاّمة ثَبَت محقق، هو صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ عبد المجيد سليم، يعرفه الناس فقيهاً جيد الفقه، وبصيراً بما يتناول منه؛ وعند جهينة الخبر اليقين!
ولكني أقتصر فيما يتعلق بهذه الفتوى على تسجيل بعض (الظواهر) واستجلاء بعض (الغوامض)
السؤال الذي بنيت عليه الفتوى يعرض المسألة على أنها عقيدة لإقليم من أقاليم مصر العليا، ويذكر أنها أمر من أمور الدين وأنه حدثت بسببها فتنة كبيرة بين عالم واعظ وبين معتقديها: هم يتمسكون بما يعلمون منها، وهو يقول لهم: لم تكن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا خلفائه الراشدين
فكيف عالجت الفتوى هذه النواحي:
إنها أقرت المعتقدين على ما يعتقدون، فذكرت لهم أن هذا جائز لا شك فيه، واستدللت على ذلك بأن هذه العملية ما هي إلا مركبة من أمور بعضها جائز، وبعضها مندوب إليه، وأن التوسل على هذا النحو وغيره مأمور به في الحديث
أما ما يخص العالم الواعظ منها فهو قول الشيخ: (وبركة الأولياء لا ينكرها إلا مخذول) و (أظنهم يعرفون!) و (لا معنى لتلك الترهات) و (ومن اعتقد كذا فهو مكذب أو جاهل بما
(تواتر. . . الخ
وتخرج الفتوى بعد ذلك عن نطاق ما هي فيه، فتنكر على الناس أن يتعلقوا بصغائر الأمور دون كبارها، وأن يتركوا المنكرات المجمع عليها (سبهللاً) ويحاسبون على اقتراف الذرة. الخ
هذا ما أردت أن أسجله من ظواهر الفتوى. ويجب أن يفهم هنا أنه لا شان لي بالتوسل بالأولياء جائز أو غير جائز، ولا بأنه قد أمر به في الحديث أو لم يؤمر به في الحديث ولا شأن لي بحياة الأولياء عند ربهم، ولا بكيفيتها، ولا بنوع العمل الذي يدخل في قدرتهم بعد موتهم، أو الذي لا يدخل لا شأن لي بشيء من ذلك كله، فقد تكلم فيه الناس كثيراً وللشيخ فيه جولات، ولخصومه جولات! كما للشيخ في حياة الأرواح وعجائب الأرواح جولات، ولا نحب أن نشغل بشيء من ذلك قراء الرسالة
ولكني أتساءل: أيكفي أن يكون شيء مركباً من أشياء بعضها جائز وبعضها مندوب إليه ليكون حقيقة معترفاً بها من الشرع؟ حتى لو لفق ملفق بين عدة مندوبات وعدة واجبات أو جائزات، وأنشأ من ذلك عبادة يلتزمها ويتقرب إلى الله بها على وضع خاص لما كان في ذلك ملوماً؟
ثم ما هي المسائل التي هي منكرات مجمع عليها، وقد تركت من غير بيان حتى صارت (سبهللا) بهذا التعبير الظريف؟

وما الموازنة بين هذه المسائل المعروفة التي أجمع الناس على تحريمها، والمسائل التي شغف كثير من الناس أن يلبسوها ثوب الدين وما هي من الدين؟
وإني لأتوجه بعد ذلك إلى أستاذنا الكبير الشيخ محمد عبد اللطيف دراز مفتش الوعظ والإرشاد لأساله: ماذا فعل الله بهذا الواعظ المسكين الذي أنكر (فائدة الأربعاء)، وأثار عليه الشيخ هذه الحرب الشعواء؟ أتركته إدارة الوعظ بين هؤلاء القوم محصوراً لعلهم يقضون عليه، أو يسيئون إليه. أم أنقذت المسلمين في قنا وضواحي قنا منه إن كانت تعتقد أنه شر ووبال؟
أما بعد:
فإني أقول لأصدقائي وشيوخي الذين أثارتهم كلمتي السابقة، فعلقوا عليها قولاً وكتابة بأقوال
وألوان شتى من (التعليقات): إني أحب الأزهر كحبكم، وأنا فيما اعتقد أشد له حباً، ولكني أكره هذا اللون من ال. . . ولا أقول كما قلت في المرة السابقة من التسكع العلمي، ولكني أقول: من (التلطف العلمي!)
في الوقت الذي يشتغل العالم فيه بحرب عامة، أقامت الدول وأقعدتها، ويوشك لظاها أن يأتي على الأخضر واليابس من الأموال والأنفس والثمرات
لا تشغلوا الناس بهذا النوع من الأبحاث في الوقت الذي يستمعون فيه كل يوم إلى أخبار الطائرات التي تمخر عباب الجو، والمظلات الواقية التي تتساقط بها الجنود جيوشاً من السماء!
إننا نسمع ذلك، ونسمع من ورائه أحاديث الناس فينا، وأقوالهم عنا، فهل يجوز مع هذا وذاك أن تشغل الناس (بحديث الأربعاء)؟
استغفر الله العظيم! فإن (حديث الأربعاء) عنوان قديم لكاتب لا أحبه، كان يتحدث فيه عن الأدب والأدباء، وإنما أردت أن أقول: (فائدة الأربعاء) فنسيت، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره!
وعلى ذكر الشيطان، أهمس في أذن الذين ما زالوا يشغلون أنفسهم ويشغلون الناس بأمره: لست صاحب الموضوع، وإن صاحبه لمعروف لكم غير مجهول، فناقشوه صرحاء، ولا تجعلوني بينكم وبينه ترساً إن كنتم تجدون
محمد محمد المدني
المدرس بكلية الشريعة
نابليون الأديب
للأستاذ صلاح الدين المنجد
حدثوا أن نابليون كان يرنو ذات يوم إلى البحر الساجي في (سنت هيلين)، يفكر في أمره: كيف صفق له النصر، وابتسمت له الدنيا، وكيف خانه الزمن فأودى به إلى هذه الجزيرة الغرقى وسط البحار. . . فابتسم وصاح: إن حياتي لرواية رائعة، ما كان ضرني لو كتبتها
على أن نابليون إن لم يسجل هذه الرواية بنفسه، فقد سجلها التاريخ، وحفظها الناس فأكبروا منه ذلك الجبروت الطاغي وتلك العزة الرفيعة. وكأن نابليون أراد أن يجمع إلى خلود البطولة والعظمة، خلود الأدب والفن، فود لو يكتب مؤلف
ولقد ذهب (سانت بوف) شيخ النقد في فرنسة، إلى أن نابليون كان أكبر أديب عرفه عصره. واحتج لذلك بروائع خطبه التي كانت تنعش الأمل الذاوي، وتحيي القلب اليائس.
ألم يغر جنوده العراة بكنوز إيطاليا ومحاسنها؟ ألم يكلم الهرم ويجعل القرون تنظر إلى أشبال فرنسة الفاتحين. . . ألم يسكب الحياة في نفوس فرسانه، هناك في سهول أوسترليتز. . .؟ فلقد كانت فصاحة لسانه وبلاغة بيانه تؤثران في كل قلب، وتنفذان إلى كل روح؛ والفصاحة والبلاغة بنتا الأدب البكر الجميل
ولقد ذهب (جاك بانفيل) الكاتب الفرنسي الكبير إلى ما ذهب إليه (سانت بوف) من قبل. ورجع ذلك إلى أن آل بونابرت كانوا ذوي بلاغة تخلب ومنطق يغري، وأن قلوبهم كانت ترف إلى الفنون والآداب. ولعل ذلك آت من أصلهم الفلورنسي القديم - وفلورنسة كانت مهد الآداب في حقبة من الزمن -، ومن أبيهم شارل بونابرت الشاعر الأديب. فلما تسنموا العروش كانوا من حماة الآداب ومشجعي الأدباء. فلقد شجع

جوزيف بونابرت ولويس بونابرت ولوسيان بونابرت حملة الأقلام، وإن كانوا وجهوها وجهة خاصة وسخروها لتوطيد سلطانهم. على أن نابليون وحده كان ذا موهبة قصصية رائعة. فقد كانت أفكاره تتدفق ويومض كالبرق، مليء بالصور الأخاذة والتعابير الراقصة والألوان البارعة

ولقد كان ميل نابليون إلى الأدب يحبب إلى نفسه كل رقيق لطيف. فقد كانت تؤثر فيه الموسيقى الناعمة، وتهزه أشعار (أوسيان) الحالمة، وتعجبه مآسي (كورنيل) المترعة بالفخار المفعمة بالبطولة، ويطرب (لهوليز الجديدة)؛ ويقول عنها: (إن هذا الكتاب سيبقى

(. . .إلى الأبد كتاب الشباب. ولقد قرأته وعمري تسع سنوات فإطار لبي وأذهلني

وكانوا يقولون: إن لنابليون خيالاً جبارا، وإنه كان يختلق الأقاصيص المرعبة، أقاصيص الجان والشياطين، والمغامرات والبطولات؛ يسمعها رفقاءه في الليل، أو زوجه وأولاده في ليالي الشتاء.

وقد عثر في ثنايا الأوراق التي كتبها في صباه، والتي أودعها بعد واترلو الكاردينال فيش أقاصيص ثلاث نشرت في عام 1895 في فلورنسة تحت عنوان (نابليون المجهول) وقد كتبها عام 1789 عندما كان ضابطاً في (أوكسون).

أما القصتان الأولى والثانية، فقد قبسهما من التاريخين العربي والإنكليزي. أما الثالثة، فهي من تأليفه، وفيها يصور كورسيكياً شيخاً فر مع ابنة له إلى جزيرة مصخرة تناطحها الأمواج هرباً من ظلم (قوم) ذبحوا أبناءه وذويه.

وتصرمت أعوام. . . وإذا بالعالم البولوني سيزيمون اسكيناري يخرج للناس قصة كتبها نابليون في عام 1795 عنوانها (كليسون وأوجيني): لها صفات القصة الوصفية التحليلية وفيها حقيقة يشوبها خيال، وهي أشبه بما يكتبه الأدباء أول عهدهم بالكتابة كتب نابليون هذه القصة وهو يتخطى الخامسة والعشرين من عمره، أوحاها إليه حبه لفتاة أسمها وهي الفتاة التي عرف بها الحب الأول. وكان قد رآها في مارسيليا، إذ أتي إليها بعد أن ذاع اسمه في حصار (طولون) فأحبها. وكان دقيق العود جميلاً، فألهب خيال هذه الفتاة بعينيه الزرقاوين وشعره الأشقر، وكلامه المتدفق كالماء، اللاهب كالنار؛ وأسكرها بأقاصيصه الحلوة، وأطربها بأشعار أوسيان الذائعة. وتحابا. . .

ولم يطل بقاء نابليون في مارسيليا، فاضطر إلى السفر إلى باريس، تاركاً حبيبته الصغيرة وحدها. وما وطأت قدماه باريس حتى أرسل إليها رسالة فيها الشوق والحب والحنين، ولكن أهلها منعوها من الكتابة إليه. فاضطرب نابليون لصمت الحبيبة الصغيرة، فكتب لها كتاباً يصور لها فيه باريس الفاتنة ليثير شوقها إليها. ولكنها صمتت أيضا فكتب يقول:

(إن الحياة حلم رقيق لا يلبث أن يذوب كالضباب. إنني أشعر وأنا أكتب الآن بهياج في عواطفي ما شعرت بمثله قبل هذا اليوم. ولئن طال هجرها لأقتلن نفسي، ولأرمين بهذا الجسم تحت عجلات العربات. . .)

ثم عاوده الحنين فكتب إليها مرة أخرى، ولكنها لم تحفل به وأعرضت عنه. عندئذ ضاق ذرعاً. . . فكتب لنا قصته هذه، وقص على الناس نبأه ونبأ (أوجيني) الغادرة، وكيف نشأ وترعرع، وكيف أحب وكيف خان الحبيب، وسمى نفسه (كليسون) وحول قليلاً وحور لقد كتب في قصته: (ولد كليسون للحرب والنزال، وكان يعلم سير القواد وهو ما يزال صبياً، وكان يحب أن يتفقه في فن القتال مذ كان في المدرسة يافعاً، على حين كان رفقاؤه يفتشون عن الفتيات يلهون بهن. فلما قارب السن التي تؤهله للقتال، أقبل على الجندية مسرعاً. فبرع في أمورها، وناداه النصر، فذاع في الشعب اسمه، ونظر إليه الوطن كبطل من أعز أبطاله، ولكن روحه كانت ما تزال ظمأى للنصر والخلود، ولقد كانوا يسمون طموحه كبرياء، وقوة إرادته شدة، وكان ينظر إلى نفسه البكر فيتأمل فيها، فيرى أنه أبعد الناس عن الحب.

فلقد كان له خيال مشبوب، وقلب ملتهب، وعقل راجح، ولكن فكره كان (بارداً) لا يسعفه بالخاطرة البارعة والنادرة والفريدة فدفعه ذلك إلى الملل من دلال الفتيات والابتعاد عن التلطف والتظرف، وعم تزوير الجمل واللعب بالكلمات لينال رضاهن وعطفهن

وكان يحب أن يشرد في الغابات الخضراء، لا يحفل بالتعب ولا يخشى العناء، ليبتعد)

عن جنون البشرية وانحطاط أهلها
وكان يستسلم إلى أمانيه، ويصغي إلى همس فؤاده، فيخلد إلى العزلة، وينظر إلى) الليل الحزين الهادئ المزدان بأشعة القمر، ويستمع إلى صوت الطبيعة الخفي، حتى إذا تنفس الصبح، عاد حزيناً سادراً لينال قسطاً من الراحة التي ظمئ لها
وكان يعجب باختلاف ألوان الطبيعة، يهتز لميلاد النهار، ويطرب لغروب الشمس،) ويصفق لأغاريد العصافير، وخرير المياه، ورفيف السهول. وكان ينفق الساعات في تأملاته هذه في أعماق الغاب. . .
على أن ميوله هذه أفهمته أنه بعيد عن الحرب وفنها، وعن الدمار وأصوله. وكان) يخيل إليه أن تهذيب الشعوب وإسعادها خير من قتالها وقتلها. . . ولكنه كان يسعى إلى التخلص من هذه الفكرة التي لم تطرب نفسه لها
وفي هذه الفترة يلقى كليسون أوجيني مع ترب لها اسمها (إميليا) فعرفهما. وكانت) إميليا
كقطعة من الموسيقى الفرنسية ينصت الناس إليها بشوق، أما أوجيني فكانت كأغرودة العندليب أو كقطعة من موسيقى (بازيللو) الإيطالي لا تعجب بها إلا النفوس الرقيقة الحساسة. . .
ولقد كانت إميليا توحي الحب بجمالها، أما أوجيني فكانت تعجب الرجل القوي الذي لا) يحب تحت سلطان الدلال والذوق، ولكنه يحب لأنه يشعر بأنه بحاجة إلى الحب. . .
ومسح فؤاد كليسون - الذي اعتاد النصر والمغامرات - هواه مسحة جميلة، وأكسبه) قوة وصلابة. . . فعلمت أوجيني أن عليها أن تتصل بهذا الرجل العظيم، ليذيقها السعادة الخالدة. فيكتب لها الخلود
وتزف أوجيني إلى كليسون، ويرزقان أولاداً، وبنتاً اسمها (صوفيا)، وكانت أوجيني) زوجة غيوراً، تخشى شر الفتيات أن يغرين زوجها. . . ولقد غضبت عليه يوماً، وانفجرت باكية تقول: إذا كنت تريد أن تصدف عن حبي فخذ بهذه اليد التي كانت تداعب حبيبتك - حياتي. . . ولكن نابليون يهدئ روعها، ويقسم لها ليبقين على العهد، وليحفظن الود ويضطر إلى الرحيل ليقود كتيبته إلى المعركة. . . فيترك أوجيني تنتحب وتذرف . . .) الدمع، ويحرز نصراً بعد نصر، وينال شهرة بعد شهرة، وكانت زوجه ترسل الرسائل إليه كل يوم، ولكنه كان لا يعبأ برسائلها، ويحاول أن ينساها، فيرسل إليها (بييرفيل) الضابط الجميل الذي كان في فجر حياته، يفتش عن فتاة يودعها قلبه، فأحبته، وكان الحب (باسم الصداقة)، ثم ما لبثت أن نسيت حبيبها الأول كليسون، وانقطعت عن الكتابة إليه.
ويذكر كليسون حبه وهواه يوماً. . . فيحن. . . ويشتد به الحنين. . . ويرى أن فتوره قد جنى عليه، فيداخل اليأس قلبه، ويقرر الانتحار، ولكنه يرسل إليها رسالة يودعها بها ويقول:
وداعاً أيتها الحبيبة التي قضيت معها أجمل أيامي. . . لقد ذقت بين ذراعيك السعادة) المسكرة، ارتشفت لذات الحياة وأطايبها ترى ماذا يبقى لأيامي المقبلة غير الملل والضجر؟. . . لقد ذقت وأنا في السادسة والعشرين من عمري اللذات الفانية. . . ولكنك أذقتني بحبك الشعور العذب بالحياة. . . إن هذه الذكرى لتمزق قلبي. . . أتستطيعين العيش سعيدة دون أن تفكري أبداً في أمر كليسون البائس؟. . . قبِّلي أولادي يا أوجيني. .
قبليهم. . . ولا تجعلي إليهم روح أبيهم الملتهبة المتأججة، لئلا يكونوا مثله ضحايا الرجال وضحايا النصر والحب. . .
ويرسل الكتاب إليها. . . ويقود الكتيبة بعزم، وإذا به يسقط إلى الأرض (مثخناً بالجراح. . . ويموت)
تلك هي القصة الرائعة التي كتبها نابليون وهو في نعومة صباه. وفيها نجد بلاغة تخلب، وصوراً تغري، وقسوة ترعب، وحناناً يهز ولو أن هذا البطل لم يسلك طريق الحرب، لكان له في الأدب روائع وفرائد. . . ولكان أدبه كالربيع الضاحك، فيه زهور وعطور، وفيه جمال وصفاء، وفيه نغمات وقبلات.
(دمشق)
صلاح الدين المنجد

مصطفى كامل بمناسبة تمثال
له وجدان. . .!
للسيدة وداد صادق عنبر
حضرتني اليوم حاضرة من الخواطر المستمدة من فيض عاطفة لها دافع قوي، وذلك لأنني استلهمتها ميراثاً عن أبي الراحل؛ وكأنني منها في صدد واجب مقدس ألقته علي فجاءت كتحية قصيرة للزعيم الخالد مصطفى كامل باشا بمناسبة إزاحة الستار عن تمثاله.
فإذا كان قد قيل بالأمس إن الأبوة في هوى الأبناء، فإني أعود فأنم ذلك القول بأن النبوة أيضاً في هوى الآباء.
فإلى الزعيم الخالد أرسل هذه الكلمات، إلى صديق أبي العزيز أرسلها تحية خالصة:
على روحك الطاهرة التي ترسل نور العظمة يشعُّ في عين كل مصري عرف ما لمصطفى من أيادٍ على الوطن
على وجدانك الحي، وكم من حيٍّ ليس له وجدان، أو ميت مات وجدانه قبل موته
على ذلك القلب الذي طالما نبض بحب مصر
على طيفك الذي كان أمناً للوطن وعصمه
وقلمك الذي ما أسال إلا كل حجى وحكمة
عليك أيها المثل الأعلى الذي جاهد حتى بلى في جهاده سلام هذه الأمة وأبنائها
أي مصطفى. . .
هذا هو الوطن الذي كان كل أملك النهوض به أبداً في مراقي التقدم درجات حيًّا أصبحت أنت كل ذكره ميتاً
وهذه هي الأمة التي ألقت أعباءها على عاتقك بالأمس تحمل ذكراك في قلبها اليوم
وما هذا وتلك إلا شهود فضلك وشواهد إخلاصك
وهكذا كنت واليوم ذكراك تكون. . .
وهكذا ظللت تكافح وتجادل، حتى إذا استنفدك الكفاح، ولم يدع من قوتك الجدال، هويت في أرض الميدان. فإذا كانت حياتك عظمة للموتى، فإن موتك أيضاً عظمة للأحياء
ولكن، أين هم الذين يقدرون فضل المجاهد وحق المناضل الناهض برقي أمته المدافع؟؟
وأخيراً، أجيب نفسي: كيف أتساءل وهم كثيرون؟
. . . . . هاهم أولاء يقفون أمام تمثالك مهللين مكبرين بعد وفاتك بأعوامٍ عدة
وهاهو أولاء يسيرون في الشارع الذي أطلق عليه اسمك العظيم بعد اختفائه سنين طوالاً
أجل، لقد عرفوك وذكروك وعظموك بتلك الأكاليل المعقودة من الحمد على مفرقك عرفاناً لفضلك وإقراراً لمجهودك. وهاهم أولاء يهرعون إلى التمثال لينثروا حوله آيات الذكرى الطيبة
يا مصطفى:
. . . حسبك فخراً أنك يوم ظهرت لم يكن في مصر سوى مصطفى واحد
ثم حسبك أنك نبغت حين كانت مصر تضرب من اليأس في ظلمات بعضها فوق بعض، وقد تظاهر عليها عنت السياسة وفقدان العون وخذلان القدر؛ فكنت الأمل الساطع الذي محا هذه الظلمات فصيرها نوراً من المجد والإسعاد. وكانت القوة الهادية السارية على ذلك الضعف الذي زال. بل وكان عملك بعد ذلك نظاماً دار عليه فلك التاريخ المصري دورة جديدة
فما كان أنشط كاهلك وما كان أثقل ما عليه من الأعباء، وما كان أشق المهمة التي سهلها عليك مضاء عزيمتك وقوة ثباتك بل ما كان أقصر المدة وأبعد المدى
ثم حسبك فخراً يا مصطفى أن كل مصري كاد يكون مصطفى في عقيدته
وحسبك أن مبادئك ملء النفوس وذكراك مقترنة بتاريخ مصرنا العزيزة
وإذا كنا اليوم نرى ثمرة الجهاد دانية فحري بنا ألا ننسى من غرسها وتعهدها بالسقيا حتى أينعت الأثمار. ونحن بعد قد قطعنا وهي بأيدينا شوطاً بعيداً متفائلين ببشراها التي يعتذر لنا بها الدهر في كل حين

يا مصطفى:
الآن وقد آن لك أن تعود إلينا لا حيًّا تقام لاستقباله المواكب وتنظم لتحيته الكواكب.
بلى ولكن لتعود تمثالاً ومثالاً أعلى لمجاهد في سبيل وطنه
الآن وقد عدت إلينا - وشتان بين العودتين - عدت إلينا مثلا حياً وفكراً دائماً
فإليك تحية الوطنيين
إليك أيتها القوة الوطنية التي رفعت رأس مصر عالياً
إلى العزيمة المصرية التي أضحى بها مجد الوطنيين حالياً
إلى المقدام البصير الذي أغلى قدر وطنه فأمسى في الأقدار غالياً
إليك أيها المجاهد تحية أمتك أولاً وآخراً
وإنك لحي دائماً بذكراك - حي بآثارك - حي في وطنك الذي يبكيك وتاريخه الذي يذكرك ويناجيك - حي بمواقف الصدق التي وقفتها ووطنيتك الصادقة وجهودك التي ضحيت لوطنك بها وبذلتها
فليحي ذكرك الذي لم يكد يخرجك لنا من الدنيا جسداً هامداً حتى أرجعك إلينا فكراً خالداً
ولتحي ذكراك حياة تكافئ جهادك المضني في سبيل الحياة
وداد صادق عنبر
مقارنة
في سبيل إصلاح الأزهر
للأستاذ محمد يوسف موسى
لست في حاجة للقول بان الأستاذ الجليل الزيات قد أحسن كثيراً بفتح باب مسألة إصلاح أزهر؛ فتلك صيحة يدرك مداها البعيد وأثرها الكبير الأزهريون أنفسهم والذين يلابسونهم ويغشون أنديتهم ومجالسهم. وكان من آثارها الظاهرة ما قرأناه من كلمات ثائرة على الماضي وما ضم بين أطوائه، وأخرى هادئة رزينة يمد صاحبها بصره قبل أن ينقل قدمه عالماً أنه لا جديد لمن لا قديم له، ولا مجد لمن يتنكر لماضيه كله. ولعل أهم ما لفت النظر واسترعى الانتباه خاصًّا بهذا الأمر في عدد الرسالة الماضي رقم 358 كلمة الأستاذ المعروف محمود الشرقاوي. فقد تناول الموضوع بأناة ورفق شأنه في أمره كله ونظر إلى الأزهر باعتباره وحدة من وحدات الثقافة العالية في مصر والعالم الإسلامي، وذلك شأن الباحث الذي لا يغفل عند بحثه الظروف والملابسات وسائر العوامل البيئية
ليس منا من لا يرجو مخلصاً أن يكون الأزهريون، طلاباً وعلماءً، مُثُلاً عالية لما يجب أن يكون عليه رجل الدين الذي يعرف واجبه ويؤديه كاملاً، لا يرجو عليه جزاءً ولا شكوراً إلا إرضاء ضميره وإحساسه بأنه رجل يحترم ما فيه من الإنسانية والرجولة. وليس منا من لا يعترف - ولو بينه وبين نفسه - بأنه دون الوصول لهذا عقبات ليس من السهل تذليلها في هذه الأيام، لعوامل لا يخفى أمدها، إلا إذا عمل كل فرد منا - بتكميل نفسه - على أن يكون من عمال الإصلاح في ظاهر أمره وخافيه قبل أن ينادي به: فيساير النهضة العلمية، ويعرف أبواب المكاتب الخاصة والعامة، ويتعرف أحوال إخوانه المسلمين والشرقيين ليحس آلامهم ويفهم آمالهم؛ وبكلمة واحدة يعيش في هذا العصر لا في العصر الخوالي وحدها. بذلك يستطيع أن يضع لبنه في بناء الأزهر الجديد على ما يود المصلحون الغيورون
ولكن هل أمن العدل أن ننعى على الأزهر وحده تخلفه أو تريثه في طريق الإصلاح، وأن نقارن بينه وحده وبين أمثاله من جامعات أوربا فنخلع عليه ثوباً قاتماً بغيضاً يصرف عنه النفوس؟ من الحق كما يقول الأستاذ الشرقاوي إن أردنا أن نقارن بين الأزهر وجامعات
أوربا، ألا ننسى أنه في مصر التي لم تبلغ بعد شأو أوربا في كثير من النواحي الاجتماعية والثقافية، كما لم يبلغ متزعمو الحركة الفكرية هنا مبلغ رجالات العلم والفكر هناك. وإني سأكتفي اليوم بذكر مثال واحد لعل فيه عظة وعبرة، ولعله يكون حجزة دون من يود بجدع الأنف أن يمحى الأزهر من الوجود فلا يصبح له ذكر إلا في التاريخ
عندما كنت بباريس في الصيف الماضي رأيت أن أتصل ببعض علمائها النابهين في

الدراسات الإسلامية الفلسفية، فبدأت بالأستاذ ماسَّيْنْيون وهو من نعلم علماً ومكانة هناك ومن يفخر كبار خريجي جامعة باريس بالأخذ عنه والاتصال به. تفضل واستقبلني في مكتبه الخاص بمنزله، وأعطاني من وقته الثمين أكثر من ساعتين ضاعتا في حديث علمي رفيع ونصح وتوجيه وإرشاد بينما طلابه العديدون وعارفو فضله في الانتظار، وخرجت على أن أعود مرات أخرى. وما كان أشد عجبي في صباح اليوم التالي حين أخبر أن هذا الأستاذ الجليل جاء برد لي الزيارة! أي والله سيدي القارئ إني لا أمزح ولا أتزيد؛ فقد جاء الأستاذ ماسينيون للنزل المتواضع الذي كنت فيه، ولم يمض على زيارتي له يوم وليلة، شاكراً تفضلي - كما قال - بزيارتي له! وأهدي إلي عدداً من مجلة علمية تعني بالدراسات الشرقية والفلسفية الإسلامية تضمن الكثير من بحوثه

لم أصل بعد لما أريد، فهاك بقية الحديث: رأيت بعد هذا، أو رأى رفيق سوري كان معي، أن أسعى لزيارة الدكتور طه حسين بك رجاء أن أصيب من فضله وتوجيهه ما يساعدني في دراستي، ولم يثنني عن الرغبة في الاتصال بالأستاذ الكبير ما أعلمه من العداء بين الأزهر وبينه، وهو عداء ليس من صالح الأزهر ولا الجامعة أن يدوم

اتصلت إذا بالمنزل الفخم الذي كان مقيماً به بالتليفون فقيل لي إنه ليس موجوداً وكان ذلك قبل الظهر. عاودت الاتصال بعده فقيل إنه على المائدة. وأخيراً اتصلت مدة ثالثة ورجوت محدثي أن يبلغ حضرة الدكتور رجائي أن يتفضل باستقبالي في الوقت الذي يحدده، وتركت له رقم تليفون المنزل الذي كنت مقيماً به. وهأنذا لا لأزل أنتظر الرد من المواطن الجليل!

أرأيت إذا، قارئي العزيز أنه قبل أن تطلب من الأزهر أن يكون كأمثاله من جامعات أوربا، يجب أن نطلب من كبار رجالنا وخاصة الذين عرفوا أوربا وتخرجوا في جامعاتها، أن يكونوا كرجالاتها!

ذلك خاطر أوحى إليَّ به كلمة الأخ الجليل محمود الشرقاوي. على أني أرى أن ذلك ليس معناه ألا نطالب بإصلاح الأزهر؛ بل على الضد من هذا أعتقد أن الأمر جد، وأن الأزهر في حاجة ماسة للإصلاح، وأنه واجب ديني ووطني أن يساهم كل قادر في هذا السبيل برأيه وجهده. إن الأزهر إن تخلف طويلاً عن القافلة تناساه الناس وطواه الزمن فصار من أحداث التاريخ، وحينئذ لا قدر الله يذهب آخر مجد من أمجاد مصر التالدة ويضيع المعقل المنيع الباقي للإسلام، والله يهدينا طريق الرشاد

محمد يوسف موسى

المدرس بكلية أصول الدين

أسلوب الرافعي وطريقته في كتابته

للأستاذ محمود أبو رية

حمد الناس للرسالة الغراء جميل وفائها لصديقها المغفورة له (مصطفى صادق الرافعي) وشكروا لها احتفاءها بذكراه الثالثة فكتبت بمناسبتها ما كتبت، ولا ريب في أن صنيعها هذا مع إمام من أئمة الأدب إنما هو وفاء للأدب الذي وقفت نفسها على حياطته والقيام عليه

ولقد كان مما كتب في هذه الذكرى مقال بليغ لصديقنا الأستاذ سعيد العريان كان مما جاء فيه أنه قال عن طريقة الرافعي في تأليف مقالاته ما وسعه أن يعرفه، وأن ذلك مبين في كتاب (حياة الرافعي) وفي الحق أن ما ذكره صديقنا سعيد صحيح لا ريب فيه، ولكن ذلك لم يكن شأن شيخنا الرافعي من يوم أن أمسك القلم للكتابة؛ وإنما كان ذلك في منتصف سنة 1932 فحسب، ذلك أنه لما كتب مقال (فلسفة الأدب) في صيف هذا العام أخذ يسأل أهل البصر بالأدب عن قيمة هذا المقال وبالغ في السؤال، ولما سألته عن سر اهتمامه بمعرفة آراء الأدباء فيه أجابني بخطاب تاريخه 26 يولية سنة 1932 قال:

(إنما اهتممت بمعرفة الرأي في مقال فلسفة الأدب لأني كتبته بطريقة لم تتفق لي من قبل في غيره، فإني لما أردت كتابته بعد كتابة فصل ابن الرومي انتكست فجعلت أدون ما خطر لي وقتاً بعد وقت ثم أخرجت المقالة من هذه الخواطر واختصرت كثيراً ولم أزد شيئاً. وهذه هي الطريقة التي يكتب بها كبار العلماء في أوربا، ولكن الوقت يسمعهم ولا يسعنا)

من ذلك يتبين أن الطريقة التي بينها صديقنا الأستاذ سعيد في كتابه (حياة الرافعي)

عن كتابة الرافعي لمقالاته إنما كانت في صيف سنة 1932 فحسب، وكان مقال (فلسفة الأدب) أول ما كتبه بهذه الطريقة
ولقد رأيت بمناسبة القول في طريقة كتابة شيخنا الرافعي وأسلوبه أن أوافي قراء الرسالة بما قاله هو عن أسلوبه عندما سأله العالم الجليل يعقوب صروف: لم لا يكتب بلغة سهلة يفهمها كل الناس كما كتب في (تاريخ آداب العرب)
تمنيتم لو جريت في إنشائي كله مجرى أسلوبي في (تاريخ آداب العرب) . . .)
ومقالاتي الأخرى، ولوددت والله أن أرفه عن نفسي، وأطرح عني الكد فيما عالجته من أسلوب: حديث القمر والمساكين ورسائل الأحزان والسحاب الأحمر؛ ولكني أجدني كالمسخر في
ذلك لقوة تساورني في أوقاتها وتهب عليّ كالريح من سكون وركود، فلم أفكر قط في كتاب من هذه الكتب، ولكن تقع الحادثة، فيجئ بها الكتاب، ثم أرى من بعد صوته وتعلق المتأدبين به ما لم أكن أقدر بعضه وتنتهي إلى آراء مشيخة الأدب وطلابه؛ فإذا هم لا يعدلون بهذا الأسلوب شيئاً في نسقه وألفاظه ومعانيه، ثم لا يعيبه إلا من قصر عنه وشق عليه النزوع فيه وكابر في الإقرار بعجزه، فذهب يلتمس المعاذير والمعايب، وأخذ في ذلك مأخذ فرعون إذ جاءته امرأة فقيرة كانت هي وأطفالها يعيشون على دَرَّ (عنزة) لهم، فماتت، فأقبلت المسكينة بها على هذا الذي يدعي الألوهية ويقول أنا ربكم الأعلى وسألته أن يحييها، فاعتذر بأن في السموات أعمالاً كثيرة أكبر من العنزة. . .
أرى المتأدبين يعرفون لهذا الأسلوب ما يعرفه رجال التربية والتعليم من أساليب إنشاء التصوير وإرهاف الذهن وتدقيق الخيال وقوة الطبع اللغوي وصقله وإدارة الحس عليه.
ثم هم يقولون إن موضعه من هذا الكلام الخنث المتهالك الذي ترمي به الأقلام المريضة في هذا العصر موضع الفحولة التي لا بد منها في الخليقة لإيجاد القوة التي لا تكون إلا بالفحولة وإشعار الهيبة التي لا تكون إلا بالقوة. فنحن في زمن كل كاتب فيه قادر على أن يرسل مداده، يمطر وحلاً لغوياً، حتى كل من يعرف القراءة هو كاتب إن صحح أو أفسد، وإن أصاب أو أخطأ، وإن أخذ اللغة والكتابة عن معجماتها ودواوينها ومدارسها، أو أخذها من الروايات والجرائد والأسواق
يقولون هذا ويضيفون إليه أن الفصاحة العربية كادت تنقطع أمثلتها العليا، وأنه لم يعد يكمل أحد في صناعة الكلام وأن زمننا هذا حين ينقلب إلى مرآة التاريخ فينظر فيها، سيرى وجهه متورماً مخدشاً مضمداً ملفوفاً بالجرائد. . . وليس عليه سِمَة جمال ولا فيه من الأدب منظر قوة، وأن اللغة أصبحت أشبه بالبيت المتداعي الذي يريد أن ينقض لا تسمع من أهله ولا من جيرانه ولا من السابلة في طريقة إلا (هدوا هدوا إلى الأساس)
عَلم الله يا سيدي الشيخ أني ما كنت أصبر على مصيبة البلاغة. . . لولا ثقتي بأجرها ولولا استئناسي إلى المعزين فيها، وهم جمهور أهل الأدب إلا قليلاً يعزيني بأسلوب آخر يضحكني أحياناً
أما هذا الذي يسمونه غموضاً وتدقيقاً فما أنا بصاحبه ولا العامل فيه، ولكنه طور من أطوار
الزمن لا بد أن يسبق نهضته التجديد كما سبقها من قبل. فلقد كانوا يصفون به سيدي شعراء العربية قاطبة أبا تمام والمتنبي، حتى قالوا في أبي تمتم إنه أفسد الكلام وأحاله وعقده بتعمله وصناعته، وإنه أتعب الناس حتى صار استخرج معانياً باباً منفرداً في الأدب ينتسب إليه طائفة من العلماء، وإن أعرابياً سمع قصيدته التي مطلعها: طَلَلَ الجميع. فقال: إن في هذه القصيدة أشياء أفهمها وأشياء لا افهمها، فإما أن يكون قائلها اشعر من جميع الناس، وإما أن يكون جميع الناس أشعر منه. وهذه شهادة بأنه اشعر من جميع الناس ولا ريب إذ يستحيل أن يصح الشق الآخر. ثم كان جمع من كبار الرواة يتعصبون عليه كابن الأعرابي والرياشي وغيرهما، بل قد بلغ من تعصب الرياشي عليه وعلى البحتري أن قلَّت نسخ ديوانهما بالبصرة في زمنه لزهد الناس فيهما. ولقي المتنبي شرا مما لقي أستاذه ومثله الأعلى الذي يقلده ويحتذي عليه!
ومع ذلك انحدر الشعر كله في طريقتهما إلى عصرنا هذا
ولقد كان المتنبي خَمُلَ اسمه ومُحي من لوح الزمن لو كان يعيب البلاغة عيب يكون

معها. فقد قال فيه الإمام العسكري: لا أعرف أحداً كان يتتبع العيوب فيأتيها غير مكترث إلا المتنبي، فإنه ضمن شعره جميع عيوب الكلام ما أعدمه شيئاً منها. قلنا ولكن جميع عيوب الكلام (بهذا الحصر) لم تزد على أن كانت من أقوى الأسباب في تخليد حسنات الرجل

إن أرفع منازل البلاغة العربية، كما قالوا، أن يكون في قوة صائغ الكلام أن يأتي مرة بالجزل وأخرى بالسهل، فيلين إذا شاء، ويشتد إذا أراد. ولا يبلغ هذه المنزلة أحد فيحكمها ويعطيها حقها من التمييز إلا جعلته الأقدار وسيلة من وسائل حفظ البلاغة يتسلم الزمن ويسلم، بل قل بالألفاظ الصريحة المكشوفة: يتسلم لغة القرآن ويسلمها. فأما أسلوب واحد وطريقة واحدة فهذا في قوة كل كاتب على تفاوت فيه، ولن يكون الرجل حق رجل إلا إذا كان له مع الظرف واللين والدماثة حديداً من العضلات وفولاذاً من العظام، فإن لم يكن إلا اللين محضاً والاسترسال خالصاً فهذا أصلحك الله شيء سَّمه ما شئت إلا أن تقول إنه رجولة. فإذا لم يبلغ كل الناس ولا أكثرهم هذه المنزلة فذلك أخرى أن يعد في محاسن من يبلغها لا في معايبه ألا لا يحسبن أحد أن الفصاحة العربية هالكة بحياة طائفة من مرّضى القلوب كهؤلاء الكتاب الذين يعملون جهدهم في إفسادهم، فهم مهما كثروا تنتظرهم قبور بعددهم. وفي هذه

البلاغة العربية خاصة ينبغ الكاتب الواحد في عصر من عصور الضعف. فإذا ألف كاتب (يتساقطن حوله، وإذا الكاتب كان سنة من سنن الكون تضرب ضرباتها بالقضاء والقدر هذا هو قول شيخنا الرافعي من خطة عن أسلوبه وطريقته في كتابته نقلته للرسالة وهي أحق به ليعرف الناس هذه الطريقة من قوله هو ويكونوا على بينة من ذلك. ولعل فيما نقلناه إيضاحاً لناحية من دراسة أسلوبه وبياناً لجانب من ترجمته رحمه الله.

محمود أبو ريه

رسالة كلية الشريعة

إلى الأستاذ الأكبر

دعوة الإصلاح تنقلب في الناهضين عملاً وفي الجامدين جدلاً. وفي هذه الرسالة وفيما تقرأه في بعض الصحف لفقهاء بيزنطة مصداق ذلك.

(الرسالة)

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي

السلام عليكم ورحمة الله وبعد فإن أبناءكم طلبة كلية الشريعة الذين يعيشون في ظلال عهدكم السعيد قد تدبروا فيما يتصلون به من حياتهم العلمية وعلاقتهم العملية فاتفقوا على أن يتشرفوا برفع هذه الرسالة لفضيلتكم. يا صاحب الفضيلة - في عصركم الذهبي الذي تبذلون فيه مجهوداً جباراً في نفض غبار الخمول والكسل عن وجه الأزهر ليستطيع أن يطل برأسه على حياة العامة فيستأنف رسالته ويؤدي أمانته على الوجه الذي ينبغي له، نرى في الوقت نفسه أن جهوداً من جانب آخر تتضافر على الحيلولة بين الأزهر وبين رسالته وإبعاده عن الحياة العامة بشتى الوسائل ومختلف الطرق فتارة بتحصين دار العلوم وأخرى بإنشاء معهد للدراسات الإسلامية، ولا يبعد أن نسمع بفكرة أخرى هي إنشاء قسم للوعظ والإرشاد بإحدى كليات الجامعة، كما سبق العمل على تحقيق ذلك لولا عناية فضيلتكم، وطوراً بالعمل على إقصاء كلية الشريعة عن القضاء في الأحوال الشخصية وهي البقية الباقية من التشريع الإسلامي وإحلال كلية الحقوق محلها بحجة توحيد القضاء، وطوراً بإنشاء عدة إدارات للشؤون الاجتماعية وحرمان الأزهر من إدارة للشؤون الدينية تكون مهمتها توجيه ثقافة الأمة من هذه الناحية مع أن الدين هو الأساس الذي يجب أن تقوم عليه ثقافة أمة هي حاضرة الإسلام والمسلمين، ومن وراء العمل على إبعاد الأزهر عن نواحي الحياة العملية نرى حملة صحفية تنادي بوجوب التخلص من نفوذ رجال الدين؛ وفيما بين جهودكم التي تبذلون والمناوءات التي بها يقومون ضد الأزهر، نرى أن الأزهر نفسه قابع في داره ماض في طريقته القديمة التي تضعف صلته بالحياة العملية. أما هذه الجراثيم الفاتكة التي تنخر في عظامه، وأما هذه السهام القاتلة التي توجه إلى قلبه، وأما الكشف عن أسرار التشريع الإسلامي وإقناع الأمة بصلاحيته لسعادة المجتمع حتى نستطيع

حماية الأمة من نفثات الإباحيين وتحصين الأزهر من معاول الهدامين؛ فكل هذا لا يخطر بمخيلة أحد من الأزهريين، اللهم إلا بعض صيحات نسمعها في سماء الجمعيات ودور المحاضرات وعلى أثير الإذاعة تنادي بالخروج من هذا الجمود؛ وتحرير الفقه الإسلامي من هذه الأغلال والقيود التي شوهت جماله وحالت بين الناس وبين معرفة مزاياه

في هذا الوقت الذي تتردد فيه فكرة الرجوع إلى التشريع الإسلامي تهب طائفة أخرى من الإباحيين اللادينيين لمناهضة هذه الفكرة والعمل على إماتتها

أمام هذا الصراع الذي تندلع نيرانه بين فكرتين خطيرتين: فكرة الرجوع إلى أحضان التشريع الإسلامي والتفيء بظلاله، وفكرة التمادي في ارتشاف السموم الحضارة الغربية والاندفاع في تياراتها لا نستطيع نحن طلبة كلية الشريعة أن نقف في مهب هذه العواطف والنزعات موقف المتفرج أو الخائف المتهيب، وبهذا النزاع المحتدم يتعلق مصير الإسلام وهو مصيرنا. فما أحرانا بعد أن دوى في سمعنا من قلبكم الطاهر صوت الإسلام الوديع، وعصفت في رأسنا نخوة الفقه الإسلامي الصريع، أن نتيمم ساحتكم وأنتم قلب الإسلام الخافق ولسانه الناطق وعنوان نهضتنا ومعقد آمالنا لتضموا إلى برنامجنا الدراسي برنامجاً ثقافياً يمشي مع روح العصر ويساير النهضة حتى نقوى على خوض معارك الحياة الجادة وننهض بالفقه الإسلامي إلى مستواه الحق

يا صاحب الفضيلة:

1 - على عاتق كلية الشريعة وحدها يجب أن يسترد الفقه الإسلامي شبابه ويستأنف ماضيه

2 - على عاتق كلية الشريعة وحدها يجب إنقاذ الأمة من مخالب القانون الوضعي ببيان فشله في قمع المجرمين والجناة

3 - على عاتق كلية الشريعة وحدها يجب إقناع الأمة بأن الفقه الإسلامي هو دواء هذه الأمة المنكودة وبلسم جراحاتها.

4 - على عاتق كلية الشريعة وحدها يجب أن تخفق للفقه الإسلامي القلوب وتهفو له النفوس وتنحني له الرؤوس

5 - على عاتق كلية الشريعة أخيراً يجب أن يبسط الفقه الإسلامي جناحيه على جميع مناحي الحياة التشريعية ويمد يديه في كل ناحية تقنينية

هذه هي التركة المثقلة بالديون التي خلفها لنا الأقدمون، وهذه هي المسؤوليات الجسام التي يجب أن تقوم بها كلية الشريعة خير قيام؛ وهل هناك من يضطلع بهذه الأعباء إلا كلية الشريعة التي أنشأتموها لتقوم بهذه المهمة وسط هذه الزوابع والأعاصير، ولكنها بحالتها الراهنة لا تستطيع النهوض بهذه الأعباء، وذلك لما يأتي: -

أولاً: إن دراستها للتشريع الإسلامي دراسة بعيدة عن روح التشريع وبيان أسراره في كل باب من أبوابه

ثانياً: قصر دراستها للفقه الإسلامي في صورة تمثل حوادث وأحوال أناس خلقوا وعاشوا في عصر غير عصرنا وزمان غير زماننا، وعدم استعانتها في دراستها بأساليب العرض العلمي الحديث

ثالثاً: عدم قيامها بدراسة القانون الوضعي

لذلك كان طبيعياً أن تشعر كلية الشريعة ببعد الشقة بينها وبين الأمة، بينما تتهيأ شقيقتاها عن طريق الوعظ واللغة لأخذ نصيبها في الحياة؛ وإلا فأين منا الفقيه الذي يستطيع كما تذكرون فضيلتكم أن يحل مشاكل العصر وأين منا الذي يستطيع أن يسير على نهج فضيلتكم في التفكير فينتج إنتاجكم في القضاء والتشريع؟

يا صاحب الفضيلة:

لعل الساعة تكون قد حانت لوضع حد لهذا النقص في دراستنا بتحقيق هذين المطلبين في أوائل العام الدراسي القادم وهما المطلبان اللذان نرى أنهما وحي من وحي روحكم وأمنية من أسمى أمانيكم

المطلب الأول: أن ينتظم برنامجنا الدراسي إلقاء سلسلة من المحاضرات الأسبوعية في موضوعات لها صلة بدراستنا وبمشاكل الأمة، تكشف لنا القناع عن كنوز الفقه الإسلامي الغني بأعظم الثروات وأحدث المبادئ ووجه صلاحيته لإنقاذ الأمة من براثن

الفوضى التي تعاني آلامها في جميع مناحي الأجتماعية، والسياسية والمالية، على ضوء الحوادث المتجددة والنظريات الحديثة، على أن يقوم بتنظيم هذه المحاضرات وإلقائها أكفاء نابهون من العلماء الذين لهم جولات في هذه الأبحاث ووقفوا على أسرار التشريع، واحسنوا
عرضها، وعلى عيوب المجتمع، ووضعوا علاجها.

المطلب الثاني: بعث فكرة دراسة القانون الوضعي مقارناً بالقانون الشرعي

بإجابة هاتين الرغبتين تستطيع كلية الشريعة أن تظهر نشاطها في دائرة أبعد مدى وأوسع أفقاً، فنشارك الأمة في تشريعها وتقنينها بعد أن تظهر الفقه الإسلامي قانوناً محكماً يعالج مشاكلنا الحاضرة. فبالرغبة الأولى يمكن الوصول إلى النتائج الآتية:

أولاً: إقناع الأمة وعلى رأسها المتقننون الوضعيون بأن التشريع الإسلامي هو العلاج الوحيد الذي يشف النفوس من عللها، ويقي الجماعات من أمراضها، وما أجدرنا بإحراز هذا النصر في مصر بعد أن أحرزه الأزهر في لاهاي

ثانياً: بتحقيق هذه الرغبة تستطيع تطبيق أحكام التشريع على كل ما جد من الحوادث والمعاملات التي لا تنتهي. وبالرغبة الثانية يمهد لنا الطريق للوصول للنتائج الآتية:

أولاً: معرفة العلل المختلفة للمجتمع المصري والوقوف على موطن الضعف في القانون الوضعي وكيف حاول المقنن المصري وضع العلاج فلم يفلح فنستطيع أن نضع يد الأمة على مصدر دهائها ومعين دوائها ونصف لها من التشريع الإسلامي علاجها على ضوء الظروف والبيئة المحيطة بها

ثانياً: نستطيع أن نحسن صوغ التشريع الإسلامي وتنسيقه، فمن المسلم به أن جمال الصيغة وحسن الترتيب لهما دخل كبير في إقبال الأمة على أحكام الشريعة وتعرف نواحي الفضل فيها. ولو أن سلفنا القريب قدر ما في هذا من خير وصاغ تلك الأحكام في الثوب الذي يلفت الأنظار إليها، ويتمشى مع طرق العرض الحديث لما وصلنا إلى هذا المصير المؤلم

ثالثاً: بتحقيق هذه الرغبة تستطيع كلية الشريعة أن تثبت أهليتها للنهوض بأعباء الحياة التشريعية وأن تشعر الأمة بحاجتها إليها وعدم الاستغناء عنها

مما تقدم يتبين أن تحقيق هذين المطلبين يمكن كلية الشريعة من الاضطلاع برسالتها التي فرضها الله عليها فتشتق من عناصر الفناء التي تحيط بها خلوداً وتتخذ من خصومها جنوداً وتشق طريقها في الحياة وهي أقوى يقيناً وأصلب عوداً

لهذا رفعنا رسالتنا إلى ساحتكم وكلنا أمل في أنها ستجد العناية من فضيلتكم وستظفر بالرضا من جانبكم، لأنها ثمرة من ثمرات غرسكم وبريق من نور قلبكم. أبقاكم الله للإسلام ذخراً وللأزهر فخراً.

(الرسالة): علمنا أن الأستاذ الأكبر قد وعد بتحقيق المطلب
الأول. أما المطلب الثاني فوعد فضيلته بمفاوضة ولاة الأمور
في فتح أبواب كلية الحقوق أمام من يجيد الفرنسية من حملة
الشهادة العالية من كلية الشريعة.

إلى أخي الطنطاوي
. . .!ولكنها دمشق
للأستاذ شكري فيصل

(سيلمح القراء في هذه الكلمة بعض النواحي الشخصية. . ولكنهم سيجدون صورة من صور الصراع النبيل القوى في الحياة. . . وليس أحق من الدكتور (زكي مبارك): شيخ المصاولات والمطاولات في عالم الأدب، بهذه القطعة. . . فليتقبلها في معتكفه الهادئ. . . على طرف الصحراء)

(شكري)

أخي الأستاذ علي:

الآن أرسلت يدُي بعد أن مسحت بهما دمعتين اثنتين غشيتا عيني وانحدرتا على خدي كقطرات الندى الناعم حين يترقرق على أوراق الزهر الرفاف في ربيع الغوطة الفاتن. . . ولقد أخذت القلم لأكتب لك، وأنا لا أدري أي شيء كانت هاتان الدمعتان. . . أكانتا تطفئان نار الوله والحنين، أم ترثيان لوضع البلد المسكين، أم تترجمان عن فرحة القلب بالأمل المؤيد والنصر المبين؟ وهل كنت أملك إلا هاتين الدمعتين، وإلا هذا القلم

أفزع إليه كلما عبث بي الشوق، أو ماجت بي الذكرى، أو استثارني الحب
لقد قرأت زفرتك هذه التي سطرتها بدم قلبك الفائر، وعزم شبابك المضطرم؛ فبعثت في نفسي عالماً كبيراً. . . بكل ذكرياته وأحاديثه. . . ما كان أشد حرصي على أن أدفنه وأنطوي عليه؛ وأثارت في ذهني صور الماضي البعيد بكل ما كان يصطرع فيه من آمال، ويفيض فيه من خواطر. . . ونعمت حيناً بهذا الجو العبق الذي فنيت به، وعشت معك من جديد ساعات تقلبت فيها مع الزمن الدائر، وجريت مع الأيام المتعاقبة، وقرأت هذه الصفحات المشرقة التي خططتها بيديك في كتاب الحياة، وعاودت قراءتها وانغمست في نعيمها حيناً وفي شقائها أحياناً. . . ومضيت مع فرحتها مرة، ومع شكاتها مرات، وخرجت وفي قلبي يقين، وعلى شفتي ابتسامة، وفي عيني بريق من الأمل الضاحك
لقد عرفتّني ناشئاً حين كنت أسير مع أخيك بين المدرسة والبيت. . . صغيرين وادعين.
لا نعرف آلام الحياة، ولا نفقه مصاعب الدنيا، ولا ندرك من هذا العالم إلا جنة المدرسة ونعيم التلميذة وصفاء القلب. . . فكنت تلقانا بالرعاية، وتصلنا بالعطف، وتفيض علينا ألوانا من الحنان. . . فعرفتُ فيك الأخ البر، وقد حرمتْني الحياة من نعيم الأخوة. . . وأفضيت إليك ذات يوم بكل ما في نفسي. . . بكل ما يموج فيها وما يضطرب عليها. فكنتَ بعدُ كثير السؤال عني إن غبت، كثير العناية بي إن حضرت، واقترنت صورة أخيك في ذهنك إلى صورتي فجعلت منهما إنساناً واحداً تضمر له أنبل الشعور وأصدق العاطفة. . . ثم كانت إرادة الله فانصرفت أنت إلى بغداد، ومضى هو إلى باريس، وسعيت أنا إلى القاهرة. وبقي (ناجي) وحده في دمشق يرعى فيها عهود الصبا ومراتع الأنس، ويمدنا منها بالروح والريحان
وفي خلال هذه السنوات كنت أتعرف إلى نفسك الكبيرة وكان يتفتح لي منها آفاق وعوالم، ولقد أكبرت فيك هذا الجلد وهذا الصبر. . فما بالك تشكو اليوم، وتنفث هذه الشكاة على حين احتملت من قبلُ الأهوال والمشقات، ضاحك السن، منطلق الوجه، لا تأبه ولا تهتم؟ ولكن سامح الله قاسيون، وهذه السهول المنطلقة عند قدميه يدغدغها النسيم فقد شجتك واستثارتك. . .
وهل كانت الأولى هذه العماية عن الأدب، وهذا الإهمال للعلم، وتلك الرعاية . . . للجهلاء؟ وهل كنت تأمل من هؤلاء الذين عاشوا في الظلام أن يدركوا النور، وأن يفتحوا عيونهم له، وأن يغفلوا عن الوحي (الأرض) الذي يسيرهم في كل ناحية، ويمضي بهم في كل اتجاه؟ وماذا كان حديثك لنا حين كنت تبعث فينا حمية الأدب، وعقيدة العلم، إلا أننا سنصادف غداً في معترك الحياة هذا الإنكار وهذا الجحود. وأنه يجب علينا أن نصبر عليه ونصمد له ونمضي في مقاومته، وأننا سنحمل في أيدينا مشاعل الدعوة الكبرى التي تريدنا دمشق أن ننهض بها، وستصيب النار المقدسة من أجسامنا فتكوى أكفنا وتنثر الشر على أجسادنا وتنالنا بما تنال به جنودها المخلصين من الامتحان والابتلاء. . . فلا يجب علينا أن نتخلى عنها، لأنها دعوة الحق والصدق والخير تريد أن تنبعث من جديد في دمشق لتعم الدنيا، وتبهر العالم
إن دنيا الأديب لن تخلو من أنماط من الجحود. . . هكذا قلت لنا. . . وإن رسالته لتصادف
ألواناً من الصعوبات، وأصنافاً من المشقات، حتى لكأن الله قد أراد له أن تصهره الشدائد، وأن يصقله الحرمان حتى يكون إنساناً آخر في إحساسه المرهف وشعوره النبيل، وعواطفه المتدفقة
وهل تخلو حياة الأدباء من هذا الصراع العنيف بين النور المتدفق الثر، وبين الجهالة الكابية المعتمة؟ وماذا يريدون منك حين يحولون بينك وبين العدل، ويحاولون أن يقصروك على منصب (الأستاذ المعاون) إلا أن يصرفوك عن الدعوة النبيلة التي قدحت شررها، وأثرت نارها، ونشرتها في كل قلب؟!. . .
نحن لم نخلق لهؤلاء البغاث، وسيذهب أولئك الذين يتخذون منقار النسر وجناحه ومخلبه. وستبقى رسالة دمشق الغالية، وسنتحمل الأذى، وسنذوق مرارة الحرمان اليوم، لنبلغ حلاوة الظفر غداً. وثق أنك لست وحدك في هذا الاضطهاد والحرمان، ولكنها سبيل مرسوم، وسهم مسموم، يقذفون به عباد الله الذين لا يستطيعون هز

الرؤوس للممالأة! وحتى الظهور للنفاق، وإلا فما تقول يا سيدي وماذا يقول الناس عنا نحن هنا؟ يبعثون بنا إلى القاهرة: أروع بلدان الشرق وأزخرها بالحياة والنشاط لنمثل مدينة من أكرم المدن، وأمة من أنبل الأمم، ثم يبخلون أن يسووا بيننا وبين البعثات الأخرى التي يوفدونها إلى باريس وغير باريس؛ فيقدمون لنا المرتب - والحياء يعقل لساني عن أن أقولها - جزءاً من خمسة أجزاء من مرتب عضو البعثة. . . كأن القاهرة بلد آخر غير باريس. . . وكأن الطلبة يأكلون هناك ويصومون هنا. . . أجل!. . . ولم لا يصومون؟. . . في جوار الأزهر، وعلى مقربة من سيدنا الحسين ليتضاعف ثوابهم، ويجزل أجرهم؟. . .

وأحسب أن الحرمان سيمتد بك وبإخوانك؛ فما يؤذي هؤلاء في الدنيا أكثر من الصراحة والحق. . . ولكنك لن تني عن (رسالتك)، ولن تتخلى عنها. . . وإذا لم تجد في جماعات الوزارة، ورجالات الديوان، من يمتّ إليك بسبب، أو ينهض معك في حق. . . فتك إرادة الله أن تكون صفحتك في كتاب الحياة بريئة، إلا من نصرته وتأييده. . . لقد اقتحمت الحياة، وصارعت أمواجها طفلاً ليس معك إلا والدتك عليها رحمة الله. . . ولقد حملت أخواتك على كتفيك في هذا الخصم الهائل، وتعرضت لألوان من الشدة ومن النكد، حتى صعدت بهم إلى هذه المنازل السامية التي ينزلونها. . . وأصبحت بين هاتين المرحلتين ما

لا يعلمه إلا الله. . . وإلا هذا العدد اليسير من إخوانك، وتقلبت بين بيروت وبغداد والقاهرة. . . وحفظ لك الناس صورة بارعة تحوطها هالات الإعجاب والإكبار والتقدير، فليهنك هذا. . . وليهنك أنك ساهمت في كل مشروع، وأنك تقدمت لكل عمل منذ كنت يافعاً في الثانوية، وشاباً في الحقوق، وقائداً وخطيباً في لهب الثورة وجحيم الاضطرابات. . . فتاريخك - مع هذه الحفنة الصادقة من الشباب - أبعد من أن تحده بهذه الحدود الضيقة من الوزارة والديوان، وما عليك أن تلقي اليوم هذا الضيقة، وهذا التجاهل. . . فذلك تأريث لعزتك، وإيقاد لشعلتك

أما الشهادات. . . هذه الأوراق السحرية التي يحملونها حين يترجمون نصاً لابن المقنع، أو يميزون بين مضارع (قال)، ومضارع (وعد). . . ويعودون بعدها من أهل العربية. . . فهي ليست أكثر من أن تكون بمثابة (الشيك) على (خزانة الحكومة). . . ولكنها لن تكون قط السبيل إلى قلوب الناس وضمير الزمن وسجل الخلود. . .

لن تظلمك دمشق هذه المدينة الصابرة الوفية. . . ولن تجزيك عن البر بالنكر، وعن الإحسان بالإساءة، فلقد خلدت منها كل صور الجمال، ومواطن الجلال، ومجال العظمة. . . ولقد نشرت على الناس صورتها الرائعة في مآذنها المتألقة، وقبابها الناهضة، ومساجدها المترعة بالنور والفيض، وبساتينها الملأى بالحسن والجمال. . . وغوطتها الضاحكة على رغم هذا الزمن العابس. . . وإن ما تلقاه الآن من أوضاع، وتجده من أذى، لا يتصل بدمشق ولكنه محمول عليها. . . فدمشق مخلصة نبيلة. . . آوت من قبل ألوان البشر، وآلاف العلماء، وفتحت صدرها للناس من كل مكان، تلقاهم بالتحية الضاحكة، وترعاهم بالود الخالص، وتنزلهم منها منزلة الولد والصاحب والرئيس!. . . ولن تنسى أبناءها لأنهم كل ما أبقيت لها يد الزمان الغادر. . . إن قلبها ليرعاهم ويحوطهم، ويهتز لهم هزة الحب. ولئن عميت طائفة عن هؤلاء الأبناء، وعن هذا النور ينسكب من وجوههم وقلوبهم؛ فإن طوائف وطوائف أخرى تتطلع إليهم بأعناقها. . . وإنها لتنظم لهم من حبات القلوب، وأزهار الربيع، وأغصان الغار، تاج الحب. . . وإنها لتوقع لهم مع نسمات الأصائل التي تزخر بالعبق نشيد الإعجاب. وإن أصوات المآذن التي تنادي: الله أكبر، الله أكبر، خمس مرات في اليوم، إنما تنبعث من أعماق قلب هذه المدينة لتهيب بهؤلاء الأبناء أن يمضوا قدماً في دعوتهم وجهادهم لخلاصها من مفاتن الباطل والضلالات

لقد هدأ الليل، وسكن الناس. . . وأخذت أستشعر لهذه النسمات بعض القسوة. . . وليس من حوالي إلا حديث القمر، وهمسات النجوم. . . أحملها كل حنيني لك، وللأخوان السامرين، وللجادة الخامسة. . . وللغوطة الزهراء

وألف تحية وسلام يا دمشق الحبيبة الوفية . . .

(القاهرة)

شكري فيصل

تأملات
للأستاذ محمود الدسوقي
خابت آمالي إلى اليوم مرات، فكانت مرة تذهب بقطعة من نفسي. وأمس تلقيت الدرس الذي لم يكن مفر من تلقيه، فالحقائق تؤلم وتصدم وتدمى في بعض الأحيان، لكن فيها شفاء للنفس بعد حين، وقد تركتني صدمة الأمس صريعاً بين التي أحببتها حتى العبادة، والتي وددتها حتى الحب؛ وجرح مصاب الأمس كبريائي، وعفرني بالتراب، وأطلعني على الخفي الذي عز إلى الآن على الأوهام
أنت يا فتاتي قاسية لأنك قديسة، رحمة مع ذلك لأنك من بنات حواء، وقد تركتك بالأمس لا أعلم، أإلى تلاق أم تطغى كبريائي على حبي فيكون الفراق، والفراق مرٌّ أمرُّ منه أن نلتقي بعد الآن
لقد حاولت جهدك أن تكوني مهذبة معي إلى غاية حدود التهذيب، لكنك لم تحاولي مرة أن تكوني لطيفة
كان وجهك كقطعة من المرمر؛ ناعم الملمس بارده، وكان مثله تتخلله تلك المعاني الكامنة فيه، ولا يدلني على شيء يهديني إلى الصواب. شئت به الإنذار فكان، وشئت به الإخطار فكان؛ ثم حاولت أن أتلمس في معنى من معانيه غرائز، فألفيته فيه، لكني لم أنته إليه، فبيني وبينه ذلك السطح المتجمد من العاطفة الجائشة فيما يليه
هذا هو فن المرأة التي لم تتعلم ضبط النفس من أمها حواء، وإنما تعلمه من غباوة الأبناء، أبناء أبيها آدم، وقد كنت معها غبياً إلى حد، ذكياً إلى حد؛ لكن الخرق يعلق بالحكيم، ولا تذهب الحكمة بالخوف العالق
ترى لو رأيتك اليوم ما أنا فاعل؟ أكبر الظن أني سأحاول أن أكون فظاً، فلا أغدو أن أكون متهالكاً ضعيفاً، وسوف تعود المياه فيما أتوقع إلى مجاريها، وأعاود خرقي، وتعاودين دروسك، ولن أفوز يوماً برضاك المحض، ولن أعود أبداً بجفاك المحض، وهذا مبعث تعاستي وهنائي
حاولت بالأمس، وإني لمنصرف عنك مطرق الرأس، أن أرفع فيك عيني، وفكرت في تحيتك فلم أفعل، وكنت أنت متغافلة عني تأملين بقائي ولا تحاولين استبقائي حتى تواريت.
وقد تواريت وأنا معتزم الرحيل إلى غير رجعة فلم يصبح الصباح حتى كان حديث النفس إلى ختام، وكانت مشيئتي قد تبلورت في عزم أكيد
حذار يا فتاتي أن تظهري اليوم أو غداً فإني قاس مع نفسي رحيم معك، وأحب أن تفسحي لي الوقت ليقوى التصميم، ولا أعلم ما أنا فاعل ولكني أعلم ما أريد، والقطعة شر مفض أحياناً إلى الخير، وهو خير سوف أشتريه غالباً، فأنكر فيه نفسي، وأتنكر لماضي حبي المنكوب. وقد ذهبت آمالي فيك إلى الهوة التي يتردى فيها المحزون لتضيف إلى تجاريبهم في أنفسهم تجاريب أخرى بالسماع. وإنها في هذه الهوة لتبقى
وقد حاولت يأساً قاتلاً، كالقمح اليانع قد جف واسود من عصف الريح
وإذا جاز للعاصفة أن تهدأ فقد جاز لنفسي أن تستكن وأن تعود فتثور كما هو بالعاصفة خليق. وقد عصفت تجاربي بأحلامي غير مرة فلم تفني فيها إلا هذه المرة، وكنت أجمع ما تفرق منها كل مرة لأعاود حبي في أسر شديد، فاليوم يضيق به الأنف ويضيق به الصدر، ولا يجد متنفساً إلا في أن يأكل النفس التي غذته وأشبعته حتى بات المنهوم إنه جارف، وإنه ليحطم، وإنه ليخلف ما تخلف العاصفة من أثر بعد عين، فهو الحب اليأس وهو الحب المحروم
محمود الدسوقي
رسالة الشعر
رجال ونساء
للأستاذ علي محمود طه
للشاعر المهندس الأستاذ (علي محمود طه) ملحمة شعرية تقع في نحو أربعمائة بيت من الشعر لم تنشر بعد. عنوانها (البعث الأول) يدور الحوار فيها بين شاعر وملك وأرواح حوريات في انتظار البعث. أما موضوع الحوار فهو الفن وأثره في العلاقة بين الرجل والمرأة، وما أثر الغريزة فيه، وكيف تلهم الأرواح قبل حلولها في أطيافها الميل إلى الشر أو الخير. وننشر فيما يلي هذا الحديث الذي يسوقه الشاعر على لسان

(الأرواح
بليتيس:
هو الحسنُ فنَّانُنا العبقريُّ ... هو الحبُّ سلطانُنا القاهرُ
ممثلهم لُعْبَةٌ في يديهِ ... ومثَّالهم إِصْبَعٌ فاجرُ
وألحانهم من فحيحِ العروق ... يُرَجِّعها الوترِ الساخرُ
ورسَّامُهم صَنَمٌ مُبْصِرٌ ... فإِن جُمِعوا فهمُ الشاعرُ
قلوبٌ مُدَلَّهةٌ بالجمال ... ترى فيه معبودَها المُلْهَما
هو الرجلُ القلبُ، لا غيره ... فأَوْدعْتَهُ القَبَسَ المضرما
أَنْمِنَ به الشَّرسَ المستخفَّ ... وأيقظنَ فيه الفتى المغرما
إذا ما اقتحمتنَّ هذا السياجَ ... فقد خضع الكونُ واستسلما
سافر:
ولكنْ حَذَارِ ففي طبعنا ... ليانٌ يسمُّونه بالوداعه
وفيهم جراءةُ مستأسدٍ ... تَحدَّى المنيةَ باسمِ الشجاعه
بليتيس:
وَهْمِتِ فذلك هَزْلُ الرجال ... وفَنٌّ أجزنا عليهم خداعه
نُذيب به صُلْبَ أعصابهم ... وفي رِقَّةِ العود سرُّ المناعه
سافو:
أطلنا الأحاديثَ عن عالمٍ ... مُلثَّمةٍ أرضُه بالخفاءْ
جعلناه مطمحَ أحلامنا ... كأنّا شقينا بسُكنى السماءْ
طوانا على حُبِّهِ شاعِرٌ ... كثيرُ المجانةِ نزرُ الحياءْ
أثار الملائكَ في قدسها ... وأوقع في سحرهِ الأبرياءْ
بليتيس:
عجبتُ له كيف جاز السماَء ... وغرَّرَ بالملأ الطاهر؟
أيمرحُ في الكون شيطانُه ... بلا وازعٍ وبلا زاجر
دعي الوَهم سافو ولا تَحْقِري ... بليتس معجزةَ الشاعر
فما نتقيهِ بحيَّاتِنا ... إذا هو ألقى عصا الساحر!
ناييس:
بليتيسُ هَلْ هو ذاك الخيالُ ... المُجَنَّحُ بين حواشي الغيومْ
عَشِيَّةَ صاح بأترابنا ... وقد أخطأته قِيسِيُّ الرجومْ
وقيلَ لنا مَلَكٌ عاشِقٌ ... يُسرِّي الهمومَ ببنتِ الكرومْ
يجوبُ السماَء إذا ما انتشى ... يُعَرْبِدُ بين خدورِ النجومْ
بليتيس:
أعاجيبُ شَتَّى لهذا الفتى ... وأعجبُ منها الذي تذكرينْ
كأنَّ أحاديثَه بيننا ... أساطيرُ آلهةٍ غابرينْ
إذا كان للشعر هذا الصيالُ ... فوا رحمتا للجمالِ الغبينْ!
وَدِدْتُ لو أنيَ في إِثره ... درجتُ على الأرض في الدارجينْ
سافو:
أتغوين بالشعر شيطانَه؟ ... خياليةٌ أنتِ أم شاعره!
بليتيس:
بل الشعرُ آسرُهُ المستبدُّ ... فيا ليتَ لي روحَه الآسره
ويا ليتَ لي وثباتِ الخيالِ ... وقوةَ أربابِه القاهره
لصيَّرتُهُ مِثْلَةً في الحياةِ ... وسُخريةَ البعثِ في الآخره
ناييس:
صفى لي بِلِيتيسُ هذا الأملْ ... وماذا ابتدعتِ له من حِيَلْ؟
بليتيس:
أُدَلِّهُ هذا الفتى بالجمالِ ... وأُسْمِعُه من رقيق الغزلْ
وأورثه جُنَّةً بالرحيقِ ... وأَحْرِمُه رَشَفَاتِ القُبَلْ
إِلى أنْ تُحَرَّقَ أعصابُه ... ويصرَعه طائفٌ من خَبَلْ
وأحفرُ بعد الردى قبرَه ... هناك على قِمَّةِ الهاويه

وأغرس في قلبهِ زهرةً ... من الشرِّ ريَّانةً ناديه
سَقَتْها سمومُ شرايينه ... ورفَّتْ بها روحُه العاتيه
تخفُّ إليها قلوبُ الرجال ... وترجع بالشوكةِ الداميه
إذا جَنَّها الليلُ لاحتْ به ... كعينٍ من اللَّهَبِ المضطرمْ
تثور الشياطينُ من عطرها ... كمجمرةِ الكاهن الملتثمْ
إذا استافَها الرَّجُلُ العبقريُّ ... تحَوَّل كالحيوان الوخِمْ
تصيحُ البلاهةُ من حوله ... فينظر كالصَّنَمِ المبتسم!
تاييس:
هبي الشعرَ أولاكِ من مُلكه ... سماَء الألُوهةِ ذات البروجْ
ونصَّ المعاني على جانبيكِ ... فمنها السُّرى وإليكِ العروجْ
فما تصنعينَ إذا ما بُعِثْتِ ... واحدةً من بنات الزنوجْ!
ألم تسمعي قِصَّةَ السامريِّ ... وما صَنَع القومُ بعد الخروجْ؟
نبا منطقُ الوحي عن سمعهم ... وخفَّ عليهِ رنينُ الطربْ
ومَدُّوا العيونَ إلى دُميةٍ ... تَمَثَّلُ في حيوانٍ عَجَبْ
ترامي بأحضانهِ غادةٌ ... أفادَ صباها شبوبَ اللَّهَبْ
جنونُ الحياةِ وأهواؤها ... أنوثَتُها وبريقُ الذّهَبْ!!
فأينَ من القوم سحرُ البيانِ ... وصيحةُ موسى قُبَيْلَ الوداعْ؟
هُمُ الناسُ لا يعشقون الخيالَ ... إذا لمْ يكنْ حافزاً للطِماعْ
همُ الناسُ لا يعبدون الجمالَ ... إذا لم يكنْ نَهْزةً للمتاعْ
همُ الناسُ لا يألفونَ الحياةَ ... إذا لم تكنْ مَعْرِضاً للخداعْ!
سافو:
تماثيلُهُ بعضُ أجسامنا ... وقد صاغها العبقريُّ الصَّنَاع
ولوحاتُهُ صُوَرُ العارياتِ ... إذا مَزَّقَ الفنُّ عنها القناع
أبا الشعر - تُغوينَ هذا الفتى؟ ... وَهِمْتِ إذنْ - وجهلتِ الطباع!
أليستْ له صبوةُ الآدميِّ ... وشهوةُ تلك الذئابِ الجياع؟
بليتيس:
رجعتُ لنفسي فلا تغضبا ... وكُفَّا العتابَ ولا تسْهِبا
لقد رُعْتماني بهذا المزاجِ ... وأبدعتما نبأً مُغْرِبا
سَرَتْ بيَ من ذكرهِ رعدةٌ ... كأني لبستُ به الغيهبا
أتاييسُ ما كنتُ بِنْتَ الزنوجِ ... ولا شِمْتُ أمّاً بهم أو أبا!!
تاييس:
وَصَمْتِ الخليقةَ في بعثهم ... كأنّهُمُ الحدَثُ المنكرُ
وما أخطأ الطيفُ ألوانَه ... ولكنَّه القبَسُ الأحمر
أبوهم كما زعموا آدمٌ ... وأفئدةٌ بالهوى تَشْعُرُ
لهم نارهم في أقاصِ الدُّجى ... وأبياتُهم في أعالي الكهوفْ
ورقصٌ يُمَثِّلُ قَلْبَ الحياةِ ... إذا ما استُخِفَّ بنقرِ الدفوفْ
ونايٌ يُقسِّمُ فيه الربيعُ ... ويسكبُ شجوَ الليالي الهتوفْ
وسحرُ الطبيعةِ في عُرْيها ... إذا هَتَكَ الفجرُ عنها الشفوقْ
تتَفَرَّدَ فّنهُمُ بالخلود ... وصيغَ بفطرتهم واتّسَمْ
يعيش جديداً بأرواحهم ... وإن عاش فيهم بروح القدَمْ
له بأس (مانا) وإيحاؤه ... إذا اضطربتْ رُوحُه بالألم
وَرِقّة (هاواي) في شدْوها ... إذا جاشَ خاطرُها بالنَّغَمْ
ألا فلْيَكُنْ لكِ من فنهم ... سموُّ اللظى وعتوُّ الجبالْ
ألا فلْيَكُنْ لكِ من سحرهم ... فنونٌ تُعَطِّلُ سحرَ الخيالْ
ألا فلْيَكُنْ لكِ من نارهم ... وشاحُ مُؤَلهَّةٍ بالجمالْ
إلى الأرضِ فانتقمي للنساءِ ... وكوني بها محِنةً للرجالْ!!
علي محمود طه
رسالة الفن
بواطن وظواهر

عندنا فنانون. . . ولكن!
للأستاذ عزيز أحمد فهمي
من الموسيقيين - 5
مصطفى بك رضا
الفنان المصري الوحيد الذي له تمثال منصوب في معهد رسمي من معاهد الحكومة. فهل الحكومة تسمع من الموسيقى ما لا نسمعه نحن الرعية؟ وهل سمعت الحكومة فيما سمعت من هذه الموسيقى شيئاً لمصطفى بك رضا لم تستطع أن تمسك نفسها معه دون أن تقيم له تمثالاً في حياته مع أن هذا أمر شاذ جداً يكاد يكون منقطع النظر. . . فإذا كان الأمر كذلك فأين هي يا حكومة هذه الموسيقى التي ينتسب مصطفى بك رضا إلى الفن بها؟ ألم يكن الأجدر بها أن تكون أول ما تكون في ذلك المعهد الرسمي الذي أقيم تمثال مصطفى بك رضا فيه؟ ليس في ذلك المعهد شيء من مصطفى بك رضا إلا التمثال، فهل هذا التمثال يغني في وقت من الليل أو النهار لا يعرفه أحد غير الحكومة، فتذهب إليه في ذلك الوقت تسمع غناءه في استخفاء ضناً منها به أن تختلس آذان الشعب منه آهة، أو تنال أفئدة الشعب منه تنهيدة؟ فهنيئاً إذن للحكومة!. . .
أو قل هنيئاً لمصطفى بك رضا، وأعلم أنه كما استطاع لنفسه أن يقيم تمثالاً في معهد فؤاد الأول للموسيقى العربية من غير أن يكون له في الموسيقى إلا أنه يعرف أن يعزف بعض المحفوظات على القانون. . . فإنه يستطيع كذلك أن يقيم لك تمثالاً في كلية الآداب مثلاً إذا ثبت لديه أنك تفك الخط فقط لا أكثر ولا أقل. . . فإذا كانت لك رغبة كهذه فها هو ذا عندك ملء الدنيا كلها فاتفق معه على الأسلوب، إنك تجده فيما بين المعهد، ومحطة الإذاعة، ووزارة الأوقاف، ومسجد السيدة نفسية. . . ومهما ينصحك بشيء فاعمل بنصائحه حتى لو رأيت نفسك ستضحي في البدء بالقليل أو الكثير، فالرجل لا يتجه إلا إلى شيء واحد، وهو أن الآخرة خير ربحاً وأبقى كسباً
الأستاذ عبد الوهاب
مسكين هو مع مصطفى بك رضا. كلما رأى موسيقاه تملأ البلد، ويغنيها الناس هنا وهناك، ورأى الحكومة مع هذا كله تنكره فلا تنزع من معهد الموسيقى تمثال مصطفى بك رضا لتقيم مكانه تمثاله هو، أو تقيم له تمثالاً مع تمثال مصطفى بك رضا - كلما رأى هذه الحال ضاق ذرعاً وعجب للموازين التي يوزن بها الناس في هذا البلد ولقد اهتدى أخيراً إلى فكرة نفذها فارتاح بعدها واطمأن، لأنه ساوى بها مصطفى بك رضا، بل إنه وصل بها إلى حيث لا يستطيع مصطفى بك رضا أن يصل بتمثاله، ذلك أن الأستاذ عبد الوهاب أقام لنفسه تمثالاً نصفياً، ثم صوره بالسينما ولصقه في أوائل فيلم يوم سعيد فهو يعرض على الناس كلما عرض الفيلم، والفيلم كما تعرف يسافر داخل القطر وخارج القطر، فيراه الناس هنا وهناك، بينما تمثال مصطفى بك رضا لا يراه إلا الذين يزورون المعهد الموسيقي فقط
صحيح أن الناس يرون الأستاذ عبد الوهاب نفسه في الفيلم ويسمعونه، وأنه لا لزوم مع هذا إلى التمثال؟ ولكنه تنافس الموسيقيين في تشجيع إخوانهم النحاتين!
الدكتور الحفني
هو موسيقي من نوعي أنا، ولكنه يعلم ما لا أعلم عن تاريخ الموسيقى، وآلاتها، وأسمائها، وشتى شئونها، وهو يشبهني من حيث أنه لا ينتج شيئاً منها، وإن كان يكثر من الحديث عنها إكثاراً نال به الدكتور فيها من ألمانيا لا من هنا. . . من ألمانيا
من الشعراء - 6
الأستاذ محمد الأسمر
كان ترتيبه الأول بين حضرات الشعراء الذين تقدموا لمسابقة الأناشيد الحماسية التي عقدتها وزارة الدفاع، فنال الجائزة السنية
الأستاذ أحمد رامي
في يوم من الأيام قال في أغنية الأستاذ عبد الوهاب:
تعالى نفن نفسينا غراماً ... ونخلد بين آلهة الفنون
أرتل فيك أشعاري وأصغى ... إلى ترجيعك العذب الحنون
فكان شاعراً رائعاً، وهو اليوم يقول في أغنية للأستاذ عبد الوهاب أيضاً . . .:

تنزل وادي وتطلع كوبري!
تحود مرة وبعدين دوغري!
. . .يا وابور
أحترف! نجاه الله ورده شاعراً رائعاً. . . أو فليبقه الله هكذا فإن الشعر عذاب! أو . . .
فليدع الله هو بما يشاء!
الأستاذ محمود إسماعيل
الشاعر الذي لا يزال مصرياً والذي أدعوه إلى أن يغزو بإحساسه ثم بشعره نفوس الناس حتى يكون شاعراً إنسانياً. وإني وإن كنت أدعوه إلى هذا فإني أطلب منه ما يتعبه فهو لا يخالط الناس إلا ليسخر منهم، لأنه يعتقد أن الناس لا يتعارفون إلا ليسخر بعضهم من بعض، فلو ظل على هذا لظل شعره بعيداً عن الناس الذين لا يعاشرهم بنفسه فلا تشعر بهم نفسه ولا يدركهم شعره
فهل عقد العزم على أن يبقى هكذا شاعر القمح والثور والشادوف وعينيها وشفتيها وما يشبه هذا؟
إن عليه أن يدرب نفسه منذ الآن على أن تحب الناس وحياتهم رغم ما فيها؛ فهذا الذي فيها هو موضوع الشعر وموحِي أخلده، وهو شاعر
الدكتور إبراهيم ناجي
لم يكن هذا الشاعر يستطيع إلا أن يكون فناناً على أي وجه من الوجوه وفي أي فن من الفنون، فله نفس تضطرب بالبهجة والرحمة والحب، فهو على العكس من صاحبه محمود. . . بذل نفسه لكل ما حسن عنده، وإنه ليحسن عنده كل ما يرى، فهو في شعره: إما محب هاتف للحسن، وإما محب راث للحسن إذا مسه الأذى
من الرسامين - 7
الأستاذ عبد السلام الشريف
عقله له أسلوب، ويده لها أسلوب؛ وأسلوب عقله يؤدي بفنه إلى مسرح العواطف الإخلاص والوداعة والرضا؛ وأغرب ما فيه هو الرضا، فهو لا يسخط على ما أعتاد أهل الفن أن يسخطوا عليه. له رسم صور الدنيا أما ذات طفلين ترضع أحدهما دون الآخر، فالراضع يرضع هادئاً لا يشغله شيء إلا الرضاعة، والآخر متبرم بهذا، ولكنه لا يزيد في تبرمه على أن يمط شفتيه. . . فلو كان الحقد يعرف قلب الأستاذ الشريف، لكان قد صبه نقمة في وجه من هذه الوجوه الثلاثة، ولكنه نثرها جميعاً بوداعة ورضا وإخلاص للحق، فالدنيا حين ترضع من ترضع من أبنائها، وحين تغفل من تغفل منهم، لا تفعل ذلك عن ميل إلى الجريمة أو الظلم وإنما هي أم، والطفل الذي يرضع. . . يرضع وهو لا يقصد أن يظلم أخاه الذي أهملته أمه، والطفل المهمل نفسه كان عند الأستاذ الشريف حكيماً يمط شفتيه إذا أهمل، صابراً راضياً مؤملاً أن يشبع أخوه وأن تعطف عليه بعد ذلك أمه
هذا هو أسلوبه العقلي
أما يده، فسريعة رشيقة خفيفة، لا ثرثرة في خطوطها ولا زحمة؛ وإنما هي أقواس تجري بها يده على الورق فتضع الحدود اللازمة لحصر الفكرة التي تريد أن تؤديها، وهو بعد ذلك يترك الناظر إلى رسومه يكمل من خياله ما كره هو أن يفصله، فيرغم بتفصيله إياه قارئه أو الناظر في صورة على أن ينحصر معه
من الخطباء - 8
الأستاذ فكري أباظة
يغيظني من هذا الرجل تبعثره، ولست أدري متى يوحد نفسه ويتجه بمواهبه إلى هدف واحد؟ هو الآن محام، وصحفي، ونائب، وهو فوق ذلك كله - كما قلت عنه مرة - أباظة؛ يتعهد بالدعاية لكل أباظة من أهله العاملين في الحياة المصرية العامة
والشيء الذي لا أشك فيه هو أن أعظم ما وهِبَهُ الأستاذ فكري هو قدرته على الخطابة، فإن له شخصية محببة ترتاح إليها النفس، وان صوتاً مدوياً تهتف له الأرض، وإن له عقلاً جارياً يسعفه بالفكرة، فان قصر عنها أسعفه بالنكتة، وإن له لساناً ليناً يطاوعه ويتدفق بأمره
فلا يتعثر ولا يتوقف، وإن له إلى جانب هذا كله قلباً يكدس عليه الأستاذ فكري أثقالاً وأثقالاً من آماله المشتتة المبعثرة، ومع ذلك فإنه لا يزال ينبض تحتها حياً

الأستاذ مكرم باشا
خطيب الجماهير بلا منازع. أول ما يعمد إليه إذا وقف الخطابة هو أن يسكر سامعيه ليقول لهم بعد ذلك ما يريد، وهو يجد عنده من خمر البيان أو سحره ما يذهب بالعقول ما لم تكن راكزة ركوز الأهرام، وهو لا يدع مواقفه الخطابية للصدفة، وإنما هو يعد لها العدة إعداداً، فيكتب خطبة وينمقها، ويقطعها، ويلحنها، ويقوم أمام الناس فيلقيها فإذا هم عواصف وقتما يريد لهم أن يكونوا عواصف، وإذا هم نسائم وقتما يريد منهم أن يكونوا نسائم
الأستاذ توفيق دياب
مسرحي إلى حد كبير في خطابته. . . سمعته يوماً في مسرح البلفدير في الإسكندرية يرثى سعداً عقب وفاته، فرايته يقوم وهو بالمعطف و (التلفيعة) يشكو للجمهور المرض وعجزه عن القول، ثم تحمس قليلاً حزناً على سعد فانطلق يقول ويقول حتى فرض الجمهور أن الدم جرى في عروق الأستاذ فملأها حرارة وهنا خلع الأستاذ (التلفيعة) ومضى وحماسته تزداد، حتى استثقل الناس المعطف عليه فخلعه هو أيضاً، ثم زاد فخلع الطربوش، ثم أخذ يقفز بعد أن خف في المسرح ويضرب أرضه برجله، وأثاثه بيده حتى هم بأن يختم الخطبة فخفف من حماسته قليلاً ووضع الطربوش على رأسه، ثم خفف منها قليلاً وارتدى المعطف، ثم فتر فلف (التلفيعة) على عنقه، ثم تعيا وتراخى فما جلس حتى كان يشكو المرض في نهاية خطبته كما كان يشكوه في بدايتها، فكان ختاماً فنياً مسرحياً كما رأيت، وباهراً كما رأى الجمهور
من المعلمين - 9
الأستاذ إبراهيم مصطفى
أستاذ النحو بقسم اللغة العربية بكلية الآداب. هذا المعلم وهب نفسه للنحو، وهو يحب النحو الذي أودعه نفسه لتلامذته فإذا هم يتلقونه نحواً حياً فيه روح، ولا ريب أن هذه أعجوبة من الأعاجيب، فقد كان النحو ولا يزال من أثقل علوم العربية وفنونها على النفس، ولكن
الأستاذ إبراهيم مصطفى يحببه إلى النفس، لأنه لا يرجمها به رجماً، وإنما يدسه عليها دساً، فهو يعرف أن اللغة العربية مخلوق حي تطورت به الحياة حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن من اختلاف اللهجات وتميز كل لهجة من هذه اللهجات بميزة خاصة أو بميزات. وهو يدع هذا حتى يمسك بطرف عربي في نفوس تلامذته، ثم لا يلبث يتابع بهم مسالك هذا الطرف مرتداً إلى الأصل العربي حتى يجد تلامذته لأشد عقد النحو تعقيداً، حلاً ميسراً تهديه إليهم لغة الخطاب المتداولة الآن
ولا يمكن أن يطمع معلم للنحو في أكثر من هذا، وفي أن يؤمن من يتعلم على يديه بأن النحو العربي هو الموسيقى المنطقية للذوق العربي.
عزيز احمد فهمي
رسالة العلم
في عالم الأمواج
للدكتور محمد محمود غالي
سبر العلماء لمراحل الإشعاع - طول الموجة وعدد الذبذبات - من الموجات اللاسلكية إلى الأشعة النافذة - أشعة الموت - الأشعة السينية وعمل (لاويه) - الضوء والكهرباء وأنواع كونية واحدة
حدثنا القارئ عن الموجات الكهربائية التي نستخدمها في الاستماع إلى الإذاعة اللاسلكية، وعن الموجات الضوئية التي نرى بها صورة الأشياء وذكرنا عقيدة (هرتز من أنها أمواج واحدة لا يتميز فريق منها عن الآخر إلا باختلاف أطوالها، فهي كأهل مدينة كبيرة بينهم من هو طويل القامة ومن هو قصيرها؛ كلهم من البشر ويمثلون جنساً واحداً ولكن يتحتم أن يوجد بينهم الطويل والقصير
ونذكر الآن أنه كان للمصادفة شأن هام في كشف (هرتز) لوحدة هذه الأمواج، ذلك أنه أراد أن يعرف ما إذا كانت للأمواج الكهربائية خواص الأمواج الضوئية كخاصية الانعكاس مثلاً، وتصادف أنه استخدم أمواجاً قصيرة طول موجتها بضعة أمتار فكان هذا الاختيار سبباً في نجاح تجاربه وفي نجاح نظريته الضوئية في الكهرباء، إننا لا نستطيع اليوم أن نعكس أمواج الراديو على مرآة لسبب واحد هو عدم استطاعتنا أن نصنع مرآة كبيرة

تتناسب وأطوال الأمواج التي نستخدمها الآن، ولم نستخدم في الإذاعة الأمواج القصيرة إلا في العهد الأخير، وهي الأمواج التي أمكن عكسها بواسطة شبكة سلكية بدل المرآة، وليس ثمة شك في أن اختيار (هرتز) لنوع معين من الأمواج كان توفيقاً نحمد الظروف عليه، فقد تقدمت بذلك العلوم خطوة كبرى إلى الأمام

ولا نود أن نذكر للقارئ كلمة أمواج دون أن يتابعنا في المعنى المراد من هذه الكلمة ونعيد عليه أن الأمواج التي نعرفها في الظواهر المختلفة تنقسم إلى أمواج طولية وأمواج مستعرضة، وتعتبر الأمواج الضوئية والأمواج الكهربائية من النوع الأخير فهي أمواج مستعرضة، ومعنى ذلك أن الذبذبات تحدث عمودية على الخط الضوئي أو الكهربائي الواصل من المنبع إلى مكان وصول الشعاع، ويسمون طول الموجة المسافة الواقعة بين

قمتين للأوضاع المختلفة التي تأخذها نقطتان تتذبذبان على هذا الخط، ويحسن بالقارئ لكي يتخيل طول الموجة أن يتصور تلك الأمواج التي تحدث على سطح الماء فإنها هي أيضاً من النوع المستعرض، وطول الموجة بالتعريف هو المسافة الواقعة بين قمة الماء عند مكان معين والقمة التي تليها، وهذه المسافة في حالة أمواج الماء تبلغ مثلاً متراً أو أثنين ولكنها تبلغ في الأمواج الكهربائية الطويلة من 200 إلى 2000 متر وفق طول الموجة التي تتخيرها محطة الإذاعة

وينبغي ونحن نتكلم عن طول الموجة أن نذكر للقارئ شيئاً عما يسمونه عدد الذبذبات. فثمة علاقة بين سرعة الضوء وطول موجته وعدد الذبذبات الحادثة، ذلك أن سرعة الضوء تساوي عدد الذبذبات مضروباً في طول الموجة فبمعرفة سرعة الضوء يمكننا إيجاد عدد الذبذبات إذا عرفنا طول الموجة أو نعرف طول الموجة من عدد الذبذبات، وما يقال عن الضوء يقال عن الكهرباء لأننا نعرف أن سرعتهما واحدة

فإذا رمزنا بالحرف ع لسرعة الضوء وم لطول الموجة وز للفترة التي تستغرقها الذبذبة الواحدة

فإن السرعة ع=زم

وإذا رمزنا بالحرف ن للتردد أي لعدد الذبذبات الحادثة في الثانية الواحدة فإنه من الواضح أن ن=ز1

أي أن ع=م ن

ومعنى ذلك أن سرعة الضوء أو الكهرباء تساوي طول الموجة مضروباً في عدد الذبذبات في الثانية

وعلى ذلك، فإننا نميز الظواهر الضوئية والكهربائية على السواء إما من طول الموجة أو من عدد الذبذبات الحادثة في وحدة الزمن وهي الثانية، ويبلغ عدد الذبذبات في حالة الأمواج الطويلة المستخدمة في الراديو الملايين في الثانية الواحدة، ويزيد هذا العدد وفق القانون المتقدم كلما كانت الأمواج قصيرة

أما الأمواج الضوئية فتختلف في أطوالها وبالتالي في عدد ذبذباتها عن الأمواج الكهربائية رغم تماثل طبيعتها، فبينما تبلغ أطوال الأخيرة في كثير من الأمواج التي نستمع بواسطتها للإذاعة بضعة كيلو مترات ويبلغ ترددها الملايين، فإن أمواج الضوء المرئي تختلف أطوالها من 100008 من المليمتر للضوء الأحمر إلى 100004 من المليمتر الضوء البنفسجي ويبلغ ترددها التريليونات من الذبذبات في الثانية الواحدة

ومن السهل على القارئ أن يحسب عدد الذبذبات الحادثة عند نقطة معينة من شعاع مرئي معتبر بين الأشعة الحمراء والأشعة البنفسجية وليكن طول موجة هذا الشعاع 100006 من المليمتر ويمثل في الواقع اللون الأصفر المائل إلى البرتقالي

فمن المعروف مما تقدم أن سرعة الضوء تساوي طول الموجة مضروباً في عدد الذبذبات أي أن عدد الذبذبات يساوي سرعة الضوء مقسوماً على طول الموجة ولكن سرعة الضوء تساوي 300 ألف كيلو متر في الثانية أي تساوي:

مليمتر1000 1000 000 .300
ومن ثمَّ يكون عدد الذبذبات يساوي 300. 000 1000 1000
مقسوماً على 100006 أي يساوي 500 مليون المليون من
الذبذبات في الثانية
وإن نظرنا إلى مجموعة الأشعة التي نعرفها الآن الكهربائية كانت أم ضوئية لوجدنا أن أسهل مراحلها في الدراسة هو الأشعة المرئية التي ذكرنا أطوال أمواجها، ولقد استخدم (نيوتن) وغيره أبسط الأجهزة ليقوم بتحليل أشعة الشمس أو عكسها أو كسرها، وتسنى له بابسط الوسائل أن يجوب هذه الدار من مراحل الإشعاع، وزودنا باستخدام أشعة الشمس وبثقب كان في نافذة معمله ومنشور من الزجاج ينصف علم الضوئيات الذي نعرفه اليوم، ولكن لم تكن معرفة ما بعد الأشعة المرئية وما قبلها من الإشعاع بالشيء الهين إذ تطلب ذلك أبحاثاً طويلة ما زالت قائمة حتى اليوم، ولا يتسع هذا المجال لنذكر الوسائل الطبيعية المختلفة والأجهزة المعقدة التي استخدمها الإنسان للتوصل إلى معرفة مراحل الإشعاع المختلفة، فمادة الكوارتز حلت محل الزجاج كما حل اللوح الفوتغرافي والترمومتر وغيره من الوسائل محل العين لمعرفة وجود الأشعة، وكان لهذه الأجهزة شأن كبير في الكشف عن مراحل الإشعاع وقياس سلسلة الأمواج المختلفة التي تبدأ من أشعة الراديو التي تجهلها حواسنا وتنتهي بالأشعة النافذة أو الكونية التي لا تشعر بها هذه الحواس رغم مقدرتها على اختراق ما سمكه عشرة أمتار من الرصاص، وهكذا كشف العلماء عن مراحل الإشعاع التي تقع في منتصفها هذه المنطقة المحدودة، والضيقة من الأشعة المرئية، وهكذا تعرف العلماء على أنواع الإشعاع لمختلف الأمواج كما عرفوا أن سرعة الأشعة الكهربائية هي سرعة الأشعة الضوئية، وأن طبيعة الشعاعين واحدة
على أننا نقسم الأشعة التي نعرفها في الكون إلى ثلاثة أقسام:
القسم الأول من الأشعة غير المرئية تبدأ من الأمواج الهرتزية أو اللاسلكية وتنتهي بالأشعة تحت الحمراء
القسم الثاني الأشعة المرئية وتبدأ بالأشعة الحمراء وتنتهي بالأشعة البنفسجية
القسم الثالث: وهو الطرف الآخر من الأمواج غير المرئية وتبدأ من الأشعة فوق البنفسجية وتنتهي على حد ما بلغنا إليه اليوم بالأشعة النافذة والأشعة الكونية، وهي أغرب ما نعرفه من الإشعاعات
ولم يكن التعرف على مراحل الإشعاع نتيجة لتتبع منتظم لأطوال الأمواج المختلفة والبحث عن الأطوال غير المعروفة بين الأطوال التي نعرفها، لأن سبيل تقدير هذه الأطوال وقياس
التردد سبيل وعر ألجأ العلماء في كل مرحلة إلى فن خاص يختلف عن الفن المتبع في المرحلة القريبة منها. إنما كان التعرف على الإشعاع سابقاً في العادة لدراسة خواص الإشعاع من طول موجته أو تردده أو خواصه الطبيعية، وكان التعرف على الإشعاع في كثير من الأحيان نتيجة لمصادفات علمية موفقة، وقد ضربنا للقارئ مثلاً بكشف (بكارل) لأشعة الإيرانيوم، ولولا أنه ترك غير عامد قطعة من الإيرانيوم في أحد أدراج مكتبه على لوح فوتغرافي، ولولا أنه لاحظ بعد ذلك على هذا اللوح أثر مطبوعاً يدل على شكل هذه القطعة من الإيرانيون لتعذرت على الإنسان معرفة هذه المرحلة من الإشعاع المادي، ولما كشف الإنسان بعده إشعاع الراديوم العجيب
وليس المجال هنا لنعرف خواص الإشعاع المختلفة، وما زال الإنسان دائباً وراء توسع معارفه في استخدام الأشعة في أغراضه، ففي الناحية الأولى ومن الأشعة غير المرئية التي تبدأ من الأمواج الهرتزية وتنتهي بالأشعة تحت الحمراء استخدام الإنسان مرحلة من هذه الأشعة في الإذاعة، وهو ما زال يسعى لمعرفة المرحلة الأخرى من هذه الأشعة، وقد عثرنا في كتاب لريشنباخ على أن الأشعة التي طول موجاتها من ثلاثة أمتار إلى خمسة تقتل بعض الحيوانات الصغيرة كالفيران وبعض الحشرات، ولاشك في أن ثمة أبحاث موجودة خاصة بهذا الموضوع لم تتح لنا فرصة الاطلاع عليها. ولعل هذه الملاحظة الخاصة بالحيوان والحشرات سبب جعل فريقاً من الناس يتحدث أحياناً عن استخدام الإنسان يوماً لما يسمونه الأشعة القاتلة التي أطلق عليها البعض أشعة أو أشعة الموت، وليس في هذا الحديث إذن من سخف شديد ما دام أن هناك مرحلة

من مراحل الإشعاع لها هذا الأثر على الحيوان الصغير، ومع ذلك فإننا لا نعرف حتى الآن أشعة قاتلة للإنسان سهلة الوجود والاستخدام، وهو الكائن الذي تخترقه في النهار يتبعه الليل كل أنواع الأشعة من أشعة الراديو الطويلة التي يبلغ طول موجاتها بضعة كيلو مترات إلى أشعة الشمس المرئية وغير المرئية إلى الأشعة الكونية الخارقة، وطول موجاتها أجزاء من ملايين ملايين المليمترات، ويعيش الإنسان تحت كل هذه الأنواع من الإشعاعات المختلفة، يروح جيئة وذهاباً، ينعم بالشباب بعد الطفولة، ويتألم من الشيخوخة بعد الرجولة، ويأخذ قسطاً وافراً من الحياة يلجأ خلالها إلى هذه الأشعة في مراحلها المختلفة يستخدمها في الإذاعة وفي نقل الصور الفوتغرافية باللاسلكي وفي التليفزيون، ونأمل أن نستخدمها بطريقة عملية قريباً فيما نسميه (التحليل عن بعد)، بل يستخدمها الإنسان في العلاج دون أن يناله في كل ذلك أثر مميت، ولو أننا صعدنا اليوم الدرج إلى عيادة أحد الأطباء المشتغلين بالأشعة وفي جسمنا ألم فإنه يستطيع بين لحظة وأخرى أن يعطينا صورة واضحة لجزء دفين من أجسامنا وذلك باستخدام مرحلة من مراحل الأشعة التي لا نراها بالعين، وهي الأشعة السينية

فيمكننا أن نرى مثلاً حصوة في الكلى يجب استئصالها أو نعلم مثلاً أن وراء هذا الضرس خراجاً هو سبب مباشر لورم معين، وهكذا أخذ بعض الكشوف العلمية الكبرى مرحلته التجارية، فأصبح له أجهزة تباع في الأسواق يستخدمها الإخصائيون، وأصبحت بذلك نفعاً للبشر

ولقد كانت معرفة أطوال الأمواج من المسائل العلمية في كثير العويصة في كثير من هذه المراحل، وأننا نذكر للقارئ على سبيل المثال كيف عرف العلماء طول موجة الأشعة السينية المتقدمة؛ فلقد كانت ظاهرة الحيود الضوئية التي سبق أن تحدثنا عنها، والتي قامت دليلاً على أن الضوء ظاهرة موجية، بل قامت دليلاً على النظرية الحدَيثَّة، من الظواهر التي استخدمها الباحثون لمعرفة أطوال الأمواج الضوئية في جزء هام من مراحل الإشعاع، على أن هذه الظاهرة بذاتها لم تعد تصلح سبيلاً لدراسة الأشعة السينية، إذ أن أطوال أمواج هذه الأشعة من الصغر بحيث أن أية فتحة نعمد إلى صنعها في معاملنا مهما صَغرَت تعتبر كبيرة بنسبة موجة الأشعة السينية، فلا تصلح لترى بواسطتها ظاهرة الحيود اللازمة لنا لدراسة هذه الأشعة

ولكن العالم الكبير (ماكس لاويه) استطاع أن يعرف بهذه الظاهرة طول الموجة السينية، ويحصل على أشكال بديعة ناتجة من ظاهرة الحيود المتقدمة، مستخدماً فيها تلك الأشعة، وذلك باللجوء إلى البلورات، فهذه تتكون في الواقع من جزيئات موضوعة في ترتيب خاص، ومرصوصة بطريقة يوجد بينها هذه الثقوب الصغيرة التي لا نستطيع بوسائلنا الحصول على ثقوب في صِغرها، وهي فتحات تصلح مصادفة لاستخدام الأشعة السينية، وبذلك كان يجمع (لاويه) الأشعة السينية بعد احتراقها البلورة ويجعلها تقع على لوح فوتغرافي فتُحْدِث فيه بقَعاً سوداء منظمة تنظيماً عجيباً وجميلاً. ولقد كنا نود أن نعطي للقارئ إحدى هذه الصور البديعة فلم نعثر على واحدة منها اليوم؛ وبدراسة رياضية عميقة استنتج (لاويه) طول موجة الأشعة السينية التي لا تراها العين والتي لا تحدث ظاهرة الحيود في تجاربنا العادية

وإذا كانت أطوال أمواج الأشعة السينية من المجموعة التي نعتبرها قصيرة القامة، فإن أطوال أمواج أشعة الراديوم أقصر منها بكثير؛ وليس المجال هنا لنذكر الطرق المختلفة لتحديد هذه الأمواج وتحديد التردد

على أن أقصر الأمواج هو ما نصادفه في الأشعة الكونية أو الخارقة، وقد سبق أن تحدثنا عنها بإسهاب، وهذه تصل إلينا من جهات من الكون لا نعرفها وبسبب عمليات طبيعية لا نعرف الأصل فيها، وهذه الجهات بعيدة بلا شك كل البعد عن مجموعتنا الشمسية، إذ لا علاقة هناك بين شدة هذه الأشعة وبين وضع الأرض بالنسبة للشمس، فأمريكا تلقي منها بقدر ما نلقاه في اللحظة ذاتها في رابعة النهار، ويبلغ طول موجتها واحداً على تريليون من المليمتر

وهكذا تمتد مجموعة التموجات فتشمل كلها مجموعة واحدة كهربائية كانت هذه التموجات أو ضوئية، ولا تشعر أجسامنا ولا تلمح عيوننا إلا جزءاً يسيراً منها، بينما

امتدت أجهزتنا وامتد ذكاء الإنسان للكشف عن هذه السلسة غير المحدودة من طرفي الإشعاع والأمواج، الأمواج الطويلة في طرف والقصيرة في الطرف الآخر
لقد طوح بنا الحديث في مراحل الإشعاع بعيداً عن مسائل كان في برنامجنا أن نذكرها للقارئ اليوم، ولكن الحديث ذاته يسوقنا إلى موضوعات أخرى، بعضها من صميم الخيال، وبعضها في أعماق الحقيقة، وعن هذه المسائل سيكون حديثنا القادم
محمد محمود غالي
دكتوراه الدولة في العلوم الطبيعية من السوربون
ليسانس العلوم التعليمية.
ليسانس العلوم الحرة.
دبلوم المهندسخانه
البريد الأدبي
جوائز (مصطفى كامل) المالية
1 - المباراة الأدبية:
لمناسبة إزاحة الستار عن تمثال المغفور له مصطفى كامل باشا تبرع حضرة الأستاذ محمد محمود جلال بك نائب بني مزار وعضو اللجنة الإدارية للحزب الوطني بمبلغ ثلاثين جنيهاً تعطي مكافأة لمن يحوز قصب السبق في مباراة أدبية موضوعها: (جهود مصطفى كامل في نواحي النشاط الإنشائي القومي ونجاحه في التعليم والاقتصاد والاجتماع وعلاقة ذلك بدعوته الوطنية)
وفيما يلي شروط المباراة:
1 - أن يكون المشترك شاباً مصرياً لا تزيد سنه على ثلاثين سنة
2 - ألا تزيد الكتابة في موضوع المباراة على عشرة صفحات من القطع الكبير
3 - أن تقدم الموضوعات إلى لجنة المباراة المؤلفة من حضرات: أنطوان الجميل بك، وعبد الرحمن الرافعي بك، والأستاذ فكري أباظة، والأستاذ محمود العمري، في مدة ثلاثة أشهر من اليوم إلى 14 أغسطس سنة 1940 وتعلن اللجنة أسم الفائز في المباراة بعد شهرين من الموعد المذكور
وقد أودع الأستاذ جلال بك قيمة الجائزة وقدرها ثلاثون جنيهاً لدى الأستاذ أنطوان الجميل بك بشيك على بنك مصر
2 - جائزة كلية الحقوق:
وخصص الأستاذ جلال أيضاً جائزة سنوية قيمتها عشرة جنيهات تسمى (جائزة مصطفى كامل) تمنح كل عام لأول ناجحي الليسانس في الدور الأول لكلية الحقوق، وهي الكلية التي بدأ بها الفقيد دراسته العليا. وأرسل إلى حضرة عميد الكلية خطاباً بذلك، وأرفق به صورة الاعتماد الذي خصصه ببنك مصر عن قيمة الجائزة وبموجبه يصرف المبلغ في شهر من
كل عام. فورد إليه كتاب شكر رقيق من حضرة العميد مع قبول هذه الجائزة الكريمة.
3 - جائزة كلية تولوز:
وتبرع أيضاً بمبلغ ألفي فرنك لأول الفائزين في العام الحالي بكلية الحقوق بتولوز، وهي الكلية التي أتم فيها الفقيد دراسته ونال منها شهادة الليسانس سنة 1894 وكتب بذلك خطاباً إلى وزير فرنسا المفوض في مصر وأرفق به قيمة الجائزة فتلقى كتاباً من سعادة الوزير المفوض بقبول الجائزة وشكره على هذه المبرة
افتتاح المعرض الرابع لرابطة الفنانين المصريين
افتتح معالي محمود فهمي النقراشي باشا وزير المعارف، في الساعة العاشرة والنصف من صباح الخميس الماضي، المعرض الرابع لرابطة الفنانين المصريين بحضور الأساتذة حسن فائق بك، ومحمد فهيم بك وأحمد شفيق زاهر بك وحسين فريد بك والمسيو جورج ريمون ومحمد حسن وسيد يوسف وأعضاء الرابطة
وقد أقيم هذا المعرض بالدور الأول من السراي الصغرى في أرض المعارض التابعة للجمعية الزراعية الملكية، وعرض فيه أعضاء الرابطة حوالي مائة لوحة فنية رائعة بين تصوير، وأعمال خزف، وتماثيل. وقد جمعت هذه اللوحات ألواناً شتى من الاتجاهات الفنية ومثلت في مجموعها فكرة الجمال كما عبرت عن المشاعر المألوفة في الحياة

المصرية. هذا وسيظل المعرض مفتوحاً حتى آخر هذا الشهر يومياً من العاشرة صباحاً إلى الواحدة بعد الظهر، ومن الرابعة إلى الثامنة مساء

جراحة الأسنان في المغرب

قرأت بمجلة الرسالة الغراء في العدد (350) نبأ اختراع جديد في طب الأسنان نشرته المجلة الطبية الأمريكية، وملخصه أن طبيب أسنان وفق بطريقة خاصة من اختراعه إلى إعادة الأسنان الفاسدة إلى افكاك مرضاه بعد خلعها وإصلاحها إلى آخر ما هناك وقد أسفت كل الأسف أن يسبق طبيب مغربي متواضع إلى مثل هذا الاختراع منذ نحو أربعين سنة ثم لا يجد من أمته ولا من غير أمته من ينوه باسمه، ويفتخر بعبقريته، وبديع خبره على أمم الشرق والغرب

حدثني الشيخ الجليل الثقة السيد عبد الكريم الدباغ قال: كان السيد عبد السلام الدرعاوي من الأطباء النطاسيين المهرة عندنا بفاس قبل عهد الحماية بسنين، وكان يشتغل بالتجارة ولا يتقاضى أجراً على التطبيب والتمريض كجميع أطباء المغرب، إذ كان عاراً أي عاراً أن يكون للمادة نصيب في مهنة الأطباء الذين يحتسبون أجورهم في سبيل الله. ومن ثم كان إخلاص الأطباء المغاربة في مهنتهم من أشد العوامل في تفوقهم ونجاحهم

قال محدثي: والطبيب عبد السلام الدرعاوي لم يدرس الطب في كلية باريس الطبية، وإنما أخذه عن أشياخ هذا العلم هنا. ومع بساطة الأعشاب والعقاقير التي كان يستعملها في أدويته كنت تجده في علاج كل داء كأحسن ما يكون الطبيب حين يكون اختصاصياً فيه

قلت: وما شواهد عبقرية هذا الطبيب في جراحة الأسنان مثلاً؟

قال: لقد سقطت بها على خبير، وحسبك من ذلك أن تسمع هذه القصة: كانت لي أخت فتاة سقطت صباح يوم من شرفة الجناح الأعلى إلى عرصة المنزل فانهشمت عظامها أو كادت، وانخلعت أسنانها وانتثرت، ولم يعد أحدنا يخطر له في بال أنها ستعيش ساعة أو ساعتين. وأسرعنا فأوصينا بصنع التابوت، ثم نادينا الطبيب عبد السلام لننظر رأيه في الفتاة المتردية، وبعد لحظات كان الطبيب قد أحضر أدويته، وجاء فجردها ودهنها بدهان من فوق إلى تحت، ثم أخذ كل سن من أسنانها فأعادها إلى التجويف (بطريقة خاصة من اختراعه) لم يحتج معها إلى جبيرة من الذهب قط. ثم وصف لنا طريقة تمريضها ووقايتها

ثم قال محدثي: واقسم لك يميناً صادقاً لقد عاد للفتاة كامل صحتها بعد أيام قلائل، أما أسنانها فيكفي أنها لا تزال حتى الآن صلبة متماسكة وقد أصبحت الفتاة أم فتيات.

ونريد أن نثبت هنا أن بعض ابتكارات الغرب إن هي إلا بعث جديد لنتاج عباقرة الشرق من غابر التاريخ. وأن بعضاً منها له أصول وأسس في تاريخ الشرق نعلمها حيناً ونجهلها أحياناً

فما عسانا نصنع بعد هذا وقد حكم الدهر الظلوم بأن تطمس معالمنا وتعفي مآثرنا بين ظلمات الجهل وغمرات الجمود؟

(فاس)

أدريس الكناني

للتحقيق

تردد كتب الأدب ومذكرات تاريخه قصة عن الشاعر الطائي أبي تمام، وخلاصتها أنه وقف ذات يوم يمدح الخليفة بقصيدة كان منها قوله:

إقدام عمرو في سماحة حاتم ... في حلم أحنف، في ذكاء إياس

فاعترض عليه أبو يوسف الكندي الفيلسوف وقال: الخليفة فوق من وصفت، وما زدت على أن شبهت الأمير بأجلاف العرب فأطرق أبو تمام ثم قال على البديهة:

لا تنكروا ضربي له من دونه ... مثلاً شروداً في الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره ... مثلاً من المشكاة والنبراس

فأعجب به الخليفة وقال لوزيره: أعطه ما يطلب، فإنه لا يعيش أكثر من أربعين يوماً، لأن الدم بدا في عينيه من حدة الفكر، ومن كان هذا حاله فهو لا يعيش أكثر من هذه المدة. فطلب أبو تمام الموصل فأعطيت له ولم ينقض عليه أربعون يوماً إلا ومات!

ذلك هو مجمل القصة، وقد اعتمدها كل المؤلفين في الأدب في عصرنا هذا، ولكني

وجدت صاحب الوفيات - الجزء الرابع ص29 طبعة الحلبي - يقول عنها ما نصه: (وهذه القصة لا صحة لها أصلاً)، وقال ابن خلكان أيضاً عنها: (وقد تتبعتها وحققت صورة ولايته - يعني أبا تمام - للموصل فلم أجد سوى أن الحسن بن وهب ولاه بريد الموصل. فأقام بها أقل من سنتين ثم مات بها. والذي يدل على أن القصة ليست صحيحة أن هذه القصيدة ليست في أحد من الخلفاء، بل مدح بها أحمد بن المعتصم وقيل أحمد بن المأمون، ولم يل واحد منهما الخلافة). المصدر السابق ص30، وغلط ابن خلكان أبا الفوارس المعروف بالحيص بيص وابن دحية، إذ رويا ما يجعل لهذه القصة نصيباً من الحقيقة! فما هي كلمة أدبائنا في هذا الموضوع؟

(البجلات)

أحمد جمعه الشرباصي

حول خواطر يثيرها سائل

سرتنا هذه المقالات التي يكتبها الأستاذ عبد المنعم خلاف ويوالي نشرها في مجلة الرسالة؛ إلا أنه قد استوقف نظري وأنا أقرأ مقاله الأخير قوله (إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع الغناء وشاهد الرقص وسمح به في المسجد)، وهذا القول على إطلاقه فيه شيء، إذ الظاهر من الغناء هو ما نعرفه وما نسمعه، وهذا لا يسمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يرضاه قط ولم يجز إلا الغناء العفيف في زفاف العروس (إن الأنصار فيهم غزل فلو بعثهم معها من يقول أتيناكم فحيانا وحياكم) وأذن في اللعب بالطبول، وغير ذلك في أيام العيد للصغار من الشبان والفتيات. مر عياض الأشعري بالأنبار في يوم عيد فقال: ما لي لا أراهم يقلسون، فإنه من السنة (التقليس أن يقعد الجواري والفتيات على أفواه الطرق يلعبون بالطبل وغير ذلك) وسمع الحداء بالشعر النبيل السامي (اللهم لولا أنت ما اهتدينا) وكان البراء بن مالك حسن الصوت وكان يرجز لرسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره، وكان عمر بن الخطاب إذا سمع الحادي قال: لا تعرض بذكر النساء. كما أن كلمة الرقص لا يفهم منها في هذا الزمن إلا ما يعرف في دور اللهو والحانات، وحاشا أن يشهد ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو يسمح به لأي إنسان في الخارج بله المسجد، وإنما الرقص الذي سمح به هو الرقص الحربي الذي كان من الأحباش حين قدموا المدينة. والرقص الحربي يعرفه العرب إلى الآن في بلاد الحجاز بسيوفهم وسلاحهم مما يشعل في النفس الحمية ويبث فيها الشجاعة، ولا أعرف الأستاذ عبد المنعم خلاف إلا يريد هذا

عبد الستار أحمد فراج

حادث عجيب! نداء إلى الأطباء العلماء

إلى كل طبيب يعتقد أن مهنته مهنة بحث وفحص وتضحية وإيثار، أسوق مأساة فتاة في ميعة الصبا وزهرة العمر. . . فتاة رزئت فجأة في جمالها وشبابها بنكبة (اللحية) الكثة والشارب الغزير. . . ويا ليت هذه النكبة قد اقتصرت على الوجه فحسب، فإن الشعر قد نبت في صدرها فشوه نعومته وأنوثته!!

كانت تظن أنها ستتحول كما تحولت غيرها، وكانت تعتقد أن هذا الشعر بداءة لهذه المرحلة، مرحلة التغيير والتبديل، فذهبت إلى بعض المشهورين المعروفين من الأطباء تعرض أمرها وتبسط شكوكها وتأمل أن تجد الشفاء العاجل أو الآجل مما هي فيه من هم واصب. فحار الطب ولم يصل إلى العلاج المنشود

فهل عند الأطباء تعليل لهذا الحادث الشاذ وعلاج له؟؟

محمد السيد المويلحي

جمع مشكاة

ورد في القرآن الكريم ذكر (المشكاة) وهي (الطاقة) أو (النافذة). وقد بحثت عن جمعها فلم أعثر عليه بعد مراجعة عدة معاجم وتفاسير فهل لكم أن تفيدونا بذلك.

(م. س)

(الرسالة): لم يرد السماع بمجمع مشكاة، فلم يبق إلا القياس وهو: مشاك أو مشكيات

جريدة الوفاق

دخلت زميلتنا (الوفاق) في عامها الثالث عشر من عمرها الطويل الحفل، وهي أقوى

ما تكون إيماناً بجهادها الموفق واطمئناناً إلى نجاحها المطرد. فنرجو لها دوام التوفيق واطراد التقدم حتى تبلغ الصحافة الإقليمية بها وبأمثالها الغاية المرجوة.

رسالة النقد

في ليالي الملاح التائه

للشاعرة الفلسطينية الآنسة (دنانير)

شعر صافٍ صفاء الجدول النمير تنعكس فيه صورة نفس الشاعر، فتحس إذ تقرؤه بروح صاحبه تتغلغل في كل لفظة من ألفاظه، وتشعر بدمه يسري في كل بيت من أبياته. فإذا أنت تقرأ نفساً حية تتمثل في قصيدة، وإذا الشاعر يسمو بروحك معه إلى دنيا شعرية علوية تفيض بالجمال والجلال حتى لتنسى ما يحيط بك، وقد ملأت قلبك تلك الأخيلة البديعة التي ملأت قلب الشاعر، وأثر فيك ذلك الإلهام الذي صدر عن حسه المرهف الرقيق. وهذا هو الشعر، متى كان القلب منبعه فالقلوب مصبه. وذلك هو شعر الأستاذ علي محمود في ديوانيه (الملاح التائه) و (ليالي الملاح التائه) وهذا الأخير هو موضوعنا الآن.

يهدي الشاعر شعره إلى الذين أطالوا التأمل في أسرار الكون، وأرهقهم التيه في مجاهل الحياة، وإلى العائدين بأنس أحلامهم إلى وحشة مضاجعهم بين اللهفة والحنين. وفي هذا الإهداء نستطيع أن نلمس تلك الروح النبيلة الهائمة وتلك النفس الرقيقة الشاعرة التي لا يفتر حنينها، نفس الأستاذ علي محمود طه.

أول ما يطالعك الديوان به هو تلك القصيدة التي شرق ذكرها وغرب. ومن منا لم يسمع بأغنية الجندول التي اوحتها إلى الشاعر زيارته لمدينة فينسيا أثناء احتفال الفينيسين بليالي الكرنفال؟ ولعل من اللغو أن أذكر هنا هذه القصيدة لشهرتها البعيدة وذيوع صيتها

اثر في نفس الشاعر طوافة في أقطار الغرب، ونحن نسمع صدى هذا التأثير يتردد في قصائده التي يصف فيها ما شاهده هناك، أو بالأحرى التي يصف فيها تأثير تلك المشاهد في نفسه الصافية وخياله الخصب. نقرأ مثلاً: (بحيرة كومو)، أو (الجندول) أو (خمرة نهر الرين)؛ فإذا روح الشاعر وحسه وقلبه كل أولئك مذاب في قصائده يظهرك على مدى تأثير ذلك الطواف فيه. يقول في قصيدة عنوانها (خمرة نهر الرين):

كنز أحلامك يا شا ... عر في هذا المكان
سحر أنغامك طوا ... ف بهاتيك المغاني
فجر أيامك رفا ... ف على هذى المجاني
أيها الشاعر، هذا الر ... ين فاصدح بالأغاني
كل حيّ وجماد هاهنا ... هاتف يدعو الحبيب المحسنا
يا أخا الروح دعا الشوق بنا ... اسقنا من خمرة الرين اسقنا

وكأني بالشاعر يرى كل تلك المفاتن تتصدى له بسحرها وجمالها فلا يسعه إلا أن يتساءل في هذه البيات كأنه لا يصدق عينيه فيما تريان:

عالم الفتنة يا شاعر ... أم دنيا الخيال
أمروج علقت بي ... ن سحاب وجبال
ضحكت بين قصور ... كأساطير الليالي

ثم ينثني، وقد رأى أن نهر الرين بجمال جناته وجلال قصوره إنما هو الجنة؛ فيهتف:

هذه الجنة فانظر ... أي سحر وجمال

ويحس أن الطبيعة قد أخذت بسحر تلك الليالي، كما أخذت نفسه، حتى أنصت الغاب، وأصغى النهر؛ ويرى بعين الشاعر التي ترى ما لا يراه الناس أن هذه الليلة الشعرية على ضفاف نهر الرين قد أسكرت الدجى، وجعلت النجوم بعض الندماء، فيقول:

ليلة فوق ضفاف الن ... هر حلم الشعراء
أليالي الشرق يا شا ... عر أم عرس السماء
الدجى سكران والأن ... جم بعض الندماء
أنصت الغاب وأصغي الن ... هر من صخر وماء
فاسمع الآن البشير المعلنا ... حانت الليلة، والفجر دنا
فاملأ الأقداح من هذا الجنى ... واسقنا من خمرة الرين اسقنا

ثم يقول لصديقته (فتاة برن) التي التقى بها في هذا الجو الشعري، فنذوق في قوله

حلاوة تلك اللحظات السحرية في النفس الشاعرة، ومرارة الأسى على ما فات:
يا ابنة الآر حديث ال ... أمس ما أعذب ذكره
كان حلماً أن نرى الر ... ين وأن نشرب خمره
وشربنا فسكرنا ... وأفقنا بعد سكره
ووقفنا لوداع ... وافترقنا بعد نظره
أين أنت الآن أم أين أنا ... ضربت أيدي الليالي بيننا
غير صوت طاف كالحلم بنا ... اسقنا من خمرة الرين اسقنا
أي حسرة وأي لهفة تجدها في هذا التساؤل الذي تكاد كل لفظة من ألفاظه تقطر بدمعة مذابة من قلب الشاعر الفياض بالحنين والشوق:
أين أنت الآن أم أين أنا؟ ... ضربت أيدي الليالي بيننا
نقرأ هذه القصيدة أو قصيدة (بحيرة كومو) أو (الجندول) فتتمثل في أخيلتنا مفاتن الغرب، وإن لم نرها، من مناظر الطبيعة إلى ليالي الأنس والبهجة، إلى مرح الشباب والصبى، ونحس بتأثير تلك المباهج في تلك الروح الرقيقة وذلك القلب الذي يهيم بحب الجمال أينما كان، في الماء والسماء، في القصور والرياض، في المرأة، سواء كانت سامية أو آرية أو غير هذه وتلك. فالشاعر موكل بالجمال يتبعه، يملأ عينيه ومشاعره وقلبه منه ليتغنى به في كل قصيدة من قصائده
هذا وتجيل الطرف في (ليالي الملاح التائه) هنا وهناك فتقرأ له مثلاً (سيراناد مصرية) أو قصيدته التي عنوانها (هي) أو (حلم ليلة) أو (إلى راقصة) وغير هذا مما في الديوان من الشعر الغزلي، فترى أن المرأة قد شغلت حيزاً كبيراً من قلب الشاعر وفكره وإحساسه فأوحت إليه بأرق الشعر، الحزين حيناً، الباسم حيناً آخر. فالمرأة قد أذاقت الملاح التائه أفانين من حلوها ومرها، وكل هذا يتجلى لنا في شعره الغزليّ
وهناك قصيدته في مصرع ربان حاملة الطائرات كوريجس التي أغرقتها غواصة ألمانية في أوائل الحرب الحالية. يسمع الشاعر بتلك النفس الكبيرة التي آثرت الموت على الحياة. يسمع بما كان من تضحية الكابتن ربان السفينة الغارقة إذ جاد بنفسه. والجواد بالنفس أقصى غاية الجود، فتوحي تلك البطولة النادرة إلى الشاعر بقصيدة من عيون الشعر يبدؤها بقوله مخاطباً الربان:
يا قاهر الموت كم للنفس أسرار ... ذل الحديد لها واستخذت النار
وأشفق البحر منها وهو طاغية ... عات على ضربات الصخر جبار
وكأني بالشاعر هنا يظهر الناس على ضعف الطبيعة مع جبروتها أمام عظمة النفس الإنسانية، تلك العظمة التي تتجلى في تضحيتها وعاطفتها. . . ثم يقول معرضاً بالغواصة
التي أغرقت السفينة:
رماك في جنبات اليم محترب ... خافي المقاتل عند الروع فرار
نرصدتك مراميه ولو وقعت ... عليه عيناك لم تنقذه أقدار
يدب في مسبح الحيتان منسرباً ... والغور داج وصدر البحر موّار
كدودة الأرض نور الشمس يقتلها ... وكم بها قُتلت في الروض أزهار
وفي هذا البيت الأخير تشبيه بلغ منتهى الجمال والروعة، لم نسمع بمثله قبل الشاعر علي محمود طه
ويذهب الشاعر في فنون القول كل مذهب، واصفاً ذلك الموقف النبيل الرائع، حيث يلقي الربان بقبعته إلى البحر إجلالاً للموت. كل هذا في أبيات تفيض بالشاعرية التي تسري في دم الشاعر إلى أن يقول:
يا عاشق البحر حدث عن مفاتنه ... كم في لياليه للعشاق أسمار
ما ليلة الصيف فيه ما روايتها ... فالصيف خمر وألحان وأشعار
إذا النسائم من آفاقه انحدرت ... وصّو أت من كوى الظلماء أنوار
وأقبلت عاريات من غلائلها ... عرائس من بنات الجن أبكار
شغل الربابنة السارين من قدمٍ ... تجلى بهن عشيات وأسحار
يترعن كأسك من خمر معتقة ... البحر كهف لها والدهر خمار
وأنت عنهن مشغول بجارية ... كأن أجراسها في الأذن قيثار
انظر إلى هذه التورية المحببة في ذكره الجارية:

صوت الحبيبة قد فاضت خوالجها ... ورنحتها من الأشواق أسفار
وبعد هذا يأتي الملاح التائه بأجمل وأعجب ما يوحيه الخيال الخصب إلى شاعر. فيخرج عما ألف الشعراء أن يقولوه من استمطار الرحمة على الميت أو ما مثل ذلك ويطلع علينا بقوله:
نزلتما البحر قبراً حين ضمكما ... رفت عليه من المرجان أشجار
تالله، لا يقرأ المرء هذا دون أن يقف عنده متأملاً مأخوذ اللب بسحر هذا الخيال الشعري. رفت عليه من المرجان أشجار
ونقرأ له قصيدة في موسيقية عمياء، وإذا بالشاعر، دأبه في نظمه، قد ذوب نفسه وحسه في قصيدته الجميلة، متألماً لتلك الصبية، أو الزهرة التي زواها الدهر لم تسعد من الإشراق باللمح فيقول لها مثلاً:
إليك الكون فاشتفى ... جمال الكون باللمس
خذي الأزهار في كفي ... ك فالأشواك في نفسي
ويمضي الشاعر في القصيدة على أروع ما يوحي به الشعور بالألم، إلى أن يقول لها:
عرفت الحب يا حوا ... ء أم ما زال مجهولاً
ألمَّا تحملي قلباً ... على الأشواق مجبولاً
صفيه، صفيه فرحاناً ... ومحزوناً ومخبولاً
وكيف أحسَّ باللوع ... ة عند النظرة الأولى
ومن آدمك المحبو ... ب أو ما صورة الصب
لقد ألهمت والإلهام ... يا حواء في القلب
هو القلب هو الحب ... وما الدنيا لدى الحب
سوى المكشوفة الأسر ... ار والمهتوكة الحجب
هذا وليس في وسعي الآن أن أحيط بكل ما في ديوان الشاعر من قصائد متنوعة الموضوعات. ولكنك أن أجلت طرفك في ليالي الملاح التائه وجدت الشعر بكل ما تضمنته هذه الكلمة من معنى. تقرأ القصيدة فترى القوة تسندها من أي ناحية جئتها، وترى الرقة تبلغ نهايتها حتى تشف عن تلك النفس الهائمة في عوالم الجمال والشعر والخيال. وترى الخواطر والمعاني الدقيقة وقد صبغها الشاعر بصبغة من فنه الرفيع وعبر عنها بأسلوبه الشعر الخاص، حتى لتكاد اللفظة الواحدة بحلاوة جرسها وسحر وقعها في النفس تقول لك: أنا لست كلمة من الكلمات ولكنني نغمة من الأنغام. حتى إذا روّيت نفسك من هذه الشاعرية المتدفقة بأروع الشعر وارقه رفعت عينيك الفياضتين بالنشوة وقد آمنت معي بأن الطبيعة التي قالت للشاعر الفرنسي لامرتين (سر في طرقك، ما أنبه شأنك، إنه رآك) تعود اليوم فتقول مثلا هذا للشاعر العربي المصري علي محمود طه
(دنانير)
القصص
من آداب الصين الحديثة
قصة الراعي المحزنة
للكاتب الصيني قوموجو
- 1 -
استقدمتني إلى كوريا من وراء البحار على بعد آلاف الأميال، واستقبلتني تلك الأرواح العلية لجبال كُنج كنج الشامخة الكثيرة القمم، فلما وصلت إلى كوريا نزلت في قرية صغيرة على سفح كنج كنج مشرفة على البحر الياباني اسمها (حي الأرواح والأولياء)
وكان في القرية بضعة عشر كوخا مواجهة للبحر متكئة على الجبل، ليست قديمة متهدمة ولا حديثة مزدانة، وكان أمام كل بيت بستان جميل تتسلق على جدرانه الفروع ذات الأزهار الناضرة لزكية، وتبدو من بين المنازل والحدائق أشجار عالية، وكانت تحوط القرية غابات كثيفة من الصنوبر؛ وثمة أراض قليلة على مقربة من القرية كانت مفروشة ببساط من شجيرات القمح والشعير، وكان يجري في خلال الغابة الواقعة في الجنوب الغربي من القرية نهر يسمى نهر الغناء، يتجمع من السيول المنحدرة من قمم كنج كنج وله صوت حزين غاضب وهو يسير صوب البحر الياباني
ارتاب أهل القرية في أمري حينما بلغتها وظنوا أنني صيني مزيف فلم يرضوا أن أنزل

عندهم. غير أن سيدة كريمة في أقصى القرية أشفقت عليَّ بعدما سمعت كلامي وعرفت قصدي وأنني بعيد عن أهلي وأقاربي فأذنت لي بالنزول عندها، وآنست وحشتي بكلمات وجدت لها برد الراحة بعد التعب الذي لقيت في سفري الطويل الشاق. وكانت السيدة بوذية تعيش في وحدة تصوم وتصلي وقد جاوزت الخمسين من عمرها، وكان على الباب شعر منثور مكتوب على ورق أبيض؛ كما هي عادة الكوريين؛ فلما دخلت الباب وجدت فضاء مسوراً مزيناً ببعض الأشجار والأزهار ومنزلاً مكوناً من ردهة واسعة على جانبيها حجرتان، وللردهة باب جانبي ينفذ إلى المزارع التي خلف المنزل والتي تظهر لمن يراها كأنها متصلة بجبل كنج كنج، وكانت في وسط الردهة منضدة عالية عليها تمثال بوذا من الحجر الثمين. ودعتني السيدة الكريمة إلى النزول في الغرفة اليمنى، ولم يكن بها إلا سرير ونافذة مملوءة بالغبار كأن لم يسكنها أحد من زمن بعيد

مر بي أسبوع مرور الطيف وأنا في بيت هذه السيدة الكريمة، وكنت أخرج كل يوم للنزهة في الجبال وزيارة الآثار الشهيرة من الصباح إلى المساء لا تعوقني الشمس ولا المطر ووطئت جميع القمم إلا قمة واحدة، وقد انطبعت في ذهني جميع المناظر الجبلية الجميلة الجذابة لا تفارقني لحظة فإذا أغمضت عيني برزت لخيالي كما تبرز الصور على الشاشة الفضية. على أني لم أكن أملك من قوة الكتابة أو التصوير ما يسمح لي أن أصف هذه المناظر الخلابة أو أصفها واحدة واحدة فأهدي صورها لجميع إخواني وأصدقائي كي يتمتعوا بمشاهدتها

- 2 -

جلست على حافة بئر عميق على القمة الأخيرة ناظراً إلى الجبال التي تسبح في السحاب والدخان على ضوء الشمس التي آذنت بالزوال، فرأيتها شامخة ساكنة كشيخ ورع يحيط به عالم متحرك فانبعثت عاطفتي بتلك المناظر الجميلة سابحة كالطير في الجو متمتعة بالطبيعة، سكرى بما اشتملت عليه من الجمال، وإذا غناء حزين من فتاة في سفح الجبل قد انبعث إلي بين هبات الرياح ونفحات الرياحين فأيقظني، فأصغيت إليه فإذا هو:

تستقبلني الشمس حينما أطلع،
وهي تشيعني حينما أنزل،
للشمس بعد الغروب موعدٌ للطلوع
لكن الراعي ليس له وقت للرجوع.
ثغاء الغنم،
صوتٌ حزين فزع!
إنها تشتاق إليك، ألا تعرف أيها الراعي؟!

انقطع الغناء وثغت صغار الغنم بأصوات حزينة وقد اختلطت بأصوات الأجراس الضئيلة التي لا تكاد تسمع

إن الأجراس في رقاب الغنم
معلقة كلها بيديك الكريمتين؛
لكن الحبل الذي يمسكها يكاد ينقطع وتوشك أن تقع،
والذي علقها قد ذهب وليس له وقت للرجوع.
ثغاء الغنم،
صوت حزين فزع!
إنها تشتاق إليك، ألا تعرف أيها الراعي؟!

أخذ الغناء يبتعد شيئاً فشيئاً ويتضاءل صوته في مسمعي، ولكن تأثيره في نفسي كان عجيباً يبعث في العين الدموع

لست بمعدومة المقص،
أقص به صوف الغنم؛
ولكن عليه أثر مقصك المحبوب،
إذا ذهب ذهبتْ روحي وحياتي!
لست بمعدومة الرباط،
أربط به جرساً في رقاب الغنم؛

ولكن أنتظر وقت انقطاعه،
فأذهب إلى جانب المحبوب!
فلما سمعت هذا الغناء انحدرت دموعي من غير أن اشعر، ثم وقفت على قمة الجبل تحت شجرة الصنوبر ونظرت إلى السفح فإذا قطيع من الغنم لا يزيد على بضع عشرة غنيمة ترعاه فتاة صغيرة وتسير به في ضوء الشمس الغاربة ذاهبة على مهل نحو المدينة؛ وكان على رأس الفتاة لفاع أخضر يفيض على يديها، ويبدو تحته لباس آخر أحمر؛ وفي رجليها حذاء من النسيج وهي تسير بقطيعها مغنية منشدة مبتعدة عني شيئاً فشيئاً:
غنمي، غنمي!
لا تخافي ولا تحزني!
إنه لا يجترئ حيوان مفترس أن يقترب منك ما دامت موجودة معك.
فإن جاء،
قاتلناه حتى نموت فيفعل بنا بعدُ ما يشاء.
غنمي، غنمي!
ارجعي إلى البيت معي!
وخفت الصوت حتى تلاشى، وغربت الشمس، واحتجبت الفتاة عن عيني وراء الجبل، وكنت غريقاً في نهر من الدموع. ولبثت واقفاً تحت الشجرة مدة لا أعرف قدرها، والجبال كأنها نائمة، وقد تلألأت النجوم في السماء وبرز الهلال من شرقي البحر

- 3 -

ألا تعرف أنها ابنة السيد مين الشريف، أيها الضيف الكريم؟
جلست مع مضيفتي الكريمة خارج الردهة نتجاذب الأحاديث وقصصت عليها ما رأيته في النهار فأخبرتني باسم تلك الراعية الصغيرة
- إن كانت شريفة من بيت شريف فلماذا ترعى الغنم بنفسها هنالك؟
يظهر أن سؤالي هذا حرك في قلب السيدة الكريمة شيئاً كامناً فصمتت برهة وهي تحدق في القمر في وسط السماء ونظرت إليها فإذا عيناها مغروقتان بالدمع، فندمت على ذلك السؤال الذي ضاقت به مضيفتي، وذهب بي الفكر مذاهبه. ثم تحولت إليَّ مضيفتي الكريمة وقد جفت دموعها وقالت:
- كان في نفسي ألا أذكر شيئاً من ذلك الماضي الأليم المحزن، لكنني لا أطيق أن أكتم عنك. غير أن الحديث طويل متشعب فلا أدري من أين ابتدئه؟ وأردفت:
- لم تولد هذه الفتاة الشريفة هنا، في هذه القرية، لقد كانت تسكن في الشارع الرئيس في العاصمة منذ عشر سنوات، وكأن أبوها وزيراً في الحكومة، ثم ترك الوزارة وغادر العاصمة هو وأسرته ليقيموا هنا؛ وإنما كان ذلك حين عرف أن بعض الخونة في الحكومة اتفقوا مع دولة أجنبية ذات مطامع، ولم يسمع الملك شكواه ولم يجبه إلى ما طلب من إعدام هؤلاء الخونة ليصون استقلال البلاد وسيادتها ويوطد سلامتها وحريتها
وكانت زوجته الأولى قد ماتت منذ ست عشرة سنة، ولم يرزق من زوجته الثانية ولداً ولا بنتاً، وكانت الفتاة في الخامسة من عمرها حين ماتت أمها، وكان أبوها يحبها حباً جمَّاً، فعهد إليَّ أن أقوم بخدمتها، وذلك عمل نتوارثه في أسرتنا من زمان في خدمة تلك الأسرة،
. . . وكان زوجي شيخو خادماً له أيضاً، وكان لنا ولد
استمرت السيدة في الحديث وقد شاب صوتها رنة حزن، والبكاء يغالبها: وكان ابني اسمه يين وهو الاسم الذي سماه به سيدنا أبو الفتاة وكان يحبه كثيراً ويناديه دائماً (يا بني يين)، وكان أكبر من الفتاة بسنة واحدة فكانت تدعوه أخاها الأكبر، وكان أبني يتجاوز فيدعوها أخته الصغيرة أيضاً، وكان كلاهما يحب الآخر كأنهما أخوان شقيقان
وكانت زوجته الثانية السيدة لي من الأسرة الشريفة أيضاً، وقد درست في اليابان وهي صغيرة، ثم سافرت إلى نيويورك ولندن وباريس وفينا بعد تخرجها في اليابان فقضت أكثر أيامها في الخارج. ولما رجعت إلى البلاد وهي في الثانية والعشرين من عمرها، طلبت أسرتها إلى السيد مين وقد مرت على وفاة زوجته الأولى ثلاث سنوات أن يتزوجها. وكانت ذات شخصية بارزة في العاصمة، معروفة في المجتمع باسم الفتاة

الحديثة. تصور أيها الضيف الكريم كيف يمكن سيدة متعلمة لطيفة نشيطة حديثة العهد بالزواج مثل هذه السيدة أن تحيا هنا هذه الحياة القروية الخشنة؟!

أنتقل السيد مين إلى هنا، ونزل في معبد في تلك المدينة، واعتكف فيه لا يهتم بالشؤون السياسية والاجتماعية، وامرني أنا وزوجي أن نسكن هنا في القرية لضيق المعبد، واستبقى ابني يين معه حيث يقيم، واشترى له قطيعاً من الغنم يرعاه، وكان ابني في الثانية عشرة من عمره يرعى الغنم بين الجبال في الأيام التي لا تمطر فيها السماء، وفي بعض الأحيان كانت تصحبه الفتاة، وكثيراً ما كان يضلان، فنخرج للبحث عنهما حتى نجدهما في سلام وسرور.

أذكر أنهما مرة لم يرجعا إلى المعبد حتى منتصف الليل، وظن السيد مين أنهما في منزلنا، فبعث إلينا يستفسر عنهما، فجزعنا وخفنا أن يكون قد أصابهما شر وأسرعنا نبحث عنهما هنا وهناك، فلما وصلنا إلى جبل كنج كنج البحري رأينا القطيع على بعد نائماً على الشاطئ، وقد اتكأ ولدي على صخرة كبيرة، ونامت الفتاة متكئة على كتفه وقد استغرقا في نوم عميق، وكانت الليلة مقمرة، كهذه الليلة، والقمر ينشر ضوءه على الأرض والبحر تتجاوب أمواجه، فكانا في مهد الطبيعة الكبير. إنني لن أنسى ما حييت تلك المناظر الجميلة التي رايتها ليلتئذ

وكان ابني يين يعالج بعض التمرينات الرياضية في المعبد مع الرهبان في الأيام الممطرة، فلا يخرج ليرعى الغنم، وكان يقرأ ويكتب مع الفتاة عند أبيها كل ليلة. وهكذا مرت أربع سنوات ولم يحدث شيء. وبلغ ابني ست عشرة سنة من العمر، وبلغت الفتاة خمس عشرة، وكان السيد مين يقول دائماً: سأذهب بهما إلى المدينة لتزداد معلوماتهما. . . أواه! أن إرادة الله فوق إرادة الإنسان، فقد حدث في تلك السنة. . . . . .

وأمسكت السيدة وأخذت تبكي بكاء مراً شعرت معه برجفة وتوقعت أن نكبة شديدة قد أصابت هذه الأسرة، وكان القمر في تلك اللحظة محجوباً بسحاب كثيف فزادنا ذلك شعوراً بالحزن والكآبة ولم أجرؤ على السؤال عما حدث، وانتظرت حتى عادت السيدة إلى نفسها وقالت والدموع في عينيها:

(. . .!فقد قتله أبوه. . . قتله أبوه في تلك السنة)

ثم عادت السيدة إلى البكاء، فلم يلبث أن وقع حزنها في قلبي وملكني ألم شديد، وكنت أود أن أجد كلاماً أعزيها به فلم يطاوعني لساني فوقفت وقدمت إليها فنجانا من الشاي فأخذته وجرعت منه جرعات ثم قالت:

(القصة طويلة جداً فلآت بكتاب أبني الأخير تقرؤه، ثم أخبرك بالخاتمة)

- 4 -

كان قد مضى من الليل نصفه والجو بارد، فدخلنا الغرفة وجلسنا على الأرض الخشبية كما هي عادة الكوريين، وجاءتني السيدة بكتاب ابنها فأخذت أقرأه تحت ضوء المصباح الضعيف:

أمي المحبوبة:

لقد عثرت برسالة كانت بجانب الحظيرة عندما رجعت من المرعى. يظهر أن هذه الرسالة كانت سقطت من أبي، وأخذت أقرؤها لأنها كانت مفتوحة، أواه! أمي! ليتني لم أقرؤها فقد جزعت عندما قرأتها وطار لبي!

لقد عزمت على أن أنقذ سيدنا وأختي وأبي، لأني لا أريد أن يرتكب أبي تلك الجريمة الشائعة فيصير مذنباً عظيماً، وأظنه الآن في المعبد فإني لم أجده بعد البحث الطويل. أمي! إني أعتقد أن هذا السر إذا شاع فإنه سيكون له شأن. إنه أمر لا يهم أبي وحده لذلك

سأمضي لأبحث عنه في الليل وأراقبه، وسأحاول أن أمنعه عن ارتكاب ذلك الجرم العظيم وأقنعه أن ذلك عمل سيئ

أمي المحبوبة:

إن خذلني الحظ وقدَّر لي أن أموت فلا تحزني، فإنه خير لرجل أن يموت حراً من أن يبيع حريته وبلاده للأجانب. . . ولقد ضاق الوقت فلا يسعني أن أكتب أكثر من هذا. فإذا قرأت الرسالة السرية التي عثرت عليها فأحرقيها قبل أن يراها أحد وإذا حمَّ القضاء فيّ فأرجو أن تقدمي نسختين من يومياتي المحفوظة في الدرج إلى أختي المحبوبة!

ولدك (يين)
الرسالة السرية
شيخو. . .
تعال إلى المعبد هذه الليلة وسأساعدك على دخول الحجرة، فإذا أمكننا أن نبطش بهم جميعاً كان خيراً. خذ هذه الورقة التي فيها شِعره الثائر المثير، واذهب بها إلى المعسكر، واعترف بما فعلت، فسيكون في ذلك نجاتك ورقيك! أحذر ولا تنس!
(في 16 يونية)
السيدة (لي)
الشمس
من نظم السيد (مين)
ما أحمى الشمس النارية! ... قد أحرقت زرع أراضينا الخصبة
جف التراب ومات الزرع ... فافتخرت الشمس النارية
ليتني أجد سهم يي ... فأرميك به حتى تسقطي في أعماق البحار
وليتني أجد سيف يان ... فاقطعك به حتى تموتي وراء الجبال
لكن السهم والسيف ليسا معي ... وإنما أذرف الدم من عيني دموعاً على الجبال
ما أطول النهار! فمتى يحين الليل؟ ... ومتى الهدوء والنهاية؟
انتظرتني السيدة الكريمة حتى أتممت قراءتها كتاباً كتاباً ثم قالت لي بصوت هادئ حزين:
- لعلك قد عرفت القصة بوضوح أيها الضيف الكريم؛ فقد مات أبني الوحيد في تلك الليلة المشئومة، ليلة 16 يونية. وقد جاءنا في ظهر اليوم التالي راهب صغير وقدم لزوجي رسالة، فخرج من فوره، وكنت أظن سيدنا استدعاه لأمر مهم فإذا به يعود بعد منتصف الليل متعباً سكران، ثم لم يلبث أن جاء طارق يطرق بابنا، فلما فتحته وجدت اثنين من الرهبان فصاحا قائلين:
- واحزنا أيتها السيدة الكريمة! لقد قتل ابنك الكريم!
فلما سمعت كلمتهما أخذتني رعدة شديدة. وخرج زوجي فجأة من الغرفة كأنه قد سمع ما أخبراني به، وصاح قائلاً:
- أواه! لقد غلطت في القتل! لقد غلطت في القتل! ثم خرج من الباب مسرعاً!
وذهبت إلى المعبد عَدْواً، فلما دخلت الحجرة التي ينام فيها ولدي، وجدت على مكتبه رسالة مكتوباً فيها: (إلى أمي المحبوبة من ولدها يين). فأخذتها ووضعتها في جيبي، وأسرعت إلى المكان الذي يزدحم فيه الناس حول القتيل، فرأيت ابني يين مخضباً وجهه بالدماء وقد سكن قلبه وبرد حسه، فسقطت على الأرض مغشياً عليَّ
ولما افقت من الإغماء وجدت السماء صافية والشمس ساطعة، ظننت أني كنت في حلم مخيف، وحدقت فيما حولي فوجدتني نائمة في حجرة الفتاة الصغيرة، ووجدتها ساكتة بجانبي؛ ولما رأتني قد أفقت أحنت جسمها وأخذت تعزيني، فازداد بذلك حزني وبكائي، وبكت الفتاة معي
وبعد قليل دخل السيد مين وزوجته السيدة لي وقال لي السيد: (يجب أن ندفن ولدنا يين؛ فلماذا لم يظهر أبوه إلى الآن؟)
لما سمعت ذلك عرفت أن زوجي لم يجئ إلى المعبد قط، ثم تذكرت الكتاب الذي تركه ابني على مكتبه فطلبت من الفتاة أن تخرجه من جيبي وتقدمه إلى والدها ليقرأه؛ فما كاد يتناوله حتى سقط من يده كتاب آخر، هو الكتاب السري الذي كتبته السيدة لي إلى زوجي، فلما رأته السيدة لي خرجت مسرعة وأخذ السيد يقرأ كتاب ابني، وخرجت الفتاة الصغيرة فقدرت أنها ذهبت لتأخذ اليوميات من درج المكتب.
وقرأ السيد الكتاب السري فازداد غضباً على غضب وسكت برهة ثم انفجر باكياً وصاح يقول: (ولدي يين، ولدي يين! لقد كنت أرجو أن أراك رجلاً حتى تجاهد في سبيل وطنك، لكنك قد مت من أجلي وأجل فتاتي آه! آه! أين أجد بعدك لذة الحياة؟. . .!
ودخلت الفتاة الصغيرة مسرعة وهي تقول في ذعر: إن السيدة لي قد أزهقت نفسها وانتحرت في غرفة يين. . .
خَفَتَ ضوء المصباح لقلة الزيت، فقامت السيدة الكريمة فغمرته بالزيت ثم رجعت

لتتم حديثها:
قبر ابني يين، والسيدة لي، كلاهما في المعبد، وقد قضيت أسبوعاً هناك مريضة. ولم أسمع خبراً عن زوجي منذ تلك الليلة فلا أدري أهو حي أم ميت! وكنت أود أن أبقى في المعبد بعد ذهاب زوجي وأخدم السيد مين وفتاته، لكنه رفض وترهب، وبقيت الفتاة وحدها تخدم والدها وترعى الغنم التي كان يرعاها أبني من قبل. . . ذلك سبب ما سألتني يا بني. . .
أليست فتاة مسكينة أيها الضيف الكريم؟ وكثيراً ما تلقاني فتقول لي: إن الغنم بعد ما فارقها راعيها امتنعت عن الأكل وقد نفق أكثرها هزالاً، وكلما مات واحد منها بكته الفتاة بكاء شديداً وأقامت له قبراً بجانب قبر ابني؛ فلذلك لا أظن ابني يين يشعر بالوحشة والانفراد، ولن يشعر بهما أبداً!
- 5 -
أمسيت أتقلب على السرير بعد ما سمعت قصة السيدة مضيفتي فلم أنم إلا بعد ساعات. ولما أغمضت عيني رأيت كأني قد ذهبت إلى ذلك المعبد الرهيب، ورأيت ذلك القبر المكتوب على حجره (قبر الفتى يين) ورأيت حوله قبور الغنم ورأيت أيضاً تلك الفتاة التي رايتها في النهار فوق الجبال جاثية أمام القبر تدعو لصاحبه
ثم لم يلبث أن تحول منظر القبور إلى مسرح جميل في وسطه فتى وفتاة عاريان يرقصان ويغنيان وحولهما قطيع من الغنم واقف وقفة الناس يرقص معهما ويغني، وثمة كثير من الأسد والنمور وصنوف من الحيوان. . . وفجأة أبصرت إنساناً يدنو، وفي يده سيف قاطع، يهم أن يقتل به الفتى فأخذت عليه الطريق فأهوى علي ثم استيقظت، ولما هدأت نفسي وزال اضطرابي جلست في فراشي أترقب مطلع الصبح حتى أستعد للسفر؛ فما لي طاقةٌ بعدُ على البقاء في هذا المكان!
المترجم أبو بكر هوغانجين
عنان
للأستاذ مراد الكرداني
كن أربع غيد عذارى فاتنات ناعمات يتحدثن ويسمرن في مجلس خامستهن، وقد جئن يهنئها بخطبتها وكن أخص صواحبها
قالت حورية - وهي غرة صغيرة، خفيفة الظل - تخاطب العروس: فعلِتها يا عنان؟ فابتسمت عنان بفمها وعينيها ابتسامة أشرق بهاؤها وقالت في حياء وفرح: العقبى لكن جميعاً
فاندفعت ثريا - وهي ضاحكة تحب عنان وتؤثرها - تقول وتضحك: تلك حال الدنيا يا عنان. . . وكلنا لها، فضحكن جميعاً ضحكاً حلواً مُرِنًّا كالغنم الأغن. فإجابتها عنان:
- هذا عزاء يقال للمسكين الذي يبتليه الله بك يا خرقاء. . . ثم لما صفا المجلس من هَذَر ثريا ومجونها أقبلن على عنان ورجونها في شغف أن تحدثهن كيف أتم الله نعمته عليها. فبدأت تقص عليهن وقلبها يقفز من الفرح، فتسَّاقط الألفاظ من فمها الصغير مبتورة ضائعاً نصفها في شهقة خفيفة ما كانت تقوى أن تخفيها من فرط ما تحس به من سرور وفرح. . . ولم تفت حالها ثريا فقالت: ما هذا يا عنان؟! اثبتي لو رآك خطيبك لطمع فيك ولا استثمر لنفسه تلك الفرحة التي تفيض من عينيك فَذَلِّكِ وخضَّعك. . . أنت فرحة أكثر من اللازم كل جارحة فيك تهتز حتى كلامك يخرج مهتزاً مدغوماً. . . انظرن قلبها كيف يرقص من خلال عينيها، ووجهها كيف يضحك كله كأن قد انتخبت نائبة في مجلس النواب أو سفيرة لبلادها!! خفضي عليك يا عنان فهو رجل. . . رجل لا أقل ولا أكثر. . .
فقالت عنان في نشوة ظاهرة وإيمان صادق:
- اسكتي يا مجنونة اسكتي. . . حين ذهب عنكن الرجل، وحين تبيَّنْتن أنه جاد ولن يرجع، رُحْتن تنشدن السلوى عنه في السفارة والنيابة. . . والله لو أنا أبوك لبحثت أنت عنه في النواب ثم خرجت به. ما كان أجمل أن يبحث هو عنك. . . أما أنا فلقد ظفرت برجل يا ثريا
فناصرت هدى - وكانت قد عنَّست - رأي عنان
-. . . في زمن عز فيه الرجال يا ثريا

وكانت حورية قد تركتهن يصطخبن كما يحلو لهن، وأعملت أسنانها في الطبق المثقل باللذيذ من الحلوى، حتى إذا أتت عليه رفعت رأسها وقالت لعنان، ولا تزال تمضغ وتتمطق:

- أوَ يكون في ليلة العرس عشاء؟ لعله عشاء كامل مسمن، لا أن ندور لنلْتقم من كل صنف لقمة، كأنما جئنا لنتسلّف أو لنتقصى أنواع الطعام!

فالتفتت لها ثريا ودارتْ عينُها لما رأت الطبق فارغاً، ثم نهضتْ فضربتها وجعلت تدسُّ لها الطبق فارغاً في فيها تريدُها أن تمضغه هو الآخر. فانفجرن جميعاً ضاحكات، ونهضتْ عنانُ فعوضتهن وأجزلت

قالت هدى لعنان وكانت أشغَفهن بسماع الحديث:

- حدثينا كيف ظفرت برجلك ولا تلْتفتي للمجنونة ولا للمنهومة. . .

فقالت عنان:

- والله إن الأمر يا هدى عجبٌ من العجب، لعله لا يصدق أو لعله هَيِّن نادر، ولكنه وقع لي على أي حال. . . كان جالساً بجواري في مركبة عامة لا أعرفه ولا يعرفني، فَلَفَتَ فيَّ فقبَّلني في زحمة الناس وعلى عيونهم! ثم تبعني لما نزلت. . ثم جاء فخطبني!

فشُدْهن كلهن، وشاع فيهن حنين خفيف، وثارت فيهن أنوثتهن المحرومة والمنتظرة. . . فأصْغَين إليها وأقبلن عليها وهي تفصَّل ما أجملت:

- كنت أترقب السيارة الصاعدة إلى (مصر الجديدة) وكانت الزَّحمة بالغة، وتدافع الناس على باب الدرجة الأولى. فهداني ربي أن أدلف إليها عن طريق الدرجة الثانية، ولكني - وقد استويت راكبة - عجزت أن أبلغها، فوقفت أهتز وأتدافع وسط الرجال. فتضاغط الجالسون إلى يساري ووسعِوني، فجلستُ خامسة في مقعد يسع أربعة وكان هو إلى يساري يتأملني ويختلسني بأطراف عينيه. أفجأه فيغض، ثم يعود فأعود. . ولما شعرتُ بدقَّ قلبه. إذ كان جسمه لصق جسمي تركته فلم ألفِتْ فيه. . . ثم بدا له أن يرسل عينيه في الطريق من ناحيتي في نفس اللحظة التي بدا لي فيها أن أرسل عيني أنا الأخرى من ناحيته. فَرَفَّ شفتي بشفتيه! وتلاقت عينانا في نظرة داهشة ثم عاتبة وغاضبة. وكانت قبلة ضاعت حلاوتها في حَرةَّ الخجل التي تنفَّثَتْ فيَّ فأطرقت مضطربة محمومة

لم أدر ما حدث بعد ذلك ولكنه خبرَّني. قال وهو يعيد الذكرى على سمعي:

لم أستطع أن أواجه أعين الناس. وحنقت على نفسي أشد الحنق، وأحسست أن الدم قد تصعد وف. . . .

وأمسكت عنان عن حديثها بغتة لأنهن لفتن نحو الباب ففوجئن - ما عدا عنان - برجل يقتحم عليهن فألفينه شاباً موفور الشباب رائع الرجولة، فجأت رجولته أنوثتهن فتمنَّيْنَه، وثار عليهن نقصهن فغبطن عنان التي وجدت كمالها

ونهضت تقدمه لهن وتقدمهن له، فرحب وهو يبتسم ويجلس جنب عنان جلسة يزحمها بها، كأنما يعاود على فؤاد منها ذكرى اللقاء الأول والقبلة الأولى. فتضاحكن من ظرفه ومن جِلسته ثم اندفع هو مستطرداً كأنه الذي كان يتحدث:

- لقد حنقت على نفسي وأحسست الدم. . .

فشرعت فيه عنان عينيها، فغضَّ، فقال:

- من غير إذن. . ! ثم من أدراك أنهن يسمعن لك؟

فقال: من التوفيق وحسن الحظ أنني أقبلت حين بدأ الحديث يكون عني، أعني في شأني، فأنت التي يجب أن تنأذني، لأن الذي حنق هو أنا، ودمي أنا - لا دمك أنت - هو الذي تصعد في وجهي وفي قنة رأسي فجعل يخزني كأن إبراً تتوالى على صفحة وجهي وفي هامتي، فجعلت أتحسس مواضع الوخز وأنا مطرق لا أجسر أن أرفع، ولكني عدت فاختلستها - وهي مطرقة مثلي - فرأيت الوجه الجميل قد تورد كله. ثم تجمع ورده وزكا في الخدين فوهجا وأضاءا. فسلبتني روعة حياءها قسوة حيائي. فلم أعد أحفل بالناس، إذ لم يعد في وسع عيني ولا في أقطار نفسي سواها

ثم تكشفت على فؤادي من عينيها - لحظة شرعتهما فيَّ - فتنة جديدة أشد وأروع كانتا مسبلتين فنجلتهما في، فكأنما - والله - سلت الأهدات الطّوال المشرَعة في كبدي فسيَّلتها!

لم أستطع أن أحتمل أكثر من ذلك. فهامستها - من غير وعي وأنا لا أعرفها - أن من

. . .الأوفق أن ننزل
فقطعت عنان حديثها قائلة في تتايه ودلال:
- كنت وإياها كوسيط مسحور يصرفه المنوم كيف شاء - فقال أأذنت لك أن تقاطعيني.
اسكتي. فهذا حديث كبار فبسمن جميعاً وعاد يقول:
- نزلنا ولم يبلغ واحد منا وإنما هربنا من فضول الناس. لم ندر كيف، ولم تدر هي كيف أطاعتني. فكلانا ذاهل غائب فتى يقبل فتاة لا تعرفه ولا يعرفها في جمع الناس وعلى عيونهم ثم ينهضان معاً. . . إن هذا لشيء عظيم!
ولبثنا وقوفاً زماناً ثم جمعت بدد ذهني قليلاً حين دار في أذني سبابها خفيفاً حلواً يتندى على فؤادي كحبات الماء على جبين محموم.
وقلت: إنها غلطة يا آنسة وإنها - ولا يد لي فيها - لأحب إلي نفسي من عملي كله فعبس فمها. . . فمها فقط. . . عبسة أشهد ما رأيت أحلى ولا أروح منها، وعاد سبابها العذب يتوثب حول شفتيها ثم يتسامى إلى قلبي نغماً قصيراً رقيقاً يحمل في وهن رقته قوة فتائه. . . فابتسمت ثريا وقالت:
- مرحى. مرحى. هذا منطق عاشق يسمع بقلبه سباب حبيبه نغماً كحباب الكأس ما تسمو واحدة حتى يعالجها فناؤها الكامن فيها
فأمن على تشبيهها واستطرد عليه يقول: أي والله يا. . . ونسي فأدركته عنان قائلة. . . يا ثريا
- أي والله يا ثريا إنه لكذلك على فؤادي كان يوقظ حنينه ولا يشبعه! ولكنه لم يكن سباباً. أنه - يا آنسة - غضبةُ جمال شق عليه أن يمتهن على أعين الناس
وكانت إفاقتي على حلو سبابها ردة على جمال جديد تجلى على فؤادي من قوامها المعتدل سحرتني وحيرتني فلم أدر أياً أطيل فيه النظر ولا أياً أقصر عنه. . . كانت فتنة مجسدة، وكنت من فمها وحده بين ثلاث متن: أكبرها وأقتلها أنني قبلت هذا الفم وأوسطها أنني نعمت به حين عبس فبدا بشفتيه - العليا على السفلى - كفراشة حمراء قانية بسطت جناحيها الصغيرين ثم نامت على لفة وردة تترشف رحيقها. . . وأنني سحرت حين ترسل على فؤادي منه نغم حبيب. وأهونها - وتلك من عجائب القلب - أنني فزت بعد ذلك برضاه. . . إنه حلو فاتن حين يرضى، وإنه لأحلى وأفتن حين يعبس
فضحكت ثريا وقالت:
- الأمر بيدك. . . اغنم لنفسك الأحلى!
فقال وهو يبتسم: هذه أنانية يا آنسة!
وقالت عنان تُتم الحديث من حيث قطعتْه ثريا:
-وفرغَ سبابي فَمدَّ إليَّ يده في ضراعة وقال لي . . .:
- إنه خطأ هين، وإني لمصلحٌ ما كان بجمال ما سيكون، ولذلك لن اعتذر، وعاد هو يتم لها:
-قلتُ لها: ولذلك لن أعتذر؛ فعقدت حاجبيها وتغَضَّبَتْ بعينيها، ولكنها ابتسمت على . . . رغمها ابتسامة كانت تمنعهاُ جهدها وتخفيها، ففهم قلبي معاني قلبها، وناجت روحها روحي، وانسرقتْ حواسها بجملتها على غفلة منها فألقت في حواسي رسالة فرحتُ بها فاتَّزنت واطمأن قلبي
وجاءت سيارة فقفزت إلى الدرجة الأولى لتواصل طريقها وقفزت أنا في الدرجة الثانية، ولما نزلتْ هي نزلت أنا وتحاشيتها وعرفت من بُعدٍ منزلها. . . ثم. . . ثم اقتحمت على أبيها فأسعدني وأسعدها
فبسمت عنان ابتسامة أشرقت في قلب خطيبها هذه المرة، وقالت في دلال وتخابث: في (وأسعدها) بحثٌ وكلام
فأخذ وجهها بين يديه وقَبَّلها على مرآي منهن قبلة عاجلة وهو يقول:
- لا كلام ولا حديث لقد ظفرت بالدنيا يوم ظفرت بك يا عنان وخرج يجري فائزاً بقبضة يدها تهوى على ظهره جزاء ما فعل
- أما هن - كان الله لهن - فقد تخاجلن وتضاحكن.
ثم نظر بعضهن إلى بعض، وقمن لينصرفن. فقالت لهن والدنيا لا تسعها: إنه خفيف الظل وأنا أعبده
فقالت ثريا:

- . . .إنه رجلٌ يُتَمَّنى يا عنان، وإنه لحقيق أن يحبَّ ويعبد، لو كنتُ مكانك
- وعَنَّ على المسكينة أن تزيد. فَجَرَّتْ هدى وزاملْتها وأرسلتا - حين صارتا في الطريق زفرة حارة، وزادت هدى أن عبرة فرَّت منها برغمها
وقالت ثريا:
- تعالي يا هدى سنركب الدرجة الثانية من سيارة مزحومة وبعداً - منذ اليوم - لسيارتي وللدرجة الأولى. . . ولتحرص كل منا أن تجلس - منذ اليوم أيضاً - خامسة في مقعد يسع أربعة. . . لعل وعسى. . .
مراد الكرداني
العدد 360 - بتاريخ: 27 - 05 - 1940
. . .الفكر والحرب
قال الأستاذ (دومينيك) في تحليله البليغ للكتاب القيم الذي ألفه السير (نيفل هندرسون) سفير إنجلترا في برلين بعنوان (سنتان عند هتلر):
(إن المتمدنين الذين يعيشون في هذا القرن بإنسانية القرن التاسع عشر ومسيحيته ليقضون من الدهش إذ يرون هذا (الهتلر) يرجع بالعالم إلى عهود الجاهلية القيصرية فيحمل أتباعه على أن يعتقدوا أن الله قد حل به وأن ألمانيا قد تجسدت فيه. وإن المفكرين ليفزعون في وسط هذه الزعازع الهوج إلى الله جزعين أن يرتكس للفكر والحضارة في مهاوي البربرية الأولى).
وقال المستر (سمنر ولز) في خطبته الختامية بالمؤتمر العلمي للأمم الأمريكية:
(ليس من الصعب أن نتنبأ بنكسة القرون الوسطى في بلد أصبح التفكير الحر مستحيلاً فيه. وأي أمل يبقى للإخلاف بعد هذا الطغيان الذي موَّه الباطل على الناس حتى اعتقدوا أنه الحق؟). ثم دعا الولايات المتحدة إلى أن تذود عن المدنية التي تدين لها بأكثر مما تنعم به.
وقال صديقنا الأستاذ (الحكيم) في (الأهرام):
(إن نذير الدمار المسلط على شؤون الفكر والروح كفيل بأن ينهض برجال الفكر والأدب للدفاع بأقلامهم وقلوبهم عن حضارة ساهم أسلافهم في وضع أحجارها الأولى).
وكلام هؤلاء السادة على اختلاف الموطن والمذهب ترجمة لطائفة من المعاني الخداعة التي قدمها الإنسان الحديث فأقام عليها ثقافة المدرسة، وراض بها نفسية المجتمع، وجعل منها خصائص لحيوانيته تميزه في زعمه على الإنسان القديم والوحش الآبد. وليس في منطق الطبع أن يكون أثر الفكر دائماً من الخير المحض ما دام مصدره الإنسان وهو يفسد ويصلح ويخبث ويطيب تبعاً لوحي غريزته وخضوعاً لهوى منفعته. أليس الفكر والأدب والعلم والمدنية التي يدعو الأساتذة الكتاب إلى النضج عنها هي نفسها التي جعلت ألمانيا الهتلرية جحيما يستعر باللظى والغاز والحمم، فزلزل الأرض من القطب إلى القطب، ورمى الدنيا جمعاء بغاشية من الموت الوحِيِّ والقلق المميت؟
لو لم تعتمد النازية على المفكر الألماني القوي الخصيب لما استطاع ناسك (برجوف) أن يفجأ العالم الآمن بأهوال من الشر ينكرها الشيطان، وأساليب من الموت يجهلها الموت
إن الفكر الفعال في الأرض لا ينفك عنه قصور الإنسان وضلاله، فهو عاجز عن هداية الناس ما لم يهده الله بنوره. ولا يجرؤ المسكين أبن آدم على أن يزعم أنه استطاع بفكره أن يحل مشكلاته بالمفاوضة، ويقسم أرزاقه بالعدل، ويثق علاقته بالمودة، ويضع لدنياه أنظمة ثابتة تكفل له السعادة الخالصة والسلام الدائم
وإن الأدب المحرك لهوى النفوس لم يستطع الإنسان الأثِر أن يسمو به على الأهواء النفسية والأغراض الحزبية والأطماع القومية؛ فظل في كل أمة خاضعاً لمنهاج المدرسة وسياسة الدولة وطبيعة الشعب لا يتجاوز حدود المكان ولا فصول الزمن، فكان عاملاً من أشد عوامل العصبية والوحشية والفرقة
وإن العلم الذي ناط به العقل كشف أسرار الكون لفهم الحياة، وتسخير قوى الطبيعة لخير الناس، جافاه الضمير فاستبد به الشر وراح يستعديه على نتائج الخير وآثار الصلاح، فرماها بآلات البوار والدمار من طائر يقذف الشهب وسائر يطلق السموم وزاحف يرسل اللهب!

وإن المدنية التي عمرت بها الأرض، وتمت عليها الأنفس، وزخر بها النعيم، وتبجح بازدهارها الإنسان، قد سطت عليها المادة القاسية فسلبتها الروح وحرمتها القلب، فوقعت الجفوة بينها وبين الدين، وانقطع السبب بينها وبين الحب؛ فتشتت الآلاف، وتباعدت القُرْبى، وتشعبت الحاجات، وتنافست المطامع، وتكاشفت الأحقاد، واضطرب الناس في سبل الكدح، وألهبتهم حوافز الهم، حتى عجزوا بخلقتهم وطبيعتهم عن مسايرة الحضارة فسعوا بالطائرات، وعملوا بالآلات، ونظروا بالتلسكوب وسمعوا بالمكرفون، وضاقت عليهم الأرض برحبها فضربوا في الآفاق، واختصموا على ديار المستضعفين فحكموا بينهم السلاح فكانت هذه المدنية المادية أشبه بسعير الآخرة تنضج الجلود ولا تزهق الأنفس ليستمر الاضطراب ويتجدد العذاب ويدوم للطبيعة الخداعة هذا الثوب الأنيق الموشى بفضل هذا الإنسان الأحمق الذي يعمل ولا يعرف لماذا، ويسرع ولا يدري إلى أين!

هذا الفكر العاجز، وهذا الأدب القاصر، وهذا العلم المجرم، وهذه المدنية الفاجرة، لا تستحق الاحتفاظ بها ولا الذياد عنها يا زملاءنا الأعزة. لقد أشتد بأسها وعظم سلطانها في ألمانيا (الراقية) فولدت الهتلرية بوحشيتها وعصبيتها وبلاياها؛ وإن من الخير للإنسانية أن تذهب هذه العقلية مع الهتلرية إلى غير رجعة

إن الفكر الذي نريده هو الفكر المدبر النفاذ الذي يشرق في جوانبه نور الله فلا يشت به ائتلاف ولا يضل عليه سائر. وإن المدنية التي نرجوها هي المدنية الإنسانية التي ينبث في طواياها روح الله فلا يولد بها شقي ولا ينجم فيها ثائر

إن شمس المدنية الصحيحة قد أشرقت من الشرق ثم غربت في الغرب، ولا بد أن يدور الفلك فتعود إلى مطلعها لتشرق على العالم من جديد!

أحمد حسن الزيات

سيكولوجية الأديب

للدكتور إبراهيم ناجي

في هذا الموضوع ناحية شخصية طريفة، وطرافتها تغريني بالثرثرة؛ فإني لا أرى الآن موضوعاً علمياً، وإنما أرى أمامي شخوصاً وأسماء وصنوفاً من النفسيات تكون مجموعة مسلية فخمة. ومع ذلك، فسأتنكب هذا الجانب البديع، وأتكلم كلاماً علمياً سيكولوجياً تكون فائدته أعم وأوقع

أجل، من أهم الموضوعات الاجتماعية مسألة: (سيكولوجية الأديب)

ولما كان الأدب فرعاً من الفن، كان الكلام الصحيح هو عن سيكولوجية الفنان. ومقال اليوم يتناول سيكولوجية الفنان المصري، لأن للفنان المصري طابعاً خاصاً به لا تجده في غير مصر، وللثقافة الفنية في مصر طرقا لا تجدها في غيرها من البلاد

ولمَّا كان الجسم والنفس وحدة متماسكة، فإن أمراضهما متصلة، وإن كانت في الجسم أعضاء تتأثر أكثر من غيرها. وفوق ذلك، فإن للأدباء المصريين أمراضاً خاصة بهم وحدهم.

نبدأ الآن بالتحدث عن نفسية الأديب المصري:

الأديب المصري يندر أن يكون رجلاً طبيعياً، فإننا إذا نظرنا إلى الحياة وتعريفها، ثم إلى الأدب وتعريفه وخصائصه، تبين صحة ما نقول

ما هي الحياة؟

أصدق تعريف لها أنها تفاعل بين عوامل خارجية تتكون من البيئة والظروف والعادات والتقاليد؛ وعوامل داخلية تتكون من العناصر التي بتفاعلها وتطورها وتماسكها أدت إلى المجموعة التي اصطلحنا على تسميتها (بالشخصية). الحياة (ميزانية) بين دخل وخرج. الحياة موازنة بين قوتين وملائمة بين دافعين، وكل ما يعتري الحياة من اعوجاج أو شذوذ، أصله اضطراب في ميزان التفاعل، وأصل ذلك الاضطراب اختلال في عنصر من العناصر الداخلية أو الخارجية

وإذا سَّلمنا أن الدوافع الخارجية متساوية بالنسبة لنا جميعاً، سَّلمنا كذلك أن الاختلال أكثره داخلي أي في ذواتنا، وفي صميم أنفسنا. ولنراجع الآن أهم العناصر الداخلية في النفس

بوجه عام، ثم نراجعها في نفس الأديب المصري بوجه خاص

أهم العناصر الداخلية التي تكون (الذات) هي (العادة) و (الجنس)

ويدخل تحت حكم العادة ما نسميه (بالخُلق). ولا يخفى أن التربية (عادة)، فخلقنا وتربيتنا أخيراً هما ما اعتدناه وصار طبيعة ثانية. ويدخل في بناء الشخصية - بعد العادة - مواهب موروثة أو فطرية كالذاكرة والخيال والذكاء
ويتكئ ذلك كله على الغرائز الفطرية التي هي واحدة في جميع البشر، وإنما يختلف عملها بمقدار ما أطلقنا منها وما كبتنا.
وأما (الجنس) فيساوي (الحب) ويجب ألا يفهم من ذلك اللفظ حب الشهوة، وإنما الحب على طول خطه المبتدئ بالوالدين المنتقل إلى المجتمع المنتهي بالزواج
ولعل ترتيب الأمور بأهميتها يكون على الوجه الآتي: الوراثة، العادة، الحب
إني أعطي الوراثة المكان الأول لكي أؤكد أن هناك ذكاء مكتسباً موروثاً، وآخر نحصل عليه بالمران. الأول عميق (عمودي) والثاني (سطحي)
ولا جدال في أن الأدب يورث، والمواهب الأدبية كالخيال، والموسيقية وغيرهما، مواهب تورث أي تولد ولا تصنع
والأدب تنبت جذوره وعناصره في الطفولة. فمن المألوف أن الطفل ينام على اللحن الموسيقي، ويستأنس بالغناء، ويحب القصة الخيالية، وقد يؤلفها هو نفسه
فالواقع أن الأديب طفل لم يكبر. والأديب الصحيح من له خصائص الطفل، في فرحته بالأشياء، وسذاجته، وتهلله، وضحكته، وخياله، وفرحه وابتهاجه بالموسيقى. والتربية الأدبية الصحيحة، هي التي ترمي إلى شيئين: تربية الحواس، فإن حدة الحواس هي الوسيلة التي بها يستعين الأديب على التقاط الصور وتذوق الأشياء. والشيء الثاني جو الحرية الذي فيه تترعرع شجرة الذات، وتتغذى تلك الحواس النشطة المتقدة
والأديب المصري محروم من الأمرين. ففي المنزل وفي المدرسة لا يجد من يتعهد تلك الحواس بالتغذية، وفي المنزل يجد التربية قائمة على الزواجر والنواهي، وقتل حرية الاستطلاع التي هي أهم خصائص الأديب. وفي المدرسة يجد سلسلة من (الكليشهات) التعليمية التي تقتل المواهب وتقبرها وتدفن شجرة الحرية دفناً! وكما ذكرت، عندنا أديب
بالسليقة، وأديب بالاكتساب
أما الأول فيمر على تلك الأدوار ونفسه تشعر بالضيم، وتنطوي نفسه على ثورة مكتومة. والثاني يتلقى تلك الأخطاء، ويبتلعها بسهولة، ويصل إلى عتبة المستقبل رجلاً عادياً يتميز عن غيره من الناس بقليل من المواهب الكلامية والبيانية وشيء من الحقد على العباقرة وأرباب النبوغ
ونتكلم الآن على مسألة (الحب) لما لها من الأهمية البالغة في حياة الديب، ولما لها من الشأن في مصر خاصة
الحب في تعريف بلاتو وفي تعريف البيولوجيا (شطْر يبحث عن شطره الآخر الذي كان لاصقاً به ومكملاً فانفصل. . .)
فالبيولوجيا تقرر أن المخلوق كان في البدء وحدة ثم شُطر، وكان الشطران في المبدأ على جذع واحد وكانا متساويين، فلم يلبثا أن تميزا على الجذع ثم انفصلا، ثم قضى الله عليهما أن يبحث كل عن الآخر. . . في سن المراهقة حيث تنشط الغدد وتتأجج الحواس وتتطلع النفس باحثة عن شطرها الضائع
وهذا الوقت هو أزمة الأزمات. وهو عندنا في مصر - خاصة - عهدٌ خطر، ومع الأسف يقل فيه الإرشاد وتندر الصراحة الواجبة، مع أنه العهد الذي يبدأ فيه نضج الأديب، وتزدهر مواهب الفنان وتتفتح
فإن النفس التي تتطلع إلى مثلها الأعلى، أي إلى توأمها من الجنس الآخر، قد تجده، فإن وجدته قد لا تظفر به، أو قد تظفر وتنتهي الرواية، أو لا تجده، فتتحول إلى خَلق شيء على مثاله، أو التغني بالحنين إليه، أو رسمه على القماش أو الحجر، وهكذا. أو تكون الأزمة النفسية من الشدة بحيث تحدث اضطراباً نفسياً كبيراً، فإما يكون هذا الاضطراب تحدياً واعتداءً، أو تخاذلاً وانطواءً، وإما أبعد من ذلك، وهو الجنون. فنحن الأطباء نعرف ما هو جنون المراهقة ونفهم أسبابه وعلته
قلت إن هذا العهد في مصر أخطر العهود على الشاب الأديب
فإما أن يكون أديباً عبقرياً، فطامته الكبرى أن مثله الأعلى غير موجود أو مستحيل، وكارثته الأخرى أنه إذا وجد خياله المنشود، يخفق في الحصول عليه أولاً، لأنه ضال لا

يعرف الطريق العملي إلى ذلك، وثانياً لأنه شديد الحساسية متناه في الاعتزاز بكرامته فيفر بها حتى من وجه الحبيب! أما الأديب (المصنوع) فهو قد ركب في (القالب) الخطأ وقبله وانصب فيه، ومحنته أولاً في (التركيب) الذي ركب فيه، وثانياً في الحقد المتأصل في نفس صغيرة بالفطرة وبالتربية، وثالثاً فيما يحاوله لبلوغ مرتبة العبقرية والعبقرية منحة من السماء

هذا فيما يختص بالعناصر الداخلية أو كما يسميه الدكتور جوردون صاحب كتاب (العصبي وأصدقاؤه) (ضغط الظروف) فهو الذي باصطدامه مع تلك العوامل التي ذكرناها يسبب المرض العصبي، وذلك الاصطدام منشؤه عند العبقري عظم الفرق بينه وبين البيئة، وعند الأديب المصنوع الفرق بين ما يتعاطاه وما يحاول أن يصل إليه هذا موجز لمرضى الأدباء مرضاً نفسياً، أما أمراضهم الجسمية فمسببة عن اضطراب ذواتهم وقلقلة حياتهم. فهم قوم مسرفون في التفكير، ينامون قليلاً ويأكلون قليلاً - وأكثر الأدباء فقراء! وشذوذهم يدعوهم إلى تناول أطعمة شاذة، وقد يستعينون بالمنبهات على إدمان العمل ووفرة الإنتاج

وهم في مصر قليلو الرياضة، ولذلك يمرضون بالكبد والمعدة وأكثرهم يأتوننا شاكين من اضطراب القلب، وليس في قلوبهم مرض. وإنما منشأ علتهم فرط ذكائهم واطلاعهم فهم يقلبون كتب الطب فيفهمونها نصف فهم، ثم يتحسسون قلوبهم وأكبادهم ويتخيلون في المرض كما يتخيلون في الأدب.

إبراهيم ناجي

الأزهر والحياة العامة

مالك والجاحظ في العصر الحديث

للأستاذ محمود الشرقاوي

يقول الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي في حديثه مع الرسالة: (بين أيدينا كل ما ورد عن الرسول من الأحاديث، وما روي عن الأئمة من الأحكام، وما أثر عن الفقهاء من الكتب؛ وفي خزائننا ما خلف العرب وغير العرب من لباب الأدب وعصارة الفكر. ومع هذا اليسر في الوسائل وهذه القوة في الاستعداد لا نرى إلا فراغاً يثير الظنون ويغري بالأزهر التهم)

ثم يتعجب الشيخ الأكبر كما يتعجب بعده الدكتور زكي مبارك متسائلاً: لماذا لا يظهر في العصر الحديث مشرِّع مثل الإمام مالك أو أديب مثل الجاحظ. . .؟

وهذه هي المسألة التي وعدنا قراء (الرسالة) أن نبحثها في ختام مقالنا الأول صحيح ما يقوله الشيخ الأكبر من توفر ما روي عن الرسول من الأحاديث وما روي عن الأئمة وعن الفقهاء، وتوفر ما في خزائننا مما خلف العرب وغير العرب من لباب الأدب وعصارة الفكر. صحيح كل هذا ونحن أميز عن جميع العصور حتى عن عصر مالك وعصر الجاحظ في توفر هذه المصادر كلها والمراجع كلها والكتب كلها وفي سهولة الوصول إليها والبحث فيها

ولكن توفر هذه المراجع والمصادر والكتب يبرز من بيننا إماماً كمالك ولا أديباً كالجاحظ. وليس من العجب ألا يبرز

ليست الكتب وحدها ولا المراجع ولا الأصول هي التي تنشئ الأديب ولا هي التي تبرز العبقري، بل هناك أسباب أخرى يمكن أن نذكر منها البيئة العلمية والوسط الاجتماعي، ومستوى الحياة الذهنية في العصر الذي ينشأ فيه العالم أو ينشأ فيه الأديب

فهل نستطيع أن نزعم أن البيئة العلمية التي نشأ فيها مالك والتي تكوَّن فيها تفكيره وتم نضوجه العقلي، أو تلك البيئة التي نشأ فيها الجاحظ، وتكون فيها تفكيره، وتم نضوجه الأدبي- هل نستطيع أن نزعم أن هذه البيئة أو تلك شبيهة بما نحن فيه الآن أو قريبة منها!؟

كانت الحياة الاجتماعية والحياة السياسية في عصر مالك والجاحظ تفور بالنشاط بل بالعنف، وتضطرب بالحياة القوية المتجددة- وكانت الأحداث السياسية والحربية والاجتماعية تجيء في كل يوم بجديد- وكانت الأمة الإسلامية أو الأمة العربية في عصر مالك والجاحظ هي صاحبة السيادة والسلطان المطلق على العالم كله (عالم ذلك العصر)، وكانت حضارات الأمم القديمة العريقة وأموالها وآثارها العقلية والأدبية تنحدر كالسيل في نهر الحياة الإسلامية أو العربية ويملأ ضفافها بالنشاط والحركة والحيوية.

وكان المجتمع الإسلامي أو العربي في عصر مالك والجاحظ يشعر بأنه صاحب السيادة على ما سواه من المجتمعات، صاحب السيادة الذهنية والعقلية والأدبية. بل لم يكن يجد أمامه نداً من المجتمعات يمكن أن يقارن به أو يوزن إلى جانبه أو تقام بينه وبينه المفاضلة والترجيح. لأن الأمة الإسلامية أو العربية كانت لذلك العهد صاحبة السيادة السياسية والحربية وما سواهما من السيادات ولم تكن تجد أمامها من توزن سيادته بسيادتها أو تقام بينها وبينه المفاضلة والترجيح

وفي هذه البيئة وفي ظل هذه السيادة التي يشعر بها المجتمع وتشعر بها الدولة لأنها حقيقة واقعة. نشأ مالك والجاحظ فكانت لهما سيادة الذهن وسيادة الفكر والأدب والفن

وهذه الأشياء كلها: البيئة العلمية، والوسط الاجتماعي، ومستوى الحياة الذهنية، وشعور المجتمع بالسيادة أو بالهوان، ومكان الدولة من القوة والضعف؛ كل أولئك أشياء ليست هينة الشأن في تكوين الأديب والعالم وفي تبريزه وحدة ذهنه وقيمة إنتاجه.

وبالمقارنة بين هذه الأشياء على عصر مالك والجاحظ وبينها في مصر والشرق على عصرنا هذا نستطيع أن نضع علماءنا وأدباءنا حيث يكون موضعهم الطبيعي

ولعل من المفيد أن نذكر هنا قول أبن دريد في مقصورته:

وكل قِرن ناجم في زمن ... فهو شبيه زمنٍ فيه بدا

وقد نجم مالك ونجم الجاحظ في زمن كانت السيادة فيه لدولتهم ودينهم ومجتمعهم فكانوا شبيهين بزمنهم، ونجم علماؤنا وأدباؤنا في زمن فهم شبيهون به ولا عجب في ذلك ولا غرابة

ولكنا ننتقل من ذلك إلى مسألة أخرى نلخصها في هذه الأسئلة وفي الإجابات عليها:

ما هي القيمة الحقيقية لمالك والجاحظ؟ وهل لا نجد في عصر غير عصريهما من تكون قيمته مثل قيمتهم؟ وهل لا نجد في عصرنا هذا من يقرن إليهما ويوزن بميزانهما؟

أما مالك فهو إمام مشرع نافذ البصيرة والذكاء في فهم المسائل وفي التشريع، ولكنا نستطيع أن نجد له نداً بل أنداداً كثيرين في هذه الصفات كلها. وفي مسائل كثيرة نجد علماء متأخرين يناقشون مذهب مالك أو غيره من المذاهب ويفّندون رأيه في مسألة أو في مسائل. ثم يقتنع الباحث المنصف بأن رأيهم أرجح من رأي مالك وأن فهمهم لهذه المسألة أو المسائل أدق من فهمه

ونستطيع أن نجد كثيراً من هذا في مطالعاتنا لعلم الأصول وأن يجده غيرنا كذلك ونجد في عصرنا هذا علماء يناقشون في مذهب مالك وفي غيره من مذاهب الأئمة ويفندون رأيه في مسألة أو في مسائل، ويكون رأيهم فيها أرجح من رأي مالك، وفهمهم لها أدق وأصدق من فهمه

في الأحاديث الدينية التي أذاعها الأستاذ الأكبر، وفي دروسه التي ألقاها منذ سنين، وفي أحكامه قبل ذلك في القضاء آراء ومسائل خرج فيها عن رأي مالك وأبي حنيفة وناقشها وأقنع سامعيه وقارئيه بصواب رأيه على رأيهم. وكان فهمه لهذه المسائل أدق وأصدق من فهم مالك وأبي حنيفة.

ونقرأ ونسمع لعلماء معاصرين آراء يخالفون بها هذا أو ذاك من الأئمة ومن الفحول، ثم نجد من الإنصاف أن نقرهم وأن نشهد بأنهم أدق فهماً وأصدق رأياً من هذا وذاك من الأئمة والفحول ولو خالفوا مالكا

ثم نقول بعد ذلك في الجاحظ مثل قولنا في مالك بفارق بسيط ولكنه ضروري. فإذا أردنا أن نضع الجاحظ وغيره من فحول الأدب القديم حيث يستحقون من تاريخنا الأدبي والثقافي، يجب أن نلاحظ الفرق بين (الأديب) في العصور القديمة وبين (الأديب) في عصرنا هذا، وأن نلاحظ الفرق بين (الأدب) في تلك العصور وبين الأدب في عصرنا هذا

فالأدب عند العرب في عصر الجاحظ وفي غيره من العصور (وإلى عهد قريب) كان أدب حفظ وجمع ورواية. وكان الأديب يوزن قدره ويلحظ مكانه نقدر ما يحفظ من الشعر، ومن غريب الرواية، ومن كلام السلف والأعراب، ومن شعر الشعراء. وكان أكبر ما يمدح به الأديب أن يقال فيه أنه (بحر علم) و (خزانة أدب) وإن صدره (وعي علوم الأوائل

والأواخر) إلى غير هذه النعوت التي تدور كلها حول محور الرواية والحفظ والجمع والاستيعاب
فإذا نظرنا إلى الجاحظ وإلى من هو أقل من الجاحظ مكاناً فإنا لا نجد في عصرنا من يشابهه أو يقاربه، ولا نريد أن نجده. والأدب والشعر ورواية الغريب التي هي بضاعة الجاحظ وغيره من فحول الأدب السوالف (إذا نظرنا إلى الأدب هذه النظرة) هذه البضاعة لا تساوي شيئاً، ولا نأسف لأنا لا نجد في عصرنا من يوزن بالجاحظ فيها. فعندنا خزائن الكتب أرحب وأوسع وأصدق وأيسر من صدر الجاحظ ومن روايته
أما الآن، فنحن ننظر إلى الأدب على أنه فن قائم على قواعد وأصول، وعلى أنه أسلوب وفكرة، أو على أنه أسلوب فقط. نحن ننظر إلى الأدب على أنه شيء من هذا أو هذا كله، أو على أنه شيء غير هذا وذاك. ولكنه مهما يكن، فليس هو الجمع والحفظ والاستيعاب والرواية للغريب والشعر. فإذا وزنا أدب الجاحظ بهذا الميزان الجديد للأدب، فقد خف وزنه ولم يبق منفرداً ولا فذاً منقطع النظير والأقران في عصرنا فمقدار الثقافة التي كان يتميز بها الجاحظ ونوع هذه الثقافة لا وزن له ولا قيمة في عصرنا. وتلميذ في الأزهر أو في مدرسة ثانوية يعرف من الجغرافيا ومن حقائق التاريخ ومن علوم الطبيعة أكثر وأصدق مما نجد في كتب الجاحظ من الحيوان إلى البيان والتبيين. بل يعرف من ذلك ومن حقائق العلوم أكثر وأصدق مما يعرف أدباء العرب جميعاً في جميع العصور، وليس ذلك عيباً فيهم، فقد كانوا يعرفون أكبر قسط وأصدق قسط من علوم عصرهم ومعارفه
وليس مطلوباً منهم أكثر من ذلك، ولكنه لا يجعلهم أعظم شأناً، ولا أكبر مكاناً من كاتب متوسط في عصرنا
وأما أسلوب الجاحظ وبصره بالأدب على قواعده التي أشرنا إليها منذ قليل، فهو الذي يصح أن نقيم له وزناً وأن نقارن بينه فيه وبين كتابنا وأدباءنا المعاصرين. وهذه المقارنة نرجو أن يسمح لنا فضيلة الأستاذ الأكبر، وأن يسمح لنا صديقنا الدكتور زكي مبارك، إذ نقول أنها لن تخرج بنا إلى النتيجة التي توافقنا عليها. فالجاحظ وغير الجاحظ من فحول الأدب القديم نستطيع أن نجد لهم شبيهاً وقريناً في عصرنا هذا.
نستطيع أن نجد من يشبه الجاحظ في فهمه للمسائل الأدبية وفي بصيرته بالأدب والشعر وفي (الذوق الأدبي). وأن نجد من يشبه الجاحظ أو يبرز عليه في النقد الأدبي؛ ولا أقدِّم على ذلك دليلاً سوى تصحيح زكي مبارك نفسه لكتاب زهر الآداب وتعليقاته وتصويباته الأدبية والتاريخية عليه وعلى غيره من الكتب ورسالته عن كتاب الأم ونسبته للشافعي
وكذلك نستطيع أن نقول ذلك عن أسلوب الجاحظ وعن أساليب عدة من فحول الأدب القديم، لا نستثني من ذلك سوى أصحاب المقامات كالحريري والزمخشري.
وأسلوب الشيخ المراغي في الكتابة والخطابة، وأسلوب الزيات في (الرسالة)، وأساليب غيرهما من الباحثين والأدباء والمفكرين في عصرنا، نستطيع أن نقيم الميزان بينها وبين أسلوب الجاحظ وغير الجاحظ من أهل القديم. وقد نجد بالموازنة أننا خير منهم. وليس لهم إلا أن الزمن تقدم بهم فارتفعت بهم قداسة التاريخ
محمود الشرقاوي
الأسماء تعلل
للدكتور مأمون عبد السلام
(وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة)
(قرآن كريم)
لكل كائن أسم يعرف به. هكذا جرت طبيعة الخلق، وهكذا ستكون إلى أن يشاء الله. فمعنى كلمة آدم، الرجل، لأنه أول رجل خلقه الله، كما أن حواء أول امرأة خلقت. وقد أنجبت قابيل لأنها اقتنته رجلاً من عند الله. وسمى الله أبرام إبراهيم لأنه سيكون أباً لجمهور من الأمم. ودعا ساراى زوجة أبينا الخليل سارة لأنه سيسر بها قلبه، وسمى أبنه منها أسحق لأن إبراهيم عليه السلام سقط على وجهه وضحك لأن الله أخبره بأنه سيولد له منها ولد وهي ابنة تسعين سنة. وقد قالت سارة عندما ولدته: (صنع الله إليَّ ضحكاً كل من يسمع بي يضحك) لذلك سمي اسحق من الضحك. وسمي يعقوب بذلك لأنه كان توأماً لعيسوه، فخرج بعده وهو قابض بعقبه. هذه هي رواية التوراة في تعليل

أسماء الأنبياء عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام
فأسماء الأعلام في الأصل إذن لها تعليل ومعنى. وقد جرت عادة بني الإنسان في كافة أنحاء الأرض أن يتبعوا قواعد في تسمية أبنائهم تكاد تكون واحدة. فتراهم ينسبون أسماءهم إلى معبوداتهم، وإلى الملائكة والرسل والأنبياء والقديسين وأسماء الملوك والفاتحين، وأصحاب الشهرة ممن خلدوا ذكرهم. فكان قدماء المصريين مثلاً يسمون أبناءهم بالإضافة إلى آلهتهم مثل رعمسيس، وتوت عنخ أمون، وإخناتون. وكان العرب في جاهليتهم يسمونهم بعبد مناة وعبد العزى. ويسمي أهل الكتاب أولادهم بأسماء الرسل أولى العزم والنبيين كنوح، إبراهيم، يونس، عيسى، محمد. وبأسماء الملائكة مثل جبريل وميخائيل. وقد ورد في الأثر: خير الأسماء ما عبد وما حمد. لذلك يكثر في أسماء المسلمين عبد الله، عبد الرحمن، عبد الغفار، وغير ذلك من الإضافة إلى أسماء الله الحسنى، كما يكثر فيهم محمد، محمود، أحمد، حامد، حماد، حمدين.
ومن الأسماء ما يكثر محلياً بالنسبة لولي أو قديس محلي، فترى أسم عواد منتشراً في
مديرية القليوبية، وعبد الرحيم في قنا، لوجود قبري هذين القطبين فيهما، كما يكثر أسم موسى في جنوب سينا
وكانت عادة العرب وغيرهم من الأمم قديماً أن يختاروا للذكور من أولادهم أسماء تشعر أعداءهم بالشدة والبأس والقوة والشجاعة لتتلقى الرعب في قلوبهم. فمن أسماء العرب معارك، محارب، حرب، شجاع، صنديد، شديد، دهشان، غضبان، هراس، تاعب، وحش، منصور، ولهذه الأسماء ما يقابلها عند الفرنجة مثل جيرالد، سافيدج، فكتور
كما أنهم يسمونهم بأسماء الحيوانات التي يعجبون بها لصفات يحمدونها فيها كالشجاعة والمكر والمثابرة، فترى كثيراً من المصريين والعرب يسمون الوحش، الوحيش، السبع، الضبع، النمر، الفهد، الذئب، الفيل، الجحش، الجدي، العجل، العجيل، الجمل، الحلوف، البغل، القرد، الفار. كما أن منهم من أسمه ثعلب، نمس، نميس، بعرور، قطه، بقر، بهايم، جربوعه، علوش، وهو الذئب أو أبن آوى بلغة بني حمير، ومنهم من أسمه البدن وهو الماعز الجبلي
ويسمي كثير من سكان السواحل المصرية بأسماء الأسماك مثل: قرموط، شلباية، شال، زقزوق، كركور، شوبار، طومار، سحلول، حوت
كما أن منهم من يسمي بأسماء الطيور مثل الدقيش وهو نوع من الطير أغبر أريقط، وقد يكون الدقنوش المعروف بمصر. ومن الأسماء المعروفة بمصر حدايه، صقر، عصفور، شحرور، هدهد، غراب، فراخ، زرزور، بلبل، غر، ديك، بطة
ومنهم من يسمي بأسماء الحشرات والدبيب فهناك أشخاص يسمون نحلة، دبور، جعران، خنفس، برغوث، بقة، حنش، حنيش، حية
ومن الناس من يسمون بأسماء النباتات، فمنهم من يتخذ أسماء الحبوب مثل عائلات قمحة وشعير وذرة. ومنهم من يسمي بأسماء الخضر مثل: فلفل، قوطة، كوسة، جزر، فقوسة، بطيخة، بقلة. ومنهم من يسمي بأسماء الأشجار والفاكهة والنقل مثل: نخلة، شمروخ، خوخة، زيتون، لوزة، بندق، حب الرمان، برقوق، تفاحة، برتقالة، وردة، فله. أو يسمون بأسماء الحشائش والنباتات الصحراوية مثل: زريبح، شيحة، حنظل، حطب، زعتر، زعيتر، حشيش
ومن الناس من يغلب عليه لقب لصفة بارزة أو شهرة ذائعة فيصبح اسماً يتوارثه أولاده، فهناك من يسمون: النطاح، العفش، النتن، الدكر، الزفر، العبيط، اللطخ، الظايط، الجميص، الأقرع، الأعور، الهاكع، الأجرب، السعران، الأطرش، الأعسر، الأحدب، الجارم، الحلو، الخشن، الناعم، الفللي، الدهل، الأهبل، المكهرب، العجوز، السايح، العقدة، السيد، العبد، البربري، المملوك، المعتوق. كما أن منهم من يسمي ناعس، نعسان، مهلهل، غناجة، غندر، غندور، عشقوتي
ومنهم من يأخذ أسم عيب جسماني أو إفراز مثل حدبة وقتب وبربور
ومن الناس من يكون لأسمه غرض صوفي خالص يدل على الزهد كأن يسمي الرجل أبنه زعلوك، عاكف، مغيب، الماحي، الضعيف، الخفيف، الذليل، الناقص، العريان، القشلان؛ ومنهم من يسمى باسم حنفي، مالكي، شافعي

ومن غريب أسماء الأشخاص ما يدل على مأكول، فهناك أشخاص يسمون باسم بصل، عجوة، عجور، كشك، ملوخية، سكر، قشطة، عسل، كعك، قراقيش، برغل، مش، لبن، لبنة. كما أن بعضهم يأخذ لأولاده أسماء الجمادات مثل: خشبة، لوح، قنديل، مصباح، فانوس، غربال، الدلو، الغلق، الزق، الصحن، زلط، صخر، شقرف، الدرس، الدرع، الزير، طبق، قلة، مغراف، دبشة، طوبة. ومنهم من يسمي بشيء يلبس مثل: الطرحة؛ أو يسمى بنفيس الأشياء: كذهب، مرجان، ألماس، زمرد، لؤلؤ

ومنهم من يسمي بأسماء الأيام والشهور وفصول السنة مثل: خميس، جمعة، محرم، رجب، شعبان، رمضان، ربيع، شتا. ومنهم من يسمي: مطر، غيث، سحاب؛ كما أن منهم من لأسمه علاقة بالنور والنار والكواكب مثل: شعلان، لهلوبة، أتون، محروقي، محروق، محاريق، نور، أنور، نوار، نور الظلام، شمس، قمر، نجم، ثريا، زهرة

ومنهم من يسمي بأسماء آلات القتال مثل دبوس، وخشت وسيف وبمبة

ويدل كثير من ألقاب العائلات على أصل مواطنها الأولى مثل الشامي والمغربي، الفرنسي، التركي، السوداني، الحبشي، الهندي، كما أن منها ما يشعر بحرفة أو صناعة أو وظيفة أو مركز اجتماعي خاص كالجعيدي، الطبال، الزمر، الحمار، القلفطي، المراكبي، العربجي، النشار، الحداد، النحاس، النجار، الصباغ، الصايغ، الصبان، الخادم، الجمال، السحار،

السحرتي، الحانوتي، الغرابلي، الصيرفي، الزيات، الدهان، البستاني، الجنايني، الحاجب، الشوا، التراس، السبحاوي، البهلوان، النشوقاتي، الفسخاني، الكنفاني، المستكاوي، المسلكاتي، الشبكشي، الرماح، السخري، الهجان، الكحكي، الحمصاني، القماش، العسكري، الحرامي، السقا، الجزار، الفولي، الفوال، القزاز. ومن الأسماء طحان، عجان، خباز، زبال. ومنهم الزلباني، السلالي، السكاكيني، الحناوي، القمص، القسيس، الجندي، العمدة، الشيخ، الأفندي، البيه، الباشا الأمير، البرنس، مزارع

ويختار كثير من الناس غريب الأسماء لأبنائهم ليطيلوا بذلك أعمارهم ويدفعوا العين عنهم؛ فمن أمثلة ذلك: فندي، فانتي، دقدق، تهته، شكعه، حكشه، خنجر (بضم الخاء والجيم)، بلبع، درع (بتشديد الراء)، سنكحلو، زملوط، زعطوط، شحوت، شحات، حتحوت، شنن، جعلص، كعبلها، بخاطرها، زعزوع، جعيصة، الجعيص، سحبل، معيط، عاشور، دحروج، عميرة، دعبس، زعير، زعرب، زعربان، شلتوت، حمروش، حبروك، نونو، بنونه، شرشومة، بحبح، شولح، حتاتة، كانش، بصيص، تلكم، بالي، بابي، حيدة، حيدرة، حزنبل، بظاظة، دقدوقة، صلع (بتشديد الصاد واللام)، سلطح، حنبوط، كرشة، دلدل، عيطة، كعويرة، كشلة، الدكش، الدكس، شلضم، ضمضم، مدبح، زقلط، بعلط، فلوسة، حرحش، زغلة، شمردن، طعواش، خلطخ، لاغا، صوصي، سنون، الميت، طبل، سبل (بضم الطاء واسين وتشديد الباء المفتوحة)، قزامل، لهيطة، الزقم

ومن الأسماء ما هو مركب مثال ذلك: عائلات ميتكيس، قصير الذيل، نقر الطين، سبع الليل، هب الريح، سيف النصر.

ومن أسماء الغانيات: ست من نده، ست الدار، أدوب أنا (أسم بنت بالواحة البحرية)، قدم خير

وكثير من الأسماء كنيات كنى بها أصحابها في الأصل لصفة خاصة. ومن أمثلة ذلك: أبو شادوف، أبو قورة، أبو لبدة، أبو طاقية، أبو الروس، أبو الريش، أبو الغيط، أبو وردة، أبو كرش، أبو سنه، أبو دراع، أبو اصبع، أبو حجر، أبو جبل، أبو لقمه، أبو قلطه، أبو دهينه، أبو شبانه، أبو زهرة، أبو ريشة، أبو الني، أبو شنب، أبو شنب فضة، أبو هيف، أبو حصيرة، أبو ليفه، أبو لحاف، أبو اخربها، أبو غنجة، أبو قاعود، أبو طاحون، أبو طحين،

أبو جازية، أبو سحلى، أبو دراز، أبو رمح، أبو سيف، أبو شجر، أبو دومة، أبو دوح.

ومنهم من يكنى بأسماء أولاده مثل: أبو حسين، أبو ليله، أبو نفيسة، أبو زهرة، أبو ظريفة،

ومن الأسماء ما هو مثنى لأسم علم مثل: محمدين، حمدين، حسانين، بكرين

ولا تظن أيها القارئ الكريم أن المصريين منفردون وحدهم بهذه التسمية، فهناك ما يماثل هذه الأسماء في كافة ممالك الأرض بلغات أصحابها مما يدل على أن العقل البشري يفكر على نمط واحد مهما بعدت الشقة واتسعت المسافة.

مأمون عبد السلام
عضو نادي الصيد الملكي
ووكيل قسم أمراض النباتات

كتاب الأغاني

للأستاذ حسن خطاب الوكيل

طبع كتاب الأغاني بالمطبعة الأميرية في عشرين جزءاً تنتهي بأخبار عمارة بن عقيل الخطفي. ومنذ خمسين عاماً ظهر في عالم المطبوعات الجزء الحادي والعشرون من هذا الكتاب المستطاب. قام بنشره وطبعه المستشرق رودلف الأمريكي في مدينة ليدن سنة 1888، وحدث في سنة 1926 أن أديباً فاضلاً ونبيلاً من النبلاء رغب إلى دار الكتب المصرية في أن تقوم بطبع الأغاني على نفقته، فلما همت بتنفيذ هذه الرغبة النافعة لم تعترف بالجزء الزائد على العشرين للأسباب الآتية:

1 - أنه لم يصدره ناشره بمقدمة يبين فيها أصل النسخة التي نشره عنها ولا في أي المكتبات عثر على هذه الزيادة

2 - أن أسلوبه ضعيف لا يشبه أسلوب أبي الفرج في العشرين جزءاً المتقدمة

3 - أنه يشرح في كثير من الأحيان الألفاظ الغريبة التي ترد في أبيات الشعر، وهي طريقة غير معهودة في الكتاب. فالجزء الأول مثلاً على كثرة ما فيه من الألفاظ الغريبة لم يشرح منها إلا القليل النادر، وقد لا يعدو ما شرح في هذا الجزء من هذا القبيل أربع أو خمس كلمات

4 - أنه في هذا الجزء يشرح أحياناً المعاني التركيبية لبعض الأبيات، ولم نعهد مثل ذلك في الأجزاء الماضية

5 - أنه يكتب كثيراً كلمة - صوت - على شعر لم يغن فيه، وطريقة الكتاب إلا تكتب هذه الكلمة إلا على الشعر الذي يتحدث بعدُ أنه وقع فيه غناء. . . الخ

ونحن نسلم بأن (رودلف) قد قصر في أنه لم يصدره بمقدمة وأنه لم يذكر في أي المكتبات عثر على هذا الجزء. . . الخ، ولكن هذا لا يكون حجة في أنه ليس من الكتاب إذ كل هذه الاعتبارات إنما هي مجرد ملاحظات غير محدودة، ولا تنهض دليلاً على أن الجزء ليس من الكتاب، ومن المحتمل أن يكون لكتاب الأغاني بقية لم تظهر بعد، أو تناولتها أيدي الضياع. وهاهو ذا ياقوت يتحدث إلينا في كتابه معجم الأدباء عن الأغاني ويؤيد قولنا هذا حيث يقول: (وقد تأملت هذا الكتاب وعنيت به، وطالعته مراراً، وكتبت منه نسخة بخطي في عشر مجلدات، ونقلت منه إلى كتابي المرسوم بأخبار الشعراء فأكثرت، وجمعت تراجمه فوجدته يعد بشيء ولا يفي به في غير موضع منه كقوله في أخبار أبي العتاهية - وقد طالت أخباره هاهنا، وسنذكر خبره مع عقبة في موضع آخر ولم يفعل. وقال في موضع آخر - أخبار أبي نواس مع جنان إذ كانت سائر أخباره قد تقدمت - ولم يتقدم شيء، إلى أشباه لذلك. والأصوات المائة هي تسع وتسعون. وما أظن إلا أن الكتاب قد سقط منه شيء أو يكون النسيان قد غلب عليه والله أعلم)

هذا كلام ياقوت، ومنه يحتمل أن الكتاب له بقية محتملة أو هو قد سقط منه شيء لطول العهد، وعليه فلا يبعد أن يكون الجزء المتحدث عنه هو منه، وهاهو ذا الإمام الجليل أبن منظور صاحب لسان العرب ينقل عن الجزء الحادي والعشرين في مختصره مختار الأغاني في الأخبار والتهاني منذ ستمائة عام مضت على مختصره هذا حديثاً طريفاً عن إسحاق الموصلي وغلامه زياد لم تذكر بعد إلا في الجزء الحادي والعشرين.

حديث إسحاق وزياد

إسحاق الموصلي من مشاهير الأدباء وأهل الغناء، وأخباره في كتاب الأغاني قد لا يخلو منها جزء منه، وله حكاية ظريفة وأشعار ظريفة في غلام له أسمه زياد لم تذكر إلا في الجزء الحادي والعشرين من الكتاب، وهذه الحكاية هي عماد بحثنا في أن الجزء المشار إليه هو من الكتاب، لأننا وجدنا العلامة أبن منظور نقلها عنه واختصرها منه جاء في أول الجزء الحادي والعشرين طبع ليدن والذي ادعاه رودلف ما نصه:

خليلي هيا نصطبح بسواد ... ونرو قلوباً هامهن صواد
وقولا لساقينا زياد يرقها ... فقد هز بعض القوم سقي زياد

الشعر والغناء لإسحاق، ولحنه من الثقيل الأول بالبنصر - خبر إسحاق مع غلامه زياد -
هذا الشعر يقوله إسحاق في غلام له مملوك خلاسي يقال له زياد، كان مولداً في
مولدي المدينة فصيحاً ظريفاً فجعله ساقيه وذكره هو وغيره في شعره، فمن ذكره
من الشعراء دعبل وله يقول: أخبرني بذلك علي بن سليمان الأخفش عن أبي سعيد
السكري قال: كان زياد الذي يذكره إسحاق في عدة مواضع منها قوله: وقولا لساقينا
زياد برقها) نظيف السقي لبقا. فقال فيه دعبل:
يقول زياد قف بصحبك مرة ... على الربع مالي والوقوف على الربع
صوت
أدرها على فقد الحبيب فربما ... شربت على نأى الأحبة والفجع
فما بلغتني الكأس إلا شربتها ... وإلا سقيت الأرض كأساً من الدمع
غني في البيت الثاني والثالث من هذه الأبيات محمد بن العباس ابن عبد الله بن طاهر
لحناً من خفيف الثقيل الأول بالبنصر. قال أبو الحسن: وقد قيل إن هذين البيتين (يعني
خليلي هيا نصطبح بسواد) للأخطل. أخبرني علي بن سليمان قال حدثني أبي قال: قال
لي جعفر بن معروف الكاتب (وكان قد جاوز مائة سنة) لقد شهدت إسحاق يوماً في
مجلس أنس وهو يتغنى هذا الصوت (خليلي هيا نصطبح بسواد) وغلامه زياد جالس
على مسورة يسقي وهو يومئذ غلام أمرد أصفر رقيق البدن حلو الوجه، ولا أحد يراجعه
ولا أحد يستطيع يقول له زدني ولا انقصني. أخبرني علي بن صالح بن هيثم الأنباري.
قال حدثني احمد بن الهيثم (يعني جد أبي رحمه الله) قال: كنت ذات يوم جالساً في
منزلي (بسر من رأى) وعندي إخوان لي، وكان طريق إسحاق في مضيه إلى دار
الخليفة ورجوعه منها علي. فجاءني الغلام يوماً وعندي أصدقاء لي فقال لي: إسحاق
بن إبراهيم الموصلي في الباب فقلت له: قل له ويلك: يدخل أو في الخلق أحد
يستأذن عليه لإسحاق. فذهب الغلام وبادرت أسعى في إثره حتى تلقيته فدخل وجلس
منبسطاً أنساً فعرضنا عليه ما عندنا فأجاب إلى الشرب فأحضرناه نبيذاً مشمساً
فشرب منه، ثم قال: أتحبون أن أغنيكم قلنا: أي والله أطال الله بقاءك إنا نحب ذلك
قال: فلم لم تسألوني؟ قلنا: هبنك والله قال: فلا تفعلوا ثم دعا بعود فأحضرناه فاندفع
فغنانا فشربنا وطربنا فلما فرغ قال: أحسنت أم لا؟ فقلنا: بلى والله جعلنا الله فداءك
لقد أحسنت قال: فما منعكم أن تقولوا لي أحسنت قلنا الهيبة والله لك قال: فلا تفعلوا
هذا فيما تستأنفون إن المغني يجب أن يقال له عن، ويجب أن يقال له إذا غنى
أحسنت قال: ثم غنانا صوته (خليلي هيا نصطبح بسواد) قلنا له يا أبا محمد من هو زياد
الذي غنيته قال: هو غلامي الواقف بالباب أدعوه يا غلمان، فأدخل إلينا، فإذا هو غلام
خلاسي قيمته عشرون ديناراً أو نحوها فأمسكنا عنه فقال: أتسألونني عنه فأعرفكم
إياه ويخرج كما دخل وقد سمعتم شعري فيه وغنائي. أشهدكم أنه حر لوجه الله وإني
زوجته
أمتي فلانة فأعينوه على أمره قال: فلم يخرج حتى أوصلنا إليه عشرين ألف درهم
أخرجناها له من أموالنا. أخبرني يحيى بن علي بن يحيى قال: حدثني أبي قال توفي
زياد غلام إسحاق الذي يقول فيه. وقولا لساقينا زياد يرقها، فقال إسحاق يرثيه:
فقدنا زياداً بعد طول صحبة (كذا) ... فلا زال يسقي الغيث قبر زياد
ستبكيك كأساً لم تجد من يديرها ... وظمآن يستبطي الزجاجة صاد
أخبرني عمي قال حدثني ابن المكي عن أبيه قال اصطبح محمد الأمين ذات يوم وأمر
بالتوجيه إلى إسحاق فوجه إليه عدة رسل كلهم لا يصادفه حتى جاء أحدهم به فدخل
منتشياً ومحمد مغضب فقال له: أين كنت ويلك. قال: أصبحت يا أمير المؤمنين نشيطاً
فركبت إلى بعض المتنزهات فاستطبت الموضع وأقمت فيه وسقاني زياد فذكرت أبياتاً
للأخطل وهو يسقيني فدار لي فيها لحن حسن وقد جئتك به فتبسم ثم قال هات فما
تزال تأتي بما يرضي عنك عند السخط، فغناه
صوت
إذا ما زياد علني ثم علني ... ثلاث زجاجات لهن هدير
خرجت أجر الذيل زهواً كأنني ... عليك أمير المؤمنين أمير
قال بل على أبيك. قبح الله فعلك. فما يزال إحسانك في غنائك يمحو إساءتك في
فعلك وأمر له بألف دينار - الشعر في هذين البيتين للأخطل والغناء لإسحاق رمل

بالبنصر - ورواية شعر الأخطل: إذا ما نديمي علني ثم علني، وإنما غيره إسحاق إذا ما زياد
هذه هي حكاية إسحاق التي لم توجد إلا في الجزء الحادي والعشرين من الأغاني وهي التي أقرها ابن منظور في مختصره ونقلها عنه. فهل بعد هذه الأبيات الأكيدة لقائل أن يقول إنه ليس من الكتاب في شيء!

حسن خطاب الوكيل

الأزهر وتفسير القرآن الكريم

للأستاذ محمود حسن منصور

المدرس بكلية الشريعة

لسنا بحاجة إلى القول بأن القرآن الكريم هو دستور الدين والدنيا، وأنه ينبوع الشريعة الصافي الذي يصدر عنه كل ناظر في التشريع، أو متعرض للأحكام أو منتفع بما فيه من التعاليم والآداب

لسنا بحاجة إلى أن نقول ذلك فقد فرغ الناس منه، وآمنوا عن يقين به، وما تزال الحوادث تؤيده، والأيام تعززه وتزيده قوة في النفوس، ومتانة في القلوب

ولسنا نريد أن ننكر على المفسرين الأولين للقرآن الكريم جهودهم الجبارة، ومحاولاتهم الكبيرة، وعنايتهم بتفسير هذا الكتاب الكريم، وخدمته من نواحي الفقه والبلاغة والإعراب، وغير ذلك مما تعرضوا له في تفاسيرهم، فلا شك أنهم أتوا من ذلك بما يفرضه عليهم واجبهم نحو دينهم وعلومهم، ولغة قومهم وكتاب ربهم، فأدوا رسالتهم وأبروا ذمتهم أمام الله والناس

ولو أن باحثاً عنى بأن يستعرض هذه الأسفار المختلفة، وأن يزنها بما توزن به الجهود العلمية والإنتاجات القومية لوجد من ذلك ما يملأ نفسه روعة ويملأ قلبه إعجاباً، ولجرى لسانه بألفاظ الثناء على هؤلاء العلماء، ولجزاهم عن دينهم وأمتهم خير الجزاء

كل ذلك حق لا ريب فيه تحدثت به آثارهم، وآمن به كل من تأنى له النظر في كتبهم، والبحث في مؤلفاتهم، كما آمن به علماء الأزهر

ولكنا مع ذلك لا نستطيع أن ننكر ولا يستطيع إخواننا من العلماء ولا شيوخنا منهم أن ينكروا أن لهذه التفاسير عيوباً قد إحسها الناس من زمن طويل. وقد ازداد إدراكهم لها في ذلك العصر الذي تغيرت فيه طرق الإقناع، وتنوعت أساليب البحث والتفكير، وتهيأ للعقل فيه نوع من النضوج لاشتغاله بالعلوم الكثيرة، ونظرة في الثقافات المختلفة.

فمن هذه العيوب:

أولاً: تفشي الإسرائيليات في هذه الكتب المشهورة، كما تتفشى الأوباء المهلكة حتى تجد الكثير من الآيات قد صنعت لها القصص، ودبرت لها الخرافات، فأصبح الناظر في هذه

الكتب مشغولاً بتنحيتها عن طريقه وإزالتها عن سبيله إن كان من العلماء، ومهدوا بأن تغزوه هذه الخرافات الباطلة في قرارة نفسه وصميم عقيدته، إن كان من العامة، وذلك هو السر فيما نشاهده من صعوبة مهمة العلماء المفكرين في توضيح هداية القرآن على وجهها الصحيح، وإيصالها سليمة إلى نفوس الناس

ثانياً: تخصص كثير من هذه الكتب في نواح من التفسير هي في نفسها صالحة وقيمة وطيبة ومحتاج إليها. فهذا تفسير يهتم بالنحو والإعراب، وهذا تفسير يعنى ببيان وجوه البلاغة والإعجاز، وهذا تفسير جعل مهمته التوفيق بين آيات القرآن ومذاهب الفقهاء وقلما تجد تفسيراً يفسر القرآن على نحو يشعرك بمقصده السامي، وغرضه النبيل من غرس العقائد الصحيحة السهلة التي لا تقيد فيها ولا غموض، وتبين الأحكام الناصعة الواضحة التي لا تشديد فيها ولا تعسف، وعرض التربية القرآنية الروحية والعقلية عرضاً عرضاً كريماً يتفق مع ما للقرآن من قيمة ذاتية وباعتباره كتاباً إلهياً خالداً صادراً عن الله الذي يعلم السر في السموات والأرض

ثالثاً: اندفاع كثير من المفسرين بدافع الرغبة في تأييد مذاهبهم وتوطيد عقائدهم وآرائهم إلى تخريج القرآن على آراء أصحاب المذاهب والمعتقدات، ولو كان في ذلك الإخلال بالنظم والخروج به عن الأساليب العربية المألوفة، والنزول به إلى أدنى درجات الكلام

فتراهم يقولون مذهب أهل السنة كذا، فيجب أن تؤول الآية لتطابق هذا المذهب،

ومذهب الحقيقة كذا، فيجب أن تفهم الآية على نحو يبعدها من هذا المذهب، وهذه الآية تتفق الحقيقة مع مذهب الحنفية وتخالف مذهب المالكية، وهكذا، كأن القرآن إنما أنزله الله على حساب أهل المذاهب والمعتقدات الصحيحة والباطلة على حد سواء، وكأنه إنما جعل ليقاس على المذاهب لا لتقاس المذاهب عليه

4 - هذا إلى ما تراه وتشعر به من غموض بعض التفاسير في العبارة، وتكلفها في تحميل الآيات ما لا تحمل من المعاني، وقصورها عن مجاراة العرض الحديث الذي أصبح له أهمية كبرى في نظر العلماء والباحثين، والقراء والمنتفعين

هذه عيوب نسمح لأنفسنا بأن نصفها بالخطر، ولا نظن أننا نبالغ إذا قلنا إنها نوع من الصد عن كتاب الله

وعلماء الأزهر قادرون على تلافي هذه العيوب، يستطيعون الاضطلاع بمهمة إصلاحها وذودها عن كتاب الله، وتخليصه من براثنها، وهم مطالبون بذلك بحكم عملهم، وطبيعة دراستهم، ولن تغفر لهم الأمة أي نوع من أنواع التقصير مهما قيل في تبريره من الأعذار

فأين الأثر الذي سيتحدث التاريخ عنه إلى الأجيال المقبلة عن عمل رجال الأزهر في هذه الناحية؟ أين التفسير الذي يلائم عقول العصر ولا يتصادم مع حقائق العلم، ولا يفرض في الناس الذين يطلب إليهم أن يتقبلوه هذه السذاجة العقلية التي تفرضها فيهم تلك الكتب حين تقول في تفسير قوله تعالى:

إن الملائكة قد اشتبكوا في حرب مع الشياطين كانت لهم (إلا إبليس كان من الجن) مواقع، وقد انجلت معركة من هذه المعارك عن إبليس أسيراً وهو صغير، فأخذه الملائكة، ونشؤه نشأتهم وخرجوه في دائرتهم، فكانت النتيجة أن خاطبه الله خطابهم، وكلفه تكليفهم في كل الآيات الواردة في أمر الملائكة بالسجود لآدم

ولا نفرض في الناس هذه العقول التي تستسيغ الإمعان في التخيل والإسراف في مجاراة الأوهام حين تعرض عليهم قصة من ألذ ما يتخيل، ومن أبعد ما يتصور حصوله، وأشبه ما يكون بما يعرف بحكايات (أم الغول) تعرض هذا عن تفسير قوله تعالى: (ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد. . .)

فتحدثك بأن شداد بن عاد سمع بالجنة وبنائها وما فيها فهب لبناء مدينة إرم في صحراء اليمن، وذلك بعد أن دانت له الملوك، وتم له ملك الدنيا. ولما كان يريد أن تضارع الجنة إرم أو تضاربها، بناها من ذهب وفضة وياقوت وو. . . ثم يخبرك بما كان بعد تمام بنائها الذي استمر ثلاثمائة سنة، وما كان من أمر عبد الله ابن قلابة معها، وما كان من حديث كعب مع معاوية في شأنها

ويطول بي الحديث إذا عرضت لك غير هذا من تلك الخرافات والخيالات التي ملئت بها كتب المفسرين المشهورة

فإذا كانت الأمة قد أحست حاجتها الماسة إلى وضع معجم لغوي بسيط أو وسيط فكلفت بذلك مجمع اللغة الملكي، فهو يحشد له قوته ويعد له عدته، وسيخرج به على الناس إما قريباً أو بعيداً، فالأمة أيضاً بحاجة إلى من يسد مثل هذه الثغرة في التفسير، فيكون لها

تفسير يرتضيه العلماء وتتداوله الأيدي، ويحصل الناس منه على ما يبتغون من تفهم هداية القرآن واجتلاء محاسنه، والانتفاع بتعاليمه ومبادئه

وللإمام المراغي في ذلك ما يصلح بحق أن يكون نموذجاً يحتذي ومبدأ يتبع، ظهر به على الأمة في دروسه الدينية، فقد تناول الآيات التي شرحها من جميع نواحيها الجديرة بالنظر، فجلا معانيها وراض صعابها، وكشف عن محاسنها وهدايتها، وذلل مشكلاتها العلمية فأخرجها سائغة سهلة سليمة متقبلة، وعرضها عرضاً يشرح النفس ويصل إلى القلم. إلا أن للأستاذ الإمام المراغي من مهام منصبه الخطير ما يشغله عن موالاة ذلك

إن اليوم يقوم فيه العلماء بهذا العمل الجليل هو اليوم الذي يثبتون فيه للأمة عملياً جدارتهم برسالتهم التي يحملون، والذي يدفعون به عن أنفسهم تلك السهام المصوبة إليهم من أصدقائهم وخصومهم

فإن لا يكن هذا فلا أقل من أن يختار من تلك الكتب أكثرها نفعاً وأدناها إلى الصلاح فيتقدم له من يعلق عليه بما يميز طيبه من خبيثه، ويبين صالحه من فاسده، وينبه على ما فيه من أخطاء علمية أو خرافات باطلة، ويضمن ذلك التعليق القول في الناحية أو

النواحي التي تتضمنها الآية وغفل عنها المفسر
وبذلك يبقى الأصل وينتفع الناس بما فيه من علم نافع ويتقون شر ما فيه من خرافات وأوهام تفسد دينهم، وتضعف يقينهم.
إن التبعة الملقاة على علماء الأزهر خطيرة، والمسؤولية التي عليهم أمام الله والناس عظيمة، وواجبهم نحو كتاب الله غير هين، وذلك أقل مجهود يبرئون به ذممهم، ويخدمون به دينهم وأمتهم
أما أن نكتفي بالقول بأنا أعلم الناس وكتبنا خير الكتب، ودراستنا أجود الدراسات، فهذا ما لا تلقى به التبعة، ولا تنتفع به الأمة. فالعمل العمل إن كنتم جادين
محمود حسن منصور
العروب في العراق
للأستاذ ميخائيل عواد
في المؤلفات التاريخية والبلدانية نواح متعددة ما زال يعتورها شيء كثير من الغموض، يعود بعض أسبابه إلى تساهل أصحاب تلك المؤلفات في تدوين الأخبار تدويناً يفي بالمرام ويدفع الشك، كأن يورد المؤلف أخباراً أو أوصافاً دون أن يتقصاها، لاعتقاده أنها من الأمور المعروفة التي لا تحتاج إلى الشرح والتدليل
من ذلك ما صادفناه لدى بحثنا في نوع من الطواحين القديمة، التي كانت تسمى (العروب) وقد شاعت كثيراً في العراق والجزيرة وبعض ما يجاورهما من البلدان.
وكان البدء في استعمالها يرجع إلى ما قبل العصور الإسلامية، ثم رافقت هذه العصور عدة مراحل حتى أدركت القرن السادس للهجرة، فقل عددها لتواتر النكبات عليها وخف استعمالها فلم يبق منها إلا آحاد مبعثرة في الفراتين وبعض ما يتشعب منهما.
وقد أمكننا حين تتبعنا المراجع العربية القديمة الوقوف على بعض ما يوضح شيئاً من أمرها.
العروب في معاجم اللغة
لم يدر بخلد أحد من أصحاب المعاجم القديمة خاصة تحقيق منشأ كلمة عروب، إنما كان اتفاقهم على تعريفها فقط
فقد جاء في (تاج العروس) أن (العربات: سفن كانت بدجلة، النهر المعروف، واحدتها عربة)
وما ورد في (لسان العرب لابن منظور) لا يتعدى ما ذكره التاج
وزاد صاحب القاموس عليهما في تعريفها بأنها: سفن (رواكد) كانت في دجلة
وقال في مادة عربة إنها: (النهر الشديد الجري) وقوله هذا يتفق وما ذكره من كان قبله أي صاحب الصحاح
هذا جل ما ورد في المعاجم القديمة بشأنها، وأما المعاجم الجديدة منها، فقد رأينا أن ما ذكره (محيط المحيط) و (البستان) و (أقرب الموارد)، لا يتعدى التعريف المذكور في المعاجم القديمة
وأحسن المعاجم الجديدة التي أعطت للكلمة ما تستحقه من العناية والدقة هو (المعجم المساعد)؛ فقد جاء بأنباء جلية من منشأ كلمة العروب؛ فهو يقول: (العربة: بمعنى الرحى، إرَمِية وتسمى (أسونا)؛ ومنها أخذها عوام الموصل فقالوا أسناية)
وقال في مكان آخر: الأسناية: بفتح الهمزة، وقد تكسر؛ هي بالصابئية (أسنايا)، وهي رحى الماء يحرك آلتها أجنحة، وكثيراً ما كانت تقام في جوار الفراتين أو ما يتشعب منهما، وهذه الكلمة من أصل عربي، من سنيت الدابة: استسقى عليها)
ومما قاله أيضاً: ويحتمل أن تكون (عربة) معربة من هي في الرومية
وما يحسن ذكره في هذا الموضوع ما قاله صاحب التاج: (الفيلخ كصيقل، وهي الرحى أو إحدى رحى الماء واليد السفلى منهما، ومنه قوله: ودرنا كما دارت على القطب فيلخ)
وقد جمعت عربة على عربات وعرب، وجمعت الأخيرة على عروب وزان قلوب، وهي جمع الجمع
العروب في كتب وصاف البلدان
قد يكون الرحالة بن حوقل هو الوحيد بين قدماء الكتبة الذين تكلفوا بتفصيل هذه الطواحين بقوله: (. . . وكان بالموصل في وسط دجلة مطاحن تعرف بالعروب، يقل

نظيرها في كثير من الأرض، لأنها قائمة في وسط ماء شديد الجرية، موثقة بالسلاسل الحديد، في كل عربة منها أربعة أحجار، ويطحن كل حجرين في اليوم والليلة خمسين وقراً. وهذه العروب من الخشب والحديد، وربما دخل فيها شيء من الساج. وكانت بلد، المدينة التي عن سبعة فراسخ منها عروب كثيرة دارت أعمالاً وجهازاً إلى العراق فلم يبق منها شؤم ابن حمدان ولا من أهلها باقية)

ثم تطرق إلى الكلام عن العروب في غير مدينة الموصل، قال: (وبمدينة الحديثة منها عدد تعمل في وسط دجلة، وقد ملك بنو حمدان متاعها حسب ما ذكرته من حال الموصل وسائر ديار ربيعه، وارتفاعها نحو خمسين ألف دينار، وكان بالفرات الرقة (وقلعة جعبر) ما لا يداني هذه العروب ولا ككثرتها، وبمدينة تفليس في الكر منها شيء به تقوم أقوات أهل تفليس، وهي دونها في الفخم والعظم، وبتكريت وعكبرا والبردان منها شيء باق. ولم تبق بركة بني حمدان بالموصل إلا ستة أو سبعة منها (كذا. والصواب ست أو سبع)، وليس (ببغداد شيء منها

ثم عاد إلى ذكر العروب في تفليس أثناء كلامه على هذه المدينة فقال: (تفليس. . . وهي على نهر الكر ولها فيه عروب يطحن فيها الحنطة كما تطحن عروب الموصل والرقة وغيرها في الدجلة والفرات)

وأشار ياقوت إلى العروب قائلاً: (العربات ومفردها عربة، وهي بلغة أهل الجزيرة: السفينة تعمل فيها رحى في وسط الماء الجاري مثل دجلة والفرات والخابور، يديرها شدة جريه، وهي مولدة فيما أحسب)

وتطرق القزويني إلى ذكرها بقوله: (. . . وأهل الموصل انتفعوا بدجلة انتفاعاً كثيراً مثل شق القناة منها ونصب النواعير على الماء، يديرها الماء بنفسه، ونصب العربات، وهي الطواحين التي يديرها الماء في وسط دجلة في سفينة وتنقل من موضع إلى موضع)

العروب في كتب التاريخ والأدب

لعل أول نبأ بلغنا عن العروب في المراجع التاريخية، هو ما ذكره الشابشتي في كتابه (الديارات) لدى كلامه على دير ماجرجس، والدير الأعلى

قال في الأول: (هذا الدير بالمزرفة (قرية كبيرة فوق بغداد على دجلة بينها وبين بغداد ثلاث فراسخ، وهي قريبة من قطربل) وهو أحد الديارات والمواضع المقصودة. والمتنزهون من أهل بغداد يخرجون إليه دائماً في السميريات لقربه وطيبه، وهو على شاطئ دجلة. والعروب بين يديه، والبساتين محدقة به. . .)

. . .وفي الثاني: هذا الدير بالموصل، يطل على دجلة والعروب، وهو دير كبير عامر

وفي حوادث سنة 363هـ حين استيلاء بختيار بن معز الدولة ابن بويه على الموصل، يذكر ابن الأثير في (الكامل) ما نصه:

فسار (بختيار) عن بغداد، ووصل الموصل تاسع عشر ربيع الآخر ونزل بالدير . . .) الأعلى، وكان أبو تغلب بن حمدان قد سار عن الموصل لما قرب منه بختيار، وقصد سنجار وكسر العروب، وأخلى الموصل من كل ميرة

وهذه الرواية توافق ما نقله القلقشندي عن نسخة كتاب كتبه أبو إسحاق الصابي عن عز الدولة بن بويه إلى المطيع لله عند فتح الموصل، وهزيمة أبي تغلب بن حمدان - فقد قال:

وكان انهزامه (أبي تغلب) بعد أن فعل الفعل السخيف، وكادنا الكيد الضعيف، بأن) أغرق سفن الموصل وعدوتها، وأحرق جسرها واستذم أهلها. . .)

وأورد الخفاجي في شفاء الغليل ما ذكره ياقوت، ومما زاد عليه قوله: (. . . وأنا لا أدري هل المركب المسمى عربة أخذ من هذا، أو هو غير عربي وهو الظاهر)

وجاء في حاشيته - لنصر الهوريني المعتنى بطبعه - قائلاً:

(من معاني العربة في اللغة: النهر الشديد الجرية، ففي هذا الإطلاق تجوز)

وقد أشار إليها الخوارزمي في مفاتيح العلوم بقوله: (العربة طاحونة تنصب في سفينة وجمعها عرب)

ومما ورد في ديوان الأدب للفارابي قوله: (لعروبة دوار، أي ماء تدار به)

الخلاصة

نخرج من هذا المقال إلى أن هذه الطواحين كانت تقوم على سفن متجاورة يتخللها مضايق ينحبس فيها ماء النهر، وقد نصبت فيها دواليب ذات عنفات؛ تدور بتأثير الماء الشديد الجرية وتقوم هذه الدواليب بتدوير دواليب أخرى متصلة بالضرائر أي أحجار الطواحين.

ويؤيد هذا ما ذكرته مجلة (لغة العرب) أن العربة هي الرحى التي تكون في السفينة في الماء، ليطحن بها القمح أو يعصر بها البزر أو يستخرج بها الزيت؛ ولها دولاب، وللدولاب زعنفات يضربها الماء فتدير الرحى، وهي بالإفرنجية

لا شك أن تلك السفن كانت كبيرة بحيث تستوعب المقادير العظيمة والحبوب، وقد كانت الشبارات والزبازب والسميريات وغيرها من وسائل النقل النهرية وقتذاك في ذهاب وإياب، تقوم بنقل الناس مع أوقارهم إلى هذه العروب. ولا غرو إن كان دجلة والفرات عند جريهما بين يدي تلك البلدان الشهيرة بهذه العروب؛ يزدحمان بهذه السفن ويزخران بحركتها المتواصلة.

(بغداد)

ميخائيل عواد

من وراء المنظار

صاحب الديوان المتمرد

لست أدري أثورة روحه أعظم من ذكاء عقله، أم أن ذكاء عقله أرجح ،كفه من ثورة روحه؟ فهو أن أردت فيه كلمة حق ذكي ملتمع الذكاء ثائر ملتهب الثورة، وهو فتى في ربيع الحياة لم يعد فيما أظن الثالثة والعشرين من عمره

رأيته أول ما رأيته هادئاً كالطفل الذي يحلم أحلام نفسه الغريرة، ولكني لم ألبث أن وقعت منه على ثائر تأكل ثورته أعصابه وتحرق دمه في غير هوادة ولا إبطاء. على أنني رأيت من عذوبة روحه مع ذلك ما جعلني أعجب كيف يجتمع مثل هذا التمرد الصاخب ومثل هذا الظرف الفكه في نفس واحدة! وإن أسارير وجهه لتتشكل بما يجري في نسفه فتكون صفحة محياه كسماء (أمشير) لا تصفو حتى تتجهم، ولا تتجهم حتى تنقشع من رقعتها الغيوم. دنوت منه ألتمس حل مسألة عنده، وما أكثر ما تدفعني المسائل دفعاً إلى أصحاب الديوان! وما يثقل شيء على نفسي مثل أن التمس معروفاً عند صاحب ديوان كبيراً كان أو صغيراً صديقاً كان أو لا يربطني به سبب من معرفة، وأنا وإن كتبت عن أصحاب الديوان ما أكتب وأنا مطمئن في حجرتي ولدي مكتبي، ليركبني الخوف ويتملكني الحياء وتأخذني الربكة من جميع أقطاري كلما دخلت حجرة أحدهم لأحادثه في أمر جل أو هان، حتى لو كان لتحية. وسبب ذلك لا يزال مجهولاً عندي، ولن يزداد على الأيام إلا غموضاً وخفاء!

وأقبل على صاحب الديوان هاشاً مرحباً، وترك أوراقه كلها جانباً، وأخذ يستمع ألي. ولم أكد أستعيد توازني أو أسترد مواقف دفاعي كما يقول المتحدثون عن الحرب في هذه الأيام، حتى قطع علي الكلام ومال بالحديث عن مجراه ودفعه في شؤون كثيرة لا علاقة لها ألبته بما جئته من أجله. وأخذ يتحدث ثم يتحدث، وكل حديثه شكوى، وهو لا يكاد يقع على أمر حتى يطير عنه إلى غيره - لا يعني متى يطير ولا أين يقع - فللمحسوبية نصيب من حملاته، ولعدم إخلاص الناس في أعمالهم بعض سهام لومه، وللحرب القائمة والمسئولين عنها جانب من غضبه، ولفوضى الأخلاق قدر كبير من صخبه، ولتقلب الجو قسط من

تهكمه تجلت فيه براعة مقارنته بين أخلاقنا وطبيعة جونا؛ وللفن والأدب والتعليم وغيرها من الأمور مما لا يسعنا حصره، كثير من غمزاته والتفاتات ذهنه. . . كل أولئك وأنا مصغ أسلم على طول الخط بكل ما يقول، لا أخالفه ولا أراجعه عله يفرغ فالتمس السبيل إلى موضوعي من جديد، ولكن ثورته كانت كالسيل الجارف لا يلوى على شيء. . . وكان يدخل أثناء الحديث كثير من الخدم، فيقدمون إليه أوراقاً، فيأخذها ويضعها على غيرها من الأضابير دون أن ينظر فيها، فإذا أشار أحدهم إلى أن فيها ما تستعجل الإجابة عنه صرفه بقوله: (قل له حالاً. . . دقيقة واحدة). ثم عاد إلى حديثه، فجرى فيه على غير تحبس أو ملل

وجاء بعض زملائه يستعجلونه أوراقاً، وكان يلتفت بعضهم ألي قائلاً: (لا مؤاخذة يا بيه)

كأنما كنت أنا سبب ما يشكون من عطلة، وهو منصرف عنهم بحديثه لا يزيد على أن ستمهل من يستعجله منهم دقيقة؛ ثم يستأنف حديثه وهو أنشط وأهدأ بالاً مما كان!
وانتهزت فرصة فعبرت له عن اعتذاري، وقد غالطت نفسي ونسبت إلي أنا السبب في ضياع هذا الوقت كله، وفهم صاحب الديوان إشارتي، فابتسم وقال: (لا. . . العفو يا أخي، لازم كلامي لم يتشرف برضاك). . . ونفيت ذلك بكل ما أملك من معاني التأكيد ومضيت أثني على حديثه بكل ما وسعني من عبارات الثناء، فاطمأن قليلاً، وسكت هنيهة ثم قال: (أنت عاوز الحق؟ الواحد هو بيشتغل على قدر القرشين بتوعهم) ولم أستطع أن أرد على ذلك القول الذي يتضمن السكوت عليه نوعاً من الاشتراك في الأخذ بما يدعو إليه، وما كان سكوتي إلا لأعود إلى موضوعي، وقد عقدت العزم على أن أعود إليه بأي ثمن
وبلغت ثورته أقصاها إذ تداعت إليه من هذا الكلام قصة الأقدمية، فراح يشكو في ألم واضطراب من أن الترقي بالأقدمية معناه أن يتساوى المجدد والمتكاسل والذكي والغبي والكفء والعاجز. فالمسألة مسألة زمن فحسب، ومتى مرت الأيام صار الموظف بحكم الزمن وحده كفؤاً مهما كان من عجزه وتقصيره. فما معنى أن يجهد المرء نفسه إلا أن يكون (عبيطاً) وهو لا يدري (عبطه)؟ وضرب المثل بنفسه: فهو يحمل شهادة عالية ورئيسه من حملة الابتدائية. وضحك صاحب الديوان وقال: (يعني أبدأ جحشاً ثم يمر الزمن فأصبح حماراً، وعند ذلك أصير أهلاً للرقي)
وكان موعد انصراف أصحاب الديوان قد حان فنهض ومد ألي يده ضاحكاً وهو يعبر عن أسفه لأن الوقت لم يتسع لموضوعي ويدعوني للحضور مرة أخرى.
الخفيف
في سبيل الأزهر أيضاً
الصراحة لغة الحق
للأستاذ حامد عوني
لقد عودنا الأستاذ النابه صاحب الرسالة الغراء في مطالع رسالته المشرقة أن يميط لنا اللثام عن وجه الحقيقة، وأن يسمعنا من حين لآخر صيحة الحق في غير مواربة ولا مراءاة، وذلك ما دعاني أن أتقدم إليه بكلمة هي وليدة هذا المبدأ الكريم رجاء أن يفسح لها مكانها من رسالته كما فسح لغيرها من صيحات الحق وله بعد ذلك شكر الله والناس
كان العرب - وهم في جاهليتهم الجهلاء - قوماً شبوا في أحضان البداوة الجامحة، ونشأوا في كنف العيش الجاف والحياة الشاردة، وكانوا إلى ذلك لا يدينون بغير القول الصراح، واللفظ المحسور اللثام، لا يعرفون فيه زيفاً أو مراوغة، ولا في أدائه عبثاً أو مهاودة حسبما تمليه عليهم طبيعة البادية، وتوحي به الشهامة العربية
وعلى هذا المنوال من القول نسج الإسلام رايته، وعلى غراره أدى رسالته، فعمت دعوته جميع الأرجاء
وهكذا كان القول الصريح في قديم العهد وحديثه مظهراً واضحاً في أكثر الأمر من مظاهر الحق، ومخباراً صحيحاً لصدق لغضبة له والذياد عنه، ودليلاً ناصعاً على قوة الأيمان به وفناء العقيدة فيه، ومحك صدق للبطولة والشهامة
ولكن - والأسف يحز في الأحشاء - درج أناس على أن يساوموا في الحق، وشبوا يستمرئون حياة المداراة والمصانعة، ويستسيغون مخزاة التواري عن وجه الحقيقة السافرة. فإذا ما استعدت الحقيقة أحدنا على المساومين فيها فأعداها، وأهابت به أن ينافح عنها فأجابها؛ قالوا: هذا باطل من القول وزور، وقالوا: هذا دفع لم يقصد به وجه الحق، وقالوا: غير ذلك مما أوحت به حفائظ الصدور لا لسبب - شهد الله - سوى التجرد لمواجهة الواقع الملموس، والجهر بما لم نستطع الهمس به، والإقرار في صراحة بما أعوزتنا الشجاعة فيه
إذا لم يتهيأ لنا - ونحن نعاني كمين الألم الصارخ - أن نضع أيدينا على الداء جزعنا أن نرى أحدنا يتوجع لنا، ويستصرخ الأساة لتضميد جراحنا. ومن ذا إذاً يرسل الآهة مدوية غير نفثة المصدور، وزفرة المكروب؟ وأي منا لم يقع في شرك هذا البلاء وتمني الخلاص

منه؟
ما كان لنا (علم الله) أن نستخذى أمام الحق ونتوارى عن الواقع المحس ما دمنا في البلية سواء
هذا لعمري موطن ضعف صحبنا منذ عهد بعيد. نحس بالألم ونتضور له ونحن مع ذلك نؤثر أن نستسلم للداء على أن نجأر بالشكاية منه والتخلص من شره. يا للعجب! متى نشجع فنثور على هذا الداء، ونطهر نفوسنا من أوضاره، ونكاشف العقول بويلاته فتتمكن يد الإصلاح من تعرف مواطن العلة فتضع الهناء مواضع النقب؟
قد يبدو لأحدنا أن في استقصاء بعض الداء وعرضه داعية للشماتة، ومثاراً للمتحفزين للوثبة، والقاعدين بكل مرصد؛ فنقول له: على هينتك. مرحباً بهذا الإشمات وأهلاً بهذه الإثارة؛ فكلاهما عامل من عوامل الإصلاح، وحافز من حوافز الأخذ بأسباب التقصي من العيب، والتبري النقص. وهاهي ذي معاهد العلم في مختلف الممالك لن تجد من بينها ما لا يشكو من عيب في بعض نواحيه مهما سمت مناهج التعليم فيه.
فليس من العيب إذاً أن نكشف عن أدوائنا بغية العمل على استئصالها أو تخفيف ويلاتها. إنما العيب والعار، بل ومن الخطر أن نرحب بالداء ونتحضن به ونطوي عليه كشحاً وهو لا يألونا عنتاً، ولا ينى أن يسومنا إرهاقاً، وقد قالوا: (من كتم الطبيب داءه هلك)
وبعد، فخير لنا أن نكون صرحاء فيما نقول، أحراراً فيما نرى، بواسل في مواجهة الحقائق فلا نستخذى ولا نستبطن ولا نرائي ولا نصانع فتلك صفات لا يعترف بها دين. ولا يقرها عرف، ولا يتسم بها فاضل.
وإذا أعوزنا المثل الأعلى للرأي الحر والموقف الصريح الحازم فلنلتمسه في (ساعة الأستاذ الزيات مع الأستاذ الأكبر) ففيها المثل الكامل والقدرة الصالحة
هذا ونحمد الله سبحانه أن وجد في صفوفنا من برز إلى الميدان، ورفع الصوت عالياً في حزم واتزان. وهذا ما ينبغي أن يكون عليه حالنا؛ فالصراحة سيف لا يرتفع الحق إلا على شباته، ومرآة لا تتكشف الحقيقة إلا على شعاعها.
(مصر الجديدة)
حامد عوني
المدرس بمعهد القاهرة
مسكن الفلاح
للأستاذ عباس قطر مصطفى
أستاذ هندسة الريف بمدرسة الزراعة بمشتهر
المصريون سليلة بنائية، وآثارهم في العمارة والإنشاء قبلة أنظار عناصر البشر المختلفة. . . هي فتنة العلم والفن، تكشف عن سحر عظمة مصر في زمن مضى وتولى. . . إنها توقظ الكبرياء القومية في قلوبنا وتحي الآمال في نفوسنا
حقاً قد كانوا يوجهون الجزء الأكبر من مجهودهم الإنشائي نحو القبور والمعابد لاعتقادهم البعث والنشور. . . ولكن. . . لم يكن لأدق بل ولأبسط شئون الحياة أن تجد سبيلاً للهروب من بحثهم ودراستهم وتنفيذهم. . . لذلك لم يفتهم أن كانوا العنصر البشري الأول الذي اكتشف مباني الريف من سكن ومخازن وحظائر للمواشي ومعامل للتفريخ الصناعي. . . بل وعمل على التطور بها إلى حد يشعرنا بالعظمة ويدعونا للإعجاب
لنقصر موضوعنا الآن على مسكن الفلاح. . . ولنر أولاً ماذا فعل أجدادنا به، وما هو عليه الآن، ثم ما نحن به فاعلون
أولاً - نشوء المسكن وتطوره:
فكر المصري الفطري الأول في ضرورة الاحتماء بمأوى له، فكان يجمع قطعاً من المواد الصلبة (كالأحجار وقطع الطين الجافة) على الأرض فوق بعضها البعض بشكل مخروط مفرطح ينام خلفها ليلاً لتحجب عنه تأثير هبوب الرياح
ثم وجد أنه من الأوفق أن ينام داخل هذا المأوى، واستحال عليه ذلك بهذه المواد التي يستعملها لتعذر تجويفها مع احتفاظها بالتوازن وما لبث أن قادته عقليته إلى استبدال مثل هذه المواد بمادة أخرى لينة تشبه ما يصنع منه مأوى الأعراب الآن. وبذلك تكون أول شكل للخيمة. . ركز رأسها على فرع شجرة وشد جوانبها إلى الأرض بالحبال

والأوتاد، وجعل لها باباً في اتجاه هبوب الريح
وكان تأثير هبوب الريح في هذه الحال العبث بمأواه هذا، فوضع حاجزاً من القصب أمام فتحة الباب ليكسر من حدة هذا الهبوب. تغلب بذلك على مقاومة الريح، ولكن أطفاله وحيواناته الأليفة كانت تخرج من المأوى وتضل الطريق، فعمد إلى هذا الحاجز فجعله
سياجاً يحوط مأواه من الجهات الأربع وجعل فيه باباً للدخول والخروج.
أراد بعد ذلك أن يستغل الفضاء بين محيط السياج وبين محيط مأواه لغرض توسيعه فشد بالحبال جوانب الخيمة رأساً إلى جوانب السياج بعد استبدال مادته الضعيفة بأخرى أقوى منها وهي الطين.
ثم نزع غطاء المأوى الرخو واستبدله بآخر صلب فجعله قصباً وأحطاباً ترتكز من وسطها على جذع شجرة فصار أشبه شيء (بالعرشة) بذلك أتخذ المأوى أول شكل عادي مألوف لسكن الفلاح الحالي.
وهذان شكلان آخران أيضاً لمسكن فلاح مُحَسن، منقول أحدهما عن نموذج موجود بالمتحف المصري، والآخر عن نموذج موجود بالمتحف البريطاني. ويتركب الأول من غرفتين وحوش مكشوف به سلم يؤدي إلى السقف. وللسطح ثلاثة حيطان، تعلوها تغطية ترتكز على عمود من برعم اللوتس مبني فوق الحائط الذي يفصل الغرفتين عن الحوش.
ويتكون الثاني من حوش مكشوف يطل عليه باب غرفة ونافذتها المحلاة بعمود من زهرة اللوتس، وإلى اليسار بوابة بالمتحف البريطاني مفتوحة تؤدي إلى سلم ينحصر بين الغرفة وحائط الحوش، ويصل إلى سقفها حيث يوجد مقعد صغير له فتحة صغيرة أيضاً بمثابة نافذة لها.
ثانياً - حاله الآن:
وصل مسكن الفلاح على أيدي أجدادنا ومنذ آلاف السنين إلى هذه الحال، فما هي التحسينات التي أدخلت عليه منذ هذا الأمد السحيق؟!. . . إذا استثنينا النادر - وليس للنادر حكم - فاللهم لا لشيء!!. . .
المسكن الحالي للفلاح رديء بأوسع ما في هذه الصفة من معنى. ليس وافياً بالغرض المنشأ من أجله. لا تجد فيه أعمالاً صحية مناسبة للريف لتوفير السبل المعقولة للتهوية والإضاءة والتدفئة والنظافة والتصريف. فغدت صحة الفلاح تبعاً لذلك عرضة لكل مرض. ولم يراع في هندسته الترتيب والتنسيق المناسب للريف، فغدا كتلة جامدة من الفوضى والتشويش لا تساعد على رفع المستوى الاجتماعي لساكنه، بل هي لا تساعد إطلاقاً على تكوين أي مستوى اجتماعي
ثالثاً - ما يجب أن يكون عليه مسكن الفلاح:
لندع الآن دراسة تفاصيل المسكن الحالي للفلاح لنرى بإيجاز ما يجب أن يكون عليه مستقبلاً؛ وسيكون ذلك من تلقاء ذاته نقداً وافياً لأي مسكن حالي
(أ) من حيث الوضع
يجوز بناء مسكن الفلاح منعزلاً عن مسكن جاره زيادة في قوة التهوية والإضاءة؛ والأغلب بناء المساكن متلاصقة بهيئة صفوف توفيراً لمساحات الأرض وتكاليف الإنشاء، اتجاهها (بحري - قبلي) حتى تتسلط أشعة الشمس على المسكن طيلة اليوم
(ب) من حيث مادة البناء
استعمل قدماء المصريين غنيهم وفقيرهم (الطوب الأخضر) في جميع مرافقهم الدنيوية لملاءمته لجو مصر، ولكونه موصلاً رديئاً للحرارة، ولسهولة الحصول عليه ورخص تكاليف البناء به، كما نستعمله الآن، وتستعمله أيضاً بعض الولايات الأمريكية وفي الواقع يصح استعمال الطوب الأخضر كمادة بنائية للحيطان في الوجه القبلي وأغلب بقاع الوجه البحري لندورة الأمطار بشرط التأكد منه والعمل على عدم تأثير الرطوبة الأرضية فيها. بل ويمكننا القول مع شيء من الجرأة بجواز تعميم البناء بالطوب الأخضر حتى في شمال الدلتا بشرط عمل (رفرفة) مناسبة للأسقف و (لدروة) حائط الحوش مع تغطيتها (بدكة) جيدة للريف من خراسانة الجير والحمرة، وبشرط طلاء الحوائط بمونة جربتها بنفسي وهي (مونة) الجير والساس والتي ألح في طلاء جميع مساكن الفلاحين على الأقل بها في أية بقعة. فهي نظيفة قوية لا تحتاج إلى

الترميم مثل (مونة) الطين ولا تمتص الرطوبة الموجودة في الجو ولا تسمح كالطلاء بالطين ببقاء وتوالد البق والبراغيث على سطحه الخشن وبين الشقوق الدقيقة فيه خصوصاً أن البراغيث وسيلة لنقل الطاعون

هذا وتكون أرضية الغرف من (دكة) خراسانة الجير والحمرة أيضاً بارتفاع 15 سم عن سطح الأرض

ولا يفوتنا ونحن في صدد الكلام عن مادة البناء أن نعنى بانتخاب أنواع الأخشاب المصرية الصالحة لأعمال الإنشاء الهندسية، وبالعمل على الإكثار منها لنعتمد عليها في عمل الأسقف

والنوافذ والأبواب ليعتمد الريف على الأقل على مواده الخاصة من جهة، ولزيادة التوفير من جهة أخرى، خصوصاً والأحوال الدولية المضطربة تعوق دون وصول الكفاية منها بثمن يتناسب مع سياسة الاقتصاد في الريف

من حيث الفكرة المعمارية (ج)

بتركيب المسكن العادي للفلاح الذي له زوجة وطفلان أو ثلاثة من غرفتين، ويجوز إضافة غرفة أخرى إذا كان عدد أفراد الأسرة أكثر من ذلك. وأبعاد الغرفة حوالي 3. 5 متر في الاتجاهات الثلاثة، بها باب ونافذة صحية واحدة على الأقل، وأمامها حوش له باب عمومي نصفه مغطى بمضلة تحتها مرحاض (يجوز استعماله حماماً)، ونصفه الآخر مكشوف

ولا مانع من الوجهة الهندسية الإنشائية من وضع حظيرة المواشي التابعة له بمسكنه. والشكل يبين قطاعاً أفقياً لأحد النماذج الاقتصادية، والتي هي وسط بين النوع المتصل والنوع المنفصل

من حيث السياسة الصحية (د)

(1) التهوية الطبيعية:

يجب وجود نافذة واحدة على الأقل في كل غرفة يكون الجزء السفلي منها قريباً ما أمكن من الأرضية (حوالي 1 متر) لدخول الهواء النقي إلى الغرفة ويكون الجزء العلوي منها قريباً ما أمكن من السقف (حوالي 12 متر) لخروج الهواء الفاسد من الغرفة إذ أن الثاني أخف في الوزن من الأول، ولا مانع من رفع مستوى نافذة الغرفة الكبيرة بعض الشيء؛ وذلك لقربها من نافذة الغرفة الكبيرة للمسكن المجاور. وهذه الطريقة تجدد من تلقاء نفسها هواء الغرفة بانتظام وبصفة مستديمة

(2) التدفئة:

تزود إحدى الغرفتين ولتكن الغرفة (2) بفرن عرضه حوالي 2 متر فتحته من الحوش للنظافة وهذا فضلاً عن استخدامه في (الخبز) وفي مرافق المسكن الحيوية الأخرى، يمكن تزويده بفرعين من مواسير الفخار المتين محكمة الاتصال، أحدهما فتحته من الخارج ويمر (بالشاروقة) إلى أعلى حيث تكون فتحته الأخرى في الحائط داخل الغرفة، ويركب على كل من الفتحتين قرص ثابت مثقوب بشكل خاص، وآخر خلفه يتحرك بمقبض صغير مثقوب أيضاً بنفس النظام، ويمكن بواسطتهما إغلاق الفتحة في غير وقت الاستعمال. وبمرور الهواء الخارجي خلال هذا الفرع ترتفع درجة حرارته بمروره داخل الماسورة في الشاروقة ثم يدخل الغرفة دافئاً. وبذلك يمكن تدفئة هواء الغرفة شتاء إلى الدرجة المطلوبة وبطريقة صحية

أما الفرع الآخر من المواسير فله شعبتان: أولاهما في الشاروقة أيضاً، وتنتشران داخل سقف الفرن أفقياً حتى نهايته حيث تتجمعان إلى شعبة واحدة تتجه رأسياً إلى أعلى حيث فتحتها خارج الغرفة مركب عليها مثل القرصين السابقين. ويخرج من هذه الفتحة دخان الفرن. وبهذه الوسيلة يمكننا تدفئة سطح الفرن أيضاً للنوم عليه شتاءً

ولا يفوتنا ونحن عند هذه النقطة أن نعمل على عدم وجود الأحطاب والقصب وما أشبه ذلك داخل المسكن أو على السطح منعاً للخسارة في الأنفس والمتاع. وما حريق شباس وغيره منا ببعيد.

(3) الإمداد بالمياه:

يجب تزويد مجموعة المساكن بمياه صالحة للشرب وأبسط طريقة للريف صهريج

عال نوعاً تملؤه مضخة، له عدة مواسير متجهة إلى أسفل مركب عليها صنابير يأخذ الفلاحون منها كفايتهم. وإذا أردنا الكمال توصل المياه إلى كل مسكن بفرع واحد مركب عليه صنبور وصمام لحجز المياه

على أن تختبر هذه المياه قبل استعمالها بالتحليل للتأكد من صلاحيتها للاستعمال ويختار موضع تركيب المضخة في طريق المياه الجوفية إلى مجموعة المساكن، وعلى مسافة منها لا يقل بعدها عن 200 متر حتى لا تتلوث بمياه تصريف خزانات المساكن أو السوائل التي تتشربها التربة من حظائر المواشي وما أشبه ذلك

4 - تصريف الفضلات:

لما لم يكن بد من تصريف فضلات السكان فأن اصح طريقة استعمال خزان التحليل توجد في الفضلات بكتريا ومكروبات متنوعة منها أنواع مفيدة لأغراض تحليل المادة العضوية، وهذه تعيش في شروط غير هوائية؛ فيجب إذاً توفير هذا الوسط لها ليتم التحليل من جهة وتتكاثر هذه الأنواع وتبيد الأنواع الأخرى الضارة من جهة أخرى وهي غالباً لا تعيش إلا تحت شروط هوائية، لذلك يجب وضع تصميم الخزان بحيث يكون سطح السائل فيه قريباً ما أمكن من سقفه

ويعمل هذا الخزان من خراسانة السمنت ليبقى أمد الدهر سليماً جيداً. ويجوز عمله بالطوب الأحمر البلدي على سبيل الاقتصاد مع تغطيته بطلاء من (مونة) السمنت والرمل. وتصمم سعة الخزان على أساس أن كل فرد يخصه منها ثلاثة أعشار المتر المكعب. وأقل أبعاد ممكنة له هي بالتقريب: طول 2 متر وعرض 1 متر وارتفاع 1 متر وتكفي سعته لتصريف فضلات أسرة مكونة من 6 أشخاص

تدخل الفضلات إلى الخزان بميل حوالي 2 سم للمتر فوق القاع بحوالي 45 سم حتى لا تضطرب الفضلات الموجودة ولترسب الفضلات الداخلة على القاع حتى تتحلل وعلى بعد حوالي 30 سم أسفل سطح السائل في الخزان يوجد السائل الذي تم تحليل المواد العضوية الموجودة به، وعند هذا البعد تركب أنبوبة التصريف ويمتد من الخزان في حفرة تحت سطح الأرض بأي نظام هندسي أنابيب فخار لتصريف المياه الخارجة من الخزان في التربة. وهذه الأنابيب موضوعة بجوار بعضها البعض بدون لحام، وبميل خفيف جداً لا يزيد على نصف سنتيمتر، للمتر ولا يقل طولها عن 15 متراً، ويزداد 2 , 5 متر بزيادة كل شخص عن الستة. وتصرف هذه الأنابيب مياهها عند أطرافها وعند مواضع الاتصال؛ ويجب أن تكون التربة التي تصرف فيها غير متماسكة. والأطوال السابقة للأنابيب تعتبر أكثر من اللازم إذا كانت التربة مفككة جداً ويجب أن تضاعف إذا كانت الأرض طينية متماسكة

أما المواد الصلبة التي ترسب نهائياً في القاع، فعبارة عن مركبات معدنية فقط لا يزيد ارتفاعها سنوياً عن 43 سم، ولهذا السبب ربما لا يطول عمر صاحب الدار ليرى في حياته تنظيف مثل هذا الخزان مرة واحدة

أما حظيرة المواشي، فالعادة المتبعة إلى الآن أن تترك الحيوانات لتبول وتتبرز على التراب كوسيلة اقتصادية لتحضير سماد بلدي. والواقع أن جسم الحيوان يكون دائماً أبداً ملوثاً بهذه الفضلات لرقاده عليها. ويسبب ذلك المرض ونقل العدوى خصوصاً إذا كانت المواشي حلوباً كما هو الحال غالباً في مسكن الفلاح

هذا علاوة على تصاعد الغازات الكريهة الرائحة وغاز النوشادر وثاني أكسيد الكربون وتوالد بكتريا التيتانوس وغرغرينا الغاز في الفضلات، كذلك توالد البعوض والذباب، وفي ذلك أيضاً خطر بليغ على الجهاز التنفسي والجسم والعين

ومن الغريب أن هذه الطريقة لا تنتج سماداً بلدياً جيداً لكثرة فقد المادة العضوية بشتى الأسباب

فمن الوجهة الصحية إذاً يجب عزل الماشية عن مسكن الفلاح وترتيب حظيرة بشكل خاص لمواشي الفلاحين بحيث تكون في أمان تام كماشية المالك، وتكون كل ماشية تحت سيطرة صاحبها فقط

وعلى سبيل ذكر الشيء بالشيء نرى أن الفكرة الاجتماعية تأتي فتدعم الفكرة الصحية في وجوب عزل المواشي، لأن الفلاح بمعيشته دائماً في مسكن واحد مع الماشية يتدهور مستواه الاجتماعي والخلقي كثيراً، فهو لا يستحي مثلاً من التبول أو

التبرز أو الاستحمام علناً أمام أي جنس أو عدد كان من عابري السبيل علاوة على بطأ فهمه وضيق مداركه وعدم تحليله لمسائل الجرائم تحليلاً إنسانياً معقولاً
من حيث استغلال الفضلات (هـ)
من المسلم به أن ملايين الأطنان من السماد يمكن استخراجها من فضلات الإنسان والماشية
في الريف
وهناك الطرق الكثيرة المتنوعة لذلك مما لا يخفى على أحد: أهمها طريقة العالم لعمل سماد الأصطبل، والطريقة الهولندية لعمل سماد من فضلات الإنسان وكناسة المسكن وبما أن البول يحتوي على الأزوت في صورة يوريا وغيرها؛ وبما أن نسبتها فيه كبيرة جداً، وبما أنها سهلة التحول إلى كربونات نوشادر لذلك فالقيمة السمادية له عالية وتساوي بالتقريب القيمة السمادية الآزوتية الكيماوية. فهي تتحلل في ظرف أسبوعين فقط بنسبة 80 - 90 %. إذاً فالبول الطازج يمكن استعماله مباشرة لسرعة هذا التحول. هذا علاوة على التأثير الجيد الذي يعادل تأثير الأسمدة الكيماوية للعناصر الأخرى السمادية الموجودة في البول كالبوتاسا وحمض الفوسفوريك
لهذا السبب يمكن تصريف بول المواشي كلها الموجودة في عزبة مثلاً، وكذلك بول الإنسان حيث يحفظ في خزانات مانعة لنفاذ السوائل لا يتسرب إليها الهواء وذلك بإحكام تغطيتها أو بإضافة زيت وسخ مثلاً إلى سطحه فلا يحصل فقد في الأزوت الموجود به بالتحلل والتطاير. ويستعمل البول بعد ذلك في تسميد الحقل في وقت يكون فيه خالياً من أي سماد لمنع تحويل أزوت البول إلى أزوت بروتين
أما براز الإنسان في هذه الحال، وكذلك روث المواشي وما عساه أن يوجد من قش الحبوب، والبقول، أو عروش الخضراوات وأوراق الأذرة الجافة أو مصاصة القصب وما أشبه ذلك على حسب النوع والكمية الموجودة بكثرة في المنطقة، فيمكن عمل سماد جيد منها على طريقة خاصة من طرق العالم
وإذا أعددنا للفلاح الصغير قطعة أرض صغيرة مبلطة جيداً أو ذات (دكة) جيدة فإنها تكون بمثابة صندوق التوفير له، إذ يمكنه بذلك أن يحول العلف التالف وبقايا الطعام وكناسة المسكن وغير ذلك من الفضلات المهملة إلى سماد صالح للاستعمال بعد حوالي 4 أشهر خصوصاً للحدائق وحقول الخضراوات
وبعد فمشكلة مسكن الفلاح مشكلة حالية ملحة من مشكلات الفلاح المصري نرجو تذليل صعابها أمامه. . . وما كفاحنا في سبيل الأمة أيام السلم بأقل شأناً من كفاحنا في سبيلها أيام الحرب.
عباس قطر مصطفى
الحرب في أسبوع
للأستاذ فوزي الشتوي
بين الديمقراطية والديكتاتورية
إلى أي طريق تساق البشرية؟ وهل قدر أن تسود الديمقراطية، أو تسيطر الديكتاتورية؟ وهل يستطيع العالم بعد ما ذاق طعم الحرية وتعود جني ثمارها وتطبع بأخلاقها، أن يتخلى عنها تحت ضغط الحديد والنار؟ إن التاريخ البشري حافل بقصص المجاهدين في سبيل حرية الفكر، مملوء بأحاديث الضحايا الذين فضلوا الموت على أن يتنازلوا عن مبدئهم
فإذا ذكرنا أن الحرية كانت في مهدها في تلك العهود، وذكرنا أيضاً أن الناس ظلوا أجيالاً طويلة ورقابهم تحت السيف أدركنا أن الديمقراطية تنتصر حتماً مهما طال عهد النضال وتأكد لنا أن الدكتاتورية لن تسيطر إلا إذا عبدت طريقها على رمم الديمقراطيين. فالحرب الآن نضال بين مبدأ الهمجية ومبدأ الإنسانية!
مأساة تتكرر
وإذا كانت جيوش ألمانيا الآن قد تقدمت فإنها تعيد ما حدث في سنة 1914 عندما ما وصلت على بعد 70 ميلاً من باريس وجيوش الحلفاء لم تصب بعد بخسائر كبيرة، بل هي تتقهر بانتظام بكامل قواتها حتى تسنح الفرصة الملائمة، وحتى تضعف عدة الهجوم الألماني وتتوزع قواته؛ فإنه يلاحظ في هذا الهجوم عدة أوجه: أولها أن قوات الحلفاء تتجمع بينما قوات الألمان تتوزع. وقوات الألمان في مناطق ثائرة تريد

الخلاص، بينما قوات الحلفاء في مناطق موالية تعمل للدفاع وثاني هذه الأوجه اتساع جبهة القتال الألمانية وتخلخل قواتها، فخلف جيوشها في فرنسا قوات معادية كبيرة في بلجيكا فحكومة بلجيكا. مازالت قائمة في ديارها تعتمد على جيوش بلجيكا وبريطانيا وفرنسا، ومعاركها لم تنته بعد لتقرر سلامة النتوء الألماني الذي يمتد من لونجوي إلى أميان ووجهته موانئ بحر الشمال. ويفهم من تغيير القيادة الفرنسية تغيراً جوهرياً في الخطط العسكرية، كما يفهم من تصريحات رئيس وزراء فرنسا وإنجلترا أن الحلفاء صمموا على النضال إلى النهاية حتى يضمنوا النصر. وهذا مؤكد بفضل اتساع مواردها المالية، وغنى الإمبراطوريتين الإنجليزية والفرنسية واتساع رقعتيهما

اختلاف الخطط

وتقدم الجيوش الألمانية الحالي لا يدل على نصر أو خذلان لأي الجانبين، بل يرجع في حد ذاته إلى اختلاف فن القتال عند المتحاربين وتقديرهما للرجال والخسائر. فبينما ألمانياً لا تتقيد بكثرة الضحايا وتقدم للميدان أعداداً كبيرة منها، تحرص إنجلترا وفرنسا على أن يكون عدد الضحايا أقل ما يمكن. بل إنه يبدو للمطلع أن قيادة الحلفاء تقدر قيمة الموقع الذي تدافع عنه أو تحتله وما يتكلف من خسائر؛ ثم تقدر مكسبها أو خسارتها. وعلى هذا الأساس تقرر خططها، وغالباً ما يعز عليها الضحايا فتوفرهم لفرصة أوفق وأقل ضحايا

وإذا عدنا إلى حوادث الحرب العظمى ووسائل الهجوم الألماني أمكننا أن ندرك مبلغ حرص القوتين المتحاربتين على سلامة رجالهما، ففي هجوم الألمان على خط كونديه - مونز - بينش، كانت قوات المشاة تتقدم في جماعات غفيرة متراصة يسهل حصدها بالمدافع السريعة الطلقات أو البنادق، حتى قال جنود الجيش البريطاني التي كانت تتولى الدفاع عن هذا الخط بقيادة الجنرال فرانش: (إنه كان يكفي أن تطلق البندقية في أي اتجاه فنضمن استقرار الرصاصة في جسم أحد الجنود الألمان)

هذا بعكس خطط الهجوم الإنجليزي أو الفرنسي، إذ يتقدم الجنود في خطوط رفيعة بين كل جندي والآخر متران تقريباً، فيطيش عدد كبير من الطلقات ويقل عدد الضحايا إلى أقل نسبة ممكنة. وحقيقة أن هجوم قوات الحلفاء يحرز النصر بعد مدة أطول، بينما يعطي هجوم الألمان نتائج سريعة، ولكن بخسائر فادحة؛ وهذا ما يحدث الآن. فلكي ينتصر الجيش الألماني في موقعه يجب أن تكون قواته ضعف قوات أعدائه فتتغلب عليه بالكثرة العددية

أخطاء خطيرة

وارتكبت في الموقعة الحالية عدة أخطاء كبيرة استغلها الجيش الألماني أحسن استغلال. فقد قررت قيادة الجيوش البلجيكية أن تخلي خط دفاعها الممتد على الحدود في منطقة أردن إلى حصن لييج، وأن تبدأ عملياتها الحربية في خط الدفاع الثاني على نهر الموز، وهو نهر سريع الجريان وذلك ليتاح لها الاستفادة من نجدات جيوش الحلفاء. ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان فإن القيادة الألمانية هاجمت بلجيكا من جبهتين الأولى من لكسمبورج إلى منطقة أردن وكانت هذه الجبهة كما قلنا خالية من الجنود المدافعة. والثانية اجتاحت مقاطعة لامبرج الهولندية واستولت على ماسترخت ومنها اتخذت شكل مروحة فاتحة بعضها غرباً، واتجه البعض الآخر جنوباً في حوض نهر الموز وأرضه سهلة. وكان هذا مقدراً لدى القيادة البلجيكية على أن يستمر الجيش الألماني على الشاطئ الشرقي للنهر ويتعذر عليه المرور بفضل القوات التي ترابط على شاطئه الغربي بعد نسف الجسور المقامة على النهر

ولكن خطا ثانياً أفسد هذا التدبير فلم تنسف الجسور وتمكنت الجنود الألمانية من اجتيازها لأسباب لم يكشف عنها بعد. ولكن هذا الخطأ كان على جانب كبير من الخطورة إذا أصبح هذا الخط عديم الفائدة مما اضطر قوات الحلفاء إلى التراجع إلى خطوط خلفية أقل مقاومة فساعد ذلك جيوش الألمان على مهاجمة فرنسا بقوات كبيرة

ولنسف الجسور في حالة وقف الهجوم أهمية كبيرة. إذ يتعذر بعد نسفها على الجيوش المهاجمة أن تنقل قواتها ويصبح النهر فاصلاً بين القوتين. وبينما يكون المدافعون

محصنين خلف الحصون الطبيعية أو الصناعية يكون الجنود المهاجمون مكشوفين لنيران القوات المدافعة وخصوصاً إذا أرادوا اجتياز النهر لإنشاء الجسور العسكرية لمرور قواتهم

ولنقدر أهمية نسف الجسور نذكر أن عدة أوسمة رفيعة تمنح للأفراد الذين ينجحون في نسفها. وفي الحرب الماضية منحت ستة أوسمة تقريباً من (صليب فيكتوريا) لمختلف الرتب العسكرية من الجنود إلى الضباط اعترافاً بما أدوه من خدمات بنسف الجسور في جبهة كونديه بنش، وهذا الوسام هو أرفع الأوسمة العسكرية البريطانية، ولم يحصل عليه إلا عدد قليل

بين حربين

والخطة الألمانية الحالية لا تختلف كثيراً عن الخطة التي نفذت سنة 1914، ووضعت قواعدها في أواخر القرن الماضي. فهي تتكون من اجتياح هولندا في مدة لا تتجاوز ثلاثة أيام؛ ثم اجتياح بلجيكا للوصول إلى سهول فرنسا الشمالية عن طريق حوض نهر الموز: وهو سهل منبسط قليل العقبات الطبيعية التي تعتبر عقبة في سبيل تقدم الجيوش. أضف

إلى ذلك أن الحصون الفرنسية في تلك المنطقة اضعف منها على حدود ألمانيا، فعلى الحدود الفرنسية البلجيكية كانت تقوم حصون متفرقة أقل مقاومة من خط ماجينو الذي ينتهي عند لونجوي

وتختلف خطة ألمانيا الحالية عن خطتها سنة 1914 في اجتياحها لهولندا لغرضين عسكريين: الأول اتخاذ قواعد برية وبحرية وجوية تقرب بينها وبين إنجلترا، والثاني لتأمن على جيوشها هجوم قوات الحلفاء من هولندا

فالمسافة بين شواطئ هولندا وإنجلترا قصيرة لا تتجاوز 150 ميلاً تقطعها الطائرات في أقل من ساعة، كما تتخذ موانيها قواعد للغواصات، وبهذا يتيسر لها استغلال أسطولها الجوي على أحسن وجه. وتتجه القوات الألمانية إلى الغرب للاستيلاء على موانئ فرنسا على المانش لقطع المواصلات بين فرنسا وإنجلترا ليتعذر نقل القوات البريطانية إلى فرنسا

انهيار مفاجئ

ويبدو لنا أن خطط الحلفاء الجديدة قد نجحت فتيسر لها وقف التقدم الألماني، بل إنها تمكنت من طرد القوات الألمانية من بعض المناطق التي سبق أن استولت عليها. ولعل هذا يوضح السبب في التجاء الألمان إلى إنزال بعض جنود المظلات الواقية خلف خطوط القتال لتؤدي مهمة قطاع الطرق؛ فتعتدي على المدنيين لبث الرعب فيهم، ولتخلق لقيادة الحلفاء بعض المتاعب التي تصرفها عن العناية بجبهة القتال. ولكننا نعتقد أن هذه الوسيلة فاشلة مقدماً، فقد عرفت وسائلها واستعدت لها البلاد، ونظمت قوات خاصة لتطهير هذه الآفات الكثيرة النفقات التي إن تحملها موارد ألمانيا الاقتصادية فترة من الزمن فلن تتحملها فترة أخرى

فإن جندي المظلات الواقية يتكلف بضع مئات من الجنيهات. فوزن المظلة الواقية وحدها 12 رطلاً من الحرير الطبيعي يضاف إليها نفقات معداته من دراجة بخارية ومدفع سريع الطلقات وأنصار سريين يشترون بالمال من داخل البلاد. فكل هذه النفقات لا تتحملها الموارد الألمانية. ولهذا يتردد كثير من خبراء الحرب في اعتبار الخطوات التي اتخذتها ألمانيا خطوات موفقة، بل يقول بعضهم إن حوادث سنة 1914 تتكرر في هذه الحرب إذ

تفوز في أكثر الميادين العسكرية ثم تتحطم دفعة واحدة في الميدان الاقتصادي ولا تجد الموارد اللازمة لإمداد جيشها

ولعل القارئ يذكر ما أصاب المالية الألمانية من إفلاس عقب الحرب الماضية، إذ هبطت قيمة المارك الألماني فلم يساور ثمن الحبر الذي طبع به حتى اضطرت إلى إلغائها في آخر الأمر فإن ألمانيا تلجأ إلى طبع الأوراق المالية دون أن يكون لها الرصيد المعدني الكافي الذي يحفظ لهذه الأوراق قيمتها في السوق

هل هو تعديل؟

ويرى بعض المفكرين من كثرة اعتداء ألمانيا على الدول الصغيرة المجاورة لها تعديلاً لخططها الاقتصادية الحربية. فهي في عرفهم تحصل على موارد البلاد المحايدة آناً

بالتهديد وآناً بالاجتياح فإن الرعب الذي يستولي على دول البلقان يجعلها تقدم لألمانيا كل ما تطلب منها اتقاء لشرها. وقد ازداد رعب هذه الدول نتيجة لتقدم الألمان في فرنسا وبلجيكا فأصبحت أقل مقاومة وأكثر ليونة تحت الضغط الألماني
وكلما قصرت الموارد في ألمانيا اجتاحت دولة لتحصل على مواردها ونقدها. ولكن من المشكوك فيه أن تظل الدول التي تجتاحها بقرة حلوباً بسبب تدمير الجيوش للمرافق العامة أثناء انسحابها، ولان أكثرها الآن يحفظ رصيد نقده في أماكن بعيدة عن الخطر مثل أمريكا التي تحتفظ فيها أكثر الدول بأموال كبيرة
أمريكا تفزع
وكشفت حركات ألمانيا الأخيرة عن عدة مشاكل دولية قد تؤدي إلى اشتراك عدة دول في الحرب. فإن اعتداءات النازية المتكررة أفزعت الأمريكيين، وبعدما كانوا يقصرون أبحاثهم على خير الوسائل لمساعدة الحلفاء بالعتاد الحربي، تبدلت النغمة وظهرت أصوات في مجلس الشيوخ الأمريكي وفي الصحف تطالب علناً بوجوب اشتراك أميركا في الحرب
فالأمريكيون يرون أن النازية مظهر من مظاهر الوحشية والهمجية ويرون أن انتصارها هدم للمدنية الحالية وقضاء على الديمقراطية يرجع بالإنسانية آلاف السنين، حيت كان يخضع المجموع للفرد، ويتحكم السيف في رقاب الناس بدلاً من المنطق والعقل.
والأمريكيون أكثر شعوب الأرض تمسكاً بالحرية ومبادئها؛ وهم مستعدون دائماً لبذل دمائهم في سبيلها
وسيطرة النازية على أوربا معناها عندهم تهديد لحريتهم، ولا سيما بعد ما تكشفت عدة دسائس نازية ترمي إلى الاستيلاء على أمريكا بوسائل الدعاية وإثارة الحرب الداخلية.
هذا فضلاً عن اشتراك الولايات المتحدة وكندا في حدود واحدة، ثم قرب جزيرة جرينلند من الشواطئ الأمريكية مما يسهل اتخاذها قواعد عسكرية. فاعتزال أمريكا لمشاكل أوربا نظرية لا تقرها العقلية الأميركية الآن
جيوش الشرق
ويحتفظ الحلفاء في الشرق بقوات كبيرة انتظاراً لما قد تولده أطماع ألمانيا وغيرها من الدول الدكتاتورية في البلقان. فإن إيطاليا والروسيا لم توضحا بعد موقفهما وتلوحان آنا بالحرب وأخرى بالحياد، فهذه النغمة تفقد الحلفاء ناحية التركيز التي تستفيد منها ألمانيا. فبينما هي تركز أكثر قواتها في الجهة الغربية تتوزع قوات الحلفاء في مصر وسوريا وفلسطين وتونس والجبهة الغربية
وتعمل الخطط الألمانية للقتال في جبهة واحدة فقط، ولكن الواجب على الحلفاء أن يشغلوها في أكثر من ميدان حتى تتوزع قواتها فيخف الضغط عن الجبهة الغربية وتقع ألمانيا في المأزق الذي تتحاشاه
فوزي الشتوي
رسالة الشعر
لحن. . .
للأستاذ أمجد الطرابلسي
في فمي لحنٌ ولكنْ لا أغنَّي ... وإذا غَنَّيْتُ، من يفهمني؟
أنتَ لا تَسْطيعُ أن تسمعَ لحني ... وأخاف الكون أن يسمعني
يا حبيبي! كلماّ جئتُ الخميلة ... أتوارى في حناياها الظلّيلة
فرنتْ زَنبقةٌ ... نحوي جميلة
أو سمعتُ الطيرَ في الأغصان غنَّى ... طَرباً يَنْزِلها غصناً فغصنا
شاقني أن أسْمِعَ الأطيارَ لحنا
ثم أمضي والأسى يغمرني. . .
أنت لا تستطيع أن تسمعَ لحني ... فلمن - غيرك - قيثاري وفنّي؟
كلماّ هِمْتُ على الشاطئ وحدي ... ورأيت الموجَ في جزرٍ ومدَّ
هاجتِ الوَحْدَةُ آلامي ووجدي
فذكرتُ اللَّيْلَ، والأنجمُ ترنو ... والهوى في الشَّطّ والبحرُ يُرِنُّ
فهفا في قلبي ... النشوانِ لحنُ
ثم أمضى والدجى يشملني. . .

أنت لا تسمعني حين أُغَنِّي ... يا حبيبي! فَلِمَنْ أعزف لحني؟
يا حبيبي! كلماّ رُدْتُ الشَّعابا ... كَشَفَ العُلَّيْقُ عن أمْسِي حِجابا
فَأَحَيَّيهِ ذهاباً وإيابا
وأرَى أثمارَهُ ترنو إليَّا ... فإذا أدخلت في الشَّوكِ يَدَيّا
لاحت الذكرى فَغَشَّتْ مُقْلَتَيَّا
فتحاملتُ وآثرتُ الْمُضيَّا
كلُّ ما حوليَ يَسْتَنْشِدُنِي
غَيْرَ أَنِّي إن تكنْ أُقصِيتَ عنيّ ... يا حبيبي! فأنا لستُ أُغَنّي
في فمي لحنٌ ولكن لا أُغَنِّي ... وإذا غَنَّيْتُ، من يفهمني؟
أنتَ لا تستطيعُ أن تسمعَ لحني ... وأخاف الكون أن يسمعني!
(باريس)
أمجد الطرابلسي
من وراء الستار
ليلة الزفاف
للأستاذ إبراهيم العريض
حفَّتْ بها النِسْوَةُ في حِلْوةٍ ... زيَّنَها الحبُّ لأسْحَارِهِ
كلُّ لسانٍ سالَ في غُنَّةٍ ... يلْهجُ بالنُّعْمَى إلى جاره
هُنَّ عَصافيرُ الهوى كلماّ ... نوَّرَ زغْرَدْنَ لنُوَّاره
في غرفةٍ تُدْنِي مرايا على ... سُدَّتِها الفارِهَ للفاره
ضاحكةِ الأنوارِ . . لولا الذي ... يدُخَّنُ العودُ عَلَىَ ناره
وفاحَ منه أَرَجٌ ناعِمٌ ... أثْقَلَ جفْنَيْها بأسْراره
كأنما زفَّ ربيعُ الصَّبا ... لأنسها أحْسَنَ أزْهاره
وطافَ أتراب لها أرْبَعٌ ... بالدُّفَّ، يوحِيني بأخْباره
يعْطِفنَ للنَقْرَةِ صدرْاً. . . وكم ... فزَّ به ما تَحْتَ أزْراره
يُظْهِرْنَ باللَّمْحَةِ في الرقص ما ... حالت أمورٌ دونَ إظهاره
من شاهَدَ الطاوُوسَ يختالُ في ... ألوانه. . . لِبَعْضِ أوْطاره
وكانَ في كُرْسِيَّهِ جنْبَها ... حقيقةً قامتْ إزاءَ الخيالْ
ينُازِعُ الطرْفَ - فلا ينتهي ... إلا إليها - رغْمَ طُولِ المِطال
وهل تمَلُّ العَيْنُ من مَشْهدٍ ... باركهُ في الخُلْدِ ربُّ الجمال
فَتْنسِجُ الأنوارُ مِن عيْنِه ... خُيوطَها في سُدفاتِ الظِلال
وهْيَ عَلَى إطْراقِها لا تَني ... تُصَعَّدُ الأنفاسَ وسْطَ الحِجال
تَكادُ لا تُبْصِرُ من حَوْلها ... شيئاً سوى إحْساسِها بالجلال
وجيَء بالوَرْدِ فمَدَّتْ له ... من بينها واحِدةً في دَلال
فمسَّها مسَّا رفيقاً، وفي ... ناظِرِهِ البرَّاقِ عْينُ السُؤال
وارْفضَّ من جرَّاءِ إشْفاقِهِ ... جبينُ كلٍّ منهما باللآل
حتى إذا أمْطرَها فِضَّةً ... على الوصيفاتِ فعمّ النَوال
قُمْنَ إلى الأزهار ينْثُرنْهَا ... وهنَّ ينشِدْنَ نشيدَ الوصَالْ:
نشيد الوصال
(يا طائر ألبان عَلَى بأنه ... قد حفَّكَ الرَّوْضُ بِرَيْحانِهِ
فضاحِكِ الأيامَ في ظِلِّهِ ... ما دامَ يعْلوكَ بأفنانه
لِلْحُسْنِ مِرآةٌ. . أتَرْضَى بانْ ... يُصْدِئها الدمْعُ بِنَهتانه
فداعِبِ البُرْعُم حتى إذا ... تفتَّقَتْ أوراقُه. . . دانه
ونادِمِ البُلبُلَ ما دامَ في ... نشوتِه يُفْضِي بِأَلْحانه
فخْيرُ يوْمَيْك الذي ينقضي ... عرْبدَةً ما بين نُدْمانه
هَيْهات! ما دامتْ لِذي سَكْرَةٍ ... سَكْرَتُه إلا بإذْمانه
لا تَطْوِ بالصَّمْتِ ربيعَ الصَّبا ... فلَيْسَتِ العَوْدَةُ من شانه
عمَّا قليلٍ ينمحي كلُّ ما ... تراهُ من ثابِتِ ألْوانه
أعِنْدَكَ الجامُ ولا تقْتِني ... حرارة من ضَوْءِ نيرانه
(فَما الليالي في سنِين الصبا ... إلا دُخانُ النَدَّ في حانة

وعِنْدَ ما أتَمِمْنَ إنشادَهُ ... وفُزْنَ من ثَغْرَيْهِما بابتِسَامْ
وقُمْنَ صفَّينِ لِيَعْرِضْنَهَا ... فنانةُ تُغْرِي بحُسْنِ القِوام
توسَّطَتْهُنَّ على غِرَّةٍ ... كَشُعلةٍ تلْعَبُ وسْطَ الظلام
في حُلّةٍ خَضراء نمَّت على ... ما تحتَها من بشْرَةٍ كالرُّخام
ناهِدةَ الثدْيَيْنِ. . . تعلوهُما ... جوْهَرةٌ زانتْهمُا كالْوِسام
وَرْدِيَّةَ البطْنِ. . . سِوَى ظلَّةٍ ... وارَتْ عن العين بقايا الحزام
فلم تزَلْ تلْوِي يديها على ... صورةِ غُصْنٍ مالَ ثم استقام
تُزاوِجُ الخطْوَ على هينة ... وتارةً تحْجِلُ حجل الحمام
وكلما دارَتْ بمنديلِها ... ظلَّ كمَوْجٍ حوْلها في التِطام
والعِرْسُ يُلْقِي نحْوَها طرْفَهُ ... فَيَرْشِفُ الصهباء من غير جام
حتَّى أرتْهُ كيْفَ تُطْوَى الحشا ... للرَّغْشة الكُبْرَى كمِسْكِ الختام
وانتبذتْ تدعوُ شريكاتها ... أن يُترَكَ المغْنَى لِعُشَّاقِهِ
فسِرْنَ في آثارها زُمْرَةً ... وهنَّ يبْسَمَنَ لإطْرَاقه
حتَّى تسلَّلْنَ جميعاً. . . ولم ... يبْقَ رقيبٌ غيْرَ خلاّقه
وانتدَبتْ للبابِ إنْسَانةٌ ... لِتُحْكِمَ السِتْرَ بإغلاقه
فعُودرَ النَّجْمُ إلى نفسِهِ ... يسْبح في ظُلْمَةِ آفاقه
ومدَّ يُمناه إلى شَعْرِها ... يُمِرُّها في طيبِ أعْراقه
مُسْتنشِقاً جُمَّتها كلما ... أنفاسُه ضاقَتْ بأشْواقه
ولم يَزَلْ يَعْطِفُها رْيثمَا ... أنْزَلَتِ الرَّأسَ على ساقه
واسْتقبلَتْهُ بمُحَيّا بدا ... كالوَرْسِ في حالةِ إشفاقه
مضطرِبَ الجفنِ حياءً له ... مُغرَوْرقَ العَيْن لإشراقه
فنالَ ما يشعُرهُ قلْبُها ... صَداه في أعمق أعماقه
وضمَّها مثنى إلى صدْرِه ... ضمَّةَ من يَخْشَى عليها هواهْ
فاكتنفَتها غيْمةُ الحبِّ لا ... تُبْصِرُ في عالَمِها ما عداه
وأذْنُها فوْقَ حناياهُ لا ... تَسْمَعُ في الدقَّاتِ إلا صداه
وهَكذا ظلَّ. . . بِمِنْدِيلِه ... يمْسحُ عن وجْنَتها ما شجاه
وهامِساً في سمْعِها بِغْضَهُ ... وبعضه عند تلاقي الشفاه
(مالكِ - يا خَوْلَةُ - تُبكينَ في ... ليْلِه أُنْسٍ رجَحَتْ بالحياة؟
ناشدْتُكِ اللهِ الذي ضمَّنا ... إلى حياةٍ باركَتْها يداه
إلاّ نفَضْتِ الجفْنَ عن دَمْعِه ... لِتَسْتطيعي أنْ تَرَىْ ما أراه
وشاطِري قلبيَ إحساسَه ... لنرْفَعَ الروح معاً في صلاه
أنتِ من الحبِّ جناني. . . فلو ... دُفِعْتُ عنها لَطواني لظاه
(ما أرْخصَ العالمَ في ناظِري ... مادُمْتِ قد حقّقتِ أعْلَى مُناه
ومرَّ بالثغْرِ على جَفْنها ... فأرْخَتِ الجفْنَ على مائِهِ
وداعَبتْ أنفاسُهُ خصْلَةً ... من شَعرِها قامت لإغرائه
فأعرضَتْ في خَفَرٍ حيثُ لمَ ... تقْوَ على منْظرِ إفلاَئه
وأشرقَتْ في فَمِهَا بَسْمَةٌ ... كالفجْرِ في مطلعِ أضوائه
ورنَّ في أعْطافِه صْوتُها ... كالماء يجري فوق حصْبائه
(مالِكُ! ما رُوحي سِوَى مِعْزَف ... بين يَدَيْ باعثِ أصْدائه
لا أحَدٌ - حاشاكِ - أعْنُو له ... إلا الذي يُدْعَى لأسمائه
دُونك قلبي خالِصاً. . فهْوَ إنْ ... يَبْذُلْ فمِنْ كل سُوَيْدائه
لا خيْرَ بَعدكَ في لؤُلؤُ ... إنْ لم تفُزْ أنتَ بلألائه
إن تَرَ دمْعي سائِلا فهْوَ لا ... يُنْبِئَ إلا عن هوىً تائه
(رَضِيتُ ما تشِعُّهُ في الدُّجى ... يا كوْكباً في أوْجِ إسْرَائه
ثمَّ أدارَتْ مبْسِماً ضاحِكاً ... كالوَرْدِ في أوَّلِ إفضائه
يفَتَرُّ لِلقُبْلِة في وجْهِه ... فَضمَّها شوْقاً لإحشائه
(البحرين)
إبراهيم العريض

رسالة الفن
بعد الاستئذان
استنجللينا!
للأستاذ عزيز أحمد فهمي
- مسكين أخي أصيب بحب ابنة الجيران فهو لا يأكل ولا ينام، وقد حاولت كثيراً أن أجعله يفهم الحب لغواً وطيشاً وخيالاً، ولكني فشلت، وظل يقول إنه يشعر بوجع صحيح في قلبه وإنه لن يبرأ منه حتى ينال ابنة الجيران وهو ما يزال عند أبيه في البيت بين العيال
- عندي دواء أخيك!
- والنبي؟
- لا أقسم بفائدته لأني لم أجربه ولكني أكاد أومن بأنه نافع. . .
- نجربه نحن. . . ما هو؟
- خذي مسماراً، وضعيه في النار حتى يحمر، ثم انخسي به صدر أخيك فوق قلبه. . .
- نخستك النار في أحشائك. . . تريد أن تقتل الولد؟!
- ما كان الكي قاتلاً يوماً. العرب وأهل الصعيد جميعاً يعالجون أدواءهم به، وانظري إليهم تريهم أشد العالمين صحة، وأقواهم أبداناً وأرواحاً. . .
- ولكنهم يكوون أبدانهم عندما يصيب المرض أبدانهم، لا عندما تبرح بهم العواطف، ولا عندما تصيبهن الهموم. كان فيهم من جن بحب ليلى، قيس، لم ينخسوه بمسمار ولم يطعموه الحر
- صحيح أنهم قعدوا عن علاج قيس وأمثاله، وقد أقعدهم عنه وقوفهم بعلمهم عند حد رضوا به هم، ولكن هذا لا يجبرنا على أن نقف نحن أيضاً عند هذا الحد ارتضوه من العلم فلنا أن نمضي فيه ما دام طريقه مفتوحاً. . . لقد أخذ العالم صناعة الورق عن الفراعنة، فهل وقف العالم في صناعة الورق عند ورق الفراعنة، وأبى أن يمضى فيها لأن أهلها الذين أوجدوها قعدوا بها عند حد؟!
- طيب! فإلى أين تريد أن تمضي أنت بخزعبلاتك هذى؟
- لا أعلم. ولكن لك أن تسألي من أين أريد أن أبدأ. . . فهذا وحده ما أستطيع أن أجيبك عنه!
- ابدأ أينما تبدأ، ولكني أرجوك أن تنتهي إلى شيء يقره العقل. . .
- وما العقل؟ أظنه يحسن بنا أن نتفق عليه، وعما يصلح لأن يكون موضوع إقراره، حتى إذا ما وقفنا عند رأي لم نختلف عليه؛ فتقولين: إنه غير معقول؛ وأقول أنا: إنه معقول؟!
- ولكن هذه حكاية جديدة، بل هي حكاية قديمة جداً فيما أظن. . . ألم تعرف إلى الآن العقل ما هو؟
- ومن عرف!
- الناس جميعاً. . . اللهم إلا أولئك الذين لا يزالون يسألون عنه
- كان يخيَّل إليّ أن هؤلاء الذين يسألون عنه هم الذين عرفوه مرة مرات ويريدون أن يعرفوه دائماً. . .
- ما هذا الكلام؟ الشيء إذا عرف مرة عرف دائماً
- إلا العقل. . . فهو حين يعرف العقل يكون عارفاً ومعروفاً في الوقت نفسه، وهذا يستلزم أن ينشق العقل على نفسه، أو أن يتداخل في نفسه، أو أن ينتفض عن نفسه لمحة، ثم يعود إلى نفسه، فإذا عاد إلى نفسه عاد عقلاً هو الذي كان قبل أن تحدث له حادثة المعرفة هذه، ولم يكن هو قبل هذه الحادثة يعرف شيئاً عن نفسه. . .
- هذا فرض يحتاج إلى إثبات
- إذن، أثبتيه أنت
- وأنا مالي؟ هل أنا الذي فرضته؟. . .
- ولكن، ألا ترينه معقولاً؟
- ومن كلام المجانين ما هو معقول
- فليسوا مجانين، أو هم ساعة ما يقولون الكلام المعقول لا يكونون مجانين. . . وما داموا يكونون مجانين أحياناً، وغير مجانين أحياناً فهم إذن كبقية الناس، فما من إنسان

إلا ويحيد عن العقل وحكمه في كثير. . . فإما أن يكون الناس على هذا مجانين جميعاً، وإما يكونوا عقلاء جميعاً، وإما أن يكونوا جميعاً في حالة ثالثة يصيبون فيها الحكمة حيناً ويخطئونها
حيناً، وهذا ما قدمته لك من أن العقل شيء إذا اهتدى إليه مرة لم يكن معنى ذلك أنه قد ربط وأنه لن يشرد ويتيه في وديان النسيان
- وقد قبلت أنا هذا الرأي وسأدعك تقول ما تشاء على أساس أنه لا عقل ولا جنون
- وأنا لا أرضى بهذا، فالعقل شيء موجود بلا ريب، وكل رأى لا يوافق العقل لن يكون إلا خبلاً، وأنا لا أحب ابنة الجيران مثل أخيك حتى اسمح لنفسي أن أسايرك فيما تريدين أن تعربدي فيه من الحديث وأنت مترنحة الفكر. . .
فماذا تريد مني أن أصنع؟
- أريد منك شيئاً لا بد أن أطلبه من نفسي كذلك حتى نكون نحن الاثنين عاقلين فنستطيع أن نتفاهم. خذي هذا الخيط وهذه الإبرة وهذا الثوب وخيطيه، وأما أنا فسأرسم في هذه الورقة دائرة، سأجعل نصف قطرها عشرة سنتيمترات، وسأقسم محيطها إلى عشرة أقسام وسأجعل في كل قسم منها وتراً، وسأجعل كل وتر من هذه الأوتار قاعدة لمثلث رأسه مركز الدائرة، ثم سأرسم في كل مثلث دائرة يمس محيطها أضلاعه الثلاث ثم سأجعل كل نقطة من نقط التماس هذه رأساً لزاوية من زوايا مثلث آخر سأرسمه داخل كل دائرة من هذه الدوائر الصغار. . . خذي. . . إبدائي. . .. . . وهأنذا سأبدأ معك ولنتحدث
- ما شاء الله! ولن أكون عاقلة حتى أخيط لك الثوب، ولن تكون أنت عاقلاً حتى ترسم بيت جحا هذا الذي وصفته. . .
- نعم. . . مثلما كان يفعل الكردينال دي ريشلييه. . .
- رحمه الله. . . هو أيضاً كان يخيط الأثواب ويرسم المثلثات والدوائر. . .
- بل كان يجمع على مكتبه جيشاً من القطط لا يفتأ يحادثهن في المشكلات التي تعرض له ويسألهن حلها ويتملقهن استجداء لحلول معضلات ومشكلاته من عندهن، فهو يمسح هذه ويداهن تلك، ويهز بأصابعه شوارب ذاك، ويهرش بأظافره رأس هذا. . . ولا يزال هكذا حتى ينفلق عقله أو ينبلج، فينكشف له عقله ويرى الحكمة. . . إنه يشغل نفسه بعملتين عقليتين: أولاهما المعضلة التي يروم حلها، والثانية مناوشة القطط، وهو لم يكن يفعل هذا إلا لكي ينتفض عقله على نفسه ثم ينطبق مرة أخرى فإذا به في هذه الانتفاضة قد ومضت فيه شرارة من نوره هو، هي ما كان يبحث عنه ليسير على هدية. . . ألم ترى مطلقاً أناساً يتشاغلون في أشد مواقف التفكير حرجاً برسم الخطوط، أو بضرب الأرض، أو بفك الأزرار وإعادتها ثم فكها وإعادتها أو بحك جباههم أو بأي مشغلة يتشاغلون بها أثناء ما هم يفكرون فيما يحرجهم؟. . . كل هؤلاء مثل الكردينال دي ريشلييه، فهلا تحبين أنت أن تكوني مثله؟. . .
- ولكن الكردينال كان رجلاً هرماً لا أظنني كنت أحبه إذا رأيته. . . أفلا تعرف مثلاً آخر أرشق من الكردينال دي ريشلييه. . .
- فلتكوني مثل جاري كوبر. . . ألم تشاهديه في (مستر ديدز الشاذ)؟
- شاهدته. واتهموه بأنه (استنجللينا)
- فأثبت لهم أن كل الناس (استنجللينا) خذي الثوب خيطيه لعل جاري كوبر يراك فيعجب بك فيكون يوم سعدك. . .
- وأين أنا منه، وهو في هوليود وأنا في القاهرة. . . هات الثوب هات وأمري لله، وابدأ أنت في الرسم كما تشاء، وقل ما تريد. . .
- لقد نسيت. . . ولكن في أي شيء كنا نريد أن نتحدث. . . وهو كذلك. . .
- أظنك كنت تريد أن تعالج حب أخي لابنة الجيران بأن تكويه فوق قلبه بمسمار محمي في النار. . .
- صحيح، وكنت أنت تنكرين هذا، وكان إنكارك يعتمد على اعتراض قوي هو أن الحب عاطفة وليس مرضاً بدنياً حتى يعالج بدنياً صرفاً. . . أليس كذلك؟
- بلى. . .
- أما كنت تستطيعين أن تقولي شيئاً غير (بلى) هذه فإني لا أحبها. . . على أي حال

هي مسألة ذوق، وعلاجها هي أيضاً مسمار محمي في النار تنخسين به لسانك فلا تعودين إلى النطق بها وبأمثالها
- ما أحد لسانه في حاجة إلى الكي غيرك. . .
- إذن فقد آمنت بالنظرية؟!
- لا يا سيدي. . . سحبتها. . .
- حسن. . . اسمي. . . ألا ترينه معقولاً أن تكون كل علة بدنية ظاهرة لعلة نفسية. . .
ثم ألا ترين أنه إذا كان الأمر كذلك فإنه يكون فيه توكيد لصلة البدن بالنفس
- ليس لي شأن بهذا التوكيد، وإنما أريد منك ولو بعض الأمثلة التي تستطيع أن تتخذها عوناً لك على إثبات ما تقول. . .
- لا بأس. . . من تظنينه تصيبه التخمة إلا من أصابه الجشع والدناءة؟ ومن تظنينه يصاب بالمرض الخبيث إلا الذي خبثت نفسه وانقاد لخبثها؟ ومن تظنينه يصاب بالعرج إلا المشاء في الظلال وفي الظلمة؟ لست أريد أن أمضي معك إلى أكثر من هذا إلا أن أقول لك إن هذا الحكم يسمح لكثير من الأفراد والحوادث أن يشذوا عنه. ولكن هذا لا يعنينا، فشذوذ الحوادث والأفراد يحتاج إلى تأمل خاص في كل فرد وفي كل حادثة على أن يكون هذا الدرس بعد اليأس من انطباق القاعدة العامة. . .
- طيب، وبعد هذا؟
- ما دمنا قد اتفقنا على هذا فقد سهل الأمر. والعرب، وأهل الصعيد - وهم منهم - عرفوا لكل داء دواء مكمنه في أعصاب الإنسان أين هو، وهم يكوون هذا المكمن بالنار فتطهر الأعصاب من رذيلتها وضعفها، ويزول المرض، وهم بهذا قد فتحوا لنا الطريق كما قلت لك، وعلى علماء النفس وأطباء هذه الأيام أن يتابعوا السير في هذا الطريق، وعلى الخصوص بعد أن قال قائل منهم إن مخ الإنسان ينقسم إلى مراكز عقلية، لكل مركز منها عمل خاص، فهذا للتذكر، وهذا للحساب، وهذا للاستنباط، وهكذا، ولست أدري لماذا لا يفكرون حين يصيب المرض مركزاً من هذه المراكز في أن يكووه ليطهروه وينقذوه، وليس ضرورياً في أن يكون الكي بالنار، فعندهم من وسائل الكي ما هو أشفق من النار وأرحم، وإن كانت النار أبلغ منه وأفعل، ثم مالنا نفرض أن كل مراكز العقل مجتمعة في المخ، ولماذا لا يكون بعضها في أعصاب أخرى غير المخ تلتف فيها الروح بالجسم أو تلامسها كما يلامس محيط هذه الدائرة زوايا هذا المثلث في هذه النقط الثلاث. . فإذا جاز أن يكون هذا، فلماذا لا يكون في القلب مركز الحب وهاهو ذا أخوك يقول لك إن قلبه يوجعه وجعاً مادياً حقاً. . . انخسيه بمسمار، أو إذا شئت أن تترأفي به فأحمي له (دبوساً). . .
- يا شيطان أخاف عليه أن يموت. . .
- لن يموت، فعمر الشقي بقي، وإنما سيحدث بإذن الله أن يخرج أذى الحب من ثقب المسمار أو الدبوس، آهات، وشعراً، أو غناء ندباً وبكاء، ثم ينتهي الأمر ويبرأ أخوك من الحب، ولي بعد ذلك الحلاوة. . .
- هي هذه الحلاوة التي راح عقلك فيها. . .

عزيز أحمد فهمي

القصص

قصة واقعية

إنه أخي. . .

للأستاذ محمد سعيد العريان

كان المطر ينهمر، والريح العاصف تحمل قطرات الماء إلى وجوه المارة وثيابهم، فتغمض عيونهم، وهم يسيرون على حيد الطريق في حذر ورقبة خشية أن تزلق أقدامهم فيتدحرجوا في الوحل، والسيارات منطلقة براكبيها من ذوي اليسار والنعمة، فتقذف عجلاتها رشاش الماء على جانبيها فيصيب وجوه الناس وأرديتهم، لا يكادون يدفعون عن أنفسهم شيئاً مما تقذفهم به الأرض أو تنالهم به السماء. . .

وكان الليل في أوله

وفي مُنْعطَف يُفضي إلى أربعة بيوت في حي (شبرا) كان فتى دون الثلاثين واقفاً تحت السماء وقفة مرتقب وعيناه معلقتان بنافذة مغلقة، لا يزيد على أن يرفع ليها عينيه حيناً، وإلى الطريق العام حيناً آخر، وهو واقف، والساعات تمضي، والمطر ينهمر،

. . .والريح تلطم وجهه بقطرات الماء، وفي يده ورقة مطوية
وكان بوابو البيوت الأربعة مجتمعين وراء أحد الأبواب، وبين أيديهم نار يصطلونها وهم يسمرون، وكان لكل أسرة من سكان البيوت الأربعة حظ من حديثهم وسمرهم؛ وهل . . .يجتمع مثل هؤلاء إلا لمثل ذاك؟ وكانوا في غفلة عن الفتى، والفتى عنهم في غفلة
وطال الانتظار بالفتى ونال منه البرد القارص، ونفذ الماء من ثيابه إلى جسده، وكان شعره الأشعث يقطر ماء على جبينه؛ فلم يتنبه إلا من بعد هذه الشرفة التي تلقي ظلالها على جانب من الطريق، فأوى إلى ظلها يحتمي من المطر والريح في هذه . . .الليلة الباردة
. . . لولا ثيابه الحائلة، ونظراته الضارعة، وذلك الفتور في عينيه، وهذا الشحوب في وجنتيه، ولولا هذه اللحية التي لم يمسها حدّ الموس منذ أيام - لحسبه من يراه عاشقاً قد أضّله هواه فأخرجه في هذا الجو العاصف، يرجو موعداً أو يتزود بنضرة. . . ولكن على وجهه سمات ليس مثلها في وجوه العشاق!
. . .ولكن. . . ما هذه الورقة المطوية في يده. . . فلعله رسول!
وأخذته عيون البوابين وهم في حلقتهم يصطلون ويسمرون، فتهامسوا وضحكوا؛ . . .وأحس الفتى وقع نظراتهم، فاستحيا، ثم تغافل ولوى عنقه
لم يكن ذلك موقفه الأول. لقد طالما وقف (حسّان) هذا الموقف من قبل، وطالما أمتدّ به الانتظار في هذا المنعطف ساعات؛ حتى إذا ما انفتحت النافذة المرموقة أسرع إلى الباب وصعد، أو كتب ورقة في حاجته فبعث بها مع البواب
من أجل ذلك كان مألوفاً لسكان الحي أن يروه في موقفه ذاك، وأن يسكتوا، ولكن أحداً منهم لم يحاول أن يعرف ما وراء هذا الموقف من سر. ولكن بواب البيت كان . . .يعرف فأسر النبأ إلى صفوته من بوّابي الحيّ
وهجست الهواجس في ضمائر سكان البيوت الأربعة، فكان لكل واحد مع أهله حديث. . . وتناثرت الإشاعات ثم اجتمعت، فإذا على ألسنة السكان جميعاً خبر واحد: . . .هو أن للسيدة فلانة سرًّا تحاول أن تخفيه إلا عن الفتى وعن البواب
لو وقف (حسان) مثل هذا الموقف كل يوم مرات في غير هذا المنعطف ما أحس . . . به أحد ولا سأل عن خبره سائل. كم فتى، وكم فتاة، وكم رجلاً، وكم امرأة - يمشون كل يوم، ويقفون، ويتواعدون، ويتلاقون على أعين الناس في الشوارع الحافلة، ثم يودع بعضهم بعضا ويمضي لوجهه؛ فلا يثير أحد منهم فضول عابر ولا يسأل عن خبره سائل. ولكن هنا، في هذا المنعطف الذي يُغْلق بابُه على بيوت أربعه قد تعارف سكانها فرداً فرداً فلا يكاد يخفى على أحدهم خبر جاره - هنا في هذا المنعطف كان وقوف حسان مثار فضول ومبعث ريبة
. . .ولم يكن حسان عاشقاً ولا رسولاً ولكنه أخو السيدة فلانة زوج الطبيب فلان . . .هل يصدق أحد؟ ولكنها الحقيقة
هذه السيدة التي يراها من في أبهتها كأنها أميرة، أخت هذا الفتى البأس الشريد الذي يقف كل يوم هذا الموقف ساعات، تحت المطر الهاطل، وفي مهب الريح السافية، وفي أتون الشمس المحرقة يترقب، ينتظر اللحظة المناسبة ليكتب إليها فيعود له البواب فيضع في يده بضعة دراهم؛ ثم يمضي، ليعود بعد يوم، أو بعد ساعات فيقف موقفه يترقب، وفي يده
. . . . .ورقة مطوية
ماذا كان حسان في أوليته وماذا صار؟
لقد نشأ في بيت رفيع العماد عالي الذرا، ثم كان له ولأخته ما خلف أبوهما من ثروة ومال، وكان تلميذاً في المدرسة يوم مات أبوه، وكانت أخته مسمّاة على الفتى الذي . . .صار له من بعد
. . . وآلتْ ثروة أبيه جميعاً إليه، وإنها لثروة. وهجر الفتى مدرسته ومضى على وجهه
. . .يبيع اللذات ويشتريها، ونصب الشيطان له حبائله من الفراغ والشباب والمال وانتقلت أخته إلى دار زوجها وخلفت قصر أبيها بما فيه، ولكن قصر أبيه كان أضيق من أن يتسع له، فأغلق بابه ومضى ينتقل بين أندية اللهو ومجالي الهوى ومسارح الشباب، وبسط يده على موائد الشراب والقمار، وتقاذفته الأقدارُ قَدَرٌ إلى قدر، وأغمض عينيه وسبح في أوهامه، وطارت به أمانيه ثم سقطت؛ وفتح عينيه فإذا هو وحيد شريد صفر

. . .اليدين من المال والصحاب
وذكر أخته بعد سنين من القطيعة، فراح يشكوا إليها؛ ودمعت عينا السيدة رثاء لأخيها
. . .وشفقة عليه؛ ثم ذهبت إلى صوانها ففتحته وعادت له بما تملك
وخرج الفتى من مجلس أخته برأس مال صالح لو أنه أراد. . . وكان يريد، ولكنه رأى
. . . . . .أن يودَّع ماضيه بليلة ساهرة من ليالي الهوى والشباب، ثم يُصبح
. . .وأصبح. . . وعاد كما بدأ
. . .واستمرت الكرة تتدحرج
وعاد حسان إلى أخته بعد شهر، وقال لها وقالت له؛ ونهضت إلى صوانها ثم عادت
. . .فارغة اليد. . . وعاد زوجها من عمله، والتقى الثلاثة لقاء الأهل بعد فراق طويل
وأسرت الزوجة حديثاً إلى زوجها، وباحت بما باحتْ وكتمت ما كتمت. . . وأخذ الثلاثة
. . .في حديث طويل
وقال الزوج:. . . نعم، مني المال وعليك العمل، إنها تجارة رابحة، وإنك بها لخليق . . .
. . .أن تبلغ الغنى في سنوات، لو أنك
وتعاهدا على الإخلاص والصدق، ووثقا عقد الشركة بالأيمان ودفع الزوج المال، وخرج
. . . . . .حسان لأمره. . . ولمَ يعد
. . .لولا الشهامة والبُقْيَا لكانت الفاصمة بين الزوجين، ولولا دموع السيدة
وهمَّ الطبيبُ أن يرفع أمره إلى القضاء، ثم سكت؛ وماذا يردُ عليه القضاء من ماله وإن غريمه مفلسٌ لا يجد رمقه. . .؟
. . .!وصبر على غيظ، وسكتتْ زوجه على حسرة وألم
وضاقت بالفتى أيامه، فعاد يتذكر أخته. . . وسعى إلى بابها وسأل، وكان زوجها في
الدار، فتوارى الفتى يترقب، وطوى ورقة مكتوبة ودفعها إلى البواب. . . وصار هذا
. . .شأنهما من بعد
وكان يقصدها كلما ضاق به أمره، ليس بين المرة والمرة إلا أيام، فتعطف عليه أخته
وتنيله؛ ثم تقاربت مواعيده حتى صار له راتب مفروض في كل يوم. وبَصُر به الطبيب
مرة وهو خارج فأخصى كأن لم يرى. وتجرأ الفتى من بعد فاستعلن، وراح يطرق الباب
. . .حين يشاء من ليل أو نهار يطلب ما يطلب، وترادفت مطالبه
وضاق صدر الزوج ونفذ احتماله، فتصبرَّ. . . ثم علم من شئون حسان ما لم يكن يعلم،
. . .فغضب لنفسه
لقد يكون من المحتمل أن يلقى الرجل ذا حاجة فيدفع إليه بعض ما يستعين به، ولقد
يؤثره على نفسه بما يمنحه؛ ولكن منذا تطيب نفسه بأن يكون ما يدفع إلى ذي حاجة
من ماله وسيلة إلى اللهو الحرام؟
هكذا قال الطبيب لنفسه فثارت ثائرته. إنه يشقى ما يشقى في تحصيل هذا المال،
!ليسعد به وليسعد غيره؛ لا لينفقه حسان على موائد الشراب والقمار
وتحدث إلى زوجته بما في نفسه وإن كلماته لترتجف من الغضب، واستمعتْ زوجته
. . .إليه مطرقة، ثم خلَتْ إلى نفسها لتبكي
ولم يكفُ حسان ولم تحرمه أخته، وعاد الأمر بينها وبين أخيها سراً كما بدأ، واستمرا
المرعى فكشف الحجاب. . . وكان ما تنيله معروفاً ونافلة فعاد ضريبة مفروضة،
. . .وتكررت مطالبه وكثر مطلوبه، وألح إلحاح الجابي على مدين مماطل
،وتعود سكان الحي أن يروه كل يوم مرة أو مرات في موقفه ذاك ذليلاً ناكس الرأس
وعينيه إلى النافذة أو إلى الباب، حتى إذا أمكنته الفرصة وثب فكان على باب أخته،
فحيناً يكون الأمر بينهما تشكياً واعتذاراً، وحينًا يكون تهديداً وصخباً وضجة، وهمَّ بأخته
مرة يحاول أن يضربها لتعطيه. . تعطيه من مال زوجها ما يعينه على ثمن الشراب
. . .وتكاليف الشباب، ثم يتركها لأحزانها ويمضي لهواه
!. . .وضاقت به أخته كما ضاق به زوجها من قبل
وقالت له مرة وفي عينيها دموع: حسان، ليتني كنت أستطيع، ولكني لا أطيق أن أخون
زوجي في ماله، وإني لأستطيع أن أعطيك ما تستعين به على العيش، ولكن لا أعطيك
!للشراب وللقمار
وضحك الفتى ساخراً وقال: الشراب والقمار! تريدين أن تربّيني؟. . إذن فأنت لا
تمنعين المال عني للعجز والحاجة ولكنك تحاولين تأديبي. . .؟

وبرقت عيناه وأطلت منهما نفس شريرة، فتراجعت أخته مذعورة تطلب الحماية في متاع الدار، ووثب عليها فصرخت. . . ثم خرج راضياً. . .!
وطال حديث الناس عن السيدة المصونة، وقالوا ما قالوا، وتناولتها الرّيب والظنون؛ وبلغها ما يقال الناس فزادت هماً على هم. . .
وأوصتْ البواب أن يردَّه إذا رآه وأن يحول بينها وبينه، وكانت في حال من الغضب خيَّلت إليها أنها تستطيع أن تنسى أن لها أخاً. . .
وجاء الفتى إلى موعده، وكان زوجها في الدار. . .
كان المطر ينهمر، والريح العاصف تلطم الوجوه بقطرات المطر، وعجلات السيارات في سرعتها تقذف رشاش الماء إلى وجوه الناس وثيابهم. . . والفتى في موقفه لا يحس برد الليل، ينتظر غفلة ليصعد إلى أخته
وكفَّ المطر، وهدأت الريح، وانفتح الباب وخرج الطبيب لبعض عمله؛ فتسلل حسان إلى الدار. . .
ومضت لحظات قبل أن يسمع البواب من يناديه، فصعد؛ وقالت السيدة في غضب وثورة: ألم أطلب إليك. . . ألم آمرك أن تمنعه. . .؟
وأطاع البواب فهمَّ بالفتى ليطرده، ونشبت معركة. . .
وكنت خارجاً لبعض شأني أخذ عيني هذا المنظر. . .
وكان شرطي يسوق الفتى وقد اجتمع عليه البوابون الأربعة والفتى يتوسل، ودخلت في الزحام أريد أن أعرف، وكانت عينا حسان إلى النافذة، وثمة سيدة تنظر. . .
ورأيت الفتى الذي أخذتْه عيناي من قبل مرات، وكان يبكي وينظر إلى النافذة. . .
وكانت السيدة تبكي له. . .
وقال البواب: لقد أمرتني. . . أمرتني أن أدعو له الشرطة، إنه لا يكف عن مضايقتنا ليل نهار. . .
وقال الفتى بذله: اسألها يا سدي إنها. . . إنها لا تريد. . .
وقالت السيدة وصوتها يقطر أسى: دَعُوه. . .!
وغضبتُ وثارتْ غيرتي. . وذهبتْ نفسي مذاهب من الريبة وسوء الظن، وأطل الفضول من نوافذ البيوت الأربعة. . . وتوقع الجيران أن يشهدوا فضيحة. . . وظنوا الظنون. . .
وعاد الفتى يتوسل، والبواب يتشدد، ويد الشرطي في عنق الفتى وعيناه إلى هناك. . .
وعادت السيدة تقول في ضراعة: دعوه أرجو أن تتركه يا سيدي؛ إنه. . . إنه أخي. . .!
وأغلقتْ النوافذ المفتوحة، وتوارت الرؤوس المطلة، ومضى الشرطي والبواب بالفتى؛ وجلس الجيران يتهامسون؛ وكانت سيدة تجلس وراء النافذة وحدها، في وجهها أظفار دامية وفي عينيها على الذي أدماها دموع. . .
محمد سعيد العريان
البريد الأدبي
(وحي الرسالة)
أخي الأستاذ الزيات
إليك أقدم أطيب الثناء على الهدية النفيسة التي تفضلتَ بها على أخيك وهي المجلد الأول من (وحي الرسالة)، وهو مجموعة لمحات من بوارق فكرك الوثّاب الذي ترى به روح الشرق وعقل الغرب حين تشاء، بفضل ما وهبك الله من البصر بأسرار البلاغة العربية والثقافة الفرنسية، وتلك هِبة لا يتمتع بها من كتاب العصر إلا الأقلون
ويمتاز كتابك بميزة أصيلة هي تصويره لأكثر ما يحيط بهذا العصر من مشكلات عقلية، ومعضلات ذوقية، فهو سِجلٌ صادق لحوادث عاناها المجتمع واضطرم لها روحك الأمين وما عاودتُ النظر في كتابك إلا تفزّعتُ إشفاقاً عليك، فهو يشهد بأنك شديد الإحساس بالوجود. والذي يصف المجتمع وهو في مثل حالك يستأهل الإشفاق، إنه يعاني البلاء بمنحه المجتمع وهو يحمل روح المصلح. ولا يعزّيني إلا الشعور بأن الذين يشفقون في الطب لأمراض المجتمع هم في حقيقة الأمر من أعظم السعداء، وأنت في الطليعة بين كتابنا المصلحين، وإنك لعزيزٌ علينا أيها الشقيُّ السعيد
وهذا وقد قال بعض الناس إنك كاتب متأنق، وذلك باطل يراد به حق، فالكتابة الرفعية فنٌّ جميل لا ينفع فيه الارتجال. ولا تحسب أنك خدعتنا حين قلت إن مجموعة (وحي الرسالة) لم تكن إلا ومضات يلمح بها الفكر من أسبوع إلى أسبوع، فالكاتب الحق لا

يعرف عفو الخاطر وإن أحب أن يوصف بذلك وإنما ينقل إلى سنان القلم لواعج عاناها الفكر والروح في أعوام طوال. وهو كالشجرة التي تختزن ثمارها إلى أن يحين الموسم المنشود. فلا تحاول التعتب على من يصفك بالتأنق، لأن التأنق من صور الاهتمام، والاهتمام عملية جراحية تنقل الأفكار من عالم المعاني إلى عالم الشهود

أما بعد فأنا أرجو أن يسبغ الله عليك أثواب العافية وأن يجعل لمؤلفاتك حظاً من القبول تنسى به آلامك في خدمة الأدب الرفيع، إن جاز في دنيانا الحاضرة أن ينال المؤلفون المتفوقون بعض الجزاء. . . والله يحفظك للصديق الذي يعطف على جهودك أصدق العطف:

زكي مبارك

تحري الصدق في النقد

أخي الكريم الأستاذ الزيات:

تحية خالصة وعرفاناً بمكانة (الرسالة) في عالم الأدب الرفيع والنقد الشريف

والصدق - وهو من أخص صفاتك التي عرفتها فيك منذ عشرين عاماً أو تزيد - أول شرط من شروط النقد الشريف فإذا رأيت قلماً ينحرف عنه وهو يكتب في مجلتك، أسِفْت أسفين - أحدهما للعيب في ذاته، والآخر لأنه يقع في مجلة الرسالة، وهي علينا عزيزة؟

أقول كلمتي هذه على أثر ما قرأته في عددها الأخير الذي صدر في اليوم العشرين من مايو - لناقد يوازن بين الموسيقى في مصر وبين الشعراء، وبين الخطباء، وبين المعلمين، وبين الرسامين - وفصله هذا لاحق لسابق تناول فيه المفاضلة بين طوائف أخرى ممن يسميهم الفنانين بلغ عددها أربعة لأنه يبدأ مقاله الذي يعنيني فيه ما يعنيني - بالرقم (5) - وهو رقم الموسيقيين في سجله الشامل

ونحن نغبط الأستاذ الناقد على ما وهبه الله من قدرة خارقة على أن ينصب نفسه حكماً بين الأخصائيين من رجال هذه الفنون المختلفة التي بلغ عددها تسعة (حتى الآن)، ولعله لم يفرغ بعد من قضائه العالي في أشتات أخرى من الفنون، وأشتات آخرين من الفنانين

هذا فضل من الله يؤتيه من يشاء. أو هو فضول من الدعوى الطويلة العريضة التي أصبحت مرضاً في كثير ممن يحملون الأقلام ولا يحملون ما يضبطها ويكف غلواءها من الإفهام

ولست أعرض لسخرية هذا الناقد ولا لحكمه لي أو عليَ بين الخطباء. فليس يهمني أن (يقال خطيب)، وإنما يهمني أن أكون صاحب فكرة نافعة أحاول بثها في العقول أو عاطفة طيبة أحاول غرسها في النفوس

بل أعرض لشيء واحد - ذلك قول الناقد إنه سمعني يوماً في مسرح البلفدير في الإسكندرية أرثي سعداً عقب وفاته

تلك هي (الواقعة!) التي بنى عليها الناقد حكمه

وإذن فليسمع الأستاذ تكذيبي الصريح لهذه (الواقعة). فإني لم أتشرف برثاء سعد قط في الإسكندرية. ولم أتشرف برثاء سعد قط إلا في القاهرة بعد مرور العام الأول على وفاته، وكان ذلك في حفل تاريخي عظيم أقيم له سرادق مترامي الأطراف في جوار بيت الأمة

وإلا فليتفضل الناقد فيدلنا على شاهد واحد آخر غير شخصه يؤيد قوله إن سعداً رثى في الإسكندرية في مسرح البلفدير، وإن توفيق دياب حضر أو خطب

أما بعد، فإن رجلاً اشتغل بالتحدث إلى الجمهور منذ سنة 1916 إلى سنة 1940، وكانت آخر محاضراته ألقاها في كلية العلوم منذ شهرين، وأخرى ألقاها في دار الشبان المسلمين منذ شهر، فنهض للتعقيب على المحاضرة الأولى معالي إبراهيم عبد الهادي بك، وحضرة الدكتور منصور فهمي بك بما يأبى التواضع مجرد الإشارة إليه لولا سخرية هذا الساخر

ونهض للتعقيب على المحاضرة الثانية أستاذ جليل من أساتذة دار العلوم، وغيره من أساتذة الكليات الأزهرية بتحيات مباركات وتقدير مشكور. إن رجلاً هذا شأنه يقول فيه قائل: (إنه مسرحي إلى حد كبير في خطابته)، ويقيم حجته على صحة زعمه (بواقعة) مختلقة من جذورها لجدير به أن يبدي هذا الأسف، لا لخسارة تعيب شخصه، ولكن

لخسارة تعيب الصدق والنقد الشريف
محمد توفيق دياب
حول الدكتور الحفني
كتب زميلي وصديقي الأستاذ عزيز كلمة عن الدكتور الحفني ظلم فيها الرجل لأنه لا يعرفه ولا يعرف عنه شيئاً إلا ما يشيعه عنه أعداؤه!! فالحفني موسيقي بكل ما في هذه الكلمة من معان، والحفني منتج مخترع في فنه ولعل الأستاذ عزيز لا يعلم عنه أنه قد وفق إلى ما لم يوفق إليه غيره من موسيقى الغرب فأخرج للموسيقى العربية (فلوت الحفني) المتمم للأرباع والذي أثار دهشة وفرحاً، والذي قدره جلالة الملك فأمر -. حفظه الله - بضمه إلى الموسيقى الملكية . .
وقد أخرج الحفني أيضاً (الكورية) النحاسية وأخضعها للأرباع العربية. . وكل هذا مسجل ومعترف به من أرقى الأوساط الموسيقية. . . وهو الآن بسبيل اختراع جديد سيتمه
قريباً، وسيكون له من الضجة ما يحمل الأستاذ الصديق على الاعتذار - أو على الأقل - على فهم الرجل!!
محمد السيد المويلحي
تقويم عن نشر التعليم والثقافة في مصر
عزمت وزارة المعارف على إنشاء تقويم سنوي يتضمن بياناً مفصلاً عما يبذل من الجهود في سبيل نشر العلم والثقافة في مصر والمعاونة على انتشارهما في الأقطار الشرقية، وما هنالك من الصلات بينهما وبين المعاهد المعتنية بالتعليم في جميع الأقطار
وقد رأت الوزارة أن تخصص في هذا التقويم مكاناً بارزاً للجامعة الأزهرية لما لها من الأثر العظيم في هذه الناحية، فكتبت إليها تطلب موافاتها ببيان واف عن مختلف جهودها الثقافية، على أن يشمل ذلك عدد المدارس والمعاهد التي يؤهل لها الأزهر وعدد التلاميذ والطلبة، ومد الدراسة في كل معهد أو مدرسة، والدرجات والشهادات التي يمنحها، وعدد الفرق والأقسام والأساتذة في كل نوع من المعاهد مع ذكر أسماء رؤسائها ورؤساء أقسامها وأساتذتها، مع بيان عن مكتبة الأزهر، ثم عن الجهد الذي تبذله في سبيل نشر الثقافة الإسلامية خارج الديار المصرية وبالجملة كل ما ترى إدارة المعاهد وجاهة نشره من البيانات في هذا التقويم
هذا وستخصص الوزارة جزءاً آخر لجهود جامعة فؤاد الأول، مع نشر بيان واف عن كلياتها وأقسامها وأغراضها الثقافية
إحصاء الطلبة في مدارس سورية
ثبت أن عدد الطلاب في سنة 1939 إلى 1940 في البلاد السورية 42808 تلاميذ موزعين على 358 مدرسة، و16919 تلميذة موزعات على 91 مدرسة ثانوية للإناث. وقد كان عام 1938 - 1939 (38870) تلميذاً و15483 تلميذة، فتكون زيادة الطلاب بين العام المنصرم والعام الحاضر 5374 طالباً وطالبة ومما هو جدير بالذكر أنه في عام 1924 كان يوجد 212 مدرسة للبنين تضم 16045 تلميذاً و51 مدرسة للبنات تضم 3926 تلميذة
فيلاحظ الزيادة المحسوسة التي تزيد على الأضعاف خلال 15 عاماً مما يدل على إقبال الناس على العلم والثقافة
وقد رفعت مديرية المعارف العامة ذلك التقرير عن الإحصاءات إلى عصبة الأمم عن طريق دائرة المعارف في المفوضية العليا
جمعية المعلمين تعد كتاباً عن القاهرة
بدأت جمعية المعلمين العليا المشمولة بالرعاية الملكية في تأليف اللجان الفنية من بين أعضائها وهي اللجان التي ستتولى وضع مؤلف عن القاهرة يتضمن بحوثاً تعالج النواحي في تاريخ العاصمة المصرية، وذلك لمناسبة الاحتفال بالعيد الألفي لها وستجتمع هذه اللجان اليوم لتحديد عدد الصفحات التي يحتاج إليها كل بحث، حتى يتيسر لكل منها البدء في عملها
قصة أبي تمام
في البريد الأدبي للعدد الأخير من الرسالة طلبٌ من الأديب أحمد جمعه الشرباصي

موجه إلى الأدباء للتحقيق في قصة قول أبي تمام: (إقدام عمرو في سماحة حاتم)، وارتجاله: (لا تنكروا ضربي له من دونه - مثلاً. . .). وهل قيلت أمام الخليفة أو أحمد ابن المعتصم أو أحمد بن المأمون، وقد ذكر الأديب الشرباصي ما يفيد: أن القصة لا صحة لها أصلاً ناسباً في ذلك أقوالاً لابن خلكان، وزاعماً أيضاً أن كتب الأدب ومذ كراته وكل المؤلفين في عصرنا هذا اعتمدوا أنها قيلت أمام الخليفة، فأعجب به الخليفة وقال لوزيره: أعطه ما يطلب. . . فطلب أبو تمام الموصل. . . الخ

وأبادر فأقول: إن المؤلفين وكتب الأدب ومذكراته لم يعتمدوا القصة - كما رواها -، وإنما ذكروا أنه امتدح أحمد بن المعتصم أو أحمد بن المأمون بقصيدة سينية؛ فلما انتهى إلى قوله: (إقدام عمرو. . .)، قال له الكندي الفيلسوف: الأمير فوق ما وصفت فأطرق ثم رفع رأسه وأنشد: (لا تنكروا ضربي. . .)

ولما أخذت القصيدة من يده لم يجدوا فيها هذين البيتين فعجبوا من سرعة فطنته ولما خرج قال الكندي هذا الفتى يموت قريباً) ذكر ذلك أبو بكر الصولي في كتاب أخبار أبي تمام بعد

ذلك (وقد روى هذا على خلاف ما ذكرته وليس بشيء والصحيح هو هذا وقد تتبعتها صورة ولايته الموصل فلم أجد سوى أن الحسن بن سهل ولاه بريد الموصل) هذا ما نقله ابن خلكان بنصه. كما أن تغليط الحيص بيص وابن دحية إنما هو من الصولي. فالذي تتبعها إذن وغلطهما ليس ابن خلكان كما فهم خطأ الأديب الشرباصي. أما ما قاله ابن خلكان فهو (رأيت الناس يطبقون على أنه مدح الخليفة، وأن الخليفة أعجب به وقال لوزيره: أعطه ما يطلب فإنه يعيش أكثر من أربعين يوماً فطلب الموصل. ثم قال: وهذه القصة لا صحة لها أصلاً. وأورد بعد ذلك تحقيق الصولي، فنفىُ صحة القصة من ابن خلكان والصولي منصبٌ على تولية أبي تمام الموصل وإنشاده القصيدة في الخليفة. ولم يذكر البستاني في دائرة المعارف إلا ما صححه الصولي، وهو المشهور في كتب الأدب. وحينئذ من هو الذي قيلت فيه القصيدة؟ الواقع أن ذلك أمر تحقيقه سهل ميسور! فإننا لو رجعنا إلى ديوان أبي تمام لعرفنا أن القصيدة ليست في الخليفة وإنما هي في أحمد بن المعتصم، وهو ابن الخليفة المعتصم الذي اتصل به أبو تمام ونال جوائزه في ذلك الوقت وفيها يقول:

هدأت على تأميل (أحمد) همتي ... وأطاف تقليدي به وقياسي

فالبيت نص في الممدوح اسمه أحمد؛ أما ما ذكر من أنها قد تكون قيلت في أحمد بن المأمون فليس بشي ذلك لأن أبا تمام المتوفى سنة 231هـ ـ قالها في أواخر حياته؛ والذي يكون في مجلسه الفيلسوف الكندي في هذا العهد ويقال له في القصيدة نفسها: (يا ابن الخلائف من بني العباس) هو أبن الخليفة أحمد بن المعتصم لا أحمد بن المأمون المتوفى أبوه سنة 218هـ وبشيء من التحقيق كذلك، نرى أن نسبتها إلى الخليفة في بعض الكتب إنما هي من سهو النساخ فربما كانت كما يأتي: (إن أبا تمام امتدح ابن الخليفة المعتصم بقصيدة سينية) فسقطت لفظة (ابن) وصار الكلام (امتدح الخليفة المعتصم. . .) وهذا مما يؤكد أيضاً أنها قيلت في أحمد بن المعتصم لا أحمد بن المأمون. وللنساخ من أمثال ذلك كثير.

عبد الستار أحمد فراج

الكتب

عبقرية الشريف الرضي

تأليف الدكتور زكي مبارك

بقلم الأستاذ محمد هارون الحلو

لأستاذنا الدكتور زكي مبارك قلب يزخر بالفتوة وينبض بالعافية على رغم ما فيه من هوى مكتوم ولواعج مضطربة، وقد يلازم هذا الشذوذ والتناقض كثيراً من الأدباء ورجال الحكمة

وقد يكون ذلك لقدرتهم على الشكوى والأنين والتلهي أحياناً بالفلسفة أو التفلسف في تشريح العواطف والوجدانيات!

وهو يعيش في أودية الفن، الفن الروحي، ويهيم أبداً في ملكوت الخيال ولهذا كانت جل بحوثه من تيه عبقر، ومن همسات الشياطين!

والدكتور زكي مبارك له في البحث يكاد يستقل بها عن غيره من أعلام الأدب والكتاب

الأبيناء فهو حين يكتب لا يعدو أن يكون مترجماً لأشرف العواطف وأنبل الغرائز البشرية بصورة واضحة لا غموض فيها ولا تلبيس
تنطلق عنه الفكرة مستقلة، تشرق في آفاقها الحقيقة وتلتمع في أقطارها صورة تلك الروح التي انبثقت عنها تلك الفكرة، فهو إذا بحث كان (فسيولوجياً) في بحثه، فناناً في أسلوبه، تلمح في مأثورة قوة الانفعال ومدى خصوبة القريحة؛ ويستوقفك في تضاعيف بحوثه الطلية رشاقة الأسلوب وتأنق المعنى ووضوح الفكرة وتريب المعاني وحسن السبك. . . وغير ذلك من الصفات التي أعطت أدبه لوناً خاصاً يمتاز به عن غيره، كما أنه ينفرد بين أدبائنا بجرأته، وهو يعتمد في ذلك على مواهبه وثقته بنفسه؛ فهو يتوفر أبداً على نصرة فكرته، لا يتقهقر ولا يتأخر
وكان له من نشوة الظَّفر ما يدل به كثيراً على خصومه، وكثيراً ما يعتد بنفسه شأن المتثبت المتمكن القوي الإيمان؛ فإذا أراد أن يعرض بخصم أو يمازح صديقاً؛ فهو ذو درية بأساليب الكيد وطرق الممازحة والمؤاخذة الأليمة والنيل من خصومه ومن أصدقائه أيضاً!
وثمَّة خلَّةٌ تكاد تكون من لوازم ذلك الأديب الكبير، وهي صبرُه في البحث وقوة روحه في
استقصاء المعاني في الموضوعات التي يطرقها
ولقد كان وفاء زكي مبارك أبرز صفاته الشخصية، فهو يذهبُ إلى العراق ليرفدَ أهلها من معينه السائغ؛ فلو أنك أيها القارئ قد اطَّلعت على ذلك السَّفر النفيس (عبقرية الشريف الرضيّ) لجازَ لك أن تقول ما قاله أحد أدباء بغداد حينما قرأ ذلك الكتاب: (إن نثر زكي مبارك له روعة تفوق شعر الشريف الرضي في بعض الأحيان)
لا يمكنني أن اصف ذلك السَّفر الذي أقامه الدكتور زكي مبارك نصباً خالداً للشريف الرضي بقدر ما كتب هو عنه في مقدمته إذ يقول: (إن القلم جرى فيه بأسلوب ما أحسبني سُبقت إليه في شرح أغراض الشعراء، حتى كدت أتوهم أني طفتُ بأودية لم تعرفها الملائكة، ولا الشياطين)
ومن اعتداده بمؤلفه وتعريضه بغيره من المؤلفات ما يقوله أيضاً في سياق حديثه عن الشريف: (سيرى قراء هذا الكتاب أني جعلت الشريف أفحل شاعر عرفته اللغة العربية، وقد سمع بذلك ناس فذهبوا يقولون في جرائد بغداد: أيكون الشريف أشعر من المتنبي، وأستطيع أن أجيب بأن الشريف في كتابي أشعر من المتنبي في أي كتاب. ولن يكون المتنبي أشعر من الشريف إلا يوم أؤلف عنه كتاباً مثل هذا الكتاب!)
وله العذر فيما يقول فكتابه عن الشريف وعبقرية، ضرب من السحر لم يشرع في الكتابة من قبل ولم يأت على طريقة الأدباء بعد، فهو توجيه جديد في الدراسات الأدبية حيث يقف المؤلف من الشاعر موقف الصديق من الصديق، ويحصى عليه ويحصى له ويتحدث إلينا بإخلاص وأمانة، ويسجل رأيه الخاص في كل ما يعرض له، فالكتاب حافل بآراء جديدة وفلسفة فريدة
ولقد امتزج روح المؤلف بروح الشريف، وتأثر به أعمق التأثر وانتقل معه إلى عصره الذي كان يعيش فيه، وأحبه حباً عنيفاً، حتى أصبح يزكي خلاله مسرفاً في التمدح بأفضاله، فإذا مر بهفوة له فإنه يرفق به ويشفق عليه شأن ما يحدث عادة بين الخلصان من الأصحاب والأصدقاء
ولقد أربي البحث في هذا الكتاب - وهو يقع في جزأين كبيرين - على عشرين باباً، احتفل فيها المؤلف بكل باكورة من بواكير الشريف العبقري، وعالج موضوعات دقيقة عميقة لها أكبر الأثير في توجيه الشريف في حياته
ولقد أجاد المؤلف وأفاد في الحديث عن (أعوام البؤس في حياة الشريف) و (العلا والمعالي في قصائده) و (صلة الشريف بحياة خلفاء بني العباس) وهي من موضوعات الجزء الأول
كما أنه برع في الكتابة عن (غراميات الشريف) و (عفافه) و (حجازيات الشريف) وغير ذلك من النواحي والاتجاهات العميقة التي ضرب فيها فكر المؤلف وخياله بسهم وافر، فنفذ إلى مكنونات وطريف كان لها أثر كبير في إخراج هذه السفر على آنق أسلوب وارفع خيال، حتى حقَّ للدكتور زكي مبارك أن يستهل الكتاب بتعليقه على قول الشريف:

أنا النضار الذي يُضَنُّ به ... لو قلَّبتني يمينُ منتقدِ
بعبارته: اشهدْ أنك وجدْتَ المنتقد أيها النُّضار.
هذه كلمة قد عنَّ لي أن أكتبها وفاءً للأدب في شخص الدكتور (زكي مبارك) مؤلف عبقرية الشريف جزاه الله عن الأدب خيراً
محمد هارون الحلو
قصص العلماء والمخترعين
تأليف الأستاذ محمد عاطف البرقوقي
المفتش بوزارة المعارف
تحفزنا الرغبة في تشجيع الآداب العلمية إلى التنويه بهذا الكتاب الجليل، وهو باب من الأدب جديد يعني بتبسيط حقائق العلم في أسلوب أدبي يحبب إلى قارئه أن يقرأه فيجد لذة القراءة وفائدة التحصيل العلمي في وقت معاً؛ ومؤلفه حقيق بأن يبلغ بكتابه هذا المبلغ من الحرص على الفائدتين، فهو قد نشأ نشأة أدبية في ظلال أبيه الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي صاحب البيان، وصهره الأديب الكبير المرحوم مصطفى صادق الرافعي؛ وهو إلى ذلك عالم قد تخصص في مادته العلمية في مصر والخارج، وعليه التفتيش على دروس الطبيعة في مدارس الحكومة - فاجتمع له بذلك الفضل من طرفيه
ونحن ننشر فيما يلي فصلاً من هذا الكتاب الممتع برهاناً على ما قدمنا من وصفه:
اخترع التلغراف
سنة التطور والارتقاء
لداروين العظيم مذهبه الشهير الذي يقول بسنة التطور والارتقاء، حتى رد الإنسان إلى أصل من القردة، وهذا الرأي لا يسري على الكائنات فحسب، بل إنه في رأيي يمتد إلى الاختراعات أيضاً، فكل اختراع يظهر أولاً ناقصاً مشوهاً، ولكنه يتحسس ويرقى بالجهود المتتابعة التي يبذلها العلماء، والأمثلة على ذلك عديدة، فها هي ذي الكهربية بدأت ساكنة فتطورت إلى متحركة محدثة التيار الكهربي؛ وهذه أبحاث فراداي النظرية، تتطور إلى أعظم المخترعات العلمية، ويحاول العلماء نقل الإشارات كما في التلغراف، فينجحون فيما بعد في نقل الكلمات كما في التلفون، وينجحون في اختراع التلغراف والتلفون السلكيين، فتؤدي أبحاثهم وجهودهم إلى اختراع التلغراف والتلفون اللاسلكيين، وهكذا سنة التطور والاتقاء في الاختراعات، ولن تجد لهذه السنة تبديلاً.
ويحكى عن فرادي العظيم (ص55) أنه كان مرة يقوم بإجراء تجربة كهربائية في الجمعية الملكية بلندن أمام بعض المشاهدين والمشاهدات. وبعد ما أتم إجراءها وشرحها انبرت له إحدى السيدات وسألته: (يا مستر فرادي. هل يمكنك أن تخبرني ما فائدة؟) فأجابها على الفور ذلك الجواب المقنع المناسب: (وهل تستطيعين أن تخبريني عن فائدة الطفل ساعة ولادته؟) فأسقط في يدها ولم تحر جواباً
نشأة التلغراف
والتلغراف كان مطمح الآمال، وغاية العلماء منذ نشأة الكهربية، ففي عهد سكونها، وبعد أن كشف جراي ودي فاي (ص16) أن من الأجسام ما هو موصل وما هو غير موصل حاول بعضهم مد عدد من الأسلاك بعدد الحروف الهجائية، وهي تسعه وعشرون في اللغة الإنجليزية كل سلك فيها يقابل حرفاً من تلك الحروف فإذا أريد إرسال إشارة تلغرافية لكلمة معينة دلكت أطراف الأسلاك الدالة على حروف هذه الكلمة على التوالي، فتشحن هذه الأسلاك بالكهربائية فتجذب إليها في مكان الاستقبال كرات صغيرة من نخاع البيلسان فيؤلف المستقبل منها الكلمة المرسلة، وقد أخفقت هذه الطريقة كما أخفقت محاولات أخرى لما قام في طريقها من صعوبات: كبطء سير الإشارة أو ضعفها عن أن تصل إلى مسافات بعيدة، ولكن الاتجاه الصحيح قد بدأ سنة 1821، بعد أن كشف أورستد (ص37) التأثير المغنطيسي للتيار الكهربائي، إذا اقترح أمبير (ص41) عقب ذلك) وفي نفس سنة 1821 استغلال هذا الكشف الجديد لتطبيقه في التغلراف. ومن ذلك استطاع جاوس العالم الطبيعي الألماني وفبر (أستاذ الطبيعة في جامعة جوتنجن) سنة 1833 من إقامة أول خط تلغرافي في العالم بين المرصد وقسم الطبيعة في هذه الجامعة، وكانت المسافة بين المكانين 9000 قدم، وقد اشترك يوسف هنري الأمريكي (ص71)

في أبحاث التلغراف، وهو الذي اقترح استعمال المغنطيس الكهربائي الذي له الفضل في تحسينه ورأى أن يوضع أمام قطبيه قطعة حديد تمس حافظة، فإذا وصل التيار إلى ملف المغنطيس الكهربائي انجذبت إليه الحافظة وحدث صوت في (دقته) واقترح شتاينهيل الألماني بعد دراسة عميقة أنه يمكن استعمال الأرض موصلاً بدلاً من إقامة سلك آخر لإتمام الدائرة الكهربائية وقد أعلن ذلك إلى أكاديمية العلوم بجوتنجن سنة 1838، وقد حاول هويتستون في إنجلترا أيضاً الوصول إلى اختراع التلغراف، ولكن النصر الأخير والفوز الأعظم جاء على يد موريس الأمريكي

مورس

ومن ذا الذي لم يسمع بموريس؟ أو من ذا الذي لم يسمع (بالنقطة) و (الشرطة) اللتين أتخذهما موريس نظاماً وجعل منهما رموزاً للحروف الأبجدية والأرقام وغيرها، فجعل حرف الألف من نقطة وشرطة، والباء من شرطة وثلاث نقط، ورقم الخمسة خمس نقط وهكذا. إننا نسمع دقات التلغراف في مكانها كأنها تنادي باسم موريس آنا الليل وأطراف النهار

وقد بدأ موريس حياته فناناً، بل وفناناً عظيماً، ويكفيه فخراً في هذا المضمار أنه الذي أسس أكاديمية الرسم الأهلية في نيويورك، وقد تلقى أصول دراسة هذا الفن في أوربا، وأثناء عودته إلى بلاده سنة 1832، خطرت له أول خاطرة في التلغراف، وتمكن من بناء أول تلغراف عقب ذلك في نفس السنة، ولكنه كان يعوزه المال اللازم لبنايته وعرضه على الناس، واضطر إلى الانتظار ولكنه في الوقت نفسه كان يعمل على إدخال التحسينات في تركيبه، حتى أوفى على الغاية من الإتقان، وتسنى له أن يعرضه على الناس سنة 1837

في جامعة نيويورك، وأرسل أمامهم الإشارات التلغرافية مسافة 1700 قدم ونجح نجاحاً أثار الإعجاب، فمنحه مجلس الأمة الأمريكي مبلغ 30. 000 ريال، فأنشأ أول خط تلغرافي تجاري سنة 1844 بين واشنجتن وبلتيمور

ذاع صيت موريس، واشتهرت فكرته، فذاع تلغرافه في إنجلترا وأوربا وأمريكا، وأتقن إتقاناً عظيماً في بضع سنوات حتى صار في الإمكان إرسال الرسائل التلغرافية مسافة مئات الأميال سنة 1850

جيوفاني فركا يحدثنا عن الملاريا

عندما يقرع الجرس من جديد للقطيع في السكون العميق تهرب العصافير دون ضجة والراعي نفسه الأصفر من الأصفر من الحمى والأبيض من الغبار يفتح جفونه الوارمة برهة ويرفع الرأس في ظل الخيزرانات اليابسة. لأن الملاريا هنا تدخل في الخيزران الذي تأكله فالملاريا تفاجئ السكان بغتة على الطريق المقفرة وتفاجئهم أمام باب البيوت المحرقة بالشمس مرتجفين منم الحمى تحت ملابسهم الواسعة مع الغطاء على الرأس.

والآن قد أنقلب كل شيء فتحت سماء إيطاليا أقوياء البنية وهم لا يشكون الآن من مرض الملاريا. وهي السكينا التي سمحت بهذا التغيير السكينا الدواء المعروف منذ سنة 1630 فلجنة الملاريا بجمعية الأمم التي تكرس نفسها خصوصاً لدرس المسائل المتعلقة بالملاريا تنصح لدرء هذا المرض بأخذ 400 ملليجرام يومياً من السكينا طوال موسم الحميات وإذا كان أصيب الإنسان بالمرض فالدواء الموصوف يلخص في علاج سريع المدة فيكفي أخذ جرام واحد أو جرام وثلاثين سنتجرام من السكينا كل يوم مدة خمسة أو سبعة أيام ولا داعي للمعالجة التكميلية ففي حالة الانتكاس يمكن تطبيق العلاج ذاته.

العدد 361 - بتاريخ: 03 - 06 - 1940

الخصومة الأدبية في الشرق

للأستاذ عباس محمود العقاد

كتب كثير من الأدباء في الخصومة التي حدثت بيني وبين الرافعي، أو بيني وبين شوقي رحمهما الله، فلم أجد فيما كتبوه مدعاة إلى التعقيب أو المناقشة، وآثرت السكوت عليه.

وقرأت للأستاذ الصديق صاحب الرسالة مقالاً عن رأي الرافعي فيّ وفي الدكتور طه حسين، فرأيت فيما رواه عن الرافعي رحمه الله مذهباً من الخصومة الأدبية يتبعه

كثيرون في الشرق خاصة، ويأباه كثيرون ولا سيما في البلاد الغربية. فكتبت هذا المقال لأبين به خطتي في خصومة الأدب أو خصومة الرأي على الإجمال، وألمع به إلى موضع الاستقامة وموضع الانحراف فيما قيل حول هذا الموضوع.

وكنت أعلم أن الرافعي يقول عني أحياناً غير ما يكتب. روى ذلك الأديب الكبير محمد السباعي، ورواه صديقنا الكاتب المبين الأستاذ البرقوقي صاحب البيان، وكله في جملته يوافق ما رواه الأستاذ الزيات في مقال الرسالة؛ ومنه حرص الرافعي على كتمان هذه الشهادة!

ولم هذا الاختلاف بين السر والجهر، أو بين القول الخاص والقول العام؟

هذا هو أيضاً موضع الاختلاف بين خطتي في الخصومة الأدبية والخطة التي كان يؤثرها الرافعي وبعض الأدباء.

فأنا أقول الرأي بلهجة وأقوله بلهجة أخرى، وهذا قصارى ما أستبيح من الفرق بين الرضى والغضب والصداقة والخصومة.

أما الرأي في لبابه فلا يتغير ولا يتناقض، ولا يسعني أن أجهر بغير ما أكتم، وإن كنت لا أدين نفسي بنفخ الأبواق ودق الطبول تعظيماً لمن هجّيراه أن يتناولني بالتصفير.

روى صديقنا الزيات عن الرافعي أنه قال: (أما العقاد فإني أكرهه وأحترمه؛ أكرهه لأنه شديد الاعتداد بنفسه قليل الإنصاف لغيره. ولعله أعلم الناس بمكاني من الأدب؛ ولكنه ينفسّ علي قوة البيان فيتجاهلني حتى لا أجري معه في عنان).

وهذا كلام فيه صواب وفيه خطأ. ونستطيع أن نتفق على موقعه من الصواب وموقعه من الخطأ إذا توخينا الإنصاف.

فماذا كان رأيي الذي كتبته في الرافعي وأدبه؟

إنني كتبت عنه مرات أن له أسلوباً جزلاً، وأن له صفحات من بلاغة الإنشاء تسلكه في الطبقة الأولى من كتاب العربية للمنشئين.

وقلت إلى جانب ذلك أنني أنكر عليه فلسفة البحث وصحة المنطق ودقة القياس.

فهل كان في وسعي أن أرى في أدب الرافعي غير هذا الرأي أو أشهد له غير هذه الشهادة؟

كان في وسعي نعم أن أقولها بلهجة غير التي كتب بها عني وكتبت بها عنه.

ولكن هل كان في وسعي بعد قراءة أرسطو وأفلاطون وأبن سينا وكان وشوبنهور وهيوم أن أحسب الرافعي من كبار المناطقة مع حسباني إياه من كبار المنشئين؟

هبنا توافينا على المودة ولم نفترق في الخصومة؛ فهل كنت أستطيع أن أسيغ القضايا المنطقية التي كان رحمه الله يستكثر منها ويمعن في الاتكاء عليها، وهي لا تحتمل الاتكاء؟

فأنا قد شهدت له بالبلاغة الإنشائية وأنكرت عليه الفلسفة المنطقية، لأنني أستطيع أن أسلكه مع الجاحظ وعبد الحميد، ولا أستطيع أن أسلكه مع كانت وابن سينا وهيوم.

ومن الذي يستطيع غير ذلك ولو كان من أصدق الأصدقاء؟ بل من الذي يستطيع أن يدحض الأمثلة التي ذكرتها ورددت إليها إنكاري عليه ملكة البحث الفلسفي والمنطق الصحيح؟

فمثل من تلك الأمثلة قول الأستاذ في الجزء الثاني من تاريخ آداب العرب إن الحيوان لا ينطق من اللغة الإنسانية إلا بما فيه معنى الطعام (وبذلك تأتي لبعض الألمانيين أن ينطق كلبه بألفاظ خالصة من اللغة الألمانية، ولكنها في الجملة من حاجات الكلب الطبيعية كالأكل والشرب فلا تخرج عن معنى الإحساس أيضاً).

فقلت له إن كلمة الخبز بالألمانية تقابلها ألف كلمة في لغات الناس كافة تؤدي معنى الخبز وتختلف في لفظها أبعد اختلاف، وعلى هذا يجوز أن ينطق الكلب بكل كلمة تجري على لسان الآدمي لأن اختلاف الكلمات في لغة واحدة ليس بأصعب على الحيوان من اختلاف ألف كلمة بمعنى الخبز في جميع اللغات.

فهل هذا قياس صحيح؟ وهل هذا بحث في أسرار اللغات؟

وقلت له أن كلمة (سمك) تؤدي معنى الطعام، ولكن السين والميم والكاف تدخل في اصطلاح المهندسين والفلكيين. فلماذا لا ينطق الكلب بلغة الرياضة العليا كما ينطق بلغة الطعام؟

ومثل آخر من تلك الأمثلة أنه تعرض لرأي ابن الراوندي في إعجاز القرآن إذ يقول:

(إن المسلمين احتجوا لنبوة نبيهم بالقرآن الذي تحدى به النبي، فلم تقدر العرب على معارضته، فيقال لهم أخبرونا لو ادعى مدع لمن تقدم من الفلاسفة مثل دعواكم في القرآن، فقال: الدليل على صدق بطليموس أو أقليدس أن أقليدس أدعى أن الخلق يعجزون أن يأتوا بمثل كتابه أكانت نبوته تثبت؟).

تعرض الرافعي لكلام ابن الراوندي، فماذا قال في الرد عليه؟. . . إنه لم يكشف المغالطة الظاهرة فيه وهي أن أقليدس لم يخترع الحقائق التي أوردها في كتابه، وليس في طاقته هو نفسه أن يبتدع كتاباً آخر أو يزيد قضية واحدة على تلك القضايا، فالعجز يشمله كما يشمل الآخرين، والدعوى لا تظهر فضلاً له غير فضل الاهتداء إلى الحقائق الموجودة قبله والتي لا يد له هو في إيجادها بأي معنى من معاني الإيجاد.

لم يكتشف الرافعي هذه المغالطة الظاهرة، بل راح يقول: (لعمري أن مثل هذه الأقيسة التي يحسبها ابن الراوندي سبيلاً من الحجة وباباً من البرهان لهي في حقيقة العلم كأشد هذيان عرفه الطب قط. وإلا فأين كتاب من كتاب، وأين وضع من وضع، وأين قوم من قوم، وأين رجل من رجل؟ ولو أن الإعجاز كان في ورق القرآن وفيما يخط عليه، لكان كل كتاب في الأرض ككل كتاب في الأرض، ولا طرد ذلك القياس كله على وصفه كما يطرد القياس عليه في قولنا: كل حمار يتنفس، وابن الراوندي يتنفس، فابن الراوندي يكون ماذا؟).

كذلك خيل إلى الرافعي (رحمه الله) أنه رد على ابن الراوندي وما زاد على أنه وصفه بأنه حمار. فمن شاء أن يحسب هذا قياساً فليفعل وله حكمه على عقله. أما أن يحكم على العقول جميعاً بأن نقيس الآراء كما يقيسها، فذلك هو الشذوذ.

وقد نذكر هنا المثل الثالث والرابع والخامس والأمثلة الكثيرة لو كنا نريد الإحصاء والاستقصاء، ولكننا نريد التدليل ولا نبغي غيره. وفيما تقدم الكفاية.

فالذي قلته في أدب الرافعي هو الذي اعتقدته، بل هو الذي لا أقدر على اعتقاد رأي غيره

إلا أن أنسى كل ما عرفت من كتب البحث والقياس.

والذي قلته في قياس الرافعي لا يقدر الصديق على أن ينفيه أو يقول بنقيضه؛ إلا أن تكون الصداقة على غير الحق والإنصاف ولو قنع مني الرافعي بأن أشهد له بالبلاغة وأن أنقد قياسه وبحثه على النحو الذي تقدم لما كانت خصومة ولا كان جدال.

ولكنه أعتد رأيي فيه تجاهلاً وقلة إنصاف، وزاد فاعتده من العداوة ورصد له ما يرصد للأعداء. وهذا هو أصل الخلاف.

أما ما قيل ولا يزال يقال عن الخصومة الأدبية بيني وبين شوقي رحمه الله فبودي مرة أن أقرأ كاتباً واحداً يقول: (إنك نقدت الشاعر في (كذا) وإن (كذا) هذه خطأ أقيم عليه الدليل، وهذا هو الدليل).

بودي أن أقرأ هذا لكاتب واحد من الذين يخالفونني في الرأي وينهجون في النقد غير النقد الذي أنتحيه.

ولكنهم جميعاً لا يزيدون على الصياح والاستهوال ثم الصياح والاستهوال: يا خلق الله الحقونا. . . يا خلق الله أسمعوا وأعجبوا. . . يا خلق الله تعالوا فانظروا من يقول أن شوقيا ليس بشاعر عظيم.

وهذا كل ما يقال، وهذا كل ما يعاد، ولا مناقشة لرأي ولا استشهاد بمثال.

ومنهم من يقولني ما لم أقل ويخرج صارخاً على خلق الله ليزعم أنني عظمت الشعراء جميعاً إلا شوقيا وحده، فقد خصصته بقلة التعظيم أكذلك حصل؟. . . لا. كذلك لم يحصل!

وكل ما هنالك أنني يحق لي أن آكل الجميز الجيد وأن أعيب التفاح الذي يعاب. والجميز بعد ذلك هو الجميز، والتفاح هو التفاح!

وأعجب العجب أن يبلغ الادعاء بهؤلاء أن يغلقوا كل باب للرأي غير رأيهم فلا يخالفهم أحد إلا إذا كان تأويل المخالفة الوحيد تِرَة شخصية أو قلة إنصاف!

ولو أنهم طلبوا الحقيقة لسهل عليهم أن يعرفوا أن طريقتنا تباين طريقة شوقي، وأن اختلاف المقاييس بيننا وبينه معقول وطبيعي ومردود إلى أسبابه التي لا نغضي عنها لو أردنا الإغضاء.

وأن ترة شخصية بيننا وبين شوقي لم تكن على حال من الأحوال. وليس في مقدور أحد أن
يذكر سبباً لها لو اتجهت ظنونه إليها.
فكل ما قلناه في أدب شوقي فهو رأينا الذي أعتقدناه، ولا نحب أن يشير أحد إلى اللهجة التي قلنا بها، فإن بيان أسبابها وتسويغ موقعها لا يعسران علينا، ولا يخفيان على من يعلم أو يريد أن يعلم. . . فالإيجاز في هذه الإشارة أولى من الإفاضة فيها.
وبعد فالخصومة الأدبية لها مذهبان: مذهب الإيمان بالفضل وإخفائه على عمد، ومذهب الرأي الذي يتفق عليه الأصدقاء والخصوم وإن اختلفا في لهجة الأداء وعبارة الثناء.
وهذا هو مذهبنا الذي ندين به ونجري عليه في كل ما اختصمنا فيه. . . وعلى الذين يرموننا بقلة الإنصاف أن يرونا مبلغ إنصافهم لنا، إن كانوا. . . منصفين!
عباس محمود العقاد

حركات الإصلاح الإسلامية
أزمة إسلامية؟

للدكتور علي حسن عبد القادر
دكتور في الفلسفة والعلوم الإسلامية من جامعة برلين ومدرس بكلية الشريعة

أيوجد حقاً ما يسمى أزمة إسلامية؟ وهل صحيح أن الإسلام يجتاز في هذا العصر مرحلة اجتماعية خطيرة، وأنه يقف الآن عند نقطة فاصلة ويمر بدور حاسم في تاريخه، وسيبرهن على استحقاقه البقاء والخلود إذا مر بها صحيحاً سليماً؟
كانت هذه الأسئلة تتردد في نفسي وتضطرب وكنت أعالج منها ضيقاً وحرجاً عندما كنت أقرأ هذه الرسالة الصغيرة (الأزمة الإسلامية) للأستاذ ريشارد هرتمان ترى هل أحسن المسلمون بهذه الأزمة التي لم تنل بالطبع عقيدتهم القوية وإيمانهم الصحيح الخالص، أجل. ولكنها نالت أمراً عزيزاً لديهم. نالت حياتهم في أشكالها المختلفة ومست قوانينهم وشريعتهم ونظمهم الاجتماعية، وأصبح المسلم مضطرباً في حياته تتقاذفه أمواج شتى من حضارة جديدة وأفكار حرة وتقاليد موروثة ودين راسخ، لا يجد التوفيق بين ذلك كله سهلاً ميسوراً، وهكذا فإن المسلمين في جميع البلدان الإسلامية يعانون أزمة وشدة تكاد تودي بحياتهم وقد أودت بها فعلاً في بعض البلاد.
لاشك أن الناس لا يقرؤون التاريخ الحديث للإسلام، أو كأنهم لا يفكرون فيه كتلة تضم المسلمين في أقطار الأرض، فهم يغمضون أعينهم عما حصل وما يحصل في تركيا وبلاد الهند الإسلاميتين من حركات وثورات، بل وما يحصل بين سمعهم وبصرهم في مصر حيث الحياة قلقة والنفوس ثائرة والإسلام ينقبض في عقر داره يوماً عن يوم، وحيث سلطان الشريعة الإسلامية ضعيف. أترى أن هذا لا يستحق النظر الجد والتفكير العميق، أو أنه يكفي الصراخ والعويل كلما خرج خارج من أفراد أو دول؟
حقاً أن رجال الأزهر وهم الذين يمثلون جبهة الدفاع عن الإسلام والذود عن حياضه بما عرفوا به من علم صحيح وفكر مستقيم هم وحدهم الذين شعروا بهذا الخطر الداهم الذي
يهدد حياة المسلمين، وهم الذين أدركوا المنحدر الذي قد ينحدرون إليه، فهبوا يؤدون رسالتهم التاريخية في شجاعة وصبر، مضحين في سبيل هذا الواجب بهنائهم وسعادتهم غير مبالين بما يقف في طريقهم من صعاب لا يثنيهم عن عزمهم ما يبيته لهم الخصوم، ولا يصدهم عن مهمتهم ما يرميهم به ضعاف الإيمان، وهم من أجل ذلك في أزمة شديدة قاسية مضطربة نفوسهم وحياتهم أيما اضطراب.
في رسالة الأستاذ هرتمان بيان شامل دقيق لحركات المصلحين الذين تنوعت بهم طرق الإصلاح، واختلفت لديهم سبل التجديد تبعاً للثقافات المختلفة التي عرفوها والبيئات التي اتصلوا بها، فمنهم من رأى الرجوع إلى القديم والتمسك بالإسلام الأول، ومنهم من رأى الأخذ بالجديد كله، ومنهم من سلك سبيل التوفيق. وعلى هذا يدور البحث في هذه الرسالة القيمة التي سدت فراغاً كبيراً في الأبحاث الإسلامية الحديثة.
والأستاذ هرتمان عالم هادئ الطبع اتصلت به أثناء دراستي ببرلين فعرفته يمتاز عن غيره ممن بحث في العلوم الإسلامية بنضوج الفكرة، والرجوع إلى الحق إذا ظهر له، لا يصدر حكمه إلا بعد تريث وترو في رفق وأدب. وهاأنذا أعرض عليك فصولاً من هذا

البحث:
- 1 -
يقول الأستاذ: قلما تجد بين الأديان الكبيرة ديناً ينفذ إلى حياة معتنقيه كلها فردية كانت أم اجتماعية مثل الإسلام. ذلك أنه من وقت النبي والخلفاء أخذت السلطة الدينية فيه شكل الدولة السياسي، وبقي عدم التفريق بين أمور الدين وأمور الدولة - على الأقل في المبدأ - قائماً إلى الوقت الحاضر. وهكذا أليس الدين كل شيء ثوب التشريع والفقه، وقد طور عمل القرون المتوالية هذا الفقه إلى بناء هائل منظم لكل أنواع المعاملات والعلاقات الإنسانية تنظيماً دقيقاً، وأصبحت القوانين كلها ذات ثوب ديني تبعاً لهذا المبدأ الذي لا يفرق بين أمور الدين وأمور السياسة.
حقاً إن مثل هذا القانون قد تكون فيه قوة مادام حياً جديداً موافقاً للعصر المعمول به فيه، ولكن هذا كان إلى حد محدود، فإنه في أثناء تطوره لم يكن نافذاً معمولاً به على الإطلاق، لأنه في الحقيقة لم يكن من عمل الدولة وأعضائها، ولكنه كان عملاً للمؤلفين. وأخيراً عندما اقتنع الناس بأنه تجب متابعة الخلف للسلف الأول في كل أمر، وأن كان ما فصل فيه السلف الصالح مرة في وقت يجب أن ترتبط به الأمة الإسلامية في كل الأوقات. لما حصل هذا الفقه المحدد لكل حياة المسلمين في ثوبه الديني المقدس خطراً مهدداً يقف أمام كل إصلاح.
ولم يشعر أحد بهذا الخطر ولم يكن حاداً ظاهراً ما دام العالم الإسلامي على قمة الثقافة. كان هذا في العصور الوسطى، وكانت الحياة المسيحية إذ ذاك تشبه إلى حد ما، حيث كانت حياة المسيحيين تحت سلطان الكنيسة، وكانت هناك ثقافة ومدنية مسيحية كما كانت هناك ثقافة ومدنية إسلامية وكلاهما بالرغم من تخالفهما في العقيدة كانا متقاربين، ونشأ ومن ورائهما ثقافة وثنية. وبينما كان الدين في الغرب يرجع إلى الوراء وتضيق حدوده أثناء مرحلة التطور من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة، وتحل محل المدنية المسيحية للعصور الوسطى مدنية وطنية - بقي الإسلام سائراً في طريقه القديم القائم على الدين - ومن هنا كانت الثغرة بين الشرق والغرب واسعة، وبقى للشرق وللغرب كل له لغته الخاصة إلى يومنا هذا.
وأخيراً نوقشت مسائل التاريخ، وفتح المسلمون أعينهم على وضع المدنية الإسلامية للقرون الوسطى إزاء المدنية الحديثة. فماذا كانت النتيجة؟
إن العالم الإسلامي يف الآن عند نقطة فاصلة، فهو في أزمة، فهل قطع الإسلام - الذي يظهر مرتبطاً بالعصور الوسطى - كل شوطه وأتم القيام بدوره؟ وهل هذا المرض الباقي إلى الآن من الإسلام نفسه؟ أو أن الإسلام كدين متفق مع الإصلاح الحديث؟ وهل يستطيع الإسلام أن يتخلص من تأخر العصور الوسطى التي ارتبطت به؟ وهل هو في نفسه صالح وقادر على التطور؟
على جواب هذه الأسئلة يتوقف كيان الإسلام كدين، بل حتى في الأمور السياسية والاقتصادية بالنسبة لمستقبل الشعوب الإسلامية.
ولقد كانت مسألة عدم استطاعة الإسلام لإصلاح حقيقي، وعدم صلاحيته للتقدم، عقيدة سائدة عند الغربيين منذ عشرات السنين، ولم تكن هذه العقيدة سائدة عند (أهل التبشير)، وفي أوساط المبشرين الذين لا يفهمون عن الإسلام إلا صورة ناقصة جداً وغير صحيحة، بل أن الأمر تعدى إلى بعض مؤرخي الأديان مثل رينان الذي كان يقول: إن الإسلام عدو للعلم. بل قد تعدى إلى بعض السياسيين العارفين بشئون العالم الإسلامي مثل اللورد كرومر الذي حكم على الإسلام حكماً قاسياً حين قال: إن إصلاح الإسلام يخرج الإسلام عن أصله
ونحن لا ننكر أن ما قيل من أن الإسلام عدو للإصلاح وليس ملائماً للأفكار الحديثة، قد يكون له بعض الأسباب، ولكنا هنا لا نلقي الكلام على عواهنه، ولا نعرض لأحوال غير مفهومة لعوام المسلمين الذين أثبتت الملاحظات شيئاً من تعصبهم.
فإن ذلك كله لا يرجع إلى الدين الإسلامي نفسه، بل إلى العناصر والبيئات التي حل فيها، أو إلى ما انتشر بين الناس من أن الإسلام ليس إلا تكراراً لليهودية والمسيحية، فمثل هذه الأشياء قد تكون موانع للإصلاح، ولكنها على أقصى حد أمور تبعية شكلية

وليست أموراً أصلية. وأنه من البعد عن موضوع البحث أن نتكلم عن هذه الظواهر الشعبية في الإسلام، التي هي عبارة عن توفيقات بين تعاليم الدين وبين ما هو متأصل قديم في الشعوب من إفهام ضعيفة وأخرى ساذجة. ولكي يحكم الإنسان على جماعة دينية لا بد له من أن يحكم على مبادئها الصحيحة، وفي الإسلام يجب علينا أن نفهم مبادئه بكل وضوح، وأن نستبعد عنه ما ارتبط به من إفهام العوام، وحينئذ فقط يكون صحيحاً سليماً.

ولسنا في حاجة اليوم - لكي نفهم الإسلام في أطواره التاريخية - أن نقرر أنه لا يجوز لنا أن نرجع مباشرة إلى صحاب الرسالة (ص) كما نعرفه تاريخياً، فإن جاز لنا ذلك فإن الأمور تكون في غاية البساطة، لأنه ليس من شك أن النبي - الذي لم يكن نبياً فقط بالمعنى الذي يفهمه الأوربيون، بل كان سياسياً يدير أمور الدولة - كان في الحقيقة واسع الأفق في دعوته ويحسب للأمور حسابها. وجوابه المعروف: (أعقلها وتوكل) كلام له مغزاه، ويجب أن لا ننساه في مجرى التطورات الأخيرة في الإسلام.

ولكن الواقع أن الرجوع إلى ما كان عليه الرسول فقط لا يعرفه الإسلام التاريخي على ما هو عليه كجزء من حقيقته الصحيحة، فإن الإسلام كما يعتقد أهل السنة ليس إلا نتيجة لتطور طويل كثير التقلب. ذلك أنه لم يكن الإسلام في عهد الرسول إلا إيماناً سهلاً وقوانين للحياة بسيطة. وعندما انتشر بهذه السرعة الفائقة في بلاد ذات ثقافات مختلفة غير التي كانت في مهده الأول، دعا الأمر إلى تحوير وتشكيل. وهكذا تم للإسلام إضافة أشياء إليه أثناء امتزاجه بالتراث العقلي الذي كان عند سكان الأمم المفتوحة. حتى أمور العقائد التي

بقيت بعد كفاح شديد مقصورة على مبادئ قليلة خضعت لجولات واسعة حرة من الشرح والتفسير. وكان أكثر شيء توسعاً وازدياداً هو تنظيم أمور الحياة أو بعبارة أخرى الفقه والقانون.

ولكن هذا الفقه الإسلامي الذي كان في نوعه دينياً سياسياً وثقافياً، والذي كان منذ اللحظة الأولى أمراً لا يقبل التغيير، أقفل نهائياً وختم في نهاية القرن الثالث الهجري تقريباً، فوقف نشاط حركة دينية سياسية ثقافية نشيطة سنلم بأسبابها في المقال الآتي.

علي حسن عبد القادر

إلى أرض النبوة!

وصف وتأريخ لرحلة الوفد السوري إلى الحجاز ربيع 1935)

(لفتح طريق الحج البري للسيارات

للأستاذ علي الطنطاوي

حين تصل هذه المقالة إلى الرسالة، يكون الركب الذي خرج من دمشق منذ أسبوعين يؤم الحجاز قد شارف المدينة إن شاء الله. وهو أول ركب من الزوار يسير على الطريق الذي كشفناه، وفيه قريب من ثلاثمائة رجل وامرأة، ووصوله سالماً إلى المدينة، وذلك بفضل الله مؤكد، هو الثمرة الأولى لرحلتنا الكشفية التي رحلناها في ربيع 1935. ولقد كان أول ما خطر على بالي دعيت إليها وضع كتاب عنها، فكنت أتأبط دفتري دائماً، فلا نسلك طريقاً، ولا نقطع وادياً، ولا نرى جبلاً، إلا كتبت اسمه وصفته، وطبيعة أرضه، ولا يمر على قوم إلا سألت عن أنسابهم وأحوالهم، ووصفت مساكنهم، وذكرت ما عرفت من عاداتهم، وسمعت من لغاتهم؛ ولا بتنا ليلة إلا ذكرت كيف حططنا الأحمال، وكيف نهضنا للارتحال؛ ولا أرى منظراً، أو أشهد مشهداً، إلا ذكرت أثره في نفسي، وما أثار فيها من عاطفة، أو هاج من ذكرى، على ضبط في الأرقام، وتحر في جمع الأخبار، وتوثق من صدق الراوي وخبرته، حتى إذا دنونا من المدينة وأوفى الكتاب على الكمال، وقارب النهاية، امتدت إليه يد لا يعلمها إلا الله فذهبت به، فأيست منه وأهملته، وجعلت لا أكتب شيئاً، ولا أدون خبراً، إلا ما كان في طريق العودة فهو مكتوب عندي، وما كتبت من المقالات في مجلة الرسالة وغيرها.

وعدت إلى دمشق فانغمست في عملي، ثم ضرب الدهر ضرباته فسافرت إلى العراق أولاً وثانياً، وعملت سنة في لبنان أدرس فيها، وحسبتني نسيت الرحلة ونسيها الناس، حتى كان هذا الشهر وحقق الله ما ذهبنا إليه، ورأت دمشق اليوم الموعود، فسافرت أول قافلة من الزوار، وألح على الأصدقاء، وأعادوا الطلب مني أن أنشر وصف تلك

الرحلة، فأجبت مكرهاً ونفضت ذهني، فكتبت ما بقي عالقاً به وجعلت غرضي أن أدون ما رأيت وما سمعت، وأسجل ما أحسست به وشعرت، من غير أن أعمد إلى كتاب من كتب التاريخ أو
رحلة من الرحلات، فآخذ منها الفصول والأخبار والأرقام، وأن أعرض على القارئ صورة من الحياة البدوية، إذا هي لم تكن محيطة شاملة، ولم تكن كافية وافية، فهي صحيحة ثابتة، ليست متخيلة ولا مبالغاً فيها، فإن أحسنت فلله الحمد، وإن أسأت فالذنب على من سرق (دفتري) عفا الله عنه وسامحه
وبعد، فهذه رحلة كشفية سلخنا فيها شهرين اثنين وقطعنا فيها خمسة آلاف كيل في الصحراء. . وركبنا فيها من الأهوال ورأينا من العذاب ما لو سردناه وفصلناه لكان أشبه شيء بالأساطير.
ولم تكن هذه الرحلة من أجل التسلية أو النظر في عجائب المخلوقات وغرائب البلدان، ولا للكسب والتجارة، ولا لشيء مما يرحل أفراد الناس من أجله عادة، بل كانت لمصلحة عامة، وغاية اجتماعية، تعود على بلاد الشام وأرض الحجاز بالخيرات الجمة والفوائد الكثيرة، هي فتح طريق للسيارات بين دمشق والمدينة يسهل على الناس أمر الحج ويرغبهم في أدائه ويوفر عليهم صحتهم ومالهم. ولم تكن هذه الرحلة رحلة واحد يهتم به أهله وأصحابه، ولا جماعة يعنى بهم أقرباؤهم وذووهم، ولكنها رحلة وفد من وجوه الشاميين وسراتهم وتجارهم. وكان الشاميون جميعاً يتبعونهم بأفكارهم ويرافقونهم بقلوبهم وينتظرون البرقيات منهم ويتسقطون أخبارهم، فإذا انقطعت أياماً انتشر القلق وساد الذعر وهاجت الجرائد، وأقبل الناس يسألون عن أبنائهم وإخوانهم. . فتهتم لذلك حكومة الشام ومملكة الحجاز، ثم لا ينقطع القلق ولا تسكن النفوس حتى يعرف خبر الوفد وتجيء منه برقية أو رسالة.
وكان أول عهدي بهذه الرحلة أن لقيني الشيخ ياسين الرواف المعتمد السابق للملكة العربية السعودية في دمشق، فقال لي: لقد عزمنا على اختراق الصحراء إلى المدينة، نكشف طريقاً للزوار برياً، فهل لك في مرافقتنا؟
قلت: نعم، ومضيت في سبيلي وأنا أراها أمنية من الأماني وأعلم أن بضاعتنا إنما هي الكلام، وأن الوفد لن يسافر، والطريق لن يفتح، ولذلك قلت نعم، وأجبته إلى السفر. وهل كان يسعني أن أقول له غير ذلك؟ تصور بالله مسلماً يستقبل البيت خمس مرات كل يوم، ويحن إلى هاتيك المعاهد، ويرى زيارته منيته ومبتغاه، وعربياً يحب الصحراء ويعرف
أخبارها، ويحفظ آدابها، ثم يدعى إلى قطع الصحراء وزيارة الحرم، هل يقول لا؟ هل يرفض الوقوف أمام الحجرة الشريفة، والقيام في الروضة، والصلاة حيال الكعبة، والشرب من زمزم، والسعي بين الصفا والمروة، وزيارة هاتيك البقاع المباركة التي ولد فيها الإسلام ودرج، وعاش فيها سيد العالم صلى الله عليه وسلم، ويأبى أن يخالط العرب في أرضهم، ويعرفهم في ديارهم، ويرى عياناً ما كان يقرأ خبره في الكتب، ويعرف أخباره على السماع؟
ولقد كنت أعلم أن هذه الرحلة جراءة على الموت واقتحام للخطر، وهجوم على الصحراء الهائلة التي طالما ابتلعت من أمم وأبادت من جيوش، ولكن ذلك كله يرغبني في الرحلة ويحببها إلي، لما ركب في طبعي من حب المغامرة والإقدام، ولأنها درس من دروس الحياة لا أجده كل يوم، هذا الدرس الذي من فصوله الصبر والجرأة والحزم والعزم والوحدة والنظام، يحتاج إليه كل شاب ينشأ في بلاد ليس فيها نظام عسكري كالبلاد الشامية؛ وأن الشبان الذين ولدوا في الحرب العامة أو قبلها بقليل قد فقدوا لطول ما نشأوا على النعم وتقلبوا في الترف طرفاً من الرجولة، وغدوا لما وجدوا من السلامة وفقدوا من المصاعب يميلون إلى التطري والتأنث، ويخشون الخروج من المدن ويهابون الحياة في الريف؛ حتى أن إخواننا من المعلمين إذا أمر أحدهم بالانتقال إلى قرية من القرى فكأنما أمر بالانتقال إلى جهنم. وما ذلك لسوء عيش القرى فليس في القرى إلا صحة الأجسام وصفاء النفوس وجلاء النظر وراحة الفكر، بل لأنه لا يجد في القرية (قهوة) ندياً فاسد الهواء مسدود الأبواب، يجتمع فيه مائتان أو ثلاثمائة على نفخ الدخان، وقرع النرد، وحديث كأنفه ما يكون من الحديث، ونكات كأثقل ما يكون من النكات - ولو أن الشباب ألفوا المغامرة وركوب الأهوال، لما كان من ذلك شيء

ومرت أيام ثم لقيني الأستاذ الرواف كرة أخرى فقال لي: هلم فقد تقرر موعد السفر.
فأسقط في يدي ووقعت بين مشكلتين: مشكلة الوعد، ومشكلة الوظيفة. فلا أنا أستطيع أن أضحي بوظيفتي ومنها معاشي ومعاش أسرتي، ولا أنا أستطيع أن أخلف وعدي. ولو أني وعدت غير الشيخ ياسين لهان الأمر، ولكن الرجل نجدي سلفي لا يعرف من كلمة نعم إلا أنها وعد مبرم لا يحله إلا الموت؛ فاخترت الوفاء ولو خسرت الوظيفة وقلت له: أنا
حاضر!
ثم يسر الله فسمحت لي الوزارة بالسفر، وذهبت أعد الجواز. وجعلنا كلما أزمعنا السفر، وودعنا الأهل والأصحاب، عرضت لنا الموانع، فأخرتنا حتى ضجرنا واستحيينا من الناس لكثرة ما نعزم ثم نقعد، وكان أكثرنا قد أقلع عن حلق لحيته ليوفرها، ويجمع منها لحية كبيرة، لما ظنوه أن الرجل هناك بلحيته، فكلما كان أطول لحية كان أعلى مقاماً. . . فكانوا يأسفون عليها ويضنون بها على الخلق، ويستحيون أن يواجهوا الناس بها، لأن هذا الزمان جعل المعروف من السنة منكراً يستحيا منه، والمنكر من البدعة معروفاً يفتخر به. ولبثنا على ذلك أياماً، ثم عزمنا العزمة الأخيرة، فبيتنا ثقلنا في المرأب (الكاراج) حتى نغدو مسافرين. فلما حملناه ورآه أصحابنا وجيراننا جاءوا يودعوننا الوداع السابع ونحن لا ندري أهو الوداع حقاً، أم سنقيم بعده أياماً وليالي أم لا نسافر أبداً.
كنا في المرأب مع الفجر، وجعلنا ننتظر حتى تطلع الشمس، وكان الضحى، وأذن الظهر، وكان العصر، فأيسنا، وهممنا بالانصراف ولكن السيارات حضرت، وتحقق الرحيل، وكانت أربعاً من طراز (البويك) وواحدة من (الناش). وقد رفعوا على السيارة الأولى علماً سعودياً، وعلقوا في صدرها لوحة كتبوا فيها (الوفد السوري لاكتشاف طريق الحج البري). وسرنا وسار وراءنا المودعون في قطار من السيارات الكبيرة ما له آخر يعرف، حتى لقد ظننت أنهم لم يدعوا في البلد سيارة إلا استاقوها، واخترق الموكب مهللاً مكبراً تهتز له الأرض. . .
ولم أكن قد أيقنت بالسفر إلا في تلك اللحظة. فلما تصورتني كيف أفارق أهلي وموطني، وأطوح بنفسي في هذه الصحراء المخيفة، استعبرت. وكنت أطل على بردى، وهو يجري زاخراً فأناملة، فأجده أحلى في عيني مما كان، وأحب إلى نفسي، وعز علي أن أفارقه، واستفاقت في ذهني مئات من الذكريات، وكرت على حياتي كلها كأنها (فلم) أراه، فأبصرت في كل بقعة من دمشق، وكل طريق من طرقها قسما من حياتي. . . وهل حياة المرء إلا في قلوب أصدقائه، ووجوه أصحابه، وجوانب داره، ومشاهد بلده؛ فإذا فارق أهله، وغادر بلده، إلى بلد لا يعرفه، وأهل لا يألفهم، فكأنما مات نصف ميتة. ومن أجل ذلك كانت الهجرة جهاداً في سبيل الله، ذلك لأنها لون من ألوان الموت، ولكن صاحبها ميت
يعيش ليتألم، والميت مات فاستراح.
واستغرقت في هذه الأفكار فما صحوت إلا والموكب قد بلغ (بوابة الله) ووقف في ظاهر دمشق، ولم يعد موكباً وإنما صار طوفاناً من البشر، ولجاً طامياً من الناس، وكان من ثقله يزحف زحفاً، ويكبر فيزلزل الأرض، ويهتف فيشق عنان السماء، فلما بلغ (البوابة) وقف للوداع. . .
(لها بقايا)
علي الطنطاوي
النقد الرخيص
للأستاذ محمد محمد المدني
لا شك أن النقد أمر لا بد منه في قضايا العلم والبحث، وأنه ما دامت العقول المفكرة، والأقلام الكاتبة، فلا بد أيضاً من الآراء المتضاربة!
ذلك أن الناس يختلفون فيما يصدرون عنه اختلافاً شديداً تبعاً لاختلاف حظوظهم من العلم والعقل والتفكير ودرجة التأثر (بالعرف الطائفي) و (البيئة الخاصة):
هذا كاتب يستطيع - حين يعالج موضوعاً من الموضوعات - أن يخلص للحق فيه أكثر من إخلاصه لأي شيء سواه، فتراه يخلع ما عسى أن يكون له من آراء كونها لنفسه باعتباره عضواً في بيئة خاصة، أو متأثراً بظروف معينة، بل كونتها له هذه الظروف

وتلك البيئة من حيث لا يشعر؛ فإذا خلع هذه الآراء وتحلل منها - ولو مؤقتاً - ولم يجعل لها سلطاناً على تفكيره، ولا أثراً في طريقة بحثه، استطاع أن يصل إلى النتيجة التي يبتغيها وهو أبعد من مزالق الخطأ، وآمن من مواقع الهوى!

أما إذا فرض الكاتب على نفسه ثقافة معينة أياً كانت قيمتها فسلم بقضاياها، واطمأن إلى عرفها، واستراح إلى أحكامها، ثم تناول ما يريد من بحث على هذا الأساس؛ فقلما يصاحبه التوفيق أو يصادفه النجاح، لأنه إذا صادفه في أثناء بحثه ما يخالف هذه القضايا التي آمن بها واطمأن مقدماً إليها، نفر منه وضاق صدراً به فاضطرب لذلك ميزان تفكيره واختل معيار منطقه!

ولا تجد شيئاً أضر على العلم، ولا أسوأ أثراً في العقل، ولا أشد إفساداً للرأي، من التعصب وإدخال (الطائفية) في محال البحث والنقاش. ذلك أن العلم والعقل والرأي ليست وقفاً على طائفة من الناس دون طائفة، وليس أحد أولى بأن يزعمها لنفسه من أحد، وليس لمنصف أن يحكم فيها عرفاً دون عرف، أو ثقافة دون ثقافة، وإلا خرج من دائرتها، وتحلل من منطقها!

ومن هنا يأتي النقد، ومن هنا أيضاً تختلف قيمته، فيكون بعضه غالياً ثميناً، وبعضه مبتذلاً رخيصاً. وتختلف كيفيته، فيكون بعضه هادئاً نزيهاً، وبعضه هائجاً سفيهاً! وكل ذلك بحسب اختلاف معينه الذي فاض عنه، أو إنائه الذي نضح به!

ففي ناحية التفكير الرشيد، والعقل المتزن، والعلم الموثوق به، تجد النقد الهادئ، والرأي السديد، والأسلوب الراقي، واللفظ المهذب! وفي ناحية التفكير القاصر، والأفق المحدود، والعلم الذي هو أشبه بالجهل، تجد النقد الهائج، والرأي الفطير، والأسلوب الوضيع، واللفظ البذيء!

ولهذا وذاك أمثلة فيما يطلع به الناقدون على الكاتبين من نقد أو اعتراض، وفيما تجري به حركاتهم وألسنتهم من فعل أو قول.

ولو شئنا لمثلنا هنا بما نعرف فلا سودت وجوه، وابيضت وجوه! ولكنا نعرف أن الموازنة على هذا النحو تؤلم نفوساً لا نحب لها أن تألم، وتقض مضاجع عزيزاً علينا أن تقض، فحسبنا أن نجعل على ذلك علامة يلمح بها ما نريد أن نفضحه، من (النقد الرخيص)

إذا أردت، أيها القارئ الكريم، أن تعرف قيمة النقد فانظر إليه فإن وجدت صاحبه يبحث في الجوهر واللباب، دون العرض والقشور، ويطيق أن يشرح بالحق صدراً، ويعترف به جهراً، في أسلوب عفيف، ولفظ مهذب، فذلك هو (النقد الثمين)

وإن رأيت صاحبه يشغل الناس بغير الحديث، ويهرب من مواجهة الحق، ولا يكرم قلمه أن يسيل بالألفاظ النابية، والكلم الجافية، كأن يرمي الذي ينقده بالجهل، وسوء النية، والملق، والضعف، والعقوق، والفسوق، وغير ذلك من الأوصاف، فاعلم بأن هذا هو (النقد الرخيص)

وإنما كان كذلك لأنه لم صاحبه جهداً، ولم يتقاضه تفكيراً ولا تعباً، فقصاراه أن يكون مجموعة من القول السيئ لزت في قرن، ثم قذف بها صاحبها في وجوه الناس، فأبت إلا أن تعود إليه لتلتصق به!

وقد عني القرآن الكريم بأن يرسم للناس طريق الأدب في هذا المجال واضحاً، وأن يضرب فيه الأمثال، والله بكل شيء عليم! (ولا تستوي الحسنة ولا السيئة، ادفع بالتي هي أحسن، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم، وما يلقاها إلا الذين صبروا، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم)

ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء. تؤتي) أكلها كل حين بأذن ربها، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون، ومثل كلمة خبيثة (كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار

أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن، إن ربك) (هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين

وينبغي على كل حال أن يغتبط الكاتب ذو الفكرة بما يتطاير حوله من سهام النقد، أو يثور عليه من غبار الاعتراض، فإن ذلك دليل واضح على أن فكرته قد وضعت موضع النظر، وأنها جديرة بالأخذ والرد والمناقشة والجدال

أما الفكر الهزيلة الساقطة فهي التي تولد فلا يحس بميلادها أحد، وتموت فلا يشعر

بفقدها أحد، وصاحبها في الحالين مغمورٌ مغمور!
وينبغي أيضاً أن يكون الكاتب - مع اغتباطه بما يرى من الاهتمام بفكرته - مترفعاً محتفظاً بمستواه، فلا يغريه إخلاصه للفكرة، وتفانيه الذود عنها، بأن ينازل غير الأنداد، فيجادل فيها الوضيع كما يجادل الرفيع، ويناقش الجاهل كما يناقش العالم، ويعامل المكابر المعاند بما يعامل به المستوضح المتثبت، ويسوى بين (النقد الرخيص) و (النقد الثمين) فإن في الناس من يجعل ذلك حيلة، ويتخذ منه وسيلة، ليطير ذكره ويذيع اسمه. فليحذر الكاتب هذا النوع من الناقدين وليفوتوا عليهم قصدهم، ويعكسوا - بإهمالهم - غرضهم!
وفي مثل ذلك يقول بشار بن برد: (هجوت جريراً فأعرض عني واستصغرني، ولو أجابني لكنت أشعر الناس)
وقد اعتذر مسلم بن الوليد عما ترك من هجاء دعبل الخزاعي بأنه ليس كفئاً لهجائه، وأن عرضه أدنى من أن يهجى، فهو يتركه لهذا الغرض الدقيق. قال:
أما الهجاء فدق عرضك دونه ... والمدح عنك كما علمت جليل
فاذهب فأنت طليق عرضك إنه ... عرض عززت به وأنت ذليل!
وكما ينبغي للكاتب أن يحتفظ بمثلها للمنبر الذي أشرف على الناس منه، فإذا كتب كاتب في (الرسالة) مثلاً فعليه ألا يشوه جمالها بما يرد فيها على (النقد الرخيص) ينشر في غيرها
تلك شرعة النقد والكتابة عندي، وأنا أولى بأن أطبقها على كل من نقدني فأسرف فيأيها الذين نقدتم فأسرفتم، ويأيها الذين نبا بكم القلم حين كتبتم: اذهبوا جميعاً فأنتم الطلقاء!
محمد محمد المدني
المدرس بكلية الشريعة
كفاءة هتلر الخطابية
للأستاذ عباس محمود العقاد
يصدر في هذا الأسبوع كتاب جديد لصديقنا الأستاذ الجليل) عباس محمود العقاد عنوانه (هتلر في الميزان)، وهو دراسة تحليلية مستفيضة لهذا الطاغية الشاذ بلغت مائتين وأربعين صفحة في خمسة فصول وعشرات من الموضوعات شملت نواحي هذه الشخصية التي بلبلت العالم وزلزلت الأرض.
ويسرنا أن نبادر فنقدم إلى قراء الرسالة هذه الصفحات من هذا الكتاب القيم لنعجل لهم بعضاً من لذاته، ونعرض عليهم وجهاً (من طريقته)
في كل شهرة خطابية منافذ للمبالغة والإطناب لا بد منها في كل زمان، وفي زماننا الحاضر خاصة
ومنافذ المبالغة والإطناب هذه تأتي من مصادر متعددة: بعضها بريء وبعضها متهم، ومنها المقصود المدبر، ومنها الذي يحدث على غير قصد وتدبير
فأول مصادر المبالغة والإطناب جمهور السامعين، وهم كدأب الجماهير يحبون أن يتأثروا وأن يخلقوا لأنفسهم دواعي الحماسة والمغالاة، وأن ينوموا أذهانهم تنويماً يسهل لهم أن يعتقدوا ما يحبون اعتقاده، وأن ينساقوا في موجة من الشعور لا تطيق الحدود، ولا تقف دون الإعجاب الكامل. لأن الوقوف عند حد من الحدود المعقولة يفسد الحماسة، وليس إفساد الحماسة مما تطيقه الجماهير.
وهي، أي الجماهير، طبقات من هذه الخليقة: ترتفع أو تهبط، وتعتدل أو تجمح مع الشطط، على حسب موقفها من الخطيب وموضوع الخطابة.
فإذا كان موضوع الخطابة نعرة قومية أو شهوة عدائية يشترك فيها الخطيب والسامعون،
فالجمهور في هذه الحالة على استعداد للحماسة والإطناب بغير مقدرة كبيرة في الخطيب.
وإذا كان السامعون مرؤوسين لذلك الخطيب، أو أتباعاً متشيعين لحزبه، يكرهون الغض منه لأنهم يحسبونه غضاً منهم، ويحبون إكباره لأن كبره منسوب إليهم، فهم إذن

أكثر استعداد للحماسة والإطناب.
وإن كانوا فوق هذا صغاراً ناشئين يفورون بحرارة السن الباكرة فأحرى بهم وهم جماعات وجماهير أن يستسلموا لما يسمعون، وألا يجشموا الخطيب معجزة الإبداع، ليستجيش بها قلوباً هي من قبل ذلك لا تهدأ من الجيشان.
فأدنى الجماهير إلى التسليم هو جمهور صبية ناشئين يصغون إلى زعيم يفخرون به فخر العصبية، ويسمعون منه صيحة الكبرياء الوطنية. . . وهذا هو جمهور هتلر في جميع المواقف، إلا القليل الذي لا يذكر.
وقد شهد الناس في مصر مجامع يحتشد لها السامعون زرافات زرافات من جميع الطوائف والأسنان، ليسمعوا كلاماً يعلمونه ويحفظونه، من خطيب لا يعجب السامع بصوته ولا بإيمانه. . بغية الاجتماع في الواقع لا بغية الاستماع
ثم تتكرر الدعوة ويتكرر الإقبال ويتكرر التصفيق الذي لا باعث إلا الرغبة في شيء يثير الشعور ويدفع السآمة و (يبرر) للجمهور وجوده وسعيه وانتظاره، ويربحه من الحكم على (وجوده) بالفناء. والفناء كربة إلى كل موجود، جمهوراً كان أو غير جمهور!
وفي وسعنا أن نشهد كل يوم حشداً من الناس يبذلون من مالهم ليستمعوا إلى ممثل مضحك مشهور في دور من الأدوار.
فما هو إلا أن يلفظ الكلمة الأولى حتى ينفجر السامعون بالضحك والقهقهة. وربما سأل أحدهم جاره: ماذا قال؟ بعد أن يكون قد ضحك مع الضاحكين!
فالمصدر الأول للمبالغة والإطناب في شهرة الخطباء هو أبرأ المصادر وأخلاها من الغش وفساد الذمة، وهو دفاع الجمهور عن وجوده حيث انتظم له وجود.
والمصدر الثاني وسط بين البراءة والاتهام، وبين الاندفاع والتدبير: وهو مصدر الرواة وكتاب الأخبار
فإن الصحيفة الإخبارية لتتعمد التهويل والإغراق في وصف حادثة لا تستحق الالتفاف إليها. لأنها تريد من القراء أن يلتفتوا؛ وتعيش من التفاتهم إلى ما تكتب. لا من تعويدهم أن يهملوا الأخبار التي تستحق الإهمال
والكاتب الذي يسافر ألف ميل لينقل خطبة يلقيها أحد الزعماء في يوم مشهود مرتقب المصير من المغرب إلى المشرق قد يفقد وظيفته إذا قنع بما دون السحر والإعجاز في وصف ما سمع وما رأى، وما لبث الناس ينتظرونه ويتكهنون به متشوقين متلهفين!
وقد تتفق الرواية الأمينة في الصحيفة الرصينة فيقرأها العارف المسئول ويعرض عنها طالب المناظر والعناوين، ممن ينظرون إلى مسرح السياسة كما ينظرون إلى مسرح التمثيل، وهم جمهرة القراء والنظارة في كل مكان، فيتواتر النبأ المبالغ فيه، وينقطع النبأ الذي يحرص على الصدق والأناة، وينتهي الأمر برواج الكذب والتلفيق، وبالشك في الصدق والأمانة.
فمبالغة السامعين ومبالغة الرواة ملازمتان لكل شهرة سياسية في كل زمان ولا سيما زماننا الحاضر: زمان النشر والإذاعة، وزمان التشوف إلى الجدة والغرابة ودفع الملل والسآمة.
ويأتي بعد المبالغة السامعين ومبالغة الرواة مصدر آخر من مصادر التهويل في الشهرة الخطابية قائم على النية السيئة والخطة المرسومة، ونعني نه مصدر الدعوة المسخرة والأقوال المأجورة، وهو سلاح يعتمد عليه النازيون خاصة فوق اعتمادهم على سلاح الميدان وجميع هذه المبالغات قد بلغت في تعظيم شهرة الزعيم النازي أقصى ما يتاح لشهرة أن تبلغ على الإطلاق: فاهتمام النازيين بالدعوة المسخرة قد جاوز كل اهتمام وجمهورهم أقرب الجماهير إلى التسليم والاستسلام، وحملة الأقلام ما فتئوا عدة أعوام يتنافسون في إشباع نهمة القراء بين جميع الأقوام.
فمن الطبيعي إذن أن تكون حقيقة هتلر الخطابية أقل كثيراً من شهرته التي أذاعها الدعاة والصحفيون والسامعون من أتباعه ومريديه، وأن يدخل في حساب شهرته كثير من المبالغة والاختراع و (الإخراج).
ونحن في عصر نسمع فيه الخطباء ونراهم على بعد، ونحكم على المتكلم في برلين أو موسكو أو واشنطن حكم راء وسامع، فما على المذياع ولا على الصور المتحركة من بعيد.
وقد رأينا هتلر وسمعناه

فهو ولا شك خطيب مبين، ولكن لا شك كذلك أنه ليس من ملوك الكلام في عصرنا الحاضر؛ وأنه لا يعد من طبقة الخطباء الذين يخاطبون كل جمهور ويتكلمون في كل قضية ويروضون عصى الأسماع، ولا تخاله يحسن القول بضع لحظات في موضوع غير الموضوع الذي يقلبه منذ عشرين سنة، أو بين أناس غير الذين يوافقونه في الجملة، ولا يخالفونه - إن خالفوه - إلا في التفصيل.

فليس هو في إفاضة بريان، ولا في بادرة لويد جورج، ولا في مهابة سعد زغلول.

ولكنه أقرب إلى الممثل الذي كرر دوره حتى حفظه ووعاه ووقع فريسة له فلا يقدر على تبديله

تخيله مثلاً غير غاضب، أو غير متكلم في مظالم ألمانيا المزعومة، أو غير مطمئن إلى آذان سامعيه

وتخيله واقفاً في لندن أو في موسكو أو في القاهرة يفاجئ السامعين على غير معرفة باسمه، ولا عهد بموضوع كلامه

إنه إذن ضائع لا محالة

وعيبه الأكبر أنه لا يقنع ولا يقيم الدليل، وأنه ما خرج قط على عادة واحدة تتردد في جميع مواقفه وموضوعاته، وهي إثارة الحفائظ وإضرام الكراهية ومواجهة السامعين من جانب الشعور المتفق عليه بينه وبينهم. . . وفيم اجتهاده في إقناع من هو قانع؟ وإيمان من هو مؤمن بغير برهان؟

ومرجع هذه العادة عنده إلى علل كثيرة: بعضها أصيل عالق بطبعه؛ وبعضها حديث طارئ عليه من حوادث حياته وعصره فالحديث الطارئ عليه هو هذا الذي ذكرناه؛ وهو أنه تعود في أيامه الأخيرة على الأقل أن يخاطب أناساً لا يحاسبونه ولا يجسرون على حسابه، ولعلهم لا يريدون أن يحاسبوه لاتفاق الشعور بينه وبينهم.

والأصل العالق بطبعه أنه فقير في العاطفة الشخصية، غني في العاطفة الشعبية أي العاطفة التي تربط بين الفرد والجماهير والعاطفة الشخصية هي التي تربي المساجلة والمحادثة، ومواجهة العقل للعقل، والنفس للنفس، والإصغاء في موضع الإصغاء، والإثبات بالحجة في موضع الإثبات.

فالرجل المفطور على عاطفة يساجل بها العواطف، وفكرة يقابل بها الأفكار، يقول ويسمع، ويستميل الفرد بالوسائل التي يستمال بها الأفراد، مرة بالإيحاء، ومرة بالدليل، ومرة بالشرح المفهوم؛ وفي كل مرة بتبادل الثقة والاعتراف بحق المناقشة والاعتراض.

أما الرجل الذي نضبت نفسه من جانب العاطفة الفردية، والذي ليس عنده ما يتبادل به مودة بمودة أو فهماً بفهم أو خاطراً بخاطر، والذي انقطعت جميع الوشائج بينه وبين إخوانه من أبناء آدم إلا الوشيجة التي تكون بين الواحد والألوف أو بين الداعية ولجمهور - فذلك رجل محدود القدرة على التحدث والتفاهم وعلى الإصغاء والإقناع، محتوم عليه أن يجد جمهوراً يستمع له ويكتفي منه بالاستماع، أو أن يتخيل نفسه قائماً بين جمهور وإن كان في مجلسه أفراد قليلون.

لهذا اشتهر هتلر بالتدفق في أحاديث السياسة ساعة بعد ساعة دون أن يقف أو يتمهل أو يسأم التكرار. فأن لم يتدفق في أحاديث السياسة، فهو بين حكاية نادرة أو إعادة ملحة مطروقة أو سرد تاريخ قديم؛ فإن لم يكن هذا ولا ذاك، فليس في مجلسه إلا السكوت والوجوم.

فهتلر الفرد (معدوم)

أما هتلر الموجود، فهو البوق الذي ينفخ في الجماهير أو يردد صدى الجماهير.

وانظر إلى صوره وهو في مواقف التفاهم والتحادث تر أمامك صوراً فاترة باهتة تنطق بالتكلف ونقص الحياة وتبعث في نفس ناظرها الريبة والنفور.

أما الصور التي يحيى فيها وتلبسه الحركة والشدة، فهي الصور التي ينقطع فيها التفاهم ويثور فيها الغضب وتتأجج فيها البغضاء.

وماذا ترى في هذه الصور؟

إن الخطباء الحماسيين جميعاً ليغضبون، وأنهم جميعاً ليحركون الغضب في الجماهير.

إلا أن الفرق بين غضب وغضب لفرق عظيم، وإن الاختلاف بين حماسة وحماسة ليفوق الاختلاف بين القوة والمرض، وبين الجلال والهوان

رأينا سعد زغلول وهو غاضب في خطبه، فرأينا غضباً كأنه السيف يصول به الفارس على قرنه، ويعرف كيف يصول
ورأينا هتلر وهو غاضب في خطبه، فماذا رأينا؟ رأينا غضباً كأنه الدمل المفتوح بنفس عن ضغينة كامنة كأنها القيح المحبوس، فهو فرصة للألم والتذاذ الألم في وقت واحد، وهو علاج للتنفيس عن داء، وليس بالسيف في أيدي الأقوياء
هو نوبة مصروع وليس بوثبة صارع.
وهو منظر تزور منه العيون، وليس بمنظر تود العيون أن تمتلئ منه
وهو رقصة الهمجي في حومة الدم أمام أوثان النقمة والتشفي، وليس برقصة الفارس في حومة البرجاس
وقد جمعنا في هذه الصفحات صوراً عدة لهتلر وهو يخطب، أو وهو يغضب، لأنه في الحقيقة قلما يخطب إلا ليغضب. فأية صورة من تلك الصور يا ترى يستطيع القارئ أن يكتب تحتها مثلاً: (هذه صورة هتلر يزأر أو يزمجر؟)
إن هذا الكلام ليكتتب تحت صور كثيرة لمصطفى كمال أو لسعد زغلول، ولكن هتلر - على عنايته بصوره واتخاذه رساماً خاصاً يتبعه في جميع المحافل ويوزع في أقطار العالم ألوف الصور بل عشرات الألوف منها - لا توجد له صورة واحدة تخيل إلى الناظر هيئة الأسد المزمجر أو الأسد الغاضب، وكلها بلا استثناء مما يصح أن يكتب القارئ تحته: (هتلر يعوي) أو هتلر (يلطم). . . ولا جناح عليه
ومن المعقول أن رجلاً كهذا يحب حلقات الخطابة التي يتزين فيها لشياطين غروره وحقده كما تتزين المرأة المجنونة لشياطين الزار، ويستريح فيها الهياج والتهييج كما تستريح تلك المرأة لصرعة الرقص وجلبة الطبل ورؤية الذبائح وهي تتخبط في الدماء.
ومن المعقول جداً أن يكره مواقف المفاوضة والتفاهم لأنها تلطمه على عجزه وتكشف له عن خواء طبعه، وتخرجه منها وهو في رأي نفسه أقل من حوله. . . إلا أن يلجأ إلى التهديد بالحرب كما يفعل في معظم أحاديثه، فهو إذن في موقف الإملاء وليس في موقف المفاوضة والإقناع.
وقد سجلت كلماته في المفاوضات التي دارت بينه وبين سفراء الدول ورؤساء الحكومات، فإذا هي عبرة العبر وأضحوكة الأضاحيك لا يكون فيها إلا ممثلاً يراوغ، أو مهدداً يتوعد، أو منكراً لما يقال على طريقة الأطفال والنساء الجاهلات: إني أنكر هذا لأني أنكر هذا،
. . .ولا مزيد
ناقشه مستر شامبرلن رئيس الوزارة الإنجليزية في الشروط التي فرضها على حكومة براغ، وأوجب عليها فيها أن تخلي الأرض المطلوبة وأن تبدأ الإخلاء في الساعة الثامنة من صباح السادس والعشرين من شهر سبتمبر (1938) وأن تتمه عند انتهاء اليوم الثامن والعشرين
فقال له مستر شامبرلن إن هذا إملاء (إنذار نهائي) بغير حرب، وبغير هزيمة على أمة قبلت المطالب وقبلت الاحتلال
واختار شامبرلن كلمة (إملاء) عمداً لأن هتلر يذكرها كلما ذكر معاهدات الصلح ومعاهدة فرساي على الخصوص، ويعتبرها موجباً لفسخ تلك المعاهدات
فما زاد هتلر على أن قال: (كلا. ليس هو إملاء). وأشار إلى رأس الورقة قائلاً: (أنظر. . . إن الورقة مكتوب عليها كلمة مذكورة. .)
وهو كلام يقال للابسي القمصان في ساحة الخطابة فيقبلونه ويسيغونه، ولكنه لا يقال في مفاوضات وزراء وسفراء
فالخطابة هي الميدان التي يغلب فيه هتلر بهذا الأسلوب، ولن يغلب به في ميدان آخر
وقد حذق من الخطابة ما يحدق بالمرانة ومساعدة السامعين المستعدين للإصغاء والتصديق وأهمه تدفق الكلام وسهولة التعبير.
ولم تزوده الطبيعة من أدوات الخطابة الفطرية إلا بزاد واحد وهو انقطاع الصلة النفسية بينه وبين الأفراد واضطراره من أجل ذلك إلى مواجهة الجماهير للشعور بالحياة ونشاط الإحساس.
ومتى نشطت نفسه ودبت الحركة إلى ذهنه فلا يندر أن يلهمه الموقف بعض الخواطر البارعة التي يمثل بها أعداءه في صورة مزرية، أو صورة تستفز السخط والامتعاض،

وكلها من ولائد الكراهية وليس فيها صورة واحدة وليدة عطف أو عناية بالآخرين.
ويختلف الناقدون في صوته اختلافاً لا يتبين الحقيقة فيه من يسمع الصوت منقولاً بالمذياع، وهو ينقل بعض الأصوات على أصلها ويعرض بعضها للتحريف وبعضها للتحسين.
فمن الناقدين من يعيبون على صوته خشونة تصك الآذان، ويقولون إنه أجرى العملية الجراحية في حنجرته لإصلاح هذا العيب ومنهم من يعجب بما في صوته من العمق ورنة التجويف، ويعده من أصلح الأصوات الخطابية لنقل الشعور الجارف والتهويل على السامعين.
وسواء كان العيب الذي يعيبه أولئك الناقدون صحيحاً أو غير صحيح فالمهم في صفات الأصوات التي تؤلف بالتكرار، وأن يكون لها طابع ولون معروف، وعندئذ قد يصبح العيب حلية مرغوباً فيها مع النجاح والتوفيق.
عباس محمود العقاد
من أدب الحرب
جبان يصف معركة
للأستاذ محمود الدسوقي
هذه القصة تصوير صادق لما يعتلج في نفس الجندي في)
غمرة الحرب، وما يقع في سمعه وتحت بصره من هول
وكرب، يفقدانه شجاعته أحياناً، ويشحذان عزيمته أحياناً
أخرى؛ فأما أن يهرب كما يفعل راوي هذه القصة، وأما أن
يؤدي واجب الوطن على الوجه الأكمل كما فعل رفاق له.
وهذه الصورة بعض ما وقع في أوائل حرب السنوات السبع
التي شن غاراتها فردريك الأكبر ملك بروسيا على ماريا
تيريزا إمبراطورة النمسا وحليفاتها فرنسا وروسيا والسويد
وأسبانيا والريخ الألماني في سنة 1756، وكانت سجالاً في
الغالب بينه وبين أعداؤه)
قال البروسي الفار:
وأخيراً في الثاني والعشرين من سبتمبر (1756) أعلن النفير وتلقينا الأمر المسير، فسرت الحركة في كل شيء، ونقض في بضع دقائق معسكر واسع مترامي الأطراف كالمدينة العظيمة تجوبه في ساعات. وشددنا الرحال وتأهبنا للمسير، وصدر الأمر بالتقدم وانحدرنا إلى الوادي، وأقمنا عند برنا جسراً وشققنا فوق المدينة قبالة معسكر السكسونيين طريقاً ينتهي أحد طرفيه بباب برنا. وكان الكثيرون من أسرى السكسونيين يصعدون منه إلى الجبل متنزهين أربعة أربعة، ويلقون على امتداد الطريق الطويل شتماً وتعريضاً لاذعاً لا
مفر لهم من سماعه. وكان بعضهم يقبل من تلك الناحية حزيناً مطرق الرأس، وآخرون يقبلون عليهم سيماء التحدي والقسوة، وفرق غير هؤلاء وأولئك تعلو وجوههم ابتسامة تأبى أن تترك للبروسيين الساخرين ديناً بلا سداد. في ذلك اليوم قطعنا قطعة أخرى من الطريق وعسكرنا في ليلينشتاين
وفي الثالث والعشرين كلف آلاينا بحماية عربات المؤن. وفي الرابع والعشرين قمنا بزحف مضاد، وبلغنا ليلاً وفي الضباب مكاناً لا يعلمه إلا الله. وفي الخامس والعشرين استأنفنا المسير مبكرين وقطعنا إلى أوسيج أربعة أميال، وهنا أقمنا إلى التاسع والعشرين نخرج كل يوم للاستطلاع، وتهاجمنا غالباً في أثناء القيام بهذه المهام جنود الإمبراطورة، أو يدهمنا من كمين وابل من الرصاص فيسقط غير واحد قتيلاً، ويتخلف جرحى كثيرون. فإذا ما صوبت مدفعيتنا بضعة مدافع نحو الكامنين ولى العدو الأدبار. ولم تكن هذه المصادفات تخيفني فسرعان ما ألفتها، فكنت أقول لنفسي: إذا ما دام الأمر على هذا المنوال لا يكون علينا منه ضير يذكر. وفي الثلاثين عاودنا الزحف طيلة النهار فلم نصل إلا ليلاً إلى جبل لا يعرفه منا أحد، ولا يدري من أمره من هم على شاكلتي إلا ما يدري الضرير. وتلقينا في تلك الأثناء أمراً بألا نقيم هنا خياماً وألا نلقي بنادقنا، بل نظل متأهبين على قدم وساق، إذ كان العدو على مقربة منا. فلما أصبح الصباح رأينا وسمعنا أخيراً ما كان يجري تحتنا في الوادي من ومض وقصف شديدين.

وفي تلك الليلة المزعجة فر كثيرون من الصفوف وفي جملة من فروا الأخ باخمان. ولم تكن الفرصة قد سنحت لي بعد، وإن كنت إلى ذلك الحين لم يزايلني الاطمئنان.
واصطففنا في الصباح الباكر لننحدر من واد صغير ضيق إلى الوادي الكبير؛ ولم نكن نستطيع تمييز الأشياء من كثافة الضباب. فلما بلغنا السهل أخيراً وتقدمنا إلى الجيش الكبير كنا نزحف في ثلاث كتائب. واستبنا من خلال الضباب المنتشر كالسحاب جنود العدو في هضبة فوق مدينة لوبوستس في بوهيميا وكانوا من فرسان الإمبراطورة. أما مشاتها فلم تقع أعيننا عليهم إذ كانوا يرابطون في المدينة. وفي الساعة السادسة قصفت المدافع من كتيبتنا الأمامية كما قصفت بطاريات الإمبراطورة قصفاً من شدته أن كانت قنابلها تصل إلى آلاينا، وكان في الكتيبة الوسطى. وكنت إلى ذلك الحين أمني النفس بالهرب، فلما وقعت
الواقعة عز علي الهرب وانسدت في وجهي المسالك جميعاً. وكنا نزحف في تلك الأثناء بلا انقطاع، فلم تلبث شجاعتي أن زايلتني، وكنت خليقاً أن أتسلل إلى بطن الأرض. ذلك أن خوفاً كالذي كان يتملكني كان يخلع على وجهي شحوب الموت، وكان يقرأ على سائر الوجوه حتى وجوه أولئك الذين عهدتهم مرحين لا يبالون. وكانت قناني الشراب الفارغة - ولكل جندي منها واحدة - تتطاير تحت وقع القنابل، فإن أغلبنا كان قد أتى
على آخر جرعة في قنينته واستمد منها شجاعته في ذلك اليوم؛ أما الغد فقد لا تكون به حاجة إليها. وتقدمنا الآن إلى مرمى المدافع إذ كان علينا أن نتبادل الموقف وكتيبتنا الأمامية. فيا هول ما شهدت! كانت كتل الحديد تئز فوق رؤوسنا، وتقع تارة أمامنا وتارة تنفذ إلى الأرض خلفنا، فيتطاير اليابس والأخضر والكلأ والحجر؟ وتدهمنا أحياناً فتمزق أجسامنا وتذرو أعضاءنا كما تذرو الهشيم الرياح. ولم نكن نبصر قدامنا إلا فرسان العدو تأتي بمختلف الحركات، فتارة تستعرض وتارة تستدير، وآناً تؤلف مثلثاً وآونة مربعاً تنتظم فيه. وتقدمت فرساننا أيضاً وكرت على العدو. فياله من وابل من الضربات يسقط مقعقعاً، ويمض خاطفاً! ولم تمض ربع ساعة حتى ارتدت فرساننا مدحورة وقد هزمها النمسويون وتعقبوها حتى مرمى مدافعنا. وهذا مشهد ما أجدر المرء بأن يشهده! خيول يعلق فرسانها في الركاب، وأخرى تجر أحشاءها على الأرض. وكنا ي تلك الأثناء ما نزال تحت نيران العدو حتى بلغت الساعة الحادية عشرة وجناحنا الأيسر لم يطلق رصاصة، على حين كان الأيمن يخوض المعركة ويصلاها.
وظن الكثيرون أنه لا بد من الهجوم حيث يرابط جند الإمبراطورة. ولم أكن إذ ذاك جزوعاً كما كنت من قبل، وإن كانت عفاريت الجيشين لم تفتأ تقتل عن كثب والميدان مغطى بالقتلى والجرحى. وإذ ينتصف النهار أو يكاد صدر الأمر إلى آلاينا واثنين معه بالارتداد، فقلنا لعله إلى المعسكر فنكفي القتال!
وصعدنا مرتفعات الكروم بخطى حثيثة ونفوس مستبشرة، وملأنا قلانسنا من دوالي الكرم وأكلنا من أعنابها هنيئاً، ولم يخطر لي ولمن هم إلى جانبي سوء على بال، وإن كنا ما زلنا نرى من القمة إخواننا في المعمة تحت النار والدخان، ونسمع قصفاً مرعباً فلا ندري على التحقيق لمن كتب النصر. وكان قوادنا يقودوننا في تلك الأثناء مصعدين في الجبل، ممعنين
في التصعيد إلى قمة شق في صخرها ممر ضيق. فلما بلغت طليعتنا القمة سمعنا الرصاص يطلق إطلاقاً مرعباً. فحزرنا آنئذ جلية الخبر، فإن بضعة آلاف من جنود الإمبراطورة قد كانوا تلقوا الأمر بالصعود إلى الجبل في الجانب الآخر لينقضوا على جيشنا من خلف، فاتصل الخبر بقوادنا فكان أن ارتددنا نحن لنسبقهم ونفسد تدبيرهم، ولو قد تأخرنا بضع دقائق لبلغوا القمة قبلنا ولكنا من الخاسرين. ونشبت مجزرة لا توصف قبل أن نتمكن من إقصاء البندوريين عن الغابة. وتكبدت مقدمتنا خسائر فادحة وانقضت مؤخرتنا لنجدتها حتى تم لنا احتلال القمة. وكانت جثث القتلى وأجسام الجرحى تؤلف تلاً تحت أقدامنا تتعثر فيه. وسرنا في أعقاب البندوريين نجليهم عن مرتفعات الكروم درجة درجة ونقفز خلفهم من صخرة إلى صخرة حتى بلغنا السهل. وأطبق البروسيون الأصليون والبراندنبرجيون على البندوريين كالجن، وكنت أنا حين حمى الوطيس كمن به مس لا يجد الخوف أو الذعر إلى قلبي سبيلاً، فأطلقت طلقاتي في الستين في شوط واحد، حتى إذا أتيت عليها سخنت بندقيتي وباتت في يدي

كالجمر؛ فذهبت أجرها من نطاقها، واحسبني في تلك الأثناء لم ألق إلى جانبي نفساً حية إذ كان الكل قد هرعوا إلى الهواء الطلق. واتخذ البندوريون مراكزهم ثانية فوق السهل قبالة لوبوستس على مقربة من الماء، وجعلوا يطلقون بنادقهم مستبسلين على مرتفعات الكروم حتى عض غير واحد قدامي وإلى جانبي في الكلأ. وكان البروسيون والبندوريون يختلط بعضهم ببعض في كل مكان، فمن وجد من الآخرين لا يزال يتحرك ضرب بالكرنافة على أم ناصيته أو طعن بالسنان. واستؤنف القتال بالسهل. ولكن أني لامرئ أن يصف ما حدث والدخان والبخار يتصاعدان من لوبوستيس، والهد والرعد يصمان الآذان، والسماء والأرض تكادان تنطبقان!

أنى لامرئ أن يصف ذلك الفزع المتواصل لمئات الطبول وذلك العزف الذي يمزق القلوب أو يشدد العزائم من موسيقى الميدان المختلفة الألوان، وتلك الصيحات المنبعثة من كثير من القواد، والزمجرة المرعدة من مساعديهم، وتلك الاستغاثة وذلك الاستصراخ المتصاعدين من آلاف مؤلفة من ضحايا اليوم الأشقياء المدوسين بالأقدام أنصاف الموتى! لقد كان هذا كله يذهل الحواس وكانت الساعة الثالثة ولوبوستيس تحت النيران وجنود مقدمتنا يطبقون على البندوريين كالأسود الكاسرة، فيقفز مئات كثيرة منهم إلى الماء والمدينة نفسها مسرح للفتك والطعان. في هذه اللحظة لم أكن في الطليعة، بل كنت في المؤخرة لا أزال على جبل الكروم، بينا الكثيرون غيري كما أسلفت القول يقفزون في حمية من درجة في الجبل إلى درجة يبادرون إلى نجدة الإخوان. وإذ كنت لا أزال فوق المرتفع أطل على السهل، كما لو منت أطلع في جو حالك مرعد يتساقط فيه البرد، قلت لنفسي: هذا أوانك قد آن؛ أو قال لي على الأصح الملك الذي كان يحرضني: أركن إلى الفرار! فتلفت من حولي فإذا كل شيء أمامي نار ودخان وبخار، ومن خلفي جنود كثيرون ما يزالون يهرعون للانقضاض على العدو، وعن يميني جيشان كبيران على أتم الأهبة للقتال، وعن شمالي مرتفعات الكروم وأدغال وغابات، وهنا وههنا بضعة من البروسيين والبندوريين والهوسار قد أربى قتلاهم على جرحاهم، فقلت: هنا! هنا! في هذا الجانب وإلا استحال الأمر علي فتسللت يسرة أخافت أول الأمر في مشيتي أخترق الدوالي. وكان بعض البروسيين لا يزالون يمرون بي مسرعين، فكانوا يقولون لي: عجل! عجل! أيها الأخ فالفوز لنا! أما أنا فلم أحر جواباً بل تصنعت قليلاً أني جريح، وواصلت السير أرتعش من الخوف ما في ذلك شك. وإذ أبتعد في تلك الأثناء حتى لا قبل لأحد برؤيتي ضاعفت من خطوي وأمعنت في سيري وغزرت فيه، وأنا أتلفت يمنة ويسرة كالصياد. وتطلعت من بعيد لآخر مرة في حياتي إلى حصاد الموت وحومة الفناء؛ ثم أطلقت ساقي للريح بجانب الغابة، وكانت ملأى بقتلى الهوسار والبندوريين وجثث الخيل، وعدوت عدواً سريعاً إلى النهر، ووقفت عنده. فإذا بضعة من جند الإمبراطورة المصابين الذين تسللوا مثلي من المعركة يصوبون ألي بنادقهم عندما أبصروني ويعاودون إلى التسديد مرتين أخريين غير عابئين ببندقيتي التي طرحتها، وبقلنسوتي التي كنت ألوح بها وأشير الإشارة المألوفة. على أنهم لم يطلقوا النار، فاعتزمت أن أعدوا إليهم ولو لم أفعل لكانوا أحرياء بأن يطلقوا علي النار كما علمت بعد ذاك. ولما جئتهم وقلت لهم إني فار من الجيش، أخذوا مني بندقيتي، ووعدوني بأن يردوها لي فيما بعد. . . لكن الذي استحوذ عليها لم يلبث أن اختفى بها على الأثر؛ واقتادوني إلى القرية التالية وكانت تبعد ساعة كاملة من لوبوستيس؛ وكانت لنا من خلال ذلك جولة في الماء وليس من نقالة سوى زورق واحد، وصراخ الرجال وعويل النساء والأطفال يرتفع كلاهما إلى أجواز الفضاء، فكل يريد أن يعبر أولاً خوفاً من البروسين، وكلهم يتصورونهم جد قريبين، أو لعلهم بثيابهم عالقون، ولم أكن في جملة المتأخرين بل قفزت إلى وسط زمرة من النساء، ولولا أن الملاح قذف بالبعض إلى خارج الزورق لبتنا من المغرقين، وكان في الضفة الأخرى مخفر بندوري رئيسي قادني إليه من رافقوني فتلقاني ذوو الشوارب الشقراء تلقياً حسناً، وقدموا إلي التبغ والشراب على الرغم من عجزنا البادي عن التفاهم، وأنفذوا معي صحبه إلى ليتميرتز فيما أظن، حيث قضيت ليلى بين بضعة من أبناء بوهيميا، وأنا غير آمن بينهم على رأسي. لكنه قد كان بلغ معي جهد النهار ومحنته مبلغاً دار منه رأسي فكانت هذه هي النقطة الهامة آخر ما فكرت فيه.

وفي الصباح وكان الثاني من أكتوبر نقلت إلى بودين حيث مركز القيادة الإمبراطورية العامة. وهناك التقيت بمائتي بروسي كلهم هارب على طريقته، وفي جملتهم صاحبي باخمان. ولشد ما ابتهجنا باللقاء على حين غفلة وفرحنا بالنجاة والحرية. وطفقنا نتحدث ونهلل كأننا بالبيت نصطلي، ونذكر زبداً من الإخوان وعبيداً، ونتساءل أين هما يا ترى؟

وسمح لنا بالتجوال في المعسكر، ووقف الضباط والجنود حولنا زمراً يستزيدوننا من الحديث عن أشياء لا ندريها. وعرف بعضنا كيف يستميل مضيفه بالمداهنة واختراع مئات الأكاذيب عن البروسيين حطاً من قدرهم وتقليلاً من شأنهم

وكان بين جنود الإمبراطورة من هم على هذه الشاكلة فيشاً وغلواً، فزعم أقصر قزم فيهم أنه حمل أطول براندنبرجي على الفرار، واقتادوني بعد ذلك إلى قرابة خمسين أسيراً من فرسان بروسيا فكان منظراً أليماً! فإن أحداً منهم لم يسلم من جرح أو مجل. وقد تهشم وجهه كله، وبعضهم قد أصيب في رقبته أو أذنه أو كتفه أو فخذه. وقد كانوا جميعاً يتأوهون ويئنون. وكم حمد الله أولئك البائسون أن جنبنا هذا المصير مصيرهم! وكم حمدنا نحن الله على ذلك وأثنينا عيه! وقضينا الليل في المعسكر ثم نقد كل منا (دوكات) لسفره، ثم بعثوا بنا إلى قرية بوهيمية حيث غفونا قليلاً؛ ثم رحلنا إلى (براغ) في اليوم التالي.

وهنا توزعنا وتزودنا بالجوازات كل ستة أو عشرة أو أثنى عشر معاً ما داموا يتبعون طريقاً واحداً. وكنا خليطاً عجيباً من السويسريين والشوابيين والسكسونيين والبفاريين وأبناء التيرول والوبلش والفرنسيين والبولاكيين والأتراك. وكانت براغ ترتعد خوفاً من البروسيين ويستولي عليهم رعب لا مثيل له. وكان أهلها قد علموا بنتيجة معركة لوبوسيتس وأيقنوا أن الظافر لا بد أن يكون على الأبواب. وهناك أيضاً أحاطت بنا زمر الجنود والأهالي لنقص عليهم ما ينتويه البروسون؛ فكان بعضنا يطمئن تلك الأرانب الجازعة، وبعضنا يجد مسرته في إرعابهم وفي القول بأن العدو قريب المزار وإنه محنق كالشيطان.

محمود الدسوقي

في سبيل إصلاح الأزهر

للأستاذ محمد يوسف موسى

حمد الأزهريون، ومن يعنيهم أن يسير هذا المعهد الجليل في الجادة المستقيمة، للأستاذ الكريم الزيات أن يخصص لمسألة إصلاحه شيئاً غير قليل من عنايته، وأن يوسع للكاتبين فيها جانباً من رسالته، رجاء أن نصل آخر الشوط إلى تحديد الغاية وتمهيد الطريق وتعيين الوسيلة. ولكني - ويشاركني فيما أخافه كثيرون - أخشى أن يلتوي علينا الأمر، وأن ننحرف عن الطريق، فيختلط علينا الرأي، ويفوت الغرض، وننتهي وقد صرنا أكثر مما نحن شيعاً وأحزاباً.

لهذا رأيت أن أكتب هذه الكلمة الأخيرة وأنصرف بعدها إلى غير ذلك من شئون إنما ينجح الطبيب إذا صدق مريضه القول ومحض له الرأي وصارحه بدائه على جليته. وإنما ينتفع المريض متى وثق بطبيبه، وأيقن بمرضه، ووقف على خطورته، وأحسن بحاجته للعلاج. لهذا كان واجب الطبيب أن يعالن المريض بالداء وأن يباديه به؛ لكن في لغة لا تدعو لليأس، ولهجة لا تميت الأمل، حتى لا يكون كمن ينفض يديه صار في الاحتضار

من أجل ذلك كان لا بد من في رأيي لمن يدعو للإصلاح من أن يتأنى له ويلتمس له الوسائل ويستكثر له الأعوان، وألا ينفر أحداً ممن إليهم يساق الحديث ويطلب الخير. ذلك أقرب أن تصادف الدعوة قبولاً، والكلام سميعاً، وأعون على بلوغ الأرب وأهدى لنيل الوطر. على أن الألم للمرض قد يكون بالغاً، وفورة النفس قد تكون قوية، فيند القلم أحياناً، ويشتط أحياناً، وهنا نلتمس للداعي سبيل العذر من خلوص النية ونبل القصد، ما دام لا يجعل دعوته ذريعة إلى حاجة وسبيلاً إلى مراد.

ومهما يكن فلست ممن يرضون أن تتكشف المعركة القائمة الآن عن بضع مقالات لا تعدو أن تكون كصرخة اللهفان وركضة الفرس، أو مهلة النفس وحسو الطائر. أرجو أن ننتهي منها وقد وضحت الغاية، وارتسمت الخطة، واتحدت القلوب والعزائم، وتواصى الجميع على ما فيه الخير للمعهد الذي نشرف بالانتساب له، وتوحدت الجهود للسير

للأمام عملياً. ولعل من أجدى أسباب الإصلاح التي يجب أن نبدأ بها فيما أرى أن يكون - كما قلت من
في كلمة سابقة - وكذا الواحد منا قبل كل شيء تكميل نفسه في خلقه وعمله حتى يصير مثالاً عالياً لطلابه؛ يلهب عواطفهم ويسدد خطاهم، ويشركهم في خير ما يقرأ ويدفعهم للمطالعة والبحث والاتصال بالحياة العلمية الجادة التي لا تحد بالكتاب المقرر والمنهاج المرسوم! بذلك يوجههم وجهة الخير في غير عناء ويحتذونه في غير تعمل. ثم يضيف لهذا أن يتآزر مع نفر ممن يقاسمونه الآلام والآمال فيكونوا جبهة تعمل في غير ملل أو إعلان لبعث مجد الإسلام العلمي وما طواه الزمن من مؤلفات العلماء الأعلام في القرون قبل تغلب العجمة وانغلاق التعابير
وقبل هذا وذاك يكون رجلاً لا سلطان عليه لغير ضميره، ولا سبيل للحزبية والهوى فيما يأخذ ويدع، ولا يجامل على حساب المصلحة العامة، ولا يتحزب مع وضوح الحق. بذلك نجد الإصلاح المرجو يسير الملتمس داني التناول.
وقديماً قالوا: من برى القوس رمى، ومن قدح النار اصطلى. وإلا إن كان قصارانا ثورة صحفية من فترة لأخرى دون أخذ بالعمل المنتج تعذر علينا الإصلاح وتأتي مقتربه واعتاص ذلوله
بقيت كلمة ويتم الحديث؛ هي ملاحظة صغيرة على الإشارة التي جاءت في (رسالة كلية الشريعة للأستاذ الأكبر) إلى معهد الدراسات الإسلامية. إن هذه الإشارة تفهم أن هذا المعهد يزاحم الأزهر في بعض ما نصب له نفسه من مهام، وأظن أن هذا ليس من الحق في شيء؛ فهو على ما عرفت - من طول ترددي عليه وانتفاعي به انتفاعاً كبير الأثر - قسم من مكتبة الجامعة العامة، جمعت فيه المؤلفات الخاصة بالعلوم والدراسات الإسلامية بوجه عام، سواء أكان باللغة العربية أو بغيرها.
يرى الزائر له إذا أراد أن يبحث فيلسوفاً، كالفارابي مثلاً، مؤلفاته المطبوعة بمصر وغير مصر، وقدراً كبيراً صالحاً مما كتب عنه بالعربية أو غيرها من اللغات. ذلك ما يزيد على أربعين مجلداً لجماعة من المستشرقين الفرنسيين، فيها تعريف واسع بالمخطوطات الإسلامية الموجودة بمكتبة باريس العامة، وعرض لبعض نصوصها، وإلى فهارس المطبوعات والمخطوطات الإسلامية الموجودة بالمكتبات العامة بمصر وأوربا، إلى كل هذا وما إليه منظم موضوع على حبل الذراع لمن يريد؛ حتى إن الباحث وهو جالس إلى إحدى
المناضد في بهوه الرحب، بين تلك الذخائر العلمية الإسلامية يشعر أنه لا يكاد ينقصه شيء في سبيل الوصول لما يريد من بحث وتحقيق.
أين هذا من مكتبة الأزهر التي لم أستطيع ولا يستطيع غيري أن ينتفع بشيء منها ما دامت على ما هي عليه من ضيق مكان، ونقص موظفين، وإهمال وعدم رعاية!
وكيف يعاب ذلك العمل الجليل، وينظر إليه النظر الشزر، على غير معرفة به، بدل أن نشكر من كان له الفضل في إنشائه! أقول هذا عن علم؛ لأني لا أعلم أن أحداً من الأزهريين - حتى شباب المدرسين - تردد على هذا المعهد للانتفاع به، رغم دعوتي له وبعثي عليه، إجابة لرغبة حضرات الموظفين الثقات القائمين بشئونه.
لو أن إخواننا الذين اشتركوا في صياغة (رسالة كلية الشريعة للأستاذ الأكبر) عنوا بالتعرف إلى ذلك المعهد الذي يؤدي الآن خدمة لا يؤديها غيره، لما أشاروا إليه إشارة من يجب ويكره عن غير علم. ولعل منهم من كان ولا يزال في أشد الحاجة له لتحضير ما يطلب من بحوث ومحاضرات علمية في الامتحانات!
وبعد فلعّلى وفقت بعض الشيء فيما نحن بسبيله، والله المستعان.

محمد يوسف موسى
مدرس بكلية أصول الدين

الحرب في أسبوع

للأستاذ فوزي الشتوي

مفاجأة. . . ولكن
كانت أبرز حوادث الأسبوع الماضي حادثة تسليم الجيش البلجيكي بأمر ملكه. وكانت الحادثة مفاجأة لم يتوقعها العالم، بل لم تدر قيادة جيوش فرنسا وإنجلترا من أمرها شيئاً. فهي مفاجأة لم يقل وقعها على نفوس القراء من المفاجآت الهتلرية. واختلفت

الناس في تقديرها، فمن قائل إنها نوبة يأس استولت على الملك ليوبولد في ساعة فزع واضطراب أعصاب، ولا سيما بعد ما والى الجيش الألماني هجومه في الليل، فلم يخلد إلى الراحة كالمعتاد. ومن قائل إنها خيانة صريحة ارتكبها الملك بالاتفاق مع الألمان.

ومن فريق ثالث يقول: كانت خطوة متوقعه سار فيها الملك ليوبولد الثالث على مثال قرار قيادة الجيش الهولندي عندما أمرت جيوشها بوضع السلاح

وليس لنا أن تقرر الدوافع لهذه الخطوة، فعلمها كما قال المستر تشرشل رئيس الوزراء البريطانية عند الملك وحده، ولا يجدر بنا الحكم على فعلته الآن، ولكن هذه الخطوة ترينا ظاهرتين مختلفتين في أخلاق شعبين عظيمين. فبينما الشعب الفرنسي يقابلها بمرارة وغضب ظهرا في حديث المسيو رينو، قابلها الشعب البريطاني ببرود وثبات ظهر في حديث رئيس الوزارة البريطانية

والبرود والثبات في قيادة الجيوش من أكبر وسائل تحقيق النصر، فهما خلتان كبيرتان للاحتفاظ بالعقل والمنطق. وأذكر أن الجنرال فرانش قائد الجيوش البريطانية في فرنسا سنة 1914 لم يجد كلمة يمدح بها أحد قواده في أحد المعارك ابغ من أنه كان مثال البرود والسكينة في تلقي الأنباء وإصدار الأوامر

بين تسليمين

ويختلف موقف تسليم الجيوش البلجيكية الآن عن تسليم الجيوش الهولندية اختلافاً بيناً. فقد كان الجيش الهولندي يقاتل وحده ولا تحتل معه قوات الحلفاء مواقع تشد أزره أو يشد أزرها. ولم تكن المعركة حامية لم يقرر مصيرها بعد هي الحال مع جيوش الحلفاء في

الشمال. ولم يكن قرار هولندا لا يؤثر إلا على موقف جيوشها وحدها، وهذا أمر لهم وحدهم حق تقريره. بينما انسحاب القوات البلجيكية من مواقعها قد أخلى ثغرات واسعة في صفوف القوات المتحالفة.

فإذا عرفنا أن من تقاليد الجيوش البريطانية والفرنسية ألا تلقي السلاح تبين لنا مقدار الخطأ الفادح الذي جره إلقاء الجيش البلجيكي لسلاحه. وإذا كان ثمة خطأ يسند إلى الملك ليوبولد، فلأنه لم ينذر قيادة الحلفاء بالخطوة التي اعتزمها لتتخذ من التدابير ما يربأ الصدع الذي يحدثه انسحاب قواته.

بين المساء والصباح

أضعف إلى ذلك ما وافتنا به تلغرافات صباح يوم الثلاثاء من أنباء تهلل لها وجه الناس بالبشر والأمل، فقد وصلت جيوش الحلفاء إلى بابوم، وهي تقع في منتصف النتوء الألماني بين حوض نهر السوم ومدينة أراس. ومعنى هذا أن جيوش الحلفاء تمكنت من الضغط على رقبة النتوء الألماني الممتد من هذا المكان إلى سواحل البحر. ولو تيسر لها أن تصل خطوطها بين جيشي الشمال والجنوب من هذه الناحية لسهل عليها أن تحصر هذه القوات وتعزلها عن قواعد تموينها، وبالتالي تقض عليها قضاء مبرماً.

وذهب بعض الناس إلى أن هذه الخطوة معناها انتصار الحلفاء وبدء الخاتمة. فقد سحبت ألمانيا كثيراً من قواتها من خط سيجفويد ومن على الحدود السويسرية لتعزيز أماكنها كما أيدت مواقعها بقوات ميكانيكية هائلة هي في الواقع صفوة القوات الألمانية التي أعدت الخطيرة الحاسمة. ويدلنا هذا على أن احتياطي القوات الهتلرية قد نفذ فاعتمدت على قوات رئيسية

وقد رأيت كثيراً من الناس يضعون دبابيس كبيرة في هذا الموضع ويضغطونها بشدة على خرطهم كأنها مسامير توضع في نعش الجيش الألماني، ثم يوصلونها بمواقع الحلفاء بخيوط خضراء رمزاً للسلام يسود العالم. ولكن ما كادت تلغرافات الصباح تصل بنبأ تسليم الجيش البلجيكي حتى وجم محررو الجرائد، ووقفوا أمام خرطهم مترددين أين يضعون دبابيسهم، وكيف يفهمون الموقف على ضوء الحوادث الأخيرة وأنعش خطاب المستر تشرشل وتصريحات وزراء بلجيكا كثيراً من الأفئدة فعادت لها ثقتها

بالنصر. وإن كان كثيرون قد قدروا أن يطول أمد الحرب. بل قال عضهم إنه خير يأتي من الشر، فتتركز قوات الحلفاء في فرنسا ويستقر القتال في ميدان واحد بدل تشعبه في عدة ميادين، وتقل خطوط مواصلات الحلفاء، وتعود الحرب إلى جبهة واحدة بدل

جبهتين. فقد كانت بلجيكا عبئاً على الحلفاء.
سياستان
وإذا قارنا بين الحرب الحالية والحرب الماضية وجدنا وجوه الشبه في أسسها واحدة. فألمانيا تبدأ الحرب بقوة هائلة تضعف على مر الأيام تبعاً لقلة مواردها واستعداها، بينما يبدأ الحلفاء حربهم بقوات قليلة تكبر كلما طال بها الأمد. فخلف إنجلترا وفرنسا إمبراطوريتان واسعتان تقدمان لهما الإمداد الذي تصقله الأيام وتزيد إنتاجه فقد بدأت ألمانيا استعدادها لهذه الحرب منذ تولي هتلر الحكم سنة 1933. فأخضع جميع موارد ألمانيا لهذه اللحظة. بينما بدأ الحلفاء استعدادهم من سنة 1938. واتخذت الخطوات الحاسمة لهذا الاستعداد في الأسبوع الماضي عند ما وضعت الأفراد والمصالح رهن الاستعداد العسكري. ولعل البعض يرى في هذه الحركة تمهلاً من الخلفاء. إلا أن من يدرس مشروعاتهم واستعدادهم وسياستهم لرفاهية شعوبهم يقدر خطورة هذه الخطوة الأخيرة ومدى ما تدره على الأداة الحربية من تحسين فالحلفاء يضعون خططهم ويعدونها لوقت الحاجة حتى إذا احتاج إليها الأمر نفذت في الحال. ولو عدنا بالذاكرة إلى بدء اشتعال الحرب، وشاهدنا ما فعله الحلفاء في تنظيم وزارة الحرب الاقتصادية عندما نفذ الحصر البحري رأينا مدى دقتهم في وضع مشروعاتهم.
ففي 24 ساعة كان الحصر البحري على ألمانيا نافذاً، وفي 24 ساعة تقدم ممثلو إنجلترا السياسيين إلى الدول المحايدة بقوائم تبين حاجة كل منهم من الخامات المسموح لها بالمرور من الحصر البحري والتي لا تترك لهم فائضاً يمكن لألمانيا أن تعتمد عليه. لو رجعنا إلى هذه الحوادث استطعنا أن ندرك كيف يسير المشروع الجديد وكيف يدعم إعداد الحلفاء العسكري.
كيف تساعدهم
ولا تفوتنا أن نذكر في هذا السبيل الولايات المتحدة وما تعده لتموين الخلفاء. فإن الخطوات التي اتخذت حتى الآن لا تتجاوز أن تكون مناضلة لإقرار مبدأ المساعدة وعلى أية صورة يكون. وقد ينتهي بدخولهم الحرب بقوات حربية، وليس بعتاد حربي فقط. وهي لم تقدم إلى الحلفاء مساعدة جدية حتى الآن بل أن مصانعها تستعد لمواجهة الحالة، ولم يتعد إمدادها عدداً قليلاً من الطائرات. ومن يعرف براعة الأمريكيين في تنظيم أعمالهم، وتشغيل مصانعهم لإنتاج كميات وفيرة، يدرك مدى السيل الذي يصل إلى الحلفاء كل فترة قصيرة
والغالب أن يستقر الموقف الحالي في البلجيك على شيئين: فأما أن ينسحب الحلفاء ويخلوا البلجيك وينقلوا قواتهم إلى فرنسا عن طريق البحر، وإما أن يستقروا في هذا الميدان بعد أن يمدوا قواتهم هناك بقوات جديدة على أن تكون صلاتهم عن طريق البحر. واعتقد من سير الأمور حتى كتابة هذه السطور أن الحلفاء ينسحبون من بلجيكا ويحولون ضرباتهم من فرنسا حيث أعدوا خطوط قتال قوية تسهل عليهم الاحتفاظ بمراكزهم إلى أن تتحطم ألمانيا اقتصادياً أو عسكرياً.
الخطوة التالية
أما في الميدان فإن جنود الحلفاء في حالة حسنة وفي موقف عسكري قوي يعملون على تطهيره من القوات المعادية. ولا يمكننا أن نجزم بخطوة ألمانيا التالية بعد استقرارها في الميدان الشمالي في البلجيك: هل تهاجم الجبهة الفرنسوية الشمالية الممتدة على نهر السوم إلى لونجوي؟ أم تهاجم فرنسا باحتراق حدود سويسرا؟ أم تتجه اتجاهاً آخر للاستيلاء على موارد جديدة بالهجوم على البلقان؟
فالواضح من الاستقرار الأخير في جبهة فرنسا الشمالية أن قتالها يطول وهذا مالا تحتمله الموارد الألمانية. فإذا هاجمت فرنسا باختراق سويسرا عن طريق مقاطعة بازل فلا ينتظر أن تصيب فيها من التقدم ما أصابته في بلجيكا، لأن الحلفاء لن يلدغوا من حجر مرتين. أما في البلقان فقد أعلنت الروسيا حرصها على الاحتفاظ بالحالة الراهنة هناك وإلا فإنها تحارب المعتدي. ولهذه فينتظر أن ترى فترة هدوء ونضال سياسي لتحويلها عن رأيها، وإن كنت أعتقد أنه ليس من مصلحة ألمانيا أن تشتبك في جبهتين كما قلت في مقالي

السابق.
فوزي الشتوي
بكالوريوس في الصحافة
رسالة الشعر
أنت وأنا. . .
للأستاذ أمجد الطرابلسي
إما رأيتِ الليلةَ الحالكة ... تجلو دجاها البرقةُ الساطعة
والطفلةَ المُشْرِقَةَ الضاحكة ... تُحزنُها لُعْبَتُها الضائعة
فإنني الليلةُ يا بَرقتي
وإنني الطفلةُ يا لعبتي
يا فرحتي أنتِ ويا دمعتي!
إن تجدي الناسكَ في دَيْرِهِ ... تهزُّهُ نغمةُ أرْغُنَّهِ
والفاجرَ العِربيدَ في سُكْرِهِ ... تُرْعِشُهُ النَّظْرَةُ مِنْ دَنَّهِ
فإنني الناسكُ يا نغمتي
وإنني السكرانُ يا خمرتي
يا سقري أنتِ ويا جَنَّتي!
إما رأيت الشاعرَ السادرا ... يقدسُ الحسنَ على سُبْحَتِهْ
والأهوجَ المضطرمَ الفائِرا ... تُهيِّجُ الأجسادُ من نَهْمَتِهْ
فإنني الشاعرُ يا سبحتي
وإنني الأهوجُ يا نهمتي
يا جسدي أنتِ ويا فكرتي!
إن تجدي المبتهلَ المؤمنا ... يصبوا إلى (الحورَّيةِ) الطاهرة
والماجنَ المُسْتَهْتِرَ الأرعنا ... يستعذبُ السمَّ من العاهرة
فإنني المبتهلُ المؤمنُ
وإنني المستهتر الأرعنُ
دَليلَتي أنتِ وحورَّيتي!
(باريس)
أمجد الطرابلسي
وهفا قلبي إليك
للشاعرة الفلسطينية الآنسة (دنانير)
لحتَ في أفق حياتي المظلمِ ... لمحة من نورْ
بدَّدتْ آونةً يا ملهمي ... ذلك الديجورْ
وهفا قلبي إليكْ
شيّقاً يحنو عليك
يرتجي الزلَفى لديك
لا تخيبْ يا حبيبي ما رجاه ... قلبيَ المفتونْ
لا، ولا ترجعْه من دنيا هواه ... رِجعه المغبون
يا خلَّيا من عذابي شدَّ ما ... كنت شغلي
ليتني سؤالكَ أصبحتُ كم ... أنت سؤُلي
حرتُ مما أنت فيه
بين إقبال وتيه
آه يا من أرتجيه
كل همي منك، حتام أراكْ ... غافلاً عني؟
وبقلبي من تباريح هواكْ ... علةٌ تضني
أيها المرسل لي في وحشتي ... مؤنساً قلبي
هجتَ لي الحبَّ، فكانت سلوتي ... نعمة الحب
أنت دنيا من فنون
تملأُ الدنيا فتون
كيف لا تسبى العيون

هاك قلبي، لا تدعْه يا مناه ... هائماً حائر
راعهِ، لا يهوِ من عليا سماه ... إنه شاعر
(فلسطين)
(دنانير)
من اللهب!
للأديب عبد العليم عيسى
بكيت فلاموني. . . وما حيلتي إذا ... بكيت وفي وآلامي
علام تلمون الجريح على البكا ... أما كان أحرى أن تلوموا يد الرامي
نشأت فلم أنعم بصدر يضمني ... إليه. . . فضمتني جروحي وأسقامي
كأنيَ لم أخلقْ لنعماىَ إنما ... خلقتُ لأحيا بكياً طول أيامي
حياتي إعصارٌ عنيف وضجة ... وعصف من البلوى يعكر أحلامي
هنا في فؤادي صرخة كم حسبتها ... هنا في طريقي يعزفُ الهول قدامي
تجمعت الأخطارُ حولي. . . فخلتُها ... من الرعب جنًّا عاصفاً تحتَ إقدامي
أنا الشاعرُ الشادي أغاريد حزنه ... ومن حزَني المشبوب نبغي وإلهامي
أسيتُ على قلبي فكم عقد الأسى ... به مأنماً يُذكى هواني وإيلامي
كتمتُ الذي عندي فلستُ بصارخ ... وأين الذي يحنو على قلبيَ الظامي؟
طربتم لأنغام الصفاء فما الذي ... يضركمُ لو تطربون لأنغامي!
أنا راقصٌ عرسكمْ غير أنني ... غريبٌ بعيدٌ عن صفائي وإنعامي
ألاحينُ عودي باكيات على المدَى ... فلن تسمعوا مني سوى لحنيَ الدامي
(دمياط)
عبد العليم عيسى
عبادة الأصنام
للأستاذ حسن كامل الصيرفي
أيُّها الُمخْلِصُ الْعِبَادَةَ للصَّخْ ... رِ تحَصَّنْ مِنْ مَوْجَةِ الإلَحادِ!
فَغَداً تَفْقِدُ الشُّعورَ وَتحَيَّا ... كَجَمادٍ مُسَخَّرٍ لجمادِ
صَنَمٌ صامِتٌ من اَلْحجَرِ الصَّلْ ... دِ لَخَيْرٌ من ناَطِقٍ بالفسادِ
إنْ تَكُنْ نائماً عَلَى ظُلَمِ اَلْجهْ ... لِ رَضياً بِعيشَةِ الزُّهَّادِ
فأناَ نائمٌ عَلَى كَتِفِ النُّو ... رِ وَلكِنْ بِظُلْمَةٍ في الفُؤَادِ
صَنَمي يقتلُ الْعقِيدةَ وَالْفِكْ ... رَ وَيَحْيى عِبَادَةَ الأجسادِ
إنْ تَكُنْ مُطْلَقَ الْعَقيدةِ يا صا ... حِ فإني مُقَيَّدٌ في اعْتِقادِي
مَلْجَإي السَّجْنُ إنْ دَعَوْتُ إلى اَلْح ... قَّ مَسُوقاً في مَوْكِبِ الأَصْفادِ
الوشاياتُ والدسائسُ والرُعْ ... بُ سِلاَحُ في وَجْهِ كلَّ انتقادِ
وَهُبوطُ الأحْرَارِ مِنْ مِنْبَرِ اَلْح ... قَّ صُعُودٌ لِمِنْبَرِ اَلْجلاَّدِ
لَيْسَ إيماُنناَ عَقِيدَةَ تَفْكي ... رٍ، وَلكِنَّهُ هَوَى اَسْتِبْدَادِ
شُعْلَةُ النَّارِ في يَدَيَّ قَرَابِي ... نُ لِفَرْدٍ مُسْتَهْزِئَ بالسَّوَادِ
وَصَلاَتي لهُ دُعاءٌ إلى اَلْحرْ ... بِ وَإشْعالُ نارِهَا في البِلاَدِ
وَانتهاَكٌ لِحُرْمَةِ الجارِ إشْبَا ... عَ نَهيمٍ لِشَهْوَةِ اسِتِعْبادِ
أَزْرَعُ الشَّرَّ حَيْثُما سِرْتُ تُجْنَي ... مِنْ ثَرَاَهُ طَوَالِعُ الأَحْقادِ
وَغَدِي مُبْهَمٌ وَرِجْلِيَ تَنقَاَ ... دُ إلى حَيْثُ مَصْرَعِ الأحْفادِ
التَّماَثِيلُ وَالبُطُولَةُ وَالْمَجْدُ ... دَعَاوَي مَوْصُولَةُ الإنشادِ
نَغَمٌ يَسْحَرُ الضّحَايا فَتنْسَا ... قُ إلى اَلموْتِ جاِئعاَتٍ صَوَادِي
وَالْجماهِيرُ كالَحْمِيرِ مَطايا ... للزَّعاماتِ لَيَّناَتُ الْقِيَادِ. . .
حسن كامل الصيرفي
من وحي الربيع الأحمر
قوس قزح. . .
للأديب حسن أحمد باكثير
أي جسرٍ صيغ من ذوب الضياء ... يعبر الزرقاء من أفقٍ لأفقٍ
عبقري الحسن سحري الرواء ... مشرق يستأسر الطرف برفق
أصراطٌ مُدّ في عرض السماء ... لعبور الجن في غرب وشرق

أم مجازٌ يرتقيه الأتقياء ... نحو كونٍ خلف هذا الكون صدق
أي حسن فاتنٍ عذب بنوره
أي سحر عبقريٍ في سفوره
ليتنا نحَظى جميعاً بعبوره
نحو كون جاثم خلف ستوره
وارف الظل بهيج بزهوره
نقطع العمر به فوقَ قصوره
نرشف الأفراح من صفو نميره
ونصيب الأنس في حسو خموره
ونرى النشوة في لثم ثغوره
إن هذا الكون ضقنا بشروره
وزهقنا من أباطيل أموره
وسئمنا وبرمنا بغروره
وطوى أحلامنا جور نسوره
وكوى أحشاءنا بطش نموره
وشجى أكبادنا مرأى قبوره
خلِّنا يا جَسر نحظَى بعبورك ... نحو كون ساطع خلف ستورك
يُذهب الآلام والآثام عنا والشرور
حسن أحمد باكثير
رسالة الفن
بواطن وظواهر
عندنا فنانون. . . ولكن!
للأستاذ عزيز أحمد فهمي
من الصحافيين - 10
عبد القادر حمزة باشا
كان للحركة الوطنية في مصر لسان وقلم، أما اللسان فكان لسعد زغلول، وأما القلم فكان في يد عبد القادر حمزة. وقد قضى صاحب اللسان، وظل صاحب القلم يكتب، ولكن ظهرت عليه نوازع جديدة أخذت تتزايد وتتزايد حتى أصبحت أوجه الشبه بين آثار هذا القلم اليوم وبين آثاره في البدء قليلة وغامضة. . . ذلك أن الأستاذ عبد القادر حمزة باشا جنح إلى العقل والمنطق جنوحاً كاد يقطع بينه وبين الجمهور الذي رباه هو، والذي فتح هو عيونه على الحقائق
طار الأستاذ عبد القادر باشا عن مستوى الصحافيين السياسيين وتحكمت فيه استقامة الفكر والأمانة عليه، حتى هان عنده الرواج الشعبي فلم يعد يجري وراء القراء، وآثر أن يوجه القول لمن يريد أن يسمع وأن يفهم؛ وقد تجلت التجربة على أنه يقول ما يجب أن يسمع وأن يفهم. فقد كان هو أول من نادى بوجوب تأليف الوزارة القومية منذ المناوشات الأولى في الحرب الحبشية، فأنكرت البلد رأيه حتى ألفت الجبهة الوطنية بعد أن تحولت المناوشات الحبشية إلى حرب ضروس؛ وحين لم تجد مصر وإنجلترا بداً من تنفيذ فكرته هو، أو الفكرة التي آمن بها وتحمس وانفرد زمناً بالدعوة إليها.
الأستاذ طاهر الطناحي
العمود الفقري في دار الهلال. رباه على الصحافة الأستاذ أميل بك زيدان، فأنشأه أعجوبة بين الصحافيين. الجمهور لا يعرفه كثيراً لأنه لا يوقع المقاولات إلا قليلاً؛ وذاك إذا كتب، فليس عمله أن يكتب، وإنما عمله أن يستكتب أولئك الأقذاذ الذين تطالع دار الهلال قراءها
بنفثات أقلامهم، ومن هؤلاء يكون ملوك في بعض الأحايين، وهذه مهمة خطيرة. زد على ذلك أنه يجمع أعصى المعلومات والبيانات والإحصاءات والصور التي أتقنت دار الهلال فتنة الجمهور بها
للأستاذ طاهر الطناحي هذا المجهود الجبار وينافسه في دار الهلال زميل له هو الأستاذ يوسف أنكونا من غير أن يبذل مجهوداً جباراً، ولكنه يعطي الدار أفكاراً، فهو متخصص

في البحث عن أسباب رواج المجلات يستقصيها ويوفرها في مجلة (الاثنين) التي يدير تحريرها، فله في هذا الأسبوع (يا نصيب)، وفي الأسبوع المقبل (مسابقة)، وفي تاليه حملة مصورة منظمة على موطن من مواطن الضعف في الحياة المصرية، وفي الأسبوع الرابع عدد خاص بمسألة من المسائل التي تشغل بال الجمهور، وفي الأسبوع الخامس هدية رائعة، وفي الأسبوع السادس صور تؤخذ للجمهور من قراء المجلة وهي في أيديهم فمن وجد صورته جائزة، وفي الأسبوع السابع باب يفتح في المجلة يتوسط للقراء في الحكومة، ويوظفهم إذا استطاع. . .

أعجوبة هو أيضاً هذا الصحافي الذي لا يعرفه الجمهور. وهو شاب وعمله الأول المحاماة في المختلط، ولست أدري كيف غاب هذا الصحافي الناجح هو وزميله عن الذين اختاروا المدرسين لمعهد الصحافة!

الأستاذ كريم ثابت

أول من اخترع لنا حكاية أن هذا الوزير يستيقظ في السادسة صباحاً ويفطر فولاً وبيضاً مسلوقاً، ويدخن سبعاً وثلاثين سيجارة في اليوم، وأنه يفضل السترة أم صفين من الأزرار على أم الصف الواحد، وأن عنده قطعة اسمها فلة يتفاهم معها بالعربية والفرنسية، وأنه يسقي ضيوفه كراوية ولا يقدم القهوة إلا لمن يطلبها، وأنه يقرأ إلا إذا جلس فاتكأ بذراعه اليسرى على المسند ووضع رجله اليسرى على رجله اليمين، وأنه إذا نام أغمض عينيه، وإذا تكلم حرك لسانه، وإذا مشى هز ذراعيه. . .

الأستاذ عبد المنعم حسن

لا بد أن يصل بإذن الله إلى ما يصبو إليه من مجد صحافي. فهو يقفز من أوربا إلى أفريقية إلى آسيا بحثاً عن تحقيقات يسوقها لقرائه في أحرج الظروف وأسوأ الأحوال. وهذه جهود لا يقوم من الصحافيين المصريين إلا هو والأستاذ محمود أبو الفتح، ولا أذكر غيرهما.

الأستاذ مصطفى أمين

من أسهل الكتاب المصريين هضماً؛ وعلى هذه الميزة فيه فهو بأبي إلا أن يكون مخبراً يغذي فضول القراء بينما هو يستطيع مالا يستطيعه المخبرون من الترويج عن القراء وإنعاشهم. المادة تغريه، ولكني أرجو أن يغريه بالتخصص في الكتابة مغر آخر ذو تأثير ينقذه. . .

من المقرئين - 11

الأستاذ محمود صبح

إذا قرأ القرآن مثل معانيه على قدر طاقته بالإلقاء والتنغيم. ولولا أن لكنه تركية تدركه أحياناً لشدة تأثره بالذوق التركي في الموسيقى لما كان في قراءته عيب، وهو حساس مرهف الأعصاب. متدفق سيال النفس ينفذ إلى سامعه ويجرفه معه ولكن عقله ملتو. أقولها على ما فيها من شدة فلعله يراجع نفسه إليها فيراها حقاً فيعود إلى قراءة القرآن، ويكف عن أدواره وطقاطيقه التي ثبت له أنه لن يجد من يغنيها له غيره لما في تلحينها من التعقيد، ولما يحتاج إليه إلقاؤها من الفتوة الغنائية. . . وإن كان لا بد له من التلحين فليقنع بالموشحات فهو الأهل لها.

الأستاذ على محمود

عنده ثروة موسيقية هائلة حفظها عن المغنين والمقرئين القدامى فهو يختزن لنفسه من فن الحمولي، ومحمد عثمان، وسيد رويش وسلامه حجازي، ومحمد سالم العجوز، وأبو العلا محمد، والمناخلي وغيرهم، وهو في قراءته يعرض هؤلاء جميعاً وغيرهم، فإذا تجلى الله عليه قرأ القرآن أو أنشد (المولد) بما يفتح الله به عليه من فن روحه هو؛ فعندئذ تسمع صوتاً عالياً من غير شك فيرفعك وينخفض فيضعك، ونساب فيملؤك، فإذا هدأ عنك زفرت وارتحت إذا رد لك السلطان على ترديد أنفاسك بعد ما كان هذا السلطان معه.

الأستاذ محمد رفعت

المقرئ الوديع الذي يزف القرآن إلى النفس (متمسكناً) فما تملك النفس إلا أن تحن له وأن تلين. . .

الأستاذ عبد الفتاح الشعشاعي

فيه من الموسيقى أكثر مما فيه من التمثيل، وفي موسيقاه من الطرب أكثر مما فيها

من غيره، وكثيراً ما يخرج بسامعيه عن وقارهم وإن لم يخرج هو عن وقاره. لعله لو غنى القصائد عرض لنا فقيد الموسيقى العربية الكبير الشيخ أبو العلا محمد.
لست أدري لماذا لا يجرب هذه التجربة، ولست أدري لماذا لا تشجعه على ذلك صديقته أم كلثوم بأن تسمعه في قصيدة ثم تغنيها منسوبة إليه!
من المحدثين - 12
الدكتور محجوب ثابت
هذا رجل ضحى بنفسه في سبيل إشباع رغبته في الكلام. له ماض وطني ملحوظ، وجهاد لا يمكن أن ينكر، ثم إن له علماً واسعاً واطلاعاً متشعباً، وله بعد ذلك آراء وأفكار لا يزال يغذي بها المجتمع المصري، ولا يزال هذا المجتمع يأخذها عنه، ومع هذا كله فنصيبه من الجزاء الوطني قليل. فأغلب الذين خدموا بالمناصب والألقاب والأرزاق، ولكنه كان بين القلائل المهملين على كثير ما يتردد ذكره على الألسنة، وعلى كثرة ما يتردد شخصه بين الناس. . . فلماذا؟
لقد أطيب الدكتور محجوب بهذا (التأخر) لأنه كثير الكلام، ولأنه يخلط الجد بالهزل، ولأنه لا يعرف مَنِ من الناس يصلح لأن يخاطبه الإنسان بالنكتة، ومن منهم لا يصلح لذلك، ومن من الناس يستطيع أن يستخلص من النكتة الحكمة، ومن منهم لا يستطيع ذلك. . . لقد اعتبر المصريون الدكتور محجوب فكاهة من الفكاهات، حتى في أشد مواقفه جداً يضحكون منه. . . وهم معذورون. . . فهو يتحمس لفكرته بعواطفه وأعصابه وجوارحه وشاربيه ولحيته، بينما يكفيه أن يتحمس لهما بعقله ولسانه، وإنهما لجديران بأن يخضعا له اقتناع الناس. . .
لست أدري إذا كان الدكتور محجوب يستطيع وهو في سنه اليوم أن يعدل نفسه أو أنه لم يعد يستطيع ذلك، ولكني على أي حال لم أيأس منه، ولا أزال أنتظر له خيراً. . .
الشيخ عبد الحميد النحاس
وإذا كان الدكتور محجوب ثابت محدث المثقفين من الطلبة ومن هم أكبر منهم سناً وعلماً ودراية من أهل المدن، فإن الشيخ عبد الحميد النحاس يعتبر محدث الأقاليم. وهو الصحافي الوحيد الذي يتقاضى من المعلنين أجوراً للإعلانات في جريدته التي لا تصدر على أساس أنه ينشر هذه الإعلانات شفوياً في مجالس والمجتمعات.
وله طوفات في الريف المصري. . . يخرج من مديرية إلى مديرية، ومن مركز إلى مركز، ومن بلد إلى بلد تقام له الولائم، ويجتمع له الناس، وتعقد المجالس ليتحدث فيها، وليقول ما يقول. . .
وهو يقول في كل موضوع كلاماً يلذ للريفيين أن يسمعوه، ويبلغ إعجابهم به إلى أن يحملوه على الأعناق وأن يهتفوا له كأنه غاز أو فاتح. . .
الشيخ عبد العزيز البشري
وهذا محدث الطبقة الراقية. وحديثه شيق سلس جذاب، حاضر الذهن، سريع الخاطر، لاذع النكتة، رائق البال. وهو إلى جانب ما يتقن من فن الحديث يتقن الكتابة أيضاً، وكتابته فيها من أحاديثه، فأحلاها ذكرياته ووصفه لمن قابلهم من الناس، ونقده لما رآه فيهم من العيب، وتسجيله لما وجده فيهم من الحسنات.
ردان
في العدد السابق من الرسالة طالع القراء الاعتراضين اللذين شرفني بهما كل من الأستاذين توفيق دياب ومحمد المويلحي بخصوص ما كتبته في هذه السلسة عن أولهما وعن الدكتور الخفي.
أما الأستاذ توفيق دياب كفاني الأستاذ محمد محمود دوارة الرد عليه بما يجده القارئ في (البريد الأدبي) من الرسالة هذا الأسبوع
وأما الأستاذ محمد السيد المويلحي فقد قال إني بخست الدكتور الحفني حقه إذ أنكرت عليه
إنتاجه في الموسيقى بينما هو - فيما يقول الأستاذ المويلحي - قد اخترع آلتين موسيقيتين هما فلوت الحفني والكورية النحاسية.
وردي على هذا هو أن اختراع الآلات الموسيقية من عمل علماء الطبيعة لا الفنانين الموسيقيين، ولا غير
على أني فيما قد جاملت الدكتور الحفني بعض المجاملة إذ قلت إنه موسيقي من

نوعي، وأنا لا أعتقد أنني إذا شبهت إنساناً بنفسي حططت من قدره. . . هذا اعتقادي أنا. . .

عزيز أحمد فهمي

رسالة العلم

حرب ونضال

تأملات في مجاهل الكون

للدكتور محمد محمود غالي

عندما اندلعت ألسنة الحرب في سبتمبر الماضي كتبنا مقالاً في (الرسالة) تحت عنوان (فلنستمر)، اعتزمنا فيه مواصلة الكتابة رغم مجابهة العالم لمحنة قاسية لم يعهدها من قبل، ورجونا ألا تصرفنا الحوادث عن أداء المهمة، وليست الكتابة بالأمر الذي يستطيع الإنسان المضي فيه وهو مشغول الفكر مضطرب البال، وإنما لهدوء النفس والنزوع إلى الكتابة أثرهما الواضح في النجاح والقدرة على التسطير. فالكتابة لا تُقصد لذاتها، وإنما تقصد لما ترمي إليه؛ وإن الذي تُتركُ له صحيفة ليملأها، يجب أن يكون أهلاً لأن يفيد القراء، وإلا فليترك المجال لمن هو أقدر على أن يكون أكثر فائدة لهؤلاء الذين يهبون بعض أوقاتهم للمطالعة.

ولقد خصَّصَتْ (الرسالة) صفحة لمباحث علمية توخينا أن نخط فيها هيكل الكون، وحاولنا أن نلفت النظر إلى ما فيه من تنافس؛ ووالينا كتابة هذه المقالات العديدة التي نسرد فيها قصة التقدم، فقطعنا في ذلك شوطاً بعيداً، واستعرضنا للقارئ بعضاً من الخطوات العلمية الكبرى التي توصل إليها العلماء في العهد الأخير، وفيها ما له علاقة بتقدم الإنسان في حاضره ومستقبله.

وقد تابعنا هذا الاستعراض وفق تفكيرنا، فطغت مسائل أخرى عُنينا بشرحها أكثر من غيرها، إذ كان لبعضها علينا اثر خاص، وللبعض الآخر في اعتقادنا سهم في محور التقدم، ولا شك في أنه كان لما تعلمناه عن قصد أو غير قصد، وما طالعناه عن رغبة أو مصادفة أثر في هذا التكييف.

وما كنت أعتقد أن الحوادث في العالم الغربي الذي عنه ندرس وعلى ضوء مؤلفاته نتكون تتطور بهذه السرعة الخاطفة، وما كنت أعتقد أن سرعتها هذه تؤثر على نفس في الأسبوع الماضي هذا التأثير الذي سلبني في تلك الآونة الصفات التي تجعل منى شخصاً مفيداً

للقارئ، لذلك تنحيت عن عمد ريثما تهدأ النفس ويستقر الفكر فأستطيع أن أتابع السير في هذه السطور. ولئن أسرعنا في كبح جماع النفس عن الاسترسال فيما يسوقها إلى الاضطراب ويدفع بها إلى الوجوم؛ فإننا نطلب من القارئ أن ينحو بنفسه هذا النحو، وقد يكون له متابعة هذه السطور التي نستعرض فيها الناحية الإيجابية من عمل الإنسان خير عزاء عن الناحية السلبية التي يندفع إليها فريق من البشر، وهي الناحية التي يستقي القارئ أنباءها في الصحف اليومية، عندئذ وكلما مر أسبوع يتصفح الرسالة ساعة يطالع فيها شيئاً غير الذي تغلب على نفسه في يومياته وتملك الكثير من أوقاته، هنا يرى في قصة العلوم وفي سير الفلسفة، في تطور التفكير وفي تقدم الإنسان، في ازدهار الميراث وارتقاء المعرفة، أن الدنيا ما زالت بخير، وأن الإنسان ما زال حياً يتوارث المعرفة ويعمل على تقدمها على كر الأيام.

فلنستمر إذن في عملنا وليستمر الذين يتابعون كتاباتنا في مطالعة هذه العجالات التي نعالج بين ثناياها طرفاً من عظمة الإنسان كمخلوق راق لا كمخلوق تعس، والتي يتجدد بها الأمل فضلاً عما فيها من غراء للنفس. ولا ريب في أن المحنة ستنتهي يوماً وأن الإنسان سواء أكان من أهل ألمانيا أو من أهل فرنسا وإنجلترا سيدرك أن من خطل الرأي محاربة أخيه الإنسان، وأن النضال بالكلام خير من النضال بالحديد والنار فيطرح هذه الآلات التي لا تترك وراءها إلا أشلاء تتناثر وأجساداً تتحول قبل الأوان، ونفوساً أشفَّها الحزن، وقلوباً مزقها اليأس، بل ويدرك أن توجيه الإنسانية صوب مدارج الرقى أولى من الرجوع بها القهقري

ولو أن السلطات تركزت يوماً في أيدي العلماء لانتظمت الحياة في نسق يكفل سعادة البشر، ولزال إلى الأبد كابوس هذه المجازر البشرية، ولو أن ما أنفق على التسلح صرف في رقي العلم ورفاهية الإنسان لرأينا قبل أن نترك الحياة أو تتركنا مدنية أرقى

من التي ننعم بها، ولعهدنا وسائل للعيش تختلف جد الاختلاف عما نعهده اليوم. فلنستمر إذن في عملنا ولنتقدم نحو غايتنا مهما عاودتنا لحظات من الاضطراب، فلا اضطراب لم يعقبه استقرار، ولا حرب لم يعقبها سلم، ولا عمل سلبي مهما طال لم يتله عمل إيجابي. ولنكن جميعاً معاول بناء لا معاول هدم، بذلك نعاون في بناء صرح المعرفة ونضيف إلى هيكل
الحضارة.

ولقد تركت عن عمد الجرائد اليوم لاتصل بالقارئ وتغلَّبت على نفسي بالاستماع إلى قطع موسيقية، وكان في (غابة فِينّا لستراوس)، وفي (الرابسودي المجرية) لملحنها (ليسْتْ) ما استحثني على الكتابة وشدد قواي على التفكير، وستكون غايتي اليوم أن أرفه عن القارئ بكلمة من نسيج الخيال، ولكنه خيال جائز، خيال له اتصال بالموضوعات الأخيرة التي تعرضنا لها.

عندما نتصفح أنباء المعارك الدامية بين البشر ندرس ناحية من صفات الإنسان الذي تطورت حالته على هذه الأرض من مخلوق عاجز عن القيام بتافه الأمور إلى مخلوق يستخدم ذكاءه في ضرورة مرة وفي نفعه أخرى. ثمة عقيدة بأن هذا المخلوق هو أرقى المخلوقات طرا لأنه سما على كل ما يدب على وجه الأرض بذكائه ومقدرته وإن جاز لنا أن نعتقد أنه المخلوق الوحيد من نوعه في الكون لتوافر اشتراطات طبيعية عديدة لاءمت وجوه على النحو الذي هو عليه لا يمكن أن تتوافر كاملة على غير هذه الأرض، فلا يجوز لنا أن نحزم باستحالة وجود مخلوقات أخرى على الكواكب لها صفات تختلف عن صفات الإنسان هذه الأرض.

إنما يُجيز المنطق إن لم يُحتمَّ على الباحث ألا ينفي وجود كائنات أخرى غيرنا على الكواكب ما دام الكون يشمل ملايين الكواكب السيارة، وما دام بين هذه الكواكب حتماً ما تسمح معه الظروف الطبيعية بإمكان وجود نوع من الحياة يشبه حياتنا، أو نوع آخر من الحياة يختلف عنها؛ على أن المنطق يدلنا أيضاً أنه لا يجوز لنا أن نعتقد بوجود أوجه شبه شديدة بيننا وبين هذه المخلوقات. وإذا كانت الأحوال الطبيعية الملائمة على سطح الأرض رغم تقاربها لم تكن كافية ليظهر في نوع الإنسان رجال من شكل واحد، فما أبلغ الفارق عندما تختلف الأحول الطبيعية بين ما في الأرض وما في غيرها من الكواكب وبالتالي بين سكان الأرض وغيرنا من الأحياء خارجاً عنها؟، وإذا كان الرجل الجاري أو الصبي الذي تنسم نسيم جاوه أو الصين يختلف كثيراً عن الرجل المصري أو العراقي الذي يتنسم نسيم مصر أو العراق، والذي تذوَّق ماء النيل أو الفُرات، ويختلف هذا وذاك عن الفرنسي مثلاً، فما عسى أن يكون الفارق إن تحقق لنا ما يكون عليه مخلوق راق يعيش في كوكب آخر
غير كوكبنا وفي مجموعة شمسية غير مجموعتنا؟

ونحن في هذا تسوقنا فكرة الإشعاع إلى تصورات ينبغي التأمل فيها عندما نجيز لأنفسنا التحدث عن مثل هذه المخلوقات التي نعتقد أن وجدودها أقرب إلى الحقيقة منه إلى الخيال.

ذكرنا في مقالاتنا الأخيرة أن الكون زاخرٌ بمختَلَف الإشعاعات التي لا تراها عين الإنسان ولا تشعر بها حواسه، وأن الضوء والكهرباء نوع واحد من الإشعاع، وإننا لا نرى من الأشعة إلا شيئاً طفيفاً إزاء ما لا نراه. ذلك لأننا خلقنا بحيث لا نرى من الكون إلا يسيراً من مكوناته العديدة الممتدة بعيدة عن حواسنا.

ولو أن كائنا غير الإنسان تكونت عنده حاسة النظر بطريقة يرى الأشياء بطولها وبعرضها، ولكن لا يستطيع أن يدرك منها ارتفاعها (هذا النوع من الكائنات يجوز وجوده أو هو موجود فعلاً)، فإن صور الأشياء تختلف عند هذا الكائن عن صورها عندنا، فإذا أمتد نظره من عَلٍ إلى مركبة ترام رأي هذه المركبة مستطيلاً يسير بين خطين يمثلان حدَّي الطريق الذي تسير فيه، ورأى (الكمساري) والسائق دائرتين إحداهما مجاورة لأحد أضلاعه والثانية تتنقل على حافته طوراً تقترب من ضلعه الأعلى وتارة تقترب من ضلعه الأسفل، ويرى الجمهور دوائر كثيرة متواصلة في صفوف متوازية داخل هذا المستطيل المتنقل.

إن هذا الكائن المسكين لا يستطيع أن يرانا على حقيقتنا، فلا تطلبنَّ إليه، وهو لا يرى من مركبه الترام إلا هذا المستطيل المتنقل، أن يستوعب ما فيها من مادة الخشب أو

يذهب في الفكر إلى أكثر منذ لك فيفهم ما يحمله الخشب من أجهزة الكهرباء أو يفهم خواص أو ماهية هذه الظاهرة
ثمة ثلاثة مراحل في التطور أمام هذا المخلوق:
الأولى: وهي التي وصل إليها فعلاً أن يرى الأشياء بمساقطها فيرى في المركبات هذه المستطيلات المتحركة.
الثانية: أن يدرك هذه المركبات بارتفاعها ويستوعب أيضاً مادتها.
الثالثة: وهي اصعب المراحل، أن يدرك أعجب ما في تركيبها فيفهم أننا نستخدم فيها ظاهرة عجيبة هي ظاهرة الكهرباء فيعلم بذلك أمراً خافياً عن تركيبها الظاهري، أمراً يجعل لها شيئاً شبيهاً بالحياة إن صح أن الحركة من أهم مميزات الحياة.
نقف الآن عند هذا الحد من المقال، وما قصدنا من هذه السطور إلا لتكون مقدمة للمقال القادم
إنما نترك للقارئ فرصة يتأمل فيها لماذا اخترنا هذا النوع من المخلوقات العجيب الذي لا يرى من مركبات الترام إلا مستطيلات تتنقل في الطرقات التي يراها خطوطاً ممتدة في المدينة، ولا يرى من جمهور الراكبين وهو ينظر إليهم من مستو عال إلى دوائر متراصة في صفوف متوازية، ولا يرى من (الكمساري) إلا دائرة تتنقل على حافة هذا المستطيل.
ولم يكن مقالنا اليوم بالموضوع الذي يشق على فهم، ويحتاج إلى طرف يسير من المقدمة العلمية، أفكان لموسيقي (ستراوس) و (ليست) سبب لكي ننحو هذا التحو من التأمل؟ ربما كان لذلك اثر؛ ولكن مما لا ريب فيه أننا كنا في حاجة إلى هذه النغمات نستمع إليها بعد ما نملك النفس من الاضطراب المتوالي في الأيام الأخيرة، ولا شك في أن القارئ كان هو أيضاً في حاجة إلى هذا النوع من الترفيه عن النفس وتسكين الخاطر.
وإلى المقال القادم، فإننا في حاجة إلى هذا المخلوق العجيب لكي نشرح موضوعاً يلتمع في الذهن ويجول في الفكر.
محمد محمود غالي
دكتوراه الدولة في العلوم الطبيعية من السوربون
ليسانس العلوم التعليمية. ليسانس العلوم الحرة. دبلوم المهندسخانه
البريد الأدبي
أندريه موروا يبحث عن شخصية جديدة
يبحث الكاتب الفرنسي أندريه موروا عن شخصية جديدة على غرار شخصية (كولونيل برامبل) التي ابتدعها أثناء الحرب الماضية وسجلها في كتابه المعروف (صمت الكولونيل برامبل).
ولقد زار موروا أخيراً أحد مراكز التدريب بسلاح الطيران الملكي في إنجلترا، وكان قد دعي لإلقاء خطبة على عدد كبير من طلبة الطيران. فقال: (لامراء أن يكون الكولونيل الأول قد ناهز السبعين من عمره، وأنا اليوم عن حفيده. وسيكون بحثي عنه هذه المرة في سلاح الطيران الملكي. ولا شبهة عندي في أن الصفات التي جعلت من الشيخ ضابطاً ممتازاً ستجعل من الحفيد ضابطاً ناجحاً. فهل لي أن ألتمس منكم المعونة على العثور عليه؟)
والمسيو موروا ملحق بالقيادة البريطانية العامة في فرنسا، كما كان في الحرب الماضية. وقد بذل جهداً جباراً ليسهل على الفرنسيين فهم الإنجليز وتقديرهم. ونال المسيو موروا وسام (ك. ب. أ) في عام 1938، وهو يحمل وسام اللجيون دونير كما هو حاصل على درجات الشرف من جامعات اكسفورد، وادنبره، وسانت اندروز ومن مؤلفاته المعروفة: (آريل - أو حياة الشاعر شيللي) و (دزرائيلي) و (بيرون) و (فولتير) و (الملك ادوارد وعصره) و (ديكنز) و (تاريخ لإنجلترا).
المعاهد الأجنبية في مصر
يبلغ عدد المعاهد الأجنبية في مصر 400 معهد، منها 185 معهداً فرنسياً، و64 معهداً إيطالياً، و62 معهداً يونانياً، و42 معهداً إنجليزياً، و38 معهداً أمريكياً، وأربعة معاهد ألمانية، ومعهدان روسيان، ومعهدان هولانديان، ومعهد سويري وآخر سويدي.

ويبلغ عدد المعاهد التي أسست لأغراض دينية 307 أي 76 % من مجموعها، ومنها 163 لفرنسا، و45 لإيطاليا، و35 لليونان، و24 لإنجلترا، و35 لأمريكا، ومعهدان لألمانيا، ومعهدان لهولندا، ومعهد للسويد

ويبلغ عدد التلاميذ الملحقين بهذه المعاهد 75. 392 تلميذاً وتلميذة، منهم 10. 915 من

التلاميذ والتلميذات المسلمين، و6934 من اليهود، والباقي من المسيحيين والأقباط.

ويبلغ عدد المعاهد التي ليس بها مسلمون 103، وقد لوحظ أن أكثر المدارس الأجنبية غير الدينية ليس بها تلاميذ مسلمون

المعاهد الفرنسية

يبلغ عدد التلاميذ بهذه المعاهد 34. 508 منهم 6214 من المسلمين أي بنسبة 18 %.

ويبلغ عدد المعاهد التي بها أقل من 50 تلميذاً 26، وأقل من 100 تلميذ 65، وأقل من 200 تلميذاً 121، وأكثر من 500 تلميذ 13، وأكثر من ألف معهداً واحداً.

المعاهد الإيطالية

يبلغ عدد التلاميذ بهذه المعاهد 12. 769 منهم 1804 من المسلمين أي بنسبة 14 %،

ويبلغ عدد المعاهد التي بها أقل من 50 تلميذاً إثنين، وأقل من 100 تلميذ 20، وأقل من 200 تلميذ 36، وأكثر من 500 تلميذ معهدين.

المعاهد اليونانية

يبلغ عدد التلاميذ بهذه المعاهد 12. 313 منهم 160 فقط من المسلمين أي بنسبة 1 %، ويبلغ عدد المعاهد التي بها أقل من 50 تلميذاً 16، وأقل من 100 تلميذ 28، وأقل من 200 تلميذ 41، وأكثر من 500 تلميذ 5، وأكثر من ألف معهداً واحداً.

المعاهد الإنجليزية

يبلغ عدد التلاميذ بهذه المعاهد 6091 منهم 645 من المسلمين أي بنسبة 15 %،

ويبلغ عدد المعاهد التي بها اقل من 50 تلميذاً 9، وأقل من 100 تلميذ 22، وأقل من 200 تلميذ 33، واكثر من 500 تلميذ معهداً واحداً.

المعاهد الأمريكية

يبلغ عدد التلاميذ بهذه المعاهد 7697 وإن كانت أقل عدداً من المعاهد الإنجليزية منهم 1655 من المسلمين أي بنسبة 21 %، ويبلغ عدد المعاهد التي بها أقل من 50 تلميذاً 9، وأقل من 100 تلميذ 12، وأقل من 200 تلميذ 19، وأكثر من 500 معهداً واحداً.

المعاهد الأخرى

يبلغ عدد التلاميذ بالمعاهد الألمانية 517 منهم 131 من المسلمين، أي بنسبة 25 %، وهذه المعاهد الأربعة موزعة بين القاهرة والإسكندرية وأسوان

ويبلغ عدد التلاميذ بالمعاهد الهولندية 250 منهم 122 من المسلمين، والمعهدان الهولنديان في مديرية الفليوبية

ويبلغ عدد التلاميذ بالمعهد السويسري في الإسكندرية 70 تلميذاً منهم ثلاثة من المسلمين.

ويبلغ عدد التلاميذ بالمعهد السويدي 59 منهم 4 من المسلمين وهذا المعهد في مديرية الدقهلية.

ويبلغ عدد التلاميذ بالمعهدين الروسيين 1118 تلميذاً منهم 177 من المسلمين.

إلى الأستاذ عباس محمود العقاد

عزيزي الأستاذ الزيات

يسرني أن أنقل إليكم ما لمسته في أجواء الأدب عندنا من ارتياحها إلى مقالكم البليغ الشائق عن (رأي الرافعي في الأستاذين طه والعقاد)، وتشوقها إلى الاستزادة في تسجيل هذه الأحاديث الطريفة التي يتناقلها كبار الأدباء في مجالسهم الودية الخالصة حيث تتجرد النفوس من ملابسات الخصومة، وتبرأ من نزوات الضغينة، وتتخفف من أحقادها الطارئة وبدواتها العارضة. . .

وفي الحق أنك كنت ظريفاً لبقاً في حديثك مع الرافعي فقد استطعت - في شيء من مكر الصحفي - أن تستدرج الرجل وتستخرج من فمه - في غفلة من غرائزه النائمة - هذا الحكم السديد الرشيد في أدب الأستاذ العقاد. وهنا أحب أن أوجه سؤالاً إلى الأستاذ الكبير العقاد أظنه يتردد على لسان كل قارئ عربي مثقف.

قد رأيت يا سيدي الأستاذ أن الرافعي قد استطاع أن ينسى الماضي بأحقاده وضغائنه فاعترف لصديقه الزيات أن كتابه (على السفود) لم يكن وحياً من الله وإنما كان رجساً من عمل الشيطان. ولم يقف اعترافه عند هذا الحد بل عمد إلى تحليل مذاهبك الأدبية بنزاهة عجيبة.

فهل لنا أن نأمل منك أن تحدثنا بفصل تنشره في الرسالة عن رأيك الصحيح الصريح في أدب الأستاذ الرافعي فتنصف هذا الأدب من أن يتهجم عليه أولئك الذين ارتجلوا حرفة الأدب ارتجالاً وانتحلوها انتحالاً. . . إن جمهرة القراء عندنا لتستشرف نفوسها جميعاً إلى علالة منك تبل بها الصدى؛ وحديثك الصحيح الصريح في أدب الرافعي هي العلالة التي يرتقبونها من زمان بعيد فهل يتحقق هذا الرجاء؟ وهل تصدق هذه الأمنية؟ إنا لمنتظرون. . .

(حمص)

عبد القادر جنيدي

رأي الأستاذ الشاعر (أبو شبكة) في ليالي الملاح التائه

هذا شاعر أحبه، وقد زاد حبي له منذ أن أقصى لقب مهنته عن أسمه الشعري، فلعهد خلا كان يدعي (علي محمود طه المهندس) فتذمرت من هذا اللقب في معرض حديث لي عن شعراء مصر، وهمست في مسمع الشاعر أن كلمة (مهندس) تنفرَّ أذني الموسيقية بما تنطوي عليه من الخطوط والمنعرجات، وتشبكني بقضبان وحبال لا أطيقها. وكأنه يحبني هو أيضاً ويحترم أذني الموسيقية، فارتفع بين ليلة وضحاها من (علي محمود طه المهندس) إلى (علي محمود طه).

وعلى محمود طه من أجمل شعراء مصر. فالجمال مزروع في جميع قصائد، حتى في (أفراح الوادي) منها. ولكم تمنيت لو أفرغ مجموعته الأخيرة (ليالي الملاَّح التائه) من قصائد (أفراح الوادي) وأبقى هذه الأخيرة لمجموعة أخرى يوعيها ما يعرض لخاطره من أسباب التهاني والرثاء. . .

أستهل الشاعر مجموعته ب (أغنية الجندول وقد تكون هذه القصيدة أشعر ما في (ليالي الملاح التائه) وأجمل وأطرب، وكفى. . . لا أعلم ما بي. . . أتراني متبرماً هذه الليلة؟

فتعريف الشاعر لقصيدته الساحرة هذه بأنها (تغريدة الموسيقار الكبير الأستاذ محمد عبد الوهاب) لا يعلي مقامها في نظري. فعبد الوهاب يغرد لمن هب ودب من الشعراء فضلاً عن أنه لا يشرف شاعراً كعلي محمود طه.

أما أعمق قصائد (ليالي الملاح التائه) فهي ولا شك قصيدة (كاس الخيَّام) فقد قدر الشاعر في قصيدته هذه على التسلل إلى خوابي نيسابور فشرب من الخمرة التي أسكرت عمر الخيام، ورأى في هذه الخمرة ما لم يره الدهماء من الناس:

قصة الزهد التي غنوا لها ... عللتهم بالسراب الخادع
نشوة الشاعر ما أجملها ... هي مفتاح الخلود الضائع

لقد سكر من خمرة الشاعر فجاء بشعر روحاني من نسيجه، وغمرك بجو سري يدرك بالحس إذا أرهف وعمق، ويحملك - على غير هوى منك - إلى نعيم من الحياة لن تقدر لك متعة فيه إذا لم تكن شاعراً في أعماقك

كأس الخيَّام هي الحياة كما يجب أم يكون، فيها الخمرة الخالدة، هذه الخمرة التي فقدها الشعراء:

أيها الخالد في الدنيا غراماً ... أين نيسابور والروض الأنيق
أين معشوقك إبريقاً وجاما ... هل حطمت الكأس أم جف الرحيق؟

وكأني بالشاعر قد فرغ الشعراء من حوله، يقول لهؤلاء: (الكرمة ما تزال خضراء، والمرأة ما تزال جميلة، والطبيعة لم تخل عن عهدها، فلمَ خثر فيكم الحس وجف الرواء؟ أتراكم ضللتم طريق الخمارة المحيية؟)

كلما لألأ في الشرق السنا ... دقت الباب الأكف الناحله
أيها الخمار قم وافتح لنا ... واسقنا قبل رحيل القافلة

لزوال الحياة وأوهامها اللذيذة في هاتين الكلمتين: (رحيل القافلة)، وقعه في نفسي كتلك (الكوكو) من مطوقة الخيام على طاق كسرى.

وقد لا تشيع فيك الكآبة مما في (ليالي الملاح التائه)، حتى تشيع فيك غمرة من

الطرب، ويلتقي هذا الطرب وتلك الكآبة في مزيج يلطف في نفسك ويخلق حولك جواً يوحي إليك شوقاً وحسرة، وشوقاً إلى متع الحياة، وحسرة على زوالها

ها هم العشاق قد هبوا إلى الوادي خفافا
أقبلوا كالضوء أطيافاً وأحلاماً لطافا
ملأوا الشاطئ همساً والبساتين هتافا
الصبا والحسن والحب هنا ... يا حبيبي هذه الدنيا لنا
فاملأ الكأس على شدو المنى ... واسقنا من خمرة الرين، اسقنا

أجل، أيها الشاعر، إن الدنيا للشعراء ما بقي الحب في قلوبهم المكشوف

الياس أبو شبكه

تصويب

سيدي الأستاذ البليغ أحمد حسن الزيات صاحب الرسالة: تحية وسلاماً. وبعد فقد رأيت في العدد (354) من مجلتكم الغراء تصويباً جاء في صفحة البريد الأدبي بقلم الفاضل (محي الدين إسماعيل) من البصرة يصح فيه قول أستاذنا الطنطاوي: (يستقري رمال الدأماء) الذي جاء في مقاله بالعدد الممتاز. وقد استرعت هذه الكلمة نظري بشكل خاص لأن هذا المعنى المبتكر في الأدب العربي كان قد استوقفني أيضاً حين قراءتي المقال منذ بضعة أسابيع. ولكني لم أكتب لعل الأستاذ يعود فيبين مرماه في هذا التعبير. ولكنه لم يفعل، والظاهر أنه أدرك أن هذا الأمر بيِّن لا يحتاج إلى بيان. فأحببت بعد أن أعود إلى الموضوع - بإذنكم - وأنوِّه عنه بكلمتين مخافة أن يخطئ في فهمه بعض القراء كما حدث لصديقنا الأديب البصري

لم يقصد الكاتب الصحراء (بالدأماء)، وإنما كان يعني البحر الحقيقي، ومن المعلوم أن رمال البحر لا تقل عن رمال الصحراء واستقراؤها أصعب. لذا كان التشبيه بها أبلغ، ووجدوها في القمر لا يمنع ذلك، ولا أزال أذكر جيداً ذينك المثلين المشهورين في الأدب التركي: (أكثر من رمال البحر) و (في البحر الرمال وعنده الأموال)

(بغداد)

فيصل صبيح نشأت

علاج الفتاة المنكوبة

حضرة الأستاذ الفاضل رئيس تحرير مجلة الرسالة الغراء

تحية واحتراماً وبعد، فقد كتب الأستاذ المويلحي بالرسالة أخيراً يستنجد بأهل المعرفة لفتاة

نكبت بلحية كثة للبحث عن علاج لهذه النكبة البدنية، وفيما يلي ما يعرف عن الموضوع:

المعروف أن هرمون الغدة القشرية فوق الكلى له تأثير كبير في خلق مميزات الرجولة المتعددة، وما نكبت به الفتاة وما يحتمل أن يبدو عليها من مظاهر في أخرى في المستقبل يعود إلى نشاط هذه الغدة الزائدة، وهذا النشاط عادة يعلل عادة بوجود أورام في الغدة تسبب هذا الهياج، وعلاج الحالة جراحي باستئصال الورم، ولا تمس الغدة لأن في استئصالها الموت في التو واللحظة.

وتصاب المرأة في سن اليأس بشارب خفيف ومرجعه هو ضعيف المبيض في سن اليأس، وهذه الحالة متداركة بالعلاج لهرمونات المبيض.

ويلاحظ العلامة أن الغدة الدرقية غدة نسائية، أي أنها تكبر حجماً عند النساء عن الرجال، وقد يكون نشاط الرجل أكثر من المرأة راجع إلى كبر الغدد الأدرينالية (مجموع الغدد فوق الكلى) التي تعتبر غدد النشاط الإنساني عند الرجال.

كامل يوسف

عضو المعهد الفلسفي البريطاني بلندن

حول نقد

حضرة الأستاذ الفاضل صاحب الرسالة:

الأستاذ عزيز فهمي أخطأ في روايته عن خطبة الأستاذ توفيق دياب خطأ طفيفاً لا يمس لب الموضوع حين ذكر أن خطبة البلفير كانت في رثاء سعد، بينما هي لم تكن إلا لتأييد مرشحي الوفد بالإسكندرية.

وقد كنت من شهود الحفلة التي وصفها الأستاذ عزيز، ولا تزال ماثلة في ذاكرتي

وذاكرة كل من حضر تلك الحفلة الانتخابية، وأظن أن الأساتذة،: ممدوح بك رياض وعبد الفتاح الطويل وحسن سرور كانوا من شهود هذه الحفلة. . .

(السويس)

محمد محمود دواره

آدم

حضرة الأستاذ صاحب الرسالة

تحية. . . وبعد فقد قرأت في العدد 360 من الرسالة الغراء مقال (الأسماء تعلل) للأستاذ مأمون عبد السلام، وهو في الحقيقة بحث قيم ودراسة ممتعه تعتبر خلاصة لتاريخ وضع الأسماء ومعانيها. ولقد أقام الكاتب الدليل على أنه الأسماء تعلل. وبذلك هدم النظرية القائلة بأن (الأسماء لا تعلل) غير أني أعتقد أن الكاتب أخطأ في علة تسمية (آدم) إذ قال: (. . . فمعنى كلمة (آدم) الرجل لأنه أول رجل خلقه الله) والصواب عندي هو أن (آدم) سمى بهذا الاسم لأنه خلق من أديم الأرض - أي من قديمها - هذا ما أعتقده والسلام على الأستاذ

(ح. ح)

الكتب

وحي الرسالة

فصول في الأدب والنقد والسياسة والاجتماع

(480 ص من قطع الثمن. مطبعة الرسالة 1940. القاهرة

(الثمن 25 قرشاً

بقلم الدكتور إسماعيل أحمد أدهم

وهذا كتاب جديد تظفر به المكتبة العربية في هذه الأيام أخرجه للناس الأستاذ أحمد حسن الزيات صاحب مجلة الرسالة.

والزيات - كما يعرفه قراء الأدب العربي - من أعلام النهضة الأدبية الحديثة، ومن قادة البيان الصحيح. اشتغل زمناً بالتعليم ثم انقطع للصحافة الأدبية الخالصة، فكانت له مجلة (الرسالة) وهي سجل الأدب وديوان العرب اليوم

وقد جمع الزيات بعض مقالاته الافتتاحية التي كتبها في الرسالة على مدى ثمانية أعوام في كتاب، لأنها في مجموعة أدل على الغرض والفكرة وأعم فائدة منها وهي متناثرة على صفحات الرسالة. ونظراً لأن هذه المقالات من وحي رسالته، لهذا جاءت تسميتها (بوحي الرسالة).

وهي فصول متناثرة يتنازعها الأدب الصرف والفكرة الاجتماعية المصلحة والنظرة النقدية الصائبة. وهي كلها بعد ذلك تفيض من أصل أدبي وتاريخي من شخصية الكاتب متخذة لوناً خاصاً. والزيات أديب فنان، يحسن إبراز الحياة التي في الأشياء بالفكرة التي تنطوي عليها، وبالعاطفة التي تحملها في طياتها، وبالخيال الذي تحتوي عليه. ومن هنا تجد التنوع في جمال كتابة الزيات التي تتوازن فيها الفكرة مع العاطفة مع الخيال، والتي تتناسب كلها مع صناعة فنية بارعة تفرغ كل هذه الأشياء في صورة أدبية وقالب فني محكم. والحق أن الزيات هو الأديب العربي الوحيد بين كتاب اللغة العربية اليوم الذي تميزت في ذهنه مدلولات ألفاظ فعرف دقائقها وأدرك الأسرار العربية المحيطة بها، ومن هنا تراه يلبس

فكرته وإحساسه وخياله اللفظة الخاصة بها، التي تعطي لونها من لغة الكلام.

ويستهل هذا الكتاب بفصل مستفيض عن الجمال، ترى الكاتب بأسلوب المنشئ البليغ يعرض لماهية الجمال، ولغلبة الأصل الفني في نفس الكاتب نجده يبتعد عن مناقضات الفلاسفة وعلماء الجمال (البديع) فالجمال عنده يقوم على القوة والوفرة والذكاء، وينشئ في الذهن فكرة سامية، ويبعث في النفس إحساساً وشعوراً صادقاً، ويثير الخيال ويحرك التصوير. وهو تبسيط في شرح هذه المبادئ تبسط الأديب الفنان الذي لا يعنيه الأسباب قدر ما يعنيه الكنه والروح، وينتهي من بحثه إلى نتائج مهما نازعته في أمرها، فلا يمكنك أن تنكر عليه بعد ذلك صفة العمق في الفكرة والدقة في التصوير والصدق في التعبير. ثم هنالك فصل عن الرافعي يعتبر من خير الفصول الأدبية التي كشفت عن عبقرية هذا الأديب الذي لا نشك لحظة في أنه سيخلد ما بقيت العربية وبقي إنسان يعرفها. وفي هذا الفصل يبين الزيات خصائص أدب الرافعي في قصد

واعتدال، فالفكرة مبسوطة بقدر، والتعبير نازل تماماً على قدر المعنى.
والحقيقة أن الزيات قد خلف في مدرسة البيان العربي المرحوم الرافعي، وهما على ما بينهما من اختلاف في الطبع وتباين في المزاج وتفاوت في الثقافة إلا أن قوة الفن وحركة الذهن تجمعهما. وإن كان ذهن الزيات يختلف عن ذهن صاحبه من جهة الصفاء وعدم انقطاع الصلة بينه وبين عقل الناس. فمعانيه مفهومة وهي ذات أصل دقيق من الفكر. وفكر الزيات ملتقى العقلين العربي والغربي، العربي في جلالته وروعته، والغربي في عظمته وترتيبه وانتظامه ودقته.
وجملة القول أن هذا الكتاب من خير الكتب التي تمسك على الناشئة أسلوبهم وتميل بتعبيرهم إلى البيان الصحيح، ومن هنا كان جديراً بالتقدير، إذ يقف أمام عوامل المجمة والتضعضع الطاغية على أقلام الناشئين من كتاب اليوم.
(أدهم)

وجيدة

قصة للأستاذ شعبان فهمي

صفحة من القطع الصغير. مطبعة صلاح الدين 276)

(الإسكندرية 1940. الثمن 8 قروش مصرية

بقلم الدكتور إسماعيل أحمد أدهم

وهذه قصة جديدة هي باكورة آثار الأستاذ شعبان فهمي، وهو أديب مصري شاب. أقام بفرنسا فترة من الزمن، فاتصلت به الأسباب بالجهود الفنية القصصية الكبرى هناك، فكان من ذلك أن اتجهت قابلياته الأدبية اتجاهاً قصصياً. تظهر فيما له من براعة في السرد وحبك الحوادث، وهذه القصة على الرغم مما فيها من العيوب الفنية تعتبر النموذج الأول للقصة المصرية الواقعية، وهي في الوقت نفسه باكورة طيبة للارتفاع بشأن القصة الطويلة في مصر. وهي على الرغم مما فيها قوية في روحها، تمتاز بانفراج عنصر الحياة التي فيها واتساعها، ولكن الحشد الكثير للوقائع والتفاصيل، ثم الاقتصاد في الوصف والتحليل للوقائع الرئيسية وللمواقف المهمة، ألقى على جوّها شيئاً من الضعف والفكرة التي تمسك على هذه القصة أسبابها متوافقة الأجزاء، فيها تناظر وانسجام. فهذا منير حمدي شاب مصري يستقبل الإسكندرية بعد غيبة سنتين في فرنسا يدرس فيها الحقوق فلا ترى وصفاً للمشهد العام للإسكندرية من البحر ولا تحليلاً مسهباً للمشاعر التي استولت على نفس الشاب، وإنما تجد الكاتب يطوي الموقف بسرعة معتنياً بوصف تفاصيل لم تكن لازمة ليدنيك أخيراً من خاتمة المشهد المؤلم، وهو لقاء منير حمدي لوالده بعد غيبته، وهو على سرير الاحتضار، ويصبح الفتى بعد وفاة والده موضع العناية والرعاية من عمه الذي يجب أن يظهر له عنايته ورعايته بأن يشجعه على المضي في دراسته حتى يستطيع أن يتزوج ابنته سنية، ويعلن منير الخبر لبعض معارفه، فتنتهي إلى سمع سنية التي تثور لأنه لم يحدث أن أخذ رأيها في مسألة زواجها منه. غير أنها تظهر بعد ذلك تحفظاً واقتصاداً معه، والفتى في تقلب من الحال تتنازعه إغراء الفتيات وقلبه متفتح لإغرائهن وفي يوم ومنير بصحبة (سنية) ابنة عمه في مرقص، يحدث أن يتوعك مزاجها وتصاب بدوار؛ فيخرج مندفعاً ليجلب لها قرص (أسبرين) من صيدلية، ولكنه لا يحس بنفسه إلا وهو في مفترق الطرق حيث سيارات تمر وعربات تجري وترام قادم، فيجري ويغيب على الدنيا، ويصحو ليجد نفسه في المستشفى وسنية إلى جواره. ويشعر بألم في طرق قدمه اليمنى فيلق نظرة فلا يجد سوى قدم واحدة، أما الأخرى فقد بترت. وتتغير العلاقة بين سنية ومنير، فسنية ترى أنها مسؤولة عما أصاب ابن عمها منير، ويزيح منها إحساس العطف والحدب كبرياءها فتنكشف لها ما تكنه له من حب في أعماقها. غير أن منير يحمل هذا الحب على شفقتها عليه فلا يشجعها في حبها له ويميل عنها، وإن كان في صميمه يميل إليها. وهكذا يتغير الموقف في القصة. وفي هذا التغيير الذي أحدثه الكاتب ما يدل على براعة فنية غير أن منير تحت تأثير كبريائه يحاول أن ينسى سنية. وينساها بالانغمار في شخصية وجيدة التي تحدب عليه وتعطف. ويسافر منير مع وجيدة إلى باريس ليكمل علومه، وهنا يعقد عليها زواجه تحت تأثير ثورة من ثورات كبريائه أمام حب سنية له التي كتبت إليه تشكو تباريح غرامها له. والقصة في جزئها الأخير تفقد اتزانها وتناظرها الفكري، إذ تزيح وجيدة شخصية سنية من جو

القصة وتحتلها؛ ولو كان الكاتب أتخذ من وجيدة شخصية عارضة تجيء لتحدث التواؤم بين منير وسنية، حيث ينزاح عن منير كبريائه وعن سنية شعورها بالمسؤولية فيما أصابه، ويبدو حبهما لبعض خالصاً، فإن القصة كانت تتخذ وصفاً أدق للكمال؛ ومن هنا يمكن اعتبار استهلال القصة أبرع ما فيها من جهة الفكرة المتسقة المسيطرة عليها.

وفي القصة مفارقات عجيبة، فبينما تجد أن شخصيتي منير وسنية متميزتان، تجد شخصية وجيدة عادية، رغم ما حاول الكاتب أن يبسطه عليها من الإبهام. وهي برغم عادية شخصيتها ترتبط بشخص منير المتميز الذي ينفصل عن شخصية سنية المتميزة.

ولا شك أن هذه المفارقة نتيجة ميل المؤلف مع الفكرة الرومانتيكية حيث الخروج على القواعد الكلاسيكية في القصة. كما وأنه من الملاحظ على شخصية منير اضطرابها وضعفها، فهو لا يقدر على إثارة حب المرأة له إلا عن طريق إثارة شفقتها عليه، وهو في الوقت نفسه ثائر لكبريائه، وفي هذا الاضطراب تقوم شخصيته التي تخلق أعمال القصة بالتداخل مع الشخوص التي تقابله. غير أن الكاتب تمكن من إيجاد الموازنة بين شخصية منير

وشخصية وجيدة بتداخل سنية بخطاب ترسله إلى منير تبثه حبها له. فتثور كبرياؤه ويرضى بالزواج من وجيدة. وفي ظله ما يجد راحته النفسية حيث حاجته للمرأة، لم تكن لزوجته فحسب، تشغل منه مكان النصف المكمل، بل كانت حاجته للمرأة كزوجة وأم تشغل منه مركز الأنثى من الرجل، لا مركز الأم من وليدها حيث تحدب عليه. ووجيدة بشخصيتها فيها ما يشبع هذه النواحي من نفس الفتى، وفي هذا سر تغلب دورها في القصة على دور سنية.

أما المميزات الفنية في القصة فتظهر في قوة السرد، وسرعة الحركة، والحشد للحوادث والوقائع، وهذا يعطي القصة ما فيها من حياة، غير أنها حياة عادية لا تميز فيها - وشرط من شروط القصص المتميز - ولعل البساطة في حياتها تعود إلى أن الكاتب يأخذ الأمور بالهوادة والملاينة، ويتبسط مع الحوادث برفق وبطء، مقيداً بالواقع المبذول للحس. ومن هنا فقصته نموذج طيب لما تكون عليه القصة المصرية الأصلية. وهي من هنا تحمل أذهاننا إلى جو أقاصيص محمود تيمور. هذا والكاتب على جانب من الاقتدار في رسم شخوص قصة من حركاتها وسكناتها. وهو يكتفي بتعريف الشخص بميزاته الداخلية دون أن يحاول تكملتها بتكوينه الخارجي. وهذا يرجع لضعف الأصل التصويري عنده. وهو بدوره عائد لبساطة الخيال

والبساطة والسهولة هي أبرز ما يميز أسلوب القصة، وإن كان للكاتب بعد ذلك قدرة على مسك أجزاء القصة وربطها ببعض وسلسلة حوادثها بحيث يتولد بعضها من البعض، غير أنها قدرة لا تتعدى محاكاة الواقع. ولعل هذا نقطة من نقط الضعف فيها إذا أردنا البروز والتميز القصصي، وسبب من أسباب نجاحها إذا وقفنا عند حد الواقع واعتبرنا القصة محاكاة للواقع المبذول للحس.

وهنا موضع الافتراق في النظر لهذه القصة من ناحية فنيتها. . . ويستحسن أن يتلو القارئ فصلاً قيماً كتبه الناقد الأديب صديق شيبوب (البصير 19 أبريل سنة 1940)، فهو فصل انتقادي جدير بالعناية، وهو يكمل ما جاء في كلامنا عن هذه القصة من أراء ومطالعات.

(أدهم)

القصص

قصة أم

للكاتب الدانمركي (أندرسن)

(عالج أندرسن القصة الرمزية فبرع بها إلى حد بعيد. وقد لاقت أقاصيصه ومؤلفاته أنصاراً ومعجبين لا يكاد يحصيهم العدد، وترجمت مؤلفاته إلى كثير من اللغات، فتناقلتها الأيدي وانكب عليها الأدباء والمتأدبون يقرأونها ويدرسونها، وما يزدادون - على كر الأيام ومر الليالي - إلا إعجاباً وافتتاناً.

و (قصة أم) من أحسن أقاصيصه وأكثرها روعة وجمالاً؛ تصور عاطفة الأم المتوقدة، وحنانها المشبوب، وحبها الذي لا يدانيه حب.)

كانت الأم جالسة إلى جانب ابنها الطفل متجهمة الوجه مقطبة الأسارير، يبدو على

محياها الحزن بأجلى معانيه وأوضح صوره لقد كانت تهاب الردى أن يمد إليه يمينه فينتزعه من بين أحضانها. أما الطفل الصغير، فقد كان شديد الشحوب كثير الاصفرار، وعيناه الصغيرتان كانتا مغلقتين بهدوء ودعة، كان يتنفس ولكن بجهد وعناء؛ وقد يتنفس ملء رئتيه ويبعث مع أنفاسه أصواتاً غريبة، حتى ليخال الناظر إليه أنه ينتحب بحسرة وألم. غير أن مرأى الأم الحزينة كان يدعو للشفقة والرحمة أكثر مما يدعو لذلك منظر الطفل المحتضر ها هو الباب يطرق. . . ثم يدخل منه رجل في خريف حياته يرتدي معطفاً من جلد الفرس الكثير الدفء، وحق له أن يرتدي مثل هذا المعطف؛ فإن الفصل فصل شتاء، والبرد برد قارس. وفي خارج المنزل كانت الثلوج تجلل كل شيء، والجليد يحجب عن الأنظار كل موطئ، والرياح الهوج تزفر وتئن، حتى لكأنها توشك أن تمزق الوجوه.

كان الزائر المسكين يرتعش من البرد ويرتجف، وبما أن الطفل قد أغمض جفنيه ليغفى بضع دقائق، فقد ارتأت الأم أن ضع للعجوز إبريقاً من الجعة صغيراً ليدفئ به جسمه، ويطرد البرد من كيانه؛ فلما قامت الأم إلى ذلك دنا العجوز من سرير الطفل وأخذ يهزه برفق. . . وعادت الأم بعد حين، فتناولت كرسياً مفكك الأجزاء مضطرب القوائم، ودنت به من مكان العجوز. وأمسكت يد الطفل الصغيرة بين راحتها وأخذت تتأمله بحب وحنان، بينما كان الطفل المريض يتنفس بجهد أكبر وعناء أشد والتفتت الأم على حين بغتة إلى الرجل العجوز وقالت له تحدثه:

- ألا تعتقد أنه سينجو وأفوز به؟. . . إن الله رؤوف بعباده وهو لن يفجعني فيه أبداً. . . أليس كذلك؟. . .

أما العجوز (المسكين!) فقد كان ملاك الموت نفسه. وقد هز رأسه هزة واحدة كان فيها جواب النفي أو الإيجاب

وأحنت الأم رأسها ونظرت إلى الأرض بعينين أفعمهما الدمع السخين، وسالت العبرات منهما على الوجنتين

وشعرت فجأة بثقل في رأسها، ونعاس في جفنيها. لقد طوت ثلاث ليال كاملات لم تذق للكرى طعماً. وهنا أخذ النعاس يداعب جفنيها، فأغفت دقيقة واحدة فحسب. . . ثم استيقظت وهي ترتجف من البرد وترتعش. وألقت حولها نظرات حائرة، وصاحت بخوف وذعر:

- ما هذا؟. . .

لقد ذهب الرجل. . . والطفل الصغير لم يكن في سريره. . . إذاً لقد أختطفه العجوز ومضى به

وفي أحد أركان الغرفة كانت الساعة التي أكل الدهر عليها وشرب، تحدث أصواتاً متمازجة مختلطة؛ وكانت تروسها تصرُّ وتزمجر، وسقط على حين غرة رقاصها الرصاصي الثقيل، ثم هدأت كل حركة، ولم يعد يسمع أي صوت. . .

لقد وقفت الساعة عن الدوران

وخرجت الأم المسكينة إلى الطريق تنشد طفلها العزيز وتناديه وهناك بين الثلوج كانت تجلس امرأة عجوز ترتدي الثياب السود الطويلة؛ فما أن رأت المرأة الأم حتى هتفت بها:

- إن ملاك الموت قد دخل دارك، ولقد رأيته خارجاً منها وهو يحمل ابنك الطفل، لقد ذهب بسرعة البرق وهو لا يعيد قط ما سلبه

فقالت لها الأم بتوسل وتضرع:

- ولكن أخبريني بربك من أين ذهب، وإلى أية ناحية أتجه. أتوسل إليك أن تخبريني بذلك، وسألحقن به وأجده

فأجابتها ذات الثياب السود:

- إنني أعرف الطريق التي سلكها، ولكني قبل أن أرشدك إليها أريد أن تنشديني كل الأغاني التي كنت تنشدينها ابنك الطفل. إنني أحبها كثيراً، وأحب صوتك العذب أيضاً. إنني أنا (الليل) ولطالما سمعتك وأنت تنشدين، ورأيت عبراتك تفيض على وجنتيك وأنت تغنين

- سأنشدك إياها بأجمعها، ولكن في غير هذا الوقت، فلا تعيقيني الآن عن اللحاق بولدي

والفوز به.
فاعتصم (الليل) إزاء هذا الجواب بالسكوت ولم يحر جواباً.
للموت الأم حينذاك يديها وأخذت تذرف الدمع السخين. ثم شرعت تنشد أغانيها الواحدة تلو الأخرى. إن أغانيها كثيرة، ولكن الدموع التي ذرفتها كانت أكثر من عدد الأغاني كلها وعندما نفذت الأغاني وانتهت الأم من الإنشاد، رفع (الليل) رأسه إليها وقال:
- اذهبي يميناً في غابة الصنوبر المظلمة، فمن هنا لاذ (الموت) بالفرار ومعه ابنك العزيز
فأسرعت الأم إلى الغابة وصارت تغذ الخطايا فيها؛ وما كادت تتنصفها حتى تشعب الطريق فلم تدر أي سبيل تسلك. ونظرت حولها فوجدت عوسجاً من الشوك، ذهب برد الشتاء وجليده بأزاهيره وأوراقه، وجعل أغصانه تتدلى في الهواء وحدها.
فدنت منه وقالت:
- ألم تر الموت حاملاً ولدي؟
فأجابها العوسج بقوله:
- أجل لقد رأيته، ولكني لن أرشدك إلى الطريق التي سلكها إلا بشرط. ذلك أن تدنيني - أولاً - من صدرك كي أصيب بعض الدفء لأني أوشك أن أجمد وافني من شدة البرد، أكاد أصبح قطعة من جليد.
وأدنت العوسج منها، وضغطته على صدرها لتنيله مبتغاه من الدفء، وتذيب عنه الجليد المتجمد بحرَّ صدرها، فنفذ الشوك إلى لحمها، وسال الدم القاني من صدرها بغزارة، ونزف منها بكثرة؛ فنبت للعوسج أوراق طرية خضر، وجللت الأزاهير الناضرة عروقه وفروعه في تلك الليلة الشديدة البرودة من فصل الشتاء. . .
ولكم في صدور الأمهات الحزانى من نار تستعرُّ ولهيب يتأجج ثم أرشدها العوسج إلى الطريق التي يجب أن تسلكها. . .
ووصلت بعد حين إلى شاطئ بحيرة لا سفينة فيها ولا قارب، ولم تكن البحيرة من التجمد بحيث يسهل المرور عليها دون أن يغوص فيها المرء أو يتكسر جليدها، كما أنها كانت شديدة العمق؛ فلم يكن من الممكن أن تقطعها الأم خوضاً. وكان لا بد لها من أن تصل إلى الضفة المقابلة أن كانت راغبة في الحصول على ابنها.
وثار الحب في صدرها والحنين؛ فارتمت على الأرض لترى إذا كان مقدورها أن تبتلع ماء البحيرة كله!. . . فكان هذا ضرباً من التفكير العقيم؛ ولكنها فكرت في أن الله رحمة منه وشفقة لا بد من أن يحدث لها معجزة تمكّنها من اجتياز البحيرة. فقالت لها البحيرة حينذاك:
- ولكن لا. . . إن هذا لن يكون أبداً. . . كوني أكثر عقلاً وأبعد نظراً، وفكري فيما إذا كان في الإمكان أن نتراضى ونتفق. أصغي إلى ما سأقول:
أحب أن يكون في أعماقي جواهر ولآلئ، وعيناك هاتان لهما بريق وضياء وسحر وبهاء أكثر من الدر الكريم نفسه الذي لم أملكه قط في ماضيات أيامي، فإن شئت فاذرفي الدمع سخيناً وأكثري من البكاء كثيراً، فإذا ما فعلت فإن عينيك ستخرجان من محجريهما، وحينذاك أقودك إلى ملجأ النبات الكبير على الشاطئ الآخر، وملجأ النبات هذا هو مقر الموت أيضاً. . . الموت يحصد الأزهار والأشجار، وكل زهرة أو شجرة فيه رمز لحياة إنسان
فأجابتها الأم بحرقة والتياع:
- أفلا أجود بهما في سبيل استرداد ولدي؟
من كان يحسب أنه مازال في مآقيها دموع؟ ولكنها ذرفت الدموع السخين بحرقة والتياع لم تعرفها قبلاً وخرجت عيناها من محجريهما، وذهبتا إلى البحيرة حيث استقرتا في قاعها؛
وانقلبتا إلى لؤلؤتين غاليتين لم تحز قط مثلهما ملكة من الملكات.
ورفعتها البحيرة حينذاك، كما لو كانت في أرجوحة، وبحركة موجه واحدة نقلها إلى شاطئها المقابل حيث يقوم هناك بناء كبير فخم، يجاوز طوله مساحة فرسخ كامل.
ولم يكن ليقدر على تمييزه من بعد أحد: أهو جبل بمغاوره وغاياته أم هو بناء للفن والجمال؟

غير أن الأم المسكينة لم تستطيع أن ترى مما حولها شيئاً، لأنها جادت بعينيها في سبيل ولدها
وهنا علا صوت الأم وقالت بيأس شديد وألم مرير:
- ولكن كيف أعرف الآن الموت الذي انتزع مني ولدي واختطفه من بين يدي؟
فأجابتها امرأة عجوز كانت تتمشى هناك جيئة وذهوباً، وتحرس الملجأ وترعى الأزاهير والأشجار:
- إن الموت لم يأت بعد. . . ولكن كيف وصلتِ هذا المكان؟ وأي طريق سلكت؟ بل من الذي أعانك على الوصول إلى هنا؟
- إن الله عز شأنه هو الذي أغاثني وأعانني على ذلك. . . إنه رؤوف رحيم. وأنت أيتها العجوز سترأفين بي وتشفقين عليَّ. أخبريني أين أستطيع أن أجد مهجة نفسي وفلذة كبدي الغالية؟
فقالت العجوز:
- ولكن لا أعرف ابنك، وأنت - كما أرى - كفيفة البصر. وقد ذبل في هذه الليلة كثير من الأزهار والأشجار والنبات؛ وسيأتي الموت بعد قليل كي يقتلعها من الملجأ. وأنت تعلمين دون ريب أن لكل كائن بشري في العالم شجرة أو زهرة في هذا المكان تمثل حياته وصفاته، وهي تموت عندما تحين منيته والمرء حين ينظر إلى هذه النباتات يحسبها من النباتات العادية التي لا قيمة لها ولا شأن يذكر. ولكن عندما يلمس إحداها يشعر للحال بوجيب قلب وخفقات فؤاد. . .
تعالي معي إلى الملجأ وجسي تلك الأزهار والنباتات، فلعلك تهتدين إلى خفقات قلب ولدك. . . وماذا تعطيني إذا أرشدتك إلى ما يجب عليك صنعه أيضاً؟ . . .
فإجابتها الأم المسكينة بحزن وألم:
- لم يعد لدي شيء أمنحك إياه، ولكني سأبحث لك عن شيء يدخل إلى نفسك الغبطة والسرور؛ ولو كان ذلك من أقصى الأرض.
ولكني لست بحاجة إلى شيء من خارج هذا المكان أعطيني شعرك الطويل الأثيث؛ وأنت تعلمين دون ريب أنه جميل ساحر. إنه يعجبني كثيراً وسأستبدله بشعري الأشيب.
فقالت لها الأم:
- أما ترومين شيئاً غير هذا؟ إنه لأمر سهل! هاك. . إنني أمنحك إياه بملء إرادتي وكامل رغبتي.
ثم اقتلعت شعورها الجميلة - التي كانت زينة شبابها الغض وصباها الناضر - واستبدلتها بشعر العجوز، وهو قصير شديد القصر، أبيض ناصح البياض.
واقتادتها العجوز من يدها. . . ثم دخلتا إلى الملجأ الكبير، حيث كانت أجمل النباتات وأكثرها نضارة، تنمو بشكل باقات متراصة. وكان يرى تحت أجراس بلورية أجمل أزهار السوسن وألطفها، وإلى جانبها أزهار الفاؤيا المنتفخة. وكان يوجد أيضاً نباتات مائية شديدة النضار، وأخرى ذابلة أو شبه ذابلة، وكانت جذورها محاطة بالأفاعي الرُّقط.
وغير بعيد كانت أشجار النخيل الباسقة قائمة هناك، وإلى جانبها أشجار السنديان والدلب. وفي مكان آخر كانت تنزوي حديقة البقدونس والسعتر وبقية البقول الأخرى، التي هي رمز العنصر النافع للحياة. وكان يوجد عدا ذلك شجيرات ولكنها كبيرة وضعت في أوان ضيقة، وهي في أوانيها هذه وكأنها على وشك الانفجار. وكان يرى أيضاً زهيرات صغيرة رديئة في بعض الأواني الصينية تحيط بها أزهار البابونج، وقد اعتنى بها كل الاعتناء. كل هذا كان يمثل حياة البشر الذين ما زالوا حتى الساعة أحياء يرزقون، يقطنون الكرة الأرضية من بلاد الصين إلى جزيرة غرونلاندا.
وأرادت العجوز أن نشرح لها كل هاتيك النظم والترتيبات الخفية، غير أن الأم رفضت ذلك وأبت أن تصغي إلى مقالتها، وطلبت من العجوز أن تقودها إلى كل نبت صغيرة طري العود. وأخذت الوالدة المسكينة تشم كل واحد من هذه النباتات بأنفها وتجسه بيدها، لتحس نبضات قلبه وخفقات فؤاده. وبعد أن جست المئات والآلاف، تمكنت من معرفة دقات قلب ولدها، وما أن عرفتها حتى صاحت بفرح وابتهاج:
- (إنه هو. . .)
ومدت يدها إلى نبت صغير تهدلت أوراقه، وبدا عليه الذبول بأجلى معانيه وأوضح صوره فصاحت بها العجوز قائلة:

حذار أن تلمسيه، وابقي هنا أن يؤوب الموت - ولن يطول غيابه - وامنعيه من أن
- يقطف هذا النبت، وهدديه باقتلاع جميع الأزهار المحيطة به إن هو فعل ذلك،
وسيخشاك ويرهب جانبك، لأنه مسؤول عنها أمام الخالق العظيم، ولا يجوز لنبت ما أن
ينزع من مكانه قبل بأمره الله بذلك.
وفي هذه اللحظة هبت ريح عاصفة شديدة البرودة، فتنبأت الأم بأن الموت يدنو
ويقترب
ووصل الموت بعد يسير من الوقت، فلما رأى الأم نظر إليها شزراً وقال لها بغيظ:
- كيف تمكنت من الوصول إلى هنا، ومن أرشدك إلى الطريق؟ وسبقتني أيضاً؟ ماذا
صنعت؟ وكيف وصلت؟
واكتفت الأم المسكينة بهذا الجواب المقتضب:
- (. .إنني أم)
ومد الموت يده الطويلة العقفاء إلى النبت الصغير؛ ولكن الأم أحاطته بيديها،
وضغطتهما في حرص شديد واعتناء زائد حذراً من أن ترضَّه أو تلحق ببعض أجزائه
الدقيقة أذى. فنفخ الموت على يدي الوالدة المسكينة فشعرت بهما تسقطان خائرتين.
وكانت نفخة الموت هذه أشد برودة من رياح أكثر فصول الشتاء برداً وزمهريراً.
وقال لها الموت:
- إنك لا تستطيعين معاكستي في شيء.
- ولكن الله تعالى أقوى منك واشد بأساً.
- أجل. وأنا لا أفعل إلا ما يأمرني به. . . إنني مُزارعه! إن هذه النباتات والأشجار
والشجيرات عندما لا تجد سعادتها وهناءها في هذا المكان أقتلعها لأغرسها من جديد
في حدائق أجمل وأروع، وجنة الخلد الكبيرة إحدى هذه الحدائق، إنها أمكنة مجهولة ولا
أستطيع أن أخبرك بما يجري هناك.
وعادت ألأم فصاحت من قلب جريح ونفس مكلومة:
الرحمة! الشفقة!. . . لا تقتلع غصن ولدي بعد أن وجدته وأخذت تتوسل وتتضرع،
وتنتحب وتتحسر، غير أن الموت لم يصغ إلى بكائها ونحيبها ولمُ يعر صنيعها اهتمامه أو
انتباهه.
وقبضت الأم حينذاك على زهرتين ناضرتين والتفتت إلى الموت وقالت له مهددة:
- أنظر. . . إنني سأقطفهما مع جميع الأزهار التي تحيط بهما وسأتلفها كلها. إنك تدفع
بي إلى اليأس المرير.
فصاح بها الموت:
- لا تجذبيهما!. . . لا تتلفيهما!. . . تزعمين أنك تعيسة شقية وفي نفسك رغبة في
سحق قلب والدة أخرى؟. . .
- قلب والدة أخرى؟
قالت المسكينة هذا وخلَّت الأزهار من يدها حالاً
فقال لها الموت حينذاك:
- خذي عينيك، إنهما تبرقان وتلمعان بصفاء ووداعة أكثر من الوقت الذي أخرجتهما فيه
من البحيرة. لم أكن أعرف أنهما تخصانك. خذيهما وانظري بهما إلى أعماق هذه البئر،
فستريك ما كدت أن تهدميه فيما لو اقتلعت هذه الأزاهير. وسترين في انعكاسات الماء
الخط المقسوم لكل من هاتين الزهرتين يمر أمامك كالسراب، وستريك أيضاً الحظ
المقسوم لابنك فيما لو كتبت له الحياة.
وانحنت الأم على البئر فرأت صوراً من السعادة الضاحكة وألواحاً من البشر والسرور.
ثم مرت بعد ذاك مشاهد مخيفة من البؤس والحزن والكآبة. وقال الموت معلقاً على
ذلك:
- هذا وذاك كله من صنع الله ومشيئته
فأجابت الأم بحزن وغم:
- ولكني لم أتمكن من تميزها ما كان مقدراً لولدي. . .
فقال لها الموت:
- لن أخبرك بشيء من ذلك؛ غير أني سأعيد مشهده أمام ناظريك ثانية بين جميع

الصور والألواح التي مرت أمامك الآن؛ وقد رأيت دون ريب ما كان ابنك ينتظر في الدنيا.

فجثت على ركبتيها وهي مضطربة حيرى، وأخذت تصيح:

- أتوسل إليك. . . قل لي أكان هذا الخط المخيف مقدراً له؟ ولكن لا. . . أليس كذلك؟ تكلم. . . ألا تريد أن تجيب؟ آه. . . وقطعاً للشك خذه. . . كي لا يعرض نفسه للخطر، وكي لا يجابه مصائب وكوارث كالتي رأيت. إنني أكن من الحب لهذا الطفل العزيز البريء من كل جرم، والبعيد عن كل إثم - أكثر مما أكن لنفسي. خذه. . . وليبق الحزن والأسى لي وحدي. اذهب به إلى عالم السماء والخلود. . . وانس الدموع الغزار التي سكبتها، والتضرعات الحارة التي توجهت بها إليك. . . إنس كل ما بدر مني من صنيع أو قول.

فقال لها الموت:

- ولكني لا أفهم مبتغاك!. . . أتريدين استرداد ولدك؟ أم تريدين أن آخذه إلى المكان المجهول الذي لا أستطيع أن أحدثك عنه؟

فجثت الأم حينذاك على ركبتيها ورفعت يديها، وجأرت إلى الله بدعائها:

- (رباه! لا تصغ إليّ إذا التمست في أعماق نفسي ما يخالف إرادتك وينافي مشيئتك. . . اللتين هما من أجل صالحنا ونفعاً أبداً. لا تصغ إليّ ولا تستجب مني يا رباه. . .)

وسقط رأسها بهدوء وبطء على صدرها، وغرقت في لجة من الحزن العميق والغم الشديد.

ودنا الموت من النبت الجميل الصغير واقتلعه. . . وذهب به إلى الحديقة ليغرسه فيها. . .

(دمشق)

ترجمة

عبد الغني العطري

العدد 362 - بتاريخ: 10 - 06 - 1940

من مزايا عصر السرعة!

الحرب بين أمس واليوم

يقول الأغرار من الناس إن السرعة الخاطفة عبقرية هذا العصر ومزيته. فمن لم يجرِ مرَّ على ظهره المتأخر وغيَّر في وجهه المتقدم. وواجب السرعة أن تعمل ولا تستريح، وتفكر ولا تتأمل، وتأكل ولا تتذوق، وتنام ولا تحلم، وتموت ولا تمرض. ونحن نقول لهم إن السرعة ليست عبقرية ولا مزية؛ وإنما هي مس من الجنون أصاب العالم منذ اخترعت الآلة. ذلك أن الآلة مخلوق أرضي جهزه العلم بعشرات الأعضاء ليس بينها اللسان ولا القلب ولا العقل ولا الروح، فهي تلد ولا ترأم ما تلد، وتعمل ولا تضمن ما تعمل؛ وهي تكون للشر كما تكون للخير، وتنتج للموت كما تنتج للحياة. وطبيعة الآلة سرعة الحركة ووفرة الإنتاج؛ فلم تكد تسيطر على مجاري العمل في أقطار الأرض حتى دفعت العالم دفعاً عنيفاً إلى الإهتلاك والاستهلاك والتسابق والتنافس والإصطراع والكدح، فهو دأب لا يفتر، ونصب لا يستروح، ونهم لا يشبع، وعراك لا ينقطع. ولئن سألت المتبجحين بعصر السرعة على العُصر الخوالي كيف يجد الجسم راحته في هذا الاضطراب الدائم، وأين يلتمس القلب سعادته في هذا الجحيم المستعر؛ وماذا أدرك راكب السيارة أو الطيارة أكثر مما أدرك صاحب الجمل والحمار وراكب الحنطور والقطار، لا تسمع منهم غير جواب أشعب حين أجرى الصبيان إلى الوليمة خادعاً بالحيلة، ثم جرى هو معهم مخدوعاً بالوهم!

هذه هي الحرب التي عرفها العالم منذ خلق الله آدم وإبليس قد انقلبت في عصر السرعة آلية لا تعتمد على فضائل النفس ولا على خصائص الروح، وإنما تعتمد على سرعة الدواليب في الطيارة والسيارة والدبابة والدراجة والغواصة والبارجة. فأصبح الفرق بين الآلة والسيف في حصد الأرواح كالفرق بين الماكينة والمنجل في حصد الحنطة!

إن معركة الفلندر التي شبت بين الألمان والحلفاء أهلكت في أيامها المعدودة من الأنفس والأموال أكثر مما أهلكت حرب البلوبونز التي نشبت ثمانياً وعشرين سنة بين أسبرطة وأثينا، والحروب الميدية التي اشتبكت أربعين سنة بين الفرس والإغريق،

وحرب البسوس التي اضطرمت أربعين عاماً بين بكر وتغلب، والحروب الصليبية الثمان التي ظل ضرمها يحتدم ويخبو قرناً وثلاثة أرباع القرن بين الغرب المسيحي والشرق المسلم!

اشتعلت هذه الحروب بين المدن أو بين القبائل أو بين الأمم قبل أن يوضع القانون الدولي وتُنشأ عصبة الأمم، ومع ذلك تكشَّف عجاجها الأقتم عن خلال مشرقة من الفتوة والبطولة والنبل والإيثار والوفاء والتضحية كانت للأدب الإنساني الخالد مصدراً لا ينقطع رفده ولا يفتُر وحيه.

وكانت الحروب الإسلامية على الأخص في الفتوح أو الفتن تجري على سَنن مستقيم من الدين والخلق والأدب لا تزيغ عنه. فالقلوب التي تجيش بالغل لا تلبث أن تخشع للصلاة، والألسنة التي ترتجز بالحماسة لا تنسى أن تتناشد بالأدب. وما ظنك بجيش يفرض عليه دينه أن يؤدي الصلاة جماعة في المعركة؟ أتراه حريًّا أن يجاوز الحد إذا قاتل، أو يجانب الوفاء إذا عاهد؟ وما رأيك في جيشين يتهادنان ساعة ليحكم فارس بين رجلين اختلفا في المفاضلة بين شاعر وشاعر، وكان الحكم من جيش والمختلفان من جيش آخر؟

لقد رووا أن رجلين تنازعا في عسكر المهلب في جرير والفرزدق وهو بازاء الخوارج، فصارا إليه، فقال: لا أقول فيهما شيئاً، ولكن أدلكما على من يهون عليه سخطهما: عبيد بن هلال، وهو يومئذ في عسكر قطرى بن الفجاءة. فأتيا فوقفا حيال المعسكر، فدعواه فخرج يجر رمحه وظن أنه دعي إلى المبارزة، فقالا له: آلفرزدق أشعر أم جرير؟ فقال: عليكما وعليهما لعنة الله، فقالا: نحب أن تخبرنا ثم تنصرف إلى ما تريد. فقال: من يقول:

وطوى القيادُ مع الطراد بطونَها ... طي التِّجار بحضرموت برودا

قالا: جرير. قال: هو أشعرهما!

فقل لي بربك: أين تلك الحرب التي كان يبرز فيها رجل لرجل فيتقاولان ويتصاولان على مسمع ومرأى من الجمعين المتقابلين، حتى إذا حميت الصدور واحمرت الحَدق حمل بعضهم على بعض فيُقتل نفر ويجرح نفر - من هذه الحرب الميكانيكية التي يقف فيها المليون حيال المليون فتغشاهم ظُلل من السماء ترسل الشهب والصواعق، وتكر عليهم قُلل من الحديد تقذف اللهب والقنابل! ثم يُرعد الجو والبر والبحر بآلات الموت والدمار ساعة من الليل أو النهار، فإذا بك لا ترى بعد ذلك عشرات من البلدان عمرتها الحضارة في دهر، ولا ألوفاً من الشبان نشأتهم المدنية في جيل!

لقد أتخذ الفرس يوم القادسية دبابات من الفيلة هولوا بها على المسلمين بعض الوقت، ولكن

العرب لم يلبثوا أن أصابوا مقاتلها في الخراطيم فمسحها الشهداء بالسيوف، فانقلبت الفيلة إلى أهلها فعجنتهم بأرجلها وهي مولية. ولكن دبابات هتلر كضمير هتلر لا تحس الوخز ولا تحفل الصدام ولا تبالي العاقبة؛ فهي تهجم هجوم الجراد الجهنمي على النبي العميم، فلا تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم. فإذا أضفت إلى ذلك الويل أن الذين أوقدوا نار هذه الحرب حلوا أنفسهم من روابط الدين والخلق والقانون والعرف والشرف، أدركت مبلغ ما تعانيه الإنسانية اليوم من يأجوج ومأجوج في أمة بسمرك ونيتشه وغليوم وهتلر!

ليت للعالم يا رباه كرَّةً إلى عصر الجمل والحصان، وحرب السيف والسنان، ومدنية القلب واللسان، لينجو من هذا العلم الذي يدمر ما يعمر، ويخلص من هذه الحضارة التي تأكل ما تلد!

أحمد حسن الزيات

هزل مصر والشام

من مذكرات الأستاذ محمد كرد علي

تشهد في مصر ما تشهده في الممالك الكبرى من مظاهر الحياة ففيها الجدِّ على أتم حالاته، وفيها الهزلُ على غاية من الإتقان. ويُطربني جِدِّها وهزلها. وأنا في مصر مصريَّ، وما أنا بمصريَّ. فلئن تخطتني جنسيتها، فما حرمتني الفطرة مشاركة أهلها في عواطفهم وشعورهم وكثير من أطوارهم. كانت إقامتي في مصر منقطعة، فلم أر أن أعرض لسياستها إلا بقدر معلوم، وما عنيت العناية اللازمة بالوقوف على تراجم

أهلها، وتوخيت أن أعرف مجملات عنهم، وذلك لتشعب أطراف موضوع لا يبَّرز فيه إلا من تمحض له وأنقطع إليه. وأحتاج على الأكثر أن أعرف من رجال مصر تراجم العلماء والأدباء. أما تراجم السياسيين وغيرهم فشرح يطول.

من الطبيعي أن يتآلف المتشاكلون في الفكر والثقافة، وفي القاهرة من ذلك ضروب وألوان، ولا يصعب كثيراً على النازل عليهم أن يصل إلى الطبقات المنوعة إذا كان إدلاؤه مهرة ما دام المصريون معروفون بهذا الظرف وهذا اللطف. وبعض سكان عاصمتها كأهل العواصم في الغالب تصدُّهم متاعب الحياة فيها عن الافتكار فيما يفكر فيه الناس في العادة، من مثل الوفاء وتعهد الصاحب، فيصْدُق عليهم أنهم من الطبقة التي لا يسرُّها من حضر ولا يسوئها من غاب، أو أن هذا من خلق عدم المبالاة المتأصل في بعض إفرادهم.

مصر من البلدان التي يعيش فيها الغريب خمسين سنة ولا يفتأ كل حين يقع فيها على شيء جديد، ويظفر بموضوع طريف ما كان له به عهد بالأمس. عرفت صديقي وحيد بك الأيوبي، وهو وأنا في مَيعَة الشباب، وكان من أبناء الأعيان المفكرين المثقفين. وتفارقنا زمناً ثم التقينا قبل اثنتي عشرة سنة، وإذا به رئيس جمعية جهرية سماها اسماً غريباً (البُعكوكة)، وبُعْكوكة الناس مجتمعهم على ما في القاموس. وكانت هذه البعكوكة تلتئم كل ليلة في قهوة متواضعة من منعطفات شارع إبراهيم باشا، ثم انتقلت إلى قهوة السلام (كافيه دي لابيه) في نفس الشارع. ويبدأ اجتماع أعضائها من بعد العشاء، وينصرفون بعد منتصف الليل بساعة أو ساعتين أحياناً. وتتألف من محامين وأطباء ونواب وموظفين ورؤساء دواوين ومؤلفين وصحافيين وأعيان أصحاب أطيان موسرين وغيرهم، ولا يقل المواظبون منهم عن ثلاثين رجلاً، ما فيهم إلا الممتاز بأدبه وفضله. فإذا اجتمعوا تجردوا عن مظاهرهم، وكانت اجتماعاتهم للمرح والتنادر وسماع الأخبار. ويجاهرون بأن بعكوكتهم فوق الأحزاب وفوق السياسة، ولا غاية لهم إلا الضحك والإضحاك. والرئيس وحيد بك الأيوبي، ونائب الرئيس إدوارد بك قصيري من أكبر المحامين في مصر.

هؤلاء الجماعة من العاملين في الحياة، فإذا انتَدوْا كل ليلة - وقد يزورهم في بعكوكتهم إخوان لهم من حين إلى آخر - فللترويح عن نفوسهم، وللخوض في لهو الحديث. ولك أن تصف جماعة البعكوكة بأنهم مجدُّون في أوقات الجد، هزَّالون في أوقات الهزّل، ويا ما أحَيْلي اجتماعاتهم، وأوقع في الأذن أصوات مجادلاتهم. وشرفني الرئيس بعَدِّي في جملتهم، وأمرني أن أنشئ بعكوكات أو بعاكيك في بلاد الشرق. فصدعت بأمره؛ وأنشأت في داري بعكوكة يختلف إليها أخلص الأصدقاء، ولكن خُلاَّني بعاككة دمشق إذا شابهوا إخواني بعاككة القاهرة في دراساتهم وثقافاتهم، فلن يشاركوهم بخفة أرواحهم وتنكيتهم.

بلاد الشام سهلية جبلية معتدلة يغلب الانقباض على أهلها، وبلاد مصر سهلية حارَّة يغلب المرح والطرب على أهلها.

ولله ما يجري في هذه البعكوكة المصرية. فإن كل أعضائها والرئيس على رأسهم يصطنعون المرح ويلتمسون الضحك، وناهيك بجمعية فيها مثل الدكتور محجوب بك ثابت المشهور بعلمه وخفة روحه وحضور نكتته. وأذكر أني عدت من الشام في بعض السنين، وكنت متلهفاً شوقاً إلى أخواني البعكوكيين فقصدت إلى البعكوكة لأستطلع طِلع أحوالهم، فرأيت بعضهم مكتئباً، والرئيس مقطباً، فسألت عن السبب فقيل لي: إن الرئيس مصاب بضعف بعض الأعصاب، والأعضاء في حزن من جراء ذلك، وكل منهم يكد قريحته ويستوحي علمه لإيجاد علاج يُعيدُ إلى الأستاذ نشاطه وصحته، ويتنافسون في هذا الشأن، ولا تنافس وزراء السلطان إبراهيم العثماني في إيجاد مقو لضعفه، مع الفارق بين أعضاء البعكوكة وأعضاء وزارة الفاجر إبراهيم. وفي الحقيقة أن أعضاء البعكوكة كانوا يجدون في شفاء رئيسهم مخافة أن يصاب المرؤوسون بمثل ما أصيب به رئيسهم، ولا تسل عما ذكر خلال تلك الأيام من نكات وحكايات وأشعاراً وآثار، وأكثرها مما يضحك الثكلى، ويسلي الحزين. ألتُزِم فيه جانب الأدب، ورعاية آداب الاجتماع.

رجعت إلى الشام وكتبت كتابين مطولين في فترة قصيرة إلى الرئيس، أذكر له بعض ما فتح الله عليَّ من أدوية لدائه. فلما قرأهما الرئيس على الأعضاء تجددَّت لهم عناية

بمداواته، وبقى القوم يهتمون لذلك سنة لا تخلو ليلة من الإلماع إلى سير مرض الرئيس وإلى ما ظهر من الأدوية وإلى ما وفقوا لمعرفته من طلاسم وادعية إلى غير ذلك مما ينجع في شفائه. والرئيس يشكو وهم يخففون عنه آلامه ويسلُّونه. ولما عدت في الشتاء التالي إلى القاهرة سألت الرئيس عن حاله فضحك وقال: وأنت أيضاً صَدَّقت ما زعمته لكم؟ إني أدعيت هذه الدعوى لأُضحككم، وقد حصل المقصود من هذه الفِرْيَة فضحكتم بها حولاً كاملاً، وأنا بحمد الله ليس لي ما أشكو منه مما ذكرته لكم، فعجبت وأكبرت صفات الرجل وحبه لمرؤوسيه، كما كنت أعجب بكرمه على كل بائس مُمْلِق، وقلت له: إن انتسابي إلى بعكوكته أحب إلى نفسي من كل لَقب لُقِّبْت به، ومن كل مجمع علمي شرفني بعضويته، فمع جماعته السَّلْوَى والسرور، ومع أولئك كَدُّ الذهن وكرب الجد.

يكتب رئيس البعكوكة الحين بعد الآخر في جريدة الأهرام قطعاً لطيفة في اللغة والأدب والسياسة. وجاء البرق ذات يوم ينقل كلام أحد رجال السياسة ويقول: إن الإنجليز يرابطون بجيشهم في مصر لحماية الاستقلال؛ ومن الغد كتب الرئيس بضعة أسطر في الأهرام يُكَبِّرُ هذه العناية بأمر مصر ويقول: إن عندنا الآن إذاً احتلال واستقلال، فماذا نسميهما؟ نسميهما (الاحتقلال) أخذ من الأول حرفين ومن الثاني ثلاثة. وسأله مكاتب التيمس في القاهرة: وماذا نسمي ذلك بالإفرنجية؟ فقال على البديهة: مأخوذة من الاحتلال والاستقلال. وكثر السائلون للرئيس عن هذا الاسم الجديد وعما إذا كان له أصل في اللغة وهنئوه على توفيقه للعثور على هذه اللفظة الجميلة. وعبثاً حاول أن يقنعهم أنها لفظة وضعها وضعاً؛ وما كان بعضهم يرضيهم إلا أن يكون وجدها في معجمات اللغة.

ورئيسنا يعطف على كل من يعدُّه الناس ثقيل الظلِّ، فإذا سمع بمن هذه حاله أحتضنه وبره. وقد يصحب أحد الصعاليك المعدمين إلى مطعم الكونتيننتال يغدِّيه أو يعشِّيه. وقد أعترض عليه مرة نائب رئيس البعكوكة إدوارد بك القصيري قائلاً له: إن فلاناً في حاجة إلى (بنطلون) وأنت تنفق عليه في الوجبة الواحدة ما يزيد على الخمسين أو الستين قرشاً صحيحاً. أعطه ثلاثين قرشاً يشتر بها بنطلوناً بعشرين والعشرة ينفقها على عياله. فأجابه

الرئيس: سبحان الله يا إدوارد بك! ألا تعلم أني إذا عاونته على ابتياع بنطلون جديد أكون قد غيرت معالمه وأبدلت شكله؟ وأظن الرئيس يقصد باستصحاب الفقراء إلى مطاعم الأغنياء ليقول لهؤلاء بلسان الحال إنه لا قيمة لما تتعاظمون به من البذْل، وأن الفقير قد يشاطرهم هناءهم ببذل عَرَض قليل.

وعقل رئيس البعكوكة، والحق يقال، ليس من العقول المحدودة، بل عقله مبتكر مبتدع، فقد أصدر في صباه ثلاث جرائد في وقت واحد بأسماء مختلفة، ومديرين ومحررين مختلفين، جعلها كلها لمقاومة الاحتلال، وأقام لها كتاباً ومراسلين ومحررين، وكان يصدرها في أوقات مختلفة. وليس لها كلها إدارة غير جيب الرئيس وقمطره يكتبها أو أكثرها، وينشرها على أنها ثلاث جرائد مختلفة الوضع والطبع، متحدة المنزع والغاية. ولم تُكشف هذه اللعبة إلا بعد مدة طويلة. وله من هذه الألعاب أشياء تَسر ولا تَضر يَضحك منها ويُضحك.

كان الشيخ طاهر الجزائري كثيراً ما يحدثنا بأخبار الدكتور حسين عودة نزيل صيدا، يُلقيها علينا ممزوجة بهزل وغير خالية من جد. فامتلأت الرؤوس بأخبار صاحبه، وود كل واحد منا لو يطير إلى صيدا فيتعرف إلى هذا الطبيب. وما كتب لأحد من جماعتنا أن يقوم بهذا الغرض قبل صاحب هذه المفكرات. فإني قصدت إلى صيدا لألقي فيها جامعَ شتات الفضائل بلدَّينا حسين عودة، فأبلَّ غليلَ شوقي إلى رؤيته.

وأريد أن يُعرْف من هو الدكتور عودة. ولد الدكتور في دمشق، والتحق في صباه بمدرسة القصر العيني في القاهرة لأخذ الطب، فرسب لشدة ذكائه عدة سنين، وما زال يرسب في صَفِّه حتى جاء مصر الأمير عبد القادر الحسني الجزائري يوم فتح قسم من ترعة السويس سنة 1863. وقد رجاه أهل حسين عودة أن يكلم الخديوي إسماعيل ليسهل على أبنهم أخذ شهادة الطب. فصدر الأمر بمنحه شهادته فأغتبط وأختار السكنى في صيدا زاهداً في سكنى بلدته الأصلية لئلا يكون موضع سخرية عند الهزالين من أهل دمشق، لأن خلقته وقيافته تضحكان حقيقة، فهو مجدور، في عينه

شتر، وفي رجله عرج. ووفاء لمدرسته لم يرض أن يخلع بزتها طول عمره؛ فكان إذا بلى المعطف، وقد كتب على أزراره (تلميذ القصر العيني) أوصى على معطف جديد من نمطه، وذلك كل عشر سنين مرة، ورفع الأزرار عن المعطف القديم، وأناطها بالبذلة الجديدة، يذكر الناس بأنه خريج كريم، من ذلك المعهد العظيم.

كانت هدايا الدكتور تتري إلى صديقه الشيخ طاهر الجزائري بدمشق يحملها المكار كل مدة من عاصمة الفينيقيين إلى عاصمة الأمويين. أتدرون ما كانت تلك الهدايا النفيسة؟ كانت قصاصات من جرائد مصرية وسورية قديمة وحديثة، أقدمها لا يزيد على بضعة أشهر، وعمر أحدثها شهر واحد فقط. وكان يقطع من كل جريدة ما راقه، ويجمع الباقي ويضعه في كيس نظيف أبيض، ويخيطه جيداً حتى لا تمتد الأيدي إلى السرقة منه. وقد أتحفني المُهدي إليه مرة بكمية منها. فلما رأيتها قديمة استعفيت من أخذ حصتي في الدفعة الثانية، وأحببت أن أخص بها من يحبون الجرائد ولو كانت قديمة بالية.

كان الدكتور حسين عودة مولعاً بالحشائش، ويطب مرضاه بها على الدوام، وقد ملأ المجلات الطبية في عصره بفوائدها، فأول ما وقعت عيني عليه في داره مجموعات عظيمة من هذه الحشائش مرتبة مصففة مجففة، جعلت على مناضد ومقاعد، وكتبت أسماؤها عليها مثل ما ترون من نوعها في متاحف النباتات ومعارضها، وألقيت نظري على الحائط فإذا به عال جداً لا يقل علوه عن أثني عشر متراً، فسألته ولم هذا الحائط شاهق إلى هذه الدرجة؟ فقال: لأن النظر إلى البحر يؤذيني، ويحمل الكرب إلى قلبي، ولذلك أقمت هذا السور ليحول دون نظري وما يكره.

كان الدكتور يطب الأغنياء في بيوتهم بقرش واحد، فإذا زاروه في عيادته أخذ منهم ربع قرش (متاليك)، أما الفقير فإن قصده أو ذهب هو إليه بنفسه، لا يقبض منه شيئاً، ويعطيه ثمن الدواء، والدواء بالطبع بعض تلك الحشائش. ولذلك يُعَّد الدكتور عودة من أبر الأطباء بيمينه التي أقسمها يوم خرج من المدرسة الطبية إلى مدرسة الحياة.

وسرت مع الدكتور في أسواق صيدا وضاحيتها فرأيت أهل البلد كبيرهم وصغيرهم، رجالهم ونساءهم، أطفالهم وبناتهم، يعرفون الدكتور ويعظمونه، ويسألونه في الطريق علاج أسقامهم، ويدعون له بطول العمر.

ودّعت الدكتور وقد شفيت النفس من المتعة به ثلاثة أيام، وكنت نازلاً في الطبقة الثالثة من فندق المطران، فقيل لي بعد الغروب بثلاث أو أربع ساعات: إن الدكتور آت لزيارتك، فعجبت وخففت لأتلقاه على السلم وقلت له: لماذا تصدْع نفسك يا سيدي، وقد ودَّع كلٌ منا صاحبه في النهار؟ فقال: هذا واجب أقوم به، فشكرت له أدبه وتفضله. ورأيته في هذه الزيارة الليلية يحمل نبوتاً أطول منه وفانوساً صغيراً، ويلبس في رجليه قبقاباً عالياً. فسألته بأدب: لم يلبس القبقاب والوقت صيف؟ فأجابني بما معناه: إن دبابات الأرض كثيرة، ولا يأمن الساري في الليل من شرها، فلكي يكون بمأمن من قرصها يحمل هذا المصباح يستصبح به عله يراها قبل أن تصل إليه؛ فإذا اقتربت منه ضربها بالعصا، وإذا حاولت الصعود إليه تعذر عليها الصعود إذ يقتلها قبل أن تصل إلى رجله، وكان في قوله جاداً، وكان جداً كله، وهذا وجه لطافته.

ومن جملة جدِّه أنه كان يعتقد أنه يعيش العمر الطبيعي، والعمر الطبيعي عنده مائة وخمس وثلاثون سنة، أو مائة وأربعون لا أدري، ولما كان هو على غاية من التقوى ولم يسيء استعمال قوته قط، فإنه بالغ بحول الله هذا العمر لا محالة. أما هو فعاش في هذا الأمل اللطيف نحو تسعين سنة. ومن أخبار جدّه، وهو معتقد بما يقول ويفعل ما حدث له مرة، وهو يتنزه على شاطئ البحر مع صاحبه الشيخ طاهر، وقد لحق بهما أحد الطلبة، وكان هذا لا يخلو من جذب على ما يظهر. وبعد مضي أربع ساعات على اجتماعه إليهما ألتفت إلى الدكتور وقال له: يا سيدي الدكتور أرجو ألا يكون في حضوري ما ينغص عليك خلوتك إلى الشيخ. فأجابه الدكتور بدون توقف: يا بني نحن لم نحس أنك معنا، وأنا في شاغل عنك، نحن الآن ندبر أمر ثلاثمائة مليون من المسلمين، وهكذا كان وما شاء الله كان.

محمد كرد علي

حركات الإصلاح الإسلامية
أزمة إسلامية - 2
للدكتور علي حسن عبد القادر
دكتور في الفلسفة والعلوم الاجتماعية من جامعة برلين
ومدرس بكلية الشريعة

هكذا نرى أن التشريع الإسلامي هو محور الدائرة التي تدور حولها حركات الإصلاح والتجديد في الإسلام، والباب الذي ينفذ منه المصلحون لتجديد الحياة الإسلامية تجديداً عملياً، وأن مسألة كون الإسلام قابلاً للإصلاح والتجديد والرجوع به شاباً قوياً إنما تقوم على مسألة أخرى: وهي هل من الممكن التخلص من أشكال قديمة جامدة في الفقه الإسلامي؟

وإذا ما أردنا أن نحدد البحث تحديداً أدق لنتعرف العامل الأول الذي أملى على المصلحين إصلاحهم وجرهم إلى التفكير في ذلك فلا يسعنا في حدود المؤرخ الديني أن نفكر أن ذلك يرجع إلى الأصل المعروف (الإجماع) ذلك الأصل الذي صبغ الفقه الإسلامي بما لم يصبغه به غيره، ودعم به أهل السنة وجهات نظرهم تدعيماً لم يقبل النقض. وهو في حقيقة الأمر المفتاح الذي نفهم به تطورات الإسلام في علاقاته المختلفة في العقائد والتشريع والسياسة، فما تقبلته الأمة حقاً وصدقاً فهو حق وصدق، وما لا فلا؛ ويكون صحيحاً فقط في الشكل الذي يعطيه له الإجماع، حتى تفسير القرآن الكريم والسنة يكون صحيحاً منه ما يقابله إجماع الأمة، والعقائد - تلك التي خضعت لكفاح قاس في أول الأمر - أصبح موافقاً للدين منها ما ختم عليه الإجماع بخاتمه النهائي. وهؤلاء الرجال وهذه الكتب تعتبر إمامتها إذا أعتبر هذه الإمامة إجماع المسلمين. وهكذا نرى أن الإجماع قد لعب دوراً هاماً في الإسلام بما لم يقم به مبدأ مثله. ومن المعروف أن هذا الإجماع لم يأت نتيجة اجتماع منظم، وإنما كانت دائرته أول الأمر الإحساس الجمعي والرأي العام وصوت الأمة.

وقد حاول العلماء حدّه زماناً ومكاناً أوردّه إلى إجماع الصحابة أو علماء السلف من أهل المدينة أو الحرمين؛ ولكن هذه المحاولات شيء ومظاهره المختلفة التي رأيت شيء آخر.

وأهم من هذا هو أن الإجماع الذي حقق في الماضي قوة التعادل ومطابقة العصر ليس بعيداً أن يكون نواة قوة لمكافحة الجمود والنفوذ الشخصي إذا ما أستغل استغلالاً مرضياً وهو ما نتركه للمستقبل.

وقد يظهر غريباً إذا قلنا إن عوامل التجديد قد أظهرتها وحددتها طريقة أهل السنة نفسها، ذلك أن طريقة أصول الفقه إن تكن لا خلاف فيها في أوساط أهل السنة، فقد وجد من العلماء المفكرين من لم يقبل البقاء بعيداً عن دائرة الاجتهاد. وظهر له أن التقليد والتمسك بمذهب بعينه أمر لا يحتمل، وعند ذلك حدد هؤلاء العلماء من أول الأمر - شعروا أم لم يشعروا - دائرة هذا الأصل الخطير - أعني أصل الإجماع - وضيقوا من نتائجه. فالإمام الغزالي نادى بالاجتهاد وكثير ممن جاء بعده فعلوا ذلك أيضاً مثل أبن تيمية والسيوطي. وقد أستند المصلحون من ناحية أخرى في مناهضتهم للإجماع إلى أن تحديده بقى وقتاً طويلاً مجالاً للأخذ والرد حتى استطاع آخر الأمر أن يأخذ هذا المحيط الواسع الذي انتهى إليه.

وقد جاهد الحنابلة من بين المذاهب الأربعة جهاداً كبيراً في سبيل الاجتهاد لأجل مصلحة السنة نفسها التي عرفوا بأحيائها. فأبن تيمية وتلميذه أبن القيم استعملا هذا السلاح ضد البدع الكثيرة المنتشرة. وقامت على هديهم وفي روحهم حركة الوهابية بجزيرة العرب أثناء القرن الثامن عشر الذين حاربوا البدع وأزالوها من البلاد المقدسة، وتعاليم محمد بن عبد الوهاب مؤسس هذه الحركة متفقة تماماً مع تعاليم أبن تيمية، فقد كان يدعو إلى التمسك بالدين في الشكل الذي كان عليه في حياة النبي وصحابته، وكان غرضه الرجوع إلى الإسلام، في الصدر الأول، وذلك إنما يتم بالرجوع إلى الكتاب والسنة وحدهما. وإذا ما أتهمه خصومه بأنه مخالف للإجماع حدد سلطان الإجماع وحصره مخالفاً في ذلك جمهور أهل السنة. ولا يخفى أن هذه البدع التي حاربها بشدة وعدها كفراً كانت في الواقع مقبولة بإجماع المسلمين.

وقد بلغت درجة الكفاح أشدها عندما أتهم أبن تيمية والوهابيون بأنهم خارجون عن

الدين وعلى جماعة المسلمين وتعاليم أهل السنة السائدة. ولكن الوهابيين وقفوا في مكانهم ثابتين متمسكين بمذهب الإمام أحمد. وكما أن مرّ الأيام قد خفف من الحكم على أبن تيمية، فكذلك
أخذ كثير من المسلمين بعد زوال الخطر الوهابي يغيرون من رأيهم في هؤلاء العرب المهاجمين.
ولم تنته آثار حركة الوهابيين بسقوطهم السياسي وهدم عاصمتهم الرياض سنة 1818، وذلك أن تعاليمهم وآراءهم بقيت منتشرة في الجزيرة العربية. وفي سنة 1924 ضموا إليهم بلاد العرب وأصبح قائدهم الملك عبد العزيز بن سعود الزعيم المعترف به في البلاد المقدسة.
وإذا كان رجوعهم لم يقابل بشدة كما قوبل به منذ مائة عام، وإذا كانوا لم يرفضوا بقوة إزاء تيارات التجديد الحديث، فإنهم مع ذلك لم يتركوا تعاليمهم، وأصبح القول بخروجهم عن الدين غير موجود الآن عند جمهور أهل السنة.
وأهم من هذا كله في هذه الكلمة الإجمالية، هو أن هذه الحركة الوهابية أخذت تدب في أثناء القرن التاسع عشر إلى بلاد إسلامية أخرى، وعلى الأخص بلاد الهند ومصر، ومن بين كل هذا قد أحدثت دعوتهم بالرجوع إلى الإسلام الأصلي الخالص وترك البدع التي حدثت بعد ذلك، والبعد عن تعقيدات الفقهاء ومماحكاتهم، قد أحدثت هذه الدعوة تذكيراً للمسلمين ومفكريهم الذين لم يريدوا معاداة أي حركة إصلاحية في الإسلام.
ومن هنا نستطيع أن نقرر أن الحركة الوهابية كان لها أهمية كبيرة بعيدة الأثر في هذه الحركات الإصلاحية الإسلامية التي ظهرت أخيراً، وإن يكن الاتصال بينها وبين هذه الحركات غير مباشر وغير واضح كل الوضوح. ومن هنا يجب أن نحسب لها حسابها في الكلام على هذه الحركات التي سنلم بها بعد إن شاء الله.

علي حسن عبد القادر

إلى أرض النبوة!

(وصف وتأريخ لرحلة الوفد السوري إلى الحجاز ربيع 1935
لفتح طريق الحج البري للسيارات)

للأستاذ علي الطنطاوي

- 2 -

تركنا الموكب، وقد وقف في ظاهر دمشق، حول قبة (العسالي)، وقد ملأت وفود المودعين تلك الساحة على رحبها، وقام الخطباء يخطبون، وقُمت أشكرهم باسم الراحلين وأودعهم، وأشرح الغرض من هذه الرحلة. وكانت الشمس قد جنحت إلى الغيب، فزاد شحوبها الموقف رهبة وجلالاً، وأقبل الناس علينا يودعوننا؛ فلم تكن ترى إلا عناقاً أو تقبيلاً وإخلاصاً متجلياً، وحباً وعطفاً، فلم يبق من الناس من لم تسل عبراته. . .
وإن أنس لا أنس مشهد لحفيد زكي آغا سكر من وجوه الميدانيين، ورفيقنا في سفرنا، وقد تعلق به لا يريد فراقه، ويبكي فيبكينا؛ فما كان أبلغ من بكاء الطفل الحفيد، إلا بكاء الجد الشيخ، وما تركه حتى انتزعوه منه انتزاعاً، وإن صوته ليرن في آذاننا ينادي: جدي جدي.
وغادرنا دمشق، وكان الليل قد أسدل ستائره على الكون، وما زلنا ننأى عن هذه الجموع الهاتفة لنا، الداعية بالتوفيق والنجاح، ونبتعد عن هذا الحشد، حتى أبتلع صوته الليل وطواه سكونه، وغلب سواد الجمع في سواده الشامل، ولم يبق من حولنا إلا السهول الفيح. . .
وكان صمت بليغ، فلم ينبس واحد منا، واستسلمنا جميعاً إلى عواطفنا وأحلامنا، وقد هاجها موقف الوداع، وأثارها هذا المستقبل المجهول الذي نقدم عليه، وهذه الصحراء المرعبة التي نسعى إليها، وهذه البقاع المقدسة التي نقصدها. وكنا نتلفت بين الفينة والفينة، فنملأ العين بمرأى أضواء (المهاجرين)، وهي تسطع على نفوسنا المظلمة، كما تسطع النجوم الهادية في الليلة الداجية، على الضال الحائر؛ ولم نكن ندري، أنعود إليها فنراها كرة أخرى، أم ستأكلنا الصحراء فيكون ذلك آخر العهد بها؟ وكنا نحدق فيها لننقش صورتها في نفوسنا، حتى نأنس بها في ليالي البعاد، ونذكر فيها آخر آية من آيات دمشق (البلد الحبيب).

وكانت السيارات تسير متعاقبة يكاد ينوء بها ثقل ما تحمل وكانت تحمل فوق طعامنا والشراب الفرش والخيام، والقدور والطباق، ومائتي (صفيحة) بنزين، وعدداً هائلاً من آلات السيارة وأدواتها، وراديو (رادْ) وغير ذلك مما نسيته الآن، فكنا نعوّذها بالله، ونرجو لها التوفيق، وليس فينا من يتحدث أو يتكلم إلا قائلاً كلمة، وسامعاً جواباً، ثم يرجع الصمت حتى طلعت علينا أضواء أذرعات (درعاً) قصبة حوران. . .

بلغنا أذرعات (درعاً) عقب العشاء. فلبثنا فيها ريثما نظروا في جواز سفرنا وريثما صلينا. وأذرعات اليوم بليدة جميلة ذات قسمين - قسم جديد منظم بني على المحطة، وقسم قديم ينأى عنه قليلاً - وفيها سوق كبيرة، وأبنية جديدة، وهي قديمة ذكرتها العرب في أشعارها لأنها - كما قال ياقوت - لم تزل من بلادها في الإسلام وقبله، وأنشد لبعض الأعراب:

ألا أيها البرق الذي بات يرتقي ... ويجلو دجى الظلماء ذكرتني نجدا
وهيجتني من أذرعات وما أرى ... بنجد على ذي حاجة مدنف بعدا

وذكرها أمرؤ القيس، وعد ياقوت جماعة من العلماء خرجوا منها، وليس فيها الآن من العلماء أحد (فيما نعلم) يذكر. وعالم حوران وفقيهها اليوم الشيخ التقي الصالح الشيخ الطيبي الدمشقي وهو فوق التسعين، وهو بقية السلف الصالح - وفارقنا أذرعات نسير شرقاً إلى بصرى بعدما هتفنا بآل المقداد أعيان وجوهها ننبئهم بوصولنا، فلم نبلغ نصف الطريق إلى بصرى حتى رأينا أضواء كثيرة ومصابيح تجيء وتروح، فعجبنا أن يكون في البرية مثلها، ودنونا منها فإذا هي أضواء المستقبلين الكرام، هجروا مضاجعهم وأقبلوا يتلقوننا من نصف الطريق. فحيونا ومشوا بين أيدينا يهزجون الأهازيج البدوية حتى بلغنا بصرى.

ولبصرى ذكر في التاريخ مستفيض، ومجد مؤثل، وفيها كثير من آثار الماضي، ولم أكن قد دخلتها من قبل، فما أستطعه رؤيتها في الظلام، ولم ألمح من آثارها إلا صفين من الأعمدة الضخمة، قائمين عند مدخل البلد، على طرفي الطريق الذي سلكناه إلى منزل آل المقداد حيث رأينا الكرم الذي لا كرم بعده.

وبصرى مذكورة في الشعر قديماً وحديثاً، ولكنهم لم يذكروها إلا ليذكروا نجداً، ويعلموا شوقهم إليها، وكأنهم لم يروا فيها ولا في الغوطة ولا في وادي بردى ما ينسيهم تلال نجد ورماله، وذلك من حكمة الله فإنه لولا حب الوطن ما سكن البلد القفار! فمن قولهم فيها:

أيا رفقة من آل بصرى تحملوا ... رسالتنا لقيت من رفقة رشدا
إذا ما وصلتم سالمين فبلغوا ... تحية من قد ظن ألا يرى نجدا
وقولا له ليس الضلال أجازنا ... ولكننا جزنا لنلقاكم عمدا

ولبثنا فيها إلى موهن من الليل ثم خرجنا يصحبنا دليل من أهلها ليسير بنا إلى (قريات الملح) القرية التابعة لأبن سعود من غير أن نمر على المخفر الإنكليزي في (الأزرق) لأننا لم نستأذن من القنصل الإنكليزي لنمر على بلد من بلادنا. . . وكان أسم الدليل الحاج نمر، وقد زعموه خبيراً بالطرقات، عارفاً بالأرض، خرْيتاً حاذقاً، فتوكلنا على الله، ثم على هذا الدليل الحاذق!

سرنا إلى الجنوب، نخبط في ظلام الليل، لا نتبع جادة مسلوكة، ولا طريقاً واضحاً، يقودنا الحاج نمر. ويا ليت أسمه الحاج غراب، فقد أضلنا، كما (قد ضل من كانت الغربان تهديه). . . حتى بلغنا قرية كبيرة أسمها (أم الجمال) فيها بنيان كثير، وأزقة وطرقات، وفيها برج عال قديم، ولكنها مهجورة منذ قرون. . . ليس فيها ديّار ولا نافخ نار، وهي موحشة في رأد الضحى فكيف بها في الليلة الظلماء؟ فما كان من صاحبنا الحاج غراب إلا أن دير به وغثت نفسه وجعل من الدوار والغثيان يقيئ وفقد رشده، فصبرنا عليه حتى أفاق فسألناه عن أمره، فإذا هو لم يركب في عمره سيارة قط ولذلك دار رأسه، فعالجناه حتى بريء فلما رأى الطريق مختلطاً عليه، فأمرنا بالوقوف في هذه البليدة الموحشة التي لا يسكنها إلا الجن. . . وذهب في سيارة يكشف لنا الطريق، فانتظرناه إلى الفجر فلم يرجع، وكانت ليلة ما أذكر أني رأيت مثلها برداً، ونحن في العراء فأحسست والله كأن عظامي ترتجف من البرد، وبلغ منا النعاس وما نطيق أن ننام، وأين وكيف ننام؟

فلما طلع النهار، وتعارفت الوجوه، رأينا الحاج غراب على بعد خمسين متراً منا، وإذا المحترم ينتظر أن نأتي إليه. . .
وأردنا على الإسراع قبل أن يبصرنا بعض أعوان المستر كلوب، ملك البادية المسمى (أبو حنيك) لأن رصاصة كانت قد أصابت حنكه فتركت فيه أثراً. وسألناه، هل يعرف الطريق أم يخبط بنا خبط أعشى، فعجب من سؤالنا وأكد لنا أنه يعرف البلاد كلها شبراً شبراً، وأنه
سلك هذه الطرق بعدد شعر رأسه، فاطمأننا وسرنا معه، وكانت الشمس قد طلعت، وانقضت أول ليلة من ليالي الرحلة.
فاطمأننا وسرنا معه، فصعد بنا جبلاً وعراً فيه أحجار وحفر، فسرنا فيه ساعة كاملة وهو لا يزداد إلا وعورة، فقلنا له: ويحك يا هذا، إلى أين تمشي بنا؟ قال: إن علينا أن نجاوز هذه الوعرة، كي نبلغ قريات الملح من غير طريق الأزرق فقلت له: ويحك، هذا والله البلاء الأزرق والموت الأحمر. وأنه ليوشك إذا أوغلنا في هذه الوعور ألا نخرج منها، فعد بنا ولو إلى الأزرق، فماذا في الأزرق إلا الجزاء النقدي؟
واختلفت الآراء وتجادل القوم، ثم اتفقوا على العودة، فعاد بنا الدليل من حيث جاء، حتى إذا هبطنا الجبل سار بنا في طريق معبدة فسرنا فيها، ثم سرنا وهي لا تنتهي حتى كاد النهار يزول، ثم وجدنا مركزاً من مراكز البترول فيه ضابط إنكليزي، فسألناه: إلى أين تؤدي هذه الطريق؟ فقال: إلى العراق، وقد اقتربتم من الحدود.
فوثب أصحابنا على الدليل يوسعونه سباً وشتماً على أن طوَّح بهم حتى كاد يهلكهم بجهله، وهو صابر ساكت لا ينطق بحرف، فتركه القوم وائتمروا بينهم فقال قائل منهم: أني لأعرف طريقاً في الحرة يصل بنا إلى القريات، وقد جزته فوجدته سهلاً. فقالوا له: سر بنا إليه، فمال بهم ذات اليمين، ثم دار دورة فإذا نحن في حرة من أصعب الحرار واسعة ممتدة الجوانب ملتوية مفروشة بحجارة سوداء لماعة، كأنما قد صبَّ عليها الزيت، حادة الجوانب كأنها السكاكين، فلما بلغنا وسط الحرة رأينا الجادة متروكة مهملة قد تخربت وغطتها الحجارة، فكنا ننزل من السيارة فنزيح الأحجار من طريقها لنمشي؛ وكنا إذا بلغنا هضبة لم تقوَّ السيارة على تسنمها نزلنا فربطنا السيارات بالحبال فجررناها بأكتافنا واحدة واحدة كما تجر الدابة الحرون، واستمر بنا ذلك إلى الغروب، وامتدت بنا هذه الطريق تسعين كيلاً رأينا فيها الموت مما تعبنا، ولم نقف إلا ساعة أكلنا فيها وصلّينا، فلما أن غابت الشمس يّسر الله لنا الخروج من هذه الحرة؛ فلما خرجنا منها إذا نحن حيال قصر الأزرق ليس بيننا وبينه إلا أربعة أكيال أو أقل منها؛ وكان إلى يسارنا أدغال وعرة فيها نبت من نبت الصحراء، فلم نجد بدّاً من دخولها، فدخلناها مكرهين تقوم بنا السيارة وتقعد وتميل وتعتدل حتى أظلم الليل، وبلغنا قاعاً مستوياً فوقفنا وأنخنا للمبيت؛ وكنا حين انتهينا إلى الأزرق بعد
كل هذا الأذى كله، كالذي (فرّ من الموت وفي الموت وقع)!
(لها بقايا)
علي الطنطاوي
إلى أين. . .؟
للأستاذ محمود محمد شاكر
جلست وصاحبي تحت جنح من الليل كأنه باز أسود قد طوى أفقاً من السماء في كهف من جناحه. وطمس هذا الليل الدامس ذلك الشعاع الذي لا يزال يبرق به وجه صاحبي كلما سكن ظاهره واطمأن. . . وبقيت نفسه من وراء ذلك السكون الوديع تتوقد بأفكارها المشتعلة، وترسل لهيبها يتلألأ على محياه ويتموج. وكان إحساسنا بمعنى الغارة الجوية، يثير النفس ثم يجثم عليها متثاقلاً بوطأته، فلا هو يجعلنا نثور فيخف ما نجد من ثقلته، ولا هو يتركنا نهدأ.
وبقي صاحبي صامتاً لا يتكلم، ولكني كنت أكاد أجد الألفاظ والمعاني وهي تعترك في داخله وتتشاجر. أما إني ما رأيته - أو قل ما أحسسته - كاليوم. لقد كان كالعاصفة من اللهيب مكفوفة في محيطها، تدور وتتراكض، وكان هو هذا المحيط. لقد رحمته حتى كدت مرات أقوم إليه أضع يدي على رأسه، أقول: ذلك مما يخفض عنه بعض ما يغتلي فيه من سعير الفكر. ولكني كنت أهاب أن أشعره أني قد نفذت إلى بعض أسراره التي يريد كتمانها. فسكت معه ساعة أحتال في خواطري لفض هذه الإغلاق التي

يضربها على ضمير نفسه، فلست أشك أن بعض الحديث إذا أشتكى خفف وأراح.
لم تكن لي حيلة معه، ولكن طول الصمت بيني وبينه في ظل هذا الليل الأسود كان هو مفتاح هذه الأقفال الكثيرة. وكان الحجاب الذي أسدله دجى الليل هو الحيلة التي جعلته يقلق ويتململ في مجلسه يريد أن يستكتمني وهذا الليل سرّاً من القدر.
ثم سكت سكتة ظننت معها أن أنفاسه قد أبت عليه أن يتنفس بها. لقد كان يجاهد نفسه: كان هو يأبى أن يتكلم، وكان الذي يجده في صدره من الضيق يأبى عليه إلا أن يتكلم. كان نزاعاً هائلاً بين قوتين متحاربتين صارمتين عنيدتين متكافئتين؛ لقد أثبته ذلك حتى كاد يتمزق. أني لأحس بل أسمع صوت التمزيق الذي يحدثه في نفسه هذا الصراع المخيف الرائع بين إلحاح هاتين القوتين في تنازعهما. ومضت الدقائق وأنا أعدها ساعات من عجلة النفس إلى تخفيف العذاب عن هذا الصديق البائس المحطم، والذي يأبى عليه عناده إلا أن يتجلد.
ولكنه ما لبث أن شق كثافة هذا الصمت المبهم بكلمة ضربت فيه:
لست أدري!! لست أدري!!
لقد سمعت لكلماته في أذني صليلاً كما يصل الحجر الصلد على ضربة معول من الحديد الصلب. لقد بغتني بصليلها حتى نسيت أفكاري فيه منذ أول الليل. ولكني سرعان ما اجتمعت لحديثه وأردت أن أحتال للتخفيف عنه ما استطعت، فقلت: وكأني أعلم خبئ ما يشير إليه:
كلنا ليس يدري. وهذه هي الحياة. إنك لا تستطيع أن تعرف الحقيقة حتى تخوض إليها الباطل خوضاً. إن الشك هو أعظم أعمال النفس الإنسانية، فإذا ما أبتُلى به الإنسان فهو بين نهايتين: بين أن يهتدي فيلحق بالذروة فيستوي على عرش من عروش الحكمة، وبين أن يضل ويتزايل فيتدهْدى على هذه الصخور الفكرية العاتية فيتحطم. وأيُّ ذلك كان، فالمسألة كلها قدر محتوم يا صديقي! رُفعت الأقلام وجفَّت الكتب.
لقد رأيت شرارتين تتطايران من عينيه في جوف هذا الظلام، ولكأني اقتدحت بكلماتي من النار التي تكمن في تلك الصخرة الفكرية الململمة التي انطوت عليها ضلوع هذا الصديق المسكين. . .
ثم رأيته يرتد مرة أخرى إلى صمته وصراعه، ولكني كنت أشعر به وهو يلين ويتخشع من كل ناحية. لقد كان هذا الصديق قاسياً عنيفاً، ولكنه كان رقيقاً أيضاً. وكان صبوراً، ولكنه ربما استكان للجزع. وكان مستوحشاً آبداً، ولكنه ربما ألف وطاوع وانقاد، وكأنه لم يجمح مرة. وكان راسخاً شامخاً وطيد الإيمان، ولكني كنت أنفذ إليه أحياناً فأجد الزلزلة التي في قلبه قد جعلته يتزعزع ويتطامن ويضطرب بعضه في بعض اضطراب الموج في تياره:
لست أدري! ولكني أريد أن أحدثك، أريد أن أنبذ إليك من القول لتشركني في بعض الفكر. . .
ثم سكت وسكن، ولكنه أقبل علي وقد جمع أطراف نفسه المبعثرة، يقول:
كانا صغيرين، وكانت أيامهما الصغيرة لا تدرك معنى النظرات التي تلتقي فتتعانق، . . . فتتعقد عقدة لا تحل. وهكذا نسيهما الزمن في معبده الآمن، ثم انتبه يوماً فزفر بينهما زفرة
واحدة فتفرقا. لم يدركا يومئذ شيئاً من معاني الفراق المهلكة التي تمحق النفس بالتأمل واللهفة والحنين، بل نظرا ثم تودعا ثم افترقا ثم نسيا. أو هكذا كان، ولكنه لم يكن في الحقيقة نسياناً، بل كان عملاً من أعمال القدر الغامضة، كان تعبئة للأحداث العظيمة التي تتهيأ فتصنع النفس الإنسانية صنعة جديدة لقد عرفت ذلك فيما بعد.
وتسحبت حواشي الحياة بينهما، حتى رقت أيامهما الأولى ثم جعلت ترق حتى استحارت أحلاماً من الذكرى المبهمة ترف على القلب رفيف النسمات: لا ترى بل تحس، ولا تمسك ولكنها تلقي عطرها في القلب وتمضي. نعم لقد نامت العواطف الناضرة الصغيرة في مهد النسيان، ولكنها كانت تنمو أيضاً في جو هذا المهد
ومشى الزمن بينهما يقيم سدوداً وأسواراً من السنين وأحداثها، وكما كبرا وامتدا من أيام العمر، كبرت السماء التي تظلهما وترامت آفاقها، واستحالت الأيام الصغيرة الأولى أشباحاً ضامرة لا تكاد تبين من دقتها وخفائها
ثم فجئهما القدر فتلاقيا بعد دهر طويل كما يتلاقى نجمان في ظلمة الليل، يتناظران

لمحة وشعاعاً من بعيد لبعيد. هكذا عرفت.
لقد كان هو يحس في بعض أيامه قبل ذلك اللقاء، أن الفلك قد دار دورته في القدر، وأن القوة المسخرة قد قذفت به في نظام من الجذب جديد، فلم يكد حتى لمح له شعاعها من بعيد يليح إليه بأضوائه وكأنما يقول: أقبل. . . هلم إلي. . . هأنذا. . . هأنذا!
ولم يلبث أن أتم هذا الفلك دورته، فإذا هما يتناسمان في جو عطر تنفح من أرادنه أنفاس الأيام الصغيرة الأولى. . . أيام الطفولة التي تنمو فيها عواطف القلب وتتفتح، كما تنمو الزهرة في أكمامها تحت السحر في مهد الفجر بين روح وشعاع وندى واجتمعا. . . فإذا هي غادة مضيئة تزهر. لكأن الزمن اختطفها كل هذا الدهر وتسلل بها في بعض مصانعه العجيبة، وجعل يجهد جهده بأنامله النابغة الدقيقة، فهو يجلوها ويصقلها حتى إذا فرغ من فنه الذي اختفى لها به، ردها إليه ينبوعاً من النور الضاحك المرح يترقرق لعينيه ممثلاً في صورتها. . . لقد شبت الصغيرة، ولكن شبابها كان رقة وحناناً في أنوثتها، واستوت فكان استواؤها دقة في فن من جمالها، ونمت نمواً وضاحاً، وكأنما كان يغذوها نور الكواكب ويرضعها روح الزهر. . . لقد وجدها وهي تضوع وتتلألأ من جميع
نواحيها. . . لقد كان يخيل إليه أن النسيم من حولها يطوف بها متعبداً خاشعاً ثم يسعى إليه حاملاً نفحة من نفحات الجنة. فكان يحس دائماً أن جوها ينتقل إليه فينفذ إلى قلبه، فيقعد هناك يتمتم يحدثه بأخبارها أو يصف له منها ما يوعب هذا القلب الحزين افتتاناً ولوعة وحنيناً
لقد شبت الصغيرة. . .، فنضت عنها كل مطارف الطفولة، وتجلت جلوة العروس في زينة من الصبى والشباب. لقد خلعت كل قديمها، ولكن شيئاً واحداً بقي كما هو، لا بل بقي أقوى مما كان وأصفى. تلك هي روحها، الروح القوية الآسرة المتسلطة. تغير كل شيء إلا عيونها التي تشف عن هذه الروح التي لا تتغير. فالنظرة الباسمة الخاطفة التي كانت تخضع بها تمرد ذلك الصبي العارم الصغير، هي هي النظرة الباسمة الخاطفة التي هجمت منه على الرجل فأضاء وميضها له الطريق، وحبسته بأمرها وسلطانها على هذا الطريق نفسه وفي وقت معاً. . .
ثم نحى صاحبي بصره إلى قطع من الليل جاثم من عن يمينه وأطال النظر في جوفه. ثم خيل إلي أنه قد جعل يصغي إلى همس الليل، ويتسمع وسوسته الخافتة إلى رمال الصحراء، وبقي زماناً لا يكاد يتحرك، ثم انتفض في مكانه انتفاضة خفيفة - ما رأيتها ولكن رعدتها جرت في دمي وأوصالي قشعريرة عرفتها
ثم عاد ألي يتنهد ويقول:
هكذا هي. . . أو هكذا كانت. . . أما هو. . .
وارتعشت الكلمات في نبراته وعلى شفتيه فأمسك وسكت، وكأنه عزم ألا يتم ما بدأ من حديثه عن الرجل. فخفت أن ينقطع عن دون خبره، وأردت أن استفزه من حيث أعلم كيف أستنبط نبع حديثه، فعجلت إليه أقول:
أما هو - يا صاحبي! - فقد كان مجنوناً تنشئ له أعصابه المريضة الهالكة معانيها التي لا حقيقة لها في حقيقتها هي، و. .
فانقض علي بصوته يقول:
كلا، كلا! لا تقل هذا. ليس الأمر كذلك لا تعجل عليه إنك لا تعرفه، ولو عرفته فما أظنك تحسن فهم حياته التي يعايش بها الناس. سأحدثك عنه، لقد علمت أنك تريد أن تحملني على
ذلك، ولا بأس إذن. لا أقول لك إني فهمته، واستطعت أن أكشف لنفسي عن سر طبيعته، كلا! بل أقول لك إني لأحس بكل ما يعتلج في قلبه من آلامه، وكأنها عندي هي كل آلامي
إنه رجل قد امتلأ حكمة من طول ما جرب، ومن عنف ما لقي من الأحداث التي نقضت بناء حياته مرة بعد مرة. نعم إنه لملء رجولته تجربة، ولكن. . . ولكني سأصفه لك على كل حال. سأحاول أن أعبر لك عن حقيقة معرفتي به. نعم! هو إنسان غامض مبهم محير، إذا صحبته رأيت من نقائضه التي تجتمع لك من أعماله وظواهره، ما يلتوي بفكرك فيه من هنا إلى هناك، حتى تجد وكأنما أنت تمشي منه في غمض من الأرض منكر قد درست صواه وعفت رسومه وجهلت معالمه. لا تهتدي فيه أبداً إلى

!!شيء تستطيع به أن تقول: هذا هو!! هذه هي الفكرة. . .، هذا هو الطريق
سكت صاحبي قليلاً وقد طرح فكره في مذاهبه ثم عاد يقول: فلنعد إلى حديثنا إذن، لقد حملتني على أن أذهب بك بعيداً. . . كذلك كانت هي كما وصفتها لك بل أروع مما وصفتها، حين التقيا على غير موعد يتوقعه أحدهما. . . أما هو فكان يومئذ رجلاً ضرباً متوقداً ثائراً عنيفاً، لا يزال يتمزع من جميع نواحيه كأن في تجاليد شخصه روح وحش شارد لا يألف الحياة ولا هي تألفه. كان فكرة شامخة عاتية عضلة تأبى أن تتهضم لأحد أو تستذل. كان كالبركان في عنفوان فورته تتقلع به صواعقه وزلازله. وهكذا كنت أبداً أعرفه، ولكنه كان مع كل ذلك يحب أن ينطوي على هذه العواصف التي تتقصف برعودها بين جنبيه. ومن أجل ذلك كنت أجد في عينيه أحياناً بارقاً ساطعاً يتدارك ويتلهب، حتى يجعل نظراته كأنها سياط من الأشعة يتضرم اللهب على عذباتها. . لا تعجب، فأشهد لقد خيل لي مراراً أن نظرته هذه إنما تكوي من يتعرض لها أو من يجلده بها، حتى لأخشى أن تكون تترك فيه من آثارها أخاديد تنتفض كسلع النار على الجسد
لا تعجل، ولا تشطط. لقد تعلم أنه كان - مع كل هذا الذي وصفت لك إنساناً وديعاً رقيقاً. كان قلبه خلاصة صافية ممثلة من الحنان والشفقة. ولكنه أصيب بأحداث كثيرة جعلته ظنوناً حزيناً، فهو لذلك يضن بما في قلبه أن يطلع على حقيقته الكاملة أحد من الناس. لم أر - فيمن رأيت من الناس - من هو أبعد منه مذهباً في الاحتراس والحذر، ومع ذلك أيضاً، فلو أنك رأيته في بعض ساعاته لظننت أنه رجل غمر يختدعه عن نفسه كل أحد،
ولكنه ليس كذلك. نعم، لقد كان هشا أحياناً بين يدي من يتناوله. . . فإذا أخذ بالاعتناف والقسر، انقلب الذي فيه ضارباً لا يطيق ولا يطاق
. . .هكذا كان أول ما تلاقيا
ثم صمت صاحبي، وخيل إلي أنه يضحك. لقد كان يخافت من ضحكه، كأنما هو يسخر، ورجع إلي بعد قليل فواصل حديثه: كيف قلت في نعته؟ كان مجنوناً تنشئ له أعصابه المريضة الهالكة معانيها التي لا حقيقة لها في حقيقتها هي. . .!! نعم، ربما كان ذلك صحيحاً من بعض وجوهه، ولكني على يقين من أنك لا تكاد تعرف وجه الحق في تأويل هذا الوصف. لا بأس ومع ذلك، فأي هذا الناس ليس مجنوناً على الحقيقة من بعض نواحيه؟ إنك لو جهدت فتتبعت تاريخ الإنسانية كله لم يخلص لك من أصحاب العقل الكامل إلا أفذاذ قلائل. ومع ذلك، فليس أحد من هؤلاء الأفذاذ قد نجا من قذف الناس إياه بالجنون. ألا فخبرني أي الأنبياء - وهم فضائل الإنسانية الكاملة - بريء أن يقول فيه أهله وعشيرته: (إن هو إلا رجل به جنة) أو (ساحر) أو (مجنون)؟
إن من أعظم حقائق الحياة الدنيا أن العقل لا يستطيع أن يدرك حقيقة العقل، أي أنه لا يستطيع أن يدرك حقيقة نفسه! و. . .
وصدع السكون صوت صفير الغارة الجوية، فانتزع صاحبي ثم قال:
- أليس هذا هو صوت جنون سكان العالم؟ أليس كذلك؟
(لها تتمة)

محمود محمد شاكر

النقابات الإسلامية

للأستاذ برنارد لويس

ترجمة الأستاذ عبد العزيز الدوري

(تتمة)

يأتي مصدرنا الثاني من النصف الثاني للقرن التاسع عشر. ففي سنة 1884م قدم إلياس قدسي (وهو سوري) إلى مؤتمر المستشرقين الدولي نتائج بحثه في السنة الفائتة عن طوائف (دمشق) ويجب اعتبار هذا البحث مصدراً تاريخياً وإن كان حديث العهد، لأن معظم ما يصفه قد اختفى دون أن يدرس ثانية.

يخبرنا قدسي أنه كان على رأس جميع طوائف المدينة (شيخ المشايخ) وكان هذا المنصب وراثياً في عائلة خاصة، ولا يمكن انتخابه أو إقالته أو استبداله بشخص آخر. وكان دوره قابلاً للانتهاء إما بوفاته أو باستقالته (ويكون ذلك أحياناً بتأثير السلطان) وقد كان في زمن أقدم الحاكم الأعلى في جميع شؤون الطوائف. ويحدث المحدثون أن

سلطته (أي شيخ المشايخ) كانت في زمن ما واسعة جداً تمتد حتى إلى حق الحكم بالموت. وعلى كل فقد احتفظ لزمن طويل بحق سجن أو تقييد رجال الحرفة أو ضربهم بالسياط. وكان يعيش على وقف وراثي. وقد أنقصت سلطته إلى حد كبير بعد (التنظيمات) أي الإصلاحات العثمانية في القرن التاسع عشر وأصبح مركزه رتبة شرف فقط. وكان شيخ المشايخ في زمن بحث قدسي عالماً كبيراً ولكنه يجهل تماماً جميع الحرف. وكان عمله الوحيد المصادقة على تعيين رؤساء الطوائف الذين يعينهم الأساتذة

ويظهر أن رتبة شيخ المشايخ كانت مختصة بدمشق فقط إذ لا يوجد لها أثر في أية مدينة أخرى. لم يكن باستطاعة شيخ المشايخ حضور جميع اجتماعات الطوائف شخصياً. لذلك كان يرسل موظفاً خاصاً يسمى (النقيب) في حالة وجود اجتماع لترقية بعض الأعضاء إلى صناع أو أساتذة أو لأي شيء يخص المجموع، وعندما كانت وظيفة شيخ المشايخ مهمة وذات نفوذ كان له عدة نقباء. لكن قدسي وجد نقيباً واحداً (زمن بحثه) له معرفة بالحرف وبشؤون الطوائف وهي الصفة التي كانت تنقص الشيخ.

ويلي شيخ المشايخ - شيخ الحرفة - ينتخبه أكبر أعضاء النقابة من بين أبرع ماهري الحرفة، ولم تكن تتبع أية قاعدة في الأولوية سواء أكان ذلك من جهة السن أم طول زمن العضوية فقد يكون الشيخ، وقد كان كذلك في كثير من الحالات، شاباً حدثاً، بل كان يطلب فيه أن يكون فاضل الأخلاق، عاملاً ماهراً محترماً بين رجال الطائفة قادراً على تمثيلهم أمام السلطان. كان منصب الشيخ وراثياً في بعض الطوائف، ولكنه خاضع دائماً لمصادقة المنتجين. ويعين الشيخ لكبر سنه، ويمكن استبداله إن وجد أنه غير جدير بمنصبه. وكانت واجباته: دعوة الاجتماعات وترأسها، وملاحظة المحافظة على مستوى الطائفة، ومعاقبة مخالفي قواعد الحرفة، وتنظيم شئون العمل (وكان هذا يفوض إلى الأساتذة)، والإجازة إلى درجة صانع أو أستاذ، وأن يكون رأس الطائفة المسئول في كل العلاقات مع الحكومة. أما فيما يخص انتخاب الشيخ فقد لاحظ قدسي أنه لم يكن ينتخب بالأكثرية، فعند خلو كرسي الرئاسة يجتمع الأساتذة المتقدمون، ويتناقشون في المرشحين القابلين للانتخاب فإن لم يتفقوا على شيء يعين شيخ المشايخ شيخاً على كل حال. ثم يثبت شيخ المشايخ الشيخ الجديد في حفلة خاصة. كان للشيخ مساعد يسمى شاويش، وعلاقته بالشيخ كعلاقة النقيب بشيخ المشايخ مع هذا الفرق الهام وهو أنه بينما كان النقيب يعين بواسطة شيخ المشايخ كان الشاويش لا يعين إلا بموافقة المنتجين. ولم تكن للشاويش سلطة خاصة. بل كان ممثلاً، وضابط تنفيذ لشيخ الحرفة. ويخبرنا قدسي أن منصب شاويش قديم جداً ولكن الاسم حديث

يشتغل المبتدئ من غير أجرة لعدة سنوات حتى يصل إلى سن الرجولة، وتصبح له مهارة في الحرفة (على كل كان البعض ينال أجراً أسبوعياً زهيداً حسب ما يستحق). ثم يصبح بعد ذلك صانعاً، فإذا لم يتقن حرفته ويتقدم إلى أستاذ بقيت أجوره واطئة ومنع من الاشتغال لحسابه الخاص

كان الصناع في زمن قدسي يشكلون هيكل الطائفة، وكانوا أكثرية عظيمة. ويخبرنا أنهم كانوا حافظي سر الطائفة وناقلي أسرارها ما يليهم

ثم يمضي قدسي في وصف مطول لحفلات الإجازة. يدخل في ذلك اليمين بالمحافظة على أسرار الطائفة والصنع الجيد، وكذا الرسوم والقوانين المتقنة التي تنظم كل مظهر من

مظاهر حياة رجال الطائفة مع كل العلاقات والإشارات المعمول بها. وأخيراً يشير قدسي إلى التشابه بين هذه الحركة وبين الماسونية الحرة في أوربا متسائلاً عما إذا كانت هناك علاقة بين الاثنين

يكفي ذكر الملاحظات عن الطوائف المصرية حيال هذا الوقت لنتبين بعض الاختلاف فشيخ المشايخ غير معروف هنا. وإنما نجد الطوائف تحت رئيس البوليس. . . كان لرئيس الطائفة (ويدعى هنا شيخ الطائفة) سلطة نظارة العمال وتسوية الخلافات فيما يتعلق بمهنهم ومعاقبة المخطئين وكان يدعو مجلساً من المختارين (نواب رئيس الطائفة) عند الضروريات يشكل محكمة قضاء لرجال الطائفة. ولم تكن توجد درجة صانع، بل كان المبتدئ عند إجازته يرفع إلى منزل اسطي أو أستاذ رأساً. وكان يطلب

منه صنع شيء نموذجي
ويهمنا بصورة خاصة معرفة أنه كان في طوائف القاهرة نوع من أنواع التأمين ضد البطالة والمرض يتعاون في ذلك جميع الأعضاء
لم تستطع كل هذه التشكيلات التي دامت دون تغير تقريباً حتى القرن التاسع عشر، وأحياناً حتى القرن العشرين مقاومة هزة الفتح الأوربي، ففي كل محاولة في البلاد الإسلامية أخذت طرق الإنتاج القديمة تفسح المجال لطرق جديدة، وهكذا بدأت الطوائف تنحل. وتحولت هذه التشكيلات في أغلب الأحيان إلى اتحادات النوع الأوربي كما اشتركت بعض نقابات تونسية وسورية، ومن الهند الصينية الهولندية في اتحادات العمال الدولية، وهناك نقابات أخرى في دور انتقالي
بقي علينا أن نذكر ناحية غريبة من حياة الطوائف الإسلامية (أي ما يعرف بالطوائف الوضعية)، فمن أزمان متقدمة نجد في البلاد الإسلامية طوائف منظمة كاملة في مراسيمها ونظمها وتقاليدها من نوع آخر من الحرف كاللصوص وقطاع الطرق فكانت (لبني ساسان) أو (نهابي القاهرة) المنظمين سطوة عظيمة لمدة طويلة. وفي دور الفوضى في عصر الخليفة العباسي المقتفي 1106 - 1136م سيطرت طوائف اللصوص في بغداد على هذه المدينة وهذه الطوائف التي لم تكن لها دون شك أية علاقة بطوائف الصناع الحقيقية ساعدت على حط سمعة هذه الطوائف؛ وكانت يتخذها أعداء الطوائف وسائل للتهجم عليها
ما هي النتائج العامة التي تستخلص من هذا العرض للطوائف الإسلامية؟ يظهر لي أننا نستطيع أن نستخلص أربع خصائص تميز تنظيمات النقابات الإسلامية من تنظيمات النقابات الأوربية كما يلي:
أولاً: على العكس من النقابات الأوربية التي ظهرت لخدمة عامة معترف بها ولها امتيازاتها وتدار من قبل السلطات العامة للأمير أو البلدية أو الملك نشأت النقابات الإسلامية من تلقاء نفسها، من الشعب، وتكونت لا إجابة لحاجة الدولة، بل إجابة لحاجات كتل العمال أنفسهم، كما أن النقابات الإسلامية اتخذت، خلال فترة قصيرة، إما عداوة مكشوفة للدولة، وإما عدم ثقة. وقوبل ذلك بالمثل من قبل السلطات العامة سياسية أو دينية. ويظهر مدى هذا الشعور ضد السلطات الحاكمة من بروزه المفاجئ في القرن العشرين في الدور الهام الذي لعبته النقابات في الثورة الإيرانية، ومن التطور المريع للنقابات الإسلامية إلى كتلة ثورية في الهند الصينية. وفي الرابطة القوية بين هذه النقابات وبين الشيوعية الأوربية. ولا ينقص قيمة هذا الاستنتاج منح بعض الأمراء السنيين وضعاً مقيداً للنقابات للحصول على تأييدها كما لا ينفي وجود خلافات في بعض الأحيان بين الحكام الأوربيين والنقابات كون هذه المؤسسات أميرية
ثانياً: تنتج الخاصة الثانية لحياة النقابات الإسلامية أولا مما ذكرناه الآن، وثانياً من حالة طرق الإنتاج التي لم تتغير في الأراضي الإسلامية منذ القرن الثاني عشر حتى القرن التاسع عشر. فلا يوجد في تاريخ النقابات الإسلامية ما يماثل الازدهار العظيم في النقابات الأوربية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، الذي انتهى بانقسام هذه النقابات إلى سادة وصناع: (طبقتين مختلفتين ومتعاديتين). وفي ارتفاع السادة السياسي والاقتصادي العظيم، وفي تنظيم نقابات خاصة للصناع كسلاح في نضال الطبقات العنيف الذي نتج. أما في الإسلام، فقد بقي الأستاذ والسيد والصانع والمبتدئ طبقة واحدة في المجتمع على اتصال شخصي قريب فرتبة الصانع وهي مؤقتة وانتقالية دائماً، وفي أكثر الأحيان غير موجودة، لم تتطور أبداً إلى منزلة اجتماعية دون أمل في الارتقاء إلى رتبة أستاذ، فالنقابة الإسلامية لخلوها من التفريق الاجتماعي الداخلي الذي يقسم النقابة الأوربية، حافظت على خاصتها التي انطبعت بها عندما ظهرت في القرنين العاشر والحادي عشر، وهي المساواة
بين أفرادها كطبقة في المجتمع في شكلها الخاص كثورة العمال ضد ارتفاع الرأسمالية الاقتصادية والتجارية عندئذ.
ثالثاً: والميزة الثالثة في الطوائف الإسلامية: هي كونها تضم أفراداً من مختلف الطوائف. فبينما أبعدت الطوائف الأوربية من صفوفها حتى المسيحيين المختلفي المذاهب، نجد الطوائف الإسلامية مفتوحة لليهودي والمسيحي والمسلم على السواء، بينما تجد بعض الطوائف الإسلامية تسودها الأغلبية الغير مسلمة

رابعاً - وختاماً يجب أن نلاحظ أهمية الحياة الداخلية الروحية في النقابات الإسلامية، فعلى العكس من الطوائف الأوربية لم تكن النقابة الإسلامية تشكيلاً مهنياً فقط فمذ أن كانت النقابة تشكل جزءاً من نظام الدعاية الإسماعيلية حتى الوقت الحاضر احتفظت هذه النقابات دائماً بمثلها المتأصلة فيها وقوانينها الأخلاقية والأدبية التي كانت تدرس لكل المبتدئين في نفس الوقت الذي تعلم فيه الحرفة.

عبد العزيز الدوري

عالج الأستاذ برنارد موضوع الطوائف الإسلامية علاجاً حساً، ولكن ضعف (الرسالة): المترجم وجهله ببعض المصطلحات التاريخية أصابا بشيء من التفكك والغموض.

من نواحي المجتمع

بين مفتش وموظف

للأستاذ محمود محمد سويلم

حدثني من أثق به أيام مقامي (بمنفلوط) أن مفتشاً تردد على موظف حتى أضجره وضايقه، وكان ضرورياً أن يقصر الموظف أو تقصر يده عن إجابة رغبات رئيسه الذي لا تكاد تنتهي له زيارة حتى تبدأ أخرى، فأحس المفتش بهذا التقصير وكبر عليه وصوره له شيطانه بصورة مثيرة فأضمر الشر لصاحبه؛ وانطبعت دخيلة نفسه على محياه فقرأ الموظف المسكين هذه الآيات الصامتة التي تفصح في غير عبارة عما انطوت عليه نفس رئيسه من ضغينة لا يدري إلا الله مداها، وكأنه في موقفه هذا جهد نفسه على أن يخفي ما ألم بها فيقابل رئيسه بشيء من المداراة والابتسام المتكلف. وكيف يتهيأ ذلك لنفس ساذجة لم تألف هذا التلون ولم تعتد هذا النفاق؟ فلم يفلح في هذه المحاولة وظهر على وجهه من العبوس ما ظهر على وجه رئيسه، فتهاجرا وتدابرا ووجد الشيطان الفرصة سانحة فأغرى كلاً بصاحبه؛ فكتب المفتش والموظف إلى الرياسة جميعاً

فماذا كتبا

قال محدثي: لقد طلب المفتش عزل الموظف لأسباب أبداها

يا الله! ألم يقدر هذا المفتش مآل أسرة تحيا في ظلال عيش آمن إن لم يكن ناعماً ولا مترفاً، يريد نقلها إلى بؤس الحياة

ألم يقدر وهو المؤمن بالله واليوم الآخر موقفه بين يدي جبار الأرض والسموات موقف الظالم والمظلوم (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم)؟ نعم لم يقدر شيئاً من ذلك؟ لماذا؟

أما الموظف فما عسى أن يكتب وهو لا يطمع في انتصاره على رئيسه، ولو كان محقاً، ولا في السلامة من شره وإن قام بأعباء وظيفته على خير حال؟

لكنه برغم ذلك أبى إلا أن يكون جريئاً وإلا أن يقابل الشر بالشر فكتب إلى الجهة نفسها يقول:

إما أن تزيدوا في مرتبي حتى يكفيني والمفتش جميعاً، وإما أن تزيدوا في مرتب) المفتش

(حتى يعف

نتيجة محزنة ومأساة مروعة في الأخلاق وفي الفضيلة

لقد كان من عادة الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يبعث مندوباً إلى عماله الذين تمولوا على حساب العمل فيقاسمهم أموالهم مناصفة ليأخذ نصفها فيضعه في بيت مال المسلمين فاتفق له مرة أن أرسل مندوباً إلى كبير من ولاته لهذا الغرض، وكان هذا الوالي داهية، فحاول أن يخدع مندوب الخليفة كي يتغاضى عن بعض المال، فأمر بإعداد مائدة من أشهى الأطعمة وأفخر الألوان؛ فلما مدت المائدة ورأى مندوب الخليفة ألوان الطعام أدرك على الفور أنها خدعة، فثارت ثائرته، وقال للوالي في صراحة الحق وشجاعة الإيمان: أكل ضيف تقدم له مثل هذا؟ والله لا آكل من طعامك شيئاً. هات ما لك أقاسمك إياه!. . . فلم ير الوالي بداً من الخضوع للأمر.

ونعود فنقول ما قال الأول:

فأين الثريا وأين الثرى ... وأين الحسام من المنجل؟

نعم شتان بين من هذبهم الإسلام فزكى نفوسهم وطهر جوارحهم، وأشربت قلوبهم محبته، فلا سلطان إلا سلطان الله، ولا فكر إلا في دين الله، ولا عمل إلا بوحي الله

الذي أرسل به رسوله. . وبين من تملكت المادة نفوسهم، وطرفت الدنيا عيونهم، ولعبت الشهوات بقلوبهم وعقولهم
ماذا ينتظر الرئيس من مرؤوسة؟ أينتظر منه أداء مهمته على الوجه الأكمل ليرضى ربه وضميره والناس ويأكل رزق الله الذي أفاض عليه حلالاً طيباً، أم ينتظر منه أن يحسن الملق والدهان والسير في الركاب. . . وإن ترك أعمال وظيفته جانباً وأكل مال الدولة سحتاً حراماً

محمود محمد سويلم

واعظ سمالوط

كتاب رسوم دار الخلافة

لهلال بن المحسن الصابئ

للأستاذ ميخائيل عواد

استوطن بغداد في صدر الدولة العباسية فئة نحلتها الصابئية، نزحت إليها من حران والرقة المشتهرتين بمنازل الصابئة. تلك الفئة هي آل زهرون وأنسابهم آل قرة.
أصابت هذه الجماعة الصابئية في بغداد نصيباً وافراً من العلم والأدب والطب، فمهرت في كلياتها وجزئياتها، ودفعتها فطنتها وتوقد ذكائها إلى تقلد جلائل الأعمال بخدمة خلفاء بني العباس وأمرائهم ووزرائهم، فسار ذكرها في الآفاق، وكان عليها العماد لطائفة من الأعمال التي قامت بها خير قيام.
ومما زاد في علو شأن هذه الأسرة أن جماعة من أفرادها خلفوا مؤلفات جليلة في بحوث نافعة كالأدب والتاريخ والطب والفلك وغيرها. وسيكون مدار كلامنا على أحد أعلام هذه الأسرة وهو: (هلال بن محسن الصابئ).

مولده ونشأته

هو أبو الحسين (وقيل أبو الحسن) هلال بن المحسن ابن أبي إسحاق إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون ابن حيون الصابئ الحراني، لقب بالرئيس، كان مولده ببغداد في شوال سنة تسع وخمسين وثلثمائة للهجرة، ونشأ بها وكان أبوه المحسن صابئياً، وأمه أخت ثابت بن سنان بن قرة الطبائعي المؤرخ الشهير. وقد أسلم هلال في أواخر أيامه، وحسن إسلامه. ويعد أول أبناء بيته الذي ترك نحلته القديمة ليسلم
تغلغل هلال في دار الخلافة العباسية ببغداد، فعرف نواحيها ورسومها وأسرارها، وبرع في آداب الخلفاء ومجالستهم حتى فاق جده إبراهيم؛ ذاك الذي خنق التسعين في خدمتهم. وتولى هلال أموراً عديدة منها ديوان الإنشاء، وعين حيناً كاتباً لأسرار فخر الملك أبي غالب محمد بن خلف الذي ترك له مبلغاً كبيراً من المال عند وفاته، غير أن هلالاً امتنع عن التصرف فيه، لأنه كان يتقاضى ما يمكنه من العيش من الدولة فترك الإرث لأبنه غرس النعمة.
اشتهر هلال بتاريخه، كما اشتهر جده إبراهيم برسائله. وقد أدرجه القفطي في كتابه (تاريخ الحكماء) في سجل من اشتهر بتدوين التاريخ. فهو يبتدئ بذكر الطبري، وينتقل إلى ذكر أحمد بن أبي طاهر وولده عبيد الله فالفرغاني، إلى أن قال: (فإن قرنت به (أي كتاب التاريخ لثابت بن سنان) كتاب الفرغاني الذي ذيل به كتاب الطبري فنعم الفعل تفعله، فإن في كتاب الفرغاني بسطاً أكثر من كتاب ثابت في بعض الأماكن، ثم كتاب هلال بن المحسن بن إبراهيم الصابئ، فإنه داخل كتاب خاله ثابت وتمم عليه إلى سنة سبع وأربعين وأربعمائة (أي قبل وفاته بسنة واحدة)، ولم يتعرض أحد في مدته إلى ما تعرض له من إحكام الأمور والاطلاع على أسرار الدول، وذلك أنه أخذ ذلك عن جده لأنه كاتب الإنشاء ويعلم الوقائع، وتولى هو الإنشاء أيضاً، فاستعان بعلم الأخبار الواردة على ما جمعه ثم يتلوه كتاب ولده غرس النعمة محمد بن هلال، وهو كتاب حسن إلى بعد سنة سبعين وأربعمائة بقليل، وقصر في آخر الكتاب لمانع منعه الله أعلم به. . .)
ثم شهد له مرة أخرى حيث قال: (ولولاهما (ثابت وهلال) لجهل شيء كثير من التاريخ. . .)
وهذا السخاوي نجده يذكر هلالا في ثبت من ألف في التاريخ العام، ثم يعود إليه ثانية فيذكره ضمن من اشتهر في كتابة تواريخ الوزراء
سمع هلال قبل أن يسلم جماعة من مشاهير النحاة وتأدب بهم، منهم: أبو علي

الفارسي النحوي، وعلي بن عيسى الرماني، وأبو بكر أحمد بن محمد بن الجراح الخراز. فنبغ في علمه وأدبه حيث قال فيه سبط ابن الجوزي: (. . . كان هلال من الفصحاء وله الكلام الفصيح والنثر المليح)

اشتهر بالصدق والأمانة، كما شهد له بهذا فريق من مشاهير الكتبة. منهم الخطيب البغدادي الذي كان معاصراً له قال فيه: (. . . كان هلال ثقة صدوقاً). وذكره آخرون بكل ثناء وتقدير في مناسبات مختلفة: كياقوت الحموي، وابن أبي أصيبعة وابن عبد الحق، والسخاوي، وحاجي خليفة، وغيرهم. . .

توفي هلال ليلة الخميس سابع عشر رمضان سنة ثمان وأربعين للهجرة عن تسع وثمانين سنة. قال فيه ابنه: (توفي والدي الرئيس أبو الحسين هلال. . . فانتفض السؤدد بمصابه، وانثلم الفضل بذهابه)

وتوفي هلال عن بعض الولد، أخصهم بالذكر أبو الحسن محمد (غرس النعمة) رزقه سنة 416 للهجرة بعيد انتقاله إلى الإسلام حيث قال عن نفسه في قصة إسلامه: إن النبي (ص) قال له في المرة الثانية: وتحقيق رؤياك إياي أن زوجتك حامل بغلام، فإذا وضعته فسمه محمداً. فكان كما قال. ولد له ذكر فسماه محمداً وكناه أبا الحسن. وكان هذا الأمر من جملة ما رآه هلال في منام ومجيء النبي (ص) إليه ثلاث مرات يدعوه بها إلى الإسلام.

نشأ محمد غرس النعمة في كنف أبيه وفي رعايته، فأخذ عنه العلم والأدب فنبغ فيهما. وقضى بعض الزمن في دار الإنشاء للخليفة القائم. قال سبط ابن الجوزي في أول حوادث سنة 448: (من أول هذه السنة ابتدأ أبو الحسن محمد بن هلال بن المحسن ابن إبراهيم الصابئ الكاتب، ويسمى غرس النعمة تاريخه وذيله على تاريخ أبيه هلال، وزعم أن تاريخ أبيه انتهى إلى هذه السنة). وصنف كتباً أخرى نفيسة كان مصيرها الضياع

وكانت وفاة محمد غرس النعمة سنة ثمانين وأربعمائة، فزال مجد بيته بموته وضع هلال طائفة من الكتب الجليلة في بحوث منوعة، سطت على أغلبها يد الزمن العاتية، فلم يسلم منها إلا النذر اليسير

وقد اقتصرت المراجع القديمة على ذكر بعض مؤلفاته فإن ابن خلكان يقول: (. . . ورأيت له تصنيفاً جمع فيه حكايات مستملحة وأخباراً نادرة. وسماه كتاب الأماثل والأعيان ومنتدى العواطف والإحسان، وهو مجلد واحد، ولا أعلم هل صنف سواه أم لا. . .)

وذكر هذا الكتاب ياقوت الحموي قال: (. . . وصنف (هلال) كتاب الأماثل والأعيان. . . جمع فيه أخباراً وحكايات مستطرفة مما حكي عن الأعيان والأكابر، وهو كتاب ممتع. ومما يستحسن من تلك الأخبار، قال: حدث القاضي أبو الحسين عبد الله بن عياش (عباس الأصل) أن رجلاً انصلت عطلته وانقطعت مدته. . .)

وقد جاء باسم (الأعيان والأمثال) في كتاب بدائع البدائه لعلي بن ظافر الأزدي المصري

أولاً - قلنا: هذا الكتاب هو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، وهو تكملة لتآليف الصولي والجهشياري، ولم يبق لنا منه إلا البداءة التي نشرت، حيث أن تراجم بعض الوزراء قد فقدت. ذكر فيه أخبار وزراء بني العباس وشرح أحوالهم ومجاري أمورهم. ابتدأه بأخبار أبي الحسن علي بن محمد بن موسى بن الفرات نشره المستشرق الإنكليزي آمدروز (بيروت مطبعة الآباء اليسوعيين، سنة 1904) ووضع له مقدمة وملاحظات باللغة الإنكليزية في نحو 40 صفحة، وفهرساً لأسماء الرجال وآخر لأسماء الأماكن. وفي أوله نبذة في ترجمة هلال الصابئ ومؤلفاته، نقل أغلبها عن سبط بن الجوزي، وورقتان بالفتغرافية في جانب من ترجمة أبي إسحاق الصابئ

ثانياً - كتاب التاريخ: ذيل فيه تاريخ خاله ثابت بن سنان - كما صرح بذلك القفطي في تاريخ الحكماء ص110 - ويحتوي على الحوادث التي وقعت من سنة 360 - 447هـ. والقطعة التي نشرت تحوي حوادث السنوات (389 - 393هـ) وإن الأخبار الصادقة في هذه القطعة لخير برهان على نفاسة الكتاب. نشره أيضاً آمدروز مع تحفة الأمراء بعنوان: (الجزء الثامن من كتاب التاريخ) (ص366 - 484)

ثالثاً - غرر البلاغة في الرسائل: وهي مقتطفات من رسائله الخاصة به. ذكره القلقشندي حين كلامه على نسخ الأيمان المتعلقة بالخلفاء، واقتطف منه نسخة يمين
رابعاً - كتاب الرسالة عن الملوك والوزراء: وهو مجموع رسائله الرسمية، وتذكرنا رسائل جده أبي إسحاق إبراهيم الصابئ
خامساً - كتاب أخبار بغداد: وهو تاريخ جليل لمدينة بغداد يشهد بذلك ما نقله ياقوت عنه في معجمه البلداني
سادساً - كتاب مآثر أهله: وهو تاريخ لأهل بيته. ولا شك أنه حوى معلومات طريفة عمن نبغ من أهله في مختلف النواحي العلمية والأدبية والسياسية
سابعاً - كتاب الكتاب: وهو تأليف يخص كتبة الأسرار والظاهر أنه على غرار مصنف الصولي واسمه كاسمه
ثامناً - كتاب السياسة: لم يصل إلينا منه شيء
تاسعاً - كتاب رسوم دار الخلافة: وهو الذي نعني بتحريره وتعليق حواشيه ونشره
وقبل البدء في وصف هذه المخطوطة نقول: إن مؤلفات هلال هي تسعة، عرف منها حتى الآن: (1) تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، (2) قطعة من كتاب التاريخ، (3) رسوم دار الخلافة.
وصف شامل لمخطوطة رسوم دار الخلافة
1 - عثر عليها في دار الكتب الأزهرية بالقاهرة، وهي خالية من الرقم
2 - عنوانها مثبت بمفرده على الصفحة الأولى وبالصورة التالية: (رسوم دار الخلافة تأليف أبي الحسين هلال بن المحسن ابن إبراهيم الصابئ)
3 - تشتمل المخطوطة على 203 صحائف في كل منها بين 8 - 14 سطراً
4 - كتابتها يغلب على نوعها الخط الديواني، صعب القراءة وقد استعمل الناسخ لألفاظ الأعداد كتابة ديوانية أيضاً لكنها في منتهى الغرابة، إذ يصعب حلها وقراءتها، وقد يحار بين يديها الكثير من النساخ والكتاب، حتى من تضلع من قراءة المخطوطات المغلقة.
5 - المخطوطة حافلة بالكلمات المغلقة، قليلة التنقيط، خالية من الحركات وعلامات الوقف. وهذه النواقص وغيرها جعلت كثير من الكلمات تقرأ على غير وجه واحد
6 - في بعض مواطنها شيء من الخرم، كما أن الأرضة لعبت لعبها فاستساغت أكل بعض المواضع فغاب رسمها
7 - وردت كلمة (رحمة الله عليه) 46مرة، فكتبت 45 مرة بالتاء المربوطة أو المعقودة
8 - استعمل المؤلف كثيراً من الكلمات الفارسية التي شاع استعمالها في الدولة العباسية، وكان قد ألفها الناس وجرت على ألسنتهم، وغالب هذه الكلمات هي أسماء لآلات الحرب، وطائفة من أسماء اللباس والطعام
9 - جاء في الصفحة (203) وهي الأخيرة العبارات التالية:
وأعقبها: (الحمد لله (عورض به الأصل بخط المصنف وصح والحمد لله رب العالمين) وصلواته على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما وحسبنا الله ونعم الوكيل)، ويتلوهما ما نصه: (كان الفراغ من نسخه يوم الثلاثاء التاسع من رجب سنة خمس وخمسين وأربعمائة من الأصل بخط الأستاذ أبي الحسين هلال بن المحسن بن إبراهيم رحمه الله) اهـ
وهذا النص يبين لنا قدمها، وكانت استنسخت عن نسخة المؤلف بعد وفاته بسبع سنوات، وعلى ما بدا لنا، فإن هذه النسخة فريدة، لأن فهارس المخطوطات العربية في خزائن كتب أوربة والشرق لم تشر إلى وجودها فيها
يتقوم الكتاب من تسعة عشر فصلاً عدا المقدمة والخاتمة وهي كما يلي:
المقدمة، (8 - 37) ذكر أحوال الدار العزيزة (دار الخلافة)، (38 - 98) (الصفحة2 - 8) آداب الخدمة، (98 - 109) قوانين الحجابة ورسومها، (109 - 117) من الرسم أن يزم الناس فلا يسمع لهم صوت ولا لغط، (118 - 124) آداب مسايرة الخلفاء في المواكب، (127 - 133) خلع التقليد والتشريف والمنادمة، (133 - 137) ما يحلف به الخليفة عند التقليد والتشريف بالتكنية واللقب، (137 - 144) رسوم المكاتبات عند الخلفاء في صدورها وعنواناتها والأدعية فيها وما يعاد منها في أواخرها، (144 - 148) خطاب الخلفاء قي الكتب والأدعية، (148 - 151) رسوم الكتب عند الخلفاء، (152 -

171) الدعاء للمكاتبين عن الخلفاء وما كان الرسم أولاً جارياً به وانتهى أخيراً إليه، (171 - 174) الانتساب إلى مولى أمير المؤمنين، (174 - 177) ما يذكر في أواخر الكتب. . . (177 - 179) الطروس التي يكتب فيها إلى الخلفاء وعنهم؛ والخرائط التي تحمل الكتب صادرة وواردة، (192 - 194) ضرب الطبل في أوقات الصلوات، (194 - 196) خطب النكاح، (196 - 203) خاتمة الكتاب

ويؤخذ من كلام هلال في مقدمة الكتاب وخاتمته أنه ألفه في زمن الخليفة العباسي القائم بأمر الله، وأنه استفاد كثيراً من خبرة جده إبراهيم في مثل هذه الشؤون التي ينطوي عليها الكتاب

(بغداد)

ميخائيل عواد

الحرب في أسبوع

للأستاذ فوزي الشتوي

التاريخ يسجل

لم يشهد التاريخ انسحاباً موقفاً مثل انسحاب قوات الحلفاء من بلجيكا، ولم يشهد التاريخ أيضاً تقهقراً أكسب القوات المتراجعة روحاً معنوية كالذي كسبته جنود الحلفاء في معركة الفلاندر. فقد عملت الحوادث على إرسال موجة شديدة من اليأس والتشاؤم في صدور العسكريين، حتى رأى بعضهم أن الانسحاب لا يتم إلا بمعجزة. وهانحن أولاء نرى المعجزة تتم، ونرى جنود الحلفاء في بلادهم بعد ما تسلحوا بعزم جديد وروح جديدة هي الاستخفاف بالقوة العسكرية الألمانية

فخبرها جنود الحلفاء وهي في أحسن أحوالها وأقوى مواقعها بينما كانوا هم في أسوأ أحوالهم، وأحوج موقف يمكن أن يوضع فيه جيش. إذ يفاجئون بانسحاب القوات البلجيكية التي كانت تحتل مواقع هامة؛ ويؤدي إلقاؤها لسلاحها إلى كشف ظهر قوات الحلفاء. فإذا هي تسعى لضم جموعها، وإذا هزمتها محققة.

ومع هذا، فعزيمتها لا تلين، وأملها في النجاة لا يضعف، وصبرها على أهوال القتال لا يتضعضع. فلم يفت في عضدها القتال المستمر عشرين يوماً ليل نهار. ولم يوهن من قوتها وروحها المعنوية انقلاب المآل من حال إلى حال. فأي عزيمة وأي صبر احتمال سلحت بها قيادة الحلفاء جيوشها؟ لا شك أن القيادة الرشيدة كانت عاملاً فعالاً في إقرار هذه الروح في الجنود، ولا شك أيضاً أن أخلاقاً قوية ساعدت القيادة على تحقيق أغراضها والوصول إلى أهدافها. لقد خسر الحلفاء هذه المعركة بالخيانة، ولكنهم كسبوا نصراً عسكرياً وتعلموا كيف يواجهون الألمان ليحرزوا النصر النهائي

الشجاعة تفوز

أما عوامل اليأس من إنقاذ هذه القوات فكانت كثيرة أهمها:

1 - تسليم الجيش البلجيكي

2 - إغلاق طريق الانسحاب لضيق البقعة الأرضية فلم يبق إلا منفذ البحر مع وعورة مسالكه

وتم استسلام الجيش البلجيكي في ظروف غريبة شاذة، فبينما كانت قوات الحلفاء تواصل قتالها يلقي ملك البلجيك سلاحه دون إخطار، ويضع جيوش الحلفاء في مأزق حرج. فقد كانت قواته تقاتل في مراكز رئيسية كانت جيوش الحلفاء لها بمثابة احتياطي يسد العجز الذي يطرأ على بعض نقطها

ولهذا توزعت فرق الحلفاء بين القوات البلجيكية، فلما ألقت هذه السلاح انعدم الترابط بين قوات فرنسا وإنجلترا. ووجدت نفسها محاصرة بقوات ألمانية تحتل مواقع الجيش البلجيكي الذي كان بالأمس ظهيرها وعمادها.

ثمن الخيانة

لقد تورعنا في مقالنا الماضي عن التصريح بأن عمل ملك البلجيك كان خيانة مقصودة؛ أما الآن فإننا إزاء ما عرف من تصرفاته قبل التسليم وبعده، وعن الثمن الذي تقاضاه لا نجد مفراً من التصريح بما أخفينا. فقد خان القوات التي آزرته خيانة أدت إلى قلب الموقف العسكري انقلاباً كبيراً أفسد جزءاً هاماً من خطط الحلفاء.

أما الثمن الذي تقاضاه ليوبولد الثالث فهو حكم بلجيكا وهولندا والمناطق المحتلة من شمال فرنسا. وليته تقاضى هذا الأجر حراً أو بشرط الاستقلال، ولكنه يتقاضاه وسيف

هتلر مصلت على رأسه، فبعدما ما كان ملكاً مستقلاً شريفاً أصبح تابعاً خائناً لقضية الديمقراطية بزعامة هتلر

ضيق الميدان

ننتقل بعد هذا إلى النقطة الثانية، وهي ضيق مجال الانسحاب فقد كانت جيوش الحلفاء تقاتل في رقعة صغيرة من الأرض يليها البحر. فكان مجال التراجع ضيقاً لا يعطي للقوات المنسحبة الميدان الكافي لإنشاء خطوط قتال جديدة. ولم يكن هناك مفر من إخلاء الميدان والاستعانة بالأساطيل البحرية لنقل الجنود، وهي مهمة شاقة محفوفة بالأخطار تستلزم تجمع القوات في بقاع صغيرة. فيسهل الفتك بالقوات سواء بالطائرات أو بالمدافع البعيدة المرمى.

ومن مبادئ العلوم العسكرية ألا تتجمع القوات بأعداد كبيرة في بقعة محدودة حتى لا تكون هدفاً سهلاً لطائرات العدو وتكون خسائرها كبيرة، ولكن تحقيق هذا المبدأ لم يكن سهلاً في هذه الحال ولا سيما بعد أغلق بعض الموانئ بإغراق بعض السفن المحملة بالأسمنت فيها فسدت مسالكها وتعذرت الملاحة فاضطر الحلفاء إلى الاعتماد على ميناء دنكرك وحده

القوة الكامنة

وتيسر تذليل هذه العقبة بتعاون وحدات الطيران والبحرية في إبعاد قوات العدو وتدمير خطوط مواصلاته. فوجهت إنجلترا عدداً هائلاً من سفنها الحربية والمدنية، وعبأت جميع قواتها البحرية من سفن صيد ونوادي تجديف وغيرها لنقل الجنود وحمايتهم. فتم الانسحاب بنجاح كبير وخسائر قليلة مني الألمان بأضعافها. ودلت هذه الحركة على ما في الأمة الإنجليزية من قوة كامنة تظهر في وقت الشدة

واستغل الحلفاء طبيعة الأرض حول ميناء دنكرك لإبعاد قوات الألمان عنها فغمروا الأراضي في شمالها وجنوبها بماء البحر واضطرت قوات الألمان إلى وقف تقدمها خلف حواجز الماء، بينما ترك الطريق التقهقر مفتوحاً من الشرق لقوات الحلفاء التي استمرت في قتالها أثناء انسحابها النظامي. فليس معنى الانسحاب ترك الميدان دفعة واحدة؛ بل إنه يتناول عدة حركات عسكرية. فبينما يهاجم جزء من القوات الجيوش المعادية يتراجع الجزء الآخر وهو يحمي مؤخرة القوات المقاتلة؛ وهكذا يستمر الحال فيتيح الفرصة للجزء الأكبر من القوات للوصول إلى أهدافها.

وفي الحرب الماضية

وإذا عدنا إلى سنة 1914 حين انسحبت الحملة البريطانية من خط بنش كونديه إلى جنوب نهر المارون نجد المجال الواسع الذي كان أمام تلك القوات، إذ كان ميدانها عريضاً تحمي جانبيه قوات فرنسية ولا تقلقه قوات الطيران كما هي الحال الآن. فكانت القوات تتراجع بنظامها العادي دون أن تلجأ إلى التجمع ودون أن تكون هدفاً صالحاً؛ واعتبرت حركة انسحاب الجنرال فرانش عملاً عسكرياً بارعاً نظراً لكثرة القوات التي كان يحاربها

وفي الانسحاب الأخير توفر للألمان الكثرة العادية العددية واستغلال الطائرات والموقف

الحربي الممتاز. يضاف إلى ذلك ضيق مجال تراجع الحلفاء واقتصارهم على إنزال قواتهم من ميناء واحد تتعذر فيه الحركات البحرية لسببين: ضيق مدخله، وعوامل المد والجزر، وهما يستلزمان براعة كبيرة في القبض على دفة السفن

ولا تعتبر موقعه الفلاندر نصراً كبيراً للألمان، لأن قوات الحلفاء خرجت منها سليمة ولم تخسر إلا 20 % منها، وهذه القوات ستعود إلى ميدان القتال في فرنسا بعد أن تأخذ قسطها من الراحة. ولا تعتبر الموقعة حاسمة إلا إذا انتهت بتشتيت شمل قواتها على الأقل أو إبادتهم وهذا ما لم يحدث في معركة الفلاندر بل بالعكس أن الجنود الإنجليزية والفرنسية عرفت أثناءها فقط الضعف في القوات الألمانية بحركاتها العسكرية الحديثة وستستغل هذا الضعف في المواقع المقبلة. وكفى أن يؤمن الجندي بأنه أبسل وأقوى من عدوه ليقهره. وشعرت ألمانيا بفشلها فأسرعت في صباح يوم الخميس بتوجيه هجومها إلى جبهة السوم لتحصل على ما فقدته في الفلاندر. والمعروف أن معركة الفلاندر أتاحت لقوات السوم أن تحصن مواقعها

وإيطاليا؟!

من الواجب أن نناقش مسألة حربية ذات أهمية خاصة بالنسبة لنا، وهي مسألة دخول إيطاليا الحرب. فقد أصبح من المقطوع به اشتراكها فيها. ولكن هل من مصلحة إيطاليا أولاً والمحور ثانياً اشتراكها فيها؟ هذا سؤال لا يتردد الخبراء العسكريون في الإيجاب عنه بالسلب. فليس من مصلحتهما لا من الناحية العسكرية ولا من الناحية الاقتصادية أن تلج هذا السبيل

أما من الناحية العسكرية فقد ناقشنا موقف إيطاليا في البحر الأبيض المتوسط في مقال تبعاً لمواقعها العسكرية والقواعد البحرية التي تسيطر عليها. وبقي أن نتكلم عن قواتها العسكرية وموقعها الجغرافي ومقارنة هذه القوات بقوات الحلفاء مع ملاحظة تشتت الإمبراطورية الإيطالية في بقاع يسهل عزلها. فمستعمراتها في شرق أفريقيا محاطة بالممتلكات البريطانية فضلاً عن سهولة قطع مواصلاتها بإيطاليا بإغلاق قنال السويس في الشمال والبحر الأحمر من الجنوب، ثم فرض الرقابة البحرية على خطوط المواصلات البحرية عن طريق راس الرجاء الصالح

وفي الشمال توجد تونس وهي محاطة بقوات الحلفاء من جميع جهاتها. والغالب أن يتم الاستيلاء عليها في فترة قصيرة من الزمن. وقد نعود إلى الحديث عن هذا الموضوع في مقال آخر

ومن الناحية الاقتصادية فإن إيطاليا بلد فقير بدأت عمرانها بطيئاً عقب استيلاء الفاشست على كراسي الحكم. وقد استنفذت كثيراً من مواردها في حرب الحبشة وحرب إسبانيا ولم يتح لها الوقت الكافي لاستغلال موارد مستعمراتها الحبشية، بل أن القلاقل ما زالت تنبئ بعدم الاستقرار في الحبشة نظراً لبداوة سكانها، وصعوبة أراضيها، وحاجتها إلى كثير من أوجه الإصلاح والرقي التي تعتبر الحجر الأول للاستغلال المادي

حرب الكلام

وتعتمد الحرب الحالية على عامل جديد هام هو العامل النفسي أو إلقاء الرعب في نفوس المتحاربين والمحايدين على السواء. ووضعت خطط السيطرة على أوربا على أساس ألا تدخل إيطاليا الحرب إلا بعد أن ننتهي ألمانيا من القضاء على دول أوروبا الشمالية والغربية أي بعد أن تنتهي مقاومة فرنسا وإنجلترا. على أن تكون إيطاليا في هذه الأثناء مبعث اضطراب للحلفاء فيقسمون قواتهم، ويتركون منها ما يلزم لمقاومة الاعتداء الإيطالي والتغلب عليه، وهذا هو السر في (تهويشها) الحالي، فهي تهدد بدخول الحرب ويؤلف شبابها المظاهرات ويصيح ساستها أن الساعة قد دنت، فتقف قوات الحلفاء المعبأة على قدم الاستعداد بعيدة عن ميدان القتال الحقيقي في الشمال

وهذه الخطة تضمن للمحور في الوقت نفسه قتال قواتها في ميدان واحد وتجزئه قوات الحلفاء ومقاتليها جزءاً جزءاً بدلاً من تركز مقاومتها في ميدان واحد. فمما لا شك فيه أن قوات الحلفاء متجمعة أقوى بكثير من قوات ألمانيا وإيطاليا، ولكنهما يستفيدان من هذه التجزئة فائدة عظيمة تعدهم بالأمل في النصر، ولكنه أمل بعيد فإذا دخلت إيطاليا الحرب الآن فإنها تدخلها مكرهة لظروف خارجية طارئة، قد تكون ضغط ألمانيا عليها لشعورها بالحاجة إلى مساعدة جديدة وقوات كاملة، وقد تكون دفاعاً عن هيبتها نتيجة لإغراقها في الدعاية وحرب الكلام، وقد يكون خوفها من نفس حليفتها إذ تقف هي متفرجة بينما تفوز ألمانيا بنصيب الأسد، أو غير ذلك من العوامل التي يصعب الخلاص منها.

فوزي الشتوي

بكالوريوس في الصحافة

رسالة الشعر

يا شبابي . . .!

للأستاذ حسن بك حمدي

يا شبابي يا شبابي ... آه ما آلَمَ فقدكْ
كل حلوٍ صار مرّاً ... ليتني ما ذقت شهدك
يا شبابي يا شبابي ... كيف لا أندب عهدك

كل سهل صار صعباً ... ليتني ما عشتُ بعدك
يا فؤادي يا فؤادي ... كل شيء صار ضدك
أيُّ شيء أي شيء ... يستحق اليوم حْمدَك
لستُ أدري كيف أَجْري ... عبرةً تطفئ وجدك
عدمت عيني بكاها ... فابك يا مسكين وحدك
حسن حمدي
في موكب المحرومين
بيداء. . .!
للأديب محمود السيد شعبان
الحب يشهد أني إنما أغني لك وحدك يا (بيداء)ـ . . وحسب
. . .قلبي عزاء أن يكون أغنية تبدأ منك ولا تنتهي إلا إليك
(!أنت يا من أسعدت روحي بنعيم الحرمان
(هو)
!بَيْدَاءُ!ـ . . يا لَحْنَ الْ ... هُدَى وَالطُّهْرِ في أَعْماقِ قلبي
يا سِرَّ أَشْوَاقي وَمَعْ ... بَدَ لَهْفَتِي وَمَرَادَ حُبِّي
!في صَمْتِكِ الهادِي قلوبَ الْ ... حائرينَ عَبَدْتُ رَبِّي
!أَهْوَاكِ يا بيْداءـ . . لَ ... كِنِّي أَخَافُ عَلَيْكِ جَدْبِي
!بيْداءُ!ـ . . يا مَهْدَ الْهَوَى ال ... عُذْرِيِّ أَهْوَى فيكِ لَيْلَى
أَنَا لَم أَكُنْ قيْساً وَل ... كِني لِقيْسٍ كنتُ ظِلاَّ
صَاحَبْتُهُ وَسَبَحْتُ في ... مَلَكُوتِهِ قلباً وعقلاَ
فأخذتُ عنهُ الحبَّ تق ... دِيساً وتضحيةً وَنُبْلاَ
بيْداءُ!. . . يا محْرابَ أَوْ ... هامِي وَإِلْهامي وَقُدْسي
شَيَّعْتُ آمالي إليكِ ... فليتني شيَّعْتُ نفسي
وَنَسيتُ عندَكِ يا صَفاَ ...ءَ الرُّوحِ حِرْمَاني وَتَعْسي
وَحَيِيتُ لِلغَدِ مثلما ... أَحْيَا عَلَى الدُّنيا لأمسي
يا مَعْبَدِي!. . . كم فَوْقَ هَ ... ذا التُّرْبِ طالَ بيَ السّجُودُ
!. . .وَالْحُبُّ دُنَيا لِلسَّعادَةِ مَا ... لَها أبداً حُدُودُ
أَنَا إنْ رَجَعْتُ إلَيْكِ يا ... بيْداءُ طابَ لِيَ الوُجُودُ
!لكنَّ دِينَكِ أَنَّ حِرْمَاني ... مِنَ الأَوهامِ جُودُ
!بيْداءُ!ـ . . هأنذا سَكَبْ ... تُ عَلَى ثَرَاكِ دِمَائِيَهْ
!. . .صَيَّعْتُ عُمْرِي فِيكِ ل ... كِني وَجَدْتُ بَقاَئِيَهْ
سِرُّ الْحَيَاةِ هو الفَنَا ... ءُ!. . . وَأَنتِ سِرُّ حَيَاتِيَهْ
!وَالْجَدْبُ يَبْقَى كالخلودِ ... لَهُ الحياةُ الثانِيَهْ
!أَنافي هَواك مُشَرَّدُ الآ ... مالِ. . . لكِنِّي أَغَنَّي
جِئْنا إلى هَذا الوُجُودِ ... معاً فكَيْفَ كَبِرْتِ عني؟
!تَسَعينَ أوْهامَ الحياةِ ... وفي غَدٍ تَسَعينَ فنِّي
!إن كُنْتُ مِنْكِ فأنتِ يا ... بَيْدَاءُ - لوْ تدْرِينَ - مني
ما كُنْتِ في ماضيكِ إلاَّ ... فِكْرَةً في الْغَيبِ مِثْلي
!أَلْقَتْ بِنَا الأقدارُ في ... الدُّنيا معاً فَوَصَلْتِ قبلي
. . .وَسَبَقْتِني لمَّا تَنَكَّرَ ... لِلْحَيَاةِ دَمي وَعَقْلِي
!هَلْ كانَ عِلْمُكِ- يا ابنَةَ ... الأَحْقابِ - إلا بَعْضَ جَهْلِي
!يا مَنْ بَدَأْتِ مِنَ الْفَنَاءِ ... سَتَنْتَهينَ إلي الْخُلُودِ
صَاَتَنْكِ كَفُّ اللهِ مِنْ ... بَطْشِ الرَّدَى وَأَذَى اللَّحُودِ
!مُتِّعْتِ بالْجَدْبِ الْعَقِيمِ ... وَإِنَّهُ بَدْءُ الوُجودِ
!وَالْعُقْمُ في دنُيا الهوَى ... الْعُذرِيِّ غايةُ كلِّ جُودِ
هَلْ تَذكُرِينَ حياتَنا الْ ... أُولى وصُحْبَةَ مُهْجَتَيْناَ؟
أَيَّامَ كانَ الْغَيْبُ يَحْنوُ ... رِقّةً وَهَوىً علَيْنا
وَالْعَقلُ طِفلٌ هَدْهَدَتهُ ... أَكُفُّناَ فَسَعى إلَيْنا
!وَدَّعْتِهِ وَمَضَيْتِ مُسْ ... رِعَةً، وَسِرْتُ أَناَ الْهُوَيْنَي

!أَدْعُوكِ يا بيْداءُ والأق ... دارُ تَسْخَرُ مِنْ دُعَائي
أَخُلِقْتُ في وادِيكِ لِلأَشْ ... وَاكِ تَشْرَبُ مِنْ دِمَائي؟
أَرْجُو لها الْعَيْشَ السَّعِ ... يدَ وَتَرْتَجي أَبَداً شقائي
!دُنيا الطَّمُوحِ! أَنا الذي ... ضَيَّعْتِ لي دُنيا عزائي
!بيْداءُ! كَمْ يْبنيكِ قَلْبٌ ... طالمَا أَحْبَبْتِ هَدْمَهْ
ما كُنْتُ أَخْشَى حَرْبَ هذا ... الدَّهْرِ لكِنْ خِفْتُ سَلْمَهْ
!فالْجَدْبُ في دُنياىَ مَعْنيً ... ذُقْتُهُ وَعَرَفْتُ طَعْمَهْ
!هُوَ نِعْمَةُ قَدْ ظَنَّها مَنْ ... لمْ يَسَعْهُ الْحُب نِقْمَهْ
!بيْداءُ!. . . هَأنذا أَسِيرُ ... مَعَ الحياةِ إلى ترُابي
وَغَداً سَأَرْوِي يا ابَنةَ ... الأوْهامِ خِصْبَكَ مِنْ يَبَابي
يا للَسَّعَادَةِ في الشَّقَاءِ! ... أَلَيْسَ ما بِكِ بَعْضَ ما بي؟
يَكْفِيكِ يا بيْداءُ أَنَّ مُصَا ... بَ رُوحِكِ مِنْ مُصَابي
بيْداءُ!. . . مَا ذُقتُ السَّعا ... دَةَ في حَيَاتي غَيْرَ مَرّهْ
!يَوْمَ الْتَقَيْتُ بها وَكُنَّا ... في ضميرِ الْغَيْبِ فِكرَهْ
!. . .يا لَلْهَوَى مِنْ ذَرَّةٍ قُدْ ... سِيَّةٍ هامَتْ بِذَرَّهْ
!أَنَا لِلشَّقَاءِ. . . وَإِنَّما ... هِيَ لِلسَّعَادَةِ وَالْمَسَرَّهْ
!يا لَيْتَنِي أَدْرِي بما بيْ ... نِي وَبَيْنَكِ مِنْ سُدُودِ
أَفَنْيتُ عُمْرِي فيكِ أَجْ ... مَعَهُ لأِطرَحَ مِنْ قُيُودِي
فَعَرَفتُ فيكِ حَقِيقةَ الدُّن ... يا وَفلسفةَ الوجُودِ
!لكنَّني لمَّا اهْتَدَيْتُ ... فَقَدْتُ مِنْ وَلَهِي حُدُودِي
مَنْ عَاشَ لِلْحِرْمَانِ لَم ... يَحْفِلْ بما سَكَبَ السَّحابُ
وَلَقدْ يُصيبُ المَرْءُ في ... الدنيا فيُطرِبُهُ الْعَذَابُ
شَرُّ الْهِدَايَةِ مَا أَضَلَّ ... بِكَ السَّبِيلَ إِلَيْهِ صَابُ
!فَتَعالَ يا حِرْمَانُ لي. . . ... أَنتَ الحِجَا وَأَنا التُّرَابُ
بيْداءُ!. . . يا لَحْنَ الْهُدَى ... وَالطَّهْرِ في أعماقِ قلْبي
يا سِرَّ أَشْوَاقي وَمَعْ ... بَدَ لَهْفَتِي وَمَرَادَ حُبيِّ
فيِ صَمْتِكِ الهادِي قُلو ... بَ الحائرينَ عَبَدْتُ رَبِّي
!أَهْوَاكِ يا بيْدَاءُ لكِني ... أَخَافُ عَلَيْكِ جَدْبي
(القاهرة)
محمود السيد شعبان
رسالة الفن
تأملات
التفاحة
للأستاذ عزيز أحمد فهمي
- ما هذه الهدية السخيفة التي أرسلتها إلي في خطابك الأخير؟؟
- أصورة (التفاحة) سخيفة؟ أو لا ترى فيها معنى، أو لا تثير فيكَ شيئاً؟ حقاً، إنكَ متأخر
- لماذا لا تقولين إنني شبعان؟
- وهلا يعجب بصورة التفاحة إلا الجياع؟! إنها يا هذا رمز لما لا يؤكل ولا يشرب
- يا للتعقيد! ولأي شيء ترمز التفاحة؟ لقد كنت أحسب إحساساً فنياً الذي بعثك على رسمها، وكنت أحسبك مخلصة في تصورها وتصويرها، ولم يكن يخطر في بال أنك تجعلين منها ستراً تسدلينه على أسرار في نفسك. . .
- ولكنه ستر خفيف شفاف، لا أظنه يحجب السر عن العين. . . إلا إذا كانت عيناً بلهاء تصدق ما ترى
- فهذا الستر إذن كغلالة الحرير التي نتشح بها الإبليسة تزعمها أمام الأتقياء البلهاء حشمة، وتقول بها لكل جارحة من الأعين هأنذا!
- يا للفراسة! هو هذا الذي تقول. . . فهل تستطيع بعد أن عرفت هذا أن تقرأ التفاحة؟. . .
- بل قولي رسم (التفاحة) فإني مع التفاحة لا أستطيع إلا أن آكلها. . .
- فليكن. . . ماذا تقرأ في رسم التفاحة. . .؟

- يجب أن تساعدني بأكثر من هذا. . . فإنك إلى الآن لم تقولي لي من أين أبدا القراءة. . . من اليمين أم من الشمال؟ . . .
- يمين ماذا وشمال ماذا؟ ألهذا الرسم يمين وشمال؟ كل ما فيها ألوان. . . حمرة مفردة، وصفرة مفردة، وحمرة وصفرة ممتزجتان: تخف إحداهما في المزج مرة وتثقل مرة، وتخف في ناحية أكثر مما تخف في الأخرى، وتثقل في ناحية أكثرها تثقل في الأخرى. .
. . .فهلا يحدثك هذا كله بشيء؟
- انتظري قليلاً، ففي درس القراءة الأول يغفر الهجاء. . . لنبدأ بهذه الحمرة. . . هي لون الدم، وهي لون اللحم، فيها من الحياة، وفيها من الفحش، وفيها أيضاً من النار لذة الدفء وعذاب الحريق، وفيها من الورد شعر، وفيها من الخد صبا، وفيها من الشفاه حنين ونداء. . . وكلام. . .، وفيها من الخجل، وفيها من الغيظ منذ الغيرة إذا استحيت إلى الحنق إذا اضطرم. . . في الحمرة هذا، وقد يكون فيها غيرة. . . فهل هذا يكفي الآن ابتداء أسايرك به. . .
- بداية لا بأس بها. . . فماذا ترى في هذه الصفرة. . .؟
- يا سبحان الله لا أدري لماذا أكره الصفرة. . . لست أرى فيها إلا الموت
- وهل تكره الموت؟ إنه علينا حق
- على العين والرأس نؤديه طائعين ومكرهين مادامت أمك حواء قد اشتهت الكارثة التفاحة. . .
- ليست حواء أمي أنا وحدي فهي أمك أنت أيضاً. . . أما تحب أنت التفاح
- لا أحبه ولا أكرهه، أو أنا أحبه وأكرهه. . .
- لعلك تحب حمرته وتكره صفرته، ما دمت تخاف من الموت. . . ولكن ألست ترى في الصفرة أيضاً لون الذهب. . . أو لون بعض الشعر. . .
- أما الذهب فمشغلة يلاعب العابثون عقول النساء بها وهن يحببنه وهم يحبونه من أجلهن. . . وأما ذلك الشعر الأصفر فلا أكتمك أني أحس فيه بشيء من البرودة لا تنزع نفسي إليه كثيراً. . . وهو عندي كالعيون الزرق والعيون الخضر ربما لاح لي فيها صفاء وبراءة ولكني لا أغفل فيها عن لين ونزف وتكبير وهذه لا تشجع المتعطش إلى الوفاء الراغب في التحكم. . .
- لو أنك تستطيع أن تحفظ على هذى العيون صفاءها وبراءتها، ون تحفظها من نزفها وكبريائها لذقت من وفائها ما يرضيك ولبسطت عليها ما شئت من حكم وسلطة. . . ولكنك كسلان ومثلك جدير به أن يعيش في مصحة يسقيه أطباؤه الحب، ويحقنونه بالراحة والسعادة. . .
- الله يسمع منك!
- فأنت معذور حين سخرت من صورة التفاحة
- بل كنت بسيطاً لم أر فيها إلا أنها طعام
- ولي عليك الآن أن تشكريني فقد علمتك أن ترى فيها أكثر من ذلك
- بل إني أرى هذا الذي علمتني إياه شيئاً تستحقين عليه اللعنة لا الشكر. فأنت قد فتكت بعقلي، وأنا أشعر أني سأصبح بعد هذا الذي تعلمته منك إنساناً موسوماً كلما رأيت شيئاً حاولت أن أعرف له معنى من وراء معناه البارز، وهذا أمر سيهديني من غير شك إلى حقائق هي غائبة عني اليوم، ولكنه في الوقت نفسه سيبعثني إلى أوهام وخيالات قد أحسبها حقائق إذ يركن عندها عقلي بينما هي ليست في الحق إلا عوارض. . . فما نجاتي من هذا وأنا لا أحب إلا أن أرسو عند حق أطمئن إليه؟ وقد كنت مرتاحاً يوم كنت راضياً عما كان يواجهني من أبسط الحقائق. . .
- إنما كنت راضياً عن البلاهة
- وكنت أجد فيها كل المتعة. ألست ترين الزنجي الذي إذا رأى التفاحة على الشجرة قطفها ونهشها أسعد حالاً من ذلك المتحضر المترف الذي يراها فيستغرق في النظر إليها هذا الاستغراق الذي تريدينه، ثم يقوم آخر الأمر فيرسمها. . . لماذا يرسمها؟. . . هل هو إذا أتقنها مهما أتقنها استطاع أن يجعلها تفاحة؟. . . والله ليست هذه إلا خيبة!
- بل هو الفن. . .
- فن الضعف. . . وهو كذلك الضعف الذي يأخذ نفس الشاعر حين يلقي محبوبه

فيتركه أمامه ويغمض عينيه ليتصوره، أو يقضي معه الساعات ثم يغادره لكي يحلم به، فإذا وافاه في المنام لم يكن بينهما إلا كلام تافه لا يغني ولا يقنع به عاشق من غير الشعراء. . .
- وكل العشاق من غير الشعراء إن نعموا بالحب فنعيمهم به زائل إلى جانب أنه نعيم نازل؛ أما الشعراء فنعيمهم بالحب خالد إلى جانب أنه نعيم سام
- هذا هو الكلام الذي تقوله كل حواء للضعيف المتخاذل من عشاقها تواسيه فتعترف له بأنه صاحب فن، وتسخر منه عند نفسها لا لنقص فيه إلا أنه صاحب فن. . . أو تريدين أنت أن تنكري هذا؟ هل ترضى المرأة عن الرجل الذي إذا أحبها قال فيها كلاماً أو صورها أو تغنى بها، أو لا يكون رضاها إلا عن الرجل الذي إذا احبها مد إليها يده وجرها. . .
- ليست النساء سواء. . .
- بل إنهن سواء. . .
- إذا زعمت أنهن سواء فعليك أيضاً أن تقول إن الرجال سواء. . . ولكنك قلت إنهم ليسوا كذلك وإن منهم من يأكل التفاحة ومنهم من يصورها. . . فكذلك النساء.
- فيهن من تأكل، وفيهن من ترسم؟
- ألم أرسم أنا؟ وهل في رسمي عيب إلا أني أهديته إليك؟ يا ضيعتي معك!. . كنت أحسب الرسم سيبهرك فتقول فيه كلمة طيبة. . . ولكنها توبة من اليوم
- الذنب ذنبك لأنك اخترت لهديتك موضوعاً لا يؤديه الرسم أداء كاملاً. . . فللتفاحة طعم، ولها رائحة، ولها نعومة حسناء؟ وهذا كله يقعد الرسم عن تصويره
- ومن قال لك إني كنت أريد أن أصور شيئاً من هذا. . . إنه لم يكن يدور بخلدي إلا ما توحيه الألوان
- فلماذا لم ترسمي دائرة حمراء ودائرة صفراء ودوائر أخرى فيها أمزجة من اللونين؟
- وهذا ما صنعت، وكل ما في الأمر أني اختصرت الرسم في دائرة واحدة. . .
- وهذا هو الذي بعثني على أن أنكر تفاحتك. فلو أني أحسست بها تفاحة حقه لكنت أعجبت بها، ولكنت قضمتها أيضاً، ولكنها كانت عندما ألقيت عليها النظرة الأولى زوراً وباطلاً، كالقصة الملفقة المتنافرة الحوادث التي يريد ساردها أن يبرئ نفسه من تهمة فلا يؤدي سرده إياها إلا إلى تعزيز الشك في نفس سامعه. . . والآن اسمحي لي أن أسألك سؤالاً. . . هل يقصد كل أولئك الرسامين الذين يرسمون الموز، والطماطم والبطيخ والشمام وسائر الفواكه والخضر إلى معان بعيدة كهذا المعنى البعيد الذي قصدت إليه حين رسمت التفاحة؟
- أظن ذلك
- فما معنى البطيخة؟ وما معنى الخيارة؟
- انتظر حتى أفكر. . .
- يخيل إلي أنك ستفكرين طويلاً جداً ولن تهتدي إلى معنى لكل ثمرة. . .
- ولكن التفاحة ليست ثمرة عادية. إن لها قصة قديمة مع الإنسان. . .
- قد تكون هذه القصة هي المبرر الوحيد لاهتمام الرسام بها. أما غير ذلك فلا أظن شيئاً يبرر رسم الثمرات إلا الجوع، فالله خلقها للأكل لا للزينة ولا للتفلسف. . .
- وهل هناك ما يمنع من أن تكون موضعاً للتفلسف ومطلباً للزينة إلى جانب ما هي بغية البطن؟
- لست أرى ما يمنع ذلك، ولكني لا أرى أيضاً ما يدعو إليه
- ألم يرسم الفراعنة القمح؟ لماذا رسموه؟. . . هل كانوا جياعاً وما أكثر القمح في مصر؟
- رسموه تقديساً!
- وأنا أرسم التفاحة تقديساً أيضاً. . .
- أعوذ بالله. . . قد يكون للإنسان عذر إذا قدس القمح فهو غذاؤه الأول. . . ولكن هذه التفاحة التي كان الجحيم فيها وكان العذاب. . . هل تقدسينها؟. . .
- فيها النار وفيها العذاب هذا حق؟ ولكن فيها أيضاً ما ذكرته أنت أولاً. . . فيها الدنيا، ونحن في الدنيا ولا طاقة لنا أن نقفز فيها إلى السماء. . .

- غيرك من الرسامين يستطيع أن يقفز بالتفاحة إلى السماء
- ولكن السماء لم تعد تثمر التفاح. . .
- من قال لك ذلك؟ إن من السماء صفرة التفاحة وحمرتها، ومن السماء فجورها وتقواها
- فكيف كنت تريدني أن أرسمها. . .
- إني أعرف وجهاً هو التفاحة؛ ولو أني رسام لصورته لك ولدفعتك إلى الأيمان به من نظرة واحدة. . .
- وجه من؟
- وجهك أنت. . . ألست ترينه في المرآة. . . ولكن كيف ترينه وأنت لم تنظري إليه يوماً بنفس مفتوحة وإن كنت تنظرين إليه دائماً بالعين المفتوحة. . .
- ماذا تقصد. . .؟
- أصحيح أنك تريدين أن تعرف ماذا أقصد، أو أنك تريدين أن نطيل هذا الحديث لأنه عنك، وعن وجهك، وأنت قليلاً ما تظفرين مني بحديث كهذا. . .
- لا وحياتك. . . فأنت تعرف أنني غبية إلى حد كبير وأني بطيئة الفهم، كما تعرف أنك خائن الحديث لا يسلم كلامك من الظلمة حتى عندما تصدق وعندما تصارح
- سامحك الله! فليس أبشع من هذا إزهاق لاستقامة نيتي وسلامتها. . . الذي أريد أن أقوله يا (مدموازيل ديليش) أنك كلما نظرت إلى وجهك في المرآة بحثت فيه عن علائم الصحة وعلامات الجمال التي تعارف الناس عليها، فأنت تفتشينه تفتيشاً دقيقاً، فإذا أرضاك خرجت به بعد تزيين بسيط، وإلا فأنت تزيدين حتى يكون مكياجاً وتنكراً تطالعين به الناس وفق ما يهوى عيناك. . .
- وهل كنت تريدني أن أرى وجهي بغير عيني. . .
- نعم. كنت أريد أن تريه بعيني أنا، فما كانت تمتد إليه يدك بدهان ولا بمسحوق
- ولكنه عندئذ قد ينم عما أحب أن أخفيه
- بل إن ذلك كان سيحميه دائماً منك، فيلزمك أن تبعدي عنه ما تحبين اليوم أن تخفيه أحياناً. . . كفى عن هذه الخفايا تستغني عن الأحمر والأبيض. . . أزهدي في الرموز تصلي في الحق وفي الفن إلى الأصدق والأجمل. . . أقلعي عن التكلمَّ تصلى في الحياة إني ابعد ما ترومين بأسرع مما تظنين. . .
- وماذا أيضاً. . .؟
- خذي صورة التفاحة هذه، فأنا أرفضها شاكراً. . . وأطلب صورة التفاحة الأخرى. . .
- التفاحة لا تستطيع أن تمزج الألوان ولا أن تقبض على الريشة. . .
- ذلك خير وأحب. . . فعلى التفاحة أن تبقى تفاحة. . . ولنطمئن كل الاطمئنان فإبليس حاميها وآدم لا يزال يسيل عليها لعابه

عزيز أحمد فهمي

من هنا ومن هناك

الموت ليس نهاية الحياة

(عن مجلة (باريد الإنكليزية))

قد يحدث أحياناً في جلسة خاصة لمناجاة الأرواح، حيث لا يحضر غير الوسيط وشخص آخر أو شخصان، أن روحاً مجهولة تتصل بالوسيط وتطلب منه إبلاغ رسالة أو تحية إلى أحد أقربائها الذين لا يزالون في قيد الحياة؛ وربما تذكر له أيضاً من هي وأين كانت تعيش. وقد يظهر أحياناً أن الروح تعثر على الوسيط مصادفة ثم تعجب لما تشعر به من قدرة على مخاطبته، فتبرهن بجلاء لا يقبل الجدل أنها روح حقيقة لإنسان ميت لا شخصية وهمية من اختلاق العقل الباطن

إن قصة (أرثر فريزر) التي نقصها عليك اقتبسناها من كتاب صدر حديثاً عنوانه: (إلى اللقاء لا وداعاً) تأليف (والتر بليارد) المحلف القضائي والمحافظ السابق لمدينة (شفيلد). أن هذا المؤلف كان يخاطب دائماً روح زوجته المتوفاة فتجيبه هي بلسان الوسيط، بنفس اللهجة التي كانت تتكلم بها في حياتها، وكانت تبرهن له على شخصيتها بالبراهين القاطعة. وكانت وهي على قيد الحياة تهتم بالأبحاث الروحية اهتماماً عظيماً، فكانت بالطبع مطلعة على الانتقادات التي توجه غالباً إلى مناجاة الأرواح، لذا كانت تحاول في كل مرة أن تقدم لزوجها عند مناجاتها براهين لإقناعه لا

يمكن دحضها أو الشك فيها، إذ تأتيه بأرواح أشخاص لا يعرفهم هو ولا أحد من الحاضرين.

يحدثنا المؤلف فيقول: بعد أن أدينا التحيات المعتاد وعبارات المجاملة نحو زوارنا الذين هم وراء الغيب، جاءتنا روح غريبة تطلب الإذن منا بالحديث، ثم قالت إنها روح شاب اسمه (أرثرايم):

(مت منذ ثلاث سنوات بمرض ذات الرئة في مستشفى محلي، وكان عمري إذ ذاك ثلاثة وعشرين عاماً. وكنت أسكن في منزل رقمه 18 (كلايف رود)، وقد تركت حبيبة لي اسمها (مس كارول) وهي تسكن في رقم 229 في (فلينت ستريت)، فأرجو منكم أن تخبروها بأني لست ميتاً وبلغوها عني سلام الحب فأني أظن ذلك يسرئ عنها، ثم أرجو أن تخبروا والدي بأن أمي معي وهي تهدي إليه تحيتها القلبية. . .)

أما أنا فقد اهتممت بالأمر واتصلت في الصباح التالي تلفونياً بالطبيب الذي يدير المستشفى الذي ذكره ورجوته أن يبحث في سجلاته عما إذا كان فيها اسم (أرثرايم)، شاب مات بذات الرئة قبل ثلاث سنوات. فأجاب الطبيب: (لقد مات عندنا رجل ذات الرئة قبل ثلاث سنوات، ولكنه لم يكن شاباً، إذ كان عمره فوق الأربعين. . .) أخذت مني الحيرة في هذا مأخذاً عظيماً، لأني لم أعهد من (الأرواح) قبل ذلك كذباً ولا افتراء. استنجدت بزوجتي طالباً منها التوضيح، فأجابت: (سوف تكتشف السر قريباً) فعزمت عندئذ أن أذهب إلى رقم 18 (كلايف رود) في الطرف الشرقي من المدينة حيث تسكن الطبقة العاملة. فلما بلغت هنالك وجدت ساكن البيت له أسم غير الذي ذكر، وهو كذلك لا يعرف عن صاحب الاسم شيئاً. وبعد أن قضيت طويلاً في البحث والتحقيق رجعت يائساً متعباً

بعد هذا سافرت خارج البلاد في عطلة وعند رجوعي عزمت على إعادة البحث، فقررت أن أزور بين الحبيبة (مس كارول) لعلني أجد لديها بعض الإيضاح. ذكرت عزمي هذا للوسيط فأخبرني بأنه خلال الأيام القلائل الماضية قد سمع لفظة (فريزر) تتكرر على مسمعه مرة بعد أخرى بصوت امرأة أول الأمر ثم بصوت رجل بعد ذلك. إنه لم يسمع غير ذلك ولم يدر ماذا يراد به. ظننت أن ذلك له صلة بالأمر فادخرته في حافظتي إلى حين

ذهبت إلى رقم 229 (فينت ستريت) وطرقت الباب فلما فتح ظهر من ورائه شابة فسألتها: (هل أنت مس كارول؟) فأجابت: نعم

- هل تعرفين شاباً اسمه (أرثرايم؟)

- أنا لم أسمع بهذا الاسم

فانحنيت احتراماً وسألتها سؤالاً آخر: (هل تعرفين (أرثر فريزر))

- ماذا تعني بذلك، وماذا تبتغي منه؟

- حسن! حسبي أن أعرف أنك تعرفين هذا الشخص

- لقد كان حبيبي ولكنه مات بذات الرئة قبل ثلاث سنوات.

وهنا أجهشت الشابة بالبكاء، ثم ذهبت إلى منضدة كانت في وسط الغرفة فألقيت عليها ذراعيها، واعتمدت رأسها بيديها أخذت تعول. أخذت أنا أهدئها، ثم شرعت أحدثها بقصة

حبيبها وتحيته لها، فرفعت رأسها قليلاً ثم شرعت تقص عليّ كيف عاشاً معاً حبيبين، ولكنه ذهب أخيراً للحرب في سبيل وطنه، ثم رجع محطما فقضي بقية حياته في المستشفى

إنها مأساة كغيرها من آلاف المآسي التي أنزلتها بنا الحرب ولقد وجدت صعوبة في تفهيم الفتاة كيف استطعت أن آتي لها برسالة من حبيبها المتوفى. ولكني حاولت ذلك جهدي

أرشدتني الشابة إلى دار حبيبها الفقيد الذي يبعد عن دارها مسافة خمس عشرة دقيقة على الأقدام، وإذ ذهبت هناك وجدت رجلاً يكسر خشباً في المطبخ فسألته:

- هل أسمك (فريزر)؟

- نعم

- هل زوجتك ميتة؟

- نعم

- هل فقدت ولداً في الحرب؟
- نعم
- هل كان لولدك حبيبة اسمها (مس كارول)؟
- نعم
وعندئذ تناول صورة شمسية من الجدار وأراني إياها. حقاً كان الرجل ذكياً محترماً في طبقته، وحين أوضحت له غرضي من زيارته، وقصصت عليه حديث ابنه وزوجته التي أرسلت إليه تحية الحب، كنت كأني قد لمست وتراً حساساً من قلبه فقال: (قد قرأت مؤخراً عن السر أرثر كوناتن دويل). وعلى هذا كان الرجل مهيَأً بعض التهيؤ لفهم الحقائق التي أدليت بها إليه
وبعد أن دخنَّا وتحدثنا رجعت إلى داري شاعراً ببعض الاطمئنان لما قمت به في ذلك الصباح، ولكني ما زلت أحس بقية شك في حنايا النفس. كان عليَّ أن أعرف سبب ذلك الخلط في الأسماء، إذ كيف أعطانا الشاب اسم (أرثر ايم) ثم انقلب الاسم بعد ذلك إلى (أرثر فريزر). سألت زوجتي فأجابت بأنها لا تعلم ولسوف تبحث الأمر. . .
وبعد لأي جاءتني بالتفسير التالي أنقله بدون تعليق: (إن اسم الشاب هو (أرثر فريزر) ولكنه حين كان يخاطبك جاء رجا آخر يقال له (. . . ايم) فوقف إزاءه. لقد كان هذا الرجل الأخير
متحمساً لتلك الصدفة لأنه مات بنفس الداء وفي نفس اليوم ونفس المكان، ولم يكد (أرثر فريزر) ينطق بشطر اسمه الأول حتى تدخل (. . . ايم) في الحديث ونطق بشطر اسمه الثاني، وعلى هذا اكتمل الاسم لديكم كأنه (أرثر ايم) من غير انتباه لما (بين الصوتين من اختلاف
أما أنا فقد اعتبرت هذا الحل ممكناً، ولكني لم أزل أشعر ببعض الحاجة إلى دليل أوضح، ولذلك ذهبت إلى الطبيب في المستشفى مرة أخرى فذكرته بزيارتي الأولى له وقصصت عليه القصة كلها، ثم رجوته أن يرجع مرة ثانية إلى سجله فاستجاب لي وأخذ يبحث، ولكنه سرعان ما تملكته الدهشة حين رأى ما يلي:
الاسمالعمر المرضتاريخ الوفاة
ارثر فريزر23سنة ذات الرئة21 920
جيمس هنري آيم 46سنةذات الرئة 22 920
حقاً إنها شهادة عظيمة، ولكنه لم يزل ثمة شيء ضئيل من التناقض، ذلك أن زوجتي قالت إن الرجلين ماتا في يوم واحد. وقد فسر الطيب ذلك ربما مات في منتصف الليل ومات الآخر بعد نصف ساعة، ولا شك أن زوجتي قد أخبرت بيوم الوفاة لا بساعتها
لقد عجب الطبيب من هذا الأمر لأني لم أكن أعرف قبل ذلك عن هذين الميتين شيئاً (م)

القصص

البعث

للأستاذ محمد سعيد العريان

جلس (أحمد) على مقعد في جانب من غرفتي الخاصة وارتفق بذراعه على المنضد الصغير وراح يفكر. . .
إن بعض الصور التي تتناولها العين في نظرة عابرة قد يكون لها من التأثير في حياة بعض الناس مالا تؤثر الأحداث العظيمة التي تهز العالم. هذا أحمد، شتان ما هو الساعة وما كان منذ ساعات. لقد عاد لتوَّه من السيما حيث كان يشهد رواية عن حياة الأديب الفرنسي الكبير (إميل زولا). . . فأين هو الساعة مما كان قبل ساعات؟ لقد رأى وسمع وعرف، ونظر إلى نفسه وحضرته ذكرياته وأمانيه، وراح يحاسب نفسه على ما أدى من عمل وما نال من جزاء، واستغرق في تفكيره. . .
منذ بضع عشرة سنة لم يألُ أحمد دأباً إلى غاية يستشرف إليها؛ فأين بلغ مما أراد؟ هذه حياته التي يحياها منذ كان، لم يتغير منها شيء يشعره شيئاً من الأمل فيما يستقبل من أيامه؛ ففيمَ كان جهاده ودأبه بذل من أعصابه ومن دمه في بضع عشرة سنة؟
أتراه يستطيع أن يقنع نفسه بأنه قد بلغ شيئاً؛ فأين. . .؟ وتراءت له صورة (سعدية)

الفتاة التي وهب لها نفسه ووقف عليها أمانيه، وتذكر من ماضيه القريب ومن ماضيها لقد تعارفنا منذ سنوات، بل لقد عرفته قبل أن يعرفها، فسعتْ إليه، فالتقيا، فما افترقا بعدها إلا على ميعاد؛ ولكن سعدية اليوم غير ما كانت، لأنه هو هو لم يتغير ولم يزد شيئاً على ما كان يوم عرفته!

أيكون ذلك هو السبب الحق لما بينهما اليومَ من الجفاء والمباعدة؟ ذلك ما خُيِّل إليه هو حين افترقا لآخر مرة منذ قريب فهجرها وإن في قلبه من الشوق إليها لهيباً يسعر! لقد كان (أحمد) أديباً موهوباً. إنه ليعرف ذلك من نفسه، وإنه ليؤمن به إيماناً لا سبيل إلى الشك فيه؛ وكان حقيقاً بهذا الإيمان أن يبلغ به المنزلة التي يهدف إليها منذ بدا ليتخذ مكانه بين أدباء الجيل. وكان على إرث من الأدب هيأ له الجو الذي يعنيه على استكمال وسائل الأديب وتحصيل مادته؛ واتخذ طريقه إلى الغاية التي يؤمل. . .

كان ذلك منذ بضع عشرة سنة، ولم يألُ دأباً من يومئذ؛ وعرفتْه سعدية مما قرأتْ له، وكانت رسالتها إليه أول الصدى الراجع، وكانت هي أول من عرف من قرائه؛ وتوثقتْ بينهما الصلة، وكانت في أوَّلها إعجاباً بالعقل الجميل فعادت أملاً يأمله وحلماً يتراءى لها. . . ومضى الفتى إلى غايته والحياة تُجِدُّ له في كل يوم أملاً وتوقظ عاطفة! وكتب وخطب، ونظم وألف، وراح يناضل في جهد الجبابرة ليشق إلى المنزلة التي يتنورَّها من بعيد؛ وقالت له فتاته: (متى أراك يا حبيبي هناك؟) ولم يجبها فتاها، لأن عينيه كانتا تنظران إلى هناك!

ومشيا ذراعاً إلى ذراع بين الحدائق الضاحكة صامتين، أما هي فكانت تبحث بعينيها بين الفروع الراقصة عن زهرة نضرة تقطفها عن أملودها لتجعلها في صدرها زينةً تتيه بها على لذاتها وصواحبها، وأما هو فكان في إطراقه وصمته يتسمَّع نجوى الغصون وهمس الزهر لينظم منها قصيدة ترفُّ رفيفَ الغصن وتنفخ نفخَ الزهر! وطال عليها الطريقُ وما بلغتْ، فقالت: متى يا حبيبي. . .؟ وقال. . . ولم تعَ ما قال ولم يعَ ما قالت؛ وتدابرا ومضى كلٌ منهما لغايته، وراحت تبحث عن الزهر وراح يبحث عن معناه. . . وكان فراق بينهما!

وعاد إلى داره في المساء وما في الدار غير خادمته العجوز، وجلس إلى المائدة ينتظر عَشاءه، وأبطأت الخادم لأن الدار لم يكن فيها عَشاء فتأتي به. . . وضحك حين عرف، وعيَّث في جيبه قليلاً ثم امسك، وآثر أن يطوى ليلتَه بلا عشاء؛ فإن ذلك أخلَقُ يَجمع له نفسَه ويوقظ حسَّه!

وجلس إلى مكتبه لحظات يقرأ بريد المساء؛ وكان بينه رسالةٌ تنفح عطراً، وقرأ. . .

(سيدي. . .

وإني أرسل إليك تحياتي على البعد. . .)

إنها لحظاتٌ سعيدة حين أقرأ لك فأشعر أني منك على مقربة وأنك مني. . .)

وإنه ليخيل إلي أحياناً وأنك. . .)

إنك لست بعيداً مني؛ أفتُراك تعرفني؟ ولكني أعرفك، و. . . وأحبك!)

ومعذرة. . .!)

وابتسم الفتى ثم عبس، وذكر سعدية. . . ثم طوى الرسالة وأودعها غلافها؛ وقال وكأنما يتحدث إلى شخص يجالسه: ليتك تعرفين يا فتاة وليتني أعرف! بل إنني أريد أن تعرفي! إنك تنشدين الزهر ليكون لك زينة تباهين بها في المحافل، وإنني أنشد معناه لأتخذه وحياً أتصل بأسبابه إلى السماء. . . كذلك كانت أختٌ لك من قبل!

ولكنه كان راضياً. . .

لم يبلغ المجدَ الأدبي الذي يناضل له منذ بضع عشرة سنة، ولم يبلغ الغنى، الغنى الذي يكفيه حاجة الحيَّ إلى وسائل الحياة؛ ولكنه كان راضياً، لأنه كان مؤمناً بنفسه، ومؤمناً بغده. . . ومضى على وجهه

وراح إلى السماء عشيةً يتزود لفنه وأدبه ويستجمَّ، ثم عاد. . .

لقد رأى وسمع وعرف، ونظر إلى نفسه، وحضرته ذكرياته وأمانيه، وراح يحاسب نفسه على ما أدى من عمل وما نال من جزاء، واستغرق في تفكيره. . .

وكان عليه أن يسد الخطبة التي طلبُ إليه أن يذيعها بعد أيام، احتفالاً بذكرى الأديب الراحل فلان؛ ذلك واجب لا يعفيه من إغفاله أن يعتذر؛ فإنه لصديقه، وإن له عليه ديناً يقضيه الوفاء أن يذكره به فيتحدث عنه حديثاً في يوم ذكراه!

وشرع قلمه، وهم أن يعد الخطبة التي ينبغي أن يذيعها عن صديقه الأديب الراحل في يوم ذكراه. واستجمع فكره، وتذكر شيئاً. . .

يا عجبا! ذلك الصديق الذي يهم أن يتحدث عنه، ماذا كان في حياته، وماذا هو اليوم عند الناس؟ لقد عاش حياته يجاهد لأمته ما يجاهد صابراً محتسباً قانعاً بالكفاف، لا يذكره أحدٌ بحق ولا يعرف له بداً. . . فلما غاله الموت - لما غاله الموت فقيراً معدماً بعيد الدار كثير الولد - تدانت الرءوس، واختلجت الشفاه، وسحت العبرات، وصاح الصائح في الأمة يدعوها لتخليد ذكراه، فإن حديثه اليوم على كل لسان، وإن ذكره في كل قلب. . . كذلك كان حياً وميتاً، فما متاعه بما صار وما عزاؤه عما كان؟

ماذا؟. . . أليس يعرف الناس للأديب حقه إلا أن يموت؟ ما أغلاه ثمناً للمجد!

وابتسم الفتى ساخراً، ثم سكت، وعاد إلى نفسه يؤامرها. . . وانصرفت نفسه عما هو فيه؛ وتناول حزمةً من الرسائل لم يقرأها بعد، وفض منها رسالة، وقرأ:

(سيدي. . .

فلماذا؟ ولماذا لا نجد في الأمة العربية شعراء وكتاباً ومنشئين كبعض من نقرأ . . . لهم من أدباء أوربا؟)

وطوى أحمد الرسالة وهو يتمم: نعم، لماذا. . .؟ لا لا، إنني أكاد أعرف. . . ولكن، لماذا. . . لماذا لا يزال - مع ذلك - والغنى؟ هذا هو السؤال الذي يحق!

وتذكر الرواية التي شاهدها في السيما منذ ساعات، وتذكر صديقه الذي يهم أن يعد حديثاً عنه ليوم ذكراه. . . وصمت برهة، ثم وقف، وراح إلى المصباح فإطفاء، وقصد إلى فراشه، ولكنه لم ينم. . . واستغرق في تفكير عميق. . . وأحسبرد الراحة على قلبه حين انتهى من تفكيره إلى حد. . .

وأصبح أصدقاء أحمد يسألون عنه فلا يجدونه، ومضت أيام ولا حسٌّ ولا خبر، إلا . . . رسالة موجزة تلقاها بعض صحبه، وليس فيها إلا هذه الكلمات:

(إنني ذاهب. . . لقد برمت بدنياي. . . وداعاً يا أصدقائي!)

وجدَّ أصدقاؤه في الطلب فلم يقفوا له على أثر، وظنوا الظنون. . . ثم استيقظوا، حين عثر بعض الرواد في صحراء الجيزة على أشلاء آدمية تكاد تواريها الرمال في قعر هوة سحيقة من هُوى الصحراء. لم يكن ثمة وجه يبين، ولا لسان ينطق، ولا اثر يدل، إلا قميصاً خلقاً قد حال لونه وتمزقت حواشيه، لقد أكل الوحشُ من ذلك الجسد ما أكل وأبلى الرمل ما بقى، فما هو الإعظام نخرة وأنابيب جوفاه وأديم ممزق!

وقال واحد من صحابته: لقد توقعت له هذه الخاتمة منذ بعيد، ويا طالما حذرته من ارتياد الصحراء وحيداً في غبشة الصبح وفي ظلمة الغسق فلم يسمع لي؛ يزعم أنه يجد هناك مهبط الوحي ومنبع العبقرية!

وقال الثاني: وكذلك زعمت لنفسي حين جاءتني رسالته يودعني ويستودعني؛ لم يقع في نفسي إلا أنه ذاهب إلى الصحراء؛ لقد تحدث إلى مرة. . . وكان يتشوف إلى اليوم الذي يفارق فيه دنيا الناس إلى معتزل هادئ على حدود الصحراء يأنس فيه إلى الوحش فلا يرى أحداً من الناس ولا يراه أحد! فلعله. . .!

وقالت الثالث: يرحمه الله! وانحدرت على خده دمعة فجاوبتها أخواتها من عيون أصحابه؛

وعزى بعضهم بعضاً؛ ثم انصرفوا يحملون رفات الشاعر الشهيد إلى مثواه؛ وتداعى الناس إلى مأتمه محزونين وإن حديثه ليرطب كل لسان؟

وكتبت اسم أحمد في سجلَّ الراحلين من أدباء الأمة. . . وصاح الصائح في الأمة يدعوها لتخليد ذكرى الأديب الراحل، وطفحت أنهار الصحف الأدبية بالحديث عنه وتمجيد ذكراه!

وانقدت جماعات، وتألفت كتب، وبذل مال؛ وتزاحم الناشرون يزايدون بالمال لشراء مخالفاته الأدبية. . . وجدَّ البُعداءُ من أهله يطلبون نصيبهم في تركته!

ومضى عام قبل أن يحددَّ يوم يقوم فيه الخطباء والشعراء لتأبينه، وكان يوماً مشهوراً. . .

كان المدرج الكبير غاصاً بأهل الأدب، وسروات المدينة، وذي الجاه والرياسة؛ وقد نُصَّتْ في صدره منصةُ عالية عليها كراسي مذهبة، يشرف عليها صورة مكبرة للفقيد العزيز مجللة بالسواد، تطل منها عينان ساخرتان على تلك الجموع الحاشدة؛ وكان في

ركن من القاعة فتاة ذات جمال قد انتقبت بنقاب أسود شفيف مبتلٍ بالدمع، وإلى جانبها فتيات. تلك هي سعدية؛ وجلس في الصف الأخير بضعة فتيان شُعْث غُبْر قد تأبطوا كتباً وصحفاً ومجلاّت قديمة، تدل ثيابهم وهيئتهم على الفقر والقناعة و. . . والعبقرية، وتنطق سِماتُهم وشارات الحداد في وجوههم بأنهم أكثر أهل الحفل إخلاصاً لذكرى صاحبهم الذي مات. . .! أولئك أسرة الفقيد من أهل الأدب!

وكان على الباب بوابون من ذوي اليسار والنعمة، يستقبلون القادمين ويدعون كلا منهم إلى مجلسه يوائمه. وتدلَّت الأنوار ثريات تكشف الشمس وتبهر النظر. وكانت حفلة، لو أحصى ما أنفق في أعدادها لكان حياةً من موت وغنى من مَتْرَبة!

وغصَّ البهو والشرفات بالوافدين على الحفل من أهل الوفاء والأدب؛ وحل الموعد، وصَغَتْ القلوب وأرهفتْ الآداب!

ووقف الخطيبُ الأول يذكر تاريخ الفقيد؛ وكان يلبس حلةً سوداء غالية، وقد أحكم المنظار على عينيه وتدلت سلسلته الذهبية على كتفه، وبَرَق الماس في إصبعه؛ وبدأ يخطب:

(أيها السادة!)

. . .وكان السادة منصتين في لهفة وتأثر

وتتابع الخطباء والشعراء يذكرون ما يذكرون من فضل الفقيد وعبقريته وعلمه وخسارة

الأمة بفقده

وقال قائل لصاحبه: (يرحمه الله!)

فقال صاحبه: (أما إنها لخسارة!)

وكان ثمة فتى رث الثياب، مخرَّق النعل، مرسل اللحية، يقتحم الصفوف صفاً صفاً يقصد إلى المنصة التي يتبارى عليها الخطباء. . .

وتأفف الناس وزمَّوا شفاههم استكراهاً وغيظاً، لكنهم صمتوا إجلالاً للحفل، وبلغ الفتى حيث أراد وهم أن يصعد، فاعترضته الأكفّ؛ ولكنه صعد. . .

وأخْذته العيونٌ من كل جانب، وكان يبتسم وفي عينيه سخرية وشماتة!

وفرغ الخطيب من خطبته فتنحى عن موقفه، وتقدم الفتى إلى موضعه، وهمَّ أن يتكلم. . .

وتدافعته الأيدي. . . ونظر إليهم ونظروا إليه. . . وتعارفت وجوه وتناكرت وجوه؛ ووقف الفتى ثابتاً في مكانه، وارتفع صوته يُبثُّ جلاجِل نفسه، وهتف:

(أيها السادة. . .!)

وسمعها السادة وقوفاً وأبصارهم إليه، ومضى يقول:

(أشكركم. . .!)

وعرفه من عرف ولم ينكره من جهل، وتدافعوا إليه. . . إنه هو. . . إنه أحمد!

قالها كل مستمع لصاحبه. . . لم يمت أحمد، ولم تأكله (ذلك يوم البعث ولا ريب):

وحوش الصحراء، ولم يحمله من حملوا إلى قبره يوم حملوا الرفاتَ المجهولَ النسب من مجهل الصحراء إلى معلمها؛ ولكنه كان حياً يرزق. كان يهيئ نفسه ليلقي أبلغ خطبة جهر بها خطيب، وأبْين قصيدة نظمها شاعر؛ وابرع سخرية أبدعها أديب؛ فخطب ونظم وسخر. . . واستمع لرأي الناس فيه ميتا حياً، وأسمعهم رأيه. وبلغ المجد الذي أراد، وبلغ ما شاء من الانتقام لنفسه ومن السخرية بالناس! وعاش!

محمد سعيد العريان

البريد الأدبي

حول آية إطعام الطعام

حضرة الأستاذ الكريم صاحب مجلة الرسالة الغراء

تحية واحتراماً وبعد:

قرأت في العدد (355) من الرسالة تحت عنوان (العقيدة الساذجة) جواباً لمحمود محمد سويلم واعظ (سمالوط) وهو ينكر نزول (ويطعمون على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً) في أهل البيت عليهم السلام وينكر صومهم. ويقول إنها قصة موضوعة؛ ولا ينبغي أن يحمل كلام الله تعالى على قصة هذا شأنها، وأن أقل تأمل في هذه القصة يدل على أنها مصطنعة.

إن إنكاره لم يكن بشيء جديد. فقد سبقه بعض أسلافه من إنكار نزول هذه الآية في أهل البيت عليم السلام، وادعوا بأن السورة مكية. على أنها مدنية وقد ذكرها الرازي في أربعينه، وابن المرتضى، والزمخشري، والقاضي في تفاسيرهم، والفراء في معالمه، والغنوي في شرح مطالعه، والواحدي، وعلي ابن إبراهيم، وأبو حمزة الثمالي، وأحمد الزاهد، والحكاني، وأبو القاسم الحسين (وهو من شيوخ أهل السنة) في كتاب التنزيل. إن تسعة وعشرين سورة مدينة وذكر منها (هل أتى) ولم يذكر خلافاً فيها.
وعن عكرمة، وابن المسيب، والحسن بن أبي الحسن البصري، وخطيب دمشق الشافعي والثعلبي. وقد أورد القضية كما هي في التفاسير وذكرها هبة الله المفسر البغدادي في الناسخ والمنسوخ. ومما أنشد في هذا المقام:

أنا مولىً لفتى ... أنزل فيه هل أتى

وقال آخر:

إلى م أُلامُ وحتى متى ... أعنف في حب هذا الفتى
فهل زُوجت فاطمٌ غيره ... وفي غيره هل أتى هل أتى

وقال ديك الجن:

شرفي محبة معشر ... شرفوا بسورة هل أتى
وولاء من في فتكه ... سماه ذو العرش الفتى

ولما علم الله تعالى صدق نياتهم بإيثارهم الطعام المسكين واليتيم والأسير أنزل على نبيه
(ص): (ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً).
وقال مجاهد وابن جبير والفخر الرازي في تفسيره:
وروى (ذكر الواحدي في كتاب البسيط أن آية ويطعمون الطعام نزلت في علي). نزولها في علي رضي الله عنه صاحب الكشاف، وقد ذكر القصة بكاملها. وهكذا رواها العّلامة أبو السعود في تفسيره المطبوع بهامش تفسير الفخر الرازي. وفي كتاب ينابيع المودة (ص93) عن موفق بن أحمد أخرجه بسنده عن مجاهد عن ابن عباس في قوله تعالى: (يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً. ويطعمون الطعام. . . الخ) مرض الحسنان عليهما السلام فعادهما جدهما صلى الله عليه وسلم. . . وروى القصة أيضاً ونزول (هل أتى) على النبي (ص). وذكرها القاضي البيضاوي في تفسيره، وروح البيان والمسامرة، وفي لباب التأويل في معاني التنزيل للعلامة علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي (المعروف بالخازن) وعلى هامشه الكتاب المسمى مدارك التنزيل وحقائق التأويل تأليف العلامة أبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي. أما الخازن فقد ذكر عن ابن عباس أن الآية نزلت في علي بن أبي طالب، ثم ذكر القصة الخ. وقال النسفي: (نزلت في علي وفاطمة وجاريتهما فضة)، وذلك لما مرض الحسنان وعوفيا وقد نذروا صوم ثلاثة أيام، فاستقرض على ثلاثة أصوع من الشعير فطحنته فاطمة كل يوم صاعاً وخبزته. وآثروا بذلك على أنفسهم مسكيناً ويتيما وأسيراً. ولم يذوقوا إلا الماء في الإفطار، فأنزل الله فيهم هذه الآية. وقال عبد الباقي الفاروقي العمري:

وسائلٌ هل أتى نص بحق علي ... أجبته (هل أتى) نص بحق علي

وهذا قليل من كثير ذكرناه ليطلع عليه من يقرأ رسالتكم الغراء. ولعل حضرة الواعظ يطلع على كلمتي هذه فيرجع عن رأيه الأول، وفي هذا خدمة للحق

(العراق)
كاظم الشيخ سلمان آل نوح
خطيب الكاظمية

إلى الدكتور علي حسن عبد القادر

كان خبراً ساراً في الأوساط الأزهرية أن اشترك في أسرة التحرير بمجلة (الرسالة) الغراء في هذا الأسبوع كاتب أزهري جديد هو الدكتور علي حسن عبد القادر الحاصل على الدكتوراه في العلوم الإسلامية من جامعة برلين، والمدرس بكلية الشريعة الآن، وبكلية أصول الدين من قبل. فأعطى هذا الكاتب مع إخوانه الأساتذة: محمد المدني ومحمد يوسف موسى ومحمد عرفه وعبد الجواد رمضان وغيرهم ممن يحصنون الرسالة بأبحاثهم القيمة، الدليلَ الواضحَ على أن النهضة الأزهرية لم تتمثل في (شباب

المراغي) فحسب، بل وفي (رجال المراغي) تمثلت أيضاً بصورة تدعو إلى الإيمان بمستقبل الأزهر السيد!. . .
ولكن أحب أن أوجه إلى الدكتور سؤالاً يدفعني إلى توجيهه الحرص على طلب الحق وذلك أننا سمعنا وقرأنا في غير صحيفة أن الدكتور ألقى منذ حين على فريق من طلبة كلية أصول الدين درساً في (مصطلح الحديث)؛ فعرض خلال هذا الدرس بالتابعي الجليل والمحدث الصادق الإمام (ابن شهاب الزهري) ووصفه بالاختلاق والكذب على رسول الله (ص)، وبأنه كان ممالئاً للأمويين ولذلك اخترع جملة أحاديث تخدم قضيتهم وترفع من شأنهم؛ ومن أمثلة ذلك أن الزهري لما رأى عبد الله بن الزبير يستقل بأمر الحجاز، وأن عبد الملك بن مروان يستولي على بيت المقدس ويرفع في المسجد الأقصى قبة الصخرة ليصرف الحجيج إليه؛ لما رأى الزهري ذلك اخترع أحاديث شتى في فضل بيت المقدس، ومن ذلك قوله على لسان الرسول صلوات الله عليه: (ولا تشد الرحال إلا لثلاثة مساجد: مسجدي هذا، ومسجد مكة، والمسجد الأقصى)!
قال الدكتور ذلك مع إجماع العلماء على أمانة الزهري وصدقه وورعه؛ ومع أن التاريخ يروي أن عبد الملك بن مروان سأل الزهري ذات يوم عن المعنى بقوله تعالى: (والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم). فقال الزهري: (هو عبد الله بن أبي ابن سلول) فقال عبد الملك: (لا. بل هو علي بن أبي طالب) فاشتاط الزهري منه غيظاً، وقال له: (لا أبالك!. . . أعلي تفتري أم على الله؟!)
ونحن نرجو الدكتور أن يتفضل بكلمة موضحة في هذا الموضوع وطني أن مجلة (الرسالة) التي تخدم الدين والأزهر لن تضيق بكلمة أو كلمات حول هذا الموضوع الخطير، فهل يجيب سؤلنا الدكتور عبد القادر؟!
(البجلات)
أحمد جمعه الشرباصي
الكتاب المتفرسون في لبنان
استفتت جريدة (الأنباء الأدبية) الفرنسية جميع الأدباء الذين يكتبون بالفرنسية مستقصية عن الدافع الذي يحدو غير الفرنسيين للكتابة بالفرنسية، وكان بين هؤلاء فرج الله الحايك مؤلف (برجوت) وهاك جوابه:
(تسألونني لماذا آخذ اللغة الفرنسية كأداة للتعبير. وجوابي على ذلك جواب الأكثرية الساحقة من اللبنانيين، وحالتنا هذه خاصة بنا، فنحن لا نستطيع أن نفصل بين محبتنا لفرنسا، وبين تأثيرها الثقافي علينا. فنحن نعيش في وسط فرنسي، فرنسي في روحه ولغته)
(ورغم التباين العميق بين لغتنا الأولى العربية، وبين اللغة الفرنسية، فنحن نهضم هذه إلى درجة أننا أصبحنا نفكر بالفرنسية. إن اللغة العربية غنية جميلة وسائغة، ولكن هذه العقبة القائمة بين اللغة المحكاة واللغة التي نكتبها تولد للسامع نوعاً من التشويش)
ونحن لا يسعنا أمام جواب الأستاذ فرج الله حايك إلا أن نهنئه بهذه المكانة الأدبية التي جعلته كاتباً مرموقاً في لغة أجنبية
إلا أننا نستأذنه بأن نصحح ما جاء في جوابه عن معدل اللبنانيين الذين يفكرون ويكتبون بالفرنسية فهو دون شك لا يؤلف أكثرية كما يقول بل هو عدد محدود جداً ولا سيما بعد النهضة الحديثة التي أوجدتها البكالوريا اللبنانية في معاهد اللبنانية في معاهد التدريس وبين النشء الطالع. هذا مع العلم بأن التفكير والكتابة بالفرنسية شيء ومحبة فرنسا شيء آخر
(الجمهورية البيروتية)
محاضرة في الموسيقى بالمعهد الليلي البريطاني
ألقى الدكتور كيناستون سنل مدير المعهد الليلي البريطاني بالإسكندرية محاضرة في هذا المعهد تحدث فيها عن فن الموسيقى
وقد استمع لهذه المحاضرة كثير من محبي هذا الفن وغيرهم من الطلاب، وكان بحث الدكتور في هذا الموضوع دالاً على خبرته واقتداره. وقد عرف الدكتور سنل الموسيقى بأنها فن تأليف الأصوات لإثارة الغبطة في النفس. وقال إنه لما كانت اللغة لا تفي بالتعبير عن العاطفة أحياناً، فإن المرء يعمد إلى إبرازها بإضافة الصوت والحركة إليها وكان مما قاله عن الموسيقى الأوربية أنها نتجت من تمرين الأفراد على تعرف نظام

الجمع بين الأصوات. على أن القليلين من الناس حتى بين ممارسي الموسيقى - يستطيعون تعرف مقام الربع في النغم
أما الموسيقى العربية فقال عنها: إنه ليس فيها شيء من نظام الموسيقى الأوربية من حيث التأليف بين الأصوات، وإنما هي (خط واحد). والأذن العربية مهما قل حسها تستطيع أن تتعرف الأرباع. ويميل الموسيقيون في مصر الآن إلى إدخال بعض التراكيب الموسيقية الأوربية على الموسيقى العربية
وختم المحاضرة بحثه بذكر ما يجب على السامعين في الحفلات الموسيقية من الأمور كالإصغاء للتوقيع وتجنب الحديث وعدم الآتيان بحركات تؤثر في صفاء جو الغناء والموسيقى وجلاء روح الفن
وفاة الأستاذ عبد الحميد بن باديس
نعت أخبار الجزائر الأستاذ عبد الحميد بن باديس رئيس جماعة العلماء وزعيم الصحفيين والأدباء توفاه الله يوم 8 ربيع الأول الموافق 16 إبريل. وقد كان رحمة الله من رجالات الشرق الأفذاذ نفسية وعلماً وخلقاً
ولد في قسنطينة سنة 1309، وأتم دروسه في الزيتونة، وطوف في بلاد الشرق، ثم عاد إلى وطنه فأنشأ مجلة الشهاب، واجتمع عليه نخبة من الطلبة في الجامع الأخضر (الذي أصبح فيما بعد موئل الثقافة الدينية بالجزائر) فصال وجال في دروسه وخطبه ومقالاته نيفاً وربع قرن يدعو إلى إصلاح الديني والاجتماعي والسياسي، فأوذي وفتن، ولكنه خرج من فتنته كالتبر لم تزده النار إلا صفاء وإخلاصاً. عند ذلك اتجهت إليه الأنظار في شمال أفريقية، فتبوأ عرش الزعامة في كل مجمع والمحبة في كل قلب
إسماعيل محمد عزمي
رأي الأستاذ ميخائيل نعيمه في ليالي الملاح التائه
طالعت في ديوان (ليالي الملاح التائه) شعراً متين الحبك، مشرق اللون، قوي النبرة، مؤمناً بذاته، وطلعت عليَّ منه عاطفة لا تتستر بخيال إصبعها ولا تتلبس غير لباسها. وكنت أود لهذه الشاعرية ألا تغرق في لجج الوطنيات، ولا تفرغ حماستها في كؤوس الخيام، أشكر لك يا أخي هديتك المسلوخة عن قلبك، وأتمنى لقلمك لا تشيخ . . .
تيسير الفقه
كنت أقلب صفحات (وحي الرسالة) للأستاذ الكاتب الكبير صاحب (الرسالة) أعزَّ الله يراعته، فرقعت عيني على ما في أدنى الصفحة التاسعة والعشرين وأعلى الصفحة الثلاثين من كلام جرى بين الإمام الشيخ محمد عبده طيب الله مضجعه وبين شيخ من رجال المحكمة الشرعية. سأله الأستاذ الإمام فيم يشتغل؟ فقال: نعلم النصارى الذين يدخلون الإسلام أركان الدين. فقال له: يكفي أن تقول صل وصم وزك وحج. فقال: ولا بد أن نعلمهم الوضوء. فقال: قل له أغسل وجهك ويدك إلى مرفقيك وامسح رأسك وأغسل رجليك. فقال: ذاك لا يكفي ولا بد أن نعلمه حدود الوجه من أين يبتدئ وإلى أين ينتهي. وقد أجابه الإمام بحدة قائلاً: قل له يغسل وجهه، كل إنسان يعرف حدود وجهه من غير حاجة إلى مساح.
شعرت بعد قراءة هذه الجمل بحاجة الفقه الإسلامي إلى تيسير، وهذا يكون بتأليف كتاب ينطوي على المباحث الفقهية كافة، يستغني به عن كل مطوَّل ونختصر، ويقرر تدريسه في الأزهر وفي سائر البلاد الإسلامية ليكون الفقه مألوفاً للناس على اختلاف معارفهم ومداركهم، وعائشاً مع الثقافات كعلم ثمين وأما أسس التيسير فينمّ عنها التيسير نفسه، ومع ذلك فربد من الإشارة إلى بعض هذه الأسس والطرائق والأشكال:
1 - حذف الزوائد الفقهية من مستحقات وآداب وإساءات (وعلل غير معقولة)
2 - استعمال اصطلاحات جديدة منظمة وإلغاء الاصطلاحات القديمة - فيما إذا تحقق اضطرابها -
3 - الأخذ بأسهل الأحكام وأيسرها للناس. فمثلاً يقضي الحنفية بوجوب الوتر ونقض الدم
للوضوء. والشافعية يجعلون الوتر سنة ولا ناقضية للدم؛ فيؤخذ بأحكام الشافعية ومثلاً يقضي الشافعية بأن الصلاة الإبراهيمية فرض في الصلاة وتركها مبطل للصلاة ويعتبرون مس الرجل للمرأة ناقضاً لوضوئه. والحنفية يجعلون الصلاة الإبراهيمية في الصلاة بسنة لا تبطل بتركها، ولا يرون في مس المرأة نقضاً للوضوء فيؤخذ بأحكام

الحنفية
وهذا النماذج المذهبي ضروري للعالم الإسلامي الذي هو وحدة دينية لا تتجزأ، وقد أشرت في كتابي (التشريع الإسلامي) إلى بعض هذه المعاني بشكل فيه نوع وضوح ولا مانع من مراجعة آراء الظاهرية والزيدية والأباضية وبعض فرق الشيعة للاستفادة من ملاحظتهم والاستنارة بآرائهم
وهذه عملية فيها صلاح للمسلمين كثير؛ فقد أثخنتنا الخلافات أذى وأشبعتنا هو أنا. وأرجو أن أسمع من الأساتذة الذين بحثوا أخيراً في موضع الأزهر وإصلاحه رأيهم في هذا الأمر
(القاهرة)
جلال الحنفي
تخليد ذكرى المرحوم مصطفى صادق الرافعي
رغب بعض حضرات الأدباء والشعراء تأخير يوم الاحتفال بتخليد ذكرى المغفور له الأستاذ مصطفى صادق الرافعي وتحقيقاً لرغبتهم قررت لجنة الاحتفال إقامة الساعة السادسة من مساء الخميس 2061940 بدار مجلس مديرية الغربية بشارع المدرسة بطنطا. وترجو اللجنة حضراتهم أن يتصلوا بحضرة سكرتيرها الأستاذ أمين حافظ بطنطا إلى يوم الجمعة 1461940
رئيس اللجنة
الدكتور عبد العزيز العجبزي
عضو مجلس الشيوخ
تصويب
جاء في مقال الأستاذ محمد يوسف موسى المنشور في العدد الماضي ثلاث كلمات محرفة وهذا صوابها:

صفحة	عمود	سطر	خطأ	صواب
938	2	7	وكذا الواحد وَكْدُ الواحد	
939	1	12	ذلك ما يزيد	ذلك إلى ما يزيد
939	1	16	إلى كل هذا	إلى كل هذا. . .

رسالة النقد
تعقيب على تصحيح
للأستاذ محمد محمود رضوان
ذكر الأستاذ عبد القادر المغربي في العدد 356 من الرسالة عدداً كبيراً من المآخذ التي رآها في الجزء الثالث عشر من كتاب نهاية الرب للنويري، ولا يسع كل أديب وباحث إلا أن يحمد للأستاذ تلك الغيرة على تصويب كتاب له قيمته الأدبية كنهاية الأرب خصوصاً وقد وفق إلى حد كبير من تلك التصويبات وإن أخطأه التوفيق أيضاً في كثير منها
وللنويري صاحب نهاية الأرب في قلبي مكانة لم يحتلها أديب غيره من أدباء العصر التركي فهو أحبهم إلي وآثرهم عندي، إذ أن بيني وبينه - فوق إعجاب بمجهوده الجبار في تصنيف موسوعته العظيمة - آصرة الوطن وهي فوق كل آصرة
ولعل من القراء من يذكر مقالي الذي كتبته منذ عامين في جريدة الأهرام عن النويري، ودعوت فيه إلى إحياء ذكرى هذا الأديب المنسي، ونوهت بفضل موسوعته وما أشاد مؤرخو الأدب بها، وكان أن أخرجت دار الكتب المصرية بعد ذلك الجزء الثالث عشر من نهاية الأرب مشكورة، وإن كانت لا تسير في إحياء هذا الكتاب إلا كما تسير السلحفاة
وإذن فقد حق عليّ رأيت الأستاذ المغربي يتسقط الخطأ تسقطاً، ويلتمس الزلل التماساً أن أنافح - بالحق - ما وسعني النفاح عن المؤلف تارة، وعن المصححين أخرى، وهأنذا مورد ما كتب الأستاذ ثم أتبعه نقاشي له
1 - قوله (ففتحها) صوابه (ففتحهما) إذ أن الضمير يرجع إلى العينين (ص11س21)
هذا ما قاله الأستاذ الناقد وأقول: إنه ليس على ذلك التعبير غبار، والعرب كثيراً ما

تذكر الاثنين - وخصوصاً إذا كانا لا يكاد أحدهما ينفرد وذلك كالعينين واليدين والرجلين - وتعبر عنهما مرة وبأحدهما مرة، قال الفرزدق:

ولو بخلت يداي به وضنَّت ... لكانْ عليَّ للقدرِ الخيارُ

فقال يداوي، ثم قال ضنت وهو يعني اليدين.

وقال آخر:

وكأن في العينين حبَّ قرنفُل ... أو سنبل كحلت به فانهلَّتِ

فقال العينين، ثم قال كحلت فانهلت، وقال بعض المحدثين:

فدتك بعينيها المعالي فإنها ... بمجدك والفضل الشهير كحيل

ومن ثم فتعبير نهاية الأرب صحيح ليس عليه مأخذ. . .

2 - (ص25س14): وينادى إلى ذات اليمين وهو يقول: أنا من يشهد لك بالتوحيد الخ

قال الأستاذ الناقد: فقوله (وينادى إلى ذات اليمين) صوابه (وأوى إلى ذات اليمين) - أي مال ولجأ إلى الجهة اليمين - وأقول: لو أن (نادى) قريبه من (أوى) خطأً، لكان ذلك كلاماً حسناً، أما وبينهما ما بينهما، ففي ذلك التخريج من التعسف ما فيه، على أنه ليس ما يدعو إلى تخطئة نادي وتبدل غيرها بها، ويظهر أن ذكر فعل القول بعد فعل النداء - وهما متقاربان معنى - هو الذي أشكل على الأستاذ، فجعله يفضل الاجتزاء بواحد منهما ويتبدل أوى بنادي، مع ذكر القول بعد النداء كثير سائغ. ورب العالمين يقول (فحشر فنادى، فقال أنا ربكم الأعلى)؛ ويقول (ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي). فليس من غضاضة إذن في قول النويري: (ونادى إلى ذات اليمين وهو يقول. . . الخ). إذا أعربت الجار والمجرور - إلى ذات اليمين - حالاً من الضمير المستتر في نادى

3 - (ص67س11): قوله: (فقال فتى منهم حدث السن) خطأ، وصوابه: (حديث السن)؛ وعبارة المصباح: (يقال للفتى حديث السن، فإن حزفت السن، قلت: حدثٌ بفتحتين). . . أي من دون إضافة حدث إلى السن

وأقول: لا محل لهذه التخطئة، وإن كلام المصباح الذي استشهد به الأستاذ، ليس فيه دلالة قاطعة على أن قولك (حدث السن) خطأ، وإنما يدل على أن قول (حدث) يساوي في معناه قولك (حديث السن)، على أنك لو أضفت (حدث) إلى (السن) إضافة توضيح ما بعدت ولا تجنبت، وكيف وعبارة القاموس تؤيد ما أذهب إليه وهي (ورجل حدث السن وحديثها بين الحداثة والحدوثة فتىٌّ) وذلك واضح

4 - (ص127س7): قوله (حتى بلغ بها إلى البحر) صوابه (بلغ بها البحر) من دون حرف الجر لأن فعل البلوغ يتعدى بنفسه

وأقول: لا أدري كيف يمنع الأستاذ تضمين الفعل معنى فعل آخر وهو مطرد على ألسنة الفصحاء وأئمة البيان واللغة، ولست أستشهد بفعل غير الذي معنا - وذلك كثير - ولكني أذكر عبارة وقعتُ عليها في كتاب (فقه اللغة) لأبي منصور الثعالبي أورد فيها الفعل بلغ معدي بإلى، وكأنه ضمنه معنى وصل أو انتهى، والثعالبي هو الثعالبي. قال ص578: (ومثله قوله عز وجل (ومنكم من يرد إلى أرذل العمر) وهم لم يبلغوا إلى أرذل العمر فيردوا إليه)

5 - (ص139س7): (وقيل إن النساء خلون به ليعدلنه لها) يعني أن نسوة المدينة لما بلغهن خبر جفوة يوسف لزليخا امرأة العزيز خلون به ليعدلنه، وقد ضبط فعل (يعدلنه) بدال المهمة المشددة من فعل عدَّله إذا أقامه وسواه. قال الأستاذ المغربي: (إن الأصوب والأليق بالمقام أن تكون (يعذلنه) بالذال المعجمة من العذل على معنى أن النسوة خلون بيوسف وأخذن في عذله ولومه على ما كان من جفوته لسيدته وإنه لا معنى للتعديل والتقويم هنا إذ ليس المقام مقام تربية ولا تقويم، وإنما المقام مقام حب وجفاء)

وأقول: إنه ليس ثم داع لهذا التصويب، وإن الكلمة لا هي يعدَّلنه كما ضبطها الشارحون ولا يعذلنه كما يرى الأستاذ المغربي؛ وإنما هي يَعْدِلْنه بغير تشديد من الفعل الثلاثي عدل بمعنى عَطَفَ، والمعنى أنهن خلون به ليجعلنه يعدل إليها وينعطف، والدليل على ذلك ما يقوله صاحب الأساس في مادة عدل (وعدلته عن طريقه وعدلت الدابة إلى طريقها: عطفتها)؛ وهذا الطريق يعدل إلى مكان كذا. وفي حديث عمر رضي الله عنه: (الحمد لله الذي جعلني في قوم إذا ملت عدلوني كما يُعْدَل السهم).

6 - (ص242س2): (فعرفوا الخضر فحملوه بغير نول) قوله (فحملوه) لعل صوابه (فحملوهما)، أي حملوا كلاًّ من الخضر وموسى وإن كانوا لم يعرفوا إلا الخضر، ويشهد لما قلنا قوله بعد (فلما ركبا في السفينة) بألف التثنية أي الخضر وموسى
وأقول: إن ذكر الاثنين ثم إعادة الضمير على أحدهما دون الآخر مما جرى عليه العرب في تعبيرهم كما استشهدت في أول هذه التصحيحات، وخصوصاً إذا كان ثم مسوغ بلاغي أو معنى لهذا الحذف؛ وهذا المسوغ ذكره الأستاذ الناقد نفسه في خلال كلامه، وذلك قوله: (وإن كانوا لم يعرفوا إلا الخضر). على أن الحذف باب من أبواب البلاغة المشهورة، فقوله (فحملوه) يتضمن محذوفاً أي (موسى) وذلك مطرد في كثير من كلام العرب وفي كلام الله، ألم تسمع إلى قوله تعالى (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله)؛ قال
بعض المفسرين: (إن الضمير في ينفقونها عائد على الفضة، واستغنى بذلك عن عود الضمير إلى الذهب والفضة معاً للدلالة)
والعرب تخاطب الاثنين أيضاً، ثم تنص على أحدهما دون الآخر فتقول: ما فعلتما يا فلان؟ وفي القرآن (فمن ربكما يا موسى) وأغفل هرون، وفيه (فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى، خاطب آدم وحواء، ثم نص في إتمام الخطاب على آدم وأغفل حواء، فلا فرق بين عبارة النويري وهذه الشواهد إلا أن هذه للخطاب وتلك للغيبة، وسبب الحذف واحد في الجمع وهو التنويه بالأهم غيبة أو خطاباً
وقريب من هذا - أو عكسه - ما تفعله العرب من نسبة الفعل إلى الاثنين وهو لأحدهما كقوله تعالى في قصة موسى نفسها (فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما) مع أن النسيان كان من أحدهما لأنه قال (فإني نسيت الحوت وما إنسانيه إلا الشيطان) وكقوله تعالى: (مرج البحرين يلتقيان) وأحدهما عذب والآخر ملح، ثم قال: (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان)، وإنما يخرج اللؤلؤ والمرجان من الملح لا من العذب وهكذا يجد المتأمل في لغة العرب غير قليل من السعة والمرونة لا محل للتزمت فيه. . .
7 - (ص271س5): قال موسى يا رب بما سمعت دعاء بلعام على فاسمع دعائي) عليه قوله: (بما سمعت) لعل صوابه: (كما سمعت) أي اسمع دعائي كما سمعت دعاءه. . .
وأقول: إن في هذه التخطئة غير قليل من التجني على اللغة إذ أن مثل هذا التعبير عند تذوق أساليب العربية وقرأ كلام الله وأحاديث رسوله صحيح سائغ رائع، ولأقرَّب المعنى المراد أستعدي الإعراب فهو رائدنا إلى الصواب. وذلك أن (الباء) في عبارة النويري للسببية و (ما) مصدرية، والمعنى: (يا رب، بسبب سماعك دعاء بلعام على فاسمع دعائي عليه). وذلك كثير في كلام الله وإليك الشواهد:
(أ) قوله تعالى: (إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون) أي بسبب فسقهم
(ب) قوله تعالى: (قال لا تؤاخذني بما نسيت) أي بنسياني
(ج) قوله تعالى: (ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون)
(د) قوله تعالى - وشبيه به عبارة النويري لفظاً، وليس كمثله شيء -: (فأما الذين اسودت
وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) أي بسبب كفركم
وبعد: ففي تصويبات الأستاذ المغربي - غير ما ناقشت - كثير لا محل له، كتصويبه (المضيق بالمطبق) وهو سجن إبراهيم تحت الأرض مع أن المضيق كما في القاموس هو المكان الضيق. وقد خصصت عبارة النويري بأنه تحت الأرض، وذلك هو المراد ففي كل غناء عن (المطبق) التي يأبى الناقد إلا أن يدسها دساً، وكتصويبه (النحيب بالنحيب) والأولى صحيحة تؤدي المعنى كما اعترف، وكتصويبه (تفوهت بنوهت) والأولى تؤدي المعنى مع زيادة اقتضاها المجاز الخ. . .

(القاهرة)

محمد محمود رمضان

مدرس بالجمالية الأميرية

العدد 363 - بتاريخ: 17 - 06 - 1940

العلم المسكين!
للأستاذ عباس محمود العقاد
إذا غضب الإنسان التمس لغضبه هدفاً وإن ارتد إلى نفسه وأحب الناس إليه، لأن الغضب حركة ولا بد للحركه من اتجاه
وهكذا صنع صديقنا الزيات وهو غاضب على الحرب وأدواتها الجهنمية في عصرنا الحديث. فنظر إلى أقرب ما يرميه فإذا هو العلم المسكين: العلم الذي علم الناس أن يصنعوا البركان والإعصار، وأن يسلموا زمامهما للقاذف والطيار!
غضب الأستاذ غضبته تلك فتمنى لو أن للعالم (كرة إلى عصر الجمل والحصان، وحرب السيف والسنان، ومدنية القلب واللسان، لينجو من هذا العلم الذي يدمر ما يعمر، ويخلص من هذه الحضارة التي تأكل ما تلد)
ولو كر العالم إلى عصر الجمل والحصان وحرب السيف والسنان لما رضى صديقنا الأستاذ، لأن هولاكو وتيمور قد صنعا بالحصان والسنان ما لم يصنع قواد هذا الزمان بالإعصار والبركان، وزادا على ذلك بلاء الطواعين يضيفانها إلى بلاء الطعان، فأين يذهب العلم المسكين مع هذا الإنسان!
كلما أنبت الزمان قناة ركب المرء في القناة سنانا
بل ركب سناناً فوق السنان، وأتى معه إلى الميدان بالحيوان. . . وبالجان!
ولو تمثل العلم شخصاً يتكلم لاستغاث من هذا المخلوق الذي شوه جمال كل جميل حتى المعرفة والنور
وهل المعرفة إلا نور؟
وهل يأبى النور أن ينير إذا (اهتدى) به اللص في طريق الشرور؟
وهل يرتفع العلم بالإنسان إلى مكان أرفع وأطيب من فراديس الجنان؟
فماذا صنع في فراديس الجنان؟
سمع وحي الثعبان ولم يستمع إلى وحي الرحمن فويل لهذا الإنسان!
لقد ظهر الاختراع مع العلم فماذا صنع الإنسان قبل أن يخترع في العصر الحديث اختراع العلماء؟
اخترع الحصان أداة للكر والفر والطعان!
جاء به من الأجمة والجبل أسلم ما يكون بين فصائل الحيوان، وقذف به إلى الميادين أخطر من النمر والثعبان. . . بل أخطر من المارد والشيطان!
وقبل الحصان حملته قدماه!
وقبل القدمين ركب رأسه وهواه
ولولا رأسه وهواه لما ضاقت به دنياه. . . كان له الله!
أخي الغاضب على الحرب! دع العلم في مكانه منها، فوالله إنه لرحمة بالإنسان حتى مع هذا الشر الذي يتفجر به طبعه ويتدفق به نبعه
إنه لأرحم به من الجهل يوم كان الطاعون يقتل مائة إلى جانب كل قتيل واحد يسقط في حومة القتال، ويوم كان كل واحد بؤرة تجتمع فيها ملايين الملايين من جراثيم الحميات والأهوية الوخيمة لتتفرق بعد ذلك من جبل الأطلس إلى أقصى الصين.
وقد مات في الحرب الأمريكية مائة وثمانون ألفاً في حومة القتال وضعف هؤلاء القتلى ماتوا بالأوبئة والأمراض
وأحصوا في حرب القريم خمسة وعشرين ألفاً من الإنجليز والفرنسيين ماتوا بالرصاصة والسيف، ونيف وتسعين ألفاً ماتوا بطعنة مكروب صغير لا تراها العين ولا يعلم بوجودها المقاتلون. لا بل هذه السرعة التي تنعاها أيها الأخ على العصر الحديث هي التي تعجل بالسلم وقد كان بطيئاً من قبل كالبطء في كل شيء من أشياء الزمن القديم
فأين هي الحرب التي تدوم اليوم ثلاثين سنة كما دامت حرب الثلاثين؟
وأين الحرب التي تعود اليوم في كل موسم كما كانت حروب القبائل البادية تعود في كل مرتبع أو كل مصطاف؟
أما عدد القتلى فما كان أكثره بالأمس، وما أقله اليوم بالقياس إلى عدد الأمم المشتركة في الحروب
لقد مات في حرب جنكيز خان نحو عشرين مليوناً، واشتركت أمم الأرض في الحرب

الماضية فكان القتلى فيها أقل من تسعة ملايين
ودارت معركة بين الإنجليز والإيفوسيين في أوائل القرن السادس عشر، فبلغ القتلى من
هؤلاء الأخيرين عشرة آلاف، ولم يكن سكان إنجلترا وإيفوسية يومئذ يزيدون على أربعة ملايين
وسر ذلك أن القوة قد اشتدت في سلاح الفتك وسلاح الوقاية على السواء؛ فالمدفع الذي يقتل ألفاً تخيفه طيارة يديرها رجل واحد؛ والأسلحة التي تبذل فيها الأمة ألف مليون يصدها الحصن الذي تبنيه الأمة بمائة مليون، واللغم الذي يودي بالمدرعة العظمى يلقطه وعشرات معه زورق صغير
ولكل شيء آفة من جنسه!
والفضل للعلم الحديث الذي صدم الشر بالشر فوقفا متكافئين، ولو انطلقا بغير رادع لهلكا متسابقين إلى الهلاك
فالحق أننا لنتخيل الدنيا وقد احتشد في جانب منها عشرات الملايين، وترامت بينهم ألوف الجثث وهم بعيدون من المعقمات التي اخترعها العلم والمطهرات التي صنعها العلم ووسائل العلاج التي استنبطها العلم، ثم نتخيل ما وراء ذلك من أوبئة وطواعين، ومن حميات وأدواء، ومن صرعى لا يجدون القبور ولا القابرين، فلا يسعنا إلا أن نغضب كما غضب الأستاذ من الحرب، وإلا نثور كما أثار الأستاذ على البغاة الآثمين، ثم نخالفه بعد ذلك فننادي بالعلم جهد ما نستطيع من نداء: مكانك فينا أيها العلم فلا رحمة لنا في عهد الحصان والسنان، وإنما الرحمة لنا في عهد الإعصار والبركان، ومن يلجم الإعصار والبركان. لأننا إذا رجعنا كرة أخرى لم نفقد الشر الذي يضري بالقتال ويغري بالعدوان، بل فقدنا الضياء الذي يرينا الشر والخير يتصاولان ويتكافآن، أو فقدنا شراً يدفع شراً فلا يبغيان ولا ينطلقان
أذكر كلمة للعالم الكبير (أوليفر لودج) يقول فيها إن خلقة (الميكروبة) مكسب كبير لعالم الحياة، فلو فرطت فيه الدنيا لبقيت عند المادة الصماء، ولم تتجاوزها إلى ما وراءها من عالم الأحياء
وهذا الذي قاله أوليفر لودج حق عظيم
فلو أننا استطعنا أن نتخيل أنفسنا في مطلع الخليقة، وأن نتخيلنا مسؤولين: هنا مادة صماء تبقى أبد الآبدين، هنا مادة صماء،
وهنا جرثومة حية صغيرة تنمو وتنمو معها الحياة ولكنها لا تؤمن على سائر الأحياء، ولا بد من دواء يطول فيه العناء، فماذا أنتم مؤثرون يا معشر الخلق بين هذا البلاء وذاك الفناء؟
هنا يبدو لنا أن خلقة (الميكروبة) مكسب كبير كما قال (أوليفر لودج) الذي يقدس الجرثومة لأنه يقدس الحياة
وهنا يبدو لنا أن علاج (الميكروبة) مكسب آخر قد ارتقينا به في مراتب الفهم والمعرفة وكبحنا به كثيراً من شرور العجز والجهالة
وعلى هذا النحو تقترن المحنة بكل منحة، ويقترن العناء بكل نماء:
يبكي الطفل حين يولد، ويمرض حين تنبت له أسنان، ويختل ميزانه زمناً حين يدرك المراهقة، ويشقى بالتبعة زمناً حين يخرج من وصاية الأب إلى رشد الرجولة، ويعطي كلما أخذ مادام مرتقياً في مراتب الحياة
فمن يدر ما تشتري (الإنسانية) غداً وقد بذلت الثمن الفادح في الحرب القادمة؟
إنها مشترية شيئاً لعله يجمع بين فضيلة الفطرة وفضيلة الحضارة، وبين مزية الأناة ومزية السرعة، ولعله يفيض على بني الإنسان طمأنينة الواجد الذي يحمي ما يجد فهي خير من طمأنينة المعدم الذي لا يملك ما يفقد، وهي حالة يرضاها صديقنا الأستاذ إذا أغضبته الحروب، أو هي حالة أقرب إلى الإمكان من كرة أخرى إلى عصر الجمل والحصان، وحرب السيف والسنان
عباس محمود العقاد
في حياتنا الوجدانية
مهداة إلى الأستاذ عبد المنعم خلاف. . الكاتب الذي أحب)
(عالمه الوجداني

للأستاذ حسين مروة
ما الكرامة وما الشرف؟
ما الحرية وما المجد؟
أسماء فخمة رائعة، ذات أجنحة سحرية عجيبة ننجذب إليها طائعين مسحورين، فتحلق بنا في سموات من الخيال مواجة بالأنوار والألحان والمباهج. . .
أسماء ذات أبعاد ضئيلة، محدودة ناقصة، يكمن في أطوائها سر من الأسرار لا تحده الأبعاد الواسعة، سر يفيض الخير على جوانب الحياة كلها، ويطوف بالنفوس الإنسانية جميعاً فيثير في الضعيف العاجز مجرد الحنين واللهفة والألم، ويحمل القوي القادر على ركوب الأخطار والأهوال والمكاره، وقد ينفخ في الضعيف الحي الطموح قوة تكتسح بذور الضعف، وتصرع عوامل العجز والخنوع والاستسلام. . .
ما هي هذه الأشياء الحبيبة للإنسان تبهره أضواؤها ومباهجها وتشتد لهفته إليها كلما اقترب منها، ويتغنى بوجده بها في سره وجهره، في صحوه وسكره، في كوخه الوضيع وقصره الرفيع، سواء كان غبياً أم ذكياً، ضعيفاً أم قوياً. أكان بادياً في الصحراء القاحلة، أم حاضراً في المدينة العامرة؟ أكان فلاحاً يتصبب عرقه في حقله، أم عالماً يجرب في مخبره وينقب في كتبه؟ ما هذا الهوس المحموم يدفع الإنسان - أفراداً وجماعات - إلى غمرات الموت بين اللظى المستعر والحديد الحاصد، فيندفع راضياً مستعذباً لقيا الشدائد في سبيل ما يدعوه الكرامة والشرف أو في سبيل الحرية ومجد الأوطان، لكأنما هو - حين يلقى الشدائد في هذا السبيل - إنما يلقى أحبة أعزة في ظلال أمن وارف ودعة ظليلة ناعمة. . .؟
ما هي الكرامة والشرف؟
وما هي الحرية والمجد؟
هل هي حقائق ذات قرار في عالم الحس والواقع: العالم الذي نتعرف إلى حقائقه الموجودة بإحدى هذه الأدوات الخمس: العين التي تبصر الألوان والأنوار والظلال، والأذن التي تسمع الأصوات، والفم الذي يذوق الطعم، والأنف الذي يحس الرائحة، واليد التي تلمس الحرارة والبرودة والخشونة والنعومة؟
هل الكرامة والشرف، وهل الحرية والمجد حقيقة من هذه الحقائق المحسوسة في هذا العالم الواقعي الذي لا يعترينا الريب بوجوده؟
- كلا: ليست هي شيئاً من هذا كله - كما نعلم جميعاً
أتكون - إذن - معدومة لا قرار لها في هذا الوجود الواسع؟
أتكون - إذن - غارقة في بحر العدم اللانهائي؟
ولكن: كيف تكون الكرامة والشرف، والحرية والمجد - عدماً من الأعدام وهاهي أضواؤها الباهرة تبهر عيون الشعوب الضعيفة والقوية على السواء، وهاهي أنغامها الصارخة تدفع بالإنسانية اليوم إلى المجزرة الهائلة الطاحنة، وهاهي الدماء البريئة تراق على جوانبها، وقد كانت كذلك من قبل أن يقول الشاعر العربي العظيم:
لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى ... حتى يراق على جوانبه الدم
وستظل كذلك حتى ينصب ميزان العدل أمام الديان الأعظم. . .
كيف تكون الكرامة والشرف والحرية والمجد عدماً من الأعدام وهي نفسها تلف سبعين مليوناً ونيفاً من العرب بشملة واحدة وهم في رقاع من الأرض متباعدة؛ وهي: هي نفسها تشد الأواصر وتجمع القرابات، وتوحد المشاعر بين شعوب العربية على اختلاف الديار والأحوال. وهي نفسها - كذلك - تدفع ببضعة نفر من هؤلاء الشباب المتحمسين إلى المسرح يمثلون - أمام جمهور عربي متحمس - دوراً من أدوار جهاد العرب المقدس في سبيل الكرامة والشرف وفي سبيل الحرية ومجد الوطن؟
إذن: لا سبيل للشك في أن هذه المعاني الوجدانية السامية ليست هي من الأشياء الغارقة في بحر العدم المطلق، ولا سبيل للشك - إذن - بأنها في قرار مكين من هذا الوجود
نعم: هي موجودة دون شك ولكن. . . ولكن أين يقع محلها في بحر هذا الوجود الأوسع ما دامت لا قرار لها - كما قلنا - في عالم الواقع المحسوس؟
وهنا يبدو لنا سؤال هو مفتاح السر في هذا الموضوع:

ترى: أكان الإنسان إنساناً بمجرد هذا الوجود الحسي الواقع وحده؟ إذن فما معنى هذه الإنسانية المتبجحة بأسرارها الخطيرة؟ ما معنى هذه الإنسانية المفضلة - تفضيلاً مطلقاً - على كل شيء وهب نعمة الوجود؟. . . ما معنى هذه الإنسانية المزهوة بعظمتها إذا كان وجودها قائماً على جانب واحد هو الجانب الحسي الواقعي، الجانب المادي دون غيره؟ وأين يمتاز الإنسان - إذن - عن الحيوان الأعجم إذا كان يشاركه في هذا الجانب المادي من الوجود ثم لا يزيد شيئاً بعد ذلك؟

اللهم لا: إن هذا الإنسان العظيم لأرفع شأناً، وأجل خطراً من أن تكون إنسانيته العظيمة قائمة على وجودها المادي مجرداً، لا يسنده جانب آخر من جوانب الوجود. . . لا: ليس الإنسان كائناً حياً وكفى. . . بل إن الإنسان: كائن حي، أعلى، فهو إنسان - إذن - لأنه ذو جانبين اثنين يشارك بأحدهما سائر الكائنات الحية في هذا الوجود، ويتفرد الجانب الآخر واقفاً على قمة الهرم: هرم الحياة

فما هو الجانب الآخر الذي يصعق بالإنسان إلى قمة الهرم؟ هو لون من الوجود أفاضته الطبيعة على هذا الكائن الحي فصار إنساناً، وصار الإنسان سيد الوجود، على الإطلاق

هو لون من الوجود غريب يأبى التعريف والتحديد، لأنه يسمو فوق الحدود وفوق القيود، وإنما نعرفه بمظاهره وأثاره ليس غير

هو الآية الكبرى من آيات الطبيعة جاءت بها لتقيم البرهان على عظمة الخلق والإبداع الإلهي

هو الكوة التي يطل منها الأنبياء والمصلحون على الناس ليغدقوا عليهم أنوار الإيمان والفضيلة والرحمة والعدالة فتتفتح له عيون، وتعشو منه عيون. . .

هو المنظار السحري العجيب الذي يتطلع منه الشعراء، والفنانون الملهمون إلى الوجود، فيكشف لهم أسرار الوجود وخفاياه، ويلون لهم الحياة بألوان من الجمال وألوان من القبح، ويصور لهم الناس صوراً من الملائكة وصوراً من الشياطين، ويخلق لهم عالماً من السعادة يموج بالعطر والنغم، أو عالماً من الشقاء تفح فيه الأفاعي، وتضري الذئاب. . .

هو مصباح الفلاسفة والمثاليين يدورون به في مجاهل الكون وخباياه يبحثون عن الحقائق الكلية المطلقة، ويتغلغلون به إلى مكامن السر المحجب يستكنهون معنى الإرادة العليا فيما وراء المحسوس، أو يسيرون به على الأرض في دنيا المطامع والشهوات يبشرون برسالة الحق والخير والجمال الأسمى

هو العالم الجميل الذي يعيش به المحبون في سبحات من النور تصور لهم كل لمحة من جمال الطبيعة معنى من معاني الحبيبة أو الحبيب

ذلك هو عالم الخيال والذهن والإدراك، أو هو عالم (الوجدان) كما يسميه العلم فللإنسان - إذن - وجودان لا وجود واحد: هما الوجود الواقعي المحسوس، والوجود الذهني غير المحسوس، أو فلنقل: إن للإنسان حياتين: حياة مادية، وحياة وجدانية، وكلما كانت حياته الوجدانية أوسع أفقاً، وأكثر إشراقاً - كان أقرب إلى الإنسانية الصحيحة أو كان أقرب إلى معنى الكمال الإنساني وكلما ضاق به أفق الحياة الوجدانية ونظر إلى دنياه من نافذة الحياة المادية وحدها - كان أبعد ما يكون عن الحقيقة الإنسانية بمفهومها الأعلى، وأقرب ما يكون إلى حقيقة هذا الحيوان الأعجم يشاركه كل المشاركة في ماديته العمياء المجردة، بل قد يفضله الحيوان الأعجم في هذه الناحية المشتركة

وشعور الإنسان بالكرامة والشرف، وشوقه إلى الحرية والمجد - هما المظهر الأسمى لإنسانيته الصحيحة، لأن الشعور بالكرامة والشرف، والشوق إلى الحرية والمجد - هما أقوى مظاهر الحياة الوجدانية، وأدل على خصب الخيال، وسعة آفاق الذهن، وغزارة ينبوع الجمال النفسي، وقوة إشعاع الروح - هذه الأمور التي تنبع رأساً من دنيا الوجدان في حياة هذا الكائن الحي الأعلى. . . الإنسان

ولا فرق في هذا كله بين شعور الإنسان بكرامة نفسه وشرفها، وشوقه إلى حريتها ومجدها، وبين شعوره بكرامة قومه وشرفهم، وشوقه إلى حرية أوطانه ومجدها، بل: لعل هذين أمران متلازمان لا ينفكان كما يبدو لدى النظر العميق

وعلى ضوء هذا التحليل الصادق تعتبر الأمة العربية في مقدمة أمم العالم رسوخاً في

الحياة الوجدانية السامية، لأن تاريخا المجيد طافح بآثار قوة الشعور بالكرامة والشرف، وشدة الظمأ إلى الحرية والمجد، وأيامها التاريخية اللامعة حافلة بالأمثال العالية لحب الكرامة والشرف، وحب الحرية والمجد إلى حدود الغلو، وهي حافلة كذلك بالشواهد العجيبة على التضحية والفداء في سبيل هذه المعاني الوجدانية سواء في الماضي والحاضر، وستكون
للعرب مثل هذه الشواهد والأمثال في المستقبل - كذلك - حتى ينقذوا كرامتهم من الهوان، وشرفهم من الامتهان، وحتى يدركوا حريتهم الغالية السليب، ويؤثلوا مجدهم الرفيع الذي كاد يصبح خبراً من أخبار الغابرين الداثرين.
(العراق)
حسين مروة
إلى أين. . .؟
للأستاذ محمود محمد شاكر
- 2 -
قال صاحبي بعد قليل من سكتة صفير الإنذار بالغارة الجوية:
الآن وقد صم صدى هذا النذير البغيض، ومات صوت البومة الدميمة التي قامت تنعق على الموضع الخراب من عقل هذا العالم، فأسرعت الأيدي وتناهضت الأقدام، وخفت الأحياء ليطمروا أشلاء النهار التي كانت مبعثرة في طرقهم وبيوتهم على معركة الليل البهيم، إنهم يدفنون هذه الأشلاء الوهاجة خشية أن تراها عيون العافية من سباع الجو المنقضة بأنياب كرجوم الشياطين. آه يا صديقي! ما أقبح هذا وأفجره. ولكن دعني من هذا، فالآن أعود إليك
لقد مثلت لك بعض صورتها هي وبعض صورته عند أول اللقاء. لم أكشف لك بعد عن حقيقة النفسين وهما تعملان بأسباب من القدر، إن هذه الأسباب التي لا تدري متى أولها، قد أخذت تلتوي عليهما فيما يستقبلان من أيامهما، وثمة بدأ الإشكال، وتراكبت العقد الجديدة على تلك العقدة القديمة التي التبست عليهما في الطفولة، فلست أدري، ولا هما أيضاً يدريان، إلى أين المصير!
لمحها ولمحته في يوم اللقاء الأول، فوقفا طويلاً ينظران. وشخص البصر وكفت العين لا تطرف، وكأن العين قد أرسلت إلى العين رسلاً من أشعتها لتبحث في أعماقها عن معانيها الحائرة التي لم يستقر بعد على قرار مؤمن، تتبين فيه كلتاهما صورة كلماتها القلبية التي تنبض في موج الدم
أما هو، فقد أخذه ما يأخذ الغريق المشفي على هاوية من الهلاك الرطب الندي، ثم يفتح عينيه، فإذا هو ملقى على الشاطئ قد انتشلته من فزع الردى نجاة برحمة من روح الله. ولكنه لا يدري من الذي رده إلى الحياة بعد ملابسة الموت؟ ولا كيف كان؟ ولا أين هو؟ ولا أي مكان هذا؟. . .
وأما هي، فقد أنكرته بادئ اللحظة، ثم انكشف لعينيها الحجاب الكثيف الذي أرخاه الدهر الماضي بين أيامها وأيامه. . .
لقد عرفته وأثبتته معرفة، فأقبلت عليه تندفع بقوة الرد المتفلت من شد عشرين عاماً كانت تجاذبها دونه:
أنت، أنت!! أين كنت؟!
آه، لقد نسي المسكين عندئذ أين كان! إنه هنا. . .!
أليس هذا كافياً؟ أليس هذا هو كل شيء؟. . . أما الماضي، أما الحياة التي عملت في بنيانه أعواماً طوالاً كلها جهد وإرهاق. . .، كل ذلك ذهب وباد وأمحى، وكأن اليد التي تمحو ما تشاء وتثبت في تاريخ الإنسان، قد أمرت صفحتها على رقعة أيامه الماضية فغسلتها وطهرتها من سوادها، وردت إليه وإليها صحيفة أيامه بيضاء نقية قد تهيأت أن ينمنم فيها القدر تاريخه الجديد. . . أجل! كان هذا هو الإنذار الأول من القدر لهذا المسكين أنه سينسى معها كل تجاربه في الحياة، وأنها هي التي ستكتب له هذا التاريخ الجديد من القدر خيره وشره
ومضت الأيام الأولى بعد هذا اللقاء البغت على ذكرى حاضرة تصارع وحوش الماضي التي وطئت بأقدامها عهود الصغر وملاعب الطفولة فطمست معالمها ومحت بعض آياتها. جعلت هي تتكلم، وكأنها ذاكرة التاريخ الواعية التي لا تكاد تفلت شيئاً إلا أحصت

دقيقة وجليلة. حدثته وذكرته وأعادت عليه زخرف الصبا ووشيه من نسج حديثها، أما هو فبقي صامتاً ينصت لها خاشعاً ضارعاً يسمع صدى الماضي الذي يتكلم في سراديب النفس العميقة الممتدة الذاهبة بأساليبها الغامضة في أقصى غيب الحياة

كيف تدب الحياة في أشياء الطبيعة التي تخيل للناس أوهامهم أنها موات؟ كيف تستيقظ الأرواح النائمة في غار مظلم قد أطبقت على منافذه صخور صم من جبال الزمن؟ كيف تستقبل النفس - التي أحرقها الظمأ المتضرم - شؤبوباً من الغيث يهمي عليها بارداً عذباً زلالاً سائغاً يترقرق؟ كيف وكيف؟ لقد عرف هو كيف يكون ذلك كله حين تكلمت روحها في ثنايا روحه المتغضنة بأحزانها، وحين أخذت تناجيه بالذكرى. . .، ويتحدر في صوتها ذلك اللحن الخالد الذي يتحدر مع الغيث من السماء يناجي الأرض الظامئة المقشعرة المجدبة، فكذلك تهتز وتربو على مد أنغامه التي تفجر في ذرات الثرى كل ينابيع الحياة واستجاشت هذه الساحرة الجميلة التي خرجت عليه من لفائف الغيب المحجب تلك النفس المصممة العنيدة فما زالت حتى انقشعت الغمامة الغبية التي كانت تحيط بنفسه عمراً من قبل. إنه الساعة يسمع ويري ويحس، ويتغلغل في الحياة ببأس شديد. لا، بل كان في أول أمره هذا مضطرباً حائراً يدور بقوته حيث دارت به على غير هدى ولا صراط، كان ربما خلا فاستوحش فارتاع، فيحتمل كل أعباء الهم الذي يجده في نفسه، فيخرج يضرب في البيداء المقفرة البيضاء في مدا البصر، حيث لا يرى إلا صفاء السماء وبحر الرمل الساكن في مهاد الأرض. . .، حيث لا يسمع إلا حنين الرياح ونجوى أشواقها الأزلية في المهمة القذف. يمشي ثم يمشي حيث يتصرف به القدر الغالب، وهو لا يسمع مع ذلك إلا أنغام صوتها من حوله يتردد: أنت، أنت!! أين كنت؟

اشتعل القلب وفارت الروح، فانطلق بعد الحيرة والضلال في طريق سوى مؤيداً بهذه الروح القوية التي سيطرت على كل روحه بالحب والحنان، ومضى يعمل لها وبأسبابها نافذاً مقدماً لا يمل. ولكن سمعه لم يزل على حاله من الإصغاء ثابتة، كأنها إغماء أخذه كما تأخذ غمية الوحي إذا نزل فاشتد فاستبان، ثم تنحدر رنات صوتها إلى قلبه فتجري في أنهار الحياة المتدفقة في جثمانه بدمه، فيرجع الدم ألحانها ترجيعاً موسيقياً هفافاً آتياً من أغوار القدر العميقة. نعم، إنه لا يزال يسمع في مخارم نفسه ومهاويها صدى يتردد:

أنت، أنت!! أين كنت؟

فتجيبها الروح من أعماقها:

أنا هنا، أنا هنا!! أيتها العزيز!

هكذا بدأ بدؤه وقد نام كل ما فيه وخضع لسلطانها الذي لا ينتهي ولا يفتر، ثم دبت في روحه اليقظة الجديدة فتجددت النفس المتغضنة ورق شبابها، واستجمت قواها الشاردة بعد فترة كإغفاءة النائم في أنفاس الفجر الندي المتروح بعطر الرياض النضرة. ولكنه عاد - بعدئذ - برجولته يتوحش، فارتد إليه حذره الوحشي يتوجس خيفة، وأخذه بذلك الرعب من كل مكان أين أنا؟ وكيف كان هذا؟ ولم خضعت؟ وإلى أين أسير؟ كل هذه أسئلة جعل صداها يتردد في نفسه، ثم يلقيها على الدهر الأصم، فلا يجد جوابها جميعاً ولا تأويلها. ويومئذ جعل يصول صيال الوحش يريد أن يجد الفيل المفقود الذي يفرض فيه سلطانه على جوه وغابه. . . ولكن وا رحمتا له! لقد حق ما قلت يا صديقي: المسألة كلها قدر محتوم! رفعت الأقلام وجفت الكتب!

أرأيت إلى ما وصف لك من أول ما تلاقيا؟ أرأيت إلى ذلك الوحش الآبد الحذر الذي لا يألف الحياة ولا هي تألفه؟ أرأيت إلى تلك الفكرة الباذخة العضلة التي تأبى أن تذل أو تتهضم؟ أرأيت إلى البركان المتقلع في عنفوان فورته؟ كل ذلك قد استحال بين يديها، وتحت أشعة عينيها، وفي مس أنفاسها، شيئاً غير هذا كله. فكل ما توحش منه فهو عندها يألف وادعاً يلوذ بها خاشعاً متضرعاً، وكل ما بذخ وسما وتعضل فهو يتطامل لها ويرق ويتلين، وكل ما تقصف منه وفار وغلى فهو ينساب إليها صبابة وحنيناً ولوعة وعندئذ سكت صاحبي بغتة كأن لسانه قد عقد عقداً على ألفاظه، ثم تنهد واحدة كأنما أنهد بها ركن من جبله القائم في ضمير نفسه. ورمى بصره في هذا الركام المتكاثف بعضه على بعض من ظلام الليل. لم أرد أن أستثيره من هدأته التي يستريح إليها بعد

هذا الجهد الهائل الذي كان يتدفق به في حديثه. لقد كان يعاني من هذا الحديث أشد مما يعاني الهارب السائر في وحشة الليل الصامت في غول الصحراء، وهو هائم على وجهه تطارده من ورائه شياطين العذاب التي تريد أن تنتشطه إليها بخطاطيف هائلة من الرعب والفزع

كنت أرق له وآسى عليه، ويمنعني من الحديث معه مخافتي أن يكون ذلك ما يصرفه عن بعض الفكر الذي يتعذب به وبوساوسه وخطراته. نعم، إنه عذاب عقلي أليم، ولكنه على ذلك مما يعطي النفس بعض راحتها من عذاب الشك والقلق والحيرة والحياة كلها صروف متعاقبة يراد بها السمو بالنفس على وجه من وجوه الألم. والألم وحده هو الذي يستطيع أن يصقل النفس الإنسانية صقلاً رائعاً، وبذلك يرد إليها حقيقة الإيمان المشرقة بالاطمئنان والتسليم. إنه حائر يشك في حقيقة ما يقع عليه فكره ولكن هذا الألم الذي يصارعه صراعاً عنيفاً لا رحمة فيه، وهو نفسه الرحمة المهداة إليه، ليؤمن بعد ذلك إيماناً لا يداخله شيء من الشك أن قلبه لم يخطئ، وأن أفكاره القلقة هي التي تخطيء وأنه ينبغي أن تقيد أفكار العقل الحائر بأغلال متينة من أفكار القلب المؤمن

وتضربت في همسات الليل أفكاري فيه، وجعلت أستعيد في نفسي كل ما قاله لأرى من تحته المعاني التي تتهارب وتختفي بطبيعتها في ظل الألفاظ اللغوية المحدودة بمعانيها. كنت حائراً في فهم هذا الصديق الذي يحدثني عنه صديقه، وما صديقه إلا هو وكنت ألمح

هذا الجبل وهو يتخلع من أعضاءه التي ينهض عليها ثابتاً قاراً متسامياً يهزأ بالتلال القصيرة التي تطمح إليه بأبصارها، وجالت في نفسي أفكار وأسئلة لا جواب لها. يا رب! أهكذا يضمحل الرجل؟ وارتفع صوتي بهذا السؤال غير متعمد لذلك. فما هو إلا أن هب صاحبي من غفوة الفكر التي غشيته، فابتدرني يقول:

نعم، هكذا يضمحل الرجل! وما تريد أنت إلى ذلك؟ إنك دائماً تفجؤني بتمثال يتكلم بأفكاري التي أتكلم بها في غيب نفسي أي شيء هو الرجل؟ هل تستطيع أنت أو من سواك أن يقرر للعقل حقيقة الرجل، وأن يمتهد لفكرته أصلاً لا يزول، فإن يخرج عنهما أو عن أحدهما اختفى في العقل أن يكون رجلاً حق رجل؟ هذا هو الغرور الذي يتهاوى فيه الناس ما داموا ناساً يبغي بعضهم على بعض، فطرة ركبت في سر طبائعهم.

إن هذا ليس اضمحلالاً وضعفاً بالمعنى الذي تتوهم، إنه ليس من قوة في الطبيعة إلا وفوقها قوة تحكمها وتصرفها، وخضوع قوة لقوة أعضل منها ليس يعرف ضعفاً فيمن يخضع، وإنما هو القانون الطبيعي الذي يستقيم به نظام العالم. إنه لا يقال للدوحة الفينانة العظيمة: أيتها المسكينة، لماذا تخضعين لسلطان الفصل الذي تساقط به أوراقك؟ أو لماذا هذا الحنين الدائب إلى قطرات من الغيث، وهذا الجبل أمامك يسفح عليه ماء السيل ثم ينقطع أعواماً فلا يظمأ إليه فيحن كمثل حنينك إلى قطرات من الماء انقطعت بضعة أشهر؟ هذه طبيعة الدوحة، فإذا انقلبت طبيعتها إلى غير هذا الناموس قتلها الظمأ وتركها حطباً يابساً لمن يستوقد

آه أيها الصديق! إنك لن تعرف الحقيقة حتى تستشعر قوة الآلام الملتهبة التي تترك الرجل يتزايل على الشوق والوجد واللوعة كما يتزايل جبل من الفولاذ قد تجوفته نار متضرمة من لهب جهنم. أبغي قليلاً من الماء ثم أحدثك كيف اضمحل الرجل!

(لها تتمة)

محمود محمد شاكر

في سبيل الأزهر أيضاً

. . .فتوى. . . وفتوى

للأستاذ محمد محمد المدني

المدرس بكلية الشريعة

لست أدري: أيغفر لي قراء (الرسالة) الغراء أن أعود بهم مرة ثانية إلى (فائدة الأربعاء) بعد أن كتبت فيها مقالي الأول؟

في نفسها لا تستحق شيئاً من العناية، ولا تستحق أن نشغل بها قراء (وفائدة الأربعاء) (الرسالة) في الحين بعد الحين، وإنما أعود إليها لأنها تمثل ناحية من نواحي التفكير في الأزهر، نبغي أن يتناولها الإصلاح، وأن تحمي منها العقول والأفكار! وقد جد في

شأن هذه الفائدة جديد، ومن حق قراء (الرسالة) أن يطلعوا على هذا الجديد، ليتابعوا دعوة الإصلاح في كل خطوة من خطواتها، ويدركوا كل طور من أطوارها!

كان حديثنا الماضي عن (فائدة الأربعاء) تسجيلاً لفتوى غريبة أصدرها عالم جليل من جماعة كبار العلماء. وقرر فيها:

(أن فائدة الأربعاء جائزة لا شك فيها، بل هي مرجوة البركة، وليس فيها إلا عدة أمور بعضها جائز وبعضا مندوب إليه، وأن من يكذب بشيء منها، فهو منكر أو جاهل بما ورد في الدين من المتواترات . . الخ)

ولم نشأ يومئذ أن نعلق على هذه الفتوى التي كنا أول من لفت الأنظار إليها ودل على مواطن الخطأ فيها، ولكننا اقتصرنا على أن نسجل منها (بعض الظواهر)، ونستجلي (بعض الغوامض)، ثم طلبنا من فضيلة الأستاذ العلامة الشيخ عبد المجيد سليم مفتي الديار المصرية أن يدل إلى الناس برأيه فيها، وقد علمنا أن فضيلة الأستاذ الكبير قد اهتم بالأمر، وأن فتواه فيه على وشك الصدور إن لم تكن قد صدرت بالفعل قبل أن يصدر هذا العدد من الرسالة

ولكن فتوى أخرى في الموضوع قد صدرت فعلاً، من جهة لها قيمتها العلمية ومكانتها الرسمية، تلك الجهة هي (لجنة الفتوى بالأزهر)؛ التي تتألف من علماء كبار يمثلون المذاهب الأربعة، بينهم اثنان من جماعة كبار العلماء: هما فضيلة الأستاذ الكبير، وكيل الجامع الأزهر، وفضيلة الأستاذ المحقق شيخ السادة المالكية، وبينهم أيضاً مفتشان رسميان يقومان بمهمة التوجيه العلمي والإشراف الفني، في جميع المعاهد الدينية التابعة للأزهر، وقد أصدرت اللجنة فتواها (بالإجماع) الصحيح، الذي هو نتيجة اجتماع في مكان واحد، وتشاور ونقاش ومراجعة وإقناع واقتناع شأن المؤتمرات العلمية التي يطمأن إلى إجماعها، ويؤخذ به!

ونحن نضع هذه الفتوى بين يدي القراء، قبل أن نعقب بما نريد. قالت اللجنة - بعد أن ساقت نص الاستفتاء، وهو لا يخرج عما أثبتناه في مقالنا الأول - ما يأتي:

(هذه الفائدة - وإن احتوت على صلاة، وقراءة قرآن، ودعاء - قد حدد لها ولأجزائها التي تركبت منها زمان ومكان، والتزمت فيها كيفية معينة: يتجه صاحب الحاجة إلى ضريح معين، ويقرأ فيه سورة يس بالنية التي يريدها، ثم يمشي في طريق ضريح آخر، حتى يصل إلى مكان مخصوص بين الضريحين، فيصلي فيه ركعتين وهو حاسر الرأس، ثم يمسك عمامته بإحدى يديه، وحذاءه تحت إبطه، ويتمم شوطه إلى الضريح المقصود، وهو على هذه الحالة، ثم يدعو هناك بدعاء خاص، يتوسل فيه بالأنبياء، وبسيدنا آدم وحواء وصاحب الضريح الثاني، وقد اقترنت هذه العملية في نفوس الناس باعتقاد أنها إذا أديت على هذا الوجه كانت مرجوة النفع، وإذا لم تؤد على هذا الوجه لم يكن لها الأثر المطلوب

وهذه العملية بما قارنها من هذه العقيدة، وبما فيها من الترتيب والالتزامات المذكورة، لم يرد بها كتاب ولا سنة ولا يشهد بها أصل صحيح، وذلك فضلاً عما يصحبها من مظهر لا يتفق وجلال الدين، وروعة العبادة، فهي بدعة منكرة. وإن الابتداع في الدين كما يكون بأحداث عبادة لا أصل لها، يكون بتحديد زمان أو مكان أو كيفية للعبادة التي شرع أصلها، فما جعل الشارع له كيفية خاصة، أو حدد له زماناً أو مكاناً كصلاة الجمعة والاستسقاء والحج وجب اتباعه فيما حدده، وما لم يحدد له شيئاً من ذلك، كالنوافل المطلقة كان التحديد فيها ابتداعاً وإحداثاً في الدين، لا يصح عمله ولا ينبغي اعتقاده.

أما قراءة القرآن، وصلاة النافلة والتضرع إلى الله في المهمات والكرب من غير التزام شيء مما ذكر، ومع مراعاة الآداب الشرعية، فهي أمور ندب إليها الشرع الشريف، وصحت فيها الأحاديث

واللجنة تنصح للمسلمين أن يلتزموا في عقائدهم، وعباداتهم، وتضرعاتهم إلى الله حدود ما شرع الله، وألا يزيدوا من عند أنفسهم شيئاً من كيفية أو التزام زمان أو مكان، فإن ذلك أسلم لدينهم، وأبعد من مقت الله وغضبه (تلك حدود الله فلا تعتدوها، ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون) والله أعلم

هذه هي الفتوى الرسمية التي أصدرتها اللجنة الأزهرية وانعقد عليها إجماعها الصحيح، وهي تناقض الفتوى الأولى التي أصدرها أحد أعضاء جماعة كبار العلماء مناقضة صريحة من وجوه:

1 - الشيخ يقرر أن (فائدة الأربعاء) جائزة لا شك فيها بل هي مرجوة البركة، واللجنة تقرر أنها بدعة منكرة، لم يرد بهاكتاب ولا سنة ولا يشهد بها أصل صحيح
2 - الشيخ يستدل على ما يقرر بأن هذه الفائدة مركبة من أشياء بعضها جائز وبعضها مندوب إليه، وما كان كذلك فهو جائز شرعاً، واللجنة تخالفه لهذا السبب نفسه، وتقرر أن الابتداع في الدين كما يكون بإحداث عبادة لا أصل لها يكون بتحديد زمان أو مكان أو كيفية للعبادة التي شرع أصلها، وأن هذا التحديد ابتداع وإحداث في الدين، لا يصح عمله، ولا ينبغي اعتقاده
3 - الشيخ ينصح المسلمين والعلماء خاصة بعدم معارضة هذه الفائدة وأمثالها مما ألف أن يدافع عنه، ويحض عليه، وأن يلتفتوا إلى محاربة المنكرات المجمع عليها التي تركت حتى صارت كما يقول الشيخ (سبهللاً!) واللجنة تنصح المسلمين أن يلتزموا في عقائدهم وعباداتهم حدود ما شرع الله، وألا يزيدوا من عند أنفسهم شيئاً من كيفية أو التزام زمان أو مكان، وإلا كانوا داخلين في قوله تعالى: (ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون)

وقد قلت من قبل ما قالته اللجنة، ونبهت إلى مواطن الخطأ في فتوى الشيخ الكبير، فبماذا استقبل الجامدون قولي؟ لقد هاجت منهم هوائج، وثارت نفوس ما عرفت الثورة في حياتها لشيء قط، واهتزت لذلك أيد، وتزلزلت أقدام: قالوا: ما لهذا العالم الحدث يعرض للكبار من شيوخه، ويتحدى علمهم؟ وقالوا: ما أخطأ الشيخ الكبير، ولكن أخطأ العالم الصغير!

وقالوا: لا تصبروا على هذا الغلام الخف فيكبر أمره، ويستدرج الناس إلى شر يصيبكم عظيم، ثم هموا بما لم ينالوا وكف الله أيديهم وقذف في قلوبهم الرعب، وكان الله بما يعملون بصيراً!

وأنا أريد الآن أن أقولها كلمة صريحة خالصة، لا أريد بها إلا وجه الله، ولا أبتغي بها مصلحة إلا مصلحة العلم والعقل والدين، ولا أصدر فيها عن روح إلا روح الإخلاص للأزهر الذي يحمل لواء الشريعة المطهرة، بين متربصين به، حاقدين عليه مترقبين أن يكل عما يحمل فيتلقفوه من دونه

يا قوم: إن جماعة كبار العلماء هي (أكاديمية العلوم والمعارف الإسلامية)، فإذا اختلف أعضاؤها هذا الاختلاف، وكانوا في الشيء الواحد على (طرفي نقيض) دل ذلك من غير شك على فساد، ودل ذلك على اضطراب، ودل على أن الموازيين والمقاييس التي يحملها بعض الناس في أيديهم، ليزنوا بها ما حرم الله وما أحل، ويقيسوا عليها الكفر والفسوق والإيمان، موازين أقل ما يقال في شأنها: إنها تنقصها الدقة، وتحتاج إلى (الضبط الصحيح)!

إن (فائدة الأربعاء) قد وزنت بميزانين، تمسك بكليهما أيد من جماعة كبار العلماء، فسجل أحد الميزانين إيجاباً مطلقاً وسجل الثاني سلباً مطلقاً، وقد سمعنا من شيوخنا المنطقيين أن السلب المطلق والإيجاب المطلق لا يجتمعان في مادة واحدة، فلا بد أن يكون أحد الميزانين مختلاً، فنحن باسم العلم والدين نطلب أن يصادر الميزان المختل، وأن يحجر على الناس استعماله، وندعو (جماعة كبار العلماء) أن تصطلح على ميزان صحيح مضبوط، من كتاب الله وسنة رسوله (وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان!)

ولكن عفوا فقد نسيت! نسيت إني عالم صغير، ولا يجوز أن يتطاول الصغير إلى مقام الكبير!. فهل من عالم كبير يحمل عني لواء هذه الدعوة فيأخذها بقوة، ويأمر قومه أن يأخذوا بأحسنها، قبل أن تأخذنا الأحداث، وتأتينا سنة الله في الغافلين؟!

(ربنا ظلمنا أنفسنا، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين)

محمد المدني

حركات الإصلاح الإسلامية

3 - أزمة إسلامية

للدكتور علي حسن عبد القادر

دكتور في الفلسفة والعلوم الإسلامية من جامعة برلين

ومدرس بكلية الشريعة

تقوم على قمة حركات الإصلاح الحديثة شخصية ليس لها في الواقع دخل أو اتصال

مباشر بالحركة الوهابية التي أسلفنا الكلام عنها، وقد وصف الشخصية بحق جولد زيهر (بأنها صورة غريبة ظهرت في الإسلام أثناء القرن التاسع عشر).

ذلك هو جمال الدين الأفغاني (1838 - 1857) (الذي كان فيلسوفاً، وأديباً، خطيباً، صحافياً، وفوق هذا كله كان. . . سياسياً) والذي قال عنه براون في كتابه الثورة الفارسية: (بأنه أثر خالد باق على الأجيال)

ولقد رحل جمال الدين من أفغانستان وجاب العالم الإسلامي وأوربة؛ بل ومن الممكن أيضاً أن يكون قد جاب بلاد أمريكا!

وهو يعتبر - بدون شك - أباً لأفكار الجامعة الإسلامية:

أن لا نخلط بين أغراض هذه الجامعة وبين ما كان يحاوله عبد الحميد من انقلاب في السياسة العملية. ومن الحق أن نقول: إنه كان أول من دعا إلى اتحاد ساسة للمسلمين في وجه أطماع الغرب. ولكنه كان مع ذلك يحس في قرارة نفسه بالحاجة الماسة لبناء جديد من العالم الإسلامي تدخل فيه عناصر حرة، ويقطع ما بينه وبين التقاليد الموروثة من صلات وأواصر. ونظراً إلى أن جمال الدين الأفغاني كان ذا نزعة صحفية، وكانت له وجهة نظر سياسية في الغالب تؤثر فيه، ونظراً إلى أنه لم يكتب كثيراً، فإنه من الصعب أن نحقق تأثير هذه الشخصية الهائلة فيمن حولها. ورغماً مما أثاره في الغرب من ضجيج، فإنه من الصعب أن نستشف دخيلة نفسه ولن يحصل هذا أيضاً، فإننا لا نعرف من أين جاءته هذه الدوافع. بل أنه لم تصلنا تأثيراته في شكل محدد لأن تأثيره كان في الغالب في ثوب المعلم والمحرك أكثر مما هو في ثوب الكاتب؛ ولهذا فإنه من الخير لنا أن نحكم على الثمار التي نضجت على يديه. وهنا يثبت لنا أنه يرجع إليه الفضل في تلاميذه الذين هم كبار رجال الإصلاح وذوو اليد الطولى فيه وهم يشكرون له كل ما عندهم من خير

وعند ظهور جمال الدين الأفغاني كانت تتردد في الهند بعض أصوات، ويدور القول حول إصلاحات آخذة في النهوض في وجهات وأشكال مختلفة، ولكننا لا نعرف بالدقة مدى ارتباط جمال الدين ببدء الحركة في الهند وهل كان له فيها يد أو كان الأمر بالعكس، فهما من ناحية التأثير يتلاقيان معاً عند خطر واحد، وفي العصر الحاضر مع هذا يعتبر جمال الدين عند الشباب في الهند الممهد العظيم للطريق

وكانت تربة الهند في أوائل القرن التاسع عشر قد مهدت من ناحية تأثرها قليلاً أو كثيراً بالوهابية العربية، وكانت الحال في الحقيقة تبدو متفقة معها، ولو أن شكل الحركة الوهابية الشعبية المتحنثة لم تكن هي التي غذت الحركة الهندية الإصلاحية في روحها فإن التجديد في الهند صدرت عن طبقة غير مثقفة تثقيفاً عالياً، وكل ما هنالك أن هذا التقابل بين هذه الحركة والحركة الوهابية يمكن أن تشرحه وتفسره هذه اليقظة التي جاءت من تلك الهزة العنيفة التي صدرت من المركز الإسلامي بالبلاد العربية

وقد ظهرت حركة الإصلاح في الهند للعيان في شكل حركة عقلية على رجال مثل سيد أحمد خان مؤسس مدرسة عليكرة (المتوفى سنة 1898) قديماً، ومن أمثال أمير علي وخودا باخشا حديثاً، وقد تأثر هؤلاء الهنود تأثراً عميقاً بما هو ظاهر ملموس في وطنهم على الأخص من تأخر المسلمين وما أصيبوا به من ضرر بالغ من جراء جمودهم إزاء المدنية الحديثة، وهم على العموم - مخالفون في هذا جمال الدين - لم يندفعوا بدافع سياسي، بل أنهم اعتبروا خضوع الهند للإنجليز أمراً ضرورياً وأمراً مرغوباً فيه لذلك، كما أن حركتهم لم تصدر أولاً وبالذات من أفكار دينية اقتنعوا بها. وكل ما هناك أنهم عرفوا الثقافة الغربية واتصلوا بها، فقاموا بحركتهم تحت تأثير تأخر المسلمين. وإنهم كمسلمين محبين للإسلام - كما أحسوا - كانوا يرون أن الإسلام الصحيح الخالص لا يقف في طريق الثقافة الحديثة بأي شكل، وأنه في الأصل هو الدين الوحيد صديق العلم والتقدم. وعنوا (الإسلام الصحيح) ولم ينكروا أن الإسلام على ما هو عليه في الوقت الحاضر فيه ما بجانب الإصلاح وقد جاء هذا كما قالوا من أن البحث المستقل في مراجع الدين الأصلية

- يعنون الاجتهاد - غير جائز، وأن الناس خاضعون للتقليد الأعمى من جراء الإجماع الذي طغى على الإحساس وجعل الفقه جامداً مقيداً، وأن أفكار المتأخرين سويت بتعاليم الرسول

وقد رفضوا الأخذ بأحاديث كثيرة وتمسكوا بشدة بالقرآن الكريم

وقد اعتقد المسلمون بالهند - وليس ذلك بصحيح دائماً من الناحية التاريخية - بالمعتزلة الذين صوروهم بأنهم المفكرون الأحرار واتخذوهم كمثل عليا في التجديد. وسموا أنفسهم أحياناً بطيبة خاطر (بالمعتزلة الحديثة) لأنه فيهم قد ظهرت إلى الحياة أغراض هذه الفرقة الإسلامية الحرة وجهودها

ويظهر من طبيعة الأشياء أنهم أخذوا تعاليم من طريقة هذه المدرسة القديمة مما لم يفكر فيه بعد فمن هذا فكرة (تطور الفقه) التاريخية (فهم - أي المعتزلة - يرون بالنسبة للأعمال الإنسانية أنه لا يوجد قانون دائم وإن النظام الإلهي الذي ينظم سلوك الإنسان نتيجة للتقدم والتطور، وأن الله نظم أوامره ونواهيه في شكل متدرج متطور من القانون)، وقد بحثوا باجتهاد وذكاء في شرح المعاني والأغراض في القرآن والحديث الذي يستعملونه إذا خالف ذلك أفكارهم في سبيل التدليل على أن الإسلام الصحيح يحض على العناية بالعلم بلا قيد ولا شرط ولا يخالف نتائجه، وهنا أظهروا حقاً صورة للإسلام كمثل أعلى.

على أن هذه الطريقة التي استعملها رجال الإصلاح وإن كانت لا تقوى أحياناً على النقد التاريخي، فإنه مما يستحق التقدير حقاً كفاح هؤلاء الرجال في قضية أضاءت في نفوسهم، والمهم في الحكم إنما هو الغاية لا الطريقة، وهي ليست إلا محاولة لتحرير الإسلام من قيود المدنية للقرون الوسطى

والأمر الغريب هنا هو أن الخطوة الأولى لهذه الغاية الجريئة وهي رفض الفقه الإسلامي لم يقم بها على أساس ثابت مأمون ولم تأخذ اهتماماً عمليا؛ ويظهر أن حالة التقوى تمنع من ذلك

ولكن بجانب هذا قد مهد الطريق الآن لفهم التاريخ فهماً واضحاً لتقبل الفكرة التي تقول أن النظم المعتبرة تاريخياً لا يمكن أن تبقى سائدة دائماً، وفي آخر الأمر يكون قد تم الانتصار على مبادئ الضعف، وأكملت على الأقل خطوات خطاها المدافعون الأحرار عن المعارف

الدينية

هذه هي كلمة الأستاذ هرتمان عن حركة الإصلاح في الهند، أما حركة الإصلاح بمصر فموعدنا بها المقال الآتي إن شاء الله تعالى

علي حسن عبد القادر

التعليم المختلط

للأستاذ رفعة الحنبلي

أجابت الأمم العربية، في الآونة الأخيرة، لنوازع التجديد الأوروبي الحديث من نواح عديدة، سياسية واجتماعية، أدبية وعلمية، فأخذت بالبعض منها وهمت بالبعض الآخر؛ وأبعد هذه النواحي أثراً فيها الناحية العلمية التربوية التي أخذت بها، إذ أنها استبانت طريقها على ضوئها، وبدأت تتمشى حسب أنظمة التعليم الحديثة في معاهدها وكلياتها وجامعاتها، بعد أن بقيت ردحاً من الزمن محافظة على القديم منها، وراحت تتفهم مبادئها السليمة وتتلمس طرقها القويمة، وتزاوج بين القديم منها والحديث إلى أن أسبلت عليها رداء جديداً، وأسبغت عليها لوناً طريفاً، فرضيت به كمبدأ يستحثها على مماشاة النهضات العلمية العالمية، ويدفعها إلى تبوء مركزها الرفيع بين الأمم

وفي الواقع نرى الأمم العربية قد أعدت نفسها إلى الأخذ بهذه المبادئ التربوية - التي اعتكف علماء التربية على دراستها دراسة وافية شاملة، والتفقه فيها تفقهاً عميقاً، طوال سنين عديدة - فأقبلت عليها وسارعت إلى إقرارها، وكان أن تبدلت الأنظمة، وتغيرت الأسس وتلونت المناهج وفقاً للمبادئ التعليمية الحديثة التي تتلاءم مع احتياجات المجتمع وتطور البيئات؛ ومن أهم تلك المبادئ مبدأ التعليم كثر الجدل حوله بين كبار المربين، واحتدم الكلام بين علماء النفس في منافعه ومضاره، فمنهم من أقره ورغب فيه، ومنهم من أنكره وصدف عنه، ولكل منهم أنصاره وأعوانه وحججه وتجاربه

على أن الأمم العربية لم تأخذ بهذا المبدأ - مبدأ التعليم المختلط - في جميع مراحله من ابتدائية وثانوية وجامعية، بل اقتصرت على الدراسات العالية، أو بالأحرى اقتصرت على الدراسة في الجامعة وحسب، ولذا نشاهد ارتياد الفتاة الجامعات دون غيرها لنتصفح أوجه الرأي المختلف عليه في قضية هذا التعليم المختلط، ولندرس عناصره

وعوامله ولنقف على ظاهره وخافيه، ولنرسم خطوطه الكبرى كي نتفهم خصائصه ونستبطن دخائله
إن أول أمة أخذت بالتعليم المختلط هي الأمة الأمريكية، وهو طريقة تعليمية جديدة من مبادئه أن يتلقى الفتيان والفتيات التعليم والتثقيف معاً في معهد واحد وفي وقت واحد، مع
مراعاة درجة معارفهم ومستوى معلوماتهم وتفاوت أعمارهم دون النظر إلى الفارق الجنسي، على أن يشرف على هذا التعليم أساتذة من كلا الجنسين
والتعليم المختلط على أنواع ثلاثة: نوع يعرف بالتعليم المطلق أو التام منه تهيئة الطلاب من كلا الجنسين للعلم وإعدادهم للحياة الاجتماعية التي تستدعيها البيئة وتقضي بها الحضارة؛ ونوع آخر يعرف بالمدرسة المختلطة وفيها يجتمع الجنسان في الفصول وحسب؛ والنوع الأخير هو ما يطلق عليه التعليم المختلط المقيد وهدفه تهيئة الطلاب والطالبات للعلم وإعدادهم للحياة الاجتماعية على شرط أن ينظر إلى خصائص هاتين الفئتين من عقلية ونفسية حتى تتلاءم مع استعداد الأفراد من الجنس الواحد وميولهم ورغائبهم ومع بعض الاعتبارات والعوامل مادية كانت أو معنوية
ولتحقيق فكرة التعليم المختلط وجب تحقيقها، في بادئ الأمر، على الأساتذة الذين يشرفون عليها أو بالأحرى وجب أن تكون الهيئة التعليمية - كما يقول الدكتور في كتابه القيم (التعليم المختلط في المدارس الثانوية) - مؤلفة من مربين ومربيات ليتلقى الطلاب، على المعلمات، بعض الدراسات كما تتلمذ الفتيات على بعض المربين
وإذا ما أهملنا الجانب المادي الذي يتحكم في مصير هذه الفكرة تحكماً شديداً، والذي من شأنه أن يدفعها إلى التقدم دفعاً سريعاً، ويدنيها من غايتها المثلى. على نحو ما يذهب إليه بعض علماء التربية، وجدنا أن البعض الآخر يتساءل عما إذا كانت هذه الفكرة تتفق والتطور الطبيعي من حيث القابلية والاستعداد لكل فئة من هاتين الفئتين من الجنسين؟ . . . يتعلق جواب هذا التساؤل بدراسة نفسية كل منهما من النواحي التي تتصل اتصالاً وثيقاً بعلم النفس: كتطور الميول، وتباين الرغائب، واختلاف القوى واحتمال التعب وغيره
ولكن هل يصح لنا أن نرد تباين هذه النواحي إلى التربية العائلية وخصائص البيئة ومزايا الفرد، أم أنها تتعلق بالجنس من حيث جنس؟
في الواقع أن هذه النواحي ترجع إلى اختلافات جنسية ذات تأثير يجعل التباين بينهما إلى أبعد حدوده
قلت: إن أول أمة فكرت في هذا النوع من التعليم المختلط هي الأمة الأمريكية، وما أن استهل القرن العشرون حتى فشا هذا النوع في جميع معاهدها من ابتدائية وثانوية وجامعية؛
وبلغ عدد المعاهد الثانوية بحسب إحصاء رسمي قامت به حكومة الولايات المتحدة عام 1909 - 11075 عهداً مختلطا يؤمها 921736 طالباً وطالبة تتراوح أعمارهم بين الثالثة عشرة والثامنة عشرة منها 919 معهداً خاصاً بالطلاب عدد أفرادها 110725 طالباً؛ مع العلم أن هذا الإحصاء لا يشمل العدد الوفير من المعاهد المختلطة التي تشرف عليها الجمعيات الخيرية والدينية، وبلغ عدد الجامعات في إحصاء آخر 622 جامعة منها 158 جامعة خاصة بالفتيان 129 جامعة خاصة بالفتيات و335 جامعة مختلطة؛ فالفتيات إذن يختلفن في المعاهد الثانوية بنسبة ثمانين في المائة، وهي نسبة جد مرضية أما المدارس الابتدائية فيتردد عليها مئات الألوف من كلا الجنسين على السواء. . .
ولم يقف هذا التجديد عند الأمة الأمريكية فحسب، بل تعدى إلى الأمم الأخرى أشهرها التي تقطن شبه جزيرة اسكندنافية، وكذلك الأمة الفرنسية والألمانية والأسبانية وسواها. واجتاحت موجة هذا التجديد الأمة الإيطالية أيضاً فأصدرت قانوناً في الرابع من شهر حزيران عام 1911 أحالت بموجبه جميع معاهدها إلى معاهد مختلطة، وكذلك دور المعلمين أيضاً حيث كان الانتساب إليها مقصوراً على الطلاب
وأبدلت الحكومة الإنكليزية بدورها منذ مدة غير بعيدة ولأسباب اقتصادية جميع معاهدها الابتدائية والثانوية إلى معاهد مختلفة، إلا أنها قيدت التعليم المختلط بما يختص بالتعليم الثانوي حيث يجتمع الجنسان في بعض المواد وفي المختبرات وعند تناول الطعام على

أن يسمح لهما في الاجتماع في الأمسيات التي يقضونها معاً يستمعون إلى محاضرات في شتى العلوم والآداب والفنون

من هذا يتبين لنا أن التعليم المختلط قد فشا بين أكثر الشعوب المتحضرة والأمم المتمدينة وهم الأصقاع الأوربية والأمريكية وتناول بعض الأصقاع الشرقية أيضاً غير أن هنالك نظريات متباينة، في صدد هذا التعليم، من حيث منافعه ومضاره، أثارها علماء النفس والاجتماع والتربية، اضطربت فيها عناصر مختلفة من القيم، واحتربت فيها مذاهب كثيرة من التفكير فنرى الأستاذ أحد المربين الأمريكيين، لم يتوان عن إبداء رأيه العنيف فيما يتعلق باختلاط الجنسين في معهد واحد، بعد اختبار نيفت مدته على خمسة عشر عاماً. فإذا به يقول: (لمست في المدارس الابتدائية الصداقة العميقة والحب العنيف

بين طلابها وطالباتها وقلما تشاهد فتى لا يفزع إلى رفيقة له، حيث يختلفان معاً إلى دور الخيالة (السينما) - على حد تعبير الأستاذ البشري - وإلى المتنزهات العامة، وكثيراً ما تتوافر الهدايا على الطالبات من الأيفاع المحبين، وكثيراً ما تتعدد زيارات الفتيان المولهين للفتيات)

ويقول أيضاً: (أما في المعاهد الثانوية فيكفي أن تصيخ السمع قليلاً لتتأكد أن المحاورة التي يأخذ بها الطالب مع صديقته الطالبة بعيدة أقصى درجات البعد عن حل مسألة جبرية أو إعطاء رأي في قيصر أو إنعام نظر في مذهب من المذاهب الأدبية أو العلمية أو غيرها. . .) وقد لا نستغرب من الفتاة، في هذه الحالة، تغيبها المتواصل عن المعهد أسبوعاً أو أسبوعين بسبب هذه النوازع العاطفية، وبفضل هذه الأحاسيس العنيفة

حمل المربي الكبير العالم على التعليم المختلط، في مرحلة التعليم الثانوي، حملة عنيفة، استند فيها على اختباراته الخاصة التي قام بها طوال أعوام عديدة، إذ أنه يرى الفتى يفقد شيئاً من رجولته، والفتاة شيئاً من أنوثتها، وكذلك يرى أن الخصائص الفردية والمزايا الشخصية، لكل من الجنسين، تنحدران إلى هاوية سحيقة قد لا يسلم من خطرها الفتى أو الفتاة وقد ينتج من هذا الخطر نقص في الزواج في المستقبل القريب أو البعيد، ولا أدل على ذلك من أن معهداً كان يضم بين جدرانه 560 فتاة تأهل منهن أربع وستون منهن اثنتا عشرة فتاة تزوجن زملاءهن في الدراسة

لذلك نجد أن وحملا على التعليم المختلط في هذه المرحلة حملة فيها كثير من العنف والخشونة على الرغم من اعتراف الأول ببعض حسناته؛ وتذهب السيدة إحدى المربيات العالمات مذهب زميليها، وهي بعد تعتقد بأن تأثير التعليم المختلط هو أبقى أثراً على الفتيان منه على الفتيات، فأولاء يحتفظن بأنوثتهن بينما أولئك يفقدون شيئاً من رجولتهم، ودللت على صحة ما ذهبت إليه بما قامت به من الاختبارات في عدة مدارس مختلفة الأنواع، حيث رغبت إلى الطلاب أن يعرفوا لها (الحب)؛ فكانت أجوبة الطلاب الذين لم يختلطوا في يوم من الأيام تتناول الحب الأبوي والحب الأخوي والحب الإنساني وسواه. . . أما أجوبة طلاب المدارس المختلطة فكانت تتضمن الحب الوجداني والحب العاطفي وغيره. . .

والواقع الأليم أن الفتاة لا تستطيع أن تحتفظ بأنوثتها في اختلافها إلى المعاهد المختلطة، بل لا بد لها من أن تفقد شيئاً منها كما نوه بذلك العالم بل لماذا لا نذهب إلى أبعد من هذا الحد فنقول أن الفتاة قد تخسر شيئاً من خصائصها وتفقد قليلاً من مزاياها، وقد يتلون قسم من عواطفها ويتبدل كثير من نفسيتها. . . عوامل قد يكون لها أسوأ الأثر ليس على حياتها الحاضرة فحسب بل وعلى مستقبلها أيضاً. فالصداقة التي تتأصل في أطواء نفسها، وهي على مقعد الدراسة تدفعها للتعرف على الفتى من ناحية تتباين والناحية التي تتعرف عليها وهي على غير مقعد الدراسة، أو بعبارة ثانية أنها تتقرب إلى الفتى عن طريق الصداقة لا عن طريق الحب الذي تنشده ليلها ونهارها إذ تفتقر بذلك إلى الرجل المثالي التي تسعى وراءه

وهي إلى ذلك تتأثر إلى أبعد حدود التأثر بمعاشرتها الفتى، فتتغير عقليتها، وتتبدل نفسيتها، وتتلون عواطفها ويتحول طراز معيشتها إلى حد تلتزم فيه تقليد الفتى تقليداً قد يكون تاماً أو لا يكون، في معاملته أو في حديثه أو في خشونته أو في لباسه أو غير ذلك، وهكذا نراها تتسم بمزايا الرجولة التي كثيراً ما تجعل الرجل يصدف عنها ويعزف عن الحياة الزوجية إذا ما فكر في الزواج، وقد يثور الرجل على هذا التطور في أخلاق

الفتاة، وعلى هذا التبدل في نفسيتها بعد أن يكون قد قبله ورضي عنه حينما كان طالباً ونصيب الفتى من هذا التطور في الميول والعادات لا يقل أثراً عن نصيب الفتاة منه، بل ربما كان أبعد مدى فيه منها، فإذا هو مائع الرجولة، أنثوي الأخلاق، فقير الخصائص، فاقد المزايا. .

فالتقارب إذاً بين الفتى والفتاة يحور بعض مزاياه الطبيعية ويضعف بعض خصائصه الجنسية، وإن كانت بعض هذه الخصائص ترتفع وتسمو، وبعض هذه المزايا تنبل وتعلو على أن بعضاً من العلماء يقولون إن التعليم المختلط هو من أحسن الأنظمة التعليمية الجديدة وأرقاها ابتكرتها عقول جبارة نيرة، فيعترفون بأفضليتها ويقرون بحسناتها ويرتاحون إلى نتائجها على أن يقتصر هذا التعليم على الابتدائي والجامعي، أما التعليم الثانوي، فأشد ما يكون خطراً على أخلاق الناشئة وآدابها، غير أن البعض الآخر يقول بالتعليم المختلط في أدواره الثلاثة: الابتدائية والثانوية والجامعية

(البقية في العدد القادم)

رفعة الحنبلي

فن يستيقظ

للأديب نوري الراوي

فهم العربي جمال الكون بكل حواسه فأطلقه شعراً يفيض باختلاج حسه القصيَّ، ثم أنفذه نغماً في صميم الليالي الأندلسية البيضاء. . . وعاد فمات في عتمة الغسق التركي، فكانت بقيته اليوم بين حشرجة الماضي ويقظة الحاضر نسيساً في نفس مجروح، ونسمة من نسماته الندية تنطلق اليوم بعد فترة جمام كادت تطمس على خصائصه الأصيلة فتحيلها إلى العدم أو النسيان، ولكن الله الذي حفظ الروح العربية الإسلامية دهوراً طوالاً أراد أن يوقظها في صفوة أبنائها اليوم فكان ما أراد لله وشهدت العصور الحديثة أكمل القوى في ثورة تشمل الروح والجسد، يدعمها الإيمان ويشدها الحق وتظللها الحرية، فأدركت أن وراء هذه الأنفاس المفهورة نفساً يريد أن يكون لهيباً من جهنم، وشواظاً من بركان

ولكن الزمن الذي اتسع لأمجاد الفن العربي في مختلف عصوره، زحفته المدوية، فطوى بين أثنائه أياماً كانت شجىً في الحلق، ليلبس ثوب هذا اليوم الحديث في صورة من التأريخ. إن وراء المجد الذي كان بالأمس، قوة من المعنى أدارت رحاه، ونواة من الفن حفظت نوعه، فمضى يخط تاريخه في جلال الظافر وكبريائه، حتى دهمته الذئاب الدخيلة! فعبثت بروحانيته كما تعبث الريح بالرمال وأجهزت على فنيته فحطمتها

وبين عصرين من عصور التاريخ، تقلبت فيها الأحداث، وتخبطت فيها الحظوظ، وتعاقبت على صفحاتها الأيام، مني الفن العتيد بخطوب جسام كادت تشرف به على الهلاك. . . ولكنها الروح التي لزمته في صحاري الحجاز ودللته في بلاد المجد المفقود وهدهدت أعطافه على ضفاف بردي والفراتين عادت فاندفقت بين أضلع سادها الهدوء أزماناً. . .

لقد كان الفن العربي يوصل الأمة بمعنى من الجلال يسمو بها عن المدارك الدنيا إلى أجواء أمتع وأمنع حتى إذا ما رفعت أبصارها عن الأرض. . . حتى إذا ما انعتقت من أسر المادة، فهمت الفضيلة؛ فسادت بالرحمة وحاربت بالأيمان. . . وكان هذا سر الخلود

حيثما تكن الأمة من المكانة يكن حبها للفن، لأن النفعيات مطلب من مطالب الحياة الوضيعة التي تعيش لنموت، لا الحياة التي تعيش لتدوم. . . لتخلد. . . لتقول للتأريخ هاأنذا فاكتب. . .

ولكنه الفكر العربي الجبار يبرهن على وجدوه، يبرهن على قوته، يوم يعرف أن للحياة منازع غير ما علمته إياه البهيميةالأولى في الغابات والكهوف!. . . ليكون أستاذاً في تلقين المثل العليا لكل من يلوك اللفظ فلا يقع لسانه إلا على الأكل. . . والنوم. . . واللباس. . .

هنا يقف الفكر الحديث عند حد تنتهي به سياحته، الفكر الحديث الذي يعبد الآلة ويمجد المادة ويستعذب الوقوف أمام الصنم الجبار؛ ليجد أن العربي سبقه في الحياة وسبقه في الفكر وسبقه في التأسيس

برهان واحد من براهين أشتات نقف منه على حياة أجيال ماتت. . . لنكون نحن بقيتها على الأرض نوطن النفس على حمل هذا العبء الذي حمله الجدود أزماناً
في هذا المدى الوسيع الذي يشمل الصين في أقصى الشرق ويقف عند أزباد بحر الظلمات! بذر العربي بذور فنه الأولى، فكان الجامع الأموي في الشام يطاول بمآذنه السماء، وكان المسجد الأقصى يهزأ بالدهر للغلاب، وكانت معجزات الأندلس وعظائم بغداد شاهد على ذلك الخلود. هو الغرس العربي، يثمر رجالاً يمجدون الله، ينتج مآذن تجلجل فوق سامقات رؤوسها كلمة: (الله أكبر) . . .
ينتج فناً روحياً لم تسبقه إليه جهالات الأوربيين . . .
هناك في الصحراء. . . الصحراء التي يضيع البصر في مهامه مداها الوسيع، ويسبح الفكر على منكب لجتها السمراء، فما يزال يطفو ويرسب حتى يبلغ محجة تنقطع عندها أسبابه: تمخض الزمن الولود عن دين العلم والفن، فكانت أول بسمة من بسماته الندية ترف على روابي الحجاز وترتعش فوق بطاح الجزيرة، ثم لا تقف عند هذا حتى تفيض على العالم القديم بأسره فتشمله. هنا يبدأ بنا السبيل في سياحة مضنية طويلة، تريد جهداً وأدباً واصطباراً . . .
لقد جاء الإسلام، وفي النفس الجاهلية اعوجاج وعنجهية، فأقام الأول وأغرق الثانية حتى هيأها لأن تتقبل المعاني الجديدة وتستوعبها. فيقودها إلى غاية أبعد منها وأسمى ألا وهي: الفتوح ونشر الرسالة. ولقد كان الفتح أول الأسباب غير المباشرة إلى نضوج الذوق العربي لاختلاط البادية بالمدنية والشمس بالظل وتكوين لون جديد له سمة العيشتين وطابع
الحياتين، وكذلك أجزل الفتح المال والمال وسيلة الفن إلى الكمال، حيث أثمر هذا الاختلاط فكانت ثمرته تلك الحضارة الراسخة التي قال عنها بعض الإفرنج: إنها وليدة الحضارتين اليونانية والرومانية وما هي إلا عربية أصيلة الدم؛ لها لفحة الشمس وثورة الرمال التي لا تهدأ ولا تثوب . . .
هنا يدخل الدين بروحانيته في عداد هذه الأسباب التي أسبغت على الفن لوناً من ألوان الجمال الراكد والتأثير العميق. . . الدين الذي ارتقى بمعنويته إلى الله فعرفه، وغار في الأعماق فوقع على أسرار الكون وحقيقة الوجود، ثم تلمس الخلود عن المادة فطاوعته فإذا هي ريازة تبهر العقول، وإذا هي قباب تغرق في اللازورد، وإذا هي جوامع تبقى على الدهر باسم الله . . .
أما النفسية الطليقة. . . النفسية التي تجاذبتها عوامل البيئة الصحراوية المدنية، فرسمت على أديمها صفاء السماء وكدرتها، وخطت على صفحتها هدوء الطبيعة وثورتها، فقد تغنت بلسان حسان، وابن أبي ربيعه، والمتنبي، والمعري، وأبي تمام. فرجعت صدى هذه الأغنيات السنون . . .
ما كان للعربي الأول أن يبرع في فن التصوير ليعبر به عن خوالجه وآماله ومثله، ولكنه تكلم فصدق، وقال فكانت أقواله لوحات ترسم ألوان مشاعره منطلقة، حرة، عارية؛ وهذه وسيلة واحدة يتوسل بها ربيب الصحراء للتعبير عن خوالجه ونزعاته. . . لينقل كل ما يجيش به وجدانه من العواطف إلى أسماع تستلذ هذا الوقع الجميل وتستعذب هذه النغمة المطردة يلونها الزمن من حين إلى حين
على أن هذا الفن العريق الذي تتصل جذوره بأعماق الخيال البدوي كان اسبق وجوداً من بقية الفنون الأخرى
وعلى هذا السبيل الممهد تساوقت الفنون إلى البعث بعد أن كانت تثوي في ركن من أركان العقل البدوي ساكنة سكون البركان الذي يحمل معاني الثورة والاندفاع
لقد كان للطبيعية العربية القابلية الكبيرة على الأحداث والتوليد، وما الشعر إلا صورة من تلك الصور الممتعة التي عرفها العرب باسم (الآداب الرفيعة)، وذلك حينما تركز المجتمع في ظل المدينة وامتزج بعضه ببعضه ليكون هذا الفن الذي نشاهده في قصور الحمراء
وبرج الذهب وجنة الريف. . . ليكون هذه الموسيقى الساحرة ترجعها نغمات (بلنسيا)، على أسماع الملايين من أبناء الغرب، وفيها تتجلى الروح العربية الصافية بتأثيرها وعذوبتها وجمالها. .
ومشى الزمن يوسع الخطى؛ فإذا بعبد الله الصغير آخر ملوك الأندلس يقف على ربوة

عالية، يستشرف ملكه المضاع من خلل الهدب الرفاف بالدمع. . . وإذا ذلك الخلود بجنانه وقصوره، وأبهاته ومدارسه، ومحاريبه وجوامعه، يستحيل شيئاً فشيئاً إلى حلم ينطوي كلمح السراب. . . ويهينم الشراع في الفضاء:

ألا انقضى آخر أمل للعرب في الفردوس. . . ثم تبقى تلك الجلائل شاخصة إلى السماء كأنما هي تستغيث بالله. . . حتى يدركها ألأين فتهوى صريعة الزمن العسوف ركاماً يسابق ركاماً. . . ولكن قنابل فرانكو تريد ولا يهمها أن تكون صفحة سوداء في وجه التاريخ.

إن الاتجاه القومي في العراق بادرة من بوادر اليقظة في الأمة العربية فيجب أن يكون له نصيب من الروح كما يجب أن يكون له نصيب من المادة

وهانحن اليوم على وشك الدخول في حياة جديدة مغايرة لتلك الحياة التي تصرمت بين جهل الرعية وظلم السلطان واستبداد الدخيل. وآن للفن أن يستيقظ وينشط فيأخذ مكانه كسبب خطير من أسباب الحضارة الكاملة، وعامل من عوامل النهضة القويمة. . .

ولكن في الشباب من ينكر هذا ولا يرضاه، وفي الشباب من يستخف به ويجتويه. وفي الشباب مراجل تجيش فيها المتناقضات، فلا تعرف فيهم الغاية اليوم إلا وتجدها غيرها التي كانت بالأمس

ولكننا رغم وجود هذه النفوس المتماوتة، سنتم بناء أنشأته الجهود وبنته العزائم وأقامته التضحيات. . .

إن كان الكلام وسيلة من وسائل الجهاد الأعزل فلا نريده إلا مقروناً بالعمل والدأب، وإن وجد فينا من يئست روحه وتصاغرت معنويته عن إدراك هذه المعاني الجديدة فلا نرضاه باسم العروبة. ولذا حق لنا أن نوجه الخطاب إلى الشباب فنقول:

أيها الشباب العامل: ما جمال الجسم إن لم يعزز بفضائل الروح؟ وما نفع هذه الرؤوس المملوءة بالخيالات إن لم تكن قادرة على ولادة الأعاجيب!

أيها الشباب العامل: روضوا نفوسكم على فهم الفن تدركوا جمال الحياة

(بغداد - الرستمية)

نوري الراوي

الحرب في أسبوع

للأستاذ فوزي الشتوي

إزاحة الستار

وأخيراً أزاح موسوليني الستار عن موقف إيطاليا، وأعلن اشتراكها في الحرب، دون أن يذكر سبباً معقولاً يبرر به إسالة الدماء عندما يسجل عليه التاريخ فعلته. فقد كانت شكواه من الحصر البحري الذي حد من النشاط الإيطالي

ويعرف العالم أجمع إلى أي مدى عاونه الحلفاء على تحقيق أغراضه، حتى أصبح موقفه وهو خارج الحرب أشد خطورة على المدنية منه وهو داخلها، إذ كانت مساعداته المادية لألمانيا النازية تتجاوز الحد المعقول

وبالرغم من أن الحلفاء عرضوا عليه التسوية، وأن المفاوضات سارت شوطاً بعيداً لإزالة عقبة الحصر البحري. فإن الأطماع الدكتاتورية ثارت دفعة واحدة، فإذا المفاوضات توقف فجأة دون سبب معقول

أما الأسباب الحقيقة لدخول إيطاليا الحرب فيسهل لمسها في رد الكونت شيانو وزير خارجية إيطاليا إلى سفير فرنسا، إذ قال معناه إن إيطاليا تعلن الحرب تنفيذاً لاتفاق موسوليني وهتلر. إذن فلم يكن الحصر البحري سبب شكوى إيطاليا! ولم يكن الضغط الاقتصادي سبب تمردها على أساليب الحضارة وخروجها على أسس المدنية، بل الأطماع الشخصية الدكتاتورية هي التي جعلت هذين الفردين يلقيان بالعالم في أتون الحرب

إيطاليا لم تتغير

وإيطاليا سنة 1940 هي إيطاليا سنة 1914 لم تتغير أخلاق أهلها أو طرق معاملتهم بتغير نظم الحكم، ولم يتغير حكمهم على الحوادث بتقدمهم في مرافق المدنية. فلم يتحكم في حالتها إلا الطمع والرغبة في الاستعباد. ففي سنة 1914 كانت إيطاليا حليفة لألمانيا والنمسا، وفي سنة 1940 نراها حليفة ألمانيا التي ابتلعت النمسا. وفي

سنة 1914 دخلت إيطاليا الحرب بعد تردد طال عشرة أشهر حصلت في أثنائها على معاهدة لندن فخانت من أجلها حليفتيها السابقتين وأعلنت عليهما الحرب. وفي سنة 1940 تكرر إيطاليا نفس الموقف ولكن
بصورة أخرى، فتدخل الحرب بعد تردد أستمر تسعة أشهر، وتدخلها في ظروف غريبة لا لتحقق للعالم سلاماً، ولا لتضمن للناس طمأنينة، بل لتزيد في دمار العالم مستغلة الظروف الحرجة لتحاول القضاء على دولة طالما مدت لها يد المعونة، وكانت سبباً في جمع شملها وتحقيق وحدتها واستقلالها
وقد قلنا في مقالنا السابق إن إيطاليا لن تدخل الحرب إلا مكرهة، لضعفها العسكري والاقتصادي. وهانحن نستعرض أمام القارئ مقارنة بين قواتها وقوات الحلفاء في البحر الأبيض الذي يحتم أن يكون عماد القتال فيه على القوات البحرية والجوية أما القوات البرية فليس لها مجال للعمل إلا من جهة فرنسا وليبيا وفي كلا الميدانين ما يقطع بأن قوة إيطاليا البرية ستصادف عقبات كبيرة تحول دون تحقيق أغراضها عالم عربي
فجبال الألب في فرنسا سد منيع يصعب اختراقه ويسهل الدفاع عنه. وتقع ليبيا بين مصر من الشرق وتونس من الغرب، وليس فيها قوات إيطالية كبيرة، ولذا يسهل الاستيلاء عليها إذا هوجمت من الناحيتين، ولا سيما أن عربها يحفظون لإيطاليا ذكريات أليمة عندما أعملت فيهم قنابل مدافعها ورصاص بنادقها ولها في ذلك قصص منكرة من أعمال الوحشية والهمجية، وما زالت عدة قبائل عند الحدود ساعة الانتقام. وهناك فضلاً عن ذلك صلة الرحم بين سكان ليبيا ومصر وصلة الدين وصلة اللغة، وهي صلات يحرص العربي عليها مهما كلفته من تضحيات. فما إن تبدأ المناوشات حتى تصحو هذه العوامل، فيشعر المسلم بعوامل الدين تناديه، ويحس ابن العم بصلات الدم تمنعه من إهدار دم ابن عمه، فلا تلبث ليبيا أن تخرج من الإمبراطورية الإيطالية لتنضم إلى العالم الإسلامي
هذا في ميدان البحر الأبيض، أما في ميدان شرق أفريقيا فلإيطاليا هناك ثلاث مستعمرات هي الأريتريا والحبشة والصومال الإيطالي، وتحيط بها الممتلكات البريطانية من جميع الجهات، تلك الممتلكات التي استقر فيها نظام الحكم ودانت بالولاء للإمبراطورية البريطانية، بعكس الحالة في الحبشة مثلاً، فهي قريبة العهد بالغزو، ومازال أهلها يقاتلون الإيطاليين في أكثر من بقعة واحدة، ويشنون الغارات على حامياتها كلما وجدوا إلى ذلك سبيلاً. وهاهو إمبراطور الحبشة يظهر في الميدان ليستغل الفرصة السانحة، وسيمده
الحلفاء ولا شك بالعتاد الحربي الكفيل بخلاص بلاده من نير الحكم الإيطالي الإمبراطورية الإيطالية
وبرغم اتساع رقعة الممتلكات الإيطالية فعدد سكانها قليلون، وهم على درجة كبيرة من التأخر. ويبين الجدول الآتي مساحة كل مستعمرة وعدد سكانها مضافاً إليها إيطاليا نفسها:

أسم البلد	المساحة بالميل المربع	عدد السكان
إيطاليا	119 , 744	43 , 640 , 000
ألبانيا	10 , 600	1 , 000 , 000
ليبيا	406 , 000	1 , 000 , 000
أريتريا	45 , 000	

500 , 000
الحبشة
35 , 000
7 , 600 , 000
الصومال
139 , 430
650 , 000
المجموع
745 , 774
54 , 390 , 000
هذه هي الإمبراطورية الإيطالية التي لا تلبث الحرب أن تفصلها عن إيطاليا، لا سيما أن أسطول الحلفاء مرابط عند قناة السويس ليمنع وصول القوات الإيطالية بأفريقيا الشرقية الإيطالية وهذا العزل سيؤدي بلا شك إلى خضوع تلك البلاد للحلفاء بعد أن تفنى القوات الإيطالية المرابطة هناك أو تقع في الأسر
ولم تكن هذه العوامل خافية على موسوليني ومستشاريه، ولكنها تدل دلالة واضحة على سوء نيته قبل دول البحر الأبيض فسياسة المحور القضاء على فرنسا وإنجلترا ثم يتحول إلى الدول الصغيرة، فلا تقوى واحدة منها على مقاومة الاستعمار الإيطالي أو الألماني، وعندئذ تتحكم الهمجية في العالم أجمع، ويخضع العالم لانتقام الدكتاتوريين. ولكن هيهات أن يتحقق هذا الأمل، فقوات الحلفاء في فرنسا ما زالت بكامل عددها ومعداتها، ولن يؤثر فيها تقدم الزحف الألماني وتوغله في البلاد
وسواء بقيت باريس بيد الحلفاء أم سقطت في يد الألمان، فسيأتي اليوم الذي تتلقى فيه جيوش ألمانيا الضربة القاطعة، فالعبرة في الحروب ليست في الاستيلاء على المواقع والمدن، ولكن العبرة بالقضاء على الجيوش. وإذا اتخذنا من التاريخ مثلاً، فأمامنا نابليون وحروبه، فقد استولى على أوربا كلها تقريباً. وظلت انتصاراته سنوات طويلة تدوي في آذان العالم. فلما نضبت موارده وحانت الساعة الفاصلة هزم في واترلو هزيمة لم يقم له بعدها من قائمة. وكانت ختام ذلك النزاع الطويل
سواحل مكشوفة
ومن عوامل ضعف إيطاليا انكشاف سواحلها وخلوها من العقبات الطبيعية التي تمنع الاعتداء، فليست البلاد عريضة يتعذر على الطائرات اجتيازها، وليست صخرية أو صحراوية يتعذر على الجيوش عبورها، بل هي سهول ضيقة، تجد فيها القوات مؤونتها بسهولة فضلاً عن قربها من مواقع الحلفاء العسكرية، فلا تبعد روما عن مينائي طولون أو أجاكسيو سوى 200 ميل تقطعها الطائرات الحديثة في 40 دقيقة، ولهذا عجل موسوليني
بنقل قيادته منها
وتيسر لإيطاليا في الحرب الماضية أن تجند 5. 500. 000 جندي. وتستطيع الآن أن تجند ثمانية ملايين جندي بفضل النظام الفاشستي. ومجال هذه الجيوش محدود كما رأينا، كما أن الجندي الإيطالي لا يمكن أن يقاس بالجندي الألماني أو الفرنسي أو الإنجليزي، خصوصاً أن معداته أقل بكثير من معدات أقرانه. فإذا أمدته ألمانيا بالعتاد والقيادة كما جاء في التلغرافات برزت عقبه أخرى وهي ضيق موارد الدولتين الدكتاتوريتين، ولا سيما أن ألمانيا وضعت في الموقعة الحالية جميع مواردها أملاً في نصر سريع
القوات الجوية
وتقدر قوات إيطاليا الجوية بخمسة آلاف طائرة أعدت على أساس هجومي وهي أقل متانة من الطائرات الفرنسية أو الإنجليزية، وتستورد 23 ? من معادن طائراتها من الخارج؛ ولم تتقدم صناعة الطائرات هناك في المدة الأخيرة، بل يقول الأخصائيون إن تقدمها بطيء لحاجتها إلى الفنيين والمعادن. وفرض الحصار عليها معناه زيادة هذه الصعوبات. فأنها تفقد ربع إنتاجها بفقد المعادن المستوردة من البلاد الأخرى. ومراكز الطيران الإيطالية موزعة في الحبشة وليبيا وألبانيا، وأنبأتنا التلغرافات أخيراً بتدمير قوات الطيران البريطانية لعدد كبير منها مما يضعف من شأنها، ويقابلها عند الحلفاء

22 ألف طائرة في ازدياد
وفي البحر
ويمتاز الأسطول البحري الإيطالي بسرعة سفنه، وهو أسطول حديث تصل سرعة بعض وحداته إلى 45 عقدة في الساعة أي أكثر من 50 ميلاً، ويقابله في الجانب الآخر زيادة عدد الوحدات البحرية للحلفاء والجدول الآتي يبين وحدات القوتين:

نوع السفن	الحلفاء	إيطاليا
سفن قتال كبيرة	25	6
مدرعات ثقيلة	22	7
حاملات طائرات	11	-
مدرعات خفيفة	69	14
مدمرات	230	82
قوارب طوربيد	12	70
غواصات	137	112
المجموع	506	291

وتعمل قيادة الحلفاء البحرية على الاشتباك مع هذا الأسطول في معركة بحرية، ولذا أسرعت ببث الألغام في مدخل بحر الأدرياتيك حتى لا تدع له المجال الالتجاء إليه، فيضطر إلى قتالها، فإذا تيسر إغراق هذا الأسطول أو الخلاص من بعض وحداته كما حدث مع الأسطول الألماني، تم للحلفاء جانب كبير من النصر؛ فبرغم صيحات هتلر وأتباعه بتفوق السلاح الجوي على السلاح البحري؛ فإن موسولسني لم يأخذ برأيه.
والدليل على ذلك أنه أنزل إلى البحر في الشهر الماضي سفينتي قتال كبيرتين وقد مني الأسطول التجاري الإيطالي في اليومين الأولين للحرب بخسائر فادحة فقضي على 40 سفينة منه، بعضها بالانتحار وبعضها الآخر بالأسر. وهذا تصرف غريب من إيطاليا، فبرغم أنها أرادت الحرب وأنها تجد الفرصة لإنقاذ هذه السفن، تركتها في أماكن خطيرة. والأغرب من هذا أن بعض السفن كان في مالطة، وهي تبعد عن صقلية بمسافة بسيطة، ومع هذا تتركها لتؤسر؛ ومن هذه التصرفات يبدو مدى حزم القيادة الإيطالية، ومدى إحكام تصرفاتها الذي ينبئ بان كوارث شديدة ستحل بقواتها

فوزي الشتوي
بكالوريوس في الصحافة
رسالة الشعر
رجال ونساء
للأستاذ على محمود طه

ننشر فيما يلي جزءاً ثانياً من ملحمة الشاعر (على محمود طه) وهو يلي الجزء الذي) نشرناه منها في عدد سابق من (الرسالة) ويدور الحوار في هذا الفصل الممتع على الفنان الأول، وأثر المرأة في فنه واتجاهاته، وفيه أيضاً حديث مؤثر عن الفنان الأعمى، والأسماء التي يجري الشاعر الحوار على ألسنتها تقع في عالمي الحقيقة والخيال. فهرميس إله الوحي والشعر في الميثولوجيا، وبليتيس الشاعرة الخرافية التي بعثها الكاتب الفرنسي (بيير لويس) على غرار الشاعرة اليونانية اسبازيا. أما تاييس وسافو (فأمرهما معروف في القصص والتاريخ

الملك وقد عاد في طريقه إلى حيث الحوريات بعد أن ودع روح الفنان على أفق) (الأرض

الملك:

سلامَ الملائكِ روحَ الجمالِ

الأرواح:

سلامٌ لهرميس روح الآلهْ

الملك:

أرى وَمْضَةَ الشرِّ في جوِّكنَّ ... وأسمعُ صوتاً كأنَّي أراْه
يلاحقني في رحابِ السماءِ ... ويرتجُّ في مِسمعَّي صداه
(لقد فارقَ البشرُ غُرَّ الوجوهِ ... وشاعَ الذبولُ بوردِ الشفاه!)

الأرواح:

أجلْ أيها الملَكُ المجتَبي ... صدقناكَ فاغفر عذابَ الضميرْ
لقد مرَّ كالطيرِ من قربنا ... فَتى في رعاية ربٍّ خطيرْ
رآنا فأعرَض عنَّا ولمْ ... يُحَيِّ السماء بروحِ قريرْ
تعاظم محتقراً أمرنا ... وأمعن في شَرِّهِ المستطيرْ!

هرميس:

ظلمتنَّ هذا الغلام البريء ... وقد غَضَّ من ناظريهِ الحذَرْ
أَهَلَّ بقلبٍ كفرخِ القطا ... يرفرفُ تحتَ جناحِ القدَرْ
رَآكنَّ فيهِ وحيًّا بهِ ... فلم أدْرِ حاجتَه للنظرْ!

الأرواح:

وكيف تكلَّم قلبُ الفتى ... وما هو إلاْ سليلُ البشرْ؟

هرميس:

هُوَ ابنُ السماءِ ولكنَّه ... من النقصِ تركيبُه والتمامْ
صَنَاعُ الطبيعةِ بلْ صُنْعُها ... فمنها دمامتُهُ والوسامْ
يُسِفُّ إلى حيث لا ينتهي ... ويسمو إلى قمةٍ لا ترُامْ
ويُسْقَى بكأسٍ إلهيةٍ ... مُرَنقةٍ بالهوى والأثامْ
نقيضان شتى فما يستقرُّ ... على غَضَبٍ منها أو رضاءْ
تحدَّى الحياةَ وآلامهَا ... ببأسِ الجبابرةِ الأعلياء
يزيدُ عُتُوًّا على نارها ... ويلمعُ جوهرهُ مِنْ صَفاء
وينشقُّ عن نَضْرةٍ قلبُه ... وإنْ طَمَرَتْهُ ثلوجُ الشتاء
هو القلبُ محتشداً بالمنى ... هو العقلُ متقداً بالذكاء
حَبَتْهُ الألُوهَةُ روحاً يَرىَ ... وينِطقُ عنها بوحي السماء
يَحُسُّ الخيالَ إذا ما سَرىَ ... ويلمسُ ما في ضمِيرِ الخفاء
ويبتدرُ النجمَ في أفقهِ ... فيرشُفُهُ قطرةً من ضِياء
أرَتْهُ السماء أعاجيبها ... وَرَوَّتْهُ من كلِّ فَنٍّ بديعْ
فضنَّ بلألاءِ هذا الجمالِ ... وخافَ على كنزه أن يضيع
أبَى أن يُبدّدَهُ ناظراه ... فأطبقَ جفنيهِ ما يستطيع
فإن شارف الأرضَ نادتْ بِه ... فَفَتَّحَ عيناً كعينِ الرَّبيع

الفنان الأول

هنالكَ حيث تَشبُّ الحياةُ ... وحيث الوجودُ جنينُ العَدَم
وحيثُ الطبيعةُ جبارةً ... تشقُّ الوهادَ وتبني القِممْ
وحيثُ السعادةُ بنتُ الخيالِ ... ولذَّتُها من معاني الألمَ

وحيث الطريدانِ شجَّا الكؤوسَ ... ومَجاَّ صُبَابَتها من قِدَمْ
رَناً، والطبيعةُ في حليها ... وحواءُ عاريةٌ كالصَّنَمْ
فمن أين سارَ وأنّى سرَى ... تَصَدَّتْهُ مُقْبِلَةً من أمم
هنا لك أول قلبٍ هفا ... وأولُ صوتٍ شدا بالنَّغَمْ
وأولُ أنمُلَةٍ صوَّرَتْ ... وخطَّتْ عَلَى اللوحِ قبل القلَمْ
فمالَكِ حواءُ أغْوِيتهِ ... وأعقِبتِه حَسَراتِ النَّدَمْ
لقد كان راعيَكِ المجتَبي ... فأصبحَ راميكِ المتَّهمْ
ولولاكِ ما ذرفت عيُنهُ ... ولا شامَ بارقةً فابتَسمْ
وعاشَ كما كانَ آباؤه ... يُغَنِّي النجوم ويرعى الغنمْ!
الفنان الأعمى
لأجلكِ يَشقى بلمحِ العيونِ ... ويُصْرَعُ بالنظرةِ العابرة
لَوَدَّ إلى الأرْضِ لم يُصِخْ ... أو ارتدَّ بالمقلةِ الحاسرة
وكم من فتًى عزَّها سمُعهُ ... وغصَّ عَلَى رَهَبٍ ناظره
عصاها، فنادتَّ، فلم يَسْتَمِعْ ... فحلَّتْ به لعنةُ الفاجرة!
له محجرانِ على ما وَعَى ... من الأَلَقِ الطُّهْرِ مختومتانْ
ففي عقلهِ حركاتُ الزَّمان ... مُصَوَّرَةً وحدودُ المكان
وفي قلبهِ أعين ثَرَّةٌ ... بها النارُ طاغيةُ العنفوان
وفي كلِّ خاطرةٍ نيزكٌ ... يشقُّ سناهُ حجابَ الزمان
إذا ما هَوَتْ وَرَقَاتُ الخريفِ ... أحسَّ لها وَخَزَاتِ السَّنانْ
وإن سَكَبَتْ زهرةٌ دمعةً ... فمن قلبهِ انحدرتْ دمعتان
ومن عَجَبٍ شَدْوُهُ للربيع ... وقد يُخْطيُ الطيرُ شدوَ الأوان
كقيثارةِ الريح ما لحنُها ... سوى الريحِ في جفوةٍ أو حنانْ
عوالمُ جَيّاشةٌ بالمنى ... ودنيا بأهوائها تضطربْ
من اللانهاية ألوانُها ... مشعشعةٌ بالندى المنسكبْ
ففيها الصباحُ، وفيها المساءُ ... وبينهما الشفقِ الملتهبْ
تطوف بها صَدَحَاتُ الطروب ... وتسهو بها أنَّةُ المكتئبْ!
على محمود طه
رسالة الفن
تأملات
في الأنتراكت
للأستاذ عزيز أحمد فهمي
يقضي الأستاذ عزيز عيد في هذه الأيام فترة من حياته تشبه فترة (الأنتراكت) في عمله. وهو لا يقضيها متكاسل العقل راكد الحس، وإنما هو يشغل نفسه فيها بالإقبال على معاشرة حيوان، والتأمل في شعوره وأسلوبه، وتعبيره عن هذا الشعور وطريقته فيه، وما قد يصاحب هذا من تفكير يسير أو كبير
وهذا الحيوان الذي يعاشره الأستاذ عزيز ويدرسه في هذه الأيام كلب اسمه (بوي) وهو يربيه منذ سنوات ويعزه ويحبه حبه لأوفى ربيب كفله
والوقت الذي يقضيه هذان الصديقان الصدوقان معاً لا يختلف في شيء عن الوقت الذي يقضيه كل صديقين صدوقين فهما يجلسان معاً يتسامران، وهما يخرجان معاً يتريضان، وهما يتشاغبان ويتصارعان ويتلاكمان، وهما أيضاً يتصالحان ويتخاصمان، ويتعاتبان ويتقابلان ويتعارضان. . . أما (بوي) فهو مع صاحبه مخلص صادق نقي الإخلاص والصدق، وأما صاحبه فلا يقل عنه إخلاصاً وصدقاً وإنما هو يريد عنه التفاتاً إلى ما بينهما من الإخلاص والصدق، وإلى ما هما فيه من عناء الحياة والأحياء
يجلس الأستاذ عزيز مع صاحبه يحدثه عن آلامه مما فات وعن آماله فيما هو آت، والكلب قاعد ينظر إليه مصغياً منتبهاً إذا رأى صاحبه طرب فقد طرب معه، وإذا رآه أسف فقد يأسف معه حتى يمل الأستاذ عزيز عيد فيستأذن (بوي) في أن ينصرف، أو يرجو (بوي) لينصرف هو، وما أسرع (بوي) إلى أن يطيع وأن يلبي الرجاء كما يلبي النداء
فيه كل معاني الحياة ودلائلها، وليس ينقصه إلا أن يعرف الغريب المعقد منها كي

يساوي الإنسان في موقفه فيها خرج يوماً مع صاحبه إلى رياضة في الخلاء على مقربة من طريق القطار، ولم يكن قبل ذلك قد رأى قطاراً. ويروى الأستاذ عزيز هذه القصة فيقول: (سمع (بوي) صوت القطار وهو مقبل من بعيد يصفر ويرعد فبدا عليه الذعر وصاح فيَّ ينبهني

كأنما حسبني في غفلة عنه، وكأنما حسبه وحشاً ضارياً جباراً يعدو إلينا ليفتك بنا، وكأنما هالته قوة ذلك الوحش كما هاله ضعفنا جنبه، وكأنما كان بصراخه يريد أن يقول لي: خذ حذرك وأتق هذه النازلة، وأنقذني معك إذا استطعت، فلست بقادر على صده عنه ولا دفعه عن نفسه، حتى ولا عرقلته عنك ريثما تفر. . . لقد كان (بوي) يقول لي هذا كله في صراخه فقلت له: لا تخف يا (بوي) فهذا قطار. . . ورآني (بوي) مطمئناً فاطمأن إذ أدرك أنه لا يمكن أن يملأني هذا الاطمئنان كله لو كان هذا القطار المقبل وحشاً ضارياً مفترساً. ولكن القطار اقترب وضجته تعالت فتوسط (بوي) ما بيني وبين القطار وهاج وجن نباحاً، فاضطررت إلى أن أقف وأن أضمه إلي ريثما يمر القطار، فضممته ونظرت في عينيه أؤكد له الأمان والسلامة، فإذا بعينيه ترسلان إلي نظرة معناها: هاأنذا معك، وإن كنت تراني خائفاً فإنما خوفي عليك أكثر من خوفي على نفسي). . . ويسترسل الأستاذ عزيز في وصف نظرات (بوي) بما لم يصف به نظرات ممثل ولا ممثلة

ويروى الأستاذ عن صاحبه قصة أخرى فيقول: (كان لنا جار وكان لجارنا كلبه، وكان بين بوي وبين هذه الكلبة غزل وغرام لم يرض عنهما الجار، فكان يطرد (بوي) كلما رآه يحوم حول معشوقته، حتى كان يوم ضرب فيه الرجل (بوي) بعصاه ضربة قاسية آلمته ولم يستطيع معها إلا أن يفر هارباً، وليس من عادة (بوي) أن يهرب ولا أن يفر. ومضى الرجل إلى حاله في ذلك اليوم. ولكن بوي كان يعرف مواعيد دخوله وخروجه، فبدأ ينتظره ويتعمد انتظاره ليفجأه يوماً فينهشه نهشاً، ولكن الرجل كان يتقي دائماً هجمات بوي بعصاه يلوح له بها، والعصا أداة كفاح إنسانية يخشاها كل كلب ويعجز حيالها. وشكا لي الجار (بوي)، وقال لي: صحيح إن العصا تقيني هجماته ولكني قد أغفل يوماً عنها فلا اسلم منه، فأرجوك أن تنتبه إليه وأن تمنعه عني، فقلت لجاري: أنت الذي وقفت نفسك هذا الموقف، فقد كان عليك أن تعرف أن لهذا الكلب كرامه، وأنه يعلم تمام العلم أن الذي يعلقنا به هو رغبتنا في حمايته، فإذا ثبت لنا وله ولك أنه عاجز عن حماية نفسه فقد نتخلى عنه وهو يكره هذا، لأنه عاشرنا مدة ما فأحبنا كما رأى أننا نحبه. . . فعليك إذن أن تحمي منه نفسك، لأني لو نهرته عنك بعد الذي كان منك أغراه ذلك بقبول الذل والضيم، وكنت أنا محرضه ودافعه إلى هذا. . . فقال لي الرجل: إن هذا لا يمنعك من أن تحول بين كلبك

وبيني. . . وكنت من يومها أنتظر خروج الجار ودخوله مع كلبي لأشغل الكلب عنه ولأمنعه من الفتك به أو الهجوم عليه، وكنت أرى في الكلب تعجباً من موقفي هذا ودهشة لو كان ينطق لعبر لي عنهما بقوله: فيم حيلولتك بيني وبين هذا القاسي، وقد رأيت أنه ضربني ولو رأيت أنا أحداً ضربك لما حلت بينك وبينه وإنما كنت عليه معك؟. . . ثم خطر لي أن أصلح ما بينهما، فانتظرت مرور الرجل يوماً فاستوقفته وناديت (بوي) وأخذت أربت على كتفي الرجل، واربت على كتفي الكلب، وأقول لكل منهما إن الصلح خير، وأقول لكل منهما إن الصفح والعفو من شيم الكرام، وأقول لكل منهما إنه من الممكن أن يتناسيا الماضي وأن يستأنفا الصداقة من جديد، ثم أشرت إلى الرجل فبدأ يمسح للكلب ظهره، فراغ الكلب في أول الأمر رافضاً هذا الصلح، ولكنه لما رآني أستحسنه وأطلبه منه مسح رأسه هو أيضاً في ساق الرجل ثم نظر إلى يقول بنظرته: لقد صفحت عنه لكي ترضى. . .

وتجر هذه القصة إلى ذاكرة الأستاذ عزيز قصة أخرى فيقول: وقد تخاصمت أنا ذات مرة مع بوي، فقد كنا نلعب معاً، ومن عادتنا إذا لعبنا معاً أن أضربه ضرباً خفيفاً وأن يعضني عضّاً خفيفاً، وأن يسامح كل منا الآخر فيما يناله من ألم الضرب الخفيف أو العض الخفيف، لأن كلا منا يعلم أن هذا مزاح ولعب ولا أكثر، غير أني في تلك المرة برعت في مشاكسة (بوي) حتى اغتاظ غيظاً شديداً فعضني عضة أسالت الدم من إصبعي. . . فرأيت هذا ذنباً لا يمكن أن يغتفر لأني إذا اغتفرته فقد لا يحسبه (بوي) ذنباً، وقد لا يجد بعد ذلك مانعاً من أن يعضني عضة أقوى من هذه العضة، وقد يكون

في ذلك ضرر من الخير أن أتقيه وألا أنتظر حتى يحدث فأعالجه. . . فأمسكت في يسراي بكرسي جعلته درعاً، وفي اليمين عصا انهلت على (بوي) ضرباً موجعاً مبرحاً علم الله أن كل ضربة منه كانت تنزل على قلبي قبل أن تنزل على جسمه، ولكني كنت أرى أنه لا مفر من هذا الضرب عقاباً وردعاً. . . وبعدها خاصمت (بوي) وخاصمني (بوي) أيضاً. . . خاصمته: فلم أعد أكلمه، ولم أعد أناديه، ولم أعد أسامره، ولم أعد ألعب معه. وخاصمني: فلم يعد ينتظرني ليلاً، ولم يعد يدنو مني نهاراً، ولم يعد يمس طعامه الذي كان يوضع له. . . وصام هكذا ثلاثة أيام، كان خلالها كلما رآني ألقى إلي نظرة معناها عند من يفهمون النظرات: لا تكلمني، ولا أكلمك، وأنت تعرفني وأنا أعرفك. . . أنت لم تسامحني ولكني سامحتك. . . وكنت أنا أنظر إليه وأقول له بعينيّ: الذنب ذنبك والبادئ أظلم. . . ومع هذا الخصام، وفي عزه وشدته، كنت ألمح (بوي) وأنا أرتدي ملابسي أمام المرآة، يدنو من باب الحجرة مخفياً جسمه كله ويطل إلى بعينيه كمن يريد أن يراني صحيحاً سليماً معافى، وكمن يكفيه أن يراني كذلك. . . وكنت أنا أتغاضى عن نظرته هذه ولا أبدي له التفاتي إليها. . . حتى كان اليوم الثالث، فالتقت أعيننا، فإذا بهذا الذي كان في عينيه يذوب ويتلاشى، وإذا بعينيه تلمعان عوضاً عنه بقوله: أما اكتفيت خصاماً؟! إنه ليس لي أن أبدأك بالصلح فربما كنت لا تزال غاضباً أو مستاء. . .! عندئذ انخذلت أمام هذا الوفاء الصامت، وابتسمت وناديته وقلت: لقد كانت عضة مؤلمة يا (بوي)، وأظنك لا تذكر أني ضربتك قبلها ضربة مؤلمة. . . صحيح أن (بوي) لم يكن ليفهم معاني هذه الكلمات جميعاً مفصلة. . . ولكن (بوي) أدرك من صوتي ومن بريق عيني - كما يدرك دائماً - أي حالة نفسية أنا فيها. . وفي هذه الساعة أدرك (بوي) أني أعاتبه، كما أدرك أن الموقف يقتضيه الاعتذار عما بدر منه، فأطرق برأسه وبعينيه البليغتين إلى الأرض، واقترب مني متباطئاً متذللاً مسترضياً فمسحت له ظهره بيدي، فقبل يدي بلسانه، فعانقته وعانقني (وعدنا صديقين حبيبين

بهذا الوضوح، وبأكثر منه تفصيلاً يتحدث الأستاذ عزيز عيد عن كلبه (بوي)، وهو كلب من ذلك النوع الضخم الذي يسمونه (وولف) والذي كان منه فقيد السينما (رن تن تن) وليس (بوي) ولا (رن تن تن) بمفردين في الكلاب فهما يدركان مالا يدركه غيرهما من أفراد جنسهما، بل ولا جنس الكلاب بمفرد في الحيوان فهو وحده الذي يشعر بالحياة، والذي يعبر عن شعوره فيها والذي يتفهمها فهماً يسيراً أو فهماً كبيراً، وإنما كل الكلاب مثل (بوي) و (رن تن تن) وكل الحيوانات مثل الكلاب وإن كانت تختلف في أنصبتها من الحياة. وإذا كان الناس متشاغلين عن الحيوانات، فإن لها من الشعراء والفنانين نصراء وأصدقاء يعاشرونها ويتفاهمون معها، ويدرسونها الدراسة الحية القائمة على المعاشرة وتبادل العواطف، وهذه الدراسة أشرف بكثير من تلك الدراسة التي يعمد إليها العلماء مع الحيوان

وقد يعاني الفنانون استهزاءً كبيراً من العامة والمثقفين لهذه النزعة، وهذه النزعة وحدها

هي التي ستكشف للبشرية بعد جيل أو أجيال عن حقيقة موقف الإنسان من هذه الأحياء التي شاء الله أن تعيش معه على ظهر هذه الأرض. وإذا كان الإنسان يدعي أن له في هذه الأرض السيادة، فإن عليه أن يستكمل لهذه السيادة شروطها، وأول شرط منها أن ينظر فيما سخره الله له من الخلائق، وأن يفهم طبائعها حتى يستطيع أن يركن إلى كل منها يطلب عنده علماً بما يجهله وبما آتاه الله الحيوان من قوى وإذا كان الإنسان يرى في بعض الحيوان بأساً وقوة يخشاهما فكل حيوان يرى في الإنسان دهاء وخبثاً يخشاهما هو أيضاً ويمقتهما ويقاسي منهما الأمرين، وعندما يأمن الحيوان جانب الإنسان فإنه من غير شك يوليه بذلك أماناً وصداقة، والإنسان يستغل في نفسه هذا الامتياز منذ القدم، ولقد استأنس به أسوداً وفيلة وطيراً ووحشاً، ولعل القدماء كانوا أحسن عشرة للحيوان منا، فنحن قد غرتنا مدنيتنا وشغلتنا حتى لم نعد نعبأ إلا بأن نكون سادة، ولو كنا الطغاة الجاهلين. . .

عزيز أحمد فهمي

البريد الأدبي

قصة الإمام الزهري

شكرت للكاتب الأديب أحمد جمعة الشرباصي الفرصة التي هيأها لي للكلام في مسألة دار حولها قول كثير، ونقلت عني نقلاً غير صحيح، وهي تجريح الإمام ابن شهاب الزهري أثناء محاضراتي بكلية الشريعة الإسلامية. وحقيقة الأمر هو أني كنت أعني في محاضراتي عن تاريخ علم الحديث بتعريف الطلاب طريقة البحث الحديث في نقد الأحاديث، وأضرب لهم في ذلك الأمثال، وكان من هذه الأمثلة ما ذكرته لهم من نقد بعض المستشرقين، وهو جولدزيهر للإمام الزهري وأحاديثه التي رواها في فضائل الشام وبيت المقدس، وخلاصة هذا النقد هو أن الإمام الزهري كانت له صلات وروابط بالبيت الأموي، وأن عبد الملك ابن مروان كان منع الناس من الحج أيام فتنة الزبير، فبنى عبد الملك قبة الصخرة في المسجد الأقصى ليحج الناس إليها، ثم أراد أن يبرر عمله هذا، فوجد في الزهري - ومقامه الديني معروف - آلة لوضع أحاديث مثل الحديث المشهور: (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى). ولكن رأى هذا المستشرق قد فند بعد ذلك، وخطئ بشدة من المستشرقين أنفسهم الذين رأوا فيه مخالفة تاريخية واضحة. وإليك ما يقوله المستشرق فينسنك في ذلك: (وقد زعم بعضهم - يعني جولدزيهر - وضع حديث (لا تشد الرحال). وهو حديث مذكور في جميع كتب السنة المعتبرة، وذلك لكي يجعل الحج إلى بيت المقدس مثل الحج إلى الكعبة، ولكي يحمي الخليفة عبد الملك في حربه ضد ابن الزبير الثائر عليه بالبلاد المقدسة). ولكن هذا الاتهام لمثل هذا المحدث الكبير تسقطه الأدلة التاريخية، فإن خروج ابن الزبير كان في سنة 14 - 73هـ، والزهري الذي ولد سنة 51هـ أو بعدها كان في هذا الوقت شاباً لا أهمية له، ولم يكن قد بلغ بعد شهرته في الحديث، ومثل هذا الوضع لا يمكن أصلاً أن يكون لأن الإمام الزهري من الرجال الثقات. وكان سعيد بن المسيب الذي روى عنه هذا الحديث لا يزال حياً فإنه توفي سنة 94هـ. وبالطبع كان لا يمكن أن يقبل أن يستعمل اسمه استعمالاً سيئاً، خصوصاً إذا عرفنا أن الزهري ليس هو وحده الذي روى هذا الحديث عن سعيد). هذا هو كلام فينسنك (راجع مجلة المستشرقين الألمانية عدد 93ص23)

فهل تراني بعد هذا أشك ذرة في ثقة الإمام الزهري بعد أن شهد له الأصدقاء والأعداء، وتضافرت على إمامته الأبحاث القديمة والأبحاث الحديثة؟ أم ترى أن ما نقل عني قد حرف تحريفاً أبرأ إلى الله منه (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة)

وختاماً لا أجد بداً من الإشارة بهذه المناسبة إلى أن أبحاث المستشرقين تثق ثقة كبيره بالأحاديث النبوية بعد أن خبرتها بكل مقاييس البحث، بل إنها سارت شوطاً كبيراً في الثقة بأحاديث شك فيها علماء الجرح والتعديل المتقدمين، وهي مسألة سأتناولها ببحث خاص في فرصة أخرى إن شاء الله.

علي حسن عبد القادر

استئصال داء الزهري

لم ير العالم عهداً كهذا العهدُ وفق فيه رجال الطب إلى إنقاذ البشرية من عدد كبير من الأمراض العضالة. فقد اكتشفت طريقة جديدة لاستئصال داء الزهري، وهو الذي حير الأطباء قروناً طوالاً، وكان وما برح من أكبر بلايا الجنس البشري. وذلك بمركب الدكتور بول أرليك الكميائي المشهور الذي أعلن أمر اكتشافه منذ ثلاثين سنة مضت، وعالج الأطباء مرضاهم به فلم يكن الشفاء يتم إلا بعد عام أو عامين

أما الذين وفقوا إلى ابتداع طريقة جديدة للمعالجة بهذا المركب ذاته فهم الأطباء هرالدتوماس، ولويس شارغين، ووليام لايفر، وجميعهم من رجال مستشفى (جبل سينا) في نيويورك. وقد جربوا طريقتهم في غضون ست سنوات، في ذلك المستشفى، فجاءت تجاربهم محققة لاعتقادهم بصحة الطريقة التي تقتل جراثيم هذا الداء العياء في خمسة أيام، وتطهر دم المريض به من أدرانها نهائياً. وقد عالجت المستشفيات الأخرى بها تحت معاينة الإخصائيين، فاتضحت صحة ما قيل عنها وأن 85 ? من الذين عولجوا بها طهروا من جراثيم الزهري التي كانت متغلغلة في دمائهم وأنهم أمنوا خطرها أو العدوى بها

أما الباقون الذين تملكهم الداء فأصبح عضالاً فقد استغرقت معالجتهم لاستئصاله

بالكلية حوالي الشهرين. ومركب الدكتور أرليك يعرفه الأطباء، وهو فيما يقال يعطي للمريض
حقناً على التوالي مدة خمسة أيام بمقدار لم يعلن بعد. ولا تكون هذه الطريقة في متناول الأطباء قبل انقضاء بضع سنوات، كما يقول مكتشفوها الذين لم يوضحوا أسباب هذا التأخير. والمساعي مبذولة الآن لحمل الحكومة الأمريكية على تعميم استعماله ومعالجة جميع المصابين بالزهري، الذين كان عددهم في العام الماضي نحو نصف مليون

غلطة شائعة

قرأت أكثر ما كتبه الناقدون عن الجزء الثاني من كتاب الدكتور طه حسين بك: (على هامش السيرة) الذي صدر منذ أمد بعيد، فلم أجد ناقداً منهم نص على الأخطاء النحوية واللغوية المتكررة التي وقع فيها الدكتور طه. ومن أظهر هذه الأخطاء أنه في عبارة له بالكتاب المذكور يقول: (وما أحسب إلا أن الأيام ستترى) فجعل كلمة (تترى) فعلاً بإدخاله حرف السين الخاص بالأفعال عليها، مع أن هذه الكلمة اسم لا فعل، وإليك الدليل:

قال صاحب القاموس في مادة (الوتر): (وجاءوا تترى وتنوَّن، وأصلها وَتْرَى: متواترين). فلو أن الدكتور قال: (وما أحسب إلا أن الأيام ستمر تترى) لا ستقام تعبيره على سنن العربية، ولكن . . .

ولن أنسى النص على أن كثيرين من ناشئة الكتاب يخطئون في استعمال هذه اللفظة، وهم يحسبونها فعلاً بمعنى (تتَابَع) والصواب ما قدمناه.

(البجلات)

أحمد جمعه الشرباصي

كتاب جديد لابن حزم الأندلسي

هذه رسالة للإمام ابن حزم في (المفاضلة بين الصحافة) نشرها اليوم على غلاء الورق وصعوبة النشر صديقنا الأستاذ سعيد الأفغاني، فجاءت في نحو مائة صفحة، فقدم لها مقدمة في دراسة حياة ابن حزم دراسة كاملة، وضم إليها ذيلاً يشتمل على تراجم مطولة وفهارس مفصلة لأسماء الأعلام الواردة في الكتاب، فبلغت المقدمة مع الذيل ثلاثمائة صفحة، كلها بحث وتحقيق في لغة سليمة وديباجة صافية. وقد قام بهذا كله على صمت وتوار من الناس، وبعد عن الإدعاء الذي اكتفى به هؤلاء الذين جاءوا بعلم العربية من ديار العجم.

والأستاذ الأفغاني أحد أربعة هم بين أدباء الشام الدائبون على العمل (والإنتاج) المثابرون على الكتابة والتأليف والنشر، وهم الأستاذ الجليل العلامة محمد كرد علي بك، والكاتب الأكبر معروف الأرناءوط، والأستاذ الأفغاني، ورابع أستحي أن أسميه. اثنان منهم للبحث والتحقيق والعلم، واثنان للأدب الخالص. هذا ولا بد من عودة إلى الكلام على هذا الكتاب، وإنما عجلنا للأستاذ الشكر كما عجل لنا الهدية.

على الطنطاوي

وفاة عالم جليل

استأثرت يد المنية بالعالم الجليل، شيخ القراء في القطر الشامي المرحوم الشيخ عبد الله المنجد - والد الأستاذ صلاح الدين المنجد. فكانت وفاته فاجعة كبرى اهتزت لها أرجاء دمشق ومشت بشيبها وشبابها في جنازته العظيمة، يتقدمهم سعادة مدير المعارف ورجال التعليم وسماحة رئيس جمعية العلماء وإخوانه العلماء الأجلاء، وقد أبَّنه على القبر بعض أعلام المسلمين

وقد كانت للفقيد منزلة سامية بين المسلمين لما أتصف به من العلم الغزير، ولأنه شيخ القراء والحافظين لكتاب الله عز وجل،

ولما عرف عنه من دماثة الأخلاق ولين الجانب والتواضع والقيام بواجبات العلم، وقد تخرج على يديه طلاب لا يحُصى عددهم كلهم يشهد بفضله وعلمه. وخسارة المسلمين به وبمن سبقه من علماء دمشق الأجلاء لا تعوَّض

أسأل الله أن يلهم آله وذويه جميل الصبر، وأن يوفقني لكتابة فصل عنه في هذه المجلة الغراء، أبيَّن فيه سيرته وفضله ومزاياه

(دمشق)

(ق. ط)
وأسرة (الرسالة) تقدم إلى الأستاذ صلاح الدين المنجد خالص العزاء
المفاضلة بين الصحابة
للأستاذ الأديب السيد سعيد الأفغاني همم مشكورة في طبع بعض الكتب القديمة.
وآخر ما طبعه رسالة ابن حزم المسماة (المفاضلة بين الصحابة) وهذه الرسالة موجودة برمتها في كتاب (الفصل في الملل والنحل لابن حزم) من الصفحة 111 إلى الصفحة 153 من الجزء الرابع من طبعه الخانجي، وأما الطبعة الثانية فليست تحت يدي لأشير إلى مكان الرسالة منها. فلعل أحد الناسخين (من الناصبة) جردها من كتاب (الفصل) فحسبها بعضهم كتاباً جديداً. وفي الخزانة التيمورية نسخة منها كان الأستاذ كرد علي أخذ صورتها الشمسية. فالجدوى من نشر هذه الرسالة مستقلة هي للطابع لا للباحث.
فضيل سالم المهدي
لا ندري كيف غفل الكاتب عن الجهد العظيم الذي بذله الأستاذ الأفغاني في :(الرسالة) التحقيق والتعليق والفهرسة والترجمة حتى أصبح الكتاب بمقدمته وذيله كتابين لا جدوى لأحدهما بغير الآخر. ولو كان يدري الكتاب شروط النشر لعلم أن هذا الكتاب ما كان يفيد الباحث لو لم ينل هذه العناية من الأستاذ سعيد.
حول آية إطعام الطعام
إنها ليد طولى للرسالة تقابلها بالشكر أن أتاحت لنا الاتصال بإخواننا في العراق نبادلهم الرأي ونساجلهم البحث؛ فقد نشرت في عددها الماضي رد الأستاذ الشيخ كاظم سليمان خطيب الكاظمية بالعراق على إنكارنا صحة ما روى الرواة في سبب نزول آية إطعام الطعام من صوم الإمام علي رضي الله عنه إلى آخر ما زعموا. وقد حاولت أن أظفر بدليل في كلام الأستاذ فلم أنل
وغير خاف أن الإمام علي كرم الله وجهه في سابقيته وهجرته وبلائه ومنافخه وعلمه وفضله وفتوحاته وقرابته لا يرفع من شأنه رواية لم تثبت
على أن المفسرين بإزاء هذه القصة فئات منهم من ضرب عنها صفحاً، ومنهم من رواها من غير بحث، ومنهم من نقدها. فقد جاء في تفسير الطبري
والصواب من القول في ذلك أن يقال إن الله وصف هؤلاء الأبرار بأنهم كانوا في) الدنيا يطعمون. . .). فتراه أرجع ضمير يطعمون إلى الأبرار ولم يشر إلى قصة صوم الإمام
أقل إشارة، وقال الخطيب الشربيني بعد أن ساق القصة: (حديث موضوع)
وفي الشهاب علي البيضاوي: (هو حديث موضوع مفتعل كما ذكره الترمذي وابن الجوزي، وآثار الوضع عليه ظاهرة لفظاً ومعنى)
وقال الألوس بعد أن ساق القصة: (وتعقب بأنه خبر موضوع مفتعل. . .) إلى آخر عبارة الشهاب السابقة
وقال الفخر الرازي والقول ما قالت حزام: (إنه تعالى ذكر في أول السورة أنه إنما خلق الخلق للابتلاء والامتحان، ثم بين أنه هدى الكل وأزاح عللهم، ثم بين أنهم انقسموا إلى شاكر وإلى كافر، ثم ذكر وعيد الكافر. ثم أتبعه بذكر وعد الشاكر فقال: (إن الأبرار يشربون)، وهذه صيغة جمع فتتناول جميع الشاكرين والأبرار، ومثل هذا لا يمكن تخصيصه بالشخص الواحد لأن نظم السورة من أولها إلى هذا الموضع يقتضي أن يكون هذا بياناً لحال كل من كان من الأبرار والمطيعين، فلو جعلناه مختصاً بشخص واحد لفسد نظم السورة. والثاني أن الموصوفين بهذه الصفات مذكورون بصيغة الجمع كقوله: إن الأبرار يشربون، ويوفون بالنذر، ويخافون، ويطعمون وهكذا إلى آخر الآيات. فتخصيصه بجمع معنيين خلاف الظاهر، ولا ينكر دخول علي بن أبي طالب عليه السلام فيه، ولكنه أيضاً داخل في جميع الآيات الدالة على شرح أحوال المطيعين وكما أنه داخل فيها، فكذلك غيره من أتقياء الصحابة والتابعين داخل فيها، فحينئذ لا يبقى للتخصيص معنى ألبته) أه. كلام الرازي
أما من نقل القصة من المفسرين بلا بحث فليس في مجرد النقل حجة
ومن العجيب أن ابن عباس الذي رويت عنه هذه القصة من القائلين بأن سورة (الإنسان) مكية نزلت قبل زواج الإمام بالزهراء عليهما السلام، فكيف يصح ما رواه أم

كيف يستقيم
محمود محمد سويلم
إلى الأستاذ محمد سعيد العريان
جاء في كتابكم القيم (حياة الرافعي) أن والد فقيدنا الغالي هو الشيخ عبد الرزاق الرافعي؛ فالتبس علي الأمر بعد أن كنت أعلم أن أسم أبيه (صادق) نسبة لما يطلقه على نفسه:
(مصطفى صادق الرافعي)
فهل لك في إزالة هذا الالتباس وإيضاح الحقيقة؟ بعد أن تقبل تحية صدق من أخ يقدر فيك - على البعد - الإخلاص والوفاء
(دمشق)
بشير العرف
الأمة الإسلامية ونادي المراسلات الإسلامي
تتكون من العالم الإسلامي الممتد في كل بقعة من بقاع الأرض أمة تخالف في نظامها ومقوماتها الشخصية الأمم، فمن المألوف في كل أمة أن تكون الوحدة بين أفرادها وحدة الدم أو اللغة. لكن الأمة الإسلامية التي تتألف من أجناس متعددة ولغات متباينة، وتقيم في قارات الدنيا الخمس، هذه الأمة تتألف من كل مؤمن صادق الوعد قوي النفس حي الضمير، من كل أمة تربط بين أفرادها العقيدة بدلاً من أن يربط الدم ويوحد بينهما الفكر ما فرقته اللغة
هذه الأمة العظيمة تتلاقى بقلوبها وأبصارها عند كعبة واحدة كل يوم خمس مرات، وتهتف بنداء واحد كل يوم مئات المرات كانت، حفنة من الرجال خرجوا من جوف الصحراء ينشرون كلمة التوحيد، ويرفعون أسم الله قد دانت لشجاعتهم وإيمانهم جبابرة الأرض، وفرضوا على كل الأمم أنبل التقاليد وأفضل الأخلاق وتركوا وراءهم مجداً خالداً باقياً ما بقيت الأرض
إلا أن روح الخمود والتفرقة والجري وراء الأغراض ما فتئت تنخر في عظام هذه الأمة حتى وصلت إلى حالتها الحاضرة من التقهقر والضعف والانحلال؛ هذه الحالة التي تثير في النفوس كوامن الألم وتدفعنا دفعاً إلى أن نفكر في مجدنا التالد وتقاليدنا النبيلة التي يكاد أن يعفى عليها الزمن
إن نادي المراسلات الإسلامي الدولي الذي هو عبارة عن هيأة إسلامية دولية مركزها الرئيسي بالمملكة المصرية يشترك في إدارتها وتنظيمها نخبة من شباب الإسلام في مختلف بلاد العالم يدعو مسلمي الدنيا بأكملها للانضمام إلى عضويته وبذل أقصى الجهد في نشر
فكرته ومبادئه والدعاية إلى الانضمام إليه سعياً وراء تحقيق أغراضها التي تألف من أجلها، والتي تقوم على خلق علاقة وطيدة تتناول كل أمور الدنيا والدين بين مسلمين الدنيا بأكملها مهما اختلفت اللغات أو تباينت الأجناس أو بعد المزار
إن الاشتراك في نادي المراسلات الإسلامي الدولي لا يكلف الأعضاء مالاً ولا وقتاً ولا جهداً، ولكنه وسيلة لا تدانيها وسيلة في تحقيق الوحدة الإسلامية وبعث القوى الكامنة في نفوس الأمة الإسلامية
فإلى مسلمي ومسلمات العالم نسوق هذه الدعوة راجين أن تصل إلى كل مسلم، وأن يعمل الجميع على نشرها في جميع أنحاء العالم تقدم طلبات الانضمام وتطلب الاستعلامات بلا أي مقابل من السكرتير العام لنادي المراسلات الإسلامي الدولي صندوق البريد رقم 939 بالقاهرة بمصر.
رسالة النقد
ليالي الملاح التائه
للأستاذ الشاعر علي محمود طه
بقلم الأستاذ خليل هنداوي
ليس أحب على النفس التي تحيا في هذا الجو الضيق الذي حل فيه الربيع بمواكبه عابساً يائساً من أن تنطلق في الحياة انطلاقة (الملاح التائه) الذي يخبط على غير هدى، لا غرض له من هذا الخبط إلا أن ينطلق وينطلق! فيضيع عن الشاطئ عبر هذا اليم الذي تلاشى عن عينيه شاطئه، وأصبح يحمل الموج لمن يسأل عنه صدى ألحانه،

وفي هذه الألحان شوق غلاب ووجد ملح
حياة هذا (الملاح التائه)، هي ذات حياة ذلك البوهيمي الذي انطلق من قيود الحياة، وراح يطلب لذتها للذتها. إلا أن البوهيمي قريب منا حينما نطلبه؛ أما ذلك (الملاح التائه)، فقد انفصل عنا حتى ضنَّت الأمواج علينا بالإبقاء على آثار زورقه! فنحن نسمع أصداءه، ولكن لا نعرف مصدر تلك الأصداء؛ ونطرب لألحانه المقبلة مع الموج المتهدل، ولكن هذه الألحان تبقى مجهولة الإيحاء!
أين صاحبها؟ وأية موجه تلفُّ الآن زورقه؟ وأي شاطئ مرصَّع تفتح أمام عينيه؟ أذكر أنني تلوت نقداً لديوانه الأول يلوم الشاعر على أنه يهمل مشاهد بلاده، ويمعن في وصف مشاهد غريبة عنه وعن أهله؛ ولكن غرب عن الناقد أن - شاعرنا ملاح تائه - يعبر كل البحور، ويرف ناظره على كل الشواطئ، ويكحل جفنه بأي نوع من الجمال. ومتى انطلق الشاعر من هذه الحدود، ترامى أمام طرفه، لا نهاية فسيحة تبدو عليها حدودنا خطوطاً تكاد تلوح كباقي الوشم إزاء عالمه الفسيح!
وفي (ليالي الملاح التائه) مشاهد غريبة - عن غير هذا الشاعر - توحي إليه عاطفة شديدة الإحساس، لكنها في هذه المرة لا تكاد ترتدي - الإنسانية - رداء حتى يردها إلى الأرض التي انفصلت عنها نوازع فيها الوجد والحنين والاضطراب والكآبة. . . وكل هؤلاء نعم القرين للشاعر! وإذا كان لا بد من النقد، فإنني آخذ على صاحب الليالي حشده لبعض
مقطعات ليست من وحي الملاح التائه! وليست أخوات تلك الرعشات التي تأتي متآخية مع رعشات الأمواج! وأولى بمثل هذا الشاعر الصافي أن يتجرد كثيراً من شعر المناسبات. ومن أولى من الملاح التائه بالتجرد من هذا؟ وهو الذي وقف حياته على الشعر الصافي. . .؟
أول الحان (الملاح التائه) أغنية سامية أعدها فتحاً جديداً في عالم الشعر والغناء، هي (أغنية الجندول) التي نظمها خير شاعر ولحنها خير فنان، قد امتزجت فيها عبقرية الشعر وعبقرية الفن، حتى لتحار في هذا الامتزاج الغريب الذي ترك للقطعة قيمة خاصة تذكرنا بالشعر العربي الوجداني، ولعلها تمت بصلة أو صلات إلى الموشحات؛ ولكن تلك الأغنية أصدق عاطفة، وأبعد تأثيراً في النفس، لأن العاطفة المجردة بعثت بها دون أن تترك مجالاً لتغلب الصبغة الكلامية. . . ولعل هذه الأغنية هي أروع أغاني (الملاح التائه) لأنها تصور حياة هذا البوهيمي الذي يعالجه حنينان: حنين إلى مجالي الهوى، وأين تلك المجالي! وحنين إلى أرضه المتواضعة التي يصارعه الشوق إليها. حنينه الأول إلى كأس يتشهى الكرم خمره، وحبيب يتمنى الكأس ثغره. . . هذا الحنين عاوده وأنساه كل شيء. . . وبات من أجله يضيِّع في الأوهام عمره! ولكن الذكرى تناديه، والشوق إلى وطنه يهتف به. . . فيشعر بغربته شعوراً كاملاً، ولا يزيد على شعوره هذا شيئاً
قال من أين وأصغى ورنا ... قلت من مصر غريب ههنا!
هذا البوهيمي نفسه يمر على الخيام فيقف عنده، وهو الذي لا يقف في مكان، وهنالك يرسل لحناً يعد أعمق ما أرسله من ألحانه في لياليه؟ وأنى لنا أن نتمثل هذا البوهيمي الذي أضناه جوب البحار وشق القفار، حتى وقف عند باب هذا الخمار!
كلما لألأ في الشرق السنا ... دقت الباب الأكف الناحلة
أيها الخمار! قم وافتح لنا ... واسقنا قبل رحيل القافلة
وما عسى يسقيه هذا الخمار الذي جمع خمره من كرم غريب عن الكروم وعصرها من عناقيد ترى فيها:
كل عنقود دموع جمدت ... وقلوب فنيت فيها شعاعاً
ما احتواها الفجر إلا اتقدت ... جمرة تذكو حنيناً والتياعاً
وبعد السكر يناجي الخيام بمثل ما عاوده في حياته، وفي هذه النجوى صعود شاعر:
صرخت آلامه في كوبه ... فهوى يثأر من آلامه
إنما البعث الذي تشدو به ... يقظة المفجوع في أحلامه!
لله ما أروع هذا البعث؟ ولكن حسبه تعزيه:
أنا سنحيا ... في غد، مثل حياة الزهر . . . . . .
وسنطوي الأبد المجهول طيا ... بُعددَ الأطياف شتىَّ الصور

حسبها تعزية أن نحملها ... بأناشيد الصباح المنتظر
ونشق الأرض عن وجه السما ... حيث نور الشمس أو ضوء القمر
ربما جدَّ أو هاج لنا ... نبأ، أو قصةً من حبنا
نوح ورفاء، أرنَّت حولنا ... أو صدى قبره مرت بنا

في الديوان شعر كثير، وخطوات تدل على قلب شاعر: وللشاعر قدرة عظيمة بنقل الحوادث الخاصة بروح إنسانية كما فعل في قصيدة (مصرع الربان). ولعل بين هذا الربان وهذا الملاح نسباً. هذا الربان هو الكابتن (ماكيج جونس) ربان حاملة الطائرات كوراجيوس التي أغرقتها غواصة ألمانية في بدء الحرب الحاضرة، فآثر الموت غريقاً مع سفينته على الحياة بعدها. ولما بلغ الماء هامته، ألقى بقبعته على الموج إجلالاً للموت وإكباراً للبحر الذي حمله حياً وضمه ميتًا! ولم يجد الشاعر في هذه الحادثة مهرباً من وصف ذلك العدو الخافي المقاتل. . . وهو وصف دانٍ جداً من وصف شوقي للغواصة. وما أدنى المشابهة حين يقول:

رماك في جنبات اليم محترب ... خافي المقاتل عند الروع فرار
ترصدتك مراميه ولو وقعت ... عليه عيناك لم تنقذه أقدار
وأبدعْ بتلك الصورة التي خلدها الشاعر
وغاب كل مشيدٍ غير قبعة ... ذكرى من الشرف العالي وتذكار
ألقيتها، فتلقَّى الموج معقدها ... كما تلقَّي جبين الفاتح الغار

وهذه قصيدة وليدة البحر، لو لم يقع عليها الملاح التائه أثناء تطوافه لم يلقها، لكن الباعث عليها يختلف عن جملة البواعث الأخرى، لأنه باعث الحياة التي تهتز بانفجار، وتأبى
الحياة إلا فجاءة واقتحام أخطار
شعر فيه جميع عناصر الشعر!
زودَّينا من مثل هذا الشعر يا مصر!
وهل الشعر إلا نشوة علوية وشعاع كأس لم يقبَّلها فم؟!

خليل هنداوي

القصص

الرجل الذي لا يقاوم

للأستاذ نجيب محفوظ

في تلك اللحظة التي لا تنسى حين وجه المأذون سؤاله الفاتن إلى صابر أفندي عبد الخالق: (هل تقبل نكاحها؟). ثم عطفه إلى الآنسة حياة الخضيري قائلاً: (هل تقبلين نكاحه؟). في تلك اللحظة التي لا تنسى تنهد قلبان ارتياحاً وغبطة بعد أن احترقا شوقاً وجوى عشرة أعوام تساوي مائة عام مما تعدون. وقد لهجت الألسن بالخبر السعيد أكثر مما ألفت أن تلهج بنبأ زواج. لأن الحب الذي ألف بين هذين الشخصين عشرة أعوام طوال كان ذاع أمره، وجرى مجرى الأمثال ذكره، فغدا نادرة يطرب لها الكواعب ويستدفئ بها العجائز في أحياء غمرة والسكاكيني والظاهر وغيرها من الأحياء القريبة التي شاهدت من آياته ما تهتز له النفوس وتخفق القلوب. وقد طغى هذا الحب واستبد. فهزأ بالكبرياء، وأزال الفوارق واستأداهما ما يطيقان وما لا يطيقان من التصبر والتجلد والإخلاص والوفاء، فأدياها إليه عن طيب خاطر، وقدما على مذبحه القرابين عاماً بعد عام. أما حياة فهي كريمة السيد شلبي الخضيري تاجر الأخشاب ذي الثروة الواسعة والجاه العريض، والمكانة الملحوظة في أسواق التجارة وميادين السياسة والحياة النيابية، وكانت إلى هذا حسناء في مقتبل العمر مشهوداً لها بالجمال الفائق والرشاقة الفاتنة. وأما صابر فمن أسرة فقيرة من عامة الشعب، ارتقت به مدرسة الصنائع إلى وظيفة مهندس كهربائي بمصلحة الميكانيكا بمرتب ستة جنيهات. فوهبته قلبها وجمالها وصدقته المودة والإخلاص، وأعرضت وفاء له عن عشاق ملحين عنيدين، ورفضت أيادي شبان ذوي حسب ونسب وجاه، منهم طبيب وجيه، وضابط بوليس يعبث شريطه الأحمر بالأفئدة. فلم تطع سوى قلبها العاشق المفتون. وحافظ هو من ناحيته على عهدها، وأخلص لها الحب، وليس هذا بالشيء الذي يستهان به في مثل عصرنا هذا. وتحمل في سبيلها أذى كثيراً دأب والدها على توجيهه إليه قبل أن يسلمه اليأس من إذعان كريمته إلى قبوله. وفوق هذا، فلم يكن مما يجذبه إليها جاذب

الطمع في مال أو جاه أو ترق، فكان حبه خالصاً نقياً. على أنه لم يعرف عنه مع ذلك أنه كان يغض الطرف قط عن حسان السكاكيني أو الظاهر، وما كان يستطيع ذلك، ولكن الحق الذي لا
مراء فيه أنه احتفظ بقلبه وحبه لها دون بنات حواء جميعاً. . . وشاء الحب أن يختم ألم السنين بهذا الزواج. فقال أناس: إنه إذا كان الحب قد حكم أن يدعوهما دواماً إلى حدائق القبة وبساتين غمرة، فالزواج لا شك محتبسهما في بيته إلى الأبد، وأنه لن يرى بعد ذاك اليوم صابر أفندي إلا حين ذهابه إلى مصلحة الميكانيكا والكهرباء، أو عند أوبته منها. وصدقت فراستهم، ولكن شهراً واحداً رؤى الشاب بعده ذات مساء يغشى قهوة كان دائم التردد عليها أيام عزوبته، وقد نفخت فيه الحياة الجديدة نضارة وسعادة، فبدأ أنيقاً جميلاً، فلم يدهش لذلك رفاقه وتلقوه فرحين. . . فمضى يغيب حيناً ويعاود أحياناً، ثم اختفى ردحاً طويلاً فظنوا جميعاً أنه آثر هدوء البيت على ضجيج القهوة، ولكن واحداً ممن يتطوعون لإذاعة الأخبار قال إنه يراه كل مساء يجلس أمام (صالون الكمال) في شارع قمر لا يبرح مكانه حتى يغلق (الصالون) أبوابه حوالي الساعة العاشرة. فوقع القول من النفوس موقع الدهشة وتساءلوا عما يغري صاحبهم بتجنبهم وملازمة صالون الكمال. وكان بينهم خبثاء متطفلون فلم يهدأ لهم بال حتى أرسلوا رسولاً منهم يستطلع الخبر. وعاد الرسول بما هو أدعى إلى الدهشة، والإنكار قال: إن صابر عبد الخالق يسعى وراء حب جديد، وإن التي شغفته حباً هذه المرة معلمة بروضة الأطفال تقيم بشقة في العمارة رقم 10 بشارع البستان المواجه لصالون الكمال. . .
كيف أمكن أن يحدث هذا التحول الغريب؟ هل خبا الحب الذي صمد للشدائد عشر سنوات بهذه السرعة؟. . . ترى هل خنقه الملل في شهر وبعض شهر؟. . . أم بددته الخيبة وانقشاع الأوهام؟. . . وكيف مكن أن ينزع قلبه إلى امرأة أخرى بهذه السهولة بعد أن تعود على حب زوجة ذاك الدهر الطويل؟!
قبل أن نجيب على هذه الأسئلة ينبغي أن نعرف أكثر مما عرفنا إلى الآن من هو صابر عبد الخالق؟
هو شاب في الثلاثين له فضائله وله رذائله مثل جميع الناس. فمن فضائله احترامه لنفسه وحرصه على كرامته ومحافظته على آداب البيئة وتقاليدها المتوارثة، وإن كان يشوب حماسه لهذه الفضائل ضيق آفاقه وانحصار ذهنه وضحل ثقافته مما يجعله ينحدر في كثير من الأحايين إلى الصلف والتعصب. وأما رذائله فهي أدنى إلى الفكاهة منها إلى الشر
وتدور جميعها حول الغرور، والغرور الموجه إلى مزاياه الجسمانية قبل كل شيء. نعم لا أنكر أنه عظيم الثقة بمواهبه العقلية وقدرته الفنية كمهندس قليل النظير، ولكن تيهه بحسنه واعتداده بجماله يفوقان كل تقدير. وليس ثمة شك في أنه يحظى بقسط من الوسامة والجمال فقد خلق الله له عينين سوداويين يظلهما حاجبان مقرونان، وأنفاً مستقيماً. ولكن عجبه فاق حسنه كثيراً وغلب أثره على فعاله وأقواله، وكان أمراً ملحوظاً لدى رفاقه منذ الصغر فاستبقوا إلى العبث به تارة بإطراء جماله، وتارة بإبداء إشفاقهم على الحسان من وقعه وفعله. فما خطر له على بال أنهم يهزأون به؛ وازداد عجباً وما عتم أن غدا عجبه داء لا شفاء منه. ولذلك كان احب الأشياء إلى نفسه أن يقف أمام المرآة يطالع صورته المحبوبة وقوامه الرشيق ويطيل النظر إلى عينيه الدعجا وبين ثغره المليح المفتر عن ابتسامة وضاءة، المكلل بشارب (كلارك جابل). كما كان أشق الأمور على نفسه أن يسعى إلى اقتناء بذلة يلف بها حسنه وشبابه. فما كان يطمئن ذوقه حتى يطوف بمحلات القاهرة التجارية جميعاً فاحصاً مفاضلاً بين الأصناف والألوان، ومتى وفق إلى اختيار لون منها واجه متاعب التفصيل، وتجاذبت عقله المودات الحديثة، أنهكت قواه البروفات المتتابعة؛ ثم يمضي في تخيُّر القميص الموافق للبذلة، ورباط الرقبة الملائم للقميص، والمنديل الموائم لرباط الرقبة، ولا ينسى - إتماماً للتناسق العام - الحذاء والجورب المناسبين. كان متأنقاً شديد الحساسية إلى حد الإرهاق. فكان الكواء يوجه إلى ثيابه عناية لا يوجهها لثياب أحد من زبائنه الآخرين. ويحلف الحلاق أنه يلقي في ترجيل شعره وتطرية شاربه من الجهد مالا يلقاه طبيب يتصدى لحاله وضع خطير
لهذا لم يكن عجباً أن يستهين بتضحية زوجة في سبيله، وأن ينكر على القائل قوله: إن

إخلاصها له نعمة يحسد عليها. بل كان في أعماقه يعتقد أنه صاحب الفضل وأنها صاحبة الحظ التي يحسدها عليه بنات حواء جميعاً. كيف لا وقد وقف عليها جماله الذي تقتتل عليه أجمل الحسان؟!. . . وقصة حبه الجديد آية على غروره قبل كل شيء. فلم تكن إلا أنه رأى فتاة تعبر شارع السلحدار ذات أصيل فراقه منظرها، لأنها كانت ذات قد رشيق ووجه خمري مستدير رقيق القسمات. يولد تناسقها في النفس اشتياقاً ويؤرث في الصدر حرارة. فتبدي على وجهه الرضا، وهز رأسه طرباً كأنه يتابع لحناً شجياً. وكان إلى جانبه ساعتئذ
شاب من معارفه لم يفته ما بدا عليه. فأدنى رأسه من أذنه وقال بلهجة ذات معنى:
- حذار فالنظرة إلى هذه تعقبها حسرة
فأنكر صابر قوله وسأله ببساطة وعيناه تتعقبان الفتاة المجدة في السير:
- ولمه؟
فقال الشاب بخبث:
- لأنها فتاة جد، لا تلوى في سبيلها على شيء ولا تعير المغازلات أدنى التفات. وما تزال تتردد كل صباح وكل مساء ما بين بيتها في شارع البستان وروضة الأطفال بشارع السلحدار مقتحمة أنظار المتطفلين كأنما تحتفظ بقلبها في صندوق مغلق ضائع المفتاح
فساءه هذا الوصف وأحس بمرارة لما آنس فيه من تحد وقال متفلسفاً على قدر عقله:
- قلب أي امرأة في صندوق ضائع المفتاح كما تقول، والعبرة بالرجل الأريب الذي يقدر على الظفر بهذا المفتاح. وهز منكبيه باستهانة وابتسم ابتسامة ساخرة مشبعة بالثقة والطمأنينة، وودع الفتاة التي شارفت نهاية الطريق بنظرة وعيد. ولم يكن يداخله أي شك في قدرته وفنه، ولا تزعزعت ثقته بنفسه قط، ومع ذلك لم يرتح قلبه، ووجد في كلام صاحبه تحدياً صريحاً لا يجوز السكوت عليه؛ وجعل يتساءل في غيظ وحنق: ترى هل يمكن حقاً أن تقتحمه هذه المعلمة إذا تصدى لها. . .؟
هل يستعصي عليه العثور على المفتاح الضائع؟ وتكدر صفوة تلك الليلة. وفي أصيل اليوم الثاني قصد إلى شارع السلحدار، ومن الإنصاف أن نقول إنه لم يدفع بنية يتحرج لها ضمير زوج مخلص مثله، وإنما ساقه انفعال غضب وعاطفة لا نتنكب الحق إذا قلنا إنها علمية إلى درجة ما، لأنها كانت تتشوف إلى التحقيق والتجريب. قصد إذاً إلى شارع السلحدار وانتظر. ثم رآها تبرز من باب المدرسة بقدها الممشوق. فوثب وتحفز حتى إذا صارت منه على مرمى نظرة سدد إليها عينين فاتنتين، ولكنها سارت لا تلوى على شيء كما قال صاحبه، وضاعت النظرة في الفضاء منضمة إلى أسرتها من الأنوار الكونية. فأحس بخيبة وأحنقه جفاؤها السكسوني، فصرَّ على أسنانه وسار في أعقابها.
ومضى يشاهد خصرها الدقيق وردفها المستوي ويقول لنفسه متعزياً (لو اصابتها النظرة لذاب جفاؤها كما يذوب الثلج تحت أشعة الشمس). وأرد أن يلفتها إليه، وتنحنح وسعل سعلة
مؤدبة، ولكنها لم تبد أدنى اهتمام، فأوسع الخطى حتى حاذاها، وكاد أن يلمس كتفها، فأوسعت الخطى بدورها لتسبقه فاستبقا. وأدركت بلا ريب أن شخصاً يطاردها فالتفتت نحوه بغضب، وكان يتربص للفرصة السعيدة فصوب إليها نظرته المشهورة، فردت عليها بنظرة عنيفة كأنها تقول له: (مكانك يا هذا). وتنحت عن سبيلها منعطفة إلى اليسار ثم انتهت المطاردة بانتهائها إلى العمارة رقم 10 بشارع البستان وتردد أمام العمارة مرتين، ولم يجد بداً من العودة فقفل راجعاً. وكان مهموماً مغتماً كمن يقفل من معركة دامية لا مطاردة غرامية. وما كان يشعر بأي إحساس من أحاسيس الحب أو الفتنة، ولكن كانت تضطرم في قلبه عواطف الكفاح والقتال وبات ليلته وقد صدقت عزيمته على الجهاد إلى النهاية
وتوجه في أصيل غده إلى المكان نفسه - وانتظر حتى رآها تسير نحوه في مشيتها التي تجمع بين الرشاقة والشدة فتبعها على الأثر، وأدرك لأول وهلة أنها لا تجهل تعقبه لها وأنها برمة ضيقة به، ولكنه سار في طريقه غير حافل بتذمرها، لأنه كان عنيداً مثابراً ملحاحاً؛ فكان جزاؤه نظرة أشد من نظرة الأمس. وفي اليوم الذي بعده خرجت عن صمتها بأن قالت له بلهجة خشنة صارمة: (من فضلك بلاش قلة أدب). وفي اليوم

الرابع قالت له بنفس اللهجة (شيء بارد). وقالت له في اليوم الخامس وهي تحدجه بنظرة وعيد (إذا لم ترتدع عن هذا السلوك الشائن ناديت الشرطي)، ولما كانا في اليوم السادس لاذت بالصمت يأساً وتجاهلته، ولكنها لم تناد الشرطي، فتنهد ارتياحاً وعد سكوتها فوزاً مبيناً. وأخذته نشوة طرب فسأل لسانه بكلام - وإن يكن مبتذلاً غاية الابتذال، ويحفظه جميع من هم على شاكلته عن ظهر قلب - إلا أنه كان يحسبه من الرقى الغرامية كنظرة عينيه سواء بسواء. قال لها: (يا معجباً بنفسه يا شديد الجفاء بغير سبب. يا تياهاً بجماله، هل ذنبي أنا أنك جميل ولا نظير لك في الكائنات. وهل جرمي أن لي قلباً يشعر ويهيم بالجمال. أيصح أن تنذريني بالأمس بالشرطي. وهل ينادي الشرطي للعاشقين. . . الشرفاء. . . أمثالي، ومع ذلك نادي الشرطي، بل نادي الموت نفسه فلن أبرح حتى أسمع من الفم الصغير هذا - الذي يحاول خنق ابتسامة بريئة بغير ذنب - ما يدنيني إلى أملي. . .)

ولم يعد يقنع بالمطاردة القصيرة التي تبدأ في شارع السلحدار وتنتهي في شارع البستان،

ووجد في موقع صالون الكمال من العمارة رقم 10 ما يشفى شوقه وطمعه. فانضم إلى زبائنه وتودد إلى صاحبه وجعل منه ناديه المفضل على كل مكان

وكان يندفع بادئ الأمر - كما قلنا - بقوة غضب ورغبة في الغلبة. وكان يعتزم أن يقف ويتراجع حين تلين وتراخى. وكان يعود من كل مطاردة - في أول عهده بها - ولا فكر له إلا عنادها وصلفها وغضبه وخنقه. ثم أخذت صور أخرى منها تتسلل بمهارة فائقة إلى مخيلته مثل قدها الرشيق وعنقها الطويل وقسماتها الصغير المتناسبة. ومضت هذه الصور تزحف على وجدانه من سراديب حواسه وتندس إلى زوايا قلبه وهو لاه عنها بحنقه وكفاحه. فغدا يتعرض لها مسوقاً بأشواق وحنين. وملبياً نداء يصعد من أغوار نفسه حتى أقر أخيراً في إشفاق وقلق وذعر أنه يحبها. وأن الداء يبرح به مرة أخرى. وصادف به مرة أخرى. وصادف اكتشافه لحقيقة عواطفه تراخي الفتاة واستلامها فلم يقف ولم يتراجع كما كان اعتزم. بل شد على يديها في حماس دافق واندفعا معاً في سبيل الحب، وفتحت له نفسها وبسطت أمام ناظريته صفحة حياتها البسيطة فعلم فوق ما كان يعلم عنها أنها تعيش مع أمها وخالتها، وأنهما في غير حاجة مادية إليها وقد أكدت له ذلك تأكيداً لم يخف عليه مغزاه. أما هو فأخفى عنها جل نفسه فلم يدر لها بخلد أنه زوج وأنه إلى درجة ما عريس. وكان هذا ما يكدر صفوه وينتزعه من سكرة أحلامه، فمثل الصلة التي بينهما لا يمكن أن تدوم قانعة باللقاء صباح الجمعة بحديقة الوطن بهليوبوليس، ومساء الأحد بسينما ركس. وفضلاً عن ذلك لا يمكنه أن يتغاضى طويلاً عن تلميحها المستمر إلى موضوع الزواج. فلم ير بداً - حرصاً منه على الاحتفاظ بها - من مجاراتها في أحاديثها فما لبث أن جرى ذكر الزواج على لسانيهما وناقشاه على اعتبار أنه النهاية التي تهفو إليها نفساهما

وخطت درية خطوة أخرى فدعته إلى زيارة بيتها لتقدمه إلى أمها وخالتها. وهنالك أسقط في يده لأنه ما كان يستطيع أن يلبي الدعوة ولا كان يدري كيف يرفضها، والاعتذار لا يغني عن حالته طويلاً. فما عسى أن يفعل؟ أيلوذ بالفرار ويختفي من أفقها إلى الأبد؟ قد يبدو هذا الحل ما فيه من نذالة أوفق الحلول، ولكنه لم يستطيع على شدة حرجه أن يأخذ به، لأنه كان انفعالي المزاج لا يزع نفسه عن هوى. وكان في الحق قد غدا مستهاماً بها كلفاً. فألف صورتها وحديثها وإيماءاتها ألفه مازجت روحه وسعادته. فهل يعترف لها

بالحقيقة ويسألها المغفرة. . . ولا هذا استطاع لأنه أشفق من أن يأخذهاالارتياع فتنفر من خداعه. أو تيأس منه فينصرف قلبها عنه. واشتدت به الحيرة وساورته الهموم وتشتت عقله بين شعاب مظلمة. وما فتئ يماطل ويسوف. وما يدري كيف يوفق بين هواه الجامع وظروفه القاسية. . . حتى تبرعت المصادفات بالحل الموفق

وكان اليوم الجمعة وقد عاد إلى بيته - وكان يساكن حماه - في الساعة الرابعة مساء. وكان يترنم بأغنية بصوت خافت متناسياً أشجان قلبه إلى حين، وفتح باب شقته في هدوء وهم بالدخول، فوجد نفسه وجهاً لوجه مع الآنسة درية. وخفق قلبه خفقه شديد انخلعت لها ضلوعه، وصاح وهو لا يدري: (أنتِ) ولم تكن أقل منه دهشة، فرددت قوله: (أنتَ) وعند ذاك فقط أدرك أن زوجه تقف إلى جانبها، وإلى يمينها أخوها الصغير

(توتو) ممسكاً في يده بكراسة. . . ومرت به لحظة رهيبة أحس بأن الأرض تميد به، ولفه ذهول قهار، فلم يستطيع أن يكتم عواطفه ولا أن يداري افتضاحه، وكانت الزوجة تراقبها بعينين مرتابتين وقد امتقع وجهها وارتعدت شفتاها، ثم ارتسمت على فمها ابتسامة صفراء وسألت المعلمة قائلة بصوت متهدج:

- هل تعرفين زوجي؟

ولم تدر الفتاة بماذا تجيب، وقد دوت في أذنيها كلمة (زوجي) دوياً مزعجاً، فرددت عينيها بين صابر وزوجه ثانية، ثم خفضت عينيها الزائفتين واستولى عليها اليأس والغضب وانفلتت إلى الباب لا تلوى على شيء، ولم تنبس بكلمة ولم تترك وراءها مكاناً لشك أو ارتياب

وكانت الزوجة تشعر بالفتور الذي اعتور علاقتهما وتتحير في تعرف أسبابه، فعلمت أن لها غريمة وأن غريمتها هي معلمة (توتو) الجديدة، فغضبت غضبة نفست عن صدرها الكظيم. ونمت الفضيحة إلى أمها، فاستفحل الخطب، ولم تنته الليلة حتى حمل صابر حقيبته وعاد إلى بيته وحيداً كئيباً. . . ولكن الله سلم؛ ولم يبخل عليه بالغفران القلب الذي صدقه الحب عشرة أعوام فقفل إلى بيت الزوجية تائباً. وتراه الآن إذا ظهر في الطريق يسير متأنقاً مزهواً كعادته، فإذا وقع بصره على وجه نضير أو قد رشيق ابتسم ابتسامة الزهد والكبرياء. فإذا خطر لأحد من صحبه أن يداعبه أو يتحداه ابتدره قائلاً: (حسبي. . . (حسبي. . . لا أريد أن أجرح قلوباً بريئة

نجيب محفوظ

العدد 364 - بتاريخ: 24 - 06 - 1940

فرنسا تنهار؟!

سبحانك اللهم مالك الملك وصاحب القدرة! أفي أقل من دورة القمر تخشع باريس محراب الأدب للقوة، وتخضع فرنسا منجم الذهب للمادة؟

أفي أسرع من كسرة بولندة والنرويج وهولندة والبلجيك ينهزم أبسل جيش على الأرض، وتنهدم أرفع أمة بالتاريخ؟

أبعد القارعة الكبرى ونجاة (فوش) من (فون كلوك) بالمعجزة المفاجئة يخلد (بيتان) و (فيجان) إلى الدعة، ويسترسلان إلى النعيم، ويطمئنان إلى الأمن، ويسالمان الأحداث في أفياء (ماجينو). ويهملان الشباب في إفناء (سان سير)، فلا يهتمان بسلاح ولا يفكران في خطة؟

لقد كانت سيدان في جسم الدفاع الفرنسي عرقوب أخيل:

جثا فيها نابليون الثالث أمام بسمارك، فلم يستطع (تيير) و (غمبتا) أن ينقذا شرف فرنسا ويفديا عاصمتها إلا ببذل الألزاس واللورين وخمسة مليارات من حر الذهب. وانخرع فيها جيش (كوراب) فانثغر عندها خط الدفاع الرئيسي فوقعت الكارثة التي لا حيلة ولا نجاة منها. وليس يدري إلا الله ماذا يملي الدكتاتوران على فرنسا الضارعة من شروط الصلح في (فرانكفورت) الثانية.

فكيف غفل القواد الفرنسيون عن هذا الثغر فلم يحصنوه ويؤمنوه؟

لقد قال رئيس الحكومة الفرنسية: إن القيادة ارتكبت أخطاء لا يتصورها العقل، وأشار رئيس الوزارة الإنجليزية إلى تهم لا يرى الوقت ملائماً للإفضاء بها. ونحن نعيذ فرنسا مَثل الوطنية العالية ونموذج العسكرية الرفيعة أن تكون ميداناً لجيش الهتلرية الخامس، فما علم الناس على ضميرها الوطني من سوء؛ وإنما نعتقد أن الديمقراطية دهاها ما دهاها من بطر الغنى وغرور الأمان واعتقاد السلامة. فلو أن الحلفاء يوم صرعوا الأفعى قطعوا ذنبها ورأسها لما تفتحت الجحيم من شياطين النازية الذين زلزلوا الدنيا وبلبلوا العالم. ولكنهم دوخوها وسلخوها وتركوها في فجوة من الأرض تتحوى وتتقوى وتستعد، وانطلقوا في جنتها الفيحاء ينعمون ويقصفون حتى أذهلتهم نشوة الفوز عن كيد الموتور وحنق المقهور، فأغفلوا الحيطة وأهملوا العدة إلى أن انفجرت عليهم السموم من كل وجه. والدولتان الحليفتان قد اعترفتا بهذا الخطأ الذي جر عليهما هذه النكبة. فقد قال المستر تشرشل في خطبته الأخيرة: (لقد انهارت قوى العدو في سنة 1918 فجأة. فشاءت حماقتنا أن نلقيه جانباً ثم نستنيم إلى سكرة الفوز). وقال المرشال بيتان في ندائه الأخير: (بعد

انتصارنا على الألمان في سنة 1918 تغلب فينا مرح السرور على روح التضحية، وحرص الناس أن يأخذوا أكثر مما أعطوا، واستشعروا برد الراحة فأراحوا أنفسهم من عناء الجهد)

لذلك لم يكن بالعجيب أن تعقم فرنسا أم الأبطال فلم تنجب في زهاء ربع قرن من القادة العباقر من يخلف جوفر وفوش، فاضطرها الأمر أن تلقي بمقاليدها إلى رجال المدرسة العسكرية القديمة كغاملان وبيتان ممن أوهنت السن العالية عواتقهم فلا يقوون على حمل النجاد

كذلك لم يكن بالعجيب أن يفاجئهم النازيون بالخطط المبتكرة والأسلحة الحديثة، فيقفوا حائرين ذاهلين أمام الدبابات التي تقذف اللهب وتعبر النهر، والطيارات التي تنفض كالصاعقة وترتفع كالقذيفة، فيذهب غاملان ويجيء فيجان، ويستقبل رينو ويتولى بيتان، ولكن القدر القاهر فوق الناس يأبى إلا أن يكفّر المخطئ ويخسر الغافل

ليت شعري ماذا قال الفرنسي الحزين المهان المحطم حين سمع المرشال بيتان يقول ليلة الأمس في أول ندائه: (إننا في قلة من الجنود، وقلة من الأسلحة، وقلة من الحلفاء، ولذلك انهزمنا)

لعله قال: وأين إذن يا مارشالي العزيز السعي الذي سعيته والمال الذي أديته؟ إن فرنسا وإنجلترا ومستعمراتهما يبلغون ستمائة مليون نسمة، فهل يجوز على مثل هذا العدد القلة والضعف لولا أن هناك خطأ من الإنسان أو خذلاناً من الله؟

لقد برهن الفرنسيون في معركتهم الخاسرة أنهم جديرون بمكانتهم من ثبت الشرف وتاريخ البطولة. وما غلبوا إلا لأن الديمقراطية التي يعتقدونها لا تفكر إلا في السلم، ولا تتسلح إلا بالعهود والمواثيق والقوانين والشرف، وأن الدكتاتورية التي يعادونها لا تفكر إلا في الحرب ولا تتسلح إلا بالحديد والنار والدعاية والخيانة والكذب

على أن الله عوّد فرنسا العريقة أن يحفظ عليها الشرف إذا شاء أن تخسر المعركة. وبقاء الشرف ضمان لبقاء العزة. والعزة حافز دائب الوخز يدفع إلى الحياة بالموت، ويرفع إلى السيادة بالتضحية

ويقيننا أن هذا الصلح الذليل الذي طلبه العسكريون عارض من اليأس أصابهم في حال سيئة. أما سائر الفرنسيين في القارة وفيما وراء البحر فسيختارون المنية إذا خُيِّروا بينها وبين المذلة

إن فرنسا المنكوبة ضحية جديدة لجبروت العلم الفاسد. والعلم الفاسد هو الذي قصدناه بالغضب في مقالنا الذي عقب عليه صديقنا الأستاذ العقاد. وهو الذي عناه المستر تشرشل في بيانه بقوله: (إذا انهزمنا سقط العالم كله في عصر من الظلام سيكون أطول العصور وأشأمها بفضل العلوم الفاسدة)

وفساد العلم أن يضع الإنسان فيه شهواته الدنيا شراً خالصاً لا خير فيه

ورحم الله جان جاك روسو فقد أجهد قريحته في التدليل على أن العلم يفسد الإنسان، ولو تنفس به العمر إلى عهد النازية لأيقن أن الإنسان هو الذي يفسد العلم!

احمد حسن الزيات

مدينة النور تعاني ظلام الخطوب

للدكتور زكي مبارك

قُضِيَ الأمر وسقطت باريس بين أيدي الألمان!

فمن كان يستبعد أن تميد الجبال فليعرف اليوم أن الوجود لا يعرف المستحيل. ومن كان يرتاب في (يوم القيامة) يوم (الفَزَع الأكبر) فليتصور الساعة التاريخية التي اعترف فيها الجيش الفرنسي بأنْ لا فائدة من الدفاع عن باريس

ولكن أي جيش؟

هو جيش صام عن النوم والطعام سبعة أيام إلى أن لم يبق من قُواه غير أشلاء، وكان مع ذلك يحب أن يقاتِل إلى أن يبيد وهو يذود عن باريس، ولكنه خاف على ذخائرها الغالية فقرر أنها (مدينة مفتوحة) ومضى يقاتل قتال اليائس المستميت في مواضع لا قِلاع فيها ولا حُصُون

إذاً حقت المخاوف وسقطت باريس، باريس صاحبة الحق على جميع الشعوب بفضل ما علمت الناس أصول الثورة على الظلم والاضطهاد

فإن قال قائل إن باريس هي عاصمة فرنسا الاستعمارية، فليذكر أنه لم يَثُر ثائرٌ على

الاستعمار في مَشرق أو في مغرب إلا وفي روحه جذوة من النار التي أوقدتها باريس للغضب على استعباد الشعوب
أقول هذا وقد لامني صديقٌ على التوجع لمصير فرنسا في مقال نشرته بجريدة الأهرام منذ أسابيع، وكانت حجته أن فرنسا صنعتْ في الشرق ما صنعت، وأنه لا يجوز الحزن على أمة تحملها القوة على أن تبغي وتستطيل
وهل كنت أجهل عيوب الأمم الاستعمارية حتى يدلني عليها ذلك الصديق؟
إن الأسد هو الصورة الفظيعة للبطش والفتك والافتراس، ولكن هل يشمت الحُرُّ بالأسد حين يراه في مدارج الضيم والاستذلال؟
ذلك حالي في التوجع لفرنسا الجريحة، وقد حاربتها بقلمي مرات حتى صح لوزير الخارجية الفرنسية أن يعارض في منحي وسام الأكاديمي سنة 1931 وهو سرٌّ لم أذعه قبل اليوم، وما أذيعه الآن إلا ليعرف الصديق المتعنِّت أني لا أهتم بغير المعاني.
وقد مُنِحتُ ذلك الوسام بعد ذلك الجفوة في سنة 1936 فلم أر فيه إلا تحية لرجل يصادق فرنسا صداقة علمية لا سياسية.
ومن كان في مثل وطنيتي فهو فوق الشُّبهات والظنون، والصدق في الوطنية من أشرف الأرزاق
إن الضعيف هو الذي يشْمتُ بالقَويّ حين تزلّ قدماه، فليعرف ذلك من يحس الشماتة بمدينة النور، على عهودها الزواهر أطيب التحيات!
وهل أملك إخفاء حسراتي على ما صارت إليه باريس؟
وهل يستطيع أديبٌ ألمانيٌّ أن يُخفى لوعته على مصير تلك المدينة وهو عدوٌّ حتى يستطيع أديبُ مصريٌّ أن يخفي لوعته وهو صديق؟
حدثتنا البرقيات أن الجنود الألماني طافوا بشوارع باريس وهي خالية، فأي أديبٍ لا يتفطّر فيه حُزْناً حين يسمعُ أن شوارع باريس عرفت الهدوء لحظة من زمان؟
هي لفتة من لفتات الدهر الغادر الذي يرى كسوف الشمس وخسوف القمر ضرباً من ضروب المزاح
هي وثبة من وثبات القدر الذي يزلزل الوجود حين يشاء
فمن كانت عنده بقية من الصبر على مكاره الأيام فليتفضل عليَّ بكلمة عزاء لأتناسى أصدقائي في باريس، أصدقاء العهد الجميل يوم كنت طالباً في السوربون، التي صارت اليوم قفراً بياناً لا يطوف بأركانه غير الشامتين من عُلْف القلوب
باسم القوة غُزِيت باريس، وذلك جزاءٌ وِفاق، فليس في باريس مكان إلا وهو نِديٌّ للثرى بالدماء المسفوكة في سبيل الحرية، والحرية من أسماء القوة، والرجل الحرُّ لا يرضى الموت بغير السيف، وكذلك تستشهد باريس. فإن استطاع الألمان أن يخمدوا اللهب الذي يتوقد فوق قبر (الجندي المجهول) تحت (قوس النصر) فسيذكرون بعد حين أن تلك الجذوة ستنقلب إلى سعير يفتك بمجامع الأضغان، ويرد الدنيا إلى عهدها القديم يوم كانت دار علوم وآداب وفنون، كما كانت لعهد باريس قبل أن يحولها إلى أشباح لا تملك الجواب بغير الصمت البليغ!
إن لبست باريس أثواب الحداد في سنة 1940 فقد ألبست برلين أثواب الحِداد في سنة
1918. والحروب قُصاص، وكما يَدين الفتى يُدان. وهنيئاً لمن يحمل السيف فينتصر في وقائع وينهزم في وقائع، فما الحياة الحق إلا عراك ونضال وقتال
ومن ظنّ ممن يلاقي الحروب بأنْ لا يصاب فقد ظنّ عجزَا
وهل كفت باريس عن الدعوة إلى الحرب حتى تنكر عواقب الحرب؟
في باريس مئات من التماثيل لعظماء الرجال الذين كافحوا في مختلف الميادين، وفي كل خطوة يخطوها زوّار باريس أثرٌ ينطق بأن مدينة النور لا تعرف الحياة في غير الصراع والصيال، فما جَزَعُك يا باريس وأنت صيرت الحرب من شرائع الوجود؟
إن قوة الألمان فيضٌ من قوتك يا باريس، فأنت غرستِ الحقد في صدورهم، وأنت قهرِتهم على أن يتربصوا بك الدوائر عشرين سنة ليلقَوك بأفئدة موتورة لا يشفي غليلها غير الولوغ في دماء الرجال
فبفضلك استطال الألمان يا باريس ولولا خشيتهم مما تملكين من عظمة وجبَرُوت لما وصلوا في التسلح إلى الحد الذي يسمح بأن يقهروك على إلقاء المقاليد

وانهزامُك يا باريس سيكون درساً لأبناء الجيل الجديد، وبه يعرفون أن لا قيمة للاعتماد على التاريخ، وأن لا قيمة للتمدح بالفضائل الإنسانية، فما زال أبناء حواء يخضعون لفطرتهم القديمة يوم كانوا من جيوش الغريزة قبل أن يصيروا من رجال الوجدان
ألم أشهد العجائب في الأعوام التي قضيتها في السوربون؟
كان شبان فرنسا في ذلك العهد يرون الحرب من بقايا الوحشية، ويَتواصَوْن بأن يكونوا أنصاراً للسلام مما تغلبت الظروف، ثم سمعتُ بعد أن فارقت باريس أن أقطاب فرنسا يختلفون حول فكرة التسلح وأن فيهم من يرى أن ترصد جميع أموال الدولة للمنشآت العمرانية والمدنية
وذلك ذنبك يا باريس، فأنت وثقت باعتدال الموازيين قبل أن تستعد فطرة الإنسان الحيوانية للترحيب باعتدال الموازيين
ولو كانت باريس غير باريس لعرف أهلها أن في الدنيا خلائق تعيش بغرائز موروثة عن العهود التي سبقت التاريخ
إن الورد يعتصم بالشوك، فكيف فات باريس أن تعتصم بالسلاح؟
تلك هفوة سيكفِّر عنها أبناء الجيل الجديد في باريس يوم تنجلي الغُمَّة بعد أن تضع الحرب أوزارها الثقال
ولكن متى؟
إن انتظار السلام قد يطول!
في أي المحامد والمحاسن والمناقب يفكر الرجل حين يجزع لبلواك يا باريس؟
أيذكر أن مطابعك كانت تخرج نحو سبعين كتاباً في اليوم الواحد؟
أيذكر أن مكاتبكم مرجع لجميع ما أبدعت العقول الإنسانية في القديم والحديث؟
أيذكر أنك صورة الإنسانية، الصورة المجسّمة التي تمثِّل ما تملك الإنسانية من آراء وأهواء، وحقائق وأباطيل؟
أيذكر أنك أرحب ميدان للصراع بين الحلم والجهل، والشك واليقين؟
أيذكر أن معاهدك العلمية والأدبية والفنية كانت النِّبراس لأهل العقول والأفكار والأذواق في أكثر بقاع الأرض، وأن برلين نفسها لم تنجُ من الافتتان بسحرك القهار؟
أيذكر أن النشوة الروحية لا تقع إلا لمن يفتح عينيه على نورك الوهّاج أول مرة؟
وما أسعد من يراك يا باريس أول مرة قبل أن يألف مناظر الفردوس! وهل تحق السلوة لمن يطول عهده بجمالك الفتّان؟
قد ينسى الناس محامدك يا باريس، إلا محمدةً واحدة ستبقى في ذاكرة الخلود
فأعداؤك يا باريس لم يكونوا يجدون الأمن والعافية إلا في ربوعك الضواحك، وما استطاعت المطابع في أي أرض أن تذيع الطعن في فرنسا كما استطاعت مطابع باريس؟ وما شُتِمتْ فرنسا في أي بلد كما شُتِمتْ في باريس!
لم تكن باريس وطناً خالصاً للفرنسيين، وإنما كانت أوطاناً لطوائف من المفكرين والثائرين يفدون إليها من كل فج ويطعنون أهلها إن أرادوا بلا رقيب ولا حسيب
كانت باريس هي المنَفى الأمين لمن تلفظهم حكوماتهم من أصحاب المبادئ والمذاهب، وكانت منتدياتها مجالاً للثائرين على موروث الأفكار والتقاليد من سائر أناء الشعوب
كانت باريس هي الملعب الذي تراض فيه عضلات الأفكار على المُرونة والعُنف
كانت باريس حرباً على أهلها بفضل تلك الحرية، ولكنها كانت تشعر بالأبوة الرحيمة لكل
من يلجأ إليها، ولو كان من دعاة الهدم والتخريب
كانت باريس تعرف أن نشر المُعاد من الأفكار الموروثة لا يحتاج إلى حماية، ففي مقدور كل مخلوق أن يذيع الآراء التقليدية حيث شاء، وكذلك رأت باريس أن تكون حامية الفكر المحرَّر من جميع القيود، وفي رحابها ترعرعت المبادئ الجوامح التي صارت عدة أعدائها من الروس والألمان والطليان
فكيف صِرتِ اليوم يا باريس؟ وكيف تصيرين بعد اليوم؟
أنا أعرف أن جراحك لن تندمل في يوم أو يومين، واللحظة الواحد من آلام الأحرار تُقدَّر بأعوام طوال، فماذا تَنوين وقد قهرك بَغيُ الأعداء على اعتناق مبدأ الحقد الأسود؟

في رحابك اليوم شيوخ وأطفال لا يفتحون عيونهم إلا على ظُلمات من فوقها ظُلمات،
فهل تختفي البشاشة الروحية والوجدانية من أدبك الرفيع؟ وهل يَحُلّ النفاق محل الصراحة بعد أن دفعت الأثمان الغالية في عقوبة الترحيب بالرأي الصريح؟
وهل تصيرين مثل موسكو وروما وبرلين في خضوع الأفكار والمذاهب للسلطة العسكرية؟
أنا لا أخاف أن تموت باريس، وإنما أخاف على باريس عادية الجمود
إن أبناء باريس حاولوا تخريبها مرات كثيرة بسبب العداوات الحزبية، ولم يُفلحوا، فكيف يُفلح في تخريبها الأعداء؟ وهل خُلِقتْ باريس للموت، وهي أسطع جذوات الخلود؟
أحب أن أعرف ما الذي ستصير إليه باريس بعد اليوم؟
أحب أن أعرف مصير الحرية الفكرية في هذا الوجود الموبوء بأنفاس المُرائين والمخادعين؟
لم أتفجَّعْ على باريس لقرابة أو جِوار، وإنما أتفجع على باريس لما بيننا وبينها من انساب علمية وروحية، فإليها يرجع الفضل في تخريج من عرفنا من كبار الأدباء والزعماء، وتلك وشائج لا ينساها إلا من ابتلاه الله برذيلة الجحود
سيعضُّ قومٌ بنان الندم على الشماتة بمدينة النور، يوم يعرفون أن لم يبق في الدنيا مكان تذاع فيه آراء الأحرار بلا تهيب ولا إشفاق بعد خمود باريس
لابُدَّ للفكر من مدينة في مثل صراحة باريس وسماحة باريس، فإلى أين يذهب الفكر وقد ضُرب الحرَج على باريس؟
إن الفكر هو أثمن ما غنِمت الإنسانية، وبفضل الفكر الحر عرف الإنسان قيمة الوجود
لابدَّ للعالم المفكِّر من باريس ولو رُفعت فوق ذراها راية الصليب المعقوف!
وهل أطفأت أنوار أتينا الفكرية بعد أن دحرها الرومان؟
وهل أطفأت أنوار بغداد الفكرية بعد أن غلبها التتار المجرمون؟
وهل استطاع الذين حاربوا القاهرة مئات السنين أن يحجبوا أنوارها عن الشرق؟
المدُن الفكرية لا تموت، وكيف يموت الفكر وهو أطول عمراً من الزمان؟
أما بعد، فهذه كلمة فاض بها قلبٌ يتوجع لأحزان باريس، وطن أساتذتي الاماجد من أمثال مورنية وتونلا وشامار وميشو وديبويه ومَرسية ودبمومبين ولالاند وماسينيوس، وطن المكاتب التي كنت أقضي فيها سهراتي بالمجان حين كان يُعوزني المال لقضاء السهرات في مراتع اللهو والفُتون
هذه كلمة في التفجع لمصير المدينة التي قضيت فيها أطيب الأعوام من شبابي، المدينة التي أوحت إلى قلمي كتاب (ذكريات باريس)
فإن ترجع الأيام بعد الذي مَضى ... بذي الأثْل صيفاً مثل صيفي ومَرْبَعي
شددتُ بأعناق النوى بعد هذه ... مَرائرَ إن جاذبتها لم تقطَّع
وسنلتقي يا باريس ولو بعد حين وقد طَبَّ الزمان لجراحك الداميات!
كيف الحال في بُولمْيش يا باريس؟
وكيف الحال في الشانزليزيه؟
وكيف الحال في فرساي وقد قيل فيه ما قيل؟
وكيف الحال في دار المكتبة الأهلية؟
وكيف حال السامرين على شواطئ السين، إن بَقيَ للسمر مجالٌ على شواطئ السين؟
وكيف حال اللاهين واللاعبين بين القصر الكبير والقصر الصغير في الطريق إلى ميدان الانفليد؟
وأين مواعيد الصبابة والوجد في ساحاتك الفيحاء؟
وأين استقبال الغاديات والرائحات في الضحى والأصيل حول مخازن السماريتين؟
وأين صبح الأحد في متحف اللوفر وعصر الأحد في حديقة النَّبات؟
وأين الصوت ليرجع العشاق إلى مخادعهم بعد العبث بأزهار البساتين؟
وأين؟ وأين؟ وأين؟
هي دنيا تذوقين من بأساها بعض ما ذقتُ من فراقك الأليم
فيا مَرجع روحي بعد القاهرة وبغداد وِسنتريس، ويا صاحبة الفضل على أكثر ما نظمتُ

من قصائد وما نشرتُ من مؤلفات، ويا وطن الجنرال بونال الذي كانت داره مَلاذ عزيمتي، ويا وطن الكولليج دي فرانس ومدرسة اللغات الشرقية والسوربون، ويا وطن الصديق الحميم دي كومنين أقدم إليك أصدق التحيات وأنا واثقُ بنصيبك الأعظم من الخلود

زكي مبارك

حركات الإصلاح الإسلامية

أزمة إسلامية - 4

للدكتور علي حسن عبد القادر

أما حركة التجديد الإسلامية بمصر فقد صدرت عن عوامل وأسباب أخرى غير التي ذكرناها عن حركة الهند، وإن كانت قد سلكت نفس الطريق، وجاءت بنتائج متشابهة. ونحن لا نستطيع أن نجزم بأن الحركة الهندية كان لها أثر في حركة الإصلاح المصرية. وإذا ما تصفحنا ما كتبوه من رسائل وكتب فإنا لا نجد بينهما أي ارتباط. ويظهر لنا واضحاً ما بينهما من فرق إذا عرفنا أن الروح التي سادت الحركة الهندية كانت (روحاً ثقافية) جاءت من التفكير والنظر الذي كان نتيجة اتصال الإسلام بالحضارة الأوربية، وجهودهم الإصلاحية كانت تحت تأثير أوربي، أما الناحية الدينية عندهم فكانت أمراً ثانوياً.

والحركة المصرية كانت، على الضد من هذا، حركة دينية نتيجة تفكير ونظر ديني، وسلكت طريق الإصلاح مستقلة عن أي نفوذ أجنبي، فهي عندما ترفض أعمالاً أو بدعاً لا تردها على أساس أنها (معادية للتمدن والحضارة) بل لأنها (معادية للسلام) مخالفة للقرآن والسنة الصحيحة، كما أن البدع القائمة على الحديث كانت ترد على أساس من علوم النقد الإسلامي في الجرح والتعديل. وهي تهتم من ناحية أخرى بخلقية الإنسان كمسلم وكشرقي، وتكره التقليد الأعمى للأوربيين، وتحذر من أضراره، حريصة جد الحرص على (الخلقية العربية الإسلامية)

وهنا في مصر حيث يقوم منذ قرون الجامع الأزهر، هذا المركز العالمي العظيم للعلوم الإسلامية، والذي كان يسير على طريقة قديمة جامدة، ترتبط حركة الإصلاح باسم الإمام محمد عبدة تلميذ جمال الدين الأفغاني الممتلئ به إعجاباً

وقد كان محمد عبدة من طلاب الأزهر ومن علماء الدين، ثم صادفته أزمات داخلية طويلة حتى عرف جمال الدين أثناء مقامه بمصر فرسم له الطريق الذي سار عليه فيما بعد، وسلكه وسط زعازع ومنازعات داخلية وخارجية انتهت به - مع الارتباط بالحركة العرابية - إلى النفي من مصر. وبعد ذلك وصل إلى مركز الإفتاء ونال اعترافاً عاماً

ونفوذاً كبيراً، وكان ولا يزال موضع عداوة قاسية من طبقة المتزمتين الجامدين وإنه وإن كان فيما انتهى إليه قد صبغ الإصلاح بمصر بلون خاص - مع العلم بأنه كان ضد النفوذ الغربي - فإن الاسم الذي أطلقه عليه جولدزيهر بأنه (ذو ثقافة وهابية) أقرب الأسماء إليه وأولاها به. فمن الحق أن نقرر أن هذا العامل هو الذي يفسر لنا إصلاحات محمد عبدة الدينية التي لا ارتباط بينها وبين الحركة الهندية. وأن ما أسماه جولدزيهر (ثقافة وهابية ليس معناه أم أن هذه الخطة قد جاءته مباشرة من الوهابيين، وإنما غرضه التفريق بين حركة الثقافة في الهند والحركة المصرية التي تسودها العوامل الدينية وترفض ما لا يقره الدين، الأمر الذي لا شك في كونه أثراً جاء من العربية الخالصة

وكان لسان حال مدرسة الإمام محمد عبدة مجلة النار التي يحررها السيد رشيد رضا السوري التي أخذت تنازع في الإجماع المنعقد على المذاهب وتقليدها وتطالب بالاجتهاد على أساس القرآن والسنة. فقد رأت هذه المدرسة، مثل مدرسة الهند، أن الإسلام دين عالمي موافق لكل الشعوب وكل العصور، متفق مع الحضارة، ولكن على شرط ألا يأخذ بمذهب واحد من المذاهب، بل يجب الرجوع إلى القرآن والسنة الصحيحة، فهي ترى مثل الإمام الغزالي الذي صرح بهذه الفكرة منذ ثمانية قرون أن المفتاح لشرح الحالة التي طغت على الإسلام، إنما هو في جمود المذاهب الأربعة وانحصار العلم فيها وحدها، تلك المذاهب المتخالفة، وما فيها من تكرر عتيق، ومماحكات غير نافعة، وما تلاها من فقه المتأخرين، ليست هي الإسلام والدين، وإنما

ذلك في القرآن والسنة. وأغلب ما في هذه المذاهب إنما يقوم على الاشتغال بفروع جزئية تتغير بتغير البلاد والأوقات وتخضع للتغيير تبعاً للعلاقات الاجتماعية، ومثل هذا لا يصح أن يسلك به في سلك ديني ثابت لكل زمن غير قابل للأخذ والرد. وكان من أثر هذه المذاهب الاختلافات التي حدثت في الإسلام مما وقف ازدهاره. وهكذا رفضت هذه المدرسة أساس المذاهب الفقهية القائم على (اختلاف أمتي رحمة)، وقالت: إن الأمر بالعكس. وطعنت في صحة هذا الحديث الذي يخالف آيات كثيرة من القرآن. وقالت أيضاً أن الوحدة والمرونة إنما تكون بالرجوع إلى القرآن والسنة وحدهما حيث توافق الشريعة الحياة في كل وقت وكل حال، وبهذا يمكن الرجوع بالإسلام إلى حالة القوة
والشباب
كما رأت هذه المدرسة أن باب الاجتهاد لم يقفل بل إنه مفتوح على مصراعيه لبحث كل المسائل الطارئة. وليس الحكم فيها خاضعاً لحرفية النصوص، بل يجب اعتبار مصلحة العالم الإسلامي أولاً وقبل كل شيء (وليس الشرع محصوراً ي جلود كتب الحنفية). فإذا ما قام الفقه على هاذين الأساسين: الاجتهاد والمصلحة، فإنه يكون صالحاً لكل زمان ومكان، وقابلاً لما تقضى به الضرورة من أمور تدعو إليها المصلحة وموافقة العصر. وحينئذ يمكن الرد على الذين يزعمون أن الفقه الإسلامي إنما هو لزمن خاص ومكان خاص، وليس عاماً لكل الشعوب وفي كل الأوقات
ونظراً لأن الإمام محمد عبدة كانت له شخصية دينية عميقة لأنه كان من مدرسة صوفية، فإن الإصلاح الإسلامي بمصر كان - مخالفاً في هذا الحركة الهندية - يمتاز بأساس من الإيمان والمحافظة وبروح حارة من التقوى. ولما كان يسود الاعتقاد بسمو الوحي ورفعته، جاء الاقتناع القوي بأن العلم والدين عند الفهم الصحيح أخوان لا يختلفان، وعلى هذا الأساس لم يرفض محمد عبدة الأخذ مع الحرية الكاملة بالإصلاح العلمي
حقاً إنه لا يمكن أن يكتم أنه عند ما يحدث في بعض الأحيان خلاف بين العقل والسنة فإنه يجب الأخذ بالأول، بل إنه زيادة على تجب مراعاة حالة الأمة والظروف، فيقدم ذلك على النص الصريح. أما مماحكات الفقهاء فقد رفضت بشدة من محمد عبدة ومدرسته، ووضع بدلاً من ذلك القديم المتفتت جديد مأخوذ من الاجتهاد في الأصول موافق للعلاقات الحاضرة. وفي هذا الطريق سارت هذه المدرسة - مثل الوهابية المعتمدة على ابن تيمية - في رفض الخرافات والبدع، ولكن في الوقت نفسه - موافقة في ذلك للغزالي - حاولت إدخال المبادئ الخلقية والأعمال القلبية في الفقه، مع اقتناع عميق بأن بساطة الإسلام الصحيح التي لم يمسها تغيُّر الأيام تجعله قابلاً لكل حركات التقدم والتطور
ومن هنا نرى أن كلتا الحركتين الهندية والمصرية تنتهيان تقريباً عند غاية واحدة، وهي أن الإسلام عند الرجوع به إلى شكله الأصلي، وعند الأخذ بروحه ولبه، وبعد أن ينقى من الأدران التي لصقت به، ومن جمود العصور المتأخرة، لاشك أنه يصبح موافقاً لطلبات الحياة العصرية. وإذا ما تأملنا قليلاً، فإننا نجد أن الطريق الذي يمكن أن يسلكه الإصلاح
الديني من الحركتين سواء.
إلى هنا يقف الأستاذ هرتمان في تأريخه للحركة الإصلاحية في مصر والحكم عليها ولم يتناول بعد الحركة التي تلتها وشخصيتها القوية الجبارة وأسلوبها الحاسم الدقيق. وهو ما سنتناوله تذبيلاً وتعليقاً على هذه الرسالة آخر الأمر.
علي حسن عبد القادر
إلى أين. . .؟
للأستاذ محمود محمد شاكر
(تتمة)
أخذ صاحبي كأس الماء في يده، وجعل يرشقها ببصره رشقاً حديداً يلمح لمحاً تحت حواشي الليل، وكنت أرى وهج مقلتيه يكاد يتطاير تطاير الشرار بينهما وبين الكأس. وأدام نظره طويلاً إلى الماء وهو يقر شيئاً بعد شيء ويسكن، فكأني به كان يغمس نظراته الملتهبة في برد الماء، ليبترد من وقدة العاطفة التي تضطرم في داخله. وبعد

فترة عب من كأسه عب الظمآن استحر على كبده العطشى، ثم فرغ فوجه إليّ، وقد برق وجهه، أو هكذا تخيلت ثم قال:

آه. . .! ما كان أبصر ذلك الأعرابي الظريف الذي عطش وضل عن الماء في بيدائه، فلما رمى به السير فأفضى إلى بئر عميقة عادية قد بعد ماؤها، أجهد أن ينزف بدلوه من بعض مائها حتى بُلغ به وكاد يهلكه غؤور الماء، وبعد لأي ما استطاع أن ينزح من مائها ما يرويه، حتى إذا شرب وارتوى وأطفأ غلة الظمأ، حمل تلك الدلو بين يديه ينظر إليها ويقلبها كأنها بني من صغار بنيه يرقصه ويداعبه ويقول:

أي دلاة نهل دلاتي!! ... قاتلني وملؤها حياتي!!

كأنها قَلْتٌ من القلات

فانظر كيف يفرح الرجل بأديم جاس غليظ متغضن موات! إنه يحبه، ويحرص عليه، ويرق له، ويدلله دلالاً كأنه طفل يطفله ويرعاه. وما ذاك إلا أنها أداة يتخذها ليطفئ بها الغلة التي يؤرثها حر الظمأ، لو هو فقدها في مجاز البيداء المجدبة الظامئة، فقد معها القدرة على الحياة، ومع كل ذلك فما هي إلا أديم أصم، وأداة لا خير فيها إذا لم يكن كل الخير من قوة الساعد التي تمتد في رشاء يتطوح بين أرجاء البئر

ما أبلغه من أعرابي، لولا نقل حديثه من الدلو إلى المرأة!

(قاتلتي وملؤها حياتي!!)

إنها المرأة يا سيدي هي وحدها التي تستطيع أن تكون القاتلة المحيية في وقت واحد. إن كل ما فيها هو حياة محبها، وكلما يكون منها - إذا أرادت - هو سبب من أسباب سلب هذه

الحياة سلباً جباراً لا رحمة معه ولا هوادة فيه

إن المرأة الحبيبة هي النبع الصافي النمير الذي يرى المحب الصادق في كل قطرة منه حياة تتلألأ في روحه بالمنى، فإذا أرسلت هذه الحبيبة في دمه قطرة واحدة من مائها - أي من حبها - أطفأت هذه الواحدة كل النيران الملتاعة التي تجفف بحرِّها ماءَ حياته. فإذا منعتْ عنه غيثها جعلت كل أفكاره وأحلامه وأمانيه تحتطب من الحياة ما تؤرِّث به تلك النار المبيدة التي لا تنفخ نفخها على شيء إلا جعلته رماداً أغبر. ويومئذ تتحول الحياة فيه إلى خمود بليد، أو إلى حماقة مجنونة كما يعترض الرماد للريح العاصف تطير به في كل وجه حتى يتفرق . . .

ثم سكت صاحبي. . .، وخيل أليّ أن غمامة سوداء داجية من ذكرى أحزانه وآلامه، قد أظلَّت عليه وتدانت أهدابها، فهو يرفع يمينه إلى جبهته، ثم يُمرها إلى ناصيته، إلى يافوخه يضغط عليه. ويتنفس خلال ذلك أنفاساً جاهدة ينتزعها انتزاعاً من أقصى منابع الحياة في قرارة نفسه. . . ما أقسى الذكرى إذا ضربت في القلب بفأسها تحطمُ وتدِّمر وتنقضُ بناء الأيام الماضية!

إن غبار هذا الهدم ليرتفع ويثور حتى يملأ الجو النفسي بما يضجر ويخنق من ترابها، وما أضعف الرجل إذا أخذت الذكرى تلح عليه إلحاح الكبرياء، تتحدى الإنسانية والرجولة بأوهن الفكر! الذكرى. . .! هذا شيء مخيف مفزع. إنها الشبح الذي يدب من بين القبور المهجورة التي تناثرت فيها أشلاء الموتى. إنها تقتل بالرعب، فإذا أتت المحب ذكرى حبيبه، فذاك شبح هائل يقتله بالرعب والحنين معاً

أقول لنفسي: أيها الصديق البائس! إذا لا تعرف طريقك إلى النسيان؟ لماذا تقف في مقبرة أفكارك دائماً فترتاع وتتألم؟ لماذا لا تحاول أن تسخر من الحياة التي سخرت منك؟ لماذا أنت حائر أيها الصديق؟ وبقيت أتداول الهاجس من أفكاري فيه، حتى شُغِلتُ به عنه. ثم جاءني صوته من بعيد كأنه كان يتكلم في بعض أحلامي تحت النوم:

اسمع. . .! اسمع يا صديقي! لقد كنت أفكِّر في بعض ما شغلني عن تمام حديثي قبلُ. لقد سألتَني وساءلت نفسك: أهكذا يضمحل الرَّجل؟ أما إني لا أستطيعُ أن أضعَ لك اللغة وضعاً جديداً حتى أعبِّر لك عن كل خالجة من خوالج النفس الإنسانية حين تضطرب فتهتز فتطير

هزاتها على مساقها ومجراها، ثم تتشعب فتنتشر فتعَمل عَمَل الجيش المحارب في هدم صفوف العدو وتفريقها وبَعْثرة قواها المحتشدِة للقاء احتشادَ البنيان المرصوص بعضه على بعض

نعم. . . لن أستطيع ذلك، ولكني سأصف لك بعض الصفة واستشعر أنت كيف يعمل

ذلك في هدم الرجل ويسرع في تدمير رجولته أمام أنوثة طاغية تتحدى وتأخذ سلاحها الذي تتحدى به من رجولة عواطف المحب الذي يَرى أن تعاونَ القلبين بالحب، وصبابة النفس إلى النفس الأخرى، هو تمام رجولته وتمام أنوثتها

كان لقاؤهما تجديداً غريباً في قديم نفسه. . . لقد استطاعت هذه الساحرة الجميلة الفتانة - كما وصفت لك - أن تمحو ماضيه كله، وأن تمزق صحُفَ أيامه المهملة التي كان القَدَر يكتب فيها تاريخه الأول. مزقت هذه الساحرة تلك الصحف، وألقت بها في النار التي أشعلتها في قلبه بالحب. بدأ يحيا بها وبسحرها حياة رائعة فاتنة من أحلام الحب، وجعلت هي. . . وجعلت هي. . . آه يا صديقي! هذا كثير كثر، إن ذكرى ذلك كله تؤلمني. . . إنها تعذبني. . . إنها تخِز قلبي بمثل السنان الحديد يقع وخزاً متتابعاً شديداً يتفجر في نزعه بالدم. . . كيف أستطيع أن أقول لك الآن ما الذي كانت هي تفعل! وماذا أقول لك؟ آه. . . إن أنوثتها، بل رقتها، بل حنانها، بل رحمتها، بل إخلاصها، بل حبها. . . كيف يكون هذا؟ بل ذلك الصوت المنغم الروي الممتلئ صوت الحنين المتعذب. . . صوت القدر الآتي من بعيد بأفراح السعادة. . . صوتها. . . صوتها. . . ذلك الصوت المعبر عن نفسها بألحان تتجاوب وتسري وتموج في كل غيب من غيوب نفسه المتراحبة. . .!

إن كل هذه العواطف التي يرسلها إليه صوتها وهي تتكلم كانت تعبُّ فيها عبابها، حتى يجد الأمواج النفسية تتقاذفه في فرح بعد فرح، ومن سعادة إلى سعادة، ومن حلم إلى حلم، كأنه ماض إلى جنة الخلد في زورق من اللذات الطاهرة الجميلة، تحف به الملائكة تغني لقلبه أناشيد المجد والخلود. . .! إنه سوف يسمو بروحه إلى ذلك الجو الذي يعطِّره النبل، ويفيئه الحب، ويندِيه الحنان، وتضيئه هي بسنتها المشرقة، وتسبح فيه النجوى أنغاماً حرة تهيم وتتعانق

جعلت أيامه معها تتهدل ثمارها الناضجة المغرية، وجعل يقتطف منها حيث أراد، وجعلت

هي تغذوه كل يوم غذاء جديداً هنيئاً يملأ روحه قوة وشباباً وعزماً. وجعل إحساسه بسحرها وفتنتها يغلو به في إيمانه بعبقرية أنوثتها الكاملة الجديدة. أجل. . .، إنها أرسلت في دمه الحياة الجديدة، الحياة التي تجدد فكره في أشياء الدنيا، وتستفزه إلى فرض سلطانه على هذه الأشياء.

وكانت هي تنشئ لعينيه في كل يوم بل في كل ساعة دنيا مائجة من فنها البليغ الذي يعبر عن ضميره تعبيراً بليغاً كبلاغة أنوثتها، فانبثقت في عينيه وفي قلبه ينابيع متفجرة من الأحلام الرقيقة والأماني الطائرة، تلك الأماني التي تتنهد دائماً على قلبه بأنفاس الفجر. . .

امتلأت عيناه الحائرتان بأحلام الشباب، وانبعثت القوة المتلهبة بالرغبة، فهو ينظر ثم يندفع إلى أمانيه يريد أن يختطف من السعادة السانحة سنوح الصيد المستطرد، قبل أن تسبقه إليها أنياب الشقاء والألم والبؤس فتفترس منها وتنهش. إنه يريد أن يظفر بسعادته ليتمتع بالحياة بعض المتاع، ولكن يا صديقي. . .، إن هذه الغريزة المتحكمة في الإنسان وفي أعماله - غريزة التمتع بالحياة - هي التي تذهب بالإنسان في القدر مذهباً بعيداً. . . إنها هي التي تجعل الحياة لعيني كل حي، ولكنها هي هي نفسها التي تعمي المحب فلا يبصر تلك القوة السحيقة التي فغرت له أشداقها وأحدت أنيابها، فلا يزال - إلا أن يعصم الله - يتهاوى فيها ما اندفع به إليها هواه

ولكن كيف كان يملك صاحبي إرادته في البصر؟ إنها كانت تعمل أبداً - وهو لا يستطيع أن يدرك - على أن تبقى حبيبة أحلامه ولو قتلته. نعم إن بعض ضحكها كان يصفق بدلالها كأن أمواج شبابها تتلاطم فيه وتزخر. شبابها. . .!! شباب امرأة جميلة متكبرة معجبة، شباب أنثى تحب، وتريد أن تبقى أبداً محبوبة يهيم في أوديتها المسحورة من يحبها. ومع ذلك فقد كان يجد لما يلقاه منها فرحاً في نفسه، ونشوة في روحه، وعربدة في دمه، كان كالسكران بحبها لا يستطيع شيئاً ولا يملك إلا أن يخضع لذلك السلطان المرح الظافر المبتسم، السلطان العنيف الذي يقبض على روح المحب بحنان طاغ من روح من يحب

وعلى ذلك فإن هذا الرجل المسكين - على عنقه وصلابته وفحولته - لم يجد بدّاً من أن يسلم لها قياد عواطفه التي تصبو صبواتها إلى أناملها الرخيصة الساحرة. كيف يقاوم

الرجل الصب - مهما استصعب والتوى - امرأة مقدسة يحبها، فهو يتصبب بروحه في روحها؟ استسلم لها، ولكنه كان يشعر بعد هذا الاستسلام أن ليس في هذه الدنيا شيء يستطيع أن يقهر إرادته، أو أن يحول بينه وبين ما يرمي إليه من أغراضه وإن بعدت. كان معنى خضوعه لها أنه يستطيع إذن أن يخضع الأشياء كلها لسلطانها. . . ما أعجب هذا الحب! أرأيت إلى ذلك الضرس الفولاذي الصليب المتكبر من الجبل الإنساني في صاحبي ذاك. . .؟ لقد كان يُرَى وهو يذل لهذه الساحرة أيامه وليليه خاشعاً مستكيناً كأنه يهودي منبوذ فقير في غربة متوحشة!

ولكن لا تخطيء معنى الذل في فحوى حديثي، أعرفه صورة أخرى من الكبرياء المأسورة في سجن امرأة محبوبة. إن إحساسه بحبه لها كان ضروباً من فن الروح العاشقة. لم يكن يراها امرأة مجردة يحبها بحرارة القلب الملتهب بالرغبة أو بالحب. كلا، كلا، لقد كان يجدها أحياناً في أوهام عواطفه ومدّها أمّاً فهو يريد من أمومتها المحبوبة أن تمهد له في قلبها تلك العاطفة الوتيرة اللينة من الحنو والعطف. وهو يراها مرة أختاً يلتمس في مس يديها، وفي نبرات صوتها، تلك العاطفة الساكنة ذات الأفياء والظلال، عاطفة الأخت التي تضحي في سبيل أخيها المنكوب، ثم يرقى بها إحساسه فينظرها أخاً مخلصاً يشد أزره إذا انطبقت عليه قحم العيش ومتالف الحياة. ثم إذا هي تارة أخرى روح من الأبوة المسددة، الحازمة المصممة البليغة، لا تزال تجد الرجل مهما أناف به العمر وشمخ ذلك الطفل العابس الغرير الطياش

وهي مع ذلك كله الصديق الذي يحامي عنه إذا تعادت عليه الدنيا بأسرها، الصديق الذي تبقى صداقته تطوف عليه تحرسه وترعاه. أتدري بعد هذا إلى أين تنتهي به هذه الألوان المختلفة من إحساسه بها؟ لقد تنتهي في بعض ساعاته معها أن يراها أستاذة، فهو كأنما يجلس بين يديها ليأخذ عنها روائع الحكمة، ويسألها عن سر الأبدية المحجب بالغيب، ويلقى عندها كل أفكاره المعقدة في الحياة، يلتمس عند حكمتها الخالدة ما تعقد، وأن تمنح أفكاره ذلك الهدوء الفلسفي الذي تسبغه الحكمة العالية على سدنتها وحفاظها

ثم سكن صاحبي وغشيته فترة الحديث إذا تطاول به وامتد ولكنه ما لبث أن أقبل عليّ يندفع: أنظر. . . أنظر الآن كيف يضمحل الرجل. هذا هو في مد عواطفه وهي تفور وتثوَّر بأمواجها في الحب العنيف المتلاطم، ثم إذا هي تطير عن أحلامه وتنفر من مجثمها السحري، وإذا هو منفرد لا يدري كيف كان هذا؟ ولمَ؟ ومن أين؟ وإلى أين. . .؟

إنها ذهبت وتركت الدنيا التي أنشأتها له مشرقةً زاهيةً، ناضرة فإذا هي تطفأ وتخبو وتذبل. إن قوة رجولته قد ذهبت تطلبها عند قبور الذكرى، فكيف لا يضمحلّ الرجل؟ كيف لا يضمحلّ؟!

محمود محمد شاكر

كنت على وشك أن أتزوج

للأستاذ توفيق الحكيم

في هذا الأسبوع أخرج صديقنا الأستاذ توفيق الحكيم كتابه (حمار الحكيم). وهو كتاب) قصصي طريف، أخذ أسمه من جحش رضيع اشتراه وأنزله معه فندق (. . . .)، ثم أدار فيه الحديث على اتفاقه مع شركة شربانتيه السينمائية على أن يضع لها حوار قصة مصرية، ثم شقق الحديث وشعبه فتناول الأدب والفن والمرأة والزواج بأسلوبه الفكه الطلي. وفيما يلي فصل قيم من هذا الكتاب يصور قطعة جميلة من حياة الكاتب)

رفع صاحبي رأسه والتفت إليّ فجأة قائلاً:

- ألم يخطر ببالك أن تتزوج؟

فقلت وأنا أحاول التذكر:

- نعم، كنت موشكاً على الزواج منذ عشر سنوات. . . لكن. . .

ثم كررت بفكري راجعاً إلى ذلك العهد وابتسمت، فقد مرت برأسي صورة ما حدث وما ثنى عزمي عن المضي في ذلك الأمر.

كنت ذا عصر راكباً عربة يجرها حصانان، وإلى جانبي أحد المهتمين بشئوني، فرأينا السائق يهوى بسوطه على أحد الجوادين، فمال من الألم على شريكه كأنه يشكو إليه، والتقى رأسا الجوادين كأنهما يتساران. فجعلنا نتحدث في ذلك ونقول: إن مركبة

الحياة كذلك لا يهوَّن من أوجاعها غير أن يربط إليها شريكان يشدان عجلاتها ويشجع أحدهما الآخر كلما سلط عليه القدر سوطاً من سياطه. ثم قلنا: من يدري؟ لعل هذا سر ذلك الحظر الذي نراه على مركبة الحياة؟ وعند ذاك أتجه الكلام إليّ، وصارحني من معي بأن مركبة حياتي لا ينبغي بعد اليوم أن أجرها بمفردي. فإنها قد تحمل فوق ما أطيق، وأنا رجل غريب الأطوار قد أسير بها سيراً غير مألوف فأتخبط بها في طرقات غير ممهدة لا أحفل بسوط سائق. بل من يدري لعلي جمحت مرة فأسقطت سائقي في الأوحال، وجعلت أنطلق منفرداً بمركبة بلا نور، أركض بها على غير هدى حتى أرتطم في جدار. . . وانتهى الأمر بصياح ذلك المهتم بشأني:

- لابد من زواجك

فقلت له:

- وقتي ضيق. . . في الحالة الحاضرة. . .

فقاطعني صائحاً:

- أترك لي المسألة. . .

ولم يمض شهر حتى وجدت ذلك الشخص الكريم قد خلا بي ووضع في يدي صورة فوتوغرافية لفتاة طريفة وقال لي:

- تعجبك؟

فتأملت الصورة ملياً ثم قلت:

- من أي وجه؟

فصاح بي:

- أعمل معروف لا داعي للفلسفة، إن كان شكلها مناسب؟

- مناسب. . .

- انتهينا. . .

ثم مد يده إليّ وقال:

- وصورتك بسرعة. آخر صورة لك

- الصورة الوحيدة الموجودة عندي هي صورة لجواز السفر

- ما تنفعش؟ قم بنا نعمل لك صورة (جواز) فقط؟

وسحبني من يدي، وذهب بي إلى محل (مصور فوتوغرافي) معروف. فوضعني ذلك المصور أمام لوحة من قماش تمثل ستارة سوداء، وأراد أن ينزع من يدي العصا، ليضع هذه اليد فوق (درابزين) مزيف قد أتى به، فأبيت ذلك عليه، فرد على عصاي، ونظر من معي إلى وقفتي، فلم ترقه، فصاح في المصور:

- هو واقف على إيه؟

فقال المصور:

- على سلم

فصاح به:

- وإيه مناسبة السلم والدرابزين! أجعل وقفته في جنينة وحط الورد حواليه، وارفع الستارة المحزنة من جنبه وانصب بدلها خميلة ياسمين أو تكعيبة عنب! بالاختصار مناظر مفرحة. . .

ثم مال على المصور، فأسر في أذنه كلاماً

فتهلل وجه المصور وقال:

- فهمت الطلب

ثم أسرع فأحضر ستائر حمراء ومناظر خضراء وأصص أزهار ورياحين وهو يقول:

- إن شاء الله يحاكي البدر في سماه!

فأردت أن أظهر عجبي لهذه المعجزة إذا صحت، فأسكتني وأوقفني بين المناظر الرائعة والخضرة الزاهرة. . . ودخل هو في شيء يشبه (البطانية) السوداء يغطي جهاز تصويره، ولبث فيه لحظة ثم خرج يصيح:

- واحد. . . اثنين. . . ثلاثة. . . مبروك!

فتركت موقفي وأقبلت على المصور أوصيه:

- الصورة تكون طبيعية. إياك تعمل (رتوش)!

فما شعرت إلا والمتولي شأني قد انتزعني انتزاعاً من بين يديه ودفعني بعيداً، وأقبل

على المصور يقول له:
- إياك أن تسمع كلامه!
ثم التفت إليّ قائلاً:
- حد في الدنيا يقول للمصوراتي ما يعملش (رتوش)؟ خصوصاً لحضرتك!
فقلت:
- على كل حال لابد من كوني أطلع على (البروفة) قبل كل شيء.
فقال المصور: إن تجارب الصورة يمكن الاطلاع عليها في صباح اليوم التالي. فغادرناه على أن نعود إليه في الغد. ومضى النهار، وجاء الغد، فانسللت بمفردي إلى حانوت المصور أطلع خفية على تجارب الصورة. فعرضها عليّ، فتأملت وجهي فيها، فلحظت أن شاربيَّ غير متساويين في الطول، وأن شارباً أقصر من شارب، فتباحثنا في علاج ذلك،
وقلت له: إن (الرتوش) الوحيدة التي آذن بها هي أن يمد إلى الشارب القصير فيطيله حتى يساوي أخاه. وانصرفت وانتصف النهار، وقابلت بعد ذلك المهتم بشأني، فقصصت عليه ما حدث من أمر الشارب، فما راعني إلا قوله إنه مر هو الآخر بحانوت المصور عقب انصرافي، فلما علم بمسألة الشوارب، أمر المصور أن يزيلها كلها وكفى الله المؤمنين القتال. فما إن سمعت منه ذلك حتى صحت في وجهه:
- يزيلها كلها!
- إيه المانع؟
أنا بشوارب تعملوني من غير شوارب! هذا العمل اسمه تزوير
- يعني لا سمح الله قمنا زورنا في كمبيالة!
- هو التزوير لابد أن يكون في كمبيالات
كان غرض حضرتك أن أهل العروسة يقولوا مقدمين لنا عريس (بشنب وذقن)!
- نقوم نلجأ للغش!
- وأنت فاهم أن صورة العروسة خالية من الغش؟
- شيء عجيب!
- مؤكد شيء مفهوم مقدماً. وفي المستقبل يتضح لك أن ما عملناه أقل مما عملوه بمراحل، أطمئن!
فقلت من فوري:
- الحمد لله اطمأنيت. إذا كان مجرد (الشكل) وضعناه على هذا الأساس، يبقى (الموضوع). . .
فقاطعني:
- لا. . . (الموضوع) مضمون أربعة وعشرين قيراط. ثروتها معروفة وتحرياتنا صحيحة، وأنت حالتك المالية واضحة. . .
- دا كل قصدكم من (الموضوع)؟
- طبعاً. فيه شيء غيره؟
فلم أطق صبراً، فقمت دون أن أجشم نفسي مشقة الجواب وذهبت، وقد ذهبت عنب فكرة الزواج إلى اليوم. ولم يعد شبحها يظهر إلا مقترناً بذكرى هذا الحوار بنصه وألفاظه كما سمعتها، فكانت ذكراه تقصيني من فوري عن المضي في التفكير. فهذه الشركة النبيلة بين روحين تعاهدا على السير جنباً إلى جنب في طريق الحياة الشاقة الطويلة، ما زالت تقام في أغلب الأحيان على هذا النحو المخجل، وإذا صلحت هذه الطريقة لكثير من الناس فهل تصلح لشخص مثلي قد تتأثر حياته الفكرية وإنتاجه الذهني إلى حد كبير بشخصية الشريك. لذلك آثرت السلامة وأحجمت عن المغامرة، خشية الوقوع في غلطة تفسد على الحياة كلها.
ورجعت إلى وحدتي. . . تلك الوحدة الباردة التي تحيط بي من كل جانب فما أنا في الحقيقة دائماً سوى كوخ مقفر وسط صحراء من الجليد، وضعت داخله يد المصادفة إناء يغلي ويتصاعد منه بخار، هو تلك الأفكار التي تخرج من نافذتي إلى حيث تصل أحياناً إلى جموع الناس. فإذا دخلت امرأة هذا الكوخ فمن يضمن لي ما سوف تلقيه في هذا الإناء وما يتصاعد من جوفه بعد ذلك!. . .

أأنفقت حياتي متنقلاً، تائهاً ليس لي مكان معروف ولا عنوان دائم. فما تركت فندقاً لم أنزله، ولا نزلاً لم أهبطه. حتى ضجرت ذات يوم وتبرمت بهذه الحال واستنكفت أن أعيش هكذا كما تعيش الفكرة الهائمة والروح الحائرة. . . فأردت أن أجرب الحياة المستقرة في مسكن ثابت اخترته في بقعة جميلة من بقاع القاهرة. . . يشرف على النيل، وترى من نوافذه القلعة والأهرام وعنيت بأثاثه، وأعددت فيه مكتباً أنيقاً وخزائن للكتب، واقتنيت سيارة، وأقمت بمفردي وحولي خادم وطاه وسائق. . .

فماذا حدث؟ لم أتجمل الحياة فيه عاماً. فقد كاد الخدم الثلاثة يذهبون البقية الباقية من عقلي، فالخادم النوبي جعل يكسر (اسطواناتي) الثمينة؛ وتحريت أمره فعلمت أنه يتربص بي حتى أخرج في الصباح، فيدير (الجراموفون) ويضع ما يقع في يده من أعمال (بيتهوفن) و (موزار)، ولا يحلو له تنظيف (الباركيه) وطلاؤه إلا على هذه الأنغام.

أما الطاهي فقد كان يبدي الابتكار في ألوانه أول الأمر، ثم قصر وتراخى حتى صار الطعام ضرباً من (الروتين) لا طعم له. فكنت أحياناً أترك المنزل بما عد لي فيه وأذهب إلى مطاعم المدينة. ولقد كان للخدم دائماً طعام غير طعامي، هو في أكثر الأحيان ألذ وأمتع. ولطالما أمرت الطاهي أن يحضر لي مما في قدورهم هم ويحمل كل هذه الألوان التي نسقها تنسيقاً ظاهراً دون أن يضع فيها روحه وقلبه. . .

وليس هذا كل شيء. فقد علمت أن الطاهي يعد على حسابي قدراً كبيراً يقدمه بالأجر إلى بوابي الجيران؛ وأن الخادم يدعو جميع زملائه النوبيين كل عصر عقب انصرافي إلى تناول الشاي.

ولم يدهشني ذلك فإن نفقاتي بمفردي كانت دون أن أدري نفقات أسرة كبيرة مكونة من عشرة أعضاء، وما نبهني إلى ذلك إلا ضيف عابر. على أن كل هذا لم يغضبني كثيراً. إنما الذي أثارني حقاً هو مسمار صغير وجدته يوماً في لون من ألوان الطعام، كدت أزدرده. . . هنالك لم أطق صبراً. وعلمت أن الخدم بلا رقابة هم خطر من الأخطار العامة. . . وما ملكت نفسي عن الصياح فيهم يوماً (والله لأتزوج لكم وأمري إلى الله)

أما السائق فلا يريد أن يصغي إلى رجائي كلما طلبت إليه ألا يسرع. فأنا أبغض السرعة. إنها تمنعني من التفكير، ولطالما أكدت له أني لست متعجلاً شيئاً. ولا شيء في الوجود يستعجلني، فأنا عدو الزمن والوقت، ولم أهمل ساعة قط، فالوقت عندي ليس من ذهب بل من تراب كأجسامنا. . . ولكنه ينطلق بي رغم ذلك، كأنما يريد أن يطرحني في أسرع وقت، ليخلص مني وينصرف إلى شأنه. فكنت أتركه أحياناً يقف منتظراً في جانب الطريق وأسير مفكراً حراً حيث أشاء. ثم أدرك أخيراً أني لا أحب السهر وأني شديد الكسل وأني أكتفي بعبارة أقولها له كل عصر: (أطلع جهة فيها هواء نقي) (فين؟) (أي جهة تختارها)، فيمضي بي حيث يريد هو دون أن أعترض ويقف بي أحياناً حيث يشاء ويقدر أن المناظر جميلة والهواء منعش فلا أتكلم، فإن فكري منصرف دائماً عنه، ما دام لا يسرع بي ولا يقول لي: (تفضل). إلى أن يرى أن الأوان قد آن للتحرك فيقودني إلى حيث أتناول الشاي أو العشاء في الأماكن المعتادة. فإذا أمرته أن يذهب بي إلى السينما. . . فقد عرف ألا يسألني أيها. بل يمضي بي طائفاً على جميع الدور، فيقف أمام كل باب من أبوابها لحظة، فإذا نزلت فقد انتهت مهمته. وإذا لم أنزل فإنه يتحرك إلى غيرها. . . وإذا مر بجميعها فلم أغادر السيارة فإنه يعود بي من تلقاء نفسه إلى المنزل ويقول لي: (تفضل). فأنزل في صمت، وقد شعر بقدر هذه السلطة الواسعة في يده فاستغلها آخر الأمر استغلال الطغاة لحرية الشعب. فكان إذا أراد أن يفرغ من عمله مبكراً أو يخلص إلى شأن من شؤونه طاف بتلك الأماكن طوافاً سريعاً لا يكفي لإيقاظي من تأملاتي أو إخراجي من ترددي، ثم ردني إلى منزلي، ولما تدق التاسعة قائلاً: (تفضل) فأنزل دون أن أنتبه لما حدث. وفطنت ذات ليلة إلى إرادته. وكانت بي رغبة في السهر. فما تمالكت أن ثرت لحريتي المسلوبة وصحت: (أنت غرضك تنومني المغرب! قسماً بالله العظيم ما أنا نازل)

هكذا كان شأني في المسكن الخاص بين أولئك الخدم. وقد لبثت على هذا الحال زمناً اختمرت فيه داخل نفسي جراثيم الثورة الكبرى على هذا النظام فبينت النية ذات ليلة

على خلع نير هؤلاء الذين يسمون أنفسهم خدماً لي. فلما كان الصباح أعددت حقائبي، واستدعيت البواب وطلبت إليه أن يبحث عمن يحل محلي في هذا السكن بأثاثه ورياشه. فأتى إلي برجل إنجليزي وزوجته فتركت في عهدتهما كل شيء حتى كتبي، وغادرت ما في البيت من أشياء خصوصية ومن مؤونة حتى زجاجات المياه المعدنية وعلب الجبن والمربة والزبد والبن والشاي والفطائر، وطردت خدمي، واستغنيت عن سيارتي، وانطلقت بمفردي حراً من جديد، أتنقل في الفنادق وأطوف بالشوارع، وأقفز إلى عربات الترام وسيارات الأوتوبيس، وأختلط بالناس، وأمتزج بالجماهير. فأحسست كأن الدم يعود حاراً إلى عروقي. وأن قدمي قد فرحتا بلمس الأرض من جديد، وأن فكري قد عاد إلى انطلاقه ونشاطه، مع السير الحر بالأقدام في كل مكان، وملاحظتي الناس في الطرقات قد أخصبت ذهني الذي حبس طويلاً خلف الزجاج، وجعلت أقف على بائع الذرة وهو يشوي كيزانه على عربته الصغيرة فأحادثه وأباسطه لا يتعجلني سائق ولا تنتظرني سيارة، وأصغي إلى حديثه الطويل في ذلك الليل مع كناس الجهة. فأشترك معهما في الحديث والسمر، ورأيت الكناس يسامر البائع طمعاً في كوز، والبائع لاه عنه لا تخطر له العزومة على بال (فإن الشغل شغل) في عرف التجار، فشريت أنا كوزين أعطيت للكناس واحداً واستبقيت لنفسي الآخر. فدعا لي الكناس الدعوات الصادقات، وجعل يأكل ويقص علي مما عنده من أحاديث العامة البريئة اللذيذة. . .

عرض هذا الشريط كله في رأسي عندما سألني المخرج ذلك السؤال. ولم أجبه بشيء غير تلك الابتسامة التي أثارتها هذه الذكريات. . .

توفيق الحكيم

3 - إلى أرض النبوة!

وصف وتأريخ لرحلة الوفد السوري إلى الحجاز ربيع 1935)

(لفتح طريق الحج البري للسيارات

للأستاذ علي الطنطاوي

تركَنا القراء في (المخفر السعودي) على الحدود. وأشهد أني لم أذق طعم الأنس والاطمئنان مذ فارقت دمشق إلا في هذا المخفر، ومهما نسيت من المشاهد، وأضعت من الذكريات، فلن أنسى تلك الساعة، ولن تضيع من نفسي ذكراها، وإنني لأتخيلها الآن، وقد مر على تلك الزيارة خمس سنين، ولم يبق في يدي منها إلا ما علق بذهني. . . أتخيل تلك الخيمة الشَّعرية الشِّعرية، الجاثمة على ذلك التل العالي، تطل على التلال التي لا يحصيها عد، وقد اتكأت فيها على جنبي، ونظرت إلى أسفل مني فرأيت السلوك الشائكة، فعجبت منها سلكة لا يعبأ بها تفرق الأخ عن أخيه - وتجعل الشعب شعبين - ثم مددت بصري حتى ضل في ثنايا السراب المتألق في وهج الظهيرة؛ ثم بلغ (دمشق)، دار الحبة وثوى الأماني، فهزني الشوق إليها والفجر بها، والأسى عليها لما أصابها. . . ثم رجعت البصر إلى البادية من حولي، فسرَتْ في روحي روحها، فشعرت كان قد صهرتني شمسها، فغدوت كأولئك الذين خرجوا منها جنّاً في النهار، ورهباناً في الليل، وموتاً للظالمين والمبطلين، وحياة للشعوب ورحمة للناس. . . وتمنيت لو كان اليوم إلى اليرموك أو القادسية طريق، حتى أسلكه كما سلكه أجدادي الأمجاد. . . وهيهات أن يكون للشباب الذي أضاع روح الصحراء إلى مثلها طريق. . .

إنما الإسلام في الصحرا امتهد ... ليجئ كل مسلم أسد

وأكلنا من طعام الجند وهو الزبد والرز والتمر، وشربنا من ألبان النياق وما ألذه من شراب. . . وتبادلنا أطيب الحديث فكان بشرهم وحديثهم قرى حلواً كتمرهم، سائغاً كلبنهم. ثم سألونا عن الطريق الذي نسلكه فأشرنا إلى الدليل؛ فحدثوه فوجدوه أجهل بالبادية من (الكناني) وأصحابه بلغة العرب، ووجدوه يضرب بنا على غير هدى ويسير على عشي. فأتمّوا صنيعهم معنا، فبعثوا واحداً منهم يصحبنا إلى (القريات) يرشدنا ويهدينا، وكان هذا الواحد فتى حلواً جميلاً ولكنه على حلاوته وجماله أمضى من السيف الباتر، وكان اسمه (سلامه) فتفاءلنا به خيراً. وكان صلى الله عليه وسلم يتفاءل، وقلت: رافقتنا السلامة إن شاء الله، والحاج غراب صامت لا ينطق. . .

وودعنا القوم الكرام وسرنا نخرق صدر البادية المهولة وأرواحنا معلقة بيد سلامة، وسلامة يشير إلى السائق ويلقي عليه أوامره؛ يمين. شمال. أصعد التل. تجنب الرملة. والسائق يسمع ويطيع، والسيارات تتغلغل بين هذه التلال، ولبثنا على ذلك إلى العصر، عصر اليوم الثاني من أيام الرحلة، فرأينا رملة بيضاء فسيحة لها منظر البحر في سعته وتموجه واستوائه، تملأ العين جمالاً والقلب من خوف سلوكها فزعاً، يلوح من ورائها سواد قليل كأنه النخيل أو خيال البنيان. فقال سلامه سلّمه الله: (هذه هي القريات) والرمال التي رأيناها في البادية على نوعين: رمال منبسطة بيضاء دقيقة كالغبار، لا طية بالأرض، يتخللها نبات من نبات الصحراء (وسأصف فيما يأتي من الحديث أنواعاً منها خبرناها) ورمال حمراء حباتها أكبر، وامتدادها أكثر، وهي تلال يأخذ بعضها بأعقاب بعض، تشبهها العين بأمواج البحر، لو كانت تجمد أمواج البحر، وإذا أنت تأملتها وجدتها في حركة دائمة لا تستقر حباتها، وبذلك ينتقل التل العظيم من مكان إلى مكان في الشهر مرة أو الشهرين، ولقد رأينا في عودتنا مناطق كانت سهلة ما فيها حبة رمل، فصارت بعدنا آكاما من الرمال

وهذه الرمال آفة السيارة، وعلتها التي لا دواء لها، فأنها للينها وتهافتها لا تثبت تحت دواليب السيارة، فتغص فيها كما تغوص في الماء، وتلبث فيها كأنما دفنت وهي في الحياة

ولقد لقينا من هذه الرملة عناء تقل في وصفه مبالغات الشعراء. . . غرقت فيها السيارات، ومالها لا تغرق وقد قلت لك إنها رملة كالبحر، أفتمشي سيارة على وجه البحر؟ ولقد لبثنا إلى الليل نزيح الرمل من حول السيارة، ونرفعها رفعاً، ثم ندفعها بعواتقنا دفعاً، ثم نجرها بالحبال، حتى إذا قلنا سارت عادت فغاصت، فلم نقطع الرملة حتى تقطعت أعمارنا، ولم نخرج منها حتى شهدنا أنه لا إله إلا الله!

وقريات الملح قرى ست متقاربة أكبرها قرية (كاف)، ولكنها لا تحوي على نصف سكان (حلبون) أخس قرى الشام ولا تبلغها كبراً وأتساعاً، وهي في غور الأرض، وكان أول ما

استقبلنا منها الحصن، وهو الحصن كبير من الحجر الأبيض المسنون، علمت أن الأمير نواف بن النوري بن شعلان هو الذي بناه أيام تسلطه على تلك الديار، منذ خمسة وعشرين سنة، ولم أجد من أستزيده من خبره. . . والقريات اليوم إمارة، وهي مقر الأمير. ومما رأينا في الحكومة السعودية أنهم يسمون كل من يلي مدينة مهما صغرت . . .أميراً، لا فرق في ذلك بين أمير القريات، هذه. . . وبين أمير المدينة المنورة

وكان الأمير يومئذ غائباً في مكة يشهد الموسم، يقوم مقامه أبن أخ له، وهذه العادة فاشية في الحجاز، إذا غاب الأمير أناب عنه ولداً له أو قريباً، وكان نائب الأمير في قرية أخرى من القرى الست، فلم نلقه، ولكنا لم نعدم من يستقبلنا ويكرمنا، وغاية الإكرام (كما رأينا) أن ندخل القصر، وتوقد النار في زاوية البيت الذي جلسنا فيه، ويشعل فيها الغضا هذا الذي يضرب بحره المثل والذي ذكره الشعراء فأكثروا، وكنوا به عن نجد، تهوي الأفئدة منهم، وقد رأيته مراراً فوجدته كثيراً في البادية وهو كالمشمش غير أنه أجمل شكلاً وأدق ورقاً، وهو أشد شجر رأيناه في البادية اخضراراً، أما جمره فكالفحم الحجري ولا مبالغة، وقد عرفه الشاعر حين زعم أنهم (شبوه بين جوانحه وضلوعه)، أما نحن فعرفناه في هذا البيت حين أشعلوه وزادوا في إضرامه حتى بلغ لهيبه السقف، ثم قربونا منه وأجلسونا إلى جانبه، فلما (تقهوينا) ونلنا حظنا من الإكرام البالغ. . . سألونا سيارة تأتي بالأمير، ودعينا إلى دار أخلوها لنا، وكانت دار مفتش الحدود (عبد الرحمن بن زيد) وهي أكبر دار في القريات وأجملها إلا أنها خالية لاشيء فيها، ففرشنا ما كنا نحمل من بسط وفرش وإحرامات ولم أبتئس أنا بخلوها، فقد كان بساطي وإحرامي أحب إليّ من كل ما يمكن أن يفرشوه فيها. ولما اطمأننا على أمتعتنا وعلى مكان مبيتنا خرجنا نجول في القرية فإذا هي بيوت من الطين قائمة على (شاطئ) الرملة يحف بها قليل وفيها حقول تزرع فيها بعض الخضر، وتسقي من عين جارية وفيرة تقوم بري قسم كبير من الأرض لو كان الأراضي هناك مال وكان هناك أيد مال وكان هناك أيد عاملة تسعى في الأراضي الزراعية وتحسين زراعتها. ويحيط بالبلدة وبساتينها ورملتها صخرة أهرامية هائلة رهيبة المنظر تمتد من حولها كأنها سور

إلهي. . . وحياة هذه القرى من الملح الذي يستخرج من السباخ الكثيرة القريبة من البلد، ويصدر إلى حوران وشرقي الأردن
بتنا في دارين أبن زيد هذا خير مبيت، وقد جاءونا بالعشاء من قصر الأمير، فلما أصبحنا غدونا عليه، فرأينا شاباً ذكياً ليس بالتعلم ولكن له مشاركة في بعض علوم الدين، ويحفظ شيئاً من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، تلقاها في مجالس العلم، وتلك سنة حسنة استنها الإمام عبد العزيز حفظه الله. فجعل ليله كله للعلم يأتي مجلسه العلماء فيقرؤون فيه كتاباً، فإذا أتموه شرعوا في غيره، وتكون مناقشات علمية يشترك فيها بنفسه، وقد قلده الأمراء جميعاً في ذلك؛ فمن هنا ما يحفظ هذا الشاب نائب أمير القريات. . .
استقبلنا بنفسه على عتبة الباب ببشر وإيناس، وجلس معنا يحدثنا ونار الغضا تلفح وجوهنا. ولبثنا على ذلك ساعة لم يدع فيها الأمير دقيقة واحدة قَوْلَةَ: قهَوةَ. شاهي. شاهي. قْهَوَة. يدور علينا بها عبد أسود كان شفتيه غطاء ووطاء، وكأن جسمه المحمل، ثم أديرت علينا المجمرة وفيها البخور، وبخور العود، فلم ندر ما نصنع بها؛ ثم وجدنا الأمير يضم عليها طرفي كوفيته أو عباءته حتى يتعشق الطيب ثيابه، ثم يدعها فصنعنا مثله، وانتهى العبد من إدارة المجمرة، فرأيت الأمير ينظر إلينا، فقام الشيخ الرواف وأستأذن، وقمنا معه على أن نجتمع الظهر بالأمير على الغداء. . .
فلما خرجنا، قال الشيخ الرواف: ألم تسمعوا المثل النجدي؟ قلنا: وما ذاك؟ قال: (إذا دار العود فلا تعود). فعلمت سر نظر الأمير إلينا، وتمنيت لو دخل هذا المثل بلادنا، حتى عرفه الناس؛ ثم ذكرت أن عندنا بحمد الله من لا يفهم بالعود ولا بالعصا ولا يخرج من زيارتك، حتى تخرج غيظاً من جلدك. . .
(لها بقايا)
علي الطنطاوي
التعليم المختلط
للأستاذ رفعة الحنبلي
(بقية ما نشر في العدد الماضي)
المحبذون لهذا التعليم يلفتون النظر إلى ظاهرتين اثنتين جديرتين بالاهتمام:
أولاهما أن البيئة والتقاليد والعادات هي عوامل قوية تدفع إحدى الأمم في الأقدام عليه إقداماً تاماً، وتجعل الأمة الثانية تحجم عنه إحجاماً كلياً.
وثانيهما: شخصية المربي التي تقوم بدورها التربوي الرفيع في تعهد الطلبة تعهداً فيه كثير من الحذر واليقظة والرفق واللين تبعدهم عن تسرب المساوئ إليهم - إن كان هنالك مساوئ - وتوجههم نحو المثل الأعلى للحياة الإنسانية الفاضلة؛ هذه الشخصية هي بمثابة الملجأ الأمين من الأخطار التي قد تهدد حياة الطلبة من جراء الاختلاط، ولا تنال الغلبة في هذا الأمر ما لم تتصف بالصفات الحميدة والمبادئ القويمة والخلق القوى والذكاء الحاد والفطنة الملتهبة، كي تتفهم نفسية الطالب ورغائبه وميوله. . .
ولكن أين هؤلاء المربون ينعمون بمثل هذه الصفات جميعاً؟ وأكبر الظن أنهم قليل. . .
والقلة ما كانت في يوم ما لتقوم مقام الأكثرية في تأدية رسالة أو إيفاء واجب
يذهب الدكتور إلى أن التعليم المختلط في المعاهد الثانوية يقوي العلاقات الاجتماعية ويمكن الصلات الأدبية، فينشأ الفتى والفتاة في بيئة تختلف عن البيئة الخاصة التي كانا فيها، وإنها لأجدى على الفتى والفتاة من أية بيئة أخرى، إذ يتجه الاثنان في اتجاه خاص هو من مصلحتهما، في الوقت إلى ذلك تضعف في الفتاة تلك الرقة والحياء والدعة، في الوقت الذي يتقوى عندها الشعور النفسي بأنها والرجل سيان في الحقوق والواجبات
وإذا ما تعمقنا في دراسة نفسية كل من الجنسين، وجدنا أن لكل منهما خصائص فردية تختلف في كل منهما عن الآخر جد الاختلاف، على أنها تتحد في الأصل وتختلف في الفروع بمعنى أن للفتى من الوظائف الفردية الخاصة ما للفتاة، على أن هذه الوظائف لم تكن لتمنع كلا منهما من أن يتلقى نوعاً واحداً من التعليم أو أنواعاً مختلفة، فضلاً عن أنهما ذوا قابلية لتعليم خاص. وقد تتباين الاستفادة عند مباشرة الفتاة هذه الوظائف، فتتجه إلى ناحية غير الناحية التي يسير الفتى إليها

فهناك إذاً خصائص نفسية نسوية وخصائص نفسية رجولية تمضي بهما إلى غايتيهما؛ ولكن لا بد من التساؤل عما إذا كانت هذه الخصائص المتباينة لها من المزايا ما يساعد على التعليم المختلط أم أنها تقف دونه؟

كثير من علماء النفس يعتمد أن هذه التباين في الخصائص مما يساعد على التعليم مساعدة قوية فعالة، فالفتيات والفتيان ما كان كل منهما ليكتسب مزايا وفضائل الآخر التي يفتقر إليها لو لم تمهد أمامه سبل الاختلاط سواء في المعاهد أو في المجتمعات.

ويرى الدكتور أن مراتب التفكير في الرجل هي غيرها في المرأة، والتعليم المختلط يحمل كليهما على الاقتباس عن الآخر ما تحتاج إليه الحياة وما تتطلبه منه البيئة، وبالتالي فإن أفق تفكيرهما ينبسط ويمتد إلى أقصى حدود الانبساط والامتداد تلك متعة من متع الحياة تتفتح معها النفس لصنوف المؤثرات وشتى ألوان الأحاسيس.

ويعترض البعض الآخر على هذا الرأي بأن الخير كل الخير للمجتمع وللجنسين معاً في ألا تضعف هذه الخصائص النفسية الخاصة - إذ أن في ذلك ما يفقدها، ولو إلى حد ما، شيئاً من حيويتها وفاعليتها - وأن يحتفظ كل منهما أيضاً بمراتب تفكيره لا يتعداها إلى مراتب غيره، فبقدر ما يكون الرجل تام الرجولة والمرأة كاملة تكون الجماعة الإنسانية غنية بالوسائل الفعالة التي من شأنها أن تؤثر في المجتمع وتدنيه من غايته المثلى، فالواجب على المربين أن يؤدبوا الفتى تأديباً يصبح معه، في المستقبل، رجلاً تام الرجولة، وأن يتعهدوا الفتاة تعهداً تمسي بعده كاملة الأنوثة، على ألاّ ينظر إلى المرأة نظرة ضيقة حقير تنال من كرامتها وتحط شأنها بل نظرة رفيعة تدفعها إلى الاستفادة من خصائصها الخاصة

ويعتقد المربي الكبير أن خصائص ومزايا الجنسين هي غريزية بمعنى أنه لا ينالها تغيير ولا يمسها تطور - في جوهرها على الأقل - وهي تخضع لنظام يختلف في كل منهما عن الآخر اختلافاً كلياً؛ ويضرب لذلك مثلاً أن الفتاة تفهم من كلمات الوطنية والشرف والعائلة والشجاعة غير ما يفهمه الفتى منها، فلكل من هذه الكلمات جرّس خاص عند كل منهما، هذا إلى أن الفتى قد لا يتأثر بخصائص ومزايا الجنس النسوي - إن قدر له أن يتأثر - دون أن يزاوج بينها وبين ما بنفسه من مزايا وخصائص

وهناك عيب لمسه الأستاذ بنفسه اختبار طويل. . . هذا العيب يتعلق بالمربي الذي يؤثر فئة من طلابه على فئة ثانية، أو بالأحرى يعطف على طالباته أكثر مما يعطف على طلابه، بل ويتحيف حقوقهم أيضاً، إذ يلمس في الفتاة دماثة الخلق، ونعومة الحديث، وإشراق النفس ورقة الشعور كما يدرك فيها مزية الإذعان والامتثال والخضوع، فتنعم بالعطف والإيناس، وتتمتع بالرفاهة والدعة، فضلاً عن أن التنافس الذي يحصل بين هاتين الفئتين له من التأثير القوي على الفتاة ما يدفعها إلى الانكباب على الدرس حتى تفوز على زملائها وتحوز الدرجة الأولى دون تعميقها في الدراسات وتفقهها في المذاهب، وهذا ما يفقر تكوينها العقلي ويضعف تفكيرها ويفسد تصوراتها، لذلك يقول الأستاذ إن التنافس يجعل التعليم أقرب تناولاً وأدنى منالاً وأكثر سهولة ولكنه أقل عمقاً وأهمية

ويأخذ بعض علماء النفس على التعليم المختلط، في مرحلة التعليم الثانوي، أنه مباءة للفساد، إذ أنه يثير الغريزة الجنسية، فتعصف بالنفس، وتحرك العواطف فتنفعل الأحاسيس، ويفقر الخصائص فتضعف الشخصية؛ وهذا ما يكون خطراً مباشراً على الأخلاق والآداب؛ وقد تكون الفتاة أقرب إلى هذه المؤثرات من زميلها الفتى وأدنى منه إليها

ويرد البعض الآخر على هذه المآخذ المتنوعة بأن الطبيعة الإنسانية تستدعي هذا الاختلاط، وتتطلب هذه النظام لما لها من الأثر القوي في حياة الناشئة، فتوجه العواطف توجيهاً سليماً، وتوحد العلاقات على أساس الثقة المتبادلة، وتمهد السبيل إلى رفعة الأخلاق وتقرب من الزواج. . .

والفتاة نفسها ترغب في هذا الاختلاط إلى حد بعيد، وتتوق نفسها إليه، وتندفع وراءه، فالفتاة كالفتى، يعتلج في أطواء نفسها الحب العنيف، وتتأجج في صدرها الأهواء، ويتفتح قلبها إلى الصداقة، وما عساها بهذه النوازع؟. . . إن حبها لشديد، وغن عواطفها لعنيفة، وإن خيالها لواسع، وإنها لتفتش عن أميرها المنتظر، عن فتاها، قبلة أنظارها ومحط آمالها ورجاء مستقبلها، والتي تأمل أن تكون له زوجة في المستقبل لتنعم

بجانبه وتطيب نفسها به، ولكن أين تبحث عنه، وفي أية بيئة تجده، وفي أي وسط تحظى به؟. . .
إنها قد تجد فتاها الجميل، الذكي الفؤاد، الدمث الأخلاق، الكريم الشمائل، في البيئة التي تختلف إليها، وما هي إلا بيئة المعاهد المختلطة التي تدينها من غايتها وتحقق أحلامها وآمالها
والفتى، أليس ينشد مصاحبة الفتاة، ويميل إلى معاشرتها ويتمنى صداقتها، إنه ليتلهف إلى اختيار فتاته، وتصبو نفسه إلى الزواج منها ولا سبيل إليها إلا في تلك البيئة المختلطة أيضاً.
ويقول العالم الكبير (إننا نحصل على أحسن النتائج حينما يجتمع الجنسان في معهد واحد إذ نرى الفتى أكثر إقبالاً على العمل وأحسن خلقاً، ونرى الفتاة تؤدي أعمالها في جو طبيعي وبدوافع أرقى وأفضل)
يؤخذ مما تقدم أن الفصل بين الجنسين ليس في مصلحة النشء ولا المجتمع في شيء بل ربما كان سبباً قوياً في تداعي الروابط الاجتماعية وفي تفسخ العلاقات الأدبية
وكما يؤخذ على التعليم الثانوي يؤخذ أيضاً على التعليم الابتدائي ولكن هذا لا يداني الثانوي في الخطر ولا يجاريه في العيوب، وما ينسب إليه من حسنات ينسب إلى الآخر على السواء
أما في صدد التعليم الجامعي فيقول الدكتور الأستاذ بجامعة بروكسل (إن من الواجب ألا نستنتج استنتاجات هزيلة من الملاحظات التي يبديها البعض ممن يقاومون هذا التعليم، وألا نرد التأثيرات السيئة التي تحدث عنه إلى هذا النظام بعينه. أن الوقائع التي نلمسها يومياً في أجواء المعاهد المختلفة تدفعنا إلى الاعتقاد بفساد هذا النظام، وكثيراً ما تتألم الفتاة من مسالك زملائها الطلاب الظرفاء، ذلك المسلك الذي يسبب لهن كثيراً من الأيام، مما يدفع المرء إلى التفكير في إقصاء الفتيات عن التعليم المختلط. . . ولكن لو أنعم هذا البعض الفكر في أسباب هذه الوقائع، لرد دواعيها ومسبباتها إلى نقص في بعض الأنظمة التعليمية الحديثة، أو بالأحرى إلى تخلف الفتاة عن المعاهد الثانوية المختلطة، بل والابتدائية أيضاً. إذ أن ارتياد الفتاة هذه المعاهد، بل والابتدائية منها أيضاً. إذ أن ارتياد الفتاة هذه المعاهد يمكنها من دخول الجامعة بعد أن تكون ماشت الفتى في دوري الطفولة والمراهقة، وهي أشد ما تكون اطمئناناً على نفسها وأخلاقها وآدابها، فتضطرم نفسها بحياة مليئة بالسعادة والهناء والرفاهية والنعيم) لذلك يطلب الأستاذ الكبير ألا يقبل في الجامعات من الفتيات إلا من أتمن دراستهن الابتدائية والثانوية في المعاهد المختلطة
ويرى الأستاذ من شتى الملاحظات التي جمعها أثناء إدارته دار المعلمين في جمهورية بوليفيا الأمريكية أن الفتيان، في اختلافهم إلى تلك الدار، قد تهذبت نفوسهم وأخلاقهم، وصقلت شجاعتهم ورجولتهم، وسمت أخلاقهم وعواطفهم، وجعلتهم اجتماعيين، فإذا بالفتى منهم أنيس الألفة، كريم الشمائل حر الخلال، رفيع التهذيب، أديب المعاملة، أنيق الملبس؛ وإذا بالفتاة قد انتفى عنها الخوف، وتلاشى الجبن، وزال منها الضعف فأصبحت ناعمة بالاستقلال الذاتي، ومتلذذة بالحياة، واثقة من المستقبل فضلاً عن أن كلا منهما يجد في نفسه مزايا تسهل التعاون بينهما فيما بعد
هذه أوجه الرأي المختلف في هذا الموضوع الجليل، وسمنا خطوطه الكبرى رسماً موجزاً وضحنا حسناته وفضائله، وكشفنا عن سيئاته ونقائصه، نلقي بها لدى أرباب العقول النيرة علهم يوازنون بين الرأيين ويرجعون الكفة التي يكون بها الخير للأمة العربية.
(بيروت)
رفعة الحنبلي
الحرب في أسبوع
للأستاذ فوزي الشتوي
فرنسا تسلم؟!
قابل العالم طلب المارشال بتان رئيس وزراء فرنسا لشروط عقد الهدنة بكثير من الحسرة والألم، فقد عقد العالم أمله على المعارك الدائرة في فرنسا لإقرار السلام،

وإزاحة كابوس الدكتاتورية ومخاوفها. وظل الجيش الفرنسي يقاتل بعزيمة التي عرف بها إذا دهم وطنه خطر، ولكن الخسائر التي مني بها، والقوات الألمانية هاجمته كانت كبيرة العدد كثيرة العتاد، تجاوزت في كثرتها جميع القتال

ففي سنة 1914 كان عدد الرجال المقدر فنياً للقتال في الميل الواحد عشرة آلاف جندي. ودرس أحد الاقتصاديين العسكريين في سنة 1938 عدد الرجال اللازمين للاشتراك في المعركة، سواء في حالة الهجوم أو الدفاع، فقدر أن جبهة القتال تشمل ميداناً طوله 1000 كيلو متر (600 ميل). وانتهت أبحاثه المبنية على الحساب والفن العسكري إلى أن عدد الرجال اللازم لهذه الجبهة في حالة الهجوم مدة سنة، هو تسعة ملايين جندي تهبط إلى ستة ملايين في حالة الدفاع، أي أن الميل الواحد يحتاج إلى 15 ألف جندي تهبط إلى عشرة آلاف في حالة الدفاع

استخفاف بالأرواح

ودرس هذا الأخصائي العسكري ما تحتاجه الجبهة من سيارات مدرعة ودبابات فقدر للميل الواحد 200 منها طول السنة. ولكن القيادة الألمانية خالفت فنون القتال المألوفة معتمدة على ضربات خاطفة، تقصد من ورائها أن تنهي الحرب في أشهر قلائل، ويؤازرها في ذلك سياستها التي جرت عليها من الاستخفاف بأرواح رعاياها، ووضعها في المرتبة الأخيرة أمل الحصول على أغراضها

فوضعت في جبهة طولها 150 ميلاً مليوني مقاتل و 4000 دبابة يضاف إليها سيارات النقل والجنود الاحتياط، فخص الميل الواحد 13 ألف مقاتل تقريباً، وإذا قسمنا عدد الدبابات على عدد الأميال يظهر قلة عددها، ولكننا لو ذكرنا أن هذه الدبابات لم تتوزع على

طول جبهة القتال، بل قصرت عملها في ميادين خاصة، فكانت الوحدة منها تتكون من 200 دبابة لعرفنا قسوة الهجوم الذي وجه إلى القوات الفرنسية، ولوجدنا أن ما قدر له أن يعمل سنة كاملة وضع في الميدان دفعة واحدة

ومعنى هذا أن الحرب إذا طالت سنة احتاجت ألمانيا إلى مثل هذه القوات ثلاثين أو أربعين ضعفاً، وهذا مالا يتيسر لألمانيا تحقيقه لضعف مواردها

ومن هنا يرى الخبراء العسكريون أن حرب ألمانيا مع إنجلترا ستكون وبالاً على النازية، لأن الحرب ستطول بحكم موقع الجزر البريطانية الجغرافي، وبحكم توفر المواد الأولية في إمبراطوريتها الواسعة.

لماذا استقال رينو

ومن الجدير بنا أن نقف لحظة إزاء ما قبل الظروف التي أعلنت فيها فرنسا طلبها لشروط الهدنة. ففي ساعات قلائل تستقبل وزارة المسيو رينو، وتؤلف وزارة المارشال بتان، وتصبغ بالطابع العسكري، ويشترك فيها جميع قواد القوات الفرنسية من برية وبحرية وجوية. فهل يدل هذا على أن المسيو رينو رفض أن يتولى إصدار قرار طلب شروط الهدنة الخطير؟ وإذا كان هذا صحيحاً فما هي الدوافع لاستقالته ورفضه! هل هي اختلافه في الرأي مع العسكريين؟ أم أنه فضل أن يتلقى الشعب الفرنسي النبأ السيئ من القادة أنفسهم؟

فالشعب الفرنسي معروف بحبه للحرية، معروف بتقاليده الوطنية التي لا تقبل الهزيمة، معروف بتضحياته السامية وبسالته التي لا تقهر، مما يدعو الساسة إلى التردد والامتناع عن إصدار مثل هذه القرارات المؤلمة

ويبدو لنا أن الاختلاف هو في الرأي أيضاً، فقد غضب بعض كبار القواد العسكريين لطلب الهدنة، وطالب الجنرال ديجول الشعب الفرنسي الحر بأن يتصل به في إنجلترا ليواصل القتال، ولينزع عن بلاده ألم الهزيمة، وليخلصها من القيود التي قد يفرضها عليه الأعداء. ورأي هذا القائد له قيمة إذ كان أحد مساعدي المسيو رينو، وكانت له يد في توجيه السياسة العسكرية والاقتصادية

فإذا قبلت فرنسا شروط ألمانيا فلن يعني أن رجال فرنسا ستغادر الميدان، بل أنهم سيواصلون الكفاح. وسيلحق بهم في هجرتهم عد كبير من الفرنسيين الذين لن يطيقوا أن يعيشوا تحت شروط الألمان والذين لن يطيقوا أن يتركوا بلادهم وسيادتها تحت رحمة النازيين. فقد ظلت فرنسا عدة قرون وهي دولة من المرتبة الأولى، ولها صوتها المسموع، ولها إرادتها المحترمة، فهل يقبل شعبها أن يصبح من المرتبة الثالثة، بينما

حليفتهم تقاتل في الميدان؟ إن العصبة الفرنسية تقول محال، أو كما قال الجنرال ديجول (إن شعلة المقاومة الفرنسية لن تنطفئ. لن تنطفئ)

مناورة بارعة

ولقد كان اقتراح بريطانيا اتحاد الجمهورية الفرنسية بالإمبراطورية البريطانية مناورة سياسية وعسكرية بارعة، فهي تعطي لفرنسا مضماراً جديداً لاستئناف نشاطها، وتدل على حسن النية والتضامن في السراء والضراء مما يجلب عطف العالم على قضية الحلفاء، ويدل دلالة مادية أن الطمع ليس العامل الحقيقي في هذا القتال، بل هو سعادة العالم. وإلا فما الذي يدفع بريطانيا بإمبراطوريتها العظيمة، لأن تقدم مواردها لإصلاح أضرار فرنسا ولأن تشاركها في مصابها الحالي؟

ولو تم هذا الاتحاد، لكان له أثر عظيم في سياسة العالم المقبلة، ولكان فتحاً جديداً لتكوين اتحاد أوربي عام، يعمل على إقرار السلام، فتزول الأحقاد، وتحد المطامع، ويشعر العالم برباط المصلحة المتبادلة

هتلر بين نارين

وكان هذا التصريح بارعاً كما قلنا وضع ألمانيا بين نارين، فإذا هي غالت في طلبتها من فرنسا فضت فرنسا للصلح واتحدت مع إنجلترا واستمر القتال إن لم يكن في فرنسا ففي المستعمرات، ولمستعمرات فرنسا شأن كبير في معركة البحر الأبيض، ففي تونس والجزائر ومراكش موان وقوات فرنسية لها قيمتها في الجزء الغربي للبحر ومن الناحية الثانية يفيد عدم غلو ألمانيا في طلباتها، فإذا احتفظت فرنسا بقواتها البحرية والجوية، ولم تضم إلى الدكتاتورية ولزمت الحياد تضمن إنجلترا سيادتها البحرية على القوات الإيطالية، كما تضمن أن تظل القواعد الفرنسية في غرب البحر الأبيض في أيد

محايدة تعطف على قضية بريطانيا

ويصعب علينا الآن أن نقدر أثر هذا التصريح، ولكنه يدل على شعور الديمقراطيات بعطف متبادل، ومشاركة في الآلام، أو كما يقول المثل العربي (عند الشدائد تعرف الإخوان). وهل بعد محنة فرنسا الحالية شدة؟

إذا قبلت الشروط

وإذا انسحبت القوات الفرنسية من الميدان، فإن ميدان الحرب يتحول من البر إلى البحر والجو، وهما الميدانان اللذان يمكن أن تشتبك فيهما القوات الديمقراطية مع القوات الدكتاتورية، اللهم إلا إذا حولت ألمانيا قواتها لغزو البلقان، فعندئذ يتغير الموقف تغيراً بسيطاً، ولكن النصر النهائي يتقرر في هذين الميدانين، ولإنجلترا فيهما التفوق العسكري

فشل الحرب الخاطفة

ويتغير موقف ألمانيا قبل إنجلترا فتضطر إلى الانتظار مدة يتاح فيها لأميركا تقديم معاونة جديدة، وإعداد مصانعها الإعداد المنشود، فلا مفر إذن من فشل خطط ألمانيا في الحرب الخاطفة، ولا سيما أن قوات إنجلترا ما زالت سليمة، ففي الجزر البريطانية وحدها مليونا جندي بعضهم جنود نظامية، وبعضهم للدفاع المدني

فإذا عمدت ألمانيا إلى مهاجمتها عن طريق الجو، فإن القوات الجوية ليست عاملاً فعالاً في الاستيلاء على البلدان، بل يجب الاستناد إلى قوات برية. وهنا تبرز معضلة ألمانيا الكبرى. فكيف تنقل قوات تقاتل هذه قوات إنجلترا الكبيرة؟

كيف تغزوا إنجلترا؟؟

أمامها في هذه الحال طريقان: وهما البحر والجو، فإذا سلكت طريق البحر احتاجت إلى أسطول ضخم لحماية السفن من الأسطول البريطاني، وهي لا تملك من السفن الآن ما يضمن لها تحقيق هذه الغاية، فإذا لجأت لحمايتها بالأسطول الجوي، فإن الطائرات البريطانية تنازعها السيطرة على بحرها، ولا سيما لقرب قواعدها وتفوق طائرات القتال البريطانية

فإذا قلنا يمكنها أن تفعل ما فعله الحلفاء في دنكرك عندما أنزلوا قواتهم من منطقة الفلاندر،

فإن الموقف متغير لعدة عوامل:

1 - تفوق أسطول إنجلترا البحري

2 - تفوق أسطول إنجلترا الجوي وخصوصاً طائرات القتال
3 - المدافع الساحلية، وهي من القوة بحيث تكفي لصد أساطيل حربية
4 - حقول الألغام المبثوثة حول الشواطئ البريطانية، وهي تحتاج إلى قوات كبيرة لانتشالها
5 - وجود قوات كبيرة في بريطانيا

فهذه العوامل متجمعة تجعل من المستحيل على ألمانيا إنزال قواتها في إنجلترا عن طريق البحر، فضلاً عن أن قوات الحلفاء التي نقلت من دنكرك لم تحمل معها أسلحة تذكر، ومن البديهي أن نقل الرجال أسهل بكثير من نقل الأسلحة

غزو إنجلترا جواً

وناقش أحد رجال إنجلترا العسكريين احتمال غزوا إنجلترا عن طريق الجو على هدى الخطط العسكرية الألمانية، فقال إن ألمانيا تحتاج في هذه الحالة إلى ألف طائرة تسع كل منها أربعين جندياً بمعداتهم من الأسلحة الخفيفة، فتحمل هذه الطائرات حمولتها من الرجال من قواعد قريبة من إنجلترا كميناء كاليه مثلاً، فتهبط الدفعة الأولى بالمضلات الواقعة وتحتل بعض المواقع وخصوصاً المطارات، وتحتفظ بها فترة من الزمن حتى يتاح للطائرات أن تعود بأربعين ألف جندي آخر

وعمل الدفعة الأولى أن تحتفظ بمواقعها إلى أن تأتيها الدفعة الثانية فالثالثة فالرابعة، إلى أن تستقر القوات في مكان يتيسر للطائرات الألمانية الهبوط فيه. ومن ثم يبدأ الغزو الحقيقي للجزر البريطانية

وإذا قلنا إن هذا المشروع مشروع إنجليزي، أدركنا أن الإنجليز أعدو له العدة اللازمة من جنود إقليميين ونظاميين، وأن الألمانيين لن يجدوا الجزر البريطانية لقمة سهلة الهضم، وفضلاً عن هذا فإن الطائرات لا تستطيع حمل الأسلحة الثقيلة من دبابات ومدافع ميدان لتجابه بها المعدات الإنجليزية

بريطانيا وألمانيا

أما كيف تقضي بريطانيا على قوات ألمانيا، فلها في ذلك وسيلتان:
1 - الحصر البحري
2 - استغلال فرص القتال

فأما الحصر البحري فأمره معروف، وهو يقضي بمنع المواد عن ألمانيا إلى أن تنهار حياتها الاقتصادية وبالتالي قواتها العسكرية

وأما استغلال فرص القتال فهذا موضوع يعود بنا إلى أيام نابليون، فقد ظلت العداوة قائمة بين فرنسا وإنجلترا من سنة 1803 إلى سنة 1814 استولى أثناءها نابليون على أوربا كلها تقريباً، وكانت انتصاراته المتتابعة تملأ آذان العالم. وكانت إنجلترا تستغل تمرد الدولة المختلفة

فقد فرض نابليون سيطرة أسرته على جميع الممالك من أسبانيا إلى قلب أوربا، وعين اخوته ملوكاً على إيطاليا وأسبانيا، وحالف تركيا والروسيا في أدوار مختلفة، ولكن الدول الأوربية ما لبثت أن تمردت عليه وهاجمته قواتها من جميع الجهات حتى استولت على باريس. وكانت إنجلترا في هذه الأثناء لا تترك له فرصة يستقر فيها، فهاجمته في تركيا، وأسبانيا، وفي البرتغال، وفي بلجيكا إلى أن استنفذت جميع موارده وهزم الهزيمة النهائية في واترلو

ولا يختلف موقف هتلر عن موقف نابليون، فهو يحتل بلاداً نعم أهلها برحيق الحرية، وتأصلت في نفوسهم روح الوطنية، فإذا كبتوا شعورهم تحت ضغط الحديد والنار لحظة، فلن يلبثوا أن يتمردوا لحظات، فتذكر إنجلترا شعورهم وتأخذ بيدهم، وتمهد السبيل للقضاء على الطاغية.

فوزي الشتوي
بكالوريوس في الصحافة
رسالة الشعر
صاحب البعثة الكبرى
إلى القطيع المشرد التائه، المتمدن الوحشي، السابح في
الدماء. . .)
للأستاذ محمد بهجة الأثري

خَلَتِ الدُّهورُ وأنت أنت الأوحدُ ... ذِكرى مُقَدَّسَةٌ ومجدٌ سَرْمَدُ!
تتضاءَلُ العُظَماءُ عندَك والكُنَى ... وتَحُطُّ شاهقةٌ ويصغُرُ سُؤْدَدُ
كالطَّوْدِ تضربُ في السماءِ شِعافُه ... وعلى قواعِدِهِ المنازلُ ترقُدُ!
قدُسُ النُّبُوَّةِ من يُطاوِلُ سَمْكَهُ ... أو مَنْ يَرُومُ سماءَهُ أو يصعَدُ؟
هي مَظْهَرٌ لله جَلَّ جلالُهُ ... لم يُعْطَها غاوٍ ولا مُتَمَرِّدُ
قد كنتَ صَفْوَةَ خَلْقِهِ فحباكَها ... شَرَفاً. فأنت المُصْطفَى المتفرِّدُ
وَقَفَ الفلاسِفةُ الكبارُ تَخَشُّعاً ... مِنْ دُونِ بابِكَ ظامئينَ لِيَجْتَدُوا
رادُوا الينابيعَ التي فَجَّرْتَهَا ... ماءً وَظِلاً بارداً واسْتَوْرَدُوا
ما كلُّ ماءٍ كالفُرَاتِ مَذَاقُهُ ... كلاَّ، ولا كلُّ المراعي يُحْمَدُ
كَمْ مِنْ زَعَامَةِ سَيِّدٍ مَحَّصْتُها ... فأني عليها النَّقْدُ لا تَتَجَلَّدُ
يَبْنُون مَجْدَهُمُ على قَهْرِ الوَرَى ... والمَجْدُ يَبْرَأُ منهُمُ والسُّؤْدَدُ!
ألفَتْحُ عندَهُمُ هَوَى وتَعَسُّفٌ ... ومَمالِكٌ تَهَوِي وأخرى تخمُدُ
أسَراءُ أهْواءِ النُّفُوسِ فَحَمْدُهُمْ ... يومٌ، وأما ذَمُّهُمْ فَمُؤَبَّدُ
لم يَظْهَرُوا إلا لِيَخْفَوْا مِثْلماً ... تَبْدُو فقاقيعُ السُّيُولِ وتَهْمُدُ
وظَهَرْتَ مِثْلَ الشَّمْسِ إلا أنها ... تَخْفَى ونورُكَ في الخَليقةِ سَرْمَدُ!
وبَنَيْتَ بالحقِّ المبينِ فلا هَوىً ... يَطغَى عليكَ ولا مُنًى تَتَرَصَّدُ
ألفَتْحُ عِنْدَكَ شِرْعَةٌ وعقيدةٌ ... وأُخُوَّةٌ وتَراحُمٌ وتَوَدُّدُ
دُسْتُورُكَ الفُرْقانُ: أمَّا وَعْظُهُ ... فَهُدَىً، وأمَّا حُكْمُهُ فَمُسَدَّدُ
عالٍ على الأهْواءِ لا مُتمَلِّقٌ ... أحَداً ولا مُتَعَسِّفٌ يَتَمَرَّدُ!
كالسَّرْحَةِ الغَيْنَاءِ غُصْنٌ مُثْمِرٌ ... وَخَميلَةٌ تَنْدَى وظِلٌّ أبْرَدُ!
تأْسُو جِراحَ الخَلْقِ بالْخُلْقِ الذي ... تَروَى القُلُوبُ به وتَشْفَى الأكْبُدُ
ولَكَ السَّماحَةُ والسَّجاحَةُ والنَّدَى ... وهُدَى النُّبُوَّةِ والفَعالُ الأرْشَدُ
نَسَقٌ مِنَ الْخُلُقِ الْعَظِيمِ كأنَّهُ ... فَلَقُ الصَّبَاحِ وَحُسْنُهُ الْمُتَوَقَّدُ
تدعو إلى أدَبِ الحياةِ وَعِلْمِها ... وَتُنِيرُ دُونَهُمَا السَّبيلَ وَتُرْشِدُ
تَسَعُ الأنَامَ جَمِيعَهُمْ لَكَ مِلَّةٌ ... غَرّاءُ تَهْدِي العالَمِينَ وَتُسْعِدُ
أزَلِيَّةٌ أبَدِيّةٌ لاَ سِرُّها ... يَخْبُو وَلاَ إشْعَاعُهَا يَتَرَبَّدُ!
يَزْكُو عليها الرُّوحُ فَهْوَ مُنَزَّهُ ... عَمَّا يَشِينُ وَجَوْهَرٌ يَتَوَقَّدُ
الوَحْيُ أسُّ بنائِها العالي الذُّرَا ... وَالْحَقُّ حَائِطُ رُكنِها وَالْمَحْتِدُ
وَالفَتْحُ وَالعُمْرَانُ من آرَابِها ... وَالعَدْلُ والعَيْشُ الرَّخِيُّ الأرْغَدُ
دُنْيَا أقَمْتَ عَلَى العَقِيدةِ رُكنَها ... ومن العقائدِ مَا يَشِيدُ وَيُخْلِدُ
هِيَ هَيْكَلٌ فَانٍ، فإنْ حَلَّتْ بِهِ ... رَفَّتْ بها الْحَوْبَاءُ وَهْيَ تَرَأَّدُ
يُنْبُوعُها التوحيدُ: مَشْرَعُ مَائِهِ ... لِلْوَارِدِينَ، وَنَبْعُهُ لاَ يَنْفَدُ
جَمُّ الأيادِي فالأنَامُ بخَيْرِهِ ... وَبخِصْبِهِ مُتَقَلِّبُونَ وَهُمْ يَدُ
ما الناسُ - لولا البَغْيُ - إلاّ أُمَّةٌ ... وَالدِّينُ - لولا الجهلُ - إلاّ أوْحَدُ
ما أحْسَنَ التَّوْحِيدَ يَجْمَعُ شَمْلَهُمْ ... فَيَعُودَ وَهْوَ مُنَظَّمٌ وَمُوَحَّدُ!
بِسَنَاهُ أخْرَجْتَ الشُّعُوبَ من العَمَى ... وَهَدَيْتَها لِلنْهْجِ وَهْوَ مُعَبَّدُ
فَاسْتُؤصِلتْ فَوْضَى وقامت دولةٌ ... وخَبَتْ هَيَاكِل وَاسْتَنَارَ المسْجِدُ
وَمَشَتْ عَلَى يَبَسِ الصَّعِيدِ حِضَارةٌ ... بالْيُمنِ تُشْرِقُ وَالْهَنَاءةِ تَرْغُدُ
إنَّ الجَمالَ خَفِيَّهُ وَجَلِيَّهُ ... إكسِيرُها وَشُعَاعُها الْمُتَجَسِّدُ!
بُعْداً لِمَفْتُونِينَ لم يُعْرَفْ لَهُمْ ... رَأْيٌ يُجَلِّ وَلاَ مَقَالٌ يُحْمَدُ
نَفَوُا الرِّسالَةَ وأرْتَأَوْها دَعْوَةً ... زَمَنِيَّةً أفَلَتْ وَلَيْسَ لها غَدُ
خُصَّتْ بجيلٍ قد مَضَى، وبِحِقْبةٍ ... طُوِيَتْ، وَأمْرٍ رَثٍّ لاَ يتأبّدُ
خَسِئوا. فما عَرَفَ الحقائقَ ماجِنٌ ... خَلَعَ العِذَارَ، ولا غَبِيٌّ مُلْحِدُ
البِعْثَةُ الكُبرَى حياةٌ لِلْوَرَي ... أبَدَ الزمانِ وَنِعْمَةٌ تَتَجَدّدُ
عَمَّتْ وَلكن قد خُصِصْتَ بفَضْلِها ... يا آخِراً هُوَ أوَّلٌ مُتَفَرِّدُ!
إنّ الأُلَى زَعَمُوكَ سَيِّدَ قومِهِ ... كَذَبُوا. فإنّكَ لِلْبَرِيَّةِ سَيِّدُ!
شَمْسٌ، وَهل تختصُّ ناحيةٌ بها ... وَشُعاعُها في كل أُفْقٍ عَسْجَدُ؟!
الْمُرْسَلُون، وأنتَ دِرَّةُ عِقْدِهِمْ ... خُتِمُوا بِسِرِّكَ في الزمانِ وَمُجِّدُوا
أيّدْتَ دَعْوَتَهُمْ وَصُنْتَ جَلاَلَهُمْ ... فأرَيْتَنَا كَيْفَ الإخَاء يُوَطَّدُ!

يا رائِدَ الإصلاحِ يَلتْمَسِ الْهُدَى ... هذي مَنَابِعُهُ، وَهذا المورِدُ!
ومن العجائبِ مَعْشَرٌ أَنْجَبْتَهُمْ ... بَبَغُوا بِدِينِك في العُلَى وَاسْتَمْجَدُوا
من بَعْدِ رَعْيِ الشاءِ قد رَعَوُا الْمَلاَ ... فَانْصَاعَ جَبّارٌ، وَدَانَ مُسَوَّدُ!
أطلَعْتَهُمْ غُرَرَاً بآفاقِ العُلى ... يَمْشِي بنُورِهِمِ الزمانُ وَيسْتَئِدُ
تَتَخَايَلُ الدُّنيا بِعِزَّةِ مُلكِهِمْ ... وَتكادُ مِنْ فَرَحٍ بهم تَتَمَيَّدُ!
مِنْ مُعْجِزَاتِ الدِّينِ في أخلاقِهِمْ ... خُصُّوا بصُنْعِ المعجزاتِ وَأُفْرِدُوا
من كلِّ وَضّاحِ الْجَبِينِ كأنه ... يَنْشَقُّ في الظَّلْماءِ عنه الفَرْقَدُ
جَمُّ الجلالِ تَكادُ تَسْتَذْرِي به ... شُمُّ الجبَالِ وَيَتَّقِيهِ الْمُرْبِدُ
يمَشِي بهم للفَتْحِ يَحْدُو شوقَهُمْ ... دِينٌ يَثوُبُ لآيِهِ الْمُتَشَدِّدُ
أَذْكيَ عَزَائِمَهُمْ وَأَدْرَي زَنْدهمُ ... فَاسْتَفْتَحُوا سُرَرَ البِلاَدِ وأَبْعَدُوا
نَظَمُوا الممالِكَ بيْنَ قُطْبَيْها، ولو ... وَجَدُوا وَرَاءَ البحرِ أرضاً أَوْرَدُوا
في حِقْبَةٍ قَصُرَتْ كأنّ زَمَانَها ... يومُ الوصالِ وَحُسْنُهُ الْمُتَوَرِّدُ!
حَفَلَتْ بآياتِ الجلالِ زواهراً ... يَفْتَنُّ فيها الناظِرُ الْمُتَصَعِّدُ
تلْكَ الحضارَةُ لا مظاهِرُ زُخْرُفٍ ... تُغْرِي وَباطِنها العذابُ الأَسْوَدُ!
نارٌ ولا نورٌ، وَطُغْيَانٌ وَلاَ ... زَجْرٌ، وَأَهْواءٌ وَلاَ مُسْتَرْشَدُ!
يا رَبَّ! أَهْلُ الغَرْبِ جُنَّ جُنُونُهُمْ ... وطَغَى القويُّ على الضعيفِ يُعَرْبِدُ
الأَرْضُ نَارٌ، والسَّماءُ جَهَنَّمٌ ... والبَحْرُ بُرْ كانٌ يَثُورُ ويُزْبِدُ
لم يَبْقَ شِبْرٌ لم يُصَبْ بَمَجَازِرٍ ... أَوْ لا يُراعُ بِمِثْلِها وَيُهَدَّدُ
عزَّ السَّلامُ وأنذرتْ غاراتُهُمْ ... أنّ الْقِيامَةَ حانَ منها مَوْعِدُ!
يا رَبِّ! والقَوْمُ الْهُداةُ تَعَسَّفُوا ... سُبُلَ العَمايةِ خَلْفَهُمْ وتَوَرَّدُوا
هَجَرُوا سَبِيلَكَ ظالمينَ نُفُوسَهُمْ ... فتفكَّكَتْ أوصالُهم فاسْتُعْبِدُوا
سَلَبَ الطَّغَامُ دِيارَهمْ وتأسَّدُوا ... وبَغَي اللِّئَامُ جَلاَءَ هُمْ وتَوَعَّدُوا
وُهمُ شَتاتٌ: دِينُهُمْ مُتَفَرِّقٌ ... سُبُلاً ودُنْياهُمْ شَقَاءٌ أنكَدُ
شِيَعٌ تَطاَعَنُ بينها ومذاهِبٌ ... شَتَّى وأحوالٌ تُقِيمُ وتُقْعِدُ
قومٌ وراءَ الغَرْبِ في آثامِهِ ... رَكَضُوا خُيُولَ الموبقاتِ وأَطْرَدُوا
وَمُصَرَّعُونَ من الضّلاَلِ كأنما ... أوهامُهُمْ سُمٌّ يَدِبُّ ومُرْقِدُ
هِيَ أَزْمَةٌ يا رَبِّ لُطْفُكَ وَحْدَهُ ... يُرْجى لها فَلَعَلَّ لُطْفَكَ يُنْجِدُ
النُّورُ أُطفِئَ والزعامَةُ أَخْفَقَتْ ... والبَغْيُ طَبَّقَ وَالقَطيعُ مُشَرَّدُ
يا رَبِّ! فَلْيَطْلُعْ (كتابُكَ) بالهدَى ... يا رَبِّ! وَلْيَقمِ النبيُّ (مُحَمّدُ)
(بغداد)
محمد بهجة الأثري
رسالة الفن
تأملات:
اللهم احفظنا!
للأستاذ عزيز فهمي
- عينا من هاتان القاسيتان اللتان أخفيت وجههما لتنظر فيهما؟. . . أرني هذه الصورة. . . بيلا لوجوزي؟! دراكولا؟! لم أكن أحسب أن هناك من يجد المتعة في النظر إلى عيني دراكولا. . . مصاص الدماء
- لك الحق! فمن كان مثلك، فإنه لا يستطيع أن يفتح عينيه في عيني دراكولا
- مخيفتان!!
- . . .من غير شك، ولكن لماذا هما مخيفتان وهما، مهما كانتا. . . عينان
- لا أدري، ولكنه يخيل إلي أنني لو قابلت دراكولا، والتقت عيناه بعيني لما استطعت إلا أن أمد له عنقي ليمتص من دمي ما يشاء. . .
- فإذا قابلت لاندرو؟!
- ومن لاندرو؟
- سفاح فرنسي كان يصيد الفتيات والنساء الصغيرات بنظراته، حتى إذا تملكهن انفرد بهن وقتلهن واستولى على حليهن ودفنهن
- يا حفيظ! وكيف كان يصيدهن بعينيه هذا الرجل البغيض المجرم؟. . ماذا كان يجذبهن إليه؟

- شيء مثل الذي في عيني دراكولا، وقد قلت: إنك لو رأيت عيني دراكولا ورأى عينيك لما استطعت إلا أن تسلمي له جيدك هذا المرمر، ليمتص ما شاء من دمك. . .
- قسوة. . . أرني الصورة. . . وما الذي في عيني دراكولا؟! . . .
- وهل تغري القسوة بالإقبال عليها وبذل الدماء لها؟
- إذن فما الذي في هاتين العينين؟ إنه على أي حال شيء كريه، ومع ثقله على النفس له سيطرة وسيادة وأمر لا مر من طاعته. . .
- فبأي الأسماء تسمين هذا؟
- إنهما عينان تطعنان نفس الذي تنظران إليه. . .
- ولكن المطعون لا يزحف إلى طاعنة. . .
- لولا أنهما تؤذيان لقلت إنهما جذابتان
- ولماذا تخلقين التناقض بين الجذب والأذى؟. . . أما يجذب العنكبوت الذبابة وفي انجذابها إليه هلاكها؟ أما يجذب الفسفور الأوكسجين، وفي انجذابه إليه احتراقه؟ إن عيني دراكولا جذابتان ومؤذيتان. . . ولم لا؟!
- إنهما حقاً عجيبتان. . . قل لي ما هما؟
- هاهما تان أمامك. . . انظري إليهما تعرفيهما. . . بل إنك تعرفينهما وتخافينها كما قلت، فماذا تريدين مني أن أقول لك عنهما. . . إني أستحي. . .
- أنت تستحي؟! صحيح مؤدب جداً، تقي جداً، نقي ورع. . .
- انظري إلى عيني. . . عيني أنا؟. . .
- هاأنا ذي نظرت. . . هيه. . . (أخص) عليك! تلعب لي حاجبيك؟!. . . أما إنك مسخرة!
- أأنا المسخرة أم المسخرة أنت؟ أنا نظرت إليك ورقص حاجباي فوق عيني أثناء ما كنت أنظر إليك، فلماذا ضحكت، ولماذا قلت ما قلت؟ الآن حاجبي رقصا؟ هبيه زر كربوشي أرقصته نسمة وأنا أحدثك؟ أفكنت تضحكين؟ أو هبيني نظرت إليك وعبثت بأصابعي و (طقطقتها). . . أفكان هذا يضحك؟
- ولكن تلعيب الحواجب له معنى. . .
- وأين رأيت هذا المعنى؟ في قاموس؟ أم في جامعة أستاذها كشكش؟
- ليس حتما أن تكون كل المعاني التي يدركها الناس مسجلة في كتب وقواميس أو ما يلقي عنه الأستاذ دروساً ومحاضرات في الجامعات. . . بل إن هذا المسجل في الكتب والقواميس، وهذا الذي يلقي في الجامعات والمدارس لهو الأقل من العلم، والبعد عن حاجة الحياة. . .
- أنا معك في هذا. . . والآن قولي لي. . . لماذا أنت إذا نظرت إلى عيني دراكولا خفت منهما ومع هذا الخوف انجذبت إليهما. . . ولماذا أنت إذا نظرت إلى عيني أنا ضحكت ومع هذا الضحك انجذبت عنهما. . . تفرين مما يضحكك وتندفعين إلى ما يخيفك! لماذا؟
- أنا التي أريد أن أعرف السبب، بل إني قبل أن أعرف السبب أريد أن أعرف ما هذا الذي في العيون ينتقل منها إلى العيون الأخر فينقل معه أشياء من النفوس إلى النفوس الأخر. . .
- أما هذه فإشعاعات. . . هي انعكاسات نورانية أو نيرانية تنبعث من نفس إلى نفس عن طريق منافذ النفس والعيون من هذه المنافذ. . .
- وهل غير العيون للنفس منافذ؟
- الفم وإن كان لا ينشط في هذا كثيراً إلا عند النساء والمغنين، واليدان، والجلد. . . وغير ذلك. . . وغير ذلك. . .
- دعنا من ذلك فإني أريد أن نبقى الآن في حديث العيون
- قبل أن ادعنا من هذا أقول لك للمرة الألف امسحي هذا الأحمر من فوق شفتيك فإن المعبر فيك عن نفسك يا هذه هو فمك. . . هو الجذاب فيك
- ولا شيء غير فمي؟
- الآن حلا لك أن نترك حديث العيون لنتحدث عن ذاتك الكريمة؟. . . دعينا من هذا وعودي بنا إلى العيون وقولي لي بأي شيء تفسرين ما يفعله النساء في مصر من تبخير اللواتي تصيبهن الأعين منهن؟. . .
- هذه خرافة من خرافات الجاهلات العجائز ليس لها شأن بما نحن فيه

- . . .بل هي علاج مما تعلمه هؤلاء الخبيرات العجائز وهي ليست شيئاً غي ما نحن فيه ألا تعرفين متى يقولون إن فلانة أصابتها عين؟
- عندما يعتقدون أن حاسدة حسدتها. والذي أعرفه أنا عن الحسد هو أن يتمنى إنسان زوال النعمة عن إنسان آخر، ولكن لست أدري كيف يتصورون أن أمنية خاطئة شريرة كهذه إذا ثارت في نفس إنسان حاسد كان لثورتها هذه أثر حق في المحسود. ولأني أعجز عن تصور هذا أقول إن حديث والحسد والعين خرافة وإن المشتغلات به من الكوديات، والمشتغلين به من مشايخ الزار دجالون بضاعتهم وتجاربهم التي يرونها بين الناس أوهام
وأباطيل.
- إنك مخطئة، فالحسد والعين ليسا خرافة، مشايخ الزار و (الكوديات) ليسوا جميعاً دجالين، فمنهم الدجالون حقاً، ولكن منهم أيضاً علماء النفس المتمكنين منه علماً وعملاً وكهانة وسحراً. . . تصوري (بهلواناً) . . .
- ماذا؟
- البهلوان الذي يمشي على الحبل ويقفز في الجو من عقدة إلى عقدة، ومن حلقة إلى حلقة. . . ألا تعرفين؟ـ . . هذا (البهلوان) يقوم بألعابه هذه كل ليلة، وهو لأنه مدرب عليها وحاذقها يوفق فيها دائماً كما يوفق دائماً كل عامل مدرب وكل لاعب مدرب. وإذا نظرت إلى هذا (البهلوان)، وهو يقوم بألعابه هذه ترين أنه يأبى أن يسلم عينيه لنظرات الناس، فهو دائماً متجه بنظره إلى لا شيء، أو إلى عينين يحبهما ويطمئن إلى إيمانهما به؛ أما غير ذلك، فهو يخشى لو أنه تلقي نظرات الناس أن يتلقى فيها نظرات شكاكة ينبعث منها الحذر عليه من الفشل في لعبه، والفشل في لعبه معناه الموت. والذي يخشاه من هذه النظرات الشكاكة، هو أن ينتقل شكهما فيه إلى نفسه، فيشك في نفسه، فيتردد في حركاته، فيختل توازنه في قفزة، أو في همة أو في هبطة، فيضيع، وكما يخشى هذه النظرات الشكاكة يخشى أيضاً النظرات الحاسدة التي ينعكس منها بصراحة تمني زوال هذه البراعة عنه، وهذا شيء يبعث في نفسه قوة تتجه إلى إقناع عقله بأن هذه البراعة لن تزول عنه، هذا إذا كان قوياً، أما إذا كان في نفسه شيء من الضعف، فإنه قد يسائل نفسه: أليس ممكناً أن تزول هذه القوة عني. . .وماذا أصنع إن هي زالت؟!. . . ثم من يدربني إذا كانت قد زالت فعلاً، أو أنها لا تزال باقية؟. . . وهذه الاضطراب وهذا الانشغال يستنفدان كثيراً من قوة (البهلوان) ومن جهده بعد أن كان يتجه بقوته كلها وبجهده كله إلى إتقان ألعابه. . . فلا عجب بعد ذلك إذا هو فشل وهو غارق في هذه الزلزلة، فإذا فشل قالوا أصابته العين والعين أصابته فعلاً، وهم يعالجونه بالتبخير والترنج والفوضي الحركية التي يمارسونها في الزار لأنه بهذا يخدر أعصابه ويكف إرادته عن السيطرة على تفكيره، فيوحون إليه وهو في هذه الحال بأنه مصون، وبأن الله حافظه، وبأن الصلاة على النبي واقيته، وبأنه عن أي سبيل من سبل الاطمئنان قوي قادر بارع له أن يثق بنفسه وألا يعود مطلقاً إلى الشك فيها،
وألا يعود مطلقاً إلى الخضوع لنظرة شكاكة أو نظرة حاسدة. . . وكما تصيب العين الإنسان الفرد فإنها أيضاً تصيب الإنسانيين، فهما إذا تحابا وتبادلا الإخلاص والتقيا وهما في حالة من حالات الغموض المريح الذي يسعدان به ورأيا عيناً تنظر إليهما نظرة مستفسرة عن هذا الغموض مصرة مصممة على ألا تفرض فيه خيراً ثار في نفس كل منهما الشك في صاحبه والشك كسر يصيب ما بين المخلصين من ود، وجبره صعب. . . والأصل نظرة تنطبع في عقل المصاب فليزمه الضعف والفشل
- هذا كلام طيب، ولكنه لا يزال بعيداً عن نظرة دراكولا، ونظرة لاندرو، ونظرتك أنت المضحكة السخيفة. . .
- بعد كل هذا اللت والعجن لا أزال بعيداً. . . إن نظراتنا جميعاً: أنا ودراكولا ولاندرو تسأل وتجيب عما تسأل عنه وتطلب وتأخذ الذي تطلبه في آن واحد. . . وكل ما بينها من فرق يعود إلى اختلاف الموضوعات التي تهتم بها. . . فدراكولا ينظر إلى فريسته وهو يقول أنا قوي، وإلى جانب قوله هذا يسأل: وأنت؟ وإلى جانب سؤاله هذا يجيب: ضعيفة. وإلى جانب إجابته هذه يطلب: هات دمك لي فحياتي اثمن من حياتك وأبقى وأشد امتلاء، واظهر وأنفع، وهو إلى جانب ما يطلب هذا يأخذ. . . وهو يأخذ لأن

فريسته لا تستطيع أن تكذبه. . . كنظرة القط إلى الفأر؛ فالقط يقول بنظرته للفأر أنا أقوى منك وحياتي أظهر من حياتك وأنت غذائي فتعال إلى لآكلك فأنا جائع، فيقف الفأر، أو لعله يدنو إلي القط بنفسه. . . كلمعة النار أمام الفراشة تقول لها أنا وضاءت لماعة حية ظاهرة متألقة فماذا أنت؟ تعالي إلي واحترقي في لتلمعي لمعة، ولتومضي ومضة ولتكوني لي طعاماً. . . فتأتيها الفراشة مقتنعة. . . هي سيادة وهبتها الطبيعة لمخلوقات تفرضها على مخلوقات ترضى بها. . .

- ولاندرو؟

- لاندور يهتك فريسته بعينه؟ يقول لها: أنا ميال، وأنت ميالة، فتعالي نتعاطف ما نميل إليه. . . لا تكذبي ولا تعرضي فأنت تريدين مثل الذي أريد. . . تعالي. . .

- يا مغيث! وأنت تستعين بتلعيب حاجبيك لعجزك فتضحكين

- ليس هذا لعجزي، وإنما لأفهمك أنه عندي نوع من العبث، لا أجد الجد كله فيه. . .

- من خيبتك. . .

- هذه الخيبة أدعوها أنا تسامياً. . . وثقي يا حضرة الدرة المصونة، والجوهرة المكنونة، أنني لو لم أر في هذه الخيبة حسناً وإحساناً، وأني لو عمدت إلى الإصابة بعيني وفمي ويديك وجلدك وغير ذلك وغير ذلك. . .

- نعم. . . لكنت وحشاً لا أحب أن أكونه. . .

- اللهم احفظنا. . الآن في عينيك بريق كالذي في عيني دراكولا. . .

- والآن في جيدك حنين يسبح تحت جلده. . . تعالي. . . ولا تقامي لئلا تجمد عيناك ويغلظ جلدك

- يا أمّه!. . .

عزيز أحمد فهمي

من هنا ومن هناك

محاكمة بدوية أمام الأمير نوري الشعلان

- السلام على الأمير

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته

- أنحن بحضرة النوري بن شعلان؟

- إي بِلله، وأنتم من؟

- نحن من جبل الدروز ووجهتنا الحجاز

- الله محييكم، أنتم ولد عمنا، كيف حال الأطرش (يريد أبا علي مصطفى الأطرش)

- هو بخير، وهذا تحرير منه لكم

- تحرير؟ إيه أبو والله إنك لحافظ العهود وإيش تبغون بالحجاز؟

- نؤدي الفريضة

- الله محييكم، يا نواف، يا ولدي أكرم الضيوف، وتعيدون عندنا إن شاء الله

- العفو يا زين، وقتنا قصير، ويلزم أن نعود بسرعة للشام

- لا لا، تعيدون رمضان عندنا، ومن يوم للثاني قريب، غداً عندنا قضوة (محاكمة) تجي البدو من كل ناح، وبعد غد العيد، وعيدكم مبارك عليكم

- علينا وعليك يالأمير

المحاكمة

المدعي - صبحكم الله بالخير، اليوم يوم الله، اليوم يوم الحق، اليوم يوم اليمين، ابشر يا مذبوح، أحلف يا ذابح، اليوم يوم الله السلام على الأمير، السلام على ابن شعلان، السلام على قاضي العرب

الأمير - وعليكم السلام يا لعرب، الله أكبر، الله أكبر، نغلوا حججكم (أي قدموا براهينكم)

المدعي - يا قاضي بعدل الله. جيتك جدي، وامشي هدي، ومصّلى على الله والنبي. وديّ (أريد) منك الحق، والحق فوق الكل ولاحق من الله، لنا بذمة هذا - وأشار إلى بدوي آخر - دم. قتل ابني وفقدنا الشاهد، ولزمته اليمين، فإما برئ، وأما قاتل، والقاتل مقتول

الأمير - وإيش اسم غريمكم؟

المدعي - جديع ابن سمير
الأمير - انهض يا وليدي، ادفع عن نفسك، أنت شاب، وشيخ الفريق ولزمك الدين
(اليمين) إن كنت بريئاً برَّاك الله، وإن كنت قاتلاً قتلك العدل، احلف احلف
المتهم - والله يالنوري، الحق من الله، واليمن وزر، أعفوني منها وأنا أعطي الرجل مية بعير
الأمير - قودوا البعير يالربع، وعفوا الراجل من الدين واحجبوا دم العباد
المدعي - لا لا، نريد اليمن حتى نعرف الصح (الصدق)
المتهم - يالربع، بالله ومحمد رسوله، إني مؤديكم ميئتان بعير وجوزوا عن تحليفي
وتعوضوا الله، والذي مات مات، ونحن أقارب وإخوان
الأمير - وإيش عندكم يالعرب؟ ميتان بعير تساوي ألفين جنيه. جوزوا عن الدين،
واعقدوا الراية حفار ودفان (أي سماح عن الماضي والحاضر)
وإيش يا ساير؟ المقتول ابنك، والله فوقك، والخطة قدامك (يريدون بالخطة دائرة -
يرسمها أحدهم على الأرض ليقف المتهم داخلها ويحلف، ويسمونها خطة سليمان بن داود)
المدعي - والله يالعرب ما أنا بائع دم ابني بجمال، أريد من غريمي دين فأما يكون بريئاً
فأطلب من قاتل ولدي، وإما يكون القاتل فأقتله بيدي، (واليمين عندهم فريضة متى
فقد الشاهد)
المتهم - يا شيخ، جز عن تحليفي، وخذ البعير، فأنا برئ من دم ابنك، ولو كنت أنا
القاتل لما خفت منك، وورائي كما تعلم عرب الشرارات وأنت أخبر بالشرارات
وبأسهم
المدعي - جُديع، تتهددني بالشرارات؟ أنسيت من هم الحسن؟ ويوم اللي هزمناكم
مثل الغنم الهامل، والله لا أرضى منك بغير اليمن ولو ملكتني كل حلال الشرارات
المتهم - وإيش عليه، أنا أحلف، خطو الخطة، أنا رايح أحلف، أنا على باب الخطة، يا
عونة الله أنا رايح أحلف، يا ساير خف الله. يا خوي وخذ البعران وجز عن تحليفي وأنا
برئ
المدعي - اليمين اليمين
المتهم - أشهدوا يالعرب، اسمعوا يالربع، أنا بالخطة، وهذه عصاتي وهذه يميني:
وأنا بوجه (وحق هالعود، والرب المعمود، وخطة سليمان بن داود، أنا رميت والله قتل)
ابن شعلان
أي أنه هو أطلق النار، والله قتل، وهو بحماية النوري ابن شعلان والحماية عندهم)
(ثلاثون يوماً فقط، وبعدئذ أما أن يدفع جنية القتيل، وإما أن يقتل
نجيب العسراوي
الأمية في العالم
يؤخذ من دائرة المعارف الإنجليزية الحديثة أن عدد الأميين في مصر 92 في المائة
(والصواب: 82)، وفي الهند الإنجليزية 92، وفي الصين 80، وفي سيلان 66، وفي
غواتيمالا 65، وفي أسبانيا 63، وفي البرازيل 60، وفي كولومبيا 60، وفي البرتغال
60.، وفي شيلي 39، وفي الأورغواي 39، وفي الأرجنتين 37، وفي فنزويلا 37
وفي الولايات المتحدة وزيلانديا الجديدة وكندا وفرنسا واليابان واستونيا وبلجيكا يتراوح
الأميين بين واحد وعشرة في المائة
أما في سويسرا والدانمرك وألمانيا وأسوج ونورج وفنلنديا وهولندا وإنكلترا، فعدد
الأميين أقل من واحد في المائة
مستعمرات فرنسا
لفرنسا من الممتلكات ما تبلغ مساحته 12 مليون متر كيلو متر مربع، تضم نحو ستين
مليون نفس. ففي أفريقية الشمالية: مراكش، الجزائر، تونس، أفريقية الغربية،
وتشمل: السنغال، غينية، الشاطئ العاجي، الدهومي، السودان الفرنسي، موريتانيا،
نيجر. وفي أفريقيا الاستوائية: توهاد، أوبنغي شاري، توغو، كمرون، كونغو. ثم جزيرة
مدغشقر والصومال الفرنسي، وجزيرة رنيون
وفي أسيا: الهند الفرنسية وتشمل على: بونديشاري شاندر ناغور، يانون، كاريكال،
ماهه. والهند الصينية وتشمل على كمبودج، أتام، تونكين، لوس. ثم كونتشو

وفي أمريكا: جزائر سان يسار وميكيلان، جزائر الأنتيل غينيا الفرنسية
وفي الأقيانوسية: جزر كالدونية الجديدة، جزر هبريداس الجديدة وغيرها من الجزر الصغيرة
وإذا جمعنا عدد سكان الممتلكات البريطانية والفرنسية بلغ 600 مليون نفس أي نحو ثلث سكان العالم ومساحتها أيضاً تشغل ثلث سكان العالم ومساحتها أيضاً تشغل ثلث مساحة اليابسة

فون كلوك وسقوط باريس

كان فون كلوك قائد الجيش الألماني الذي زحف إلى باريس في أوائل الحرب الماضية، وكاد يدخلها لولا واقعة المارن التي قطعت أمله. وقد اطلعنا في إحدى الصحف الفرنسية على التصريحات التي فاه بها بعد هزيمته في تلك الواقعة التاريخية، قال:
(أنا لم أضع خطة الزحف إلى باريس كما قيل، إذ لم يخطر على بال أن سقوط العاصمة الفرنسية يؤدي إلى إخضاع فرنسا وإجبارها على التسليم، بل كنت أعتقد أن عزل فرنسا عن حلفائها هو السبيل الوحيد إلى إخضاعها، وأن عزلها لا يتم إلا باحتلال سواحلها
كان الإمبراطور غليوم يحضنا على الزحف المتواصل، لكي نستولي على باريس ونضرب معنويات الحلفاء في الصميم؛ وقد أعد علم ألماني مساحته 400 متر مربع ليرفع على برج أيفل بعد احتلال باريس، وكان الموعد المقرر لدخولها في الثاني من سبتمبر غير أن أعجوبة ظهرت في الجيش الفرنسي أنقذت عاصمته وأبطلت خطتنا، فقد اكتشف طيارونا وكشافتنا أن ذلك الجيش الذي كنا نظنه ممزقاً عاجزاً عن الدفاع قد أعيد تنظيمه بسرعة غريبة واستعاد عزيمته ووقف مكانه وقفة المستقتل الذي يؤثر الموت على التراجع
وما كنا نتوقع قط أن رجالاً يتقهقرون أمامنا عشرة أيام متواصلة يتحولون بين يوم وآخر إلى جلاميد لا تزحزح عن أماكنها. تلك هي العجيبة التي لم يرو مثلها التاريخ الحربي!)

من ذكريات الحرب الماضية - داء فرنسا قديم

كتب مسيو بوانكارية في مذكراته اليومية بتاريخ 13 أغسطس 1914 ما يلي: (عرفت اليوم من الجرائد أن مدافع الألمان ما برحت منذ صباح أمس تضرب بون آمسون. ويظهر أن وزير الحربية يجهل ذلك. وقد ألححت عليه أن ينبِّه باسمه واسمي أركان الحرب إلى إهمالها)
وكتب بتاريخ 16 أغسطس: (ما أزال بين الشك والقلق والانتظار فلا أعرف عن الحركات الحربية في جبهة القتال إلا النزر اليسير مما ينقله إليّ الضباط. ولما أشير عليّ بزيارة خطوط النار استشرت وزير الحربية فاستصوب فكرتي، ولكنه رأى من واجبه أن يستشير أولاً أركان الجيش العليا التي لم تر زيارتي في الحالة الحاضرة مناسبة فعدلت عنها ممتثلاً. واراني كأحد أولئك الملوك الكسالى الذين يقضون أيامهم في الخمول والدعة فالجيش اليوم هو صاحب الكلمة العليا ولا مندوحة لي عن السكوت والامتثال)
وفي تلك الثناء جاء كليمنسو رئيس الجمهورية وشكا إليه أن أركان الجيش تخفي اندحار الجيوش الفرنسية وتذيع انتصاراً وهمياً، وأبلغه أن الألمان اسروا طابوراً فرنسياً بأسره ونكلوا بآخر. فقال بوانكارية إنه يجهل كل ذلك، لئن أركان الجيش لا تمده بشيء مما يجري في ميادين القتال، ثم قاتل: (لقد طالبت مراراً فما كنت أجاب إلا بالسكوت)
وكان موقف فرنسا يزداد حرجاً بين يوم وآخر، فالألمان في بلجيكا كانوا يتقدمون بسرعة، والإنكليز تراجعوا حتى فالنسيان موبوج، والجنرال جوفر أمر جيوشه بالانسحاب. وفي ذلك يقول بوانكاريه في يومياته: (أردت وأنا بعيد عن خطوط القتال أن أسعى إلى (الاتحاد المقدّس) بتأليف وزارة جديدة فصدمتني المنازع الشخصية والمشاكسات السياسية. عن فيفياني (رئيس الوزارة يومئذ) محاط بجيوش من المطامع، وقد ذكر لي في جملة المرشحين للوزارة الجديدة بعض أسماء يستحيل قبولها لأنها تدعو إلى الخجل. عاد إليّ ميلران وصرَّح بأنه لا يقبل وزارة الحربية إلا

خوّل حق الاتصال مباشرة بالجيش المحارب)
وأراد أوغانجر وزير البحرية أن يحمل مسيمي على الاستقالة من وزارة الحربية، فتظاهر بالإشفاق على صحته قائلاً له بلجة تجمع بين الجد والدعابة: (إن دلائل الجهد ظاهرة عليك، فأنصح لك نصيحة طبيب أن تترك مهمتك الشاقة التماساً للراحة، وإلا اعترتك السوداء). فوقع هذا الكلام في نفس الجنرال مسمي موقع الرضى، فاستقال من منصبه، وذهب إلى ساحة القتال يقود أحد الجيوش
وذكر بوانكاريه أيضاً في يومياته: (طالب المسيو بريان بوزارة العدل، فتخلى له عنها المسيو بينفيني مارتان مثال الوداعة والإخلاص. وطالب دلكاسه، وهو أكثر تعنتاً من بريان
بوزارة الخارجية؛ وقد أسمعني الكلام التالي: (إن لاسمي تأثيراً كبيراً لا يستطيع أحد إنكاره. لقد طالما سفهوا سياسي التي رمت إلى تطويق ألمانيا، ولكنها انتصرت أخيراً. فأنا الذي أوجد الاتفاق مع إنكلترا، وأنا الذي عقد المحالفة مع روسيا. ولا شك أن العالم يتوقع أن يراني في كي دورسي). إن لدلكاسه خدمات وطنية جليلة لا تنكر، وكان خليقاً به ألا يذكرها في ذلك الموقف الحرج الذي كان يتطلب التضحية قبل كل شيء. ولكنه أبي إلا وزارة الخارجية التي كان يديرها بمهارة فائقة المسيو غاستون دومرغ الفرنسي الصادق. وشاء فيفياني إزاء تصلب دلكاسه أن يتنزل له عن رياسة الوزارة، فقال له دومرغ:
- أبقَ في مركزك
فأجاب فيفياني:
- إني أتخلى بملء إرادتي لدلكاسه عن مركزي. ولا بأس أن يعزي ذلك إلى عدم (كفايتي؛ ففي الحالة الحاضرة لا يهمني نوع الخدمة ولا مجالها
وقد أثر فيَّ كلام فيفياني كثيراً إذ دل فيه على شخصية كبيرة وإخلاص وطني بالغ فلم أتمالك أن صافحته معجباً مهنئاً
القصص
عُرْس القرية
للأستاذ محمد سعيد العريان
كانت (راجية) تعلم أنها مفارقةٌ المدينة غداً، ما من ذلك بُدّ؛ لقد حاولتْ أن تنسأ الأجل إلى الرحيل فلم تظفر بطائل، وافتتَّت في الاحتجاج لرأيها ما افتَّنت فلم يستمع لها أحد؛ وأجمعت الأسرة أمرها على السفر إلى الريف لتكون بمنجاة من ويلات الحرب. . حقاً؟ أيكون الريف أبعد من المدينة عن ويلات الحرب؟ هكذا زعم أبوها وأخوها . . . وليس لرأيهما معقِّب
وراشت راجية آخر سهم في كنانتها؛ فاصطنعت؛ العزم والقوة، وتماسكت من ضعف ورخاوة، وقالت: ولكن، يا أبي، إن للوطن عليّ حقاً يقتضيني الرفاء. ليس من المروءة أن أفرَّ والوطن يدعوني إليه. . . ينبغي أن أبقي لأقوم بواجبي في التمريض والإسعاف . . . إذا لم تكن لي طاقة بحمل السلاح للدفاع والمقاومة؛ ينبغي
وقاطعها أبوها: نعم، ينبغي، ولكن واجبك هناك، في القرية؛ إن اخوتك وأخواتك هناك في حاجة إلى التمريض والإسعاف أكثر من جرحى الحرب!
وابتسم ابتسامة عابسة؛ لقد كان يعلم أي فتاة هي في رخاوتها وضعف احتمالها، ولكنه يقاوم حجة بحجة . . .
وصمتت الفتاة برهة وهي تنقل النظر بين أبيها وأخيها وأمها، ثم هَّمتْ أن تتكلم حين ارتفع صوت المذياع يعلن أنباء الحرب في الميدان القريب ثم سكت، وتلاشى الصَّدى في الغرفة المغلقة على أربع أنفس قلقةٍ مضطربة تتنازعها أهواءٌ وعللٌ وآمال على خشية وحذر ورِقبة. وقال الفتى بعد صمت: لقد بدأت البادئة فما بدٌّ من الخاتمة . . . !
وحدَّقت أمه في وجهه مذعورة، وهتفت: صلاح أتعني. . . ؟
قال (صلاح): نعم يا أمي إنه فرضٌ عليَّ يجب أن أتهيأ للوفاء به
وأطرق أبوه وشفته تختلج، وعمَّ الجميعُ الصمت. . . وشعرت راجية لأول مرة أنها بازاء أمر خطير يقتضيها أن تفكر في هدوء وروية. . . وعادت تنظر إلى أبيها وأخيها وفي عينيها سؤال ليس معها جوابه، وأحستْ إحساس المفارِق يودع أحبابه إلى حيث لا يدري

متى يكون اللقاء؛ ووجدت حاجتها إلى الدمع فأسرعت إلى خلوتها!
وأغْفَتْ راجيةُ لحظاتٍ واستيقظت ذكرياتُها وأمانيها، فتعاقبتْ عليها الرُّؤى والأحلام، ثم أصبحتْ. . . ونسيتْ ما كان من حديث الأمس ومن خبره؛ فلم تعد تذكر شيئاً إلا أنها مفارقةٌ المدينة بعد قليل لأمرٍ لا تكاد تعرف له وجهاً ولا علة، وأنها لن تذهب إلى السيما بعد اليوم، ولن تلقي أصدقاءها وصديقاتها، ولن تستمع بما كانت تستمع من اللهو حين كانت تخرج كل يوم إلى رياضتها بين حدائق الجيزة والجزيرة ومصر الجديدة، وحضرتْها صورٌ عدة، وانثالتْ عليها ذكريات. . . وذكرتْ. . . إن ثيابها الجديدة ما تزال عند الخيّاط لم تفرغ منها بعد، وقد كانت حقيقةً بأن تفرغ منها منذ أيام، لولا أن راجية كانت تؤثر الروّية في تفصيل ثيابها ريثما ترى أحدث الأزياء فنقيس عليها. ماذا تفعل اليوم؟ أفّ للحرب! لولاها لكانت اليوم - على عادتها في كل سنة - جالسةً تحت الشمسية الظليلة على شاطئ سيدس بشر؛ أو رائحة غادية في معرض زينتها بين كيلوباترا وخليج ستالي؛ ولكن الإسكندرية اليوم منطقةٌ حرام، فمن ذا يخاطر بعمره بين الموت الأحمر من أجل ساعة عل شاطئ العريان؟ ومن ذي تحاول أن نشتري بعمرها كلمةَ إعجاب من شاب طائش تستهوية بزِيِّها وزينتها؟
ثم ذكرت القرية. . . ياه! منذ كم لم نذهب راجية إلى القرية؟ القرية التي نَمَتْهْا . . . ونَمَتْ أباها وما تزال تغذوهما بخيرها وبِرِّها الدائم على عُنف ما تلقي من العقوق ونكران الجميل!
لقد فارقتْ راجية القرية منذ سنوات بعيدة، لعلها لا تذكرها، أو لعلها تذكرها وتنكرها لئلا يكون ذلك نميمةً على عمرها الذي تحرص على كتمانه. . ولم تذهب راجيةُ بعد ذلك إلى القرية التي فارقتها طفلة، إلا مرة، مرة واحدة صحبتْ أباها في موسم الحصاد؛ وكانت يومئذً فتاةً في أول صَحْوة الشباب، فما كادت تهبط القرية حتى لمت متاعها للرحيل، ثم لم تعد؛ فكيف يريدونها اليوم أن تهيئ نفسها لإقامة طويلة هناك، لا تدري متى تنتهي وكيف تنتهي؟
وضاق صدر الفتاة، وخيل إليها أن يداً تشد على رقبتها فتمنعها أن تتنفس؛ وكانت أمها في حجرتها تعد حقائب السفر!
وأخذت الفتاة زينتها وخرجت لأمر من أمرها، ولم تنس أنة تنظر في صندوق البريد قبل أن تجتاز الباب! وكانت الظهيرة حامية، والشمس تفرش الشوارع من أشعتها الحمراء، وقد خلتْ مركبات الترام إلا من الموظفين العائدين إلى بيوتهم يتأبطون صحفاً وأضابير من أوراق الحكومة، أو يحملون إلى أهليهم من الفاكهة والحلوى، أو من الفجل والجرجير. . .!
واتخذت الفتاة مقعدها في الترام، وثمة عينان تلحظانها من مقعد قريب، وكانت في غفلة بنفسها وما يصطرع في قلبها من ألم. . . هاتان عينان تعرفهما وتعرفانها ولما همت الفتاة أن تهبط من الترام عند بيت الخياطة، نظرت، فعرفتْ، فقنعت رأسها وتضرجت وجنتاها حياء؛ ثم مضت في طريقها لا تكاد تحملها رجلاها. . .
وأَجَدَّت لها عيناه ذكرى وألماً، وأطاف بها همٌّ جديد. . .
وحاولت الفتاة أن تمحو صورته من خيالها فما أطاقت؛ وكأنما تراءى لها في تلك اللحظة على غير ميعاد ليكون آخرَ ما يصحبها إلى القرية من صور المدينة!
لم يكن (عابد) فتاها الذي تؤمل، ولكنها كانت فتاته؛ لقد كانت تعلم من أمره ما . . . يحسبه هو سراً من سره، فإن له عينين لا تستطيعان الكتمان، تعبِّران عن معنىً لا يبوح به لسانه ولا طاقة له به؛ على أنه لم يستطيع بكل ما طاق من قوة الحب أن يشغلها بأمره، ولا هو حاوله؛ ولكنها كانت تعرفه، وتحس وقع نظراته؛ وكان ذلك حسْبها وحسبه؛ فإنها لُكبرِ نفسها وهي منَ هي وحيث هي - أن ينتهي أملها عنده، وإنها لترى كل يوم من ترى وتسمع ما تسمع، فإن لها في كل يوم أملاً تأمله بالنهار وتحلم به في الليل. . . كان ذلك وهي في المدينة المتراحبة التي لا يغيب نهارها حين تغيب الشمس. . . أين هي غداً من أمانيها؟ وا أسفا! لكأنما ارتكبت إثماً جوزيت عليه بالسجن إلى أجل غير مسمى!
لم تكن راجية تعرف من الفرق بين القرية والمدينة إلا هذه الأضواء الساطعة، وتلك الملاهي الساهرة؛ ثم صديقاتها اللائى تراهن كل يوم ويرينها، ليس لهن من حديث إلا عن الأزياء والسهرات وأخبار الفتيان والفتيات؛ وأنشأت لها هذه الحياةُ التي كانت تحيا

أمانيَّ وأحلاماً تراوحها وتفاديها في يقظتها وفي منامها؛ وحين جاءتها (الخاطبة) بأول خاطب يطلب يدها أيقنت أنها من الغاية التي تهدف إليها على مقربة، فراحت تبالغ في الطلب وتشتط في الشرط؛ وحرصت من يومئذ على أن تعرف مالا يعرف إلا القليل عن طبقات
الموظفين ودرجات الوظائف وسلالم الترقية لكل طبقة؛ ثم مضتْ تسترسل في أمانيها وحلقت في أفق بعيد؛ وراحت تُتبع عينيها كل منظر، وتُرعِي أذنيها كل نبأ، فاجتمع لها من المعارف بشئون الطبقة العليا من أهل المدينة ما خيَّل إليها أنها أو شكت أن تبلغ. . .
. . .وعلى حين غفلة صلصل الجرس يدعوها إلى الرحيل . . .!
وعادت الأسرة إلى القرية التي هجرتها منذ بضع عشرة سنة تلتمس حياة جديدة بين أنوار المدينة؛ لقد هجروا القرية يوم هجروها أربعةَ نفر، وعادوا إليها ثلاثة، وخلفوا رابعهم هناك مرابطاً ينتظر الآونة التي يدعوه فيها الوطن ليبذل شبابه!
واستيقظن راجية على صياح الديكة من وراء جدار؛ فنهضت من فراشها وفتحت النافذة تستروح روْح النشاط والقوة. . . ومرَّ الراعي بنافذتها يسوق ماشية. . . فما إن رآها حتى طأطأ رأسه وأوفض في السير، ونظرت في أعقابه، ثم ارتدّت عن النافذة. . .
يا لله! وفي القرية كثير من مثل هذا المسكين؟ عظم معروق في ثوب خلق يوشك أن يحطمه عصفُ الريح، يقد ماشية تكاد تنشق شبعاً وَرِيّاً؛ إنه يؤثر مماشيته على نفسه لتعيش فيعيش بها!
ثم تتابعت أفواج الفلاحين سارحين إلى حقولهم يتبعهم ولدانهم، قد أوقرتْ ظهورهم بما يحملون، ومضى النساء إلى عملهن. . .
ووجدت راجية ما يشغلها، فنسيت شيئاً بشيء. ومر يومها الأول وهي ترى وتوازن وتحكم؛ ولما جلست في المساء على حافة القناة بين رفيقات من بنات يسامرنها ويتحفَّينَ بها، أحستْ في نفسها عاطفة جديدة تنمو شيئاً فشيئاً، ورأت في حديث هؤلاء القرويات روحاً ومعنى غير ما كانت تجد من حديث صواحبها في المدينة. . .
وأشرق القمر عليها وذاب غي ماء القناة شعاعُه، ونظرت إلى صواحبها ونظرن إليها فكأنما سكب القمر على قلبها من شعاعه الطهور فغسله مما فيه؛ وأحست فيضاً من الحنان والحب يغمرها فيدنيها إلى رفيقاتها قلباً إلى قلب وروحاً إلى روح؛ وذكرت كلمة أبيها:
(نعم يا بنيتي. . . ولكن واجبك هناك. . . إن اخوتك وأخواتك في القرية أحوج إلى التمريض والإسعاف من جرحى الحرب!)
بلى، وإنها لتشعر الساعة بثقل هذا الواجب على عاتقها أكثرَ ما شعرت في حياتها منذ كانت. إن عليها لهؤلاء المساكين حق الإرشاد والمعونة بكل ما تملك يدها من مال وما يملك قلبها من الحب
وتبدلتْ راجية مذ طرقها هذا الشعور الجديد، فعادت فتاة غير من كانت!
وأحبت القريةَ أكثر مما كانت تبغضها، حتى لو أن أحداً راودها أن تعود إلى المدينة لتأبّت، وتزّينتْ لها القريةُ زينةَ عروس؛ فكل ما فيها جميل فاتن!
ومضت أيام، وبعث (صلاح) إلى أبيه:
(أبي!
. . .وكل شيء هادئ، فليس ثمة خطر مما توقعْتَ أن يكون . . .)
(. . .وإني لأخشى أن يكون حياة القرية بحيث لا تطيب لكم فيها الإقامة، فإن رأيت)
وقرأ الأب رسالة ولده فصبأ؛ لقد كان يقدّر - وهو ربيب القرية منذ كان - أنه يستطيع أن يعود إلى ماضيه فيعيش في الريف عاماً أو بعض عام حتى تهدأ العاصفة ويعود السلام والطمأنينة إلى المدينة؛ ولكن. . . هاهو ذا يحسّ السأم والملالة ولما تمض أيام. . .!
. . .واجتمعت الأسرة حول عميدها تفكر وتدبر، وقالت راجية: أبي. . . ولكن المدينة. . .!
. . .وقاطعها أبوها: لا يا بنيتي؛ لقد كنا مغالين في تقدير الأمر، وأظن خيراً لنا أن نعود
ولكن راجية لم تعد إلى المدينة، ولم يعد أبوها، لأن ضيفاً عزيزاً هبط عليهم في القرية فتلبثوا لاستقباله. . .

لقد أجمع (عابد) رأيه على أمر، فكتب إلى الأسرة يستزيرها في القرية، وكان معه صلاح
وتحلق حول المائدة ثلاثة نفر يتشاورون في أمر ذي بال. وقال عابد، وقال صلاح، وقال أبوه؛ وتركوا لراجية أن تقول الكلمة الأخيرة؛ وقالتها، وانتهى النبأ إلى الجيران فتجاوبت الزغاريد من طاق إلى طاق
وقال الفتى لفتاته: والأمر لك يا عزيزتي من بعد، فإن شئت كان العرس في المدينة، فإني لأعرف كيف تريدينه أن يكون، وإني ليسرني أن أرضيك. . .
وابتسمت راجية وقالت: شكراً يا عزيزي، ولكن إنني حريصة كل الحرص على أن تكون صديقاتي جميعاً إلى جانبي، هنا، وأن يشاركننا جميعاً في الفرح والمسرة!
قال عابد: يسرني. . . ولكن. . . أترين. . .؟
قالت: لا تبعد يا عزيزي! ماذا فهمت؟. . . إن صديقاتي اللاتي أعني لَيُلَبِّينَ الدعوة مسرعات ولو كان موعدها غداً!
قال: غداً؟
قالت: نعم، والليلةَ إن أردت، إنهن غير بعيد!
واحتفلت القرية كلها بعرس راجية، لم يتخلف منها أحد!
لم تكن هناك ثريات، ولا أعلام، ولا سرادق منصوب، ولا موسيقى تعزف، ولا مطرب يغني، ولكن رجالاً أربعة كانوا جلوساً إلى نضدٍ صغير في دوار العمدة ينظرون في توزيع خمسين جنيهاً على أهل القرية، احتفالاً بزفاف راجية. أولئك أصدقاؤها وصديقاتها، لم تنس أحداً منهم، ولم يتخلف عن دعوتها أحد!
محمد سعيد العريان
العدد 365 - بتاريخ: 01 - 07 - 1940
العلم أو الأدب؟!
للأستاذ عباس محمود العقاد
جاءني من الأديب (عبد القادر دوير) خطاب يسألني فيه أسئلة متعددة عن رأيي في خسارة العالم بفقد أديسون وماركوني، وخسارته بفقد شكسبير وبرناردشو
وعن رأيي فيما هو الأسبق: (العلم أو الأدب؟!) وهل خلق الإنسان بطبيعته عالماً يتجه فكره إلى تهيئة أسباب معيشته، أو خلق بطبيعته أديباً يميل إلى الشعر والفنون؟
ثم يسألني: (ما رأيكم في كلمة الأستاذ أحمد الصاوي المنشورة في الأهرام يوم 17 يونيو التي يناشد الشباب المصري فيها أن يهجر الأدب والشعر وينصرف إلى العلم والاختراع ليكون رجلاً عملياً عاملاً. وختمها بقوله: (اسكتي إذن يا آلهة الشعر لقد ذهب أوانك وتلاشى سلطانك، واخرجي أيتها الأرض شباباً واقعياً قوياً يفل الحديد بالحديد والنار بالنار لا بالقصائد والأشعار)
وقد قال الأديب: (أرجو - إذا تكرمتم بالرد - أن ينشر بحثكم على صفحات مجلة (الرسالة) الحبيبة إلى قلوبنا كل الحب)
وقد رجعت إلى أعداد (الأهرام) منذ السابع عشر من شهر يونيو، فقرأت فيها حوار الأستاذين الصاوي والحكيم عن الشعر والسلاح، وتتبعت ذلك الحوار إلى أن بلغت به: (مربط حمار الحكيم) و (فيران السفينة)؛ وانتهيت منه وأنا أقول: (الحق على أستاذة الإنشاء منذ نيف وأربعين سنة في الديار المصرية. . . فلولا موضوعات المقابلة بين الصيف والشتاء، وبين الذهب والحديد، وبين العلم والمال، وبين العلم والأدب، لما وقع في الأذهان ذلك الخاطر الذي نعود إليه في مصر فترة بعد فترة لنقضي للعلوم على الفنون، أو للفنون على العلوم، أو لنوحي بهذه دون تلك في تثقيف الأمة وتعليم الشباب
فما معنى هذه المقابلة؟
هل النفس الإنسانية صهريج من المعدن يزيد فيه من العلم بمقدار ما ينقص من الأدب؟ هل العلم والأدب ضرتان تلقي إحداهما من الحظوة والزلفى بمقدار ما تلقي صاحبتها من الهجر والإعراض؟ هل الجمع بين العلم والأدب في الأمة الواحدة مستعص أو مستحيل؟
فإن لم يكن شيء من ذلك كما يحسبه الحسابون، فما معنى هذه المقابلات، وماذا نجني من

الإزراء بالعلوم محاباة للآداب والفنون، أو من الإزراء بالآداب والفنون محاباة للعلوم
ماذا نجني من هذا وذاك ونحن فقراء في هذا وذاك؟
وماذا أصبنا من الفن والأدب حتى يقال إننا قد شغلنا به عن العلم والاختراع؟ بل ماذا عندنا مما اخترعه الآخرون حتى نبحث في اختراع الجديد، ونزعم أننا لولا الفن والأدب لاخترعنا نحن أيضاً مع المخترعين؟
أما إذا أغضينا عن أنفسنا ونظرنا إلى أحوال غيرنا، بل إلى الأحوال التي دعت إلى كتابة ما كتب في تفضيل السلاح على الشعر، أو تفضيل القوة إلى الذوق، فماذا نحن واجدون؟
نجد أمة غلبت بالدبابات والطيارات وهي لم تخترع الدبابات والطيارات، ونجد أمة لها مهندسون غلبت أمة لها كذلك مهندسون لعلهم أفضل من أولئك المهندسين؟
فالمسألة ليست اختراع الدبابة والطيارة، ولا هي مسألة الهندسة والصناعة، ولكنها مسألة (الباعث النفسي) الذي يكمن وراء علم العلماء واختراع المخترعين وهندسة المهندسين
وهذا (الباعث النفسي) هو الحقد الذي تأجج في صدور الألمان فجعلهم يطلبون من الدبابة ما لم يطلبه منها أصحابها الأولون
فإن كان رأي الأستاذ (أحمد الصاوي) أن يملأ النفوس بالحقد لأنه صنع من الدبابة ما لم يصنعه منها الاطمئنان والرضى فله رأيه الذي يرتضيه بمعزل عن الشعر والفن، أو بمعزل عن المفاضلة بين المهندسين والشعراء
أما إن كان يريد بما كتب شيئاً غير هذا فليس في المقدمات ما يبنى عليه نتيجة غير تلك النتيجة. وليس في انتصار مقاتل على مقاتل من جديد يمسح ما كتبته الإنسانية إلى الآن، ويخط في مكانة سطوراً أخرى لم يكتبها التاريخ
قال الأستاذ أحمد الصاوي: (. . . المهندس هو الذي جلس أمام لوحه الخشبي ورسم على الورق أقصى ما يخطر بالبال من خيال الأهوال: تصور الموت نفسه أمامه وتحداه بالحديد والنار، فرسم الطيارة ورسم الدبابة ورسم الغواصة، ثم عاد فرسم لكل آلة من هذه عناصر دمار جديدة. فلم يكتف بنوع واحد من الطيارات والدبابات)
هذه هي رسالة المهندس والكيميائي يعملان جنباً إلى جنب. هذا هو الحاضر، . . .)
وهذا هو المستقبل. فإلى الشباب المصري الذي يريد الأدب ويتعلق بالقصص ويحب الشعر
(. . .نقول: استيقظ. لقد دقت ساعة الحقائق، فانصرف إلى العلم بكل قواك
فهل الهندسة هي التي صنعت هذا الصنيع؟
لو كانت الهندسة هي التي صنعته لكان أولى المهندسين به هم أصحاب الاختراع من الإنجليز والفرنسيين. هم الذين اخترعوا الدبابة وشغلوا بتحسين الطيارة في الوقت الذي أقبل فيه الألمان، على المناطيد من أيام زبلين وخلفاء زبلين
فعند الإنجليز والفرنسيين مهندسون كالمهندسين الذين عند الألمان، بل هم المهندسون السابقون المتفوقون في هذا الميدان
ولكن (البواعث النفسية) هي التي جلست وراء المهندس فأوحت إلى الهندسة في أمة حاقدة ما لم توحه إلى الهندسة في أمة مطمئنة راضية
والبواعث النفسية هي كل شيء
هي الحياة. وكل ما عدا ذلك فهو أدوات وآلات.
والآن وقد ظهرت الدبابات الفخام هل يستطيع قائل أن يقول:
إن قلة الهندسة عند الفرنسيين والإنجليز هي التي أقلت نصيبهم من تلك الدبابات الفخام؟ أو هي التي تمنعهم أن يخترعوا مثلها، أو يخترعوا لها آفة تقضي عليها وتفلها على نحو ما يقولون: إن الحديد يفله الحديد؟
كلا!
ليست قلة الهندسة هي العلة. . . فالهندسة هنا كثير
وإنما العلة (فرصة الوقت) إذا اتسعت أو ضاقت للمخترعين. ولن تكون الهندسة هي الباعث على اغتنام الفرصة المنشودة، وإنما هي البواعث النفسية التي أسلفنا الإشارة إليها، وهي في الحرب والسلم أمضى سلاح
وهل يعلم الأستاذ الصاوي كم من الملايين الثلاثة أو الملايين الأربعة الذين زحفوا على

فرنسا من الشباب الألمان يدرسون العلم ويقرءون الهندسة؟ وكم منهم يقرءون القصص والروايات؟
كلهم قراء روايات وقصص كما ظهر من إحصاء الكتب التي كانت ترسل إليهم في الميادين، فإذا طلبوا مع الروايات والقصص كتباً أخرى فذلك هو كتاب هتلر الذي يفرضونه هناك على جميع الشبان، وليس هو بهندسة ولا بعلم واختراع، ولكنه شيء أقرب إلى الأحاجي والأساطير!
فالهندسة ليست مصدر القوة الألمانية
والأدب لم يكن مصدر ضعفهم يوم انهزموا في الحرب الماضية
لا شأن للهندسة والأدب هنا وهناك، بل الشأن كل الشأن للبواعث النفسية، ثم تكون هندسة القوم أو يكون أدب القوم على حسب تلك البواعث من الحركة أو السكون ومن الخير أو الشر ومن الصلاح أو الفساد
ويح الإنسان. . . كم تروعه الضجة وكم تخلبه قعقعة السلاح!
وماذا لو طبقنا رأي الأستاذ الصاوي على العلم نفسه ولا نقول على الفن والأدب والقصة والرواية؟
يوم أن هزمت فرنسا في حرب السبعين كان اسم بسمارك ومولتكه يدوي في كل زاوية من زوايا الأرض، ويجري على كل لسان في المغرب والمشرق
وكان في زاوية من زوايا فرنسا رجل يدعى لويس باستور يكشف جراثيم الأوبئة وأسرار التعقيم، ويعرض نفسه كل لحظة لهلاك لم يتعرض له بسمارك في العمر الطويل
فما رأي الأستاذ أحمد الصاوي في رجل غاضب مثله متحمس مثله ناصح لبنى الإنسان مثله يدخل على الشيخ باستور فيقول:
قم أيها الشيخ الفارغ ولم قواريرك وأنابيبك؟! الوقت وقت نار وحديد وليس وقت ماء وزجاج!
وأين مع ذلك حرب السبعين كلها بما انطلق فيها من المدافع وانصهر فيها من الحديد إلى جانب تلك الأنبوبة التي لم يسمع بها ساكن الحجرة المجاورة في بيت باستور؟ لكنها الضجة التي تروع الإنسان. ويح الإنسان، ثم ويح الإنسان!
ولو سألنا له جزاءه الحق لسألنا له طوفاناً من الطغيان يغرقه إلى آخر الزمان، ويشبعه ما استطاع الشبع من الحدائد والنيران
ولكنه مخلوق غافل، تشفع له نية مصلح أو نفحة فنان.
وقد نعلم رأي الصاويين جميعاً فيما يقولون الآن، إذ نسيت الحرب القائمة، وبقيت صرخة
من صرخات النفس الإنسانية، لعلها تنظم اليوم في قصيد أو تثبت في لوحة فنان
أسوان
عباس محمود العقاد
الحديث ذو شجون
للدكتور زكي مبارك
الصداقة الروحية - الطلبة والجاموس! - ابن الحمير! - معركة في غير ميدان - حمار الحكيم! - الرفيق قبل الطريق - عشنا وشفنا فقد اكتوينا بنار الحوادث في حربين.
الصداقة الروحية
كانت قسوة الشواغل قضت بأن أُحرَم أُنس الحديث مع قراء (الرسالة) نحو شهرين، وهي شواغل متصلة بخدمة اللغة العربية في آفاق لا يسايرُنا فيها القراء لأنها متصلة بحياة التعليم، وهي حياة لا يُنشر من أخبارها شيء إلا بعد أن يستوثق الباحث من أنه وصل فيها إلى آراء تستحق التسجيل بطريقة علنية، وذلك لا يتيسر إلا بالجهاد العنيف في الأعوام الطوال، كالذي تَيسَّر في الأبحاث التعليمية التي نشرتها في الجزء الثالث من كتاب (ليلى المريضة في العراق) وفي كتاب (البدائع) وكتاب (وحي بغداد)
وأنا بهذا الكلام أعتذر عما قيل من أنني جَنَحتُ إلى الراحة في الأسابيع الماضية، فما كان من ذلك شيء، وإنما حرصتُ على تأدية واجباتي الرسمية تأدية ترفع عن صدري كرب الغيظ من أن يكون في الزملاء مَن هو أحرص مني على تأدية الواجب، فقد قلت مرة على صفحات (الرسالة) إن في وزارة المعارف رجالاً يجري في خواطرهم أنهم

ليسوا موظفين، وإنما يدبِّرون ملكهم الخاصّ، وأنا من هؤلاء مكروبٌ مَغيظ، ومع ذلك أتمنى أن يُكثر الله من أمثالهم في الدولة المصرية. والفُرص أمامي لأسبقهم في ميادين الكفاح الصادق حين أشاء

انتهى العام الدراسي بخير، ولم تبق إلا أعمال خفيفة لا تستنفذ الوقت، فما عسى أن أصنع؟

هل أذهب لقضاء الصيف في باريس؟

وكيف وقد انقطع بيني وبينها الطريق؟

هل أمضي لقضاء الصيف في الإسكندرية؟

وكيف وقد انفضت الملاعب حول الشواطئ، وضاعت الفرصة على مواعظ الشيخ أبي العيون؟ وما أسخفَ الحياةَ التي تستقيم استقامة مُطْلقة فلا يثور عليها واعظ، ولا يتطاول في تثريبها عاذل، ولا يَشقَى في تَعقُّبها رقيب!

هل أذهب لقضاء الصيف في سنتريس؟

وكيف وهي تضيق عني، وأخشى أن أكدر صفو أهلها بأحاديثي عن معضلات الحياة الدولية؟ وهل تتسع الحياة في الريف لرجل يريد أن يشهد أعنف قَلقلة من قلقلات التاريخ؟

لم يَبق إلا المقام في القاهرة فأقضي صدر النهار في الاستفادة من خِبرة من ألقاهم في وزارة المعارف، ثم أقضي بقايا الوقت في تحبير الكلمات التي ألقى بها القراء من يوم إلى يوم، أو من أسبوع إلى أسبوع، في الجرائد والمجلات

والحقُّ أننا من الفِكْر في كرب، فالحوادث التي نعانيها في هذه الأيام لا تكفي لتغذية مطامعنا الفكرية، فنحن نفزع إلى الأدب لنملأ به فراغ الأرواح والقلوب والأذواق، ومن هنا تفهمون كيف اتفق في أحيان كثيرة أن تقام الحفلات لذكريات الأدباء والمفكرين في ميادين القتال

لا سبيل إلى تخفيف مكاره هذه الأيام (البيض) إلا بالأنس إلى الصداقة الروحية، الصداقة التي يعقدها الأدب بين الكاتب والقارئ، وهي أثمن ذخائر الوجود

وفي ظلال هذا الأمل الجميل أقضي هَجِير هذا الصيف، فأحادث قرائي، وقد رفع بيني وبينهم التكليف، فقد ضقت ذرعاً بما في الدنيا من قيود، واشتقت إلى تنسم هواء الحرية بين صرير القلم وزئير الروح

الطلبة والجاموس!

كنت نشرت مقالاً في المقطم موضوعه (التصوف في الوطنية) سردت فيه بعض الأسباب التي أحب من أجلها وطني، ومن تلك الأسباب أن أرض مصر تصلح للزراعة أربع مرات في العام الواحد، فكتب إليّ حضرة (م. ع. ف) خطاباً يُنكر فيه أن تكون مصر كما وَصَفتُ، ويؤكِّد أن أهل مصر لا يعرفون غير سوء الحال، وأن في مصر آلافاً من الأعيان حُكِم عليهم بالسجن لعجزهم عن سداد المال (؟!) والظاهر في خطاب هذا السيد أنه يتعقب أعمال الحكومة، فقد ذكر أشياء تشهد بأنه يُساير خطوات الحكومة في جميع الميادين، ويتناولها بالثناء والملام على حسب الظروف!

وأقول بصراحة إن الأمة التي تنتظر من الحكومة كل شيء وتطالبها بكل شيء هي أمة في دَوْر الطفولة، والطفل يعتقد أن أباه على كل شيء قدير! وأقول أيضاً إنه ليس من المعقول

أن يكون في مصر آلاف من الأعيان حكم عليهم بالسجن للعجز عن سداد الضرائب.

وإذا صح ذلك فهو شاهد على أن الأعيان في مصر لا يصلحون لتدبير ما يملكون من الأموال والأطيان

وهذا السيد له منزلة في الصعيد، ولم أصرح باسمه إلا خوفاً عليه من النقد الذي سأسوقه إليه بلا ترفق. فهو يرى من الإسراف أن يكون في الميزانية مال مرصود لجسر شبرا وجسر سمنود، وهو ينكر أن يكون للأوبرا وحمام السباحة في أسيوط نصيب من أموال الميزانية، وهو في النهاية يَعجب من أن تنفق الدولة ثلاثين ألفاً من الجنيهات لتحسين نسل الجاموس مع أن في طلبة الجامعة من عجز عن دفع المصروفات!

تحسين نسل الجاموس؟

يا سلام! يا سلام؟

كيف يليق بحكومة رشيدة أن تفكر في تحسين نسل الجاموس مع أنها تعرف أن بعض طلبة الجامعة عجزوا عن دفع المصروفات الدراسية؟!
ذلك منطق هذا السيد الذي يَشغل مكاناً مرموقاً في الصعيد!
وعُذر هذا السيد أنه قرأ في مجلة (آخر ساعة) كلمة جَرَت مجرى الدعابة، فظنَّ أن من العيب أن يهتم وزير الزراعة بتحسين نسل الجاموس، وهو جاموس!
هو حقيقة جاموس يرعَى البَرسيم ويأكل الفول ويشطح وينطح بلا فهم ولا تمييز، ولكن هذا الجاموس الأعجم هو من صميم الثروة المصرية، والاهتمام به لا يقلَّ خطراً عن الاهتمام بالقطن والقمح والعنب والتين والبطيخ
فكيف يجوز لرجل أن يعدَّ الاهتمام بتحسين نسل الجاموس عيباً من عيوب الحكومة، إلا أن يكون هذا الرجل من الصالحين للسجن بسبب العجز عن تسديد الضرائب؟
المَقتَل الخطير لأهل مصر هو الغرام بالنكتة، ومن هنا جاز أن ينتهزوا الفرصة فيعيبوا على حكومتهم أن تهتم بتحسين نسل الجاموس
ويقول هذا السيد إن اشتغالي بالأدب صرفني عن مواجهة الواقع. وأقول إنه لو اشتغل بالأدب كما اشتغلتُ لقرأ في كتاب البيان والتبيين كلاماً معناه أن أحد العرب قال: لو كان لي ألف بعير فيها بعيرٌ واحد أجرب لقمتُ عليه قيام من لا يملك غيره!
ومعنى ذلك أن الاهتمام بالبهائم والأنعام لا يغضَّ من أقدار الرجال، وإنما هو دليل على العناية بأصول الاقتصاد
أيها الغافلون من أهل هذه البلاد
راجعوا وزارة الصناعة والتجارة تخبركم عما نستهلك في كل عام من الواردات المصنوعة من الألبان، وعندئذ تعرفون أنه ليس من العيب أن نهتم بتحسين نسل الجاموس
اللهم ارزقني جاموسة أو جاموستين لأنسى مرارة الإفطار على الشاي الأسود في كل صباح
وأنت أيها الجاموس
هل تحفظ هذا الجميل فتذكر أني دافعت عنك في مجلة الرسالة الغراء؟
لقد ضاع الجميل عند الحيوان الناطق، فهل تحفظه أنت يا جاموس!
وكيف نطالبك بحفظ الجميل، وما حفظنا لك الجميل؟
كانت فِطرة العربيّ في الصحراء ألطف وأصدق، فقد نظم في ناقته أعظم القصائد، أما المصريّ فقد ظلم جاموسته أقبح الظلم ولم يذكرها بغير السخرية والاستهزاء
فهل تكون للبداوة تلك المحاسن وتكون للحضارة هذه العيوب؟
كان الفراعنة أعرفَ الناس بأصول المنافع فعدُّوا البقرة من المعبودات لأنهم رأوها من صُوَر الحنان ولأنهم عرفوا ما يصدُر عنها من الخيرات
والجاموسة أغزر نفعاً من البقرة، ومع ذلك صح لأدبائنا أن يَسخروا من الوزير الذي اهتم بصحتها الغالية!
ولكن لا بأس فنحن في زمن تَغلِب فيه السخرية من المنافع، وهو زمنٌ مقلوب الأوضاع، ولولا ذلك لرُسِمت الجاموسة بجانب الفلاح على ورق (البنكنوت) لبن الحمير!
ومن جناية النكتة على أهل مصر نُفرتهم من شرب لبن الحمير، مع أنه بشهادة الطب أطيب أنواع الألبان، وهو في أمان من الجراثيم التي يتعرض لها لبن البقر والجاموس
ومن المؤكد أن هذه الكلمة ستفوز بطوائف من النكت حين تظهر في مجلة الرسالة، كما ظفرت الكلمة التي نشرتُها عن فضائل الحمير في كتاب (ذكريات باريس)
والمهمُّ عندي أن يعرف المصريون خيرات بلادهم، وأن يذكروا أن الحمير كانت ولا تزال من أطايب الثروة المصرية، وإليها يرجع الفضل في خدمة الفلاّح الذي يذرفون من أجله دموع التماسيح!
وقد ورد التنويه بالحمار المصري في كتاب الأغاني، وهو أصبر من الحمار الحَسَاوي، المنسوب إلى الحَسَا من بلاد البحرين، وهذه فائدة قد يذكرها بعض من يحفظون الجميل
ولا مؤاخذة يا أرباب الذوق المصقول من أعداء الحيوان!
معركة في غير ميدان

دهش الناس للمعركة الحامية التي ثارت فوق صفحات (الأهرام) بين الصديقين أحمد الصاوي وتوفيق الحكيم حول الفكر والحرب، وقد وقعت في تلك المعركة ألفاظ غلاظ لا يصوِّبها صديق إلى صديق

وخلاصة رأي الصاوي أن زمن الشِّعر قد ولّى وفات ولم تبق إلا دولة الطيارات والدبابات

ويقول الحكيم إن الأمم القوية من الوجهة الحربية هي الأمم القوية من الوجهة الفكرية

والرأيان يلتقيان بكل رفق، فما الموجب للتراشق بالألفاظ الغلاظ؟

وقد فصل الأستاذ سعد اللبان في هذه القضية حين قال: أولئك قوم يتجادلون في البديهيات!

ولعل الأستاذ توفيق الحكيم يعترف اليوم أني هديته إلى أصل الفكرة حين حاورته في جريدة الأهرام، فقد كان يتوهم أن الفكر منفصل عن الحرب كل الانفصال

لعله يذكر أني قلت وأنا أحاوره:

إن الحرب الدموية ترجِّ الأذهان والعقول، ولكنها في الأصل من صنيع الأذهان والعقول. والعالم غير مُقْبل على الخراب - كما نقول حين نقرأ أخبار الحرب - وإنما هو مُقْبلٌ على يقظة روحية وعقلية واقتصادية سيعرف مَداها من يشهد تطوّر الوجود في المستقبل القريب، وهو مستقبل نشهد تباشيره منذ اليوم برغم ما نعاني من الضجر والاكتئاب كلما طالعنا أخبار التدمير والتخريب في الصُّبح والظُّهر والمساء

الإنسانية اليوم في حومة هائلة من يقظة الفكر والرأي، فليس القتال نزاعاً بين جنود وجنود، وإنما هو صراع بين آراء وآراء، كما كان في العصور الخوالي نزاعاً بين دِين ودِين، وما تغيرت المعاني وإن تغيرت الأشكال)

ذلك ما قلته في الحادي والعشرين من شهر مايو، وهو أصدق من آراء الصاوي والحكيم، على ودهما القديم ألف تحية وألف سلام!

كنت أظنهما صديقين، ثم عرفت - مع الأسف - أنهما من إخوان الزمان:

نعيبُ زماننا والعيبُ فينا ... وما لزماننا عيبٌ سوانا

(حمار الحكيم)

وفي هجوم الصاوي على الحكيم وردت عبارات مقتبسة من كتاب (حمار الحكيم)، وهي عبارات يقول فيها المؤلف: إن الوقت عنده ليس من ذهب، وإنما هو من تراب. ويقول: إنه يخاف من العفاريت

وأقول: إن الصاوي لم يدرك ما في هذه الكلمات من السخرية، السخرية من المجتمع الذي نرى صوره في بعض البيئات، وهي سخرية رأينا صداها في مقال نشره سعادة الأستاذ مصطفى عبد الرزاق بك في مجلة الصاوي

وقد آن لبني آدم من أهل هذه البلاد أن يفهموا أن المؤلف لا يُسأل هما يَرِد في كلامه من العبارات التي يديرها حول نفسه ليتمكن من السخرية بالمجتمع، فقد آذتني جريدة (ليلى المريضة في العراق) لا أسميها في بلد لا أسميه، لأني قلت في كتاب (ليلى المريضة في العراق):

(أنا رجل لئيم، ويجب أن أستفيد من فساد المجتمع)

فقد قالت تلك الجريدة: كيف يجوز لحكومة رشيدة أن تعتمد على هذا الرجل في تثقيف الشبان، وهو يعترف بأنه لئيم يستفيد من فساد المجتمع؟

وإذا جاز لصديقنا الصاوي أن يؤول كلام صديقه الحكيم بلا فهم لغرضه الصحيح، فقد جاز لي أن أصفح عن ذنوب الجاهلين ممن فاتهم سر التأليف يوم قرءوا كتاب (ليلى المريضة في العراق)

الرفيق قبل الطريق

تلك حكمة عربية أوحتها ظروف الحياة البدوية، فقد كانت المسالك وعرة، ولم يكن للمسافر بدٌّ من رفيق يعينه على متاعب الطريق.

وطريقنا في هذا العهد هو الكتابة والتأليف، والرفيق هو رئيس التحرير، أو القارئ، أو الرقيب في الأيام التي تُفرَض فيها الرقابة على الكتابة والتأليف

ولي في هذه النواحي تجارب، وأستطيع أن أقول إن أعظم من عرفت من رؤساء التحرير هم بعد القادر حمزة وخليل ثابت وأميل زيدان ومحمود أبو الفتح وأحمد حسن الزيات، فهؤلاء نشروا لي مقالات لم يكن يجوز أن تُنْشر لولا إيمانهم بقيمة الحرية

الفكرية
ولم أكن أعرف الرقيب الذي كنت أصطدم به يوم كنت رئيس تحرير جريدة الأفكار في سنة 1921 فقد كان يفصل بيني وبينه فقيد الوطنية عبد اللطيف الصوفاني بك، طيَّب الله ثراه
أما الرقيب في هذه الأيام فهو الأستاذ محمود عزمي، وأستطيع أن أقول إني كنت أملك نشر ما أشاء بدون تهيب ولا تخوف، لأني كنت أملك الاحتكام إليه حين أريد وفي الأستاذ محمود عزمي عيب فظيع هو الخضوع للحرية الفكرية، وهو عيب جميل، أكثر الله من أمثاله بين الرقباء!
بَقِي الرقيب الأعظم وهو القارئ
وأستطيع أن أقول إن رقابة القارئ لم تكن رفيقة في أكثر الأحايين، فقد كان يفهم عني غير ما أريد، وكان يراني بعين الحقد والمقت في بعض الأحيان
ومع ذلك بقيتْ صداقتي للقارئ كما كانت، فلم أتحوَّل ولم أتبدَّل، ولم أستبح الرياء لأظفر منه بالإعجاب، لأني أعتقد أن الكاتب الذي يتلمس المواقع من هوى القارئ ليس بكاتب، وإنما هو مأجور، والكاتب المأجور لا يصلح لشيء ولو استمدَّ بيانه من وحي السماء
الكاتب الحق هو الذي لا يخاف ولا يرجو رضاك
الكاتب الحق هو الطبيب الذي لا ينزعج من صُراخ المريض
الكاتب الحق هو الذي يفزع إلى القلم والقرطاس كما يفزع الجائع إلى الطعام والظامئ إلى الشراب
الكاتب الحق هو النهر الذي يحمله الطغيان على الهدير، أو الأسد الذي يحمله الغضب على الزئير
الكاتب الحق لا يعرف قراءه أبداً، وإنما يعرف أنه ينفِّس عن صدره بالتعبير، كما ينفِّس الوجود عن صدره بسعير الحروب
فمن كان يظن من القراء أننا اشتقنا إليه فهو مخطئ، فما بنا شوق إلى أحد، إلا أن تَصلُح الدنيا فترجع الأنوار إلى بُولميش في باريس، وشارع فؤاد في القاهرة، وشارع الرشيد في بغداد
أفي الحق أن الدنيا ردَّتني إلى هذا الحد من القسوة والعُنف؟
أفي الحق أني أمسيت لا أهتم بعواطف قرائي؟
هو ذلك، فمنذ أسابيع وأنا جاثمٌ بالدار التي بنيتها على حدود الصحراء
وعن الرمال التي يُلهبها القيظ، يتحرك القلم الذي يُلهبه الغيظ
فإن عشت وعشتم إلى عودة السلام فسيكون لي معكم حديث غير هذا الحديث. ألم تسمعوا أني كنت شاعر الصباحة والجمال؟ ألم تلوموني على عُنف الهيام بالعيون والقدود؟
ذوقوا بأس الحرب يا عُشاق الحرب، ذوقوا بأس البلاء يا عشاق البلاء، فلن أنسى أنكم سَخِرتم مني حين كنت أتغنى بالجمال في أيام السلام!
متى تعود أيامي وأيامكم؟ متى تعود؟ متى تعود؟
عشنا وشفنا
شهدت حربين في حياتي: الحرب الماضية والحرب الحاضرة
فمن كان يعجب من أني قضيت حياتي في حرب فليعرف أني أخذت الوقود لأدبي من سعير هاتين الحربين، ولا يملك الفرار من حوادث زمانه غير المزوَّد بالغفلة والجمود، وما كنت من الغافلين ولا الجامدين
في الحرب الماضية كنت طالباً بالجامعة المصرية، وكانت أملاكي بالقاهرة لا تزيد عن مكتبة صغيرة سارعتُ بنقلها إلى سنتريس ورجعتُ لأشاهد تلك القلقلة التاريخية
وفي هذه الحرب، الحرب التي يقال إنها قد تؤذي مصر بعض الإيذاء، صار لي في مصر الجديدة منافع هي المكتبة التي لا يمكن نقلها إلى سنتريس، فأنا معها إلى أن يقضي القَدَر بما يشاء
وأقسى ما أعانيه هو الفزع الذي يقاسيه جيراني حين تولول صَفَّارة الإنذار بغارة جوّية في أعقاب الليل، فهم ينزعجون ويتواصَون بالنزول إلى السراديب ليأمنوا شر الويل، فأنزعج لانزعاجهم لحظة ثم أُسلم جفوني إلى النوم العميق

الحياة ليست غالية جدًّا، يا جيراني، فلا تخافوا ولا تجزعوا فأينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في أعماق السراديب!
وما قيمة الحياة وهي دُنيا بحق؟
ألم نشهد فيها غدر الصديق بالصديق، ونوم الحليف عن نصرة الحليف؟
لن أقبل النزول إلى السرداب ولو سقطت السماء فوق الأرض! ولو كان أبنائي في مثل عزيمتي لأبيت عليهم الرحيل إلى مرابع السلامة في سنتريس
وما الذي فاتنا من نعيم الحياة أو بؤس الحياة حتى نحرص عليه؟
أنا باقٍ في داري على حدود الصحراء إلى أن ينفد زاد الموت، والمستميت لا يموت.
زكي مبارك
ويلك آمن. . .!
للأستاذ محمود محمد شاكر
أيام من الدهر حائرة في أودية الزمن، وساعات تخلع المصائب وتلبسها بين الثانية والثانية، ورعب مظلم خيَّم على الأرض فلا تضيئه إلا شقائق النار وهي تفري الجو ذاهبة وآيبة، وحيرة سابحة فيها عقول البشر لا تدع قراراً لفكر ولا خيال، وسهام نافذة من البلايا تفتق نسج النفس الإنسانية فتقاً رغيباً يتعايا على الراقع والمصلح. . . فياله من بلاء مطبق على العالم إطباق اليوم الصائف يسد بحره منافذ الأنفاس
ما الحياة؟ ما الإنسان؟ ما العقل؟ ما الحضارة؟ إلى أين نسير؟ كيف نعمل؟ لماذا نعيش؟ فيم نتعب؟ تبًّا لكل هذه الضلالات الداجية التي لا يبرق فيها نجم واحد يقول للإنسان: اتبعني، سوف تهتدي!!
هذه هي الحضارة الأوربية الحديثة قد انتهت بالناس إلى خلق هذا الإشكال الدائم الذي لا يحل، وساقت الناس إلى مرّعى من الشك وبئ، كلما ازدادوه غذاء زادهم بلاء، فلا ينتهي من ينتهي إلا إلى هلكة تدع فكرة الحياة خرافة عظيمة قد اتخذت لها أسلوباً تتجلى فيه، فكان أبلغ أسلوب وأفظع أسلوب، هذا الإنسان الذي يحمل من رأسه قنبلة حشوها المادة المتفجرة التي تهلكه وتهلك ما يطيف به أو يقاربه، فلا هو ينتفع بنفسه، ولا ينتفع العالم به
لو سئل إنسان هذا القرن: ما أنت؟ لقال: أنا اللعنة الملعونة التي تشأم نفسها وتشأم من يعترض انصبابها وسيلها. أنا الناب الذي ينقع في الإنسانية سمه حتى تبرد حياتها في عضته. أنا الهالك المهلك، هذه حياتي، وهذا عقلي، وهذه حضارتي، ومن أجل هذا خلقت، وفي سبيله أعيش، وعلى قضائه أعمل. . .!!
ولو نشر اليوم فيلسوف من محبي الحكمة والعاملين عليها الذين أفنوا أعمارهم في طلب الخير والفضيلة والحق والجمال، وجعلوا عملهم هداية الإنسان إلى أسبابها وسلكوا له سبلها، ثم نظر إلى هذه الحقبة من عمر الإنسانية فما تراه قائلاً في صفة الإنسان وما فيه من العون على درَك هذه الحقائق، والتحلي بها في حياته؟ أم تراه يعرف الصورة وينكر المعنى؟
المدنية الأوربية الحديثة هي التي استطاعت أن تنفذ بالعقل في ضمير الحياة تستنبط منه
ناموس الحياة التي تدب على الأرض ومع ذلك فهي التي سلبت هذا العقل قدرته على الخضوع للروح لتمده بالنور المشرق الذي يستضئ به في رفع الإنسانية درجة بعد درجة إلى مراتب الملائكة - أي إلى مرتبة الروحانية الصافية التي تنهل أضواؤها على النفس والقلب والروح، فتروى من فيضها، وترث من ذلك نوراً ورحمة وسكينة، وتنبت غرسها الإلهي الذي يجنيه الإنسان هداية وعدلاً وسعادة، فتتضاعف به الحياة حتى يقوى الخير فيها ويضوي الشر
لقد أخفقت هذه المدنية في سعيها لخير الإنسان، وأثبتت بكل دليل أنها مهما تكن أحسنت إلى الإنسانية فلم تحسن مرة واحدة أن تضبط نوازع النفس، وتردها إلى الطريق الواحد الذي ينبغي أن تصدر عنه، حتى تكون كل أعمالها نقية طاهرة متشابهة. ذلك الطريق هو طريق الروح الذي لا يتم لعمل تمام ولا يظفر بخلود أو بقاء، إلا أن يكون فيه مس الروح وطهارة الروح، وقدس الروح
أطلقت هذه المدنية في الدم الإنساني كل ذئاب الشر والرذيلة، فخرجت من مكامنها جائعة قد سلبها الجوع كل إرادة تحملها على بعض الورع الذي يكف منها، فعاثت في

إنسانية الإنسان حتى جُنّ، وتنزي في الأرض وحشاً يجعل شريعته المقدسة تنبع أحكامها من معدته، ومن أحكام هذه المعدة ومطالبها، وكذلك انقلب النظام الاجتماعي في العالم من نظام روحي عقلي سام، إلى نظام اقتصادي تجاري ضار، الآكل والمأكول فيه سواء. لأن النية انعقدت في كليهما على الافتراس، وما فرق بينهما إلا فرق القوة التي أعدت هذا للظفر، وأسلمت ذلك إلى العجز، فدفعت به إلى رحى تدور بأسباب من الطغيان والفجور

وما هي شريعة المعدة في هذه المدنية الاقتصادية التجارية؟ هي شريعة السوق التي لا تعرف قيمة الشيء إلا في ميزان من الطلب. فما طُلب فهو الجيد، وما عُمِّيَ على الطالب فهو الرديء الذي لا قيمة له، وكل شيء قائم في جوهره على النزاع الذي لا تسامح فيه، والأمر كله للغلبة: غلبة الأقوى، لا غلبة الأعدل، غلبة الحيلة لا غلبة الصدق، غلبة البراعة لا غلبة الحق

فهذه الشريعة هي شريعة إعزاز القويِّ، لأن القوة تسوِّغه أن يتسلط، وإذلال الضعيف، لأن الضعيف تهالك به أن يتحكم، وليس بين هذين معادلة ولا نصفة، وليس أحدهما من الآخر

إلا كالثعبان من العصفور إذا عرض له، فسلط عليه الرعب من عينيه، فينتفض في قبضة أشعتهما المفترسة المسمومة حتى يبرد دمه فلا يستطيع حركة، ولا ينتغش بدنه بذعاءٍ من الحياة. هي الشريعة التي تجعل إنسانها القوي مقبرة لإنسانها الضعيف، فالقوي أبداً آكل قد أرمَّت في نفسه تلك الجيف التي انتهشها وألقى بها في معدته، فتجيفت وتعفنت، وتصاعدت أرواحها المنتنة في حياته، فجعلته متسرِّعاً نفّاذاً كأنما يريد أن يهرب بنفسه من نفسه التي لا يطيق جوها، لأنه جو خانق، تطوف فيه أشباح الفرائس المسكينة التي بطشت بها أنيابه ومخالبه

هذه الحضارة القابرة التي تدنست روحها بالرمم التي ضعفت أن تقاوم القوة، لن تستطيع إلا أن تفسد العالم وتدنسه كما تدنست؛ فإنه محال أن تكون الشريعة مدَّنسة نجسة، وتأتي الناس بخير طاهر مبارك يغسل أدران الإنسانية التي تتجمع عليها يوماً بعد يوم، ولا أن تخرج نفس الإنسان فيها مع الفجر ندية مشرقة رفافة تستقبل بفضائلها أعمال نهارها

إن شريعة إعزاز القويّ وإعلاء الأقوى، وإذلال الضعيف وإسقاط الأضعف، هي الشريعة الحيوانية التي لم تعل إلا بإذلال الروح والعقل وإسقاطهما ونبذهما، هي شريعة البغي والعدوان على الروح بالروح الشيطانية، وعلى العقل بالعقل المتمرد، وكلما استحكم أمرها كانت الإنسانية ذاهبة إلى نبع نجس تنغمس فيه لتصدر عنه أقوى مما وردت - أي أنجس مما وردت

إن الكون لا يصلح إلا على معنى الأقوى والأضعف. هذا حقٌ لا يماري فيه إلا مكابرٌ أو مبطل أو أحمق. ولكن يبقى ذلك العمل الإنسانيّ الذي يثبت للإنسان معاني النبل المنحدرة في روحه من نبل النور الأزليّ الذي بعث الحياة بعثاً في نفسه وفي أعماله، وبهذا العمل وحده يعرف الإنسان معنى السعادة في السراء والضراء، وفيما أرضى وما أسخط، وتكون حاله في الحالين واحدة، وذلك بأن تتسع روحه بالواجب الاجتماعي الروحي الذي يتراحب بإنسانيته في الكون كله، فنقع اللذة منها موقع الألم. وينزل الألم في منزل اللذة، وتمسح النظرة السامية عن الوجود كل الغبار الأرضي الذي يغطي محاسن الحياة وتنير الكلمة ظلمة النفس: الحمد لله فيما سر وما ساء والعمل الإنساني المستمد روحه من الجزاء الإلهي في الإنسان هو العدل والمساواة، وقد

جعلت الحضارة الحديثة معنى العدل والمساواة صدقة يتصدق بها أغنياء قوم على فقرائهم، وأقوياؤهم على ضعفائهم، لا على معنى الصدقة في إخلاصها لله ثم للإنسانية ولكن على معنى التخفف من تعب الغنى وتعب القوة

أما حقيقة العدل والمساواة، فهي عمل الإنسان الأقوى في رفع الإنسان الأضعف إلى مرتبته، فلا يزال هو يرتفع بقوته، ولا يزال الضعيف يسمو معه لأنه معقود الأواصر به. وإذا كان ذلك هو القاعدة فالاجتماع كله سام ذاهب إلى السمو، ولا يكون فيه معنى للطبقات إلا على معنى التدرج، ولا يكون التدرج إلا على تماسك وتواصل، وليس تماسك ولا تواصل إلا على حرص الأعلى على التعلق بالأدنى، وكذلك لا يرتفع شيء

من المجتمع لأنه أعطى القدرة على الارتفاع، ولا يسقط الشيء الآخر منه لأنه لم يجد ما يتعلق إذ حرم هذه القدرة أو زويت عنه أسبابها

وقد جعل الإسلام من أول أمره غرضاً للمسلم لا يرضى منه غيره، ورد معنى الإسلام إليه، فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقاعدة وقال للناس: اعملوا: فالمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه أزر بعض. والإيمان لا يعرف الغني والفقر، والقوة والضعف، والمراتب الحيوانية التي طبعتها الطبيعة على تنازع البقاء وغلبة الأقوى، بل هو معنى يوحد الناس حتى ليس لأحد فضل على أحد إلا بقدر منه، وحتى إن العبد المملوك العاجز ليرفعه إيمانه على من ملكه واستبد به واعتقد رقبته بماله، إذا لم يكن هذا المالك قد استحق بإيمانه مرتبة هذا العبد

وفي بعض الصحيح من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ما جاء هداية إلى هذا الأصل، فقد روى عن المعرور بن سويد أنه قال: لقيت أبا ذَرٍّ بالربذة، وعليه حلة وعلى غلامه حلة، فسألته عن ذلك فقال: إني سابتُ رجلاً، فعيَّرته بأمه، فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم: يا أبا ذرّ، أعيَّرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية!! إخوانكم خوَلكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم

ولا ينتهي عجب متعجب من بلاغته صلى الله عليه وسلم، وكيف ينزل كلامه تنزيلاً في معانيه، تدور بها دورة دائمة لا تنتهي على نظام ثابت لا يتبدل. فقدّم صلى الله عليه وسلم

الأخوَّة بين المؤمنين لأنها هي الأصل الذي لا يتم معنى الإيمان ولا معنى الإنسانية إلا به، وردّ على هذه الأخوة ما يوجبه المجتمع من مراتب الناس على الغنى والفقر، والقوة والضعف، ألا وهي الخدمة التي يقوم بها النظام الاجتماعي فقال: (إخوانكم خولكم) ولم يقل: (خَوَلكم إخوانكم)، هذا مع أن أصل الخطاب إلى أبي ذر يتوجه إلى مقصود بذاته، وهو خادمه أو غلامه الذي سبَّه، فكان أول ما يسبق إلى اللسان، وأقرب ما يسرع إليه الوهم، أن يتعين خادمه بالابتداء

ثم انظر كيف قال: (جعلهم الله تحت أيديكم)، (فمن كان أخوه تحت يده)؟ وكيف حرَّر الإنسان من رقبة العبودية القابضة على عنقه، فجعله تحت يده يستظل ويتحرك في هذا الظل، ولم يجعله في يده يتصرف فيه ويقبض عليه ويستذله، فإن شاء حطمتْه قبضتُه. ثم دَرَج على هذا الأسلوب البليغ حرفاً بعد حرف حتى قال: (فإن كلفتموهم فأعينوهم)، وذلك زكاة القوة التي بها ملك المالك، واستخدم المستخدم. فإذ كان المؤمن قد قوي على تكليف ضعيفه أن يعمل، فهو أقوى على أن يشاركه إذا عجز أو قعد به الضعف الذي أصاره إلى أن يرضى أن يخدم نفسه من كان أعلى يداً وأقوى قوة

فهذه هي شريعة الروح الطاهرة التي تتعطر من نواحيها برائحة جنة الخلد؛ فانظر ما بينها وبين شرائع المعدة التي جعلت أحشاءها مقابر للضعفاء تأكل منهم لتتسع بمعنى الجريمة الحيوانية، وتنقبض عن معنى الرحمة الإنسانية الإلهية

فهل يمكن أن يتطهر العالم فيما يستقبل من أيامه على أساس هذا الهدّى النوراني الذي جعل النظام الاجتماعي سموًّا بالإنسان كله على مراتبه كلها؟ هل يمكن أن يفهم العالم حقيقة هذا التطهير التي أشار إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: (لا قدِّستْ - أي طهِّرت - أمةٌ لا يؤخذُ لضعيفها من قويها)؟

ويلك آمن. . .! إن وعد الله حق

محمود محمد شاكر

4 - إلى أرض النبوة!

(وصف وتأريخ لرحلة الوفد السوري إلى الحجاز ربيع 1935)

(لفتح طريق الحج البري للسيارات)

للأستاذ علي الطنطاوي

إن من دأب العادة أنها تضعف الحس، وتذهب بالانتباه. فالغني الذي يلبس الحرير، وينام على السرير، ويركب السيارات، ويملك (العمارات) لا يجد لذلك كله من اللذة ما يجد الفقير المعدم، والبائس المحروم إن نال مثله، والشبعان لا يدرك اللذة التي يتوهمها الجائع، والصحيح لا يعرف لنعمة الصحة قدرها إلا إذا مرض، فلا لذة في الدنيا

إلا في التنقل والتبدل، وألاّ تحمد على حال مهما حسنت في ذاتها. وهذا ما أراده الشاعر حين قال:

ولذيذ الحياة ما كان فوضى ... ليس فيه مسيطر أو نظام

من أجل ذلك أحسسنا حين ذهبنا إلى غداء الأمير، ورأينا عادات لم نألفها، وطرائق في الطعام لم نعرفها، بلذة التبدل، والاستمتاع بالجدة، فما كاد يستقر بنا المجلس حتى أقبل العبيد فمدوا سماطاً على الأرض، ووضعوا عليه قصعة هائلة كان يحملها منهم اثنان، وقد ملئت رزاً وألقى فوقه خروف كامل بيديه ورجليه ورأسه، إي والله. . . كأنهم (والله أعلم) خافوا أن نشك فيه فنحسبه دباً أو فيلاً أو قطاً، فأبقوا على الرأس دليلاً قاطعاً على أنه خروف أصيل من أمة الضأن

وكان الخروف مفتوح العينين، ناعس الطرف، فأخذتني الشفقة عليه، وتوهمت أنه ينظر إلينا، وأنه. . . . . ثم رأيت أن لا مجال للوهم ولا للخيال، وأن الوقت لا يتسع للأدب، لأن القوم أحدقوا بالقصعة وشمروا عن سواعدهم، ونظروا شزراً فعل من يقدم على معركة، فخشيت أن يذهبوا بالرز واللحم، ويبقى لي الخيال والوهم، ومتى أفاد الخيال جائعاً، أو أجدى الأدب على إنسان؟

وكان أصحابنا يدورون بعيونهم يفتشون عن ملعقة أو سكين أو شوكة فما وجدوا شيئاً من ذلك؛ وأبصروا القوم يأخذ أحدهم قبضة من الرز، فيديرها في كفه، ويعصرها، حتى يقطر منها السمن، ويحركها كما يحرك اللاعب الكرة قبل قذفها، حتى إذا اطمأن إلى أنها صارت

كالقنبلة، قذف بها في حلقه، فما استقرت بإذن الله إلا في معدته، لا تقف في الفم، ولا تمسها الأسنان. . . وطفق أصحابنا ينظرون إليهم ويعجبون، ثم أقبلوا يأكلون كما يأكلون، ولبثت منتظراً أقول لنفسي وأنا أحاورها لأقنعها: من أين تأكلين إذا لم تجاري وتماشي، وتستعدي لقبول كل ما تأتي به الحال؟ وإني لفي تفكيري، إذ حانت مني التفاتة، فوجدت القصعة قد تكشفت، والخروف المسكين قد تناثر لحمه، وبدت عظامه. . . فمددت يدي آكل كما يأكلون، وقد علمت أن شر طعام خير من الجوع، والرز يتفلت من بين أصابعي، والسمن يملأ كفي، فإذا رفعتها إلى فمي، نقط من مرفقي، ولم يكف القوم ما كانوا قد وضعوا من السمن، بل عمدوا إلى كؤوس يحملونها، فملئوها وصبوا ذلك أمامنا، حتى نستطيع من كثرة الدهن أن نأكل، ولم يكن الرز ليستدير في يدي استدارته في أيديهم، بل كان يدخل بين أصابعي، حتى أضطر إلى إدخالها جميعاً في فمي، وغسل وجهي كله بالسمن. . .

وانقضى الطعام. ولا تسألني: أشبعت أم لم أشبع، كيلا يطول سؤالك كما طال في هذه الرحلة عطشي وجوعي

ثم جاءونا ونحن في مجالسنا بطست عليه مصفاة قد وضعوا فوقها قطعة صابون وإبريق يصبون منه على أيدينا، على نحو ما كان يصنع في دمشق قبل عشرين سنة، ولم تكن تلك طريقتهم في الغسل، وإنما يكون مثلها في مجالس الأمراء والمتحضرين من العرب. أما البدو، فيجزئهم الرمل. وقد بلغنا عن بعض البدو في جهات الشام، أنه إذا كانت وليمة أو غداء كالذي نصف، خرج الضيوف فمسحوا الدهن الذي في أيديهم بباب الخيمة. وعندهم أنه كلما ازداد عليها من الدهن ازداد كرم الرجل وفخاره. . .

ثم خرجنا نجول في البلد، وقد علمت أي شيء هذا البلد فاستقريناه كله في ساعة، ثم دخلنا المسجد، فرأيناه داني السقف قائماً على عمد دقاق من جذوع النخل، جدرانه من الطين، وأرضه مفروشة بالرمل، لا بساط ولا (سجادة) ولا حصير، فسألنا متعجبين، فعجبوا من عجبنا، وأنكروا سؤالنا، وكأنهم استخفونا واستجهلونا، لأن من المقرر عندهم (كما علمنا بعد)، أن هذه هي سنة السلف، وعليها مساجد نجد كله اليوم. وأنا رجل سافي وهابي، ولكنني لست من المتمسكين بحرفية النصوص، ولا ممن يأخذها بلا فكر. وأنا أفهم أن المسجد في الإسلام يستحب فيه الخلو من الزخارف التي تشغل عن الصلاة، وتطلب فيه

ولكن البساطة مردها إلى العرف، وليس مدارها على الرمل والطين. ،(البساطة) والذي أفهمه أن فرش المسجد بالبسط النظاف، وتحوير جدرانه أو دهنها بلون واحد، واتخاذ مكان فيه للأحذية حتى لا توضع الجباه، ومدافئ للشتاء إذا كان البلد بارداً، ومراوح كهربائية في البلد الحار، وإقامة مكبر للصوت في مثل مسجد دمشق الذي

يجتمع فيه اليوم لصلاة الجمعة أكثر من عشرين ألف مصلٍّ. كل هذا لا ينافي سنة (البساطة)، وإن لم يفعله السلف للجهل به أو لعدم الحاجة إليه. ومصيبتنا نحن المسلمين في هذه الأيام أننا لا نعرف التوسط ولا الاعتدال، فمنا من ينطلق وراء عقله وحده لا يتقيد بوحي ولا كتاب، ومنا من بدع العقل والكتاب والسنة ليفكر بعقول من مضى من فقهاء القرن التاسع والعاشر، أو يأخذ من الكتاب والسنة، ولكنه يفهم بالحروف والألفاظ ويدع ما وراءها من المجاز والإشارة والحكمة والمصلحة. . .

عدنا إلى الدار التي منحونا مفتاحها، نتحدث ونسكت، وننام ونفيق، ونقرأ حتى نمل، ونمل فنعود إلى القراءة حتى تصرَّم النهار ونحن نظنه من ثقله شهراً. وقد عرضت مرة في بعض مقالاتي إلى تحليل الحس بالحياة، فكان من رأيي أن الحياة أصعب شيء على الإنسان، وأنه لا يستطيع أن يحملها، فهو يقطعها أبداً بحديث أو مطالعة أو عمل، أو ما هو من ذلك بسبيل، فإذا خلت حياته من شيء يشغلها عادت هماً وحملاً ثقيلاً. وكذلك كانت حياتنا ذلك اليوم في (قريات الملح). وكنا قد سألنا الأمير دليلاً، وأقمنا ننتظره حتى جاء، وإذا هو سيد من سادات (الشرارات)، عُمَّار تلك الديرة، والمشيرة صاحبة النفوذ فيها اسمه (صْلَبي)؛ ولي في صفته كلام في أول قصة (أعرابي في حمام) ما زدت فيه على الحقيقة وإن كنت قد أقمت القصة على الخيال؛ فليرجع إليه من شاء ثَمَّة

وقد أبدلنا الله بدرهمنا ديناراً حين صرف عنا الحاج غراباً الجاهل الجامد، الحضريّ الثقيل؛ وجاءنا بهذا الأعرابي الفكه الظريف الذي أخذنا منه فوائد كثيرة ولمسنا في صحبته السلائق العربية لمساً: الذكاء والوفاء والإباء، والمنطق البليغ والذاكرة القوية والجواب الحاضر والصبر والإيثار. وأشهد لقد أحسن إلينا أمير (القريات) حين اختاره لنا، فلما حضر تجددت عزائمنا، فأعددنا ثقلنا، وذهبنا نودع الأمير ونستأنف السفر، وكان أهل البلد مجتمعين حول الدار التي نزلناها، وكأن مجيئنا من الحوادث الكبرى في تاريخ البلد.

فمشينا بينهم، ودخلنا الحصن، فوجدنا الأمير قد أعد لنا مجلساً في رحبته، يشرف على الفضاء، ودعانا إلى المبيت، وألحف علينا، وذهب يلتمس إلى إقناعنا الطرق، ونحن نعتذر ونتملص، لا أدري أكان ذلك حياء من الأمير أن نطيل المكث في ضيافته، أم كراهية البقاء في هذه البليدة الساكنة سكون المقبرة، الخالية من كل شيء يشغل أو يسلي، أم حماقة وطيشاً ولعل ذلك هو الأقرب. . . فلما يئس منا عرض علينا العشاء فأبينا واجتزأنا بالشاهي نشربه إذ لم يكن منه بد، وأخرجنا مما كان معنا حلوى من حلويات دمشق التي ملأت شهرتها الآفاق، وعجزت عن صنع مثلها أيدي الطهاة، فعرضنا منها على الأمير فطعمها فأعجبته وقال لنا، إن ما ذاق مثلها، وخير ذلك ألا يذوقها فيعوده مذاقها الترف والنعيم، ويسلبه روح الصحراء

وانتهى المجلس مع الغروب فقمنا إلى الصلاة، ثم استقبلنا البادية القاحلة حيث لا نجد حاشا تبوك والعلا، داراً مأهولة، ولا منزلاً معموراً، ولا نجد إلا الرمال والصخور والشمس الملتهبة، والفضاء الأرحب، حتى نصل بمشيئة الله إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم.

سرنا فما جاوزنا غير ساعة حتى أظلم الليل، وتوعرت الأرض، وتعذر المسير، فأمرنا الدليل بالنزول، فنزلنا وجعلنا من عادتنا بعد ذلك ألا نسير إلا نهاراً، وإن اضطرنا إلى مشي الليل اخترنا الإدلاج من آخره إلى المسرى من أوله. . .

وكان نزولنا في أرض رخوة ما ألقينا لها بدلاً، فلما نصبنا الخيمة وبسطنا البسط وقعدنا إذا بها تعصر ماء، وإذا هي سبخة من تلك السباخ التي يستخرج منها الملح، فتفرقنا وأبعدنا رجاء أن نصيب أرضاً خيراً منها فما وجدنا، فاسترجعنا وندمنا على ترك البلد، والسفر ليلاً، والإعراض عن دعوة الأمير، وأمضينا الليل على شر حال، منا من نام وسط الوحل، وما السبخة إلا وحل. فأصبح يشكو الرثية (الروماتزم) أو يحس الأذى في ظهره، ومنا من لبث الليل كله في السيارة لا يستطيع أن يتحرك أو يمد رجله، ولقينا من الشدة ما ذكرنا معه بالخير ليلة (أم الجمال)

رب ليل بكيت منه فلما ... صرت في غيره بكيت عليه

تبدل عليَّ كل شيء مذ فارقت (القُريَّات)، فلقد كنت قبل أن أصل إليها أفكر فيها وأراها

غاية سفري، فصرت أمشي من بعدها لا أعرف لي غاية إلا تبوك، وأين نحن من تبوك حتى نفكر فيها؟ وكيف وبيننا وبينها أيام وليال؟ وكنت آسف على فراق دمشق فصرت لا أفكر فيها إلا لماما، وأحسست كأني منقطع حقاً عن العالم، فلا بشر إلا الرفقة التي أصحبها، وليس إلا الرمل والتلال والسراب مشهد نراه، وكان عملنا كله التدقيق في الأرض، والانتباه إلى الدليل، لنجتنب الخوض في رملة، أو المرور على شِعب، أو الالتقاء بصخرة. ولقد كنت أنظر تارة إلى هواننا إلى الصحراء، وأفاضل بين صغرنا وجلالها، وفنائنا وبقائها، فأحس الصغار، وأشعر بالعجز، ثم أنظر فلا أرى فيها إلا إيانا قد انفردنا بين شرقها والمغرب، وانبسطت تحت أرجلنا وامتدت إلى الأفق البعيد، ونحن نغزوها ونوغل فيها، ونحمل حرها وبردها، ولا نبالي شمسها ولا رملها، فتغمر نفسي القوة. . .وأرفع رأسي فخاراً، وأتيه زهواً

وكنا نسير النهار كله، سيراً بطيئاً. وما أكثر ما نقف نخرج من سيارة غاصت في الرمل، أو نتحرى خير الطرق، أو ننظر في (الموصلة) لنتبع أبداً الجنوب، وكنا أبداً على استعداد للوثوب من السيارة. فإذا مالت الشمس وأصفرت، نزلنا فنصبنا خيمتنا وأكلنا وشربنا الشاي. . . وأنا أحلف أني على ولعي بجمال الطبيعة، وارتيادي الجبال والأودية، ووقوفي بالعيون والينابيع، ومقامي على الشواطئ وحيال الشلالات، ما رأيت منظراً أجل ولا أجمل ولا أحفل بالعظمة والمتعة كم أماسي الصحراء، حيث تضطجع على تلة من التلال، ثم تمد بصرك إلى الجهات الأربع فلا يحجزه حاجز، ولا يقف في سبيله شيء، فترى الشمس وهي تغيب في الأفق الغربي، وظلال الليل وهو (يشرق) من الأفق الآخر، والنجوم وهن يطلعن في السماء الصافية، وتحس بلطف الليل ورقة نسيمه، كما أحسست بجلال النهار وحدة شمسه، ثم تقوم مع الفجر قوياً نشيطاً، قد قبست من روح الصحراء روحاً جديداً، لتستقبل الحياة بعزم جديد!

علي الطنطاوي

خرفة

هذا الإنسان. . . أوجد الحضارات

السمك والوحش والطير يأكل بعضها بعضا، لأنها حرمت)

العدالة، أما الإنسان فقد منحه زيوس إياها وهي خير ما يمنح.

. .)

أما أنا فأقول لكم لم لا يأكل الناس بعضهم بعضاً

في زمان سلف، قديم كل القدم، وفي مكان لا أعرفه تماماً، كان يعيش أبو البشرية آدم وأمها حواء والابن البار هابيل، والابن العاق قابيل

وفي يوم من الأيام، بعد أن مل قابيل العمل وزهدته نفسه، واستصغرته، جلس على مرتفع من الأرض، ومرفقه إلى ركبته، وقد أسند رأسه إلى قبضته الضخمة. جلس قابيل مهموماً قبل أن تخلق الهموم، مفكراً قبل أن يخلق التفكير. لقد مل العمل ومل الحياة، وضاقت الدنيا على سعتها، فلم تعد تحقق شيئاً مما يريد قابيل. هاهو ذا يعمل كل يوم. يذهب في الصباح إلى الأرض يصلحها ويبذر الحب فيها، وإذا أعوزها الماء حمله إليها من أماكن بعيدة، ثم إذا هو رأى حيواناً يعبث بماشية يرعاها أخوه، سعى إليه وأرداه

كل شيء أمام قابيل سهل ميسور. إنه ما حاول يوماً عملاً واستعصى عليه. كل ما يراه خاضع ليده القوية. الأرض تتفتت في يسر وهو يضربها لتفلح. والحيوانات باتت تخاف رؤيته. والأمطار إذا شحت استطاع أن يحمل الماء من أماكن سحيقة دون أن يتعب. . . كل شيء سهل ميسور إذا تناوله قابيل. فأية حياة فارغة هذه؟

وفي تلك اللحظة مر هابيل يسير كعادته دائماً في سكون وبطء، لاهياً عن كل شيء بشيء لا يفهمه أخوه؛ إنه يأخذ الحياة كما وجدت، لا يطلب جديداً ولا يتعب نفسه في هذا الطلب، ولا يحس مللاً كما يحس قابيل

ثم هناك كبش هابيل، لقد قبل عندما قدمه قرباناً، فنزلت النار من السماء والتهمته، بينما لم يرفع زرع قابيل الذي قدم كما رفع كبش أخيه

وبعد! فلابد إذن أن يكون هابيل شيئاً عظيما، فقربانه قد قبل بينما لم يقبل قربان أخيه؛

وكلاهما ابن لآدم وحواء. وهو لا يفكر كما يفعل قابيل وإنما هو لاهٍ راضٍ. إنه إنسان آخر غير قابيل، إنه شيء غامض محاط بالسر . . .
وتنهد قابيل تنهدة المحنق وظل يتبع أخاه النظر يسعى إلى الكوخ بجسمه الطويل المعروق والماشية تسعى من أمامه
هذا الإنسان الغريب الغامض لم لا يسبر غوره ويقيس قوته إليه؟
ورويداً رويداً نزل الظلام؛ ورويداً رويداً امتد الزمن به. فقام أخيراً وقد أزمع أمراً . . .
لقد وجد ميداناً جديداً تبرز فيه قوته. ولقد كان الظلام حليفه هذه المرة، لأن قابيل لم يستطع أن يبلغ مأربه إلا في الظلام!
ومضى الليل إلا أقله، وبينما كان آدم وحواء نائمين، وقف قابيل خلف أخيه، ثم رفع يده وهوى بها، فسقط هابيل، دون أن يتهيأ لهذه المفاجأة، لأن أخاه استعان بها كما استعان بالظلام!!
وهكذا استطاع قابيل أن يجرب قوته من جديد وقد نجح في ذلك
وبعد، أفتدرون لم لا يأكل الناس بعضهم بعضاً؟ ذلك لأنهم يجدون ما يأكلون
(م. وهبة)
الفروق السيكلوجية بين الأجناس
للأستاذ عبد العزيز عبد المجيد
تمهيد
قصدت بهذا التمهيد أن أقدم عجالة عامة عن مشكلة الأجناس البشرية والمفاضلة بينها، وألا أتعرض للبحوث العلمية التي أجريت منذ أواخر القرن الماضي لمعرفة الفروق بين الأجناس. وقصدت أيضاً أن أجعل موضوع اليوم ذا صبغة تاريخية اجتماعية حتى أريح القارئ قليلاً من مطالعة الحقائق العلمية الجافة، ولكنني إن أعفيته هذا الأسبوع من عرض الحقائق العلمية التجريبية فلن أعفيه منها في الأسابيع القادمة
ومشكلة الفروق الجنسية مشكلة قديمة كقدم آدم. لا بل إنها تبدأ به، وبالخلاف بينه وبين إبليس اللعين، فإنه لم يتحرج من إعلان احتقاره للجنس البشري حين أبى أن يسجد لآدم كأمر ربه. فقال الله تعالى: (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي؟ أستكبرت أم كنت من العالين؟ قال: أنا خير منه، خلقتني من نار وخلقته من طين) ومن هذا اليوم ظهر الخلاف بين الجنس الناري والجنس الطيني، وهو خلاف جر مصائب على إبليس ومن تبعه، وعلى آدم وذريته من بعده، ولا يزال مثل هذا الخلاف الجنسي مبعث المحن بين بني آدم أنفسهم
ثم هبط آدم إلى الأرض وتفرق أبناؤه شعوباً وقبائل، واختلفت ألسنتهم وألوانهم، وبعدت صلتهم بأبيهم الأول، فتنافسوا وتحاسدوا، ووقعت بينهم العداوة والبغضاء، وذهب كل شعب يُدِلُّ بعَدده وعُدده، وحضارته وثقافته، ويفخر على الشعب الآخر، ويعيره قلة العدد وتأخر الحضارة. وكان ما كان مما حفظه لنا التاريخ والكتب المقدسة وما لم يحفظ
أقام بنو إسرائيل في مصر القديمة، وفلحوا الأرض، ورفعوا البنيان، وكثر عددهم، وقوى ساعدهم، وأصبحوا ذوي نفوذ وسلطان. فخشيهم فرعون ومن معه، ونظروا لهم شزراً واحتقاراً (واستعبد المصريون بني إسرائيل بعنف، ومرروا حياتهم بقسوة، واستعبدوهم واستخدموهم في الطين واللِّبن، وفي كل عمل في الحقل. وكان كل عمل عملوه بتأثير
الضغط والعنف. . .) ولم يكن مِرْنفتاح بألين جانباً مع الإسرائيليين من سلفه رمسيس الثاني، فأذاقهم الأمرين لا لسبب إلا لأنهم غير مصريين، ومن جنس أجنبي، حتى إذا بلغ بهم البؤس مبلغه جاءهم موسى بعصاه، فأنقذهم من جناية جنسهم عليهم، ولاقى مرنفتاح حتفه شر لقاء
ثم سار التاريخ سيرته في الشرق والغرب، فظهر الإغريق بحضارتهم وفلسفتهم وآدابهم، تلك الحضارة الإغريقية التي يعزى إليها - وإلى الرومانية أيضاً - فضل النهضة العلمية الأوربية
وحسب الإغريق أنهم شعب مقدس لا يصح أن يتزاوج مع غيره، ولا أن يختلط غيره به. وسموا غيرهم من الشعوب همجياً ووحشياً. ولم يذكروا أن حروفهم الأبجدية إنما كانت عارية فينيقية، وأن مبادئهم الفلسفية نشأت في مصر. فتعصبوا ضد غيرهم من

الأجناس، ودعوهم برابرة. وكانت كلمة أو ما ظهرت ظهرت في لغتهم، فأطلقوها على الرومان جيرانهم، لأنهم كانوا من جنس غير جنسهم، ولأن لغتهم اختلفت عن لغتهم، ولأنهم كانوا دونهم في الحضارة والثقافة، ولم تلبث هذه الكلمة أن دخلت اللاتينية فاستعملها الرومان بدورهم، وأطلقوها على الشعوب الأوربية التي كانت تتاخمهم كالصقلب والكلت والجرمان. وهكذا اعتبر الرومان - الذين كانوا يسمون برابرة - كل من لم يدخل ضمن نفوذ الإمبراطورية الرومانية بربرياً لأنه غير متحضر، ولأنه من جنس دون الروماني

لم تكن الحال في بلاد العرب قبل الإسلام بأحسن منها عند الأمم الأخرى، فبالرغم من أن العربي يعتز بجنسه العربي كانت المنافسة بين عرب الجنوب وعرب الشمال تصل إلى العداء والقتال، بل كانت الحروب بين العدنانيين أنفسهم لا تطفأ لها نار. وكان التعصب للقبيلة - التي هي الجنس بمعنى ضيق - من أهم أسباب هذه الحروب. وكان الفرد من البطن يفخر على ابن عمه من البطن الآخر بنبل أسرته وكرم محتده. وظل أثر ذلك إلى الإسلام. وهاهو ذا جرير يهجو نميريا بقوله:

فغض الطرف إنك من نُمير ... فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

مع أن كلاباً ونميراً كلاهما ينتمي إلى أصل واحد هو عامر ابن صعصعة الهوازني ما كان الإسلام دين تعصب أو جنسية. فقد كان الناس فيه سواسية كأسنان المشط. ولم يكن

بين المسلمين فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى. وقد حافظ الخلفاء الراشدون على هذه المبادئ السامية، فلم ينظروا إلى الشعوب المفتوحة نظرة الغالب القوي، ولم يحطوا من شأن الأجناس التي خضعت لهم. بل لقد كان أول الشروط التي قدمها عمر بن العاص إلى مقوقس مصر هو (إما دخلتم في الإسلام، فكنتم إخواننا وكان لكم ما لنا وعليكم ما علينا). غير أن النعرة العصبية القديمة بُعثت في عهد الأمويين الذين اعتقدوا أن العرب هم أفضل الأجناس، وأن لغتهم أرقى اللغات. ونظروا إلى الموالي وأجناسهم نظرة احتقار وازدراء. وكانت هذه سياسة خاطئة أثارت حروباً جدلية شعواء، وكرهت الأجناس غير العربية - ولا سيما الفرس - في حكم الأمويين فأخذوا يتلمسون الفرص للثورة والخروج على الولاة، فانضموا إلى الخوارج والشيعة، وآزروا دعاة بني العباس، فكان لهم النصر

ولم تكن هذه المفاضلة الجنسية بين العرب والفرس فقط، بل كانت بين العرب أنفسهم عدنايين وقحطانيين في الشرق وفي الأندلس. وكانت اليقظة الشعوبية (في بلاد فارس) أيام حكم العباسين، هي التي سهلت وجود تلك الدويلات التي مهدت لزوال الخلافة

وقد أسرف الشعوبيون في الحط من شأن العرب، فرموهم بالتأخر، وأنه لم يكن لهم ملك يجمع سوادهم، ويضم قاصيهم، وينهى سفيههم. ولم تكن لهم قط نتيجة في صناعة، ولا أثر في فلسفة، إلا ما كان من الشعر، وقد شاركهم فيه العجم. ورماهم ابن خلدون بالتوحش وتخريب العامر، واستباحة أموال الناس نهباً ومغرماً

وفي أوربا استمرت الحروب الجنسية أثناء القرون الوسطى بين القوط والوندال، وبين الجرمان والغال، وبين السكسون والكلت، وبين الاسكتلنديين والإنجليز. وهذه الحروب وإن كان بعضها للغزو والغنيمة إلا أن الجنسية كانت تشعلها، لأن الجنسية أو العصبية كانت دائماً العامل المشترك بين أفراد الفريقين المتحاربين

وفي أوربا الحديثة شاعت نظرية الجنس الأبيض والأجناس الملونة واعتقد العامة - والمتعلمون أيضاً - أن الأجناس الملونة أحط من الجنس الأبيض في الذكاء والاستعداد الفطري للانتاج، والاستعداد لتلقي الحضارة. ولعل الذي ساعد على انتشار هذه النظرية الحقيقة الماثلة، وهي سيادة الجنس الأبيض الأجناس الملونة

وفي أمريكا - بلاد الديمقراطية - تجد الزنوج في ولايات الجنوب موضع احتقار مواطنيهم البيض، وهذا بالرغم من تفوقهم في الزراعة والصناعة والرياضة

ثم ما هي تلك الحمى الجنسية الطائشة التي عبثت بعقول العلماء والساسة من النازيين فألقوا الكتب ووضعوا القوانين ليثبتوا أن الجنس الآري أو الجرماني هو أفضل الأجناس البشرية، وأن الشعوب السامية - وهي مهبط الوحي ومنبع العرفان - شعوب منحطة لا حضارة لها ولا فن؟

إن هذه الدعاوى المريضة بانحطاط بعض الأجناس وتفوق البعض الآخر، وما ترتب على ذلك من كرب وحرب، ومطاردة وعداء، وما كانت لتستند إلى دليل من العلم أو برهان من التجربة، اللهم إنها السياسة هي التي أحلت ذلك. والسياسة والعلم لا يتفقان. لأن العالم يحترم الحقائق لذاتها، فلا يحابي ولا يتأثر بغاية، فهو في أحكامه موضوعي بينما السياسي ذاتي يضحي بالحقائق العلمية في سبيل مبدئه وغايته. ولذلك لا يكون - ولن يكون - العالم سياسياً إلا إذا طلق العلم

وسنستأنف حكم السياسة السابق على الأجناس أمام قضاة العلم في المقالة القادمة إن شاء الله

(بخت الرضا - السودان)

عبد العزيز عبد المجيد

إرادة الطفل

لجان جاك روسو

ترجمة الأستاذ عبد الكريم الناصري

تكفلت في إحدى السنين بتربية طفل (شقي) تعود تنفيذ كل ما يضطرب في عقله الصغير من رغبات، وما يجول في قلبه البريء من أماني، كما تعود أن يحمل غيره على تنفيذها إن لم يستطع هو. وقد عرفت فيه تلك العادة منذ اليوم الأول لتكفلي تربيته، إذ أراد أن يجرب خلقي وذوقي ومجاملتي، فرأى أن ذلك لا يتم له إلا بمضايقتي وتكدير خاطري. وبينما أنا غارق في نومي في منتصف الليلة الأولى، إذا به يستيقظ من نومه ويجلس تحت سريره، ثم يلبس (الروب دي شامبر) ويدعوني، فنهضت وأشعلت الشمعة، وسألته عن أمره وماذا يريد، فلم يطلب شيئاً، ولم يبد سبباً لنهوضه؛ بل عاد إلى سريره واحتواه النوم بعد ربع ساعة، راضياً عن تجربته، مقتنعاً بحسن مجاملتي، مبتهجاً لقوته وسلطانه! وبعد يومين أعاد تلك التجربة بنفس النجاح، أما أنا فلم أبد أية إشارة إلى الضجر، أو علامة على نفاد الصبر، ولكني قلت له حين عانقني عند عودته إلى النوم: (اسمع يا صديقي الصغير. إن هذا حسن جداً منك، ولكن لا تكرره ثانية)

وقد أثارت هذه الكلمة فضوله وهيجت منه حب الاستطلاع وأراد أن يرى كيف أجرؤ على عصيان أوامره السامية. لذلك لم يفته في الليلة التالية أن ينهض في منتصفها ويدعوني. . سألته ماذا يريد. فأجاب إنه لا يستطيع أن ينام. فأبديت أسفي الشديد وسكت. ثم رجاني أن أشعل الشمعة، فاستوضحته السبب، وصمت. عندئذ هب يدور حول الغرفة راكضاً، صائحاً، مغنياً، ضاجاً صاخباً، قالباً المناضد والكراسي، كل ذلك لإزعاجي والانتقام مني. ومع ذلك، فقد نهضت بصمت وسكون، وأشعلت الشمعة، ثم تناولت صاحبي الظريف بيدي، وأدخلته حجرة له مجاورة لحجرتي وتركته هناك بدون ضوء، بعد أن أغلقت الباب عليه بالمفتاح؛ ورجعت إلى فراشي بدون أن أتفوه بكلمة واحدة. ولا حاجة إلى القول بأن الضجة لم تنقطع بسرعة، ولكني أصغيت - بعد هدوئها - فعلمت أنه يرتب فراشه ويستعد للنوم، فاطمئننت وهدأ روعي. ولما كان الصباح دخلت غرفته فرأيته مستلقياً على فراش صغير وغارقاً في نوم عميق

ولا تظن أن هذا الطاغية الصغير لم يكن يحسن من أنواع المشاغبة والمشاكسة إلا هذا النوع. كلا، ففي أية ساعة يحلو له الخروج فيها، يجب على المربي المسكين أن يكون مستعداً لاصطحابه - أو بالأحرى لمتابعته والجري وراءه - وكان يُعني عناية فائقة ويحتفل احتفالاً خاصاً باختيار الوقت الذي يكون فيه مربيه منهمكا في أعماله أشد الانهماك، كأنه يريد أن ينتقم منه على الراحة الذي اضطر في الليل إلى تركها له لذلك لم يفته في اليوم التالي أن يقطع على عملي ويطلب مني أن أصحبه، . . . وأترك ما أنا فيه من عمل بمزيد السرعة. فرفضت، ولكن رفضي لم يزده إلا إلحاحاً وإصراراً. . .

وأخيراً قلت له: كلا! أفهم أني حين أنفذ إرادتك، فإنك تعلمني أن أنفذ إرادتي أيضاً. . . إني لا أريد الخروج! فأجابني على الفور: حسن! فإني خارج وحدي!

قلت: (كما تريد). ورجعت إلى عملي متغافلاً عنه

أخذ يلبس ملابسه مهموماً لأني لم أنهج سبيله وأسلك مسلكه. ولما انتهى من . . . لبسها حياني تحية الخروج، فرددت التحية، وأراد أن ينذرني الإنذار الأخير، فأخبرني

صارخاً بأنه ذاهب إلى آخر الدنيا. فأجبته بأني أتمنى له سفراً سعيداً وعوداً حميداً. . .
عند ذاك ازدادت دهشته، وعظمت حيرته، واشتد ارتباكه، وطلب من خادمه أن يتبعه، ولكن الخادم - الذي كنت قد حذرته من مرافقته وتنفيذ أمره هذا - قال إنه لا يملك من الوقت ما يسمح له بمصاحبته، وإنه يراعي مصلحتي وينفذ أوامري قبل أن يعني بمصلحته وأوامره. . .
وكيف يعقل أن نترك طفلاً يخرج وحده وهو يعتقد أن الناس جميعاً مهتمون بأمره، حريصون على إرضائه، مستعدون لخدمته؛ ويظن أن السماء والأرض مكلفتان بصيانته وحمايته. لقد أخذ يشعر بضعفه ويحس بعجزه، ويفهم أنه وحيد وسط أناس لا يعرفونه، ولا يقدرونه، ولا يحفلون به. ويتمثل المخاطر التي سيلاقيها، والعقبات التي ستعترضه في طريقه. . . ومع ذلك فقط ظل يلح في الخروج
نزل الدرج ببطء وذهول. ودخل الشارع، معزياً نفسه بأن ما قد يصيبه من سوء . . . تقع مسئوليته عليّ. وبقيت أنا أراقبه وأتابع حركاته. وّما كاد يتقدم بضع خطوات حتى سمع أصواتاً تتحدث عنه وتصل إلى أذنيه عن يمين وعن شمال
- إلى أين يذهب هذا السيد الجميل وحده؟
- إنه تائه يا صديقي. أريد أن أرجو منه الدخول إلى بيتنا
- أنظر يا صاحبي إليه جيداً! ألا ترى أنه (شقي) طرد من بيت أبيه لشقاوته وعناده؟ دعه يذهب إلى حيث يشاء
- حسن! ليصحبه الله! إني خائف عليه من المصير . . . .!!
وما كاد سيدنا المتمرّد يسير ليلاً حتى التقى بطائشين في مثل سنة تقريباً، راحا يغيظانه وينهرانه ويضحكان منه. . . وهكذا، كلما تقدم وجد أصنافا من المربكات وضروباً من المعرقلات. . . لقد وضحت لديه قيمته عند الناس، وعلم أنه وحيدُ مهدوم الحماية محروم السند، ورأى سخرية الناس منه، واحتقارهم له، وأدرك مع الدهشة العظيمة أن عقدة كتفه الثمينة، وحاشية كمَّيْه الذهبية، لمن تنفعاه كثيراً أو قليلاً، ولم تحملا الناس على احترامه وتقديره، أو تضطرهم إلى مراعاة رتبته ومقامه. . . !
وكنت في أثناء ذلك قد أرسلت صديقاً لي لا يعرفه، ورجوته أن يتبعه على ألا يشعر به، فاقتفى أثره مدة، ثم استوقفه وراح يعظه، ويهوّل له خطورة عمله، ووقاحة فعلته، ووخامة عاقبته حتى لان وارتدع، وأحس بالخوف وشعر بالندم، ورجع إليّ مرتبكا مذهولاً خائر العزم مطأطئ الرأس تعلوه صفرةٌ وترهقه ذلة
ولكن يتمم أبوه الدرس، ويجعله قاسياً لا يُنسى، نزل في الدقيقة التي رجع فيها ابنه بحجة الخروج، والتقى به على الدرج؛ وأدرك الطفل أنه لا مناصَ من أن يقول من أين جاء، ولماذا لم أكن معه. . . لقد كان المسكين يود في تلك الدقيقة لو تغور به الأرض وتبتلعه، على أن يجيب على تلك الأسئلة المحرجة. . . ولكن أباه لم يطل في تعنيفه ولومه، بل قال له: (عندما تريد الخروج وحدك، أخبر مربيك. وإن عدت إلى فعلتك التي فعلت فإنك ظالمٌ نفسك - لأني سأعدّك لصاً حقيراً ولن أقبلك ولا أسمح لك بالدخول في بيتي!)
عبد الكريم الناصري
مسلمو رومانيا
للأستاذ يوسف ع. ولي شاه
مما يشرح صدر المسلم الناهض أنه إذا أطلق عنان تفكيره في مجال شئونه الاجتماعية يشعر بوجود أخ محبب إليه يجري في عروقه دم يحمل عقيدته؛ فإذا صح هذا الإطلاق يرى أمامه مسلمي العالم، ويبين هذا التخيل بوضوح كيفية انتشار الإسلام في كل بقاع الأرض
فمن نظر إلى خريطة القارة الأوربية مثلاً يلاحظ المسلمين في كل مكان فيها؛ ويرى من الإحصاء أن عددهم يزيد تدريجياً يسار الخط المستقيم الذي ينزل من فنلاندا مخترقاً أوربا الوسطى إلى قرية سنت نجير بأسبانيا
يسر المرء حينما يرى أن مسلمي أوربا قد شاركوا أهلها مدنيتهم وجروا معهم في حياتهم النافعة المتمدينة مع محافظتهم على أصول الإسلام وروح التعاليم الخاصة به. ولكنه يأسف من جهة أخرى، إلى حد كبير، حينما ترى قوماً يريدون أن يهدموا حقوقهم مكتسحين حرية الفرد والجماعة. هذه مسألة تختص بالإمبراطورية الروسية وسنتناول

بحثها في دورها
ومن بين هؤلاء الذين رقوا إلى مستوى المدنية الأوربية مسلمو رومانيا الذي يقطنون
في منطقة اسمها دوبروجه موضع النزاع طوال عصور التاريخ
لمحة جغرافية عنها
هذه المنطقة المزدهرة التي سكنها الأتراك المسلمون في رومانيا هي أحسن أرض
وأوسع باب للحكومة الرومانية، فتحت مصراعيها للعالم الشرقي والغربي معاً، وهذه
البقعة قلما يوجد لجمالها الطبيعي ضريب في جهة أخرى من أوربا، على حين أن
الشرق لا يعلم عن جمالها كثيراً ولا قليلاً، وهي محاطة من ثلاث جهات بالماء، ومن
الجهة الرابعة تتاخمها هضبة كوادري لاتر وغابتها، ومحاطة بمياه الدانوب التي تحمل
تحيات البلاد التي تخترقها ابتداء منن منبعها الطبيعي في الغابة السوداء، ومغمورة
بمياه الدانوب التي تكسوها هي والبحر معاً لباس الزينة الطبيعية، وتبدو كأنها نجمة
نزلت ثم منطقت خصرها ترغب في استقبال كل غريب شحب لون وجهه
أما أهميتها لرومانيا فهي كأهمية جزيرة القريم للإمبراطورية الروسية، تجري بين
عشبها
الطبيعي الأنهر الصغيرة التي تزيد البلاد جمالاً؛ وهي: طاش آولى، إسلاوا، تايتا، وتليتا.
فيها البحيرات الخمس الكبيرة يجمعها مكان واحد مثل: رازيم، غولوويشا، إسمه يكا،
سينوية، وكيثوك، وفيها أيضاً بحيرات أخرى: طامش آولى، مامايا، مانغاليا، تكير كول،
وهذه الأخيرة بحيرة معدنية تستقبل كل عام عشرات الألوف من الأجانب المرضى
يقصدونها للاستشفاء. . . يفصلها عن البحر ممر إيفرويا بلدة جديدة أنشئت على أحدث
طراز بشاطئ البحر الأسود للاصطياف فيها
فيها أيضاً جزائر مثل جزائر شاربه له، بوكين، داله رسكا، إيفانه شت، ومه لينوو. أما
أهم المدن التي تواجه الأمواج الهائجة للبحر الأسود فهي من الشمال: سولينا، سنت
جورج، مامايا، كوستنجة، إيفوريا، طوزلا، منغاليا وبالجيق. ثم تنتهي حدود رومانيا جنوب
بلدة ئه كره نه بحوالي ثلاث كيلات
الموارد الطبيعية للبلاد
يستخرج من أرضها الجير ومقره مرادخان وقانارا، والرخام والأحجار المتينة لتشييد
الأبنية ومقرها مورفاتلار، طولجا، ماجين إغليتا وإيساقجة
الثروة الزراعية
هي منطقة سهلة معدة للزرع من أولها إلى آخرها، يساعدها المناخ، ككل مكان في
أوربا الشرقية الجنوبية، على نمو جميع النباتات. وأكثر ما ينبت فيها من المزروعات
القمح، الشعير، الشوفان، الذرة، الدخن، الخردل، الباقلاء، عباد الشمس، الدباء،
البنجر، الجزر، الخيار، البطيخ، الشمام، البطاطس، وسائر أنواع الخضروات. ومن كثرة
اعتناء السكان بهذه المنطقة قد حالت اليوم إلى حديقة بجانبها بلابل تطرب وتغني
لجمالها. ليس هذا نتيجة العمل فقط، بل الفضل يرجع أيضاً إلى تربة هذه المنطقة
لأنها ليست إلا امتداد التربة السوداء من سهول كه رسونه ي، جزيرة القريم
وآسترخان في روسيا. هذه لتربة لها أكبر فضل في إنماء النباتات، لأنها تحتفظ بالمياه
من فصل المطر إلى فصل الجفاف، وهذا الجفاف يعوض قلة المطر في هذا الفصل
الأخير
أما الثروة النباتية فنجد الغابات ولا سيما في هضبة كواردي لاثر أي ده لي أرومان كما
يسميها الأتراك؛ ونجد الأشجار على اختلاف أنواعها والحشائش التي ترعاها الماشية
في جميع أنحاء المنطقة
قيمة الثروة الاقتصادية: يستغل الشعب كل ثروتها، ويديرها ويتصرف فيها كما يشاء
يستخرج من كل قسم في دوره مادة أخرى وتباع بثمن يساوي ثلاثة أضعاف ثمن
أصله. وتجار البلاد يصدرون كل سنة ملايين من الأطنان إلى خارج القطر من ميناء
كوستنجه، لأنه تخزن فيها كل ما يحمل إليها القطار من داخل البلاد والبواخر من
الدانوب ومن الأنهر الأخرى
هذه المنطقة التي تلخص البلاد الرومانية في نفسها تبلغ مساحتها 23. 285 كيلومتراً
مربعاً، وهي مقسمة إلى شطرين قديم وجديد
وكل شطر من القديم والجديد في دوره مقسم إلى قسمين، أي سنجافين

فدوبروجه القديمة مثلاً لها سنجافان: الأول طولجا، والثاني كوستنجه، وهما في الشمال. ودويروجه الجديدة أيضاً لها سنجافات ولكنهما في الجنوب، الأول كاليافرا، والثاني دوروستور. ومراكز هؤلاء السناجق كالآتي: طولجا مركزه مدينة طولجا، وكوستنجه مركزه مدينة كوستنجة، وكاليافرا مركزه مدينة بازارجعة، ودوروستور مركزه مدينة سلسترة. وهذه مدينة محصنة لها تاريخ مجيد مع الأتراك إذ اشتركوا فيها والجنود المصريون في الدفاع عن هجوم الروسيين عليها

(يتبع)

يوسف. ع. ولي شاه

الحرب في أسبوع

للأستاذ فوزي الشتوي

ماذا بقي لفرنسا

من كان يصدق أن فرنسا تقبل مثل هذه الشروط؟ ومن كان يصدق أن وزارة المارشال بتان العسكرية تعتبر مثل هذه الشروط التي فرضتها ألمانيا على فرنسا شروط صلح شريف؟ ولعله يتيسر لنا أن نقدر فداحة النكبة الفرنسية إذا فرضنا أسوأ الفروض، ثم قارنا بين ذلك الفرض السيئ وبين ما قبلته فرنسا الآن وأكبر النكبات القومية إطلاقاً هي احتلال أرض الدولة، ونزع السلطة من يد حكومتها. وهذا ما فعلته ألمانيا مع فرنسا. ألم تحتل ثلثي أرضها وجميع شواطئها الغربية فماذا بقي لفرنسا؟ أهي تلك الرقعة المحدودة المحاطة بجيوش الاحتلال من جميع جهاتها؟ أم هي السلطة التي منحت لوزرائها على أن يعملوا تحت المراقبة الألمانية النازية؟ أم هي المستعمرات التي فصلت عن أمها ولم يبق بينهما من رباط؟ أم هي القيود التي فرضت على الصناعة والتجارة والحرية في القول والعمل؟ ماذا بقي لفرنسا إلا موجة الحزن والأسى وندب الماضي المجيد والكرامة المهدرة؟

أنصار الهزيمة

لقد بكي الكتاب فرنسا ممثلة في باريس ما وسعهم البكاء، وشكوا إلى العالم ما أصاب عاصمة النور والحرية ما وسعتهم الشكوى، ولسنا أنصار هزيمة، ولا شكوى، ولا أنين؛ ولكننا نتعلق بحبال قوية من الأمل، لا بخيوط ضعيفة من الرجاء؛ فلم تضع الحرب أوزارها، ولم يمل العدو شروطه بعد، بل إن الأمر ما زال تحت حكم الجنيه الذهبي، والعزيمة الصادقة

وإذا كانت دعوة أنصار الهزيمة قد طغت على بتان وفيجان ودارلان، فألقوا بسلاحهم، فما زالت دعوة أنصار النصر تطغي إلى دي جول وبلانشار وتشرشل. فالأولون شيوخ من أبناء المدرسة القديمة التي حكم من عزمها الفشل القريب، والأخيرون من أبناء المدرسة الحديثة التي يقوي من عزمها ما تجد في متناول يدها من موارد هائلة تكفي لكسب النصر،

وما تجد في دمائها من قوة تحبب إليها الموت على حياة تخسر فيها شرف بلادها وكرامتها

وإذا كان الاحتلال مسلماً بأمره اليوم، ومفروضاً فيه أن يستمر إلى نهاية الحرب؛ فلسنا نجد مبرراً واحداً يتيح لوزارة بتان أن تتخلى عن القتال؛ اللهم إلا إذا كانت شهوة الحكم بضعة شهور، وهي شهوة لا تلبث أن تموت في نفوس أصحابها إذا انقضت ساعة الشهوة وأتت ساعة التفكير في المصير، ولا تلبث هذه الشهوة أيضاً أن تنقلب إلى ندم وتكفير، حيث لا ينفع ندم ولا تكفير

شهوة الحكم

ونستطيع أن ندرك أثر هذه الشهوة في نفس بتان إذا عدنا إلى ماضيه. فقد حصل على مجد كبير، وتمتع باحترام لم يتمتع به فرنسي آخر، فهو البطل الذي احتفظ بفردان في أيدي الفرنسيين طول حرب سنة 1914 فكانت أخطر نتوء في صفوف الجيوش الألمانية، وكانت بمثابة المركز الذي أفسد عليهم سيطرتهم على خطوط مواصلاتهم. فهو رجل عظيم حقاً، ولكن عظمته عسكرية فحسب، فلم يتقلد مناصب الحكم، ولم يكن رئيس وزارة مرة واحدة. أفلا يتوق مثل هذا الشخص إلى أن يربط عظمته العسكرية بعظمة سياسية، ولا سيما وهو في آخر أيامه؟ أولا يتوق مثل هذا الرجل أيضاً إلى تخليد اسمه باشتراكه في هذا الحادث الفريد في تاريخ فرنسا؟ وهو

تخليد مؤلم ولكن له مبرراته وخصوصاً في نظر الشيوخ فقد أصيبت الجيوش الفرنسية بخسائر فادحة، وانقضى الأمل في الدفاع عن فرنسا
وهو عذر كاف يرضي الشيوخ. ولكننا واثقون أن بيتان سنة 1914 لو وضع في مكان بيتان سنة 1940 لما قبل هذه الشروط.
فالعزيمة التي ثبتت أربع سنوات وهي ترى بوادر الانحلال من حولها، والعزيمة التي قضت على مائة ألف ألماني في سنة 1914 ترفض رفضا باتا أن تخضع لانحلال يصيبها في ثلاثة أسابيع. ولكن هي الشيخوخة البالية، وحياة الرفاهية التي قضاها بتان في العشرين سنة الماضية بعيداً عن الحياة العسكرية جعلتاه ينظر إلى الموقف الحالي بمناظره الأسود
الرأي العام الأمريكي
فالإمبراطورية الفرنسية غنية وما زالت سليمة، والإمبراطورية البريطانية غنية وما زالت سليمة، وأمريكا غنية، وإذا لم تدخل الحرب اليوم فستدخلها غداً؛ فإعداد الشعب الأمريكي للحرب يحتاج إلى سنوات، والشعب الأمريكي الآن مستعد لقبول فكرة الحرب أكثر منه في سنة 1914، وهو لم يدخل الحرب الماضية عقب هزائم الحلفاء الأولى، بل استمر بعيداً عن ميدان القتال سنتين تقريباً، فهل انقضت هذه الفترة ليقطع بتان الأمل؟
والمعروف أن نقطة الضعف في المحور الديكتاتوري هي إيطاليا فإن قوتها العسكرية، ومعداتها الحربية، وصبر جنودها على متاعب القتال، وانكشاف سواحلها لا تقاس بمثلها عند الألمان، ولهذا كان من المقدر أن تصاب قواتها بخسائر فادحة تقضي على مقاومتها نهائياً وترغمها على التخلي عن ميدان القتال
ما خسرته الحرب
أدى تسليم فرنسا إلى تغيير كبير في الموقف، فلو استمرت في الحرب لنقلت قواتها البرية إلى ممتلكاتها في شمال أفريقيا، وهي تقدر بالملايين مما يسهل الاستيلاء على ليبيا وحصر إيطاليا في الشمال وألمانيا في أوربا، وتنفذ سياسة الحصر البحري والمناوشات الحربية البرية والجوية لكما سنحت الظروف إلى أن تنهار قوات المحور؛
وعلى العموم لم يؤد تسليمها إلى تغيير خطير. فقد أعلنت الممتلكات الفرنسية تصميمها على القتال، مخالفة بذلك قرار حكومتها، فإن الجندي الفرنسي يأبى التسليم بمثل هذه الشروط ولا سيما إذا كانت قواته سليمة كما هي الحال في تونس ومراكش وسوريا ولبنان
وخسرت إنجلترا بقبول فرنسا لشروط الصلح شيئاً واحداً، وهو القوات المحاربة الموجودة في فرنسا، ولكن المستعمرات لا تلبث أن تعد قوات غيرها، وقد أعلنت بريطانيا استعدادها لإمدادها بالعتاد الحربي اللازم، ومن مصلحة إنجلترا أن تضم إليها في القتال هذه البقاع من الأرض لتحتفظ بمركزها العسكري في البحر الأبيض المتوسط، فإن الشاطئ الأفريقي في غربه في يد الممتلكات الفرنسية، وضمان موالاته لبريطانيا له أهميته لثلاثة أسباب
أولاً - الاستناد إلى قواعده في تونس والجزائر
ثانياً - ضمان حياد طنجة، وهي البقعة المواجهة لجبل طارق وقد احتلتها أسبانيا في المدة
الأخيرة بالاتفاق مع فرنسا، وكانت من قبل بقعة محايدة
ثالثاً - تونس، ولها أهمية ممتازة لأن استيلاء إيطاليا عليها معناه شطر البحر الأبيض إلى قسمين، وبالتالي منع المواصلات بين شرق البحر وغربه، أو منع الصلة بين قنال السويس وجبل طارق
الأسطول البحري
ويلي المستعمرات الفرنسية في الأهمية الأسطول البحري الفرنسي، ولم ترد إلينا حتى الآن أخبار عما حل به؛ وإن كان الجنرال دي جول صرح بأنه تلقى وعداً من قادته بمواصلة القتال. والمعروف أن هذا الأسطول لم يكن وحيداً، بل كان موزعاً في عدة أماكن مع الأسطول البريطاني؛ فإذا حاولت قطعه الانسحاب وتنفيذ أوامر حكومة بوردو؛ فإن الأسطول البريطاني يتولى إغراقها حتى لا تكون تحت سيطرة الأعداء وفي اعتقادنا أن ربابنته لا يقلون وطنية عن الألمان، فإذا كان الألمان قد فضلوا إغراق

أسطولهم في حياة سكابافلوا في سنة 1914، عندما شعروا بأنه سيسلم إلى إنجلترا، فإن الفرنسيين لن يتركوه غنيمة سهلة لأعدائهم. ولا شك أنهم يفضلون القتال إلى جوار حلفائهم الإنجليز على إغراقه أو تسليمه؛ ولهذا فمن السهل أن ندرك أنه سينضم إلى الأسطول البريطاني في دفاعه عن قضية الديمقراطية، ولإعادة حرية فرنسا إليها، فإن نصر بريطانيا الآن هو الأمل الوحيد للفرنسيين الأحرار

والأسطول الفرنسي أسطول قوي حديث تمتاز وحداته بسرعتها، كما يمتاز رجاله بفهم دقيق لفنون القتال البحرية. به مدرعات خفيفة لا يوجد ما يماثلها في أساطيل الدول الأخرى، وبه غواصات ضخمة تستطيع تحمل السير في المحيطات؛ ويكفي أن نذكر أن حمولة الغواصة سيركون مثلاً 2880 طناً بينما الغواصات الأخرى قد لا تصل إلى نصف هذه الحمولة

ويتكون الأسطول الفرنسي من القطع الآتية:

سفن قتال. . . . . .
7

حاملات طائرات. . . . . .
1

مدرعات ثقيلة. . . . . .
7

مدرعات خفيفة. . . . . .
43

مدمرات. . . . . .
69

غواصات. . . . . .
87

المجموع. . . . . .
214

وعد بالنقض

وأشرنا في مقالنا الماضي إلى المناورة البارعة التي أذاعتها الحكومة البريطانية حينما أعلنت استعدادها لاتحاد الجمهوريتين البريطانية والفرنسية، وقد أنتجت هذه المناورة، فلم يتيسر لمندوبي هتلر أن يعلنوا فرنسا بعزمهم على الاستيلاء على الأسطول الفرنسي، بل اكتفوا بإعلان تجريده من السلاح، كما أعلنوا أنهم سيتركون بعض قطعه للدفاع عن المستعمرات الفرنسية

وبديهي من تتبع الوعود والاتفاقات النازية أن هذا الكلام لا يتجاوز الورق الذي سطر عليه، ولكن الغرض الأساسي منه هو استدراج هذه الوحدات إلى مناطق السيطرة الدكتاتورية، فإذا أصبح في متناول يدهم تلغى قصاصة الورق ويشترك الأسطول في الأعمال الحربية الدكتاتورية، فإن ألمانيا وإيطاليا في أشد الحاجة إلى مثل هذا الأسطول لتعزيز قوتهم البحرية، وليس من المعقول أن تهددهم بريطانيا بأسطولها ويكون تحت سيطرتهم أسطول يتركونه تنفيذاً لاتفاق لا يوجد ما يرغمهم على تنفيذه، ولا سيما أن سوابق هتلر تدل على أنه إذا وعد اليوم وعداً ينقضه غداً ويمكننا أن نرى في شروط الهدنة نفسها بوادر هذا النقض فهي تقول في المادتين الثامنة والتاسعة:

إن الأسطول

يستخدم في الرقابة الساحلية والتقاط الألغام.

ومعنى هذا عسكرياً أن الأسطول الفرنسي يستخدم في الأعمال الحربية لسببين:

1 - إن شواطئ فرنسا كلها في أيدي الألمان، فهو في هذه الحالة يدافع عن قواعد ألمانية من حق بريطانيا ضربها ومن واجب الأسطول الدفاع عنها

2 - تتجاوز الرقابة الساحلية الأعمال الإقليمية لأن أحد أركانها مراقبة حركات القوات المعادية وتدميرها كلما سنحت الظروف.

وهذا يفسر أن ألمانيا وضعت شروطاً مطاطة تبيح لها استخدام الأسطول على أوسع صورة ممكنة.

الأسطول الجوي

ننتقل بعد هذا إلى أداة قتال أخرى يسهل نقلها، وهي الأسطول الجوي الفرنسي. فمن الراجح أن كثيراً من أسرابه ستغادر قواعدها للانضمام إلى قوات بريطانيا، ولا نكون مغالين إذا قلنا إن بعضها قد غادر مطاراته فعلاً. فإن تمرد الضباط الفرنسيين على قرارات حكومة بوردو شمل جميع القوات والساسة وتناول المسيو رينو رئيس الوزراء السابق مما لا يدع مجالاً للشك أن كثيرين تبعوه مقتنعين بصحة رأيه
وفي شمال أفريقيا؟!
ويجد بنا ألا نختم هذا المقال قبل أن نقول رأينا عن الموقف العسكري في شمال أفريقيا، فهو موقف يستدعي التفكير. فالوعود الدكتاتورية لا يحدها اتفاق ولا قانون، وأحلام موسوليني بالإمبراطورية الرومانية حية زادتها الانتصارات الأخيرة قوة، فإذا كانت حركاته العسكرية في أفريقيا نائمة الآن، فلسببين:
أولهما: ضعف استعدادها في ليبيا بسبب اشتغالها في الحرب في أوربا، ووجود خمائر العرب المتمردين في ليبيا
ثانيهما: حر الصيف وطول الصحراء، وخلوها من الماء مع شدة الحاجة إليها لري عطش الجنود، وكثرة المقادير اللازمة لري هذا العطش في الصيف عنه في الشتاء فإذا زال هذان السببان فلن نلبث أن نرى الحركات على أشدها في شمال أفريقيا مستندة
إلى قواعد إيطاليا في ليبيا. وهذان السببان لا يلبثان أن يزولا بزوال الصيف وقدوم الشتاء
فقد خلا الميدان الأوربي من القتال، فيسعى الأسطول الإيطالي لنقل القوات الألمانية والإيطالية إلى ليبيا بتلك الأعداد الكبيرة والمعدات الهائلة.
وطبعاً يحرص الأسطول البريطاني على عرقلة هذه الصلات، ومنع وصول القوات إلى ليبيا
فإذا تيسر لقوات الحلفاء الاستيلاء على ليبيا قبل قدوم الشتاء فإن الموقف العسكري في شمال أفريقيا يصبح مضموناً ولا يقلق الناس إلا إغارات الطائرات وهي كما قلنا لا توصل إلى نصر عسكري حاسم.
فوزي الشتوي
بكالوريوس في الصحافة
رسالة الشعر
أنشودة
للأستاذ خليل شيبوب
سَكَنتْ ما بين جفنيكِ السماءْ ... وَكَسَتْ خدَّيكِ أنوار الشفقْ
فإذا وجهُك رفَّافُ الضياءْ ... بُهِتَ القلبُ إليه وَخَفَقْ
راعَ قلبي الحزينْ
فرطُ هذا الحنينْ
آه لو تعلمينْ
حسنُكِ المُبْدَعُ من سحرٍ ونورْ ... عطَّرَ الدنيا وحلاَّها ليا
فإذا غيرُ الهوى فيها غرورْ ... وسوى حسِنكِ يبدو داجيا
هُوَ لحنُ السنا
أنشدته المنى
فسبي الأعينا
أنصِتي فالليلُ يهفو عاطراً ... ويموجُ الصمتُ فيه والصدى
واسمعي رفرفةَ القلبِ به ... طائراُ بالدمع غنَّى وشدا
خافقاً في الظلامْ
حائراً متهامْ
يكتوي بالغرامْ
كلُّ من يهوى سوى قلبي يرى ... في الورى معبودةً يألفُها
فتعالَيْ إنَّ لي أمنيةً ... أتُرَى قلبُكِ لا يعرفها
أنتِ روحي والرجاءْ
أنتِ دائي والدَّواءْ

وشقائي والهناءْ
إيه يا مُنيةَ عمري حقِّقِي... مرَّةً في العمر لي حُلْمَ الحياه
آه من عينيكِ كم قطَّعتا ... مهجتي، أوَّاهُ من عينيكِ آه
سأموت. . . اسلَمِي
فاسمعِي وافَهمِي
وانظُري وارحمي
خليل شيبوب
بين عهدين
للأديب فؤاد بليبل
يا زَمانَ الهوَى وعهدَ الوِصالِ ... مَنْ مُعِيدٌ تلكَ الليالي الْخَوالي
حينَ كانَ الفُؤَادُ حُرَّاً طَليقاً ... نَاعِمَ البالِ خاليَ الْبِلْبالِ
طائِرهٌ وكْرُهُ على كلِّ غُصْنٍ ... وَهَوَاهُ مِل الرُّبى والتِّلَال
غَيْرُ وَقْفٍ عَلَى غَرامٍ وحِيدٍ ... أوْ أليفٍ فرْدٍ وَحُبٍّ حَلاَل
أوْ مِثالٍ مِنَ الجمالِ فَريدٍ ... فَلَهُ في الجمالِ ألفُ مِثال
شاعِرٌ هامَ بالمحاسِنِ حتى ... باتَ في الوَجْدِ مَضْرِبَ الأمثال
يَنْشَدَ الحُسْنَ حَيْثُ لاَحَ لِعَيْنَي ... هِ أفي البِيدِ أو أعالي بالْجِبال
يتصدَّى لهُ ولو صِنَ بالبِي ... ضِ سناهُ وَحُفْ بالأهوال
يتصدَّى لهُ على كلِّ صَدْرٍ ... كاعِب النهدِ غيْر سَهْلِ المنال
وعلى كلِّ مَبْسِمٍ يَشتهيهِ ... أوْ قَوامٍ مُرَنَّح مَيَّال
سابحٌ في الفضاء يَمْرَحُ زَهْواً ... بين حلٍّ على الهوى وارتحال
يتغنَّى على الأراكِ طَرُوباً ... مَرِحَ النَّفْسِ مُطمَئِنَّ البال
هَمُّهُ في الْحَيَاةِ أن يَطْرَحَ اله ... مَّ بعيداً لِعابدي الأموال
مُسْتَخِفًّا بالْعَيْشِ جدَّ قَنُوعٍ ... فَهْوَ في عُسْرِهْ سَعيدُ الحال
يَشْتَكِي الفَقْرَ والكَفَافَ سِواهُ ... وَهْوَ بالفقرِ والكَفَافِ يُغالي
تمْلِكُ الأُفْقَ والنُّجُومَ يَداهُ ... فلِماذا يَشْكُو مِنَ الإقلال؟
كلُّ ما في الوُجودِ يَدْعُوهُ لِلْصَفْ ... وِ وَيَحْدُو على الهوى والوِصال
فَجَمالُ الرَّبيعِ والزّهْوُ والدفْ ... ءُ وسِحْرُ الأسْحَارِ والآصال
وخريرُ الغُدْرانِ وَهْيَ شَوَادٍ ... واعْتناقُ الأدْوَاحِ والأدْغال
كلُّ ما في الوُجُودِ مِلْكُ يَدَيْهِ ... مِنْ جَمَالٍ وَرِقَّةٍ وَكَمَال
فَلِمَنْ هذه النُّجومُ الدَّراري؟ ... وَلِمَنْ تِلْكُمُ الشُّمُوسُ اللآلي؟
وَلِمَنْ هذه الوِهادُ الرّواهي؟ ... وَلِمَنْ تِلْكُمُ الجبالُ العَوَالي؟
وَلِمَنْ هذه السَّواقي السَّواقي ... دافِقَاتٍ بالسَّائغ السَّلسال؟
وَلِمَنْ ذلك الفَضا المُتَرَامي=وَمُحَيَّا الضحَى وَوَجْهُ الهلال؟
وَلِمَنْ هذه النَّسَائِمُ تَسْري ... سَرَيانَ الْحَياةِ في الأوْصال؟
وَلِمَنْ هذه الطُّيورُ الشَّوادي؟ ... كلُّ هذا لهُ فَكَيْفَ يُبالي!
هكذا كان في عهود صِبَاهُ ... ذَا خِلالٍ أعْجِبْ بها من خلال
ذهبيُّ الأحلامِ غيرُ جَزُوعٍ ... رَابِطُ الْجَأشِ عبقريُّ الخَيَال
كلُّ يوْمٍ لهُ غَرَامٌ جَدِيدٌ ... وَجُنُونٌ بِبَارِقٍ مِنْ جَمَال
وَفَضَاءٌ مِنَ الأمانِيِّ عَذْبٌ ... يَتلاَقى فيه الهدَى بالضْلاَلِ
وَعُهُودٌ مِنَ الْهَوَي خالداتٌ ... وَلَيالٍ أحْبِبْ بها من ليال
وَمَجَالٌ مِنَ الْمُجُونِ ظَرِيفٌ ... أين منه بَهَاءُ كلَّ مَجَال
وَرَنِينُ الأوْتَارِ تَحْسبُهُ السَّحْ ... رَ، وَسِرْبُ الْمَهَا وَوَحْيُ الدَّلال
وَنُزُولٌ في كلَّ يومٍ برَوْضٍ ... عَطِرِ الزْهرِ سُنْدُسيّ الظِّلال
وَفُؤاد بما يكنُّ سَعيدٌ ... صادقُ الوَجْدِ باسِمُ الآمال
واصْطِحَابُ الكِعَابِ مِن كل خَوْدٍ ... جَمَّةِ اللُّطفِ مِنْ ذَوَاتِ الْحِجَال
يتناقلْنَ شِعْرَهُ هَزجَاتٍ ... هَزَجَ الوُرْقِ في ظِلاَلِ الدَّوّالي
وَكؤوسُ الطِّلاَ تُدَارُ عَلَيْناَ ... مُشْرِقَاتٍ بالْبَابِلِيِّ الزُّلاَل
وَعُيُونٌ صَوَامِتٌ نَاطِقَاتٌ ... وَقُدُودٌ مَيَّاسَةٌ في اعْتِدَال
وَنُهُودٌ وَلاَ تَسَلْ عَنْ جَنَاها ... مُثْقلاتٌ بالْحُسْنِ غيرُ ثِقَال

ذَاكَ عَهْدٌ مِنَ الشبابِ تَوَلَّى ... لَيْتَهُ لَم يكنْ رَهِينَ زَوَال
وَفَتىً صِيغَ من شُعَاعٍ ونُورٍ ... فبَغَى، فاغتَدَى من الصَّلْصَال
وإذا بي قد اسْتَحَلْتُ إلَى غَيْ ... رِي وَجُرِّدْتُ مِنْ قَدِيمِ خِلاَلي
أنكَرَتْني نفسي وَأنكَرْتُ ما بي ... مِنْ جَفَاء وَغِلْظَةٍ وَاخْتِيَال
لَم أَعُدْ ذَلِكَ الْقَنُوعَ عَلَى الْحُ ... بِّ ولا ذلكَ الطَّرُبَ الخالي
وإذا بي وَقَدْ غدوت غَرِيباً ... عَن شُعُوري وعن رَقيق خِصَالي
وإذا المالُ لا يُعِيدُ قُنُوعي ... مِثْلَمَا كان أو يزيلُ مَلالي
وإذا الدَّهرُ لا يردُّ صفَائِي ... وانقيادي لِصَرْفِهِ وَامْتِثَالي
وإذا الْكَسْبُ لا يُخَفِّفُ مَا بي ... وإذا الْيُسْرُ لا يُحَقِّقُ فالي
وإذا النهرُ لا يَبُلُّ غَلِيلي ... لا ولا الكونُ كله لو غَدا لي
وإذا الْهَمُّ يَحْتَوِيني وَيَأبَي ... طَمَعي الجمُّ أنْ يَفُكَّ عقالي
وإذا الرَّوْضُ قد تَعَرَّى مِنَ الْحُ ... سْنِ فلا يرتدي سِوَى الأسْمَال
وإذا الفَجْرُ بَم يَعُدْ فيه ما كن ... تُ أَرَاهُ مِنْ رَوْعَةٍ وَجَمَال
وإذا الأفقُ ضَيِّقٌ مُكْفَهِرٌّ ... وإذا البدْرُ شَاحِبٌ في هُزَال
وإذا الزهرُ والخمائِلُ وَالوُرْ ... قُ تَنَكَّرْنَ لِلْفُوّادِ السَّالي
وإذا الكونُ خِسَّةٌ وَرِياءُ ... وَمَيَادِينُ شَهْوَةٍ وَاحْتِيَال
وإذا لم يَعُدْ يُشَنِّفُ سَمْعي ... مِنْ غِنَاء سِوى رنينِ (الرِّيال)
وإذا بي وقد رجعتُ إلى الطي ... نِ وَأَصْبَحْتُ مِثلَ باقي الرجال
حَدَّثُونا عَنِ الزّواجِ حَدِيثاً ... حَسَنَ السَّبْكِ شَائقَ الأقْوال
فَأَخِذنا بِبَارِقٍ من سَناهُ ... وَسُحِرْنَا بِمَنْطِقٍ خَتَّال
وَبُهِرْنا بِمَظْهَرٍ مِنْهُ عَذبٍ ... وَمُنِينا بِمَخْبَرٍ قتَّال
فَوَقَعْنا فيما خَشِينا وكنَّا ... عَنْ مَراميهِ في غِنًى واعتزال
فاضطُرِرْنا إلى الخضُوع وَبُؤْنا ... مِنْهُ بالهمِّ والأسَى والنَّكال
قَدْ طَمِعْنَا في كلِّ شيءٍ رَخيصٍ ... فَفُجِعْنا بكلِّ شيءٍ غال
(دار الأهرام)

فؤاد بليبل

رسالة الفن

بواطن وظواهر

وعندنا فنانات أيضاً . . .

للأستاذ عزيز أحمد فهمي

لا شك في أن المرأة إذا أخلصت للفن سادت فيه، ولكن المرأة تدخر فنها دائماً لنفسها، فهو سلاحها في الحياة لا تلقيه للناس لأنه لا سلاح لها غيره. ولكن الحياة ترغم بعض النساء على الفن، فمن رضى الله عنها عندئذ أخلصت لفنها وأطلقت نفسها فيه فسمت، وإلا فهي مذبذبة بين الفن وحياة الواقع، فهي ككل من يحترف حرفة يأكل منها الرزق حلالاً وإن كان يرجو النجاة منها . . .

وفي مصر - كما في كل بلد - كثيرات من محترفات الفن وإلى جانب هؤلاء قليلات من المخلصات

السيدة منيرة المهدية

حرفتها الغناء وفنها التمثيل. وأستطيع أن أقول بلا تحفظ إنها الممثلة الأولى في مصر. وليس عجيباً أن تكون كذلك، فقد قضت منيرة زمناً كانت فيه الغادة المصرية الأولى، وكان سعيداً من يحظى منها بتحية، ومحسوداً من تناجيه بكلمة راضية. ولم يكن جمهور منيرة من التلاميذ ولا الصبيان، وإنما كان من كبار الناس الظاهرين في البلد، الناجحين في أعمالهم المفروضة أشخاصهم على الشعب. وكان على منيرة أن تسوس جمهورها ومن وراء جمهورها من أفراد الشعب، وكان عليها أن تكسب رضاءهم جميعاً، وعطفهم جميعاً، وإعجابهم وتحمسهم. ولم تكن منيرة لتستطيع هذا إلا بالتمثيل، فهو الذي كان يمكنها من أن تضحك للنكتة السخيفة إذا ألقاها باشا من الباشوات جبراً لخاطره وستراً لسخفه، والتمثيل هو الذي كان يمكنها من أن تلتوي تدللاً على مثر من الأثرياء إذا هجر صالتها أو مسرحها زمناً فلم يتردد ولم ينفق في البار ما يقوم بنفقات الفن. . . فإذا هو بعد التواءتها مقيم في البار، آناء الليل وأطراف النهار. . . يريد أن

يسترضيها
منيرة ممثلة هائلة: وهي مغنية ممتازة إذا غنت، ولكنها لا تغني كلما غنت
سمعتها يوماً في رواية (الغندورة)، وكانت تنشد اللحن الأخير من الحان الرواية، وقد عرف الجمهور أن هذا اللحن هو اللحن الأخير فأخذ الناس يتسللون مغادرين المسرح، ووقف بعضهم يستمع اللحن متهيئاً للخروج بعد الفراغ منه ومتحرجاً من الخروج قبل الفراغ منه. . . وإذا بمنيرة (تنسجم) فجلس الذين كانوا واقفين، وعاد الذين كانوا يتسللون خارجين، وفاضت في الحضور جميعاً نشوة من الطرب نفثتها منيرة سحراً. . . وكنت أنا من أشد المنتشين بغنائها، وكنت أحملق فيها وأنا أسمعها فكنت أراها كأنما هي سكرى تترنح في ثبات رهيب. . . إي وحياة تلك الليلة كان ثباتها في سكرتها تلك رهيباً. . .
الآنسة أن كلثوم
فتاة حادة النفس كأنها فتى، هبطوا بها من الريف إلى القاهرة ليستغلوا مواهبها، فتيقظ عقلها، والتهب تفكيرها رغبة منها في المحافظة على كيانها، وفي تحقيق أحلامها، وكان من آثار هذا أن اختلق عقلها سوء الظن بالناس دفاعاً منها عن مجدها واسمها ونفسها، وصاحَبَ هذا شيء من الحرص الشديد على مالها، كما داخلها بعد ذلك شيء من الاعتداد بمكانتها
هي فنانة بالفطرة، تحب الجمال على نحو ما يحبه الرجال الفنانون، وهي تنحدر في ذلك إلى ما فوق نزعات المرأة حتى لترتج ارتياحاً وانبهاراً إذا رأت فتاة حسناء. وليست النساء هكذا، فالمرأة تغار من المرأة، ولكن أم كلثوم قد قتل شغفها بالحسن هذه الغيرة في نفسها. . .
مغنية شجاعة لا تتهيب من ألحان القصبجي على ما فيها من قفزات وتسلقات وانحدارات وتعقيدات جبارة
وهي مغنية طيعة، إذا ساقها فنان فياض مثل زكريا أحمد، أدت له بصوتها الممتاز الكامل كل ما يجول في خاطره من صوت بكل ما يضطرم في نفسه من إحساس وعاطفة
ولكنها مغنية مستخفة بكل شيء، إلا صوتها، فكم أذاعت على الناس أخيراً من ألحان ليس فيها إلا زعيق وصراخ، معتمدة في ذلك على أن الناس يسمعونها حتى إذا قالت (ريان يا فجل)!
حرام عليها أن تفعل هذا، ولكنها تفعله لأن بعض الملحنين غال، وبعضهم رخيص، والرخيص يسد أحياناً مسد الغالي، وأين هم الناقدون والذين يفهمون؟
وهي أيضاً ممثلة خفيفة الروح، غنية المشاعر، مجتهدة الحس. . . وهي أيضاً ناقدة سريعة الفهم صادقة التعبير عما تفهمه. . . ولها استعداد جامح نحو الفلسفة والتعمق في التفكير، ولكن الظروف لم تهيئ لها من يعاونها في هذا الاتجاه. وهي تشعر بتعطشها إلى هذه الناحية، فتقرأ وتحفظ وتطلع. . . ولكن قراءتها وحفظها واطلاعها أشتات، وإن كثرت، فلا رابط بينها
على أي حال. إنها فنانة مشبعة
الآنسة سهير القلماوي
صورة نسوية جامعية للأستاذ محمد عبد الوهاب: هو له فن، وهي لها فن؛ ولكن لكل منهما نفساً تشبه نفس صاحبه، وروحاً تشبه روحه
الآنسة (مي)
لم أرها إلا مرة واحدة، سمعتها فيها تلقي محاضرة بالفرنسية عن الشرق والغرب، وأنا محصولي من الفرنسية تافه، ولكني مع هذا كنت أفهم ما كانت تقول الآنسة مي، ولم يكن هذا ليحدث إلا لأنها كانت تقول كلاماً خارجاً من أعماق نفسها، فهو إذا قيل لم يكن اللسان وحده هو الذي ينطق به، وإنما كانت تقوله مع لسانها عيناها وجوارحها جميعاً، وأعصابها وروحها جميعاً
ولا ريب أن لهذا الانجراف الروحي وراء الأفكار والخواطر أثراً في النفس والأعصاب. ولا ريب أن الآنسة مي تعاني آلاماً كثيرة يجرها عليها هذا الصفاء وهذا التدفق. . . كان الله في عونها من أحلامها ووثباتها، وانحباس الفكر في نفسها، وانطلاق الفكر من نفسها. . .

!أين هي الآن؟
الآنسة جميلة العلايلي
كاتبة وشاعرة وقصاصة
حارة هي أيضاً، وصادقة، ولكنها عاصفة صغيرة. . . وهذا شأن الهواة جميعاً.
الآنسة ابنة الشاطئ
استطاعت أن تلفت الأنظار إليها بسرعة. فملأت الدنيا كتابة عن الريف والفلاحين وحياتهم. وهذا الموضوع لا شك في أنه أشد الموضوعات المصرية خطورة، وقد كان لابنة الشاطئ فيه جولات مجيدة
ولكني سمعت أنها (دحلابة) وأن لها برنامجاً رسمته لحياتها وهي تريد أن تحققه، وهي تستعين على تحقيقه بالكتابة. وهذا إذا صح آخذه عليها، لأن من عادة البرامج دائماً أن تكتف الفن وأن تقيده، وأن تطمسه أحياناً، وأن تدس إليه الأباطيل و (التزاويق) الفارغة. . .
اسمها (عائشة عبد الرحمن)
السيدة أمينة محمد
ليس في مصر راقصة مقتنعة بأن الرقص فن جميل إلا أمينة محمد. فكل الراقصات المصريات يحسبن الرقص احتيالاً على تعرية البدن وإظهار محاسنه وتناسقه وليونته، ولكن أمينة تتخذ من جسمها وسيلة تعبر بها عن معان يندر أن تكون بينها وبين الغريزة الجنسية صلة. وكما أنها تستعين على هذه المعاني بجسمها فهي تستعين عليها أيضاً بوجهها
وإن لها عينين تقول بهما كل ما يجول في نفسها، كما أن لها شفتين تؤكد بهما ما تقوله عيناها. ولو كان جمهورنا في مصر ينظر إلى الراقصة من أولها إلى آخرها ولا يقف نظراته على مواطن خاصة منها لانفردت أمينة محمد بالرقص في مصر. ولكن جمهورنا كما نعرف
ولست أدري لماذا لم يفكر نجيب الريحاني في أن يضم إلى فرقته هذه الفنانة التي تملأ مكان الراقصات الأوربيات اللواتي يعرضهن أحياناً، كما أني لا أدري كيف تهمل الفرقة القومية الرقص فلا تدخر فتاة مثل أمينة تمثل فيها هذا الفن
ولكني نسيت أن الفرقة القومية لها ناسها، وبعثاتها، وهي لا تعترف بأمينة ولا غيرها ممن كافحن في مصر وأوربا وأرغمن أهل الغرب على احترامهن وتقديرهن
السيدة فردوس محمد
أستاذة لها دراستها الخاصة في الحياة، ولها من وراء هذه الدراسة فنها الخاص وأسلوبها الخاص
لا أذكر أني رأيتها قبل (هوجة) الأفلام المصرية الأخيرة، ولا أذكر أني رأيتها في دور إلا وامتلأت اقتناعاً بها
مصرية صميمة في نظراتها، وفهمها وتعبيرها. لا أظنها تنكل عن دور مصري عصري، إن لم يكن تمثيلاً فتعليما. . . أي أنها تعلمه لغيرها إذا لم يكن الدور يليق بها
السيدة إحسان الجزايرلي
(أم أحمد)
ممثلة كوميدية يقول النقاد عنها إنها شعبية، ويقصدون من وراء قولهم هذا أنها ليست أرستقراطية. والواقع أن الأرستقراطية في الفن ليست شيئاً غير ثقل الدم والظل. وقد أنقذ الله (أم أحمد) من هذا، فهي تمثل كما تنطلق القنبلة، فتنفجر في النفوس ضحكات وقهقهة
وهي لا تريد من الناس شيئاً أكثر من ذلك. وقد تركت الأرستقراطية لغيرها.
السيد ماري منيب
معلمة إحسان الجزايرلي. أو هي (أم أحمد) القديمة
وهي تعمل اليوم عند الريحاني، وهو يعرف كيف يستغلها، وهي تعرف كيف ترضيه على ما فيه من قسوة في عمله وملاحظاته، كما أنها تعرف كيف ترضي جمهوره على ما تربى فيه من براعة الذوق
فنها غير محدود لأنها لا تقلد ولا تتقيد، وإنما هي تلون نفسها حسبما يتطلب دورها، وهذا أقصى ما يطلب من الممثل أو الممثلة

ميمي وزوزو شكيب
لم أكن أصدق أن هاتين السيدتين ستستطيعان أن تحتفظا بمكانتهما على المسرح أكثر من موسم واحد. ولكن الريحاني ثبتهما فكانتا من كراماته
هما في الأصل تغيظان وتكيدان. . . ولكنهما اليوم تضحكان. . . على أن الذي يتأملهما ويتأمل ضحكه منهما يرى أنهما لا تزالان. . .
الآنسة أمينة رزق
بطلة الأستاذ يوسف وهبي وتلميذته وذراعة اليمنى. فنانة لها (شخصية) تجبر على الاحترام. فيها براءة ظاهرة تمازجها إمارات الحكمة
لابد أن تكون أمينة رزق فيلسوفة إلى جانب ما هي ممثلة
السيدة علوية جميل
سيدة مصرية ناضجة، رزينة، عميقة هادئة، وأخلاقها هذه تظهر في تمثيلها، والأستاذ يوسف وهبي يعرف فيها هذه الأخلاق فهو يسند إليها ما يلائمها من الأدوار فتؤديها على خير ما يمكن أن تؤدى به. . .
يراد بها أحياناً أن تمرح، ولكنها إذا مرحت ظهر لمن يرى أنها تستثقل المرح. وقد يرجع ذلك لسبب لعله من خصائصها هي. . .
فتحية ومفيدة أحمد
أختان مغنيتان. فتحية الكبيرة ومفيدة الصغيرة. كلما رأيتهما أو سمعتهما حسبتهما أزهريتين، مع أني أعلم أنه لا صلة للأزهر بالنساء. وقد يكون ذلك لأن أباهما كان شيخاً وأنهما استقتا فنه وروحه وحركاته وإشاراته
وهما قريبتان جداً من كل روح مصرية. وهما تصدقان كثيراً في غنائهما لأنهما تحبان الغناء حقاً؛ وقد كانت كبراهما فتحية من ربيبات سيد درويش اللواتي كانت تهتز لهن روحه. . .
عزيز أحد فهمي
بعيداً عنا
في مجاهل الكون
للدكتور محمد محمود غالي
الموجات الكهربائية وباطن الأرض - الحواس أجهزة طبيعية - الكلب هول - الحمام الزاجل - في طريق تعرفنا صفات محتملة لغيرنا من الأحياء على الكواكب.
لو أن أحداً من الناس قال لنا إنه يستطيع، وهو في طائرة، أن يعرف هل يُخفي باطن الأرض التي يعلوها بترولاً أو ماء، ويعرف عمق الطبقة الموجود فيها هذا البترول أو هذا الماء، ويعرف، فوق ما ذكرنا، أيكون الماء الموجود تحت طبقة الأرض التي يطير فوقها ملحاً أم صالحاً للشرب، دون أن ينزل من طائرته على سطح الأرض، ودون أن يلجأ إلى حفر آبار فيها، لقلنا في أنفسنا إن قوله هذا حديث خرافة
ذلك أننا معتادون دائماً أن نصدق ما هو في حدود حواسنا وأن نؤمن بما تستطيعه هذه الحواس، فتفكيرنا مرتبط بمقدرتها واستيعابنا للكون متعلق بعملها، وكثيراً ما ننسى أنه بدراسة طبيعية في الكون، وما ينتج عنها من ابتكار أجهزة دقيقة، نستطيع أن نجد وسيلة لامتداد حواسنا وسبيلاً لاتساع نطاق أعمالها، بحيث نصبح في ظروف عديدة قادرين مثلاً على أن نرى ما كنا عاجزين عن أن نراه، ونسمع ما كان يستحيل علينا سماعه.
ولا يدهش القارئ بعد ذلك من استطاعة الطائر أن يعرف ما هو دفين في باطن الأرض، ففي هذه المسألة بالذات وفيما يخص البترول أو الماء نجح العلماء في ظروف خاصة نجاحاً يبعث على الدهشة، وبوسائل علمية حديثة وأجهزة طبيعية دقيقة توصل العلماء إلى معرفة ما تخفيه الأرض من بترول أو ماء دون اللجوء إلى وسائل الحفر المعروفة، وليس المجال هنا لندخل في تفاصيل هذه المسألة التي يتوافر على دراستها بالتفصيل كل من أتيحت له فرصة دراسة علوم الطبيعة الأرضية فقد بات من المعروف أنه يمكن بدراسة خاصة، يقوم بها المهندس وهو على سطح الأرض أو بعيداً عن سطحها، أن يستنتج الشيء الكثير عن باطنها، بمعنى أن دراسة طبيعية فوق الأرض تؤدي إلى معرفة جيولوجية في جوفها، تكون في كثير من الأحيان عظيمة الأثر

إنما أحدث القارئ في هذا عندما ننتهي من استعراض الحلقات العلمية الكبرى التي توصل
إليها الإنسان في عصرنا الحديث مما له اتصال بتفكيره، عندئذ أحدثه في مسألة أتاح لنا الفلاح المصري معرفتها، وذلك بالإنفاق على بعثتنا في الخارج، وأتاحت لي الظروف بعد العودة القيام ببعض الأبحاث عنها، وذلك مع أحد المؤسسين للطريقة المعروفة باسم: (الطريقة الإلكتروديناميكية) الخاصة بالتنبؤ بما في باطن الأرض
وهذا الباحث الذي صادفته في مصر منذ أربعة أعوام، واشتركت معه في القيام بأبحاث علمية تدور حول هذا الموضوع هو (هنريش لوفي) ? من (فينا)، وهو الذي قام بتجارب علمية قيمة أجراها من منطاد (زبلن) المعروف حيث كان يقوم ببعض التجارب الكهربائية الخاصة بهذا الموضوع في أثناء رحلات هذا المنطاد المتعددة بين ألمانيا وأمريكا
إنما ذكرنا هذه الأبحاث التي قام بها (لوفي) منذ سنة 1910 والتي ساهمنا فيها بقسط يسير في السنين الأخيرة لغرض واحد، ذلك أننا نريد من القارئ أن ينظر إلى ما نملكه من الحواس النظرة العلمية الصحيحة التي نفهمها منها، وألا ينسى - كما يحدث لكثير منا - أننا وإن كنا في حاجة إلى هذه الحواس لمعرفة كنه العالم الذي نعيش فيه أو معرفة شيء عن العوالم البعيدة عنا، فإنها لا تكفي بذاتها للقيام بشتى هذه المعارف، وأن هناك من العلوم عامة والعلوم الطبيعية خاصة سبيلاً نستطيع به أن نُعَدِّل في مقدرة هذه الحواس، فتصبح بما نضيفه إليها من أجهزة طبيعية أكثر استطاعة على استطلاع حقائق الوجود، وأعظم شأناً في معرفة أسرار الكون
ثمة مسألتان نود لأن يتأملهما القارئ: الأولى أن الحواس في ذاتها أجهزة طبيعية يمكن بذكاء الإنسان أن تمتد كما ذكرنا فتصبح أقوى على المعرفة وأقدر على الاستنباط، والثانية أن الحواس ذاتها تختلف عند المخلوقات الحية التي نعرفها في قدرتها ومواهبها اختلافاً بيناً؛ ومنها ما هو ليس بحاجة لهذا التحايل الذي يعمد إليه الإنسان وهذا الامتداد الذي يجعل منه مخلوقاً أقوى من طبيعته، وعن المسألة الأولى ذكرنا أننا لسنا في حاجة إلى حفر بئر عميق لنعرف مقدار مستوى الماء أو البترول تحت سطح الأرض، وعن الثانية نذكر القارئ بمثالين طالما سمعهما وقد لا يكون أعارهما الالتفاتة التي نرجوها الآن
الأول: كلنا سمع بالكلب (هول) الذي استطاع البوليس المصري بعد تدريبه أن يجعله قادراً على أن يتعرف الجناة من آثارهم، وهو حيوان لا يخطئ عادة في القيام بهذه المهمة، مهما
كان الأثر ضعيفاً، ما لم تمر مدة كافية بين حدوث الأثر وبين إحضاره
وإني أقص على القارئ حادثة وقعت لي شخصياً مع الكلب (هول)؛ فقد أردت بتجربة بسيطة أن أتعَرَّف مدى قدرته على معرفة صاحب الأثر، فأخرجت (البيبة) التي أدخن عادة بها، ولمست بها الحائط بعيداً عن الكلب وبحضور جمهور كبير من الناس، بحيث لم يشاهدني عند لمس الحائط بطرف هذه (البيبة)، بعد ذلك، ودون أن يراني، أعطيت (البيبة) إلى أحد الأشخاص العديدين الذين حضروا هذه التجربة، ولم يخفها في جيبه، بعد ذلك وجه (الصول) المكلف بتدريب الكلب هذا الحيوان نحو الأثر، وتركه يشم الموضع من الحائط الذي لمسته (البيبة)، ولم يمض بضع دقائق حتى سعى الكلب إليَّ يتعرّفني رغم الازدحام، ولم يَسْعَ إلى صاحبنا حامل (البيبة)، ذلك أن في هذه (البيبة) آثاري لا آثار من حملها أخيراً في جيبه، وذلك أن في (البيبة) شيئاً مني يشعر به الكلب، ولا تستطيع حواسنا الضعيفة أن يكون لها هذه القدرة من الشعور
الثاني: كلنا سمعنا بالحمام الزاجل، إننا نستطيع أن نأخذ واحداً من هذا الطير العجيب من قفص مقفل، لا يرى منه ما هو حوله، ونسافر به من مكمنه الأصلي إلى بلدة بعيدة عن البرج الذي تعَوَّده، ويصح أن تبتعد هذه البلدة بضع عشرات الكيلو مترات عن برجه الأصلي؛ ومع ذلك لو أننا تركنا ذلك الطائر حرًّا بعد ذلك السجن وذلك الابتعاد لعاد أدراجه إلى حيث موطنه الأصلي؛ ويمكن أن نستدل من الحساب على أنه يعود في وقت يتفق مع السرعة المعروفة عن طيرانه، وبعبارة أوضح يعود الطائر إلى مكانه الأول، دون إجراء بحث جدَّي عن هذا المكان، أو إضاعة وقت في سبيل العثور عليه غير الوقت اللازم للقيام بهذه الرحلة الطويلة

ترى ما هي تلك الصلة الموجودة بين الطائر وبين المكان الذي اعتاد أن يعيش فيه؟ ترى هل هذه المقدرة على العودة ترجع إلى تركيب خاص في حواسه، أو إلى أسباب طبيعية أو كهربائية تربطه بهذا المكان بالذات، ولا نزال نجهلها؟. كل هذا حدس وتخمين، وليس المجال هنا لندخل في تفصيلات هذه المسألة، وليس المجال لنردد للقارئ بعض الآراء التي استعرضها لنا مسيو (بيلان مخترع البيلانوجرام، أو جهاز نقل الصور باللاسلكي، عند زيارته معي لأحد أبراج هذا الحمام في ضَيْعَة قضينا فيها يوماً من أيام مارس سنة 1938

في ضواحي القاهرة

وإنما أريد أن أخرج من هذا بشيء واحد، ذلك أن للكلب هول وللحمام الزاجل ولغيرهما من المخلوقات التي نعرفها والتي لا نعرفها مقدرة تفوق مقدرتنا في تعرف بعض المسائل الخاصة بالكون الذي يحيط بنا أو الذي نحن جزء منه

ولعل القارئ يتفق معنا الآن على مسألتين يصح أن يذكرهما

الأولى: هي ضعف حواسنا، واستطاعتنا أحياناً اللجوء إلى امتداد عملها بما نضيفه إليها بذكائنا من أجهزة طبيعية تصبح متممة لهذه الحواس. والثاني اختلاف هذه الحواس في المقدرة اختلافاً كبيراً عند الكائنات الحية

نعود مع القارئ بعد هذه المرحلة التي ذكرناها إلى ذلك المخلوق الذي تكونت عنده حاسة النظر بحيث يرى الأشياء المجسمة بطولها وبعرضها ولا يستطيع أن يُميِّز مها ارتفاعها، وهو المخلوق الذي قلنا عنه في مقال سابق إنه يرى الأشياء في صور تختلف عن الصور التي نراها عليها، فهو يرى من عَل مركبة الترام مستطيلاً، ويرى الكمساري والسائق دائرتين إحداهما ثابتة والأخرى متحركة على حافة هذا المستطيل ويرى الراكبين دوائر متراصة ف صفوف متوازية

هنا نذكر للقارئ شيئا ذكرناه من قبل، ذلك أننا في حاجة إلى ذكر هذا المخلوق العجيب لكي نشرح موضوعاً يتراءى لذهننا ويجول بخاطرنا، موضوعاً كان استعراضنا لمظاهر الإشعاع سبباً لالتماعه في الذهن واقترابه في الفكر؛ وقد وجدنا ونحن نخاطب القارئ أننا في حاجة قبل المضي في هذا الموضوع إلى الرجوع رويداً إلى معرفتنا لحواسنا وفهمنا لقدرتها، وإلى ذكر ارتباط بينها وبين ما يستنبطه الإنسان كل يوم من أجهزة طبيعية دقيقة

وسيرى القارئ، أن بين الإنسان الحاد الذكاء والكلب هول العجيب، والحمام الزاجل، وهذا المخلوق الذي يرى من الكمساري دائرة تنتقل، وبين ما نريد أن نتخيله أو نفترض وجوده من مخلوقات على الكواكب السيارة (سواء أكانت هذه المخلوقات موجودة على الكواكب التي تدور حول شمسنا أم كانت حول غيرها من الشموس) نوعاً من الارتباط، نود أن نتبينه عندما نجيز لأنفسنا التحدث عن مخلوقات غير تلك التي عهدناها على الأرض

وما مقالنا السابق أو مقال اليوم إلا نوع من المداعبة العلمية السائغة، كانت النفوس في

حاجة هذه الأيام إليها، وذلك للترفيه بعض الشيء عن القارئ إزاء ما يحدث في العالم من تغييرات سريعة، وما هو واقع اليوم من تطورات ربما كانت أكبر ما عرفناه في التاريخ؛ تلك التطورات التي تجري اليوم في أوربا، والتي يحتمل أن يكون لها اثر على حياتنا في مصر

وإذا كنا قصدنا هذا النوع من الترفيه أو الراحة مع القارئ في مقالين متتابعين، وإذا كان هذا سيظل رائدنا في المقال القادم أيضاً، فإنما ذلك لكي ننشط إلى عمل، أكثر إلى الجد منه إلى المداعبة؛ عند ذلك نعود إلى حظيرة العلم الذي لا يعرف في البحث غير التقريب من حقيقة الكون

محمد محمود غالي
دكتوراه الدولة في العلوم الطبيعية من السوربون
ليسانس العلوم التعليمية. ليسانس العلوم الحرة. دبلوم المهندسخانة

البريد الأدبي
حركة النشر في دمشق - عتب وبيان

حضرت مجلساً فيه جماعة من المؤلفين والناشرين، فكان من حديثهم أن دمشق ضائعة بين مصر ولبنان؛ فلا هي ترتضي مذهب لبنان في الأدب، ولا مصر تلقي لها بالاً وتحفل بها، وساقوا على ذلك أمثلة كتباً كثيرة أهديت إلى المجلات المصرية وإلى كبار نقاد مصر، فأهمل أكثرها فما كتب عنه حرف واحد، وكتب عن بعضها ما لا يكفي ولا يفي؛ فرأيت أن أذكر لقراء الرسالة بعض هذه الكتب ليطلع عليه من يهتم بحركة النشر في دمشق، ويعلم أصحابها أن العرف لا يذهب بين الله والناس، وليكون ذلك عتاباً لإخواننا نقدة الأدب في مصر وذكرى

فمنها (سيد قريش) للأستاذ معروف الأرناؤط؛ وهي من أجل ما اخرج أدباء القصة العربية في زماننا. ومنها روايته الأخرى (عمر بن الخطاب)، فإنهما على انتشارهما في الشام والعراق ودخولهما كل منزل ما كتب عنهما في مصر ولا تعرض لهما النقاد. ومنها (المتنبي) و (الجاحظ) للأستاذ شفيق جبري ومنها الكتاب القيّم (جولة أثرية في سورية الشمالية) للأستاذ وصفي زكريا، حتى أن منها كتاب (الإسلام والحضارة) للأستاذ الكبير كرد على، لم أقرأ لناقد من النقاد المعروفين شيئاً عنه ولا عن كتابه الآخر (أمراء البيان). ومنها (سيرة أحمد بن طولون) للبلوي، وهو كتاب جليل نشره الأستاذ كرد على وعلّق عليه وقدَّم له، ومنها (أعلام النساء) لعمر رضا كحالة في (1668) صفحة، جمع فيه من تراجم النساء ما لم يجمعه كتاب قبله، ومنها كتب أساتذة الجامعة، ولا سيما أساتذة كلية الطب، الذين قاموا بأعظم عمل يمكن أن يقوم به أمثالهم لخدمة اللغة، فوضعوا المصطلحات العربية لكافة الأمراض وما يتصل بها، والأدوية وأعضاء الجسم، ومن كتبهم (فن الجراثيم) للطبيب اللغوي الأديب الدكتور حمدي الخياط في (1860) صفحة معها لوحات فنية كثيرة، و (صحة الأسرة) له في (400) صفحة، و (الصحة العامة والاجتماعية)، (1000) صفحة، وكتاب (فلسفة الطب) للدكتور حسني سبح عميد كلية الطب، وهو سبعة أجزاء صدر منها ثلاثة في (2704) صفحة، وله كتب أخرى، و (علم الأمراض الجراحية) للدكتور مرشد خاطر في نحو (4000) صفحة، ومنها كتب أساتذة الحقوق، فارس بك الخوري، وله (علم المالية) و (شرح أصول المحاكمات الحقوقية)، وسعيد محاسن بك نقيب المحامين، وله الشرح القيم على مجلة الأحكام العدلية، وله (القانون المدني الإسلامي)، وشاكر بك الحنبلي، وله (الحقوق الأساسية) والمباحث القيمة في الحقوق الإدارية

ومن الكتب التي نشرت في دمشق (فتاوى شيخ الإسلام زكريا الأنصاري) و (ديوان الكاظمي) و (أصول التفسير لابن تيمية) و (بحر العوام لابن الحنبلي) و (البخلاء للجاحظ) و (المنقذ من الضلال للغزالي) و (إصلاح ما تغلط فيه العامة للجواليقي) و (الإجابة للزركشي) و (المفاضلة لابن حزم) و (طوق الحمامة له أيضاً) و (روضة المحبين لابن القيم) وهما كتابان في الحب لإمامين من أعظم أئمة الدين و (فتاوى الإمام النووي) و (الرسالة المستطرفة للعلامة جعفر الكتاني) في تاريخ علم الحديث و (الصبح المنبي للبديعي) و (ذكرى الشاعرين) و (تهذيب تاريخ ابن عساكر) و (عبد الله بن المقفع للأستاذ الجندي) و (الجاحظ) و (ابن العميد) و (الصاحب) و (ابن المقفع) للأستاذ خليل مردم بك، و (امرؤ القيس) للأستاذ الجندي و (أبو بكر الصديق) و (عمر بن الخطاب) للطنطاوي، و (خالد بن الوليد) لكحالة، و (أسواق العرب) للأفغاني.

وأنا أظن أن هذا كله، وهذا بعض ما نشر في دمشق لم يحفل به، ولا ببعضه ناقد من كبار نقاد مصر، أفلا يحق لنا أن نعتب، وأن نذكر، وأن نرجو، وأن ننتظر؟

علي الطنطاوي

فتوى لجنة الإفتاء بالأزهر في فائدة الأربعاء

لا أنكر أن فتوى لجنة الإفتاء في هذه الفائدة خطوة موفقة في سبيل الإصلاح الديني، والقضاء على ناحية من نواحي الفساد في البلاد، ولكني آخذ على اللجنة أنها اهتمت في هذه الفائدة بناحية الشكل، ولم تهتم بالأصل الذي تقوم عليه من جواز التوجه إلى أصحاب الأضرحة في قضاء الحاجات، بقطع النظر عما يلجأ إليه في ذلك من تحديد زمان أو مكان أو كيفية للعبادة لا اصل له وفي أفتى العالم الكبير في هذه الفائدة بجواز التوجه على أصحاب الأضرحة في قضاء الحاجات، ولا شك أن فتوى لجنة الإفتاء

جاءت رداً على فتواه، فلم يكن من اللائق مع هذا أن تهتم فتواها بما اهتمت به، ولا تعطينا حكما صريحاً
في ذلك الأصل الذي قامت عليه تلك الفائدة، فهل يليق أن يبقى عامة المسلمين على ما هم عليه الآن من الاعتقاد في تأثير أصحاب هذه الأضرحة في أمور دنيانا، وتجاهل الأسباب المشروعة التي سنها الله تعالى، وهل قامت هذه الأضرحة على أساس صحيح، وهل قيست ولاية أصحابها بمقياس الولاية في الشرع؟ ورأيي أنا أن كل هذا لا يصح أن يبقى بيننا، وأنه يجب أن نتخلص منه، ولنا فيما فعلته بعض الحكومات الإسلامية أحسن أسوة
(عالم)
1 - حول آية إطعام الطعام
اطلعت على ما كتب في (الرسالة الغراء) في هذا البحث، فأرجو أن يتذكر الأستاذ محمود محمد سويلم أن (خصوص السبب لا ينافي العموم) فسيدنا علي رضي الله عنه داخل في هذا العموم دخولاً أولياً بالنظر إلى أنه سبب نزول الآية
وأول من ضرب على هذا الوتر بتوسع هو الحافظ بن تيمية في كتابه (المنهاج) وكون السورة مكية ليس بأمر مقطوع به
2 - نيف
كنت أرى بعض الكتاب الناشئين يستعملون كلمة (نيف) قبل العدد، ثم رأيت الأستاذين العقاد وكرد علي يستعملانها كذلك فوجب التنبيه على صحة استعمالها:
قال في القاموس المحيط (والنيف ككيس: الزيادة، يقال عشرة ونيف)، وقال في المصباح المنير (ولا يقال نيف إلا بعد عقد نحو عشرة ونيف ومائة ونيف وألف ونيف)، وكذلك في كتب اللغة الأخرى
عفيفي علي موسى
القصص
من أثر الوعيد
مترجمة عن الإنكليزية
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار
ركب الضابطان: (كامبل) و (هاريس) جواديهما واتجها إلى الغابة، وكان الفصل فصل الربيع، والجو دافئاً معطراً، وكان يلذ لهما إمتاع النظر في ألوان الطبيعة والسكون في الغابة البعيدة عن جلبة الحياة وضوضائها. ولما ابتعدا عن المدينة رأيا أبنيتها الضخمة كأنها قطع من الأحجار الملوَّنة، وبجانبها نهر الرين، وقد انعكست عليه أشعة الشمس، فبدا كأنه خط من النور
وأشعل كل من الصديقين لفافة، وألقى (كامبل) عود الثقاب وراقبه وهو يسقط على الأرض، فرآه قد وقع على كثيب من الحشائش الجافة المتروكة في الصيف الماضي وسرعان ما اشتعلت هذه الحشائش، وكان الرجل طيب القلب، فلم يترك النار تلتهم الغابة، فنزل هو وصاحبه فأطفآها. ورأيا في هذه الأثناء وراء الكثيب المحترق طريقاً ضيقاً بين الأشجار، فقال كامبل:
- ألا ترى هذا الطريق؟ أتعرف إلى أين يؤدي؟ دعني أمر منه . . .
فأجابه:
- بل تعال نركب، لأن الجوادين يتصببان عرقاً، وقد يضربهما الوقوف الآن
ولكن (كامبل) أصر على الذهاب وقال: إنه سيعود سريعاً. ثم اختفى بين الأشجار التي وراء الكثيب، وامتطى هاريس جواده، وظل يدخن لفافته، منتظراً عودة (كامبل)
وكان كامبل كثير التطلع إلى شئون يحب أن يعرف كل شيء ويتدخل في كل أمر.
وبعد دقائق شمع صوت صاحبه يناديه، وكان الصوت ضعيفاً، فنزل عن جواده وجرى نحوه بعد أن ربط الجوادين. ولم يزل يجري حتى رأى كهفاً متسعاً، وسمع صوت كامبل آتياً منه، فدخل الكهف محترساً وهو يشم رائحة غريبة، وقال كامبل: (هل تشم شيئاً؟ إنني أشم رائحة ميت؟ هل معك كبريت؟ إنني لما جئت تذكرت أن ما معي منه قد نفذ)
فقال هاريس: (ليس معي غير عيدان قليلة)، ثم أخرج علبة الثقاب وقال: (ليس فيها غير عودين فخذها)

أشعل كامبل أول عود فلم يحترق، وأشعل الثاني فرأيا على نوره الضئيل كتلة سوداء لم يتبناها، وتصاعدت من جهتها رائحة كريهة، ثم انطفأ العود وأظلم المكان، فلم يعد كل منهما يستطيع رؤية الآخر

فخرجا من الكهف متجهين إلى مربط الجوادين، ولم يكد هاريس يرفع رجله ليضعها في الركاب حتى صاح كامبل: (أنظر إلى حذائك!)

فنظر وقال: (هذا دم، ولست أعرف ما الذي كان في الكهف!)

وقال كامبل: هل تتذكر (إدي ماك جاري) الذي كان ضابطاً معنا واختفى في الشهر الماضي؟)

فقال هاريس: (نعم أذكره، وكان قبل اختفائه قد تخاصم مع أناس في مقهى، وقيل إنهم تضاربوا ثم اختفى، فهل تظن أنه بهذا الكهف؟)

قال كامبل: (لست أعرف)؛ ثم مشى الصديقان في صمت. وبعد مدة قال كامبل: (لا تقل شيئاً يا هاريس حتى نتبين الحقيقة، وسنتقابل غداً فأخبرك بنتيجة بحثي)

وكان كامبل يتردد على حانوت رجل خمار اسمه فرانز شافر، وقد اشتهر هذا الرجل بمعرفته كل مكان في المدينة وأكثر من فيها من الناس. وكان بينه وبين كامبل صداقة نشأت منذ جاء إلى هذه المدينة في أول الحرب. وكان هاريس يعرفه أيضاً ويتردد على حانوته

في هذه اللحظة ذهب هاريس إلى الحان وأخذ معه مقداراً من التبغ فأهداه إلى الخمار الألماني الذي أبرقت عيناه، وقام إلى زجاجة من أجود النبيذ فقدمها إلى الضابط وأخذ يصف شوقه إلى اليوم الذي تعود فيه ألمانيا إلى مكانتها الأولى بين الشعوب ويسود فيه الإخاء بينها جميعاً، وقال إن الحرب الأخيرة كانت حرباً بشعة أثارتها العداوة من الجانبين ولكنها انتهت بحمد الله فانتهت معها كل الحروب. ثم سأل الضابط: أليس من رأيه أن الحروب لن تعود؟

فهز هاريس رأسه. وكان في هذه اللحظة يفكر في الكهف ويغلب على ظنه أن كامبل مخطئ فيما توهمه. لأن ماك جاري وإن كان ضيق الخلق سريع الغضب، فهو لا يترك نفسه لمن يقوده إلى كهف فيقتله فيه

واستمر الخمار يتدرج في حديثه السياسي إلى أحاديث مختلفة عن أشخاص يعرفهم هاريس، فتردد الأخير في إخباره بأمر الكهف. وبعد قليل قال:

(هل تعرف الطريق إلى جبل (برج الز) يا هرشافر؟)

فقال الخمار: (كيف لا أعرفه وأنا كثيراً ما أذهب منه وصهري مقيم في (نيدورف) عند نهايته)

ثم تنهد وشرع في وصفه ولكن هاريس قاطعه بقوله: (وهل تعرف الطريق الضيق القريب من نهاية الغابة؟)

فحملق الألماني في وجه الضابط وراعه منه رنة غريبة في صوته وتغير في لهجته، فقال الخمار: (لماذا يا سيدي الهر؟ لماذا يا سيدي الضابط؟)

ولكن هاريس استمر يسأله بلهجة المحققين: (وهل تعرف المكان الذي على بعد مائة متر على يمين هذا الطريق؟)

فلم يجبه الخمار ولكنه ظل واجماً فاتحاً فمه لاعقاً شفتيه بحالة عصبية، وكان هاريس في هذه اللحظة يتذكر ضابطاً عظيما استجوب أمامه أحد الحراس فشعر بالسرور لأن مهارته الآن في التحقيق لم تكن أقل من مهارة ذلك الضابط الكبير بدليل ما ظهر من التأثر على وجه الخمار

ولقد كان الإجرام بادياً على الخمار في هذه الساعة، وكانت عيناه تدوران كأنما تبحثان عن منفذ تتركان منه المحاجر وكانت خياشيمه تنتفخ والعرق يتندى من جبينه. ثم قال بعد ارتباك شديد: (لست أعرف هذا المكان)

فقال هاريس وهو يدق على المنضدة ليؤكد سؤاله: (ولماذا لم تقل ذلك من أول الأمر؟)

وكان الخمار يحارب نفسه ليحملها على كتمان العواطف، وتظاهر بالغضب على كرامته تظاهراً جعل شكله مضحكا وقال: (لا تؤاخذني يا هر إذا احتددت فإني لم أنم جيداً ليلة الأمس، وأنت قد غيرت معي لهجتك فاضطربت)

فقال هاريس بلهجة الساخر: (لم تنم جيداً ليلة الأمس؟)

قال الخمار: (نعم وقد فهمت. إنك تريد اتهامي بمعرفة شيء عن هذه المسألة، عن هذا الكهف. ولكنني أؤكد لك أنني لا أعلم وأنا مستعد للذهاب معك إلى الغابة في عصر الغد)

ثم هدأت أعصاب الخمار وعاد إلى خديه أحمرارهما، ونظر إليه الضابط مبتسما وقال: (لا تنكر يا شافر! لا تنكر! فأنت تعلم الحقيقة بغير شك، إن لم تكن شريكا فيها. وأنت تريد أن تذهب معي إلى الغابة. . . هذا حسن والله يا شافر! تريد أن تأخذني أنت وصهرك إلى الكهف فتقتلني كما قتلت (إدي ماك جاري)

ثم تغيرت لهجته من الهدوء إلى الحدة وقال: (سأمهلك إلى الغد لتعترف وإن تركت منزلك الليلة فسيراك رجالي، وإن لم تعترف غداً فإنك ستعتقل وتقدم للمحاكمة العسكرية، ومن يدري؟ لعله يحكم عليك بالإعدام)

فارتعش الخمار وتصور منظر المحاكمة والإعدام ورأى القبر مفتوحاً أمام عينيه، وتذكر زوجته وأولاده وما يصيبهم من البؤس بعد موته، وفتح فمه وظل يقول: (لست أعرف! لست أعرف!) وتركه هاريس على هذه الحالة وذهب وهو يعتقد أنه وفق إلى اكتشاف جريمة، وأن جبن الخمار كان دليلاً قوياً على أنه المجرم.

وفي الصباح التالي ذهب هاريس إلى كامبل فأخبره، وكان كامبل قد سمع خبراً لم يشأ أن يطلع صاحبه عليه حتى يلهو قليلاً ببساطته، فأظهر له الاهتمام وقال: (هلم مع حارس إلى الخمار).

وذهبا مع الحارس إلى الحانة فوجدا الخمار وزوجته وأولاده يبكون. وأعاد هاريس استجوابه، والخمار يتنصل وهو يتوعده بأقسى العقوبات إذا لم يعترف، ويعده بتخفيف العقوبة إذا اعترف

فلما لم يجد ذلك جلس هاريس أمام المنضدة وكتب بلاغاً وسلمه للحارس وأمره بأن يذهب به إلى رئيس البوليس

عند ذلك تبادل الخمار وزوجته نظرات ثم همس في أذنه فقال: (لا ترسل البلاغ وأنا أعترف لك)

فأخر هاريس إرسال البلاغ، وجلس بهيئة جدية، وصار يصغي إلى الاعتراف، واعترف الخمار بأنه هو وصهره قتلا (أدي ماك جاري) وتركاه في الكهف

عند ذلك ضحك كامبل ضحكة عالية وقال: (لقد قبض بالأمس على ماك جاري في باريس)

فدهش هاريس وقال: (إذن فما الذي رأيناه في الكهف؟)

فقال كامبل: (هو خنزير ميت)

ثم خرج من الحان.

عبد اللطيف النشار

الأب. . .

مترجمة عن الفرنسية

بقلم الأستاذ محمد محمد حمدي

هو كاتب في وزارة المعارف ومنزله في إحدى ضواحي باريس، ولذلك كان يركب عربة (الأمنوبيس) في صباح كل يوم من منزله إلى الوزارة؛ وكان يجلس دائماً أمام فتاة يشعر نحوها بعاطفة الحب

وكانت الفتاة تذهب إلى المحل الذي هي عاملة فيه؛ وهي سوداء العينين بيضاء الجسم ناصعة البياض كأنها تمثال من العاج. وكان يراها تقْبِل كل يوم من منعطف في نفس الطريق، وكثيراً ما كانت تجري لتدرك العربة وهي سائرة وتتعلق بها قبل أن يقف الجوادان، ثم تجلس في المكان الخالي وهي تلهث من التعب وتدير لحظها فيما حولها ومنذ رآها (فرنسوا تاسييه) أعجب بجمالها، وكانت الفتاة وفق أمانيه ورغائبه وصورة لخيال الحسن المنطبع على قلبه فأحبها من صميمه قبل أن يتعارفا

كان لا يستطيع أن يرد بصره عنها، وكانت تخجل من نظراته وتضطرب، وقد أدرك ذلك فحاول أن يغض من بصره ولكنه على غير إرادته كان يعود بين لحظة وأخرى فينظر إليها. وبعد أيام قليلة عرف كل منهما الآخر وإن لم يتكلما. وكان يترك مكانه ويقف خارج العربة إن أقبلت الفتاة والعربة مزدحمة. وكانت الفتاة إذ ذاك تحييه وهي مرخية أهدابها حياء من نظراته ولكنها مع ذلك لم تكن تغضب من هذه النظرات

وأخيراً تحادثا ونشأت بينهما مودة سريعة، وكان يقضي أمامها نصف ساعة في كل يوم. ولكن هذه الأنصاف من الساعات كانت فتنة العمر. وكان يفكر فيها بقية يومه ويرى طيفها ماثلاً أمام عينيه، لأن حبها كان مستحوذاً على خيال متسلطاً على قلبه باعثاً في نفسه تلك السعادة الجنونية التي يخال صاحبها أنه في عالم غير عالمنا الإنساني

وصارت تصافحه كل يوم فيحتفظ بالإحساس الذي تثيره هذه اللمسة الرقيقة من أصابعها الصغيرة فيظل ناعماً بإحساسه هذا إلى الصباح التالي وكان يقضي يومه وليلته في انتظار الساعة التي يركب فيها الأمنوبيس، وما كان شيء أبغض إليه من أيام الآحاد لأنه لا يستطيع فيها أن يراها. وكانت الفتاة تحبه بغير شك. وفي يوم سبت من أيام الربيع وعدته

بأن تتعشى معه في اليوم التالي بمطعم في ضاحية أخرى

التقيا في صباح الأحد عند المحطة ففاجأته بقولها: (أريد أن أكلمك قبل أن نذهب، لقد بقي عشرون دقيقة على سفر القطار وهي كافية لما أريد أن أقوله)

وكانت ترتعش وهي تقول ذلك، وتعلقت بذراعه وقد أصفر لونها ونظرت إلى الأرض واستمرت تقول: (أريد ألا تنخدع بي، ولن أذهب معك حتى تعدني وتقسم بأن تكون شريفاً معي)

ثم اصطبغ وجهها احمراراً ولم تزد، ولم يعرف بماذا يجيب لأنه كان مضطرباً رغم شعوره بالسعادة في هذا الحين، وربما كان يتمنى من صميم فؤاده أن يكون كما ترجو، ولقد كان يعرف أن حبه لها سيقل إن وجد منها خفة وطيشاً ولكنه كان أنانياً كسائر الرجال في الحب

ولما لم يقل شيئاً عادى الفتاة إلى الكلام بصوت مضطرب وعيناها مغروقتان بالدموع وقالت: (إذا لم تعدني باحترامي فسأعود إلى المنزل)

فضغط على ذراعها برفق وأجاب: (أعدك بأن أسير على ما تريدين)

فزال اضطرابها وقالت وهي تبتسم: (هل تقسم على ذلك؟)

فقال: (أقسمت)

قالت: (تعال إذن نشتر التذاكر)

ثم ركبا القطار ولم يتكلما إلا قليلاً لأن العربة كانت مزدحمة فلما وصلا إلى الضاحية مشت معه إلى شاطئ السين، وأطلت على مائه المنعكسة عليه أشعة الشمس، وقالت: (ما أراك تظنني إلا حمقاء). قال: (لماذا؟) فقالت: (لأنني جئت معك وحدي إلى هذا المكان)

قال: (كلا. كلا. بل هذا شيء طبيعي!)

فقالت: (إنه ليس طبيعياً بالنسبة لي، ولكنه من الممل أن تتشابه الأيام والأسابيع والشهور، فإنني أعيش مع أمي معيشة لا تجديد فيها ولا تغيير. وهي عابسة دائماً لكثرة ما تعنيه من السأم، وأنا أحاول التغلب على نفسي وأضحك لأقل مناسبة. ولكن لا فائدة من ذلك. وقد أخطأت إذ جئت وما كان تخلفي ليحزنك)

عندئذ قبلها فرانسوا قبلة حارة، فغضبت فجأة وصاحت: (ما هذا يا مسيو فرانسوا! أبعد أن أقسمت؟)

ثم مشيا إلى المطعم وهو بناء صغير منخفض عن الأرض، أمامه أربع شجرات. وبعد أن تعشيا في صمت وشربا القهوة عادت الفتاة إلى المرح، ومشت معه على شاطئ السين، وسألها عن اسمها فقالت: (لويس) فأعاد اسمها (لويس) ولم يقل شيئاً. وأخذت الفتاة تجمع الأقحوان النابت على الشاطئ، وظل يغني في طرب كالنشوان، وهما يمشيان تحت الكروم حتى ابتعدا نحو ميلين عن المدينة، ولاح لهما بساط سندسي من الخضرة، فأشار إليه، وقالت: (ما أبهجه!) ثم مشيا نحوه فجلسا على العشب، وكان يتضوع حولهما عبير الأزهار التي أكسبها شعاع الشمس ألواناً مختلفة وأغمضت عينيها وهي لا تعلم شيئاً غير تلك القبلة ولا تفكر في شيء آخر، وهي شاردة اللب مهتاجة الشعور من الرأس إلى القدم. ولكن سرعان ما شعرت بالخطب وبكت من الحزن وهي تستر بيديها وجهها، وحاول أن يعزيها وهي تأبى إلا العودة في الحال وصار يستمهلها وهي تأبى، فلما نزلا من المحطة في باريس تركته بغير أن تحييه.

ولما رآها في الأمنوبيس في الصباح التالي خال أنها أشد نحولاً وقالت: أريد أن أكلمك،

فتعال ننزل. ونزلا، فقالت له: يجب أن نفترق، فما أستطيع رؤيتك بعد الذي حدث فقال: لماذا؟
أجابت: لأني لا أريد، وقد أصبحت خاطئة وما أحب أن أعود
. . .ولكنه توسل إليها، وقد اشتدت به الرغبة في امتلاكها. فقالت: كلا. كلا. فلا أستطيع فألح ووعدها بالزواج، ولكنها رفضت وتركته، ومضى أسبوع لم يرها فيه، ولم يكن يعرف عنوانها، وفي اليوم التاسع دق باب غرفته، ففتحه ورآها تلقي بنفسها بين ذراعيه، ولم تعد تقاومه. ومضت ثلاثة أشهر، وهي تعيش معه معيشة الخليلة، وبدأ يسأم منها. فلما أخبرته أنها حامل، عزم على هجرتها وقطع صلاته معها، ولكنه لم يعرف الوسيلة إلى ذلك، حتى جاء في ليلة من الليالي، فترك ذلك المسكن، ولم يخبرها بمسكنه الجديد. ولقد كان وقع هذا شديداً على نفس الفتاة، ولكنها ذهبت إلى أمها باكية وركعت عند قدميها واعترفت بالأمر كله. وبعد أشهر وضعت طفلاً
مضت سنوات وأصبح فرانسوا كهلاً ولم يتغير شيء من نظام حياته بل ظل على المعيشة المملة بلا أمل ولا أمنية؛ وكان كل يوم يمشي من طريق واحد، فيجلس على مكتب واحد
ويؤدي عمله الواحد. وفي أول كل شهر يتقاضى مائة من الفرنكات يستعين بها على شيخوخته. وفي أيام الآحاد يذهب إلى (الشانزلزيه) ليراقب المتنزهين فيها
وفي يوم من هذه الأيام بهت لما رأى سيدة تتنزه ومعها صبيان، أحدهما يبلغ العاشرة والثانية تبلغ الرابعة. وكانت هذه السيدة هي صاحبته، فمشى نحو مائة متر ثم ارتمى خائر القوى على كرسي، ولم تكن السيدة قد لاحظته. وبعد قليل عاد لكي يراها مرة أخرى، وكانت قد جلست والصبي واقف بجانبها في سكون والطفلة تجري وتلعب ونظر إليها فلم يشك في أنها هي وكانت نظراتها نظرات حزن وثيابها بسيطة وكان يراها عن بعد لأنه لا يجرؤ على الدنو منها ولكن نظره قد وقع على الصبي فارتعش وعرف أنه ابنه لأنه يشبه صورته وهو في ذلك العمر. ثم اختفى وراء شجرة حتى تقوم فيتبعها إلى منزلها
ولم ينم في تلك الليلة وكاد يجن من التفكير في ابنه وسأل أهل الحي عنها فقيل له إن أحد جيرانها قد أخذته الشفقة عليها بعد ذلك الحادث فتزوجها وربى ابنها، ثم ولدت له البنت
صار فراسنوا يتردد على الحديقة كل يوم من أيام الآحاد. وكان في كل مرة يكاد يجن شوقاً على عناق أبنه وتقبيله والعودة به، ومن ذلك العهد صار يتألم من الوحدة وأحس إحساساً مضاعفاً بالغيرة والندم والحاجة إلى النسل. ثم عزم على خطة لا يقدم عليها غير اليائس، فذهب إليها ووقف أمامها وقال وشفتاه ترتعشان: (ألا تعرفينني؟) فنظرت إليه وصاحت صيحة رعب وفزع، ثم أخذت ابنها وخرجت من أمامه، وعاد هو إلى المنزل باكياً، ومضت أشهر لا يراها، وكان ألمه يزداد يوماً فيوماً حتى تمنى الموت على أن يقبَّل ابنه قبل أن يموت، وكتب إليها فلم تجبه حتى بلغ ما كتبه عشرين خطاباً. ثم بدا له في حالة من اليأس أن يكتب إلى زوجها واستعد لأن يكون الجواب رصاصة من مسدس، وكان هكذا خطابه: (سيدي! لا شك أن اسمي يزعجك ولكنني في أشد البؤس والتعاسة، ولذلك أجرؤ على استئذانك في مقابلة قصيرة)
وفي اليوم التالي وصل إليه الرد وهو هكذا: (سأنتظرك غداً في الساعة الخامسة)
ذهب إليه وهو خافق القلب حتى اضطر إلى الوقوف في السلم عدة مرات. ثم فتح له الباب ودخل حجرة الاستقبال، فوجد الزوج جالساً في صدرها، وهو طويل القامة عريض المنكبين، وقد بدا عليه أنه يتوقع خطباً، وأشار الزوج له بالجلوس فجلس وقال: (لعلك لا تعرفني ولم تسمع اسمي. . .)
فقاطعه الزوج قائلاً: (بل عرفت كل شيء من زوجتي) قال فرانسوا: (أنا يا سيدي لم آت إلا لأقول لك إنني أسفت وندمت وحزنت ولا أطلب غير أن أقبل ابني. . .)
فدق الزوج الجرس وأمر بإحضار الصبي (لويس) فدخل الغرفة صبي في العاشرة مندفعاً لرؤية الذي اعتقد أنه أبوه فوجد معه رجلاً أجنبياً فقبله الزوج ثم قال له: (اذهب فقبل هذه اليد)
فذهب الصبي ونظر إلى الضيف وكاد يغمى على فرانسوا. وقام الزوج فأطل من

النافذة. وفي هذه الأثناء سقطت القبعة من يد الضيف فتناولها الصبي وأعادها إليه.
وعند ذلك أخذه بين ذراعيه وبدأ يقبله فوق خديه وعينيه وعلى جبينه وفمه وشعره؛ فانزعج الصبي من هذه القبلات ودفع وجه الرجل بكلتا يديه، فقام الرجل المسكين ووضع الصبي على الأرض وقال: (وداعاً!)
ثم خرج متسللاً من الغرفة كأنه لص.

محمد محمد حمدي

العدد 366 - بتاريخ: 08 - 07 - 1940

علي ماهر باشا

الآن وقد انفكَّ عن صاحب المقام الرفيع سلطان الحكمين: المدني والعسكري، وأصبحت الكلمة فيه للحق الخالص الذي لا يرغب ولا يرهب ولا يجامل، نحاول أن نرسم هنا ظلال الرأي الذي ارتأيناه فيه على قدر ما تسمح به حال الصحفي الأدبي الذي يواكب من جانب ويراقب من بُعْد، ولا يتصل بأولي الحكم اتصال دعاية، ولا يذوي الرأي اتصال مشايعة

لم أرى علي ماهر باشا فيما مضى من حياتي غير مرة واحدة منذ شرين سنة في مطبعة الاعتماد حيث كان يطبع كتاباً في القانون وأنا أطبع كتاباً في الأدب. وعلى الرغم من جلوسنا ساعة من النهار جنباً لجنب ذلك المكان الخشن الضيق الذي كان يجمع يومئذ بين مكتب الإدارة وصناديق الحروف، لم نتناول غير النظر الفارغ، لأنه على ما يظهر من نفسه رزين متحفظ، وأنا على ما أعرف من نفسي حبي منقبض

وتولى علي ماهر باشا الحكم فكان لكل أديب ولكل صحفي من رعايته عون على الجهاد والاجتهاد إلا (الرسالة)، فقد عاقبها وقسا عليها في العقاب حتى لم تنل في عهده من المعارف والداخلية إلا شيئاً يشبه الظلم إن لم يكنْه. فأنا حين أكتب عنه لم أجد في نفسيَ منه إلا ما يجده المصري الفلاح أو العامل من أثر الرجل الحكومي في عمله، ومن نتيجة العمل العمومي في حياته. وألذ الأشياء في ذوق الضمير أن نشهد شهادة الصدق في رجل لا تربطك به علاقة من العلائق الحريرية أو الحديدية

علي ماهر باشا رجل هيأته طبيعته وعقليته وعمله للمواقف الجلِّي في عهدنا المستقل الحر. تولى رياسة الحكومة في وزارة المائة يوم فكان مثلاً عالياً للحكم المناسب في النشاط الشامل والتوجيه البصير والإصلاح المبتكر والنزاهة الممكنة. وكان الغيب في هذه المدة قد تكشَّف عن طور من أطوار العرش والدستور لا يؤمَن فيه الضلال على غير الإرادة الحازمة الرشيدة، فكان من توفيق الله أن تقلد الأمر هذا الرجل العظيم في تلك الساعة العصيبة فساسه على نهج واضح مأمون من اللقانة والأمانة والقدرة

ثم عاد فتولى الحكم حين أخذت العالمَ كله هذه الرجفةُ النازية الكبرى، فسحقت الجيوش، وثلت العروش، وغيرت وجوه الأرض، ونقضت أحكام الناس، وقلبت أوضاع المجتمع، وأصاب مصرَ منها ما لم تره في عمرها الحفيل الطويل، فصرَّف الأمور في هذه العاصفة الراجفة بالذهن الثاقب المحتال، والرأي الجميع الموفَّق، واليد القادرة الحازمة، والسياسة المتيقِّظة المستبصرة، والخطة الصريحة الجريئة، حتى اطمأن الناس إلى مصاير الأزمة، وأمِنوا شر العاقبة

فأنت ترى أن اختيار القدر لهذا الرجل في هاتين المحنتين من غير سعيه ولا استشرافه لا بد أن يكون لسر من أسرار الطبيعة فيه تعلنه عند إعضال الأمر أو استفحاله

والواقع المأنوس أن علي ماهر باشا فذٌّ بين ساسة هذا البلد في وسيلته وغايته وحكمه؛ فهو لا يعتمد في ولايته على عصبية الأحزاب المتغالبة، ولم يجر في حكمه على نمطية الوزارات المتعاقبة، ولم يجعل همه أن يدغدغ جسمه في كرسي الوزارة المخملي الوثير؛ وإنما بلغ الزعامة بالكفاية المحض، وعالج الحكم بالتدبير المبتدَع، وسما بنفسه عن سفساف الأمور ومحاقر الأغراض، وألقى باله للكبيرة والصغيرة، وأخلص رأيه للحميم والخصيم، وتعهد الأداة الحكومية في أوضاعها المختلفة ومواضعها المتعددة فجلا عنها الصدأ وعالج فيها الاضطراب، حتى نشطت لعملها الدائب في اطراد واتساق ووحدة

ومن مزايا علي ماهر باشا أنه رجل قانون ومنطق. وصاحب القانون يغلب عليه العدل

والمساواة وهما روح الحكم؛ وصاحب المنطق يغلب عليه الرأي والمشورة وهما أصل الدستور. لذلك تهيأت له الفرص النوادر للاستبداد فأبى أن يعمل إلا على هَدْى طبعه ووحي ضميره

لقد كان موقف صاحب المقام الرفيع على ماهر باشا من سياسة الحليفة العظيمة موقفاً يتمناه كل زعيم عظيم بما بقي من عمره. ولولا أن حليفتنا الكريمة لا تزال تجري في سياستها الشرقية على موروث من سوء الظن لوجدت في ماهر باشا أصدق حليف وأوفى معاهد يعلمها من أخلاق قومه ما تجهل، وينيلها من عواطف شعبه ما تريد. ولكنها أتاحت بهذا الموقف الأخير لعلي ماهر باشا أن ينقش في ذاكرة الزمان الواعي أنبل ما صدر عن وطنيته وعبقريته من البراعة والشجاعة والإخلاص لوطنه وملكه

لقد رفع ماهر باشا مستوى الحكم وأعلى مثَله. ومن البعيد أن ينزل خَلفُه عنه أو يترخص فيه؛ ولكن الاضطلاع به والمحافظة عليه في هذه الزلزلة العامة من المشقات التي تُمتحن بها أقدار الرجال. ويقيننا أن الروح المصرية التي انتعشت في علي ماهر وإخوانه الذين اعتزلوا الحكم، ستشيع في ساستنا الذين خَلَفوهم عليه، فتميت في أذهانهم معاني الفردية والحزبية، وتدفعهم متكاتفين إلى إنقاذ الوطن عن طريق الجهاد والإيثار والتضحية

إن القدر المتصرف يخطط اليومَ الممالك على نظام جديد. والإيمان وحده هو الذي يملك على القدر اللطف في التغيير. فآمنوا يا رجال الساعة بقدرة الله وقوة الحق وقيمة الحرية وسلطة التاريخ وعظمة مصر، فإن الإيمان ولا ريب دِرع الأمان (المنصورة)

أحمد حسن الزيات

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

أوهام أدبية تخلقها الحوادث - أسرار الجزع على باريس - الأدب هو سفيرنا في الشرق - الهجرة إلى الريف - ابدأ بنفسك - الأحزاب السياسية والأدبية

أوهام أدبية تخلقها الحوادث

للحوادث العنيفة تأثيرٌ شديد في تلوين الحقائق والأباطيل، وفي خلق الآراء والأضاليل. . . والمرء حين تصدمه الحوادث، يتلفت ليرى كيف صار إلى ما صار إليه من بؤس وشقاء، وكيف استهدف للمعاطب وتعرَّض للأرزاء، وذلك هو الفرق بين اليقظ والغافل من الرجال. وحكاية (السمكات الثلاث) في كتاب (كليلة ودمنة) تؤيد هذا الرأي، إن كان يفتقر إلى تأييد

أقول هذا، وقد قرأت في هذه الأيام كلمات نفيسة لجماعة من أدبائنا في تعليل الهزيمة التي مُنيتْ بها فرنسا، وهم يكادون يُجمعون على أن تلك الهزيمة ترجع إلى ما درَج عليه الفرنسيون بعد انتصارهم في الحرب الماضية من إيثار الدَّعة والسلامة والإقبال على الخلاعة والمجون

والأدباء الذين قالوا هذه الكلمات لم يقولوها إلا لغرض شريف، وهو تحذير أمتهم من عواقب البطالة والفراغ، ومآثم الترف واللين. والأديب ينتهز الفُرص ليضرب لأمته الأمثال

ولكن تلك الكلمات النفيسة وقعتْ فيها أغلاط تستوجب التصحيح

فهل من الحق أن فرنسا كانت فسقتْ عن أوامر الأخلاق؟

هل من الحق أن باريس لم تكن إلا ملاعب صبابة ومدارج فُتُون؟ هل من الحق أن الأندية الفرنسية لم تكن تعرف غير قول السوء ولغو الحديث؟

تلك أوهام يقول بها من لم يعش في فرنسا زمناً يسمح بالتعرف إلى أخلاق أولئك الناس، ليدرك المستور من شمائلهم الصَّحاح. تلك أوهام يقول بها من يعرف فرنسا بالسماع لا بالعِيان

ولو كانت فرنسا كما وصفوا، لكان من المستحيل أن تملك السيطرة الأدبية والحربية في تلك الأزمان الطوال التي سبقت محنتها الدامية في هذه الأيام السود

إن الخُلُق الفرنسي نموذجٌ للخلُق الصحيح، فالرجل الفرنسي يلعب في حين، ويجدُّ في أحيان، وهو في لعبه وِجدْه مثالٌ للرجل الذي تنأى به رجولتُه عن اصطناع أخلاق

الضعفاء الذين يرون سلامتهم في التستر والتصنع والرياء
والأدب الفرنسي هو في جوهره صورة صحيحة للأدب الإنساني، لأنه ينزع إلى الصدق
في تصوير ما تخضع له الإنسانية من قوة وضعف، ويقين وارتياب، وهدىً وضلال
وإذا اندحرت فرنسا السياسية فلن تندحر فرنسا الأدبية
ولو صدقت فرنسا في السياسة كما صدقت في الأدب لكانت هزيمتها من
المستحيلات. وقد قلت في مقال قدمته لمجلة الهلال إني أنتظر اليوم الذي تسمح فيه
الظروف بأن أعلل هزيمة فرنسا السياسية
فهل أجد اليوم منفذاً لكلمة وجيزة بعد أن استباح المسيو بيتان ما استباح في تعليل
تلك الهزيمة النَّكراء؟
إن المسيو بيتان ردَّ أسباب الهزيمة إلى ما تخلَّق به الشعب الفرنسي بعد الانتصار في
الحرب الماضية من إيثار المرَح على التضحية وتقديم الحقوق على الواجبات
فما الذي يمنع من تصحيح رأي المسيو بيتان؟
ما الذي يمنع من القول بأن ساسة فرنسا كانوا أضعف بصراً من ساسة الألمان؟
إن السياسي الألماني قدَّم لجنوده قضية تستوجب الاستقتال فهل قدَّم السياسي
الفرنسي لجنوده قضية تستوجب الاستقتال؟
قال السياسي الألماني لجنوده: أنتم جِياع ويجب أن تقاتلوا لتجدوا القوت
أما السياسي الفرنسي فقال لجنوده: هَلُمُّوا للدفاع عن الشعوب الصغيرة
وكذلك شبَّت الحرب بين جنديين أحدهما جائع موتور، والثاني شبعان ريَّان يتكلف
الغيرة على مبدأ لا يفقه ما يعبِّر عنه من ألفاظ وحروف
فإلى متى تؤذون شعوبكم بلا موجب أيها الساسة (المحنَّكون)؟
لو أعلن ساسة فرنسا أنهم يدافعون عن بلادهم ومستعمراتهم لا ستبسل الجندي
الفرنسي واستمات، لأنه عندئذ يعرف أنه يدافع عن الشرف والقوت؛ ولكنهم ساقوه
إلى الميادين لاعتبارات مِثالية لا تثير النخوة في أشجع الجنود
وقد قال الفرنسيون ما قالوا في غدر ملك البلجيك، وفات ساستهم أن الوقوف على
الحدود كان أنفع وأمنع، ولو فعلوا ذلك لكان من الجائز أن يتغير مصير الحرب، ولكان
من المحقَّق أن يستبْقوا من الجيش قوةً يدفعون بها شرّ العدوّ المجتاح
ولكن من الذي يملك القدرة على توجيه آراء الساسة والزعماء؟
أما بعد فلهذا الحديث حواشٍ وذيول سنَعرِضُ لها بالتفصيل بعد حين
والمهمُّ هو تذكير بعض الأدباء بحق الأدب، فما نريد أن يخضع الأدب لأي اعتبار من
الاعتبارات، وإن كان من واجبه أن يتعرض لجميع الشؤون
الأدب لا يزدهر إلا إذا تحرَّر من جميع القيود
الأدب هو الترجمان الصادق للغرائز الإنسانية، ولا يجوز أن نطالب الأديب بأن يكون
عبداً لزمانه وأهل زمانه، وإنما يجب أن يُسيطر الأديب على الزمان وأهل الزمان
ليؤدي رسالته في قوة وصراحة وإخلاص
الأديب أقوى من الناس ومن الزمان، وإنه لا يصوِّر غاية زمنية أو محلية، وإنما يتسامى
إلى غايات تُشرِف على طوائف الإنسانية ومراحل التاريخ
ليس الأديب مِزماراً مأجوراً يترنم بما توحي أحوالكم من إطراب وأشجان، وإنما هو
قيثارة سماوية يحقّ لها أن تصدح بغير ما تشتهون في أيام الفَرَح وما تبتغون في أيام
البكاء، وإن كانت أُخُوَّته لكم تفرض عليه أن يكون سنداً لآمالكم في جميع الأحايين
ألحان الأديب كأزهار الربيع
فإن كنتم سمعتم أن أزاهير التفاح في نورمنديا تلفَّتت إلى المعارك الدموية بين
الفرنسيين والألمان فانتظروا أن يكفّ الأدباء عن التغريد فوق أفنان الوجود، لأن
دنياكم عجزتْ عن تذوُّق المَرَح الذي يتموَّج في أعطاف الوجود
أيها الناس
أسمعوا، وعُوا، وإذا وعيتم فانتفعوا
الأديب يُسيطر على الحوادث، ويرفض الاستعباد للحوادث. والأديب أشجع منكم جميعاً
لأنه لا يبالي متى يموت. وهل نسيتم أن الأديب هو الذي صنع بقلبه ولسانه وقلمه
حوادث التاريخ؟

ستذكرون يوماً أن أعظم المعارك قامت أو كُسِبتْ بسبب لفتة ذوقية صَدَرتْ عن شاعر مُجيد أو كاتب بليغ أو خطيب صَدَّاح. وستعرفون يوماً أن ضمائر الأمم لم تخلقها غير أفكار الأدباء الموهوبين.

الأديب ليس جنديًّا يتلقَّى الأوامر، وإنما هو بَطَلٌ يُطاع. فليكُفَّ قومٌ عن التنديد بأهل الأدب، وليذكروا أنهم لم يكونوا إلا حاكين لأقوال أهل الأدب في الوطنية. ولولا أقلامنا لعجز أولئك اللائمون عن صياغة عبارات الملام

أسرار الجزع على باريس

وبهذه المناسبة أذكر أن في أهل مصر من شكت جفونهم قسوة الأرق حين سمعوا بسقوط باريس بين أيدي الألمان

فبأي حق جزع الجازعون على باريس وهي المدينة الوحيدة التي يموت فيها الرجل من الجوع حين يعوزه القوت؟

جزع المصريون على باريس وليس لهم فيها أعمام ولا أخوال، لأنهم سمعوا أنها كانت مثابة للحرية الفكرية والروحية والذوقية. جزعوا على مدينة سمعوا أن أهلها في أمان من أوزار النفاق. جزعوا على المدينة التي سمعوا أن الرجل قد يعيش فيها طول عمره بدون أن يتعرض للهوان ما دام معتصما بالأدب والحياء

وتلك معان لم يسمع عنها في غير باريس

وإلا ففي أي أرض يستطيع الرجل أن يعيش وهو في أمان من أهل اللغو والفضول؟

في أي أرض يستطيع الرجل أن يعيش وهو من أدبه في حصن حصين؟

باريس هي البلد الوحيد الذي لا يجازَى فيه الرجل بغير ما تجترح يداه

الرجل المهذَّب يعيش ويموتُ في باريس بدون أن تتعرَّض سمعته للزُّور والبهتان

فمن أين نشأت هذه المعاني؟

أليست من ثمرات الأدب الرفيع؟

باريس هي البلد الوحيد الذي يتجاور فيه حزب الله وحزب الشيطان بلا بغي ولا عدوان. باريس هي البلد الذي لا يتقدم فيه رجل بغير حق إلا في النادر القليل

في باريس يقوم الملعب بجانب الكنيسة، ثم يلتقي اللاعبون والمصلون وهم يتبادلون تحيات

المودة والاحترام

فإن كانت باريس ضيمت بجناية الأدب والذوق فهي ضحية كريمة للأدب والذوق

وهل يكون الانتصار في الغزو دلالة باقية على شرف المغيرين؟

إن كان ذلك فهل عدَّ التاريخ من الشرف أن ينتصر التتار على بغداد؟ وهل عدَّ التاريخ من الشرف أن ينتصر أعداء العرب على إطفاء نور الحضارة الإسلامية بالأندلس؟

وهل عدَّ التاريخ من الشرف أن ينجح نيرون في إحراق ذخائر الرومان؟

المعاني الروحية والأدبية هي الباقيات على وجه التاريخ. فمن كان يرى الفضل كل الفضل في أن ينتصر جيش على جيش بقوة النار والحديد فستريه الأيام عواقب ما رأى فكره المنخوب، والزمنُ كفيلٌ برفع الغِشاوة عن بعض القلوب

الأدب هو سفيرنا في الشرق

ويتحدث قومٌ عن صوت مصر في الشرق، وأقول إن الأدب هو سفيرنا في الشرق، ولكن أيّ أدب؟

هو الأدب الرفيع الذي يشرَّح جميع الأهواء الإنسانية بحيث يشعر كل امرئ في الشرق أن له نصيباً من العواطف التي يهتف بها أدباء وادي النيل

ولست بهذا القول أعادي أنصار الفكرية المصرية الذين يرون أن تكون مصر مثابة أفكارهم فيما ينظمون ويكتبون، فمن حق المصري أن يجعل مصر قِبلة هواه، ولكن من واجبه وهو أديب أن يذكر أنه أديب، والأديب أعظم وأرفع من أن يَقْصر أهواءه على الشؤون المحلية. الأديب المصريّ مسئول عن الطب لأدواء من وثقوا به من أهل الشرق. الأديب المصري مطالب بأن يكون صوته صدىً لجميع آمال الشرق، ولجميع آلام الشرق. الأديب المصريّ هو الآسي لجروح الشرق، وهو القيثارة التي تصدح بأفراح الشرق

وهذا هو واجب كفاية - كما يقول الفقهاء - فلست أطالب كل أديب بأن تكون نوازعه شرقية، وإنما أستنكر أن يعاب على رجل مثلي أن تكون له سياسة أدبية تتجه نحو

الشرق، ولمصر في الشرق أهلٌ وأصدقاء
والواقع أني أتهم قومي بلا موجب، فأدباء مصر جميعاً يضمرون أصدق العواطف للشرق، ولكن يُعوزهم التعبير المقبول، فهم يُوهمون قراءهم أنهم لا يعرفون غير مصر، ولو نطقت
الضمائر لقالت إن عواطف أدباء مصر لم تكن إلا جوارح تحسُّ آلام الشرق
وهل يلام أدباؤنا على إعلان هواهم لمصر في أوقات الشدائد والخطوب؟ نحن نغار على مصر لغرضين: لأنها مصر، ولأنها مفتاح الشرق. فإن أمدَّنا الله بالقوة والعافية والتوفيق فسنجعل من مصر قاعدة حربية تدفع عدوان الغرب على الشرق
آه ثم آه!!
إني أخاف طغيان الحوادث على مصير اللغة العربية، وعلى العقيدة الإسلامية. وأنا مع ذلك غير يائس، لأن مصر باقية، ولأن الشرق لن يزول. والله هو المستعان، على مكاره هذا الزمان
الهجرة إلى الريف
الهجرة في أصلها اللغويّ تدلّ على معنى المَشقْة، فهي تشهد بأن المُهاجر ينتقل من حال الاستقرار إلى حال القلَق، فهل يكون الأمر كذلك في الانتقال من المدن إلى الأرياف؟
أعترف مع الأسف بأن الأمر صار كذلك، لأننا بالغنا في تجميل الحواضر المصرية مبالغة مُرهقة، بحيث صار المسكن الواحد يتكلف من الماء والنور ما يكفي لتموين أسرتين من أهل الريف. وقد زادت الأمور الكمالية زيادة لا تطاق، ثم أمست تلك الكماليات وهي من الضروريات. فنحن اليوم بفضل الحضارة في شقاء وعناء
وكنت لأول عهدي بحياة القاهرة أعيش عشية بسيطة، فلم أكن أشعر بفوارق كثيرة حين أنتقل لقضاء الصيف في الريف. ثم تحضَّرت رُويداً رويداً إل أن صرت لا أستطيع قضاء ليلة واحدة بمنزلنا القديم في سنتريس. ولولا الأموال التي خاطرت بتبديدها في بناء منزل جديد هناك لكان من العسير أن (أهاجر) من وقت إلى وقت لزيارة أهلي
الحق أن الحواضر المصرية شلّت قدرتنا على الأُنس بالريف. فالأنهار الجارية في الأرياف لا تغنينا عن صنابير الماء التي ننعم بها في الحجرات والغرفات. والقمر الذي يسطع بأنواره الفضية في سهول الريف لا ينسينا جاذبية النور الذي نتلقاه عن مصابيح الكهرباء. ومن هنا صح القول بأن الذهاب إلى الريف هِجرةً فيها ما فيها من القسوة والعنف. فهل تكون هذه (الهجرة) فرصةً للتداوي من أمراض المدينة؟
إن كنت سمعتم أن الترف يقتل الممالك والشعوب فقد آن الأوان لشرح تلك النظرية. فالحضري الذي يعجز عن المبيت بديار الريف هو أعجز الناس عن تحمُّل العيش في ميادين القتال
ولو شئت لاقترحتُ أن يُمنَع النوم فوق الأسرَّة في المعسكرات حتى لا يعرف الجنود طعم اللين. فمن الصعب على من تعوّد النوم فوق الحشايا أن يفترش الأرض الصمّاء حين تقهره على ذلك ظروف الهيْجاء
يرحم الله أيامي حين كنت فلاحاً لا يؤذيه النوم فوق الأرض الجرداء!
فقد وَقَذتني الحضارة وأضرعَتني حتى صارت جُنُوبي لا تطمئن إلا إلى حشايا تُنَجّد في العام الواحد مرتين أو مرات، وذلك داء عُضال
لا فائدة من النوم على ما فات. ثم أُوجِّه الكلام إلى أولئك المهاجرين فأقول:
أنتم تَفِدون على أقوام تحصنوا بالقناعة، فما يعرفون من ألوان الطعام غير لون أو لونين، فلا تفتنوهم برؤية الموائد المثقلة بأطايب الطعام والشراب، ولا تحملوهم على أن ينظروا إليكم نظر المحروم إلى المطعوم. فلذلك عواقب يخشاها من تهمهم سلامة القلوب في الريف
أنتم تفِدون على أقوام لا يملك الشخص منهم غير ثوب أو ثوبين، فلا تفتنوهم بكثرة الأثواب. ولا تشعروهم بأنكم أقدر منهم على الزينة، فلذلك آثام ستسوؤكم أوزارها بعد حين
وما الموجب لأن يتخطّر بعض الشبان (المهاجرين) فوق شطوط الجداول وقد لبسوا (البيجامات) وتركوا رؤوسهم العارية تداعب النسيم بالشعر المعطّر المشكول؟
ألا يعرف هؤلاء الشبان أن أهل الريف لن يلقوهم بغير السخرية والازدراء؟

يجب أن تعيش في الريف بأخلاق أهل الريف، فتحلق رأسك وتكتفي في مطعمك وملبسك بما يتسق مع المأثور من شمائل أولئك الناس، فإن خالفت هذه الوصية فلست أهلاً لنعمة الله عليك، ولن تترك في الريف غير ذكريات لا يسرُّك أن تعاد

هل عندك من قوة الأخلاق ما تقدَّم به لأهل الريف زاداً جديداً من أدب النفس؟

هل تستطيع أن تروض أهل الريف على الاقتناع بأن لأهل المدن شمائل هي السبب في سبقهم إلى أطايب المنافع وكرائم الطيبات؟

هذا يومٌ من أيامك، أيها المهاجر إلى الريف، فكن قَبَساً من الهداية يدفع ما في الريف من ظلمات. وكن في سيرتك مثالاً يحتذيه مَن رحَّبوا بقُدومك أجمل ترحيب

إن الذين يهاجرون إلى الريف بالألوف سيعرِّضون الريف لرجَّة اجتماعية؛ فما عسى أن تكون تلك الرجَّة؟ أتكون خيراً؟ أتكون شرّاً؟

عندك - أيها المُهاجر - جواب هذا السؤال. لطف الله بك وهداك!

ابدأ بنفسك

كَثُر التواصي بالوطنية في هذه الأيام، وأصبحت الجرائد والمجلات ميداناً لأقلام أهل الحَميَّة من أبناء الوطن العزيز

وهذه فرصة لامتحان النفوس والعزائم والقلوب، فكل امرئ يعرف ما يملك من زاد الوطنية، وكل امرئ يعرف ما عنده من عناصر الأمانة والصدق والإخلاص

والمهم هو أن تبدأ بإعداد نفسك لدعوة الواجب، وأن تؤمن بأنك المسئول الأول، وأنك وحدك المعني بالنداء يوم يدعو الوطن أبناءه لتفديته بالأموال والأرواح

ويلي ذلك في الأهمية أن تشعر بمعنى الأخوَّة الوطنية، وأن تثق بأن جميع من تصادفهم في غُدُوِّك ورواحك هم أخوتك وأنصارك، وإن لم تعرفهم من قبل، وأن تعرف في قرارة نفسك أن منافعهم هي بعض منافعك، وأنك عن تفديتهم مسئول

التماسك الأخوي هو الحجر الأول في بناء الوطنية، ويوم يصح هذا التماسك لا يضيرنا أن تَفْسُد الدنيا يوماً فينفرط عقد الأمان

هل سمعت بالقوانين التي تشرع للطوارئ؟

إن كنت سمعت فاعلم أن الأمة الكريمة هي التي لا تفتقر إلى مثل تلك القوانين في غياهب الأزمات وظلمات الخطوب

نحن لا نحتاج إلى أدب النفس في أيام السلام، وإنما نحتاج إلى أدب النفس في أيام الحرب، فمن أنت بين أصحاب النفوس؟

الوطن يعتمد بعد الله على نفسك العالية، فكن عند ظنه الجميل

الوطن يرجو أن تفي له في أيام الشدة كما وفى لك في أيام الرخاء

الوطن هو أنت، فمن أنت؟

إن في الدنيا ناساً يتخذون أيام الحرب وسيلةً لِوَرَم الجيوب، وأعيذك أن تكون من أولئك الناس

لمثل هذه الأيام تُدَّخر الأخلاق، فكن من أقطاب الأخلاق

أبدأ بنفسك فنزِّها عن مآثم الجشع والخيانة والبهتان، فإن فعلت فستظفر بثروة روحية تدفع عنك ظلمات الحوادث، وتمنحك القدرة على الاستهانة بالخطوب

العاقبة للصادقين

العاقبة للصادقين

العاقبة للصادقين

فكن في جميع أحوالك من أهل الصدق. وأحذر أن يكون أحد في الدنيا أصدق منك، فما يليق برجل كريم أن يكون من أهل الطبقة الثانية في الصدق

الأحزاب السياسية والأدبية

في أعقاب الأزمة الوزارية الأخيرة أدركت قيمة الحياة الحزبية إدراكاً أوضح من الإدراك الذي كنت أتمثلها به من قبل، فقد صح عندي بصورة صريحة أنها تعاون على إظهار أقدار الرجال

ومن المؤكد أن في كل أمة رجالاً يصلحون للحكم بأفضل مما يصلح بعض رجال الأحزاب، ولكن حرمانهم من الأنصار يحول بينهم وبين أداء واجبهم عن طريق المناصب الوزارية، وهي مناصب تمكِّن الرجل المخلص من أداء الواجب الوطني على الوجه المنشود

قد يتفق في بعض الأحيان أن يصل الرجل المستقل إلى تلك المناصب، ولكنه مع ذلك يظل مقلقلاً مزعزعاً بسبب عزلته عن الأسندة الحزبية، وهي دعائم تحول الضعفاء إلى أقوياء. والمرء كثير بأخيه، كما قال الرسول:

من حق الرجل أن يتحزب، بل من واجبه أن يتحزب، على شرط أن يكون صحيح النية في خدمة المبدأ الذي ينتمي إليه، وعلى شرط أن يكون التضامن الحزبي وسيلة لغرض سليم هو استعجال الفرصة للاضطلاع بحمل الأعباء الثقال في خدمة الوطن عن طريق الوزارة أو طريق البرلمان

ولا يعاب التحزب إلا بآفة واحدة هي ما يقع من السَّرف في اللجاجة والعنف، كالذي نراه من بغي بعض الأحزاب على بعض من حين إلى حين

ولكن من السهل على الرجل الحكيم أن يتجنب هذه الآفة فلا يَشتِم ولا يُشتَم، ويظلْ محترماً من الجميع، كأن يكون مِثل مصطفى عبد الرازق بين الدستوريين، ومثل زكي العرابي بين الوفديين، ولهذين الرجلين أمثال في سائر الأحزاب، وإليهم تتجه الأنظار في الظروف التي توجب أن يتقدم لحمل أعباء الحكم رجالٌ ليس في مسلكهم الحزبيّ ما يهيج الخصومة ويثير الخلاف

تلك هي الحال في الحياة السياسية، فكيف تكون الحال في الحياة الأدبية.

الواقع يشهد بأن النجاح في الأدب قام على إسناد من العصبيات الممثَّلة في الأندية والجمعيات، فعندنا في مصر أحزاب أدبية، وإن لم تصطبغ صراحة بالصبغة الحزبية، وبفضل ذلك التحزب المستور لمَعَتْ في عالَم الأدب أسماء كانت أهلاً للخمول لو واجَهت الحياة الأدبية بلا إسناد من الأصدقاء والحُلفاء

أقول هذا وقد فاتني التحزّب في السياسة والأدب، فأنا صديق الجميع، وعدو الجميع، ومن كان كذلك فهو خليق بأن يعيش بلا أنصار ولا أصفياء

سمعت أن في مصر حزباً يسمى حزب المستقلين، وهم الذين قرروا الاجتماع في حديقة الأزبكية ليعلنوا رأيهم في الصورة التي تؤلَّف بها الوزارة الجديدة. ثم سمعت أيضاً أن الوزارة أُلِّفت قبل أن ينفضّ اجتماعهم (المعقود)

وأنا في الأدب من حزب المستقلين، فليس من العجب أن تؤلَّف اللجان وتُعقد المؤتمرات بدون أن أخطر في البال، فتلك مزية الاستقلال!

سأتحزب، سأتحزب، سأتحزب

ولكن كيف؟

سأعقِد محالفة بيني وبين قلمي، وهو أقوى وأنفع من ألوف الأصدقاء

قضيتُ دهري بلا نصير ولا مُعين، وسأظل كذلك طول حياتي، لأقيم الدليل على أن من يستنصِر بالله لا يَخيب ولا يضيع

فإليك يا فاطر الأرض والسموات، وأنت وحدك الوليُّ النصير، أقدم واجب الحد والثناء

زكي مبارك

الفروق السيكلوجية بين الأجناس البشرية

للأستاذ عبد العزيز عبد المجيد

قد لا يكون من الحكمة أن نتعجل بحث الفروق السيكلوجية بين الأجناس البشرية من قبل أن نعرف: ما هو المقصود بالجنس؟ وما هي أنواع الأجناس المختلفة التي يدور البحث حولها؟

والموضوع من التعقيد بمكان، فقد شغل فقهاء اللغة، وعلماء الأجناس وعلماء الاجتماع والسياسة، ولا يزال يشغلهم حتى الآن، ولم يوفقوا بعد إلى رأي نهائي. وكل ما وصلوا إليه إنما هو حدس وفرض. وسبب ذلك أن موضوع الأجناس البشرية يبحث في القديم من التاريخ وفيما قبل التاريخ.

وليس ثمة من الوثائق التاريخية أو الأثرية ما يكفي لتحقيق فرض أو إثبات نظرية، كما يبحث أيضاً في الأجناس الحاضرة. وما قام به العلماء من محاولات لكشف ما عسى أن يكون من صفات جسمية وعقلية وخلقية مشتركة تميز طائفة من البشر عن غيرها لم يؤد بعد إلى حكم جازم بأن هذه الطائفة - مثلاً - متميزة كل التميز عن تلك. وذلك لما حدث في الماضي من هجر بعض الشعوب مواطنها الأولى واستقرارها في مواطن أخرى وامتزاجها بسكان هذه المواطن الأصليين بالتزاوج والتناسل، حتى أصبح من العسير علمياً أن يقال إن هذه الطائفة من الناس نقية الجنس لم تختلط بغيرها. وهذا

ما جعل تعريف الجنس نظرياً فقط لا واقعياً. وهم يقولون إن الجنس من الأجناس البشرية هو جماعة كبيرة من الناس تنتمي إلى أصل واحد قديم، وتتميز بخواص جسمية وعقلية وخلقية مشتركة تميزاً وراثياً

والمتأمل في هذا التعريف لا يستطيع أن يجزم بالحد الذي تكون به الجماعة (كبيرة) بحيث تكوِّن الجنس. فجماعة سكان استراليا الأصليين مثلاً لا تعتبر كبيرة إذا قارناها بالترك، مع أن علماء الطبائع البشرية يعتبرون السكان الأصليين لأستراليا جنساً مستقلاً، بينما الترك فرع من الجنس المنغولي. وعلماء النفس لا يُقرون - كما سنرى - القول بوجود تلازم بين الخواص الجسمية والعقلية أو الخلقية. فإن وجود أنواع من الأجناس البشرية، تتميز بصفات جسمية خاصة، لا يدل مطلقاً على وجود تميز عقلي أو خلقي لهذه الأجناس، لأن

ذكاء المرء أو خلقه لا يمكن أن يحكم عليه عادة بشكل جسمه، ولأنا إذا سلمنا بوجود اختلاف بين الأجناس في العقل والخلق كنتيجة ملازمة لاختلافها في الشكل والمنظر، كان معنى هذا أن الأفراد يختلفون بالضرورة عقلاً (أعني ذكاء) وخلقاً باختلاف مناظرهم وإشكالهم. وقد أثبتنا في المقالات السابقة أنه لا توجد علاقة تلازمية بين الخواص الجسمية وبين الذكاء، ولا بينها وبين الخلق

ولقد كان الرأي السائد حتى منتصف القرن الماضي أن الأسرة البشرية إنما تنقسم إلى ثلاثة أجناس: سامي وحامي، ويافثي. وهذه هي نظرية التوراة المذكورة في قصة نوح، فإنه لما استوت فلكه على الجودي كان معه من أبنائه الناجين سام وحام ويافث (وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك ساما وحاما ويافث. وحام هو أبو كنعان. هؤلاء الثلاثة هم بنو نوح. ومن هؤلاء تشعبت كل الأرض). ولقد شك كثير من العلماء في صحة رواية التوراة، وأيدوا شكهم هذا بحجج منها أن التوراة تجعل الكعنانيين من الحاميين مع أنهم أقارب الإسرائيليين وتربطهم بهم روابط عنصرية ودموية ولغوية وثيقة. كما تأثر فقهاء اللغات بهذه النظرية فقسموا لغات البشر إلى ثلاث طوائف: السامية والحامية واليافثية. ولكن العلماء الآن لا يرون ضرورة وجود علاقة بين اللغة والجنس. فالعرب - كما يقول الأستاذ مرجليوث - ليسوا ساميين لمجرد أن العربية هي إحدى اللغات السامية، فقد يشترك في تكلم اللغة الواحدة أكثر من جنس واحد. وإلى هذا يشير الكاتب الإنجليزي العالمي هـ. ج. ويلز بقوله: (وقد حدث أن خلط فقهاء اللغة بين اللغات والأجناس فافترضوا أن الأقوام الذي يتكلمون لغة واحدة مشتركة لا بد أن يكونوا من جنس واحد مشترك، وهذه ليست الحقيقة. ومن السهل على القارئ أن يعرف هذا إذا عرف أن زنوج أمريكا يتكلمون الآن الإنجليزية، وأن الأيرلنديين - إذا استثنينا استعمالهم للغة الأيرلندية القديمة لأسباب سياسية - يتكلمون الإنجليزية أيضاً كما يتكلمها سكان ويلز ببريطانيا بعد ما فقدوا لغتهم الكِلتية القديمة. وكل ما تدل عليه اللغة المشتركة بين الأجناس المتباينة هو حدوث اختلاط اجتماعي في الماضي بين متكلميها مختلفي الأجناس، واشتراكهم في مستقبل واحد، ولا تدل على أصل مشترك واحد

لم يتفق علماء الطبائع البشرية على الخصائص التي تميز جنساً من الأجناس البشرية عن

جنس آخر، ولكنهم متفقون على أنه قد وجد في العصور القديمة جداً أجناس بشرية أولية متميزة، وقد انتشرت هذه الأجناس في الأرض وارتحلت من مكان إلى مكان، ومن مناخ إلى مناخ، ومن بيئة إلى بيئة، فخضعت لاختلاف البيئة الجديدة، وتأثرت بما فيها من رخاء وشدة، ومن طعام ومأوى مغاير، فتكيفت الأجسام والعقول تكيفاً يناسب البيئة الجديدة. وتطور هذا التكيف خاضعاً لقانون التنازع الدائم بين الإنسان وبين الطبيعة: يريد أن يخضعها وتريد أن تخضعه. فجدت أقوام تخالف أجناسها الأصلية، وامتزجت هذه الأقوام بغيرها من أقوام ذوي جنسيات أخرى. وهكذا استمرت الأسرة البشرية في تغير وتطور حتى صارت إلى ما هي عليه الآن. فلم تبق إذا تلك الأجناس البشرية الأولية محافظة على وحدتها وكيانها، ولكن جماعات أخرى جديدة تأثرت بعوامل البيئة المستمرة وتميزت عن غيرها، وإن كانت هذه الجماعات الجديدة لم تحتفظ بدمها الجنسي الأصلي. من أجل ذلك نجد اختلاطاً كبيراً في صفات الأجناس البشرية الحالية، فسكان استراليا الأصليون سود البشرة بينما شعرهم ومستقيم،

وتقاطيع وجههم تشبه تقاطيع وجوه الأوربيين. وكذلك نجد بين سكان الأقاليم الشمالية من له شعر أسود، وبشرة ورقاء، وبين سكان أقاليم البحر الأبيض المتوسط بيض البشرة وسمرها وبالرغم من هذا كله فقد حاول علماء الطبائع البشرية أن يقسموا الأسرة البشرية الحالية إلى جماعات جنسية وفقاً لصفاتهم الجسمية الظاهرة: كشكل الجمجمة، وتقاطيع الوجه، ولون البشرة، ولون الشعر ولن العيون. وعلى أساس هذه الصفات الجسمية تنقسم الأسرة البشرية إلى ما يأتي:

الجنس القوقازي: هو يشمل سكان أوربا والبحر الأبيض وغربي آسيا، وهو جنس أبيض. وهذا الجنس ينقسم إلى جنسين أو ثلاثة أجناس: الجنس الشمالي، ويمتاز بالشعر الأصفر وبياض البشرة بحمرة وطول الجمجمة. وجنس البحر الأبيض المتوسط، ويمتاز بالشعر الأسود والبشرة البيضاء بسمرة والجمجمة المدورة، وبين هذين الجنسين جنس ثالث هو الجنس الألبي وهو وسط بين الجنسين. ومن الجنس القوقازي بعض السكان الأصليين للهند وإيران وما بينهما. شكل (1)، (2)، (3)

الجنس المنغولي: ويمتاز بصفرة البشرة وسواد الشعر واستقامته، وارتفاع عظام الخد، وتوسط القامة. ويشمل سكان آسيا الوسطى والشرقية، والأمريكيين الأصليين (الهنود الحمر)، وجنساً يسمى الكالموك كان يسكن هضبة التبت حتى القرن السابع عشر الميلادي حين ارتحل إلى شواطئ الفلجا. وقد اختلط الجنس المنغولي بالجنس القوقازي في أواسط آسيا وشرقيها. شكل (4)، (5)، (6)

الجنس الزنجي: ويمتاز بسواد البشرة، وتفلطح الأنف، وثخن الشفتين، وتجعد الشعر. ويكون هذا الجنس سكان أفريقيا الأصليين. وقد تأثر هذا الجنس بما جاوره من الأجناس الأخرى. شكل (7)، (8)، (9)

الجنس الأسترالي الأصلي: ويمتاز بسواد البشرة، وقد تكون حواء، وبسواد الشعر واستقامته وكثافته، وبطول الجمجمة، وتفلطح الجبهة وانحدارها إلى الخلف. ويشمل سكان استراليا قبل كشفها، وسكان جنوبي الهند وسيلان وشبة جزيرة الملايو. شكل (10)، (11)

ويذهب بعض علماء الطبائع البشرية إلى القول بوجود جنس أخر أقدم من الأجناس السابقة كان موطنه منطقة البحر الأبيض المتوسط الأفريقية، ويمتد شرقاً إلى الهند فالمحيط الهادي، ثم يعبره إلى المكسيك وبيرو. ويمتاز بالبشرة البرنزية وهو صاحب أقدم الحضارات المسماة بالحضارات الهليوليتية ولعل الحضارات الأولى التي ظهرت في وادي النيل والفرات ودجلة كانت على صلة بتلك الحضارة الهليوليتية. . . ويظهر (أن سكان صحراء الجزيرة العربية البدو كانت لهم حضارة هليولوتية

هذا وتقسيم الأجناس الذي ذكرناه إنما هو رأي طائفة من العلماء. والحقيقة أن هذه الأجناس قد اختلط بعضها ببعض لدرجة يصعب معها أن نجد جميع مميزات كل جنس باقية من غير تغير. بل إن بين بعض أفراد الجنس الواحد من الفروق الجسمية ما هو أكثر من الفروق بين فردين من جنسين مختلفين.

وسنعالج موضوع الفروق العقلية بين الأجناس في مقال قادم

(بخت الرضا - السودان)

عبد العزيز عبد المجيد

!. . .هذه هي الساعة

للأستاذ محمود محمد شاكر

قامت الدنيا وأخذت تعد زينتها لأمر غير ما مضى من أمرها. إنها لابد أن تتبرج لعيون عشاقها، ممن كتب لهم أن يشهدوا مشهداً آخر من فصول الرواية الإنسانية التي تمثل في ساحاتها. نعم، فإن الحرب المهلكة التي لا تزال تقعقع من شواهقها حين تنقض، أو تزحر وتئن تحت أثقال الوقائع - لا تلفت الحياة الدنيا عن عملها في تلبيس العيش بالفتنة لمن يعيشون، ولا عن تقديم اللذة لمن يشتهون. وكأن هذه الحرب إن هي إلا تضخيم عظيم لعمل العامل في إزالة النظرية (التواليت) عن وجه الغانية، ونسف التطريف (المانوكير) عن بناتها، وما سوى ذلك من إعداد الغانية الحسناء لتبدو مرة أخرى في حلي وبهاء وزينة

لا أتشاءم ولا أتفائل، فالقدر قد قضى على الدنيا قضاءه؛ وما ندري ما يراد بنا منذ

اليوم! فرب شر نتوهمه كذلك قد احتقب الخير، ليرمي في أرجاء الدنيا غرساً جديداً في أرض جدد ثراها ما أصابها من تدمير وهدم. إن بعض القسوة في الحياة يكون كتشذيب الشجر في إبانه، يقطع منه ليزداد قوة على إثبات وجوده وتقرير حقه في البقاء نامياً فينان يسمو وينتشر ويخضر ويثمر. وقانون الفطرة الذي تجري أحكامه على الطبيعة لتتجدد، لا يخطئ ابن الطبيعة يعمل فيه، ليصنع له حياة جديدة تثبت أن وجوده على الأرض حقيقة نامية أبداً، إن يكن الماضي قد باد في التاريخ، فإن الحاضر يثبت إثباتا عملياً أنه مستمر في الحاضر، ويكون استمراره في الحاضر دليلاً على امتداده إلى المستقبل. ويكون من جميع ذلك أن الحياة الدنيا مهما أصابها من شيء باقية، لا يمحوها إلا القانون الآخر الذي يجعل لكل أول نهاية ينتهي إليها. فإذا جاء أوان هذا القانون فقد بطلت حيلة المحتال

إن الزَّمنَ الذي يمشي في الأرض فَتَخضرُّ منها مواطئ أقدامه، هو نفسه الزمن الذي يدب عليها فيُسمع لدبيبه دمدمة مما يتقصف تحته من عمارة الدنيا وبنيان الحضارة، وعلى مواطئ الزمن تتنزل الحضارات كلها أو تتهَدّم. ومن يوم أن تنهَّدَت الأرض بالحياة يبيدُ شيءٌ ويقومُ شيءٌ، وما يزول منها ما يزول إلا ليحل عليها ما يحل، لأن الحركة دليل الحياة، فلا يثبت معنى الحياة إلا بها، وما يتحرك من متحرك إلا لتكون لانتقاله نهاية إليها يتوجه، وعندما يقف. فإذا وقف فهذا آخر أنفاسه، ثم يسكن سكون الموت

فما بنا على ذلك أن نتشاءم أو نتفاءل، وما التشاؤم والتفاؤل إلا حركة النفس الفارغة التي لا تجد عملها، فهي تعمل في إرهاق نفسها بما لا ينفعها ولا يعنيها؛ وليس من عمل الإنسان ما هو أضر عليه من إجهاد نفسه في باطل، والجهاد بها في غير طائل. فإذا أردنا اليوم أن ننظر فما ننظر إلا لنعرف الطريق التي يجب أن نقرر لجهودنا أن تمهدها لنا ولمن يأتي بعدنا على تدبير وسياسة

والقدرُ اليومَ قد قضى بين الناس، ووضع القضية لمن يختار، فمن شاء أن يدخل في عقد هذا وعهده دخل فيه، ومن شاء أن يتخلَّف فقد رضي لنفسه على مَيْزة وبصيرة، وما ينقض القدر قضاءه الذي أبرم، فيأتي من يأتي ينوحُ بما ظُلم، ويتوجَّع بما غُبنَ!! ونحن قد لقينا من أحداث الدهر ما ردَّنا بعد عزّ إلى قرار هوان. وقد أبَى لنا أن نرفع أنفسنا من وهدة واطئة قد ربضت بنا فيها سلاسل من حديد الذل، وقد حضرت ساعة ينبغي أن نفصل فيها بين عهد مضى وزمن يستقبل، فإذا قعدت عزائمنا، وعميت أبصارنا، فأنفسَنا نضيع، وأرواحَنا نزهق

جاءت هذه الحرب لتنسف تاريخاً شامخاً ثقيلاً قد اضطجع على حياة الشرق كما يضطجع الجبل على سفحه الرَّحْب، فإذا تأخر الشرق وتهاون وتكاسل على ما عوَّده الموت الروحيُّ الذي كان فيه، فقد سنَّحتْ له الفرصة ثم ولَّت عنه، وتركتْ يدَه ممتدَّة لا تمسكُ إلا أذيالَ الريح التي استَرْوَحتْ عليه بأنفاس الصيد ورائحته

إن في هذا الشرق لميراثاً نبيلاً من الأعمال والأخلاق والآداب والسياسات، ولكن هذا الميراثَ المضيَّع المنسي لا يجدي من خير على نائم قد أغمض عينيه عن الحياة، استمتاعاً بحياة أخرى تعرضها له أحلام رخية تختال في خياله. هذا الميراث المجهول في حاجة إلى من ينفض عنه غبار القدم، وأتربة الإهمال، ويزيل عنه أدران الجهل والخمول، ويجلوه مرة أخرى على أعين الناس مضيئاً مشرقاً يتوهج بأنواره كأحسن ما يتوهج

لقد كانت الحضارة الأوربية الماضية، وقامت على روح من الأثرة والبغي والاستبداد، وفقدت كل معاني الروح السامية التي تبذل أكثر مما تأخذ، وتعتد الغنى من الاستغناء لا من الجمع والتعديد، وتجعل حرية النفس في ضبطها وإمساكها على المصلحة لا في تسريحها وإرسالها على مدة الشهوة. وقد كان للشرق مجد وحضارة ومدنية، وتمم الإسلام كل الكمال

لهذه الحضارة بما أقام للناس من شعرائه وآدابه، وجاء على الشرق زمان كان الإصلاح فيه ضرباً من إفساد الصالح، وزيادة الفاسد فساداً وخبالاً. وكذلك ضاع كل شيء، ورجع بنا الزمان إلى جاهلية جهلاء، تقوم على التقليد لا على الإبداع، وعلى المتابعة لا على الاستقلال، وبالكبرياء لا بالتواضع، وحتى ذكرى مجدنا السالف قد صارت عندنا نخوة جاهلية في التعظم بالآباء والأجداد، لا عملاً عظيماً تعظمه أعمال الآباء والأجداد

والوراثة القومية النبيلة
والحضارة ليست هي العرض الظاهر من قوتها وبنيانها وفنونها وكل ما يقوم به نعت الحضارة، بل الحضارة هي السر الذي يعمل في إيجاد ذلك واستنباته، وإخراجه على الأرض واستثماره: هي سر الحبة التي تنبت الدوحة، والذرَّة التي تقوم بها المادة. فكل حضارة لابد لها من روح تعيش بها وتنمو، وعلى ما في هذه الروح من النظام والتدبير والنبل والسمو، تنشأ الحضارة منظمة مدبرة سامية نبيلة. ونحن لا نشك في أن الروح التي ورثها الشرق في نواحيها، والتي طهرها الإسلام من نواحيها وأتمها، وأحسن سياستها، ونفى عنها خبثها - هي التي تستطيع أن توجد على الأرض حضارة تملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، وتفيض بها رحمة كم فاضت غلظة، وتجعلها طريقاً للإنسانية تخرج به من ظلمات الباطل والبغي والغرور إلى نور الحق والتواضع والمساواة.
ويومئذ لا يقتتل الناس من أجل سلب الحق للزيادة في أنفسهم وجنسياتهم، بل يقتتلون - إن هم اقتتلوا - من أجل إعطاءِ الحق وردَّه على أهله مهما اختلفت جنسياتهم، ولا فضل لأحد على أحد إلا بما يحسن هذا ويسئ ذاك، ويصبح القانون العالمي، قانون الحق يستقر حيث ينبغي أن يستقر
إن العالم الآن ليقتتل على غير غرض إنسانيّ كامل مقرّرٍ لا يشذ على غاياته ومبادئه أحد. إنه يقتتل على طعام يؤكل، بل على هذا الطعام كيف يُؤكل. فليس لهذه المدنية الأوربية إلا معنىً جنسيٌّ مُتَعصِّبٌ تدافع عنه لنفسها لا للإنسانية كلها، لا يشك في ذلك إلا من طمس الله على بصيرته، وقادته أهواؤه وغرائزه دون عقله وواجبه. وما هذا التوحش الحيوانيُّ في هذه الحرب إلا نتيجة طبيعية للفكرة القومية المستقلة التي لا تريد إلا أن تستولي على أعظم ما يمكن أن تضع يدها عليه لتستمتع بالحياة والشهوات والسلطان
أما الإسلام - وهو روح الشرق من أقدم عصوره على اختلاف أديانه وأجناسه - فقد وضع كل مأثرة قومية جاهلية تحت قدمي صاحب الرسالة محمد صلى الله عليه وسلم، وسوّى بين الناس من أهله وبينهم وبين أهل ذمته وعهده، واختار المسلمين ليكونوا شهداء على الناس، فيكونوا قضاة يحكمون بالعدل لا يبغون ولا يجورون، وجعلهم دعاة يدعون إلى مبدأ يتساوى عليه الناس، فمن دخل فيه فهو منه، له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، وكتب عليهم القتال وأمرهم بهم، وعظم الجهاد في نفوسهم، ولكنه قتال على دعوة إلى هذا المبدأ وجهاد في سبيله وحرم عليهم العدوان ابتغاء عرض الحياة الدنيا وزينتها وشهواتها
فالمسلم من دينه في قانون إنساني كامل، لا يعمل للجنس أو الفرد أو السلطان والسيطرة، بل يعمل لإعطاء العالم كله روح المساواة، قد تحاجزوا بينهم في الشر، وانطلقوا في أيامهم يعملون على إثباتها في تاريخ الدنيا بمبدئها لا باستبدادها، وبغايتها دون لذاتها، وبالسمو بها إلى الإشراف على نظام الدنيا والسمو بها، لا بسيطرة القوة على إخضاع الدنيا وإذلالها، وجعلها كالبقرة يُحلب درُّها لمن يملكها. فالقانون الإسلامي العظيم هو روح الحضارة التي يجب أن تسود العالم، فإنها حين تسود عليه تجعل الحق هو السيد الذي تخضع له أعناق الناس، لا يبغي بعضهم على بعض في سبيل شهوات غريزية حيوانية مفترسة، يغذوها الدم ويهيجها الدم، فهي آكلة لا تشبع وثائرة لا تقر
والمسلمون اليوم هم جل الشرق، وروح الشرق، ولكنهم مسلمون قد أفرغوا من معاني الإسلام وبقيت ألفاظه تعيش بهم. إن كل فضيلة من فضائل هذا الدين، وكل عمل من أعماله قد انتزعت منه روحه، فتعامَل الناس على ما خيّلتْ، لا يبالون ما أمروا به ولا ما نهوا عنه، ففقد هذا الشرق الرأي العام الإسلامي الذي يكون تعبيراً صحيحاً عن إرادة الإنسانية في الاستعلاء والسمو. ولكن هذه الحرب قد تثير هذا العالم الراكد، وتدفع فيه أمواجه الأولى التي غسلتْ وجه الأرض وطهرته من دنس الحياة المادية العابثة المعربدة، فإذا كان ذلك فإن هذا الشرق قد أعد اليوم لأمر جلل، وقد حفظ الله له تاريخه الذي ورثه كاملاً فيه الأسوة وفيه العبرة، وفيه فلسفة الحياة الاجتماعية التي تجعل الفرد الواحد أمة كاملة لأنه هو ممثل الأمة، وتنصبه حاكماً لأنه يحكم نفسه أول ما يحكم، وتهيئه جيشاً محارباً في سبيل الحق الأعلى للإنسانية، لأنه يحارب نفسه أول ما يحارب في إقرارها

على إعطاء الحق لمن يستحقه من حقيقة نفسه
فاليوم يوم الشرق إن اختار أن يبدأ حركته إلى الغاية التي أمر بالبلوغ إليها والوقوف عليها شاهداً قاضياً، يدبر الأمر ويصرفه في سيادة الحق كله على الباطل كله. ونحن لا ننسى ما صرنا إليه، ولا نغفل عما فرغت منه أيدينا من أسباب الغلبة التي تتحكم اليوم في مصير الدنيا، ولكت الإرادة التي تحكم الرجل الواحد، تستطيع أن تحكم العالم كله، وسبيل ذلك أن يكون كل رجل مريداً إرادة صارمة لغرض مقصود بعينه، فهذه الإرادة هي التي تفتق له الجو الإلهي الذي يعد الإرهاص للمعجزة الإنسانية
ستكون أحداث، وتتجدد على الناس نوازل، وتسيل الكوارث من كل مسيل، ولكن الشخصية الاجتماعية التي لا تختلف ولا تتدابر ولا تتعادى، تستطيع أن تغرس في أيام المحن غرس المجد الإنساني السامي، لتنبت شجرة يمتد ظلها، ويترامى فيئها، ويطيب ثمرها، ولا يكون ذلك إلا بعد جهد ومشقة وعنت، ومصابرة للنفس على لأواء الحياة التي فرضت علينا أن نتألم، وأن نصاب، وأن يبلغ منا العذاب مبلغاً يُجهد ويؤود
فهذا أوان يستطيع الشرق أن يضرب الاستحكامات في أرضه وفي أوطانه بالأخلاق سامية عاتية، فيها القدرة على النمو، والقوة على البقاء، وأن ينظم لحياته نظاماً يهدف بغاياته على مستقبل يبعد عنه أو يقرب على حياطة تحفظه أن يقع فيه ما وقع في أيام البلبلة الأخيرة التي تبعت الحرب الماضية. نعم، إن الشرق يفقد اليوم زعيمه الذي يهب من جماعاته كالأسد تنفرج عنه الأجمة الكثيفة عاليَ الرأس حديد النظرة، تتفجر القوة من كل أعضائه ولكن، أيمنع هذا أصحاب القلوب الحية التي تشعر بحاجتها إلى هذا الرجل أن تهزَّ شعوبها هزًّا عنيفاً متتابعاً، حتى ينفلتَ إلى المقدمة ذلك الأسد الرابض إلى الأرض في قيوده الاجتماعية التي تقعد به عن الحركة للوصول إلى المكان الذي أعده له القدر، ليبدأ بدأه في إعداد الدنيا لاستقبال الدين الذي سيتجدد في الدنيا، لأنه هو سر الدنيا وسر القدر
إن علينا أن نعمل، فإن كان ما أردناه وما نتمناه، فذاك عز الإنسانية ورضوان من الله، وإلا فقد أدينا ما وجب، ولله الأمر من قبل ومن بعد
محمود محمد شاكر
حركات الإصلاح الإسلامية
أزمة إسلامية - 5
للدكتور علي حسن عبد القادر
لم تبق حركات الإصلاح محصورة في الهند ومصر، ولكنها تعدتهما إلى البلاد الإسلامية الأخرى، وذلك أن حركة التبادل الفكري في العالم الإسلامي قوية عنيفة لا يمكن معها أن تبقى مثل هذه الحركات مقصورة على مكان واحد. وعلى الأخص إذا كانت أفكاراً لذوي الشخصيات القوية مثل جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ممن تعدت أفكارهم وآراؤهم الحدود ووجدت صدى بعيداً وتأثيراً مباشراً
وقد ظهرت فجأة وعلى غير انتظار حركة إصلاح ديني هي حركة الإصلاح في تركيا، ذلك الشعب الذي لعب دوراً في قيادة العالم الإسلامي عدة قرون. وقد جاءت هذه الحركة متأخرة عن الحركات الأخرى، ولكنها كانت مع هذا التأخر أشد من أولئك فضلاً وأنفذ عملاً. أما السبب الذي جعل تركيا التي كانت تسير في الإصلاحات السياسية والثقافية في المقدمة وعلى قمة الناهضين - لا تهتم اهتماماً استقلالياً بالإصلاح الديني إلا أخراً، فإن ذلك يرجع إلى أسباب من أنواع مختلفة، فمن ذلك أن الأتراك بطبيعتهم لم يكونوا باحثين منقبين، ولم يساهموا في تطور الإسلام بسهم ملحوظ؛ فإنهم عندما دخلوا الإسلام كان الدين والتفكير فيه قد انتهى إلى شكله النهائي الذي وصل إليه. وكما أنهم لم يساهموا فيه أولاً، كذلك لم يساهموا في نهضته أخراً، لما هو فيهم من ميل وسعي لاقتباس المدنية الغربية، وكلما ظهر تأثرهم بهذه المدنية قوياً ظهر إمكان إيجاد الاتصال بين الإسلام وبين العقلية الحديثة للشباب التركي أمراً بعيداً
وتطور التركية الحديثة يسير منذ زمن طويل قليلاً أو كثيراً في طريق لا يقوم على أساس أو خلق بل هو عار عن كل وطنية أو دين، وهو ما يسمى في الشرق بالنزعة الغربية أو الأوربية على أننا لا ننسى أمراً مهما وهو أن عصر طغيان عبد الحميد كانت تمجد فيه مذاهب السنة والتمسك بها في الآستانة. ومن الحق أن جمال الدين كان قد أثر هناك، ولكن تأثيره كان ضعيفاً من سوء ظن السلطان به؛ وكانت أفكاره قد طبعت

من جانب عبد الحميد بطابع سياسي عملي. وفي هذه الفترة التي اشتد فيها النزاع الداخلي بين الإسلام والتقدم
الأوربي كان لا يمكن أن تأتي هذه الأفكار بثمرة. وهكذا ترى أنه بعد ثورة 1908 أخذت مسألة الدين مكاناً واهتماماً بنفس الشكل الذي كان عبد الحميد يحاول بشدة تنفيذه، وأخذت الحركة الروحية النائمة التي كان يحاول إيقاظها تدب فيها الحركة
وفي يدنا الآن بحث قيم وضعه عن تطور حركة التجديد في تركيا تركي مثقف ثقافة غربية كاملة، ولكنه في الوقت نفسه ذو إحساس ديني حار، وهو أحمد محي الدين الذي مات مع الأسف في سن مبكرة أما كيف سار التجديد بسرعة قبل أن يقطع طريقه مرة واحدة فيتبين لنا ذلك من هذه الحقيقة وهي أن محي الدين استطاع أن يكتب في سنة 1921 هذه العبارة: (إن طريقة أهل السنة التي غرضها التمسك بالإسلام بشكله التاريخي الحاضر قد أصبحت اليوم مغلوبة مهزومة). ففي هذا الوقت (1921) كان يتنازع الغلبة مذهبات مختلفان أشد الاختلاف: المذهب الوطني الذي كان يتزعمه الشاعر المفكر ضياء جك ألب. والمذهب الآخر الذي سمَّاه محي الدين (المذهب الإصلاحي) والذي كانت تقوم عليه شخصية الشاعر الواعظ محمد عاكف، وعمل برنامجه الأمير المصري والوزير العثماني محمد سعيد حليم. ومن الممكن على احتمال قليل أن نميز أولهما بأنه سياسي ثقافي والآخر بأنه ديني إصلاحي والمهم هنا هو أن كليهما قد وضع لمسألة الدين طريقاً واحداً للسير فيه. فكل منهما - كما يقول محي الدين - يرفض الإسلام التاريخي ويطلب الرجوع إلى الإسلام الأول، وكل منهما يرفض اعتبار الشريعة للوقت الحاضر ويطلب حرية الاجتهاد. فهما - كما يرى - قد رسما خطة للتجديد واسعة. ونستطيع أن نتبين من غير صعوبة أن برنامجهما المشترك يتفق في أهم نقطة مع برنامج الإصلاح المصري. وفي الحقيقة أن الارتباط الشخصي ظاهر بين (المذهب الإصلاحي) التركي، وحركة الإصلاح المصرية، وأمور الإصلاح فيهما متفقة
وقد وضع المذهبان التركيان لهما شعاراً للإصلاح الديني كلمة (إسلام أشمق) بمعنى الرجوع إلى الإسلام. وعند تفسير هذه الكلمة عند كل من المذهبين يتبين لنا الفرق الأصلي بينهما
ومعنى هذه الكلمة يرجع في مرحلتها الأخيرة إلى جماعة المؤمنين المتمسكين بالقديم، إزاء العصريين المندفعين في تيار الأوربية المنكرين للإسلام. ثم لما كشف القناع عن دخيلة
هؤلاء الأتراك الذين لا دين لهم ولا وطنية أخذ هذه الكلمة الوطنيون أصحاب المذهب الوطني في برنامجهم الثلاثي: (ترك - إسلام - تجديد) وأراد به هؤلاء الوطنيون تحرير الإسلام من أعمال أهل الدين المتأخرين، ومن أمور زمنية ومكانية التصقت به من أول الأمر، ولكن كما يظهر من البرنامج الثلاثي فإن هذه الكلمة تصور طلباً من طلبات الوطنية؛ والنقطة الرئيسية والعماد الأهم إنما هو الناحية السياسية الثقافية، فكلمة (الرجوع إلى الإسلام) هي على الأكثر القالب الذي يصب فيه البرنامج ما يحس به من مسألة الدين كنقطة هامة. وهكذا حدد هذا البرنامج الدين في مجاله الضيق وفصل عنه الجانب الآخر من الحياة الإنسانية؛ فهو يطلب مباشرة فصل الدين عن الدولة، وغايته حياة دنيوية غير روحية
وعلى الضد من هذا (المذهب الإصلاحي) فهو مع إحاطته على العموم بالحياة الثقافية والسياسية يتعمق من الوجهة الإصلاحية في الدين وما يعنيه من (الرجوع إلى الإسلام). فهو يعني الرجوع إلى الإسلام القديم؛ لا بإبعاد الأمور التي غيرت منه أثناء تطوره التاريخي فحسب، بل أيضاً وقبل كل شيء يريد الوقوف ضد هؤلاء العصريين المندفعين في تيار الغرب وضد دعاة المذهب الوطني، فهي حركة دينية تريد أن يكون الدين قوة تخضع لها كل الحياة المدنية من غير إضرار بحرية الفرد، وهي في هذا متفقة مع الحركة المصرية مختلفة مع المذهب الوطني أصلياً في مسألة الدين وقد يختلف المذهبان اختلافاً جزئياً في طلباتهما، ولكنه أقل من اختلافهما في الدوافع، وكما يتحدان في نقدهما للإسلام التاريخي في كل الأمور، يتحدان أيضاً في كثير من المسائل العملية، فالفرق بينهما ليس فرقاً ظاهراً للعيان، ولكنه فرق كامن في الأساس. ومن الحق أن نقول من جانب آخر إن عدم اهتمام المذهب الوطني بالدين لا

يصح أن يؤخذ على معناه الواسع، فإن شعر ضياء جوك ألب الديني يرينا بوضوح أنه ذو شخصية دينية محافظة عميقة
إلى هنا قد تعرفنا أهم أشكال الحركات الإصلاحية الحديثة في الإسلام، أما حركات هؤلاء الوافدين على أوربا وأمريكا مثل الحركة البهائية الفارسية أو الأحمدية الهندية، فهي حركات منفصلة لا تمت كثيراً إلى الحنيفية الإسلامية
وأخيراً يتبادر لنا هذا السؤال: هل تلك الحركات إذا ما أمكن تحقيقها تستطيع إلى مدى بعيد أن تحقق الاتفاق مع التفكير العصري والأخذ بحركات التقدم العلمي والمادي؟
وجوابنا على هذا السؤال بالإيجاب بدون قيد ولا شرط، فإن العقيدة الإسلامية لا تمنع أي تطور تجديدي، بل هي في أصلها أشد مرونة وأسلس قياداً من العقيدة المسيحية.
والذي يظهر أنه مانع لا يذلل هو الفقه المكون من تفصيلات تافهة، فإذا ما ترك هذا كما هو الأساس في كل الحركات الإصلاح فإن التقدم العصري - حتى بمعناه الأوربي - يكون بابه مفتوحاً على مصراعيه.

علي حسن عبد القادر

أنا. . . والقلم

للأستاذ علي الطنطاوي

بين يدي الآن رسائل من بيروت وحمص وبغداد والإسكندرية وأم درمان من إخوان) كرام ما كان لي شرف الاتصال بهم، كلهم يسألني لم لا أكتب في الرسالة في هذه الأيام، ويشفق أن تكون الأرزاء قد هدت ركني وكسرت قناتي. . . فكتبت هذا الفصل هدية إليهم وجواباً)

(ع)

أعترف أنها قد جفَّت قريحتي فما تبضّ بقطرة، وكلّ ذهني، ومات خيالي، ومرت عليّ أيام طوال لم أستطع أن أخط فيها حرفاً، وعدت من العيّ والحصر كأول عهدي بصناعة الإنشاء، وأصبحت وكأني لم أكن حليف القلم وصديق الصحف، وكأني لم أجر للبلاغة في مضمار. . . وما أدري أأبرأني الله من حرفة الأدب التي ابتلاني بها وابتلاها بي، أم هي سكتة عارضة وُعقلة مؤقتة، كالذي يعرض للشعراء والكتاب، ثم تزول السكتة وينطلق اللسان، ويعود أحدّ مما كان؟. وما أدري أعّلة ذلك الزواج، وقد قالوا إن زواج الأديب يؤذيه وتغور منه ينابيع فكره، أم هي الرزايا والآلام، وما يغيظ الأديب من انحراف الأمور عن صراطها، وتقدم من حقه التأخر، وتأخر من يستأهل التقدم، وضياع الحقوق وغلبة الجهال، أم هذه العزلة الحسية والروحية التي أبت إليها طوعاً أو كرهاً، فجعلت حياتي كالبركة الساكنة، لا يسقط فيها حجر فيثير أوحالها ويخرج دررها؟
إني كلما أخذت القلم لأكتب، أحسست أنه يحرن ولا يملكني زمامه، وأنه يستعصي عليّ ويستعصم مني؛ وأجدني أميل إلى مطالعة كتاب، أو أنظر في صحيفة. فأقبل على القراءة، وأعوض على ذهني ما فاته منها في هذا الزمن الطويل، وأني لا أزال أحتاج إلى تعلم كثير مما أجهل، ولا يزال في الكتب ما لا أستوعبه في شهرين أو ثلاثة، ولست قائلاً مقالة ذلك الدعيّ الذي زعم أنه قرأ ديوان الفرزدق في خمسة عشر يوماً، ولا والله ما يفهم قصيدة منه واحدة في شهر. . . ولا الذي ظن أنه علم كل شيء حتى ما يسائل واحداً عن علم مسألة لكي يزدادها! فأسلمتني المطالعة إلى الزهد في الإنشاء، ومال بي الزهد إلى إيثار الدعة وابتغاء السلامية ومحبة الخمول، بعد الرغبة في الذكر، فسبحان مقلب القلوب. . .
ولقد كنت أشكو الغربة وأضيق بها، فصرت أشكو فقدها. ويا حبذا الغربة، وأنعم بها مثيراً
للشعور، موقظاً للهمم. كنت أتألم منها فأصف ألمي، وأشتاق فأصور شوقي، وأرى فيها جديداً فأنتبه إليه، فأكتب فيه؛ فرجعت أمرُ على المشاهد غافلاً عنها لأني ألفها كلها وأعرفها، ورجعت لا آلم ولا أسر، ولا أقول إني راض ولا مبتئس - وهذا لعمري شرَّ ما يمر على الأديب من الأحوال، وهذا هو الموت. . . ولربما شغلني سفساف الأمور، وأضاع عليّ الكثير من وقتي. وهل ينفع القراء أن يعلموا أن عملي منذ شهر الطواف في أحياء دمشق من شرقها إلى المغرب، ومن شمالها إلى القبلة، أفتش عن دار أستعيض بها عن داري (في الجادة الخامسة)، لأن حماقة صاحبها كرهت إلى جمال مستشرفها، وطيب موقعها. . . وأن أعصابي في ثورة دائمة، عفت معها الحياة، من

صبية عشرة - أحياهم الله لأبويهم - يسكنون الطبقة التي تحتنا، لا يهدؤون لحظة ولا يسكنون ولا يفترون عن بكاء أو صياح أو غناء، أو قرع باب أو كسر شباك؛ وقلبي يخفق وأعصابي تتمزق، ولا أنتفع من نفسي بشيء. وإن شكوت إلى أحد سخر مني وضحك عليّ. فليتصور القراء مبلغ ما أجد من الضيق والأذى، فيا ليت أني لم أعط ملكة الكتابة، أو ليتني إذ أعطيتها عرفت كيف أستفيد منها، فما شيء أصعب على الرجل من أن يريد ولا يقدر أو يقدر ولا يريد. . .

وليثق القراء أن يوماً يمرّ عليّ لا أكتب فيه شيئاً أو أعد في نفسي شيئاً لأكتبه لهو يوم بؤس عليّ لا يوم نعيم، وأن أول ما أفكر فيه إذا سرني أمر أو ساءني، أو أعجبني أو راعني، كيف أصوره وأعرض على الناس صورته كي أنقل إليهم شعوري، وأقاسمهم عواطفي، لا أفعل ذلك للشهرة والمجد الأدبي، ولا للنفع ولا للضرر، فقد بلغت من الشهرة ما يصح الوقوف عليه لو كانت الشهرة أكبر همي، ولكني رغبت عنها لأني وجدت ما نلت منها لمُ ينلني خيراً قط. ثم إنه ليس بين الرجل وبين أن يشتهر في بلادنا بصفة الأدب إلا أن يكتب فصلاً أو فصلين؛ فإذا هو ومن ملأ الأسماع أدباً حقاً وبلاغة باقية سواء، ولكني أكتب - علم الله - لأدفع عن نفسي الملل وما يصيبها من الألم إذا أنا لم أكتب، فكأنني أعمل بالغريزة التي تدفع النحل إلى اتخاذ العسل والعقارب إلى نفث السم، وكل حي من الحيوان إلى ما سخر له من نفع أو ضرر. ولا أعلم أأحسن أم أسئ، ومتى يكون الإحسان وكيف يجئ، وكل ما أعلم أن فكرة تخطر على بالي تأتي بها نظرة أو سمعة، فتنمو فيها حتى تملأ ذهني وتسيطر عليّ، فلا أملك عن تدوينها تأخراً، فآخذ القلم فإذا هي تجر وراءها أخوات لها، وإذا أنا أمضي في الكتابة لا أكف حتى يكون القلم هو الذي يقف، ثم أبعث بذلك إلى المجلة أو الجريدة، فإذا أبطأت بنشره أو أهملته سخطت وثرت؛ وإن نشرته فرحت به وقرأته بلذة، فإذا مضى عليه يوم عدت إليه فرأيت عيوبه. فقلت ليتني نقصت من هنا وزدت من هناك، وحذفت هذا أو أثبت ذاك. . . ثم لا يمنعني ذلك أن أعود إلى خلتي من الإسراع كرة أخرى. ولقد حاولت التنقيح والصناعة مرة فأفسدت من حيث توهمت الإصلاح، فعدت إلى طبعي. فإذا كان في الناس من يعجبه ما أكتب فالحمد لله. . .

وما سكت لقلة في الموضوعات، ولكن لجفاف في القريحة. ولو كان بي أن أكتب لوجدت في كل شيء موضوعاً لفصل، غير أنه لابد من العاطفة والفن، ولو كان الأدب الواقعي أن تسرد كل ما (وقع) لك لكان الناس كلهم أدباء؛ ولكن الأدب الواقعي أن تأتي بالصورة الجميلة، قد صقلها الطبع، وبرقشها الخيال، وزانتها العبارة الصحيحة، والسبك الدقيق. لكنك لا تخرج فيها عما (يمكن أن) يقع. . .

ولو أسعدتني القريحة لكتبت في وصف هذا الفتى الذي صحبنا في لجنة من لجان الامتحان كان فيها عالم الشام الشيخ بهجة البيطار ليصحح معنا أجوبة التلاميذ فكان كلما وجد استعارة أو مجازاً خط تحته خطاً، وكلما وجد ترادفاً من اللفظ أو مزدوجاً من الجمل مد مدّة فوقه، ثم نقص عليه من درجات التلاميذ درجة. فحاورناه في ذلك فكان من رأيه الذي تعلمّه في باريز وعلّمه التلاميذ الذي جعلوه معلمهم، أن المذهب الجديد ينكر ذلك ويعده غلطاً، وكانت حجته القاطعة على صحة رأيه أنه رأيه. . . وبذلك دفع كل ما ردّ به عليه الشيخ، وما بيّن له من سنن العرب في كلامها، وما جرى عليه بلغاؤها وما نزل به الكتاب. . . ومال ناظر المدرسة إلى (رأيه. . .) لأنه هو وحده بيننا الذي يحمل شهادة التخصص في اللغة العربية من. . . باريز!

ولو أسعدتني القريحة لكتبت في التعليق على الامتحانات وما يكون فيها من الوساطات والشفاعات والالتماسات وما نالني منها، وكم أبصرت في داري من وجوه ما كانت لتكون فيها لولا الحاجة. . . وطلب (الشفاعات). . . وما يحيق بالمدرس المستقيم الشريف من عنت ومشقة، وما يقال عنه وما يلقى. . . وما يتخذ التلميذ من طرق الغش والحيل، فإذا أظهرتها وعاقبته عليها زعم أنك ظلمته، وتَمَسْكن وجعل نفسه ضحية فأثار عليك الناس، أو (تنمرد) واستكبر فبطش بك، أو شتمك أو وكل بك من يقوم بـ (الواجب)!

ولو أسعدتني القريحة لكتبت في تاريخ الأدب فصلاً أجعل إهداءه للدكتور صِلبا ليرى أن الله لا يستحيل عليه أن يمنح ملكة الأدب من لا يحمل شهادة اختصاص فيه. . . وأن

. . .الشهادة بلا علم ليست دائماً أفضل من العلم بلا شهادة
ولو أسعدتني القريحة لوصفت هذا المشهد الذي يملأ النفس ألماً، ويفجر القلب أسى، منظر زميلنا المعلم الشاب (مصطفى شكري خسرو) الذي كان موعد زفافه اليوم، وكان صحيحاً معافى، فرئي اليوم نعشه يمشي إلى المقبرة وعليه غطاء سرير العرس ووقفت زوجته التي كانت ترقب الزفاف، تشهد الدفن. . .
مثل هذا الموضوع ينشد الأديب ويبتغي، ينشد لحظات الإشراق والتجلي، إذ يحس بأنه خرج من ذاته، فدخلتها روح أخرى، فطارت به إلى الملأ الأعلى، فأرته ما لا تراه عين، ولا تحيط بوصفه لغة بشر، وإنما يصور بإشارات ورموز ترفع قارئيها إلى هذا العالم النوراني العجيب
أما المشفقون على، الخائفون أن تلوي الحادثات قناتي، وتهد ركني، فليعلموا أني في أمان، وأن رسالة الأديب أن يطاعن عن الحق ويناضل حتى تعلو كلمته، أو يصرع دونه، ولينظروا أيهما أسير في الناس وأشهر، أورقة الشهادة الناطقة بفضل صاحبها، أم مجلة يكتب فيها الأديب فيقرؤها مائة ألف؟ وأيهما أقوى وأمتن، أهذا القلم الدقيق أم أرجل الكراسي التي يثبت عليها (أولئك) ويعلون بها؟ وأيهما أحد وأمضى، ألسان البليغ المفوه أم ألسنة ببغاوات الليسانس والدكتوراه؟
إن لكل أديب رسالة، فليقوّنا الله على تأدية الرسالة
علي الطنطاوي
أضرار التشجيع
للأستاذ سعيد الأفغاني
إن من عادتي إذا حل الصيف ونفضت عنى عناء التدريس وذيوله من امتحانات ومراقبات أن أفئ إلى قاعة المجمع العلمي العربي، فأسرح الطرف بما يرد إليها من الكتب والمجلات الغريبة. وكان أن وقع في يدي عدد من مجلة (العصبة) الصادرة في المهجر، فطفقت أطالع فيها، فوقفت عند هذا العنوان (ذلك الأمي اليتيم. بحث أدبي لا ديني) وإذا بالكاتب يسئ فهم النصوص ويغمز الأئمة الذين أجمعوا على أمية الرسول صلى الله عليه وسلم منذ صدر الإسلام حتى يوم الناس هذا، ويعجب من غفلتهم، ثم يتلطف بهم ويعتذر لهم بأن الخطأ أتاهم من حيث إن النبي كان أمياً ثم زالت أميته! يتساءل حضرته: هل زالت عنه الأمية كما زال عنه اليتم بعد أن تقدمت به السن؟ هل تعلم القراءة؟ (وهو يعني طبعاً القراءة في الصحف التي لا يعرفها إلا من تعلمها مع الكتابة تعلماً). ثم قال: (نجيب بكل جرأة (هكذا والله بالحرف) إنه تعلمها وبز الأولين والآخرين!) انتهى وما شاء الله كان
ويأبى بعد ذلك إلا أن يسرد ما يراه حججاً من مثل: (أنا أفصح من نطق بالضاد)، (أنا مدينة العلم. . .)، (اطلبوا العلم. . .)، (اقرأ باسم ربك الذي خلق)
لست أريد الرد على هذا الكلام ولا أنا بصدد شرح أمية الرسول فمن العبث المخجل أن أشغل القراء بما هو معلوم من التاريخ بالضرورة، وإن مما يفهمه الصغير قبل الكبير أن القراءة معناها مطلق التلاوة، و (اقرأ) الواردة في الآية معناها (اتْلُ) عن ظهر قلب لا أن يسرد ما في صحيفة أو كتاب. وإن حض الرسول على طلب العلم، وكونه أعلم الناس لا ينافي أميته، وكل ما في الأمر أن هذا الناشئ جهل الفرق المقرر بين (الأمية) و (العامية) فتوهم تناقضاً بين النصوص، وأن هذا التناقض عمى عنه الأولون والآخرون حتى طلع حضرته ببصيرته النافذة ونظره الثاقب فأزال لبسه وحل تناقضه بقوله: كان أمياً ثم تعلم وزالت أميته. دع عنك ما يعرفه كل مطلع على سيرة النبي من اتخاذه كتاب الوحي ومن استعماله الرجال ليكتبوا عنه إلى الملوك ومن الحادث المشهور في الحديبية حين سأل علياً عن مكان كلمتي (رسول الله) من الصحيفة ليمحوها بيده الشريفة إذ أصر رسول المشركين على محوها وامتنع عليّ. . . إلى آخر القرائن التي لو لم يكن غيرها لما ساغ لأحد عنده شيء من الفهم أن يذهب إلى نفي أميته، فكيف ونصوص القرآن نفسها مصرحة بأميته في آيات مكية ومدنية، ولو لم يكن إلا هذا التواتر الصارخ لكان لعاقل أن يتهم عقله إذا تطرق إليه في هذا الأمر شك مهما ضؤل
أم كان من الحتم إذا قرر كاتب أن بحثه غير ديني أن يركب رأسه فيه فينقض المبرم ويبرم المنقوض، ضارباً بالعلم والتاريخ واللغة والمنطق والعقل عرض الحائط: يأخذ ما

شاء ويدع ما شاء ويستنبط ما شاء كيف شاء بلا سناد من برهان ولا رابط من فهم ولا ضابط من منطق

أنا لا أشك في أن إفساح مجلة (العصبة) صدرها لمثل هذه الآراء الفطيرة ضرب من التشجيع، وأننا باسم هذا التشجيع نُقذي عيون القراء بما يزهدهم في سمين الأدب تحامياً لغثه

وقد آن للمفكرين أن يوازنوا بين مساوئ التشجيع وما يذكر من حسناته، حتى إذا رأوا الشر فيه أربى على الخير نبذوه غير مأسوف عليه

على أن أول الأضرار حائق بالذين تشجعهم؛ لأن أحدهم حين يرى سخفه مذيلاً باسمه في صحيفة سيارة، يداخله من الصلف والغرور ما لا يقوّمه مهذب بتهذيبه ولا ناصح بنصحه، ثم يترفع بعد هذا عن كل درس ومطالعة، ذاهباً إلى أنه شب عن الطوق وأن بوسعه أن يأتي بخير مما في الكتب، فقد صار كاتباً تحريراً وأديباً كبيراً؛ وهذا ما يعوق كثيراً من ناشئتنا عن التعلم والتأدب الصحيحين، وهو هو ما يشكو تفشيه فيهم كثير من العقلاء

لست أنكر أن التشجيع قد يكشف عن بعض المواهب ويسلك بها السبل المجدية التي تؤتى فيها أكلها، لكنه إلى ذلك يدفع إلى الحياة بخلق كثير من أنصاف العوام الذين انتفخوا غروراً واعتداداً وكانت أنوفهم في السماء وهممهم في الحضيض وقلوبهم هواء ولأن نصد بتثبيطنا اثنين أو ثلاثة نأمل فيهم النجاح خير لنا وأبقى من أن نفتح الباب على مصراعيه فنشجع كل جاهل ودعي وغبي، ونملأ صحفنا ومجلاتنا جهلاً وسخفاً ونعيش في جو مشبع غثاثة وابتذالاً

وبعد فماذا على المرء أستاذاً كان أم أديباً أم صاحب صحيفة، إذ قال للشادي: يا بني تحتاج

إلى أن تتعلم كثيراً وتتعب طويلاً قبل أن تحدثك نفسك بدفع ما تخط إلى المطابع؟ وإذا كان في كل حكومة إدارة خاصة لمراقبة المطبوعات من الناحية السياسية، فلم لا يكون في كل إدارة جريدة ومجلة وفي كل مطبعة مراقبة فنية دقيقة ترفض كل رخيص مبتذل من المقالات؟

إن من الواجب على المطابع أن تكف عن طبع كل كتاب ليس فيه سد ثغرة في المكتبة العربية أو إضافة خير أو إحياء تراث قيم. . . وحينئذ يستريح الناس من هذا الهِنْر الذي تدفعه المطابع إلى الأسواق حتى سَئِمَتْ النفوس الكتب والمجلات لما في أكثرها من غثاء وهزال

والحاجة إلى هذه المراقبة أمسّ لأن فيها وقاية للملكات من الابتذال والركاكة والفساد، وذلك أجدى على الثقافة من كثرة المعاهد والكليات، إذ أن الصحف والمجلات والكتب مدارس ميسرة لكل قارئ مهما ضؤل حظه من المعرفة. ومن أول الواجبات على هذه المدارس العامة أن تكون رافعة لمستوى قارئها لا خافضة له

في الأقطار العربية ظاهرة ثانية للتشجيع المجرم لا تقل عن هذه فتكا ونكاية، وليس بناصح من عرف موطن الداء فلم يدل عليه مجاملة أو إشفاقاً. عنينا بهذه الظاهرة داء الشهادات التي يحصل عليها حاملها بأرخص ثمن وأيسر سبيل

ومع أني أعرف أن الجامعات ليست سواء في التساهل (أو الغش إذ شئت الصراحة) أعرف كذلك أن بعضها قد تدنى - وخاصة مع الغرباء - إلى درجة لا يصح السكوت عليها، بل يجب على كل حكومة تحررت من أن يفرض على مصالحها هؤلاء المزورون فرضاً - أن ترفض هذا الضرب من الشهادات صيانة لمصالحها من عبث الجاهلين وحفظاً للأمة أن تنحدر إلى الهاوية إذا تولى أمورها المدلسون

يذهب الشاب العربي إلى إحدى ممالك أوربة، فلا يكاد يهبط عاصمتها حتى تراه مهرولاً إلى مكتبة مشهورة أعطى عنوانها قبل سفره، فيقفها على أن مراده الحصول على شهادة (الدكتوراه) فتتفق معه على مئات من الفرنكات تتناسب هي وعدد الصفحات المطلوبة، فتجمعه بأحد عملائها من الأساتذة الذين يرتزقون من التزوير، فيكتب له الأطروحة ويعلمه إياها تعليما، ويقومان معاً بتجربة المناقشة، ثم يتقدم بها الطالب إلى الجامعة فيفوز بالشهادة

ومعه درجة (مشرف جدًّا ويعود إلى بلاده فيعهد إليه بمنصب علمي أو إداري يشرف منه على كثير من المتعلمين ليس فيهم إلا من هو أعلم منه ومن أستاذه وأشرف

وقد بلغت الوقاحة ببعض الجامعات أن تعطي الدكتوراه لمن قدم إليها أطروحته بلغة يجهلها هو كل الجهل. فإذا أنت عجبت لهذه الجامعة كيف تترخص هذا الترخص، وهي في أرقى البلاد المتمدنة، أجابك المنافحون عنها: إن هذا شأنها مع الغرباء فقط، وهو من قبيل التشجيع لا غير، وليس على الجامعة من ضير، لأن هذا الجاهل لن يضر وطن الجامعة، وإنما الضرر منه على وطن آخر قد تكون سياسة الدولة التي تنتسب إليها الجامعة تتعمد هذا الإضرار تعمداً. والأمر بعد هذا على شاكلة كل البضائع المغشوشة التي تصدر هناك، ويكتب عليها: (بضاعة للتصدير إلى الخارج)

ولست أدري، هل في هذا الذي ذكروا ما يبرر الغش والتزوير؟ وهل يستبيح العلم تسمية الجاهلين علماء لوجه التشجيع فقط؟

ولما رأى الكثيرون هذه السبيل المعبدة لنيل الشهادات تهافتوا عليها وهجروا الطرق المشروعة من التعلم الصحيح والدأب المتواصل والعمل الجاهد؛ وصار الذي يطلب الشهادة من طريقها الحلال مثلاً شروداً بين أصحابه في الغفلة والغباء

ألا أخبرك، يا سيدي القارئ، بأشد من ذلك كله وأنكى؟ أتريد أن تعرف كيف آل الأمر بهذا التشجيع؟ فاستمع إذن لما أقصه عليك:

لقيني منذ سنوات خمس شاب من حملة (الليسانس) هبط دمشق فجال جولة في أروقة الحكومة فيها، وتكفل دهاؤه وشطارته ووسائطه أن يعهدوا إليه بتدريس اللغة العربية في إحدى مدارسها. فبعد أن عرفني بنفسه بلطف متناه واحترام فلبي، خدَّرني بمجاملته لساحرة، ثم قال:

إن أولى أمانيه في مجيئه إلى دمشق أن يجد السبيل لإنقاذ مخطوط عربي نفيس من الضياع، وإنه لقي كثيراً من علماء العاصمة وأدبائها، وارتاد أبهاءها الثقافية (صالوناتها)، متعرفاً لرجالاتها، ثم خاطبهم بمراده، فكلهم أشار عليه بأن يلقاني. . . وإن الغيرة على العلم والأدب هي التي تحفزه لهذا الأمر الجُسام، وهو مستعد أن ينفق على مشروعه النفقات الباهظة. . . وليس يعوزه إلا أستاذ ضليع محقق. . . عنده من الغيرة على لغة العرب وتراثها ما يستحلي من أجله كل صاب وعلقم. . . وإنه يحمد الله على أن هداه إليَّ ووفقه إلى إنجاح المسعى بي. . . الخ

كل ذلك يقوله بنبرة متحمسة ولهجة عصبية تعطف عليه الصخر الأصم. ولم يكن من هذا العاجز إلا أن وقع في الشراك قائلاً في نفسه: إن من الفرض على المرء أن يشجع من نصب نفسه لخدمة العلم مهما كلفه التشجيع من الجهد والوقت

وعدته أن أهب له فراغي الوحيد كل أربعاء من الصباح حتى الظهر، ولبثت على ذلك حتى انتهى العام الدراسي: يقرأ على في قاعة المكتبة الظاهرية نسخته التي نسخها بمصر من كتاب (سر الصناعة لابن جني) وبيدي النسخة الخطية التي تملكها دار الكتب الظاهرية من هذا الكتاب، وأنا أصحح وأقابل وأضبط وأعلق وأرجع إلى مصادر كثيرة في القاعة وهو يكتب ما أملي عليه. فما سلخنا العام حتى أتممنا من العمل قسما صالحاً لست أدري مقداره الآن بالضبط، ولكن الخطة شرعت والعمل وضح، والعقبات اجتيزت، والحزون سهلت، وبقي من العمل ما لا خطر له. كل ذلك على ملأ من الناس، وعلى عين من موظفي المكتبة ومناوليها وروادها لأن قانون دار الكتب يحظر إخراج المخطوط منها تحظيراً باتاً

ثم تعاقبت الأيام يلقاني فيهن هذا الشاب. كلما هبط دمشق بمظاهرة حافلة من البشاشة والشوق والتعظيم والاحترام. . . إلا أنه لا يذكر الكتاب بحرف طول هذه المدة، فظننت أنه ناء بالمشروع وعجز عن نفقاته فأهمله لسوء حاله، ولم أجد من المروءة أن أنكأ فيه جرحاً داملاً. . . وكرت الشهور وإذا بي أجد في دار الكتب قبل شهرين رسالة صغيرة بالفرنسية نال بها هذا الشاطر الدكتوراه، بعد أن عرضها - فيما بلغني - بالعربية على الجامعة المصرية فلم تر فيها شيئاً فرفضتها. قلبت الورقة الأولى من الرسالة فإذا خلفها: (سيصدر للمؤلف بالعربية: كتاب سر الصناعة لابن جني) فدار رأسي والله، لا حسرة على الوقت الضائع والجهد المسروق، ولا خشية أن يكون عبث بالعمل فأفسده ثم هيأه للطبع، ولكن فوجئت بما لم أكن أتصور أن الحياة تنطوي عليه من وقاحة وصفاقة، وعرفت أن ذلك التهافت من شبابنا على نيل الشهادات بأرخص الوسائل وأبعدها عن الشرف، قد دخل في طور آخر أدنى وأحط، هو ما قصصت عليك من أمر هذا الشاب

وعلم موظفو المكتبة بالأمر فتعجبوا وشُدهوا وقال أحدهم: (هلا انتظر هذا المزور موت الشهود عليه وهم كثير). ثم بلغني أنه يريد أن يتقدم بهذا الكتاب إلى الجامعة المصرية لنيل دكتوراه ثانية؛ فهان الأمر عليّ لأن أقل مناقشة من أساتذة الجامعة المختصين في موضوع الكتاب وتعليقاته تطلعهم على التزوير فيه وعلى أن البضاعة المعروضة هي لغير عارضها

أحسب والله أن هذا الشاب - ولعل أمثاله في المجتمع كثيرون - لا يرى أنه أتى أمراً إدًّا، وأنه فعل فعله أكثر من سبقوه بنيل الدكتوراه من بعض الجامعات الأجنبية، ففيم يفرد دونهم باللوم؟

وإذا كان أولئك الدكاتير نقدوا من صنع لهم أطاريحهم المئات من الفرنكات فلأن هؤلاء الصانعين غربيون ماديون مرتزقون؛ وأساتذة دمشق بحمد الله مثاليون يحتقرون المادة، وحسب أحدهم من تعب السنين وسهر الليالي أن ينقذ تراثاً من الضياع وليس يهمه أن ينسب إلى سواه

وبعد فهذه أنماط مختلفة من أضرار التشجيع، عرضتها ليعالجها وأمثالها المطلعون من الكتاب، حتى يحذرها الناس

وإن أختم بشيء فهو قولي للمسؤولين من علماء وأدباء وأصحاب صحف ومجلات ورجال جامعات:

احرصوا على تثبيط الدجالين والمغرورين حرصكم على تشجيع الأكفياء الصالحين، وما أنتظر لكم من ثواب الله وشكر العلم وامتنان الناس على تثبيط الأولين أضعاف ما لكم على تشجيع الآخرين.

وإذا لقيتم هذا الضرب الوبيل من الناس وجاءوكم بغشهم وتزويرهم وغرورهم وجهلهم، فثبَّطوا ثم ثبطوا ثم ثبطوا

(دمشق)

سعيد الأفغاني

الحرب في أسبوع

للأستاذ فوزي الشتوي

الهدنة الإيطالية

اختلفت شروط الهدنة الإيطالية الفرنسية اختلافاً بيناً عن الشروط الألمانية، فالفرق بين القيود الألمانية والقيود الإيطالية فرق كبير، يستنتج منه الباحث عدة نتائج، فهي تدل على ظاهرتين عامتين:

1 - التعاون بين الحكومتين: الإيطالية والألمانية، فكلا الشروط الألمانية والإيطالية يتفق في مبادئ عامة، كشرط نزع السلاح، وشرط وقف القتال

2 - التحفظ من جانب الحكومة الألمانية، فبينما شروط الهدنة الألمانية مؤكدة التحقيق في اكثر بنودها، نجد شروط الهدنة الإيطالية صعبة التحقيق إن لم تكن مستحيلة بغير قتل

فالهدنتان تطالبان حكومة بتان بوقف القتال في فرنسا، وفي المستعمرات وفي البحر وفي الجو، وهذا سهل مؤكد في الشروط الألمانية، ومشكوك فيه أو من المؤكد عدم تنفيذه في الشروط الإيطالية. فقد احتلت ألمانيا أكثر الأراضي التي نصت عليها الهدنة قبل وقف القتال ولم يبق ألا جزء ساحلي صغير في الجنوب، يقابله من ناحية ألمانيا احتلال مناطق داخلية تمتد إلى ليون

وأنبأتنا البرقيات أخيراً أن إخلاء هذه المناطق الواقعة خارج نطاق الهدنة يقيد باحتلال المناطق التي لم يصل إليها بعد، ويعضد تنفيذه رغبة حكومة بتان في الوصول إلى وضع حد للقتال، ووقوع هذه الأجزاء الساحلية تحت تهديد الغزو الألماني، فلا مفر إذن من تسليم حكومة بتان باحتلالها

تقييد إيطاليا

فإذا تركنا الجانب الألماني وانتقلنا إلى الجانب الإيطالي نجد أن إيطاليا لا تطالب باحتلال شواطئ البحر الأبيض المتوسط الفرنسية خلافاً لما توقعناه وتوقعه كثيرون، فهي تكتفي باحتلال المناطق التي حصلت عليها أثناء الحرب. ولعل هذا يفسر لنا السبب الذي من أجله اشتد الهجوم الإيطالي بينما كان المندوبون الفرنسيون يفاوضون المندوبين الإيطاليين،

فقصدت القيادة الإيطالية احتلال أكبر جزء من الأرض ولكن الجيش الفرنسي لم يترك لقواتها الطريق حراً، بل وقفها عند المخافر الأمامية، أي أن إيطاليا تسيطر على جانب لا يستحق الذكر من الأراضي الفرنسية لا يتجاوز بضعة كيلومترات في أراض لا أهمية لها من الوجهة العسكرية، فالحصون الفرنسية الإيطالية تقع على جبال الألب وهي خارج المناطق المحتلة

ومن المعروف أن شروط الهدنة الإيطالية اتفق عليها موسوليني وهتلر، أو هي بطريق أوضح من وضع هتلر لا من وضع موسوليني، ومنها نستنتج ثلاثة أمور:

1 - إيجاد قواعد فرنسية يلجأ إليها الأسطول الفرنسي إذا قبل قادته شروط نزع سلاحه، فلا يتكلف اجتياز مضيق جبل طارق ويتعرض للصدام بالأسطول البريطاني. فالمعروف أن أكثر قطع الأسطول الفرنسي موجودة في غرب البحر الأبيض المتوسط

2 - تهديد حكومة بتان باحتلال الشواطئ الفرنسية للبحر الأبيض في حالة عدم تنفيذ شروط الهدنة فيما يختص بوقف القتال في المستعمرات، فإن هتلر وموسوليني يعرفان جيداً تقاليد الفرنسيين ووطنيتهم وعدم خضوعهم لأعدائهم، فتهديد هذا الجزء بالاحتلال يدفع بالمارشال بتان إلى بذل أقصى ما لديه من جهد لإكراه رجال المستعمرات على تنفيذ شروط الهدنة

3 - وضع إيطاليا تحت إبهام هتلر بطريقة لا يتيسر لموسوليني التملص منها. فقبل أن تعلن المستعمرات الفرنسية موقفها حيال الهدنة كان من المقطوع به أن تسليمها قليل القيمة، أو ليست له فائدة عسكرية، فمثلاً أعلنت حكومة سوريا ولبنان أنها وقفت القتال، فهذا كلام لا تستطيع ألمانيا أو إيطاليا تنفيذه. فإن القوات الموجودة هناك لم تشترك في القتال لتقفه، فضلاً عن عدم وجود قوات ألمانية أو إيطاليا بالقرب منها لتلاحظ تنفيذ هذه الشروط، فإن الجزء الشرقي للبحر الأبيض المتوسط والأراضي المحيطة بسوريا ولبنان مناطق نفوذ إنجليزية

حالة غامضة

وما يقال عن سوريا ولبنان يقال عن تونس والجزائر وجيبوتي. وما زالت هذه الجزاء الأخيرة صامتة لم تعبر إن موقفها بصورة قاطعة انتظاراً لما تبرزه الظروف. ويختلف موقف القوات في تلك البلاد عنه في سوريا ولبنان فيجاور كل منها ممتلكات إيطاليا، فالصومال الفرنسي هو المنفذ البحري للحبشة، وتونس تجاور ليبيا؛ ولكن الممتلكات الإيطالية هناك مرتبكة بانشغالها في الحرب مع قوات الممتلكات البريطانية، وقد لا يمر زمن طويل حتى تتجلى حقيقة موقف المستعمرات الفرنسية، فما قيل حتى الآن لا يوضح اتجاهها الصحيح

وهذه الحالة الغامضة ترغم موسوليني على مؤازرة هتلر والرضوخ لأوامره، في مقابل إمداده بالمعونة العسكرية سواء أكانت رجالاً فنيين أو معدات قتال، أو بعبارة أخرى يعطي هذا الموقف لهتلر ضماناً باستمرار موسوليني في ميدان القتال. فطلبات إيطاليا لم يتحقق منها شيء، ولم تحصل على ضمان يسهل لها الحصول على أحدها وإذا حاولت إيطاليا أن تتدخل في شئون سوريا ولبنان بأية وسيلة، فإن تركيا تدخل الحرب، تنفيذاً لتعهداتها للحلفاء ومحافظة على مصالحها، فلن تقبل تركيا أن تجعل إيطاليا البحر الأبيض المتوسط بحيرة إيطالية كما يريد موسوليني، فيهدد مواصلات الدردنيل والبوسفور، وتصبح مجاورته للأراضي التركية خطراً يهددها. وأعلنت بريطانيا أخيراً أنها تقاوم بالسلاح كل عمل حربي يرمي إلى احتلال هذه الأجزاء أو التدخل في شؤونها لغير فرنسا بأية طريقة كانت

في البلقان

واستغلت الروسيا فرصة انهيار فرنسا واستولت على مقاطعتي بسارابيا وشمال بكوفينا الرومانيتين، وهو ما توقعناه في مقال سابق، إذ قلنا إن الروسيا لن تدخل الحرب بصفة جدية، وإنها ستكرر ما فعلته في بولندا، فتستغل ضعف مقاومة الفريقين المتقاتلين وتستولي على الأراضي التي تهمها في البلقان أو في البلطيق

ويلاحظ في تصرفات الروسيا أنها تتبع سياسة روسية محضة غير مقيدة بأي فريق، فاحتلالها العسكري لبعض مناطق بحر البلطيق يهدد مصالح ألمانيا التي حرصت على أن تجعل بحر البلطيق منطقة نفوذ ألمانية حتى تضمن سهولة حصولها على خامات السويد، وتحكم السوفياتيين في هذا البحر يهدد هذه المصالح، فهي خطوة لا ترضي

ألمانيا، ولكنها مضطرة إلى قبولها الآن لاشتباكها مع إنجلترا في القتال، فإذا وضعت الحرب أوزارها أو
تناولتها فترة انتظار؛ فنتوقع أن يكون بحر البلطيق مثار نزاع بين الدولتين
ومن الناحية الثانية ضمن الحلفاء سلامة رومانيا، ولألمانيا وإيطاليا فيها مصالح حيوية لمسناها في الحرب الحالية، فلولا بترول رومانيا لما استطاعت ألمانيا الاستمرار على القتال إلى الآن. وأعلنت إيطاليا مراراً أن البلقان مناطق نفوذ إيطالية، وأن أي اعتداء على إحدى دوله تقابله بالسلاح؛ ولكن الفترة الحالية لا تسمح بامتشاق الحسام في وجه الروسيا وإكراهها على احترام مصالحه أو تصريحاته
منذ 20 سنة
ومسألة بسارابيا مسألة طال النزاع عليها، فقبل سنة 1920 كانت إحدى مقاطعات الروسيا، واستغلت رومانيا فترة الثورة الروسية الشيوعية، وانحلال قوة المقاومة فيها وضمتها إلى أراضيها ومن ذلك الوقت لم تصل الدولتان إلى اتفاق عليها
ورومانيا بلد كثير الأعداء والخلافات الخارجية، ويعتبر استيلاء الروسيا على بسارابيا ثغرة لتدفق هذه المشاكل، ففي سنة 1912 اشتعلت الحرب بين رومانيا وبلغاريا وأخذت منها الأخيرة جزءاً من مقاطعة دوبروجا، فلما كانت الحرب الكبرى وانحازت رومانيا إلى جانب الحلفاء، وانحازت بلغاريا إلى جانب ألمانيا، استعادت رومانيا الأجزاء التي فقدتها بمقتضى معاهدة نوبلي سنة 1919، وخسرت بلغاريا في هذه المعاهدة أيضاً مقاطعتي مقدونية وتراقية وقد ضمتا إلى اليونان وفقدت بفقد هاتين المقاطعتين منافذها الساحلية على البحر الأبيض
وحصلت رومانيا من المجر (هنجاريا) بمقتضى معاهدة تريانون التي عقدت في 4 يونيه سنة 1920 على ترنسلفانيا وجزء من مقاطعة بانات التي قسمت بينها وبين يوجوسلافيا، وتطالب هذه الدول الآن بالأجزاء التي اقتطعت منها، ولهذا ينتظر أن تكون خطوة الروسيا في الوقت الحالي بمثابة شعلة من النار ألقيت على دول البلقان، فيكفي أن تتحرك إحدى هاتين الدولتين لاستعادة أراضيها لإشعال نار الحرب في البلقان. ولولا ضغط دول المحور عليهما لأعلنتا الحرب من مدة على فوهة بركان وإذا اشتعلت الحرب بين دول البلقان، فلا شك أن ألمانيا وإيطاليا ستضطران إلى دخولها دفاعاً عن الدول المنحازة إليهما؛ فإن المجر وبلغاريا من الدول الموالية لمحور برلين روما،
وستدخل إنجلترا هذه الحرب أيضاً تنفيذاً لسياسة مناوشة ألمانيا ومهاجمتها كلما سنحت الفرصة، وتنفيذاً لتعهداتها حيال اليونان وتركيا
أما موقف إنجلترا الأخير حيال رومانيا، إذا اجتاحت الروسيا جزءاً من أراضيها فلم ترسل قوات لنجدتها، فيفسره أن رومانيا لم تدافع عن نفسها، بل قبلت شروط الروسيا وتخلت عن الأرض، ولو قاومت الجيوش الرومانية تقدم الجيوش السوفياتية لتغير الموقف ولأرسلت إليها إنجلترا القوات اللازمة. وإذا كانت رومانيا لم تتحرك للدفاع عن نفسها، ولم تطلب معونة إنجلترا، فهل يحق لمنصف أن يطالب إنجلترا بالتصرف بينما صاحبة الشأن الأول لم تدافع عن نفسها؟
وتعود حركة الروسيا الأخيرة بخسارة كبيرة على ألمانيا وإيطاليا، كما أثرت على هيبة بريطانيا، لأنها لم تستطع الوفاء بعهودها. أما خسارة دولتي المحور فترجع إلى استيلاء الروس على مناطق كان أكثرها يزرع لحساب ألمانيا، فيمدها بالمواد الغذائية، وترجع أيضاً إلى اقتراب الروسيا من مناطق البترول الرومانية.
نحو البترول
فالمسافة بين الجيوش الروسية الآن وبين ينابيع البترول الرومانية أقصر من المسافة بين الحدود الألمانية وهذه الينابيع، وكذلك طبيعة الأرض من ناحية الروسيا أسهل منها من ناحية ألمانيا، فالمناطق التي تقابل الروسيين سهول، ولكن جبال كراباتيا تقف في منتصف الطريق بين ألمانيا ومناطق البترول. فإذا حان وقت تمزيق رومانيا فالغالب أن تستولي الروسيا على هذه المناطق
ويظهر أن الروسيا تتبع سياسة بعيدة الغرض منها السيطرة على جميع دول أوربا. فيلاحظ عند احتلالها لبولندا أنها استولت على مناطق البترول فيها ووضعتها تحت سيطرتها، وتركت لألمانيا المناطق الأخرى. ويلاحظ أيضاً في حركتها الأخيرة أنها

اقتربت من مناطق البترول الرومانية ولم تقصر استيلاءها على بسارابيا، بل احتلت شمال بكوفيتا، حتى تجد منفذاً للالتفاف حول جبال كراباتيا فيتاح لها الدفاع عن مولدافيا وفلاكيا اللتين بهما أغنى مناطق البترول في أوربا

ويستنتج من هذا أن الروسيا وضعت سياستها على أساس السيطرة على بترول أوربا، والبترول مادة أساسية من المواد الحربية، وبعد الحصول على حقول البترول الرومانية تصبح منابعه كلها تقريباً في قبضة الروسيا، وبالتالي تتحكم في مصير الدول لأنها تكون الدولة الوحيدة التي تستطيع إصدار الأوامر وإكراه الدول الأخرى على إطاعتها. ولكن حركتها هذه موجهة إلى دول وسط أوربا أكثر مما هي موجهة إلى دولها الغربية، فإنجلترا وفرنسا وأسبانيا والبرتغال تستطيع الحصول على هذه المواد من بقاع أخرى، بينما دول المحور محصورة وخصوصاً في حالة الحرب الحالية والحصار البريطاني المفروض على المحيطات، فهل يتجاهل النازيون هذه الحقيقة؟ وإلى متى يمكنهم الصبر؟

إن الموقف الحالي وتوجه حكومتي روما وبرلين بكل قواتهما لمهاجمة بريطانيا لا يتيح لهما اتخاذ قرار في هذا المصير المقبل، ولكن حركات الروسيا الأخيرة سببت ولا شك متاعب كثيرة لدول المحور، وأوجدت لها مشاكل خطيرة يجب حلها بسرعة، وهي لا تستطيع الآن دفع البلقان إلى الحرب حتى لا تخسر موادها وهي عمادها الوحيد، واشتراك هذه الدول في الحرب معناه خسارة هذه المواد.

فوزي الشتوي

رسالة الشعر

إليها. . .

للأستاذ حسن حبشي

إِطْلَعي في شُفُوفِكِ الْخَضْرَاءِ ... يَا مِثَالَ الدَّلاَلِ وَالإغرَاءِ
وَدَعِي الْعَيْنَ لَحْظَةً تَتَمَلْى ... فَاتِنَ الْحُسْنِ وَالْهَوَى الوَضَّاءِ
مَا أَلَذَّ الْحَيَاةَ فِي ظِلِّكِ الْعَذْ ... بِ وَفِي فَيْضِ نورِكِ اللألاَءِ
مَا أَلَذَّ الْحَيَاةَ في كَنفِ الْحُسْ ... نِ طَلِيَقْيْنِ مِنْ إِسَارِ الْقَضَاء
كلّما شَاهَدَتْكِ عَيْنَايَ دَبَّتْ ... نَشْوَةُ الْحُبِّ في صَمِيمِ دِمَائي
ربةَ الحُسْنِ وَالمفاتِنِ حَسْبِي ... طَيْفُكِ الْعَذْبُ فَهْوَ كلَّ عَزَائِي
فيكِ أَبْدَعْتُ كُلَّ لَحْنٍ حنُونٍ ... سَاحِرِ الجرْسِ، فَاتِنِ الأصْدَاء
آهِ يا دُمْيتِي الجميلَةُ لو تَد ... رِينَ مَا بالفَوادِ مِنْ أَهْوَاء
قَدْ بَنَى فيهِ حُسْنُكِ الساّحِرُ الفت ... انُ دُنْيَا مِنَ الأمَاني الوِضَاء
لسْتِ يا فِتْنَتِي مِنَ الأرْضِ لكِنْ ... أنْتِ عُلْوِيةُ السَّنَا والسَّنَاء
أنْتِ حُكِّمْتِ فِي الفُؤَادِ فأَصْحَي ... طوْعَ هَذِي البدائعِ الغَرَّاء
أينمَا كنْتُ لم أشاهِدُ سوى حُسنْ ... نِكِ يجري في النَّفْسِ مَجْرَى الدِّمَاء
فِي الدُّجَى وَالصَّبَاحِ والشَّفَقِ الدَّا ... مِي، وَسِحْرِ الطَّبِيعَةِ العذْرَاء
وغِناء الطُّيُورِ السُّحْبِ والرَّوْ ... ضِ ضَحُوكاً وفي خَرِير المَاء

حسن حبشي

من وحي الربيع الأحمر

قوس قزح

للأديب حسن أحمد باكثير

أمي قوس بسنى الشمس تجلْت ... وبأطياف الدراري والبدور
أخذت من كل لون فتجلْت ... جمة الألوان تزري بالزهور
أتري قوس (كيوبيد) استهلت ... لاصطياد القلب من بين الصدور
أم ليهدي كل نفس قد تخلت ... عن هداها بسناها المستطير
ليته يرسل وبلاً من سهامه
يترك الأكباد صرعى بغرامه
ويزيل الحقد منها بضرامه
إن من في الكون عاثوا بنظامه
وأثاروها حروباً في سلامه
كل فرد منهمُ رهن حسامه

أصغر الخد فخور بوسامه
تغتلي في صدره نارِ انتقامه
ضلةً يسعى حثيثاً لحِمامه
ويخوض الحرب زهواً بُعرامه
وسدىً يخفي أساه بابتسامه
ويوارى كربه خلف لثامه
إن سهم الحب شافٍ لسقامه
ينزع الأحقاد منه بمدامه
ويصب الحب وهاجاً بجامه
أرسلي يا قوس وبلاً من سهامك ... واتركي أكبادنا صرعى غرامك
إن سهماً منك يردي كل شرٍّ في الصدور
حسن أحمد باكثير
صرخة روح
للأديب عبد العليم عيسى
مشعلي غاب عن عيوني وما زل ... ت غريباً لا أنتهي من مسيري
وتهاويلُ ظلمتي أفرعَتْ رو ... حي فأضحيت بيتها كالضرير
أين تمضي يا زورقي أين تمضي ... هل لمسراك في الدجى من مصير؟
تَتَخَطَّى المدَى وَأَنْتَ ضَلولٌ ... وحَواليْك كل شيء خطير!
وهزيزُ الرياح ينذر بالوي ... ل المعمَّى والهوْل والتَّدْمِير
قف تمهل بجديك شيء ... قف تمهل فأنتْ رهن العثور!
رقصَ الجن في طريقي فأججم ... ت عن السَّيْر في طريقي النكير
غير أنِّي لا أستطيعُ وقوفي ... رَغمَ هولي وَعلتي وضموري
أي حلم يُغري فؤادي المدمَّي ... يا ترى. . أي كامِن مقدور؟!
حجبتْني الأوهامُ عن فتنةِ ال ... كوْنِ فغلْغلتُ في ضلالي العسير
ورميتُ الأقداحَ من كفِّي الدا ... مِي ومَزِّقْت في فَمي مزْموري
والأزاهيرِ بعثَرتْها على الطَّ ... ين يدي في هناءة وحبور
جفَّ نبعي بها. . فلستُ أبالي ... أن أراها في روضها المنضور
ما الذي غيَّر الوجودَ بعيني ... فغدا معْبَد الدجى المنشور
وأنا الشَّاعر الذي يعشق النُّو ... رَ ويعنو لحسْنه المسحور؟
أي دنيا ملأتها بغنائي ... فوق شط منضَّر بالنور!
أي عودٍ حملْته ذاهلَ الرو ... ح وحَوْلي أحبَّتي وزهوري!
ذهبَ الأمسُ مثلَما يذهَبُ ال ... حلم بكاسَاتِ للذَّتي وخموري
فإذا بي على ضفاف حياتي ... مثقل بالهمومِ والتكدير
آه ما أثقل الحياة عَلَى الشَّا ... عِر لمَّا يجفوه فَيضَ الشعور
(القاهرة)
عبد العليم عيسى
رسالة الفن
تأملات:
ذات اليمين وذات الشمال
للأستاذ عزيز أحمد فهمي
أوى الفتية إلى الكهف
قالوا إنهم سبعة وثامنهم كلبهم
وقد لجئوا إلى الكهف هاربين من الدنيا يستعجلون الآخرة. والآخرة عندهم جميعاً نهاية نيرة يستطيع كل إنسان أن يصل إليها إذا سلك لها طريقها
ولما كانوا في المدينة بحثوا طويلاً عن هذه الطريق حتى أعياهم البحث، وكانوا يتفرقون ثم يجتمعون ويسأل بعضهم بعضاً هل اهتدى أحدهم إلى طريق النهاية النيرة؛ فما كانوا يجيبون وما كانوا يهتدون
وأخيراً قال قائل منهم: ما أظننا واجدين شيئاً ولو قضينا العمر كله هنا في هذا المكان المنحرف عن مسرى النور، وتحت هذه الجدران الجاثمة فوق الأرض بأثقالها والقاذفة

الأرض بظلالها، ظلالها المظلمة المعتمة، التي لا يحب أهلها أن تشف، ولا أن تلطف. . . فتعالوا بنا إلى هذا الكهف الذي فوق هذا الجبل فإنه أكثر تصدياً للنور، وأبعد عن حلبة الصراع المخبول، ولعلنا هناك نهتدي إلى شيء. . .
فأوى الفتية إلى الكهف، وتبعهم الكلب
وكانوا وهم في الطريق إلى الجبل يسيرون جميعاً صامتين خاشعين مطرقي الرؤوس، شاهدين على أنفسهم بعجزهم وضعفهم، مؤملين أن يتاح لهم ما يرجونه حتى إذا ما رحلوا عن هذه الدنيا غادروها وهم أكبر مما كانوا يوم وردوها. . .
إلا أحدهم، فقد كان يضحك. فسألوه عما يضحكه فأشار إليهم ثم أشار إلى نفسه وظل يضحك، فتركوه يضحك
ولما انتهوا إلى الكهف قال قائلهم: نستطيع الآن أن نتفرق في أركان هذا الكهف وزواياه ومنافذه، ولنجتمع بعد يوم كامل لينبئ كل منا صحبه عما رأى. . .
فتفرقوا أفراداً، إلا أحدهم فقد اصطحب أحدهم
أما الكلب فقد جلس حيثما كان وبسط ذراعيه
وذلك الذي كان يضحك، ظل يضحك ولم يرض أن يتجه إلى ناحية ما يستقر فيها، وإنما أخذ يطوف بهم، فكلما رآهم واجمين زاد ضحكه، فإذا رآهم منبسطين تضاعف ضحكه، حتى الكلب لم ينج من ضحكاته، بل إنه هو نفسه لم ينج منها، فقد مر وهو في تلافيف الكهف بنبع نظر في مائه فرأى صورته فما استرسل إلا ضحكا. . .
حتى إذا جاء إلى الاثنين اللذين تصاحبا سمعهما يتناجيان، فتخفى وراء صخرة يستزيد سمعاً. . . وأرهف للسمع نفسه كمن يستجدي السمع مهرباً من ضيق وأزمة. . . مع أنه كان يضحك!
كان الصغير يسأل الكبير قائلاً:
- الآن وقد جئنا إلى هذا الكهف لنبحث عن ذلك الذي دخنا في البحث عنه لما كنا في المدينة، ماذا ترانا صانعين، وأين ترانا سنبحث؟ ولقد كانت في المدينة حياة متلونة، وكنت ترسلني منها وتقول لي: ابحث. فإذا سألتك عن أي شيء أبحث؟ قلت لي: سر متيقظاً، فإما رأيت أو سمعت شيئاً فاسأل نفسك ما هو؟ وكيف كان؟ ومن أين جاء؟ وإلى أين هو ذاهب؟ فإذا وجدت الجواب عند نفسك فامض بحثاً حتى تقف أمام ما يعجزك تأويله. فكنت إذا أعجزني تأويل شيء جئت إليك فأولته لي، وعرفتني أصله وفصله، ولم أرك يوماً حرت في أمر ولا استغلقت عليك مسألة، بل إني على العكس من ذلك كنت أراك تجيئني أحيانا بأحاديث عما رأيت أنت وسمعت مع تفسيره وتأويله، وما كنت أنا لأخرج منه بشيء إن كنت رأيته أو سمعته. . . هذه كانت حالنا في المدينة، فكيف تريد بحالنا أن تكون هنا، ونحن لا نرى شيئاً ولا نسمع شيئاً، وليس أمامنا إلا هؤلاء الذين جاءوا معنا، وهاهم أولاء كما تراهم متفرقين يبحثون مثلنا عن شيء لا أراه أنا فدلني عليه إن كنت تراه. . .
- هأنذا معك يا بني، لا أرى إلا ما ترى، ولا أسمع إلا ما تسمع
- وهم جميعاً هكذا، وسنقضي العمر هنا أضيع مما كنا سنقضيه لو أننا بقينا في المدينة، فهيا بنا نعد فهناك من غير شك أوفى حياة وأحلى
- صحيح، ولكن أمامنا الآن ونحن هنا في هذا الكهف شيء ليس في المدينة متا يشبهه، وإنه من الخير لنا أن نبقى هنا لنراه
- أما فرغنا من رؤيته بعد، هذا الكهف وما فيه؟
- ربما كنا قد فرغنا من استعراض الكهف حقاً، ولكننا لم نفرغ بعد من استعراض الذين فيه نحن ومن معنا. أما قلنا إننا سنجتمع بعد أن يمضي يوم؟ أو لا يمكن أن تحدث في هذا اليوم حوادث لنا وللذين معنا؟ أو لا يمكن إذا انتهى هذا اليوم أن يقول لنا واحد منا إنه رأى شيئاً أو سمع شيئاً، ولو في المنام رؤيا؟ ثم أليس أمامنا الآن نفسانا ونفوس هؤلاء الذين معنا وقد اعتزموا أن يقضوا يوماً في الكهف بحثاً. . . ألسنا جميعاً أهلاً لأن يرانا راء وأن يسمعنا سامع ونحن على هذه الحال التي لو علم بها أهل المدينة لجعلونا بها سخرية وهزؤواً؟ ألست تحب أنت أن تسخر وتهزأ. . . هيا اسخر واهزأ إن لم تجد أمامك جداً. . .
وهنا قصفت من وراء الصخرة ضحكة انفجرت في صدر المختفي وراءها لم يستطع أن يحبسها، فلما دوت الضحكة وفضحته أطل من وراء الصخرة وقال لهما وقد . . .

استرسل يضحك:
- لقد سبقتكما، فأنا أضحك منذ كنا تحت. . . سنلتقي في آخر اليوم، وسأقول، وستقولان، وسيقولون، وسنسمع. وأما أنا فسأظل أضحك، وأما أنتم. . . فمن يدري فقال الصغير: نحن الذين سنضحك في الآخر وأنت ستبكي
وقال الكبير: من يدري. . .
. . . وهنا. . . تثاءب الكلب . . .
فلما تثاءب الكلب تثاءب بعده أقربهم منه. . . وكان شاباً صادق الوجه، فيه ملاحة . . . وفيه خفة وفيه دلال بعثه في نفسه حب الناس له وإقبالهم عليه. . . وكان فيه إلى هذا إهمال ظاهر في إهماله لنفسه، ولمحاسنه ولعقله. . .
رأى الكلب يتثاءب، فالتقط منه تكاسله، وتثاءب هو أيضاً، ثم طرح نفسه على الأرض، وقال للكلب:
- أتكون أنت أهدأ مني بالاً؟. . . لماذا؟. . . أنا جالس إلى جانبك أحرق نفسي بحثاً عن هذا الذي يبحث عنه هؤلاء جميعاً، والذي لا أعرف ما هو، وأنت جاثم نائم مرتاح؟ لماذا لا أرتاح مثلك؟ ألأني أريد مثلهم نهاية نيرة؟ إن عندي ألف نهاية نيرة! جلسة عند الراقصات الحور في جنة قطوفها دانية بين ذراعي تلك التي. . . هل تعرف يأيها الكلب (تلك التي. . .)؟ أو لست تعرفها. . .؟ تعرفها أو لا تعرفها، فإنني أنا أعرفها، وسيزورني الآن طيفها ومعه قطعة من الجنة، فأحسن استقباله يا صديقي الكلب، ودله عليَّ إذا تاه عني، وهأنذا راقد إلى جانبك. . . أسعدت مساء. . .
قال هذا ونام. . . نام بعد أن غنى لنفسه ما شاء، وما استطاع. . . ومر به . . . الضحاك، فإذا به نائم؛ فبانت عليه إمارات الغيظ وانحنى عليه يسأله:
- أنائم أنت؟. . . فإذا استيقظت في آخر اليوم، فماذا أنت قائل لهم إن سألوك عما رأيت وعما سمعت؟ سنرى. . .
وانصرف الضحاك عنه إلى واحد من أصحابه رآه يثقب سقف الكهف بمثقاب نحته . . . من الحجر. فهم الضحاك بأن يشكو لهذا الصاحب صاحبهما الذي نام، ولكنه آثر أن يستتر خلف منعطف في الكهف، ليرقب هذا الذي يريد أن يخرق الحجر، وليس شيء وراء الحجر إلا الفضاء
وسطع من جوف الحجر بريق، فانبهر الثاقب، وجفل الضحاك. أراد أن يضحك، ولكنه أمسك عن الضحك، وآثر مرة أخرى أن يظل يرقب صاحبه، وهذا البريق الذي لمع من حرف الحجر، وما عساه أن يحدث بينهما. . .
ظل الرجل يثقب ويثقب حتى استخرجها من جوف الحجر حصاة كبيرة شفافة براقة متألقة، استقبلت النور فعكسته أنواراً، فراح يتأملها في إعجاب وفرح، وأخذ ينفخ فيها ويمسها بأنامله وهو يقول:
- أظنهم مهما جدوا فلن يعثر واحد منهم على ما يشبه هذه؟ ولكن ما هذه؟ على أي حال إنه لا يعنيني كثيراً أن أعرف ما هذه، ما دمت بهذه أستطيع أن أمتاز على الناس وأن أخلب أنظارهم؛ فلأخفها ولأكتم أمرها
وبعد أن كان الضحاك الذي كف الآن عن الضحك. . . بعد أن كان يريد أن يشكو . . . صاحبه الذي نام لصاحبه الذي اهتدى إلى قطعة النور المتجمدة، مضي وفي عزمه أن يشكو صاحبه هذا الأخير لأول من يلقاه من أصحابه. . .
فأخذ يتسلل بين منعطفات الكهف حتى اشرف على صاحب آخر رأى ينبش الأرض وينكثها، وينبش وينكث حتى تفجر من الأرض ماء، مد الرجل إليه فمه فشرب منه رشفة، فإذا به يترنح ترنحاً خفيفاً وإذا به يقول:
- ما في الحياة خير من هذه لذة. . . ولا أمتع منها راحة. . . سأملأ من هذا الماء قدحاً، وسأسقي كلا من أصحابي رشفة فيهدءون ويرتاحون، ويدعون بحثهم واستقصاءهم، فأبحث أنا وأستقصي أنا فإن وجدت بعد ذلك شيئاً أعطيتهم منه القليل، وادخرت لنفسي مصدره. . . لن يكون غير هذا، ولست ظالمهم، ولاهم ظالمي، وإنما لكل منا حظه. . .
وكان الضحاك قد نسي الضحك، واعتراه هم لم يكن يتوقعه واعتراه بأس لم يعرف منشأه، فأطرق برأسه إلى الأرض، وسار بخطوات عمياء إلى حيث لا يدري، وانتهى به المسير إلى حيث كان الكلب راقداً فرقد إلى جانبه هو أيضاً، ولكنه لم يرقد كما يرقد

. . .الناس، وإنما انبطح على وجهه كالكلب، وبسط ذراعيه أيضاً كالكلب
كانوا سبعة وثامنهم كلبهم. أما الكلب فهو الكلب
وأما هم فأولهم هذا الضحاك الذي اغتم ونام وفي آخر الأمر، وثانيهم هذا الذي غنى ونام من قبله، وثالثهم صاحب قطعة النور، ورابعهم صاحب الماء اللذيذ، وخامسهم صاحب سادسهم، وهما اللذان أرادا منذ أول الأمر أن يريا في هؤلاء الجماعة جداً أو هزؤواً وسخرية إن لم يريا الجد
. .فأين كان سابعهم؟
سابعهم كان جالساً على حجر عند مدخل الكهف يتمتم قائلاً:
هو. هو. هو. هو. هو. هو -
وانقضى اليوم. واجتمعوا عند مدخل الكهف حول هذا المتمتم، فسأل أولهم: ماذا وجدت؟ فضحك. فقال له: أمجنون أنت؟ لقد سكتنا عن ضحكك هذا عندما كنا في الطريق، ولكننا الآن لا نستطيع أن نسكت عنه بعد أن قضينا يوماً بحثاً. . .
فضحك. . . فقالوا جميعاً: دعه، إنه مجنون. فتركه يضحك
ثم سأل الثاني: ماذا وجدت. فقال له: غادة هيفاء، وروضة فيحاء، ونسيم عليل، وخمر وغناء، ورقص وتسابيح، ودنيا أخرى غير هذه ما فيها إلا السعادة والنعيم. . .
فسأله: أين هي؟ فقال: هاهي ذي. . . أما تراها. . . إن كنت لا تراها فهي إذن قد ولت. . .. . . يا خسارة
فقال له: إذا عدنا إلى المدينة فصفها للناس يرحبوا بك شاعراً
ثم سأل الثالث: وأنت ماذا وجدت؟
فقال له: هذه. . . تلمع في النور، وتلمع في الظلام، لها أنوار مختلفة الألوان، حمراء وخضراء وزرقاء وصفراء. . . أنا لا أدري ما هي ولكني أحبها، وأنت أيضاً تحبها، والناس جميعاً يحبونها، أليس كذلك؟
فقال له: نعم، فإذا نزلت إلى المدينة فاخلب بها الأنظار والألباب إنها السحر. . . ولكني أوصيك ألا تؤذي ببريقها امرأة ولا طفلاً ولا رجلاً ضعيفاً، فما كل عين تطيق هذا التألق الخطاف. . .
ثم نظر إلى الرابع وسأله، وأنت ماذا وجدت؟
فقدم له القدح وقال له: اشرب، فقال له: ما هذا الذي تريدني أن أشربه؟ فقال له: ماء وجدته. فسأله: أين؟ فقال: لن أقول، فإن لي به سلطاناً لو شاع بين الناس فقدته. . . إنه شراب لذيذ ومسعد
فقال له: لا ريب إن كنت لا تزال صادقاً. . . فارجع به إلى أهلك فاسقهم منه يقيموك فيهم كاهناً يطلبون عندك الراحة كلما تعبوا. . . ولكن لماذا لا تدلهم على سر هذا الشراب حتى إذا مت وجدوه من بعدك. . .
فقال: من بعدي؟ ما لي أنا والذين بعدي، والذين قبلي؟ هل عطف عليَّ من أهل هذه المدينة أحد. . . لا يا سيدي، لكل منا سره. . .
ثم نظر المتمتم للصاحبين المتلازمين وسألهما: ماذا رأيتما؟ فقال الصغير: رأيناكم . . . أنتم، وقد عرفتكم جميعاً إلا أنت يا من تسألني. . . وتسأل الناس لم أعرف ماذا وجدت أنت؟ ولا ماذا ستصنع عندما تعود إلى المدينة. . .
فقال الكبير من الصاحبين: هذا يا صغيري رجل، له ولي، كلما فرغ نصب وذكره، فهو دواماً معه. . .
فسأل الصغير - ومن وليه؟
فأجاب الكبير - هو. . .
فسأل الصغير مرة أخرى - ومن هو؟!
فأجاب الكبير مرة أخرى - اسأله هو. . .
فسأله الصغير - قل لي من هو؟
فقال له - عندما أستطيع الكلام سأقول لمعلمك. . .
ثم نزلوا إلى المدينة. . . ووراءهم كلبهم. فلما تشتتوا كان الكلب يعود إلى الكهف وحده بين الحين والحين لينام، فقد استطاب الهواء الذي هناك.
عزيز أحمد فهمي

رسالة العلم
الذرة وبناؤها الكهربائي
للدكتور إسماعيل أحمد أدهم
يكاد يكون اتجاه علم الطبيعيات الحديثة في مبحث الذرة أن اللبنات الأساسية التي تبني منها الذرة موجبة، وذلك من بعد ما نجح العالم الفرنسي (لويس دي بروجلي) - والأستاذ (هيزنبرج) - في وضع مبادئ الميكانيكا الموجية. فنحن نعلم أن نظرية (نيلز بوهر) مع نظرية المقدار القديمة كانت تستحكم في الأذهان حينما تقدم للملأ (لويس دي بروجلي) عام 1923 م مقرراً أن الإلكترونات وهي دقائق كهربائية مادية ذات شحنة سالبة تحمل ما يتبين فيه نبض موجبي، وأن أشعة (إكس تظهر في شكل من القوة خاص بالذرة غير أن ملاحظة (لويس دي بروجلي) لم تحظ بتأييد أحد غير العلامة حدث أن نجح الأستاذ (دافسن) وزميلة (جرمر) في إثبات أن الإلكترون وهو دقيقة مادية يخضع لقوانين التفرق الموجي. فنحن نعلم أن مرور موجة ضوئية في ثقب دقيق يتمخض عما يعرف باشتباك الأمواج وتفرقه - إذ بدلاً من أن تسير الموجات الضوئية في خطوط مستقيمة فإن أجزاءها تشتبك. ومثل هذا يحدث إذا مرت في معدن متبلور أو صفائح فلزية حيث تقوم دقائق المعدن أو الفلز مقام الحائل في الضوء المرئي.
وقد نجح هذان العالمان في إمرار إلكترونات من خلال صفائح فلزية من الذهب ومعادن متبلورة، فكانت النتيجة التي انتهينا إليها أن الإلكترون يتصرف تصرف الأمواج، إذ تشتبك أجزاؤه وتتداخل. ومن ذلك الحين احتلت الميكانيكيات الموجبة مكانها اللائق في عالم الفكر العلمي الحديث
وقد استند (لويس دي بروجلي) إلى ظاهرة تصرف الإلكترون كموج وقرر أنه عبارة عن موجة كهربائية تجمعت في حيز صغير، ورغم أن فرضيته كانت توافق النتائج التجريبية التي انتهى إليها الأستاذة (دافسن) و (جرمر) و (طمسن الصغير) فإن مبدأ (عدم التثبت) الذي كشف عنه (هيزنبرج) كان يقف عقبة دون قبول هذا الرأي فنحن نعلم من نظرية المقدار القديمة أن إطلاق لمادة لفوتونات الطاقة يكون كاملاً وكذلك
امتصاصها لها، وأن عملية امتصاص الفوتونات وإطلاقها تسير متقطعة غير متصلة، وذلك يرجع إلى أن نظرية (ماكس بلانك) قامت تستمد كل قوتها من التحولات الدورية في الاهتزازات التي تعين خط شعاع الموجة، معتبرة هذه التحولات غير مستمرة بل هي وثبات متماثلة متساوية المسافة الفاصلة بينها، كما أن الزمن الفاصل متساو، فتكون بناء على ذلك هذه التحولات الدورية راجعة لوحدات ثابتة لا تنقسم اصطلح على تسميتها بثابت بلانك في الرمز الرياضي. فإذا أخذنا موضع النظر الحقيقة التي قررها (جيمس كلارك ماكسويل) من أن الأمواج أياً كانت تتسع في دوائر باستمرار في كل الجهات، فكأن موجة ضوئية تصدر من أحد السدم تصل إلى الأرض بعد سنين من صدورها، ورؤيتها تحمل في (علم المقدار على أن مقداراً أصاب العين، مع أن المقدار المنطلق من إحدى ذرات السديم يجب أن تتوزع طاقتها على صدر قوس موجتها، حتى أن السنتيمتر من سطح الأرض الواقع في دائرة شمول الموجة لا يصيبه إلا جزء صغير جداً من المقدار وهذا يستلزم انقسامها وهي لا تنقسم، وهذا خلف
ولقد افترض (هيزبنرج) لحل هذا الإشكال أن الأمواج لا تحمل كميات من الطاقة متساوية في صدرها، إنما تحمل احتمالات متساوية بوجود الطاقة، متجمعة في إحدى النقط الواقعة على صدر الموجة. والمذكرة التي قدمها (هيزنبرج) في هذا الشأن خريف عام 1925م تنطوي على هذا المبدأ الذي يستتر وراءه حقيقة من أهم حقائق الكون الخفية
وقد نجح العلماء من بعد (هيزبنرج) في إثبات هذه الحقيقة وقد كنت أنا من أوائل هذا النفر، فقد بينت تجاربنا بمعامل البحث الطبيعي في موسكو أننا لو أسقطنا حزمة من أمواج الحرارة على طبقة معدنية من المغناسيوم، فبطبيعة الأمر سيتطاير عدد من الكهارب، وعن طريق قياس سرعة سقوط أمواج الحرارة وعدد الكهارب المتطايرة وعرض الموجة، أمكننا حساب مسألة تركز الطاقة في نقط معينة من صدر الموجة أو توزعها، وكانت نتيجة هذه التجارب أن الطاقة في أمواج الحرارة متجمعة في أجزاء على صدر الموجة، وبذا تؤثر في الكهارب التي تصدمها

وإذاً يمكننا أن ننقح رأي (لويس دي بروجلي)، وأن نفترض مع الأستاذ (أروين شرودنجر) أن الكهربائية في الذرة ليست مركزة في نقط معينة من الذرة، هي الكهارب، إنما هي
موزعة على السواء في محيط كرة الذرة. وتفسير هذا التوزيع يشكل أهم مسألة في الطبيعيات الحديثة
2: -
لقد كان أثر نظرية المقدار في تفكيرنا العلمي عن بناء الذرة كبيراً، إذ لم نعد نعتبر سير الإلكترون في فلكه حول النواة مستمراً بل متوثباً، ويكون بذلك شكل الذرة الخارجي متعدد الأضلاع نظراً لأن الإلكترون يرسم حدود الذرة وثباً في سيره من حول النواة، وهكذا نقترب من التصوير الذي وضعه للذرة (جلبرت نيوتون ولس) 1916، والتي اعتبرت أساساً لبناء الذرة المستقر
وهذا التفكير وضع حداً لذرة (بوهد) وخصوصاً أنه كان يرى المسارعة في الذرة، مسارعة الإلكترون ترجع لقوانين النشاط الكهربائي - الكلاسيكية، بينما إشعاعات الذرة للفوتونات ترجع لقاعدة (ثابتة بلانك) في (علم المقدار). ومن المعلوم لنا عن طريق التجربة أن المسارعة من جهة وإطلاق الذرة للفوتونات من جهة أخرى يمكن أن يخضع لقوانين النشاط الكهربائي الكلاسيكية، ولكن. . . ذلك إذا بلغت عدد المقادير - ثوابت بلانك - اللانهائية أو قاربتها
هذا إلى أنه من المتعذر على الباحث في الدقائق - أن يعين مكان دقيقة ذريرية وسرعتها في آن واحد، فإذا عرف المكان تعذر على الباحث تعيين السرعة، وإذا عرفت السرعة تعذر عليه تعيين المكان، وقد كان تأثير هذا المبدأ - مبدأ عدم التثبت - كبيراً فإنه هدم ثقة العلماء بالجبرية في علم الطبيعة غير أنه من المهم أن نلاحظ أن عدم التثبت كان ينعكس في المقادير الكبيرة إلى نوع من التثبت والحقيقة. وهذه الحقيقة بجانب أوليات حسابات الاحتمال مهدت السبيل للعلامة (أورين شرودنجر) أن يضع نظرية جديدة في (علم المقدار) تضافر معه على تحقيقها (ماكس بورن) و (جوردان) و (ديراك) وفي هذه النظرية الجديدة لم يعتبر (شرودنجر) الإلكترون دقيقة مادية ركزت فيها الشحنة الكهربائية، إنما اعتبرها شحنة كهربائية موزعة على ذلك الإلكترون على السواء، والتوزيع هنا معناه احتمالي محض، وقد اختلفت وجهات النظر في تفسير الاحتمال، فهو عن شرودنجر ليس ساحة فراغية إنما هو ساحة رياضية صرفة، بينما هو عند جودان وماكس بورن مقياس لا
لكم واحد أو عدد من الكميات وإنما هو مظهر من قياس عدد لا متناهٍ من الكميات الممكنة المنتظمة؛ أما (ديراك) فيرى التوزيع رمزاً ولكن بدون أي إمكان لتفسير عددي إذ يأخذ بالوجهة التي تربط سرعة الإلكترون بمقدار طاقة حركتها
إن فكرة الاحتمال التي دخلت ساحة الطبيعيات الحديثة نبتت من الحقيقة التجريبية في أنه إذا بلغ عدد المقادير أعني ثوابت بلانك اللانهائية أو قاربها، فإن مسارعة الإلكترون وإطلاق الذرة للفوتونات يخضعان لقوانين النشاط الكهربائي الكلاسيكية، ومن المعلوم من حسابات الاحتمال أن اتساع الدائرة التي تخضع للاحتمال يؤدي إلى تكييفات حتمية أو شبه حتمية، وذلك راجع إلى أنه في حالة اتساع الدائرة تتساوى نسبة مجيء الحادثات واطرادها في تتابعها. وبيان هذا:
لو افترضنا أن معنا قطعة من النقد، فهذه القطعة لها وجهان بطبيعتها، واحتمال مجيء أحد هذه الوجهين معادل لاحتمال مجيء الوجه الآخر. فالحالات الممكنة اعني المحتملة هنا هي:
1، 2 1، 2 ز
ويكون احتمال هاتين الحالتين بنسبة بعضهما لبعض:
ح1 ح2=1 - ح1
باعتبار أن الوضع 1، 2=ح1 والوضع 1. 2=ح2 فإذا تكررت هذه الأوضاع ن من المرات، فالحالات الممكنة ثابتة في التعاقب ويكون وجه احتمال مجي الوضع ح1 راجعاً للمعادلة
ن (ح1 - ح2)
التي تحدد من إمكان الوضع الأول

وهنا التفاضل بين ح1 - ح2 أصغر من الواحد، فإذا كان مقدار ن بالغاً الحد الأعظم فإن إمكان الوضعين يقترب من التعادل حتى يساويه في اللانهائية
واستناداً إلى هذه الفكرة الرياضية المحضة أمكن تفسير غامض انطلاق الفوتونات وتغيير الذرة لموازنتها الكهربائية، فنحن نعرف أن كهربا ينطلق من الذرة إذا بلغ عدد المقادير اللانهائية وذلك في صورة متجانسة مع المبادئ الكلاسيكية، وانطلاق كهرب أو تغييره
لفلكه يحدث اختلالاً في موازنة الذرة ويحدث في بناء الذرة رد فعل ينجم عنه موازنة جديدة، لا تأتي إلا بإطلاق مقادير من الطاقات تعرف بالفوتونات. وإطلاق الذرة لهذه الفوتونات يرجع لحملها حالة طقس جديدة تقوم على عدد لا نهائي من المقادير. وهذه اللانهائية في عدد المقادير هي التي تعطي الاطراد في انطلاق الفوتونات بالنسبة لتغيير الشحنات الكهربائية موازنتها في الذرة، لأنه في الوضع اللانهائي يتساوى كل الحالات الممكنة واطراد انطلاق الفوتونات في تتابعها
ونفس النظر الاحتمالي فسر مفهوم مبدأ عدم التثبت لأن هذا المبدأ في أبسط صوره لم يخرج عن استحالة تعيين دقيقة ذريرة في مكانها وسرعتها في آن واحد، فإذا أمكن تعيين السرعة استحال تعيين المكان، وإذا أمكن تعيين المكان استحال تعيين السرعة. ولكن هذه الاستحالة وعدم التثبت سرعان ما ينعكسان - كما قلنا في المقادير الكبيرة ولبيان هذا نقول:-
إن قطعة النقد المؤلفة من وجهين: وجه عليه رسم الملك، ووجه آخر عليه القيَّة؛ ولنرمز إلى الوجه الأول بالرمز (ح1)، وللوجه الثاني (ح2)؛ فإن إمكان تعيين أحد الوجهين متعادل واحتمال مجيئه متساو بحكم الطبيعة، فإذا رمينا قطعة النقد عدداً من المرات، فمن المحتمل في هذه المرات أن يأتي كل وجه في دورة واحدة، كما أنه لا يستبعد أن يأتي أحد الوجهين عدداً من المرات، ولا يظهر الوجه الآخر إلا مرة واحدة. . .
ولكن هذا التخالف سرعان ما يتناقص مقداره ويأخذ في الاقتراب من الصفر إذا رمينا قطعة النقد 500 ألف مرة، لأنه في هذه المرات الكثيرة يعطي اتساع المدى تساوياً لتتابع واطراد الأوجه الممكنة - التي هي وجهان هنا - فيأتي معنا الوجه الذي يحمل رسم الملك 250 ألف مرة، وكذلك الوجه الآخر
ونفس هذا يحدث معنا في ساحة (علم الذرة) وعلم (المقدار) ولشرح هذا نقول:
إن المشاهد في عالم الذرة أن النتيجة التي يخلص بها الباحث من تعيين أوضاع لبناتها غير حتمية، لأن النتيجة التي يخلص بها الراصد والباحث في زمن ووضع معين يخرج بغيرها باحث آخر في غير الوقت والوضع ولو جرت التجربة في عين الشرائط التي جرت وفقاً لهذه التجربة الأولى. ولو أجريت التجارب عدداً من المرات فعلى عدد هذه المرات تكون
النتائج معنا، غير أن هذه العدد إذا بلغ حداًّ كبيراً فسنجد أن النتائج الجزئية تعطي وجهاً عاما في احتمال لا نهائي. وهذا الاحتمال يمكن الباحث من حساب النتيجة التي تأتى معه في وضع رياضي ولكن يحمل عنصر اللزوم والحتم في طياته
وهذا نفس ما يحدث معنا إذا رمينا قطعة النقد مرات فإن النتائج تتباين في كل رمية، ولكن هنالك في اتساع المدى تساوياً في تتابع واطراد هذه النتائج
هذه الأوليات تفسر لنا أوجه تفسير (التوزيع) عند كل من (شرودنجر) و (جوردان) و (ماكس بورن) و (ديراك) من وجهتيه الطبيعية والرياضية
3: -
لقد انتهى (ديراك) بمباحثه النظرية في تفسير التوزيع، إلى أن هذا التوزيع رمز ولكن بدون أي إمكان لتفسير عددي أخذاً بالوجهة السلبية من المعادلة الأساسية لنظرية الكوانتا الجديدة، أعني الوجهة التي تربط سرعة الإلكترون بمقدار طاقة حركته، وكان نتيجة ذلك أن انتهى إلى أن هنالك ضربين من الكهارب موجبة وسالبة الشحنة الكهربائية؛ والكهارب ذات الشحن السالبة من الكهربائية هي الإلكترونات، أما الموجبة فهي وراء تناول تجاربنا، فكأنها والخلاء سيان
وامتحان نظرية (ديراك) من الوجهتين الرياضية والفيزيقية عن طريق دراسة تدفق الإشعاع المادي واستناداً إلى معادلتي كلاين و (نشينا) ينتهي بالباحث، كما انتهى بنا،

إلى حقيقة فوزيقية مهمة: هي أن الطاقة السالبة، والطاقة الموجبة التي ترتبط بدقيقة الكهربية متساوية، وأن الاختلاف في دلالة الإشارة الجبرية على توزيع الشحنة، وهذا يؤدي حتما إلى افتراض كهرهب موجب الشحنة الكهربائية يقابل الإلكترون السالب الشحنة الكهربائية. وهذا التنقيح في نظرية (ديراك) يجعلنا ننجح حيث فشل غيرنا، مثل أوبنهمير ومن الحتم أن نقول إن (لويس دي بروجلي) يوافقنا على هذا التعديل

وقد كشفت المباحث الفيزيقية الأخيرة عن وجود دقيقة مادية ذات شحنة موجبة تقابل الإلكترون اصطلح على تقريبها بالبوزيتون. وكان زميلنا العالم الروسي سكوبلنر أول من انتبه إلى هذه الحقيقة أثناء تصويره مسارات الأشعة الكونية عن طريق ما تتركه من الأثر في المسار الذي تسلكه خريف عام 1929. وكانت تجارب الأساتذة: أندرسون

وبلاشيت وأشياليني في الذرة المتهيجة تحت تأثير الأشعة الكونية قد انتهت لحقيقة تجريبية في أن كتلة هذه الذرات المتهيجة تحت تأثير الأشعة الكونية تعادل كتلتها في حالتها الأولى. وقد تبيّن خلال هذه التجارب أن هنالك خطوطاً مزدوجة أحدها منحرف لليمين والآخر لليسار، أعني أن أحدهما موجب والثاني سالب، وتبين من مباحثهم أن الخط الموجب هو صنو للإلكترون نظراً لأن الخط السالب هو الإلكترون نفسه، وأن كتلة الدقيقة الموجبة معادلة لكتلة الدقيقة السالبة، فكأن البوزيتون صنو الإلكترون وليس البروتون هو صنوه

ونحن نعلم من نظرية (نيلز بوهر) العالم الدانمركي أن النوية في الذرة تعادل كتلتها كتلة الذرة وأنها مكونة من بروتونات، غير أن الميكانيكا الموجبة وتجارب (دمبستر). بينت أن البروتون لم يخرج عن كونه موجة كهربائية ولكنها ليست مركزة في قلب الذرة كما ارتأى (دي بروجلي) وإنما هي موزعة توزيعاً رياضياً في كرة الذرة الداخلي هذه الحقيقة التي تنسجم مع المبادئ النظرية في الفوزيقا الحديثة لها ما يسندها في عالم التجربة، وقد كان لي علم 1933 فكرة في أن كرة الذرة الداخلية متوزعة فيها الشحنة الموجبة توزيعاً رياضياً، وأن هذه الشحن تتجمع في بعض النقط، وهذه النقط هي الإلكترونات الموجبة أو البوزيتونات حسب الاصطلاح الحديث

وفي مستهل عام 1938 حملت أنباء التجارب العلمية الحديثة أن البروفسور سكوبلزن قد نجح في تخليص بيروتونات من تيار من البوزيترونات تحت ضغط عال، فإذا صح هذا، فسيكون معنا في الذرة لبنتان أساسيتان - الإلكترون والبوزيتون وهكذا يتحقق معنا الغرض القديم الذي قلت به منذ خمس سنوات في مذكرتي إلى معهد الطبيعيات الروسي، وهي أن الذرة مكونة من موجتين: ذات شحنة موجبة وذات شحنة سالبة، وأن هاتين الموجتين في توزيعهما الرياضي في عالم الذرة يخلْقان لنا ذلك الشيء الذي نصرف إليه اصطلاح الذرة

إسماعيل أحمد أدهم

البريد الأدبي

بين الدكتور زكي مبارك وصديق له

رأيت في الرسالة الغراء كلمة وفاء ورثاء يفي بها الدكتور مبارك لفرنسا، ويرثو لما أصابها. وجميل بالرجل أن يكون وفياً رقيق القلب، ولا سيما في مثل موقف فرنسا ونكبتها التي حلت بها من انحلال الأخلاق واللهو واللعب مكان الرجولة والتضحية، كما قال المارشال بيتان، وهذا من أعظم مواضع الرثاء والأسف

وقد أعجبني من صديقي مبارك أنه متفق مع الجميع في التأثر والألم لما أصاب مدينة النور (باريس الجميلة) فإن لكل متعلم في باريز عهداً لا ينسى ذكراه. وللمدينة الخالدة (باريس) فضل على كثير من الشرقيين والغربيين لا تبلو جدته

غير أني رأيت الدكتور يرد على صديق عاتبه في الإفراط بمحبة فرنسا، بينما فرنسا الدولة المستعمرة التي أرهق استعمارها عشرات الملايين وإخوان زكي مبارك

ورأيت الرد خلط بين أمرين كان يجب التفريق بينهما

الأول: فرنسا العالمة مبعث النور والحرية ومهد الاختراعات

الثاني: فرنسا المستعمرة بكل ما في معاني الاستعمار من استبداد وفي الحالة الأولى يجب على كل إنسان أن يحب فرنسا ويرثى لنكبتها

وفي الثانية على كل حر في العالم وكل من ذاق استعباد فرنسا في مستعمراتها ألا يجزع لما حل بها
نعم، إن الشماتة لا تليق بالرجال ولكن حب الانتقام، ولا سيما في المظلوم من الغرائز البشرية التي اعترفت بها الشرائع والقوانين، وهي صفات إذا فقدتها الجماعات والأمم أصابها هذا الانحلال. . .
فالإنسانية تتألم لفرنسا والحرية تبكيها، والأمم التي أصابها ظلم فرنسا تصمت أمام انهيار السياسة الفرنسية، وتعد انهيارها نذيراً لكل أمة تظلم الإنسانية أيّاً كان مذهبها وملتها
فالأولى بالصديق مبارك أن يفرق بين فرنسا وفرنسا؛ وعندها ينصف نفسه وينصف من يعتب عليه
(صديق)
من الأستاذ القاياتي إلى الدكتور عزام
أرسل الأستاذ السيد حسن القاياتي إلى الدكتور عبد الوهاب عزام هذين البيتين على أثر قراءته كتاب (رحلات):
طعنت لتصلح لب المقيم ... وعدت لتكتب رأي الحكيم
بيانك والشرق أغلاهما ... جمال الجديد ونبل القديم
حسن القاياتي
المقنع لأبي عمر والداني
أبو عمر وعثمان بن سعيد الداني الأندلسي عصري ابن حزم المتوفى سنة (444) إمام من أئمة علم القرآن، وله فيه تصانيف كثيرة منها (التيسير)، وهو اليوم أقدم مرجع للبحث في القراءات السبع. وكتابه (المقنع) أقدم مرجع في رسم القرآن وكتابته، و (النقط) في نقطه وإشاراته، وكان بعض المستشرقين قد نشره ونشرت ترجمته إلى اللسان الفرنسي - فأعاد الأستاذ المحقق الشيخ محمد أحمد دهمان نشره مقابلاً على ثلاث نسخ مخطوطة قديمة بتحقيق وعناية وطبعه على ورق جيد جداً، قلما يطبع على مثله كتاب، فلما بلغ إلى المقدمة أعدها وهي تبلغ ثلث الكتاب (الكتاب مع فهارسه يقع في 180 صفحة) لم يجد في السوق من هذا الورق وكره تشويه الكتاب بتنويع ورقه فأرجأ نشرها إلى طبعة أخرى، ولعله ينشرها في الرسالة مستقلة أو مختصرة والأستاذ (دهمان) مؤسس مكتب الدراسات الإسلامية في دمشق، وقد نشر كتباً قيمة منها: (كتاب النشر في القراءات العشر) - وهو أول من نشره - و (البدع والنهي عنها) لابن وضاح وهو أقدم كتاب في موضوعه، و (سنن الدرامي) وغيرها
ونحن نشكر للأستاذ جهده وننبه المشتغلين بهذا الفن إلى صدور هذا الكتاب القيم
(ع. ط)
للتاريخ - لماذا هزمت فرنسا؟
أذاع المارشال بيتان البيان الآتي:
أيها الفرنسيون في فرنسا وفيما وراء البحار، أخاطبكم اليوم لأوضح لكم الأسباب التي دعتنا إلى عقد اتفاقيتي الهدنة الأول مع ألمانيا منذ ثلاثة أيام والثانية مع إيطاليا أمس
إن الأمر الذي يجب التنويه به قبل كل شيء هو الوهم الخادع الذي بنت عليه فرنسا وحلفاؤها آمالهم بشأن قواتهم العسكرية الحقيقية وأثر السلاح الاقتصادي وحرية البحار والحصار والموارد التي كانوا يستطيعون الحصول عليها. فاليوم - كما في الأمس - لا تكسب الحرب بواسطة الذهب والمواد الأولية فقط. إن النصر يتوقف على القوات والمعدات وكيفية استخدامهما. وقد دلت الحوادث على أن ألمانيا كانت متفوقة في هذا الميدان في مايو سنة 1940 تفوقاً ساحقاً كنا لا نستطيع أن نواجهه عند ما دارت رحى المعركة إلا بعبارات التشجيع والأمل
وقد انتهت معركة الفلندر بتسليم الجيش البلجيكي وسط القتال ومحاصرة الفرق الإنجليزية والفرنسية. وقد قاتلت هذه الفرق الأخيرة قتال الأبطال، وكانت مؤلفة من خيرة قوات جيشنا. وبالرغم من مقدرتها لم نتمكن من إنقاذ جانب من رجالها إلا بالتخلي عن معداتها. ودارت المعركة الثانية على نهري الأين والسوم، وللثبات في هذا الخط قاتلت 60 فرقة فرنسية لا تحميها التحصينات ولا تؤيدها الدبابات - تقريباً 150 فرقة ألمانية من فرق المشاة و11 فرقة من الفرق المصفحة. فاخترق العدو خطوطنا

في بعضة أيام، وجعل قواتنا أربعة أجزاء واجتاح القسم الأكبر من الأراضي الفرنسية، وكانت ألمانيا في حكم المنتصرة عندما دخلت إيطاليا الحرب، وأقامت ضد فرنسا جبهة جديدة صمد لها جيش الألب. وعندئذ اتخذ نزوح اللاجئين شكلا يفوق ما يتصوره العقل، فقد انضمت عشرة ملايين من الفرنسيين إلى مليون ونصف مليون من البلجيكيين وأخذوا يتدفقون على مؤخرة جبهتنا في أحوال اختل فيها النظام وسادها بؤس لا يوصف

وابتداء من 15 يونيه اجتاز العدو نهر اللوار وانتشر في بقية أنحاء فرنسا. فأمام مثل هذه المحنة كان يجب أن تكف مقاومة الجيش، وكان على الحكومة أن تختار بين أحد أمرين: إما البقاء في مكانها أو مغادرة البلاد. فتداولت في الأمر وقررت البقاء في فرنسا للمحافظة على وحدة شعبنا وتمثيله أمام العدو، ذلك لأنها رأت أن وأجبها في مثل هذه الأحوال يقضي بالحصول على هدنة مقبولة باستثارة روح الشرف والعقل لدى العدو. وقد عقدت الهدنة

وانتهى القتال. وفي يوم الحداد الوطني هذا تتجه أفكاري إلى جميع القتلى، وإلى جميع أولئك الذين تألموا في أجسادهم وعواطفهم من جراء هذه الحرب. إن تضحيتهم قد احتفظت بسمو علم فرنسا وطهارته فهم لا يزالون أحياء في ذكرياتنا وقلوبنا

أما الشروط التي اضطررنا إلى قبولها فهي قاسية. فسيحتل جزء كبير من أراضينا مؤقتاً وتقيم ألمانيا حاميات في شمال بلادنا وغربه من بحيرة جنيف حتى تور ثم على طول الساحل من تور، حتى جبال البيرينيه. ويجب أن تسرح جيوشنا وأن تسلم معداتنا وتحصيناتنا وأن يجرد أسطولنا من سلاحه في موانينا. وستجرد القواعد البحرية من سلاحها في البحر الأبيض المتوسط

أما الشرف فلا يزال سليما. فلن يستخدم أحد طائراتنا ولا أسطولنا. ونحن نحتفظ بالوحدات البرية والبحرية اللازمة للمحافظة على النظام في فرنسا ومستعمراتها، وستظل الحكومة حرة ولي يدير شؤون فرنسا إلا الفرنسيون

لقد كنتم على استعداد لمواصلة القتال - إني أعلم ذلك - ولكن الحرب كانت لا محالة خاسرة في فرنسا

لا تنتظروا كثيراً من الدولة فهي لا تستطيع أن تعطي إلا ما تتلقاه. اعتمدوا في الوقت الحاضر على أنفسكم وفي المستقبل على الأبناء الذي ستربونهم؛ وعلينا أن نجدد فرنسا، فأظهروها للعالم وهي ترقب خصمها وتعمل في هدوء وكرامة. لقد أتت الهزيمة من الانحلال فدمرت روح الملذات واللهو ما شيدته روح التضحية، فإني أدعوكم قبل كل شيء أن تنهضوا بأخلاقكم. أيها الفرنسيون، إنكم لقادرون، وإني أقسم لكم أنكم سوف ترون فرنسا جديدة تنبعث من حرارة إيمانكم

رد الجنرال دي جول على بيتان

قال الجنرال دي جول في إذاعة له رداً على بيان المرشال بيتان:

(في ساعات الخجل والغضب هذه، يجب أن يرتفع صوت واحد للرد عليك)

(لقد ضربت فرنسا بقوات العدو الميكانيكية، فإذا كانت فرنسا لا تملك هذه القوات الميكانيكية، فغلطة من هذه؟)

(لقد كنت ترأس هيئاتنا الحربية بعد انتهاء الحرب في عام 1918، وكنت قائداً عاماً حتى 1932، وكنت وزيراً للحربية في عام 1935، وكنت أكبر شخصياتنا العسكرية. ولكنك لم تطلب أبداً إدخال الإصلاح اللازم لهذا النظام البالي)

(إن قبول العبودية لم يكن يتطلب بطل فردون، بل أي إنسان كان يستطيع عمل هذا. إنك رفضت موارد الإمبراطورية البريطانية والمساعدة الأمريكية الكبيرة، وقد لعبت لعبة فاشلة وألقيت بالأوراق وكأنه لم يبق في أيدينا أية ورقة نافعة)

(كيف تنتظر من فرنسا النهوض مرة أخرى وهي تحت أحذية الألمان الثقيلة وأحذية الرقص الإيطالية؟)

(ألا إن فرنسا ستنهض مرة أخرى في الحرية والنصر)

(. . .إن أسلحتنا منضمة إلى أسلحة حلفائنا ستعود بالنصر، وسنعيد خلق فرنسا)

القصص

جندي مرابط

للأستاذ محمد سعيد العريان

(راجح! حبيبي! أرجوك. . . إن العدوّ لا يرحم، ولا يعفو؛ فلا ترمِ بنفسك إليه. . . احرص على حياتك من أجلي يا حبيبي! عِش لي، أوْلا، فاقتلني وأسدِل بيديك أجفاني قبل أن أرى فيك مصارعَ أهلي وأهلك يا راجح!)

كانت (بدرية) تتحدث إلى فتاها وقد أمسكت بيديه، ورفعت إليه عينين مخضلّتين بالدمع وفي صوتها نبرة يأس وأسى. كانت موقنة بأنه لن يستمع إليها، ولن يجيب؛ ولكن جذوة الحب التي تؤج في صدرها كانت تبعث في نفسها إثارةً من الرجاء! واستمع إليها الفتى صامتاً وفي قلبه عواطف تصطرع، وفي رأسه خواطر تموج وتتدافع؛ وأوشك أن ينتكث عزمه، حين التقت عيناه بعينيها الدامعتين وأحسّ شَدَّ يديها على يديه كأنما تخشى أن يفر إلى أجله قبل أن تُقلى إليه كلمة الوداع!

وبرز القمر من خلل أعذاق النخيل، فألقى شعاعه على وجه الفتى والفتاة جالسين مجلسهما على مقربة من مضارب الحيِّ، وقد سكن كل شيء منهما ومما حولهما، إلا قلباً يجف وأنفاساً تتردّد. . .

وثابت إلى الفتى نفسه حين أذكرتْه صاحبته مصارع أهلها وأهله؛ لقد كان موشكا أن يخور وتضعف عزيمته، ولكن ذكرى أهلها، وأهله. . . ووطنه. . . قد ردّته إلى رأيه، فأفلت من يدي صاحبته ووقف، وهتف:

(نعم. . . ولكنَّ دم آبائي يا بدرية، ودم أبيك، وشرف الوطن. . . يناديني؛ لقد أقسمتُ أن أنتقم أو أموت، وسأنتقم، أو أموت. . . ويومئذ ألقى آبائي، وآباءك، رافع الرأس فخوراً بما بذلت لأهلي ووطني، من دمي. . .!)

وراح يدبّ على رمال الصحراء، تحت ضوء القمر، وبندقيته على كتفيه؛ لم يحاول أن ينظر إلى وراء فيودْع الفتاة التي كان كلَّ شيء في دنياها وكانت؛ ومضى ليجيب داعي الوطن!

كان ذلك منذ بضع عشرة سنة، حين زحفت الجنود المغيرة من مربضها الذي ترابط فيه

منذ سنوات على ساحل برقة، تحاول أن تبسط سلطانها على الجنوب كما بسطته على الشمال لتعيد مملكة الرومان في جوف الصحراء وتنشئ لها عرشها من جريد النخل في ظلال أغصان الزيتون. . .

واصطرعت قوتان، أما إحداهما فكانت تملك الحديد والنار وفي يدها السيف والذهب، وأما الأخرى فكانت تملك الإيمان بالله، والإيمان بالوطن. . . وترامى الفريقان بنبالهما، وسال الدم، وعقد الدخان ضبابة سوداء فوق رءوس العسكرين، ودارت رحى المنون! وانتبه الفتى والفتاة من سكرتهما وحيدين قد فقدت أباها وفقد أباه وعمه؛ فأقسم من يومئذ قسمه وأبرم عزمه. . .

وخلف الفتاة في الحي تنتظر مآبه . . .!

لم تهدأ ثائرة البادية حين خيل للفتاح المغير أنْ قد غَلب وتسلط، ولكن جمرات تحت الضلوع تبص بصيصها ثم تختفي، ولا تخبو

وقاد (راجح) فرقته الصغيرة فمضى بها حتى أوى إلى غار في طريق الرائد والسابل والقافل، يتربص على حذر ورقبة؛ فما يمر به وليٌّ ولا عدوٌّ إلا عرَّفه نفسه وحيَّره بين عاقبتيْه. . .

وشَرِىَ أمرُ الفتى وعزّ جنده، ووفدت إليه الوفود من أبنا البدو وأفلاذ الصحراء مذعنة لأمره مطيعة، وعقدوا له اللواء؛ وحار العدو حيرته فما عرف سبيلاً إليه ولا منجاة منه، وإن له العدد والقوة والعتاد!

وترامت أخبار الفتى إلى فتاته، فرفعت عينيها إلى السماء تدعو الله مشفقة راجية! وبّث العدوّ سراياه بين الكهوف والوديان يطلب أثره ويلتمس غِرّته، وراحت الدبابات تطأ الأخبية وتجوس خلال الديار، وحلقت الطيارات تقذف اللهب وترمي بالصواعق، ومضت الكتائب المكتَّبة تحاصر القرى وتقطع الطريق؛ وانكشف المخبأ، ونشبت المعركة في ضوء الصبح؛ وكان ما لابد أن يكون، وأمعن العدوّ قتلاً ومُثله حتى بلغ مبلغه؛ وتبدد الجيش الصغير الباسل وتقسمته بطونُ الأرض أشلاءَ وجماجم. . .

وحلقت طيارات الجيش الظافر ترسل تحيتها إلى القرى المغلوبة قذائف من جماجم

بنيها الشهداء؛ وليس الحدادَ شعب بأسره؛ وأحدثت (بدرية) على فتاها كما أحدِّت على أبيها
وأهلها من قبل!
وفي بيت من الشَّعر إلى جانب الصحراء في غرب الإسكندرية، رأيت بدرية منذ ثلاث سنين. . .
كنت أصطاف يومئذ هناك، وكان بيتها على مقربة، فإنها لتغدو عليّ وتروح كل يوم لحاجتها بين السوق والبيت؟ فأراها. . .
لم أكن أعرف شيئا عن ماضيها، ولم يحدثني أحد بخبرها وإنها لواحدة من كثيرات من الأعراب قد ضربن خيامهن هناك؛ ولكن مرآها كان يثير في نفسي فضولاً عجيباً؛ فما أكاد ألحظها قادمة من بعيد حتى تطيف بي خواطر وأسئلة لا أجد في نفسي جوابها؛ فأتبعها عيني حتى تغيب. . .
كانت بزيَّها، وعينيها، وشفتيها المطبقتين أبداً على ابتسامتها العابسة - تماثلاً صامتاً يرمز إلى أبلغ معاني الوحشة واليأس والحرمان، حتى لا يملك من يراها إلا أن يتخشع ويصمت؛ وكان لها جمال، وفي عينيها وداعة، وعلى جبينها طهر؛ وعلى أنها فيما تبدو لمن يراها جاوزت الأربعين فقد كان لها روح الطفل وخفته
وعرفتُ خبرها من بعد، فأعظمتُ وفاءها، ورثيت لها . . .
لقد مضت بضع عشر سنة، منذ تلك الليلة التي خلَّفها راجح ومضى لأمره، يحاول أن يثأر لقومه؛ ولكنها ما تزال بعدُ كأنها منه على ميعاد، وكأنما كان ما كان منذ أيام. لم يزدها مرُّ السنين وحادثاتُ الليالي، وفراقُ الوطن، إلا وفاءً لذكراه
وجَلَتْ عن أرضها مكرهة فيمن جلا من عمومتها وبني أبيها، ولكن قلبها بقي هناك، حيث وقفت لآخر مرة تُتبعه عينيها وهو ماض لأمره تلفُّه ريح الصحراء في الليل القر!
وقنعتْ بذكراه عن الأمل في لقياه منذ جاءها النبأ الفاجع! ونذرت نفسها للوفاء بعهده، فلم تتزوج، ولم تخلع الحداد! ونسيتْ ما كان من ماضيها ومن أيامها، إلا صورته وذكراه! وتأيَّمت العذراء ولما تخلعْ أبراد الشباب!
وكانت بدرية في فراشها حين دوّتْ صفارةُ الإنذار لأول مرة في الإسكندرية، تنذر أهلها ليأخذوا أهبتهم للكفاح؛ وأشرق الصبح وقد هجر المدينةَ نصفُ أهلها فراراً من الموت؛ فحملتْ بدرية متاعها ومضتْ مع الناس تلتمس سبيلاً إلى النجاة!
يا رحمتا للمسكينة مما يطاردها من أحداث الليالي!
وأعياها السير، فحطَتْ متاعها عن كاهلها وجلست تستريح على حيد الطريق، حين مر بها فوجٌ من الجند فمدّتْ عينيها تنظر. . .
ونظرتْ، فعرفت، فهتفت. . .
ولكن هتافها تلاشى في ضجة الناس وزحمة الطريق؛ ومضى الجند ومضت تعدو في آثارهم وتركت متاعها تتقاذفه أقدام السابلة. . .
وانقطع بها الطريق فما بلغتْ ولا بلغ صوتها إلى من يَسمع، وكأنما كانت تنادي مُناديً من التاريخ يفصلها منه بضعة عشر عاماً من عمر الزمان!
وهامت المسكينة على وجهها ذاهلة لا تكاد تعي شيئاً مما ترى أو تسمع، ليس لها هدف فيما تسعى ولا غاية إلى ما تسير!
وأعيتْ بعد جهد فسقطت في الطريق لا حسٌّ ولا حركة ولا حياة؛ ثم أفاقت لتسأل نفسها ويسألها الناس فلا تجد الجواب!
وتتابعت على عينيها ذكريات الماضي يوماً يوماً منذ كانت حتى صارت؛ ونظرت يمنة ويسرة، ثم انطلقتْ تعدو. . .!
وعرفتْ بعد لأي أين تقصد، فمضت في طريقها. . .
والتقى في خيمة الضابط المشرف على فرقة المتطوعين من أعراب الصحراء . . .
شخصان لم يلتقيا منذ بعض عشرة سنة، أما أحدهما ففتاة في الأربعين قد تقنعت بلفاع أسود حائل، وعليها ثوب أسود مرقوع، وترف على شفتيها ابتسامة لم تنفرج عن مثلها شفتاها منذ سنين. وأما الآخر فرجل أشمط مخدّد الوجه في جبينه شجّة ملمومة، يلبس حلة عسكرية وعلى رأسه طربوش بدوي غليظ يكبس أذنيه ويتدلى زره على قفاه. . .
وقالت الفتاة: راجح!. . .

وغصت بريقها وتسابقت بوادرها على خديها!
وقال الرجل: لم أكن أظن يا بدرية!
وكان الضابط جالساً إلى منضدة في صدر الخيمة يسمع وينظر ويبتسم ابتسامة الغبطة والرضا!
وعادة بدرية تقول: راجح. . .!
وربت راجح على كتفيها وهو يبتسم، وقال: لا تخشى بعد اليوم شيئاً يا بدرية؛ لن نفترق بعد؛ لقد دنا اليوم الذي أرتقب يا عزيزتي من زمان، لأغسل الدم بالدم، وأنتقم، فنعود أعزَّة إلى الوطن الذي أكرهنا على هجرانه، ويومئذ. . .
وطأطأت بدرية رأسها من حياء، واسترجعت أماني عاشت بها حيناً وعاش فتاها؛ وسرحا بأفكارهما إلى بعيد؛ إلى حيث كانا يلتقيان كل مساء تحت ضوء القمر في ظلال النخيل القائمة على مقربة من بيوت الحي، يتساقيان ويتناجيان نجوى الشباب؛ وابتسم، وابتسمتْ. . .
ودوى بوق المعسكر يدعو فرقة المتطوعين من أعراب الصحراء إلى نَوبتهم في العمل؛ فهب راجح واقفاً ومضى إلى واجبه، تتبعه عينان تفيضان بالحب والحنان، ولسانٌ يخافِت بالنجوى والدعاء!

محمد سعيد العريان

العدد 367 - بتاريخ: 15 - 07 - 1940

لا نخدع أنفسنا حتى يخدعونا

للأستاذ عباس محمود العقاد

لم نخدع أنفسنا حتى خدعنا الأوربيون عنها فانخدعنا!
ثم صدقنا أننا أهل عاطفة ولسنا أهل عقل، وأننا أهل خيال ولسنا أهل حس، وأننا أهل روح ولسنا أهل مادة، وأننا لذلك مخفقون
وأنا مع الذين يقولون: إننا لسنا أهل عقل ولا أهل حس ولا أهل مادة، ولكني لست ممن يقولون: إن هذه (الليسية) توجب لنا نقيضها وتعطينا ما يقابلها، فنصبح أغنياء في الروح لمجرد أننا فقراء في المادة، ونصبح نفَّاذين في الخيال لمجرد أننا محجوبون عن الحس، ونصبح و (العاطفة) فياضة من نفوسنا لمجرد أننا مستريحون من العقل أو واقفون منه عند ينبوع جديب
فجائز جداً أننا لا عاطفيون ولا عقليون، ولا روحيون ولا ماديون، ولا خياليون ولا حسيون؛ وأننا على نصيب نزر من جميع هذه الصفات لا تستلزم القلة في إحداها كثرة في نقيضها، لأن الصفات الإنسانية لا تمشي عدلين عدلين متلازمين يعلو أحدهما حيث يهبط الآخر ضربة لازب. بل قد ينعدم العدلان والبعير معهما في كثير من الأحيان. . .!
واليقين عندي أننا منذ زمن طويل فقراء في العاطفة محتاجون إليها أشد من حاجتنا إلى العقل والعلم والحكمة وسائر مشتقاتها.
وكان هذا رأيي يوم ناقشني فيه فقيد العراق الأكبر جميل صدقي الزهاوي المصلح الحكيم، وكان - رحمه الله - يسألني: بماذا عبر لندنبرج المحيط الأطلسي: أبا العقل أم بالعاطفة؟ فأجيبه: (بالعاطفة). . . فإن العاطفة لا العقل هي التي أركبته الطيارة بعد أن فرغ العقل من تركيبها في المصنع وتركها حديدة لا تتحرك ولا تأتي بالفلق إلا أن تقدم بها عاطفة مجازفة لا تبالي العقل ولا تحفل السلامة
والذي كان يسمعه رحمه الله يقسم حسبة الطيارة إلى كومين: كوم العاطفة وكوم العقل، يخيل إليه أننا نحن الشرقيين قد ظفرنا منها بكل ما فيها من عاطفة وهمة وطموح ومغامرة واستطلاع، ولم يبق منها للغربيين غير حفنة من مسامير ومطارق وأرقام، هي التي يرتع فيها العقل ما يشاء!
والآفة كلها من أوربا نفسها
فقبل اتصال أوربا بالشرق لم يقل أحد من الشرقيين إن الشرقيين أهل أحلام وخيالات، وإنهم من رجال العاطفة وغيرهم من رجال العقل والواقع
ولكن الأوربيين وصفونا هذه الصفة فاغتررنا بها ومضينا فيها، ولا سند لها على الأرجح أقوى من ألف ليلة وليلة وما جرى مجراها من القصص والنوادر، وهي كما نعلم ليست (بالخيال) في أي سمة من سماته ولكنها (واقع) مع إيقاف التنفيذ كما يقولون في لغة القانون! أوهي أحلام الجائع في سوق الطعام، لا فرق بينها وبين الواقع إلا أن يستطيع

الأكل فعلاً، وهو عاجز عن الأكل لأن الأكل غير موجود!
فالخيال المزعوم عند الشرقيين هو (واقع ناقص) لا يحسب له فضل الواقع، ولا يحسب له فضل الخيال
ولو كان خيالاً حقاً لكان ابتكاراً وخلقاً وسعياً إلى عالم جديد ولم يكن واقعاً في كل شيء إلا في أنه غير موجود
فنحن واقعيون مفرطون في الواقعية
وكل الفرق بيننا وبين الأوربيين أن الأوربيين واقعيون يجدون المائدة التي يأكلونها، ولكننا نحن واقعيون نمضغ مائدة من الهواء. . . ومن الخطأ جد الخطأ أن نسمَّي من أجل ذلك خياليين أو حالمين
أخياليون وحالمون لأننا نعيش في عالم ألف ليلة وليلة؟ فما عالم ألف ليلة وليلة إذن؟
عالم قصور وموائد وكنوز وفتيات حسان. . . عالم واقع ملموس تراه العيون وتذوقه الأفواه إلا أنه لا ينال، وليس هذا هو الخيال
بل الخيال هو فكرة يبيع الإنسان في سبيلها متاع الدنيا وكنوز الأرض وبهرج الحياة
أو هو مثل أعلى لا تعرفه شهرزاد، ولا يتبعه صائغ البصرة، ولا تراه في ديوان من دواوين تلك القصص التي هي وسوق الرقيق سيان
وبودنا ألف ود لو يعظم نصيب الشرق من هذا الخيال
وقريب من هذا اعتقادنا أننا نحن المشارقة أهل السماحة والبر لأننا لا نصول ولا نجول، أو لا نصنع اليوم السلاح الذي نصول به ونجول!
فماذا يوم كنا نصنعه، أو يوم كان سلاحنا الذي نصل إليه كفيلاً بالنصر على أعدائنا وعلى العزل المستضعفين من جيراننا؟
كنا نتغنى بالسيف كما تتغنَّ أمة قط بسلاح، وكنا نعيب (رذيلة) السلم كما يعيبون اليوم رذيلة الكفاح
ولعل الأموال التي بذلت في الخير بين الغربيين لا تقل عن الأموال التي بذلت فيه بين الشرقيين. ولعل جهودهم فيه لا تقل عن جهودنا، وثمرات أعمالهم فيه لا تقل عن ثمرات أعمالنا، وعلامات البر في عصرنا الحديث لا تقل عن علاماته في سائر العصور فالإنسان إنسان حيث كان
ذلك أصدق ميزان للخلائق الإنسانية في كل أمة وفي كل أوان
وأحرى بنا فيما نعتقد أن ننجو بعقولنا من أحلام الأوربيين التي أفرغوها علينا لا من أحلامنا نحن فليست لنا بحمد الله أحلام من القوة بحيث تتقاضانا النجاة منها
إن أناساً من هؤلاء الأوربيين أفزعتهم بلادهم في القرن الثاني عشر وما بعده فحلموا بالشرق كما يحلم آكل الأفيون بما يراه في غيبوبة الخدر والجمود، وتحلوه صفات ليست فمنه وليس منها فأعجب الشرقيون بما كتبوه
أو أن أولئك الكتاب الأوربيين قد تخيلوا أبطالهم من الشرقيين كما نتخيل الأبطال الذي ننحلهم في الروايات شمائل نتمنى أن نراها في عالم الحس فيعيينا طِلابها
أما الواقع فلا
الواقع أننا نحن الشرقيين لسنا عاطفيين ولسنا مأخوذين بالروح ولا مفتقرين إلى من يسوق لنا المواعظ بالإقبال على المادة والانصراف كما يقولون عن الخيال. ونحن أفرح من طفل بالدرهم وأعجز من طفل عن كسبه في سوق الابتكار
أنحن أهل خيال؟
سمع الله منكم أيها القوم!
لقد عشنا عصرنا الحديث نضرب المثل (بالجرسون) الرومي في الحرص على المليمات، ولو رأينا معاهده في بلاده وفي بلادنا لعرفنا مَن صاحب الحرص ومن صاحب الأريحية وإن اختلفت العوارض والأشكال
وربما ألقينا بقطعة اللحم من الفم لنزدرد قطعة اللحم التي في الماء. . .!
أخيال هذا؟
كلا! ولا النحاس الذي يستحيل ذهباً ولا الصفقة التي يدركها الصعود في سوق القطن فتفتح الكنز كله بعد اليوم
ما في شيء من هذا خيال وإنما هو كله واقع العاجزين
وبعد فنحن في عصر اضطراب الثقافات وارتجاج الأخلاق والمزايا لا جرم يخطر لنا أن

ننظر فيما يصلح وفيما لا يصلح، وفيما تعز به النفوس وفيما تهون؛ وأن نسأل أنفسنا ماذا نأخذ وماذا ندع مما يتمخض عنه عراك الأمم والدولات

فلنكن على يقين سواء كنا من طلاب الحرية أو طلاب القوة أن النخوة مطلب لا غنى عنه في الحالتين وأننا محتاجون إليه، وأن الخيال عدة لا محيص عنها في المعسكرين، وأننا نحن الشرقيين عزل منها، وأن أمة من الأمم لن تصاب في سلمها ولا في حربها بمصاب هو أفدح عليها وأقبح بها من مصاب الانحصار في واقعها، لأن الانحصار في الواقع خلة حيوانية وليس بخلة إنسانية، وكلما ضاق أفق النفس عز عليها أن تخرج من الواقع القريب إذا أرادت الخروج منه، ولا مناص لها أن تريد ذلك في بعض حالاتها تريد ذلك لتعلو على أثرتها ولتعلو على ضنكها ولتعلو على حاضرها في انتظار مستقبلها أو مستقبل بني قومها، وتريده لتشعر بأن الواقع الذي هي فيه دون الواقع الذي تبغيه

وهذا هو الخيال الذي يرتفع بالنفس عن واقعها

أما الخيال الذي هو ظل اللحم في الماء فذلك هو الواقع مشوباً بالعجز والغفلة وأما (الواقعية) التي يقولون إنهم ينقذون الشرق بها ويردون الشرق من أحلامه إليها فحذار حذار منها. . . هي داء الشرقيين أجمعين، وإنهم لأئمة الواقعيين بين العالمين.

عباس محمود العقاد

في ظلال الذكريات

أحمد الله إليك!

للدكتور زكي مبارك

في شهر يولية سنة 1928 تلقيت وأنا في باريس خطاباً من الأستاذ الدكتور طه حسين بك جاءت فيه عبارة: (أحمد الله إليك)؛ فالتفت ذهني إلى هذه العبارة، لأنها لم تكن من العبارات المألوفة في رسائله إليَّ، وقلت لنفسي: من أين وصل هذا التعبير إلى الدكتور طه حسين وهو في هذه الأيام يعيش في جيرار يير؟

وصح عندي بعد التأمل أن الدكتور طه قد يكن مشغولاً بمراجعات متصلة بالسيرة النبوية، لأن عبارة (أحمد الله إليك) تكثر في الرسائل المأثورة عن عصر النبوة وعصر الخلفاء

وبعد أعوام أخرج الدكتور طه كتابه (على هامش السيرة) وتفضل فأهداني نسخة ممهورة بعبارة كريمة من عبارات الإهداء، وكنت حينئذ أحرر الصفحة الأدبية بجريدة البلاغ، فرأيت أن أتحدث عنه إلى قرائي بعناية تحملهم على اقتناء ذلك الكتاب، تحقيقاً للتضامن بين المؤلفين

فماذا قلت؟ قلت: إن الدكتور طه يجيد أعظم الإجادة حين يتروى في التأليف، وكتابه الجديد أثرٌ من آثاره الجيدة في تروّيه، فهو مشغول بموضوعه منذ سنة 1928، وإن لم يقل ذلك، فقد كتب إليَّ خطاباً في شهر يولية من تلك السنة يقول فيه: (أحمد الله إليك)، وقد فهمت من هذه العبارة أنه كان مشغولاً بدراسات متصلة بالسيرة النبوية، وكذلك عرفت أن الظن قد يبلغ درجة اليقين، وقد يقوم مقام المعاينة عند صدق الإحساس

فكيف استقبل الدكتور طه هذا التقريظ الطريف؟

مضى يقول: هذا اختراع جديد من اختراعات زكي مبارك في الأسمار والأحاديث، فليس من المعقول أن أكتب إليه خطاباً أقول فيه (أحمد الله إليك)، وهي ليست من عبارات هذا الجيل!

ولقيني بعد ذلك، فجدد استغرابه من العبارة التي نسبتها إليه؛ فقلت: إنها حق؛ فقال: إنها من المستحيلات!

ومضيت أبحث عن ذلك الخطاب، فلم أهتد إليه، لأن الدنيا كانت أسرفت في اللجاجة واللدَد، فنقلتني من أحوال إلى أحوال، وبعثرَتْ ما كنت أحرص عليه من رسائل الأهل والأصدقاء، وعَدَتْ على مكتبتي بالقلب والإعلال، فلم يبق أمل في الوصول إلى نص الخطاب المنشود

ثم أخذت أتحدث في مقالاتي ومؤلفاتي عن أشياء وقعت بيني وبين الدكتور طه حسين، فكان إذا سئل عن بعض تلك الأشياء أجاب بأنها اختراع من نوع (أحمد الله إليك)!!

ومنذ أيام مضيت لمقابلة سعادة الأستاذ الجليل الدكتور السنهوري بك وفي يدي نسخة مهداة إليه من كتاب (الأسمار والأحاديث) فوجدت الدكتور طه بك هناك، وسألني السنهوري بك عن بعض أغراض الكتاب، فقلت: فيه أقوال فاه بها الدكتور طه ولم ينشرها، فنشرتها بالنيابة عنه على نحو ما كان يصنع أفلاطون مع سقراط!

واللطف الملحوظ في هذه العبارة لم يمنع الدكتور طه من أن يقول: لا بد أن تكون اختراعات من طراز (أحمد الله إليك)

وسألني السنهوري بك عن القصة فأجملتها في كلمات قصار فراراً من الدخول في جدل جديد مع الدكتور طه حسين، فقال وهو يبتسم: يجب أن يكون الخطاب صحيحاً ما دمت تحدثت عنه في البلاغ!

فقلت: وإن وجدت أصل الخطاب؟

فقال الدكتور طه: إن وجدته فسيكون بخطك؟

فقلت: وإن كان بخط (توفيق)؟

فقال: هذا مستحيل!

فقلت: وهل عندك مانع من أي تحمد الله إليَّ؟

فقال: أنا أحمد الله في كل وقت، ولكني لا أذكر أني حمدته إليك!

ثم انصرفت وقد اطمأن مَن حضروا هذا الحوار إلى أني أتزّيد على الناس حين أشاء

أين ذلك الخطاب؟ وأين أنا من سنة 1928 وقد شرَّقتُ وغربت، وانتقلت من دار إلى دار، وبعثرت أوراقي مئات المرات؟

أما تسمح المقادير بأن أصل إلى ذلك الخطاب ليعرف الدكتور طه حسين أني لم أتزيد عليه؟

إلى يا أوراقي، إليَّ، إليَّ، فقد طالَ عهدكِ بالحجاب، واشتقتُ إليك أشد الاشتياق!

ورجعت إلى تلك الأوراق، الأوراق التي سبقت هجرتي إلى بغداد، رجعت إليها في حذر وخوف، لأنها تذكرني بعهود سيطول عليها بكائي إن فكرت في أيامها الطيبات

فماذا رأيت؟

رأيت ألوفاً من أطياف الشباب، الشباب الذي أبليته في الدرس بلا ترفق ولا استبقاء

ورأيت قصائد منسية كنت نظمتها أيام كنت أومن بأن الدنيا أهل لأن يعيش فيها الرجل وهو مُرهَف الحس خفاق الفؤاد

ورأيت رسائل مهجورة أملتْها قلوبٌ خوافق لا أعرف مصيرها اليوم، ولا أدري مكانها بين الحياة أو الموت

ورأيت مواعيد وفيتُ منها بما وفيت، وأخلفتُ منها ما أخلفت، يوم كانت الدنيا تسمح بأن أتخيَّر من المواعيد ما أشاء. ومن أخصب تخيَّر. فيا زمن الخصب أين أنت؟ وكيف ألقاك؟

ورأيت صوراً غالية كادت تُبليها الأنفاس والمدامع، لطول ما عانت من لوعتي وأساي، قبل أن يروضني الدهر على اصطناع الصبر الجميل:

وإن أَكُ عن ليلَى سلوتُ فإنما ... تسليتُ عن يأس ولم أسلُ عن صبر

ورأيت خطابات لا تستحق الحفظ، لأن أصحابها ضيعوا العهد، وأخلفوا الميعاد

وقد مزَّقتُ تلك الخطابات شر ممزَّق، ثم رجعت فجمعت أوصالها بترفق وتلطف، لأني تخيلتها جُثثاً هوامد لأرواح قتلها الغدر والجحود، ولا يباح التمثيل بجثث الأموات

ورأيت رسائل من هند، فعرفت أن بلائي بها قديم العهد، وكنت أحسب هواها أين أمس!

ورأيت ما دلني على أن فلاناً كان ينزعج حين تخلو حياته من وجهي يوماً أو بعض يوم، وقد صار إلى ما صار إليه، فلا ألقاه إلا بعد استئذان

فيا فلان، كيف حالك، فلست أنت الذي أراه حين أستأذن في الدخول عليك، وإنما هو خيالك، خيال الصديق العزيز الذي كنت أعهد، وما هو خيالك؟ إنما هو الهيكل الذي أحتل روحك اللطيف بغير حق، فأين أنت يا صديقي لأقدم إليك تحية الوجد والشوق؟ أين أنت، فما تخيلتُ فجيعتي فيك إلا طار صوابي!

ورأيت عناوين محفوظة لأحباب أوفياء، فأين أولئك الأحباب لأكتب لأحدهم خطاباً أقول فيه: (أحمد الله إليك)؟

ومن يضمن بقاء تلك العناوين، وخرائطُ البلاد تُغَيَّر من يوم إلى يوم؟ وهل تسمح الدنيا

مرة ثانية بأن تأخذ المواعيد في القطارات لعام أو عامين ثم تفي بتلك المواعيد كما كنا نصنع؟
هي دنيا قد تولتْ ... فعلى الدنيا السلامْ
إليّ يا أوراقي، إليّ، فقد بقيت مآرب يعزْ عليَّ أن تضيع
وما هذه الأشياء؟ ما هذه الأشياء؟ وبأي حق حفظتها في أصْوِنة الأوراق؟
هذهِ كسرات من آنية مصدوعة، فما تاريخ تلك الآنية؟
أسندتُ رأسي بيديّ وفكرت عساني أذكر ذلك التاريخ
ثم تذكرت بعد لأي أني كنت ذهبت إلى الهافر لأشهد الاحتفال بعيد (العنصرة) هنالك في سنة 1927 ونفدت نقودي فرجعت إلى باريس بدون أن أشتري شيئاً من طرائف ذلك الثغر الجميل
وسألتني ربة البيت الذي كنت أقيم فيه عن رحلتي إلى الهاقر فذكرتُ أني متوجع لأن النقود خانتني فلم أشتر شيئاً من طرائف تلك المدينة، فنظرت إليَّ ابنتها بطرف غضيض وهي تقول: سأعوِّض عليك ما ضاع منك، ثم أتحفتني بزهرية جميلة كانت اشترتها من هناك
وانصدعت الزهرية بعد أحايين فجمعت كِسراتها وضممتها إلى ما أحفظ من رسائل ذلك العهد، فهي اليوم روح من أرواح تلك الذكريات
فما أخبار صاحبة الزهرية؟ وكيف حال طرفها الغضيض؟
أفي الحق أن باريس عانت مخاوف الحرب وإطفاء الأنوار بالليل، ثم انتهتْ بها الخطوب إلى الاشتمال بأثواب الحِدَاد؟
متى نلتقي وفي جيبي كسرات تلك الزهرية التي عاشت بين أوراقي وهي مصونة في مدة زادت على أربعة عشر عاماً؟
متى نلتقي لتحدثني وأحدثها عما صنع الزمان بأحلامها وأحلامي؟ وهل أعرفها حين أراها أو تعرفني حين تراني بلا بشير بالتلاقي؟
عندي صورتها وعندها صورتي، ولكن أين نحن مما كنا عليه سنة 1927 وقد تبدلنا أحوالاً بأحوال؟ ومن ذا الذي لا يتغير، يا ربة الطف الغضيض؟!
أنا بخيرٍ وعافية، وإن صنع الدهر ما صنع، فكيف أنتِ؟ ومتى تعود ليالينا بمطالع الأقمار في باريس؟ ومتى نعود سيرتنا الأولى، سيرة الأطفال الذي يرضَون ويَغضبون في اللحظة الواحد عشر مرات؟
حدثيني منى أردّ إليك أصداع الزهرية ومعها أصداع قلبي، القلب الذي أخذ عنك درس الثقة بالقلوب، فلم يعرف بعدك غير الأسف على حُسن الثقة بالقلوب؟!
كنت نسيت أني أخذت الدرس عن طفلة، وكذلك يندم من يأخذ الدروس عن الأطفال!
ولكن أين خطاب الدكتور طه حسين؟ وأين عبارة (أحمد الله إليك)؟
إن أسفاري في البحث عن هذا الخطاب ستطول، وقد لا أصل إليه أبداً، وما قيمة التعلق بتاريخ قديم تنكَّر له عارفوه؟ وما الفائدة في رَجْع هذا الدكتور إلى حسابٍ تمتْ تصفيته منذ أعوام طوال؟ وهل أقدر على بعث الأموات من الذكريات؟ تلك معجزة صحّت لبعض الأنبياء ولن تعود، فليقل الدكتور طه إني افتريت عليه وليُسرف في اتهامي كيف شاء، فحسبي من الطمأنينة أن أعرف أني كنت من الصادقين
ولكن ما هذه الخريطة؟ ولأي سبب حفظتها في أوراقي؟
هي خريطة لمقبرة بير لاشيز في باريس
فكيف عرفتُ تلك المقبرة وكيف احتفظتُ بالخريطة فنقلتها من باريس إلى مصر الجديدة بلطف ورفق لأرجع إلى درس معالمها حين أريد؟
كنت في درس المسيو (تونلا) أستاذ الأدب الألماني بالسوربون، وكانت دروس هذا الرجل تستهويني كل الاستهواء، فقد كانت تنقلني إلى آفاق من الفكر لا أصل إلى مثلها في صحبة رجل سواه، وفي دروس هذا الرجل عرفت سيدة ألمانية لم تكن مع زوجها على وفاق، وكانت فيما حدثتني من شواعر برلين، وكانت ملامحها وشمائلها تشهد بأنها على صلة وثيقة بشياطين الشعر الجميل. ويظهر أن الزوجية قيدٌ لا يستريح إليه بعض هذا النوع من الجنس اللطيف.
ولم يكن للشاعرة بُدٌّ من رجل تشكو إليه جهالة زوجها الغبيّ البليد، فهدتها الفِراسة

إلي أن أذنيّ أصلح الآذان للترحيب باغتياب الأغبياء والبُلَداء، وكذلك أخذتْ تصبّ في أذني
شكايات هي أعذب وأخطر من صهباء الرُّضاب
كنت أعرف أن الغيبة من الكبائر، وأن السامع شريك القائل في الإثم، ولكني نسيت الأدب مع الشرع، لأن تلك الكبيرة كانت تساق إلى أذني في لغة فرنسية ملحونة، وأنا أعبد اللحن في اللغة الفرنسية إذا صدر عن الألمانيات الملاح، وهل في الدنيا لغة أحلى وأعذب من لغة باريس حين تمضغها ظبية من برلين؟
واتفق في تلك الأيام أني كنت مشغول الفكر والقلب بدرس طوائف من الشعراء العشّاق منهم ألفريد دي ميسَّيه، وقد كُتِب في تاريخ هواه عشراتٌ من المؤلفات الجياد، فحدثتني النفس بأن أحجّ إلى قبر ميسَّيه مع تلك الألمانية الحسناء، لأذوق حلاوة النجوى في رحاب ذلك (الشهيد)
وكذلك مضينا إلى مقبرة بير لاشيز في صباح يومٍ مَطير لا يَدفع غيومه الثقال غير ما في قلوبنا من صفاء
وأسرع البواب فقدَّم إلينا خريطة المقبرة بثلاثة فرنكات، ولم يكن بدٌّ من الاهتداء بالخريطة، لأن تلك المقبرة فيها ألوف من المقابر، ولن نصل إلى قبر ميسيه بغير دليل وماذا تقول الخريطة؟
إنها لا تعيِّن غير أسماء العلماء والشعراء والكتاب والمجاهدين، وهي أسماء معدودات، فأين أسماء المجهولين والمنسيين بتلك المقبرة الفيحاء؟
أولئك أقوامٌ دفنوا همومهم في صدورهم فلم يتحدث عنهم شاعرٌ ولا كاتبٌ ولا خطيب
أولئك أقوام كانوا أحجاراً في بناء الوطنية الفرنسية، ولو كانوا من أصغر الطبقات، فكيف نسيهم الناس فلم يُحفظ لهم في الخريطة مكان؟
تلك حظوظ من يعملون وهم صامتون، وقد يكون فيهم من أدى لوطنه خدمة منسية، وقد يكون فيهم من حفظ العهد لإخوانه الناسين، وقد يكون فيهم من شرب من رحيق الوجود أكثر مما شرب كبار الشعراء
وما هي إلا لحظات حتى التفتتْ رفيقتي فرأت عينيّ مغرورقتين بالدمع، ورأتني لا أطيق الجواب من فرط الحزن والذهول
وصَوّبت الرفيقة بصرها إلى ما صوّبتُ إليه بصري فرأتني أحدِّق في لوحة رُقِمت هذه العبارة الصارخة:
- فرنسا! تذكري!!
وهي عبارة مسطورة فوق قبر رجل استشهد في الدفاع عن الألزاس أيام حرب السبعين
فقالت: وماذا يهمك من هذه العبارة؟
فأجبت: أشتهي أن أوجِّه مثل هذه العبارة إلى وطني
وكنت في صبيحة ذلك اليوم تلقيتُ من مصر خطاباً يشهد بأن وطني لا يحفظ الجميل؟ فما هو ذلك الخطاب؟
هو خطابٌ له تاريخ يضيق عنه هذا الحديث
وفي طريقنا إلى قبر ميسيه مررنا بقبر حوله أحواض من الأزهار، فأخذتْ رفيقتي تجمع الزهر الذي تساقط على الأرض. ونظرتُ فرأيتُ أحد الحراس يراقبها من بعد، ثم انقض كالصاعقة يسألها عما جَنَتْ يداها، فأجابت: هذه أزهار ذوابل أسقطتها العواصف. فانصرف الحارس وهو مُجلّل بالخجل والكسوف!
ثم وصلنا بعد لأْي إلى قبر ميسيه وبجانبه تمثال الشاعر وهو كهلٌ لا تنطق معارف وجهه بأنه كان حُلم الغانيات في باريس
أما شجرة الصفصاف التي أوصى الشاعر بأن تُغرس بجانب قبره فقد رأيتها في صُفرة الموت
ثم قضينا بقية اليوم في تدوين ما كُتِبَ فوق القبور لأقارنه وحين تسنح الفرص بما يُكتب فوق المقابر المصرية، وهو مقال لم أكتبه بعد، وقد كان في بالي حين زرت مقابر الكرخ ومقابر بغداد
والكاتب قد يُجيل فكره في الموضوع الواحد عدداً من السنين
أين خطاب الدكتور طه؟ أين؟ أين؟

ولكن ما الموجب للحرص على خطاب صديق لم تصحّ لي صداقته غير عشرة أعوام كانت أقصر من عشرة دقائق؟
وماذا يهمني من أن يعرف أني لم أتحدث عنه بغير الصدق ولم تبق لذكراه في قلبي غير أطلال؟
هذا الصديق يهمني جداً، لأنه لم يعرف بعد فراقي كيف يكون صدق الإخاء
هذا الصديق يهمني جداً، لأنني خلقت منه عدواً عظيماً، وأنا أتخيَّر أعدائي كما أتخيَّر أصدقائي. ولكن أين الخطاب؟
هذه أوراق وأوراق وأوراق. هذه مئات من الرسائل التي تشهد بأني كنت على صلات مع أرواح جاذبتُها زمناً أطراف المحبة والعتاب
رباه! متى تعود أيامي؟ متى تعود!
ثم تشاء الأقدار أن أجد الخطاب المنشود، وبخط (توفيق) الذي صار من أيام دكتوراً في الحقوق من الجامعة المصرية
تشاء الأقدار أن أجد الخطاب الذي يقول:
أحمد الله إليك على ما أنت فيه من رضاً بالإقامة في باريس، وأتمنَّى لك المزيد من) هذا الرضا، كما أتمنى أن تنتفع بأيامك فر فرنسا إلى أبعد حدّ ممكن، وتقبَّل من السيدة ومني تحية خالصاً وشكراً جميلاً)
وتاريخ الخطاب 26 يولية سنة 1928
وقد ابتسمتُ حين وجدت (تحية خالصاً) فهي غلطٌ من (توفيق) لا من الدكتور، إلا أن يكون لها وجه ضعيف!
ثم ماذا؟
ثم تشاء الأقدار أن أجد خطاباً للدكتور طه كتبه إليّ من الإسكندرية، وفيه يقول:
صديقي العزيز الدكتور زكي مبارك)
أنا مَدين لكٌ بشُكر كثير: فقد قرأت كتابيك وتسلمتُ السَّفرين اللذين تفضَّلت بإرسالهما إليّ. ولست أدري كيف أشكر لك عنايتك بفلسفة ابن خلدون، وأنا مقتنعٌ فيما بيني وبين نفسي بأنها لا تستحق هذه الغاية. ومع ذلك فسأشتري (المقطم) منذ اليوم لأقرأ ما تكتُب لأنك أنت الذي سيكتبه لا لأني أنا موضوعه. وكل ما أرجوه لك أن تصدر فيما تكتبه عن الحرية الصادقة القاسية، لا عن الإخاء والمودة اللذين يدفعان في كثير من الأحيان إلى شيء من الرفق لا يخلو من إثم. وأنا أعيذ أصدقائي من أن يتورطوا من أجلي في إثم الإسراف في البِرِّ، كما أكره أن يتورطوا في إثم العقوق.
وقد كنت أحب أن يقف كتابي عند هذا الحد،
ولكن الله يأبى إلا أن يضاعف دَيْني لك حتى يتجاوز قدرتي على الأداء، فأنا أريد أن تتكلف السعي إلى إدارة السياسة حيث تلقي صديقنا المرصفي وتطلب منه أصول الجزء الثاني من حديث الأربعاء فقد كلفته أن يجمعها لك، وأشكرك إن دفعتها إلى مصطفى أفندي محمد ليبدأ في طبعها. وأنا أرجو أن تكون بخير مطمئن النفس، وأن تكتب إلي في شيء من الإطالة والحرية، فإن كتبك وأحاديثك تقع في نفسي دائماً موقعاً حسناً. وليس لدي الآن ما يشغلني عن قراءة كتبك. فأنا أقضي من بقي من أيام الراحة في قراءة متفرقة لا نظام لها ولا نفع فيها، وأرجو أن أراك بخير حين أعود إلى القاهرة في الأسبوع الأول من الشهر المقبل، إن شاء الله، وتقبل تحيتي الخالصة)
طه حسين
وتاريخ هذا الخطاب (2 أغسطس سنة 1925)
وفيه غلطة نحوية وقعت من (توفيق) لأنه أساء النقل عن الدكتور، كما كان يتفق له في بعض الأحيان
فإن قيل: وكيف أمكن بعد ذلك الوداد الوثيق أن تَفسُد العلائق بيني وبين الدكتور طه حسين، فإني أجيب بأن لله حكمه فيما وقع بيني وبين هذا الصديق
لم يكن لي بدٌّ من خصومة أتخذ منها فرصة لتوجيه الجمهور إلى الحقائق الأدبية، وكذلك خاصمتُ عدداً من رجال الأدب، كان أظهرهم الدكتور طه حسين
وأنا اليوم في حياد، أو غير محارب، وهما حالتان متقاربتان، فمتى أخلق خصومات جديدة أذكى بها نار الأدب من جديد؟
أنا حاضرٌ للخصومة، على شرط أن أجد خصماً في مثل مواهب الدكتور طه حسين،

فما أرضى بمنازلة الشادين في الأدب من الذين لم يأخذوا زادهم الأدبي إلا من قراءة الهوامش بالجرائد والمجلات
يا دكتور طه
إن كنت أنكرت أن تحمد الله إليّ فخطابك تحت يدي أقدمه إليك حين تشاء، فإن لم تحمد الله إليَّ فأنا أحمد إليك!
وإن أذن الله بانقشاع ظلمات الحرب فستراني حيث تحب أو حيث تكره بأبحاث طوال عراض تعود على الأدب بأجزل النفع، وتملأ مسامع الزمان
والله يحفظك للخصم الذي يتمنى لك دوام العافية والتوفيق
زكي مبارك
البلهبذ
للأستاذ حسن السندوبي
للأمير شكيب أرسلان كتاب قيم وضعه حديثاً عن (شوقي) وجعله تذكاراً لصداقة أربعين سنة. وقد حفل بالطريف من المعلومات، والجليل من الموضوعات، كما رد فيه كثيراً من الحقائق التاريخية التي غمرتها الحوادث، وأبعدتها عن أصولها الكوارث، في العصر الحديث. فكان كتاباً فريداً في بابه ككل ما يعرض له الأمير من أبحاث وشؤون، ولا سيما ما كان منها متعلقاً بالعالم الإسلامي والعربي في بقاع الأرض
وقعت لي نسخة من هذا الكتاب القيم فعنيت بقراءته عنايتي بكل ما تجود به قريحة الأمير ويسيل به قلمه الكريم. ولي منذ الصبا ولع شديد بتتبع آثاره، واستيعاب أفكاره، واقتطاف أزهاره، فله عندي منزلة من الحب قوامها الاحترام
وبينما أردد نظري في صحائف هذا الكتاب استوقفني قوله وهو يقارن بين سينية البحتري التي يصف بها إيوان كسرى، وبين سينية شوقي التي يعارضه بها، عند قول البحتري:
قد سقاني ولم يصرد أبو الغو ... ث على العسكرين شربة خلس
من مدام تقولها هي نجم ... أضوأ الليل أو مجاجة شمس
وتراها إذا أجدت سروراً ... وارتياحاً للشارب المتحسى
أفرغت في الزجاج من كل قلب ... فهي محبوبة إلى كل نفس
وتوهمت أن كسرى أبرو ... يز معاطي والبُلُهْبُذَ أنسى
قال الأمير: ما اهتديت إلى الآن إلى معنى (البلهبذ) الذي هو لفظ فارسي فيما يظهر فلما رأيت ذلك دهشت وأكبرت ذكاء الأمير وفطنته عن أن يفوتهما المعنى من هذا اللفظ. ولا سيما بعد أن وضعه البحتري في مكان لا يحتمل لبساً ولا إبهاماً. فالبحتري يذهب به خياله إلى أن كسرى يعاطيه الخمر والبلهبذ يؤانسه بصوته الرخيم. إذن فالبلهبذ كان من ندماء كسرى ذوي التطريب والتغريد، ومن الذين يحبون مجالس الشراب، وينعشون محافل المنادمة بأصواتهم الحسنة، وأنغامهم العذبة، فالبلهبذ على هذا كان المغني الخاص لكسرى، والمطرب المفرد في مجلس شرابه
ولقد أذكر بهذا أن الشيخ الشنقيطي اللغوي الكبير قال قصيدة في رحلته إلى الأندلس،
وصف فيها الباخرة وصفاً سلبياً إلى أن قال فيها:
لا تحسبن عراب الخيل تشبهها ... ولا المهملج شبديزاً ولا عدسا
ثم علق على هذا البيت بقوله: إن شبديز فرس كسرى المشهور. كان من خصائص كسرى أبرويز أن الناس لم يروا أحداً في زمانه قط أمد منه قامة ولا أتم ألواحاً ولا أوفر جسامة ولا أبرع جمالاً منه، فكان لا يحمله إلا فرسه شبديز، وكان في الأفراس ككسرى في الناس، يضرب به المثل في عظم الخَلق وكرم الخُلق وجمع شرائط العتق. ولما مات شبديز لم يجسر أحد على نعيه إلى كسرى، فضمن صاحب الدواب (للفلهيد) المغني مالاً وسأله أن يعرض لأبرويز بموت شبديز!
فقال - وهو يغنيه بمجلسه -: (شبديز لا يسعى ولا يرعى ولا ينام)
فقال أبرويز: (قد مات إذن)!
فقال الفلهيد: (من الملك سمعت)
وليس من شك في أن (البلهبذ) في بيت البحتري هو نفسه (الفلهيد) في رواية الشنقيطي، وعليه يجب تصحيح رواية الشنقيطي بقول البحتري. والظاهر أن

الشنقيطي نقل روايته عن كتاب أعمل فيه الناسخ يد المسخ والتحريف والتصحيف، ولم يفطن لها الشيخ ولم يتكلف تحقيق صحتها إذ لم تكن الفارسية من شأنه، ولا خفاء أن النقلة عن اللغات الفارسية والسريانية والعبرية وغيرها من اللغات القديمة طالما وضعوا (الفاء) في مكان (الباء)، كما عكسوا ذلك. وكثيراً ما أعجموا الدال وأهملوا الذال، وهكذا في المتشابه من الحروف. وهذا كثير غامر فيما وصل إلينا من آثار السلف

على أنني لم أرد بذلك نقد الأمير أو الغض من عالي منزلته وراسخ علمه، فهذا ما لم يخطر لي ببال، وإنما أردت الإيماء إلى شيء لا أشك في أنه مر كثيراً بالأمير أثناء مطالعاته ولكنه سها عنه عند إيراده بيت البحتري. والكمال لله وحده

حسن السندوبي

الفروق السيكلوجية بين الأجناس البشرية

للأستاذ عبد العزيز عبد المجيد

عرضنا في المقال السابق نظرية تقسيم الأسرة البشرية إلى أجناس رئيسية، والمميزات الجسمية العامة لكل منها. وقلنا: إن وجود هذه الفروق الجسمية بين الأجناس لا يستلزم بالضرورة وجود فروق عقلية بينها، فقد يتساوى اثنان في نسبة الذكاء، ويختلفان في الصفات الجسمية الجنسية بأن يكون أحدهما زنجياً والآخر أوربياً (قوقازياً)

والتاريخ والواقع يثبتان أن النقاوة الجنسية لا توجد إلا بين جماعات منعزلة بحكم الطبيعة أو الاجتماع. فأمريكا خليط من كل الأجناس، وآسيا الصغرى تواردت عليها أجناس مختلفة. ومصر غزاها الهكسوس والفرس والإغريق والرومان والعرب والترك والفرنسيون، وامتزجت هذه الدماء قليلاً أو كثيراً بدم السكان الأصليين. وإذاً، فقد انمحت إلى حد ما خواص الأجناس البشرية الرئيسية، ولم يعد لعلماء النفس مجال للبحث العلمي التجريبي على أساس الجنسية، اللهم إلا بين بعض الجماعات التي لا تزال تحتفظ بنقاوتها نسبياً كزنوج أمريكا والهنود الحمر

تعرض الأستاذ وَدْوِرْث بإيجاز لموضوع الفروق الذكائية بين الأجناس في كتابه: (دراسة الحياة العقلية). وكان في كل ما كتبه عن هذا الموضوع حريصاً حرص العلماء المدققين. وهو يحدثنا أن تجارب (أجريت) في ولاية (أكلاهوما) بأمريكا الشمالية على تلاميذ المدارس الأولية الريفية ببعض المدن الصغيرة. وكان هؤلاء التلاميذ يمثلون ثلاثة أنواع جنسية وهي: هنود حمر خلّص، وأمريكيون خلص، وخليط من الدمين الهندي الأحمر والأمريكي. وقد اختبُرَ ذكاء ثلاثمائة تلميذ من النوع الأول، وأربعمائة من النوع الثاني، وثلاثمائة من النوع الثالث. واستعملت في هذه التجارب (المقاييس الجمعية) النتيجة ما يأتي:

الهنود الحمر الخلَّص: متوسط نسبة الذكاء 73

الأمريكان الخلص: متوسط نسبة الذكاء 100

الخليط منهما: متوسط نسبة الذكاء 91

والمتأمل في هذه النتيجة يرى أن نسبة ذكاء الهنود الحمر الخلص أقل بكثير من نسبة الأمريكان الخلص، الذين يمثلون مزيجاً من الأجناس الأوربية أو الجنس القوقازي. كما يرى أيضاً أن نسبة ذكاء الخليط من الجنسين هي نسبة وسط بين النسبتين السابقتين. فإذا علمنا أن البيئة المدرسية لهؤلاء التلاميذ واحدة جاز أن نستنبط أن هذا الفرق في نسبتي الذكاء بين الهنود الحمر وبين الأمريكان الخلّص إنما يعزى للفرق الجنسي، والأستاذ يقول في حيطة: (على أنه يجب أن نذكر في نفس الوقت أن هذه المقاييس إنما تناسب ثقافة التلاميذ الأمريكان الخلص، ولذلك فالهنود الحمر يجدونها غريبة عليهم. هذا والتلاميذ الخليط أكثر تأثراً بالثقافة الأمريكية من الهنود الحمر) وليس معنى هذه النتيجة أن كل فرد من أفراد الهنود الحمر أقل ذكاء من كل أمريكي، فالنتيجة تشير إلى متوسط فقط، وعلى هذا قد يوجد من بين الهنود الحمر الخلص من هو أكثر ذكاء من الأمريكان الخلص

وثمة تجارب أجريت على بعض الأطفال الزنوج في جنوب الولايات المتحدة وأسفرت عن أن متوسط نسبة ذكائهم هو 75. وفي مدينة ناشفيل في شمال الولايات المتحدة أجريت تجارب أخرى على بعض الأطفال الزنوج، وكان متوسط نسبة ذكائهم يعادل 85

ولهذا الفرق بين نسبة ذكاء الزنوج في الجنوب والزنوج في الشمال مغزاه. فإن زنوج الشمال أصلهم من الزنوج سكان جنوب الولايات المتحدة وإنما هاجروا إلى الشمال لأنهم أكثر طموحاً وأقوى استعداداً على التكيف باختلاف البيئات من الزنوج الذين آثروا الإقامة في الجنوب. وهذا يدل على أنهم أذكى من الزنوج المقيمين، ويفسر ما أظهرته التجارب من زيادة نسبة ذكائهم. ونعود فنسمع الأستاذ ودورث يعلق على نتيجة هذه التجارب بقوله: (إن ذلك الضعف الواضح في نسبة ذكاء الأطفال الزنوج يمكن أن يعزى إلى الجنس، أو إلى بيئتهم الثقافية الأولى غير المنشطة، أو إلى خطأ في الاختبارات نفسها. ولم نصل حتى الآن إلى رأي جازم يعزو ضعف الذكاء إلى واحد بعينه من هذه العوامل الثلاثة)

تطورت كلمة (الجنسية) حتى أصبحت تستعمل في الوقت الحاضر - كما في جواز السفر مثلاً - بمعنى النسبة إلى الوطن السياسي الذي ينتمي إليه الفرد، أو ما يقابل الكلمة الفرنسية وهذه الكلمة مأخوذة من كلمة بمعنى أمة أو جماعة سياسية خاضعة لنظام حكم واحد مقرر، على حين أن كلمة (الجنسية) العربية مأخوذة من (الجنس) التي يقابلها في الفرنسية ومن هذه المقارنة يظهر التساهل في استعمال كلمة (الجنسية) بالمعنى السياسي

في اللغة العربية، ودقة استعمال كلمة أو ما يشبهها في اللغات الأوربية. ولعل سبب هذا التساهل في استعمل كلمة (الجنسية) هو أن الأصل أن الأمة أو الوحدة السياسية إنما كانت تتكون من أفراد ينتمون إلى جنس واحد، فأطلق العام وهو الجنس على الخاص وهو الأمة مجازاً. وإلا فقد تتكون الأمة من عدة أجناس مختلفة كما ذكرنا

ذهب علماء النفس خطوة أبعد من بحث الفروق السيكلوجية بين الأجناس البشرية الرئيسية، فقد رأوا أن الأمة الواحدة - ولو أنها تتكون من أجناس مختلفة - قد تحمل طابعاً خاصاً يميزها عن غيرها جسمياً وعقلياً وخلقياً. ذلك لأن وحدة الأمة السياسية إذا طالت عليها المدة. واستقر السكان، وقل الطارئون عليهم من الأمم الأخرى، وربطتهم لغة واحدة، وثقافة واحدة، وخضعوا لظروف مشتركة، فإن هؤلاء السكان مختلفي الأجناس - كما في مصر وأسبانيا مثلاً - يمتزج بعضهم ببعض بالتزاوج فتختلط الدماء، ويتكون من أمشاجها المتباينة نوع جديد ودم جديد، نتيجة لهذا الاختلاط المستمر الكثير الذي قد يتغلب فيه جنس خاص ويسود. وبهذا تمتاز الأمة - بمرور الزمن وتعاقب أجيالها - بخواص جسمية وعقلية وخلقية قد تختلف عن خواص غيرها من الأمم وتختلف أيضاً عن خواصها هي قبل هذا الامتزاج والانسجام الجنسي (وقد حدث هذا الاختلاط الجنسي والامتزاج بالضبط في كل الوحدات السياسية والأمم التي على ظهر البسيطة الآن. فكلها من غير استثناء نتيجة امتزاج عناصر جنسية مختلفة. وكل واحدة منها تكاد تصل إلى المرحلة التي تتميز فيها بخصائص أُمِّيَّة (نسبة إلى الأمة) تجعل منها طرازاً جنسياً جديداً، كأسبانيا، وإيطاليا، وفرنسا، وألمانيا، وإنجلترا، وأمريكا. وترتيب الأمم هكذا إنما هو وفق لتطورها التاريخي وتكوينها الجنسي. ولو أن هذه الأمم استمرت على ما هي عليه الآن بضعة آلاف من السنين من غير امتزاج بأي عنصر آخر من الخارج لتَكوَّن من كل منها جنس جديد)

ولا نريد أن نتعرض هنا للفروق الجسمية بين الأمم لأنها موضوع يطول شرحه من غير جدوى، ولأنها تستدعي دراسة كل أمة أو وحدة سياسية على انفراد، ومعرفة الخواص الجسمية والعضوية التي تمتاز بها. وإنما يهمنا أن نذكر بعض التجارب التي أجريت لمعرفة الفروق الذكائية بين بعض الأمم. وهنا يجدر بي أن أشير مؤكداً أن نتائج هذه التجارب ليست نهاية أو قاطعة لأنها ما زالت في مرحلة النظريات، فهناك صعوبات كثيرة تحول

دون الوصول إلى النتائج النهائية، منها تعذر وجود (عينات) ممثلة تمثيلاً صحيحاً لأفراد الأمم التي ندرس ذكاءها، ومنها صعوبة وجود الاختبارات التي تلائم في لغتها ووضعها عقليات الأمم المختلفة. وفيما يلي نتائج لتجارب أجريت في أمريكا في مقاطعة ماساشوستز على أطفال ولدوا بها، وآباؤهم من أمم أوربية مختلفة، وقد هاجروا إلى أمريكا طلباً للرزق. وهي تدل على متوسط نسبة الذكاء لأطفال كل أمة

أطفال آباؤهم من السويد

متوسط نسبة الذكاء 102

أطفال آباؤهم إنجلترا
متوسط نسبة الذكاء 101
أطفال آباؤهم يهود
متوسط نسبة الذكاء 100
أطفال آباؤهم ألمان
متوسط نسبة الذكاء 99
أطفال آباؤهم أمريكان
متوسط نسبة الذكاء 98
أطفال آباؤهم لتوانيون
متوسط نسبة الذكاء 97
أطفال آباؤهم أيرلنديون
متوسط نسبة الذكاء 96
أطفال آباؤهم سلاف
متوسط نسبة الذكاء 90
أطفال آباؤهم إغريق
متوسط نسبة الذكاء 88
أطفال آباؤهم إيطاليون
متوسط نسبة الذكاء 86
أطفال آباؤهم من كندا الفرنسية
متوسط نسبة الذكاء 85
أطفال آباؤهم برتغاليون
متوسط نسبة الذكاء 83

ويقول الأستاذ ودورث الذي اقتبسنا من كتابه هذه الأرقام (وهذه النتائج يجب ألا تؤخذ على أنها تدل قطعاً على الفروق الموجودة بين ذكاء الأمم التي يمثلها المختبرون. لأن أسباب الهجرة لها اثر في اختيار نوع من الناس دون الآخر. فالإنجليز والسويديون جاءوا في الغالب من طبقة مثقفة يبحثون عن أعمال تحتاج لثقافة أعلى من ثقافة تلك الأعمال التي ينشدها الإيطاليون أو البرتغال)

وقد حاول علماء النفس التغلب على صعوبة اللغة في اختبارات الذكاء فاستخدموا (اختبار الرسم المقنن) لمعرفة نسبة الذكاء عند أفراد يمثلون أمماً مختلفة. وهذه هي النتيجة:

أطفال آباؤهم يهود
متوسط نسبة الذكاء 106
أطفال آباؤهم من اسكندنافيا
متوسط نسبة الذكاء 105
أطفال آباؤهم صينيون
متوسط نسبة الذكاء 103
أطفال آباؤهم أمريكان
متوسط نسبة الذكاء 100
أطفال آباؤهم يابانيون
متوسط نسبة الذكاء 100
أطفال آباؤهم ألمان
متوسط نسبة الذكاء 99
أطفال آباؤهم أرمن
متوسط نسبة الذكاء 92
أطفال آباؤهم إيطاليون
متوسط نسبة الذكاء 88
أطفال آباؤهم مكسيكيون
متوسط نسبة الذكاء 87
أطفال آباؤهم هنود حمر

متوسط نسبة الذكاء 86
أطفال آباؤهم زنوج
متوسط نسبة الذكاء 83
هذه نبذ عامة عن الفروق الذكائية بين بعض الأمم، وهي نتيجة تجارب ما زالت موضع بحث ونظر، وسنعود لتحقيقها في مقالات قادمة إن شاء الله.
(بخت الرضا - السودان)
عبد العزيز عبد المجيد
أخوك أم الذئب. . .؟
للأستاذ محمود محمد شاكر
أجل!! هذا هو العالم المغرور الذي ظن خير الظن بمدنيته، وأثنى عليها ثناء الأم على عذرائها، ونفض عليها من تحاسين الخيال فنوناً كذُنابَي الطاووس، وأدار عليها مجامر الندِّ والمندل والعود من عطر الشهوات واللذات، وأحاطها بالعبقرية العلمية التي توجد في كل شيء شيئاً جديداً يدخل على العقل إبليساً صغيراً ليُضل عن سبيل الحق، ويضع في الثمرة حلاوة تلذ ونشوة تسكر، ثم زاد فأعطى المادة المتبدلة الفانية تدليساً يجعلها في فتنة الرأي ثابتة خالدة ثم غلا فجعل النفس تطلق أهواءها جميعاً لتحرز من لذات الحياة كفايتها، إن كان لأهواء النفس كفاية
هذا العالم المغرور يقف اليوم في فئتين التقتا للقتال في سبيل الأهواء الغالبة والشهوات المستحكمة. وفي هذا القتال تنكشف لمن أبصر حقيقة هذه المدنية، وحقيقة أغراضها التي عملت لها وعمدت إليها، وحقيقة الروح التي يتعامل بها الاجتماع الإنساني الذي تعيش به هذه المدنية الأوربية التي تنكر من الحياة وتعرف وتدعي لنفسها إسقاط ما أنكرت وإقرار ما عرفت
وفي كل يوم تتجدد أحداث الحرب، فتتجدد معها أساليب الغرائز الوحشية المصبوغة رحمتها بأصباغ الافتراس، وفي كل يوم يخلع الوحش عن مخالبه ذلك المخمل الناعم الذي دسها فيه، ويهجم بطبائعه على فريسته ليعين بذلك أنه هو الوحش: قانونه المنفعة، وشرفه المنفعة، وصداقته المنفعة، وأدبه المنفعة، ودينه المنفعة. فهو لا ينفك من منفعته في مثل السعار إذا أخذ الوحش فاستكلب فهاج فطغى، لا يهدأ حتى يطفئ هذا السعارَ ما يشفيه أو يرده أو يقدعه، وهو لا يرعى في ذلك حرمة، ولا يكفه شرف: وكان كذئب السوء لما رأى دماً ... بصاحبه يوماً أحال على الدم
وقبيح بنا - نحن الشرقيين - أن نغمض أعيننا عن النظر إلى هذه المدنية التي أخذت تنهار تحت قصف المدافع وهد القنابل وزلازل الحرب، وأن ننام عن مستقبل أيامنا، وألا ننفض هذه المدنية نفضاً لنأخذ منها وندع، ولنعرف سوء ما تركت أنيابها في جسم أوطاننا، ونتبين حقيقة النفوس المسمومة التي أصبحت في الشرق فاشية تعمل على إدماجه في حضارة غريبة عنه، لا يطيقها إلا على نكد ولا يحتملها إلا عنتاً وإرهاقاً وغروراً
إن رؤوساً من الناس في هذا الشرق قد طالت بهم أيامهم حين أقبلت عليهم الدنيا، فأخذوا على الرأي العام منافذه كلها، وصرفوه ما شاءوا بما شاءوا كما شاءوا، لم يغلب عليهم إلا ذلك الداء الوبيل الذي قبسوه من مدنية الغرب، داء المنفعة. طلبوا المنافع لأنفسهم، فاستبدوا في غير ورع، وتجبروا في غير تقوى، وعملوا على أن يكون سلطانهم في الأرض كسلطان الله في السماء: يمحو ما يشاء ويثبت، علوّاً في الأرض واستكباراً، قاتلهم الله أنى يؤفكون؟
إن الشرق لا يؤتي ولا يغلب إلا من قبل أهله. هذه هي القاعدة الأولى في السياسة الاستعمارية الماضية، فعملت هذه السياسة على أن تنشر في الشرق عقولاً قد انسلخت من شرقيتها وانقلبت خلقاً آخر، وقلوباً انبتت من علائقها ولصقت بعلائق أخر، وبهذه العقول المرتدة والقلوب المرتكسة استطاع الاستعمار أن يمد للشرق طريقاً محفوفاً بالكذب والضلال والفسوق، يختدعه عن الصراط السوي الذي يفضي به إلى ينبوع القوة الذي يتطهر به من شرور الماضي وأباطيل الحاضر، فيمتلك من سلطان روحه ما يستطيع به أن يهدم الأسداد التي ضربت عليه، ويجتاز الخنادق التي خسفت حوله
لقد لقينا بهؤلاء العنت حين استحكم لهم أمر الناس فتسلطوا عليهم بالرأي وأسبابه،

فخلعوا بسوء آرائهم على الشرق ليلاً من الاختلاف لا يبصر فيه ذو عينين إلا سواداً يختفي إذ يستبين. وكانوا له قادة فاعتسفوا به كل مضلة مهلكة تسل من قلب المؤمن إيمانه، وتزيد ذا الريبة موجاً على موجه. فما كتب الله أن يدفع مكر هؤلاء بقوم جِردوا أنفسهم للحق، رأوا أن يلبسوا للناس لباساً من النفاق يترقون به إلى التلبيس عليهم بما حذقوا من المداورة، وما دربوا عليه من فتن الرأي، وما أحسنوا من حيلة المحتال بالقول الذي يفضي من لينه إلى قرارة القلوب، حتى إذا استوى فيها لفها لف الإعصار، واحتوشها من أرجائها، ثم انتفض فيها انتفاض الضرمة على هبة الريح في هشيم يابس.

وقد أقبلت اليوم على الشرق أيام تتظاهر فيها الأقدار على أن تسلم إليه قيادة مدنيته الجديدة بعد طول الابتلاء وجفاء الحرمان، وجاءت مع هذه الأيام فتنٌ يُخشى أن تضرب أولّه بآخره حتى لا يقومُ شيءٌ هو قائمٌ، ولا يبقى من أعلام الماضي إلا آثار التاريخ التي تقف شواهد على ما مضى وآيات لما يستقبل. فإذا كان ذلك، فإن الحكمة والحزم والجِد أن نميز الخبيث من الطيب، وأن نختار لأنفسنا قبل البدء، وأن يلي منا أمر القيادة من هو حق صاحبها والقائم عليها والمحسن لتصريفها وتدبيرها وسياستها، وإلا انفلتت من أيدينا حبال الجمهور المتحفز، فانتشر على وجوهه وتفرق، وكأن ما كان لم يكن، وكأن الفرصة قد عرضت لنا لتدع في قلوبنا بعد ذلك حسرة لا تزال تلذع بالذكرى.

إن أكثر هؤلاء الذين وصفنا قد وجدناهم يمدون أعناقهم يتطاولون مرة أخرى للوقوف في مقدمة الطلائع الشرقية، ورأوا - من أجل ذلك - أن يماسحوا الرأي العام على بعض أهوائه وعلى طائفة من أغراضه، ليستمر لهم ذلك المكان الذي حازوه من قبل، وليكونوا في الشرق الجديد ما كانوا في أيامه السالفة. فهم يبدون له ما لا يعتقدون عليه نياتهم، ويحدثونه حديث من طب لمن حب، وهم كانوا قبلُ أعانوا عليه، إذ أفسدوا صالح أعماله بالآثم من أعمالهم وآرائهم، وهم كانوا عليه حرباً، إذ نزعوا من يديه سلاح القتال في سبيل حريته واستقلاله وانفراده بخصائصه التي ورثها وخص بها، وعمل الجيل بعد الجيل في تنقيتها له تنقية المدَرة من بين الحَب

ليس اليوم أوان يترك الشرق عنانه في الأيدي التي لعبت به وغررت، ولا هو يوم التهاون في القليل لأنه قليل، ولا هو يوم إحسان الظن بمن يحتال للظفر بحسن الظن، ولكنه اليوم الذي يتفلت فيه من كل ضلالة وعبث، ومن كل مرتفق للنفع متشرف للمصلحة، ومن كل سبب من أسباب التدمير. فإذا فعل ذلك، وأعطى كل ذي حق حقه، وامتاز المجرمون، وخلص له المخلصون واستعان بحرية اختياره على إقرار الناس في مواضعهم وعلى مراتبهم، فيومئذ يجد القدرة على انتزاع حريته من أنياب الغاصبين، ويصيب مهاد الطريق إلى الغاية التي ينظر إليها بآماله وأشواقه نظرة العامل لا نظرة الحالم المتخيل

وأخوف ما نخافه هو ما أوتي هؤلاء من الرفق واللين وحسن المجاملة، وأنهم قد أحكموا معرفة الأسباب التي بها يأخذون بأيدي الناس وعقولهم، وأنهم قد أوتوا نصيباً من الصبر يتغلب بهم على ما يعترضهم أو يردهم، وأن الناس أسرع اتباعاً لما ألفوا وحنيناً إليه، وأن البلبلة التي تأتي مع الحروب وتمتد في أذيالها، تدع الناس حيرى غرقى يتلمسون في كل شيء شيئاً يتعلقون به، فإذا لم نأخذ من الآن في جد من الأمر، ولم نصرف جهودنا إلى

اختيار الأصلح في كل شيء شيئاً يتعلقون به، فإذا لم نأخذ من الآن في جد من الأمر، ولم نصرف جهودنا إلى اختيار الأصلح في كل شيء، فما بد من أن تنجلي العمايات بعد عن الدنيا لتطبق علينا عماية مصفقة كالظلام المصمت. ويومئذ نرتد على أعقابنا حسرى عناة كأسوأ ما مر بنا من زمن، وتضيع الفرصة السانحة ونحن غرقى في بحر طام قد نزح عنا شاطئه بعد الدنو

فعلينا الآن أن نثق بأنفسنا غاية الثقة، لأن الثقة بالنفس هي جيش الحرية. وأن نشك كل الشك في أصحاب الرأي ومن يتعرضون للإمارة عليه، لأن الشك في هؤلاء هو حارس الحرية، وأن نشتد في مطاردة الضلال والعبث، لأن هذه الشدة هي سلاح الحق وسلاح الحرية. فإذا غلب علينا التهاون في شيء من ذلك، فإنها ثغرة تتدفق منها على الشرق مرة أخرى ضلالات وفتن كقطع الليل المظلم، ويعجز أهله عن حمل أعباء

الحضارة الجديدة التي اختارهم الله مرة أخرى للعمل عليها والقيام بها. فما بد من أن ينفض الشرقي بعينيه ورأيه كل بارقة وكل غمام، مخافة أن تنزل الصواعق عليه من حيث ظن الغيث

ليس في الشرق قوّى تضارع تلك القوى الهائلة التي صبت من الحديد والنار وأسرار الكون، وليس فيه ذلك الغنى غنى الاستبداد والجبروت والسياسة، وليس فيه ذلك الجمهور العظيم من العقل العامل لإيجاد القوة في كل شيء لاستخلاص المنافع من كل شيء، ولكن هذا الشرق لا يزال يحتفظ بأعظم قوة تخضع كل هذه الأشياء لسلطانها الذي ينال النصر ما تعاون ولم يتفرق. وتلك هي قوة الروح، وقوة الخلق، وقوة الاستمرار إلى النهاية مصابرة لا ذلاًّ، وإيماناً لا عناداً، وتسليماً لا غفلة. فعلينا أن نعرف فضائلنا التي توارثناها، وأن ننفي عنها ما خالطها من خبث الجهالات القديمة التي تراكمت عليه فقعدت به أزماناً طوالاً، حتى استرخى نائماً والناس يقظى

إن الشرق إذا خلص من شر النفايات الطافية على سطحه، وإذا وثق بسلطان الروح السامية التي لا تذل، وإذا نهج النهج لا يتهيب، فما بدٌّ من أن يحوز من القوة ما يضارع قوة المدنية الأوربية المتهالكة، وأن يجعل في هذه القوة من النظام الروحي النبيل ما يرد كل غائلة ويمنعها كل عدوان، ويرفع الإنسانية درجات في طريقها إلى السماء. وهذه أَيَّامٌ فيها عِبَرٌ كثيرةٌ لمن يعتبر، فإن حقائق المدنية الأوربية تستعلن كلها في هذه الرجة العظيمة

التي ترجف بالعالم ساعة بعد ساعة

ولكن علينا أن نثق، وعلينا أن نشك، فإذا رفعت الثقة أسباب الشك، فإن الخير كله آت على طول الجهاد وترك التهاون وعلى استجادة العمل ومرابطة النفس عليه، وعلى الأناة دون العجلة، فإن الفرس الصغير يكبر على التعهد حتى يؤتى الثمرة، ومن استعان بأسباب الحق أُعين، ولا يهلك الناس إلا من هيبة أو تهور

محمود محمد شاكر

الحرب في أسبوع

للأستاذ فوزي الشتوي

سكون الميادين البرية

سألني بعض القراء من أيام عن مدى التغير الذي حل بالموقف العسكري منذ تسليم فنسا (وهل يضعف تسليمها إنجلترا أم يقويها؟) وردنا على هذا السؤال بنعم ولا؛ فهذا التسليم يضعفها ويقويها، كما ترتبت عليه نتائج لها خطورتها. فبعد ما كانت نهاية الحرب رهن معركة برية وانهزام بري، يعقبه انحلال ألمانيا السريع، لم يبق تسليم فرنسا من مجال يؤدي إلى هذا الغرض، وتبعاً لذلك يرى بعض العسكريين أن الحرب قد تطول فيمتد زمنها إلى عدة سنوات

أما الأسباب التي يستندون إليها لإطالة الحرب فهي:

أولاً: سكون القوات البرية، فلم يعد من صلة مباشرة بين قوات إنجلترا وقوات المحور في أوربا، فلا توجد منطقة تعتبر معاركها حاسمة وتقرر النصر والهزيمة، فإن السلاح الجوي وحده ليس كفيلاً باحتلال البلاد، ويقتصر عمله على إضعاف الروح المعنوية في الشعوب، وعلى تدمير المرافق الحيوية التي تغذي الجيوش.

ثانياً: اتساع موارد دولتي المحور، مما يتيح لهما إطالة زمن الحرب، فهما تسيطران الآن على جميع موارد أوربا من صناعية وغذائية، ونضوب هذه الموارد ليس من الأمور اليسيرة؛ فموارد بلدان أوربا عظيمة، وبهذه البلدان أكبر مصانع العالم، وضعفها الوحيد، هو حاجاتها إلى بعض المواد الأولية التي تستورد من أمريكا أو من المستعمرات كالقطن والمطاط والبترول وغيرها من المعادن التي تدخل في صناعة الطائرات والذخائر.

موطن قوة ألمانيا

وإذا كان اختفاء الميادين البرية من الحرب الحالية يطيل الحرب، فإنه قد قوى مركز إنجلترا قوة لا يستهان بها وجعلها حصناً منيعاً، فإن استعداد ألمانيا البري والجوي استعداد لم يسبق للعالم أن رأى شبيهاً له، فهي تمتاز بمعدات برية سلم قادة الحلفاء أنفسهم بأنها معدات ساحقة. ومن حسن حظ إنجلترا أنها جزيرة لا تستطيع ألمانيا أن تنقل إليها هذه

المعدات فبطل عملها. فالموقف الحالي إذن وفر على إنجلترا الاصطدام بنقط ألمانيا القوية، وأتاح لها تدميرها شيئاً فشيئاً، كما أتاح لها الوفرة من الزمن إذ تستطيع أن تعد ما يضارعها ويفوقها

حكم تسليم فرنسا على قوات ألمانيا البرية بالنوم، ولم يبق لها إلا القوة الجوية، وهي تفوق القوة الجوية البريطانية من الناحية العددية، ولكنها في الوقت نفسه تعتبر أضعف من القوة الجوية البريطانية إذا نظرنا إلى مجال كل من القوتين ومدى تأثيرهما. ونستخلص هذه النتيجة من ثلاثة عوامل:

1 - اتساع رقعة الأراضي التي يحتلها الألمان

2 - صغر رقعة الجزر البريطانية

3 - استعداد إنجلترا للدفاع الجوي

فأما اتساع رقعة الأراضي التي يحتلها الألمان، فتستطيع إدراكه من نظرة واحدة نلقيها على خريطة أوربا فنرى المساحة العظيمة التي يضطر الألمان للدفاع عنها، وصغر الرقعة التي يدافع عنها الإنجليز. وفيما يلي بيان تقريبي لمساحات هذه الأراضي التي يحتم موقف ألمانيا العسكري الدفاع عنها

الدولة	مساحتها بالميل المربع
ألمانيا	185. 998
النمسا	32. 000
دانزج	745
تشيكوسلوفاكيا	40. 865
بولندا (الألمانية)	70. 000 (؟)
بلجيكا	11. 752
هولندا	12. 582
دنمرك	16. 570
النرويج	124. 964
فرنسا (المحتلة)	141. 972 (؟)
إيطاليا	119. 744
ألبانيا	10. 600
المجموع	767. 784

ويقابل هذه مساحة الجزر البريطانية وهي 115. 338 ميلاً مربعاً. أي أن مساحة الأراضي التي تدافع عنها دولتا المحور ستة أمثال مساحة الجزر البريطانية. فلتساوي قوات الدولتين الجوية يجب أن تكون قوات ألمانيا ستة أمثال قوات إنجلترا وهذا يخالف الواقع

سلاح الطيران

فقد كان مجموع الطائرات الألمانية في سبتمبر سنة 1939 22 ألف طائرة يضاف إليها سلاح الطيران الإيطالي وعدد طائراته خمسة آلاف طائرة. وكان عدد الطائرات

البريطانية في ذلك الوقت 17 ألف طائرة يضاف إليها ما اجتلبته من الولايات المتحدة وكان مجموعه
إلى الشهر الماضي 2500 طائرة، وقد تدرج هذا المجموع في النمو تدرجاً مطرداً بفضل نشاط المصانع الإنجليزية حتى أصبح التفوق العددي لدولتي المحور تفوقاً غير مذكور
ولا ننسى في هذا المجال جرأة الطيارين البريطانيين وحسن مرانهم، مما يتيح للسلاح البريطاني التفوق الفني على السلاحين الألماني والإيطالي، مما ألقى الرعب في قلوب الطيارين النازيين ودفع بإذاعة برلين إلى الشكوى من قسوة الإغارات البريطانية على ألمانيا
أما العامل الثالث وهو استعداد الجزر البريطانية للدفاع الجوي، فقد ثبت أن الطائرات الألمانية تجد صعوبة كبيرة في مهاجمة إنجلترا وخصوصاً المرافق العسكرية فيها؛ فلندن مثلاً تحاط بسور من المناطيد الجوية التي ترتفع إلى طبقات الجو العليا وتهبط منها أسلاك متينة مشدودة إلى الأرض، فإذا حاولت الطائرات اختراق هذا السور فإنها تصطدم بالأسلاك وتتحطم، فإذا أرادت التحليق فوق المناطيد، استحال عليها ذلك نظراً لتخلخل الهواء في تلك المناطق وقلة الأكسيجين اللازم للجسم، فيموت الطيار قبل أن يصل إلى ارتفاعها
وأفاد تسليم فرنسا من جهة أخرى، فإن معدات الدفاع ضد الغارات الجوية من طائرات مطاردة ومدافع مضادة للطائرات بعدما كانت موزعة في فرنسا للدفاع عن القوات والبلاد الفرنسية عادت إلى الجزر البريطانية وتركزت في رقعتها الصغيرة لاستقبال الطائرات المعادية، فازداد عددها وأصبح مجموع النيران التي تقابل بها الطائرات المغيرة أكثر مما كان قبلاً، ففشلت الطائرات الألمانية في الوصول إلى أهدافها
ولسنا في حاجة إلى تكرار القول بأن قوات بريطانيا البرية أصبحت الآن مركزة في الجزر البريطانية لاستقبال ما قد يرسله هتلر من قواته إليها مما يضمن لها التفوق على ما قد تنقله الطائرات، أو ما قد يفلت من حصار الأسطول البحري، إذا تيسر لبعض السفن الإفلات
وكان من نتيجة تسليم فرنسا زيادة أعباء الأسطول البريطاني واتساع مساحة المناطق المحصورة بحرياً، فبعدما كانت مناطق الحصر قاصرة على بحر الشمال مرتكزة إلى القواعد الفرنسية، شملت جميع سواحل أوربا مرتكزة على جبل طارق، وهي مهمة قاسية خبر الأسطول البريطاني تنفيذها في تاريخ إنجلترا وحروبها الطويلة لأسباب عائلية
وكنا نأمل أن تنضم قوات المستعمرات الفرنسية إلى الجانب البريطاني، ولكن يظهر أن حال الفرنسيين تغيرت، وأن دعاة الهزيمة في فرنسا غلبوا على ما في القواد الفرنسيين من وطنية وحب للحرية؛ فأعلنت قوات الجزائر وتونس وسوريا تسليمها لأسباب مضحكة، فقال الجنرال ميتلهوزر إن له عائلة في ستراسبورج فهو يخشى إذا استمر على القتال أن تضطهد، فهو على رأي أحد القراء الكرام: يقف القتال (لأسباب عائلية)
فهذا السبب يدعو إلى الضحك، وشر البلية ما يضحك، فهل هؤلاء قادة؟ ألم يكن في استطاعته أن يستقيل بدل أن يقول مثل هذا اللغة؟
في المستعمرات
وخسرت إنجلترا في المستعمرات الفرنسية القوات المقاتلة في تونس والجزائر، فإن وجودها كان عاملاً له أثره في القتال في ليبيا، لأنها كانت تضطر القوات الإيطالية هناك إلى القتال في جبهتين، فتقاتل من الغرب القوات الفرنسية، ومن الشرق القوات البريطانية؛ ولكنها الآن تستطيع أن توجه جهودها إلى الميدان الشرقي وحده. وأدى تسليم قوات سوريا ولبنان إلى فائدة تلك البلاد، فاتفقت تركيا والعراق على استقلالها، وهي بشرى حسنة للأقطار الشرقية. أما في الصومال الفرنسي فقد رفضت القوات الفرنسية وقف القتال، ولهذا القرار أثره، فإن جيبوتي هي المدخل البحري المتصل بالحبشة
وتنبأنا منذ توقيع الهدنة أن الأسطول البحري الفرنسي سيخير بين شيئين، فإما أن

ينضم إلى الأسطول البريطاني في كفاحه وإما أن يغرقه، وقد تحقق ما تنبأنا بوقوعه، فعند ما عارض قادة الأسطول الفرنسي الطلبات البريطانية وجهت الوحدات الإنجليزية نيرانها إليه فأغرقت بعض قطعه ودَّمرت قطعاً أخرى حتى أصبح استعمالها متعذراً، إذا قدر لها أن تقع في أيدي الأعداء

موقف حازم

وأعجب العالم بحزم الحكومة البريطانية في هذا الموقف، إذ ضمنت بتصرفها حرمان دولتي المحور من أسطول بحري كبير، يفوق في استعداده وعدد قطعه الأسطول الإيطالي؛

فلو وقع هذا الأسطول في يد هتلر وموسوليني لسببا لإنجلترا كثيراً من المتاعب سواء في البحر الأبيض أو في المحيطات، إذ تستغل قطعه في أعمال القرصنة، ولا عبرة بما وعدا به من عدم استعماله، فإنهما يدفعان بفرنسا الآن إلى إعلان الحرب على إنجلترا

مستغلين ضعف وزارة بتان

ولا ندري بالضبط مدى التهديد الذي يوجهه النازيون إلى قادة الفرنسيين، ولا مدى الوعود المعسولة التي يمنونهم بها، ولكنه مما لا شك فيه أن الوزارة الفرنسية واقعة تحت ضغط شديد يفقدها حرية التفكير والعمل. ويقال إن الألمان يهددون الفرنسيين بنسف مدن كاملة إذا لم تنفذ الهدنة تنفيذاً دقيقاً، وإذا لم يخضع الفرنسيون لجميع طلباتهم، ومثل هذه الوحشية ليست بعيدة عن الألمان

في البلقان

كتبنا في مقالنا الماضي في حركة الروسيا في رومانيا، واستنتجنا منها أن الروسيا تتبع سياسة خاصة لا تتقيد فيها بدولتي المحور ولا بالحلفاء، مستغلة الظروف الحالية، وأنها تتجه في سياستها إلى الاستيلاء على بترول أوربا وتقوية مركزها العسكري. فالروسيا مشتركة في المؤامرة الديكتاتورية على الدول الديمقراطية، ولكنه اشتراك ظاهري كما يبدو لنا، الغرض منه حصولها على أهدافها على حساب غيرها، دون أن تكلف نفسها خسائر حربية. وقد تم حتى الآن كما نرى نصف المؤامرة ولم يظهر بين المتآمرين خلاف كبير أو تعارض في المصالح، وبدأنا نشعر بأن تحقيق مؤامرتهم على وشك أن يفشل، لأن الروسيا هددت باستيلائها على بساربيا وشمال بكوفينيا مصالح دولتي المحور في البلقان. فإن المدى الذي تهدده الروسيا لا يمكن أن يكون داخل نطاق المؤامرة، فالتسليم به بمثابة تسليم رقبة دولتي المحور للروسيا الشيوعية التي تخالفهما في المبادئ والمصالح، والتي طالما نعتوها بأقبح النعوت.

في أحضان النازية

وظل الشك يخالجنا في موقفها في الفترة الماضية، ولكن حوادث رومانيا الأخيرة أزالته، وأكدت لنا أن علاقاتها بهما ليست صافية، وأن حركاتها ليست متفقاً عليها كما يتوهم البعض. فبعد استيلائها على مقاطعتي بسارابيا وشمال بكوفينيا يذاع أن وزارتها أعيد تشكيلها وأن بعض أعضائها من حزب الحرس الحديدي، وهو حزب نازي المبادئ والميول، ثم يعلن أيضاً أنها ارتمت في أحضان ألمانيا

وليس لهذا الموقف إلا تفسير واحد، وهو أن رومانيا تطلب حماية ألمانيا من الروسيا، فليست بسارابيا وبكوفنيا إذن هما كل ما تريده الروسيا، بل إن رومانيا تشعر بأن جعبة الروسيا لم تفرغ فهي تسعى وراء شواطئها الساحلية ومنابع بترولها، وإذا قبلت ألمانيا شرط الحماية فهي تقبل تبعاً لذلك موقف معارضة الروسيا، وتلوح لها بأنها تعارض تحقيق مطامعها، ومعنى ذلك انهيار جزء كبير من المؤامرة الدكتاتورية

فوزي الشتوي

بكالوريوس في الصحافة

تفاريق الحياة

للأستاذ إيليا أبو ماضي

إذا جدَّفت جوزيت على التجديف بالنار
وإن أحببت عيرت من الجارة والجار
وإن قامرت أو راهنت في النادي أو الدار
فأنت الخاطئ الآثم عند الناس والباري

وإن تسكر لكي تنسى هموماً ذات أوقار
خسرت الدين والدنيا ولم تربح سوى العار
وإن قلت إذنْ فالعيش أوزارٌ بأوزار
وإنَّ الموت أشهى لي إذا لم أقض أوطارى
وأسرعت إلى السيف أو السم أو النار
لكي تخرج من دنيا ذووها غير أحرار
فهذا المنكر الأعظم في سر وإضمار
إذنْ فاحيا ومتْ كالناس عبداً غير مختار
إيليا أبو ماضي
أغنية حزينة!
(مهداة إلى شاعر الحب والجمال (علي محمود طه))
للأستاذ إبراهيم محمد نجا
دنا الليل، وما الليل سوى أطياف آلامي!
دنا الليل، وما الليل سوى أشباح أيامي!
دنا الليل، وما الليل سوى يأسي وأوهامي!
فهاتي خمرة اليأس ... وهيا أترعي كأسي
وعبي منه يا نفسي ... ولا تبكي ولا تأسي
فما يومي سوى أمسي
دنوت الآن يا ليلى فأيقظت كآباتي!
ورعت فؤاديَ الغافي وهيجت جراحاتي!
وأترعت بخمر الوحشة الخرساء كاساتي!
وأطلقت بأفق الروح أشباح خيالاتي!
أتسمع أيها الليل صدى شجوي وأناتي!
أتبصر أيها الليل سكوني وارتعاشاتي؟
أتبصر في محاياَ تهاويل التعاسات؟
شكوت إليك يا ليلى فما أجدت شكاياتي!
فعدت أعلل النفس، فلم تنفع تعلاتي!
فهاتي خمرة اليأس ... وهيا أترعي كأسي
وعبي منه يا نفسي ... ولا تبكي ولا تأسي
فما يومي سوى أمسي
زرعت الحب والأحلام في بستان أيامي
وقمت الليل أرويه بماء سحابيَ الهامي
وأعزف عنده فرحاً على القيثار أنغامي
وقلت: (إذا أتى الفجر بنور منه بسام
سألقي الحقل - وافرحا - يرف بزهره النامي)
فلما أقبل الفجر يفيض بنوره السامي
رأيت الشوك في حقلي يماثل أسهم الرامي!
فعدت لكوخيَ النائي بقلب حائر دامي!
أوقع لحن حرماني، وأحزاني، وأسقامي!
فهاتي خمرة اليأس ... وهيا أترعي كأسي
وعبي منه يا نفسي ... ولا تبكي ولا تأسي
فما يومي سوى أمسي
(دمنهور)
إبراهيم محمد نجا
هكذا الدهر. . .
للأديب بدوي سليمان
نُحْ مَعي يا شاكي الأيْ ... كِ فقد صوَّح روضي:
خبتْ الشعلة في رو ... حي وقد أطفأ وَمْضي
فرْعك الغض سيذوي ... مثلما قد كان غَضِّي

فانعه من قبل أن ... يُدْركه الصيف بأرضي
كل من طال به العَيْ ... شُ فلا بد سيمضي
زمرٌ في إثر أخرى ... لاحقاتٍ إثرَ بعضِ
بدوي سليمان
رسالة الفن
بواطن وظواهر
وعندنا فنانات أيضاً . . .
للأستاذ عزيز أحمد فهمي
السيدة روز اليوسف
جاء عليها يوم كانت فيه الممثلة الأولى في مصر، وجاء عليها يوم بعد ذلك كانت فيه الصحافية الأولى في مصر، وهي لا تزال إلى اليوم تحتل مكانها الملحوظ في عالم الصحافة
أظهر ما فيها طيبة قلبها، حتى ليعدها الإنسان بلهاء؛ فهي بعد الوقت الطويل الذي انغمست فيه بين أهل الفن والصحافة، وما أدراك ما أهل الفن والصحافة، وما نعومتهم وما دهاؤهم، مع طول ما جربت هؤلاء وقارفت عشرتهم وقارفوا عشرتها؛ فإنها لا تزال إلى اليوم على استعداد لأن ترحب بكل من قال لها (إني صديق)، وبكل من قال لها (إني صادق)، على شرط ألا يقول لها هذا تصريحاً، فإنه لو فعل ذلك لشكت فيه تتعرف إليها الساعة، فتراها انطلقت إليك بروحها كلها غير متحفظة وغير متريثة، فإذا كنت ابن حلال قدَّرت هذه البراءة وصنت لها رجاءها فيك. أما الجاحدون فيخدعونها ويجمعون من حولها الرزق والشهرة، حتى إذا شبعوا هجروها، وربما آذوها
وهي لا تزال صابرة سليمة النية، والله يسلمها من كل كرب ومن كل ضائقة
أنشأت منذ سنوات صحيفة يومية تطاولت إلى مقام الأهرام وقد تصدت بصحيفتها هذه لأزمة كانت مستحكمة في البلد، فكانت من أقوى الأسباب التي حطمت هذه الأزمة، ولكن هذه الأزمة كانت العامل القوي الوحيد الذي حطم صحيفة روز اليوسف
ولكن السيد روز اليوسف لم تتحطم، وإنما رعاها الله بضعفها وسلامة نيتها
السيدة فاطمة رشدي
ليلى، كيلوباترا، سمير اميس، النسر الصغير، غادة الكاميليا، نجف، إيميلى
كل هذه أدوار أشبعتها فاطمة رشدي حياة، مع أني أستطيع أن أراهن بكل (السجائر) التي
معي على أنها لم تدرك من أسرار هذه الأدوار إلا أيسر الإدراك، ولم تلم بدقائقها النفسية إلا أهون الإلمام
فكيف إذن كانت تجيد فاطمة رشدي هذه الأدوار، وكيف كانت توفق فيها التوفيق الكبير؟
إنها كانت تجيد وكانت توفق، لأنها كانت تتصور وكانت تحس، ولأنها كانت تبني بخيالها نماذج لهذه الشخصيات التي كانت تمثلها، فكان طبعها السليم يهديها إلى أصدق النماذج مشابهة لهذه الشخصيات، فكانت تمثل كما لو كانت رأت اللواتي تمثلهن ولكنها على الدوام كانت تنفذ بروحها إلى أرواح بطلاتها، فإذا بالشخصية المسرحية التي كانت فاطمة رشدي تتقمصها، لا يزال فيها من فاطمة رشدي نفسها، حركات قاهرية عذبة، وإشارات بلدية لذيذة، وتنهدات وتكسرات نعرفها نحن في مصر وفي هذه الأيام ولكني لا أظن أن كليوباترا، وسميراميس، وليلى، وغيرهن من بطلات فاطمة رشدي قد عرفنها. . .
وتلاشى هذا العيب من فاطمة رشدي وتمثيلها حين ظهرت في فلم العزيمة، فقد أخرجت في هذا الفلم دور فتاة قاهرية بلدية فانطلقت في التمثيل على أساس من سجيتها وعلى عون من ذكائها وبراعتها، فتساند فنها بعضه إلى بعض واكتمل لها النجاح على نحو متألق رائع
الآنسة نبوية موسى
مربية تحترمها الأسر احتراماً كبيراً، وتعترف لها وزارة المعارف بجلال العبء الذي تحمله على عاتقيها
وكاتبة قصدت فيما تكتبه من مذكراتها لأخطر ما يمكن أن يكتب فيه المربي، وتعرضت

فيه لخفايا يتهرب أشجع الكتاب من التعرض لها مع أن أمرها معروف، وخطرها ظاهر، ونتائجها بينة، وعلاجها أمر تفتقر إليه بيئات التعليم وغيرها من البيئات افتقاراً ملحاً عنيفاً، ومع هذا فنحن نتعامى عنها على قسوة ما يترتب عليها

فإذا لم يكن للآنسة نبوية موسى غير مالها من فضل الشجاعة الأدبية التي دفعتها إلى معالجة هذا الموضوع، واحتمال ما قد ينشأ عن ذلك من سخف القول لكفاها هذا فخراً، فإن هذا الموضوع لم يتعرض له حتى اليوم في مصر من الكتاب المعاصرين رجل.

السيدة بديعة مصابني

لها ابتسامة لا أدري كم تجهد أعصابها. حاولت أن أقلدها فيها مراراً، فكنت أضحك أنا من نفسي قبل أن يضحك الذي كنت أتصنع هذه الابتسامة معه

ولكن بديعة مرنت على هذه الابتسامة، واعتادها الجمهور منها وأصبحت لها أمارة وعلامة

هي مديرة مدبرة تحسب الحساب، وترتب النتائج على الأسباب، وتأخذ عملها بالحزم والجد، وهي لذلك تنجح وتواصل العمل

وهي أيضاً فيلسوفة صاحبة حكمة. أرادت الرقابة أن تمنعها عن أغنية (لا والنبي يا عبده) فضحكت وقالت: إذا منعت هذه الأغنية عندي فسيغنيها الشعب في الطرقات والبيوت لأنها (نشيدنا القومي. . .!)

في هذا التعبير قسوة من غير شك. وفيه لطمة لحشمتنا. ولكن بديعة على أي حال صدقت، فالأغنية راجت رواجاً لم ترج مثله أغنية أخرى منذ (يا عزيز عيني) و (زوروني كل سنة مرة)!

الآنسة روحية خالد

كانت وهي في فرقة رمسيس كالعصفورة، وربما كان التحاقها بالفرقة القومية من العوائق التي عرقلت نموها الفني، فهي تشعر اليوم بأنها موظفة حكومة، تقبض مرتبها آخر كل شهر، فهي لا تحاول الاستزادة من الإجادة في عملها، وإنما التفتت إلى الاستزادة من دواعي راحتها

لا ريب في أن استعدادها الفني جارف، ولكن منذا الذي سيتعهدها في الفرقة القومية؟

إن العمل في هذه الفرقة يسير على نمط عجيب، فلكل رواية مخرج، وكل مخرج ينتقي من الممثلين والممثلات من يرى صلاحهم لروايته وأدوارها، وأغلب ما يهتم المخرجون في الفرقة القومية بالمناظر والملابس والإضاءة. أما أرواح الأشخاص الذين يظهرونهم على المسرح فأمر يتركه المخرجون للمثلين؛ والممثلون أنفسهم يحبون من المخرجين هذا، والمخرجون أنفسهم راضون عن أنفسهم في هذا، وعلى هذا الأساس فإن ممثلة ناشئة مثل روحية خالد سيقف تقدمها الفني عند المرحلة التي انتهت إليها وقتما فارقت فرقة رمسيس حيث كان الأستاذ يوسف وهبي يعلمها بإخلاصه لفرقته ونفسه كل ما يعلم من تجاربه واطلاعه

ويوسف وهبي - على الأقل - أكبر سناً من المخرجين في الفرقة القومية وأغلبهم تلاميذه. . .

السيدة خديجة حافظ

أخت السيدة بهيجة حافظ. وخديجة الكبرى موسيقية كأختها، ولكنها ليست ممثلة، لا اعرف من أخبارها اليوم شيئاً، ولكني أذكر لها (تانجو أورينتال) وضعته منذ عشرين سنة تقريباً، وكنت أسمعه وأنا صغير فيخفق له قلبي غراماً وحباً، وحناناً ووداعة. . .

ولا أزال أترنم بهذا اللحن إلى اليوم كلما هفت نفسي إلى ذلك العهد.

السيدة بهيجة حافظ

هي أيضاً موسيقية ممتازة، وموسيقاها عندي أحب من تمثيلها. لها قطعة أسمها (أنت) أعوذ بالله من الآلام التي تتدفق فيها.

متوثبة. ذات آمال فنية عريضة، ولكن هناك عائقاً شديداً يحول بينها وبين تحقيق هذه الآمال، إن هي تخطته فقد يسهل عليها جداً أن تتخطى بقية العوائق. . .

ذلك أنها لا تنسى في أي لحظة من اللحظات أن أباها كان باشا، وأنها بذلك من طبقة

غير طبقة هؤلاء الممثلين وهؤلاء الممثلات، وهؤلاء الموسيقيين وهؤلاء الموسيقيات وفكرة الأرستقراطية هذه كفيلة بتحطيم الفن ونسفه في أي نفس مهما تأصل فيها الفن ومهما تمكن منها. . .
السيدة زينب صدقي
وهذه لم يكن أبوها (باشا) ولا غير ذلك من حملة الألقاب، ومع هذا فهي تحب أن تظهر بمظهر الأرستقراطية، وتحب من دعاتها دائماً أن يقولوا عنها إنها أرستقراطية. وقد تأثر كثيرون من الناس بهذه الدعاية وأنا من بينهم، وكانت نتيجة هذا التأثر عندي أني حسبتها أرستقراطية حقاً وقريبة من الأرستقراطية فنفرت منها ونفرت من فنها أقول هذا، وأقول أيضاً إلى جانبه إني كثيراً ما كنت أنسى هذه الدعاية وأنا أشاهد زينب في تمثيلها فكنت أهتز لها وأعجب بها
فإذا كانت تريد أن تبرأ من عتمة الجمود التي نسبها إليها دعاتها فلتطالبهم بأن يكفوا عن دعايتهم الخاطئة
الآنسة أسمهان
إذا لم يكف عنها أخوها الأستاذ فريد الأطرش، وإذا لم تبدأ منذ اليوم بالبحث عن ملحن يربي مواهبها، فإنها بعد ثلاثة أعوام أو أربعة على الأكثر ستتحول إلى مغنية (ميكانيكية) يسمعها الناس بآذانهم بينما قلوبهم منصرفة عنها وعما تغنيه. . .
كل عمل في الدنيا يقبل (الشركة) و (المساهمة) إلا الفن
السيدة زوزو الحكيم
فيها الشاعرية والأسى اللذان أراهما في (كاي فرانسيس) وعلى الرغم من أنها قضت وقتاً طويلاً على المسرح المصري فإني لا أزال أنتظر لها دوراً يشبعها ويشبع معها الذين يثقون بها
والفرص مقبلة، وفي الله الأمل
أظنها في الفرقة القومية، وأظنها لهذا فقط لا تزال مغمورة. . . ولكن أين تذهب، وفي أي فرقة أخرى تعمل، وحال المسرح كما نعرف!. . .
الآنسة فردوس حسن
فيها ميل ظاهر إلى المرح واللعب والضحك، لست أدرى إذا كان طبعاً فيها أو درعاً لها، ولكنها به على أي حال تستطيع أن تكون في طليعة ممثلات الكوميدي، وإنها لكذلك ولو لم تتح لها فرصة التخصص
السيدة نرجس شوقي
لم نعد نشمع عنها شيئاً في هذه الأيام، ولست أدري أين هي ولا ماذا تصنع، ولكني لا أنسى أنها كانت (المونولوجيست) المصرية الوحيدة الرشيقة الخفيفة، التي كانت ترتجل مواقفها وحركاتها وإشاراتها على المسرح ارتجالاً، معبرة بذلك عما تلقيه أنفذ التعبير وأبلغه؛ كما كانت المرحومة امتثال فوزي
لم ترق كثيراً في عملها من الناحية المادية، لأنها فنانة كانت تعتمد على فنها وحده كما كانت تعتمد على الله في حفظ حياتها يوم كانت (بهلوانة) في سرك تقفز في الفضاء قفزات ثمن الغلطة في إحداها كارثة أقل ما فيها من شر هو تحطيم العظام وتكسير الضلوع
هي
التي ربت أذني، وعيني، وقلبي، وعقلي، ولساني، وقلمي، والتي غذت روحي ونفسي والتي تسلمتني من فاطمة بنت حواء وآدم التي احتضنتني بعد ما احتضنت أبي من قبلي. . .
والتي رفعتني، وخفضتني، وقومتني وعوجتني، وألهبتني وأثلجتني، وأروتني وأظمأتني، وأصلحتني وأتلفتني، وعلمتني وخبلتني. . .
سألتها أن تقرأ الفاتحة معي للسودانية التي فتحت لله منذ الطفولة نفسي
ولنا جميعاً من الله الرضا والرحمة
ولكن. . . من الذي سيترجم لها هذا، وكيف ستقرأ الفاتحة؟
عزيز أحمد فهمي
رسالة العلم
تأملات:

في مملكة الحيوان

للأستاذ محمود الدسوقي

في إحدى السنين التي كان خلو الذهن فيها ظاهرة بادية في الشعوب، وأشغاله ظاهرة تبدو على الحكومات، والتي كانت فيها الطبيعة آمنة، وكان الناس من نحوها آمنين مطمئنين - في إحدى هاته السنين زرت أوربا، وأوربا كعادتها جمة النشاط، منصرفة إلى التجديد، والطبيعة باسمة حالمة يفيض قلبها بالحب وتزخر على جوانبها الأماني، فلم يرعني شيء كالألفة القائمة بين الحيوان والإنسان تقليداً ترعاه التربية العامة، ولا يغفل إلا بمقدار

وقد كان بيني وبين الطير والحيوان حديث ما أعذبه، فلم يكن في الجو ما يقصي الطير عن شجره والحيوان عن مأمنه. والطير والحيوان أحب الرفاق إلى الإنسان إذا أعوزته الرفاق، فهما أحفظ لسره، وأبقى على عهده، وأطوع لإرادته، ما دام كل شيء يجري معهما على سجيته

لم اقصد إليهما كما فعل التاجر هورن، فأقتحم عليهما الغاب والآجام، فأنا أعرف بالحدود من ألا أقف عند حد. بل إني حاولت أن أجتمع بهما وأنا آمن، وهما عديما الحيلة عديما الأذى. وهل في غير حدائق الحيوان ينشد المرء مثل هذا اللقاء؟ وإنه لمتعة للنفس، وفرصة للنظر والدرس، وساعة للتحصيل لا تجلب السآمة

وقد كنت أغشى حديقة الجيزة فيما مضى من الزمان، فإذا الظاهرة التي تسترعي انتباه من يعنيه الانتباه إلى علاقات المخلوق الطليق بالمخلوق الحبيس هي اضطهاد وتحفظ، اضطهاد من الزوار الذين لا ينون عن مضايقة الطير والحيوان كل في قفصه، وتحفظ من الطير والحيوان، إذ هو لا يقترب إلا حذراً، ولا يبتعد إلا متوجساً

وغشيت في تلك السنة التي ألمعت إليها إحدى حدائق أوربا العامة المترامية الأطراف التي يضل فيها السائر من دون خريطة، وتسعف فيها المركبات من كلت قدماه قلت: غشيت تلك الحديقة، فإذا الكلفة التي ألفنا أن تكون في حديقة عامة بين الطليقين من الإنسان والحيوان

مرفوعة، وإذا ألفه معقودة بين المخلوقات تجعل من الحديقة سفينة أخرى لنوح عليه السلام. وقد لفت نظري عند جزع شجرة أطفال دون العاشرة (وسنجاب) في أعلى الشجرة، والسنجاب حيوان خفيف الروح، تملكه بالإحسان والدعابة، لكن قبضك الريح كقبضك عليه. وقد ناداه طفل بالاسم الذي آثره به فأحس في الحال أنه المعني بالنداء، فدلف من فرع إلى فرع، ووقف عند متناول اليد، فمد إليه الطفل يده بالغذاء غير باغ، فتناول (السنجاب) حاجته منه وارتد. وجعلت طفلة تستهويه بشيء جديد، وتناديه كذلك باسم جديد، فإذا السنجاب دالف على عادته، مؤدٍّ مهمته، والأطفال بين ضاحك وباذل ومتحبب (والسنجاب) في تلك الأسرة الصغيرة ابنها المدلل العزيز

ولقد خطرت لي فكرة التحدث إلى السنجاب ما دام من سجاحة الخلق بهذا القدر فحاولت أن أختلي بأخ له بعيداً من مجمع الأطفال إذ كنت قد نسيت فنونهم من قديم، وإني إلى ذلك لأتحاشى أن يذكروني بهذا الفنون؛ فكان أن لقيت سنجاباً فدعوته إلى ناحية فتطلع إليَّ ولم يزد إذ كانت يدي خالية مما يطمع فيه، وانطلق ليستروح طيب الشمائل من غيري

والعصافير فطينة أليفة في تلك الحديقة تتصيد المارة. وكثير من الناس يطوفون بالحدائق العامة وفي ميزانياتهم رصيد محترم للطير والحيوان. فالحب دائماً على أكفهم لا يبذرونه، ولكن يقع الطير عليه فيلتقطه غير هياب. وقد لقيت غير بعيد عصفوراً جاثماً على فرع شجرة، فما إن اقترب منه عابر سبيل باسطاً يده بالنذر اليسير حتى هبط على يده والتقط الحب في لمح البصر ثم عاود الجثوم، وعاود المار الكرة وعاودها العصفور، حتى إذا خرجت يد العابر من هذه المعاودة وهي خالية إذا بالعصفور يميل يمنة ويسرة، ويصل بين ذنبه ورأسه، ولا أدري أكان يبغي بما فعل أن يرد الحسنة بعشرة أمثالها أم كان يبغي المزيد

وجلست في حديقة للحيوان غشيتها بعد ذلك بأيام على مشرب أستريح. وعلى كثرة أقفاص الحديقة وحظائرها، والمواطن التي أنشئت فيها على غرار الطبيعة، ليحس فيها الطير والحيوان أنه في بيته - كنت أجد الطاووس يخطر في طرقاتها ومماشيها مع الزوار جنباً إلى جنب أو معترضاً طريقهم، وكنت ألقى الدجاج الزاهي الألوان البديع

الريش يسرح بين الناس في طلب الرزق. وليس في هذا ما يستحق الذكر، لكن حين جلست إلى مائدة المقهى
أقبل على الدجاج في رهطه ومعه طائفة من الديكة الرومية أحاط بي جميعها في انتظار ما يكون. وكان أن طلبت فنجاناً من القهوة يعيد إلى رأسي بعض ما انتهب التعب، فأدرك الدجاج أن ليس ما يطلبه عندي فلا فطيراً رأى ولا كعكا، ولا قارطيس مما يحمل المحسنون؛ ولم يشأ أن ينصرف مع ذلك عني فلعله خشي أن أتهمه بالنفعية أو لعله لم يكن قد يئس بعد من كرمي وأنا رجل غريب لا علم لي بتقاليد الحديقة
واستأنفت المطاف في الحديقة ووقفت أمام حيوان صغير لطيف يشبه النمس ويدي في جيبي، فتبعها بنظره شأن المترقب حتى إذا خرجت وألفاها فارغة رماني بنظرة لم يفتني ما فيها من ازدراء.
تعرف الحرية القيود جد المعرفة، وقد لا تعرف غير القيود؟ فليس ثمة إباحة إلا ولها شرط. وقد كنا إلى عهد قريب نسرف في تقييد حرية الطير والحيوان في حديقة الجيزة، ثم احتذت مثال حدائق الحيوان في الغرب في كثير؛ لكنا لا نرى فيها ما رأيت حين تابعت المسير في الحديقة الأوربية من قطعان الحمير التي لا تعرف الحظائر أو تعرفها ولا تحتاج إليها. ولعل من الخير أن تترك الحمير تسرح في الحدائق وتمرح على هواها فقد ترتفع من هذا قيمتها ويرتفع سعر ذكائها المشهور، فهي تحسن جرش السكر فوق ما تجيد من طحن الفول ومضغ التبن وحصد البرسيم، وهي تعرف كيف تعترض سبيلك لتنال بغيتها منك، وكيف تدفع ظهرك بأشفارها لتلفتك إليها. وقد تسير في الحديقة في حاشية طيعة من البرازين تتبعك كظلك إلى حيث تشاء في داخل الحديقة طبعاً إذا كنت رجلاً كريماً، وكان السكر بعض ما عندك
والحيوانات جميعاً حبيبة إليّ، لأنها على الفطرة، وفطرتها سليمة لم تتلف على نقيض الإنسان الذي تستنفذ فيه المدنية هذا الزخر الطبيعي، وفصيلة القط أجمل الحيوانات طراً، لأن لها شخصية قوية، ولأنها قادرة على النضال، ولأن كل حركة من حركاتها جذابة فيها ظرف كثير. وهذه الفصيلة بالذات هي التي يخشاها الإنسان لأنه يتوجس منها الشر ولأنها في يقينه غادرة خائنة وقد لا تكون أغدر من الإنسان ولا أخون، وهنا نتساءل لماذا نحبو بالعطف غير هذه الفصيلة من طير وحيوان ونأباه على الوحش الذي ينتمي إليها، والجواب الذي تنتظره مني أيها القارئ غير الجواب الذي أعده لك، فليس كون هذه الوحوش تفترس
في جوعها سائر المخلوقات هو الذي يحبس عنها عطفنا وإلا فما الذي لا يفعله زعيم المخلوقات الإنسان العاقل النبيل في جوعه؟ وإنه ليقال إن الإنسان ليفترس أخاه الإنسان في مسة الجوع الجنونية حين تجنح به سفينة إلى شاطئ قفر أو تتحطم به في البحر
إن المرء ليتوجس من الوحش ويتوقع دائماً أذاه لأنه كثيراً ما يغفل من حسابه حساسية الحيوان في حالات كدره. فقد يقربه بشيء من الملاطفة فلا يجني إلا عكس ما ينبغي أن تثمر الملاطفة، وكذلك يفعل الإنسان حين ينحرف مزاجه ويضيق صدره. أفلا يضيق هو أيضاً ذرعاً بالتربيتة على كتفه والمسحة الرفيقة على خده وأحياناً بالكلمة اللينة؟ فالحيوان والإنسان في هذا سواء وإن اختلفا في المظهر وطريقة الأداء أو إن شئت فقل أدب السلوك. فالنمر والأسد والسنور تدهم في استيائها ملاطفها بعضة دامية؛ والإنسان يجبه ملاطفه في فترة كدره بكلمة نابية أو دفعة غير لطيفة سواء في ذلك الرشيد وغير الرشيد، وصغار الحيوان والإنسان وحدها هي التي لا تملك في تلك الحالة أذى لكنها تطيق الملاطفة على مضض. فالغدر والغش والخيانة صفات يشترك فيها الحيوان والإنسان، غير أنها تصدر من الأول عن ضرورة غالباً ويرتجلها الثاني في أغلب الأحيان. والطبيعة التي سلحت الوحوش الضارية بأنياب أنفذ من السنان وأحد من الخنجر لا يمكن أن تتطلب منها ما تتطلب من أسنان اللبن، ولا أن تجعل مهمة الحوافر والأظلاف كمهمة المخالب والأظفار. ولولا أن للثور قرنين ما فكر في النطح، ولولا أن للحية سماً زعافاً للزمت الأجحار؛ لكن للمخلوقات جميعاً - والإنسان على رأسها - أوقات صفاء وفترات كدر؛ فالنمر الذي يفترس الإنسان وهو يطلب الصيد قد يمسح خده في كمك ويطيق أن تربت على جلده في ساعة الرضا.

بقي أن تعلم متى يكون راضياً ومتى تكون غمضة عينه ورقدته الساكنة على كدر. وكذلك هدأة الإنسان كثيراً ما تكون خطراً أي خطر، وكثيراً ما تنطوي على أسوأ المفاجآت؛ وهذا على فهمك الإنسان وجهلك الحيوان

إن القلق الذي يساور بعض أكلة اللحوم غريب مُسَلٍّ، والغريزة التي تحرك صغارها أعجب وأغرب، فقد مررت بقط السرفال المستوحش في حديقة حيوان الجيزة، فألفيت وجبته من اللحم النيئ بين فكيه وهو مقبل مدبر، يساوره القلق الدائم من مزاحم ينجم له من بطن الأرض، أو لعله كان يأمل أن يتاح له من القفص مخرج فيفلت بوجبته إلى حيث يأمن الانزعاج

وتربض النمرة تتناول مخصصاتها وهي لا تقل عن صدر ثور ويأبى لها حنان الأم إلا أن تنزل عن ضلع للصغار وهي ثلاثة ذكر وأنثيان فينقض الذكر على الضلع يحاول نهشه فلا يعدو جهده سلوخاً رفيعة ينسرها بشق الأنفس، وتجتمع عليه أختاه تحاولان صرفه عن هذا الجشع وحب الذات، فينهرهما ويلطمهما بمخلبه فتبتعدان تعويان. لقد آثر بغريزته هذا الجهد على الرضاع الهين، وترك اللبن لأختيه، وأعمل هو أسنان اللبن في الضلع وحده بلا شريك

وهناك ظاهرة ملحوظة هي الشبه بين الإنسان والحيوان في المنطقة الواحدة، وللمناخ وطبيعة الأرض وظروف الحياة أثرها البالغ في إحداث هذا الشبه بلا مراء. فقد مررت بالدب الأسود والدب الأبيض في وقت كان السلام يسود فيه ربوع العالم فلم أفطن إذ ذاك إلى شيء، ودارت رحى الحرب بين الروسيا وفنلندة، فإذا بالدبين ماثلان أمامي أفطن هذه المرة إلى ما بينهما من فرق وأعمد إلى المقابلة، الدب الأسود أو الدب الروسي يحاول أن يعض قضبان القفص فيعض يده، فيئن ويتأوه ولا يبرح موضعه، وإنما يدور في باطنه حول نفسه في ضجر وبرم شديدين، لا ينقطع له تأوه ولا أنين. والدب الأبيض أو دب الشمال أنيق، سامي المظهر، رشيق الخطو، يدور في قفصه في خطى ثابتة متزنة، ويلتمس المخرج في كل مكان، فإذا عز لم ييأس ولم يحاول أن يقبع نهباً للقنوط كجاره الروسي

كذلك الببغاوات شريكة الإنسان في البيان والمكان، تغري بالمقابلة، فحظها في حدائق الحيوان كحظ مناطق الانتداب تستمتع بقسط كبير من الحرية، وترسف مع ذلك في القيود

و (البوم) محببة إلى الحكماء تشبههم في رصانتهم وتحفظهم وتعاليهم واستصغار شأن من عداهم، والانصراف عن التفكير في المادة إلى التفكير فيما وراء المادة. وهي كالحكماء لا تلفيها في مجلسها إلا صامتة، اثنين اثنين أو ثلاثة ثلاثة، تطيل التأمل والنظر

هذا قليل من كثير مما يعرض للمرء من أمور الحيوان. وقد نكون تناولناه في شيء كثير من العجلة وقليل من التعمق، والأناة والغوص من صفات العلماء، ولسنا في هذه العجالة منهم

محمود الدسوقي

البريد الأدبي

مصطلح التاريخ

تفضل الصديق الكبير الدكتور أسد رستم أستاذ التاريخ في جامعة بيروت الأميركية فأهدى إلى كتابه الجديد (مصطلح التاريخ) (المثودولوجية)، وهو أول كتاب في موضوعه في اللغة العربية، وقد نحا فيه المؤلف إلى تطبيق هذا العلم الجديد على قواعد (مصطلح الحديث) واستعمال طرائقه، فكان هذا الكتاب تلخيصاً وافياً لمصطلح المحدثين، فضلاً عن أنه ينقل إلى العربية علماً جديداً، وكان عمله فيه سنة حسنة يكون من نتائجها وصل نهضتنا الجديدة بنهضة أجدادنا، وإقامة بنائنا الحاضر على أساس متين مما بنوا؛ وقد بحث فيه المؤلف في التقميش (أي جمع الأصول) والعلوم الموصلة (ويعنى بها وسائل المؤرخ) ونقد الأصول (وهو باب طويل يشتمل على فصول) وتنظيم العمل، وتفسير النص، ثم بحث في العدالة والضبط، وتكلم بإسهاب عن سبق علماء الحديث في هذا المضمار، وإثبات الحقائق المفردة، والربط والتأليف، والاجتهاد، والتعليل والإيضاح، والعرض.

وأنا مع إدراكي جلالة هذا البحث من الناحية العلمية الخالصة ومن الناحية التوجيهية، وفضله في نشر (مصطلح الحديث)، وبيان ما وفق إليه رجاله - لا أستطيع أن أنقد الكتاب أو أحكم عليه، لأني لست من رجال هذا الفن؛ وأنا أشكر لصديقي الدكتور رستم هديته، وآمل أن يتولى بعض زملائه (أساتذة التاريخ في جامعة القاهرة) الكلام على هذا الكتاب في الرسالة وأن يسارع إلى اقتنائه المشتغلون بالتاريخ

علي الطنطاوي

1 - لجنة لفهرسة المخطوطات في المكتبة الظاهرية

عقد في دار الكتب الظاهرية بدمشق اجتماع حضره بعض أعضاء المجمع العلمي العربي، ورئيس المطبوعات الفرنسية وبعض حملة الشهادات الأجنبية، لتلخيص المخطوطات الثمينة العربية التي ترقد تحت الغبار فوق قبر الملك الظاهر. وقد حضر الاجتماع الأستاذ أنور أفندي حاتم الدكتور في الآداب الفرنسية، لاطلاعه الواسع على المخطوطات العربية، كما حضرته الآنسة فلك طرزي، والأستاذ يوسف أفندي العش حامل أجازة صف الكتب

وتنظيمها من باريس. فنرجو لهذه اللجنة التوفيق الباهر لما سيبذله أعضاؤها الأعلام من خدمات

2 - أصحاب العاهات ونوادرهم

تقوم نخبة من الأساتذة الأدباء بجمع أخبار أصحاب العاهات ونكاتهم. وقد توفر لديها قسم كبير منها. على أنها لم تعثر إلا على القليل من أخبار العوران ومُلحهم. فمن كان لديه شيء منها فليتفضل بنشره أو بالإشارة إليه على صفحات الرسالة، أو بإرساله إليَّ وله الشكر الجزيل

(دمشق)

صلاح الدين المنجد

برناردشو بعد بلوغه الثانية والثمانين

كتبت بعض الصحف الإنجليزية أن جورج برناردشو اعتزل كتابة المسرحيات بعد بلوغه الثانية والثمانين من عمره فكذب هو هذه الإشاعة وكتب يقول:

(إنني سكير مدمن من أسرة مدمنة، ولكن بينما أسرتي قد قنعت بالكحول فإني ترديت في شيء أردأ من جنون السكر هو جنون العمل

إني لأشعر بتعس لا حد له إذا انقطع عملي. إني لأحس بصداع خفي بعد سكرة كل شهر، وقد عاهدت نفسي على تحريرها منه وقررت بيني وبينها ألا أشتغل بعد الغداء، وأن أشتغل ساعتين فقط في اليوم؛ ولكن هذا كان عبثاً فكل يوم جديد يأتي بإغراء جديد وشهوة جديدة؛ وفي كل رمة يشتد بي الشوق ويستأثر بي الحنين؛ وأنا أفزع من البطالة أكثر مما أفزع من أي شيء في العالم. . .)

الإمبراطورية العربية

نشر أحد الكتاب الأوربيين سلسلة مقالات في إحدى الصحف الأمريكية عن (الإمبراطورية العربية) و (حلم العرب الأكبر) خلاصتها أن الناطقين بالضاد يحلمون بتأسيس إمبراطورية عربية عظيمة تضم شمل العرب وتجعل منهم إمبراطورية كبيرة تواجه العالم الغربي

مواجهة الند للند

وقد نشر الكاتب قائمة بأسماء هذه الأمم وعدد سكانها ننشرها فيما يلي، ونلاحظ أن بعض الأرقام الخاصة بعدد السكان أقل من العدد الحقيقي، ويرجع ذلك إلى أنها مأخوذة من إحصاءات قديمة:

الأمة

عدد السكان

مراكش الفرنسية

6. 000. 000

مراكش الإسبانية

800. 000

الجزائر

7. 500. 000

تونس
2. 500. 000
ليبيا
750. 000
مصر
15. 000. 000
الحجاز ونجد
5. 000. 000
العراق
3. 500. 000
اليمن
6. 500. 000
سوريا
3. 000. 000
لبنان
900. 000
فلسطين
1. 500. 000
شرق الأردن
300. 000
الكويت
50. 000
جزائر البحرين
120. 000
قطر
150. 000
عمان
500. 000
عدن وحضرموت
500. 000
المجموع
54. 607. 000

مؤلف كتاب المقنع

تفضل الصديق الكريم الأستاذ الشيخ محمد أحمد دهمان فقدّم لي نسخة من كتاب المقنع في مرسوم كلمات القرآن الذي نشره بعد أن صححه وعلق عليه وحققه حسب عادته في جميع ما ينشر من كتب، ومؤلف الكتاب هو الإمام أبو عمرو عثمان ابن سعيد الداني المتوبي سنة 444هـ وألحق به رسالة في النقط والتشكيل تتمة للكتاب للمؤلف نفسه. ولقد كنت أطالع أمس فصلاً في كتاب (ألف باء) للإمام يوسف بم محمد البلوي فرأيته يذكر كتاب

المقنع ويعزوه إلى الإمام أبي عمرو المقري وينتقل عن الكتاب فصلاً في نقاط المصاحف هو نفس الفصل الموجود في كتاب الداني، فكان ذلك باعثاً على الشك في أسم المؤلف. فأنا أشكر للصديق الكريم هديته، وأرجو منه إيضاح هذه الناحية وله مزيد الشكر

(دمشق)

ناجي الطنطاوي

الجمعية الملكية للدراسات التاريخية

أقر مجلس الوزراء المرسوم الخاص بإنشاء الجمعية الملكية للدراسات التاريخية، وهو مكون من عشرين مادة تتلخص فيما يلي:

تنشأ بمدينة القاهرة جمعية تاريخية تسمى (الجمعية الملكية للدراسات التاريخية)

ويكون غرضها تنظيم الدراسات المتعلقة بالتاريخ وتشجيعها، وخاصة التاريخ المصري من نواحيه المختلفة
ولتحقيق أغراض الجمعية:
1 - تقوم بجمع الأوراق والمذكرات الرسمية وغير الرسمية الخاصة بالتاريخ المصري في مصر والخارج وتنسيقها ووضع فهرس عام للمؤلفات والمطبوعات ذات الاتصال بتاريخ مصر، وعمل مصورات لمصر في عهودها المختلفة ومعجمات تاريخية للمدن والآثار والوقائع الحربية والرجال الذين امتازوا في مختلف نواحي الحياة المصرية
2 - تنشر مؤلفات وأبحاثاً في الأغراض السابقة وتصدر مجلة دولية تتضمن مباحثها ونواحي نشاطها
3 - تبذل المساعدات المادية لتشجيع البحث التاريخي والرحلات المتعلقة بالدراسات التاريخية
4 - تنظم في مصر مؤتمرات ومعارض، وتشترك في مثل هذه المؤتمرات والمعارض في الخارج
5 - تنظم محاضرات ومناقشات في موضوعات تاريخية

عبد الله بن المبارك في كتاب (فجر الإسلام)

جاء في كتاب فجر الإسلام ص 260 في صدد الكلام عن الوضاعين في الحديث: (وبعضهم كان سليم النية بجمع كل ما أتاه على أنه صحيح وهو في ذاته صادق فيحدث بكل ما سمع فيأخذه الناس عنه مخدوعين بصدقه كالذي قيل في عبد الله بن المبارك؛ فقد قيل: إنه ثقة صدوق اللسان، ولكنه يأخذ عمن أقبل وأدبر) وجاء في هامش الكتاب أن هذا القول في عبد الله بن المبارك وارد في صحيح مسلم

وهنا أخطأ المؤلف في موضعين، الأول: أن الوضّاع في الحديث هو من ينسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم قولاً لم يقله، أما سليم النية الذي يجمع كل ما أتاه على أنه صحيح وهو في ذاته صادق، فهذا رجل ذو غفلة لا يدخل تحت الوضاعين بحال من الأحوال، فحشره بينهم كما صنع الأستاذ أحمد أمين خطأ بيِّن

الثاني: أنه جعل عبد الله بن المبارك من المحدثين ذوي الغفلة الذين يحدثون بكل ما سمعوه من غير تمييز بين الصحيح والموضوع والغث والسمين؛ واستدل لذلك بالعبارة التي نقلها عن مسلم. وعبد الله بن المبارك من أوائل المحدثين الذين عنوا بنقد الرجال ولم يرووا إلا عن الثقات من الشيوخ، وفي مقدمة صحيح مسلم أمثلة متعددة لعنايته بالنقد وبلائه الحسن فيه. وفي تذكرة الحفاظ للذهبي: (عن إبراهيم بن اسحق قال سمعت ابن المبارك يقول: حملت عن أربعة آلاف شيخ فرويت عن ألف منهم)، فرجل يسقط من شيوخه ثلاثة أرباعهم لا يروي عنهم لا يصح أن يقال فيه إنه يجمع كل ما أتاه على أنه صحيح. ومن هنا أجمع الأئمة ونقاد الحديث على إمامته وجلالة قدره، يعلم ذلك من يرجع إلى كتب الرجال. أما العبارة التي نقلها عن مسلم فهي محرفة تحريفاً شنيعاً وأصلها كما في جميع النسخ المطبوعة من صحيح مسلم: (حدثني قهزاز قال: سمعت وهباً يقول عن سفيان عن ابن المبارك قال: (بقية) صدوق اللسان ولكنه يأخذ عمن أقبل وأدبر) فالكلام عن بقية وهو بقية بن الوليد المحدث الحمصي المشهور، والمتكلَّم عنه هو عبد الله بن المبارك. وبقية هذا مشهور بما ذكره عنه ابن المبارك، ففي مسلم بعد هذه العبارة بقليل (عن أبي إسحق الفزار): اكتب عن بقية ما روى عن المعروفين ولا تكتب عنه ما روى عن غير المعروفين. ونقل الذهبي عن ابن المبارك نفسه أنه كان يقول في بقية: إنه يدلس عن قوم ضعفاء ويروي عمن دب ودرج. فانظر بعد ذلك هل الأستاذ أحمد أمين قرأ عبارة مسلم بنفسه فأخطأ في فهمها ونقلها وبنى عليها هذا الرأي الخاطئ في رجل كعبد الله بن المبارك؟ أم هنالك شيء آخر؟!

مصطفى حسن السباعي

ذكرى سيد العاشقين

نشرت إحدى المجلات الأسبوعية المصورة فصلاً عنوانه: (ضريح سلطان العاشقين) قالت فيه ما خلاصته:

لعل الكثير من المصريين - إن لم تقل كلهم - لا يعلم أن ضريح الشاعر العظيم عمر بن الفارض موجود في جبل المقطم بالقاهرة قريباً من جامع الجيوشي المعروف في

هذا المكان
وذكرت المجلة أن مندوباً لها ذهب إلى هناك فعلم أن المرحومة الأميرة جميلة إسماعيل أرادت قبل وفاتها أن تبني لها ضريحاً فوق الجبل، ولما اختارت المكان لذلك، وجدت أن ضريح ابن القارض مجاور لهذا المكان، فأمرت بتجديده وتشييده، حتى صار عنواناً على الروعة والجلال!
ومن الطريف أن جميع الذين يزورون هذا الضريح من العاشقين والمحترقين بنيران الصبابة، وهناك يشكون إلى إمامهم ما يلقونه في سبيل الحب والهيام، ويرددون ما يحفظون من أشعاره ويكتبونها على جدران الضريح، ويوقعون ذلك بأسمائهم الصريحة
ولا ينسى بعض المستشرقين الهابطين القاهرة أن يزوروا الضريح وينشئوا عنه الأحاديث، ويأخذوا له مختلف الصور. . .
وقد رجت المجلة في نهاية المقال (أن يعني الأدباء والموسيقيون بالعمل على إحياء ذكرى ذلك الشاعر المتصوف)
فيا ترى، هل تجاب هذه الدعوة الطيبة، وهل يعمل أدباؤنا وموسيقيونا، على تحقيقها، فيقضون الواجب عليهم نحو هذا الشاعر الذي خلق أناشيد الغرام، وأنغام العشق والصبابة؟
لقد أحببت الإشارة إلى هذا الموضوع في مجلة (الرسالة) الغراء لأنها مجلة الآداب والفنون، وهي أسير من غيرها بين أهل الفن والأدب. قد يقال إن الحرب تلفتنا عن الاهتمام بمسائل الأدب وشئون الروح والفن، ولكن الواجب أن يعنى بهذه المسائل في مثل
تلك الظروف وأمام تلك القلقلات العالمية لنلفت الناس ولو بعض اللفت عن أحاديث المدفع وأخبار القنبلة والطيارة، وقد ذكر أستاذي الدكتور زكي مبارك أنه كثيراً ما احتفل بذكرى الكتاب والأدباء في ميادين القتال نفسها. . .! فيا ترى. . . هل نشهد عناية من أهل الأدب ورجال الوفاء بهذا الشاعر العاشق المتصوف؟ وهل نراهم يخصون ضريحه - بعد أن عرفوه - بالزيارة والحديث؟!
أحمد جمعة الشرباصي
القَصَصُ
حلم ساعة
للأستاذ نجيب محفوظ
من عجيب الأمور أننا قد نحيا الحياة سعيدة نخالها طويلة في حلم قصير الأجل. وما تعتم أن تطرق اليقظة مغلق الأجفان، فينتقل النائم من عالم الأحلام المخدرة إلى دنيا حقائق شديدة الجفاء، وما يجد يده قابضة إلا على هواء. على هذا المثال مضى ذلك اليوم من حياته، كان يوماً أو بعض يوم، ولكن قلبه ذاق فيه سعادة وغبطة، وحَلق في آفاق بعيدة من أحلام المنى، وخفق خفقة فرح سماوي جاز به عالم الزمان والمكان. ثم أدركته يقظة منكرة اغتصبته من عالمه الحنون السعيد، على نحو بالغ في القسوة والوحشية. . . !. . . كيف كان ذلك؟
كان اليوم السعيد يوم الخميس، وكان الأستاذ بهاء الدين علما عائداً من سماع محاضرة علمية في الجمعية الجغرافية الملكية عن الغدد الصماء؛ وكان يسير في ميدان الإسماعيلية متفكراً في يتلك الأدوات الإنسانية العجيبة المسيطرة على الفرد أيما تسطير، وكيف يزعم العلماء أنهم بالتحكم في إفرازاتها يستطيعون أن يحولوا الطيب إلى شرير، والشرير إلى طيب، والشاعر إلى رياضي، والرياضي إلى شاعر. وكيف يفسرون أخيلة جيتة وأحلام شيلي بعصاراتها المتدفقة في الدم؟. . . وكان رأسه لا يكاد يخلو من أمثال هذه الأفكار، فهي مادة عمله ومادة حياته معاً. وفي الواقع يندر أن تجد بين الشباب المعيدين بكلية العلوم من يناظر الأستاذ بهاء الدين في حبه العلم وحرصه على تحصيله
وكأنما أرهقه القعود والسكون - في أثناء إلقاء المحاضرة - فأحس بارتياح إلى المشي واعتزم السير على قدميه إلى شارع فؤاد الأول، واتجه إلى شارع قصر النيل في خطى وئيدة يدخن لفافة من التبغ ويجتر أفكاره وتأملاته في لذة ويسر، وصادف بلوغه مدخل المكتبة الفرنسية بروز فتاة منها تندفع فيما يشبه العدو، فتوقف بحذر ووجل وتراجع خطوة على عجل، وتوقفت مثله وتراجعت، والتفت نحوها فرآها ترمقه بنظرة

ارتباك واعتذار ثم مضت في سبيلها حتى إذا ما حاذته عطفت رأسها إليه بغتة وقد بدا على وجهها التساؤل والحيرة وكأنها تحاول تذكرة ولا تدري كيف، ثم أدركت ما في نظرها إليه هكذا من
الغرابة، فأدارت رأسها عنه وما روت غلة، وقصدت إلى سيارة تنتظر إلى جانب الطريق، فأدرك من أول وهلة أن صورته اشتبهت عليها وعلت لذلك فمه ابتسامة، وأراد أن يستوثق من رأيه فألقى بنظرة إلى السيارة - وكان جاوزها بأمتار - فرآها تتابعه بنظرتها تعلو وجهها آي الحيرة والغرابة. فغمرته موجة انفعال مضطرب لذيذ وتعثر بأذيال الارتباك والحيرة. ثم تحركت السيارة مندفعة في الاتجاه الذي يسير فيها وما تزال صاحبتها ترنو إليه خلل زجاج النافذة بنظرة تحير بماذا يصفها. . . ودية! . . .حنون؟. . . حتى باعدت بينهما المسافة
وعجب الأستاذ أيما عجب، على أن عجبه كان شيئاً يسيراً إلى ما أحس به ساعتئذ من ثورة الوجدان، وكانت الفتاة شابة حسناء مدمجة الخلق، مرتوية الساقين، فاتنة القسمات، يزين وجهها عينان زرقاوان لنظرتهما وقع السحر في الحواس والقلب والأعصاب. فانبعث في قلبه خفقان واضطراب، وشعر بنشوة رائعة، ثم لسعته حسرة أليمة، حسرة محروم طال عهده بالحرمان وكانت حياته في الواقع خالية من الحب مثل كهف رطب لا تزوره الشمس، لأن تفانيه في طلب العلم لم يدع له وقتاً لشيء سواه، ولعيبين طبيعيين كبرا في وهمه واشتدا على نفسه، إذ كان يترامى إلى أذنيه أنه ثقيل الظل، وكان إلى هذا عيباً حصوراً لا يكاد يبين، فلم يكن في وسعه قط أن يحسن خطاب فتاة فضلاً عن أن يغازلها. ودعاه هذا وذاك إلى النفور من الحسان وإلى ما يشبه الخوف منهن. وحز لذلك الألم في نفسه وسكب في قلبه امتعاضاً ومرارة، فتبدى عليه الجفاء والوحشة، واضطرب عهداً طويلاً يائساً بين الرغبة في الحب والخوف من المرأة، والتشوف إلى النساء والحقد عليهن. فكانت تلك النظرة الحلوة أول نسمة تهب عليه من دنيا الوجدان فترتوي بها نفسه الظمآنة ويندى بها قلبه الجاف ولكنه ارتواء كالظمأ وندى أشد حرقة من الجفاف. فتحير وتعجب وتساءل وهو يقلب كفيه: ترى ما خطب هذه الفتاة؟. . . وما معنى هذه النظرة الفاتنة التي أذابت الوجد والهيام والحنو المتجمدة في قرارة نفسه؟. . . إنه لا يعرفها على وجه اليقين ولا يذكر أنه رآها من قبل، وهي بغير ريب لا تعرفه أيضاً، فلا هي قريبة ولا جارة ولا طالبة بكلية العلوم، ولعله التبس عليها شبهه، ولكن كيف طال بها الشك تلك المدة السعيدة التي أدامت فيها النظر إليه؟!. . . ومضى يتفكر تنقله الحيرة من فرض إلى فرض وقد انشغل عن الغدد والكيمياء جميعاً . . .
وكان في عزمه أول الأمر أن يعود إلى بيته فيستمع إلى المذياع ساعة ويطالع ساعة قبل النوم. ولكن عافت نفسه ذلك ومضى ويضرب في الأرض على غير هدى تاركا محرك خياله للخواطر السعيدة والأحلام اللذيذة والأوهام المخدرة حتى أعياه التعب وتعناه المشي؛ وكان سرى عنه بعض الشيء وأخذ يفيق من أثر النظرة، فاتجه إلى قهوة روجينا وجالس بعض صحبه حتى شارفت الساعة التاسعة. ثم خطر له أن يقضي سهرة المساء في سينما رويال - وكان قليلاً ما يجذبه مزاجه إلى ذلك - فسار بلا تردد إلى السينما وابتاع التذكرة. وكان يكره الانتظار جالساً فدلف إلى الصور المعلقة بالردهة الخارجية وقلب فيها عينيه، ثم أولاها ظهره ملالاً وأرسل بناظريه إلى مدخل السينما يشاهد جمهور الداخلين. فرأى سيارة فخمة تقف أمام مدخل السينما، وفتح بابها ونزلت منها سيدة بدينة بادية النعمة والثراء تبعتها على الأثر فتاة حسناء انخلع لرؤيتها قلبه في صدره وأحس بفرح عجيب تمازجه دهشة، فلم تتحول عنها عيناه. وفاته في ذهوله أن يرى ضابط بوليس شاب يبرز من الباب الثاني للسيارة ويدور حولها بسرعة ويلحق بالسيدة والفتاة. وانعطف رأس الفتاة إليه - وكانت فتاته دون سواها - كأنما جذبتها قوة بصره المشوق فالتقت عيناهما، ولاح على محياها الجميل الاهتمام والدهشة ورقت نظرتها بالحنان الذي حيره وفتنه منذ حين. فتبعها في خطى مضطربة ملبياً نداء وقوة عاتية. وصعدت الفتاة مع الصاعدين إلى الطابق الثاني فوقف في الردهة يتابعها بعينيه. ورآها قبل أن يغيبها عن ناظريه منعطف السلم تلقي عليه نظرة أخرى. . . يالها من نظرة. . . فاستخفه طرب جنوبي عذب لا يتأتى لغير الموسيقى وصفه. واندفع إلى الداخل لا يلوي على شيء، فلما اطمأن به مقعده مضى

يصعد نظره في (الألواج والبناوير) باحثاً عن الوجه الحبيب ذي النظرة الفاتنة الحنون. حتى وجد ضالته في (البنوار) رقم (3)، وكانت تتقدم السيدة لقامتها الهيفاء. والتقت نظرتها بوجهه هذه المرة أيضاً، وكأنها كانت تتوقع أن تجده مجداً في العثور عليها فارتسم على شفتيها القرمزيتين شبه ابتسامة أضاء لها وجهها بنور بهي. وجلست وهي ترنو إليه بعينيها فبدت وهي تنحني قليلاً وكأنها تحنو عليه. وأنقذه من سعادته، التي لا تحتمل، انطفاء الأنوار وانهماك الشاشة في عرض أخبار الدنيا. . . كان قلقاً مجنوناً إلى غير حد، فرحاً سعيداً بغير حساب، يشعر برغبة عنيفة لا يدري ماكنهها إلى القتال أو الرقص أو الصياح أو البكاء، وتندت أهدابه بدمعة أحس بتفجرها من أضلعه. كان بمعنى آخر عاشقاً يتلقى قلبه لأول مرة أمواج الحب الكهربائية الغامضة غموض الأثير. وأغمض عينيه في الظلام وهو يتنهد في ارتياح وغبطة مستسلماً للذة الأحلام. وتساءل في استسلامه السعيد: ترى ما الذي ساقه هذا المساء إلى السينما ولم يكن أعد نفسه لذاك؟. . . إن كل شيء يبدو وكأنه يؤكد أن القدر يرسم خطة رائعة بدأها في شارع قصر النيل وما زال ينسج فصولها في سينما رويال. نعم إنه لم يرها عبثاً، ولن تلتق عيناهما مصادفة؛ كلا، ولم يأت إلى السينما اتفاقاً. ولكن الحب يخلق الحوادث والظروف، وإلا فما معنى هذه الحلقة المتقنة؟! وما معنى هذه النظرة الحنون العذبة التي دل تكرارها على أنها مقصودة!؟ أليس هذا الذي يسمونه الحب من أول نظرة؟. . . بلى، هو هو. . . ويشهد عليه قلبه ومشاعره ونظرتها الفتانة النافذة التي لن يمحى أثرها من نفسه. كيف حدث هذا. . . هل كان القدر في قسوته عليه وازوراره عنه يدخر له هذه المفاجأة السعيدة وهو لا يدري؟. . وهل وُجدت أخيراً من لا تستثقل ظله كما يستثقله كثير من الناس. . . ومن تتعرف نفسه بالنظرة الملهمة لا بتغرير الألفاظ وسحر البيان؟. . . كم سخط على الدنيا ظلماً؛ وكم أدان القدر جهلاً. . . والساعة الساعة ينتهي الجفاء وتتبدد الوحشة، ويندى قلبه المحروم ويرطب قلبه اليابس. وفكر الأستاذ بهاء الدين مع ذلك في أمور غاية في الأهمية والجد تناولت حاضره ومستقبله، ولم يفته أن يحسب حساب الوسيلة إلى التعرف والخطبة، ولا فاته - في تلك الساعة - أن يقدر المهر ويحدد تاريخاً للزواج السعيد. . .

ولم يحس بالوقت كالسعداء. وجعل يتأمل بعين مخيلته الوجه النضير والنظرة النافذة إلى القلوب، مستسلماً للأحلام استسلام الحران إلى برد النسيم حتى ظن أن أشهى الأماني دانية لا تكلفه إلا أن يمد يده فيقطفها في يسر واطمئنان

وانتهت الشاشة من عرض فصولها الأولى، وأضيئت الأنوار، ففتح عينيه وكأنه يصحو من نوم سعيد. وصعد رأسه إلى (البنوار) رقم 3، فرأى فتاته في أجمل صورة ترمقه بنظرتها الفاتنة كأنما كانت تنتظر انقشاع الظلمة مثله، ورآها تميل برأسها نحو السيدة البدينة - التي تدل الظواهر على أنها أمها - وتهمس في أذنها، ثم شاهد السيدة تنظر إلى أسفل

باحثة بعينيها حتى استقرتا عليه. . . فارتبك وتعجب وتساءل ترى لماذا تدل أمها عليه؟. . . على أن عجبه ازداد إلى غير حد، لأنه رآها تعطف رأسها إلى الوراء وتحادث شخصاً لا يرى سوى أعلى طربوشه. ومال هذا الشخص إلى الأمام ونظر صوبه وكان ضابط البوليس. فلم يستطع أن يديم النظر إلى أعلى وأدار رأسه إلى الأمام. ولكنه تذكر هذا الضابط، وذكر أنه كان من زملاء فرقته في الخديوية، وأنه يدعى علي سالم، وأنه كان مبرزاً في الألعاب الرياضية، وظن أنه أخو الفتاة، ولكنه تحير في فهم الدواعي التي بعثتها إلى توجيه الانتباه إليه بكل جسارة، وفيما عسى أن تكون حدثتهما به عنه. . . وغلبه الشوق وحب الاستطلاع فرفع بصره إلى (البنوار) مرة أخرى فرأى الوجوه الثلاثة محدقة فيه. وخيل إليه أن زميله القديم يحييه، فلم يصدق بصره وظل جامداً لا يتحرك، فأعاد الضابط تحيته برفع يده إلى رأسه ورد عليه الأستاذ التحية مرتبكا، وشاهده يدعوه أن يصعد إليه، فخفق قلبه خفقة عنيفة وقام واقفاً وقد لفته الدهشة والارتباك، وغادر المكان في ذهول شديد، وصعد السلم والتقى بصاحبه عند مدخل (البنوار) واستقبله هذا استقبالاً ودياً وشد على يده بحرارة - ولعله فعل ذلك ليطرد عنه الدهشة والارتباك - ثم أوسع له وهو يقول هامساً: (تعال أقدمك إلى أهلي، ووجد نفسه في البنوار أمام السيدة والفتاة الجميلة. وقال الضابط يقدمها له وهو يشير

بيده:
(حرم الأميرالاي محمد جبر بك. الآنسة زينب كريمتها وخطيبتي)
ثم التفت إليه وقدمه لهما مكتفياً بذكر اسمه وزمالته القديمة لأنه كان يجهل حاضره.
ودوت كلمة (خطيبتي) في أذنه دوياً مزعجاً أطفأ نشوة الفرح في حواسه جميعاً وسكب مكانها خيبة مرة، فجلس كما طلب إليه ذاهلاً مرتبكاً قانطاً عاجزاً العجز كله عن حصر انتباهه فيما حوله، وكانت السيدة ترحب به وتشارك الضابط في التودد إليه ومجاملته ولكنه لم يدر مما قالا شيئاً، واكتفى بانتزاع ابتسامة مغتصبة من شفتيه يرد بها عليهم رداً صامتاً كئيباً. وكان يتخبط في حيرة عمياء، لا يدري لماذا دلت الفتاة عليه، ولا كيف دعاه زميله، ولا لأي سبب عرفه بهما وعرفهما به. . . ولاحت منه نظرة إلى الفتاة، فوجدها تبتسم إليه ابتسامة حزينة، فشعر بامتعاض، ووجه عينيه إلى أمها كأنما يفر منها فراراً، فرأى المرأة ترنو إليه بعينين مغرورقتين بالدمع، فازدادت دهشته وبدا عليه الانزعاج، والتفت إلى
صاحبه متسائلاً متحيراً. ودق الجرس في تلك اللحظة منذراً بإطفاء الأنوار، فقام الشاب واقفاً وأحنى رأسه محيِّياً، ودعته السيد إلى زيارة البيت، فوعدها قائلاً: (إن شاء الله) وهو لا يعني ما يقول. وغادر (البنوار) ولحق به صاحبه، وكان يدرك ما يقوم بنفسه من الدهشة والانزعاج، فقال له وهو يشد على يده مودعاً:
(إني آسف جداًّ على ما أحدثته دعوتي لك من الارتباك والانزعاج، وحقيقة المسألة أنك تشبه شبهاً عجيباً ابناً شاباً فقدته هذا الأسرة منذ عامين. ولعل هذا يفسر لك كل شيء أيها الصديق. . . . . .)
وهبط السلم في خطى بطيئة جدا. وكان يتوقف كل درجتين ويتأمل فيما أمامه بعينين لا تريان شيئاً، وعلت شفتيه الشاحبتين ابتسامة هازئة مريرة وقد بدا له كل شيء كريهاً كئيباً تعافه النفس. . . . . .

نجيب محفوظ

نهاية التنكر

بقلم استيفن ليكوك

ترجمة الأستاذ عبد اللطيف النشار

كان رئيس البوليس السري جالساً إلى مكتبه، وأمامه وجوه مستعارة وشوارب ومناظير مستعارة كذلك مختلفة الأشكال فهو في أقل من ثانية يستطيع التنكر ووضع قليلاً من مسحوق أبيض في كوب من الماء وتجرعه، وفي هذه اللحظة طرق باب حجرته طارق، فخبأ المسحوق في درج مكتبه ووضع على شفته العليا شارباً أسود، وأذن للطارق بأن يدخل، ولكنه لما رآه وتبين أنه سكرتيره أعاد الشارب إلى مكانه وهو يقول:
- أهذا أنت؟ ماذا لديك من الأخبار؟
فأجابه سكرتيره:
- عندي مسألة في نهاية الغموض وفي نهاية الأهمية لعلاقتها بدولة أجنبية، ويخشى إذا لم يستطع البوليس حلها أن تنشب حرب طاحنة
قال رئيس البوليس السري:
- وهل تكون المسألة بهذه الدرجة من الأهمية ويعجز بوليس لندن عن حلها؟ قل لي، هل تتعلق بالبرلمان أم الوزارة أم ماذا؟ فأجابه سكرتيره: (هي تتعلق بمن لا نكاد نجرؤ على النطق بأسمائهم ولها مساس بالسياسة الدولية وأخشى أن تحدث بشأنها حرب عالمية)
قال رئيس البوليس: (إذن فأخبرني بما عندك من التفاصيل)
فأجابه السكرتير: (لقد اختطف البرنس ورتمبرج)
وقف رئيس البوليس السري منزعجاً وقال: (لقد سمعت كثيراً عن هذا الأمير وأعتقد أنه من أسرة البوربون. إنك محق بلا شك فإن وراء اختطاف الأمراء أمراً شديد الخطورة)
فأخرج السكرتير من جيبه رسالة برقية وقدمها لرئيسه وهو يقول: (هذه رسالة رئيس البوليس في باريس)
فتناولها وقرأها وهذا نصها: (لقد اختطف البرنس ورتمبرج والأرجح أنه نقل إلى لندن.

يجب أن يعاد إلى باريس قبل يوم المعرض. الجائزة ألف جنيه)
قال الرئيس: (لابد أن يكون المعرض دولياً ولا بد أن يكون لاشتراك البرنس فيه مغزى سياسي، فهم لذلك يختطفونه. أكتب برقية في الحال إلى باريس طالباً وصفاً دقيقاً للبرنس)
فأحنى السكرتير رأسه وخرج. وفي اللحظة نفسها طرق الباب طارق ولكنه دخل بغير استئذان
ولما التفت رئيس البوليس كان الزائر قد توسط الغرفة. ولما عرفه وقف مذعوراً وقال:
- رئيس الوزارة الإنكليزية! ما الذي تأمرون به يا صاحب الدولة؟ أظنكم جئتم من أجل البرنس ورتمبرج؟
قال رئيس الوزارة: (كيف عرفتم؟ لقد أتيت من أجل هذا السبب فابحثوا عن الأمير ولكم جائزة غير التي تعرضها فرنسا ولكن أهم من العثور عليه ومن إعادته ألا يمس أحد شعره أو أذنيه فإنه لا فائدة من إعادته إذا قص شعره أو قطعت أذناه)
دارت رأس الشرطي ولم يكد يفهم معنى لهذا التحذير. ولكنه أجاب على وجه التأكيد: (يا صاحب الدولة سيعاد دون أن يمس بسوء)
وهنا طرق الباب ودخل زائر آخر بغير استئذان، وهو كبير البطن عليه عباءة حمراء، فاشتد انزعاج رئيس البوليس ووقف وهو يقول: (رئيس أساقفة كونتريرى! تفضلوا بالجلوس يا صاحب النيافة. . . لابد أن يكون مجيئكم من أجل البرنس ورتمبرج؟)
فأشار رئيس الأساقفة على نفسه إشارة الصليب، ولم يسره كثيراً أن يعرف رجل البوليس السري الأمر الذي جاء من أجله كأنه من المشتغلين بالسحر. وقال: (نعم لقد جئت من أجله لأن أختي مهتمة أشد الاهتمام بالعثور عليه، فقد راهنت عليه بعشرة آلاف جنيه. على أن أهم من وجوده في نظرها ألا يقص شعره ولا تشوه خلقته ولا تزال العلامات الخاصة به. . .)
أظهر رئيس البوليس اهتماماً شديداً لمّا سمع أن الكونتس داسليغ أخت رئيس الأساقفة مهتمة بالبرنس ووعد بأن يبذل كل عنايته. وفي الحال دق الباب مرة ثانية ودخلت الكونتس فابتدرها رئيس البوليس بقوله: (. . . وأنت أيضاً أتيت من أجل البرنس ورتمبرج؟)
فقالت: (لقد اختطف هذا الكلب المسكين وأنا مهتمة به أشد الاهتمام)
ارتاع رئيس البوليس من ذكر كلمة (كلب) ولكنه تذكر أنها دوقة تحاول إنقاذ حياة أمير فلا
بد أن تكون العلاقة بينهما علاقة حب، وقد يكون من مقتضيات هذه العلاقة في بعض الأحيان أن تصف المحبة حبيبها بأنه كلب. وقال ليتعرف كنه العلاقة بينهما: (هل أنت تحلفين به كثيراً؟)
قالت بلهجة التعجب: أحفل به؟ إنني ربيته
فغير رئيس البوليس السري رأيه في الحال وقام بروعه أنه ابنها وليس حبيبها كما كان يظن. وقالت الكونتس: (وفضلاً عن ذلك فإني راهنت عليه بمبلغ عشرة آلاف جنيه، ولكن أحذرك من أن يقصوا شعره أو يغيروا شيئاً من صفاته)
كان رئيس البوليس لا يزال في حيرته من كون هذه الدوقة أماً لأمير من أمراء البوربون، ولكن كل شيء محتمل في الحياة وأدرك أن المؤامرة لابد أن تكون كبيرة الأهمية لأن في نجاحها كشفاً لأسرار خطيرة بين الأسرة المالكة
وخرج رئيس الوزارة ورئيس الأساقفة وأخته معاً. وبعد لحظات من خروجهم تلقى رئيس البوليس برقية من باريس بصفات الأمير المفقود، فلم تزده هذه البرقية إلا ارتباكا، وفيها أن جسمه طويل وإن شعره أسود كثيف وأن أذنيه طويلتان وأن وصوته عميق
قال لسكرتيره: (قل لي بالله كيف يمكن أن نهتدي إليه، وهذه صفاته كلها مبهمة؟)
وقبل أن يجيب السكرتير على سؤال الرئيس وردت برقية من باريس لم تزدهما إلا ارتباكا، وفيها أن أهم صفة بارزة للبرنس ورتمبرج أن في وسط ظهره خصلة بيضاء من الشعر
قال الرئيس: (على كل حال يجب أن نبحث عنه على أساس هذه الصفات، ولا بد أن

يكون الأمير شاباً أولاً، لأن الدوقة دعته كلباً، وثانياً لأنها ربته فلنبحث عنه في مجتمعات الشبان.
وتنكر رئيس البوليس وبدأ بحثه
وفي الأربعة الأيام التالية زار كل مكان من لندن ودخل كل مشرب وكل مكان عام.
وكان في بعض المشارب يدخل متنكراً في زي بحار، وفي البعض الآخر يدخل متنكراً في زي جندي، وفي غيرها يتنكر في زي قسيس، وفي غيرها يتنكر في زي أجنبي ولم يعبأ أحد به، ولم تسفر مباحثه عن نتيجة
وألقى القبض على رجلين لاعتقاد أن كلا منهما هو الأمير، ولكن أطلق سراحهما في الحال
لما ثبت من أنهما سواه
واستأنف رئيس البوليس السري مباحثه وزار بعد منتصف الليل سراً منزل رئيس الوزارة وفحصه غرفة غرفة، وزار بيت رئيس الأساقفة وبيت الدوقة، وهناك وجد ما حل الألغاز التي كانت مستعصية على كل طرق الحل. . . وجد صورة معلقة على الحائط، وقد كتب تحتها اسم الأمير ورتمبرج، ولكن الصورة كانت مع الأسف صورة كلب حقيقي، وقد توافرت فيه كل العلامات التي ذكرت في برقيتي باريس
صاح رئيس البوليس بسكرتيره: إن البرنس ليس إلا كلباً
ثم هرع كلاهما إلى خارج المنزل والسكرتير يقول لرئيسه: (ألم تصرح لنا الدوقة بأنه كلب؟. . . على أن كل الصفات لم تكن لتنطبق إلا على الكلاب. . . أليس في وسط ظهره خصلة من الشعر الأبيض بين شعره الأسود؟ أليس يراد قبل المعرض؟ أليس هو موضع المراهنة؟)
وفي اليوم التالي ذهبا إلى الدوقة فوجداها على أشد حالات الانزعاج وقالت: (هل علمتما؟ لقد عرفنا مكانه ووجدناهم قد قصوا شعره وقطعوا أذنيه وغيروا علاماته التي كان ينتظر أن ينال بواسطتها الجائزة الأولى، وقد ضاع المبلغ الكبير الذي راهنت به عليه)
قال رئيس البوليس السري:
- لا تحزني يا سيدتي فإني سأحصل على الجائزة الأولى فأتنكر وفقاً للوصف الذي وصل إلينا في شكل كلب فأحصل على تلك الجائزة. إنني سأحضر المعرض فأربح الرهان، ومن أمهر مني في التنكر؟!
وفي الليلة التالية أرسل رئيس البوليس السري إلى باريس متنكراً في شكل كلب تنطبق عليه جميع العلامات المميزة للبرنس ورتمبرج
قال كل من في المعرض: (ما أجمل هذا الكلب وما أذكاه!) وكان الشبه شديد الإحكام بينه وبين الكلب المفقود ونال الجائزة الأولى. ولكنه فاته مع الأسف أن يحصل لنفسه على رخصة كلاب من بلدية باريس فلم يكد يخرج من المعرض حتى التقطته عربة الكلاب فأعدم عصر ذلك اليوم
على أن هذه النهاية بالطبع ليست ضرورية في صلب القصة وإنما هي عرضية يجب أن تذكر على أثر نجاحه في نيل الجائزة
عبد اللطيف النشار
العدد 368 - بتاريخ: 22 - 07 - 1940
بين المهاجرين والأنصار
كان من أثر الفزّعة الشديدة التي نالت الناس من الغارات الجوية الإيطالية أن لجأ سكان العاصمة والثغور، إلى القرى والعزب والكفور، يلتمسون الأمن في ظل الريف الوريف، وينشدون الهدوء في حِضن الطبيعة المشْبل
وكان الطيار الذي يحلق ذات صبح من هذه الأصباح المضطربة، في سماء مصر المشرقة المخوفة، يرى الطرق الرئيسية تسيل بحاملات الأنفس وناقلات المتاع بين القاهرة والإسكندرية والإسماعيلية وبور سعيد، فلا يجد نوعاً ولا شكلاً من عربات النقل أو الركوب التي تسيرها الأحصنة الحيوانية أو الميكانيكية إلا جُمع لهذه الهجرة التي لم تر مثلها مصر في ماضيها الطويل!
هذه سلاسل من عربات النقل تجرها الخيل أو الحمير فتسير على يمين الطريق وئيدة الكرِّ تقعقع عجلاتها مخنوقةً في التراب، وتجلجل أجراسها خافتة في الجو من ثقل ما

. . .تحمل من الأثاث و (الكرار) والماعون
وهذه قوافل من اللوريات المكشوفة والمغطاة موقرةً بالأثاث الفخم والرياش الثمين، تهتلك دُروجاً في وسط الطريق المترِب فتثير غماماً من الغبار الخانق يحجب وراءها الأشخاص والأشياء إلى مسافة بعيدة
وهذه أرتال السيارات المملوكة أو المأجورة تَشْرَق بمن فيها من النساء والرجال والأطفال، وهي تنتقل من الوسط إلى الشمال، لتخطف طريقها من الكميونات العنيدة ولدى كل نقطة من (نقط المرور)، وعلى كل رأس من رءوس الجسور، طوائف من القرويين والقرويات، يُلوِّحون بالفواكه والمرطبات، فلا يكاد المهاجرون المفزَّعون يحسونهم، لتوزع قلوبهم بين أهوال الحرب المتوقعة، ومخاوف الحياة الجديدة
أشرقت القرى العوابس بألوف من ناشئة النعيم المدني ذوي الوجوه الرفافة والأطراف الناعمة والطرر المصفوفة والبنائق المفوّفة والطرابيش القانية؛ وألوف من نابتة المطبخ الحضري ذوي الوجوه المطهمة واللغاديد الضخمة والبطون الشحيمة والجسوم الرهلة؛ وازدانت الأكواخ والمصاطب وحواشي البرك وحفافي السكك برواد الكنتننتال والكرسال وسان جمس؛ واعترى القرى بادئ الأمر من التزايل والانزواء ما يتعرى القروية إذا رأت أحد الأفندية على حين فجأة. ثم أدرك القروين أنهم ملاذ هؤلاء الضيوف فاستشعروا قليلاً
من الجرأة، فخالطوهم وباسطوهم حتى ارتفعت الكلفة بين أهل المهجر وأصحاب الدار، وأصبح بينهم من التعاون والألفة ما كان بين المهاجرين والأنصار
وفي سقيفة من شجر الصفصاف وحطب القطن، بين تل من تلال السماد الطري، ومستنقع من آسن الماء الوَحِل، جلس ذات يوم جماعة من المهاجرين بعد شهر من الهجرة وقد حف من حولهم رجال القرية بين مضطجع فوق الحصا، ومحتبٍ بحضيض التل، ومستند إلى جذع الشجرة. وكان كل رجل من هذه الجماعة قد نال من جسمه الشحوب، وشاع في نفسه السأم، وانتشر على جبينه الأبلج حَبَر البراغيث والبعوض، فهو يتكلم من غير شهوة الكلام، ويجيب من غير تفكير في الجواب، ثم يذهل ذهول شارب الأفيون فلا كلمة ولا حركة. ولكن الشيخ السنطاوي، وهو رجل أزهري الثقافة سليط اللسان جرئ القلب، أراد أن يشفي صدور الفلاحين من هؤلاء المترفين الذي سلبوهم نعمة الله وراحة الدنيا وحق الحياة؛ فقال في خبثه المعهود يسأل أحدهم وهو من الملاك الغِلاظ المتأبهين:
- لعلك سعيد يا بك بجمال الطبيعة وبهجة الحقول وصفاء الهواء وهدوء القرية!
ولم يكد الشيخ يتم حتى تحرك ساكن القوم، ثم جاشت حركتهم حتى فارت على ألسنتهم خليطاً من الكلام فيه الضجر والسخر والملام والسب، قالوا:
- أين الجمال وهذه المزابل والزرائب والخرائب والبرك تقذي الأعين؟ وأين البهجة وهذه الأجسام الضاوية والثياب البالية والمساكن التي في بطنها الوحل وعلى ظهرها الروث تقبض الأنفس؟ وأين الصفاء وهذه الدور المنتنة والأزقة القذرة والمراحيض المكظومة تسمم الأبدان؟ وأين الهدوء وطنين البعوض والذباب، وتجاوب الكلاب والذئاب، ونقيق الضفادع، ونهيق الحمير، وصراخ الأطفال، تؤلف جوقة من الموسيقى الشيطانية تحطم الأعصاب؟
إن القرية الأوربية خميلة من خمائل الفردوس فيها متعة الحس والعقل والجسم؛ وكان الظن بالقرية المصرية أن تكون قريبة الشبه بتلك. فلما رأيناها أنكرنا أن يكون سكانها من الناس، لأنهم يأكلون ما تعافه الكلاب في المدن، ويشربون ما لا يجوز أن نغسل به الأقدام في المدن، ويعانون من مختلف الأمراض في القرية الواحدة، ما لا يجتمع مثله إلا في المستشفيات المتعددة. فنحن بهجرتنا إلى القرية قد فررنا من موت متوقع إلى موت محقق.
لذلك عقدنا العزم على أن نعود إلى القاهرة؛ فإن الموت بالشظايا على دفعة، أخف من الموت بالجراثيم على دفعات
فما كان جواب الشيخ والذين معه إلا أن قالوا بلسان واحد: الحمد لله الذي أراكم بعد العمى، وأنطقكم بعد البكم! لقد خطبنا حتى نشف الريق، وكتبنا حتى جف الحبر، فلم تصدقوا أنكم عمرتم المدينة وخربتم القرية، وأبطرتم الباشا وأفقرتم الفلاح، واتخذتم من عرقنا ودمنا أفناناً من لذائذ البطن أعلاه وأسفله، حتى ضوينا وسمنتم، وفزعنا

وأمنتم، وكانت بلية كل أولئك على الإنتاج والدفاع!
ثم افترقوا، هؤلاء ساخطون، وأولئك قانطون! فعسى أن يلتقي هذا السخط وذلك القنوط عند معالي وزير الشؤون الاجتماعية!
(المنصورة)
أحمد حسن الزيات
الحديث ذو شجون
للدكتور زكي مبارك
الكتيبة الأدبية - دمياط والمنصورة - اكحلوا عين الزمان بمرود الحياة - يا ليل يا عين، ثم يا ليل يا عين، وللأستاذ فكري أباظة أن يقول ما يشاء!
الكتيبة الأدبية
في اليوم الثالث من شهر يونية قدَّمتُ إلى وزير المعارف السابق معالي النقراشي باشا اقتراحاً أدعو فيه إلى تأليف (كَتيبة أدبية) من رجال المعارف يتطوع فيها المدرسون والمفتشون، وتكون مهمتهم تقوية الروح القومي وحراسة العزيمة الوطنية من عدوان الأراجيف، بما ينشرون على صفحات الجرائد والمجلات، وبما يذيعون من خطب ومحاضرات. ثم قلت:
ولي مَطلبٌ أوجهه إليك: وهو أن تدعو رجال الأقلام من وقت إلى وقت، لتشير عليهم بما تراه في تسديد العزائم الوطنية، ولتشعرهم بأن الدولة ترى أن القلم من أدوات الجهاد)
وقد أشَّر النقراشي باشا على هذا الاقتراح بعبارة كريمة من عبارات التأييد والتشجيع ومضيت أفكر في تكوين تلك الكتيبة على مَهَل، ولكني سارعتُ فنشرت في المقطم والأهرام مقالات حماسية في نطاق الغرض الذي دعوت إليه، راجياً أن يكون في ذلك تمهيد لتكوين (الكتيبة الأديب) وتذكيرٌ لأهل الأدب بواجبهم في هذا الميدان
في الأسبوع الماضي وجه الأستاذ أحمد أمين دعوة إلى الكتَّاب على صفحات (الأهرام) يقول فيها إنه يرجو من أرباب الأقلام أن يتناولوا بعض المشكلات الحاضرة بالدرس فيتحدثوا عن الهجرة إلى الريف، وتنظيم الشؤون الاقتصادية بما يضمن السلامة من القلقة التي تحدثها الحرب، إلى آخر ما نص عليه من المسائل التي تستوجب الدرس، فردَّ عليه الدكتور طه حسين في اليوم التالي بمقال صرح فيه بأن الجرائد تحت رقابة الأحكام العرفية، وأن الكاتب لا يملك من الحرية ما يساعد على درس تلك المشكلات بصراحة، وعدّ السكوت تضحية! فعجب الأستاذ توفيق الحكيم من ذلك وكتب يقول: إنه لم يكن يعرف قبل اليوم أن السكوت من التضحيات. فوخزه الدكتور طه وخزة أليمة جاء فيها أنه يدعو إلى الأدب الرخيص في حين أن الأستاذ أحمد أمين كان يدعو إلى الأدب الثمين! وانزعج
الأستاذ توفيق الحكيم فكتب يرجو الدكتور طه أن يعد الكتابة في تقوية الروح الوطني من الأدب الرفيع، لأنها على كل حال مما يدعو إليه الواجب في هذه الظروف!
أولئك كتّابنا الأماجد، وهم قومٌ يمزحون في غير أوقات المزاح!
فالأستاذ أحمد أمين في يده مجلة أسبوعية وكان يقدر على معالجة تلك الشؤون منذ اليوم الذي نعب فيه نفير الحرب، وقد كان مفهوماً أن الحرب لن تترك مصر بلا إيذاء، فما الذي قهره على السكوت إلى اليوم، إلا أن يكون تذكر فجأة أن الدنيا فيها أشياء غير الحديث عن أدب المعدة وأدب الروح
وأحمد أمين الغيور على الريف هو نفسه أحمد أمين الذي صرح في إحدى مقالاته بأن الموت بالقنابل في القاهرة أفضل من الموت بالميكروبات في الريف، وذلك إيحاءٌ أثيمٌ سيَلقى عليه (أطيب الجزاء) بعد حين
أفي الحق أن الريف ليس فيه غير الميكروبات، وكيف أمكن إذاً أن تعيش كل تلك الخلائق في الريف؟ وكيف عاش آباؤنا وأجدادنا جميع تلك العصور الطوال؟
تلك وسوسة سخيفة لا تبلبل غير المتحذلقين. ولو أنصف أحمد أمين نفسه وقلمه لقال إننا فرطنا كثيراً في حق الريف، ومن الواجب أن ننتهز هذه الفرصة لنرجع إليه بالتحسين والتجميل، عساه ينسينا ما تعودناه من القرار الراكد في الحواضر أيام الصيف
والدكتور طه حسين أمره عَجَب: فهو يدَّعي أن الرقابة لا تسمح له بشيء، ويدافع عن

كسله بأن البرلمان يلجأ في بعض الأحايين إلى عقد جلسات سرية، فمن حقه أن ينتظر إلى أن تنتهي الحرب ويستطيع الكتاب أن يقولوا ما يشاءون!

ومن الذي يضطر الدكتور طه إلى الوقوف عند درس المسائل التي لا يعرض لمثلها البرلمان إلا في جلسات سرية؟

أتكون كل مشكلاتنا القومية من اقتصادية واجتماعية وسياسية مشكلات لا يتحدث عنها الناس إلا في الخفاء؟

أيؤمن الدكتور طه بأن من المحرَّم عليه أن يتحدَّث في الشؤون التي تصور مستقبلنا بين أمم الشرق وأمم الغرب؟

أيعتقد أن الحديث عما نفترض لمصر من المصاير الاجتماعية والاقتصادية بعد الحرب أمر قد يستوجب الوقوف أمام المحكمة العسكرية؟

وما هذه الذي يدَّعيه الدكتور طه حين يقول بأن الكتابة في تقوية الروح الوطني من الأدب الرخيص؟ ومن الذي أوحى إليه هذه الحكمة (الغالية)؟ وعمن أخذ القول بأن الحديث في تقوية الروح الوطني هو المقصود بالحديث المعاد الذي نهى عنه الحكماء؟

لقد دافَعَ توفيق الحكيم عن هذه القضية، ولكن توفيق الحكيم رجلٌ قصيرٌ ونحيل ولا يَقدر أبداً على صدْ غارات طه حسين

للدكتور طه أن ينسحب من الميدان بحجة أنه مشغول بشواغل أدبية تصرفه عن الحرب وأخبار الحرب وما يجب على مصر أيام الحرب. ولو قال ذلك لكان له عذرٌ مقبول، فالدولة تُطالب كل رجل بالتفرغ لما يصلُح له من الأعمال، والأديب الذي يُشغل بالأدب الصَّرف أيام الحرب هو أيضاً من المجاهدين، لأن الجهاد في سبيل الوطن له ميادين مختلفات، منها ميدان الأدب الصرف الذي يُنسى صاحبه أنه يعيش في غَمَرات الحرب. وقد اتفق للدكتور طه في أحيان كثيرة أن يتناسى المكاره القومية ليتفرغ لعلمه الأدبي بالجامعة المصرية، فما لامَهُ على ذلك لائم، ولا اتّهمه أحد بالجبن عن الاستجابة لنداء الواجب الوطني، لأن الوطن يعرف أن المتفرِّغ للأدب الصِّرف هو أيضاً جنديٌ في الميدان، وإن لم يحمل السلاح ويتقدم للقتال

ولكن الدكتور طه يأبى إلا أن يقع في خطيئتين: خطيئة الدعوة إلى السكوت عن درس المشكلات القومية إلى أن تنتهي الحرب، وخطيئة السخرية من الكتابة في تقوية الروح الوطني بحجة أنها من الأدب الرخيص!

ألاَ يَفتح الله عليك مرةً واحدة يا دكتور طه فتكتب مقالاً واحداً يَسلَم من إثم المغالطة والتلبيس؟

بقيت حكاية توفيق الحكيم، الكاتب الذي يجمع بين الظَّرف والضَّعف، وأنا أقترح أن يُمحَى اسم هذا الكاتب من سِجلْ الوطنية المصرية

هذا كاتبٌ خفيف الروح في بعض نواحيه، ولكن روحه يَثقُل جدًّا حين يتحامل على القومية المصرية، وحين يتوهم أنه من المصلحين، ومن خلفاء قاسم أمين!

وما ظنّكم بكاتب يزعم أن الفكر لا يساوره في مصر، وإنما يساوره حين ينتقل إلى الهضاب السويسرية أو الفرنسية؟

العفو، يا سيد المِلاح!

فمصر يا أخي فيها منادح للفكر والبيان، وهي بشهادتك قد عزَّت على عُدوان الغرب وطغيان الشرق، وقد عجزت المصائب والويلات عن قتل مواهبها الذاتية، فكيف يجوز لك أن تسخر منها أقبح السخرية في بعض مؤلفاتك وأنت تعجز عن الرد على كاتب مثل طه حسين؟

أما بعد فأنا ما زلت أدعو إلى تأليف كَتِيبة أدبية تجرِّد ألسنتها وأقلامها لتقوية الروح الوطني لتحوِّل الوطنية إلى عقيدة راسخة لا تزعزعها النوازل والخطوب

وفي الأدب الصِّرف نفسه يتسع المجال لتأييد العقيدة الوطنية، فالشاعر الذي يتغنَّى بجمال الليل حين يتموَّج نور القمر فوق صفحات النيل هو شاعر وطنيّ؛ والكاتب الذي يتأنق في وصف ملاعب القاهرة والإسكندرية ودمياط هو كاتب وطنيّ. والباحث الذي لا يَعنيه غير درس مشكلات التعليم هو باحثٌ وطنيّ. واللاعب الذي يقضي أوقاته في التأهب للاشتراك في مباراة رياضية هو لاعبٌ وطنيّ. والتاجر الذي يُغلق أذنيه عن الحوادث اليومية ليتفرغ لمصاعبه التجارية هو تاجر وطنيّ. وطه حسين وأحمد أمين

وتوفيق الحكيم يستطيعون أن يكونوا من الوطنيين إذا قَصَروا جهودهم على ما يحسنون من الأعمال
المهمُّ يا بني آدم أن تعاونوا على إيقاظ الروح الوطني في أية ناحية من نواحيه، وأن يكون لكم شأن في تحرير البلاد من قيود الركود والخمود
دمياط والمنصورة
وهَتف سائل يقول: ما الذي أوجبَ أن نرى في مؤلفاتك ومقالاتك إشارات رقيقة إلى دمياط؟
وأجيب بأني لم أزُر دمياط إلى اليوم، ولكني مُوَكل بالحديث عن البقاع الكريمة من وطني، فدمياط من ثغورنا البواسم وكان لها مقامٌ محمود في صدِّ الغارات الصليبية.
وما تزال دمياط مرجع طوائف كثيرة من كرائم الأفئدة والقلوب، ولن أنسى أبداً طغيان البحر والنيل حول دمياط حيثُ غرِق الروح الشفَّاف الذي أوحى إلى خاطري بعض القصائد الجياد
وأخونا الزيات يقيم اليوم بالمنصورة ليتقي الغارات الجوية، وأنا والله في خوف عليه، وما
أخاف الميكروبات التي يخافها أحمد أمين، وإنما أخاف على الزيات غارات العيون، العيون الفواتك التي تصاول الآمنين والغافلين، فتحوِّل أرواحهم إلى أقباس أقسى وأعنف من طغيان السعير
وكيف يذوق العذاب من ترحمه المقادير فلا تدلّه على الطريق إلى المنصورة أو دمياط؟
ارجع إلينا، يا أحمد، قبل أن تعضك سمكة من سمكات النهر الذي أعرف وتعرف، وإلا فانتظر قدومي إليك لأشاطرك النشوة بغناء الملاحين في غفوات الليل
ولكن هل عندكم ملاح تذكر أغاريده بأغاريد الملاح الذي سمعته مرة وهو يَصدَح فوق متْن النيل في الأقصر بهذا النشيد:
فايتْ على جِسر النيل
قابَلوني اثنين حلوين
آخذ مِين وأسيِّب مين، يا بُويْ!
وحدثتنا الجرائد بأن النيل يهدر بعنف في أعالي السودان، فانتظرني عندك لأرى معك بعد شهر واحد كيف يَسهُل صيد السمك فوق ذلك الشط بأيسر عناء
أتخاف الحرب؟ لا تخف، فأعمار الأشقياء باقية!
وإن عشنا فسنقضي بقية العمر في التغريد فوق أفتان الجمال
ارجع إلينا، يا أحمد، قبل أن تعضك السمكات بشط المنصورة فقد عرفتُ بالتجربة أنها افتك من سمكات شط العرب. حرسَك الله وَحَماك!
أمَن الإثم هُتافي بالجَمالْ ... في بلاد كلُّ ما فيها جميلْ
لو بعيني نظر الملاحي وجالْ ... لرأى الفتنة في كل سبيل
اكحلوا عين الزمان بمرود الحياة
أنتم تسمعون أن الدنيا كلها في حرب، أليس كذلك!
بَلَى! ولكن الحياة لها مطالب روحية وعقلية تنسي الناس أحياناً مخاطر الحرب، والرجل الضعيف هو الذي تقهره الظروف على أن يكون ريشة في مهبْ الخطوب. أما الرجل القوي فتصطدم به المصاعب كما تصطدم الموجة العالية بالصخرة العاتية
لقد قَذيتْ عين الزمان فاكحلوها بمرود الحياة. . . كونوا أحياء في كل وقت، واحذروا أقوال المرجفين الذين يزعمون أن الدنيا لم يبق فيها مجال لطرب الأفئدة وجُموح القلوب
لا تصدقوا الأستاذ فكري أباظة حين يحدثكم في المذياع عن عجبه من أن تعجز أعوام الحرب عن قتل تغريده (يا ليل يا عين) فهذا الأستاذ نفسه لم ينقطع عن الغناء وإن كان صوته (أرخم) الأصوات!
هذه الحرب التي تعانون بلاءها من قرب أو من بعد هي أيضاً شهوة إنسانية أو حيوانية كسائر الشهوات، والمحرومون من حب الدنيا ومن الهيام بما فيها من نعيم لا يصلحون أبداً للتمرس بالمخاطر في ميادين القتال
يجب أن تبقى حواسكم كلها سليمة، حتى حاسة الذوق وحاسة الجمال، لأن هذه

الحواس هي (الجوارح) التي تصولون بها في ميدان الوجود. وهل يصلُح إنسان للتفكير في المنافع القومية حين يُشَل تفكيره في المنافع الذاتية؟
الجنديّ لا يصلح أبداً للاستماتة في الدفاع عن الوطن إلا إذا كانت له فيه مآرب وأهواء، أما الجندي الفارغ الرأس والقلب من المطالب الذاتية فهو أداةٌ عاطلة لا نفع فيها ولا غناء
زادكم الأول هو مطامعكم، وزادكم الثاني هو مطامعكم، وزادكم الثالث هو مطامعكم، وأزوادكم الأصلية والفرعية هي مطامعكم، فلا تعيشوا في دنياكم بلا أطماع لئلا تنعدم قدرتكم على الجهاد
لا تصدِّقوا الذين ينهونكم عن الابتسام للدنيا والوجود
لا تصدَّقوا من يزعمون أن مَرَح النفوس في أيام الحرب من نُذَر الفناء
الدنيا لكم ولسائر المزوّدين بالحيوية والأريحية والجذل والابتهاج
فما سكوتُ الشعراء وما سكوتُ المغنّين عن التغريد فوق أفنان الجَمال؟ وما الموجب للدعوة الأثيمة التي تريد أن تحوّل دنيانا إلى ملاطم ومتاحات؟
عزائمكم وأرواحكم وقلوبكم هي الذخائر الباقية، وهي أسلحتُكم في مقارعة الخطوب، فلا تُضعفوها باستماع الأراجيف، ولا توهنوها بالخضوع لخداع الأباطيل
ودَّ أعداؤكم لو تنقلبون إلى أشباح بلا عواطف ولا أحاسيس
فاحذروا الفتنة، فتنة الدعوة إلى تسريح الأماني والآمال
واعلموا أن الرجل الحق هو الذي يعيش في كل وقت بعواطف الأقطاب من الأحياء.
زكي مبارك
إلى أرض النبوة - 5
للأستاذ علي الطنطاوي
قرأتَ في المقالة الماضية وصفاً للصحراء ليلها ونهارها وشدتها إذا اشتدت ولينها إن لانت، على أنها تختصر صفتها، ويوجز تاريخها في كلمتين اثنتين هما: الحب والحرب، فليلها للحب، ونهارها حرب، حرب مع الشمس اللاهبة والرمال المشتعلة، والضلال والموت، وحرب مع الناس؛ فإذا أدركك المساء، ولا يدرك مساءها إلا كل بطل صبار قوي متين، تفتح للحب قلبك، فأحسست فيه بشوق إلى الهيام كشوق الظمآن إلى الماء الزلال، وشعرت كأن البادية كلها ملكك، فأنت منها في روضة وغدير، تعانق بدرها إن لم تجد من تعانقه، وتسامر نجمها إن أعوزك من تسامره، ويقبل عارضيك نسيمها الرخي الحبيب الذي يصور لك أنفاس الأحبة. . .
أشهد لقد نقْت ليالي الصحراء نفسي، وصفّتها، وعلمتها الشعور بجمال القبح وأنس الوحشة وأغاني الصمت، فعرفتْ جمال الكون، فأوصلها إلى معرفة كمال المكوّن، كما صهرت أنهار الصحراء عزيمتي فألقت عن نفسي أوضار الخوف والجبن والضعف والتردد، وأشعرتها عظمة الطبيعة وقوتها، فشعرت بعظمة الطابع، ولم أكن أعدم النظر في الآفاق الواسعة، ولا حرمت التحديق في المناظر البعيدة، وإني لأبصر من شباك داري دمشق كلها وغوطتها والقرى المنثورة فيها، لا يغيب عني من ذلك شيء فأرى فيها نهاية الجمال والرواء، ولكني لا أرى فيها طهر الصحراء ولا صفاءها.
الصحراء مبسوطة مكشوفة كالرجل الصريح الشريف ظاهرها كباطنها لا تخفي سراً، ولا تبطن دون ما تظهر أمراً. . . ليست كالمدن ولا كالرياض، والله وحده يعلم كم يتوارى خلال تلك الأشجار المزهرة المخضرّة، وتحت تلك السقوف المزخرفة والقباب والسطوح من رذائل ورزايا، وكم يسكنها من عوالم الكذب والنفاق والحسد
إن الله حرم الصحراء رواء المدن، وروعة السهول، وفتنة الأنهار، ولكنه عاضها عن ذلك ما هو أحلى وأسمى: جمال الصدق وبهاء الصراحة، وسناء الإخلاص، ليس في الصحراء مثل النيل ولا الفرات تأوي إلى ضفافه، وتبصر غروب الشمس في مائه، وتمخر بالزورق عبابه، وما فيها إلا برك وغدران قليلة الماء غير دائمة ولا باقية، ولكنها على ذلك أجل من النيل، وأجمل من الفرات لأنها في. . . الصحراء!
لست أستطيع أن أترجم لك عمّا لليالي الصحراء من معنى في نفسي، لأن لغة الألسنة لا تترجم عن القلوب. ويا ليتني أقدر أن أصف لك تلك الكائنات الخفية التي تعيش في ليالي الصحراء فتخاطب القلوب بما لا تنقله الأقلام

واشهدوا عليّ أني أوثر الصحراء على كل مظاهر الطبيعة المطبوعة، إلا الأودية والجبال، فإن للجبال السامقة ذات الصخور المائلة كالجبابرة لا تبلغ هامها النسور ولا العقبان، ولا يسكنها إلا الثلج الأبيض. . . والأودية العميقة التي لا يبلغ قرارتها إلا الشلال المتحدر من أعالي الجبال، ولا يعيش فيها إلا السواقي الحائرة التي تهيم على وجهها ذاهلة لا تصحو إلا على جرجرة أمواج البحر الذي يفتح فاه لابتلاعها. . . وإن في التواء الوادي حتى يضيع الطريق فيه، وفي اختفاء الشِّعب الضيق خلال الصخور، وفي ضلال الساقية بين الحشائش والحجارة، لمعنى من معاني المجهول لا ألقاه في الصحراء المكشوفة العارية؛ ولكن للصحراء سحرها وجمالها وإني لأفضلها على السهول والبساتين. . .

سلكنا بعد القُريّات مهامه وفلوات لا يعرف لها أول ولا آخر. ولا أدري ولا يدري أحد ممن كان معنا أين موقعها على المصوّر الجغرافي. وكنا كلما زدنا إيغالاً في الصحراء زادت بنا بعداً عن مظاهر الحياة، حتى أحسسنا كأن قد ودّعنا هذا العالم، وكأن دمشق وبغداد والقاهرة صور شعرية تخطر على البال ويدركها الخيال ولكن الواقع خلوٌ منها، واسترحنا من هموم الاجتماع ومشاغل السياسة وأعباء الفكر واستسلمنا إلى المقادير، فغدا شعورنا بالحياة كشعور من يرى في نومه أنه سائر على وجه الريح، أو مضطجع على صفحة الماء يحمله إلى حيث يشاء، فإما أن يغرق وإما أن يبلغ ما يريد، ولكنه على الحالين راضٍ قانع لا يشكو ولا يتبرم

وكان همنا الأكبر أن نتأمل الأرض أو ننظر في الفضاء لنأمن عثرة السيارة وننجو من الضلال، وما في البرية علامة يهتدي بها إلا النجوم، فعرفت بذلك معنى قوله تعالى: (وبالنجم هم يهتدون). وعرفت سرّ اعتماد العرب عليها في تحديد مواقع البلدان حتى أن الشاعر المحتضر ليسرّه أن سرى سهيلاً لأنه يذكره بلاده وأرضه. . .

وكنا نمر على الأرض المتماسكة الصلبة فنحمد الله عليها ونسرع. ثم نمر على القاع، والقاع في عرف البدو أرض طينية كان فيها غدير من المطر فجف وترك فيها شقوقاً وغادرها مستوية كالطبق، ويسمى القاع في بادية الشام (على طريق بغداد) طليحة. . . ونمر على مسيل قد جرف الماء ترابه وأبقى فيه حجارة كباراً وصغاراً، وهو والشعب شر ما نمر عليه، والشعب في عرفهم أرض فيها رمل قليل هشّ ونبات صحراوي. . . أو نصعد رابة أو تلة، وامتدت هذه المرحلة (من القريات إلى تبوك) أربع ليال، مررنا فيها على مياه من مياه العرب، وهي آبار منتنة خبيثة الطعم واللون والرائحة، تضع المنديل بين فمك ومائها فتلقي عليه مثال الوحل أو ما هو أخبث، تسمى غطى والعيساوية والفجر، ولم نصادف في هذه المرحلة ماء غير ذلك. . .

ولا تسألني أين هذه المياه، ولا تطلب إليَّ تحديداً ولا يقيناً فلست أعرف ذلك، وإنما أعرف أننا تركنا وادي سرحان عن شمائلنا وسرنا قِبَل الجنوب حتى لاحت لنا عن اليمين جبال عالية، فأممناها حتى إذا اقتربنا منها سرنا بحذائها على أرض ما رأينا أعجب منها، فهي أرض سوية متسعة مشينا في طرفها تسعين كيلاً، فيها حجارة سود دقائق مرصوفة رصفاً كأنها أرض ميدان واسع في مدينة كبيرة فرشت وثبتت بالمداحل، وهم يسمونها (بسيطة) بصيغة التصغير، وسلوا أهل الجغرافيا يعرفوكم موضعها على المصور، حتى وجدنا ثغرة في الجبل فدخلنا منها، فإذا نحن في واد ما رأيت في عمري مكاناً أوحش منه، وكلما أبعدنا فيه ازدادت وحشتنا، ولم يكن حولنا إلا الصخور والتلاع والفلل الشامخة، والوادي يتشعب بنا ويتفرع، ونحن منفردون بين ذلك كله، وطال الوادي حتى أمسى علينا المساء فبتنا به، ولم ندر أننا ضالون حتى أصبحنا غداة الغد، فخالط قلوبنا الرعب من أن تكون خاتمة مطافنا أن ندفن في بقعة لا يمر فيها إنسان ونحرم قبراً يستوقف السالكين، ويستجديهم دعوة صالحة. وكانت ساعة يأس أحيت في نفوسنا الماضي الذي ظننا أنا نسيناه فتلفتنا بالقلوب إلى دمشق فإذا نحن منها على مسيرة سبع ليال بالسيارة، ولكن ما إليها من سبيل، فجعل كل منا يذكر أهله وأحبابه، ويتخيل ماذا يحل بهم من بعده، ويتصور بردي يجري زاخراً دفاعاً ونحن نكاد نموت عطشاً لأن الماء الذي معنا قد شح ونفد إلا الأقل منه احتسبه الأقوياء منا، وبلغت المسألة مبلغ التنازع على الحياة، ولم يبق إلا الأثرة الشنيعة أو الإيثار البالغ. وحار الدليل وأظهر حيرته حين لم يعد مكان لإخفائها. وكان يدع السيارة في قعر

الوادي ويصعد قمم الصخور ينظر فلا يرى شيئاً، فيعود فيسير بنا على غير هدى، حتى نظر مرة وكان ذلك في مساء اليوم الثاني لدخولنا وادي الموت هذا. . . فلمح جبلاً فهلل وكبّر وقال: وصلنا. . . هذا شَرَوْري!

وشروري جبل قريب من تبوك أظن أن (ياقوت) قد ذكره. فسرنا إلى الليل وشروري مكانه عند الأفق لا يدنو ولا يريم، فنزلنا للمبيت. . . وعاودنا السير من الصباح فاختفى الجبل وهبطنا إلى جوف الأرض حتى وصلنا إلى موضع رأينا فيه جبلاً عظيماً يسد الوادي فتشاورنا فلم نجد بداً من صعوده بالسيارات وما تحمل من الأثقال، فجعلنا نصعد وندور ونحتال على الارتقاء حتى إذا بلغنا القمة بعد مخاوف ومتاعب لا ينفع معها وصف. نظرنا تحت أرجلنا، فإذا في الحضيض الأوهد البعيد فضاء فسيح كالبحر، في وسطه سواد، كأنه باخرة ماخرة، فقال الدليل مشيراً إليه. هذه تبوك!

علي الطنطاوي

. . .يوم البعث

للأستاذ محمود محمد شاكر

إن أحدنا لتستبد به في بعض عمره فترات يجد فيها الحياة قد وقفت في دمه كالجدار المصمت لا تميل ولا تنثني ولا تتحول، ويجد النفس متماوتة لا ترف رفة واحدة تشعر العقل أن الحي الذي فيه لا يزال حياً يعمل، ويجد الدنيا كأنها بساط ممدود يمشي فيه بعينيه، ولكن البساط لا يمنحه حركة من همومه وسكونه وانعدام الحياة ذات الإشعاع فيه. ويتمنى أحدنا يومئذ أن تحل بأيامه قارعة تملأ عليه الزمن ضجيجاً ونزاعاً، وعسى أن يتحول كل ما يجده من الفتور إلى نشاط ويقظة وخفة تبعث ميت نفسه من رمس الحياة الخاملة

وهذا العارض إذا ألم جعل الأيام مقعدة تزحف في زمانه زحفاً بطيئاً مرهقاً كأنها أمسكت على مرفأ الحياة بسلسلة ربوض، ويجعل الحي يعيش في كذب وباطل وفراغ من الروح، أي في حيرة وقلق وملل، فإذا حار وقلق ومل، جاءت أعماله كلها جسداً لا ينبض نبض الحياة، وكذلك يختلف ما بين الحي وعمله، ويقف أحدهما من الآخر موقف المثَّال العاجز من تمثاله، يقول له: أين أنا فيك أيها التمثال الغبي؟ فيجيبه الصامت البغيض: أين أنت في نفسك أيها الأحمق؟

الحياة هي حركة الروح في العمل، فإذا خلا العمل، فلم تتمثل في كل أحنائه حركة الروح العاملة، فذلك دليل على أن الروح مضروبة بالموت أو ما يشبهه، وأنها قد فقدت شرطها ونعتها وحقيقتها، وأنها إن عاشت على ذلك فستعيش في قبر منصوب عليها في تمثال إنسان. وإذا بلغ الإنسان ذلك أريقت كل إنسانيته على أيامه المقفرة فلا يثمر، فإن يثمر فما يطيب له ثمر، وإنما هو حسَك وأشواك وحطب وكل ما لا نفع فيه إلا أذىً وبلاء عليه وعلى الناس

وكما يكون ذلك أمر الفرد الواحد، يكون هو أمر الأمة من الناس، والجيل من الأمم، فإن الفرد هو خلاصة الجماعة وأصل الجماعة. فالأمة تصاب بمثل الفترة التي يصاب بها الواحد منها، ولا يمنع ذلك أن يكون في بعضها ما يخرج على ضرورة هذا العارض من الفتور الذي وصفناه. وعندئذ تتمنى الأمة أن تنزل القارعة لتهز الجو الذي تعيش فيه هزة

مدوية مجلجلة، ترمي في سمع أبنائها الصوت الموقظ الذي يفزع عليه النائم ينفض عن نفسه الخمول والأحلام الهائمة والأماني الباطلة المكذوبة

وقد عاش الشرق من قرون طويلة وهو يجد الحياة من حوله فاترة ساكنة بليدة ميتة الظلال عليه، وجاء بعض أبنائه من سراديب الفكر البعيدة يصرخون ليوقظوا الأحياء الذين ضرب على آذانهم بالأسداد، وغشاهم النعاس عجزاً وذلاً ومهانة، ولكن هؤلاء رجعوا وارتدوا، ولم يسمع الناس، وإنما سمعوا هم صدى أصواتهم وهي تتردد في قفر خراب موحش

أما اليوم الذي نحن فيه، فقد جاءت الشرق القارعة التي حلت بديار الناس وبدياره، وهو يسمع صليل صواعقها بأعصابه كلها لا بآذانه وحدها، وهو يفيق من نومة طويلة على ما لا عهد له بمثله. فهل يحق لنا أن نؤمل أن هذا الصليل المفزع سيجعل الشرق يلمُّ ما تشعث من حياته ليستقبل حياته الجديدة قد جمع قواه للنهضة والوثبة والانقضاض على أوثان المظالم القديمة التي نصبت فعبدها من عبد ممن خشعوا

وذلوا، وطمعوا في رحمة الطواغيت فما نالوا - على أوهامهم - إلا فُتاتاً من موائد هذه الطواغيت المتوحشة المستبدة الطاغية؟

إن الشرق اليوم يجب أن يسأل سؤالاً واحداً يكون جوابه عملاً صارماً نافذاً لا يرعوي دون غايته، وهذا السؤال هو أول سؤال ينتزع إنسانية الحي من الموت الفادح، إذا كان الدافع إليه هو رغبة النفس في تحقيق إرادتها تحقيقاً لا يبطل. من أنا؟ هذا هو السؤال؛ فإذا أخذ الشرق يسأل يحاول أن يصل إلى حقيقته المضمرة في تاريخه، فهذا بدء النصر على الأيام الخاملة التي غط غطيطه في كهوفها المظلمة

ولكن البحث عن الحقيقة هو أبداً أروع شيء وأخوف شيء؛ فإن السائل شاك حائر، فإذا لم يستعن في حيرته بالسداد في الرأي وطول التقليب وحسن الاختيار وبالله التوفيق، فإن السؤال سوف ينزع به وينبث عليه ويأخذه ويدعه حتى تتحطم قوته على جبل شامخ قد انغرست فيه أشواك صخرية من الحصى المسنون، ويرجع مجرَّحاً تدمى جروحه، يتألم ويتوجع ويشتكي قد أعياه الصبر على الذي يلقاه من أوجاعه

فحاجتنا في البحث عن الحقائق التي يتطلبها هذا السؤال أن نتدرع بقوة اليقين مما نحن مقبلون عليه من مجاهله ومنكراته، وأن نستجيش للنفس كل ما يزعها ويكفها عن الشك

والتردد، وأن نقبل على دراسة أنفسنا بفضيلة المتعلم المتواضع، لا برذيلة المتعالم المتشامخ، فإن بلاء التعلم والدرس هو كبرياء الحمقى وغرور ذوي العناد والمكابرة

والأمر كله الآن بيد الشعب أفراداً أفراداً، فإن العادة المستقبحة في هذا الشرق أنه يكل كل أمره إلى حكوماته التي أثبتت بوجودها إلى اليوم أنه لا وجود لها في حقيقة الحياة الشرقية. فالحكومات لا تستطيع أن تضع في روح الشعب هذا الإلهام الإلهي السامي الذي يشرق نوره على الإنسانية فيجلي لها طريقها، وينفي عنها خبثها، ويغسلها بأضوائه المنهلة من أعراض البلادة وجراثيم التفاني والانقراض

ليس لشرقي أو عربيٍّ بعد اليوم أن يقف مستكيناً يقول لحكومته: افعلي من أجلي يا حكومتي العزيزة!! بل يجب أن تكون كلمته: اعملي يا حكومتي فإذا أسأت فأنا الذي سيصحح أخطاء أعمالك الرديئة! ويجعل كل أحد منا همه سامياً إلى غاية، وأمله معقوداً بغرض، ويبيت ليله ونهاره يتَدارَس في نفسه وفي أهله وفي عشيرته وفي شعبه، وفي التاريخ النبيل، وفي التراث المجيد - حقيقة ما يجب أن يتعرَّفه من شُعَب هذا السؤال الواحد: من أنا؟؟

والدعوة الجديدة إلى اليقظة الشرقية والعربية والإسلامية يجب أن تقوم على إثارة الشعب كله ليسأل كل أحد نفسه هذا السؤال: من أنا؟ فالعالم والأديب والشاعر والفيلسوف والعامل والصانع وأعضاء الأمة على اختلاف منازعهم ونوازعهم يجب أن يشعروا في قلوبهم بحاجتهم إلى هذا السؤال، وأنهم موكلون به لا يهدءون، وأنهم دائماً في طريقهم إلى جمع الحقائق للجواب عن هذا السؤال الواحد

أما قيام الدعوة على البحث عن طرق الإصلاح وأساليب الإصلاح وتحقيق ذلك بالطرق العلمية. . . إلى آخر ما يقال في هذا الباب من القول، فما يجدي على الأمة شيئاً إلا ما أجدى قديم ما رددوه ولاكوه ومضغوه من الآراء التي عانوا وضعها، فلما وضعوها ماتت في المهد. وليس يمنع البحث عن مثل هذه الأشياء أن نكون أول ما نكون سباقين إلى الأصل الذي يجب أن تقوم عليه هذه الأشياء كلها

إن الأمم لا يُصلحها مشروع ولا أسلوب من الحكم، ولا بابٌ من الإصلاح، وإنما يحييها أن يكون كل فرد فيها دليلاً - بما فيه من الحركة النفسية - على أن الحياة التي يعيشها هي

إثباتٌ لوجوده. ولا يثبت الوجود للحيّ إلا بقدرته على الاحتفاظ بشخصيته، ولا يحتفظ المرء بشخصيته إلا أن يكون قد استوعب فهم ما يستطيع من حقيقة هذه الشخصية، وهو لا يفهم هذه الشخصية إلا أن تكون كل أفكاره منتبهة لتحليل كل شيء يعرض له، وذلك حين يكون كل همه في البحث عن أشياء هذا السؤال الواحد: من أنا؟

فإذا استطعنا في هذه الساعة الهائلة من تاريخ العالم وتاريخ الإنسانية أن نجعل طبقات الشعوب الشرقية تثور ثورتها على الفتور والجهل والغباء والبلادة وقلة الاحتفال بالحياة، وأن نجعل سلاح الثورة على أحسنه وأجوده وأمضاه في هذا السؤال، فقام كل أحد يسأل بمن أنا؟ فتجديد الحياة في الشرق حقيقةٌ لا مناص للعالم بعدها

من الاعتراف بأنها واجبة الوجود على الأرض. وأما إذا انطلقت مع أحلام النوم وفلسفة الأحلام، وجعلنا نلبس مُسُوح العلماء والمفكرين، وجلابيب الوقار والسمت. . . أي البلادة! فقد هلك على أيدينا من كان حقه علينا أن نجعل هذه الأيدي خدماً في حاجاته ومرافقه

إن من الهراء أن تأتي مجلس قوم من بلداء المهندسين قد اختلفوا في الأرض: هل تصلح لوضع الأساس أو لا تصلح؟ فتحدثهم أنت أن الرأي أن يتحولوا إلى مكان آخر من صفته ومن نعته. . . مما يصلح عليه البناء! فإن هؤلاء إذا بدءوا أمرهم بالاختلاف على ما يجدون عنه مندوحة، فاعلم أنه لا فلاح لهم، وإنما الرأي أن تتحول أنت عن هؤلاء البلداء إلى من تجد عنده من الانبعاث إلى العمل ما لا يجد معه وقتاً يضيعه في ترجيح بعض ما يختلف عليه على بعض آخر

فالطريق الآن إلى الحياة الجديدة أن يتحول الشرق عن أصحاب الاختلاف والمنابذة وعلم الآراء التي يضرب بعضها وجوه بعض تناقضاً وتبايناً وافتراقاً، وأن يصغي إلى حنين النفوس المتألمة التي تحن وتئن من أشواقها، فيتجاوب حنينها نغماً روحياً فيه حركة الحياة، وحرارة الوجد، وأضواء الأمل. وعندئذ يستجيب القلب للقلب، وتستمد الروح من الروح، وتثور الأشواق الخالدة في القلوب الطامحة والأرواح السامية، وبذلك تستحث الحياة الحياة إلى الغاية التي يرمي إليها الشرق بأبصاره من تاريخه ومن وراء التاريخ

إن عمل العامل في أول الطريق غير عمله في آخره، فنحن سوف نبدأ - وسنبدأ بإذن الله -، فعملنا الآن هو إنقاذ أرواح الملايين من الموت ومن الفتور ومن الكسل، وليس عملنا

أن نضع لأسس العلمية أو السياسية أو الأدبية لأرواح موات لا حركة فيها ولا انبعاث لها. وما جدوى علم لا روح فيه؟ أو سياسة لا نشاط فيها؟ أو أدب لا قلب له؟

إن عمل من يريد أن يعمل اليوم هو أن ينفخ في صور جديد يكون صوته فزعاً جديداً مع الفزع الأكبر الذي نحن فيه، حتى تنبعث الأمم الشرقية من أجداثها ثائرة حثيثة قد احتشدت في ساحة الجهاد تلمع قسماتها بذلك اللهيب المتضرم الذي يتوقد بالأشواق، وتلمح نظراتها لمحاً بالشعاع الظامئ المتوهج بالأماني المرهقة المتسعرة، وتتجلى في كل عضو منها تلك القوة المعروفة في العضلات المفتولة، يخيل لمبصرها أنها تكاد تنفجر من ضغط الدم في أنهارها وأعصابها لولا ما يمسكها من جلدة البدن

يومئذ يكون جواب الشرق عن سؤاله: من أنا؟ عملاً صامتاً لا يتكلم، لأنه لا يضيع أيامه في إسماع الزمن الأصم أساطيره الباطلة التي يرويها عن أحلام البلادة والجهل والخمول.

محمود محمد شاكر

الفروق السيكولوجية بين الأمم

للأستاذ عبد العزيز عبد المجيد

الفروق الذكائية

في سنة 1928 دعت وزارة المعارف المصرية الدكتور كلاباريد أستاذ علم النفس بجامعة جنيف لدراسة حال التعليم في مصر ومعرفة مواضع النقص فيه، واقتراح الإصلاحات الضرورية للمناهج وطرق التدريس ونظام المدارس على أسس من التربية وعلم النفس. وكان مما قام به الأستاذ هو إجراء بحوث اختبارية في الذكاء على طوائف من التلاميذ في جميع مراحل التعليم لمعرفة مستوى ذكاء التلميذ المصري واتجاه نموه العقلي. وقد أجرى الأستاذ فعلاً عدة تجارب - بمساعدة عدد من الأساتذة المصريين - لقياس الذكاء، واستخدم أنواعاً مختلفة من المقاييس من بينها مقياس الدكتور بالارد. وكان هذا المقياس قد جرب في إنجلترا وفي البلجيك وقُنِّن. ولكن الأستاذ أدخل عليه بعض التعديلات ليناسب الناشئة المصرية. وقد أظهرت النتائج التي أسفرت عنها اختبارات الذكاء أن مستوى الذكاء عند التلاميذ المصريين - ما عدا البنات اللواتي تتراوح أعمارهن بين الثامنة والعاشرة - أقل بكثير من مستوى الذكاء عند التلاميذ البلجيك والإنجليز

وقد استرعت هذه النتيجة انتباه الدكتور واهتمامه، فجعلته يحاول معرفة هذا التأخر الذكائي، فذهب يفرض له فروضاً، وشرع في درسها، وكان من بين الفروض التي

افترضها ورفضها أن سبب هذا النقص هو انحطاط في فطرة الطفل المصري. وهو يقول في تقريره: (هذا وليس في الأسباب ما يحدو بنا إلى الاستناد إلى الغباوة الفطرية كخصيصة في الطفل المصري، لأننا إذا راعينا النتائج الفردية، ولم نقتصر على المتوسطات وحدها، فإنا واجدون في جميع أدوار أعمار الأطفال طائفة من نتائج اختبارهم أحسن ما تكون. وفي هذا ما لا يبرر الاستناد إلى الانحطاط الفطري) ثم هو يذهب فيبحث فروضاً أخرى ويرى (أن تأثير الوسط المحيط هو ما يصح الاستناد إليه في كثير من الوثوق والتأكد لتعليل ذلك الانحطاط. فقد دل عدد كبير من البحوث التي أجريت على أن مستوى عقل الطفل يترتب إلى حد ما على الوسط الاجتماعي الذي يمت إليه بصلة ما، وعلى وسطه العائلي الخاص أيضاً. وبدهي أن الأطفال الذين في أسرة مثقفة يعلو مستواهم على مستوى غيرهم) نعم يعود الدكتور فيؤكد أن الوسط تقع عليه إلى حد كبير مسئولية رداءة النتائج العامة التي وصل إليها في اختبار ذكاء الطفل المصري، ومقارنتها بذكاء الطفل الأوربي، ويشير إلى سبب آخر من أسباب الانحطاط الذكائي خاص بالتجارب التي أجراها، ويقول: (إن نصف النتائج التي حصلنا عليها عن أطفال وشبان من تلاميذ المدارس الأولية والفنية أو مدارس المعلمين الأولية، أي من وسط اجتماعي متواضع. وقد قلنا إن نتائجهم أحط بكثير من نتائج المدارس الابتدائية والثانوية باعتبار التساوي في السن بينهم جميعاً، وأنها كانت لهذا السبب باعثاً على هبوط المتوسط العام. ولا شك في أن ما أبدته اختباراتنا من نقص النمو العقلي يعزى في بعضه إلى هذه الحال. والواقع أن الأطفال والشبان المصريين من الطبقات الدنيا تنقصهم الأسباب المنشطة للعقل، والبواعث التي تستثير دفين الذكاء، كما تنقصهم لتفتيق أذهانهم تلك الفرص التي كثيراً ما تستح للأطفال الصغار الأوربيين في حياتهم) ساهم الأستاذ القباني بنصيب وافر في إجراء الاختبارات التي قام بها الدكتور كلاباريد ومراجعة نتائجها، ولكنه لم يقتنع بصحة هذه النتائج، لأنه كان شاكا في صلاحية مقياس بالارد لاختبار ذكاء التلاميذ المصريين، للاختلاف الكبير بين البيئة المادية والاجتماعية المصرية وغيرها من البيئات الأوربية، وهذا ما يجعل الأسئلة التي يختبر بها ذكاء التلاميذ الإنجليز أو البلجيك لا تناسب بالضرورة التلاميذ المصريين. من أجل هذا اتجهت عناية الأستاذ لدراسة الذكاء المصري، فأجرى عدة بحوث كانت أغراضها: التحقق من صلاحية كل سؤال من أسئلة بالارد لاختبار الذكاء في مصر، وحذف الأسئلة التي يثبت عدم صلاحيتها وإضافة أسئلة غيرها لتكوين مقياس مصري للذكاء، وإجراء هذا المقياس الأخير على تلاميذ المدارس الابتدائية ومن في مستواهم للوقوف على حقيقة عقليتهم. وقد نجح الأستاذ في تحقيق هذه الأغراض، وكأنه بعمله هذا أراد أن يختار من التلاميذ المصريين من تشابه بيئته - المدرسية والاجتماعية إلى حد ما - بيئة التلاميذ الأوربيين، حتى تكون المقارنة بين متوسط الذكاء المصري والذكاء الأوربي مقارنة عادلة. وقد كشفت اختبارات الأستاذ عن متوسط لذكاء تلاميذ المدارس الابتدائية أرقى من ذلك الذي وصل إليه كلاباريد، كما أيدت اختباراته نظرية تأثير الوسط في الذكاء، فقد وجد أن المدارس التي يغلب على تلاميذها أن يكونوا من أوساط اجتماعية راقية تتفوق في الذكاء في كل عمر على المدارس التي يغلب إلى تلاميذها أن يكونوا من أوساط اجتماعية متواضعة، وأن الفرق بين ذكاء هذين النوعين من المدارس ليس كبيراً إذا قيس بالفرق بين متوسط ذكاء كل منهما ومتوسط ذكاء المدارس الأولية

رأينا إذاً كيف تتعسر المقارنة بين متوسط ذكاء أمة ومتوسط ذكاء أمة أخرى لاختلاف البيئات، هذا الاختلاف الذي له أثره في تنشيط الذكاء الفطري وشحذه، ولصعوبة إيجاد (عينات) ممثلة كل التمثيل لأفراد الأمة وأوساطها المختلفة تجري عليها اختبارات الذكاء. وعلماء النفس يدركون هذا التعسر ويُقرّونه، ولكنهم بالرغم من ذلك حاولوا التغلب عليه ودراسة الفروق الذكائية بين الأمم، فالتجارب التي أجريت في الولايات المتحدة لقياس ذكاء الزنوج ومقارنته بذكاء الأمريكيين البيض أسفرت عن أن الزنوج أقل ذكاء من الأمريكيين في كل المقاييس التي تتطلب حل معضلات معنوية مجردة بينما يقربون من الأمريكيين أو يشابهونهم في الذكاء الذي يحتاج إليه في حل المعضلات العملية أو المحسوسة، كما تدل على ذلك نتائج المقاييس العملية ومما لا

جدال فيه أن القدرة على التفكير المعنوي المجرد والحكم تتأثر إلى حد كبير بالتربية والثقافة العامة، ونوع العمل الذي يقوم به الفرد. ومهما يكن السبب - وراثياً أو بيئياً - فالحقيقة الواقعة هي أن الزنوج أحط ذكاء كجماعة من الأمريكان البيض

في أثناء الحرب الكبرى الماضية قيس ذكاء أفراد الجيش الأمريكي، وكان بينهم جماعات ذوو جنسيات أوربية مختلفة: إنجلترا، وهولانديون، ودنماركيون، وإيطاليون الخ. وقد استغل علماء النفس نتائج اختبارات الذكاء في معرفة ما إذا كانت هناك فروق ذكائية بين الأمم الأوربية ممثلة في جماعات الجيش الأمريكي. درست النتائج دراسات إحصائية مطولة، وكان ترتيب الأمم ترتيباً تنازلياً بحسب الذكاء هو:

إنجلترا (2) اسكوتلندا (3) هولندا (4) كندا (5) ألمانيا (6) الدانمراك (7) السويد ((1) 8) النرويج (9) ايرلندا (10) النمسا (11) تركيا (12) الروسيا (13) البلجيك (14) اليونان (15) إيطاليا (16) بولندا

والمتأمل في هذا الترتيب يرى أن سكان الأقطار الأوربية الشمالية (الجنس الشمالي) أذكى

من سكان الأقطار الأوربية الوسطى (الجنس الألبي) وهؤلاء أذكى من سكان أقطار البحر الأبيض المتوسط. وقد وجِّهت انتقادات كثيرة لهذه النتيجة السابقة، أهمها هو أن هذا الترتيب لا يصح أن يؤخذ على أنه ترتيب الذكاء الفكري عند هذه الأمم. وهذا انتقاد وجيه، ولكن أقل ما يدل عليه هذا الترتيب هو مقدار تأثير التربية المدرسية والثقافة الاجتماعية في إظهار ذكاء الأمم

وثمة اختبارات أخرى أجريت على صبيان ولدوا في الولايات المتحدة وآباؤهم من جنسيات مختلفة، وكانت أعمارهم تتراوح بين الخامسة والنصف وبين الثامنة عشرة. وكان هؤلاء الصبيان يتعلمون في المدارس العامة وقد بلغ عدد من اختبر ذكاؤهم 5504 تلميذ، وكانت تربيتهم المدرسية متشابهة بصفة عامة، كما كانوا يعيشون في بيئات متجاورة ومتقاربة الثقافة. وكانوا جميعاً يعرفون اللغة الإنجليزية بجانب لغتهم الأصلية. وقد رتبت نتيجة ذكائهم ترتيباً تنازلياً، فكان الترتيب كما يأتي:

اليهود البولنديون، السويديون، الإنجليز، اليهود الروس، الألمان، اللتوانيون، الأيرلنديون، الكنديون البريطانيون، الروس الخلص، البولنديون الخلص، الإغريق، الإيطاليون، الكنديون الفرنسيون، البرتغاليون. وسأترك للقارئ المقارنة بين هذه النتيجة ونتيجة الاختبارات السابقة لها

هذا وخلاصة القول هي أن علماء النفس متفقون على أن الاختبارات التي أجريت حتى الآن تدل على وجود فروق ذكائية بين الأمم المختلفة. ولكنهم مختلفون في سبب هذه الفروق؟ أهي فطرية جنسية، أم بيئية ثقافية، أم هما معا؟ والجمهور على الرأي الأخير.

عبد العزيز عبد المجيد

لمح وجيزة عن

كتاب الديارات

لأبي الحسين علي بن محمد الشابشتي

للأستاذ صلاح الدين المنجد

وبعد فهذا كتاب جليل، حوى ما طَرُف من أخبار الأدباء وما لَطُف من سِيَر . . . الشعراء وما فُقد من أحاديث الندامى وأفاكيه الأمراء في العصر العباسي الأول، سمّاه صاحبه (كتاب الديارات)، وجعلها سبيلاً إلى سرد ما حفظه من أخبار أهل الأدب وطرائفهم؛ فجمع فيه ما لا تجده في غيره من الكتب. فهو مؤلّف ثمين جدير بأن ينوّه به ويكتب عنه

كيف عثرنا عليه

عنيت منذ زمن طويل بدراسة أثر الأديار في الأدب العربي، فقد كان أهل بغداد يعيشون في عالم مِلؤه الهدوء والسلام، ساجين في النعيم، غارقين في اللذائذَ واللهو والمجون. وكانت الديارات من المواطن التي يحلو فيها الغناء والشراب، وتصفو بها القلوب والنفوس. وكان يرتادها خلعاء الشباب ومترفو الناس، ومُجّان الأمراء والشعراء؛ يجدون فيها ما تشتهي الأنفس من خمر ولذة وجمال. وكان أهل هذه الدايارت يرحبون بالطُّرَّاق: يهشون لهم ويأنسون بهم، ويعطونهم من أنفسهم

وأموالهم ما يشتهون، ليفتنوا المسلمين عن دينهم ويوجهوهم وجهة كلها فتون ومجون وإغراء، فكان الشعراء ومن اتبعهم يهتزون لمرأى الراح والريحان والبيض الحسان، فيجيش في صدورهم الشعر، ولكنه شعر رقيق فيه صفاء وملؤه أنغام، وصفوا فيه الدير والديار، والقسَّان والغلمان، والعذارى والمتبتلات، والصليب والناقوس، والخمر والنديم، والمسوح والصلاة. فقد وجدوا في هذه الأديار عالماً جديداً فيه بشر وانطلاق وسرور وحبور وسع الأخيلة وأبهج النفوس

وقد أورد ياقوت في معجمه طرفاً من الأشعار التي قالها روَّاد تلك المواطن. وقد نقل عن (الشابشتي) مؤلف هذا الكتاب كثيراً. ثم جمعت ما ذكره صاحب مسالك الأبصار في الديارات وأهلها، ووددت لو أقع على نسخة من كتاب الشابشتي، حتى زرت مكتبة المجمع العلمي العربي بدمشق، وعثرت فيها على نسخة فوتغرافية له، أخذت عن نسخة مصورة

أخرى من الخزانة التيمورية. وكان أحمد تيمور باشا قد أرسل فصوّرها عن نسخة خطية فريدة موجودة في خزانة برلين تحت رقم (1100)

قرأت الكتاب فأغرتني طريقته ونوادره وأخباره، وما ضم من أحاديث مفقودة وأشعار رقيقة مجهولة، وتراجم شعراء جمعوا بين الرقة والعذوبة فأتوا بشعر منه المطرب ومنه الراقص، فنسخت الكتاب، وعزمت على تحقيقه وفهرسته وشرحه وجمع ما ضاع منه وحفظته الكتب الأخرى، وبدأت العمل منذ شهور وشهور، ووضعت للأديار مخطَّطاً يبيّن مكان كل منها. على أنى لاقيت في تحقيقه العناء والبلاء، ولا يعرف الجهد إلا من يعانيه، ولن يمضي إلا القليل - إن شاء الله - حتى يكون الكتاب جاهزاً

أول من نوه بالكتاب

وأول من نقل عن هذا الكتاب ونوه به هو السيد حبيب الزيات، فقد أخرج للناس في تموز من عام 1935 عدداً خاصاً من مجلة (المشرق) الكاثوليكية في بيروت عن (الديارات النصرانية في الإسلام)، فنقل عنه نقولاً كثيرة وبحث في الديارات ونشأتها وأهلها. ولكنه لم يتجرد في بحثه عن تعصب وافتراء، شأنه في مباحثه التي يديرها حول النصرانية وأهلها وأمورهم في الإسلام. على أنه نوّه بالكتاب وقال عنه: إنه جدير بالخدمة وجدير بالتحقيق

وصف الكتاب

والكتاب يقع في (135) صفحة فوتغرافية، كل صفحة ضمت صفحتين من صفحات الكتاب الأصلية، فيكون عددها إذن (270) صفحة، في كل صفحة - على الغالب - خمسة عشر سطراً، وقد كتبت بخط شديد الشبه بالنسخي، مضبوط قليل الأخطاء، أسقطت منه الهمزات، كما أسقطت منه (التعقيبة) في كثير من الصفحات، وما وضع منها فهو بخط يختلف عن خط الناسخ. وقد سقطت من أوله أوراق كثيرة فيها ذكر ديارات الشام. على أن في ياقوت ومسالك الأبصار نقولاً عن الشابشتي تتعلق بها

أما الصفحة الأولى منه فلم يظهر فيها إلا:

بسم الله الرحمن الرحيم. وصلى الله على سيدنا محمد

ثم يلي ذلك جمل مضطربة سقطت بعض كلماتها، وحروف وأرقام، ثم يبتدأ الكتاب بما يلي:

الدار التي بناها الديلمي أحمد بن بويه بباب الشَّماسيَّة. وموقعه أحسنُ موقع. . . وهو (تَرِهٌ كثير البساتين والأشجار. . . الخ)

وفي آخر صفحة منه:

تمَّ كتاب الديارات بحمد الله وعونه وقوته وحسن توفيقه. ووافق الفراغ منه في ليلة (صباحها يوم الخميس السادس عشر من شهر ربيع الآخر سنة إحدى وثلثين وستماية). كتبه العبد الفقير إلى رحمة الله عبد الحليم بن محمد ابن عبد الوهاب بن أحمد بن (عربي الدمشقي، المعروف جده بالنحوي. وهو يسأل الله أن يغفر ذنوبه ويستر عيوبه. والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين).

نسخ الكتاب

وفي دار الكتب المصرية نسخة مخطوطة من هذا الكتاب. وقد أخبرني صديقي الأستاذ شكري فيصل بأنها رديئة قليلة الضبط لا يستطيع المحقق أن يعتمد عليها. وكنت

أخبرت بذلك صديقي الجليل سيد النثر الأستاذ أحمد حسن الزيات بغية أن يعلمني شيئاً عن الكتاب، ولكنه تكرم فطلب أن (أنشر فصلاً منه وأن أكتب كلمة عنه) فخصصت هذه الكلمة بالرسالة، ومن أحق من الرسالة بهذه البشرى وهذه المباحث؟
وقد ذكر الأستاذ حبيب الزيات في رسالته (الديارات النصرانية في الإسلام):
إنه كان من هذا الكتاب نسخة ثمينة مزوقة وقف عليها شمس الدين محمد بن) طولون الدمشقي في القرن العاشر للهجرة (عن ذخائر القصر في تراجم نبلاء العصر لابن طولون الحنفي، رقم 1422 من الخزانة التيمورية) ولا يخفى ما فاتنا بفقدها من الفائدة الجُلّي، لإمكان دلالة ما فيها من الصور والأشكال على رسوم الديارات (الديارات النصرانية: مقدمة) (وضروب أبنيتها
فالكتاب إذن قيم ذو شأن لما جمع وحوى. ترى من هو مؤلفه الشابشتي. . .؟
والشابشتي هذا نديم بارع وأديب فاضل، ولاّه العزيز صاحب مصر خزانة كتبه، ولعله ألف هذا الكتاب وهو قائم عليها، وله تآليف كثيرة ضاع أكثرها، منها (اليسر بعد العسر) نهج فيه نهج القاضي التنوخي في كتابه (الفرج بعد الشدة) وما ندري أيهما أخذ عن صاحبه نهجه فقد كانا معاصرين ولكن توفي القاضي التنوخي قبل الشابشتي بأربع سنوات (توفي الشابشتي سنة 388 هجرية، وتوفي القاضي سنة 384) والمرجح أن الشابشتي أخذ عن التنوخي
طريقة الكتاب
قلنا إن المؤلف قد جعل الديارات سبيلاً إلى ذكر أخبار الشعراء والأمراء، فهو يذكر الدير وموقعه وما يحده وما يتصف به، ثم يذكر من زاره من الشعراء، ثم يستطرد إلى الشاعر فيورد ما قاله في الدير من شعر، ثم يتنقل إلى سرد أخباره، فإن كان الزائر من الندامى ذكر الخلفاء الذين نادمهم واستطرد إلى ذكر بعض نوادرهم، وإن كان من الأمراء ذكر بذخه وترفه ومجونه ولهوه ولك ما يتصل بحياته الخاصة بسبب، وهو بطريقته هذه قد ترجم لكثير من الشعراء والندماء والمغنين والولاة والخلعاء والأمراء والخلفاء وما بنوه من قصور وما أقاموه من حفلات وما أنفقوه من أموال. وفي الكتاب فصل فريد لم أعثر عليه في كتب الأدب وهو وصف حفلة أقامها المتوكل لأعذار المعتز وهو في منتهى الطرافة، وسننشره إن شاء الله في العدد القادم:
(دمشق)
صلاح الدين المنجد
من عجائب الاجتهاد. . .!
(لناقد أديب)
منذ عامين رأى الدكتور بشر فارس أن يخرج للناس مسرحية رمزية يثبت بها اتجاهاً جديداً في عالم القصص الرمزي
وبعد التحصيل والروية والاجتهاد، كما يقول الدكتور الفاضل في مستهل توطئته، صنع هذه القصة أو المسرحية الرمزية وعنوانها (مفرق الطريق) وقال في تبيين موضوعها وتوضيح فكرتها: إنه مفرق طريق ينحدر يساراً إلى ظلمة، حيث الشعور، ويمتد يميناً مناراً في صعود مثلوجة، حيث العقل. وفي هذا المفرق الصراع بين العقل والشعور، فإما أن ينتصر الشعور فينحدر المرء في ظلمة تحترق عندها النفس، وإما أن ينتهي الصراع بانتصار العقل فيسلك المرء في صعود مثلوجة يحيا عندها بنجوة من الاحتراق.
ثم يقول (على ما هو مبين في رسم الغلاف)
ورسم الغلاف هذا صورة رمزية أيضاً من تصميم المؤلف نفسه، تمثل جبلاً عالياً ذا قمة مغطاة بالثلوج، ومنحدراً ينتهي إلى غور مظلم يتضرم بحرارة الحياة
ومنذ اثنتي عشرة سنة أنشأ الأستاذ عباس محمود العقاد قصيدة رمزية في ديوانه صفحة (206) عنوانها: (القمة الباردة) حيث يعيش العقل متجرداً من الشعور في عالم ثلجي لا يشعر فيه بحياة
ومن عجائب التحصيل والروية والاجتهاد أن الفكرة التي جعلها الأستاذ العقاد لباب موضوعه، والموضوع الذي بنى عليه قصيدته هما نفس الفكرة وذات الموضوع الماثلتان في مسرحية بشر فارس!
ومن عجائب التحصيل والروية والاجتهاد هذه أن يقول العقاد في مقدمة قصيدته: (إن الحي لا يعرف الدنيا إلا بالظواهر التي تقع عليها الحواس وتدركها البديهة). فيقدم بشر

فارس لمسرحيته بنفس المعنى ويقول بلسان صورة من صنع الشعور: بيني وبين بصرك صلة اليقظة والإحساس بالوجود. ويقول عن رسم من صنع العقل: أفلا تقبض صدرك البرودة المنسابة فيه؟

ومن عجائب التحصيل والروية والاجتهاد أن تكون (القمة الباردة) في قصيدة العقاد هي

في المسرحية ص 14، وأن يكون الطريق الذي يسلكه العقل في (الصعود المثلوجة) الصعود المثلوجة مُناراً، لأن القمة الباردة في قصيدة العقاد لا تعرف اختلاف الليل والنهار

هنالك لا الشمس دوَّارة ... ولا الأرض ناقصة زائدة

وأن تكون (القمة الباردة التي تعلوها الثلوج و (ثلوج الذرى) التي (تفتر عندها الحياة) والتي (لا يشعر عندها بحياة) كما كتب العقاد في قصيدته - هي في مسرحية بشر فارس (الآن أعيش في الثلج ص 25) و (إنما أحيا والثلج من حولي ص 25) و (إنما حياتي في الثلج ص 27) و (بيني وبينك الثلج لا يبرح قائما ص27) و (أحرقته وهو يثلجني ص 36) و (سيثلج بعضي بعضاً منذ الآن ص 37) فهذه مسرحيته طمرتها القمة الباردة بثلوجها كما قدمنا في هذه الكلمة

ومن عجائب التحصيل والروية والاجتهاد أن تدور هذه المسرحية حول الفكرة التي تدور حولها القصيدة وأن يكون ختام المسرحية والقصيدة واحداً لا تباين ولا خوف؛ فإذا دعا العقاد إلى النزول من هذه القمة والانحدار إلى الغور المتضرم بحرارة الحياة إلى الغور!! أما ثلوج الذرى ... فلا خير فيها ولا فائدة

ختم بشر فارس مسرحيته أيضاً بالدعوة إلى النزول من الصعود المثلوجة بقوله: (خذا هذا الطريق، الذي لا نور فيه، الذي ينحدر)

من عجائب التحصيل والروية والاجتهاد أن يقع هذا كله، وأن تأتي عجائب أخر في التحصيل والروية والاجتهاد أيضاً من قصيدة للشاعر علي محمود طه عنوانها (قلبي) (ديوان الملاح التائه طبعه عام 1934). في ختام هذه القصيدة يصف الشاعر الصراع بين القلب والعقل أو الشعور والعقل فيقول مخاطباً قلبه:

ووشيت حين أخبَّك الليلُ ... متمرداً تجتاحك النارُ

وبدا صراعك أنت والعقلُ ... ولأنّتما بحرٌ وإعصارُ

ما بين سلمكما وحربكما ... كونٌ يبين ويختفي كونُ

وبينمّا الدنيا وحسبكما ... دنيا يقيم بناءها الفنُّ

فيجيء الدكتور بشر فارس في عام 1938 ليقول في هذا المعنى (يلتقي العقل والشعور فيتجاذبان المرء، ولكل منهما حظه من القوة والغلبة، وأما الجانب المظلم فحيث يقهر

(. . .الشعور العقل، فينحدر المرء وقد عمى رشده إلى غاية تحترق عندها النفس الخ

فتجاذب الشعور والعقل القوة والغلبة هو في قصيدة علي محمود طه (وبدا صراعك أنت والعقل)

والقلبُ الذي أجَنَّهُ الليلُ في القصيدة هو (الشعور في الجانب المظلم)، والقلب الذي يجتاحه النار في قصيدة علي محمود طه هو النفس التي تحترق في مسرحية بشر فارس. وهكذا ترى هذا الصراع الذي يبدو محدداً بخطوطه، مصوراً بألوانه، في قصيدة الشاعر، منقولاً بإطاره في مسرحية الكاتب،

كما رأيت القمة الباردة فكرة وموضوعاً ماثلة بذاتها في المسرحية وتوطئتها حتى بعض العبارات ودلالاتها وإن اختلفت لفظاً وتركيباً، وكأن يقول الأستاذ العقاد: (التي لا يشعر عندها بحياة)

فيقول الدكتور بشر: (يعوزه لهب الحياة)

وبعد فهذه مسرحية رمزية من فصل واحد صفحاتها مردودة وألفاظها معدودة، لم يبق منها لكاتبها التحرير سوى زهرة تضوع، ونهر يهدر، وإضافات تائهة في منعطفات الروح ومثاني المادة (كذا)، وراقصة متشنجة تكِنى بالتلوّي والتوتر (كذا) وتغرف بذراعيها طرائف من الهواء (كذا)، وغير إنسان أبله يعوي مقلداً الكلاب (كذا)، ثم كلب مسكين يتهمه المؤلف بامتصاص القصب!! (كذا)

وهذا ولا شك كما قلناه وأثبتناه وأعدناه من عجائب التحصيل والروية والاجتهاد في

زمن اصطناع المسرحيات الرمزية من قصائد الشعراء.
(ناقد أديب)
الحرب في أسبوع
للأستاذ فوزي الشتوي
المؤامرة
يرى كثير من الناس أن الصراع الحالي مؤامرة سياسية عسكرية نظمتها الدول الدكتاتورية بمهارة وإتقان منذ سنوات، ويرون أيضاً أنها تسير بخطوات متزنة، فلم يطرأ عليها حتى الآن خلل يستحق الذكر. أما رأس هذه المناورة فألمانيا، وأطرافها إيطاليا والروسيا واليابان وأسبانيا
ويستدلون على ذلك بتسلسل عدة حوادث أدت إلى انهيار فرنسا، وإذا صادفها النجاح إلى النهاية فقد تؤدي إلى انهيار إنجلترا أيضاً. فقد وضعت فرنسا سياستها عقب الحرب الكبرى على تطويق ألمانيا بالدول الصغيرة التي تعتمد على ولائها لفرنسا مثل بولندا وتشيكوسلوفاكيا والنمسا وبلجيكا
فعمدت ألمانيا من جانبها إلى تحطيم هذا النطاق، فنجحت رغم معارضة خططها لما كان معروفاً من قبل لخطط إيطاليا والروسيا؛ فكانت الأولى تحرص على استقلال النمسا، ومع ذلك سمحت لألمانيا باحتلالها؛ وكانت الثانية تشتهي من زمن طويل أن تحصل على مرافئ حرة على بحر الشمال، ومع ذلك سمحت لألمانيا باحتلال النرويج وأخيراً، دخلت إيطاليا الحرب تنفيذاً لاتفاقات موسوليني وهتلر، عندما كانت فرنسا في النزع الأخير. وبعد ما أفادت ألمانيا بموقفها غير المحارب فائدة كبيرة
الفرص المناسبة
ومعنى هذا أن دول المؤامرة - في عرفهم - تنفذ الجزء الخاص بها عندما تتوفر ظروف خاصة، كما حدث مع إيطاليا التي يعتبرون دخولها الحرب بمثابة بدء الجزء الخاص بإنجلترا، وبمثابة عامل يمنعها من وقف القتال إذا أرادت عقب تسليم فرنسا؛ فلن ترضى بريطانيا مثلاً أن تتجاوز عن حقها في البحر الأبيض وهو طريقها الطبيعي إلى إمبراطوريتها إذا طالبت إيطاليا ببعض هذه الحقوق، وهذا ما كان منتظراً لو استكانت بريطانيا لأعدائها
أما متى تدخل الدولة التالية ومن تكون فهذا أمر رهن الظروف، وإن كان بعضهم يرجح أن تكون أسبانيا، فلدول المحور فيها نفوذ كبير، بل إن حكومتها الحالية تدين لدولتي المحور بالبقاء. ولأسبانيا أهمية خاصة إذ يسهل من أراضيها سواء في أسبانيا أو في مراكش الأسبانية من كوتا ضرب جبل طارق، وإطلاق سراح الأسطول الإيطالي ليوالي أعماله في البحار، وينقل الجنود لمهاجمة إنجلترا. ولعل انتظار هذا الظرف هو السبب في هرب الأسطول الإيطالي من مواجهة الأسطول البريطاني
الصخرة
ويعتبر جبل طارق أقوى حصون العالم وأمنعها، فهو لسان دقيق من الصخور المرتفعة ينساب من الشاطئ الأوربي، ولا يتجاوز طوله ثلاثة أميال وعرضه ميلاً واحداً، وهو متصل بجنوب أسبانيا برقبة ضيقة من الأرض السهلة. وفي شمال الصخرة من جهة أسبانيا سهل يمتد ربع ميل به خطوط الدفاع البريطانية، ويليه الأرض المحايدة وهي رملية تمتد 1500 ياردة بطول الأرض وعرضها يختلف من 900 - 1800 ياردة، وفي نهايتها مدينة لالينيا الأسبانية
وترتفع الصخرة من الناحية الأسبانية عمودياً، ثم تتدرج إلى ناحية البحر، وارتفاع أقصى قممها 1400 قدم فوق سطح البحر. كان سطح الصخرة في أول الأمر مكوناً من الرمال والصخور في أوضاع غير منتظمة، ولكن أعمال الهندسة تناولته فبنت فيه طرقاً دائرية من الأسمنت المسلح يتجمع فها ماء الأمطار وينساب إلى أحواض عظيمة لحفظه. وبهذه الطريقة حلت معضلة ماء الشرب، وأصبح خلو الصخرة من الأنهار أو الآبار أمراً لا أهمية له
واستغلت الصخرة نفسها فعملت فيها عدة أنفاق عسكرية يوصل أحدها بين البحر الأبيض والمحيط، كما جهزت بالمدافع والحصون والمخابئ. وشيد على الشاطئ الغربي للصخرة ميناء بديع يرجع عهده إلى القرن الثامن عشر، وله شهرة تاريخية يمجدها الإنجليز فهو أول ميناء رست فيها السفينة (فكتوري) وهي تحمل جثمان

(نلسن) عقب موقعة الطرف الأغر التي دمر فيها الأسطول الفرنسي، ومنها أذيع النبأ في جميع أنحاء الإمبراطورية، ومساحة المنطقة المائية لهذا الميناء 440 فداناً مربعاً، وأطول أرصفتها 851 قدماً
منذ قرنين
وبلغ عدد سكان جبل طارق سنة 1931: 21. 372 نسمة لا يحق لأحدهم امتلاك قطعة من أرضها، بل يعيش فيها الجميع بتصاريح خاصة من حاكم المنطقة، ويتضمن هذا العدد العسكريين منهم والمدنيين
بدأت سيطرة إنجلترا عليها سنة 1704، وحاولت فرنسا وإسبانيا نزعها منها، ولكن جميع الجهود التي بذلت لم تأت بأية نتيجة. ففي سنة 1779 حاصرتها الدولتان، وكان عدد الجنود البريطانية ثلاثة آلاف جندي يقابلهم 17 ألف جندي فرنسي وإسباني، واستمر الحصار ستة أشهر خسر فيها المهاجمان عشرة آلاف مقاتل مقابل 400 بريطاني، وتوالى عليها الحصار في هذه الحرب مدة ثلاث سنوات وسبعة شهور ولكنها ظلت أمنع حصون العالم
ولا نستطيع أن نتكهن من الآن عن المصير الذي تواجهه فقد صقلت الأسلحة الحديثة إلى حد بعيد، وأصبح من السهل قذفها بقنابل المدافع من كوتا في الساحل الأفريقي، فهي لا تبعد عنه إلا 12 ميلاً، كما يمكن ضربها من أسبانيا؛ فإذا حاولت دولتا المحور مهاجمتها فسنرى لجبل طارق تاريخاً جديداً، فقد جهزه الإنجليز بأحدث الأسلحة وأبعدها مرمى، واستعدوا لجميع الظروف من تخزين مؤن وذخائر مما يجعل اقتناصها أمراً بعيد التحقيق
ومنذ سنة 1783 لم تحاول أية دولة دخلت الحرب من إنجلترا أن تطمع في مهاجمة جبل طارق أو تنازع بريطانيا العظمى السيادة فيه. ولهذه الصخرة أهمية ممتازة وخصوصاً في الحرب الحالية. في مفتاح البحر الأبيض المتوسط، ويتحتم على كل سفينة تحاول دخول هذا البحر المرور في مياها الساحلية لضيق المسافة بين الشاطئين الأفريقي والأوربي. فإذا حاولت العصيان فإنها تتعرض لقنابل مدافع الصخرة المركزة في أماكن حصينة
حلقة الحصر
ويؤدي جبل طارق في هذه الحرب مهمتين:
الأولى: حبس الأسطول الإيطالي في حوض البحر الأبيض فيتعذر عليه الخروج إلى المحيط لعرقلة الملاحة البحرية، فإن رجال البحرية الإيطالية يعرفون مقدرة الأسطول البريطاني فلا يفكرون في الاشتباك معه في معركة بحرية، وظهر هذا التصرف واضحاً عندما التقى الأسطولان في البحر الأبيض فلجأ أسطول إيطاليا إلى الهرب
والثانية: حصر إيطاليا وتعطيل تجارتها فيستحيل على سفنها أن تنقل إليها المواد الخام أو الأغذية اللازمة لسكانها. ولجبل طارق ميزة أخرى أشرنا إليها في مقالنا السابق، فهو القاعدة التي تكمل حلقة الحصر البحري على ألمانيا، وبهذا أصبحت دولتا المحور محصورتين في حلقة مقفلة، فإن نشاط الأسطول الإيطالي محصور في غرب البحر الأبيض، أما في شرقه فلبريطانيا سيادة كاملة عليه. أضف إلى ذلك قنال السويس وهو يعزل إيطاليا عزلاً تاماً عن مستعمراتها في شرق أفريقيا
وبهذا الوضع يتيسر لبريطانيا السيطرة البحرية التامة على المحيط الأطلنطي، فلا توجد فيه أساطيل تنازعها سيادته بعدما أصيب الأسطول الألماني بخسائر فادحة في النرويج جعلته مشلول الحركة
فإذا انتقلنا إلى باقي أطرا المؤامرة وهي الروسيا واليابان فقد وضحنا في مقالاتنا السابقة أن الروسيا تتبع سياسة خاصة لا تهتم فيها إلا بتحقيق أغراضها، وإن هذه السياسة لا تلبث أن تفصم العلاقات التي بين هذه الدول، فضلاً عن عداوتها واصطدام مصالحها بمصالح اليابان في الشرق الأقصى
بين الروسيا واليابان
فالروسيا تعتبر الصين وآسيا من مناطق نفوذها، واليابان تعتبرهما من مناطق نفوذها، وهي التي أصدرت المبدأ القائل: (آسيا للأسيويين) فإذا تجاوزنا اختلافهما في المبادئ إذ الروسيا بلشفية تسعى لبلشفة العالم، واليابان ملكية وللإمبراطور فيها نفوذ الآلهة، وإذا اقتصر بحثنا على اصطدام مصالحهما تبين لنا أن اتفاقهما متعذر

فإذا قلنا إن ما حدث بين الروسيا وألمانيا يمكن أن يحدث بين الروسيا واليابان وجدنا أن القياس متعذر، فإن المناوشات لا تكاد تنقطع بين قوات الفريقين، فحدودهما متجاورة وبحارهما واحدة، بل إن بعض البحار التي في شمال الجزر اليابانية والتي تحيط الأملاك الروسية فيها مصالح رئيسية لليابان؛ فهي مورد رزق لعدد كبير من صيادي السمك اليابانيين، ومصدر صناعات كبيرة في اليابان، وفي هذه البحار يتقابل الفريقان ويتناوشان.

فهذا الاختلاف البارز في علاقات الدولتين يفسر لنا الجزع الذي بدأ في أوساطهما عند ما ظهرت مساعي إنجلترا للاتفاق معهما، فكل منهما تخشى الأخرى ولا تريد أن تقوي جبهتها بالانحياز إلى جانب قوي يستطيع أن يفض خلافاتها، ومن ثم يعتبر اشتراكهما في المؤامرة الدكتاتورية اشتراك المصلحة فحسب، فإذا تيسر لإنجلترا تحقيق هذه المصالح، وهو في استطاعتها بما لها من نفوذ في الشرق فلا يوجد ما يستدعي استمرار المؤامرة ولا سيما أن الروسيا واليابان تطمئنان إلى التوسع البريطاني أكثر مما تطمئنان إلى التوسع النازي، فقد خبرا الأول وعرفا ميوله ووسائله، ولكن الثاني مجهول. وإن رجحت فيه كفة الخيانة والغدر، فالاتفاق مع إنجلترا خير من الاتفاق مع ألمانيا، لأنه اتفاق مأمون العاقبة

السياسة تعمل

أما كيف يتم هذا الاتفاق وعلى حساب أية دولة فهذا أمر ليس في استطاعة الباحث أن يجيب عليه، فقد دخلت الحرب الآن في فترة تعمل فيها السياسة والمعاهدات أكثر مما تفعل القوة العسكرية. فالحرب الآن حرب حياة أو موت تكثر فيها المقامرات، وتكثر فيها المعاهدات السرية الوقتية التي تعمل المعجزات

فمعنى أن إنجلترا تسعى لفض منازعات اليابان مع الصين أنها رأت في سكون هذا النضال مصلحة تريد استغلالها، فساستها ليسوا من الغفلة بحيث يفضون مشاكل اليابان في الصين إذا اعرفوا أن اشتراكها في مؤامرة ألمانيا وإيطاليا ما زال معقول التنفيذ

وتعرف إنجلترا ما بين الروسيا واليابان، فتلويحها بالاتفاق مع إحداهما إضعاف للمؤامرة النازية، وإنذار للأخرى، ولا سيما لما بينها وبين أمريكا من اتفاق على إنقاذ العالم من شرور النازية وأطماعها، وخصوصاً لما بين اليابان وأمريكا من اختلافات قد تؤدي إلى الحرب بينهما

واتفاق الحلفاء مع الروسيا مع ملاحظة سياستها الحالية التي تسعى إلى الحصول على أغراضها كلما سنحت الفرصة سواء كانت هذه الأغراض ضمن الاتفاق أو خارجة عنه كما شاهدنا في تصرفاتها مع ألمانيا - اتفاق لا يطمئن إليه الحلفاء. فللروسيا أطماع كبيرة في تركيا، فسياستها في جميع مراحل الحكم من قيصري وشيوعي كانت مبنية على الاستيلاء على مداخل البحر الأسود في البسفور والدردنيل، فإنه يلاحظ إذا نظرنا إلى خريطتها أنه

رغم الرقعة الواسعة التي تشغلها في القارتين الأسيوية والأوربية. يلاحظ أن منافذها البحرية الهامة محصورة وتحت تصرف غيرها من الدول، أو معطلة في جزء من السنة الروسيا تنتظر

فموانيها في بحر البلطيق تقفل أثناء الشتاء بفعل تجمد الماء، وكذلك موانيها في البحر الأبيض الشمالي بعيدة قليلة الأهمية. ويلاحظ في موانيها في البحر الأسود أن منفذها إلى البحار الواسعة تحت سيطرة تركيا، فهي تسعى للاستيلاء على البسفور والدردنيل ليكون منفذها إلى البحر الأبيض المتوسط حراً، ولتأمن الاعتداء على سواحلها في البحر الأسود من اعتداء أساطيل الدول البحرية. فإنها إذا سيطرت على هذين الجزأين أصبحت سيدة البحر الأسود وهددت البحر الأبيض المتوسط

ومن يتتبع سياسة الروسيا يشاهد أنها توفر قواتها إلى وقت تستطيع فيه استغلالها في ظروف أكثر ملاءمة، فقد احتلت نصيبها من بولندا ورومانيا دون أن تبذل أي مجهود حربي يؤثر على الجيش السوفياتي

فهي في الغالب تنتظر أن تنهك الدول المحاربة ثم تبدأ بنشر الدعوة البلشفية بين الأمم، مستندة إلى قوة الحديد والنار، ولعل هذا مما يدعو الدول الأخرى إلى التفكير في ذلك المصير إذ يهدد الخطر الشيوعي الدول المنتصرة والمنهزمة، ولا شك أن

ساسة الدول فكروا في هذا المصير طويلاً وقدروا له العلاج اللازم
فوزي الشتوي
بكالوريوس في الصحافة
سبحي معي. . .!
أنا يا أختُ شاعرٌ قسَت الدن ... يا عليه فعاشَ فيها شقيا
وأنا ابن الخيالِ والفنَّ والحبِّ ... نمتْني السماء روحاً بهيا
فتعالَيْ نعزفْ على العودِ لحناً ... يدع الكونَ مستهاماً زكيا
سبِّحي سبِّحي مَعي للذي أوْ ... دَعَ قلبيْنا حبَّنا العْذريا
يسمع الله يا حبيبةَ قلْبي ... لحبيبيْن ينشدان سويا
أنتِ أسكرتني وأنسيْت قلبي ... كرُباتٍ تركْنَ فيه دويا
أنت فتَّحت في عيونِيَ آفا ... قي وأبصَرْتني جمالاً خفيا
أنت أجرَيْت جدوَلي بعد أن كا ... نَ حبيساً مغلفاً منسيا
أنت أذهلْتني فسِرْتُ وما أدْ ... ري على كونِيَ المنوَّرِ شيا
أنت عودتني احتقار الأناسِيِّ ... وأحلَلْتني مكاناً عليا
فتساميتُ عن وجودي وغَنِّيْ ... تُ غناءً مخلداً سحريا
أنت أرقصْتِ حَوْلَ روحي أغاري ... دَ فصارَتْ دنيايَ لحناً شجيا
أنت أسمْعتني من الغيْبِ أصوا ... تاً وهمساً محبباً علويا
أنت صيرتني طروباً يغني ... ذاهلا عن حياته قدسيا
فاسمعيني يا أختُ في عشك السَّا ... جي وروِّي فؤادَك العبقريا
ألهميني أغانِيَ الوتر الشَّا ... كي ومدِّي شعاعَك الكوكبيا
واسكبي النورَ صافياً في عيوني ... وافتحي قلْبي الرحيبَ الصبيا
واخلُقيني كما خلقْتكِ في فنِّ ... يَ وخلَّدْتُ حسْنكِ الأبديا
العناياتُ أبدعتْكِ لأنْغا ... مي وشَعْري فجئتِ سحراً شهيا
فاصطفيني كما اصطفيتك قلباً ... صافياً، زاهراً، طهوراً، نقيا
واتركيني في حضنك الشاّعر الحا ... ني وليداً مدللا قمريا
حوله ترقصُ الملائِكُ نشوى ... وتغني الأقدار لحناً سنيا
طهرتني السماءُ حتى تمنَّيْ ... تُ لَوَانَّ الوجودَ مثلي نقيا
ورعتْني الغيوبُ فانسابَ قلبي ... جدولاً، ناغماً، رقيقاً، نديا
إيه من تلْهم الأناشيدَ كالعْط ... رِ تعالَيْ نسكرْ على الكونِ هيا
أنت للفنِّ صاغَكِ الله يا روح ... ي فلا تمنعي عن الفن ريا
وأنا الفنَّانُ الذي يَهتْف الطي ... ر حواليه حين يسري هَنيا
وتغني الأمواجُ سكرى من الشَّوْ ... ق وتلهو على الضفاف مليا
وتفوحُ الأزهار حتى يُرى الكوْ ... ن نسيماً معطراً عبهْريا
هكذا جئْنا للحياة. . فلِمْ لا ... نتغنَّى على الحياةِ سويا؟
عبد العليم عيسى
رباه. . .
يا طلعةَ النورِ في ظلَماء أحزاني! ... يا بسمةَ الأمنِ في أمواجِ حرماني!
يا هَدأةَ الروح في أهوال عاصفةٍ ... يا نغمةَ الطُّهْرِ في سرِّي وإعلاني!
يا شُعلةَ الخير في صدري مؤَجَّجةً ... ويا صدى الحقِّ في أحناء وجداني!
ربَّاهُ صوتُكَ في الأعماق رَجَّعَهُ ... قلبي الضعيفُ بترتيلٍ وألحانِ
رباه هذا كياني رمزُ مقدرةٍ ... يَضجُّ بالحمدِ والتسبيحِ للباني
رباهُ إنَّ لهيباً ثائراً أبداً ... أذكى دِمائي بوقدٍ ليس بالفاني
رباهُ منك اقتبستُ الشعرَ مؤتلقاً ... بكلِّ معنىً رفيع القدرِ فتَّانِ
رباهُ لولا جمالٌ منك مطلعُهُ ... يوحي البدائع لم أهْمِمْ بتبيانِ
رباهُ طَهِّرْ فؤادي أن يُلِمَّ به ... إثمُ الضلالةِ من إغواءِ شيطانِ
رباهُ إن سبيلي شائِكٌ وَعِرٌ ... فاشدُدْ قوايَ بلطفٍ منك معوانِ
وافتَحْ لروحِيَ آفاقاً مُزَوَّقةً ... من الخيالِ بأضواءٍ وألوانِ
واسكبْ عليها نَدى الآمالِ ممتزجاً ... بنشوةِ الحسنِ من أعطافِ نَيسانِ
وانثرْ ورودَ الأماني في بواكرها ... على ربيع صِبايَ الضاحك الهاني

رباهُ هذي صلاةُ الشعر حاملَةً ... نجوى يقيني وتقديسي وإيماني
ما قيمةُ الشعرِ إن لم ينتظمْ سُوَراً ... تدعو إلى الحقِّ ماكرَّ الجديدانِ
(العراق - العمارة)
أنور خليل
رسالة الفن
طبق الأصل
معركة. . .
للأستاذ عزيز أحمد فهمي
نشبت في الأسبوع الماضي على صفحات (الأهرام) معركة بين فريق من كبار الكتاب المصريين، كان مثار الخلاف فيها أن بعضهم أراد أو تمنى أن يعالج مفكرونا وأصحاب القلم عندنا شئوننا الاجتماعية والاقتصادية والقومية والحربية وغيرها من شئوننا الفقيرة إلى التفكير والتدبير، بينما رأى البعض الآخر أن هذا الوقت العصيب الذي نجتازه ليس أنسب الأوقات لمعالجة هذه الشئون التي لا ريب تحتاج في دراساتها إلى أعصاب مستريحة وعقول مطمئنة. وأين هي اليوم هذه الأعصاب التي لا تتحفز في اليوم الواحد مرات لا مرة واحدة، والتي لا تشرئب إلى الغيب تريد أن تستخلص منه الحادثات وما يتبعها من النتائج، وما هي مستخلصة شيئاً إلا هذا الجهد الذي يبذله. وهذا الشرود الذي تعانيه. وأين هي اليوم هذه العقول التي تستطيع أن تتلقط مادة الفكر ومادة النطق في خلال هذه المفاجآت المنهارة على الناس من حيث يعلمون ومن حيث لا يعلمون. . .
هذه كانت معركة الأسبوع الماضي
وستنشب في الأسبوع المقبل معركة أخرى بين هؤلاء الكتاب الكبار وسيدخلها غيرهم، وقد جاءتني أنباؤها، واطلعت على ما أعد هؤلاء الكتاب لها من وسائل الهجوم وعدد الدفاع فآثرت أن أستعجل الزمن وأن أطلع قرائي على ما أطلعتني عليه الصدف، أو الملائكة
ما قل ودل
لما كنت في باريس، في المرة الأخيرة، ألقى صديقي الأستاذ مارسيل دوديه محاضرة قيمة في دار جمعية (الشمس والقمر والنجوم) كان أهم ما جاء فيها قوله المأثور: (إن الإنسانية يجب عليها أن تفكر منذ الآن في البحث عن وطن جديد غير الأرض تكون نسبة الأكسجين في مناخه أقل من نسبته في مناخ كوكبنا هذا، فإنه لا شيء يساعد على إشعال النفوس بالغيرة والحقد والغيظ مثلما يساعد الأكسجين على ذلك). . .
وقد أثبت الأستاذ
مارسيل دوديه نظريته هذه بصور كثيرة عرضها بالفانوس السحري كما أنه قام أمام النظارة بعدة تجارب أجراها على الأرانب والجرذان وعلى نوع خاص من الحشرات لا يوجد مثله في مصر ويوجد منه كثير في فرنسا وسامه اللاتيني (سانكا مانكا هوساروم) وقد دلت كل التجارب التي ألقاها الأستاذ مارسيل دوديه على أن نظريته صحيحة كل الصحة، ولكن الحرب لم تمهله حتى يتم أبحاثه فقد فوجئ بصفارات الإنذار وهو في معمله. ولست أدري ماذا حدث له بعد ذلك وإن كنت آسفاً كل الأسف على أن بحثاً جليلاً كهذا وئد وهو في طفولته. . .
أ. . .
البحث مستمر
كتب صديقنا الأستاذ الصاوي يقول: إنه كان في باريس حين ألقى العلامة الفرنسي الجليل الأستاذ مارسيل دوديه محاضرته الخالدة عن (المسكن الجديد) وهو الكوكب الذي كان هذا العلامة الفذ يريد أن ينقل الجنس البشري إليه فراراً من الأكسجين الأرضي الذي يشعل في النفوس الغيرة والحقد والغيظ فيسبب بها الحروب والويلات والأهوال. . .
والحقيقة هي غير ما قال الأستاذ الصاوي، فأنا الذي كنت في باريس في ذلك الوقت، وأنا وحدي الذي حضرت هذه المحاضرة القيمة، ولقد رويت ما استقيته منها للأستاذ الصاوي عندما قابلته في اليوم التالي في مطعم (سان سوسي) حيث قال لي إنه هبط باريس منذ ساعتين فقط، وما كنت أظن الأمانة العلمية تهون على الأستاذ الصاوي

إلى حد أن ينسب لنفسه الاستماع إلى ما لم يسمعه، وادعاء العلم بما لم يأخذه بنفسه على أهله
وإني استحلف الأستاذ الصاوي بالضفدعة التي أكلناها معاً في ذلك اليوم أن يعود إلى الحق فينسب الفضل إلى أهله وذويه
على أنه لا يهمني كثيراً أو قليلاً أن يأخذ عني الأستاذ الصاوي هذا الذي أخذه، فكم أخذت مني معلومات نسبها الآخذون إلى أنفسهم وهي لي أنا تعلمتها في رأسي هذا الذي أحمله فوق كتفي والذي كدت أنوء بأثقال العلم التي احتواها.
ومع هذا فإني سعيد. ومن أسعد من العالم الذي يرى علمه يتفشى في الناس، ويروج ويذيع؟
هذه كلمة عاجلة أردت بها أن أضع الحق في نصابه، وكفاني الحق وكيلا.
زكي مبارك
(حاشية):
نسيت أن أقول إنه بلغني أن الأستاذ مارسيل دوديه لا يزال مستمراً في أبحاثه.
موضوع للتفكير
كثر اللغط في هذه الأيام حول موضوع الهجرة من الكرة الأرضية إلى كرة أخرى من هذه الأكر المنثورة في الفضاء. الواقع أنه موضوع جدير بالتفكير، وإن ظهر لنا اليوم أنه قد يكون بعيد الحدوث. ولكن كل الاختراعات التي حققها العلم في هذا العصر كانت في العصور السابقة أحلاماً اعتبرها الناس إذ ذاك بعيدة الحدوث
والذي يراجع التواريخ ويقلب الكتب يجد أن رجال الآداب والفنون عادة هم الذين يسبقون رجال العلم في تخيل هذه الأحلام، ويجئ رجال العلم بعدهم فيحققونها
والأستاذ مارسيل دوديه رجل من كبار الأدباء والفنانين والمفكرين لا في باريس وحدها، وإنما في أوربا كلها، وهو شيخ تجاوز التسعين من العمر، وقد كان هو أول من فكر في اختراع الدبابات، وإن لم يكن تفكيره قد اتجه إليها مباشرة، ففي نهاية الربع الثالث من القرن الماضي كتب الأستاذ مارسيل دوديه قصة (السلحفاة الحديد) ونشرها في جريدة (العقل الجديد). فاستغل العلماء هذه الفكرة واخترعوا بها الدبابة
وعلى هذا الأساس أستطيع أن أدعو الأدباء والكتاب والفنانين والمفكرين المصريين إلى أن يسرحوا في عالموت الخيال ما استطاعوا عسى أن يوفق أحدهم إلى فكرة يمكن تحقيقها مادياً. وعندئذ يكون لمصر فخر المهاجرة بالبشرية من هذا الكوكب الذي قضى ربك أن ترتفع فيه نسبة الأكسجين ارتفاعاً بسبب الحروب والكوارث
فما رأى الكتاب عموماً؟ وما رأى أخي طه على الخصوص؟
أحمد أمين
أوهام
لست أدري كيف جاز على الأستاذ أحمد أمين أن هناك أستاذاً في باريس اسمه مارسيل دوديه، وأن هذا الأستاذ عضو في جمعية اسمها جمعية الشمس والقمر والنجوم، وأن هذا الأستاذ ألقى في هذه الجمعية محاضرة عن الأكسجين في الأرض والأكسجين في الأرض والأكسجين في السماء، وأن هذه المحاضرة خرج منها السامعون أو السامع الواحد الذي يؤكد أنه سمعها ورأى فيها صوراً بالفانوس السحري وتجارب على الأرنب والجرذان، وعلى تلك الحشرة العجيبة التي اسمها (سانكا مانكا هوساروم). . . بفكرة هي أن الناس يستطيعون أن يعيشوا في أرض غير هذه الأرض وفي جو غير هذا الجو. . . مع أن قصة هذه المحاضرة كلها من أولها إلى آخرها ليست إلا مزاحاً أراد به صديق عابث أن يلهو مع الدكتور زكي مبارك الطيب القلب السليم النية، فقدمه إلى شاب من هواة التمثيل في باريس، بعد أن تنكر هذا الشاب في زي شيخ من العلماء الطاعنين في السن. وقد اختلق هذا الشاب الماجن الساخر كل ما حسبه الدكتور زكي مبارك حقاً، وألقى عليه المحاضرة الساخرة في نادي التمثيل الذي ينتسب إليه، وقد حسبه الدكتور المبارك جمعية علمية يعمل أعضاؤها على هجرة الأرض وسكنى السماء. . .
وقد كنت أربأ بصديقي الأستاذ أحمد أمين عن تصديق مثل هذه الأشياء، ولكن يظهر أن الذين قالوا: إن لكل عالم هفوة لم يكونوا كاذبين.
طه حسين

ولكني مسرور
بعد أن فضح أستاذنا الدكتور طه حسين ذلك الشاب الفرنسي الخبيث الذمي ادعى أنه أستاذ علامة، وأن اسمه مارسيل دوديه، وأنه يبحث عن سعادة البشرية واطمئنان الإنسانية، فحملني الخبيث على تصديقه والإيمان به. . .
بعد هذه الفضيحة، قد يحسب القراء أنني أريد السفر إلى باريس الآن لأبحث عن هذا الشاب وأخنقه وأشرب من دمه. . .
ولكن لا. . .
فما هذا والله إلا من ظرف باريس، ولطف باريس
وإنك لا يمكن أن تجد هذه الدعابة العذبة الحلوة الشهية إلا في باريس
رعاك الله يا باريس، وجدد شبابك، وأعاد لك البهجة والحبور، ولتمزحي معي بعد ذلك كيف شئت. . .
يا باريس. . .
زكي مبارك
وأخيراً
تيقظت من تأملاتي العميقة التي يسبح فيها فكري في سماء الفن البنفسجية المتماوجة الأضواء، على صوت شاب من جماهير المعجبين بي الذين يضايقونني بزياراتهم وأسئلتهم التي يوجهونها إليّ بالتليفون وبالبريد، وبالتلغراف أحياناً، ظناً منهم أنني ما دمت مفكراً وفناناً وفيلسوفاً فإنني أستطيع أن أصغي إلى أسئلتهم وأن أجيب عنها مع أنني أتعب نفسي كثيراً في عملية الإصغاء والفهم، فعقلي الطائر وراء الحقائق المتراقصة فيما بعد آفاق الإدراك لا يستطيع أن يغوص إلى حيث تدب المخلوقات العادية على أرض العقل الناعس المتهدل
تيقظت على صوت ذلك المعجب وهو يسألني رأيي في مسألة الأستاذ مارسيل دوديه؛ فطلبت منه أن يقصها عليّ بمنتهى الإيجاز حتى أستطيع أن أحصرها فلا تفلت منها شاردة ولا واردة، فلما فرغ منها طلبت منه أن يعطيني مهلة يوماً أو يومين حتى أفكر في هذا الموضوع
وبعد طول التفكير نتأت في عقلي فكر جديدة، وهي: لماذا لا نتخلص من هذه الأبدان التي تحتاج إلى الأكسجين والهيدروجين وسائر هذه المواد التي تحجب عنها أنوار الأفراح المقامة في السماء؟
وأخيراً اعتزمت أن أبدأ بهذه التجربة. . .
وكما طلبت من ذلك الشاب المعجب بي أن يمهلني فأمهلني حتى اهتديت إلى هذه الفكرة، فإني أطلب من القراء أن يمهلوني هم أيضاً حتى أهتدي إلى الطريقة التي يمكن بها أن نتخلص من أجسامنا الكثيفة
توفيق الحكيم
وهذه (هدنة) تقف عندها المعركة . . .
(عزيز أحمد فهمي)
رسالة العلم
الوضع الحقيقي لمشكلة
جابر بن حيان
للأستاذ أحمد زكي صالح
الباعث على نشوء مشكلة جابر
نحن الآن أمام شخصية فذة، ذلك لأن (جابراً) هو شخصية العلم، لا في العصور الوسطى الإسلامية فقط، ولكنه شخصية العلم في القرون الوسطى الأوربية.
ومنذ عام 1922، احتلَّت مشكلة جابر بن حيان الصدر والمكانة الأولى بين أهم المسائل التي عالجها العلماء المستشرقون في أوربا بوجه عام وفي ألمانيا بنوع خاص
ويمكن أن نقول: إن من أهم الأسباب لنشوء مشكلة جابر بن حيان وجود عدد معين من الكتب الكيميائية اللاتينية التي ينسب أصل تأليفها العربي لجابر بن حيان العربي المسلم
وهذه الكتب تعرف في الأدب اللاتيني الكيميائي بالأسماء الآتية
1.

2.
3.
4.
ولعل أهم باعث على الشك في صحة نسبة هذه الكتب لجابر بن حيان، هو هذه اللغة الواضحة، وذلك الأسلوب الجميل، وهذا العرض المنسجم الطلي، وغير ذلك من ظواهر الوضوح الفكري التي كتبت بها هذه الكتب. ذلك في حين أن التراجم اللاتينية لبعض المؤلفات العربية الأخرى كانت في لاتينية مضطربة وأسلوب مشوه قبيح، ولهذا السبب خُيِّل لبعض العلماء المستشرقين غموض أصل هذه التراجم وأنها مدخولة على جابر بن حيان

ولكي نعرض المشكلة عرضاً حسناً، ونضعها في وضعها الصحيح يجب أن نعرضها على شكل أسئلة نحاول أن نجاوب عليها، فإذا استطعنا ذلك سهل علينا إصدار الحكم الصحيح

في هذه المشكلة، فنتساءل:

أولاً: هل يمكن أن تكون الكتب الكيميائية التي عرفت في الأدب الكيميائي في القرون الوسطى تحت اسم من أصل أوربي؟

ثانياً: إذا لم تكن هذه الكتب من أصل لاتيني فهل يمكن أن تكون ذات أصل عربي؟

ثالثاً: هل حقاً أن هذه الكتب كتبها جابر بن حيان العربي المسلم؟

رابعاً: إذا كان كذلك، فمن هو جابر إذن؟

ولكن في عرضنا للمشكلة، لن نعرض لها جزءًا جزءًا، ولكن سنعرضها ككل، وبعد ذلك نناقش ما وصلنا إليه من نتائج

شخصية جابر بن حيان

جابر بن حيان من تلك الشخصيات التي عاشت في صدر الإسلام، وكلنا يعرف أن أهم ميزة يمتاز بها رجال هذا العصر هي العقلية الجامعة العامة، وأعني بها تلك التي يطلق عليها وجابر خير من كان يمثل هذه العقلية، إذ أنه جمع بين العلم والأدب، وكان فيلسوفاً ومتكلما شيعياً، وكيميائياً، ومنطقياً، وإماماً للشيعة، وطبيباً، وإذا عرفنا شيئاً عما يذكره (الفهرست) من مؤلفاته أمكننا أن نتصور على أي شكل وصورة كانت عقلية جابر

فنحن نجد في (الفهرست) إلى جانب ما يذكره له من كتب الكيمياء وهي حوالي 250 كتاباً، نجد كذلك 300 كتاب في الفلسفة و 500 في الرد على الفلاسفة، و1300 في العلوم الآلية والحيل ومثيلها في عدد الحروب، و 500 ونيفاً في الطب، وعدداً كبيراً من الكتب في علوم التنجيم والفلك والسحر والتعويذ والعلم الإلهي

ونحن لا نذهب إلى القول بصحة ما جاء في هذا الثبت، فقد يكون ابن النديم قد فهم (الرسالة) على أنها كتاب أو أراد التهويل، ولكن الذي يعنينا هنا أن ابن النديم يريد أن يصور لنا عقلية جابر بن حيان على أنها عقلية جبارة

أصول الترجمة اللاتينية لمؤلفات جابر

ليس من شك في أن اتحاد شخصية التي يقول بعض المؤرخين إنها الشخصية اللاتينية المؤلفة للكتب السابق ذكرها مع شخصية جابر بن حيان - يكون عديم القيمة إذا كانت نسبة المؤلفات اللاتينية لجابر محض انتحال، وفي نفس الوقت تقدم البرهنة على ذلك مفتاحاً لمصادر هذه المؤلفات. وفي اختبارنا إياها كي نرى هل هناك احتمال يمكن أن يدل على أصلها العربي يتحتم علينا أن ندرس الكتب العربية لجابر بن حيان التي وصلت إلى أوربا؛ ولكن الأهم من هذا كله هو أن ندرس محتويات هذه الكتب الأربعة التي سبق أن أشرنا إليها

فكتاب (الجمع) الذي يعد بحق أعظم وأهم مؤلفات جابر كلها، قسم إلى كتابين: الكتاب الأول مقسم إلى أربعة أبواب؛ والثاني إلى ثلاثة:

فأما الباب الأول من الكتاب الأول فإن المؤلف يعالج فيه الصعوبات التي يقابلها الكيميائي في تحضير الإكسير. وفي الباب الثاني يدحض جابر براهين وأقوال أعداء الصنعة وخصومها. واختص الباب الثالث بمناقشة خصائص عناصر الكبريت والزرنيخ والزئبق التي منها تتكون المعادن في نظر جابر بن حيان. ويبين في الباب الرابع الكيفيات التي بها تعالج المعادن والكحول والتبر ووصف التجارب الخاصة بكل معدن؛

ثم تحدث بعد ذلك عن العناصر الهامة والأجهزة اللازمة لكل تجربة
وفي الباب الأول من الكتاب الثاني عالج تحضير الكحول وبعض المعادن، ثم في الباب الثاني ذكر عدداً من الوصفات الطبية لا بأس بها، وفي الباب الثالث ذكر بعض التجارب التي لا تحتاج إلى شرح طويل
وسنقتصر هنا على ملخص هذا الكتاب لأهميته ولإحرازه قصب السبق على الثلاثة الآخرين، إذ أن هذا الكتاب أخذ منزلة إنجيل الكيمياء في العصور الوسطى فضلاً عن أنه نشر مرات باللاتينية منذ العصور الوسطى حتى الآن
مناقشة آراء المستشرقين في جابر ومؤلفاته
ولقد عَزّ على بعض المستشرقين أن يوجد مثل هذا المفكر الجليل الشأن، في الشرق خاصة وفي الإسلام عامة؛ فأخذوا يبتدعون أساليب الشك، ويحاولون بمعاول الهدم أن ينالوا من جابر بن حيان، ولكن هل قُدر لهم النجاح فيما أرادوا؟
!هذا ما سنحاول الإجابة عنه
وضروري جداً، لمن كان في سبيل بحث كبحثنا هذا، أن يؤرخ تأريخاً بسيطاً لحركة الاستشراق العلمي
كانت دراسة المستشرقين للناحية العلمية في العالم الإسلامي عديمة القيمة في القرنين: الثامن عشر والتاسع عشر؛ ولكن منذ خمس وعشرين سنة ظهرت حركة جديدة في محيط الاستشراق لتبيّن أصول العلم العربي الذي يوجد بين طيات تلك المخطوطات العربية العديدة الموجودة في دور الكتب الشرقية والغربية، والتي يرجع الفضل في نشر بعضها إلى: برجستراسر وبراون وتكاتش وسوتر ومسبيرو
وهناك مدارس كثيرة من تلك التي اختصت بالكيمياء والطب والفلك والرياضة والطبيعة والفلسفة صبغت نفسها في نفس الوقت بصبغة استشراقية، نذكر من هؤلاء: رسكا وودمان وستشو وكروس وبلستر وسرطون ورينو وغيرهم
تقرير الأستاذ شميدر
الأستاذ شميدر له صولة وجولة في تاريخ الكيمياء، وبطبيعة الحال اتصل بحثه بمشكلة جابر بن حيان ومؤلفاته، ونحن نقتطف بعض عبارات مما كتبه:
قال: إن أشهر الكتاب العرب الذي عالجوا الصنعة (أي الكيمياء) هو جابر بن حيان الذي عاش حسب تقدير ليوافريكانس في القرن الثاني الهجري، ويمكن أن يقال بالدقة في النصف الثاني من القرن الثامن للميلاد. وليس ثمة عربي قبل جابر استطاع أن يكتب مثل ما كتب جابر. وليس ثمة عربي بعده استطاع أن يصل إلى مثل ما وصل إليه جابر، الأمر الذي ترتب عليه أن أطلق على جابر بن حيان في التراجم اللاتينية اسم (ملك العرب)، وإنه ليظهر لي غريباً وبعيد الاحتمال أن أولى محاولات التأليف في موضوع معين في شعب من الشعوب قد تبلغ هذه المرتبة من الناحية العلمية، ولكن المشكلة زال ما كان يعتريها من غموض بفضل استكشاف ليوافريكانس الذي ذهب إلى القول بأن جابر لا يمت إلى العرب بصلة، وإنما هو منحدر من سلالة إغريقية. فلقد عاش جابر في إشبيلية بأسبانيا حيث ألم بكل فروع الفلسفة اليونانية العربية، وربما يكون جابر هذا هو الذي أنشأ الجامعة العربية هناك، أو على الأقل يمكن أن يعتبر مؤسس مدرسة فلسفية انتشر تلاميذها في القارات الثلاث، وأخذوا ينشرون العلم باسم جابر بن حيان. ولما كانت كل مؤلفات جابر بالعربية فإنه اكتسب لنفسه الجنسية العربية وكذلك اكتسبها لعلمه
ولكن إذا أنعمنا النظر في هذا الرأي الذي يأخذ به الأستاذ شميدر وجدناه مليئاً بالأغلاط التاريخية، وذلك أن جابراً لم يذهب إلى إشبيلية، وما عاش بها قط، إنما عاش متنقلاً في بلاد المشرق بين الكوفة وبغداد، وأن جميع كتب التاريخ العربية تثبت لنا ذلك بشكل قاطع، هذا أولاً، وثانياً: إذا كان صحيحاً ما يقول به شميدر من أن جابراً معتنق جديد للدين الإسلامي، فما هو اسم جابر الأصلي؟ ولمَ لَمْ تذكر في كتب التاريخ هذه الحقيقة؟ وهبني سلمت بصحة ما يقول به شميدر فكيف يمكن التوفيق بين ما يقول به وبين ما تقول به كتب التاريخ الصريحة من أن جابراً تولى إمامة الشيعة، بعد موت جعفر الصادق، وهم على ما هم عليه من تطرف وغلو شديدين في الدين الإسلامي؟
وهذا كله لا يسعنا إلا أن نرفض ما يقول به الأستاذ شميدر
تقرير الأستاذ مايرهوف

يرى الأستاذ مايرهوف أن تلك الكتب التي تنسب لجابر هي في ذاتها مشكلة، إذ كيف يتيسر أن نفهم أن رجلاً عاش في القرن الثامن وله كل هذا الاطلاع على الأدب اليوناني الكيميائي؟ ولكن يظهر أن هذه المؤلفات من أعمال جمعية في القرن العاشر من الميلاد أي القرن الرابع الهجري شبيهة بتلك التي أطلقت على نفسها (إخوان الصفاء). وأسماء المؤلفين اليونان هي التي تذكر فقط أعمال جابر الطبية، ولكن النصوص بعيدة عن أصحاب هذه الأسماء جد البعد، وتدل على روح مدرسية صريحة، ففي حين أنه قليلاً ما يأتي ذكر الأعلام السريانية والهندية، نجد كثيراً ما وردت الأعلام الفارسية. . . وعلى أية حال فمن المشكوك فيه أن نعدها الحلقة الأخيرة من سلسلة تقدم علمي امتد من عصر ما قبل الإسلام إلى العصر الإسلامي

ولكن رأى مايرهوف لا يعدو أن يكون تقريراً ساذجاً، فالأستاذ رسكا يقول: إن المسألة لا يمكن أن تفسر هذا التفسير البسيط الساذج من أن أعمال جابر بن حيان إنما هي أعمال مدرسة استمرت عدة قرون

ولكن، فلنتوسع قليلاً في مناقشة ما يذهب إليه مايرهوف: فمايرهوف يبني أساس برهانه على أنه لا يمكن لجابر أن تكون له هذه المعرفة الواسعة المدى بالكيمياء، وهو الذي عاش في القرن الثامن للميلاد، ولكن أنسى الأستاذ مايرهوف وهو الفطن اللبيب الذي بحث في

الأصول التي استقى منها الإسلام العلم وبين بكل وضوح وجلاء أنه ما أتى القرن الثاني من هجرة الرسول، أي القرن الثامن من الميلاد، حتى كان لدى المسلمين معرفة حسنة بل جيدة بالعلوم، وخاصة الطبيعية منها التي كانت لدى الفرس والسريان والهنود والمصريين واليونان

ولكن يمكن أن نلتمس له عُذراً إذا عرفنا أن المدة بين رأيه الأول ورأيه الثاني تقرب من ثماني سنوات. فإذا كان مايرهوف سنة 1937 يهدم الأساس الذي بنى عليه مايرهوف تقريره سنة 1930 فلا يسعنا إلا أن نرفض النتيجة المترتبة على رأيه الأول، وهي أن أعمال جابر من أعمال مدرسة امتدت حوالي ثلاثة قرون

(يتبع)

أحمد زكي صالح

البريد الأدبي

إلى الدكتور زكي مبارك

قرأنا حنقين مقالك الذي تبكي فيه بلدة آثرت صلة هواك بملاهيها وحبك لمعاهدها على صلتك بإخوانك الذين جرّعهم أبناء النور الصاب، وأوردوهم شرّ مورد، صلة الدم واللسان والإسلام ما كان لك أن تنساها

ولولا أن الفم فيه ماء، لعاتبتك عتاباً يتحدث به الركبان.

ولكن يشفع لك ما قدمت إلينا من جميل، وما أسلفت من إحسان

وإن يكن القول الذي ساء واحداً ... فأقوالك اللائي سررن ألوف

وأرجو ألا يمنع الأستاذ الزيات من نشر هذه الكلمة أنه شريكك فيما أعاتبك عليه وألوم. .

والسلام عليكما ورحمة الله وبركاته

(دمشق)

علي الطنطاوي

(الرسالة):

كان الأستاذ الطنطاوي حرياً أن يفرق بين فرنسا السياسية المستعمرة وفرنسا الأدبية المتمدنة، فأنه لو فعل ذلك لوافقنا على أن فرنسا الروحية هي الوطن الفكري لكل أديب.

أصحاب العاهات ونوادرهم

ذكر الأستاذ صلاح الدين المنجد في العدد الماضي من الرسالة أن نخبة من أدباء دمشق عنوا بجمع أخبار أصحاب العاهات ونوادرهم وأنهم لم يعثروا إلا على القليل من أخبار العور وملحهم. ويسرني أن أرشد هذه اللجنة الموقرة إلى كتاب يفيدها في هذا الموضوع، وهو (الشعور بالعور) للعلامة صلاح الدين خليل ابن أيبك الصفدي، وهو كتاب جامع في أخبار العور من صحابة وتابعين وعلماء وأدباء، وهو على مثال كتابه في

العميان المسمى (نكتُ الهميان في نكتِ العُميان). والشعور بالعور من الكتب التي نقلها المرحوم أحمد زكي باشا بالتصوير الشمسي عن مخطوط في بعض مكاتب الأستانة. وهو يوجد الآن في
خزانته الزكية بدار الكتب المصرية. وعسى أن يجده الأستاذ في مكاتب دمشق الخاصة أو العامة فإنه فريد في بابه.

محمود حسن زناتي
أمين الخزانة الزكية سابقا

(الرسالة):

جاءنا مثل هذا البيان من الأديب رشاد عبد المطلب، وقد زاد على ما قال الأستاذ الزناتي أن من هذا الكتاب نسخة خطية في الخزانة الخالدية في القدس، وأن للصفدي كتابا في العمش وآخر في الحدبان ذكرهما السخاوي في كتابه (الإعلام بالتوبيخ لمن ذم التاريخ).

دعاء: شيئاً لله يا مرسي!

يا أبا العباس لقد كنت تقياً، وقد كنت ولياً، وإن لك عند الله كرامة، وهو مجيبك إذا دعوته، فهلا دعوته اليوم للإسكندرية!

لقد دعا الشيخ المراغي للقاهرة فادع أنت للبلد الذي أسكنك الله إياه كما دعا إبراهيم للبلد الآمن، الذي أمنه الله بدعائه

قل يا رب صن الإسكندرية من شر عبادك، كما صانت الإسكندرية عبادك من شر بلادهم، فكم جاءها من فقير، وكم جاءها من يائس، وكم جاءها من مؤمل، وكم جاءها من مجاهد، وكم جاءها من عالم، وكم جاءها من عابد، وكم جاءها وكم جاءها. جاءوها من هنا وجاءوها من هناك، ففتحت لهم جميعاً ذراعيها، وأحسنت وفادتهم، وآخت بينهم، وحنت عليهم أماً رؤوماً، وعلمتهم، وشدت أزرهم، وصرفتهم من كتمة الغل إلى براح الرجاء، وطهرتهم من وخامة الحقد لما كوتهم بالملح. . . فصنها يا رب صنها فما كانت تتوقع من إنسان غدراً، وما قدمت يداها سيئة، وما انطوت نفسها على ضغينة. . .

ليس في الإسكندرية جبن يا رب وليست فيها ذلة، وأنت أعلم بمن فيها من عبادك الذين يصارعون التحجر في الصحراء والتجبر في البحر والتناحر في التجارة. . . أيكون هؤلاء جبناء أنذالاً أذلة، أم هم الأحرار الكرام الأعزة. . .؟ إنهم الأحرار الكرام الأعزة يا رب، إذا هبط لهم العدو وصادمهم وجهاً لوجه، وفرداً لفرد؛ أما أن يتحجب فوق السحاب ويقذف
بالنار وهو فوق، فالأسود يا رب تحرقها النار إذا انقذفت عليها من فوق. . . فصن اللهم الإسكندرية

وإذا كانت الإسكندرية قد فسقت يوماً عن أمرك يا رب حين تولتها المرأة كيلوباترة فقد أنزلت بعد ذلك عليها من غضبك ونقمتك ما ردها لصوابها فتابت إليك يا رب وأنابت واحتملت عن مصر بعد ذلك ويلات الحروب المتوالية، وهجمات الطامعين المتعاقبة. فهلا تبت عليها بذلك فغفرت لها الهينات من سيئاتها، وما سيئاتها إلا مجون الطيش وعبث الخفة، وهي بريئة بعد ذلك من الطغيان، بريئة من الكفر. . . وهي لا تزال إلى اليوم تخشاك وتخافك، إن أذنبت استغفرتك، وإن زلت استنجدتك، فإن استمرأت الخطيئة، واستغرقت فيها ذكرتك، وإن في الأدنس من أحيائها صلاة لك، ومسجداً تهوي إليه أفئدة الأشقياء المحرومين، أو أسماعهم أو أنظارهم، فما يلبثون حتى يقولوا وهم في سكرة الرجس: اللهم يا رب. . . يرجونك ويسألونك الهدى. . .

يا رب. . .

قل لربك هذا يا مرسي، وقل من عندك ما هو خير. . .

(عزيز)
عطف ملكي كريم

رفعت إلى السدة الملكية العالية نسخة من كتابي الجديد (بين صديقين) فكان من فضل حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول، أن تلقيت كتاباً كريماً من ديوان كبير الأمناء، أتشرف بنشره في مجلتنا (الرسالة) الغراء، ونصه:

حضرة المحترم الشيخ أحمد جمعة الشرباصي:

أتشرف بإبلاغ حضرتكم الشكر السامي، على النسخة التي قدمتموها إلى (حضرة

صاحب الجلالة الملك) من كتابكم (بين صديقين)
وتقبلوا وافر الاحترام
كبير الأمناء
تحريراً في 9 يوليو سنة 1940
عنه: أحمد محمد حسنين
إمضاء
وإني لأبتهل إلى الله العليّ القادر أن يؤيد مُلك الفاروق وأن يعز دولته، وأن يحفظه قائداً للشباب وقدوة للملوك!. . .
(البجلات)
أحمد جمعة الشرباصي
الشيخ الأكبر
يطلق كثير من المسلمين لقب (الشيخ الأكبر) على الشيخ محي الدين العربي اعتقاداً منهم بولايته ومنزلته عند الله؛ وضريحه في دمشق محطّ للمئات منهم كل يوم يطوفون حوله ويتمسحون به تبركاً وربما دعاه بعضهم لقضاء حوائجه بدلاً من أن يدعو الله. وإذا أنكر هذا عليهم منكر اتهموه بالزندقة، وقد أحببت أن أعرض للقراء بعض ما يقول هذا الرجل، وأن أترك لهم الحكم في (ولايته)
قال في كتاب اليواقيت والجواهر: اعلم أن عدد الأنبياء والمرسلين من بني آدم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، كما ورد الحديث (!) ولا بد من هذا العدد في الأولياء في كل عصر وقد يزيدون. وقد جمع الله بيني وبين جميع أنبيائه في واقعة صحيحة حتى لم يبق منهم أحد إلا وعرفته، وكذلك جمعني على من هو أقدامهم من الأولياء فرأيتهم وعرفتهم كلهم. وقال: رأيت في كشفي جميع الأنبياء والمرسلين، وأممهم مشاهدة على من كان منهم ومن يكون إلى يوم القيامة أظهرهم الحق تعالى في صعيد واحد! قال: وصاحبت منهم غير محمد صلى الله عليه وسلم جماعة منهم الخليل عليه السلام قرأت عليه القرآن كله باستدعائه ذلك مني فكان يبكي عند كل موضع ذكره الله تعالى فيه من القرآن وحصل لي منه خشوع عظيم. وأما موسى عليه السلام فأعطاني علم الكشف والإفصاح عن الأمور وعلم تقليب الليل والنهار. وأما هود عليه السلام فأخبرني بمسألة كانت وقعت في الوجود وما علمتها إلا منه. وأما عيسى عليه السلام فثبت على يديه أول دخولي في طريق القوم.
وقال في الفتوحات (الباب الثالث والسبعين): ما اجتمعت بأحد من الأنبياء أكثر من عيسى
عليه السلام، وكنت كلما اجتمعت به دعا لي بالثبات حياً وميتاً، وكان يقول لي: يا حبيبي! وقال فيه (الباب الخامس والستين): قد شاهدت في واقعة نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم وشاهدت جميع الأنبياء وأشهدني الله تعالى جميع المؤمنين بهم، حتى ما بقي منهم أحد لا من كان ولا من يكون إلى يوم القيامة، وعرفت خاصهم وعامهم، وعرفت جميع السعداء الذي كانوا في ظهر آدم وعددهم، فلا يخفى عليَّ الآن منهم أحد من أهل الجنة ولا من أهل النار، لكن لم يعطني الله تعالى معرفة عدد أهل النار لكثرتهم. ويقول فيه (الباب الثامن والتسعين) فإن قلت. فهل اطلع أحد من الأولياء على عدد الحوادث التي كتبها القلم الأعلى في اللوح إلى يوم القيامة؟ فالجواب نعم ومائة نعم! وأنا ممن أطلعه الله على ذلك. فإن قيل لكم: فكم عدد ما سطر في اللوح من آيات الكتب الإلهية؟ فالجواب: عدد ما سطر في اللوح من الآيات التي أنزلت على الرسل: مائتا ألف آية وتسع وستون ألف آية ومائتا آية!!
فما رأى سادتنا العلماء في هذا الولي العظيم والشيخ الأكبر؟
(دمشق)
ن. ط
حديث صحيح
جاء في كتاب (فجر الإسلام) ص 267: أن البخاري على جليل قدره ودقيق بحثه اثبت أحاديث دلت الحوادث الزمنية على أنها غير صحيحة. واستشهد لذلك بحديث: (لا يبقى على ظهر الأرض بعد مائة سنة نفس منفوسة) اهـ
هذا الحديث أخرجه البخاري كاملاً في باب السمر في الفقه والخير بعد العشاء من

كتاب الصلاة، ونصه: عن عبد الله بن عمر قال: صلى النبي صلى الله عليه وسلم صلاة العشاء في آخر حياته، فلما سلم قام النبي (ص) فقال: أرأيتكم ليلتكم هذه فإن رأس مائة لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد. فوهل الناس في مقلة رسول الله عليه السلام إلى ما يتحدثون من هذه الأحاديث عن مائة سنة؛ وإنما قال النبي صلى الله عليه وسلم لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض يريد أنها تخرم ذلك القرن. ورواه مختصراً - على عادته من تجزئة الحديث في مواضع متعددة - في باب السمر من كتاب العلم، ونصه كما نقله
الأستاذ أحمد أمين. وفي هذا المقام نبه الشراح - ابن حجر والقسطلاني والكرماني - على أنه جزء حديث، وأنه ذكر كاملاً في باب السمر في الفقه، وأنه مقيد بقيد (اليوم). ورواه مسلم من طرق متعددة إحداها عن جابر انه عليه الصلاة والسلام قال لهم قبل وفاته بشهر: (ما من نفس منفوسة اليوم تأتي عليها مائة سنة وهي حية يومئذ). وقد نص النووي وغيره على أن هذا الحديث علم من أعلام النبوة إذ أخبر فيه بأن كل نفس كانت تلك الليلة على الأرض لا تعيش بعدها أكثر من مائة سنة، وكان الأمر كذلك، وليس فيه نفي عيش أحد يوجد بعد تلك الليلة فوق مائة سنة، ولا إخبار عن فناء الدنيا بعد مائة سنة كما فهمه الأستاذ أحمد أمين. وقال ابن حجر بعد شرح الحديث المذكور: (وكذلك وقع بالاستقراء فكان آخر من ضبط أمره ممن كان موجوداً حينئذ أبو الطفيل عامر بن واثلة وقد أجمع أهل الحديث على أنه كان آخر الصحابة موتاً، وغاية ما قيل فيه أنه بقي إلى سنة عشر ومائة، وهي رأس مائة سنة من مقالة النبي صلى عليه وسلم). فكيف أقدم الأستاذ على الحكم بوضع هذا الحديث، وهو كما رأيت من أخبار الرسول التي وقعت كما أخبر!

وقد عدَّ الأستاذ في آخر فصل الحديث مراجع ذكر في مقدمتها فتح الباري والقسطلاني على البخاري والنووي على مسلم فإن كان قد اطلع على روايات الحديث، وما كتبه الشراح، فكيف حكم بكذبه، وإن كان لم يطلع إلا على الجزء المختصر من متن البخاري فكيف عدَّ تلك الشروح من مراجع بحثه؟!

مصطفى حسني السباعي

.في الكلمة الماضية جاء لفظ (قهزار) وصوابه (فهزاذي). (والفزار) وصوابه (الفزازي)

-

القصص

عودة الماضي

للأستاذ محمد سعيد العريان

خلَتْ (هُدَى) إلى نفسها تتدبّر أمرها وتزن ماضيها وحاضرها؛ كانت تشعر أنها قادمة على أمر ذي بال، وأنها الساعةَ في مرحلةٍ بين مرحلتين من حياتها، وثَمّةَ طريقان عليها أن تختار أيَّهما تسلك؛ فإما إلى سعادةٍ تُنسيها الماضي بما فيه من لذة ونشوة وسحر، وإما. . .

ولكنها لا تعرف السعادةَ إلا ما كانت فيه قَبل؛ فما هذا الجديد الذي يحاول أهلها أن يزيَّنوه لها ويحملوها عليه؟

الزواج! والبيت! والأسرة!

ما أجمل هذه الأسماء وألطفَ موقعَها من قلب كل فتاة! ولكن ما بال (هدَى) إذ تسمعها الساعةَ كأنما تَخِزها وخزَ السنان، فما تطرق أُذنَها إلا فارغةً من معناها أو معدولاً بها عنه، فليس لها في نفسها إلا معاني القلق والوحشة والحرمان!

أتراها وقد جاوزت العشرين لم تفكر في الزواج والبيت والأسرة قبل اليوم؟ بلى! ولكن. . .، ولو أن أحداً غير أبيها وأمها ألقى إليها هذه الكلمات قبْل، لكان لها معنى حقيقٌ بأن يسرَّها ويملأها سعادة ومرحاً؛ أعني لو أنه هو. . . ولكن، أين هو؟ وهل يدري. . .؟

وطارت خواطرها سريعاً إلى (ماجد) وتمثلتْه جالساً مجلسَه ينتظرها لموعدها الذي طالما التقيا فيه منذ سنواتٍ. . . يتلفّت ويمدّ عينيه يَتنورَّها قادمةً من بعيد، فيلقاها مبتسماً ويبسط لها يمينه!

آه: ماذا تُراه يفعل حين يبلغه النبأ، فيعرف أن (هدى) لن توافيه لموعده منذ اليوم، ولن تلقاه، ولن يراها؛ لأن حياةً جديدة قد باعدت بينهما فلا سبيل إلى اللقاء!

ورانت على عينيها غشاوة من الدمع، وتدحرجت على خدها عبره؛ أَمحى خياله من خيالها، ثم عاد، ورأته - كما نظرتْ في مرآتها - عابساً مقطِّباً، في جبينه ذلة المخذول وفي عينيه ذبول السهر ولهفة الحرمان!

وغلبتْها نفسُها فأرسلت عينيها، وأطرقتْ، وأصابعُها تعبث بمنديل بللته الدموع!

ورن جرس المِسرَّةَ، فهبْت واقفة كأنها من رنين الجرس على ميعاد، ثم ذكرتْ موقفَها،

فقمعتْ في صدرها رغبة تختلج وعادت إلى مجلسها. لا ينبغي أن يسمع (ماجد) صوتها في المسرة بعد اليوم!

لم يَحسب ماجد وهدى حساباً لهذا اليوم من قبل، لوم يدُر في خاطر واحد منهما لحظة أن هذه الساعة آتية؛ لقد كانا من الحب في سكرة ذاهلة لا تدع لهما سبيلاً إلى الفكر والتدبير وتَوَقُّع ما لم يقع بعد. . . وفجأة تغيْر الموقف وكان ما لا بد أن يكون؛ وطرق الباب طارق مجهول يطلب يد هدى. . .

وسأل أبوها وتقصَّى أمرَه، فرضِيَه لفتاته، ولكنه تلبِّث حتى يسمع رأيها، وسألها . . . فلم تُجب، وفزعت إلى خلوتها تتدبَّر أمرها وتزن ماضيها وحاضرها، وتبكي. . .

أكانت تبكي حُباً لماجد أم شفقة عليه؟ مَن يدري؟ ولكنها ظلت تبكي؛ وماذا تملك أن تفعل غير البكاء؟

أتُراه يعرف؟ يا ليت. . .! إنه هو وحده الذي يستطيع أن يفعل أشياء كثيرة غير البكاء! لو أنه جاء الساعةَ يطلب يدها! إذن لاستطاعت أن يكون لها رأي، وأن يكون لرأيها اعتبار ومكان. . .!

ولكنه جالس مجلسه هناك، ينتظرها لموعدها؛ فَمَن له بأن يعرف؟ مَن له بأنه لن يرى هُدى بعدُ، ولن تراه؟

أم تراه لو عرف يسرع إلى بابها فيزحم هذا الخاطبَ المجهول بما لَه من سَابقةٍ . . . قريبة؛ فما مَنَعَه من ذلك قبلُ لو أنه كان يريد؟

ومضت أيام قبل أن تعلن هدى رأيّها إلى أبيها؛ لقد حاولتْ في هذه الأيام أشياءً . . . كثيرة ولكن محاولاتها جميعاً لم تستطيع أن تحمل فتاها على ما أرادتْ؛ ليت شعري أكان ذلك منه غباءً أم تغابياً؟

ولم تَجد الفتاةُ سبيلاً إلى الخلاص بعد، فرضيتْ!

لم تكن هدى من الغفلة بحيث تجهل أنها مقبلة على عهدٍ جديد ليس بينه وبين ماضيها سبب، وأن ذلك الماضي بما فيه من أماني وذكريات قد ذهب إلى غير رجعة؛ فإن هي لم تستطع أن تنزع من نفسها كل ما يربطها به، فقد ضلّتْ وأثِمتْ وبذلتْ ما لا تملك لمن لا يملك - فراحت من أول يوم تحاول أن تدفن ذلك الماضي في أعمق أغوار النسيان، فلا

تدع سبباً يذكّرها به إلا أبعدته وعفَّتْ آثاره؛ فلا رسالة، ولا صورة، ولا جريدة فيها شيء من معناه أو معنى يتصل به إلا أحرقتها وأذْرَتْ رمادها، وحتى المخدع الذي كان يُلمّ بها طيفُه إذ تأوي إليه، لم تَدَعه في موضعه؛ والصورة التي تصوّرتها يوماً لتهديها إليه حين يطلبها - ولم يطلبها -، لم تُبقِ عليها؛ والمسرة التي طالما تحدث فيها إليها وتحدثت إليه في غفلة من أهلها وأهله، لم تحاولْ أن تمسك سمّاعتها بعدُ مرةً واحدة لتنادي أحداً أو تجيب نداء. . .

ولكن هدى مع كل ما فعلتْ وما غيِّرتْ من نظام حياتها كانت من أوهامها ووساوسها على حذر ورِقْبة، تخشى يوماً يستيقظ فيه ذلك الشبحُ الراقد في قلبها فيفسد عليها حياتها ويُزلْها!

وتركتْ ما كانت فيه من أسباب اللهو ومتاع الشباب إلى الصلاة والعبادة، لعل الله أن يجدد لها السعادة ويهب لها السلوان؛ وجلست في مُصَلاّها ورفعتْ يدين ضارعتين إلى الله تدعو: (يا ربّ! هذه طاقتي فيما أملك؛ فجنِّبني الإثم والخطأ فيما لا أملك!)

ولما حُدِّد يومُ العُرس بعد أيام، رَجَتْ أباها وخطيبَها أن يَنْسآ الأجل؛ فما تريد أن تذهب إلى زوجها إلا فارغة القلب له، مغسولة الصفحة من ذكريات الماضي جميعاً. . .!

وجلست هدى إلى خطيبها وجلس إليها، ورأتْ فتىً يستحق الحبَّ لو أنها تملكه؛ فمنحته الاحترام والطاعة!

وكثر لقاؤها خطيبَها، وطالت مجالسهما وطابت. وخلا إليها ذات مساء يحدثها وتحدثه،

ومضى الحديثُ فنوناً، وكشف لها عن صدره ووضع بين يديها أمانيه؛ ونظر إليها بعينين صافيتين فيهما طهر وبراءة، ونظرت إليه فأغضَتْ من حياءٍ، ونهضت معتذرة فأوت إلى مخدعها تبكي!

أرأيت دموع الندم في عيني فتاة قط!

لكأنما كانت تحاول أن تغسل بالدموع سرّاً أطلَّ عليه من عينيها حين نظرتْ ونظر، فلم ترقأ دمعتُها ليلتئذ!

ولما جلست إليه في الزورة التالية بعد أيام، حاولتْ أن تقول شيئاً ثم أمسكتْ؛ قلد خُيِّل للمسكينة أنها تستطيع أن تَتَخفّف من وقر ذلك الماضي الذي تثقل ذكراه على ضميرها لو باحتْ به بين يديه؛ ولكنها لم تقدر، فسكتتْ على ألمٍ!

وراحت الأيام تدنيهما قلباً إلى قلب وروحاً إلى روح حتى صفا الود بينهما، وتراءيا نفساً لنفس، وكشفت لها الأيام منه كنوزاً من الإخلاص والوفاء والرجولة؛ فمنحته الإعجاب إلى الاحترام والطاعة!

وأخذ الماضي يتلاشى من خيالها ويستتر في حجاب وراء حجاب من فضائل خطيبها، حتى نسيت؛ فلم يعد شيء من ذلك الماضي يلم بها أو يخطر لها، وأتست إلى حاضرها وسعدت به!

وصحبتْ زوجها إلى داره، والتقيا روحاً وجسداً وعاطفة، وثابت نفسها إلى الاطمئنان والرضى؛ فراحت تبذل لزوجها ما تستطيع أن تبذل وراح زوجها يبذل لها، ورفرف طائر السعادة على عشهما يغرِّد ألحانه. ومضى عام، وصار الاثنان ثلاثة؛ واجتمع شمل الأسرة السعيدة على الوفاء والحب والإيثار؛ وكما يشرق الصبح في أعقاب ليل داج فيغسل ظلماته بفيض من النور ويمسح على وجه السماء فإذا هي مشرقة تتألق - كذلك كان حاضرها من ماضيها، وتلفَّف الماضي في أكفانه ودفنته الأيام في أعمق أغوار النسيان!

ثم كان مساء، وكانت هدى تسابق طفلها في شارع خالٍ على شط النيل حين برز لها شبح فألقى ظلاله في طريقها ثم تراءى لها. وانبعث الماضي إنساناً حياً يحدق في وجهها بعينين فيهما ظمأ وجوع، وانطوى الزمان فكأن ما مر من سِنيه لم يكن إلا خفقة طرف سافرت فيها النفس ثم آبت؛ وطفت الذكريات الراسبة في أعمق الأغوار بسمات على الشفاه تختلج وتناجياً في العيون تتلاحظ؛ وهتف ماجد في هَمس: هُدى!

وهمَّتْ هدى أن تجيب النداء فما أطاقت، ورانت على عينيها غشاوة من الدمع، ودار رأسها فأوشكت أن تسقط، فاستندت إلى جذع شجرة قائمة وأغمضت عينيها، وتعاقبت على الواعية الباطنة صورٌ وذكريات، وخيل إليها أن أصواتاً كثيرة تهتف بها، وأن متكلما يتكلم ويسأل ويجيب ولا سميع، وأفاقت على صوت ناعم يناديها ويجذب ثوبها: ماما! ماما! أنا سبقتك!

وانحنت على طفلها فحملته بين ذراعيها وكرت راجعة، وأوت إلى مخدعها تبكي!

وكعهدها في ليلةٍ منذ سنوات - كانت في تلك الليلة؛ وخلت إلى نفسها تتدبر أمرها وتزن ماضيها وحاضرها؛ وشعرت كما شعرت مرة من قبل، أنها قادمة على أمر ذي بال، وأنها الساعة في مرحلة بين مرحلتين من حياتها؛ ولكنها هذه المرة لم تكن في شك من الطريق الذي ينبغي أن تسلكه وإن كانت تطأ فيه الشوك وتدوس على الجمر!

ودنا الطفل من أمه وعلى شفتيه كلمة صامتة وفي عينيه سؤال. . .

ومدت أمه إليه يداً فضمته إلى صدرها وانحنت عليه وراحت تبكي بلا دموع!

(يا ولدي!. . .)

ولم تتم حديثها! ترى بماذا كانت تريد أن تحدث طفلها؟ أتراها كانت تريد أن تتخفف من ثقل يئودها فتفضي إليه بالسر الذي عجزت من الإفضاء به إلى أبيه. . .

وذكرت الرجل الذي وضع أمانيه بين يديها وأخلص لها؛ لقد منحته من نفسها الاحترام والطاعة حين عجزت أن تمنحه الحب؛ ولقد خُيل إليها في فترة من حياتها أنها تحبه؛ فما بالها اليوم قد صبأت حين ذكرت ذلك الماضي الذي كانت تظنه قد غاب في مَدْرَجة النسيان؟

وتعاقبت الأيام، وهُدى من داء قلبها في همٍّ واصب، والزوج يرى ويحس ولا يكاد يدري، والطفل يذبل ويذوي عوده؛ إذ كانت أمه في شغل عنه بما تصارع في نفسها مِن هم!

وعاد الزوج إلى الدار ذات مساء ومعه ضيف. . . وكان الماضي طيفاً يُلمّ فعاد ضيفاً يزور!

واستقبلته هدى بشعور بين الأنس والوحشة، واتخذت مجلسها بإزاء الرجلين اللذين فرض عليها القدر أن تكون منهما بين شِقَّي مقصَ لا يجتمعان إلا على فرقة وشتات!

ونهض الزوج لبعض شأنه، فهمَّت أن تلحقه حين ناداها ماجد، ونظر إليها ونظرتْ؛ وكان في عينيه نظرة ضارعةٌ، وفي عينيها نظرةُ تساؤل، وتحركت شفتاه هامساً: (هدى! لقد التقينا أخيراً. . .)

وفي نبرة صارمة متكبرة أجابته ووجهها إلى الباب: (خيرٌ ألا تعود. . .!)

ولما خلت إلى نفسها بعدُ ومَثَلَتْ صورته في خيالها، كان رجلاً لآخر غير مَن كان؛ بلى، إنها كانت تحبه، وكانت تحفظ له في أعماقها أجملَ الذكرى، ولكنها لم تعرفه على حقيقته إلا الساعة؛ لقد كانت له يوماً بقلبها وعواطفها تحفظ له غَيْبَه ومَشْهده؛ فما له يحاول اليومَ أن يكون له منها غَيْب ومشهد؟ أتراه لم يصحب زوجها إلى داره إلا ليقول لها في همس:

(هدى! لقد التقينا أخيراً. . .) أم تراه يحاول أن يُزِلَّها بالمكر والخديعة لتمنحه في غفلةٍ من زوجها بعضَ ما لا تملك!

ونبذتْهُ مذ عرفتْه وسقط من حسابها، وتحطم التمثالُ الجميل الذي أقامتْه في قلبها تقدْسه وتتعبّد له؛ ومحت كلمةٌ من شفتيه ما لم تمحه السنون من ذكريات الماضي فصار هباءً وعاد كما بدا!

ووازنتْ بين رجلٍ ورجل فشالت موازينُ ورجعتْ موازين، وانجابت الغشاوة عن عينيها فبعد لأيّ ما أبصرتْ، وعرفتْ. . .

وشيعه زوجها إلى الباب وقفل إليها كأنه عائد من سفر طويل، ودفنت وجهها في صدره لتذرف آخر دمعةٍ على الماضي الذي ذهب ولن يعود؛ ورفعت إليه عينين مخضلَّتين بالدمع وعلى شفتيها كلمة حب لم يسمعها قط ولم تقلها منذ أظلمها سقف. . .

وكأنما كان قلبها في سجنٍ فحطّم أقفاله وانطلق، وبدأ الحب يكتب تاريخاً جديداً في صفحة بيضاء!

محمد سعيد العريان

العدد 369 - بتاريخ: 29 - 07 - 1940

تقديم السنين

(على طريقة المقامات)

للأستاذ عباس محمود العقاد

قلت ونحن نقدم الساعة: غير هذا التقديم كنت أريد. فنحن لم نقدم الساعات ولكننا سمينا الحادية عشر ثانية عشرة وانتهينا عند هذا التبديل، وإن هي إلا أسماء!

وإنما التقديم الحقيقي بعنائه أن تتقدم الساعة في الزمان، فيصبح ما سيكون فيها وقد كان

فمن ركب الطيارة من القاهرة يصبح (على جناح السرعة) وهو في الإسكندرية

ومن أخذ في قراءة فصل من كتاب يصبح وقد فرغ من القراءة ووعى ما قرأ، أو في كتابة مقال يصبح وقد فرغ من كتابته كأنه قد جهد له طوال الدقائق الستين من تلك الساعة.

ومن غلبه الغضب يصبح وقد سرى عنه، أو من اطمأنت نفسه بالغبطة يصبح وقد تهيأت نفسه لغبطة جديدة

فهكذا يكون تقديم الساعات، أو هكذا يكون التقديم في الزمان

ثم قلت وقد سنح لي الخاطر وتمثلت الأمنية: أمن أجل ساعة واحدة تريد هذه الخارقة؟ كلا، هذا إسراف في التمني وافتيات على الخوارق. وساعة واحدة لا تستحق هذا الإسراف ولا هذا الافتيات. فما أيسر انتظارها على المتشوف، وما أسهل إغفالها أو نسيانها على المستطلع! إنما يستحق هذا الأمنية تقديم سنين لا تقديم ساعات، فمن لنا بمن يقدم الزمان في مجاهل المستقبل عشر سنين؟ ومن لنا بمن يميط هذا الحجاب الكثيف لعيون المتلهفين ونفوس المترقبين؟

عشر سنين فإذا الغد أمس والمجهول معلوم

عشر سنين فإذا الحرب الحاضرة وقد سماها الكاتبون حرباً ماضية، وإذا الناس قد

عرفوا الغالب والمغلوب، وكشفوا الغشاوة عما وراء هذا الستار المضروب، من غبار الوقائع وعثيْر الحروب
عشر سنين فإذا بلاد قد طويت وبلاد قد نشرت، وإذا أعلام قد برزت وأعلام قد اندثرت، وإذا مذاهب من الإصلاح أو من الإفساد قد جربها المجربون، فمنهم راضون ومنهم ساخطون، ومنهم من يحكم على أصحابها بالحكمة ومن يحكم عليهم بالجنون؟ وفي مصر كم ذا يحدث في عشر سنين؟
وكم جاهل بحاضرة اليوم يصبح وهو من علم الغد وبعد الغد على أتم اليقين عشر سنين!
فمن ذا الذي يدير لنا لوالب الزمان عشر سنين؟!
قال الراوي: وكأنما كانت أمنيتي هذه أمنية مرقوبة في العالم المجهول، فما سنحت في خاطري حتى تكشفت لبصيرتي ساحة فسيحة كأرحب ما تكون الساحات، مكظوظة باللوالب والتروس، مزحومة بالمحركين والمحركات؛ وعلى مقابض تلك اللوالب مردة أشداء، ظهر عليهم السأم ولا أقول ظهر عليهم الإعياء، وكبيرهم الذي يقبض على أكبر اللوالب يسألني سؤال العارفين: أأنت المقترح علينا تقديم الزمان عشر سنين؟
قلت: نعم. وأن شئت فعشرين أو خمسين!
قال: على رسلك. فما أجبت إلى الصغير حتى تطلب العظيم، فهل أنت وحدك طالب هذا التقديم؟
قلت: احسبني وحدي، فما زاد الأمر على أمنية في خلدي
قال: جزاك الله الحسنى، فليس أحب إلينا من إجابة ما تتمنى، فقد سئمنا والله وبرمنا، وشقت علينا الإدارة والدوران، وتاقت نفوسنا إلى اختزال واختزان، على شكل من الأشكال ولون من الألوان
إلا أنك وحيد. وماذا تغني أمنية الوحيد بين العدد العديد؟ فهلا ضممت إليك جمعاً من الطلاب، وحشداً من الزملاء والصحاب، فنسأل لك ولهم ونطمع إذن في أن نجاب؟
قال الراوي: ولم يكن أيسر عليَّ من جمع الألوف والمئين، ممن يشتهون تقديم السنين، فخرجت فناديت: إلينا يا طلاب الغيب المكنون، الذين يودون لو يعرفون ما أضمرت للدنيا سنة ألف وتسعمائة وخمسين، ففي لمحة واحدة تبصرونها اليوم فيما تبصرون، وتسمعونها اليوم فيما تسمعون. فما أتممتها حتى كان معي في الساحة الكبرى ملايين من ورائهم ملايين، يوشك أن يضيق بهم المكان، فلا تدور المحركات ولا يتحرك المحركون. وقلت لصاحب اللولب الكبير: دونك اللوالب فأدارها، فهؤلاء هم الراغبون المؤيدون
فنظر إليّ كالمنهمك وهو يقول: لوالبي فأديرها؟! أهكذا بغير شرط وبغير قبول؟
فاستغربت مقاله، وأعدت عليه سؤاله: بغير شرط وبغير قبول؟ فماذا تشترطون؟ وماذا وقد وصلنا إلى الساحة الكبرى يحول بيننا وبين الوصول إلى الغد المأمول؟
قال: الشرط معقول، والشرح لا يطول. . .!
قلت: هات ما عندك، فقد يهون الشرط المعلوم في سبيل الغيب المجهول
قال: إن هذه السنين تحسب من أعمار الناظرين
قلت: كيف؟ ألا تبين؟
قال: بلى، وإليكم البيان. فمن أباه فلينصرف ومن ارتضاه فليبق في هذا المكان
أيها المستطلعون والمستطلعات: إذا دارت اللوالب فمن بقى له من العمر خمس سنوات، فهو إذن مطوي في غياهب القبور منذ خمس سنوات، ومن بقى له من العمر اثنتا عشرة سنة فغايته بعد إدارة اللوالب سنتان، أو عشر مجرمات فهو ميت عند بداية الدوران
ثم نظر إليهم كما ينظر دلال المزاد، ونادى فيهم: أقابلون؟ (أنضبط) اللوالب على الميعاد؟
فما أتمها أو كاد، حتى خلا المكان إلا من خمسة أفراد: صاحب الأمنية، وفيلسوف، ومخترع، وفنان، ورجل من الزهاد
قال الراوي: فعجب أصحاب اللوالب من هذا الحشد الصاخب، والجيش اللاجب، ما بين زائغ ورائغ وهارب، وطفقوا يعجبون من قلة من يعيش للمعرفة والحكمة، وكثرة من

يعيش للنفس واللقمة، وشاقهم أن يسألوا أولئك الخمسة ما بالهم قد طاب لهم المقام، فلم يتفرقوا مع الزحام؟
ومال صاحب اللولب على الفيلسوف يسأله: ما بالك لم تذهب مع الذاهبين؟
قال: إذا جمعت خلاصة العمر في لمحة فما أنا من الخاسرين
وسأل المخترع: وأنت ما بالك لم تذهب مع الذاهبين؟
قال: إذا حكيت لوالب الزمن فقد عفيت على المخترعين، وقبضت على زمام القرون، فإني إذن لمن الخالدين
وسأل الفنان: وأنت ما بالك لم تذهب مع الذاهبين؟
قال: لعلي أستخلص زبدة البقاء، من هذه السنين الجوفاء، فأصونها في رمز ثمين، أو تمثال مبين
وسأل الزاهد: وأنت ما بالك لم تذهب مع الذاهبين؟
قال: لأن تذهب بي أقدام الزمن خير من أن تذهب بي هذه القدم الواهنة وهذا القلب الحزين
وسألهم جميعاً: ومن أدراكم وقد دارت اللوالب أنكم ستعيشون ولا تذهبون مع الغابرين؟
قالوا: هذا الذي نسألك عنه
قال: وهذا الذي أجهل سره
ثم عاد سائلاً: فهل قبلتم ما يكون وقد جهلتم أين تذهبون، يوم يدور دولاب السنين، وتطلع على الدنيا ستة تسعمائة وخمسين؟
فتلفتوا ثم تفلتوا
وانجلى الحشد الحاشد، عن شبح جامد، كأنه الجسد الهامد، لا يقارب ولا يباعد
اذهب أيها الزاهد، أو أقعد حيث أنت قاعد، فما دارت طاحون من أجل واحد، . . .
فتدور من أجلك دواليب الزمن الخالد والأبد الآبد
قال الراوي: وإذا صدقتم هذه المقامة، فلا تقديم للسنين حتى القيامة، وعلى الله السلامة!. . .
عباس محمود العقاد
الحديث ذو شجون
للدكتور زكي مبارك
إليك أعتذر، أيها الغزالي، فما كنت أحسب أن السياسة ستجني علينا كما جنت عليك - حصار مزعج! - اللهم اجعل هيكل باشا هو الدكتور هيكل - عواطف نبيلة من شعب نبيل
إليك أعتذر، أيها الغزالي!
في سنة 1922 كنت أقضي أكثر الوقت في تحرير كتاب (الأخلاق عند الغزالي) وكان ذلك في أعقاب أعوام شداد واجهت بها نار الثورة المصرية، واكتوت يدي بلهب الجدل والصيال حول المطالب الوطنية، فأثر ذلك في عقلي وتفكيري إلى أبعد الحدود، وحملني ذلك التأثير على السخرية من اعتزال الغزالي للمجتمع السياسي وابتعاده عن الضجيج الذي كانت تثيره الحروب الصليبية في ذلك الحين
ثم مرت أعوام راضني فيها الدهر بعد الجموح، فعرفت أن الغزالي لم يكن من الجبناء، وإنما كان من الحكماء
وهل أخطأ أبن خلدون حين نهى العلماء عن الاشتغال بالسياسة؟ وهل أخطأ محمد عبده حين استعاذ بالله من مادة: ساس يسوس؟
دلوني على رجل واحد غمس يده في السياسة ثم سلم من الأقاويل والأراجيف؟
لا بأس من تجريح الرجل الآثم، ولكني أستطيع أن أذكر عدداً من الرجال أهينوا في السياسة بغير حق. وأعجب من ذلك أن أستطيع الإشارة إلى عدد من الرجال أهينوا بسبب الانسحاب من ميدان السياسة، فهي عقرب تلسع بلا تمييز بين الغويِّ والرشيد
إن أقطاب السياسة في مصر هم عيون الأمة من الوجهة القومية، وهم أيضاً من الأقطاب في ميادين العلم والأدب والذكاء، ولكن ما نصيب الأديب من الاستفادة بعقول هؤلاء الزعماء؟
الريبة تلاحقك إن فكرت في زيارة هذا الزعيم أو ذاك، والشبهات تحيط بك إن رأيت

أن تزود عقلك بمعرفة أهل زمانك فتزور الأندية السياسية من وقت إلى وقت، وسمعتك غرض رجيم لأهل الظنون إن طاب لك أن تحفظ الأدب مع أقطاب عصرك فتؤدي واجب التهنئة أو واجب العزاء في بعض الظروف
لك أن تجالس الفارغين من أحلاس القهوات، وليس لك أن تظفر بمجالسة رجل كبير له منزلة سياسية، فإن فعلت فأنت وصولي ينتظر الجزاء القريب أو البعيد
أليس هذا هو الواقع في هذه البلاد؟
بأي حق يحرم الأديب في مصر من التعرف الصحيح إلى من يسيطرون على السياسية المصرية؟
وعمن يأخذ معاني التفكير في مصاير الأمور الوطنية إذا حرم التزود بأفكار أولئك الرجال؟
لو اتصل أدباؤنا بالزعماء لوجدوا لأدبهم آفاقاً أوسع من الآفاق التي يعرفون، الآفاق المحدودة التي لا تمتع غير البصر الكليل، الآفاق المزدحمة بأهل العقم والنضوب من الأشباح التي تغدو وتروح وليس لها زاد غير مضغ الحديث المعاد من فتات الزور والبهتان
كيف يجوز لأديب أن يقول إنه عاش في هذا العصر مع أنه لم يعرف أحداً من أمثال مصطفى النحاس ومحمد محمود وعلي ماهر وحلمي عيسى وعلي الشمسي وعبد الفتاح يحيى ومحمود النقراشي ومحمد هيكل ومصطفى عبد الرزاق وحسن صبري وعبد الرحمن عزام وحافظ رمضان ولطفي السيد وأحمد ماهر ومكرم عبيد وصبري أبو علم ونجيب الهلالي ومحمود بسيوني، ومن إلى هؤلاء من الوزراء والنواب والشيوخ، فإنما نريد التمثيل لا الاستقصاء؟
الأديب الذي لا يعرف أمثال هؤلاء معرفة صحيحة ليس بأهل لمعرفة روح العصر الذي يعيش فيه، وهو أيضاً أكذب الكاذبين حين يدعي أنه أثر في عصره تأثيراً قوياً أو ضعيفاً، فما يمكن لأديب أن يكون من أصحاب السلطة الأدبية إلا حين يستطيع بلسانه أو بقلمه أن يوجه المسيطرون على مصاير البلاد إلى غاية سامية أو مطلب شريف
ثم ماذا؟
ثم تقع البشاعة التي تشهد آثارها في كثير من الأحايين فالزعماء ناس كسائر الناس، وعندهم أوقات يزجونها بالسمر والحديث، فماذا يصنعون وقد غاب عن ناديهم كبار الأدباء؟
يلتفتون فيرون أنديتهم قد اكتظت بأهل اللغو والفضول من الذين يؤذيهم أن يكون لرجل من
أهل الأدب أديم صحيح، وعندئذ يصح عند الزعماء أن دنيا الأدب دنيا حقد غيظ وليس فيها مجال للفكر الثاقب والرأي الرشيد، فيكتفون بالزاد الخبيث الذي يقدمه إليهم الأفاكون من أشباه الأدباء. قاتلهم الله أنى يؤفكون:
سعد زغلول أعز أدب مصطفى المنفلوطي
وعبد الخالق ثروت أعز أدب طه حسين
ومحمد عبده أعز أدب حافظ إبراهيم
فهل تعرفون بعد هذه الأسماء أن زعيماً مصرياً عاون على خلق الفرص لأديب جديد؟
وكيف نصل إلى التعاون المنشود والعوائق تقوم من الجانبين؟
فالأدباء ينفرون من الاتصال برجال السياسة خوفاً من تهمة الوصولية
والساسة لا يعرفون من الأدب إلا أنه وسيلة للدعايات الحزبية وبين خوف أولئك وغرض هؤلاء تضيع الفرص على الأدب الصحيح الذي يمثل ما في المجتمع من آراء وأهواء، وحقائق وأباطيل.
أما بعد فالأدب في خطر، لأن أصحابه في عزلة عن الساسة، والساسة يملكون أكثر الوسائل في توجيه المجتمع، لأن الحاكم يملك في اليوم الواحد ما لا يملك الأديب في الأعوام الطوال
فإن كنتم في ريب مما أقول فتذكروا حوادث التاريخ، فقد كان الناس منذ أقدم العصور يعرفون أن الأدب لا بد له من سناد ليؤدي واجبه على الوجه الصحيح، وسناد الأدب هو الدولة، والدولة هي الساسة الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأحسن القول هو التوجيه الذي يصدر عن كبار الأدباء

أليس من العجب أن يكون قدماء اليونان أعقل منا وبيننا وبينهم أجيال وأجيال؟
ومن أجل هذا كان الأدب اليوناني القديم غنياً بالحديث عن سياسة الأمم والشعوب، كذلك كان الأدب العربي في العصور التي ازدهرت فيها الحضارة الإسلامية، فلما خمدت جذوة العرب تخاذل الأدب وترك الحديث عن السياسة العالية ليتحدث عن المنافسة بين الربيع والخريف، وليكثر القول في الألغاز وخصائص الأيام والأسابيع
أين ما دعوت إليه ألف مرة من خلق الصلات الروحية والذوقية والقومية بين الساسة والأدباء؟
إن طالت هذه الجفوة بين هاتين الطائفتين فسيكون مصير الأدب من أقبح المصاير، فسيحصر وهو راغم في الحديث عن مشكلات الحاجة خدوجة والمعلم مشحوت!
وأين الأديب الذي قضى سهرته في منزل سعد زغلول ليلة الحادث الذي خرج به الجيش المصري من السودان ليخلق منه قصة أروع من قصة الزوج الذي خانته زوجته الحسناء؟!
وأين الأديب الذي قضى سهرته في منزل علي ماهر في الليلة التي مات فيها جلالة الملك فؤاد ليصور عواطف الوزراء في قلقلات التاريخ؟
وأين؟ وأين؟
تلك أيام خلت، فليستعد الأدباء لفهم هذا القول، فقد ينفعهم في الأيام المقبلات حصار مزعج
ويمكن بعد هذا أن ندرك بوضوح أن الأدباء يعانون ضرباً من الحصار المزعج، فهم بعيدون عن الأوساط السياسة خوفاً من تهمة الوصولية، وهم بعيدون من الأجواء الشعبية خوفاً من تهمة الإسفاف، وهم بعيدون من الأوساط الفنية خوفاً من تهمة النزق والطيش، فقد شاع صدقاً أو كذباً أن الفنانين لهم بدوات تخرج عن الوقار في بعض الأحيان
نحن إذاً في حصار. ومع ذلك يطلب منا أن نصف جميع طبقات المجتمع، وأن يكون أدبنا صورة صحيحة لما يثور في ضمير المجتمع من عواطف وآمال
وأنا أشهد على نفسي بالمرض من هذه الناحية، فأنا أجانب رجال السياسة مجانبة مقصودة، لأني أتوهم أن اتصالي برجال السياسة قد يصورني أمام الجمهور بصورة من يطلب الصيد. وقد حاولت إبراء نفسي من هذا المرض فلم أفلح، وكان من آثار هذه العلة أن تمضي الأعوام ولا أنتفع بمحادثة زعيم أنقل عنه وينقل عني، فعندنا بالتأكيد آراء وأفكار قد تنفع الزعماء بعض النفع، وقد توجههم إلى التعصب للأدب الرفيع، وهو في حاجة إلى عصبية قوية ترفع ما يعترض طريقه من عقبات وأشواك
وقد أزعجت قراء الرسالة مرات كثيرة باقتراح لم أجد من يصغي إليه، وهو أن يكون للأدباء مكان في الحفلات الرسمية، فجميع الطوائف تمر في خواطر رجال الدولة عند المناسبات الخطيرة ولا ينسى غير الأدباء. وإلا فأين الأديب الذي دعي بصفته الأدبية إلى
حضور إحدى الحفلات في قصر عابدين أو قصر الزعفران؟
ويزيد الحرج حين يكون الأديب موظفاً، فهو لا يدعى لأية حفلة رسمية إلا حين يصل إلى درجة مالية تضيفه إلى طبقات الأعيان، والعياذ بالذوق!
والدرجات المالية للموظفين هي الميزان في كثير من الشؤون، ولا سيما شئون التشريف. ويكاد يكون من المستحيل أن يمر الموظف في خاطر أية جهة رسمية إلا بعد أن يصل مرتبه إلى كيت وكيت، ولو كان من أقطاب الأدب والبيان
وكان المأمون أن يعتدل الميزان في وزارة مثل وزارة المعارف وقد تولى شؤونها وزراء من رجال الأدب أمثال: محمد علي علوية، ومحمود فهمي النقراشي، ومحمد حسين هيكل. ولكن الأمور ظلت تسير في طريقها القديم، فلم يستفد الأدب شيئاً من الوزراء الأدباء، وإن كنت أذكر بالخير الكثير أن بعض هؤلاء راعى منزلتي الأدبية فتناسى أني تطاولت عليه في إحدى المجلات!
قد يقال: إن الدولة تفتح باباً من الشر حين تفكر في الاعتراف الرسمي بالقيمة الأدبية، فكل إنسان يدعي أنه أديب، وأن له حقاً في حضور الحفلات الرسمية!
وأجيب بأن الأدب لم يعد فوضى كما كان في الأزمان الخوالي، فالجمهور يكاد يتفق على الإعجاب بأفراد معدودين هم عنده الطبقة الأولى من الأدباء، وهو كذلك يعرف

من هم رجال الطبقة الثانية ومن هم رجال الطبقة الثالثة، فما الذي يمنع من أن يكون في ذهن الدولة صورة لأدباء الطبقة الأولى لتفكر في دعوتهم إلى الحفلات الرسمية، كما تفكر في دعوة من يمثلون بعض الجوانب من حياة المجتمع؟

أليس من العجيب أن يشهد الحفلات الرسمية بعض المجهولين من موظفي السفارات والقنصليات، ثم يحرم رجال الأقلام من شهود تلك الحفلات، ولهم فيها زاد نفيس هو تذوق ما في المجتمع العالي من دقائق تعود على القلم بأجزل النفع؟

إن وزير المعارف اليوم هو صاحب المعالي محمد حسين هيكل باشا، وقد سألت عنه زملائي بالمعارف فأكدوا لي أنه الدكتور هيكل، الأديب المشهور الذي كان يحامي عن الأدب وأهله في جريدة السياسة، وأجمعوا على أنه هو بعينه صاحب كتاب (ثورة الأدب)

والحق أن وزيرنا الجديد فيه مشابه من الدكتور هيكل، وإن كنت أخشى ألا يكون إياه، فمن واجبي نحو الأدب الذي أتشرف بالانتساب إليه أن أطلب من الوزير الذي يشبه الدكتور هيكل أن يتفضل فيخص الأدب بنظرة من نظراته الثواقب، ونحن بكل تواضع نقترح أن يكون لكبار الأدباء بعض ما لكبار العلماء من منازل التشريف. فإن كان العلماء - وهم اصطلاحاً رجال الدين - أولى منا بالرعاية لأنهم من أهل الآخرة، فنحن أحق بالعطف العاجل لئلا يكتب علينا الحرمان في الدارين!

وليكن مفهوماً جداً أني أقول هذا الكلام وأنا أتوهم أن هيكل باشا هو الدكتور هيكل، فإن ثبت أن زملائي بوزارة المعارف خدعوني وأن هيكل باشا شخص غير الدكتور هيكل، فأنا أعتذر لمعالي الوزير عن هذه الكلمات الجافية، وأرجوه أن يثق بأني برئ من الأدب والأدباء!

لو صح أن هيكل باشا هو الدكتور هيكل لكانت فرصة ذهبية لنصرة الأدب الرفيع، فقد نغريه بالوعود فنزعم أن أهل الأدب يحفظون الجميل، وأنهم لن ينسوا فضله في إعزاز الشخصية الأدبية بالديار المصرية

اللهم اجعل هيكل باشا هو الدكتور هيكل!

عواطف نبيلة من شعب نبيل

في صباح اليوم السادس عشر من حزيران تلقيت إشارة تليفونية من وزارة الخارجية المصرية تسألني عن اسمي الكامل وعن منصبي بوزارة المعارف، وأردت أن اعرف الموجب لهذه الأسئلة المفاجئة، فقيل: إن أجوبتها ستقدم إلى قصر جلالة الملك تمهيداً لوسام سأتلقاه من حكومة العراق

وفي صباح اليوم الخامس عشر من تموز تلقيت برقية من الصديق الكريم السيد عبد القادر أحمد الموظف بمديرية الدعاية في بغداد يهنئني بوسام الرافدين

ومعنى تلك الإشارة وهذه البرقية أنني خطرت في بال أهل الصدق والوفاء من أقطاب بغداد

وأنا مع ذلك لا أعد (وسام الرافدين) تحية شخصية، وإنما أعده رمزاً لتوكيد الصلات الأدبية والعلمية بين مصر والعراق، وقد جاهدت في ذلك جهاد الصادقين

وإذا كان الله أراد أن أتشرف بعضوية نادي القلم العراقي، وأن أتشرف بعضوية نادي المثنى، وأن أتشرف بهدية من جلالة الملك غازي الأول، وأن أتشرف بحمل وسام الرافدين، فإن الله تباركت أسماؤه خصني بمزية جليلة هي وسام الود الصحيح الذي شرفني به الشعب العراقي، الشعب النبيل الذي قيدني في هواه بقيود متينة من شرف الحب وكرم الإخاء

وإذا قيل إن العراق يجزيني وفاء بوفاء، وإخلاصاً بإخلاص فأنا أقول إني سأقضي دهري كله مديناً للعراق. ولن أستطيع أداء ما للعراق في عنقي من ديون، ولو بذلت دمي وروحي في حب العراق وأهل العراق

ومن واجبي في هذا المقام أن أقدم واجب التحية لحضرة صاحب السمو الأمير عبد الإله، الرجل العظيم القلب والروح، وقد عرفته معرفة صحيحة في جلال شخصيته الذاتية قبل أن يضاف إليها جلال الوصاية على عرش العراق، ثم زرته بعد ذلك فلم أره زاد إلا كرماً إلى كرم، وصفاء إلى صفاء، وكذلك تكون المعادن الكريمة لعظماء الرجال

ومن واجبي أيضاً أن اقدم التحية لفخامة رئيس الوزراء ومعالي وزير المعارف،

وفخامة وزير الخارجية وسعادة رئيس الديوان الملكي في بغداد، راجياً أن يكون عهد جلالة الملك فيصل الثاني من العهود البواسم في بلاد الرافدين، بلاد دجلة والفرات المرء كثير بأخيه، ولي في العراق أخوة يعدون بالألوف فلله الحمد وعليه الثناء.

زكي مبارك

على هامش الحرب

الطابور الخامس في القرآن

للأستاذ عبد الرزاق إبراهيم حميدة

- 1 -

امتلأت الصحف بحديث الطابور الخامس، وتناقلت الألسنة خبرهم، وتحدث الوزراء والقواد يحذرون الأمم منهم. والمقصود بالطابور الخامس تلك الفئة التي تظهر أو تستتر في أمة من الأمم المشتبكة في حرب مع أخرى، فتوالى الأعداء، أو تعمل على خذلان قومها بنشر الأراجيف وإذاعة الأخبار الكاذبة أو الضارة عن ضعف قومهم، وقوة أعدائهم، أو عن نتائج الحرب بما لا يفيد أبناء وطنهم، أو أنهم مسوقون إليها خدمة لمطامع أمة أخرى تحت شعار المحالفات، ومبادئ الشرف، والدفاع عن مبادئ الديمقراطية

وقد يكون عملهم إرشاد الجند الفاتحين إلى مواطن الضعف في البلد المغزو وإلى ما يدبر من خطط ترد كيد العدو وتصد زحفه

وشاعت هذه الكلمة أخيراً وصفاً لأعوان هتلر في النرويج وفي هولندا وبلجيكا، وفي فرنسا نفسها وجد هذا النوع من الناس فكان سبب نكبتها، وعاملا من أكبر العوامل في هزيمتها، ففني رجالها وضاع استقلالها، ووطئ الألمان بلادها يحكمون في أرضها وديارها وأموالها، ويغيرون على نظمها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ويبدلون دستورها وحكومتها، ويفعلون بها ما يشاءون

والغريب أن هتلر ينفي وجود أعوان له مأجورين في بلد من البلاد التي غزاها، ويقول إن وجود هذا الطابور الخامس في البلاد المفتوحة راجع إلى فساد النظم في تلك البلاد ورغبة فريق من أبنائها في الاستعانة به على إصلاح الأحوال لتكون كألمانيا قوة واتحاداً والحق الذي لا مرية فيه أن في كل أمة من الأمم - القديمة منها والحديثة حتى ألمانيا نفسها - اختلافاً في الرأي، ودعاة لمذاهب سياسية تخالف مذهب أمتهم، وغيرة من الطبقة الحاكمة وتشيعاً لنظم اقتصادية أو اجتماعية غير السائدة في بلادهم. وهذه الاختلافات تضعف وتقوى تبعاً للعوامل التي تساعد على قوتها أو ضعفها؛ فإذا كانت الأمة متحدة

الجنس، متشابهة البيئة قوية الأخلاق، مرباة على حب الوطن والتفاني في سبيله، وكانت الحكومة قوية يقظة كانت جماعة الطابور الخامس محدودة العدد قليلة الأثر ضعيفة النشاط.

وخير مثال لذلك إنجلترا التي أخذت حكومتها بالشدة أنصار الفاشست فيها، وقبضت على زعيمهم سير (أزوولد موزلي) هو وزوجه واعتقلت من تشك في أمرهم من رعايا الأعداء كذلك

أما الدول، أمثال تشيكوسلوفاكيا التي اختلفت عناصرها، وهولندا التي ضمت عدداً غير قليل من أنصار النازي داخل حدودها، وفرنسا التي تشعبت أهواء الناس ومذاهبهم فيها، فقد قضى هتلر على استقلالها، وأصابها بنكبة الهزيمة، وألبسها ذل الاحتلال وفقدان الاستقلال

وقد كان لمثل هذه الجماعة وجود ونشاط في عهد النبي (ص) وعني القرآن بأمرهم، وكشف أسرارهم، وحذر النبي منهم، ونزلت السور تنبئه بما في قلوبهم، وسماهم (المنافقين) وخصهم بسورة من سوره، وتحدث عنهم في غيرها من السور الكريمة تارة يصفهم وصفاً عاماً، وتارة يذكر مواقفهم في ظرف من الظروف التي أحاطت بالنبي، وأحياناً يأمره أن يتخذ منهم موقفاً خاصاً، أو يحرضه على إنزال نوع من الأذى بهم

وكان ظهورها وعملها والقضاء عليها بعد الهجرة بالمدينة وما حولها، وكان القائمون بها هم اليهود من بني قينقاع وبني قريظة وبني النضير. وكان هناك رءوس للضلال من الأوس والخزرج أمثال عبد الله بن أبي بن سلول

وكانت هاتان القبيلتان الأوس والخزرج في حرب دائمة قبل الإسلام وبعده إلى ما قبيل الهجرة. كانت الخزرج أكثر عدداً، ففكرت الأوس في محالفة قريش عليهم، وأرسلوا لذلك رسلاً إلى مكة، فلما علم الرسول بأمرهم - وكان قد يئس من قريش أو كاد، وأخذ يعرض نفسه ودينه على القبائل وفي مواسم الحج - دعاهم إلى خير مما جاءوا له، ودعاهم إلى الإسلام وإلى عبادة الله وحده، فأبوا ثم عادوا إلى يثرب عقب انصراف الوفد من مكة إلى المدينة حدثت موقعة (يوم بعاث) بين الأوس والخزرج، وانتصرت الأوس. وفي الموسم الذي تلا يوم بعاث أقبل جماعة من الخزرج إلى مكة للحج، فدعاهم الرسول إلى الإسلام، فآمنوا من فورهم، وكانوا من قبل يسمعون بقرب ظهور نبي في بلاد العرب. ثم أخبروا الرسول بما في المدينة من تنازع وشحناء، ورجوا أن يصلح الله أمر يثرب على يديه، ولما عادوا إلى قومهم ذكروا لهم حديث الرسول والإسلام، فلم تبق دار في يثرب إلا وفيها حديث عن الرسول وعن الإسلام وفي موسم الحج الذي قبل الهجرة بايع النبي قوم آخرون من أهل يثرب وتسمى بيعة العقبة الثانية أو بيعة النساء، وأرسل النبي معهم مصعب بن عمير يعلمهم الدين. فأسلم على يديه كثير من أشراف يثرب منهم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير، ودعا سعد عشيرته إلى الإسلام أو يقاطعهم فأسلموا جميعاً

وفي عام الهجرة جاءه من يثرب ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان وبايعوه على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم، وأقسم سيدهم البراء بن معرور فقال: والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا. ثم قام أبو الهيثم بن التيهان فقال: إن بيننا وبين الرجال (يعني يهود المدينة) حبالاً وإنا قاطعوها. وأعرب عن خوفه منهم إذا تركهم لليهود بعد أن يظهره الله على أعدائه، ففهم النبي الكريم مراده، وتبسم وقال: بل الدم الدم، والهدم الهدم. يعني أنا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم

علمت قريش بما كان فأرسلت وفداً منها إلى منازل الحجاج من أهل يثرب، وأخبروهم بما حدث، وقالوا إنكم جئتم إلى صاحبنا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم. فحلف نفر من مشركي يثرب أنه لم يكن شيء من هذا، وكانوا صادقين لأنهم لم يعلموا بما كان في الليلة السابقة. وقال لهم عبد الله بن أبي بن سلول، وهو رأس النفاق فيما بعد: إن هذا الأمر جسيم، ما كان قومي ليتفوتوا عليّ بمثل هذا، وما علمته. فانصرفوا عنه وأخيراً تأكد لدى قريش ما كان من بيعة العقبة الثالثة، ولكن بعد أن نفر الناس من منىً وفاتهم أهل يثرب

كان إسلام أهل المدينة نصراً للإسلام والمسلمين، وكان فرصة طيبة لأصحاب النبي في مكة، فقد وجدوا مهاجراً جديداً يفرون إليه بدينهم ويقيمون بمنأى من أذى قريش في حماية إخوان لهم في الدين، وجعل الله المدينة دار أمن لهم يلجئون إليها؛ فخرجوا مهاجرين إرسالاً، نساء ورجالاً، إلا من حيل بينه وبين الهجرة من المستضعفين خافت قريش تلك الحركة ورأوا فيها خطراً يتهددهم، وصمموا على أن يحولوا بين النبي

وبين دعوته بكل ما وسعهم من قوة وحيلة، واجتمعوا للتشاور في دار الندوة، وتشاوروا في واحدة من ثلاث كما حدث القرآن الكريم بذلك في سورة الأنفال: (وإذ مكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) وقر رأيهم على قتله، وذلك بأن يجمعوا من كل قبيلة شاباً فتياً نسيباً، ويعطوه سيفاً صارماً، ثم يقف هؤلاء الفتيان على بابه ليلاً، ويضربوه ضربة رجل واحد وهو خارج لصلاة الفجر فيتفرق دمه في القبائل، ويرى بنو عبد مناف أن لا قدرة لهم على حرب جميع القبائل، فيرضون بالدية

أخبر الله الرسول بما كان وأمره بالهجرة، فذهب إلى أبي بكر الصديق - وكان من قبل يمنعه حتى يأذن الله لهما - وأخبره الخبر وأعد الرواحل والدليل. وفي الليلة الموعودة التي عينتها قريش لتنفيذ مكرها أمر النبي علياً أن يبيت في فراشه لئلا يرتاب أحد في وجوده، وخرج النبي من بيته في آخر الليل وهو يقرأ (وجعلنا من بين أيديهم سداً، ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون)، فألقى الله النوم على

الفتيان، وأخذ النبي الكريم حفنة من تراب رمى بها في وجوههم وهو يقول: شاهت الوجوه
ثم ذهب إلى أبي بكر، وسارا حتى وصلا إلى غار ثور بأسفل مكة، واختفيا فيه ثلاثة أيام حتى انقطع رجال قريش عن طلبهما، ثم جاء الدليل وخادم وركبوا جميعاً وساروا في طريق المدينة حتى وصلا إلى (قباء) في اليوم الثامن من ربيع الأول لثلاث وخمسين سنة من مولده صلى الله عليه وسلم. وذلك في اليوم العشرين من سبتمبر سنة 622 من ميلاد المسيح
أقام النبي بقباء أربعة أيام وأسس مسجد قباء، ثم ارتحل إلى المدينة يحيط به أنصاره من أهل يثرب، وكان كلما مر بقبيلة ناداه رئيسها أن ينزل عندهم، وأخذ بخطام ناقته، ولكنه كان يقول: دعوها فإنها مأمورة. ومشت الناقة حتى جاءت إلى موضع مسجده الآن فبركت، ثم قامت وبركت، فنزل النبي ووضع الرحل عند أبي أيوب الأنصاري واشترى مكان المسجد والدور التي بناها له ولزوجاته
ومن ذلك اليوم تبدأ حياة جديدة تختلف عن حياة مكة له ولأصحابه ولأهل المدينة أنفسهم، وبدأت عوامل النفاق تبدو، وتحركت العداوة والبغضاء في نفوس المنافقين، ولقي النبي من مكرهم وسوء أعمالهم ومؤامراتهم هم واليهود شيئاً حتى أراحه الله منهم جميعاً
وذلك هو موضوع الحديث التالي إن شاء الله
عبد الرزاق إبراهيم حميدة
محنة باريس
بمناسبة ذكرى عيد الحرية 14 - يوليو سنة 1940
للأستاذ علي محمود طه
سألوني عن بياني وقصدي ... أسَفاً. . . باريس! قد ماتَ نشيدي!
شهدَ الحبُّ ذكرناكِ ولمْ ... أنسَ نجواكِ ولم أخفرْ عهودي
أنا لا أنسى لياليَّ على ... روضكِ الرفاف بالزهر النضيد
ثمر الفكر ومَجْنَى نُورهِ ... ومراحُ العين والقلب العميد
خطرةٌ عابرةٌ عدتُ بها ... عودةَ العوَّاص بالدرِّ الفريد
فاعذري المِزْهرَ في كفِّي إذا ... أخرسَتْهُ ضَجَّةُ الرُّزْءِ الشديد
يوم قالوا جلِّل القيدُ يداً ... حطمتْ بالأمس أصفادَ العبيد
حملتْ مِشْعَلَ حُرِّيَّاتهم ... في شُراةٍ من شباب المجد صِيد
كيف يا باريس بالله هوى ... ذلك النجمُ من الأفق البعيد؟
إن يَنَلْ منكِ المغيرون فما ... فتحوا غيرَ تخوم وحدود!
لستِ بنياناً، ولا أرضاً، ولا ... غابَ آسادٍ، ولا جنَّةَ غيد
أنت معنى عالمُ الفكر به ... يتحدَّى قبضةَ الباغي المريد
كعبةَ الأحرار! هذى محنةٌ ... راعتِ الأحرارَ في أكرم عيد
صُرِعَ النورُ به وانحسرتْ ... جبهةُ الشمس عن النور الشهيد
وأتى الليلُ، ومِنْ أهوالِه ... أنْ تُرَىْ بين ظلام وقيود
أين من فِرساي أفقٌ ضاحك ... مشرقٌ عن أمل الشَّعب السعيد
وعلى كلِّ طريقٍ موكبٌ ... صادحُ الأبواق خفَّاقُ البنود
لكأني اليوم ألقَى مأتماً ... وأرى الكُنكُرْدَ كالقبر الحريد
حالَ شدوُ الماءِ في أحواضهِ ... نَفْثَةَ الغرقى ببحرٍ من صديد
وقفتْ مصر به صامتةً ... تتقرَّى الغيب، طلَّسْمَ الوجود
غلبَتْها حكمةُ الدَّهْرِ ولو ... نطقت لَم تأتِ بالمعنى الرديد
ساحةَ الباستيل! حانَ الملتقَى ... وتعالتْ صرخةُ الفجر الوليد
أين أبطالكِ؟ ماذا! أتُرى ... ضربَ الليلُ عليهم بالوصيد؟
أغمدوا أسيافهم؟ وَيْحَ! وما ... عوَّدوا أسيافَهم حبسَ الغمود
ويحهم قد شيَّعوا أعيادهم ... بين عصفِ النار أو قصفِ الحديد
فوق أرضٍ صُبِغَتْ من دمهم ... وتحدَّثْ كلَّ جبَّارٍ عنيد
فوق أحجاركِ صرعى أمسهم ... فلذاتٌ كَتَبَتْ سِفْرَ الخلود
فاذكريهم بالذي مَرَّ بهم ... وأقرئي تاريخهم، ثم أعيدي!

أيها العائدُ من غاراتهِ ... راقداً تحت قبابِ (الأنفَليد)
تلك راياتُك، فانظرْ! أتَرى ... من سيوفٍ تحتها أو من جنود؟
أين من برلين أو آفاقها ... جيشُك الظافُر بالحشْدِ البديد
تطأ الأرضَ إلى مَشْرِقها ... موغلاً في أثَرِ الدُّبِّ الشريد
لفرنسا هِمَّةٌ لا تنثني ... أمَشَتْ في النارِ أم تحت الجليد
بالقليلِ الجمعِ من أبنائها ... تنزعُ النصرَ من الجمع العديد
أممٌ ترسُفُ في أحقادها ... دِنْتَها بالصفح والصنع الحميد
لم تسيِّرْ فوقها دبَّابةً ... أو تباغِتْها بطيرٍ من حديد
يقتلُ الولدان والشِّيبَ ولا ... يرحمُ المرضَى وربَّاتِ المهود
شَرَفُ الحرب كما لُقِّنتَه ... ملتقَى سيفين في ظلِّ البنود
فاعذِر اليوم فرنسا إنَّها ... وثقتْ بالعهد في دنيا الجحود
!قَرَعَتْ للنصرِ كأساً! ويحها! ... صَرَعَتْهَا خمرةُ النصر التليد
رَقَدَتْ عن غدِها وانتبهتْ ... حيث لا ينفعُ صحوٌ من رقود
أسفرتْ سِدَّان عن مأساتها ... وتهاوى حجرُ الحصن المشيد
ثَغْرةٌ أُنْفِذَ منها خنجرٌ ... قد تَلَقَّتهُ على حزِّ الوريد
شهدَ المجدُ لها باسلةً ... خُضِّبتْ بالدم من نحرٍ وجيد
فابعثِ العزَّةَ من تاريخها ... وتألَّقْ بسناهُ من جديد
:واطلَعِ اليوم عليها سيرةً ... وكن الشاعرَ واهتفْ بالقصيد
أيُّها الفاتحُ لا يغررْكَ ما ... سِرْتَ فيهِ من حصونٍ وسدود . . .
!لكَ فيَّ العِبرةُ المثلى فلا ... تأمنِ الزلةَ في أوجِ الصعود
رُّبة النور سلاماً كلما ... هتفَ الشِّعرُ بماضيك المجيد
لكِ في كلِّ خيالٍ صورةٌ ... بَرِئَتْ من وصمةِ العصر الجديد
غير ذكري يرجعُ الفكرُ بها ... لليالٍ من عصورِ الظلم سُود
لَهفَ نفسي لدمشقٍ ولمنْ ... خرَّ فيها من جريحٍ وشهيد
من شواظٍ يقذفُ الموتَ على ... رُكَّعٍ في ساحةِ اللهِ سجود
فأنا الشرقيُّ لا أنسى الذي ... حاقَ من حكمكِ بالشَّرقِ العتيد
المساواةُ التي أعلنتِها ... أعلَنْتهُ بنذيرٍ ووعيد
والإخاءُ الحرُّ ما كان سوى ... مدفعٍ يرمي بُمرْدٍ ومبيد
وطِني الروحيُّ، إن أغضَبْ لهُ ... فلآباءٍ كرامٍ وجدود
وتراثٍ خالدٍ من أدَبٍ ... أنا فاديهِ بروحي ووجودي
كفَرتْ ثورتُكِ الكبرى بهِ ... وهوَ المحسنُ يُجْزَى بالكنود
سار بالإسلام نوراً، وهَدَى ... بسنا عيسى خُطى الحقِّ الطريد
النبيُّون همو ثوَّارهُ ... حاملو الشُّعلة، أعداءُ القيود
فخذي بالحقِّ والرُّوح الذي ... هزَّ بالثورة أركانَ الوجود
!وابعثيها ثورةً أخرى فما ... يعرفُ الأحرارُ معنى للجمود
(رأس البر)
علي محمود طه
من وحي الحرب
!. . .وداعاً
للأستاذ كامل محمود حبيب
!وداعاً، يا عزيزتي، وداعاً
بين هذه الزعازع التي تلف العالم في ثورتها، وهذه العواصف التي تصعق الأمم في شدتها، وهذه النزوة الطائشة التي تبتلع الشعوب في احتدامها. . . وقفت أن أهتف بك: !وداعاً، يا عزيزتي، وداعاً
وانسرب بك القطار إلى الريف الجميل، إلى حيث تنعمين بالهدوء والراحة، إلى حيث تجدين لذة الأمان والطمأنينة؛ وخلفتني ألوح لك بمنديل أبيض قائلاً: وداعاً، يا زوجتي، !وداعاً. . .
ووجدت فقدك، فغمرتني لجة من الخواطر السود، وأنا في مكاني أشهد القطار وهو يتوارى خلف الأفق. . . ثم عرتني نكسة الفراق، فتراءت لي من خلالها أنانيتك، وأنت

تسدلين عليها - في ساعة الوداع - سجفاً من عبرات خادعة كاذبة، هي صورة من قلب المرأة الفارغ
ورجعت أتخبط في أرجاء الأرض، وقد لعج الحزن فؤادي؛ تضيق نفسي بالوحدة، ويتحرق قلبي بالوحشة
ودخلت الدار وحدي فأحسست مقتها إلى وخيل إلي أنها تكاد تلفظني لأنني غريب عنها وهي غريبة عني. لقد امتدت حماقتك إلى أثاثك فحملته - من قبل - إلى دار أبيك
ورحت أطوف في أنحاء الدار فما أجد بعض آثارك، فعلمت أنك أردت أن تمسحي تاريخك من عمري وألفيت كتبي وحدها تناديني فجلست إليها ألتمس السلوة
آه لو ألقيت إليك السلم فقذفت بكتبي حيث طوحت أنت بأثاثك، إذن لاستشعرت فقدك مرتين
إن حرصك على حاجاتك انتزع منها الحياة فهي لُقى في ناحية من دار، أما اعتزازي بكتبي فما انفك يبعث فيها الحياة
لا جرم، قد انخذلت أوصالك وانخلع قلبك، أول ما دوت صفارة الإنذار، فانبعثت تبحثين عن نفسك وقد تبعثرت في صلصلة الصوت
ثم تطاير الحمم من فوهات المدافع يزلزل الأرض والقلب في وقت معاً، فاندفعت تصرخين، وأنا أهدئ من روعك فما أصنع شيئاً
وهالني ما رأيت فتركت لك الخيرة من أمرك لأنني أشفقت عليك، فآثرت الرحيل لا بأس، فقد خشيت أن يبلغك بعض غضب الإنسان الوحشي الذي لا يفترس - حين تتأجج حيوانيته - بالناب والظفر، بل بالقنبلة والمدفع والرصاصة و. . . مما لا يسمع ولا يرى ولا. . . ولا يعي
وغرك شبابك الغض وجمالك الخلاب وأملك الباسم، فضننت بها جميعاً أن تكون طعمة لثورة الإنسان
وحرصت الحرص الذي ينزع بالمرأة دائماً إلى أن تنسى كل شيء إلا أن تكون عالة تتدلل
وتركتني من ورائك جندياً في الميدان، أحمل عبء نفسي وعبء عملي وعبء الدار وعبء الفزع الأكبر الذي يتهددني، وأنت بين أهلك لا تحتملين شيئاً من كلف الحياة
هذا، يا عزيزتي، هو الإخلاص الذي تغنيت به زماناً فانخدعت له؛ والآن - حين مرج الأمر - تبعثر في دوي الصيحة الكبرى
إن المرأة، يا سيدتي، معمل تفريخ فحسب، فإن هي عجزت عن أن تكونه فقد تعطلت وظيفتها، وبطل عملها في الحياة
وأنا عشت معك عمراً من عمري، أصفيك محض الود، وأحبوك خالص العطف، على حين قد لبثت سنين أنتظر. . . غير أنك كنت جرداء قاحلة لم تتفتح حياتك الجافة عن نبتة واحدة أستمتع فيها بنور الحياة الجميلة، فما ضاقت بك داري ولا غصت بك أيامي. . .
يا عجباً! لقد نسيت أنك كنت وأني. . . ففزعت عني أحوج ما أكون إليك، وطرت بعلمك الجاهل وعقلك المأفون، وفي رأيي أن المرأة المتعلمة العاقلة ليست في الميدان أماً لطفل فحسب، بل هي أم ذلك الجندي الذي تعركه الحادثات وتصعقه النوازل، وهي. . . وهي. . . رأب صدعه، ولكنك عجزت عن أن تكوني واحدة منهن
وثقلت عليك أيامي وأحلامي معاً فانفلت إلى أهلك، ولكن جشعك الوضيع كان يبعث بك إلي أول كل شهر لتحبطي حجتك الواهية وتفندي رأيك الخاوي
لا ضير، يا سيدتي، فإن طرفي النقيض لا يتلاقيان إلا في شرع امرأة في الريف، أخذ عقلك الفج يفتن في الزينة والتطرية و. . . تباهين بها فتيات من أهلك هي دونك لأنك أنت زوجي
ورحت تتبذلين في دار الاحتشام، وتنفثين عطرك الذكي بين الحظائر والزرب، وتتأنقين في ربى الطبيعة الساذجة، وتنشرين ثراك في بلاد المتربة والفقر، ونسيت أنك تؤرثين نار الحقد في قلب الفلاح المسكين، وتبذرين غراس الطمع في وطن القناعة والرضا
بالله لقد عجزت عن أن تلدي طفلاً فرحت تلدين في مأساة الحياة مهزلة تسخر منك فهجرت المدينة والمدنية ما تبرح تتوثب في دمك وتتناثر حواليك سموماً تلتهم قلب الريف الطاهر النقي

آه، لقد خفت أن تمر يدك الغضة الناعمة على جنة الريف النضيرة فتذرها جحيما تتسعر
فذهبت إليك أخفف من غلوائك وأسكن من حدتك فابتسمت في فتور وقد طمت بك شيطانيتك التي لا ترعوي
وآدني أن أرزح تحت حماقتك وجهلك وغباوتك وأنانيتك فأسدلت على أيامك ستراً، ثم انطويت وأنا أهتف بك: وداعاً، يا عزيزتي، وداعاً!
وشملني ظلام الدار وظلام الحياة وأنا ما أزال في فرحة العمر وربيع الشباب، فانطلقت أفتش عن قبس من نور
لا تحزني يا زوجتي، فأنت. . . أنت دفعتني
وتلمست، فإذا فتاة في ريق العمر ونزوة الشباب، تبذك جمالاً وفتنة، وتفوقك علماً وأدباً، وتعجزك حسباً وثراء. . . وتلاقينا على ميعاد
ووصلت حبلاً بحبل، ونعمت، من بعدك، بالحياة بعد إذ أمضني ملمسها الخشن واطمأنت نفسي إليها واطمأنت هي
وجلسنا في خلوة، ثم. . . ثم دوت صفارة الإنذار، فانخذلت أوصالها وانخلع قلبها، وانبعثت تبحث عن نفسها وقد تبعثرت في صلصلة الصوت
وانكشفت لي عن امرأة مثل من أعرف: امرأة فيها روح الثعلب أو شيطانة في مسلاخ امرأة
فطرحتها جانباً وانطلقت وأنا أهتف بها: وداعاً، يا عزيزتي وداعاً!
(مشتهر)
كامل محمود حبيب
من ثنايا (كتاب الديارات) للشابشتي
يوم من أيام المتوكل
للأستاذ صلاح الدين المنجد
ذكر (عبيد الله بن أحمد) بن خرداذبه أن المتوكل أنفق على الأبنية التي بناها . . . وهي: بركوارا، والشاة، والعروس، والبركة، والمختار، والجوسق، والجعفري، والبديع، والصبيح، والمليح، والسندان، والقصر، والجامع، والقلاية، والبرج، وقصر المتوكلية، والبهو، واللؤلؤة. . . مائتي ألف ألف وأربعة وسبعين ألف ألف درهم ومن العين ألف ألف دينار؛ (ف) فتكون قيمة الورق بصرف الوقت مع ما فيه من العين ثلاثة عشر ألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار وخمسة وعشرين ألف دينار
قال (المؤلف): شرب المتوكل يوماً في بركوارا فقال لندمائه: أرأيتم إن لم تكن أيام الورد لا نعمل نحن شاذ كلاه؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين لا يكون الشاذ كلاه إلا بالورد، فقال: بلى، ادعوا إلى عبيد الله بن يحيى، فحضر، فقال (له المتوكل): تقدم بأن تضرب لي دراهم، (زنة) كل درهم حبتان. قال: كم المقدار يا أمير المؤمنين؟ قال: خمسة ألف ألف درهم. فتقدم عبيد الله في ضربها فضربت وعرفه الخبر فقال: اصبغ منها الحمرة والصفرة والسواد، واترك بعضها على حاله. ثم تقدم إلى الخدم والحاشية - وكانوا سبعمائة - بأن يعد كل واحد منهم قباء جديداً وقلنسوة على خلاف لون الآخر وقلنسوة ففعلوا. ثم عمد إلى يوم تحركت فيه الريح فنصبت له قبة لها أربعون باباً فاصطبح فيها، والندماء حوله، ولبس الخدم الكسوة التي أعدها، وأمر بنثر الدراهم كما ينثر الورد؛ فنثرت أولاً أولاً؛ فكانت الريح تحمل الدراهم فتقف بين السماء والأرض كما يقف الورد فكان (هذا اليوم) من أحسن أيام المتوكل وأظرفها، وكان البرج من أحسن أبنيته فجعل فيه صوراً عظاماً من الذهب والفضة، وبركة عظيمة جعل فرشها - ظاهرها وباطنها - صفائح الفضة، وجعل عليها شجرة ذهب فيها كل طائر يصوت ويصفر، مكللة بالجواهر وسماها طوبى؛ وعمل له سرير من الذهب كبير، عليه صورتا سبعين عظيمين ودرج عليها صور السباع والنسور وغير ذلك، على ما يوصف به سرير سليمان بن داود عليهما السلام؛ وجعل حيطان القصر من داخل وخارج ملبسة بالفسيفساء والرخام المذهب فبلغت النفقة على هذا القصر ألف ألف وسبعمائة ألف دينار. وجلس (المتوكل) فيه (يوماً) على سرير الذهب وعليه ثياب الوشي المنقشة وأمر ألا يدخل عليه أحد إلا في ثياب وشي منسوجة أو (ثياب) ديباج ظاهرة، وكان جلوسه فيه سنة تسع وثلاثين ومائتين. ثم دعا بالطعام وحضر الندماء

وسائر المغنين والملهين وأكل الناس، ورام النوم فما تهيأ له، فقال له الفتح يا مولاي ليس هذا يوم نوم، فجلس للشرب. فلما كان الليل رام النوم فما أمكنه، فدعا بدهن بنفسج فجعل منه شيء على رأسه وتنشقه فلم ينفعه، فمكث ثلاثة أيام بلياليها لم ينم، ثم حم حمى حادة فانتقل إلى الهاروني قصر أخيه الواثق فأقام به ستة أشهر عليلاً وأمر بهدم البرج وضرب تلك الحلي عيناً

(انتهى)

(دمشق)

صلاح الدين المنجد

في الأدب الإنجليزي

دراسة شاعر قصصي

للأستاذ أحمد الطاهر

لنتخلف عن قافلة الزمان، ولنرجع إلى الوراء خمسة قرون أو ستة، ونحط الرحال في لندن، ونتخير أحد فنادقها، وليكن فندق (تابارد) في حي (سوث وارك). وما كنا لنهبط لندن في غير الربيع، فالأشجار وارقة غيناء تلتف أفنانها وتتلاقى خصلاتها وترف ظلالها، وهي لا تزال ملمة لم يحن وقت أثمارها وإن بكر بعضها، فما يزال الثمر أكماماً ونوراً، والطير يدوي في الأرض ويدوم في السماء، ثم يدف ولا يزال يواتر ذلك أبابيل ووحداناً تشدو بين إرنان شجي، وهزج دقيق، وترجيع شهي

يطرأ على الفندق جماعات من الناس مثنى وثلاث، يلقون عصا التسيار، وقد بدا على وجوههم أن تحلل بهم السفر فأعياهم: فيهم الرجال الأشداء، وفيهم النساء الضعيفات.

ولكن لا يكاد أن يلتئم جمعهم حتى يشيع في وجوههم البشر، وتنطق قسماتهم بالسرور، ثم تغريهم كثرتهم فتنسيهم النصب والتعب، ثم يغرقون في اللهو والعبث؛ إن رأيتهم حسبتهم أطفالا قد استخفهم الفارح وازدهاهم الطرب

هذا خليط من الناس فيهم الطغام والهباء، وفيهم السادة والأحباء. أما هذا الرجل الأنيق البدين فهو أحد الفرسان، كمي جسور، مغوار مشهور؛ وأما هذا الذي وراءه فهو سيد من سادة الريف لعله صاحب القرية أو ذو الشأن فيها؛ وهذا الزري الضامر النحيف قس قد قنع بالكتاب عن فاخر الثياب، يلبس الأسمال والأخلاق، ويعلم الحكمة والأخلاق؛ وهذا الذي يرفل في الديباج الأحمر طبيب يلهج لسانه بالحمد والثناء، حين يذكر أيام الطاعون والوباء، إذا امتحنت المدينة عامين تعاون فيهما على الناس الطاعون والطبيب: ذلك يحصد الأرواح، وهذا يجمع الأرباح. وهذه الفتاة الناعمة الرقيقة راهبة من الرهبان، تتكلم الفرنسية بلهجة ظريفة سليمة، ولكنها لا تفهم لغة باريس؛ وحسبك أنها تعلمت الفرنسية في بلاد الإنجليز! أما الذي خلفها فراهب متعبد غير متأبد، لا يتذمم مع رهبنته من اقتناء الخيل والخروج للصيد، وهو ليس بالرجعي الذي يلزم القديم، بل هو مجدد كأهل هذا الزمان، لا يحبس روحه في القوس والصومعة، ولا عقله في الكتب والصحائف، ولا يكد بدنه بالزرع والحصاد، إنما همه في الحياة أن ينمي اثنين: كلب صيده ولحم بدنه. وبجواره شماس خبير بأهل المدينة ونواديهم وحاناتهم وخاناتهم، قد وهب جمال الصوت وحسن التوقيع والبداهة في المداعبة الحلوة والمحارزة المرة. وهذا رجل من عامة ذوي الأملاك مرح طروب يشغله في الحياة شيئان: الطعام المريء والخمر العتيق. وهذا كاتب قد ملأ رأسه من اكسفورد لا فرق بينه وبين جواده: كلاهما هزيل ناحل ما أغني عنه علمه وما وعى، فهو لا يزال حائراً يتخبط في غيهب الحياة، ينام الليل متوسداً أرسطو وفلسفته ويصبح خالي الوفاض لا يملك شيئاً، حتى إذا يسر له صديق هرع إلى المكاتب يلقي إليها بالمال، ويعود منها مثقلاً بأحمال؛ وهذه ربة دار امرأة صناع قد أبلت في عمرها خمسة أزواج أوردتهم جميعاً موارد العذاب، ولا تزال تتربص بسادس فهي تنصب للزوج شركا من الحب الزائف والود المصطنع حتى يقع فيه فترديه، وهذا نجار وهذا صباغ، وهذا فلاح، وهذا حباك، وهذا نجاد

كل أولئك الذين رأيت لهم قبلة واحدة هي الحج إلى بيت الشهيد توماس في كانتربري. فبيته مثابة المؤمنين ومقصد المخلصين

ولعلي قد أنسيت أن أحدثك عن صاحب الفندق فهو رجل حلو الفكاهة رقيق الحاشية يرى أن الحج ركن من أركان الدين، حكمة شرعته أنه سبب رزقه ومورد الخير له، وهو

لا يدخر وسعاً في إيناس الحجيج وتيسير السبل لهم. وقد تراءى له أن يحج هذا العام فما فصلوا عن الخان حتى بدا له أن يجد سبيلاً للترفيه عنهم ودرء أوصاب السفر، قال: يا قوم نحن ثلاثون فعلى كل واحد منا أن يقص على إخوانه قصتين في الذهاب ومثلهما في الإياب، فمن فازت قصته بالإعجاب فله عشاء في فندقي يدفع ثمنه بقية الصحاب

ولست أدري هل كانوا جميعاً قد قصوا ما قضي عليهم، ولكنني أعلم أن رجلاً منهم قد وعى ما سمع من القصص أو هو أجرى على أفواه الحجيج قصصاً تخيلها وأسماها (قصص كنتر بري)!

هذا الرجل هو (جوفري شوسر) أبو الشعراء الإنجليز وزعيم قصصيهم

ولقد أدرك القراء أن وصف الحجاج والفندق ووصف المدينة في الربيع، وكل ما قرءوا من أول هذا المقال، إنما هو مقدمة قصص (كنتر بري) للشاعر الذي ندرسه، نقلتها عنه في أمانة ووفاء، لنتبين أسلوبه، وندرس حياته وآراءه، وما تأثرت به كتاباته من آراء غيره ومما أحاط به من ظروف وأحداث كان لها الأثر في تفكيره وبيانه

فالشاعر كما ترون خلال هذه السطور القليلة التي قرأتم والتي أرجو أن أوفق للمزيد منها في مقال آخر، لا يحاول أن يبسط سلطانه على عقل القارئ ولا يختار موضوعاً اجتماعياً بعينه ليدلي فيه برأي قوي عنيف يفزع به القارئ أو يجذبه إليه، ولكنه يعمد إلى الحقائق المجردة والمشاهد المألوفة فيدعها تسيطر على عقله هو ثم يصفها لك كما أثرت في نفسه وكما يراها هو، فلا يلبث القارئ أن يؤخذ بالصورة التي رسمها له، ويتأثر بالعوامل التي تأثر بها الشاعر، فيرى بعين الشاعر ويفهم بعقل الشاعر في غير عناء ولا كلفة. وإنك لتدرك بعد هذا أن شاعرنا قوي السلطان على قرائه، ولكنه لا يقسرهم طاعته، شديد التأثير فيهم ولكنه لا يسلط عليهم قوته، وإنما هم القراء الذين يهرعون (لبضاعته) ويخضعون لطاعته والتأثر به. قال فيه أحد المترجمين له: (لم تكن هناك أخيلة قد ألقى عليها الشعراء ضوءاً يمكنه أن يختار منها ويقتبس، ولكنها كان يفحص الأشياء في حدود ضيقة لنفسه وبنفسه حتى يستطيع وصفها وصفاً لا يفترق عن صنعة المثال، فوصفه للطبيعة يشعرك بهبوب الريح ورطوبة الثرى وبرودة الجو)

وأحسب أن مما ساعده على هذه القوة الوادعة وهذه السطوة الهادئة أسلوبه التهكمي وسخريته الحلوة المرة إن جاز هذا التعبير، فأسلوبه حلو يستسيغه القارئ ولا يستطيع أن يعبس له، بل لا يسعه إلا أن يضحك منه ويتأثر به؛ وهو مر لأنه يكشف عن العيب الذي يريد الشاعر الكشف عنه، فيريك منه أبشع صورة وأشدها إيلاماً للنفس.

أنظر إليه حين يصف أطباء عصره كيف يضحكك من وصفهم، وكيف يؤلمك من جشعهم وما نال الناس منهم ومن الطاعون: فطبيبه الذي يصف رجل يلهج لسانه بالحمد والثناء حين يذكر أيام الوباء، وهو والطاعون إذ اجتمعا على المدينة أفنياها، هذا يحصد الأرواح، وهذا يجمع الأرباح. وانظر إليه حين يصف المرأة المزواج يعبر عن ذلك بأنها (أبلت) في عمرها خمسة أزواج، ثم يدعها ويسخر من الرجال الذين يقعون في حبائلها. . .

ولعلك لمحت فيما قرأت له أن أكثر سخريته وأشدها منصب على رجال الدين من قساوسة وشمامسة ورهبان؛ ونحن نبادر قبل أن نعرض لهذا البحث - إن أتيح لنا أن نعرض له -

فنقول إنه متأثر في هذا بعاملين: أولهما حال رجال الدين في ذلك العصر وما كان بينهم وبين الملوك والأمراء من تحاسد وتباغض وتنازع في السلطان، والملوك والأمراء هم أرباب الفضل والنعمى على شاعرنا؛ وثانيهما خضوعه في هذا وفي غير هذا لما تأثر به في آرائه وأسلوبه من كتابات الشاعر الإيطالي بترارك وغيره من شعراء الطليان الغابرين وكتابهم

ولد هذا الشاعر في لندن منذ نحو ستمائة سنة. وقليل ما عرف عن فجر حياته، بل لم يسمع اسمه في لندن إلا عندما كان موظفاً في بلاط الدوقة كلارنس التي كانت زوج ابن إدوارد الثالث

وكان شوسر لا يزال شاباً في طراءة السن، ثم انخرط في سلك الجندية وحارب في حروب فرنسا المعروفة بحروب مائة العام. قيل إن الفرنسيين أسروه وطلبوا له

الفداء ويهظوا واشتطوا على أهله وصحبه في الفدية، فاكتتبت أولئك في جمعها وساهم الملك بماله في ذلك. ولما عاد إلى بلاده استخدمه الملك خاصة له وأصبح له في الأسرة المالكة منزلة محترمة. فكان موضع الثقة في السفارات، والرسول المجتبى في الملمات. سافر إلى فرنسا وإلى إيطاليا فحذق اللغتين وقرأ شعرهم ولقي شعرائهما. وشغل بعد هذا مراكز حكومية كإدارة المكوس وعضوية مجلس الشورى ورياسة المقاطعات، ولا تزال جامعتا اكسفورد وكمبردج تتنازعان بنوة هذا الشاعر

ولعله لا يتعاظمنا أمر فقره في أخريات حياته، فهذا شأن الكثيرين من الكتاب والشعراء حتى اليوم، ولعل هذا هو ما أوحى إليه وصف الكاتب بقوله: (ما أغنى عنه علمه وما وعى - حائر يتخبط في غيهب الحياة، ينام الليل متوسداً أرسطو وفلسفته، ويصبح خالي الوفاض لا يملك شيئاً) لعله كان يصف نفسه، فكذلك كان شاعرنا، عاش على قليل من المال رتبه له هنري الرابع ابن صديقه جون أوف جونت، واتخذ له مسكناً في وستمنستر في بقعة منها يشغلها الآن جزء من كنيسة وستمستر المعروفة ببيعة هنري السابع ومات بها عام 1400م ودفن في زاوية الشعراء من هذه الكنيسة. وكان أول شاعر نال هذا الشرف

ولنا عود إن شاء الله إلى قصصه وآثاره.

(الإسكندرية)

الصاغ أحمد طاهر

الحرب في أسبوع

للأستاذ فوزي الشتوي

أي الصلح يريد؟

عرض هتلر في حديثه إلى مجلس الريشستاغ الألماني إلى موضوع الصلح مع إنجلترا، فأبدى استعداده للدخول في مفاوضاته؛ ولكن أي صلح يريد هتلر؟ ولماذا يبدي استعداده اليوم بعد مضي شهر على تسليم فرنسا؟ الحقيقة أن هتلر لا يريد الصلح، وهو لم يكن في يوم من أيام حياته من مريدي السلام؛ بل هو في حالة حرب دائمة، فإذا كانت ألفاظ السلام على شفتيه، فعقله وقلبه يعملان للحرب، فصلحه وسلامه يقومان على الغدر والخيانة واستغلال الفرص للقضاء على سلام غيره

فتاريخ هتلر مملوء بالصفحات السوداء من تغرير، وخيانة، وغدر، وخديعة؛ ولم يتورع في تصرفاته عن استعمال أسلحة القتل والجريمة، فعندما أراد ضم النمسا دفع رجاله لاغتيال دلفوس زعيمها، فلما خاب مسعاه في المرة الأولى كرره في المرة الثانية، إلى أن تمكنوا من قتله، وعندئذ بدا هتلر على حقيقته زعيماً للمجرمين، فحمى القتلة، بل وزاد أن مجد ذكراهم لأول مرة في تاريخ الإنسانية، فوضع على قبور من اقتصت منهم العدالة أكاليل الزهر، وأقام نصب التخليد. فيالها من أكاليل ويالها من نصب!

الاختطاف الدولي

وعندما أراد أن يضم إلى بلاده مناطق السوديت توطئة لوضع تشيكوسلوفاكيا تحت سيطرته تبع نفس الوسائل، ولكن بطرق أخرى؛ فبدل أن يقتل اختطف، فاستدرج الرئيس هاشا بحجة المفاوضة، فلما وصل إلى ألمانيا أحاطه بالحرس المسلح، وألقى إليه بشروطه، على أنها شروط لا تقبل المفاوضة؛ فلما رفضها، برزت المسدسات من مناطق الرجال، وحيل بين هاشا والنجاة وجعلت شروط الصلح شروط الفدية، مذكراً بمصير (شوشنج) وما يعانيه من آلام الأسر، وعذاب رجال الجستابو

وعبثا حاول هاشا الخلاص من التهديد أو الإكراه إلى أن نفد احتماله وأغمى عليه مرات، ولكن الأطباء المعدين في حجرة مجاورة كانوا يسعفونه بالعلاج حتى يتمكن من إمضاء الاتفاق؛ وبعد ساعات من الاضطهاد المتواصل خارت قوى الشيخ فسلم الفدية وأمضى الاتفاق

فأي فرق بين هتلر وعصابات الاختطاف والسرقة؟ فالأول يقتل الزعماء ليتخلص من عزيمتهم، ومن منافستهم، ليسلب بلادهم حريتها، وليبعث الرعب في قلوب غيرهم؛ والآخرون يقتلون منافسيهم وغرماءهم ليسلبوهم أموالهم؛ والأول يختطف رؤساء الدول مستغلاً قواعد المعاملات الدولية، ويجعلهم رهينة ترهب وترغب، إلى أن يكرهوا

على تسليم الفدية؛ والآخرون يخطفون الأثرياء طمعاً في فدية يحصلون عليها من ذويهم
أي فرق بين هاتين العصابتين؟ وإذا كانت الأمة لا تسمح لمثل هذه الطائفة بالعيش، وتسلط عليها رجال الأمن للقضاء عليهم، فهل يحق للعالم أن يترك هتلر يقتل الزعماء ويختطف الساسة تحت ستار السلام؟
وإذا أردنا أن نذكر تصريحات هتلر ووعوده مع بولندا والدانمارك والنرويج وبلجيكا وهولندا، ضاق نطاق المقال، وأعدنا على القارئ سيراً مؤلمة
وشعر هتلر بأن النصر بعيد، وأن الهزيمة أقرب منه، فأراد أن يهرب من مصيره، ولوح للعالم بالسلام، ولكن العالم يعلم ما يخبئ لهم هذا السلام، فإن هي إلا فترة من الزمن يبث فيها رجال الطابور الخامس في إنجلترا فينشرون الرعب والخيانة بين رجالها، وإن هي إلا فترة من الزمن يستعد فيها هتلر بقوات تمكنه من غزو إنجلترا حتى يبدأ الحرب الفعلية من جديد، وهذا هو السلام الذي يريده هتلر
ولم الآن. . .؟ إن الشهر الذي انقضى منذ توقيع الهدنة الفرنسية لم يمض عبثاً، فقد خبر فيه هتلر قواته، وشاهد نتائج إغاراته على إنجلترا، فعرف أن بريطانيا العظمى بعيدة المنال، وأن سلاح العنف لن يصل به إلى غرضه، فعاد إلى سلاح الخديعة ليوهم أنصار السلام بأنه ملاك، وليحمل إنجلترا تبعة استمرار الحرب، فيشتد عضد أنصار الهزيمة فيها، وتسري في الرأي العام لهجة الصلح، ولكن هيهات! ففي تاريخ إنجلترا كله ما يدل على أنها إذا عزمت على أمر فلا مفر منه إلى النهاية
وهي خلة فرضتها عليها الظروف، فهي تبدأ الحرب متراخية ضعيفة، ولكنها لا تلبث أن تحشد جهودها، وتوجه قوتها إلى الغرض المنشود، وهي تتكلف في هذا التحول كثيراً من
الخسائر المادية والأدبية مما يعز عليها أن تتخلى عنه وهي في منتصف الطريق
سياسة الإمبراطورية
فهي تضع خطة نضالها على حرب طويلة الأجل، تكون في نهايتها أقوى منها في أولها، وقد فرضت عليها سياستها الإمبراطورية هذا السبيل حتى لا ترهق شعوبها بالاستعدادات الحربية في زمني الحرب والسلم، وتكتفي بالسيطرة على جميع المواد في زمن الحرب؛ وغني عن القول أن مواردها تنمو في فترة السلم نمواً كبيراً بفضل تقدم العمران، وأن شعوبها إذا أحست بالخطر ضحت في سبيله، حرصاً على رفاهيتها من أن تهددها دولة أخرى؛ وعلى هذا الأساس تدخل الميدان واثقة من قوة عزيمة رجالها، واثقة من اتساع مواردها
عرف هتلر كل هذا واختبره، ولهذا السبب يعرض الصلح الآن. فخير له أن يحل مشاكله وهو قوي من أن يحلها وهو ضعيف، فالحالة الأولى تتيح له التهديد بالرفض أما الثانية فلا يسعه فيها إلا القبول، فقد أدرك الآن أن خطة الحرب الخاطفة التي بنى عليها سياسة انتصاره يرجح فشلها على نجاحها
في الشرق الأقصى
وثمة ميدان آخر بدأت الحياة تدب فيه، وبدأ الناس يتكهنون بما يجري فيه، فسألني عدة أصدقاء ما هو الموقف في الشرق الأقصى؟ ماذا ينتظر أن يجد فيه من الأحداث السياسية والعسكرية؟
فهناك أمريكا واليابان والروسيا والصين؛ وهناك أيضاً أملاك لهولندا وقد احتل بلادها الألمان، وأملاك لفرنسا وقد سيطر على فرنسا النازيون، فانقطعت الصلة العسكرية بين هذه الممتلكات وبين أمها، بحيث يتعذر عليها وحدها الوقوف أمام غزو ياباني سياسي أو عسكري
والموقف في الشرق الأقصى دقيق لا يتيح للباحث أن يقطع فيه برأي، وأمريكا هناك هي القطب الرحى، وهي أقدر دولة على حفظ التوازن والسلم ولو إلى حين. وقد ناقشنا في مقالنا الماضي ناحية من العلاقات وتضارب المصالح بين الروسيا واليابان ونناقش الآن موقف أمريكا في هذا المجال، فإن كانت مصالحها في أوربا لا تدفعها إلى دخول الحرب والاقتصار على إمداد إنجلترا بالعتاد الحربي فإن مصالحها في الشرق الأقصى رغم اتساع المحيط الهادي تدفعها إلى الاحتفاظ فيه بالتوازن الدولي بجميع الوسائل ومنها الحرب

المصالح الأميركية
فقد تضاعفت تجارتها في الصين قبل حربها مع اليابان حتى بلغت ستة أمثال ما كانت عليه، فأصبحت 250 مليون دولار؛ فإذا اعتبر هذا المبلغ بسيطاً بالنسبة لأمريكا، فإن زيادته المطردة وتضاعفه في فترة قصيرة مما يبعث كبير الأمل في نفوس الأمريكيين ولا سيما أن الصين بدأت تأخذ بأساليب الحضارة الحديثة من صناعية وزراعية واستيلاء الروسيا أو اليابان على الصين يقضي على التجارة الأمريكية فيها، ويهدد أميركا ودولها بالغزو، فبنت أمريكا سياستها في الشرق الأقصى على ألا تكون لإحداهما فيه إمبراطورية واسعة تضم إليها الصين، ومن ثم يسهل عليها الاستيلاء على الجزر الواقعة في المحيط الهادي وأهمها الفلبين وهاواي، وعندئذ يتاح لها أن تغزو أية دولة شرق المحيط الهادي، وتتخذها قاعدة لتهديد الولايات المتحدة تهديداً مباشراً ومن سياسة أميركا في الشرق أيضاً أن تثبت أقدام الدول الأوربية فيه، حتى لا تكون مهمة حفظ التوازن واصطدام المصالح قاصرة عليها، فعندما اشتدت حركة الحصار الياباني على تيانتسين، واتخذ اليابانيون مع البريطانيين وسائل قاسية تدخلت أميركا وهددت اليابان بقطع العلاقات التجارية
ولتهرب اليابان من المسئولية الدولية بنت سياستها على المكر والدهاء، فألفت حكومة صورية في منشوكو لتنفذ بها سياستها؛ فعلى حكومة منشوكو أن تزرع وعلى اليابان أن تجني الثمر ناضجاً، فمنطقة شنغهاي مثلاً منطقة دولية موزعة على الدول، فتلبس حكومة منشوكو قفاز اليابان وتطالب الدول بإخلائها، فإذا احتجت الدول إلى اليابان على أنها المحرك الأصلي قالت إنها غير مسئولة عن تصرفات حكومة أخرى مستقلة أمريكا تعمل
ولهذا برزت في الدوائر الأمريكية فكرة تضع اليابان في وسط المعضلة، فتخطر بأن كل حركة أو عمل ينفذ من جانب حكومة منشوكو تعتبر اليابان مسئولة عنه، وتتخذ قبلها العقوبات أو التصرفات اللازمة
أما هذه التصرفات فهي:
1 - عرقلة التجارة اليابانية في أمريكا وهي أكبر عملائها، فتفرض الضرائب على الواردات اليابان
2 - عرقلة مساعي الصين في اليابان وإفساد خططها
ويؤيد هذين التصرفين الموقف الدولي الحاضر وحالة الحرب الناشبة في الميدان الأوربي والميدان الصيني، وقد نتجت عنه ثلاثة عوامل
ا - تعتمد اليابان على التجارة الأمريكية، فلم يبق لها من أسواق سواها
ب - ضعف اليابان نتيجة لحربها مع الصين وصعوبة تخلصها من هذه الحرب
ج - ضرورة احتفاظها بقوات بحرية وبرية كبيرة لتدافع عن ممتلكاتها إذا نشبت الحرب بينها وبين إنجلترا
ولا تعتمد أمريكا على اليابان اعتماداً كبيراً في تجارتها، فالأقطار الأمريكية من أغنى أقطار العالم، وهي البلاد الوحيدة التي تستطيع الاستغناء عن الدول الأخرى لاتساع رقعتها وتوفر خاماتها
وقلنا في مقالنا السابق أن مساعي إنجلترا للصلح بين الصين واليابان على وشك النجاح، ومعنى هذا إضعاف هذه العوامل وخصوصاً العامل الثاني، ولكنه يلاحظ أن صلح الصين واليابان لا يعيد للأخيرة ما فقدته من عتاد وقوات حربية، ولكنه يعطي لهذه البقعة السلام، وهو ما ترجوه الدول ذات المصالح فيها، حتى تعود تجارتها واطمئنانها إلى سابق عهدهما
وهناك عامل آخر يحبذ وقف القتال بين الصين واليابان، فالخطر الأكبر هو أن تسيطر الروسيا على الصين، وهذه نتيجة طبيعية لاستمرار الحرب، فإن أمل الصين في الانتصار ضعيف نظراً لتفوق اليابان العسكري وموقعها الجغرافي الحصين، فهي جزيرة كإنجلترا؛ فكل أمل الصين هو وقف الزحف الياباني أو إخلاء بعض المناطق الصينية المحتلة
وبعض المقاطعات الصينية خاضعة للنفوذ السوفياتي، فإذا طالت الحرب وتخلت قوات هذه

المقاطعات فيها، فإن النفوذ السوفياتي ينتشر في الصين كلها، ويتدحرج من السلطة العسكرية إلى السلطة المدنية، وتصبح الصين بلاداً بلشفية، أو بعبارة أوضح تتكون الإمبراطورية الشرقية بزعامة الروسيا، وهو الخطر الذي تخشاه دول أمريكا وأوربا وتخيف هذه النتيجة اليابان، لأنها إذا تحققت قضت على جميع أحلامها في الصين، وحققت أحلام الروسيا، وهو خطر يهدد جزر اليابان نفسها إذ توضع الأراضي الصينية تحت تصرف الروسيا، أو تصبح جزءاً منها كما حدث في ليتوانيا واستونيا ولتفيا، فقد بدأ النفوذ الروسي فيها صغيراً، ثم تدرج إلى أن أعلنت انضمامها إلى الاتحاد السوفياتي

فمن مصلحة اليابان إذن أن تضع حداً لحربها مع الصين اتقاء لشر الروسيا، ولا سيما أن فقر الصين مرعى خصيب للمبادئ الشيوعية ومنها تنتقل العدوى إلى اليابان، فمستوى المعيشة فيها ليس أكثر ارتفاعاً منه في الصين، ولا يبعد اليابانيين عن الشيوعية إلا بعض المعتقدات الدينية والتقاليد التي لا تلبث أن تنهار أمام شظف العيش وغريزة حفظ النفس

ولهذا فلا يستبعد أن يكون الصلح بين اليابان والصين صلحاً شريفاً يقبله الطرفان ويحفظ كرامة المتحاربين.

فوزي الشتوي

بكالوريوس في الصحافة

رسالة الفن

تأملات:

لتقليد والتمثيل

للأستاذ عزيز أحمد فهمي

عندنا عامل فقير مرح، فجأته ثروة ضخمة، فانكب على إنفاقها، فأصابته أمراض وعلل، فانقلب صاحب هم وغم ولم يجد خلاصاً من همه وغمه إلا أن يفر من ثروته

هذا الرجل نريد أن نمثله فكيف نمثله؟

الممثلون ينقسمون حيال هذا الرجل - كما ينقسمون حيال غيره - إلى قسمين: قسم يقول لك: أنا إذا أردت أن أمثل دوراً كهذا فإني أبحث بين الناس أو في ذاكرتي عن رجل يشبهه أكون قد رأيته أو أكون قادراً على رؤيته، ثم أدرس هذا الشبيه في فقره ومرحه فأرى أثر الفقر فيه، وتأثيره في صوته، وفي مشيته، وفي حديثه، وفي إصغائه، وفي إشاراته، وفي إقباله على الناس، وفي تركه للناس. . . وما يفعله الفقر بعد ذلك كله في نفسه، ثم أدرسه بعد ذلك في مرحه، ثم أدرسه بعد ذلك إذا اغتنى، فإذا رأيته يبذر القرش في طعام، فهو سيبذر الجنيه في طعام أيضاً إذا أتاه جنيه، وإذا رأيته يبذر القرش في زينة، فهو سيبذر الجنيه أيضاً في زينة، وإن اختلفت زينة القرش عن زينة الجنيه؛ ثم أدرسه بعد ذلك وهو مريض معتل، فأراه إذا كان يصير ويحتمل أو يتبرم ويتململ؛ ثم أدرسه بعد ذلك في همه وغمه، فأراه كيف يشكو أو كيف يكتم الشكوى، وأراه لمن يشكو إذا شكا، ألكل من هب ودب أمامه، أم لعاقل ترجى عنده النصيحة، وأراه بعد ذلك كيف يقطع الرأي فيما يهمه ويغمه، أيتردد طويلاً أم قصيراً أم يبت في الأمر بالفكرة الأولى، أم يستقصي ما يتوارد إلى ذهنه من الأفكار، أم يستسلم فلا يفكر؛ ثم أدرسه في آخر الأمر وهو فار هارب من همه وغمه، وأراه كيف يكون حين يشعر بالنجاة، أراضياً مرتاحاً، أم ساخطاً، أم مشتاقاً إلى الرجوع إلى النكد عندما يذكر أن هذا النكد كان فيه مال، وكانت فيه ثروة فإذا درست هذا كله وإذا رأيته استطعت بعد ذلك أن أمثله وأنا أضمن أن أخرجه صورة طبيعية صادقة رائعة. . .

هذا كلام يقوله ممثل من القسم الأول، أما الممثل من القسم الثاني فيقول: (ومالي أنا أجري وراء الناس، أو أجري وراء الأشباح في ذكراي؟ أنا سأفرض أني هذا العامل الفقير وسأرى أي أثر يؤثر هذا العمل في النفس وفي الجسم: أهو يعطي صحة أو يعطي سقماً، أهو يورث الهدوء أم يبعث في الأعصاب الفزع، أهو ينشط العقل أم يعلمه النوم والكسل. . . فإذا علمت أي شيء يصنعه هذا العمل بالعامل استطعت أن أعود إلى نفسي أنا فأراها كيف تكون عندما تنطبق عليها الأوصاف المترتبة عن هذا العمل، وليس علي بعد ذلك إلا أن ألزم نفسي في اتخاذ هذه الأوصاف وأنا أمثل هذا الدور، فإذا فرغت من هذا الأساس رجعت إلى نفسي مرة أخرى فرأيتها في الفقر

ورأيتها في المرح، ورأيتها حين تبذر وتسرف كيف تلقي المال وكيف تنسقه إذا كانت بهذه الأوصاف الجيدة، ثم أرى نفسي بعد ذلك كيف أهتم وكيف أغتم، وكيف أفر من الهم ومن الغم. . .

فإذا رأيت هذا كله وإذا درسته استطعت بعد ذلك أن أمثله وأنا أضمن أن أخرج الدور لك صورة طبيعية صادقة رائعة

وتسمع أنت كلام الممثل الأول، وكلام هذا الممثل الثاني، وتريد أن ترى أيهما الأضمن طريقاً، وأيهما ألأمكن فناً، أهذا الذي يتلقط مادة فنه من صورها الطبيعية، أم هذا الذي ينفخ نفسه في الطبيعة فيخرجها مخلوقاً جديداً؟

فإذا طلبت من هذين الممثلين أن يمثلا هذا الدور، رأيت الممثل الأول يسرع إلى الإجادة، فلا يحتاج إلى تدريب، وإن احتاج فإلى تدريب قصير يتمكن بعده من الدور تمكناً ملحوظاً

أما الممثل الثاني فإنك تراه يتسكع نحو الإجادة تسكعاً، ولكنه كلما أصاب تصوير حالة ما استمسك بها، وراح يبحث عن غيرها، فكلما طال تدربه على الدور وانشغاله به زاد إتقانه له واندماجه فيه، على العكس من الممثل الأول الذي يقف في الإجادة والإتقان عند حد خاص، هو الذي رآه في الطبيعة ونقل عنه.

وليس هذا وحده هو الفرق بين هذين الممثلين، فثمة فرق آخر كبير، ذلك أنك تجد في الممثل الأول الذي يأخذ عن الصور الطبيعية ملامح هذه الصور الطبيعية ولا ترى ملامحه هو، كما أنك ترى النفوس هذه الصور الطبيعية ولا ترى نفسه هو؛ أما الممثل الثاني فإنك ترى ملامحه ونفسه في الدور، فكأنه هو قد انصرف عن التمثيل فعلاً واشتغل عاملاً

وافتقر، وحدث له وحدث. . .

فأي واحد من هذين الممثلين أمكن فناً من صاحبه؟

أغلب الممثلين المجيدين في الغرب من النوع الأول، وقليلون جداً فيهم الذين من النوع الثاني وأذكر منهم شارلي شابلن

وأغلب الممثلين المجيدين عندنا هنا من النوع الأول أيضاً، وقليلون جداً فيهم الذين من النوع الثاني وأذكر منهم نجيب الريحاني

ولعل القارئ يلحظ أن شارلي شابلن منذ استتب اخذ يتباطأ في إخراج الروايات ولم يعد يلاحق بعضها ببعض، كما أن نجيب الريحاني قد أخذ هو أيضاً يتباطأ ولم يعد يخرج في العام الواحد أكثر من روايتين

ولعل القارئ يعرف أن شارلي ونجيب يقضيان ما بين الرواية السابقة والرواية المقبلة تهيؤاً وتربصاً، وإن كان شارلي يستمتع بحرية أوسع بكثير جداً من الحرية التي يستمتع بها الريحاني

وشارلي ونجيب لا يتشابهان في هذا فقط، وإنما هما يتشابهان أيضاً في أن كلا منهما يؤلف رواياته لنفسه، ويعلم ممثليها بنفسه، ثم إن كلا منهما يضم حوله مجموعة من الممثلين لا يكاد الجمهور يعرفها إلا حوله هو، فإذا بعدت عنه ثقل التمثيل عليها وثقلت عليه، زد على ذلك أن شارلي شابلن بدأ أخيراً يضع الموسيقى التي تصاحب التمثيل في رواياته، وقد سبقه الريحاني إلى هذا وإن لم يكن قد سبقه بنفسه، فزكريا أحمد الملحن الكبير الذي اختصه الريحاني برواياته يقول إنه تعلم من الريحاني ألواناً من الموسيقى شرحها له معاني فنفذها هو بالنغم

فهل هناك علاقة بين أوجه الشبه هذه، وبين الطريقة التي يسلكها هذان الممثلان في فنهما؟ وهل نستطيع أن نقول إن هذه الطريقة هي التي ارتقت بهذين الممثلين حتى ميزتمها هذا التمييز على الممثلين المجيدين؟

الواقع أن هناك علاقة وصلة بين هذه الطريقة وبين هذا التمكن الفني الذي وصل إليه كل من الأستاذين شارلي شابلن ونجيب الريحاني

فنحن إذا رجعنا إلى طريقة التمثيل الأولى رأيناها أقرب إلى ما تمارسه القردة من التقليد،

فالقرد كلما رأى حركة قلدها، وكلما رأى حالة نفسية تتضح على صاحبها أثراً جسمانياً بادياً تصنع هذا الأثر الجسماني البادي وإن لم يقدر على أن يقنع الناظر إليه بأن نفسه من الداخل قد تحولت إلى هذه الحال التي من عادتها أن تنضح بهذا الأثر، ولكن

الممثل الذي من نوع شارلي ونجيب أصدق تصويراً للنفس الإنسانية في حالاتها المختلفة، وإن كان يتقيد في هذا التصوير بطبيعة نفسه هو تاركا ما عداها من النفوس، ونفسه مهما كانت غنية ومهما كانت سهلة طيعة فهي نفس مفردة واحدة بينا الحياة فيها ملايين الملايين من النفوس والصور. . .

وهذا عيب قد يؤخذ على هذا النوع من الممثلين، ولكنه في الحقيقة غير عيب، وإنما هو فضيلة. فكل نفس إنسانية في حقيقتها المجردة لا تفترق في شيء عن غيرها من النفوس، وإنما تختلف النفوس بعضها عن بعض تبعاً لمؤثرات عارضة بعضها موروث وبعضها مكتسب، وبعضها تمكن، وبعضها لا يزال مزعزعاً، وهكذا، والفنان الذي يتخذ الحق طريقة إلى الفن يبدأ أول ما يبدأ بمراقبة نفسه وبمتابعة فضائلها ورذائلها، ثم يعكف على توطيد الفضائل، ومكافحة الرذائل، فإذا لم ينجح حيال شر من شرور نفسه لم يخفه عن الناس، وإنما أعلنه مع ما يعلن من نفسه فيعرف عن الناس أسراره ودخائله وشروره وآثامه وعيوبه وأخطاءه ومساويه ورذائله، وهو أول من يعرفها من الناس، وهو أول من يكرهها وإن استسلم لها وعجز حيناً عنها، ولكنه لا يزال يتربص بها الفرص ويرجو النجاة منها ويطلب من الحق أن يعينه على هذه النجاة. . .

وهذه نزعة من نزعات التصوف، وهي انطلاقة جريئة نحو الحق، وهي وحدها التي تمكن صاحبها من الإلمام بنفسه والإحاطة بما فيها، فإذا بالذي فيها كنز لا يفنى، ككل كنز في كل نفس، غير أن هذا كنز مفتوح لم تتكدس عليه الأكاذيب والأباطيل فليس عجيباً بعد هذا أن تتاح صحبة من الفنون الجميلة للفنان الذي نفسه هي هذه النفس، فيكون أديباً وممثلاً ومغنياً وراقصاً ومعلماً وغير ذلك

وإذا كان القرد يقلد وينجح في التقليد نجاحاً خفيف الروح بهيج الظل لأنه يتطلع إلى غيره، فإن للإنسان أن يكون فناناً إذا تطلع إلى نفسه وهي أقرب إليه من غيره.

عزيز أحمد فهمي

رسالة العلم

الوضع الحقيقي لمشكلة

جابر بن حيان

للأستاذ أحمد زكي صالح

تقرير الأستاذ برتلو

وبرتلو هذا هو أول من تعرض لبحث مشكلة جابر بن حيان على منهج علمي منظم، وذلك في ثنايا عرضه لتاريخ الكيمياء في كتابه حيث يعرض برتلو منهجه قائلاً: (ولكي تجزئ هذه المشاكل العسيرة، ونعين بها مشاكل كتب جابر بن حيان، التي تعانيها هذه المرحلة العلمية، فإن الدراسة المباشرة للنصوص أو للتراجم اللاتينية تفيدنا أكثر إفادة، ولكن هذه الدراسة النقدية لا تكفينا تماماً، إذ أنه يبدو لي أنه من الضروري أن نستعين بدراسة المؤلفات العربية نفسها، وأن نقارنها بالنصوص اللاتينية المعروف أنها ترجمة لها. ولكن في ركاب الدهر، ولكن يوجد بعضها في المكاتب الأوربية مثل ليدن وباريس، وإن نشر هذه المخطوطات من الضرورة بمكان كبير، حتى تتم الدراسة المقارنة ذات الأثر الفعال في تاريخ العلوم. وحتى يتيسر لنا أن نضع تاريخ الكيمياء في وضعه الصحيح)

ثم بعد أن برتلو كتب جابر بن حيان التي لا يشك في أنها من تصنيفه يقول:

يسمح لنا تحليل هذه الكتب بأن نكون الفكرة العامة لمميزات جابر، وأن نتبين كيف أن هذا الكتب ترتبط ارتباطاً مباشراً مع عدد معين من الأفكار والآراء والنظريات التي تبسط في التراجم اللاتينية للكتب العربية مثل كتب أفلاطون وأرسطو والرازي وابن سينا وغيرها من الآراء والنظريات التي انتقلت عن طريق الكيمياء العربية إلى الكيمياء اللاتينية في القرن الرابع عشر من الميلاد. وفي حركة النقل هذه ظهرت قيمة جابر بن حيان وكيف عُد أستاذ الكيمياء في الإسلام

ويمكن أن ترد بعض هذه النظريات إلى أصول يونانية، ولكن الأعمال العربية لجابر تختلف تماماً من حيث عرض الأفكار وأسلوب البحث ومنهجه أو إثبات الظواهر ووضوح النظريات عن تلك الكتب التي ألفها منتحل اسم جابر - ليس فقط في أن الظواهر

الجديدة التي يشرحها هذا المؤلف كانت مجهولة تماماً عند العرب بل إنه من المستحيل أن نجد في المؤلفات التي تحمل اسم جابر في اللاتينية صفحة حتى ولا فقرة يمكن أن تعتبر ترجمة لنص عربي

ولكن هذا لا يمكن أن يقلل من شأن الكيمياء العربية التي أثارت تاريخ العلوم إثارة كبيرة إذ أنه عن طريقها أمكن معرفة تاريخ الكيمياء عند المصريين واليونان ثم في بيزنطة وعند السريان، ثم عند العرب أنفسهم

ثم أن كتاب ال لا يحتوي أي دليل يشير إلى أصله العربي سواء في منهجه أو في حقائقه أو في كلماته أو الأشخاص المذكورين فيه، ولا في الخرافات الإسلامية التي هو خلو منها تماماً

وليس شكي في أن كتاب السوما قد أُلف قبل القرن التاسع بأقل من شكي في أنه لا يوجد ثمة أصل عربي هو ترجمة له في مثل هذا التنظيم البديع وتلك الإبانة الوافية. إذ أن مؤلفات جابر العربية وأبحاث ابن سينا لا يمكن أن تملي علينا التسليم بان كتاب السوما ترجم عن أصل عربي

ونحن لا ننكر أن بعض العبارات قد اقتبست من مؤلفات جابر العربي، الذي لا زال وجوده. ولكن على الرغم من ذلك لا نستطيع أن نقول بإمكان أن يكون مؤلف هذا السفر الجليل عربياً مسلماً، إنما الافتراض الذي يبدو لي معقولاً هو أن مؤلفاً لاتينياً لا زال مجهولاً لنا تماماً كتب هذا الكتاب في النصف الثاني من القرن الثالث عشر من الميلاد ونسبه إلى جابر كما فعل الكيميائيون اليونان في مصر الذين وضعوا اسم ديمقريطس على مؤلفاتهم لديمقريطس كي تشتهر وكما فعل الكيميائيون السريان في نحلهم مؤلفاتهم لديمقرطيس كذلك

وقصارى القول إذن أن المؤلف اللاتيني - (المدعي الجابرية) قد احتل مكانة سامية في العالم الكيميائي بفضل وضوح منهج الـ وبامتيازها عن غيرها من المؤلفات العربية البحتة حتى صار هذا المؤلف في القرن الرابع عشر من الميلاد أساس الدراسة الكيميائية في العالم أجمع، ولكن نسبة هذا الكتاب للعرب أنفسهم أفسد كل تاريخ العلم لمنحه لهم هذه القدرة العلمية الإيجابية التي ما وجدت لديهم يوماً ما)

مناقشة تقرير برتلو

يرى الأستاذ برتلو أن وضوح كتاب السوما وأسلوبه وتنظيم أبوابه وقوة نظرياته ومنهجه الخاص تكفل لهذا السفر الخروج عن دائرة التأليف الإسلامية، والدخول في دائرة التأليف اللاتينية، ولكن لم لا يكون جابر هو الذي كتب هذا المؤلف، بالعربية طبعاً، في أخريات حياته، بعد أن اكتمل له حظ كبير من المعونة العلمية ومن الآراء والنظريات السابقة له؟ ولكن هبني سلمت بأن جابراً لا يعرف التنظيم في مؤلفاته، وهذا بعيد جداً، فلم لا يكون هذا التنظيم وذلك الأسلوب اللذان ركز عليهما برتلو نقده الطويل، من عمل المترجم؟ وكل ما هنالك أن هذا السفر الكيميائي كان حظه أوفر من حظ غيره من الكتب، إذ وهب مترجماً ميالاً للأدب، ضليعاً في لغته، فاهماً تمام الفهم ما هو في سبيل ترجمته. وأؤكد أن هذه الأمور لو توافرت في أي مترجم لخرجت الترجمة وهي تضارع الأصل في وضوح الفكرة وجمال العرض

فالأساس الذي يعتمد عليه برتلو في نقده كتب جابر بن حيان أساس خاطئ، حظ الشك فيه راجح على حظ اليقين. ونحن نكتفي بان نسأل سؤالين:

أليس من اليقين القاطع أن أعمال جابر العربية التي في متناول أيدينا تدل على نبوغ وعبقرية؟؟ ولم لا تكون هذه الكتب اللاتينية الأربعة التي سبق أن أشرنا إليها في بدء المقال، قد ترجمت عن أعمال أخرى لجابر بن حيان؟

أما السؤال الأول فإن برتلو يسلم بأن الكتب العربية لجابر ابن حيان تدل على نبوغ وعبقرية

ولقد لاحظ الأستاذ رسكا خليفة برتلو في الاهتمام بمشكلة جابر بن حيان، أن عملين من المؤلفات التي نشرها برتلو إنما تدل على سمو وامتياز، وعلى عقلية نامية نابغة

أما السؤال الثاني: فإن إجابة برتلو عليه كما سبق أن بينا، لا تلزم الباحث بضرورة الاقتناع برأيه

وعلى ذلك فإن القول بأن هناك أسباباً وجيهة جعلت كيمائياً لاتينياً ينسب أعماله لجابر ين حيان لشهرته التي لم تأت فقط عن طريق التراجم العرضية كمذكراته ورسائله،

إنما كذلك عن طريق التراجم اللاتينية لبعض المؤلفات العربية لجابر بن حيان الدالة على نبوغ
وعبقرية، والتي أكثرها أهمية بدون شك هو كتاب السبعين الذي نشره برتلو وهوداس في سنة 1903 حسب مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس
ولما كان من المستحيل أن يكون لدينا رأي جازم في مستوى الأسلوب العلمي في ذلك الوقت فإنه ليس من الممكن أن نسلم بأن كتبا كتبت على أسس جديدة غير الأسس القديمة ليست من أعمال جابر بن حيان
ونحن لا نكتفي هنا ببيان استحالة صحة رأي برتلو من الناحية الأسلوبية فقط، إنما كذلك تحت أيدينا من النصوص ما يثبت قطعاً أن رأى برتلو في معالجته لمشكلة جابر بن حيان من الناحية الموضوعية خاطئ كل الخطأ كذلك
ونحن لا نكتفي هنا ببيان استحالة صحة رأي برتلو من الناحية الأسلوبية فقط، إنما كذلك تحت أيدينا من النصوص ما يثبت قطعاً أن رأي برتلو في معالجته لمشكلة جابر بن حيان من الناحية الموضوعية خاطئ كل الخطأ كذلك
والآن فلنقارن بعض النصوص اللاتينية التي يذهب برتلو أن جابراً لم يفطن إلى معانيها، أو إلى التجارب التي تشرحها، ببعض النصوص المسلم بأنها من عمل جابر بن حيان، من جميع العلماء المستشرقين:
أولاً: كتاب الاستتمام، هذا الكتاب ذكر في الفهرست لابن النديم، ويذهب المستشرقون إلى أن هذا الكتاب، أعني ترجمة باللاتينية التي نقلت بدورها إلى الإنجليزية تحت عنوان إنما هي منسوبة إلى جابر بن حيان انتحالا، التي لم يحاول العرب التفكير فيها. ونحن الآن نقتطف نصاً من هذه الترجمة اللاتينية ونصاً آخر من كتاب لجابر بن حيان بالعربية وهو (الإيضاح) وترى بعد ذلك هل حقاً يوجد تباعد بين الفكرتين؟
يقول كتاب ما ترجمته (تتركب جميع المعادن من أصل واحد هو الكبريت سواء كان نقياً أم لم يكن)
ويقول كتاب (الإيضاح) (مخطوط بدار الكتب بالقاهرة): (تتكون جميع الأجسام المعدنية في جوهرها من الكبريت الممتزج مع الزئبق. . . وإنها إن يختلف بعضها عن بعض فما ذلك إلا لسبب اختلاف خواصها العرضية) فأين إذن هذا التباعد بين النظريتين؟
ثانياً: كتاب السوما أي الجمع:
ولعل هذا البرهان الذي سنسوقه الآن هو الذي سيضع المشكلة في وضعها الصحيح، فمقدمة الكتاب اللاتيني ترجمت عن العربية، إذ جاء فيها ما ترجمته (إن ما ذكر غير كامل في كتبنا السابقة قد أكملناه في كتابنا هذا)
وهذا ما يتفق تماماً وملاحظات جابر وتعليقاته في أنه قد فرق براهينه في كتب مختلفة. وهو قد قال: (إن البحث ينبغي أن يعمل بالشكل الذي يوافق الطبيعة)؛ كما يذكر أن الكيميائي يريد أن يقلد الطبيعة بوسائل مصطنعة. كما يذكر أيضاً أن الكيميائي ينبغي أن يكون مجتهداً في عمله مواظباً على الوصول إلى نتيجة نهائية، وألا يسلم لنتائج سريعة وظواهر خداعة
ففي كتاب الجمع أتى ذكر عملية التكليس في الفصل الرابع عشر؛ فبالرغم من أن التعاليم والأوصاف التي أعطاها جابر اللاتيني في وصفه لجهات التجربة وخطوات العمل فيها تتفق تماماً مع تلك التي قال بها جابر بن حيان في كتاب الخواص، الذي لا يشك أحد أنه من عمل جابر، فإن الأستاذ برتلو يعترف بأن عملية التكليس هذه لا نطير لها في الكتب العربية، ولكن من حسن الحظ، أو من سوئه، لا أدري، أن جابر بن حيان قد أفرد كتاباً لهذا الموضوع فقط هو كتاب (التكليس)، ولا يشك أحد أنه من عمل جابر بن حيان
فلنقارن النصوص، ونتركها تتكلم:
جاء في كتاب الجمع في النص اللاتيني ما ترجمته: (التكليس هو تأكسد المادة بواسطة التسخين، وذلك أنه يسلب الماء والرطوبة منها فتتجمع أجزاؤها، والسبب في ذلك هو أن تجفيف الكبريت وتلوينه وإفساده يمكن أن تمنع بواسطة التسخين، ولكن هذا المنع يختلف باختلاف الأشياء المتكلسة إذ أن الأجسام تكلس كما تكلس الأرواح، ولكن رغم

ذلك توجد بعض الأشياء الخارجة عن طبقة هذه وتلك. . .)
وكل معدن يكلس بطريقة تختلف عن الطريقة التي يكلس بها معدن آخر، ذلك لأنه)
يوجد بعض المعادن النقية الصافية بطبعها وفي هذه الحالة يكون الغرض من التكليس
هو تحويل المعدن إلى مسحوق نهائي. أضف إلى هذا كله أن الحقيقة القائمة بأنه إذا
طرقت الفضة حتى صارت صفائح رقيقة ثم سخنت بعد ذلك في درجة الحرارة
الملائمة يمكن سحقها بعد ذلك مباشرة كالزجاج تماماً، ثم إذا صهرت مع البورق ترجع
ثانياً إلى حالتها الأولى أي
على صورة سبائك غير مطروقة). أقول إن هذه الحقيقة إنما وجدت في كتاب الخواص
قبل غيره من الكتب، وهو كتاب لا يمكن أن يتطرق شك إلى أنه من عمل جابر بن
حيان
وآية ذلك كله أن محتويات الكتب اللاتينية لها شبيه في محتويات الكتب العربية إن لم
نقل إنها هي نفسها، وهو القول الأقرب إلى الحقيقة والصواب
(يتبع)
أحمد زكي صالح
البريد الأدبي
الحزن على باريس
قرأت ما نشر في (الرسالة) بإمضاء (صديق) وما نشر بإمضاء الأستاذ علي الطنطاوي،
وكذلك قرأت ما نشر في جريدة (الدستور) بإمضاء الأستاذ محمود محمد شاكر،
والأستاذ محمود حسن إسماعيل، وما نشر في جريدة (منبر الشرق) بإمضاء الأستاذ
أحمد جمعة الشرباصي، وسمعت الملام من بعض الأصدقاء، وذلك كله كان تعقيباً على
المقال الذي نشرته في (الرسالة) بعد سقوط باريس تحت أيدي الألمان
ويظهر أن أولئك الأصدقاء تناسوا أني حددت فكرتي بأوضح بيان حين قلت: إني
جزعت على مصير فرنسا الروحية لا فرنسا السياسية، فقد حاربت الاستعمار بقلمي
أعواماً طويلة، وقمت بحملة قلمية ضد فرنسا وأنا في باريس بمناسبة الحوادث التي
أريد بها تنصير البربر، وخطوت خطوات في أندية باريس لصد ذلك العدوان
فما الموجب للقول بأني أتوجع لأمة صنعت ما صنعت في الشرق، وقد وضحت غرضي
تمام التوضيح؟ وما الموجب لأن يتفضل كاتب كبير مثل الأستاذ المازني فيغمز جميع
من توجعوا لباريس بمقال لاذع من مقالاته القيمة في البلاغ؟
أيجوز أن يقع حادث مثل سقوط باريس ولا يتوجع له روح الأديب؟
وكيف جاز إذاً لكبار شعرائنا أن يتوجعوا للأمم التي آذتها الزلازل من أمثال الطليان
واليابان؟
وما قيمة الأديب إن لم يتأثر بالحوادث الخطيرة في هذا الوجود
ما قيمة الأديب إن لم يتوجع لمصاب العدو كما يتوجع لمصاب الصديق؟
في تاريخنا الإسلامي نقطة بيضاء هي ما صنع صلاح الدين حين جزع لمرض عدوه وهو
ملك نصراني قاد جيشاً لمحاربة المسلمين في فورة الحروب الصليبية، فقد سجل
التاريخ أنه اهتم بمداواة ذلك الملك النصراني، وكانت مكرمة مأثورة من مكرمات
صلاح الدين
فكيف يعاب علينا أن نجزع لنكبة الفرنسيين ولو صح أنهم في جميع أحوالهم أعداء؟
وأقول للمرة الأولى بعد الألف إنني لا أصدر فيما أكتب إلا عن وحي القلب والضمير،
ومن الصعب أن ألتفت إلى النصائح الثمينة التي يوجهها الأصدقاء من حين إلى حين،
والخطأ المبتكر هو عندي أفضل من الصواب المنقول
وهل كان من الكثير أن اكتب مقالاً في التوجع لما صارت إليه باريس؟
تلك والله إحدى الأعاجيب، ومن الخير أن تقع في دنيانا أعاجيب، فقد عرفت أن في
الدنيا ناساً يرون الشماتة من كرم الأخلاق. . . عفا الله عنهم وهداني!
زكي مبارك
حول العتب والبيان
كتب الأستاذ علي الطنطاوي في العدد الصادر أول يولية سنة 1940 كلمة عن أدب
دمشق، وأنها - أي دمشق - (ضائعة بين مصر ولبنان، فلا هي ترتضي مذهب لبنان في
الأدب ولا مصر تلقي لها بالاً وتحفل بها) فعجبت من مساق هذا الرأي ورضا الكاتب

عنه، فأنا أربأ بدمشق الخالدة، بلد العلم والثقافة، ومثابة الشعر والجمال، أن تكون متبعة في أدبها لا متبعة، مقلدة لا مبدعة، راجية في أدبها الاقتداء لا السيادة، وذلك على الرغم من سماتها السادرة، وطوابعها الحائرة، وما يعتور أدبها من قلق ووجوم وفتور. إن دمشق الشام لها كيان أدبي مرموق، وفيها أهل معرفة وثقافة، فينبغي أن تفرض أدبها فرضاً، وأن تسم آثاره بمياسم خاصة تميزها من غيرها، وتكون دليلاً عليها

قد تكون مصر الأدبية والعلمية بحكم أهلها الكرام وجيرانها الخلصاء، لا تعبأ بأدب الأقطار العربية التي تعتز بها وتؤمن بزعامتها، فقد سبق لكثير من أهل هذه الأمصار أن عتب على مصر العزيزة لتفريطها في الحديث عن ثقافة الإخوان والجيران، ورعاية الإعجاب الذي يحسه نحوها كل أديب ومتأدب في هذه الديار، على أن مما يسكن نأمة العتب أن قادة الأدب في مصر وكتابه الفضلاء كالدكتور عبد الوهاب عزام، والدكتور طه حسين، والأستاذ سعيد العريان، يعترفون بهذا التفريط في حق من يولونهم هذه المودة الصريحة والثقة الغالية اللتين تتجليان في أقوال العاتبين وأفعالهم، وإن المجال ليضيق الآن عن تعداد ما كتب أولئك المصريون الفضلاء، وترداد ما أعلنوا بصدد العتاب والاعتراف

والواقع أن على مصر الناهضة تبعات ثقالاً وأن لها رسالات أشتاتاً، فهي آخذة في توحيد الشعور والتفكير، جاهدة في سبيل الحرية والتعاون والمعاش، متلاقية بأمصار العرب

والإسلام تحت راية القرآن وفي حمى الفصحى والجوار، ولسوف تقيض لها الأيام أن ترى ألوان الأدب في كل بلد من بلاد الشام وتلمس مبلغ قوته أو ضعفه فتتعاون والإخوان على ازدهار الحياة الأدبية عندنا إن كانت متينة مشرقة، أو على تغذيتها وتقويتها إن كانت كامدة موهونة.

أما العتب الذي وجهه الأستاذ الطنطاوي بشأن منشورات دمشق العلمية والأدبية وإهمال الكتاب المصريين واجب نقدها والإشارة إليها، فمن ذلك النوع المعاتب على نية خالصة بريئة ولوجه الأدب فحسب

ولو أنصفنا لقلنا إن أكثر تلك المؤلفات التي أومأ إليها الأديب الفاضل كتبت عنها (الرسالة) و (الثقافة) الكريمتان، وقد نشرنا من بعضها فصولاً طوالاً. ولعل قارئ المجلتين يتذكر ما سبق إذاعته عنها، وأما كتب أساتذة الجامعة السورية من طبية صحية وحقوقية قانونية، فليس من اختصاص أهل الأدب وكتاب النقد في مصر أن يلموا بها ويكشفوا عن محاسنها ومساويها، فإذا كان ثمة عتب من أجلها فينبغي أن يوجه إلى أنداد أولئك الأساتذة من علماء القانون والطب في مصر

ومن الحق أن نعترف أن مجلات مصر الكبريات كالمقتطف والهلال والرسالة والثقافة تشير في كثير من الأحيان إلى ما يرد عليها من آثار القلم في بلاد العرب وإن تكن إشارتها محدودة ضئيلة، على أنها لا تحجم أحيانا عن نشر دراسات مفصلة لتلك الآثار على أن هنالك كتباً قيمة صدرت عن دمشق تجاوز عن ذكرها الأستاذ الطنطاوي سهواً ونسياناً، وكان يجدر بها ألا تحرم إعجابه وتنويهه بها، فقد اقتصر على ذكر طائفة معينة من المؤلفات الدمشقية طالما أشاد بها وأكبر أصحابها، فرأيت من العدل أن آتي على ذكر ما يحضرني من الكتب التي لم يشر إليها الكاتب العاتب، منها:

ديوان التقي: للأستاذ أديب التقي

الزراعة العلمية: للأمير مصطفى الشهابي

فن القصص عند الجاحظ: لمحمد المبارك

الحجاج: لإبراهيم الكيلاني

آرائي ومشاعري: لفلك طرازي

أخطاؤنا في الصحف والدواوين: لصلاح سعدي

غزل البحتري: لياسين الحموي

صريع الغواني وجرير: لجميل سلطان. . . وغيرها. . .

وأما كتب الأستاذ محمد كرد علي فإنها في مصر تكاد تكون أشهر وأذيع منها في ديار الشام، ومؤلفاته الحديثة المطبوعة فيها من مآثر (لجنة التأليف والترجمة والنشر في مصر) مما ينطق ألسنة الشاميين بالشكر والإعجاب.

(دمشق)

وداد سكاكيني

من عجائب الاجتهاد

قرأت البحث القيم المنشور في عدد الرسالة الأخير تحت هذا العنوان عن مسرحية الدكتور بشر فارس واقتباسه موضوعها وفكرتها من قصيدة الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد (القمة الباردة) ومن أبيات للأستاذ علي محمود طه من قصيدة (قلبي) المنشورة في ديوانه (الملاح التائه) فوجدت في هذا البحث هدى للمطلعين. وقد لاحظت خطأ مطبعياً في صدر أول بيت من أبيات الشاعر علي محمود طه أرى تصحيحه كما هو مثبت في ديوانه بالنص الآتي:

وصرختَ حينَ أجنَّك الليلُ ... متمرداً تجتاحكَ النارُ

ولاشك أن هذا النقد القوي الدقيق هو من مقومات حياتنا الأدبية

سالم العطار

مدرس ثانوي

إلى علماء التاريخ

لما كنت في كركوك من مدن العراق وجدت البلد قسمين: المدينة الجديدة وهي في السهل وبحذائها (مدينة النفط) والمدينة القديمة ويدعونها القلعة لأنها قائمة على قلعة عالية منشأة على هضبة مصنوعة وحولها خندق ولها أبواب. أما سورها فلم أجد منه إلا بقية لا يكاد يتبينها الناظر، فلما خرجت منها متوجهاً إلى دمشق عن طريق الهلال الخصيب مررت بإربل (ويسمونها اليوم أربيل) فوجدت فيها قلعة مثل قلعة كركوك ولكنها أكبر وأظهر وأبقى أثراً وحولها خندق عميق وفيها بيوت سراة القوم والسوق المسجد الجامع. ثم بلغت الموصل فوجدت فيها قلعة مثلها ولم أستطع أن أراها، ثم دخلت حلب فوجدت قلعتها على مثال القلاع التي ذكرت غير أنها مبنية بالصخر وهي أكمل وأجمل، وحيال بابها جسر يجتاز عليه الخندق كجسور قلاع القرون الوسطى. ثم أتيت حماة فوجدت فيها وفي حمص قلعتين على هذا الشكل فاستوقفني هذا الخط من القلاع وأحببت أن أعرف تاريخه فرجعت إلى (ياقوت) وغيره وسألت من أعرف من المشتغلين بفن التاريخ فلم يشف لي أحد منهم غلة، فعرضت السؤال على قراء الرسالة راجياً ممن له معرفة بالجواب نشره فيها، لأستفيد منه أنا وغيري ممن لم ينقطع للتاريخ ومباحثه

(دمشق)

(سائل)

قصتان والفكرة واحدة

منذ أشهر قرأت للأستاذ محمد سعيد العريان قصة (من أدباء الجيل) بالرسالة العدد (345) ولقد أعجبت هذه القصة كل من قرأها لقوة فكرتها وروعة أسلوبها، ولكني بعد انتهائي من قراءتها أخذت أشعر باني قرأت مثل هذه القصة من قبل. ثم تذكرت أني قرأتها في العدد الخاص ب (أحسن القصص) من مجلة (كل شيء والدنيا)، ولقد أفضيت بما يجيش في نفسي لبعض الأصدقاء، ولكن كان جواب أحدهم: يجوز أن يكون الأستاذ العريان نشرها من قبل وعلى ذلك يكون المؤلف واحداً. فكان جوابي: نعم يجوز

واليوم بينما أنظم مكتبتي - المتواضعة - عثرت على مجلة (كل شيء والدنيا) العدد (498) الأربعاء 22 مايو 1935. ولقد تصفحت هذا العدد، فوجدت القصة التي هي بيت القصيد للأستاذ (محمد أبو طائلة) وعنوانها (الشهرة) ولقد قرأت هذه القصة مرة أخرى، فوجدت أن فكرة هذه القصة هي بلحمها ودمها فكرة قصة (من أدباء الجيل) وإن اختلف الأسلوب والعنوان وبعض الحوادث الثانوية

هذا ولست أقصد من وراء قولي هذا أن أعتبر هذا الاتحاد في الفكرة من السرقات الأدبية. كلا. . . فإني أحترم أدب الأستاذ (العريان) وأنزهه عن ذلك. وإنما أعتبر اتحاد الفكرة في القصتين من توارد الخواطر. والذي دعاني إلى تسجيل هذه الكلمة هنا هو أني أريد بأن أضع الحق في نصابه، وحتى تكون للأدب (كما قال الدكتور زكي مبارك) رقابة أدبية، تراقب الإنتاج الأدبي الجديد وتزنه بميزان الحق والعدل. ومن العدل أن نقول إن الأستاذين (أبو طائلة والعريان) كتبا قصتيهما فأجادا. ولكن الفضل الأكبر للسابق لأن الفكرة واحدة.

(دمنهور)
حسين الحوني
ارتجال المصادر
ذكر الأديب السيد ميخائيل عواد العراقي في ثنايا حواشيه على مقالة (العروب في العراق) في العدد الستين بعد الثلاثمائة من الرسالة النيرة، أن للسيد حبيب الزيات مقالة نفيسة في مجلة (لغة العرب) (5 (1927) 461 - 465) بعنوان: (السفن والمراكب في بغداد في عهد العباسيين) وقد رجعنا إلى مجلة لغة العرب، وبحثنا عن هذه المقالة فلم نجدها، كما فتشنا في مجموعة المجلة المحفوظة في المجمع العلمي فلم نرها. فهل للأديب السيد عواد أن يزيدنا من الإيضاح، ويعلمنا مكان المقالة بالضبط؟
(دمشق)
صلاح الدين المنجد
استفهام
وقع نظري في مقالة الأستاذ محمود شاكر في العدد 364 على قوله: (وجعل يقتطف منها حيث أراد) فكان من الحتم علي - وأنا من المعجبين بأسلوبه ولغته واطلاعه - أن أسأله هل يسوغ استعمال (اقتطف) ومعجمات اللغة كاللسان والأساس والقاموس والنهاية والمصباح لم تذكر غير (قطف)؛ على أنها نصت على استعمال (قبس واقتبس) وإذا كان استعمال (اقتطف) من الخطأ الذي لا يجوزه القياس ولا السماع فقد قال العلامة
ابن الأثير في المثل السائر: (ليس الفاضل من لا يغلط، بل الفاضل من يعد غلطه)
رشاد عبد المطلب
انتحار الدكتور إسماعيل أحمد أدهم
روت الصحف أن الدكتور إسماعيل أحمد أدهم الباحث المعروف قد انتحر غرقاً في البحر الأبيض في الساعة السابعة من مساء يوم الثلاثاء الماضي يأساً من الحياة وزهداً فيها. وقد عثر البوليس في معطفه على كتاب منه إلى رئيس النيابة يخبره بأنه انتحر لزهده في الحياة وكراهته لها، وأنه يوصي بعدم دفن جثته في مقبرة المسلمين، ويطلب إحراقها وأن يشرح رأسه
والدكتور أدهم أعزب في الثامنة والعشرين من عمره ينتسب إلى أصل تركي، ولم يكن له عمل أو وظيفة، بل كان يعول في الحياة على إيراد منزل يمتلكه بالإسكندرية. وقد كان يميل في بحوثه إلى الفلسفة اللادينية
مصير المبادئ في فرنسا
تعجبني هذه الروح التي بدت في الشرق على أثر انهيار فرنسا ورددت صداها مجلة الرسالة الغراء في مقالات الأساتذة: الزيات، وزكي مبارك، وصديق، هذه الروح التي التفتت إلى الشرق لترى ماذا أصابه من فرنسا المنهزمة
صحيح أننا إذا أردنا أن نحكم على أمة عظيمة مثل فرنسا لا يمكننا ذلك إلا إذا عشنا في فرنسا نفسها وفي مستعمراتها لنرى كيف تتصرف في كل من البلادين. وعند ذلك نستطيع أن نحكم، وعند ذلك نستطيع أن نعلل هزيمتها تعليلاً منطقياً صحيحاً. ولو عاش الدكتور زكي مبارك في مستعمرات فرنسا كما عاش في باريس لعرف أن الحرية التي تحمل رايتها فرنسا، وأن الديمقراطية التي حاربت الألمان من أجلها هي أفكار قد سعدت بها فرنسا يوم كانت تؤمن بها أشد الإيمان وشقيت بها يوم أصبح إيمانها بها ضعيفاً وأصبحت عندها كتقاليد لا كمبادئ. . .
لقد علل المريشال بيتان هزيمة فرنسا بالضعف الخلقي الذي أصابها بعد الحرب العظمى والذي صحبه انحلال في المبادئ التي ورثها الفرنسيون عن الثورة الفرنسية الكبرى
وآمنوا بها، فلا الحرية بقي لها المعنى السامي الذي عرفها به الذين أعلنوا (حقوق الإنسان) ولا الديمقراطية نفذت في فرنسا كمبادئ سامية يدين بها الشعب والزعماء والأحزاب. ولكن فرنسا - بعد الحرب العظمى - تسترت تحت هذه الكلمات: (الحرية، الديمقراطية، العدل) ولم تعمل بها كمبادئ ولكن كأفكار فقط
وهذا سر ما نرى من أنها ما كادت تسلم لأعدائها حتى محت من دستورها كلمات

(الإخاء، الحرية، المساواة) وأخذت تعمل على تغيير دستورها ونظام الحكم فيها، وما كان للحرية والديمقراطية اللتين يؤمن بهما شعب عظيم من أن ينهار بهذه السرعة وإذا كانت فرنسا تمثل ركناً عظيما من أركان الديمقراطية فكيف تفسر الاتفاق بين سياستها وسياسة إيطاليا الفاشستية مثلاً: إن الفكرة التي أوحت إلى إيطاليا الفاشستية أن تقذف بزعماء العرب في طرابلس من الطيارات هي التي أوحت إلى فرنسا الديمقراطية - وفي عهد الجبهة الشعبية - أن تجرد على قرية من قرى المغرب الأقصى سرباً من الطيارات ليهدمها على أهلها لأنهم طالبوا بحقوق حيوية لهم كعدم صرف مياههم التي يستغلونها في الشرب والسقي إلى المعمرين الفرنسيين والفكرة التي أوحت إلى هتلر أن يسجن شوشنج زعيم النمسا في قصر عظيم من قصور فيينا لأنه عارض في استعمار بلاده، هي التي أوحت إلى فرنسا أن ترسل الزعيم علال الفاس إلى (ليبرفيل) - مقبرة الرجل الأبيض - ليستنشق من هوائها العذب الموت الزؤام، لأنه عارض في سياسة القمع والإرهاب التي يساس بها المغرب الأقصى

الحق أننا يجب أن ننتبه إلى ما جرى في الشرق فإنه قد يكشف لنا عن أسرار الحوادث الجسام التي تجري في الغرب

(ع ك)

القصص

زينوبيا

للأستاذ محمد محمد مصطفى

لا تزال أطلال مدينة (تدمر) قائمة بالقرب من دمشق ينقب فيها العلماء عن الآثار، وقد حكمت هذه المدينة من سنة 267 إلى 272 بعد الميلاد فتاة تدعى (زينوبيا) فاتنة عنيدة شديدة المراس لاقى منها الرومانيون الأهوال، وقصتها ممتعة شائقة)

- مولاتي. . . مولاتي. . . أين مولاتي؟

- ما ورائك يا مرندا؟

- إنه بيلنوس يا مولاتي. . . تالله لقد رأيته بعيني هاتين. أنصتوا. . . ألا تسمعون قرع الطبول؟. . . لقد عاد بيلنوس من مصر على رأس جيشه الظافر

- لئن كان ذلك حقاً فلن يضع أحد سواك على رأسه الغار

ودنت كتائب الجيش من المدينة فقامت (تدمر) بأسرها تحيي الظافرين، وغص قصر الملكة بزرافات الشعب ترقب عود الفاتحين. . .

وتحدج الملكة بنظرها قائدها بيلنوس وقد نال منه الونى، وبدا عليه الوهن لفرط ما بذل في دحر الرومان، فتهتف: يا ابنة ناديوس ضعي على رأسه الغار

ويفتر ثغر مرندا لهذا الشرف ويهتز له قلبها وتطوق رأسه بالغار، وتسأله في خفر: كيف وجدت مصر؟

- لقد عاث فيها الرومان الطغاة وأنزلوا بها الهوان، فانقضت جيوشي عليهم فروعتهم وملأتهم رعباً وتساقط جنودهم تحت أقدام فرساننا كالذباب واندفعت وراء فلولهم حتى انجلى آخر روماني عن أرض وادي النيل

وتبسم الملكة فيميد لابتسامتها قلبه، وتقول له: لقد أعجبت بما جندلت من جنود العدو مشاة وفرسانا، وقد وليتك أرض مصر فكن بأهلها رحيما، وأعلم أن بها أناسا يكنزون المال

وآخرين لا يجدون إلى القوت سبيلاً، فخذ من غنيهم وأعط فقيرهم، فإن أبوا فخذ رقابهم من أموالهم بديلاً، فإن جئتك زائرة لا أجد فيها معوزاً ولا ذليلاً

واهتز جسم القائد وشحب لونه شحوباً عظيما وتمتم في صوت خافت:

- أفيكون جزائي بلائي وما أكنه لك من بالغ الوجد إقصائي؟ فتدرك مرماه وتهمس له مؤنبة:

- ما رأيت أشد منك هولاً الحرب وأوهى جلداً أمام النساء

فتفصد جبينه عرقاً ولوى عنانه وانسل بين جموع الجنود

أخذ الكرى بأجفان الجنود إلا بيلنوس، فقد أمضه السهد، ورانت على نفسه الأحزان، فانطرح على الرمال يؤرقه الشوق إلى وجه مليكته التي أرسلته إلى مصر وهو الذي

كان يستمد السعادة من النظر إلى عينيها
وفي ذات ليلة هاجه إليها الوجد، فجلس يقلب في السماء عينيه السادرتين، وذكر أنها تنعم الآن بالحياة، لا يخطر اسمه على بالها ولا تفكر إلا في شن الغارات على ممتلكات الرومان، أما قلبها فلن تهبه له ولا لسواه لأنها تهيمن عليه وتخضعه لإرادة من فولاذ
وأحاط به اليأس، فقام يمشي كسير النفس جريح القلب، ذاهلاً، لا يشعر إلا بألمه. وفي منعطف الطريق رأى سائلا، فتحسس جيوبه ليعطيه شيئاً فلم يجد، وأراد قتل الوقت فسأل السائل عمن يكون، فتكلم السائل أو تحدثت الفتاة التي تمد يدها في الطريق، فكأنما كانت تسكب في روحه نغما موسيقياً يسحره ويسلبه. وقالت: إنها رومانية فقدت ذويها في الحرب، فلبست مسوح الرهبان، ووقفت تستندي الأكف لتطعم أبناء جلدتها الجائعين
ويشفق بيلنوس لهذا الجمال يهصره برد الليل ويقبره الدير، ويأسى لهذه الفتنة يدب فيها الذبول، وهذه العيون ينطفئ فيها البريق، وتراه (دورا) مقبلاً عليها بنفسه وبقلبه، فتسكن إلى حديثه، وتنصت له بسمعها وقلبها، حتى إذا ما كشف عن نفسه وعلمت فيه المبدد لجيوش وطنها القاتل لذويها ثارت نفسها سخطاً عليه
نحن في القصر الإمبراطوري بروما وقد جلس الإمبراطور أورليان على عرشه يحف به الجلال، ونراه يستبطئ قدوم شخص دعاه فيزلزل البهو بصوته الجهوري:
- أين مارسيوس؟
- هوذا أنا يا مولاي
وترى فتى مديد القامة يهش الإمبراطور لقدومه ويبش ويسأله عما إذا كانت السفن قد أعدت للرحيل، فيجيب: نعم، فيقول: ألم يصل بعد أوكتاف، فينبئه أنه وصل الآن وأن الراهبة ستعمل بمشيئة الإمبراطور
- حسن. ستكون أنت إذاً يا مارسيوس على رأس الجيش المغير على أرض تدمر، وعليك أعتمد في محو هذه المملكة، وعليك أن تولي وجهك إذا ما حالفك النصر شطر مصر، ولدى دورا أوامري المشددة بإقصاء القائد بيلنوس عن مركز رياسة جيشه
- ما لي أرى وجه الحبيبة كالحاً كالظلام؟
- قد تركني حبك يا بيلنوس نهباً بين نداء القلب ونداء الدير، ولي الآن شهور انقطعت فيها عن جمع الإحسان لأنعم بقربك وتراني أذوب كمداً كلما ذكرت أهلي الذين جندلوا في الحرب، ولم يبق منهم غير شقيقي الذي لاذ ببطن الصحراء وركب النيل إلى بلاد النوبة
- جعلت فداك، فما تشائين؟
- أريد اللحاق به فما يهتأ لي عيش بدونه
- وأنا يا دورا. . . أفتتركين هذا الحب يعبث بقلبي لا ينفعني طب ولا رقي؟
- فلم لا ترافقني في رحلتي نبحث عنه ونعود به فأعيش بينكما؟؟
- ومصر يا دورا؟
- ليقم عليها لبيد بن عبد الله حتى تعود
ونجحت دورا في إقصاء القائد عن جيشه، وتوغلت به في ذرا الهضاب وبين النجود والوهود تسأل الغادين والرائحين عن شقيقها المزعوم، وشغله هواها عن ملكته وجيشها الذي ائتمنته عليه.
أبحر مارسيوس وألقت سفنه مراسيها، ووثب جنوده إلى شاطئ (تدمر) كأنهم موج يتلوه موج، وساح جيشه في أرض تدمر كأنه الطوفان، وأفل نجم زينوبيا فلم تصمد لهجومهم العنيف
وصعدت الملكة إلى مخدعها حيث كانت خادمتها تمسح عن سيفها ودرعها دماء الأعداء وتهالكت على مقعد وقد بدا على وجهه الجميل الغضب فزادها جمالاً وتمتمت: كيف يكون
هذا يا رب؟
أين أنت يا بيلنوس. . . يا خائن؟
تا لله لو رأيته لأجعلن جسده طعاماً للنسور
واقترب مارسيوس من القصر الملكي وملكه العجب لهذا الفردوس وهذا الدوح

المحيط بقصرها الممرد المنيف. وما كاد يطأ وصيد البهو حتى رأى زينوبيا جالسة على عرشها وقوراً
وسمرت قدماه وقد شدهته هذه الفتنة، وسبته عيناها الفيروزيتان، وراعه جمالها فزلزل كيانه وانعقد لسانه فما كاد يبين
ووقر في قلبه أن هذا الجسد الفتان سيكون هدفاً للسهام إن أرسلها أسيرة حرب إلى روما
وهتفت نفسه: ماذا أفيد من دك هذا العرش وموت هذه الفتاة؟
ودنا منها متوسلاً إليها أن تفر من وجهه إلى حيث يحلو لها المقام
واستضحكت زينوبيا وقالت:
- أما وقد ثل عرشي واجتاحت جيوش الرومان بلادي فليس لي رغبة في الحياة
وحملق فيها مارسيوس وأخذ يعبث بيده في قوسه وسهامه ورأسه يفور كبركان أوشك أن ينفجر
قال وهو يرسف في إسار سحرها:
- لاشك أنني أخطأت بلقائك يا زينوبيا بعد ما انتهى إلي من فعل سحرك بمن يراك،
ولقد غلبني هواك فما أستطيع إرسالك إلى روما ليعجل الإمبراطور أورليان بك إلى الموت
- أتخاف الموت أيها الشاب؟
- كنت لا أخافه قبل أن أراك، أما الآن فقد تبدل الحال وأحببت الحياة لأنك معنى كبير من معانيها
- إنك تجيد الغزل إلى حد ما. . . ولكن قلبي منيع لم يتطرق إليه يوماً عبث الحب
وسفاسف العشق التي أودت بقائدي الخائن بيلنوس الذي شغفته الرومانية حباً،
وتوغلت به في الجبال، فلم يعثر عليه رسولي ولا سمع استغاثتي
أفعل ما توحي به إليك وطنيتك وما أمرك به إمبراطورك أيها الشاب فتكسب احترامي وتقدير مواطنيك
فما سمع منها ذلك حتى هب لونه وتفصد جبينه عرقاً، حتى لقد ظنت الملكة أن فالجاً
قد عالجه، واقتلع قدميه اقتلاعاً حتى دنا منها وسلك يديها البضتين في سلسلة من ذهب
وحالف النصر مارسيوس فاجتاح مصر وثأر لمواطنيه، وغدرت (دورا) ببيلنوس فأسلمته إلى مارسيوس
وهبت روما تستقبل من عجلت بفناء فلذات أكبادها أعواماً تلي أعواماً، وكان الناس
يؤذونها بما يرمونها به من فاحش القول وبذئ الفعال؛ على أنها كانت وسط هذا
الضجيج رافعة الرأس هادئة البال، فكانت في محفتها ملكة لم يغير من أبهتها ما لاقته
. . .من هوان، فإذا ما بلغوا بها السجن ألقوها في قبو منه يعاف النوم فيه الكلاب
قال الإمبراطور في مجلس الأعيان:
- سأرمي بها للأسود في ملعب الأولمبياد لتخف لوعة المحزون على ولده من شعبي
فضج المجلس بالاستحسان، واسترسل الإمبراطور:
- سيكون يوم موتها عيداً تقام فيها الصلوات للآلهة شكراً، وسأضع بيدي هاتين الغار
على رأس مارسيوس العظيم!
وعجل مارسيوس العودة إلى روما إذ دعاه إمبراطوره. ولما علم بالعزم على طرح
زينوبيا فريسة للأسود اشتد وجيب قلبه، حتى خيل إليه أن صوت هذا الوجيب قد طغى
على أصوات الجماهير التي تزخر بها جوانب الطرق. وكان يبسم للشعب وقلبه، يقطر
كمداً. وقبله الإمبراطور فأحس كأن عقرباً قد لدغته، ووضع على رأسه الغار فشعر
. . .كأن ناراً توضع على جبينه
وأحنى مارسيوس هامته حتى كادت تلامس الأرض، وطلب إذن الإمبراطور له بالكلام
فأذن:
- خدمت مولاي ثلاثين عاماً أو تزيد لم ألتمس فيها شيئاً ولي الآن حاجة . . .
فقاطعه الإمبراطور:
- كل خزائن الدولة وهن رغبتك
- ليس لي بها حاجة

- فما حاجتك؟
- حياة زينوبيا
فتجهم وجه الإمبراطور وتمتم:
- هي ملك الشعب وقد خرجت من يدي
ووقعت الكلمات على قلب مارسيوس فدكته بين ضلوعه، ومشى مستأنيا والناس من ورائه ذاهلون، وسقط في فراشه يقبض بأصابعه على بطنه فيكاد يفريها، ويشد شعره فيكاد يقتلعه، وينتابه اليأس فيومئ إلى بعض أنصاره لإنقاذها فيصرع حرس السجن منهم كثيراً ومن يبق يبتلعه السجن
وجلس الإمبراطور في الحفل الهائل يضحك حيناً ويشير حيناً إلى الأسود التي تزأر في ساحة الملعب، فيتردد صدى أصواتها في جنبات القصور، وغص الأولمبياد بمن جاء من القرى والحضر ليرى المشهد المروع
ويؤتى بالملكة إلى ساحة الموت فتقترب منها الأسود في بطء كأنها ترهب ترهب هذا الجمال وتدوي أصواتها كالرعد فيغشى على النساء ويخفى بعضهن عيونهن بأيديهن، وكلما ضاقت المسافة جفت الحلوق وذهبت الألوان حتى الإمبراطور لم يملك نفسه فتهف: (يا لهذا الجمال!)
ووقفت الملكة يتدلى شعرها الأسود اللامع على كتفيها العاجيتين تنظر إلى الأسود لا تجفل ولا تفزع كأنها مقبلة منها على صديق، فإذا لم يبق بينها وبين أول أسد إلا عشرون متراً رأته يقفز وبين عينيه سهم رائش نفذ في رأسه وراح يتخبط في الأرض، وذعر الأسود فتفرقوا شذراً. وبسرعة خاطفة سقط مارسيوس إلى جانب الملكة، وأخذ يذود عنها الأسود بالسيف، ويدفع زينوبيا إلى الوراء حتى إذا اقتربت من الحاجز رفعها أنصاره. . . وتراجع المنقذ ليلحق بها فأنشب فيه أسد جريح أظفاره وراح يعمل فيه
صرخ الإمبراطور: أليس لك رغبة ننفذها يا مارسيوس؟
فهتف بما وسعته قوته: زينوبيا
محمد محمد مصطفى
العدد 370 - بتاريخ: 05 - 08 - 1940
. . .نهاية أديب
في الساعة السابعة من مساء يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من شهر يولية، لفظ البحر على ساحل (جليم) بالإسكندرية جثة كانت في رونق العمر. وإن بدا على محاسرها مسحةٌ من شفوف الهم وشحوب الألم. لم يكد يلقيها الموج الصاخب المتعاقب بالرمل المستوي المنضوح حتى أخذتها عيون الحرس الساحلي، فظنوها لأول وهلة ضحية من ضحايا الحرب الإنجليزية الإيطالية في هذا البحر المسجور العذاب والموت؛ ولكنهم علموا من بذلة الغرق ومعطفه وسلامة بدنه أنه مدني سقط في البحر أو ألقي فيه. فلما فتشه رجال الشرطة ليكشفوا عن هويته عثروا في جيب معطفه على كتاب منه إلى رئيس النيابة يقول فيه:
إنه قتل نفسه بالغرق يأساً من الدنيا وزهادة في العيش، ويوصي بأن يحرق جسده (ويشرَّح رأسه)
إذن هو رجل من رجال الفكر والرأي، جعل للحياة مثلاً لم يحققه فهو يجتويها، ورأى في العقيدة رأياً لم يرقه فهو لا يرتضيها، واعتقد أن في مخه عبقرية فهو يرجو أن يظهر بالتشريح خافيها.
فهل تدري من هو؟
هو الدكتور (إسماعيل أحمد أدهم) عضو أكاديمية العلوم الروسية، ووكيل المعهد الروسي للدراسات الإسلامية، كما كان يخبر عن نفسه؛ وهو صاحب المقالات العلمية والنقدية في الرسالة والمقتطف، ومنشط الحركة الأدبية في الإسكندرية وجمعية الثقافة. تَجَله أبوان مختلفان: تركيٌّ وروسية، ثم غُذي في يفاعته بثقافة البحر الأسود، فتأثر بنفسية الترك الجمهورية، وعقلية الروس الشيوعية. وتزوج أبوه مرة أخرى من مصرية فعاش معه في الإسكندرية حيناً من الدهر تعلم فيه العربية. ثم ترك له بعد موته بيتاً صغيراً كان يعيش على أجرته هو وأخته عيش الكفاف الضيَّق. واعتراه داء السل فكان يراوغه بالسكنى في جفاف (أبو قير)، ولكنه كان مضطراً إلى أن يشق

طريقه في زحمة الحياة بسن القلم: فكتب وألف وحاضر وناظر، حتى كان له في كل كتاب رأي، وعلى كل مسألة اعتراض، ومع كل كاتب موقف. وأعانه على هذا الجهد العظيم قريحةٌ طيعة وبصيرة ناقدة وعزيمة نافذة وطبع عمول؛ ومع ذلك ظل في عزلة عن القلوب المؤاسية أو المشجعة من جمهرة القراء وقادة الأدب، لأن نشأته اللادينية، ونزعته العلمية، وطبعه الجرىء الحر، وأسلوبه الجاف القلق، كانت تجعل لسطوره ظلالاً من الإلحاد والمادية والغثاثة تبغّضها إلى صاحب الدين وصاحب الفن. ثم وصل أسبابه ببعض ذوي القلم النابه فاستخدموه فيما لا يكسبه المودة والعطف. وجابه قوماً من المتصوفة وطلاب العلم بوقاح الرأي في الدين فآذوه في بدنه وسمعته. ووجد رضَى نفسه وراحة عقله في تسليط الطبيعة على العقيدة وتحكيم الفلسفة في الشعور، فساءت ظنون الناس فيه، وأرهفت الألسن عليه، حتى عجز أن يعيش على ثمرات فكره.

وكان المرحوم إسماعيل أدهم عفيف النفس يتقنع بميسور الرزق، ويتكرم عن طلب المعونة ولو كانت جزاء على عمله. وكان مرضه الدخيل المزمن يقتضي وفرة الغذاء وجودة الهواء وراحة الجسد، ولكنه كان لا يجد الكفاف لضيق مضطربه، ولا ينال الدعة والجمام لقوة عزمه؛ فتظاهر عليه الداء والشقاء والإباء واليأس من روْح الله حتى زلزلت هذه المحن في نفسه الثقة، وأذهبت عن قلبه السكينة.

وتُكبت الإسكندرية الجميلة بالغارات الجوية الإيطالية، فجلا أكثر الساكنين عن الثغر المروَّع، فأقفرت المنازل حتى منزل أدهم وهو مرتزقه الوحيد، فلم يكن بد من هذه النهاية المخزنة التي انتهى إليها هذا الأديب البائس.

كان الدكتور أدهم - غفر الله له - شديد الذكاء أصيل العقل رياضي الفكر واسع الثقافة لا يؤمن إلا بالعلم والمنطق. وقد أضاف إلى ثروة الأدب العربي الحديث جهداً مهما اختلفت الآراء فيه فإن له قيمته. وكان من الممكن أن يعيش في ظلال أدبه رخي البال مكفول الرزق لو أنه وصل ما بينه وبين الله. ولكنه خضع لسلطان طبيعته ونشأته فعالج الموضوعات الإسلامية معالجة الملحد المخلص الذي يجد سعادته في الكفر ورسالته في التكفير. ولو أنه خادع الناس عن عقيدته كما يفعل بعض الأكياس من الأدباء، لأدرك السلام في الأرض وإن لم يدركه في السماء؛ ولكنه كان أشبه بشهداء الكفر الذين يجدون اللذة في الألم، ويبتغون الخلاص في الموت!

رحم الله الدكتور أدهم! حسب أن أرقام العلم واقيسة المنطق هل كل شيء في تقدير المعلوم واكتناه المجهول، فاعتمد في أدبه على العقل القعيد الذي يرى ولا يطير، واتكأ في فلسفته على الفرض البعيد الذي يطير ولا يرى، وتحامل في مُعتقده على الضمير البليد الذي خبا

وَهجُه بين فتور الخيال وخمود العاطفة. ثم غره أن معارضة الدين سبيل من سبل الشهرة فأوغل فيها بعنف حتى انقطع في صحراء الحياة عن الله والناس! فهو لا يملك النور الذي يضئ ظلمة القلب، ولا الرجاء الذي يخفف وطأة الكرب، ولا الحب الذي يؤنس وحشة الطريق. وحكم القدر على السائر في الظلام والوحدة أن ينزلق من صخرة الحرمان إلى لجة العدم؛ وهناك لا يدركه إلا رحمة الله التي وسعت كل شيء وشملت كل شخص!

إن الأدب الملحد قد يعيش في الغرب لأن الظلام يمدْه الظلام، ولكنه لا يستطيع أن يعيش في الشرق لأن الظلام ينسخه النور!

(المنصورة)

أحمد حسن الزيات

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

موجة صوفية تثيرها رحلة الموسيقار محمد عبد الوهاب إلى سنتريس - بين القناطر الخيرية وسدة الهندية - خطاب ضائع - ثمرة شهية من ثمار المطابع.

موجة صوفية

في عصرية الاثنين (2271940) تَوجَّه جماعة من الأصفياء إلى سنتريس، وفيهم المسيو دي كومنين والمسيو جوزيه كانيري والدكتور إبراهاميان والمسيو بولْدريني والموسيقار

محمد عبد الوهاب وسِربٌ من كرائم الفرنسيات.
ولم تكن تلك القافلة تحتاج إلى دليل فقد شرَّفتْ سنتريس بزياراتها مرات كثيرة، ولا سيما مدام دي كومنين التي تأنس كل الأنس بزيارة سنتريس، والتي تُعَدُّ زيارتها لداري من مواسم الفرح عند أبنائي.
إنما يحتاج إلى الدليل ذلك الموسيقارُ السابح في لُجج الأحلام محمد عبد الوهاب، وكذلك أُتيحت الفرصة لأن يترفق فيدعوني لمرافقته في طريقنا إلى سنتريس.
وماذا أستفيد من مرافقة عبد الوهاب؟
وهل يُفيق هذا الحالم حتى يعرف رفيقه في الطريق؟
ابتدأ صاحياً في المرحلة الأولى، فسأل عن منازل الكتّاب المصريين وعن مبلغ تأثيرهم في مصر والشرق، وما كدنا ننتهي من الكلام عن طه حسين والزيات والعقاد وتوفيق الحكيم حتى أسلم خياله لأحلام أوابد لا يَقْنُصها غير القلب الذي راضه الحب على التمرُّس بملاحقة أبكار المعاني. ومحمد عبد الوهاب قنّاص أحلام وألباب، وإن كان أرقّ من الزهر المطلول.
ونظرتُ إليه في غيبوبته الروحية فرأيته يُغمغم بأجراس صوتيه لا تُبِين عن لفظ مُعيَّن أو غرض محدود.
وفي لمحة من لمحات الوجد تمثَّلتْ لي شفتان ورديتان لو سبَّح لله بهما مسبِّحٌ لكان فيهما غَناءٌ عن تسبيح كل ما حوَى الملكوت من أرواح وأشباح.
أَيصير عبد الوهاب إلى مثل هذا الحُسن الفاتن كلما نقله الخيال إلى عالم الروح؟
ثم انتبه بغتة، وقد وخزَته به نظراتي فقال: أتزور سنتريس في كل أسبوع؟
فقلت: وما الذي يهمك من ذلك؟
فأجاب: إن هذا إن صح قد يفسِّر نزعتك الصوفية، فما شعرتُ بمثل هذه الأقباس الروحية إلا في هذا الطريق الذي يصل بالأفئدة إلى سنتريس.
وما كاد يُتم هذه الجملة حتى هوَى إلى الغيبوبة من جديد، وحتى عُدتُ إلى التأمل في أسارير ذلك الوجه الذي خلق ليكون مَصدَر هداية ومبعَث فُتُون.
وبعد لحظات كانت أقصر من ومضة القلب بالتشوق إلى موعد غرام وصلنا إلى القناطر الخيرية، ثم وقفنا عند قنطرة الرَّيْاح المنوفي لننتظر سيارات الأصفياء قبل أن تُغذَّ السير إلى سنتريس. وهناك وجدنا على غير موعد جماعة من الشبان الفنانين يترنمون بأغاريد عبد الوهاب، وهم ينتظرون وفود القمر لمصافحة النيل؟
ثم وصل الأصدقاء الفرنسيون فطربوا لذلك المنظر الجذاب، وسرّهم أن يكون في مصر فنَّان يرى طلائع فنه في مكان يتوجه إليه على غير ميعاد.
ودخلنا سنتريس والشمس تجنح للغروب والناس يرجعون إلى دورهم وفي أيديهم مقاود المال الناطق، وتلك طلائع نعيم تكون أوفر ما تكون في سنتريس: فأخصبُ أقاليم مصر هو إقليم المنوفية، وأخصب مراكز المنوفية هو مركز أشمون، وأخصب البلاد في مركز أشمون هو سنتريس، وأخصب بقاع سنتريس هو ما ورثته عن أبي وجدي، وأجمل دار في سنتريس هي دار شاعر سنتريس.
فإن ضاق بعض الناس صدراً بهذا الازدهاء، فليذكر أني تحدثت عن الريف وجمال الريف قبل أن تُخلَق وزارة الشؤون الاجتماعية بأعوام طوال. يضاف إلى ذلك أن بلدي أجمل البلاد حقّاً وصدقاً، وهو الشاهد على أن مصر موطن الخيرات والثمرات ومهد الأفئدة والعقول. ولو قلت: إن بلدي يفوق جميع البلاد من الوجهة العلمية لكنت أصدق الصادقين.
ثم جلسنا نتجاذب أطراف الأحاديث مع الأهل والأصدقاء، وقد ذاع في أرجاء البلد أن عبد
الوهاب حضر ومعه عوده الحنّان فأقبلوا يتسابقون لتزويد أفئدتهم بأطايب البواكير من أغاريد الخلود.
ثم وقع ما لم يكن في الحسبان: فقد قيل إن في سنتريس مغنين يغنُّون أصوات عبد الوهاب بأطيب وأوقع مما يغنيها عبد الوهاب.
وتَنَادى أولئك المغنّون ليَباروا مطرب الأمراء والملوك، وليروضوه على الاقتناع بأن التواضع خُلُقٌ جميل، فانسحب من الميدان قبل انتهاء السهرة ليرجع إلى القاهرة بحجة أن عنده موعداً في منتصف الليل!

وعند باب الحديقة سأل عبد الوهاب عن العود ليكون رفيقه في الإياب، ثم سارت به السيارة وهو يترنم بقول أحد الشعراء:

تنظُرِ الساعةَ من حينٍ لحين ... ليت شعري ما الذي يستعجُلكْ

إن هذا الوصل أحلامُ سِنينْ ... فاتق الحب وَدَع ما يَشغَلُك

وانصرف جمهور المعجبين بالموسيقار عبد الوهاب وبقيتُ مع الضيوف الأعزاء نتحدث عن الآداب والفنون، ونسمع مداعبات من كان في السهرة من الجنِّيات.

ومضينا نواجه النيل وقد طلع القمر وطاب النسيم فرأينا طوائف من أدباء سنتريس يَسمُرون هناك كما كنت أسُمر مع أصفيائي قبل أن يصنع الدهر بقلبي ما صنع، وقبل أن أحرَم من قضاء ليالي الصيف في سنتريس، فما ذقت طعماً للحياة الهادئة منذ قضت الأيام بألا أزور سنتريس إلا كما يزور طيف الخيال.

ثم هتف هاتفٌ بأن الليل قد انتصف وآن أوان الرحيل عن سنتريس

وفي القناطر الخيرية وقفنا مرة ثانية نشهد صراع الأمواج في قنطرة الريّاح المنوفي، فأخذتُ المسيو كانري من يده، واقتربت به من معركة تلك الأمواج.

ثم وَثب القلب وهو يسأل: أين الموعد، موعد فلانة، الموعد الذي عقدتْه فوق (سَدَّة الهندية) منذ أكثر من عامين؟

فأجبتُ: تلك يا قلبي مواعيد البنان المخضوب!

وتلفتُّ إلى المسيو كانري وأنا أقول: ألا يكون النوم في ضيافة هذه الأمواج الصواخب أطيب من النوم في الغُرف المغلقة النوافذ؟

فأجاب: ذلك نعيمٌ خاصٌّ بأهل الرق.

فقلت: ومن أجل هذا النعيم يوصي بعض الفلاسفة بأن تكون مدافنهم في ثنايا الأمواج.

ثم رجعنا إلى القاهرة لنأنس بالعيش الرَّتيب من جديد.

فإن سألتموني: أين كنا؟

فأنا أجيب: كنا في رحلة صوفية، وكان معنا عقل دي كومنين وبلاغة كانري وعُذوبة عبد الوهاب، وكانت معنا أشياء، فلا تسألوا عن أشياءَ إن تُبْدَ لكم تزدكم أسفاً على الحرمان من أطايب الوجود. . . وهل كانت تلك الأشياء إلا القلوب الأواهل بأرواح الصفاء؟

خطاب ضائع

كان صديقنا الأستاذ صادق عنبر - طيب الله ثراه! - قد نشر في مجلة (النهضة النسائية) سنة 1927 خطابات غرامية قال إنه وجدها مُلقاة في الطريق، وصحَّ عندي يومئذ أنه ابتدع تلك الخطابات، فكتبتُ إليه من باريس أهنئه على ذلك البدع الطريف، فأجاب بأنه لم يبتدع تلك الخطابات، وإنما وجدها مصادفةً في شارع الدواوين وهو ذاهب إلى جريدة الأهرام، ولم أصدِّقه فيما ادعاه فتعقبتُه في جريدة البلاغ بمقال لاذع بدَّد ما كان بيني وبينه من وداد.

ثم تشاء الأقدار أن تصحح رأيي في ذلك الصديق المظلوم فقد وجدت أن أيضاً خطاباً ضائعاً، وجدته في شارع فؤاد وأنا ذاهب للسَّمَر مع الأستاذ (وحيد بك الأيوبي) في قهوة السلام بميدان إبراهيم، وأطلعتُ عليه جماعة مت الفضلاء الذين صادفتهم هناك.

وإلى القارئ فقرات من ذلك الخطاب الضائع، ستَر الله كاتبه وهداه:

(تعاتبين؟ تعاتبين؟ وما الموجب للعتاب وقد صدَّ قلبٌ عن قلب، وزهد روح في روح؟)

ومن تعاتبين، يا شقية، وقد انتهى عهد العتاب، ولم يبق من الذكريات غير أطلال؟ لا أراك الآن إلا حجراً أصم أبكم، لا يسمع ولا يتكلم، وإن كنتِ تحسنين زُخرفَ القول حين تكتبين إليّ من حين إلى حين. . .

وتقترحين أن أزورك في مدينة. . . فهل تظنين أني أطرب لزيارة مدائن الأموات؟ تلك غمرة من غمرات الكرب عانيتها حين توهمتك إنسانة لها وعي وإحساس، ثم لطف الله فأفقت، وما كنت احسبني أفيق

كان غرامي نزوة من نزوات الطيش، وقد عقلت، والحمد لله على نعمة العقل!

أمثلُكِ يُزارُ بوحيٍ من القلب، وأنتِ رسمٌ من الرسوم الهوامد، وقد انتهى عهد البكاء على الرسوم والطلول؟

ما أبكي عليك، يا شقية، وإنما أبكي على النعيم الذي ذهب منذ اليوم الذي انزاحت فيه الغشاوة عن قلبي

كنت توهمت أني عشقت، وكانت الدنيا لا تسعني كلما خطر في البال أني أملك قلب امرأة لها في دولة الحسن تاريخ
ثم انجابت ظلمات الغواية فرأيتك مخلوقة من خزف، مخلوقة غبية بليدة حرمتها الأقدار نعمة القهم لسرائر الأرواح والقلوب.
خرجتُ من هواكِ كما دخلتُ، فما أمدَّني هواكِ بقصيدة رشيقة ولا مقال بليغ. والأديب لا يعشق ليقال إنه عشق، وإنما يعشق الأديب ليطلع على الآفاق المجهولة من ضمائر الوجود. وأنت أنت، أنت الأنثى الغبية البليدة التي لا ينتفع الأديب من صحبتها بشيء، إلا أن يصير اسمه إعلاناً عن جمالها المظنون، وأنت والله جميلة، ولكن جمالك لا يزيد عن جمال التماثيل!
إنما أبكي على نفسي، فقد كنت احسبني أهلاً لغرام أقوى وأعنف من الغرام الذي عانيت، ثم عرفت مع الأسف الموجع أنني شغلت قلبي بإنسانة ضعيفة لا تقدر على نقل القلب من مكان إلى مكان. فمتى تزحزح من مكانك يا قلبي؟ ومتى تعرف أن الهدى ليس أكرم عنصراً من الضلال؟
لا تكتبي إليّ بعد اليوم، يا شقية، فقلبك أصغر من قلبي، ولم تكوني إلا طفلة نضجت (قبل الأوان فتوهمتْ أنها قادرة على مساورة الرجال
تلك فقرات من ذلك الخطاب الضائع، الخطاب الذي وجدته في شارع فؤاد.
فهل رأيتم أسخف من كاتب هذا الخطاب؟
الدنيا في حرب وشقاء وبلاء، فكيف يجوز أن يكون فيها من يعشق ويلتاع؟
وفي قهوة بالميرا بمصر الجديدة صادفت الدكتور مشرَّفة بك عميد كلية العلوم فعرضت عليه هذا الخطاب على أنه نموذج من السفاهه والحُمق فابتسم، وقال: العواطف من القُوى
الأساسية في حياة الإنسان، ولا بُدَّ لتلك القوى من غذاء. واستطرد فحدثني أنه طرب حين رجع إلى معاهد الطفولة بدمياط، يوم كان يتقرب إلى الله بتقبيل ضريح الشيخ مظلوم!
العواطف تحتاج إلى غذاء كما تحتاج العقول؟
هذه فلسفة لم أسمع بها من قبل
فإن صحت هذه الفلسفة فهي سِنادٌ لكاتب الخطاب الضائع، الخطاب الذي وجدته في شارع فؤاد
الدنيا في حرب، فلا تصدَّقوا الدكتور مشرَّفة، وإن كان عميد كلية العلوم، واقضوا أوقاتكم كلها في متابعة أخبار الحرب بين الإنجليز والألمان، فأخبار الحرب هي زاد العواطف والعقول في هذه الأيام العِجاف!
ثمرة شهية من ثمار المطابع
اليوم عرفت أن الأستاذ محمود بك تيمور وأخاه المرحوم محمد بك تيمور ورثا فنّ القَصَص عن أبيهما العظيم أحمد باشا تيمور.
أقول هذا وقد فرغت من قراءة كتاب نفيس اسمه (أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر) تحدث فيه تيمور باشا عن جماعة من الشعراء والعلماء والأعيان بأسلوب هو القَصَص الحق، أو هو أحسنُ القَصَص، إذا صح الاستئناس بعبارة القرآن المجيد.
كتابٌ كله أقاصيص، ولكنه حقائق، وله جاذبية تجعله فوق القَصَص المعطَّر بأنفاس الخيال.
في هذا الكتاب أربعة وعشرون ترجمة لبستْ جميعاً ثوب الصدق في حدود ما وصل إلى المؤلف من أخبار مَن ترجم لهم. ومن المؤكد أن هذا الكتاب يسدّ فراغاً في تصوير بعض معالم العهد الذي عاش فيه المؤلف، ففيه أخبار سياسية وأدبية واجتماعية لم يتحدث عنها أحد من قبل هذه الدقة وبهذا التفصيل.
ونحن نأسف على أن لم يُكتَب لتيمور باشا أن يقف جهوده على هذا اللون من التاريخ، فلو أن الله كان وفقه إلى ذلك لأتى بالأعاجيب في تسجيل الحوادث وترجمة الرجال.
وقد التزم تيمور باشا في هذا الكتاب التواريخ الهجرية أو كاد، والتزم العبارات القديمة في وصف بعض الأشياء، فالعِزبة هي الضَّيعة، والجنيه هو الدنيار، ودخول الإنجليز مدينة القاهرة كان يوم الخميس مستهلّ ذي القِعدة سنة 1299. وتلك من لوازم تيمور باشا الذي

كان يريد أن يجعلنا عرباً ومسلمين في جميع الشؤون، أحسن الله إليه بقدر ما أحسن إلى العروبة والإسلام!

وتيمور باشا في كتابه يجسِّم الحسنات ويتغافل عن السيئات. وإذا قهره التاريخ على تسجيل سيئة أحاطها بعبارة من عبارات التشكيك، أو أعتذر عنها بلطف ورفق، حتى ليمكن الحكم بأن الرجل أراد أن يكون كتابه من كتب الأخلاق الصِّحاح. وكيف لا يكون مراده كذلك وقد شهد عارفوه وشهدت آثاره بأنه كان من أرباب القلوب.

ولا تجد في هذا الكتاب عبارة تشير إلى أن تيمور باشا كان يرتب ويصنف ويؤلف، فهي أحاديث بعضها برقاب بعض في يسر وسهولة واتساق، وذلك شاهد القدرة على التعبير الخالي من التكلف والافتعال.

وقد أكثر تيمور باشا من الترحم على من ترجم لهم، فعليه رحمة الله، وعلي الهراوي رحمة الله، وعلى عبد المطلب رحمة الله، فقد كانا يريانه إماماً في الأدب واللغة والتاريخ، ولهما في البكاء عليه قصائد جياد.

زكي مبارك

في الاجتماع اللغوي

تطور اللغة وارتقاؤها

للدكتور علي عبد الواحد وافي

مدرس العلوم الاجتماعية بكلية الآداب بجامعة الفؤاد الأول

انتقال اللغة من السلف إلى الخلف: التطور الجبري؛ مظاهره

في لغة الحديث ولغة الكتابة

تتأثر اللغة في تطورها وارتقائها بعوامل كثير يرجع أهمها إلى أربعة طوائف:

انتقال اللغة من السلف إلى الخلف (إحداها)

تأثر اللغة بلغة أخرى (وثانيتها)

عوامل اجتماعية نفسية وطبيعية، كحضارة الأمة ونظمها وعاداتها وتقاليدها (وثالثتها) وعقائدها، وثقافتها واتجاهاتها الفكرية، ومناحي وجدانها ونزوعها، وبيئتها الجغرافية. وما إلى ذلك.

عوامل أدبية، تتمثل فيما تنتجه قرائح الناطقين باللغة، وما تبذله معاهد (ورابعتها) التعليم والمجامع اللغوية وما إليها في سبيل حمايتها والارتقاء بها.

وسنعالج بإجمال في هذه الكلمة الطائفة الأولى من هذه العوامل، مرجئين الكلام عن العوامل الأخرى إلى المقالات التالية

على الرغم من أن الطفل يأخذ اللغة عن أبويه والمحيطين به، فإن لغة الخلف في كل أمة تختلف عن لغة السلف في كثير من المظاهر، وبخاصة مظاهر الصوت.

ويرجع جزء يسير من نواحي هذا الاختلاف إلى أمور خاصة مقصورة على بعض الأفراد كالعيوب الصوتية التي يصاب بها بعض الناس، وضعف السمع، واختلال أعضاء النطق. . وما إلى ذلك؛ وليس لمثل هذه الأمور شأن كبير في تطور اللغة؛ لأن آثارها مقصورة على أصحابها، تبقى معهم وحدهم في حياتهم وتختفي بموتهم.

أما معظم نواحي هذا الاختلاف وأكبرها أثراً في تطور اللغة فترجع إلى أمور عامة يشترك فيها جميع أفراد الطبقة الواحدة ويمتازون بها عن أفراد الطبقة السابقة لهم، كالارتقاء

الطبيعي لأعضاء النطق في الفصيلة الإنسانية (لأن أعضاء النطق في تطور طبيعي مطرد، فتختلف في كل طبقة عنها في الطبقة السابقة لها) والارتقاء الطبيعي للظواهر النفسية (فالقوى العقلية بمختلف أنواعها في تطور مطرد، شأنها في ذلك شأن أعضاء النطق. ومن الواضح أن كل تطور يحدث في هذه القوى ينبعث صداه في اللغة)

والأخطاء التي تنتشر بين الصغار في طبقة ما ولا يقطن لها الكبار لدقتها وخفائها أو يهلون إصلاحها ولا يعنون بالقضاء عليها. فالفروق اللغوية الناشئة عن هذه الطائفة من العوامل يشترك فيها جميع أفراد الطبقة الواحدة وتمتاز بها لغتهم عن لغة الطبقة السابقة لهم.

ومن هذا يظهر أن ناحية هامة من نواحي التطور اللغوي ترجع إلى عوامل جبرية لا اختيارية للإنسان فيها، ولا يد له على وقف آثارها أو تغيير ما تؤدي إليه.

ومن هذا يظهر أنه ليس في قدرة الأفراد أن يقفوا تطور لغة، أو يجعلوها تجمد على

وضع خاص. فمهما أجادوا في وضع معجماتها وتحديد ألفاظها ومدلولاتها، وضبط قواعدها وأصواتها. . .، ومهما أجهدوا أنفسهم في إتقان تعليمها للأطفال قراءة وكتابة ونطقاً وفي وضع طرق ثابتة سليمة يسير عليها المعلمون بهذا الصدد، ومهما بذلوا من قوة في محاربة ما يطرأ عليها من لجن وخطأ وتحريف، فإنها لا تلبث أن تحطم هذه الأغلال، وتفلت من هذه القيود، وتسير في السبيل الذي تريدها على السير فيه سنن التطور والارتقاء الطبيعيين.

حقاً إنه يمكن أحياناً التحكم في لغة الكتابة والجمود بها زمناً طويلاً على أصولها القديمة أو ما يقرب منها؛ ولكن لغة الكتابة التي تجمد بهذا الشكل لا تمثل تمثيلاً صحيحاً حالة الحياة اللغوية في الأمة، وتتسع كثيراً مسافة الخلف بينها وبين لغة المحادثة، لأن هذه اللغة الأخيرة في تطور مطرد، ولا تستطيع أية قوة إلى تعويق تطورها سبيلاً. فلا تنفك تبعد عن لغة الكتابة الجامدة، حتى تصبح كل منهما غريبة عن الأخرى، ويصبح تعليم لغة الكتابة في الأمة أشبه شيء بتعليم لغة أجنبية. هذا هو ما كان عليه الحال بفرنسا وإيطاليا ورومانيا وإسبانيا والبرتغال أيام أن كانت لغة الكتابة هي اللاتينية، وكانت لهجاتها المحلية مقصورة على شئون المحادثة؛ وما عليه الحال الآن في مصر وبلاد العرب وشمال أفريقيا بصدد العلاقة بين لهجات المحادثة واللغة العربية الفصحى المتخذة لغة كتابة في هذه الممالك.

على أن ظاهرة كهذه لا تكاد تبدو إلا حيث تكون لغة المحادثة غير تامة التكون ولا كاملة النمو؛ ولا تبقى إلا ما بقيت لغة المحادثة على هذه الحال. فإذا ما بلغت هذه اللغة أشدها، وتم تكونها، واكتمل نموها، واتسع متنها، ووضحت دلالة مفرداتها ووجوه استخدامها، وتشعبت فيها فنون القول، ودقت مناحي التعبير، وقويت على تأدية حقائق الآداب والعلوم، أخذت تطارد لغة الكتابة وتستلبها وظائفها وظيفة وظيفة حتى تجردها منها جميعها، فتصبح هي لغة الكتابة، وتقذف بلغة الكتابة القديمة في زوايا اللغات الميتة. وهذا هو ما انتهى إليه أمر اللاتينية مع لغات المحادثة بفرنسا وإيطاليا ورومانيا وإسبانيا والبرتغال.

فما أشبه لغة الكتابة الجامدة، في حالات كهذه، بجبل ثلج ثابت على سطح البحر؛ ولغات المحادثة المتطورة بالتيارات المائية التي تموج من تحته. فهمها طال بقاء هذا الثلج، فإن مصيره إلى التحطم والذوبان، وحينئذ تطفو تلك التيارات إلى سطح البحر، وتعيد إليه ما كان مستوراً تحت هذا الجيل الجامد من مظاهر النشاط والحياة: (سنة الله التي قد خلت في عباده ولن تجد لسنة الله تبديلا).

علي عبد الواحد وافي
ليسانسيه ودكتور في الآداب من جامعة السربون

الحضارة المتبرجة

للأستاذ محمود محمد شاكر

أعطيت هذه الحضارة الأوربية الحديثة أعظم روح من الفن كان في الأرض من لدن آدم إلى يوم الناس هذا. وهذه الروح الفنية - على سموِّها في بعض نواحيها إلى غاية ما يتسامى إليه الخيال الفني - تتساقط وتتدنى وتنحدر من جوانبها إلى أدنأ ما يبتذل من الفن العامي المثير لأشأم الغرائز الحيوانية في الإنسان. وبهذه الرُّوح الفنية عالجت الحضارة الأوربية مشكلة الحياة السريعة الدائبة المثقلة بأعباء العمل، فاتخذت لكل مَلَل راحة واستجماماً بلغت بهما غاية اللذة الفنية، تلك اللذة التي تجعل الأعصاب المجهدة إذا أوت إليها كأنما تأوي إلى بيت ذي رونق وزخرف وعطر وضوء يغمغم ألحاناً من الفن الموسيقي، فإذا بلغته استنامت بإجهادها على حشايا الخز والديباج، نعومة ولينا ترسل في الأعصاب لذة تمسح الجهد حتى يسكن ويخف ثم يتبدد.

وكانت المرأة هي فنَّ الفنِّ للإنسانية، وهي الشاطئ الوادع لبحر الحياة المتموج، وكانت الظل الرطيب في بيداء موقدة تحت أشعة الشمس المحرقة. وكانت هي السكن للقلب المسافر دائماً في طلب أسباب العيش والحياة. فجاء فن المدنية الحديثة فجعل الشاطئ بحراً آخر يموج موجاً فنياً مغرياً يجعل السباحة المجهدة فيه ضرباً من الراحة، وتركت الظل الرطيب حرارة مستعرة تحرق، ولكنها تحرق بلذة، وفرشت السكن حتى مدته طريقاً بعيداً مترامياً يسافر فيه القلب سفراً بعيداً في أحلام وفتنة وجديد لا يتقادم.

وبدأت المرأة بدأها لتجعل الحضارة فناً جديداً من تجميل الحياة للمكدودين. ثم جاءت الحرب الماضية، فخرجت المرأة من وطيسها المتوقد قد استوت ولذّت وطابت، وتجدّدت عقلاً وروحاً وجمالاً، وشاركت أسباب الحضارة في إيجاد حل جديد لمشكلة الإنسان العامل المنطلق في أعماله بسرعة وكدٍّ وإرهاق وعناء، فاتخذت فن العقل السامي عبداً تصرِّفه في إنشاء لذات الحياة إنشاءً عبقرياً تخشع لسطانه النفس خشوعاً راضياً، ثم تمشى في جنّاته: تأبى أن تجد راحتها إلا راحة فيها ذلك السحر الناعم الرقيق الفاتن، الذي يصنعه بنان مؤنث يقول للأشياء: كوني جميلة، فتكون.
وأعطت العين للمرأة أشواقها المستبدة، وزّينت المرأة للعين متاعها المتجدد، فاستيقظت
الغرائز كلها من هزة الأشواق وحب الاستمتاع، وانحدرتْ في دم الرجل قطرات الفتنة المؤنَّثة، وسطعت في كيانه كله نفحات العطر المعربد، وألقت المرأة ظلها على كل شيء ألواناً تتخايل بالفن المنسَّق البديع، وصبغتْ كل شيء في حلاوة أنوثتها، حتى لم يبق للرجولة ولا للإنسانية هوىً في الحياة إلا وهو من المرأة وإلى المرأة وفي سبيل المرأة.
وصارت المرأة هي المحور الذي تدور عليه الإنسانية في تلك الشهوات الضارية التي تنزع منازعها في حياة الإنسان باقتدار وقسر، وسار العالم كله على ذلك حتى ما يُحس ذو شعور أنه يعمل من أجل المرأة، مع أنه ما يعمل عامل إلا من أجلها. فهو في نشوة متصلة لا تنقطع في عمله، لأن الغرائز المنتشية هي التي تحكم وتصرّف، وبذلك لم يبق له من الفكر ما يستطيع به في هذا الأمر أن يتبين حقيقة التيار المسكر الذي يتدافع به في حياته.
أصبحت الحضارة الأوربية بعد ذلك فناً جميلاً يتوالى فيه زخرف الحسن مبعثراً ومنتظماً، لأن الأعمال كلها قد احتملتها إرادة واحدة، هي إرادة جعل الحياة أجمل مما هي لتكون أمتع للعين والقلب والنفس والغريزة، ومع إسقاط مطالب الروح السامية المتحررة من استعباد الشهوات.
ومن عجيب تصريف القدر في الحياة أن يجعل أعظم شيء فيها هو أقل الأشياء حظاً من الحياة، فالروح التي هي أعظم ما وجد في الحياة، ترجع في غمرة اللذات والشهوات وأمواج الغريزة الطاغية، أقل ما وجد في الحياة، حتى ما يكون لها نصيب منها إلا ذلك الجو الأغبر القائم في عزلة موحشة، بعيدة عن تحقيق لذاتها الروحانية الحلوة التي تبقى حلاوتها خالدة في الهرم بعد الشباب، وفي العجز بعد القدرة، وفي السكون بعد لحركة، وفي الموت بعد الحياة. وتقف الروح متغضنة جافة متكسرة تنظر نظرة متألمة إلى ما يصيب الإنسان من اللذات الطارفة الطارئة التي تتحول في نار الشهوات رماداً بعد توقد واشتعال.
فاعتزال الروح في هذه المدنية الأوربية قد جعل العالم يعيش ليحترق بأسرع ما يمكن أن يحترق، وهذا هو العلة في امتياز هذه المدنية بالسرعة والنشاط والتوقد، واحتمالها متاعب الجهد المضني في سبيل استغلال أقصى ما يستطيع الإنسان من الإنتاج في العمل، ثم امتيازها بنظام الطبقات الذي تجهد جهدها أن تستره بتلك الزينة الفنية العلمية الظاهرة، لئلا يكون معنى ذلك أن المدنية تريد أن ترتد بالناس إلى الحالة الطبيعية الوحشية اللئيمة التي
ينتجها اجتماع همجي مستبد لا يعقل، وإنما يكون فيه اللذة التي تسكر العقل، والظلم الذي يثير العقل، والأثرة التي تطغى العقل.
وجاء اشتراك المرأة اشتراكاً عملياً في الحياة الأوربية العامة ليقذف الروح بعيداً عن عزلتها، ويدني غريزة تشتاق إلى غريزة تشوق، فكذلك بدأت الأنظمة الأدبية والاقتصادية والمدنية تخضع لسطان الأشواق وحدها دون سلطان الروح والعقل، وسلطان الأشواق هو الذي يكون غرضه دائماً أن يضيق ويتخصص وينفرد بأسباب شوقه، وسلطان الروح والعقل هو الذي يتراحب ويشمل ويعم ويوجد المساواة بين الناس، مهما لقي من العنت والقسوة والمشقة في وضع النظام الذي يريد أن يجعل به الناس أحراراً في قيود من الإنسانية السامية المترفعة عن الذل كما تترفع عن بغي السطوة، والتي تستنكر العبودية الخاضعة كما تستنكر الحرية الفوضى، والتي تأبى تحكم طبقة في طبقة كما تأبى ثورة طبقة على طبقة.

ولكن تبرج الحضارة الأوربية في ذلك الخَلق الجميل الفتان ذي الحيلة والفتنة والسحر الذي يعيش في صورة الأنثى، قسر هذه المدنية على الخضوع لسطوة الشوق المتمرّد، فقام النظام كله على هوى واحد إلى المرأة. فالعامل الذي يعمل يريد أن يستغل الحياة بين يديه لا ليعيش ويعيش معه أهله وبنوه وتلك الدولة الصغيرة التي تسمى البيت، بل هو يعمل ليجد أولاً تلك اللذة الحاكمة الممتعة التي يستمتع بها في ظل تلك الدولة العظيمة التي تسمى المرأة.

وإذا بدأت الطبقة العاملة من الشعب تجد حوافز أعمالها في شيء بعينه، كانت كل أعماله من الأدنى إلى الأعلى لا تجد في أعمالها إلا هذا الحافز الواحد، وإذا تشابهت الحوافز تشابهت الغايات، وما يفترق هذا عن ذاك إلا بأن لكل شيء أسلوباً، ومهما اختلفت الأساليب في هذا فلن تختلف في الدلالة إلا بمقدار الأصل العملي الذي يوجب هذا الاختلاف.

والمكان الذي نصت عليه عروس النفس الإنسانية في هذه المدنية الحديثة، وهو الحافز وهو الغاية، ولذلك تجد هذه المدنية قد تبرجت لأبنائها تبرج الفن العبقري الحافل بأسباب التحكم المستمر في أعمال كل حي. ولما كانت هذه الحوافز على تعددها إنما هي في

الحقيقة اختصاص فردي لكل واحد من الناس - لأن اللذة لا تقبل الشركة والتعدد - ولكل اختصاص عيب هو الأثرة، والإصرار على التفرد، ومعاندة الناس بعضهم بعضاً في سبيل هذا التفرد - وقع التضارب والتعادي والانتقاض في كل عمل، وصار ما يبني لا يكاد يتم حتى يلقاه ما يهدمه، وبذلك كان نظام هذه الحضارة مع روعة ما يبنى يقابله نظام آخر في الهدم والتدمير، يخيف هذا بقدر ما يروع ذاك.

ولولا هذا التبرج الفاجر في هذه المدنية، ولولا هذه الشهوات التي انطلقت ترشف من مسكرات الفن المتبرج، ولولا هذه الغرائز الجامحة في طلب السيطرة لإدراك غاية اللذة، لما كان النظام الاقتصادي الحاضر في هذه المدنية هكذا مهدِّماً مستعبداً مستأثراً باغياً، ولما تعاندت القوى الدولية هذا التعاند الذي أفضى بالعالم إلى الحرب الماضية ثم إلى هذه الحرب المتلهبة من حولنا اليوم؛ وذلك في مدى خمسة وعشرين عاماً، لم يستجمع العالم خلالها قوته، ول يتألف ما تفرق، إلا ليضيع قوته مرة أخرى ويتفرّق.

إن الحضارة في هذه السنوات التي تبعث الحرب الماضية كانت ترفه عن المكدودين بالعمل ترفيهها الحُلو الغني المتبرّج لتعطي القُوى العاملة نشاطاً جديداً من النشوة، أي من الحالة التي يفقد فيها العقل والروح قدرتهما على التحكم في نظام الحياة. وأقدمت المرأة الأوربية إقدامَها الجريء فجلبت زينتها من كل خيال ومن كل فن ومن كل سحر، لتعين الحضارة على الحياة والبقاء في هذا الجوّ الذي اختارته وعملت له. وكان هذا الإقدام ضرورة طبيعية للمقدمات التي سبقت عصر الحرب الماضية، ثم للحرب نفسها. فإن المرأة التي فقدت زوجها، والفتاة التي أضلت حبيبها، والبنت التي أضاعتْ قَيِّمها من أب أو أخ أو عم،. . . وبقيت في موج الحياة حَيرى متلَدّدة، لم تجد بدَّاً من الإقدام على الطريق المجهول بجرأة واندفاع وتهور، فلما أوضعتْ في الطريق المجهول وأسرعت خطاها جرى العالم وراءها يطالبها؛ فلم تجد بدّاً من أن تأخذ منه أكثر ما تستطيع لتجتلب لزينتها أحسن ما تستطيع، وتطارد الصيدُ للصائد في كل وجه حتى اصطدام العالم كله هذا الاصطدام الهائل الذي لا يدري إلى أين ينتهي ولا كيف ينتهي.

وستخرج المرأة من هذه الحرب أيضاً كثيرة فاتنة حائرة لا تجد أباها ولا زوجها ولا أخاها ولا حبيبها، وستكون في عينيها تلك النظرة الحزينة الضارعة التي تقول لك: أنقذني أنقذني!! أنا وحدي، لا أجد من يعولني! وسينظر العالم الجديد إلى هذه المرأة بالرحمة والعطف والحنان، كما نظر للّواتي كنّ بعد الحرب الماضية. وستعمل المرأة يومئذ لتكتسب الرجل في كل وجه، ثم لا تلبث أن توجد من بقايا العالم المتحطم سحراً جديداً لمدنية ساحرة، وبذلك يرتد العالم إلى النظام الاقتصادي الفاجر المبني على اللذة وطلبها والبحث عنها، فتكون أنظمته كلها قائمة على الاستبداد والفجور في الاستبداد.

ويومئذ يبدأ تحقيق نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم في أشراط الساعة وما

يكون في أعقاب الدهر، إذ (يرفع العلم، ويكثر الجهل، ويكثر الزنا، ويكثر شرب الخمر، ويقل الرجال، ويكثر النساء حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد)، وحتى (ترى الرجل الواحد يتبعه أربعون امرأة يلذن به). وما يكون ذلك إلا يوم يتحقق للحياة المعنى الفني المحض الذي لا يعرف قاعدة اجتماعية يحرص على تحقيقها للاجتماع، والذي يرى الحرية انطلاقاً من قيد الأخلاق التي تقسره على مصلحة الجامعة دون لذة الفرد، وتتبرج الحياة تبرجاً هائلاً يجعل العقل غريزة جديدة تشتهي، والروح خلقاً منبوذاً حائراً يطوف على هذه الفتن كما يطوف الصعلوك على مائدة ملكية. ويومئذ يرفع العلم لأنه سيُستعبَدُ في إيجاد اللذات، وتفارقه الروح النبيلة التي لا يكون العلم إلا بها علماً، ولا يبقى في الأرض إلا الجهل الأحمق الذي لا يعرف إلا السيطرة بحماقة، والأثرة بكلب، وتكون المرأة هـ علم الحياة الجديدة الذي يمزق الرجولة القليلة في جذب الشهوات العنيفة، ويغرق الفضيلة في طوفان المتعة الجميلة التي تبعث في الأعصاب المجهدة نشوة مسكرة.

محمود محمد شاكر

محل الحضارة العربية

للدكتور جواد علي

هل هنالك حضارة عالمية اشترك في تكوينها جميع أفراد البشر على اختلاف إشكالهم وأجناسهم؟ أم هل هنالك حضارات مختلفة لكل حضارة ميزة وعقلية تمثل عقلية الجيل أو الأمة؟ أم هل هنالك حضارة واحدة تغذي العالم كله وتشع عليه كما تشع الشمس على الأرض؟ تلك نظريات مختلفة تمثل نزعات علمية وسياسية متضاربة وغايات متباينة. غير أن الرأي السائد اليوم بيم جمهور المؤرخين ومنقبي تأريخ الحضارة هو أن هنالك تفاوتاً بين البشر، كما أن هنالك تفاوتاً بين الحيوان أو النبات، وأن الحضارة التي هي إنتاج البشر العقلي تختلف لذلك تبعاً لاختلاف المجموعات البشرية، وهذه النظرية على طرفي نقيض مع نظرية (1744 - 1803)، ونظرية التطور التاريخي للفيلسوف (1770 - 1831)، ونظرية (الإنسانيين) وأتباع الكنيسة من المؤرخين.

والمسألة لم تقف عند هذا الحد مع ذلك بين أصحاب نظرية تعدد الحضارات، إذ أن من بين هؤلاء من يدين بفكرة تأثر الحضارات بعضها ببعض، كما هي نظرية الفيلسوف الألماني - مؤسس (دار الحكمة) في مدينة الألمانية والمستشرق وجمهور من المستشرقين، كما أن هناك مثل الفيلسوف من يقول بتعدد الحضارات مع وجود نفسية خاصة لكل حضارة، أو استقلال تام كما هو رأي الفيلسوف

أما أصحاب فكرة وجود حضارة واحدة هي سبب هذا التطور العالمي والتقدم البشري المطرد فهم أصحاب العواطف المتطرفون من الأوربيين كالفرنسي رينان في محاضراته التي ألقاها في عام 1883 في كتابه تاريخ الحضارة السامية وكرافر كوبينو والنازيين الألمان وفاشست إيطاليا. ولكن معظم أصحاب هذه النظرية هم أناس ليسوا ذوي اختصاص في الموضوع ولا دراسة ناتجة عن استقراء علمي محدود، بل هم من ذوي الطريقة الفلسفية العامة التي تحاول الإلمام بكل شيء وتضع القوانين حسب وقواعد رأتها صالحة لذلك. والحضارة العربية في نظر هؤلاء حضارة سطحية ظاهرية أنتجتها عقلية آرية ومنابع يونانية فارسية هندية غوطية. وحيثما وجد الإنسان ظاهرة من ظواهر الحضارة في البلاد العربية فلا بد من إرجاعها على عقلية آرية وإنتاج غير سامي. ودوزنبرك الدكتاتور

النازي للشؤون الثقافية الذي لم يسلم إلا بالزخارف المعروفة باسم يحاول الحط من قدر هذه، فيجعلها تمثل عقلية ساذجة لا غير.

غير أن النظريات لا قيمة لها أبداً إن لم تدعم بالنصوص والبراهين، كما أن الاستشهاد بحادثة أو رواية لا يتخذ حجة للحكم به على أمة. وإني أستطيع أن أجعل من الأمة الجرمانية أمة همجية بربرية مادية خاملة لم تنهض إلا أخيراً، كان يحاول زعماؤها إيقاظها، بالاستناد إلى النصوص الجرمانية نفسها المجموعة في المصادر والمنابع عن التأريخ الجرماني. ويستطيع كل مؤرخ أن يفعل ذلك في تاريخ أي أمة كانت ولا سيما إن كانت أمة ضعيفة في وقته منحطة. وأستطيع أن أقول إن الأمة العربية لو كانت في الوقت الحاضر قوية لكانت النظرية على العكس تماماً. وفي المصادر والنقوش الأثرية

ما يبرهن على أن وضع حدود وحواجز بين حضارة وحضارة ومحاولة عزل الحضارات بعضها عن بعض أمر غير ممكن. حتى في المسائل الروحية تتأثر الأمم بعضها ببعض.
فمحاولة كتابة تاريخ أوربي فقط لا تنجح تماماً إن لم يتطرق المؤرخ في بحثه إلى الحضارة الإسلامية، كما أن محاولة كتابة تاريخ عربي مجرد عن ذكر أي تأثير للحضارة الغربية محاولة فاشلة غير علمية.
ولو درس التاريخ العربي كما يدرس التاريخ بجميع فروعه في الجامعات لأوربية، أو لو انصرف المؤرخون إلى دراسة النصوص الأوربية على العلاقات بين أوربا والشرق الأدنى لتغيرت نظرية أصحاب العزلة تماماً. وهناك مؤثرات أثرت تأثيراً شديداً من جانب العرب ليست في الحياة المادية بل في الحياة الروحية الأوربية التي هي من أصعب الأشياء لما بين العقليتين من فروق. ومن أمثلة ذلك الشعر في القرون الوسطى وظهور نوع جديد منه هو الشعر الغزلي على الطريقة الشرقية والروايات العربية والتصوف الذي أطلق عليه اسم (التصوف الألماني) وكان زعماؤه يجيدون اللغة العربية ودرسوا وترجموا الكتب إلى اللغة اللاتينية.
وقد غير كثير من أصحاب نظرية (الشرق شرق والغرب غرب) نظريتهم حين توغلوا في البلاد العربية وجابوا البلاد الأفريقية، وتوصل بعضهم إلى أن الحضارة العربية تعود إلى الحضارة الأوربية لا الحضارة الأسيوية، وأن السيد أمير علي المسلم الهندي أقرب جداً إلى
أوربا عقلاً وثقافة من الفيلسوف طاغور الأسيوي فكراً وعقلاً. كما لاحظ الأوربيون الذين ذهبوا إلى السودان وأعالي النيل أن التفاهم مع المصريين المسلمين كان يزداد يوماً فيوماً كلما تقرب هؤلاء من العالم الأسود، وكذلك كان الحال في نواحي أفريقية الأخرى. كما لاحظ المستشرقون أن اللغات الهندية الأوربية تتقارب مع السامية جداً بالنظر إلى اللغة السودانية أو لغة البانتو مثلاً. وقد ظهر أن الأتراك أقرب إلى أوربا عقلياً من اليابان، مع أن اليابان هي في مدنيتها أوربية محضة، ولكنها في حضارتها أسيوية محضة، وقد جعلوا سبب ذلك تأثير الحضارة الإسلامية. وأغرب من ذلك هو أن القبائل الأفريقية أو قبائل الهند الهولندية حينما تسلم تسرع إلى لبس الملابس وإلى التقرب من الأوربيين أكثر من الوثنيين الابتدائيين. وهذه المسألة كانت من أهم المسائل التي درستها الحكومة الألمانية قبل الحرب لتعيين سياستها تجاه الإسلام.
يرجع بيكر ذلك إلى الأصول التي تتألف منها كل من الحضارتين الأوربية والعربية، فبينما نجد الحضارة اليونانية الرومانية والحضارة المسيحية والحياة اليومية الأوربية هي الأسس التي تكون الحضارة الأوربية نرى الحضارة العربية متأثرة بالعاملين الأولين مضافاً إليهما العقلية السامية الخاصة، وهذا هو سبب التقارب الموجود بين الحضارتين ولكن ذلك لا يعني أن الحضارة العربية مشتقة أو هي جزء من الحضارة الأوربية، بل هي وسيلة بين الحضارة الأوربية والحضارة الأسيوية لها مميزاتها الخاصة ومثلها العليا، ونظرتها العالمية.
هنالك حضارة كما أن هنالك مدنية، ومن الخطأ عدم التفريق بينهما، كما أن من الخطأ تفضيل حضارة على حضارة بصورة مطلقة دون قيد أو شرط، إذ أن كل الحضارة تمثل نفسية خاصة هي وليدة عوامل مختلفة، ومن الخطأ كذلك أن تتكلم عن حضارة أوربية بصورة عامة، إذ أن بين شعوب أوربا من البون الشاسع كما في شعوب البلقان ما لا يسوغ لنا إطلاق هذا التعبير. كما أن من الخطأ نكران الحضارات الأخرى، ولدينا أمثلة من الحياة اليومية لا تنكر.
جواد علي
خريج جامعة هامبرك بألمانيا
للنقد الخالص
من عجائب الفهم. . .؟!
للأستاذ زكي طليمات
مفتش شؤون التمثيل بوزارة المعارف
للنقد الأدبي اليوم في مصر حركة ونشاط، وكأن الأدب في مصر، وقد تأثر بالهزة العنيفة التي أنزلتها الحرب القائمة بالنظم والأوضاع في حياة العالم بأسره. يختلج اليوم اختلاجات عنيفة ويتحوى وينقبض شأن كل كائن يتهيأ لحركة عنيفة، أو يتحفز

لوثبة قادمة.
والحرب والنقد شيء واحد، فالحرب - كما قرر بعض علماء الاجتماع - وقفة تقفها الإنسانية تراجع فيها نظمها وما كانت عليه، لتتدارك ما (تضخم) من طفيلات المذاهب، وتفتح عروقها لتتفصد بما طغى عليها من الأوشاب والفضول، والنقد في طبيعته ووسائله ومقاصده لا يختلف عن هذا.
وقيام هذه الحركة النقدية في مصر اليوم جدير بالاهتمام حري بالتأمل، يبعث الارتياح في نفس كل تواق إلى أن يرى الأدب في مصر يقتحم مناطق جديدة من النشاط الذهني، ويعمل على أن يتخلص من علله وأمراضه. فالنقد شاهد على حيوية الأدب، وفيه ما ينهض دليلاً على أن الذهن يتطلع، ويؤمل، ويراجع، ويتبصر، وينصب الميزان الصحيح.
وآخر ما قرأناه في هذا الموضوع نقد بعنوان (من عجائب الاجتهاد) بإمضاء (ناقد أديب)، تناول في نقده هذا مسرحية (مفرق الطريق) للدكتور بشر فارس.
و (مفرق الطريق) مسرحية أخرجها مؤلفها إلى الناس منذ عامين قدوَّت في عالم التأليف المصري دوِّيا واسعاً، دفع الأقلام إلى تناولها بين مادح ومستغرب، وكانت (الرسالة) الغراء معرضاً لما دبجته هذه الأقلام، وقد كان لي سهم في الكتابة عن هذه المسرحية، فبسطت دقائقها، وكشفت عن مفاتنها الحفية، وبينت أصالتها في الرمزية المستحدثة، وقررت جدتها في عالم التأليف المصري للمسرحية.
قرأت نقد (الناقد الأديب) وكان أول ما عجبت له أن يخرج ذلك المقال متأخراً، بعد أن مضى على ظهور المسرحية أكثر من عامين، وبعد أن خبت النار التي اشتعلت حولها.
عجبت لهذا ثم عجبت لما هو آخذ من هذا. . . مما يصح أن يقف القارئ عليه خلال مطالعة مقالي هذا ليشاطرني عجبي، ولينتهي إلى ما انتهيت إليه.
يزعم (الناقد الأديب) أن الفكرة التي تقوم عليها (مفرق الطريق) توافق في جوهرها فكرة فلسفية أوردها (الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد) في قصيدة له عنوانها (القمة الباردة) ويحاول تأييد زعمه هذا بإيراد جمل وألفاظ غير مفهومة، مقتطعة عمداً من المقدمة التي قدم بها الأستاذ العقاد قصيدته، ومن التوطئة التي مهَّد بها الدكتور بشر فارس لمسرحيته، عبارات ملتقطة في تعسف واقتضاب يجعلها تحتمل وجوهاً من التأويل اللفظي فقط، قد ينغلق معها المعنى الصريح، فتنبعث شكوك القارئ. وكأن (الناقد الأديب) ينسى أو هو يتناسى أنه لا يجوز الحكم في قضية بإيراد بعض ألفاظها المنسلخة عن قصد مرسوم.
ما هي الفكرة الفلسفية التي تقوم عليها قصيدة القمة الباردة؟
إلى القارئ نص تقديم القصيدة كما أورده الأستاذ العقاد:
للجبال قمة باردة تعلوها الثلوج، وللمعرفة كذلك قمة باردة تفتر عندها الحياة. فإذا) نظر الإنسان إلى حقائق الأشياء لم ير شيئاً ولم يشعر بشيء، لأن حقيقتها كلها ذرات ترجع إلى حركة متشابهة في كل ذرة، فخير له ألا ينظر إلى الحقائق كل النظر، ولا يعرض عن الظواهر كل الإعراض، لأن الحيَّ لا يعرف الدنيا إلا بالظواهر التي تقع عليها الحواس وتدركها البديهة، فإذا تجاوز ذلك فقد ارتفع من المعرفة إلى قمتها الباردة (التي لا يشعر فيها بحياة
وجاءت القصيدة بعد ذلك، وأبياتها في وصف هذه القمة:
هنالك لا الشمسُ دوّارَةٌ ... ولا الأرض ناقصةٌ زائدة
ويا بؤس فانٍ يرى ما بدا ... من الكون بالنظرة الخالدة
فذلك رب بلا قدرة ... وحَيٌّ له جثة هامدة
إلى الغور، أمّا ثلوج الذري ... فلا خير فيها ولا فائدة
والمقصود بثلوج الذرى: حياة الفكر المجرد، والمقصود بالغور حياة الفكر العملي وهكذا نرى أن القصيدة، تقديماً وشعراً، ما هي إلا عرض وتحليل لمذهب من مذاهب المعرفة. ومسألة المعرفة تتعلق بالفلسفة العامة أو ما وراء الطبيعة، بل إن هذا المذهب
الفلسفي بالذات هو مذهب مشهور وصاحبه الفيلسوف الألماني (كانت الذي قيد الوصول إلى اليقين بنظرية (النسبية أو (المقيسة) القائمة على تحديد إدراك العالم الخارجي، وهو ينفي أن تستطيع الحواس إدراك العالم الخارجي، وهو ينفي أن تستطيع

الحواس إدراك الأمور المطلقة أو الحقائق في ذاتها، فالمعرفة في نظر (كانت نسبية وظاهرة، قوامها الفهم أو البديهة، وأدواتها الحواس؛ فالفكر يُلبس المعرفة شكلها دون المادة، وأما المادة نفسها فهي فوق إدراكنا وإن كانت موجودة حقاً.
وهذا ما فسره الأستاذ العقاد بالذات في مقدمته بقوله: (لأن الحي لا يعرف الدنيا إلا بالظواهر التي تقع عليها الحواس وتدركها البديهة)!
وأما ما وراء ذلك من طلب المعرفة - وطريقة الكفر المجرد الخالص من فعل الحواس - فيلقي بالمرء في قمة لا متسع فيها لعمل الفكر، خارجة عن الحياة (لا الشمس هنالك دوَّارة، ولا الأرض ناقصة زائدة) فإذا المرء: (ربٌ بلا قدرة، وحيّ له جثة هامدة)
وخير للمرء أن ينزل إلى الغور، أي إلى الأخذ بظواهر الدنيا ليستطيع أن يلمسها ويدركها، فيحيا على قدر ما ركب فيه من إدراك وفهم.
هذا ما أراد قوله أستاذنا الكبير العقاد، وهو من أحسن الشعر وأجوده وأبعده معنى.
وبين هذا المذهب وما نزع إليه في بعض مسرحياته (هنريك إبسن) زعيم المسرحية الحديثة وشائج قربى ونسب، ومن درس (إبسن) يعرف (قممه المثلوجة) أو قممه الباردة.
ولا لوم ولا تثريب على أستاذنا العقاد أن يورد قصيدة من شعره تحمل في طياتها نزعات فلسفيه لمدرسة معروفة. فليس كل شاعر أو أديب مهما نبه ذكره وعلا شأنه بصاحب مدرسة في الفلسفة والأدب الذي تجفوه لمسات المذاهب الفلسفية الرفيعة هزيل في كيانه قريب في معانيه. وإنه لأمر مقبول - بل وواجب - أن يعتنق الكاتب والفنان مذهباً من المذاهب الفلسفية الرفيعة؛ وهذه هي حالة كبار الأدباء في أوربا، فالكاتب ويلز من الآخذين بفلسفة النشوء والارتقاء كما بيَّن ذلك الأستاذ (على أدهم) في عدد قريب من أعداد (الثقافة)؛ و (بيراندللو) متأثر بأعمال (فرويد) وكذلك (ليوتورمان) و (أندريه جيد)
ولنر الآن ماذا أراد أن يقرره بشر فارس في مسرحية: (مفرق الطريق) تقوم هذه المسرحية على معالجة حالة نفسية غامضة، أو على تعقيد نفس كما يقول علماء النفس اليوم، مُفادُها: المرأة التي يجذبها الحب وتخاف منه، والرجل الذي يريد الحب ولا يعرف قدره، ثم الرجل الذي يريده ولا يستحقه. وهذه قضية من قضايا النفس البشرية، لا علاقة لها بالمسائل الفلسفية الصرفة اللاحقة بنظرية المعرفة واليقين، وما يدخل في باب ما وراء الطبيعة الذي أورده الأستاذ العقاد في قصيدته، ومرده إلى فلسفة (كانت)
والمذهب الذي نزع إليه بشر فارس في مسرحيته، قد بسطه في توطئة مسرحيته بسطاً محكماً، إذ قرر أنه آخذ بالطريقة الرمزية فلسفة وأدباً وفناً، فقال في صحيفة 6: (وليست الرمزية ههنا بموقوفة على الرمز بشيء إلى شيء آخر، ولكنها فوق هذا استنباط ما وراء الحس من المحسوس، وإبراز المضمر، وتدوين اللوامع والبواده بإهمال العالم المتناسق، المتواضع عليه، المختلق اختلافاً يكد أذهاننا، طلباً للعالم الحقيقي الذي نضطرب فيه، رضينا أو لم نرض، عالم الوجدان المشرق والنشاط الكامن والجماد المتأهب للتحرك، إلى ما يجري بينها من العلاقات الغريبة والإضافات التائهة في منعطفات الروح ومثاني المادة، يشترك في كشفها الإحساس الدفين والإدراك الصرف والتخيل المنسرح)
فالمذهب الفلسفي عند بشر فارس غير المذهب الفلسفي عند الأستاذ العقاد.
مذهبه النزول إلى ظواهر الدنيا والاطمئنان إليها من غير أن يهمل الحقائق كل (العقاد) الإهمال، و (بشر فارس) مذهبه الاعتماد على البصيرة والإحساس الدقيق والإدراك الصرف مع إهمال ظواهر العالم وطلب خفاياه وبواطنه، وهذا من المذهب الباطني أو التصوفي، وهو مذهب معروف عند أفلاطون وبلوطنيوس والمتصوفة على أشكالها، وقد أحكم أمره أخيراً الفيلسوف الفرنسي (برجسون وأيدته تجارب عدد من العلماء والأطباء فيما يتعلق بالعقل الباطن. وقد أسهبت في تبين هذا المذهب في المناقشة التي دارت بيني وبين بشر فارس نفسه في (الرسالة) منذ عامين.
وقد أحدثت آراء (برجسون) بدورها تيارات واسعة تأثر بها كثير من الكتاب، وأحدثت

نوعاً من أنواع الشعر الرمزي في فرنسا.
فأين بصيرة (برجسون) التي أخذ عنها بشر فارس في معالجته قضية من قضايا النفس البشرية، وذلك في مسرحية (مفرق الطريق)، من المسائل الفلسفية الصرفة اللاحقة بنظرية المعرفة واليقين للفيلسوف (كانت التي تأثر بها الأستاذ العقاد في قصيدته (القمة الباردة)؟
إذن يكون حقاً من عجائب الفهم أن يتهم (الناقد الأديب) بشر فارس بأنه أخذ مسرحيته هذه من تلك القصيدة.
ويكون أيضاً من عجائب الفهم ومدهشاته أن يلج (الناقد الأديب) في اتهامه هذا، محاولاً أن يقيم الشواهد على ما ذهب إليه، فإذا هو يتعسف، بل هو يغالط ولا يبالي أن يحرف المسائل عن مواضعها، فقال إن في قصيدة العقاد يعيش العقل متجرداً من الشعور في عالم ثلجي لا يشعر فيه بحياة. فأين ورد هذا في قصيدة العقاد وتقديمها؟؟
كذلك أورد (الناقد الأديب) ألفاظاً كالعقل والشعور والثلج، وقد غاب عن ذهنه أن الثلج عند (العقاد) رمز إلى ابتعاد المرء عن ظواهر الدنيا وتقربه من الحقائق وتمسكه بالفكر المجرد. هذا في حين أن (الثلج) عند بشر فارس، رمز إلى خلاص النفس من ألم الإحساس البشري.
وتورط (الناقد الأديب) فيما هو أدهى من هذا، وهو يحاول أن يقرب مسرحية (مفرق الطريق) من قصيدة (القمة الباردة) للعقاد فنسب تصميم رسم غلاف المسرحية إلى بشر فارس نفسه، والواقع أن صاحبة الرسم فنانة باريسية اسمها (سوزان جوفروا) كما هو موضح في الصفحة الأولى من المسرحية المطبوعة. وقد شرح المؤلف وضع المسرح في (التبيين) الذي صنعه للمسرحية (ص 140) مشيراً إلى رمز الغلاف، ولم ترد في تبيينه كلمة (قمة) ولا (غور)
بعد هذا يأتي اتهام آخر له وزن فيقول (الأديب الناقد) إن الصراع (بين العقل والشعور) وهو مما ورد في مسرحية بشر فارس، منقول بإطاره من قصيدة للشاعر علي محمود طه المهندس عنوانها (قلبي)
والرد على هذا أن الصراع بين العقل والشعور حقيقة من حقائق النفس البشرية، فهي عامة ومبذولة لكل كاتب، وما نعرف كاتباً أو شاعراً - إلا فيما ندر - لم يبن على هذه الفكر بعض مؤلفاته. وإلى القارئ أعمال (راسين) الفرنسي و (شكسبير) مثلاً شاهدة على ذلك. وما (الشاعر المهندس) إلا واحد ممن أخذوا بهذه الفكرة العامة. وستبقى هذه الفكرة، كما كانت دائماً، معيناً يأخذ منه الكتاب ما دامت النفس البشرية لم تتغير، وما دام الكتاب يعنون بتسجيل خفايا هذه النفس.
وإن صح ما ذهب إليه (الناقد الأديب) في هذا الصدد، يكون الأستاذ الكبير توفيق الحكيم الذي أقام مسرحيته الرفيعة (شهرزاد) على فكرة الصراع بين المادة والروح قد سلخ هذه الفكرة ممن سبقه إليها في الأدب العالمي ويكون الحال كذلك في مسرحيات (إبسن وشكسبير وبيراندللو) الذي أقاموا مؤلفاتهم على حقائق النفس البشرية.
إن المعاني والفكر والمتداولة أشياء يشترك فيها جميع الناس فهي دوارة في نفس الجاهل والسوقي، والمتعلم والأديب، وإنما العبرة بطرائق معالجتها وبالكسى التي تضفي عليها من حيث حسن التأليف وجودة التركيب والابتداع، والنفس المبتكرة الخلاق، وهنا مجال التفاوت بإبراز الشخصية الكاملة المستقلة؟ ومن هنا يتأتى الخلود الذي يتوج أعمال الشعراء والكتاب والفنانين.
زكي طليمات
الحرب في أسبوع
للأستاذ فوزي الشتوي
البلقان
تجتاز الحرب الآن فترة هدنة قصيرة، تنتظر فيها الأداة الحربية نتيجة المباحثات السياسية، فهي فترة صراع عقلي قاس، يتناول خريطة العالم بأجمعها، فالمباحثات السياسية دائرة في روما وبرلين وطوكيو ولندن وموسكو ووشنجطن، وتتناول موضوعاتها مستقبل الدول في العالم القديم والجديد.
ولكن أبرز هذه المباحثات وأكثرها جذباً لأنظار العالم ما يدور حول البلقان، تلك البقعة

التي تنبأ لها العالم قبل أن تنشب الحرب بأنها ستكون مسرح نضال عنيف؛ ودامت الحرب عشرة شهور والبلقان تترقب ما تكشف عنه الأيام والحوادث. فهل تكشف الحوادث الأخيرة عن مصير (نصف دستة) من الدول؟ وهل ينتقل ميدان الحرب إليها أم تتولاها يد الاتفاقات السياسية بالبتر والترقيع؟

هذه أسئلة لا تسهل الإجابة عنها، فالسياسة تلد كل غريب، والمناورات الحربية تخلق المتناقضات، ولا نستطيع أن نجزم إذا كانت المناورات السياسية الحالية مناورات عسكرية يقصد بها شغل الرأي العام عن حركة عسكرية تعد، أم أنها مباحثات سياسية فعلاً؛ فالحرب الآن لا تقتصر على البندقية والمدفع ولكنها تمتد إلى الحالة المعنوية للشعوب.

نصيب الأسد

وعلى أية حال، فالبلقان الآن في كفه القدر، تتطاحن من أجلها دول أوربا الدكتاتورية علناً، وإن كانت تذيع في الوقت نفسه أنها متفقة كل الاتفاق، وقد تتفق سياسياً كما قالت الأنباء البرقية ولكنه سيكون اتفاق الإكراه، لأن الروسيا سواء اتفقت أم لم تتفق ستخرج من الغنيمة (بنصيب الأسد)، وستضطر إيطاليا إلى ابتلاع أمانيها والتخلي عن أطماعها التي طالما رددها موسوليني، وسترغم ألمانيا على نسيان وعودها. فالموقف الآن غير ما كان من سنة، فقد رق الآن قناع ستالين وبانت من خلفه أنياب أقسى مما كان موسوليني وهتلر يظنان، وأصبح لروسيا وحدها تقرير مصير تلك الدول.

أما إنجلترا فيبدو للناس أنها تتفرج، وربما كان هذا صحيحاً، فالانتظار في مثل هذه الأحوال أصلح من التسرع، لتكشف كل من هذه الدول عن نياتها، حتى يتاح لإنجلترا أن تعمل، وعندئذ تضرب ضربتها في الصميم؛ فقد تأخرت دول البلقان في العمل، وكما نادى ساسة الإنجليز باتحاد تلك الدول، ولكنها ظنت سلامها في الحياد وتمسكت به، إلى أن حانت اللحظة التي صار الحياد فيها انتحاراً، وأصبح اتحادها قليل القيمة، بعد زوال القوة العسكرية الفرنسية من الميدان، وبعدما فرغ الجيش الألماني من أعمال البرية، واستتب له الأمر في ميدان أوربا الغربي، فأصبح جزء كبير من وحداته مطلق السراح.

وبرغم الأحداث الأخيرة ما زالت مصالح إنجلترا في البلقان راجحة، وما زالت تركيا واليونان مواليتين لها، ووقفت يوجوسلافيا صامتة.

رنين النقود

وما كادت الروسيا تستولي على بسارابيا وشمال بكوفينيا حتى هبت (بلغاريا) و (هنغاريا) تطالبان بنصيبهما؛ الأولى تطالب بترانسلفانيا، والثانية تطالب بدوبروجة؛ فقد صبرتا طويلاً وضحتها كثيراً، وهما في معاملاتهما تحدوهما غاية واحدة تنطبق على مثل بلغاري يقول: (إن أحب الموسيقى إليَّ هو رنين النقود التي تملأ كيسي)

فهل ملأت معاملات ألمانيا مع هاتين الدولتين في الفترة الماضية كيسهما نقوداً؟ الحقيقة أن الفترة الماضية كانت فترة تضحية من جانب الدولتين، فكانتا تقدمان لألمانيا محصولات بلادهما مقابل بعض المنتجات الألمانية الناقصة أو القليلة القيمة، وكانتا ترسلان إليها المواد الغذائية وتستوردان مدافع تنقصها الذخيرة، وآلات كاتبة أو أدوات تصوير، فقد تحفظت ألمانيا في تسليح هاتين الدولتين حتى لا تكونا خطراً يهددها إذا حانت ساعة الفصل.

وهاهما تان الآن تطالبان بالثمن، ولا شك أن الفترة الحالية أحسن فترة تتاح لهاتين الدولتين لمواجهة ألمانيا التي من مصلحتها أن يستقر السلام في مخزن مئونتها في البلقان، فرومانيا متأثرة بصدمة الروسيا وألمانيا تريد التفرغ لإنجلترا ولا تريد شغل نفسها في ميدانين، والروسيا متحفزة لتنفيذ خططها غير مقيدة باتفاق أو تعهد إلا مصلحتها الخاصة.

وتنتهز الروسيا - كما شاهدنا حتى الآن - الفرص للعمل فتترك الدول تتطاحن حتى إذا قررت عملاً سبقتها إلى الحصول على ما تريد وتضعها أمام الأمر الواقع، وأهم أغراض الروسيا في البلقان أولاً: الاستيلاء على آبار البترول في رومانيا، وثانياً: الوصول إلى مضيقي البوسفور والدردنيل كما قلنا من قبل، ونجاحها في الحصول على هذه الأغراض رهن بالظروف التي تعدها الدول المتطاحنة.

نصيب إيطاليا

وانحط مركز إيطاليا في التطاحن الحالي، فبعد أن كان لها صوت مسموع ومركز محترم في البلقان أصبحت كلمتها ثانوية ومن قبيل الاستشارة فحسب، إذ أصبحت تابعة لهتلر تستمد من خططه خططها، واضطرتها ظروف الحرب الحالية إلى الخضوع للخطط الألمانية خضوعاً تاماً.

وقبل أن تنغمر إيطاليا في سياسة المحور كانت ذات أطماع كبيرة، ولم يكن استيلاؤها على ألبانيا إلا خطوة لاعتبارها هي من دول البلقان، فمن ألبانيا فتح أمامها الطريق إلى بلاد اليونان ويوجوسلافيا، فضلاً عن أنها أتمت سيطرتها على بحر الأديارتيك ووضعت منافذ يوجوسلافيا البحرية تحت سطلتها، فإن مضيق أترنتو لا يتجاوز طوله40 ميلاً يسهل أقفاله بالألغام أو السيطرة على منبع مائه بالمدافع الساحلية.

ويرجع اهتمام إيطاليا بالبلقان على ما قبل الحرب الماضية، فكانت المنافسة بينها وبين الإمبراطورية على أشدها في البلقان وخصوصاً في ألبانيا؛ فأنشأت كل منهما عدة مدارس لنشر ثقافتها في تلك البلاد، وكانتا تتنافسان في جذب الطلبة إلى معاهدهما فتقدمان لهما الملابس والغذاء مجاناً، وكانت كل منهما تحرص على عدم إغضاب الطلبة وتوقيع العقوبة القاسية عليهم حتى لا ينتقلوا إلى مدارس الأخرى.

ولسياسة إيطاليا القديمة يفضلها البلقانيون على ألمانيا ولكن ضعف إيطاليا الحالي واعتمادها على ألمانيا دفعا بالدول البلقانية إلى الارتماء في أحضان ألمانيا لحمايتهم من أطماع الروسيين.

ولا نستطيع أن نجزم الآن بما سينتج من المحادثات الدبلوماسية التي تدور الآن، ولكنه من الواضح أن الدولتين اللتين تسعيان لسيطرتهما على دول البلقان هما الروسيا وألمانيا، فرومانيا تستغيث بألمانيا وتقدم لها فروض الطاعة، وتسير لها التجارة أملاً في حمايتها، ولإيجاد مصالح قوية تحتم على ألمانيا الدفاع عنها.

ولا نعتقد أن أنباء الاتفاق الأخير بين رومانيا من ناحية والمجر وبلغاريا من الناحية الأخرى على إعطاء الدولتين الأخيرتين بعض ما تطمعان فيه في رومانيا اتفاقاً نهائياً، فهو كما يبدو لنا مجرد تهدئة أعصاب لا يلبث أن يمحى عندما تضع الحرب أوزارها، لأن معناه أن تخرج ألمانيا من البلقان صفر اليدين وهذا ما لا ترضاه، إذ من الراجح أن تكون يوجوسلافيا من نصيب إيطاليا بحكم قربها منها ولطول سواحلها على بحر الإدرياتيك مما يهدد سيادة إيطاليا البحرية في الصميم؛ والغالب أن تنقض ألمانيا هذه الاتفاقات عندما تسنح لها الفرصة لتحقق أطماعها في البلقان سواء بالسيطرة التجارية أو العسكرية.

فرنسا تعتنق الهتلرية

نعم فرنسا التي كانت تدين منذ عهد الثورة الفرنسية بمبادئ الحرية والمساواة والإخاء، تقبر الآن الحرية والمساواة والإخاء لتقلد الهتلرية، فينادي قادتها بالديكتاتورية ويدعون إلى ترك المبادئ التي طالما كانت تضئ للعالم سبل المدينة والتقدم، لترجع إلى مبادئ القبيلة، لتقدس الأسرة بعدما كانت تقدس العالمية، وتعمل للفرد بعدما كانت تعمل للعالم، فتنكمش مثلها العليا من التعميم إلى التخصيص، وتنحصر أفكارها فبعد ما كانت تقود العالم بآراء مفكريها، ومبادئ أهلها، تزول عنها الصبغة الدولية لتحل محلها صبغة الأسرة.

وسبقتها ألمانيا في هذا السبيل من قبل، وفي مثل ظروف الهزيمة واليأس التي تعانيها فرنسا الآن، ولكن ألمانيا في عهد غليوم الثاني كانت أقرب إلى الدكتاتورية منها إلى الديمقراطية؛ تكونت في عهد ولهلم الأول وبسمارك دولة حديثة العهد لم تتم وحدتها إلا بعد حرب الأمم، فلم يتعاقب على وحدتها جيلان حينما حلت بها كارثة الحرب العظمى، ولم يشعر أهلها حتى ذلك الوقت بثقل وطأة النظام الفردي، فلم يقدموا المبادئ الديمقراطية ما قدمت فرنسا من ضحايا، ولم يحطموا من مظاهر الظلم والجور ما حطم الفرنسيون في سجن الباستيل، ولم تمر بهم خطوات التقلب من الملكية المطلقة، إلى حكومة الإدارة، إلى الإمبراطورية إلى الجمهورية.

لم تتقلب ألمانيا المتحدة في تجارب أنوع الحكم من جمهورية وإمبراطورية كما تقلبت فرنسا، فلم يتول حكم ألمانيا إلا عاهلان فتيسر لو لهلم الأول بناء وحدتها، وجاء غليوم الثاني فكان نكبة عليها، وظل الاتحاد الجرماني طول عهده بالحياة في ظل الحرب

وللاحتفاظ بالوحدة، ولم يفكر أهله تفكيراً جدياً في نظام الحكم الملائم.

تقليد غير موفق

فهل ينطبق هذا على فرنسا التي عاشت القرون الطويلة متحدة تجرب ألوان الحكم من فردية مطلقة، إلى فردية مقيدة، إلى حكومة شعبية؟ وهل يستطيع الفرنسي أن ينزع من قلبه حب الحرية ليعيش مقيد الحرية، محصور التفكير، تعد عليه أنفاسه وتفرض عليه تصرفاته كما يريد هتلر ونصيره بتان؟

كلا. إن حب الحرية في دم كل فرنسي، فإذا شغلته النكبة الحالية عن مبادئه، فلن يلبث أن يعود إلى رشده ويذكر حريته عندما تستقر الحال، فالصدمة الحالية لن تسلب الفرنسي الحقوق التي سطرها بدمه، فهو الآن في نوبة من الغيبوبة التي تزول عندما تزول الصدمة.

وهذه المظاهر التي أعلنها المارشال بتان إنما هي تقليد أعمى يخالف الثقافة الفرنسية، ويتنافر مع طريقة المعيشة الفرنسية، ولعل الدافع للمارشال بتان على هذا التقليد ما يراه من تشابه بين حال فرنسا الآن وحال ألمانيا عقب الحرب الكبرى، من انهيار استقلال أمته وتغير أقيسة المعيشة فيها؛ فإذا كانت هذه نظرته، فقد فاته ما بين الشعبين من اختلاف في التقدير والحالة العامة.

فقد خرجت ألمانيا من الحرب الكبرى بعد نضال دام أربع سنوات أكل الأخضر واليابس؛ فأنهكت موارد البلاد حتى عم الجوع وتضخم النقد حتى فقد قيمته الشرائية، وأصبحت ألمانيا في حالة إفلاس، وانتشرت البطالة والشيوعية بين الشعب، فلم يجد الناس عملاً يكتسبون الرزق من ورائه، وظهرت الفتن والثورات.

تشغيل العاطلين

في هذه الظروف برز هتلر فوزع الوعود ما وسعه الكلام، وما سمحت به الاستعارات؛ وكان الشعب في حالة اضطراب، لا يصدق أنه خسر الحرب بعدما بذل من جهد ومال، فقال لهم: ما جذبهم إليه إذ اتهم اليهود بأنهم سبب خسارة الحرب بما نسجوا من دسائس ومؤامرات.

وزاد على ذلك أن استدرج الشعب فجعل من حزبه مكتباً لتشغيل العاطلين، وعلى هذا الأساس بنى حزبه، متوسلاً إلى تحقيق برنامجه باضطهاد اليهود وفصلهم وإحلال الألمان محلهم، وبتكوين فرق مقاتلة تحمي المصانع الكبيرة من جهة، وتكره أصحاب الأعمال على إطاعته من جهة ثانية.

فهل هذه حال فرنسا الآن؟ هل عمت البطالة فرنسا وانهار نقدها وجاع أهلها؟ إن فترة الحرب كانت قصيرة فلم تمهد لهذه الأحداث؛ وفرنسا دولة قليلة السكان لم يشك أهلها كما شكى العالم من أزمة البطالة الحادة في السنوات الماضية.

استقرار الحكم

فليس للشعب الفرنسي من الأسباب ما يدفعه إلى كره مبادئه والسخط عليها، وإذا كانت هناك أخطاء فهي أخطاء القادة من أمثال بتان؛ أضف إلى ذلك أن نصر ألمانيا لم يتم، وما زالت إنجلترا في الميدان، وما زال دي جول يمثل الشعب الفرنسي، وفي نصر إنجلترا خلاص فرنسا من كارثتها الحالية.

فتجربة بيتان تجربة وقتية لن تلبث أن تزول، لأنها لا تقوم على أسس صحيحة، ولم يبلغ يأس الشعب الفرنسي حده ليترك مبادئه السامية ويشايع الهتلرية؛ وإن كانت هناك أخطاء في عدم استقرار الحكم.

فليحاول هتلر أن يقلب رجال الحكم ويضع مكانهم رجالاً نازيين، وليحاول بيتان أن يجاريه في تنفيذ هذه السياسة ما وسعته المجاراة فإن فرنسا لم تصدم الصدمات التي تنسي شعبها حبه للحرية والمبادئ التي ضحى من أجلها.

فوزي الشتوي

بكالوريوس في الصحافة

من نار الوطن

يا (مصر) . . .

يا أنشودة الدنيا . . .!

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

ناداكِ مَجْدُكِ فاسْتَجيبي! ... وامشي لهُ فَوْقَ اللَّهيبِ!

وَتَجَشَّمِي لِعُلاَهُ نِيرانَ الشَّدَائِدِ والْخُطوبِ
وَثِبي لَهُ أَيَّانَ شَا ... ءَ، وَلَوْ عَلَى كَبِدِ الْغُيُوبِ
صَفًّا مِنَ الأَبْطالِ يَزْ ... حَفُ تَحْتَ أَلْوِيَةِ الْقُلُوبِ
نَشْوَانَ يَهْزَأُ بالْمَنا ... يا الْحُمْرِ في الْيَوْمِ الْعصِيبِ
وَيُزَلْزِلُ الْأيام إِنْ ... لَقِيْتَهُ عَادِيَةُ الْكُرُوبِ. . .
هُبِّي كَطَاغِيَة الرِّيا ... حِ، وَنَوْرَة الْبَحْرِ الْغَضُوبِ
يا (مِصْرُ) قَدْ دَوَّى النَّفِي ... رُعَلَى ضِفاقِكِ فاسْتَجِيبي
واسْتَنْهِضي النُّوَّامَ في ... زَمَنِ التَّحَفُّزِ والوُثوبِ
زَمَنٍ نَرَى الدُّنيا بهِ ... سَبَّاحَةً بِدَمٍ صَبيبِ
والدَّهْرَ مِثْلَ سَريرَةٍ ... نَاءتْ بِأَعْبَاءِ الذُّنوبِ
غَشِّتْ عَلَى أَرْجَائِها ... ظُلَمُ التَّشَكُّكِ والرُّيوبِ
والشَّرُّ، والْقَلَقُ المُفَزِّ ... عُ لِلْمَضَاجَعَ وَالْجُنُوبِ!
والأَرْضَ مِثْلَ سفِينَةٍ ... رَعْنَاَء في يَمٍ قَطوبِ
حَيْرَى تَضَلِّلُها الرِّيا ... حُ عن الْمَسَالِكِ وَالدُّرُوبِ
في الشَّرْق، في الْغَرب الْمُرَوَّ ... ع، في الشَّمال، وفي الْجَنوبِ
لَيْلٌ تَرِصَّدَ أُفْقَها الدَّا ... جِي بإِعْصارٍ رَهِيبِ
ورَديً يَقولُ لها: أَتِمْ ... تِ فأَقْبِلي عِنْدِي وَثُوبي
هاتي الدَّمَ الْمَسْفُوكَ مِ ... نْكِ وَأَتْرِعي قَدَحي وَكُوبي!
فَمضَتْ تَحبَّطُ في الْقَتا ... مِ بِحَيْرَةِ الطِّفْلِ الْغَريبِ
رُبَّانُها (عِزْرِيلُ) فانٍ ... ظرْ هَوْلَ مَصْرَعِها الْعَجِيبِ!
يا (مِصْرُ) حَوْلَكِ مِرْجَلٌ ال ... آفَاقِ مُضْطرِمُ الشُّبوبِ
ريحُ الحُروب عليه في الدُّن ... يَا مُجَلْجَلَةُ الْهُبوبِ
مَعْتُوهَةُ الْخُطواتِ تَعْ ... صِفُ بالخَصيبِ وَبالْجَديبِ
هَبَّتْ وَشَمْسُ الْعَصْرِ في ... سِرْبالِ بَهْجَتِها القَشيبِ
فإذا بها أَشْلاَءُ لَ ... يْلٍ فاجِعِ الرُّؤْيا كَئِيبِ
حَفَرَتْ له قبْرَ الحضا ... رَةِ فِتْنَةُ الْعَقل الْمَريبِ!!
يا (مِصْرُ) يا أُنشودَةَ الدُّ ... نيا وَأُغْنِيَةَ الشُّعوبِ
يا أم أبطال الفُتُو ... نِ وَأُمَّ أَبْطال الْحُروبِ
يا أَرْغُنَ التَّاريخ، يا ... نَغَما مِنَ السِّحْرِ الْمَهيبِ
يا جَنَّةً تَهْتَزُّ بال ... أَسْرار بَيْنَ شَذىً وَطِيبِ
مَنْ كلِّ مُعْجِزَةٍ يَنُو ... ءُ بَوحْيَها قَلَمُ الْغُيُوبِ
وَتَمِيلُ عَنْها حَكْمَةُ الْكُ ... هَّانِ شَلاَّء الدَّبيبِ. . .
وَالسَّحْرَ تُفْزِعُهُ طَلا ... سِمُها فَيُمْعِنُ في الْهُروبِ
وَالشَّمْسُ تخْشَعُ في ثَرا ... ها في الشُّروقِ وفي الغُروبِ
آثارُ قَوْمٍ أذهلوا الدُّ ... نيا بِفَنِّهِمُ العَجِيبِ
وَبما أَفاءُوا من طَلا ... لِ الْمُلْكِ وَالْمَجْدِ الرَّحِيبِ
وَبما بَنَوْا لِلنِّيل مِنْ ... عِزٍّ بِمَوْجَتِهِ خَضيبِ. . .
النِّيلُ! مِرْآةُ النُّجو ... مِ وَكهْفُ عَالَمِها الرَّهِيبِ!
بَلْ قِصَّةُ الشَّمْسِ التي ... تَسْلُو بها شَجَنَ الْمَشِيبِ
وَتُذيبُ أَحْزَانَ الأشَّعِ ... ةِ فَوْقَها عِنْدَ الْمَغِيبِ. . .
وَقَصِيدةُ الشَّرْقِ الْمُعَطَّ ... رَةُ المطَهِّرَةُ الطُّيوبِ
جَمعَتْ عَلَى أَنْغامِها ... شَتَّى مُنًى وَأَسَى قُلُوبِ
وَتَنَفَّسَتْ بالحُبِّ بَيْ ... نَ شَذَى رُبىً وَهَوَى شُعُوبِ
النِّيلُ! غَابُ الفاتِحي ... نَ الصَّيدِ غِيلانِ الحُروبِ!
يا خَيْلَ (رَمْسيسَ) اصْهَلِي ... وَبِجَيْشِكِ العاتي أَهِيبِي
قُومِي اذكُري أَهْوَالَ جُنْ ... دِكِ فَوْقَ نيرانَ السُّهوُبِ. . .
يا سَيْف (إبراهيم) عَدْ ... فَوْقَ الْحِمَى أَمْضَي خَطِيبِ
فالْيَوْم يَوْمُكَ يا حَدِ ... يدُ، وَيَوْمُ فُرْسَانُ اللَّهيبِ
يَوْمُ الْجِبَالْ الرَّاجِفا ... تِ مِنَ المَنَاياَ وَالْكُرَوبِ

. . .يَوْمٌ جَهَنَّمُ لَوْ رَأَتْ ... هُ لَرَاعَها هَوْلُ الْوَحِيبِ
فَقَفِي لَهُ يا (مِصْرُ) واصْ ... طَرِعي بِأَرزَاءِ الْخُطُوبِ
ضُمِّي يَدَيْكِ عَلَى الْجِرَا ... حِ وَأَلِّفِي بَيْنَ الْقُلُوبِ!
وامْشي عَلَى الْبَأْسَاءِ سَا ... خِرَةً بِأَهْوالِ الْحُرُوبِ
وامْضي. . . فَتَاجُكِ فِي السَّمَ ... اءِ مَنَارَةُ الْوَطَنِ الْحَبيبِ
يا كَعْبَةَ الأَحْرَارِ رَنَّ ... هُتّافُ شَاعِرِكِ الطَّرُوبِ
(وَدَعَاكِ مَجْدُكِ فاسْتَجِيبي ... وامْشي لَهُ فَوْقَ اللَّهيبِ)
(يا (مِصْرُ) يا أُنْشُودَةَ الدُّنْ ... يا وَأُغْنِيَةَ الشُّعُوبِ!!)
(القاهرة)
محمود حسن إسماعيل
مراقبة الثقافة - بالمعارف
هذا العالم المجنون
للأستاذ يوسف أسعد
إلى السَّلم يُدعى فلا يسمعُ ... ويُعطي الكثير فلا يقنعُ
وتأبى سياستُه أن تعفَّ ... ففي كل غنمٍ لها مطمع
تدبُّ دبيب الكرى في الجفون ... ومن خلفها عقرب تلسع
وتصحو على الدَّم ظمأى إليه ... وبالدَّم تحلم إذ تهجع
فلا قيمة عندها للعهود ... ولا رحمة بالورى تشفع
ومن ألفِت نفسه الموبقات ... فهيهات عن غيّه يرجع
لذا كان عدّته في الحياة ... وشاغلَه (التنك) والمِدفع
فللحرب أزواجها الأمهات ... وأرحامهنَّ وما تدفَع
وللحرب ما يُنتج الزارعون ... وللحرب ما يُخرج المصنع
ومن بعدُ فليُنكب الأبرياء ... وتُنتزَع الهامُ والأذرع
ويكتسح الخوف دُور الأمان ... فلا يستقرُّ بها مضجع
علا الأرضَ في الجوّ فوق الخضم ... ومن تحت أسلحةٌ شُرَّع
جنونٌ فشا في جميع الجهات ... فلم يخلُ من شرِّهِ موضع
وما ضاقت الأرض بالساكنين ... ولا غاض من رزقها منبع
ولو سبر الناس غور الأمور ... لما فاتهم أيُّها الأنفع
ولكنها نزوةُ الفاتحين ... طغى جارفاً سيلُها المترَع
فظيع من الناس سفك الدماء ... وإصرارهم حدَث أفظع
وشرُّ الخلائق حوت يعبُّ ... من البحر عبّاً ولا ينقع
وأفقدهم للشعور بصير ... يمرُّ على الدَّم لا يخشع
فيا مذكياً نارها في الضلوع ... وما لك في نارها إصبع
إذا شَبع الوَحشُ عفَّت يداه ... وبالضدِّ وحشك إذ يشبع
ستدري فظاعة ما قد جنيت ... متى سكن العاصف الزعزع
(المنصورة)
يوسف أسعد
البلبل
(مهداة إلى نجيّ (البلبل) الأستاذ حسين عفيف)
للأستاذ حسن كامل الصيرفي
بَلُبُلَ الوادي اسْتَفِقْ فالدِّ ... يكُ قد نَبَّهَ فَجْرَكْ
الربيعُ الطَّلْقُ قد آ ... بِ وما بارَحْتَ وَكْرَك
والرِّياضُ الغِينُ قد أطْ ... لَعْنَ للفِتنةِ زَهْرَك
وحَمامَاتُ الحِمَى ين ... قلْنَ للأنسامِ شِعْرَك
والنسيمُ العَذْبُ قد أف ... شى إلى العالَمِ سِرَّك
عِطْرُكَ الحُبُّ. . . فَصُبَّ ال ... آن في الأرواحِ عِطْرَك!
بلبلَ الوادي تنَبَّهْ. . .! ... لِمَ لا تُطْرِبُ صُبْحَك؟
قُمْ إلى الدَّوْحِ وَغَرِّدْ ... فَلَكَمْ هَدْهَدْتَ دَوْحَك
قمْ إليه فَخُيوطُ الشم ... سِ قد داهَمْنَ صَرْحَك

غَرِّد الآن فقد أَسْ ... لَمْتَ للأَصداءِ نَوْحَك
بَلَسَمُ الأيام يا بل ... بلُ قد مَرْهَمَ جُرْحَك
فعَلاَمَ الصمتُ والحزْ ... نُ ووجهُ الأرض يَضْحَك؟
الربيعُ الطَّلْقُ قد آ ... بَ، ولَكِنِّي مَهِيضُ
لم يَضِقْ وَكْرِي وقد ضا ... ق بيَ الكَوْنُ العريض
جَدْوَلُ الرحمةِ فيه ... أَوْشَكَ الآن يَغيض
نَضَبَتْ فيه الأماني ... بعد أن كانت تَفيض
إنَّ في الوَكْرِ هَناءا ... تٍ يُلاشيها النُّهوض
أنا إن غَرَّدْتُ أو نَوَّ ... حْتَ لن يَغْنَي القَريض
الربيعُ الطَّلْقُ قد آ ... بَ فَمَنْ لي بربيعي؟!
بَسَمَاتُ النُّورِ في عَيْ ... نَيَّ وارَتْها دموعي
وظِلاَلُ الراحةِ السَّمْ ... حَةِ مالت عن رُبوعي
وَنَهاة الطيرِ قد غَصَّ ... تْ بِمُهْرَاقِ النَّجيعِ
فدعوني صامتاً أَدْ ... فِنُ فِي الصَّمْتِ نزوعي
ما الربيعُ الحقُّ إلاّ ... جَفَقَاتٌ فِي الضُّلوعِ!
حسن كامل الصيرفي
رسالة الفن
متفرقات
للأستاذ عزيز أحمد فهمي
من أيام الفاروق
احتفلت مصر يوم الاثنين الماضي بالعيد الدستوري للملك فاروق
وللملك فارق فضل على الفنون الجميلة فيما له من أفضال على سائر نواحي الحياة في مصر. ومن أنصع أياديه البيض على الفن تشجيعه للتمثيل والشعر تشجيعاً ملحوظاً رائعاً.
وإني أسجل بالفخر لجلالته عدة حوادث لها دلالاتها المسعدة التي تنتعش بها نفوس الفنانين.
أما الحادثة الأولى فقد كانت يوم وقف الفاروق في مقصورته بعد ختام الفصل الأخير من رواية (لو كنت حيلوة) التي مثلتها أمام جلالته فرقة الريحاني في دار الأوبرا، فقال جلالته لشعب الريحاني الذي هو من شعبه: (أرجو أن تكونوا جميعاً قد أفدتم من هذه الرواية ما يجب أن يفاد منها). . .
وقد كانت هذه الرواية تصور أخلاق نظار الأوقاف، وبلايا المستحقين في الأوقاف، كما كانت تعرض إلى جانب هذا ألواناً من الدس الشنيع والتآمر الخاطئ في ثوب مكروه بغيض. . .
فكان لكلام جلالته على أثر هذه الرواية معنى، وكان من هذا المعنى أن جلالته يحب من شعبه أن يعدل إذا حكم، وأن يزن الحق بقسطاس الله، وألا يطلب الحق إلا طلباً صريحاً لأن الحق لا يطلب إلا صراحة، والدس والتآمر للزور.
وكان لهذه الحادثة بعد ذلك معنى آخر، وهو إعجاب جلالته بفرقة الريحاني، وهي الفرقة التي ظلت تعمل السنوات الطوال في صبر واجتهاد كانت تنتزع بهما صفوة المصريين نفراً نفراً وهم متحرجون من الاعتراف بالتفوق الفني (لكشكش) لا لشيء يحرجهم إلا أنه (كشكش) وليس (عطيلا) ولا (هملت)
ولكن بعد كلمة الملك رفع (كشكش) رأسه بالحق
وأما الحادثة الثانية فقد كانت تمثل فيها فرقة أنصار التمثيل والسينما رواية نسيت اسمها ولكن أذكر أن موضوعها كان يدور حول الصدق، وأن أبطالها التزموا الصدق فيها يوماً من أيام المسرح. . . وبين فصلين من فصول هذه الرواية تشرف الأستاذ سليمان نجيب بالمثول بين يدي الملك فسأله جلالته: (هل تستطيع أن تقول لي وأنت بطل من أبطال الصدق اليوم من هو الذي يصلح لأن يحكم مصر؟) فأجاب الأستاذ سليمان نجيب بقوله: (هو الرجل الذي تختارونه جلالتكم). . . وهي إجابة مؤدبة من الأستاذ سليمان نجيب، ولكن جلالة الملك كان غير شك يريد في ساعة الصدق هذه أن يسمع رأي رجل من الرجال المنتسبين إلى الفن، والفن هو أصدق الصادقين، وقد

شرفه الملك بتوجيه هذا السؤال إليه ولكن ممثل الفن الذي تلقى هذا السؤال كان مؤدباً.

وأما الحادثة الثالثة فقد كانت في حفلة من حفلات الجمعية الخيرية، وقد ألقى في هذه الحفلة الشاعر النابغة محمود حسن إسماعيل قصيدة، فدعاه جلالته إلى مقصورته وحياه ولاطفه، وكان محمود إذ ذاك لا يزال يتسلق المجد بمشقة وتعب، فلما ظهر بإعجاب المليك به قفز إلى القمة ولم يعد شاعر في مصر يستطيع اليوم أن يطاوله.

من هذه الحوادث تستطيع أن نقول إن لجلالة الفاروق فضلاً على الفن فيما له من أفضال، فهو راعيه وهو موئله.

الدكتور أدهم

اللهم ارحم الدكتور أدهم، فقد كان يريد أن يعرفك، وكان يريد أن يصل إليك، ولكنه ضل الطريق، وكفاه شقاء أنه قتل نفسه حين ضل.

وقصة الدكتور أدهم مأساة قد يحسن عندها الصمت الحزين ولكني أوثر أن أقول فيها كلمة لأنها فرصة مناسبة - وإن كانت مؤلمة - يمكن أن تقال فيها كلمة من كلمات الإيمان والرضا.

مما هو ملحوظ أن أغلب الذين ينتحرون علماء ومفكرون يجرهم العلم والتفكير إلى الإلحاد.

ومما هو ملحوظ كذلك أن أغلب الفنانين يشقون في حياتهم شقاء مريراً ومع هذا فهم لا ينتحرون وإنما يصبرون، ويعيشون، ويحتملون ولا يشكون.

ومما هو معروف ثابت إلى جانب هذا وذاك أن الموت ضد الحياة، وأنه لا حي يطلب لنفسه الموت.

هذه الحقائق كل منها مرئي على انفراد، فإذا أطلقنا بعضها على بعض استطعنا أن نقول إن الفن يورث الإيمان والحياة، وإن من العلم ما قتل كما يقول الأستاذ بشارة الخوري.

فلماذا؟

الواقع أن هذا يرجع إلى أن الفنان يرى بالتجربة أنه لا ينتج شيئاً يروقه هو ويعجبه إلا على عجز منه، لا تدبير له فيه ولا إرادة. ومن هذا يتعلم الفنان أنه في هذه الدنيا مرزوق يعطيه الله ما يريد، ومحروم يمنع الله عنه ما يشاء. وبهذا العلم يعيش الفنان ويصبر ويشيخ وهو يرجو السعادة وينتظرها، بل إنه لينعمن بالسعادة في أرذل أوقات الشقاء، تلك الأوقات التي يراها الناس شقاء، والتي يستشف الفنان فيها من لطف الله وكرمه وإحسانه ما لا يستشف غيره ممن ربطوا عقولهم على صنوف خاصة من الحاجات والنعم فهم لا يرون غيرها، ولا يرضون من غيرها، بينما الحياة المجردة نعمة.

أما رجال العقل والفكر - العقل الأوربي والفكر الأمريكاني - فأولئك الذين يكرهون الحياة لأنهم يحرصون تفكيرهم في نوع خاص من الحقائق المجردة يريدون أن يعوها وعياً منطقياً معقولاً بينما هي أعز من أن ينالها هذا الوعي، وبينما هي تتطلب ممن يحب أن يصل إليها أن يعزز عقله إذا ارتقى بخلق مرتق، وبأفعال مرتقية، وبحياة ينسجم فيها الارتقاء الإنساني من كل نواحيه. وبهذا فقط تستطيع النفس أن تصل إلى الحقائق العليا.

والعجيب أننا حين نحدث أصحاب العقل والفكر هؤلاء بمثل هذا الحديث يقولون لنا: وما دخل الأخلاق والعبادات التي لا نعدها إلا شعوذات في الوصول إلى الحقائق المجردة؛ وأذكى ذكي منهم يسألنا قائلاً: هل يلزم أن أكون رجلاً فاضلاً كي أعرف أن المغناطيس يجذب الحديد، وأن الأرض تدور دورة كاملة في اليوم، وأن لها قمراً واحداً بينما لزحل أو عطارد أكثر من قمر. . .؟!

وجوابنا على هذا الذكي الأذكى هو أن الشر إذا لم يكن يؤذي نفس صانعه فإنه يؤذي نفس من يقع عليه، فهو إذن شيء تكرهه النفس، وهو إذن عدو لها، فيجب على النفس التي تريد أن تعرف نفسها أن تتخلص أولاً من هذا الذي تكرهه، عدوها الكامن فيها. . .

وبعدئذ حين تعرف النفس نفسها. . . وترى نفسها. . . تستطيع أن تسأل: من أين هي؟ وإلى أين هي؟ وستعرف أنها من الله وأنها إليه راجعة، كما عرف ذلك كل مؤمن، وكل

. . .فنان ألهمه الله فنه. وبعد أن تعرف النفس نفسها تستطيع أن تعرف غيرها
رحم الله الدكتور أدهم مرة أخرى
وإني أعود فأنتهز هذه الفرصة لأنصح شبابنا الحائر وراء المعرفة بألا يغتر بعقله، وبأن يعتمد في المعرفة على خلقه كما يعتمد على تفكيره.
اللهم وفقنا جميعاً، واللهم ارحمنا جميعاً. . . يا أرحم الراحمين يا رب. . . هداك
هل هو انتقام؟
الأستاذ عزيز عيد من أشد الناس صبراً على المكاره، فهو في أوقات المحنة لا يشكو، ولا يكفر بالله، ولا يتملق أحداً، وإنما ينتظر، ويظل ينتظر حتى يأتيه فرج الله من حيث لا يحتسب أو من حيث يحتسب.
ولكن ليس معنى هذا أننا إذا كنا نملك إسعاد الأستاذ عزيز عيد أن نمسك عنه ما نستطيع أن نقدمه إليه لا لشيء إلا لأنه قوي النفس صلب الكرامة.
لقد سمعت أن الأستاذ عزيزاً يفكر في أن يؤلف فرقة صغيرة يمثل بها في الاستراحات التي تتخلل الروايات في دور السينما.
وهذا عمل كان يقوم به الفقير حسن بك، كما كانت تقوم به فرقة الحلو البهلوانية وغيرها، وإذا أقبل الأستاذ عزيز عيد على عمل كهذا فإنه لن يقوم به إلا لأنه رأى مجال الفن قد ضاق عنه.
فهل صحيح أن مجال الفن قد ضاق في مصر عن عزيز عيد، وفي مصر فرقة قومية ترعاها الحكومة وتنفق عليها؟
إن هذا يكون صحيحاً إذا كان أقل فرد من أفراد هذه الفرقة له دراية فنية، وتجربة مسرحية تفوق ما للأستاذ عيد
فهل تستطيع الفرقة القوية أن تدعي هذا؟
إن كل ما يعيب الأستاذ عزيز عيد هو شدة طموحه الفني، فهو لم يخرج من الفرقة القومية في هذه المرة إلا لأنهم عهدوا إليه بإخراج (مجنون ليلى) فأراد أن يكرمها، وطلب من
الفرقة أن تنفق عليها نفقات رأتها هي باهظة فأمسكت عن إنفاقها.
ولقد كان من الممكن أن تقف المسألة عند هذا الحد، ولكنهم شاءوا في الفرقة القومية أن يشعلوا عزيزاً فلم يعتذروا له بالفقر وإنما سخفوا فكرته، فتحمس هو لها، فاتسعت شقة الخلاف بينهما، فانفصل الأستاذ عن عمله
وإني أتجه الآن بهذه الكلمة للشاعر الفنان الأستاذ خليل بك مطران. ولا أريد أن أزيد. . .
عزيز أحمد فهمي
-
رسالة العلم
الوضع الحقيقي لمشكلة
جابر بن حيان
للأستاذ أحمد زكي صالح
تقرير الأستاذ رسكا
يتساءل الأستاذ رسكا: كيف وأين نظمت وألفت هذه الكتب المنسوبة إلى جابر؟ هل هي أعمال فرد واحد أم من أعمال مدرسة؟ هل حدث تأليفها وتطوره وتقدمها في مدى وقت قصير أم انتشر على بساط قرن كامل؟ كل هذه أسئلة لا زالت أجوبتها غامضة، بل قل لا زالت غارقة في بحر من الغموض والإبهام.
وتلك النصوص التي نشرت بإشراف الأستاذ هوداس لا تكفي تماماً كي نصدر حكما صحيحاً على مميزات أدب جابر بن حيان الكيميائي.
ويجب أن أعترف أن (كتاب الرحمة) بمحاوراته المضحكة بين جابر بم حيان وجعفر الصادق ما هو في الحقيقة إلا قصة ملفقة، و (كتاب الملك) يفشي سر نفسه بنفسه حينما يرجع أصله إلى جعفر الصادق، وبعض النتائج يمكن استنتاجها في شأن (كتاب الموازين) لأنه عنوانات بعض أعمال أرسطو في المنطق التي ابتدأت معرفة العالم الإسلامي لها بعد أواخر القرن التاسع من الميلاد. ولكن إذا سلمنا بصحة نقد هذه الكتب الثلاثة، فهل يؤثر هذا بقليل أو كثير في المشكلة ككل؟ وبالأحرى هل يمكن أن

نفصل المؤلفات الكيميائية مسلمين بأنها من عمل جابر عن قائمة الفهرست الثانية؟
أليس من المعقول أن مؤلف الكتب الكيميائية ينتمي إلى زمن وإلى بيئة مدرسية يختلفان كل الاختلاف عن هؤلاء الذين ألفوا الكتب الطبية والفنية والرياضية والإلهية؟
من الجلي الواضح أن ذلك الذي يستطيع الأخذ بيدنا إنما هو البحث خلال المخطوطات التي عثر عليها أخيراً، وإني لموفق إذ استطعت الحصول بمساعدة الأستاذ ماكس مايرهف لا على صورة للنصوص العربية للسبعين كتاباً التي ذكرها ابن النديم فحسب، بل أيضاً على بعض النصوص غير المعروفة ككتاب (السموم) و (الملك النوعي) وغيرها من
المؤلفات التي جمعت لأجل (مجمع برلين للدراسات الطبيعية)
وهذه المؤلفات قد فتحت مدى أوسع في الأبحاث في هذا الموضوع لم يتحقق من قبل، فكتاب السموم أصبح اليوم أمنع من أن ينال هجوم، وهو يبين مقدار معرفة جابر الطبية، أما الفصول المتعددة من كتاب (الخواص النوعية) فيمكن النظر إليها على أنها مقتطفات من كتب مختلفة المقرر أن جابر كتبها في هذا الموضوع، ويمكن أن نقول إن كثيراً من البحث والاجتهاد يحتاج إليه ذلك الذي يريد الكشف عن حقيقة هذه المؤلفات والإجابة على السؤال الآتي: كيف جاءت مؤلفي هذه الكتب فكرة نسبة هذه المؤلفات إلى الإمام جعفر الصادق أو تلميذه المدعى جابر. . . نقول إن الإجابة على هذا السؤال تقهقرت كثيراً. . .
وأولى الملاحظات التي يمكن استفادتها من نتائج أبحاث مجمع برلين في النصوص العديدة هي: أن ارتباط الحقائق المختصة بالكيمياء وعلم البحث عن الصنائع والطب لازم كما هو نفسه ولكنه لا يعين ولا يقدر الغرض الأخير لهذا الأدب؛ إذ أن كل التفاصيل العلمية إنما تتحرك في اتجاه مذهبي واحد، وأن المتأخرين هم الذين أعطوها المعنى والتحقيق. والسبب الفلسفي هو نقطة البدء في هذه المؤلفات كلها، وهذا السبب الفلسفي إنما ترجع إليه قيمتها، وكثيراً ما كان يتكرر بشكل يقيني في هذه الأعمال أن العلم لا يمكن أن يكون إلا إذا كانت هناك نظرية خاصة يضعها نصب عينيه. وهذه المشكلة تمت لأول وهلة لمشكلة السببية. وتبعاً لذلك فإن مفهوم (الميزان) الذي يعد من أهم مميزات مؤلفات جابر بن حيان، ونظرية الخصائص النوعية للأشياء المتعلقة بمدى التحول الكيميائي يعتمدان على أسس عددية دقيقة.
وربما لا يبدو هذا في الكيمياء الحديثة شيئاً يذكر، ولكن العجيب حقاً هو ذلك التيار الذي واظب عليه العقل البشري، واجتهاده في تبيان أن القانون الطبيعي إنما يعتمد في أساسه على أسس عددية ثابتة. ونحن أصبحنا اليوم، بعد هذه الأبحاث، نعتقد أنه نجح تماماً فيما كان يصبو إليه؛ فإن قانون الأعداد هذا في نظر جابر بن حيان يضع كل شيء في الوضع الحقيقي له في العالم.
ودراسة بعض النصوص التي ذكرت آنفاً تقودنا خطوة أخرى نحو الغرض الفلسفي للبحث لهذه الأعمال. أقول إن هذه الدراسة تقودنا خطوة أخرى حين تطلعنا على الصلات
والعلاقات بين هذا الغرض الفلسفي وبين النظريات الجابرية في العلم الإلهي التي هي الغرض الفلسفي وبين النظريات الحقيقية لهذا الأدب الجابري.
فالنظريات العلمية التي احتوت عليها هذه المؤلفات قيل إنها ليست شيئاً آخر غير معلومات محمد (صلى الله عليه وسلم) و (علي ابن أبي طالب) وأستاذ جابر (جعفر الصادق)، وهذه الخرافة تذهب إلى حد أنها تفسر بعض نصوص القرآن على ضوء الكيمياء كما ينسب لعلي بعض المحاضرات في موضوعات كيميائية، وفي بعض هذه النصوص يظهر بعض المذاهب التي تتفق تماماً وما تقول به فرقة الإسماعيلية من الناحيتين الفلسفية والعملية، ومن ثنايا أفكار هذه المدرسة الدينية التي رئيسها وإمامها وأستاذها الإمام جعفر، يمكن أن يفهم المعنى الكامن في نظريات جابر ابن حيان، وهذه الحقيقة تثبت عرضاً أي في كل هذه المؤلفات إنما ترجع أصولها إلى النصف الأخير من القرن التاسع أو النصف الأول من القرن العاشر للميلاد أي القرنين الثالث والرابع من الهجرة، أو قل في ذلك بلغ فيه الإسلام الذروة في هضم الفكر اليوناني، وهكذا يمكن أن ترد تلك الثروة العلمية والفكرية التي توجد في مؤلفات جابر بن حيان.

مناقشة رأي الأستاذ رسكا
الأستاذ رسكا في نقده لكتب جابر الثلاثة: الرحمة، الملك، الموازين، لا يحتاج لكثير عناية لتنفيذه، إذ أن رسكا يتناول الموضوع من ناحية سلبية بحتة، مثل الأستاذ رسكا في ذلك كمثل اثنين يتحاوران، بعد أن عرض أحدهما رأيه قال له الآخر كلا إنك مخطئ وتركه ومضى في طريقه، فهو لم يبين له لماذا هو مخطئ وما هو صواب هذا الخطأ، كذا الحال في نقد رسكا لهذه المؤلفات الثلاثة، فهو يقول إنها ليست لجابر بن حيان، فهل ينتظر منا الأستاذ رسكا أن نحني هاماتنا لرأيه سامعين طائعين مختارين؟ وحتى هبني سلّمت بصحة هذا النقد الضعيف فأي قيمة تكون له في إخراج هذه الكتب الثلاثة عن دائرة مؤلفات جابر الكيميائية وهي تبلغ سبعين مؤلفاً؟ هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الأستاذ رسكا في القسم الثاني من كلامه ينحو نحو الجدليين، إذ أنه يلتجئ إلى أسلوبهم وأعني بذلك أسلوب (المعقول وغير المعقول).
إن الأستاذ رسكا عالم له أسلوب العلماء وطبعهم وروحهم ونحن لذلك نسمو به عن أسلوب
الجدل، إذ أن العلم ليس أمامه معقول وغير معقول، إنما أمامه حقائق يسلم بها، أو لا يسلم بها، حقائق يبرهن على وجودها أو يبرهن على عدم وجودها، فالقول بأنه من المعقول أن تفصل كتب جابر الكيميائية عن غيرها قضية كاذبة علمياً، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى: هل نسى الأستاذ رسكا أن التفكير الإسلامي كان في هذه المرحلة الزمانية أو الفكرية تفكيراً عاماً شاملاً أي تفكير وأن التخصص في التفكير وفي البحث لم يعرف في الإسلام إلا بعد ذلك بقرن من الزمان على الأقل؟؟
أما القسم الثالث من رأيه وهو تفسير الانتحال لجابر بن حيان فهو تستعيره من أبحاث مجمع برلين، وسنتركه الآن ونعرض هذه الصورة بشكل أوسع لدى الأستاذ ب كراوس الذي كان مساعداً بهذا المجمع إذ ذاك.
رأي الأستاذ كرواس
يرى الأستاذ كراوس أن هذا الأدب العظيم يبين لنا كل ما درس في الإسلام من العلم اليوناني لا يمكن أن يكون بأية حال من عمل مؤلف واحد، ولا يمكن كذلك أن يصعد إلى النصف الثاني من القرن الثاني من الهجرة، إذ أن جميع الظواهر التاريخية تدلنا على أن هذا الشكل كان من إنتاج أخريات القرن الثالث الهجري وأوائل القرن الرابع.
وإن كتابات جابر بن حيان لتضع لنا بادئ ذي بدء أساس مشكلة دينية تاريخية، فكما أن الكيميائين القدماء قد اتجهوا إلى الأجنوزية المسيحية كذلك جابر يقدم في مؤلفاته العلمية أجنوزية الإسلام، ولم تكن آراء جابر ابن حيان كتلك الآراء الساذجة الأولية التي وجدت في محيط الشيعة في القرن الثاني من الهجرة، إنما كانت أقرب إلى تلك التي كان يتردد صداها في محيط غلاة الشيعة في القرن الثالث من هجرة الرسول. وهذه الآراء كانت ذات صبغة سياسية وثورية خطيرة عرضت الإسلام نفسه للخطر، إذ أن جابراً أعلن قرب قيام الإمام المنتظر الذي سيبطل حكم الإسلام ويحل محل القرآن نور العلم والفلسفة الإغريقيين، وكان محل عرض هذه الآراء هو نظريات جابر في مؤلفاته حيث عرض هذا الوحي الروحي الخالص الجديد والذي أوحى به الأئمة العلويون.
ووجهة نظر جابر بن حيان في العلم الإلهي تقترب من القرامطة الذين ابتدءوا يلعبون دورهم في العالم الإسلامي منذ سنة 260 هـ. ودرجات العلم مقسمة عنده نفس التقسيم
الموجود عند القرامطة والإسماعيلية.
ونظرية امتداد الأمامية قد تقدمت بنفس الخطوات التي تقدمت بها الأمامية، فالأماميون يقسمون تاريخ العالم من حيث الوحي إلى مراحل سبع يكون آخرها بعث الإمام الجابري، وعلى ذلك فإن الأئمة الذي تبعوا علياً، حتى الإمام القائم الجديد يكون عددهن سبعة وعلى التوالي: الحسن والحسين ومحمد بين الحنفية وعلى بن الحسين بن محمد الباقر وجعفر الصادق وإسماعيل الإمام المنتظر أو القائم. ونحن نلاحظ أن جابراً في تعداده للائمة على عكس القرامطة والإسماعيلية لم يعتبر علياً إماماً من هؤلاء السبعة، وأن هذا السانيت، الذي يسمو عن الناتيك هو الذي يكون به تجسد الأئمة السبعة الأرضي، وفي هذه النظرية يقترب جابر من تلك التي يقول بها النصيرية

الذين يعتقدون أن هناك ثلاثة أقانيم: (ع) أي علي، (م) أي محمد (س) أي سليمان، والسين في نظر جابر سابقة ومتقدمة على الميم، وفي هذا المذهب يسمى الإمام جعفر (بالإمام المجيد) أو (اليتيم) الذي له تفضيل على مباشر علي (ع) كما أن له الحظوة على (م)، (س). وهنا يقبل جابر القول بنظرية التجسد والتناسخ والأدوار، والإكرار، والنسخ، والفسخ، والمسخ.

وإن جابراً ليعلن على رؤس الأشهاد أن عمله إنما هو وحي أستاذه جعفر الصادق، وإلى هذا (المنبع من الحكمة) ترجع كل معرفة جابر، وما هو إلا جامع ومعلق على مؤلفات أستاذه. وربما كان ذلك راجعاً إلى أن جابراً نفسه يأتي في التسلسل الديني في مرتبة تلي مرتبة جعفر الصادق مباشرة، أضف إلى ذلك بعض أساتذته مثل حاربي حميرات، أرهون الحمار، جعفر البرمكي،. ولكن نحن نرى أن كل هذه التأكيدات ما هي إلا افتراءات باطلة إذ أنها متناقضة تماماً مع ما كتبه جابر نفسه في مؤلفاته. وعلى ذلك فإن تلميذ جعفر الصادق المسمى جابر بن حيان يظهر أنه محض اختراع، ونحن ندرك تماماً لماذا تنسب كتب كهذه إلى الإمام جعفر الصادق الذي يعتبر في الأدب الشيعي خير مصدر للعلم اليوناني وخاصة للعلوم السحرية ولعلم الفلك، أضف إلى هذا كله أن جعفر هذا والد الإمام السابع إسماعيل الذي نص على ظهوره في هذه المؤلفات.

ويشير الفهرست إلى بعض الشك الذي يخالج نفراً من الشيعة المعاصرين لأحد أصحابه في صحة نسب هذه الكتب لمؤلفها، وثمة رجل آخر هو أبو سليمان السجستاني المنطقي، يذكر

في كتابه (التعليقات) ملاحظة يستنتج منها أنه هو نسفه يعرف المؤلف الحقيقي للكتب التي تنسب لجابر بن حيان، ويسمى أبو سليمان باسم الحسن بن النقاد الموصلي، ولكن على رغم هذه الرواية فإننا نعتقد أن مؤلفات جابر لا يمكن أن تكون من إنتاج رجل واحد رغم تطور التفكير المنسجم فيها. ونحن نعتقد كذلك أن هذا التفكير لم يصل إلى هذا الحد الذي وصل إليه إلا في سنة 330هـ.

(البقية في العدد القادم)

أحمد زكي صالح

البريد الأدبي

1 - اقتطف!

قرأت سؤال الأخ الفاضل (رشاد عبد المطلب)، وكنت أرجو أن أكون مخطئاً، كي أقرَّ له بخطأ ما جاء في قولي: (وجعل يقتطف منها حيث أراد)، وذلك لحسن أدبه، ولطف سياقه.

والقول في (اقتطف) إنها خطأ، وإنها لم ترد في كتب اللغة: كاللسان والأساس والقاموس والنهاية والمصباح. . . إلى آخر هذه الجملة - قول قديم، قد ذهب إليه المتأخرون من فضلاء المشتغلين باللغة في عصرنا وما قبله بقليل.

ولو لم يرد هذا الحرف في اللغة لوجب أن يوجد للغة وجوباً بيانياً من عدة وجوه، وليس هذا موضع تفصيل ذلك ولا هذا أوانه. وأنا لا أستطيع الآن أن أقف في الطريق لأتلفت إلى ما ورائي مما قد مضى زمنه. وإذ كان لابد من إقامة الدليل على صواب هذا الحرف، من شاهد عربي، فنحن نأتي به، وذلك من قول نابغة بني شيبان (عبد الله بن مخارق):

تسبي القلوب بوجه لا كِفاء له ... كالبدر تَمَّ جمالاً حين ينتصف
تحت الخمار لها جَثْل تعكِّفه ... مثل العثاكيل سوداً حين تقتطف
لها صحيفة وجه يستضاء به ... لم يعل ظاهرها بثر ولا كلف

وفي قديم الشِّعر من الرجز ما أحفظه ولا أثبت موضعه: (يقتطِفْنَ الهاما) يصف السيوفَ. وبيت النابغة كافٍ في الدلالة والشهادة، وأدع ما وراء ذلك لمن يجعل همِّه اقتناص الكلمات الهاربة من معاجم اللغة.

وما دمنا في ذكر شاهد من شعر نابغة بني شيبان، نقول: إن أبا الفرج الأصفهاني زعم أنه نصرانيٌّ، لأنه زعم أنه وجده في شعره يحلف بالإنجيل والرهبان وبالأيمان التي يحلف بها النصارى، وذلك كله وهمٌ فاسدٌ، استغرّ به صاحب شعراء النصرانية لويس شيخو اليسوعيّ، فاحتمله فيمن احتمل من شعراء العربية، وشعر النابغة ليس فيه حرفٌ واحدٌ مما زعم أبو الفرج.

هذا، وأبوه (مخارق بن مسليم الشيبانيّ) صحابيٌّ جليلٌ روى له أحمد بن حنبل في مسنده ج 5 ص 29، والنسائي ج 7 ص 113، وروى عبد الله (هذا الشاعر) وأخوه (قابوس بن مخارق) عن أبيهما. وكان عبد الله يكثر رواية الحديث، ثم انصرف إلى الشِّعر، وله في
انصرافه إلى الشِّعر خبرٌ.

2 - باريس!

قرأت في عدد الرسالة الماضي كلمة يذكرني فيها صديقنا الأخ (زكي مبارك) ويزعم أنه قرأ في (الدستور) كلمة بإمضائي، عدها هو تعقيباً على المقال الذي نشره في (الرسالة) بعد سقوط باريس تحت أيدي الألمان.

ولو أحسن الدكتور زكي مبارك فأخرجني من عداد من ذكر لكفى نفسه مؤونة الفكر في أني أتعقب كلامه. ولو كان ما قاله الدكتور زكي صحيحاً لكان للسان مقال غير الذي قلت. والذي كتبته كان حديثاً عاماً لم أرد به أحداً يعينه وخاصته، وكثير غير الدكتور بكى باريس وناح، فكيف يريد أن يخص نفسه دون سائر من أعول على هذه المدينة؟

وإذن فسائر ما جاء في كلمة الدكتور زكي ليس يعنيني، ولا هو مما أستطيع أن أشتغل به، والمذهب الذي يجري فيه الدكتور غير مذهبنا، وبينهما من الفرق ما يوجب عليَّ أن أصرف خطابه - في هذا المكان من الرسالة - إلى من شاء غيري. وللدكتور مني تحية، وعليه سلام.

محمود محمد شاكر

ملاحظات علمية

1 - كثيراً ما أجد فيما أقرأ من المباحث التاريخية مطاعن في بني أمية منقولة عن المسعودي، وينسى هؤلاء الباحثون (ومنهم من هو عميد كلية أو أستاذ في جامعة) أن المسعودي على جلالة قدره ورفعة مكانه بين المؤرخين لا يحتج به في مثل ذلك، لأنه شيعي متهم ببغض الأمويين والطعن فيهم. وقد نص على شيعيته الأستاذ الكبير آل كاشف الغطاء في رسالته أصل الشيعة وأصولها؛ كما أنه لا تقبل رواية السني المتصعب في الطعن على الشيعة، وهذا معروف عند العلماء.

2 - ذكر الأستاذ أحمد أمين في فجر الإسلام (ص 248) دليلاً على كثرة الوضع في الحديث أن البخاري اختار كتابه الصحيح وفيه سبعة آلاف حديث منها نحو ثلاثة آلاف مكررة من ستمائة ألف حديث كانت متداولة في عصره.

وهذا الدليل مردود من وجوه:

أولها - أن البخاري لم يستوعب الصحيح كله في كتابه، وروى عنه أنه قال: ما أدخلت في كتابي إلا ما صح وتركت من الصحاح لملال الطول، وقد استدرك الحاكم أبو عبد الله على الصحيحين شيئاً كثيراً تكلم في بعضه وسلم أكثره.

ثانيها - أنهم كانوا يعدون الحديث الواحد حديثين إذا كان له سندان وروى من طريقين؛ ومن هنا جاءت هذه الأعداد الكبيرة. ذكر ذلك ابن الصلاح.

ثالثها - أنهم كانوا يدرجون تحت أسم الحديث آثار الصحابة والتابعين. ذكره أبن الصلاح أيضاً.

علي الطنطاوي

رأي الأستاذ أحمد أمين في واضع علم النحو

المعروف بين جمهور النحاة أن واضع النحو هو أبو الأسود الدؤلي، ولكن دائرة المعارف الإسلامية تخالف جمهور النحاة في ذلك، وترى أنه ليس حقاً ما يقال من أن أبا السود الدؤلي واضع أصول النحو العربي (دائرة المعارف الإسلامية ج 1 ص 307) وقد ذكر صديقي الأستاذ محمد طنطاوي المدرس بكلية اللغة العربية في كتابه نشأة النحو (ص 11) أن الأستاذ أحمد أمين أراد أن يوفق بين الرأيين، وأن يلتمس وجهاً لنسبة وضع النحو إلى أبي الأسود الدؤلي، فقال في كتابه ضحى الإسلام (ج 3 ص 286 وما بعدها): ويظهر لي أن نسبة النحو إلى أبي الأسود لها أساس صحيح، وذلك أن الرواة يكادون يتفقون على أن أبا الأسود قام بعمل من هذا النمط، وهو أنه ابتكر شكل المصحف، وواضح أن هذه خطوة أولية في سبيل النحو، تتمشى مع قانون النشوء، وممكن أن تأتي من أبي الأسود، وواضح كذلك أن هذا يلفت النظر إلى النحو

فعمل أبي الأسود يسلم إلى التفكير في الإعراب، ووضع القواعد له. . . وأن هذه الأمور لما توسع العلماء فيها بعد، وسموا كلامهم نحواً، سحبوا اسم النحو على ما كان قبل من أبي الأسود، وقالوا إنه واضع النحو، للشبه في الأساس بين ما صنع وما صنعوا وربما لم يكن هو يعرف النحو بتاتاً، ثم رأى بعد كلام طويل أن واضع النحو الذي نعرفه إنما هو الخليل بن أحمد.

وكأني بالأستاذ أحمد أمين قد خيل إليه أنه أتى في هذا الرأي الأخير بالقول الفصل في واضع علم النحو، مع أن الأمر قد اشتبه عليه في ذلك اشتباهاً ظاهراً، لأن أصل الخلاف في واضع علم النحو إنما هو في أصوله الأولى، لا في هذا النحو الذي نعرفه؛ لأنه لا يمكن أن يختلف أحد في أن هذا النحو الذي نعرفه يرجع إلى كتاب سيبويه، وقد أخذ سيبويه كتابه عن الخليل ابن أحمد، بل قيل إن هذا الكتاب للخليل لا لسيبويه، فليس بشيء بعد هذا أن يقال إن الخليل واضع هذا النحو.

وقد ذكر الأستاذ محمد طنطاوي في كتبه نشأة النحو (ص 20) أن عيسى بن عمر الثقفي - وهو من الطبقة الثانية والخليل من الطبقة الثالثة - ألف كتابين في النحو: أحدهما مبسوط سماه الجامع، والآخر مختصر سماه الإكمال، وأن الخليل قال في إطرائهما:

ذهب النحو جميعاً كله ... غير ما أحدث عيسى بن عمر
ذاك إكمال وهذا جامع ... فهما للناس شمس وقمر

ويؤخذ من هذا أن اسم النحو كان معروفاً قبل الخليل، وأن كتباً جامعة ألفت فيه قبله، فكيف يقتضب الأستاذ أحمد أمين ذلك كله؟

(عالم)

قصتان والفكرة واحدة

قرأت في العدد الماضي من الرسالة كلمة بهذا العنوان الأديب حسين الحوفي بدمنهور، يقول فيها: إن فكرة قصتي (من أدباء الجيل) المنشورة بالعدد 345 من الرسالة تشبه قصة الأستاذ محمد أبو طائلة عنوانها (الشهرة) نشرت بالعدد 498 من مجلة كل شيء والدنيا (وإن اختلف الأسلوب والعنوان وبعض الحوادث الثانوية) وأحسب أنه مما يهم قراء الرسالة أن يعرفوا أنني لم يكن لي حظ قراءة تلك القصة المشار إليها حتى اليوم، وقد تكون الفكرة في القصتين واحدة - كما يقول الكاتب - أو لا تكون؛ ولكن ذلك لا يطعن في عمل أدبيٍّ لم أستلهمه إلا من وجداني الخاص لحادثة بعينها قد يكون مثلها مما مر على الأستاذ أبو طائلة في بعض أيامه، فألهمه فكرة قصته وألهمني. وإذ كان الأمر على ما زعمتُ - وعلى ما يؤكد الكاتب من احترامه لأدبي وتنزيهه عن الانتحال -

فإني أحسب أن ذلك خارجٌ عن نطاق ما يسميه (الرقابة الأدبية)، ولا معنى معه للحديث عن السابق والمسبوق.

وثمة بديهية أخرى يعرفها كل من عالج فن القصة دراسةً أو عملاً، هي أن الفكرة الواقعية في القصة غيرُ القصة نفسِها؛ وخاصة حين تكون فكرتها منتزعة من الحياة العامة التي يحسها كل من يتصل بها من أبناء الجيل. ولا حاجة بي إلى تعداد الحوادث التي تقع كل يوم في حياتنا الأدبية العامة مما يصلح أن يكون كل منها موضوعاً لمثل قصة (من أدباء الجيل). وأدع تفصيل ذلك لموضعه من كتاب (الأدب المنحول) الذي أرجئ نشره حتى تأذن الرقابة الأدبية العامة!

محمد سعيد العريان

من الشعر المنسي لحافظ

(لما أخرجت وزارة المعارف ديوان المرحوم حافظ إبراهيم، لاحظ كثير من الأدباء أن قصائد عدة للشاعر الكبير نسيت فلم تدرج في هذا الديوان؛ وقد نشر بعضهم شيئاً من هذه القصائد في الرسالة الغراء، ويسرني ونحن في الذكرى الثامنة لحافظ أن أذكر للقراء مقطوعة من شعره في وصف الطيارة لم تنشر في ديوانه)

قال رحمه الله:

يجري بسايحة تش ... قُّ سبيلها شقَّ الإزار
وتكاد تقدح في الأثي ... ر فيستحيل إلى شرار
مثل الشهاب انقضَّ في ... آثار عفريت وطار

فإذا علت فكدعوة المُ ... ضْطَر تخترق السِّتار
وإذا هَوَتْ فكما هَوَتْ ... أنثى العُقاب على الهزار
وتُسِفُّ آنة، وآ ... ونة يحيد بها ازورار
فيخالها الرائون قد ... قرَّت، وليس بها قرار
لَعِبَ الجواد أقلَّ لَيْ ... ثاً من قُضاعة، أو نزار
أو كالقَلوب من الحما ... ئم فوق ملعبه استطار
وكأنها في الأفق حي ... ن يميل ميزان النهار
والشمس تلقي فوقها ... حلل اصفرار واحمرار
مَلَك تَمثله لنا السي ... ما فيأخذنا انبهار
(البجلات)

أحمد جمعة الشرباصي

الدكتور إسماعيل أحمد أدهم

روت الصحف المصرية - كخبر تافه - موت فقيد العلم والأدب الدكتور إسماعيل أدهم الكاتب الناقد المعروف نجل أحمد بك أدهم الضابط التركي وحفيد أدهم باشا وزير المعارف التركية سابقاً.

وقد عرفه قراء (الرسالة) شارحاً لنظرية النسبية لأينشتين، ومساجلاً للمرحوم فليكس فارس عن الشرق والغرب، وأخيراً مناقشاً للدكتور بشر فارس في كتابه (أبحاث عربية) كما طالع له قراء (الرسالة) بعض أبحاث متفرقة آخرها (عام الفيل) الذي اشتغل بالرد عليه الأستاذ عبد المتعال الصعيدي.

ويغلب على أبحاثه الصبغة العلمية الجافة، فإذا أضيف إلى ذلك ضعف بيانه العربي عرفنا جهل الكثيرين بعلمه وأدبه، لأنه لم يكن له أسلوب جزل يخلق المحبين، إذ أن الناس بطبيعتهم يصدقون عن الحقائق الجافة التي لا يموهها الخيال، لذلك كان محرر مجلة المقتطف يراجعه راجياً فيما يكتبه لها زيادة الإيضاح، وكان يشكو لي من ذلك الدكتور أدهم. ومن هذه الناحية أيضاً حيث موطن ضعفه، كان يغزوه الأستاذان فليكس وبشر في مساجلاتهما معه.

وعرفه قراء المقتطف من أبحاثه المتوالية التي كان يوالي نشرها فيها، آخرها دراسته طيلة هذا العام لخليل بك مطران. وهي دراسة لا يسلك فيها طريقة التراجم المعروفة، بل الدراسة التمحيصية الاستقرائية على الطريقة الاستشراقية، لذلك كانت فريدة في العربية، وعدها بعض المستشرقين ثروة أدبية، وقال فيها الرافعي: (دراسة لا اشك لحظة في أنها لو وجهت وجهة صحيحة لقومت النقد العربي) وقال فيها بشر فارس (دراسة تعتمد على الاستقراء والتثبت أكثر مما تعتمد على الظن والتخمين) وقال فيها سلامه موسى. (لو أردنا أن نجازي فناناً لحق لنا أن نجازي الدكتور أدهم بأكرم مما يجازي به عالم فنان)

ومما أذكره أن الدكتور أدهم كتب غير مرة في المجلة الجديدة التي كان يصدرها الأستاذ سلامه موسى، وعرَّفه الدكتور أبو شادي بأنه أكثر من شخصية، ومما أعرفه أنه كان من أول المكتشفين لشخصيته العظيمة. فشجعه على المضي في أبحاثه وأفسح له صدر مجلاته التي كان يصدرها، رغم تطرف رأيه وحرية فكره حرية غير معهودة في حياتنا الأدبية، ومن أهم ما نشره رسالته (لماذا أنا ملحد) التي رد عليها الدكتور أبو شادي برسالته (لماذا أنا مؤمن)، والتي شغلت الكثيرين من رجال الدين وقتاً غير يسير. ونشرت لأول مرة في مجلة (الإمام)، قم أفردت في كتاب، وذلك عمل ينطوي على جرأة كبيرة من المؤلف والناشر، لأن الرسالة صودرت عقب تداولها.

وأول كتاب أصدره في مصر هو كتابه (مصادر التاريخ الإسلامي) الذي صودر بمرسوم ملكي من جلالة الملك فؤاد، وهو آخر مرسوم صدر من جلالته قبل وفاته. ومن هنا يعرف أن حياته الأدبية كانت قصيرة إلا أنها كانت ملأى بنشاط جدير بالإكبار والتقدير، فقد كان يعتكف الأيام المتوالية حتى ينتهي من وضع كتاب، أو إخراج بحث، أو يستوعب عدة مؤلفات قراءة ودراسة؛ ومن نتاج ذلك الاعتكاف كتابه (الأنساب العربية)، وكتابه (الزهاوي الشاعر). وقد اهتم الأستاذ سامي الكيالي صاحب مجلة (الحديث) السورية بدراسات أدهم فرحب بها واصدر بها أعداداً ممتازة، كدراسته للدكتور طه حسين، والشاعر التركي عبد الحق حامد، وأخيراً الأستاذ توفيق الحكيم،

ومن أظرف ما يروى بهذه المناسبة أنه كان مختلفاً مع صاحب الترجمة على مولده، إذ كان توفيق الحكيم يذكر أن مولده في عام 1898، ولكن أدهم يصر على أنه ولد في عام 1903؛ ومما يدهش القارئ إيراد أدهم لأدلة منطقية لا يملك الإنسان معها إلا أن يسلم بخطأ توفيق الحكيم نفسه في معرفة مولده.

وكانت إدارة (الحديث) تستعد لإخراج عدد خاص بدراسته لميخائيل نعيمة، كما كانت تستعد إدارة المقتطف لإخراج دراسته لخليل مطران لتهديها إلى مشتركيها هذا العام، ولا أدري ماذا تم فيها، وإن كنت أعرف أن المؤلف كان يستعجلها في إخراج كتابه قبل وفاته، لأنه كان يريد أخذ نسخة معه إلى أوربا، إذ كان يعتزم السفر بعد تغير الموقف الدولي؛

واشتدت الرقابة عليه لشبهات لا محل لها من الصحة، إذ أنه كان في أيام السلم يرسل بعض أبحاثه لتذاع من محطة باري العربية، كما أنه كان ينشر بعض أبحاثه في مجلة (المستشرقين الألمانية) منها نقده لكتاب حياة محمد، وقد أشار إلى ذلك النقد الدكتور هيكل في مقدمة الطبعة الثانية من كتابه بعد أن أغفل اسمه.

ولما لم يتمكن من السفر والهروب من قفص الرقابة ضاقت به الحياة فودعها ومضى. (لنا عودة)

عبد الحفيظ نصار

القصص

رجلان وامرأتان

للأستاذ محمد سعيد العريان

لم يكن من طبيعتها الزهو والمباهاة، ولكنها تشعر الليلةَ بين لِداتها وصواحبها أنها قد بلغت مرتبةً من حقها أن تُزْهي بها وتفتخر؛ إنها خطيبة (سامي)، وهذا خاتم الخطبة في إصبعها يزهو ويتألّق شعاعه؛ وأي صواحبها لم تعرف (سامي) أو تسمع به، وإنه من الشهرة وذيوع الصيت حديثُ كل فتىً ونجوى كل فتاة!

وراحت (رشيدة) تخطر بين رفيقاتها تتقبل التهاني وتوزّع الابتسامات مغتبطةً سعيدة، لا تكاد تستقر على مقعد من خفة الفرح ونشوة المسرة. . .

ثم انفضَّ السامر وخلت (رشيدة) إلى نفسها تحلم بما كان وبما يكون، وتتهيأ . . . لليوم السعيد المنتظَر!

فتى في ربيع العمر، لم يفتنه الشباب ولم يبطره الغنى، تنوَّر أملاً بعيداً فمضى يشق الطريق إليه في عزم وقوة، وبلغ؛ وبرز اسمه في الطليعة من أدباء الجيل ولم يزل في أول الطريق، وذاع اسمه كما ينفذ شعاع الصبح فتكتحل كلُّ عين من نوره ويصحو كل نعسان؛ وشدَت القمارِيّ بأغانيه في الرياض، وهتفتْ بها العذاري، وتغنَّى الفِتيان. . .

ودُق الجرس ذات مساء في دار رشيدة، وجاء سامي يخطبها. . .، وتوافد لِداتها . . . وصواحبها يهنئنها ويتمَّنين لها. . .

وراحتْ تتخيَّل نفسها إلى جانبه يمشيان ذراعاً إلى ذراع تحدِّثه ويصغي لها، . . . والناس تهتف باسمها واسمه، والعيون تتبعهما حيث يتنقلان من روضٍ إلى روضٍ في طريق مفروش بالزهر، والأصابع تشير إليهما في همسٍ: أئنه لَهُوَ، وإنها. . .

ولذَّها الحُلمُ السعيد، فطارت بغير جناح تحلّق في وادي المنى سكرَى!

وتابعتْ على عينيها صُور؛ وأفاقتْ من سكرتها مذعورة لصورةٍ عَرَضَتْ؛ وتخيَّلتْه يحفّ به فتياتٌ يسألْنه ويجيب وفي عيونهن معانٍ وفي عينيه معنى؛ ولذعتها نار الغيرة وساورها القلق، وراحت تسأل نفسها: أتُراه - وهو مَن هو - لم يفتح قلبَه لفتاة قبلها ولن يفتحه؟ فكيف، ومِن أين لها، وإن اسمه لحديثٌ على الشفاه ونجوى في القلوب!. . أم تراه يخلص لها فلا يغلبها على قلبه أحد؟

وابيضّتْ ذؤابة الليل وما تزال أحلامُ اليقظة تُراوح بيم جنبيها في الفراش!

ومضت ليال، وأَنِستْ رشيدةُ إلى فتاها وأَنِس بها؛ وتتابع اللقاء بينهما في الحلم حيناً وفي اليقظة؛ وتكاشفَا نفساً لنفس فاطمأنَّت وزال ما كان يساورها مِن هم، واسترسلت في أحلام السعادة والمجد، وهي تحصي ما بقي من أيامها حتى يكون لها. . .

وجاء اليوم الموعود وزُفَّتْ رشيدةُ إلى سامي

(!يا هَنَاها)
ذاك حديث كل صواحبها؛ أفتراها كانت تسمع ما يتحدَّثن؟
أما هو فكان من شأنه في شغل عما يتحدث الناس؛ لقد وجد الاستقرار والراحة منذ وجد رشيدة؛ فانصرف إلى غايته دائباً لا يشغله من شئون الحياة إلا فنُّه والأمل الذي يتتوّره على مبعدة.
وأما هي. . . أين هي من أحلامها التي كانت تداعبها في اليقظة وُتِلمُّ بها في المنام؟
هذا عام مضى منذ دخل سامي في حياتها وشاركته في داره؛ فماذا تحقق من أمانيها وماذا بقي؟ وماذا يجدي عليها صيتُه ومجدُه وشهرته وإنها لحبيسة الدار لا تتحدث إلى أحد ولا يتحدث إليها أحد؛ وزوجها الذي خلق لها دنيا عريضة من الأوهام والأماني حبيسٌ في غرفته مكبٌّ على أوراقه ودفاتره!
هذه الصحف التي تتحدث عنه، وهذه الكتب التي تصدر باسمه، وهذه الجماعات التي تدعو دعوته وتُشيد به. . . كل هذه أوهام وخداع وتلبيس على الحقيقة. لقد حسبتْ يوماً أنها ستكون أسعدَ زوجةٍ فيمن تعرف من صواحبها؛ لأن هذه أوهام المكتوبة كانت تُخيَّل لها وتخدعها عن الحقيقة؛ أما اليوم، وا أسفا!
إنه ليحبها وإنها. . . نعم، لقد كانت تحبه؛ ما في ذلك شك؛ أما اليوم. . . آه! ليتها تستطيع أن تقول. . . ليتها تستطيع أن تعرف. . .!
إنها لتحس في بعض الأحايين أنها تكرهه، شوقاً إليه!. . . ليت شعري، ما الحب؟ وما البغض؟. . . أهُما معنيان متناقضان أم هما اسمان لمعنى؟
وما الحقيقة؟ أهي شيء واحدٌ أم شيئان، ولونٌ واحدٌ أم ألوان؟
إنه هو هو، وإنها هي هي؛ لم يتغيَّر شيءٌ منها ولم يتغيَّر شيءٌ منه؛ ولم يَزَلْ هو كلَّ شيء في حياتها ولم تزَلْ؛ وهذه الأشياء التي كانت تحببه إليها يوماً هي هي التي تبغَّضه إليها اليوم.
إن الباطل الصُّراح أحبُّ إلى النفس من الحقيقة المتلوِّنة!
واحتوشتها الأفكار فلم تعرف ماذا تأخذ وماذا تدع؛ فأطرقت، وأرسلت عينيها؛ وكان سامي في غرفتي يكتب ويؤلف!
وفرغ من موضوعه بعد هدأة من الليل، فرفع أوراقه بين عينيه والمصباح وراح . . . يقرأ، وأعجبه عمله؛ فهتف: رشيدة، تعالي اسمعي!
وماذا يجدي عليه رضا الناس إن لم ترض رشيدة؟ ولكن رشيدة كانت مطوية على نفسها في الفراش تبكي؛ ودنا منها، فجفَّفتْ دموعها واعتلَّتْ؛ وجلس على حافة الفراش محزوناً أسوان يسألها عن علتها؛ وما كانت علتها غيره!
وطوى أوراقه صامتاً، وأوى إلى الفراش منكسراً ذليلاً؛ وأصبح كما يصبح كل يوم وكما أمسى؛ وأصبحت كما أمستْ!
وجاءت صديقتها (سعاد) لزيارتها؛ وما زارتها في بيت زوجها قط؛ وخلت رشيدة إلى صديقة صباها تحدثها وتستمع إليها، وخلا سامي إلى نفسه يعمل. . .
وقالت سعاد: وإني لأسمع عنك وأعرف، فيسرني هناؤك. . . وإنك لحقيقة أن تسعدي بسامي. . .!
وابتسمت رشيدة وسكتت!
ونهضت الزائرةُ فشيَّعتها صديقتها على ميعاد
وذهبتْ رشيدة لتردَ الزيارة لصاحبتها؛ ولقيتْها سعادُ في غلائلَ وشفوفٍ وَجلْوةِ عروس، وأحسنتْ استقبالها؛ ثم وَدَعَتْها لحظة لتسرَّ إلى زوجها حديثاً وعادت، وأحست رشيدة أن صديقتها في شغل؛ فأوجزت، وسألتها: أرجو ألا يكون في زيارتي ما يشغلك عن شيء!
وابتسمت سعاد وأجابت: ليس شيئاً ذا بال؛ كنا علي أن نشاهد رواية في السينما، فطلبتُ إليه أن يذهب وحده إذا أراد! لقد شاهدناها مرة منذ يومين!
وغمغمت رشيدة بكلام، ثم أطرقت؛ أتراها كانت تحدَّث نفسها أو تحدِّثُ مضيفتها، وماذا
همَّتْ أن تقول؟
وخفَّفتْ فنهضتْ، وفي قلبها حسرة، وفي صدرها غيرة، وفي رأسها فكر!
وقالت سعاد لزوجها وقد ذهبت رشيدة: (زوجة ساميّ!)

واستطردت: (إنها صديقتي منذ الطفولة! ألا تقرأ له؟ قل لي: لماذا لا تحاول أنت. . .؟
إن له مستقبلاً عظيما! لقد بَلغ. . . هل سمعْت. . وله جاهٌ وشفاعة. . . إنني ورشيدة
صديقتان، لم نفترق منذ كنا، حتى تزوَّجتْ، وخطبّها على غفلة. . .!)
وأدارتْ رشيدةُ مفتاح المذياع وجلستْ مرتفقةً إليه تنتظر؛ إن زوجها هناك؛ وما . . .
بها شوق إلى أن تستمع إليه، لولا أن صوته في المذياع يردُّها لحظاتٍ إلى ماضيها، أيام
كانت في بيت أبيها مُسَّماة عليه؛ تلك أيام خَلَتْ؛ وكان صوته يلذها ويبعث فيها نشوة. .
. أوه! أين اليقظة من الحلم؟ أَكُتِبَ علينا ألا نرى السعادة إلا طيفاً في المنام أو حُلماً
في اليقظة؟
وتَسرِّحت رشيدةُ في أوهامها. . .
وكأنما أحسّ سامي من رشيدة فتوراً وانقباضاً، فأهمَّه ما أحسّ، وراح يحاول أن . . .
يصلح ما بينه وبينها، وعطف عليها يسألها في رقة: ماذا بك يا رشيدة؟
وانفجرت رشيدة غاضبة ضاخبة، وكشفت الحجاب، ونفضت عليه ما تكظم من الغيظ
منذ عام؛ وطأطأ رأسه يوازن ويقدّر ويحكم؛ وبدت له الحقيقة سافرة وانكشف عنها
غطاؤها؛ وآثرها بالرَّضا فقدَّم لها معاذيرَه!
وتغيَّر سامي منذ اليوم، فأغلق دار كتبه واقبل على زوجته؛ وفي المساء كانا يمشيان
ذراعاً إلى ذارع في الطريق على أعين الناس؛ وصحبها إلى السيما، وسهرا معاً في
الأوبرا، وتعشَّى معها في مطعم؛ وراقصها على نغمات الموسيقى في الحديقة، وعاد
معها إلى الدار مخمورا قبيل الصباح!
وعرف سامي منذ الليلة أن في الحياة ألواناً من اللذة لم يذقها بعدُ وقد أوشك شبابهُ؛
فاشتهى وتمنَّى. . .
وفاءت رشيدةُ إلى الرضا وسَرَّتها حياتها الجديدة فطلبت المزيد!
وكانا يمشيان على ضفاف النيل حين اعترض سبيلهما سربُ من الحسان. وقالت
إحداهنّ وأومأت إلى سامي: أئنه لَهُو!
فأحنى رأسه مبتسما وأتبعها عينيه؛ وأغضتْ زوجتُه!
ولم تجد رشيدة من نفسها في الليلة التالية رغبة في الخروج؛ فخلفها في الدار ومضى
وحده؛ وأشرقت الشمس قبل أن يعود، وهَّمت زوجته أن تتكلم فتركها وما تريد ومضى
إلى فراشه. . .
وعرف عنوانَه من لم يكن يعرف من عشاق أدبه؛ فكثر زائروه وزائراته؛ وراح يقتضي
الناسَ ثمنَ إعجابهم بفنه لذائذَ وشهوات. . .
وتدحرجت الكرةُ على المنحدر المائل واستمرتْ تهوي. . .
وجاءت سعاد لتزور صديقتها، وقالت: أين سامي؟ منذ بعيد لم نسمع ولم . . .
نقرأ. . .!
وابتسمت رشيدةُ وسكتتْ؛ شأنها في يوم مضى؛ ثم أطرقت وعضت على شفتيها
تحاول أن تحبس زفرة ألم!
ونهضتْ الزائرة وخلت رشيدة إلى نفسها تبكي؛ وَخيِّلتْ لما أمانيها أنه هناك، في
غرفته، يكتب ويؤلف، وأنه يوشك أن يفرغ من موضوعه فيهتف بها: رشيدة! تعالي
. . . . . .!اسمعي! كما كان في ليلة منذ ليال!. . . ولكنه لم يفعل، لأنه ليس هناك
. . . . . .
ثم استيقظت وهي مرتفقة إلى المذياع، ورنّ صوته في مسمعيها قادماً من بعيد، . . .
صوت ندي رطب، يتحدث في وداعة ولين. لم يكن حديثه إليها، ولكنها وجدت بَرْدَه
على قلبها، فدمعتْ عيناها فرحانة؛ وهتفت: سامي! عُدْ إليْ!
ولم يسمع نداءها، ولكن خاتمة حديثه في المذياع كان جواب النداء. . .

محمد سعيد العريان

العدد 371 - بتاريخ: 12 - 08 - 1940

تأخر السنين

للأستاذ عباس محمود العقاد

أما تأخير السنين فهو الرجوع بها إلى الوراء

يكون الرجل مثلا في سنة أربعين فيرجع إلى سنة عشر، أو يكون في القرن العشرين
فيرجع إلى القرن الأول، أو يكون في أيام التاريخ فيرجع إلى ما قبل التاريخ.

ولذلك ثلاث وصفات على طريقة المعجزات، ووصفة واحدة على طريقة العجزة أبناء الفناء.
فالوصفة الأولى على طريقة المعجزات أن تقبض على دولاب الزمن فتديره إلى الأمام أو إلى الوراء حين تشاء وكيفما تشاء. ولا بد قبل ذلك من معركة فاصلة بين المرء وبين الزمن ينكسر فيها الزمن فيلقي بدواليبه ومقاليده ومفاتيحه ثم يلوذ بالفرار.
وأنا قد حاربت الزمن في معارك شتى، ولكني لم أصل معه إلى المعركة الحاسمة، ولا علمت بمستودع الدواليب والمفاتيح. فليس في الوصفة الأولى رجاء.
والوصفة الثانية على طريقة المعجزات هي وصفة أينشتين في بعض الفروض الرياضية والألغاز (النسبية)
وذلك أن أشعة الأرض تصل إلى بعض الكواكب في مائة سنة، وإلى بعضها في ألف أو ألوف.
فمن صعد إلى كوكب من تلك الكواكب، ورصد أشعة الأرض على أسلوب من أساليب الصور المتحركة، فهنالك يرى اليوم نابليون أو حروب فردريك الكبير أو حروب هنيبال لا تزال في البرامج ولا تزال تجري على حقيقتها كما كانت تجري في هذه الأرض منذ كذا من السنين.
وبيني وبين هذه الوصفة أن أصعد إلى الكواكب بأسرع من صعود الشعاع إليه، أو أن أصعد إلى الكواكب على جناح فرض من الفروض الرياضية في مثل لمح البصر أو خطرة الخيال.
فإذا جاء اليوم الذي يطير فيه الإنسان على أجنحة الفروض فهنالك نؤخر الزمان الأرضي كما نشاء، ولكننا نصعد إلى الكواكب فنجد فيها الحاضر حاضراً لا يقبل التأخير.
والوصفة الثالثة على طريقة المعجزات هي وصفة على لسان (أولاد البلد) فيما يتحدثون به عن فعل الحبوب والعقاقير
فقد زعموا أن حبوباً تعيد الشباب، وان الحبة منها ترد من يتناولها عشر سنين، وأن رجلاً بالغ في التصابي فتناول خمس حبات فعاد رضيعاً على كفوف بناته وأبنائه.
وصيدلية هذه الحبوب لا تدين بمذهب الأمريكان في حب الدعوة والإعلان، فما اهتديت إلى مكانها حتى الساعة، ولعلها تدين بتأخير المكان.
فدعونا إذن من الوصفات الثلاث على طريقة المعجزات وهلموا بنا إلى وصفة العجزة من أبناء الفناء
ووصفة العجزة من أبناء الفناء هي كتب التاريخ، أو هي الصحافة التاريخية على التعبير الصحيح فيما نحن فيه
فإذا رجعت إلى سجلات الصحف فأمامك حوادث الأيام يوماً بعد يوم، وخبر بعد خبر، وفي وسعك أن تقفز إلى الوراء مائة سنة أو اكثر من مائة حسب تواريخ الصحف التي تقرأها، دون أن تتجشم المرانة على براعة القفز إلى الوراء.
ومن سجلات الصحافة القيمة سجل يجمع فصول (التيمس) الافتتاحية في جلائل الأحداث من سنة ألف وثمانمائة إلى ما قبل اليوم بثلاث سنوات.
ففي أي يوم من أيام تلك الأحداث تريد أن تجلس إلى قهوتك وتفتح صحيفتك وتأتمر بأمر الفضول، فتستطلع الغيب عن الحادث المجهول؟
معركة ترافلجار أو الطرف الأغر؟ معركة واترلو؟ تسليم نابليون؟ موت نابليون؟ أحاديث العلماء والجهلاء عن الاختراع الجديد المسمى بالتلفون؟
أنت لا تعلم شيئاً من هذه الأشياء، ولكنك تفتح الصحيفة لتقرأ آخر الأنباء.
7 نوفمبر سنة 1805 - يوم ترافلجار
في مكان آخر من عدد اليوم نص التقرير الرسمي عن المعركة البحرية التي انتهت) بأحسم انتصار ظفرت به الفطنة والبسالة البريطانيتان. وهو انتصار على ما فيه من العظمة والمجد قد اشتريناه بثمن غال، وكفى دليلاً على شيوع هذه العقيدة ورسوخها في الأذهان ذلك الحزن البالغ العميم الذي قوبل به موت اللورد نلسون. فلم يكن للنصر صدى الحماسة
والطرب الذي تردد به كل نصر في معاركنا البحرية السابقة، وليس في البلاد فرد لا يرى أن حياة بطل النيل أنفس جداً من أن تقوم بعشرين سفينة فرنسية وإسبانية بين

ضائعة ومأسورة، فلا مظاهرات فرح شعبي ولا أصداء نشوة قومية صحبت هذا الحادث الخطير. وإنما ظهر شعور الأمانة والرجولة في نفوس الأمة كما ينبغي أن يظهر: رضى عميق بانتصار سلاحهم المحبوب، وحزن خالص أليم كحزن المرء في أسرته على البطل الصريع وتقدم ثماني سنوات فأنت في انتظار الأخبار عن معركة (واترلو) وهي تتوالى متناقضة متفرقة، يقول بعضها بانتصار نابليون ويقول بعضها بانتصار الحلفاء. وتروي عن ولنجتون كلمته المشهورة: (ما رأيت كاليوم غباءً في سبيل النصر، ولا رأيت كاليوم اقتراباً من الهزيمة)

وتقدم أياماً أخرى فإذا بنابليون أسير لم تتحقق أنباء أسره، وإذا بالناس مختلفون هل يجوز الحكم عليه في محكمة دولية؟ هل يسلم إلى ملك فرنسا ليعقد له محكمة فرنسية؟ هل يحاسب على من قتل من الأسرى والسجناء في غير ميدان القتال؟ ثم تحقق نبأ الأسر وجيء بالأسير إلى الشواطئ الإنجليزية. وانعقد مجلس الوزراء للبحث في مصيره. فهل تعلم ماذا قرر مجلس الوزراء؟. . . كلا. . . أنت لا تعلم ذلك في أثناء انعقاده ولكنك تقلب الصفحة فتعلم بالقرار.

وتستمع فإذا الصبية في الطرقات ينادون ينفي نابليون إلى جزيرة القديسة هيلانة، وإذا بالتيمس تقول بعد السفر به إلى تلك الجزيرة:

ألان نحسبنا على يقين أننا سنفرغ من شأن نابليون بونابرت فلا نعود إلى ذكره إلا أن) نتخذ منه مثالاً لكل جريمة عبرة للآخرين. ولئن كانت يد الإنسان قد رفقت به في جزاء آثامه فلا يفهمن من هذا أنه نجا من كل عقاب غير هذا العقاب. وما ندري بأي عقيدة من العقائد يدين الآن. فقد جهر بالإلحاد مرة وبالإسلام مرة أخرى وبالكثلكة مرة ثالثة حسبما لاح له من بوادر المصلحة في كل حين، وكان على ما رزق من الملكات العظيمة والنشاط والدائب عريقاً في الخسة، تلك العراقة التي لا يبالي معها أي ضرب من ضروب الغش والرياء تزجيه لمآربه في غير خجل من افتضاح أمره أو عواقب خداعه ما دام قد نفذ إلى مراده. ولكنه - إن لم يكن إنساناً - فله لا محالة وقد أوى إلى العزلة والفراغ عقيدة يركن

(إليها وتلعج في ضميره مضيض الألم ووجع الندم مما اقترف من المساوئ والشناعات وتقدم ست سنوات فأنت تقرأ نعي نابليون كما تقرأ الذكرى المنسية قد انبعثت من قبور النسيان.

وعلى هذا الشاكلة يرجع المدبرون إلى الماضي من طريق الصحافة، وهي طريق معبدة يهتدي إلى معالمها كل عابر سبيل

فإن لم تعجبك طريق الصحافة فللشعر والأدب طر يقمها إلى كل ماض وإن لم تكن بالطريق المعبدة لجميع العابرين.

ومن مصادفات الأيام أنهم احتفلوا في يونيو الماضي بانقضاء مائة عام على مولد الشاعر الإنجليزي الكبير توماس هاردي صاحب قصيدة (العواهل) أو قصيدة نابليون. وظهرت الصحف الأدبية وفيها شذرات من تلك الملحمة الفخمة كأنما تقال في هذه الأيام، ومن أجل هذه الحرب، وعلى نغمات الحوادث العالمية التي تصلصل الآن في الآذان.

وأي وصاة في حروب نابليون لا يوصي بها في الحرب الحاضرة؟

قال هاردي على لسان ولنجتون وقد سئل في اليوم المرهوب بماذا توصي إذا وقعت في حومة الوغى؟

قال هاردي أو قال ولنجتون: (بالثبات إلى أقصى مداه. . . فحيثما بقي في الميدان رجل واحد على قدم عرجاء في حقيبته رصاصة واحدة فلينته في النهاية كما انتهيت) ولكن نابليون هو الذي انتهى فوقف بلسان الشاعر يقول: (الآن كل شيء ضاع. . . فيا ساعات الأرض جميعاً دقي لسلطاني دقة الختام)

ووقف الزمن يقول لذلك السلطان المخذول: (ما أمثالك من الرجال الذين يخوضون غمار الدنيا محدثين فيها الأحداث مقلبين السعود والنحوس إلا حشرات على صفحة الأجيال كحشرات النبات على صفحة الأوراق، ينشرون ما تطوي أخاديد التراب)

أترانا على هذا النهج قد رجعنا في طريق الماضي، وأفلحنا في تأخير السنين؟

كلا، بل نحن فيما أرجو قد تقدمنا أمام الزمن، ونظرنا إلى المستقبل، ورأينا على

صخور القديسة هيلانة مكان ضيف جديد!
عباس محمود العقاد
الحديث ذو شجون
للدكتور زكي مبارك
العمر الضائع بين المداراة والرياء - الأندية الصحفية - نادي المعارف - الإذاعة اللاسلكية - إذاعة وزارة المعارف.
العمر الضائع
هو عمري وأعمار أكثر الأدباء في الشرق، فأعمارنا تضيع بين المداراة والرياء، ومن أجل هذا يقل في أدبنا ذلك الجوهر النفيس: جوهر الصراحة والصدق. ومن أجل هذا أيضاً يقل السائلون عنا والراغبون فينا، لأنهم يعرفون أنهم لن يطلعوا على أفق جديد من آفاق القلوب والعقول حين يقرءون ما نطالعهم به من حين إلى حين.
أقول هذا وقد وأدت صفحتين كتبتهما بالأمس، صفحتين صورت بهما من عزفت من الوزراء وتصويراً يعين بعض الملامح من تاريخ العصر الحديث.
ومن أعجب العجب أن نعجز عن قول الصدق، حتى في الأحوال التي يكون فيها ذلك الصدق خيراً محضاً، لأن الجمهور الذي نعاصره يتأذى من الصدق الذي يسر أكثر مما يتأذى من الصدق الذي يسوء. وإنما كان الأمر كذلك لأن هذا الجمهور لا يرضيه أن يكون الصدق وسيلة لتوكيد بعض الحقوق التي غنمها بعض الناس بصدق الجهاد.
ويجب أن نسجل أن النوابغ في الشرق لهذا العهد لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه بفضل تشجيع الجمهور أو تشجيع الوزراء والأمراء، فما نبغ نابغٌ في الشرق لهذا العهد إلا بقوة ذاتية حَمَته وعصمتْه من كيد المخذِّلين والمعوِّقين، فهم كالأشجار التي تنبت في الصحراء ثم تصير بواسق برغم الظمأ والأعاصير.
وهنا تظهر العلل الأساسية لغضب الجمهور من الصدق الذي ينفع، هنا يظهر السبب في أن الفضل أصبح من أكبر الذنوب، لأنه من صور الانتصار على الجمهور، والمنتصر لا يقابَل بغير الموجِدة والغيظ. وهل كانت شماتة الناس بالمغلوبين إلا تعبيراً عن هواهم الدفين في أن تدول دولة القوة والتفوق؟
فالذين يغضبون من الصدق المؤذي لا يغضبون لمن آذيت، وإنما يغضبون عليك، لأنك ملكت من القدرة أكثر مما يملكون، وكانوا يتمنّون لو كان إليهم المرجع في القدرة على
الإيذاء. والذين يغضبون من الصدق النافع يُعبِّرون بغضبهم عن علة خفية هي بغض الخير للناس، ويزيد ألمهم كلما تذكروا أن جودك بالكلمة الطيبة قد ينفعك. وهذا يشرح أسباب حرصهم على تزييف المجاملات بحجة أنها من وسائل النفع، كأنه لا يجوز أن يقصد الرجل بمجاملة النافعين من الرجال غاية شريفة هي رفع العوائق من طريقه والاتسام بسمة التلطف والترفق والذوق.
وكنت قلت في حديث سلَف إنه يجب على الأديب أن يتعرف إلى من يعاصر من الوزراء والزعماء ليساعد على توجيه الحياة الاجتماعية وليكون له مكان في تسديد خطوات الجيل، فرأى بعض الصحفيين أن يقول إني أشرت إلى أسماء كان أكثرها من وزراء المعارف السابقين واللاحقين.
فما معنى ذلك؟ معناه أني أُلاطف قوماً قد أحتاج إلى معونتهم في بعض الأحيان!
والذي قال هذا الكلام صديق، وقد نشره في جريدة هي أيضاً صديق. نسأل الله الحماية من الأصدقاء!
وأقول بعبارة صريحة إني غير راض عن نفسي، لأن جوانب الهجوم لها الحظ الأوفر من أدبي، وذلك باب من الشجاعة بالتأكيد، وهو يعرِّضني لكثير من ألوان المكاره والمتاعب، ولكن هناك شجاعة أعظم من هذه الشجاعة، وهي التي تنبعث عن القدرة على كلمة الإنصاف والتأييد في المواطن التي يحتاج فيها من نعاصرهم إلى الجهر بكلمة الإنصاف والتأييد.
فأنا حين أهجم على رجل أقيم الشاهد على الزهد في المنافع الشخصية، وقد تلقى كلمات الإعجاب بلا حساب. وهذا المذهب لا يضمن الخلوص من هوى النفس.
وأنا حين أتردد في إزجاء كلمة الصدق لمن تنفعهم كلمة الصدق إنما أخدم نفسي بإبعادها عن المواطن التي قد أتهم فيها بالتزلف؛ وهذا رأيي جبن بشع لأنه من صور

الخوف من تزيُّد الناس، ولا يخاف تقوُّل المرجفين إلا الجبان.
وخلاصة القول أنه يجب أن ندرس نفوسنا دراسة عميقة لنعرف إلى أي حد نتأثر بالجمهور في غضبه ورضاه، فهذا الجمهور كالطفل المدلل، ورأيه أضعف من هواه، ولا يخضع الرجل في تفكيره إلى هوى الجمهور إلا حين يكتب عليه الخذلان.

الأندية الصحفية

يظهر أن الحرب الحاضرة سيكون لها تأثير في مصاير الأندية الأدبية: ذلك بأن الظلام الذي يغمر شوارع القاهرة في هذه الليالي قد أضاع بهجة القهوات، وصرف روادها إلى أماكن جديدة هي إدارات الصحف والمجلات.
فقهوة نيويار بميدان إبراهيم لم تعد أمسياتها ملتقى السامرين من أهل العلم والأدب والذوق، وكذلك صارت قهوة السلام بذلك الميدان مجفوة من روادها بعض الجفاء، ومشرب سيسل جفاه أصدقاؤه الأقدمون، وقهوة ريجينا صد عنها من كانوا يجعلونها ندوة الصيف. . . وهكذا صار من العسير أن نجد الفرصة للأنس برؤية بعض الإخوان على غير ميعاد في تلك القهوات كلما جذبنا الشوق إلى أطايب الأسمار والأحاديث.
ومع ذلك عوضنا الله خيراً، فقد انتقلت تلك الأندية إلى إدارات الصحف، وصار من السهل أن نجد من نحب من الإخوان حين نريد، ولكن ما خصائص تلك الأندية الصحفية؟
أرجو أن تسنح فرصة قريبة لتفصيل الكلام عما يقع في إدارات الصحف والمجلات من العناية بتعقب أخبار الآداب والفنون.

نادي المعارف

وما أريد (نادي المعارف) في بغداد الذي يلتقي فيه جمهور المعلمين كل مساء، وإنما أريد النادي الذي أنشأناه بوزارة المعارف في المنطقة الشمالية من الديوان.
ونواة هذا النادي كانت بمكتب تفتيش اللغة العربية، وكان وقوده من المجادلات النحوية والصرفية واللغوية، ثم انتقل إلى البهو الفسيح الذي يجتمع فيه كاتمو أسرار الوزير والوكيلين، إن صح أن لوزارة المعارف أسراراً لا تذاع!
هو ناد مبعثر، ولكنه جذاب، لأنه يجمع أشتات الألوان ولأن أعضاءه جميعاً من أهل البصر بالأدب الرفيع، وإن كان فيهم من لا يقرأ المجلات الأدبية إلا بالمجان، وحجتهم أن وزارة المعارف لا تشترك في بعض المجلات الأدبية إلا لتوفر على موظفيها من الأدباء بضعة قروش في كل أسبوع، وهي حجة من الوجاهة بمكان!
وليس لهذا النادي مواعيد، فأنا أذهب إليه حين يخف ضجيج الجدل بمكتب تفتيش اللغة العربية، وعبد الرحمن صدقي يخف إليه حين يحتاج إلى استعارة جريدة أو مجلة من أحد الرفاق، وعلي أدهم يقر في مكانه إلى أن تنزل عليه نازلة من بعض من يسألون عن مصاير الأدب حين تصطلح الحيتان في بحر الشمال، وسيد نوفل يتلبث ويتمكث إلى أن يجئ من يحدثه عن مدارج البلاغة في غياهب التاريخ.
وسيقوى هذا النادي بعد البشاشة التي شاعت بوجه الأستاذ فريد أبو حديد، وقد تطيب الدنيا فينضم إلى نادينا فريق من الذين كانوا يظنون أن جو وزارة المعارف لا يساعد على خلق الروح الأدبي، لأن وزارة المعارف فيما يزعمون ليس لها أثر مذكور في تشجيع الأدباء.
. . .وزارة المعارف؟ ذلك هو اسمها، والأسماء لا تعلل، كما كان يقال. وإلا فكيف جاز لقد إنساني الشيطان ما كنت احب أن أقول!

الإذاعة اللاسلكية

لا تنقطع أصوات الاعتراض على ضعف مناهج الإذاعة اللاسلكية، ولا يكون من المغالاة أن نقول إن في الناس من نسي أن في مصر إذاعة تواجه الجمهور بالطيبات من الأحاديث الأدبية والعلمية والاجتماعية، فصار من المألوف أن تلقى في محطة الإذاعة بعض المحاضرات الجيدة بدون أن يتنبه لها جمهور المتشوقين.
فما علة هذا النقص؟
لا ترجع العلة إلى ضعف من يسيطرون على محطة الإذاعة، وفيهم أدباء فضلاء، من أمثال فلان وفلان وفلان، وإنما ترجع العلة إلى كسل أولئك الأدباء الفضلاء.
ولكن كيف؟
لم يتفق للمشرفين على محطة الإذاعة أن يفكروا في الانتفاع بمواهب الأدباء الكبار

انتفاعاً يشهد بأنهم يحرصون على تزويد الجمهور بأطيب ما في مصر من ثمرات العقول والقلوب والأذواق، وإنما يقبع المشرفون على المحطة في مكاتبهم لفحص ما يرد عليهم من طلبات الشادين والمبتدئين من الذين لا يعرفهم الجمهور أول مرة إلا عن طريق المذياع.

من حق محطة الإذاعة أن تشجع بعض المبتدئين، ومن حقها أن ترفع إصر الخمول عن بعض الخاملين، ولكن هذه النية الطيبة ستعود عليها بالضرر البليغ، وسيكون حالها كحال المجلات التي تسقط جدرانها فوق رءوس من تشجع من التلاميذ.

ويظهر أن محطة الإذاعة تنسى أن لها جماهير في أقطار الشرق، وأن تلك الجماهير لا تنظر بعيون الارتياح إلى عنايتها بتدريب المبتدئين، وتشجيع الخاملين.

أكتب هذا وقد سمعت أن المشرفين على محطة الإذاعة أقسموا بالله جهد أيمانهم ليغلقن آذانهم عن كلمات النصح، حتى لا يقال إنهم ضعفاء تخيفهم أسواط النقد الأدبي.

وأنا أحترم هذا النوع من الشجاعة، وأرجو أن يعرفوا أني يائس من آذانهم كل اليأس، وما حملني على تسطير هذه الكلمة إلا الرغبة في أن تعرف جماهير الأمم العربية أن مصر بخير وعافية، وأن محصول محطة الإذاعة لا يمثل ما في مصر من حيوات القلوب والعقول.

إذاعة وزارة المعارف

زعموا أن وزارة المعارف نظمت دروساً للراسبين في امتحانات الثقافة العامة وامتحانات القسم الخاص

وما يهمني إلا الدروس الخاصة باللغة العربية، لأنها تصور مواهب المدرسين بالمدارس الثانوية. وأنا أقترح أن تسجل تلك الدروس لنستطيع مؤاخذة أصحابها حين نشاء، فبعض من يلقون تلك الدروس يقعون في اللحن الفاحش، ويسقطون في تفسير النصوص سقطات لا يتردى فيها العلماء، فإن اعتذروا بأن بعض من يفسرون القرآن عن طريق المذياع يقعون في أغلاط أبشع من أغلاطهم فذلك هو العذر الذي قيل إنه أقبح من الذنب!

ولو تفضلت محطة الإذاعة فسجلت طوائف من الأحاديث لاستطاع النقد الأدبي أن يطوق بعض أصحابها بأطواق من حديد.

ولكن متى تصنع وهي تزعم أن ليس في الإمكان أبدع مما كان؟! ومع ذلك يعاب علينا أن نثور من وقت إلى وقت، كأن من الواجب أن نفرح بكل ما يصدر عن أبناء الوطن الغالي!

أيكون من حق بعض الناس أن يصدعونا باللحن والخطأ في جميع الأوقات، ولا يكون من حقنا أن نعرك آذانهم في بعض الأوقات؟

سنزجي أيام هذا الصيف بتعقب أولئك (الفضلاء) إلى أن يصدر الأمر بأن محطة الإذاعة محطة حكومية وأن توجيهها إلى السداد من الممنوعات. فمتى يصدر ذلك الأمر ليعرف الجمهور أن سكوت النقد الأدبي عن محطة الإذاعة ليس، إلا فنا من الطاعة لا ولي الأمر منا؟

عفا الله عمن حرضوني على هذا النقد اللاذع من القارئين والقارئات والسامعين والسامعات، وإن كان تحريضهم شاهداً على أن في مصر ناساً يقرءون ويسمعون!

وهل من القليل أن يكون في مصر من يرجو أن تفرض (الرقابة الأدبية) على من يكتبون ويخطبون؟

زكي مبارك

إلى الباكين على فرنسا

مقتول يبكي على قاتله!

وفي غير الحب. . .!

للأستاذ عبد المنعم خلاف

عجيب هذا التفريق والتمييز بين فرنسا السياسية وفرنسا الأدبية والروحية - إن كان لها روح - من أقلام طائفة من كتابنا، بينما فرنسا لا تفرق بين الإسلام والعروبة السياسيين والإسلام والعروبة الروحيين!

أصحيح أنه في مواريثنا ولا في أفكارنا ولا في إنسانيتنا شيء ذو قيمة يستحق الإبقاء عليه والاحتفال به وإمداده بعوامل النمو والحياة؟
وإلا فما بال فرنسا في كل ديار العرب والإسلام التي وقعت تحت سلطانها السياسي أو الأدبي تكيد للإسلام والعروبة وتحاول تجريد أهلها من القوة والمقومات والجنسية واللغة والدين؟
لو فرقت فرنسا وهي القوية بين شخصيتنا السياسية وشخصيتنا الروحية والأدبية ما كان في ذلك خطر عليها مثل الخطر الذي على أممكم الضعيفة أيها الكاتب من هذا التفريق الذي تفرقون.
تلك مقالة صحيحة في علم الأخلاق. وانتم (إن أول الشر استطراف الأشرار) استظرفتم أعدائكم أعداء الحرية والحق الذين زعموا أنهم أول من أعلن حقوق الإنسان، ومددتم أعينكم إلى ما عندهم من زينة الحياة وأعجبتم بجمال اليد التي تضربكم بالسيف وتأخذ منكم أقواتكم وأرزاقكم وغلات أرضكم ومجهود عمالكم وجنودكم لتصنع من كل أولئك أدوات زينتها ووسائل ترفها، وتقيم بها أسواق فنونها وأنسها وبهجتها ومعارض قوتها، ثم لا تذكر هي فقركم وعيلتكم وحرمانكم وضعتكم وهوانكم وجهلكم حين تذكرون أنتم باريس التي قام بنيانها على أنقاضكم وفنونها على أطلال هداكم.
إنكم أخطأتم فهم وضع الإنسان في الحياة ونسيتم الوضع القدسي الذي وضعه فيه الإسلام، وكان هذا الخطأ وهذا النسيان السبب الأول في تنازلكم الكاملة عن حقوق حياتكم وحقوق
حياة الآخرين من عباد الله واغتفاركم لفرنسا جناياتها السياسية على صميم الحياة الإنسانية في ملايين عدة من أرواح الإنسان في مقابل تمتعكم بترفها العقلي والأدبي وألوان فنونها التي لم تغن عنها شيئاً غداة نكبتها الكبرى تحت أقدام الألمان.
لقد أنذرتكم الأقدار في سقوط فرنسا بأن هذا الترف العقلي والبدني الذي فتنتم به وأعجبتم بعدوكم له ونسيتم حقوق نفوسكم ونفوس أبناء عمومتكم ودينكم من أجله - إن هو إلا فقاقيع صابون جميلة براقة تنفجر لأقل نسمة تلامسها.
الأدب والفلسفة والفن في فرنسا زور وبهتان وهذيان، لأنه لم يرفع النفس الفرنسية إلى درجة الوصاية الرشيدة على ميراث الفضائل الإنسانية، ولم يجعلها نفساً رحيبة سمحة مع من اغتصبت حرياتهم وحقوقهم بل لم يجعلها نفساً سمحة مع ذاتها هي. وأكبر الدليل على ذلك تلك الأسس الاقتصادية الفاسدة والبراكين الداخلية والانحلال والتفكك الذي انتهى بها إلى نهايتها العجيبة.
لو حكموا الناس حكم الإبقاء والاستحياء لا الإبادة والإفناء والإهدار والتحقير والحرمان من نور العلم وهدى الدين لقلنا خلفاء في الأرض يعمرونها وينمون مواردها ويحترمون إنسانها كما يسمنون حيوانها، ولكنهم لم يفعلوا هذا بل جشعوا وهم الأغنياء، وحرموا المحكومين العلم وهم العلماء، ولم يحاولوا رفع النفوس الإنسانية، بل على الضد كادوا لها ودسوا سموم الضعف والفساد إليها، فليس لنا أن نقول إن لهم روحاً تحب وسياسة تكره لأن التفريق بين الفضيلة والسياسة إلى هذا الحد الفاحش لا يستقيم في معرض انتحال الأعذار وتلمس المنادح إلا إذا حرفنا القلب الإنساني عن موضعه الإلهي. . . ليس لنا أن نقول فيهم غير نتيجة أعمالهم.
إن هذا التفريق بين السلوك السياسي والسلوك الروحي قد صار أمره عجباً من أعاجيب الحياة الأوربية! وقد بات خطراً على الحياة الإنسانية الشخصية لأنه تسرب إلى موازين الحكم على الأفراد فهم يحترمون الذكي ويقدرونه ولو كان شيطاناً شريراً مفسداً ويقولون هناك حياة خاصة يحل للإنسان فيها ما يحرم عليه في الحياة العامة. . حتى تعددت الشخصيات بين ازدواج وتثليث وتربيع إلى ما لا نهاية. . . وبات الإنسان بهذا متعدد النواحي تصطرع فيه الأضداد وتحترب المتناقضات.
هذا كذب وتدليس على الطبيعة والفطرة كما أرادهما الله فاحذروه! (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه. . .) إن الحياة الشخصية إذا تكن بريئة نظيفة معتصمة بعروة الحق الواحد الذي لا يتعدد فهيهات أن تصفو لها وبها الحياة العامة. فإن النوازع النفسية هي الروافد للأفكار والأعمال. وأن الحق لا يعترف بسلطان الهوى (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض) فلا غفران من الحق لنسيانكم آلامكم وآلام

أبناء جنسيتكم ودينكم في الجزائر وتونس ومراكش الذين جعلتهم فرنسا أمكم الروحية متخلفين عن قافلة الحياة العالمة العادلة بمائة وخمسين سنة. . .
إنهم ضربوا مدينتكم دمشق ظئر الإسلام الفاضلة الأصيلة العمرة بآثار مجدكم - بالمدافع في الثورة السورية الكبرى؛ ومع ذلك لم يبك عليها منهم باك، ولم يرث لها قلب راث. . فلماذا تبكون أنتم على باريس حينما جرعتها الأقدار غصص القصاص العادل والثأر لكم ولغيركم من عبيد الله المستضعفين؟!
ليست هذه شماتة، ولكنها أيضاً ليست صوفية بلهاء في الوطنية والجنسية، ترحم الجاني وتبكيه يوم ينزل به قصاص العدالة التي قامت بها السموات والأرض.
أجل، ليست ضعفاً وفسولة من (مقتول يبكي على قاتله. . .) وفي غير الحب! إلا إذا تحررتم من أعدائكم، ولكن ما دمتم تحت النعال فلا تمسحوها وتجملوها بأيديكم. . . وما دامت النصال تنوشكم فلا تحدوها وتشحذوها وتسددوا السواعد التي تضربكم بها. . . وتسديدها هو أن تتغنوا بأي مجد لمن بها تجنوا عليكم ما داموا مصرين على تعذيبكم بمجدهم
ذلك هو منطق الطبيعة الصحيحة المزاج البريئة من التدليس وخديعة الضعف والعجز ونسيان القدر الضروري اللازم من الوحشية لكل إنسان يحرص على الكرامة الإنسانية التي لا تساوي الحياة تكاليفها إذا جردت منها. . .
هذا كلام يساق لمن يعتقد أن عالم الفكر والفن والأدب هو العالم الأصيل في حياة النفس الإنسانية، وأن ما عداه فهو على هامشها؛ وعلى هذا الأساس، إذا لم يؤثر هذا العالم الرفيع في النفس ويوجهها للخير، ويجعل حياتها وحدة متناسقة بريئة من التناقض، فلا جدال في أنه قد قام على أساس فاسد يجب تعديله وتصحيحه وعدم اللجاجة في الدفاع عنه.
أما من يظنون أن الأدب والفن حديث بدواة ونزوات وعربدات وألاعيب ذكاء مسجلة تسجيلاً جميلاً ببيان براق يسحر النفس ويخيل إليها أخيلة الأحلام المنفصلة عن حياة الواقع في السياسة والمعاملة. . . فهؤلاء سيظل الأدب والفن بهم في درجة متخلفة أمام جماهير الإنسانية الحكيمة الواقعية عن درجات صناعة الأحذية ودبغ الجلود وكنس الطرق. . .
وسيظلون عائشين على هامش الحياة منظوراً إليهم من الناس على أنهم يحيون في نطاق عالم آخر مملوء بالشذوذ والعقم والفراغ والحيرة والخيبة وعلك الكلام ومضغ الأحاديث والاكتفاء من الحياة بأيسر ما فيها وأهونه. . .
عبد المنعم خلاف
(القاهرة)
تعليق على:
(فائدة الأربعاء!)
للأستاذ علي الطنطاوي
هذه كلمة صغيرة من باب ما نشره الأستاذ في (فائدة الأربعاء)، وما أفتى فيها ذلك (العالم الكبير) الذي أولع - غفر الله له - بتبرير كل ما تفعل العامة، والاستدلال عليه، والدفاع عنه، ولو كان خطأ محضاً، ولو كان ظاهراً فيه الخروج على مبدأ التوحيد الذي جاء به الإسلام نقياً واضحاً، دأبه في ذلك دأب زميله الشيخ يوسف النبهاني رحمه الله رحمة واسعة، فإنه كان على علمه وأدبه يذب عن عقائد العامة، ويسخر للدفاع عنها قلمه البليغ، ويناضل عنها ويهجو العلماء المصلحين بالقصائد الطوال، حتى أنه تطاول على علامة العصر السيد رشيد رضا، وعلى شيخه مربي الجيل الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رضي الله عنهما.
وسبب ذلك كله ابتغاء الخطوة عند العامة، والرغبة في نيل احترامها وتقديرها، وإلا فكيف يخفى على مثل الشيخ يوسف النبهاني والشيخ يوسف الدجوي، وهما هما في سعة العلم، وبلاغة القلم، وحدة الخاطر، أن الذي يدعو إليه السلفيون من لدن شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم إلى الشيخ محمد عبده والسيد رشيد رضا والشيخ جمال القاسمي - أن الذي يدعون إليه إنما هو الرجوع إلى الكتاب والسنة، ونبذ البدع والخرافات، وطرح الأحكام والاجتهادية التي لم يرد فيها نص ولم يبق إليها من حاجة، وليس على شيء من ذلك رد، ولا للجدال فيه مجال؟

وكيف يخفى على عالم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يمنعه ما كان يقاسي من آلام المرض الذي قبض فيه من أن يبين أن الله لعن قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد - وأن المسلمين أمسوا اليوم، وما مسجد من مساجدهم إلا وفيه قبر أو أقيم على قبر، وأكثر هذه القبور لم تصح نسبته إلى صاحبه. هذا مسجد دمشق الكبير، من يستطيع أن يثبت أن القبر الذي فيه هو قبر سيدنا يحيى عليه السلام، وقبر سيدنا الحسين في القاهرة من يثبت أنه فيه مع أن رأسه في المشهد المعروف باسمه في مسجد دمشق وجسده في كربلاء؟ وكيف يكون في بيروت مقام سيدنا يحيى وليس في هذا المقام قبر ولا شبهه؟ ولكنهم كرهوا أن يكونوا

بمنجاة من مخالفة الحديث، فأقاموا هذا المقام على غير شيء. . . وما الفرق بين وجود القبر وعدمه ونحن تعتقد أنه لا يضر ولا ينفع؟ وكيف يخفى على عالم أن في الحديث الصحيح الذي رواه علي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم أمره ألا يدع صنماً إلا كسره، ولا قبراً إلا سواه بالأرض؟ فما بالهم أحرص الناس على تشييد القبور وتعظيمها والوقوف بأعتابها؟ وهل يفعلون ذلك إلا استرضاء للعامة وابتغاء الخطوة عندها؟ فأين إذن أمانة العلم وكرامة العالم، وأين إرث الرسول؟

وأغرب من ذلك وأبعده عن الحق أن من العلماء من يستدل على الخرافة بأحاديث لا أصل لها إرضاءً للعامة. حدث من أسابيع أن قدم دمشق عالم تركي من علماء إسكندرون، فدخل المسجد فرأى حلقة نبيلة فجلس فيها، وكان المدرس من علماء دمشق المعدودين الذين يقرؤون بين العشاءين، فسمعه يقول: إن النبي صلى الله عليه وسلم يخرج كل ليلة من قبره بلحمه ودمه فيدور دورة في الأرض يرى فيها كل شيء ثم يعود إلى قبره. فقال له الشيخ التركي: من أين جئت بهذا؟ فأظهر المدرس الغضب وصرخ: ألمثلي يقال من أين؟ إذا شئت أن تتعلم فتعال إلي في داري أعلمك.

فجاءه في داره، فبحث ونقب ثم أتاه بحديث ليس له سند معروف. فقال له: هذا حديث موضوع، فقال المدرس: لا بل هو صحيح، وصرفه من داره. فلما كان الغد دخل الشيخ التركي المسجد ومعه طائفة من الكتب المعتبرة التي تنص على أنه حديث موضوع، فكان جواب الشيخ أن صرخ: نحن ما عندنا وهابية. . نحن ما عندنا وهابية. . نحن من أحباء الرسول. وكرر ذلك حتى جمع عليه العامة فكادوا يبطشون به.

وأشد غرابة من هذه القصة ما أسمعه كل جمعة على كثير من منابر دمشق، من التصريح بأن النبي صلى الله عليه وسلم حي في قبره. وما أدري كيف يكون حياً في قبره الحي عندنا هو الذي يأكل ويشرب ويتنفس؟ فهل هو صلى الله عليه وسلم حي في قبره بهذا المعنى؟ وإذا كان حياً فكيف نعتقد أنه مات سنة كذا، وكيف قام من بعده أبو بكر وعمر ومئات الخلفاء؟ وإذا ثبت أنه قد عاش كما يعيش الناس ومات كما يموتون فكيف يكون حياً في قبره إلا أن تكون حياة روحية برزخية لا نفهم ما هي؟ ولا ندرك صلتها بحياتنا الأرضية؟

أما إنه لا بد من تصحيح عقيدة المسلمين بالنبي صلى الله عليه وسلم. والصحيح أنه ليس بشراً كسائر البشر أو فيلسوفاً أو مصلحاً فحسب، كما يريد أن يصوره بعض المستشرقين وأذيالهم من الملاحدة الذين تخرجوا على أيديهم فجاءوا منكرين للوحي، لا يرون فرقاً بين النبي وبين العلماء المصلحين، ويزعمون أن الإسلام إنما خرج من رأس محمد وقلبه.

وليس فوق البشر، كما يتصوره بعض المسلمين القائلين بخرافة حياته في قبره، وعلمه بكل شيء، وقدرته بعد موته على النفع والضرر.

ولكنه بشر مثلنا بنص القرآن، وإنما يمتاز بالعصمة وبالوحي، وبقيامه بالتبليغ عن الله، وقد انقطع الوحي والتبليغ بموته، فمن ادعى أنه رآه صلى الله عليه وآله وسلم في نومه فأمره بكذا أو نهاه عن كذا، يكون إما مجنوناً أو معتقداً نقص الشريعة، أو متلاعباً بالدين. . ومن حسب أنه يمدحه بمثل قوله:

يا أكرم الرسل مالي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحوادث العمم

فهو على ضلال، لأنه يمدحه بما يهدم التوحيد من أساسه. وإذا كان كفار قريش الذين سماهم الله مشركين وأوجب قتالهم، يدعون الله مخلصين إذا ركبوا في الفلك، ورأوا الشدة، فماذا يكون هذا الرجل الذي يحيق به الحادث العمم فلا يجد من يلوذ به إلا الرسول؟ وينسى الله؟ ونحن نعلم أن النفي والاستثناء من طرق القصر ولذلك كانت

كلمة التوحيد لا إله إلا الله؟
وماذا نقول للعلماء الذين يفهمون هذا الأمر الواضح، ثم يقرؤون هذا البيت عند سماعه لأن العامة تعتقد به وتقدسه؟
وماذا نقول للعلماء الذين يحضرون الموالد وأشباهها فيسمعون المغني يتغزل بالرسول، ويذكر الوصال، أي والله، والعين والفم وهاتيك الوقاحات، ويسكتون خوفاً من العامة؟
والذين يجلسون في حفلات الرقص التي تسمى ذكراً، ولا ينكرونها وهم يعرفون بطلانها خوفاً من العامة؟
يا سادتنا العلماء الأعلام، إننا لا نحتاج إلى علم، فإن عندكم منه ما يزيد على الحاجة، ولكنا نحتاج (ولا مؤاخذة) إلى إخلاص وإلى جرأة، وإلى تحرر من التعبد لجماهير الناس، وتخلص من الخضوع للعامة، فإذا وصلتم إلى ذلك لم نختلف ولم نتجادل، لأن المسألة ترد
إلى الدليل وأنتم أعرف به منا.
إننا نشكو أموراً كثيرة، وأنتم تعرفون دواءها ولكنكم تخافون العامة. . .
منها العقيدة بالقبور، وسؤال أهلها، والتوجه إليها، وهي عقيدة لا يعرفها الإسلام، بل يعرفها اليونان الأقدمون ويسمونها عبادة الأبطال. ومن شاء فليرجع إلى كتاب تاريخ الحضارة لشارل سينوبوس الذي عربه أستاذنا كرد علي بك وليقابل بين العقيدتين وليقل لي: أماهما من جنس واحد؟
ومنها مسألة السفور، هذه المسألة الاجتماعية الخطرة، التي تعد من الأدواء المعضلة، والعلماء واقفون منها شر موقف، وبيان ذلك أن النساء يمشين نحو السفور بل الحسور والتهتك والعلماء ساكتون لا يعالجون المسألة ولا يحسنون علاجها، فإن تصدي لها مصلح فأحب أن يجد لها دواء، كالسفور الشرعي المحتشم مثلاً - أثاروا عليه العامة، وخطبوا به على المنابر، واتهموه بأنه سفوري مفسد، فإذا كف عن بحثه الإصلاحي عادوا إلى نومهم وتركوا حبل التهتك على غاربه. . . فلا هم يصلحون ولا هم يتركون الناس يصلحون، وأظنهم لا يفكرون في الإصلاح تفكيراً جدياً، وإنما يبتغون الخطوة عند العامة.
ومنها مسألة الطرق الصوفية وما فيها من منكرات.
ومنها خرافات المتصوفة وضلالاتهم كالقول بوحدة الوجود، والقطبانية، وأهل الديوان.
ومنها مسألة المذاهب الفقهية والاجتهاد، والكلام فيها يحتاج إلى فصل بل إلى فصول طوال.
ومنها الرد على الشبه التي يوردها المستشرقون وأمثالهم.
فمن لهذا المسائل إلا أنتم يا سادتنا العلماء؟ من يعالجها؟ من يدرسها؟ كيف تدرسونها وأنتم تحرصون على رضا العامة أكثر من الحقيقة؟
هذه هي المسألة يأيها الأستاذ المدني، ليست محصورة في فائدة الأربعاء ولا فائدة الخميس! فسل إخوانك علماء الأزهر ما هو جوابهم عليها وقل لي، ولك الشكر وعليك السلام.
علي الطنطاوي
من وحي الحرب
يا سيدي. . .
للأستاذ كامل محمود حبيب
تلقى أحدهم أبيض بضاً، يملخ في الباطل ملخا، ينفض مذرويه، ويضرب أصدريه؛) الحسن البصري (يقول: هاأنذا فأمروني. قد عرفناك فمقتك الله ومقتك الصالحون أهلاً بك، ياسيدي، وسهلاً!
الآن أشرق ظلام القرية بنور وجهك البهي، فافتح أمامي بابك المغلق وقلبك الموصد، ودعني أجلس إليك ساعة أبثك هماً من همي، وأشكو إليك شجناً من شجوني؛ فأنا عبدك وخادمك منذ أن كان أبوك وأبي. . .
دعني أجتلي طلعتك الوضاحة علها تزحزح عن صدري بعض ما قدحه لطالما طلبت إليك أن تسكن إلينا يوماً أو بعض يوم لتنفث فينا الحياة، فرميتني بالنظرة الشزراء والكلمة القاسية، تشعرني خيبة الرجاء وضيعة الأمل.

وتصرمت سنوات، يا سيدي. والآن، جزى الله الشدائد كل خير، فهي أرسلتك إلينا لتسكن القرية وترى. . فأهلاً بك، يا سيدي، وسهلاً.
ماذا، يا سيدي، ماذا؟
ماذا وراء هذه السحابة السوداء التي تظلل وجهك الصبوح؟
وماذا وراء هذا الفتور الذي يفعم جنبات حياتك؟ وماذا وراء هذه النظرة الفاترة الحائرة وهذه الإطراقة الطويلة الصامتة؟
إنك تأخذ وتذر في صمت، وتجادل وتناقش في ملل، وتأمر وتنهي في تكسر، وتعمل وتدع في ضيق؛ فماذا. . ماذاأصابك يا سيدي؟
أفتضيق نفسك بهذا الفضاء المنفسح وهو مسرح القلب ومراحه، وتنزعج أذنك من خرير ماء الغدير المنساب خلال الوادي وهو النغم الساحر توقعه الطبيعة على قيثارتها الإلهية؛ ويرتد طرفك دون هذا البساط السندسي الجميل في ضجر وهو روح الجنة على الأرض؛ وينغلق صدرك دون هذا الهواء النقي وهو معنى من معاني الشباب الدائم؛ وتتململ وأنت في ثوبك الفضفاض وهو يشعرك بحلاوة الحرية؟
لا جرم، فأنت لا تجد هنا بهجة الروح، ولا هوى النفس ولا نور العين، ولا. . . ولا شفاء القلب.
غير أنك، يا سيدي، حللت أهلاً
برغمك هبطت بيننا لتعيش عمراً من عمرك، فهل ترسل نفسك على سجيتها لتشعر ببعض ما أقاسي؛ فأنا الفلاح الصغير الفقير، أكابد شدة الحياة، وشظف العيش، وذلة الإهمال وحيرة الضياع.
منذ سنوات، وأنت تقسو علي، فتنتزع مني قوت عيالي ومساك روحي في غير رحمة ولا شفقة، لتشبع رغبات المدينة الجامحة وحاجات الحضارة المزورة، وأنا أحمل ثقل ظلمك في صبر لأنك أنت سيدي.
منذ سنوات، وأنا أقف بباب قصرك ساعات (كالشحاذ) أطمع أن أفوز بكلمة، فلا أجد السبيل إليك، لأن حاجزاً من الرفاق يحول بينك وبيني.
واندفعت في سبيلك، فركبك الدين؛ وأنا أنادي، فلا يبلغك صوتي الضئيل، لأن فنوناً من الشهوات تشغلك عني
ومرت الأيام، وقصر أبيك المشيد في الضيعة يتداعى رويدا رويداً، وأنا أناشدك أن تمنحه فضل مالك، فأعرضت عني في أنفة وكبرياء؛ وشمخت بأنفك، فقلت: يا سيدي، إن الغيب مستور، ومن يدري، لعلك تحتاج إليه في وقت ما. فقلت: هيه، أيها الغبي، أفتبتغي أن أسكن القرية وأنا هو أنا. . . فسكت وفي قلبي حسرات على أن ينهد هذا الجمال الرائع.
لقد تأنق أبوك فيه، فكان فناً من الفن، وكان مشرق العز ومهبط النعيم؛ فلما سيطرت عليه اطرحته، وطرت إلى بلاد تسميها أنت بلاد النور، تضيف إلى جهلك جهلاً آخر، وتركتنا هنا نتكفأ في بلاد الظلام والفاقة.
إن الذي دفعك إلى هناك هو العلم الذي يعلم الجهل، وهو العقل الذي يعلم الجنون.
والآن جئت، يا ابن القرية، برغمك لتتردى في قرار مكين وثارت بك سورة السلطان فرحت تتسخط على هذا الجهل الشامل، ونسيت يوم أن ذهبت أستجدي جاهك عل ابني يجد مكاناً في المدرسة، فهررت في وأنت تقول: حتى انتم. . . حتى أنتم أيها الفلاحون، تريدون أن تتعلموا. . .؟ فرجعت والخيبة تشيع في جنبات نفسي.
فهل يسرك الآن هذا الجهل الذي تفهق به القرية؟
أتحس في قرارة نفسك أنني إنسان مثلك؟ كلا
بل أنت كنت خاوياً ونفخت في إهابك الرتبة وسما بك اللقب هذا اللقب غرسته يد الكبرياء، وسقته نزوة الخنزوانة، وتعهدته ثورة النعرة.
هو النبتة اللئيمة التي خلقتها أيام الاستعباد، وترعرعت في حضن الاستبداد.
هو القيد البغيض والغل القمل.
هو العصا السحرية التي تخضع لها الأعناق، وتتملقها الألسن، وتهفو نحوها الرغبات، وترنو إليها الأبصار، وينفتح أمامها الباب المغلق، ويذل لها القلب المتغطرس، و. . .
واللقب هو سيما الخسف والهوان، وعلامة الغشم والحيف، فمتى. . . متى الخلاص؟
لا تلمني، يا سيدي، فاللقب هو عدوي الذي أفرق منه: لأنه بعث فيك العظمة والكبر،

وعلمني الصغار والضعة، ونفث فيك الغطرسة والعجب، وأوحى إلي بالاستكانة والاستخذاء، وسما بك إلى الخيلاء والصلف، وانحط بي إلى التصاغر والخنوع. وهو فتح أمامك مغاليق الحكومة وأوصدها في وجهي، وهون عليك أمر الرزق وأعضله عليّ، والآن لك الحياة ورماني منها في مهمة حزن.
فلا تلمني إن أنا مقته من جماع قلبي.
ولكنك أنت، يا سيدي، حللت بيننا أهلاً.
تعال معي، يا سيدي، نجلس هناك على الحصباء تحت الظل الوارف، إلى جانب الساقية. تعال علك تجد في نواح الساقية وأنين الثور وشكواي أنا الفلاح برداً يطفئ ثورتك.
تعال واشهدني وأنا بين الطين والماء، بين الفأس والمحصدة، بين الساقية والطنبور، بين أرجاء أرضك التي تسعد بمحصولها، أسهر الليل وأقوم النهار، أعني النفس لتجد أنت لذتك. تعال عل قلبك يتفتح لي فألمس بعض عطفك.
تعال واقترب مني. لا تخش جسمي القذر ولا ثيابي الرثة الوضيعة.
تعال، انزل عن كبريائك ساعة واجلس إلي وذق طعامي ونم إلى جانبي، ولا تأنف ولا تمتعض ولا تدع الحسرة تنسرب إلى قلبك فأنت رجل عظيم تستطيع أن تصنع شيئاً.
ثم تعال إلى داري وتأمل أهي خير أم حظيرة البهائم؟
إن شيئاً من هذا لا يؤلمني بقدر ما آلمني أن أراك تشكو الريف وتضيق بالقرية وتفزع عن ضيعتك التي تغل عليك الآلاف
ولكنك الآن، يا سيدي، حللت هنا أهلاً.
هذا هو وطن الشدة فاحبه بعض رعايتك، وهيئ منه في شتائك لصيفك، ولا تدع صعرك يطغى على عقلك.
إن الريف يمرح بك ويبسم لمقدمك ويتلقاك بين ذراعيه في فرحة، فليكن له منك حسن الجزاء.
لقد تفتق ذهنك، وأنت بيننا، عن ألف مشروع ومشروع، ورأيتك تمسك بالقلم - تارة - ترسم على القرطاس، وتمسك بالعصا - تارة أخرى - تخط على الثرى، فهل تعمل أم هو الرخاء يمحو آثار الشدة، فتنطلق - بعد - على سننك يجرفك الترف الذي أفسدك وأفسدنا.
وأنت - أيتها الحرب - وعاك الله وأدامك لأنك علمت سيدي أن له داراً وأهلاً وضيعة يطمئن إليهم ساعة من زمان، وأنت أزحت الغشاوة التي كانت تحجب بصره عني، وأنت. . . .وأنت. . . وأنت
فرعاك الله - أيتها الحرب - وأدامك
(مشتهر)
كامل محمود حبيب
على هامش الحرب
الطابور الخامس في القرآن
للأستاذ عبد الرزاق إبراهيم حميدة
- 2 -
أهل الكتاب
أعمالهم في السلم: التشكيك في الدين، محاولة فتنة المؤمنين، تحريف كتابهم إذا كان فيه ما ينفع المؤمنين، محاولة التفريق بين الأوس والخزرج.
قدمنا في المقال السابق كيف اضطر الرسول الكريم إلى الهجرة من مكة إلى المدينة، وكيف يسر الله له أسباب هذه الهجرة الشريفة بدخول كثير من أهل المدينة، وبخاصة أشرافها، في دين الله، فكانوا عزاً للإسلام، ولمن هاجر إليهم من مسلمي مكة، وعندهم استراح المسلمون المهاجرون من أذى قريش، وتهيأت لهم الفرصة في يثرب ليقتصوا من الذين أخرجوهم من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله. واستمر النضال بين المسلمين ومن تخلف عن الدين الجديد إلى أن ظهر الإسلام في جزيرة العرب على الدين كله.
ولكن انتصار المسلمين على قريش خاصة وعلى بقية المشركين عامة، لم يكن أمراً سهلاً؛ فقد كان العدو الخارجي قوياً، وكانت جماعة الطابور الخامس في المدينة وما

حولها خطراً شديداً، إذ كانت تخفي عداوتها وتبدي مودتها وتتربص بالمؤمنين الدوائر وتعين عليهم إن سرا وإن جهرا كل من يغير على المدينة أو يريد بالإسلام سوءاً.
ولما كان عدد المسلمين كثيراً بالمدينة، وكان النبي الكريم أكبر عامل في حياة يثرب، وله الرأي الأعلى في إدارتها وحربها وسلمها ونظامها الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، كان لا بد من استخفاء جماعة الطابور الخامس في المدينة، وكان لا بد لها من إظهار الإسلام، أو الارتباط بالرسول بعهود وثيقة أن تنصره وتشد أزره ولا تعين عليه مغيراً، حتى تسنح الفرصة لإظهار الكفر أو لنقض العهد، وحينئذ تسارع هذه الجماعة في الكفر وتخلف النبي ما وعدته.
وأهم طوائف هذه الجماعة - جماعة الطابور الخامس - هم أهل الكتاب والمنافقون من أهل المدينة وممن حولها من الأعراب، ويكاد اليهود يكونون وحدهم دعامة الطابور الخامس من أهل الكتاب، ولنبدأ بحديثهم:

اليهود

كان اليهود في بدء الإسلام ينزلون بالمدينة وما حولها، وكانت لهم سيطرة ونفوذ في المدينة قبل الإسلام، وبخاصة من الناحية الروحية، وكانوا يتلون كتابهم ويرون فيه أن رسولاً من غيرهم قرب ظهوره. وكانت صفاته عندهم تدل على أن (النبيَّ الأميَّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرُهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويُحِلّ لهم الطيباتِ ويُحَرِّمُ عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصْرَهم والأغلال التي كانت عليهم) هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، العربي القرشي، الذي ظهر بمكة وأخرجه قومه منها، وهاجر إلى المدينة؛ (فلما جاءهم ما عَرَفوا كفروا به، فلعنة الله على الكافرين). وكان الذي دفعهم إلى الكفر به هو حسدهم له وغيرتهم من أن يكون خاتم الرسل رجلاً من غير اليهود، فقال الله فيهم: (بِئسمَا اشترَوْا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزلَ اللهُ بَغْياً أن يُنزِّلَ اللهُ من فضله على من يشاءُ من عباده، فباءوا بغضب على غضب، وللكافرين عذابٌ مهين)

موقف اليهود من الرسول في السلم

كانت لليهود مواقف بعد الهجرة لا تمت إلى الشرف بسبب سواء ذلك في السلم أو الحرب، والذي يعنينا اليوم هو موقفهم في السلم، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم آخى بين المهاجرين والأنصار بعد وصوله إلى المدينة وأذهب الله به ما كان بين الأوس والخزرج من عداوة، وكان من أول ما عمله أن عاهد اليهود على أن يعيش وإياهم في أمن لا ينصر أحدهم عدواً على الآخر، ومن عهده لهم: (وإن من تبعنا من يهود فله النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم) ولكن الحوادث التي سنقدمها تدل على أنهم لم يوفوا بعهدهم، بل أخذوا يحاربون الرسول الذي أقرهم على دينهم وأموالهم، وأخذوا يحاربون دينه بوسائل شتى.
ومن تلك الوسائل التي اتبعوها طريقة التشكيك في الدين، وذلك أنهم كانوا يؤمنون حتى يطمئن إليهم المسلمون ثم يرتدون كفاراً، كي يظن المسلمون بدين الرسول ظنونا، ويقولوا ما كفر هؤلاء وهم على بينة من أمر الأديان إلا لعلة. ففضح الله هذه اللعبة الخطرة إذ يقول: (وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون)
وكانوا (إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا) عاتبين على من يخبر المؤمنين منهم بصفات الرسول في التوراة: (أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليُحاجُّوكم به عند ربكم؟ أفلا تعقلون؟)
وكانوا يرسلون طائفة منهم إلى الرسول بعد أن يسمعوها أحكام التوراة محرفة، ويوصون تلك الطائفة ألا تقبل من التعاليم والأحكام إلا ما يوافق أهواء مرسليهم سواء وافقت الحق أو خالفته.
وكانوا يتحاكمون إليه، لا رغبة في حكومته العادلة، ولكن رجاء أن يحابيهم فيحكم بما يوافق هواهم، ثم ينقلبون عليه، ويشيعون عنه السوء من أجل هذه الحكومة؛ روى أن شريفاً زنى بشريفة بخيبر، وهما محصنان، وحدهما الرجم في التوراة. فكرهوا رجمهما لشرفهما فبعثوا رهطاً منهم يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، وقالوا

لهم: إن أمركم بالجلد والتحميم فاقبلوا، وإن أمركم بالرجم فلا تقبلوا. فأمرهم بالرجم، فأبوا أن يأخذوا به، فنزل قوله تعالى: (ومن الذين هادوا سماعون للكذب، سماعون لقوم آخرين لم يأتوك، يحرفون الكلم من بعد مواضعه، يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه، وإن لم تؤتوه فاحذروا) وأمر الله نبيه الكريم أن يحكم بينهم بالقسط أو يعرض عنهم، وبين له أنهم احتكموا إليه هرباً من حكم كتابهم، فقال له: (وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله؟ ثم يتولون من بعد ذلك، وما أولئك بالمؤمنين) ثم حذره أمرهم فقال: (وأن احكم بينهم بما أنزل الله، ولا تتبع أهوائهم، وأحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك)

وكان علمهم بدين موسى سبباً في مغالطات منطقية سخيفة يريدون بها أن يبطلوا دين محمد، وأن يصرفوا العرب عنه؛ فمحمد يقول لقومه عن الإسلام: (مِلّة أبيكم إبراهيم) وهم يقولون إن إبراهيم كان يهودياً، وهو أبو العرب فواجب على أتباع محمد أن يتبعوا اليهودية التي هي دين إبراهيم، لا أن يتبعوا الإسلام، فنفى الله وصفهم لإبراهيم باليهودية في قوله: (ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً، ولكن كان حنيفاً مسلماً، وما كان من المشركين) ثم

وبخهم على هذه المغالطة بقوله: (يا أهل الكتاب لم تحاجُّون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده، أفلا تعقلون؟)

وبلغت بهم الجرأة أنهم أرادوا تهويد جماعة من كبار الصحابة منهم حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر ومعاذ بن جبل، ولكن الله عصمهم، وفي ذلك يقول الله تعالى: (ودت طائفة من أهل الكتاب لو يُضِّلونكم وما يُضلُّون إلا أنفسهم وما يشعرون)

وكان في التوراة آيات تدل على صفات محمد وفضله، وكان فيها أحكام توافق القرآن ولا توافق هواهم، فعمدوا إلى تحريفها ليبطلوا حجة المسلمين وبرهانهم على رسالة محمد من هذه الناحية، وكان على رأس هذه الطائفة المحرفة كعب بن الأشرف، ومالك ابن الصيف، وحيي بن أخطب، وهم الذين قال الله فيهم: وإن منهم لفريقاً يَلوُون ألسنتهم بالكتاب، لتحسبوه من الكتاب، وما هو من الكتاب، ويقولون هو من عند الله، وما هو من عند الله، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) وكانوا يحاولون التفريق بين الأنصار من الأوس والخزرج بتذكيرهم بحروب الجاهلية، والعداوة التي كانت بين القبيلتين ومحاها الإسلام: قيل مَرَّ شاس بن قيس اليهودي على نفر من الأوس والخزرج في مجلس لهم يتحدثون، فغاظه تحدثهم وتألفهم، فأمر شاباً من اليهود أن يذكرهم يوم بعاث لعلهم يغضبون، وكان يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه للأوس، ففعل الشاب ما أمر به، فتنازع القوم عند ذلك، وقالوا: السلاح السلاح. فبلغ النبي عليه السلام، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين والأنصار، فقال: أتدعون الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام وألف بينكم؟ فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، فألقوا السلاح وعانق بعضهم بعضاً باكين. فنزل قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين، وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله؟ ومن يعتصم بالله فقد هُدىَ إلى صراط مستقيم، يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تُقاته، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء، فألف بين قلوبكم، فأصبحتم بنعمته إخواناً)

تلك خلاصة أعمالهم في السلم وتتجلى في أنهم كانوا يريدون فتنة المسلمين عن دينهم بطريق التشكيك أو المغالطة أو التحريف، وكانوا يودون التفريق بين المؤمنين بإثارة أحقاد الجاهلية، فكان الله لهم بالمرصاد يكشف حيلهم، يفضح أسرارهم، وينهى عن مودتهم، ويبين مبلغ عداوتهم، فقال فيهم: لنجدَنَّ أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا. وقال تهديداً لهم: (يأيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فتردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت، وكان أمر الله مفعولاً)

أما موقفهم في الحرب، ومحاولتهم هدم الإسلام بالسيف والقتل فهو موضوع الحديث التالي إن شاء الله.

(القاهرة)
عبد الرزاق إبراهيم حميدة
نجوى!
في غدير السُّكون. . .
للأستاذ محمود حسن إسماعيل
تَعَالَيْ تَذبْ في غَديرِ السُّكونِ ... وَنَخْرِقْ أَسانا عَلَى ضِفَّتِهْ
تَعَالَيْ نَكُنْ صَمْتَةً في دُجاهُ ... وَذِكْرَى هَديرٍ على مَوْجَتِه
تَعَالَيْ نَسِرْ في جِنازِ الغُروبِ ... شُعاعاتِ ثُكْلٍ على صَفْحَتِه
تَعَالَيْ. . . فَإنا بَقايا لهيبٍ ... حَشا الدَّهْرِ يَفزَعُ منْ وَقْدَتِه
فما نَبْتَغي مِنْ رَمادِ الزَّمانِ؟ ... ومِنْ لَغَطِ النَّاسِ في ضَجَّتِه؟
حَضِيضٌ حَياةُ الوَرَى كُلُّها ... وإثْمٌ يَهيمُونَ في لوثَتِه
فطيري بِنا عَنْ سَماواتِهم ... إلى أُفُقٍ هِمْتُ في عُزْلَتِه
بَرِي الحَواشِي كقَلْبِ النُّجُوم ... وكالمَلكِ الطفِّل في غَفْوَتِه
عَفيفُ الْخَيالِ كأني بهِ ... تَهادَيْتِ وَالفَجْر في رَبْوَتِهِ
تَعَالَيْ فَإنِّي سئمتُ الحَياةَ ... وَعِفْتُ الشَّبابَ على نَضْرَتِهِ
تُطِلُّ بِعُشِّي نُجُومُ السَّماء ... جِرَاحًا توَلْوِلُ في ظُلمَتِهِ
وَيُلقي حَوَالَيْهِ لَيْلُ الوُجودِ ... خُطَا مَارِدٍ لَجَّ في ثَورَتِه
وَقَلبي بِهِ وَتَرَدٌ وَتَرٌ أَشْعَلَتْ ... خَيَالَ السُّكُونِ رُؤَى نَغْمَتِه
تَعالَيْ نَعِبْ في تَهاوِيلِهِ ... وَنَفْنَى مَعَ الصَّمْتِ في نَشوَتِه
محمود حسن إسماعيل
مراقبة الثقافة - بالمعارف
الحرب في أسبوع
للأستاذ فوزي الشتوي
اضطراب سياسي
أبرز بقاع النشاط السياسي الآن الشرق الأقصى والبلقان، فهما المنطقتان الوحيدتان التي لألمانيا فيهما مجال للمناورات، فهي تحاول في البقعة الأولى أن تضم اليابان إلى صفها لتربك بريطانيا العظمى في الميدان الشرقي، ولتوزع أسطولها للدفاع عن ممتلكاتها في آسيا والمحيط الهادي، وتحاول في البلقان أن يستتب السلام مؤقتاً بأي ثمن.
أما أمريكا فمعروف أمرها، ومعروف أن تأييدها لبريطانيا العظمى أقوى من أن تضعفه المناورات السياسية؛ فأمريكا تعتبر إنجلترا وأسطولها خط دفاعها الأول، فانهيارها يعرض أمريكا للخطر، وإذا كانت تحرص على حفظ قوة إنجلترا البحرية في المحيط الأطلنطي، فإنها تحرص أيضاً على ألا تنتقص هذه القوة بانتقالها إلى المحيط الهادي لتواجه اليابان.
وحاولت إنجلترا بقفل طريق بورما، ومنع توريد الأسلحة إلى الصين أن ترضي اليابان وتضع حد لنزاعهما، ولكن الحزب العسكري في اليابان ثار فأعلن رؤساؤه عدم رضاهم عن الحكومة فاستقالت ليشكل غيرها على هواه، وكانت باكورة أعمال تلك الوزارة أن قبضت على بعض الرعايا الإنجليز مما أثار الحكومة البريطانية، ووقف عقبة في سبيل مفاوضات إنجلترا واليابان.
انقلاب عسكري
ولعل السر في هذا الانقلاب الياباني عقلية حزبها العسكري الذي يصبو إلى السيطرة على جميع آسيا، فهو يريد التخلص من منافسة إنجلترا لليابان اعتماداً على قوته، وقد أنبأتنا البرقيات أن حركة الحزب العسكري لا يقرها قادة اليابان البحريون الذين يعرفون مدى قوة الأسطولين البريطاني والأمريكي، وهم يعرفون أن الحرب مع إنجلترا وأمريكا صدام بين قوات بحرية أكثر منه بين قوات برية، فإن تردد أمريكا في دخول الحرب ينتهي بمجرد أن تدخلها اليابان، ويتولى أسطولها وقواتها العبء الأكبر من الحرب في الشرق الأقصى.
وتدل حركة اليابان الأخيرة على الوسائل التي تلجأ إليها ألمانيا لتحبط حركات إنجلترا

وخصوصاً إذا أضفنا إليها ما أذاعه مدير قسم الأبحاث السرية في أمريكا عن عمل الجواسيس ومحاولتهم إفساد خطط الدفاع الأمريكية بتدمير الطائرات بوضع الرمل في محركاتها، أو بنسف المنشآت العامة وتسميم المياه، وغير ذلك من الوسائل التي يرتكبها الجواسيس.

الروح الوطنية

أما في البلقان فقد تطورت الحوادث الأخيرة تطوراً كبيراً نشك إذا كان هتلر نفسه توقعه، فإنه كان يعتمد اعتماداً كبيراً على تأييد رجال الحرس الحديدي لمشروعاته، فلما ظهرت نياته بالموافقة على ضم جزء من ترانسلفانيا إلى المجر تمرد رجال الحرس الحديدي وتكاتفت طبقات الشعب وزعماؤه، فأعلنوا توحيد صفوفهم بزعامة مانيو زعيم الفلاحين، وقالوا إنهم يفضلون أن تضم بلادهم إلى الروسيا على أن تقتطعها المجر أو بلغاريا.

فإذا لم يتمكن النازيون من إيجاد صدع بين أحزاب رومانيا فإن ضم أحد أجزائها إلى دولة أخرى يتعذر حتى إذا وافقت الحكومة الرومانية على هذا الضم بإكراه ألمانيا، لأن الشعب في هذه الحالة يثور، وتجد الحكومة الرومانية نفسها في مركز ضعيف، وكل حكومة تفضل في مثل هذه الحالات أن تقاتل على أن تسلم، ولا سيما أن المجر وبلغاريا ليستا من القوة حتى تتمكنا من إكراه رومانيا على تلبية طلباتهما، فرومانيا هي أقوى دولة في البلطيق فلديها أقوى جيش، وأقوى سلاح طيران، وكانت تعرف أطماع هذه الدول من قبل فأعدت العدة لصد عدوانها.

واتحاد كلمة زعمائها وتمسك شعوبها وخصوصاً سكان الأجزاء التي يراد ضمها إلى الدولتين الأخريين - عقبة كبيرة في سبيل تحقيق السلام الذي ينشده هتلر في البلقان ويضع خططه في مركز حرج؛ أضف إلى ذلك ظهور الخلاف بين ألمانيا والروسيا على ألسنة الساسة الرومانيين بعد رجوعهم من مقابلة هتلر؛ فقد كثر الكلام أخيراً عن الخطر الشيوعي وعن مساعي ألمانيا لوقفه؛ فهل تكشف حوادث البلقان الأخيرة نقاب الزعيمين اللذين يتظاهران بالصفاء والاتفاق رغم تنافر طباعهما واختلاف ميولهما وأطماعهما؟ هذا ما تكشف عنه الأيام قريباً.

دروس الحرب

ولا يقتصر الاضطراب على أوربا والدول المتحاربة وحدها بل يشمل الأرض بأجمعها، فمهما تباعدت حدود الدول عن ميدان الخطر فهي تشعر به في مناورات جاراتها للاستيلاء على بعض أجزائها حرصاً على فائدة عسكرية، وهي تحمسه فيما أصاب تجارتها من كساد، وما أصاب أهلها من ضيق في العيش تبعاً للرقابة على الصادر والوارد.

فلا يقتصر الحصر الإنجليزي البحري على الدول المتحاربة، بل يتعداها إلى الدول المحايدة البعيدة؛ فلكيلا تحصل ألمانيا على الواردات يجب أن تمنع الدول الأخرى من تصدير منتجاتها إلى ألمانيا؛ وهذه الفترة من الفترات التي يشعر فيها العالم أجمع بما بين دولة من رباط وثيق؛ وهي ليست التجربة الأولى من نوعها ولكن لها أشباهاً في الحروب الماضية، وإن كان العالم قد خبر أقسى تلك الدروس في الحرب الماضية عندما فرض نفس الحصر على تجارة ألمانيا.

وتكرار هذا الدرس من شانه أن يوحد بين أمم العالم، ويجعلها تتنازل عن عصبيتها، فتوحد قانونها وتجعل له من القوة ما للقوانين المحلية التي تقيد مطامع الأفراد وتنظم معاملاتهم على أساس العدل والمنفعة المتبادلة في ظل السلام، وإذا كان الأفراد قد شعروا بوجوب احترام قوانين الدولة فإن أمثال النضال الحالي والنضال السابق هي خير معلم للدول لتشعر نفس الشعور وتحترم القوانين الدولية؛ وقد فشلت عصبة الأمم في العهد الماضي في تحقيق هذه الوحدة لأن الدول لم تكن أعدت الإعداد الكافي من الناحية العقلية، ولأن بقايا النظم القديمة وأطماعها أثرت في نفسية الشعوب.

ولسنا نعني أن هذه الحرب ستكون الحد الفاصل للمنازعات الدولية، وأن العالم سيصبح إذا انتهت دولة واحدة ينظم معاملاتها قانون واحد، ولكننا نرى النضال الحالي وما جره من مصائب يضع أحد أحجار ذلك الاتحاد؛ ففكرة اتحاد دولي عالمي ليست بنت اليوم نودي بها من زمن طويل وكان أول حاكم دولي أراد إحياءها بصورة جدية

اسكندر قيصر الروسيا فوضع في سبتمبر سنة 1851 أسس اتحاد مقدس يحكم الدول على ضوء التعاليم المسيحية ولكن مشروعه قبر لأسباب كثيرة.

جغرافية الحرب

وكما تعطينا هذه الحرب فكرة واضحة عن ارتباط مصالح العالم بعضها ببعض، فإنها تعطينا دروساً أخرى في الجغرافيا، فقارن بين معلوماتك عن بلدان العالم الآن وبين معلوماتك عنها قبل الحرب، تجد أنها تضاعفت عدة مرات، دون أن يكرهك أستاذ على دراستها، ودون أن يضطرك امتحان إلى مذاكرتها.

وعلمتك هذه الحرب كثيراً من المميزات الإقليمية للبلاد من جبال وأنهار وسهول، وما تضمه أرضها من ثروة معدنية وزراعية، وما أتصف به أهلها من قدرة على تحمل شظف العيش ومرارة القتال، كما عرفت مدى حاجات الدول بعضها إلى بعض.

ثورة صناعية

والحرب ثورة صناعية تحفز الحكومات والمخترعين على ابتكار معدات جديدة في الميدانين المدني والعسكري، فكلاهما مكمل للآخر، ولا نستطيع أن نضع حداً فاصلاً بينهما، فالجندي يحتاج إلى وسائل مدنية وعسكرية، فيجب العناية بطعامه وصحته وملابسه ووسائل راحته، كما يجب العناية بإعداده وإمداده بأدوات القتال.

ومن أمثلة تقدم المخترعات (الطيران) فإن ما وصل إليه من طول مدى الطيران وقوة الحمولة يدلان على ما فعلته فيه الحرب، فلم نعرف من قبل أن الطائرة تحمل أربعين جندياً بمعداتهم كما هي الحال الآن، ورحلات سلاح الطيران في إغاراتها على ألمانيا وعودتها دون توقف؛ هذا تقدم كبير يربحه العالم من الحرب عندما تضع أوزارها، ومثله كثير في الطب والصناعة والزراعة.

وليس معنى هذا أننا من مؤيدي الحروب فإن المصائب التي تحل بالعالم من قتل الأنفس وتدمير البلاد وانتشار الأمراض، تفوق بمراحل هذه المكاسب الزهيدة التي يصل إليها العلم أثناء السلم بعد فترة أطول من الزمن، فتقدم العالم مطرد سواء في السلم أو في الحرب إلا أن فترة الحرب انقلاب وسرعة.

الخسائر والأرباح

وهي فترة انقلاب ضرورية إلى أن تصفو الضمائر وتقتنع العقول بأن الحرب مهما أكسبت من أسلاب وغنائم، فلن توازي ما يخسر العالم من أموال ومن أروح، وبلغ عدد القتلى

والجرحى في الحرب الماضية 21 مليون نفس، وتكلفت 67. 598 مليون جنيه؛ وبديهي أن هذه الأنفس والأموال لو وضعت تحت تصرف العلماء والمخترعين لأنتجوا أضعاف ما أنتجت الحرب من تقدم.

وهاهي ذي الحرب الحالية تنفق عليها إنجلترا وحدها 52 مليون جنيه في الأسبوع الواحد؛ فإذا قلنا إن ألمانيا تنفق نصف هذا المبلغ عرفنا كم تتكلف الحرب من أموال تضاف إليها خسارة الأرواح وكساد بعض نواحي الحياة المدنية مما لا تتلائم طبيعته وطبيعة الحرب.

ولا يسعنا أن نقول إن الفنون والعلوم توقف تماماً، ولكنها تتحول إلى الناحية العسكرية، فيشتغل القصصيون بالقصص العسكرية، ويرسم الفنانون الصور العسكرية، وتتحول العقول الهادئة إلى عقول مدمرة عملها شحذ عزائم أهلها؛ فكل أديب أو فنان لا يعمل الآن من أجل الحرب يموت جوعاً، ولا يتيسر له إبراز إنتاجه لأنه يعيش في وادي غير وادي الناس ويفكر فيما لا يفكر فيه الناس، ويبتدع ما لا يقره الناس.

فالقتال إحدى الغرائز الإنسانية، صقلتها القوانين والنظم، وكبتت في الفرد، ولكنها ما زالت بارزة في الجماعة، فإلى أن يتاح للجماعة أن تكبت هذه الغريزة وتحولها إلى غريزة أصلح، فإن الحرب لن تزول.

وإذا كانت الحكومات وفقت في ضبطها عند الأفراد، فمصيرها غامض عند الأمم لاختلاف أمزجتها وميولها اختلافاً بيناً وإن كانت نهايتها المحتومة عندما تعقل الدول.

فوزي الشتوي

بكالوريوس في الصحافة

خواطر في الحرب
للأستاذ محمد عرفة
لم يبق ريب في أن من أعظم الأسباب في سقوط الدولة الفرنسية الترف.
اعترف بذلك الباحثون والكتاب ورجال السياسة، قال بيتان رئيس الوزارة الفرنسية:
لقد دمرت روح الانغماس في الملذات ما شيدته روح التضحية، أصلحوا من أخلاقكم) (ودعوا الترف والملذات، وأقبلوا على العمل بصبر وتضحية
ليس في ذلك كله شك، إنما الشك فيما أعرضه على نظر القراء: أيمكن للأمة تجنب الترف، أم أن الترف أمر لازم يتبع الغنى والثروة، والزهد والحرمان يتبع الفقر والإملاق، فالأمم الغنية حتما تنغمس في الترف والنعيم، والأمم الفقيرة تكون بمنجاة منهما، ولذلك لا يفل حدها، وتبقى لها قوة الصبر والمجالدة؟
حوادث التاريخ تنبئنا أن المذهب الثاني هو الحق فإذا صح هذا كان الوجود مقسماً قسمة عادلة؛ فما خسره الفرد من ذات يده ربحه من ذات نفسه، وما ربحه من نفسه خسره من ذات يده، أي أن الفقير المعدم وإن خسر المال يربح قوة العزم والقدرة على المقاومة، فهو يخسر الكنوز في المال، ويربح الكنوز في الأخلاق والقوى، والغني القادر - وإن كسب المال - يخسر القوة والقدرة على المقاومة فهو يكسب كنوز المال ويخسر كنوز الخلق والقوة والنفس.
عدل في القسمة، وكنوز بدل كنوز، بل ربما كان حظ الفقراء أوفر من هذه القسمة، فإن الكنوز النفسية أثمن من كنوز الذهب والفضة بما لا يقدر.
وإذا صح ذلك أيضاً كان التاريخ متشابهاً، وهو يتكون من دورات رحوية، لا تبدأ حتى تنتهي، ولا تنتهي حتى تبدأ
فأمة تتغلب على أمة، فتغصبها خيراتها، وتتمتع بهذه الخيرات دونها، فإذا فتحت عليها كنوز الأرض، وانغمست في النعيم، ضعفت شوكتها، ولانت قناتها، وتغلب عليها من هم أقوى منها، ممن لم يفسدهم الغنى والترف والنعيم، وممن ازدادوا حصانة بالفقر والإقلال.
محمد عرفة
يا شاعر. . .!
أيها الشاعر قُمْ وال ... عَبْ على تلك الحقولِ
وتنقَّلْ بين هاتي ... كَ السَّواقي والنخيلِ
طَلَعَ الفجرُ على الوا ... دي طروباً والسهول
فلماذا. . . لا تغِّني ... غنوةَ الفجرِ الجميل؟!
أتْرك الغرْفةَ يا ... شاعرُ واسبح في الفضاء
نَسَجَ الفجرُ على الكوْ ... نِ جَلاَبيبَ الصفاء
والشعاعُ السَّمْحُ صلَّي ... في خشوع للسماء
فلماذا. . . أنتَ لا تخ ... لعُ أشجانَ المساء؟!
أَذَّنَ الفجرُ. . . فقمْ يا ... شاعر الحبِّ وغَنِّ
صوتُك المطرابُ يا ... شاعرُ فنٌّ أي فن
شد أوْتارَك واسْكب ... ها أغاريدَ تهنَّي
واجمع الطيرَ حوالَي ... كَ وأَسعِدْها بلحن
جئتَ يا شاعرُ للري ... ف فلِمْ لاَ نتهنَّي؟!
هذه التُّرعة كانتْ ... في صباكَ الحلوِ لحنا
طالما سرْتَ عليها ... في صفاءٍ تتغنى
والعذارى رائحاتٍ ... غادياتٍ تتثنى
ذلك الجدولُ يا ... شاعر كم غنَّى طروبا
والأزاهيرُ عَلَيهِ ... تملأ الوَادي طيوبا
وصَبَايا الحقلِ يرْقصْ ... ن صباحاً وغروبا
شاديات غْنوةَ القط ... ن فيطربْنِ القلوبا
هذه يا شَاعِرَ الحبِّ ... مغانيكَ الحبيَبهْ
عصرَ الله عَلَيْها ... حسْنه الباهي وطيَبه
وكسَاها بُرْدَةً سح ... ريَّة النُّور عجيبه

كم تنعْمتَ عليها ... والمنى منكَ قريبه
أيها الشاعرُ قمْ وامرِ ... حْ على تلك القناةِ
!أنت كم نحتَ وفجَّر ... تَ ينابيعَ الشكاة
فرصَةٌ حانتْ فخْذها ... طرباً قبل الفوات
!إن للشَّاعِرِ دون النا ... سِ بخساً في الحياة
عبد العليم عيسى
. . .على قيثارتي
!. . .لحن اليأس
!اتركوني. . . . لشجوني! ... وليأسى المظلم
!ودعوني. . . . وسفيني! ... لرياح العدم
!قد شربت الكأس ما أبقيت في كأسيَ شيا
!وطويت الأمل المجروح في صدريَ طيا
!وبعثت اليأس في قلبي فعاد اليوم حيا
!آه! قد أصبحت في دنياي حيرانَ شقيا
!زورقي ضلله الليلُ وأعشى ناظريا
!ورياح الموت تدنو، توسع الخطو إليا
!فاتركوني. . . . لشجوني! ... وليأسي المظلم
!ودعوني. . . . وسفيني! ... لرياح العدم
!إنني أحيا كما يحيا الشريد الهائم
!لست أدري أين أمضي؟ كل أفق مظلم
!عصر اليأس فؤادي والحنين المبهم
!فهو في خديّ - واقلباه! - دمع ودم
!وهو في أنفاسيَ الحرَّى لهيب مضرم
!وهو في القيثار لحن شاع فيه الألم
!فاتركوني. . . . لشجوني! ... وليأسي المظلم
!ودعوني. . . . وسفيني! ... لرياح العدم
!ها أنا أطفأت مصباحي، وحطمت قناتي
!ها أنا شيعت أحلامي إلى وادي الممات
!ها أنا ألقيت قيثاريَ في تلك الفلاة
!ها أنا أمضي إلى قبري سريع الخطوات
!لا تقولوا: واهن القلب ضعيف العزمات
!ماتت الآمال في قلبي فما معنى حياتي
!فاتركوني. . . . لشجوني! ... وليأسي المظلم
!ودعوني. . . . وسفيني! ... لرياح العدم
(دمنهور)
إبراهيم محمد نجا
الشاعر الحائر
رسالة الفن
:كأنها ذكرى
أستاذها يوحي لها
للأستاذ عزيز أحمد فهمي

في المرقص، جئن يتبارين، لتفوز المجيدة منهن بالعمل. فقد كن راقصات معطلات، وقد أعلن المرقص عن يوم قريب حدده ليبدأ فيه العمل بأبطال وبطلات جدد.

وكان يومنا هذا اليوم المختار لانتقاء الراقصات المتهافتات على هذا المجال الجديد الطلي.

وراحت كل واحدة منهن تعرض أبهى ما عندها، وأحيي ما عندها، وأشد ما عندها أخذاً، وأقواه أسراً، وأحلاه فجوراً، وأشهاه فتكا.

وكلما كانت واحدة منهن تفزع من جولتها كانت تجلس إلى جانب أخواتها اللائي فرغن لتشاهد أخواتها اللائي يتتابعن على الحلبة يذوبن أنفسهن حركات ونظرات وتشععاً.

فمن أساءت حيينها، ومن أحسنت حيينها أيضاً.
وكانت صاحبة المرقص هي والأستاذ جالسين في ركن يتذوقان كل راقصة من هؤلاء كما يمضغ الأهتم التفاحة، يمصها مصاً في تريث وفي تأن، فما تفوته من حلاوتها ولا من نكهتها نسمة.
حتى انطلقت عذراء لترقص
كان الرقص ملهاتها في المدرسة، وكانت تتشرف به، وكانت تمنح عليه الجوائز دون أن تفكر في أنها ستستنجده العيش، ولكن أباها لما مات، وأمها المنهوكة ترملت، وأخوتها الصغار تيتموا، لم تجد مفراً من أن تعرض في السوق نفسها في أفضح ما تكون نفسها، ألماً وفرحاً، راحة وتعباً، رغبة وإعراضاً، تماسكا وتحطما. . . لتكون راقصة.
عذراء، لا يزال منها الحياء، انطلقت بين الأستار والأنوار، ونهشات الأنظار، فانعقدت، عقلها راح. انصدمت فوقفت، وتدلت، فتساقطت، ولو أنها عصرت ألمها دمعاً لما اختنقت، ولكنها ضعفت فلم تقو حتى على أن تبكي.
هذه. . . تريد أن تكون راقصة. من الذين رأوها من تألم، ومنهم من ضحك، ولكنهم جميعاً
أسرعوا إليها، وحملها بعضهم، وأمرت صاحبة المرقص أن يذهب بها إلى حجرة ما تسعف فيها ثم تأخذ ملابسها وتمضي، فذهبوا بها، وعادوا عنها إلى ما كانوا فيه، ولكن صاحبة المرقص ألفت نفسها في ركنها قد طال مكثها وحدها، لم يرجع الأستاذ لها فسألت عنه فعلمت أنه لا يزال عند البنت التي أغمي عليها.
وكان وقت الراحة قد جاء فقامت السيدة إلى الأستاذ لتراه ماذا يصنع عند تلك البنت. فلما جاءتهما وجدته يقول لها: (هذه الأنوار أنوار، فإذا كنت تكرهينها أطفأناها، وهذه الأستار أستار قطع من القماش مدلاة بحبال ومرسوم عليها صور وأشكال، فإذا لم تكن تعجبك رفعناها، وهؤلاء الناس الذين ينظرون إليك ناس مثلي أنا ومثلك أنت ومثل كل الذين عرفتهم وعرفوك، فإذا كنت تبغضينهم طردناهم. . . أيرضيك هذا؟ ولكن لماذا يرضيك؟ أما كنت ترقصين في المدرسة أمام أنوار وأستار وأنظار؟ هذه كتلك، فلم التخاذل هنا والشيطنة هناك؟ قومي. . . أعيدي الكرة. . . فإني أضمن لك في الرقص مستقبلاً قريباً ربما لم يكن أتيح مثله لراقصة من قبل. . . يا لله يا ماما. . . وهاك الشوكولاته!. . .)
ومصت العجوز المتصابية صاحبة المرقص شفتيها عجباً واستهزاء وقالت: اسمعي الكلام يا روحي وقومي أرينا البشائر وأشهدينا الفتح. . . يا لله يا ماما، وهاك أيضاً من عندي شوكولاته.
وأصرت الصغيرة على أنها تكره الرقص، وتنفر منه وتخشاه وتضرب عنه. . . وجمعت أشياءها في حقيبتها وتمتمت بكلمات شكر مما تحفظه وترويه بدون أن تتدبره أو تفكر فيه، واستأذنت لتمضي، ولكن الأستاذ وقف في طريقها وأقسم ليحبسنها، فلا تخرج إلا إلى الأنوار والأستار والأنظار.
الرجل أحبها، هذا المغمور في متابع الهوى، المنغمس ليله ونهاره بين أذرع الغيد، المنطبق بروحه على أرواحهن، المتقبل بحواسه نفثاتهن وصرخاتهن وهمهماتهن وغليانهن. . . هذا العليم الخبير، الغني الوفير الصيد إذا أراد صيداً، كان يزهد في كل ما كان يرى، لأنه لم يكن يرى إلا صنعة هو أستاذها. . . أما هذه فقد رأى فيها أشياء أخرى، ولم يكن ينقصها إلا هذه الصنعة النى هو أستاذها، رآها الراقصة التي ظل يحلم بها ليحبها وليعلمها
ولترقص له فتلهبه، وتلهمه، فيعود يوحي لها. . . الأخريات لم يقبلن على الرقص إلا حين أردن أن يسفكنه ذهباً، وهذه حين أرادت العيش من الرقص استعصى عليها واستعصت عليه. . . الأخريات عيونهن مفتحة وأرواحهن غائبة، وهذه عيناها محتشمتان مغضوضتان، وروحها هي العاصفة. . .
هذه هي الفنانة الراقصة
قالت صاحبة المرقص للأستاذ (ما دامت الآنسة مصرة على الذهاب فدعها تذهب، وإني أصدقها النصح وأؤكد لها أنها غير مخلوقة لهذه الحياة الصاخبة التي نحياها، وأنه من الخير لها أن تعمل في متجر أو مصنع فهو أليق بها وأوفق لها). . .

فما عارضت هذا الآنسة وإنما هزت رأسها. وقالت: (شكراً، وإن هذا ما اعتزمته، ثم شكراً للأستاذ فقد كان رؤوفاً رقيقاً)
فضحك الأستاذ وقال: (إذا خرجت فأنا معك)
وترك عمله وخرج معها، وصحبها إلى بيتها، فاستقبلته أمها وإخوتها وكانوا ينتظرون عودتها في اشتياق وإشفاق، وكانوا يرجحون أن تزف إليه خبر فوزها في المباراة واضطلاعها بالعمل، فلما دخلت هي والأستاذ أسرعت إليها وسألتها: (ما الخبر؟) فأسرع الأستاذ بالإجابة قائلاً: (إن هي إلا سنة، إن لم تكن بعدها ابنتكم هذه سيدة الراقصات فإني لست إياي). . . فقالت الأم: (على الله، ولكن أما اتفقتم معها لتعمل عندكم هذه السنة؟) فقال الأستاذ: (سأعمل معها أنا) . . .
وأخذ الأستاذ بعد ذلك يهرج مع الصغار ويعابثهم ويضحك معهم ويلعب، ثم أولم لنفسه وليمة عندهم فآكلهم وشاربهم ومازحهم، وما غادرهم حتى كان قد أشاع في نفوسهم جميعاً الفرح، والأمل، والإيمان بأن رضواناً من الله قد انساق إليهم . . . .
إلا الراقصة فقد كانت تسايرهم بما يبدو فرحاً وأملاً وإيماناً، ولكن نفسها كان فيها غير هذا يأس وقنوط وظلمات ووحشة. وكان الأستاذ يحس هذا كله ولكنه لم يكن يعبأ به ولا يخاف منه على صغيرته فقد كان يعد هذا كله من علامات التوفيق الذي كان يتوقعه.
وانتهت زيارة اليوم، وعاد إلى الزيارة في الغد وقال لها: (أما رأيت فروجاً يخرج من بيضة؟) فقالت: (رأيت) فقال لها: (وكيف رأيته؟) فقالت له: (هكذا رأيته، بمنقاره ينقب
البيضة وهو فيها، فإذا انفتحت فيها ثغرة أطل برأسه منها، فإذا رأى الدنيا أمامه نظر إليها عن يمينه وعن يساره، ثم إذا حلت له الدنيا عاد إلى البيضة، فإذا كره الحبسة فيها عاد فنقبها، حتى يتسع له فيها مخرجه منها، فينطلق من محبسه، جرياً، وقفزاً، لا ينظر إلى مثواه القديم، وإنما ينساه، وينجذب إلى أمه، يعرف أنها أمه، وهكذا يخرج الكتكوت من البيضة) فقال لها الأستاذ: (لو أنك انتبهت إلى نفسك وأنت تقصين عليَّ هذه القصة، لعلمت أنك قد ابتدعت رقصة، هي رقصة بريئة طاهرة ترضيك وتوافقك، وقد أخذتها أنا الآن عنك، وسأعود إليك بها غداً، مقسمة، منظمة، منغمة، مزيداً عليها تزاويق من عندي على الأصل الذي كان عندك، فإلى اللقاء غداً . . .
وفي الغد عاد الأستاذ بالراقصة. . . وليس في البيت أنوار ولا أستار ولا أنظار إلا أمها وإخوتها، وهؤلاء جميعاً يفيض من أعينهم الحب والإعجاب والتشجيع. . . فرقصت وأحسنت
فلما رآها أحسنت قال لها: (الآن تستطيعين أن تقصدي المرقص، وأن تتحدي الراقصات فيه بهذه الرقصة، فإذا كنت ستشعرين بشيء من التهيب أو شيء من الوجل فإني سأقف على قرب منك تجاه عينيك، فانظري إلي، وارقصي لي، ولا ينشغل بالك بمن هم حولك، وانسيهم، وازعمي لنفسك أني سألتك ثانية كيف يخرج الكتكوت من البيضة وأنك تجيبين عن سؤالي هذا رقصاً. . . يا لله يا ماما. . . وهاك الشكوكولاته. . .
اضطربت قليلاً، ولكنها قامت معه.
ولم يكن باقياً على موعد البدء في العمل إلا يوم، ولم يكن عند صاحبة المرقص من الصبر ما تحتمل به اختبار راقصة جديدة بعد ما أعدت برنامجها واطمأنت لم نظمت به عملها. . . ولكن تحمس الأستاذ، وإصراره، وأيمانه التي كان يقسم يؤكد بها نجاح راقصته. . . كل هذا حمل العجوز على أن ترضخ وأن تصبر وأن ترى. . . فرأت عجباً. . . فناً رشيقاً بريئاً حلواً مبعوثاً من نفس بكر خالصة صادقة ساذجة ذكية ناصعة، موشى بحلي صاغتها روح هذا الأستاذ العارف المدرك الدقيق المتأنق . . .
فرضخت العجوز واعترفت . . .
وبدأت الراقصة العمل. . . ونجحت في الليلة الثانية، وواصلت النجاح بعد النجاح، وبدلت
الرقصات رقصة بعد رقصة، وتفتحت نفسها بعد ما كانت مظلمة معتمة وبارحها اليأس، وتبدل قنوطها فرحاً ومرحاً وبهجة وإيمانا ورضى . . .
ولكنها لم تنتبه إلى الأستاذ، لم يكن تطلق إليه روحها إلا وقتما كان يعلمها، ووقتما كان

يقف لها على بعد أو قرب لترقص له. . . أما في غير هذين الوقتين فقد كانت تنشغل بالدنيا، وبما فيها، وبمن فيها. . . كلما قال لها واحد من الناس كلمة إعجاب صدقت أنها كلمة إعجاب، وما بالها لا تصدقها والأستاذ نفسه معجب بها. . . كان عليها أن تسأل نفسها: هل هؤلاء الذين يبدون الإعجاب بها يعرفون أين موطن الحسن فيها، وما مبلغ هذا الحسن وما مبعثه. . . ولكنها لم تفكر في شيء من هذا، ولكنها تلقت إعجاب الأستاذ، وحسبت أن الناس كلهم مثله، ثم راحت تحسب بعد ذلك فيهم ميزات ليست فيه هو، فهذا غني، وهذا وجيه، وهذا شباب، وهذا صحة، وهذا اسم، وهذا مجد، وهذا ظرف، وهذا تودد، وهذا هدايا، وهذا ولائم. . . وهذا وهذا. . .

أما الأستاذ فإنه لم يزد عندها على أن يكون معلمها وهدف فنها. . . لم تفكر في أنه يحبها. انفرد بها يوماً وقال لها كلاماً كثيراً دس فيه أنه يحبها فسمعتها منه كما كانت تسمع منه كل شيء: حقيقة تتلقاها خالصة، وتستغلها. فلم يعد يعيدها ومرت السنة.

وكان اسمها قد لمع. ولم يعد أحد يجهلها. الجمهور يتهافت عليها، والصحافة تتلقف أخبارها، ولمراقص تتنافس لتتعاقد معها. وهي ناعمة راضية. . .

والأستاذ عاشق يكتم العشق، وصار راض بأن تكون تلميذته الموفقة إن لم تكن له أكثر من ذلك.

وأقاموا لها حفلة يكرمونها. وانحشدت الدنيا في هذا الحفلة: العشاق، والهواة، والمعجبون، والمتطفلون، والزملاء، والأستاذ. . .

وألقيت الخطب، والقصائد، ونثرت الزهور والرياحين، وطالبوها برقصة (الكتكوت) فقال لها الأستاذ: (لا ترقصي) فقالت: (عجباً! ولماذا؟ لا بد أن أرقص، هؤلاء جميعاً جاءوا ليكرموني فلا أقل من أن أكرمهم برقصة. . . وهي بعد ذلك وقبل ذلك رقصتك التي علمتني إياها، ثم إني أريد أن أرقص)

- إذا كنت تريدين أن ترقصي فهيا إلى البيت أرقصيها بين أمك وأخوتك، وإني أذهب معك.

- وهؤلاء الناس؟

- هؤلاء الناس ليسوا شيئاً. إنهم ناس! بشر لا أكثر ولا أقل.

- وأنت ألست من الناس؟ ألست من هؤلاء البشر. . . هذه غيرة وغرور.

- قد تكون غيرة، ولكن أين منها الغرور؟ أنسيت أنك حتى الأمس لم ترقصي إلا لي. . .

- ومنذ اليوم سأرقص للناس لا أريدك أن تقف في طريقي.

-. . . أوروفوار!

ولم تستغرق هذا التهامس إلا دقائق قليلة مرت بسرعة. . . ثم أشارت بعدها إلى العزاف فبدءوا اللحن، واعتدلت الرقص. . . وبدأت. . . وأخذت تطرد من مخيلتها صورة هاتين العينين اللتين اعتادت أن تسيل بفنها فيهما. . . وأخذت تسفك فنها في الفضاء وتنثره على عيون منها البلهاء، ومنها المتلصصة، ومنها السفاحة الخاطئة. . .

اضطربت المسكينة. وعاودتها تلك الرجفة التي دهمتها في ليلة المباراة الأولى، فسقطت كما سقطت إذ ذاك. وانقلبت حفلة التكريم إلى مأساة حملوها إلى البيت، وأرقدوها في الفراش، وتسللوا وتركوها بين أمها وإخوتها، ومعها مندوب من المرقص ليقف على خدمتها ريثما يطمئن على صحتها. . . ولكنها ظلت في غيبوبة تائهة. . . ولم تفق وإن كانت تردد نداءها للأستاذ.

ولم يكن أحد قد علم بشيء مما دار بينهما، فلم تر أمها إلا عجباً في انقطاع أستاذها عنها، فأرسلت إليه تستدعيه، ولكن الرسول عاد يقول لها أن الأستاذ مريض هو أيضاً وإن لم يكن طريح الفراش. فعادت وأرسلت إليه فجاءها. . .

دخل إلى تلميذته المريضة متثاقلاً من تعبه، محطماً من تلك اللطمة التي تلقاها إذ اعتبرته واحداً من الناس، من هؤلاء الناس.

جلس إلى جانبها، ومد يده فأمسك بيدها، ففتحت عينيها فلما رأته قالت له بصوت متكسر:

- سامحني يا أستاذ

- إنك لم تسيئي إلي، فليس ما حدث إلا قضاء الله، وأنا الذي أرجو أن تسامحيني أنت.

- إذن فقبلني. . .
فقبلها. . . ولكن في جبينها، ومكث عندها ما مكث ثم مضى ولكنه لم يمض إلى بيته، ولم يعرف بعد ذلك أحد إلى أين مضى ثم أذيع أنه مات.
أما هي. . . فقد انهارت بعد ذلك وأصبحت راقصة كبقية الراقصات. . .
غير أنها كانت تسكر أحياناً، وتمعن في السكر، وعندئذ كانت إذا رقصت نظرت إلى فضاء ما.
وعندئذ كانت تلم بها أطياف من المجد القديم، وعندئذ كان يتهامس المقربون منها والذين عرفوا قصتها قائلين: (أستاذها يوحي لها)
عزيز أحمد فهمي
رسالة العلم
الوضع الحقيقي لمشكلة جابر بن حيان
للأستاذ أحمد زكي صالح
(تتمة)
مناقشة رأي الأستاذ كراوس
الأستاذ كراوس حيران بين أمرين: أولهما أنه يريد أن يثبت أن جابراً إنما عاش في أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع من الهجرة، والأمر الثاني هو البرهنة على عدم وجود هذه الشخصية العلمية الإسلامية التي تسمى جابر بن حيان؛ ولكن هل تأتى له أن يصل إلى نتيجة أحسن مما وصل إليه أساتذته وغيره من المستشرقين؟
هذا ما نرى الجواب عليه فيما يلي:
يريد الأستاذ كراوس أن يبين أولاً أن جابراً إن كان له وجود فهو إنما عاش في النصف الثاني من القرن الثالث وأوائل الرابع الهجري، معتمداً في ذلك على الدراسة المقارنة، فهو أولاً يقارن آراء جابر الكلامية الشيعية بآراء غيره من رجال الفرق الشيعية الأخرى، ويخرج من هذه الدراسة المقارنة بأن آراء جابر بن حيان إنما تشابه وتماثل آراء القرامطة والإسماعيلية اللتين ابتدأتا تلعبان دورهما منذ سنة 260هـ أي في النصف الثاني من القرن الثالث، ولكن نحن نسلم بكل ما جاء في هذه الدراسة المقارنة بين الآراء الكلامية والفلسفية لجابر بن حيان، وبين تلك التي قالت بها فرقتا الإسماعيلية والقرامطة، ولكن الذي لا يمكن التسليم به هو أن وجود هذا التشابه بين الآراء يصح دليلاً على أن جابر معاصراً لهما، بل الأقرب إلى العقل أن جابراً وضع أسس النظريات الكلامية والفلسفية والإلهية التي توسعت فيها فيما بعد الإسماعيلية والقرامطة.
ومن الجلي الواضح لدى كل من درس علم الكلام أن فرق الشيعة كانت أنشط الفرق الإسلامية حركة، وكانت أولى من أسس المذاهب الدينية على أسس فلسفية، حتى أن البعض ينسب فلسفة خاصة لعلي بن أبي طالب.
وعلى هذا فنحن لا نسلم برأي الأستاذ كراوس، وهو أن جابراً عاش في أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع من الهجرة، وعلى ذلك فنحن ننتقل إلى مناقشة رأيه الثاني، وهو عدم وجود شخصية جابر بن حيان، وأن المؤلفات المنحولة لجابر بن حيان، إنما هي من أعمال مدرسة في القرن الرابع للهجرة.
يقول الأستاذ رسكا: (إن المسألة لا يمكن أن تفسر هذا التفسير البسيط الساذج وهو أنها أعمال مدرسة استمرت عدة قرون). ولكن يظهر أن الأستاذ كراوس أخذ بشطر من هذا التفسير على الأقل، إذا أنه فسرها على أنها من أعمال مدرسة وجدت في القرن الرابع، ولكن هذا التفسير كذلك ينطبق عليه قول رسكا من أنه تفسير بسيط ساذج، ونحن نسأل الأستاذ كراوس: هل يمكن لهذا التفكير المنسجم المطرد أن يكون تفكير أفراد كثيرين؟
نحن نفهم من المدرسة عدة أشخاص معتنقين مذهباً واحداً واضعين نصب أعينهم أغراضاً واحدة يعلمون على تحقيقها، يقسمون العمل فيما بينهم فلا يخرجون كتاباً إلا إذا بحث ومحص من كل الوجوه كما هو حال (إخوان الصفاء)، ولكن هل نلاحظ هذا في أعمال جابر بن حيان؟؟ كلا فكثيراً ما عاد جابر في مؤلفاته يشرح بعض النظريات التي سبق أن قال بها ويكمل بعض الآراء التي وصل إليها. أضف إلى هذا أن تفكير جابر بن حيان لا يدل على تفكير مدرسي ولا يمكن بأية حال أن يدل على ذلك، إذ أن شخصية جابر تظهر في جميع مؤلفاته على السواء بنفس الروح وبمظهر واحد

وأسلوب فذ. على عكس التفكير المدرسي فإنه إما أن يكون خلواً من الروح المميزة له على الإطلاق أي يتلاشى الفرد في الجماعة، وهذا بعيد جداً عن مؤلفات جابر، أو أن تظهر فيه شخصية الأفراد المؤلفين فتختلف روح العمل والإنتاج تبعاً لكل كاتب، وهذا ما لا نجده في مؤلفات جابر.

جابر الحقيقي

بعد ذلك تخرج بالنتائج الآتية:

أولاً: إن كلمة في الكتب اللاتينية قد استعملت ترجمة لاسم جابر العربي.

ثانياً: إنه وجد فعلاً شخص عربي كيميائي مسلم هو جابر ابن حيان.

ثالثاً: إن الكتب الكيميائية العربية لهذا المؤلف قد نقلت إلى اللاتينية في القرنين الثاني والثالث عشر من الميلاد.

رابعاً: كثير ما كان المترجم اللاتيني يستعيض عن الترجمة الحرفية للكتب العربية بترجمة مع تصرف.

خامساً: قسطاس الأصل العربي للكتب المفقودة، يجب أن يكون عن طريق البحث في المحتويات أولاً وفي الأسلوب ثانياً.

من هو جابر أذن؟

قال ابن النديم: (هو أبو عبد الله جابر بن حيان بن عبد الله الكوفي المعروف بالصوفي، واختلف الناس في أمره: فقالت الشيعة إنه من كبارهم وأحد الأبواب، وزعموا أنه كان صاحب جعفر الصادق رضي الله عنه، وكان من أهل الكوفة. وزعم قوم من الفلاسفة أنه كان منهم. وله في المنطق والفلسفة مصنفات. وزعم أهل صناعة الذهب والفضة أن الرياسة انتهت إليه في عصره وأن أمره كان مكتوماً، وزعموا أنه كان يتنقل في البلدان ولا يستقر في بلد خوفاً من السلطان على نفسه، وقيل إنه من جملة البرامكة وكان منقطعاً إلى جعفر بن يحيى، فمن زعم هذا قال إنه عني بسيده جعفر بن يحيى البرمكي وقالت الشيعة إنما عني جعفر الصادق . . .

وقال جماعة من أهل العلم وأكابر الوراقين إن هذا الرجل يعني جابراً، لا أصل له ولا حقيقية، وبعضهم قال إنه ما صنف، إن كان له حقيقية، إلا كتاب الرحمة وإن هذه المصنفات صنفها الناس ونحلوه إياها، وأنا أقول إن رجلاً فاضلاً يجلس ويتعب فيصنف كتاباً يحتوي على ألفي ورقة، يتعب قريحته وفكره لإخراجه ويتعب يده وجسمه لنسخه ثم يخلد لغيره إما موجوداً أو معدوماً ضرب من الجهل، وإن ذلك لا يستمر على أحد، ولا يدخل تحته من تحلى ساعة واحدة بالعلم، وأي فائدة في هذا وأي عائدة؟ والرجل له حقيقة وأمره أظهر وأشهر وتصنيفاته أعظم وأكثر، ولهذا الرجل كتب في مذاهب الشيعة أنا أوردها في مواضعها، وكتب في معاني شتى من العلوم قد ذكرتها في مواضع من الكتاب، وقد قيل إن أصله من خراسان والرازي يقول في كتبه المؤلفة في الصنعة: قال أستاذنا أبو موسى جابر بن حيان)

وقال القفطي: (جابر بن حيان الصوفي الكوفي كان متقدماً في العلوم الطبيعية بارعاً في صناعة الكيمياء وله تآليف كثيرة ومصنفات مشهورة، وكان مع هذا مشرفاً على كثير من علوم الفلسفة ومتقلداً للعلم المعروف بعلم الباطن وهو مذهب المتصوفين من أهل الإسلام.

وذكر محمد سعيد السرقسطي المعروف بابن المشاط الإصطرلابي الأندلسي أنه رأى لجابر بن حيان بمدينة مصر تأليفاً في عمل الإسطرلاب يتضمن ألف مسألة لا نظير لها)

ونحن إذا سلمنا بوجهة نظر ابن النديم؛ فإننا نستطيع أن ننسق من جديد ما يقوله (الفهرست)، وأن نعيد مبنى هيكل حياة جابر بن حيان؛ فإذا كان جعفر الصادق الذي عاش من 699 - 765م أي 89 - 155هـ هو أول أصدقاء جابر ومعلميه، فإن تاريخ ميلاد هذا الأخير حوالي سنة 730م أي حولي 120هـ وهكذا يمكن أن يكون قد ارتبط، وهو في سن الستين أو السبعين، بعلاقة ما مع البرامكة. ولا يجد الجلداكي ثمة غرابة في أن يكون لجابر نشاط أدبي عظيم لأغراض علمية وفلسفية وإلهية.

والبرهان على حياة جابر وتنظيمها أثبت في كتاب الجلداكي (البرهان في أسرار علم الميزان)ـ جاء في هذا المخطوط: الأستاذ الكبير جابر بن حيان ولد في الكوفة، وهو

من قبيلة أسد فهو طوسي الأصل صوفي المذهب، تتلمذ في صباه على حرابي حميرات أحد المعمرين. ويذكر لنا جابر أن حميرات هذا قد عاش أربعمائة سنة؛ أي أنه ولد في سنة 200 قبل الهجرة وعاش حتى حكم هارون الرشيد، أي أنه مات سنة 170هـ تقريباً. وعن هذا المعمر أخذ جابر العلم في صباه؛ ثم رحل إلى حيث يوجد الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه وتتلمذ عليه وصار بعده إماماً. ثم اتصل بعد ذلك بالبرامكة ومارس تحت ظلهم الكثير من التجارب، وعن طريق جعفر البرمكي اتصل اتصالاً مباشراً بهارون الرشيد وأهدي إليه الكثير من كتبه.

وعلى هذا الأساس فإن جابراً بعد أستاذاً للكيمياء. ومما ساعده على ذلك أنه أحضر في أيامه الكثير من المؤلفات الكيميائية اليونانية من بيزنطة إلى بلاط الخليفة في بغداد. أضف إلى ذلك أن جابراً نفسه قد انهمك في الفلسفة حيناً من الزمن ثم مات وله من العمر تسعون عاماً أي حوالي سنة 210هـ أي 820م. بعد تصنيفه لثلاث آلاف رسالة وكتاب.

الخواص العلمية لكيمياء جابر

كان بن حيان أول من فطن إلى الناحية التجريبية الخالصة في الكيمياء، وبهذه الوسيلة تيسر له أن يأخذ بيد هذا العلم الناشئ في ناحيتيه النظرية والعلمية، ويمكن أن نتتبع أثر جابر هذا في الكيمياء وكيميائي أوربا.

فمن الناحية العلمية يصف لنا جابر طرق التبخير، والتكوير والترشيح، والذوبان والتعطير والتبلور! كما وصف أيضاً الكثير من طرق التحضير الكيميائي، كالزنجفر وأكسيد الخارصين، كما عرف تماماً كيف يحضر حامضا الكبريتيك والأزوتيك، وحجر السنب، والقلوي والسلمونيك وملح البارود.

ولقد اقتبست اللاتينية عن العربية بفضل مؤلفات جابر ابن حيان الكيميائية بعض الاصطلاحات الكيميائية التي لا زالت تستعمل في اللغة الأوربية مثل البوتقة والأنبيق والتوتيا التي هي أكسيد الخارصين، والقلوي والرجار الذي هو كبريت الخارصين.

الأسس العامة التي قامت عليها كيمياء جابر

بينا كيف أن كيمياء جابر إنما تقوم على أسس تجريبية؛ ويرى الأستاذ كراوس أن كيمياء جابر مؤسسة كذلك على أسس فلسفية، ويقرر أن هذه النظرية الفلسفية قد اقتبست إلى حد كبير من طبيعة أرسطو، وجابر نفسه يعيد ذكر الكثير من عبارات أرسطو كما يذكر بعض فقرات وتعليقات على: الإسكندر الأفروديسي، وطيمسطس وسمبليكيوس ونورفوريوس وغيرهم. وكذلك ترى في مؤلفات جابر ذكراً لمؤلفات أفلاطون وبقراط وجالينوس وأقليدس وبطليموس وأرشميدس، وبين هؤلاء المؤلفين الكثيرون ممن لم تفقد أصول مؤلفاتهم اليونانية، وبالدراسة المقارنة أثبت أنه ليس هناك مؤلف كيميائي في الإسلام على معرفة واسعة النطاق بالأدب العلمي القديم، ومؤلفاته لها صبغة دوائر المعارف إلا جابر بن حيان ومؤلفاته، هذه المؤلفات التي تقرب من أن تكون دائرة معارف إسلامية تعبر عن معارف عصره تماماً. وأساس العلم الجابري هو الميزان، وهو في نفس الوقت الذي يبين لنا وحدة العلم الجابري، ونحن كي نستطيع فهم هذا الأساس وهذه الوحدة، يجب أن نعدد المعاني المختلفة لهذا الميزان:

أولاً - الوزن النوعي.

ثانياً - وزن الكيميائيين القدماء الذي يحدد امتزاج العناصر بعضها ببعض.

ثالثاً - ميزان الحروف: كان يرى أن حروف اللغة العربية على صلة بالخواص الأربع: الحرارة والبرودة والرطوبة والجفاف، وهو يرى أن ميزان الحروف هذا لا ينطبق على عالم ما تحت القمر فقط إنما كذلك على الكائنات الميتافيزيقية مثل العقل الروح والمادة
والمكان والزمان.

رابعاً: والميزان هو المبدأ الميتافيزيقي للواحدية العلمية ويظهر هنا أن تصور أفلاطون للواحد لا يمكن أن يكون إلا ذا أثر.

خامساً: وأخيراً فإن الميزان يتفرع عن تفسير مجازي طويل لآيات القران عن ميزان الحكم في العالم الآخر، وهذا هو ما يوجد إجنوزية الإسلام التي حاول جابر أن يربط بها مذهبه في الدين.

أثر جابر في الدراسات الكيميائية
جابر في نظر كيميائي الإسلام أستاذ الصنعة الأكبر، ولقد ترك جابر أثراً ليس من السهل الإقلال من شأنه، ونكتفي بأن نشير إلى أنه من خيرة تلاميذ مدرسة جابر بن حيان في الكيمياء: الخرقي، ابن عياض المصري الإخميمي، وذو النون المصري، وأبو بكر محمد بن زكريا الرازي، ومسيلمة بن أحمد الماجريطي، والطغرائي وأبن وحشية، والإكميمي المصري، وأبو القردان النصيبي (؟)
أما في العالم الأوربي فأغلب أعمال جابر الكيميائية إن لم تكن كلها مترجمة إلى اللاتينية مطبوعة في المجموعات التالية:
1.
2.
3.
4.
وهذه التراجم اللاتينية تنقسم إلى قسمين:
قسم أخذ بمنهج الترجمة الحرفية فخرج غير متين الأسلوب ولا قوي التركيب. وقسم أخذ فيه بمنهج الترجمة مع تصرف فجمع فيه بين دقة التعبير العلمي وبين متانة الأسلوب الأدبي، وبين وضوح الفكر ورونق التنسيق وجمال التقسيم.
وهذه التراجم اللاتينية لكيمياء جابر إنما سادت التفكير الأوربي العلمي في القرنين الثالث عشر والرابع عشر حينما عرفت كتب جابر العلمية، وإن كان بعض المغرضين قد انتهزوا فرصة فقد الأصول العربية لهذه التراجم اللاتينية وضياعها، فحاولوا أن يخرجوا بهذه
التراجم عن دائرة الفكر العربي الإسلامي، فإن هذه المحاولات مقضي عليها بالفشل، وهي إن دلت على شيء فإنما تدل على قيمة هذه المؤلفات وعظيم تأثيرها على الفكر اللاتيني في القرون الوسطى.
وإني لا أعدو أن أكون مقرراً للواقع حين أقول إن كيمياء جابر يمكن أن نعدها إلى حد ما أساساً للكيمياء الحديثة؛ وذلك لأن التراجم اللاتينية لأعمال جابر بن حيان طبعت في القرن السادس عشر، ثم أعيد طبعها في القرن الثامن عشر، ولا بد لهذه الأعمال العظيمة أن تؤثر في عقليات المفكرين سواء أكان هذا التأثير من ناحية سلبية أم من ناحية إيجابية أم هو بين السلب والإيجاب.
هذه هي مشكلة جابر بن حيان في وضعها الصحيح، وبهذا تكون قد أزحنا بعض العبء الثقيل الذي يبهظ أعناقنا نحن دارسي التراث الإسلامي، وفقنا الله جميعاً لإحياء هذا التراث الخالد.
(تم البحث)
أحمد زكي صالح
-
البريد الأدبي
إلى الأستاذ الشاعر علي محمود طه
قرأنا بإعجاب كبير ديوان (ليالي الملاح التائه)، وفي مطالعتنا لمقدمات القصائد مررنا بمقدمة القصيدة التي عنوانها (خمرة نهر الرين) وقد جاء فيها:
(يتفرد نهر الرين بجنات أعنابه، وأشجاره الباسقة، وقصوره التاريخية، ذلك النهر الذي ينبع من سويسرا ويمر بين فرنسا وألمانيا ويخترق هولندة حتى مصبه في بحر الشمال. وقد تغنى بجماله وفتنته شعراء مبدعون، احتفل الأدب بآثارهم ومنهم الشاعر الإنجليزي جون كيتس الذي أودع قصائده الأخيرة إلى محبوبته أرخم ما غناه عشاق نهر الرين. . .)
واعتماداً على ما نعلمه من دراستنا لأخبار الشاعر المبدع جون كيتس وأشعاره لا نجد في ديوانه كله أية قطعة تغنى فيها بنهر الرين مباشرة أو عرضاً، وليس في قصائده المعروفة إلى محبوبته (فاني براون) أي تغن بنهر الرين.
وزيادة في الإيضاح نذكر أن الشاعر المذكور لم يترك إنجلترا في حياته إلا مرة واحدة، وذلك في عام 1820 تلبية لدعوة الشاعر (شلي) الذي كان في إيطاليا في تلك السنة. وكانت الطريق التي سلكها (كيتس) بحرية. ومنذ اليوم الذي ترك فيه إنكلترا حتى

وفاته بعد ذلك بزمن يسير لم يقل غير قصيدة واحدة وهي مشهورة في الأدب الإنكليزي بعنوان (النجم الساطع) إلى (فاني براون)، وليس فيها إشارة إلى النهر المذكور الذي لم تقدر له رؤيته في حياته.

أما الشاعر الإنكليزي الذي تغنى بنهر الرين فهو (اللورد بيرون) في قصيدته الطويلة وذلك في المقاطع (46 - 55) من الفصل الثالث؛ وهي من أجمل ما قيل في التغني بجمال نهر الرين وعظمته.

وختاماً تقبل أستاذي هذه الملاحظة، وليس يقل من شأن شاعر الحب والجمال (جون كيتس) ألا يتغنى بجمال نهر الرين وكفاه ما تغنى به. ودم للمعجب.

علي كمال

حول أخي إسماعيل أدهم

قرأت جل ما كتب في المجلات والجرائد المصرية خاصاً بأخي المرحوم (إسماعيل أحمد أدهم) وقد رأيت أن بعض الكتاب قد وقعوا في بعض الأخطاء، ورأيت من الواجب أن أنبه إلى تلك الأخطاء إحقاقاً للحقيقة، وخدمة للتاريخ.

ولقد كتب صديقي الأستاذ (عبد الحفيظ نصار) مقالاً في العدد الأخير من مجلة (الرسالة) فوقع في بعض الأخطاء منها أنه ذكر أخي إسماعيل حفيد أدهم باشا كان وزير المعارف التركية سابقاً. والحق أن إبراهيم أدهم باشا كان وزيراً للمعارف المصرية - أي مدير المدارس المصرية - على عهد ساكن الجنان المغفور له (محمد علي الكبير) وخلفه العظيم الخديو (إسماعيل)

وقد أشار إلى هذا الأستاذ الأديب (صديق شيبوب) في المقال المنشور له في جريدة البصير بتاريخ (2 أغسطس 940) نقلاً عما كتبه المرحوم علي باشا مبارك في خططه.

وذكر الأستاذ نصار أن أخي نشر أبحاثاً متفرقة في الرسالة كان آخرها بحثه عن (عام الفيل) والحقيقة أن آخر مقال له فيها هو (الذرة وبناؤها الكهربائي)

وذكر أيضاً أن أول كتاب صدر له في مصر (مصادر التاريخ الإسلامي) والصواب (من مصادر التاريخ الإسلامي) وقد صودر - كما أذكر - بقرار من مجلس الوزراء وليس بمرسوم ملكي كما قال الأستاذ.

وقال أيضاً إن له كتاباً اسمه (الأنساب العربية) والصواب (علم الأنساب العربية) وقد نشرته مجلة (الحديث) الحلبية

هذا، ولي عودة - إن شاء الله - لتصحيح أخطاء بعض الكتاب.

(الإسكندرية)

إبراهيم أحمد أدهم

مأخذ طائش

قال الأديب أحمد جمعة الشرباصي: لما أخرجت وزارة المعارف ديوان المرحوم حافظ إبراهيم لم تنشر به عدة قصائد له، وذكر مقطوعة من شعره في وصف الطيارة لم تنشر بديوانه وهي:

يجري بسابحة تشق ... سبيلها شق الإزار

والحقيقة أنها موجودة بالجزء الثاني صفحة 77 في استقبال الطيار العثماني فتحي بك، وكانت طائرته قد سقطت به ومات قبل إتمام رحلته إلى مصر، فرأى حافظ من الوفاء نشر هذه القصيدة بعد موته لتكون له حياً وميتاً. فهل اطلع الأديب الشرباصي على الديوان؟

أحمد حسين حسنين

تصحيح بيت في ديوان (حافظ) بمناسبة ذكراه

إلى حضرات الأساتذة المحترمين الذين ضبطوا وصححوا ديوان شاعر النيل (أحمد حافظ إبراهيم) رحمه الله

جاء في الجزء الثاني من الديوان مطلع قصيدة (تصريح 28 فبراير):

مالي أرى الأكمامَ لا تُفَتِّحُ ... والروضُ لا يزهو ولا يُنفِّحُ

وذلك بتشديد الكلمة الأخيرة من صدر البيت ومثلها من عجز البيت، وعلى هذا فوزن البيت لا يستقيم مطلقاً مع وزن القصيدة. إذا فالأصح أن يكون بيت المطلع بلا تشديد هكذا:

مالي أرى الأكمامَ لا تَفتَحُ ... والروض لا يزهو ولا يَنفَحُ

هذا ما خطر لي لدى مطالعتي ديوان حافظ بجزئيه منذ أمد بعيد، وقد سجلت هذا الخاطر. . . والآن بمناسبة ذكرى هذا الشاعر العربي العظيم أعرض ملاحظتي المتواضعة على البيت المذكور أمام الأساتذة المصححين للديوان ليقولوا كلمتهم، وكذلك أعرضها لقراء الرسالة ليتدبروها جيداً ويُبدوا آراءهم فيها، ولله أسأل أن يهدينا إلى الصواب.

(العراق - العمارة)

أنور خليل

نؤت بالحمل وناء بي

نشر الأستاذ الطنطاوي في العدد (362) مقالاً جاء فيه تلك العبارة:

وقد أشار في (. . .وكانت السيارات تسير متعاقبة يكاد ينوء بها ثقل ما تحمل . . .) الهامش إلى أن هذا هو التعبير الصحيح رغم شيوع عكسه، وهذه الإشارة إن أفادت شيئاً، فإنما هي تفيد أن تعكس خطأ.

وقد قرأت في كتاب الأمالي ما نصه: (يقال: نؤت بالحمل أنوء به نوْءا، إذا نهضت به، وناء بي الحمل ينوء بي نوءا، إذا جعلني أنهض به) اهـ

وقد دفعني ما قرأته في الأمالي إلى أن أرجع إلى القاموس، فأدهشني أن كلا الكتابين متفق، وذلك بعد أن أرجعت البصر فيهما مرات، وهاك الدليل: يقول القاموس في مادة (ناءَ): (ناء نوْءَا وتنْواءَ): نهض بجهد ومشقة، و (ناء بالجمل) نهض به مثقلاً، و (ناء به الحمل): أثقله وأماله كأناءه) اهـ

ولو تلمسنا وجاهة كل من التعبيرين، لوجدنا أن قولنا نؤت بالحمل أوجه بكثير من قولنا ناء بي الحمل، والتعبير نفسه ينطق بذلك فما رأي الأستاذ الطنطاوي؟؟

(كفر المياسرة)

عوض عوض الدحة

مغالطات

أستاذي الكبير الزيات

قرأت للأخ الأديب أحمد جمعة كلمة في الثقافة عدد 83 حول ترجمة لابن الفارض في كتاب (تاريخ الأدب العربي) إذ نقل منه هذه العبارة:

ومن أشهر شعره - يعني ابن الفارض - تائيتاه الكبرى والصغرى، تبلغ الأولى 600 بيت، والثانية 103 أبيات، وقد استوعبتا أغراض الصوفيين وأسرارهم ولا يقرأهما إلا من رزق الصبر والجلد إلى حل تلك الرموز، يقول في مطلع الكبرى:

نعم بالصبا قلبي صبا لأحبتي ... فيا حبذا ذاك الشذا حين هبت

تذكرني العهد القديم لأنها ... حديثة عهد من أهَيل مودتي

نقل هذه العبارة، وقال إن فيها عدة أخطاء:

1 - في عدد أبيات التائية الكبرى، فهي ليست 600 بل 779 بيتاً كما عدها بنفسه مراراً.

2 - إن التائية الكبرى ليست مبدوءة بما ذكرتم من قول ابن الفارض:

البيتين (. . .نعم بالصبا قلبي صبا)

3 - في إتيانكم بالبيتين متعاقبين والحقيقة أن البيت الثاني (تذكرني العهد القديم. . .) الخ جاء في التائية الصغرى - لا الكبرى - بعد أربعة أبيات. . . الخ، وأنا أعجب للأخ أحمد جمعة، كيف جشم نفسه هذا الجهد الكبير، والأمر أسهل مما يعتقد؟؟

أما عن عدد الأبيات فقد صدق أستاذنا الزيات، فلقد رجعت إلى طبعات ديوان ابن الفارض المختلفة، فوجدت اختلافاً كبيراً في عدد الأبيات، أبيات هذه القصيدة. فبعض الطبعات ذكرت هذه القصيدة في نحو 600 بيت، وعلى هذه الطبعة اعتمد أستاذنا الزيات في كتابه (تاريخ الأدب العربي) صفحة 229 من الطبعة الخامسة كما ذكرت، وصفحة 352 من الطبعة السادسة وكذلك اعتمد عليها أيضاً الدكتور زكي مبارك في كتابه التصوف الإسلامي جـ 1 ص130 حيث يقول: (ولا يسع من يهتم بدرس ابن الفارض أن يغفل التائية الكبرى، وهي نحو ستمائة بيت، وقد نظمها تحت وحي صوفي. الخ). وطبعة أخرى ذكرت هذه القصيدة نفسها في 758 بيت، وطبعة ثالثة ذكرت هذه القصيدة أيضاً في 762 بيت، وأحمد جمعة يقول إنها تبلغ 779 بيتاً كما عدها بنفسه

مرات فلا يصح له بعد ذلك أن يخطئ الأستاذ في عدد الأبيات قبل التثبت في حين أنه أخذ بأكثر هذه الطبعات دقة وعناية.

هذه واحدة. وأما الثانية: فأنا معه فيها، إذ أن التائية الكبرى مبدوءة بقول ابن الفارض:

سقتني حُميَّا الحب مقلتي ... وكأسي محيا من عن الحسن جلَّت

فأوهمت صحبي أن شرب شرابهم ... به سُرَّ سريٌّ في انتشائي بنظرة

ولعله يرى معي أن هذا لا يعد خطأ، وإنما هو سهو، وكان الأجدر به أن يعطيه اسمه الصحيح. . .! وأما الثالثة: فهي مغالطة صريحة ولا تجدر بطالب الحقيقة والناقد المنصف.

ألم يقل أستاذنا: (يقول في مطلع الكبرى: (نعم بالصبا قلبي صبا. . .) البيتين؟ أليس البيت الثاني: (تذكرني العهد القديم. . .) الخ خامس أبيات القصيدة؟ وهل أن الإتيان ببيتين متعاقبين يدل على أنهما كذلك في أصل القصيدة؟؟

اسمع يا أخي كلمة الحق: كان يكفيك أن تقول: (وقع سهو في كتاب (تاريخ الأدب العربي) حين ذكر مطلع التائية الصغرى، على أنها الكبرى.). إنك لو فعلت ذلك لكنت من المقسطين.

عبد الحفيظ أبو السعود

إلى الدكتور زكي مبارك

لا ضَيْرَ أن يلحق التأخير تهنئتي ... ما العِبرةُ إلا بالخواتيمِ

كمثل فعلك: مجهودٌ وتضحيةٌ ... يتوَّجان بتقدير وتكريمِ

أن الوسام الذي أُعطيته ثقةٌ ... للرافدين وحقٌ غير مهضوم

سفارةٌ لك في الأقطار يحمدها ... ساعٍ يؤلف ما بين الأقاليم

مِزاجِ أكؤسها من كوثرٍ شَبِمٍ ... وورد أنهارها من عذب تسنيم

الفكر والقلم المفتول ساعِدُهُ ... قد أولياها بمشبوب ومضروم

فانهض (مباركُ) للجُلَّى بلا وَهَنٍ ... ما كان مقتحِم الجُلَّى بمهزوم

واقبل كأصدق ما هُنِّئْتَ تَهنئَةً ... ممن قصائدُه وحي الحواميم

عامر محمد بحيري

استدارك

سقطت عبارة من مقال (من عجائب الفهم. . .؟) المنشورة بالعدد 370 صفحة 1259 عند السطر 26، وهاهي ذي:

وقد بينت أن الحياة عن الأستاذ العقاد في قصيدته هي النزول إلى ظواهر الدنيا) للاتصال بها وإدراكها، وليست الحساسية النفسية كالتألم والفرح وسائر حركات النفس)

الإمام أبو هريرة في كتاب (فجر الإسلام)

تحدث الأستاذ أحمد أمين في كتاب فجر الإسلام عن أبي هريرة كما تحدث عنه (جولدزيهر) وأمثاله، ومما قاله: (والحنفية يتركون حديثه أحياناً إذا عارض القياس كما فعلوا في حديث المصراة، فقد روي أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا تصروا الإبل والغنم من ابتاعها بعد ذلك فهو بخير النظرين بعد أن يحلبها فإن رضيها أمسكها وإن سخطها ردها وصاعاً من تمر) قالوا: (أبو هريرة غير فقيه، وهذا الحديث

مخالف للأقيسة بأسرها، فإن حلب اللبن تعد وضمان التعدي يكون بالمثل أو القيمة والصاع من التمر ليس بواحد منهما)، اهـ (ص269)

كلامه هذا يفهم شيئين: الأول أن الحنفية يقدمون القياس على حديث أبي هريرة إذا عارضه. الثاني أنهم يرونه غير فقيه؛ ونسبة الأمرين إليهم نسبة غير صحيحة. أما في تعارض الخبر والقياس فالإمام وصاحباه وجمهور الحنفية على أن الخبر مقدم على القياس مطلقاً سواء كان الراوي فقيهاً أو لا، وذهب فجر الإسلام - واختاره ابن أبان وأبو زيد - إلى أن الراوي إن كان فقيهاً قدِّم خبره على القياس مطلقاً، وإن كان غير فقيه قدم خبره أيضاً على القياس إلا إذا خالف جميع الأقيسة وانسد باب الرأي؛ وبهذا تبين أن الحنفية لا يقولون بتقديم القياس على الخبر ومن ذهب منهم إلى تقديمه عند انسداد باب الرأي يعممه في كل خبر راوية غير فقيه لا بخصوص أبي هريرة وأما أن

أبا هريرة غير فقيه، فهذا لم يقل به غير فجر الإسلام وصاحبيه المذكورين، وقد شنع الحنفية عليهم قولهم هذا وردوه أبلغ رد كما هو معلوم لمن يطالع أصولهم، فنسبه القول بذلك إليهم نسبة باطلة.

ولك أن تتساءل كيف نسل الأستاذ إلى الحنفية كل هذا وهم منه براء؟ والجواب أنه قد اعتمد في كتابه فصل الحديث في فجر الإسلام على (مسلم الثبوت وشرحه)، أكثر من أي كتاب آخر، وشارح المسلم لما تعرض لقول فخر الإسلام موافقيه وأبان عن وجهة نظرهم قال: (ومثلوا لذلك بحديث المصراة، وهو ما روى أن رسول الله الخ الحديث. قالوا أبو هريرة غير فقيه وهذا الحديث مخالف للأقيسة كلها إلى أن قال: وفيه تأمل ظاهر فإن أبا هريرة فقيه مجتهد لا شك في فقاهته الخ. . .). ولا يخفى أن الضمير في قالوا راجع إلى فخر الإسلام ومن وافقه، ولكن الأستاذ أحمد أمين حول الضمير إلى الحنفية، ونسب قول فخر الإسلام إليهم، ولا أدي كيف تغاضى عن سياق الكلام، وكيف تغاضى عن اعتراض الشارح على القول بعدم فقاهة أبي هريرة، وكيف تغاضى عما في كتب الأصول من النص على فقه أبي هريرة والرد على فخر الإسلام ومن تابعه في قولهم ذاك؟

وصفوة القول أن ما نسبه الأستاذ إلى الحنفية في هذه المسألة غير صحيح وإنما هو لفخر الإسلام لم يوافقه عليه غير اثنين، وهو قول مردود من الحنفية أنفسهم.

مصطفى حسني السباعي

القصص

عقيدة الشيطان

عن الإنجليزية

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

في العهد الذي كان فيه السيد المسيح والقديس بطرس يمشيان على الأرض مرّا بحداد اتفق مع الشيطان على أن يكون عبداً له إذا استطاع الشيطان أن يجعله في مدى سبعة أعوام سيداً على جميع الحدادين. وقد وقع الحداد والشيطان على وثيقة بهذا المعنى، ومن أجل هذا السبب علق الحداد على باب حانوته لوحة كتب عليها (سيد الحدادين)

ولما رأى المسيح هذه اللوحة ذهب إلى الرجل وسأله: (من أنت؟) فأجابه الحداد: (اقرأ اللوحة التي على الباب وإذا كنت لا تستطيع القراءة فانتظر حتى يمر بك من يعينك على فهمها. وقبل أن يجيبه المسيح جاء رجل على ظهر جواد وطلب إلى الحداد أن يضع حدوة في رجل جواده فقال المسيح للحداد: (أتأذن لي في أن أقوم بهذا العمل بالنيابة عنك؟)

قال الحداد: (جرب وإذا أسأت وضع الحدوة فإني سأعيد وضعها). فوضع المسيح قدمي الجواد فوق الفرن ونفخ في النار. وبدلاً من أن تحترق أقدام الجواد أصبحت مسكوة بطبقة لامعة معدنية وانتعلت بحدوات متينة. فدهش الحداد وقال للمسيح: (أنت حداد بارع)

وفي هذا الحين جاءت أم الحداد لتخبر أبنها بأن الطعام الغداء قد أعد ولتدعوه إلى تناوله، فتأهب الحداد للذهاب معها. وطلب إلى المسيح أن ينتظره وهو وصاحبه بالحانوت حتى يعود. فأذن له بذلك. ونظر المسيح إلى وجه أم الحداد فألفاها مجعدة الجلد عجوزاً شوهاء، فحملها ووضعها في الفرن فأصبحت فتاة جميلة. وأخذها ابنها وذهب معها إلى المنزل وهو ضاحك مسرور. وكانت كلمته للمسيح: (على الرغم من أني كتبت على لوحة حانوتي أن سيد الحدادين، فإن المرء ما عاش قابل للتعليم ولم أر قبلك حداداً يعيد العجائز فتيات)

ولما عاد الحداد بعد الغداء كان المسيح والقديس بطرس ينتظرانه. وجاء رجل على ظهر جواد ليطمر أقدام جواده فأراد الحداد أن يجرب الطريقة التي رأى المسيح يعمل بها ووضع أقدام الجواد على الفرن؛ فكانت النتيجة كما ينتظرها كل إنسان، واحترقت أرجل الجواد.

وفي الحال مرت عجوز فقال الحداد: (إذا أنا لم أفلح في إحدى الأعجوبتين فقد افلح في الأخرى) وقاد العجوز إلى النار وهي تستغيث وهو يقول: (سأعيدك فتاة جميلة ولن أطلب منك أجراً على ذلك. تعالي إلى الموقد)

وحملها إلى الموقد وهي تصرخ من الألم فنظر الحداد إلى المسيح وقال: (ليس في العالم ما هو أدعى إلى الخجل) فقال المسيح: (ما هو الذي يخجلك؟)
قال الحداد: (الشيطان هو الذي من حقه أن يخجل فإنه لم يف بوعده لي ولم يجعلني سيداً للحدادين مع أنه هو الذي كتب اللوحة التي على الباب)
فقال المسيح: (هبني أستطيع أن أحقق لك ثلاث أمان فماذا تريد تحقيقه من أمانيك؟)
قال الحداد: (أريد أن يكون لي نفوذ على كل من آمره بأن تسلق شجرة الكمثرى التي أمام الحانوت، فلا يستطيع أن يخالفني ولا يستطيع أن ينزل إلا إذا أمرته، فهذه أمنية؛ والأمنية الثانية أنني كلما أمرت إنساناً بأن يجلس في حانوتي فلا يستطيع الامتناع ولا يستطيع القيام إلا إذا أمرته، والأمنية الثالثة أن من آمره بالجلوس في كيس نقودي يضمر حتى أضعه في الكيس ولا يخرج إلا إذا أخرجته)
قال القديس بطرس: (هذه أمان حمقاء وقد كان عليك أن تتمنى محبة الله ورحمته)
فقال الحداد: (إنني لا أجرؤ على تمني أمنية كبيرة مثل هذه)
وعند ذلك ودعه المسيح والقديس بطرس وانصرفا، وأجابه المسيح إلى أمانيه وانقضت الأيام سراعاً فتمت السنوات السبع المتفق عليها بين الحداد وبين الشيطان، وجاء الشيطان يتقاضاه الشرط وبدأ بأن سلم إليه مسماراً مكسوراً ليصنع له رأساً.
فقال الحداد: (سأفعل ولكنك على ما يظهر متعب من طول المسافة التي قطعتها إليّ ومن الجوع، فتسلق هذه الشجرة ريثما تأكل من ثمرها وتستريح وأكون في هذه الفترة قد صنعت رأس المسمار)
فتسلق الشيطان الشجرة والكنه وجد نفسه عاجزاً عن النزول؛ وأخذ الحداد يضحك منه ويقول: (إن رأس المسمار ستستغرق منه أربعة أعوام). فتوسل إليه الشيطان أن يأذن له فلم يقبل إلا عندما وعده الشيطان بأن يذهب عنه فلا يعود إلا بعد أربعة أعوام. فأذن له على هذا الشرط. وانطلق الشيطان وبعد أربعة أعوام أخرى عاد الشيطان فقال: (لقد غبت
(أربعة أعوام ولابد أن تكون قد فرغت من رأس المسمار
فأجابه الحداد: (لقد صنعته ولكنك مع ذلك أتيت مبكراً فهو لا يزال محتاجاً إلى السن، فاجلس في هذا المقعد حتى أفرغ من سنها)
فجلس الشيطان، ولكنه عاد فأدرك أنه لا يستطيع القيام، وأخذ يتوسل إلى الحداد، وهذا يختلق له المعاذير، وأخيراً وعده بألا يعود قبل أربعة أعوام أخرى يكون الحداد في أثنائها قد فرغ من سنه المسمار
مضت أربعة أعوام أخرى وجاء الشيطان فقال له الحداد: سأذهب معك الآن حيث تريد، ولكني أريد أن ألقي عليك سؤالاً واحداً وهو: هل صحيح ما يقولون من أن الشيطان يستطيع أن يضمر جسمه إلى أي حجم يريد؟ فقال الشيطان: هذه حقيقة لا تحتمل الشك.
فطلب إليه الحداد أن يضمر حتى يدخل كيس نقوده، وأن يستمر في الكيس حتى لا تسرق أمواله مدة السفر، ففعل الشيطان ذلك.
وما صار الشيطان في داخل الكيس، ألقى الحداد بالكيس في الفرن، فصاح الشيطان: هل أنت مجنون؟ لماذا تلقي بالكيس في النار وأنا فيه؟
قال الحداد: إنني أريد أن أعيد صنعه بحيث تضيق فتحاته، وهاهو ذا قد احمارَّ والمثل يقول: لا تضرب الضربة إلا إذا حمى حديدك، ثم أهوى بالمطرقة فوق الكيس، فتوسل إليه الشيطان أن يتركه على ألا يعود إليه مدى الحياة.
وتركه الشيطان، ولكن الحداد ندم وقال: (إذا فاتتني الجنة الآن وقد سدت دوني أبواب النار بما فعلته مع الشيطان؛ فسوف أصير في الآخرة بغير مأوى. وكان الأفضل أن أظل مصاحباً للشيطان ليكون لي مسكن في النار إن فاتني في الجنة المسكن).
وعزم على أن يتابع السير حتى يعثر على الشيطان فيسترضيه، حتى لا يكون في الآخرة من المتشردين. فلما صار في مفترق الطرق بين الحنة وبين النار. لقي خياطاً وسأله إلى أين يريد الذهاب، فقال الخياط: (إنني أبحث عن الجنة)
قال الحداد: (إذن فطريقي غير طريقك وسأذهب لأبحث عن النار وذلك لأني عرفت صاحب الأمر فيها منذ عهد الشباب)

وتفرقا فذهب كل في طريقه، وكان الحداد سريع المشية طويل الخطوة، فوصل بعد مدة
وجيزة إلى باب النار، وطلب إلى بوابها أن يخبر الشيطان بأن رجلاً ينتظر بالباب.
وقال الشيطان للبواب: (اذهب فاسأله من هو؟) فقال الحداد: (قل له إني صاحب الكيس وسيعرفني. وتوسل إليه أن يأمر بدخولي لأني في تعب شديد فقد ظللت أشتغل إلى الظهر وبدأت السير بعد ذلك)
فلما عرف الشيطان من هو الزائر أمر البواب بأن يغلق أبواب الجحيم التسعة ويحكم الرتاج (فإن هذا الرجل إن دخل الجحيم فسيزيد أهلها شقاء)
قال الحداد في نفسه: (لا فائدة من التسكع هنا فسأذهب وأجرب الجنة)
وعاد إلى المكان الذي ترك عنده الخياط وتبع الطريق الذي سار فيه فلحق به ساعة كان القديس بطرس يفتح أبواب الجنة ولكن أبواب الجنة ضيقة لا تسمح إلا بدخول الرجل الهزيل الجسم فتردد الحداد ثم قال في نفسه: (لا ينبغي أن أضيع الوقت)
وفي اللحظة التي كان الخياط فيها يدخل من الباب ضرب الحداد بمطرقته الدلفة المتحركة من ذلك الباب
ولست أعرف إذا كان الحداد لم يدخل من الفرجة التي أنشأها بمطرقته في سور الجنة ففي أي طريق سلك. . .
عبد اللطيف النشار
العدد 372 - بتاريخ: 19 - 08 - 1940
. . .خواطر مهاجر
تفيَّأ كعادته كل يوم ظلال الكافورة الغيناء من قهوته المختارة على شاطئ النيل الجميل في (المنصورة) بلد الشعر والسحر والجمال والفتنة. وكان مجلسه تحت هذه الدوحة الفينانة أشبه بالعش الناعم قد احتضنه النهر وحنَت عليه الغصون وتنفَّس فوقه الماء بالنسيم الرطب فأصبح للحس الشاعر قطعة من رياض عدْن، أو بقعة من بقاع عبقر! فإذا أضفت إلى جمال المكان وبهجة المنظر، أنس الصديق المخلص، ورقة الجليس المهذَّب، وبشاشة الوجوه النامة عن الود، وعطف القلوب المتآخية في الأدب - جمعتَ في ذهنك صورة مقاربة للحياة الروحية الوادعة التي يحياها هذا المهاجر في زمن روعت الحرب فيه معالم الأرض ومجاهلها حتى ما كان ممتنعاً منها على شرور الإنسان منذ الأبد كأجواء السماء وأثباج البحر وقفار البيد!
مال ميزان النهار وأوشكت جمهرة النادين من الأهلين والمهاجرين أن تنصرف عن مناضد القهوة الحافلة، فلم يبق إلا جماعة هنا وجماعة هناك من الذاهبين إلى (رأس البر) أو الآيبين منها، جلسوا يستروحون من عناء السفر ليستأنفوه بعد الظهيرة؛ وسكت النداء عن النُّدُل فجلسوا يرفهون عن أقدامهم على أبواب القهوة؛ وانقطع الرجاء بمساحي الأحذية وبائعي اليانصيب ومحترفي السؤال فناموا متربصين على إفريز الطريق؛ وهمدت الأصوات والحركات حول المهاجر فاتجه بعينه وقلبه إلى النهر الخالد وقد ظمئ شاطئاه ونشَّ مجراه حتى سحب الملاحون قواربهم على قاعه.
هنالك رأى زمر القرويين الوافدين على السوق يملئون الزوارق في المعبَر الذي لم يتغيَّر منذ رآه وهو طفل، فأتبعهم نظرَه الحالم حتى صعدوا درَج الموردة وانسابوا بعصيهم وإخراجهم في شارع فاروق. فلما مروا به على قرب رأى لهم صوراً غير التي عهدها لآبائهم وهو يافع: كان الغالب إلى آبائهم الجسامة والوسامة والسذاجة والصحة؛ وكان بين أبدانهم الوثيقة ولحاهم المرسلة وثيابهم الفضفاضة وعمائمهم الضخمة تناسق عجيب يملأ النفوس مهابة وروعة؛ فإذا حادثتم في شيء من الأشياء، أو عاملتهم في أمر من الأمور، وجدت صفاء القلب مشرقاً في الحديث، وأثر الدين ظاهراً في المعاملة. وكنت تخالط سوادهم أو آحادهم فلا ترى إلا عفة في القول، وصراحة في الفعل، وقناعة بقسمة القدر، ومواساة في محن الدهر، ونية صادقة في أن تكون القرية للكل، والكل للقرية.
ذلك لأن الزورق كان أكثر من الناس، والرضا كان أوسع من الهمِّ، والأمل كان أطول من الحياة!
زِدْ على ذلك أن أولئك الآباء السُّعداء ما كانوا يعرفون عداوة الانتخاب ولا دعاية الأحزاب ولا مكاره السياسة ولا تهاويل الحرب؛ إلا ما كان يقع في أسماعهم الحين بعد

الحين من أخبار الحروب بين العثمانلي والمسكوف!

أما فلاحو اليوم فهم كما يراهم ضئال الأجسام قصار القدود مبذوءو الهيئة، يتبيّن الناظر في وجوههم لوائح المرض، وعلى مظاهرهم دلائل الفقر؛ ثم يتمثلهم وهم في طواقيهم الحقيرة وجلابيبهم القصيرة، مسوخاً من تشويه الطبيعة ينسجم فيها خبث الطوية مع قبح الصورة!

لم يرث قروي اليوم عن قروي الأمس إلا الجهل. أما سلامة الصدر وسماحة النفس وعفة الطُّعمة، فيقولون إنها ارتفعت مع البركة من أرض القرية. فالفلاح يكدح ولا ينجح، ويسعى ولا يبلغ. لأن عدد الناس زاد إلى الضعف، وموارده هو ظلت على الضيق؛ وتشوَّفت نفسه إلى متاع الدنيا ويده من محصول عمله أو ملكه صِفْر لشره المرابي وطمع المالك، فاضطر إلى أن يساعد الجهل بالحيلة، ويرفد الحلال بالحرام، ويمزج الطيب بالخبيث؛ وذلك يأخذ من راحته وصحته وخلقه ودينه ما لا يعوضه طب الطبيب ولا وعظ الواعظ.

والفلاح لإخفاقه الغالب وحرمانه المتصل ينفِس على الناجح ويحقد على الغني. ولعله يعاني من حُمَّى الحسد أضعاف ما يعاني من تبريح العلة!

ولقد ركبه الغرور باستفحال الجهل فيه، وألهبه الطمع بإلحاح الحرمان عليه. والجهل إذا طغى خيَّل لصاحبه أنه العلم؛ والحرمان إذا استمر زيَّف في ذهن المحروم معنى الحياة، والشر إذا دأب على معاندة الطبع أفسد في نفس الشرير صلاح الفطرة. فالفلاح الزور ويعتقده الحق، ويفعل المنكر ويظنه المعروف، ويعمل مع الطبيعة في استثمار الأرض ولا يتفق معها، ويعتمد على الله في اكتساب الرزق ولا يتصل به!

والفلاح التام الجهل كالحضري الناقص العلم، كلاهما ضحية من ضحايا الانتقال الاجتماعي في هذا العصر؛ لأن القروي المغرور يحاول أن يكون مدنيًّا، والمدني المفتون يريد أن يكون أرستقراطيًّا، فيقعد بهذا وذاك فشل القدرة دون الغاية، فيعيشان عيش المسيخ المشيَّأ لا يصلح أن يكون في نسيج الكون لحُمةً ولا سَداة.

هذا الفلاح المزيف لا يصلحه تنظيم قريته ولا تجميل داره؛ إنما يصلحه تربية ذوقه وإرهاف حسه. فإن صاحب الذوق يبني الدار الجميلة ويخط الحديقة البهيجة؛ أما فاقده فخليق به أن يجعل القصر زريبة والبستان مزبلة. ووسيلة إصلاح الفلاح التعليم ولا شك. ولكن التعليم وسيلة بطيئة وإن كانت مضمونة. فإذا أردتم سرعة الإصلاح فلم لا تجربون مع التعليم أن تجعلوا مكان العُمَد (كنستبلات) تكون لهم عجرفة الترك وعقلية الإنجليز؟ إن هؤلاء خلقاء أن يُعلموا الفلاح الجاهل بالفعل كيف يعيش؟

(المنصورة)

أحمد حسن الزيات

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

الأستاذ سلامة موسى يتجنى على الأدب العربي - من واجب كل مصري أن يعطف على العروبة والإسلام لأنهما سناد مصر في الشرق - أدوات مدرسية - السوريون في مكاره الاغتراب - الخوف أنفع من الأمان.

درس ينفع

يظهر أن فصل الصيف تعوَّد الجدل والعناد؛ ففي الصيف الماضي كانت جناية الأستاذ أحمد أمين على الأدب العربي، وقد وأدنا تلك الجناية وهي في المهد. وفي هذا الصيف يتجنى الأستاذ سلامة موسى على الأدب العربي، فهل يكون من الواجب أن نوجه إليه التفاتة ترده إلى الصواب؟

ونذكر أولاً أن الأستاذ سلامة موسى صديق عزيز، وأنا لا أتخلى عن أصدقائي، ولا أذكرهم بغير الجميل.

ونذكر ثانياً أن هذه شنشنة نعرفها من أخزم، فقد وقعت بيني وبين الأستاذ سلامة موسى مناوشات كثيرة على صفحات البلاغ يوم كنا زميلين نتحارب بالأقلام ونتصافح بالقلوب.

والحق أن الأستاذ سلامة موسى له على أهل الأدب حقوق، فهو رجلٌ بنَّاء، وإن غلبت عليه الشهرة بحب الهدم، وقد يكون أقدر أدباء اليوم على مسايرة ما يجدّ من التطورات في الأدب الحديث، فهو لذلك صديقٌ روحيٌّ لأكثر أدباء هذا الجيل.

ثم أدخل في صميم الموضوع فأقول:
تحدث الأستاذ سلامة موسى في مقال نشره بجملة اللطائف عن الجهود الأدبية لجماعة من أدباء مصر هم: طه حسين والعقاد والزيات وزكي مبارك.
وهو يرى أن هؤلاء الأباء (لهم هموم ثقافية لا يمكن أن تحرك قراءنا وتحيلهم إلى مكافحين يجاهدون أو يجتهدون لخدمة الأمة، لأنهم في حقيقتهم وشعورهم متفرجون مستمتعون لأنهم يعالجون العاديّات العربية التي تدرس للذة والاستمتاع وليس للمغزى والكفاح)
ذلك كلام الأستاذ سلامة موسى، وهو كلامٌ برَّاق يُزيغ بصائر القارئين، فمن الواجب أن تنقضه من الأساس قبل أن يفعل فعله في القلوب والعقول.
وماذا يريد هذا الصديق أن يقول؟ إن كان يريد القول بأننا لم نلتفت إلى ما في عصرنا من ثقافات ومعارف وفنون فقد أخطأ كل الخطأ، وانحرف عن الصواب أشد الانحراف.
فالدكتور طه حسين الذي شغل نفسه بدرس عصر النبوة والعصر الأموي والعصر العباسي وتحدث عن المعري والمتنبي هو ذاته طه حسين الذي شغل نفسه بدرس طوائف من الآثار الجميلة للأدب الفرنسي الحديث، وهو ذاته طه حسين الذي التفت إلى مستقبل الثقافة في مصر فنشر عنها كتاباً في جزأين، فمن التجني أن يقال إن مثل هذا الرجل لا يعرف غير الهيام بأودية العصور الخوالي.
والأستاذ عباس محمود العقاد الذي شغل نفسه بدرس أشعار ابن الرومي، ومن إليه من أعيان الشعراء القدماء هو ذاته عباس العقاد الذي شغل نفسه بدرس جماعات من المفكرين الذين سيطروا على العقل الأوربي الحديث؛ وهو نفسه عباس محمود العقاد الذي ساير التطورات السياسية في مصر بذهن ثاقب وقلم وثّاب؛ وهو عينه عباس العقاد الذي ترجم لشعراء مصر في الجيل الجديد، فمن التعسف أن يقال إن مثل هذا الباحث لا يعرف غير الاشتغال بالعاديّات الأدبية.
والأستاذ أحمد حسن الزيات الذي اهتم بتأريخ الأدب العربي، والذي عنَّي نفسه بنقد كتاب ألف ليلة وليلة، والذي يحرص أشد الحرص إلى إحياء ما اندثر من آثار القدماء، وهو نفسه أحمد حسن الزيات الذي جاهد أصدق الجهاد في نقل الغُرر من آيات الأدب الفرنسي الحديث، وهو عينه أحمد حسن الزيات الذي عالج المشكلات الاجتماعية بأسلوب يشهد بأنه مجروح القلب من أزمات هذا الجيل. فكيف يقال إن مثل هذا الكاتب لا يعرف غير الطواف برسوم العهود السوالف؟
بقي الكلام عن الدكتور زكي مبارك وهو رجلٌ أُدرك أسرار أدبه بعض الإدراك لأن اسمه يشابه اسمي.
وأعترف بأني أوغلت في دراسة الأدب القديم كل الإيغال، ولكن عذري في ذلك مقبول، فقد أفهمني جماعة منهم الأستاذ سلامة أني قضيت عشرين سنة في الحياة الجامعية، وأن من الواجب أن أقيم الدليل على أني أصلح لأستاذية الأدب العربي والفلسفة الإسلامية، وكذلك خصصت الأدب والفلسفة بجهود لا ينكر قيمتها أحدٌ من المنصفين. . . وهل فسد الزمان
حتى أحتاج إلى الاعتذار عن الأعوام الطوال التي قضيتها في تأليف (الأخلاق عند الغزالي) و (النثر الفني) و (التصوف الإسلامي) و (الموازنة بين الشعراء) و (عبقرية الشريف الرضي)؟
!!وإلى من أعتذر؟ إلى الأستاذ سلامة موسى الذي أعجب بهذه المؤلفات كل الإعجاب وأنا مع ذلك لم أنس نصيبي من معالجة معضلات العصر الحديث، وقد سجّل الأستاذ سلامة موسى في (المجلة الجديدة) أنه كان يجدرُ بالدكتور زكي مبارك أن يجمع مقالاته التعليمية في كتاب خاصّ لتكون نبراساً يهتدي به المعلمون.
وقد زكَّيت عن الأعوام التي قضيتها في فرنسا بكتاب (ذكريات باريس) وهو كتابٌ يشهد بأني عشت في فرنسا وأنا حادُّ البصر، وافر الذكاء، وهو كتاب يصوّر كثيراً من أزمات فرنسا في هذا الجيل.
والعام الذي قضيته في بغداد صورتُ به في كتاب (ليلى المرضية في العراق) أعظم المعضلات التي تعانيها فلسطين وسورية ولبنان ومصر والعراق؛ ولو أن الأستاذ سلامة موسى قرأ كتاب ليلى لعجب من أن يستطيع الرجل في عام واحد أن يدرك سرائر

هذه البلاد، مع أنه كان موظفاً مسئولاً يحضّر في كل أسبوع نحو اثني عشر درساً لفتيان ناضجين هم طلبة دار المعلمين العالية في بغداد.
لا يهمني أن أدفع الاتهام الموجَّه إليّ العقاد والزيات وطه حسين، فلي ولهم أقلام تدفع ما يوجّه إلينا من العدوان بأيسر مجهود حين يشتجر القتال.
وإنما يهمني أن أدفع الشر عن الأدب العربي، فهو ليس أدباً ميتاً، كما يتوهم بعض الناس، وإنما هو أدب يتوثب من قيض القوة والحيوية، وبفضل الأدب العربي بقيت الذاتية الشرقية إلى اليوم، ولولا الأدب العربي لكان الأستاذ سلامة موسى في أيامه هذه كاتباً يرطن في لغة الأرمن أو لغة اليونان!
ومن محاسن الأستاذ سلامة موسى أنه وطنيٌ صادق الوطنية، ومن هذه الناحية أغزوه بلا رفق.
فمصر التي يحبها أصدق الحب لم تَسُد في الشرق إلا بقوتين عظيمتين: هما اللغة العربية والشريعة الإسلامية.
وهل من القليل أن تأخذ بلاد العرب ثقافتها العربية عن مصر؟ هل من القليل أن يأخذ وطن الرسول معارفهُ الدينية عن مصر؟ هل من القليل أن تكون مصر هي البلد الذي صارت العربية لغته القومية الوحيدة وصار الإسلام هو دين الأكثرية الساحقة من أبنائه الأوفياء؟
قد يكون سلامة موسى في دينه أصدق مني في ديني - والله أعلم بالسرائر - ولكن من المؤكد أني أصدق منه في الوطنية، فأنا أحرص على اللغة العربية والإسلام خدمةً لوطني، وأنا أغض النظر عن هفوات كثير لرجال الدين، لأنهم على أي حال من الشواهد على أن وطني له سلطة روحية. وقد تطوع المسلمون في مصر لمعاونة الأحباش أيام محنتهم بعدوان الطليان لغرض وطني الشعور بأن الكنيسة القبطية لها سلطانٌ روحيٌ على عقائد الأحباش.
فهل يغار الأستاذ (سلامة موسى) على الأزهر الشريف كما أغار على الكنيسة القبطية؟ وهل يحب المسلمين كما أحب الأقباط؟
استغفر الله واستغفر الوطن، فالأستاذ سلامة موسى بحق وصدق من أكرم أصدقاء العروبة والإسلام، لأنه بالفعل من مشاهير الكتاب في اللغة العربية.
وإنما أعيب على سلامة موسى أن يكون أقل وطنية من مكرم عبيد الذي يحفظ القرآن عن ظهر قلب ليكون من أفصح الخطباء باللغة العربية.
وإنما أعيب عليه هذا لأني أكره أن يكون السياسي أصدق وطنية من الأديب.
ولنفرض جدلاً أن طه حسين والعقاد والزيات وزكي مبارك لا يشتغلون بغير دراسة الأدب العربي القديم، فما العيب في ذلك؟
وهل من الكثير أن يكون منا عشرة أو عشرون أو ثلاثون يقضون أعمارهم في دراسة ماضي اللغة العربية، وهي اللغة القومية في مصر منذ ثلاثة عشر قرناً؟ وهل تعاب فرنسا وإنجلترا وإيطاليا بأن فيها مئات من الباحثين لا يهتمون بغير درس الذخائر من الأدب القديم عند اليونان والرومان؟
وما رأي الأستاذ سلامة موسى في التوراة والإنجيل وهما من النصوص العتيقة بلا جدال؟
هل يرى أن الاهتمام بدرس التوراة والإنجيل من العبث السخيف بحجة أنهما لا يمثلان معضلات العصر الحديث؟
وهل يرى أن نحرق جميع ما حفظ الزمن الشحيح من تراث المصريين القدماء؟
الأستاذ سلامة موسى رجل مثقف، فهو يدرك أن العقل الإنساني يتطلع إلى فهم جميع الآثار الإنسانية، وإن قَدُم عهدها في التاريخ. فهل يوجِّه ثورته إلى العرب لأنهم عرب؟
إن كان ذلك فلينتظر، فقد ارجع إليه بعد أيام ومعي وثيقة تشهد بأنه عربيّ الأصل، وفي العرب نصارى ويهود ومسلمون لأن العروبة هي مصدر هذه الديانات الثلاث.
الدنيا كلها تجتمع، ونحن نفترق، مع أننا أحوج من سائر العالمين إلى الائتلاف، والعرب والمسلمون في جميع بقاع الأرض يرون مصر مشرق الأنوار العربية والإسلامية، وأخونا سلامة موسى يريد أن ينزع عن رأس مصر هذا التاج المرموق.
ولو كان سلامة موسى من أرباب المآرب المادية لعذرناه، وقلنا إنه رجل ينتفع من مؤازرة خصوم العروبة والإسلام، ولكن سلامة موسى رجلٌ عفيف القلب والجيب، ولن

يترك لأطفاله غير ما ورث عن أبويه الكريمين، فكيف يستبيح أن يسيء إلى سمعة مصر العربية والإسلامية بلا جزاء؟

سلامة موسى من أعز أصدقائي

فهل أرجو أني يراعى خاطر صديقه الأمين حين يتحدث عن صلة مصر بالشؤون العربية والإسلامية؟

إلى صديقي سلامة أُوجِّه هذا الرجاء، ففي الدنيا مكاره تشغلني وتشغله عن مكايدة الصديق للصديق.

وسبحان من لو شاء لهدانا جميعاً إلى سواء السبيل، فإني أو إياه لعلى هدىً أو في ضلال مبين.

أدوات مدرسية!

كان المألوف في مثل هذه الأيام أن ينص أصحاب المدارس فيما ينشرون من إعلانات على ما تمتاز به مدارسهم من جمال الموقع، وكثرة المختبرات وأهلية المدرسين، وحسن النتائج.

ولكن الزمان يأتي بالأعاجيب، فلأول مرة في تاريخ مصر تقول إحدى المدارس في إعلاناتها إنها مزوّدة بمخبأ طويل عريض يؤوي مئات التلاميذ!

هي محنة جديدة لم تخلُ أخبارها من جديد، والله الحفيظ أبَعدَ الحديث عما في المدارس من أفنية وملاعب يجيء الحديث عما في المدارس من مخابئ وسراديب؟

وأنا مع هذا أرحّب بهذه الشدائد، فالأمم لا تضعُف إلا حين يسود فيها الأمان، والأمن نعمةٌ عظيمة جدّاً، ولكنه يغري بالطمأنينة وهي ضربٌ من السكون، والسكون نذير الخمود.

السوريون في مكاره الاغتراب

وهنا تسنح الفرصة للجواب عن سؤال وجَّهه إلينا الأستاذ محمد حلمي وقد لا حظَ أن السوري المسلم والسوري المسيحي يختلفان في النشاط وفي الحظوظ حين يهاجران إلى أحد البلاد العربية؛ مع أنهما انحدرا من بلد واحد ومن جنس واحد، ثم سأل: أيرجع ذلك إلى فروق خفية بين العقلية الإسلامية والعقلية النصرانية؟

وأجيب بأن ذلك لا يرجع إلى فروق ظاهرة أو خفية بين الديانتين، وكيف والإسلام دين جهاد، وهو يدعو أبناءه إلى الكسب والمعاش والاضطراب في بقاع الأرض، على حين تدعو المسيحية أبناءها إلى الزهد في المنافع الدنيوية والتطلع إلى المصاير المأمولة في رحاب السماء؟

إنما يرجع السبب إلى أن السوري المسلم حين يفد على أحد البلاد العربية يندمج بسرعة في البيئات الإسلامية بسبب اتحاد الدين: فتنزل عنه وحشة الاغتراب، ويذهب عنه الخوف، ولا يشعر بالحاجة إلى التسلح بالمال، وهو عماد المغتربين.

أما السوري المسيحي فيشعر بأنه بعيد بعض البعد عن المجتمع وهو مجتمع إسلامي، وبذلك تقوى فيه القدرة على الكفاح في سبيل الحياة ليعوِّض ما فاته من الأنس الذي يوجبه اتحاد الدين.

ويظهر هذا لجيًّا حين نتمثل حالة السوري الذي يهاجر إلى أمريكا وهو مسيحي، فإنه في أمريكا أقوى في أي بلد عربي، لأن البلد العربي يوافقه في اللغة وإن خالفه في الدين، أما أمريكا فتخالفه من جميع النواحي وإن وافقته أحياناً قليلة في النحلة المذهبية، وكذلك نرى السوري المسيحي في أمريكا أقوى من أخيه في الشرق بسبب ما يعانيه هنالك من قسوة الاغتراب.

ولن يطول اختلاف الحظوظ بين السوري المسلم والسوري المسيحي في البلاد العربية،

لأن التسامح الديني يزداد من يوم إلى يوم، لأن العروبة تقوى من يوم إلى يوم، وبذلك ينعدم شعور السوري المسيحي بأنه في الشرق غريب، فلا يصل النهار بالليل مكافحاً في سبيل المعاش، اكتفاءً بالأنس الذي يجده من مشاركة الجمهور في العواطف والآمال.

فمن ارتاب في هذا التفسير الفلسفي لهذه الظاهرة الاجتماعية فلينظر حالي في دنياي: فهذا النشاط الذي حيَّرتُ به الناس يرجع مصدره إلى الخوف، وإنما أخاف لأني أشعر بالغربة في وطني ولوفرة ما خلق قلمي من الضغائن والحقود.

اللهم أدِمْ علينا نعمة الخوف فهو أنفع من الأمان، ونسألك اللهم أن توالي فضلك فتهبنا القدرة العارمة على وأد ذلك الخوف، كما نسألك أن ترزقنا الخوف منك حتى لا يكون في أنسنا برعايتك العالية ما يحمل على سوء الأدب مع عبادك، ولله الحمد وعليك الثناء

زكي مبارك

خواطر في الحرب

للأستاذ محمد عرفة

يعجب قوم أشد العجب من هذه الأمم المتحاربة، ويرون أنهم أصيبوا بنوبة جنونية، أو بخذلان لم يكونوا ليصلوا إليه إلا بغضب من الله وخزي من الشيطان؛ وإلا فبأي حجة يسفك بعضهم دماء بعض، ويحشدون قوى الطبيعة للقتل والتدمير؟ ألم يكونوا في حياة كلها لين وكلها رفاهية؟ ألم يكونوا سعداء في ظلال الأمن؟ ألم تفتح عليهم بركات السماء، وتدرَّ لهم خيرات الأرض؟

لم تكن لذة من اللذائذ إلا وهي في متناول أيديهم؛ ولم تكن سعادة إلا وهي طوع بنانهم، فتكوا الجنة مريدين، ودخلوا النار عامدين، وهاهم أولاء يصلوْن بحرِّها، ويلفح وجوههم لهب سعيرها.

وفي الحق أن الحجة قائمة والبرهان قوي، لو أن الناس جميعاً يفكرون هذا التفكير ويصدرون عن مبدأ واحد، ويؤمون غاية واحدة.

لكن الواقع أن الناس يصدرون في هذه المشكلة عن مبدأين متناقضين؛ فنظر كل فريق إلى الحياة نظراً يخالف نظر الآخر، وخيل إلى كل واحد أن الآخر مجنون لا يعرف صالحه، ولا يدرك حظه. . .

هذان المبدآن هما: إرادة الحياة، وإرادة القوة: فمن الناس ومن الأمم من يريد من دنياه هذه الحياة، يبغيها ويتوخاها ويحافظ عليها كيفما كانت وكيفما وقعت.

ومن الناس ومن الأمم من يريد من دنياه القوة، فهو يؤثر أن يكون قوياً في الحياة، ولا يعبأ بالحياة إن فقد القوة، وبطن الأرض خير له من ظهرها إذا لم يكن قوياً؛ فإذا رأى مريدو الحياة مريدي القوة يأكلون ويشربون وينعمون، ثم هم يتركون هذا النعيم، ويحلّون أبدانهم لتمزيق القنابل، وإحراق النيران، عابوهم وزروا على أفكارهم ورموهم بالعته والجنون.

وإذا رأى مريدو القوة مريدي الحياة راضين بالحياة غير عابئين بالقوة، خالوهم كلاباً طوقت أعناقهم بالذهب، أو موتى في أكفان من حرير.

فليكف مريدو الحياة عن تفنيد مريدي القوة، وليكفكفوا عبراتهم على من مات منهم، فلعلهم أولى ممن مات بهذه العبرات، وإذا فكروا في لومهم وتفنيدهم فليذكروا قول المتنبي:

لا يعجبن مَضيما حسن بزته ... وهل يروق دفيناً جودة الكفن

محمد عرفة

من عجائب الاجتهاد!

(لناقد أديب)

قرأت كلمة الأستاذ زكي طليمات في الذود عن مسرحية مفرق الطريق، فسرني والله إعجاب الكاتب بهذه المسرحية، وتسجيله هذا الإعجاب لثالث مرة. وليس أدعي إلى السرور من أن تكون آثار أدبائنا موضع هذا الاهتمام من كتابنا الناقدين، وان يدور الإعجاب بينهم مدار الأنخاب، فتنتفي الشكوك وتختفي الظنون ولا يكون هناك محل لعجائب الفهم أو عجائب الاجتهاد!

ومن الخير أن يكون لي نصيب من هذه الأنخاب، فأسجل إعجابي بالأستاذ طليمات؛ وفيما ذكره عن كانت وبرجسن وإبسن وغيرهم دليل على احتشاده للدفاع عن المسرحية أو عن رأيه الأول فيها.

والأدباء الذين يعرضون للنقد لا يتناولونه من الجانب الهين، ولكنهم لا يسعون إلى التعقيد أيضاً، فإنهم يذكرون مع الأستاذ طليمات أن قصيدة الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد في القمة الباردة ترجع إلى أصول من فلسفة (كانت) في المعرفة. يذكر الأدباء هذا ويذكرون أن أداة (كانت) في الوصول إلى حقائق الأشياء وما وراء الطبيعة هي (الشيء في ذاته)، ويذكرون أيضاً أن فلسفة (برجسن) في المعرفة

وحقائق الأشياء وما وراء الطبيعة تستعين بالبصيرة
فالمعرفة والوصول إلى حقائق الأشياء وما وراء الطبيعة غاية مشتركة، وإن اختلفت الوسيلة أو الأداة، وليست كما هي في مسرحية مفرق الطريق، هذه الأخيلة الذاوية أو الوجدان الكابي أو الصور المضطربة وإن ظنها البعض من مذاهب التصوف كما يقول الأستاذ ليروي في بحوثه الأخيرة وتعريفه لفلسفة برجسن. والإلمام بالفلسفات شيء، والتطبيق شيء آخر؛ فلو ذهبنا في التطبيق والمنطق لوجدنا أن هذه المسرحية تقوم على أشياء من هنا ومن هناك؛ فهي من (كانت)، وهي من (برجسن)، وهي من (إبسن)، وهي من أشياء أخرى لم يتحدث عنها النقاد ولا المؤلف، لأنه يمضي بينها على غير هدى، ولأن عجائب التحصيل والروية والاجتهاد لا بد أن تخلق عجيبة في عالم الفلسفات، وسبحان من يجمع العالم في واحد. هذه الأشياء الأخرى التي تحدثت عنها فلسفة قديمة يقضي مذهبها
أنه لا يحق لنا أن تستدل على وجود الكائنات بحياتنا الخارجية، وأن العقل الفردي لا يثبت أي شيء خارج نطاق طائفة متلاحقة من الأحاسيس والتصورات والفكرات إلا إذا كانت في نفوسنا؛ فالموجودات لا وجود لها إلا بنا.
يقول بهذا جماعة السوليبزم ويقول به مؤلف المسرحية ص21: (إن الأشياء لا وجود لها إلا بنا)؛ ولا أغض من جهد المؤلف إذا قلت إن مسرحيته (تخريمة) في الفلسفات وتصنيف من حشو التأليف، فمن عجائب الفهم حقاً أن يتظنن بي الكاتب الفاضل وأن يخدعه إعجابه فيمضي إلى تعريف المذاهب الفلسفية وما بين الأستاذ العقاد ومؤلف المسرحية من فروق فيها؛ والأمر لا يحتاج إلى كل هذا العناء لأني لم أتناول غير جانب الاقتباس؛ والأستاذ زكي طليمات يقرر في ختام مقاله أن لا بأس في ذلك، وأن المعاني والأفكار أشياء مبذولة للناس.
وأنا لا أريد أن أخدع القراء بحديثي أو تخدعني الفلسفات بحديثها عما أسلفت البرهان عليه. فأنا لم أختر للمسرحية الرمزية هذه الصعود المثلوجة ولا الطريق المنار يمضي فيه العقل صاعداً؛ وأنا لم أختر هذا المنحدر المظلم يمضى فيه الشعور هابطاً؛ وأنا لم أخترع صراعاً بين قلب يحترق في الظلمة، وعقل يريد أن يمضي في صعوده المثلوجة وطريقه المنار ليحيا في هدوء وعمق وصفاء البحر؛ وأنا لم أدع في ختام المسرحية دعوة الأستاذ العقاد في ختام قصيدته إلى النزول والانحدار - لم أختر لهذه المسرحية كل هذه الأشياء، وإنما اختارها المؤلف نفسه، وتكلم عنها في تبيينه، فرأيت فيها قصيدة القمة الباردة وبيتين من قصيدة (قلبي). . .!
ولقد عملت هذه الأشياء عملها في نفس وعقل الفنانة الباريسية (سوزان جوفروا) فكانت الصورة المزدان بها غلاف المسرحية، وإذا الصورة جبل تغطي قمته الثلوج، ومفرق طريق تقوم فيه شجرة جرداء قد شظف عودها أو (فترت عندها الحياة)، وطريق منار ينتهي بين الثلوج إلى هذه القمة، ومنحدر يمضي في الظلام إلى أدنى الجبل حيث مشاهد الحياة وضرامها. هذا ما فهمته الآنسة الفنانة من المسرحية، صورته بريشتها رمزاً، فكون هذا الرسم من تصميمها وليس من عمل المؤلف دليل على صحة رأيي وليس دليلاً على غيره.
ولكن الأستاذ طليمات يقول في كلمته (وقد شرح المؤلف وضع المسرح في التبيين الذي صنعه للمسرحية ص140 مشيراً إلى رمز الغلاف، ولم ترد في تبيينه كلمة (قمة) ولا (غور) ورأى بعد الذي ذكرته أن الأمر لا يتطلب هذا التعريف، فبماذا تنتهي صعود مثلوجة على جانب جبل؟ ألا تنتهي (بقمة)! وإلى أين ينتهي منحدر على سفح جبل؟ ألا ينتهي إلى (غور)! فالقمم والأغوار يملأ حديثها الأدب العربي والآداب الأخرى، ولا يقابل القمة في الصعود والارتفاع غير الغور في الهبوط والانحدار.
وأريد أن اقف هنا قليلاً، وأقف عند كلام من تبيين المؤلف، ففي مفرق الطريق هذا يتصارع العقل والشعور، فإذا انتصر العقل فقد مضى صاعداً بين الثلوج، وإلى أين؟ أليس لهذا الصعود من غاية، أو ليس لهذا الطريق المنار من نهاية، أليست هي القمة الباردة أو ثلوج الذرى؟
ويقول الكاتب الأديب إن الثلج عند بشر فارس رمز إلى خلاص النفس من ألم الإحساس البشري، وهذا التفسير جزء من كل، لأنه إذا انعدم الشعور بالألم فقد انعدم أيضاً الشعور باللذة، هو انعدام الإحساس إطلاقاً بخلجات الحياة، وهو العقل المجرد

في فلسفة (كانت)، لأن انعدام الشعور معناه أن لا قلب هنا، وإنما يوجد عقل موغل
في طريق المعرفة، فالمؤلف قد أخذ لنفسه من قصيدة العقاد ما رآه موائماً
لموضوعه، ملائماً لصور المسرحية. ولا يعني الكلام شيئاً حين نقول إن المسرحية تدور
حول قضايا النفس البشرية، فإن العقل له أثره الظاهر في هذه القضايا، وسبق الكلام
على ذلك في مستهل هذه الكلمة، وفي حديث فلسفات
ووأخيراً فإني لم أتناول هذه المسرحية إلا من جانب واحد، هو جانب الاقتباس، ولم
أبد فيها رأياً كما أبداه الكثيرون ومنهم الأستاذ طليمات، ولم أتعرض لهذه الرمزية في
المصنوعة بعد التحصيل والروية والاجتهاد؛ والأصل في الرمزية أن تنشأ مع النفس
وفي التفكير، لأنها التعبير عما وراء الطبيعة، أو ما وراء أفق الشعور، بما تعجز الألفاظ
عن إبانته والإفصاح عنه؛ فإذا كان التعبير مستطاعاً، وإذا كانت الألفاظ قادرة أن تؤدي
معاني النفس وخطرات العقل في يسر وإيضاح، فلا موجب إذن لهذا الاصطناع.
ولم أر في المسرحية إلا حواراً عادياً، ومعاني لا ترتفع عن أفق الشعور، وصوراً من
الأحاسيس لا تضيق بها الألفاظ، وإشارات لا تجد اللغة عسراً في الإبانة عنها وهي في
سعة، لم أجد شيئاً غير هذا، ولكني وجدت أديباً يؤلف ليقال عنه إنه رمزي.
نشأت الرمزية مع النفس ولم تصنع، نشأت في الأدب كما نشأت الواقعية والبار ناسية
وغيرها، ومحال أن يكون في استطاعة الكاتب أن يكتب، وأن يكون مجال الإشراق
والطلاقة مهيأ له، فيغمض ويبهم ويظلم، ويسعى إلى الرموز والكفايات عمداً وكدّاً، لا
اضطراراً ولا فنّاً فيفقد طلاقته الفنية، وإشراقه الوجداني، كما صنع مؤلف مسرحية
مفرق الطريق. بينما الطريق أمامه عريض ومتسع وممتد إلى غايات كثيرة في
المسرحية الرمزية، وفي استحداث التشابيه والأغراب فيها كما شاء مع لطف الإشارة
ورشاقة التخلص؛ وهذا الغموض الذي يلقي ظلاله أحياناً فيبهر ويسحر، وخصوصاً إذا
كانت القضية هي قضية القلب والعقل بين امرأة ورجل!، ولا أنسى حديث الرمزية عن
المقبرة البحرية للشاعر الفرنسي بول فاليري، وقد ذهب إليه جماعة من النقاد
والكتاب يستوضحونه ما استغلق عليهم من معاني هذه القصيدة الرمزية وكلماتها،
فكان جوابه لهم أنه لا يملك إيضاحاً ولا إبانة أكثر مما عبر عنه من الكلمات والعبارات
في قصيدته.
وهأنذا قد خلصت من ضباب هذا الإبهام أو الإيهام، وما أراني إلا كهذا الإنجليزي الذي
كان يسمع عن أشباح هائلة تظهر في الضباب كل صباح، فلما كان ذات يوم تُضبِّ رأى
في طريقه عن بعد شبحاً يروع منظره، وكان كلما اقترب منه تضاءل هذا الشبح حتى
إذا ما التقى به لم يكن غير إنسان عادي، عرف في وجهه أحد معارفه!!
ولقد مشيت وسط هذا الضباب وبين حديث الفلسفات إلى مسرحية (مفرق الطريق)،
فلما دنوت منها وتبينت سماتها واستظهرت دقائقها، لم أجد شيئاً يروع ويعجب، وإنما
رأيت شيئاً عادياً كالذي رآه ذلك الإنجليزي.
(ناقد أديب)
على هامش الحرب
الطابور الخامس في القرآن
للأستاذ عبد الرزاق إبراهيم حميدة
- 3 -
أهل الكتاب
أعمالهم والحرب معهم: إجلاء بني قينقاع وبني النضير.
انتقاض بني قريظة في غزوة الخندق. غزو خيبر
نتحدث اليوم عن عداوة اليهود المسلحة بعد دسائسهم وكيدهم للرسول ولدينه
ولأصحابه في أوقات السلم:
كان من أول ما فعله الرسول بالمدينة أن عاهد اليهود، وأقرهم على دينهم وأموالهم.
ومن عهده لهم كما تقدم: وإن من تبعنا من يهود فله النصر والأسوة، غير مظلومين ولا
متناصر عليهم، وإن اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن بينهم النصر
على من دهم يثرب، وما كان بينهم من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى
الله ورسوله.
غير أن هذا العهد الذي يوحد بينهم في السلم والحرب، ويقضي عليهم بالتناصر

وبالعيش معاً في أمن وراحة، لم يكن مرعيًّا إلا من جانب محمد. أما اليهود فلم يرعوه إلا مضطرين؛ فإذا سنحت الفرصة تحللوا منه، ورأوا نقضه فرضاً عيهم، (ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيلٌ) ومن أمثلة تسترهم على المغيرين ونقضهم بذلك عهدهم للرسول أن أبا سفيان كان قد حلف بعد هزيمة قريش في بدر ألا يمس طيباً حتى يغزو محمداً، ثم خرج لذلك في مائتي راكب من قريش يود لو يصيب من المسلمين دماً أو مغنماً، ونزل على بني النضير المعاهدين لرسول الله؛ وعرفوا غايته، وكان الواجب يقضي عليهم أن يخبروا محمداً بذلك، ولكنهم لم يفعلوا. وسار أبو سفيان حتى نزل ناحية يقال لها (العريض) فحرق نخلها وقتل اثنين من الأنصار، وأحس المسلمون بأمر أبي سفيان فخرجوا للقائه ففر فتعقبوه، فألقى هو ومن معه زادهم في الطريق، وكان من السويق فسميت الغزوة غزوة السويق.

بنو قينقاع

ثم إن يهود بني قينقاع - وهم أول من جاهر بنقض العهد من اليهود - أظهروا ما خفي في نفوسهم بعد بدر، وهددوا الرسول، فحاصرهم خمس عشرة ليلة، نزلوا في آخرها على حكم حليفهم عبد الله بن أبي، فحكم أن يجلوا عن المدينة، فخرجوا منها إلى أذرعات بالشام.

بنو النضير

ثم جاء دور بني النضير، فإن النبي ذهب إليهم يستقرضهم دية قتيلين مسلمين قتلهما عمرو بن أمية الضمري وهو يحسبهما مشركين، فأظهروا حسن استعدادهم لإجابة طلبة. ولكنهم ائتمروا به ليقتلوه، وعمد عمرو بن جحاش إلى رحى عظيمة، وأراد أن يقليها على رأس النبي من أعلى الجدار الذي كان مستنداً إليه، فأمسك الله يده، وأخبر رسوله بكيدهم وسلطه عليهم، وفي ذلك يقول الله: (يا أيها آمنوا اذكروا نعمةَ الله عليكم إذ هَمَّ قومٌ أن يبسُطوا إليكم أيدَيهم فكَفَّ أيدَيهمْ عنكم)

ويقال إنهم كانوا صالحوا النبي صلى الله عليه وسلم على ألا يكونوا عليه ولا له، فلما ظهر المسلمون في بدر قالوا هو الرسول الذي نعته في التوراة؛ فلما هُزم المسلمون في (أحد) ارتاب اليهود ونكثوا عهدهم، وخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكباً إلى مكة فحالفوا عليه قريشاً، وتلك محالفة تجعلهم خطراً عظيماً على المسلمين لأنهم من المدينة، وفي استطاعتهم التجسس لقريش على المسلمين، وإرشادهم إلى مواطن الضعف في الجيش الإسلامي، وأحسن الأوقات للهجوم، وغير ذلك من أعمال الطابور الخامس.

عرف النبي الكريم بأمر هؤلاء القوم ونياتهم، وسلطه الله عليهم فصبحهم بالكتائب ودعاهم إلى الخروج من المدينة، فقالوا: الموت أحب إلينا. وتنادوا بالحرب، فحاصرهم النبي؛ ويقال إنهم استمهلوه عشرة أيام يتجهزون فيها للخروج، وفي تلك الفترة أرسل إليهم المنافقون أنهم ناصروهم إن قاتلهم المسلمون، وأنهم سيخرجون معهم إن أُخرِجوا. فتحصنوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله، ولكن الحصار اشتد عليهم، وقعد المنافقون عن نصرتهم وقذف الله الرعب في قلوبهم؛ وطلبوا الصلح، فأبى الرسول إلا الجلاء، فجلوا إلى الشام: إلى أريحا وأذرعات، وجلا آل حيي بن أخطب إلى خيبر.

ونزل في هذا الجلاء والمفئ الذي ظفر به المسلمون، والمنافقين الذي غروا اليهود أكثر سورة الحشر: (هو الذي أخرجَ الذي كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر، ما ظننتم أن يَخْرُجوا، وظنوا أنهم مانِعتُهم حُصُونهُمْ من الله. فأتاهم الله من حيث لم يَحْتسِبوا، وقَذَف في قلوبهم الرعبَ. يُخْرِبون بُيوتَهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار) ثم بين سبب ما حل بهم وما أعده لهم من عذاب النار فقال: (ذلك بأنهم شاقُّوا اللهَ ورسولَهُ ومن يُشَاقِّ الله فإن الله شديد العقاب)

أما المنافقون الذين وعدوا اليهود النصر فحديثهم في هذه السورة قوله تعالى: (ألم ترى إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أُخْرِجتُمْ لَنَخْرُجَنْ معكم، ولا نُطيعُ فيكم أحداً أبداً، وإن قوتلتم لَنَنُصرنَّكم، والله يشهد إنهم لكاذبون. لئن أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم، ولئن نصروهم لَيُوَلُّنَّ الأدبار)

ثم بين حالهم من اليهود وخذلانهم لهم فقال: (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر،

فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين. فكان عاقبتهما أنهما في النار خالِدَيْنِ فيها، وذلك جزاء الظالمين)

الأحزاب

لم يترك اليهود فكرة الانتقام من محمد لحظة واحدة، وقد هداهم تفكيرهم إلى أن خير وسيلة للانتقام منه هي تخريب الأحزاب عليه واستئصاله هو ومن معه من المسلمين، فخرج بعض من نزل خيبر من بني النضير إلى مكة، وحالفوا قريشاً عليه، ودعوهم إلى حربه؛ فقالت قريش: يا معشر يهود، أنتم أهل الكتاب، وأنتم أقرب إلى محمد منا، وهو أقرب منكم إلينا، فلا نأمن مكركم، فاسجدوا لآلهتنا حتى نطمئن إليكم، ففعلوا. فقال أبو سفيان: أنحن أهدى سبيلا أم محمد؟ فقالت اليهود: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أهدى وأولى بالحق منه. وذلك افتراء على محمد وكذب على الله وعلى التوراة، ولكن الحقد أضلهم أو لعلهم رأوا الغاية التي يرجونها، وهي استئصال المسلمين، تبرر الوسيلة، ولو كانت الكفر بكتابهم وربهم.

ثم ساروا إلى غطفان فأعدوها لحرب النبي، وخرجت قريش وغطفان يريدون المدينة؛ فلما علم النبي بخبرهم استشار أصحابه في الوسيلة التي يتقي بها تلك الأحزاب العظيمة

والجموع المحشودة لاستئصاله. فأشار عليه المسلمون أن يحفر خندقاً في الناحية المخوفة من المدينة، فقبل ولم يكن للعرب عهد به؛ فلما وصلوا حجز بينهم الخندق. ولكن هل اكتفى اليهود بتلك الجموع وحدها؟ إن لهم في المدينة إخواناً في الدين يصح استغلالهم ليكون خطرهم على المؤمنين شديداً، أولئك هم بنو قريظة.

بنو قريظة

هذب حي بن أخطب إلى سعد بن كعب سيد بني قريظة، وصاحب عهدهم، وكان بين سعد وبين النبي عهد أن ينصره إذا حورب كما تقدم، وأن يكون معه على من دهم يثرب، فأغلق سعد بن كعب الباب دون حي، ولكنه استجاب أخيراً لدعوته، ونقض عهده، وانضم إلى الأحزاب. وسمع النبي بذلك فأرسل سعد بن معاذ سيد الأوس وحليف بني قريظة وأرسل معه سعد ابن عبادة سيد الخزرج ليعلما له صدق الخبر، وكان أمر بني قريظة يهمه أكثر مما يهمه أمر الأحزاب، لأن بني قريظة في بلده لا يفصل بينه وبينهم خندق ولا غيره، وخيانتهم في هذا الوقت الحرج تؤثر أثراً بالغاً في جيشه.

ولما بلغ الرسولان بني قريظة وجداهم على أخبث حال من الغدر والخيانة، نالوا من رسول الله بألسنتهم ونقضوا عهدهم، وقالوا لا عهد بيننا وبين محمد. فشاتمهم سعد بن معاذ؛ فقال له سعد بن عبادة: إن ما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة. ثم عادا إلى رسول الله وأخبراه بما عليه القوم فعظم البلاء على المسلمين، واشتد الخوف، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم، وزلزل المؤمنون زلزالاً شديدا.

وأقام المسلمون على ذلك الحال من الخوف والحذر بضعا وعشرين ليلة، ثم قبض الله لهم نعيم ابن مسعود الأشجعي فجاء النبي مسلماً، وقال له إني أريد مساعدتك وإني رجل واحد؛ فقال له الرسول: خذِّل عنا ما استطعت فإن الحرب خدعة، فاستطاع بحسن حيلته تدبيره أن يوقع الفرقة بين الأحزاب. وأرسل الله على هؤلاء ريحاً اقتلعت خيامهم، فعادوا إلى بلادهم من غير حرب، وفي ذلك كله يقول الله تعالى في سورة الأحزاب: (يأيها الذين آمنوا اذْكُروا نعمةَ اللهِ عليكم إذ جاءتكم جنودٌ فأرسلنا عليهم ريحاً وُجنُودًا لم تَرَوْها، وكان اللهُ بما تعملونَ بصيرا، إذ جَاءُكم مِنْ فوقِكم) وهم بنو قريظة، (ومن أسْفلَ منكم) وهم الأحزاب. (وإذْ زَاغتِ الأبصارُ وبلغت القلوب الحناجر، وتظنون بالله الظّنونَا. هنالِك ابتُليَ المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً)

أليس عمل بني قريظة من أخبث الغدر، وأخطر الأعمال؟ وأي فرق بينهم وبين جماعة النازي من الطابور الخامس في تشكوسلوفاكيا وهولندا والنرويج؟ وماذا يكون جزاؤهم من الرسول بعد أن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم، وأعانوا العدو على حليفهم في أشد الأوقات حرجاً؟ لابد من التخلص منهم سريعاً. ولهذا أمر الرسول المسلمين بعد انصراف الأحزاب ألا يصلوا العصر إلا في بني قريظة. وذهب إليهم وحاصرهم خمساً وعشرين ليلة، حتى جهدهم الحصار، وقذف الله الرعب في قلوبهم وطلبوا الصلح،

فقال رسول الله: تنزلون على حكمي؟ فطلبوا أن يحكم فيهم حليفهم (سعد بن معاذ) سيد الأوس، فحكم بقتل رجالهم، وسبي نسائهم وذراريهم، ثم نفذ القتل في سوق من أسواق المدينة. وفي عاقبة بني قريظة يقول الله في سورة الأحزاب: (وأنزَلَ الذينَ ظاهروهمْ مِن أهلِ الكتابِ من صَياصِيهِمْ، وقذفَ في قلوبهمُ الرُّعبَ، فريقاً تقتُلون وتأسِرون فريقاً، وأورثكم أرَضهُم ودِيارَهم وأموالَهم وأرضاً لم تَطئُوها، وكان الله على كل شيء قديرا)

لم يبق من أهل الكتاب - اليهود - إلا أهل خيبر، فرأى الرسول أن يأخذ بالأحوط وأن يستريح منهم بقوة السلاح،. فسار إليهم بعد صلح الحديبية ونزل بساحتهم وحاصرهم فامتنعوا بحصونهم، فشدد المسلمون عليهم الحصار حتى استولوا على حصونهم واحداً بعد الآخر، وطلبوا الصلح، فصالحهم على نصف ما تغله أرضهم على أن تبقى في أيديهم، وللمسلمين أن يخرجوهم منها إذا شاءوا. ثم صالح أهل فدك على مثل ما صالح عليه أهل خيبر.

من هذا نرى أن جماعة الطابور الخامس من أهل الكتاب هم اليهود، وقد قدمنا عملهم في السلم في المقال السابق، أما عملهم في الحرب فهو - كما في هذا المقال - أنهم كانوا ينقضون العهود في أشد الأوقات حرجاً، ويخونون الله ورسوله عندما يكون المسلمون في أشد الاطمئنان إليهم، وفي أعظم الحاجة إلى نصرتهم أو حيادهم، وأنهم دبروا قتل النبي في حين أمنه إليهم وثقته بعودهم.

بقي من الطابور الخامس في القرآن المنافقون وحديثنا عنهم قريب إن شاء الله.

(القاهرة)

عبد الرزاق إبراهيم حميدة

نحن وفرنسا

باكون وشامتون

للأستاذ نجيب محمد البهبيتي

قرأت مقال صديقي الأستاذ (عبد المنعم خلاف) الأخير في مجلة (الرسالة). ولقد حمدت له انفعاله لما قاساه إخوان لنا في الدين وأقرباء منا في الدم؛ ولكني أخذت عليه أن هذا الانفعال قد ساقه إلى نوع من الشماتة المؤذية، وإلى نظرة ظالمة في الحكم على أمة لم تبد عيوبها ولم تتضح زلاتها إلا بعد أن حطمتها القوة.

لا مكابرة يا عبد المنعم في أن الحكم الفرنسي في المستعمرات كان صارماً، ولا ريب في أن أسلوب حكام المستعمرات في القضاء على كل ما يمكن أن يصبح بذرة مبشرة بالنمو المؤدي للانفصال عن جسم الإمبراطورية - كان هداماً، وأن محاولات إدماج الممتلكات قد تغلغلت إلى الروح بعد وضع اليد على الجسد، ولكنك نسيت أشياء أخرى، نسيت أن الساسة ليسوا هم الأمة، وإن كانوا يعملون دائماً باسمها، وأن مجموع المحكومين لا يصل إليهم كثير من تفاصيل وسائل الحكام، وما يصلهم منها يصلهم ممزوجاً بالدعاية، مقروناً بأسباب فيها كثير من إسدال ستار صفيق على الحقائق التي يعرفها الساسة ولا يعرفها غيرها.

فهذه الأساليب في الحكم لا تمثل الأمة الفرنسية، ولو خوطبت فيها لأبدى كثير من الناس سخطهم ونفورهم منها؛ ولقد عاشرت الفرنسيين عن كثب وعرفت فيهم المغالاة في تقدير حرية الرأي، ورأيتهم يسمعون بآذانهم ما يقال في ذمهم في كثير من التسامح وسعة الصدر. ولو علمت أن أبناء أحط المستعمرات الفرنسية يعاملون في فرنسا نفسها معاملة الفرنسيين أنفسهم، يستوون معهم أمام القانون، كما يساوونهم في المعاملة وفي القدر الذي يلفونه من احترام الناس أو احتقارهم في غير تفريق بين الألوان والأجناس؛ لو علمت هذا لعجبت ولأدركت شيئاً من الأشياء التي تجعل كل أجنبي ينزل فرنسا يشعر بأن هذا البلد وطن ثان له. ولو عرفت بعد هذا أن فرنسا كانت مأوى جميع اللاجئين السياسيين من كل صنف ومن كل لون، وأن باريس وحدها كانت تؤوي نحو مليون من غير الفرنسيين لزاد عجبك، ولأدركت بعض الأسباب التي تدفع بمن ينتصرون اليوم لفرنسا إلى الانتصار لها على الرغم مما يعلمون عن مساوئ حكمها في مستعمراتها، لأنهم يعرفون أن هذا النوع من الحكم إنما يسأل عنه فريق من أبنائها لم يستطيعوا أن يطبقوا هذه المناهج من الحكم على الأجانب في أرضهم لما يعرفونه من نفور أبنائها بطبعهم من الاستبداد.

والحكم في كل أمة من الأمم يكاد يتعاقب عليه أبناء طبقة من الطبقات في الجيل الواحد حتى ليصبح أشبه شيء بالحرفة تصطنعها هذه الفئة وتعرف بها فلا تكاد تخرج عنها، وتجدها تتوارث تقاليدها حتى ليصبح تطبيق هذه المناهج والقواعد أشبه بدورة ميكانيكية تؤخذ بها الأجيال المتعاقبة في كثير من أدوار التاريخ. وليس لك أن تطالب الشعوب في مجموعها بالنظر في أعمال الحكام، ذلك النظر الفاحص القائم على الدرس، لأن دون هذه الدراسة العامة ما يشبه الاستحالة العملية؛ وتيار الحياة البشرية، والقدر المتاح لكل فرد من القدرة على تحصيل عيشه وعلمه الأشياء يخضع دائماً لحاجاته ومواهبه؛ فليس لإنسان أن يسأل أمة من الأمم مهما بلغت ثقافة أبنائها: لماذا لم تعرفوا عن حكم حكامكم لكم ولغيركم ما يجعلكم في حل من إقصائهم عن الحكم إذا ما أساءوا السيرة لأنهم إنما يعلمون الأشياء في نطاق وسائل تحصيل الأخبار المتاح لهم؟

ومع هذا كله فإني لست لأبرئ الفرنسيين من أخطاء الحكم التي اقترفها حكامهم في الأراضي التي نزلوها، ولست أعصم هذه الأمة من الزلل، ولكني أتحدث الآن وفي نفسي ذكرى ماثلة لذلك التسامح الذي كنت أشهده بينهم في كل نواحي الحياة، وذلك النفور الثائر الذي كنت أراه منهم حين يحس أحدهم ظلماً يقع عليه أو على غيره. ولا زلت أشعر بتلك الطيبة الفياضة فيهم. لا زلت أذكر هذا وأنظر على ضوئه إلى الأشياء، ثم أحكم وإن كنت لا أزال أدع في جانب من نفسي مجالاً للضعف البشري، ولتلك الحاسة الحيوانية التي تأخذ بخناق الإنسان مهما ارتقى ومهما سما حين تهيج بنفسه غريزة الإحراز أو غريزة التملك.

فهؤلاء القوم في استعمارهم، وفي محاولاتهم الإدماج المادي والروحي للأمم التي كانوا يحكمونها، إنما كانوا مقلدين لغيرهم، وإن كانوا أفرطوا في التقليد. كانوا يقلدون في هذا أمة عزيزة علينا. ولا أظنك تجهل من أقصد؛ فإن العرب قد طووا تحت جناح الدين كل الأمم التي حكموها، وكان الدين يأمرهم بهذا ويأمرهم بالتسوية بين أبنائه. ولكن عوامل الضعف البشري والدين إنما نزل لتهذيبها أخذت تقوى على الأيام فاستيقظت العصبية، وانبعثت

الفوارق الجنسية، رغم ما سعى إليه الدين من إزالتها. وعاد البشر بشراً يمزقون عنهم ذلك الثوب الملائكي الذي رسمه لهم المثل الأعلى للدين الكريم. وانقلبت تلك الحياة الرتيبة التي كان يحياها المسلمون إلى حياة مضطربة صاخبة تطاحن فيها الأجناس تطاحناً أدى إلى انحطام الأمويين أولاً ثم البرامكة وغيرهم بعد ذلك. لا أريد أن أطيل في هذا فقد تعلم منه ما أعلم، وإنما ذكرت لك ما ذكرت عن طريق المثل. فالبشر هم البشر؛ وما الأديان وما تلك المدنيات إلا خطوات في طريق تقدم الإنسان الخلقي والمثالي يحقق كل منها على الأيام قدراً يتفاوت قوة وضعفاً، ولكنه من غير شك خطوة في طريق الكمال المجهول الذي تشرئب إليه الإنسانية وتطمح إلى بلوغه يوماً. ولو كنا نحن الحاكمين لما حكمه الفرنسيون لما كنا خيراً منهم، فإن مبدأ حكم الأمم في ذاته مأزق يجر إلى مآزق.

لذلك قد يكون من الخير أن نترك هذه الناحية من نواحي أخلاق الأمم، وهذا الوجه من وجوه مدنياتها، لأنهم يتساوون فيه جميعاً، إلى غيره من صور المدنية لتعلم كم تركت هذه الأمة في تراث البشرية، وكم رسمت لها عن طريقي النظر والعمل من سبل لبلوغ غاياتها من الكمال والمثُل.

ويظهر أنني لست في هذا مبتدعاً ولا مبتكراً، ولكنه الطريق الفطري الذي يندفع إليه كل الناس بغرائزهم في الحكم على الأمم التي تركت أثراً في التاريخ. وليس أدل عليه من ذلك الشعور العميق من الحزن القائم الذي أحس به الناس حين كانوا يقرءون كل يوم خبراً عما كان ينزل بفرنسا. ولم يقم بهذه الحركة الشامتة وهي الحملة على فرنسا إلا قوم يخيل إليّ يا عبد المنعم أنهم لم يتبينوا حق التبين ما يجري في نفوسهم، ويخيل إليّ أن بعضهم لم يكتب ما كتب مخلصاً لفكرة أو مؤمناً بحقيقة.

إن الفرنسيون قد قادوا الأمم قيادة عملية إلى تحقيق قسط ضخم من الرخاء النفسي الذي تستمتع به الإنسانية اليوم. ولم تكن الثورة الفرنسية التي سالت فيها دماء فرنسا بغزارة إلا إحدى المحاولات الجبارة لدفع طبقة من الطبقات إلى الاعتراف بحقوق الإنسان، بعد أن عاش غالب البشر عبيداً يلهو أقلهم بآلام أكثرهم، ويسخر مجهوداتهم

لترفه. وقد تكون هذه النعمة التي تستمتع بها أنت وأستمتع بها أنا من الحياة والتفكير الحر اليوم أثراً من آثار
جهادهم ونضالهم. فهلا رأيت في هذا شيئاً يسيل من عينيك دمعة حرى على نكبتهم؟
هل ترى لأمة أخرى في التاريخ الحديث مثل هذا الفضل؟ إن الإنجليز كانوا يستمتعون
قبل الفرنسيون بنوع من الحكم الدستوري الحر لم تستمتع به أمة أخرى، وقد ثاروا
على ملوكهم قبل الثورة الفرنسية مرات حتى استخلصوا من بين أنيابهم حقوقهم،
فهل سمعت عنهم قبل الثورة الفرنسية أنهم طالبوا الأمم غير أمتهم بهذه الحقوق المقدسة؟ لم تسمع لهم في هذا صوتاً، ولكن الفرنسيين يوم حصلوا على هذه الحقوق
قاموا يدعون بها ويبشرون ويضجون، وكأني بسيل دمائهم يفيض على الدنيا فيوقظ النفوس الراقدة، وينبه الأمم إلى حقوقها.
هذا شيء من تراث النفس الفرنسية؛ أما ثمرات عبقريتها في حضارتنا المادية فقد
تعلمها خيراً مني. فتقدم الإنسان الآلي قام بقسط من خَلقه العقل الفرنسي؛ ورقي
الطب كان أكثره على أيدي الفرنسيين، وتلك الثروة الهائلة من الإنتاج الأدبي الرقيق هي من ثمار العقل الفرنسي.
كم وددت لو أتيح لكل من هؤلاء الشامتين بفرنسا أن يحيا فيها زمناً لينظر كيف يعمل
الناس في صمت، وكيف يعملون كالنحل دائبين، كأنما العمل الدائم الدائب فيهم
موهبة مخلوقة وغريزة متوارثة. لو رأيت هذا مثلي لأدركت حقاً أن بعض الأمم تعيش كما تعيش الطفيليات عبئاً على غيرها.
لو شهدت متاحفهم، وتلك اللوحات التي تصور بألوانها وظلالها جمال النفس وحلاوة
الروح، لأدركت أنك أمام أمة ممتازة لا تملك إلا أن تحبها، لأن الإنسان بفطرته يحب ما يمتاز وما يعطيه فكرة عن أسمى ما في كيانه.
ولو شهدت معي في فرساي (قاعة الوقائع) ورأيت سلسلة الانتصارات التي أحرزها
هؤلاء الناس في ماضيهم، وأحسست بما تتركه هذه الصورة في نفسك من تاريخ هذه
الأمة وفي نفس الطفل وفي تربيته، لوقفت على شيء من عظمة هذه النفس وعبقريتها.
وبعد فإن سقوط الأمم لهواً من اللهو، ولا تسلية يزجي بها الوقت، ولكنه حادث جليل
تخضع النفوس له إجلالاً وتخشع القلوب منه رهبة؛ فإذا كانت الأمة المحطمة قد تركت
في حياة الناس أثراً، وفاضت عليهم من نور روحها شعاعاً، فهي أولى يومئذ بأن تسكب في
سبيلها الدموع ولو كانت عدواً؛ فما أنبل أن تخشع في حضرة عدوك يوم يسقط صريعاً عند قدميك!

نجيب محمد البهبيتي

السير جمس جينز

أمير الفلك في القرن العشرين

للأستاذ قدري حافظ طوقان

لا يستطيع أحد من الذين يعنون بالعلوم الطبيعية والفلكية تبسيط بحوثها إلا إذا كان
مالكا لناصيتها ضليعاً في اللغة واقفاً على أسرارها. فليس من السهل تقديم
الموضوعات العويصة في قالب خال من التعقيد والغموض، كما أنه ليس من السهل
أيضاً وضع النظريات والقوانين الكونية وما يتصل بها من ظواهر وحركات في أسلوب يستسيغه أصحاب الثقافة العامة وجمهور المتعلمين.
قد يتمكن الفلكي من أن يكتب مقالاً في النظام الشمسي لأمثاله من الذين يهتمون
بالفلك والطبيعة، وقد لا يجد في ذلك صعوبة أو مشقة، ولكن إذا أراد أن يكتب للناس
وللذين لا يعرفون شيئاً في الفلك، فهنا يجابه صعوبة وعناء في تقريب هذا البحث إلى
أذهان القراء وجعله في متناول أفهامهم، وليس من الهين التغلب على هذا العناء وتلك الصعوبة.
ولهذا، فقليلون هم الذين يوفقون في عرض بحوث العلوم الدقيقة والعويصة (كالفلك
والرياضيات والطبيعيات) في لغة سلسلة سهلة المأخذ بعيدة عن الغموض والإبهام.
ولقد امتاز السير جيمس جينز في هذه الناحية فبرز على غيره من علماء هذا العصر.
ولا نكون مبالغين إذا قلنا إنه أول من استطاع أن يقرب بحوث الفلك إلى الأذهان،

وأول من حبب الناس في الفلك وموضوعاته.
وضع العلماء كثيراً من المؤلفات الفلكية التي تتناول النظام الشمسي والنجوم وحركاتها وما يجري في الكون من ظواهر.
ولكن هذه الكتب خاصة بطبقة الذين يدرسون الفلك أو الذين يهتمون به، لا يجد فيها غيرهم متاعاً أو لذة. وجاء في هذا القرن السير جينز وخط طريقاً جديداً مبتكراً في التأليف فأخرج كتباً فلكية وجد فيها الناس على مختلف ميولهم العلمية متاعاً ولذة وطرافة وفائدة، فكثر الإقبال عليها وذاع صيته ودعته الإذاعات اللاسلكية لتحقيق رغبة الجمهور في إذاعة أحاديث فلكية لاقت كل الإقبال وجرى على طريقته بعض العلماء فحاولوا أن يبسطوا العلوم الطبيعية فوفقوا في ذلك بعض التوفيق، ولكن لم يصلوا إلى درجته من حيث
العرض والسلاسة. . .
ولد جينز في لندن 1877 وتعلم في جامعة كمبردج وحصل في أثناء دراسته على جوائز علمية عديدة.
درّس الرياضة التطبيقية مدة في جامعة كمبردج، وكان أستاذاً للرياضيات في جامعة برنستون.
وفي سنة 1919 عين سكرتيراً للجمعية الملكية.
إن السير جينز رياضي من الطبقة الأولى، وقد استطاع أن يسخر الرياضيات في العلوم الفلكية والطبيعية وخرج بنتائج رائعة لم يسبق إليها. أتى ببراهين رياضية لنظريات (حركة الغازات ولقانون ماكسويل في سرعة الذرات.
وأوجد معادلة حسب منها الطاقة التي تصدر عن الأجسام السوداء.
بحث في الإشعاع والكهارب، واستعمل القوانين الرياضية في الفلك فوصل إلى نظريات مبتكرة زادت في ثروة العلم الحديث زيادة أدت إلى تقدم الفلك وما يتصل به من فروع الطبيعة.
بيّن جينز أن نظرية (لابلاس) في النظام الشمسي غير صحيحة، وأتى ببحوث جديدة في النجوم ونشوئها وفي الجاذبية وما إليها. كتب في النجوم المزدوجة وفي أصل السدم اللولبية. وله نظريات جديدة في ألوان النجوم وأقدارها، وفي الأقزام البيضاء والمردة الحمراء والطاقة النجومية ونشوء النظام الشمسي والكوني ومولد السدائم وجفولها. وله آراء مبتكرة في عمر الكون واتساعه. ولهذه البحوث والآراء الأثر الكبير في تقدم علم الفلك الحديث. ولا أكون مبالغاً إذا قلت إن الفلك (في هذا العصر) قائم على مآثر جينز وعلى جمعه بين الفلك والطبيعة والرياضة، فلولا هذا الجمع لما توصل إلى هذه النتائج الباهرة لتي توصل إليها.
إن مآثر جينز لا تزال (وستبقى) منهلاً ينهل منه العلماء من مختلف الأقطار. ولا تجد كتاباً حديثاً في الفلك يخلو من نتائج جينز كما أنك لا تجد مؤلفاً لا يعتمد على آرائه ونظرياته ونتائج تجاربه وأرصاده وحساباته في الموضوعات الفلكية والطبيعية.
ألّف جينز في الغازات وفي النظريات الرياضية التي تتعلق بالكهرباء والمغناطيس ووضع
كتاباً في مسائل الديناميكا السماوية وله بحوث وآراء في الإشعاع ونظرية الكم وأيضاً عنى بوضع الكتب الفلكية ككتاب (العالم حولنا) وكتاب (النجوم في مسالكها) وغيرهما.
وقد بسط في هذه الكتب خلاصة ما انتهى إليه العلم الحديث في الكون وأنظمته والقوانين التي تسيطر عليه وما يتصل بها من نظريات النسبية والإشعاع والطاقة. وقد لاقت إقبالاً منقطع النظير، وبلغ متوسط المبيع منها كل يوم إبان ظهورها فوق الألف. تناول فيها بحوث النظام الشمسي والكون، وهل هو محدود أو غير محدود، متمدد أو منقبض. وكذلك تناول تركيب الذرات وتولدها وانحلالها والنجوم وما يتعلق بها من أقدار وألوان وحرارة وعدد وحركات. وحين وضع كتبه هذه فرض أن القراء ليس لديهم معرفة علمية سابقة، ولهذا عمل على عرضها في أسلوب استهوى به المتعلمين والمثقفين، وتمكن بذلك من إطلاع الناس على شيء من سحر علم الفلك الحديث وعلى شيء من عجائب الكون.
وفي مقدمة أحد كتبه (وهو كتاب النجوم في مسالكها) - وكان قد أذاع بحوثه في إذاعة لندن - ورد ما يلي: (. . . والكتاب الذي بيدك يحتوي على هذه الأحاديث متوسعاً فيها

إلى ضعف طولها الأصلي. ولا تزال في أسلوبها ولغتها كالأحاديث اللاسلكية - بسيطة لا تكلف فيها ولا صعوبة فنية، فالكتاب لا طموح فيه إذ لم يقصد به سوى أن يكون مقدمة لأوفر العلوم حظاً من الشعر. مقدمة سهلة مقبولة غير مثقلة بالجد. . .) أي غير مثقلة بالمعادلات والحسابات.

وهكذا سار في بعض كتبه (التي وضعها للناس) والتي قصد منها وقف جمهور المتعلمين على خلاصة ما انتهى إليه العلم الحديث من أسرار وروائع وأعاجيب. وقد يلذ للسامع أن آتى له على نموذج من كتابات جينز الفلكية، ولعله من المستحسن أن أروي قصتين، إحداهما في نشوء الكون، والثانية في تكوين النظام الشمسي.

لقد علل نشوء السدائم ومولدها تعليلاً لم يسبق إليه ركب منه قصة ممتعة أخاذة سماها: (قصة نشوء الكون). وقد رجع إليها فلكيو العالم واعتمدوا عليها في بحوثهم، وهي كما يلي: (. . . سنبدأ عند مبدأ الزمن حين كانت جميع الذرات المقدر لها أن تكوّن الشمس والنجوم والأرض والسيارات وأجسامكم وأجسامي وأيضاً جميع الشعاع الذي انصب من الشمس والنجوم منذ ذلك الحين. سنبدأ حين كان ذلك كله مختلطاً بعضه ببعض ومكوّناً كتلة من

الغاز فوضى تملأ الفضاء كله. ولما كانت جاذبية كل قطعة صغيرة من الغاز تؤثر في جميع القطع الأخرى فإن تيارات تنشأ بالتدريج. وأينما أحدثت هذه التيارات تدمعاً طفيفاً من الغاز ازدادت قوة الجاذبية، فأخذ كل من هذه المتجمعات الصغيرة يجذب نحوه مقداراً آخر من الغاز. إن الطبيعة تتصرف طبقاً لقانون (من كان يملك شيئاً أعطى زيادة)؛ فالقطع الناجحة من الغاز تنمو إلى تكاثفات ضخمة تزداد باستمرار على حساب القطع الخائبة حتى تبتلعها في النهاية. وكما اتخذت الأرض والشمس والسيارات أشكالاً منتظمة تحت تأثير الجاذبية، فإن هذه التكاثفات تبدأ الآن تتخذ أشكالاً منتظمة فتكوّن ما قد سميناه سدائم منتظمة الشكل. وتأتي التيارات الغاوية التي أوجدت هذه السدائم فتحملها الآن على الدوران، فلا تكون كرية الشكل تماماً بل يكون شكلها في مبدأ الأمر كالبرتقالة مثل أرضنا الدوارة. وكلما ضمرت تغيرت أشكالها باستمرار، وازداد تفرطحها ازدياداً مطرداً. ثم نعود فنرى الغاز الذي عند حوافها الخارجية يتكاثف إلى مدائن نجومية تكون عند ولادتها مفرطحة وتظل مفرطحة بسبب دورانها. . .)

ثم يأتي إلى قصة تكوين النظام الشمسي، وهي كما يلي: (. . . يقترب من شمسنا نجم اقتراباً لم يسبق لأي نجم آخر قط أن اقتربه؛ فينشئ فيه من قبل - مدوداً كجبال عظيمة غازي ناري تسير فوق سطح الشمس. وأخيراً يزداد اقتراب النجم الثاني من الشمس بحيث لو كان شخص واقفاً على سطحها لبدا له ذلك النجم مالئاً جزءاً كبيراً من السماء، وبينا هو يقترب هكذا تصير قوة جاذبيته من العظم بحيث تنتزع قمة الموجة المدّية من الشمس وتتكاثف ذاتها قطرات. هذه القطرات هي السيارات والأرض واحد من أصغرها، وهي في أول الأمر تكون كتلة فوضى من غاز ناري لكنها تأخذ تبرد فيستحيل وسطها إلى سائل، ثم تصير بمرور الزمن إلى درجة من البرودة تتكون معها قشرة صلبة على سطحها، ثم بعد ذلك إذا ما ازدادت برودتها يبدو على هذه القشرة الصلبة ظاهرة جديدة عجيبة: تأخذ طوائف من الذرات تتحد فتكون هيئات منظمة متماسكة من النوع الذي لمّا نعرف شيئاً عن طبيعته ولا عن الطريق التي ظهر بها أول مرة في الوجود سميناه بالحياة. . .)

(نابلس)

قدري حافظ طوقان

6 - إلى أرض النبوة!

للأستاذ علي الطنطاوي

أبصرنا الشمس وهي تغيب في آخر السهل، ورأينا سواد الليل يمتد حيال الأفق الشرقي، ونحن لا نزال في أعالي الجبال المطلة على تبوك، والفضاء الأرحب الذي يحيط بها فتنازعنا الرأي واختلفنا: أنبيت مكاننا فنهبط تبوك مصبحين، أم نصبر على ما نجد من السغب واللغب، ولا نبالي الليل وظلمته، ونتّم طريقنا إليها، فننام فيها نوم الآمن. . . وطال الخلاف ولم يكن علينا أمير منا، مع أن ذلك من السنة، واليمن والبركة فيه. فقطعتْ سيارتنا كل قول حين أخذت طريقها هابطة، وتبعتها السيارات بلا

جدال، وكان ضوء السيارات وهي فوق الجبل متوجهة إلى تبوك يبدو قوياً منظوراً، وكان أمير تبوك على علم بقدومنا، فبعث إلينا بسيارته تستقبلنا وتهدينا، فعرفناها بضوئها، فتبعناها حتى بلغت بنا السهل، ثم أوصلتنا البلد، وقد كاد ينتصف الليل. . .

وصلنا البلد على حال لم نكن نملك معها ملاحظة ولا نظراً. ولقد شغلنا ما نجد من الجوع والتعب عن أن نبصر المدينة، أو نرى مسالكها، وما عرفت إلا الدار التي أنزلونا فيها، وليست داراً كالتي عرفنا في القريات، ولكن بناء حضري واسع منظم، مبني على طراز فني مقبول، ذو ردهات وغرف وأبهاء، فأدخلونا بهواً فيه، مفروشاً بالبسط والوسائد و (الطراريح). استقبلنا فيه الأمير (السديري) وهو شاب مهذب، على غاية من اللطف والنبل والرقة ودقة الملاحظة، وقد علمت أنه من أنسباء جلالة الإمام (عبد العزيز) أعزه الله. فلما استقر بنا المقام ووجدنا بعض الراحة، أحببت أن أقوم فأجول في القصر، فلما خرجت من البهو عرض لي أحد العبيد وهم كثر في القصر، فقال لي: من هنا. فتبعته وأنا لا أدري إلى أين يسير بي، حتى انتهى إلى باب، فأشار إليه وتخلّى عنه، فدخلت، فإذا أنا في حمَّام ما ظننت أني ألقى مثله في دمشق، له ظاهر وباطن، وفيه الماء البارد والحار والرشَّاش (الدوش) والمناشف معلقة والصابون مهيأ، فدهشت وفرحت فرحاً ما أفرح مثله لو أعطيت مائة دينار، مع أني لم أرها قط ولم تحتوها يدي إلى الساعة التي أكتب فيها هذه الكلمة. . . فعدت فاستخرجت من حقيبتي ثوباً نظيفاً، ولم أرض لثيابي التي كانت عليّ إلا بيت النار - أحرقتها وأبيك - ودخلت الحمام وأنا أنظر إلى الباب أخشى أن ينزل علي من يشاطرني في هذه النعمة أو ينغّصها عليّ فلا أهنأ بها، وأقبلت أصبّ على جسمي من الماء الحار فأحسّ له بعد هذا التعب بما تحس الأرض اليابسة هطل عليها المطر. . حتى إذا انتهيت عدت إلى أصحابي بوجه متورد، وثياب نظيفة. فجنّ جنونهم عجباً ودهشة، ولكن وجود الأمير أمسك ألسنتهم؛ فلما جلست أفضيت إلى جاري بالأمر فتسلل من مكانه إلى الحمام، وما زالوا يذهبون واحداً بعد واحد حتى اغتسلوا جميعاً. وكان إعداد الحمام أول ما شهدنا من لطف الأمير السديري - أمير المدينة المنورة الآن - وتهذيبه. . .

فلما انتهوا وكان الهزيع الأخير من الليل دعينا إلى المائدة، وكان فيها الخروف (المعهود) برأسه. . . ولكن حوله ألواناً من الخضر كالفاصولياء والباذنجان والطماطم موضوعة في أطباق صغار، وعلى المائدة الملاعق لمن شاء، فجلس الأمير وجلسنا، وأكلنا أكل من لا يخشى البشم!

ولم نفق إلا في ضحى الغد، فأفطرنا ورأينا البلد، فإذا الدار التي نزلناها مستشفى كبير كان العثمانيون قد أقاموه عندما مدّ الخط الحجازي، وأمامه رحبة واسعة جداً، ويقابله من آخر الرحبة المحطة العظيمة، وبينهما على يسار من يقف على باب المستشفى ويستقبل المحطة بساتين النخيل تتخللها البلدة، وهي ستون بيتاً، فيها مسجد كمسجد القريات، وفيها قصر الإمارة؛ والبساتين تسقى من عيون ثلاث بارك الله فيها إكراماً لنبيه صلى الله عليه وسلم، على ما هو مقرر في كتب المغازي.

هذه هي تبوك ومن حولها الصحراء وهي نصف طريق المدينة.

ذهبنا نزور الأمير في قصره الزيارة الرسمية، فدخلنا منزلاً صغيراً جدرانه من الطين، لا يختلف عن منازل الفلاحين في القرى الفقيرة من قرى الشام، فصعدنا درجاً ضيقاً ملتوياً إلى ردهة صغيرة تطل على أرض الدار، ولها داربزين من خشب عادي ليس فيه زخرفة ولم يَعله صبغ، قم ولجنا غرفة ضيقة لم تكد تسعنا في صدرها مكتب صغير، وليس فيها إلا مقاعد من الخشب وكان الأمير وراء مكتبه فنهض لاستقبالنا بلطفه الذي وصفت.

وكنت قد أبصرت على الدرج وفي أرض الدار، وفي الردهة العالية عدداً عديداً من العبيد، فعجبت من كثرتهم ولم أدر ما عملهم، فلما قال الأمير بصوت منخفض: قْهَوَة. سمعت العبد الذي يقوم على رأسه يقول بصوت ارفع: قهوة، فيقول الذي على الباب: قهوة. فيصرخ الذي في الردهة: قهوة. فينقلها الذي على الدرج، ثم الذين في أرض الدار، حتى يبلغ الصوت صانع القهوة. وكانت تلك عادتهم ولكما لم نكن نعرفها، فما راعنا ونحن نسلم على الأمير ونتحدث إلا ستون قهوة. . . قهوة. . . بأصوات كالصوت الذي ذكره ربنا في القرآن، تخرج متعاقبة متلاحقة كصراخ الجن، لا يفهم منها شيء. فلم ندر ماذا حدث،

وعملت المفاجأة عملها في نفوسنا، فمنا من صاح، ومنا من ابتدر الباب، ومنا من سقط على الأرض، ومنا من وضع يده على سلاحه. . . وكان الأمير مبتسما مسروراً من هذه الدعابة. . .

وليس كثيراً أن نحمل في سبيل القهوة هذا الفزع، فإن للقهوة عند العرب اليوم من الشأن ما يقل معه كل تعب ينال من أجلها، ولها عندهم قواعد قوانين لا معدل عنها ولا ترخيص فيها، فمن قوانينها أن البن يدق بالهاون دقاً حتى يسمعه الضيفان فيهرعوا إليها، ولا يجوز أن يطحن طحناً لأن ذلك من اللؤم، وأنهم يتخذون لها أواني كثيرة يصبون القهوة من إناء إلى آخر ليصفوها ويرققوها، ويسمون كل دلَّة من هذه الدلال باسم، فهذه العروسة، وهذه الأم. . . ولقد رأيت عند أمير تبوك أكثر من عشرة أوان (دلال) كلها مملوءة، والساقي يحبها حباً شديداً، ويراها في معدلة أولاده. . .

وهم يخلطونها بحب الهيل، ويضعون قطعة من الليف في فم الدّلة تقوم مقام المصفاة، فإذا نضجت القهوة قام الساقي فأخذ الإناء باليسرى وقدم الفناجين باليمنى، ويرون تقديمها باليسرى كما يفعل الشاميون إهانة للضيف قد تجر إلى سفك الدم والعياذ بالله تعالى. . . فيأخذ الضيف الفنجان بيمينه فيشربه ويدفعه إليه، فلا يزال يصب فيه حتى يهزه الضيف ثلاث هزات علامة على أنه قد اكتفى ولا يصبون في كل مرة إلا رشفة واحدة لا تكاد تستر قعر الفنجان وعندهم أن هذا من الإكرام، وإذ ملأ الساقي فنجان أحدهم كان ذلك احتقاراً له. ويبدأ الساقي ممن على يمينه ثم يعطي من يليه، وإذا هو تخطى واحداً فقد أهانه إهانة بالغة لا يصبر عليها إذا كان شريفاً، وإذا اكتفى الضيف ولم يأخذ الفنجان بعد أن يصبَّه الساقي وجب على الساقي أن يشربه هو أو يريقه على الأرض ولو كان على الأرض بساط قيم أو سجاد ثمين، ولا يدفعه إلى الذي بعده. . .

هذا جانب من قوانين القهوة، وللقهوة عند العرب شأن كبير فقد يستغني البدوي عن الطعام والماء، ولكنه لا يستغني عن القهوة ولا يعدل بها شيئاً، وقد يميل عن الطريق مسيرة يوم ليشربها. وقد حدثنا أستاذنا شكري الشربجي، وقد كان على رأس فرقة عسكرية من العرب أيام الملك حسين رحمه الله: أنه افتقد جنده في ساعة حرجة فلم يجدهم، فلما عادوا سألهم، فخبروه أنهم افتقدوا القهوة فذهبوا ليشربوها؛ فقال: في مثل هذه الساعة تهتمون بالقهوة؟ قالوا: والله يا بيك نتقهوى ولو كان في خشم الأسد.

وللعرب بالقهوة اهتمام عظيم حتى أنهم من اهتمامهم بها نحتوا من اسمها فعلاً هو تقهوى يتقهوى تقهوياً، وتوسعوا في معنى هذا الفعل حتى شمل الشاهي والطعام يؤكل في الصباح فهم يقولون (أقلط تقهوى) أي تفضل اشرب القهوة أو اشرب الشاهي أو كل. . . وقد يقولون اتقهوى شاهي. . .

هذه هي القهوة، وهي لذيذة نافعة لا يقوم مقامها شيء في إراحة الجسم بعد التعب الشديد والسير في الصحراء تحت الشمس المحرقة، وقد جربنا ذلك بأنفسنا. أما الشاهي - اعتنى النجدي منه - فسمّ ناقع يشرب فيه شاربه المرض والحمّى. ذلك أنهم يأخذون الشاي الأحمر فيغلونه على النار، ثم يغلونه حتى يصير أسود مثل دم الغزال - على حد تعبيرهم - ويشربون منه كؤوساً كثيرة، ولو أنك كنت في ضيافة أمير أو شيخ من مشايخ البدو لم يمر عليك دقيقتان لا يقدم لك فيهما قهوة أو شاهي ولا تفتأ تسمع الأمير أو الشيخ يصفق وينادي:

قهوة. شاهي. شاهي. قهوة، فتصور مجلساً على هذه الحال يمتد ساعتين أو ثلاثاً. . . تلك هي القوة. وذلك مبلغ غرامهم بها.

(لها بقايا)

علي الطنطاوي

رسالة الشعر

نجوى!

أيُّها الْحائر. . .؟!

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

سَيَأَلَنْنِي: لِمَ إِطْرَا ... قُكَ في ظِلِّ السُّكونِ؟

أَيُّها الصَّامِتُ كالنَّعْ ... مَةِ في الْعُودِ الْحَزِينِ!

أَيُّها الْحَائِرُ كالزَّوْ ... رَقِ في بَحْرِ السِّنِينِ!
أَيُّها الذَّابِلُ كالآ ... هَةِ في الْجُرْحِ الدَّفينِ!
أَيُّها الْجَاثِمُ كالشَّكِّ ... بِوَاحاتِ الْيَقِينِ!
أَيُّها الْخَفَّاقُ كالرِّعْ ... شةِ في الْقَلْبِ الطَّعينِ!
عُمْرُكَ الْمَشْدَوهُ وَلَّى ... في التَّشَكِّي والأنينِ
وَغَدَا نَايكَ مَشْنَو ... قَ الأغاني والرَّنينِ
دَفَنَتْهُ الْجِنُّ في صَحْ ... رَاءِ ظَلْماءِ الحنينِ
وَشْوَشَتْ في صَمْتِها الوَا ... جِمِ أَشْبَاحُ الظُّنُونِ
وَمَشَى فيها زَمَانُ النَّا ... سِ مَنْهُوبَ الْعُيُونِ
دَوَّخَ التِّيهُ خُطاه ... فَارَّتمى تَحْت الدُّجُونِ. . .
قُلْتُ: يا سِرَّ عَذَا ... بي وَشَقَائِي وَشُجُوني
يا صَدىً زَلْزَلَ أَحْ ... لاَمِي وَصَفْوي وَسُكُوني
وَمَشى ناراً عَلَى نِي ... رَان شَوْقِي وَحَنِيني!
يَا هَوَي عُمْري وَدُنْيا ... سَكَرَاتي وَجُنُوني
يَا رُؤَى صَمْتِي وَأَحْلاَ ... مَ زَمَانِي وَفُتُوني
يا أَسَى رُوحي وإلهْا ... مِي وَشِعْرِي وَفُنوني. . .
اتْرُكيني لِفَنَائِي. . ... وَإِذَا شِئْتِ ابْعَثِينِي
أنا إِعْصَارٌ مِنَ اللَّهْ ... فة مَشْبوب الْحَنينِ
فانْشُري ظِلَّكِ في قَفْ ... رِ زَماني وَارْحَمِيني!
من اللهب
أنا الباكي. . .!
للأديب عبد العليم عيسى
خيُوط النُّورِ جِلْبابي ... وَعِطْر الزهْر أنفَاسِي
وَصَوْتُ البلْبلِ الحنَّا ... نِ مِنْ صَوْتي وَإِحْسَاسي
وقيثَارَةُ أَحْلاَمِيَ ... لم تُحبَكْ لِفنَّانِ
نَماهَا اللهُ للْحُبِّ ... وَأَشْعَارِي وَأَلْحاني
ولكنْ لم أزل نهباً لأشْجاني
وَآلاَمِي وَأَتْعَابي وحرماني
رِياضُ النَّاسِ لاَ تْنِ ... بتُ غيرِ الورْدِ أَلْوَاناً
بها الطيْر يُغَنِّي غُنْ ... وَةَ الأَفْرَاحِ سَكراناَ
وَبُسْتَانيَ لاَ ينْ ... بتُ غيرَ العوْسَج النامي
عَلَيْهِ تَسْرَحُ الغِرْبا ... نُ في صَفْوٍ وَإِنْعَام
فَياَ ضَيْعَةَ آمالي وَأَحْلاَمي
ويا خَيْبَةَ حَظِّي فَوْقَ أيامي
أَنَا الشَّاكي. . . ولكن أَي ... نَ مَنْ يَسْمَعُ شكْوَايا
أَنَا الباكي. . . ولكن أي ... نَ من يَنْفُضُ بَلْوَايا
لَقَدْ رَقَّتْ إلى النَّاسِ ... حَنَايا قلبيَ الآسي
فَسَلْ قلبيَ كم رّقَّ ... لهُ قَلْبٌ من النَّاسِ؟!
وكم شَعَّتْ على دُنيايَ أَعْرَاسي
وَأَفْرَاحي ولذَّاتي وإيناسي؟!
(المياسرة - دقهلية)
عبد العليم عيسى
من جحيم القيود
البلبل السجين!
للأديب إبراهيم محمد نجا
وبلبل سجنوه فهْو مكتئب ... بادي التفجيع لا ينفك ينتحب!
في قلبه الغض أحزان مبرَّحة ... وفي جوانحه الآلام تصطخب!
وبين جنبيه جرح غير ملتئم ... وفي جناحيه كسر ليس ينشعب!
يعيش في فقص عيش الأسير فلا ... زهر جميل ولا غصن ولا عُشُب!

يعيش في قفص كلُّ القيود به ... وحوله قامت الأستار والحجب!
يحن للهو، لكن أين معلبه؟ ... وهل يكون بسجن ضيق لعب؟
ينام كل خليّ وهْو في شُغُل ... وهل ينام شجي القلب مضطرب؟
ويذرف الدمع من قلب يفيض به ... فدمعه الغيث لولا أنه لهب!
ويرسل اللحن أنات مقطّعةً ... يلفها في ثنايا موجه الصخب!
يأتي الربيع ولا أفقٌ يطير به ... ولا رياض على أفنانها يثب!
ولا أليف له في الدوح يلثمه ... إن هاجه غزل أو هزه طرب!
ماتت أمانيه، والدنيا مغردة ... والزهر يرقص والأغصان تأتشب
وكيف يسعد محبوس على ظمأ ... والماء من حوله يجري وينسكب؟
ألا خلاصَ له مما يكابده؟ ... فقد برت جسمه الأشجان والنوب
ألا خلاص فهذا السجن يخنقه ... وذلك القيد في رجليه يلتهب!
وهاهي النار: نار اليأس تحرقه ... وهاهو الموت منه اليوم يقترب!
هذا فؤاديَ قد مثلت عيشته ... ولم أبالغ فأين العطف والحدَب؟
يعيش في قفص عيش الأسير فلا ... زهر جميل ولا غصن ولا عشب!
يعيش في قفص كل القيود به ... وحوله قامت الأستار والحجب!
وا رحمتاه له! طال الحنين به ... إلى حبيب بوكر الحب يرتقب
فأطلِقوه، فإن الحب يمنحه ... ما ليس يمنحه التلقين والكتب؟
(دمنهور)
إبراهيم محمد نجا
رسالة الفن
من أي فن؟
فكر يفكر تفكيراً
فهو إذن مفكر
للأستاذ عزيز أحمد فهمي
أردت أن أكيد لصاحبتي فجعلت إليها (حمار الحكيم) وقلت لها: (أقرئي هذا الكتاب وستجدين فيه فصلاً يذكر المرأة المصرية بما أحب أن أعرف رأيك فيه) وقد كنت أعلم أن صاحبتي لن يسرها شيء مما أريدها أن تقرأه، فقد نال (حمار الحكيم) من المرأة المصرية نيلاً موجعاً، وقد كنت أعلم أيضاً أن صاحبتي طويلة اللسان لا تسكت على الضيم ولا الأذى، وانتظرت بعد أن تفرغ صاحبتي من القراءة أن استمتع بثورة من ثوراتها التي تشنها على خصومها، وكل ثوراتها حريفة تنفح النفس وتوقظ العقل.
كنت أنتظر ثورة ما، مهما تكن فإنها ثورة لا نظام لها ولا خطة ولا هدف محدد. ولكن الذي حدث شيء لم أكن أتوقعه، فقد كتبت لي بنت حواء فصلاً هو هادئ حقاً ولكنه مسمم نفثت فيه المرتورة كل ما احتبس في نفسها من الغل الذي ظل صاحب الحمار يلهبه ويشعله في نفوس بنات حواء منذ انطلق يكتب. . . وعلى ما في هذا الفصل من السم، فإن فيه لذة، وإني لذلك أعرضه على القراء لعل فيهم صديقاً للأستاذ توفيق الحكيم ينقذه من بين براثن هذه (الغولة) العاتية التي ترى بعينيها الحمراوين ما لا نراه نحن بعيوننا البريئة السالمة. . .
قالت وقانا الله شر أقوالها:
(يا حضرة الرجل
لا تحية ولا سلام. أول ما قرأت في هديتك هو هذا الكلام المطبوع على الشريط من الورق الذي لف به الأستاذ توفيق وبأمثاله نسخ كتابه. وهذا الكلام هو بنصه: (الأمة الحية) هي الأمة التي يبقي فيها (الفكر) قائماً بوظيفته و (الإنتاج الفكري) مستمراً على الرغم من نوازل العلل والخطوب والأهوال. . . ثم علامة استفهام، ونقطتان. . .
فقلت في نفسي:
لابد أن تكون في هذا الكتاب فكرة يلفت الأستاذ الحكيم النظر إليها بهذا الكلام، ولابد أن تكون هذه الفكرة من الجلال بحيث تعتبر من علامات الحياة في أمتنا المصرية أو أمتنا العربية التي استمر واحد من مفكريها الكبار (ينتج) على الرغم من نوازل العلل أولاً، ومن الخطوب ثانياً، ومن الأهوال ثالثاً، ومن علامة الاستفهام والنقطتين بعد ذلك. كله. . . ولكني لما قرأت الكتاب لم أجد فيه من هذا كله إلا ما سأذكره لك يا حضرة

الرجل وهو بعيد كل البعد عن نوازل العلل والخطوب الأهوال وما إلى ذلك.
على أني أسمي هذا الكتاب كتاباً تجوزاً. فأنا اعرف الكتاب كلاماً متجهاً إلى قصد معين يستطيع الإنسان أن يلخصه في جملة مفيدة إذا فرغ من قراءته، ولكن (حمار الحكيم) هذا كلام لا يستطيع أحد أن يلخصه لأنه مجموعة من الحكايات كل منها مستقل بذاته يمكنك أن تقرأها من الآخر إلى الأول كما يمكنك أن تقرأها من الأول إلى الآخر فلا تشعر إن كانت اضطربت أو ارتبكت، ثم إني لا أستطيع أن أسمي هذا الكلام قصة لأنه كما رأيت مجموعة حكايات، ولأنه يتخلله إلى جانب ذلك مقالات صغيرة، وبحوث تاريخية تشعر بأن الأستاذ الحكيم تصيدها تصيداً وضمنها الكتاب غصباً حتى تضخم الكتاب وكبر.
وإن لي ملحوظة أخرى على ضخامة الكتاب وكبر حجمه لا أحب أن أغفلها، وهي أن الورق الذي اختير فطبع عليه هذا الكتاب ورق غليظ، الورقة منه سمكها سمك أربع ورقات من الورق العادي، زد على ذلك الفراغ الذي بين كل سطر من هذا الكتاب يتسع لسطر كان يمكن أن يوضع بين السطرين فيقل حجم الكتاب كثيراً، وهذا شيء يظهر أن مؤلف الكتاب لا يستحسنه لسببين: أحدهما مادي والآخر أدبي، أما السبب المادي فهو أن الكتاب الضخم يباع بسعر أعلى من السعر الذي يباع به الكتاب النحيف، وأما السبب الأدبي فهو أن الكتاب الضخم يغتصب احترام القارئ أكثر مما يغتصبه الكتاب النحيف صحيح أن هذه ملحوظة ماكرة ولكن الذي دبرها هو الأمكر ممن لحظها. والذي دبرها هو الذي دبر معها عنوان الكتاب فجعله هذا العنوان الجذاب الذي يغري الجمهور بالتهافت على الكتاب، فالحمار (شخصية فنية) يحب الناس أن يعرفوا آراء الكتاب المحدثين فيها، ونظرتهم إليها، كما اطلعوا على أقوال القدماء فيها وتعليقاتهم عليها، والأستاذ توفيق الحكيم معتبر من هؤلاء المفكرين، وقد شوقني عنوانه فعلاً إلى قراءة الكتاب ولكني لم أجد في
الكتاب شيئاً عن الحمار الفني، وإنما وجدت أن الأستاذ اشترى جحشاً في القاهرة ثم صحبه إلى الريف فتركه يموت هناك جوعاً لأنه لم يجد حمارة ترضعه، ولذلك أبيح لنفسي بأن أتهم الأستاذ بأنه استدرج القراء إلى كتابه بخدعة هي أبلغ من خدع النساء جميعاً.
وكما دبر الأستاذ الحكيم هذه الخدعة في العنوان فقد حاك خدعة أخرى نصب شباكها في بقاع عديدة متفرقة من الكتاب، تلك أنه ما فتئ يلح على القارئ بين كل صفحة وأخرى بترديده القول بأنه مفكر، وبأنه يفكر، وبأنه فكر، وبأنه سيفكر؛ حتى خفت على نفسي وأنا المتيقظة له بأن أقتنع بأنه يفكر حقاً مع أنه لم يدلني على هذا بدليل واحد غير قوله: إني أستغرق في تأملاتي، وإن ذهني يمتلئ بالمعاني والأفكار، وإني. . . وإني. . . وقد كنت أحب من غير شك أن أعرف في أي شيء يفكر الأستاذ كل هذا التفكير، ولكن لم اقف في طول الكتاب وعرضه على شيء غير هذه الأقول، اللهم إلا قوله في مرة من هذه المرات: والمعاني، إذا كانت هناك معان تذوب قبل أن تبلغ ذهني. فقلت في نفسي: لعل أفكار الأستاذ كلها من هذا النوع، فهو يفكر فيها طويلاً، ولكنها تذوب منه قبل أن يمسكها، فهو معذور إذن إذا عجز عن أن يعرضها على قرائه.
ولننتقل بعد ذلك إلى الكتاب أو القصة، ولنقف فيها وقفات عاجلة لنرى فيها مواطن البراعة في هذا الكتاب الذي يكيد للنساء والذي كنت تريد أن تكيد لي به. وفي سبيل هذا لابد أن نهمل الحمار فهو بطل محشور في القصة حشراً ليستعار اسمه عنواناً لها لغرابته وطرافته لا أكثر ولا أقل.
أما بطل القصة الحقيقي فهو الأستاذ توفيق الحكيم نفسه الكاتب الذي جاءه مخرج فرنسي ليضع له حوار قصة ريفية مصرية، وكان موسم (الإنتاج الفكري) لهذا الكاتب قد انتهى، فاعتذر للمخرج بذلك مؤكداً له أنه لا يستطيع أن ينتج إلا في (الموسم فقط) كأنما الفكر فول أو قطن أو مشمش، فأغراه المخرج بالمال وصحبه إلى الريف ليهيئ له الجو، ومع ذلك فإنه قعد عن صنع الحوار واضطر في آخر الأمر إلى أن يلجأ إلى اعتذار جديد، وهو أن الكاتب الحق لا يستطيع أن يكتب للسينما، لأن الكاتب الحق الذي مثل الأستاذ توفيق الحكيم لا يصنع كلاماً لأشخاص، وإنما هو يصنع أشخاصاً يتكلمون.
هذا هو صلب الحكاية التي أوردها الأستاذ في هذا الباب

وأنا أعلم من هذه الحكاية شيئاً لم يورده الأستاذ في هذا الباب وإن كان حدث في الحكاية. ذلك أنه بعيد كل البعد عن إتقان الحوار الريفي، ودليلي على ذلك أن الأستاذ عرض في الكتاب لمواقف أجرى فيها الحديث بين بعض أبناء الريف فما كان يزيد على جملة أو جملتين، ثم يقف الحوار الريفي بعدهما ويسترسل يكتب بلغته الغريبة الفصحى راويا بقلمه ما كان يريد أن يرويه أبناء الريف بألسنتهم، ومثال ذلك قصة المعلم ملطي التي رواها واحد من الفلاحين للأستاذ وقال له فيها إن قتيلاً قتل في الحجرة التي أعدت له. فقد مهد الأستاذ لهذه القصة بحوار بينه وبين ذلك الفلاح، فلما جاء الفرح ليروي القصة خطفها الأستاذ منه ورواها هو، وما من سبب عندي دعاه إلى ذلك إلا شعوره بالتعب من الكتابة بلغة الريف. وقد ظهر هذا التعب للمخرج - وإن لم يرد الأستاذ ذلك - فعدل عنه وعهد بكتابة هذا الحوار إلى الأستاذ محمود بيرم التونسي وقد قطع فيه الأستاذ بيرم شوطاً بعيداً وإن لم يؤلف كتاباً أو حماراً يروي فيه قصة ذلك السيناريو.

وليس هذا التعب عجيباً من الأستاذ توفيق فهو كاتب لم ينس الناس أن أحب صورة كان يحب من الناس أن يتصوروه بها هو صورة ذلك القاعد في البرج العاجي تحت ضوء المصباح الأخضر يسمع الاسطوانات الألمانية والفرنسية، ويقرأ الكتب الغربية، ويسرح بعد ذلك بين سحابات الفكر الذي لا أعلم ما هو ولا كيف تكون سحاباته. . . والواقع أن الأستاذ الحكيم من هذا النوع حقاً فهو متأثر بالقراءة بعيد عن الدنيا، وآية تأثره بالكتابة الغربية والصور الأوربية هو قوله عن نفسه في (الحمار): (فما أنا في الحقيقة دائماً سوى كوخ مقفر وسط صحراء من الجليد)، وهذه صورة روسية؛ ثم قوله على لسان واحد الفلاحين تصوره يناجي محبوبته: (إني لست ملاحاً، ولكنك لو كنت شاطئاً في بحر من البحار النائية لنشرت في الحال شراعي وانطلقت أجوب إليك البحار)، وهذه صورة إنجليزية أحس الأستاذ أنها إنجليزية فجعل المخرج وهو أحد أبطال قصته يعلق عليها بقوله: ذاك حوار من شكسبير. . .

ومع أن الأستاذ يدعي أنه من أصحاب الفكر والتأمل، ومع أني أعترف له أنه من أهل الوحدة الذين يحبون الانفراد بأنفسهم، فإني لا أظنه من أولئك المتصوفين الذين يريد أن يتصوره الناس منهم؛ فهو يقول عن نفسه: (إني لا أملك صفة من تلك الصفات التي تجذب

الناس إليّ أو تغريهم بصحبتي، فإذا أنفقت الوقت بحثاً وتنقيباً في أرجاء نفسي الموحشة المقفرة فإنما يدفعني إلى ذلك الأمل في أن أستكشف في بعض شعابها معدناً نفيساً له شيء من البريق) فهذه صورة صبيانية للتأمل والتفكير، فالذين يستغرقون في التأمل في أنفسهم إنما يجدون فيها ما يغنيهم عن الاختلاط بالناس، فهي ليست نفوساً مقفرة موحشة، وإنما هي نفوس غنية ملأى بالحياة، وبما في الحياة من خير ومن شر، ملأى بالعواطف والنزعات على اختلاف ألوانها، ملأى بالعزائم، ملأى بالمآسي، ملأى بالأفراح. . . ثم إن أولئك الذين يعمدون إلى أنفسهم ليستخلصوا منها العلم لا يأخذهم مطلقاً البريق، ولا يطلبون مطلقاً ما هو لماع. . . فكل ما يطلبونه هو المفيد النافع الذي يستطيعون باستغلاله وتنميته أن يربوا إنسانيتهم. . . ولكن الأستاذ يظن الفنانين (مخابيل) ويظن أنه إذا أدعى الخبل اعتبره الناس فناناً، وإنه يدعي الخبل في أكثر من موضع في هذا الكتاب، فهو إذا كان في مجتمع نام، وهو إذا عهد إليه بعمل أهمله، وهو إذا كان في سيارته لم يعرف أين هو ولا متى خرج من بيته ولا متى يعود إليه، وهو حين يسمو جداً جداً في الفن يحادث بائع الذرة وكناس الجهة متبسطاً متواضعاً، وهذه أعمال تصدر عن الناس عفواً فلا يذكرونها، وتصدر عن الفنانين دوماً فلا يعلقون عليها، ولكن الذين يهتمون بها هم الهواة، وهؤلاء الهواة يحبون أن يقال عنهم إنهم مبعثرون، وإنهم متواضعون، وإنهم وإنهم. . . لأنهم يظنون أن الفن هو هذا، أو أن هذا هو أهم ما في الفن.

والآن تعال إلى هذه الدعوى العجيبة التي يدعيها الأستاذ إذ يقول إن الكاتب الحق لا يستطيع أن يكتب للسينما. . . وقل لي ما رأيك في شكسبير، وهيجو، وشو، ومارك توين، وتولستوي، وغير هؤلاء من الكتاب الذين أخرجت السينما آثارهم الفنية ووصلت بها إلى قمة المجد الفني. . . أليس هؤلاء كتاباً حقيقيين مساوين للأستاذ توفيق الحكيم؟. . . إنه يفر من هذا المأزق ويقول إن الكاتب الحق هو الذي يتجه إلى الكليات

ولا يتجه إلى الجزئيات، فهو الذي يضع أشخاصاً يتكلمون، لا كلاماً لأشخاص. وأنا لا أدري هل الخياط الحق هو الذي يستطيع أن يصنع الأزياء للناس، أو هو ذلك الذي يصنع الناس للأزياء. إني موقنة أنه الأول، لأن الثاني هو الله سبحانه وتعالى وحده.

وأخيراً أختم خطابي هذا بالرد على ما يطعن به الأستاذ الحكيم المرأة المصرية إذ يقول

إنها (حريم) لا أكثر ولا أقل، بينما الفن والشعر والأدب قد علم المرأة الأوربية ماذا تقول وماذا تفعل إذا أحبت. ولا يزيد ردي على هذا عن أن أقول له: إن الحب شيء لا يتعلمه الناس من الكتب ولا من الشعر ولا من الفن ولا من الأدب، وإنما هو الذي يعلم الناس هذا جميعاً، وهو موجود في مصر كما أنه موجود في سرنديب، وقد بعث في مصر من الشعر والأدب ما أعجب لتغافل الأستاذ عنه، فما كنت أحسبه ينسى هذا المواليا المصرة وهذا (الواو) المصري، وتلك الأغاني التي تنبعث من أصفى النفوس في أصفى القول وأبلغه وأصدقه. . . صحيح أن أدبنا وفننا ليس فيهما من أدلة الثقافة شيء كثير، ولكن الحب لا يحتاج إلى ثقافة في العبير عنه. . .

خبط الهواع الباب جلت الحبيب جاني

تاريك يا باب كداب تتهز بالعاني

وليس الغرام وحده ما يصوره الأدب الشعبي المصري، وإنما هو يصور سائر ألوان . . . الحياة المصرية، ففيه ملاحم، وفيه معارك، وفيه قضايا، وفيه بطولات، وفيه وفيه، ولعلك أنت يا حضرة الرجل تعرف مما فيه مثلما أعرف، ولعلك تكتب فيه قريباً فترفع عنه هذه التهمة الباطلة التي يتهمه بها الأستاذ الحكيم الذي يعيش في البرج العاجي (. . .تحت المصباح الأخضر. . . هنيئاً له

هذا هو الفصل الذي أرسلته إليَّ صديقتي، وأنا لا اشك مطلقاً في أن الذي أملاه عليها هو غيظها من الأستاذ الحكيم لأنه يخاصمها ويخاصم بنات جنسها جميعاً. . . ولكنني أيضاً لا اشك مطلقاً في أن كلامها واضح الصدق فيه.

وهي صديقتي، ولا أحب أن أخسرها في سبيل الأستاذ الحكيم؛ فإذا كان للأستاذ أصدقاء، فليردوا عليهم هم. . . أما أنا (فموافقون)!. . .

عزيز أحمد فهمي

رسالة العلم

الأحياء في غير الأرض

هذه حدودنا فما حدود الغير؟

للدكتور محمد محمود غالي

الدهشة في تمييز الأشياء بالعين - تشابه رؤية الأشياء والاستماع للإذاعة - مملكتانا الحيوانية والنباتية بين ملايين الممالك الأخرى في الكون - جولات بين النجم القطبي ومجموعة ذنب الدجاجة - الحياة جائزة على غير الأرض.

تطل من النافذة فترى النيل عن يمينك ينساب مجراه في هذا الوادي منذ آلاف السنين وترى داراً عن يسارك يسكنها أهلها منذ أعوام طويلة، وتميز بالعين ذلك المجرى من تلك الدار، وقد اعتدنا ألا ندهش من هذه المقدرة على التمييز الذي تقوم به مداركنا في كل لحظات حياتنا، في يقظتنا وفي سباتنا، فعندما يقع ناظري على ابني أميزه عن ابنتي فإنني لا أفكر لحظة في أن هذه العملية، من تمييز النهر من الدار والابنة من الابن، من الأمور العجيبة التي تتصل بالحياة وما تحمل في طياتها من أسرار في التكوين.

إننا نميز الأشخاص بالعين باختلاف هؤلاء الأشخاص في الملامح، أو بالأذن باختلافهم في الصوت. هذا لصوته خشونة معينة، وهذه لصوتها نعومة تتفق مع خصائص جنسها وأنوثتها، وما هي عليه من ريعان الصبا، وهكذا نميز ما نراه وما نسمعه بحواسنا المختلفة التي تكونت أصولها فينا منذ أن كنا مادة حية تختلف عن المادة عادمة الحياة.

إنما أود أن ألفت النظر إلى أن إدراكنا لما تراه أو نسمعه أصبح من الأمور المألوفة التي لا نعجب لها، فنحن لا نفكر، ونحن نميز الأشياء أو المخلوقات. إن عملية التمييز تحمل في طياتها أموراً هي من أعجب ما نعرفه في الكون ولا نفكر أن في حاسة اللمس عمليات دقيقة وعديدة، وأن عدد الأعصاب الموجودة في الجلد والمتصلة بالمخ، والتي مهمتها نقل ما يحدث عند ملامسة الجلد إلى المخ - تبلغ في أجسامنا

بضعة الملايين، ومع ذلك فثمة ظواهر أخرى نعجب لها رغم أنها أبسط في مصدرها أو في تفاصيلها من أجهزة اللمس الدقيقة والعديدة المتقدمة.

إنك تستمع للإذاعة اللاسكلية مثلا، ويعتذر المذيع عن خطأ وقع فيه وهو يطالع الأنباء فتسمع اعتذاره، فإذا طوى الورقة التي أمامه، أو وقعت من على النضد الذي هي عليه سمعت حفيف الورقة وهو يطويها وصوتها وهي تصطدم بالأرض، وكأنك معه رغم بعده عنك، فقد يكون المذيع في أمريكا وتكون أنت في القاهرة، وكأنكما تتحدان في المكان وإن اختلف وجودكما في الزمان، وإنك في كل ذلك تعجب أشد العجب لهذه المسألة التي تتلخص في أنك تسمع كل ما يحدث داخل عرفة الإذاعة مهما بعدت، إن تحرك بندول الساعة فيها سمعته وكأنه على مكتبك، وأنت تعجب من ذلك، ولا تعجب عندما ترى النيل وترى الدار المجاورة له فتميز بينهما دون أن تعجب من إتمام هذه العملية التي تتلخص في أنك رأيت النيل والدار وأدركت فارقاً بينهما، وعند ظني أنه يجب أن يكون للأمرين: سماع الإذاعة ورؤية الدار، الدرجة ذاتها من العجب.

أن يصبح وجود الدار في الكون الأثيري - حادثاً يعدل من شأن هذه التموجات الأثيرية حولها، فنرى الدار بما أحدثه وجودها من تعديل في كون خلا من قبل منها، فنراها بما ترسله أو بما ينعكس عليها من إشعاع، ونراها بألوانها المختلفة التي تصل العين والتي يعين كل لون منها عدداً معيناً من الذبذبات التي تصل إلينا في أزمنة متتابعة ومن مواقع مختلفة، كل يمثل لوناً معيناً وموضعاً مستقلاً، وتصل كل هذه الذبذبات المختلفة في عددها وفي طول أمواجها إلى العين، وبالتالي يصل أثرها تباعاً إلى المخ، فينشأ عن هذا الإحساس بالدر وألوانها وحدودها مع تبين موضعها. إن هذه أمور كلها تدعو إلى الإعجاب.

أن تحدث الأمواج الصوتية من المذيع أمواجاً كهربائية، نتيجة لاجتهادنا الشخصي، وأن تكون هذه الأمواج الكهربائية ضمن سلسلة الأمواج الضوئية المتقدمة، نتيجة للوضع الطبيعي في الكون، وأن تصل هذه الأمواج إلينا، مهما ابتعدنا عنها ما دمنا موجودين على ظهر ذلك الكوكب الصغير الذي يجذبنا إليه كما يجذب هذه الأمواج، كل هذه أمور لا يجوز أن تعتبرها أعجب من المسألة السابقة.

فالاستماع للإذاعة أو رؤية الدار أو غير ذلك مظاهر في الكون متشابهة، والمذياع جهاز أقل تعقيداً من العين، وأعظم ما في الأمر من دهشة، هو ما يحدثه وجود هذا الجسم الذي
نسميه الدار من نتوء في هذا الكون، ومن حدث موجي يؤثر في أحد هذه الأجهزة وهو العين، بقدر ما أحدثه الجسم من نتوء واتساع.

ولا يعجبن القارئ كثيراً من عظم السرعة التي يقطع بها الضوء أو الكهرباء المسافات الكونية (للظاهرتين كما قدمنا في مقالات سابقة سرعة واحدة تقرب من 300 ألف كيلو متر في الثانية) لأننا اعتدنا أن نسمي الشيء عظيماً إذا كان عظيماً بالنسبة لنا، وما اعتدناه من خطوات متثاقلة وبطيئة لا شيء بجانب خطوات الضوء السريعة، ولكنا لسنا كل شيء في الكون ومن الحكمة ألا ننظر إلى الأشياء دائماً بالمقاييس التي اعتدناها، وقد لا نكون في الكون إلا نوعاً من المخلوقات بين بلايين المخلوقات الأخرى، وقد لا تكون مملكتانا الحيوانية والنباتية إلا مملكتين اثنتين بين ملايين الممالك الأخرى في الكون؛ وتختلف هذه الممالك عنا في الشبه وفي المميزات أو الخواص وقد لا نكون إلا مخلوقاً واحداً من هذه البلايين من المخلوقات. لنا درجة في الإحساس لا نتعداها؛ فنحن نستطيع أن نرى الدار ونميزها من النيل، كما نستطيع أن نرى الأشخاص فنميز الواحد منهم من الآخر، ولكننا لا نستطيع أن نعرف ما بلغته الحواس عند الغير، وأننا نستمع للإذاعة اللاسلكية، بفضل عمل الإنسان، ولا يفترق موضوع رؤيتنا للدار عن موضوع استماعنا للإذاعة إلا أننا نرى الدار بحواسنا بطريقة مباشرة، ونستمع لاسلكياً للبعيد بأجهزة بسيطة، هي صنع أدينا وثمرة تفكيرنا، وهي مهما بلغت لا تزيد في طبيعة حواسنا أو قوتها وإن كانت تعاون في محيط عملها، ومع ذلك فإننا لا نستطيع أن نعرف اليوم ما يستطيع أن يعمله أو يستنبطه غيرنا من المخلوقات.

لماذا تميل إلى الاعتقاد بأننا الوحيدون في الكون؟ لماذا لا تكون هذه الدرجة من الإحساس وهذا المبلغ من المعرفة مراتب أولى فيما قد يحتويه الكون المنتشر من مراتب أخرى، وصلت إليها مخلوقات عديدة تعيش في ظروف غير التي نعيش فيها،

ولها درجة في الحواس تختلف عن حواسنا، ولها حالة من المعرفة تختلف عن معارفنا؟

جُل بنظرك في السماء في ليلة من تلك الليالي التي لا ترى فيها القمر، وانظر إلى المريخ والمشتري والأول أصغر من الأرض قليلاً، والثاني يكبرها بألف وخمسمائة مرة، وهما في مجموعتنا الشمسية؛ فهما والأرض أبناء أم واحدة (الشمس) لا يبرحان مداريهما حولها، ثم

ارفع البصر إلى حيث ترى مجموعة الدب الأكبر أو السبعة النجوم كما يُسمهيا الكثيرون، وهي مجموعة من النجوم لا تمت لشمسنا بأي صلة قريبة، بل هي بعيدة عن جد البعد. فبينما تبتعد الشمس عنا بمقدار ثمان دقائق ضوئية (أي يصل ضوء الشمس إلينا في ثمان دقائق) تبتعد هذه المجموعة عنا بمقدار يزيد في بعضها عن 200 سنة ضوئية، وأنظر ملياً إلى أخفض نجمين في هذه المجموعة واذهب إلى يمينك بنظرك مسافة تبلغ سبعة أضعاف المسافة بين هذين النجمين الخفيضين تر النجم القطبي ويبتعد عنا حوالي 70 سنة ضوئية، ويعين لنا جهة الشمال، وما الشمال إلا كلمة اصطلاحية لا تدل إلا على أمر اتفاقي، وهو الجهة التي يحددها لنا هذا النجم الذي نعتبره ثابتاً بالنسبة إلينا وبالنسبة للأحقاب التي يحيا فيها الجنس البشري، وإن كان أبعد الأشياء إلى الثبات بالنسبة لمجموع الكون، وبالنسبة لأحقاب أطول بكثير من ملايين السنين التي عاشها ويعيشها الإنسان، ومع ذلك فكل ما نراه من النجوم بعيداً عنا ثابت إلى حد ما بالنسبة لنا، وحركتنا حول أنفسنا وحول الشمس هي التي تجعلنا نرى تغييراً ظاهراً في مركز هذه النجوم، وما الشمال وتحديده بالنجم القطبي إلا اختيار كان يصح أن يقع على غيره من النجوم، فهو اتفاق يشبه اتفاقنا على أن اليوم 24 ساعة وأن الساعة ستون دقيقة. فقد كان يصح أن نعتبر اليوم عشر ساعات والساعة مائة دقيقة، وعندي أن اتفاقاً كهذا أقرب إلى منطق الأرقام عن اتفاق الأربعة والعشرين قسما السالفة الذكر ,

ثم جل بنظرك بعد ذلك بعيداً من النجم القطبي وجهة اليمين أيضاً تر (دنيب العظيم ويسمونه بالعربية الشعرة اليمانية في مجموعة ذنب الدجاجة تصطدم فوتوناته بشبكة العين بعد تسع سنوات ضوئية، وهي رحلة عظيمة بالنسبة إلينا ولكنها صغيرة في الكون المحدود، وإذا تركت هذه المجموعة القريبة رأيت مجموعات أخرى تبتعد عنا بآلاف وملايين من السنين الضوئية وساعدنا المنظار على رؤيتها.

إن هذه الفوتونات الضوئية التي تصل إليك الآن مسافرة من بعض هذه المجموعات قد بدأت رحلتها ولا شك قبل حروب نابليون، وقبل فتوحات الإسكندر بل وقبل مدنية المصريين، وشاءت الظروف ألا تصطدم طوال رحلتها بأي شيء تتعثر فيه وإلا كنا لا نرى هذه النجوم التي تبعث لنا أضواءها.

وأنت في نظرك إلى هذا النجم أو إلى غيره، وفي استطلاعك السماء ليلاً، تستطيع أن تُمَيِّز بين ما يسميه العلماء نجوماً وبين ما يسمونه كواكب سيارة، فضوء الأولى يتألق وتتغير شدته على العين، وضوء الثانية ناصع ثابت كضوء القمر، ووسط كل هذه العوالم نميز بسهولة كوكب المريخ، ذلك الكوكب الذي تشبه حالته إلى حد كبير حالة الأرض، والذي هو واحد من التسعة الكواكب التي تكون مجموعتنا الشمسية، نراه ينحدر في آخر الليل قليلاً قليلاً، ويتغير لونه على العين كما يتغير لون الشمس أو القمر عند غروبهما، حتى يتوارى عنا، أو بالأحرى حتى نتوارى نحن عنه.

وهكذا تنتقل العين من كوكب إلى آخر، من المريخ إلى المشتري، من كوكب أصغر من الأرض إلى آخر أكبر منها ومن شمس إلى أخرى، من واحدة أصغر من الشمس إلى شمس تكبرها آلاف المرات، بل من مجموعة نجمية كمجموعة المجرة التي تحوي ملايين الشموس والكواكب والتي تعد شمسنا واحدة منها إلى غيرها من المجموعات.

ويساعدك المنظار الفلكي في تجولك هذا. بحيث أنه إذا أمكنك أن ترى بالعين المجردة أكثر من ألفي نجم في نصف السماء التي تعلوك ويرى ساكن البرازيل عدداً مماثلاً في النصف الجنوبي الذي لا نراه، فإنك تستطيع أن تعين بالمنظار في السنتيمتر المربع الواحد آلافاً من هذه النجوم التي لكثير منها كواكب يشبه بضعها بلا شك كوكبنا الأرضي الذي نعيش عليه.

وفي أثناء ذلك نفكر أن لكثير من هذه النجوم التي تعد بالملايين سيارات تابعة لها،

وتدور حولها وحول نفسها، ونفكر أنه لا بد لبعضها على كثرتها ظروف تشبه الظروف الطبيعية للأرض، أو تختلف عنها بما لا يتعارض مع نوع آخر من الحياة ونتساءل هل من حياة على هذه الكواكب؟ ولماذا تختص الأرض بالحياة؛ وما هي إلا ذرة من قطرة في محيط في الكون؟

وإذا كانت الأرض وما عليها تعتبر بالنسبة لما نعرفه عن الكون أصغر من حبة رمل بين رمال الصحاري الشاسعة وأقل من قطرة ماء مياه المحيط جميعها، فماذا تسكن الأحياء هذه القطرة بالذات وتخلو جميع القطرات منها؟

هذا سؤال لا يمكن للإنسان إذا اتبع منطقاً سليماً أن يجيب عليه بالنفي، وعند ظني أن الحياة جائزة على غير الأرض؛ فإن لم توجد في أحد كواكب مجموعتنا الشمسية، فلا أقل من أن توجد في كواكب أخرى تنتسب إلى غير هذه الشمس.

إما أن يكون بين حياتنا وحياة غرينا صلة فهو ما زال بعيداً جد البعد عن أن يكون من الموضوعات العلمية التي نتناولها بالبحث بالطريقة ذاتها التي نتناول بها مسألة احتمال وجود الحياة.

إنما ذكرنا للقارئ العين، وذكّرناه بما تنطوي عليه عملية رؤية الدار أو النيل من دهشة، وعرجنا على المذياع عند ذكرنا للحواس وفعلها، ثم صعَّدنا النظر مع القارئ إلى السماء نتأملها ونتجول في ربوعها، وتركنا حيناً ذلك المخلوق الذي تكلمنا عنه في مقال سابق والذي لا يرى من عربة الترام إلا مستطيلاً ينتقل في الطرقات، ولا يرى من الكمساري إلا دائرة تنزلق على حافة المستطيل ويرى من الركاب إلا دوائر متراصة في صفوف متوازية، ذلك أننا لسنا في حاجة إلى هذا المخلوق المسكين وحده، وإنما في حاجة أيضاً إلى التذكير بالعين وفعلها العجيب وإلى النظر إلى السماء وتأمل ما فيها من ملايين النجوم والكواكب لنذكر للقارئ موضوعاً قلنا إنه يلتمع في الذهن ويدور بالخاطر، وهو موضوع خاص بما عسى أن نفترضه أو نتخيله من صفات لغيرنا من الأحياء على الكواكب، وقد قادتنا إلى هذا الموضوع الذي يخرجنا قليلاً عن الدقة العلمية، مقالاتنا الأخيرة عن الاشعاع، ولم يكن في نيتنا يوماً أن نتجه هذا الاتجاه، ولكننا سنعود مع القارئ بعد المقال القادم إلى دراسة العلاقة بين المادة والضوء ليقف معنا على أحدث ما يعرفه العلماء اليوم عن الكون.

(يتبع)

محمد محمود غالي

دكتوراه الدولة في العلوم الطبيعية من السوربون

ليسانس العلوم التعليمية. ليسانس العلوم الحرة. دبلوم المهندسخانة

البريد الأدبي

قصيدة خمرة نهر الرين

قرأتُ الملاحظة الدقيقة المنشورة في بريد الرسالة الأدبي للأستاذ الأديب علي كمال. ويبدو أن الأستاذ محق فيما ذهب إليه، فليس في المراجع الأدبية الخاصة بحياة جون كيتس ولا في رسائله إلى شقيقه أو حبيبته (فاني براوني) ما يشير إلى مرور الشاعر بنهر الرين في خلال رحلته إلى إيطاليا، ولكن توجد في قصيدتين أو ثلاث له إشارات إلى نهر الرين، ومنها القصيدة الآتية: (تعاليْ بنا أيتها الحبيبة نحلق بأجنحة السعادة بعيداً، فإن السكون قد ضرب على الكون وما من سامع أو راء الآن، لقد صرعت القومَ خمرةُ نهر الرين واستبدت بهم نشوتها، فهي من رقادك، واطرحي الخوف وتعاليْ فإني قد أفردتُ لك منزلاً بين مروج الجنوب)

ولعل الشاعر علي محمود طه أراد الإشارة إلى ذلك في مقدمة قصيدته.

السيد رأفت

حول كتاب (المقنع) للداني

كتب الأستاذ ناجي الطنطاوي في العدد (367) من الرسالة الغراء يسأل الأستاذ المحقق الشيخ محمد دهمان أن يجلو عليه الشك الذي وقع فيه لاختلاف لقب مؤلف (المقنع) أبي عمرو الداني، ذاهباً إلى أن (البلوى) في (ألف بائه) قد سماه (المقري). والحقيقة أن (المقري) مخففة عن (المقرئ) وهو لقب كانوا يلقبون به من انتهت إليه رياسة الإقراء في عصره. وقد عثرت في مكتبة أبي - شيخ المقرئين في الشام - عليه

الرحمة والبركات والرضوان، على نسخة خطيّة لكتاب (المقنع) المذكور وفيها يقول المؤلف:
وليس (المغربي) كما اثبت الأستاذ (قال أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان المقري) دهمان. وقرأت أيضاً في نسخة خطية لكتاب اسمه (مواقف القرآن) للداني نفسه، وجدتها في مكتبتنا، وقد كتبت سنة الخمسين بعد الألف، ما يلي:
(قال أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان المقري الداني)
فيكون المقري إذن لقباً للداني.
ووجدت في كتاب (غاية النهاية في طبقات القراء) للعالم العلامة محمد بن الجزري ما يلي:
أبو عمرو الداني: عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر، أبو عمرو الداني الأموي مولاهم، القرطبي، الإمام العلامة الحافظ أستاذ الأستاذين وشيخ مشايخ المقرئين. . . قدم (دانيه) واستوطنها فنسب إليها، وله تآليف حسان. . . منها كتاب (المقنع في رسم المصحف) وكتاب (المحكم في النقط) وكتاب (المحتوى في القراآت الشواذ) و. . . (غيرها. . .) وتوفي سنة أربع وأربعين وأربعمائة - طبقات القراء ج1 ص2091، طبعة برجستراسر والخامجي. اهـ
على أن عمل الأستاذ دهمان يستحق كل شكر وثناء.
(دمشق)
صلاح الدين المنجد

1 - كتب ضائعة للمرحوم إسماعيل أدهم

قرأت في الأهرام ما كتبه الأستاذ الصحافي العجوز عن شقيقي المرحوم إسماعيل أحمد أدهم، وطالعت كذلك ما كتبه في الأهرام أيضاً الدكتور عبد الغني مصباح تعليقاً على مقال الأستاذ الصحافي العجوز. وقد أشار الدكتور مصباح في معرض كلامه إلى أثر من آثار أخي الفكرية، ألا وهو كتاب تحليلي عن (ابن الهيثم) العالم الرياضي الكبير.
وأزيد على هذا أن أخي الفقيد كان عثر على ثلاثة مخطوطات لم يسبق نشرها، وهذه المخطوطات لابن الهيثم، وكان أخي يشتغل قبيل وفاته في إعداد هذه المخطوطات للنشر، ويعدها للطبع، ورأيته يكتب هوامش لهذه المخطوطات ويعلق عليها، وأذكر أن من بين المخطوطات مخطوطاً عنوانه (الأثر الظاهر في أوجه القمر) أو شيء من هذا القبيل.
وكان الأستاذ سامي الكيالي صاحب مجلة الحديث الحلبية يعتزم إصدار مخطوط أو أكثر في مجلته، كما أن أخي حدثني بأنه سيتفق مع بعض الهيئات أو لجان النشر في شأن هذه المخطوطات. ولأخي الفقيد مخطوطات لم يطبعها، وهي كتب علمية رياضية، ومباحث تاريخية، ودراسات أدبية؛ فمن كتبه العلمية الرياضية كتابه (نظرية النسبية الخصوصية)، وكان قد نشر جانباً من هذا الكتاب في مجلة (الرسالة) في أواخر سنة 1935 وأوائل سنة
1936.
كما أن له كتاباً آخر اسماه (مبادئ الطبيعيَّات النظرية الحديثة) ويقع هذا الكتاب في نحو 320 صفحة من القطع الكبير وهناك كتاب ثالث بعنوان (نظرية النسبية وقيمتها العلمية) ويقع في مجلدين. هذا عدا مقالات رياضية مبعثرة هنا وهناك في شتى المجلات العربية. ولشقيقي المرحوم إسماعيل دراسة للشاعر المجيد الأستاذ خليل شيبوب، ودراسة أخرى للفيلسوف المتصوف اللبناني الأستاذ ميخائيل نعيمة، رفيق جبران.
وله من المباحث التاريخية كتاب (حياة محمد ونشأة الإسلام) ويقع في ستة أجزاء كبار، وفي نحو ثلاثة آلاف صفحة من القطع الكبير. ومباحث أخرى كان ينشرها في الصحف منها سلسلة من المباحث كان يكتبها في جريدة (البصير) خلال شهري أغسطس وسبتمبر سنة 1937 عنوانها (الصلات بين الإسرائيليين والعرب منذ أقدم العصور حتى الآن) وقد نقلت هذا المبحث جريدة الشمس القاهرية. وكذلك له قصة ترجمها عن الكاتب التركي المشهور رفيق بك خالد عنوانها (ابنة يزيد) وقد نشر نحو ثلثي القصة في مجلة الحديث، والثلث الأخير كان ترجمه وأرسله لمحرر المجلة، ولكنه ضاع في البريد ما بين الإسكندرية وحلب، ولعلي أستطيع أن أقوم بترجمة ما بقي من

القصة. أو يقوم الأستاذ سامي الكيالي بذلك، لأن القصة ستخرج في كتاب.
وله غير ما ذكرت كتب أخرى لم تعها الذاكرة التي وهنت إزاء هذه الفاجعة الأليمة، وبعض هذه الكتب في النشوء والارتقاء، وبعضها في الفلسفة، وبعضها في النقد وغير ذلك.
ومن المهم أن أقول إن هذه الكتب كلها ضائعة أو في حكم الضائعة، لأن أخي - رحمه الله وغفر له - نقل جميع آثاره وكل مكتبه بعد تصفيتها إلى مكان لا أزال أجهله حتى ألان، ولعله أودع هذه الكتب عند بعض أصحابه.
وأخيراً لي كلمة وهي أن بعض الناس وجدوا في وفاة أخي فرصة ليتحدثوا بألوان من القول، وأصناف من الكلام. وكثير منهم يهرفون بما لا يعرفون، وبعضهم يتحدث في أشياء إن تبد لهم تسؤهم، وهم في هذا لا يراعون حرمة الموت - الذي هو مصير كل حي - ولا يخشعون أمام جلاله.
2 - تصويب
قرأت المقال البليغ الذي دبجته براعة الكاتب الكبير الأستاذ الزيات عن أخي الفقيد تحت عنوان (نهاية أديب) وقد لاحظت أن الأستاذ وقع في بعض الأخطاء، وكم كنت أود ألا يكون مثل هذا المقال البليغ محتاجاً إلى تصويب.
ذكر الأستاذ أن والدي - رحمه الله - تزوج من روسية ثم من مصرية بعد ذلك، والصواب أن والدي لم يتزوج من روسية ولا من مصرية.
وقال بعد ذلك: (ونكبت الإسكندرية الجميلة بالغارات الجوية الإيطالية فجلا أكثر الساكنين عن الثغر المروع، فأقفرت المنازل حتى منزل أدهم) والحقيقة أن منزلنا لم يخل من سكانه، وهو اليوم آهل بقاطنيه إلا شقة واحدة.
وعلى الأستاذ مني أزكى التحيات
(الإسكندرية)
إبراهيم أحمد أدهم
حدثني المرحوم أدهم أن أباه تزوج في مصر، وكان بين أولاد الزوجين الأولى والأخرى نزاع على ميراث فغلب على ظني أن الزوجة الثانية مصرية. أما خلو المنزل من ساكنيه فهي رواية قادم من الإسكندرية يزعم أن بينه وبين الفقيد معرفة.
(الزيات)
مسابقة الأدب العربي لطلاب السنة التوجيهية
اقترح معالي وزير المعارف إقامة مسابقة بين طلاب السنة التوجيهية في الأدب العربي. وقد خوطبت الجامعة في صدد المساهمة بمنح الفائزين مجانية كاملة أو نصف مجانية بكلياتها. وننشر فيما يلي قرار الوزارة في موضوعات المسابقة.
يمتحن المشتركون في المسابقة في الكتب الآتية:
أولاً: يمتحن الطلبة تحريرياً في الكتابين الآتيين:
(1) ديوان إسماعيل صبري للمرحوم إسماعيل صبري باشا
(2) تحرير المرأة للمرحوم قاسم بك أمين
ثانياً: يمتحن الطلبة شفوياً في ثلاثة كتب (على حسب اختيار الطالب) من الكتب الآتية:
(1) الإنجليز في بلادهم للدكتور حافظ عفيفي باشا
(2) رحلة أحمد حسنين لأحمد حسنين باشا
(3) الأيام (الجزء الأول) للدكتور طه حسين بك
(4) مطالعات في الكتب للأستاذ عباس العقاد
(5) فيض الخاطر للأستاذ أحمد أمين
(6) وحي الرسالة للأستاذ أحمد حسن الزيات
(7) أهل الكهف للأستاذ توفيق الحكيم
(8) مختارات للأستاذ عبد العزيز البشري
(9) المنتخبات الجزء الأول لسعادة أحمد لطفي السيد باشا
وسيكون الامتحان في موضوعات حول هذه الكتب وفق بيان ستذيعه الوزارة على المدارس. وتضم درجة الناجحين في الامتحانين التحريري والشفوي إلى درجة اللغة العربية في امتحان شهادة الدراسة الثانوية القسم الخاص سنة 1941، ويرتب الطلبة

في الامتحان وفق مجموع هذه الدرجات الثلاث، ولا يدخل هذا الترتيب إلا الناجحون في امتحان القسم الخاص. وستكون الجوائز التي تعكي للناجحين في هذه المسابقة كما يأتي:

للثلاثة الأول - مجانية كاملة بجامعة فؤاد الأول، (وموضوع تقريرها معروض على مجلس الجامعة) و20 جنيهاً لكل منهم. للثلاثة الذين يلونهم - نصف مجانية فؤاد الأول (وموضوع تقريرها معروض على مجلس الجامعة) و15 جنيهاً لكل منهم. للأربعة عشر طالباً التالين - 10 جنيهات لكل منهم.

وستكون المجانية في الجامعة مقتصرة على الطلبة الذين يستوفون الشروط للدخول في إحدى الكليات.

ويباح الدخول في هذه المسابقة لجميع الطلبة المقيدين في السنة المدرسية 1940 - 1941 بفرقة السنة الخامسة التوجيهية بالمدارس الأميرية والمدارس الحرة الخاضعة لتفتيش وزارة المعارف، ويكلف الطلبة الراغبون في دخول هذه المسابقة بشراء الكتب على نفقتهم

الخاصة وعليهم أن يقدموا طلباتهم إلى مراقبة الامتحانات بوزارة المعارف على الاستمارة الخاصة (ويمكن الحصول عليها من إحدى المدارس الثانوية الأميرية) في ميعاد غايته أول نوفمبر سنة 1940.

القصص

قصة واقعية

آخر الطريق

للأستاذ محمد سعيد العريان

على الضفة اليمنى من (بحر شبين) كان يقوم القصر الأبيض، كما يسميه أهل القرية والقرى المجاورة؛ وهو بيت مبني على طراز بيوت المدن، تفصل بينه وبين الطريق العام حديقة كبيرة تحنو على حوافيها أشجار ذات ظلال وأريج.

في هذا القصر كان يقيم (عبد الرحمن بك) وهو ضابط من ضباط الجيش القدماء، له ماض مجيد ووقائع مشهورة؛ فلما أسَنَّ وقعَد، هجر المدينة إلى الريف الهادئ، فاتخذ له بيتاً ومزرعة، وأقام حيث بنى القصر البيض في عز وجاه ومتعة.

وكان له ولد واحد أتاه على حين كبرة وهرم، فنشأ في الريف نشأة أهله، وتشرَّب من طباعهم وعاداتهم المأثورة؛ فلما بلغ السابعة بعث به أبوه إلى المدينة؛ فشدا من العلم ما شدا، ثم عاد ليقيم بجانب أبيه ويقوم على شئون مزرعته.

لم يكن في القرية كلها، وفي القرى المجاورة، فتًى أعزُّ على أهله وعلى جيرانه . . . من (عايد) بن عبد الرحمن بك؛ فإنه لفتى ريّان العود، ناضر الشباب، فيه دمائه الحَضَريَّ المتبَدِّي وشهامة القروي المتحِّضر، وإنه لوحيد أبيه وصاحب أمره، وأبوة سيِّد القرية العزيز الممتَّع.

وكان (عابد) في السابعة عشرة من عمره حين التقى بأمينة عيناً لعين، فوقع من نفسها ووقعتْ من نفسه؛ وكان جالساً في خُصٍّ إلى جانب من مزرعة أبيه حين مرَّت بن لأول مرة فأتبعها عينيه مأخوذاً، ومضت على وجهها مغضية من حياء، وهي تتمتم بالتحية. وابتدأ للحب تاريخ. . .

لم يكن أبو (أمينة) من ضباط الجيش القدماء؛ نعم، ولا كان له تاريخ ووقائع يباهي بها ويفتخر؛ ولا كان يملك قصراً ومزرعة؛ ولكن أمينة على ذلك قد استطاعت أن تغلب الفتى على نفسه وتملك قِيادَه. . .

ولما التقيا بعدُ على غفلة من العيون في ظل شجرة الصفصاف، والشمس تنفض آخر أشعتها على أوراق الشجر حمراء ملتهبة، نظر إليها ونظرتْ إليه، وكانت شفتها تختلج وفي عينيها عبرة؛ ودنا منها ومد إليها يداً وامتدَّت يداها إليه ترُدُّه، وهمستْ: (عابد!) وبرقت قطراتُ الدمع بين أهدابها؛ وتحدثتْ عينان إلى عينين؟ وأرخى الليل سدوله وما تزال أمينة في مجلسها وما يزال عابد؛ ثم نهضا فاتخذا طريقهما إلى القرية صامتين يتبادلان لمسة باليد كلما همَّتْ أن تجتاز قناة في طريقهما بين الحقول، يهم أن يعنها وتهم أن تستعينه؛ ثم افترقا قبل أن يبلغا أول أبيات القرية وما سألها ولا أجابت! وأوت أمينة إلى منامتها بجانب أخيها الصغير في دار أبيها يراوح القلق بين جنبيها، واتخذ عابد مقعده إلى جانب النافذة في غرفته من القصر الأبيض، يسرِّح عينيه في الفضاء

المظلم الذي يغلّف دور القرويين ويلفُّها في صمت موحش؛ وأشرق الصبح وما تزال وما يزال!

كان عابد يعلم من نفسه ما يعلم الناس، أنه سيِّد نفسه، وأنه من المنزلة عند أبيه بحيث يحق له أن يتمنى وأن ينال؛ ولكنه إلى ذلك كان يشعر في أعماقه أن القدر يتربص به ليحول بينه وبين أعز أمانيه؛ أتراه يستطيع أن يقول ويكشف عن ذات نفسه؟ وماذا يقول أبوه ويقول الناس حين يصارحهم أنه يريد أن يتزوج أمينة؟

أمينة. . .؟ من تكون ومن يكون؟ هل هي إلا فتاة من فتيات يتمنين لو كن من خدم القصر الأبيض؟ نعم وإن أباها لواحد من عشرات يعيشون في ظل القصر الأبيض خَوَلاً وبطانة، إنه لسيد من يليه من الفلاحين ولكنه عبد وسيده، وإنه ليملك داراً وأفدنة كاسبة ولكنه مملوك؛ لأن القرية كلها ليس فيها إلا سيد واحد ومالك واحد. . .

كذلك كان عابد يفكر حين كانت أمينة راقدة في فراشها تفكر؛ وبكى الفتى حين تبين موقفه، وتمنى لو كان واحداً من سواد أهل القرية وله رأيه وإرادته، ولم يكن السيد العاجز. وبكت الفتاة حين تبينت موقفها وأعجزها أن تتمنى!

وقالت له: (سيدي. . .!)

وشد على يديها فلم يدعها تتمم، وقال: (أمينة. . .! ناديني باسمي يا حبيبتي! لست. . .)

ومال رأس على كتف، وامتزج الدمع بالدمع، وَتَرَوَّتْ الشفاهُ الظمأى، وتلاحقت أنفاس مبهورة؛ وهمت أن تقول، وهمّ أن يجيب، وماتت الكلمات على شفاه ترتجف، وتساءل قلب

وأجاب قلب، وتلاشى الوجود بينهما فلا شيء هناك إلا اثنين يتناجيان بلا كلام، وهبَّتْ نسمة ندية فالتقى غصنان ثم افترقا، وتهامست زهرتان ثم أمسكتا، وأطلّت عينان من فرجة السحاب تختلسان النظر، وازدحمت العيون على فروج الخباء تنظر؛ ثم انقشع السحاب وبرز القمر؛ وانكشف السر المختبئ في ضمير الليل، ثم عاد فاستتر؛ وكان على الغصن قمْريةٌ تغني، وكان غناؤها خفقات قلبين يتهامسان.

وقام يودِّعها وقامتْ، وأبتعها عينيه حتى واراها الظلام ثم قَفل وفي قلبه نجوى . . . وفي عينيه بريق، وعلى شفتيه مَذَاق، وفي أذنيه رنين!

وتتابعت لياليهما حافلة بأسباب الهناء والمسرة في غفلة من العيون، لم يطلع على سرهما أحد إلا النجم والزهر وغِرِّيدة الشجر وطابت له الحياة وطابت لها، لولا حديث بينه وبين نفسه يؤرقه كلما جن الليل، ولولا وساوسها!

وأجمع رأيه على أمر؛ وكأنما كان المسكين يتعجَّل آخرةَ هنائه حين بدا له أن يكشف صدره لأمه ويستعينها. . .

وقالت أمه وفي عينيها دهشة وفي وجهها غضب: (أمينة! وأنت لها يا عابد!)

وهتف الفتى في يأس: (أمِّي!)

ولكن أمه لم تجب، وأجابه أبوه؛ هل رأيت قطُّ قائداً في هيئته العسكرية قافلاً من معركة بنصف جنوده!

كذلك كان موقف عبد الرحمن بك من ولده في ذلك اليوم؛ وطأطأ الفتى رأسه يستمع إلى أبيه يحكم عليه باليأس والحرمان! ثم سقط على كرسيه باكياً ومضى أبوه إلى غرفته.

ولم يلتق عابد وأمينة منذ اليوم، وافترقا بلا وداع وما افترقا قطُّ إلا على ميعاد! ولزم الفتى غرفتَه مطويّاً على آلامه، لا يرى أحداً ولا يراه أحد؛ على حين كان ثلاثة نفر يعنيهم من أمره ما يشغلهم ليلَ نهار. . .

أما واحدةٌ فكان لها كل يوم مَغْدىً ومراح في مواعيدَ رتيبةٍ إلى شجرة الصفصاف القائمة على حافة الغدير، تتروّح عندها رَوْحَ الماضي في خفقة الغصن ورفة الزهر وأرج النسيم، ثم تروح وحيدةً دامعة العين!

وأما اثنان فرجلٌ وامرأة في خريف الحياة يتشاوران في أمر وحيدهما الذي يوشك أن يُضّله

الحب عن رشاده فيهوي إلى عار الأبدّ!

أربعة أشقياء لو شاءوا لاستقامت لهم الحياة واستقاموا لها فسَعِدوا، وضعتْهم التقاليدُ بين شِقَّي رحىً طحون تشوك أن تحطمهم حطمة الموت فلا نجاة!

وضاق الفتى لنفسه وضاقت به، ولم يطق الصبر بعد، فأجمع أن يكون سيد نفسه فلا يسمع لقول أحد، وأعلن العصيان!

وتهالك أبوه في مقعده وطأطأ رأسه وجاشت نفسه بآلامه، وتحيرت دمعتان في عيني الرجل الذي لم يبك قط، ووقف الفتى رافع الرأس وفي عينيه بريق الإرادة الصارمة، ونظرت أمه إليه فأطالت النظر، ثم هتفت بضراعة: (عابد!)

وظل الفتى صامتاً لا تطرف عيناه، فلو أن القدر يتحدث بلسان أمه ما ثناه عما اعتزم! وبلعت أمه ريقها وابتسمت، وأشرقت في وجهها مسحة هدوء ظاهر؛ ثم أردفت: (أجاد أنت يا عابد؟)

وضحك الفتى ساخراً، وأجاب: (نعم، ولا بد. . .!)

ووقفت الأم، ثم تقدمت في خطوات ثابتة حتى وضعت يدها على كتفه، وقالت في لهجة الأمر والثقة: (ذلك حقك يا عابد، ولكن. . . ولكنك لن تفعل!)

وابتعد الفتى مغضباً وهو يقول: (بل إنني سأفعل، سأفعل؛ سأتزوجها ولو. . .)

وقاطعته أمه: (. . . ولو كانت أختَك. . . . . .!)

وسكت عابد وجحظت عيناه مدهوشاً؛ واسترسلت أمه: (. . . بلى؛ أنها أختك يا عابد؛ لقد رضعتها من ثدي واحدة دهراً طويلاً يا بنيَّ من طفولتك؛ أتراك تريد أن تتزوج أختك يا عابد. . . .؟!)

ودار رأسُ الفتى وأوشك أن يسقط، وتهاوى على كرسيه لا يكاد يعي، وغَشَّى عينيه الدمع. . .

وبدأ منذ اليوم تاريخ جديد، أما الفتى فراح يعالج نفسه بالصمت والوحدة لعله أن ينسى؛ ولكن صورتها ما برحت تتخايل لعينيه في فنون؛ لقد استطاع أن يقهر نفسه على السلوان ويسومها الرِّضا؛ ولكنه لم يستطع أن يتصامّ عن تأنيب الضمير ووخز الندم كلما تذكَّر أن أمينة أختُه، وأنه نال منها ما لا ينال الأخ من أخته وترك لها خِزي الدهر وعار الأبد؛ فلا كان لها منه حِفاظُ الأخ ولا وفاء الحبيب!

هذا واحد؛ أما الأب والأم فراحا يدبران أمرهما قبل أن ينتفض غزلهما، وإنهما ليحسان حيناً بعد حين آلاماً مُرةً من قسوة ما نال وحيدهما العزيز المرجوّ؛ فذهبا يعدان العدة لتزويجه قبل أن ينتكس ويعاوده مرضُه!

وأما هي، أما هي فكانت بين مَغْداها ومراحها كل يوم إلى شجرة الصفصاف ما تزال تأمل أملاً، أملاً يلوح ويخفي كما يتراءى القمر بين قطع السحاب، ولكنه أمل يمسك عليها نفسها. . . وبلغها النبأ أخيراً وعرفتْ أن فتاها يوشك أن يتزوج؛ وارتكضت أحشاؤها تنبئها نبأ آخر. . .

وكانت القرية ساطعة الأنوار احتفالاً بعرس عابد، حين كانت أمينة تدرع الظلماء في طريق لا تعرف له غاية!

وأصبحت القرية بعد ليلة ساهرة تبحث عن أمينة فلم يعرف لها خبر؛ ولكن سرها ظل مكتوماً لم يطلع عليه أحد؛ لأن الثلاثة الذين يعرفونه لم يكن يسرهم أن يعرفه أحد!

وراح أبوها وذوو قرابتها يتقصَّصون الخبر ويتبعون الأثر؛ فلم يبلغوا إلى غاية؛ وذهب الناس في الحدْس مذاهب، ولكن أحداً منهم لم يبلغ من سوء الظن أن يتهم أمينة تنال من شرفها؛ إذ كانت عندهم فوق الظنون والريب؛ فاتهموا بها وَحْشَ الفلاة ومَوْجَ البحر ولم يتهموها؛ وأقاموا لها مأتماً وقرءوا لها القرآن!

وسمع عابد النبأ فعرف ما كان، وأقام مأتمها في قلبه ولم يزل صدى أغاني العرس في أذنيه!

لم يسعد عابد بزواجه كما رجا أهلهُ، ولم ينس؛ وعاش كما قُدِّر له، بين حُطام الأمل، ولوعة الذكرى، ولذْع الندم؛ صباحٌ ومساء، ونجم ينير ونجم يغور، والحياة هي الحياة إلا ما تُجدِّد له الذكرى من الألم وعذاب القلب ووخز الضمير!

كان ذلك منذ بضع عشرة سنة، وما يزال عابد كعهده يوم كان؛ لم يغيِّره الشيبُ الباكرُ شيئاً ولم تقوَ الأيام أن تمحو آلامه؛ على أنه اليوم يعيش منفرداً في القصر الأبيض كما عاش منفرداً بآلامه منذ سنين؛ وقد آل إليه القصر والمزرعة بعد وفاة أبيه وأمه، وعقمت زوجُه فلم تقدر أن تمنحه الولد، كما عقمت من قبل فلم تقدر أن تمنحه الحب؛ وعاش وعاشت كما

يعيش الضيف في غير أهله، فليس بينهما شابكة من حب ترِّفه عنه، ولا رابطة من أمل تقرِّ بها إليه؛ فلولا هذه الخادمة الصغيرة التي ترعاه وتلبِي نداءه وتبسم له لكانت حياته جحيما لا طاقة عليها ولا صبر معها؛ وقد اصطفاها عابد لخدمته الخاصة منذ بعيد؛ فليس لها من عمل في القصر إلا خدمته والترفيه عنه وليس لأحدٍ غيره عليها حق.

وكانت (زهيرة) الخادمة حقيقة بهذه المكانة من سيدها؛ فكانت صَموتاً مطيعة لا تسبق إلى عمل في غير وقته ولا تؤخره وكأنما صنعت لها روحها ابتسامتها الدائمة، فلا تُرى إلا ضاحكة السن، تطِلْ من عينيها نفس صريحة فيها بريق الإخلاص والحب تنشر حولها جوّاً من الرضا والطمأنينة!

لم يكن ذلك شعورَ عابد وحده، ولكنه كان شعور الكافة من أصدقائه القليلين الذين يزورونه في قصره؛ على أن أحداً منهم لم يبلغ به حُسْنُ الرأي في (زهيرة) أكثر من هذا الحدّ؛ بل إنها كانت موضع التهمة في أمانتها عند بعض خدم القصر. فكثيراً ما اختفت أشياء من أشياء سيدها لم تكن تبلغ إليها يد غير يد زهيرة؛ ولكن سيدها كان من حسن الظن بها بحيث تنال منه ما تشاء لو أنها أرادت؛ فكيف يتهمها بمنديل أو خاتم أو صورة تختفي ولو شاءت لمدت يديها من المال إلى ما تريد؟

وبلغت (زهير) سن الشباب ونضجت أنوثتها، وكان لها جمال خَلق إلى جمال العِشْرة وحسن الخلق؛ وخلا عابد إلى بعض صحابته يوماً يُسِرْ إليه حديثاً؛ وأجفل صاحبه مذعوراً وهو يقول: (وتفعلها يا عابد؟)

وسكت عابد، ولكن نفسه كانت تحدثه حديثَها. . .

ولما خلا عابد إلى نفسه أطلق العنان لأفكاره وسرح. . .

(وماذا عليه لو تزوَّجَها؟ وماذا يهمه حديث الناس؟)

هكذا راح يسأل نفسه في خلوته؛ لقد أحب عابد فتاته؛ ذلك شعور يحسه في نفسه إحساساً لم يحس مثله منذ بضع عشرة سنة فماله وللناس؟ وماذا يضطره إلى أن يصانعهم ليشتري رضاهم بسعادة نفسه؟ أو ليس يكفيه ما بذل من شبابه وراحة قلبه من أجل الناس؟

ودعا عابد فتاته فلبَّت ووقفت بين يديه صامته تنتظر ما يأمر؛ ونظر الرجل إليها نظرة جمعتْ له الزمانَ في لحظة فكر؛ وكأنما خيل إليه أنه قد رجع القهقري إلى ماضيه مع أمينة يوم كان وكانت، وراحت الذكريات يمدّ بعضها بعضاً فتنشئ له أملاً وتبعث فيه نشوة؛ ووقف، وأراح على كتفها يداً ترتجف، وقال لها: (أمينة! أتقبلينني. . .!)

ورفعت إليه عينين فيهما حنان وحب، ثم أطرقتْ؛ وقالت: (سيدي!)

وكما سمعها مرة منذ بضع عشرة سنة من فم أمينة - طرقت مسمعيه الساعة؛ واستطردتْ: (لستُ لك يا سيدي، ولست لنفسي؛ إنني خادمتك!)

وانفلتت من بين يديه وذهبتْ. ومضت أيام قبل أن يعود إلى الحديث معها، وقالت: (سيدي!) وضمها إليه وهو يقول: (ناديني باسمي يا زهيرة؛ إنه أحبُّ إليّ!)

قالت: (ولكن لك اسماً آخر أحب إليّ؛ لقد أنبأتني أمي. . . .!)

قال عابد: (أمك؟. . .)

قالت: (نعم، إنها أمي. . . أمينة؛ لقد أنبأتني أمس؛ لم أكن أعرف قبلها أن لي أباً، ولكني كنت أعرفه، وأحبه. . .!) وهوّتْ بين ذراعيه باكية!

وفي كوخٍ منفردٍ على حدود العمران، والشمس تنفض آخر أشعتها على أوراق الشجر حمراءَ ملتهبة، كان اثنان جالسين يتحدثان في همس، وثَّمَّة فتاة على مقربة تصغي إليهما في شوق ولهفة، تحاول أن تعرف قصةً بدأتْ قبل أن تولَد ولم تنته إلى نهايتها بعد. . .

وقال عابد: (إذن فلم ترضْعني أمُّكِ كما زعموا؟) . . .

قالت: (ومن أين لها وقد ماتتْ أمي قبل أن يُبْنَى القصر الأبيض، ومن أين لك؟ لقد خلفتني أمي قبل أن أتم الرضاع فلم ألقم ثدياً بعدها قطّ، وجاءت بك سيدتي وأنت غلام تسابق الفَراش بين نوَّار الحقل، وكنتُ أدعوك سيدي!)

فابتسم عابد وقال: (ولكنك لن تدعيني بهذا الاسم بعد؟)

ومال رأس على كتف، وامتزج دمع بدمع، وتروَّت شفاهٌ ظمأى؛ وتلاحقت أنفاس مبهورة، وهمت أن تقول، وهمَّ أن يجيب، وماتت الكلمات على شفاه ترتجف؛ وتساءل قلب وأجاب قلب؛ وتلاشى الوجود بينهما فلا شيء هناك إلا اثنين يتناجيان بلا كلام.

وهبت نسمة ندية فالتقى غصنان، وتهامست زهرتان، وأطلَّتْ عينان من فرجة السحاب تختلسان النظر، وازدحمت العيون على فروج الخباء تنظر؛ ثم انقشع السحاب وبرز القمر؛ وانكشف السر المختبئ في ضمير الليل. . .

واتخذا طريقهما إلى شجرة الصفصاف يجددان العهد ويبعثان الذكرى، مشيا صامتين يتبعهما ظلهما، ويتبادلان لمسة باليد كلما همَّتْ أن تجتاز قناة في طريقها بين الحقول، يهم أن يعينها وتهم أن تستعينه؛ وعاد الماضي كما بدأ؛ وتعاهدا لا يفترقان حتى يبلغا آخر الطريق؛ وعادى البهجة إلى القصر الأبيض، ورفَّ النور من شرفاته.

محمد سعيد العريان

العدد 373 - بتاريخ: 26 - 08 - 1940

الإصلاح. . .!

للأستاذ عباس محمود العقاد

كثر في هذه الأيام حديث الريف وإصلاح الريف لكثرة الرائفين من الحضريين الذين رهبوا الغارات في المدن فالتمسوا الأمان في القرى، ثم هربوا من أمان القرية إلى مخاوف المدينة، وهم الرابحون!

ومنذ عام أو قرابة عام سمعنا من يسأل: (أليس الأجدى على الفلاح أن تطعمه وترفه عنه بهذه الأموال التي تنفقها على تعليمه إلزاماً وهو مفتقر إلى الطعام النافع والماء النظيف)؟

وقال لي زميل في مجلس النواب ممن يملكون عشرات الألوف من الأفدنة وقد رأى اهتمام فريق من النواب بنشر التعليم: (ما هذا التعليم الإلزامي الذي تحسبونه خيرا وبركة على الفلاحين؟ إن هؤلاء الفتيان الذين ينتشرون في القرى لتعليم أبنائها لا يعلمونهم إلا الحذلقة وفتنة البطالة. . . وأقسم ما عرفت أنا أن للجورب حمالة إلا من هؤلاء الفارغين المتبطلين الذين يقضون الساعات في التصدي للغاديات الرائحات. . . ثم تنظر إلى أبن الفلاح فلا تراه قد أفاد منهم إلا الشوق إلى اليوم الذي يغدو فيه مثلهم لابس رباط في الرقبة وحمالة في الساق)!

قال لي الفلاح الكبير ذلك وهو يرى أن حمالة الجورب هي رمز الفساد الذي ينقله (هؤلاء الأولاد إلى أهل البلاد)

وأنا لا أقول إن التعليم الإلزامي هو التعليم المنشود للفلاح، ولا أقول إنه هو التعليم الذي يفسده ويشغله من المصالح والصالحات، ولكني أقول إن الإصلاح كله عبث ما لم يبدأ بإصلاح العقول والأذواق، وإن إرادة المصلح وحدها لن تحقق له ما يريده من الخير ما لم تقترن بإرادة المحتاجين إلى الإصلاح

عرض لي ما دعاني إلى البحث الطويل من ماء الشرب في الريف: كم من المساقي المرشحة أقامتها الحكومات المتعاقبة هناك؟ وكم منها أفاد وماذا أفاد؟ وكم من الفلاحين تعود النظافة في العيش بما تعوده من شرب الماء النظيف والاستحمام بالماء النظيف؟

فعلمت المضحكات المبكيات

كان المظنون أن المسقى المرشح لا يقام في القرية حتى يتهافت عليه أهلها وتتسابق القرى

من أهل الجيرة القريبة إلى المطالبة بمثله فينتشر في أنحاء القرى قاطبة خلال أشهر معدودات، أو خلال سنوات على الأكثر إذا لم يسعف الماء

كان هذا هو المظنون وكان عجيباً ألا يكون

إلا أن العجيب هو الذي حدث ولم يعجب له أحد، وغير العجيب هو الذي دق عن الأفهام شاع بين جمهرة من أهل الريف أن الماء النظيف ماء لا خير فيه ولا دسم فيه فهو مضعف للرجال. . .!

أما الماء الذي فيه الخير والدسم فهو الماء العكر الذي يجلب البركة إلى الأرض فتنبت ويجلب البركة إلى أصلاب الرجال فينبتون

وسألت غير واحد من الثقاة فأكدوا لي ما سمعت، وقال لي أحدهم إنه وقف بنفسه على طريق الماء المرشح فرأى الفتيات يتخطينه إلى مساقي الماء العكر وهي بعيدة من دورهن، وسألهن ما عيب هذا الماء النظيف؟ أليس أصلح للشرب وأسوغ في المذاق؟

قال: فتضاحكن وملن بعيونهن وهن يقلن: ولكنه رديء!
قال فسألتهن: وما رداءته؟
فلم يزدن على أن قالت إحداهن: أنا عارفة؟ كلهم يقولون إنه رديء وإنه يهد الحيل ثم علم بعد الاستيضاح ما هذه الرداءة وما هذا الحيل الذي يهده ذلك الماء المسكين!
أيها المصلح الغيور دونك فأصلح!
ولكن قل لنا بحقك ماذا أنت مصلح في الريف: مضخات الماء أو تلك العقول في رؤوس الرجال والنساء؟!
وأرى أن سوء الفهم آفة يبتلى الفلاح من قبلها بأعظم البلاء، ولكنها دون الآفة الكبرى في الضرر والإيذاء، وهي فيما نعتقد سوء الظن والمبادرة إلى تصديق قالة السوء يستقرئك الفلاح رسالة فتقرأها له بغير جزاء، ولا يخطر ببالك أن في الأمر ما يدعو إلى إساءة ظن أو تشكك في صواب القراءة
ثم ترقبه فتراه قد حمل الرسالة إلى ثان وثالث يستعيد قراءتها ليوقن أنك لم تخدعه ولم تهزأ به، وأن القراء جميعاً مخلصون لأنهم متفقون
ويسألك الطريق فتهديه، ثم يمضي خطوات فإذا هو قد أستوقف غيرك ليعيد عليه السؤال
وهكذا في كل ما يسمع من النصائح ويتلقى من الإرشاد ولو لم يكن ثمة قط سبب للريبة والتردد في التصديق
هذا الظن السيئ حائل دون الثقة بالمصلحين وحائل دون النجاح في الإصلاح. فليس من اليسير أن تدخل في روع فلاح جاهل أن إنساناً من الناس يعّني نفسه ويطيل همه بإسداء الخير إلى إنسان آخر، ولكنه يسير كل اليسر أن تقنعه بنية السوء واتهام المقاصد والسهر على الكيد والخديعة
فإذا قيل مثلاً إن الماء النظيف يضعف الرجال، وقيل بعد ذلك إن إضعاف الرجال مقصود في سياسة من السياسات الخفية التي يدبرها بعض الأجانب، فقد ضمنت للإشاعة سرعة السريان وسرعة الإصغاء والقبول. وإذا حاولت بعد ذلك أن تنفي هذا الهراء فها هنا الصعوبة جد الصعوبة في استرعاء الآذان والأذهان، مع الكائدين بأجر معلوم. . . وإلا فما يفيدك؟ وماذا يعود عليك؟ ولماذا تشغل بالك بتبرئة أولئك الكائدين الذين لا شك في أنهم كائدون؟ أليس للناس عقول؟ أليس التواطؤ بادياً لكل ذي عينين؟. . . بلى. . وما من حاجة بعد هذا الوضوح إلى دليل! ومن النقائض الظاهرة أن هذا الفلاح الذي يستريب هذا الريب بالمصلحين يقع فريسة هينة سهلة المقاد لكل دجال أو مشعوذ يدعي له من الدعاوى ما يوجب الاتهام ويثير الشكوك
لماذا؟
أفي الأمر تناقض بين ذلك الحذر وهذا الاستسلام؟
كلا. . . لا تناقض إلا في الظاهر دون الحقيقة، لأن الحرص هو العلة الغالبة في كلتا الحالتين
فالحرص الذي يشكك الفلاح الجاهل في المصلحين هو الحرص الذي يخيل إليه أن الدجال قادر على تعويذه وتعويذ أبنائه وماشيته وغلاته بالرقى والعزائم والطلاسم والدعوات
والحرص الذي يوحي إليه أن أحداً من الناس لا يعّني نفسه ولا يطيل همه من أجل أحد آخر لا قرابة بينهما ولا مودة، هو هو الحرص الذي يوحي إليه أن الدراويش ومصطنعي التقوى يفعلون الخير لأنهم باعوا الدنيا واشتروا الآخرة، وهي تجارة غير خاسرة ولا بائرة، وكثيرا ما يتفق أن (المتدروش) من هؤلاء يظهر له الزهد في ماله وما عسى أن يكافئه به من زاد أو مؤنةً، ثم يتسلل إلى جيبه أو خزانته من سراديب الغش والملق والمراوغة بعد الظفر بطمأنينته والنفاذ إلى مكامن سره ومواطن ضعفه وجشعه
فالآفتان الكبريان الرابضتان في طريق الإصلاح هما سوء الظن وسوء الفهم، وكلاهما حجاب حائل بين الناصحين والمنصوحين
وليس العائق كله من جانب القادرين على النفع فإن العاجزين عن الانتفاع يقيمون في وجه الإصلاح عائقا لا يجدي فيه الإقناع ولا الإرغام؛ وماذا يصنع القادرون على النفع بمن لا يريدون نفعاً أو بمن يريدونه ولكنهم يخطئون السبيل إليه، ويصرون على الخطأ ولا يستمعون إلى من يعالج هذا الإصرار بالبيان والبرهان، بل يسرعون إلى اتهامه هو

في أكثر الأحيان؟
وما نبغي بهذا أن نيأس أو أن ننفض الأيدي من هذا الواجب الذي لا يعفينا منه عذر ولا تعلة. فالإصلاح فرض لا يرفعه عن الكواهل أنه عسير، بل لعل هذا العسر مما يوجبه ويستحث العزائم على النهوض بتكاليفه وأوقاره
ولكننا نبغي الدلالة إلى مواضع الصعوبة ومواضع التقصير، ونعتقد أن المزيد من التفاهم والتقريب بين الحضريين والريفيين، والمزيد من المثابرة عل إزجاء الأمثلة المحسوسة والبينات المقنعة، والمزيد من الدقة في اختيار الوعاظ والمرشدين، والمزيد من التعليم والتهذيب - خليق كله أن يروض ما جمع ويذلل ما استعصى من العيوب والآفات، ويغرينا بالرجاء أننا صنعنا شيئا بما بذلنا من الجهود ولم نضيعها كلها سدى كما يلوح لبعض المتشائمين
وأصاب صديقنا الأستاذ صاحب الرسالة حين قال: (إن هذا الفلاح لا يصلحه تنظيم قريته ولا تجميل داره. إنما يصلحه تربية ذوقه وإرهاف حسه)
نعم، فأنت إذا أنشأت فلاحاً سليم الذوق مرهف الحس مفتوح العقل مستجيب السليقة، فسيجري ورائك لتعطيه الماء النظيف والغذاء الجيد والأدوية النافعة والنصائح القويمة، ولا يجشمك كما يجشمك اليوم أن تعدو وراءه لتقصيه عن موارد الماء العكر (بدسمه وخيره) وتدنيه من مساقي الماء المرشح وموائد الغذاء المفيد
عباس محمود العقاد
بعض مآثر سعد زغلول
للدكتور زكي مبارك
أمتاز سعد باشا - طيب الله ثراه! - بميزات كثيرة جداً منها غزارة العلم وفصاحة اللسان وقوة الشخصية، وكانت له مآثر كثيرة جداً، منها المآثر الآتية:
أولاً - استطاع سعد بشخصيته العاتية أن يغزو ملايين القلوب بالحب والبغض، فأحبه ناس إلى حد الجنون وأبغضه ناس إلى حد الحمق: ومن عجيب أمره أن الذين أحبوه كانوا صادقين والذين أبغضوه كانوا صادقين، وكانت الوطنية الصحيحة مصدر العواطف التي تفجرت في قلوب أصدقائه وأعاديه. وما أذكر أني عرفت أحداً يبغض سعد باشا حسداً، لأن سعداً كان أهلاً للعظمة، وما كان يخطر في بال أحد أن سعداً ينال من سموّ المكانة ما لا يستحق، وإنما أبغضه مبغضوه وطنيةً كما أحبه محبوه وطنيةً، وقد جُنّ أحد أعدائه فأطلق عليه الرصاص، كما جُنّ أحد محبيه فودَّع العقل إلى غير رجعة يوم مات
وقد كنت في مطلع الحركة الوطنية من أنصار سعد، ثم تمردت عليه تمرداً عنيفاً، فكتبتُ، في الهجوم عليه ما كتبت وقلت ما قلت وأنا موقن بأني أخدم وطني بمحاربة ذلك الرجل المسيطر الجبار، ولم يصدني عنه إلا الإتلاف الذي نعمتْ به مصر في سنة 1926. فلما قضى نحبه بعد ذلك عرفت أني فقدت باباً من أبواب الثروة الروحية هو المعاداة في سبيل الوطن بلا ترفق ولا استبقاء
ماذا أريد أن أقول؟
أريد أن أقول إن سعداً قد استطاع إيقاظ الأفئدة المصرية فلم يعيش أحدٌ في عهده بلا روح ثائر أو قلبٍ خفّاق
كان المصريون لعهد سعد متحزِّبين بحماسة وصدق، ولم يكن فيهم رجلٌ واحدٌ يواجه الشؤون الوطنية بلا اكتراث. فكان لأصدقائه جميعاً ولأعدائه جميعاً أقباس روحانية تشهد بأنهم لمبادئهم أوفياء. وأنصار الوفد وخصوم الوفد من الذين لهم في هذه الأيام قوة ذاتية قد تخرجوا جميعاً في مدرسة الحب ومدرسة البغض لعهد سعد، وكذلك نفع الرجل أعداءه كما نفع أصدقاءه، وبهذا صح القول بأنه أجج الجمرات التي صهرت أرواح الجيل الجديد.
ثانياً - اتفق لسعد أن يؤدي اللغة العربية خدمة عظيمة لا يتنبه لقيمتها إلا من يعرف ما كانت تتعرض له لغة العرب بعد الحرب الماضية
كان الأدعياء كُثروا، وكانت بدعة القول بأن العناية بالأسلوب ليست إلا حذلقة لا تليق بأبناء العصر الحديث، وكانت هناك فتنة يَنجُم قَرنها من وقت إلى وقت، وهي فتنة الرجم بأن اللغة الفصيحة لغة أجنبية وأن اللغة العامّية هي لغة المصريين. وقد وُئدتْ تلك البلايا وهي في المهد بفضل سعد، ولكن كيف؟

كان سعد من أبناء الجيل الماضي، وهو جيل سليم، ويشهد بسلامته وعافيته ما نهض به من جلائل الأعمال، فذلك الجيل هو بطل الثورة على الظلم والاستبداد، وذلك الجيل هو الذي قاومَ طغيان الغرب على الشرق، وذلك الجيل هو الذي عاونَ على قوة الشخصية القومية، وذلك الجيل هو الذي خلق مُنشَئات عظيمة منها الجامعة المصرية من ذلك الجيل السليم كان سعد، وكان ذلك الجيل يؤمن بأن اللغة العربية هي أكرم ذخائرنا الوطنية، وكان يرى أن متانة الأسلوب هي العنصر الأول من عناصر البيان وكذلك يفهم من لم يكن يفهم كيف كان سعد يُعنِّى نفسه ويعذِّبها في سبيل الظفر بالأسلوب الرصين

هل تذكرون كيف كان سعد ينظم خطاباته الرسمية وهو يتوجه إلى جلالة ملك مصر أو إلى الأمة أو إلى النواب والشيوخ؟ لو صح القول بأن الجهد الشاقْ يقصِّر الأجل لقلت إن عناية سعد باشا بالأسلوب قد نهبت من عمره نحو عشر سنين، وإلا فكيف جاز أن يموت قبل أن يصل إلى السن التي يموت فيها رجلٌ في مثل هامته العالية وبُنيانه المتين؟

إن اهتمام سعد بالأسلوب خلق في القلوب فكرة الحرص على كرامة اللغة العربية، وكان ذلك بداية انهيار جيش الأدعياء، من الذين كانوا يرون أن من السهل أن يكون الشخص أديباً بدون أن ينفق من عمره سَنةً واحدة في الإطلاع على ذخائر اللغة العربية. ومن حظ مصر أنْ كان خصوم سعد باشا يرون هذا الرأي، فكانت جريدة السياسة وجريدة اللواء وجريدة الأخبار تحارب جرائد الوفد بأسلوب ظل أثرها باقيا إلى هذه الأيام

وماضي سعد باشا في صباه يوم كان محرراً في (الوقائع المصرية) يشهد بأنه كان من الذين يستهويهم القول الجزل والتعبير المصنوع، وقد لزمتْه هذه الخصلة طول حياته فكان يرى البلاغة ضرباً من الفن الجميل لا يصل إليه الرجل إلا بعد أن يتمرَّس بأساليب الفطاحل من القدماء

وكان سعد خطيباً من الطراز الأول بشهادة الأكثرين، وقد حضرت له خطبتين إحداهما في بيت البكري بعد رجوعه من باريس عقب انفضاض مؤتمر الصلح، والثانية في مصر الجديدة أيام ثورته عل المرحوم عدلي يكن، ثم حضرت له خطبة ثالثة في مجلس الشيوخ يوم احتل الإنجليز الجمارك بعد مقتل السردار في سنة 1924، وفي هذه الخطب الثلاث لم أصدِّق أن منزلته الخطابية تساوي شهرته الشعبية، ومع هذا لا يمكن التغاضي عن سعد الخطيب، فقد كان أقدر الناس على خلق الانقلابات، وخطبته بشبرا أيام (وزارة الثقة) هي مصدر التقلبات السياسية التي ظلت تقلقل حياة مصر إلى هذا اليوم. وعلى الرغم من أنه لم يرضني خطيباً فما أزال أذكر كيف كان يخرج الحروف بأصوات ونبرات هي الشاهد على أنه كان في الخطابة من الفنانين

ثم حضرت خطبه مرة رابعة وخامسة فلم يتحسن رأيي فيه، فهل كان للعداوة السياسية تأثير في حكمي على ذلك الخطيب الذي بهر الجماهير زمناً غير قليل؟

المهمْ أن نسجل أن سعد باشا عاون معاونة جدية على صيانة اللغة العربية من عبث الجاهلين بأسلوب الأدب وأسرار البيان

ثالثاً - ترفق سعد بالتقاليد حتى ليمكن الحكم بأنه كان يكره الانقلابات الاجتماعية، وهو الذي صدنا عن لبس القبعات سنة 1927، ولولا مقاومته ومقاومة الأمير عمر طوسن لجرينا في الطريق الذي جرى فيه الأتراك. وهذه المسألة تبدو في صورة المسائل الشكلية، ولكن لها جذوراً أعمق من ذلك، فلو أننا كنا جارينا الأتراك في ترك الطرابيش لكان من الجائز أن نجاريهم في كتابة اللغة العربية بحروف لاتينية، ولكان من الجائز أن نسايرهم في اضطهاد رجال الدين، وهذا وذاك من الأغلاط التي وقع فيها الأتراك مجذوبين بتيار الانقلاب

كان سعد من المحافظين ولم يكن من الرجعيين، وكان على محافظته حر الفكر إلى أبعد الحدود، وهو الذي مَدَّ يده فنزع نقاب امرأة وقفت تخطب بين يديه، لأنه شعر بأن منطق العصر لا يقبل أن تُلقي المرأة خطبة وهي في حراسة النقاب

رابعاً - كان الجو في أيام سعد مشبَعاً بهواء ثقيل هو الدعوة إلى عزلة مصر عن الأقطار

العربية والإسلامية، وقد أنتبه سعد إلى خطر ذلك الهواء فصدَّه بحزم وعنف. ولما وقع الزلزال بفلسطين في صيف سنة 1927 تبرع سعد بمائة جنيه لمنكوبي الزلزال وتبرع المرحوم عوض بك عريان المهدي بتسعة وتسعين جنيهاً فكانت نكتة لطيفة من نكت الذوق. وعواطف سعد من الوجهة العربية والإسلامية كانت عواطف الزعيم الذي يؤمن بأن العروبة والإسلام هما سند مصر في الشرق

خامساً - كان سعد أقوى نصير للمواهب الأدبية، وكان ينظر إلى القلم نظر الخوف والرجاء، ولم يكن يجيد المتعة الروحية إلا في محاورة أهل الفكر والبيان

كان سعد يحب أنصاره من الكتّاب فيقرِّبهم ويشجِّعهم، وكان يبغض خصومه من الكتّاب بغضاً شديداً، فلا يأوي إلى فراشه إلا بعد أن يطمئن إلى أنه سيقرأ في غده ما ينقض تحاملهم عليه، وكان يتقدم بنفسه من حين إلى حين فيخوض غمار المعارك القلمية بإمضاء مستعار ليشفي صدره من المتطاولين على مقامه الجليل

سادساً - كان سعد من أرباب القلوب، وتتجلى عظمة سعد من هذه الناحية إذا تذكرنا كيف نسى ما كان بينه وبين خصومه من الأحقاد السُّود بعد إذ منّ الله بنعمة الائتلاف، فقد كان سعد يبكي لفراق عدلي يكن وعبد الخالق ثروت، وكان صدقه في مودة هذين الخصمين من أكرم ما صدر عن قلبه السليم

سابعاً - كان لسعد فضلٌ عظيم في تقوية الشخصية الحزبية، وهي أساسٌ لجميع الأعمال الوطنية، حين تَحسُن النيات، وتصفو الضمائر، وتطيب القلوب

كان سعد رئيس الأمة، ولكنه لم ينس أبداً أنه رئيس الوفد، فكان يجاهد في تقوية ذاتيته الحزبية بعزيمة قهَّارة وقلب صوَّال، وهو الذي رفض السماح لأحد أنصار الوفد بالاعتراض على الحكومة الوفدية في مجلس النواب

وهنا ندرك أن سعداً كان يعرف قيمة المبادئ، وما كانت تجوز عليه الحيلة الطريفة التي تقول بالتفرقة بين المبادئ والأشخاص، والتي تبيح للرجل أن يخرج على حزبه بحجة أنه من أنصار الحق! ومعنى هذا الكلام أن الرجل يجب عليه أن ينصر حزبه ظالماً أو مظلوماً، وأن يؤازره في جميع الأحوال، ولو أعتقد أنه على ضلال

وبهذا الحزم الصارم نجح سعد، ولعله كان يفهم جيداً أن العضو في الحزب كالجنديّ في الكتيبة، فما يجوز له أن يتحدث في تعديل خطط القتال

أما بعد، فهذه لمحات من مآثر سعد، وما أريد بها التكفير عن الأعوام التي قضيتها في الهجوم عليه، فما كان لي من غاية ولا غرض في ذلك الهجوم شببتُ ناره في جريدة الأفكار وجريدة المحروسة وجريدة اللواء؛ وإنما كنت جندياً من جنود الحزب الوطني، وكنا نرى صادقين أن هدم سعد من أوجب الفروض

فإن قيل إن جهادنا في تحطيم سعد قد ذهب أدراج الرياح، فأنا أجيب بأن هذا من حظ مصر ومن حظ الحزب الوطني، لأن الحزب الوطني يسره أن يكون في مصر رجال ترضى عنهم الأمة وتقيم لهم التماثيل

الحزب الوطني ينتظر خصوماً من طراز سعد، خصوماً أقوياء لا تهدمهم معاول الحق، وما أعظم الرجل الذي تعجز عن هدمه معاول الحق!

وهل كان عبد العزيز جاويش على خطأ في محاربة سعد زغلول؟

وهل كان مصطفى الشوربجي آثماً في تفنيد المطالب الوفدية؟

إن انتصار الوفد في عهد سعد وفي عهد النحاس لن ينسينا مبادئنا، ونحن مع ذلك نرحب بانتصار الوفد ونرجو أن يطول بيننا النزاع والشقاق، لأننا نؤمن بأن السلام ضرب من الموت

كانت لنا مبادئ وكانت لنا ميادين قتال

فمتى يرجع ذلك العهد، العهد الذي كنا نشتجر فيه حول المقاصد الوطنية ونحن في غياهب الاعتقال؟

أيقضَى علينا أن نعيش في أمان فلا نعرف غير مصاولة الكاتبين والباحثين؟

ولكن لا بأس، فما كان النقد الأدبي إلا خدمة وطنية، لأن الأدب هو سفير مصر في الشرق

وسلام الله عل شهداء الوطنية في جميع الصفوف.

زكي مبارك

خواطر في الحرب
عبرة الزمن
للأستاذ محمد عرفة
انجحْ في الحياة ولا تفشل، وتوخَّ أسباب النجاح، وتوقَّ أسباب الفشل، فإنك إن تنجح عدَّ الناس ذنوبك حسنات، وإن تفشل عدَّ الناس محاسنك مساوئ
هذه فرنسا كانت في رأي كثير من الناس أم المدنيات، وما من حضارة إلا وهي مقتبسة منها، وما من خير إلا إليها مرجعة؛ فلما أجتاحها الألمان، وسقطت تحت كلكل القوة، انقلب مدح الناس ذماً؛ والفضائل التي كانوا يعدونها لها صارت رذائل. . .
كانت ترى أن يربي الفرد لنفسه، ولا يرون أن يربي الفرد ولا يعطي للدولة إلا ما فضل عنه، فكانوا يرون ذلك معها، ولا يرون أن يربي الفرد للأمة كما يرى الألمان
وكانت ترى الحرية في أوج مداها، فكانوا يرون ذلك معها ولا يرون أن أناساً قد تفسدهم الحرية كما تصلح قوماً آخرين
وكانت ترى إشباع الشهوات، والأخذ بأكبر قسط من ملذات الحياة، فكانوا يرددون هذا، ويرون أن الأخذ بضد ذلك سجن للحرية، وشقاء للنفس والمجتمع
وكانت ترى تضييق حدود النسل، فكانوا يرون أن الحق معها وأن المرء لم يخلق ليكون عاملاً غير مأجور لأولاده وأسرته
وكانت وكانوا إلى ما شاء الله من هذه الآراء. فلما هزمت في الحياة صار هذا الجلال صغاراً، وذلك النور ظلاماً، وانقلبت كل هذه المحاسن والمحامد آثاماً وعيوباً في أقل من طرفة عين.
ما هذا الذي بدَّل الحسن، وشوّه ذاك الجمال، وأحال الأمور إلى أضدادها؟. . . إنه الفشل، وقاتل الله الفشل
والناس من يلق خيراً قائلون له ... ما يشتهي ولأمّ المخطئ الهبل
محمد عرفة
في الاجتماع اللغوي
تطور اللغة وارتقاؤئها
تأثير اللغة باللغات الأخرى: تبادل المفردات بين اللغات
للدكتور علي عبد الواحد وافي
مدرس العلوم الاجتماعية بكلية الآداب
عالجنا في المقال السابق عاملاً من عوامل تطور اللغة، وهو انتقالها من السلف إلى الخلف، وسندرس في هذا المقال عاملاً آخر من هذه العوامل وهو تأثر اللغة باللغات الأخرى
من المقرر أن أي احتكاك يحدث بين لغتين أو بين لهجتين - أيًّا كان سبب هذا الاحتكاك، ومهما كانت درجته، وكيفما كانت نتائجه الأخيرة - يؤدي لا محالة إلى تأثر كل منهما بالأخرى
ولما كان من المتعذر أن تظل لغة بمأمن من الاحتكاك بلغة أخرى، لذلك كانت كل لغة من لغات العالم عرضة للتطور المطرد عن هذا الطريق
وأهم ناحية يظهر فيها هذا التأثر هي الناحية المتعلقة بالمفردات. ففي هذه الناحية على الأخص تنشط حركة التبادل بين اللغات، ويكثر اقتباسها بعضها من بعض: وقد تذهب بعض اللغات بعيداً في هذا السبيل، فتقتبس معظم مفرداتها أو قسماً كبيراً منها عن غيرها: كما فعلت التركية مع الفارسية والعربية، والسريانية مع اليونانية، والفارسية مع العربية. . . وهلم جرا.
وأما القواعد وأساليب الصوت فلا تنتقل في الغالب من لغة إلى أخرى إلا بعد صراع طويل بين اللغتين؛ ويكون انتقالها إيذاناً بقرب زوال اللغة التي انتقلت إليها واندماجها في اللغة التي انتقلت منها
ولهذا تخضع في الغالب الكلمات المقتبسة للأساليب الصوتية في اللغة التي اقتبستها، فينالها كثير من التحريف في أصواتها وطريقة نطقها، وتبعد في جميع هذه النواحي عن صورتها القديمة. فالكلمات التي أخذتها العربية مثلاً عن الفارسية واليونانية قد صبغ معظمها بصبغة

اللسان العربي حتى بعد كثيراً عن أصله. ومن ثم نرى الكلمة الواحدة قد تنتقل من لغة إلى عدة لغات، فتتشكل في كل لغة بالشكل الذي يتفق مع أساليبها الصوتية ومناهج نطقها، حتى لتبدو في كل لغة منها غريبة عن نظائرها في اللغات الأخرى. فالكلمات العربية مثلاً التي انتقلت إلى اللغات الأوربية قد تمثلت في كل لغة منها بصورة تختلف اختلافاً غير يسير عن صورتها في غيرها

وكثيراً ما ينال معنى الكلمة نفسه تغيير أو تحريف عند انتقالها من لغة إلى لغة أو من لهجة إلى أخرى: فقد يخصص معناها العام ويقصر على بعض ما يدل عليه؛ وقد يعمم مدلولها الخاص؛ وقد تستعمل في غير ما وضعت له العلاقة ما بين المعنيين؛ وقد تنحط إلى درجة وضيعة في الاستعمال فتصبح من فحش الكلام وهجره؛ وقد تسمو إلى منزلة راقية فتعتبر من نبيل القول ومصطفاه. . . وهلم جرا

ويختلف مبلغ ما تأخذه لغة عن أخرى باختلاف العلاقات التي تربط الشعبين وما يتاح لهما من فرص الاحتكاك المادي والثقافي. فكلما قويت العلاقات التي تربط أحدهما بالآخر، وكثرت فرص احتكاكهما، نشطت بينهما حرمة التبادل اللغوي ولذلك تبلغ هذه الحركة أقصى شدتها حينما يسكن الشعبان منطقة واحدة أو منطقتين متجاورتين؛ فالإنجليزية قد أخذت عن النورماندية أكثر مما أخذته عن أية لغة أخرى؛ لأن الغزاة من النورمانديين قد أستقر بهم المقام في نفس بلاد الإنجليز المغلوبين. واللاتينية قد اقتبست من الإغريقية أكثر مما اقتبسته من أية لغة أخرى؛ وذلك لتجاور منطقتيهما وشدة الامتزاج بين الشعبين الناطقين بهما. ولهذا السبب نفسه بلغت حركة التبادل اللغوي أقصى شدتها بين العربية والفارسية والتركية. وما اقتبسته ألمانية سويسرا من اللغة الفرنسية لا يذكر بجانبه ما اقتبسته منها ألمانية النمسا مثلاً؛ وذلك لأن القسم الألماني اللغة في سويسرا متاخم للقسم الفرنسي اللغة ولشدة الاحتكاك بين سكان القسمين، على حين أن النمسا غير متاخمة لمنطقة فرنسية اللسان. وقد تسرب إلى لغة رومانيا عدد كبير من مفردات الشعبتين الصقلبية والمجرية، على حين أن أخواتها اللاتينية الأصل (الفرنسية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية) لم تكد تتأثر بهذين اللسانين؛ وذلك لأن رومانيا قد انعزلت عن أخواتها اللاتينية وأحاط بها من جميع جهاتها أمم صقلبية اللسان أو مجرية

والمفردات التي تقتبسها لغة عن غيرها من اللغات يتصل معظمها بأمور قد اختص بها أهل هذه اللغات، أو برّزوا فيها، أو امتازوا بإنتاجها أو كثرة استخدامها. . . وهلم جرا. فمعظم ما انتقل إلى العربية من المفردات الفارسية واليونانية يتصل بنواح مادية أو فكرية امتاز بها الفرس واليونان وأخذها عنهم العرب. ويتألف معظم المفردات التي أخذتها الإنجليزية عن النورماندية من كلمات دالة على معان كلية وألفاظ تتصل بشئون المائدة والطهي والطعام؛ وذلك لأن النورمانديين كانوا يفوقون الإنجليز كثيراً في هاتين الناحيتين، فغزرت مفرداتهما في لغتهم بينما قل ورودها في لغة الإنجليز القديمة. وقد انتقل إلى اليونانية، ومنها إلى اللاتينية، كثير من الكلمات الفينيقية المتصلة بشئون الملاحة والبحرية؛ وذلك لأن الفينيقيين قد سبقوا غيرهم من الشعوب في هذا المضمار. وانتقل إلى اللاتينية كثير من الكلمات الإغريقية المتعلقة بالمصطلحات الفلسفية والدينية؛ وذلك لبراعة الإغريق في ميدان الفلسفة، ولأن الدين المسيحي قد أنتشر بفضلهم في شرق الإمبراطورية الرومانية ووسطها. وقد أخذت اللغات الجرمانية عن اللاتينية كثيراً من المفردات المتصلة بالقضاء والتشريع ونظم الاجتماع والسياسة. . . وما إليها، وذلك لأن الرومان كانوا مبرزين في جميع هذه الشئون، ولهذا السبب نفسه انتقل إلى الفرنسية كثير من الكلمات الجرمانية المتصلة بشئون الحرب نفسها، ومنها كلمة الحرب من الكلمات الإيطالية المتعلقة بالموسيقى وآلاتها والفنون الجميلة؛ وانتقل إلى معظم اللغات الأوربية وغيرها المفردات الإنجليزية المتصلة بالألعاب الرياضية، والمفردات الفرنسية المتعلقة بالأزياء وألوان الطعام

ومن أجل ذلك تنتقل مع المنتجات الزراعية والصناعية أسماؤها في لغة المناطق التي ظهرت فيها لأول مرة أو اشتهرت بإنتاجها أو تصدر منها في الغالب، فتنتشر عن هذا الطريق في لغات البلاد الأخرى. فكلمة الشاي قد انتقلت إلى معظم لغات العالم من لغة جزر ماليزيا التي كانت المصدر الأول لهذه المادة ((شاي) في العربية في الفرنسية في الإنجليزية. . . الخ)، وكذلك كلمة الطباق؛ فقد انتقلت إلى معظم اللغات

الإنسانية من لغة السكان الأصليين لأمريكا حيث كشفت هذه المادة لأول مرة
((طباق) في العربية في الفرنسية في الإنجليزية. . . الخ).
وعن هذا الطريق انتقل إلى اللغات الأوربية كثير من الكلمات العربية الدالة على منتجات
زراعية أو صناعية: كالليمون الموصلي (وهو نسيج خاص ينسب إلى الموصل)،
الزعفران، الشراب، السكر، الكافور، القنوة (عسل قصب السكر المجمد)، القهوة،
القطن، القرمزي، الكمون، الدمشقي (نسيج ينسب إلى دمشق)
, , , , , , , , , , , , في الإنجليزية
, , , , , , , , , , , , وفي الفرنسية
علي عبد الواحد وافي
دكتور في الآداب من جامعة السربون
أوراق مبعثرة
من ظلال الهوى
(مهداة إلى الدكتور زكي مبارك)
للأستاذ صلاح الدين المنجد
قلت لها ونحن نمشي على رَوْدٍ بين الكروم: (ماذا تريدين يا نشْوى. . . وماذا . . .
تودين؟ أتريدين ثوباً مذهباً يلمع، أم طيباً ناعشاً يسطع، أم تودين سماع الأقاصيص
الناعمة التي ترقص لها البطولة، ويغني في ثناياها الحب. . . أم يهفو قلبك إلى أحاديث
الغزل، وتتلمظ شفتاك لخمر القبل. . .؟)
قالت: (لا. . . ولكني أريد فتى يكون لي وحدي؛ يموج قلبه بحبي، وتصفقُ روحه
لجمالي. . . ولا يرى في الوجود سواي
. . .ما نفعُ الثوبِ اللامع إذا كان الحبيب الذي يراه لا يسكر لمرآه
وما غناءُ الأقاصيص والأحاديث إذا كان القلب الذي ينظمها لا يتدفق بالحنين ولا يغني
. . .للحياة
!. . .نعم متى جاء الحبيبُ. . . جاء كل شيء
ثم انعطفت تقطف أوراق كرمة نعسى. . . فقلت لها:
ألستُ فتاك الذي تودين. . .؟
. . .قالت: لا
قلت: بلى. . . أنت تحبينني يا نشوى. . . اذكري الدمعَ الذي ذرفته من أجلي، إذ مستني
الحمى فأصبحت ساهماً واجماً. . . واذكري الفرحَ الذي يطل من نظراتك، ويلهبُ
أعطافكِ وقسماتك إذا ما لقيتني. لا تنكري يا نشوى. . . أرأيت تهيامي بكِ وتحناني
إليك فجئت تدلين وتعبثين. . .؟ أرودي في مشيتك. . . وتعالي إلى أحضان هذه
الأعشاب، أسمعك النشيد الذي نظمته أصيل الأمس.
فقفزت فوق كرمة متراخية، وارتمت بين أوراقها، وجلست أنا أمامها، وأنشدتها
قصيدتي التي أولها:
يا سادراً هيمان ... يبكي ولا يصحو
وكان الدمُّ الدفّاق في خديها، والفرحُ الراقص على وجْنتْيها، يكسبانها وضاءة ونضارة،
فاقتربتْ مني، واستراح رأسُها على صدري، وسرحت بصرها في جنبات السهل
الساجي تحت أقدامنا فحنوت عليها، وضممتها إلى صدري، كما تضم الأم وليدها،
وراحت شفتاي تسكبان على سحرها حنيناً لازعاً وحباً ناعماً، وشعوراً مُترعاً بالحماسة
واللذة والفرح
!ما أروعَ لياليك أيها الحب
لقد كانت ليلة نديانة بالقُبل نشوانة بالغزل، وكان يخيل إلينا أن الحبَّ الذي جمعَ قلبيْنا
بالمودّة، ورُوحينا بالوئام، يجوبُ السفوح، ويرف في أشعة القمر الصبوح، ويخلع على
الدنيا السناء والبهاء. وكان القمرُ كالأمير الغُرانق الجميل، حفَّت به الغيومُ البيضُ
لترقصَ أمامه عرايا بدلال وفتور. . . وكان بريق أشعته على قمم الجبل فتنير تلك
السنديانات الهاربة نحو السماء، ثم تزحف نحونا بهدوء لتسمعَ أناشيدَ الهوى وترى
جنون الصبا؛ حتى غمرتنا، وطفَتْ على المحاني والرُّبى فحسبنا أننا في بحيرة من
الأنوار السُّمر والفاترة، وأن الكرمات زوارق سكرى، وأننا غريقان في اللُّجج، تائهان

فوقَ الثبج، نتلمسُ الشاطئ فلا نجده، ونتقرّبُ من الضفَّة فلا نلقاها .. !
وسمعنا الشلاَّلَ يغني لنا، وانتشر العبيرُ حولنا، وضحك السهلُ والجبلُ لمرآنا، ورفعتْ الصخورُ رؤوسَها لترانا. . . وسكرنا سكرَيْن: سكرَ هوى وسكرَ جمال . . .
بوركتَ أيُّها الجبلُ القائمُ كالفارسِ الأسمرِ الجميل . . . !
لقد قال لي بالأمس وأنا أرتو إليه في شحوب الأصيل: (لقد حفظت ذكرى الحبيبة بين صخوري، وجاء البشر يرتع فوق جذوري، وتمايلت الأعاشيب على صدري، وتزاحمت الأزاهير لتطرز سفوحي، وغنت الرعاة باسم فتاتك في متوع الأصابيح وسجوّ الأماسيّ لقد حفظت ذكراها. . . لأن تلك الدموع التي ذرفتها أصبحت منبت الأزاهير، ولأن تلك القبلات التي غنت برنينها النسيمات أضحت ينبوعاً للأغاريد، ولأن حنين الشفاه ونجوى القلوب عادت أناشيد الرعاة!)

(دمشق)

صلاح الدين المنجد

قصة كتاب الديارات

للشابشتي

للأستاذ كوركيس عواد

إن كان لكل شيء قصة، فلكتاب الديارات للشابشتي قصة، أرويها فيما يلي، وذلك على أثر المقال الذي نشره عنه الأستاذ صلاح الدين المنجد، في العدد 368 من الرسالة الغراء: لقد رغبت في نشر (كتاب الديارات) للشابشتي، منذ سبع سنوات، حينما أخرجت للناس في سنة 1934 كتابي المسمى (أثر قديم في العراق: دير الربان هرمزد) القائم بجوار الموصل. فقد كان صاحب المعالي (يوسف غنيمة)، نبهني حينذاك إلى أهمية كتاب الشابشتي، بالمقدمة التي وضعها لكتابي المذكور. فازدادت رغبتي فيه يوماً بعد يوم، وقد مضت سنة ونصف سنة منذ اختمرت عندي فكرة نشره. فأقدمت على العمل بعد أن أعددت له عدته، ليكون ما أقوم به على الوجه العلمي الذي يستحقه هذا الكتاب الجليل، ويرتضيه أرباب البحث من الأدباء والمؤرخين وكتاب الديارات للشابشتي لم يبقَ منه اليوم سوى نسخة وحيدة في خزانة برلين برقم (8321). وأن تحرينا وجه التدقيق قلنا أن هذه النسخة البرلينية ما هي إلا قسم من الكتاب الأصلي، فهي مخرومة من أولها بمقدار لا يمكن معه معرفة عدد أوراقه الذاهبة، كما أنها ناقصة من وسطها بعض النقصان. على أن كافة النسخ المعروفة اليوم لكتاب الديارات، سواء المصورة منها والمخطوطة، مصدرها هذه النسخة الفريدة التي كتبت سنة 631 هـ. فهي، ولا مراء، أمهن جميعاً، ولولاها لكانت خسارة الأدب فادحة

أما حصولي على نسخة هذا الكتاب، فكان على يد العلامة الأب أنستاس ماري الكرملي، فإنه في إحدى كينُوناته في مصر وذلك في سنة 1938، حصل على النسخة المصورة التي كانت بيد المستشرق الدكتور أ. فيشر وكان قد صورها قبل حرب سنة 1914 ليتولى طبعها هو بنفسه، لكن لما تعددت أشغاله وأحب أن يقدِّم على طبع كتاب الديارات معجمه الملحق بمعاجم لغويي العرب، دفع النسخة المصورة إلى الأب المذكور، لعلمه أنه قد عزم على طبعه. وبعد ذلك نقل الأب نفسه وبقلمه نسخة ثانية معتمدة، فصارت النسخة بهذا نسختين. ثم لما توافرت شغالة ناط بي نشر الكتاب بعد أن علم مبلغ رغبتي في ذلك، فدفع إلي نسختيه المذكورتين، قبل سنة ونصف سنة، فاعتمدت عليها في كتابة نسخة ثالثة بيدي، كانت عنايتي بنقلها وضبطها تفوق حدود الوصف، ثم أعدت مع الشكر النسختين المصوَّرة والخطية إلى صاحبهما. وأكببت بعد ذلك على دراسة نسختي، واجتهدت بروية دقيقة في ضبط ألفاظها وتحقيق ما فيها من أعلام الأشخاص والمواقع والشؤون العمرانية والأخبار التاريخية والروايات الأدبية والأشعار وما إلى ذلك. وأفرغتُ كنانة وسعي في الرجوع إلى عشرات من الكتب العربية وكنت قد خصصت بضع ساعات من كل يوم، مدة سنة وبعض أخرى، لخدمة هذا الكتاب، وتصحيحه، والتعليق عليه بما لا مزيد عليه من العناية به

وقد وجدت من الخير لهذا الكتاب أن أعود إلى المؤلفات الأرمَنية أيضاً، وقد مكنتني معرفتي لهذه اللغة من الوقوف على عدد منها أربى على الثلاثين، وكلها ذات مساس

بموضوع الديارات؛ والحق أنني خرجت منها بفوائد جليلة. ورأيت من الضروري الرجوع إلى طائفة صالحة من المؤلفات الإفرنجية فضلاً عن المؤلفات العربية الحديثة وكان الأب أنستاس، قد سّلم نسخته المكتوبة، بعد انتساخي عليها نسخة، إلى صديقنا المحقِّق الدكتور مصطفى جواد، ليطَّلع على هذا الكتاب، ويقّيد في أثناء مطالعته له ما يعنّ له من الملاحظات والتصويبات على هوامش النسخة. فطالعها الدكتور مطالعة مدققة، وذلك شأنه في كل ما يطالع، فصحح في أغلاطها، وكشف وجه الصواب عن تحريفاتها، وقوَّم ما أناد منها على أيدي النسَّاخ، كما حقق أموراً جمَّة من أعلامها، وحل كثيراً من مغلقاتها. وقد سمح لي كل منهما بنقل هذه الملاحظات الثمينة، لأنهما يرقبان الكتاب ويأملان أن يخرج في أتم ما يمكن من الإتقان. وقد نقلت تلك الملاحظات شاكراً فضلهما، وأدخلت كل واحدة منها مقرونة باسم صاحبها الدكتور مصطفى، في محلها من حواشي الكتاب

فأنت راء أن كتاب الديارات للشابشتي، قد انتقل بعد كل هذه الجهود من عالم إلى عالم، وأضحت أخباره ومروياته مدعومة بما يؤيدها من الأسانيد الواردة في المراجع القديمة الأخرى، وقد أضفتُ إلى الكتاب ملحقات جمّة، في أحدها معلومات طريفة بتلك الديارات الساقطة تراجمها من مخطوطة برلين، وذلك بعد أن ثبت لي لزوم اشتمال الأصل عليها. كما وضعتُ ملحقاً ثانياً مطولاً، يكون (مستدركاً) على الشابشتي، وفيه أخبار الديارات التي لم يتطرق إلى ذكرها، وبينها ما هو من الخطورة الأثرية والتاريخية والأدبية بمكان رفيع.

ويلي ذلك ملحقات أخرى عمرانية وتاريخية وبلدانية أضرب عن ذكرها الآن صفحاً قصداً إلى الاختصار. وأخيراً جعلت (الفهارس) المتنوعة، وكلها في غاية الضبط، بحيث تكشف عن مكونات الكتاب المختلفة، وتيسِّر للقارئ مراجعة مضموناته. وكان قصدي من كل ذلك، أن يكون كتاب الشابشتي، مع المستدرك الذي وضعتُهُ عليه وسائر الملحقات والتعاليق، أتمّ وأوفى كتاب للديارات

وقد أنهيتُ عملي قبل أشهر، ونويتُ إذ ذاك عرض الكتاب على الطبع؛ غير أنه قد صدمني غلاء الورق وكثرة النفقات، وهما أمران ناشئان عن قسوة الأحوال الحاضرة، فاضطررت إلى تأجيل نشره إلى فرصة ثانية

هذا ولعل من القراء من يتذكرون أنه مرت في هذه المجلة قبل ما يقرب من ثلاثة أشهر (أنظر الرسالة (العدد360) حاشية 3 من الصفحة 895 ب) إشارة صريحة تذكر أنني عازم على إخراج هذا الكنز من مدفنه. ثم إن عندنا في العراق عدداً كبيراً من المؤرخين والأدباء وأولى البحث يعلمون الشيء الكثير من أمر اشتغالي بتحقيقه والعناية به

وفي هذا اليوم وصل إليّ العدد 368 من الرسالة الغراء، وإذا فيه مقالة وجيزة للأستاذ صلاح الدين المنجد، وعنوانها (كتاب الديارات) للشابشتي. فاستبشرتُ بها واندفعت إلى مطالعتها حرصاً مني على الوقوف على كل ما من شأنه أن يكشف لي شيئاً جديداً من أمر هذا الكتاب أو مؤلفه. غير أنني وإن لم أخرج منها بما كنت أنتظر ولا بأقل من ذلك، قد سرني منها أن كاتبها ينوي نشر هذا الكتاب بعد أن ظلَّ مدفونا في زوايا الخزائن، كما سرني أنه سينشر منه نبذة في العدد القادم من الرسالة الغراء وأن من طريف الاتفاقات أن يُقدم باحثان عل نشر كتاب واحد، دون أن يعلم أحدهما بما يعمله الآخر، وهذا سيكون من مصلحة الثقافة، وهل ذلك إلا دليل واضح عل خطورة ذلك الصنف الجليل وأهميته البالغة، التي أغرت أثنين بخدمته وإعداده للنشر؟

فإن كان الأمر على ما ذكر، فما عسى أن يمنعني عن نشر الكتاب بالوجه الذي رسمتُهُ لنفسي، سواء أعَمِلَ غيري على نشره أم لا. هذا وأني موقن أن ما بذلته من العناية وطول البحث في سبيل هذا المؤلف يتطلب مني ألا أهمل نشره، بل لا أتردد في ذلك مهما كان من الأمر، ما دامت غايتي من ذلك كله خدمة العلم لذاته. ثم إن ملاحظات عنَّت لي في أثناء مطالعتي

لمقال الأستاذ المنجد، أرجو أن يتغاضى عن بياني لها هنا، جلاء للحقيقة وحباً للفائدة

أولاً: ذكر أن نسخة المجمع العلمي العربي بدمشق مصورة على نسخة أحمد تيمور باشا، المصورة على نسخة خطية فريدة في خزانة برلين برقم 1100، والصواب أنها برقم 8321 كما يلاحظ في قائمة مخطوطات برلين العربية

ثانياً: وقال أيضاً: (وأول من نقل عن هذا الكتاب (يقصد كتاب الديارات)، ونوه به هو السيد حبيب الزيات، فقد أخرج للناس في تموز من عام 1935 (كذا، والصواب عام 1938) عدداً خاصاً من مجلة الشرق الكاثوليكية في بيروت عن الديارات النصرانية في الإسلام، فنقل عنه نقولاً كثيرة.) قلنا: الذي نعلمه يخالف ذلك كثيراً؛ فقد تتبعنا من نَقَلَ عن هذا الكتاب من المعاصرين، وتعقبنا نقولهم، فوجدنا أن أقدمهم في النقل المستشرق السويسري متز المتوفى سنة 1917؛ فقد اقتبس فقرات عديدة منه في كتابه (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري)، ولقد أحصينا في الجزء الأول فقط الذي نقله إلى العربية الأستاذ محمد عبد الهادي أبو ريدة تسعة عشر موضعا اقتبس فيها من كتاب الديارات

وتلاه المستشرق الألماني سخاو فنشر سنة 1919 بالألمانية رسالة ثمينة تقع في 43 صفحة من القطع الكبير، عنوانها (كتاب الديارات للشابشتي). فيها هذا الكتاب، كما أتى على خلاصة بحوثه، ثم ترجم منه نبذاً مختلفة، بينها تلك الحفلة العباسية الرائعة التي جرت في قصر بركوارا في سامراء في عهد المتوكل الخليفة العباسي

وتلاهما الأستاذ المحقق حبيب زيات فنقل من كتاب الديارات هذا، سنة 1927، فقرتين في بحثه المعنون (السفن والمراكب في بغداد في عهد العباسيين) المنشور في مجلة لغة العرب (5 (1927) ص461 - 465). ثم نقل عنه ثانية سنة 1928 نقولاً كثيرة في بحثه النفيس (نقد كتاب الديارات الوارد في الجزء الأول من مسالك الأبصار) المنشور في لغة العرب أيضاً (6 (1928) ص322 - 342). وفعل ثالثة سنة 1935، فنقل منه كتابه (الصليب في الإسلام) مرتين، وكان آخر نقوله عن الشابشتي ما أورده في كتابه القيم (الديارات النصرانية في الإسلام) وهي التي أشار إليها الأديب المنجد بكونها أقدم النقول التي وقف عليها!

ولنا أن نضيف إلى ما ذكرنا، تلك الفقرات الكثيرة التي نقلها الأستاذ محمد كامل حسين في كتابه (في الأدب المصري الإسلامي)

إن كان الشيء بالشيء يذكر، فنقول إن هناك جهوداً مختلفةً بذلتْ في سبيل إخراج هذا الكتاب إلى حيز النشر. أقدمها يعود إلى همة المستشرق هير حسبما أشار إلى ذلك البحاثة لسترنج في حاشية الصفحة 211 في كتابه وكان قد سبق له في سنة 1899 أن وصف هذا الكنز الثمين في بحث له في الخطورة التاريخية والبلدانية لمعجم ياقوت الحموي. وعلى ما يظهر لنا لم يوفق المذكور لنشره حينذاك، لأسباب لا أعلمها ثم تلتها جهود المستشرق سخاو في نشر رسالته المنوه بها آنفاً. فقد عرف بها كتاب الديارات للعلماء ومتتبعي الآثار القديمة العربية، ووقفهم على خلاصة مضموناته، غير أنه لم ينشر الأصل بكماله

وكان المستشرق فيشر قد عزم - على ما أخبرني به الأب أنستاس - على نشر هذا الكتاب أيضاً وسبقتْ منا الإشارة إلى ذلك؛ غير أنه عدل عن ذلك للأسباب التي ذكرناها في صدر كلامنا

هذا ولدينا في هذا الشأن تفاصيل أخرى كثيرة نرجئ نشرها إلى المقدمة المسهب فيها التي صدّرنا بها هذا المؤلَّف النفيس

ثالثاً: قال الأستاذ المنجد ما نصه: (ووضعتُ للأديار مخططاً يبين مكان كل منها. . .)

قلنا: إن في هذا القول شيئاً كثيراً من التجوّز، إن لم نقل من الإدعاء! فإن كتاب الديارات للشابشتي يتناول - بحسب النسخة الوحيدة البرلينية - أخبار خمسة وخمسين ديراً. منها: ثمانية وثلاثون في العراق، وثلاثة في سوريا ومثلها في فلسطين، وثلاثة أخرى في تركية، والباقي وهو ثمانية في مصر. ومعلوم أن أغلب هذه الديارات عراقية فأنا مع تتبعي لموضوع الديارات، منذ أكثر من عشر سنين، وكوني امرأً عراقياً لا يدع الفرصة تفوته دون الوقوف على ما يتعلق بشؤون بلاده من الوجهات الأثرية والتاريخية والبلدانية. . . أزيد على ذلك أني أحد موظفي دار الآثار القديمة في العراق، وهذه الدار أولى من غيرها بتعقب أمثال هذه المواقع الأثرية، بل هي صاحبة الدراية بها. . .

نعم، مع كل ذلك، لم أستطع بعد الجهد تعيين (المواقع الحقيقية) إلا لعشر ديارات عراقية من تلك

الثماني والثلاثين التي تكلم عليها الشابشتي! أما ما تبقى منها، فلا أثر لها البتة اليوم، كما لا يمكن الاهتداء إلى مواقعها وتعيينها بصورة علمية خططية مضبوطة يصح الركون

إليها. وبعد هذا لا ندري كيف أمكن للأستاذ المنجد أن يضع (مخططا يبين مكان كل منها)؟
رابعاً: لم يشر البتة إلى الاختلاف الواقع في تعيين سنة وفاة الشابشتي. فبينما نرى أن ابن خلكان (وفيات الأعيان 1: 481 بولاق) يقول أن وفاته كانت سنة 388هـ إذ نجد ياقوتاً الحموي (معجم الأدباء 6: 407 طبعة مرجليوث) يقول أنه مات سنة 399 هـ.
والفرق، كما لا يخفى، ظاهر بين هذين التاريخين ولا يصح السكوت عنه
هذا وأسأل الله تعالى أن يوفقني في القريب العاجل إلى إخراج هذا المصنف الجليل، الذي هو جدير بكل عناية وأهل لكل خدمة علمية، ومن الله الفلاح.
(بغداد)
كوركيس عواد

بين الفهم والاجتهاد

المعاني شائعة ولا تجوز الملكية فيها

للأستاذ محمد عبد الغني حسن

كتب ناقد أديب في الرسالة الغراء مقالاً عنوانه من عجائب الاجتهاد، يسجل فيها بعض المعاني التي أخذها الدكتور بشر فارس لمسرحيته من ديوان الأستاذ العقاد، وديوان الشاعر الأستاذ علي محمود طه المهندس
وهذا الاتهام - وأعني اتهام الشعراء بالسرقة والأخذ - قديم منذ اللحظة التي نشأت فيها حركة النقد الأدبي. وهي حركة ترجع إلى العصر العباسي حينما استطاع الذوق الأدبي أن يتكون. ومن أبطال هذه الحركة الآمدي صاحب الموازنة وأبن رشيق صاحب العمدة وقدامة بن جعفر نقد النثر ونقد الشعر وغيرهم
ولما استوت عوم البلاغة ووضعت لها قواعد والأصول، استطاع النقد الأدبي أن يجد فيها مستنداً يستند إليه. وأفردت فصول خاصة بالمعاني والسرقات الشعرية
والواقع أنه من الصعب أن يستقصى المعنى الواحد ويُتتبع ويرد إلى مخترعه أو مفتض عذرته. وقد حاول هذه المحاولة أبو هلال العسكري في كتابه ديوان المعاني، ونجح - إلى حد ما - في جمع المعاني الواحدة في سمط واحد مع التدرج في استعمالها، ووجوه الحسن في هذا الاستعمال وهل كان الآخذُ مفضِلاً على المأخوذ منه أم مساوياً أم مقصراً عن بلوغ شأوه
واشتط بعض البلاغيين في هذا الباب فوضعوا للسرقات الشعرية أسماء كثيرة كالمسخ والسلخ والسلخ والنسخ وغيرها. وكأنهم - سامحهم الله - جعلوا أسبقية الزمان سببا في الاتهام. فالشاعر التالي يعد في نظرهم آخذاً أو سارقاً إذا اتفق له معنى مما يكون قد اتفق لشاعر سابق. وقد يكون الشاعر المتهم بالأخذ أو السرقة أو السطو - أو ما شئت أن تسميه - بريئاً من ذلك كله. وقد يكون للمصادفة وحدها فضل اتفاق الخاطرين وورودهما على معنى واحد
ومثل الذي يقال في الشعر يقال في النثر؛ فمن الظلم أن يتهم دانتي صاحب الكوميديا الإلهية بالسطو على رسالة الغفران للمعري لاتفاقهما في كثير من الأفكار وأسلوب التحليق
في السماوات، كما أنه من الظلم أن يتهم قصصي بالسرقة من قصصي آخر لمجرد اتفاق الفكر بين الكاتبين
نعم في الأدب العربي كما في أدب كل أمة جماعة من اللصوص الذين يحبون أن ينسب دائماً فضل غيرهم إليهم. وهذا النوع من اللصوصية جريء كل الجرأة، لأنه لا يستحي ولا يخشى النقد إذا ما ضبط. . . ولكن الغالب في هذا النوع أنه يتوارى متى كشف الناس أمره وتبين للناقدين زيفه
وهذا النوع لا يعنينا أن نكتب عنه لأنه لا يستحق الكتابة قدر استحقاقه العقاب. أما ما نقصد إليه فهو هذه المعاني الزاخرة المشتركة بين النفوس الإنسانية التي تعد بالملايين. . . هذه المعاني التي تدور على بعض النفوس، وتشترك في بعض الخواطر، ويعتلج بها بعض الصدور، فإذا ما سجلها بعضهم بالكتابة سمعت صيحات عالية تنادي أن هذه سرقة، وأن هذا المعنى لفلان دون فلان
وليس غريباً أن يتفق الشاعران أو الكاتبان في الفكرة الواحدة أو أن يقع في بعض النفوس ما يقع في البعض الآخر. وهذا النبع العظيم من التفكير الإنساني لابد أن يجد

له مسيلاً في نفوس كثيرة متشابهة. فكثيراً ما نرى بعض الناس في أحاديثهم الخاصة تتفق أفكارهم الخاصة في لحظة معينة بذاتها. كأنما ألهم كل منهما الرأي إلهاماً وكثيراً ما نسمع بين المتحادثين هذه العبارة المألوفة (عمرك أطول من عمري) وهي عبارة لا نحاول أن نثبت بها قضية نذهب إليها؛ وإنما نسوقها فقط لنبرهن بها على ما يجري بين المتخاطبين من توافق في الأفكار أو الألفاظ، كما يقع في كثير من الأحيان والسرقة هنا أمر عظيم وحادث جليل؛ والاتهام بها ليس من السهولة بحيث يستطيع توافق الأفكار أن يؤيده. أما سرقة الماديات فمن السهل إثباتها وإقامة الدليل عليها، لأنها في أبسط تعبير انتقال شيء من يد مالكه إلى يد مغتصبه. فملكية المالك هنا ظاهرة واضحة مشهود عليها بألف دليل ودليل. . . واغتصاب السارق لها واضح ظاهر مشهود عليه بألف دليل ودليل

أما ملكية الأفكار فمن الصعب إثباتها لوقوع الفكر دائماً على الشيوع لا على الاختصاص. والذين يضيقون علينا سبل التفكير والإنتاج والاجتهاد إنما يضيقون على أنفسهم، لأنهم في

كثير من الأحوال غرضٌ يُرمَى كما يَرمْون. والواقع أن السرقة - بمعنى اتفاق الأفكار - موجود في كل نفس، لأن كل نفس بشرية يجري عليها الإحساس والعواطف والانفعالات وهي أمور مشتركة في الإنسانية جميعاً

وقد يكون وقع في مسرحية بشر فارس من الأفكار ما وقع في إحدى قصائد العقاد، وليس في ذلك مطعن على بشر ولا مفخر للعقاد

وقد وقع أكثر من هذا للفحول من كتاب الغرب فلم ينقص ذلك من مقامهم العلمي أو الأدبي، ولم يحجم التاريخ عن وضعهم في أماكنهم الصحيحة من سجل الخالدين.

ولعلك تعجب إذا علمت أن موليير القصصي الفرنسي العظيم اتُّهم - في حياته - بالسطو على قصص غيره من المعاصرين والسابقين، فكان رده اعترافاً منه بالسرقة إذ يقول: (أنني وجدت شيئاً نافعاً فلا أحجم عن أخذه للانتفاع به). كما كان (تشسترتون) زعيم الحركة الرجعية في إنجلترا في العصر الحديث يُتَّهَم من برنارد شو وويلز بالسطو عل معاني الصغار من كتاب الصحافة البريطانية

والعقاد في شعره وفي كتابته غني بالمعاني، إلا أن هذا الغنى لم يكن ميراثاً خاصاً به؛ فهو ولا شك قرأ كثيراً وأفاد كثيراً مما قرأ. ولا شك أن رأسه يزدحم بكثير من المعاني التي تعرض له في مطالعته.

فليس ينقص من قدر العقاد أنه يشترك في كثير من معانيه مع كثير غيره من كتاب الإنسانية الذين يحسون إحساسه، ويتأثرون تأثيره

وعبد الرحمن شكري يعترف في مقال له بمقتطف مايو 1939 بأنه كان يحتذي شعراء الصنعة العباسية. فما قال منصف إنه سارق، ولكن قال المنصفون إنه متأثر. ولم يعب عليه المرحوم حافظ إبراهيم هذا التأثر (الاحتذاء) وهذه المعارضة بل أثنى عليهما. ولما سافر شكري إلى إنجلترا كان احتذاؤه الشعر الإنكليزي في توليد الموضوعات الجديدة لا في أساليبه

على أن الشاعر أو الكاتب لا يستغني في إنتاجه عن التأثر - المقصود وغير المقصود - بما يقرؤه، ولا يسلم من ذلك التأثر فحل من الشعراء أو مبرز من الكتاب. فالأستاذ أحمد حسن الزيات قد تأثر في مقاله (بين المهاجرين والأنصار) (الرسالة عدد 368) بفكرة

الأستاذ أحمد أمين في مقال سابق بالثقافة. فأحمد أمين يصرح بأن الموت بالقنابل في القاهرة أفضل من الموت بالمكروبات في الريف، والزيات يجري على لسان المهاجرين هذه العبارة (إن الموت بالشظايا على دفعة، أخف من الموت بالجراثيم على دفعات)

وقد يكون - والعلم عند علام الغيوب - أن الزيات لم يطلع على مقال أحمد أمين المنشور بالثقافة.

والشاعر علي محمود طه قد تأثر في قصيدته محنة باريس المنشورة بالرسالة عدد (369) بمقال للدكتور طه حسين بك في الثقافة عنوانه باريس (عدد 77) فالدكتور طه حسين بك يقول: (ليست باريس رقعة من الأرض)، والشاعر علي محمود طه يقول مخاطباً باريس:

لست بنياناً ولا أرضاً ولا ... غاب آساد ولا جنة غيد
هذه كلمة أحببت أن أقولها بمناسبة كلمتين نشرتا في الرسالة بعنوانين هما (من عجائب الاجتهاد) و (من عجائب الفهم). وما أود أن أغمط بها فضل ذي فضل؛ وإنما هي كلمة حق لعلها تضع حدّاً لأمور ليس من مصلحة الأدب كتمانها والسلام.
(المنصورة)
محمد عبد الغني حسن
السيد محمد رشيد رضا
بمناسبة مرور خمسة أعوام على وفاته
للأستاذ محمود أبو رية
من حق شيخنا الإمام السيد محمد رشيد رضا علينا أن نؤدي بعض ما يجب له من التنويه بفضله، والإشادة بذكره ما أتيحت لنا الفرص وما واتتنا المناسبات. وكذلك من الحق على الرسالة الغراء وقد حملت علم العربية في لغتها ودينها أن تتحفى بهذا الإمام الجليل فتخصه بجانب من عنايتها، وتجعل لآرائه نصيباً من صفحاتها، ومن أولى بهذه الحفاوة منها وهي أحق بها وأهلها؟
هذا ما يجب علينا وعلى الرسالة، لأن هذا الحجة الثبت ليس من كبار علماء عصره فحسب، وإنما هو ولا ريب من كبار أئمة الإسلام على مد عصره، خدم دينه وأمته بما لم يخدمها أحد قبله منذ قرون طويلة، وخلف آثاراً خالدة في دراسة الدين الإسلامي لم يكتب قلم عالم من قبل مثلها - ونحن نعرف ما نقول - وفسر كتاب الله تفسيراً هو معجزته في هذا العصر. إذ لكل عصر تفسير يكشف لأهله عما فيه من أسرار رائعة وآيات بينة حتى تظل حجة الله قائمة ومعجزة رسوله دائمة؛ ونحن فيما نكتب عنه اليوم لا نحاول أن تترجم له ترجمة تحليلية مفصلة تحيط بنواحي عبقريته وتنفذ إلى أقطار إمامته؛ فإن ذلك يحتاج إلى مؤلف كبير برأسه نرجو أن نوفق فيه ويعيننا الله عليه؛ وإنما ننشر بمناسبة مرور خمسة أعوام على وفاته صفحة من تاريخه تصور ناحية من فضله وتظهر قبساً من أعماله يضيء جانباً من عمله
نبت شيخنا الجليل ونشأ في قرية (القلمون) من قرى الشام؛ ولما قرأ القرآن والخط وقواعد الحساب أدخل معاهد العلم بمدينة (طرابلس)، وبعد أن أتم الدراسة فيها على ما يجري عليه نظام التدريب في هذه المعاهد واستوفى كل العلوم الدينية والأدبية على أكابر شيوخ الدين والأدب فيها هاجر إلى مصر فجاءها في رجب سنة 1315عالماً دارساً. وكان الذي ساقه إلى الهجرة إلى مصر أن آنس في نفسه أنه يستطيع خدمة دينه وأمته بما أوتي من حدة الفؤاد واستقامة الفكر وما وهب من قوة الإرادة وكمال الاستعداد، وأن ذلك غير مستطاع في بلاده إذ كانت يومئذ بين ماضغي الظلم التركي، وقال رحمه الله في ذلك:
(فعزمت على الاتصال بالسيد جمال الدين لتكميل نفسي بالحكمة والجهاد في خدمة الملة، فلما توفاه الله تعالى إليه وأشتهر أن السياسة الحميدية هي التي قضت عليه ضاقت عليّ المملكة العثمانية بما رحبت وعزمت على الهجرة إلى مصر لما فيها من حرية العمل واللسان والقلم، وكان أعظم ما أرجوه من الاستفادة في مصر الوقوف على ما استفاده الشيخ محمد عبده من الحكمة والخبرة وخطة الإصلاح التي استفادها من صحبة السيد جمال الدين، وأن أعمل معه وبإرشاده في هذا الجو الحر)
وقد أتصل بالأستاذ الإمام محمد عبده من أول يوم هبط فيه مصر وكان معه كما قال رحمه الله: (كاللازم والملزوم اللذين لا ينفك أحدهما عن الآخر) يستزيد من علمه، ويستضيء بحكمته إلى أن صار ترجمان أفكاره والمعبر عن آرائه، ولم يلبث قليلاً في حياته الجديدة حتى أخذ نفسه بما جاء من أجله، فأنشأ مجلة (المنار) وصدر أول عدد منها في اليوم الثاني والعشرين من شهر شوال سنة 1315 وقد جعل غرضها الأول:
(الحث على تربية البنات والبنين، والترغيب في تحصيل العلوم والفنون، وإصلاح كتب العلم وطريقة التعليم، والتنشيط على مجاراة الأمم المتمدنة في الأعمال النافعة، وطرق أبواب الكسب والاقتصاد، وشرح الدخائل التي مازجت عقائد الأمة، والأخلاق الرديئة التي أفسدت الكثير من عوائدها، والتعاليم الخادعة التي لبست الغي بالرشاد، والتأويلات الباطلة التي شهدت الحق بالباطل، حتى صار الجبر توحيداً، وإنكار الأسباب إيماناً، وترك الأعمال المفيدة توكلا، ومعرفة الحقائق كفراً وإلحاداً، وإيذاء المخالف في

المذهب ديناً، والجهل بالفنون والتسليم بالخرافات صلاحاً، واختبال العقل وسفاهة الرأي ولاية وعرفاناً، والذل والمهانة تواضعاً، والخشوع للظلم والاستسلام للضم رضى وتسليماً، والتقليد الأعمى لكل متقدم علماً وإيقاناً الخ)

كان الذي يرمي إليه شيخنا المحدث الفقيه ويدأب عليه في عمله هو (الإصلاح الديني والاجتماعي وبيان اتفاق الإسلام مع العلم والعقل وموافقته لمصالح البشر في كل قطر وفي كل عصر)

وكان رأيه الذي لا ينفك يجاهر به من يوم أن أنشأ فيه مجلته أن الدعوة إلى هذا الإصلاح لا تكون إلا (بهداية الكتاب والسنة، لأنهما مشتملان على كل ما نحتاج إليه لأجل الهداية والنهضة الاجتماعية)

وهذه الطريقة في الإصلاح هي التي وضع أساسها موقظ الشرق السيد جمال الدين، وعممها تلميذه الأكبر الأستاذ الإمام محمد عبده رحمهما الله؛ ثم جاء شيخ الإسلام السيد رشيد فرفع قوائمها وأتم بنائها، ولولاه لأندك هذا الأساس وغطاه تراب النسيان. . .

ولم يكن ما دعا إليه شيخنا رحمه الله سهلاً ولا طريقة ميسرة، وبخاصة في مثل الزمن الذي ظهرت فيه دعوته، فقد وجد في سبيله ما يجده المصلحون في أممهم من العنت والأذى، فحورب من نواح متعددة لا يصمد لمثلها إلا كل مصلح قوي، وشجاع كمي. وقد بيّن رحمه الله تلك النواحي التي عادت المنار فقال:

عاداه المرتزقون بالخرافات والبدع من أهل الطريق وغيرهم، وعاداه علماء الجمود،) وقبل ذلك (وعاداه النفوذ الاستعماري الدولي، وعاداه دعاة التغير والتفريج الإلحادي عادته الدولة العثمانية من أول ظهوره وآذته في أهله ببلاده

وكان الذي أثار عليه أعاصير هذه العداوات لتزعزع من أركانه، وتهدم من بنيانه، أن كان لا يألو جهداً في الدعوة إلى حرية الفكر، والاستقلال في فهم العلم الذي لا ينال العلم الصحيح بدونه، وترك التقليد وعدم التقيد بمذهب من المذاهب لأن التقيد بالمذاهب يدعو إلى التعصب لها؛ والتعصب، هو مفض إلى التباغض، ينافي الوحدة الإسلامية، ويخالف نصوص القرآن. وكان هو العالم الوحيد بعد عصر الأئمة المجتهدين الذي يجاهر بأنه لا يقلد في عقائده ولا في عبادته أحداً من الأئمة، فكان لا يعبد إلا الله ولا يعبده إلا بما أمر، وإذا تنازع مع أحد في شيء لا يرد التنازع إلى أحد من الأئمة والمشايخ وإنما كان يرده إلى الله والرسول أي إلى الكتاب والسنة. ولقد كان أشد الناس عداوة له دجاجلة القبوريين من الشيوخ الرسميين الجامدين ومن يتبع نعيقهم من الإمعات الجاهلين الذين هم بلاء الأمم وأرزاء الشعوب

وإذا كان الكلام عن نواحي الإصلاح التي ضرب فيها شيخنا السيد رشيد متعددة والحديث عنها يحتاج إلى مقالات طويلة ودراسة مستفيضة كما أبنَّا من قبل، فإنا نقصر كلامنا اليوم من ترجمته على ما سعى في سبيل إصلاح الأزهر وتجديد الدين الإسلامي. وما انتحينا هذا النحو إلا لمناسبة حركة الإصلاح القائمة بهذا المعهد اليوم، ولأن مجلة الرسالة الغراء

قد جعلت تجديد الدين من أهم أغراضها، وجرت الأقلام بهذا الأمر على صفحاتها لعل فيما نذكره تبصرة للمصلحين ومعيناً للمجددين

ولا يفوتنا أن نذكر أن الذي دعا شيخنا رحمه الله إلى ذلك أن وجد هذا المعهد الكبير لا يدرس فيه الدين وعلومه كما يجب أن تكون الدراسة الحق بل كان (التقصير في دراسة الإسلام فيه أمر ظاهر) كما بين ذلك أبلغ بيان أديب العربية الكبير (محمد إسعاف النشاشيبي) في كتابه النفيس الممتع (الإسلام الصحيح)

ولقد كان أول نقد صريح وجهه (المنار) إلى علماء الأزهر الذي صدر في شهر شعبان سنة 1316 عن بدعة احتفالهم بمولد الإمام الشافعي الذي يسمونه (الكنسة) إذ كانوا يكنسون قبة الضريح ويقسمون كناستها بينهم للتبرك بها ويكون نصيب كل واحد منهم في هذه الكناسة بمقدار درجته العلمية، وكذلك كانوا ينقلون العمامة التي على المقام من رأس عالم إلى رأس آخر ليستزيدوا من البركات ويستكثروا من النفحات. ورحم الله شيخنا المحدث اللغوي الشيخ محمد محمود الشنقيطي فقد سحت قريحته بقصيدة رائعة في هاتين العبادتين الوثنيتين اللتين يقترفهما علماؤنا مصابيح الظلام،

وأئمة الهدى الأعلام؛ ولو كان المجال ذا سعة لأوردنا هنا هذه القصيدة العصماء، ليعجب القراء بها، ويتندروا بما جاء فيها وكان أول انتقاد على علماء الأزهر أن أحد أعضاء مجلس إدارة الأزهر وهو الشيخ أحمد الرفاعي كان يجادل يوماً الأستاذ الإمام محمد عبده في أمر علم السنة وتعليمها، فكان مما قال هذا الشيخ: (إن علم السنة لا حاجة إليه، ولا يجوز لمسلم أن يأخذ بالحديث، بل (الواجب) الأخذ بكلام الفقهاء، ومن يترك فقهاء مذهبه للأخذ بحديث مخالف فهو زنديق)!

ثم اخذ المنار يبين لشيوخ الدين أنهم أبعد الناس عن معرفة فن التعليم، وأنهم لا يقرنون العلم بالعمل، وكان يحثهم دائماً على العناية بعلم الأخلاق. ولما وجدهم يصدون عن تعليم العلوم الرياضية والطبيعية، وأن كبارهم يفتون بأن هذه العلوم لا لزوم لها، صاح فيهم: (إن الإصلاح الإسلامي يتوقف قبل كل شيء على إقناع العلماء ورجال الدين بأن العلوم الرياضية والطبيعية التي محور الثروة والقوة لازمة لا مندوحة عنها، ويجب أن تعلم مع الدين) ومما عابه عليهم وآخذهم به أنهم يشاركون العامة في الخرافات والبدع ولا يكتفون بذلك بل يدعون الناس إليها ويحضونهم عليها بما جعلنا ضحكة بين الأمم وسخرية بين الشعوب، ولأن هذه الكلمة لا تحتمل تفصيل القول في جهوده لهذا الإصلاح فإنا نأتي بها مجملة وهي:

1 - استقلال الفكر وحرية العقل في العلم واجتناب تقليد العلماء والكتب فيه

2 - إبطال البدع والخرافات، والتقاليد والعادات التي أفسدت العقائد والأخلاق والأعمال وروَّجت في المسلمين أسواق الدجل والخرافات. . . ولا سيما بدع الموالد وعبادة القبور والمشاهد وأكبر مفاسدها اشتراك علماء الأزهر فيها وسكوت غير المشتركين فيها عن إنكارها فكانوا بذلك قدوة سيئة للعوام، وفتنة منفرة للمتعلمين عن الإسلام، وحجة للكافرين على المسلمين

3 - الرجوع إلى هداية القرآن العليا وهدى السنة النبوية المثلى في تصحيح العقائد وتزكية الأنفس وتهذيب الأخلاق، والاتباع المحض في العبادات على منهاج السلف الصالح وهو يتوقف على إحياء علوم التفسير والسنة وآثار السلف

4 - إصلاح نظام التربية والتعليم والتصنيف بالأساليب العصرية

5 - إدخال علوم البشر في الجامع الأزهر ومعاهد التعليم التابعة له

6 - إتباع سنة التخصص (أو الاخصاء) في العلوم والفنون

7 - إعادة ثقة الأمة بالعلماء إلى ما كانت عليه في عصور الإسلام الحية

8 - الدفاع عن الإسلام بالرد على الملاحدة ودعاة النصرانية ودحض شبهاتهم

9 - الوعظ والإرشاد العام للمسلمين

10 - الدعوة إلى الإسلام في الشرق والغرب بعد الاستعداد لها

هذه هي خلاصة جهاده رحمه الله في سبيل إصلاح الأزهر وإذا كان رحمه الله قد ذكر في آخر حياته أن كليات الأزهر قد اقتنعت بأكثر ما دعا إليه وأنها ستأخذ به كله واطمأن بذلك فإنا إن شاء الله لمطمئنون كذلك بأن الأزهر سيبلغ المنزلة التي يستأهلها في العالم كله على مد أقطاره ما دام الذي يقبض على زمامه اليوم هو الإمام المراغي وما دام شبابه من حوله يؤيدونه ويتبعون سبيله

وإلى هنا نقف في القول في ترجمة شيخنا المحدث الفقيه السيد محمد رشيد رضا، ولكيلا يرمينا أحد بالغلو فيما تحدثنا به عنه نطرز ما قلنا بعبارة رائعة في وصفه للأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر، ذلك الإمام الجليل الموصوف بسعة العلم وبعد النظر ودقة التعبير، نجعلها مسك الختام

قال حفظه الله في خطاب بليغ ألقاه في حفلة تأبينه:

(كان فقيد الإسلام السيد محمد رشيد رضا محيطاً بعلوم القرآن، وقد رزقه الله عقلا راجحاً في فهمه، ومعرفة أسراره وحكمه، واسع الاطلاع على السنة وأقضية الصحابة وآراء العلماء عارفاً بأحوال المسلمين في الأقطار الإسلامية، ملماً بما في العالم من بحوث جديدة، وبما يحدث من المعارك بين العلماء وأهل الأديان؛ فهو ممن أوتي الحكمة ورزق الخير الكثير

وقد كان - بلا شبهة - أكبر المدافعين عن قواعد الإسلام وأشدهم غيرة عليها، فني في

خدمة دينه وجاهد في الله حق جهاده وأوذي في سبيل مبادئه وصبر وصابر إلى أن توفي رحمة الله عليه
كان مبدؤه مبدأ جمع علماء السلف: التحاكم إلى الله ورسوله عملاً بقوله تعالى (فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول)
وكان مبدؤه مبدأ علماء السلف أيضاً: تخيُّر الأحكام المناسبة للزمن والنافعة للأمم في مواضع الاجتهاد
وكان مبدؤه مبدأ علماء السلف في كل ما يتعلق بذات الإله سبحانه وصفاته، وكل ما يتعلق باليوم الآخر؛ فهو رجل سني سلفي يكره التقليد وينادي بالاجتهاد ويراه فرضاً على نفسه وعلى كل من قدر عليه
من الحق أن نعد السيد رشيد من المجددين، وأن نعده من المجاهدين في إحياء السنة، ومن الحق أن نعتبر بما كان للسيد رشيد من أناة وصبر في البحث والقراءة، والتأليف والفتوى والمناظرة؛ ومن الحق أن نذكر أن هذه الأعمال الصالحة قام بها احتساباً وأدّاها في سبيل الله
فرحمة الله على السيد رشيد وجزاه الله في الإسلام أحسن ما يجازى به رجل وهب حياته للعلم والدين). ونحن نكرر طلب الرحمة والرضوان من الله تعالى عليه، إنه سميع الدعاء.
(المنصورة)
محمود أبو رية
ما أشبه الحال هناك بالحال هنا!
الرجوع إلى القرية
للأستاذ بشارة الخوري
أبني أبينا طال نومكمُ ... تشقى النفوس وينعم البدن
لا الحقل يبسم عن معاولكم ... فيه ولا تترنم المهن
ذوت الرياض وماؤكم عَمَمٌ ... وتعطلت من حَليها القنن
وخوت زرائبكم وكان على ... جنباتها يتدفق اللبن
محراثكم صدئ الحديد به ... والفأس ملء عيونها الوسن
عودوا إلى تلك القرى فلقد ... سلختكم عن قلبها المدن
الذكريات على مقادسها ... الأم والأخوات والسكن
قبل الطفولة في ترائبها ... ليت الحياة لبعضها ثمن
تحت الدوالي ملعب بهج ... عند الظهيرة والربى وُكن
فدت العيونُ النجل أجمعها ... عينا تدفق ماؤها الهتن
تأوي الطيور إلى أظلتها ... ويظل يلثم كفها الغصُن
تَرِد الصبايا بالجرار وقد ... عادت على أكتافها المزن
تلكَ اللبؤات التي عمرت ... بشبولها الأجمات والعُرُن
لبنان لبنان الحبيب خوى ... لا البيت لا البستان لا العطن
خلت المرابط من سوابقها ... وتثاءبت بحبالها الأُنن
الجانيان القاسيان على ... (شيخ الربى) بيروت والسفن
قالوا السياسة قلت هل نبتت ... إلا على لهواتها المحن
قالوا الوظائف قلت هل نحرت ... إلا بها الأخلاق والفطن
قالوا المدارس قلت ثابتة ... خضراء إلا أنها دمن
أين الألوف من الشباب وما ... قبسوه من علم وما خزنوا
ماتوا بعلمهمُ فما طبخوا ... منه ولا طحنوا ولا عجنوا
الأرض أطهر والمحارث من ... عيش على أدرانه الدرن
عودوا إلى تلك القرى فعلى ... بسماتها يتمرغ الحَزن
لبنان ما فعل الزمان بنا ... سله أما لحروبه هدن
يغدو عليه بأوجهٍ كلحت ... فمتى ينوّر وجهك الحسنِ
يا حبيبي. . .!
للأستاذ أنور خليل
لم تَزلْ فيَّ لِجة الغي ... بِ خيالاً يَتدفَّقْ

لم تزلْ حُلماً على مَه ... دِ شبابي يترَقَّق
لم تزلْ في جانبِ الاف ... قِ سراباً يَترقرَق
فمتى فجرُك ينسا ... بُ وحلمي يَتَحَقَّق؟
!من وراءِ الغيبِ نادي ... تُكَ: أقبلْ وتألَّق
يا حبيبي أنتَ في رو ... حي وقلبي ودمائي
أنتَ أنشودةُ أشوا ... قي ودنيا كبريائي
أنتَ نايٌ أبَديُّ الش ... دوِ سحريُّ الغناءِ
نفحةٌ أنتَ من اللّ ... هِ ومن عطرِ السماءِ
يا حبيبي! كم أنادي ... ك فهل يجدي ندائي؟
صورةٌ منكَ تناجي ... ني على طول الليالي
ومُحيَّا رائعُ الفت ... نةِ وَصّاء الجمالِ
يا حبيبي قد تَعَشَّق ... تُكَ لكن في الخيالِ
!لِيتني ألقاكَ في الأر ... ض على أبهى ِمثالِ
!ليتني. . . أوّهُ لا. . . بل ... إنني أخشى انخذالي
أنا في أمواج حِرما ... ني، وأشجاني غَريقُ
في حياةٍ لم يُهَوِّن ... ها خليلٌ أو رَفيق
أنا في دنَيا بها للش ... رِّ سلطانٌ عريق
وبنو الدنيا قطيعٌ ... لِهُوَى الموتِ مَسوق
!ضَلَّ راعيهِ وغامَ ال ... أفقُ والتاثَ الطريقُ
. . .يا حبيبي قيلَ عنِّي: ... بالخيالاتِ غنائي
صَدَقوا إذ لَستُ بدعاً ... بَينَ رَهطِ الشعراءِ
كلنا نَهتِفُ بالْحُبِّ ... ونشدو بالإخَاءِ
. . .قد بعثنا مَزامِي ... رَ سلامٍ وصَفاءِ
!لَهَفتا!! ضاعَ صَداها ... في ضجيجٍ وازدراءِ
!يا حبيبي آهِ لو أل ... قاكَ إنساناً سَوِياً
. . .تَتَخَطَّى حُجُبَ الغي ... بِ وتَنْصَبُّ عَلَيّا
فأرى فيكَ الأماني ... والنعيمَ الأبديَّا
وَحَياتي تكتَسي من ... كَ جمالاً عبقريَّا
!يا حبيبي آهِ لو أل ... قاكَ إنساناً سَوِيَّا
الجندي المجهول
(المدرس)
للأستاذ علي شرف الدين
صَلَى حَرَّهَا وَالمْوتُ يَقْظَانُ جَاثِمُ ... وَخَاضَ رَحَاهَا وَالْمَنَايَا حَوَائِمُ
وَكَمْ رَكَزَ الراياتِ في رأسِ شَامخٍ ... مِنَ المجدِ لم تَنْهَضْ إِلَيْهِ الْقشَاعِم
وَسَجَّلَ ِمنْ خُضْرِ الفُتُوحِ لِسَانُه ... بما قَصَّرتْ عَنْهُ السُّيوفُ الصَّوَارِم
يَرَاعَتُهُ فِيها سِنَانُ قَنَاتِهِ ... وَأَسْفَارُهُ الْغُرُّ الْجِيَادُ الكَرَائِم
وكم فَكَّ عَنْ أَعْنَاقِ جيلٍ مَذَلَّةً ... وَحَرَّرَ شَعْباً أَرْهَقَتْهُ المظَالم
فلمَّا أَفَاءَ اللهُ ضَنُّوا بِحَظِّهِ ... ولَوُّوْا رُءُوساً أَشْرَعَتْها الأَرَاقِم
يقُوُمُ عَلَى أَكتَافِهِ النَّصْرُ بَاهِراً ... وتُخْطِئُهُ أَسْلابُها والْغَنائم
وَيَمْضِي بِحِمْلِ الطَّوْدِ فِي كلِّ أُمَّةٍ ... وَمَا أَحَدٌ مِمَّا يُعَانِيهِ رَاحِم
وَيَهْدِمُ مِنْ أَعْصَابِه لِبنَائِها ... فتَسْمُو به أَرْكانُهَا وَالدَّعَائم
وَيَدْفَعُ عَنْ أَكبَادِهَا جِهْدَ نَفْسِهِ ... كما دَافَعَتْ دُونَ الْعَرِينُ الضَّراغِم
وَيُنْشِي لَها الْجِيلَ الأَغَرَّ جَبِينُهُ ... عَلَى مِثْلِهِ فِي الدَّهْرِ تُبْنَى العَظَائم
فَتىً أَنْشَأَ الأَجْيَالَ غَيْرَ مُدَافَعٍ ... وفي كلِّ شَعْبٍ فَضْلُهُ لا يُزَاحَم
تَسيرُ بهِ الأَيَّامُ تَرْثِي لِحَظِّهِ ... وَتَنْدُبُهُ في شَجْوِهِنَّ الْحَمَائِم
يُسَاقُ إلى الأِرْهَاقِ والسَّوْطُ خَلْفَه ... وَيَحْمِلُ مُرَّ العَسْفِ والأَنْفُ رَاغِم
إِذَا ما بكى كَفَّ الوعِيدُ بُكَاءهُ ... وَإِمَّا شكا شدَتْ بِفِيه الشَكائم
جِهادٌ وَلاَ مَجْدٌ وَسْعيٌ كما سَعَى ... إلى الماءِ مَخْدُوعٌ بصَحْرَاء هَائم
ولوْ أَنَّ عَدْلاً يَشمَلُ الأَرْضَ ظِلُّهُ ... لما باتَ مَظلومٌ عَلَيْها وظالِم

حَلَفْتُ لأَطْوِي عَهْدهَا غَيْرَ نَادِمٍ ... فما تَرْكُها فيهِ تُعَضُّ الأباهِمُ
وَأَخْلَعُها خَطْماً لأَنفي وَمِقْوَداً ... فَلاَ يَقْبَل الأرْسَانَ إلا الْبَهَائم
تَعَالَى شَبَابي أَن يُرَاضَ إِباؤُهُ ... عَلَى شِرْعَةٍ فيها تُصَكُّ اللَّهَازِم
وَإنّا وَإنْ لَمْ تَكتَنِفْنَا نَبَاهَةٌ ... لَتَشْغَلُ بُرْدَيْنَاَ المُلوكُ الخَضَارِم
فَيَا أَيُّهَا المَغْبُونُ والْعَدْلُ شَامِلٌ ... وَياَ أَيُّهَا المَحْرُومُ والخَيْرُ رَاحِم
وَمَنْ بَاتَ يُخْفِي في حَنَاياهُ صَارِخاً ... مِنَ الْيَأسِ تَطْوِيه الْحَشَا والْحَيازِم
أَيَادِيكَ بيض يبْهَرُ الشَّمْسَ نُورُهَا ... وَحَظُّكَ مُسْوَدُّ الْجَوانِبِ قاتِم
وتَشْقَى بِعَيْشٍ ضَيِّقُ الكَفِّ مُجْدِبِ ... وَغَيْرُكَ مُخْضَرُّ الْعَطِيَّةِ نَاعِم
وَتَبْذُل مِنْ نُورِ الْعُيُونِ مُسَهَّداً ... وَغَيْرُكَ مِلْء الْجفنِ وَسْنَان نائم
وَمَا فَائِزٌ إلاّ الْغَضُوبُ لِحَقِّهِ ... وَمَا خَائِبٌ إلاَّ الوَدِيعُ المسَالم
وَمَا شَجَنِي أَنْ كَانَ حَظُّكَ تَافِهاً ... فما كلُّ شَيْءٍ في الحياةِ الدَّرَاهِم
وَلكِنْ عُقُوقٌ وَاضطهادٌ حَمَلْتَهُ ... وَإنكَارُ مَجْهُودٍ وَبؤسٌ مُلاَزِمُ
رسالة الفن
ذكريات:
لن أنسى. . .
للأستاذ عزيز أحمد فهمي
لست أدري ما الذي ذكرني الآن بهذا الموقف لشارلي شابلن في رواية البحث عن الذهب تضرب المحبوبة لشارلي موعداً، فيعد العدة له ويزين البيت له بالزهر والورق الملون، ويهيئ مائدة يقدم عليها كل ما يمكن أن يقدمه عاشق فقير مثله لمحبوبة صغيرة مثلها، في صحراء الآسكا التي أرضها ثلج وسمائها ثلج وهوائها ثلج ولم يكن شارلي يشك مقدار ذرة من الشك في أن محبوبته موافيته راغبة مشوقة كما أنه انتظرها راغباً مشوقاً، ولكن ميعادها أزف، ثم فات، ثم بعد، فيئس شارلي، فاعترته لوثة، فأخذ يقفز في الحجرة ويرقص كما يرقص الطير المذبوح، ولكنه مع هذا كانت تصدر منه حركات تضحك إلى جانب ما تثير في النفس من الوجع والذي لا أنساه هو أني كنت وأنا أشاهد شارلي في هذا الموقف المضحك وأبكى معاً وليس هذا الموقف وحده هو الذي استطاع شارلي فيه أن يخبلني هذه الخبلة، وأن يوقظ في نفسي مالا يتفق بعضه مع بعض من الاحساسات والعواطف، وإنما كان له موقف آخر يشبه في رواية أنوار المدينة، فقد كان اعتاد أن يعين صغيرة فقيرة ضريرة تبيع الورد، بأن يشتري منها في كل حين زهرة، وما كان شارلي يحصل على ثمن الزهرة إلا عفواً، أو بعد عسر يطول، ومحرجات تتراكم بعضها فوق بعض، وما كان شارلي يقنع بأن يشتري الزهرة من هذه الفقيرة بالثمن الذي يدفع الناس مثله، وإنما كان قد عوّد صغيرته على أن تأخذ من يده التي عرفتها نفحة تسد الكثير من حاجتها. . .
وفي مرة من المرات التي كان شارلي يطير فيها إلى صغيرته طيراناً ليضع في يدها ما رزقه الله ليأخذ الزهرة - وقعت له واقعة من هذه الوقائع التي تتوالى عليه، فأبكاني أيضاً عندئذ وأضحكني. . .
وبهذين الموقفين آمنت بأن شارلي شابلن هو أعظم الفنانين في الأرض، ولا أقول أعظم الممثلين فقط، وأني أعتقد أنه قد شاهد بنفسه موقفه الأول في (البحث عن الذهب) ثم درسه ثم استخرج منه موقفه الثاني في (أنوار المدينة) فدبره تدبيراً ونسجه نسجاً، ثم حققه تحقيقاً نجح فيه إلى أقصى حدود النجاح. . .
وشارلي شابلن يمتاز بإطلاعه على أسرار النفوس وتمكنه من قوانينها. فهو يضع مواقفه التمثيلية ويعرف ما سيفعله كل منها في نفوس النظارة لا تفوته في ذلك فائتة، وإذا كانت عبقريته هي التي تساعده في غربلة رواياته وتنقيتها من المواقف الباردة المتكلفة وإذا كانت هي التي تهيئ له كمال الدقة في تصوير النزعات الإنسانية وحركات العقل الإنساني في المواقف المختلفة تصويراً يكون مؤلماً أحياناً ويكون مضحكاً في أغلب الأحايين، وإن كان هذا لا يبرئها من معاني الألم والشقاء. . . إذا كانت عبقريته هي التي تهيئ له هذا الكمال وهذه الدقة في تصوير كل عاطفة وكل نزعة وكل حركة من حركات العقل. . . فأي شيء هو الذي يمكنه من أن يصل إلى

الكمال والدقة في خلط العواطف المتناقضة بعضها ببعض حتى ليخلط في نفوس الناس البكاء بالضحك فإذا بهم يجنون وهم يشاهدونه
أعبقرية هذه هي أيضاً؟
كلا. وإنما هو الجنون. فشارلي شابلن لابد أن يكون قد جن في حالة من حالات حياته جنوناً ربما لم يكن استغرق إلا ومضة من ومضات الروح تشععت فيها نفس شارلي من ناحيتين متضادتين، فاختبل، إذ أحب وكره في آن واحد، وإذ غضب ورضى في آن واحد، وإذ أحسن وأساء في آن واحد، وإذ حزن وفرح، وإذ تقدم وتأخر، وإذ شبع وجاع، وإذ ثار وهو منهد. . .
وأمثال هذه المواقف والأحوال لا تحدث للناس عامة وإنما هي تحدث للأرهف منهم حساً، وللأذكى منهم عقلاً، ولأشدهم انطلاقاً نحو الحق. وحتى هؤلاء فإنه لا يحدث لهم هذا إلا قليلاً. ولو أنه كثير عليهم أو أطال بهم لفقدوا توازنهم ولاختلط عليهم أمرهم، ولاختل تكييفهم لأنفسهم بحسب الظروف العارضة لهم، ولقعد الجنون بهم عن تذليل المواقف العسرة التي تعترض حياتهم كما يقعد بهم عن الاستمتاع بالمواقف الحلوة التي تتفق لهم.
ويظهر أن هذين الموقفين أغريا نجيب الريحاني بأن يكون له موقف يشبههما. فقد عرض في رواية (حكم قراقوش) نفسه وهو محكوم عليه بالإعدام، ووقت التنفيذ لم يبق عليه إلا
دقائق فهو مشفق على نفسه جزع الموت، ولكنه مع هذا يضطر إلى أن يدافع عن نفسه بسرد حقائق مضحكة يعرف النظارة أنها لفقت على هذا المسكين تلفيقاً، وأنه كان يجب عليه أن يدرك هذا من قبل أن تفوت عليه فرصة النجاة
بهذا الموقف أراد الريحاني أن يضحك الجمهور وأن يبكيه في آن واحد، ولكن الذي حدث هو أن الجمهور كان يضحك فقط، ولم يبك منه أحد. ففات على الريحاني بهذا مأربه الفني السامي الذي كان ينشده، ولست أظن الريحاني كان عاجزاً عن الوصول إلى ما وصل إليه شارلي، فإن فيه من صفاء النفس وذكاء العقل وطواعية الروح ما يستطيع أن يحقق به كل الذي يحققه شارلي شابلن، أو أغلبه على الأقل؛ وإني أعتقد أن الريحاني فشل في إدراك هذه الغاية البعيدة لأنه لم يوفق إلى التمهيد الكيس الذي كان يجب عليه أن يأخذ به نفوس النظارة قبل أن يعرض عليهم الموقف، فالذي أذكره هو أن هذا الموقف قد جاء في (حكم قراقوش) عقب موقف آخر كان النظارة فيه منطلقين ضحكاً ومعربدين مرحاً، فلم يكن من السهل بعد ذلك أن ينقلوا من هذا الضحك وهذا المرح ليستقبلوا هذا الموقف المعقد المؤلم المضحك في آن واحد وعندي أن الريحاني لو أنه نثر في المواقف السابقة لهذا الموقف بعض المؤلمات المتميزة الواضحة ليتخذ منها بعد ذلك قواعد يقيم عليها أعمدة الألم في الموقف المعقد الذي قصد إلى إبرازه. . . أقول لو أن الريحاني فعل هذا، فإنه كان من غير شك يصل إلى ما وصل إليه شارلي، ولو في بعض الليالي التي يمثل فيها (حكم قراقوش) إن لم يكن فيها كلها، فالواقع أن موقفاً معقداً كهذا يرتاح ممثل السينما بعد تسجيله، ويشقى ممثل المسرح كل ليلة في تحقيقه، وهو دائماً معرض للفشل فيه كما معرض للنجاح. . .
ثم إن الكلام نفسه في هذه المواقف مما يدعو إلى تبريدها وتخفيف حدتها والتهوين من عنفها، ولا ريب في أن صمت شارلي هو الذي ساعده على النجاح في هذين الموقفين، كما أن ثرثرة الريحاني في موقف قراقوش هي التي عطلته
ذلك لأنه ليس من السهل أن يهتدي الكاتب أو المؤلف إلى كلمة مجنونة يعبر بها عن حالة مجنونة فيها الألم والراحة معاً إلا أن يكون ذلك الكاتب مجنوناً، أو يكون قد جن في حالة من الأحوال، وروايات الريحاني يكتبها اثنان: الريحاني نفسه وهو يكتفي برسم معانيها لأنه
أميل إلى الصمت والتعبير بإطلاق الحس كما يفعل شارلي شابلن. . . ويعاونه الأستاذ بديع خيري وهو الذي يصوغ الكلام له، وهو رجل عاقل جداً لا أظنه جن يوماً حتى يستطيع أن يؤدي مع الكلام وثقله ما يريد الريحاني أن يؤديه على نحو الذي أداه شارلي بالصمت
على أني لم أيأس من أن تتاح للأستاذين المصريين فرصة قريبة في رواية قريبة

يقدمان فيها مثل هذه الدرة الفنية العاتية الجبارة، فأنا أعرفهما يهيمان بكل ما هو عات من الفن جبار، وما دمت في معرض الذكريات فإني أسجل مع التقدير ليوسف وهبي دوره في كرسي الاعتراف، فقد كان عليه في هذا الدور أن يتصنع الجنون، وكان أشق ما عليه هو أن يوحي إلى النظارة أنه يتصنع الجنون من غير أن يكون في هذا الوحي شيء يصح أن يقول فيه أحد إنه كان من الممكن أن يلتفت إليه بطل من أبطال الرواية أو بطلة من بطلاتها

وما كان يوسف وهبي إلا لينجح في مثل هذه الرحلة المعقدة من هذا الدور، فهو أقدر ما يكون على الأدوار المعقدة لا الأدوار السهلة. . .

وذلك لأنه في حياته الخاصة لا يحب أن يترك نفسه على سجيته، لكثرة ما لاقى من متاعب في حياته، ولكثرة ما تعرض لأذى الناس وهجماتهم، فهو دائماً منكمش فيما بينه وبين نفسه، مطل على كل إنسان بناحية يعتقد يوسف أنها هي الصالحة لمواجهة هذا الإنسان، وهو بهذا يمثل دائماً، فإذا كان له دور سهل يراد منه فيه أن ينطلق على سجيته لم يجد سجيته، فهو مضطر بعد ذلك إلى أن يبحث عن سجية ما يتظاهر بها، وعندئذ ينكشف يوسف وهبي للعين النافذة ويظهر كأنه ممثل ضعيف، بينما هو يتقمص الأدوار المعقدة التي يعجز عنها كثير من فحول الممثلين ينطلق فيها متدفقاً كأنما يوحي إليه وحي، وكأنما يلهم التمثيل إلهاماً.

والذين شاهدوه في أدواره الأولى التي ظهرت بها فرقة رمسيس أول ما ظهرت لا يستطيعون إلا أن يشهدوا له بأنه ممثل مجيد ممتاز، وإذا كان النقاد في ذلك الحين قد اتهموه بالتهويش فإن هذا (التهويش) لم يكن مطلقاً إلا مبالغة فنية مقبولة استساغها الجمهور وأقبل عليها إقبالاً شديداً

وإني انتهز هذه الفرصة لأسأل يوسف وهبي عن هذه الأدوار لماذا تركها؟ يخيل إليّ أن الجواب عندي. وهو أن هذه الأدوار ورواياتها تحتاج إلى تشجيع ورعاية، وإن الحكومة قد خصت بتشجيعها ورعايتها للفرقة القومية وهي مجموعة الممثلين الذين تتلمذوا على يوسف وهبي، أو عاونوه لزمن طويل. . .

وهذه حالة عجيبة فلم تكن تحدث إلا في مصر. فلم يكن معقولاً أن تأخذ الحكومة فرقة من صاحبها ثم تتركه في الميدان يعتمد على الهواة والممثلين المبتدئين، ثم تتركه بعد ذلك من غير تشجيع مادي يعوض عليه ما بذله في تدريب فرقته التي أخذت منه.

عزيز أحمد فهمي

رسالة العلم

الحياة على الكواكب

للدكتور محمد محمود غالي

من طرق التفكير الحديث - أهل المريخ وهندسة إقليدس - حساب الاحتمال والحياة على غير الأرض - سكان الأرض وجرام الراديوم - العثور على شيء يشمل العثور على غيره - من الفيزيقا إلى النجموفيزيقا - ومن الاحتمال إلى التحتيم

لا يعتقدن القارئ وهو يطالع عنوان هذا المقال أننا نخرج بكتاباتنا من الفيزيقا إلى الميتافيزيقا فليس هذا الذي قد يتبادر إلى ذهنه بصحيح، فإن ما نكتب لا يمكن أن يخرج عما تعلمناه أو تأثرنا به، وعلاجنا لما يَعِنُّ لنا من مسائل يستند إلى العلم التجريبي الذي لا يعتمد إلا على التجارب العلمية التي يستطيع أن يقوم بها الإنسان، أو العلم النظري الصحيح الذي يقبله المنطق السليم، والذي يتفق والعلم التجريبي أو يقترب منه. فإذا أراد أن يُقنعنا باحث بوجود إنسان مماثل لنا في القمر، فإننا نميل إلى مطالبته بأن يرينا في المنظار الفلكي أثراً من عمل هذا المخلوق القمري ما دام قد فرض أنه مماثل لنا، كمنشأة له مثلاً، وإننا نميل إلى ذلك ما دمنا نعرف أن منظارنا الفلكي بلغ حداً من الإتقان يمكن معه أن نرى المنشآت التي من حجم الجامع الأقصى في القدس أو الرفاعي في القاهرة. وإذا أراد باحث آخر أن يقنعنا أن هذه المنشأة التي تصادف أن رأيناها هي صدفة من عمل الطبيعة، وأن القمر، وهو يتقلص تحت عامل البرودة خلال الملايين من السنين التي يبرد فيها، تكيف على سطحه ذلك الشكل الذي يختلط في المنظار بإحدى منشآتنا، وأضاف هذا الباحث أمراً جديداً يدل عليه التحليل الطيفي الذي يثبت خلو أجواء القمر من الهواء ومن الأوكسجين مثلاً، هذا

الخلو الذي يقوم دليلاً على عدم إمكان وجود مخلوق شبيه بنا على سطحه، فإن هذا دليل عندنا يرجح الرأي الثاني.

بهذا الروح نتعرض لمثل هذا الموضوع الخاص بمناقشة الحياة على الكواكب، فليس من عملنا أن نشغل صحيفة العلم بغير العلم؛ والعلم عندنا هو البحث عن الحقائق بالطرق العلمية. ومع ذلك فإننا نسخر من هؤلاء الذين فكروا في التعرف على أهل المريخ بأن يرسموا في إحدى صحراواتنا باللهب وبالحجم الكبير البرهان على نظرية فيثاغورس المعروفة التي يبرهنون فيها على أن مساحة المربع المقام على وتر المثلث القائم الزاوية تساوي مجموع مساحتي المربعين المقامين على ضلعيه، بحيث إذا أبصروا بالمنظار الفلكي وبعد فترة كافية، على سطح المريخ الرسم ذاته، كان ذلك برهاناً على أن المريخ مسكون بمخلوقات شبيهة بنا على الأقل في صفة الذكاء، مخلوقات تدرجت بدورها في العلم فعرفت هي أيضاً هندسة إقليدس

إنما نسخر من مثل هذه الوسيلة القاسية، فقد يكون هناك مريخيون، ولكنهم لم يتجهوا في فهم الكون اتجاهنا، ولم يفكروا فيه على طريقتنا، مما قد يجعل فلسفتهم في الحياة لا تتسق مع فلسفتنا، وأغراضهم لا تمت بأية صلة إلى أغراضنا

إنما نذهب في افتراض وجود هؤلاء أو غيرهم مذاهب أخرى متأثرين في ذلك بما يفرضه (حساب الاحتمال) من إمكان وجود مخلوقات غيرنا، وليس عدم وجود أهل للمريخ، إذا قام يوماً برهان على ذلك، بدليل عندنا على عدم وجود أجناس حية أخرى في مجموع الكون، وما المريخ فيه إلا حبة رمل من رمال الصحراوات العديدة؛ إنما تستمد عقيدتنا في وجود الحياة على غير الأرض قوتها من وجودنا وغرابة أمرنا ثم من حساب الاحتمال السالف الذكر، وهو رياضة لا يدل اسمها على ما تعنيه اليوم ولا على ما تقوم به للعلم من خدمات، رياضة يتحتم بواسطتها وقوع مسائل معينة إذا توافرت اشتراطات معينة، ومع ذلك فلسنا في حاجة هنا إلى استعراض علم من أهم العلوم الحديثة، وكل ما نرغب فيه أن يدرك القارئ أننا نقصد من احتمال التعيين؛ وإننا لنستعين في ذلك بمثال سبق أن تقدمنا به في مناسبة أخرى، عندما ذكرنا للقارئ أنه يتحتم أن يموت من أهل القاهرة في كل أسبوع عدد يتراوح بين الخمسمائة والألف مثلاً. هذا حساب محتمل من أرصاد ماضية وطويلة يصبح حساباً حتمياً للشهر الذي نعيش فيه. إن حياتنا وما يكتنفها من غموض، وعظمة الكون واتساعه وعدم استقرار، ووجود الكواكب العديدة، لا حول شمسنا فحسب بل حول ملايين غيرها من الشموس، ووجود جميع الأقدار في المسافات، ثم أتساع نطاق العلم في معرفة خواص الكون ودرجة انتشاره وعظم مسافاته وطول زمنه وعرفة قوة شموسه وكثرتها، والوقوف على حقارة أرضنا التي نلعب فيها دوراً غير ملحوظ، دوراً لا يُؤثر في هذه المجموعة الكبيرة التي تحيط بنا، كل هذا يجعل وجود الحياة على النحو الذي ألفناه أو على نحو آخر في أماكن أخرى في غياب الكون المنتشر - من الأمور الحتمية لا من المسائل الاحتمالية

وأود لو أطمئن إلى أن القارئ قد أدرك غايتنا على النحو الذي قصدناه، ففهم كيف يصبح الاحتمال أمراً حتمياً إذا لم نتعمد الوصول به إلى تعيين دقيق في الموضوع الذي يتناوله الاحتمال؛ ونعيد القول بأننا نستطيع أن نعرف العدد التقريبي لمن سيقضون نحبهم من سكان القاهرة في شهر سبتمبر القادم بمقارنته بشهور سبتمبر من السنين الماضية، وذلك بعمل امتداد رياضي لهذه المسألة البسيطة ولكننا لا نستطيع أن نكتب لوحة عليها أسماء الذين سيموتون. ومهما يكن من الأسباب فإنه من المحال أن يمر شهر سبتمبر القادم ولا يحدث في القاهرة هذا العدد المحتمل من الوفيات

كذلك لو وضعنا جراماً من الراديوم في صندوق متروك في المعمل، فإننا على ثقة بأنه ستخرج منه، بالتفتت الذري والإشعاع الذاتي، آلاف معينة من ملايين الحُبَيبات الراديومية في كل ثانية تمر من الزمن، وإننا على ثقة بتناقص هذا الجرام إلى نصف وزنه بعد مرور ألف وخمسمائة سنة، كما أننا نستطيع أن نعين مقدار ما يخرج يومياً من هذه الوحدات التي لا تعود بحال إلى جسمها الأصلي، ونعرف كيف يتغير هذا المقدار بعد ذلك العهد الطويل وبعد أن يكون قد فقد نصف وزنه أي نصف سكانه، ولكننا لا نستطيع أن نُعيِّن بالذات الوحدات التي شاء لها القدر أن تخرج اليوم من بين

بلايين الوحدات التي يحتويها هذا الجرام
هذا الجرام من المادة المشعة يشبه في الواقع الألفي المليون نسمة الذين يسكنون الأرض. إننا واثقون بأن نصفهم سينقرض بعد نصف قرن مثلاً، ولكننا لا نستطيع أن نعين أسماء هؤلاء الذين يشاء لهم القدر أن ينقرضوا في النصف الأول من هذه الحقبة. كذلك الكون، كل شيء يدل على ضرورة وجود الحياة في بعض أنحائه المترامية، ولكننا لا نستطيع أن نعين الأمكنة أو الكواكب بالذات التي عليها الحياة، وعندي أن الذين يريدون أن ينكروا وجود الحياة بأية صورة في الكون المنتشر، الكون الذي عرَّفناه للقارئ وفق (إينشتاين) ووفق (دي ستير) الكون الذي له شكل كرة زائدة ذات حدود مختلفة في المكان والزمان، الكون الذي يكبر وينتفخ يوماً بعد يوم - لا يختلفون عن هؤلاء الذين يحاولون
إقناعنا بمرور شهر سبتمبر القادم دون حدوث وفاة شخص واحد في القاهرة. إننا نرد على هؤلاء بقولنا أننا واثقون بوفاة عدد كبير في الشهر القادم لا يمكن أن ينقص عن حد معين، وأننا في هذا ننتقل من مسألة احتماليه إلى مسألة حتمية. إننا واثقون من العدد التقريبي للذين سيفارقوننا، ولكننا عاجزون عن إدراك أسمائهم، ونحن في ذلك نتبع الطريقة ذاتها التي نثق فيها بوجود الحياة على كثير من الكواكب دون أن نعين هذه الكواكب بالذات بين حدوده الفسيحة
ولا تحسَبَّن إذن أنك قد تميزت بحياة تعتقد أنها الوحيدة في الوجود، وأن كل ماعداها موت في موت وجمود في جمود، ولا تعتقدن فيما تعتقد أنك الوحيد في الكون العظيم، تمرح على هذه الأرض بين أشجارها الفيحاء وورودها الجميلة، تتغذى من مملكة نباتية بديعة، وتستمتع بأخرى حيوانية رائعة. إن هذه الحياة لا يمكن أن تختص بها حبة الرمل الحقيرة التي نعيش عليها، وليس ما يمنع أن تتكرر عملية الحياة في غيرها من الحبات العديدة المتناثرة في الكون على هذه الصورة أو على غيرها
ولو خلت الأرض من الإنسان الفخور بذاته المعجب بذكائه لظلت الأشجار والورود والحيوان باقية ما بقيت الشمس؛ فهي تعيش عليها بقدر ما نعيش نحن، وتنعم بفعلها بقدر ما ننعم، وليس ما يمنع أن يكون حول الشموس الأخرى حياة كحياتنا أو تختلف عنها، بل إن كثرة هذه الشموس في الكون المغلق على نفسه تحتم وجود هذه الحياة ولو أنك دخلت حديقة متسعة بدأ نضوج نوع من الفاكهة فيها، وليكن البرقوق مثلاً، فإنه من غير الممكن أن يكون قد نضج في اللحظة التي تتجول فيها برقوقة واحدة بين ملايين البرقوق الموجود على الشجر، بحيث لو عثرتَ على برقوقة ناضجة فإننا واثقون أنك إذا تجولت كثيراً وجدت غيرها من البرقوق الناضج، ولو أنك بادرتني بقولك إنك وجدت برقوقة واحدة ناضجة لم تجد غيرها فإنني لا أميل إلى تصديقك، أو أعتقد أن حديقتك صغيرة، وأنها لا تحوي سوى بضع شجرات من البرقوق، ولو أنك بادرتني أنك على العكس تمتلك حديقة فسيحة الأرجاء متسعة بحيث لا تكفي أيام عديدة للتجول في أنحائها المختلفة، فإنني واثق إذن أن هذا النضوج قد حدث في أماكن عديدة، وأنك حتما ستعثر على كثير من البرقوق الناضج كلما تجولت في الحديقة
كذلك الكون ننظر إلى الحياة فيه لا كعملية محتملة، بل كواقع موجود
وهانحن أولاء ننتقل بالقارئ قليلاً قليلاً، لا من الفيزيقا إلى الميتافيزيقا، وإنما من الفيزيقا إلى النجموفيزيقا، وهي من الموضوعات العلمية الصحيحة التي تتصل بحقائق الكون
وفي هذا نقترب من المخلوق العجيب الذي لا يرى من الترام إلا مستطيلا ومن (الكمساري) إلا دائرة تنتقل على حافة المستطيل، ونقترب من بعض الفروض التي نريد بها أن نضع أنفسنا وجنسنا البشري في جدول المخلوقات في الكون العجيب، وبهذا نقترب من مسائل بدأت في ذهننا كمسائل احتمالية وانتهينا فيها بعد طول التأمل إلى أنها حوادث حتمية. وفي مقالنا القادم نصف كوناً حياً مقفلاً على نفسه، وما نحن في ذلك إلا محاولون.

محمد محمود غالي
دكتوراه الدولة في العلوم الطبيعية من السربون
ليسانس العلوم التعليمية. ليسانس العلوم الحرة. دبلوم المهندسخانة

البَريدُ الأدَبيّ
الحركة الأدبية في العاصمة السورية - تعليق ونقد
منذ أسابيع خمسة، قرأنا في بريد الرسالة الأدبي كلمة العتب والبيان التي أطل بها علينا الأستاذ الأديب الشيخ علي الطنطاوي وبها يعتب على أدباء مصر ونقادها لإهمالهم واجب النقد والتقريظ لعشرات المؤلفات التي صدرت في العاصمة الأموية
وبقدر ما سرنا عتب الأستاذ وتذكيره، كان عجبنا بالغاً أشده، ذلك أن الأستاذ غاب عن باله - فيما أعتقد - أنه أنكر على دمشق العزيزة وجود حركة أدبية فيها لذا فنحن نقف اليوم تجاه رأيين متضادين لكاتب فاضل واحد، لا ندري أيهما نصدق، ولا بأيهما نأخذ، فإذا كان الأستاذ ينكر وجود الحركة الأدبية في دمشق، فقد نقض (بعتبه وبيانه) رأيه الأول، إذ كيف يصح أن تنشر دمشق الحبيبة هذا العدد الضخم من الكتب والمؤلفات، ثم يُنكر عليها الأدب؟ . . .
بين يديّ الآن عدد الرسالة الأخير ذو الرقم 369 وبه تناقش الأديبةُ الكبيرةُ السيدة وداد سكاكيني بعضَ أقوال الأستاذ الطنطاوي في (عتابه وبيانه).
والسيدة وداد من أدبياتنا النوابغ ذوات العواطف الوطنية المرهفة، يدل على ذلك كتابها (الخطرات)، وهي بحكم هذه العاطفة الوطنية المستمرة تأبى أن يقول الطنطاوي عن دمشق إنها (أنها مُتَّبِعة في أدبها لا مُتَّبَعة، مقلدة لا مبدعة) وتقول السيدة وداد:
إن دمشق الشام لها كيان أدبي مرموق، وفيها أهل معرفة وثقافة، فينبغي أن تفرض) أدبها فرضاً، وأن تسم آثاره بمياسم خاصة تميزها من غيرها وتكون دليلاً عليها)،
ودمشق العزيزة سيدتي، كما يشاء الواقع والحقيقة، مقلدة متبعة - وأقولها بكثير من الأسف والألم - تتقفى خطوات المصريين، وأبناؤها يقرءون على الدوام آثارهم وينهجون نهجهم. ونحن وإن كنا نعجب بالثقافة المصرية، وبكثير من الأدباء المصريين، ونقر لمصر بالزعامة والتفوق، ولكننا - إلى ذلك - نرغب في استقلال أدبنا وثقافتنا، ونحب أن يكون أدبنا ذا كيان خاص، ومياسم تميزه من غيره، أما أن نفرض أدبنا فرضاً - ولا ندري على أي قطر تريد السيدة أن نفرضه! - فهذا أمر يحتاج يا سيدتي إلى عشرات من السنين، إذ ليس فرض الأدب والثقافة من الأمور الهينة السهلة كما تخالين، ولا سيما لبلد له شأن كشأن
دمشق. وبالرغم من ذلك كله فما أعفانا من هذا (الغرض!). ولقد ذكرت يا سيدتي، وذكر الأستاذ الطنطاوي قبلك عددا من الكتب كبيراً، أهمله كتاب مصر ونقادها. ولكن (التواضع) أبى عليكما أن تشيرا إلى مؤلفاتكما!. وإذا كان الطنطاوي قد أشار إلى كتابين من تأليفه بصورة خاطفة. . . فقد أهمل كتابين آخرين ربما كانا من أحسن ما أنتج وهما: (في بلاد العرب) و (من التاريخ الإسلامي) والأول كتاب ثمين ضمنه صاحبه قطعاً بارعة من أدبه، وبه صور ومشاهد طيبة لكثير من بلاد العرب، والثاني مجموعة من القصص، قبس الكاتب موضوعها من التاريخ الإسلامي المجيد؛ وقد أجاد في كثير منها، وهناك كتاب (الخطرات) للسيدة وداد سكاكيني وقد حوى موضوعات في الأدب والاجتماع قيمة، وكما خجلت السيدة وداد من الإشارة إلى (خطراتها) فقد أبت الإشارة إلى مؤلّف زوجها الصديق الأستاذ زكي المحاسن وهو (النواسي شاعر من عبقر) درس فيه أدب الشاعر الماجن أبو نؤاس وأخرجه للناس في حلة قشيبة وشكل حسن.
وأما كتاب (آرائي ومشاعري) للأديبة النابهة الآنسة فلك طرزي الذي ذكرته السيدة وداد في معرض التذكير، فقد سبق لكاتب مصري معروف أن نقده وقرَّظه في حينه على صفحات الرسالة الزهراء، فلم تكن ثمة حاجة لذكره، إلا أن تكون الذاكرة قد خانت السيدة وداد في هذه المرة.
هذا ما أردت أن أقوله في معرض التصحيح والتذكير، وللأستاذ الطنطاوي والسيدة وداد أذكى التحية وأطيب السلام.
(دمشق)
عبد الغني العطري
مواعيد البناء المخضوب
قرأت في جريدة الدستور كلمة كريمة لأديب كريم أسمه (إبراهيم) وهو كاتبٌ لم أعرفه من قبلُ، ولكن شمائله تنمّ عليه كما ينمّ الدُّخَان على الجمر المشبوب.
وهذا الكاتب يتوجع للنعيم الذي ضاع بين سَدَّة الهندية والقناطر الخيرية، ثم يُغلَبُ على

وقاره فيذكر أن له نعيماً ضاع في ظلال (الجيزة الفيحاء) وأنه تأسَّى بقول أحد المتيمين:
(تلك يا قلبي مواعيد البنان المخضوب)
ذلك عزاؤك، أيها الزميل، فأين عزائي؟
هل تظن أن (خواطر مهاجر) التي قرأتها في الطريق مرتين حتى كدتُ أصطدم بالجدران تُلهيني عن (خواطر مهجور) التي أدرتها في خاطري مئات المرات ولم أجرؤ على صبها فوق صفحات القرطاس؟
وهل ترى أن أداوي همومي بالتفكير في بلايا المجتمع كما يصنع جليس (الكافورة الغيناء)؟
وكيف وما حملتُ القلم إلا وثبَ القلم وثبة المسعور وقد تألق أمامه السراب وهو يظن ويتوهم ويخال أني سأكتب إلى الذين لا يصل إليهم خطابي إلا بعد أن يمرّ بثلاثة رقباء، أولهم في القاهرة وثانيهم في فلسطين وثالثهم في. . . (؟)
إن سمح الدهر بيوم العتاب فسأقول وأقول وأقول
وإن ضنّ الدهر بيوم العتاب فسأرسل إلى الغادرين جذوة من جَذَوات قلبي ليعرفوا أن دمي لا يذهب هدَراً في دنيا النفوس الغوادر والقلوب الشِّحاح
بتذكِرة بريد تكاليفُها أربعة فلوس تداوَي جراح
قلبي فهل رأى الناس أبخل من الذين يستكثرون أربعة فلوس على من جاد في هواهم بالعافية والأمان؟
ويزيد بلائي كلما تذكرت أن الخلاص من أسرهم هو رابع المستحيلات، وكانوا أوهموني أن دنيا الوجد لا تعرف المستحيل، يوم كنا نتناجى بنبرات أرقّ وألطف من وسوسة الأزهار في أسحار آذار
ولا تحسبوني نسيت العهد، يا أصفياء روحي، فما الدنيا بدون هواكم إلا هجيرٌ تموت في وقدته رياحين القلوب، كما تموت أعشاب (الموصل) عند قدوم حُزَيران
وآه ثم آه من القلب الذي تعجز الخطوب والصُّروف عن وَأد ضلاله القديم!
زكي مبارك
حول ارتجال المصادر
قرأت الكلمة التي وجهها إليَّ الأستاذ صلاح الدين المنجد في العدد 369 من الرسالة الغراء، تلك الكلمة التي يزعم فيها أنني ارتجلت مصدراً أوردت ذكره في مقالي المعنون (العروب في العراق) المنشور في العدد 360 من الرسالة
إن المصدر المنوّه به هو: (السفن والمراكب في بغداد في عهد العباسيين) للأستاذ حبيب زيّات. وقد رجعت إلى المجلة، فوجدت ما ذكرته في مقالي صحيحاً لا شبهة فيه.
وعليه أعود الآن ثانية فأؤكد ما ذكرته هناك من أن المقال منشور في مجلة (لغة العرب)، التي كانت تصدر في بغداد: (5 (1927) 461 - 465)
وإذا كان الأديب المنجد لم يجد تلك الأرقام فإننا نفيده أن الرقم (5) يعني المجلد الخامس من مجلة (لغة العرب) والرقم (1927) يشير إلى سنة صدور ذلك المجلد، والرقمين (461 - 465) يشيران إلى الصحائف التي نشر فيها مقال (السفن والمراكب) المشار إليه في نفس المجلد والسلام.
(بغداد)
ميخائيل عواد
كتاب الشعور بالعور
إلى الأستاذ محمود حسن الزناتي
قرأت الكلمة التي تفضل الأستاذ الزناتي أمين الخزانة الزكية ومحقق كتاب (الفصول والغايات) لأبي العلاء المعري فكتبها عن كتاب (الشعور بالعور) لصلاح الدين خليل أبن أبيك الصفدي الذي جمع فيه أخبار العور من صحابة وتابعين وعلماء وأدباء، وقد طلبناه في مكاتب دمشق الخاصة والعامة فلم نعثر عليه؛ فنحن نشكر للأستاذ إشارته هذه، ونود لو تكرم بتلخيص طرف من ملح الكتاب ونوادره لنقف على بعض ما تضمنه الكتاب
صلاح الدين المنجد
مولد الدكتور إسماعيل أدهم ونسبه

اقتصر الأديب إبراهيم أدهم أخو الدكتور إسماعيل أدهم على أن يخطئ ما قيل عن نسب
أخيه من جهة أمه دون أن يذكر الحقيقة. فرأينا أن ننقل في ذلك ما كتبه الدكتور زكي أبو شادي صديق الفقيد عنه في مجلة (أدبي):
ولد إسماعيل أحمد أدهم في 17 فبراير سنة 1911 بمدينة الإسكندرية من أب تركي) وأم ألمانية. أما والده فهو أحمد بك أدهم الأميرالاي في الجيش التركي سابقاً، وجده إسماعيل بك أدهم أستاذ الأدب التركي بجامعة برلين، وجدُّ أبيه إبراهيم أدهم باشا ناظر المعارف المصرية على عهد ساكن الجنان محمد علي باشا، وقد شغل أيضاً من المناصب منصب محافظ القاهرة وناظر الأوقاف وناظر الحربية في مصر. وأما والدته فهي السيدة أيلين فانتهوف كريمة البروفيسور فانتهوف الشهير عضو أكاديمية العلوم البروسية).
نؤت بالحمل وناء بي
بهذا العنوان نشرت الرسالة للأستاذ عوض عوض الدحة كلمة يناقش فيها الأستاذ الطنطاوي حول تعبيرين هما (نؤت بالحمل، ناء بي الحمل) فالأستاذ الطنطاوي يرجح الأخير ويومئ إلى أنه هو الأصح رغم شيوع عكسه، بينما الأستاذ عوض يستملح التعبير الأول ويستدل على هذا بما عثر عليه في بطون المعاجم وأسفار الأدب
وليسمح حضرة الناقد بالانتقال معي إلى خير حَكم، وهو الكتاب المبين فقد ورد فيه حكاية عن قارون في سورة القصص (وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة) أي لتُنيء العصبة بثقلها، ومن الواضح أن هذا التعبير أنسب وأوجه ليتحقق المعنى المقصود.
أبو الفضل السباعي ناصف
القصص
قصيدة غرام. . .
للقصصي الفرنسي جي دي موباسان
بقلم الأستاذ عبد الغني العطري
غادر القطار مدينة جنوا متجها نحو مرسيليا، ومتقفياً تعرجات الشاطئ الصخري الطويلة، وأخذ يسلك سبيله - بخفة وسرعة ونشاط، كثعبان أسود مخيف - بين اليم والجبل، زاحفاً فوق الشواطئ ذات الرمال الصفر التي تدغدغها الأمواج الصغيرة بخيوط دقيقة لجينية، ثم يدخل - دون تمهل - فوهة النفق الأسود، كما تدخل البهائم في أجحارها، أو الطيور الغَردة في أوكارها
وكان في العربة الأخيرة من القطار، شاب في ريعان صباه، وامرأة أوتيت من السمن حظاً وفيراً. جلسا متقابلين وجهاً لوجه، دون أن ينطقا بحرف، أو ينبسا ببنت شفة. وكان كلاهما يختلس من صاحبه النظر، بين الفينة والفينة. أما المرأة فكان لها من العمر نحو خمس وعشرين ربيعاً، وكانت جالسة قرب النافذة تمتع ناظريها بمناظر الطبيعة المُرَنِّية وهي إلى ذلك امرأة قروية صلبة العود، قوية البنية، من مقاطعة بييمون الإيطالية، ذات عينين سوداوين، وصدر ناهد جسيم، ووجنتين مكتنزتين باللحم والشحم، وقد ألقت تحت مقعدها الخشبي عدة حُزم ورِزم، واحتفظت فيما بين ركبتيها بسلة
أما هو. . . فقد كان على النحو العشرين من عمره، وكان نحيلاً مهزولاً مسقَّماً بصبغة سمراء قاتمة، وهي من علامات الرجال الذين يعملون في الأرض، خلال فصل الصيف، وفي حر الهاجرة وكان إلى جانبه منديل حوى كل ما ملكت يمينه من (ثروة!) ونشب: حذاء وقميص، وسروال وصدار. وقد أخفى عدا ذلك تحت المقعد أشياء أخرى: مِجرفة ومعولاً، رُبط بعضها إلى بعض بحبل. لقد كان ذاهباً إلى فرنسا ليبحث فيها عن عمل يعتاش من ورائه
أخذت الشمس تتسلق القبة الزرقاء، بخطوات مبتدئة رزينة، وأخذت تقذف من برجها العاجي البعيد وابلاً من أشعتها النارية المستمرة على الشاطئ الهادئ الوديع.
كان ذلك في أواخر شهر أيار، وأريج الزهر العطري يعبق في الجو، ويدخل العربات، التي ظلت نوافذها مفتحة، وكان شجر البرتقال والليمون في إبان إزهاره، وأريج زهره الناضر يعبق في الجو ويتطاير مع النسيم برقة وعذوبة وقوة، فيفعم الأنوف، ويملأ

الخياشم، ويمتزج برائحة الورد الفواحة العطرة التي كانت تنبت على طول الطريق بكثرة مفرطة كما ينبت العشب أو الكلأ في البساتين وأمام الخرائب المتهدمة، وفي الحقول والمزارع أيضاً.

لقد كانت هذه الورود والأزاهير في المكان الملائم لها على هذا الشاطئ الوديع، وكانت تملأ جو البلدة بشذاها الفواح، وأريجها التضوع، حتى أنها تجعل النسيم حلو طيباً كقطعة من حلوى! وليس ذلك ما تصنعه فحسب بل كانت تجعل النسيم شيئاً ألذ من الخمر، ولكنه مسكر كالخمر!

أما القطار فكان يسير الهوينى، كما لو أنه يبغي عامداً أن يطيل مشيته في هذه الحديقة الحالمة؛ وكان يقف بين الآونة والأخرى في المحطات الصغيرة أمام بعض المنازل البيض، ثم يستأنف مسيره الهادئ الواني ثانية بعد أن يصفَّر طويلاً، لم يكن أحد يركب القطار من تلك المحطات، ولم يكن يُرى أحد أيضاً؛ حتى إن المرء ليحسب أن الخليقة ناعسة بأسرها، وأن أحداً لا يجد القوة والنشاط لتغيير موضعه في ذلك الصباح اللاهب من فصل الربيع

وكانت المرأة البدينة تسبل جفنيها بين الآونة والأخرى ثم تفتحها على حين غرة، عندما تشعر بأن السلة التي وضعتها بين قدميها على وشك السقوط، فتمسكها بحركة سريعة نشيطة، وتمد رأسها إلى النافذة، وتمتع ناظريها بمشاهد الكون المرئية، ثم تعود إلى إغماض جفنيها من جديد، وكانت بعض قطرات من العرق تلتمع فوق جبهتها، ثم تتنفس بجهد وعناءٍ، كما لو كانت تعاني ضغطاً شديداً

أما الفتى القروي فقد أحنى رأسه، وأستسلم لنوم عميق لذيذ وعندما كان القطار يغادر محطة صغيرة، استيقظت المرأة على حين غرة ثم أخرجت من سلتها رغيفاً من الخبز وبيضاً مسلوقاً وقارورة من الخمر وأجاصاً جيداً مورَّد الخد وشرعت تأكل وأستيقظ الشاب فجأة أيضاً على صوت حركاتها الأخيرات وأخذ يرنو إليها ويطيل النظر إلى لقمة تَطعَمها وتذهب بها من بين ركبتيها إلى فمها. ومكث كذلك: مشبك الذراعين، محملق العينين، بارز العارضتين، مغلق الشفتين

وكانت المرأة تَطْعَم غداءها رغبة ملحة ونهَم شديد، وتحسو مع كل لقمة جرعة من صهبائها كي يسوغ طعامها ويسهل عليها ابتلاعه. وكانت تمتنع هنيهة عن طعامها بين الفينة والفينة لتستجم أولاً وترسل نَفَساً طويلاً ثانياً

لقد أتت على كل ما لديها من طعام وشراب، فلم تُبقي شيئاً من الخبز أو البيض أو الأجاص أو الخمر. وما أن انتهت القروية البدينة من غدائها حتى أغمض الفتى جفنيه. ولما شعرت المرأة بالشبع، وامتلاء المعدة، نزعت أزرار ثوبها من عراها، كي تصيب بعض الراحة بعد هذا الشبع المفرط. ونظر إليها الفتى من جديد، ولكنها لم تضطرب من نظراته ولم تقلق، بل ثابرت على فك أزرارها، وكان ضغط نهديها المتوثبين الشديد، يبعد القماش بعضه عن بعض، ويظهر من الفرجة - التي أخذت تتسع - شيئاً من قميصها القطني الأبيض، وقليلاً من بشرتها، ولما وجدت القروية البدينة. ولما وجدت القروية البدينة نفسها أقر عيناً، وأهدأ بالاً، وأكثر راحة وسروراً، رفعت رأسها للفتى، وقالت له تحدثه بالإيطالية:

- لقد بلغت شدة الحر حداً تعسر معه التنفس وضاق

فأجابها الشاب، باللغة نفسها، واللهجة ذاتها:

- إن الطقس حسن، ملائم للسفر والسياحة كل الملائمة والتفتت إليه فسألته:

- أأنت من مدينة بيمون؟

- بل من آستى

- أما أنا فمن كازال

لقد كانا من بلدتين متجاورتين، فآلف ذلك بين قلبيهما، وجمع بين روحيهما، فأخذا يتجاذبان أطراف الأحاديث. تحدثنا طويلاً. . . وطويلاً جداً، عن أمور وأشياء مبتذلة، لا قيمة لها وشأن يذكر؛ أشياء تعيد العامة ذكرها، وتكررها في كل ظرف أو مناسبة. وهي في الحق أقصى ما يصل إليه تفكير هذه الطبقة الضيق. تحدثنا عن البلدة، وعن أخبارها وظرائفها. لقد كان لديهما معلومات مشتركة غزيرة، يعرفها كلاهما بالتفاصيل والدقائق. وأخذا يذكران

الأشخاص، ويعددان الأسماء التي يعرفان أصحابها. وكانت أواصر الصداقة والمودة تزداد توثقاً بينهما كلما ذكرا شخصاً جديداً رأياه، أو صحباه، أو عرفاه. وكانت الكلمات تنطلق من ثغريهما بقوة وحماس، وسرعة ونشاط، مع نهاياتها الموسيقية الرنانة، ونغماتها الإيطالية الحلوة. ثم أخذ كلاهما يعرف صاحبه إلى نفسه:

أما المرأة فقد كانت متزوجة ولها من الأولاد ثلاثة تركتهم إلى أختها لترعاهم، وتقوم على خدمتهم، لأنها أخذت تشغل منصب مرضع وفير الربح، لدى سيدة فرنسية في مرسيليا

وأما الفتى الشاب فقد كان يبحث عن شغل، وقد قيل له: إنه سيجد - دون ريب - عملاً في مرسيليا لأنهم يكثرون من البناء والعمار هناك

وما أن بلغا هذا الحد من الحديث حتى اعتصما بالسكوت وأخذت الحرارة تزداد والنهار يَرْمض، وذكاء يشتد سعيرها كلما غذَّت الخطا في تسلق القبة الزرقاء، وكانت أشعة الشمس اللاهبة تسقط على عربات القطار فتزيد في شدة الحر، وتضاعف أواره المتسعر، وأخذت غمامة من الغبار الكثيف تتطاير خلف القطار، وتدخل العربات. وكان أريج زهر البرتقال والورود يزداد تضوعاً وانتشاراً، فيملأ الخياشيم ويفعم الأنوف واستولت على المسافرْين الفتَّيْين من جديد رغبة ملحة في الرقاد، فاستسلما طائعين لسلطان الكرى القاهر

وعدا بعد حين، فنفضا عن عيونهما بقايا النوم، في وقت يوشك أن يكون واحداً. وتضيقت الشمس أخيراً، وأخذت تدنو من البحر، وهي تنير صفحة الماء الأزرق بأشعتها الأرجوانية اللألاءة، فيزداد بريقه ويشتد تألقه والتماعه. وبدأ الهواء الطريُّ الرطب، أخف وطأة، وأقل ضغطاً.

وأخذت المرضع تلهث وكان صدارها مفتوحاً، وخداها مسترخيين، وعيناها كامدتين. . . ثم قالت بصوت ينم عن الإعياء البالغ، وألاين الشديد:

- منذ نهار أمس لم أُدن ثدي من طفل، وهاأنا ذا بسبب ذلك مضطربة الفكر، مشتتة القلب، موزعة الفؤاد، كما لو كنت مقدمة على إغماء شديد

ولم يحر الشاب جواباً، لأنه لم يدر ما يقول، ولا بماذا يجيب واستمرت المرضع في حديثها فقالت:

عندما تملك المرأة لبناً بالقدر الذي أملك، من الواجب عليها أن ترضع ثلاث مرات في النهار، فإن لم تفعل أصيبت بضيق عظيم، وغم شديد، إنني أشعر بعبء ثقيل يرزح فوق صدري، ويكاد يحبس عني الأنفاس، ويحطم مني الضلوع. من الشقاء والتعاسة أن تملك المرأة لبناً بهذه الغزارة والكثرة

فأجابها الفتى بنغمة الموافق الآسف:

- حقاً إنه من الشقاء يا سيدتي. . . إن هذا اللبن يقض مضجعك ويزعجك دون ريب. . .

وفي الحق كانت تبدو على محياها إمارات المرض، ويظهر في عينيها بريق التعب والإعياء. ثم جمجمت في صوت خفيض:

- يكفي أن يضغط المرء ثديي قليلاً كي يتفجر منه اللبن، كما لو كان ماء ينبجس من نبع، حقاً إن هذا منظر مروع، حتى أن المرء لا يكاد يصدقه لمجرد السماع، وفي (كازال) يتقاطر الناس عليّ كي يروا ثدييّ

- أحقاً ذلك؟

- أجل، إن هذا حق، لا غبار عليه، ولا لبس فيه، وسأريكهما، غير إن هذا لا يفيدني في شيء، لأني لن أستطيع أن أفرغ شيئاً من محتوياتهما على هذه الصورة

قالت ذلك وسكتت من جديد

ووصل القطار بعد حين من الوقت، إلى إحدى المحطات، فوقف عن المسير. وكان في المحطة - خلف الحاجز القائم بين القطار والجمهور - امرأة هزيلة الجسم، رثة اللبوس، تحمل بين ذراعيها طفل يبكي

ووقع نظر المرضع على المرأة؛ فقالت بصوت تمثل فيه اللطف والإشفاق والرحمة:

- هذه امرأة يمكنني أن أخفف عنها ما تعاني من ضيق، كما أن الطفل بإمكانه أن يخفف عني هذه الأثقال التي ينوء بها صدري. اسمع يا صديقي لست غنية - لأني أترك منزلي وذوي وابني الأصغر، كي أعمل كمرضع، بعيدة عن الوطن والأهل - ولكني على استعداد لدفع خمسة فرنكات في سبيل الحصول على هذا الطفل وإرضاعه مدة عشر

دقائق؛ إن هذا دون ريب بعيد الهدوء والسرور إلى نفسينا. يخيل إلي أني سأبعث من جديد حين أفعل ذلك، وإن الحياة ستسري في عروقي
قالت ذلك، ولجأت إلى أحضان الصمت تعتصم به من جديد وأخذت تمسح بيدها اللاهبة -
حيناً بعد حين - جبهتها فيسيل العرق منها ويندى
ثم قالت بصوت موجع حزين -:
لم أعد أستطيع الاحتمال أكثر من ذلك. . . لم أعد أستطيع. . . يخيل إليَّ أني أوشك - أن أموت
وبحركة لا شعورية أطلقت الأزرار ثوبها العنان فتفتح كله!
وبدأ ثديها الأيمن للعيان، فكان ضخماً كبيراً ينتهي بحَلَمة سمراء. . . شديدة السمرة.
وقالت المرضع المسكينة شاكية متألمة:
آه يا إلهي! ماذا أصنع؟ ماذا أفعل؟ لم أعد أستطيع!. . . وكان القطار قد عاد - لاستئناف المسير بين الأزاهير الفواحة التي تنشر شذاها العبق الذي يشتد تضوعه في الأمسيات الدافئة. وفي بعض الأوقات كان يخيل إلى المرء أن زورق صيد وقف هادئاً فوق صفحة الماء الأزرق الساجي بشراعه الأبيض الساكن، وكانت صورته تنعكس في الأمواج، كما لو أن زورقاً آخر كان في المكان نفسه ولكن باتجاه معاكس، أي رأسه إلى أسفل. . .
ورفع الفتى القروي رأسه إلى المرضع وقال مضطرباً مغمغماً:
ولكن يا سيدتي. . . يمكنني أن. . . أن أريحك مما تعانين -!. . .
فنظرت إليه المرضع بطرف مريض كليل؛ وأجابته بصوت خفيض ذليل:
أجل. . . إن أردت يا سيدي. إنك تسدي إلي يداً لا أنساها. لم أعد أستطيع الاحتمال - أكثر من ذلك! لم أعد أستطيع. . .
وجثا الفتى على ركبتيه أمامها، وانحنت المرضع نحوه مقدمة إلى فمه، بحركة من حركات المرضعات المألوفة لديهن، حَلَمَة ثديها الدكناء. وخلال الحركة التي قامت بها المرضع، والتي أمسكت بها ثديها بيديها، كي تدنيه من الرجل الشاب، ظهر على الحلمة نقطة من اللبن، فأمتصها هذا بسرعة ورغبة ونهَم، وهو يقبض بشفتيه على الثدي الثقيل المنتفخ، كما لو كان يقبض على ثمر شهي!. أو فاكهة طيبة لذيذة. وأخذ الرجل يرضع لبن هذا الثدي بشره ورغبة، ونظام ودقة.
وطوق الشاب بذراعيه خصر المرأة، وأخذ يضغطها كي يدنيها منه أكثر، وكان يتناول لبنه بجرعات متباطئة متزنة ويميل برقبته يمنة ويسرة، كما يفعل الأطفال الرضع على التمام!
وفاجأته المرأة بعد حين بقولها:
يكفي هذا المقدار من هذا الثدي، خذ الآخر الآن وتناول الثدي الآخر بإذعان وطاعة - وخضوع. ووضعت المرأة يديها على الشاب، وأخذت ترسل أنفاسها، بهدوء نفس، وانشراح صدر، وهي تنشق عبير الورود والأزهار الممتزج بنسمات الهواء الرقيقة التي كانت حركات القطار تقذف بها إلى العربات. وقالت على حين غرة:
أعتقد أنه يكفي هذا المقدار الذي ارتضعته -
فلم يحر الشاب جواباً، وأستمر يحسو من هذا النبع الذي لا ينضب، مسبلاً جفنيه، كي يشعر بلذة أكبر، وسعادة أعظم
ولكنها أبعدته برفق وهي تقول:
كفى. . . كفى. . . أشعر بتحسن شديد. إن صنيعك يا سيدي قد أعاد روحي إلى - الجسد، وبعثني بعثاً جديداً
وأنتصب الفتى واقفاً، وهو يمسح شفتيه بظاهر كفه. فقالت له المرأة حينذاك، وهي تدخل في ثوبها، ثدييها الكبيرين اللذين ينفخان صدرها:
حقاً لقد أسديت إلي يا سيدي يداً لن أنساها، أنني أشكر لك هذه المنة، وأحفظ لك - هذا الفضل
فأجابها الشاب بغنة فيها امتنان وشكر وعرفان للجميل:
ولكن عفوك يا سيدتي وغفرانك!. . . أنا الذي يجب علي أن أشكرك من صميم - الفؤاد، وسويداء القلب. لقد انقضى علي يومان، يا سيدتي، لم أطعم خلالها شيئاً. . .

(دمشق)
عبد الغني العطري
العدد 374 - بتاريخ: 02 - 09 - 1940
خواطر مهاجر. . .
- 2 -
كأنما أقبل فيضان النيل في هذا الموسم متلكئاً منزوراً ليوائم طبع هذا العام في خصومة السلام وعداوة الخير!
وكأنما كانت كل سنة من عُمر الدنيا نشيداً من ملحمة القدَر تتألف أبياته من تفاعيل الخير أو من تفاعيل الشر ليصح منطق الكون فيما ينتج من أفعال الناس ومنطق الطبيعة!
كل شيء من الأشياء قد انحرف اليوم عن وضعه أو خرج عن مداره؛ لأن زلزلة الشر للأرض، وانفجار الدواهي على الناس، لابد أن يحدثا الفساد في كل معنى، ويبعثا الاضطراب في كل ذات. فمن توقع في هذه السنة النازية الجهنمية خيراً أو سكينة كان كمن يتلمس الصلاح في عمل الشيطان، ويتحسس الطرب في لحن الحزن!
يُخيَّل إليَّ وأنا أقرأ أنباء الحرب وأطالعُ أحوالَ الناس أن وشائج الإنسانية قد تقطّعت بين بني آدم فوقعوا في فَترة منكرة من فترات الوحشية الأولى، فلا وفاء بين الآحاد، ولا ثقة بين الأمم، ولا حِجاز بين النفوس؛ وإنما يعيشون على الترصد والغيلة في فزع لا يغبّ وحذر لا يغفل. فإذا أخلف النيل بعض الإخلاف - وهو في رأي مترجمه (إميل لدّوج) معروف بخصائص الإنسانية العليا من الوفاء والسخاء والعدل - فإن ذلك لا يتنافر مع هذه الفوضى العامة المهلكة التي أصبح فيها الكذب سلاحاً مشروعاً يسمى الدعاية، والغدر سياسة مرسومة تسمى الوقاية، والخيانة خطة مدبرة تسمى الطابور الخامس!
على أن النيل أوفى منذ أيام فطمَي وزخر! ففي ذات بكرة من بكرة المنصورة الغريقة في النور والفتور والهدوء والعطر، رأيت من مشرف القهوة شاطئيه الظامئين قد شرقا من فيضه بدم الحياة أو بذوب النضار فهما يفقهان كما يفقه اليهودي ذو الربو الهرم! وأبصرت الزوارق التي تجر بالأمس على رمال القاع قد غدت على صفحته الذهبية المتموجة أشبه شيء بالحمام الطائر على حقول القمح إذا إستحصدت، أو بالفراش المبثوث على رياض الشقائق إذا توردت. ثم صور لي أن المدينتين المتقابلتين على ضفتي النهر المقدس الخالد قد صغتا إليه بوجوههما وقلوبهما كأنهما تؤديان إليه تحية العرفان، وإلى الله صلاة الشكر! حتى الكافورة بالغت أغصانها الشمالية في التدلي حتى أوشكت أن تقبل أمواجه المسلسلة وهي تنساب في ظلها الظليل شادية بالثراء والغبطة!
حينئذ وجدتني على الرغم منى عانى الوجه له مستغرق الفكر فيه، يتردد في خاطري ما يردده الحيوان والشجر من تقديسه وتمجيده. ثم قر في نفسي أن بيني وبين هذه الشجرة القريبة وذلك الرجل البعيد قرابة شابكة، لأني شعرت أن بيني وبين من يسقيه النيل إخاء من رضاع الماء كما يكون بين الولد والوالد إخاء من رضاع اللبن!
ووضح في ذهني الآن معنى ما يقول الناس من أن علاقة الفرد بالأمة هي علاقة الأخوة، وعلاقة الأمة بالوطن هي علاقة الأمومة. وكما يتجه في لحظات الصفاء الروحي فكر الأخ الممنوح إلى أخيه المحروم، اتجه فكرى في هذه الجلوة النفسية إلى ثرانا المكروب وأكبادنا الحرى في صحارينا الشرقية والغربية. فقلت لنفسي وأنا أردد الطرف الساهم في تيار النهر الجارف ودراته المدومة ولججه الفائرة: كيف خف على ضمائر ذوي العلم والرأي في وزارة الأشغال أن يدعوا هذا الفيض الحيوي العظيم يتدفق أربعة أشهر في لهوات النحر الأبيض دون أن يحبسوه بحيلة من حيل الفن الهندسي ليحيوا به موات الناس والأرض! لو كان لمهندسي الري في بلدنا مطمح تُشرف نفوسهم عليه غير أن يكونوا موظفين يسجلون المناسيب ويضبطون المناوبات ويتعهدون الجسور ويترقبون العلاوات، لوصلوا ما انقطع من أبحاث (ولكوكس) و (سرى) حتى يبلغوا بها الغاية التي يكون بعدها كل سها واحة وكل تل غابة. ولكن مهندسينا كسائر أهل الفكر فينا لا يعملون إلا للعيش؛ فإذا ضمنوه هدهدوا كسلهم الرخي اللذيذ على كرسي العمل الدوار في المكتب، أو على كرسي الهضم الهزاز في

المنزل!
قالت نفسي وقد ساءها أن اتهم العلماء والمفكرين بقلة الوفاء بعهد الضمير: لعلهم لا يوفون بعهود الوطن والفكر إلا إذا قدمت الأمة إليهم العرائس كما كانت تقدمها إلى النيل من قبل، فقلت لها: لا جرم أن العرائس أو الجوائز هي أقوى الحوافز لقرائح العلماء والأدباء والفنانين، لأنهم خُلقوا لأنفسهم قبل أن يخلقوا للعلم والأدب والفن، فإذا لم يجدوا الجزاء على ما يبذلونه للناس ضنوا به أو أنزروه، ولكن النيل خلق لغيره كما يخلق النبي المرسل والزعيم الملهم؛ فوجوده أن يفيض، وعمله أن يعطي. ومن ذلك كان أصدق خلاله الوفاء والكرم، فهو منذ اتصلت منابعه بعيون السماء، وانشقت مجاريه في صدور الأرض، لا
يزال يفي بوعده ويجود برفده على القدر الذي يريده الله لا يملك زيادته ولا نقصه. وما كان الوفاء والسخاء غريزتين في المصري الحر إلا لأنه خلق من غرين نهره الحبيب ومائه. فهو لابد موفٍ بما عاهد عليه وإن تثاقل. والتثاقل مثبط عارض ينشأ من غفوة الضمير أو من كلال الذهن، فمتى نبه الدين الضمير وشحذ العمل الخاطر، عادت النفوس إلى جوهرها الخالص فسخت بما تملك؛ يومئذ لا تجدين عالماً يكسل، ولا غنياً يبخل، ولا سياسياً يكذب، ولا زعيماً يخون، ولا صانعاً يغش، ولا عاملاً يهمل؛ وإنما يجري أبناء النيل على أعراق النيل، ينشئون أطهاراً ويشبون أحراراً ويعملون أخياراً، ثم يذهبون أبراراً كما يذهب هذا النهر العظيم بعد أن يخُصب الجدب ويُنبت الحب ويرفع الحضارة ويقر السلام.
(المنصورة)
أحمد حسن الزيات
الحديث ذو شجون
للدكتور زكي مبارك
(عبد الوهاب عزام - ذكرى سعد - بين الدين والوطنية -
سلامة موسى رجل غير موفق - نكتة أدبية - على هامش
التاريخ المصري القديم، لسعادة الأستاذ عبد القادر حمزة باشا)
عبد الوهاب عزام
قلت مرات كثيرة: إن الشجاعة الأدبية لا تقف عند القدرة على أن تقول للمسيء أسأت، وإنما تسمو الشجاعة الأدبية فتصل إلى القدرة على أن تقول للمحسن أحسنت، لأن ذلك يشهد بأن الناقد يملك السيطرة على هوى النفس
وأنا أحب أن أقول كلمة في الدكتور (عبد الوهاب عزام) بعد أن سمعت المحاضرة التي ألقاها في المذياع عن (أخلاق القرآن) فقد بهرتْ بقلبي وعقلي، وأشعرتني بأن من العقوق أن أسكت عن توجيه القراء إلى متابعة هذا الباحث المفضال
وإنما وجب ذلك التوجيه لأن مباحث الدكتور عزام تتسم بالدقة وتخلو من البريق، فهو لا يجذب إليه من القارئين والسامعين غير طلاب المعاني، من الذين يعرفون من قبل أنه باحث على جانب عظيم من الدقة والعمق
فإذا استطعت بهذه الإشارة أن أدل قرائي على فضل هذا الباحث وأن أجذبهم إليه فسيذكرونني بالخير حين ينتفعون بما ينشر من مقالات أو يذيع من محاضرات
شعرت وأنا أسمع محاضرته عن أخلاق القرآن أن القرآن نزل أمس فهو يحدثنا بما نرى وما نسمع من معضلات الوجود، ومع أن الدكتور عزام أضاء روحي بهذا المعنى
فما أحسست أنه تكلف أو تعسف أو حاول الظهور بمظهر الغيرة على الشريعة الإسلامية، فهو يُلقي كلاما فطرياً سمحاً لا زخرف فيه ولا تنميق، وهو ينقل إلى سامعيه آيات القرآن في لطف ورفق حتى لتكاد تحسب أنه وجدها مسطورة في صفحة واحدة من صفحات المصحف الشريف.
فإذا أضفنا إلى هذا أن الدكتور عزام رجل أريحي النفس، عذب الفكاهة، مصقول الحديث،
حضري الشمائل، أدركنا أنه من أعيان أهل الفضل في هذا الجيل.
ولو شئت لمضيت إلى آخر الشوط فقلت: إن صحبتي لهذا الصديق قد اتصلت بالفكر والروح أكثر من عشرين سنة، وما اذكر أبداً أني أحصيت عليه هفوة واحدة من هفوات الفكر والروح. في الدكتور عبد الوهاب عزام عيب واحد هو الهدوء، ولكنه هدوء

الطمأنينة لا هدوء الخمود، فأرجو من القراء ومن المستمعين أن يذكروا أن هذا الرجل لا يكتب أو يتحدث إلا ليواجههم بأشياء من المعاني الصحاح في الأدب والخلق والدين والتاريخ.

ذكرى سعد

من تحصيل الحاصل أن أقول إني لم أكن وفدياً في يوم من الأيام، والوفد يعرف ذلك، ومن أجل هذا كان يتغاضى عما أبثه في مقالاتي من الدعوة إلى مبادئ الحزب الوطني حين كنت أشتغل بالتحرير في الجرائد الوفدية

وكنت أحضر الحفلات التي يقيمها الوفد لذكرى سعد تأييداً للمعنى الجميل الذي تنطوي عليه، ثم هجرت تلك الحفلات بعد أن صارت تقام في مكانين: أحدهما للهيئة الوفدية، وثانيها للهيئة السعدية، تجنباً للظهور بمظهر التحزب لأحد الفريقين، ولي فيهم أصدقاء أعزاء. وفي اللحظة التي أكتب فيها هذا المقال تقام حفلتان لذكرى سعد، وكان في نيتي أن أحضر هاتين الحفلتين بلا تفريق لأواسي أصدقائي هنا وأصدقائي هناك

فما الذي صدني عن حضور هاتين الحفلتين؟

أذكر السبب فأقول:

لما مرض رفعة النحاس باشا ترفق سعادة الدكتور ماهر باشا ومضى لعيادته، على ما كان بينهما من ضغائن سود ووقفتهما حاقدين أمام محكمة الجنايات.

ولما عوفي النحاس باشا مضى لزيارة من عادوه من الكبراء، واتفق أن لم يجد الدكتور ماهر باشا في داره فترك له بطاقة وانصرف. وإلى هنا أدى النحاس باشا واجبه تأدية صحيحة. ولكنه رأى أنه كان يجب أن يشعر الدكتور ماهر بزيارته لينتظره، فترفق وأخبره بأنه سيزوره مرة ثانية، ثم كان تلاق كريم بين صديقين قديمين فرقت بينهما اللجاجة الحزبية، وهي خلافة المآثم والعيوب.

هذا التصرف نبيل من هذين الرجلين، فهل تعرفون كيف كان تأثير هذا التصرف النبيل في الجرائد الوفدية والسعدية؟ ظل التلاحي على ضرامه بين جريدة المصري وجريدة الدستور، ولسان حالهما يقول:

إذا ما الجُرح رم على فسادٍ ... تبيَّن فيه تقصير الطبيب

فهل يُلام مثلي إذا أضجرته هذه الحال فلم يشترك في الاحتفال بذكرى سعد؟

للسياسة فنون، ومن فنون السياسة أن يكون الرجل أخاً صادقاً لجميع المواطنين، وكذلك تتحول السياسة إلى وطنية صحيحة تكره الهدم والتجريح.

اختلفوا ما طاب لكن الخلاف، يا بني وطني، فالخلاف دليل الحيوية. ثم احذروا العداوة والبغضاء، لأنهما لا يصدران عن أرباب القلوب.

بين الدين والوطنية

يظهر أن مقالي في نقد الأستاذ سلامة موسى لم يُرض جميع القراء، فقد تلقيت خطاباً صدر عن مدينة فارسكور، وهو خطاب لم يخل من تحامل، وإن كانت عبارات كاتبه تشهد بأنه من المطلعين، وكيف لا يكون كذلك وهو (ضبع)؟!

وأنا احرص أشد الحرص على إزالة ما قد يقع بيني وبين قرائي من أسباب الشقاق، لأني طيب القلب إلى أبعد الحدود، وإن قال قوم بأني سأكون من حطب جهنم، لطف الله بهم وهداني! فما الذي كنت قلت في ذلك المقال؟

أذكر أني قلت إن من واجب كل مصري أن يعطف على العروبة والإسلام، لأنهما سناد مصر في الشرق، وأذكر أني قلت إن اهتمام الأستاذ مكرم باشا عبيد بحفظ القرآن هو مظهر من مظاهر الوطنية؛ فجاء كاتب الخطاب من فارسكور يقول:

وأقول: نعم، هذه مقاييس الوطنية، بشهادة الأستاذ مكرم باشا عبيد (أهذه هي مقاييس الوطنية؟)

ولكن كيف؟

ظهر الأستاذ مكرم عبيد على مسرح السياسة سنة 1919 قبل أن يولد كاتب الخطاب من فارسكور، وكنت أنا يومئذ من المكتوين بنار الثورة المصرية؟ فهل يعرف الناس كيف التفتنا إلى مكرم عبيد في ذلك العهد؟

كان مكرم سكرتيراً لأحد المستشارين الإنجليز. ثم اندهش رئيسه من أن يشترك مع

الموظفين المضربين، وكان اندهاشه لأنه يعرف أن مكرم عبيد قبطي، ولأنه يتوهم أن الأقباط لا يشاركون المسلمين في الثورة على الاحتلال
ورأى مكرم أن يصحح موقفه أمام رئيسه فكتب إليه خطاباً يشرح فيه كيف استجاز لنفسه أن يضرب مع المضربين، وساق في ذلك خطاباً لأحد القسيسين الأقباط قال فيه: (إذا صح أن الأقلية القبطية ستكون عقبة في طريق الاستقلال فسندعو الأقباط جميعاً إلى الإسلام لتسقط حجة المحتلين)
وقد طبعنا خطاب مكرم عبيد إلى رئيسه الإنجليزي ومضينا فوزعناه على الجماهير لنذكي به روح الوحدة القومية
ثم ماذا؟
ثم نظر مكرم فرأى أن أبويه كانا سمياه (وليم) فاستغنى عن اسمه الأجنبي واكتفى باسمه الوطني، وهو اسم عبي صريح كان علماً لأحد الأقباط الأشراف بهذه البلاد.
ثم ماذا؟ ثم ماذا؟
ثم صرح مكرم باشا في خطبة شهيرة بأنه مسلمٌ وطناً، وأزهري ثقافةً
فما معنى ذلك يا كاتب الخطاب من فارسكور، عليها أطيب التحيات؟
معناه أن مكرم باشا يرى الإسلام من أكبر عناصر الوطنية المصرية، وأن الثقافة الأزهرية من مظاهر تلك الوطنية
وإنما استحبت لنفسي أن أخوض في هذه الأحاديث الشوائك لأني واثق بأني لن أجد من يتهمني بالتعصب الديني، فأصدقائي الحقيقيون في مصر أكثرهم من الأقباط، ولي بين نصارى الشام والعراق إخوان أوفياء يروني أكرم صاحب وأوفى صديق، وأزاهم من أطيب الذخائر في حياتي، ومن مسالكهم النبيلة أستمد التأييد لهذا الرأي الصريح.
سلامة موسى رجل غير موفق
الأستاذ سلامة موسى صديق عزيز، وقد تحدثت عنه في مقالاتي ومؤلفاتي بما هو له أهل، وقد دفعت عنه قالة السوء حين كنت في العراق، فقد كتب الأديب مشكور الأسدي خطاباً وجهه إليّ في جريدة (الكلام) عن حقيقة سلامة موسى
ثم شاءت المقادير أن تعطل الجريدة قبل أن تنشر جوابي وهو ثناء مستطاب على الصديق
الذي كنت أحاربه بقلمي وأصافحه بقلبي
والحق أن الأستاذ سلامة موسى رجل غير موفق، فهو يغمز العروبة والإسلام من وقت إلى وقت بلا موجب معقول، وما ذكرناه بمسلك الأستاذ مكرم عبيد إلا لندله على أن عقلاء الرجال لهم مسالك غير التي يسلك، وهل كان مكرم باشا أول قبطي هدته الفطرة السليمة إلى أن القومية المصرية قومية إسلامية؟
أذكر في هذا المجال الأستاذ وهبي بك مدير المدارس القبطية في الجيل الماضي القريب، فهو الذي عرب أسماء تلاميذ من الأقباط ليرج بهم في غمار المجتمع الإسلامي
وأذكر الأستاذ وهيب بك دوس أحد خطبائنا الكبار، وأحد المتفوقين في الأدب العربي، وأحد العارفين بأسرار الشريعة الإسلامية. أنا المسئول عن حقيقة هذا الثناء، فما رأت عيني أديباً في مثل براعة وهيب دوس، مع استثناء أفراد قلائل يسيطرون على الحياة الأدبية، ويذيعون الثقافة المصرية في الشرق
وأذكر القس إبراهيم لوقا راعي الكنيسة القبطية بمصر الجديدة، وهو الذي اتهمته جريدة المكشوف بأنه ينقل عن بعض قساوسة لبنان، ولو رآه حاسدوه وهو يهدر باللغة الفصيحة لأيقنوا أنه في غنى عن انتهاب الأفكار والآراء.
وأذكر جريدة الإنذار بالمنيا وكنت أحسبها جريدة إسلامية لحرص صاحبها على نشر محاضرات الوعاظ من المسلمين
وخلاصة القول أن جمهور الأقباط في مصر لهم نزعة إسلامية عميقة ترجع إلى صدقهم في الوطنية. وقد كان الأقباط أصهار الرسول، وهي وشيجة يحفظها الكرام من جيل إلى جيل، وكذلك يصنع جميع الأفاضل من الأقباط، إلا رجلاً واحداً يتجنى على الإسلام من حين إلى حين، وهو الأستاذ سلامة موسى على أرجح الأقوال!
نكتة أدبية
قيل إن الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده كان يلام على اصطفائه للشاعر حافظ

إبراهيم، وكان شاعرنا حافظ فيما يذيع المرجفون رقيق الخلق والدين، فقال الشيخ
محمد عبده: لقد صحبني حافظ إبراهيم عشرة أعوام فما استطعت أن أهديه ولا
استطاع أن يضلني!
وأقول إني صحبت الأستاذ سلامة موسى عشرة أعوام فاستطعت أن أهديه قليلاً، وما
استطاع أن يضلني؟
وهل ترجع أيامنا بجريدة البلاغ وكنا شبابنا نضطرم بجذوة الحرية العقلية؟
كنا نجلس في مكتب واحد وجهاً إلى وجه نتساقى حلو الأحاديث ومر المقالات
وهل فر الأستاذ سلامة موسى من وجه ناقد كما فر من وجهي؟
ومع ذلك كان هذا الرجل أول من يتقدم لنصرتي في أيام الشدائد، لأن سلامة رجل
والرجال قليل
إليَّ يا صديقي، فما يستطيع الخلاف في الرأي أن يفسد ما بيني وبينك، لأن الصداقة
رأي يفوق جميع الآراء، ونحن أولياء الصداقة في هذا الجيل المرتاب.
التاريخ المصري القديم
كنت قلت في العدد الصريح الذي أخرجته مجلة (الاثنين): إن الأستاذ عبد القادر حمزة
باشا إمام من أئمة العقل، ولكنه لا يجيد إلا حين يغضب، وقد قلت غضباته منذ عامين
كذلك قلت، ولم أكن أعرف أن عبد القادر باشا سكت عامين ليستعد لإخراج كتابه
النفيس (على هامش التاريخ المصري القديم)
فما هذا الكتاب؟
هو تحفة من تحف المنطق والعقل والذوق
هو سلسلة ذهبية تربط حاضر مصر بماضيها في ترافق وتلطف، وتروض المصري على
الاقتناع بأنه نشأ في بلد كان المصدر الأصيل لجميع المدنيات
كان ابن العميد يقول: كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً
وكذلك أقول في كتاب عبد القادر حمزة أو كتب عبد القادر حمزة، لأنه له أبحاثاً
تاريخية سبقت كتابه الجديد، وهي نماذج حية لقوة الأدب وسيطرة العقل
لا تجد في هذا الكتاب عبارة تشعرك بأن المؤلف يعتسف في تفسير النصوص، أو
يحاول إعطاء مصر ما ليست له بأهل، وإنما تشعر بأنه باحث صادق يحاول تبيين ما
لمصر من مزايا ذاتية بلا تزبد ولا إسراف
ويظهر من كتاب عبد القادر باشا أن المؤرخين متفقون على أن مصر هي مهد المدنية
في التاريخ، وأن هناك آراء في المفاضلة بينها وبين وطن الكلدان الذين كانوا يسكنون
أحواض
الفرات
معنى ذلك أن الحضارة القديمة مدينة لبلدين اثنين هما مصر والعراق
ومعنى ذلك أيضاً أن المنافسة بين دجلة والفرات والنيل منافسة أزلية، وأن التشابه
بين المصريين والعراقيين في الألوان والوجوه ومخارج الحروف له أصول ترجع إلى
مئات الأجيال. كنا وكان العراقيون في التاريخ القديم
فمتى نرجع إلى السيطرة على العالم في التاريخ الحديث؟
(لا حياة مع اليأس، ولا يأس مع الحياة)
ولا بد يوماً أن ترد الودائع، ولو طال مطال الزمان.
زكي مبارك
خواطر في الحرب
للأستاذ محمد عرفة
حدثتني من لا أتهمها في الحديث أن زوجها بنى بها قبل الثورة العربية بقليل، وكان
صغيراً وقد ترك له والده ضيعة واسعة، فلما كانت الثورة العرابية وهاجر الإسكندريون
إلى البلاد التي يضنون فيها الأمن نزح كثير منهم إلى بلده وكان منهم فقراء ومعوزون
فرأى حاجاتهم، ففرق فيهم البر الذي أغلته ضيعته حباً ودقيقاً وخبزاً، فدخلت على
جارتي وذكرن صغر زوجي وما يستلزمه الصغر من السفه، وأنه فرق غلة العام على
المهاجرين فاعذليه في ذلك، فإن لم يصخ فاشكيه إلى أبيك. قالت: فعذلته، فقال: ويك
لا أسمع قول العاذلين
فشوكته إلى أبي فقال: يا بنيتي قدري أنك المهاجرة فهل كنت تودين أن يمنع ذوو

المعروف عنك معروفهم. أو كنت تودين أن يعطوك الفضل من ما لهم وتحدقين على من لم يعط. يا بنيتي إن هؤلاء المهاجرين من كان آمناً في سربه، معافى في بدنه، واجداً قوت عامه، فكفى عن عذله، فلم يفعل إلا الصواب. هذا رأي أبي فما رأيك أنت؟، فقلت هبي رفقة فقد ضلوا في صحراء موحشة وقد فقدوا ماءهم إلا واحداً قد بقى معه فضل من مائه، أيجوز له أن يمنعه رفقته حتى يهلكوا عطشاً، أم يلزمه أن يعطيهم من فضل مائه ليستعينوا به على قطع الطريق حتى يصلوا إلى العمران؟ قالت: يلزمه ألا يمنعهم ماءه لئلا يهلكوا عطشاً، قلت وهذا ما فعله زوجك. وقد دار الدهر دورته وجاءت هذه الحرب وأضطر بعض أهل المدن إلى الهجرة إلى الريف، وإن منهم صناعاً تركوا صناعتهم، وعمالاً تركوا عملهم؛ فهل من أغنياء الأمة من يكونون لهم كما كان ذلك المحسن العظيم؟ قد كان في الإمكان أن نقول للحكومة افعلي، ولكننا اغتنمناها فرصة ليربى فينا خلق المحبة والإيثار، والكرم والإعطاء وروح التناصر والتعاون

إذا كنت رباً للقلوص فلا تدع ... صديقك يمشي خلفها غير راكبِ
أنخْها فأردفْه فإن حملتكما ... فذاك وإن كان للعقاب فعاقب

محمد عرفة

إلى الباكين على فرنسا أيضاً
بين أبراج العاج وأكواخ الطين

للأستاذ عبد المنعم خلاف

أنظر للحياة من أفق بعيد نظرة سكان الأبراج العاجية من الفلاسفة والصوفيين والعلماء المنتهين الراصدين للحياة من بعد، والذين هم في راحة بعالمهم الرحب الذي فيه لكل خطأ تصحيح ولكل إثم غفران. . . وحينئذ فلا علينا إن سقط وطن أو أهينت عقيدة أو هيض جناح قوم أو هضم حق؛ فإن هذه ظواهر أبدية للحرب بين الخير والشر، وهذه هي شئون الدنيا وسير دولابها: (فالكلاب على البقر) والذئاب على الغنم. . .؟

أم ننظر للحياة من قرب نظرة سكان الأكواخ من العبيد والمساكين والمضطهدين الذين يعيشون بغيظ المحروم، وحقد المغصوب، وشعور الذي يجد الحياة مباحة لكل نفس دخلت رحابها، ولكن يد الظلم هي التي قيدتها وضيقتها ووزعتها بموازين مختلة ومعايير قاسطة. . . فلسنا بعد هذه النظرة بمختلفين لشيء من دنيا الظالمين المترفين، ولا بباكين عليها حين تتحطم بعلومها وآدابها وفنونها وتهاويلها وتزاويقها: (فإذا مت ظمأنا فلا نزل القطر)، (وعليّ وعلى أعدائي يا رب)؟

إن الأبراج من طبيعتها العلو، والعلو من طبيعته كشف ما حوله من محيط واسع، وهو دائماً يجعل الأشياء الأرضية صغيرة حساً ومعنى. ومن طبيعته أيضاً البرودة والتجمد. . . ولكن الأكواخ من طبيعتها الالتصاق بقرار الأرض والإحساس بحرارة معترك الحياة فيها، والاختلاط والانبهام والتداخل بين مشاهدها؛ فلا تميز فيها بين كل حق وكل باطل، وكل بر وكل آثم، وخصوصاً فيما يتصل بالعداوات والحزازات

أما والله لو كان الذين يبكون على فرنسا من أمة غير العرب الذين ذاقوا من كيد فرنسا في مختلف بقاعهم وبخاصة شمال أفريقيا، لكان لهم بعض العذر في أن ينظروا لحياة قوميتهم وحياة أعدائها نظرة ساكني الأبراج العاجية الذين لديهم لكل إثم غفران، وعندهم المقدرة على رحمة أعدائهم ومباركة لاعنيهم. . . ولكن هؤلاء الباكين من أمة يضرها ويخونها أن ينظر فريق من أبنائها في غير الأفق الطبيعي الذي يليق بأمثالهم. يضرها أن ينظروا نظرة الباردين الذين ذهبت منهم (الوحشية) التي لابد منها لكل إنسان يحرص على حقه في

الحياة الكريمة التي تحفظه حراً لا يستعيد روحه وإن استعبد جسمه

إذاً فلننظر للحياة نظرة المدركين لوضعهم في الحياة، المحرومين من الحرية واجتماع الشمل، بل فلننظر للحياة نظرة المدركين لوضعهم في عين فرنسا نفسها؛ فهي تنظر إلينا كأعداء. . . وإن هذا الإدراك يدعونا دائماً إلى الكفاح لاستكمال سيادتنا ورفع النير الثقيل عن عاتق قوميتنا

ولنحذر من الإسراف في شهوات العقل والتمتع بالترف العقلي والبدني الذي هو لدى أعدائنا حتى لا يصيبنا التخدر والذهول عن وضعيتنا الراهنة، وإن للعقل شهوات تخدر

الروح وتقعد بها عن الكفاح للحرية كشهوات البطن والفرج سواء بسواء!
هي في ميزان الأخلاق كالرشوة بالدينار والمرأة والكأس. فكل من خدرته دنيا الغاصبين لحقوق قوميته أو عقيدته فنسى وضعه في أعينهم، ومد عينه إلى ما عندهم من زينة الحياة وأحبهم من أجلها، ونسى مرارة العداوة، ولم يقف في صفوف المألومين من قومه، فهو لا شك مرتش قبض رشوته من شهوات عقله ونفسه.
إننا الآن نشاهد أمماً حرة عالمة مثقفة تحطم حياة أمم أخرى عالمة مثقفة حرة مثلها في سبيل إرضاء ما تعتقده كرامتها وكمال وجودها، ولا تبالي في هذا التحطيم بروح تلك الأمة المحطومة
ولا مواريث ثقافتها ولا متاحفها التي تبين عن (روحها الحلوة) والحاطم والمحطوم من أرق شعوب الأرض وبينهم رحم في التاريخ والجنس والعقيدة. . . ومع ذلك لا يفرقون في حربهم بين السياسة والفضيلة؛ فكيف يطلب من نحن المغيظين المحنقين المحرومين من كل شيء المنظور إلينا كأننا من أفق حيواني دنئ، أن نفرق بين أساليب أعدائنا الاستعمارية وبين روعهم الحلوة وثقافتهم الممتازة التي لم يقدموا لأبناء عقيدتنا وقوميتنا شيئاً منها إلا ما هو بمثابة السروج واللجم التي تمكنهم من ظهورهم؟!
بل أدهى من ذلك وأمر: يضع فلاسفتهم - وهم من سكان الأبراج العاجية التي توحي بسمو النظرة - الخطط لتحديد ما يقدم لأبناء قوميتنا من العلم وما يمنع عنهم: فهذا (غوستاف لوبون) الفيلسوف الفرنسي الذي لم ير العرب مثله إلا قليلاً في دفاعه عنهم وبيانه لتاريخهم وفضائلهم ووقوفه عل أسرار فكرهم وروحهم؛ تراه في كتاب (روح التربية) يعقد فصلاً
للبحث في تربية أبناء المستعمرات - ومنهم العرب الذين تحت حكم فرنسا - ينادي فيه بوجوب تحديد ما يقدم لهم من الثقافة بما لا يخرج عن نطاق التعليم الأولي .. .!
فأنت تراه حين تدور مصلحة قومه ووطنه ينزل من برجه العاجي، ويخلع ثوب الفيلسوف المنصف، ويلبس ثوب المستعمر الظالم والوصي الحريص الذي لا يريد للقاصر بلوغ رشده أبداً. . . وبهذا تلتقي نظرة بنظرات ساكني الأكواخ ورجال الشوارع وأرباب المال والأعمال ومحبي استذلال الشعوب من الفرنسيين الذين يعيشون في نطاق المصلحة المادية والأنانية الشعبية ولا ينظرون لمبادئ ثورتهم التي ملئوا الخافقين دعاية لها
والأمة التي يريد (لوبون) تقييد عقولها هي التي أخرجت (أبن خلدون) أبا فلسفة التاريخ والاجتماع اللذين نبغ فيهما (غوستاف). . . فيا للعقوق!
وعلى هذا فلا ضير على ولا جناح ولا ملام حين أطلب من الباكين لما نزل بفرنسا أن يبكوا عليها وحدهم بصوت خفيض لا يسمعه إخواننا العرب الباكون ليل نهار لما ينزل بهم من فرنسا. . . وإلا كان هذا البكاء منا شماتة بالعرب أنفسهم أو تبجحاً بجرح شعورهم الذي يتألم منذ مائة وخمسين سنة غداة احتلت فرنسا ديارهم ولم تسمح لهم بحرية العلم الذي هو وطن الإنسانية جميعها
وهل من الشماتة يا صديقي نجيب أن لأفرح لضعضعة سلطان غاشم جاثم على صدر بني ديني ودمي، لا يسمح لهم أن يتنفسوا أنفاس الحرية ويتمتعوا بالعلم والثقافة والنتاج العقلي الفرنسي الذي فتنك حتى أحببتهم ودافعت عنهم وبكيت لهم؟! وإذا كانت هذه شماتة فكيف يكون الشعور بالوطنية ووحي الدم المتحد؟!
إن كانت هذه شماتة فأنا أول الشامتين! وأنا بها إنسان موزون القوى صحيح الطبيعة، لم تخدرني عن واجباتي صوفية صناعية ومجاملة بلهاء في تغطية مشاعري نحو بني ديني ودمي.
وأنا بها أيضاً بريء من طفولة النظرة إلى ما عند أعداء قومي وديني، ومن الانخداع فيهم، ومن نسيان أول حق يجب أن يراعى، وهو حق الحياة والحرية والعلم
ونحن إذا طاوعنا أنفسنا في الافتنان بما عند الأوربيين من الفن والأدب خيره وشره، وألقينا إليهم السلم، ونسينا أنهم غصبوا حقنا الأول في الوجود، فأولى بنا أن نترك لهم أوطاننا، وننحاز بحضارتنا الروحية التي من شأنها أن تعدل ماديتهم، وتكسر من شرتها وحدتها، إلى الصحارى لننجو بصحة العقائد في الحياة وربها، والقيمة السامية للإنسانية فيها

نعم، وذلك أولى من الفناء فيهم والإعجاب بهم إعجاباً يحملنا على نسيان نظرتهم إلينا، وعلى اغتفار جناياتهم على أرواحنا وعلى كرامتنا
إنهم يا نجيب هم الذين صيرونا كما ترى وكما تنعى (نعيش عليهم كما تعيش الطفيليات عبئاً على غيرها)
وأنك لتذكر أننا سبقنا اليابان في نهضتها المضارعة لنهضتهم الآن، وذلك بقيادة محمد علي ذي العمامة العجراء والجبة القوراء. . . ولكنهم هم الذين اشتركوا في تحطيم نهضتنا لنعيش عالة عليهم. . . فتنتفخ جيوبهم وتمتلئ ديارهم بألوان الترف والنعيم.
إنهم جعلوا همهم أن نكون سيئي الظن بأنفسنا، حتى أوشكنا أن نصدق دعاويهم فينا أننا أحط منهم بحيث لا يمكن أن نرقى إليهم. والله الذي خلق الناس أنواعاً يشهد ويشهد معه أولوا العلم، أن جوهر ابن آدم واحد ولكنها التربية والعلم هما (الحجران السحريان) اللذان يرفعانه إلى أعلى عليين أو يخفضانه إلى أسفل سافلين. . .
حين تكفر فرنسا بأغلى مواريث حضارتها، وهي مبادئ ثورتها، وتعذب الإنسان وهي التي زعمت وزعم لها أبواقها أنها معلنة حقوق الإنسان ووطن الأحرار، فكيف تطلب من يا نجيب أن نصدق فلسفتنا الفردية وأن نعشق روحها الحلوة التي تبين عنها فنونها؟! إنها كفرت بفلسفتها الإجمالية التي لم ترق لها مداداً على ورق بل أراقت لها دماً غزيراً وأزهقت في سبيلها أرواحاً لا عدد لها، وحطمت من أجلها ملكاً كبيراً في ثورة جنونية. . . فكيف تريدوننا أن نبكي على شيء من ميراثها بعد ذلك ولو كان أصفى ما أنتجه العقل وأروع ما أخرجه الفن، ما دامت الفلسفة الفردية والاجتماعية لم تؤثر في نفوس من يحكمون الناس باسمها؟
إذا كفر رسول برسالته فهو دجال مشعوذ لا يؤمن به إلا الحمقى والمغفلون وتابعوا كل ناعق ممن تنزات عقليتهم عن مقام أهل الفكر الذين وكل الله إليهم إدراك وجهة الحياة وإقامة الأحكام بالقسط على الناس. . .
إذا كان حقاً ما تقول من أن أبناء جميع المستعمرات يعاملون في فرنسا على قدم المساواة مع الفرنسيين. . . فهل نطلب من أبناء المستعمرات جميعاً أن يرحلوا عن أوطانهم ويسكنوا فرنسا ليحظوا بالحرية والكرامة والعلم والوقوف على قدم المساواة مع الفرنسيين؟ كلا! لن يبيع عرب الجزائر وتونس وطنهم بوطن آخر ولو كان فرنسا إلا إذا باع الفرنسيون وطنهم للألمان لأنهم احتلوه بالقوة والطغيان، وإلا إذا ذهبوا أوزاعاً وأخلاطاً ليسكنوا ألمانيا ويندمجوا فيها وينزلوا عن جنسيتهم ليحظوا بشرف المساواة مع السادة. . .
ويح عقول مثقفينا! بل ويلها! إنها في ظلال وخديعة ما يغنى لها أسف ذوى القلوب البسيطة التي تصدر عن سلامة الفطرة وبراءة الفكرة. . .
وبعد هذا، أنحن الذين (لم يقوموا بهذه الحركة الشامتة وهم متبينون ما يجري في نفوسهم، وأن بعضهم لم يكتب ما كتب مخلصاً لفكرة أو مؤمناً بحقيقة)؟
أنا ما (شهدت متاحف فرنسا ولا تلك اللوحات التي تصور بألوانها وظلالها جمال النفس ولا حلاوة الروح)، ولم أحبب كما تريدني يا نجيب هذه الروح الممتازة. . . إذ لا يمكن أن أحب جلادي قومي ومعطلي روحهم وقواهم وذكائهم الممتاز الذي حفظ شعلة الثقافة والعلم ونماها حتى أسلمها لهذه الأيدي العاقة الجاهلة بسير التاريخ وتقلباته بالدولات والأمم. . . فلا أفتن بالأصباغ والألوان الزاهية وأنسى الحقائق القائمة المعتمة. . .
ولم أشهد كذلك تلك اللوحات التي في (قاعة الوقائع) في فرساي، إذ ينبغي كأن نكون في شغل عنها برؤية الوقائع السود الدائمة والمعارك الظاهرة والخفية التي تشنها فرنسا على قومك في الشرق والغرب: في سوريا وشمال أفريقية. . .
لو سقطت فرنسا تحت أقدام قومي لخشعت في حضرتها (فما أنبل أن تخشع في حضرة عدوك يوم صريعاً تحت قدميك!) كما قلت يا نجيب. . . ولكن فرنسا حطمت وهي لا تزال جاثمة على صدر قومي. . . وقد فرحت لصرعها أملاً في أن يزحزحها قومي عن صدورهم ثم ينهضوا ليؤدوا لها تحية الخشوع التي تراها الأخلاق من النبل
أما الآن وفرنسا لا تزال سجانة في ديار العرب، وإن كانت سجينة في ديارها فكيف تطلب مني أن أبكي عليها وهي لا تزال ثقيلة الوطأة ثقل جثث الأموات. . .؟!

أولى بسكان الأبراج العاجية من كتاب العرب أن ينزلوا إلى منطق أهل الأكواخ المكتوين بنار الحياة حين يتحدثون عن قوميتهم وعقيدتهم كما يفعل أمثالهم في جميع الأمم قويها وضعيفها، وأن يتكلموا في هذه الحقبة من تاريخ الأمة العربية بلسان بني قومهم المحكومين المحرومين في أفريقية وأسيا، الذين لم يزوروا باريس أو غيرها ولم يفتنوا بدنياها. . . فإنهم لو تكلموا بلسان غير هذا، لكذبتهم الملايين التي استهلكت فرنسا قواها وتركنها تدخل إلى الحياة وتخرج منها، وهي على جهل وفقر وألم وسخط. وطبيعي أن الإنسان الأفريقي والأسيوي المحكوم بفرنسا هو أولى للناس بالحكم على النفس الفرنسية، لأنه هو الذي احتك بها وخبرها خبرة عملية في مجال وصايتها عليه، وعرف كذب فلسفتها وفنونها وإفلاسها في تهذيب أفضل عمل للإنسان: وهو الرياسة والسياسة

ولن يبالي هذا الإنسان المحكوم أكانت فرنسا حقيقة بلاد الفردوس المفقود في المواساة والعدالة والفن والعلم كما أراد أن يصورها الباكون عليها؛ أم كانت بناء قائماً على براكين اجتماعية وأنانية وتفسخ عائلي وتدليس اقتصادي كما يصورها عارفوها الذين لا يفتنون بالظواهر والقشور، وكما صورتها أحداثها الأخيرة التي رأينا فيها أكبر قائدين فيها كانا يقولان للفرنسيين قبل الهزيمة: (قاتلوا من أجل روح فرنسا!) ينقلبان بين عشية وضحاها بوقين يصبان اللعنات كل يوم على روح فرنسا. . . ويديران دفة الحكم تحت وصاية عدو فرنسا الأبدي إدارة ينظران فيها إلى اتجاهات أنظاره ومواقع رضاه. ولو أنتصر (فيجان) و (بتان) على الألمان لهتفا وهتف معهم الناس (المجد لروح فرنسا. . .)

في جميع الممالك التي أخضعتها ألمانيا من ابتداء الحرب، لم يسر الناس في موكب ألمانيا بمثل ما سار الفرنسيون، بل جميعهم قالوا لألمانيا: دونك فاحكمينا باسمك كما تشائين، ولكننا لن نحكم أنفسنا باسمك وبأسلوبك في الحكم

تلك ظاهرة تبين لنا أن فرنسا لم تكن مؤمنة بروحها، ولم تكن ممتلئة به. بل لا نبالغ إذا قلنا: إنها ليس لها روح يسيطر على أفرادها ويجعلهم يمثلون مثلاً أعلى يلمس في أغلبيتهم كما يلمس المثل الأعلى الإنجليزي في أغلب الإنجليز. . .

وخير ما نختم به هذا الحديث هو تلك النبذة التحليلية التي نشرها الأستاذ الصاوي صاحب (ما قل ودل) وصديق فرنسا المشهور قال: (وإذا عدنا إلى الفرنسيين - الذين ألقوا سلاحهم

فماذا نجد في تحليل الخلق الفرنسي السياسي كما وصفه الداهية المجري - (كورنيس)؟

نجد فرقاً شاسعا بين الخلقين الفرنسي والإنجليزي. فهما طرفا نقيض. ليس الفرنسيون شعب التطور التاريخي البطيء، ولكن شعب التغييرات الثورية الفجائية، شعب شديد التأثر قوي الاندفاع بلا (فرامل) ولا (صواميل). شعب (المأساة) لا (الرواية)، وخط تطوره ليس مستقيماً ولكنه كثير التعرج والمنعطفات. ففي آخر القرن الثامن عشر قلبت الأمة الفرنسية الحكومة الملكية باسم الديمقراطية والحرية، ومع ذلك لم تمض عشر سنوات حتى عادت فرنسا إمبراطورية مطلقة! ثم ارتدت فصارت ملكية محافظة! ثم تحولت إلى ملكية برجوازية حرة! ثم كانت ثورة أخرى ردت الجمهورية الثانية! ثم انقلاب حكومي أعاد للسلطة إمبراطوراً! ثم سقط هذا الإمبراطور في 1870 وعادت فرنسا إلى ما كانت عليه في 1739 إلى الجمهورية! فلا توجد على هذا أمة كفرنسا في اندفاعها وتحولها وانقلابها. . .) ثم قال الصاوي: (هل ترانا نفهم الآن بعض الفهم السر في أن الفرنسيين قد قالوا لهتلر (نعم) وأن الإنجليز قد قالوا (لا)؟

عبد المنعم خلاف

على هامش الحرب

الطابور الخامس في القرآن

المنافقون

للأستاذ عبد الرزاق إبراهيم حميدة

لم ظهر النفاق في المدينة؟ - رأس المنافقين - أعمالهم)

وصفاتهم زمن السلم - إظهار الإسلام وإخفاء الكفر الطعن في

(النبي وآله - السعي في التفريق بين المسلمين
قدمنا في المقال الثاني والثالث أن الجماعة الأولى من الطابور الخامس في القرآن هم اليهود، وذكرنا بتفصيل مقدار خطرهم وضررهم على النبي ودينه وأصحابه، والنوع الثاني أو الجماعة الثانية هم المنافقون:
كان بجانب اليهود جماعة من أهل المدينة وممن حولها من الأعراب تعمل جهدها سراً وجهراً على إضعاف الإسلام وتود أن يفنى المسلمون وتذهب ريحهم. أولئك هم المنافقون الذين لم يكن لهم وجود وعمل إلا بعد الهجرة، ويقول اللغويون أن النفاق كلمة لم توجد في الجاهلية، وإن القرآن قد جاء بها وصفاً لطائفة تبطن الكفر وتظهر الإيمان رغبة في الاستفادة من مغانم المسلمين، وفراراً من أثر الهزيمة إذا دارت على المؤمنين دائرة الحرب، وأملاً في استئصال النبي ودينه بطريقة مستورة
أما سبب ظهورهم بالمدينة دون مكة، فهو أن النبي قام يدعو إلى دين الله بمكة وهو وحيد، فعارضه أكثر أهلها وبخاصة الأشراف منهم حتى أشراف عشيرته الاقربين، فلم تكن بالذين تخلفوا عنه - وهم أهل الشرف والعزة بمكة - حاجه أن ينافقوا؛ وباعد بينهم وبين الدخول في الإسلام سراعاً خوفهم من ضياع مركزهم الأدبي وسلطانهم القبلي وتمسكهم بما كان عليه آباؤهم من دين وعادات
وكان الأمر على العكس من ذلك بالمدينة، فقد أسلم الكثيرون من سادتها وكبرائها وتبعهم أكثر أهلها، وزاد الإسلام فيها قوة بمن هاجر إليها من السابقين الأولين من المهاجرين،
ورَبَا عدد المسلمين فيها من عَدَاهم، فشعر المتخلفون عن الدين الجديد بضعفهم وعدم استطاعتهم المجاهرة بما في قلوبهم، ورأوا أن النفاق أسلم عاقبة وأشد خطراً وأعظم أثراً، ورأوا من الحكمة أن يقولوا: (آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم)، وأن ينتظروا الفرص السانحة لطعن المسلمين كما كان ذلك ممكناً
وكان رأس المنافقين بالمدينة عبد الله بن أُبي بن سلول، وكان شريفاً من أشراف يثرب، يطمع في أن تكون له السيادة والحكم فيها؛ فلما جاء النبي إليها وخضع أهلها لسلطانه ودانوا بمبادئه وعقيدته، ضاعت الفرصة من ابن أُبي، وأحزنه أن يكون ضياع سلطانه المنتظر، وخيبة أمله في السيادة، آتياً من رجل غريب عن يثرب، أخرجه قومه، وشردوا أصحابه في الآفاق. ورأى من الحكمة أن يُدارى، وان يدخل فيما دخل فيه الأكثرون ظاهراً، وإن لم يستطيع أن ينزع من قلبه المرض الخفي الذي ملأه نفاقاً، وسَالَمَ الرسول، وآمن بلسانه وفي نفسه ما فيها، حتى إذا حدث ما يدعو إلى إظهار الكفر سارع فيه ونال من المسلمين بلسانه ومكايده، وخذلهم في الحرب ووقت الشدائد.
وقد بين القرآن صفات المنافقين عامة، وهي صفات تدل عل أنهم كانوا من أشد أنواع الطابور الخامس أذى، وكان منهجهم في السلم أن يظهروا الإيمان، وأن يطعنوا في النبي وآله ويفروا من حكومته، ويرفضونها، وأن يفرقوا بين المؤمنين
أما الأمر الأول، وهو حقيقة نفاقهم فمذكور بتفصيل في الآيات الكريمة: (ومن الناس من يقول آمنّا بالله وباليوم الأخر، وما هم بمؤمنين، يخادعون الله والذين آمنوا. وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون. في قلوبهم مرضٌ فزادهم الله مرضاً. ولهم عذاب أليم بما كانوا يكسبون. وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس، قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء؛ ألا أنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون. وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا، وإذا خلوْا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون). وكانوا إذا جاءوا رسول الله أقسموا أنهم يشهدون أنه مرسل من ربه ليستروا نفاقهم بهذا القسم. وكان أبن أُبيٍّ رجلاً جسيماً صبيحاً فصيحاً ذلق اللسان، وكان قوم من المنافقين في مثل صفته، يحضرون مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيستندون فيه، ولهم جهارة المناظر وفصاحة الألسن، فكان النبي ومن حضر يعجبون بهياكلهم ويسمعون إلى كلامهم، فنزل قوله تعالى في السورة المسماة باسمهم: (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله، والله يعلم أنك لرسوله، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون. اتخذوا أيمانهم جُنّة فصدُّوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون. ذلك بأنهم أمنوا ثم كفروا فطبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون. وإذا رأيتهم تعجبُك أجسامهم، وإن يقولوا تسمعْ لقولهم كأنهم خشب مسنَّدة، يحسبون كلَّ صيحة

(عليهم، هم العدوُّ فأحذرْهم قاتلَهم اللهُ أنى يؤفكون
وأما طعنهم في النبي فكان كثيراً، وكان من الطعن الذي لو ثبت لكان هادئاً للرسالة، وقاضياً على صاحبه، فكانوا يتهمونه بأنه يأخذ بعض المغانم ويستأثر به على غير علم من أصحابه. روى أن قطيفة حمراء فقدت يوم بدر مما أُصيبَ من المشركين، فقال بعض المنافقين: لعل رسول الله أخذها، فنزل قوله تعالى: (وما كان لنبي أن يغل، ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون)
ولم يسلم آل البيت من مطاعنهم، فقد اشتركوا في حديث الإفك، وادعوا على عائشة أنها خانت النبي، وكان الذي تولى كبر هذا الإفك من المنافقين، وهو ابن أبي
أما حديث الإفك فهو أن الرسول الكريم كان يأخذ معه بعض نسائه في الغزوات، وكانت عائشة معه في غزوة بني المصطلق، وكانت صغيرة السن، خفيفة الجسم، فنزل الجيش ذات ليلة، ثم ارتحل، وحمل هودج عائشة على جملها، ولم يدر حاملوه إن كانت فيه أم لا.
كان يجيء وراء جيش المؤمنين صفوان بن المعطل يحمل ما يكون قد تخلف من الجيش، فلما رآها غض بصره، وأركبها ناقته، وعاد بها إلى المدينة. فلما مر بابن أبي قال: من هذه؟ قالوا عائشة. فقال والله ما نجت منه ولا نجا منها، ثم قال: امرأة النبي باتت مع رجل ثم جاء يقودها! وانتشرت مقالته، وسمع النبي الخبر، فأحزنه ذلك أشد الحزن، لأنها كانت أحب نساءه إليه، فهي بنت الصديق صاحبه في الغار، ورفيقه في الهجرة، وهي التي أختارها الله لنبيه، وزوجها له بوحيه. فما هذا؟ سبحانك! هذا بهتان عظيم!
استشار النبي أصحابه في الأمر، فأشار بعضهم بطلاقها، وظن بعضهم خيراً، ولم يشك في طهارة بيت النبوة، ومرضت عائشة زمناً وهي لا تدري من أمر هذا الإفك شيئاً. وحزن أبو بكر أشد الحزن، وحزن المسلمون حزناً عظيماً، وتطرق الشك إلى نفوس بعض الناس. فكيف يكون الموقف إذا تطرق الشك إلى بيت النبوة؟ وما يكون مركز المسلمين، وهم
عرب، للعرض عندهم شأن أي شأن؟ وهل يبقى ضعاف الإيمان أتباعاً لمحمد إذا ثبت على زوجته ما رُميت به من زور وبهتان؟ لابد من وحي يبرئها، ويثبت طهارتها، ويلعن من افترى عليها، وبخاصة رئيس العصبة التي جاءت بالإفك، وهو رأس المنافقين، ونزل قوله تعالى: (إن الذين جاءوا بالإفكِ عُصبةٌ منكم، لا تحسبُوهُ شراً لكم، بل هو خير لكم، لكل امرئٍ منهم ما أكتسب من الإثم، والذي توّلى كِبْرَهُ منهم له عذابٌ عظيم)
فثبتت عفة عائشة وطهرها، وحد الرسول من جاءوا بالإفك حد القذف، ولعنهم الله في الدنيا والآخرة، إلا الذين تابوا. ورد الله كيد ابن أبي في نحره، ونجا الإسلام من الفتنة التي أرادها بالطعن في الصديقة بنت الصديق.
وكانوا يأبون الاحتكام إلى النبي وإلى كتابه إلا إذا كان على وفق هواهم. وفي ذلك يقول الله تعالى: (وإذا قيل لهم تعالَوْا إلى ما أنزلَ اللهُ وإلى الرسول، رأيتَ المنافقينَ يصدُّونَ عنك صدوداً). وأبى الله أن يقبل منهم إيماناً إلا إذا قبلوا حكومة الرسول عن طيب خاطر. فقال: (فلاَ وَرِّبك لا يؤمنون حتى يُحَكِّموكَ فيما شَجَرَ بينهم، ثم لا يَجِدُوا في أنفسِهم حَرَجاً مما قَضَيْتَ، ويُسَلِّموا تسليماً)
وكانوا يستمعون من المؤمنين ويعرفون أسرارهم وخططهم الحربية. وما في نفوسهم من ثقة بالفوز أو خوف واستشعار، ويذيعون ذلك ويتحدثون به، فيبلغ الأعداء، فيكون في ذلك مفسدة؛ قال الله سبحانه: (وإذا جاءهم أمرٌ من الأمن أو الخوف أذَاعوا بهِ، ولو رَدُّوه إلى الرسول وإلى أُولي الأمر منهم لَعَلِمَهُ الذين يَسْتنبِطونه منهم)
وكان من أسباب نفاقهم أنهم كانوا يودون الربح من وراء هذا النفاق؛ فإن انتصر المؤمنون قاسموهم في الغنائم، وإن انتصر المشركون انحازوا إليهم، وبينوا أن ذلك كان من فضل نفاقهم، وأولئك هم الذين وصفهم الله للنبي الكريم في سورة النساء فقال: (الذين يتربصون بكم، فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم؟ وإن كان للكافرين نصيبٌ قالوا ألم نسْتَحْوِذْ عليكم ونمنعكم من المؤمنين؟)
وكانوا (يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة؟ فإن العزة لله جميعا) ويعدون الذين كفروا من أهل الكتاب أن يكونوا معهم على النبي وأن

يخرجوا معهم من المدينة إذا أخرجهم المؤمنون منها، كما بين سبحانه ذلك في سورة الحشر، قال سبحانه:

(ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب) وهم بنو النضير (لئن أُخرجتم لَنَخْرُجَنَّ معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبدا، وإن قوتلتم لننصرنكم. والله يشهد إنهم لكاذبون) فقد أخرج بنو النضير من المدينة ولم ينصرهم المنافقون ولم يخرجوا معهم بل بقوا في المدينة يخذلون المؤمنين في الحرب كما خذلوا بني النضير، ويلتمسون المعاذير لقعودهم في الجهاد في سبيل الله كما سيأتي بيانه

وكانوا (لا يأتون الصلاة إلا وهم كُسالَى، ولا يُنْفقون إلا وهم كارهون)

ولم يسلم النبي من سخطهم عليه في توزيع الصدقات. فكانوا يتهمونه بعدم العدالة في تفريقها إذا لم ينلهم منها شيء (ومنهم من يَلْمِزُكَ في الصدقات. فإن أُعْطوا منها رَضُوا وإن لم يُعْطَوْا منها إذا هم يسخطون)

وكانوا يتهمون النبي بالغفلة، وأنه يصدف كل ما يسمع، ويقبل قول كل أحد، وهم الذين قال الله فيهم: (ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أُذنٌ، قل أُذنُ خَيْرٍ لكم، يؤمنُ بالله ويؤمن للمؤمنين، ورحمة للذين آمنوا منكم، والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم)

وكانوا يستمعون آيات الله ويهزءون بها، كما كان يفعل أهل مكة من المشركين. وكانوا يفعلون ذلك عل مسمع من المؤمنين وفي مجالسهم، فنهى الله المؤمنين عن مجالستهم ماداموا على هذا الاستهزاء، وأوعد الكافرين والمنافقين أن يجمعهم في جهنم، وقال للمؤمنين: (وقد نزَّلَ عليكم في الكتاب أنْ إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره، إنكم إذا مثلهم - في الإثم لا في الكفر - إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً)

وكان منهم قوم ماهرون في إخفاء النفاق وستر الكفر إلى درجة عظيمة، فخفي أمرهم حتى على النبي، وهو اللبق الفطن، الذي لا يعدله أحد ذكاء وقوة وفراسة، وشدة فطنة، وخاطبه الله فيهم قائلاً: (وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق، لا تعلمهم نحن نعلمهم، سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم)

وفي غزوة بني المصطلق أرادوا أن يفرقوا بين المهاجرين والأنصار، وأوعد عبد الله ابن أبي المهاجرين أن يخرجهم من المدينة. وتفصيل ذلك أنه بعد انهزام بني المصطلق بقيادة رئيسهم الحارث بن ضرار عند ماء يقال له (المرْيسيع) في السنة السادسة من الهجرة،

تزاحم مهاجرٌ وأنصاري على ماء، فلطم المهاجرُ الأنصاري، وكان هذا حليفاً لابن أبي، فلما سمع ابن أبي الخبر أخذته حمية الجاهلية، وأراد أن يغري الأنصار بالمهاجرين، وقال: والله ما صحبنا محمداً إلا لنلطم! والله ما مثلُنا ومثلُهم إلا كما قيل: سمن كلبك يأكلك. وأما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرِجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ. وعنى بالأعز نفسه، وبالأذل رسول الله. ثم قال لقومه: ماذا فعلتم بأنفسكم؟ أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، وأما والله لو أمسكتم عنهم فضل الطعام لم يركبوا رقابكم، ولأوشكوا أن يتحولوا عنكم، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد. فسمع بذلك زيد ابن أرقم وهو حَدَث، فقال له: أنت والله الذليل القليل في قومك، ومحمد في عز من الرحمن وقوة من المسلمين. فخاف ابن أبي العاقبة. وأخبر زيدُ رسول الله الخبر، فأراد عمر أن يضرب عنق ابن أبي، فقال رسول الله: إذن ترعد أنف كثيرة بالمدينة. أليست هذه النتيجة التي تحاشاها الرسول هي ما يسعى إليه المنافقون؟ فأقترح عمر أن يقتله رجل من الأنصار. فقال النبي الكريم: فكيف إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟ ثم قال النبي الكريم لعبد الله: أأنت صاحب هذا الكلام؟ فحلف بالله ما قال، وإن زيداً لكاذب. ولكن الله كذبه وصدق زيداً بقوله: (هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى يَنْفَّضوا ولله خزائن السماوات والأرض، ولكن المنافقين لا يفقهون. يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذَلَّ. ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون)

هذه أعمال المنافقين ومكايدهم، وغايتهم منها استئصال الإسلام وطرد النبي من المدينة، وتنفير الناس من دينه بإشاعة السوء عنه وعن أهله، وإنشاء ذلك المسجد آخر

الأمر ليدبروا فيه دسائسهم، ولكن الله كان لهم بالمرصاد، وانكشفت حقائقهم ونجا المسلمون من شرهم؛ ثم نُهُوا عن مصافاتهم والانخداع بأقوالهم. أما أعمالهم التي رغبوا أن تجر الويلات على المسلمين في الحرب فموعدنا بها العدد القادم.

عبد الرزاق إبراهيم حميدة

نجوى!

عاصف مَلال. . .!

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

سَئِمْتُ مُقامِيَ فَوْقَ الذُّرَا. . . ... فَأَيَّانَ أَمْضِي غَداً يا تُرَى؟!

سَئِمْتُ وَدَوَّى بِقَلْبِي الْمَلاَلُ ... كَمَا عَاصِفُ في الدُّجى زَمْجَرَا

أَمَامِي ضَبَابٌ، وَخَلْفِي ضَبَابٌ ... وَأُفْقِيَ غَشَّى عَلَيْهِ الْكَرَى

فَلاَ في السَّمَاءِ أَرَى وَمْضَةً ... تُعَزِّي أَسَايَ، وَلاَ في الثُّرَى

وَحَوْلِي حَضِيضٌ، بأَوْحَالِهِ ... تَخَبَّطَ في الْإِثْمِ رَكْبُ الْوَرَى

وَحَتَّى ضِفَافُ الرُّؤَى عِفْتُهَا ... فَمَا في حِماهَا لِرُوحِي سُرَى

وَحَتَّى الْخَيَالُ الَّذِي هَزَّني ... وَأَرْعَشَ لِي سِحْرُهُ المِزْهَرَا؛

تَبَرَّمْتُ يا جِنُّ، فامْضِي بهِ ... رُفَاتاً مِنَ الصَّمْتِ لَنْ يُنْشَرَا!

وَمَا عَالَمُ الشِّعْرِ هذَا الْفَسِيحُ ... سِوَى طَيْفِ حُزْنٍ بِعُمْرِي سَرَى

سَئِمتُ! وَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ سنَاً ... عَلَى ظُلْمَةِ الرُّوحِ قَدْ نَوَّرَا

من الحب! أو من فنائي الذي ... يُغَمْغِمُ لِي في سُفُوحِ الذُّرَا

من عجائب الفهم أيضاً!

للأستاذ زكي طليمات

كتب (الناقد الأديب) مقاله الأول في العدد (368) فساق القول من أطرافه، ولم يعرج على المذاهب الفلسفية ألبتة، حتى بما يصح أن يدّعم به اتهاماته ويقوم دعواه، فلم يفطن إلى أن قصيدة الأستاذ العقاد عرض وتحليل لنظرية (كانت) في المعرفة، ولم يرد توطئة (مفرق الطريق) إلى فلسفة ما. ولكن ما أن تحدثنا في الفلسفة، ذلك في الرد على ذلك المقال الأول، وتحدثنا فيها بالقدر الذي لا يثقل على القارئ لننزل الأمور منازلها الصحيحة ونوجه القارئ إلى الحق، حتى أخذ (الناقد الأديب) بأسباب الفلسفة، وحديث الفلسفة متمعج لزج، وله أرض رخوة تنزلج القدم عليها، أو هي تسوخ فيها، فلا تقتلع إلا لتزداد بعد ذلك سوخاً، ما لم يضرب السائر في الدرب الأمين. فساق في مقاله الثاني في العدد (372) أقوالاً وأصدر أحكاماً يغلفها التعسف الواضح، والنقد المتعسف، كما هو معلوم من أسوء النقد، وهو مطية للخطأ.

زعم (الناقد الأديب) في مقاله الأول أن مسرحية (مفرق الطريق) إنما تقوم على الفكرة الفلسفية التي أنشأ عليها الأستاذ العقاد قصيدته (القمة الباردة)؛ فكان أن قررنا في الرد على هذا الزعم - وذلك في مقالنا السابق - أن الأمر غير ذلك، لأن قصيدة (القمة الباردة) تقديماً وشعراً، ما هي إلا عرض وتحليل لمذهب الفيلسوف (كانت) في مسألة المعرفة، والمعرفة هي الفحص عن الصلة بين الذات والموضوع، هذا في حين أن (مفرق الطريق) تعالج حالة نفسية غامضة، معالجة تمت بوسائلها إلى المذهب الباطني الذي أحكم أمره الفيلسوف (برجسون). وهو مذهب يعتمد على البصيرة والإحساس الدفين - لا الدقيق - والإدراك الصرف مع إهمال ظواهر العالم وطلب خفاياه وبواطنه، وأيدت ذلك بالبرهان القاطع، فماذا كان رد (الناقد الأديب) على ذلك الإيضاح؟

لم يدحض ما أيدناه بالبرهان، بل أنه لم يتصد له وجهاً لوجه بل راوغ وداور ليعبر عنه عبراً. فإذا هو يومئ إلى أن قصيدة العقاد في (القمة الباردة) ترجع إلى أصول من فلسفة (كانت)، يصنع ذلك في نفس الوقت الذي يصرح فيه بأن (مفرق الطريق) إنما تقوم على خليط فلسفي، خليط فيه من (كانت) ومن (برجسون) وفيه أيضاً من (إبسن) ومن أشياء أخرى

إذن (فالناقد الأدبي) يعترف مكرهاً بأن مفرق الطريق ليست من (كانت) وحده، أي ليست من العين الفلسفي الذي أغترف منه دون غيره الأستاذ العقاد في قصيدته (القمة الباردة) وهو يعترف بهذا ولكن يتواري في اعترافه وراء أقوال أخرى - هي من

الدخان الذي يطلق لينشئ ستراً يمهد لنقلة عاجلة من وضع إلى آخر في غفلة من العين - فيزعم أن (مفرق الطريق) فيها أيضاً من (برجسون) وفيها من (أبسن) يزعم هذا هو لا يدري أن أقواله هذه تناقض ما قاله في مقاله الأول، وأنه ينزل مكرهاً على ما قررناه من أن (مفرق الطريق) تمت إلى فلسفة (برجسون) بل هو يتورط في خطأ جديد، أو يدس اسم (إبسن) في معرض حديثه عن الفلسفات مع (كانت) و (برجسون) في حين أن ليست (لإبسن) مدرسة فلسفية قائمة بمعالمها وحدودها، إذ أن كل ما لهذا المؤلف النرويجي العظيم أسلوبه الخاص في التفكير ومعالجة الشؤون الاجتماعية!

كيف تأتى إذن أن تكون مسرحية (مفرق الطريق) في زعم (الناقد الأديب) من (كانت) مقتبسة من قصيدة العقاد - وهو ما صرح به في مقاله الأول - ثم كيف تأتي أن تكون المسرحية نفسها من (كانت وبرجسون وأبسن) - وذلك في مقاله الثاني - ولما تلبس المسرحية لبوساً غير لبوسها الأول!!

ويمتد بنا التساؤل فنقول: كيف يتأتى أن يجتمع (كانت) و (برجسون) في صعيد واحد، ولكل من الفيلسوفين مذهبه الخاص، ولكل وسائله، وهي لدى كل منهما متغايرة متباينة؟؟ وما دمنا في صدد الفلسفة نرى لزاماً علينا أن ننبه (الناقد الأديب) إلى إقحامه اسم الأستاذ في رده، تهويل محض، لا يؤخذ به من فقه (برجسون). وأغلب الظن أن (الناقد الأديب) ركب هذا الحرج ليوهم بأن مذهب (برجسون) لا صلة له بالمذهب والتصوفي من حيث المنهج، وقد أعتمد في هذه النقطة على (بحوث الأستاذ لوروا الأخيرة عن برجسون). وفي هذه الدعوى انحراف عن الصحة، فقد ورد في الجزء الأول من بحوث الأستاذ لوروا أن البصيرة عند (برجسون) إنما هي انطواء النفس على ذاتها وتوحيد الروح كلها، تواقة إلى المعرفة التأملية. كذلك قرر لوروا (أنه لا يرى شيئاً أشبه بطريقة (برجسون) القائمة على البصيرة والتأمل من طريقة المتصوفة من غير اتحاد تام) وعلل ذلك بقوله: (إن مصدر الشبه كائن في توافق المقصد، وهو الرجوع إلى الأمر المباشر)

ولا يسعنا مع ذلك إلا أن نقرر أن هناك قصداً مرسوماً من جانب (الناقد الأديب) في أن يورد معارض من القول الذي يمت إلى حديث الفلسفة، فيه كثير من الخليط واللبس، أو الخلط المتعمد واللبس المقصود، إرادة صرف الأذهان عن جوهر الموضوع

إذن فنلخص الدعوى في مرحلتنا الأولى لنطالعها في مراحلها التالية:

حاول (الناقد الأديب) في مقاله الأول أن يتهم بشر فارس بأنه أقتبس الفكرة الفلسفية التي تقوم عليها مسرحية من قصيدة العقاد، فلما رددنا عليه اتهامه قام يناشد الفلسفة أن تمده فلم تواته الفلسفة بشيء. ولما أيقن أنه لم يوفق في إقامة دعوى الاقتباس، خرج علينا بتهويل جديد، مجمله أن ليس في مسرحية (مفرق الطريق) شيء يستحق النظر، وأن المذهب الرمزي في الأدب، وهو المذهب الذي تمت إليه المسرحية، ليس إلا ضباباً كثيفاً من (الإبهام والإبهام) يضفي على الكائنات مسحة من الروعة والهول، ولكن كلما أقترب منها الإنسان تضاءلت هذه الكائنات

أما أن هذه المسرحية ليس فيها ما يستحق النظر فأمر مرده إلى أحد شيئين: إما أن (الناقد الأديب) ينظر إلى المسرحية بعين واحدة ويسمعها بأذن واحدة فهو يصدف عن كل ممكن للحس فيها، وإما أن الفهم لم يواتيه بما يجب أن يواتيه لعله لا نعرفها

وأما أن الرمزية لا تروق الناقد الأديب؛ فهذا شيء يخصه، ولا شأن له بالجودة الذاتية للمسرحية

وختاماً نهمس في أذن الأستاذ (الناقد الأديب):

إلى متى يطول أمر هذا التستر فيما ينشره، ولماذا لا يذيل ما يكتبه باسمه الصريح، وقد نزلنا إليه سافرين غير مقنعين، وتبادلنا أنخاب الرأي في شئون تبعث الرغبة في نفس القارئ على أن يعرف حقيقة الطرف الثاني؟

لهذا نقول للأستاذ (الناقد الأديب)، إننا له في كل ما يريد على شريطة أن يكشف عن وجهه، وإلا فإننا لن ننزل إلى ميدان الرد عليه بعد ذلك.

زكي طليمات

7 - إلى أرض النبوة!

للأستاذ علي الطنطاوي

كان أجدادنا الشاميون المتمسكون بالسنة، إذا دخلوا تبوك أخذوا (كما يزعم ابن بطوطة) أسلحتهم، وجردوا سيوفهم وحملوا على المنزل، وضربوا النخيل بسيوفهم. . . يقولون هكذا دخلها رسول الله.

ولو كان أجدادنا (أعقل) من ذلك، لضربوا بسيوف كسيوف خطباء المنابر في مصر، التي وصفها الإمام الرافعي رحمه الله في تلك المقالة (الدماعة)، لتكون آية أخرى على أنهم يفهمون (السنة. . .) كفهم الشيخ الدمشقي الذي خرج مرة من باب الجامع يمشي في الأسواق حافياً ومن وراءه تلامذته يحملون نعالهم بأيديهم، نشراً للسنة. . . وكفهم كثير من المسلمين اليوم!

أما نحن فلم نكن قد تعلمنا هذه البطولة (الدنكشوتية)، فدخلنا تبوك كما يدخل عامة إخواننا من بني آدم بلداً من البلدان ولم نضرب النخل البريء بسيف أبي حية النميري الذي أخذه من وزارة أوقاف مصر لما ولى الخطابة في مساجدها، وإنما ضربنا بأكفنا في قصاع الرز واللحم التي كان يكرمنا بها أمير البلد. ولبثنا في تبوك يومين أنسنا في اليوم الأول واطمأننا وتفيأنا ظلال الأمن والدعة، بعد ما صلينا بشمس الصحراء أياما اكتوينا فيها بنار الجوع والعطش والخوف والتعب فأحببنا تبوك، وتمنينا لو أقمنا فيها الدهر فما فارقناها، وعشنا في كنف أميرها المهذب الكريم العمر كله. . . نعم بيمن نقيبته، ونور طلعته، وخصب مائدته. . . ولكنه لم يأت اليوم الثاني حتى مللناها، ورأينا من ضيقها آخذة بمخانقنا. وقال قائلنا: أهذه تبوك التي طالما شوقنا إليها الدليل، وطالما منانا الوصول إليها، وحط الرحال بفنائها؟ أمن أجل هذه القرية ذات الستين بيتاً حملنا ما حملنا من الأين والعناء؟

لقد جلنا أنحاء (البلدة. . .) ورأينا تخيلها الذي كان يقطعه أجدادنا الأبطال بأسيافهم!! فلم يبقوا منه إلا بمقدار بستان صغير من بساتين البصرة! وزرنا قصر الأمير المبني بالآجر المطلي بالطين، ودخلنا المسجد الذي فرش بالرمل، حتى ليغوص فيه أنف الساجد ويدخل في خياشيمه، ووقفنا على المحطة الخالية الخاوية، فبكينا فيها (السكة) التي أنشأناها بأموالنا، ثم خربناها بأيدينا وأيدي القوم الذين أثاروها بيننا جاهلية جهلاء، فكان لهم

ثمارها، وكان أن حرقتنا نارها. . . رأينا ذلك كله فما ثواؤنا في تبوك، وعلام نقيم فيها؟ ألنأكل على مائدة الأمير، ونثقل عليه؟

وتهيأنا للرحيل، لنقطع النصف الثاني من الطريق، وهو النصف الصعب المتعب، الذي وصف أبن بطوطة ومن كان قبله ومن جاء بعده صعوبته وهوله. . . وسرنا متوكلين على الله.

قال أبن بطوطة:

(يرحل الركب من تبوك ويجدون السير ليلاً ونهاراً خوفاً من هذه البرية وفي وسطها الوادي الأخيضر كأنه وادي جهنم أعاذنا الله منها، وأصاب الحجاج به في بعض السنين مشقة بسبب ريح السموم التي تهب، فانشقت المياه وانتهت شربة الماء إلى ألف دينار ومات مشتريها وبائعها. وكتب ذلك في صخر الوادي ومن هناك ينزلون بركة المعظم وهي ضخمة نسبتها إلى الملك المعظم من أولاد أيوب، ويجتمع بها ماء المطر وربما جف في بعض السنين).

أما نحن فلم نخش هذه البرية خشية البطوطي، بل وجدناها هينة بالنسبة لما مر علينا قبل تبوك، ولم نعرف شدتها وقسوتها حتى ضربنا فيها أياماً؛ فأدركنا أن أبن بطوطة كان صادقاً.

ولقد كنا خرجنا من دمشق بشيء عظيم من الزاد، وبمائتي صفيحة من البنزين، فنفذ كله قبل تبوك فجددناه فيها، وحملنا ما استطعنا حمله من الماء، وصحبنا دليلاً جديداً (اسمه محمد الأعرج) طويلاً مخيفاً شيطاناً من شياطين البادية، خبرونا أنه له عند الإمام عبد العزيز منزلة دانية، وودعنا الدليل الثاني صلبي الذي حدثتك عنه من قبل ومن أغرب ما شاهدت في هذه الرحلة، أنه لم أجتمع الدليلان، وكلاهما شيخ قبيلته، طفقا يذكران الماضي، ويستعيد أخباره. ففهمنا أنهما كانا عدويين يتقاتلان ويتغازيان؛ فلما تدينا (أي تبع الشيخ أبن عبد الوهاب مصلح الجزيرة) نبذا ذلك كله، وتمسكا بالأخوة الإسلامية، وألف الله بين قلوبهم بالإسلام كما ألف بين أجدادنا عرب الجاهلية،

فرحم الله أبن عبد الوهاب ورضى عنه وعن كل قائم لله بحجة، وداع إلى دينه بالحكمة والموعظة الحسنة، آمر بالمعروف ناه عن المنكر، ناصر للسنة قامع للبدعة

ومشينا وخرجنا من تبوك سبعين كيلاً لم نجد فيها ما نتحدث عنه، أو نشكو منه، فقد كانت الأرض متماسكة شديدة درجت عليها السيارة بسهولة، وكل ما وجدناه فيها من الصعاب ثلاثة شعاب رملية لا يتجاوز عرض الواحد منها كيلاً ونصف كيل، ورياح شديدة خبرنا الدليل أنها لا تكاد تنقطع من ذلك المكان، ثم بلغنا أوائل الجبال، فدخلنا وادياً متسعاً فيه تلال من الرمال، فلم نسر فيه إلا قليلاً حتى كثرت فيه الصخور، وأزداد ارتفاع الجبال من حولنا، وكانت الصخور هرمة بالية مؤلفة من صحائف رقيقة كصحائف الكتاب، تتفتت من مس الأيدي، والوادي ممتلئ بفتاتها، ثم ظهرت في الوادي تلال من الرمل الأحمر الناعم المتموج، لها منظر أخاذ. واستمرت هذه المشاهد من حولنا مسيرة ثلاثين كيلاً، ثم عرضت لنا جبال فيها الصخر الأسود تخالطه بقع حمراء، وصلنا بعدها إلى أرض مستوية تشبه (بسيطة) التي مررنا عليها قبل أن نصل إلى جبال الطبيق في طرقنا إلى تبوك، ثم أمسى علينا المساء في بقعة أسمها (ساح الغزوان) فبتنا فيها، وبينها وبين تبوك (144) كيلاً، سجلها راقم السيارة (الكيلو متراج) ومعنى (ساح الغزوان) عندهم ميدان المعركة. نزلنا نشهد الشمس هي تجر ذيلها الذهبي على الوهاد والنجاد ثم تتوارى وراء الأفق البعيد، فجلسنا نمتع الطرف بمحاسن المساء في الصحراء ونريح النفس إلى سكونها وصفائها حتى إذا لف الكون الظلام أوقدنا النار وأشعلنا المصابيح وفرشنا الفرش، وكنا في أول الرحلة ننصب سرادقاً نبيت فيه فصرنا ننام تحت السماء بين أحدنا والآخر أكثر من عشرين متراً لا نخاف وحشاً ولا نخشى لصاً، فقد أمن الله الجزيرة بابن السعود حتى صار أمنها حديث الناس، وأنعقد عليه إجماع من أم الحجاز أو جال في بواديها، ولقد ترك أصحابنا التجار (وقد كانوا يسيرون على أثرنا بيننا وبينهم مسيرة ثلاثة) سيارة مترعة بالثياب والطعام وكل ما يرغب فيه البدوي، ويسيل لتصوره لعابه، ورجعوا إليها بعد شهر فما وجدوا شعرة منها أزيحت من مكانها على كثرة من مر بها من أعراب! وما أذكر أننا خفنا أو ارتعنا إلا ليلة واحدة نزلنا فيها على طرف واد، وكانت ليلة حالكة السواد فما شعرت إلا الدليل محمداً الأعرج يجر بيدي، فتبعته حتى ابتعدنا عن الرفقة، فأشار إلى جهة رأيت فيها كمثل المصباحين، فارتعت ودنوت منه فقلت: ما هذا؟ فقال وهو غير مكترث ولا مبال: هذا نمر! فنظرت إليه فإذا هو ساكن الطائر، وهادئ الجوارح كأنه حين يقول نمر يقول كلب

أو قط، ولم أكن رأيت نمراً من قبل إلا في حديقة الجيزة بالقاهرة. فجفت والله وشعرت من الفزع كأن العقال طار عن رأسي ورجع، وما أنا بالجبان ولا الرعديد، ولقد عرضت لي الضبع مرة، فما رأيت فيها كبير شيء، ولكن النمر في البادية في الليل لا يرى منه إلا عينان كأنهما جمرتان؛ لا، إن هذا مخيف، أما الأعرج فما كان منه إلا أن مد بندقيته وأطلق رصاصها على عيني النمر فأخطئهما وانتقل ضوئهما المرعب إلى جهة أخرى، فماد فأطلق ناره فأخطئه، وأبتعد النمر. . . فالتفت الأعرج ليعود فقلت: ويلك ماذا تصنع؟ فقال: وماذا تريد أن اصنع؟ لقد ذهب! قلت: أفلا أوقظ الركب؟ قال: لا، بل نم أنت أيضاً وتركني الخبيث وذهب فنام وأنا اسمع غطيطه؛ ومرت عليَّ ليلة وأين منها ليلة النابغة؟ كاد يقتلني النعاس، وكلما غفوت توهمت النمر يحملني بين أسنانه كما تحمل الهرة الفأرة، فأفيق مضطرباً أنظر حوالي وأنا أتعوذ حتى طلع الفجر وما أدري كيف طلع! هذه هي ليلة الخوف عندي، فمن سخر من خوفي فأنا اسأل الله أن يريه نمراً في المنام لا في اليقظة لينظر ماذا يكون من أمره. قمنا - على عادتنا - في الغلس فشهدنا طلوع الفجر ونحن نعد الطعام ونهيأ للرحيل، ولقد كنا نسمع بالفجر سماعاً ونقرأ صفته في الكتب، ونعلم أن في الدنيا فجراً كاذباً وفجراً صادقاً ولكنا لم نره عياناً ونعرف صادقه وكاذبه إلا في الصحراء؛ وتركنا ساح الغزوان قبل أن تطل الشمس على الدنيا متوجهين إلى الجنوب. فلم نسر إلا قليلاً حتى كثرت من حولنا الهضاب، فكنا نوالي الصعود والهبوط، واستمر ذلك نحو تسعة أكيال، ثم انقطعت الهضاب وابتدأت القور وهي كالأكم ولكنها مؤلفة من الصخر الأسود، وربما كانت القارة صخرة واحدة عظيمة أشبه شيء بالمخروط الناقص (عند أهل الهندسة)، وكانت هذه القور صخوراً مطبقة هرمة كالتي وصفنا آنفاً، فكنا ندور بالسيارات فيما

بينها ونمشي خلالها، وامتدت بنا ستة أكيال، ثم انتهينا إلى سهل مبسوط كالكف سرنا فيه كيلين، ثم عادت الهضاب والقور تتخللها أراض منبسطة وامتد بنا ذلك عشرة أكيال، ثم عرضت لنا حجارة كبيرة ملئت الأرض ولقيت منها السيارات شدة وبلاء، ثم أخذنا بالصعود، نرتقي سفوحاً وعرة صعبة، إلى أن غبنا بين جبلين عاليين صخرهما من ذلك الصخر المطبق الهرم الذي يتفتت، فسرنا خمسة أكيال فانتهينا إلى بقعة قال الدليل إنها ملتقى طريق الجوف (أي دومة الجندل) بطريق المدينة

خلفنا طريق الدومة عن شمالنا ووالينا الصعود خمسة وثلاثين كيلاً أخرى، التقينا بعدها بالخط الحديدي، ووقفنا قبالة محطة صنعاء، وهي قائمة وحدها في البادية، وقد نزعت منها أبوابها وشبابيكها ولم يبق منها إلا جدرانها مائلة تستبكي من كان له قلب، وكان في قلبه إيمان. . . وماذا لعمري يجدي البكاء؟

(لها بقايا)

علي الطنطاوي

إلى معالي وزير المعارف

التعليم الزراعي

دعوتك لما يراني البلاء ... وأوهن رجلي ثقل الحديد
وقد كان مشيهما في النعال ... فقد صار مشيهما في القيود
وكنت من الناس في محفل ... فها أنا في محفل من قرود
فلا تسمعن من الكاشحين ... ولا تعبأن بعجل اليهود
وكن فارقاً بين دعوى أردت ... ودعوى فعلت بشأو بعيد

(المتنبي)

مضى ربع قرن والتعليم الزراعي في مصر - عدا الجامعي منه - واقف في مكانه لا يتحرك ولا يتزحزح، ولا يشعر بأن الحوادث حواليه تنطلق إلى غايتها في عنفوان وتشتد إلى غرضها في عزم. أما هو فقد تخلف في سبات عميق لا يخضع لسنة الطبيعة ولا ينزل على حكم التطور. ولشد ما آلمني - حين قدر لي أن أغتمر في غمار هذا النوع من التعليم - أن أجده متفككاً يتداعى من هوان ومن ضعف؛ ولبثت ما لبثت أسوق النفس سوقاً إلى غاية، وأنا أرى وأحمل النفس على الصمت، ثم أنشر رأيي على صحابتي - بين الحين والحين - فلا أجد إلا الجمود الذي نفثه الاستسلام، والخمود الذي ولدته سخرية الرئيس من آراء مرءوسيه والتهكم بها والامتهان لها، نتيجة التزمت والكبرياء. والآن هبت الوزارة، أو بالأحرى مراقبة التعليم الزراعي، تسعى إلى تهذيب هذا النوع من التعليم وتريد إصلاحه، فأردت أن أتغلغل إلى قراره على أستطيع أن أبدي سوءاته أو أن أنفي عنه خبثه، وما لي بعد ذلك إلا أجر العامل المجد أو جزاء الناصح الأمين. والتعليم الزراعي في مصر - عدا الجامعي منه - يتكون من المكاتب الزراعية ومن المدارس المتوسطة، وسأحاول جهدي أن ألم شعث الموضوع في نظرة فاحصة سريعة.

أولاً: المكتب الزراعي

فكرة الإنشاء

نشأت فكرة المكتب الزراعي - أول ما نشأت - سنة 1935، وابتدأ تنفيذ هذه التجربة في سنة 1936. وفي الحق لقد كانت الفكرة جميلة تختلب النظر والقلب معاً وتستحق الثناء والشكر، لأنها تحقق غرضاً سامياً، وتملأ فراغاً استشعرته مصر الزراعية منذ زمان. وهي في لبها ترمي إلى أن تنشئ طائفة من أبناء صغار الزراع تنشئة تتفق والنهضة الحديثة التي قطعت البلاد فيها شوطاً غير قريب، ثم تدس بهم بين آبائهم وأهليهم لينهضوا بهم وليكونوا نواة للعمل العظيم الذي ينتظرهم بعد، وهو اطراح الطرق الزراعية العتيقة والأخذ بالحديث منها. غير أن شيئاً عدل بالغرض عن وجهته الأولى فأصبح يرمي إلى تخريج فئة من أشباه الموظفين والعمال يقومون على إدارة الدوائر والضياع والبساتين. واتخذت التجربة سبيلها في مكتبين ملحقين بمدرستي الزراعة المتوسطة بالمنيا ودمنهور، والتحق بالمكتبين صبيان أتموا التعليم الإلزامي ليتخرجوا بعد سنوات ثلاث

وارتطم المشروع بالصدمة الأولى، بقلة عدد التلاميذ، فكاد يهوي، أو لا أن حكمة

القائمين على العمل تداركته ففتحت أبواب المكتبين عل مصاريعها لأبناء الفعلة والعمال والصناع والزراع على السواء، فتم عدد التلاميذ عشرة في كل من المكتبين وسار دولاب العمل. . .

نظام الدراسة ومدتها

الآن حق لأبن الصانع والعامل و. . . أن يلتحق بالمكتب الزراعي ليخرج بعد ثلاث سنوات عاطلاً لا يستطيع أن يجد عملاً أو أن يعين أباه أو أن يفيد وطنه أو يحقق الغرض الذي من أجله أنشئ المكتب. وماذا يفيد الصانع أو العامل أو الزراع نفسه أن يلقى أبنه - وهو شب وترعرع - يغدو إلى المكتب ويروح إلى الدار وهو في حاجة شديدة إليه، فراح كل منهم يحول بين ابنه وبين المكتب؛ فأوشك هذا العمل - وهو جليل - أن يتوارى عن الأنظار لولا أن أدركته حكمة الرؤساء مرة أخرى، فخلوا للتلاميذ أن يحضروا متى شاءوا وان يمتنعوا عن الدراسة متى أرادوا، دون أن يبدى الواحد منهم عذراً، أو أن يحتمل لوماً وتأنيباً، أو أن يؤاخذ أبوه؛ فانطلق التلميذ إلى غيه يهرب حين يلذ له الهرب، ويسكن إلى أمه أو أبيه حين يطيب له ذلك. وهكذا تداعت أبسط مبادئ الأنظمة، وأختل نظام العمل، أنهد الركن الركين في سير الدراسة، ولست أدري، ماذا عسى أن يكون هذا الطفل بعد حين وقد تدرج على ألا يأبه لنظام ولا أن يهتم بميعاد! وأندفع الصبي وأبوه يتغاليان - وقد نام الرقيب - فينطوي العام الدراسي كله ولما يحضر التلميذ غير شهر أو بعض شهر، ثم هو لا يحمل مئونة الاختبار ولا نصب الاستذكار والمطالعة ولا يصبر على قسوة العمل، فهو منقول إلى السنة التالية بدون شرط ولا قيد، وتنقضي السنوات الثلاث فإذا الصبي المتخرج في المكتب جاهل يرتدغ في جهله

وتساهل القانون مرة أخرى وأغضى، فصرح للتلاميذ أن يحضروا دروسهم في أسمال بالية، حفاة عراة الرءوس، تأكلهم الوساخة و. . . على حين أن الصوت قد بح من طول ما نادى بوجوب تنظيف الفلاح وترتيب حياته على نسق، أما هنا فأصبح الإهمال والقذارة قانوناً. . . وانطوت السنون فإذا المكتب كله ينظم على أحد عشر بينهم الناظر وليس بينهم أي مدرس، فمدرسو المكتب هم بعض مدرسي مدرسة الزراعة المتوسطة

ومن غريب ما يروى أن ناظر هذا المكتب كان يقضي يومه لا عمل له إلا أن يكتب الرسائل إلى الوزارة ويستقبل الرسائل منها. ولِمَ؟ لأن الصبية يقضون يومهم في الحقل أو في مدرسة الزراعة المتوسطة، فهناك يشهدون التجارب العملية ويعملون بأيديهم، وهنا يتلقون دروسهم على أساتذتهم

عجيب أن نخطئ فنقول إن التلميذ في هذه السن الصغيرة يستطيع أن يدرك التجارب الزراعية الحديثة، أو أن يطبقها ويقارنها بينها وبين القديمة ليعرف الغث من السمين، وعجيب أن نخطئ - مرة أخرى - فنقول أننا نستطيع أن نهيئ هذا الصبي في ثلاث سنوات ليكون زارعاً من الطراز الأول! وإذن يتراءى لنا - لأول وهلة - قصر مدة الدراسة، فما التلميذ بمستطيع أن يستوعب شيئاً، ولا المدرس بمستطيع أن يحشو ذهنه الغض.

منهاج الدراسة

هذا الصبي الصغير قد تثقف ثقافة أولية بحتة لم يلمس فيها رهقاً ولا عنتاً، وهو حين التحق بالمكتب الزراعي لم يقدر أن يحمل ما لا طاقة له به

هنا، في هذا المكتب، يرزح الصبي تحت ثقل ينوء به، فالعلوم كثيرة متراكبة ومتشابكة، ومواد العلم الواحد أو فرع العلم طويلة مملة، فماذا وراء أن يدرس التلميذ في المكتب - مثلاً - منهجاً طويلاً في مسك الدفتر فيه: اليومية، واليومية الزفرة، والأستاذ، وحساب الأرباح والخسائر، والميزانية، والأوراق المالية و. . . مما يهبط عقل التلميذ ويتركه في

حيرة من أمره ويطغي على وقته؟ وماذا وراء أن يتلقن الصبي في مكتبه ما يتلقاه طالب الزراعة المتوسطة سواء بسواء؟ وهكذا نرى المنهاج في كل فروع الدراسة طويلاً ومعقداً ومملاً، حتى منهاج الزراعة نفسها؛ وقد لا يرتبط في كثير من الأحايين بالناحية العملية، وهو إن مت إليها بسبب فلكي يرى التلميذ التجربة مرة واحدة ثم لا يعود؛ في حين أن ما نبتغي هو أن يشهد التجربة ويعملها بيده مرة ومرة ثم لا يبتعد

عنها، وأن يعرف أشياء كثيرة عن منتجات الألبان وتربية الماشية ودودة القز والنحل ثم الصناعات الزراعية مما يجهله الزارع أو يهمله أو لا يعترف بفائدته الحيوية والمادية ثم كيف يأخذ المدرس على عاتقه تدريس مادة لهؤلاء التلاميذ الصغار إن لم يكن بين أيديهم مراجع يرجعون إليها إن أعوزهم الأمر أو خانهم الذاكرة؟ لا ريب أن التلميذ لا يستطيع أن يحفظ ما يلقى عليه وهو كثر؛ والمدرس لا يستطيع أن يرهق التلاميذ بالشراء أو الطبع وهو يعلم أنهم فقراء يجدون مس العوز، وأن المكتب يقوم على تربيتهم مجاناً، بل ويحبوهم بالمأكل والملبس. لابد أن يجد أسهل سبيل يبلغ به غايته، وهو الإملاء

وهنا. . . هنا فقط شغلت الإملاء - دون الشرح - كل وقت الصبي، وانمحى كل مبدأ أو مذهب يرتكن إليه التدريس الفني؛ وإذن ذهب التلميذ يكد ذهنه ليحفظ تجارب وعمليات وأسماء وموضوعات سطرت على القرطاس وعمى بصره عن أن يراها في الحقل. وانتهت الحياة به إلى ما ينتهي إليه كل طالب حين يخرج من مدرسته، لا يتعلم إلا أنه فوق مستوى الفلاح فهو يأبى أن ينزل إليه وهو لا يعرف أن يسمو عنه.

(للموضوع تكملة)

(*)

بمناسبة الأربعين

الفكر الهامد

مرثية المرحوم الدكتور أدهم

عَجَّلْتَ رَحْيَلكَ دُونَ أَنْ تَلْقاني ... يا أَطْيَبَ الإخوانِ والخُلاّنِ
ما كنتُ أَحْسَبُ أَنَّ وَعْدَكَ باللقَى ... وَعْدُ الرُّؤَى خُدِعَتْ به العَيْنانِ
نَبَأٌ فُجِعْتُ بهِ، وَأَيَّ فجيعةٍ! ... أَلْقَى عَلَيَّ كَلاَ كِلَ الأحْزانِ
مَا زِلْتُ أَقْرَأُهُ وَأَخْدَعُ ناظِري ... حَتَّى تحطَّمَ في الشجونِ كِيَاني
أنا مَنْ فَقدْتُ بكَ الوفاَء مُجسماً ... وفَقدْتُ بَعدكَ رَاحةَ السُّلوَان
عُمر كَلمَّاعِ الشَّهابِ طَوى الدُّنى ... حتى تعثَّرَ في دُجى الأشجان
. . .لو مُدَّ فيهِ أتى بأروع آيةِ ... لكنهُ قدرٌ من الرحمن
لي فيكَ أخلاقٌ كَسيماءِ الضُّحَى ... وشَمائلٌ وردِيةُ الأَرْدَانِ
وإباءُ نَفسٍ لم يُطأطأ هَامَةً ... عَنتُ السَّقامِ وَغَارَةُ الحَدَثان
وذَكاءُ ذِهنٍ كالأشعَّةِ نافِذٌ ... فيما وراَءَ دَقَائقِ العِرفانِ
وطُموحُ نفسٍ في تَوَقُّدِ خَاطِر ... وصَفَاءُ فِكرٍ في اتِّقادِ جَنَان
وصَراحَةٌ كالشمسِ تلقي رَأيَها ... حُرّاً بغيرِ تَمَلُّقٍ ودِهان
ما قُلتَ في السِّرِّ الحَصينِ مَقالةً ... غير الذي تُبديهِ في الإعلانِ
مَجدٌ بَنيتَ وما انتظَرْتَ تَمامَهُ ... هذا البناءُ. . فأين أين الباني؟
. . .لي فيكَ هاتيكَ الموَاهِبُ كلُّها ... أما العقائدُ فَهي للدَّيَّانِ
في ذِمَّةِ القَدرِ المعَجلِ هِمَّهُ ... جَبَّارَةٌ في هَيكل مُتَفاني
السُّقمُ ناوَأَهُ فما اسْتحذَي لهُ ... والسُّقمُ جَبَّارٌ على الأبدانِ
ضاقتْ بهِ الدُّنيا وضاقَ خِضَمُّها ... عن ضَمِّ بَحر دائم الفَيَضانِ
لمَّا اقْتَحَمتَ على العقائد بابَها ... وبَسَطْتَ رَأيَ الباحثِ الحَيْرَانِ
قامتْ عليكَ قيامةُ الدنيا لهُ ... والدِّينُ أثمنُ ثَروةِ الإنسان
رَأْيٌ رَأيْتَ وللوَرَى هَفَوَاتُهُمْ ... والمرءُ مهما اشتدَّ في النَّزَوان
فهو الضعيفُ أمامُ قُدْرَةِ خالقٍ ... وسِعَتْ جَلالتهُ مَدَى الأكوان
!وهو الفقيرُ إلى مَرَاحِمِ رَبِّهِ ... ما أحْوَجَ الإنسانَ للغُفرَان
لوْ ناقَشُوكَ وجَادَلوكَ بحِكمةٍ ... وهَوَادَةٍ، وتَرَفُّقٍ، وَلَيان
لرَجعتَ عن رَأيٍ تَبيَّنَ خِطؤُهُ ... ونَزلتَ عن دَعْواك بالإذعان
لكنَّهمْ شَنُّوا عليك حروبُهم ... ولقوكَ بالإيذاءِ والعُدوان
ما الشَّكُّ شَكَّكَ إنما هي نَزْعَةٌ ... من عالَمٍ باغٍ على الأديان
وجَدَتْ إلى النَّفْسِ الطَّرِيئةِ مَنْفذاً ... فَتَسَلَّلَتْ منهُ إلى الوجدان
والشكُّ سُلطانٌ إذا ماشَيْتَهُ ... سُدَّتْ عليكَ منافذُ الإيمان
والنفسُ في فَجْرِ الشبابِ صَنيعَةٌ ... لجديدِ رأى أو لِسِحْرِ بيان
سَابَقْتَ حَيْتَكَ يَا ضَحِيَّةَ فِرْيَةٍ ... وَأَدَتْ شَبَابَك وهو في الرَّيْعَانِ

هاجت شُعُورَك وَاسْتَثَارَتْ حُرَّةً ... ثارت على القُصْبَان والسَّجَّان
ما ضاق صَدْرُكَ والسَّقامُ تهدُّهُ ... إلاّ بِقَوْلِ منافق أو شَاني
قَوْمٌ أَثَارُوها عَليك نِكايةً ... لِشِفاءِ ما في النفسِ من أضْغَان
زَعَمُوك داعِيَةً. . وَأَنتَ مُبَرَّأٌ ... عن كلِّ ما زَعَموا من البُهْتَان
الْحِقْدُ دَاءُ الشرقِ أعْيَا بُرْؤُهُ ... طِبَّ الأَسَاةِ وَحِكْمَةَ الكُهَّانِ
العبقريةُ من أَذَاهُ جريحةٌ ... في كلِّ مَرْحَلَةٍ، وكلِّ زَمان
. . .مَنْسِيَّةُ الآثارِ، ضائعَةُ الصَّدَى ... مَخذولةَ الأنصارِ وَالأعوان
جَحَدوُا نُبوغَكَ وَادَّعَوْهُ خُدْعَةً ... وَالسِّنُّ بُعض وَسَائِلِ النُّكران
ما السِّنُّ مِيزانُ النُّبُوغِ وَإنما ... هو نِعْمَةٌ تَسْمُو على الأَوْزَانِ
!كم في الشيوخ المعْرِقينَ سَذَاجَةٌ ... وَرَجَاحَةٌ في الفِتْيَةِ الشُّبَّان
خَذَلوك والدنيا إذَا لم تُسْقِها ... كأسَ الرِّياءِ جَزَتْكَ بالْخِذلان
من لي بِلَيلاتِ المصِيفِ وأُنْسِها ... وظِلاَلِ أَيَّامٍ خَلَونَ حِسَان
ومَجالِسِ اللهْوِ البريءِ يَزِينُها ... عَقْلُ الحكيمِ وَرَوْعَةُ الفَّنان
!وَمَطارِحِ الحُلُم البعيدِ تَرُودُها ... مِنَّا رَغائِبُ في غَدٍ وأماني
كأسان مِن صَفْوِ المُنَى سُقِيَاهُا ... قَلْبَانِ في الإحساسِ مُؤْتَلِفَانِ
مَرَّتْ ليالي الصيفِ وهي سريعةٌ ... ومضى ربيعُ العُمْرِ دون تَوَانِ
وَتَفرَّقَ الأحبابُ عن أحبابهم ... فإذا الذي كانوا رُؤَى وَسْنَان
!طُوِىَ البسَاطُ وغُيِّبَتْ أَحْلاَمُهُ ... فاليَوْمَ لا كأسي ولا نَدْمانى
حسن كامل الصيرفي
من كبرياء الحب!
!. . .ويا أنت
(. . . وهذه يا أنت تحي ة ىعلى الفراق الذي لا لقاء بعده؛
. . . .فقد وضعت بيني وبينك سداً ما ينفك قائما حتى أموت
(!!وهنيئاً لي . .
(هو)
!سَئِمْتُ الهناَء فلا تَعْجَبي! ... فَإنَّ شَقاَء الهوَى مَطْلَبِي
وَأَحْبَبْتُ فيكِ جَفافَ الحَيَا ... ةِ وَبَطْشَ الْقَضَاءِ فلا تَغْضَبي
وَمَا حَاجَتي لِلَّنعيمِ المقُي ... مِ إذا لم أكُنْ فيهِ بالمتُعْبِ؟
خُلِقْتُ لأَعْشَقَ فيكِ الْبَغي ... ضَ وَأَتَرُكَ ما فيكِ من طَيِّبِ
وَكُلٌّ لهُ مَذْهَبٌ في الْغَرا ... مِ فلا تَسْخَرِي أَنْتِ من مَذْهَبي
أَخَذْتُ لِنَفْسِيَ ما تَكرهَي ... نَ وَمَالِي بالْفاِتنِ المُعْجِبِ؟
وَخَلَّفْتُ للنَّاسِ ما يَشْتَهُو ... نَ وكِم فيك للنَّاس من مَأَرَبْ
شَقِيتُ لأَسْعِدَهُمْ بالْجَمَا ... لِ وَلكِنْ سَعِدْتُ فلا تَعْجَبي
فَقُلْتُ:وَدَاعاً زَمَانَ الرَّخا ... ءِ فما هِمْتُ في الْعَيْشِ بالمخصبِ
أُحِبُّ الجَدِيبَ وَرَعْىَ الجَدِي ... بِ فَأَنْزِلُ قَلْبِيَ بالْمُجْدِبِ
فَيَا أَنْتِ! أَيْأَست بي شَاعرِي ... وَحَيَّرْتِ لِي في الدُّجَى كَوْكَبِي
!وَهَبْتُكِ لْلِبيدِ أَنْشُوَدةً ... فَمَا كان لَحْنُكِ بالْمُطْرِبِ
!وَأَنتِ تَنَكَّرْتِ لِي بْعدَمَا ... تَغَرَّدْتُ في قَفْرِكِ الْمُلْهَبْ
!تَعِيشينَ لِلجَدْبِ لَكِنَّنِي ... أُرِيدُكِ لِلْوَحْيِ فِي مَوْكِبي
هَنِيئاً لِيَ الْقُرْبُ لاَ يَرْتَجَى! ... فَبُعْدَكِ إنْ طَالَ مِنْ مَكْسَبي
!وَيَا أَنْتِ! إنِّي مَلَلْتُ الطَّلاَ ... لَ وَحُبَّكِ هَذَا الذي ظَلَّ بي
أَسِيرُ بهِ في ضِيَاءِ الحَيَا ... ةِ فَيُلْقِى بقلْبي إلى غَيْهَبِ
وَأَشْدُو لهُ فِي سَمَاءِ الْمُنَى ... فَيَمزُجُ بالْيأْسِ لي مَشْربي
بَرِئْتُ من الحُبِّ يَا تَوْبَتِي ... فَهَيَّا بِرَبِّكِ عَنِّي اذهَبِي
(القاهرة)
محمود السيد شعبان
هُنا. . .
هُنا يا روض أحلامي ... أذاب العطر أنفاسي
هنا يا نبع إلهامي ... شربتُ صُبابة الكاسِ

هنا قابلتُ حوائي ... على أعشابك الخُضر
وعند الظل والماءِ ... وبين خمائل الزهرِ
هنا كانت أمانينا ... ترفُّ كنفحة الوردِ
هنا كانت تغنينا ... طيورٌ من ربى الخلدِ
ولكن. . . آهِ من دهري ... هوَى بالسوسن الغضّ
وأذوي زهرة العمرِ ... وأخرس بلبل الروض
فوا لهفي عل صوتٍ ... شجيٍّ كان يشجيني
أصابته يد الموت ... فكاد الحزن يبليني
سأبكي والربى تبكي ... معي بفؤادِ مفطور
أبعد الزهر والأيكِ ... يضم القبر عصفوري
(محلة مرحوم)
حامد الشريف
قصة الفيتامين
تجربة غذائية عرضية
في ربيع عام 1915 قبيل دخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب الماضية ألقت الباخرة البرنس ولهلم الألمانية مرساها أمام الساحل الشرقي لأمريكا الشمالية. وكانت تعمل هذه الباخرة قبل الحرب في خدمة المسافرين والنقل، فأصبحت بعده تؤدي واجبها في البحرية الألمانية كطراد تجاري وأجري تعديلها تبعاً لذلك فحولت ردهاتها وأبهاؤها إلى مستودعات للذخيرة والوقود ونصبت فوق ظهرها المدافع الضخمة
تغلبت البرنس ولهلم على الكثير من البواخر المعادية واستولت منها بحكم الغلبة على وافر من المواد الغذائية من دقيق وزبد وخبز جاف ولحوم وخضر جافة محفوظة. وبهذا أصبح الذين على ظهرها في سعة ومتعة غارقين فيما استولوا عليه من غذاء ظهرت بعدئذ على رجالها حالة مرضية لم تكن منتظرة لمثلهم في هذه السعة والوفرة الغذائية، وطرأت على الكثير منهم أعراض مرضية غريبة كنوبات عصبية تصيب البعض، واضطرابات في القلب والتنفس، وتضخم في المفاصل عند البعض الآخر، ووقفت إصابتا كسر في العظام بلا شفاء يرجى رغم العناية والمحاولات التي بذلت في هذا السبيل. وذكرت صورة المرض هذه بالأقصوصة الشائعة حينذاك عن مرض البري بري الذي أصاب رجال المركب الشراعي الذين كان قوام غذائهم المواد المحفوظة. ولكن شتان بين وجهي الشبه في الحالتين ولا سيما أن رجال البرنس ولهلم يتمتعون بغذاء منوع وعلى حساب العدو هانئين بوافر من الدقيق والبسكويت والبطاطس والزبدة وأنواع الجبن حتى البن والشاي كان في متناولهم بلا حساب
ذهبت محاولات طبيب الباخرة وقائدها في علاج المرضى أدراج الرياح حتى امتلأت بهم عيادة الباخرة التي تحولت إلى مستشفى عائم في أمد وجيز. وعندما طوح المرض بمائة وعشرة من ملاحي الباخرة البالغ عددهم خمسمائة لم يجد طبيب الباخرة ولا قائدها بدا من اللجوء إلى أقرب ميناء محايد. وفي 11 أبريل من نفس العام ألقت الباخرة مرساها أمام ميناء نيوبورت نيوز الأمريكي
سرى هذا المرض العجيب إلى الأوساط العلمية الأمريكية مسرى البرق وتقلب على ظهر السفين الكثير من العلماء والأطباء كي يشاهدوا هذه الحالة الشاذة عن قرب ويتبادلوا الآراء، والتعليلات الممكنة، وجاء على لسان بعضهم مرض البري بري الذي سبق ذكره وتعليل أثره في السطو على الأعصاب بكائنات صغيرة حية، وهكذا تضاربت الآراء واختلفت الأفكار حول إمكان انتشار هذا المرض بالعدوى أو غيرها. ولم يهتد طبيب أو مفكر إلى أي نتيجة تفيد الموقف، لأنه ما من أحد حتى هذه السنة كان ليهديه التفكير إلى أنه قد ينقص الغذاء الكثير المتنوع تلك المركبات الدقيقة اللازمة لإتمام عمليات التفاعل الكيميائي في الجسم
كان أسبق الناس في التفكير والتطلع إلى هذا النحو الجديد الفسيولوجي الإنجليزي إذ ذكر في محاضرة له في مؤتمر الطب العالمي الذي عقد في لندن في عام 1913 نتائج تجارب غذائية قام بها في كمبردج على الفيران، وكان قد قدم لها غذاء خاصاً

يحتوي عل جميع المواد اللازمة التي يقرها علم التغذية من مواد زلالية ودهنية ونشوية ومعدنية مضبوطة وفي شكل واحد، وبالرغم من هذا نفقت الحيوانات في وقت قصير ولقد جاءت آراء هوبكنز هذه سابقة لأوانها لأن الأذهان لم تكن لتلفقه وتعي بعد ارتباط تلك التجارب الغذائية بتلكم المواد التي ما زالت مجهولة. ولم تجد زيارات الأطباء والعلماء المرضى نفعاً، وعجز الجميع عن تقديم أية مساعدة فعالة تقي هؤلاء البحارة مصرعهم البطيء المؤلم. وفق بعدئذ الكيميائي النيويوركي ألفرد ماك كان في تتبع آثار النكبة التي حلت برجال الباخرة. وساعده على ذلك قراءة ما تركه هوبكنز عن اختباراته، وبفضل اختباراته الشخصية ودراساته لعلم التغذية ظهر له ما قد ينقصه غذاء هؤلاء المرضى ويقض مضاجعهم. وبمجهود أمكنه الاتصال بطبيب الباخرة، ودعا طاهيها إلى الحديث، فظهر له بالتحري والسؤال انه برغم توفر اللحوم المحفوظة والدقيق ولبن العلب والخضراوات الجافة لم يحصل البحارة المنكودون على فواكه طازجة ولم يتذوقوا خضراً نيئة، عندئذ صاح مظفراً وقال مخاطباً طبيب الباخرة الذي وقف مشدوهاً: لقد سلبت القوة الحيوية الطبيعية من جميع أنواع الغذاء الذي قدم لهؤلاء البحارة التعساء، فاللحوم المجففة والبطاطس قد فقدت أملاحها الفسفورية عند تحضيرها للتعبئة ومعالجتها بماء الأملاح الحمضية لحفظها، كما فقدت الخضراوات قوتها الحيوية بمعالجتها بالقواعد، كما فصل الدقيق من أغلفته ونزع من الأرز قشوره، وبهذا لم تكن التغذية على ظهر السفينة طبيعية مستوفاة متنوعة، ونصح بتغيير قائمة الطعام وإضافة الخضر الطازجة والفواكه الطازجة وعصيرها واللبن الكامل واللحوم غير المحفوظة. تبادل طبيب الباخرة وطاهيها النظرات مستبعدين صحة ما يدلي به هذا الشاب ولكن ما يمنعهم من تجربة ما يقول وقد أعيتهم الحيل، ولتكن محاولة أخيرة عل فيها الشفاء وبإتباع قائمة الغذاء الجديدة تبد الحال وسرى في المرضى تيار الصحة وظهرت عليهم أعراض الإبلال فهبطت أورام المفاصل وخف ضغط الأعصاب وزحف الذين أقعدهم المرض. وبانقضاء أسبوع واحد على نظام التغذية الجديد الذي أشار به ماك كان غادر مستشفى الباخرة الفوج الأول من المرض، وبمضي أسبوعين وقف المقعدون ومن حل بهم المرض ودب في الجميع دبيب الحياة

لقد كان في المأساة التي حلت برجال الطراد وأودت بأرواح مائة وعشرة من الأنفس المخاطرة القوية أسى وعبرة ومثل واضح لقوم تمنعهم وفرة الغذاء ولا ترف العيش من التعرض لأصناف الهلاك والضعف إذا ما ساب من هذا الغذاء القوة الحيوية الغامضة التي أودعتها الطبيعة إياه، وكم كان جميلاً وطبيعياً من الإنسان الأول الذي عاش على الفطرة ونما مع الطبيعة أن كان يحصن نفسه ضد هذه العوارض إذا أقبلت عليه بمضغ الخضراوات وتبلغ الأعشاب كي يقاسمها بعض ما أودعتها الطبيعة من قوى حية كامنة

أما بعد ذلك وبدافع التطور والمدنية فقلما يفعل الإنسان ما كان يفعله السلف الغابر، بل قد ادعى الأفضلية على الطبيعة فعمل على تهذيب ما تهبنا من غذاء عالجه للحفظ تارة بالتسخين وأخرى بالغلي أو التعقيم أو التمليح أو الغسل بالحوامض والقلويات حتى التكرير والتبييض والتلميع. وبهذه العمليات القاسية أبعد الإنسان من غذائه هذه المواد التابعة التي لم يعرها أي انتباه ما دام يرضي الغذاء الذي يستسيغه ويروقه، والذي يعتقد احتواءه على النسب اللازمة من المواد الغذائية والوحدات الحرارية (الكالوري).

(يتبع)

البريد الأدبي

!ما أسعد الأشقياء في الحب

لا أعرف من هو الأستاذ صلاح الدين المنجد الذي يكتب إلى من دمشق، ولا أعرف كيف فاتني التعرف إليه وقد زرت (الرسالة) دمشق أربع مرات وشربت فيها أكواب الرحيق

وهل يهمني من أمره أكثر من العرفان بأنه استجاب لدعوة الوجود فهتف بالحب؟ تلك وثيقة روحية تصل بيني وبينه على بعد ما بين القاهرة ودمشق، فإن كنت لم أره بعيني فقد رأيته بقلبي. وإن أخطأ القلب في وزن مزاياه فلا ندم ولا أسف، لأنه على

كل حال قد نشأ في رحاب (جيرون) وإن كان في روحه وقلبه أعظم مما قدرت فما ذلك أول حظ يفوتني في دنياي، فقد فاتني الأنس بملاعب الإسكندرية في هذا الصيف، وفاتني النعيم برؤية اللؤلؤ المنثور فوق مرابع دمياط، وحرمتني المقادير نعمة العتب على (عيون المها وراء السواد)

وماذا يريد هذا الأديب من توجيه القول إليّ وهو يتحدث عن ظلال هواه؟

لعله سمع أن في مصر كاتباً فضحه الحب فلم يُعد يبالي أكاذيب اللائمين، وأقاويل العاذلين، فحدثته النفس بأن يوجه إليه القول، والعاشقون رفاق

هو ذلك، يا رفيقي، ولكن دنيا القاهرة غير دنيا دمشق، ورحم الله الشاعر عبد الحليم المصري إذ يقول:

مصرٌ بنا ضاقت فما حالكم ... في قطركم يا شعراء الشآمْ

فأنت في بلدك يهتف بك الشوق فتتذكر بلواك بالحب ثم لا تجد من يعذلك فتقول: هذا كاتب يمزح في أوقات الجد فيتحدث عن الصبابة والوجد في أيام الحرب

وحالي غير حالك، يا رفيقي، فدنيانا في مصر تخضع لخطوب وصروف خلقها الحقد على البلابل العنادل، ليخلو الجو لنعيب البوم، من أن البوم قد انعدم في مصر منذ أجيال طوال، كما انعدمت الثعالب والذئاب، ولم يبقى في بلدنا ما يلهو به الصائد غير تعقب أسراب الظباء في طريق الهرم أو طريق السويس

وقد أردت أن أتغنى بأزهار الصباحة في وطني، الوطن الذي لا تقع فيه العيون على غير ما يزيغ البصائر ويضل العقول، فلم أظفر مع طهارة القلب بغير الاصطباح باللوم والاغتباق بالتثريب، مع أن وطني هو الذي أبتدع النشيد المحبوب:

ومع أن الجمال في مصر لا يقاس إليه الجمال في أي أرض ،(صيد العصاري يا سَمَك)

إلا حين تذكر مسارح الغزلان في الشام وفلسطين ولبنان والعراق

فإن باركتم (الجبل القائم كالفارس الأسمر الجميل) فهي عُلالة تنسون بها أن مصر لها في دولة الحسن سلطان لن يزول، لأنه المحور الذي ترتكز إليه (وحدة الوجود)

كل ما في مصر جميل، ولكن أين الشعراء؟

كان للشعر الوجداني دولة أيام الوزير محمود سامي البارودي بطل القلم والسيف، ثم صار الحديث عن الحب بدعة لا تليق برجل من الوزراء، فأين من يُبلغ أهل مصر أن الحديث عن الحب لم يغض وزير المعارف الأسبق في العراق وهو معالي الأستاذ محمد رضا الشبيبي، على أيامي في صحبته أطيب التحيات؟

لا بد من يومٍ أغر في خدمة وطني، وهو اليوم الذي أهتف فيه بأن مصر هي الوطن الأول للشعر والجمال والفنون

بأي حق يهتف الهاتفون بالحسن في دمشق على حين يخرس الشعراء عن الهتاف بالحسن في القاهرة، وهي بلا جدال عاصمة الشرق؟

أيكون بلدك أجمل من بلدي يا صلاح الدين حتى يصح لي أن أسكت ويجب عليك أن تنطق؟ نهركم هو بَرَدَى الذي يصفق بالرحيق السلسل

وأين بردى من النيل؟ وهل في الدنيا كلها نهر سبق النيل إلى المدنية وإلى الحديث عن أوطار القلوب في الغسق والشفق؟

وهل يكون الفرات في الطغيان أعظم من النيل في الوفاء؟

وهل ترى جمال العراق ينسيني جمال وطني، الوطن الذي أجد الظلم فيه أعذب مذاقاً من العدل، مع الاعتراف بأن شعراء العراق سبقونا إلى وصف النشوة برحيق الوجود؟

وأين الأرض التي تخرج الثمرات أربع مرات في العام الواحد كما تصنع أرض مصر، مصر التي ولد فيها موسى منشأ فيها عيسى وصاهرها محمد، عليهم أفضل الصلوات؟!

هي مصر التي تجهل عذابي في هواها، وهي غادر ظلوم

فلا تحسبوا هنداً لها الغدر وحدها ... سجيَّةَ نفسٍ كلُّ غانيةٍ هندُ

وإن عشت فسأنتقم للوطن الذي يظلمني من الذين يجورون عليه فيزعمون أن للحسن دولة في غير شارع فؤاد بالقاهرة أو طريق فاروق بالإسكندرية أو شارع عباس بمصر الجديدة أو طريق البحر في شبين الكوم أو شارع الحمراء في أسيوط.

زكي مبارك

حول كتاب (الديارات) للشابشتي - 1

ذكرت في تضاعيف الشروح التي علقت بها على مقالتي (يوم من أيام المتوكل) في العدد 269 من (الرسالة)، أن (الشاذ كلاه) معناها (مهرجان التاج) وذلك نقلاً عمن يفقه اللغة الفارسية عندنا. على أنني عثرت في مجلة المجمع العلمي العربي (ص 137 من الجزء الخامس من المجلد الثالث) على مقالة لأحمد تيمور باشا عن الألفاظ العباسية التي ذكرها صاحب (نشوار المحاضرة)، ذهب فيها إلى أن معنى (شاذ) بالفارسية (الفرح والسرور) وأن معنى (كل)، وأصلها (جل) الورد. فيكون معنى (الشاذ كلى): (نوع من أنواع اللهو كان يعمل سروراً بالورد) وضبطها (شاذ كلي) بألف مقصورة، وما أدري ما الفرق بين (شاذ كلى) و (شاذ كلاه) من حيث انتهاؤها وما ذهب إليه العلامة تيمور باشا هو أصوب وأقرب. . . مما ذهبت إليه فأثبته إقراراً للصواب.

2 - (أجهل من الكناني)

قرأت في (ثنايا) مقالات الأستاذ علي الطنطاوي - التي يصف فيها رحلته إلى الحجاز وصفاً سهلاً رائعاً - مثلاً أستشهد به وما أدري من أين جاء به. فقد قال: (إن دليلهم كان أجهل من الكناني وأصحابه في اللغة العربية. . .). فهل للأستاذ أن يبين لنا سيرة هذا الكناني، ويدلنا على مصدر هذا المثل، ويجلو لنا الوقائع التي دفعت العرب إلى القول (أجهل من الكناني) فأنا لم أجد فيما بين يدي من كتب من يذكر مثل هذا الاسم وهذا المثل. وله مني الشكر والإعجاب.

(دمشق)

صلاح الدين المنجد

إلى الأستاذ صلاح الدين المنجد

سلام الله عليك ورحمته. وبعد فأني الآن مهاجر من القاهرة إلى المنصورة. ولو كنت في القاهرة لما استطعت أن ألخص شيئاً من كتاب (كتاب الشعور بالعور) للصلاح الصفدي لأنه من نفائس دار الكتب المصرية وذخائرها التي حفظتها الدار الآن في مكان حصين صيانة لها من (الغارات الجوية).

وموعدنا إن شاء الله زوال الحالة الحاضرة.

محمود حسن زناتي

أمين الخزانة الزكية

هي كنية الإمام الصادق

جاء في كتاب (نقد النثر) لأبي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي في الصفحة السادسة: (وروى عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال لهشام: يا هشام إن لله حجتين حجة ظاهرة وحجة باطنة، فأما الحجة الظاهرة فالرسل، وأما الباطنة فالعقل). غير أن الشارحين الدكتورين أو الأستاذين - على التغليب فيهما - طه والعبادي علقا في أسفل الصحيفة المذكورة على كنية (أبي عبد الله) بأنها كنية الحسين بن علي عليهما السلام، والحق أنها كنية الإمام جعفر بن محمد الصادق، إذ نجد الخطاب في هذه الرواية لهشام، وهشام هذا هو أبن الحكم أحد متكلمي الشيعة، وكان معاصراً وتلميذاً للإمام الصادق

على أن ما تحمله الرواية من أسلوب ومن تقسيم للحجة إلى ظاهرة وباطنة ومن بيان حجية العقل، كل هذا مما يلائم العصر الذي عاش فيه الصادق لا العصر الذي عاش فيه الحسين عليه السلام.

(بغداد)

(ع)

كتاب قصص القرآن

ظهرت الطبعة الثانية من كتاب قصص القرآن لبعض الأفاضل من المدرسين بقيادة الأستاذ الأكرم محمد أحمد جاد المولى بك. وقد أهدي إلي فقرأته فأعجبت به إعجاباً شديداً وحمدت لهؤلاء الأخوان عاطفتهم النبيلة التي حدت بهم إلى إبراز مثل هذا السفر. وأي عمل أنبل من تحبيب القراء - والناشئين منهم خاصة - في قصص الرسل الكرام. وقصص غيرهم ممن ذكرهم القرآن للعبرة والموعظة؟

لقد وفق الكرام الكاتبون في عرض كل قصة مستقلة غير مفرقة، وحالفهم النجاح في معظم القصص من حيث طريقة العرض ومن حيث الأسلوب العربي الخالي من

شوائب العجمة، والدقة في العبارات، وتحري الصواب والمعقول من آراء المفسرين وذلك جدير بمن كان مثل الأستاذين علماً وفضلاً وخلقاً
غير أني أرى في الكتاب مآخذ لا تؤثر كثيراً في قيمته وأثره. ومن ذلك أنه خال من مصور تبين الأماكن التي وردت في القصص، ومقدمته خالية من آراء المستشرقين في قصص القرآن، مع أن جاد المولى بك عليم بما في هذه الآراء الغربية من مغالطات، فلِمَ لم يرد عليها وهو خير من يستطيع ذلك؟ وقد خلت المقدمة من ذكر الغاية التي من أجلها وردت في القرآن أنباء الرسل، وهي تثبيت فؤاد النبي، لتكون له أسوة حسنة في إخوانه من رسل الله: (وكلاًّ نقص عليه من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك). ومما بدا لي فيه أن القصة قد تذكر في أكثر من سورة فيكتفي من ذلك بسورة واحدة في الذيل، مثل قصة سيدنا صالح
هذه بعض هفوات قد لا يراها غيري كذلك وأرى تلافيها أولى من تركها، وكفى هذا السفر جودة أن تعد عيوبه
وليقرأ القارئ قصة طالوت مثلاً أو قصة موسى أو عيسى أو شعيب، فسيجد لساناً عربياً مبيناً، وقصصاً مرسلاً محبوباً شائقاً سائغاً وحكمة عالية بالغة، وعبرة لأولي الألباب.
(القاهرة)
عبد الرزاق إبراهيم حميدة
حول مقال
سيدي وأستاذي:
جاء في مقالة الدكتور زكي مبارك التي نشرت (بالرسالة) في العدد 370 تحت عنوان (الحديث ذو شجون)، أنه حين عرض على الدكتور مشرفة بك عميد كلية العلوم الخطاب الضائع قال له هذا العميد: العواطف من القوى الأساسية في حياة الإنسان، ولا بد لتلك القوى من غذاء
فقال الدكتور المبارك:
العواطف تحتاج إلى غذاء كما تحتاج العقول؟ هذه فلسفة لم أسمع بها من قبل، وأوحى إلى القراء بما يأتي:
الدنيا في حرب فلا تصدقوا الدكتور مشرقة وإن كان عميد كلية العلوم، واقضوا أوقاتكم كلها في متابعة أخبار الحرب بين الإنجليز والألمان، فأخبار الحرب هي زاد العواطف والعقول في هذه الأيام العجاف
ففهمت من هذا القول أن العواطف تحتاج إلى غذاء كما تحتاج العقول، وهذا ما صرح به الدكتور مشرقة وأنكره عليه الدكتور مبارك وحث القراء على عدم تصديقه. وكل ما هنالك أن الغذاء في الأول لم يعين ولم يقصر على نوع، وفي الثاني بينه الدكتور زكي بأنه أخبار الحرب في هذه الأيام
فما هذا الإشكال؟ آمل أن يفسره لنا أستاذنا صاحب الفكرة تفسيراً يطل بنا على مقصده السامي، ويهدينا سواء السبيل، ولا زالت عند حسن ظنه بي، والسلام عليكم ورحمة الله.
(الزيتون)
فوقية كامل
كتاب الشعور بالعور
قرأت في الرسالة عدد (367) كلمة للأستاذ صلاح الدين المنجد من دمشق بعنوان (أصحاب العاهات ونوادرهم) يقول فيها إن نخبة من الأدباء تجمع الآن أخبار أصحاب العاهات ونكاتهم وأنها لم تعثر إلا على القليل من أخبار العوران وملحهم. ويسرني أن أنقل إلى حضرة الأديب المنجد أن في المكتبة الخالدية في بيت المقدس مخطوطاً فريداً اسمه (كتاب الشعور بالعور) تأليف الأستاذ صلاح الدين أبو الصفا بن أيبك بن عبد الله الصفدي الشافعي وهو صاحب كتاب نكت العميان الذي نشره المغفور له العلامة أحمد زكي باشا في مصر سنة 1910
أما المخطوط الذي نحن بصدده فعدد صفحاته 190 وقد كتب سنة 841 للهجرة ونسخ بخط الرقعة بالحبر الأسود وهو يشتمل على ست مقدمات ونتيجة ويقول المؤلف (إنني سميته كتاب الشعور بالعور ورتبته على مقدمات ونتيجة، المقدمة الأولى فيما

يتعلق بذلك من اللغة، المقدمة الثانية فيما يتعلق بذلك من حيث التصريف والإعراب، والمقدمة الثالثة فيما يتعلق بحديث الدجال وكونه أعور، والمقدمة الرابعة فيما له بالأعور علاقة من الفقه، والمقدمة الخامسة فيما جاء من الأمثال والنوادر في حق الأعور وغير ذلك، المقدمة السادسة فيما جاء من الشعر في العور والعوران، النتيجة في سرد من كان أعور على حروف المعجم) انتهى. هذا وقد ترجم المؤلف في هذا الباب سيرة سبعة وسبعين أعور

ولد المؤلف سنة 696 هـ وتوفي بدمشق سنة 764 هـ وقد ترجمه السبكي في الجزء السادس صفحة 94 وجاء ذكره في الدرر الكامنة لأبن حجر الجزء الثاني في حرف الخاء صفحة 87. وللمؤلف تأليف كثيرة بعضها مطبوع وبعضها مخطوط ومن أهمها كتاب الوافي بالوفيات وهو لم يطبع.

(بيت المقدس)

أحمد سامح الخالدي

القصص

هَّمام

للأستاذ محمد سعيد العريان

أشكر للآنسة الأديبة (قدرية ف) رأيها في قصة (البعث)) المشورة بالعدد 362 من الرسالة، وأرجو ألا يقع في وهمها أنني أصف بها أحداً بذاته من أدبائنا، وإن كان موضوعها يتصل بحياة كثير من أدباء العربية يعرفهم القراء بآثارهم ويجهلون كثيراً من شئون حياتهم)

عندما يهم قطار الصعيد أن يجتاز النيل من شاطئ إلى شاطئ عند قناطر نجع حمادى في طريقه إلى القاهرة - يرى الراكب عن يمينه قرية صغيرة يطيف بها الجبل الشرقي من ثلاث جهات ثم ينفرج عن سكة متعرجة تصل بين القرية والنهر، وتقوم على جوانبها باسقات النخل حداً فاصلاً بينها وبين الصحراء الشاسعة الممتدة بين النيل والبحر الأحمر

في هذه القرية كان يعيش (هَّمام) يكدح لنفسه ولزوجه عاملاً في مزرعة العمدة، كما يعيش عشرات مثله قانعين من العيش بالكفاف، راضين من متاع الحياة بنعمة الحياة نفسها!

ولكن هَّمام لم يكن من القناعة بحيث يرضى من الحياة بما يرضى سواد الفلاحين الذين يعملون معه أجراء في مزرعة العمدة؛ فقد كانت له نفس طلعة تتسامى بها أماني جسام؛ وكان من المنزلة عند سيده بحيث يتهيأ له أن يكون أقرب إليه؛ فرأى ألواناً من العيش وفنوناً من اللذة خيلت له ما خيلت من الأوهام وأنشأت في نفسه ما أنشأت من المنى

ولم يكن قد مضى على زواجه (بمسعدة) غير بضعة أشهر حين جلس إليها ذات مساء يحدثها وتستمع إليه:

(مسعدة!. . . وسيكون لنا دار ونخيل، ومزرعة على الساحل إلى جانب مزرعة العمدة، وسأكون وتكونين. . .!)

واستمعت إليه زوجته فرحانة، وحلقت بجناحيه في وادي المنى، وراحت تعد له عدة الرحيل إلى القاهرة حيث يهاجر ليلتمس الغنى ثم يعود. . .

وخرج همام من القرية يحمل على كتفه خُرجاً فيه زاده ومتاعه حتى بلغ شاطئ النهر، وخلف زوجته في القرية تنتظر

وكان ثمة رمث من جرارٍ مشدودة عنقاً إلى عنق يتأهب لرحلة نهرية إلى القاهرة، فوضع همام متاعه عن كاهله وأتخذه مركباً إلى حيث ينشد أمانيه

وأرسى المركب بعد أيام على ساحل (الفسطاط)، فنزل هما يضرب في شوارع القاهرة ومتاعه على ظهره، حتى انتهى إلى مستقره في غرفة في دار في حي (بولاق) يساكنه فيها بضعة نفر قدموا لمثل غايته من بلاد متفرقة في الصعيد الأعلى فألفت بينهم الغربة وجمعتهم وحدة الأمل. ومضى يلتمس الرزق بساعدٍ قوي وعزم صليب، فلم يلبث أن انضم إلى جماعة من الفعلة في أعمال البناء، يمضي شطر نهاره يحمل مكتل الآجر صاعداً هابطاً على خشب مشدود من أسفل البناء إلى أعلاه ومن

أعلاه إلى أسفله، ينضح العرق جبينه ولسانه لا يفتر عن الغناء، يصف أشجان الحبيب النازح إلى أمل يرجوه ومن خلفه حبيب ينتظر؛ فإذا حميت الظهيرة فاء إلى ظل جدار قائم يتناول طعامه لقمة من خبز قديد وملح جريش وماء؛ ثم يستأنف عمله. . .

لم يكن العمل الذي يزاوله همام مما أَلِفَ حين كان يعيش بين أهله في القرية المطمئنة في أحضان الجبل الشرقي، ولكنه كان أحب إليه لأنه كان أكثر جدوى عليه. واستطاع أن يجمع من فضل أجرته بعد شهرين جنيهاً وبعض جنيه، أرسل منه ما أرسل إلى زوجته وادخر الباقي لنفسه، ودأب على ذلك من بعد؛ فكان لزوجته من فضل أجرته كل شهر نصيب معلوم، ولصندوق الادخار ما بقى. . . ولما جاءه النبأ أن زوجته قد وضعت، أرسل إليها بهدية وعلاوة تشتري بها كسوة للصبي، ولكنه لم يغفل أن يضع في صندوق الادخار ما يضع كل شهر، رجاء أن يكون له يوماً دار ونخيل، ومزرعة على الساحل إلى جانب مزرعة العمدة، هناك، حيث تنتظر زوجته وأم ولده. . .!

لقد مضى عام منذ هجر همام القرية يسعى إلى الغنى، وأنه هنا وزوجته هناك، وولده؛ أما هو فكان له شأن يشغله عن الفكر والحنين، وأما هي فكان لها أمل تأمله في يوم قريب - يربط على قلبها ويزيل وحشتها، وأما الصبي. . . وماذا يدري الصبي بعد؟ وتتابعت الأعوام وشب الغلام، لم ير أباه ولم يره أبوه؛ وماذا يهم الفتى من ذلك وليس بدعاً هناك، وفي كل قرية من قرى الصعيد العشرات من مثل همام نزحوا عن أهلهم وولدانهم يلتمسون مثل ما يسعى له، لا يتواعدون على لقاء ولا يتراءون منذ الشباب إلا على هرم. . .! ومضت بضع سنسن، قبل أن يفكر همام في زيارة زوجته وولده؛ وراحت (مسعدة) تستقبله على شط النيل حيث ترسى به السفينة؛ وقال الفتى لأمه وهو يشير إلى رجال على ظهر المركب: أيهم هو؟ ونظر همام إلى غلمان وقوف على الشاطئ وقال لنفسه: أيهم هو؟. . . ثم التقيا فتعارفا وحن الدم إلى الدم. . .

وعاد الزوجان إلى حديثهما، وعاد همام يقول: (بلى، وسيكون لنا دار ونخيل. . . . . وسيكون. . .) وهمت المرأة أن تقول شيئاً ثم سكتت، ورفعت إليه عينين فيهما ظمأ وشوق، وفيهما إعجاب وزهو، وأنستها حلاوة اللقاء مرارة الفراق، وعادت الأماني تخيل لها، وحلقت بجناحيه في واديه، وقالت لنفسها هامسة: (سيكون لنا دار ونخيل ومزرعة، وسيكون وأكون. . .) ثم فاءت تنظر إليه وفي عينيها لهفة وحنين!

وقضى همام في القرية أياماً، ثم استأنف رحلته يسعى إلى أمله، وخلفها وخلف . . . ولدين: أما أحدهما فغلام لم يكد يرى أباه حتى فقده، وأما الثاني فإنه لم يره قط، لأنه لا يزال بينه وبين الحياة تسعة أشهر. . .!

لم يكن عبثاً ما تحمل همام من مشقة البعد سنين وما لقي من جهد الحياة؛ فلم يكد يمضي عليه في القاهرة بضع عشرة سنة حتى تغير من حال إلى حال؛ فلم يعد العامل الذي يمضي بياض نهاره حاملاً مكتل الآجر، صاعداً هابطاً على خشب مشدود بين السماء والأرض، ليس له إلا وجبة واحدة من طعام؛ إنه اليوم رجل غير من كان؛ لقد عاد ذلك الثوب الخلق جديداً على جسد ناعم، وعاد البطن الخاوي شبعان ريان من طيب الطعام والشراب، وعادت الغرفة المشتركة بين بضعة نفر يفترشون الأرض شقة ذات أثاث ورياش؛ وعاد الأجير الفقير سيِّداً يجري النفقة على أجرائه وخوله؛ وتلاحقت دراهمه فنتجت وأصبح ذا مال!

وتصرمت بضع سنين لم تره زوجته ولم يرها، أما هي فعاشت هناك صابرة قانعة بما يرسل إليها كل شهر من نفقة، تمسي وتصبح حالمة بالدار النخيل والمزرعة، ويوم تكون ويكون؛ وأما هو، فتبدلت حياته بما تبدل من حال إلى حال، وأجدت له النعماء أماني فأنسته أماني، وعاش لنفسه وماله!

وشب الغلام وأخضر شاربه، ونهدت البنت وكعب ثدياها، وشابت الأم وتخدد لحمها، وما زال شاب قلبها يجد لها أملاً بعد أمل، وينشئ لها في كل مشرق شمس ومغربها حنيناً ولهفة؛ والرجل هناك يبيع ويشتري ويتعوض ويراوح بين جنبيه من فراش إلى فراش!

وفجأةً أظلمت القاهرة بعد نور، وهمدت بعد نشاط، وسكنت بعد حركة، ونعب النذير يوقظ النائم ويحرك الساكن ويبدد الشمل المجتمع ليجمع الشمل المتفرق؛ وكسدت سوق همام بعد نفاق، فأزمع الغريب الإياب!

لم يعد همام في هذه المرة إلى القرية على رمث في البحر تدفعه الريح، ولم يكن

على كتفه خرج فيه زاده ومتاعه، ولم تكن رحلته طويلة موحشة تقاس بالليالي والأيام؛ ولكنه عاد في القطار السريع يؤنسه أنيس غير مملول؛ في يمناه حقيبة سفره وفي يسراه زوجته الحضرية المصقولة! وكانت (مسعدة) وولداها ينتظرونه لميعاده،. . . ونظرت امرأة إلى امرأة ثم أغضتا؛ أما واحدة فصبرت وشكرت؛ لقد سلخت شبابها متزوجة ولا زوج لها، فإنها لنعمة أن تظفر اليوم بنصف زوج!. . . وأما الأخرى فخنقت وسخطت؛ لقد كان لها زوج يؤثرها ففقدت نصفه!

وأغلق الباب على رجل وامرأتين؛ وعرفت كل واحدة منهما مكانها من صاحبتها ومن صاحبها؛ أما مسعدة فراحت تتجه إلى صاحبتها وتتعبد لها لتنال رضاها ورضا همام، وأما صاحبتها فراحت تشمخ وتتأمر لتتسلط وتحظى؛ واقتسمت المرأتان الدار فواحدة لها الفراش وواحدة للمهنة والعمل؛ وقالت المرآة لكل منهما: لقد عرفت مكانك؟. . . ولكن أحظاهما كانت اسخط لحظها وأشقى؛ لأنها لم تألف الحياة في القرية ولم ترض الشركة في رجل. . .

وأصبح همام ذات صباح فإذا امرأة واحدة في الدار وقد فرت الأخرى. . . وثارت نخوة الرجل وغضب لعرضه غضبة أهله، فأزمع أمراً؛ وغضب الولد لأبيه وأقسم ليغسلن العار بالدم

وعاد (حمدان) بن همام من القاهرة بعد أيام وسكينة يقطر دماً. . . وأستقبله أبوه . . . مزهوا فخوراً فضمه إليه وقبل جبينه، واستقبلته أمه وأخته. . .

وجلست الأسرة الأربعة مجلسهم لأول مرة، مجلساً لم يجمعهم مثله منذ كانوا على صفاء ومودة، وقالت مسعدة: (همام!)

وكان في عينيها عتاب وفيهما رضاً واطمئنان

وقال همام: (مسعدة! معذرة إليك؛ إنك أنت وحدك. . . وكانت غلطة. . .!)

وابتسمت مسعدة وعاد الشباب يتألق في جبينها بشراً ومسرة، وانبعثت الأماني تحدثها حديثها، وحلقت بجناحين في وادي المنى، وقالت: (. . . ويكون لنا دار ونخيل، ومزرعة!)

وافترت شفتاه وقال: (ذلك أولى لك يا مسعدة وأنت له أهل؛ وهذا المال. . .)

ودق الباب وانقطع الحديث، ودخل الداخل ثم خرج، وخرج وراءه همام وزوجته وأبنته يشيعون حمدان وفي يديه الحديد مسوقاً إلى السجن!

لم يشتر همام داراً ولا نخيلاً، ولا مزرعة على الساحل؛ ولم يبق له من ماله باق، وأنفق ذخيرة العمر ليفتدي ولده من زلة ساعة فلم يُجد عليه!

وعاد همام كما بدا، أجيراً يكدح لنفسه وزوجته وأبنته عاملاً في مزرعة العمدة، قانعاً من العيش بالكفاف، راضياً من متاع الحياة بنعمة الحياة نفسها. . .

وخرج حمدان من السجن بعد عشر سنين لتستقبله أمه الأيم العجوز وحيدة فتصحبه إلى قبر أبيه يترحم عليه، أبوه الذي لم يره إلا مرةً ثم مضى كل منهما لوجهه، كما يلتقي اثنان اتفاقاً في طريق ثم يتدابران فلا لقاء!

محمد سعيد العريان

العدد 375 - بتاريخ: 09 - 09 - 1940

تصحيحاً لتاريخ الزعيم

للأستاذ عباس محمود العقاد

قرأت نخبة من المقالات التي نشرتها مجلة (الثقافة) الغراء إحياء لذكرى سعد - رحمه الله - في هذه السنة

ولي عناية خاصة بأمثال هذه المقالات، لأنها تتصل بترجمة رجل عظيم أجللته وانعقدت الآصرة بيني وبينه في الجهاد الوطني بضع سنوات فضلاً عن سنين عدة كنا ننظر إليه فيها قبل ذلك نظرة الوثوق والإعجاب، ولأن هذه المقالات تتصل من جهة أخرى بموضوع كتاب ألفته في تاريخ ذلك الرجل العظيم، فيعنيني أن أراجع فيه كل ما عسى أن يصحح رأياً أو واقعة أو خبراً مما ورد في الكتاب لاستدراكه في أوان الاستدراك

ومن المقالات التي اتجه إليها ناظري أول ما أتجه مقال العالم الفاضل الأستاذ أحمد أمين لأنه كتب عن مدرسة القضاء الشرعي وهو أحد الأعلام الذين أنجبتهم تلك المدرسة القصيرة الأجل، الطويلة النفع والذكرى

ولكني عجبت لأنني رأيت الأستاذ ينساق إلى خطأ شائع من الأخطاء الشائعة الكثيرة

التي ذاعت عن مدرسة القضاء في بعض الفترات.
وذلك إذ يقول: (. . . لم يرض الخديوي ولا الأزهر عن المشروع، ولمن سعداً أصر وعرض الأمر على مجلس النظار برياسة الخديوي، وعارض في الجلسة من النظار من أوعز إليهم أن يعارضوا، فاتخذ سعد المسألة قضية يترافع فيها كما كان يترافع أيام عهده بالمحاماة، ونسى المجلس ونسى الخديوي وضرب بيده على المائدة كما كان يضرب أمام القضاة، وتخاذل المعارضون ووفق على المشروع الذي كان يحلم ببعضه الشيخ محمد عبده، وتم وفي نفس الخديوي منه شيء بل أشياء، وهمس الخديوي في أذن مصطفى باشا فهمي رئيس مجلس النظار: يظهر أن نسيبك لم ينس المحاماة. . .)
فهذه القضية قد راجت زمناً لأنها تحمل عنصراً من عناصر الرواج بين الجمهور، وسمعتها من مصادر عدة قبل التقائي بسعد وبعد التقائي به في أيام الحركة الوطنية، وهي مع ذلك (مؤلفة) أو مخترعة سمعنا نفيها من سعد نفسه وذكرنا ذلك في مقالنا الذي نشرناه بمجلة (الهلال) الغراء على أثر وفاته، وذكرناه بعد ذلك في كتابنا عن سعد حيث نقول في
الصفحة العشرين بعد المائة:
كان الخديو حريصاً على استبقاء الأزهر في قبضته لإطلاق يديه في اختيار القضاة . . .) الشرعيين والإشراف على المجالس الحسبية وما يعهد إليها من محاسبة الأوصياء على التركات والنظار على الأوقاف، ولكنه كان يعارض في إصلاح الأزهر وتمكينه من إعداد القضاة والمعلمين والمحامين على الوجه المطلوب. وقد تعب الشيخ عبده في علاج هذا الإصلاح العسير حتى نفض يديه آخر الأمر واضطر إلى اعتزال منصبه في مجلس الأزهر الأعلى. فلما تصدى سعد لهذه المعضلة العصيبة هاجمته الأغراض والسعايات والعراقيل من كل جانب، فعزم عزمته ونكب عن ذكر العواقب جانباً كعادته حين يتصدى لأمر هو على يقين من صلاحه من وجه الحق فيه، وجاء إلى مجلس الوزراء وهو معول على أمر من أمرين: إما مدرسة القضاء، وإما الاستقالة وهو غير آسف
قال سعد في بعض أحاديثه عما جرى في تلك الجلسة بينه وبين الخديو: إن الأقاويل) اختلفت في المناقشة التي دارت بيني وبين الخديو في ذلك اليوم. فقال أناس: إنني ضربت على المنضدة بيدي وقلت في وجه الخديو: دعني أدافع عن مشروعي! وأن الخديو أجابني حينذاك ساخراً: يظهر أن الباشا لم ينس بعد صناعته القديمة. . . يعني المحاماة، وقال أناس غير ذلك ما يجري مجراه، والصحيح أنني لم أضرب على المنضدة بيدي ولم يعرض الخديو بسابق عملي في المحاماة، وإنما شاهدت في سموه ميلاً ظاهراً إلى رفض المشروع بعد ما شجعني على المضي فيه، ورأيته يأبى على المناقشة والشرح أمام زملائي الوزراء. . .
قال رحمه الله بفكاهته المعهودة: وكنت قد انتقلت من القضاء إلى الوزارة (بعبلى)) فدأبت على الشرح والاستدلال وقلت: أنني أفهم أن المناقشة حرة، وأود أن أعرف المانع من تنفيذ المشروع. ولا أدري أن هذا الكلام يغضب الخديو وينقل وقعة على سمعه. فأحمر وجهه كلون طربوشه، وسمع من أصحابنا الوزراء مني هذه اللهجة فأيقنوا أنني لا أقدم عليها إلا وأنا مؤيد بقوة خفية، ووهموا أن لورد كرومر يريد إنشاء المدرسة على الرغم من جميع العقبات، فأجازوا المشروع بالإجماع وبقى الخديو وحده معارضاً فيه! والحقيقة أن لورد كرومر لم يفاتحني في المسألة إلا بعد أن سمع بما دار بيني وبين الخديو من المستشار
(المالي، وقد كان يحضر جلسات مجلس الوزراء
هذه رواية سعد كما سمعناها منه، وثبت لنا مرة أخرى أن أصلح الإشاعات للرواج هي أولاها بحذر المؤرخين
من الذين علموا بتصحيح هذه الإشاعة فيما أذكر كاتب سعد وملازمه في وزارتي المعارف والحقانية فؤاد كمال بك رحمه الله، ولعله أشار إلى ذلك في مذكراته وقرأت في مقال الدكتور محمد حسين هيكل باشا وزير المعارف (أن سعداً وهو في وزارة المعارف قد أضطر في بعض الظروف لمصانعة السياسة التي كانت متحكمة في ذلك الوقت، ومن ذلك ما كان من رأيه الذي دافع عنه خاصاً بالتعليم باللغة العربية، ولكنه في هذا إنما جرى على المثل المأثور: لا تكن صلباً فتكسر ولا ليناً فتصهر)

والذي نعلمه أن سعداً لم ينكر أن التعليم باللغة العربية واجب مطلوب، ولكنه كان يرى أن التعليم باللغة العربية لا يتم ولا يعم قبل تحضير كتبه وإعداد مدرسيه، وهذا رأي متفق عليه لا ضرورة فيه لمصانعة الأقوياء أو لاجتناب الصلابة، وفي وسعنا أن نقول إن قوة الاحتلال كانت تصانع سعداً أضعاف ما كان يصانعها، وكانت تحتمل منه أضعاف ما كان يحتمل منها، وهذا غاية ما يطلب من وزير مصري لم يؤيده في ذلك الوقت برلمان ولم يكن الخديو من الراغبين في بقاءه، ولا سند له إلا ما وقر في نفسه من القوة والصلابة الشكيمة

وقرأت من مقال مكرم عبيد باشا (. . . إن سعداً العظيم كان كسعد الرجل، إذا ما أحس إحساساً فلا توسط في حساسيته المرهفة. إذا ما بكى أو ضحك تشاركه عيناه بالدمع المنسجم - يبكي فيتطاير الدمع كالشرر المستمر، ويضحك فيتساقط الدمع كالماء المنهمر. . . ولا يهولنك أن يبكي سعد العظيم أو سعد الرجل فلعل أجمل آية في الإنجيل هي تلك الآية الحلوة القصيرة: بكى يسوع)

والواقع أن البكاء كان (تعبيراً) قوياً في نفس سعد زغلول لا يدل على ضعف ولا استكانة، ولكنه لم يكن من الانطلاق والمعاودة بحيث يفهم من هذه العبارة. فعلى طول رؤيتي له لا أذكر أن عينيه فاضتا بالدمع الغزير غير مرتين، وأما تناثر الدمع من عينيه حين يطيل الضحك فأمر طبيعي في تركيب العيون يزيده في سعد أنه احتفظ - على خلاف كثير من الشيوخ - بنعمة الضحك القلبي إلى ما قبل وفاته بأيام. وكان رحمه الله يجتنب البكاء ما استطاع ويشيح بنظره عن رؤية الضعفاء الباكين، وقلنا من الكتاب هذا المعنى: (إن هذا المناضل المكافح طوال الحياة لم يكن أبغض إليه من رؤية العنف ولا مشاهدة الحزن والمحزونين. ذهب بعد الإفراج عنه في جبل طارق ليشهد صراع الثيران على الأرض الإسبانية، فلم يطق ما رآه من تعذيب هذه الحيوانات وانصرف بعد فترة وجيزة وهو يتأفف من هذا اللعب الممقوت. وعرف عنه ذووه أنه لا يطيق أن يرى البكاء لأنه يؤذيه ويستبكيه فكان يقول لهم: لا تبكوا أحداً أمامي، وإذا مت فخذوا ثأركم مني ولا تبكوني. ومن عادته ألا يظهر أمام الناس في موقف يخشى فيه من جيشان نفسه وغلبة دموعه، ولهذا لم يستقبل أم المصريين على المرسى في جبل طارق واكتفى بأن ينتظرها في حجرة الاستقبال. . .)

فبكاء سعد في تعبيرات نفسه في أمثال تلك المواقف المعدودة، وكان مع هذا يجتنبها ما استطاع

وجاء في مقال صاحب العزة (فخري عبد النور بك): (ثم ركبنا البحر وعدنا أدراجنا إلى القاهرة، وكان الزعيم الخالد يبدي جلداً وصبراً، وكثيراً ما كان يردد هذا الشطر: لو بغير الماء حلقي شَرِقٌ. حتى وصلنا إلى بيت الأمة)

والذي أذكره أن سعداً رحمه الله تمثل بذلك الشطر وهو في حجرة مرضه بمسجد وصيف بعد أن روى لي أشياء عن أناس من أنصاره كتموا عنه أموراً كان يود لو يطلعوه عليها، وهذه المناسبة ظاهرة مني معنى الشطر المفهوم

وفي عدد الثقافة مثل على اتفاق الرواية إذا اتفقت الملاحظة الطبيعية كما يلحظها الرواة خالصة من الحواشي والأغراض فقد كتب الكاتب الأمين الأستاذ (كامل سليم بك) عن (حالة الزعيم النفسية) عقب مقتل السردار. فقال مما وعاه في مذكراته: (لقد مرت بسعد وهو زعيم أزمات حادة أقضت مضجعه. ولأذكر على سبيل المثال ما حدث له أيام وزارة زيور باشا التي أُلفت عقب مقتل السردار، فقد ساد البلاد جو خانق كجو الأحكام العرفية، وقبض على الأبرياء وزجوا في السجون لأتفه الشبهات، وفي طليعتهم الدكتور ماهر والأستاذ النقراشي، وكان سعد يحبهما ويثق بهما أخلص حب وأكمل ثقة، وحزن لسجنهما أشد الحزن وأخذ كثيرون من أنصاره ينفضون من حوله أو ينقطعون عن زيارته؛ فدخلت على سعد يوم 30 يوليه سنه 1925 وهو في هذه الحالة النفسية التعسة ووجدته وحده في مكتبه الداخلي في بيت الأمة يطالع كتاباً؛ ولن أنسى ما حييت ما لاحظت عليه من الحزن الأسود والألم الأليم. سألني عن الحالة العامة فحدثته بما أعرف وتعمدت أن أضمن حديثي ما يدعو إلى الأمل والتفاؤل حتى أدخل على قلبه الكبير شيئاً من الطمأنينة والسكينة، فأبتسم ابتسامة فاترة كانت على الألم أدل منها على أي شيء

آخر، وقال: (اسمع يا كامل! لقد ألم بالناس هزال شديد، وهو أشد لدى من كانوا أكثر الناس حماسة وأشدهم غيرة، ومن بقى معي منهم موجودون إما أحياء أو تورطاً وإما لعدم وجود وسيلة أخرى، وهي مصيبة ليس لها إلا ربك)

والواقع أنني لم أجد سعداً في حالة من الغم كالحالة التي وجدته عليها في تلك الفترة، ولاحظت ذلك في كتابة تاريخه فقلت: (ما أعرف وقتاً تسرب فيه السأم والتعب إلى بنيته وإلى نفسه كما كان يتسرب أحياناً خلال الفترة من مقتل السردار إلى عودة الحياة النيابية. . . وذات ليلة كان يسأل: ما الذي يبعث القوة في الشعب؟ وكنا ثلاثة على مائدته: محامياً معرفاً والأستاذ عبد القادر حمزة وكاتب هذه السطور، فقال المحامي وظن أنه يرضيه بما قال: يا باشا كلمة منك تبث فيه الحياة الفتية. وأسترسل في مثل هذا الكلام، فنظر إليه سعد هنيهة ثم قال: ما هذا؟ أتريد أن تخطب؟ أتريد أن تتحمس؟ طيب. . . تفضل أخطب وتحمس وانتظر من يسمع

وكانت نفسه برمة جداً بمن يعبثون بهذا الموضوع لأنه كان مهموماً به ولا يطيق الهزل فيه. بل كثيراً ما سمعته يتضجر في تلك الأيام من حب النكتة في الطبيعة المصرية (ويقول: لولا أن المصريين يضحكون من زيور وغرائبه لما احتملوا هذا الزمن الطويل

وبعد فأني أسجل هذه التعقيبات على ما قرأت في فصول الثقافة وفي اعتقادي أن إخواننا الذين احتفلوا بذكرى الزعيم العظيم يرحبون بما فيها من تصحيح لبعض الوقائع والأخبار، إذ كانوا ولا ريب إنما يقصدون إلى تمحيص الحقائق عن ذكراه.

عباس محمود العقاد

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

سعد زغلول خطيباً - الخطابة والحديث عند جماعة من رجال هذا العصر: طه حسين، عبد اللطيف الصوفاني، علي فهمي كامل، عبد العزيز جاويش، مكرم عبيد، مصطفى النحاس، محمد حسين هيكل، محمود فهمي النقراشي، محمد محمود عبد الخالق ثروت، حافظ عفيفي، طلعت حرب، حلمي عيسى، عبد الحميد بدوي، علي إبراهيم، نجيب الهلالي، إبراهيم عبد الهادي، احمد لطفي السيد.

عجب فريق من القراء من حكمنا على الزعيم (سعد زغلول) خطيباً، وهددنا أحد الرفاق الأعزاء بكتابة فصل ينقض به حكمنا من الأساس، وعاتبني بعضهم على ذلك الحكم الصريح فقلت: إنما سجلت إحساسي بصدق، ولا موجب للمواربة في الحكم على خطيب لم تكن الخطابة إلا عنصراً واحداً من عناصر كثيرة تألفت منها قوته الذاتية، فمجده لا يقف عند القول بأنه كان أخطب الخطباء.

وأواجه الموضوع مرة ثانية خدمة للتاريخ الأدبي فأقول:

كان يهمني من عهد بعيد أن أدرس العصر الذي أعيش فيه دراسة صحيحة، وأن أزن المواهب عند من ألاقيهم من أهل الفكر والرأي والبيان، وقد يتفق أحياناً أن أشغل نفسي بدراسة الوجوه والملامح، وربما توغلت فدرست الصلات المجهولة بين ما يُظهر للناس وما يضمرون، فإن رأى بعض القراء خطأ في بعض ما أُصدر من الأحكام الأدبية على أهل هذا الجيل، فلا يرجع ذلك الخطأ إلى المسارعة في الحكم بلا روية، وإنما يرجع إلى أني قد لا أوفق إلى الصواب مع الحرص الشديد على النظر والتدقيق والحق أني مفتون بنفسي من هذه الناحية، ولا أعترف بأني قد أخطئ إلا تجنباً للوقوع في

اللجاجة مع بعض القراء، مع أني أومن بأن الكبر المطبوع أخف روحاً من التواضع المصنوع. وأقول بعبارة صريحة أن التعبير اللساني له فنون، وقد تَدِق الفروق بين تلك الفنون، ثم تَدِق حتى تصبح من العسير أن نضع لها الموازين، ومن هنا ينشأ الخلاف في الحكم على طبقات المتحدثين والخطباء

وأضرب المثل بالفرق بين المحاضر والخطيب، فالمفهوم أن المحاضر والخطابة فنان يقتربان أشد الاقتراب، لأنهما في ظاهر الأمر يرجعان إلى أصل واحد، ومع ذلك نرى القدرة على المحاضرة والخطابة تتفاوت أشد التفاوت عند الرجل الواحد في بعض الأحيان

فالدكتور طه حسين محاضراً يُعد في الطبقة الأولى بين المحاضرين، ولو راعينا أن الدكتور طه لا يستطيع أن يهيئ كلاماً يأخذ بعضه برقاب بعض في دقائق تقارب الستين لجاز الحكم بلا مجاملة بأن الدكتور طه هو المحاضر الأول في هذا الجيل ومالي لا أقول الحق كل الحق فأصرح بأني لم أشهد في مصر محاضراً يماثل الدكتور طه في جهارة الصوت ونصاعة الأداء؟ ولكن طه حسين خطيباً مخلوق آخر: فهو في الطبقة الحادية والعشرين بين خطباء هذا الزمان، وما سمعت الدكتور طه يخطب إلا أشفقت عليه، فمن العجيب أن الرجل الذي لا يتحبس ولا يتوقف وهو يحاضر قد يتعرض لأبشع ضروب الغي وهو يخطب، فمن أين جاءت هذه الفروق بين الموقفين مع قرب الصلة بين موقف المحاضر وموقف الخطيب؟

أيرجع السبب إلى أن الدكتور طه محدث بارع، والمحاضرة فن من الحديث؟ أم يرجع السبب إلى أن الدكتور طه يجري على فطرته وهو يحاضر فيسلس له القول، ويتكلف وهو يخطب فيمتع (بمزايا) المتكلفين من الفضلاء؟

هذا موضوع يصح للدرس، وهو من الدقة بمكان. وأذكر شاهداً آخر يوضح هذه القضية بعض التوضيح

كانت صحبتي طالت لفقيد الوطنية والدين عبد اللطيف الصوفاني، وكنت أراه أفصح الناس حين يدور الحديث حول المطالب القومية، ثم سنحت فرصة وجب فيها أن يقف ليخطب، فرأيت البون شاسعاً جداً بين الصوفاني المحدث والصوفاني الخطيب، ولعل شاعرنا شوقي راعى هذا المعنى حين قال وهو يرثيه:

ما كان قُسَّاً ولا زياداً ... ولا بسحر البيان جاء
لكن إذا قام قال صدقاً ... وجانبَ الزُّور والريَاء

وعرفت خطباء لا يجيدون إلا حين يحفظون خطبهم عن ظهر قلب، ومن هؤلاء المرحوم علي فهمي كامل الذي مات في رثاء شهيد الوطنية محمد فريد وإنما قضيت بهذا لأني سمعته مرة يخطب نحو ساعتين بلا تلعثم ولا تردد، وكان ذلك في كلية مصطفى كامل في إحدى ذكريات الزعيم الأول، وبعد انفضاض الاحتفال بوقت قصير ظهرت جريدة اللواء وفيها خطبة علي فهمي كامل، فرأيت النص المكتوب عين النص المسموع، بلا تقديم ولا تأخير، وبلا زيادة ولا نقصان ويؤكد من عرفوا الزعيم الخالد مصطفى كامل أنه كان يحفظ خطبه عن ظهر قلب، ويؤيد هذا خطبته التاريخية على مسرح زيزينيا بالإسكندرية، وهي أعظم خطبه، وبها ختم حياته الخطابية، وأسلوبها يشهد بأنه نظمها نظماً ثم حفظها قبل أن يلقيها على الناس

فكيف كان علي فهمي وهو يتحدث؟

كان أعجوبة الأعاجيب في قوة الأداء، وكان يطبق أسنانه بعنف في المواطن التي تحتاج إلى تأكيد، وكان يحفظ الأرقام مهما بعد عهدها في التاريخ، فلم يكن من الصعب عليه أن يذكر اليوم الذي وقع فيه حادث مأثور في أي عهد من العهود وقد حملته الثقة بالنفس على أن يتقدم للانتخابات في دائرة السيدة زينب منافساً للزعيم سعد زغلول؛ فلما راجعته في ذلك غضب وثار وأعلن أن انتصار سعد عليه أبعد تصوراً من المستحيل!

والمهم هو النص على أن علي فهمي كامل المحدث غير علي فهمي كامل الخطيب، لبعد ما بين الحالتين من العنف واللطف، والفطرة والطبع. ولم أشهد علي كامل يرتجل الخطابة إلا مرة واحدة في نوفمبر سنة 1920 وقد وقف يخطب على قبر محمد فريد وهتف هاتف: يحيا سعد! فاغتاظ الرجل واندفع في تجريح سعد بقوة قهارة فرضت على السامعين أن يلوذا بالصمت والخشوع، في وقت لم يجرؤ فيه أحد على أن يذكر سعداً بغير الجميل

أما الشيخ عبد العزيز جاويش فكان يلقى خطبه بأسلوب المدرس المتمكن، وكان يغلب عليه أن يرد يده إلى أذنه بصورة من يدعو فكرة إلى التجمع، وكان يهتف بكلمة (وَي!) حين يرى المعاني تشرد أمام فكره القناص فترجع إليه وهي أوانس خواضع! وكان الشيخ جاويش حين يتحدث في لحظات الصفاء أحيا من الفتاة البتول، وكان لصوته في أوقات اللطف نبرات عذاب، وكانت له ابتسامة حلوة إلى حد يفوق الوصف، وكان لعينيه بريق جذاب، فإذا غضب فحديثه ونظراته رعد وبرق وصواعق

كنت أدخل عليه في وزارة المعارف بلا استئذان، وكانت الفرص كثيرة لمقابلته، لأنه كان يمكث في مكتبه كل يوم نحو عشر ساعات، فيتغدى في الوزارة كيفما اتفق، ويصلي فيها الظهر والعصر والمغرب، وقد يحلو له الأنس بالواجب فيبقى في الوزارة إلى أن يصلي العشاء

دخلت عليه مرة فوجدت عنده إنساناً منزوياً في إحدى نواحي المكتب ورأيت الشيخ غضبان والشرر يتطاير من عينيه، فسلمت تسليماً مختصراً وجلست

وما هي إلا لحظات حتى انفجر الشيخ كالبركان في وجه ذلك الجليس، فقد صرخ: (من يتزوج بناتنا إذا جاز لكل شاب مأذون ألا يزور أوربا إلا عاد ومعه زوجة فرنسية أو إنجليزية أو ألمانية؟

إن الأتراك لا يتزوجون بناتنا غطرسة منهم وكبرياء، والمغاربة وهم في مثل حالنا لا يتزوجون بناتنا إلا في قليل من الأحوال

فكيف يجوز لشاب أن يترك بنات وطنه للبوار، وهو يعرف في سريرة نفسه أن الفتاة المصرية معدومة النظائر في الجمال وأدب النفس؟ وما الذي بهرك من الفتاة الأوربية حتى تنسى بها بنت وطنك؟ ومتى يصير أمثالك رجالاً يعتمد عليهم الوطن وقد حرمكم الله نعمة الوطنية؟)

وخرج الشاب وهو آسف. وكانت لحظة صمت توهمت فيها عيني الشيخ جاويش مغرورقتين بالدمع، فطلب فنجان قهوة، ثم تكلف الابتسام، وقال: (لا تؤاخذني، فذلك فتى كان أبوه من أعز أصدقائي، وما كنت أحب أن ينسلخ من وطنه بالزواج من امرأة أجنبية)

ومع أن المسألة فيها نظر، ومع أني كنت أراجع الشيخ في كثير من الشؤون، فقد تخوفت عواقب غضبه إن راجعته في ذلك الشأن الدقيق، ثم انصرفت وقد عرفت أن الشيخ لا يرق ولا يلطف إلا في ساعات الصفاء، وأنه أخطب ما يكون وهو غضبان

أما مكرم باشا عبيد فلم أسمعه يخطب إلا في الحفلات، وهو يحفظ خطبه عن ظهر قلب

وقف يخطب في ذكرى 13 نوفمبر أيام الائتلاف، وبعد مدة تزيد على عشر دقائق دخل عدلي باشا يكن ومعه جماعة من الوزراء، فرجع مكرم باشا إلى مطلع الخطبة من جديد فأعادها حرفاً حرفا بلا تغيير ولا تبديل

أما مكرم باشا محدثا فلم أعرفه إلا في لحظات قضيتها معه بشارع ريفولي في باريس سنة 1929، وهو يقبل عليك حين يحدثك إقبال من يهمه أن يظفر بثقتك، فيترفق ويتلطف، ويتنقل من فن إلى فنون، وهو في جميع أحواله خفيف الظل والروح

ولم أسمع مكرم باشا وهو يرتجل لأعرف الفرق بين حاليه في الأداء، ولكن من المؤكد أن حاليه يختلفان بسبب غرامه بالزخرف والتنميق، ومن كان كذلك فأمره في الروية غير أمره في الارتجال

ولم أسمع النقراشي باشا خطيباً، ويقول الذين سمعوه أنه ليس من الخطباء

أما النقراشي المحدث فهو آية في حلاوة التعبير وسلامة المنطق، على شرط أن يكون الحديث في داره لا في وزارة المعارف أو وزارة الداخلية

وهو مرهف العقل حين يتحدث، ولكلامه مذاق خاص لأنه لا يتكلم إلا وهو مبتسم، وقد تعجب حين يحادثك بأن يكون لمثله أعداء، لأنه ينقل أحاديثه عن قلب يفيض بالشهامة والصدق والإخلاص، وإن كَثُر القول بأنه مفطور على العنف والاعتساف

والنحاس باشا خطيباً لا يرضيني، وإن كنت أول من تنبأ بأنه سيكون خليفة سعد، يوم رأيته يصاول زغلول باشا في مجلس النواب، وكنت مضيت مع الأستاذ محمد الههياوي لشهود بعض المواقف المهمة قبل أن يموت سعد بعامين

والعيب في خطبة النحاس باشا يرجع إلى الأداء، لأنه يؤدي المعاني بأسلوب رتيب، ولا يفرق بين مقامات الكلام إلا في قليل من الأحايين، ولو جاز أن نقدم نصيحة لرجل في مثل مركز النحاس باشا لرجوناه أن يرجع إلى باب من أبواب العربية أسمه الوقف!

أما النحاس باشا متحدثاً فهو على جانب عظيم من الجاذبية في أوقات الصفاء، فهو يرسل النكتة المستعذبة بلا تكلف، وهو لكرم طبعه ينسيك أنه من الزعماء، وهو أولاً وآخراً رجل له قلب، على قلة أرباب القلوب في هذا الزمان

فإن تحدث النحاس وهو غضبان فلا تعجب حين يقع منه مالا يرضيك، لأن الغضب يحوله

إلى رجل ينكر أن في الدنيا كلاماً يقال وكلاماً لا يقال!
أما موهبة هيكل خطيباً فليست بشيء بالإضافة إلى موهبته في الحديث
يحدثك هيكل باشا وهو (أبن بلد) فتستظرفه إلى أبعد الحدود، لأنه من هذه الناحية موهوب. فإذا خطب وأراد أن يكون (أبن بلد) ضاقت به نفسك، لأن الخطابة لها وقار لا يسمح بالعبارات البلدية، وقد يعدها من الابتذال
ويروعك من هيكل باشا صفاء عينيه حين يتحدث، حتى لتكاد تجزم بأنه الشاب الذي ترفق فأشار في كتابه عن (جان جاك روسو) إلى أنه كان من أهل الفتون يوم كان طالباً في باريس. أما مقام هيكل باشا في الصحافة والتأليف فهو أوضح من أن يحتاج إلى بيان، لأنه في هاتين الناحيتين من أقطاب هذا الجيل.
أما زعيم الدستوريين محمد باشا محمود، فلم أشهده خطيباً إلا مرة واحدة في الخطبة التي قال فيها وهو غضبان:
(نريد أن نعرف لمن الأمر اليوم: ألسعد أم للأمة؟)
وكنت سمعت أنها عرضت قبل إلقائها على الدكتور طه حسين والعهدة على الشخص الذي صحب الدكتور طه أيام سكناه بحي قصر النيل، فهو الذي زعم في جريدة (الإنذار) أن الدكتور طه هو الذي أنشأ تلك الخطبة التاريخية
والذي يرى محمود باشا وهو يتحدث يؤمن بأنه من أفراد الأدباء في اللغة العربية، وكيف لا يكون كذلك وهو من أسلم الناس ذوقاً في الحكم على الأدب القديم والحديث؟
ولم يكن صوت ثروت باشا في الخطابة بالصوت المقبول، كان صوته لوناً من (الصرصعة)، وكان يقرأ خطبه في أوراق مكتوبة بطريقة تشهد بأنه يخشى عادية اللحن والتصحيف
وأعظم خطب ثروت باشا هي خطبته في الرد على معارضيه سنة 1922، وقد صححها المرحوم محمد المرصفي، فشهد التصحيح بأنها استهدفت لطغيان قلمه البليغ
أما ثروت باشا المحدث، فكان من الآيات في عذوبة الروح وقد استطاع بلباقته أن يسيطر سيطرة روحية على الزعيم سعد زغلول قبل رحيله عن هذا الوجود، فلما وقف يرثي سعداً بعد ذلك، قهره القلب الطيب على أن يضيف إلى خطبته سطوراً من الدمع المسكوب
ولم أسمع حافظ باشا عفيفي وهو يخطب، أما أسلوبه في الحديث فقد بهر قلبي وعقلي
وطلعت باشا حرب ليس بخطيب ولم يخلق للخطابة، وهو مع ذلك محدث جذاب، وحاله في ذلك يشبه حال الدكتور علي باشا إبراهيم، أو حال عبد الحميد باشا بدوي
ولا أعرف أين يقع مكان نجيب بك الهلالي بين الخطباء، ولكني أعرف أنه محدث ظريف
أما حلمي باشا عيسى، فهو فيض من القوة والفتوة حين يتحدث، وإن كنت لم أرض عن أسلوبه الخطابي حين سمعته في مجلس النواب، ولعل ذلك لأن موقفه كان موقف المقرر لا موقف الخطيب؛ والأستاذ إبراهيم عبد الهادي كان من خطباء الثورة المصرية، وكان يومئذ فصيح اللسان، وكان صدري ينشرح حين أراه على حداثة سنه يتسامى إلى منازل الخطباء القدماء في تخير اللفظ الفخم والمعنى الوهاج، ثم ضاق به صدري حين سمعته يخطب في مسرح الأزبكية بعد الثورة بأعوام، فقد سلك في التحريض على أعضاء الحزب الوطني مسلكاً غير مقبول، ومع ذلك كان يستنفر الجمهور بشواهد من القرآن والحديث!!
وكذلك انصرفت عنه وانصرف عني فلم نكن نتبادل التحيات إذا التقينا مصادفة في الطريق، ثم تعارفنا بعد طول التغاضي حين تلاقينا في المفوضية العراقية منذ أكثر من شهرين فكيف صار إبراهيم عبد الهادي الخطيب؟ أهو كعهدي به قبل عشرين عاماً حين كان يرصع خطبه بالحِكم والأمثال والآيات والأحاديث؟ أم تكون الدنيا راضته على فنون من سرعة القول وبديهة الارتجال؟
يشهد ما أقرأ من خطبه المنشورة أنه لا يفرق كثيراً بين مقامات الكلام: فهو يخطب في مجلس النواب كما يخطب في الحفلات، ومع أن الفرق بين المقامين بعيد. فإن سنحت فرصة لشهوده خطيباً ومتحدثاً فقد أرجع إلى هذا الرأي بشيء من التعديل،

ولكن ما أهمية الخطابة والحديث في حيوات الرجال؟
لذلك أهمية عظيمة جداً، فأستاذنا أحمد لطفي السيد باشا مدين لمواهبه في الحديث أولاً وفي الخطابة ثانياً، وأكاد أجزم بأنه يراعي التعبير كما تحدث، ولو كان الحديث أمراً بتقديم القهوة للضيوف، وللحديث عنده ألوان: فهو تارة بالعامية الشرقاوية، وتارة بالفصحى البدوية، تبعاً لاختلاف المقامات، ولهجته البلدية عذبة حلوة تقع من آذان السامعين أجمل موقع، فإذا بدا له أن يعرب فهو أعرابي من مجاهيل البيداء، وهو في حاليه يتكلم بصوت
رنان يذكر بألحان يوسف المنيلاوي، إن رضى عن هذا الوصف
ولطفي باشا له تاريخ في الدعوة إلى العامية، ولكنه مع ذلك يكره التبذل والإسفاف في الخطب والمحاضرات، ولو سمعته يخطب لعرفت أن دعوته إلى العامية لم تكن إلا دعابة أراد بها أن يشغل الجمهور عن المناوشات التي كانت تقع بين أرباب الأقلام أيام الصيال بين الجريدة والمؤيد واللواء، فلما جد الجد وصار مديراً للجامعة المصرية أعلن أن اللغة العربية لغة العوام وأنها لا تملك القدرة على التعبير عن أفكار الخواص، وفي حديث أذيع باسمه في مجلة الهلال
أما بعد فأين أنا مما ابتدأت به هذا الحديث كنت أريد أن أشرح كيف اختلفت الآراء في سعد زغلول خطيباً ثم اندفعت إلى شجون من الأحاديث شغلتني عن الموضوع الأصيل، وإن كانت تتصل بي أوثق الاتصال. فإن استطاب القراء هذا الفن من التشريح فسأرجع إليه بعد حين
زكي مبارك
أخلاق القرآن
للدكتور عبد الوهاب عزام
- 1 -
أعرض في مقالات قليلة أمهات الأخلاق في القرآن، وكيف بينها الكتاب الكريم وكيف دعا إليها بعد أن أقدم مقدمة وجيزة تبين المقصد الآخر الذي قصد إليه القرآن من تربيته وتعليمه: سئلت عائشة رضي الله عنها عن الرسول صلوات الله عليه، فقالت: كان خلقه القرآن. فأخلاق القرآن هي التي تجلت في محمد خاتم النبيين وأصحابه ومن تبعهم وسار على نهجهم من بعد. وإنما يظهر صلاح القانون حين إنفاذه، ويتبين سداد الرأي حين يختبره العمل، ويُعرف رشاد الطريقة حينما تهدي السائرين عليها إلى الغاية المثلى. فإذا أردنا أن نقدر أخلاق القرآن فإنما نتبينها في سيرة من عملوا بالقرآن كل ما يزدان به تاريخ الإسلام من سير الملوك والولاة والقواد والقضاة والعلماء والصالحين وغيرهم، فهو أخلاق القرآن تتجلى في صور مختلفة. فإن رأيت ملكاً من المسلمين ملك الدنيا ولم تملكه، وسيطر على الأرض ولم تسيطر عليه، فساس عباد الله بعدل الله، وأتعب نفسه لريح رعيته، وراقب فيهم ربه ليله ونهاره، فهذا من أخلاق القرآن. وإن رأيت والياً دخلت الدنيا يده ولم تدخل قلبه وكف يده عن المحارم ولم يأل جهداً في العمل لخير الناس، فهذا من خلق القرآن كذلك. وإن رأيت قائداً يحتقر المهالك، ويقذف بنفسه في المعارك، يفتح البلاد ولا يُعنت العباد، قد ملكت القناعة قلبه ويده، وكفه العدل عن العدوان، فهذا من خلق القرآن في أحد مظاهره. وإن رأيت قاضياً كد عقله في معرفة الحق والتثبيت، وآثر العدل وجانب الجور وأخلص لله فكره وحكمه، وأقض مضجعه عظم التبعة، فذلك من قضاة القرآن. وإن رأيت عالماً توجه إلى الله بفكره، وأدام النظر في ملكوت السماوات والأرض، ودأب في البحث ابتغاء الحق لا يميل مع الهوى ولا يرجو إلا وجه الله فهو من علماء القرآن.
عدل أصحاب السلطان، وجهاد المجاهدين بالحق، وإحسان المحسنين في كل عمل، وطلب الحق والصبر عليه، ودفع الظلم والنفور منه، والاضطلاع بأعباء الحياة، والصبر على المكاره والثبات على الشدائد، كل ذلك من أخلاق القرآن. والخلاصة أن الحياة في أقوى
مظاهرها، وأحسن وجوهها، وأعدل سيرها، وأرحم قوانينها، وأجل أعمالها، كل أولئك تقصد إليه أخلاق القرآن.
من يتدبر القرآن يعرف أن القصد الآخر الذي ترمي إليه تربية القرآن هو أن يحرر الإنسان من أهوائه وشهواته، وأن تقوى نفسه بالأخلاق القوية القويمة، وأن يزود عقله

بالمعرفة، ثم أن يعمل بهذه النفس المحررة القوية وهذا العقل القويم في معترك الحياة مبتغياً الخير لنفسه وللناس كافة. ذلكم مقصد القرآن فيما يعلم من الأخلاق يريد القرآن نفساً محررة من الأهواء والشهوات، وسأبين هذا من بعد، ولكني أسارع فأقول هنا: ليس معنى التحرر من الشهوات الحرمان منها؛ فإن القرآن يريد للناس أن يستمتعوا بهذه الحياة، ولا يزوروا عنها ويتجنبوها: (يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين). (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة) (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا، وأحسن كما أحسن الله إليك، ولا تبغ الفساد في الأرض، إن الله لا يحب المفسدين)

القرآن لا يدعو إلى الرهبانية ولا يرضاها، وإنما يدعو الإنسان إلى أن يرمي بنفسه في معارك الحياة مزوداً بالأخلاق القوية الفاضلة، مريداً الخير لنفسه وللناس حتى يعيش راضياً مرضياً. فمن أعتزل معارك الحياة فقد فر من الواجب، وجنح إلى الراحة، وآثر البطالة. وليس تمسكه بالأخلاق الفاضلة بعد هذا إلا كما يتسلح الجندي ثم يترهب في دير. والعبادة الحق في شرعة الإسلام هي الجهاد في هذه الحياة. كل عمران في الأرض، وكل إحسان إلى النفس أو الأقرباء أو الأصدقاء أو عامة الناس أو إلى الحيوان الأعجم؛ كل هذه عبادة يأمر بها الإسلام بل يعدها أفضل العبادات. وقد قال أحد صوفية المسلمين: (ليست الولاية أن يمشي الإنسان على الماء أو يطير في الهواء، ولكنها أن يعمل الإنسان في الأرض فيزرع أو يتجر وينعم بالعيش وهو لا يغفل عن الله طرفة عين) ومن أجل هذا كانت المرابطة في الثغور، أي حماية حدود البلاد، من أفضل العبادات عند المسلمين. وكم يحدثنا التاريخ عن علماء أتقياء أقاموا في الثغور ورابطوا العدو، يرون أن عبادتهم وورعهم لا يغنيان عن هذه الرابطة شيئاً. ولأن المرابطة عبادة سمى الصالحون في بعض

البلاد الإسلامية مرابطين وسمى رباطا المكان الذي فيه المتعبدون

إنما يريد القرآن من التحرير من الشهوات أن يسيطر الإنسان على نزعاته فيلائم بينها وبين الحق والخير ويفعل أو يكف حراً بعقله لا عبداً بهواه

مقصد الإسلام الأخير هو تحرير النفس من الأهواء والشهوات وتقويتها بالأخلاق الفاضلة وتحرير العقل من الأهواء كذلك، وتقويته بالمعرفة، ثم العمل بنفس محررة قوية، وعقل حر واسع، في أرجاء هذه الأرض لخير الناس. فأما التحرر من الهوى فقد أمر به القرآن في آيات كثيرة وافتن في الدعوة إليه بأساليب مختلفة. يقول القرآن الكريم: (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله.) ويقول: (أفرأيت من اتخذ إلاهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة؟) ويقول: (أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهوائهم.) ويقول (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى.)

أرأيت كيف ينهى القرآن عن الهوى ويعده معطلاً لمعارف الإنسان وعقله وسمعه وبصره ويراه رأس كل ضلالة؟

اشتد القرآن في النهي عن إتباع الأهواء، حتى نهى عن الأخذ بالظن، لأن الإنسان إذا لم يسر على بينة مال به الهوى الخفي وأوحى إليه الظنون المختلفة: فيظن الحق باطلاً، والباطل حقاً، والخير شراً، والشر خيراً، كما ينزع هواه وتميل نفسه. وما أكثر ما نهى القرآن عن الظن، قال: (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعد الظن إثم)، وقال: (إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس)، وقال: (ما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً). بل بين القرآن أن ضلال الناس ناشئ عن إتباع الظن فقال: (وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن)

هكذا يشتد القرآن الكريم في الدعوة إلى تحرير النفس والعقل من الأهواء وتبرئتها من الظنون، ليقارب الإنسان الصواب جهده، وتستقيم له طريقة الفكر فطريقة العمل

وأما تقوية النفس وتهذيبها بالأخلاق الفاضلة، فسيأتي بيانه حين نفصل الكلام في الأخلاق التي دعا إليها القرآن. وأما تقوية العقل وتقويمه وتزويده بالمعرفة، فقد دعا

القرآن إلى الانتفاع بالعقل والنظر في ملكوت السموات والأرض وجعل الذين لا ينتفعون بعقولهم
كالأنعام أو أضل، وقال: (قل انظروا ماذا في السموات والأرض - أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء - قل سيروا في الأرض فانظروا) ولفت القرآن للناس إلى مظاهر الكون ودعاهم إلى التفكير فيها ليعرفوا أسرارها (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة، وتصريف الرياح، والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) وكثير في القرآن مثل هذا، وما هذا النظر إلا وسيلة المعرفة، وهل أنتج معارف البشر إلا النظر في ملكوت السموات والأرض؟ ولقد أمر القرآن بالاستزادة من العلم فقال: (وقل ربي زدني علماً)
وأما العمل فهو المقصد الذي يقصد إليه القرآن من تعليم الأخلاق الفاضلة، فالقرآن كما تقدمنا لا يريد رهبانية ولا فراراً من الجهاد ولا خوراً ولا إشفاقاً من الاضطلاع بأعباء الحياة، وإنما يريد العمل والدأب والجهاد. أمر القرآن بالعمل وأشاد بذكر العاملين في آيات كثيرة، وبين أن تدافع الناس سبب لعمران الأرض، (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض) وبين أن الخير لا يدوم إلا بالدفاع عنه والاجتهاد في حمايته (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره)
ولم يقبل القرآن عذر الأذلاء الذين يعتذرون بالعجز عن العمل أو بتغلب الأقوياء عليهم، وصدهم إياهم عن الخير فقال: (الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم؟ قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا إليها؟). فهو يدعو إلى الهجرة حيث يستطيع الإنسان العمل (ومن هاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة)
ذلكم أجمال الكلام فيما يقصد إليه القرآن من تهذيب النفس وإصلاح الخلق والجهاد في الأرض. وهو الذي بينته أفعال الرسول وأصحابه ومن تبعهم بإحسان، فقد خلق القرآن الجماعة الفاضلة، وخلقت الجماعة الدولة، وأيدت الدولة الحق والعدل، وسيطرت على الأمم تسموها بعدل الله طوعاً أو كرهاً. ولا تزال دعوة القرآن مسموعة، ولا يزال مثل الناس مضروباً، ولا يزال الأمل معقوداً بأن تحيي هذه الدعوة الأخلاقية الأمم مرة أخرى.
لا يزال في هذه الأرض خصب وبركة، ولا يزال في هذا السحاب برق ورعد ومطر، لا تزال في هذه النفوس حياة وفي القلوب خير. وإن مع اليوم غداً وسأبين في المقالات الآتية أمهات الأخلاق في القرآن إن شاء الله.
عبد الوهاب عزام
من الأدب الوجداني
أخرى . . .(نفثة)!
للأستاذ علي الطنطاوي
توالت عليّ الذكريات، فألقيت كتابي، وأقبلت على ماضيَّ أفتش في حدائقه القاحلة عن وردة اخطأتها رياح الشتاء العاتية، وثلوجه وأمطاره، فتوارت في كنف صخرة، أو في حمى جدار، تكون صورة من الربيع الغابر، فلم أجد إلا رفات الأوراق التي كانت مخضرة زاهية، وهياكل الأشجار العارية التي كانت تلبس من حلل الربيع سندساً وحريراً، وقد خيم عليها الموت، وشملها برده القارس؛ فحولت وجهي شطر المستقبل، فلم ألق إلا ظلاماً فوقه ظلام، ووجدت حاضري راكداً ركود الفناء، ساكناً سكون العدم، فضاق صدري، وأغرقتني في بحرها الهموم، فجعلت أفتش عن رفيق يأخذ بيدي، وصديق أبثه همي، وأشكو إليه بثي، فلم أجد لي صديقاً إلا القراء، أولئك هم أصدقائي الذين لا أعرفهم، ولا أنتفع منهم بشيء، وما لي منهم إلا اعتقادي بأنهم يعطفون عليَّ، ولا يشاركون الحاسدين المؤذين حسدهم إياي وإيذائهم لي، فكتبت إليهم أحدثهم بشكاتي، وأروي لهم ذكرياتي. ولعل هؤلاء القراء يضيقون بحديثي صدراً، ويعرضون عنه ويستثقلونه، ولعل اعتقادي بصداقتهم وهم من الأوهام، غير أنني لا أحب أن أرزأ هذا الوهم، ولا أن أتيقن فساده، لأني أعيش به في دنيا الحقائق المرة. . .

ومن كان مثلي غريباً في بلدته التي يعرف نصف أهلها ويعرفه ثلثاهم، يمشي في المدنية الحافلة بالناس مستوحشاً منفرداً كأنه في صحراء، لا يلقى إلا رجالاً، لا يثني تعدادهم أصابع اليدين يجول في هذه الحلقة المفرغة، لا منفذ له منها ولا مخرج، قد خلت حياته من الفرح والألم، وغدت كالماء الآسن، لا تموج فيه موجة ولا تحركه ريح؛ ومن كان يتمنى أن يجد ما يشغله، ويحرك سواكن نفسه، وما يدفعه إلى الفكر والعمل، ولو كان البلاء النازل، أو الحريق المشبوب، أو النفي أو السجن. . . ومن كان يصبح فلا يدري ماذا يعمل في يومه، وكيف يدفع هذا اليوم، ويمسي فلا يعرف ماذا يصنع في مساءه، وكيف ينام ذلك الليل، ومن يحس بثقل الأفكار على عاتقه، ولكنه لا يجد إلى بثها سبيلاً، ويرى الوقت طويلاً والقوة حاضرة، ولكنه لا يعلم فيم ينفق وقته ويصرف قوته؛ ومن كان منعزلاً مثلي،

لا زاهداً في الحياة ولا هرباً من معاركها، ولكن يأساً من مقبل أيامها، وقنوطاً من خيرها، فهو يخلو إلى ذكرياته يتعلل بها ويتمززها، ويحادثها ويناجيها، ويحيا في خيالات ماضيه حين عجز عن الحياة في حقيقة حاضره؛ ومن كان مثلي لا يشكو الفقر في اليد ولا في النفس، ولكن الفقر في العمل؛ ومن كان يجمد بحمد الله من المال ما يكفيه في يومه ويفضل عن حاجته، ولكنه لا يدري ما يكون في غده؛ ومن كانت شكواه فرط الحس، وحدة الشعور، وجحود الناس وكان يشكو دنياه يتقدم فيها الهجين، ويتأخر الجواد الكريم، دنيا فسد فيها كل شيء حتى غدا عقلائها ينتظرون الساعة.

أدرك حقيقة حالي، وفهم مغزى مقالي، ولم يلمني مع اللائمين، ولا كان علي مع العداة الحاسدين. وكم قال لي: ألا تنسى هذا الماضي وتستريح من ذكره؟ ألا تدع المستقبل وتطرح التأمل فيه؟ ألا تعلم أن ما مضى فات والمؤمل غيب، ولك الساعة التي أنت فيها؟ فأقول: بلى، إني لأعلم ذلك، ولكن أين السبيل إلى النسيان؟ وإذا أنا نسيت كل شيء، فكيف أنسى أياماً عشتها لم أكن فيها الطائر المقصوص الجناح، ولا الغصن الذي قصفته الرياح، بل كنت أواجه العاصفة أستند إلى الجذع المتين، جذع السنديانة الراسخة، وأطير فوقها بجناحين قويين، فهاض الدهر جناحي، وكسر جذعي، حين أفقدني أمي، وصيرني عرضة للعواصف، وجعلني معها كالريشة لا تستقر على حال من القلق والذعر والاضطراب. . . وكيف أنسى أنه لو عاش أبي العالم الوجيه ذو المرتب الضخم ولم تخترمه المنية شاباً، لاحتمينا به من كيد الحياة، ولنشأنا في ظله كما ينشأ الفرع اللين وسط الدوحة القوية الممتدة الأفنان، ولما اضطررنا إلى مواجهة الدنيا، والتمرس بنكباتها، ومعرفة لؤم أهلها، ونحن فتية صغار، أطهار القلوب، مبرؤون من الذنوب، لا نلبث حتى نتلوث بأوضار الكيد والمكر، ونتلقف مبادئ (علم الحياة. . .) كما يتلقف الصبي المخطئ مبادئ (فن الجريمة) في السجن الأول، فلا يخرج منه حتى يحمل شهادة البكالوريا في الإجرام.

وكيف أنسى ما نثرت من قطع قلبي، وفلذات كبدي، في أرض الله الواسعة التي لا ترعى حق العواطف، ولا تحفظ عهد القلوب، في سفح قاسيون الحبيب، وفي الغوطة الغناء. . .

وفي حرش بيروت الذي يميس صنوبرة ميسان الغيد الحسان، وقد خرجن متبرجات، ينظرن إلى مياه البحر بعيون لها زرقة ماءه، وله سرارها بعد قراره. . . ذلك الحرش . .

لي تحت كل شجرة منه ذكرى لا يدريها إلا الله وقلبي وذلك القلب الذي سلا وقلى. . . وما سلوت ولا قليت، وما أذعت له سراً ولا أفشيت.

وفي طريق صيدا، كم صببت من العواطف، واستودعت من الذكر؟ سلوا تلاميذي طلاب الكلية الشرعية في بيروت، ألم يشهد لنا هذا الطريق أنا كنا خير من مر به من إخوان متوادين، قد جمعت صداقتهم قلوبهم فمزجتها كلها، ثم قسمتها، ثم أعادتها إليهم، فعاشوا جميعاً بقلب واحد، والأصدقاء يعيشون بقلوب شتى.

هؤلاء الأخوان الذي وفيت لهم فوفوا لي، وأحببتهم فأحبوني، ورأيت منهم لما رضيت فيهم ما لو تخيله القصصي الأديب لاستُكثر وعد مبالغة من المبالغات.

وفي العراق كم خلفت من حياتي، وما الحياة إلا خفقات القلوب، وتردد الأنفاس، ومظاهر العواطف.

على طريق الأعظمية، وفي الكرخ الأقصى في حي الجعيفر، وعلى الجسر في

الأعظمية، وفي البصرة، وفي كركوك، بقع أعزة علي وقوم أحبة إلي، لولا خوفي من ألا يصدقوني لحلفت لهم أنه لم يطب لي بعدهم عيش، فهل يكتب الله العودة لتلك الليالي، فيجتمع الشمل، ويلتئم الصدع، وتلتقي الذكريات بالآمال؟

إني أسأل الله، فنبئوني، هل مد يده أديب بغداد الأستاذ الأثري، فقال: آمين؟ يقولون لي: انس، ولكن كيف السبيل إلى النسيان؟

وكيف أنسى أيامي في مصر، مصر التي محت صورها السنون من نفسي، فلم يبق منها (ويا أسفي!) إلا صورة ميدان باب الخلق مجازي في غدوي ورواحي، وحديقة الاستئناف التي كنت أتأملها وأنا في المطبعة (السلفية) عند خالي، والتي استودعتها من العواطف عداد أوراقها وأزهارها وحبات ترابها، ودار الكتب التي كان بها الشاعر الكبير حافظ رحمه الله، وشارع محمد علي، والعتبة الخضراء (الضيقة) التي لم تكن تخلو يوماً واحداً من ميت مدعوس، وصورة زقاق حوله أنقاض مهدمة ومنازل حقيرة بالية، كنت أمر به كل يوم في ترام السيدة، في ذهابي إلى دار العلوم وعودتي منها، يسمى شارع الخليج، زعموا أنه صار اليوم شارعاً عظيماً، وصار به بنيان. . . وجسر الزمالك حيث كان يطيب لي الوقوف بازائه كل مساء، أتبع ببصري الشمس الغاربة، علي أرى فيها صورة بلدي دمشق، فلا

أرى إلا بريق الشعاع الحاد يتكسر خلال الدموع التي تملأ عيني، دموع ابن العشرين، وقد هاج في نفسه الشوق الذي يسميه لامرتين (مرض السماء) لو كان في السماء أمراض.

وصورة حديقة الجيزة، التي كنت أقضي فيها الساعات الطوال، آنس بوحوشها وهوامها، وصورة بستان إلى جانبها فيه عمال يبنون، قالوا: وقد تم البناء، وصار شيئاً عظيماً يدعى جامعة فؤاد الأول، والله أعلم بصحة ما قالوا.

صدقوني إذا قلت لكم إني آسف على شيء مما صنعت في حياتي أو تركت أسفي على ترك مصر، ولا أطمع في شيء طمعي في العودة إليها والحياة فيها، فهي التي سددت خطواتي في طريق الأدب، وهي التي علمتني، وهي بلد أسرتي، وهي التي جعلتني قبل اثني عشر سنة أكتب وأنشر الفصول في أكرم المجلات، حين كان هؤلاء المحترمون من تلاميذ الشيخ مارسيه على مقاعد المدرسة الابتدائية.

أفليس عجباً أني على حبي لمصر كنت في نظر بعض زملائنا المدرسين المصريين في العراق، عدو المصريين رقم (1)؟ سامح الله زملاءنا هؤلاء، وغفر لهم ما كادوا لي ومكروا بي، وغفر لي ما آذيتهم بلساني السليط!

وكيف أنسى ما أضعت على نفسي من خير، وما عرض لي من فرص فما افترصتها؟

إن من رفاقي في كلية الحقوق من هم اليوم من كبار المحامين الذين يشار إليهم، ومن ينال على وقفة واحدة في المحكمة مائة جنيه في دمشق الفقيرة، فلماذا أعرضت عن المحاماة لم أشتغل بها، وأقبلت على مهنة آخذ فيها خمسة جنيهات على مائة درس ألقيها على أربعين طالباً، يحتاج إسكاتهم وضبطهم إلى شرطيين مسلحين بالبنادق الرشاشة. . .

وإن من رفاقي في الثانوية من هو اليوم ناظر ثانوية كبيرة، وأنا أستاذ معاون، فلماذا درست الحقوق إذا كانت الوزارة لا تعرف أقدار الرجال إلا بما يحملون من شهادات الاختصاص، وكان صاحب اللسانس في الحقوق لا يعد أديباً في نظرها ولو كان شوقي زمانه، أو رافعي أوانه، وترى صاحب اللسانس في الأدب أديباً ولو كان أعيا من باقل، وأجهل من جاهل؟. . . وكيف أنسى أني كنت من عشر سنين أقود طلاب دمشق كلهم، وأغامر بهم في ميادين السياسة، وأني لو شئت لكنت نائباً من زمن طويل. إن الناس لم ينسوا ذلك فكيف أنساه أنا؟ إنهم يعلمون أن في قميصي خطيباً ما يقوم له أحد في باب

الارتجال والإثارة، وإيقاظ الهمم وصب الحمم، ولكن من الناس من يعقد الحسد ألسنتهم عن شهادة الحق.

أستغفر الله فما أحب الفخر، ولكني اضطررت فقلت، وهل أسكت إذا سكت الناس عن بيان حقي؟

إن للمظلوم كلمة وهذه إحدى كلماتي، فإن كانت فخراً فقديماً كان الفخر من فنون الأدب العربي، وإلا فهي ذكرى وتاريخ لأخلاق الناس وأطوار المجتمع.

وكيف أنسى أني بين ماض أضعت فرصه ونسيت ذكرياته وفقدت فيه ذخراً من العواطف الجياشة والشعور المضطرم، وحاضر بددت أيامه بالرجوع إلى الماضي، وصرفت بكره وعشاياه في نبش الذكريات والبحث في أطلالها عن الجواهر والكنوز. . فما كان إلا أن دفنت فيها كنز حياتي وجوهر عمري - ومستقبلاً لم اعد أرجو منه شيأً، لأني يئست من أن ينتابني منه خير.

ومن يصدق أني أتمنى لو كنت غبياً جاهلاً عيياً لأستريح وأهنا، لأني وجدت الذكاء يدفع إلى الألم ويؤدي إلى الشقاء؛ وأني لأهمل القراءة عمداً كي أنسى ما علمت فأغدو جاهلاً فلا ألم إن تقدمني الجهال من أمثالي، ولا ألوم الحياة على ظلمها إياي، فلا أستطيع، وأراني مدفوعاً إلى الازدياد من هذا العلم. . . كأن القدر يسوقني بعصاه إلى الاستكثار من القراءة فأزداد بذلك علماً فأزداد بالعلم ألماً حين أرى علمي وبالاً علي وأرى الجهال يسبقونني ويسرقون منزلتي؛ ولو أني استبدلت بإحياء الليالي في المطالعة والدرس وثني الركب بين أيدي العلماء رحلة واحدة إلى (تلك) الديار أعود منها بعد شهرين بشهادة اللغة العربية لم تكتب سطورها بالعربية لكان ذلك خيراً لي وأجدى علي من علوم الأرض كلها لو حصلتها. ولكني كرهت أن أتوكأ في سيري إلى غايتي على غير أدبي، ونزهت نفسي عن أن أجعل عمادي ورقة صار يحملها الغبي والعمي والجاهل واللص الذي يسرق مباحث الناس ويسطو على آثارهم. إن عمادي هذا القلم، وإنه لغصن من أغصان الجنة لمن يستحقها، وإنه لحطبة مشتعلة من حطب جهنم لمن كان من أهل جهنم. . .

ولكن ما الفائدة من هذا الكلام؟

ما الفائدة وقد ولى ربيع حياتي، وأدبرت أيامي، واستبدل قلبي بالأصيل المذهب ليلاً حالك السواد؟ لقد شخت حقاً، وصرت كالعجوز الذي حطمه الدهر، وفجعه في أولاده فسيره في مواكب وداعهم الباكية، وما أولادي إلا أماني، وما قبور الأماني إلا القلوب اليائسة.

فيا رحمة الله على تلك الأماني!

يا رحمة الله على الأيام التي كنت فيها غراً مغفلاً أصدق كل خداع كذاب يزعم أن في الدنيا فضيلة وخلقاً وأن قيمة الإنسان بما يملكه منهما. . . لقد خدعني المعلمون والأدباء، فلماذا أخدع تلاميذي؟ لماذا لا أقول لهم: إن المكر والكذب والنفاق هي في شرع الحياة فضائل، فأعدوا قواكم لإصلاح المعوج من شرائعها، أو فانزلوا على حكمها، فخاطبوها بلسانها، وادخلوها من بابها؟

إن المربين والمعلمين سينكرون ذلك ويكبرونه ويرونه إفساداً لعقول الناشئة، فليكن إذن ما يريد المربون والمعلمون!

يا رحمة الله على تلك الأيام ومن يعيدها إلي؟ من يرجع إلي ثقتي بالحب واطمئناني إلى الكتب وسكوني إلى الناس؟

كنت أرى الحب أساس الحياة، عليه قام الكون، وبه استمر الوجود، وكنت أومن به فغدوت لا أومن إلا بالبغض، وصرت أحب أن أبغض، وأبغض أن أحب.

فمن يدلني على مصنف في أساليب البغض حتى أتقنها وأفهمها فأبغض الناس كلهم؟ أبلغ الجفاف في القرائح والجدب في العقول ألا يصنف كتاب واحد في (البغضاء)، وقد ألف السخفاء ألف ألف كتاب في الحب؟

لا، بل من يرشدني إلى الفرار من مهنة الأدب والتخلص من الحب والبغض والعواطف كلها؟ من يحسن إلي فيدعو لي بظهر الغيب أن يصحح الله عزيمتي على ترك الأدب، أو ينقص من شقائي به؟ لقد أعطيت عدة الأديب، ولكن الناس آذوني حتى أهملت عدتي فأسلمتها إلى الصدأ، فأكلها، ففنيت غير مأسوف عليه، لا يأسف الناس لأنهم هم الآلي أفنوها، ولا آسف أنا لأني لم أنل منها خيراً.

فلا يغضب القراء إذا أنا ودعت الأدب بالتحدث عن نفسي، فإنما أرثيها قبل موتها، أرثي مواهبي المعطلة، لقد مت، فدعوني لا تؤذوني بالانتقاد البارد، اذكروا محاسن موتاكم، وإذا لم تكن لهم محاسن فعفوا عن ذكر مساويهم.

ولا تنفسوا على أخيكم (نفثة) يزيح بها عن صدره هماً ثقيلاً!

علي الطنطاوي

كلمة أخيرة
من عجائب الاجتهاد
(لناقد أديب)

كتبت عن عجائب التحصيل والروية والاجتهاد في مسرحية مفرق الطريق، فكان من عجائب الفهم الذود عنها بمثل ما كتبه الأستاذ طليمات. وهو يعتذر عن المؤلف بقوله: إن المعاني والفكر المتداولة أشياء يشترك فيها جميع الناس، وإنما العبرة بطرائق معالجتها، إلى آخر ما كتبه في هذا المعنى. وقد حمدنا للأستاذ هذا الرأي لأنه اعتراف مهذب بما كتبناه عن هذه المسرحية المصنوعة من قصائد الشعراء، لولا حديث عن المذاهب الفلسفية موسوم بطريقة المؤلف وأسلوبه في اللف والدوران، رأيت أن من حق القراء علي ألا أخدعهم به عن الموضوع، وألا أخدع نفسي به عما سقت الدليل القاطع عليه من كلام المؤلف نفسه، وكيف أن مسرحية (تخريمة) في الفلسفات وحشو من عفو التأليف.

فلما تحدث الأستاذ الكاتب عن (كانت) و (برجسن) قلت: إن غاية هذين المذهبين في الفلسفة هي الوصول إلى المعرفة وحقائق الأشياء وما وراء الطبيعة، وإن الخلاف بينهما في الأداة أو الوسيلة، فإذا كانت بصيرة (برجسن) قد عملت عملها في المسرحية كما يقول الأستاذ طليمات، فإن القمة الباردة التي تدور حول فلسفة (كانت) قد عملت عملها الواضح في هذا السبيل، وأبرزت أثرها الملموس حتى طمرت المسرحية بثلوجها. وقلت أيضاً إن بصيرة برجسن تستعين بالعقل وليست ضرباً من الهذيان الذي يضطرب في جوانب المسرحية، ودللت على هذا الخلط فعرضت للمؤلف كلاماً بنصه، فإذا هو مذهب فلسفي آخر، وإذا هذه المذاهب الثلاثة تتلاقى على غير هدى وإتقان، ويقوم إلى جانبه رأي آخر يعتذر فيه الكاتب عن المؤلف في اقتباسه صورة الصراع بين العقل والشعور فيشير إلى ذلك وإلى الصراع بين المادة والروح، ويعرض أسماء بيراندللو وإبسن وشكسبير وراسين؛ فرأينا أن نكتفي بواحد من أولئك الأعلام نضمه إلى كانت وبرجسن والسوليزم إرضاء للأستاذ طليمات وتخريجاً لمنطقه؛ فإذا هذا الخليط العجيب مصدر إزعاج للكاتب، وإذا به يتهمنا بما لم نقله إلا إرضاء له وإعجاباً به وهو يتشبث بما يظن فيه النجاة من هذا المضطرب.

وجاء الكاتب في مقاله الأول يقول: إننا حاولنا أن نقرب المسرحية من قصيدة العقاد فنسبنا تصميم غلاف المسرحية إلى بشر فارس وهو من صنع فنانة باريسية؛ فقلنا: إن هذا الرأي المعتذر الدليل كل الدليل على صحة ما ذهبنا إليه، لأن الفنانة الباريسية بعد أن قرأت هذه المسرحية العجيبة وهضمتها وتأثرت بها وأرادت إبراز فكرتها مصورة، لم تجد غير قمة باردة منارة، وطريق صاعد بين الصخور ومنحدر إلى غور؛ وإذا قصيدة العقاد مصورة على غلاف المسرحية، وإذا المؤلف في ختام مسرحيته يقول بمثل ما قال به الأستاذ العقاد في ختام قصيدته، وهو يدعو إلى النزول والانحدار وترك هذه الثلوج.

وقد يلذ لحامي المسرحية أن يسوق دعواه بأنه يقرر مذهباً فلسفياً فأنكرنا عليه هذه الدعوى، لأن المسرحية جاءت خليطاً من فلسفات شتى كما أسلفنا القول على ذلك؛ وهكذا أطرد سياق المسرحية في أسلوب من التعسف إلى غير هدف صميم من المذاهب الفلسفية التي أقتحم عليها فظلمها وإن كانت قد تأبت عليه إحدى قضايا النفس البشرية المشتركة بين جميع الأحياء، ولا يستعصي فهمها على الدهاء هذا من حيث الفكرة! فماذا من ناحية الأسلوب؟

لقد نهج المؤلف نهجاً ساذجاً في الاقتباس: فهو من الجهة الواحدة قد اقتطع الأستاذ العقاد في إيراد فكرته بقصيدة القمة الباردة، فعالج موضوعه على نفس الأسلوب صاعداً إلى القمة المثلوجة وهابطاً إلى الغور المظلم، ولو أنه كان مبدعاً في نهجه لأتخذ سبيلاً آخر وراح يناوح جنبات فكرته بين الشاطئ المؤنس وبين مضارب الصحراء مثلاً! بل إنه أمعن في هذا الاقتباس الغريب المريب فراح يعرض فكرة الصراع بين العقل والقلب على النمط الذي نهجه الشاعر علي محمود طه في قصيدة قلبي إذ صب معانيه في قالب ألفاضها دون أن يصوغها في قالب آخر؛ فهو يعمد إلى قوالب النار والظلمة والاحتراق دون أن يلجأ إلى صيغ جديدة تضفي على فكرته مسحة الأصالة شأن من يمتازون بشخصيتهم الأدبية المستقلة، وفضلاً عن ذلك كله فقد أثقل

المؤلف بأسلوبه على مذهب الرمزية، وطغى عليه حتى مسخ طبيعته وشوه فضيلته وأفسد غايته. ذلك أنه تطاول على هذا المذهب إلى حد المواءمة بين المطبوع والمصنوع، ولقد وضحنا أن الأصل في الرمزية أن تنشأ مع النفس وفي التفكير، لأنها التعبير عما وراء الطبيعة، أو ما وراء أفق الشعور بما تعجز الألفاظ عن إبانته والإفصاح عنه، بينما تعالج المسرحية قضية بسيطة ومعاني عادية يجب أن تلتزم مكانها من التعبير المباشر الصريح دون إبهام أو إيهام، وضربنا في ذلك المثل بالمقبرة البحرية. ويمعن الكاتب في التطبيق الأعرج، فيعكس على نفسه الغاية إذ يصعد إلى الثلج مريداً خلاص النفس من ألم الإحساس البشري قياساً على الفكرة التي رمز العقاد إليها بالثلج مريداً (الإدراك المجرد) فأخذنا عليه اعتسافه في التطبيق على (النفس) هكذا إذ يحرمها بطريقة (استبدادية عرفية) حظها المقسوم المحتوم من الشعور باللذة أو الشعور بالحياة.

ذلك شأن المسرحية وشأن المدافع عنها، وقد عز علينا أن يخونه التوفيق في محاولاته العجيبة في نواحيها الأخرى، من ذلك أنه انتهج طريقة المداورة فأسرف على نفسه حين تكلم عن حظ الأدباء من الفلسفة وما يجب أن يأخذوا به أنفسهم، وتلك بديهة لا خلاف عليها، وإن كنا نعجب له بعد ذلك حين أخذ نفسه بالاعتذار عن الأستاذ العقاد قائلاً: (لا لوم ولا تثريب على أستاذنا العقاد أن يورد قصيدة من شعره تحمل في طياتها نزعات فلسفية لمدرسة معروفة) كأنما العقاد قد أتى بهذا ما يعاب، ولكنه الخلط ومجرد الكلام بما لا يجدي في دفع الإقحام.

ويزعم الأستاذ طليمات أننا قلنا إن المذهب الرمزي في الأدب ليس إلا ضباباً كثيفاً من الإبهام والإيهام، وتلك دعوى باطلة مردودة لم نقل بها وإنما هي من بدائع مخيلته، وهو يعود في مقاله الأخير إلى بصيرة برجسن بكلام لا يخفى مغزاه على المشتغلين بالأدب والفلسفة. ولقد عجبت له وايم الحق وهو يشفق (أن تسوخ قدمه) فينكر الفلسفة على (إبسن) بحجة جريئة هي أنه (ليست له مدرسة فلسفية بمعالمها وحدودها) ورحم الله فلسفة الاجتماع!

ولسنا من أصحاب الدعوة السياسية نريد أن نؤلب بها الجماهير أو نقود الدهماء، وإنما نتحدث إلى العقول والقلوب ونسوق الدليل ونأتي بالبرهان، وإنما هو حديث الأدب الخالص الذي يتناول الدرس والاستقراء بالبينات دون الشبهات ويعرض لآثار الأدباء دون ذواتهم

فالذاتية لا اعتبار لها في هذا المجال، وهي لا ترفع من قدر الكاتب إلا بمقدار ما يصيبه القراء في بحثه من الأدب الخالص والفكر الناضج والعلم الصحيح.

ناقد أديب

رسالة الشعر

ثلاث عشر حجة

للأستاذ الكبير عباس محمود العقاد

مرَّت بنا الأيامُ وَثْبَا ... سِلْماً كما شاءت وحَرْبا
لا أحسنَتْ حَرباً، ولا ... في السِّلم، طاب السلُم غِبَّا
ضَمِنَتْ لجيشَيْها مَعا ... غَصْبا كما اشتهيا، وغَلْبا
فإذا الحوادثُ أقبلت ... أو أدبرت، فالْخَلْقُ نُهبَى
ألعامُ من أعوامنا ... يحوى - جزاه الله - حُقْبا
وثلاثَ عَشْرَةَ حِجَّةً ... قلبتْ طِباقَ الأرضِ قَلْبا
سَلْها عن الدنيا وما ... صنعتْ بها شرقاً وغربا
سَلْها عن الوادي وما ... صنعتْ به دفعاً وجَذْبا
لا ضَيْرَ بالماضي إذا ... دارَ الزمانُ فطاب عُقْبَى
فألاً من الذكرى، وكم ... فألٍ طوَى في الغيب حُجْبا
وهدايةً منها وقد ... تَهديك في الظّلماء قُطْبا
يا سَعدُ يومك، فاستجب ... قلباً لمن يدعوك قلبا
جرِّد عزيمتك التي ... أغنت عن الصَمصام غَرْبا
وابعث نصيحتك التي ... أغنت من التِّرياق طِبَّا
وانشر فرائدك التي ... أغنت من العِقيان كَسْبا

هذا نذير الشر هَبَّا ... وإلي حَمِى مصرَ اشرأبَّا
وسَرَتْ إلى إفرِيقيا ... عَدْوَى الجهالة من أُرُبَّا
طمعوا بَحوْزة أمةٍ ... ظنوا لها الغفَلاتِ دَأْبا
إن قيل لا خطرٌ غفتْ ... عيناً، وتاهت عنه لبَّا
أو قيل لا طمعٌ فلا ... طمع، وقَرَّت مصر سِرْبا
أو قيل يا أمم انهضي ... نهضت وراحت مصر تأبى
تجري المخاوف حولها ... وتخاله الأمن استتبَّا
يا سعدُ أنت إمامُها ... فاهتِف بها مَلأً وشَعبا
صدَعَ الشقاقُ صفوفَها ... وجمعتَها بالأمس حِزبا
فاجمع جوانبَ رأيها ... شِعْباً على الْحُسنَى فشِعْبا
قل أنتمو أعلى يداً ... من عابِدِي الإنسان رُهْبَي
ذَلُّوا فلما استرسلوا ... تاهوا بقيد الذل عُجْبا
وإذا أتَوا عددَ الحصى ... فرمالُكم أوفَى وأرْبى
جَدْبٌ من الصحراء أغلى ... ى من جَحيمِ الرَّوض تُرْبا
ظمآنْ يشرب كلَّ من ... يُغرى بكم أكلا وشربا
وقل استعدوا واسلكوا ... في مفرِق الحدين دَرْبا
لا تُصْغِروا هَوْلاً ولا ... تستكبروا الأهوال رُعْبا
وتبينوا أين الفري ... قُ الحرُّ فاتخذوه صَحْبا
دارُ الذين سَبَتْهمُ ... حريةٌ - هيهات تُسْبَى
ضِنوا بمصرِ على العدى ... وعلى الذي يحتال خِبَّا
وحَذَارِ دعوى معشرٍ ... لم يؤمنوا بالحق رَبَّا
لا رحمةً عرفوا ولا ... عرفوا لغير الشر حُبا
القدوةُ العُلْيا لهم ... وحشٌ على العُدوان شَبَا
عقدوا على البغي العُرَى ... تَبَّتْ يَدُ الباغي، وتَبَّا
يا آل مصرَ تذكروا ... سعداً ففي التَّذكار قُرْبَى
إني استعرت بيانه ... فَعلَّى إن قَصَّرْتُ عُتْبَى
إلا اللبابَ، فإنني ... في الرأي ما أخطأت لُبَّا
سعدٌ إذا أمضى مضى ... وإذا دعاه الهول لَبَّى
عباس محمود العقاد

نجوى!

مَرْثِيَة زَهْرَة!!

(عثر الشاعر في رسائلها الحزينة على زهرة ذابلة عادت بها سنين الفرق وهي هامدة مفطورة ينفح رفاتها عطر الفناء!!)

يا ابنَةَ الماضِي وما الماضي سِوَي ... نَعْشِ أَحْلاَمِي إلى الْقَبْرِ يَسِيرُ!
إِنْ يَكُنْ ماتَ بَدُنْيَاكِ الهَوى ... فَهْوَ في دُنيايَ لَفْحٌ وَسَعِيرٌ
في دَمِي مِنْهُ عَذابٌ وَجَوَي ... وَعَلَى الأنفاسِ وَجدٌ مُستطيرُ
وَعَلَى أيَّامِيَ السُّودِ فُتورُ ... كالَّذي نفضَهُ الْموتُ عَليكِ
فاسْألي عَنهُ تُناجيكِ الْعطورُ ... إنْ يَكنْ فيها بَقياتٌ لَديكِ
مَا لأوراقكِ في الصَّمتِ حَزانى ... ثَاكلاَتِ الْعطرِ شَلاَء الرَّفيفِ
غَارقاتٍ في الضَّنى تَبْكي حَنانا ... وَبكاءُ الصَّمتِ سُلوانُ الضَّعيفِ
أَتُراها نَقلتْ عَنِّي الْهَوَانا؟ ... واسْتعارتْ شَجَنَ الْقلبِ اللَّهيفِ
أَمْ تُراها شَربتْ كَأس الْخَريفِ ... حِينما طَاف بها سَاقي الرِّياحِ؟
حَشرجتْ مِنها وذابتْ في شُفوفٍ ... خَضبتْ أسْتَارَها كَفُّ الْجِراحِ
اذكُري يا زَهْرةَ الذِّكْرَى غَرامِي ... وَهوَ دُنْيايَ وَديني في الحياةِ
يَوْمَ فَتَّحتِ لِصَفْوِي وَابتِسامِي ... وَتَطَهَّرْتِ بِنَارِ الْقُبُلاَتِ
وَانْتَشَى عِطْرُكِ مِنْ سِحرِ الْهيامِ ... فَغَدَا أَحْلاَمَ نُسْكٍ في صَلاةٍ
طاهِرَ الأنْفَاسِ عَفَّ النَّفَحَاتِ ... أَيْنَ مِنْهُ رَشْفَةٌ لِلظَّامِئِينْ؟
أَنَا وَالشِّعْرُ وَحُبِّي وِفَتَاتي ... قَدْ حُرِمْنَا كأسَهُ خَمْسَ سِنِينْ
قد حُرِمْناها! ولم يَبْقَ لَدَيْنا ... غَيْرُ طَيْفٍ مِنْ رُفَاتِ الذِّكريَاتِ

كلَّما أَوْمَا إلى الماضِي بَكَيْنا ... وَدَفَنَّا حَظَّنا في الْعَبَرَاتِ
ثم عُدْنا والْهوى بين يدَيْنا ... كِجنازِ الصَّمْتِ بين الفلواتِ
عودةَ الْعِطْرِ لِتلْكَ الورقاتِ ... هُوَ حيٌّ وهي في الأكْفانِ غَرْقَى
فارْقُبِي يا زَهْرَةَ الذِّكْرى مَماتي ... نَضَبتْ روحي وذابَ الْعمْرُ شَوْقاَ!
محمود حسن إسماعيل
خواطر في الحرب
للأستاذ محمد عرفة
ذكرنا في كلمة سالفة أن الترف مفسد للأمم وأن التقشف مقوٍ لها، وأن الترف نتيجة طبيعية للغنى، وأن التقشف نتيجة طبيعية للفقر، ونريد الآن أن نعلم لماذا كان الترف مضعفاً للأمة كاسراً لحدها، ولماذا كان التقشف مقوياً لها. لعل ذلك يرجع إلى ما يأتي:
1 - إن المترفين لا يباشرون حاجاتهم بأنفسهم بل يتولاها لهم غيرهم، والعضو الذي لا يعمل يفقد قوته، وربما مات. لذلك تضعف أعضاؤهم وتفتر قوتهم؛ وقد قال بعض العرب: ما وددت أني مكفي المؤونة. قيل له: ولم ذاك؟ قال: أخاف عادة العجز. أما الفقراء فهم لحاجتهم يتولون الأعمال الجالبة للرزق فتقوى بذلك أجسامهم وعقولهم، فحيث ترى قوماً يعملون رأيت السواعد القوية، والصحة والعافية والعقول الخصبة والأفكار المنتجة. وحيث رأيت قوماً مكفي المؤونة رأيت الأجسام الضعيفة والفتور العقلي.
2 - إن المترفين ينغمسون في الشهوات، ويكرهون المشقة، ويخافون الخروج من عيشة الدعة؛ فهم دائماً مخلدون إلى الأرض، لا يرفعون رأساً، ولا يسمون إلى مكرمة؛ فإذا رأوا طريقين: أحدهما شاق وعلى رأسه العزة، والثاني سهل وعلى رأسه الذلة، اختاروا أسهل الطريقين ونفوسهم دائماً تكذبهم وتختار الأسهل، وتزعم أنها اختارت ما فيه الخير؛ فإذا توقفت حياتهم وعزتهم على حربٍ يخوضونها عللوا نفوسهم بالأماني وسوفوا، فإذا اضطروا إلى خوضها ورأوا طريقاً للنجاة منها ولو بوعود كاذبة يبذلها العدو، صدقوا هذه الوعود وخدعوا أنفسهم. أما غير المترفين فهم لا يبالون الشدائد لأنهم أبناؤها، فإذا رأوا طريقاً للمعالي سلكوه ولو كان فيه الموت جاثماً، وإذا رأوا طريقاً للمخازي نبذوه ولو غرست فيه الورود والرياحين.
من أجل ذلك ترى الذين يخافون عاقبة الترف يكلفون أنفسهم أعمالاً جسدية شاقة لتقوي أبدانهم.
روي أن عمر بن الخطاب قدم إليه فرسه وعليه الركاب فنحاه عن فرسه وكان يقفز من الأرض، فإذا هو على ظهر فرسه، فكأنما خلق عليه.
محمد عرفة
رسالة الفن
في الفن والتربية
مدرس الرسم
للأستاذ عزيز أحمد فهمي
لي صديق زرته، فرأيت أبنه يرسم باذنجانة؛ فسألته لماذا يرسمها فقال لي:
- أستعد لامتحان الملحق
- وهل وقعت في الرسم؟
- نعم.
- وحده؟
- وحده.
- مسكين. على أي حال الرسم هين، وتستطيع المثابرة الخفيفة أن تتقنه بالقدر المطلوب منك
- إني أرسم كل يوم مائة باذنجانة، ومائة قلة، ومائة طربوش، ومائة صندوق مفتوح، ومائة صندوق مقفل؛ ومع هذا فإن أبي لم يرض عن رسم واحد مما أرسم، فاصنع في أنت معروفاً، وقل لي كيف أرسم وكيف أتقن الرسم
- ألم يقل لك معلمك الذي كان يعلمك الرسم في المدرسة كيف ترسم؟
- قال كثيراً، ولا زلت أحفظ ما قال حتى إني لأضمن النجاح في الرسم لو أنهم امتحنوني فيه امتحانا شفويا.

- اسمعني ما قال معلمك. . .
- قال يا سيدي: إن الشكل إما أن يكون في مستوى النظر وإما أن يكون فوق مستوى النظر وإما أن يكون تحت مستوى النظر، فإذا كان في مستوى النظر رسمناه مستقيماً، وإذا كان فوق مستوى النظر جعلنا جزءه الأسفل هو القاعدة واتجهنا بخطوطه بعد ذلك إلى نقطة تقع فوق هذه القاعدة وتلتقي فيها هذه الخطوط، وإذا كان الشكل تحت مستوى النظر جعلنا جزءه الأعلى قاعدته واتجهنا بخطوطه بعد ذلك إلى نقطة تقع أسفل هذه القاعدة
وتلتقي فيها هذه الخطوط. . .
أرأيت الآن أني أحفظ الرسم عن ظهر قلب. . . وليس هذا فقط. . . وإنما قال لنا أيضاً: إن الضوء إذا كان آتياً من اليمين فإن الظل يكون في الشمال، وإنه إذا كان آتياً من الشمال فإن الظل يكون في اليمين. . . فماذا تريد أكثر من ذلك. . .
- لاشيء. . . وإن معلمك لم يقصر، وكان عليك أن تطبق في رسمك هذه القواعد فتنجح. . .
- صدقني أني أطبقها، ولكني لا أدري لماذا لم أنجح في الرسم. . . لقد كرهته حتى لم أعد أطيق دروسه.
- لماذا؟
- أليس في الدنيا شيء نرسمه غير الباذنجان والطربوش والقلة والصندوق المفتوح والصندوق المقفل. . . كل هذه أشياء ثقيلة الظل مثل صاحبها.
- ومن صاحبها؟
- هو الأفندي الذي يعلمنا الرسم. يدخل الفصل ومعه المنظور ويضعه أمامنا، ويقول: الآن فوق مستوى النظر أو تحت مستوى النظر، والضوء آت من اليمين أو الشمال، فارسموه ثم يبدأ يطوف بنا ليصحح لنا الأشكال السابقة، ويلقي نظرة على الشكل الجديد، وليس عنده غير الضوء والظل ومستوى النظر. . .
- وماذا كنت تريد منه أكثر من ذلك؟
- أنا؟. . . لا ادري، ولكن ابن خالي يقص لي قصصاً لذيذة عن معلم الرسم الذي يعلمهم، يقول لي إنه رجل خفيف العقل، وإنه يضحكهم كثيراً، وإنه يخرج لهم من جيبه لعباً غريبة؛ ويقول لهم: انظروا إليها قليلاً. ثم يقول لهم: أغمضوا أعينكم قليلاً وارسموها بأصابعكم في الهواء وأنتم مغمضون، ثم يقول لهم: افتحوا أعينكم وارسموها بالأقلام على الورق. وقد أصبح ابن خالي الآن يستطيع أن يرسم رسماً حسناً أحسده عليه.
- ولماذا لا تتبع أنت هذه الطريقة. . .
- إنني لم أر هذه اللعب!
- ليست هذه اللعب ضرورية، فأنت تستطيع أن تستبدل بها أي شيء. . . وتستطيع أن تبدأ منذ الآن. . . أنظر إلى هذه الشجرة قليلاً. . . ثم أغمض عينيك. . . أرسمها في الهواء بإصبعك. . . هذا حسن. . . والآن ارسمها على الورق بالقلم. . . عال، عال. . . تكاد تكون هي، أما كان يصح أن تقتبس هذه الطريقة من تلقاء نفسك. . .
- كنت أظنها لا تنفع إلا في اللعب. . .
- لا. . . إنها تنفع في كل شيء، وهي وحدها مفتاح الرسم. . . وانطلق الولد مسروراً لأنه اهتدى إلى مفتاح الرسم، وبقي أبوه معي وقال لي:
- أنا أيضاً كنت ارسب في الرسم لما كنت تلميذاً.
- وأنا أيضاً.
- ولنا وللولد العذر، فالرسم موهبة من الله ولا يصح أن نطالب به كل إنسان، ولست أدري لماذا تصر وزارة المعارف على أن تجعله مادة إجبارية. . .
- صحيح إن الرسم موهبة، ولكن ليس معنى هذا أن تغفل وزارة المعارف تعليمه تلاميذها، وإنما الواجب أن تعلمهم إياه، فالموهوب منهم تنكشف بالتعليم موهبته وتنصقل، وغيره يتمكن بالإرشاد والممارسة من الإقبال عليه في غير كراهية ولا تذمر، وليس هناك شك في أن الرسم يربي الذوق البصري، وليس هناك شك في أن كل مبصر محتاج إلى تربية هذا الذوق في عينيه إن لم يكن للرسم فللملاحظة والإدراك، وتمييز الأشياء، وإدراك المنظورات. . . هذا هو الذي يحمل وزارة المعارف في الدنيا

كلها على الاهتمام بالرسم والعناية به. وكل ما في الأمر أننا هنا لا نزال في حاجة إلى معلم الرسم الصحيح، كما أننا لا نزال في حاجة إلى المعلمين الحقيقيين في غير الرسم. . . وقد يؤلمني أن أقول لك إن قليلين جداً من المعلمين هم المولعون بما يعلمون، وإن اكثر المعلمين في مصر يؤدون عملهم على أنه عمل يرتزقون منه لا أكثر ولا أقل. . . وإلا فقل لي كم من معلمي الأدب في مصر أدباء، وكم من معلمي الجغرافيا في مصر غادروا القطر أو المدن التي يعملون فيها، وكم من معلمي الكيمياء في مصر انشغل بتركيب أو تحليل خارج المدرسة، وكم من معلمي الرسم في مصر لهم عمل يعرفه الجمهور أو لا يعرفه. . .

- إن لمعلمي الرسم اتحاداً، وقد قام اتحادهم معرضاً زاره وزير المعارف منذ شهور وأثنى عليه. . .

- لم يكن في هذا المعرض إلا أشكال بعضها تحت النظر وبعضها فوق النظر وبعضها في مستواه. ولم يكن المقصود من هذا المعرض إلا أن يلتفت وزير المعارف إلى معلمي الرسم فيرعاهم قليلاً لأنهم في الحقيقة مغبونون ومظلومون أكثر من غيرهم من المعلمين.

- إذن فقد أعجبتك طريقة المعلم الخفيف العقل

- من غير شك، لأنها التدريب الطبيعي للتصور، والتصور هو أول ما يتطلبه الرسم.

- ولكني لا أزال أطمع في أن يرتقي تعليم الرسم عندنا إلى أكثر من هذا، حتى نرى من تلاميذنا اهتماماً بالجمال وإدراكه له كما نرى ذلك في أبناء غيرنا من الأمم.

- أنا لا أشك في أن الاهتمام بالجمال موجود عندنا كما أنه موجود عند كل الناس، ولكن شعبنا لا يزال ينطلق إلى الجمال في مطارحة الطبيعة كلما حن إليه. . . والذي ينقصنا حقاً هو التفكير في اختزان صور من الجمال نفزع إليها كلما اشتقنا لها. . . وقد يكون السبب في امتناعنا عن هذا هو فقرنا وعدم ظهور الفنان المصري الذي يخلد في صورة من الصور منظراً يشتاق المصريون إلى النظر فيه باستمرار. . . وأنا لا أزال اجهل هذا المنظر. . .

- لا أظنه منظراً واحداً هو الذي يجذب المصريين، فكل منظر يصح أن يجذبهم.

- ولم لا؟ ولكني أظنهم لا يزالون في حاجة إلى من يلفتهم إلا مواطن الحسن في المناظر الطبيعية وفي المناظر المرسومة. . . وهذا من عمل معلم الرسم، وهو لا يستطيع أن يؤديه إلا إذا كان فناناً حساساً يتذوق هو نفسه الجمال، ويستطيع هو نفسه أن يعبر عنه، وهذا المعلم هو الذي يجب على وزارة المعارف أن تبحث عنه أو أن تكونه. . . وأظنها قد بدأت تبحث عنه كما أنها قد بدأت تكونه. . . فقد بدأت تأخذ معلمي الرسم لمدارسها من خريجي مدرسة الفنون الجميلة العليا بعد أن تعلمهم أصول التربية في معهد التربية. . .

- وهل تحسن الظن أنت بمدرسة الفنون الجميلة العليا وبمعهد التربية؟

- المدرسة والمعهد فيما أرى يتبعان أضمن الطرق لتخرج الفنانين والمعلمين، غير أنهما يسمحان لكثيرين من غير الفنانين والمعلمين والموهوبين بالانخراط في سلكهما، ويظهر أنهما لا يستطيعان أن يفعلا غير ذلك، لأنهما لو دققا التدقيق المطلوب في الاختيار، فانهما قد لا يقبلان في العام الواحد أكثر من طالب أو طالبين، وعندئذ تواجه البلاد أزمة فنانين ومعلمين لا قبل لها بها. . .

- قد يكون التساهل معقولاً في قبول المعلمين غير الموهوبين لأن البلاد في حاجة إلى عدد كبير منهم، وهذه الحاجة تتجدد وتزيد كل عام، ولكن ما هو العذر في أن تقبل مدرسة الفنون الجميلة العليا شباناً استعدادهم الفني فقير، أو عادي؟

- ذلك لأنها مفتوحة الأبواب، وأنها مادامت كذلك فهي تنفق على نفسها ميزانيتها المربوطة لها، فسواء كثر الطلبة فيها أم انفضوا عنها فهي مضطرة إلى المضي في عملها، ما دام الأمر كذلك فهي تقبل كل عام عدداً ممن يتقدمون إليها حتى لا تغلق أبوابها. . .

- ولما كان مستقبل المدرسة مبهماً وغامضاً فإنه لا يقبل عليها إلا من يئس من غيرها سواء أكان موهوباً أم كان غير موهوب، وهذه طريقة لا تؤدي إلى الخير بأي حال من الأحوال.

- . . .من غير شك
- . .أو ليست هناك طريقة أخرى يمكن أن تؤدي إلى الخير
- إن لم تكن هناك طريقة فمن الممكن استحداثها. . . نحن الآن في المدرسة الابتدائية، ولكل تلميذ من تلاميذ المدرسة ملف، وهذا الملف لا تجد فيه شيئاً عن التلميذ إلا أنه غاب في يوم كذا، وحبس يوم كذا، وتغدى خبزاً قفاراً في يوم كذا. أما أخلاقه، وأما عقله، وأما موهبته فهذه جميعاً أشياء لا تجد لها أثراً في ملفه، بينما لو اهتمت كل مدرسة بكل تلميذ من تلاميذها ودرست أخلاقه وعقله ونفسه، وسجلت من حوادثه وأخباره ما يدل على روحه شهراً فشهراً أو عاماً فعاماً، فإن التلميذ ما يكاد يفرغ من مرحلة التعليم الابتدائي حتى يكون في ملفه صورة ولو غامضة تحدد اتجاهه في الحياة الذي هيأته له طبيعته، فإذا اتبعت هذه الطريقة في المدرسة الثانوية فإنه ما يكاد يفرغ من التعليم الثانوي حتى يكون ملفه ناطقاً بصراحة ووضوح بالعمل الذي لا يصح أن يختار لنفسه غيره. فهذا يثبت الملف أنه سريع الخاطر سليم النطق، قوي الفراسة، صبور، جذاب يرتاح إلى الناس والناس يرتاحون إليه، مرشد بطبيعته إلى ما يراه لا يخفي شيئاً مما يعلم فهو إذن يصلح لأن يكون معلماً، والثاني ذرب اللسان جريء على المغالطة، لبق في إظهار الحق متى يشاء وكتمانه متى يشاء، قوي الحجة. . . فهو إذن يصلح لأن يكون محامياً. . . وهكذا لو اتبعت مدارسنا هذه الطريقة فإنها من غير شك تفلح في تعليم تلاميذنا وتوجههم، ولكن مدارسنا لا تهتم بشيء أكثر من الامتحانات المتوالية ونتائجها، ونسبتها المئوية. . . فقط لا غير

عزيز أحمد فهمي

رسالة العلم

قصة الفيتامين

تجربة غذائية عرضية

- 1 -

لقد أثبت قديماً أفذاذ علماء التغذية مثل ليبج وفويت بناء على تجارب صحيحة أن المواد الثلاث الزلالية والدهنية والنشوية، زد عليها الأملاح المعدنية والماء هي مقومات الحياة. فالمواد الزلالية تقوم ببناء الجسم وما يتطلبه من النمو، بينما المواد الدهنية والنشوية تبعث القوة وتدعو للحركة والإنتاج الحيوي عند احتراقها. ونشير في هذه العجالة إلى المجهودات العظيمة الدقيقة التي قام بها فويت في هذا السبيل، والتي أثبت فيها بالوزن مقدار الكميات اللازمة من المواد الغذائية لحفظ الجسم ودولاب الحياة بلا اضطراب، فقدر للشخص العادي الذي يزن 65 كيلو غرام ويقوم بمجهود متوسط مقدار 118 جرام من المواد الزلالية، و 50 جراماً من المواد الدهنية، و 500 جرام من النشويات ككميات يومية ضرورية لحفظ حياته.

بهذا القدر يكتفي علم التغذية في تأدية رسالته ولا يبقى بعدئذ إلا التفكير في جمع هذه المواد الغذائية بالنسب المعينة وإمداد الجسم بها بطريقة ملائمة، ولكن لم يرق هذا بعض المفكرين والمشتغلين بفن التغذية في هذا الوقت، كما استبعدوا حل المشكلة الغذائية بهذه الطريقة الكيميائية السهلة. وكان جوستاف بونج الفسيولوجي الكيميائي أول من حاول تطبيق هذه النظرية، فارتأى أن الحيوانات التي تعيش على المواد الغذائية الطبيعية أكثر صحة وأوفر نشاطاً من مثيلاتها التي يقدم لها الكميات من المواد الغذائية التي أقرها العلماء. ففي سنة 1905 قام بتجارب غذائية على فيران هيأ لها أسباب الغذاء من مواد زلالية ونشوية ودهنية وأملاح معدنية بنسب ثابتة لا ينقصها شيء. فبدأ على الحيوانات الضعف الهزال وتساقط شعرها، واتسخت عيونها اللامعة، وما لبثت طويلاً حتى نفقت.

لم يساور أحداً شك في النتائج التي وصل إليها بونج، بل اتجهت الشكوك نحو طريقة التغذية وإجرائها.

أوشك أن يُسدل على هذه النتائج ستار النسيان، وحاول الإنسان أن يدخل في روعه وقتذاك أن لابد هناك من سر عويص الفهم، ولكنه بمضي أربع سنوات على هذه النتائج أي عام 1909 أقدم العالم ستيب على تجارب غذائية لها قيمتها، فهيأ لمجموعة من الفيران غذاء طبيعياً - غير صناعي - عادياً يحتوي على جميع المواد الغذائية اللازمة، قد نُقع قبل تقديمه لها في الكحول والإثير، وانتهت هذه التجربة أيضاً بهلاك الحيوانات.

استنتج ستيب من هذا أن وجود جميع المواد الغذائية الأساسية وحدها لا يكفي لحفظ حياة الحيوان عند غياب مواد أخرى ربما تكون تلك التي تأثرت في تجربته عند معالجة الطعام بنقعه في الكحول. لم تتحسن الحال عن ذي قبل حتى بظهور نتائج ستيب في الميدان بجوار نتائج بونج، وخالج الإنسان الشك حتى امتعض من هذا الاهتمام الزائد الذي يقوم حول تغذية الفيران

اتجه الاهتمام بعد ذلك إلى إجراء هذه التجارب على الحيوانات المنزلية النافعة فقام بابكوك الأمريكي (الذي تتلمذ على يد العالم الجليل ليبج الألماني) بدوره في هذا المضمار. ففي إحدى محطات التجارب الزراعية التابعة لجامعة ماديسون أتى بمجموعتين من الأبقار أطعم أولاها القمح الخالص والثانية الذرة. ففي بحر السنة الأولى ظهر على نتاج المجموعة الأولى الضعف وعدم تهيئتها لأسباب الحياة بينما لم تظهر على أمهاتها أعراض مرضية ذات بال. أما نتاج المجموعة الثانية فلم يلاحظ عليها شيء وكانت صحيحة قوية، فحمل هذا على الاعتقاد بأن الذرة لابد تحتوي على مواد مجهولة تلزم للحياة.

وقد لا تتهيأ لكل عالم هذه الظروف الحسنة التي هُيئت لبابكوك الأمريكي في إجراء تجاربه الكثيرة التكاليف، فاكتفى الكثير من علماء التغذية بتجارب أقل نفقة في البلاد الأخرى، فقام في النرويج البحاثة آرل هولف بإجراء تجاربه على الخنازير، فقدم لها غذاء واحداً لا يتغير من الحبوب النباتية فتأثرت به وظهرت عليها عوارض تضخم المفاصل وإدماء اللثة وسقوط لحمها، ولكنه أضاف بعد ذلك إلى الطعام نفسه بعض الدرنات كالبنجر، فزالت تماماً هذه الأعراض وانعدم ظهورها في الحيوان.

جاءت هذه النتائج مدعمة لبيانات الفسيولوجي هوبكنز الذي سبق ذكره والذي أعد لفيرانه غذاء خاصاً مكوناً من النسب المعروفة اللازمة من المواد الزلالية والدهنية والنشوية النقية

مع الأملاح فظهرت عليها الأعراض المرضية التي ما لبثت أن زالت تماماً وبسرعة عندما أضيفت بعض نقط من اللبن إلى غذائها

فتقت هذه النتائج المتعددة الأذهان وشحذت العزائم وضاعفت من الجهود لكشف القناع عن هذا السر الذي بدأ يتهتك حجابه، وذكر فضل السابقين في البحث الذين كاد يسدل عليهم ستار النسيان. وأثبت بعض الباحثين الهولنديين أن بعض الطيور المنزلية كالحمام والدجاج ظهرت عليها أعراض مرضية غريبة عندما كان غذاؤها مقتصراً على حبات الأرز الأبيض وزالت هذه الأعراض بإضافة ردة الأرز.

يمكننا أن نتصور دهشة العالم حينذاك حول هذا (الشيء) الذي صادفه العلماء تارة في الذرة وأخرى في الأعشاب الخضراء أو في الدرنات وحيناً في اللبن وحيناً آخر في ردة الأرز - ولكن شيئاً واحداً بقى راسخاً في الأذهان، وهو أن دولاب الحياة لا يلزمه فقط ليدور للآن من المواد الزلالية والدهنية والنشوية بل يلزمه أيضاً لحفظ دورانه منتظماً وبلا اضطراب مواد غذائية أخرى خاصة ذهبت في التعرف عليها جهود العلماء والباحثين السابقين هباء.

وفي عام 1931 أطلق عالم بولوني يدعى كازمير فونك على هذا الشيء العجيب الذي شخصه بجسم أو مادة كيميائية أو مجموعة مشابهة للزلال أو الدهن أو النشأ لفظ (فيتامين) بدون أن يفكر جدياً فيما سيكون لهذه التسمية بعدئذ من أهمية قصوى؛ وحتى هذه التسمية الخاطئة - من الناحية الكيميائية - لهذا الشيء العجيب لم تفد الموقف كثيراً.

وينقسم لفظ فيتامين إلى شطرين: الأول (فيتا) ومعناه الحياة، ومما لا يختلف عليه اثنان أن هذه المواد هي من أسباب الحياة. أما الشطر الثاني وهو (أمين) فهو يدل على مجموعة من الكربونات العضوية تتركب من الآزوت والإيدروجين، أي مجموعة الأمينات (زيد2) ولم يثبت إلى الآن انتماء هذه الفيتامينات إلى مجموعة الأمينات.

وبرغم التخبط في التسمية ومحاولات الاستدلال على هذا الشيء فقد وضع له الحجر الأساسي، وقامت بعدئذ مجهودات عنيفة وعديدة في المعامل المختلفة في شتى البلاد لكشف سر هذه الفيتامينات، فهوبكنز الإنجليزي قد رسم طريق البحث عنها سنة 1913 في مؤتمر الطب بلندن، وخطب ستيب الألماني اتجاه الكشف عنها بالاستدلال بنتائج تجاربه، واستمر

البحث وراء الفيتامينات حتى قبيل نشوب الحرب الماضية، وكان من الصعب في البلاد المتحاربة أن يستمر علماؤها وراء الفيتامينات باحثين، وكان أمام علماء الألمان مشكلة نقص الطعام، غير أن الإنجليز والأمريكيين استمروا في أبحاثهم فسبقوا الألمان، ولكن الأخيرين لحقوا بهم، وكان لعلمائهم المبرزين فضل كبير في بعض نواحي الأبحاث وراء الفيتامينات.

(يتبع)

الحيوان يتخاطب ويغازل ويحلم

للأستاذ أحمد علي الشحات

لو أنك سرت في مجال الطبيعة تتأمل ودلفت إلى مجموعة من الأشجار الباسقة لراعتك الطيور وهي أزواجاً أزواجا تغني ألحان غرامها، وينصت بعضها إلى بعض على أفنانها. ولو أنك انتقلت من عالم الفكر وسألت أحداً من أهل الذكر: هل للطيور لغة تتخاطب بها وإن لم ندرك كنهها، وإن كانت لها لغة فهل ما نسميه منها من شدو مروي ورجع محكي هو الغزل، وإن كان هناك غزل في الطيور فهل عند سائر الحيوانات غزل؟ لأجابك عالم ممن درسوا طبائع الحيوانات أن لها لغة تتعارف بها، وأن بين الجنسين غزلاً. فأما لغة الحيوانات فقد نسمع بعضها وقد لا نسمع، وتتمثل لك لغة الحيوان بالأصوات المتباينة التي تصدر من الحيوانات حين تعبر عن شعور خاص كرغبتها في الأكل أو خوفها من عدو يهاجمها أو حين تغضب، ويتمثل لك ذلك في الكلب والقط مثلاً، كما يتمثل لك استدعاء الجنس للجنس الآخر في نعيق الضفادع الذي لا يصدر منها إلا في موسم التناسل وحين الرغبة في الإخصاب، وقد أثبت العالم ج. أرثر طومسون من علماء الحيوان أن عند بعض الحيوانات لغة للتفاهم وإن لم تكن بالنطق فهي بالحركات، فقد استنتج أن العناكب تتخاطب باهتزاز الخيوط التي تفرزها والتي تكون منها بيوتها، كما أن النحلة إذا عثرت على رحيق شهي في بعض الأزهار ذهبت تبشر زميلاتها في الخلية بذلك برقصات مخصوصة فتسرع إليها تأخذ نصيبها.

وهناك بعض الطيور كالببغاء والزرزور، وهو طائر يعيش في مصر والشام على شجر التوت، تستطيع أن تنطق ببعض الألفاظ التي نلقنها إياها، ولكن هل تنطقها عن إدراك، وهل تستطيع أن تنطق بجملة بمحض تفكيرها؟ هذا ما نشك فيه، وأغلب الظن أن هذه الطيور (عقلها في أذنيها)، ولكن لما كان في استطاعة مثل هذين الطائرين النطق بألفاظنا فلقد حدا هذا بالعالم يركس أن يحاول تجربة ما إذا كان في استطاعة الحيوانات التي في المرتبة العليا بعد الإنسان أن تتعلم النطق، بألفاظنا، فأجرى تجاربه على الشمبانزي لأنه أيضاً قد حيته الطبيعة جهازاً صوتياً يماثل جهاز الإنسان من حيث الحنجرة والحبال الصوتية، وكذلك لقدرته المشهود بها على التفكير؛ فكان إذا أراد أن يطعمه نطق بلفظ بسيط مثل (يا) أو (كو) ثم يقدم له موزاً.

واستمر يلقنه الدرس أسابيع متتالية، فكان القرد يطير فرحاً حين ينطق أستاذه أمامه، لأنه عرف أن هذا معناه الفوز بالأكل، ولكنه للأسف لم يحاول أن يتعلم النطق ولو استطاع القرد أن يقلد الأصوات كالببغاء أو كما يقلد هو أفعالنا لسمعنا منه العجب نظراً لقدرته على التفكير.

وخلاصة ما تقدم أنه ولو أننا لا نستطيع أن نجعل الحيوانات تنطق بلغتنا إلا أن لها لغة تتعارف بها فيما بينها سواء بالنطق أو بالحركات.

الغزل عند الحيوان

يتجلى الغزل عند الحيوانات بأطرف المعاني وأسماها في الطيور على الأخص حيث الوداعة والحنان ورقة العاطفة، وفي الغالب يبدأ الذكر بالمغازلة إلا في حالات خاصة كما في طائر الذي يعيش في القطب الشمالي حيث الأنثى هي التي تبدأ المغازلة والذكر هو الذي يتدلل.

ومظاهر الغزل عند الطيور عديدة تبعث في مشاهدها البهجة والانشراح. فإن ضاق بك الصدر يوماً أو عافت نفسك الكتاب فسر عنها برؤية ذكر الحمام وهو يبث أنثاه أشجانه وألحانه. أو الطاووس أو الديك الرومي وكل منهما يزهو أمام أنثاه فيبسط ريشه وتنتفخ أوداجه، وكذا في ذكر الغواص وأنثاه حين يسبحان في الماء معاً ويرفعان الرأس ويخفضانه ثم يدفع أحدهما الآخر تحت الماء حيث يسمع لهما صوت أجش صادر

منهما. وتقيم بعض الطيور حفلات ترقص وتؤدي الذكور والإناث رقصات جنونية تفعل فعلها في الجنسين وتصرخ صرخات عالية ثم ينفرد كل ذكر بأنثاه.

ومن الطيور ما يألف أحد جنسيها الآخر بحيث يقيمان على عهد الوفاء حتى إذا مات أحدهما فقد يموت الرفيق الآخر كمداً عليه

وتخفت حرارة الألفة بين الجنسين إذا انتقلنا من الطيور إلى الحيوانات الأخرى كالثدييات ولو أن لبعضها مظاهر غزل كما في القطط إلا أنها لا تذكر بجانب الطيور التي قد لا يكون الغرض من غزلها إلا التسامر وازدياد الألفة. وفي الحيوانات ذوات الدم البارد كالتمساح يتلوى الذكر ويقفز في حركات بهلوانية أمام الأنثى ويصيح وينفخ في الماء

ويعطره بإفراز ذي رائحة طيبة من غدد جلدية في فكه الأسفل وذيله حتى يجذب الأنثى إليه

وسام أبرص يبدي ارتياحه للأنثى بأن يفتح فمه بأعظم ما يمكنه، وأما في الضفادع فنقيقها هو استدعاء للجنس الآخر. وفي الأسماك ذوات الأشواك الظهرية كثيراً ما تلتحم الذكور بعضها مع بعض أمام الإناث، حتى إذا انتصر أحدها دفع إحدى الإناث أمامه إلى عشه لتضع فيه بيضاً، فتسبح السمكة وخلفها زميلاتها متخذة لنفسها مركز القيادة، ثم تقف فجأة وتقلب نفسها رأسياً بحيث يكون الرأس إلى أسفل فتحاكيها الزميلات ثم تدفع هي الماء فتتفرق الأفراد الأخرى لحظة ثم تجتمع ثانية وتعيد السيرة الأولى إلى أن تصل إلى العش، وهذا معناه في نظر العلماء الغزل عند الأسماك.

وفي النحل تطير الملكة في الجو فيتبعها ذكور الخلية كل يحاول أن يفوز بها، والمنتصر هو أسرع الذكور في اللحاق بها ويلقحها في الجو ثم ترجع الملكة إلى خليتها، وحتى إذا رأت الشغالة وهي التي تقوم بأعباء الخلية أن عملية تلقيح الأنثى قد تمت أخذت تلاطفها وتحتفي بها كأنها عروس، وأما الذكور فلم يعد لها فائدة في الخلية، عندئذ تقوم الشغالة بقتلها وإلقائها خارج الخلية، وأما الذكر الذي فاز فإنه في مقابل انتصاره يسقط ميتاً من الجو بمجرد إتمام تلقيح الملكة، ويسمى طيران الملكة والذكور في الجو (طيرة العروس) ولكنها حفلة عرس ثمنها أرواح جميع الذكور، وهكذا الدنيا تدور!

الحلم عند الحيوانات

قد ينشط العقل والجسم نائم فيوحي بمختلف الأفكار وتمر عليه مختلف الصور، وهذا ما يعبر عنه بالحلم. ولقد شوهدت هذه الظاهرة في الحيوانات العليا كالحصان والكلب والقط وهي في سباتها، فقد يصهل الحصان، وقد يقوم الكلب بحركات تشبه التي يقوم بها في الصيد وهو في اليقظة، بل قد تستطيع أن تجعله يسبح في الأحلام إذا قدمت لكلب صيد وهو نائم قطعاً من الأخشاب أو أعشاب ذات رائحة اعتادها في إحراج الصيد فسرعان ما يخيل إليه أنه في تلك الإحراج فيقوم ببعض حركات الصيد وهو نائم.

أحمد علي الشحات

البريد الأدبي

إلى ممثل فرنسا في سورية ولبنان

بعد تقديم واجب التحية أذكر أني علمت أنكم أصدرتم أمراً بمنع مجلة (الرسالة) من دخول البلاد السورية واللبنانية لعبارات ظننتموها تثير البغض على فرنسا في تلك البلاد. ولو كانت مجلة (الرسالة) صحيفة سياسية يهمها أن تصول في المعترك السياسي لعددنا هذا المنع وسيلة تصان بها المصالح الفرنسية في البلاد السورية واللبنانية واتخذنا منه فرصة للهجوم عل فرنسا من جديد.

ولكن الأمر يختلف عما تظنون كل الاختلاف، فمجلة الرسالة صحيفة أسبوعية لخدمة الآداب والعلوم والفنون، وقد حزنت لمحنة فرنسا بست صفحات في عدد واحد: صفحتين بقلم الأستاذ الزيات وأربع صفحات بقلمي، وما خطر في بالنا يومئذ أننا نحزن لفرنسا الاستعمارية، وإنما تصورنا فرنسا التي أنجبت باستير صاحب الفضل في الإنسانية، والتي أنجبت شامبوليون صاحب الفضل على المدنية المصرية، والتي دانت الأدب والعلم بحياة السوربون.

ولم يكن بد لمجلة تعلن حزنها لمحنة فرنسا بست صفحات من السماح لبعض معارضيها بنشر فقرات كانت على خشونتها مما تبيحه المجادلات الأدبية، وقد تولينا

الرد على تلك الفقرات بما يبين غرضنا من العطف على فرنسا، ثم نشرت (الرسالة) بعد ذلك مقالاً يفيض بالعطف من أديب عرف بلادكم وهو الأستاذ البهبيتي

فأرجو - حين تطلعون على خطابي هذا - أن تلغوا الأمر الذي أصدرتموه بمنع (الرسالة) من دخول البلاد السورية واللبنانية، وأن تذكروا أن لنا مبادئ إنسانية تصرفنا عن الشواغل المحلية لأن لنا ساسة ينوبون عنا في تدبير تلك الشؤون، وإليهم يرجع الأمر في الاهتمام السياسي بمركز مصر في الشرق.

وأرجو أن تذكروا أيضاً أن بلادكم لم تستوجب العطف من أمثالنا إلا بفضل ما يؤثر من تشجيعها للحرية، ومن أجل ذلك استباحت الرسالة أن تنشر عن بلادكم رأيين مختلفين، وفقاً لما تعلمناه في السوربون من عرض ما للرأي وما عليه. وسبحان من لو شاء لهدانا جميعاً إلى سواء السبيل.

زكي مبارك

خريج السربون

وصاحب (ذكريات باريس)

نعم هي كنية الإمام الصادق

إن الأديب البغدادي (ع) لعلى حق فيما كتبه في ص 1400 من العدد 374 من الرسالة الغراء خاصاً بكنية أبي عبد الله المذكورة في الصفحة السادسة من كتاب (نقد النثر) وبأنها للإمام جعفر الصادق وليست للحسين بن علي عليهما السلام كما ذكر سهواً في هامش الصفحة المذكورة.

ولا شك أن حضرته اطلع على طبعة متقدمة من كتاب (نقد النثر) وقع فيها مع الأسف السهو المذكور، ولو رجع إلى الطبعة الحديثة الصادرة عن مطبعة مصر في عام 1939 لوجد ناشري الكتاب قد تداركا هذا السهو فكتبا في هامش الصفحة السادسة تعليقاً على تلك الكنية ما نصه بالحرف الواحد:

(هي هنا كنية الإمام جعفر الصادق، وهو الإمام السادس من أئمة الشيعة الأمامية، والمتوفى عام 147 هـ. وهشام المذكور في المتن هو هشام بن سالم، وكان من وجوه أصحاب الإمام جعفر الصادق - كتاب (فرق الشيعة) للنوبختي ص 66 (القاهرة)

عبد الحميد العبادي

إلى الأخ الدكتور زكي مبارك

السلام عليكم:

أطلعت اليوم على الكلمة التي كتبت عني في مجلة الرسالة فشكرت لك مرتين: شكرت حسن ظنك وثنائك علي ابتغاء مرضاة الله، وشكرت لك المسارعة إلى إعلان ما يجول في سريرتك إيثاراً للحق، وحرصاً على مجازاة من أحسن في رأيك.

وقد تبينت في كلمتك خلقاً من أخلاق القرآن الكريم الذي يقول: (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله.)

ثم رأيت أن آداب القرآن تأمرنا أن نشكر من أحسن إلينا بالقول أو الفعل فكتبت هذه الكلمة شاكراً داعياً الله أن يرزقنا السداد والإخلاص في الرأي والقول والعمل والسلام.

عبد الوهاب عزام

ديوان مجنون ليلى

اطلعت أمس على هذا الديوان وقد طبع في مصر سنة 1939، وكتب على غلافه أنه جمع وترتيب عالم زمانه وفريد عصره وأوانه أبي بكر الوالي وأنه بتحقيق وشرح جلال الدين الحلبي، وفي آخره إمضاء أحمد سعد علي من علماء الأزهر تحت اعترافه بأنه صحح بمعرفته.

والديوان في 92 صفحة من القطع الصغير، أكثر ما فيه من الشعر المنسوب إلى المجنون هو لغيره، ومن ذلك ما هو مشهور معروف صاحبه، كقطعة (ألا يا صبا متى هجت من نجد) وهي ليزيد بن الطثرية؛ وقطعة (عجبت لسعى الدهر بيني وبينها) وهي لأبي صخر الهذلي؛ وقطعة (تمتع من شميم عرار نجد) وهي للصمة بن عبد الله القشيري.

ومن ذلك قطعة (ألا هل إلى شم الخزامى ونظرة) وهي ليحيى بن طالب الحنفي؛

وقطعة (اقرأ على الوشل والسلام وقل له) وهي لأبي القمقام الأسدي؛ وقطعة (بينما نحن بالبلاكت بالقا - ع) وهي لكثرة عزة؛ وقصة بيت (ألا أيها النوام ويحكم هبوا) نسبت إلى جرير وليست له، وروى البيت للمجنون وهو لجميل بثينة
ومن ذلك شعر ضعيف لبعض المتأخرين، ومنه ما تبدو حقيقة لكل ذي عينين، كالقصيدة التي يقول صاحبها:
لعمري ما لاقى جميل بن معمر ... كوجدي بليلي لا ولم يلق مسلم
ولم يلق قابوس وقيس وعروة ... ولم يلفه قبلي فصيح وأعجم
أفيكون قيس هو قائل هذا عن نفسه؟ ومن القطع المنسوبة في الديوان إلى المجنون ما أقطع بأنه ليس له، ولكني لا أذكر الآن صاحبه، كالقصيدة التي يصف فيها أعضاء المحبوبة عضواً فعضواً (ص 32) ومثلها في (ص 26) والقصيدة التي ذكرت فيها قصة الذئب والحمل (وكنت كذئب السوء إذ قال مرة) - (ص 43)، والتي يذكر صاحبها جبل الثلج (؟) ويتغزل باثنتين يسمي إحداهما أم عمرو (ص 47).
أما التحقيق فليس منه الديوان البتة. . . أما الشرح فلا يتجاوز جيده بضعة عشر سطراً أكثرها تفسير كلمة عويصة أو مقابلة بعض الأبيات على الأغاني، أما الضبط (الشكل) فأغلاطه أكثر من أن تحصى وليس يعتد به أصلاً.
والعجيب في الأمر، وأن يكون فيها ثناء على الأستاذ جلال الدين الحلبي وشهادة له بالمقدرة على فهم أغراض المجنون!
علي الطنطاوي
الشعري اليمانية
نقرأ دائماً المقال الذي تدبجه يراعة الدكتور النابغة محمد محمود غالي بلذة وإعجاب، فهو يسبغ على الآراء العلمية الجافة حلة من السهولة والطلاوة والطرافة تسمو بها إلى مرتبة الموضوعات الأدبية الشائعة.
وعلى عادتنا قرأنا له بحثه الأخير (الأحياء في غير الأرض) فوقعنا على العبارة التالية: (ثم جل بنظرك بعد ذلك بعيداً عن النجم القطبي وجهة اليمين تر (دينب العظيم ويسمونه بالعربية (الشعري اليمانية) في مجموعة ذنب الدجاجة تصطدم فوتوناته بشبكة العين بعد تسع سنوات ضوئية. . .)
في هذه العبارة خطأ لا ننكر أن الدكتور وقع فيه على سبيل السهو أو عدم التأكد من المصادر المسئولة؛ فإنه ليخيل للقارئ لأول وهلة أن الكلام يقصد به حقيقة (دنيب فهو قريب من النجم القطبي يقع تقريباً على امتداد الخط الواصل بين صدر النعش في كوكبة بنات نعش الكبرى والنجم القطبي، (وليس من ضرورة - كما أرى - لذكر اليمين أو الشمال) إلا أن هذا النجم لا يسمى بالعربية الشعري اليمانية كما ذكر الدكتور، وإنما هو الردف أو ذنب الدجاجة، إذ هو مجموعة (الدجاجة أو الأوز العراقي وبعده عنا أضعاف البعد الذي ذكره الدكتور فلا يصل إلينا منه النور إلا بعد ستمائة واثنتين وخمسين سنة من
وقت مغادرة مصدره.
أما الشعري اليمانية ويقال لها العبور أيضاً فهي نجم في مجموعة (الكلب الأكبر وهذا النجم أقرب إلى القطب الجنوبي منه إلى القطب الشمالي، وهو أسطع النجوم نوراً، ولذا كان من أكثر النجوم شهرة؛ و (تصطدم فوتوناته - حقيقة - بشبكة العين بعد تسع سنوات ضوئية - تقريباً -).
. . .ومن هنا يظن القارئ أن الكلام خاص بالشعري اليمانية وليس بالردف على أن مثل هذه الهينات لا تغض من قيمة البحث، ولا تقلل من إعجابنا الكثير بالدكتور الكبير.
(الحصن)
خليل السالم
السجع في كتاب النثر الفني
عزيزي الدكتور زكي مبارك
كنت أقرأ كتابك (النثر الفني في القرن الرابع) فوقفت منه في صفحة 25 على العبارة الآتية:
وقد أذكر أنني كنت أحاور المسيو مرسيه في تطور السجع فأخرج رسائل الجاحظ

وفيه العبارة: (إن معاوية مع تخلفه عن مراتب أهل السابقة أملي كتاباً إلى رجل فقال فيه: لهو أهون عليَّ من ذرة، أو كلب من كلاب الحرة. ثم قال. امح (من كلاب الحرة) وأكتب (من الكلاب) كأنه كره اتصال الكلام والمزاوجة وما أشبه السجع، ورأى أنه ليس في موضعه).

وكان المسيو مرسيه يظن في هذه العبارة دلالة على أنهم كانوا إذ ذاك لا يستحبون الكلام المسجوع، فوجهت نظره إلى أن لهذه العبارة معنى آخر: ذلك أن السجع فن رقيق، لا يصلح في ذلك المقام وهو مقام تهديد ووعيد. (أهـ كلام الدكتور مبارك)

لم أرتح لهذا التعليل - يا دكتور - من عدم ملاءمة السجع لمقام التهديد، لأن ورقة السجع لا تنسجع مع شدة التهديد. وأني أرى في هذا الموضوع خلاف هذا الرأي لأدلة عقلية، وأخرى نقلية:

أما العقلية فلأنا إذا سلمنا برقة السجع لأنه الكلام المقفى، والتقفية نوع من الترديد الموسيقي الذي يخف به الكلام على السمع فالشعر أولى بالرقة من الكلام المسجوع لما في الشعر من الوزن والتقفية. فإذا جعلت السجع غير لائق في مقام التهديد والوعيد كان الشعر أولى بعدم اللياقة في هذا المقام. وهي نتيجة لا يثبتها الأدب العربي المملوء بشعر الحروب وأيام العرب.

وأيضاً فالحماس الذي يكون في مقام الفخر والتحدي هو نوع من الشدة شبيه بتلك الشدة التي تكون في حال التهديد والوعيد. وأنت جد عليم بما تحويه خطب الثورات السياسية التي تشعل نار الحمية، وتوقظ الغيرة الوطنية، من السجع والمزاوجة.

أما الأدلة النقلية ففي طليعتها كتاب الله الكريم وما يحويه من آيات التهديد والإنذار ذات السجع المعجز. كالآيات: (ويل للمطففين، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفوهم، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون، ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون، ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين) والآيات (كلا سوف تعلمون. ثم كلا سوف تعلمون. كلا لو تعلمون علم اليقين، لترون الجحيم، ثم لترونها عين اليقين. ثم لتسألن يومئذ عن النعيم). والقرآن مملوء بشبيه هذه الآيات. وقد ورد في كلام المتقدمين من الكتاب والخطباء كثير من العبارات المسجوعة في مقام الشدة والتهديد. مثال ذلك خطبة زياد بالبصرة حيث قال:

(إن الجهالة الجهلاء، والضلالة العمياء، والغي الموفى بأهله على النار، ما فيه سفهاؤكم، ويشتمل عليه حلماؤكم).

وقد كتب سيدنا علي إلى معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما في مقام التحذير والتهديد فقال: (إنك إذ تحاولني الأمور وتراجعني السطور، كالمستثقل النائم تكذبه أحلامه، والمتحير القائم يبهظه مقامه، لا يدري أله ما يأتي أم عليه، ولست به غير أنه بك شبيه).

ويقول الحجاج بن يوسف في خطبته لأهل العراق: (ألستم أصحابي بالأهواز حيث رمتم المكر، وسعيتم بالغدر، واستجمعتم للكفر. ثم يوم الزاوية وما يوم الزاوية؟ بها كان فشلكم وتنازعكم وتخاذلكم وبراءة الله منكم، ونكوص وليكم عليكم، إذ وليتم كالإبل الشوارد إلى أوطانها، النوازع إلى أعطانها، لا يسأل المرء عن أخيه، ولا يلوي الشيخ على بنيه، حتى عضكم السلاح، وقعصتكم الرماح. ثم يوم دير الجماجم، وما يوم دير الجماجم، بها كانت المعارك والملاحم، بضرب يزيل الهام عن مقيله، ويذهل الخليل عن خليله) والخطبة مملوءة بالتهديد والوعيد والسجع المقبول

فما رأيك في هذا؟

(بخت الرضا. السودان)

عبد العزيز عبد المجيد

مولد الدكتور إسماعيل أدهم ونسبه

اطلعت على ملاحظتكم المنشورة في العدد رقم 373 من (الرسالة)، وقد يتصل بها وبسيرة الفقيد ما نشرته جريدة (البصير) اليومية التي تصدر عن مدينة الإسكندرية بتواريخ 2 أغسطس و 9 أغسطس و 16 أغسطس و 24 أغسطس الجاري للأستاذ صديق شيبوب ولكاتب هذه السطور وللأستاذ البحيري عبد الرحيم.

والنبذة التي أشرتم إليها مستعدة من بيان للفقيد نفسه، (وقد أشرت إلى ذلك من

قبل)، ويعززها ما ذكره في توطئة رسالته التاسعة الموسومة (لماذا أنا ملحد؟) فليرجع إليها جميعاً.
(الإسكندرية)
أحمد زكي أبو شادي
عدد خاص من (الحديث) عن الدكتور أدهم
كتب إلى الأديب السوري المعروف الأستاذ سامي الكيالي صاحب مجلة (الحديث) الحلبية بأنه قرر إصدار عدد خاص من مجلته منتصف سبتمبر عن أخي فقيد العلم والأدب المرحوم الدكتور إسماعيل أحمد أدهم، وفاءً له وتخليداً لذكراه.
هذا، وسيشير الأستاذ الكيالي في هذا العدد إلى كافة كتب الفقيد، وإلى دراساته الأدبية، وآثاره العلمية، وسينوه بمواهبه ومزاياه.
وسيشترك معه في تحرير هذا العدد نخبة من كبار الأدباء في الشرق العربي، وسيكون العدد حافلاً بالصور الشمسية للفقيد في مختلف أطوار حياته.
والمرجو ممن يحب المساهمة في هذا العدد بكتابة شيء عن الفقيد من أصدقاءه ومريديه ومحبي أدبه، أن يبعث ما يكتبه إلى الأستاذ الكيالي (بحلب سورية)، أو يرسل إلي بعنواني: 2 موطش باشا
(الإسكندرية)
إبراهيم أحمد أدهم
جواب سؤال
كتب إلي أديب فاضل من اليمن يسألني عن أسم قائل بيتين من الشعر ذكرهما ولم يكتب إلي بعنوانه لأبعث إليه بالجواب، فرأيت أن أجيبه على صفحات الرسالة الغراء.
سألني عن قائل هذين البيتين:
بذكر الله تزداد الذنوبُ ... وتحتجبُ البصائر والقلوبُ
وترك الذكر أفضل منه حالاً ... فإن الشمس لها غروبُ
ففتشت عنهما كثيراً إلى أن عثرت عليهما في ديوان محي الدين أبن عربي الصفحة الرابعة.
(دمشق)
ناجي الطنطاوي
حول مقال (في سبيل الإصلاح)
حضرة المحترم الأديب الأستاذ الكبير صاحب (الرسالة) أطلعت في عدد الرسالة (373) على هذه المقالة للأستاذ العبقري العقاد؛ وإنه ليسرني أن أذكر أنه بحث في هذا الموضوع بحثاً طريفاً شائقاً يستحق التقدير والإعجاب. غير أنه كان الأجدر به ومداد قلمه من بحور الأدب ألا يسوق إلينا فكرة صاحب الأفدنة التي ترمي إلى إصلاح المعلم الإلزامي، لأنه إذا سئل عن العيب الذي يراه لا يجد ما يقوله سوى أنه يعلم النشء التبطل والحذلقة وكيفية وضع حمالة الجورب وإحسان رباط الرقبة، وهلم جرى. فيا ليت شعري ماذا جنى هذا الجندي المجهول حتى يصمه نائب محترم بهذه الوصمات؟
أما كفى المعلم الإلزامي فخراً أن لا عيب فيه سوى عنايته بحسن هندامه وأنه الأساس الأول للثقافة؟
(منفيس)
عبد الله عبد التواب
القصص
المقامر. . .
للكاتب الروسي ألكسندر بوشكين
ترجمة الأستاذ حلمي مراد
- 1 -
كانت إحدى ليالي الشتاء الطويلة. . . وقد تراجعت فلول الظلام كسيرة، وأقبلت طلائع الفجر الباسم. . . حين ألتف المدعوون إلى مأدبة نلروموف - الملازم في فرقة الحرس - حول مائدة القمار يلعبون الورق ويتبادلون شتى الأحاديث، فقال المضيف وهو يعطي ورقة اللعب لأحد مدعويه:

- كيف حالك هذا المساء يا سورين؟
فرد هذا: (لقد خسرت كالعادة منذ بدأ الحظ يدبر عني، ولكن. . . ماذا ترون في (هرمان) الذي لم يشترك معنا قط في اللعب؟ حقاً، إن أمره لعجيب، فهو يسهر معنا طوال الليل يرقب عجلة الحظ تدور وتدور بيننا مع أنه ما من داع يدفعه إلى ذلك).
وهنا تدخل هرمان في الحديث فقال: (الأمر بسيط أيها السادة فاللعبة تعجبني، ولكني لا أود المغامرة في سبيل الكسب، فقد أخسر بعض مالي). وأردف شخص ثالث:
- لا تعجبوا! فهرمان ألماني وقومه معروفون بالميل إلى الاقتصاد، ولكن. . . ألم تلحظوا أن الكونتس أنافيدروفنا لا تلعب قط. . . هذا هو الذي يستحق دهشتنا حقاً، فإن عجوزاً في الثمانين لا تلمس الورق لهي شاذة بالتأكيد.
ثم أطرق تومسكي - وكان هو المتحدث - قليلاً وأستطرد: (ألم تدركوا السبب؟)
فأجاب اثنان بصوت واحد:
- كلا، فهل هناك سبب خاص يدعوها لذلك؟
فرد تومسكي بقوله: نعم. . . فأصغوا إلي:
منذ نحو ستين عاماً كانت جدتي (الكونتس أنافيدروفنا) معبودة باريس وموضع إعجاب قاطنيها، حتى أطلق عليها لقب (فينوس الروسية) فأخذ ريشيليو يتودد إليها، ولما يأس من مبادلتها له حباً بحب حاول الانتحار أكثر من مرة وذات ليلة لعبت الورق مع الدوق دورليان وخسرت مبلغاً كبيراً، ولما لم يكن معها المبلغ كله في ذلك الحين فقد حاولت عند عودتها إلى المنزل إقناع زوجها بدفع المبلغ ولكنه أصرر على الرفض متخذاً من إسرافها مبرراً لقراره هذا. وإذ ضاقت به الدنيا طرقت باب الكونت دي سان جرمان الذي قيل أنه ذو موهبة خارقة في كسب المال، ولما جاءها الكونت وحدثته بالمأزق الذي لم تستطيع الخلاص منه قال: (سيدتي: إني على تمام الاستعداد لإعطائك أي مبلغ تطلبين، ولكني لما كنت أعلم عن يقين أنه لن يهدأ لك بال حتى أسترد ما أقرضت، فقد رأيت أنه يحسن بك أن تعاودي اللعب لتربحي ما خسرت) وما أن وصل تومسكي إلى هذا الحد من الحديث حتى كان الجميع متلهفين إلى سماع بقية القصة، فتوقف قليلاً ريثما أشعل غليونه، ثم أستطرد قائلاً: (وأسر الكونت إلى جدتي بضع كلمات يتمنى كل منكم لو سمعها. . . وفي تلك الليلة بعينها عاودت جدتي اللعب على مائدة الدوق دورليان معتذرة عن عدم دفع المبلغ بنا اعتورها من النسيان، وأخذت ثلاث ورقات، راهنت على الأولى فكسبت ثم ضاعفت الرهان على الثانية فكسبت، وكذلك كان حظها حين لعبت الورقة الثالثة. . .) وهنا صاح أحد الضباط مقاطعاً: مجرد حظ! وقال هرمان: يا لها من قصة. بينما سأل ثالث: وهل كانت الورقات مرقومة؟
فأجاب تومسكي:
- كلا، ولكن استمعوا للبقية، فقد كان لجدتي ثلاثة أبناء أحدهم والدي، ومع هذا لم يتمكن أحدهم من استخلاص سر الثلاث الورقات منها حتى الآن. . . والأعجب من ذلك أنها قابلت ذات يوم فيما بعد صديقاً لها قد خسر كل ثروته في ليلة واحدة؛ وحين علمت بالأمر ووجدته غارقاً في اليأس أعطته وريقات ثلاثاً كي يلعب بها بعد أن أخذت منه وعداً قاطعاً بالا يجلس إلى مائدة القمار بعد أن يستعيد ثروته. وفي اليوم التالي عرض الشاب على غريمه أن يلاعبه فقبل، وإذ ذاك بدأت المقامرة بأن راهن الأول على إحدى الورقات بخمسين روبل، فكسب. . . وعندما ترك المائدة الخضراء كان قد أستعاد ضعف ثروته
وتوقف تومسكي عند هذا الحد من حديثه ثم قال:
- هيا بنا إلى النوم أيها الأصدقاء فقد حانت الساعة السادسة.
- 2 -
في الوقت الذي كان تومسكي يقص فيه حديث جدته كانت هذه تجلس أمام المرآة لتصلح من هندامها وتستكمل زينتها، فإنها رغم كبر سنها كانت تحرص على حضور جميع المراقص والحفلات باذلة عناية فائقة في اختيار ملابسها حتى أصبح منزلها كعبة الزوار يؤمه أناس من أرقى الطبقات لقضاء بعض الوقت في تسلية ومرح ولكن رغم هذا كانت الكونتس عصبية المزاج شاذة الأطوار، لا تهتم إلا بملذاتها ولا تغفر لوصيفتها (ليزابيتا إيفانوفنا) أصغر هفوة، بل أنها كانت إذا أمرتها بأعداد الشاي انتهرتها على

تبذيرها في السكر، وإذا طلبت منها قراءة فصل من كتاب عدتها مسؤولة عن السخف الذي يجري به قلم المؤلف، وإذا خرجت معها في نزهة لامتها على سقوط المطر أو هبوب العواصف، وإذا اصطحبتها لمرقص أقصتها عن مجلسها إلى ركن تظل السكينة منفردة فيه، لا يشاركها أحد حديثاً أو يدعوها لرقصة. ورغم ما امتازت به ليزابيتا من جمال فاقت به سيدتها، بل وكثيرات من النبيلات لم يكن أحد ليلقي إليها نظرة أو يعيرها أي التفات، فثارت كرامتها لذاك الوضع المزري الذي أكتنف حياتها وصارت إذا أشتد بها الألم وعصفت بين جوانحها ريح الهموم، أسلمت عينيها للدمع تذرفه وقلبها للزفرات يرسلها. . . جلست ليزابيتا بعد يومين من مأدبة نلروموف بجوار النافذة تطرز، فحانت منها التفاتة إلى الطريق دون قصد، وإذ ذاك وقع بصرها على ضابط وقف بلا حراك مثبتاً عينيه تجاهها، فغضت من نظرها وعادت للتطريز. . . وما مرت بضع دقائق، حتى أطلت من النافذة بحركة آلية، فإذا الضابط لم يبرح مكانه. . . وكان ردها على هذا أن ابتعدت قليلاً وعادت إلى التطريز إذ لم يكن من عادتها مبادلة الشبان النظرات والبسمات. . . وبعد ساعتين قامت للعناية بشؤون سيدتها فلمحت على الرغم منها ذاك الضابط في مكانه.

بدا لها كل ذلك غريباً فلم تدر كيف تعلله إلى أن عادت بعد الغداء إلى عملها، ولكن الضابط كان قد ذهب فلم تنشغل بالتفكير في أمره. . . ومر يومان غادرت الكونتس بعدها قصرها بصحبة وصيفتها، وما كانت الأولى تتخذ لها مقعداً في العربة حتى أبصرت ليزابيتا الضابط عينه واقفاً عن بعد، وقد التف بمعطف حجب نصف وجهه ولكنه لم يحجب عينيه المتقدتين، فاضطربت الفتاة دون أن تدري لذلك الاضطراب سبباً.

وواظب الضابط على الحضور إلى نفس المكان كل يوم يسدد إليها بصره، فكانت إذا ما رأته انسحبت على الفور والفضول يقتلها وشعور غريب يضطرم في أعماقها بشكل لم يسبق لها أن أحست بمثله. ولم يمض وقت طويل حتى نشأت بين الاثنين صداقة جعلت الفتاة تحس بوجوده حين تجلس إلى النافذة فتحدق فيه بضع لحظات ثم تعود لعملها وقد كست الحمرة وجنتيها، بينما ينصرف الشاب مغتبطاً بتلك اللحظات التي تفضلت بها عليه

ومر أسبوع تبادلت فيه ليزابيتا مع الضابط البسمات البريئة الساذجة، وكان قلبها . . . يخفق كلما رأته وخاصة عندما دخل تومسكي يلتمس من جدته الإذن بأن يقدم لها أحد أصدقائه إذ ظنت الفتاة أن صديقها الضابط هو المعني بالكلام. كان هرمان من أسرة ألمانية أقامت في روسيا فلما مات والده ورث عنه بعض المال ولم يشأ أن يقامر به خوف فقدانه فظل قنوعاً بما يدر عليه من ريع كان يكفيه، بل ويسمح له أحياناً بالإنفاق على أصدقائه إذا خرجوا يتنزهون، ولكنه رغم إحجامه عن المقامرة لم يجد بأساً من قضاء السهرات مع خلانه يراقبهم وهم يلعبون. . . وحين انتهى تومسكي من قصة الوريقات الثلاثة كان الفضول قد تملكه والدهشة قد عقدت لسانه، فلم يكف عن التفكير في محيطها طوال تلك الليلة. . . وفي الليلة التالية خرج يتربص في شارع سانت بطرسبرج وهو يمني نفسه بالتقرب من الكونتس كي تبوح له بسرها، ولا سيما أنها في الثامنة والسبعين من عمرها فموتها متوقع من يوم لآخر. . .

ولم يكن يقطع على هرمان حبل أفكاره أحياناً إلا الشك الذي نسج خيوطه في مخيلته فبات يخشى أن تكون قصة تومسكي دعابة جدت بها قريحته ولكنه ما لبث أن سمع هامساً يهتف في أعماق قلبه مذكراً إياه بأن وريقاته الرابحة هي الاقتصاد والعمل والمثابرة فليقصر جهوده عليها ليتضاعف دخله ويغدو من ذوي اليسار.

مرت هذه الخواطر بذهنه وهو يتنزه إلى أن استرعى نظره قصر تجلت فيه آيات الفن وازدحمت أمامه العربات بعد أن قذفت إليه بمن فيها من رجال وسيدات وضباط وآنسات فمرقوا جميعاً من بابه وسرعان ما احتوتهم قاعاته. . .

اقترب هرمان من الحارس سائلاً عن رب القصر، وما أن رد هذا ناطقاً باسم الكونتس أنافيدروفنا حتى اشتمل هرمان الذهول فهتف في نفسه: (تاالله!؟ إنها جدة تومسكي. . . إنها صاحبة الوريقات الثلاث) ووقف لحظة مشدوهاً ثم خط طريقه إلى المنزل حيث تملكه

القلق ففارقه النعاس، ولكنه حين قهره بعد طول عناء أخذت الأشباح تتراقص أمام عينيه. . . رأى المائدة الخضراء تعلوها النقد وأكوام من (الروبلات). . . ورأى نفسه جالساً إليها وقد غمره فيض من الربح زخرت به جيوبه ثم استيقظ متنهداً فإذا كنوزه ليست إلا ثمرة كابوس مضطرب.

خرج إلى الطريق ليزيح تلك الخيالات التي أقضت مضجعه، ولكنه وجد قدميه تقودانه ناحية القصر. . . كان يبدو أن قوة خارقة قد اجتذبته إلى هناك، فوقف يتطلع إلى النافذة وما لبث أن رأى فتاة يزين رأسها شعر أسود متهدل قد أكبت على كتاب تقرؤه أو حرير تطرزه. . . وتحركت الفتاة تجاهه فأخذت عيناه وجهاً جميلاً وعينين نجلاوين يشع منهما بريق خاطف

. . . وفي تلك اللحظة تحدد مصيره وكتب القدر نهايته.

- 3 -

كانت ليزابيتا قد أنهت عملها حين نادتها الكونتس لتؤنس وحدتها في نزهة قصيرة، وبينما كانت تساعد سيدتها على ارتقاء العربة رأت الفتاة ذاك الضابط. . . رأته بجانبها يدس ورقة بين يديها فأخفتها بين طيات قفازها وبدأت تفكر، فلم تر أو تع شيئاً مما مر حولها. وزادتها حيرة وارتباكا أسئلة الكونتس المتوالية التي اكتفت في الرد عليها بأجوبة مقتضبة مما دعا سيدتها إلى القول:

ماذا بك اليوم؟ فيم تفكرين؟ ألا تسمعينني؟ـ . . إنني لا زلت أتكلم بوضوح. أليس) (كذلك؟

ومرة أخرى لم تصغ ليزابيتا إلى كلامها، وحين عادت إلى حجرتها أقفلت بابها . . . وشرعت تقرأ في الورقة المطوية أرق عبارات الحب التي صيغت في قالب عاطفي، فتملكها شعور من الفرح. . . ولكنها وقفت بعد حين تحدق في الفضاء. لقد كانت هذه أول مرة يحس فيها أحد بوجودها بل ويظل ساعات طويلة في انتظار ابتسامة عذبة يفتر عنها ثغرها، أو نظرة تتجلى بها عيناها. . . فكيف لا ترتبك. . . وأخيراً وبعد لأي كتبت له هذه الكلمات بيد مرتعشة: (أؤمل أن تكون نواياك طيبة نبيلة. . . وإنما يجدر بك أن تعرف أن علاقتنا لا يمكن أن تبدأ عن هذا الطريق. وهاأنا ذي أعيد إليك خطابك راجية ألا تلجئني للندم على تسرعي).

ثم قذفت بالرسالة من النافذة فالتقطها الضابط وما أن أتم قراءتها حتى شاع البشر في قسمات وجهه فبدأ قانعاً بأولى خطوات مغامرته. . .

مضت أيام وأسابيع كان هرمان خلالها يتوسل بمختلف الطرق لإيصال رسائله لمحبوبته. . . كان يكتب تلك الرسائل بعبارات أخاذة لم تستطيع الفتاة مقاومة إغرائها فاضطرت للرد عليها ومبادلة الشاب وداً بود؛ وكان الرد يطول يوماً بعد يوم إلى أن أحتوى ذات يوم هذه الكلمات:

(سيقام مرقص الليلة في دار السفارة وستحضره الكونتس فتمكث هناك حتى الثانية صباحاً، فعليك - إذا أردت مقابلتي - أن تقبع في مكانك حتى تطفئ الأنوار في الساعة الحادية عشرة وإذ ذاك وجه خطواتك نحو باب القصر وادخله بلا تردد لأن الحارس سيكون غارقاً في غطيطه؛ ثم ارتق الدرج بسرعة حتى غرفة الكونتس حيث تجد خلف الأستار بابين يقود الأيمن منهما إلى حجرتي وانتظرني هناك. . .)

وحوالي الساعة العاشرة من ذاك المساء كان هرمان واقفاً أمام القصر ينتظر. . . كانت الليلة رهيبة، والريح تعصف بشدة، والثلج يتساقط بفيض زاخر بينما انبعثت من المصابيح نور خافت، فخلا الطريق من المارة وعم السكون. . مرت لحظات سمع بعدها صوت عجلات العربة يردده الفضاء وهي تبتعد بالكونتس ووصيفتها في طريقهما إلى المرقص. ثم كرت الدقائق وأطفأت الأنوار، فانتظر هرمان بعض الوقت، ومن ثم يمم شطر القصر فعبر بابه وصعد السلم بخفة النمر حتى وصل إلى غرفة الكونتس حيث رأى على ضوء مصباح صغير قطع الأثاث الفاخر منثرة في أرجائها وبضع صور زيتية تزين جدرانها فوقف يتأملها في صمت وسكون وما لبث أن عبر الغرفة إلى الممر الذي تقع في نهايته غرفة الفتاة فولجها وأقفل خلفه الباب فعمها الظلام. . . وجلس ينتظر.

مر الوقت بطيئاً وكان الهدوء ناشراً ظله على القصر ثم دقت الساعة اثنتي عشر دقة وعاد السكون الذي لم يعكره سوى ضربات قلب الشاب تطرق أذنيه. . . وبعد وقت

سمع دقة واحدة. . . ثم دقتين. ولم تمض لحظات حتى عادت العربة ترسل صوتها فيشتد خفقان قلبه ويزداد اضطرابه. ولما شعر بخطوات على السلم ركز بصره في ثقب الباب فرأى الكونتس تخلع ملابسها وترفع عن رأسها إكليل الورد والشعر المستعار ثم تجلس إلى مقعد
بجوار النافذة تناضل الأرق دون جدوى. رفعت الكونتس رأسها حين سمعت حركة خلفها فرأت رجلاً منتصباً أمامها. . وما لبث هرمان أن قال: (لا تنزعجي يا سيدتي بحق السماء. إني لا أود لك ضرراً وإنما جئت أنشد منك مطلباً هيناً).
نظرت إليه المرأة العجوز وهي صامتة كأنها لا تعي، فأعاد قوله بصوت عال إذ ظنها صماء. ولكنها لم تتحرك فاستطرد يقول: (إنك تملكين أن تسعديني طوال حياتي دون أن يكلفك الأمر شيئاً سوى ثلاث ورقات).
وهنا فهمت الكونتس كل شيء فأجابت على الفور: (أوه. إنها مزحة. . . أقسم لك على ذلك). ولكن صوت هرمان قاطعها بقوله: (كلا يا سيدتي، ألا تذكرين الرجل الذي أعطيتها له فضاعف ثروته).
بدا الاضطراب على وجهها. ولكن هرمان عاود القول: (هلا ذكرت لي ذاك السر. . . لِمَ تحفظينه لأحفادك؟ إنهم في غنى عن مزيد من المال. . . أما أنا فلن تأسفين على إسعادي لأني كفيل بالإنفاق على خير الوجوه. . . هيا بربك تكلمي. . . أفصحي!)
وقف ينتظر الرد وقد عيل صبره، ولما لم تجب انحنى متوسلاً وهو يقول: (ألا تعرفين الرحمة والحب. . . إذا كنت تذكرينهما فإني أستحلفك باسم الأبوة والأمومة وبكل ما تقدسين ألا تخيبي أملي. . . اذكري أنك كبيرة السن وأن أبنائي وأحفادي سيباركون ذكراك).
ولكن الكونتس لم تجب، وحينئذ نهض هرمان واقفاً وسدد غدارة نحوها ثم أردف: (إذا سأضطرك إلى الكلام).
أشتد اضطراب المرأة فاهتز رأسها بقوة، ومدت يديها كأنها تبغي أن تبعد شراً يوشك أن ينقض عليها، ثم تراجعت إلى الوراء بلا حراك.
(. . .هيا لا تكوني كالأطفال. . . إني أمهلك آخر مرة. . . ما هي الورقات الثلاث؟)
ولما لم يسمع رداً أو حركة أمسك هرمان يدها فوجدها قد فارقت الحياة حاملة سرها معها.
- 4 -
حينما دخلت ليزابيتا إلى حجرتها سرها أن لم تجد فيها صديقها الضابط، إذ أن شعوراً من الندم غمرها فأخذت تلوم نفسها على تسرعها في استدعائه. وبينما هي سابحة في بحار
الفكر فتح الباب فإذا بهرمان واقفاً تجاهها. فارتعدت الفتاة وقالت: (أين. . . كنت؟)
فرد مطرقاً: (في غرفة الكونتس. . . لقد تركتها منذ لحظة. . . ميتة).
فاستطرد هرمان: (أخشى أن أكون سبب موتها). ثم جلس (يا للسماء!! ماذا تقول؟) بجوار النافذة وشرع يقص عليها أنباء مغامراته، فأدركت أن عبارات الوجد والهيام التي كتبها والساعات الطويلة التي قضاها واقفاً أمام نافذتها لم يُمِلها الحب الصادق بل حب المال. . . المال الذي سيطر على قطب تفكيره فجعله يستخدمها أداة طيعة في يده. . المال الذي صيره مجرماً أثيماً ..
ولم تتمالك الفتاة نفسها منة البكاء في مرارة وألم، ولكنه أخذ يراقبها في سكون دون أن تلين قلبه دموعها التي ذرفتها ولا جمالها الذي زاده الحزن سحراً وفتنة، ولم يلق بالاً إلى موت الكونتس في ذاته، وإنما أحزنه أنها دفنت سرها معها.
وعاد إلى الصمت فلم يتبادلا كلمة ولا نظرة حتى بدت طلائع الفجر فانسحب الضابط من حيث أتى وما لبث أن احتواه الطريق.
- 5 -
مضت أيام ثلاث دخل هرمان بعدها الدير الذي رقدت فيه الكونتس ليؤدي لها واجب الاحترام الأخير. . . ولكن هذا لم يكن قصده الحقيقي، وإنما كان - ككل رجل لم يتسرب إلى قلبه شعاع من الإيمان - شديد التشاؤم والتطير، فخيل إليه أنه لو قصر في أداء هذا الواجب لحلت عليه لعنة روحها واستحق غضبها، وإذ ذاك رأى أن يرضيها من هذا الطريق.

دخل هرمان القاعة فوجد جسدها مسجى على فراش من المخمل الأسود وقد أحاطه خدمها حاملين الشموع. . . وبدأ المكان رهيباً. ولما حان دور الضابط تقدم منها فانحنى قليلاً، وفجأة صور له الوهم أن عيني المرأة تتطلعان إليه وأنهما فتحتا فتطاير منهم الشرر. . . ارتعد هرمان واختلج جسمه ثم ارتمى على من خلفه وقد غمر وجهه الشحوب، وفي نفس اللحظة كانت ليزابيتا في أقصى المكان قد أغمي عليها.

خرج هرمان وقد تملكه الرعب والفزع فتوجه إلى حانة حيث جلس يحتسي كؤوس النبيذ ليرفه عن نفسه المكروبة. ولما حان المساء عاد إلى بيته فاستلقى على الفراش وغرق في

نون عميق لم يصح منه إلا والليل يغمر الكون فلا يبدد ظلمته سوى نور القمر المنبعث من النافذة. . . ولم يكد يغسل الكرى عن عينيه حتى أعتدل جالساً ومكث بعض الوقت على تلك الحال، وما لبث أن سمع خطوات شخص يمر بنافذته ويتطلع إلى داخل الغرفة ثم يواصل سيره. . . لم يلحظ الأمر في البداية باهتمام ولكنه أرتعد حين سمع باب منزله يفتح، والممر يردد صوت تلك الخطوات، وأوشكت صرخة أن تفلت منه حين رأى امرأة في ملابس بيضاء منتصبة أمامه. . . عرف فيها الكونتس أنّا فازداد اضطرابه وازداد لعابه بصعوبة إذ سمعها تقول: (لقد جئتك رغم إرادتي لأشكر لك احترامك لذكراي ولأكافئك بذكر الوريقات الرابحة، إنها الثلاثة والسبعة والآس. ولكن أحذر أن تعاود اللعب بعد أن تجمع لنفسك ثروة معقولة. وإذا تزوجت وصيفتي ليزابيتا غفرت لك كل ما بدر منك).

نطقت بهذه الكلمات بين دهشته وذهوله، ثم خرجت من حيث أتت وردد الطريق وقع أقدامها. . .

لبث هرمان مشدوهاً بعض الوقت، ثم اجتاز الغرفة وأيقظ خادمه ولكنه عبثاً حاول أن يعرف منه شيئاً عن الأمر؛ فقد كان هذا مستغرقاً في النوم لحظة أن دخلت الكونتس.

لم يغمض للرجل جفن طوال تلك الليلة، إذ أخذت الأفكار تطارده والأحلام تذكره بالثلاثة والسبعة والآس؛ فحصر مخيلته في البحث عن مكان للمقامرة، وحين علم بنبأ عزم فريق من الأثرياء على الالتفاف حول مائدة القمار بأحد الأندية يمم شطره وريح الأمل تدوي بين جنبيه، وهناك وجد عليه القوم وكبار الضباط يلعبون.

وجلس هرمان يشاركهم، وما لبث حين مر به الدور أن أخذ ورقة وراهن عليها بمبلغ 47 ألف روبل فتركزت حوله الأبصار وأخذ الجميع يتطلعون إليه ثم قال تلروموف وهو يغمغم (لقد فقد الرجل عقله) وتلاه أحد اللاعبين بقوله: (أتسمح لي يا سيدي أن أحذرك مغبة المراهنة على مثل هذا المبلغ الجسيم. . . إنها مغامرة مميتة فنحن لا نراهن عادة على أكثر من مائتي روبل).

ولكن هرمان قال في إصرار: (إني أعلم ذلك فهل تقبلون لعبي أم لا؟) وإذ ذاك قال صاحب النادي: (لا بأس فقد أردنا تنبيهك فقط)

وأخرج هرمان من حافظته عدداً من أوراق البنكوت سلمها لمحدثه ثم بدأ اللعب فكشف الورقة التي بيده وكانت الرابحة. سرت موجة من الدهشة بين الحاضرين وتسلم هرمان ما ربح ثم أنصرف تاركاً الخاسرين فريسة الذهول، وفي الليلة التالية عاد إلى اللعب والتأم الجمع حول المائدة الخضراء فقامر الضابط كالليلة السابقة وما أن كشفت الورقة التي بيده وكانت السبعة حتى تبين أنها الرابحة. . . ومرة أخرى جمع أرباحه ولم ينس أن يحيي الحاضرين عند خروجه بانحناءة وابتسامة. ظهر هرمان في الليلة الثالثة والأخيرة، وازدحم حول المائدة أفواج من المتفرجين واللاعبين وقد أشتد بهم الحماس والتشوق ثم بدأ اللعب. . . فأخذ هرمان (الآس) واستعد الكل للحظة الفاصلة فخيم الصمت على أرجاء القاعة. . . ثم أخذ الرئيس الورق بيد مضطربة ودار اللعب برهة ثم تبين أن الورقة الرابحة هي الآس وإذ ذاك كشف هرمان ورقته وهو يكاد يفقد عقله من الفرح والغبطة. . . ولكنه وجدها (دام) (سباتي). . . اشتد به الذهول وزاغت عيناه وتصلبت أطرافه وهو يحدق في الورقة إذ خيل إليه أن (الدام) تفتح عينيها وتغمضها بينما ارتسمت على شفتيها ابتسامة هازئة. . . شعر بالرعب يلجم لسانه فقد كانت (الدام) شديدة الشبه بالكونتس.

وبعد يومين كان زائر مستشفى أبو كوف يقع نظره في إحدى الحجرات على رجل

فاقد العقل والشعور، لا يجيب عما يوجه إليه من أسئلة وإنما يظل يتمتم بصوت خافت: (ثلاثة. . . سبعة. . . آس)

حلمي مراد

المحامي

العدد 376 - بتاريخ: 16 - 09 - 1940

درس ينفع أبناء هذا الجيل

للدكتور زكي مبارك

يختلف الناس اختلافاً شديداً في قوة الحس ويقظة الروح. والحس والروح جارحتان من أعظم الجوارح الإنسانية، وهما السناد الأعظم للكاتب والشاعر والمفكر والفيلسوف، وبقدر اختلاف هؤلاء في النصيب الموهوب أو المكسوب من هاتين الجارحتين تختلف حظوظهم في السيطرة على أهواء السامعين والقارئين. والذي يقرأ تراجم الأكابر من الكتاب والشعراء والوزراء يرى أنهم كانوا في الأغلب أصحاب شهوات. وهنا يشتبه الأمر على القارئ المبتدئ فيسأل: كيف تجتمع العظمة والشهوة؟ وهل تكون الشهوة من وسائل العظمة؟ ونجيب بأن الخضوع للشهوة عيبٌ نهي عنه الحكماء، والذي يقترف الفجور تشبهاً بما وقع فيه عظماء الرجال هو مخلوقٌ سخيف، ومَثَلهُ مَثَل (فلان) وهو شخصٌ جيّد الخطّ، وقد شهد له بذلك أساتذته يوم كان تلميذاً في المدارس الثانوية، فلما سمح له الدهر بأن يكون أستاذاً في أحد المعاهد العالية، صار يقبِّح خطه عامداً متعمداً ليندرج في زُمرة العلماء، فقد كان سمع أن خطوط العلماء مَضرِب المَثل في القبح والغموض والاعوجاج!

ولا مؤاخذة يا فلان، فأنت تعرف مبلغ حرصي على الجهر بكلمة الحق. ومن هنا أشفق أشد الإشفاق على الشبان الذين يستهينون بالآداب والتقاليد، لأنهم سمعوا أن أعظم الرجال لم يكونوا يقيمون وزناً لمأثور الآداب والتقاليد. والفرق بين الحالين كالفرق بين إناء تملأه فيفيض وإناء يغلي فيفيض. فالرجل العظيم لا يقع - حين يقع - في الخضوع لإحدى الشهوات إلا وهو مغلوب على أمره بقوة الإحساس، وهو لذلك يظل سليم الشخصية الخُلُقية، ولا كذلك الشاب السخيف الذي يخضع للشهوات تشبُّهاً بالعظماء، فإن شخصيته الخُلُقية تنحل أبشع انحلال، لأنه لم يخضع لهواه طاعةً لقوة قهارة من الحس المشبوب، وإنما يخضع لهواه طاعةً لنزعة مرذولة من نزعات التقليد الممقوت.

يضاف إلى ذلك أن الشهوات المنسوبة إلى العظماء يغلب عليها التزوير والاختلاق، لأن واضعيها يرجعون إلى فريقين: فريق الفجرة الذين يهمهم أن يشاع أن الخلُق السليم ليس حجراً أساسياً في بناء العظمة الذاتية، وفريق الحاقدين الذين لا يتورعون عن خَلْق التهم في التشهير بمن يعادون من العظماء. ولو صح أن الشهوات المنسوبة إلى بعض أكابر الرجال

حقيقية لوجب القول بأن الأخلاق ليست إلا كلاماً في كلام، وأن الشهرة والجاهُ ينالان بالتحكم والسيطرة كما تُنال بعض الثروات بالغش والتدليس، وذلك قولٌ مردود. والذي يقف في التعرف إلى شخصيات العظماء عند ظواهر الهنوات محكومٌ عليه بالخذلان، لأن العظماء لهم قوىً خُلقية لا يفطن إليها عوام الناس، وتلك القُوى الخفية هي السرّ في نجاح أولئك العظماء، وهي ليست قُوىً عادية من التي يتمدح بمثلها من لا يملكون من المواهب غير الإستقامة وضبط النفس في حدود المبتذل من الشهوات، وإنما هي قوىً عارمة تمكِّن أصحابها من الجهاد بأمن وعافية في مكافحة الضغائن والحقود، والشدائد والخطوب.

وأذكر في هذا المقام ثورة بعض الناس على السيد جمال الدين الأفغاني وقد عابوا عليه أن يجلس في القهوات يوم كان ذلك من العيوب، فأولئك القوم لم يكونوا يرون قوة الخُلُق في غير البعد عن مواطن الشبهات، وفاتهم أن الجلوس على القهوة بالرغم من استهجانه في ذلك الوقت لم يكن في نظر السيد جمال الدين الأفغاني إلا حسنة من الحسنات، لأنه كان فرصة لدرس أحوال الجمهور والوقوف على ما اختلف وائتلف من نوازع الناس.

وأين الجلوس على القهوة من الشمائل الحقيقية لجمال الدين الأفغاني؟ وهل عرف المتألبون عليه لذلك السبب الحقير كيف استطاع بقوته الذاتية أن يكون حديث الوزراء والملوك في الشرق والغرب؟ وكيف استطاع بعظمته الروحية أن يتغلب على مصاعب

الفقر والاغتراب؟ وكيف فرض عليه روحه العظيم أن يرفض معونة رفيقيه العظيمين محمد عبده وسعد زغلول وهو خارج خروج الطريد من الديار المصرية؟؟؟
وأذكر أيضاً شيخ الشيوخ محمد عبده فقد ألحّ حاقدوه في اتهامه بترك الصلاة ليجوز لهم الرجم بأنه لا يصلح لتولي الإفتاء، ولو فطن الجمهور إلى أن قالة السوء هي التي منعت الشيخ محمد عبده من الصلاة في العلانية لأدركوا أنه كان يخشى الوقوع في هُوّة الرياء، ولعله كان يريد أن يعرف كيف ينصره علام الغيوب على من يغتابونه ظالمين.
ومن هم أعداء محمد عبده؟ هل كانوا حقيقة من أحلاس المساجد؟ وهل كانوا غاية في الحرص على الصلاة والزكاة والصيام والقيام؟ إنما كانوا طلاب صيد، وكانوا بتجريحه يتقربون إلى إحدى الجهات، فحل عليهم غضب الله، ولم يبق لهم من الغنيمة إلا الإشارة من وقت إلى وقت بأنهم قالوا في ذلك الإمام كيت وكيت. وبعض الناس ينحصر مجده في الشهرة باتهام الأبرياء!
ولو سلَّمنا جدلاً بأن الشيخ محمد عبده كان تارك الصلاة - ورحمة الله على العهد الذي كان فيه ترك الصلاة من العيوب، فقد خفتُ أن تصبح فريضة الصلاة من المجهولات عند أبناء هذا الجيل - لو سلمنا بذلك لكان الأمر عجباً كل العجب، لأن الشيخ محمد عبده كان يملك من القدرة على أهواء النفس ما يمكنه من أن يجود بثلاثة أرباع مرتبه على المعوزين والبائسين من الذين يمنعهم الحياء من إعلان الاحتياج، ولولا شهامة الشاعر عبد المحسن الكاظمي لما تعرضت مكارم الشيخ محمد عبده إلى الافتضاح، فكيف يجوز لرجل يُذلّ ماله هذا الإذلال أن يضعف عن أداء الصلاة وهي من وسائل المرائين في كسب ثقة الجماهير، إلا أن تكون صلته بربه أعظم من أن تحتاج إلى إعلان؟
لقد كان المصلون من الأزهريين يعدون بالألوف في عصر الشيخ محمد عبده، ومع ذلك لم نسمع بأنهم تنازلوا عن شيء من أرغفتهم في مواساة المحتاجين، وإنما سمعنا أن الشيخ محمد عبده مات فقيراً وأن منافسيه ماتوا وهم أغنياء.
وهل فكر أحد في القيمة الصحيحة لرجل يتغلب على الجدب والإمحال في الحياة الأزهرية لعهد مضى عليه أكثر من نصف قرن فيكون الفيصل بين الهمجية والمدنية، ويكون صلة الوصل بين القديم والحديث، ويفسِّر جزأين من القرآن وهو في رياض سويسرا حيث يطيب لسواه أن يأنس بحياة اللهو والفتون؟
هل فكر أحد كيف جاز أن يسيطر محمد عبده على تلاميذه تلك السيطرة العاتية، فيقضي السيد رشيد رضا عمره في شرح آرائه العلمية، وينفق الشيخ مصطفى عبد الرزاق أطيب أوقاته في توضيح مذاهبه الاجتماعية، ويتأثر الشيخ محمد المراغي خطواته في الإصلاح الديني وفي سائر الشؤون حتى صار من العجب أن يكون خط الشيخ المراغي صورة من خط الشيخ محمد عبده مع صعوبة التشابه في الخطوط؟. . كيف أمكن ذلك أيها الناس؟ .
ألا يكون ذلك دليلاً على أن الشيخ محمد عبده كان يعيش في حماية حصانة خُلقية لم يدرك أسرارها المتألبون عليه من الزملاء الأغبياء؟
وقد أشرت في الطبعة الثانية من كتاب (عبقرية الشريف الرضي) إلى ما صنع الشيخ المراغي مع علماء الأزهر الشريف، فقد شاع أن الشيخ المراغي نسى علوم الأزهر لبعد عهده بالحياة الأزهرية، فرأى الرجل أن يلقي دروساً علنية في علم الأصول ليريهم أن الذهن الثاقب كالسيف لا يضرُّه طول العهد بالإضمار في غياهب القراب.
وما قيمة العلوم النقلية بجانب العلوم المكتسبة من فهم سرائر المجتمع؟. . . وأين الأزهري الذي يملك القدرة على محاورة مدير الجامعة المصرية في الحفلات كما يقدر الشيخ المراغي على ذلك بسهولة لا تعرف التكلف والافتعال؟
كنا مرة في المفوضية العراقية بالقاهرة، والتقى لطفي باشا بالشيخ المراغي، وأقبل الشيخ رشيد رضا يقول: هذا لطفي باشا مدير الجامعة المدنية، وهذا الشيخ المراغي مدير الجامعة الدينية، والدين فوق المدنية. فابتسم لطفي باشا وقال: هذا حق ما دام الشيخ هنالك. وأجاب الشيخ المراغي: ما دام لطفي باشا في الجامعة المصرية فهي

الشقيقة الرءوم للجامعة الأزهرية، وما كان الدين إلا رسول الحضارة والفهم والعقل. ثم تواتر الحديث بين الرجلين في غاية من التلطف والترفق والعطف.
ومن مزايا هذا العصر في مصر أن تكون الجامعة الأزهرية - وهي على الضفة الشرقية للنيل - تحت رياسة رجل يتجه أحياناً نحو الغرب، وأن تكون الجامعة المصرية - وهي على الضفة الغربية للنيل - تحت رياسة رجل يتجه أحياناً إلى الشرق.
وبذلك لا يكون من الشر أن يقال إن مصر بلد الغرائب، لأن الغرائب لا تجتمع في مصر إلا وهي صورة من الانسجام المقبول في شرعة الأدب والذوق.
ماذا أريد أن أقول؟ أنا أريد القول بأن الأخلاق الحقيقية للعظماء هي أجل وأدق من أن يفهمها عوام الناس، وما تعلّق متعلقٌ بهفوة صورية لرجل من الأكابر إلا وهو غافلٌ جهول، فما تسمح قوانين الحياة بأن يسود رجل إلا وهو على جانب من متانة الخُلُق، وسجاحة النفس، ورصانة الطبع، وطهارة القلب، ولو كره المتزلفون إلى المجد بالوصولية والضَّعة والاستخذاء
دلوني على عظيم واحد أُثِر عنه الانقياد لهواه في صباه.
ما نبغ في الدنيا نابغٌ إلا بعد أن قدم شبابه قُرباناً للمجد. وكان أشياخنا يقولون: (أعط العلم كلك يعطك بعضه). فما بالُ بعض الشبان في مصر أو في غير مصر يعرفون مراتع اللهو قبل الأوان فتزدان بوجوههم مقاصير الملاعب والمراقص، ويكون لصباهم تاريخ في حياة
الفتون؟ وما بال بعض الشبان يعرفون سُكْر الخمر وهم على خطر من سكر الشباب؟ أنتم لا تعرفون نعمة الله عليكم، أيها الجهلاء، والجهل هو الشباب في لغة أهل العراق.
من ألفاظ مصر كلمة (الغندرة) والغندرة الحقيقية للشاب هي أن يكون بين الأوائل في الدراسة الابتدائية والثانوية والعالية. الغندرة الحقيقية للشاب هي أن يكون قرة عين لوطنه ولأبويه، ولن يكون كذلك إلا إذا تفوق في جميع الشؤون. الغندرة الحقيقية للشاب هي أن يفوز فوزاً مطلقاً بثقة أساتذته وزملائه بحيث يتقدم إلى معترك الحياة وهو مرفوع الرأس وضَّاح الجبين.
ما بال بعض الشبان يسابقوننا إلى المشارب والملاعب؟
نحن نغشى تلك الأماكن من حين إلى حين لندرس أخلاق الجيل، فلا تكونوا موضوع الدرس، ولا تعرِّضوا سمعتكم لسهام الأقلام، فما يبقى على نوشها أديم صحيح.
إن كان غرّكم أن يتظرف رجلٌ مثلي فيقول إنه دخل الملعب الفلاني أو الحانة الفلانية، فأنا أتحداكم أن تثبتوا أني شربت فنجان قهوة في غير داري قبل أن أظفر بإجازة الدكتوراه أو قبل أن أبلغ الثلاثين.
وما أقوله عن نفسي أقوله عن الأدباء الذين يسيطرون على عقولكم وإفهامكم في هذا العهد. فالدكتور طه حسين في صباه لم يعرف من النعيم غير كرع ماء التين. والأستاذ عباس العقاد لم يعرف في شبابه غير مقارعة الأحاديث في سهرات أسوان، وقد زرته قبل عشرين سنة في دار تواجه المقابر بحيث لا يجد الماء إلا بفضل السقاء. والأستاذ إبراهيم المازني قضى طلائع شبابه في دار جافية لا تعرف الأنس بغير سحالي الصحراء. والأستاذ عبد العزيز البشري شهد على نفسه بأنه كان يتغدى بخمسة ملاليم مع أن أباه كان عمدة حيّ البغالة وكانت إليه مشيخة الأزهر الشريف.
لا تخدعوا، أيها الشبان، بالأدباء الذين يتحدثون عن هواهم الأثيم في باريس، أو غير باريس، فلن يكونوا ألأم مني، ونحن لا نسمح لأحد بأن يكون أحرص منا على الواجب، ولو خطر في البال أن في الشبان من يحاول سبقنا إلى المجد بقوة الكفاح لقطعنا رأسه بلا ترفق، ولو كنت أتوهم أن في أبناء هذا الجيل من يسدّ المسالك في وجهي بالسباق في ميادين الدرس والبحث والتنقيب لطويت عنه هذا النصح، فما أحب أن يكون لي في هذه
الميادين خصم أو قريع.
في سنة 1927 خطر للدكتور طه أن يغمز أساتذة اللغة العربية في أحد دروسه بالجامعة المصرية فقال: كيف يجوز لهؤلاء أن يتولوا تدريس الأدب في المدارس الثانوية أو العالية وليس فيهم من تصفح ديوانين اثنين من دواوين الأدب العربي؟! فنهضتُ وقلت: (أرجو استثنائي من هؤلاء، فأنا أحفظ ثلاثين ألف بيت من الشعر العربي وأستطيع إنشادها جميعاً في أي وقت).

فابتسم الدكتور طه وقال: أنا لا أقصد أساتذة الجامعة المصرية. ولم يكن كلامي ضرباً من التحدي المؤقت، وإنما كان حقاً من الحق. وما اكتفيت بالثلاثين ألفا إلا إشفاقاً على طلبة الجامعة، فقد كانت مختارات البارودي من بعض محفوظاتي، وكنت أحفظ دواوين برمتها من الشعر الفرنسي، وقد حفظت معظم كتاب تليماك عن ظهر قلب في سنة 1919 وكان المسيو كليمان حدثني أن أسلوب فنلون هو المطمع بالممتنع. ولم أكن أعرف نظام الجذاذات عند الشروع في تأليف كتاب (الأخلاق عند الغزالي) فكنت أرجع إلى الشواهد في مؤلفات الغزالي بغير احتياج إلى دليل، فقد كانت مؤلفاته مسطورة في ذهني بأبوابها وفصولها وصفحاتها بحيث أجد الشاهد حين أشاء، بلا عناء.

وما استطعت ذلك كله لأن ذاكرتي أقوى من سائر الذاكرات، أو لأني أذكى من سائر الناس، وإنما استطعت ذلك لأني لا أعرف المسامحات في صيف أو شتاء. وما أذكر أبداً أني انقطعت عن الدرس في يوم من أيام المواسم والأعياد، حتى أيام البواخر قرأت فيها أشياء وكتبت أشياء. وهذا بالتأكيد حال كثير من الأدباء في هذا العهد، وقد يكون فيهم من يفوقني في الصبر على مكاره الدرس والتأليف، فليست الحظوظ أو الظروف هي التي جعلت بعض أدبائنا أئمة مرموقين في الأقطار العربية والإسلامية، وإنما هو الكدح الدائم والكفاح الموصول.

أما بعد فبأي حق يجوز لطالب العلم أن يجلس في أحد المشارب وفي يده كأس؟ وبأي حق يتسامى الشبان الظرفاء إلى السيطرة الأدبية والعلمية وهم يدفعون مهرها من الكسل والخمود والاعتماد على وساطة الشفعاء؟

من حق كل إنسان أن يتخير مصيره كيف شاء، فلن يكون الناس جميعاً نوابغ وعبقريين.

أما طالب العلم فلا يملك هذا الحق، لأن الأمة تفرض عليه أن يكون مضرب المثل في الحرص على الفهم والاجتهاد والتحصيل، وهي لن ترضى منه بالقيمة الصغيرة في مغانمه العلمية، لأن مصر في هذا العهد لم يبق فيها مكان لغير المتفوقين، ولكن أين من يفهم هذه الحقيقة من أبناء هذا الجيل؟

لقد كثرت الشكاية من وقف صفحات الجرائد والمجلات على طائفة معروفة من الباحثين، وكثر تضجر الشباب من طغيان الكهول. وهذا حق، ولكنه سُنّةٌ طبيعية، والأحمق هو الذي يطمع في تبديل نواميس الوجود بالتوسل والرجاء.

وأنا أكشف الستار عن بعض الدسائس الأدبية فأقول:

في مصر اليوم إصرار عنيف على الاستبداد بمغانم الحياة الفكرية، وأولئك المستبدون يصلون النهار بالليل في تزويد عقولهم وإفهامهم بما يجدّ في عالم الآداب والفنون، ولا يمكن زحزحة هؤلاء المستبدين بالتشكي والتوجع، وإنما يزحزحون بمناكب أضخم من مناكبهم، وتلك المناكب هي العقول العاتية التي تأنف من الاكتفاء بالزاد القليل، وترى القناعة من صور الفناء، وقد علّل أحد الشبان نفسه فقال: سيأتي يوم يموت فيه هؤلاء الكهول ويخلو الميدان.

وهذا أيضاً حق، ولكن خيبة مصر في أبنائها ستكون فظيعة حين يصح أن موت المتفوقين هو الفرصة لتقدم المتخلفين.

إن مصر تنتظر شباناً أقوياء لا يطيف بأذهانهم مثل ذلك الخيال السقيم. مصر تنتظر شباناً يعيشون عيش التبتل والتنسك والاعتكاف في زوايا المدارس والمكاتب. مصر تنتظر شباناً لا يعرفون من أدوات الزينة غير القلم والكتاب. مصر تنتظر شباناً يؤمنون بأن المجد الأدبي لا ينال بالتشهي والتمني، وإنما ينال بالصبر على أقذاء العيون تحت أضواء المصابيح.

زكي مبارك

في الاجتماع اللغوي

تطور اللغة وارتقاؤها

للدكتور علي عبد الواحد وافي

مدرس الاجتماع بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

تتأثر اللغة أيما تأثر بحضارة الأمة، ونظمها وتقاليدها، وعقائدها، واتجاهاتها العقلية، ودرجة ثقافتها، ونظرها إلى الحياة، وأحوال بيئتها الجغرافية، وشئونها الاجتماعية العامة

وما إلى ذلك. فكل تطور يحدث في ناحية من هذه النواحي يتردد صداه في أداة التعبير. ولذلك تعد اللغات أصدق سجل لتاريخ الشعوب: فبالوقوف على المراحل التي اجتازتها لغة ما، وعلى ضوء خصائصها في كل مرحلة منها، يمكن استخلاص الأدوار التي مرَّ بها أهلها في مختلف مظاهر حياتهم.

فكلما اتسعت حضارة الأمة وكثرت حاجاتها ومرافق حياتها ورقى تفكيرها، وتهذبت اتجاهاتها النفسية، نهضت لغتها، وسمت أساليبها، وتعددت فيها فنون القول، ودقت معاني مفرداتها القديمة، ودخلت فيها مفردات أخرى عن طريق الوضع والاشتقاق والاقتباس للتعبير عن المسميات والأفكار الجديدة، وهلم جرا. واللغة العربية أصدق شاهد على ما نقول، فقد كان لانتقال العرب من همجية الجاهلية إلى حضارة الإسلام، ومن النطاق العربي الضيق الذي امتازت به مدنيتهم في عصر بين أمية إلى الأفق العالمي الواسع الذي تحولوا إليه في عصر بني العباس، كان لهذين الانتقاليين أجلّ الأثر في نهضة لغتهم ورقي أساليبها، واتساعها لمختلف فنون الأدب، وشتى مسائل العلوم.

وانتقال الأمة من البداوة إلى الحضارة يهذب لغتها، ويسمو بأساليبها، ويوسع نطاقها، ويزيل ما عسى أن يكون بها من خشونة، ويكسبها مرونة في التعبير والدلالة. وإن موازنة بين حالة اللغة العربية في عهد بداوة العرب قبل الإسلام وحالتها في عهد حضارتهم الإسلامية، أو بين ما كانت عليه عند أهل البادية في عصر ما وما كانت عليه في الحضر في نفس هذا العصر لأصدق برهان على ذلك. وإن البدوي الذي لم يلهمه شيطانه في مدحه للأمير أحسن من قوله:

أنت كالكلب في حفاظك للعه ... د وكالتيس في قراع الخطوب

قد استطاعت قريحته بعد أن هذبتها حضارة بغداد أن تجود بمثل قوله:

عيون المها بين الرصافة والجسر ... جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

وما يحدث بين حضارة الأمة ولغتها من توافق وانسجام، يحدث مثله بين لغتها ومظاهر بيئتها الجغرافية. فجميع خصائص الإقليم الطبيعية تنطبع في لغة سكانه. ومن أجل ذلك نشأت فروق كبيرة في مختلف مظاهر اللغة بين سكان المناطق الجبلية وسكان الصحراء وسكان الأودية؛ وبين سكان المناطق الشمالية والوسطى والجنوبية. ومن ثم كذلك نشأت فروق غير يسيرة بين أفراد الفصيلة اللغوية الواحدة، بل بين لهجات اللغة الواحدة.

ففي كل لغة من لغات الفصيلة السامية مثلاً، تتمثل حالة البيئة التي سكنها الناطقون بها. فالآرامية التي نشأت في الشمال جافة الألفاظ قليلة المفردات، ثقيلة التراكيب، مضطربة القواعد، لا تكاد تواتي الأساليب الشعرية الراقية. والعربية التي نشأت في الجنوب أعذب اللغات السامية ألفاظاً، وأغناها مفردات، وأدقها قواعد، وأكثرها مرونة واتساعاً لمختلف فنون القول. والعبرية التي نشأت في منطقة متوسطة بين هاتين المنطقتين تمثل في رقيها منزلة بين منزلتي الآرامية والعربية؛ فقد فاقت الأولى ولكنها قصرت عن أن تدرك شأو الثانية، فألفاظها وأساليبها تتسع لكثير من مناحي القول؛ ولكن العربية تفوقها في مرونة التعبير والترف اللغوي وسعة الثروة في المفردات، وقواعدها سهلة مضبوطة، ولكنها لا تبلغ في دقتها وتنوعها مبلغ قواعد اللغة العربية. وتظهر هذه الفروق حتى من ناحية الأصوات، فالآرامية حوشية الأصوات، صعبة النطق، تتلقى في كلماتها المقاطع المتنافرة والحروف الساكنة؛ والعربية عذبة الأصوات سهلة النطق خفيفة الوقع على السمع، تقل في كلماتها الحروف غير المتحركة، ولا يكاد يجتمع في مفرداتها ولا في تراكيبها مقاطع متنافرة، ولا يلتقي في ألفاظها ساكنان. والعبرية وسط بين هذه وتلك: فهي لم تصل في سهولة اللفظ إلى درجة العربية ولا في صعوبته إلى درجة الآرامية؛ يتخلل كلماتها حروف المد في نطاق أوسع من الآرامية، وبدرجة تذلّل كثيراً من ظواهر الصعوبة في النطق، ولكن بدون أن تصل في هذه الناحية إلى الشأو الذي وصلت إليه لغت القرآن.

ولهذا السبب نفسه اختلفت اللهجات الإغريقية القديمة. فعلى الرغم من أن بلاد الإغريق كانت تشغل منطقة ضيقة فإن الاختلاف اليسير الذي كان بين أجزاء هذه المنطقة في طبيعتها الجغرافية قد أحدث بين لهجات سكانها فروقاً ذات بال. فاللهجة الدورية مثلاً

خشنة الألفاظ، حوشية المخارج، صعبة النطق، ثقيلة الأصوات، على حين أن اللهجة اليونانية رخوة الكلمات، سهلة النطق، عذبة الأصوات، يتخلل كلماتها كثير من حروف المد وأصوات اللين.

ومظاهر النشاط الاقتصادي تطبع اللغة كذلك بطابع خاص في مفرداتها ومعانيها وأساليبها وتراكيبها. ومن ثم اختلفت مظاهر اللغة في الأمم والمناطق تبعاً لاختلافها في نوع الإنتاج، ونظم الاقتصاد، وشؤون الحياة المادية، والمهنة السائدة (الزراعة، الصناعة، التجارة، الصيد، رعي الأغنام. . . الخ). وقد تؤثر هذه المظاهر في أصوات اللغة نفسها. فقد يؤدي نوع العمل الذي يزاوله سكان منطقة ما إلى تشكيل أعضاء نطقهم في صورة خاصة تتأثر بها مخارج الحروف ونبرات الألفاظ ومناهج التطور الصوتي.

واللغة مرآة ينعكس فيها كذلك ما يسير عليه الناطقون بها في شئونهم الاجتماعية العامة، فعقائد الأمة، وتقاليدها، وما تخضع له من مبادئ في نواحي السياسة والتشريع والقضاء، والأخلاق والتربية وحياة الأسرة، وميلها إلى الحرب أو جنوحها إلى السلم، وما تعتنقه من نظم بصدد الموسيقى والنحت والرسم والتصوير والعمارة وسائر أنواع الفنون الجميلة. . . كل ذلك وما إليه يصبغ اللغة بصبغة خاصة في جميع مظاهرها في الأصوات والمفردات والدلالة والقواعد والأساليب. . . وهلم جرا.

وتتشكل اللغة كذلك بالشكل الذي يتفق مع اتجاهات الأمة العامة ومطامحها ونظرها إلى الحياة. فاتجاه الإنجليز مثلاً إلى الناحية العملية قد صبغ لغتهم بصبغة مادية في مفرداتها وتراكيبها؛ حتى إنه ليقال فيها: (دفع زيارة أو تحية أو انتباها) و (أنفق وقته في كيت وكيت) , ., ... ' '. بدلاً من (أدى زيارة) و (قدم تحية) و (أبدى انتباهاً) و (قضى وقته في عمل ما).

وما يكون عليه الأفراد من حشمة وأدب في شئونهم ومعاملاتهم وعلاقاتهم بعضهم ببعض ينبعث صداه في لغتهم ألفاظها وتراكيبها، فاللغة اللاتينية لا تستحيي أن تعبر عن العورات والأمور المستهجنة والأعمال الواجب سترها بعبارات مكشوفة، ولا أن تسميها بأسمائها

الصريحة. على حين أن اللغة العربية بعد الإسلام تتلمس أحسن الحيل وأدناها إلى الحشمة والأدب في التعبير عن هذه الشؤون، فتلجأ إلى المجاز في اللفظ وتستبدل الكناية بصريح القول: القبل، الدبر، قارب النساء، لمس امرأته، قضى حاجته. . . الخ، ولقد كان لها بهذا الصدد في ألفاظ القرآن الكريم وعباراته أسوة حسنة: (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم)؛ (واهجروهن في المضاجع)؛ (لمستم النساء)؛ (وقد أفضى بعضكم إلى بعض)؛ (فاعتزلوا النساء في المحيض)؛ (والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة مؤمنة من قبل أن يتماسا). . . وما إلى ذلك من كريم العبارات ونبيل الألفاظ. وما يبدوا في اللغة العربية بهذا الصدد يبدو مثله في اللغات الأوربية الحديثة وخاصةً الشمالية منها، وأكثرها تحرجاً في هذه الناحية اللغة الإنجليزية، فالبطن مثلاً لا يعبر عنه باسمه الصريح بل يطلق عليه في الغالب (أي المعدة) وسراويل الرجل يطلق عليها (أي لا يمكن التعبير عنه)؛ وسراويل المرأة تطلق عليها كلمة معناها الأصلي (الجمع أو التركيب). . وهلم جراً.

وخصائص الأمة العقلية ومميزاتها في الإدراك والوجدان والنزوع، ومدى ثقافتها ومستوى تفكيرها ومنهجه، وتفسيرها لظواهر الكون، وفهمها لما وراء الطبيعة - كل ذلك وما إليه ينبعث كذلك صداه في لغتها. ففي الأمم الأولية الضعيفة التفكير، المنحطة المدارك، تغزر الكلمات الدالة على المحسات والأمور الجزئية، وتنعدم أو تقل الألفاظ الدالة على المعاني الكلية، وتخلو دلالة المفردات من الدقة والضبط، فيكثر فيها الخلط واللبس والإبهام، وتعرو القواعد أو تكاد تعروا من ظواهر التصريف والاشتقاق وربط عناصر الجملة والعبارة بعضها ببعض، ويضيق متن اللغة فلا يتسع لأكثر من ضروريات الحياة. ومن هذا القبيل الشعوب الصينية: فلغاتها أولية ساذجة في نواحي الألفاظ والدلالة والقواعد، تكفي للتعبير عن ضروريات الحياة، وشئون الصناعة اليدوية، والأدب السهل، والتأمل الضحل؛ ولكنها لا تتسع لعلم ولا لفلسفة ولا لدين بالمعنى الصحيح لهذه الكلمات، حتى إنه لا يوجد فيها اسم للإله؛ ويعبر فيها عن مسائل ما وراء الطبيعة بعبارات ملتوية مبهمة مضطربة الدلالة في أذهان أهلها أنفسهم.

وفي الشعوب السامية القديمة، إذ كان يسود التفكير الديني، وتفسر شؤون الحياة تفسيراً
سهلاً، وتنسب جميع الظواهر الطبيعية إلى تدخل الأرواح والآلهة، ويسيطر على المدارك الكسل والخمول، وتنفر الأفكار من البحث العلمي، وترغب عن التأمل الفلسفي - في مثل هذه الشعوب ترى اللغات سهلة المأخذ، ساذجة الدلالة، ضحلة المعاني، قصيرة الجمل، قليلة الروابط: تضع أجزاء الجملة وفقرات العبارة بعضها بجانب بعض، معتمدة في بيان وظيفة الألفاظ والجمل وعلاقة كل منها بما عداه على الذكاء المخاطب وسياق الحديث وترتيب المفردات. . . وما إلى ذلك؛ والروابط التي تشتمل عليها قليلة العدد، غير متنوعة المعنى، يرجع معظمها إلى علامات تدل على العطف وما شاكله. وفي الشعوب الهندية الأوربية حيث ينشط التفكير، ويعمق الإدراك، ويدق البحث، وتتجه العقول إلى التأمل الفلسفي، وتميل إلى تفسير ظواهر الكون والمجتمع الإنساني تفسيراً علمياً يربطها بأسبابها وقوانينها العامة - في مثل هذه الشعوب تكثر في اللغات الألفاظ الدالة على المعاني الكلية، والتراكيب المعبرة عن الحقائق العامة، وتغزر أزمنة الأفعال، وتطول الجمل وتتعدد أجزاؤها، وتتنوع الروابط وتختلف دلالاتها فتتسع للتعبير عن دقيق الوجدان، وعميق الإدراك، وحقائق الفلسفة والعلوم.

علي عبد الواحد وافي

ليسانسيه ودكتور في الآداب من جامعة السوربون

نحن وفرنسا

بين جنات الأرواح

وجحيم الأجساد

للأستاذ نجيب محمد البهبيتي

الصبح ينبلج في صمت عميق، وأعقاب الظلمة تذيبها تلك الأطياف المتهامسة من ضياء شمس لا تزال مختفية تحت الآفاق؛ والبحر من بعيد يهدر هديراً لا ينقطع، ويرغى إرغاء لا يلبث أن يزول بعد أن تزول العاصفة، وبعد أن يسكن اضطرابها. . . وهي لا بد أن تسكن. والنيل عن أيماننا يجري زاخراً عارماً في هدوء ووقار، موكب الدهر الجبار قد أثقلته السنون، وملأته الحكمة والتجربة. هذا النيل لا يزال يجري في نظام كأنه في فيضانه وانقباضه بقدر، أغنية خالدة منسقة قدسية تتجاوب فيها الفواصل، وتتردد في مقاطعها أنغام الحياة والبشر.

ما أشبه هذين بأسلوبين من أساليب التفكير والنظر إلى الأشياء. قوم يثورون وينفعلون وتصطخب نفوسهم بالحلو والمر، وتتأجج صدورهم بالعاطفة، وتفيض الكلمات على ألسنتهم تعبر عن قوة الثورة، وحدة الصخب. . . ولكن الانفعال لا يبقى، ولا يخلد، وهو لا بد زائل بزوال علته، وقد يتجدد مرة أخرى وغيرها كما تتجدد ثورة البحر حين تهتاجه العاصفة، ولكنه لابد أن يخمد. وأصحاب هذا الضرب من التفكير أشبه بالشعراء؛ ولكن الشعراء حين يفعلون ذلك يبينون عن خفية من خفايا النفس، ويكشفون عن صورة من صورها التي لا تتناهى، فهم يضيفون هذا إلى تراث النفس البشرية. ولا يجب أن نتناول قضاياهم على أنها حقائق، وإنما يجب أن ننظر فيها على أنها مرايا لحالات تمر بالنفس عابرة؛ فهي إنما تؤخذ ليستخرج منها علم، ولتوضع على مقتضاها الكليات كما يقول المناطقة.

وقوم آخرون يجرون في وزن الأشياء على قياس، يزنون الصغيرة والكبيرة، ويعرفون أن في وجود حقائق باقية خالدة، وأنها جديرة بالكشف، قمينة بالتنقيب والبحث، ينظرون إلى الأشياء من حيث قيمتها في الوجود، ومن حيث بقائها الحقيقي، ومن حيث خيرها الأبعد لا
من حيث خيرها القريب. وهؤلاء لا يأخذ بخناقهم الهوى، ولا يجيبون لداعي الانفعال، وقد يكونون أشد من الطائفة الأولى انفعالاً، وقد تكون نفوسهم أعرق في تأججها وثورتها، وقد يذوبون إشفاقاً وألماً، لما عسى أن يمر به الآخرون مرور العابرين. ولكنهم يعلمون أن الحقائق تطلب لذواتها في غير طويل وقوف عند الآلام والمسرات، ينظرون إلى الأشياء في وقار النيل وانتظام فيضه وانحساره، وفي سكون الصبح واستنارته، قد خلصوا نفوسهم من شوائب الحقد وأدران الشماتة، ونسوا ما لقيت

أجسادهم، فسموا بنفوسهم إلى مسالك النجم، وترفعوا عن أوغار الضعة.
كل كائن يستطيع أن يفرح حين يرى عدوه صريعاً تحت أقدامه، فهذه أقرب العواطف وأرخص الأحاسيس، ولكن ليس كل إنسان يستطيع هنا أن يسد بقلبه تلك الثغرة من الفرح وأن يضع يده على موقع ذلك السهم ليخفيه فيه، ثم ينظر إلى عدوه في ألم حقيقي لأن إنساناً قد سقط، ولأن روحاً قد فاضت، ولأن نفساً قد تخلصت من سجون الجسد المغري شيطانه المهلكة شهواته.
هذان أسلوبان من التفكير البشري، ولم أشأ أن أصطنع أولهما، ولكني أصطنع ثانيهما، ولست بهذا متصوفاً، ولست بهذا مرتفعاً فوق الحياة أعيش في برج من العاج، وأحيا في فردوس الأحلام، وأكبر نفسي عن دنيا الواقع بأفراحها وآلامها، فإنما أحسست هذا كله، وعانيت من مره وزقومه أشد ما يعاني بشر، ولكني أدع دائماً في جانب من نفسي بقية من الاتزان والشرف، أضع فيه دائماً مثالاً من مدنيتنا الروحية التي حملها الشرق إلى الوجود أمانة تنوء تحتها نفوس أولي القوة. أضع دائماً نصب عيني ما بشرت به نفوس كرام من آبائنا في كل أطوار التاريخ، وأنابه وفيّ لأهلي وبني جلدتي، آخذ بيدهم إلى المحافظة على أعز ما ورثوه عن ماضيهم، وأقوم ما بشرت به كل الديانات التي نبعت في الشرق، وفاضت على الدنيا خيراً ونعيماً وسعادة. ليس في دين من الديانات التي انبعثت في الشرق دين يطالب بالثأر وإن أمرت كل هذه الأديان بالقصاص، وأجازت إلى جانبه العفو، ونهت عن التمثيل، وكان الغرض من هذا الإصلاح، ولم يكن الانتقام وإلا لما أجازت العفو. ولنا في أخلاقنا، بعد هذا، التي ورثناها عن هؤلاء الأمجاد ما يجعلنا نكبر فوق الضغينة، ونتناول الأشياء تناولاً رحيماً، فيه إباء العفو وكبرياء المتألم الكريم.
في هذا ذلك المعنى الخلقي السامي، وفيه أيضاً محاولة للوصول إلى الحقيقة عن طريق العدل، على طريقة الفلاسفة التي لم ترضك؛ وفيه بعد هذا تطهير للنفس من آلام تخلقها الأحقاد، لا يصلى نارها الجيل الحاضر وحده، ولكن يتلظى بها بعد أجيال تأتي، وتقوم بها في النفس قياماً دائماً مثارات الخلاف، ولا يتحقق بها أبداً بين الشرق والغرب وفاق أو لقاء.
تضرب لي يا عبد المنعم مثلاً بما في أوربا اليوم من صراع تتداعى فيه أركان أقدس ما وقر في النفس الإنسانية من مُثُل وأخلاق حاسباً أن من الخير لنا أن نتبعه فنقول: (إننا نشاهد أمماً حرة مثقفة تحطم حياة أمم أخرى عالمة مثقفة حرة في سبيل إرضاء ما تعتقده كرامتها). . . إلى آخر ما قلت.
إن هذا قائم حقاً يا عبد المنعم، ولكن هل تعتقد أن ما تفعله أوربا الآن يجب أن نفعله، وأن ندعو إليه، وأن نعمل في سبيله؟ هل تعتقد أن هذه الأجيال تعيش ربع قرن تحمل بين جنباتها بذور الحقد، وتنميها وتعمل للانتقام من جارتها، تفكر في هذا الليل والنهار، وتقف عليه كل جهودها وتراحي نشاطها، تصوم لتبني آلة الخراب، ثم تدفع بعد هذا بزهرة شبابها ليحطموا غيرهم وليتحطموا، ولتشقى بهم بعدهم أجيال وأجيال - هل تعتقد أن هذه القطعان البشرية التي تساق إلى الجحيم سوقاً في غير رحمة قد عاشت العيشة التي تطمح إليها الدنيا، وأن هذه النفوس قد نالت من احترام أساتذتها وقادتها ما ترضاه أنت لقومك وبني جلدتك؟ وهل يعوض هذه الضحايا التي لا تنتهي أن يستمتع بالحياة من بعدهم قوم آخرون إن صح أن هذا سيكون؟
إن أمماً كثيرة في التاريخ قد نالت مكانتها في الدنيا عن طريق تحقيق المثل العليا، وهذه قد احتفظ لها التاريخ بأمجد الذكر؛ وأمماً أخرى قد أقامت نفسها على حد تعبيرك - على بركان من نوازع الفطرة الأولى فلم تلبث أن انهارت كما ينهار القصر يبنى على الرمل. ذلك أن تلك المثل الأخلاقية لم تأخذ مكانتها في وجودنا إلى الآن إلا لأن التجربة قد خلصتها واصطفتها، وأثبتت أنها كالحجر الكريم انكشفت للباحث بعد طويل العناء، ومكابدة الآلام، من بين أكداس ضخمة لا تحصى من سقطات الناس وإصاباتهم.
فإن أردنا أن نأخذ صفوف الدعاة فلندع إلى الخير، ولننس الانتقام، أما أن تكون فينا الوحشية اللازمة لكل حياة كريمة فذلك ما أخالفك فيه إن كنت تريد الوحشية امتلاء النفس بالحقد على عدوك، والتهليل إذا سقط أو أصيب لأن هذه ليست من شيمنا، وأما إن كانت الرجولة والقوة الجسدية، والابتعاد عن النعومة الناشئة عن الترف، ورد

المعتدي فذلك ما أوافقك فيه ولا أوافقك على غيره. ذلك أن رد الباغي شيء، والدعوة إلى الحقد عليه والشماتة به شيء آخر، كما أن تقدير سيئات عدوك لا يجب أن تعرف مواضع قواه كما تعرف مواضع ضعفه؛ أما تصويرك إياه كما يحلو لك، وكما تتمناه، وكما يزينه لك هواك ورغبات نفسك فأمور لم تكن في يوم من الأيام سنة من سنن الشرق، ولا تقليداً من تقاليده.

وإذا كنا الآن نقف نفوسنا موقف المؤرخين من هذه الأمة الجليلة فيجب أن ننتحل صفة الإنصاف، ويجب ألا ننسى أولاً أن الناس إخوان، ويجب ألا ننسى المبدأ الذي سبقنا إلى وضعه الغربيين: وهو أن العقاب ليس معناه الانتقام ولكن غايته الإصلاح؛ وسيكون من هذا لأعدائنا درس إن صح وصفهم بهذا الوصف.

إن لمدنية أوربا وجهين ككل مدنية: وجه مادي ووجه معنوي. أما المادي فهو تلك الصور الظاهرة التي تتكيف فيها سبل العيش ووسائله. وأما الوجه المعنوي فهو الخلاصة المجردة لتلك المبادئ التي تنتظم على مقاييسها العلاقات بين الأمم والأفراد. وهذا الوجه الأخير تجده في تاريخ كل أمة شاملاً لكل مثلها في الأخلاق والشرع ولكل ما عسى أن يكون قد استخلصته عقول أبنائها من أصول علومها وفنونها ومختلف صور حضارتها. وتجد هذا دائماً في عصور اتزان النفس البشرية، وفي فترات اطمئنانها، وفي الأيام التي لا تهتز فيها لحادث جلل: تجده دائماً بحيث يرمي إلى تحقيق الخير المطلق للناس على السواء، في غير نظر إلى أمة دون أخرى؛ أي أنه ينتفي فيه حب الذات والأثرة الفردية أو القومية. فلا تكاد تحس فيه تلك النعرة العنصرية التي إنما تكون دائماً رد فعل لحس الضعف الطارئ على أمة من الأمم لنكبة أصابتها، ونازلة حلت بها فزعزعت من إيمانها بنفسها فهي تحاول التغلب على هذا الضعف، وتقوية نفسها بتلك النفخة تصطنعها وتدعو إليها، وقد تنخدع بصوابها، فتؤمن بأنها حق، وتغلو في الإيمان بها حتى لترفع بها نفسها على هام الشموس. وقد يكون الداعون إلى هذا في الأمة المقهورة الباحثة عن التعويض أتفه الناس ولكنها تستجيب لهم، وتهتدي بهديهم لأن دعوتهم صدى لذلك الحس الفطري الذي يدفع إليه قانون الحياة وحماية الذات.

ولذلك يجب إهمال هذا الوجه الشاذ لأنه عابر في حياة الأمم وإن ترك أثراً إيجابياً في حياة بعض الأجيال، فتبقى الصورة الإنسانية التي تحدثت عنها، وهذه تكون نظرياً سليمة لا غبار عليها، ولكن يأتي دور التطبيق فتتعرض هذه المثل لغوايات الأفراد، وتضطرب بها الأهواء، ويعمل فيها قرب الفرد وبعده من الحيوانية التي لا تزال عنصراً أساسياً في كيانه.

ولقد ضربت لهذا مثلاً في كلمتي السابقة باستيقاظ العصبيات في الإسلام مع نهيه عنها ومع ما حاوله من قتلها ولما يكد يمر على بدء الدعوة نصف قرن، وقلت إن الأمم في هذا سواء، إلا أنها تفترق في ذلك القدر الباقي في نفوس أبنائها من أثر تهذيب تتركه التعاليم، أو يسطره عليها قدم عهد بالحضارة المادية. فإذا كان بعض أبناء الأمة الإسلامية قد أثاروا العصبية فتركت هذه مضاعفاتها في حياة المسلمين وتاريخهم فليس ذلك ذنب الإسلام، ولا ذنب تلك الطبقات منهم التي دعت إلى أسمى المبادئ، وحاولت بها أن ترتفع بالإنسان عن مرتبته الحيوانية فأباه عليه طبعه وارتد إلى حيث كان. ولكننا في الحكم على المسلمين ننسى دائماً سيئات الأجيال التي لم تحسن لنذكر ذلك الإرث الخالد في تاريخ الإنسان (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض) فالشر عابر والخير باقٍ دائماً، لأنه حقيقة منتزعة من صميم النفس عن طريق التجربة والامتحان.

لهذا قلت لك يا عبد المنعم إننا إن حكمنا على فرنسا فيجب أن نحكم عليها على أساس ما سيبقى من عملها للناس، وما عسى أن تكون تركته من أثر في خطوات الإنسانية في السير إلى غايتها البعيدة. كما أني قلت لك قولاً أساسه الحق يوم فرقت بين عمل الساسة وعمل الأمة كلها، وفعلت هذا بناءً على تجربتي، فقد عشت بين هؤلاء الناس في بلادهم وبلوتهم، فعرفت فيهم سلامة الطوية وحسن المعاملة، والمساواة في عدل اجتماعي لم يكد يتحقق في أمة من الأمم في كل أدوار التاريخ إلا في هذه الأرض التي نكبت. إن مستوى الفرد في فرنسا من كل نواحي حياته كان أرفع منه في أي أمة أخرى. فالتعليم كان إجبارياً حتى السادسة عشرة، والتعليم

العالي بالمجان بحيث يقدر عليه كل إنسان أراده، والمحاضرات العلمية في كل مكان وفي كل وقت من أوقات الليل والنهار حتى تصبح ملكاً مباحاً لكل طالب علم أو باحث عن حقيقة، حتى أصبحت فرنسا كلها متعلمة. وكانت بعد هذا حريصة على كل لون من ألوان الحرية. وأنت تعلم أن العلم مع الحرية يترك السبيل دائماً لوضوح الشخصية وحس الذات. ومن هنا تعددت المذاهب وكثرت الآراء حتى لكأن في كل فرد أمة، فكان من طريق الخير نوع من الانفصالية أساسها وضوح النظر واستنارة التفكير. وكان من هذا انهيار فرنسا لا لشيء إلا لأنها تمسكت بمُثُلها وأبت أن تتخلى عنها.

ولست أعرف حتى الآن هل كان الخير في هذا أم أن الخير في ذلك التكتل الحديدي للأمة بحيث لا يحسب فيها حساب لحياة الفرد ولا لحريته ولا لسعادته ولا لعقله. وعندي أنه ما لهذا خلق الناس.

ليس انهيار فرنسا يا عبد المنعم لأنها كانت قائمة على (بركان من التفسخ العائلي) الخ. . . فإنني كنت أعرف في صميم باريس عائلات من المحافظة، بحيث لا تستطيع أنت ولا أستطيع أنا إلا أن نرميها بالرجعية. وما كان عليك لتدرك معنى العائلة الفرنسية إلا أن تعرج قليلاً على بلد من ريف هذه البلاد لتفهم حقاً هل تهدمت العائلة في فرنسا أم لم تتهدم. إن بعض الدعاوى القائمة على الجهل تنتشر أحياناً لسوء الحظ حتى لتصبح أشبه بالمسلّمات، لأن الجمهور كما قلت لك لا يستطيع تحقيق كل ما يلقى إليه.

إن فرنسا قد هدمت نفسها من حيث أرادت أن تبنيها، فقد أعطت كل ابن من أبنائها حق الحياة كاملاً، وحق القول والفكر كاملاً، والمسئولية الاجتماعية عبء ثقيل على الأفراد. فأصبح دفع الضرائب عندهم ثقيلاً، وأصبح إنفاق مليم واحد على الحرب ومعداتها أمراً يتشاجر من أجله النواب، ويضج منه الشعب، لأن كارثة الحرب الماضية كانت لا تزال عالقة بالأذهان، ولم يكن أشق على الفرنسي من التفكير في الحرب. كانوا يؤثرون أن تنفق هذه الأموال على التعليم، وعلى رفع مستوى الحياة، على أن تنفق على المدافع. وهذا هو الذي حدا برجال الحرب كبيتان أن يقولوا: (إن الفرنسيين كانوا يطالبون الدولة بأكثر مما يعطونها). ففرنسا هدمت نفسها مؤقتاً لتبني مثلها، وأقول مؤقتاً لأني لا أشك في أنها ستهب في القريب العاجل جداً، فإني لا أعرف أمة يكمن فيها من الحياة ما يكمن في هذه الأمة، ولا أعرف فرداً قد ربي فيه الوازع الشخصي بمثل ما ربي في الرجل الفرنسي. ولا أعرف جنديّاً قد ربي على خشونة العيش فهيئ لتقبل طعم الحياة في خيرها وشرها مثل الفرنسي.

إن السير في تربية الأمم على هدى المثل الأعلى قد لا يحقق النصر العاجل، ولكنه من غير شك يخلق الصلاحية الحقيقية التي تكفل السيطرة على المستقبل.

أما أن تقول أن بيتان وفيجان قد انقلبا بين عشية وضحاها بوقاً من أبواق هتلر فتلك دعوى قد ينخدع بها البسطاء، ولكن لا ينخدع بها ذوو العقول الذين يدركون أن الكرامة الإنسانية قيمة، وأن الإنسان مهما كان تافهاً لا يسهل عليه أن ينتزع نفسه من ماضيه انتزاعاً، وأن يجرد نفسه من كيانه تجريداً. إن بيتان وفيجان رأيا أن إنقاذ فرنسا وإقالتها من عثرتها سيتحققان عن طريق ما ينتهجان وليس يمنع هذا عمل عامل لإنقاذ فرنسا على طريقته. فبيتان وفيجان يعملان، وديجول يعمل، وكل هذا في سبيل فرنسا.

إن فرنسا قد أصابت وأخطأت، شأن كل عمل إنساني، فليس أقل من أن نلومها على الخطأ ونذكر لها بالشكر والرثاء فضلها ونكبتها، ونحن إذ نفعل هذا نرسخ تقاليدنا، ونتخلق بأخلاقنا ونصطنع مثلنا، ولا نتخلى عن ميراثنا الروحي والحضاري، فضلاً عن أننا نحاول به تهذيب تلك الغرائز الأولية التي تدفع بالإنسان عملياً إلى الانتقام، فهي ليست بحاجة إلى إذكاء ولا تأريث. هذه الدعوة - كما ترى - ليست سهلة، لأنها محاولة للحد من اندفاعات الفطرة الحيوانية، وهذا الحد يغضب الجماهير ويضيق صدورها ويرغمها على السخط. أما مسايرة هذه الغرائز فيها ومجاراة التيار، فمحاولة هينة لاستغلال براءة الجمهور والضحك من أذقانه. وقد يقوى عليها الساسة الذين يحاولون الفائدة العاجلة ولكن لا يقوى عليها أصحاب الخلق الراسخ والإيمان بالحق وهداة الأمم إلى الخير والمثل المحققة للقوة

أما رثاؤك لمثقفينا الذين لم تقدم إليهم أوربا من العلم إلا ما هو بمثابة السروج واللجم

فإني أمر به مرور الضاحك ملء شدقيه وآخذه على أنه جهل بأمر جدير بأن يصحح لمدعي علمه. فنحن يا عبد المنعم لم نذهب إلى هناك فتقدم إلينا أنواع من العلم وتمنع عنا أخرى، وإنما الأمر كان كما قلت لك مورداً مباحاً تختار فيه ما تشاء، فتذهب من الأساتذة إلى من تشاء، وتجتنب منهم من تشاء، تتلقى العلم في مدرستك إلى جانب الفرنسي والبولوني والألماني لا يصدك صاد، ولا يمنعك قيد من القيود. ولذلك عدنا لم نسرج ولم نلجم وإن كنا نوشك أن نحس أن هذه السروج واللجم إنما تلزمنا إياها أمتنا العزيزة، بل الصفوة من أبناء هذه الأمة

قد يكون هناك ما أريد أن أقوله، ولكني سأتركه لفرصة أخرى؛ وأني ليسري عني أننا جميعاً في هذا نبني حقاً، ونتلمس هدى، وأحرى بنا أن نتلمس هذا من نور القلوب، وصفو النفس، وخلوص السريرة.

(رأس البر)

نجيب محمد البهبيتي

عراك في غير معترك

للأستاذ محمد متولي

إن هذا الشجار العنيف الذي يؤلف به صديقانا الدكتور بشر فارس والأستاذ زكي طليمات جبهة تتناحر مع جبهة الشاعر المهندس على محمود طه، هو في نظرنا مما ينطبق عليه المثل المصري: (خناقة على اللحاف).

كتب بشر عن ديوان الشاعر، فغضب الشاعر لبنات قلبه وراح ينظر في ماض الدكتور الأديب حتى وقع على مسرحيته (مفرق الطريق) التي أخرجها منذ ثلاثة أعوام وبعض عام. ثم أخذ يكيل له صاعاً بصاع، ويعدد له من السرقات كما عدد هو له من قبل؛ وحينئذ انبرى رجل المسرح الأستاذ طليمات، ليقوم بنصيبه المعلوم، كما قام بأنصبتهم في هذه المعركة غيره كثيرون.

والحق أن بطلينا كليهما شريفان - لم يسرق بشر فارس، ولا سرق علي محمود طه، فحكاية السرقة غير معقولة إذا نحن تأملنا ماهية الفن وعرفناها.

وقبل أن نبين هذه الماهية، يجب أن نخرج من موضوعنا تلك الفلسفات التي يحكونها عن (كانت) و (برجسون) ومن إليهما، لأنها هنا لا لزوم لها. وأغلب الظن أنهم يحكونها تفلسفاً على القراء.

كأنكم فهمتم يا سادتي أن الفن (فكرة) والحق أن الفن (صورة) أولاً وأخيراً.

إن الأفكار من الأشياء المجردة التي تكون هي بعينها في جميع العقول والإفهام. أما الفن فهو (أسلوب) الفنان في (تصوير) عاطفته (الشخصية) بأدواته الخاصة المختلفة باختلاف الفنون السبعة. الفن هو (الإنسان مضافاً إلى الطبيعة) كما يقول الفيلسوف الإنجليزي بيكون وإذن فكيف يأخذ العقاد الكبير عن (كانت) العظيم - مثلاً - ما دمنا نعتبره شاعراً!؟ والدكتور بشر، كيف يمكن أن (يسرق) من أحدهما إذا كنا نعتقده أنه قدم لنا أثراً فنياً صحيحاً في حدوده؟! ثم الشاعر علي محمود طه الذي غنى له عبد الوهاب فأطرب الناس جميعاً، كيف يمكن أن (يشعر) لغيره؟!

أخرجوا السرقة من حساب الفن، لأنها (سيكولوجيا) لا يمكن أن تكون. وإذا أردتم أن تقدروا صورة فنية فاقصروا القول على نصيبها من (الصدق أو (التعبير) أو - في كلمة واحدة - اقصروه على تقدير نصيبها من (الإيحاء).

إن الأستاذ علي محمود طه رجل فنان بلا شك، لأنه قال (الجندول) فكان (كذوباً). إنه يمثل ذلك الفنان الذي يشعر بالشيء ولا يستطيعه فيتغنى به. هو نفسه يعلم أنه لم يركب تلك (الجندول) التي أرانا إياها في عرض القناة في ذلك الجو السحري في (فينسيا)، ويعلم أنه إن كان رأى تلك السمات الشرقية والشعور الذهبية، فهو لم يذق شيئاً منها، ولم يقل لأحد (خذ) ولا أحد قال له (هات).

هكذا نرى شاعرنا واحداً من أصحاب (بولان) الفنانين الكذابين الذين يصفهم في كتابه (كذب الفن) ' وعلى هذا الأساس يمكن أن ننظر في أشعاره إذا أردنا أن ننقده ونبين قيمته كفنان.

أما صاحبنا الدكتور، فبيننا وبينه حساب قد يكون عليه عسيراً، إذا لم ير حبنا وانعطافنا، وبالتالي صدقنا؛ وقد يراه يسيراً، بل ولطيفاً، إذا هو أدرك سعينا للحق الممكن، وكان ممن تهفو فطرهم السليمة إلى جمال هذا الحق، وهو من أولئك فيما يخيل إلينا.

وعلى أي حال، فالطريق الصحيح عندنا هو أن نسأل: ما قيمة مسرحية (مفرق الطريق) من الناحية الفنية؟
إن الدكتور بشر يقدمها إلينا بصورة صادرة عن (نفسه) ويقدم لها، فيذكر أنه عمد في تأليفها إلى أسلوب الرمزيين في الفن، ثم يحاول أن يضمِّن تقديمه تفسيراً لمذهب هؤلاء الرمزيين، فهل بلغ في هذا غاية تستدعي الرضا؟!
لقد ندعي أنه لم يبلغ غاية يمكن الوقوف عندها، بل يبدو لنا أنه أراد أن يفسر الرموز الفنية فطمسها، وأراد أن يطبق ما (تعلمه) منها فجاءت مسرحيته شيئاً مصنوعاً وناقصاً معاً. أنظر يا دكتور؟
ألست تحدثنا في تقديمك عن (استنباط ما وراء الحس من المحسوس وإبراز المضمر وتدوين اللوامع والبواده بإهمال العالم المتناسق المتواضع عليه المختلق اختلاقاً بكد أذهاننا طلباً للعالم الحقيقي. . . عالم الوجدان المشرق)؟! ألست تحدثنا بهذا النزوع الصوفي ناسياً الفرق بين الرمزية الصوفية التي تفيض عن المخيلة والشعور والرمزية ' الفنية التي تعتمد على المخيلة مضافاً إليها عنصر عقلي كما يقول (ريبو) في كتابه أولم تحدثنا يا دكتور بشيء لا شعوري يطويه الإنسان (في المكان القصيّ من سريرته. . . لا يفصّل ولا يعلل ولكنه يعرض خطفاً. فكأن المنشئ يتوجس كيف تجاوب نفسه جرس الأشياء الخارجية من دون أن يتحمل ترتيبها ولا تأويلها فتعدل عن البسط والتبيين إلى إثبات البرق الذي التوى في السحاب. . .) نقول ألم تحدثنا بهذا أيضاً، مع أنه وصف للتخيل الصوفي الذي يؤلف بين الصور الباطنة المبهجة ويستخرج منها رموزاً يستعملها كما هي، بعكس الرمز في الفن الذي يحصل من تحليل الصور والحركات والألوان؟!
ثم ما رأيك في أن (ريبو) يقصد بالرموز في الفن: (أن يفقد بعض الألفاظ استعماله المعقول المعروف ليدل على معنى جديد) بينما أنت تقرر في توطئتك أنه بعيد أن يكون الرمز لوناً من التشبيه أو الكناية إلى غير ذلك؟ ما رأيك في هذا، وعلى الأخص، بعد أن خالفت أنت نفسك، فأشعت الكثير من هذه الرموز في مسرحيتك، كقول سميرة (مثلك يحرق ولا يدفئ) وكقولها (بيني وبين الدفء رائحة حريق)؟!
الحق أنه ليس يلزم أن يعرف الأديب فلسفة الفن لكي ينفحنا آثاراً جميلة، بل نحن لا نعرف من الفنانين من كان يعرف هذه الفلسفة غير قليلين من أمثال (تولستوي)، ولهذا نغفر للأستاذ بشر تلك الكبائر التي ساقها في مقدمة مسرحيته، لأننا لم نعرفه فيلسوفاً وإنما عرفناه أديباً.
وإذن فكيف تجد (مفرق الطريق)؟ ما قيمتها الفنية كقطعة رمزية؟
إن (ريبو) فيلسوفنا نفسه، يقرر أن الرمزية في الفن (تستخف بتمثيل العالم الخارجي تمثيلاً صادقاً. . . فإذا الناس والأشياء تمر دون أن تنطبع بزمان أو مكان، ولكنها تمضي وما ندري أين حصلت ولا متى، فلا هي تمت بصلة لأي بلد، ولا هي تمثل عصراً بذاته. . . وقد تمعن في الإبهام فتقول: هو - أو - هي - أو - أحدهم). هذا ما يقرره (ريبو) فهل هو مستوفي في مسرحية بشر؟
تجري حوادثها في مصر، في أحد شوارعها (أمام صفّ من المنازل (مفرق الطريق) المنخفضة على شكل المنازل التي تصاب الآن في الأحياء القديمة). والمؤلف مع أنه يستغرق في الرمزية بتسمية (الأبله) و (هو) إلا أنه لا يلبث أن يضيع هذا التأثير باستعمال اسم (سميرة)! وما كان عليه لو سماها (هي) رمزاً كصاحبيها وإبهاماً؟
أولئك الهنود مثلاً. . . تأمل كيف صوروا الذكاء العبقري والقوة البارعة في شكل شخص ذي رءوس كثيرة وأذرع وأرجل عديدة؟ وهؤلاء المصريون أيضاً، تأمل كيف جعلوا لأبي الهول رأس إنسان رمزاً للحكمة إلى جسم أسد رمزاً للبطش؟! حتى إذا تخيلت سميرة والأبله و (هو) وجدتهم ناساً يمثلون ألواناً محلية محددة بزمان ومكان!!
وبعد فيا دكتور؟ ألا ترى الآن مسرحيتك (مطبوخة. . . ولكنها غير ناضجة. . .)؟ وهلا ترى أن المعركة كانت على اللحاف في الواقع؟
مهما يكن رأيك، ومهما تكن آراء أصحابنا، فنحن يسرنا أن نلاقي من يشاء منكم بشرط أن يكون كلامنا (موضوعياً)
محمد متولي

ماجستير في الفلسفة
ومفتش شئون التمثيل بوزارة المعارف
على هامش النقد:
بمناسبة ذكرى حافظ
للأستاذ سيد قطب
كان مقدراً أن تنشر هذه الكلمة بمجلة الثقافة، وكنت أعتبر هذا من جانبي مراعاة للياقة، لأن المقال نقد لبعض آراء الأستاذ الكبير أحمد أمين في الأدب، فأولى أن ينشر في مجلته.
ولكن (الثقافة) رأت غير هذا الرأي، فلعلي لا أكون مسئولاً عما في نشر هذه الكلمة هنا من مجانبة المجاملة الواجبة.
سيد قطب
منذ أيام قابلني أحد المتأدبين فبادرني بقوله: (أين قصائدك في الحرب وأهوالها؟) فلم أرد أن أجيب الجواب الجدي على هذا السؤال، واكتفيت أن أقول: إنما يتكلم اليوم المدفع والدبابة، فلا حاجة إلى ألسنة الشعراء!
ومنذ سنوات، وأنا أقرأ في الصحف أو أسمع في المجالس، أن الشعر قد مات بموت شوقي وحافظ، لأن شعراء مصر الحاليين لا ينظمون في أحداث مصر ولا يسجلون مناسباتها الهامة في قصائدهم، ولا ينوبون عن الجماهير في تصوير عواطف الجماهير!
وأذكر أنني لم أحفل كثيراً بما قرأته وسمعته من هذا القبيل لأنه - لحسن الحظ - لم يكن يصدر من أناس لهم صفة الإمامة أو سلطة التوجيه، فلم يكن له من الخطر ما يحفز إلى دفعه أو تصحيح الرأي فيه.
وكنت مطمئناً إلى أن المدرسة الحديثة - وعلى رأسها الناقد الكبير الأستاذ العقاد - قد أفلحت في تصحيح الأفكار عن الشعر والشاعر في خلال ثلاثين عاماً لم تفتر فيها عن بذر بذور جديدة لتقدير الأدب والأدباء.
ولكني استمعت إلى كلمة الأستاذ الكبير أحمد أمين عميد كلية الآداب مساء الأمس في ذكرى المرحوم حافظ بك إبراهيم، فأحسست حقيقة بالخطر. وعلى رغم أنني في هذه الأيام
مريض مرضاً يقتضي الراحة التامة لم أجد أن خطر المضاعفات المرضية أشد من خطر الفكرة التي بدت في ثنايا كلمة الأستاذ، والدعوة الضمنية التي دعاها لشعراء الجيل، فجعلت أكتب هذه الكلمة على عجل!
ليست أمامي نصوص خطبة الأستاذ الكبير، وإنما أنا على ذكر من فحواها بعد السماع، وهي تتمنى فيما أعتقد أن يقوم بيننا من يخلف شوقي وحافظ في تسجيل أحداث مصر والهتاف بما في نفوس جمهورها، وبلورة أحاسيسه وصياغتها. ولم ينس الأستاذ أن يكون من هذه الأحداث التي لو رآها حافظ لقال فيها: توزيع البترول بالبطاقات.
وبدا في كلام الأستاذ ونبرة الأسى على موت حافظ دون أن يخلفه أحد في منزلته هذه، أن هذه المزية تقتضي الأفضلية، وأنها أهم أدوات الشاعر وأفضل اتجاهاته، ولهذا تمنى أن يخلفه في مصر خلف من الشعراء.
وهذه دعوة خطرة. ومنشأ خطرها أن الهاتف بها هو الأستاذ أحمد أمين مؤرخ الأدب وعميد كلية الآداب ورئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر وصاحب مجلة (الثقافة) وهو بهذه الصفات وبماضيه الأدبي وحاضره يملك سلطة التوجيه وله صفة القدوة.
ولا يمنعنا مقام الأستاذ الكبير واحترامنا العميق لشخصه وعلمه، أن نبدي الرأي الذي يقابل رأيه، وأن نرسل بهذا الرأي إلى مجلة الثقافة التي يشرف عليها!
ونحن نقول في جملة واحدة، وفي نفس واحد كذلك: إن هذه دعوة إلى نكسة من نكسات الشعر بعد ما تجاوز مرحلتها في مصر وفي العالم منذ أزمان، ونتمنى على الله ألا خلف شوقي ولا يخلف حافظ - مع احترامنا لذكراهما - خلف من الشعراء في خلة التعبير عن شعور الجماهير وبلورة هذا الشعور، ورصد الشعر للأحداث القومية والعالمية على طريقتهما وطريقة من يقلدونهما في هذا الزمان!
وأحب أن أبادر هنا بالتنبيه إلى أن شخص شوقي وشخص حافظ في ذمة التاريخ وبين يدي الله، أما شعرهما ففي ذمة النقد وبين أيدينا نحن! فليس من العقوق وليس من عدم اللياقة أن نتناول طريقتهما وشعرهما بالنقد، لأننا بحمد الله لا نؤمن بلياقة

العوام! ولا بآداب الصالونات!
وعلى وجود الفرق بين حافظ وشوقي في تسجيلهما للأحداث إذا كان حافظ يسجلها لأنه
واحد من الجماهير التي تحس بها، ولأن شعور الجماهير كان يتبلور في حسه فينطق به. أما شوقي فكان يسجلها تمشياً مع اتجاه الجماهير، وتوخياً لمهاب الرياح، وتيقظاً لما تتطلبه الأحاسيس العامة.
على وجود الفرق بينهما في هذا، وأفضلية حافظ ولا ريب بالقياس إلى بواعث القول في نفسيهما، وإن فضله شوقي في الأداء واتساع الآفاق في هذا المجال - على وجود هذا الفرق فان كليهما كان يمثل شاعر القبيلة على وضع من الأوضاع.
وشاعر القبيلة الهاتف بأحاسيسها العامة، المسجل لأحداثها الهامة، الذي تفزع إليه في الملمات ليقول، وتتطلع إلى شفتيه لتتلقف منهما ما تحس به ولا تطيق التعبير عنه.
هذا الشاعر على عظم فضله، وجلال (منفعته) لأمته ليس هو الشاعر المثالي الذي تتطلع إليه الآداب الرفيعة ويحفل به تاريخ الفنون.
وإنما هو حلقة بين الشاعر البدائي وشاعر الشخصية المستقلة هذا الذي يرى الكون من خلال نفسه الخاصة ويعرضه علينا فنتلقاه كأنه نموذج منفرد لكون جديد، ونعرضه في متحف الفنون مع زملائه؛ فإذا لدينا أكوان جديدة بعداد الفنانين الذين نستعرضهم، لا صوراً متشابهة من أحاسيس الجمهور في فترة من الفترات.
وشاعر الشخصية هذا قد يعرض لأحداث أمة أو لا يعرض، وقد يتلاقى إحساسه مرة مع إحساس الجماهير أو لا يتلاقى أبداً، ولكنه يبقى مع هذا شاعراً أصيلاً للحياة، في شاعريته غرض مقصود، وللفن في ديوانه نموذج من النماذج النفسية المرموقة.
ويبقى في أسوأ حالاته أرفع وأخلد من شاعر القبيلة الذي تلتقي في نفسه وتتبلور أحاسيس الجمهور.
وقد لا ينتفع جيل هذا الشاعر به كما ينتفع بشاعر القبيلة ولكن يجب أن نفهم أن نظرية المنفعة ليست هي المحكمة في أقدار الفنون، وأن الشاعر ليس مطالباً أن (ينفع) جيلاً بذاته من الناس، وشاعر الشخصية لابد نافع ونافع في دائرة أسمى وأوسع وأبعد أثراً من شاعر القبيلة، بما يجلوه من نماذج رفيعة قد لا تطرق أي حدث واضح من الأحداث العامة.
ويجب أن لا ننسى أن شاعراً واحداً من شعراء الشخصية يعلم أمته حب الجمال في أنماطه العالية، إنما يعلمها من معاني الحرية والثورة على الاستعباد أضعاف ما يعلمها شاعر من شعراء القبيلة يناديها كل يوم بتحطيم القيود ورفض الاستعباد.
فالنفس الإنسانية لا تتسامى لحب الجمال الطليق، ولا تحس حقيقة هذا الإحساس الرفيع، ثم يبقى فيها ظل للاستعباد أو صبر على بقاء الأغلال، وهي وشيكة حينئذ أن تخلص من الاستعباد الخارجي ومن مساوئ الحكم والاجتماع الداخلي في آن لأنها تسامت بإحساسها وذوقها وكل عنصر داخلي فيها عن مهاوي الذل والفساد.
وقصارى ما يقال في شوقي أو في حافظ - يرحمهما الله - أنهما شاعران ممتازان بالقياس إلى عصرهما، وأنهما أديا الواجب عليهما في حلقات النهضة الأدبية لأنهما شاعران ممتازان بالقياس إلى الشعر في جميع الأزمان.
وإنك لتجردهما من زمانهما وظروفهما فتجردهما من خير ميزاتهما الفنية؛ وليس كذلك شعراء كالمتنبي وابن الرومي والمعري وإضرابهم في الشرق والغرب، لأن هؤلاء من شعراء الشخصية النموذجية، وهذان من شعراء القبيلة العامة.
وليس أدل عندي من اطراد النهضة الأدبية في مصر - مع قلة الأدلة على هذا مع الأسف - من أن أحداً لم يخلف شوقي ولم يخلف حافظ في طريقتهما، لأننا بهذا توقينا النكسة إلى شعراء القبيلة، وإن لم نرتق إلى شعراء الشخصية إلا في عدد نادر جداً من بين شعراء هذا الجيل.
(حلوان)
سيد قطب
على هامش الحرب
الطابور الخامس في القرآن
المنافقون

مواقفهم من حروب الرسول: في أحد. في الأحزاب. في تبوك. إشاعاتهم السيئة عن جيوش المؤمنين. إمهال النبي لهم عسى الله أن يتوب عليهم. عاقبة المصرين.

وقف المنافقون من حروب النبي موقف المُخذِّل المثبِّط، الجبان الرعديد، الناقض لما عاهد الله عليه، الطامع في المغنم، المقصر عن نصرة الدين. ولقد كان شرهم مستطيراً حقاً. لأن المؤمنين كانوا يركنون إليهم، ويعدونهم من أنصارهم، فإذا الشر أبدى ناجذيه للمؤمنين قعد هؤلاء عن نصرتهم، وشمتوا عند هزيمتهم، وقبضوا أيديهم عن إعانتهم، واعتلوا لذلك بعلل سخيفة مزيفة فَنَصَّ الله على أنها كاذبة، وبين أنهم دعاة الهزيمة، وأنصار العدو، بل زاد على ذلك فاعتبرهم عدواً وقال للرسول فيهم وفي جبنهم (يحسبون كل صيحة عليهم، هم العدو فاحذرهم، قاتلهم الله أنى يؤفكون.)

وأي طابور خامس أشد خطراً من المنافقين الذين أحسن المسلمون عشرتهم، وأتمنوهم على أسرارهم وأخلصوهم الود، واتخذوهم بطانة، وأمنوا جانبهم، ولم يحسبوا حساباً لخيانتهم وغدرهم، ولم يضعوا خطة لتوقي شرورهم، فاستعانوا بذلك على إيذائهم، وإنزال الضر بهم، وطعنهم وقت الحرج والانتقاض عليهم عند المحن والشدائد؟

وفي قصصهم يوم أحد، وفي وقعة الأحزاب وتبوك ما يبرهن على أنهم كانوا أضرَّ على المؤمنين من العدو الخارجي، وأنهم خانوا الله والرسول، ونقضوا الأيمان، رغبة في إبادة المؤمنين، وطمعاً في إزاحة الدين الجديد من بلادهم.

لما انهزم المشركون ببدر فكروا في الثأر من المسلمين، وفي السنة الثالثة للهجرة خرج أبو سفيان في ثلاثة آلاف مقاتل يريد غزو المدينة، فسمع النبي بقدومه، فاستشار أصحابه، فأشار عليه عبد الله بن أبي - وكان رأساً في الأنصار إلا أنه كان يضمر نفاقاً - أن يبقى بالمدينة، وقال له: ما خرجنا على عدو قط إلا أصاب منا وما دخلوا علينا إلا أصبنا منهم. وكان رأي النبي البقاء، لكن قوماً ممن لم يشهدوا بدراً ودُّوا الخروج لينالوا شرفاً مثل شرف الذين شهدوا بدراً. فنزل النبي عند رأيهم ودخل بيته ولبس لامته. فندم هؤلاء على إلحاحهم، وقالوا النبي: إن شئت خرجنا وإن شئت بقينا. فقال: ما كان لنبي لبس لامته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوّه. وخرج جيش المسلمين، وعلى مقربة من أحد أنخذل ابن أبي بثلث الناس ورجع إلى المدينة، وقال: علام نقتل أنفسنا وأولادنا؟ وهمَّ بنو سلمة من الخروج وبنو حارثة من الأوس أن يفشلوا كذلك تقليداً للعمل السيئ الذين قام به ابن أبي، ولكن الله عصمهم وقال فيهم: إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون. والتقى الجمعان بأحد، ودارت الدائرة على قريش أولاً. فلما شغل المؤمنون بجمع الغنائم، وخالف بعض الرماة أمر النبي، وتركوا مكانهم الذي وقفهم فيه، انكشف ظهر المسلمين للعدوّ، وكان على فرسان المشركين خالد بن الوليد، فأتى بفرسانه، وأعمل السيف في رقاب المؤمنين، فاختلط أمرهم، وفر كثير منهم، وثبت النبي وصفوة أصحابه، ونادى في المنهزمين: إلى عباد الله! فعادوا وكشفوا عنه جيش المشركين، ثم تحاجز الفريقان، بعد أن قتل من المسلمين سبعون، منهم سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب.

كان في الجيش قوم من المنافقين لم ينخذلوا مع ابن أبي، فلما رأوا ما حل بالمسلمين ظنوا بالله الظنون، وقالوا: لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتلنا ههنا، قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم. أما الذين لم يشهدوا الحرب، فقد شمتوا بالمؤمنين، وظنوا أن الهزيمة كانت بسبب مخالفة المؤمنين لرأي ابن أبي، وهم الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا، لو أطاعونا ما قتلوا، قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين. ثم بيّن الله أن سبب الهزيمة هو إرادته أن يميز الخبيث من الطيب، وليعلم المؤمنين، وليعلم الذين نافقوا. ونهى الله المؤمنين عن اتخاذهم بطانة، وحذرهم أمرهم فقال: يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم، لا يألونكم خبالاً، ودوا ما عنتُّم، قد بدت البغضاء من أفواههم، وما

تخفي صدورهم أكبر، قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون.

ولما أخرج الرسول يهود بني النضير من المدينة لم تهدأ لهؤلاء ثائرة حتى جمعوا الأحزاب من قريش ومن أطاعها من الأحابيش، ومعهم أسد وغطفان، وساروا إلى المدينة في عشرة آلاف مقاتل يريدون استئصال المؤمنين ودينهم. واستطاع اليهود أن يضموا إلى جانب الأحزاب بني قريظة ويجعلوهم ينقضون عهدهم للنبي، واتقى النبي الأحزاب بالخندق الذي حفره ليحجز الغزاة الفاتحين. أما بنو قريظة فقد حفظ الله المؤمنين من شرهم على الرغم من شدة خطرهم في ذلك الوقت، وأما المنافقون الذين ظنوا أن هزيمة يوم أحد كانت لخروجهم من المدينة إلى عدوهم، فقد قالوا هم والذين في قلوبهم مرض يوم الأحزاب: (ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً) وحاولوا أن يصدوا المدافعين ويضعفوا إيمانهم بالنصر لأن العدو كثير العدد، واعتذروا عن الدفاع، وأستأذن بعضهم النبي في الانسحاب إلى بيوتهم، وفي ذلك يقول الله تعالى: (وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا، ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً، ولو دخلت عليهم من أقطارها، ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيراً. ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار، وكان عهد الله مسئولاً. قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل، وإذا لا تمنعون إلا قليلاً. قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة، ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً. قد يعلم الله المعوِّقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا، ولا يأتون البأس إلا قليلا). أولئك هم المنافقون الجبناء الذين كانوا يحاولون إضعاف جيش المؤمنين، وتثبيط الجند عن الدفاع والاعتذار بأعذار واهية كاذبة. وهم الذين يقول الله فيهم بعد: (فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يُغشى عليه من الموت، فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنةٍ حداد) من أجل طمعهم في الغنائم بما لا يتفق مع جبنهم وقعودهم وتثبيطهم غيرهم (أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً).

وكان هناك المرجفون في المدينة يؤلفون أخبار السوء عن سرايا رسول الله، فيقولون هزموا وقتلوا وجرى عليهم كيت وكيت، فأي خطر أشد من هذا؟ أليس ذلك قتلاً للروح المعنوية وتنفيراً للناس من الجهاد، وقصَّاً للمستضعفين من حول النبي؟ من أجل هذا هددهم

الله وخوفهم، وقال لرسوله الكريم: (لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض، والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً، ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً).

فهل انتهى المنافقون بعد هذا التخويف؟ وهل انتهى الذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة؟ سنرى من موقفهم في تبوك أنهم لم ينتهوا. وإن كثيراً منهم أخلفوا الله ما وعدوه. وزادهم حلم النبي الكريم ومعاملته لهم على حسب ظاهرهم، وإمهال الله لهم، إمعاناً في النفاق، وكيداً لنبيهم ودينه وأصحابه، واستمر ذلك حتى فتحت مكة، ودانت ثقيف وخضعت الجزيرة العربية، ووجه الرسول جهاده إلى خارجها. ففي السنة الثامنة وجه جيشه إلى الروم في الشمال، وأمر على الجيش ثلاثة من كبار الصحابة، وأحس النبي الكريم بأنهم قد يقتلون جميعاً، فلما التقت جيوش الروم بالمسلمين عند (مؤتة) قتل قواده الثلاثة كما عينهم، واختار المسلمون بعدهم خالد بن الوليد فأفلح في الانسحاب، ولم يتبعه الروم داخل الجزيرة خشية أن يكون انسحابه مكيدة حربية يجر بها الروم إلى داخل الصحراء ثم يضربهم.

وفي السنة التاسعة للهجرة أراد النبي أن يجهز جيشاً للثأر من الروم، وإتمام ما بدأه في مؤتة. وكان الوقت الذي اختاره للخروج وقتاً شديد الحر، والمسلمون في عسرة من الظهر، وقد طابت الثمار، والناس يحبون البقاء في ثمارهم وظلالهم، وتجهز الجيش، وساهم الصحابة بما يستطيعون لتجهيزه وخرج النبي بجيشهم وركائبهم قليلة حتى كان يعتقب العشرة منهم على بعير، وزادهم قليل حتى اقتسم الثمرة منهم اثنان. وماؤهم أقل حتى نحروا الإبل وشربوا ما في كرشها. وكان العدو كثير العدد، والشُّقة بينهم وبينه بعيدة، والحاجة شديدة إلى كل مساعدة مهما قلَّت. فماذا فعل المنافقون لنجاحها؟

الله يشهد أنهم عملوا جهدهم لإحباطها سواء منهم من خرج في جيش المؤمنين، ومن

رضي بالقعود والتخلف عن رسول الله؛ أما الذين رضوا بالقعود فقد رغبوا بأنفسهم عن نفس رسول الله واستبعدوا أن يفلح محمد في هذه المغامرة، وتحدثوا بذلك، وأغروا غيرهم بالقعود، وقالوا لا تنفروا في الحر، وأستاذنوه صلى الله عليه وسلم في التخلف معتذرين بأعذار كاذبة، والحق أنهم جبنوا وبخلوا وكان أملهم ضعيفاً في انتصار المسلمين والفوز بالغنائم، وقد بين الله ذلك في قوله: (لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصِداً لاتبعوك ولكن بَعُدت عليهم الشقَّة، وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم. يُهلكون أنفسهم، والله يشهد إنهم لكاذبون) وكان استئذانهم في القعود لارتيابهم وحرصهم على حياتهم وعد اهتمامهم بنصرة دين الله: (ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم) لعلمه بما في نفوسهم من غلّ وما يدبرون من فتن، وما يحدثون من اضطراب وتفريق في جيش المؤمنين) فثبطهم، وقيل اقعدوا مع القاعدين)، ثم بين الله نوع الضرر الذي يصيب المسلمين من خروجهم معهم فقال: (لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة) ولأسرعوا بالوشاية والإفساد بينكم، ومع ذلك فقد خرج قوم منهم يتجسسون لمن قعد وهم الذين عناهم الله بقوله: (وفيكم سمَّاعون لهم).

سار الركب في طريقه إلى تبوك (في منتصف الطريق بين المدينة ودمشق) وفيه بعض المنافقين وصار هؤلاء يسخرون في الطريق من الفكرة التي خرج النبي من أجل تحقيقها، وقال بعضهم لبعض: انظروا إلى هذا الرجل! يريد أن يفتح قصور الشام وحصونها. هيهات هيهات! أليس في هذا القول ما يزلزل قلوب المستضعفين من الجند، ويذهب حرارة الإيمان والثقة بالنصر من قلوب المؤمنين؟ ومتى شاع مثل هذا الضعف، وعدم الثقة في جيش فعليه العفاء. ثم أليس ذلك مصداق قوله تعالى: (لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة)؟

أطلع الله النبي على ما تهامس به أولئك المنافقون الذين خرجوا معه، فقال: احبسوا علي الركب. وأخبرهم بما قالوا، فحلفوا إنهم ما كانوا في شيء من أمره ولا من أمر أصحابه، وأنهم كانوا في شيء مما يخوض فيه الركب ليقصروا على أنفسهم الطريق، وذلك قول الله تعالى: (لئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب، قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون؟ لا تعتذروا، قد كفرتم بعد إيمانكم، إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين).

وقد فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله، ولمزوا الذين تطوعوا من فقراء المؤمنين بما يملكون لقلة ما قدَّموا، فتكفل القرآن بالاستهزاء منهم وألحقهم بالنساء، لأنهم هم الذين وضعوا أنفسهم هذا الوضع، و (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف، وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون).

وكان لابد بعد هذا الإمهال وفتح باب التوبة زمناً طويلاً من أن يكشف الله أمرهم ويهتك سترهم، وأن يعاملهم المؤمنون بما يستحقون؛ فنهى الله النبي عن قبولهم في جيشه مرة ثانية. ونهاه عن الصلاة على من يموت منهم والدعاء له فقال: (فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فأستاذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبداً، ولن تقاتلوا معي عدوَّاً؛ إنكم رضيتم بالقعود أول مرة، فاقعدوا مع الخالفين. ولا تُصل على أحدٍ مات منهم أبداً ولا تُقم على قبره؛ إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون).

ولم يكن النفاق مقصوراً على المدينة وحدها، بل كان من الأعراب منافقون هم أشجع وأسلم وجهينة وغفار، وهم بحكم بيئتهم وغلظة قلوبهم وبعدهم عن متنزل الوحي (أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله). وكان منهم من يتخذ ما ينفق في سبيل الله مغرما، ويتربص بالمؤمنين الدوائر، عليهم دائرة السوء. لم يخرجوا إلى تبوك وجاءوا إلى المدينة ليؤذن لهم، وقعد الذين كذبوا على الله ورسوله، ولكن منهم من اتخذ (ما يُنفق قربات عند الله وصلوات الرسول، ألا إنها قربةٌ لهم سيدخلهم الله في رحمته)

وما ظن القارئ الكريم بالنادي السياسي الذي بناه بنو غنم ابن عوف لخدمة الدين ظاهراً، ومأوى الخارجين على الرسول، والمدبرين للفتن، والمعادين للمسلمين باطناً، ليضروهم ويفرقوا بينهم، وليأوي إليه من حارب الله ورسوله؟ بئس هذا البناء وبئس

بانوه، إنهم ساء ما كانوا يعملون.

أما هذا البناء فهو مسجد الضرار، والذين بنوه هم بنو غنم ابن عوف. يروى أن بني عامر بن عوف لما بنوا مسجد قباء، وهو مسجدٌ أسس على التقوى من أول يوم - بعثوا إلى رسول الله أن يأتيهم فأتاهم فصلى فيه، فحسدهم إخوانهم بنو غنم ابن عوف وقالوا نبني مسجداً ونرسل إلى رسول الله يصلي فيه، ويصلي فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام - وهو الذي قال لرسول الله عليه السلام يوم أحد: (لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلت معهم) فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين - فبنوا مسجداً إلى جانب مسجد قباء. وقالوا للنبي: بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة، ونحن نحب أن تصلي لنا فيه. فقال: (إني على جناح سفر، وإذا قدمنا من تبوك إن شاء الله صلينا فيه). فلما قدم من غزوة تبوك سألوه الصلاة في المسجد،

أو بعبارة حديثة، سألوه أن يفتتح هذا النادي السياسي المستور الغرض ليكون ذلك أستر لغرضهم وأدهى إلى تقوية مركزهم، وأكثر جاذبية للمسلمين، فنزل قوله تعالى فضيحةً لهم، وبياناً لغايتهم الخفية، إنهم اتخذوا هذا المسجد (ضِراراً وكفرا وتفريقاً بين المؤمنين، وأرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل، وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى، والله يشهد إنهم لكاذبون. لا تقم فيه أبداً. لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه). وهذا هو مسجد قباء؛ فأمر النبي أن يهدم المسجد الجديد وأن يتخذ مكانه كُناسة تلقى فيها القمامة. ومات أبو عامر الراهب بالشام، وفسدت الخطة التي دبرها بنو غنم بن عوف (إن الله لا يصلح عمل المفسدين).

وكانت غزوة تبوك حداً فاصلاً بين سياسة المسالمة وسياسة العداوة الصريحة من المسلمين للمنافقين بعد أن هيأ الله لهم الفرصة زمناً طويلاً ليتوبوا، فمنهم من تاب فعفا الله عنه، ومنهم من أصر على كفره، وغضب الله عليه ولعنه، وأعد له جهنم وساءت مصيرا وانتهى عملهم بعد ذلك، واستراح النبي من شرهم وضرهم.

ومن كل ما كتبناه في الموضوع يتبين أن الطابور الخامس في القرآن هم اليهود والمنافقون، وكانت سياستهم ترمي إلى التشكيك في الدين، والطعن في النبي وآله ومحاولة صرف الناس عنه بتجريحه، والأمل في القضاء على دعوته سراً وجهراً بمعاهدته حتى يأمن لهم، ثم نقض هذه العهود وقت الشدة، فكان جزاؤهم ما حل بهم من قتل وتشريد، وما أنزل الله فيهم من طعن وإهانة، وما أعده لهم من عذاب أليم، ثم نصر الله رسوله والذين آمنوا في الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد، وكان حقاً عليه نصر المؤمنين.

عبد الرزاق إبراهيم حميدة

خواطر في الحرب

للأستاذ محمد عرفة

لقد لعب قانونا الترف والخشونة أعظم دور في هذه الحرب. فمن عرف فتك الترف بالشعوب، وتقويم الخشونة للأخلاق، وساعدته ظروفه على التخلص من الترف، والأخذ بالخشونة، كان له النصر على من لم يوفق لذلك.

هذه ألمانيا ألقت سلاحها في سنة 1919، فشرطت عليها شروط، وفرضت عليها مغارم، ظنت في هذه وتلك أنها مجحفة بها، فأرادت أن تدفع هذا الإجحاف، فلم يكن ما يسعفها إلا قانون الخشونة فلجأت إليه وفرضته على الناس فرضاً.

كان كل كسبها موجهاً إلى تعزيز قوتها، لا إلى رفاهية أبنائها، حتى شاعت فيهم هذه الكلمة: المدفع قبل الزبدة، وكان المرء فيهم يعمل ولا يمل العمل. وكان عليه أن يكسب ما يسد منه بعض الغرامة، وما يعول أسرته، وما يكون منه شراء السلاح وإنماء قوة ألمانيا.

ما كان يستطيع أن يأتي بهذه المعجزات إلا قانون التقشف، فبه وفرت المال الذي أوجد هذه الأسلحة التي لا تنفد، ولو سلط على هذا المال الترف لابتلعه. وبه استطاعت أن تصبر في ميادين الحرب المختلفة حتى كان الجندي يمكث أياماً محاربا لا يذوق فيها النوم ولا الراحة.

وهذه فرنسا لم توفق إلى ما وفقت إليه ألمانيا في الاستعداد لهذه الحرب والأخذ بالخشونة فسلمت في أول مراحلها.

وهذه إنجلترا وإن كانت قد تمتعت بثمر انتصارها في الحرب الماضية، وتباطأت لذلك

في الاستعداد عن ألمانيا، ولكنها قد بدأت، ودعت أخلاقها الموروثة التي ولدتها فيها الروح الرياضية المبنية على التقشف، فاستجابت إليها، فلما وقع حمل الحرب على كاهل بريطانيا وحدها لم تنوء به، ووجدت فيها ألمانيا خصماً يساجلها ثباتاً بثبات، ومقاومة بمقاومة.

ولم أسرد ما تقدم للمتعة، ولذة القصص، فما بي لذلك، وإنما بي أن أضع يد قومي على موضع العظة، وأدلهم على موضع العبرة، وأبين لهم الترف، وهدمه للأمم، والخشونة وبناءها للشعوب، فلعلهم تجديهم الموعظة، ويكون منهم الاعتبار.

محمد عرفة

رسالة الشعر

من أدب الحرب

محنة فرنسا

للأستاذ محمود غنيم

رحماكَ ربِّ إلام تصلى نارَها؟ ... فنَى العباد ولم تضع أوزارَها
غابت ملائكة السلام وأصبحت ... تذرو أبالسة الجحيم غبارها
قبضت على سكانها يدُ مارد ... جعل الصبيب من الدماء بحارها
رقطاء حول الكون لفَّتْ جسمَها ... فقضت عليه وما قضت أوطارها
في كل وادٍ ثورة مشبوبة ... لا يطفئ البحرُ الخضم شرارها
حتى كأن الأرض من إعيائها ... سكنت وأخطأت النجوم مدارها
كتب الفناء على البرية ويحهم ... ما بالهم يستعجلون دمارها؟
زمر من الأسماك ناطقة إذا ... ما جاعت ازدرد الكبار صغارها
حرب رأيت الجوع بعض سهامها ... فرضت على المتراشقين حصارها
غدت الجبال الشامخات سفينها ... والزاحفات من الحديد مهارها
الزيت والبترول من آلاتها ... والعلم ينفخ إن خبت أكوارها
قد سيَّرت فوق الثرى دبَّابها ... وإلى الكواكب صعَّدت طيارها
ملأت قذائفها المحيط فعكرت ... زبد البحار وكدرت أغوارها
يا بحرِ ما فعلت مياهك ويحها ... برفات قوم يسكنون قرارها؟
كم لابن آدم في المحيط عجائبا ... قلَّتْ عجائبه الكثيرة جارها
ضجت بنات الماء منه وأوشكت ... تجفو الطيور لأجله أوكارها
يا رُبَّ شعب في حماه وادعٍ ... جرفته لجتها فخاض غمارها
ومحاربين لغيرهم أسلابها ... لكنهم يتحملون خسارها
وذوى عروش طوحت بعروشهم ... وتخطفت من حولها أمصارها
تتطايرِ التيجان عن أربابها ... كالقِدر ترسل في الفضاء بخارها
عبر على مر القرون تشابهت ... حتى أجاد العالم استظهارها
ورواية من عهد ذي القرنين ما ... برح الزمان مردِّداً أدوارها
أو كلما كادت تتم فصولها ... منيت بشيطان يزيح ستارها؟
سائل ضفاف السين كيف استهدفت ... للغزو واقتحم العدا أسوارها؟
خط حسبنا الجن لو طافت به ... ولت أمام حصونه أدبارها
أتُرى فرنسا أطبقت أجفانها ... من خلفه وتجاهلت أخطارها؟
هيهات لا الحصن المنيع أقالها ... كلا ولا الأدب الرفيع أجارها
لا تعدم المرآة كسر زجاجها ... يوماً وإن كان الحديد إطارها
إن المعاقل لا تحصن أهلها ... ما لم تحاكِ طباعُهم أحجارها
قالوا: مهادنة. فقلنا: حبذا ... لو أن هدنتها تقيل عثارها
هيهات ما أرضت بذاك خصومها ... كلا ولا استبقت به أنصارها
ماذا تقول إذا الجدود تعثرت ... وإذا المشيئة أنفذت أقدارها؟
وإذا قضاء الله أحدق بالشرى ... لم تلق آساد الشرى أظفارها
كالوا الملام لها فقلت: تريثوا ... يا قوم والتمسوا لها أعذارها
أو ما كفاها أنها ما سلمت ... حتى روت بدمائها أنهارها؟
إن قيل عار أن تسلم أمة ... نهض الدم المسفوح يغسل عارها
إني لأشفق أن يكون مصيرها ... أزرى بجوهرها وشاب نضارها

ومحا محاسنها فعدن مساوئاً ... وأحال لؤلؤها فصار محارها
من يكبُ لم تعذِره عثرتُه ومن ... ينهضْ تقلدْه الأعادي غارها
والنفس تُعجب بالقوي وإن يكن ... جلادَ تلك النفس أو جزارها
أسألت باريس الجريحةَ ما لها؟ ... سل أهلها هل قوموا منهارها؟
سلها بربك كيف ذل عزيزها ... وتحملت أسد العرين إسارها؟
كيف الغواني والمغاني بعد ما ... طمس المغير بجيشه آثارها؟
بالله هل عاث العدو بأرضها ... وهل استرقَّ ببأسه أحرارها؟
ماذا أصاب مدينة الأزياء هل ... أبلى القتال المستحرُّ إزارها؟
هل أظلمت آرادُها ولطالما ... حسد النهار وشمسه أسحارها؟
وهل المخابئ أصبحت مأوى لمن ... كانت مقاصير المسارح دارها؟
راعت أراملها الحروبُ وخلفت ... في حسرة لا تنقضي أبكارَها
من كل نافرة يدق فؤادها ... لم يتقر الظبي الغرير نفارها
نفرت من الحرب الضروس وربما ... كان النفار من الدلال شعارها
ما للتي ألف المزاهرِ سمعها ... وزئير آلات الوغى وخُوارها؟
حملت هموم الحرب في باريس مَن ... كانت يداها تشكوان سُوارها
كم غبَّرت بدخانها وجهاً إذا ... بصرت به شمس السماء أغارها
سائل عن القبلات أهليها أما ... زالت تحس شفاههم تيارها؟
كيف القلوب الخافقات صبابة ... تفشي مواعيد الدجى أسرارها؟
شهدت خمائلُها مواقع الهوى ... ما حركت من خيفة أطيارها
شتان بين مواقعٍ ومواقعٍ ... كلتاهما تشكو الضلوعُ أوارها
ما كنت يا باريس إلا روضة ... منيت بسائمة رعت أزهارها
أصمى الحضارةَ من رماك فإنما ... قد كان شعبك للبلاد أعارها
وجنت يداه على علوم طالما ... أجريتِ شرعتها وشدتِ جدارها
ما ضرني إن لم أزرها طالباً ... وقد اقتبست ممن زارها؟
باريس أين دمشق أم بغداد هل ... قصَّت عليك رواتها أخبارها؟
المدن مثل الناس في آجالها ... تفنى البلاد إذا قضت أعمارها

محمود غنيم
مدرس بمدرسة فؤاد الأول الثانوية

ذكرى الهمشري
للأستاذ مختار الوكيل

طويتْ بموتكَ صفحةُ الأحلام ... وخبت بفقدكَ شعلة الإلهامِ
لا النهرُ عند الفجرِ يرقصُ عابثاً ... نَزِقا يُسِرُّ خوافتَ الأنغامِ
كلاَّ ولا البدرُ العظيمُ بمسعدٍ ... في الليل مهجةَ حاملِ الآلامِ!
مُنذُ انطلقتَ مع الصباحِ مُسارِعاً ... بجناحِ مشتاقٍ، صريعِ غرامِ
ونَزعتَ قَيدَ الآدميةِ ساخراً ... مع نِيرهِ، ونَأيتَ دونَ سلام
عَلمتَني أنَّ الحياةَ رخيصةٌ ... مادام عُقباها شرابُ حمام!
والمجدَ والآمالَ عُلةُ ظامئٍ ... في البيدِ ما يَحظى بِبلِّ أوام!
قد أجدبَ الروضُ النضيرُ وصَوحتْ ... أزهارُهُ وذَوتْ على الأكمام!
والطيرُ شالتْ عنهُ إلا بومةً ... قَبعتْ هناكَ حليفةَ الإظلام
تُحي الأماسي بالنعيبِ فيالها ... من بومةٍ تشدُو بلحنٍ دام!
قَلَعَلَها تبكَيكَ في غَسقِ الدُجى ... وتصوغُ مرثيةً من الأوْهامِ!
ولعلها تأتي بلحنٍ صادقٍ ... وتَفَي بِدَمعٍ في الخُطُوبِ سِجَامِ
ولرُبَّ لحنٍ عاثرٍ مُتَجهمٍ ... يَذرُ النهى نشوى بِغَيْر مُدام!
لبَقيتَ حتى في خَفِّي سرائري ... وخَلدتَ حتى في نُهى الأيام
فإذا هَجعتُ فأنتَ في أحْلامِي ... وإذا مَشيتُ فأنتَ أنْتَ أمَامِي!
عَجَبي مِنَ الدُّنيَا! أأنْتَ مع البِلَى ... أمْسَيتَ كَوْمةً أعظُمٍ وحُطَام؟
وَيلُمِّها! ما إن جَلتكَ يَتيمَةً ... في الناس حتى عَاجَلتكَ بِجَام
أسَفي لِفَقدِكَ لا يُعادلُهُ سوى ... سُخرِي من الدُّنيا وَمِن آلآمي!
لا تَجْزعنَّ فَعَن قَريبٍ نَلْتَقي ... في عالمِ النِّسيَانِ والأحْلام!

وهناك أُصْغي للقريض تَصُوغه ... في نَسْجكَ الحُرِّ الرفيعِ السامي
ونَقرُّ لا همٌّ هُناكَ يَؤمُّنا ... مِن عَالمِ الوَيْلاتِ والإجْرَام!
مختار الوكيل
رسالة الفن
بالفن إلى الله:
كما قال داود (هاللويا)!
للأستاذ عزيز أحمد فهمي
روح قوية جارفة، وجسم قوي حديد، الروح نزاعة إلى لذتها وسعادتها في أعلى عليين، والجسم نزاع إلى راحته ومتعته في أسفل سافلين، وصاحبهما بهما مسكين، يرتفع وينخفض، و (ينشال) وينحط، ولا يملك أن يستقر، لا في الأرض ولا في السماء، فهو في تخبط دائم ما بين مسمى روحه وما بين مهبط بدنه كأنه مجنون، أو هو مجنون، والفنون جنون. . .
مني على الدنيا السلام
آخر ما غنى في حياته دور (أنا هويت)، وآخر بيت في هذا الدور هو:
ما دمت أنا بهجره ارتضيت ... مني على الدنيا السلام
وراج دور الوداع هذا في الناس، وسمعه أولئك الذين كان يحبهم سيد درويش، ومن بينهم تلك التي ظل يغني لها طول حياته على البعد منها وعلى القرب، فلم يشعر الناس ولم تشعر هي بشيء وراء هذا الكلام، لأنه لم يكن أحد يتوقع الموت السريع لهذا المغني الشاب المملوء صحة والمملوء حياة. . .
إلا هو. . . فقد كان يتوقع الموت وينتظره ويهيئ له نفسه. . . دعا صديقه الأستاذ بديع خيري إلى بيته بعد هذا الدور وقبل وفاته بأيام، وجلس معه في حجرة علقت على أحد جدرانها صورة من صوره، وفيما هما يتحادثان سقطت الصورة المعلقة، فالتفت إليها سيد، ثم التفت إلى صديقه بديع وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، فقال له صديقه بديع: إن هذا حق، ولكن ما الذي أجرى بهذا الحق لسانك، فقال له سيد: ليس لسقوط هذه الصورة معنى إلا أني سأموت. فقال له بديع: إنك مجنون، وكان بديع يقصد بقوله هذا أن ما جال في ذهن سيد ليس إلا وهماً خيله له الجنون، بينما الحق أن الذي جال في ذهن سيد ليس إلا علماً يكشفه الجنون.
آمن سيد بأنه ذاهب، إيمان الجنون، فخف من القاهرة إلى الإسكندرية ليودع ليلاه، وإن كان قد أعلن لنفسه وللناس عزمه على السفر إلى إيطاليا، فهو لم يكن يعرف عن نفسه أنه يعلم الغيب وما كان أحد يعلم الغيب، وإنما هو اضطراب يتلاطم فيه إحساسه بتفكيره، فهو يقول القول أو يعمل العمل منطلقاً وراء شعور كامن في نفسه قد يميزه وقد لا يميزه، فإذا ميزه اطمأن عقله إلى تبريره، وإلا اضطر عقله إلى السعي وراء تبرير ما يطمئن إن حقاً وإن زوراً. . .
بينه وبينها
سيموت وسيسافر إلى إيطاليا. . .
زارها، أو استدعاها، أو التقى بها
- بأي شيء جئت لنا من القاهرة؟ مانجة؟
- لا. . . بل (بأنا هويت)
- سمعته
- وما رأيك؟
- أحسن (أنا عشقت)
- أحسن أو غير أحسن. . . إني انتهيت
- وكيف؟
- سأموت. . . قريباً جداً. وبعدها ستدركين أنك قد خسرت شيئاً كان يجب عليك أن تكرميه عندما كان بين يديك. . . أعوذ بالله منك. . . كل الناس يهتزون ويرتجون لهذه الأغاني التي أذيعها فيهم إلا إياك. . . جامدة كأنك الحجرة، ومع أني أعلم أنك حجرة فإني لا أغني إلا لك أنت وحدك. حقاً هو قضاء الله وقدره، وليس لقضاء الله وقدره رد ولا دافع.
- الكوكايين أفقدك عقلك. . .

- الكوكايين هجرته. . .
- ولكن بعد أن قضى عليك. . .
لم يقض عليّ أحد غيرك. . . إن مت فدمي في يديك، وإنه يتساقط من بين شفتيك. . . لقد شربت منه حتى ارتويت وحتى جفت الحياة فيّ. . .
- مجنون
- ولم أجن إلا بك. . . لو أنك أعطيتني من روحك مثل الذي أخذت من روحي لكنت عشت غير ما عشت، ولكنت غنيت غير ما غنيت. . . ولكن الحمد لله. . . فما في روحك خير، وما كانت مثلك لتلهمني شيئاً. . .
- ولكني ألهمتك
- كلا. . . وإنما ألهمني البعد عنك، والحرمان منك. . . قد كنت أستطيع أن أستبدل بك صنماً، قد كنت أستطيع أن أعشق عوضاً عنك سلحفاة أو ثعباناً. . .
- هل تقول (ثعباناً) يا سيد. . . إنني لم أضرك مع أني كنت أستطيع أن أضرك، وأنت تعرف أني أستطيع أن أضرك يا سيد. . . فهل هذا جزاء الرحمة مني
- إنك لم تكوني تستطيعين لي ضراً، كما أنك لم تكوني تستطيعين لي نفعاً، وربما كنت تستطيعين لي ضراً لو أنك كنت رأيت غيري أحبك. . . ولكن أحداً غيري لم يحبك. . . وإن كان أحد غيري قد أحبك فكما تعرفين الحب عند الناس. . . كلام يقولونه هو التغرير والغش. . . هو الخداع يرمون من ورائه إلى اللهو بك والعبث بجسدك. . . أنت تعرفين هذا، وأنت تعرفين أني وحدي الذي تحدى شرك بخيره، وكذبك بصدقه، وخيانتك بوفائه، ودعارتك بطهره. إن حبي لك كان تكفيراً عما أسأت إلى أهلي ونفسي. سأقف به أمام الله وأقول له يا رب يا من أودعت هذه الأفعى من فنك سحراً غلفته بالموت والسم. . . أنا وحدي من خلقك الذي رأى هذا الحسن وتغنى به. . . فاغفر لي يا رب كل ما ارتكبت من سوء وشر فما هما إلا آثار السم في نفسي.
- يا سيد. . . يا سيد. . . ليست هذه المسرحيات بجائزة عليَّ أنا جازت على الناس طراً. . .
لست (أتمسرح) عليك، وإنما هذه هي روحي. . . هذه هي نفسي. . . ولو لم أكن هكذا طلقاً حياً فيضاً لما استطعت أن أجرف من جرفت من أهل الفن العتاة على رسوخ أقدامهم في الميدان الذي جندلتهم فيه، وعلى ثبوت أشباحهم في الحلبة التي صرعتهم فيها. . . خبريني. . . من منهم استطاع أن يتماسك أمامي. . . من منهم قاومني ولم يفر من طريقي. . . من منهم ارتفع له صوت منذ ارتفع بالغناء صوتي. . . كلهم ذابوا. . . لأنهم هم الذين كانوا يمثلون ويتكلفون ويتصنعون، أما أنا فإن غنيت فإنما أغني من قلبي، وإن تحدثت فإنما أتحدث بروحي. . . أنا الأصل الذي يمثله أولئك وغيرهم. . . وأنت تقولين عني إني أمثل. . . أنا يا هذه سابق جيلي. . . أنا يا هذه ستقدرينني بعد موتي. . . وإني لأشعر بأن الغيب يضمر كاتباً صغيراً سيطرق هذا الدرب الذي طرقته، وسيذوق هذا المر الذي ذقته، وأنه سينصفني منك. . . أنصفه الله من ثعبانه هو أيضاً. . .
- هو؟ من هو؟
- لا أدري!
- مجنون!. . . هل لك في كأس؟
- هات كأساً وكأساً وهات العود. . . وهات شمة إذا كان عندك. . .
- أما قلت إنك هجرته. . .
- والآن بفضل عطفك وحنانك رددته. . .
وجاءت له بالعود، وبالخمر، وبالكوكايين. . . ودعت له أتباعه وأصدقاءه. . . . . وجلست إليه وراح هو يغني. . .
وظل يغني. . . ويغني. . . وليلتها مات!
هاللويا
فأي شيء غنى ليلتئذ. . .
غنى (أنا هويت). . .
ولكن كيف غناها؟. . .

غناها كما كان داود يرتل مزاميره. . . كانت روحه تتقلص من بدنه في كل شهقة وفي
. . .كل زفرة. . . كان ينتفض فزعاً من دنياه إلى بارئه شكاية، وتسبيحاً
كانت نفسه تصغي إلى النداء الآتي من الغيب في خفوت لا تسمعه الأذن وإن
. . .استجابت له الروح
كان يقول لربه: لبيك لبيك يا رب. . . قالها معنى وإحساساً ونغماً وإن لم يفصلها لسانه
. . .لفظاً وحرفاً
لقد بكته
وبعد أن رحل سيد أدركت الظالمة أنها كانت ظالمة، وأخذت تراجع نفسها وتسائلها:
لماذا ظلمته؟ ولماذا حرمته مما كان يطلبه منها على أنها كانت تعطي غيره ممن هم
. . .دونه حلاوة وبهاء وروعة ما كان يسعده بعضه لو أنها أعطته بعضه
وأخيراً أدركت السر.
عرفت أنها كانت تغار منه.
قد كانت هي غانية، وقد احترفت العبث بالنفوس وأتقنت هذا العبث، وقد استهوته أول
ما استهوته بدمعة ذرفتها من عينها عمداً، وشكوى مدبرة باحت له بها قصداً، لما رأته
يتردد على مجلسها مغنياً تتعالى روحه عليها، فما ينظر إليها نظرة الإعجاب المغرضة
المتعجلة التي كان يوجهها إليها الناس جميعاً، وإنما كان يراها كما يرى الإنسان
الإنسان، ويفتح لها نفسه كما يفتح الصديق نفسه لصديقه. . . وقد رأت في نفسه
صورة قديمة لغرام قديم علمت أنه الذي يشغله عنها. . . ورأت هذه الصورة القديمة
. . .أحاطها بإطار من الإخلاص والإجلال اشتهت لنفسها مثلهما
فزحفت إليه. . . ولكنها فشلت معه في كل محاولة حاولتها. . . وأخيراً صرعت هذا
الجبار بالدمع. . . والدمع آخر سلاح تلجأ إليه المرأة، وهي إن لجأت إليه لم تنس فيه
مرارة الذل الذي دفعها إلى حمله. . . فإن أفلحت به في اقتناص فريستها، فالويل
بعدئذ لهذه الفريسة فلن ترضى المرأة منها إلا بدمع ودمع ودمع ودمع. . . ولن تعطي
. . .هي بهذا الدمع شيئاً لأنها تذكر دائماً أنها سبقت وسفكت قبله دمعاً
!هو ثأر
والجبار يحتمله لأنه يذكر دائماً أن الذي صاده ذل، وكل جبار شديد العطف على كل
. . .ملوع بائس
استدرجته إذن بهذا. . . ثم راحت تجمع الناس عليه، فإذا بالناس ينفضون عنها إليه، مع
ما كانت تتفنن في لفت الأنظار أو الأسماع إليها في حضور سيد، فإن الأنظار والأسماع
. . .والأفئدة كانت تنفر منها إليه فقد وجدت فيه غذاء للأرواح ومتعة
. . .وهكذا أصبح الثأر ثأرين
وبعد موته. . . نسبت هي هذين الثأرين، وحز الأسى في نفسها حزاً إذ فقدت الذي
. .آمنت أخيراً بأنه كان خيراً منها ألف مرة وأنه مع هذا كان يحبها كما قال قضاء وقدراً
.
لـ الفاتحة
بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين.)
إياك نعبد وإياك نستعين. إهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم غير
. . .المغضوب عليهم. ولا الضالين. آمين(
آية من فن الله الأسمى. هي خير ما يهدي إلى روح الملهم الذي غنى، فأطرب . . .
وأشجى، وأضحك وأبكى، وسبح بالهدى فناً، نغماً ولحناً، ما أجهده الفن وما أضنى،
وإنما كان وحياً يوحى. تبارك الذي أوحى.
عزيز أحمد فهمي
البريد الأدبي
غذاء العواطف والعقول
نشرت الرسالة كلمة للآنسة فوقية كامل في الاعتراض على ما عقَّبنا به على كلمة
الدكتور مشرّفة بك: (العواطف من القُوى الأساسية في حياة الإنسانية، وهي تحتاج
إلى غذاء كما تحتاج العقول) فقد نهينا القراء عن تصديق هذا الكلام، ودعوناهم إلى
متابعة أخبار الحرب بين الإنجليز والألمان، فأخبار الحرب هي زاد العواطف والعقول
!في هذه الأيام العجاف

والآنسة فوقية كامل تسأل عن معنى ذلك النهي ومدلول هذه الوصية.
وأجيب بأن ذلك متصل بأحاديث مرّت في الرسالة منذ أسابيع في الرد على من يتوهمون أن الحوادث العمومية تصرف الناس عن شواغلهم الخصوصية، ومن تلك الشواغل نوازع القلب والوجدان.
وعلى ذلك يكون الكلام ورد مورد السخرية من الذين لا يرضيهم إلا أن تكون أيام الحرب ملاطم ومناحات، فلا يهفو قلب في إثر قلب، ولا يظمأ روح إلى روح.
وبهذا يُحلّ الإشكال، والسلام!
زكي مبارك
سرقة أدبية قبيحة
لسنوات مضت كتب الأستاذ الجليل خليل جمعة الطوال من مثقفي شرق الأردن بحثاً على صفحات مجلة الشباب التي كان يصدرها الأستاذ محمود عزمي عن (الشاعر الفارسي والفيلسوف الرياضي عمر بن إبراهيم الخيام) - وقد قدم لبحثه (بتوطئة) استعرض فيها تواريخ الآداب العربية تخلص منها إلى (حياته) و (تاريخ ولادته) و (تصانيفه) و (رباعياته ومن قام على ترجمتها) - وختم بحثه بذكر أسانيد البحث ذاكراً أنه استمده من المصنفات الآتية:
1 - موسوعة العلوم البريطانية ج16 ص786 طبعة 14.
2 - فيتز جرالد
3 - نزهة الأرواح للشهرزوري.
4 - تاريخ الحكماء للقفطي.
5 - جامعة التواريخ لرشيد الدين.
6 - '
7 - ديوان عمر الخيام لأحمد صافي النجفي.
8 - ديوان عمر الخيام تعريب أحمد رامي.
ومن العجب العاجب أن هذا البحث الذي عالج فيه كاتبه مصاعب الاطلاع على المصادر السالفة مستنداً كل جملة إلى المصدر الذي استقاها منه يسطو عليه الأستاذ عبد الحميد سامي بيومي كما تنعته مجلة الثقافة فينقله إلى مجلة الثقافة فتنشره له بعددها 86 الصادر في 30 أغسطس سنة 1940 بعنوان عمر بن إبراهيم الخيام حياته وفلسفته!!!. . .
(جرجا)
محمود عساف أبو الشباب
الغناء المصري
سيدي الأستاذ رئيس تحرير الرسالة
بعد التحية- إنني أعتقد أن الأستاذ سيد قطب في مقاله عن الغناء المصري قد ظلم المؤلفين خصوصاً بعد أن نزل إلى ميدان التأليف الغنائي كثير من أقطاب الأدب المصري أمثال شوقي بك والأستاذ رامي وغيرهما. ونظرة واحدة في أغنية (في الليل) من شعر شوقي وفيها البكاء والأنين والنوح والشوق الخ، ترينا أن الذنب في الضعف ليس ذنب المؤلفين. وما يقال عن شوقي بك يقال عن رامي وغيره. وقد أحصيت أكثر من خمسمائة أغنية مصرية قديمة وحديثة ووجدتها إما أنها تحتوي على الضعف الذي ينعيه الأستاذ سيد قطب، أو على إغراء رخيص للميول الجنسية، وقد سبق أن تألفت لجنة من أفاضل الأدباء للعمل على ترقية الأغاني المصرية والسمو بها عن هذا الضعف، وكان من بين أعضائها شاعر اشتهر بميوعة أغانيه التي تنشرها له الصحف الأسبوعية، ولم أجد فيمن ألف من اقترب من شكسبير الذي تعتبر أغاريده المقياس الحي للأغاني ولو أن من القسوة أن نقارن شعراءنا بشكسبير، إلا أن النهوض بالأغاني يجعلنا ننظر النظرة السامية لهذا الشاعر الذي
كان إذا اضطرمت عواطفه لا يلجأ للبكاء والنحيب بل كان يخرج من أزماته النفسية رجلاً كامل الرجولة، مما كتب لأغاريده الخلود
إن العلة إذن ليست في التأليف ولا في التلحين، بل هي تتجه لنفسيتنا الخاصة، فقد حتمت الظروف الطبيعية أن تتجاوب النفس المصرية بعاطفتي الفرح والحزن في آن واحد لمسبب واحد، وتأصلت هذه النفسية فينا من أقدم العصور وورثناها عن أسلافنا

فأصبحنا مثلهم نجد اللذة فيما يحزن كما في أغانينا المريضة، وقد كشفتُ أثناء إقامتي في صعيد مصر عن سر هذه النفسية المعقدة ونشرت ملخصاً عنها في البلاغ يوم 15 مايو سنة 1933 بعنوان: (ندب النساء في مصر وما يعرف عندنا بالعديد)، وقد ذكرت في هذا البحث أن نغمة الصبا محببة إلى قلوبنا لأنها تميل إلى الحزن، وقد أيد الأستاذ الكبير العقاد هذا الرأي بعد ذلك بسنوات في مقال له عن الجهاد عن (أغاني الزفاف والأفراح) وعلى ذلك يجب ألا نلوم التأليف أو التلحين، لأن هذا الضعف عنصر من عناصر طبيعتنا المصرية، وأرجو أن أتمكن قريباً من نشر بحثي الخاص بهذا الموضوع كاملاً.

(كوم حمادة. بحيرة)

كامل يوسف

عضو بالمعهد البريطاني الفلسفي بلندن

المعاني شائعة، ولا تجوز الملكية فيها

تحت هذا العنوان في عدد من الرسالة مضى كتب الأستاذ محمد عبد الغني حسن مقالاً طريفاً ضمنه دفاعاً حاراً عن طائفة الشاعرين والناثرين ضد غارة جماعة الناقدين الذين يعطلون بنقدهم المواهب المتوثبة والاجتهاد المطرد. فعنده أن المعاني شائعة ولا يجوز أن نعد من يهتدي إلى تسجيل معنى قد سجله من سبقه، ناقلاً، أو سارقاً، أو لصاً؛ بل إن المعاني الإنسانية زاخرة تضطرم بها كل نفس، ويجيش بها كل صدر، وليست وقفاً على طائفة دون أخرى. وهذا حق، فما المعاني إلا وليدة مؤثرات تكاد تتشابه في كل الأعصر والأزمان، والناس هم الناس في كل مكان، فلا مبرر إذن لهذه الغارات إلا إذا كانت السرقات بينات. . .

ولكن اقرأ معي هذين البيتين لكبيرين من الشعراء قيلا لغرض واحد ثم انظر ماذا ترى قال المرحوم أحمد شوقي على لسان (أتوبيس) الكاهن في رواية (كيلوبترا) يخاطب غزاة مصر من الرومان:

قسما ما فتحتمو مصر لكن ... قد فتحتم بها لرومة قبرا

وقال الأستاذ حسن القاياتي يخاطب حفدة الرومان الذين يبغون فتح لوبيا:

وما ملكوها غير نزلة ساعة ... وما القبر مملوكا لمن فيه ينزل

ألا ترى معي يا سيدي أن المعنى واحد في البيتين، وأوشك أن أقول إن أحدهما مأخوذ من الثاني؛ فلمن تعطى الأفضلية في الاهتداء إلى هذا المعنى النبيل، أم تقول إن المعاني شائعة ولا يجوز فيها الملكية والاختصاص وكفى؟

محمود المرسي خميس

حول (الجندول)

سمعنا أغنية (الجندول) مرة أخرى مسجلة على اسطوانات بعدما سمعناها على شريط ماركوني، وكنا نود من الأستاذ عبد الوهاب أن يتلافى - في هذه المرة - الأخطاء التي وقعت منه في المرة الأولى، حتى يعيد إلى هذه القصيدة الجميلة ما أضاعه من معانيها الرائعة. فهاهي ذي الأخطاء تعاد علينا ثانياً كما هي (فسُرى الجندول) كما في ديوان الشاعر بضم السين، يقولها (فسَرى) بالفتح، و (ذهبي الشَّعر) بفتح الشين يقولها (الشِّعر) بالكسر، والمعنى كما هو مفهوم الشَّعر لا الشِّعر، (ويوم أن قابلتَه) بفتح التاء يقولها (قابلتُه) بالضم. ونحن هنا نريد أن نسأل الأستاذ عبد الوهاب عن السبب في تكرير هذه الأخطاء مع أنها ظاهرة، وقد أشار إليها كثير من النقاد؟

محمد السيد شوش

غلطة!

أستاذنا (الدكتور مبارك) مولع بتعقب الأخطاء اللغوية التي يقع فيها كبار الأدباء والكتاب؛ حتى إنه تمنى أن تسجل دروس اللغة العربية التي يلقيها المدرسون المختصون على طلاب المدارس الثانوية بواسطة المذياع. . . حتى يتسنى له أن يحاسب هؤلاء المدرسين على ما يقعون فيه من أخطاء محاسبة المفتش المختص. فلعله أن يكفكف من حدته، ويلتمس لهم العذر إذا نحن نبهناه إلى غلطة مكشوفة وقع فيها وهو من هو، أجل، فقد أورد في كلمته المنشورة بالعدد الفائت من (الرسالة) الغراء هذا البيت:

فلا تحسبوا هنداً لها الغدر وحدها ... سجيةَ نفس، كلُّ غانية هندُ
بفتح تاء سجية! ولا شك أن هذا خطأ والصواب ضمها، وسبب ذلك لا يخفى على مثل الدكتور الفاضل.
إبراهيم محمد نجا
استدراك
سقطت من مقال (من عجائب الفهم أيضاً) للأستاذ زكي طليمات، وذلك في العدد 374 صفحة 1389 فيما بين السطرين السابع والثامن من العمود الثاني، الفقرة الآتية:
(والمسرحية لا تنهض بناحيتها الفلسفية فحسب، بل هناك عناصر أخرى تستند إليها وتستمد منها رونقها وبهاءها. وأهم هذه العناصر بلاغة العرض لحوادثها، وجودة الحبك لمشاهدها، وبراعة الحوار، ومبلغ توفيق الكاتب في تقدير المعلوم واستكناه الغامض مما يجول في أقطار النفس البشرية، وذلك عن طريق شخوص مسرحيته. وأعتقد - وأنا رجل مسرح - أن في مسرحية (مفرق الطريق) لبشر فارس شيئاً كثيراً من هذا).
إلى الأستاذ إبراهيم أدهم
كان لوفاة المرحوم شقيقكم الدكتور إسماعيل أدهم وقع شديد في نفوسنا لما له من اليد الطولى على الأدب العربي.
وإني أرجو من الأخ أن يسمح لي أن أسأله عدة أسئلة إظهاراً لما غمض علينا من حياة الفقيد:
أولاً: هل صحيح أن الدكتور إسماعيل أدهم ذهب إلى روسيا ونال درجة الدكتوراه؟ وإذا كان قد مكث في روسيا فكيف أذنت له الحكومة المصرية بدخول الأراضي المصرية؟ وما هي المدة التي مكثها في الأراضي الروسية؟
ثانياً: هل صحيح أن الدكتور أدهم كان ملماً باللغة الألمانية؛ ولقد أخبرني من أثق به أنه أثناء التحقيق معه بصدد كتابه (لماذا أنا ملحد) تبين أن لم يكن يعرف الألمانية بل ولا الروسية أيضاً، وما هي المدة التي قضاها الفقيد في تركيا؟
ثالثاً: هل ألف الفقيد كتاب (لماذا أنا ملحد) أم ترجمه وعن أي لغة ترجمه؟
هذا ونرجو من الأستاذ الفاضل أن يظهر لنا الحقيقة على صفحات الرسالة الغراء
إبراهيم حسنين البريدي
نؤت بالحمل وناء بي
قرأت ما جاء في عددي الرسالة الغراء 371و373 خاصاً بهذا التركيب (نؤت بالحمل وناء بي) وما أثير حوله. ولقد أحسن الأستاذ أبو الفضل السباعي حين ساق الآية الكريمة: (وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة) سنداً قوياً يدعم به رأيه في أرجحية التعبير بالشطر الثاني من التركيب (ناء بي الحمل) ومؤيداً بذلك رأي الأستاذ علي الطنطاوي.
وقد رأيت خدمة للعربية أن أورد بعد التقري والجهد ما ذكره (المبرد) خاصاً بهذا التركيب وأمثاله. قال رحمه الله معلقاً على معنى في بيت الفرزدق:
وأطلس عسال وما كان صاحباً ... رفعت لناري موهناً فأتاني
هكذا الرواية. قال: (رفعت لناري من (المقلوب)، وإنما المراد رفعت له ناري والكلام إذا لم يدخله لبس جاز القلب للاختصار. قال الله عز وجل: (وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة). ومن كلام العرب: إن فلانة لتنوء بها عجيزتها. والمعنى لتنوء بعجيزتها.
وقد سبق إلى هذا القلب كثير من شعراء العرب. أنشد أبو عبيدة للأخطل:
مثل القنافذ هدّاجون قد بلغت ... نجرانُ أو بلغت سوآتِهم هجرُ
فجعل الفعل للبلدتين على السعة. وأنشد الفرزدق:
غداةَ أحلَّت لابن أصرمَ طعنةً ... حصين عبيطات السدائف والخمر
بنصب طعنة ورفع عبيطات والخمر على ما وصفنا من القلب، غير أن الكسائي أنشده عكس ما أسلفنا، فرفع طعنة ونصب عبيطات رائياً بعدم القلب
وعليه فالرواية بكلا الشطرين صحيحة في محض العربية.
محمود مصطفى بدوي

الكتب
على هامش التاريخ المصري
لمؤلفه الأستاذ عبد القادر حمزة باشا
للأستاذ عباس محمود العقاد
إذا حكم القارئ على هذا الكتاب من عنوانه ظلمه كما ظلمه مؤلفه الكبير بهذه التسمية.
لأنه يتوهمه شذرات عرضية تعوم حول حواشي التاريخ المصري القديم، ولا تنفذ إلى صميمه أو تخلص إلى متنه، وهو على نقيض ذلك أحرى أن يسمى (من عناصر التاريخ) أو من أسسه، لأنه يلخص الأغراض التي من أجلها يدرس تاريخنا في أدواره المختلفة، ولا يمنع ذلك أن الكتاب لم يسلسل الأدوار من بدايتها المجهولة إلى نهايتها المعروفة، ولم يفصل تراجم الملوك والأسر ملكاً بعد ملك وأسرة بعد أسرة. فهذه كلها أرقام وأقسام، والعبرة بما وراء تلك الأرقام والأقسام
وفي الكتاب فصول عن نشأة الحضارة المصرية وعلاقة الكلدان واليونان بها، وعقائد المصريين في الآلهة والحساب بعد الموت، وما نسميه اليوم البروتوكول أو الآداب السلطانية عند الملوك الأقدمين، ومقتبسات هومير والأدباء الإغريق من الأساطير الفرعونية، وبحث عن التقويم المصري وعن المعارك الحامية التي نشبت بين رجال العلم ورجال الكنيسة في القرن الثامن عشر من جراء الكشوف والآثار التي دلت على قدم وجود الإنسان في وادي النيل وسبقه للأزمان المقررة في عرف رجال الكنيسة ومفسري التوراة بما سنح لهم من وجوه التفسير؛ وكل بحث من هذه البحوث شاف في موضوعه مغن عن مراجعة الأسفار الكثيرة نافذة إلى اللباب المختار.
وللكتاب مزيتان قيمتان بين كتب التاريخ: إحداهما أسلوب رائق بلغ من صفائه وإحكامه وسلاسته أنه يمتع القارئ بالأدب إلى جانب المعرفة التاريخية، وأنه يرسل النضرة في أوراق البردي اليابسة فإذا هو مخضوضر رفاف
والمزية الثانية أن الطريقة التي تناول بها الكاتب القدير موضوعاته طريقة موحية تفتح أمام الفكر أبواب التأمل والنظر ولا تقصره على ما يراه أمامه ماثلاً في الكلمات والسطور.
كنت أقرأ فصله عن الخلاف بين رجال العلم ورجال الكنيسة على تاريخ نشأة الإنسان فتحضرني أمثال هذه الخلافات وأسأل هل يعادي هؤلاء الناس العلم أو يعادون الدين وهم يزعمون أنهم نصراؤه والغيورون عليه؟ ففي الحقيقة هم يضيرون الأديان عامة ولا يضيرون العلوم أقل ضير، فلو صدق الناس ما كان رجال الدين يفرضون عليهم تصديقه لشك الناس فيما يفرض عليهم ولم يشكوا في الحقائق العلمية التي لا تقبل الجدل ولا تصبر عليه إلا إلى حين.
وكنت أقرأ تارةً في هذا الفصل وتارةً في ذاك شيئاً عن عادات المصريين في تسجيل المحفوظات أو في التحنيط أو في تدوين المعارف والملاحظات أو في إحصاء السنين والأزمان، فيوحي إليّ ذلك كله معنى جديداً من معاني الفوارق العجيبة بين ثقافة المصريين وثقافة الإغريق
فهاهنا حاسة تاريخية تثبت في النقوش مظاهر الحياة لأنها تثبت كل شيء للحفظ والتذكار والبقاء
وهاهنا حاسة علمية تثبت المظاهر لتنظمها في سلسلة المعارف والمشاهدات الملحوظة
وما سر هذا الفارق بين الثقافتين؟ هل سره امتياز في عقول اليونان أو عجز في عقول المصريين كما يحب الأوربيون أن يقولوا أو كما قالوا في دراسة الحضارات والأجناس؟
كلا. . . بل سره أن المصريين أصحاب تاريخ وولع بالتخليد راجع إلى قدم الكهانة وسيطرتها على المعارف والأفكار، وأن الإغريق لم يشعروا بضرورة التخليد ولا بأعباء الكهانة الموروثة فالتفتوا إلى مظاهر الحياة للعلم، ولم يذهبوا بها مذهب الحفظ والتقديس. ويؤيد هذا أن الأوربيين غلبت فيهم صبغة الكهانة على صبغة المعرفة حين استقر للكهانة بينهم تاريخ طويل.
وتقرأ الكلام عن معاملة الأسرى أو عن عروس النيل أو عن دساتير الحكم فإذا أنت

مسترسل مع إيحاء الخواطر إلى حوادث هذه الأيام، وإذا بالزمن الدابر قد دبت في عيدانه اليابسة نضرة الحياة.

مجلدان آخران من قبيل هذا المجلد الأول كفيلان بنقل الزمن القديم في مصر إلى عالم الحياة الحاضرة، فقد كفانا من التاريخ ما يخرجنا من الحياة الحاضرة إلى الزمن القديم.

عباس محمود العقاد

من الأدب الفرنسي

قصائد وأقاصيص

لصاحب الرسالة

بقلم الأستاذ (عابر سبيل)

تفضل المحرر الأدبي بجريدة الدستور فكتب هذه الكلمة الكريمة:

لم يكد ينقطع الحديث بعد عن كتاب (وحي الرسالة) الذي قدمه لقراء العربية الأديب الكبير الأستاذ أحمد حسن الزيات، حتى طلع علينا قلمه الزاخر بفيض جديد من أدبه الرفيع في كتابه الجديد (من الأدب الفرنسي)، وهو مجموعة من فرائد الأدب الفرنسي لأمراء الشعر والنثر في فرنسا الخالدة: (لامرتين، وهوجو، وشاتوبريان، وجي دي موباسان). نقلها الأستاذ من مكانها في قمة الأدب الفرنسي إلى نظيره في قمة الأدب العربي، بأسلوب عربي لا حاجة به إلى التقريظ والإشادة، ولا حاجة لصاحبه إلى كلمة ثناء بعد إذ شهدت كل آثاره الأدبية موضوعة ومعربة، منذ أن عرب (آلام فرتر) إلى اليوم، بأنه يختص في عالم البيان بطريقة لا يشركه فيها كاتب، وطابع لا أثر فيه للتكلف والاجتهاد، وإنما هو طبع أدبي مستوعب لأسرار البلاغة العربية، وذوق موهوب في صياغة الجملة العربية من نثار لفظي متخير بحيث لا تند كلمة في المعنى عن أختها، ولا ينحرف جرسها عن الموسيقى المنسابة في سائر الجمل والتراكيب، وبحيث لا يصدم سمعك نبو في الجرس، ولا يرهق لسانك جسوء في المخرج، ولا يتعب يدك بحث في القاموس عن معنى نافر غريب لكلمة وحشية جافية. وتتضافر كل هذه القوى البيانية لإبراز معنى من المعاني يتلبس بها جميعاً تلبس العطر النافج لأكمام الزهرة الندية، من أية ناحية تلمستها يدهك منها العبير المشبوب. ومعاني (الزيات) في أغلب موضوعاته ومترجماته تهدف دائماً إلى نور الحق والخير، وجمال الحب والرحمة، وسحر الآلام الإنسانية الرفيعة التي تتموج بها قلوب الشعراء والعشاق والبائسين من بني الأرض. ومن يقرأ طرفاً من شجن (رفائيل) وحيرة (فرتر) في معرباته لهاتين القصتين العالميتين، ويجري وراء قلم الزيات في فصوله المتعاقبة منذ أنشأ (الرسالة) وأشرف على تحريرها إلى اليوم يدرك مدى هذه الحقيقة في أدبه سواء في ذلك الموضوع والمعرب. ويكفي أيضاً لإدراكها أن تطالع فصول الكاتب الجديد وتقف على عظمة اتجاه المعرب في اختيار الموضوعات الإنسانية الرائعة التي عالجها الشعراء والكتاب الفرنسيون الذين عرب لهم؛ فالذي يطالع منها قصيدة (الشاعر المحتضر) للامرتين يتمنى من أعماق روحه أن لو كان هو ذلك الشاعر الفاني الذي يودع الدنيا وعلى قيثاره آخر نغم من أنغام الحب والجمال، وعلى قمة عظة السخرية الهائلة بالمجد الذي يفنى العالم جيلاً بعد جيل في سبيله، وما هو إلا لفظة جوفاء مجرودة من كل هذه المعاني الزائفة التي خلعها عليه الإنسان. وقصيدة (المستقبل التي وجهها فيكتور هوجو إلى نابليون عقيب اندحاره في (واترلو) حافلة بأخلد المعاني الإنسانية التي تتفجر بها قلوب الأحرار من الشعراء حيال الطغيان البشري الذي يجره المغترون بالبطولة والعنفوان، المتحكمون في رقاب العالم إشباعاً لشهواتهم وأنانيتهم. . . إلى آخر ما في هذه النفحة الجديدة التي يشاء القدر أن تطلع على الناس في وقت نرى فيه فرنسا مهد الشعر والفن والجمال والحرية أصبحت ميداناً لأكبر صراع في تاريخ البشرية بين الحرية والاستعباد، وفي لحظة يعتكر فيها ضباب الطغيان على أعظم منار في العصر الحديث للفنون والحضارة.

فلا أقل من أن تؤول ظهور هذا القبس الأدبي في ظلام المحن تحية صامتة لفرنسا وصوتاً جديداً يذكر الشرق بفضلها على الأدب الإنساني كله وعلى الأدب العربي بوجه خاص. . . نسأل الله هداية كتابنا إلى مثل هذا المجهود الأدبي العظيم الذي يضم به

الزيات يداً جديدة من أياديه الخالدة على الثقافة المصرية والأدب العربي الحديث.
(عابر سبيل)
القصص
القديس لا يحار
للأستاذ يحيى حقي
تحلل القديس من قيود الوطن والأهل والأصدقاء ورحل يبلِّغ رسالته للناس، يبين لهم باطل الدنيا ودنس المال، ويدعوهم إلى اللحاق به في هجرته إلى الله وحده، لا يملك شيئاً ولا يستقر بمكان.
وسار وراءه نفر من أتباعه. رجال جاوزوا سن الثورة والاستهتار، خشنوا الجلد والملبس، إذا نزلوا بلداً سهل إيواؤهم وإطعامهم. . . وتشييعهم؛ ولو لم يتبعوه لظلوا أمام بيوتهم يصطلون الشمس طول النهار. ولكن من هذا الشاب الجميل الذي يسير في مؤخرة الموكب مديد القامة عليه سمة النبل، متئد الخطوة كأنه متبوع لا تابع. ما أصفى بياض يديه ورخوصة أنامله، يشد بها حافتي مسوحه فكأنها مشبك من الأحجار الكريمة. . . من يكون؟ ولماذا يسير مطرق الرأس؟
إنه النبيل (ع)، الابن الأصغر لسيد مقاطعة نائية، تربى في كنف العز وعاشر السعداء ولم تقع عينه على بؤس. ولما مات الأب، وورث الابن الأكبر لقبه وضياعه، دعا أخاه المدلّل وقال له:
- لا أطيق أن أصبح مميزاً عنك فأنفرد بالخير كله، ومقامك في قلب أبي الكريم كان فوق مقامي، فإن شئت عشنا سوياً لك مالي، وإن شئت اقتسمنا التركة بالتساوي.
فأطرق النبيل (ع) برأسه، ولم يجب؛ ثم غادر القصر واعتكف في كوخ صغير أياماً طويلة خرج بعدها يعلن لمن حوله أن هاتفاً هتف به بين اليقظة والمنام يدعوه أن التحق بالقديس. فلما ترامى الخبر للناس عدّوها كبرى معجزاته، وأكبروا في النبيل نزوله عن الغنى الواسع والعز العريض، واختياره التكفف وسؤال الناس كسرة الخبز في سبيل الله.
طارت شهرة النبيل بين الناس وتزاحموا حول الموكب لا ليروا القديس، فهم لا يجهلونه، بل ليتطلعوا إلى النبيل الوسيم كيف يبدو في ثياب الراهب. ينصرف الرجال عن الموكب وهم أرضى نفساً وأهنأ بطعامهم وشرابهم. أما الأمهات والجدات فكن يسبحن لله الذي سبقت إرادته فاختار هذا الوليد لحياة كلها حرمان وقسوة وما كان أجدر شبابه بالتمتع
واللعب. أما الفتيات فكن إذا رأين يده الناعمة الرخصة فوق المسوح الخشن، وتطلعن إلى وجه الشاب الذي أصبح مناله صعباً بل حراماً، شعرن بقشعريرة تسري في أجسادهن وركعن على الأرض يتمتمن بصلاتهن، ولكن أحداً لم يفلح في أن يرى عينيه. . . لماذا هو مطرق، ولماذا يسير في مؤخرة الموكب ولو شاء لكان في أول الصفوف؟ ليس بينه وبين القديس إلا خطوة واحدة
وفي يوم مر القديس وحاشيته على قصر منيف، فسأل عن صاحبه فقيل له إنه لثري عظيم لا هم له إلا اكتناز المال ولم يسمع عنه في يوم أنه أحسن بدرهم. فعدل القديس عن مواصلة سيره ودخل القصر ليهدم منه للشيطان معقلاً ويظفر بتخليص أرواح ساكنيه. فوجد الثري جالساً أمام مائدته تتكدس عليها الأطباق والأقداح، عن يمينه زوجه، وعن يساره ابنته، وأمامه أولاده، ومن حواليه أتباع وحشم يتطلعون لشفتيه لعلهما تنبسان بأمر
امتلأت الردهة بالأصوات، ولكن الضجة لم تمنع النبيل - ولعل إطراقه ساعده على إجادة السمع - من أن ينتبه لضحكة رقيقة تحاول صاحبتها كتمانها فلا تقوى. . . هل مبعثها سرور أو دهشة؟ أم هي سخرية؟ رفع رأسه فوجد ابنة الثري تتطلع إليه بعيون ندية كلها أضواء. . . ورأى كيف تحتال حتى جاء مقعده إلى جوارها.
وتفجر القديس يلوم، وكأن روحه ترمي بالشرر، ثم يعظ، فكأن قلبه يفيض بالغيث المنهمر، وسحرت بلاغته الحاضرين فتقاربت الوجوه وتشابهت السحن فما يُميز بين السادة والخدم.
واختلت الفتاة بالنبيل وجرى بينهما حديث خافت:
- لو أنك مررت علينا من قبل لخطت لك هذا المسوح على قدّك فإنني أشفق عليك

وأنت تتعثر في أذياله، وتتيه ذراعاك في أكمامه، فقل لي بالله عليك كيف تحتمله؟
- لا يكربك الأمر؛ فلست دالفاً إلى مرقص، بل ساعياً إلى رب ينظر إلى القلوب لا إلى الأثواب.
- ويلي إذن! لقد كنت أظن الرقص عبادة؛ فما رقصت مرة إلا شعرت أنني أقرب إلى الله مني في أوقات الفراغ والسأم.
وهنا وجد الشاب نفسه أسير نظرة فاحصة ماكرة، هازئة كلها عطف وفهم، فيها بريق عين النهم وهو جائع مقبل على أشهى أطعمة.
جرحه نفوذ النظرة إلى قلبه فانقبض، ولكنه استراح لعلمه أنه لو شاء لكان سلطانه على الفتاة أقوى من سلطانها عليه.
فأجابها قاصداً هدايتها كأنه لم يغضب ولم يبال:
- وما بعد الرقص؟ ألا تفكرين أن كل هذا سراب. وأن هناك موسيقى غير موسيقاكم. اللهم إن كلي آذن لسماع أناشيد التماسيح بحمدك، الصاعدة من الكون، المدوية في الفضاء، فأسألك اللهم أن تجعل من قسمتي سماعها!
- إن الله قد أغدق نعماءه على الكون ولم يحرم منها إنساناً له قلب وبصر، فذهابك الآن تقرع باب الله دليل على أنك عشت إلى اليوم غافلاً عن جماله. وهذا ماضٍ سيقعد لك في مستقبلك وإن جاهدت. خذها عني: إن الله لا يحب من عباده السائل اللحوح اللجوج، ولا من يستعين للوصول إليه بمسبحة طولها أمتار. . .
ثم مالت الفتاة على أذنه تقول:
- هلّم اعترف أنك فهمت أنني أعلم لماذا ارتديت المسوح. أنت طموح، مبدؤك إما الكل وإما العدم. تركت الثروة لأنها نصف. والدنيا لأن كل لذة لك فيها تنقضي، فإذا هي تقصر عن حد تتخيله. وتسير في مؤخرة الصفوف لأنك لست على رأسها. ولو وقفت بين يدي الله لسألته: ما وراءك؟ فتواضعك هو الكبرياء. وزهدك هو غاية الطموح. إنني أعلم أنك نشأت يتيم الأم، ولو عاشت لوجدت في عطفها ما يرطب قلبك، وما أشبهه الآن بصخرة في أعلى الجبل. . . ومع ذلك لم يُفقد الأمل فيك. لقد اخترتك لنفسي، فابق، أنظر إلي، وتمتع بجمالي. ستعلمك قوة حبي كيف تؤمن أولاً بإنسانيتك ليصح إيمانك بعدها بالله. إن لأبي جماعة من مهرة الموسيقيين إذا وقعوا على آلاتهم أرقصوا الجماد، سأجعلهم يعزفون إذا أذن رئيسكم ولا أظنه يرفض وإلا لما كان قديساً - فماذا عليك لو خلعت المسوح وارتديت أبهى الأثواب؛ فقمت إليّ وانحنيت أمامي وتناولت يدي ودار ذراعك حول وسطي وضممتني إلى صدرك، ورقصنا فتمثّلت النغمة في حركاتنا، ثم انفلت عنك وأنا أخبر بك وأنت أدرى بي. . . وسترى أنه لا يزال هناك أمل.
انهد كل شيء من حوله. لو أنه أطاع وسواسه لهوت يده عليها يشدها من شعرها، ويجرها على الأرض. ولداسها بقدميه أو لمال عليها يغمرها بقبلاته. ولكنه خطا خطوة ليس عنها
نكوص. ولو نكث لما صدقه من بعد ذلك أحد، ولا صدق هو نفسه. ولقد بقي في أذنه من كلام الفتاة لفظ (الأمل). إنه سيظل حيث هو، جاهداً في طريقه متحملاً ما لا تقوى على تحمله الجبال، آملاً أنه في النهاية سيرى بارقة الرضا في وجه ربه الكريم. . . ولكن الآن! الآن! الحياة كلها أمامه في متناول يده. آلاف الأصوات في تناديه: أقبل! اشرب! إنني عطشى.
وكان القديس لا يزال يعظ، ورويداً رويداً طأطأت الرؤوس على الصدور، وتصاعدت الآهات، وانفجرت الدموع، وركع الجميع أمام القديس، يلثم رداءه من لم يستطع الوصول إلى يديه المرفوعتين نحو السماء.
وترك الثري مائدته ووقف يقول للقديس بصوت يغالبه البكاء:
- أسلمت قيادي إليك. فأنا منذ اليوم من أتباعك، سأترك القصر وما فيه من متاع وما حوله من ضياع، سأترك مخازني، بعتيق شرابها، والحقل بعجيج دوابه سأتبعك كظلك، ولن أكون وحدي، بل سيتبعني أيضاً كل هؤلاء: زوجي وأبنائي وزوجاتهم وبناتي وأزواجهن والأصهار وأبناء العمومة والخؤولة وكل من انتسب إليّ من خدم وحشم وأتباع. أرنا الطريق ونحن في أثرك.
لم يحر القديس جواباً، لم يتعقد جبينه، فهو وضاء منير. ولم يزم شفتيه؛ فابتسامته

الجميلة هي هي، ولكنه غائب عن الجمع، نظرته تائهة، لعله يستمع إلى وحي خفي يقول:
- لو تبعوك لخرب القصر وبارت الأرض ونفقت الدواب ومن أين لك إطعامهم وإيواؤهم وإيجاد عمل لهذا الجيش العرمرم. هل سيتكففون الناس مثلك؟
لم ينقص إيمان القديس ذرة، ولم يهتز لحظة، فكيف يكون قديساً إذا بدت له المسائل كما تبدو لبقية الناس متناقضة مضطربة، مضحكة مبكية، لهؤلاء القديسين نظرة تشمل الكون وتفهم الأسرار، فما يبدو عجيباً هو ذات الحكمة، وما يبدو متناقضاً هو عين الاتساق.
قال القديس بصوت كأنه يخرج من كهف عميق:
- يا بنيّ! أحمد الله أن هداك أنت ومن معك للحق. . . على يديّ! إن الطريق الذي تريد أن تسلكه وعر، لا يقوى عليه إلا القديسون أمثالي. فامكث مكانك وأقبل على عملك، واسكن إلى زوجك، وداعب أولادك وبناتك، وأشرف على شؤون خدمك وحشمك، وحقولك وضياعك، وتمتع بأكلك وشربك، على أن تعدني أن تفعل الخير وتذكر الله. تمثله لنفسك في كل لحظة حتى تعلم أن كل ما حولك زائل وأنك ملاق ربك فمحاسبك حساباً لا يضيع فيه مثقال ذرة من خير أو شر.
بدا الوجوم على وجه النبيل وكأنه لم يفهم شيئاً. فاستمر القديس يقول:
- لا تحزن. إنك ستمكث في القصر - في نظرك - ولكنك ستكون مع ذلك من أتباعي. ما قيمة التمسك بالذيل واقتفاء الخطوة، في حين أن الروح متبلد والذهن غائب؟ ستتبعني بروحك. بإيمانك. . . ولك عليّ أنني لن أنساك في يوم. فلن يغيب عنك ندائي بل سأحمل شخصك في قرار قلبي. سأنشئ لك ولأمثالك طريقة خاصة بكم تلتحقون بها فتربطني وإياكم.
وعادت الردهة إلى هرجها ومرجها ودبت فيها روح البهجة ودارت الأطباق والأكواب، وسكن الثري إلى زوجه وداعب أولاده وبناته، ونادى كلبه الأمين فأقعى تحت قدميه.
والتفت النبيل (ع) فوجد الفتاة عن يمينه، والقديس يهم بالانصراف عن يساره. . . ولكن هاتفاً هتف به فإذا هو يتمتم لنفسه:
- نعم! لا تيأس من رحمة الله.
فجمع أطراف مسوحه، وجرى إلى الجمع واتخذ مكانه بينهم، لا في آخر الصفوف هذه المرة، بل وراء القديس كأنه يلوذ به. وتحرك الجمع يرددون وراء القديس قوله:
اتركوا الباطل الزائل واتبعوني!
ووقفت الفتاة صامتة برهة، ثم همست تقول:
- يا له من غر مسكين لم يفهم الوحي. لما نادته رحمة الله أن ابق، فإذا به يولي عنها وينصرف.
ثم ضربت الأرض بقدمها وصفقت تقول:
- رقص! موسيقى!
يحيى حقي
العدد 377 - بتاريخ: 23 - 09 - 1940
القدوة والإصلاح
للأستاذ عباس محمود العقاد
رويت في عدد مضى من (الرسالة) كلمة الفلاح الكبير صاحب الأفدنة الكثيرة في (حمالة الجورب) التي عابها على بعض المعلمين الإلزاميين وقال إنه لم يسمع بها إلا من هؤلاء المعلمين.
وقد كتب أديب في (الرسالة) يعقب على تلك الكلمة، ويرى أنه كان الأجدر بكاتب هذه السطور (ألا يسوق إلينا فكرة صاحب الأفدنة التي ترمي إلى إصلاح المعلم الإلزامي، لأنه إذا سئل عن العيب الذي يراه لا يجد ما يقوله سوى أنه يعلم النشء التبطل والحذلقة، وكيفية وضع (حمالة الجورب)، وإحسان رباط الرقبة، وهلم جرا. . .)
وجاءتني رسائل شتى في هذا الصدد ينظر بعض كاتبيها إلى ملاحظة الوجيه الريفي نظرة الفكاهة والسهولة، ويشتد بعضهم في الإنحاء عليها كأنها خطر على التعليم وعندي أن المعلم الإلزامي هو آخر من يحق له أن يكتم أمثال هذه الملاحظات أو

يطلب كتمانها، لأن التعليم الإلزامي في اعتقادي مشتق من اللزوم قبل أن يشتق من الإلزام، فلا يضيره أن ينكره كبير أو صغير حنقاً على حمالة الجورب أو حمالة الحطب!. . . ولا يفهم من اختلاف الآراء في برامجه ومواده وأساليبه أن الخلاف على أصوله وأساسه، وإنما هو في نهاية الأمر خلاف على الفروع والتفصيلات

هذا سبب من الأسباب التي تأبى على المعلم الإلزامي خاصة أن يكتم ملاحظة تساق في معرض الرأي أو في معرض الفكاهة عن هذا التعليم

وسبب آخر أن المعلم الإلزامي مطالب قبل غيره باستطلاع (الحالة العقلية) أو الحالات العقلية التي تتصل بمعيشة الفلاح وأبناء الريف، وهو أحرى أن يستطلع ما يخصه ويخص عمله من تلك الحالات العقلية التي يتصدى لها في تعليمه، قبل أن يتصدى لتعليم الحروف والأرقام وسائر الدروس.

قيل فيما قيل عن التعليم الإلزامي وأشرنا إليه في مقالنا السابق: (أليس الأجدى على الفلاح أن تطعمه وترفه عنه بهذه الأموال التي تنفقها على تعليمه إلزاماً وهو مفتقر إلى الطعام النافع والماء النظيف؟)

وكان من رأينا في ذلك أنك إذا أعطيت الفلاح ماء نظيفاً وهو جاهل صدف عنه وعافه وآثر عليه الماء العكر لأنه ماء (دسم) يروي الأصلاب كما يروي التراب.

وقلنا (إنك إذا أنشأت فلاحاً سليم الذوق مرهف الحس مفتوح العقل مستجيب السليقة، فسيجري وراءك لتعطيه الماء النظيف والغذاء الجيد والأدوية النافعة والنصائح القويمة، ولا يجشمك كما يجشمك اليوم أن تعدو وراءه لتقصيه عن موارد الماء العكر (بدسمه وخيره) وتدنيه من مساقي الماء المرشح وموائد الغذاء المفيد).

ومقطع الرأي في كل إصلاح اجتماعي - كما أحسب - أن القدوة فيه خير أنواع التعليم.

ولكن ممن تأتي القدوة في الريف؟

بعض إخواننا المعنيين بالإصلاح يخيل إليهم أن إقامة الوجهاء الريفيين في قراهم وسيلة ناجعة لتعميم القدوة الحسنة في المعيشة، وتعويد الفلاح الصغير أن يحيا في كوخه حياة الفلاح الكبير في القصور.

وهذا حق لو كان الفلاح الكبير قدوة صالحة في جميع الأحوال، أو لو كان الوجيه في قريته مثلاً يحتذى في نظام المعيشة ومناهج السلوك

لكننا نعلم أن الأمر لا يستقيم على هذا التقدير

ونعلم أن كل فلاح كبير يصلح للقدوة ويتخذ مثالاً حسناً للسلوك فإلى جانبه عشرة يضلون من يقتدي بهم ويأبون أن يتمثل بهم المتمثلون من الفقراء والضعفاء فيما هو من مظاهر (الوجاهة) واليسار

قال لي أحد هؤلاء الوجهاء مرة: لقد فسد الزمان وتغير الناس!

قلت: ولم؟

قال: إنك لا تعرف الآن ابن فلان العظيم من ابن فلان الصعلوك، ولا تميز الفتاة التي يملك أبوها ألف فدان من الفتاة التي يعمل أبوها في دكان أو يعمل في ديوان بين صغار الموظفين الموقوتين. . . هذه تلبس كما تلبس تلك، وهذا يتأنق كما يتأنق ذاك، و (البركة) في التقسيط لا بارك الله فيه

قلت: وما يضيرك من ذاك؟ إن كان فيه ضرر فعلى جيب اللابس لا على جيبك، وإن لم يكن فيه ضرر فهو جمال ونظافة ورواج للقصارين والخائطين

فتأفف وأبى أن يقتنع، وظل يقول: إن الأصول أصول، والمقامات (محفوظة) لا ينبغي أن تزول أو تحول.

وسمعنا آخرين من الوجهاء لا يبالون أن يجهروا في غير خجل ولا حرج قائلين: من يخدمنا إذا لبس الفلاح الطربوش أو اغتر بما حصّل في المدرسة الإلزامية من دروس الكتابة والحساب؟ وإذا خدمنا هذا (الأفندي) الجديد فكم يطلب أجراً على الخدمة التي كان يؤديها وهو حاف قانع باللبدة والجلباب الأزرق راض بالخبز القفار

هؤلاء الأغبياء لا يعقلون ما ينفعهم وما يضرهم ولا يدرون عاقبة هذا التفكير الأثيم.

والأنكأ من هذا أن الفلاح الفقير قد يحجم عن الاقتداء بنظافة الأغنياء إذا كانوا من النظفاء، كما يحجم عن شراء السيارة والاستمتاع بالطعام الفاخر واللباس الأنيق.

فتمتنع القدوة من ثم لاعتقاد الغني والفقير معاً أن النظافة والمعيشة الصالحة حق لصاحب المال كحقه في ركوب السيارة الخاصة والإيواء إلى الدار القوراء.

وتقول له كن نظيفاً كفلان بك أو فلان باشا فيستكبر هذا الكلام منك ويقول لك في جد الواثق من صوابه وسداد رأيه: وأين أنا من هذا وذاك؟ ولو استرسل قليلاً لزعم أن النظافة منه أفتيات على حقوق الموسرين وخروج على الأدب الحميد!. . .

نعود إذن فنسأل: ممن تأتي القدوة الصالحة إذا علمنا كما أسلفنا أن القدوة (الشخصية) خير وسائل التعليم في الإصلاح الاجتماعي؟

تأتي من بعض الأغنياء الرحماء العارفين حين يقيمون في الريف إقامة يتصل فيها العطف والود الكريم بينهم وبين الفقراء.

وكم عدد هؤلاء الأغنياء الرحماء العارفين!؟

قليل ولا ريب، والرجاء في ارتقاء معيشة الفلاح الصغير أقرب من الرجاء في زيادة هؤلاء

فأفضل القدوة وأنفعها على هذا ما جاء من قبل المتعلمين الذين يشبهون الفلاح في نشأته فيعمد إلى التشبه بهم غير متحرج ولا معتقد في نفسه أنه يعدو طوره ويخرج من أفقه.

وهنا يأتي دور المعلم الإلزامي في الإصلاح، فيجمع بين الإصلاح بالتعليم والإصلاح بالقدوة السائغة في رأي الفلاح، ويروح في القرية وهو معلم الأبناء والآباء على السواء كن أيها المعلم الإلزامي قدوة لمن حولك، وكن على حال ينظر إليها الفلاح فيحب أن يتشبه بها ويرى بعينه دلائل الخير في محاكاتها، ثم يأنس إلى نصحك بعد ما أنس إلى عملك، فيسمع منك القول ويحمد منك العمل. فأنت بما تهديه وتلقي في روعه مصلح جيل لا تفلح في إصلاحه المدرسة وحدها، ولا الكلام الذي يجري به اللسان أو تنطوي عليه الأوراق.

عباس محمود العقاد

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

شاعر ينبغ فوق سرير المرض - الملك الشبل - وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها - لا خوف من المستقبل مع صحة العزائم والقلوب

شاعر ينبغ فوق سرير المرض

مضت سبعة أعوام والأستاذ صالح جودت يحقد عليّ أبشع الحقد لسكوتي عن التنويه بمواهبه الشعرية، وما هدّأ نار الحقد في صدره إلا عرفانه بأني لا أخصه بذلك السكوت وإنما هو مبدأ ارتضيته ودرجت عليه، وذلك المبدأ هو الضن المطلق بتشجيع الناشئين، لأني أعتقد أن كل شيء يجوز فيه التشجيع إلا الأدب والبيان، فالتشجيع هنا مفسدة ولا يقع إلا من (الجماعة) الذين يحتاجون إلى أسندة من الهتاف والتصفيق، والتحدث عنهم بحق وبغير حق في الأندية والقهوات والجرائد والمجلات.

وهذا المبدأ هو الذي فرض على جمهور من شباب هذا الجيل أن ينفضوا من حولي، فما يهمهم أن يذكروني بالجميل في مجلة أو جريدة، لأنهم لا يذكرون أني طوقت أعناقهم بشيء من التشجيع، وأنا غير آسف على ما فاتني من ذلك الحظ الجزيل!

ولو أني استبحت التفريط في الحرص على هذا المبدأ مرة واحدة لاستبحته في معاملة الأستاذ صالح جودت، وهو صديق لا أذكر أنه قصّر في حفظ العهد إلا باتهامي بالسكوت عن التنويه بمواهبه الشعرية، وهو اتهام مردود، لأني لا أذكر أن أشعاره نقلت قلبي من مكان إلى مكان حتى أجشّم نفسي مشقة الدرس لشعره البليغ!

كان صالح جودت يتقاضاني الكلام عن شعره في كل لقاء، وكنت أجيب بأن ذلك سيكون يوم يظفر بدرجة من درجات الجامعة المصرية، لأني أخشى إن شجعته أن ينصرف عن الدرس وينقطع لقرض الشعر ومراسلة الجرائد والمجلات. فلما سمع صالح نصيحتي وظفر بالدرجة المنشودة جاء يذكرني بما كنت وعدت، فهل وفيت بما وعدت؟

حملني الزهد في اجتلاب المودّات على وصل السكوت بالسكوت، كما كنت صنعت في معاملة صاحب (الجندول)

ثم شاءت الأيام أن أسمع أن صالحاً وقذه المرض فلم يعد بهجة الأندية الأدبية، ولم يبق رجاء في التحدث إليه إلا بعد استئذان الطبيب

فإن كنتم سمعتم أن الشعراء وصفوا الدنيا بالخيانة والغدر والعقوق فاعرفوا أن ذلك لم يحق على الدنيا إلا لبغيها الأثيم على مثل هذا الشاعر، وله قلب أطيب وأطهر من قطرات الندى فوق أزهار الربيع

ومرّت ثوانٍ ودقائق وساعات وأيام وليالٍ وأسابيع وأشهر ولم يخرج صالح من سجن المرض، فما أطول شقائي بمحنتك القاسية، أيها الصديق العزيز!

وعلى حين غفلة أسمع أن الفتى الذي لم يُرضني شعره قد نبغ فجأة فوق سرير المرض، فهو الذي يقول في تصوير ما بقي من أوطار هواه في دنياه:

فليرحم الله آمالي وأهوائي ... إني قنعت بهذا المخدَع النائي
بقية العمر أيامٌ تدبُّ على ... صدرٍ تهدَّم إلا بعض أشلاء
أعيشها ناسكاً في ركن صومعةٍ ... قامت على صخرةٍ كالموت صمّاء
يبدو خيال الأماني لي فأطرده ... حتى كأن الأماني بعض أعدائي

ثم يصف عُزلة المستشفى وأحوال ساكنيه فيقول:

أوّاه من عُزلةٍ كالسجن مغلقةٍ ... على جراحٍ وآلام وأرزاء
ما هذه الجُثث الملقاة في سُرُر ... أنصاف موتى على أنصاف أحياء
صُفر الوجوه كأن السقم عفَّرهم ... بحفنةٍ من تراب القبر صفراء
للآه فيهم تراتيلٌ منغَّمةٌ ... تنسابُ من قَصَبات نصف خرساء
وما لهم من نهار فيه مرحمةٌ ... ولا لهم ليلةٌ ليست بليلاء

ثم يلتفت إلى الممرضة الحسناء - ومن تقاليد المستشفيات أن تكون الممرضات صِباح الوجوه إلى حدّ الفتون ليغرسن بذور الأمل والحياة في صدور المكروبين - يتلفت إلى الممرضة فيقول:

مَن يا ممرَّضتي الحسناء قدَّر لي ... أن ألتقيك بأرضٍ غير حسناء
ماذا أتى بي هنا؟ ما خَطْبُ عافيتي؟ ... وكيف غال شبابيَ غائل الداء
قد كان لي موعدٌ في الصيف مرتقبٌ ... على الشواطئ بين (الرمل) والماء
فما لذا الصيف يمضي بي على جبل ... جَهنّميِّ اللظى في جوف صحراء
وأنتِ. . . هل عطفك المبقي على رمقي ... عطف المحبين أم عطف الأطباء
إن كان ذاك فيا سعدي ويا فرحي ... أو كان هذا فإني في الأذلاء
الحب يشهد أني يا ممرِّضتي ... ما صدَّني عنك إلا فرط إعيائي

أما بعد فهذه الشاعرية ليست صحوة الموت، يا صالح، وإنما هي الفجر الصادق، وسترجع إلينا بعد أيام وأنت في غاية من عافية البدن والروح.

لم أسأل عنك في علتك، يا صالح، لأني شغلت بك عنك، ولو سألت قلبك لشهد بأن عطفي عليك وأنا بعيد كان أرفق من عطف طبيبك وهو قريب، وأصدق الحديث حديث القلوب.

سترجع إلينا يا صالح، بعد أيام، وسنعيد سهراتنا في أندية القاهرة، وسأسمع لجاجتك في العتاب، وسأقول إن البلبل لا يجيد السجع إلا وهو سجين، لأني عرفتُ شاعراً لم يُجد الشعر إلا وهو عليل.

الملك الشبل

لم أسمع أن جلالة الملك فيصل الثاني يوصف إلا بعبارة (الملك الطّفل) وهي عبارة جافية، فأرجو من الشعراء والكتاب أن يصفوه بعبارة (الملك الشبل) فهي بمقامه أنسب وأليق.

وأذكر بهذه المناسبة أن صاحب المعالي الدكتور محمد حسين هيكل باشا تلطف فدعاني إلى مكتبه ليقدّم إليّ (وسام الرافدين) المهدي إلي من حكومة العراق وقد وثب قلبي من الفرح والانشراح لقيمة الهدية ولقيمة من أتلقى من يده الهدية، فليس من الميسور في كل وقت أن تكون وزارة المعارف إلى أديب في مثل منزلة الدكتور هيكل باشا، الرجل الذي أفنى شبابه وعافيته في خدمة الدراسات الأدبية والتاريخية، والذي يُعدّ قلبه مثالاً في الطيبة والصفاء.

وقد نظرت في الوسام فرأيته متوّجاً بكلمة (فيصل الأول) فأهلاً وسهلاً ومرحباً بوسام يُحلّى باسم ملك هو الفيصل بين عهدين من عهود العراق: عهد العجمة وعهد الإفصاح، فقد كان فيصل الأول بمذاهبه ومسالكه هو التعبير الصحيح لعواطف العراق في التشوف إلى رجعة المجد العربي في أيام المنصور والرشيد.

ومع أن مكاره الأيام ومتاعب النضال لم تُبق في صدري بقية من التأهب للجذل والانشراح فقد سرني أن تشهد جريدة (الوقائع العراقية) بأني ذُكرت بالخير في (إرادة ملكية) يمضيها صاحب السمو الأمير عبد الإله ومعالي السيد صادق البصام وفخامة السيد رشيد عالي الكيلاني، جعلنا الله ممن يرعون العهد ويحفظون الجميل. . . وإذا حييتم بتحية.

تفضل الزميل الكريم الأستاذ أبو بكر إبراهيم المفتش بوزارة المعارف فأعدّ كلمة لمجلة الرسالة في رد التحية الجميلة التي وجهتها جريدة الهدف البغدادية إلى مصر بإصدار عدد خاص عن أديب مصري كان له نصيب في خدمة الحياة الأدبية في العراق. ولم يكن بدّ من تلطف هذا الزميل الكريم بردّ هذه التحية الكريمة، فليس في مقدوري أن أرد تحية جريدة الهدف، فذلك امتحان لا أتقدم إليه وأنا طائع، لأني أشعر بالعجز عن وفاء هذا الدين النفيس.

في ذلك العدد الخاص تحدث الأساتذة عبد الحميد حسن الغزالي، وحميد مجيد الهلالي، وعبد المجيد لطفي، وعبد المحسن القصاب، وعبد السلام حلمي، وعبد الله محمد الطائي، وعبد الرحمن البناء، وروبين عوبديا، وصالح البدري، وعبد الرزاق الهلالي. تحدث هؤلاء الأماجد عن صديق العراق زكي مبارك حديثاً هو البرهان الساطع على أن الوداد لا يضيع عند أحرار الرجال.

وقد ذكرت كثيراً في الأسباب التي جعلت لي هذا الحظ المرموق في العراق؛ ثم رأيت أن الأسباب كلها تنتهي إلى سبب واحد: هو الصدق. فما تحدثت عن العراق بالجميل إلا وأنا صادق ولا ذكرته بالملام إلا وأنا صادق.

وكيف لا أصدق في حب وطن كاد ينسيني وطني؟

ولو عبّرت عن نفسي تعبيراً صحيحاً لقلت إني لم أستطع أن أتوهم أن مصر والعراق وطنان مختلفان، وما صح عندي أبداً أني كنت غريب الدار في بغداد. . . وكما كان الشريف الرضي يهدد خصومه في العراق بأن له في مصر أصدقاء يستنجد بهم حين يشاء، فأنا أشعر بأن لي في العراق أصدقاء أستنصر بهم حين أشاء، والله سبحانه هو المفزع لأبرار القلوب.

وفي اللحظة التي أكتب فيها هذه الكلمة يستعد فريق من الأساتذة المصريين للتوجه لخدمة العلم والأدب في العراق، فأرجو أن يذكروا جميعاً هذه الكلمة الصادقة: (كما تكون للعراقيين يكونون لك)

فمن أراد أن يظفر بحب أهل العراق فليصدق في حب أهل العراق، وليعرف جيداً أن العلانية قليلة الأهمية، فالمعوّل عليه هو صدق القلوب، فقد كنتُ على جانب من جفاء الطبع حين كنت هناك فما ضرني ذلك بشيء لأن قلبي كان مأهول الجوانب بالصدق في حب أولئك الرجال الصادقين في الحب والبغض، وهم برغم قالة الحجاج أبعد الناس عن الرياء.

ما أذكر أني كلفت نفسي ما لا تطيق في التودد إلى العراقيين وإنما أرسلت نفسي على سجيتها، وعشت في بغداد كما كنت أعيش في القاهرة وفي باريس، وكنت أصادق وأعادي كما أصادق في بلدي وأعادي، فكانت العاقبة ما عرف إخواني في مصر من تواتر العطف عليّ من جميع أهل العراق. والصدق في النصح يستوجب النص على الحقيقة الآتية:

لم أفكر وأنا في العراق إلا في شيء واحد: هو أن أؤدي واجبي تأدية صحيحة لا يؤخذ عليها تقصير أو تفريط، وكنت أشعر في كل لحظة أني مسئول أمام حكومتين: حكومة القاهرة وحكومة بغداد، وأن التهاون في تأدية الواجب يضيّع على مصر مزية عظيمة، هي الثقة بكفاية أبنائها وقدرتهم على النهوض بما ينتدبون له من خدمة العلم والأدب في البلاد العربية.

ويجب أن أسجل أن إخواني العراقيين قد أعانوني على تحقيق هذا الغرض الشريف، فهم الذين خلطوني بأنفسهم، ودعوني إلى الاشتراك في أنديتهم الأدبية والعلمية، وحضوني على المشاركة في توجيه الرأي العام بالمقالات والمحاضرات، حتى استطعت في أشهر معدودات أن أدوّن ألوفاً من الصفحات لم يظهر منها غير ستة مجلدات.

وأعترف بأني كنت أشعر بالغيرة تحزّ في صدري من أربعة رجال سبقوني إلى كسب

ثقة أهل العراق، وهم الأساتذة: محمد عبد العزيز سعيد وأحمد حسن الزيات وعبد الرزاق السنهوري وعبد الوهاب عزام، فكان من همي أن أزاحم أولئك الرجال مزاحمة جدية تجعل لي مقام صدق في بلاد الرافدين، وقد وصلت بحُسن النية وبرعاية الله إلى تحقيق ما أردت
بلا مشقة ولا عناء.

وأواجه الأمر بصراحة فأقول: إننا لم نصنع شيئاً يزيد على وضع الأساس للمودة الصحيحة بين مصر والعراق، فلست أنتظر من الأستاذة الذين يخلفوننا هنالك أن يحفظوا ما صنعناه؛ فذلك مطلب سهل المنال، وإنما أرجو أن يمضوا في رفع قواعد البناء بحيث لا تمر أعوام طوال قبل أن يصبح من القضايا المقررة أن لفظة الغربة لم يبق لها مدلول في ذهن عراقي يعيش في مصر، أو في ذهن مصري يعيش في العراق.

ولكن ما جزاء من ينتفع بهذا النصح؟ جزاؤه هو الشعور بأنه رجل نافع، والاطمئنان إلى أنه على جانب من قوة الأخلاق، فليس من القليل أن يستطيع الرجل كسب الثقة بوطنه في بلد مثل الحجاز أو فلسطين أو سورية أو لبنان، والثقة لا تنال في أمثال هذه البلاد إلا بالصدق في الوطنية والصدق في الجهاد.

وقد اتفق لي في بعض الأحايين أن أناوش فريقاً من السوريين واللبنانيين فما ضرني ذلك بشيء، لأن من ناوشتهم يعرفون في ضمائر قلوبهم أني سليم القلب، وأني لا أريد إلا جذبهم إلى الانضمام إلى القافلة العربية بلا تلفت إلى دسائس من يهمهم تقسيم الأقطار العربية إلى دويلات يذوق بعضها بأس بعض بلا موجب معقول.

ومن حسن الحظ أن تكون البلاد الشامية في طريق من يسافر من العراق إلى مصر، أو من مصر إلى العراق، فتلك فرصة ذهبية لتوكيد المودة بين الأقطار العربية، وبها نستطيع وأد الدسائس التي تحاك في أحلاك الليالي لتمزيق شمل العرب والمسلمين.

وقد شاءت الظروف أن ترى اليمن والمغرب من البلاد البعيدة لقلة رغبتنا في الهجرة والارتحال، فمتى يجيء اليوم الذي تقهرنا فيه المبادئ على التضحية بالأنفس والأموال في سبيل التعرف إلى الأقطار العربية؟

المصري لا ينتقل من وطنه إلا وهو موظف مطمئن إلى أنه سيجد وظيفته حين يرجع، فمتى يُخلق المصري المجاهد الذي يستهين بجميع المنافع في سبيل المبدأ والعقيدة والرأي؟

كنت أتمنى أن أكون ذلك المصري المنشود، ولكن ماذا أصنع وحولي (أكباد تمشي على الأرض) وليس في شريعة الوطنية أو الدين ما يسمح بهجر تلك الأكباد؟

أنا مقيد بقيود من حرير هي أقسى وأعنف من قيود الحديد، فإن تلطّف الله وقبل أن يكون
الجهاد بالقلم مما تنصب له الموازين فلن يكون ذلك أول نعمة يسديها رجل لم يُشرّق أو يغرّب إلا وهو متوكل عليه توكل الواثق بأن الأمر كله إليه وأن له حكمة عالية تجعل الشر على بشاعته لوناً من الخير المستطاب.

لا خوف من المستقبل مع صحة العزائم والقلوب

لم يبق ريب في أن الشرق مقبل على قلقلة تاريخية بسبب عدوان أهل الغرب بعضهم على بعض. وقد شاءت المقادير أن يتأثر الشرق بمصير الغرب لأسباب لا تخفى على اللبيب، وربما جاز القول بأن العالم كله قد ربط برباط وثيق يفرض على من في أقاصي بحر الهند أن يتأثر بما يقع لمن في أقاصي بحر الشمال، فليس من المستغرب أن يرتج الشرق للمجازر التي تقع بين الإنجليز والألمان.

فما واجبنا نحن إزاء هذه الظروف؟ واجبنا أن نذكر أن مبادئنا في تحرير الشرق لن ينالها تعديل ولا تبديل. واجبنا أن نذكر أن جهادنا في سبيل الحرية جهاد قديم، وأننا تسلمنا راية الكفاح من الآباء والأجداد. واجبنا أن نذكر أن الغرب الذي صنع ما صنع لم يفلح فيما تطاول إليه من وأد اللغة العربية والعقيدة الإسلامية.

واجبنا، واجبنا، واجبنا.

ذلك الواجب لا يحتاج إلى تعريف جديد، فهو مسطور الملامح في كل قلب، وله جذور في كل نفس، وله سلطان على كل ضمير، ولا خوف من غياهب المستقبل إذا صحت العزائم والقلوب.

فليقلقل التاريخ كيف شاءت الظروف، وليكن ما يكون بين الإنجليز والألمان، فنحن نحن، والعاقبة للصابرين في ميدان الجهاد. وسيعلم المعتدون على الشرق كيف تنهزم قوتهم المادية أمام قوته الروحية في أمد أقرب مما يظنون.

زكي مبارك

أخلاق القرآن - 2

العدل

للدكتور عبد الوهاب عزام

بينت قبلاً أن القرآن يريد بتعليمه الأخلاقي تحرير الإنسان من أهوائه وشهواته، وتزويد عقله بالمعرفة، ودفعه إلى العمل في معترك الحياة لخيره وخير الناس؛ ووعدت أن أتحدث عن أمهات الأخلاق في القرآن، فاليوم أبدأ الحديث بالعدل:

العدل القرآني هو العدل المطلق الشامل الذي لا يختلف بين زمان وزمان، ومكان ومكان، وأمة وأمة؛ والذي تستوي فيه نفس الإنسان وغيره، ويستوي فيه القريب والبعيد، والصديق والعدو، ويستوي فيه الرضا والغضب، والحب والبغض، والنفع والضرر. هو أن يعطي الإنسان كل ذي حق حقه في كل حين وفي كل أرض، وعلى كل حال. يقضي على نفسه بالحق ويقضي لغيره بالحق، ويعطي من يكره بالحق، ويحرم من يحب بالحق، ويعمل العمل فيه ضره إيثاراً للعدل، ويكف عن العمل فيه نفعه إيثاراً للعدل. هو أن يعترف بإحسان غيره ولا يبخس الناس أشياءهم، ويعترف بإساءته، ولا يحب أن يحمد بما لم يفعل وأن ينقاد لرأي غيره حين يتبين له أن الحق، ويسرع الرجوع عن رأيه حين يعرف فيه الباطل.

العدل القرآني أن يصرّف الإنسان أمور نفسه وأمور الناس على قانون لا عوج فيه ولا زيغ ولا استثناء ولا ظلم ولا محاباة، أن يسيّر أعماله على قانون إلهي لا تبديل فيه ولا تحويل، كالقوانين التي تسيّر الشمس والقمر والنجوم والرياح، وتصرّف العالم كله كما يشاء الله.

يقول القرآن الكريم: (والسماء رفعها ووضع الميزان، ألا تطغوا في الميزان، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان، والأرض وضعها للأنام)، أليس في هذه الآية الكريمة إشارة إلى أن العدل الذي يأمر الله به هو قانون من قوانين الله بثّه في خليقته. فهو قد رفع السماء ووضع الميزان في خليقته، كل شيء مقدّر بقدره، وكل شيء محدود بحدوده، كما قال في آية أخرى: (والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون). وكذلك أمر الله الناس أن تكون أعمالهم في هذه الأرض على هذه الشاكلة لتستقيم أمورهم وتعتدل معايشهم، فليس عدل الله أمراً يسيراً تتصرف فيه الأهواء، وتتلاعب به الشهوات والعصبيات. ليس عدل الله أمراً مما يباع باليسير من متاع الحياة الدنيا، ويهجر للحقير من أهواء النفوس، ولكنه نظام في العالم وفي الاجتماع البشري لا يستقيم شيء فيهما بدونه كما جاء في الحديث الشريف: بالعدل قامت السموات والأرض.

وآية أخرى من القرآن تجعل العدل أول صفات الله التي يقوم بها على خلقه: (شهد الله أنه لا إله إلا هو، والملائكة وأولوا العلم، قائماً بالقسط، لا إله إلا هو العزيز الحكيم). فقد شهد الله وشهد أولوا العلم من عباده أنه تفرد بالألوهية قائماً بالعدل في خلقه.

وآية أخرى تبين أن الله أوحى للناس علمه وشرائعه مع العدل، ليقوموا بالعدل في معايشهم وهو الغاية التي من أجلها أنزلت الشرائع. استمع هذه الآية الكريمة: (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط).

وأخرى من الآيات تبين أن أوامر الله وأحكامه قائمة بالصدق والعدل لا تتحول عنهما: (وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته).

يبين القرآن أن الله جعل العدل نظاماً للعالم، وقياماً للخلق، وأمر به في كثير من آياته، وحث المؤمنين على أن يكون ديدنهم القيام بالعدل بين الناس، والشهادة لله على الناس بالعدل، وأن ينزهوا العدل عن الهوى فلا يميلهم عنه حب ولا كره. قال في سورة النساء: (يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا.

وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً.) وقال في سورة المائدة:
(يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا. اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون)
أمر في الآية الأولى أن يقوموا بالعدل ويشهدوا به الله. ولا يميلوا عنه لمحبة النفس أو الوالدين أو الأقربين. وأمر في الآية الأخرى ألا يميلوا عن العدل مع من يبغضونهم فقال (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا) يعني لا يحملكم بغض قوم على أن تعاملوهم بغير العدل.
وقال في سورة الأنعام:
(وأوفوا الكيل والميزان بالقسط، لا تكلف نفساً إلا وسعها، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون).
والآيات التي تأمر بالعدل كثيرة حسبنا منها الآية الجامعة: (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، يعظكم لعلكم تذكرون)
ويشتد القرآن في النهي عن الظلم كما يشتد في الأمر بالعدل ويبين عاقبة الظلم في الأمم بأساليب شتى؛ والظلم في لغة القرآن وضع الأمر في غير موضعه أو الخروج عن الحق. فالمجرم ظالم، والكافر ظالم، والمشرك ظالم، والكاذب ظالم. يقول: (فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته). ويقول: (وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم). ويحكي القرآن عن آدم وحواء حين تابا: (قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين). وما هذا الظلم إلا مخالفتهما ما أمرا به.
وعاقبة الظلم هلاك ودمار للفرد والجماعة والأمة. قلّ أن يذكر القرآن هلاك أمة أو بلد إلا بيّن أنها هلكت بظلمها. يقول في سورة الأنبياء: (وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين). وفي سورة الحج: (فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها، وبئر معطلة وقصر مشيد). (وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإليّ المصير). وفي سورة هود: (تلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد. وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم، فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب. وكذلك أخذ ربك إذ أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد).
هذا العدل المطلق الذي بينه القرآن وأمر به يقتضي الجزاء الحتم. فكل إنسان مجزيّ بعمله خيراً أو شرّاً. العدل يقتضي أن يميّز الخير من الشر والمحسن من المسيء. يقول القرآن: (ولا تستوي الحسنة ولا السيئة) ويقول: (أفنجعل المسلمين كالمجرمين. ما لكم كيف تحكمون) (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم؟ ساء ما يحكمون). بل يقرن القرآن الجزاء بخلق السموات والأرض (وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون).
فالجزاء حتم على كل صغيرة وكبيرة وليس للإنسان إلا عمله، ليس في الناس مقربون إلى
الله ولا مبعدون عنه إلا بالعمل.
يقول: (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يُجزاه الجزاء الأوفى)
ويقول في الرد على من زعموا أن لهم مكانة عند الله تخرجهم من هذا القانون العام قانون الجزاء: (ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب؛ من يعمل سوءاً يُجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً، ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً). (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره).
ومن هذا العدل المطلق والجزاء الحتم أباح القرآن أن يقابل الشر بمثله من غير بغي.
قال: (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين)
وقال: (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله) ويقول: (ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بُغي عليه لينصرنه الله) وفي سورة الشورى يوضح هذا أتم إيضاح. يقول في مدح المؤمنين: (والذين إذا أصابهم البغي هم

ينتصرون، وجزاء سيئة سيئة مثلها. فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين. ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل. إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم). فمن حق الإنسان أن يردّ البغي عن نفسه في غير عدوان، وأن يلقى السيئة بمثلها وينتصر ممن ظلمه، وله أن يعفو ويصفح إن رأى في العفو خيراً.

ذلكم العدل الذي بثه الله في خليقته، وأمر به عباده، وجعل فيه صلاحهم، وفي تركه دمارهم. فمن شاء الخير لنفسه وللناس فليلزم العدل في كل صغيرة وكبيرة، وليكن كما أمر القرآن قائماً بالقسط شهيداً لله.

إن الأمم تتهافت في النار، وتعود على ما شيّدت بالخراب والدمار، بما فقدت العدل وكفرت به، واتخذت لأنفسها شريعة من الباطل والزور والبغي. يريد المغترون بقواهم أن يسيطروا على الأرض بالباطل، زاعمين أنهم يسيطرون عليها بالحق، لا يرون لغيرهم حقاً، ولا لأطماعهم حداً، ولو أنصف الناس فقاموا في خلق الله بالقسط، وجعلوا الحق شريعة بين الناس، ونبذوا العصبية للباطل، ورفعوا عن أعينهم غشاوة الهوى ما سُخرت عقولهم وعلومهم وصناعاتهم للإهلاك والتدمير، ولما قذفوا بأنفسهم في جهنم وهم يستطيعون أن
يعيشوا في جنة على هذه الأرض.

داء الأمم الظلم ودواؤها العدل - العدل الشامل المطلق الذي لا يختلف باختلاف الأزمان والأوطان والشعوب والأديان. إنما يأخذ الله الأمم بجرائرها عسى أن تثوب إلى رشدها وتتبين الطريقة المثلى التي حادت عنها، وإن في ذلك لعبرة.

ويقول القرآن الكريم:

(ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا يستهزئون. ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون). . .

صدق الله العظيم

عبد الوهاب عزام

العلاقة بين الجسم والذكاء

للأستاذ عبد العزيز عبد المجيد

يقول المثل السائر: (العقل السليم في الجسم السليم). والأمثال تقبل عادة من غير محاولة إثبات. ولكن إلى أي حد يطرد هذا المثل؟ إن الملاحظة تؤيد أن من بين أصحاء الأجسام كثيراً من الأغبياء وضعاف العقول، كما أن من بين ذوي العاهات والمرضى عدداً من العبقريين. وقد عرفت إنجلترا مصرياً كان قد أقعده المرض سنوات طويلة، فعطل من وظائف رجليه ويديه وظهره وأسنانه، ومع هذا كان نشط العقل، يفكر وينتج. كان يُقرأ له في الفراش، وكان يؤلف ويملي، ويقرض الشعر العربي والإنجليزي، ويملي مقالاته باللغتين. وكان لبق المنطق، حاضر الفكرة. وقد لا يكون من الصعب أن نعثر على آخرين أمثال صاحبنا هذا، ولكن الملاحظة العرضية لا تكفي لتحقيق القضايا العلمية. وسأعرض في هذا المقال نتيجة أبحاث العلماء في العلاقة بين الذكاء والجسم.

شغل العلماء من القرن الثامن عشر بمعرفة ما إذا كان من الممكن الحكم على صفات الفرد العقلية من صفاته الجسمية. وقد ظهرت عدة نظريات كانت كلها محاولات لكشف العلاقة بين العقل والجسم. وقد تناولت بحوث العلماء في هذا الصدد الموضوعات الآتية:

1 - شكل الجمجمة وحجمها، وملامح الوجه، وعلاقة كل هذا بالعقل.

2 - قدرة الرئة على التنفس وعلاقة هذه القدرة بالذكاء.

3 - دقة تمييز الحواس المختلفة، ومقدار سرعة إدراكها وعلاقة ذلك بالذكاء.

4 - زمن الرجع (أو رد الفعل) للمؤثرات الحسية الخارجية.

5 - الإفرازات التي تخرج من الغدد الصماء وأثرها في الوظائف العقلية.

6 - العلل الجسمية وأثرها في الإنتاج العقلي والذكاء.

- 1 -

كتب لافاتير السويسري كتاباً عن (الفراسة الوجهية) في النصف الأخير من القرن

الثامن عشر، قال فيه بإمكان الحكم على ذكاء الفرد من تقاطيع وجهه، وشكل الجبهة والأنف وحجم الفك. ومع أن هذه النظرية لاقت أنصاراً حين ظهور الكتاب، ولا يزال لها في العصر الحاضر مؤيدون من عامة القراء؛ فمن المؤكد علمياً أنها نظرية باطلة، لأن مقاييس
الذكاء الحديثة المعتمدة لم تثبت وجود علاقة بين تقاطيع الوجه والذكاء، إلا عند البله والمعتوهين.

وفي سنة 1810 ظهرت رسالة لعالمين فرنسيين هما جال واسبورتزهيم تشرح نظرية القيافة الجمجمية وتشير إلى وجود عدد من الملكات العقلية المختلفة كملكة الإدراك، وملكة الحفظ، وملكة التذكر، وملكة العزم الخ، وحصرها في ست وعشرين. ولكل ملكة من هذه الملكات مركز خاص في الدماغ. ويقابل كل مركز من هذه المراكز الدماغية مساحة خاصة في الجمجمة. وكل نمو في مراكز هذه الملكات يقابله نمو في مساحاتها الجمجمية. أي أنه من الممكن معرفة قوى هذه الملكات العقلية بقياس بروز مساحتها الجمجمية. ولم تعمر هذه النظرية طويلاً

وفي أواخر القرن الماضي ظهرت في إيطاليا مدرسة تقول بوجود تلازم إيجابي مطرد بين الصفات الجسمية التشريحية وبين ذكاء الفرد وخُلقه، وزعيم هذه المدرسة هو البروفسور سيزاري الأخصائي في علم الإجرام. وتتلخص نظريته في أنه من الممكن معرفة ضعاف العقول، والبلهاء، وذوي الميول الإجرامية من خلق الرأس وحجمه وتركيبه. فعدم انتظام شكل الجمجمة، وبروز الجبهة، وضيقها، وانخفاضها، وانفطاح الأنف وعرضه، وضيق قوس الحنك وارتفاعه، وعرض الأذنين وكبرهما، وعدم انتظام شكلهما؛ كل هذه دلائل على ضعف عقل الفرد. وكان ممن عنوا بكشف العلاقة بين حجم الرأس والعقل جولتن في إنجلترا وبيتيه في فرنسا، وقد دلت تجاربهما على أن التلازم الإيجابي بين حجم الرأس وذكاء الفرد من القلة بحيث لا يعتمد عليه في معرفة الذكاء

كان لنظرية لمبروزو صدى شديد في المعاهد التي عنيت بدراسة الإجرام وصفات المجرمين؛ ففي سنة 1910 وسنة 1911 أجريت تجارب في السجون الإنجليزية لقياس جماجم المسجونين وبروز جباههم، وأنوفهم، وآذانهم الخ. ثم قورنت نتائج هذه المقاييس التي اتبعت فيها طريقة لمبروزو بسجلات المسجونين، ونتائج اختبار ذكائهم، فانهارت بهذه التجارب نظرية لمبروزو، وامحت من بين النظريات العلمية. وكانت هذه آخر المحاولات التي قصد بها إثبات تلازم بين شكل الجمجمة وحجمها وتقاطيع الوجه وبين الذكاء. وفي هذا يقول الأستاذ (كارل ببرسن) بعد أن أجرى اختبارات على ستة آلاف تلميذ مدرسي

وطالب جامعي: (إن التلازم الإيجابي بين مقاييس الجمجمة وبين الذكاء من القلة بحيث لا يعتمد عليه في الحكم على ذكاء الفرد)

- 2 -

وموضوع العلاقة بين القدرة على الشهيق وبين الذكاء قد يظهر غريباً. ولكن أحد الأطباء بمانشستر الدكتور (مامفورد) عنى بهذا الموضوع، فأجرى اختبارات على تلاميذ مدرسة ثانوية وعلى طلبة الجامعة ووجد تلازماً إيجابياً مطرداً بين القدرة على الشهيق العميق واتساع الرئتين، وبين ترتيب التلاميذ في الفصول. فالتلاميذ المتقدمون أقدر على الشهيق العميق والتنفس القوي من التلاميذ المتأخرين. وقد لاحظ الدكتور أيضاً من نتائج الاختبارات أن هذا التلازم الإيجابي يضعف كلما كبر التلاميذ في السن. وقد أبدت نتائج هذه الاختبارات اختبارات شبيهة بها أجريت في كاليفورنيا بواسطة الأستاذ ترمان.

- 3 -

أما دقة التمييز الحسي، وإدراك الفروق الحسية - لمسية أو ذوقية أو شمية أو سمعية أو بصرية - وعلاقة ذلك بالذكاء فيرجعان إلى نظرية البروفسور فنت الألماني، التي كانت تشير إلى أن الحواس هي منافذ العقل، والمدركات الحسية هي التي يتألف منها العقل. ومن الممكن إذاً قياس الذكاء بقياس قدرة الحواس، وقوتها على تمييز المحسوسات المتقاربة. فأجريت تجارب على الحواس استخدمت فيها أجهزة كأجهزة معامل الطبيعة والضوء، بعضها لقياس قوة قبضة اليد، وبعضها لقياس مقدار التمييز

اللمسي، وبعضها لقياس القدرة على إدراك الفروق الصغيرة في الأنغام والألوان والظلال. وقد قام بهذه الاختبارات جولتن في إنجلترا وكاتل وثورنديك في أمريكا. وكانت نتيجة هذه الاختبارات أن قدرة التمييز الحسي في الملموسات والمذوقات والمشمومات لا تدل على ذكاء الفرد، وأن لا تلازم بين هذه القدرة والذكاء. فلا فرق في قوة التمييز هذه بين الأطفال والكبار، ولا بين الأغبياء والأذكياء، ولا بين المتحضرين وغيرهم.

والأستاذ اسبيرمان وآخرون يقولون بأن للقدرة على تمييز النغمات الموسيقية المختلفة أو المتقاربة علاقة بذكاء الفرد، وأن بينهما تلازماً إيجابياً قوياً، فكلما كان الفرد أكثر ذكاء كان أقدر على تمييز النغمات. وهو يرى (أن الذكاء له109 من نجاح الفرد في تمييز الأصوات ذات النغمات المتقاربة)

أما العلاقة بين الذكاء وبين حدة النظر والقدرة على تمييز المرئيات المتشابهة، فقد أثبت عدد كبير من الاختبارات بين تلاميذ المدارس أن الأغبياء وضعاف العقول يكثر فيهم ضعف البصر، ولو أن كثيراً ممن يشكون من (قصر النظر) أذكياء ونابغون. وإذا حكمنا بنتيجة الاختبارات التي أجريت قلنا إن بين القدرة على تمييز المرئيات قريبة الشبه وبين الذكاء علاقة قوية وتلازماً إيجابياً. وبهذا يقول أنصار اسبيرمان

- 4 -

من الملاحظ أن الإنسان إذا كان تعباً جسمياً فإن زمن الرجع للمؤثرات الحسية الخارجية عنده يكون أطول من زمن الرجع حين نشاطه. ونحن في أوقات الصباح أسرع رجعاً منا بعد القيام بعمل عضلي طويل. وقد تنبّه علماء النفس لهذه الظاهرة، وحاولوا أن يعرفوا إلى أي حد يرتبط الذكاء بزمن الرجع الحركي للمؤثرات الحسية. وقد اخترعت آلات خاصة تسجل الفرق بين زمن صدور المؤثر الخارجي - عن طريق اللمس أو البصر أو السمع أو الذوق - وزمن رد الفعل. وأجريت اختبارات لأفراد كثيرين لمعرفة ما إذا كانت سرعة الرجع دليلاً على شدة الذكاء، والنتائج التي أسفرت عنها الاختبارات متضاربة بحيث لا يصح الجزم بها نهائياً.

- 5 -

اهتم علماء النفس منذ أوائل القرن الحالي بدراسة الشخصية وعناصرها، والعوامل الفيزيولوجية التي تؤثر في تكوينها. ومن المدارس السيكلوجية التي لها رأي وجيه في دراسة الشخصية مدرسة أمريكية ترى أن للغدد الصماء أثراً هاماً في تكوين الشخصية بما تفرزه من عصارات تسمى الهرمونات والذكاء عامل من عوامل الشخصية والهرمونات هذه عصارات ذرية تسير في الدم وتعمل على تنشيط وظائف الأجهزة العضوية المختلفة أو أضعافها، كالجهاز الهضمي والتنفسي والتناسلي والعصبي؛ وبعض هذه الهرمونات يؤثر في المخ ونشاطه. ومن الغدد التي تفرز الهرمونات الغدة الدرقية وموضعها الرقبة. وهي تفرز هرموناً يحتوي على كميات من (اليود) ضرورية لنمو الجسم ونشاطه. ويولد بعض الأطفال وعندهم ضعف في هذه الغدة، ولذلك لا ينمون نمواً طبيعياً، فيظلون أقزام الجسم، ضعاف نمو المخ، أغبياء، بطيئين في أعمالهم. ومعنى هذا أن للهرمون الدرقي أثراً في ذكاء الفرد. وتوجد غدة أخرى اسمها الغدة النخاعية وموضعها قاعدة الدماغ، وتفرز هرموناً يشبه في أثره الهرمون الدرقي، أي أن له أثراً في نمو الجسم ونشاطه وفي نمو العقل ونشاطه.

من أجل هذه الصلة بين العقل والجسم وغدده كان من الضروري لطلبة علم النفس في الجامعات الأوربية والأمريكية أن يدرسوا علم وظائف الأعضاء، والعلاقة بين الوظائف العقلية والوظائف العضوية، كما أصبح من الضروري أن يدرس طلبة الطب قدراً من علم النفس، والحقيقة أن علم الطب وعلم النفس يكمل الواحد منهما الآخر، لأن موضوعهما واحد وهو الإنسان

- 6 -

ولمعرفة علاقة صحة الجسم أو مرضه بالذكاء يجب أن نفرق أولاً بين ما يسمى نسبة الذكاء الثابت عند الفرد وبين نوع الإنتاج وجودته، وقد أجريت عدة تجارب في هذا الموضوع، وكلها تقريباً يؤكد أنه ليس للمرض أو الصحة أثر في نسبة الذكاء الثابت إلا إذا حدثت العلة في سن مبكرة وأصبحت دائمة. وأما العلل الطارئة كتسويس الأسنان،

والتهاب اللوزتين، والعمى، والصمم فإنها تضعف من كمية المنتج ونوعه، وإن كانت لا تؤثر في نسبة الذكاء الثابت. ويقول الأستاذ فريمان: (إنه ولو فرضنا أن مرض الجسم أو ضعف نموه لا يؤثر كثيراً في نمو العقل فإنه من الممكن أن يؤثر تأثيراً محسوساً في القدرة الإنتاجية للفرد وفي وظائف مواهبه العقلية، وعل كل حال يجب أن نذكر دائماً أثر المرض وضعف الجسم كلما حاولنا أن نحكم على ذكاء الفرد من مقدار إنتاجه)

أما صاحبنا الذي أشرت إلى ذكائه في طليعة هذا المقال فمن يدرينا لعله لو كان سليماً لكان إنتاجه أكثر وأكمل من إنتاجه أثناء المرض

(بخت الرضا. السودان)

عبد العزيز عبد المجيد

بين مصر والهند

للأستاذ أبي الحسنات محمد محيي الدين

كلما درسنا تاريخ قدماء المصريين وتاريخ الهنود القدماء، لاحظنا وجود التشابه بينهما ظاهرة وواضحة. لذلك نورد هذا البحث عساه يكون موضع إمعان واهتمام لدى علماء مصر والهند

الديانة المصرية القديمة

تعتمد العقيدة الرسمية عند قدماء المصريين على أسطورة قديمة ترجع إلى ما قبل التاريخ في نسبتها، وهي عقيدة الثالوث المقدس: (1) أوزيريس إله الإنبات والخصوبة أو إله النيل. (2) إيزيس إلهة الحكمة والتشريع. (3) توت إله العلم والتدبير.

ثم عرتها قوانين التحول والتدرج وانتقلت إلى عقيدة التاسوع المقدس بدل الثالوث المقدس وهي ترجع إلى القوى الطبيعية المؤثرة في الكون وهي: (1) الماء. (2) رع (الشمس) (3) سرا (الهواء). (4) تيفينة (القراغ). (5) جيب (الأرض). (6) توت (السماء). (7) أوزيريس (النيل). (8) إيزيس (الأرض الخصبة). (9) سيت (الأرض القاحلة) أو الصحراء (نيفتيس)

وقد أعطى المصريون لهذه الأشياء صفة الألوهية واعتقدوا أيضاً أن هناك ربّاً هو رب الأرباب وأطلقوا عليه اسم (توم)، واستمرت الحال على ذلك حتى جاء عهد (مينا) الأول فأعلن أن الإلهين (حوريس) خليفة (أوزيريس) في الألوهية و (سيت) عمه وخصمه في دعوى الألوهية قد حلاّ في جسده وابتدأ تأليه الملوك (الفراعنة). ولم يستمر الفراعنة موضع القداسة لحلول الإلهين فقط، بل ارتقى فرعون وصار يحل فيه (رع) كبير الآلهة.

ثم تحولت عقيدة الحلول من الملك إلى الأجسام التي تتصل بالخصب والإنتاج والبذر والأثمار والأحياء التي تمتاز بميزة يعرفها الفلاسفة والكهان، فأحلوا آلهتهم أحياناً في ثور (عجل أبيس) وأحياناً في قط وأحياناً في ثعبان وأحياناً في تمساح.

ولقد وصف بعض الكتاب هذه العبادة قال: (على هياكل المعابد سجف منسوجة بالحرير؛ فإذا تقدمت إلى نهاية المعابد لترى التمثال تقدم إليك كاهن في سكينة ووقار وهو يرتل مزاميره فيزيح قليلاً من الستار ليريك الإله، فلا ترى إلا قطاً أو تمساحاً أو ثعباناً أو حيواناً مؤذياً، فكان إله المصريين دابة ملونة على بساط أرجواني)

هذه هي الديانة المصرية القديمة في أدوارها المختلفة وتلك هي أهم عناصر تكوينها. وبجانب هذا نعرض على القارئين الكرام أهم نواحي الديانة الهندية القديمة لنقارن بين الديانتين فنقول:

الديانة الهندية القديمة

تدل الأسفار القديمة والآثار العتيقة التي ترجع نسبتها إلى ما قبل التاريخ على أن قوام الديانة الهندية القديمة هي القوى المؤثرة في الكون وهي الأقانيم الثلاثة المكونة من (1) براهما (الشمس) الإله الخالق للكائنات وهو إله العلم والتدبير، والحكمة والتشريع (2) سيفا (النار) إله القضاء والسحر والفناء (3) فشنو (الأرض) إله الرحمة والخصوبة والسقاية (الكنج وجمنا وبراهما بوترا وغيره من الأنهار المقدسة)، ثم لم يلبثوا أن جسدوها واعتقدوا حلولها في بعض الأجسام فأقاموا التماثيل وعبدوا الأصنام لحلولها فيها فتعددت آلهتهم حتى بلغت ستة وثلاثين من الماء (الأنهار) والهواء والسماء

والشمس والأرض الخصبة والقاحلة والأشجار والأثمار وغيرها من الأجرام الأرضية والسماوية فأحلوا آلهتهم في الأحياء التي تتصل بالخصب والإنتاج والبذور والأثمار والأجسام التي لاحظوا فيها ميزة فعبدوا الحيوانات المخيفة المؤذية كتنين مفزع وتمساح هائل مخيف وعبدوا البقر والفيل وهلم جرا.

كل هذه الأشياء قد بلغت إلى درجة الألوهية في نظرهم، لهذا أقاموا لعبادتها معابد وصوامع وزينوها على النمط المبين في وصف الكاتب المؤرخ للمعابد المصرية وهياكلها. واستمرت الحال على ذلك حتى اعتقدوا أن بعض آلهتهم حلت في جسم الإنسان وهو الملك، ومن ثم ابتدأت عقيدة تقديس الملوك أو حلول اللاهوت في الناسوت، ولا تزال هذه العقيدة باقية في كثير من نواحي الهند كبلاد الأراكن وجزيرة برما وتيبارا في شرق البنغال وآسام وغيرها من المناطق التي يدين سكانها بتأليه الملوك. واعتقدوا أيضاً أن هناك إله الآلهة وسموه (آتما)، أي الإله الأكبر

هذه إلمامة موجزة لما في الديانتين القديمتين من التشابه، وهو من الوجهة الدينية، وكذلك الحال من الوجهة الاجتماعية العامة من الأخلاق والآداب والعادات والتقاليد، كما لا يخفى على الباحث المدقق والدارس المحقق

يتساءل الباحث ما هو وجه التشابه بين الديانتين القديمتين؟ وهل كانت هناك بين الأمتين علاقة دينية أو ثقافية أو اجتماعية؟ وهل كانت أسباب المواصلات بينهما متوافرة؟ أم كانت هناك جماعة رحالة طاب لها المقام فاستقرت أم ضاق بها المعاش فانتشرت؟ أم طردها العدو فالتجأت؟ وحملت معها الديانة والمدنية والحضارة والثقافة والتقاليد والعادات وغيرها من المقومات الضرورية للحياة، فعلى هذا أين كان موطنها الأصلي؟ مصر، أم الهند؟ وما الذي دفعها للنزوح إلى ما وراء البحار؟

كل هذه الأسئلة تمر بخاطر الدارس من غير شك، ومفتاحها تصفح التواريخ السيكولوجية للأمتين للبحث عن نفسيتهما وعقليتهما وميزاتهما التي تمثل أصل حضارتهما، وتتبع النقوش في المعابد التي لم يؤثر فيها كر الغداة ومر العشى، وكل ذلك يشير إلى أن في طيات ذلك الدفين لم ينشر بعد من قبره حضارة زاهية اشتركت في تكوينها جميع أفراد هاتين الأمتين بيد أن أكثر تلك الآثار لا تزال مبهمة ولم يبين كنهها، ولا يزال البحث جارياً لكشف ذلك، وقد أخذت الأسباب تتوافر ومادة الاستقراء تتكون بفضل الأجهزة العلمية الحديثة. وهانحن أولاء ندعو علماء مصر والهند للتعاون على هذا الموضوع التاريخي. فهل من مجيب؟

أبو الحسنات محمد محيي الدين

الهندي (طاغور)

خواطر في الحرب

للأستاذ محمد عرفة

أخير هذه الحرب القائمة أم شر؟ إن هذا السؤال يبدو غريباً، إذ كيف يمتري أحد في أن هذه الحرب جمعت الرزايا والنكبات ما تقشعر من هوله الأبدان؟ هذه دماء سفكت، وبيوت دمرت، ومئات الآلاف من السكان أصبحوا لا يجدون مأوى يأوون إليه، وهذه أقوات وأرزاق قد سلطت عليها النيران فالتهمتها، وأصبح فريق عظيم لا يجد الطعام.

هذه شعوب كانت حرة فاستعبدت، ومن هذه الشعوب شعوب كان في إطلاقها وحريتها مجال فسيح لابتكار ما يفيد المدنية، وفي استعبادها وقيودها الفكرية ما يعطل هذا الإنتاج.

هذه أمور ظاهرة لا تجعل مجالاً للشك في أن الحرب نكبة عالمية، ولكن على الرغم من ذلك أتساءل أخير هي أم شر؟ وأزيد فأقول إنها ربما تكون خيراً، وربما تكون شراً: تكون خيراً إذا رأى المتحاربون ويلات ما صنعت الحرب، وأنه يمكن التخلص منها، إذا علم أسبابها واجتنبت، وأن سببها هو إحلال قانون القوة في الأمم محل قانون العدل.

إذا علم المتحاربون ما في قانون القوة من قدرة على إضرام الحرب وسعوا للتخلص منه، كانت هذه الحرب التي أثمرت هذه الثمرة بركة على الناس. إن من الشعوب التي غلبت على أمرها في هذه الحرب شعوباً كانت تعامل شعوباً أخرى بهذا القانون، فكانت تغزوها، فإذا تغلبت عليها فرضت عليها إرادتها، ثم تمنعها أسباب الرقي العقلي والخلقي، لأنها تخاف إذا هي ترقت في هاتين استنارت وطلبت الخلاص، وربما نالته،

وكانت لا تشعر بجرم ما تعمل، لأنها تعمل ذلك في غيرها. وقد دار دولاب الأيام، ووقعت هذه الأمم في قبضة غيرها، وعوملت بقانون القوة، وسقيت بالكأس التي كانت تسقى بها، فوجدت لذلك ألمه، وعندها ربما تدرك سوء ما كانت تفعل مع الأمم الأخرى وتستنكره، فتنكر قانون القوة، وتعرف قانون العدل فيخسر قانون القوة بعض الأنصار، ويكسب قانون العدل ناصراً جديداً. وفي هذا الاحتمال أيضاً خير عظيم، لأنه خطوة واسعة في سبيل السلام.

محمد عرفة

مطالعات عابرة

العقل عند المعتزلة

للأستاذ صلاح الدين شريف

المعتزلة من أعلى الفرق الإسلامية تفكيراً وأخصبها إنتاجاً وأبعدها أثراً في فسح آماد الفقه وتقعيده على قواعد من المنطق لم تكن لجدتها مألوفة ولا مقبولة من جمهور فقهاء الإسلام. وهي إلى التزامها جانب الطرافة في التفكير وأخذها النفس بتحكيم العقل الإنساني في تفسير ما تبهّم من معميات الوجود وألاغيز النفس وأسرار العمران البشري، ليست تنجو من إغراق وتطرّف لعلهما كانا لازمة من لوازم النفاح عن العقيدة والوثوق بما يرتئيه العقل من رأي، وما يتأدى إليه التفكير العميق من مبدأ، وما يرتصد له من فكرة. وليس بعجيب البتة أن يسبق رجالها إلى استنباط فكرة (القانون الطبيعي) الذي يستلهم دستوره في التشريع واستنباط الأحكام من وحي العقل الخالص من لوثة الهوى، المصون من نزوة الغريزة؛ وهم الذين تطلّقوا في النظر والبحث من قيود التقليد وتحرروا من اندفاع المجاراة، فلا جرم تتبدى ثمرات قرائحهم في مسوح من الغرابة، ولا يقبل على تناولها جمهور الأمة الإسلامية وقتئذ إلا في كثير من الحذر والشك والتحرج والارتياب!

كانت الحركة الفقهية في مطالع النهضة العامة للمجتمع الإسلامي وفي أواخر عهد الراشدين وطيلة خلافة الأمويين فالعصر الأول من دولة العباسيين، قد اتخذت أسلوباً من النشاط ولوناً من النماء لم يعهده هذا المجتمع من قبل، فكان طبيعياً أن يتأدى بالفقهاء نشاطهم إلى ولوج أحرج مشاكل الفقه، وأكثر موضوعاته جفافاً وعمقاً. وكان حتماً أن تقودهم عقولهم المتلهفة العطشى إلى النظر في فلسفة التشريع والبحث في حقيقة المبادئ والقواعد التي تسير عليها أحكام الله وأحكام الإنسان، ليتخذوا من هذه وتلك دستوراً لا يخطئ في فهم المشيئة الإلهية والحكم على حُسن أو قبح ما يتهدى إليه تفكير الإنسان، وما يطوعه له كسبه الاختياري المركوز في طبيعته من أقوال وأفعال.

فلما اتفق جمهور الأمة الإسلامية على أن مُعرّف حكم الله بعد مجيء الرسل هو الرسول نفسه الذي يتلقى عن طريق الوحي شرع السماء، ويبلغه إلى من بعث إليهم ليؤدي رسالته، ظهر فريقان كبيران من المسلمين حاول كل منهما أن ينفذ بالنظر العميق والذوق السليم إلى

مظهر الوحي الإلهي من أمر أو نهي ليرده إلى أصله الذي صدر عنه ومبدئه الذي درج منه. فقال فريق (الأشاعرة): إن الله تعالى في أمره ونهيه وجماع تعاليمه التي يلقنها الأنبياء بالوحي، ليس يفعل سبحانه إلا ما يشاء ولا يشرع إلا ما يريد، فهو تعالى رب العالمين ومالك الملك كله لا يسأل عما يفعل؛ وينبني على هذا دستور الأشاعرة في التشريع السماوي، وهو أن ما يأمر به الله العلي القدير حسن جميل، وما ينهى عنه هو القبيح الرديء.

وأما المعتزلة فمال فقهاؤهم إلى النظر في صفات الله تعالى من لطف وحكمة ورحمة وعلم، وفضلوا أن يجعلوا منها مصدراً بدهياً لما يوحي به الله إلى رسله من نهج ومن شرعة. فهو على قدرته تعالى في تحريم ما شاء والأمر بما شاء، لا يخالف منطق العقل فيما نهى أو أمر؛ أي أنه تعالى لا يأمر إلا بما يراه العقل حسناً من قبل، ولا ينهى إلا عما يراه العقل قبيحاً من قبل.

والعقل أيضاً عند هذه الطائفة، هو المنظم لأحوال المجتمع الإسلامي قبل مجيء الرسل وبعث الأنبياء، فهو الذي يهدي الأفراد والجماعات إلى فعل ما يدركون أنه حسن بالفطرة، وهو دافعهم إلى أن ينتهوا عما بان قبحه وظهر ضلاله وخبثه وخالف

حكم العقل مخالفة صريحة. وإذا كانت الجنة مثوى من أطاع شرع الله ونفذ أحكامه وانتهى بنواهيه، وإذا كانت النار قراراً لمن عصوا ربهم فارتكبوا محارمه وقارفوا مناكر ما نهوا عنه وصدوا عن سبيله، فإن العقل أيضاً هو المجيز المثيب وهو المعاقب المؤاخذ. فقدرة العقل على أن يستقل بإدراك الحسن والقبح في الأفعال، وعلى تقدير ما يترتب على فعل الحسن من استحقاق الثواب وما ينجم عن فعل القبيح من استحقاق العقاب، يصح أن يعد مصدراً لتعريف حكم الله تعالى ودستوراً، من باب أولى، لتشريع السماء، بله أحكام الفقهاء.

فالتشريع، سواء أكان من وحي السماء أم من وضع البشر في عصور ما قبل الرسل، يراه فقهاء المعتزلة كاشفاً ومقرراً لما أدركه العقل من قبل. فهو كما ذكرنا لا يستنكر إلا ما يراه قبيحاً، ولا يرضى إلا بما يراه حسناً. وفي كلا الحكمين يعتمد على فطرته الهادية وذوقه المرهف وإدراكه السليم. ولما كانت أحكام الله عند تشريعها قد قصد بها أن تحكم مصالح العباد وتنظم الروابط الاجتماعية بين الأفراد، وبالجملة تهدي الناس إلى التي هي أقوم،

ولما اقتضت حكمته تعالى ورحمته بعباده أن تجيء شرائعه معقولة مفهومة من أولئك المطالبين بالأخذ بها والتسليم لها، كان (واجباً) على الله سبحانه أن يشترع لعباده الأصلح الذي يغني والأقوم الذي يهدي، وكان (حراماً) عليه أن يترك هذا الأمر لا ضابط له!. . .

ولعلنا لا يتداخلنا العجب بعد هذا الذي قدمناه، إذا رأينا المعتزلة يؤمنون بمبدأ (القدرية) حتى يغلب عليهم اسمه ويصير كنية لطائفتهم تمتاز به عن غيرها من الطوائف المتفرعة عنها. فهي ما دامت تقول بالعقل حاكما مطلقاً للحسن والقبيح من الأفعال، وما دامت تجعل منه دستوراً لا يخطئ في تفسير شرائع الله، وتنظيم مصالح العباد، واستنباط الأحكام للناس في دائرة المعاملة ومحيط المعاش، فإنها لن ينقطع بها تفكيرها عن درك هذه النتيجة المنطقية، وهي أن العبد قادر خالق لأفعاله خيرها وشرها، مستحق على ما يفعله ثواباً وعقاباً في الدار الآخرة، وأن الله تعالى منزّه عن أن يضاف إليه شر أو ينسب إليه سبحانه ظلم، لأنه لو خلق الظلم لكان ظالماً، وبالتالي لو خلق العدل كان عادلاً. فالحكيم عند المعتزلة هو من يفعل الخير لأنه الخير، ويتنكب سبيل الشر لأن شره واضح له، أو بمعنى آخر تتقاضاه الحكمة الراشدة والمعرفة الهادية أن يعتنق الحسن ليثاب عليه، ويصدف عن القبح خشية أن يجازى به، لأنه يحفظ بالأول أمر دينه ودنياه، ويخرج بالثاني على أمر عقله فيعصف بحياته ويكون خاسراً لدينه ودنياه.

ومن ثم كانت تكاليف الله التي أمر رسله أن يأخذوا بها العباد، هي بمثابة ابتلاء صادق للصالح والطالح من عباده. فمن هلك في الدنيا أو الآخرة لأنه صد عنها، فإنما يهلك عن (بينة) أي عن تعقل وتدبر، ومن صلح وزكا وحقق له مرافه العيش الدنيوي ومناعم الآخرة، فإنما كان ذلك عن بينة أيضاً، لأن أصول المعرفة وإن كانت مستمدة من العالم الخارجي الذي يتكنفنا وتقع عليه حواسنا، إلا أن إدراك مدلولاتها الحسنة أو القبيحة وشكران النعمة على هذا الإدراك إنما مصدرها العقل، فالإدراك الصحيح والشكران الحق واجبان على كل مكلف لأنه رزق العقل ووهب الاختيار في الكسب وبعد فهل أصاب المعتزلة في فلسفتهم هذه، وهل هي تصلح بذاتها لتعريف حكم الله وتقعيد التشريع والفقه على العقل الذي يستقل بالقدرة على تنظيم العباد تنظيماً معقولاً مفهوماً يقربون به من الحسن ويبعدون به عن القبيح؟

قلنا إن الأشعرية يرون أن الحاكم على الأفعال بالحسن والقبح هو الله الذي لا سبيل للعقل في الحكم عليه لأنه سبحانه متعال عن أن يحكم عليه أحد من العباد فهو خالق أفعالهم وجاعل بعضها حسناً وبعضها قبيحاً، ويلاحظ أن في هذا أخذاً - إلى حد ما - بمذهب الجبرية الذي يقول إن الله قدر الأفعال حسنها وقبيحها، على الناس أزلاً، فلا مجال لهم في كسب أو اختيار ما دام أن العبد لم يقدّر فعله، فضلاً عن أن الثواب والعقاب هما لله وحده وليس في طوق العبد أن يعلم بهما إلا منه تعالى.

والواقع أن الحسن والقبيح إذا تأملنا فيهما تأملاً تجريدياً حكمنا بحق أنهما ليسا صفة ذاتية في الفعل وليسا أمراً ثابتاً مستقراً فيه حتى يصح حكم العقل على حسن الفعل أو قبحه. والعقول بجانب هذا مختلفة متفاوتة لا تتفق في حكمها، بل إن عقل الشخص

الواحد لا يثبت في حكمه على شيء من الأشياء على حالة واحدة، تبعاً لاختلاف المؤثرات الزمانية والمكانية وتفاوت التفكير قوة وضعفاً.
ونخلص من هذا إلى أن المعتزلة قالت بنظرية القانون الطبيعي قبل الغربيين بزمن مديد، وهي النظرية التي تجعل العقل البشري مصدراً للقانون يعلو على التشريع سواء كان صادراً من سلطة غير منظورة كالله، أو من سلطة منظورة كالسلطان (الإمام).
فالعقل - كما يقولون - هو الذي يستقل بكشف قواعد هذا القانون ومبادئه الخالدة معتمداً في هذا على الإدراك الصحيح والذوق السليم.
صلاح الدين الشريف
المحامي
إلى معالي وزير المعارف
التعليم الزراعي
- 2 -
دعوتك لما يراني البلاء ... وأوهن رجلي ثقل الحديد
وقد كان مشيهما في النعال ... فقد صار مشيهما في القيود
وكنت من الناس في محفل ... فها أنا في محفل من قرود
فلا تسمعن من الكاشحين ... ولا تعبأت بعجل اليهود
وكن فارقاً بين دعوى أردت ... ودعوى فعلت بشأو بعيد
(المتنبي)
المستقبل:
وهكذا تتكبد الدولة ستين وخمسمائة جنيه في السنة للمكتب الزراعي الواحد، أي حوالي خمسين جنيهاً للتلميذ الواحد في السنة، أي خمسين ومائة في السنوات الثلاث لينتهي بعدها إلى جهل مسطور في شهادة يسمونها (الدبلوم)، ثم يُلفظ إلى الشوارع والطرقات يتسكع يطلب الوظيفة كدأب أي طالب تخرج في مدرسته ليزداد به عدد العاطلين عاطلاً آخر.
وقد تنفرج شفتا الحياة لواحد منهم عن ابتسامة فيجد عملاً فما يلبث أن يبدو جهله، وكثير منهم طردوا من الدوائر والضياع وشرّدوا ولم يبق منهم إلا من أصاب عملاً في مدارس الزراعة المتوسطة.
والآن حين أسفرت التجربة عن إخفاق يندى له الجبين، قام ناس ينافحون عنها، ويريدون أن ينشروا الفكرة وينشئوا مكاتب أخر إشفاقاً على أنفسهم أن تجتاحهم العاصفة.
مشروع جديد:
إلى هنا هوى المشروع بين يدي النقد الصريح، وما كان لي أن أهدم مشروعاً دون أن ألتمس له طريقاً يسلكه صوب النجاح. وبينا أنا أفتش عن طريق الإصلاح إذا بالجرائد تطلع علينا تقول:
(أشرنا من قبل إلى رغبة وزارة المعارف في تيسير التعليم الزراعي لتلاميذ المدارس الإلزامية وقد انتهت إلى وضع النظام التالي على أن يعمل به ابتداء من السنة الدراسية القادمة.
أولاً: يلحق تلاميذ المدارس الإلزامية بالمدارس الزراعية المتوسطة ليتمرنوا تمريناً عملياً في أقسامها المختلفة كالحقل ومعامل الصناعات الزراعية ومعامل اللبن.
ثانياً: أن تكون مدة الدراسة خمس سنوات: اثنتان إعداديتان والسنوات الثلاث الباقية يوزع فيها التلاميذ للتخصص بأحد القسمين وهما: قسم الحقل ويشمل معمل الألبان وتربية الحيوانات. وقسم البساتين ويشمل الصناعات الزراعية وتربية النحل ودودة القز.
ثالثاً: ألا تقل سن التلميذ عند الدخول عن 13 سنة ولا تزيد على 15 سنة وبشرط أن ينجح في كشف الهيئة والكشف الطبي).
(الأهرام، 381940)
فقلت: لا جرم، فقد تكسر المكتب الزراعي القديم ليكون هذا المشروع مكتباً زراعياً أخراً من نوع جديد، وهالني أن (يلحق تلاميذ المدارس الإلزامية بالمدارس الزراعية المتوسطة) لأمور أفصلها فيما يأتي:

أولاً: لأن التعليم الإلزامي يعم القطر المصري كله، والمدارس الزراعية المتوسطة في دمنهور وشبين الكوم ومشتهر والمنيا فحسب؛ فكيف يستطيع التلميذ الإلزامي في قنا أو جرجا أو كفر الشيخ أو كوم حمادة - مثلاً - أن يأخذ قسطه من التعليم الزراعي الجديد ونحن نعلم أن تلامذة الإلزام فقراء لا يستطيع الواحد منهم أن ينأى عن أهله، وإن استطاع هو فلن يرضى أبوه وهو في حاجة إليه شديدة، وإذن لا يمكن أن ينتشر هذا التعليم بين تلامذة الإلزام في سهولة وبتكاليف قليلة. وإذا قيل إن هذا المشروع ستغذيه فئة قليلة ممن يستطيعون. . . فقد ضاعت الفائدة المرجوة؛ وانمحى مبدأ (التيسير) الذي تنشده الوزارة.

- ثانياً: لأن إجازات التعليم الإلزامي - ولاسيما في القرى مرتبطة بمواسم الزراعة فالتلميذ هو عضد أبيه. . . ولقد جاء في أهرام 2771940 ما يأتي: (وافق معالي وزير المعارف على تعديل نظام الإجازات بمدارس الزراعة المتوسطة ابتداء من أول السنة القادمة بحيث لا تقع هذه الإجازات أثناء المواسم الزراعية المهمة فيفوت على الطلبة ما يمكن أن يفيدوه من خبرة ودربة على الزراعة العملية تحت إشراف أساتذتهم). ولا ريب فهذا قانون يسري على كل طالب وتلميذ في المدارس الزراعية ومن بينهم تلميذ الإلزام، فهل يا ترى، يضحي الأب بقوته، أم تضحي الوزارة بالفائدة؟

ثالثاً: لأن تلاميذ التعليم الإلزامي سيخلقون في المدارس الزراعية فوضى يحق لي أن اسميها (فوضى الاضطراب) أو (فوضى التوسع). ذلك لأنهم لا يستطيعون أن يقوموا بما يقوم به الطالب الزراعي في حين أنهم يقفون معاً جنباً إلى جنب فالطالب الزراعي يستطيع أن ينهض بأعباء الدراسة في سهولة لأنه نال حظاً من الثقافة المتوسطة، وأن ينتظم في الدراسة في غير عنت لأنه كرس حياته لهذا النوع من التعليم، وأن يدفع المصروفات لأنه غني. أشياء تعضل كلها على التلميذ الإلزامي.

ولعل إنساناً يقول: إن التلميذ الإلزامي سيتعلم مجاناً. لا بأس وإذن يجب أن يتعلم الطالب الزراعي بالمجان أيضاً، وإلا فعلى أي أساس تكون التفرقة بين هذين التلميذين. فإن اعترض إنسان بقوله إن لكل منهما عملاً. قلت: وكيف يضمهما بناء واحد يشعر أحدهما بالكبرياء والترفع ويشعر الآخر بالضعة والذلة؟ وكيف يضم بناء واحد فئتين من التلاميذ يدرسان فناً واحداً غير أن إحداهما دون الأخرى. لا مرية، فهذا عمل تأباه الإنسانية وإذن لابد أن ينفصل أحدهما عن الآخر.

وهنا ينهد هذا المشروع الجديد قبل أن يبدأ.

رابعاً - لأن (فوضى الاضطراب) أو (فوضى التوسع) تبدو للعين واضحة جلية حين نرى أن ناظر مدرسة الزراعة المتوسطة سيشرف على المدرسة الجديدة والمدرسة القديمة وتلامذة الإلزام ولكل فئة من هؤلاء منهج ونظام، ثم الحقل والعمال والمخازن والآلات و. . . مما ينوء بالعصبة أولي القوة. ولكن الشغف بالشيء يعمي عن الحقيقة البينة.

الإصلاح:

إن نشر التعليم الزراعي بأقل التكاليف وأبسط الطرق هو المبدأ الذي وضعته أمام عيني حين أخذت نفسي - بادئ ذي بدء - بنقد هذا التعليم. وهذا المبدأ يستطاع تحقيقه بتنفيذ عملين معاً.

العمل الأول: أن تصير سنوات الدراسة في المدارس الإلزامية خمساً وتلحق بكل مدرسة قطعة أرض صغيرة تقسم إلى خمسة أقسام لكل فصل قسم يزرعه نوعاً أو أنواعاً من المحاصيل الزراعية أو الخضراوات حسب تقسيم المنهاج. وهذه القطعة يزرعها التلاميذ بأنفسهم لا يساعدهم أحد إلا أن يكون للتدريب والتوجيه ليشهدوا ويعملوا بأيديهم تحت إشراف مدرس من خريجي المدارس المتوسطة. أما الماشية التي يحتاجون إليها فيستطيعون الحصول عليها من أحد أعيان الناحية أو من عمدة البلدة. ويقوم التلاميذ على حساب الإيرادات والمصروفات، ويكلفون بجمع الحشرات المختلفة ويتعلمون (سورة الفدان). وهكذا يستطيع التلميذ أن يتعلم فن الزراعة وفلاحة البساتين ومبادئ الكيمياء الزراعية وعلوم الحيوان والنبات والحشرات ومساحة

الأراضي في صورة بسيطة. ولا ريب عندي أن التلاميذ يستطيعون بجدهم أن يسددوا إيجار قطعة الأرض الملحقة بالمدرسة، وبذلك لا تخسر الوزارة شيئاً في حين قد كسب الوطن أشياء كثيرة.

وهذا عمل تقوم به مراقبة التعليم الإلزامي في سهولة، وفي غير إرهاق.

ولتمام فائدة هذا العمل ينشأ في كل مركز معمل ألبان وآخر للصناعات الزراعية يقوم عليه طائفة ممن أتموا مرحلة التعليم الإلزامي ويبتغون الزيادة: يشترون المواد الخام، ويبيعون المنتجات، ويحسبون الأرباح والخسائر بأنفسهم.

العمل الثاني: أن ينشأ في كل قرية أو عدد من القرى المتجاورة مكتب إرشاد يشرف عليه أحد خريجي كلية الزراعة.

ويكون رئيس هذا المكتب هو رئيس مدرس الزراعة بالمدرسة الإلزامية، وحلقة الاتصال بينه وبين المباحث الحديثة، فهو يبلغه النشرات الجديدة، وما يطرأ على فن الزراعة من تجديد وتغيير، ويفتش على عمله بالمدرسة وبالحقل، ويكتب التقارير إلى جهة الاختصاص و. . .

وهذا العمل تقوم به وزارة الزراعة أو وزارة الشئون الاجتماعية.

هذا. . . وللمدارس المتوسطة جولة أخرى إن شاء الله.

(للموضوع تكملة)

(*)

وداع الشاطئ

من الفردوس إلى الجحيم

للأستاذ سيد قطب

أُحْلُ يا شطُّ ما تشاءُ فإنّي ... رغمَ سحرِ الجمالِ والموجِ راحلْ
راحلٌ حَشْدُ نفْسِه لفَتاَتْ ... ليس عن فتنةِ الجمالِ بغافلْ
قدَ دَعَتْهُ إلى الرَّحيلِ ديارٌ ... في صميمِ الجحيمِ تُدْعى الشواغلْ
هي قبرُ الآمالِ والفنِّ والحبْ ... بِ وقيدٌ عن كلِّ ما شاقَ شاغلْ
وهي داري التي دَرَجْتُ عليها ... وإليها المآبُ مَهْما أحاولْ!
أُحْلُ يا شطُّ بالجمالِ طليقاً ... من قُيودِ الزمانِ نشوانَ وَاهِلْ
أسْكَرَتْهُ الأمواجُ وهي تُرَجِّى ... دَفَعاتِ الحياةِ في كلِّ نازلْ
فيرَى نفْسَهُ خفيفاً غَرِيراً ... قاهراً قادراً يجوزُ الحوائِلْ
دَفَعاتُ الحياةِ في الموجِ أسْنَى ... من بَريقِ الآمالِ في نفْسِ آمِلْ
أُحْلُ يا شطُّ بالعَرائِسِ حُوراً ... سابحاتٍ والموجُ ظمآنُ ناهِلُ
كانْفِتالِ الحِيتانِ في البحرِ وَثْباً ... وانثناءِ الغِزْلانِ والشطُّ ذاهلْ
فتنةٌ تسكبُ الحياةُ عليها ... سِحْرَها والعيونُ حُورٌ قَوَاتِلْ
واندفاعُ الأمواجِ يُوقِظُ في النَّفْ ... سِ ظَماءً مُرَقْرَقاً في الدَّخائِلْ
وانطلاقاً من التَّزَمُّتِ والْعُرْ ... فِ وشوْقاً إلى المباهِجِ واغِلْ
أُحْلُ يا شطُّ لن نُطيقَ انْفِلاَتاً ... من رَحيلٍ إلى جحيمِ الشواغلْ

القبلة

للأستاذ خليل شيبوب

يَا حَبِيبي قد أَمُوتُ غَدَا ... ذَائِباً في حَسْرَتِي كَمَدَا
آهٍ لوْ تَشْفِي غَلِيلَي في ... قُبْلَةٍ مَا تَنْتَهِي أَبَدَا
أتَملاَّهَا فَماً لِفمٍ ... لِتُذِيبَ الرُّوحَ وَالْجَسَدَا
نَاهِلاً أنفَاسَهَا عَبَقاً ... نشْرُهُ يَسْتَرْوِحِ الْخُلَدا
شَارِباً مِنْ طِيبِ رَشْفَتِهَا ... خَمرَةَ الموْتِ الذِي عُهِدَا
حَافِظاً مِنْ طَعْمِهَا بَفَمِي ... لَهَباً يَشْتَدُّ مُتَّقِدَا
عَلْقَماً تَحلو مَرَارَتُهُ ... وَتَشُقُّ الْقَلْبَ وَالْكَبِدَا
سَكْرَةٌ مَخْمُورُهَا تَعِسٌ ... لَنْ يُلاَقِي بَعْدَهَا رَشَدَا
إيهِ يَا شَمْسَ حَيَاتي التي ... نُورُهَا قَدْ شَعَّ مُنْفَرِدَا
أنْتِ رُوحِي لَيْسَ عَنْكِ غِنىً ... أوْ تُضَحَّى الرُّوحُ عَنْكِ فِدَى
أنْتِ آمَالِي مُجَسَّمَةٌ ... تَزْدَهِي أَلْوَانُهَا جُدُدَا

وَحَيَاتي أنْتِ زِينَتهَا ... جُزْتِ فِيهَا المالَ وَالوَلَدَا
أنْتِ سِرُّ العُمرِ أَفْهَمُهُ ... أَنْتِ مَعْنَاهُ يَفِيضُ هُدَى
إنَّهُ قَدْ صَارَ لَحْنَ هَوَى ... وَغَدَا قَلْبِي بِهِ غَرِدَا
كاَنَ لِي عِقلٌ يُدَبِّرُني ... وَهْوَ فِي حُبِّيكِ قَدْ شَرَدَا
كاَنَ لِي عزمٌ أعِيشُ بهِ ... وَهْوَ مِنِّي اليومَ قَدْ فُقِدَا
كلُّ مَا فِي العَيْشِ مِنْ فِتنٍ ... ذَهَبَتْ غَيْرَ الغَرامِ سُدَى
أنَا مُسْتَغْنٍ بِحبِّيَ عَنْ ... كلِّ مَا فِي الكاَئِناتِ بَدَا
آهِ يَاَ شَمْسَ حَيَاتي ألاَ ... قُبْلَةٌ أحْيَا بِها أبَدَا
أتَمَلاَّهَا فَماً لِفَمٍ ... لِتُذِيبَ الرُّوحَ وَالْجَسَدَا
عيد ميلاد سعيد
للأستاذ العوضي الوكيل
يَومُكِ يَوْمي، وعِيدُكِ العيدُ ... وَفيهِ تَحلُو لِي الأناشيدُ
يا رَوضَةً قدْ زَهتْ مطالعُها ... هَاَتَذَا في رُباكِ غِرِّيدُ
أشدُو بأحْلامِ مُهجَتي أبداً ... شِعْراً تَعي سِحْرهُ الْجَلاميدُ
تألَّقَ الحُبُّ في جَوَانبهِ ... وازدانَ بالفنِّ وهو مَنضُودُ
وسَلْسلتهُ عواطفٌ سَلسَتْ ... فما بشعرِ الجمالِ تَعقِيدُ
يا زَوْجَتي، يا هَوَايَ، يا أمَلي ... قلبي بمعنَى سَنَاكِ مَحْشُودُ
بَقِيَّتِي أنتِ في الحياةِ وَمَا ... مَحْيايَ إلا إليكِ مَردُودُ
من مُنذ عشرينَ غَيرَ وَاحِدةٍ ... وَمَعدنُ الفَنّ فيكِ مَوجُودُ
وَقَدْ سَخَا الكونُ حِين أخْرَجَهُ ... وهو شحيحُ اليَدَينِ مَنكُودُ!
خُذي، خُذي الشعرَ من مَصادِرِه ... وَرَدِّديهِ إن لَذَّ تَرْديدُ
ورَجعي لحنَهُ عَلَى خَلَدِي ... فإنّ هذا للحُسنِ تَمْجيدُ
إن حَدّدته الحروفُ في كلمٍ ... فما لهُ في الضميرِ تَحْديدُ
يومُكِ يومي، وتلكَ تَهْنِئَتي ... تزُفُّهَا نَحوَكِ الأغَاريدُ
تَبَلْبَلَ القَلبُ في مَقَاطِعِها ... يَهتفُ: عُمرٌ كالدَّهرِ ممدُودُ
نداء. . .
للأديب عبد الرحمن الخميسي
يا حمامتي في محاجئ الصخر، في ستر المعاقل، أريني)
(وجهك، أسمعيني صوتك، لأن صوتك لطيف، ووجهك جميل
(التوراة)
وجهها
سَواهُ رَبِّي فِتنةَ الأحْياءِ ... من سَرْمَدِي الحُسنِ وَالأَلاءِ
ما وَجهُ أفرُودِيت إلا صُورة ... منه، كَظِلِّ الوَرْد فوْق الماءِ
خَطَّ الإلهُ السحْرَ في قَسَماتِهِ ... ونَماهُ في جَنّاتِهِ الفيحاء
وَسَقاهُ أرْوَاحَ الجمالِ فكله ... كلُّ الجمال مُفَصَّلُ الآلاء
فيه الربيعُ وفيه طيرٌ ما شدتْ ... لكنها تشدو بغيرِ غِناء
فيهِ من الليْلِ الوَدِيعِ قدَاسةٌ ... تُلقى بُذورَ الخيرِ في أطوَائي
فيه مِنَ الألَقِ المُصفَّى لُمعَةٌ ... خمريةٌ مَشْبُوبةُ الإغرَاءِ
فيه خُفُوتٌ شاعريٌّ، تحتَهُ ... نارُ الشباب تسيرُ في اسْتِخذَاء
فيه النَّقاوَةُ وَالبراءةُ جُمعتْ ... وتَحدَّرَتْ منهُ إلى البُرآءِ
هو مَعبدٌ تَعتاشُ في مْحِرابهِ ... صَلوَاتُ عُشاقٍ، ونُسكُ سَمَاء
ضَحيتُ فيهِ تقرُّباً من خَالقي ... بزهور عُمرِي والتِماعِ هَنَائي
ونفضتُ عَنِّي المجدَ، مجداً زائفاً ... ونشدتُ فيهِ رِفعتِي وَعلائي
وَعَبَدتُ فيه الله لا مَحبُوبَتي ... فالله مُبدعُ تلكُم العَذرَاءِ
وَنَسَجتُ من أنْوارِهِ غَيبُوبَتي ... فوجدتُها أنقَي مِن الأضْواءِ
يا شَعرَها الغَريبَ لَيتَ أنا الذي ... أهْتَز فَوقَ جَبِينهَا الوَضّاء
فأمُدُّ مِنْ ذَاتي قناَعاً حَالِكاً ... يخْفي ابتِسَامَتَها عن الأحْياءِ
فَأنا أغَارُ، وَغيرَتي مَجنُونةٌ ... هَدَّتْ بنائي، آه أيْنَ بنائي؟
ما حَرَّكتْ أجْفانَها إلا وَقدْ ... لَطَمَتْ فُؤَادِي غمرةُ الإغْياءِ

والسهدُ في العينين كَبَّل مَنَطِقي ... وَأصَابَني بالرعْشَةِ الحَمقاءِ
صوتها
ينسابُ كالصهباءِ في حسِّي إلى ... أنْ تحتويه نشوةُ الصهباء
فتميد بي الدنيا وأنسى صرفها ... وتُفَكُّ روحي من إسار بقائي
وأهيمُ في أفقِ الذهول معانقاً ... وَهْمي إلى عُشٍ من الأضواء
تختالُ فيه القُشبُ من أحلامنا ... وتَرفُّ حولي عَذبةَ اللألاء
هو ذُخرُ وجداني إذا ما فَرقَتْ ... بيني وبينكِ رِجفةُ الأنواء
فيرنّ في غوري صداهُ مرقرقاً ... شوقَ الحبيبِ إلي الحبيب النائي
ويُفيحُ حرَّ الوجدِ من أنغامِه ... في حَبَّتي وعلى هدير دمائي
فَيلُفني الإعصارُ إعصارُ الجوى ... وتُذيبُ نفسي غُربةُ الشعراء
إني أحِسُّ لرَجعِ صوتك في دمي ... لهباً وبرداً يُترِعان ذِمائي
وأودّ لو أني هواءً عاطراً ... ثَملاً بموسيقاه في أحنائي
أطوي عليه النفسَ خشيةَ سامعٍ ... وأغارُ يا دنيايَ من أحشائي
يا ليتَ أني في لهاتِكِ غُنوَةً ... علوية التلحين والإلقاء
لَسَكنتُ في الألباب أخلدَ منزلٍ ... ما دمتِ أنتِ ترنمتْ بغنائي
إني الشحيحُ وجَرسُ صَوتُك في دمي ... وسواسُ تِبرٍ نافذُ الأصْداءِ
حول الرنينِ يطوفُ عُمري مثلماً ... يَتَطَوَّفُ الحَرَّانُ بالأفْياءِ
ولسانُكِ الذّهبيُّ قيثارٌ سَرتْ ... من قَلبهِ أغْرُودةُ الجوزاء
وكأنها فجرٌ، أنا في نُورِهِ ... جسمُ الدجُنَّةِ ذائبُ الأعضاء
وكأنها عِطرٌ يُضمِّخُ مهجتي ... وأنا النسيمُ مُطهَّر الأرُجاء
وكأنها طلٌّ يغيثُ حَشَاشَتي ... وأنا البَنَفسجُ في الربى القَحْلاء
وكأنها جَمرٌ يُحرِّقُ معْدني ... وَيُحيلني رُوحاً مِنَ العلياء
وكأنها كلُّ الحَيَاة تدُبُّ في ... جَسَدِي دَبيبَ النور في الظلْمَاء
رسالة الفن
لابد من حل
الفن. الخبز. الروح
الرجاء في معالي وزير المعارف الفنان الكبير (الدكتور)
((هيكل باشا
للأستاذ عزيز أحمد فهمي
يذكر القراء أن مدرسة الفنون الجميلة العليا تورطت في العام الماضي مع نفسها تورطاً عجيباً إذ حكمت على طلبة قسم النحت فيها بأن يرسبوا جميعاً وأن يعيد كل منهم دراسته في سنته نفسها.
ويذكر القراء أن إشاعات كثيرة راجت حول هذا التورط العجيب، كما يذكر القراء أن الرسالة تناولت هذا الحادث الخارق للعادة بكلمة حدث على أثرها - ولا نقول بتأثيرها - أن نقل الدكتور ناجي مدير المدرسة السابق منها، وأن عهد بإدارة المدرسة للأستاذ محمد حسن المراقب المساعد للفنون الجميلة بوزارة المعارف.
والأستاذ محمد حسن رجل له خطط يرسمها وينفذها مستعيناً عليها بجماعة من أساتذة الفنون في مدرستي الفنون الجميلة العليا والفنون التطبيقية. وهم كلهم من الشبان المتطلعين إلى فوق، والذين يؤمنون بأنه قد آن للمصري الفنان - كما آن لكل مصري - أن يزيح عن مناصب الحكومة وعن ميادين الأعمال الحرة أيضاً كل أجنبي دخيل جاء إلى مصر ليربح المال، وليجمع المال، وليكسب المال.
وأنا وإن كنت بعيداً عن كل تعصب، وإن كنت أكره التفريق بين الناس لأي سبب من الأسباب، فإني لا أملك أن أصد الأستاذ محمد حسن عن المضي في اتجاهه، لأنه قد تم له فعلاً التخلص من كل الأساتذة الأجانب في مدرسة الفنون الجميلة، وقد أحل بدلاً منهم فعلاً فريقاً من الأساتذة الشبان المصريين. وهؤلاء هم الذين نرجو اليوم على أيديهم الخير للمدرسة، والله الموفق.
وكما دبر الأستاذ محمد حسن مسألة الأساتذة على هذا النحو الذي أرتآه، فقد فكر أيضاً في

مسألة الطلبة والمتخرجين، ورسم لهم هم أيضاً خطة قال لي إنه عرضها على معالي الدكتور هيكل باشا في وزارته السابقة، كما قال لي إن معاليه وافق عليها، ورصد لها مبلغاً من المال ليبدأ تنفيذها به، ثم حلت الظروف القاسية التي نعانيها اليوم فبطل الإنفاق وبطل التنفيذ.

وهذه الخطة هي موضوع حديثنا اليوم، لأننا لا نزال نرى أن هذه الظروف القاسية لا يمكن أن تكون حائلاً دون تنفيذها، بل إننا نرى أن هذه الظروف القاسية نفسها دافع قوي يحفزنا إلى التعجيل بها.

تخرج مدرسة الفنون الجميلة العليا كل عام جماعة من الشبان الفنانين، بعضهم يلتحق بوظائف الحكومة، وبعضهم يظل يسعى وراء وظائف الحكومة إلى أن يلتحق بها، لأنه لا سوق للفن في مصر.

فإذا كانت الحكومة تنوي أن تستبقي مدرسة الفنون الجميلة العليا مفتوحة للطلاب تستقبلهم وتخرجهم، فإن عليها أن تفكر في أمرهم، فهي المسئولة عنهم، كما أنها المسئولة عن كل عبد من عباد الله الذين تتولى أمورهم.

ونحن لا نجرؤ على مطالبة الحكومة بتوظيف كل متخرج من هذه المدرسة، فنحن نعرف أن وظائف الحكومة محدودة، وأن الحكومة متخمة بالموظفين، كما أننا نعرف أن الفن لا يحيا مرتاحاً، ولا ينمو مزدهراً في الدواوين والمصالح.

فالباقي على الحكومة أن تفكر فيه إذن، هو أن تنشئ للفن في مصر سوقاً، أو أسواقاً؛ فإذا هي فعلت ذلك، تفتحت أبواب الحياة أمام الفنانين، وتفتحت عيون الناس على الفنون، وتابع الجمهور الحكومة في الاهتمام بالفن وفي الإقبال عليه.

وإذا كانت الحكومة قد آمنت بأن التمثيل فن جدير بالرعاية والتشجيع لما يهذب النفوس ويرقيها، فأنشأت الفرقة القومية، وفتحت بها للمثلين باباً مطمئناً من أبواب الرزق، وإذا كانت الحكومة قد آمنت بأن الغناء والموسيقى فنان جديران بالرعاية والتشجيع لما يصقلان النفوس ويرفهان عنها، فرعت محطة الإذاعة، ورصدت لها إعانة سنوية تنفق على المغنين والمطربين، وتضمن لهم باباً مطمئناً من أبواب الرزق أيضاً، فإن على الحكومة كذلك أن تؤمن بأن النحت والتصوير فنان لهما أثرهما في النفوس كغيرهما من الفنون، وعليها بعد ذلك أن تفتح للنحاتين والمصورين الذين تربيهم باباً مطمئناً من أبواب الرزق كما فعلت ذلك مع غيرهم.

فما هي هذه السوق التي تستطيع الحكومة أن تنشئها للنحاتين والمصورين؟

فهي أول ما يرد إلى الذهن، ولكن التجربة أثبتت أن الجمهور المصري (المتاحف)، منصرف عن المتاحف انصرافاً تاماً، وأن كل ما ينفق عليها عبث لا يجدي ولا يعود بالنفع، فهي بعيدة عن الجمهور، لا يقصد إليها أحد، ولا يستمتع بها أحد، ولا يتأثر بها أحد. والذي نريده نحن أن نضع الفن تحت أعين الناس حتى يروه ويتأثروا به، ثم يحبوه، ويقبلوا عليه.

وقد ألهم الله الأستاذ محمد حسن فكرة ضمنها تقريره الذي رفعه لمعالي الدكتور هيكل باشا فوافق عليه ولكنه توقف عنه للأزمة الطارئة. . .

وتلك الفكرة هي أن تقرر الحكومة تزيين معاهدها ودورها العامة، وحدائقها ومتنزهاتها، وشوارعها وميادينها بالصور والتماثيل. . .

وتستطيع الحكومة أن توفر آلاف الجنيهات من ثمن السجاجيد التي تفرشها على الأرض في دورها ومعاهدها، وأن تعطى هذه الآلاف للفنانين المصريين الذين يشكون اليوم أزمة البوار بينما اليوم هو يومهم الذي تلطب البلاد فيه نفثات أرواحهم.

ومعالي الدكتور هيكل باشا أول من يعرف أن نفوس الجماهير لا يؤثر فيها شيء مثلما يؤثر فيها الفن، وأنه لا يملؤها عزماً وحباً للحياة إلا الفن، وإني أخجل من التحدث إليه في هذا الموضوع لأني واحد من أبنائه فيه، فقد تعلمت من كتابته كما تعلم غيري أن تباشير النهضات دائماً لا تكون إلا فنوناً يتلوها العلم، ثم يتلوه العمل.

فإذا قيل لنا إن الظروف القاسية التي نعانيها اليوم تمنعنا من التبذير ومن الإنفاق على الفنون الجميلة في الوقت الذي تحتاج فيه إلى الإنفاق على ما هو أهم منها وأكثر ضرورة ووجوباً في هذه الظروف، قلنا إنه لا شيء أهم من الفن في هذه الظروف ولا شيء أكثر منه ضرورة ولا شيء أكثر منه وجوباً.

وإن نظرة واحدة نلقيها على الدول المتصارعة في العالم اليوم تثبت هذا الذي ندعيه، فألمانيا وإيطاليا استعانتا بالفنون على تهييج شعبيهما، فما في برلين ولا في روما ميدان إلا
وفيه تمثال، وما في برلين ولا في روما شارع إلا وفيه صور وخرائط ورموز تشعل الحقد والغرور في نفوس الناظرين إليها من أهلها، وإن بريطانيا العظمى اليوم لتستعين بالأدباء والخطباء على إثبات حقها في الدفاع عن الديمقراطية التي تتحدى بها الديكتاتورية وتناصرها عليها. وكل من ألمانيا وإيطاليا وبريطانيا العظمى تنفق على التصوير والنحت والأدب والخطابة ملايين الجنيهات غير آسفة، لأنها تعرف أن هذه الفنون غذاء لازم للأرواح لا تستطيع الأرواح الإقبال على الكفاح أو الثبوت فيه إلا إذا شبعت وارتوت منها. وإذا كانت هذه الدول تؤمن بفوائد الفنون هذه الإيمان، وإذا كانت هذه الفنون قد أحدثت في هذه الدول هذه الآثار التي نراها من اختبال العقل في الألمان والطليان والصبر الجبار عند البريطان، فإنه جدير بنا أن هرع إلى هذه الفنون لنشبع أنفسنا ونرويها منها، فلسنا نعيش في دنيا غير الدنيا التي تعيش فيها هذه الدول، وإنما نحن في مركز الدائرة، وإذا نحن فوتنا هذه الفرصة وقعدنا فيها عن استغلال الفنون في إثارة الروح الوطنية في نفوس المصريين، فإننا قد لا نحتاج بعد اليوم إلى الفن يحيينا، لأننا قد نحتاج بعد اليوم إلى أدوية وضروب أخرى من العلاج.
هذه الظروف القاسية إذن هي أنسب الظروف لإنعاش الفنون الجميلة وإحيائها وتفتيح الأسواق للفنانين، وتستطيع الحكومة أن تبدأ منذ اليوم بإنشاء مكتب جديد في وزارة المعارف لشراء الصور والتماثيل من الفنانين لتوزيعها على الدور العامة والمعاهد الحكومية والميادين والمتنزهات والشوارع، وأظن أن تاريخنا الطويل مملوء بالموضوعات الوطنية الجبارة التي تفعل في النفوس فعل السحر، كما أظن أنه كان من آبائنا وأجدادنا أبطال من حقهم علينا، ومن حقنا على أنفسنا أن نخلد صورهم أمام أعيننا لننظر إليها دائماً ولنستقي من معانيها آيات المجد والحرية والإيمان.
ولعله مما يضيق به صدر الحق والفن أن تكون كليات الأزهر خالية من تماثيل أبطال الأزهر وصورهم، وأن تكون الكلية الحربية خالية من صور زيتية تخلد البطولات المصرية والانتصارات المصرية في تاريخنا القديم وفي تاريخنا الجديد، وأن تكون كليات الجامعة خالية من تماثيل رجال العلم ورجال الأدب المصريين والأجانب الذين لا نزال نتتلمذ عليهم ونأخذ عنهم، وأن تكون دار البرلمان المصري مزدانة بصور فوتغرافية ملونة
صنعتها آلات جامدة فهي لا تجسد للعين ولا للقلب المزايا التي استحق أصحاب هذه الصور أن يحتفظ البرلمان المصري بصورهم لها وأن يزين جدرانها بها من أجلها. ولعله مما يزور عنه الذوق أن تكون دور الأوبرا المصرية خالية من صورة أو تمثال لسيد درويش وسلامة حجازي، وعبده الحامولي، ومحمد عثمان وغيرهم من الفنانين المصريين. . . ولعل. . . ولعل. . . ولست أريد أن أمضي في تعداد نواحي النقص هذه البارزة في حياتنا فنحن نعرفها، وليس فينا من يجهلها. . . والذي يهمنا اليوم هو أن نبدأ بعلاجها لأننا قد شبعنا كلاماً فيها.
بقيت بعد ذلك فكرة طريفة، قال لي الأستاذ محمد حسن: إن بعض الدول في أوربا تنفذها بالفعل، وهي أنها تلزم أصحاب العمارات والبنايات الكبيرة بأن يخصصوا اثنين في المائة على الأقل من تكاليف بناياتهم وعماراتهم بزخرفة هذه العمارات والبنايات وتزيينها بالرسوم والتماثيل والصور. ولا شك أن تنفيذ هذه الفكرة يفتح الميدان واسعاً جداً أمام الفنانين، وهو في الوقت نفسه لا يضر أصحاب العمارات والبنايات في شيء.
والآن: الطريق أمامنا ممهدة معبدة. ونحن إذا آمنا بفائدة الفن وفعله في النفوس وأردنا أن نستغله لترقية أنفسنا فإننا من غير شك سنجد أنفسنا حيال أزمة هي عكس الأزمة التي تشكو منها اليوم. . . فنحن اليوم نبحث عن عمل للفنانين. ولكننا عندما نبدأ بتنفيذ هذه الفكرة سنجد أنفسنا مشغولين بالبحث عن الفنانين لكثرة العمل.
وعلينا أن نذكر أخيراً أن الحكومة إذا بدأت بتقدير الفن والفنانين المصريين، فإن كثيرين من عظمائنا وأغنيائنا وفقرائنا سيتبعونها في هذا التقدير، لأننا شعب تعود أن يتأثر (الميري) دائماً. ويا حبذا أن نتأثر (الميري) في الخير.
عزيز أحمد فهمي

رسالة العلم
قصة الفيتامين
للأستاذ عبد اللطيف حسن الشامي
- 3 -
عاد البحث ثانياً عن (الفيتامينات) عقب سني الحرب في سنة 1919، بعدما انطفأت شعلة الحرب واتجهت الإنسانية تسعى وجهة علمية مدنية، وعاد شغف البحاثين وولع العلماء في جميع المعامل بمتابعة التوسع في دراسة مبهمات هذه المادة الغذائية اللازمة للحياة، والتي دلت عن طريق التجارب الغذائية على وجودها في كثير من الأطعمة مثل الخميرة والزبدة وكبد الحوت والبيض والقشدة وبذور الحبوب والكرنب والكرنبيت والخس والطماطم وغيرها، كما اتضح أنه يستحيل نسبتها جميعاً إلى أصل مادة واحدة، فهي إذن تنتمي إلى مجموعات عضوية مركبة مختلفة التركيب.
ومن المشاهد أنه في حالة غياب أي نوع واحد من الطعام يحمل الفيتامين تظهر أعراض مرضية تختلف عن تلك التي تظهر عادة عند نقصان نوع ما من الغذاء. فالحالة الأخيرة تتلاشى فيها الأعراض عند إكمال النقص بعكس الحالة الأولى التي تستدعي لزوال أعراضها مصادر عديدة مختلفة من الفيتامينات.
وبتوالي استنباط وتجديد تراكيب غذائية مختلفة لا توجد فيها الفيتامينات إما من الأصل أو سلبت منها قسراً، وإجراء هذه التراكيب على الحيوانات كالفيران، وملاحظة ما يطرأ من الأعراض ويجد، ثم معالجة هذه الأعراض بالدقة والترتيب اللازمين، وذلك باجتناب المواد المسببة لتلك الأعراض. من تلك المشاهدات، ومع ما تستوجبه من الحرص والكفاية أمكن العثور بادئ ذي بدء على أربعة أنواع من الفيتامينات. ومع ضياع كل الجهود التي ذهبت حينذاك هباء للتدليل على الفيتامينات من الناحية الكيميائية، أو لتكييفها طبيعياً، فقد وضحت طريقها ووضعت لهذه المواد الحيوية المبهمة غير المحدودة المعالم الرموز: , , ,
لم يثن هذا من عزم الباحثين ولم يقف الجمود أمام سر تركيب الفيتامينات حجر عثرة في طريق البحث والتطلع من الستار الحاجبة أخذت تتهتك وتشف، وأخذ في تطبيق النتائج
التي وصل إليها عن طريق تغذية الحيوان - على الإنسان. وقد أدى هذا إلى معرفة وتشخيص كثير من الأمراض كانت مجهولة الأسباب حينذاك مثل: البري بري والأسخربوط والبلاجرا (الطفح الجلدي اللومباردي - نسبة إلى لومبارديا في إيطاليا) والراخيتيس فعرفت بعدئذ بأمراض نقص الفيتامين أو الفيتامينوزات.
وكان من أثر هذه النتائج وشيوعها، واستغلال بعض الصناعيين لها في ترويج مستحضراتهم بعد ما عرف أن الأمراض سابقة الذكر غير مستعصية العلاج - أن ظهر ما سمي حينذاك (بشبح الفيتامين) أو (حمى الفيتامينات) الذي يُذكّر من جديد (بشبح البكتريا) لعشرين سنة خالية قبل هذا التاريخ إذ قيل عند اكتشافها بأن كائنات دقيقة حية هي التي تنقل المرض وتسبب العدوى، لذا وجب الإغلاء والتعقيم كي تموت هذه المسببات، بينما قيل العكس في الحالة الجديدة التي يشار فيها بعدم الإغلاء أو الطهي إن أمكن حتى لا تؤذي الفيتامينات أو تتعرض حيويتها للهلاك.
وقد أدى هذا إلى كثير من الخلط والالتباس، تعرضت له حالة الفيتامين الجديدة إبان نشوئها إلى كثير من الشبهة، وليس فقط في مستهلها بل وفي أثناء إتمام بحثها مما سنراه.
ولقد أسيء كثيراً إلى كلمة الفيتامين نظراً لاستعمالها في أوضاع خاطئة ولتشعب النواحي والأفكار بخصوص ما ينتظر منها ومن أثرها ومدى عملها في منع أو شفاء كثير من الأمراض، ومع هذا فقد بلغ علم دراسة الفيتامينات شوطاً كبيراً في السنين الأخيرة حتى يومنا هذا - شوطاً ذا أهمية عملية بالنسبة لحياة الإنسان اليومية، مما لا يمكن أبداً الإقلال من قيمته بل على العكس إكباره وتقديره. وليس هذا فقط لما جدّ من اكتشاف أنواع أخرى من الفيتامين ولا لما عرف من عديد الأمراض التي كانت مجهولة الأسباب فأضحت أسبابها بيّنة ممكنة العلاج ولا لما أمكن تحضيره من هذه الفيتامينات صناعياً وما يجري العمل لإتمام تحضيره، بل لقد تهيأت الأسباب حديثاً لمعرفة طبيعة الفيتامين ومهمتها وعملها في الجسم وقصر ما بين حجابها وبين

الإنسان.
وإذا ما أردنا بكلمات قليلة أن نحصر أو نعرف أهم ما عرف عنها إلى اليوم وجدنا أن الفيتامينات عبارة عن مجموعات أو مخلوطات عضوية مختلفة التركيب هي نتيجة تطورات (تعقيد) لعوامل مساعدة في التمثيل (التحول الغذائي) وعليه تكون الحاجة إلى
وجود الفيتامين في الخلية الحية من أوجب الضرورات. وبما أن الفيتامينات قد وجدت في أصل البحث في النبات فيغلب على الظن أنها تقوم فيها مقام المواد الفعالة (الهرمونات) في جسم الإنسان والحيوان، كما وجد أن بعض النباتات قد تصيبها بعض أمراض نقص الفيتامين وهذا ما وصل إليه حديثاً العالم النباتي بورجيف إذا أثبت أن نبات يموت تدريجياً إذا لم يحصل أثناء نموه على الفيتامين (ب) عن طريق نبات فطري يعيش عليه معيشة اتحادية، وذلك لأن النبات نفسه غير قادر ولا مهيأ لعمل الفيتامين. وكما أن الفيتامينات ضرورية جداً في جسم الإنسان والحيوان ولا معدى عن وجودها فيه فهي كذلك (ضرورية) حتى عند الحيوانات الدنيئة - فقد تصيب الحشرات مثل الصراصير (صراصير المطبخ) والنحل ويرقة السوس أمراض نقص الفيتامينات.
يجب إذن تموين جسم الإنسان والحيوان دائماً بتلك المواد الحيوية، إما بفيتامينات كاملة أو أولية التركيب (بروفيتامين) وذلك لتسهيل عمل الخلية الحية أو مجموعة الخلايا وبالتالي لتنظيم سير الجهاز الحيوي (دورة الحياة)، وتكفي منها كميات صغيرة جداً وتعتبر كمصادر قوة أو كمواد البناء أو التشغيل في عملية التمثيل الغذائي وقد تعمل بين بعضها وبعض بطريق التبادل أو يحتل جزئياً بعضها أماكن بعض كمساعدة أو مسبب للأدوار المعقدة التي تقوم بها الخلية في عملية التمثيل.
فكما أن أي رئيس لأية فرقة موسيقية لا يشترك كباقي الأفراد في إدماج أو إدخال أي صوت آلي من عنده له أثر ما في النغم أو اللحن النهائي ولكنه كمشجع أو مهدئ أو ضابط للإيقاع أو موجه للعمل الآلي لبقية الموسيقيين فكذلك يمكن تشبيه الفيتامينات بضابط للإيقاع في فرقة متنوعة الأصوات، هي تشبه في مجموعها وعملها المتداخل بعضه في بعض التفاعلات الكيميائية في الجسم؛ فإذا انعدمت هذه القوة الدافعة المشجعة تداعت بالتالي القوات الأخرى أو ثبطت همتها أو تراخت ثم يقف التعاون بينها ويضطرب التجانس، ثم لا يلبث أن يظهر هنا وهناك أعراض تسترعي الانتباه.
وفي سبيل معرفة ميكانيكية أو تاكتيك المهام الدقيقة التي تقوم بها الفيتامينات بدأ العلم يجني أول ثمار بحثه وجهوده لاسيما بعد أن أصبح من المحقق الثابت أن عمل الفيتامين في الصميم يستقر هناك وراء كل دور أو عمل حيوي، فهو بهذا هناك حيث تجري عملية
تحويل المواد في الخلية أي حيث يكمن سر الحياة.
ويقوم عمل الفيتامين في الخلية على ثلاثة أمور: أولها تأثير تلك المواد الحيوية في شكل وصفات الخلية - في نموها وفي بنائها وتكاثرها وتجددها. وثانياً تأثيرها في قوة أسطح وجدر الخلية مما يفرق مسامية وشعرية (نفاذية) بعض الخلايا عن بعضها كالحال في خلايا الأمعاء الماصة. وأخيراً وأهم أمر - هو قيادة وتوجيه التحليل الغذائي في الخلية، كما تعمل على ترتيب تنفس الخلية ومباشرة تحويل المواد نتيجة الاحتراق إلى حامض كربونيك وماء في الخلية مستخدمة في ذلك ذرات دقيقة من المعادن الثقيلة كالحديد والنحاس والمنجان وغيرها كوقود لتدفئة وتسخين أفران الاحتراق - ويتعين على كل نوع من الفيتامين بدوره تقديم مساعدته الخاصة به في الجهة الخاصة من الخلية للمساهمة في ناتج العمل الحيوي الكبير، ولكنه لم يتهيأ للآن إكمال هذه النقطة الأخيرة بحثاً وقد يقف بعض الفيتامينات والهرمونات قريباً من بعض في التعاون والعمل لدرجة يصعب معها أحياناً تمييز بعض أمراض نقص الفيتامين عن الاضطرابات الهرمونية.
وكما تعمل المواد البوتينية في الغدد الفارزة كذلك لا يعدو عمل الفيتامين أن يدير أو ينظم التحويلات الغذائية المعقدة التي يرتكز عليها سير ونظام الحياة؛ ولبلوغ مهمتها هذه حد الضبط والإنجاز هيأت الطبيعة ترتيبات ومعدات عظيمة ما زال الإنسان يتخيلها ويضرب في التعرف عليها.
وليس للفيتامينات ككميات مجتمعة (متكورة) أي تأثير، ولكنه - لكي تقوم بعملها -

يجب أن تكون دقائق منتشرة في كل تيارات العصارة؛ ولكن إذا بلغت هذه الدقائق مبلغاً متناهياً في الدقة والصغر تراجع تأثيرها. ولتشبيه هذا العمل نتمثل لعبة من لعب الأطفال تتكون من كور ذات أحجام مختلفة تقابلها حفر (فتحات) معينة ذات اتساع كاتساع الكرات ولكن تضيق عنها قليلاً، ثم زد على الكرات الأصلية كرات أخرى أكبر منها وأخرى أصغر منها، فالكور الكبيرة لا تدخل الفتحات ولا تستقر فيها، والصغيرة تنفذ فيها ولا تستقر كذلك، والكور ذات الحجم الخاص هي التي تستقر وتملأ مواضعها. ولهذا قامت الطبيعة تبعاً لاختلاف انقسام جزيئات الكلوريد بعمل طريقة فذة لتنظيم سرعة الوظائف والأدوار الحيوية، وهذا من أهم ما تم معرفته للآن عن التأثير الميكانيكي الدقيق للفيتامينات.

وتبعاً لنداء فيتامين ما - سرعان ما تلبي النداء الخلايا التي في انتظار تغييرات هامة يجب حدوثها فيها. وهكذا يتعين بحضور الفيتامين في خلايا الجسم قيام الوظائف الحيوية التي منها: اطراد النمو، المناعة ضد الأمراض الناقلة وغيرها، بناء العظام، منع النزيف الدموي، حفظ نشاط مركز الجهاز العصبي، قوة التوالد والنسل.

ويبلغ عدد الفيتامينات التي عرفت للآن أو على الأقل عرفت مصادرها ومدى عملها وتأثيرها أربعة عشر فيتامينا، وهذا في مدى ربع قرن من الزمان، وسنكتفي هنا بالفيتامينات الهامة ذات الأثر الفعال في حياة الإنسان وهي المواد الحيوية , , , , ونبدأ أولاً بالفيتامين الذي كان سبباً في البحث وراء المواد الشافية الموجودة في الغذاء، وبه بُدئ درس هذه المواد الحيوية، ألا وهو الفيتامين

(يتبع)

عبد اللطيف حسن الشامي

مهندس

البريد الأدبي

سؤال وجواب!

توهم أحد القراء أني وقعت في غلطة إعرابية مكشوفة بنصب كلمة (سجية) في هذا البيت:

فلا تحسبوا هنداً لها الغدر وحدها ... سجية نفس، كل غانيةٍ هندُ

ولو كان هذا القارئ يعرف أني في الإنشاء أسرع من أقدر الناسخين، لفهم أن من الجائز أن يندّ القلم فيرسم الضمة فتحة أو بالعكس، على فرض أن ما وقع لم يكن غلطة مطبعية.

وإني أوجّه الأسئلة الآتية إلى ذلك القارئ المُتحذلق:

أولاً: من قائل هذا البيت؟

ثانياً: من أي شاعر سُرق هذا البيت؟

ثالثاً: من هم النقاد الذين نصوا على أن هذا البيت مسروق؟

رابعاً: ورد هذا البيت في رسالة لأحد كتّاب الأندلس، فمن هو ذلك الكاتب؟

خامساً: في هذا البيت دقيقة نحوية ودقيقة بلاغية، فما هاتان الدقيقتان؟

سادساً: في هذا البيت كلمة اختلفت فيها الروايات، فما هي تلك الكلمة؟ وما هو الكتاب الذي نص على ذلك الاختلاف؟

سابعاً: أخطأ أحد الخطباء المشاهير في هذا البيت، فجعل (الصدّ) مكان (الغدر)، فمن هو ذلك الخطيب؟ ومن هو الناقد الذي استدرك عليه؟ وفي أي مجلة نشر ذلك الاستدراك؟

ثامناً: نقل أحد الصوفية هذا البيت إلى معنى من المعاني الروحية، فمن هو ذلك الصوفي؟ وفي أي بلد طُبع كتابه أول مرة؟ وما اسم ذلك الكتاب؟

تاسعاً: لو قال قائل: إن نصب (سجية) هو الصواب، فما وجهه عندك؟ وما نظائره في كتب العربية؟ وما وجه الإشكال فيه على التدقيق؟

عاشراً: هل تعرف الشاعر الذي يقول:

وابنُ اللَّبون إذا ما لُزَّ في قَرَنٍ ... لم يستطع صولة البُزْل القناعيس

هذه عشرة أسئلة، فيها ما تعرف، وفيها ما تجهل، وفيها ما تذوق. فإن أجبت فلك الحق في أن أشير إلى اسمك بعبارة كريمة، وإن سكت فعذرك مقبول، لأنك بالتأكيد من أبناء الجيل الجديد، وهم من أعرف وتعرف في قلة الصبر على متاعب الجهاد.

وإليك التحية من الباحث الذي يرجو ألا تضطره إلى التكبر والازدهاء، والذي يود أن تذكره بالخير حين تخرج بعافية من هذه الرياضة الذهنية.

زكي مبارك

وفاة أمين الريحاني

نعت أخبار (بيروت) الكاتب الفيلسوف الأستاذ (أمين الريحاني). قضى أجله بالفريكة، بعد أن طوّف في بلاد الشرق والغرب، واستخدم قلميه العربي والإنجليزي في التعريف بملوك العرب وآدابهم، وله في ذلك آثار باقية. وهو أحد ثلاثة أقاموا الأدب اللبناني المعاصر على أسس جديدة من الفن الحديث: جبران خليل جبران، وميخائيل نعيمة، وهو. ومن أشهر مؤلفاته (ملوك العرب) في ثلاثة مجلدات بالعربية والإنجليزية، و (تاريخ نجد الحديث)، و (كتاب المحالفة الثلاثية في المملكة الحيوانية)، و (كتاب الريحانيات) في أربعة أجزاء، ضمنه مقالاته وخطبه، ورسالته عن الثورة الفرنسية، و (المكارى والكاهن) وديوان شعر سماه (سبيل الرؤيا) وليس من شك في أن رجلاً كأمين الريحاني لا يستطيع الموت أن يحجب عن الناس منه غير وجهه، ولكن آثاره الخالدة ستنشره في الوجود كتاباً تقرأه الأجيال، فترى فيه مثلاً رائعاً للجهاد الصادق، والفكر السليم، والأدب اللباب.

ثقافة الدكتور أدهم

إن نوع الأسئلة التي طرحها الأديب إبراهيم حسنين البريدي مما يباح في حياة الأفراد ليدافعوا عن أنفسهم بأنفسهم، ولكنه مما لا يُباح إطلاقاً في أي أمة راقية بعد وفاتهم وقد عجزوا عن البيان والدفاع. ولا أدري أين كان صاحبنا الفاضل هذه السنوات التي ملأت فيها بحوث أدهم ونقداته ونقاشه أشهر الصحف والمجلات؟!

وواضح مما ذكره أحد الأدباء المعروفين الدكتور أبو شادي وردّدته (الرسالة) الغراء أنه لم يفته في حياة أدهم تبليغ القنصلية التركية في الإسكندرية عنه، بل تبليغ النيابة كذلك، فكان ردّ الفعل الوحيد لذلك زيادة تقديره وحمايته.

والأسئلة التي ردّدها أديبنا (البريدي)، أجاب عليها سلفاً في كتاباته المرحوم الدكتور أدهم نفسه، فهو أولى بالرجوع إليه والاعتماد عليه، إلا إذا كان الغرض إثارة الغبار حول الميت

ودعوة أخي الفقيد للمساهمة عن غير وعي في ذلك!

وإن لمن العجيب أن يقال: إن الفقيد لم يكن يعرف الألمانية ولا الروسية، وقد كانتا بين وسائل مراجعه كما يعلم كل من اختلط به وعرفه من أصدقائه الأدباء؛ ولو قيل: إنه لم يكن واسع التضلع في الأخيرة، لكان هذا معقولاً. كذلك من العجائب أن يقال: إن كتاب (لماذا أنا ملحد؟) مترجم. مع أن ثلاثة أرباعه ذات صلات شخصية، وقد انتقده الدكتور أبو شادي في كتاب عنوانه (لماذا أنا مؤمن؟)، فردّ عليه الفقيد ردّاً مطوّلاً بليغاً. فهل كان ناقلاً ذلك الرد عن لغة أجنبية أيضاً؟! يا سبحان الله! أتحارب العبقرية في بلادنا إلى هذه الدرجة؟!

ليقل الشائنون والحاسدون في هذا الألمعي الفذ ما طاب لهم أن يقولوا، فإن العبقرية غريبة دائماً في هذا الشرق، وقد اعتدنا جميعاً ذلك، ولكن العديدين الذين حضروا مجالس أدهم ومحاضراته شهود أحياء على ذكائه النادر وثقافته المدهشة البعيدة عن كل ادعاء، وآثاره التي ستُطبع - بالرغم مما ضاع منها - شهود عدول.

(مؤرخ)

حول مقال (أضرار التشجيع)

قرأت في عدد مضى من الرسالة الغراء للسيد سعيد الأفغاني مقالة عنوانها (أضرار التشجيع) حمل فيها حملة طائشة عليّ ملأها كلمات كان ينبغي أن ينزه لسانه عنها، وما كنت أبيح لنفسي أن أهبط للرد عليه لولا أنه تعرض لكتاب (سر الصناعة) الذي أريد نشره والذي يشهد أستاذي الجليل إبراهيم مصطفى أنني كنت عاكفاً على دراسته وتصحيحه عن نسخة دار الكتب المصرية منذ عام 1932 حينما كنت أقرأ عليه العربية في كلية الآداب. ولما أتممت دراستي في مصر ورجعت إلى الشام ظفرت في المكتبة الظاهرية بنسخة ناقصة الجزء الثالث ولكنها جيدة الخط مضبوطة فاستنسختها، ثم أردت مقابلتها على الأصل فاستعنت بالأفغاني في ثلاث أو أربع جلسات في الغرفة التي كان يجلس فيها الأستاذ فوزي العاني أحد موظفي المكتبة، فكنت أقرأ عليه من

المستنسخة وهو يقابل ذلك على الأصل، ولما اعتذر عن العمل طلبت من الأستاذ العاني أن يتم العمل في أوقات فراغه ففعل وله الشكر. ثم ذهبت إلى باريس فقابلت نسختي على نسخة المكتبة
الوطنية فيها، وكان يعينني في ذلك الأستاذ الأديب عبد الوهاب حومد، ثم عدت إلى الشام وفي نيتي الذهاب إلى استنبول للمقابلة أيضاً، ولكن الظروف الحاضرة منعتني من السفر وأنا أرجو الله أن تزول هذه العقبات حتى أذهب فأتم الكتاب الذي عاهدت الله أن أخرجه خير إخراج ممكن.
هذا تاريخ قصة (سر الصناعة)، فما هي دعوى السيد سعيد؟ إنه يزعم أنني قرأت الكتاب كله أو أكثره عليه، وأنه أملى عليّ تعليقات وشروحاً من فيض خاطره فتبنيتها. . . الخ ما جاء في مقال الأديب الأفغاني. وردي على ذلك منحصر في النقاط الآتية:
1 - ليس في النسخة المراد نشرها تعليقات ولا شروح، وإنما فيها ذكر لما في النسخ (نسخ باريس ومصر ودمشق واستنبول) من اختلاف ليس غير.
2 - شهادة الأستاذ العاني التي أداها بمحضر من الأساتذة يوسف العش محافظ المكتبة، ويسن الخانجي أمين سر المجمع العلمي، والمحامي طاهر خياط. وهي تؤيد ما قلت من أن اجتماعي بالسيد سعيد لم يتجاوز ثلاث أو أربع جلسات، وأنه هو - أي العاني - الذي أتم المقابلة.
3 - تخلفه عن الحضور إلى الاجتماع الذي دعانا إليه الأستاذ الكبير خليل بك مردم لبحث القضية والتحقيق فيها.
هذا ما أقوله وهذا ما أريد أن تطلع الناس عليه ليروا ضرباً من خلقنا العلمي والاجتماعي. وأنا أسأل الله أن يلهمنا الأدب ويوفقني إلى نشر الكتاب.
أسعد طلس
خريج الجامعة المصرية ودكتور في الآداب
إكمال بيت في المخصص وتصحيح إحدى حواشيه
إن من شرائط نشر المخطوطات اقتناء الناشر لما يستطيع جمعه من نسخ الكتاب مخطوطة ومصورة واتخاذ أصح نسخة منها قطباً يرجع بسائر النسخ إليه ويديرها عليه بالعرض والمقابلة وقد لا يوجد من هذا الكتاب إلا مخطوطة واحدة. فإن كانت صحيحة مضبوطة بقراءة العلماء ومعارضتها بالأصل، وكان الخط جلياً متقناً، عدّ ذلك من بركة النسخة ويمن
طائر النشر، وقد تكون بذلك أصح من المنشورة بعد المعارضة على كثير من المخطوطات غير المضبوطات، ومن أشباه هذه النسخ الوحيدة المخدومة كتاب (المثنى والإبدال) لأبي الطيب اللغوي صاحب مراتب النحويين، وصديق أبي الطيب المتنبي، وتلميذ الإمام المطرزي غلام ثعلب؛ فإني قد ظفرت بدمشق في مكتبة العلامة أبي اليسر عابدين (حفيد صاحب حاشية ابن عابدين المشهورة) بنسخة تغلب عليها الصحة، وعلمت بعد طول البحث والتنقيب أنها يتيمة في العالم فلم أتمكن من مقابلتها على مخطوطات أخرى، وإنما هوّن عليّ خطب نشرها غلبة الصحة كما ذكرت عليها، وسأصفها وصفاً علمياً ببحث خاص في مجلتنا هذه الممتعة قريباً.
أما مخطوطة المخصص لابن سيده المعروف بصاحب المحكم فإنها تشبه مخطوطة المثنى بكونها وحيدة يتيمة، ولكنها (قد ركض فيها البلى ولعب، وأكل منها الزمان وشرب، حتى أبلى ثوبها القشيب وأذوى غصنها الرطيب) - كما ذكر ذلك الأستاذ طه محمود رئيس التصحيح بدار الطباعة الأميرية في خاتمة المخصص؛ وبذا كثر في المطبوعة البياض والنقص والتصحيف، ولولا مرجع اللغة والأدب في عصره محمد محمود التركزي الشنقيطي وجميل عنايته بالمخطوطة لكثرت أغلاطها واستشرى فسادها، ولكنها مع ذلك لم تخل من نقص، والكمال الرباني معوز، فوقعت في المتن والحواشي الشنقطية أغلاط لا يحسن السكوت عليها ولا سيما في أصول اللغة، مثال ذلك ما جاء في السفر العاشر من المخصص (ص 167 س4)، وما نصه ورسمه:
وكنا ما اعتفت=طلاب الترات مطلب (1)
فقد علّق عليه إمامنا الشنقيطي رحمه الله التعليقات التالية بنصها:
قوله: (وكنا ما اعتفت) هكذا وقع في الأصل، وهي عبارة لا يدري أهي شعر أم نثر، (1)

وليس لها معنى، وقوله (طلاب الترات مطلب) هو بعض بيت من الطويل ورد في قول الخنساء:

تطير حواليّ البلادُ براقشاً ... بأروعَ طلابِ الترات مطلّب

والشاهد في (براقش)، لأن من معانيه الأرض المجدبة الخلاء، ولكنه ضاع من الأصل (مع ما ضاع منه هنا، وكتبه محرره محمد محمود لطف الله تعالى به آمين. اهـ).

بعد التأمل في هذا التعليق وجدنا مصحّح المخصص ومحرره لم تكشف له عبارة الأصل فجعلها قولين، وهي قول أو بيت من الشعر واحد، ولذا لم يدر هل القول الأول (وكنا ما اعتفت) شعر أم نثر مع أن ابن سيده ذكر قبله كلمة (وأنشد)، ثم جعل القول الثاني (طلاب الترات مطلب) بعض بيت الخنساء، مع أنها خاتمة أبيات جاهلية كثيرة، وأخطأ في الشاهد إذ جعله (براقش) وهو (الاغتفاف) أي تناول الغُفّة من العلف، وهي الشيء اليسير منه؛ والعبارة الأصلية الواردة قبل البيت لا يوقف عليها إلا بنسخة ثانية كاملة من المخصص، ولعل التعبير التالي لا يبعد عنها كثيراً، وقد ألّفته بعد مراجعة نصوص اللسان والتاج وهو: (وإذا كان الربيع (مقارباً قيل اغتفّ المال اغتفافاً أي أصاب غفة منه) أي شيئاً يسيراً وأنشد:

(وكنا إذا ما اغتفَّتِ الخيل غُفَّة ... تجرّدَ طَلابُ الترات مُطَلَّبُ

وهذا هو البيت عينه الذي استشهد به ابن سيده، وهو لطفيل الغنوي لا للخنساء، وإنما استشهد به للاغتفاف لا ليراقش كما فعل مثل ذلك صاحبا اللسان والتاج في مادتي (غفف وأغتف)؛ وهو في ديوان طفيل الغنوي ص26، ونسبه إليه صاحب الأمالي (234)، وذكره الزمخشري في أساسه (غفف) وعزاه إلى طفيل أيضاً، وآخره (يُطلّب) بدل (مطلّب) ولعله تصحيف أو رواية أخرى، واستشهد به صاحب تهذيب إصلاح المنطق وغيره من أئمة اللغة، فليست القضية إذن من (ص71) الشكائك الجدلية، ولولا ما في مخطوطة المخصص من التصحيف والنقص لما وقع كما بيّنت إمامنا الشنقيطي في مثل هذا السهو اللغويّ، وسجدة السهو واجبة في العلم والدين معاً، وقد سجدتها بهذا التصحيح عنه، وعسى أن يسجدها معي أيضاً من يصحح من المخصص نسخته، ويغتفر للإنسان الضعيف زلته.

(دمشق)

التنوخي

إلى الدكتور زكي

بدا لي أن ألفت نظرك إلى خطأ لا أشك في أنك وقعت فيه في كلمتك التي جعلتها افتتاحية الرسالة في العدد الماضي، وهو قولك: (والحس والروح جارحتان من أعظم الجوارح الإنسانية)! وأنا وأنت والناس جميعاً يعرفون أن الحس والروح ليسا من الجوارح كما تقول!! فهل تتفضل بأن تدلنا من أين جئت بهذا؟

(ع. ع)

كلمة منصفة

كتب الأستاذ محمد متولي مقالاً في العدد 376 من الرسالة الغراء عرض فيه لحديث السرقات الذي جرى على قلم كل من الأستاذين علي محمود طه وزكي طليمات. فسماه عراكاً في غير معترك، أو (خناقة على اللحاف)، لأن الفن كما يقول (صورة) وليس (فكرة). والحق أن الفن ليس فكرة فحسب ولا صورة فقط، ولكنه مجموع الأمرين، أو هو (فكرة مصورة)؛ وليست الفكرة من الأشياء المجردة التي تكون بعينها في جميع العقول والإفهام؛ لأنها قد تكون فكرة خاصة لنفس خاصة ممتازة، وقد تكون شائعة في بعض النفوس، ولكنها حتى في هذه الحالة لا يمكن أن تكون على درجة واحدة من القوة أو العمق أو الاتساع، وهل يمكن أن تتشابه النفوس جميعاً إلى هذا الحد الذي تصبح فيه قوالب مصبوبة على هيئة واحدة من مادة واحدة؟ وهل يمكن أن تكون الأفكار التي جالت في ذهن

شكسبير، مثلاً هي بعينها الأفكار التي جالت في ذهن رجل الشارع، ولكن هذا الأخير لم يتح له أن يعبر عنها كما أتيح لشكسبير؟ على أن هذه النظرية ليست من المستحدثات كما يخيل إلينا الأستاذ متولي؛ وإنما هي في لبابها لا تخرج عن قول بعض الأقدمين: إن الشعر هو الأسلوب، وإن المعاني على (قوارع الطريق) وهي نظرية كانت منذ بعيد.

ويقول الأستاذ متولي بعد ذلك: (إن الأستاذ علي محمود طه رجل فنان بلا شك، لأنه قال (الجندول) فكان (كذوباً)! إنه يمثل ذلك الفنان الذي يشعر بالشيء ولا يستطيعه، فيتغنى به وهو نفسه يعلم أنه لم يركب تلك (الجندول) التي أرانا إياها في عرض القناة في ذلك الجو الساحر في فينيسيا) فهل يكون الأستاذ علي محمود (كذوباً) إذا صح أنه مثل ذلك الفنان الذي يشعر بالشيء ولا يستطيعه فيتغنى به؟ كلا! إنه يكون صادقاً كل الصدق، لأنه يصور لنا حالة نفسية من حالات نفسه الممتازة التي تحلم وتتمنى، وهل يكون الذي يحلم في نومه برغبات نفسه المكبوتة كاذباً، على أن أستاذنا (الزيات) قد قال كلمته النبيلة، وإذن فقد (قطعت جهيزة قول كل خطيب). نعرض بعد ذلك لزعم الأستاذ متولي في أول مقاله إن الناقد الأديب هو نفس الأستاذ علي محمود طه وأنه إنما نقد مسرحية بشر فارس تشفياً منه. فنقول له كيف اكتشف هذا الاكتشاف؟ إننا نعرف أن اسم (الناقد الأديب) لا يعرفه إلا الناقد الأديب نفسه، والأستاذ الزيات، فمن أيهما عرف الأستاذ اسم الناقد الأديب؟ أمن الناقد الأديب نفسه، أم من الأستاذ الزيات - وهذا مستحيل - الحق أنه لا هذا ولا ذاك، ولكن الأستاذ متولي أراد أن (يمثل دور) البوليس السري في هذه القضية الأدبية.

أما بعد فقد قرأنا حديث السرقة في شعر الأستاذ علي محمود فابتسمنا لصاحبه ابتسامة الرثاء والإشفاق، ثم قرأنا المقال الذي ظاهره فيه الرحمة، وباطنه من قبله العذاب، فابتسمنا لصاحبه ابتسامة الرثاء والإشفاق أيضاً، وأنا أنصح لهؤلاء السادة أن يحاولوا بلوغ شأو الأستاذ علي محمود طه من طريق غير هذا الطريق. أما هذه المناورات التي يقومون بها على اختلاف أساليبها، وتعدد صورها، فقد انتهت - والحمد لله - إلى الفشل والإخفاق، وبقي الأستاذ علي محمود طه عند جمهرة الأدباء (شاعر الحب والجمال)، بلا جدال.

إبراهيم محمد نجا

القصص

ثمن الأمومة

للأستاذ محمد سعيد العريان

في الطابق الرابع من الدار القائمة على حدود الصحراء من ضاحية حلوان، كانت تعيش (سنية) وحيدة: لا أم ولا أب، وزوج ولا ولد. لقد فارقها أبوها ولم تزل طفلة بعد، إلى حيث لا يرجع من يمضي؛ وفارقت هي أمها العجوز وأخاها، إلى حيث فرضت عليها (الوظيفة) أن تعيش غريبة منقطعة لتجد ما تعيش به. وما كان المرتب المحدود الذي تمنحها (وزارة المعارف) في كل شهر ليُسعد فتاة في مثل سنها، ولكنها كانت به راضية سعيدة. وقد استطاعت على امتداد الزمن أن تزيد دخلها بضعة جنيهات في كل شهر، مما تحصل عليه من أجرة الإشراف على بعض تلميذاتها في دراستهن المنزلية؛ فتهيأ لها بذلك أن تنظم ميزانيتها الصغيرة تنظيماً يكفل لها أن تستمر على إعانة أمها العجوز بما ترسل إليها في كل شهر، وأن تدّخر لنفسها شيئاً إلى شيء، ارتقاباً ليوم تأمله. . .

منذ بضع سنوات لم تغيّر سنية شيئاً من نظام حياتها ولم تحاول؛ هذا منزلها الذي تسكنه منذ هبطت المدينة، لم يتبدّل شيء منه ولم يتبدّل شيء منها؛ هنا الغرفة التي تأوي إليها إذا جنّ الليل؛ وهنا الثّوى الذي أعدته لاستقبال من يزورها فلم يطرقه زائر قط منذ كان؛ وهنا الشرفة التي ترتفق إليها بذراعها كل مساء ساعة أو ساعات قبل أن تنام، تسرّح النظر في الفضاء الغارق في ضوء القمر، أو تنقل الطّرف بين النوافذ المضيئة قانعة في وحدتها الموحشة من سعادة الاجتماع بأنس النظر!. . . وهناك، على مد البصر، طفل يقفز ويثب؛ هذا هو حيث تراه كل مساء في مجلسها من الشرفة، جالساً بين أبويه أو عابثاً لاهياً يتوثب؛ إن بينها وبينه لسبباً قوياً؛ إنها لتحبه كأنها ولدته، وإنها لتفتقده إذا غاب كأنها بعض أهله، وإنها لتتحدث إليه على البعد كأنه منها بمرأى ومسمع. . . ذلك صديقها الوحيد في بلد لم تأنس فيه إلى صديق؛ أتراه يعرفها ويعرف

أين هو من نفسها؟. . . أما هي فتعرفه عرفان الأخ والولد؛ وتعرف تاريخه وماضيه منذ كان وقبل أن يكون. . .
من هذه الشرفة العالية التي يكتنفها الظلام، أبصرت أمّه عروساً في جلوتها، وأبصرت أباه؛ ومن هذه الشرفة نفسها رأته جنيناً في بطن أمّه تخيط له قمصه ولفائفه؛ ومن هذه الشرفة
جاءها البشير بمولده والناس نيام؛ ثم أبصرت ذات صباح طفلاً يحبو؛ ورأته من بعدُ غلاماً يقفز ويثب. . . ولكنه هو لم يعرفها بعد. . .
هذه هي حياة سنية: أما نهارها فجهاد ودأب بلا ونى، تغادر بيتها في الصباح الباكر إلى مدرستها، وتغادر مدرستها إلى بيوت تلميذاتها، فإذا جن الليل عادت؛ وأما ليلها فهذه الشرفة وهذا الفضاء وهذا الغلام؛ فإذا أوى الغلام إلى فراشه، واختفى القمر وراء السحاب، وأسدلت الستائر على النوافذ المضيئة - نهضت سنية من مجلسها في الشرفة، فتفتح صندوقها وتحصي ما فيه ثم تأوي إلى أحلامها.
ومضت بضع سنين قبل أن يجتمع في صندوق سنية ما كانت تؤمّل أن يجتمع؛ وأيقنت - بعد صبر طويل - أنها من اليوم الذي كانت ترقب على مقربة. . .
وغربت الشمس ذات مساء ولم تعد سنية إلى دارها؛ ثم عادت بعد العشية، . . . واتخذت مجلسها من الشرفة وسرحت النظر، ولم يكن الطفل ثمة ولكنها لم تفتقده في غيبته؛ وأوت إلى فراشها ولكنها لم تنم حتى انتصف الليل؛ وتراءى لها الطفل في منامها وكان معه أبوه، ثم أصبحت. . .
وراحت تُعد عدة السفر إلى أمها تطلب مشورتها في أمر ذي بال. . .
وابتسمت أمها فرحانة، ثم غشيتها كآبة وهتف بها هاتف؛ ثم عادت فابتسمت ونهضت إلى مصلاها تناجي ربها وتدعوه لابنتها العزيزة أن يتم لها ما تأمل. . .
وتغيرت سنية منذ اليوم وتبدّلت وحشتها أنساً ومسرة، وهجرت الشرفة فلم تكن تغشاها إلا حين تكون على موعد ترقب له الطريق؛ وأنست غرفة الاستقبال بعد وحشة وطرقها الزائر المنتظر منذ سنين، وتعددت زيارته؛ وقالت له سنية ذات مساء وقد جلسا جنباً إلى جنب في الشرفة العالية التي يكتنفها الظلام وأشارت إلى بعيد -: أنظر يا رشاد؛ إنه طفل ظريف!
ونظر (رشاد) حيث أشارت سنية، وقال: نعم، وأظرف منه أن تكوني أمه!
وطأطأت الفتاة رأسها وتضرّجت وجنتاها وسبحت في حلم لذيذ، وتراءى لها غلام يقفز ويثب بين أبيه وأمه، في مثل مجلسهما من هذه الشرفة العالية التي يكتنفها الظلام!
وجلست سنية ورشاد يتبادلان الرأي ذات مساء؛ وقال لها:. . . وإني لأتمنى ألا توافق الحكومة على بقائك في العمل بعد الزواج؛ لتكوني لي وحدي!
وقالت: ولكن أمي يا رشاد. . .!
وأجابها: وعليّ أن تكون أمك راضية سعيدة!
واطمأنت سنية وسُرّى عنها ما كان يقلقها منذ أيام؛ وجلست إلى مكتبها تكتب إلى الحكومة تلتمس الإذن في الزواج.
ولم يطل بهما الانتظار، ولم يقلقهما جواب الحكومة؛ فقد كانت سنية متوقعة من قبل ألا يؤذن لها؛ وكانت مطمئنة إلى وعد خطيبها بأن يرضي أمها!
وراح الفتى والفتاة يعدان العدة ليوم قريب.
وانتقلت سنية إلى بيت زوجها، وشهدها صواحبها عروساً في جلوتها، وشهدت نفسها؛ وكانت النوافذ المضيئة ترمي أشعتها إلى بعيد؛ وكان في الشرفات العالية التي يكتنفها الظلام عيون تنظر. . . . . .
ومضت أشهر، ونظر الجيران فإذا سنية جالسة إلى جانب النافذة تخيط قمصاناً . . . ولفائف؛ وفي هدأة الليل والناس نيام حل على الأسرة ضيف جديد، وارتفع صوته يعلن البشرى بمقدمه. . . . . .
ثم استيقظت سنية من الحلم الذي ضرب على آذانها عاماً وبعض عام؛ ونظرت، فإذ هي وطفلها وحطام الذكريات؛ ولم يكن الرجل ثمة ولم يكن الصندوق. . .!
وقبّلت فتاها في جبينه وقالت وفي عينيها دموع: لا عليك يا بنيّ؛ لقد خسرت الرجل ولكني كسبتك؛ فليذهب أبوك حيث يشاء، ولتبق لي أنت!
وخرجت تلتمس الرزق، واتخذت طريقها إلى المدرسة، ولكن المدرسة كانت قد

أغلقت أبوابها!
وسعت إلى رئيس الديوان تلتمس الشفعاء إليه ليردّها إلى عملها، فأغلق دونها بابه؛ ووقفت في مفترق الطريقين تنظر، ثم سلكت إحداهما. . .
وعاد الرئيس من الديوان إلى داره، وانفتح باب السيارة ونزل، وسبقته إلى الباب امرأة؛ وهمّ حاجبه أن يمنعها ثم كف. . .وهتفت المرأة في ضراعة: سيدي بحقّ ولدك!
. . .قال: ولكنك خُيّرت من قبل فاخترت أن تكوني أمّاً؛ فهيهات
وبرّقت المرأة وصرخت في غيظ: ولكنك أنت رضيت أن تكون أباً. . . فلم لا خُيّرت أنت؟. . . كن أباً، أو كن رئيساً في الديوان، إن صح ألا يجتمعا!. .
وسكت الرجل وهتف هاتف من وراء حجاب: (ولكن ثمن الأمومة أغلى. . .!)
ودخل (الرجل) داره وأغلق بابه ليجلس بين زوجه وولده فيقص قصته؛ ومضت (المرأة) على وجهها يائسة ذليلة، لتدفع وحدها ثمن الأمومة الغالي!. . .
محمد سعيد العريان
العدد 378 - بتاريخ: 30 - 09 - 1940
خواطر مهاجر
- 3 -
أخذت نوافح الخريف الأولى تتنفس منذ أسبوع على وجه المنصورة رخية ندية؛ وللخريف على شُطئان النيل الشرقي وهو في عنفوان الفيضان سحر لا يبلغ كنهه الشعور ولا تعبر عن تأثيره اللغة. فللسماء اللازوردية على صفحاته ألوان وأحوال، وللسحب الرقاق البيض على حواشيه أطياف وأظلال، ولشمس الأصيل على مويجاته المرتعشات الحمر انكسار يخطف البصر، كأنما ذاب قرص الشمس فهو يتدفق من السماء على الماء، أو انبجست على النهر من الأفق الغربي عين من ذائب الماس لم يدخل علمها في الكيمياء. وللأبكار والعشايا أنسام طيبة الشميم كأنما تنقل عن رياض الفردوس؛ والطبيعة الريفية عطار حاذق يعرف كيف يفتق الطيب من سنابل الرز وأمطار الذرة وأقناء النخيل ونوار التيل ولوز القطن ومما ينبت على حفافي الترع والطرق من أشتات الريحان والبقل. وللمنصوريين والدقهليين على الجملة صباحة ووداعة يزيدهما الخريف حلاوة وشاعرية. وإن بينهم وبين طبيعتهم المشرقة الجميلة من التآلف والتجاوب ما لا تجده بين الناس والطبيعة في مكان آخر. والناظر في أخلاق هذا الإقليم ومزاياه يرى أن مثله بين أقاليم مصر كمثل أوربا بين قارات الأرض: تميز كما تميزت بالنبوغ والمدنية والجمال، وتألف تاريخه القديم والحديث من فصول وضاءة في الوطنية والعبقرية والبطولة.
ففي الحروب الصليبية كان للمنصورة وإقليمها شرف القضاء على حملتها الأخيرة؛ وكان الجيش المصري قد ارتد إليها مهزوماً؛ وامتحنه القدر القاسي فمات ملكه الصالح وقتل قائده فخر الدين، فانتشر الأمر على جنوده، واستبهم الرأي على قواده؛ وكاد الرجاء من نجاة مصر ينقطع لولا أن نهض الظاهر بيبرس بالمماليك ونهض معه أهل المنصورة، فأقاموا المتاريس في الطرق وجعلوا من دورهم قلاعاً يرمون من نوافذها الفرنسيين بالأحجار والقذائف، حتى قتلوا الكنت القائد أرتوا، واستأصلوا فرقته ومزقوا الفرق الأخرى؛ ثم كانت الهزيمة الحاسمة في فارسكور حيث أبيد الجيش العدو وأسر الملك القديس سجينُ بيت ابن لقمان ومضروب الطواشي صبيح.
وفي الغزوة النابوليونية كان للمنصورة وإقليمها فضل الجهاد السابق الصادق، فقد ثاروا يوم
السوق على جنود القائد (دوجا)، وأعملوا فيهم السلاح حتى أفنوهم. وسجل التاريخ في ثبت الخلود من أسماء القادة في هذه الثورة: الأمير مصطفى كبير محلة دمنة، وعلي العديسي شيخ القباب، وحسن طوبار زعيم المنزلة.
وفي الثورة المصرية على الاحتلال كان للمنصورة وإقليمها في البطولة الوطنية مواقف سارت مُثلاً مضروبة في الإيثار والتضحية ولا تزال أسماء الشناوي والجيار وعبد النبي والأتربي عناوين لفصول خالدة من كتاب الجهاد الوطني المقدس.
على أن المزية الظاهرة للدقهلية هي انطباع أهلها على الأدب والفن حتى العامة والسوقة. وإنك لتتبين أثر ذلك في كل ما يصدر عنهم من ثمار العقل والقلب حتى في

القانون والسياسة. وحسبك أن يكون من نوابغها في الأدب: علي مبارك، ولطفي السيد، وحسين هيكل، وعوض إبراهيم، ومحمد العشماوي، ومحمد عوض محمد، وإبراهيم رمزي، وعبد الله عنان، وصالح جودت الكبير. وفي الشعر: إسماعيل صبري، وعلي محمود طه، والهمشري، وكامل الشناوي، وصالح جودت الصغير، وعبد الغني حسن، والوكيل. وفي الغناء والموسيقى: أم كلثوم، ورياض السنباطي، ونجاة علي، وسعاد زكي، والدكتور الحفني. وما اقتصرت على من ذكرت إلا لأنهم عُرفوا بالأسماع في أقطار العروبة فلا يضعف بهم المثل. والواقع أن في كل بلد من بلاد هذا الإقليم الفنان هيكلاً لعطارد تفاديه نفثات الأولمب، وتراوحه نفحات عبقر!

أقامت جريدة الإصلاح في السنبلاوين لمجلة الرسالة حفلة تكريم وترحيب؛ وشاء زميلنا الكريم صاحب الجريدة أن تكون حفلته مظهراً من مظاهر الأدب الإقليمي في صورة من صور العطف الجميل؛ فدعا إليها جمهرة من أدباء البلد المختلفين في الجنس والزي والثقافة، فأسمعونا على موائد الشاي الحافلة أفانين من النثر المشرق الأسلوب، والشعر المحكم الأداء، والزجل البارع النكتة، فعجبنا أن نجتمع هذه الجملة المختارة في هذا البلد المغمور؛ ثم علمنا أن في كل بلد من بلاد الدقهلية عكاظاً يتبارى فيها صاغة القوافي وحاكة الفقر!

يا لله للريف المسكين! لقد غبنته المدينة في كل ما ينتج من مادة وأدب: ففلاحه يكد ولا ينال القوت، وشاعره يغني ولا يجد السامع، وصحفيه يجاهد ولا يلقى الجزاء!

سحرتني مفاتن والخريف الريف في المنصورة فما ينفك ناظري وخاطري يسبحان في جو مشرق عبِق من حاضرها الجميل وماضيها المجيد. وكنت الساعة أتتبع بالخيال كتائب الصليبيين وهم يسيرون على ساحل النيل الأيمن من دمياط إلى المنصورة، يقود الحملة الأولى (جان دى بيريين)، ويقود الحملة الأخرى (لويس التاسع)، حتى رأيتهم على الثرى الخصيب الحبيب جزراً للسيوف وطعاماً للوحش. وسرعان ما انتقل ذهني إلى ساحل البحر الأبيض، فرأيت أحفاد أولئك الصليبيين يزحفون من السلوم إلى الإسكندرية في زي غير الزي وسلاح غير السلاح وعدد كأرجال الجراد! فقلت لنفسي وهي تضطرب بين الرجاء والخوف: إن رب الكنانة يا نفسُ عَسىٌّ أن يبعث (صلاح الدين) في هذا العصر، وأن يجعل في (السلوم) السلامة كما جعل في (المنصورة) النصر!

(المنصورة)

أحمد حسن الزيات

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

جناية الجمال - ألفاظ صحيحة: الانسجام، الصنائع، النسائم، مرير، البديه، الهناء، المساهمة، أبحاث - إلى المنصورة، إلى المنصورة وطن الشعر والخيال.

جناية الجمال

أكتب هذه الكلمة في مساء اليوم الرابع عشر من شعبان بعد إذ نقل المذياع دعاء شيخ الأزهر الشريف بأن يكشف الله الغُمة عن الأمم الإسلامية، وهو دعاء أمّن عليه جمهور كبير بدعوة صاحب الجلالة الملك (ملك مصر بعون الله) أيد الله ملكه، واستجاب دعاءه، فدفع السوء عن بلاد العرب والمسلمين.

وفي هذا المساء يتحدث الناس عن المخاوف التي تساور مصر في الحدود الغربية وفي بعض أقاليم السودان. . . وتلك أحاديث تقبض الصدور، وتحزن القلوب، ثم تقهر النفس على التفكير في جناية الجمال على الجميل، فما تلقى مصرُ المكاره إلا بفضل ما تعد من خيرات وثمرات، وما تُمكّن للظاهرين عنها من السيطرة على الغرب والشرق، لأنها منذ الأزل إقليد الغرب والشرق، وإلا فكيف جاز أن تكون هدفاً أبدياً لكل من جن له الدهر في التاريخ القديم والتاريخ الحديث، بحيث يُمكن الحكم بأن جمالها لم يفارق خيال الطامعين في زمن من الأزمان؟

وهل مر على مصر عام واحد بلا ابتلاء بمكايد الطغاة والمسيطرين؟

من يصدّق أن مصر جشمت الناس المتاعب في التاريخ القديم يوم كانت صعوبة المواصلات لا تسمح بأن يصل إليها المغيرون إلا بعد التعرض للمخاطر والمعاطب في

الشهور الطوال؟
وهل يعرف أحد كيف جاز أن تكون المعضلات الأخلاقية والاجتماعية في مصر هي أهم ما شُغلت به الكتب السماوية؟
ومن نحن حتى تكون بلادنا أخطر البلاد التي تحدّث عنها القرآن المجيد؟
من نحن؟ نحن الصابرون على مصاعب الإتقان والتجويد في العلوم والفنون منذ العهد الذي سبق التاريخ بأجيال وأجيال.
وهل لبلادٍ في الدنيا ماضٍ يشبه ماضي هذه البلاد في العناية بالعلوم والفنون؟ فإن سألتم عن الحاضر فإليكم أسوق الحديث بلا تزيّد ولا إسراف:
كانت بلادنا الغالية هي الهدف الأول للحروب الصليبية، وكانت تلك الحروب مبدأ اليقظة في الغرب، وبفضل اصطدام الصليبيين بمصر عرفوا أول مرة كيف تكون الحضارة والمدنية.
ومن أين عرف الصليبيون معنى الاستشهاد في سبيل النصرانية؟
إنما نقلوا ذلك عن مصر، فهي أول بلد تعصب لدين عيسى في القرون الخوالي، كما كانت أول بلد أذاع نظرية التوحيد، يوم كان العالم كله لا يعرف غير الارتطام في أوحال الوثنية، وذلك هو السر في حرصها على إعزاز الإسلام، لأن الإسلام هو التعبير الصحيح عن نزعتها القديمة في إيثار التوحيد.
وجو مصر له فضل عظيم على الإنسانية. وأين من يعرف أن جو مصر هو الذي هدى الناس إلى الطيران؟
فوق جبل المقطّم شرقي القاهرة وقف رجل فرنسي فقير يكسب قوته من العمل بأحد متاجر القاهرة، وقف يرقب حركات الطير فوق ذلك الجبل قُبيل الشروق وبُعيد الغروب، وما زال يصوّب ويصعّد حتى اهتدى إلى سر الطيران.
فهل يذكر الألمان المغيرون بطائراتهم على لندن أو الإنجليز المغيرون بطائراتهم على برلين أن (جو مصر) هو الذي أمدّهم بذلك السلاح؟ وهل يذكر الطليان الذين يهددون (مصر الجديدة) بغاراتهم الجوية أن (مصر الجديدة) فيها تمثال (مويار) الذي نقل عن (جو مصر) سر الطيران؟
ما سمعتُ صفارات الإنذار بالغارات الجوية وأنا قارٌّ بداري في (مصر الجديدة) إلا عجبتُ من إمعان بني آدم في العقوق، فكل بلد يجوز الهجوم عليه بقاذفات القنابل إلا البلد الذي يقوم فيه تمثال الرجل الذي هداه (جو مصر) إلى سر الطيران.
ولكن أين من يحفظ لمصر الجميل؟
وجو مصر صنع ما صنع في تقدم الطب الحديث، فأهل الصين على بعد الدار، وشط المزار، يعرفون أنهم أصبحوا في أمان من أمراض لم تكتشف جراثيمها إلا في البلاد التي أنجبت البارودي وشوقي وحافظ ومحمد عبده وعبد العزيز جاويش ومصطفى كامل وسعد زغلول، كما أنجبت الفلكي والبقلي وعثمان غالب.
وما استوطن أجنبي مصر إلا خلعت عليه أثواب القوة والبهاء، وما دخل غريب مصر إلا نسي بلده الأصيل أبد الآبدين.
فإن قيل إن بلدنا موطن الأخياف فهذا حق، لأن حوض الزهر هو الوطن لجميع أمم النحل.
وهنا أذكر أن النحل المصري تفرّد بالشراسة والحمق، لأنه يعرف أنه معدوٌّ عليه، ويعرف أن أسراب النحل تأتي لمنافسته من جميع بقاع الأرض، وكذلك يُسهمُ المصري بالثورة على (الأجانب) من حين إلى حين.
وطني! إن جمالك هو الذي يجني عليك.
أما رأيت كيف تباح حرية الإضاءة في جميع الشواطئ ولا تقيد إلا في الإسكندرية وبور سعيد؟ وهل كان ذلك إلا لأن هذين البلدين هما أجمل ما تملك فوق شواطئ البحر المحيط؟
وطني! لهذا اليوم ما بعده، وسوف تلقاني وألقاك، وإن أرجف المرجفون بأن لا لقاء بعد اليوم المخُوف.
وطني! إن لم أحمل السيف في حمايتك فقد حملتُ قلمي في الدفاع عنك، والقلمُ أبقى من السيف، وفضلُك في الدنيا هو فضل القلم قبل فضل السيف، وقد أقسم الله بالقلم لا بالسيف، فعِش إلى الأبد حجة العالم وبرهان الزمان.

وطني! أنت تذكر أنه ما استطاع أمير ولا وزير أن يأجرني في العصبية لك، لأنك وطني وحدي، ولأني لا أسمح لأحد بأن يسبقني في الوصول إلى مواقع هواك.

وطني! وطني! إن عشتُ لك فسأحمل رايتك في المشرقين والمغربين، وسأكون سفيرك في كل أرض يصل إلى أسماع أهلها قلمي، فإن مت قبل أن أدرك في خدمتك ما أريد فسأكون برغم الحوادث بطل الوطنية والإخلاص.

وسلامُ الله على أبرار الشهداء!

ألفاظ صحيحة

قلت في بعض المناسبات إني سريع الإنشاء، فظن كثير من الناس أن هذه السرعة قد تعطّل العناية بالأسلوب، وقد تفوّت الفرصة في تخيُّر الألفاظ الصحاح.

وأقول إن السرعة في الكتابة لا ترجع إلى التحرر من قيود الألفاظ والأساليب، وإنما السرعة في الكتابة ملكة من الملكات النفسية يُكسب منها ما يُكسب، ويُوهب منها ما يوهب، وقد ترجع إلى ما يتصف به الفكر في بعض الأحيان من القوة والمضاء. . . فإن رأى أحد القراء في مقالاتي أو مؤلفاتي كلمات أنكرها النقاد فليعرف جيداً أن وجه الصواب لم يغب عني، وإنما أثبت تلك الكلمات وأنا أعرف ما وُجه إليها من التجريح والتزييف، لأني أدرك من أحوالها ما لم يدرك أولئك الناقدون الفضلاء. وإليكم بعض الشواهد:

تلطّف كاتب كبير فأوصى أحد الأصدقاء أن يبلغني أني أخطأت في استعمال كلمة انسجام بمعنى وأقول إنها وردت بهذا المعنى في رسائل إخوان الصفاء.

وأنكر أديب آخر أن أجمع صناعة على صنائع، وأقول إنه جمع صحيح وله نظائر مثل رسالة ورسائل وبضاعة وبضائع.

وأخطأ المتحذلقون بوزارة المعارف حين غيروا اسم (مدرسة الفنون والصنائع) ليصيروها (مدرسة الفنون والصناعات)، ولو نظروا لعرفوا أن الناس يقولون: (فلان رجل صنايعي) بالنسبة إلى الجمع وهو صحيح، ولو كان في أولئك المتحذلقين من ساير كتب العرب في أبواب الاقتصاد لعرف أن العرب في مؤلفاتهم لا يجمعون صناعة إلا على صنائع. والقول بأن (صنائع) ليس إلا جمع صنيعة لا يخلو من التحكم البغيض.

وأنكروا أن ترد (النسائم) في كلامي جمعاً للنسيم، وأقول إنها وردت كذلك في نثر الشريف الرضي. وأنا راض بأن أخطئ مع الشريف!

وأنكروا أن أقول المساهمة بمعنى المقاسمة، وقد طربت أشد الطرب حين وجدت لها شاهداً في نثر الشريف، ثم عجبت كل العجب من غفلة بعض النقاد حين رأيت الزمخشري نص عليها في الأساس فقال: وتساهموا الشيء، تقاسموه، ثم أنشد:

تساهم ثوباها ففي الدرع رأدةٌ ... وفي المِرطلفّاوان ردقهما عبْلُ

وأنكروا أن أقول المرير بمعنى المر، وقد استأنست بقول الشريف:

وما كل أيام الشباب مريرةٌ ... ولا كل أيام الشباب عِذابُ

ثم عجبت أيضاً من غفلة بعض النقاد حين رأيت الزمخشري ينص عليها في الأساس فيقول: وشيء مُرٌّ ومَرِير ومُمِرّ، ثم أنشد:

إني إذا حذّرتني حَذُورُ ... حُلْوٌ على حلاوتي مَرِيرُ

وأنكر الشاعر حسن بك حمدي أن يقول الأستاذ العقاد (البديه) في مكان (البديهة) أو البديهي، وأقول إن المعاجم نصت على البديهة لغرض واضح هو القول بوجود المؤنث، وكذلك الحال في (الهناء) وهي كلمة يمحوها أساتذة اللغة العربية كل يوم من دفاتر التلاميذ بحجة أن القاموس المحيط لم يذكر غير (الهناءة) وهم ينسون أن النص على المؤنث مقصود. . . والشريف الرضي يقول:

وما أوفتْ على العشرين سني ... وقد أوفى على الدنيا عزيمي

والعزيم مذكّر العزيمة وإن لم تنص عليه المعاجم.

فإن قيل إن كلمة الشريف هي (غريمي) بالغين المعجمة فأنا أجيب بأن ذلك تحريف لا يخفى على أهل الذوق. وأنكر قوم أن أجمع بحثاً على أبحاث فأقول في صدر كتاب (الموازنة بين الشعراء) إنه (أبحاث في أصول النقد وأسرار البيان) وأقول إن البحث يُجمع على أبحاث كما يُجمع على بُحوث، وقد نص على ذلك بعض اللغويين.

إلى المنصورة، إلى المنصورة

بعد ساعة واحدة من الشروع في كتابة هذه السطور آخذ طريقي إلى المنصورة وطن

الشعر والخيال، فهل تلقاني المنصورة بالضم والعناق وهي كناس الحُور العين؟
ما أذكر أبداً أن المنصورة داينت قلبي بشيء، فما سر ذلك؟ ما سر ذلك وما كنت أغلف القلب ولا أصم الفؤاد؟
يرجع السر إلى أني قضيتُ دهري مُثقلاً بفوادح الأعباء فما دخلتُ بلداً شرقياً أو غربياً إلا وفوق كاهلي واجب مفروض وما ظهرت بمظهر المتلهي والمتفرج إلا لأكايد خصومي فأزعم أني أعاقر من صهباء الحياة ما يُعاقرون.
فإن كنت زرت المنصورة قبل اليوم مرة أو مرتين أو مرات فما كان ذلك إلا تأدية لواجب أسأل عنه مرة أو مرتين أو مرات، لأن قلبي يحدثني في كل وقت بأني مضطهد، وبأن خصومي يسرهم أن يعلموا ولو من طريق الوهم أني قصرت في أحد الواجبات. . . وإذا
كان الدكتور طه حسين لم ينس كلمة جافية سمعها من أبيه منذ أكثر من أربعين سنة فأنا لم أنس أن أحد الرؤساء بوزارة المعارف واجهني بالكلمة الآتية:
في كل موسم لك كتاب جديد، ولك في أكثر الجرائد اليومية والمجلات الأسبوعية (والشهرية مقالات وبحوث، فمتى تشتغل لنا؟)
وكذلك كان الأمر في زيارة المنصورة فلم أدخلها إلا مُثقلاً بواجب تأبى فَداحتُه أن أتلفت إلى ما في رياض المنصورة من غرائب الأزهار والرياحين.
إلى المنصورة، إلى المنصورة.
ولكن كيف؟
كان في مقدوري أن أسير إليها على نفقة الدولة لتأدية بعض الواجبات هناك، ولكني رأيت أن تكون الزيارة على جيبي الخاصّ ليعرف القلب أن له حقوقاً تُذال من أجلها نفائس الأحوال.
وما حق القلب هناك؟ أيكون هو الشوق إلى الصديق أحمد حسن الزيات الذي اتهمه أحد كتاب جريدة الهدف بالفزع إلى المنصورة خوفاً من المعاطب؟
هو ذلك، مع إضافة واجب بسيط سأؤديه للدولة بالمجان.
ولكن هل يخف الزيات لاستقبالي بالمنصورة النجلاء؟
سألقاه مشغولاً بتصحيح تجارب (الرسالة) وسيدعوني إلى معاونته على تصحيح تلك التجارب، وسيرى حُضوري فرصة ترفع بها عن عينيه متاعب الإجهاد.
فإن كان في بلاد المشرق أو بلاد المغرب من يحسُد أدباء مصر على ما وصلوا إليه من نعمة السيطرة الأدبية فليذكر أننا وصلنا إلى تلك النعمة بجهادٍ شاق لم نقدم له من ناضج الوقود غير أقباس العزائم وألفاف القلوب، ونحن مع ذلك نؤمن بأننا لم نصنع غير حفر الأساس، فمتى نرى بأعيننا طلائع الجيل الجديد؟
ومتى نطمئن إلى أن كتّاب اللغة العربية لا يُعدّون بالعشرات وإنما يعدون بالمئات والألوف؟ متى؟ متى؟ الجواب عند أبناء اللغة العربية وهم يزيدون على مائة مليون.
وقد رجعتُ من المنصورة بعافية، لأني لم أبت فيها غير ليلة واحدة، فلم يتسع الوقت لعقابيل الوجد حتى تجرّب حظها في القدرة على تجريح قلب تكسّرت فيه النصال على
النصال.
لم ألق أحداً في انتظاري على محطة المنصورة، فأين الزيات؟ وهل يشق عليه أن يُغبر قدميه بخطوات قصار لاستقبال صديق قضى في الطريق ثلاث ساعات، وإن مرت كومضة البرق في صحبة الأستاذ عبد العزيز صقر شاهين؟
وأتلفتُ فأرى الأستاذ محمود البشبيشي، الصديق العزيز الذي لم أر منه غير كرم الأخوّة وصدق الوداد، ثم أنظر فأرى الأستاذ عبد اللطيف علي، وهو مدرس فاضل قد مكنه التنقل من التعرف إلى ملامح البلاد المصرية.
هذه القهوة المنشودة، وتلك الكافورة الغيناء، وذلك الأستاذ محمود زناتي، فأين الزيات؟
لقد ذهب الشقيُّ إلى (رأس البر) وخلاّني، فهل أعود إلى القاهرة قبل أن أنفض عن ثيابي غبار الطريق؟
وما هي إلا لحظة حتى طاب المجلس وحلا الحديث، وأقبل المنصوريون فأحاطوني بوداد يذكّر بوداد أهل بغداد، حتى كدت أتوهم أني بين الرُّصافة والجسر، أو فوق

الجزرة في مواجهة كلواذ. على ليلتي بالجزرة أطيب التحية، وأزكى السلام!
وأنظر في الساعة من ثانية إلى ثانية ومن دقيقة إلى دقيقة لأرى كيف أفرّ إلى دار تعودت المضي إليها بلا دليل غير وحي القلب، ولكن شيطانين منصوريين يصدّان عن سبيل القلب ويأبيان إلا مرافقتي حيثما توجهت، ونعوذ بالله من كيد الشياطين.
فإن كان حظي في تقبيل تلك الجدران قد ضاع فحسبي من العزاء أن أطمئن إلى أن هواي لم يزل من السر المصون.
أنا في المنصورة في صحبة القمر والنيل والنسيم، وفي ضيافة الأستاذ محمود زناتي وبرفقة جماعة من أفاضل الأدباء والمدرسين، فإن كان في الدنيا من يصدّق أن الحديث الجذّاب قد يكون أطيب الطيبات وقد يُنسى القلب لواعج هواه فليعرف أن سهرتنا كانت من تلك الطيبات العِذاب. ألم أسهر حتى يبلل الندى ثيابي على نحو ما كان يصنع معي في سهرات بيروت؟
ثم أستيقظ على صفير القطار، وهو يزفر زفرة الشوق إلى القاهرة فأهب لأداء بعض الواجبات، ثم أتجه إلى القاهرة قبل أن تصل الشمس إلى كبد السماء.
فإن بدا للزيات أن يعضّ بنان الندم على ضياع حظه من لقائي بالمنصورة فليفعل، فقد كانت معي أطايب من الحديث لا تذاع إلا هناك، وكان في نيتي أن أدله على أشياء وأشياء من أسرار المنصورة الفيحاء، وكان وكان، ولكنه قليل الحظ من الطيبات.
كان الزيات يهدد ويهدد: كان يقول إن زيارة المنصورة قد تكفّ شر المنصوريين في التزيد على (ليلى المريضة في العراق).
وذلك والله هو السر في زيارة المنصورة بعد موسم الصيد: صيد الأسماك.
أما بعد فللمنصورة حقوق تعرفها القلوب، فإن قضى الدهر بألا أبيت فيها غير ليلة واحدة فقديماً صنع الدهر ما صنع في حرمان أرباب القلوب.
رباه! متى تعود أيامي؟
متى أرجع إلى تدوين الملاحة في البلاد التي يسقيها النيلُ الوفيُّ الأمين؟
متى يتسع الوقت لدرس ما في مرابع الوطن الغالي من غرائب السحر والفُتُون؟
ما هَلّ بلدٌ في وجه القطار إلا وثب القلب، فما في وادينا بلدٌ خَلَت أرباضه من آثار الحروب بين العيون والقلوب، حتى كدت أومن بأن كل بلدٍ في مصر هو صورة من صور ستريس أو بغداد أو باريس.
وطني! أنا أحبك، أنا أحبك.
ولو أنني أستغفر الله كلما ... ذكرتك لم تُكتَبْ عليّ ذُنوبُ
زكي مبارك
أخلاق القرآن - 3
الوفاء بالعهد
للدكتور عبد الوهاب عزام
الوفاء بالعهد خُلق يقتضيه الإنصاف والصدق، وتوجبه المروءة وكرم النفس، وتحتمه الرجولة والنبل. ما أصغر وما أذل وما أخس النفس التي تتخذ عهدها وسيلة إلى التغرير بمن تعاهده، وتجعل يمينها سبيلاً إلى أن تفجئه وهو آمن مطمئن. الغادر كاذب حانث خادع، قد جعل كلامه وعهده حبالة لمآربه، حبالة واهية ذليلة كحبالة العنكبوت يصيد بها الذباب، ودبّ من وراء الأمن إلى خصمه كما تدب الثعالب والذئاب. أين هذا من الإنسانية في أخلاقها العالية، والرجولة في سجاياها الحرة؟ وأين هذا من أخلاق القرآن كتاب الإنسانية الكاملة؟
القرآن الكريم يأمر بالوفاء بالعهد، ويؤكد الأمر به، ويعظم شأنه، ويكبر الموفين، وينهى عن الغدر، ويشتد في النهي عنه، ويقبحه، ويلعن الغادرين.
ومن يتدبّر آيات القرآن يجد العهد فيها ضربين: العهد العام، والعهد الخاص؛ فأما العهد العام فهو أداء الواجب الذي يقتضيه عمل الإنسان، فمن تولى عملاً فقد عاهد أن يبقى به على الوجه الأكمل. فإذا لم يفعل فقد خالف العهد، ومن آمن بدين فقد عاهد أن يأتمر بأوامره وينتهي بنواهيه فإن لم يفعل فقد نقض العهد. ومن دخل في جماعة فقد عاهدها على أن ينفعها ولا يضرها، فإن ضرّها أو قصّر في نفعها فقد غدر. ومن تصدى للدفاع عن أرض أو جماعة أو عقيدة فقد عاهد ألا يألو جهداً في الدفاع. فإن نكص فقد خان. ومن أوتي علماً أو عرف حقاً فكأنه عاهد أن يبينه للناس ليهتدوا به، فإن كتمه

فقد خاس بعهده. وهكذا.
نقرأ في الكتاب الكريم: (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتُبيننّه للناس ولا تكتمونه، فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون) (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه. قال أأقررتم وأخذتم على ذلك أصري؟ قالوا أقررنا. قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين.)
وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم.) وأخذنا
(.منكم ميثاقاً غليظاً. ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذاباً أليماً
فهذه مواثيق عامة تضمنتها رسالة الأنبياء وعلم الذين أوتوا الكتاب، كأن النبوة عهد على الوفاء بما تقتضيه الرسالة من الدعوة والإصلاح والنصب واحتمال الأذى والصبر وكأنها عهد على أن ينصر النبيون الحق وينصروا من جاء به.
وكذلك العلم الذي حمل أهل الكتاب أمانته. هو عهد عليهم أن يعلّموه للناس ويظهروه غير مبالين ما ينفعهم وما يضرهم في إظهاره، وكذلك كل من عرف حقاً وهُدي إلى معرفة، وكل من ولى ولاية للناس، وكل من وكل إليه عمل، كل هؤلاء كأنهم عاهدوا الله والناس على أن يُعرّفوا الناس ما عرفوا وأن يؤدوا أعمالهم على الوجه الأحسن.
ومن ذلك قول القرآن الكريم في وقعة الأحزاب:
من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من) ينتظر وما بدلوا تبديلاً. ليجزي الله الصادقين بصدقهم(.
فهذا العهد هو ما ألتزمه المسلمون حين قبلوا الإسلام من القيام بفروضه ونصرته والدفاع عنه والاستماتة في تأييده.
والقسم الثاني من العهد الخامس: معاهدة رجلين أو فريقين على أن يسالم بعضهم بعضاً وأن يجتنبوا الضر فيما بينهم، أو تحالف فريقين على أن يتعاونوا على عمل، وهكذا؛ وهذه العهود شائعة بين الناس منذ اجتمعوا واحتاج بعضهم إلى بعض وخشي بعضهم بعضا
وقد حث القرآن على الوفاء بالعهد كله وبالغ في الأمر به. يقول في سورة الأنعام: (وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى، وبعهد الله أوفوا. ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون). وفي سورة الإسراء: (وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً). وفي سورة النحل: (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي. يعظكم لعلكم تذكرون. وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً. إن الله يعلم ما تفعلون. ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً، تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة إنما يبلوكم الله به، ولَيُبَيّنّ لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون. ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً، إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعملون).
يأمر الله سبحانه في هذه الآيات الجامعة بالعدل والإحسان وصلة الأرحام، وينهى عن الفحشاء وكل منكر، وعن البغي على الناس. وهذا أمر بكل خير ونهي عن كل شر.
ثم يخص الوفاء بالعهد فيأمر به ويسميه عهد الله، وكل عهد بين اثنين يسمى عهد الله، لأن الله رقيب على أعمال الناس، وقد أمرهم بأن يصدقوا ويحسنوا ويفوا بالعهود، ولأن العهد قسم بالله وشهادة لله على الوفاء. وأكد الأمر بقوله: ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها، وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً. فالإنسان حين يعاهد يشهد الله على عهده ويجعل الله كفيلاً عليه بالوفاء، فكيف تنقض صفقة تكفّل بها الله؟ إن الإنسان ليتخذ كفيلاً من وجهاء الناس فيحرص على الوفاء بعهده إكراماً لهذا الكفيل وحياء منه، فكيف بمن جعل كفيله الله؟ ثم نهاهم أن تكون أمورهم لعباً وعبثاً، يبذلون وعودهم وعهودهم وأيمانهم ثم ينقضونها، كالمرأة الحمقاء التي غزلت ثم نقضت غزلها؛ ذلك عبث وصغار لا ترضى به النفوس الكريمة الكبيرة الحرة. نهاهم أن يفعلوا ذلك وأن يتخذوا أيمانهم غشاً وفساداً إذا لاح لهم نفع في نقض العهد، إذا وجدوا أن جماعة عاهدوها هي أقل عدداً وقوة من جماعة لم يعاهدوها، فهم يريدون أن ينقضوا عهد الضعيف ليرضوا القوي أو يحالفوه. وهذا معنى قوله: (أن تكون أمة هي أربى من أمة). ثم قال: (ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً). يعني: لا يحملكم على نقض العهد نفع تنالونه من وراء

نقضه، فإن كل ما تنالون بنقض العهود هو ثمن قليل في جانب هذا الأمر العظيم. وكل ربح تتوهمونه في ذلك خسران كبير.

وقد أثنى القرآن كثيراً على الموفين بالعهد، قال في وصف المؤمنين المفلحين: (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون). وقال في وصف الخيرين البررة: (والموفون بعهدهم إذا عاهدوا). وقال: (إنما يتذكر أولوا الألباب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق). وقال: (بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين).

هذه إشادة القرآن بالموفين بالعهد، وثناؤه عليهم بكل خير تعظيماً لهذا الأمر العظيم.

وأما الذين لا يوفون بعهودهم فقد ذمهم القرآن وشنع عليهم فقال: (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون). وقال في موضع آخر: (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار). وقال في جماعة من أهل الكتاب نقضوا العهد: (فيما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسية). واستمع إلى هذه الآية الهائلة التي تبين غضب الله على من ينقض العهد ابتغاء منفعة: (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة، ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم.)

وقد أخرج القرآن ناقضي العهود من الإنسانية وجعلهم من الدواب بل جعلهم شر الدواب في قوله:

إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون، الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون).

ألا ترى أنه جعل الذين كفروا شر الدواب ثم وصفهم وصفاً يلائم هذه الحال فأخبر أنهم لا يثبتون على عهد كلما عاهدوا نقضوا عهدهم. كما قال في آية أخرى: (أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم؟)

راعى القرآن العهود وأعظم شأنها حتى أوجب الدية في قتل غير المسلم من قوم معاهدين، ولم يوجبها في قتل المسلم من قوم غير معاهدين.

تلكم شرعة الإسلام في رعاية العهود، وهي التي سار عليها المسلمون في سلمهم وحربهم فكانوا أوفى ذمة وأثبت عهداً. . . تنطق بذلك سيرهم منذ جاءهم الإسلام حتى اليوم. كان للعهد عندهم حرمة لا تمتهن، في السراء والضراء، والشدة والرخاء. كان العهد الذي يعطيه أقل رجل من المسلمين ولو عبداً - نافذاً على المسلمين جميعاً لا يقبل تأويلاً ولا تبديلاً.

إن حفظ العهود ليلقى الأمن والطمأنينة في نفوس الأفراد والأمم ويقيم أمور الناس على شريعة من المودة والإنصاف والتعاون. وإن العالم ليزلزل اليوم بما استخف بالعهود واتخذها وسيلة إلى المطامع؛ فلم يركن الناس إلى معاهدة، ولم يأمنوا الغدر والمفاجأة، فصاروا في ريبة وحيرة، وزال ما كان يثبت الأمم من مواثيق تؤمن بها وتركن إليها وتسير في تدبيرها عليها. صار الوعد لا يدل على الوفاء، والعهد لا يؤمن من الغدر، فاضطرب الناس فهم في أمر مريج.

وقد حدثنا القرآن عن بلاد أهلكت وأخبرنا أن مما أهلكوا به استخفافهم بالعهد فقال: (أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون. تلك القرى نقص عليك من أنبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل، كذلك نطبع على قلوب الكافرين. وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين). . . صدق الله العظيم

عبد الوهاب عزام

في الاجتماع اللغوي

تطور اللغة وارتقاؤها

أثر العوامل الأدبية المقصودة: الرسم

للدكتور علي عبد الواحد وافي

مدرس الاجتماع بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

تشمل هذه الطائفة من العوامل جميع ما يبذله الأفراد والهيئات من جهود مقصودة في

سبيل حفظ اللغة وتعليمها، وتوسيع نطاقها، وتكملة نقصها، وتهذيبها من نواحي المفردات والقواعد والأساليب، وتدوين آثارها، واستخدامها في الترجمة والتأليف الأدبي والعلمي. . . وهلم جرا

وتمتاز هذه الطائفة من العوامل عن الطوائف الثلاث التي تكلمنا عنها في المقالات السابقة بأنها أمور مقصودة، تسيرها الإرادة الإنسانية؛ على حين أن الطوائف السابقة تتمثل مظاهرها في أمور غير مقصودة تحدث من تلقاء نفسها، وتبدو آثارها في صورة جبرية لا اختيار للإنسان فيها ولا يد له على وقفها أو تغيير ما تؤدي إليه، وتمتاز عنها كذلك بأن هدفها الأصلي هو لغة الكتابة، بينما تتجه آثار الطوائف السابقة بشكل مباشر إلى لغات المحادثة.

ولهذه الطائفة مظاهر كثيرة من أهمها: الرسم، والتجديد في اللغة، والبحوث اللغوية، وحركة التأليف والترجمة، ووسائل تعليم اللغة. وسنعرض في هذا المقال لبعض نواحي الرسم، مرجئين التكلم عن نواحيه الأخرى وعن بقية العوامل الأدبية إلى المقالات التالية.

لم يتح الرسم إلا لعدد قليل من اللغات الإنسانية، أما معظمها فقد اعتمدت حياته على مجرد التناقل الشفوي، فالشرط الأساسي في حياة اللغة هو التكلم بها لا رسمها، فكثيراً ما تعيش اللغة بدون أن يكون لها سند تحريري، ولكن من المستحيل أن تنشأ لغة أو تبقى بدون أن يكون لها مظهر صوتي. ويصدق هذا حتى على اللغات الصناعية نفسها كالإسبرنتو وما إليها، فمن المتعذر أن تتاح الحياة للغة من هذا النوع ما لم تتناولها الألسنة وتصبح أداة للكلام، ولذلك كان أول ما يتجه إليه المفكرون في هذا النوع من اللغات هو وضع أصواته وأسلوب نطقه والبحث في وسائل انتشار التحدث به.

وعلى الرغم من ذلك، فللرسم في حياة اللغة ونهضتها آثار تجل عن الحصر. فبفضله تضبط اللغة، وتدون آثارها، ويسجل ما يصل إليه الذهن الإنساني، وتنتشر المعارف، وتنتقل الحقائق في الزمان والمكان. وهو قوام اللغات الفصحى أو لغات الكتابة ودعامة بقائها. وبفضله كذلك أمكننا الوقوف على كثير من اللغات الميتة كالسنسكريتية، والمصرية القديمة، والإغريقية، واللاتينية، والقوطية؛ فلولا ما وصلنا من الآثار المكتوبة بهذه اللغات ما عرفنا منها شيئاً ولضاعت منا مراحل كثيرة من مراحل التطور اللغوي.

وترجع أساليب الرسم التي استخدمت في مختلف اللغات إلى أسلوبين اثنين:

(أحدهما) أسلوب الرسم المعنوي , وهو الذي يضع لكل معنى صورة خطية خاصة وقد استخدم هذا الأسلوب في لغات كثيرة، منها الصينية والمصرية القديمة ولا نعلم على وجه اليقين أول أمة استخدمته ولكن يظهر من شواهد كثيرة أنه أقدم أساليب الرسم الإنساني.

وترجع الصور الخطية التي تستخدم في هذا الأسلوب إلى نوعين، فأحياناً تكون صوراً حقيقية للأشياء التي يراد التعبير عنها، أو لأجزاء من هذه الأشياء؛ كما يشير الرسم الهيروغليفي إلى الشمس بدائرة في وسطها نقطة، وإلى القمر بقوس في وسطه نتوء، وإلى الزنبق بثلاثة فروع من شجرته في طرف كل منها ثلاث زنبقات، وإلى الصقر بصورته واقفاً. . . وهلم جرا. وأحياناً تكون مجرد رموز مصطلح عليها للتعبير عن الأشياء والمعاني كما يشير الرسم الهيروغليفي إلى الشهر بصورة هلال في وسطه نجمة، وإلى اليوم بدائرة في وسطها نقطة؛ وكما يشير الرسم الصيني لمعنى الإنسانية بخطين يتكون منهما شكل يشبه رقم 8.

ولهذا الأسلوب من الرسم عيوب كثيرة. فهو أسلوب بطيء يقتضي للكاتب إسرافاً كبيراً في الوقت والجهود، ولكثرة صوره ورموزه تبعاً لكثرة المعاني والأشياء، يقتضي تعلمه وتعليمه جهوداً شاقة وزمناً طويلاً. ولذلك يقضي كثير من الصينيين زهرة شبابهم في المدارس بدون أن يتموا تعلم الرسم الصيني، وهو لا يقوى على تأدية وظيفته إلا في صورة ناقصة مبتورة؛ إذ من المستحيل، مهما كثرت صوره وتعددت رموزه، أن ينتظم جميع ما يخطر بالذهن الإنساني من معان وأفكار وجميع ما ينطق به اللسان من ألفاظ وعبارات. هذا إلى أنه بمقتضاه لا يوجد للمعنى الواحد أكثر من صورة واحدة، مع أنه في معظم

اللغات الإنسانية كثيراً ما يوجد للمعنى الواحد عدة ألفاظ مترادفة. فاستخدامه في حالات كهذه يوقع في اللبس ويؤدي إلى الاضطراب.

أسلوب الرسم الصوتي , الذي يضع لكل صوت صورة خاصة. وقد استخدم (وثانيهما) هذا الأسلوب من الرسم في كثير من اللغات القديمة، ويستخدم الآن في معظم الشعوب المتمدينة.

وترجع الصور الخطية التي استخدمت في هذا الرسم إلى طائفتين: إحداهما الصور المقطعية وهي التي ترمز إلى مقاطع كاملة كما يرمز في الهيروغليفي بشكل الشفتين إلى مقطع را والأخرى الصور الهجائية وهي التي ترمز إلى أصوات ساكنة، كما يرمز في الرسم العربي بهذا الحرف (ل) إلى صوت اللام مجرداً من جميع الحركات.

ويظهر أن قدماء المصريين كانوا أول من استخدم هذا الأسلوب بنوعيه (المقطعي والهجائي) منذ أكثر من ثلاثين قرناً قبل الميلاد. فمن بين صور الخط الهيروغليفي ما يرمز إلى مقاطع صوتية (صورة الشفتين مثلاً التي تعبر عن مقطع (را)) بل من بينها ما يرمز إلى مجرد أصوات ساكنة (صورة الشفتين مثلاً التي أصبحت ترمز فيما بعد إلى صوت الراء غير المتبوع بأي حركة، كما هو شأن الراء في الحروف الهجائية العربية). غير أن قدماء المصريين لم يستخدموا هذا الأسلوب وحده، بل مزجوه بالأسلوب الأول. فالرسم الهيروغليفي خليط من الرسم الصوتي والرسم المعنوي؛ يستخدم بجانب الصور المقطعية والهجائية صوراً حقيقية ورمزية.

ومن الراجح أن الفينيقيين هم أول من استخدم الأسلوب الهجائي وحده. وقد اضطرهم إلى ذلك نشاطهم التجاري وكثرة تنقلهم وتعدد علاقاتهم بمختلف الشعوب. فقد كانت هذه الشئون تقتضيهم في جميع أعمالهم السرعة في الحركة، والاقتصاد في المجهود، وتحري وجوه الدقة. والأسلوب الهجائي هو أسرع أساليب الرسم، وأيسرها وأدناها إلى الكمال. وليس من شك في أنهم حاكوا في أسلوبهم هذا ما كان يشتمل عليه الخط الهيروغليفي من صور هجائية. على أنه قد ثبت أنهم أخذوا أخذاً عن هذا الخط نحو ثلاثة عشر حرفاً من حروفهم.

وقد انتشرت حروف الهجاء الفينيقية في معظم أنحاء العالم القديم واستخدمها كثير من شعوبه؛ ومنها تفرعت بشكل مباشر أو غير مباشر جميع حروف الهجاء التي استخدمت فيما بعد في مختلف اللغات الإنسانية.

فمن الحروف الفينيقية اشتقت الحروف العبرية القديمة، ومن هذه اشتق الرسم العبري الحديث (الحروف العبرية المربعة ' الذي استخدم بعد رجوع بني إسرائيل من نفي بابل، وظل مستخدماً إلى الآن بدون أن يناله تغيير ذو بال.

ومن الحروف الفينيقية اشتق كذلك نوعان من الرسم قريبا الشبه بالعبرية الحديثة (الحروف العبرية المربعة): أحدهما الخط التدمري (أو البالميريني والآخر الخط النبطي ومن التدمري اشتقت الحروف السريانية التي أخذت منها الخطوط المغولية والمنشورية. ومن الخط النبطي والخط السرياني اشتقت حروف الهجاء العربية.

ومن الرسم الفينيقي أخذ كذلك الرسم الآرامي، بل إن الرسم الآرامي في أقدم أشكاله لا يكاد يختلف عن الرسم الفينيقي. وعن الآرامية أخذت الحروف الهندية الباكتريانية - التي كانت مستخدمة في شمال الهند؛ ومن هذه الحروف اشتقت جميع الحروف المستخدمة الآن في مختلف لغات الهند وسيام وكمبدج (بالهند الصينية) وماليزيا

ومن الحروف الفينيقية اشتق كذلك الرسم الإغريقي؛ ومن الرسم الإغريقي أخذت الحروف اللاتينية. ومن الرسمين اللاتيني والإغريقي تفرعت جميع أنواع الرسم المستخدمة في مختلف اللغات الأوربية في العصر الحاضر.

علي عبد الواحد وافي
ليسانسيه ودكتور في الآداب من جامعة السربون

أوليفر جوزيف لودج

يونيو سنة 1851 - أغسطس سنة 1940

للدكتور أحمد موسى

ليس بين المثقفين من لا يعتبر أوليفر لودج من أئمة علماء العصر، كما لا يوجد من بين

هؤلاء من لم يقرأ شيئاً له أو عنه. وإذا أراد أحد المؤرخين أن يسجل في قائمة أعظم عظماء التاريخ من الناحية العلمية، فإنه يضع اسم أوليفر لودج بين هذه الأسماء إن لم يضعه في مقدمتهم.

أنظر إلى حقل من الحقول وسر بنظرك إلى شجيراته التي غرست في وقت واحد وتعهدها الفلاح بالري في فترة واحدة، تر من بينها شجيرة تبز غيرها وترتفع عنها، مع أن البذور واحدة والعوامل الباقية مشتركة. وكذلك كان الحال منذ بدأ القرن العشرون، فظهر في الأفق العلمي كثيرون كان من أبرزهم أوليفر لودج الذي حلق في سماء الفكر تحليقاً عجيباً ووصل إلى نتائج من أبهر وأسمى ما يمكن الوصول إليه.

لم يكن أوليفر لودج موسيقياً، ولكنه كان يستمع إلى موسيقى الخلود؛ فيتخذ من هرمونيتها قواعد وأصولاً يجعلها أساس بحوثه في اللانهاية وفي علاقة الشموس والسيارات والكواكب بعضها ببعض، وكما يحافظ الموسيقي العبقري من أمثال بيتهوفن وفاجنر على الانسجام والاتزان والارتباط الفائق في مقطوعاته، كان أوليفر لودج يتخذ القاعدة البسيطة إلى المبادئ المركبة، وينتهي بالنتائج المحدودة إلى ما هو غير محدود.

وإذا كان العلم رهيناً بالبيئة والاستعداد المولود مع الموهوبين فإن المصادفة قد لعبت دوراً هاماً في توجيه أوليفر لودج إلى العلم.

كان الفضل في توجيهه لمجلة قديمة اسمها: (الميكانيكي القديم) تناولها صدفة فأثارت كامن استعداده، ولم يكن فقر أبيه ليحول بينه وبين العلم؛ فدرس وحفظ وأتقن وتفنن وتعلم وعلم من أجل الاستمرار في الدرس.

ولد أوليفر لودج يوم 12 يونيو سنة 1851 في بيكنهال بمقاطعة ستافورد بإنجلترا من أبوين متوسطي الحال، وكان أبوه مشتغلاً بصناعة الخزف، وقد تعلم الابن في المدرسة الابتدائية في بيوبورت إلى أن بلغ الرابعة عشرة، واستمر مع أبيه سبع سنوات جمع خلالها بين العلم والعمل، بحيث لم يكن اتجاهه العلمي متصلاً أقل صلة بحرفته التي كلفه بها واختاره أبوه، وقد صادف يوماً تلك المجلة التي سبقت الإشارة إليها؛ فانكب على الدرس والبحث والاستقصاء، فما كان من أبيه إلا أن أرسله إلى لندن ليستمع إلى ما يروقه من المحاضرات.

رأى الفتى أنه لا بد له من الدراسة الجامعية المنظمة، ولابد له من مال ينفقه في هذه السبيل؛ فاستعان بإعطاء الدروس الخصوصية للحصول على النفقات الضرورية، وأمكنه بعد الجهد أن يحصل على أسمى شهادة تمنحها جامعة لندن وهي إجازة الدكتوراه بعد خمس سنوات قضاها في الدرس المرهق.

وعين في سنة 1879 مساعداً للرياضة التطبيقية بجامعة لندن، وانتخب عضواً في الجمعية الملوكية سنة 1887، وانتقل أستاذاً للعلوم الطبيعية في جامعة ليفربول سنة 1881 وظل فيها إلى سنة 1900 حيث انتقل عميداً لجامعة برمنجهام.

ومنحه الملك إدوارد السابع لقب فارس سنة 1902 وحصل على لقب (سير) فيما بعد.

ومن أوائل مؤلفاته (نظرات جديدة في الكهربائية) وهو المؤلف الذي ترجمه إلى الألمانية العلامة هلمهولتس سنة 1896 وله كتاب ألفه سنة 1908 أسماه (الحياة والمادة) تناول فيه بالنقد آراء الفيلسوف الألماني هيكل صاحب كتاب (لغز الكون).

وألف بعد ذلك الكثير من الكتب، وله مقالات ومحاضرات لا يتناولها الحصر، منها ما ألقاه في الجامعات ومنها ما ألقاه في مجمع تقدم العلوم البريطاني. أما مقالاته فقد نشرت عنها نبذة جيدة في مجلة الطبيعة ومجلة الاكتشافات وغيرهما من المجلات الأمريكية والألمانية والفرنسية والإيطالية.

أما الجرائد اليومية التي نشرت له، فأهمها التيمس التي بدأت منذ فجر القرن العشرين تنشر مقالاته وخلاصة محاضراته عن: (الكهرباء) و (الأتوم) و (المغناطيسية) و (المادة والروح) وغير ذلك.

ولم يقف نشاطه عند حد التدريس والتأليف، بل تعداه إلى الاشتغال العملي كمستشار لإحدى الشركات الكهربائية الكبرى؛ فقام لديها بتطبيق أبحاثه النظرية في الوقت الذي فيه استفادت الشركة فائدة عظمى.

وقد ظل عميداً لجامعة برمنجهام حتى سنة 1919، أي أنه ظل في هذا المنصب

عشرين عاماً لا يتوانى عن العمل والإنتاج والسعي وراء ما هو جديد في العلم.
وقد انتخب رئيساً لمجمع تقدم العلوم البريطاني سنة 1933، ورئيساً للجمعية الطبيعية وجمعية الأبحاث النفسية وجمعية الأشعة المجهولة.

بهذا الوضع ترى أن لودج جمع بين العلم التجريبي والفلسفة، وكان وسيطه الأثير، وظل يتفلسف حتى حلق بفكره الصافي وخياله السامي إلى عالم الروح!

ما هو الفضاء؟ وما حدوده؟ وماذا يشغله؟ وما هذه الكواكب المنثورة في رحابه؟ وما الذي يربط بينها؟ وما هي المادة، ومم تتكون؟ وماذا يربط بين الذرات؟

صراع عنيف هذا الذي بين العالِم وبين ظواهر الكون! شجار هائل بين العقل البشري وظاهرة اللانهاية. ينظر العالِم البصير إلى الوجود نظرة المتأمل؛ فيرتد منه البصر خاسئاً وهو حسير! لقد قال (كانت) في كتابه (نقد العقل الخالص): إن العقل البشري محدود لا يستطيع اختراق الآفاق للوصول إلى ما يشفي غلته، وهذه حكمة الخالق!

ولعل ما وصل إليه أوليفر لودج كان من نوع الانبثاقات المشابهة لتلك التي فاز بها أينشتاين دون مقارنة. ومهما يكن من شيء فإن العقل الخصب لا يقف في البحث عند حد؛ لذلك ترى لون التفكير الحديث عند لودج بمعناه الكامل.

يتجه التفكير الحديث إلى تحقيق تأليف كل مادة من جزيئات منفصلة هي ذرات العناصر المركبة من كهارب وبروتونات وهذه هي الشحنات الكهربائية الدقيقة إلى أقصى ما يمكن للعقل أن يتصوره.

أخذ هذا المبدع في التفكير على هذا النمط، واتخذ من البسيط قاعدة للمركب، واستطاع إدراك الموسيقى الكونية المعبرة عن الكمال المطلق في الهارموني الأزلية الأبدية!

كان لودج مؤمناً وكان ينبذ مذهب المادية كنتيجة لإيمانه. فتراه يقول: إن العالم لا يمكن أن يكون مادة خالصة، فهناك رابط وضابط يربط بين الكائنات ويضبط علاقاتها، وليس هو بالذات مادياً.

وما هو الأثير يا ترى؟ أهو مادة ترى أم تلمس؟ يقول لودج في تعريف صفاته: إنه لا يرى ولا يلمس ولا يسمع ولا يشم! بل هو ناقل الضوء وهو الرابط بين جزئيات المادة، كما أنه الوسيط لنقل الأشعة الكونية إلى الأشعة اللاسلكية، والأشعة الكونية تبلغ جداً قصيراً جداً بينما اللاسلكية قد تصل موجتها إلى اثني عشر ميلاً أو أزيد.

أما جولاته وصولاته في عالم الروح فهي مشهورة وعظيمة فاعتقاده في بقاء الروح بعد الموت نتيجة لتجاربه التي يقرر في إحداها أنه استطاع التحدث إلى ابنه المتوفى، ويعلل ذلك بقوله: إن الحياة والعقل يبدوان في مجال لا يشترط أن يكون مادياً دائماً، وعلى ذلك فبقاؤهما بعد انحلال الجسم المادي محتمل.

ولم يصل لودج إلى التحقيق العلمي في هذا الشأن، ولذلك فتعاليمه الروحية مثار كثير من الجدل، ولكن هذا لا يمنع من اعتباره واضع النواة لاتجاه لا يبعد أن يميط البحث عنه لثام الغموض، لا سيما وأن الكثير من المبادئ العلمية كانت في أول أمرها مثار الشكوك ثم ثبت صدقها ونفعها فيما بعد.

تذكر (لامارك) واذكر أبحاثه التي ظلت أعواماً طويلة في عالم النسيان بعد طول الجدل والمناقشة، وبعد أن كانت مثار الحقد والكراهية له من معاصريه العاملين معه في معهد واحد، وتذكر ما قاله (دارون) عن هذه الأبحاث تر أنه لا يبعد أن يجود الزمان بمن يواصل البحث في عالم الروح على ضوء ما تركه لودج من تراث عظيم في هذا المجال.

جمع لودج بين عالم الروح وعالم المادة، وله أبحاث هامة عظيمة قد أيدت، وأبرزها النتائج التي وصل إليها في ظواهر البرق والصواعق، والمسلك الذي سلكه للوقاية منها.

وله فضل عظيم على نظريات اللاسلكي والأمواج القصيرة والطويلة، فلا غرابة إذا اعتبره البعض إمام الابتكارات اللاسلكية الحديثة قبل ماركوني.

لقد وهب الله هذا الرجل صدق النظر وعلو الهمة والرغبة في العلم والإنتاج، كما منحه إلى جانب ذلك عمراً مديداً، فهو في هذا كله قد وفق تمام التوفيق وأدى رسالته على أحسن وجه.

فإذا سجلنا اليوم بعض مآثره وتناولنا حياته ببيان قصير، فإن هذا إلى جانب مكانته لا يعد شيئاً مذكوراً.

ولعلنا نعود إلى أبحاثه الروحية في وقت أكثر رحابة وأوسع مجالاً من هذا الذي اكفهر فيه الجو وخيم الظلام على عقول الناس؟

أحمد موسى

في النقد الأدبي

أسلوب أدهم

في كتبه ومباحثه

للأستاذ محمد عبد الغني حسن

كان المرحوم إسماعيل أدهم شخصية في الأدب النقدي الحديث، تستحق الدراسة من نواح متعددة. وإذا كان عرف عنه دائماً زيغ في العقيدة، أو تعصب للترك على العرب والإسلام فقد عرف عنه بجانب ذلك كثير من دقة البحث واستقصاء الدرس واستكمال عدة النقد اللازمة للناقد الحديث. وامتازت كتاباته ومباحثه الواسعة المنتشرة هنا وهناك بطريقة جرى عليها علماء المشرقيات في مباحثهم. وهي طريقة غير هينة ولا معبدة لأنها تستلزم صبراً كثيراً وقراءة كثيرة وربطاً محكماً لكل ما يقرأ وإدراكاً واسعاً يستطيع به صاحبه الحكم في صحة، غير جانح إلى خطأ، أو مائل إلى انحراف عن الجادة.

ولقد أثار موت أدهم - بالطريقة التي اختارها - أموراً كثيرة، تعرض فيها كثير من الناس لأمور ما كان يليق التعرض لها، لأنها تمس شخصه هو، وتلمس جزءاً خصوصياً من حياته. وكان الأولى بهم لو وقفوا أمام أدبه وتراثه الفكري فاستعرضوه وبحثوه وأشبعوه درساً وتناولوه تناول الناقد - في رفق أو في غير رفق - لأنه تراث لم يعد من ملك إسماعيل أدهم، بل عاد من ملك الزمن ومن حق التاريخ.

ولا نعرض هنا لما قيل في أدهم وما قيل عنه، فليس ذلك وارداً على بحثنا اليوم ولا داخلاً فيه. ولا شك أن المغامز التي أثيرت حوله ستمضي، وسيبقى الكلام في عقيدته مسألة حسابها بينه وبين ربه.

والكلام عن أدهم في أي ناحية من نواحيه قد يكون شائكاً، وقد يكون دقيقاً، وقد يكون فيه غير قليل من الحرج، فليس من أسهل المواقف - في بيئة شرقية محافظة - أن يطيب الكلام عن أدهم المعروف بنزعاته الحرة غير المبالية بتقليد أو سنة.

وليس من أهون المواقف أن يكتب عربي عن شاب تركي الأب ألماني الأم أو صقلبيها كان يرى ويؤمن باحتقار للترك للعرب.

وليس من أحب المواقف إلى النفس أن يكتب كاتب يريد الإنصاف عن أديب تعددت فيه مذاهب الرأي، وأحيط علمه وعرفانه الألمانية والروسية وقيم شهاداته العلمية بكثير من الشك.

نعم، ليس الكلام عن أدهم سهلاً ولا ليناً، ولا مما يرتاح إليه بعض الناس ممن يرون فيه رأياً خاصاً، ويذهبون في الحكم عليه مذهباً معيناً.

على أن الناقد لا يتقيد بما يتقيد به سائر الناس، ولا يخضع نفسه لعاطفة ثائرة قد يكون لها أثر سيئ في الحكم على المنقود. فلقد كان في أبي العلاء المعري شك وسخرية وجرأة على الأديان، إلا أن ذلك لا يمنع من وضعه في المنزل الخليق به في أدب العرب. أما المتزمتون الذين يتحرجون حتى من حفظ شعر لأبي العلاء لرميه بالزندقة، فأولئك قوم لا نكتب لهم، ولا نود أن يقع حديثنا في أيديهم . . . . . .

على أن أدهم - كما قلنا - قد مات وراح في الطريق الذي نروح ونغدو له في الحياة. . . وراح معه شكه وإلحاده ليلقى بهما وجه الله الذي سيرى عنده اليقين. فمن السخف أن نغضب ونسخط على أدهم، لأن الله لم يهده كما هدى غيره. ومن الرحمة أن نرثي لأدهم بسبب هذه الحيرة السوداء التي سودت عليه آفاق الطريق. وقد يكون من المفيد أن يتفضل أحد الباحثين بمعالجة هذا الموضوع - موضوع إلحاد أدهم - والكشف عن بواعثه والظروف التي هيأت له، مستعيناً في ذلك بما كتبه هو عن نفسه في كتابه (لماذا أنا ملحد؟)

يجد المتتبع لأسلوب أدهم أنه لم يسلم من وقوع الأخطاء النحوية فيه. وكان أصحاب الصحف والمجلات التي ينشر فيها يعانون كثيراً في سبيل إصلاح هذه الأخطاء وردها

إلى وجه الصحة. على أن أدهم في مباحثه الأخيرة قلت عنده هذه الأخطاء ولكنها لم تنعدم انعداماً تاماً.
وكان خصوم أدهم يجدون في هذه المآخذ وفي غيرها فرصة للتعريض بقيمة ما يكتبه. على أن ذلك عند المنصف لا يحط من القيمة العلمية لمباحثه.
وضعف إسماعيل أدهم في قواعد العربية من السهل رده إلى نشأته في بيت غريب عن العربية. وكان للسنوات التي قضاها في تركيا كما نعرف - وفي روسيا كما يقال - أثر في زيادة هذا الضعف. إلا أنه بدأ منذ النصف الأول من عام سنة 1940 يفطن إلى أخطائه.
ولعله اكتسب ذلك من نشر مقالاته مصححة من قلم التحرير فلا يقع خطأ في مقالاته المقبلة.
وكان بجانب ذلك لا يحرص على استعمال الألفاظ العربية العريقة، بل كان يعدل عنها إلى الألفاظ الدخيلة أو غير الصحيحة أو الألفاظ الإفرنجية نفسها مكتوبة بحروف عربية.
وقد لاحظت عليه كثرة استعماله للفظة (رومانتيكية) بدلاً من (ابتداعية) ويقول عن ترجمة البستاني للإلياذة إنها (ملحمة شعرية زحمة بمثولوجيتها) بدلاً من أساطيرها، وأكثر ما تلاحظ عليه هذه الطريقة في الكتابات الأولى التي كتبها بين سنتي 1935، 1938. وكتابه الموسوم (الزهاوي الشاعر) مشحون بأمثال هذه الألفاظ الإفرنجية المنبثة في خلال كتاباته العربية.
إلا إنه في السنتين الأخيرتين قبل وفاته عدل عن هذه الطريقة إلى الطريقة الأخرى المعقولة، وهي ذكر الكلمة العربية الأصيلة مع ذكر ما يقابلها في الإنجليزية والفرنسية بين قوسين بحروف لاتينية. وهذه الطريقة تظهر بشكل واضح في أبحاثه العميقة عن شاعر الأقطار العربية خليل مطران التي نشرت تباعاً في مجلة (المقتطف) في عام 1939 وبعض شهور من عام 1940. وعلى سبيل التمثيل نذكر ما يأتي: يقول في أحد هذه المباحث: (إن الخيال الشعري عند مطران إضافي ويقول أيضاً في الصفحة نفسها: (وهذه أشياء يمكنك أن تخلص بها كقاعدة إمعانك في مطالعة شعر ديوان الخليل). ويقول في موضع آخر: (وهي عناصر العاطفة والخيال والفكرة). ويقول في موضع آخر عن صناعة مطران الفنية: (فإن الكمال في الشعر يقوم على أساس الاتزان بين الروح الشعرية والتعبير الشعري من جهة من جهاته).
وهكذا تجد الأمثلة كثيرة على ميله أخيراً إلى استعمال اللفظ العربي والعدول به عن اللفظ الإفرنجي الذي كان يشيع في أوليات مقالاته. . .
وقد لا أكون مخطئاً في الظن أن السر في هذا العدول هو كثرة ما تعرض له من النقد من ناحية - فقد كانت طريقة حشد الألفاظ الإفرنجية على اللغة العربية لا ترضى كثيراً من القراء - ومن ناحية أخرى أراد أن يظهر لبعض الغامزين عليه تمكنه من اللغتين الفرنسية والإنجليزية.
وبالرغم من ذلك كله فإن أسلوب إسماعيل أدهم يتميز من غيره من الباحثين المعاصرين بطابع خاص انفرد به وحده، وهذا الطابع تظهر فيه شخصية أدهم ظهوراً مستقلاً.
وقد بلغ من استقلال هذه الشخصية الأسلوبية وتفردها أنها كانت تنم عن صاحبها حتى ولو لم يعرف القارئ اسم كاتب المقال. وهو في ذلك يمتاز من كثير من الباحثين أو الكاتبين المعاصرين الذين يكادون يذوبون في غيرهم كما يذوب الثلج في الوهج. . .
وهذه الميزة الفريدة لأدهم هي التي أعطته مكاناً طيباً في عالم النقد، فقد كان يُنظر إليه نظرة اعتبار من صاحب (الحديث) في حلب، وأصحاب (المقتطف) في مصر، وصاحب (الرسالة) الذي أفسح له صدرها غير عابئ بما كان ينسج حول أدهم وما يحاك له. . .
على أن هذه الشخصية الأسلوبية لأدهم لا تعني أنها استقلت بمقوّمات أو حسنات فقط، فقد كان فيها بعض العيب - وسبحان الكامل - فقد كان فيها شيء من لكنة الأعاجم. إلا أنه لحسن الحظ أن هذه اللكنة الموروثة فيه لم تفسد معاني كتابته، وإن كانت تضيع من عربيتها.
ويظهر أنه كان فقير المادة اللغوية العربية. وهو معذور في ذلك كل العذر لعجمته أولاً

ولصغر سنه ثانياً. فلم يتح له عمره القصير أن يحيط بثروة لغوية واسعة، وإن كنا نلاحظ عليه ازدياد محصوله اللغوي من عام إلى عام.

ويؤيد ما نقول أنه كان له كثير من الألفاظ والتعبيرات والتراكيب الخاصة به يديرها في كل مبحث من مباحثه، ويكررها في كل كتاب من كتبه، وقد ينسى فيكررها في الصفحة أو الصفحتين المتقاربتين ثلاث مرات أو أكثر، ولسنا نلقي الكلام هنا من غير دليل، فهو يقول في أحد كتبه (تقطعت نتيجة له أوصال عقليته التقليدية) ويقول في الصفحة المقابلة من الكتاب نفسه (تقطعت أوصال عقليته التقليدية تحت محراث العلم والثقافة الغربية)، ويقول في صفحة 18 من الكتاب نفسه (فتقطعت عند الكثيرين من أبناء الشرق العربي أوصال العقلية القديمة).

وقد يكون العلة في هذا التكرير الواضح في كتابته ضعفُ محصول اللغة عنده كما أسلفت، وقد يكون له سبب آخر غير ذلك ولكن الذي لا شك فيه أن هذه الظاهرة في أسلوبه تدل دلالة قاطعة على عدم مواتاة الفيض التعبيري عند الكاتب.

ومن أساليبه الخاصة المتكررة عنده والغالبة فيما يكتب ما يأتي (تموج الإحساس. طفت موجة وسط هذه الموجات. استقوت على عجلة الزمن).

وفي كتابته فيض غزير من الألفاظ العلمية الخاصة التي تستعمل في العلوم الطبيعية أو الرياضية، ولا شأن لها مطلقاً بمباحث الأدب والنقد، وعلة ذلك أنه كان علمي العقل، علمي الدراسة، ثم اتخذ الاشتغال بالمباحث الأدبية غاية له بعد ذلك، فانساب إلى كتابته الأدبية سيل عريض من ألفاظ كانت تشغل ذهنه في علم الرياضة والطبيعة وغيرهما.

ومقالاته وكتبه مملوءة بهذه الألفاظ، ونذكر هنا على سبيل المثال بعضاً منها. فهو يقول في كتابه عن مطران (ص108) (لأن الأصل في التعصب انطلاق الشحنات المفرغة من الأعصاب).

ويقول في الكتاب نفسه ص112 (وهذا الجو يفعل فعله في النفوس فعل مجال مغناطيسي في برادة الحديد). ويذكر كثيراً (التعادل) (والتقيض) (والتمدد) (والطيوف) (وعالم الجزئيات) (والدقائق) (والذرات) ويسمى قوى الحب (جاذبية).

أما التحقيق العلمي في مباحثه واتباعه وسائل علماء المشرقيات في بحوثهم، واهتمامه بالمصادر وذكرها، والتمويل عليها دائماً للاستشهاد، فذلك كله معروف عن كتابته. وهي وسائل تحتاج بغير شك إلى كثير من المعاناة والصبر والزمن.

وقد انتفع رحمه الله بكثير من الأبحاث التي كانت دائرة في السنوات العشر الأخيرة في الصحف العربية: (كالمقتطف)، و (أبولو)، و (الهلال)، و (السياسة الأسبوعية)، و (الرسالة). وكان يرجع إلى هذه الأبحاث مستشهداً على ما يعالجه هو نفسه من المباحث. ونظرة واحدة إلى هوامش مقالاته وكتبه تؤيد هذا الكلام.

لقد أصبح أدب أدهم الآن في ذمة التاريخ، فليكتب عنه المنصفون ليكشفوا النواحي الغامضة من أديب عاش عيشة الغموض ومات ميتة الغموض، بعد أن ترك خلفه آثاراً جليلة جريئة في عالم النقد الحديث.

(القاهرة)

محمد عبد الغني حسن

. . .عراك في معترك

أي معترك!

للأستاذ زكي طليمات

(نحن هنا عند استهلال تطور يستطيع أن يحدث تجديداً في الحياة الأدبية، أو قل يجلب ثروة إليها، ولا يكون هذا الجلب وذلك التجديد إلا بعد نضال عنيف).

هكذا ختم الأستاذ المستشرق (بروكلمن) دراسته لمسرحية (مفرق الطريق) للدكتور بشر فارس. وذلك في الجزء الثالث من الكتاب الثالث لتاريخ الآداب العربية، وهو الكتاب الذي وقفه المستشرق السابق الذكر للأدب العربي المستحدث.

وبهذا الحكم نفتتح ردنا على مقال الأستاذ محمد متولي الذي نشرته (الرسالة) في عددها 376، لنسكب في واعيته أن (مفرق الطرق) عمل أدبي إذا جرى النزاع عليه، فإنما هو يجري في معترك. . . أي معترك!

وآية ما نقرره أن الحديث حول هذه المسرحية يمتد من جديد بعد أن طوينا مكرهين صفحة منه مع (ناقد أديب) وأن المسرحية لا تبرح تشغل أذهان الأدباء، إما عن إعجاب وتقدير، وإما عن استغراب وبطء فهم.

الأستاذ متولي في مقاله المذكور يهدف إلى غرضين رئيسيين:

أولهما: أنه يريد أن يزيل الخصومة القائمة بين الدكتور بشر فارس والأستاذ الشاعر علي محمود طه، وهي خصومة أساسها - كما كتب عنها الأستاذ متولي نفسه في مطلع مقاله المذكور - أن بشر فارس نقد شعر الثاني فاتهمه بالإغارة والسلخ من المتقدمين والمتأخرين، فغضب الشاعر وانبرى يكيل له صاعاً بصاع، فاتهمه بأنه أخذ في كتابة مسرحيته (مفرق الطريق) من آراء وردت في قصيدة (القمة الباردة) للأستاذ الكبير عباس محمود العقاد، فكان أن نصب الأستاذ متولي نفسه قاضياً بين الخصمين، على ما بين التهمتين من اختلاف في الجوهر وملابسات الأحوال، ليقضي بأن الخصمين شريفان، وأن السرقة لم تقع من جانب واحد منهما، ودعم رأيه هذا بأن الفن ليس (فكرة)، وإنما هو (صورة) أولاً وأخيراً.

والموقف كريم مهما كانت بواعثه، ومهما بعدت أسبابه عن الموضوع الذي نحن في صدده، وهو تحديد قيمة هذه المسرحية من الناحيتين الفلسفية والفنية.

بيد أننا نعبر بالكرم لنقول إن بشر فارس ما كان في حاجة إلى الحكم الذي قضى به الأستاذ متولي فيما له علاقة بالمسرحية، لأن أحداً - حتى ولا (الناقد الأديب) - لم يزعم أن بشراً سرقها من كاتب مسرحي متقدم أو متأخر، وإنما المسألة محصورة فيما إذا كان بشر قد استلهم في كتابة مسرحيته هذه من الفيلسوف (كانت) التي تمت إليه قصيدة الأستاذ العقاد، أو هو استوحى فلسفة (بيرجسون).

وأما ما أورده الأستاذ متولي دعامة لحكمه هذا من أن الفن (صورة) وليس (فكرة) فأمر لم يغلب عن ذهننا فيما سبق أن أجريناه في حديثنا السابق، بل سجلناه في أسلوب أوضح وأدنى إلى الثقافة العربية، إذ قررنا (أن المعاني والفكر المتداولة أشياء يشترك فيها جميع الناس، فهي دوارة في نفس الجاهل والسوق، والمتعلم والأديب، وإنما العبرة بطرائق معالجتها، وبالكسي التي تضفي عليها، من حيث حسن التأليف، وجودة التركيب والابتداع والنفس المبتكر الخلاق، وهنا مجال التفاوت بإبراز الشخصية الكاملة المستقلة).

ولم تدل بهذا في معرض الدفاع عن بشر فارس لأنه أغار على قصيدة الأستاذ العقاد فانتحل مذهبها الفلسفي لمسرحيته، ولكننا أوردناه لندفع زعماً آخر لا يدور حول المذاهب الفلسفية المرسومة وإنما يدور حول حقيقة من حقائق النفس البشرية التي هي عامة ومبذولة لكل كاتب، ألا وهي (الصراع بين العقل والشعور).

قررنا هذا المبدأ الذي له أصل عند نقاد العرب والذي عليه نقاد الغرب، محاولين أن نضع له قيوداً خشية أن يصبح الأمر فوضى فتنتحل المعاني وتغتصب الصور.

واقتصار الفن على (الصورة) أو (الشكل) كما يرى الأستاذ متولي، لا يعني أن يكون هناك فن رفيع وفن رخيص، وفن أصيل مبتكر وفن متبع مقلد، وشاعر يسرق وكاتب يستمد، فالتسليم بأن المعاني والفكر المتداولة أشياء يشترك فيها الكتاب، وبأن المتقدمين لم يتركوا شيئاً للمتأخرين، كل هذا وما يدخل في معناه، لم يحجز النقد عن أن يقيم الحدود بين الإغارة على المعاني وسلخها ونسخها وبين الاستلهام والتوليد والاستيحاء والتخريج.

أما الغرض الثاني من مقال الأستاذ متولي، فنقد مسرحية (مفرق الطريق)، وفي هذا المجال وثب الأستاذ متولي وثبة نقول إن التوفيق لم يحالفه فيها كما سنبين:

أراد الأستاذ متولي أن يحدد (الناحية الفنية) للمسرحية، فإذا به يتحدث في غير ذلك، ذلك أن المعنى المباشر (للناحية الفنية) لمسرحية ما، هو خضوعها لشرائط الفن المقطوع بها، من حيث مراعاة بلاغة العرض لحوادثها وجودة الحبك لمشاهدها، وبراعة الحوار ولطفه، وعمق التفكير وانسيابه إلى أعماق النفس يكشف عن خفاياها. . . الخ، ولكننا لم نطالع شيئاً من هذا في مقال الأستاذ متولي، بل طالعنا آراء تتطوح بين علم النفس وعلم الجمال، والعلمان من صميم الفلسفة، وإذا بالأستاذ متولي الذي نعت حديثنا عن الفيلسوفين (كانت) و (بيرجسون) (بالتفلسف) يكتب فصلاً في الفلسفة -

ونأبى أن نقول على غراره: في (التفلسف) - وإذا بأسماء (ريبو) و (بيكون) وغيرهما تجري مجنحة مطلقة العنان، مما يدل على أن الأستاذ متولي أراد (بفنية المسرحية) أمراً غير ما يدل عليه المعنى المتداول للمصطلح عليه لدى رجال المسرح، إذ هو يريد بها، ولا شك، (الناحية الرمزية الفنية) للرواية، يأتي بهذا الملبس في فصل من القول يجب أن يكون قائماً على الدقة والإحكام.

والنقد الذي أراده الأستاذ متولي لمسرحية (مفرق الطريق)، هو للمقدمة أكثر منه للمسرحية، هذا في حين أن (المقدمة) أمر عارض، لأنه غير المسرحية التي هي مناط القول في الجدل، وما احسب أن بشراً كان يتجشم كتابتها متبسطاً لولا حرصه على أن يقرب المسرحية إلى أذهان القراء وييسر لهم أمر استيعابها وهي حدث جديد في التأليف المسرحي المصري.

وعلى اعتبار أن (المقدمة) هي العنصر الأول، كما يتعمد أن يراها متولي، لينتقصها ثم ينفذ من هذا إلى انتقاص قدر المسرحية نفسها، فأين الأخطاء التي وقع فيها كاتبها، وما هي مزالق الكلام فيها؟

لا أخطاء ولا مزالق كلام؛ وإنما هو تعسف وعنت من جانب الأستاذ متولي، ومرد هذا كله أن فكرته عن الرمزية محدودة ضيقة، إذ هو يريد أن يخضع كل ما يؤلف في الرمزية لما وجده عند (ريبو فقط، و (ريبو) هو واحد ممن كتبوا في الرمزية وعلم النفس، وواحد ممن أسقطت الآراء الفلسفية الحديثة أكثر ما ذهب إليه فيهما، كما سنشرح هذا.

ويؤسفنا أن نقرر، لو أن الأستاذ متولي، وهو الذي يحمل شهادة ماجستير للفلسفة، تعقب المراحل الحديثة التي مر بها علم النفس بعد العهد الذي ألف فيه (ريبو) كتابه (المخيلة الخلاقة الذي هو عمدته في النقد، أي بعد عام 1900، لعرف أن علم النفس الذي أفدت منه الرمزية كثيراً قد دخل في طور جديد تبدلت على أثره أوضاع في الأدب عامة، وفي الرمزية خاصة، كما تشهد بذلك مسرحيات (بيراندللو)، (جيرودو)، (جانتيوم)، وأن الرمزية المستحدثة أصبح مدارها خفايا النفس وبواطن الأشياء، وهو ما عبر عنه بشر فارس في مقدمته: (استنباط ما وراء الحس من المحسوس. . . الخ).

وقبل أن ننتقل من هذا نود أن يقف القارئ على آراء علماء اليوم فيما كتبه (ريبو) خاصاً بالمخيلة التي هي أساس في كتابه المذكور، وذلك كما وردت في مؤلف كبير يدرس اليوم في جامعة السربون بباريس، وضعه جمهرة من علماء فرنسا:

يلوح لنا أن علم النفس عند (ريبو) في مسائل المخيلة والاختراع لا يزال تحت تأثير (النظرية الآلية البسيطة الخاصة بتجزؤ الذهن إلى ذرات متجاورة)، ومن ذلك نرى أن حديث (ريبو) عن المخيلة في جميع العناصر المختلفة، قد أصبح موضع نظر، بعد أن بين الفيلسوف الأمريكي المعاصر (وليم جيمس) وغيره، أن مجرى الضمير متصل متلاحق من حيث إنه حقيقة متحركة، ومن حيث إن الفكر في تطور دائم، وكذلك قرر (بيرجسون) الفيلسوف الفرنسي المعاصر، أن الحياة النفسانية اندفاع وابتداع في زمن متصل الحركات.

(البقية في العدد القادم)

زكي طليمات

رسالة الشعر

في رياض نيسابور

أسطورة الخيام

للأستاذ إبراهيم العريض

- 1 -

في أرضِ إيرانَ حَيثُ الْهُضْبُ لابسةٌ
زنارها
من الثُّلوجْ
كالْحُورْ
تستقبلُ الشمسَ. . . والأنهارُ هامسةٌ
أسرارَهَا
بينَ المرُوجْ

للنُّورْ
جلا الربيعُ بنَيْسَابُورَ موكبهَ ... فزادَ عيداً إلى أعيادِها الأُخرِ
يا ناعماً في رُبوعِ الخلْدِ ليلتَه ... مستْ خُطاكَ ثرَى الوادي معَ السحر
فلم تزلْ خُفراءُ الطيرِ تهتفُ في ... أفْنانِها لجنُوم الأرضِ بالخبر
حتى تلألأنَ في ضوءِ النهارِ ثنًى ... وفُزْنَ منكَ فُرادى بالشذى العطِر
فالزهرُ في قاعِها يفترُّ مبْسَمُه ... يا ليلُ! هل صبغَتْ فاهُ يدُ القمر
والعشبُ مِنْ حولها يزهو بخُضْرِته ... يا أفقُ! هل هو مَيْدَانٌ إلى النظر
والطيرُ من فوقِها في ظلِّ وارفةٍ ... يا غصنُ! هل أخذتْهُ رشةُ المطر
والنهرُ من تحتها في موجهِ ألقٌ ... يا شمسُ! هل هو مِرآةٌ إلى الشجر
إني لأسمعُ في أرجائها ضَحِكاً ... كنغْمَةٍ بعثتْها هزَّةُ الوتر
يا مَنْ يُؤَمِّلُ في الفِرْدَوْسِ بُغْيَتَهُ ... قررْتَ عْيناً بها في هذهِ الصُّور
لبِّ الحياةَ فقد عمَّتْ بدعوتِها
وما الربيعُ سوَى تجْدِيدِ ذِكراها
- 2 -
أَتَى الربيعُ إلى الدُّنْيا كعادتِه
بما اجتناهُ
منَ الْجِنانْ
مِلءَ اليَدِ
فكادَ يُشْغلُ عنها في عبادتِه
بما رآهُ
مِنَ الْحِسَانْ
في المعْبَدِ
وأَقْبَلَتْ تتَهادَى في غلائِلِها ... بنْتُ الْجِنان تُحيِّيها كَحَوَّاءِ
لو حاول الليل أن يغْزُو غدائِرَها ... لماجَ يسألُ أَيْنَ الكوكبُ النائي
تضاحَكَ الورْدُ لما قِبلَ وَجْنَتُها! ... أكنتَ (يا وردُ) مَشْغُوفاً بإطراءِ
فأسفرتْ عن مُحيّاً في بشاشَتِهِ ... يكادُ يَقْطُر مِنْهُ الحسْنُ كالماء
شفَّ الحريرُ الذي وارَى ترائِبَها ... عن فاتِنَيْنِ. . . فهل هَمَّا بأشْيَاء
لم تسْحَبِ الذيل فوقَ الزْهرِ سائرةً ... إلا ومالَ يُزَكِّيها بإيماء
حتى أتَتْ مَحْفِلاً في الروض مُنزوِياً ... قد لاذَ في السُّكرِ أَهْلوهُ بأفياء
هذا أخُو شْيبَةٍ أَلْقَى اليَرَاعَ عَلَى ... ما خطَّه وانْثَنى في شبهِ إغفاء
فهيَّأتْ كأسَه حتى إذا نظرَتْ ... ما في الصحِيفةِ غنَّتْ للأحِبَّاء
والشَّوْقُ في دمِها والعُودُ في يدِها ... يُعيدُ نغمتَها الأُولَى بأصْدَاء
يا نائماً في ظِلالِ الكرْمِ وابنْتُه
في الْحُلْمِ تُؤْنِسهُ قُمْ وَارْتشِفَ فاها
- 3 -
هَذا الجمالُ الذي كَمْ وَدَّ ناظِرُه
في مَيْعةٍ
من صِباهْ
لوْ نَالهْ
يا وردُ! مِثْلَكَ إن حَيَّاهُ شاعرُه
بنَغْمَةٍ
من هواهْ
أصْغَي لهْ
شِيرينُ غنَّيتِ صوتاً كانَ يُطْرِبُني ... ليتَ الأحِبَّاء عادوا لي مع النغَمِ
ناموا وهدْهدَتِ الأزهارَ بعدَهُمُ ... يدُ الربيعِ على عَيْني فلمْ تنم
ذكَّرْتِني بشبابي إذ تطوفُ بهِ ... في باحةِ الْخُلْدِ آمالٌ مَدى الْحُلم
إذ كنتُ أُطلِق نفسي في سجِيَّتِها ... فلا تني السْبقَ من جريٍ على قدم
أشكو مواقعَ عينَيْ كلِّ فاتنةٍ ... مفتونةٍ بالذي أجلُو من الشَّمم
باحتْ بسر شكاةِ القلْبِ رائعةٌ ... تلوحُ كالبرْقِ في داجٍ من الظُّلم

ما للبياضِ أحالَ اللهِ جِدَّتَه ... يُفْضي إلي الهمِّ لا يفضي إلى الهمم
نُعِدُّ للصَّبْرِ أنفاساً محرَّقةً ... حتى تحولَ رماداً فَحْمَةُ اللَّمم
لأقْطعنَّ نِياطَ القلبِ إن وَجدَتْ ... نفْسِي سبيلاً إلى غرْسِ المُنى بدمي
فلو سَفرْتُ عن الآمالِ كانَ بها ... ما بي من الزمنِ الموفي على الهرم
فَجَدِّدِي لي باللَّحْنِ الجميلِ رُؤىً
لا زلتُ تحتَ ظِلالِ الكرْمِ أرْعاها
- 4 -
يا طرْفَها! إنَّهُ قصَّى الحياةَ إلى
مَشيبِهِ
في اكْتِنَاهِ
الشُّهْبْ
وظلَّ مُجِمَرُه في الأرضِ مُشتِعلا
بطيبِه
لإلَهِ
الْحُبْ
شِيرينُ حُسْنُكِ أَعْطَى الأرْضَ زينتَها ... حتى ولو لم يَزِنْها كفُّ نَيْسانه
فكيفَ والطيرُ قد بلَّ الندى فمهُ ... فطارَ يَمْلأُ مَغناها بألحانه
هذا الربيعُ قد استلقى بحاشيةٍ ... من الزهورِ على الوادي وشطآنه
يُصيخُ للبُلبلِ العِربيدِ وَهْوَ على ... أُرجوحةٍ من نسيمِ الرَّوْضِ أو بانِه
يَهُزُّ أرجاءَها هَزّاً بنغْمتهِ ... ولا يُفيقُ كأنّ السُّكرَ من شانه
فلقِّنيهِ من الألحانِ أطربَها ... إلى النفوسِ وجازِيه بإحسانه
وبادِلي الرَّوْضَ أنفاساً مُعطرة ... فما أرقَّ الصَّبا في ظِلِّ أفنانه
وضاحِكي الوردَ في إبَّانِ حُمْرَتِهِ ... فَرُبَّما عادَ مطوِيّاً لأشجانه
ودونَكِ النهرَ فأنْسَيْ في تدفُّقِهِ ... هذا القميصَ الذي يُزْري بإنسانه
أما كَفى الْحُسْنَ أنَّ الموْتَ يَرْصُدُهُ ... فماله في الصِّبا يسعَى بأكفانه
وقَبِّلي الكاسَ ما دامتْ مُشَعْشَعَةً
ولا تشِحِّي على ثَغري ببُقياها
- 5 -
يا رَّبةَ الْحُسْنِ! إنَّ السُّكْرَ مَبْعَثُهُ
عَيْنَاكِ
وحْدَهُمَا
لا الكاسْ
وَأَيْنَ من شفَتَيْكِ السِّحْرُ ينْفثُهُ
صرْعَاكِ
باسمِهِمَا
في الناسْ
طافتْ عليهمْ بها كالشَّمْسِ ساطِعَةً ... يُري عَلَى الخدِّ من لألأئها شفَقُ
فعبَّ فيها ثلاثاً وَهيَ تسْنِدُهُ ... حتى تماسَكَ في أحْشائِهِ الرمق
وعاوَدَ العُودَ شْيءٌ مِنْ تملْمُلِهِ ... لما غَدَا العُودُ بيْنَ الجمرِ يحتْرِق
فظلَّ يبعثُ فِي الأَسْمَاعِ أَنَّتَهُ ... مَوْصُولَةً دُونَ أن ينتابَها قلَق
ثم استمرَّتْ تغُنِّيهم - بما حملَتْ ... يدُ الربيع لهم - والعُودُ يصْطفِق
(يا عَاشِقَ الوَرْدِ! ما جاءَ الربيعُ لكيْ ... يحْيا حبيبُكَ مَحْفُوفاً به الودق)
وصوْتُها ماجَ بحراً لاَ هُدُوَء لهُ ... من كلّ نجْمٍ عَلَى أمْوَاجِهِ الق
يعْلو، فتحْسبُه شوقَّ القلوبَ إلى ... حبّاتِها، وَطوى آلامَها الغرق
حتى إذا خفَّ - مغْموراً بمْوجَتِه - ... شيئاً فشيئاً، تراءى حولَها الأفُق
فمالَ كلُّ نديمٍ في ترنُّحِهِ ... على سِوَاهُ من الصوْتِ الذي عَشِقوا
فاقْطِفْهُ في زَهْوِهِ. . . وانْظُرْ إلى دَمِهِ
هل مَازَجَ الكاسَ إِذْ تُسْقِي وَتُسْقاهَا
- 6 -

باتَ الهزارُ بقرْبِ الوردِ يَعْبُدُهُ
يا طَلَّ
كُنْ كالْخَمْرِ
رفْراقا
وقُلْ إلى النَّجْمِ إنَّ الفَجْرَ مَوْعِدُهُ
يَطَلَّ
حتَّى الفجرِ
برَّاقا
وتمَّ للشَّمْسِ في الأفلاكِ جولتُها ... فجاوَزَتْ بخُطاها الغرْبَ في خفَرِ
وظلَّ من بعدِها ما أحمرَّ من شفَق ... يسائِلُ الأرضَ هل غابت عن النظر
فانفضَّ في الرَّوْضِ حفْلٌ كان مُنشِدُه ... من الطيورِ وساقيهِ من الزَهر
وأقبلَ الليلُ يحْدُوه تطلّعُهُ ... إلى الذي خَلَّفَ النُّدمانُ من أثر
يا ليلُ أنفرطَ العِقدُ الذي امتلأَتْ ... به يداكَ ففاض الكوْنُ بالدُّرر
لولا سناها لما عايْنْتَ شاعرَهم ... وقد توسَّد كفّيْهِ على النهر
بجنبِ شيرينَ مأخوذاً برَوْعةِ ما ... تُدليهِ في مائه الجاري من الشَّعر
ووجهُها باسمٌ يُغني بطَلعتِه ... عن الشُّمُوعِ ويُمناها على الوتر
قال: انظُري كيفَ يبدُو في الظلام لنا ... سرُّ الجمالِ الذي يخفَى مَعَ السحَر
شِيرينُ! لو كانَ لي بْعدَ البِلى أملٌ ... لما تَمنَّيْتُ إلاّ ثانِياً عُمُرِي
فعشتُ في هذهِ الدنيا كعهْدِكِ بي
للحُسْنِ. . . يُشعِلُ لي ناراً فأغْشاها
- 7 -
لِلحُسْنِ فينا - كما فيهِ لنا - وطَرٌ
مَنْ لمْ يَحُمْ
بَينَ يَدَيْ
نُورِهْ؟
عاشَ الندامَى. . . وحَلّى كأسَهُمْ قَمرٌ
على النغَمْ
مِنْ عَرْشِ دَيْجُورِهْ!
عادَ الربيعُ لنيْسَابورَ ثانِيةً ... وقدْ تبدلَ زاهي أمْسِها بغدِ
فكانَ في الموكبِ التالي كسابِقِه ... يَمْشي معَ الْحُسنِ مُخْتالاً يداً بِيد
كم ذابَ قلبُ هزارٍ في ترنمِهِ ... حتى تضوعَ هذا الزْهرُ وهْوَ ندِ
عادَ الربيع وقد حف الْحِسانُ به ... إلا الذي كانَ يهْوى الْحُسْنَ لم يعْد
سل الوُرودَ وقد وارتْ بكلّتِها ... ضريحَهُ لَم لمْ تُكْثِرْ من العَدد
هُناكَ حيثُ قديماً طابَ مَحْلُفِهُمْ ... حلَّ الندامَى على أنماطِها الْجُدد
عادَ الربيعُ. . . فلا ردُّوا تحّيتّه ... إلا بأحْسَنَ منها - دائِمَ الأبد
بِشُعْلَةٍ في يدَيْها رُوح شاعِرِهِمْ ... مثْلَ الفراشِ حوالَيْها معَ الحشد
حتى إذا تمَّ دوْرُ الكاسِ بْينَهُمُ ... مالتْ إلى القْبرِ بالباقِي ولم تكد
- فرددتْ قولَه - والعودُ في قَلقٍ ... تهْتزُّ أوتارُهُ من صَوتِها الغرد
(واضَيْعَةَ الكاسِ يوْماً إن عثَرْتِ بها
(على رُفاتي. . . فلَمْ أنْعَمْ بِرُؤْياها
(البحرين)
إبراهيم العريض
رسالة العلم
قصة الفيتامين
ظهور مرض البري بري
للأستاذ عبد اللطيف حسن الشامي
- 4 -
لقد كان من عادة الأطباء الهولنديين الذين قاموا بخدمات خارج بلادهم في المستعمرات الأسيوية الشرقية ألا يركنوا إلى الدعة والاستقرار إذا ما اطمأنوا إلى

العيش - كيلا تبلد فيهم حاسة التفكير أو تصدأ روح الاستطلاع - بل كانوا في أوقات فراغهم يعملون ما يعود عليهم بالتسلية والنفع - فحوالي عام 1890 وُكل إلى الطبيب الهولندي كريستيان إيكمان إدارة مستشفى حكومي في جاوه وكان مولعاً باقتناء الطيور المنزلية ويعيرها بعض عنايته ويخص منها الدجاج والحمام. ولم يطل به الانتظار حتى تسنّى له مشاهدة بعض الملاحظات. إذ رأى أثناء نظره إلى طيوره نظرة الفاحص وهي تمرح في الحديقة - بعضها تغدو ثقيلة الحركة بطيئة الخطى وبعضها الآخر قد فقد توازنه. ولكن لم تدم هذه الحال طويلاً فقد أصابها تصلب في عضلات الرقبة لاقت بعده حتفها.

بهذه المشاهدات الأولية وُضع الحجر الأساسي لدراسة مرض البري بري في الهند الهولندية، وهو المرض ذو الأثر السيئ في حياة الشرق الأقصى والذي لم يكتف بخطف ضحاياه من الكبار بل كان يهدد الصغار في مطلع حياتهم بشكل مخيف ويحمل هذا المرض اسمه من شكل الحركة المتصلبة في مشية الخروف والتي تبدو على المصابين، وتدل كلمة (بري بري) في اللغة الهندوستانية على الخروف، وهنا نرى نجاح الدكتور ايكمان في اختيار هذا اللفظ للدلالة على هذا المرض نظراً للتشابه التام العجيب بين أعراض هذا المرض في الإنسان وفي مشية الخروف.

سرى مفعول هذا المرض خاضعاً مماثلاً للوصف الذي أشار إليه ايكمان بناء على ملاحظاته على دجاجة، وحمامة ولم يقتصر هذا المرض الذي ذهب ضحيته قديماً مئات الآلاف على موطنه الأصلي في آسيا الشرقية بل تعداه إلى جنوب أمريكا وأفريقية وأزهق

في اليابان في مدى سنين قلائل خمسين ألفاً من الأنفس وفي الحرب الروسية اليابانية خمسة وسبعين ألفاً من الروس ذهبوا جميعاً بطريقة مماثلة للطريقة التي لاقت بها طيور ايكمان حتفها.

تبعاً لالتهاب عصبي عام يقف عمل الأرجل وتضرب عن حركتها الحرة، وتذهب حساسية الجلد، وتشل العضلات نظراً لعدم استعمالها أو القدرة على تحريكها، وتضمحل وتضمر الأطراف السفلى حتى العجز، وأخيراً يهبط القلب ويتجمع الماء في الأنسجة ويعقب ذلك النهاية المحتومة.

ومذ اكتشف حوالي عام 1880 أن الأمراض الناقلة ترجع إلى وجود دقائق حية - عُزي كذلك انتشار مرض البري بري إلى تلك الكائنات الدقيقة - ولقد ذهبت عبثاً جهود الوفود الطبية التي أرسلتها الدول إلى البلاد الموبوءة للكشف والبحث عن مسببات مرض البري بري.

ولا عجب إذا سلّم الدكتور ايكمان بهذا المبدأ السائد وعمل على فصل الدجاج الجديد الذي اشتراه عوضاً عن الفاقد وأبعده عن بقية الدجاج المصاب منعاً لانتقال عدوى الالتهاب العصبي - ومع هذا لم تمنع هذه الاحتياطات الجدية من إصابة الدجاج والحمام الجديد - ولكنه عندما بدأ يغير لها أصناف أكلها لم يقف تقدم المرض في الحيوانات الجديدة فقط بل تحسنت كذلك حالة الطيور القديمة المريضة ولما تبين الدكتور ايكمان هذه الحقيقة فطن إلى أن بقايا الأرز التي ترسلها مطابخ المستشفى بسبب ما - لا تصلح لغذاء طيوره فأحب شراء ما يلزمها من حبوب الأرز من خارج المستشفى ومن هذا اليوم وقفت تماماً تطورات أعراض مرض البري بري.

ولكنه في كلتا الحالتين - حالة المرض السابقة وحالة زواله - استمر إطعام الطيور بحبات الأرز. فما سر هذا الانقلاب إذن؟ ببحث الطبيب وتقصيه تبيّن له اختلاف نوعي الأرز الذي أطعمه طيوره، فالأرز الذي قدمه للطيور من مخلفات مطابخ المستشفى حتى يوم الانقلاب كان مقشوراً أبيض. أما الآخر الذي اشتراه من السوق فكان حافظاً لقشوره وما زال بأغلفته. لم يبق شك لدى الطبيب ايكمان في الصلة بين قشرة الأرز وهذا المرض بعد أن أوضحتها التجربة وأبانتها الخبرة، ولما تأكد من نتيجته هذه أراد أن يعبر عليها إلى

مرض البري بري في الإنسان كي يحصل على نتيجة أخرى أهم وأجدى، ويصل إلى معرفة سبب إصابة بلاد الأرز بهذا المرض العضال.

وكان للياباني تاكاكي فضل السبق ببضع سنين في الوصول إلى أن مرض البري بري لا صلة له أصلاً بنظريات العدوى والانتقال، وصرح بأن هناك صلة بين البري بري ونوع

الغذاء العام.
فهل يا ترى لم يتم بعد - حتى مع الاكتشاف العرضي للبري بري في الطيور - فتح ثغرة ما تلقى شعاعاً من نور يبدد هذه الظلمات والتخمينات؟
بحماس أكيد ورغبة صادقة تقد الدكتور إيكمان لترتيب تجاربه السابقة العرضية، فبدأ بمجموعتين صحيحتين من الدجاج والحمام، أطعم أولاها أرزاً مقشوراً، فما لبثت طويلاً حتى استشرى بينها المرض وتفشى فيها الداء ولم تقو أرجلها على حملها وذهبت سريعاً صرعى. أما المجموعة الثانية فأطعمها أرزاً غير مقشور، فلم تظهر عليها أعراض ما، وظلت صحيحة سليمة، ولما أبدل الغذاء لكلتا المجموعتين (بأن قدم لكل واحدة ما كان يقدمه للأخرى). انعكست الصورة فبرئت الطيور السقيمة، وظهر على الصحيحة أعراض الإصابة بالبري بري.
طار بعدئذ إيكمان ظفراً وفرحاً لوصوله إلى النتيجة وإن لم تكن كلها، لأن تعليله في شرحه للظواهر التي فطن إليها كان مستقيماً وكافياً إذ ذاك - ولو أنه غير متمش مع الحقائق الثابتة - واعتقد إيكمان باحتواء حبات الأرز على نوع من السم ساري المفعول في الإنسان والحيوان، ويكون مرض البري بري نتيجة أو أعراضاً لفعله في الجسم وسريانه فيه، كما اعتقد بأن الترياق المضاد لهذا السم والذي يفسد مفعوله كامن في قشور الأرز. فأكل الأرز إذن مع قشوره ضمان لمصاحبة الترياق الشافي. وبهذا قضى البحاثة الهولندي على النظرية الخاطئة السائدة حينذاك عن انتشار البري بري أو الإصابة به عن طريق العدوى. وللإيضاح يجب التنويه بأنه ليس هناك شيء في حبوب الأرز، ولكن هناك شيئاً ينقصها، وتبعاً لنقص هذا الشيء أو غيابه في الطعام العام يستسلم الإنسان والحيوان للمرض؛ ولمعرفة هذا الشيء احتاج العلم لأكثر من عشر سنين لاحقة لهذا التاريخ.
ولقد كاد النسيان يطوي هذه النتائج الباهرة للبحاثة الجليل الشأن إيكمان، ولم ينل من جهوده أي غنم أو مكسب إلا بعد مضي ثلاثين عاماً إذ حصل مع زميله الإنجليزي الكيميائي هوبكنز على جائزة نوبل في عام 1929.
واعترض طريق إيكمان كثير من العقبات عندما جاهر بنتائجه التي قلبت كل قديم وكل مسلمة رأساً على عقب، ولم تسلم هذه النتائج من الطعن والتجريح، ولم تدّعم وتثبت إلا في عام 1910 عندما رحل الطبيب الألماني ماكس موسكفسكي إلى فينا الجديدة في وسط أفريقية للبحث والتنقيب عن البري بري، وكان قد مهد لبحثه بقراءة ودرس ما كتب حتى ذلك الوقت ومطالعة المذكرات الصحيحة والمطبوعات عن مرض البري بري ورأى ما صرح به إيكمان الهولندي عن نتائجه واتخذ كل هذا دليلاً ومرشداً، وأخذ يجمع المعلومات من الوطنيين سكان البلاد. وكان من ضمن ما حصل عليه من أقوال هؤلاء المواطنين أن المرء يستطيع تحصين نفسه ضد البري بري أو الشفاء من أعراضه عند سقوطه فريسة له إذا ما تناول بجانب وجباته نوعاً من الفاصوليا يسمى (الفاصوليا المشعة) وفي لغة أهل الهند الهولندية: (كاتيانج إيدجو) وقد يكفي حتى منقوع هذا البقل في الماء بعد غليه فيه، فاستنتج موسكفسكي من هذا أن هناك شيئاً في قشور الأرز والبقل المذكور (الفاصوليا) ضرورياً جداً لحفظ الصحة وعند غياب هذا الشيء ينشط التهاب الأعصاب وأن هذا الشيء ليس بالبكتريا ولا بالسم.
وفرض على نفسه ورجال بعثته ألا يأكلوا سوى الأرز المطبوخ في ماء من منقوع الفاصوليا - وبدلاً من انتظار ظهور أعراض المرض التي لا تسلم منها أبداً أمثال هذه البعثات - تمتع هو ورفاقه بصحة موفورة طوال عام عاد بعده إلى وطنه ألمانيا يفاخر بتغلبه على هذا المرض.
وكما يقول المثل (زامر الحي لا يطرب) أو (لا يُسمع النبي في بلده) كذلك شهر الناس بمسكفسكي وسفهوا رأيه، ولكنه لكي يبرهن على صحة أقواله ويدلل على أن مرض البري بري ليس من الأمراض المعدية التي تنتقل بالعدوى وأنه مرض يتصل اتصالاً كلياً بغذاء الإنسان وما يعده لطعامه - قام بإجراء التجربة على نفسه معرضاً حياته النافعة للخطر المحقق، وفي سبيل العلم ومنفعة بني الإنسان امتنع عن جميع ألوان الطعام العادية غير الأرز مدة أربعة شهور ونصف شهر. وكانت النتيجة الحتمية طبعاً أن وقع مريضاً يرزح

وينوء بمرض البري بري في أشد أعراضه وصوره. وعندما بلغ به المرض مبلغاً كبيراً وأصبح خطراً يهدد حياته أخذ يعمل على دفع الداء ولكن ليس بالامتناع أصلاً عن أكل الأرز بل بالاستمرار عليه مع إضافة صنف آخر من الطعام هو حساء من قشر الأرز، ولا عجب أن اختفت تماماً أعراض المرض بعد أسبوعين اثنين.

(يتبع)

عبد اللطيف حسن الشامي

البريد الأدبي

مجاملة أدبية نبيلة

تفضل الأستاذ عبد الفتاح محمد قنصوه صاحب جريدة (الإصلاح) بالسنبلاوين فدعانا إلى زيارتها لنتلقى التحية التكريمية لأسرة الرسالة من رجال الصحافة وشباب الأدب؛ وشاء للأستاذ فضله أن يجعل هذه الدعوة مظهراً فخماً من مظاهر الحفاوة والعطف فأقام لها سرادقاً وحشد إليها وجوه القوم وأعيان الفضل يتصدرهم صاحب العزة الأستاذ محمد عوض إبراهيم بك وكيل وزارة المعارف السابق، والعالم الفاضل الأستاذ أبو الفتوح سليط بك وصاحبا الفضيلة الأستاذ مصطفى الصاوي المدرس بالأزهر، والشيخ أحمد حافظ سليط المحامي، والوجيهان الفاضلان محمود سيد أحمد سليط بك، وحامد طلبة صقر بك؛ ثم حفلت موائد الشاي بجمهرة مختارة من أهل المدينة، وتعاقب الكلام عليها صفوة من المبرزين في الخطابة والشعر والزجل. ثم خصصت (الإصلاح) لوصف الحفلة ونشر ما قيل فيها عدداً وبعض العدد.

ولا يسعنا إزاء هذا التكريم الخالص لفكرة الجهاد المشترك في سبيل الله والوطن والأدب إلا أن نسجل في هذه الأسطر القليلة معنى من الشكر القلبي الدائم الذي لا يتقيد بالألفاظ ولا يتحدد بالمناسبة، لأسرة (الإصلاح) ولحضرات الأفاضل الذين شاركوا في هذا الترحيب بالقول أو بالفعل. ونسأل الله أن يديم على (الرسالة) التوفيق لاستحقاق مثل هذا التكريم من مثل هذا البلد العظيم.

الشاعر صالح جودت

أكتب إليكم هذه السطور من سرير المرض وقد ضاعف آلامي ما قرأته للصديق الدكتور زكي مبارك عن مرض صديقي الشاعر الموهوب الأستاذ صالح جودت، فقد شغلتني الهموم والأوصاب عن مكاتبته زمناً كما أقصته عني، ولكني ما كنتُ أقدر له إلا العافية والأنس فإنه مرآتهما المتألقة لكل من عرفه وخالطه، وليس في وسعي أن أتخيل صالح جودت إلا مثال الشاعرية الرقيقة السليمة المرحة خلقاً وكياناً.

وقد بالغ بل أخطأ صديقي الدكتور زكي مبارك في قوله إن صالح جودت يحقد عليه أبشع الحقد لسكوته عن التنويه بمواهبه الشعرية، وإنه كان يتقاضاه الكلام على شعره في كل

لقاء. أجل، أخطأ في تفسيره هذا لعبث ودي ولمداعبة بريئة، فما عرفتُ عن صالح جودت هذا الخُلق المنقود في أي حال، وإن عرفتُ منه أنه لم يكن في أي وقت يحترم موازين النقد الأدبي لدى صديقي الدكتور زكي مبارك، وكلاهما لا يحسن الظن بشعر صاحبه!

وإني أوافق الصديق الدكتور زكي مبارك على قوله الحكيم إن كل شيء يجوز فيه التشجيع إلا الأدب والبيان فالتشجيع هنا مفسدة، بيد أن ما احتاج إليه الأدب والبيان في مصر زمناً طويلاً إنما كان (الإنصاف) وهذا ما أباه الأدباء الشيوخ على الأدباء الناشئين، ولكن الأحوال تبدلت الآن وتعددت المنابر الحرة لأدباء الشباب وانتفت دواعي شكاواهم.

ولا أعد قصيدة صالح جودت (شاعر العيون الزرق والشعر الذهب) إلا مثالاً لشاعريته الأصيلة التي فات صديقي الدكتور زكي مبارك الالتفات إليها من قبل حتى وجد الجو العاطفي الملائم لعقله الباطن فبدأ يستجيدها الآن وإن علل ذلك تعليلاً جديداً. ولعل كلمته النبيلة رسول الشفاء القريب إلى صديقي الشاعر الغرّيد الذي أعده نسيج وحده في فنه.

(الإسكندرية)

أحمد زكي أبو شادي

أهذا توارد خواطر؟

سيدي الأستاذ رئيس التحرير
بعد التحية: قرأت في عدد مضى من الرسالة مقالاً للأستاذ محمد عبد الغني حسن بعنوان (المعاني شائعة ولا تجوز الملكية فيها) وقرأت في العدد 376 من الرسالة تعليقاً على هذا المقال للأستاذ محمود المرسي خميس. وقد تذكرت عند قراءة كلمة الأستاذ محمود المرسي أنني قرأت قصيدة لشاعر عباسي يقول فيها:
أغار على أعطافها من ثيابها ... إذا لبستها فوق جسم مُنَعَّم
وأحسد كاسات يقبلن ثغرها ... إذا وضعتها موضع اللثم في الفم
ثم قرأت بعد ذلك في الجزء الأول من ديوان الأستاذ علي الجارم قصيدة بعنوان الحب والحرب جاء فيها البيت التالي:
إني أغار من الكؤوس فجَنِّبي ... كأس المدامة أن تقبِّل فاكِ
وأنا أقول إن المعنى منقول وإن هذا ليس بتوارد خواطر.
والأستاذ محمد عبد الغني حسن محق في قوله إن المعاني شائعة ولا تجوز الملكية فيها ولكن لا ننكر أن للشاعر الذي يبتكر المعنى ويكتبه لأول مرة لا يمكن أن يساويه من ينقل عنه هذا المعنى ويصوغه في قالب آخر. والسلام.
(كوم حماده)
فؤاد كامل
بين الأستاذ مختار الوكيل والبارودي
جاء في مرثية الأستاذ مختار الوكيل التي رثى بها الهمشري البيت الآتي:
فإذا هجعت فأنتَ في أحلامي ... وإذا مشيت فأنتَ أنتَ أمامي
ولقد سبقه إلى هذا المعنى البارودي إذ قال في المرثية التي رثى بها زوجته:
فإذا انتبهت فأنتِ أول ذكرتي ... وإذا أويت فأنتِ آخر زادي
فما رأي حضرته في ذلك؟
(ببا)
محمود عبد المطلب حسين
الحق أن الشاعرين قد نظرا إلى قول التهامي في (الرسالة) رثاء ولده:
فإذا نطقت فأنت أول منطقي ... وإذا سكت فأنت في إضماري
الطابور الخامس في القرآن
في الحق أني مفتون بما تطالعنا به عبقرية صاحب هذا العنوان الجميل. . . ذلك أن الأستاذ الباحث يكشف لنا عن أسرار القرآن ما تزال تبرق جلواؤها على دولاب الزمن كلما تواترت الأجيال، وتزايلت الحضارات، والأستاذ مصور بارع، إذ نقل عالم قائد العروبة إلى دنيا زعيم النازية، واستطاع بعد ذلك أن يصور لنا بالدقة كيف كانت المشابهات والملابسات بينهما - مع ملاحظة الفروق بين الزعيمين - وتباعد الشقة بين عصريهما. وهو ضرب من التوفيق والتطبيق لم يتح إلا لفنان أديب.
وحرصي على استبقاء توفيقه في تحري البحث - يدفع بي إلى أن أشعره بما قاله من التوفيق في الحلقة الثالثة من نظيم مقالاته - ذكر في العدد 372 من الرسالة الغراء تحت شرحه لغزوة الأحزاب (ثم ساروا - أي (جماعة من يهود بني النضير بعد إجلائهم عنها) إلى غطفان. فأعدوها لحرب النبي - وخرجت قريش وغطفان يريدون المدينة).
وحقيقة التاريخ أن بني النضير بعدما أجلوا عن المدينة مرغمين لم تهدأ لهم ثائرة، بل عملوا طاقتهم ليثأروا من الرسول وأصحابه. قام سيدهم حُسَيُّ بن أخطب ومعه سلام بن أبي الحقيق النضيري وهوذة بن قيس وأبو عمار الوائليان بدعاية واسعة النطاق ليؤلبو العرب جميعاً على غزو المدينة وحرب المسلمين حتى يستأصلوهم.
ولقد جعلوا نصب أعينهم تلك القبائل التي بينها وبين المسلمين شر. فعمدوا أول ما عمدوا إلى قريش وهي صاحبة المواقف الجليّ مع الرسول، وأبرموا معهم أمراً. ثم خرج أولئك الدعاة إلى غطفان وحدثوهم بما حدثوا به قريشاً وبيتوا عليه. وفي النهاية جعلوا لغطفان نصف ثمار خيبر سنة كاملة إن هم نصروهم حتى يتم لهم الفوز. ومضوا إلى بقية الأحياء المعادية فطافوا على بني أسد وسليم وهذيل، وبعد أشهر كانت هذه الأحزاب قد أتمت جهازها للغزو. ففي شوال من السنة الخامسة خرج أبو سفيان ابن حرب على رأس أربعة آلاف مقاتل من قريش وأحابيشها يحمل لواءهم عثمان بن

طلحة العبدري الذي قُتل أبوه على لواء المشركين يوم أحد، ولاقتهم بنو سليم بمرّ الظهران في سبعمائة، يقودهم سفيان بن عبد شمس حليف حرب بن أمية، وخرج معهم بنو أسد بن خزيمة يقودهم طليحة بن خويلد، وجاءت فزارة في ألف رجل يقودهم عيينة بن حصن القزاري، وبنو مرة (من ذبيان) في أربعمائة يقودهم الحارث بن عوف المُرّيّ، وبنو أشجع في أربعمائة كذلك يقودهم مسعر بن رخيلة، ولحق بهم بنو سعد (من ذبيان) وانضمت إليهم اليهود حتى تكامل عددهم عشرة آلاف جندي مقاتل.

من هذا يتبين أن كتائب المتحزبين لم تكن من قريش وغطفان فحسب، ولكن كانت قوة هائلة تكونت من مجموع هذه القبائل والبطون التي في قلبها من الرسول دخن.

هذا ما أردت أن أذكر به الأستاذ صاحب البحث. وآمل أن يكون على ذكر منه لكن نكّب عنه مخافة الإسهاب، لكني مع هذا الأمل لا تطاوعني نفسي أن أجامل أستاذنا إلى هذا الحد الذي قد يتهمني فيه خاطري وضميري بالممالقة والمداخلة ما دام المقام مقام تشريح وإطناب. ولأنه إذا تحتم علينا أن نصحح تاريخاً لزعيم فأجدرُ شيء بنا أول ما نعني أن نصحح تاريخ الزعيم الأول، تاريخ الرسول الأعظم.

عبد الحميد إسماعيل

حول سؤال وجواب

حضرة الأستاذ الكبير صاحب الرسالة

نسب أحد القراء إلى الأستاذ القدير زكي مبارك غلطة إعرابية في بيت شعر أورده في مقال له.

وقد اطلعت على عدد الرسالة 377 فراعني ما كتبه الدكتور رداً على من لفت نظره إلى خطأ أصابه، إذ قال: (لو كان هذا القارئ يعرف أني في الإنشاء أسرع من أقدر الناسخين لفهم أن من الجائز أن يندّ القلم فيرسم الضمة فتحة) وهذا تعبير له شأنه، فالمرء لا يشكر على السرعة، وفي المراجعة تصحيح لندود القلم.

ماذا يضير الأستاذ لو اعترف بالزلة ولكل عالم هفوة! وأي غبار يلحق قلمه الفياض إذا صرح بأن الخطأ مطبعي لا ذنب له فيه؟

أظن أن الدكتور استعظم الأمر فوجه امتحاناً على صفحات الرسالة إلى ناقده والناقد بصير قال: (هذه عشرة أسئلة فيها ما تعرف وفيها ما تجهل وفيها ما تذوق) هل اطلع على الغيب أم فحص مواهب صاحبه بمجهر بلاغته، أم نسي نتيجة البحث والاطلاع وقت تحرير أسئلته؟

ليت الأستاذ يتذكر أنه وصم الجيل الجديد وهو فيه بقلة الصبر على متاعب الجهاد في مقالته. وبعد فيا حبذا لو عامل الأدباء بالحسنى دكتورنا المبارك ليكثر رواد سوق الأدب.

عبد الله عبد التواب

تفسير بيتين

أفاد الأستاذ ناجي الطنطاوي على صفحات مجلة الرسالة سائله من اليمن عن قائل هذين البيتين:

بذكر الله تزداد الذنوب ... وتحتجب البصائر والقلوب

وترك الذكر أفضل منه حالاً ... فإن الشمس ليس لها غروب

فقال إنه وجدهما في ديوان محيي الدين بن عربي. غير أن هذه الإفادة قد أوجدت إشكالاً آخر وهو أن الناظر إلى هذين البيتين يجدهما غامضي المعنى أو هما على الأصح على طريقة الصوفية التي تشير إلى الباطن أكثر مما تشير إلى الظاهر كقول أحد الصوفية ولعله ابن عربي نفسه (معبودكم تحت قدمي). فهل للأستاذ ناجي أن يتفضل مرة أخرى فيحل هذا الإشكال؟

الأبيض - سودان

ع. ا. سعد

اتهام

طالعت في عدد (الرسالة 376) كلمة (اتهام) بالرجوع إلى مجلة الشباب في كتابة (عمر الخيام) وهو الموضوع الذي نشرته لي مجلة (الثقافة) بعددها 86 الصادر في 30 أغسطس سنة 1940 ولقد استأنست ببحث الأستاذ (خليل جمعة الطوال) ورجعت إلى

المصنفات التي استقى منها بحثه عن الفيلسوف الخيام هذا وإنني حللت شخصية الخيام من الناحية العلمية.
وتحت يدي أعداد مجلة الشباب التي رجعت إليها في البحث فليرجع إليها من يشاء، ليعلم أن اتهام الأستاذ (محمود عساف أبو الشباب) لا موضع له، وقد كان الأجدر بالأستاذ انتقادنا علمياً لا اتهامنا تهمة هو مسئول فيها أمام ضميره.
وشكراً للأستاذ (خليل الطوال) فقد كان لنا في بحث الخيام مرشداً. ولم تأخذه حماسة صديقه أبو الشباب في قذف التهم من غير دليل.
عبد الحميد سامي بيومي
القصص
الهارب من الجيش
للكاتب الفرنسي ألفونس دوديه
ترجمة الأستاذ حلمي مراد
يعد ألفونس دوديه (1840 - 1897) أبرع أدباء فرنسا في كتابة القصة القصيرة التي تدور وقائعها في جو الحرب المظلم الرهيب، وقد يرجع ذلك إلى معاصرته للحروب الطويلة التي نشبت بين فرنسا وألمانيا. . . وهو في تعبيره عن أرق وأعمق المشاعر وعطفه على الفقراء والمظلومين يشبه الأديب الإنجليزي المعروف تشارلس ديكنز وينحو منحاه. ومن مؤلفات دوديه الخالدة: (سافو) ثم (فرومون وريزلر) و (تارتاران) و (جاك).
وقصة (الهارب) هي إحدى قصصه القصيرة التي نشرت في مجلد عنوانه (وسط . . . غمار باريس).
رفع الرجل كأس البيرة إلى شفتيه وهو جالس أمام حانوته يرقب العمال، وقد تسربوا إلى الطريق ميممين شطر بيوتهم. . . حيث تنتظر كلاً منهم زوجته وأولاده.
تلك هي الصورة التي اعتاد الناس أن يروها كلما مروا بحانوت مسيو جورج لوري الحداد. . . في مساء كل يوم.
إلى أن جاءت ليلة خالف فيها مألوف عادته، إذ ظل إلى جوار النار المشتعلة في . . . أتون حانوته، إلى ساعة متأخرة بعد غروب الشمس. . . ظل ساهماً شارد الفكر، يبدو عليه الهم وتعلو وجهه مسحة من الكآبة، غير عابئ بزوجته التي اشتد بها القلق لتأخره فانساقت إلى مخيلتها مخاوف وأوهام صورت لها صنوفاً من البلايا والأرزاء، فهي آناً ترى ابنها الذي اختطفته الحرب يروح ضحية مقذوف طائش، وآونة تخاله صريع المرض أو الجوع، تمتص الحمى دماءه في نهم وشره.
وأخيراً، حين عاد الزوج. . . عقد الخوف لسانها، فلم تجرؤ على تقصي جلية الأمر منه خشية أن يجيء جوابه معززاً لمخاوفها ومبعثاً للحزن والألم. . . فسكتت على مضض والقلق يعتصر قلبها فتعلو خفقاته ويشتد به الأنين.
أما هو فلم يسكت. . . بل قذف بالصحاف التي وضعتها أمامه حين جلس إلى المائدة. . . قذف بها إلى الأرض، فتحطمت محدثة ضجة أفزعت الأطفال فأجفلوا وجفت حلوقهم عن ازدراد ما في أفواههم من طعام. . . وكأن لم يكفه ذلك، فصاح على الفور:
- يا للأنذال المجرمين.
فقالت هي في لهجة تساؤل لينة: من تعني يا عزيزي، وماذا أغضبك؟. . . ولم تكد تتم قولها حتى زجرها بصياحه:
(من أعني؟ أتسألينني لم أنا غاضب؟ حسن، إذاً فاعلمي أني حاقد على نفر من الجبناء رأيتهم منذ حين، خمسة أو ستة حسبما أذكر - ما لذاكرتي تخونني كأنها تأبى أن تذكرني أهاجوا الدم في عروقي - ومع هذا فإني أذكر أنهم أخذوا يذعرون طرقات المدينة محتمين بالجند الألمان الذين ساروا إلى جانبهم دون أن يعرف الخجل إليهم سبيلاً. . . يا للحسرة ويا للألم، لقد هربوا من الميدان وفروا من واجبهم المقدس. . . (لعمري أني لا أدري أي شراب هذا الذي سلبهم كل نخوة وإدراك. . . يا للعار!)
وهنا عادت الزوجة إلى لهجتها الوادعة فقالت: (خفف عن نفسك يا عزيزي ولا تتعجل في الحكم، فلربما عاودهم الحنين إلى بلادهم فآثروا التحرر من خدمة الجيش. . . أو ربما)

ولكنه لم يدعها تتم قولها إذ بادرها بالصياح:
(أو تجرئين يا خائنة على تبرير فعلتهم؟)
قالها وهو يلوح بقبضته الغليظة في الهواء، ثم ما لبث أن أهوى بها على المائدة واستأنف القول (ولكنك - كسائر النساء - تعجزين عن فهم شيء من أمور الدنيا، فلقد تأثرت عقلياتكن بسذاجة الأطفال وغطت غشاوة من الجهل على أبصاركن، فبانت الواحدة منكن لا تحسن التمييز بين الضعف والخيانة. . أفلا تدركن ما قد فعل أولئك الأوغاد؟ إنهم لمارقون يجب أن تتبرأ منهم فرنسا بل وتلقي بهم إلى الموت. . . وإلا فإني - وقد أمضيت في الجيش سبعة أعوام كاملة - لن أتردد في الانزواء مبتعداً عن الأرض التي يطئون بأقدامهم الدنسة) تناثرت هذه الكلمات من فم الرجل بل من قلبه - مصدر إيمانه وموطن عقيدته - قوية دافقة فاهتزت لها أركان الغرفة وردد البيت صداها مدوياً مزمجراً.
وكأني بها قد استنفدت كل جهده وهدت من كيانه، فخرج إلى الفضاء كي يسري عن نفسه
بعض ما عانت وينعم بقسط من الهواء الذي تركه الله مباحاً حتى لأمثاله من البسطاء البائسين غير مفرق بينهم وبين من يشمخون بأنوفهم نحو السماء وهم من التراب وإليه مصيرهم المحتوم.
فانطوت الزوجة على نفسها حتى أوى أطفالها الثلاثة إلى مضاجعهم بعد أن . . . اخترقت آذانهم الصغيرة المرهفة تلك الصيحات الجامحة. . ثم وقفت ومشت إلى النافذة في خطوات وئيدة، وحين بلغتها استندت إلى حافتها بالمرفقين وراحت تتطلع في شوق ولهفة ممزوجين بالقلق، إلى الحديقة التي ترامت الخضرة بين جنباتها؛ وبين التنهدات الزفرات جال فكرها المرهق في شتى المناحي وعاد حاملاً خليطاً من الخطرات:
إنه محق، ويجدر بي أن أوافقه فهم حقاً جبناء أذلاء. . ولكن مالي وشأنهم، ولِمَ . . . لا يكون الحق في جانبهم. . أفليست أمهاتهم لم يسعدن بلقائهم بعد فرقة طال عليها الأمد. . ألسن سيستقبلنهم بشغف وسرور وقلوبهن تقطر ضحكات عذبة رقيقة، وإذاً (فما الذي نبغي من الدنيا سوى ذاك؟
واستمرت الخواطر المبعثرة تتجاذب ذهنها المكدود الذي ما لبث أن نبذها جميعاً ليتمثل ابنها الحبيب في صور سريعة متتابعة: هاهو ذا قبل رحيله إلى الميدان. . . ثم وهو في الحديقة قرب البئر التي اعتاد أن يملأ منها الدلاء ليسقي الزهور والشجيرات.
وانتفضت فجأة. . على صوت باب الحديقة يفتح ثم يغلق بعد أن ولجه شخص في حذر، كلص متسلل. . ولكن الكلاب لم تنبح، فماذا دهاها؟
ومن خلفها انبعث صوت متهدج: (أماه). . . يا إلهي إنه هو ابنها الأكبر في سترة الجندية التي كساها الغبار. ولكن ما باله يهمس هكذا. . . صه، إنه أحد الجبناء الهاربين من الجيش. وإلا لنطق صائحاً كعادته. . نعم فلم يلجمه سوى العار الذي يكتنف أوبته.
وارتمى الابن بين ذراعي أمه معانقاً مستعطفاً فلمس منها صدراً حنوناً وقلباً رقيقاً يصفح عن زلته، كيف لا وقد طغت على حواسها عاطفة جامحة من الحنين والشفقة. . بل والاغتباط بعودته إلى أبيه. . وأمه. . . والمصنع. إنه لم يطق البعد عن هذا الجو الذي ألف، ليستعيض عن بر الأسرة وعطفها بالأصوات الآمرة الزاجرة والحياة الجافة المضنية.
واكتفت الأم بدفاع الابن فصدقته وغسلت بدموعها آلامه. . وهل كانت تملك غير . . . ذلك وعيونهما متواصلة القطرات وفماهما يفيضان بالبسمات.
وصحا الأطفال على صوت الاخوة فهرولوا إلى الأخ الأكبر، حفاة الأقدام، ليتبادلوا وإياه العناق والقبلات.
وقدمت الأم إلى ابنها طعاماً ولكنه لم يقربه وإنما أقبل على الماء يروي ظمأه منه بأقداح متتالية اختلطت في جوفه بما سبقها من الجعة والنبيذ
وبعد لحظات لم تطل ردد الممر أصوات خطى متزنة تقترب. . . إنه الأب الحانق واندفعت الأم تهمس لولدها: (أسرع يا ولدي بالاختفاء حتى أوضح له الأمر على مهل).
وهكذا حثته على الانزواء بدل أن تفخر بالظهور إلى جانبه لو كان قد عاد. . . رجلاً

وحين دخل الأب وجدها تطرز ويدها ترتعد، فقد نسي الابن قبعته فوق المائدة. . .
وأبصر الرجل كل شيء فأدرك ووعى، فلم يعد ينفع الإنكار! وبقبضته الغليظة أطاح بالقبعة إلى الأرض وركلها بقدمه صائحاً:
(. . .أين هو. . . كريستيان. . . كريستيان)
تقدم الابن ذاهلاً يكسو وجهه الاصفرار، لا يكاد يقوى على المسير. . . ثم لم يلبث أن تراجع متخاذلاً بينما ارتمت الأم على زوجها تستعطفه:
(بالله لا تقتله. . . فأنا المذنبة. . . لقد استدعيته حين لم أقو على الفراق. . . اعف عنه)
واسترسلت في نحيب جاراها فيه الأطفال وهم كالأصنام. . . لا تفهم .(ولا تكن قاسياً ولا تعي.
ورمى الحداد ببصره إليها وقد ارتسمت على وجهه تجاعيد الصرامة، فالتقطت نظرته القاسية. . . وقد فقدت الجرأة على البكاء.
رفعت الشمس عن وجهها حجاب الظلام بعد إغفاءة طويلة، والأم المعذبة يقظى لم تغف ولم تغمض لها أجفان. . . بعد أن قضت الليل تنتفض وجلاً من نزوة قد تزين للرجل القضاء على فلذة كبده - ابنها الحبيب - بدافع من الوطنية أو الشرف والكرامة. . . تلك الأشباح التي تهددها في أعز من لها. . . وتوشك أن تفرض عليها ضريبة باهظة
أما الابن التعس فقد أمضى ليلة لم يكن يخلص منها من حلم مزعج رهيب إلا ليواجه حلماً آخر أكثر إزعاجاً ورهبة. . . حتى فاض الضياء فغمر الكون كله خلا ذلك البيت الذي
اكتنفته ظلمة قاسية. . . موحشة.
ومر الليل على الحداد العجوز. . . طويلاً مخيفاً، وهو يبكي وينتحب باحثاً بين غرف البيت عن شيء، لا يدرك كنهه، فقده قبل ساعات. . . ولم يكد الفجر يرسل نوره في عروق الظلام حتى قام الرجل يخطو نحو غرفة ولده حتى ولجها وتقدم إلى الفراش بخطىً ثابتة صائحاً بالابن في صرامة: (انهض) ورفع هذا عينيه المخضلتين بالدموع فرأى أباه بثياب السفر وفي يده عصاه المثقلة بالحديد. . . فلم يتمالك نفسه من الوثوب من فراشه، وأمسك برداء الجندية ليلبسه، ولكن الأب صرخ قائلاً: (كلا. . . عليك بغيرها).
وحين اعترضت الأم بأنه لا يملك سواها، صاح مزمجراً: (إذاً فليأخذ من ملابسي. . . إنها لن تلزمني بعد الآن).
قالها وهو يتناول من ابنه رداءه العسكري ثم عاود الكلام بعد حين: (هيا بنا. . .)
وحين ضمهما الطريق تتابعت في ذهن الابن صور الطفولة في سرعة خاطفة . . . فذكر تلك الأيام السعيدة حين لم تكن السنون قد أثقلت كاهله بعدُ بأعباء الدنيا. . .
ولم يلبث أن أطلق من صدره آهة عميقة قال الأب على أثرها بصوت خفيض:
(كريستيان. . . إليك مصنعي، فهو كل ما أملك، فخذه ما دمت قد ابتعته بدماء مواطنيك وسلامة بلادك. . . خذه ولتنعم في ظله بما تشاء، مجرداً من الشرف الذي لم تعرفه. . . أما أنا، فذاهب إلى غير رجعة. . . نعم سأوفي عنك الدين لفرنسا فبت قرير العين وعش بلا كرامة.)
تساقطت دموع الابن في لحظة الوداع وانبعثت إلى حلقه غصة أوشكت أن تخمد . . . أنفاسه فنادى أباه بصوت مبحوح: (أبـ. . . تاه)
وخرجت الأم إلى الطريق صائحة: (لوري. . . لوري إلى أين. . .) . . .
ولكنهما لم يسمعا سوى صدى صوتيهما، فقد مضى الأب في طريقه. . . ليلحق بالجيش
مضى ليكفر عن خطيئة الابن. . . الهارب.
(حمامات القبة)
حلمي مراد
المحامي
العدد 379 - بتاريخ: 07 - 10 - 1940
تحية إلى تاجور
للأستاذ عباس محمود العقاد
حيا الله تاجور وأبقاه!

إنه من ضيوف هذه الأرض المؤنسين، ينظر إليه الناس بينهم فيستحضرون الرضوان والأمان، وكما تنظر الأسرة إلى الأب الوقور بينها فتطمئن ولا تخشى، وإن لم يكن في يديه سلاح، ولم يكن للسلاح غنى إن كان في يديه.

أنبأنا البرق أمس أن تاجور يعاني شدة المرض في شيخوخته المباركة، فرجونا أن تظهر تحيتنا هذه عند ظهور الرسالة، وقد جاءت الأنباء بشفائه، وشفاء تاجور بشرى تعلنها في الهند أكبر جماعاتها وهيئاتها. كذلك أدركته الوعكة من قبل فلما شفى علمنا بشفائه من خطاب رئيس المؤتمر الهندي وهو يفتتح لجنته العليا، ويبدأ بإعلان بشرى الشفاء قبل البدء بأمر من الأمور الجسام التي كانت اللجنة العليا مجتمعة لها في تلك الجلسة.

قال جوهر لال نهرو: (إن هذه اللجنة تهنئ الأمة بعناية الله التي شفت لها الدكتور رابندرانات تاجور: رجل من أعظم أبناء الأمة الهندية).

ورجاؤنا أن نسمع مثل هذه البشرى في يوم قريب.

نقل البرق نبأ اشتداد المرض عليه صباح يوم الأحد، فخطر لنا أن نرجع إلى السنوية التاجرية لنستخرج منها الفأل فيما كتب فيها من أقوال تاجور بإزاء اليوم التاسع والعشرين من شهر سبتمبر، ولكل يوم من أيام هذه السنوية كلمة أو بيت أو خاطرة من مأثورات الشاعر العظيم.

رجعنا إلى صفحة اليوم فإذا بها تقول: (إن العقل يتركنا بمعزل عن الشيء الذي يعرفنا إياه؛ ولكن الحب يعرفنا ما يعرفه بالامتزاج به والنفاذ إليه).

وإذا بها تقول: (إن العالم الإنساني هو عالم المرأة، سواء كان من شئون البيت، أو من الشئون التي تمتلئ بجهود الحياة التي تسمى جهود الإنسان).

وإذا بها تقول: (إن ظلال المساء تهبط كثيفة عميقة. . . افتح نافذتك إلى الغرب، وانغمر في سماء المحبة).

ثم رجعنا إلى صفحة اليوم الثلاثين، وهو اليوم الذي نكتب فيه مقالنا هذا، فإذا بها تقول:

(هنا يموج البحر، وهنا أيضاً يستقر الشاطئ الآخر في انتظار الوصول إليه. . . نعم هنا الحاضر السرمدي، لا على مسافة منك ولا في مكان غير هذا المكان).

وإذا بها تقول: (إن نفس موسيقاك المحيي يسري من سماء إلى سماء).

وإذا بها تقول: (على جفنيك حياء عذب كأنه قطرة الندى على طرف الورقة الرفافة).

ومن عجب أن خطرات تاجور في هذين اليومين تلخص كل ما كتب تاجور، بل تلخص روح تاجور في أعماقها وحواشيها أجمل تلخيص.

صفاء وصوفية، وجمال وحنان كحنان الأم العطوف، وتفاؤل ورجاء وشدوٌ رفيق.

ذلك هو تاجور كله، سرمدي لا تقول هو الماضي ولا تقول هو الحاضر، وتهم بأن تقول: هو الهند فتسمع على البعد هامساً يقول: كلا، بل هو النفس الإنسانية في براءة الطفولة وحكمة الأجيال.

تاجور لا تروعه ضجة العصر الحديث فينسى الماضي الأزلي، ولا يستغرقه الماضي الأزلي فينسى ضجة العصر الحديث. هو كطائر الشفق الذي يرفرف بين النهار المولي والليل المقبل. لحظة هنا ولحظة هناك، ثم يغيب في القمراء لأنها ظل الصباح وغشاء المساء

أو كما يقول هو إن الماضي يحتوي الحاضر، والحاضر يفسر الماضي. . . أو كما يقول: وقّر الماضي ولكن لا تعش فيه.

أهو رجل إنساني؟

نعم، ولكنه لا ينسى الهند. فلما دعته جامعات كندا للمحاضرة فيها أبى أن يلبي الدعوة لأن الكنديين في ذلك الحين لم يعطفوا على القضية الهندية. ولما اضطرمت نار الخلاف بين بلاده والحكومة البريطانية رد ألقابه وشاراته إلى تلك الحكومة.

أهو رجل هندي؟

نعم ولكنه لا يتعصب ولا ينسى سماحة الروح، فقضى ما قضى من أيامه يدعو إلى اللغة البنغالية ليكتب بها الأدباء ويتعلم بها المتعلمون، ولكنه لم يتقيد بأصولها العتيقة التي لا موجب للتقيد بها. . . حتى كان الأساتذة الجامدون في الجامعات يمتحنون

الطلاب بشذرات من كتب تاجور يفرضون عليهم أن يردوها إلى اللهجة البنغالية الصحيحة.

كذلك قضى ما قضى من أيامه يؤمن بالصوفية الهندية ويدعو إلى الإيمان بها، ولكنه سئل أن يختار نشيداً وطنياً فاختار نشيداً من الشعر الهندي القديم، فلما أبى المسلمون أن ينشدوه لأنه يذكر الآلهة العديدة قال تاجور: لقد أصابوا، فإني أنا أيضاً من الموحدين لخالق الكون العظيم. ثم أوصى بحذف الأبيات التي أباها المسلمون.

أهو شيخ في تفكيره؟

نعم هو يفكر تفكير الشيوخ ولم يتمرد قط تمرد الشباب. ونذكر في مصر أن شاباً مثقفاً لقيه مستأذناً في ترجمة بعض كتبه، فقال له ما معناه: لم العجلة يا بني؟ عند ما تبلغ سن تاجور تترجم معاني تاجور!

لكنه ربح جائزة نوبل وجاءه منها ثمانية آلاف جنيه، فبنى بها مدرسة جامعة لتعليم الشبان الحديث والقديم من العلوم، ولإنشاء جيل جديد غير الجيل الذي نشأ عليه ونشأ عليه آباؤه.

إذا شبهته فخير ما تشبهه به أنه نسيم لطيف لا يجمد في مكان ولا ينطلق انطلاق الرياح ليزعزع ما يقف في طريقه؛ ولكنه أبداً يحمل عطر الأزاهير في مروج البنغال.

يرى بعض الناقدين أن شعر تاجور يفقد كثيراً بالترجمة من البنغالية إلى الإنجليزية أو الفرنسية.

ويبدو لي أن هؤلاء الناقدين على صواب، لأنني سمعت تاجور يغني شعره البنغالي فأحسست لنغماته لطافة ووسوسة لا تنتقل بانتقال المعاني والكلمات.

إلا أن الخسارة الكبرى هي في نقل تاجور من البنغالية إلى الإنجليزية أو الفرنسية ثم في نقله من إحدى هاتين اللغتين إلى العربية.

وأخشى أن أقول إن هذه الترجمة قلما (تمسك) تاجور إلا كما تمسك الماء الغرابيل. على أنه لو نقل إلى العربية كما نقل إلى الإنجليزية لما أمسكه من القراء إلا القليل، لأنه شعاع لا يوزن بميزان الشعر الذي يسيغه الأكثرون من أولئك القراء، وأدق موازينهم ميزان جواهر ودنانير.

قال لي أديب كبير كان من أوائل المحتفلين بشاعر الهند يوم عبوره بالديار المصرية: أنا لا أدري سر هذه الشهرة العالمية، وما أحسب إلا أن الدولة البريطانية بسلطانها وجاهها أرادت أن تظهر للعالم مبلغ آلائها على الهند فأبرزت هذا الشاعر مثلاً لما أفادت به أهل
الهند من أدب وثقافة.

وكتب أديب آخر يعقب على التحية التي حييت بها تاجور في تلك الأيام فقال: أولاً نحسن نحن أن ننظم مثل هذا القصيد ونبدع مثل هذه الخواطر؟ فما بال العقاد لا يكبرنا كما يكبر هنديه تاجور؟. . . أم زامر الحي لا يحظى بإطراب!

وكل جواب لهذين القولين عبث، لأنه كجوابك من يقيس الجمال بعيون كعيون الغزلان، وفم كأنه خاتم سليمان، وبطن كأنه العجين الخمران، إذ أنت تنظر إلى عين تناجيك بمعناها وفم يجتمع فيه شعور روح، ويبدو أن على (خلاف الشروط) أقرب إلى الدمامة منهما إلى الجمال!

إنني أقرأ تاجور فلا أقول أصاب أو أخطأ وأبدع أو جاء بالكلم المطروق.

وإنما أقرأه وألتمس عنده (نفحة نفس لطيفة) وأنا على ثقة أنني وأجدها في كل ما ينظم وكل ما ينثر وكل ما يتخلل عباراته من صمت بعيد الغور مشبع بالهداية والإيحاء.

خذ لذلك مثلاً قوله: (كل طفل يولد في العالم هو آية على أن خالق الكون سبحانه لم ييأس من الإنسان).

هذه نفحة نفس محبة لا شك فيها، وإذا كان الشرط الأول من شروط الشعر أنه تعبير عن نفس إنسانية فقد وفى تاجور الشروط كلها في كلماته تلك، لأنك تعرف نفس تاجور بتلك الكلمات معرفة لا يضيرك بعدها أن تقيسها بالبرهان فلا تثبت على القياس، ولا تجيبك إذا سألت: وما القول في كل بيضة جديدة تلدها الحية الرقطاء؟

بيد أنك تقرأ لتاجور مع هذا حكمة إلهية لا ينقضها ناقض ولا تزال مطردة أتم اطراد مع نفحاته اللطاف.

سأله تلميذ من تلاميذ مدرسته: ما هذا النظام الكوني الذي نعظمه ونمجده ولا فرق

فيه بين الإنسان والجماد؟ إن الريح العاتية لتعاملني حين تلقاني كما تعامل صخرة أو شجرة، فأين النظام الذي يزن كل شيء بميزانه؟
فكان جواب تاجور: أتود أن تكون لك روح ولا تنفصل مما حولك كأنك القطرة في الغمار؟ إنك إذن تفقد روحك وتزول من حيث أنت إنسان منفصل عن عالم الجماد. . .
أم تود أن تنفصل عن عالم الجماد ولا تشعر به نافعاً وضاراً على اختلاف كما ينبغي الشعور بجميع
المختلفات؟ إنك إذن تقضي على الكون بزوال الحركة وقانون النظام.
وما أرى أن حجة الشر في الدنيا قوبلت بحجة أصدق من هذه الحجة على ما فيها من لطافة وشاعرية.
ومن الذي ينقض حجة الشر بهذا الكلام؟ تاجور الذي أصيب من الشرور بالشيء الكثير، فماتت أمه وهو صغير، وماتت زوجه وبنته وهو كهل، وذاق من كيد الناس ما ينغص الحياة.
حياه الله وأطال حياته، فإنه من زينة الدنيا التي لا تعوض في هذا الزمان.
عباس محمود العقاد
بمناسبة العودة المدرسية
اللغة العربية
في المدارس الأجنبية
(توجيهات لأحد المشتغلين بشئون التعليم)
تمهيد
الغرض من تقوية اللغة العربية بالمدارس الأجنبية هو الوصول بتلاميذ تلك المدارس إلى منزلة من المعارف اللغوية والأدبية والقومية تمكنهم من الحياة في المجتمع المصري حياةً لا يشعرون معها بأنهم أعاجم في أمة عربية، كالذي كان يقع لتلاميذ تلك المدارس من عهد بعيد إلى اليوم، وهي حال ضجّ منها آباء التلاميذ، وفكر في تغييرها نظار المدارس الأجنبية مرات كثيرة، ومن المأمول أن تغيّر تلك الحال بعد أن اهتمت وزارة المعارف بتقديم المعاونة الجدية لنظار تلك المدارس، وبعد أن أعلنت رغبتها في تشجيعهم على الوصول بمدارسهم إلى مكانة تسمح لأولئك التلاميذ بالقدرة على مسايرة الحياة العلمية والأدبية والاجتماعية بهذه البلاد.
ومن الواضح أن الوصول إلى تحقيق هذا الغرض يستوجب النظر في مناهج اللغة العربية بتلك المدارس نظراً جديداً يمكن به نقلها من حال إلى حال، ويستوجب أيضاً أن يقوى الروح المصري بتلك المدارس فيكون للغة العربية مكان ظاهر في النشاط المدرسي ويكون للرحلات الخاصة بدرس الآثار المصرية مقام ملحوظ، بحيث يشعر أولئك التلاميذ أن مدارسهم تدعوهم إلى تذوق الروح المصري في عهدهن القديم وعهده الحديث.
وخلاصة القول أنه يجب أن يزود تلاميذ تلك المدارس بنصيب وافر من اللغة العربية، ومن تاريخ مصر وجغرافية مصر وأنظمة مصر في الحدود الآتية:
اللغة العربية:
تنقسم الحياة المدرسية في أكثر المدارس الأجنبية إلى ثلاث مراحل: مرحلة التعليم الأولى الممثل في رياض الأطفال، ومرحلة التعليم الابتدائي، ومرحلة التعليم الثانوي.
وفي المرحلة الأولى يحسن أن تعتمد هذه المدارس على المعلمين المتخرجين في مدارس المعلمين الأولية، لأنهم أعدوا لهذا الغرض ولأن مرتباتهم بسيطة، وذلك يساعد على الإكثار من دروس اللغة العربية في رياض الأطفال.
أما في مرحلة التعليم الابتدائي ومرحلة التعليم الثانوي، فيجب أن يكون المعول على المدرسين الفنيين الذين أعدتهم الوزارة لهذين النوعين من التعليم.
ونفهم من هذا الطفل في المدرسة الأجنبية يرى مدرس اللغة العربية منذ اليوم الأول لعهده بالحياة المدرسية فيأنس سمعه ولسانه للغة العربية بحيث يمكن أن تكون هي اللغة الأولى وبحيث يرجى أن تقوى على منافسة ما يدرس معها من اللغات الأجنبية.
في رياض الأطفال
المنهج في رياض الأطفال يقوم على توجيه الأطفال إلى التعبير عن أغراضهم بعبارات عربية مقبولة، ولا مانع من أن تكون لغة التخاطب هي الأساس لتذهب الوحشة التي

تقع من شعور الطفل بغرابة اللغة الفصيحة، ثم يتدرج المعلم رويداً رويداً فينقل لغة الطفل برفق من العامي إلى الفصيح ليشعر بعد عام أو عامين بشخصية جديدة هي شخصية من يتكلم بلغة أقوم وأرفع من لغة العوام ويستعد للانخراط في سلك الخواص.

وفي هذه المرحلة تكثر المحادثات كثرة ملحوظة، ثم تلقن المحفوظات السهلة والأناشيد القصيرة ويترنم بها الأطفال بطريقة جمعية تزيد أنسهم بالدرس وتشوقهم إلى طلب المزيد. وفي هذه المرحلة يترفق المعلم في تعليم القراءة والكتابة وفقاً للخطط المرسومة لرياض الأطفال.

وإذا استطاع المعلم في هذه المرحلة أن يفوق زملاءه من معلمي اللغات الأجنبية، وأن يكون أقرب منهم إلى أنفس أولئك الناشئين كان ذلك خطوة محمودة في خدمة اللغة العربية بالمدارس الأجنبية.

ولن يصعب على الوزارة أن تجد المعلمين الصالحين لتأدية هذا الواجب تأدية صحيحة، فهؤلاء المعلمون سيأخذون من المدارس الأجنبية مرتبات أكبر من مرتبات المدارس الأولية، وذلك يمكن الوزارة من التخير، وقد تستطيع عقد المسابقات لتحقيق هذا الغرض الشريف.

في التعليم الابتدائي:

يصل الطفل إلى مرحلة التعليم الابتدائي وقد استعد لمتابعة دروس اللغة العربية وقدر على قراءة بعض الفقرات المفيدة مما يقع تحت بصره من الجرائد والمجلات. وقدر أيضاً على فهم بعض ما يذيع الراديو من أناشيد ومحاورات، وهو لا يصل إلى ذلك إلا بعد أن يعني به عناية وافية في مرحلة التعليم الأولى بحيث لا يقل ما يتلقاه في الأسبوع عن عشرة دروس.

وفي التعليم الابتدائي يجيء الدور الجدي في تعليم اللغة العربية فيقسم التلاميذ إلى فريقين: فريق يستعد للأقسام الثانوية المصرية وفريق يستعد للأقسام الثانوية الأجنبية.

وإنما فرضنا هذا التقسيم لأن تلاميذ المدارس الأجنبية يدخلون الأقسام الثانوية المصرية بتلك المدارس بدون أن يؤدوا امتحان الشهادة الابتدائية المصرية. ويكون في أثر ذلك أن يدخلوا تلك الأقسام وهم ضعاف في اللغة العربية ضعفاً يجعلهم من الذيول في الامتحانات العمومية، وقد يلازمهم هذا الضعف طول حياتهم فلا يكون منهم كتاب ولا شعراء ولا خطباء باللغة العربية.

ومنهج اللغة العربية في الأقسام الابتدائية التي تعد للأقسام الثانوية المصرية يجب أن يكون مماثلاً تمام المماثلة لمنهج اللغة العربية في المدارس الابتدائية المصرية مع زيادة عدد الدروس زيادة تعوض على التلاميذ ما يفوتهم من درس أكثر المواد باللغة العربية.

أما منهج اللغة العربية في الأقسام الابتدائية التي تعد للأقسام الثانوية الأجنبية فيكون أخف ويكتفي فيه بسبعة دروس في الأسبوع توزع على مواد اللغة العربية توزيعاً يضمن تمكن أولئك التلاميذ من القواعد والإملاء والمطالعة والإنشاء.

ومن السهل وضع هذا المنهج الخفيف، والمهم هو أن يشمل العناصر الأساسية من القواعد بحيث يستطيع التلميذ أن يلقي خطبة أو يكتب رسالة بدون أن يقع في أغلاط تشهد عليه بالتخرج في مدرسة أجنبية!

وإذا تجاوزنا اللغة العربية إلى الجغرافيا والتاريخ رأينا من الواجب على تلاميذ الأقسام الابتدائية التي تعد للأقسام الثانوية المصرية أن يدرسوا المقرر من هاتين المادتين في المدارس الابتدائية المصرية.

أما الأقسام الابتدائية التي تعد للأقسام الثانوية الأجنبية فتدرس جغرافية مصر بالتفصيل، ثم تدرس التاريخ المصري بإيجاز مع الاهتمام بتاريخ مصر الحديث وعلاقته بالأمم الغربية والشرقية.

وما دام الغرض هو التعاون فمن حق وزارة المعارف أن تشير على المدارس الأجنبية بدعوة فريق من تلاميذها إلى اجتياز امتحان الشهادة الابتدائية، فإن لم يسهل ذلك كان من الواجب على تلك المدارس أن تدقق في نقل التلاميذ من الأقسام الابتدائية إلى الأقسام المصرية الثانوية، فقد يساعد ذلك على تحسين النتائج في امتحانات النقل

والامتحانات العمومية.
وبهذه المناسبة نذكر أن الليسيه فرانسيه بالإسكندرية رأت من المصلحة ألا تقبل في القسم الثانوي المصري إلا تلاميذ جازوا امتحان الشهادة الابتدائية المصرية، وسيكون لذلك تأثير حسن في نتائج الامتحان.

في التعليم الثانوي

وفي التعليم الثانوي نجد المدارس الأجنبية قد استغنت عن معونتنا في توجيه الأقسام المصرية، فهي تسير على مناهجنا خطوة خطوة، وتزيد عدد الدروس لتضمن نجاح تلاميذها في امتحانات النقل والامتحانات العمومية، ولا يبقى إلا اهتمام التفتيش بدروس التاريخ والجغرافية والأخلاق والتربية الوطنية، ولا موجب للنص على اهتمام التفتيش باللغة العربية، لأن أقل تقصير في ذلك يجعل اللغة العربية من المهملات في تلك المدارس، لأنها تملك وضع أسئلة امتحان النقل، وذلك قد يعفى بعض المدرسين من الحرص على تدريس جميع المقررات!

وأعتقد أن مبالغة التفتيش في تعقب دروس اللغة العربية لا يغض من كرامة تلك المدارس، فذلك أفضل من تعريضها لإلغاء الامتحان كما وقع في بعض الأعوام الماضية.

والموضوع المهم هو موضوع الأقسام الثانوية الأجنبية، والشبان في تلك الأقسام معرضون لأصعب الأخطار من الوجهة القومية إن لم يحرسوا حراسة أمينة من طغيان الدعايات المذهبية، ولا يعصمهم من تلك الدعايات إلا تزويدهم باللغة العربية تزويداً يمكنهم من مسايرة التيارات الأدبية والفكرية والاجتماعية بهذه البلاد، ولا يتم هذا التزويد الواقي من

الأخطار إلا إذا ضمنا أن يدرسوا تاريخ مصر دراسة عميقة تصل بهم إلى الثقة بأنهم نشئوا في وطن له ماض في خدمة العلوم والآداب والفنون، وفي هذه الحال يكون من الذوق أن يعتمد الأجانب على المصريين في دراسة التاريخ المصري، وهم قد قبلوا في أكثر مدارسهم أن يدرس ذلك التاريخ باللغة العربية.

وما يقال في التاريخ يقال في الأخلاق والتربية الوطنية، فهذه المواد الثلاث لها اتصال وثيق بشؤون عربية وإسلامية لا يفقهها المدرسون الأجانب إلا في قليل من الأحايين، وهم حين يفقهونها لا يؤدونها بالروح الذي يؤديها به المدرسون المصريون.

وأعتقد أن الأجانب لا يمانعون في أن يتغلب العنصر المصري في مدارسهم، لأن ذلك يحقق التضامن بين المصريين والأجانب، وهو أيضاً يساعد على خلق جوٍ من التعاطف كان انعدامه سبباً في قلة التفاهم بين أولئك وهؤلاء.

والواقع أن الأجانب الذين عرفتهم يتمنون لو ظفروا بالثقة المصرية، فمن واجبنا أن ندلهم على السبيل لكسب هذه الثقة، وهي سبيل واضحة يسير فيها بأمان كل من يؤمن في سريرة نفسه بأن من واجبه أن يعين من يؤتمن عليهم من الشبان المصريين على التزود بأصول التثقيف الصحيح الذي يجعلهم من الوطنيين الصادقين.

الأدب العربي

وبعدما سلف من الإشارات إلى العناصر التي يجب أن توجد في منهج الدراسة في الأقسام الأجنبية نضع الأساس لدراسة الأدب العربي هنالك، ونرى أن تكون المحفوظات كلها من الشعر السهل المقبول الذي يقل فيه المهجور والغريب من الألفاظ.

أما مواد التاريخ الأدبي فتقصر على العصر الحديث مع الاهتمام بالفنون الأدبية الجديدة التي نشأت عن اتصال مصر بالثقافات الأوربية والأمريكية فيكون للشعر التمثيلي وللقصص مكان ظاهر في درس التاريخ الأدبي، ويعنى عناية خاصة بدرس الخطابة البرلمانية ودرس القضايا الشهيرة التي برزت فيها براعة المحامين، ويضاف إلى ذلك درس الصلات بين الأدب والمجتمع، بحيث يشعر التلميذ أن اللغة العربية لا تقل قدرة عن اللغات الأجنبية في الطب لأدواء المجتمع وتعقب أهواء النفوس وأوطار العقول.

ومن البين أنه يجب الاهتمام بدرس تراجم الكتاب والخطباء والشعراء الذين كان لهم تأثير

في خلق التطور الحديث من الوجهة الاجتماعية والقومية والذوقية، لأن ذلك يساعد على الأنس بالأدب ويشعر أولئك التلاميذ بقيمة الحرص على المنافع الوطنية عساهم

يصيرون في المستقبل من أقطاب المصلحين، وذلك هو المأمول من شبان تعترك في صدورهم جذوات الثقافة الشرقية والثقافة الغربية.

التعاون بين المصريين والأجانب

وحين تحقق هذه المقترحات يكون من الواجب أن نخطو خطوة جديدة في التقريب بين المدارس المصرية والمدارس الأجنبية فنراهم ويروننا في الحفلات وفي الرحلات، ويرفع الحجاب الكثيف الذي يجعل منا ومنهم أمتين مختلفتين، مع أننا نعيش جميعاً في ضيافة النيل.

والله عز شأنه هو ولي التوفيق.

(باحث)

بين مصر والعراق

للأستاذ محمد أبو بكر إبراهيم

مما استرعى نظري في نسخة من جريدة الهدف العراقية صورة شمسية تهول وتروع للدكتور زكي مبارك، وما كدت أقرأ بضعة أسطر فيها حتى بان لي أن العدد كله قد خصص لتكريم الدكتور والاحتفاء به والإشادة بفلسفته وعلمه، فانطلقت ألسنة الأدباء العراقيين بالثناء عليه، وانبرت أقلامهم لتسجيل أدبه، وحفظ أثره، ووصف براعته في الكتابة التي تساوق براعته في الشعر.

وإنها لمدحة حقة صادفت أهلها، وحلت محلها، وجاءت تخليداً للمحمدة الباقية التي تفضلت الحكومة العراقية فأسبغتها عليه، إذ أكرمته بوسام الرافدين تقديراً لمجهوده، ومعرفة لمعروفه

وإن عرفان الجميل، وتقدير أعمال العاملين، وإعطاء الحق لمستحقيه، لهى فضائل طيبة عزّ وجودها في هذا الزمان الذي ابيضت عينه، وغاض معينه، وقل خيره، وكثر شره وضيره، وأغمطت فيه الحقوق، واشتد به بلاء العقوق، ولكن إخواننا العراقيين قد رفعوا فيه لواء هذه الفضائل، وتحلوا بحللها وحلاها وتلك بعض مناقبهم الغراء، وشيمهم الشماء.

وليس بمستغرب أن يشغف الدكتور بالعراق حبّاً؛ وأن يولع بالعراقيين وآثارهم وأخبارهم وأيامهم وتواريخهم وسائر أحوالهم فإن ميله إليهم قد خالط منه اللحم والدم، وأصبح جزءاً من عاطفته وضرباً من تعصّبه وشطراً من فطرته ولوناً من غذائه الروحاني ومقومه النفساني.

فهو حينما يخطر بباله خاطر عنهم - وما أكثر توارد هذه الخواطر الملحّة على ذهنه - تراه يتهلّل بشراً، ويسترسل في الحديث عن مفاخرهم ومآثرهم استرسالاً يأسر انتباه السامعين ويملك لبّهم، لحلاوة الأسلوب وحسن الأداء ولطف القول؛ ويجذب نفوسهم بما في حديثه من الطرائف والطرف، والروائع والتحف وكل ما يستهوي ويستميل.

وما أكثر المصغين من المعجبين ببلاد العراق الذين يشعرون بمثل ما يشعر به الدكتور من تقدير لها وميل نحوها، ويحسّون مثل ما يحسّه قبلها من عواطف نبيلة واتجاهات شريفة.

ولا ريب أن المودّة والمحبة والرغبة الصادقة المتبادلة بين الأقطار الشرقية لتزداد قوة على

ممرّ الأيام وكرّ الأعوام، فتصل بين أطرافها، وتربط بين أنحائها، وتوثق العلاقة بينها من أقصاها إلى أقصاها، إلى أن تجعل منها وحدة متماسكة الأجزاء لا انفصام لها ولا انفصال، فإن روابط الجنس واللغة والدين قد صيّرت الممالك الشرقية توائم، بل وطناً واحداً محبباً إلى كل النفوس هنا وهناك، وقد تنبهت أممنا إلى هذا الترابط، فأخذت تفكر فيما كان عليه السلف من علوم وثقافة ومعارف لإحيائها وبعثها من جديد في صورة شرقية غربية سليمة، وإن تعاون الأدباء في العصر الحاضر على نشر هذه الثقافات ليبشر بمستقبل جديد باهر تصفو فيه الحياة الروحية من شوائب الغربيين ولوثات المحدثين المارقين.

فإن التخلص من البدع الزائفة التي دخلت في عقائدنا وأعمالنا وتصرفاتنا وتقاليدنا وسائر أحوالنا لمن أهم ما يجب البدء به في هذا الإصلاح الذي ينشدونه للأمم الشرقية، إذ يرجع بنا - نحن الشرقيين - إلى الأصول الأولى الحقة المبرأة من كل زيف، ومن كل مستحدث من البدع والتقاليد الضارة، وبذلك تتحد وجهات الأنظار وتتفق مسارح

الأفكار؛ وتقوى أممنا بالاتحاد في الحق والائتلاف في الفضيلة، وتخرج من التطور الفاسد إلى التطور الصالح المؤسس على الفضيلة والحق؛ فتجتمع القلوب بحكم الطبيعة، وتتوحد الغايات، وتتبين المثل العالية، والأهداف البعيدة الرفيعة.

وما أحوجنا إلى من ينهض بالشرق نهضات أدبية وخلقية واجتماعية، بعد أن تناثرت أجزاؤه، واضمحلت هيئته، وضعف التئامه وقد كاد يتداعى للانحلال.

أدرك هذه الحال رجال من العلماء المثقفين والأدباء المخلصين فأخذوا في هذه الأيام يجاهدون بأقلامهم وقلوبهم ونفوسهم في سبيل الدعوة إلى اتحاد الشرق ليكون جسماً واحداً هائلاً كبيراً، قوي البينة، سليم الهيئة، تتعاون أعضاؤه، وتلتحم أجزاؤه.

وكم بذلوا من وقت ومال، وعلم مذخور، في صون حقوقه وحفظ ملته وحياته من الضياع، فصوبوا معاولهم الأصول الفاسدة لهدمها وتقويضها، وأكثروا من الكتابة في المجلات والصحف لتأسيس الأصول الصالحة للمدنية القوية النافعة، وتعهدوها بآرائهم وفلسفتهم وجهادهم حتى تكون كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء.

وكم أنحوا على المقلدين للغربيين تقليداً طائشاً لا نفع فيه، وعابوا عليهم انتحالهم أطوار الأوربيون التي لا تتلاءم مع الأوضاع الشرقية، ولا تتناسب مع الحياة الإسلامية، حتى

كادت تجعل حياة الشرقيين وعاداتهم خليطاً من القشور ومزيجاً من المظاهر الخلابة التي لم تخلق لنا ولم نخلق لها، وما كانت لتوائم طبيعتنا، أو توافق أذواقنا؛ لأنها إنما نقلت إلينا نقلاً فيه تعسف كما ينقل النبات قسراً من بيئة يجود فيها ويترعرع، إلى بيئة أخرى لا تلائمه ولا تعينه على النمو والنضارة، فلا يلبث أن يكون حطاماً لا خير فيه، وحطباً لا حياة به، وهشيماً تذروه الرياح.

فأهابوا بالشرقيين أن يأخذوا بأسباب النهضات القديمة، وأن يقتدوا بالسلف في صدر الإسلام وفي العصور الأولى الزاهرة، وأن يستمدوا من أدبهم ومعارفهم وثقافتهم ما يقربهم إلى الخير، ويبعدهم عن الضير، فكان لهذا الجهاد شيء من الأثر الطيب في إزالة بعض الحواجز القائمة بين شعوب الشرق، والقضاء على بعض الحجب الكثيفة الحائلة بين أممه والحق، والتي خلقها خلفاً أولئك الذين يمجدون حضارة الغرب، وينتقصون أعمال الشرق فكانوا نكبة على بلادهم، ومنافذ فيها يدخل منها الأعداء إليها؛ لأنهم وأمثالهم شؤم على أبناء أمتهم يمهدون السبيل ويفتتحون الأبواب لأرباب الغايات والمطامع والحضارات الفاسدة، ومن آيات الجهاد تلك النزعة الجديدة القوية التي ترمي إلى إظهار الحضارة الشرقية - وهي أصل الحضارات كلها - لتبرز للوجود، وتحل في الميدان، فلا تلبث الفوارق أن تضمحل، وتتابع الكوارث، ونزول المصائب والأهوال، وهي التي أوجدت في الشرق يقظة ظاهرة، وربطت أفراده بوشاح متينة لا تقل في قوتها عما بينهم من روابط النسب والجنس والدين واللغة والإنسانية، وبعثت فيهم روح المقاومة لدفع ما هو باطل، ومحو ما هو فاسد، وجعلتهم لا يغفلون عن مصيرهم ولا يستسلمون لإرادة سواهم، ودفعت نفوسهم إلى اتخاذ الوسائل للنهوض فيما أحبته، والتخلص مما كرهته.

وإن هذه المقاومة الروحية والعملية لتبقى عنيفة شديدة في الأمم الشرقية الناهضة ما بقي فيها رمقة من عيش، ومسكة من ضمير؛ وما دامت تسترشد بنور إيمانها، وتعمل بقوة عقيدتها وما بقي فيها رجال مخلصون، وعلماء ناهضون، وأدباء مثقفون، يقومون برسالة الحضارة العربية الشرقية، ويسعون لها سعيها، وهم مؤمنون بها، وأولئك كان سعيهم مشكوراً.

فإن الله إذا أراد بقوم خيراً جمع كلمتهم على الحق والهدى، وألف بين قلوبهم بصلات المودة والمحبة وإن بعدوا وتناءت ديارهم وشط مزارهم، فينالون شرفاً رفيعاً، ومقاماً محموداً.

محمد أبو بكر إبراهيم

المفتش بوزارة المعارف

كلمة في القرآن

(إلى كبار العلماء، ومشيخة القراء، وجماعة الأزهر المعمور)

للأستاذ علي الطنطاوي

قال لي صديق عالم في بعض حديث كان بيني وبينه: ما بال أحدنا يأخذ ديوان المتنبي

مثلاً، فما يدع منه واحدة حتى يقتلها فهماً، ويحيط بأسرارها علماً، ويغوص على جواهر معانيها، ويتبع خفيف إشاراتها، وبعيد كناياتها، حتى ينتهي إلى مراد الشاعر منها، وقد تنطبع على صفحة قلبه آراء الشاعر فيؤمن بها إيماناً، ويتخذها قدوة وإماماً، وربما يدل ذلك من خلائفه، وعدل من سلائقه، مع أن ديوان المتنبي، وإن علت في الكلام مرتبته، وسمت في البلاغة منزلته، لا يعدو أن يكون كلام مخلوق يخطئ ويصيب، وليس من شأنه أن يكون كتاب هدى ولا إرشاد. . . ثم نتلو القرآن أناء الليل وأطراف النهار، فلا يأمرنا ولا ينهانا، ولا يكون له أثر في حياتنا، والقرآن كلام الله رب العالمين، أنزله رحمة وهدى للناس أجمعين؟

تأملت فوجدت كلامه حقاً، فأطلت التفكير فيه، فرأيت النقص إنما دخل علينا من أنفسنا لا من القرآن، والقرآن لم يزل على ما كان عليه يوم أخرج من الأمة البدوية الجاهلة خير أمة أخرجت للناس، تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر، وأعطاها مقاليد الأرض، ففتحت بها ما بين مشرقها والمغرب. . . فما له اليوم وما لنا؟ وكيف غدونا وأمورنا في يد كل واغل علينا، يغلبنا كل مغلب، ويستنسر في أرضنا البغاث، ومن إذا استغاث لا يغاث، وإن أتى في عقر بيته لم يملك دفعاً ولا منعاً؟

النقص منا لا من القرآن، فلو أنّا أخذنا القرآن على وجهه ولم نعدل به عما أنزل له، لم نذل، والقرآن بين أيدينا، وبالقرآن عز من عز من أسلافنا.

نزل القرآن آمراً وناهياً، ومذكراً وواعظاً، وكان للمسلمين دستوراً وقانوناً، فلم نفهم منه إلا أنه كتاب تبرّك، نتخذه تمائم ورقي، أو نتلوه تلاوة تطريب وتلحين، وتطربه وتليين، نؤخذ بحلاوة صوت القاريء، وبراعة إلقائه، وحسن تصرفه في ألحانه، ولا نتنبه الانتباه المطلوب إلى المعاني، ولا نخشع الخشوع اللائق بمن يسمع كلام الخالق، وإن كنتم في شك من الأمر فاسألوا من يفتح (الرادّ) لسمع قراءة الشيخ محمد رفعت، أكان يسمع لو قرأ غيره

ممن لم يؤت الجرس الحلو ولا اللحن المطرب؟ واسألوهم ألا تهزم (سحبة) صبا، أو (حطّة) على الرصد، أكثر مما تهزم معاني كلام جبار السماوات والأرضين؟

أما إنه لا جدال في وجوب ترتيل القرآن وتجويده، وضبط مخارجه وأحكامه وأدائه، أما أن يكون القصد من الإصغاء إليه الطرب، والغاية من تلاوته الإطراب، فلا، ثم لا. . . وما مثل من يفعل ذلك إلا مثل ضابط في الجيش بعث إليه القائد برسالة فيها بعض أمره ونهيه، فلا هو ائتمر ولا انتهى ولا فهم معناها ولا حاول، وإنما قبلها ووضعها من التعظيم على جبينه ثم تلاها خمسين مرة، يتغنى بها ويرتلها، ثم جعلها تميمة تعلق على الصدر. . . ولله المثل الأعلى!

وقد حدثني الصديق الفاضل الأستاذ عبد المنعم خلاف أن في مصر قارئاً (سمّاه ونسيته) إذا قرأ أعطى المعاني حقها ففخّم وهوّل عند وصف العذاب، ورقق وجمّل عند ذكر النعيم، وحكى رنة صوت المستفهم والمتعجب عند الاستفهام والمتعجب، فإذا صار إلى آخر الآية ليسمعه الناس فيكون قدوة للقارئين صالحة؟ إن القائمين على أمر الإذاعة يحسنون صنعاً إذا سألوا الأستاذ خلافاً عن اسمه ودعوه. . . وأنا واثق أنهم لن يفعلوا!

هذه هي حال القراء، جعلوا القرآن كالغناء، بل ربما عدوه سلماً إلى الغناء! ألا ترى إلى بعض المطربات المصريات المشهورات، كيف ابتدأن قارئات، فارتقين حتى صرن مغنيات؟ أو لا ترى أن من كتاب الرسالة من ذكر المغنين مرة فعد الشيخ محمد رفعت في أهل الغناء؟

ثم إن القراء خصلة أخرى.

ذلك أن منهم من أولع بالقراءة على السبع، في المساجد والمجامع، يكرر الآية الواحدة على الأوجه المختلفة، فلا يأتي من ذلك إلا فتنة العامة، وتشكيك الجهلاء، وما يخالط القارئ من العجب والزهو، وذلك ما لا يستحبه الشرع. ولقد ثبت في الحديث أن القرآن أنزل على سبعة أحرف، تسهيلاً على العرب المختلفة لغاتهم، وكانوا يقرؤون عليها جميعاً، حتى إذا كان زمان عثمان رضي الله عنه، وسيطرت لغة قريش أو كادت، وتوحدت اللغات ولم يبق للسبعة الأحرف من فائدة إلا اختلاف الناس، أمر عثمان بالاقتصار على واحد منها ومنع ما عداه، وكتب المصحف الإمام وبعث به إلى الأمصار، واقتصر الناس على الحرف الواحد

حتى نشأ النحاة وأهل اللغة والقراء، فوقع بينهم اختلاف يسير في حركة أو إمالة أو مد أو همز فكان من ذلك القراءات السبع، وهي على حرف واحد وليست على الأحرف السبعة كما يظن بعض من لا علم له. . .

فإذا كان عثمان قد أمر بالاقتصار على حرف واحد من الحروف السبعة المنزلة ضماناً للمصلحة، فلم لا نقتصر على قراءة أو قراءتين فقط من القراءات السبع نقرأ بها في المساجد والمجامع، وندع لمن شاء من المتخصصين أن يحفظها ويرويها كلها من غير أن يذيعها على العامة الذين لا يعرفون إلا قراءة حفص في المشرق كله وورش عند المغاربة؟

هذا رأي فيه المصلحة، وهو من روح الشريعة التي تكره الاختلاف والفتنة أرجو من سادتنا العلماء المقلدين المقدسين لكل ما درجوا عليه الثائرين على كل رأي جديد، أن يفكروا ويتثبتوا قبل أن تقوم قيامتهم عليّ!

أما العامة وأشباههم فإن أكبر همهم أن يستكثروا من المتلوّ ولو أهملوا قواعد التجويد، ويتسابقون إلى الختمة، ولو قرؤوا شاردة أذهانهم؛ حتى أن لي عمة عجوزاً تقرأ كل يوم ختمة وتفخر بذلك، مع أن عمر بن الخطاب وهو أعلم من عمتي - ولو لم تقر بذلك - أنفق دهراً في البقرة حتى قرأها فقيه متدبر. . . وسبب هذا التسابق على الاستكثار من المقرؤ اعتقادهم أن للتالي بكل حرف عشر حسنات ولو قرأ قراءة ببغاويه. . .

ولندع هؤلاء ولنعرج على العلماء فنسألهم إذا لم يكونوا ممن يحرم الاجتهاد، ويرى أن الأئمة قد استنبطوا من القرآن كل شيء، ولم يبق إليه حاجة إلا استنباط. . . البركة!

نسألهم: كيف يتدبر القارئ الآيات للتدبر المطلوب، وليس عند المسلمين إلى اليوم تفسير لمعاني القرآن مختصر، حاوٍ لأسباب النزول والناسخ والمنسوخ، وبيان المحكم والمتشابه، خالٍ من فروع النحو والبلاغة ومسائل الفلسفة، مبرأ من الأكاذيب والإسرائيليات وتضارب الروايات في وضوح عبارة وبيان إشارة يفهمه الغبي قبل الذكي، وطالب العلم قبل العالم؟ ومتى يظهر التفسير الذي انتهى إلينا من سنوات عزم إدارة الأزهر على إخراجه للناس، وأنها ألفت له لجنة وسمّت لها رجالاً؛ فما صنع الله بلجنته ورجالها؟

وإذا لم تكن لجنة أفليس في العلماء من يستطيع أن يؤلف هذا التفسير لمعاني القرآن، لا كتفسير الجلالين المخل باختصاره ولا كالنسفي المقصور على النحو، ولا كالكشاف المعنيّ بالبلاغة، ولا كالفخر الرازي المترع بالفلسفة والعلوم والإشكالات والردود، ولا كالخازن الفياض بالإسرائيليات المكذوبة، ولا كالطبري الذي يشتمل على الروايات الكثيرة المختلفة، ولا كتفسير طنطاوي جوهري الذي حشد فيه من قضايا العلم الطبيعي التي لم يكن من أهلها ما لم يدع مكاناً للتفسير، ولا كتفسير المنار المطول الذي يشبه دائرة معارف تحتاج إلى عمر كامل، بل يأخذ من كل مزايه ويجتذب عيوبه، ويضم على ذلك ما لم يكن يدركه المتقدمون.

هذا ولم نزل نسمع بالإعجاز، ونعرف عجز العرب وهم شياطين البلاغة ومردة القول، عن أن يأتوا بمثل سورة من القرآن برغم التحدي الموجع، والاستفزاز البين، وقد قرأنا ما كتب في بيان الإعجاز وأسراره من لدن عبد القاهر والباقلاني إلى الرافعي ولكنا لا نزال نجهل أسرار الإعجاز، ولا نجد في كل ما كتب ما يبرئ من علة، أو يشفي الغلة، على طول البحث، وامتداد الزمان، حتى كدت أقول بالصرفة كما قال المعتزلة، فمتى يؤلف في الإعجاز الكتاب الذي يضع أيدينا على سره حتى تلمسه لمساً؟

إن كتاب الرافعي في حسن عرضه، وبلاغة عبارته، وصفاء ديباجته، يكاد يكون معجزاً لكتاب العصر عن تأليف مثله، ولكن اقرأه، ثم أطبق الدفتين ولخص لي رأيه في الإعجاز، وقل لي ما هي (نظريته) فيه؟ وهل تشبع الباحث، وتروى ظمأ الحيران؟

هذا وإن ما تقدم من تصحيح التلاوة، والتفسير والبحث في الإعجاز، إنما هي مقدمات، وجوهر الموضوع في دعوة العلماء إلى العودة إلى القرآن والسنة، ودرسهما دراسة المجتهد الفقيه المتبصر، واستنباط الأحكام منهما، وتنقية عقائد المسلمين مما يخالفهما، والفتوى بهما لا بالدر وحواشيه، ولا بأقوال أئمة المذاهب، فإنهم على ما بذلوا رحمهم الله وما أحسنوا، إنما راعوا مصلحة الناس في زمانهم، واعتمدوا العرف

المعروف في أيامهم، والقرآن لكل زمان ومكان. وليس القصد أن ندع المذاهب جملة، ونأمر الناس جميعاً بالاجتهاد، فهذا ما لا يقوله ذو مسكة من عقل، ولكن القصد النظر في أدلة الأحكام الفقهية، فما كان دليله النص فلا مساغ للكلام فيه، وما بني على العرف يتغير بتغيره، وهذا معنى القاعدة المعروفة: (لا ينكر تبدل الأحكام بتبدل الأزمان).

فأفهموا الناس أن القرآن لم ينزل ليكون تمائم ورق، ولا ليتخذ منه غناء وطرب، ولكنه كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من) جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تشبع منه العلماء، لا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعي إليه هدى إلى صراط مستقيم.

علي الطنطاوي

دولة الأدب في حلب

سيف الدولة بن حمدان

للدكتور محمد أسعد طلس

ما نعرف أن حلباً أو الشام كله قد أصاب عهداً أحفل بالعلماء والأدباء والشعراء والحكماء والأطباء من عهد سيف الدولة أبي الحسن علي بن عبد الله بن حمدان عظيم الدولة الحمدانية؛ فقد كان بنو حمدان (ملوكاً أوجههم للصباحة، وألسنتهم للفصاحة، وأيديهم للسماحة، وعقولهم للرجاحة؛ وسيف الدولة مشهور بسيادتهم وواسطة قلادتهم، وكان رضي الله عنه وأرضاه وجعل الجنة مأواه غرة الزمان وعماد الإسلام ومد به سداد الثغور وسداد الأمور، وكانت وقائعه في عصاة العرب تكف بأسها، وتنزع لباسها، وتفل أنيابها وتذل صعابها وتكفي الرعية سوء آدابها. وحضرته مقصد الوفود، ومطلع الجود، وقبلة الآمال ومحط الرحال، وموسم الأدباء، وحلبة الشعراء. ويقال إنه لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ العصر ونجوم الدهر، وإنما السلطان سوق يجلب إليها ما ينفق لديها، وكان أديباً شاعراً محباً لجيد الشعر شديد الاهتزاز لما يمدح به وكان علي عالماً وفقيهاً يناقش العلماء ويطرب لمحادثتهم ومناظراتهم كما كان شاعراً له الشعر الجيد والتشبيه الملكي، ولم يبق لنا الدهر من شعره إلا نحو خمسين بيتاً ذكرها من ترجم له وأكثرها مذكور في اليتيمية، ومن أجود شعره قوله:

أقبله على جَزَع ... كشرب الطائر الفَزِعِ

رأى ماءً فأطعمَه ... وخاف عواقبَ الطمعَ

وصادف فرصة فدنا ... ولم يلتذ بالجُرعِ

وهو كما ترى شعر لطيف يدل على خفة روح ورشاقة خاطر لما تضمنه من صور سريعة وجميلة. ومن أجمل شعره أيضاً بل من أجمل الشعر العربي في موضوعه قوله في وصف ساعة من ساعات اللذة زانها ساق صبيح وقوس قزح رائع:

وساق صبيح للصَّبوح دعوته ... فقام وفي أجفانهِ سنة الغَمض

يطوف بكاسات العُقار كأنجم ... فمن بين مُنفضْ عليها ومنقض

وقد نشرت أيدي الجنوب مطارقاً ... على الجو دكناً والحواشي على الأرض

يُطرزها قوسُ الغمام بأصفر ... على أحمر في أخضر تحت مبيضٍّ

كأذيال خَوْد أقبلت في غلائل ... مُصبَّغة والبعض أقصر من بعض

هذا والله الشعر المرقص لما فيه من صور حية ومعان جميلة، ولا سيما تلك الصورة الفنية الرائعة للقوس بألوانه الجذابة واستدارته الرائعة. وقد كنت أود أن أجمع هنا ما انتثر من شعر أبي الحسن في بطون كتب الأدب ولكني أرجئ هذا إلى أن أظفر بشيء أكثر مما جمعت.

أما عناية أبي الحسن بالعلم فما كانت أقل من عنايته بالأدب ورجاله فقد كان مغرماً بنفائس الكتب وجياد الآثار العلمية. وقال الحافظ الذهبي في تاريخ الإسلام: (كان بجامع حلب خزانة كتب كان فيها عشرة آلاف مجلدة من وقف سيف الدولة وغيره). وكان معنياً أيضاً بجمع الأطالس والآلات الفلكية، فقد ذكر الأستاذ أحمد تيمور باشا أن في دار الكتب المصرية نسخة مصورة من أطلس قيم ينتظم أشكال الكواكب

وأطوالها وهي مما ألف للأمير العالم سيف الدولة بن حمدان. وكان يستكثر من الحكماء والأطباء والفلاسفة ويقربهم من مجلسه ويشجعهم على التأليف والترجمة ونشر العلم. . . قالوا: وكان إذا أكل الطعام وقف على مائدته أربعة وعشرون طبيباً، وكان فيهم من يأخذ رزقين لتعاطيه علمين، ومنهم من يأخذ ثلاثة لتعاطيه ثلاثة علوم، وفي دائرة المعارف الإسلامية: (أن الفضل الذي ناله سيف الدولة بنشر العلم والأدب واللغة لهو مجد عظيم لا يقل عن مجده في أعمال السياسة والحروب).

وأما عطاياه التي كان يغدق على أهل العلم والأدب فحدث عنها ما شئت. وقالوا: إنه صنع دنانير خاصة للهبات والعطايا زنة كل دينار منها عشرة مثاقيل، وكان على هذه الدنانير اسمه وصورته وقد عقد الثعالبي فصلاً في انفجار ينابيع جوده على الشعراء.

قال أبو الحسن الحمداني: كنت واقفاً في السماطين بين يدي سيف الدولة بحلب والشعراء ينشدونه، فتقدم إليه أعرابي رث الهيئة فأستأذن الحجاب في الإنشاد فأذنوا له فأنشد:

أنت عليُّ وهذه حلب ... قد نفد الزاد وانتهى الطلبُ
بهذه تفخر البلاد وبالأ ... مير تزهى على الورى العربُ
وعبدُك الدهرُ قد أضرَّ بنا ... إليك من جور عبدك الهرب

فقال سيف الدولة: أحسنت، والله أنت، وأمر له بمائتي دينار، ومن هذا الإسراف والعطاء بلا حساب ما رواه صاحب اليتيمة من أبا فراس كان يوماً بين يدي سيف الدولة في نفر من ندمائه فقال لهم سيف الدولة: أيكم يجيز قولي وليس له إلا سيدي (يعني أبا فراس):

لك جسمي تعُله ... فَدَمِي لِمْ تحِله
لك من قلبي المكا ... نُ فَلِمْ لاَ تحُله

فارتجل أبو فراس:

أنا إن كنت مالكاً ... فلي الأمر كله

فاستحسنه سيف الدولة وأعطاه ضيعة بمنبج تغل ألفي دينار وقصص ينابيع جوده على الشعر أكثر من أن تحصر فقد كان يغدق على من يقصدونه المال الجسيم ويبعث إليهم بالثياب والماشية والوصفاء.

كان من نتيجة هذا العطاء الراجح واليد الطولي أن اجتمع لدى أمير حلب جمهرة من العلماء الفحول أمثال: ابن نباتة، وابن خالويه، والفارابي، وأبي على الفارسي، وكشاجم، والخالديين أبي بكر وأبي عثمان، والصنوبري، والمتنبي، والوأواء، والببغاء، والناشئ، والنامي أبي الحسن السميساطي، وأبي الطيب اللغوي، والسري الرفاء، وأحمد البازيار، وأبي فراس، وعلي بن عبد الملك القاضي، وأبي سلامة القاضي، والطبيب عيسى الرقي. . . وغيرهم من رجال الأدب والعلم الذين سنقف عند كل منهم وقفة نبين فيها آثاره من علم وأدب إن شاء الله.

لم تقف حركة سيف الدولة الأدبية والعلمية على الشام فحسب بل تعدته إلى العراق وفارس، فهذا أبو الفرج الأصفهاني يأتيه من العراق، فيستظل بظله الوارف، ويفيد من عطاياه حين يقدم إليه أول نسخة من كتابه الفريد. وهذا أبو الفرج عبد الواحد الببغاء يأتيه من نصيبين فيصيب عنده مالاً وجاهاً.

وممن أفادوا من رعايته من شعراء بغداد ابن نباتة السعدي، وله في سيف الدولة شعر رائق جزاه عليه أفضل الجزاء. ومن أدباء فارس أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي، وكان يقول: (ما فتق قلبي، وصقل ذهني، وأرهف حد لساني، وبلغ بي هذا المبلغ إلا تلك الطرائف الشامية واللطائف الحلبية التي علقت بحفظي وامتزجت بأجزاء نفسي، وغصن الشباب رطيب ورداء الحداثة قشيب) ونحن إذا رحنا نتتبع الفضلاء الذين أموا حلب وأفادوا من سيدها وأميرها وعالمها في القرن الرابع للهجرة ذكرنا العدد الجم مما لا مجال لسرد طرف منه في مقال كهذا.

ظلت بقايا هذه الحركة الحمدانية في حلب بعد أن انقرضت دولة بني حمدان؛ فنحن نجد في القرن الخامس للهجرة - على اضطرابه السياسي والاجتماعي - حركة علمية قوية أفاد منها أبناء الشام كافة. وليس أدل على ذلك مما حفظه لنا أبو عبد الله الكاتب الأصبهاني في (جريدة القصر وجريدة أهل العصر) من الشعراء والأدباء

الحلبيين والشاميين في القرن الخامس ممن لم نسمع بذكرهم ولا يعرف عنهم الأدباء المعاصرون شيئاً، فان نظرة واحدة إلى ما احتواه هذا السفر القيم من تراجم الأدباء الشاميين تؤيد ما نريد الذهاب إليه من أن الحركة الأدبية التي قام بها سيف الدولة ظلت تنتج حتى أواخر القرن الخامس، وممن أفاد من هذه الحركة أبو العلاء المعري، فقد ذكر ابن العديم المؤرخ الحي في رسالته (الإنصاف والتحري) أن أبا العلاء بعد أن تلقى العلم واللغة والنحو بمعرة النعمان على والده. . . دخل وهو صبي إلى حلب، فقرأ بها على محمد بن عبد الله بن سعد النحوي راوية أبي الطيب المتنبي وعلى أبي بكر محمد بن مسعود النحوي. . . وممن أفاد من هذه الحركة أيضاً ثابت بن أسلم الشيعي قيم خزانة حلب وكان من كبار النحاة والقراء، ومنهم علي بن منصور بن طالب المعروف بابن القارح وهو الذي كتب إلى أبي العلاء رسالته المشهورة فأجابه أبو العلاء برسالة الغفران.

أما بعد فهذه صفحة من صفحات تاريخ حلب الأدبية الخالدة التي خلفها ابن حمدان فرفع اسم حلب عالياً وخلده في سجل الدب العربي، وما يضير ابن حمدان أن يأخذ عليه بعض المؤرخين أنه كان جائراً على رعيته فإنه ما كان يجور عليها إلا ليحارب العدو بأموالها أو لينفقها في سبيل تعليمها وتأديبها.

محمد أسعد طلس

سيجموند فرويد

العالم النفساني الكبير

للأستاذ صديق شيبوب

- 1 -

كانت هذه الحرب القائمة في شهرها الأول عندما حملت أنباء البرق نعي العالم النفساني الكبير (سيجموند فرويد) الذي أثار في حياته حرباً كلامية وقلميه لا تقل عنفاً عن حروب المدافع والقنابل، وأحدث في علمي الطب والنفس ثورة وانقلاباً لا يقل مداهماً عما تحدثه المدافع والقنابل في طبيعة الأرض وما تخلفه الحروب من تغيير في أحوال البلدان وطبيعة العمران ونفس الإنسان

ذلك هو (فرويد) الذي توفى في ليلة الأحد الرابع والعشرين من شهر سبتمبر من السنة الماضية، أي منذ عام تقريباً، في منزله بهامستيد بإنكلترا عن ثلاثة وثمانين عاماً قضاها في خدمة العلم باحثاً منقباً، خالقاً مبدعاً، لا تثنيه عن عمله هجمات مناوئيه، ولا تشغله عن أغراضه أمور الدنيا ومشاكل العالم، مخلصاً لفكرته، معالجاً لأبحاثه، ساعياً وراء غاياته، حتى ركز علماً قائماً على التحليل النفسي وعلاقته بالغريزة الجنسية، وأحدث حدثاً لم يقتصر أثره على الطب ومعالجة الأمراض العصبية وعلى علم النفس وتداخل الغريزة الجنسية فيه، بل تعداهما إلى الفنون والأدب.

ولد (سيجموند فرويد) بمدينة (فريبرج) الصغيرة بالنمسا في 6 أغسطس سنة 1856 وتلقى فيها التعليم الابتدائي ثم انتقل إلى فينا ودخل جامعتها ودرس الطب فيها، وبينما كان يشعر في قرارة نفسه بزهد في هذا العلم، وقد كان صريحاً حين كتب متحدثاً عن نفسه: (لم أشعر في طور الشباب وبعده بميل خاص لمهنة الطبيب أو مركز الطبيب من المجتمع.) ثم أضاف إلى هذا قوله: (على أنه كان يحركني نوع من الظمأ للمعرفة يتجه خاصة إلى الصلات الإنسانية أكثر منه إلى الأشياء الطبيعية.) وإذا عرفنا أنه ليس في علم الطب مادة تعرف بالصلات الإنسانية فهمنا كيف وصف نفسه بأنه كان يؤدي واجباته في الأبحاث الجامعية (في كثير من الإهمال) وكيف وجه دروسه في الوقت نفسه إلى اتجاهات أخرى،

وعلى أنه بالرغم من هذا التقصير وذلك الزهد فاز بشهادة الطب سنة 1881، وكان في مؤخرة الناجحين.

لم تكن مهنة الطب لتغري ذلك الطبيب الشاب بالرغم من فقره وحاجته إلى دخل يعيش به. فدفعه ميله إلى علم النفس إلى التخصص في مادة تتصل بهذا العلم وهي تشريح الدماغ والتحليل النفسي عامة، لأن الطب لم يكن قد قرر أن لكل فرد حالة نفسية يجب فحصها ودرسها على حدة، وهو ما استحدثه فيه (فرويد).

وقد تتلمذ فيما تخصص له على أستاذين اشتهرا بعلم التشريح وهما (بروك) و (مينير) فلم يلبثا أن لمسا في الطالب ميلاً طبيعياً إلى الاستكشاف المبدع.

نال (فرويد) سنة 1885 درجة (أجريجاسيون) في علم الأعصاب، وهي درجة يحسد عليها لأنها تدر عليه المال الوفير، ولكنه عندما أخذ يعالج مرضاه برزت فيه ميزة خاصة لازمته طول حياته وهي طول المراقبة وإنعام الفكر في الأسباب والنتائج.

كان يعرف أن الأساليب التي كان أطباء (فينا) يتبعونها في معالجة المصابين بالأمراض العصبية غير ناجحة ولا شافية، وكان قد بلغه كيف طرد شر طردة من عاصمة بلاد النمسا (فرانز أنطون ميسمر) حين شاء أن يدخل التنويم المغناطيسي على الطب، فضاق فرويد ذرعاً بحالته ولم يجد له وسيلة ليتخلص بها من سيطرة أساتذة الجامعة على الأطباء عامة.

في تلك الحقبة من عمره بلغه أن بباريس طبيباً يعالج الأمراض العصبية والنفسية على طريقة تختلف تمام الاختلاف عن طريقة الأطباء النمساويين، وهو (شاركو) المتخصص في علم تشريح الدماغ، وأنه يقوم بتجاريب عجيبة بوساطة ذلك الفن المستحدث الممقوت في بلاده، وهو التنويم المغناطيسي، فسعى (فرويد) حتى حصل على إعانة من الحكومة تساعده على السفر إلى باريس، وقد سافر فعلاً في سنة 1886 فوجد فيها جواً غير الجو الذي ألفه من قبل؛ وطالع كتاب الطبيب الفرنسي الكبير المسمى (الإيمان الشافي) فعرف الوسائل التي يدرس مؤلفه بواسطتها الحالات النفسية التي أحاطت بالعجائب التي روتها كتب الدين والتي كان الطب ينفيها إلى ذلك العهد.

شهد (فرويد) لأول مرة في حياته طبيباً يأبى أن يرى في (الهستيريا) مرضاً يصطنعه العليل أو يتظاهر به، كما كان يقرر أطباء النمسا، ويعترف بأنها مرض نفسي، بل لعله أجدر أنواع هذا المرض بالعناية والاهتمام، ويدلل على أنه نتيجة اضطرابات داخلية يجب أن تكون لها أسباب نفسية، وقد برهن (شاركو) في محاضراته على أنه يستطاع شفاء هؤلاء المرضى بالإيحاء في حالات تنويمهم مغناطيسياً لأن علتهم خاضعة للإرادة وليست ظاهرة جسمية.

تأثر (فرويد) بما طالع وسمع وشاهد، وعرف أن بباريس من يعترف بأنه في معالجة الأمراض العصبية، لا يجب أن يحسب حساب الأسباب الناتجة عن الطبيعة فقط، بل الناتجة عن النفس وما وراء النفس أيضاً.

وعرف (شاركو) قدر تلميذه كما عرفه من قبل أساطين الطب النمساوي فقربه إليه، وصيره من أخصائه، ورغب إليه في نقل كتبه إلى الألمانية.

أقام (فرويد) بباريس شهوراً معدودة، ثم عاد إلى وطنه؛ وكان يشعر أن (شاركو) يسلك في علمه طريقاً غير الطريق السوي الذي يحلم به، لأن (شاركو) كان لا يزال يعني بالجسم ولا يتوجه تماماً إلى ما يجب أن يتوجه إليه من الناحية النفسية، على أن هذه الشهور التي قضاها بباريس أذكت في نفس الطبيب الشاب إرادة حملته على التحرر من الماضي، وشجاعة دفعت به إلى السير في المنهج العلمي الذي اختطه لنفسه.

قدم (فرويد) إلى الجامعة، بعد عودته من باريس، تقريره عن الدروس التي شهدها والعلوم التي استفادها والنتائج التي انتهى إليها، فابتسم أساتذتها عندما طالعوا فيه أن في الإمكان استحداث عوارض الهستيريا في الجسم العليل، وضحكوا عندما انتهوا إلى أن هذا الداء يصيب الرجال أيضاً، وكان هؤلاء الأساتذة يعطفون عليه في أول أمره، ولكنهم أخذوا يزدرونه عندما رأوه يمعن في آرائه ولا يحيد عنها، فأقفلوا في وجهه باب الجامعة، ونحوه عن جمعية الأطباء، فلم يفز بكرسي مدرس فوق العادة إلا بعد لأي، وبعد أن توسطت له مريضة سرية من اللواتي عالجهن، وكانت ذات نفوذ فعال، وقد ظل طيلة حياته أستاذاً ملحقاً غير أصيل، وعندما احتفل ببلوغ السبعين من عمره لم تعن جمعية الأطباء بتهنئته.

على أن هذا جميعه لم يفل من عزيمة (فرويد) ولم يحط من جهوده، فقد أكب على العمل منذ صباه جاداً مجتهداً وعاش حياته كلها على وتيرة واحدة.

أقام (فرويد) أكثر من سبعين سنة بمدينة فينا لا يغادرها؛ وقد رحل عنها بعد أن اضطر إلى

ذلك اضطراراً عندما ضمت ألمانيا النمسا إليها وفرض النازيون في هذه البلاد قوانينهم الجائرة على اليهود، وقد كان يهودياً، فكان من الأفراد القلائل الذين أجيز لهم مهاجرة النمسا وأخذ ما يكفيهم حاجتهم في الحياة.

وقد سكن، أثناء إقامته بفينا، أربعين سنة في منزل واحد لم ينتقل منه إلى غيره ولم يبدل في أقسامه وأثاثه؛ فهنا مكتبته وهناك عيادته التي يستقبل فيها مرضاه، وهذا مجلسه للمطالعة، وذاك مكتبه للكتابة والتأليف.
وبالرغم من أنه رب عائلة، ووالد ستة أولاد، فقد كان يقوم بعمله بنفسه لا يحتاج فيه إلى مساعدة، ولا يعرف شهوة غير شهوة العمل والمهنة.
لم يضيع لحظة من وقته الثمين سعياً وراء مظاهر باطلة وطلباً لألقاب زائلة. وقد كانت آلاف الأسابيع التي تألفت منها حياته تتتابع متشابهة متماثلة في دائرة العمل والاجتهاد، ولا يستثنى منها غير المحاضرات التي كان يلقيها بالجامعة في كل أسبوع من شهور التعليم، وغير مأدبة ثقافية على الطريقة السقراطية كانت تجمع طلبته حوله في مساء كل يوم أربعاء، وغير اشتراكه في لعب الورق بعد ظهر كل يوم سبت.
أما فيما عدا هذه الساعات القلائل فقد كانت كل دقيقة محسوبة عليه يستعملها في معالجة المرضى أو المطالعة أو الكتابة أو الأبحاث العلمية. وكان هذا الرجل الجبار يكتفي بساعات معدودة للراحة والاستجمام ينام فيها نوماً عميقاً ثم يقبل بعدها على العمل بكل ما فيه من حيوية هائلة وإرادة قوية.
كان (فرويد) يعمل نهاراً في عيادته فيستقبل عشرة مرضى أو أكثر، ويدرس حالة كل واحد منهم فاحصاً مدققاً مكتنزاً في ذاكرته كل مظهر من مظاهر عللهم، فإذا أقبل الليل انقطع إلى عمله الخالق المبدع القائم على تدوين النتائج التي انتهى إليها مما شاهده في النهار.
ولا شك أن هذا النشاط العجيب يحتاج صاحبه إلى صحة قوية وجسم سليم، وقد كان (فرويد) كذلك، فهو لم يعرف المرض في سني حياته الطويلة، ولم يشعر بتعب أو وني، ولم تفتر همته ولا ضعفت أعصابه أو تلاشت قدرته على العمل.
وقد أخذ نفسه في حياته العقلية بالصرامة التي أخذها بها في حياته العادية حتى صار مبدأه الوضوح في أعمال الرأي والتفكير والعمل، وصار التحليل غريزة في نفسه لا يستطيع
الانفكاك منها.
كان لا يهتدي في تفكيره بغير آرائه الخاصة؛ لذلك كان إذا عرض له أمر ولم يتبين له تفسير يرضى به عقله أبى أن يتخذ من رأي غيره تكأة للوصول إلى غايته، وظل يبحث ويدقق ويفكر حتى يبلغ قصده.
كان قاسياً في تصرفاته، عنيفاً في جدله، صارماً في أوامره، دقيقاً في تحليله، جلداً في البحث عن الحقيقة، حذراً من أن يخطئ في هذا البحث، لذلك لم تكن آراؤه مرتجلة وليدة الحدس أو الصدفة. فقد كان يدير الفكرة في نفسه سنين حتى إذا ثبت له أنها صحيحة أبرزها في جرأة وحرية. وقد صدق من وصفه بأنه كان بطيئاً في الوصول إلى الحقيقة، ولكنه إذا استقر على رأي صار من الصعب نقضه.
(للبحث صلة)
صديق شيبوب
عراك في معترك. . .
أي معترك!
للأستاذ زكي طليمات
(بقية المنشور في العدد 378)
بعد هذا التمهيد ننزل إلى مناقشة الأستاذ متولي، وإن كنا في غنى عن ذلك.
يدعى الأستاذ، حفظه الله، أن بشر فارس في مقدمة مسرحيته (أراد أن يفسر الفنون الرمزية فطمسها). وحجته في ذلك كما يقول: (أن بشر فارس يحدثنا في مقدمته بالنزوع الصوفي ناسياً الفرق بين الرمزية الصوفية التي تفيض عن المخيلة والشعور، والرمزية الفنية التي تعتمد على المخيلة مضافاً إليها عنصر عقلي، كما يقول (ريبو) في كتابه (المخيلة الخلاقة) وهكذا يقرر متولي أن بشر يخلط بين ألوان الرمزية!
وقد رجعنا إلى هذا الكتاب وتتبعنا ما ذهب إليه متولي فوجدنا - ويا للعجب - أن كلام (ريبو) لا ينطبق على ما عناه متولي بالرمزية الفنية، بل هو كلام ينطبق على الرمزية الصوفية إذا اتجهت نحو ما وراء الطبيعة، والى القارئ نص (ريبو) كما ورد في كتابه المذكور المطبوع في باريس صفحة 196:

, ; ' , '

وترجمة هذا: (إن الرمزية الصوفية في اتجاهها إلى الدين تعتمد على عنصرين أساسيين، هما المخيلة والشعور، فإذا ما اتجهت إلى الفلسفة أو ما وراء الطبيعة، فإنها تعتمد على المخيلة مضافاً إليها عنصر عقلي واهن).

وعليه فالأستاذ متولي هو الذي يخلط خلطاً صريحاً بين (الرمزية الفنية) وبين (رمزية ما وراء الطبيعة)، على ما في كلام (ريبو) من الوضوح!

وقد تحدث (ريبو) عن هذه (الرمزية الفنية) في غير هذا المقام، وذلك عند معالجته الرمزية في الأدب، أو بعبارة أخرى، عند حديثه عن المخيلة الخاصة بطريقة الأدباء الرمزيين في أواخر القرن التاسع عشر، وهي مخيلة تقوم على قوة العاطفة والانفعال.

وثمة تعسف آخر: يقول الأستاذ متولي، مستنداً إلى (ريبو) أيضاً: (إن الرمز في الفن هو أن يفقد بعض الألفاظ استعماله المعقول المعروف ليدل على معنى جديد)، وعلى ذلك فمتولي يخطئ بشر فارس إذ يقول في مقدمة مسرحيته: إن الرمز الذي بنيت عليه المسرحية (بعيد أن يكون لوناً من التشبيه أو الكناية إلى غير ذلك من ضروب المجاز بل هو صورة، أو قل سرب صور ينتزعها المنشئ من المبذول).

ونحن لا نعرف وجهاً لهذه التخطئة إلا أن يكون كلام بشر خارجاً عما يفهمه متولي من الرمزية، ويؤسفنا أن نذكر متولي بحقيقة كان يجب ألا تغيب عن ذهنه، وهي أن بشر فارس حر في أن ينحو النحو الذي يوافق هوى نفسه من ألوان الرمزية المستحدثة، وأن يعرض عن (ريبو). ويؤسفنا أيضاً أن نقول لمتولي، إن الرمز عند (ريبو) - وذلك في حدود الجملة السابقة لا يخرج عن (المجاز)، إذ المجاز عندنا (هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة)، ومن ذلك ما يعرف في باب (الكناية) بالرمز، وهو الكناية التي قلت الوسائط فيها وخفيت.

وغريب ألا يفطن متولي إلى هذا، لا سيما بعد أن نبه بشر فارس إلى ابتعاد طريقته عن مثل هذا الرمز، فأورد في (مقدمته): (إن مسرحيته مجراة على الطريقة الرمزية إذا شئت)، ثم وضع بشر بعد ذلك فصلاً في هذه المجلة شرح فيه لم قال (إذا شئت)، فدلَّ على أن الرمزية التي أنساق إليها وارتاح، هي شيء بين (التأثرية) و (التعبيرية)، وقوامها الحياة الباطنة، واعتمادها الاضطراب الدفين!. . .

من هذه المآخذ المتعسفة في نقد مقدمة المسرحية، انساب الأستاذ بقلمه إلى المسرحية نفسها متسائلاً (ما قيمتها كقطعة رمزية؟) وسرعان ما أفتى بعد ذلك، وبلسان (ريبو)، فقال (إن ريبو فيلسوفنا نفسه يقرر أن الرمزية تستخف بتمثيل العالم الخارجي تمثيلاً صادقاً. . . فإذا الناس والأشياء لا تنطبع بزمان أو مكان. . . وقد تمعن في الإبهام فتقول هو - أو - هي - أو - أحدهم)، فهل هذا مستوفي في مسرحية بشر فارس بعد أن أسمى بطلة مسرحيته (سميرة)، وبعد أن حدد المكان الذي جرت فيه حوادث المسرحية وهو مصر؟

وجوابنا على هذا:

1 - أن (ريبو) قال (وقد تمعن)، و (قد) هنا للتقليل، وكان أن رجعنا بدورنا إلى النص الفرنسي فوجدنا أن (قد) هذه تساوي كلمة أي أن الإمعان في الإبهام ليس أمراً لازماً.

2 - لو أحسن الأستاذ متولي استيعاب التبيين الذي عمله بشر عن شخوص مسرحيته في النسخة المطبوعة لأحجم عن هذا المأخذ؛ فقد جاء في ذلك التبيين أن (هو) - أي بطل المسرحية - عنوان الإنسان العادي المنشأ في حلقة المواضعات الاجتماعية) أما (سميرة)، فقد بيّن المؤلف في نفس التبيين أنها امرأة معينة، فمن المعقول أن يكون البطل (هو) لأنه عنوان لفئة غالبة من الرجال في مصر، وأن تكون (سميرة) - سميرة - لا (هي)، لأنها ليست عنواناً لفئة خاصة.

3 - أن الأستاذ متولي أشكل عليه المر بين لون الرمزية عند (ريبو) وبين لونها عند بشر فارس، وأنه يعتبر رمزية (ريبو) هي ما انتهت إليه الرمزية المستحدثة، والأمر غير ذلك، فإن (ريبو) لم يفرض لونه في الرمزية إلا على بعض الكتاب الرمزيين في أواخر القرن الماضي، وفي مقدمتهم المؤلف المسرحي (ماتيرنيك) الذي وضع أكثر رواياته قبل عام 1900، فهل يريد الأستاذ متولي، وقد قطعت الرمزية مراحل بعد (ريبو) ألا

يؤلف المعاصرون الذين يعيشون في عام 1940 إلا بحسب نظرية عمرها نصف قرن تقريباً؟
بعد هذا نقول إنه ليس للأستاذ متولي أن يفرض على مؤلف معاصر وضع مسرحية رمزية وفاقاً لمحرجات نظرية فلسفية سجلت عام 1900، وهو العهد الذي كان الأدب الرمزي فيه لم يتخط طوره الأول. وإنه لا يجمل بالأستاذ متولي - وهو ماجستير في الفلسفة - أن يقف علمه بالرمزية وعلم النفس عندما كتبه العلماء في القرن الماضي، فالعلم يتقدم، والنظريات تتحور، وإلا فما قيمة ما كتبه (بيرجسون) و (وليم جيمس)، وهما العلمان البارزان في عالم الفلسفة المعاصرة، وما نفع مسايرة الأدب للعلم في تقدمه وفي مستحدثاته؟
زكي طليمات
قداسة النقد
لبرناردشو
لا يمكن للحضارة أن تتقدم بلا نقد، ولذلك يجب أن تنقذ نفسها من الركود والتعفن بأن تعلن براءة النقد، ولكن هذه البراءة لا تكون للآراء الطريفة اللذيذة، أو الحكيمة المحترمة فقط، بل أيضاً للآراء التي تصدم من لم يألفوا النقد وتبدو لهم كأنها داعرة أو ثورية أو تدعو إلى الزندقة والكفر؛ ولمن يدافع عن إبليس في حق البقاء إذ لعله يكون بشيراً للمستقبل، وهناك صعوبة في التمييز بين الناقد والمعتوه والمجرم، وكذلك بين حرية القول وحرية العمل. فقد يكون من الضرورات الحيوية اللازمة للأمة أن تجيز لأحد الأشخاص الدفاع عن العرى، ولكن قد لا يكون من الصواب أن تترك هذا الشخص يسير وهو عريان في شارع كبير في لندن. وكذلك الحال في كارل ماركس، فإنه كان مقدساً حين كان يكتب ويؤلف في الاشتراكية في قاعة المتحف البريطاني. ولكن لو أن كارل ماركس هذا رفض أن يؤدي أجرة منزله لصاحبه، وأرسلها بدلاً من ذلك إلى وزير المالية، وقتل وكلاء المالك الذين جاءوا لتحصيل الأجرة، أو أطلق الرصاص على المحضرين الذين جاءوا لتوقيع الحجز على أثاثه أو إخراجه من المنزل، لما استطاع أن يدفع عن نفسه حكم الإعدام بالشنق بدعوى حرية النقد. ومعنى هذا أنه لا يمكن للقاضي أن يأذن للناقد بالعمل وفق نقده إلا إذا غير القانون. ونحن ناقصون في التربية المدنية نقصاً خطراً حتى أن كثيراً منا يحسبون أن لهم الحق المطلق في تغيير أخلاق الأمة لمجرد أنهم هم غيروا آرائهم. ومن الناس من لا يفهمون غير المعنى الغامض للاشتراكية ويعتقدون أنها تعني حالاً من الاجتماع ينزل فيه كل إنسان عن كل ما يملك لكل إنسان آخر. ويسألونني من وقت لآخر لماذا أنزل عن ممتلكاتي وأعيش في فقر ما دمت اشتراكياً؟ ومن الناس من يتخيلون أن الاشتراكيين يجب ألاّ يقتنوا السيارات. وقد أوشك بعض هؤلاء أن ينجحوا في أن يجعلوا اقتناء رئيس الوزارة لسيارة خاصة من المسائل العامة التي تستدعي البحث والمناقشة، وذلك حين كان المستر مكدونالد اشتراكياً. ولو أن هؤلاء المعتوهون أدركوا حق الإدراك ما يقولونه لعرفوا أنهم مخطئون حين يفرضون أن الناقد الذي يكره النظام القائم يمكنه أو يجب عليه أن يعيش كما لو كان يعيش في طوباه، أي في النظام الخيالي الذي يتخيله. وذلك أن كل ما
يمكنه أن يحسب شاذاً في بعض سلوكه الذي تتسامح فيه الهيئة الاجتماعية.
أسكندر البطوسي
الليل. . .
(. . .مهداة إلى الأستاذ الزيات)
للأستاذ أنور العطار
هَذَا هُوَ اللَّيْلُ الدَّجِيُّ الإطارْ ... قد أحْتَوَى الشَّمْسَ وَضَمَّ النَّهَارْ
أَلْقَي وِشَاحاً حافِلاً بالرُّؤَى ... عَلَيْهِ مِنْ سِحْرِ الدَّرَارِي نِثَارْ
طَفَتْ عَلَيْهِ صُوَرٌ حُلْوَةٌ ... مَنْسُوجَةٌ مِنْ أَلَقٍ وَافتِرَارْ
تَلألأتْ أَنْجُمُهُ بالسَّنَا ... وَرُصِّعَتْ أَفْلاَكُهُ بالنُّضَارْ
وَهَبَّ مَلْكُ اللَّيْلِ يُغْرِي الرُّبا ... وَيَفْتِنُ النَّهْرَ وَيُصْبِي الدِّيارْ
وَرَوْرَقُ الأَحْلاَمِ في رَهْوِهِ ... حَامَ عَلَى عَذْبِ مُنَاهُ وَدَارْ
تَحْمِلَهُ المَوْجَةُ ثَرْثَارَةً ... مُنْشِدَةً في صُعُدٍ وَانْحِدَارْ

والشَّطُّ مَغْمُورٌ بِأَصْدَائها ... مَشَى عَلَيْهِ خَشْيَةٌ وَانكِسَارْ
والنَّخْلُ مَفْتُونٌ بِلَحْنِ الهَوَى ... مَاجَ بِه الشَّوْقُ طَويلاً وَمَارْ
يُصْغِي إلى الأَنْغَامِ عُلْوِيَّةً ... وَمَا غِنَاءُ الحُبِّ إلاّ ابْتِكَارْ
تَوَهَّجَتْ فَحْمَةُ هَذا الدُّجى ... فَشَاعَ في الآفاقِ مِنها شَرَارْ
يا حُسْنَهُ مِنْ عَالَمٍ سَاحِر ... يكْتَتِمُ النَّجْوى وَيُخْفِي السِّرَارْ
باحَ لهُ الْقَلْبُ بِأَشْجَانِهِ ... وَمَا يُعَانِي مِنْ رَسِيسِ الأَوَارْ
والمُقْلَةُ الْحَمْرَاءُ مِنْ سُهْدِهَا ... نَاجَتْهُ لَهْفَي بدُمُوعٍ غِزَارْ
الأَمَلُ الرَّفّافُ عَنها انْطَوَى ... وَبُلْبُلُ الحُبِّ تَغَنَّى وَطَارْ
السَّامِرُ انْفَضَّ بِألاّفِهِ ... وَغَابَ فِي حُلْمٍ شَهِيِّ القَرَارْ
وَالرَّكْبُ أَغْفَى بعد طُولِ السُّرَى ... وَلَم يَعُدْ يُلْمَحُ فِي الأَرْضِ سَارْ
وَنَامَتِ الأَدْوُرُ حتى الكوَى ... جَلّلَهَا النَّوْمُ بِضَافِي الدِّثَارْ
يا هَاجِري لَم تَكْتَحِلْ مُقْلَتِي ... بالْغُمْضِ مُذْ غِبْتَ وَشَطَّ الْمَزَارْ
القَلْبُ مِنْ بَعْدِكَ مِلْكَ الْجَوى ... مُعَذَّبٌ مُخْتَطَفٌ مُسْتَطَارْ
حَذِرْتُ أَنْ تُرْمَي بِسَهْمِ النَّوَى ... فلم يُفِدْ إلاّ الرَّزَايا الْحِذَارْ
وَحَظُّنا العَاثِرُ أَوْدَى بنا ... وَمَا يُرَجَّى أَنْ يُقَالَ العِثَارْ
هَلْ غَشِيَتْنَا عَادِيَاتُ الرَّدَي ... أَمْ هَلْ بَغَي الدَّهْرُ عَلَيْنَا وَجَارْ
أَظَلُّ حَيْرَانَ أُنَاجِي الْمُنَى ... كأَنَّني فِي غَمَرَاتِ الْعُقَارْ
أَذَّكِرُ الْعَهْدَ فَأَبكي أَسىً ... وَمَا حَيَاةُ الْقَلْبِ إلاّ أَذِّكَارْ
اللَّيْلُ ذُو الأَنجُمِ أَفْنَيْتُهُ ... مِنْ شِقْوَتِي فِي رِقْبَةٍ وَانْتِظَارْ
وَالسَّهْدُ أَضْنَاني وَلَوْلاَ الْهَوَى ... مَابتُّ نَهْبَ الشَّجْوِ رَهْنَ السِبَارْ
أَقْتَاتُ بالوَهْمِ الذي مَضَّنِي ... وَلَم يَدَعْ لِلرُّوحِ إلاّ الْبَوَارْ
يا هاجِري أَوْسَعْتَنِي حَسْرَةً ... قَلِبي مُعَنًّى وَالْجَوَى مُسْتَثَارْ
أَعِيشُ لِلْبَلْوَى وَمُرِّ الضَّنَى ... فِي نَاظِرِي جَمْرٌ وَفِي الصَّدْرِ نَارْ
يَشُوقِني الْحُبُّ وَأَوْجَاعُهُ ... وَمَا جَوَى مِنْ قَلَقٍ أَوْ إِسَارْ
وَانتَشِى مِنْ ذِكْرَيَاتِ الهوَى ... كأنما تِلكَ الأَمَاني خُمَارْ
يا هاجِري لَم تَرْعَ عَهْدَ الهوَى ... أَسْرفْتَ فِي الصَّدِّ وَزِدْتَ النِّفَارْ
أَفِقْ تَجِدْني سَاهِماً سَاهِداً ... ليْسَ لِهذى الروح عَنْكَ اصْطِبَارْ
وَتَلْمِسِ الشَّوْقَ الذي شَفَّنِي ... مُحْتَدِماً فِي لَهَبٍ وَاسْتِعَارْ
أَوْجَعَ قَلبِي وَأَثَارَ الْجَوَى ... وَهَاجَ مِنِّي الْحَسَرَاتِ الحِرَارْ
الأُفْقُ مَحْجُوبٌ بِسُحْبِ الدُّجَى ... وَالْكَوْنُ مَسْدُولٌ عَلَيْهِ سِتَارْ
عيناك. . .
للأستاذ خليل شبوب
أَسْكَرَتْنِي عَيْنَاكِ إذ سَقَتَانِي ... خَمْرَةَ اللّحْظِ أَيْنَ مِنها الْخُمَيَّا
نَبَتَتْ في عَيْنَيَّ عَيْنَاكِ حَتَّى ... أَصْبَحَ اللّحْظُ مِنهمُا لِي رَئِيَّا
وَهُما زَهْرَتَا حَيَاتي وَنَجْما ... عُمُري والْهَوَى مَلِيّاً مَلِيّا
وَهُما لِي مِرْآةُ عَيْنَيَّ يَبْدُو ... فِيهما لِي مَرْأَي الحياةِ جَلِيّا
أَيْنَما سِرْتُ قابَلَتْنِيَ عَيْنَاكِ ... هُدىً لي واسْتَهْوَتَا عَيْنَيَّا
فِي غُدُوِّى وفي رَوَاحِي وفي اليَقْ - ظَةِ وَالحُلْمِ إنْ أَنَا نِمْتُ شَيَّا
وَإِذَا ما قرَأْتُ طَالَعَتَاني ... في كِتَابي وَاسْتَعْصَتَاهُ عَلَيّا
وَإذا ما شَرِبْتُ كأْسِي أَرَى في الكأْ - سِ عَيْنَيْكِ تَنْظُرَانِ إلَيَّا
إلى النشيد الهارب!
مهداة إلى الأخ الحبيب الشاعر النابغة الأستاذ (صالح جودت))
(عجل الله بشفائه ورده إلينا معافى سالماً
للأستاذ مختار الوكيل
أين أزمعتَ هارباً يا نشيدي؟ ... كيف خلّفتني رهين قيودي
كيف راودتني بحلمٍ سعيد؟ ... ثم أَرَّقتَني بهَمٍّ شديد؟
كنتَ مَنّيْتَنِي بِعُشٍّ فريدٍ ... مشمسٍ باسمٍ نضير الورود!
أتغَنَّى فيه بلحن الخلودِ ... فتطيبُ الحياةُ بالتغريد!
أين ما كان بيننا يا نشيدي ... من عهودٍ مرعيةٍ ووعود؟

من وفاقٍ وصحبةٍ ووفاءٍ ... وصفاءِ مُتَزِّهٍ ممدود؟
كنتَ علّمتني صراع الليالي ... كنت زوَّدتني بقلبٍ جديد
كنتَ أعليتني على النجمِ غرِّي ... داً، وألهمتني قصيدَ الخلود!
كنت أسْلَمْتَنِي قلوبَ الغواني ... كنت أمتعتني بكل فريد!
كيف خلّفتني رهينَ ظلامي؟ ... كيف بالله خنتني يا نشيدي؟
آدميّاً أصبحتُ أمشي ثقيلاً ... في قيودٍ خليقةٍ بالعبيد
سادراً، أخرسَ الشفاه، حزيناً ... غارقاً في كآبتي وشرودي!
تملأ البسمةُ الشقيَّةُ وجهي ... وينمُّ الذبول عن تسهيدي!
عُدْ كما كنتَ مُلْهِمِي يا نشيدي ... لا تَدَعْنِي مُكَبَّلاً بقيودي!
عُدْ فما أرْتَجِي سِوَاكَ صَديقاً ... ومُعِيناً على الحظوظ السُّودِ!
عُدْ تَعُدْ لي الحياة بعد أفولٍ ... وأغنِّ الأنام لحنَ الخلود!
إلى الملاح التائه
(مهداة إلى الأستاذ علي محمود طه)
للسيد أحمد عبد الجبار
أيها التائه في بحر الحياه ... تضرب المجداف يمنى ويسارْ
خذ بأيدينا إلى شط النجاه ... واشدنا لحن كنار وهزار
أترك القارب بين اللج يطفو ... وإدر حيزومه نحو النجوم
عله يترك هذا البحر يغفو ... وَيِعُدَّ السير في بحرِ الغيوم
طف بنا فوق البراري نتملى ... حسن هذا الكون من برج السماء
واشدد الأوتار كيما نتولى ... ساحة الأحلام في صحن الفضاء
خلّ لي التجذيف واشرع بالغناء ... واسكب الألحان في صدر النسم
علها تحمل عنا ذا العناء ... وتذيب العطر في ثغر النعم
أيها الملاح ما هذى الدُّنا ... حل في أرجائها سم الظلامْ
ململت فيها تراتيل السنا ... وطغت فيها أحابيل الحرام
دع شراع الفلك يحمينا الخنا ... واترك المزهر في أيدي القصيد
فجميل الشعر دارات الهنا ... ينعش السكري ويحي من جديد
سر بنا يا فلك نحو المستحيل ... وامش يا قارب صوب اللانهاية
فسكون الليل براق جميل ... وعيون الله تومى بالهداية
يا لطير الليل ما هذا الهزيج ... يا لقلب النجم ما هذا القلق
كل ما في الكون يسري في ضجيج ... وضجيج الروح أحلى وأرق
آهة الأقدار في كاس هوانا ... ونعيم الخلد في بحر الغيوم
غنانا يا خل واطرب من غنانا ... واشرب الراح على رقص النجوم
هاهو الشاطئ قد طل علينا ... وبدا وجه الروابي والفنار
واقفٌ جبريل مشتاق إلينا ... وعلى أيكتنا رضوان حار
هذه الحور بأثواب الحبور ... شفها الوجد وأضناها الغرام
قادمات نحونا تبدي السرور ... فاغضض الطرف وبادر بالسلام
هاهنا جنتنا فارح الشراعْ ... واطوِ هذا القلع فوق الساريه
ودّع البحر فقد آن الوداع ... وابق يا ملاح رب القافيه. . .
رسالة الفن
تأملات:
بين الكواليس. . .
للأستاذ عزيز أحمد فهمي
بدءوا يستعدون للموسم التمثيلي الجديد، وسيكون موسماً بإذن الله، وستكون بدايته حافلة ببعض الروائع التي طال اشتياقنا إلى أمثالها. فأم كلثوم تعرض في هذا الأسبوع (دنانير)، وهي أوبريت موسيقية ساهم في تلحينها كل من: زكريا أحمد، ومحمد القصبجي، ورياض السنباطي. والفرقة القومية تعرض هذا الأسبوع أيضاً (يوم القيامة)، وهي أوبريت كتلك، انفرد بتلحينها زكريا أحمد، ووضع أزجالها بيرم التونسي، وأخرجها عمر جميعي. وملك تعرض هي أيضاً في هذا الأسبوع مسرحية بدوية زجلية لبيرم التونسي، لحنت هي أغانيها وأناشيدها. ونجيب الريحاني مشغول في هذه الأيام بإعداد

روايته الجديدة التي يظن أنه سيستطيع أن يفرغ منها في هذه الأيام ليبدأ العمل بها في رمضان، والتي أظن أنا أنها ستتعطل بين يديه قليلاً أو كثيراً حتى يتم له إخراجها على النحو الذي يرضيه هو تدقيقاً وتنميقاً. ويوسف وهبي قد أعلن عن المسرح الجديد الذي سيحتله هذا العام، وإن لم يكن قد أعلن عن روايته الجديدة؛ ولكن يوسف مضمون من حيث محافظته على المواعيد، فهو يستطيع أن يؤلف رواية في يوم وأن يخرجها في يوم، وأن يطالع بها الجمهور في اليوم الثالث، وهو واثق من أن الجمهور سيرضى بها وسيرضى عنه. . .

وقد خطر لي أن أقوم في هذا الأسبوع بجولة (بين الكواليس)، لأرى كيف يهيئ هؤلاء الفنانون عملهم، فرأيت، وكما رأيت تذكرت حوادث قد يلذ للقراء أن يطالعوها:

اضربني يا علام. . .

كان على الأستاذ جورج أبيض أن ينطلق إلى المسرح ساخطاً هائجاً في موقف من مواقف (عطيل) أو (لويس) لا أذكر. . . وراح الأستاذ جورج يهيج نفسه ويثير فيها ألواناً من الغضب الصناعي يستعين به على الاندماج في الدور، ولكن نفسه كانت في هذه الساعة مملوءة حلماً ووداعة، فلم تتح له شيئاً من الهياج والغضب اللذين كان يطلبهما. . . فحزن،

وتبادر اليأس إلى نفسه، وتراخت أعصابه، وكاد يتسرب من المسرح ويدع الجمهور ويهرب، لأنه كره أن يخرج إلى الناس بارداً في موقف يجب أن يكون فيه كالإعصار أو أشد ثورة. . . وبينا هو في هذا اليأس المعتم أبصر بالأستاذ أحمد علام يتبختر بين الأستار منتظراً أن يحين موقفه وأن يناديه مدير المسرح. . .

فأسرع الأستاذ جورج إلى الأستاذ علام وقال له بهذه الطفولة الضخمة المتجسدة فيه:

- هيجني يا علام. . . أغضبني!

- العفو يا أستاذ!

- لا عفو، ولا يحزنون، أريد أن أغضب وأن أثور. . . اضربني. . .

- لا يصح يا أستاذ. . .

- أرجوك يا علام. . .

- ولكن كيف أضربك يا أستاذ. . .

- هكذا. . .

وهوى الأستاذ جورج بكفه على وجه الأستاذ علام بضربة كاد علام يفقد فيها أضراسه وأسنانه، وكانت هذه الضربة مفتاح الغضب الذي نشده جورج، فهاجت عندها أعصابه، وكانت دخلته إلى المسرح أزفت، فناداه مدير المسرح فدخل، ورآه الجمهور هائجاً مائجاً ساخطاً كما يجب أن يكون السخط والغضب فرضي عنه. . .

ولكنهم لم يروا علاماً الصريع الذي كان يتلوى بين الكواليس من الوجع والألم. . .

يا حبيبتي يا بنتي

وكان على الأستاذ عزيز عيد أن يخرج على الناس باكياً في مشهد من رواية لا أذكرها هي أيضاً. . . والأستاذ عزيز في طبعه صبر متأصل، ورضى متمكن؛ ورجل هذا شأنه، لا يستطيع أن يبكي بسهولة. ولذلك، فأنه حاول البكاء قبيل مثوله بين أيدي الناس، فلم تجبه من عينيه دمعة واحدة

فماذا صنع؟

رأى ابنته عزيزة الصغيرة تلعب مع الممثلين والممثلات، وتطفر في أرجاء المسرح من هنا إلى هناك، فجاءته فكرة عجيبة. . .

نادى ابنته. . . ونادى اثنين من عمال المسرح، وطلب منهما أن يسرعا فيحضرا له نعشاً كانوا يستعملونه في إحدى الروايات، فأحضر العاملان النعش، وطلب عزيز من ابنته أن تنام فيه، وأن تغمض عينيها وقال لها:

موتي قليلاً يا ماما . . .

وابنته، أبوها هو، وأمها فاطمة رشدي، فالتمثيل يجري في دمها وأعصابها. . . نامت في النعش، وتماوتت، بل إنها استطاعت أن تكتم أنفاسها وأن تبعث إلى وجهها صفرة وبرودة، وأخذ عزيز ينظر إليها وهو يقول لها:

- يا حبيبتي يا بنتي. . . الله يرحمك يا بنتي. . . أنا مسكين بعدك يا زوزو. . .

انطلق لسانه بهذا، فسمعته أذناه، فصدقه عقله، فأحسه قلبه، فذرفت الدموع له . . .

. . .عيناه. . . بكى، ولم يكن يريد إلا أن يبكي، ودخل إلى المسرح باكياً كما أراد
الرقم القياسي
معروف عند أهل الفن أن الأستاذ نجيب الريحاني هو أشد المخرجين أتعاباً لممثليه، فهو يكثر من البروفات إكثاراً مضنياً حتى ليحفظ ممثلوه أدوارهم حفظاً عن وجه قلب لا عن ظهر قلب. فالممثل منهم بعد أن تتم بروفات الرواية يجد نفسه قد لبس في حياته الخارجية الدور الجديد الذي عهد إليه به، ويجد نفسه يحادث أهله وأصدقاءه في البيت والشارع بالجمل والعبارات التي تضمنها دوره. . .
هذا هو المعروف عند أهل الفن، ولكن الأستاذ عمر جميعي قد وصل إلى رقم قياسي عال جداً في اهتمامه ببروفات (يوم القيامة) فقد حمل ممثليها من أفراد الفرقة القومية على أن يقوموا بها أكثر من ثلاثمائة مرة بدون مبالغة، وليس ذلك لعجز فيه ولا ضعف، فقد شهد كثير من الفنانين الذين يعتد برأيهم وعلى رأسهم الأستاذ منسي فهمي بأن كل الروايات التي أخرجها الأستاذ عمر للفرقة القومية كانت أكثر روايات الفرقة القومية نجاحاً وتوفيقاً. . . وإنما يفعل عمر ذلك (بيوم القيامة) لأنها فتح جديد في عمل الفرقة القومية، فهي الأوبريت الأولى التي تقدمها الفرقة للجمهور، وقد أنفقت الفرقة على إعدادها أكثر مما أنفقت على أي رواية أخرى، وهو يشعر بخطورة هذه الأمانة الملقاة على عاتقه، وهو لذلك يريد ألا تخرج هذه الرواية من بين يديه إلا على أكمل وجه يستطيع تحقيقه. . .
ولا ريب أن الله سيكافئه على أمانته وجده هذين.
أبو العلاء المعري
أعلن الأستاذ علي الكسار يوماً عن رواية البخيل لموليير، وذكر في الإعلانات أنه ترجمها إلى العربية بنفسه، والأستاذ علي الكسار ممثل موهوب من غير شك وإن كان التعليم ينقصه، فقد فاته حتى أن يلم بالقراءة والكتابة، وهذا شيء لا يحط من موهبته الفنية.
فسأله سائل: كيف جرؤت يا أستاذ (علي) على أن تدعي أنك مترجم (البخيل) مع أن الناس يعلمون أنك لا تقرأ ولا تكتب؟
فأجابه الأستاذ الكسار مسرعاً: وهل كان أبو العلاء المعري يقرأ وهل كان يكتب؟
وكان جواباً مسكتاً من غير شك.
رهان
يسبق إحساس الأستاذ يوسف وهبي عقله ولسانه وهو على المسرح أحياناً، وفي هذه الأحيان لا يرضى الأستاذ يوسف وهبي بأن يتريث وأن يتثاقل بإحساسه حتى يواتيه عقله ويواتيه لسانه بالألفاظ العربية التي يجب أن ينطق بها حتى يفهم الجمهور ماذا يريد أن يقول، وإنما يترك الأستاذ يوسف في هذه الأحيان نفسه ويدع لسانه ينطلق بأي ألفاظ مفيدة كانت أو غير مفيدة، عربية كانت أو غير عربية، ويكتفي الأستاذ يوسف في هذه المواقف بأن يعبر بصوته المنغم وإشارته المحكمة عما يريد أن ينقله من نفسه إلى الجمهور على شرط أن يختم هذه الانطلاقة بكلمة واحدة أو كلمتين فيهما تلخيص أو تركيز للمعنى الذي يريد أن يعبر عنه. . . فإذا كان في حالة سخط مثلاً، وحدث له هذا الذي يحدث له من مس الجن أو مما لا أدري، قال مثلاً: (أنت يا من جهنم والحديد شرر من أبالسة النار ينهار فوق رؤوس الشياطين حمم ونار وكبريت) يقول هذا، أو يقول ما يشبهه، والجمهور مأخوذ به، قد استولت عليه الكهرباء المنبعثة من أعصاب يوسف الذي يحرق نفسه على المسرح؛ فلا يستطيع الجمهور إلا أن يقبل هذا الكلام على أنه معقول ومفهوم، وعلى أن معناه متصل بالمتميز من ألفاظه، وألفاظه المدركة المتميزة هي: نار، وجهنم، وأبالسة، وشياطين وحمم وكبريت. . .
والجمهور لا يعنى في مثل هذه الحال بتحديد المعنى على وجه الدقة، وإنما هو يرضى بعموم المعنى وعموم الحال. . .
وقد حدث أن زار الأستاذان بديع خيري وزكريا أحمد الأستاذ يوسف وهبي في مسرحه يوماً، ودار بينهم الحديث عن هذه المسألة واتهم الأستاذ بديع خيري الأستاذ يوسف وهبي بأنه (يهوش) الجمهور بها. . . فقال له يوسف:
- إنني لا أهوش. . . وهاأنت ذا تعرف أنني أفعل هذا، ولست أطلب منك إلا أن تنزل إلى القاعة، وأن تشاهدني الليلة وأنا أمثل، وهاأنذا أحيطك علماً منذ الآن بأني سأختم

الفصل الأول بشيء من هذا، وكل ما أرجوه منك هو أنك تصدقني القول بعده، وأن تقول لي اهتزت لي نفسك أو لم تهتز، وهل صفقت لي أنت وصاحبك زكريا هذا أو لم تصفقا. . . وأطلب قبل ذلك من الله أن يسهل لي الانطلاق الذي أريده. . .وتراهنوا
ونزل بديع وزكريا إلى القاعة، وتابعا يوسف وهو يمثل، ولم يشعرا بنفسيهما إلا والستار يسدل عن الفصل الأول وهما يصفقان مع المصفقين ليوسف.
ولم يدرك أحدهما أن يوسف فعل فعلته إلا بعد نزول الستار، عندئذ ضحكا حتى كادا يختنقان من الضحك، ويقول الأستاذ زكريا أحمد إن الأستاذ بديع خيري صعد بعدها إلى حجرة يوسف وقال له:
- إنني آمنت بك. . .
أما أنا فأعوذ بالله من يوسف وهبي فهو جن وإن كان من المسلمين . . .
عزيز أحمد فهمي
البريد الأدبي
الكرم الجارمي
للأستاذ علي الجارم بك شُهرة عريضة بالكرم والجود، وهذه الشهرة هي التي قضتْ بأن تَكِل إليه وزارة المعارف تحقيق كتاب (البخلاء) فما كان يمكن الوصول إلى أسرار ذلك الكتاب إلا إذا اضطلع بتحقيقه رجلٌ خبير بمعاني العرب في العطاء والمنع، والسخاء والشُّح، وبضدها تتميز الأشياء.
والكرم المأثور عن الجارم هو السبب فيما يقع من تغاضيَّ عن السؤال عنه حين يصطاف بالإسكندرية، فقد كنت أكتفي في تحيته بالسلام على الجدران فراراً من التعرض لكرمه العجاج، وهو كرمٌ قد يطغى فيتلف أمعاء المواهب، وأنا أزهد الناس في هذا الصنف من الجود!
واخطأ من قال إني كنت أتقرب إلى الجارم بترك السلام عليه، وهو قول يُقبل لمعنىً واحد هو توشيته بالبراعة والذكاء ماذا أريد أن أقول؟
أنا أمشي على الشوك في سبيل الوصول إلى عرض القصة الآتية:
منذ آماد طوال دخل الأستاذ سامي عاشور مكتب تفتيش اللغة العربية بوجه مشرق بسام وهو يقول: مبارك يا جارم بك! مبارك يا جارم بك!
فتهلّل وجه الجارم وقال:
- خير، خير!!
- خير جزيل، ولكن هات (الحلاوة)
- يا حلاوة عليك يا سامي بك يا حبيبي يا نور عيني، هات ما عندك هات!
- سيصدر قرار وزير المعارف بعد ثلاثة أيام بترقيتك إلى الدرجة الثانية.
- الدرجة الثانية؟ الله يبشرك بالخير، ما يجيء من الجميل إلا الجميل.
وبعد تروّ لم يطل أكثر من عشر دقائق توكل الجارم على الله وأعلن أن الحلاوة هي وليمة فيها (صيّادية) مطبوخة على أسلوب أهل رشيد!
ثم توكل على الله مرة ثانية وقال: وسيكون معنا الدكتور مبارك ليعرف البيت وليحدِّث (أميرة) عن سميّتها في بغداد.
فالتفت إليّ الأستاذ سامي عاشور وقال: ما رأيك؟
فقلت: أفلح إن صدق!
فقال الجارم: سأصدُق لأكفّ شرَّك عني!
ومرّ يوم وأيام وأسبوع وأسابيع وشهر وشهور، ولم يف الجارم بما وعد، وطال التسويف حتى نسيتُ، وهل كنت أصدِّق أن الجارم يسره أن يعرف أحد أين يقيم؟
ولكن الأيام تصنع الأعاجيب، فقد لقيت الأستاذ سامي عاشور ونحن نراقب الامتحانات في إحدى المدارس، وبلغ مني العجب كل مبلغ حين رأيته لا يزال يذكر (حكاية الوليمة الجارمية)!
- ماذا نصنع في قهر الجارم على الوفاء بالوعد؟
- لا أعرف ماذا نصنع!
- نخوّفه بالشعر

- ولكني لا أجيد الهجاء
- وكيف تكون شاعراً إذا كان (الكرم الجارمي) لا يوحي إليك معاني الهجاء؟
وخِفتُ أن يقال: إني لا أجيد الشعر إلا في باب واحد هو النسيب، فصخختُ الجارم بهذه الأبيات:

وما بالجارم الصَّاج بُخلٌ ... بزادٍ من طعامٍ أو شرابِ
ولكنْ المكارم أتعبتْهُ ... قفزَّ من السخاء إلى الدَّعاب
فإن يُطعمِك في (نيسان) يوماً ... بوعدٍ مثل رَقراق السَّرابِ
فصدِّقه ولكنْ لا تؤمِّل ... نداه ولو صبرتَ لشهر (آب)
فليس بمُنجزٍ في الجود وعداً ... ولو طاردته يومَ الحساب

ثم مضيتُ فأمليتُ هذه الأبيات على جماعةٍ من الموظفين والمدرسين، وترفَّق الأستاذ سامي عاشور فأنفذها إلى الجارم بك على يد رسول بارع في إصلاح ذات البَيْن!
ثم ماذا؟ ثم هرب الجارم إلى رشيد، وهو يزعم أن الإقامة في القاهرة أصبحت لا تطاق
بسبب (الغارات الشِّعرية)!
ولكن الجارم سيرجع، وقد رجع بالفعل، فما عسى أن نصنع لنروضه على الوفاء بالوعد.
يرى الأستاذ محمود العزَب أن نشر هذه الأبيات في الأهرام بعد نشرها في الرسالة قد ينفع بعض النفع في إثارة النخوة الجارمية وإلا فسيدعو الأدباء إلى اكتتابٍ يعين الجارم على إعداد الصيادية الرشيدية.
أما أنا فأعرف أن الجارم سينكر القصة بحذافيرها، وسيقول: إنها (سمكة رمضان)، لا (سمكة نيسان)؛ وهل تجتمع أهوال الحرب وأهوال الوليمة على رجل في مثل رقة الجارم الصّاج؟

زكي مبارك

حول كلمة (تبان)

جاء في عدد (الثقافة) رقم 880 في مقال للدكتور بشر فارس عنوانه (الزاد المهمل) ما نصه: (أخذت معي لباس استحمام أحمر وقميصاً أصفر وتُبّاناً أزرق ثم سلكت في مطاويها ثلاثة كتب). ثم علق على كلمة تبان في الحاشية بقوله: (أعرض لفظة التبان للتعبير بها عن كلمة ويفهم من كلام الدكتور بشر هذا أنه أول من اختار هذه الكلمة للتعبير بها عن كلمة (شورت) غير أننا قد قرأنا في كتاب (وحي القلم) للمرحوم الرافعي ج أول ص200 ما نصه: (وهانحن أولاء قد انتهينا إلى زمن العرى وأصبحنا نجد لفيفاً من الأوربيين المتعلمين رجالهم ونسائهم إذا رأوا في جزيرتهم أو محلتهم أو ناديهم رجلاً يلبس في حقويه تُبّاناً قصيراً كأنه ورق الشجر على موضعه ذاك من آدم وحواء - إذا رأوا هذا المتعفف بخرقه أنكروا عليه وتساءلوا: من. . . من هذا الراهب).
وواضح من هذا أن الدكتور بشر فارس ليس أول من تقدم بهذه الكلمة معبراً بها عن كلمة (شورت) وإنما للرافعي فضل الأسبقية.

(الأبيض - سودان)

ع. ا. سعد

إعادة الحياة إلى خلايا الجسم البشري

أذيع في نيويورك أن عالماً ألمانياً كان يقوم باختباراته في مستوصف في قرطبة، استطاع - وهو يحاول درس أنسجة خلايا جسم الإنسان ليعرف هل تموت فعلاً أو لا تموت - أن يرد الحياة إلى أنسجة خلايا جثث المصريين المحنطة منذ 5300 سنة وقد بدأ هذا العالم - واسمه الدكتور بوزي جراوتز - تجاربه من عدة سنوات، فتبين له أن الأنسجة البشرية بعد أن حفظت في الكحول منذ 38 سنة أخذت تنمو نمواً كاملاً عندما وضعت في مادة مقوية خاصة.
كذلك يقال إنه أخذت من المتحف الوطني في (لابلاتا) عينات من أنسجة 12 مومياء متوسط عمرها 5300 سنة، وأن هذه الأنسجة وضعت في مواد مقوية فأخذت الحياة تدب في ذلك اللحم البشري.
ويقال أخيراً إن آلة تكبير الصور قد سجلت حركة دبيب الحياة في الخلايا، وأن هذا العالم يقول: إنه حينما يموت الإنسان لا يحدث له سوى انحطاط في الخلايا يبلغ حالة

السبات، ولكن هذه الخلايا تكون مستعدة للعودة إلى الحياة في حالات ملائمة.
إلى الدكتور زكي مبارك
قرأت كلمتك النبيلة التي وجهتها إلي في مقالكم السابق بالرسالة الغراء: قرأتها بعني، وأدركتها بقلبي، فكأنما كانت لمشاعري نشوة ذكرى، ولخواطري انتباهاً ويقظة. . . وفهمت منها معنيين! فقد أدركت بل أدرك قلبي أن وراء هذه الألفاظ ألفاظاً أخرى من الشعور لا تقرأ بالعين ولكن يدركها القلب، رأيت فيها تحية نبيلة من أخ عزيز نبيل، وأحسها قلبي عتاباً نبيلاً!
فيا أخي العزيز الكريم. . . لئن تك قد تلفت فرأيت صديقك العزيز محمود البشبيشي، وقد أسعده الحظ بلحظات كلحظات الحلم مرت بخيال مشرّدٍ معذّب. . . فإن قلبي هو الذي تلفت وسمع ورأى! سمع أخاً وفياً، ورأى شقيقاً كريماً.
يا دكتور إن القلوب لتسمع وترى وتتلفت!
علم الله أن الذي منعني من العودة إليك تلك الليلة السعيدة هو مرض ابنتي. . . علم الله أيضاً. . . وتعلم شجرة الكافورة السعيدة (بما كساها الأستاذ الكبير الزيات من النباهة
والخلود). . . أنني عدت ثم عدت فلم أجدك.
أخي الفاضل. . . لعل من غريب المصادفات أن أحس قبل مقابلتي لك بأيام رغبة غريبة وإحساساً قوياً وميلاً جامحاً للتمتع بهديتكم الكريمة (النثر الفني). . . ترى هل كانت رغبة في الاطلاع والمعرفة بعد غفوة طالت!!؟ أم هو الشوق إليك جعلتني أتصوَّرك في أسلوبك!! وكم يتجسم الفنان البارع في أسلوبه!!. . . إنها القلوب. . . قلوب الإخوان تتلفت وتشعر وترى. . . وإنه الشعور الحي لغة القلوب!!
والسلام عليك من أخ طالت غربته عن رياض القلم. ولكن لم تزل أوتار نفسه تهتز لكل رائع من الأساليب وفاتن من القول. إنها لا تزال تهتز لأنها تعودت ذلك عن طبع وخلق.
أخوك المخلص
(المنصورة)
محمود البشبيشي
أجوبة عن أسئلة:
وجه إلينا الدكتور زكي مبارك عدة أسئلة، يطلب منا الإجابة عليها، وكان ذلك رده على كلمتنا التي نبهنا فيها على الغلطة التي وقع فيها الدكتور الفاضل؛ والذين يعرفون قوانين البحث والمناظرة يدركون خروج الدكتور عليها، في رده علينا؛ والدكتور معذور، لأنه لم يجد ما يقوله، فكان من الطبيعي أن ينتقل إلى ميدان آخر يصول فيه صولة (البازل القنعاس) وقد كنا نريد ألا نعرض لهذه الأسئلة لأنها ليست مما نحن بسبيله ولكننا خشينا أن يؤول سكوتنا تأويلاً سيئاً، فنجيب بعون الله:
أولاً: قائل هذا البيت هو الشاعر الذي يقول:
أتيت فؤادها أشكو إليه ... فلم أخلص إليه من الزحام
والذي يقول أيضاً:
وإذا أراد الله نشر فضيلة ... طويت، أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ... ما كان يعرف طيب عرف العود
ثانياً: نظر هذا الشاعر إلى قول علقمة الفحل:
فإن تسألوني بالنساء فإنني ... خبير بأدواء النساء طبيبُ
إذا شاب رأس المرء أو قل ماله ... فليس له في ودهن نصيب
والمتنبي نظر إلى أبي تمام حين قال:
إذا غدرت حسناء أوفتْ بعهدها ... ومن عهدها ألا يدوم لها عهد
وكان أبو الطيب يتوكأ على حبيب، كما كان امرؤ القيس، يتوكأ على أوس.
ثالثاً: لم يلتفت إلى ذلك ابن رشيق في باب السرقات من العمدة، ولا العسكري في الصناعتين، ولا الآمدي في الموازنة على تحامله المكشوف على أبي تمام.
رابعاً: إذا كان هذا الكتاب جديراً بالالتفات، فلم لم يترجم له الدكتور في (النثر الفني) بين من ترجم لهم من كتاب الأندلس؟ ولم لم يثبت هذه الرسالة بين النصوص الكثيرة التي أثبتها في مؤلفه، على أننا راجعنا مجلدين من نفح الطيب فلم نجد أثراً لهذه

الرسالة، فلعلها أن تكون في صبح الأعشى للقلقشندي.
خامساً: الدقيقة التي في هذا البيت هي ورود (وحدها) حالاً من الضمير في لها مع تعرفها، ولكنها تؤول بنكرة فتصير (منفردة) ومثل ذلك قول الشاعر:
فأرسلها العراك ولم يذدها ... ولم يشفق على نَغَص الدِّخال
أي أرسلها معتركة، والدقيقة البلاغية هي: فصل الشاعر بين جملة (كل غانية هند) وبين الجملة السابقة، والفصل هنا واجب لأن بين الجملتين شبه كمال الانقطاع، إذ لو وصل بينهما لتُوهِّم أن الجملة الأخيرة داخلة في ضمن الجملة التي قبلها، فتكون داخلة في ضمن المفعول الثاني لتحسبوا، وهذا غير مراد للشاعر.
سادساً: اختلفت الروايات في (تحسبوا) فرُوي أيضاً هكذا: (فلا تحسبا هنداً لها الغدر وحدها)
سابعاً: متى كان ذلك يا سيدي؟ لعله كان إذ كنت صبياً مرضعاً!
ثامناً: لعل الحلاج التفت إلى هذا البيت حين قال:
أنا من أهوى ومن أهوى أنا ... نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتني أبصرته ... وإذا أبصرته أبصرتنا
تاسعاً: وجهه: أن تعرب (لها) خبراً مقدماً و (الغدر) مبتدأ مؤخر، وتكون (سجيةَ) حالاً من المبتدأ، ويشكل على ذلك أن الحال لا تأتي من المبتدأ إلا على رأي سيبويه، ويشهد له قول طرفة:
لمية موحشاً طللُ ... يلوحُ كأنه خللُ
وهذا البيت يشهد أيضاً لصحة مجيء صاحب الحال نكرة إذا تأخر.
عاشراً: أجل يا سيدي الفاضل أعرف قائل هذا البيت فهو الذي قال:
إني أنصببت من السماء عليكمو ... حتى اختطفتك يا فرزدق من علِ
أما بعد: فلا نحب أن تشير إلى اسمنا بعبارة كريمة يا سيدي الدكتور (مع الشكر على هذه السنية الكريمة!) ولا يضيرنا أن تتجاهلنا هذا التجاهل، لأنك لست مهما عظمت إلا واحداً من الأدباء. وإليك التحية من أحد أبناء الجيل الجديد.
إبراهيم محمد نجا
القصص
جناية رجل
للأستاذ محمد سعيد العريان
أجابني صاحبي . . . :
نعم، لقد كان ذلك عملاً لا ينبغي، على أنه قد أَوْدَى بشرف امرأة، وهناءة رجل، وضَيْعِة طفل يَتِمَ في حياة أبويه، وصيّرني في عين نفسي وفي عيون الناس إلى ما ترى. . . وما أحاول أن أبرئ نفسي؛ بل إنني لأشعر أحياناً أن عليَّ وحدي إثم هذه الجناية التي لم أقترفها ولم يكن لي يدٌ فيها!
وصمت صاحبي برهة وهو يحدِّق في وجهي بعينين فيهما حيرة وارتياب؛ ثم استأنف الحديث:
بلى، وأقسم لك يا صاحبي، ولكنني كنتُ رجلاً كما تعرف؛ فلم يكن لي أملٌ في امرأة ولم يكن لامرأة حظٌّ مني؛ وأين تجد المرأة عندي ما يُغريها بي وأين أجد من نفسي؟. . . لقد كنت أعرف نفسي عرفاناً حقاً، ولم يكن يخفى عليّ ما يتحدَّث به الرجال والنساء عني، وما تتحدث به إليّ مِرآتي؛ لقد كنت وما يطيب لي أن أنظر إلى المرآة، كأني حين أنظر إلى صورتي بازائي أرى شخصاً غريباً عني بغيضاً إليّ لا أطيق أن أراه أو أنظر إلى صورته؛ وحين يتفق لي أن أرى شخصاً في وجهه بعضُ ما أعرف لنفسي من الدمامة، أزوي عنه وجهي، كأنما يذكِّرني مرآه بشخص أكره. . .!
أراك تنكر عليّ ما أقول يا صديقي، ولكن ذلك كان هو رأيي في نفسي على حقيقته؛ وقد يكون رأياً غريباً، فما أعرف فيما قرأت أو سمعت أن أحداً كان له في نفسه مثلُ رأيي في نفسي وإن بلغت دمامته الحد الذي يوشك أن يبعده من حقيقته الآدمية!
وكنت مؤمناً بأن القدر الذي تكتنفني صروفه منذ الطفولة قد هيأني لشيء غير ما . . . يتهيأ له الرجال في عالم المرأة، من الحب والزواج والأبوّة؛ كأنما كانت تلك العلة التي شوّهتْ وجهي صغيراً، وتلك الحادثة أصابتني بالعرج صبياً - تحوُّلاً في إنسانيتي، وحجازاً

بيني وبين أحلام الطبيعة التي تهمس في الدم وتوسوس في القلب. وشعرت منذ فقدتُ أمي ولم أتجاوز السابعة بعد، أن آخر سبب كان يربطني بالمرأة قد انقطع، فليستْ
من دنياي ولستُ من دنياها؛ وعشت عمري في هذه الحقيقة من بعد، لا تنظر عيناي إلى امرأة ولا أحس وقع نظرة امرأة، ولو قد أحسستها مرة لخجلتُ، لعلمي أنها لا تنظر حين تنظر إليّ - رجلاً مما يقع في عالمها، ولكنها تنظر مسخاً مشوَّهاً يشير إلى آية من آيات القدرة الخالقة!
كذلك كنت عند نفسي حتى لقيتها، فأرتني من نفسي صورة غير ما كنت أعرف . . . لنفسي؛ وكشفت لي عن صورتي في مرآتها!. . .
كنت يوم ذاك جالساً إلى مكتبي أعالج عملاً دقيقاً لا يصلح أن يتولاه غيري، حين . . . دخل عليّ حاجبي يؤذنني أن سيدة تريد لقائي؛ ونهرت حاجبي إذ قطعني عن عملي من أجل امرأة؛ وما لي وللنساء؟ ما شأنهن وشأني؟
ودعوت شاباً من مساعديّ ليلقاها ويتقّصى أمرها فيخبرني؛ وكثيراً ما كنتُ أندبه لمثل ذلك فيكفيني ويجزئ عني؛ ولكنه في هذه المرة لم يُغْنِ عني شيئاً، وعاد إليّ ينبئني أن السيدة لا تريد لقاء أحد غير؛ وابتسمتُ على غيظ حين أنبأني ذلك؛ فقد كنت أعلم من طول خبرتي في هذا العمل الذي أتولاه، ما تدعوني له مثل هذه الزائرة؛ فما هو إلا لاعتقادها أنني - وأنا رئيس المكتب - أقدَرُ على قضاء حاجتها من غيري، وإن كانت حاجتها من التفاهة بحيث يستطيع ساعي المكتب أن يقطع فيها برأي!. . . ذلك رأي النساء جميعاً؛ وإن إحداهن ليبلغ منها الإلحاح في طلب لقائي أن تضجرني وتحرج صدري، فلا أجد عقاباً لها على ذلك إلا أن أخرج إليها فتراني. . .
ولم أكن في ذلك اليوم متهيئاً لاستقبال أحد، ولم تكن بي رغبة إلى عقاب امرأة؛ . . . فطلبت إلى حاجبي أن يعتذر إليها، وخرجت السيدة ولكنها لم تلبث أن عادت، وعاد حاجبي يؤذنني برغبتها في لقائي؛ وتكرر بيننا الرجاء والاعتذار، ثم لم أجد بدَّاً في النهاية من الخروج إليها. . .
ورأيتها ورأتني، ولكني لم أر في وجهها ذلك المعنى الذي طالما رأيته في وجوه النساء حين أجلس إلى امرأةٍ منهم. ولأول مرة منذ ماتت أمي، جلست إلى امرأة أتحدث إليها وأستمع لما تقول، وإني لأحس في نفسي برد الراحة وروح الاطمئنان. لا أعني أنها ذكرتني أمي، فقد كانت أصغر كثيراً مما ظننت وأشبّ شباباً؛ ولكني شعرت إذ جلست إليها
شعوراً لم أحسّ مثله منذ بضع عشرة سنة، منذ ماتت المرأة الوحيدة التي منحتني حبها واستحقت حبي!
كان في وجهها سماحةٌ وطهر، وفي عينيها نظرة طفل يرى كل شيء جديداً على عينيه، وقد افترَّت شفتاها عن ابتسامةٍ حزينة تكتم معنى وتفصح عن معنى.
لم أشك حين رأيتها أنها عذراء، فتاة على طبيعتها الطاهرة لم تطبعها الحياة بعدُ بذلك الطابع المصنوع الذي يجعل لكل شيء لونين في ظاهره وباطنه. وأقبلت عليّ تحدثني حديثها. لم يكن في صوتها ولا في نظراتها شيء يدل على أنها تراني رأي الناس وتنظر إليّ.
أخشى أن أقول لك يا صديقي إنها كانت تحدثني كأنما تناجي حبيباً عزيزاً لقاؤه! . . . ولكني كذلك شعرت وقتئذ!
ومضت في حديثها، ولم أسمع حرفاً واحداً مما قالت؛ إذ كنت وقتئذ في حديث مع نفسي؛ فلما أوشكت أن تنتهي من عرض أمرها وراحت تسألني رأيي، بدأت أصغي إليها. . . وكان لها مشكلة معقدة تقتضي تدبيراً وأناة وحسن احتيال؛ وعنيت بأمرها.
أتراني يا صديقي في حاجة إلى التأكيد بأن عنايتي بأمرها لم تكن شيئاً على خلاف عادتي في مثل مشكلتها؛ ولكنك مصدقي ولا شك، فقد كنت إلى تلك اللحظة من كنت؛ ليس لي همٌّ إلا عملي وواجبي!
وزارتني بعدها في مكتبي مرة ومرة ومرات؛ وتوثقت بيننا أواصر المودة، وألفت أن تراني وأن تتحدث إلي، وألفت أن أستمع إليها، وكأنما كنت في نومة ثقيلة ثم استيقظت، وإنجاب عني غشاء صفيق كان يلقي علي كل شيء من أشياء الحياة ظلاً يبغضّه إلي، وتزّينت لي الحياة؛ وكأنما كانت مرآتي صدئة فجلتها بأنفاسها فعادت

مصقولة لامعة!
ليس يعنيك كثيراً يا صديقي أن تعرف كل شيء؛ ولكن الذي يعنيني أن تعرفه عرفان اليقين، أنني لم أتودد إليها ولم أحاول اجتذابها؛ فقد كانت أسرع إلي من خطرة الأمل؛ فما هي إلا مرات التقيناها حتى كان كل شيء منها يتحدث إليّ حديثاً أجد صداه في نفسي؛ ومن غير مؤامرة ولا تدبير، رأيتني امشي معها ذراعاً إلى ذراع في الطريق!. . .
لم أنم تلك الليلة ولم أذق طعم الغمض، لعلك تحسب ذلك يا صديقي فرحاً بتلك النعمة التي
سيقت إليّ من حيث لا أدري! كلا، ولا بعض هذا، لقد سهرت تلك الليلة إلى الصباح في قلق وهم؛ وفي حديث بيني وبين نفسي كله تأنيب وملامة؛ لقد كنت موقناً أنني لست الرجل الذي تؤهله صفاته ليكون حبيباً يلم طيفه بخيال امرأة؛ ولم أكن من الغفلة بحيث أنسى بسهولة حقيقتي التي عشت بها ما فات من أيامي؛ وكنت خائفاً أن يكون قد بدر مني شيء على هوى أشعرها أملاً واخفي عنها حقيقة، فانقادت إليّ مخدوعة وعلى عينيها غشاوة.
بلى، لقد كنت سعيداً بحبها، ولكنني لم أحاول قط أن أشعرها معنى يدنيها إلي ويزيدني حباً إليها؛ وكان ضميري يخادعني حين كنت استمع إلى نجواه في نفسي قائلاً: (لا عليك ملامة إذ كانت تحبك دون أن تطلب إليها!) ويا لها خدعة! وهل زادها حباً لي إلا شعورها بأنها تجد لعواطفها في نفسي استجابة؟. . . وفي مرات كثيرة، كان يثوب إليّ رشادي ويغيب عني هواي، فأهم أن أقول لها وإنها لجالسةٌ بإزائي: (أنظري إليّ! هل ترينني أصلح للحب؟)، ولكني لم أجرؤ في مرة واحدة من هذه المرات أن أقولها؛ لأن هواي كان يغلبني على رأيي؛ فتقول لي نفسي: (أو ليست تراك دون أن تطلب إليها أن تنظر؟).
وحتى يوم أسلمت لي شفتيها وأغمضت عينيها في مثل غشيه الوحي، لم يقع في نفسي إلا أنه عمل منها لا مني، والقبلة المعسولة ما زال يرن صداها في قلبي!
ولكنني مع كل ذلك يا صديقي لم يغب عني قط، أن ذلك عمل لا ينبغي؛ كانت هذه الحقيقة قارة في أعماقي، على الرغم من هوى النفس وخداع الضمير؛ ولم أكن يومئذ أعرف، فكيف لو عرفت؟
ومضت بنا الأيام على ما قدّر لي ولها، لم أحاول أن أسألها شيئاً ولم تحاول أن . . . تخفي عليّ؛ ومع ذلك فقد ظللت دهراً لا أعرف، على غير إرادةٍ مني ولا إرادة منها، ولم تكن في يقيني إلا فتاةً على طبيعتها الطاهرة، لم يزل بينها وبين الحياة باب مغلق. . . وأغناني يقيني عن سؤالها، وحال بيني وبين التماس أسباب المعرفة أنني لم أكن أريد أن يكون مني عملٌ إيجابي يشعرها أن لي بأمرها عناية فأمد لها أسباب المنى!
ثم كان يوم وكانت الصلة بيننا قد توثقت حتى لا سرّ بيني وبينها، وجلست تتحدث إليّ، وعرفت. . .
يا لله!. . . ليتني كنت ادري! وهل كان يدور بخاطري يوماً أن هذه الفتاة التي بعيني هي
امرأة، وهي زوجٌ قد انفتح الباب المغلق بينها وبين الحياة. . .!
لم تكن خادعةً فيما أعلم حين كتمت عني حديثها طوال هذه الأشهر، ولكنها لم تجد سبيلاً إلى أن تقول، فصمتت، فلما أمكنتها الفرصة جاء الحديث لوقته فراحت تقص عليّ. . .
وشعرت بالغيرة تلذغ قلبي لأول مرة، غير رجلٍ يحاول أن يستأثر بما لا يملك دون الذي يملك؛ ولكني لم ألبث أن فئت إلى رشادي واستيقظ ضميري، فرحت أوبخ نفسي على ما كان وأشبعها تعنيفاً وملامة، ولكني لم أجرؤ أن أقول.
لم يكن لها خيارٌ فيما فعلت. هكذا حكمتُ حين قصت عليّ خبرها؛ فقد ماتت أختها عن بنين وبنات وزوجٍ في سن أبيها له مالٌ وجاهٌ وشفاعةٌ ويد مبسوطة؛ وكانت هي يومئذ تلميذة في السادسة عشرة، دنياها معلم وكتاب ومسطرة. . . وعادت يوماً من مدرستها فإذا في غرفة الاستقبال كاتب وشهود، وباتت مُسمّاة على زوج أختها، ثم أصبحت زوجاً وأماً لبنين وبنات وما حملت ولا ولدت!
لم تفهم شيئاً مما مرّ بها إلا كما تفهم كل فتاة في بيت أبيها أن يقال لها قومي فتقوم،

واجلسي فتجلس!
وانتقلت من دار إلى دار ولكن قلبها لم يزل على نقاوته وطهره، في عينيها نظرة الطفل، يرى كل شيء جديداً على عينيه، وعلى شفتيها ابتسامتها الصامتة المبينة، وفي رأسها أحلامها، ثم التقينا.
هذا ما قالت لي؛ وقال لي ضميري: ويحك يا شقي! إنك تحاول إفساد امرأة على . . . رَجلها!
وقال لي هواي: وماذا فعلت؟ أيكون الاستماع إلى شقية بائسة تشكو بثها محاولة لإفساد امرأة؟ وزدت من يومئذ آلاماً إلى آلامي، وزدت إلى ذلك إيماناً بنفسي وأيقنت من يومئذ أنني شيء، وأيقنت إلى ذلك أنني في عمل لا ينبغي!
وحاولت منذ عرفت أن أبتعد عنها وإن قلبي لينازعني إليها، فلا أنا صممت فيما حاولت ولا هدأ قلبي؛ وعدت بين نزاع القلب وتأنيب الضمير في شقاوة وألم؛ ولكنني كنت بشقاوتي سعيداً!
ويلي! ليتني عرفت يومئذ كل شيء! أم ليتني مضيت فيما صممت ولو كان فيه تدميري
وهلاكي؛ إذن لاحتفظت لنفسي براحة الضمير إذ فقدت راحة القلب! ولكنني لم أكن اعرف؛ وكان الدهر يدخر لي البقية . . .
ولقيت صديقي (فلاناً) على غير ميعاد؛ وجلس يتحدث إلي. . . وأرهفت أذني . . . للسمع، وخيل إليّ وهو على مقربة مني وأنا أستمع إليه أن بيني وبينه من البعد مسافة تسافر فيها الأحلام وتثوب؛ وجثم على صدري كابوس مفزع لا يخف ولا يتحلحل؛ وهممت أن أتكلم فما أطقت الكلام؛ ودار رأسي مثل خذروف الوليد بين قوتين تتجاذبانه، وتناثرت أشلاءً على مكاني. . .
ولما أفقت بعد برهة لم يكن بجانبي أحد غيره، ورن صوته في مسمعي: (رفقاً بنفسك يا صديقي! إنك تتعب نفسك أكثر مما تطيق!).
ثم خلفني وآلامي، ومضى! إذن فهو ذاك؟ إنها زوجته! وهجرت المدينة يا صديقي إلى حيث أحاول التكفير عن خطيئتي والفرار بنفسي؛ وهجرتها بلا وداع، ولكنها لم تتركني وشأني؛ لقد أصابها من ذلك مثل سعار الجوع في الكلب الضالّ
وكان زوجها يتحدث إليها حديثاً من حديثه، فحسبته يعرّض بها، فثارت به، ثم اندفعت في ثورتها؛ وابتسم الرجل وتمتم بكلمات، وألقى الشيطان في أذنها كلمات غير ما قال؛ فزادت ثورةً وهياجاً، وقالت: (بلى، إنني أحبه، وسأتبعه إلى آخر الدنيا!).
وعلا بكاء طفل، طفلٌ رضيع لم يفتح عينيه على الحياة إلا منذ أيام معدودات؛ وقلب الرجل عينيه بين الطفل وأمه، وقال في همس: (إذن فهو ولده؟. . .)، وفتحت الأم فمها مدهوشة وبرّقت، وسألت: (أتراه يظن. . .! ويلي!).
ونالني رشاشها على مبعدة يا صديقي وما جنيت جناية . . .
ذلك كل ما كان من أمري وأمرها؛ أم تراني جنيت إذ أحببت امرأةً أحبَّتني، أنا . . . الذي عاش ما عاش من عمره لم يؤمل أن تعطف عليه امرأة؟. . . نعم، لقد كان ذلك عملاً لا ينبغي، ولكن . . .
قلت: (ولكنه أودى بشرف امرأة، وهناءة رجل، وضَيْعةِ طفل يَتِمَ في حياة أبويه، وصيّرك في أعين الناس إلى ما ترى. . . أنتَ ما جنيت يا صديقي، ولكن ثم جنايةَ رجل؛ فمن جناها؟).
محمد سعيد العريان
العدد 380 - بتاريخ: 14 - 10 - 1940
خواطر مهاجر
- 4 -
سار (موكب الرؤية) من (مركز البندر) في صفين طويلين من الجنود المشاة تتقدمهم فرقة الموسيقى في شتى آلاتها وشاراتها، وتتلوهم طوائف الصوفية في مختلف هيئاتها وإشاراتها، وعشاق رمضان محتشدون على جوانب الطرق وفي طنوف المنازل يجتلون الموكب المهيب ووجوههم يشرق فيها السرور كأنما يستقبلون وافداً من الملأ الأعلى سيغمرهم بالسرور ويطهرهم بالنور ويزكيهم بالبركة. فلما أتم الموكب خطاه الوئيدة الموزونة تفرق، واجتمع الناس على شاطئ النيل يرتقبون بشرى المحكمة

بطلعة الهلال الوليد! ولرمضان في رأي الريفيين هلال غير أهلة الشهور، يولد من نور الجنة، ثم يدرج في رياض الشفق دروج الطفل المدلل المومق، حتى إذا أيدر واستحار شبابه تردد كل يوم بين المشرق والمغرب في موكب ذاكر من كرام الملائكة، يختلط فيه تسبيح القائمين بذكر الصائمين، ويمتزج فيه سلسل النور بسليل الطين؛ وتلك هي الأيام المباركة التي تتصل فيها السماء بالأرض من كل سنة وهلال رمضان في لغة الريفيين هو رمضان نفسه. لذلك يتخيلونه رجلاً له حياته وعمره وأجله. فإذا لم يبق منه إلا ربعه الأخير تمثلوه في محفته السماوية محتضراً يعالج غصص الموت بين أناشيد الحور وصلوات الملائكة، فيندبونه في البيوت والمساجد، ويرثونه على السطوح والمآذن، ويبكونه يوم الجمعة اليتيمة أحر بكاء!

قصفت المدافع المصرية في كل محافظة وفي كل مديرية في لحظة واحدة وعلى فترات محددة، فأفتر البشر على الشفاه، وجرت التهنئات على الألسن، واستولى على المنصورة شعور نقي هادئ خاشع لا يصدر عنه إلا الكلم الطيب والعمل الصالح. ورمضان يرجع المسلم الصادق نقياً كقطرة المزن، طاهراً كقطرة الوليد، لا ينغمس في منكر، ولا يخف إلى شر، ولا يلغو في حديث، ولا يبغي في خصومة. ومن ذلك كان كل حي سعيداً في رمضان، ما عدا الرومي والشيطان!

كان في كل طلقة من طلقات المدفع المبشر تنبيه إلى فضيلة من فضائل الصوم. فالمؤمن حين دوى في سمعه صوت البارود تيقظت في نفسه نوازع الخير ففكر في توثيق ما وهن بين القلب والدين، وتقريب ما بعد بين الغني والمسكين، وتأليف ما نفر من القلوب المطمئنة، ووصل ما انقطع من الأرحام الشابكة. ولكنه وا أسفا لم ير في هذا العام المآذن تتلألأ في أجيادها قلائد النور، ولا فوانيس الأطفال تخفق شموعها في الشوارع والدور، فتذكر أن هناك على سواحل البحر الأبيض وشواطئ بحر المانش مدافع غير هذه المدافع، تنطلق لتطفئ كل نور وتظلم كل قلب وتخرب كل عامر وتقتل كل حي وتقطع كل سبب وتغشى أجواء السماء بدخان من البوار والدمار لا يقوم تحته قائم ولا ينسم فيه حي!

ليت الذي حول لوثر هتلر، ومسخ في هتلر الإنسانية نازية، جعل في كل ركن من هذا الجحيم الأوربي رمضان بحكمته وطبيعته وعقيدته! إذن لكان كل مدفع للسلام، وكل مصنع للخير، وكل مخترع للحياة، وكل مورد للناس! (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة، ولكن لا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم. وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين!).

إن الفرق بين مدافع رمضان ومدافع هتلر، كالفرق بين القرآن و (كفاحي). كتاب الله دستور الخالق لجميع خلقه، فهو خير مطلق وأمن شامل؛ وكتاب هتلر نزغ من الشيطان للألمان، فهو شر محض وفزع دائم. فأنا حين أسمع مدافع رمضان في الغروب أو في السحر، أعتقد أن جياعاً سينالون القوت، وضلالاً سيجدون المثوى، وجوارح ستكف عن اجتراح الإثم، ونفوساً سترتاض على مكاره الفضيلة، وأمماً في جميع بقاع الأرض سيغمرهم الشعور السامي الجميل بأنهم يسيرون إلى غاية الوجود قافلة واحدة، ممتزجة الروح متحدة العقيدة متفقة الفكرة، متشابهة النظام، متماثلة المعيشة.

وأنا حين أتصور مدافع هتلر أعتقد أن كتائب من الشباب الفريض قد صهرتهم النار فهم حمم على وجه الماء، أو مزقتهم الشظايا فهم مزق على أديم الثرى؛ وأن آلافاً من الدور الأنيسة قد نبت مراقدها فهي حبوس، وخمدت مواقدها فهي رموس، ثم دكتها القنابل فهي أنقاض على أشلاء، أو أحرقتها الصواعق فهي غسلين على فحم؛ وأن ملايين من الأطفال قد حرموا عطف الأب وحنان الأم، فهم يعانون في مطارح الغربة غصص الحرمان ومرارة اليتم؛ وأن ألوفاً من الأيامى والثكالى أصبحن بغير عائل ولا مأوى ولا أمل، فهن يمشين في ثيابهن السود بين الأطلال والخرائب كأنهن الأطياف الحزينة تجوس في الليل خلال المقابر؛ وأن ملايين من العمال والصناع أدركتهم العطلة وقعد بهم الكساد فضلوا يكابدون حسرة الحاجة في أنفسهم ولوعة الهم في أهليهم، وباتوا يضطربون من البؤس واليأس اضطراب القنيص لا يجدون مخلصاً للحياة ولا للموت.

إن الحرب في تاريخ الديمقراطية الإسلامية لم توقد نارها إلا دعاء إلى سبيل الله، أو ابتغاء لخير الناس، أو ذياداً عن سلامة الوطن؛ أما أن تنهب الممالك لأنك تريد أن تأكل، وتسحق الشعوب لأنك تريد أن تنتقم، وتخضع الدول لأنك تريد أن تسود، فذلك ماض البربرية الحمراء، وحاضر الطغيان الأسود!

(المنصورة)

أحمد حسن الزيات

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

(اللغة العربية في المدارس الأجنبية - كلمة صريحة إلى مدرسي اللغة العربية بتلك المدارس - إلى الوكيل المساعد لوزارة المعارف - أسئلة وأجوبة - القلب الذي تلفت فرأى وسمع)

اللغة العربية في المدارس الأجنبية

تحت هذا العنوان نشرت (الرسالة) بحثاً سمته (توجيهات لأحد المشتغلين بشئون التعليم) فهل أستطيع التعقيب على هذا البحث أداءً لحق الواجب في أمثال تلك الشؤون؟

اهتم ذلك الباحث بتصوير حال اللغة العربية في المدارس الأجنبية وشغل نفسه وشغل القراء بالنص على ما يجب من حرص وزارة المعارف على الاهتمام بالتفتيش والاهتمام بالمواد التي تكون الثقافة للمصرية رعاية لمصاير التلاميذ المصريين بالمدارس الأجنبية.

وأقول إن الباحث لم يأت بجديد: فوزارة المعارف لا تحتاج إلى من ينبهها إلى التدقيق في التفتيش على المدارس الأجنبية، ولا تحتاج إلى من يدلها على أهمية الحرص على تدريس المواد التي تكون الثقافة المصرية بالمدارس الأجنبية، فمن المعروف أن معالي الدكتور هيكل باشا معنى بهذه الشؤون عناية جدية، ونظار تلك المدارس يعرفون عنه هذه العناية، وهم يبذلون جهوداً محمودة في تحقيق هذه المطالب.

ولكن المهم هو النظر في الوسيلة التي تمكن وزارة المعارف المعاونة على تحقيق تلك الأغراض، وهي وسيلة معروفة، ولكن معالي وزير المعارف يتجاهلها مراعاةً للظروف الاقتصادية، وليست هذه أول مرة يكون فيها (تجاهل العارف) من صور الكلام البليغ؟!

الحق أن معالي هيكل باشا يعاني صعوبات كثيرة في تدبير المال المطلوب لتحقيق ما يصبوا إليه من كرائم الأغراض، وهو يتلطف ويترفق في كل وقت ليقنع وزارة المالية بأن للتعليم شؤوناً هي من أوائل الضروريات، وأن الاقتصاد فيما يمس شؤون التعليم قد يكون من الشح البغيض.

وهنا أجد الفرصة لإقناع معاليه بأن تقوية اللغة العربية في المدارس الأجنبية لن تضطره إلى الوقوع في نزاع مع وزارة المالية، فهو يستطيع أن يدبر بكل سهولة أن يدبر أربعة آلاف جنيه للشروع في تحقيق ذلك الغرض النبيل، ومن هذا المبلغ تقدم الإعانات لعدد كبير من المدرسين الفنيين في المدارس التي تتطلع إلى إعانة وزارة المعارف. . . ولمعاليه أن يتصور كيف يكون فرح اللغة العربية بهذه الأربعة الآلاف وهي مبلغ ضئيل بالقياس إلى ما تجره من النفع الحق في تقوية اللغة العربية بالمدارس الأجنبية.

بأربعة آلاف فقط، وهي مبلغ يقدم لمدرسة واحدة من المدارس المصرية، بأربعة آلاف فقط يشهد التاريخ بأن معالي الدكتور هيكل باشا قدم يداً كريمة للمدارس الأجنبية، وبأربعة آلاف فقط يشهد الأجانب بأن المصريين يعرفون معنى الحرص على إعزاز اللغة القومية.

وقد أمضي إلى نهاية الشوط فأقول: إن معالي الدكتور هيكل باشا يستطيع أن يصدر قراراً باعتبار مدرسي اللغة العربية بالمدارس الأجنبية مدرسين منتدبين من وزارة المعارف كالمدرسين الذين ينتدبون للتدريس في الحجاز والشام ولبنان والعراق، وعندئذ يعرف هؤلاء المدرسون أن لهم حقوقاً محفوظة في الأقدمية والترقية فتقل

رغبتهم في التطلع للالتحاق بالوظائف الحكومية، ويشعرون بأنهم في رعاية الدولة، وبأنهم ليسوا من المنسيين، وبأن من الهوان أن يردوا إلى مدارس الحكومة، لأن ذلك معناه أنهم عجزوا عن الظفر بثقة المدارس الأجنبية، وهي ثقة لها معنىً دقيق.

فما رأي معالي هيكل باشا في هذين الاقتراحين؟ وما رأيه إذا صارحته بأن اهتمامه بمصاير اللغة العربية في المدارس الأجنبية لن يؤتي الثمرات المرجوة إلا بتحقيق هذين الاقتراحين؟

يجب أن يذكر معالي هيكل باشا أن المدارس الأجنبية في طريق التمصر والاستعراب، وهي خطوات تستأهل التشجيع، فإلى من نتوجه إذا بخل بهذا التشجيع، وله أبناء يتعلمون بالمدارس الأجنبية، ولهم عليه حقوق؟

ولو كنت أعرف أني أحرج معالي وزير المعارف بهذين الاقتراحين لما استبحت نشرهما بطريقة علنية، وإنما أعرف أنه اهتم بهذه المسألة مرات كثيرة، ولم يعد من الأسرار أن يقال إنه يبالغ في الحرص على إنهاض التعليم الحر، وفي نفسه أن ذلك طريق لجذب المدارس الأجنبية إلى تقوية مواد اللغة العربية والثقافة المصرية عساها تستطيع الظفر المطلق بثقة آباء التلاميذ في زمن لم يبق فيه مجال للحياة في مصر أمام الشبان العاجزين عن مسايرة المجتمع المصري، وهو مجتمع يعبر عن مطامحه في المجد والحياة باللغة العربية.

كلمة صريحة

هي كلمة أوجهها إلى مدرسي اللغة العربية بالمدارس الأجنبية، فأغلب أولئك المدرسين ينسون أو يتناسون أن وجودهم بتلك المدارس فرصة ثمينة لتعلم اللغات الأجنبية، والتعرف إلى ما عند الأجانب من آداب ومذاهب في الميادين الاجتماعية والاقتصادية.

كنت أرجو أن يفهم من يشتغل بالتدريس في مدرسة فرنسية أو إنجليزية أو إيطالية أو ألمانية أنه انتقل إلى جو من أجواء باريس أو لندن أو روما أو برلين.

ولكن أولئك المدرسين يعيشون بمعزل عن الجو الروحي لتلك المدارس، وتظل صلاتهم بها صلات منافع تحد بحدود المرتب ولا تجاوزه إلا في قليل من الأحايين، وتكون النتيجة أن ينعدم التآلف والتعاطف، ولذلك تأثير في سير الأعمال المدرسية، لأن التجاوب الروحي بين النظار والمدرسين يعاون على تخفيف ما في مهنة التدريس من أعباء ثقال

أنا أحب لمن يشتغل بتدريس اللغة العربية في مدرسة أجنبية أن يضمر في قرارة نفسه أنه لن يفارق مدرسته أبداً وأنه سيجعلها داره إلى أن يفكر في الراحة من عناء التدريس

وقد اتفق لي فيما سلف أن أقضي أعواماً كثيرة في التدريس بالمدارس الأجنبية، وما أذكر أبداً أني لقيت من أصحابها ما أكره، وما زلت أذكر بالخير والعطف والحب أيامي بالليسيه فرانسيه والجامعة الأمريكية، وإن كنت أذكر بالحسرة واللوعة أنه فاتني أن أنتفع بصحبة أولئك القوم أكثر مما انتفعت، فقد كانت قلوبهم مفتوحة أمامي، وكنت أستطيع الانتفاع بمعارفهم وتجاربهم في كل وقت.

وخلاصة القول أنه يجب على مدرسي اللغة العربية بالمدارس الأجنبية أن يعتبروا أنفسهم في دورهم، وأن ينسوا أنهم (أجانب في دور الأجانب)، فما كانوا ولا كان رؤسائهم بتلك المدارس إلا جنوداً في الميدان العلمي، وهو ميدان تظهر فيه المواهب وتختفي الأجناس.

إلى الوكيل المساعد لوزارة المعارف

لم يتفضل سعادة الأستاذ شفيق غربال بدعوتي إلى الاشتراك في اللجنة التي ألفها لوضع القواعد الأساسية لاختيار المدرسين الذين ينتدبون للتدريس بمدارس العراق، ولم أتطفل فأتشرف بعرض آرائي عليه في هذا الموضوع الدقيق، وليتني فعلت فقد يجب التطفل في بعض الأحيان!

فماذا صنع وصنعت اللجنة البصيرة بالعواقب؟!

أعلنوا في الجرائد عن موضوع يضر فيه الإعلان أكثر مما ينفع، فاستجاب لهم مئات المدرسين، إن صح ما أذيع!

فهل من الحق أن عندنا مئات تسمح لهم المواهب والكفايات بأن يكونوا أساتذة بالمدارس الثانوية والعالية بالعراق؟ ولنفرض أننا نملك هؤلاء المئات من المدرسين الأكفاء، فهل نراهم جميعاً صالحين للتمرس بأعباء مهنة التدريس في ديار الرافدين؟ لم يبق إلا أن نتخير، ولكن كيف نتخير عشرات من أولئك المئات؟ وقد تخيرنا بالفعل، فماذا وقع؟

وقع أن بعض من تخيرناهم عادوا فآثروا التخلف، فهل فكرت الوزارة في معاقبة أولئك الجنود الفارين، وقد اكتفوا من التشريف بخطورهم في بال وزارة المعارف؟

يجب أن تكون للوزارة سياسة ثابتة في هذه الشؤون، ويجب أن تكون عندها إحصائية دقيقة بالمدرسين الذين يصلحون لأمثال هذه الواجبات وعندئذ يكون من حق الوزارة أن تنقل المدرس المنشود من القاهرة إلى بغداد أو البصرة أو الحلة أو الموصل كما تنقله من القاهرة إلى دمنهور أم المنصورة أو أسيوط أو أسوان، ثم لا يكون من حق ذلك المدرس أن يتخلف لأنه جندي ينقل من ميدان إلى ميدان

أكتب هذا وأنا أعرف أن وزارة المعارف العراقية في انتظار جواب وزارة المعارف المصرية عن هذا السؤال: (ما الرأي في المدرس الذي يتخلف عن موعد افتتاح الدراسة أسبوعاً أو أسبوعين أو أسابيع، وإلى من يحتكم التلاميذ الذين تضيع منافعهم بتخلف المدرسين؟).

ولكن لا بأس، فالمصريون والعراقيون أشقاء، ومن واجب الشقيق أن ينسى تقصير الشقيق، فهو على كل حال أخ (شفيق)!

أسئلة وأجوبة

استطاع الأديب الذي وجهنا إليه عشرة أسئلة حول بيت من الشعر وقعت فيه غلطة مطبعية لا تحتاج إلى عناء في التصحيح، لأنها لا تزيد عن التنبيه إلى أن خبر المبتدأ واجب الرفع، استطاع ذلك الأديب أن يجيب إجابة صحيحة عن ثلاثة أسئلة، وأن يشرع في الإجابة عن سؤال رابع، ثم حاول الإجابة عن سائر الأسئلة فلم يوفق، فأرجوه أن ينظر من جديد في الأجوبة التي ظنها تخرجه من ذلك الموقف المحرج، إن كان يهمه أن يقال أنه سئل فأجاب

وليعرف إن لم يكن يعرف أني لا أعادي قرائي، وإنما أهتم من وقت إلى وقت بجذبهم إلى المراجعة والاستقصاء، فإن كان تأذى من هجومي عليه فليذكر أني أتحت له فرصة ثمينة للنظر والتعقيب. وقد كنت هممت بشرح الأخطاء التي وقعت في أجوبته (السديدة) ثم رأيت أن أكل ذلك إليه، فتلك فرصة لمحاورة نفسه في الخطأ والصواب.

القلب الذي تلفت

جاء في الكلمة الروحية التي نشرتها (الرسالة) للأستاذ محمد البشبيشي أن قلبه تلفت فرأى وسمع، ثم أكد المعنى فقال

(يا دكتور، إن القلوب لتسمع وترى وتتلفت).

هو ذلك، يا صديقي، منذ الفطرة الأزلية، أو منذ اليوم الذي (تلفت القلب) فيه عند وقفة الشريف الرضي على ديار بعض الأحباب.

ولكن أين حظي من حظك، يا صديقي؟

وما كاد قلبك يتلفت إلى صاحب (النثر الفني) حتى رأيت وجهه وسمعت صوته في مدينة جميلة هي المنصورة العصماء.

وقلبي يتلفت ويتلفت منذ شهور طوال طوال إلى روح غالية كانت خلائقها الروحانية هي الشاهد على أن في دنيانا نسائم من فراديس الجنان.

وعلى طول التلفت والتسمع (تلفت القلب وتسمع القلب) لم أظفر من أخبارها بشيء؛ ولعل الشريف كان في مثل حالي يوم قال:

ومن حَذَرٍ لا أسأل الركب عنكم ... وأعلاقُ وجدي باقيات كما هيا

ومن يسأل الركبان عن كل غائب ... فلابد أن يلقى بشيراً وناعيا

فماذا تضمر الدنيا في أيامها المقبلات؟

وماذا عند القدر من مكنون النعيم أو الجحيم للقلب الذي صير الحديث عن الحب شريعة من شرائع الوجود؟

أين بائع النسيان، يا صديقي، وأين بائع السلوان؟
وأين من يوهمني بأن تلك الزهرة لم تكن نفحة سماوية وإنما كانت نفحة أرضية لا نصيب لأرجها العطر من روح الخلود؟
لقد بدأ قلبي يخمد من لفح اليأس، وإن دام هذا الحال فلن ترى في أحاديثي إليك غير التوجع للقلب الذي أضاعه تقلب القلوب.
وما ذنبي عند تلك الروح؟
ذنبي وذنوبي وعيبي وعيوبي أن لم أطعها بالافتضاح بالحب ولم أسطر في هواها مئات الصفحات كما صنعت مع (ليلى المريضة في العراق) كأنما كان مكتوباً علي أن أقضي الدهر في الهيام بالعيون العسلية والعيون السود، عيون أهل القاهرة وعيون أهل بغداد، والله هو وحده الذي يعلم مواقع هواي، فلن أطيع تلك اللئيمة في الترحيب بمآثم الافتضاح.
وما الموجب لقتل الوقت والعافية في تذكر القلوب الغوادر، وفي دنيانا تكاليف تميد من أثقالها الجبال؟ ما الموجب؟!. . . الموجب معروف وهو الوثاق المسطور في اللوح المحفوظ بألا تعيش روح إلا مجذوبة إلى روح.
أما بعد فإن قال قوم أني كاذب في الحب فقد صدقوا، وإن قال قوم إني صادق في الحب فقد صدقوا، فأنا كاذب في تصوير ما أعاني من شقاء: لأن الواقع يشهد أن الحب لم يشغلني عما أضطلع به في حياتي الخصوصية والعمومية من أعباء ثقال؛ وأنا صادق في تصوير ما أقاسي من لواعج وأشجان: لأن الواقع يشهد أيضاً أن حياتي لم تخل من التأثر بمكايد السحر والفتون.
كم تمنيت أن أكون في الحب من الكاذبين! وكم تمنيت أن أكون في الحب من الصادقين،
لو كان في المقدور أن ينال الرجل ما يتمناه! وأنا على كل حال أحكمت أحبولة الرياء فقلت ما قلت وأنا في أمان من كيد الوشاة والعذال. . . وكيف يعظم علي الرياء وأنا أول من تقرب إلى الله بالرياء؟
إني أرائي من أحب، ولكني لا أرائي من أبغض، فلأعدائي الويل إن توهموا أني سأجازيهم رياء برياء. كتب الله لي في تأريق جفونهم الهواجد أجر المجاهدين.
زكي مبارك
في الاجتماع اللغوي
تطور اللغة وارتقاؤها
أثر العوامل الأدبية المقصودة: الرسم
للدكتور علي عبد الواحد وافي
مدرس الاجتماع بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول
تكلمنا في المقال السابق عن أنواع الرسم وتاريخه، وسنعرض في هذا المقال لموضوع مطابقته للنطق ولأثره في حياة اللغة وتطورها.
الأصل في الرسم الهجائي أن يكون معبراً تعبيراً دقيقاً عن أصوات الكلمة بدون زيادة ولا نقص ولا خلل في الترتيب؛ فيرسم في موضع كل صوت من أصواتها الحرف الذي يرمز إليه، ولا يوضع فيها حرف زائد لا يكون له مقابل صوتي. وقد حوفظ على هذا الأصل لحد كبير في بعض اللغات الإنسانية، وخاصة القديم منها. فرسم الكلمة في السنسكريتية مثلاً لا يكاد يختلف في شيء عن صورتها، ولكن معظم أنواع الرسم، وخاصة الحديث منها، لا تتوافر فيه هذه المطابقة. فكثيراً ما يرسم في حرف زائد أو حروف زائدة ليس لها مقابل صوتي في النطق ((مائة) في اللغة العربية؛ في الفرنسية؛ في الإنجليزية. . . الخ). - وكثيراً ما تشتمل الكلمة على أصوات لا تمثلها حروف في الرسم ((هذا) في العربية؛ في الإنجليزية. . . الخ). - وكثيراً ما يرسم في الكلمة حرف أو أكثر للتعبير عن صوت غير الصوت الذي وضع له في الفرنسية؛ في الإنجليزية. . . الخ) - وكثيراً ما ينطق بالحرف الواحد أو بالمقطع الواحد في صورة صوتية مختلفة تبعاً لاختلاف الكلمات أو اختلاف أزمنتها، أو اختلاف موقعه فيها، أو اختلاف ما يسبقه أو يلحقه من حروف. . .؛ فيرقق في بعض الكلمات ويفخم في بعضها الآخر، أو يمد في بعضها ويقصر في بعضها الآخر، أو يضغط عليه في بعضها , ; (. ., ; ; , , , , ويرسل في بعضها الآخر. . . وهلم جرا (اللام) في (والله) (بالله)

وكثيراً ما تختلف الحروف في كلمتين ويتحد النطق بهما.
ويرجع السبب في هذه الظواهر وما إليها إلى عوامل كثيرة من أهمها عاملان:
أحدهما: أن حروف الهجاء في معظم أنواع الرسم لا تمثل جميع أصوات اللغة التي تكتب بها. فقد جرت العادة مثلاً في معظم أنواع الرسم ألا يوضع لكل صوت عام أكثر من حرف هجائي واحد، مع أن الصوت العام كثيراً ما يندرج تحته أصوات مختلفة في مخرجها ونبراتها وقوتها ومدة النطق بها وما إلى ذلك. فالصوت العام للام مثلاً ليس له في معظم أنواع الرسم الحديثة إلا حرف واحد (ل!. . .)؛ مع أن هذا الصوت يختلف نطقه باختلاف الكلمات والمواقع. فأحياناً ينطق به مرققاً (بالله , وأحياناً مفخماً (والله، وتارة ينطق به مضغوطاً عليه (أقسم بالله) وأخرى ينطق به مرسلاً (نستعين بالله). . . وهلم جرا؛ ورسمه واحد في جميع الحالات. والصوت العام للألف اللينة ليس له في العربية إلا حرف واحد؛ مع أنه أحياناً ينطق به مستقيماً وأحياناً ينطق به ممالاً. والصوت العام للجيم ليس له في العربية إلا حرف واحد؛ مع أنه في بعض اللهجات ينطق به مجرداً من التعطيش، وفي بعضها ينطق به معطشاً كل التعطيش، وفي بعضها ينطق به بين هذا وذاك.
وثانيهما: أن أصوات اللغة في تطور مطرد وتغير دائم. فالأصوات التي تتألف منها كلمة ما لا تجمد على حالتها القديمة، بل تتغير بتغير الأزمنة والمناطق، وتتأثر بطائفة كبيرة من العوامل الطبيعية والاجتماعية واللغوية: فأحياناً يسقط منها بعض أصواتها القديمة، وأحياناً تضاف إليها أصوات جديدة، وتارة يستبدل ببعض أصواتها أصوات أخرى، وتارة تحرف أصواتها عن مواضعها فيختل ترتيبها القديم. . .؛ وقد ينالها أكثر من تغير واحد من هذه التغيرات. على حين أن الرسم لا يساير النطق في هذا التطور، بل يميل غالباً إلى الجمود على حالته القديمة أو ما يقرب منها؛ فلا يدون الكلمة على الصورة التي انتهت إليها أصواتها، بل على الصورة التي كانت عليها من قبل؛ وهذا هو منشأ الخلاف في معظم اللغات الأوربية الحديثة بين النطق الحالي لكثير من الكلمات وصورتها في الرسم. فمعظم وجوه الخلاف ترجع إلى جمود الرسم وتمثيله لصور صوتية قديمة نالها مع الزمن كثير من التغير في ألسنة الناطقين باللغة.
هذا، وللرسم في حياة اللغة ونهضتها آثار تجل عن الحصر، فبفضله تضبط اللغة وتدون آثارها، ويسجل ما يصل إليه الذهن الإنساني، وتنشر المعارف وتنتقل الحقائق في الزمان والمكان. وهو قوام اللغات الفصحى أو لغات الكتابة ودعامة بقائها. وبفضله كذلك أمكننا
الوقوف على كثير من اللغات الميتة كالسنسكريتية والمصرية القديمة والإغريقية واللاتينية والقوطية. فلولا ما وصلنا من الآثار المكتوبة بهذه اللغات ما عرفنا منها شيئاً ولضاعت منا مراحل كثيرة من مراحل التطور اللغوي. غير أن عدم مطابقة الرسم للنطق يجعل له بجانب المحاسن السابقة بعض آثار ضارة، فهو يعرض الناس للخطأ في رسم الكلمات، ويجعل تعلم القراءة والكتابة لأهل اللغة أنفسهم من الأمور الشاقة المرهقة، ويطيل مدة الدراسة، فيسبب إسرافاً كبيراً في الوقت والمجهود، وما يلاقيه أهل اللغة من صعوبات بهذا الصدد يلاقي أضعافه الأجانب الراغبون في تعلمها، ومن الواضح أن هذا يعوق انتشارها في خارج، ويضيق سبل الانتفاع بآدابها وعلومها، فيصعب التفاهم بين الشعوب وتضعف بينها حركة التبادل العلمي والثقافي. هذا إلى تمثيل الرسم لصور صوتية قديمة يعمل على رجع اللغة إلى الوراء وردها إلى أشكالها العتيقة. فكثيراً ما يتأثر الفرد في نطقه للكلمة بشكلها الكتابي، فلا يلفظها بالصورة التي انتهى إليه تطورها الصوتي، بل ينطق بها وفق رسمها فتنحرف إلى الوضع الذي كانت عليه في العهود القديمة. وليس الأجانب وحدهم هم المعرضين لهذا الخطر، بل إنه كثيراً ما يصيب أهل اللغة أنفسهم. وإليك مثلاً الحرف المضعف في اللغة الفرنسية في مثل ,. . الخ فقد كان ينطق به وفق رسمه في العصور الأولى لهذه اللغة. ثم انقرضت هذه الطريقة منذ خمسة عشر قرناً تقريباً، وأخذ الفرنسيون ينطقون به مخففاً كما ينطقون بحرف , ولكن منذ عهد قريب أخذت عادة النطق به مشدداً تظهر في ألسنة كثير منهم تحت تأثير صورته الخطية. فمن جراء الرسم نكصت اللغة على عقبيها في هذه الناحية خمسة عشر قرناً إلى الوراء.
ومن أجل ذلك كان العمل على إصلاح الرسم وتضييق مسافة الخلف بينه وبين النطق

موضع عناية كثير من الأمم في كثير من العصور. فقد ظهر في هذا السبيل بعض حركات إصلاحية عند اليونان والرومان في العصور السابقة للميلاد. وفي أواخر القرن التاسع عشر عالج الألمان أساليب رسمهم القديم وأصلحوا كثيراً من نواحيه. ومثل هذا حدث منذ عهد قريب في مملكة النرويج ثم في جمهورية البرازيل. وقد بدت بهذا الصدد محاولات إصلاحية كثيرة في البلاد الواطئة (هولندا) وإنجلترا والولايات المتحدة؛ ولكن معظم هذه المحاولات لم يؤد إلى نتائج ذات بال.

وأدخلت الأكاديمية الفرنسية - يشد أزرها ويعاونها طائفة من ساسة فرنسا وعلمائها - إصلاحات كثيرة على الرسم الفرنسي. وقد جانبت في إصلاحاتها هذه مناهج الطفرة، واتبعت سبل التدرج البطيء. فكانت تدخل في كل طبعة جديدة لمعجمها - بجانب التنقيحات اللغوية والعلمية - طائفة من الإصلاحات الإملائية. وقد أقرت في عام 1906 مجموعة هامة من القواعد الجديدة في الرسم الفرنسي. هذا إلى إصلاحات العلامة جريار التي تناولت كثيراً من نواحي الرسم وأقرتها الأكاديمية الفرنسية. وكانت كل مجموعة من هذه الإصلاحات تلقى مقاومة عنيفة من جانب غلاة المحافظين. وعلى الرغم من ذلك فقد عم الأخذ بها، وكان لها أكبر فضل في تيسير الرسم الفرنسي وتضييق مدى الخلاف بينه وبين النطق الحديث.

والرسم العربي نفسه قد تناولته يد الإصلاح أكثر من مرة من قبل الإسلام ومن بعده. ومع ذلك لا يزال عدد كبير من المفكرين في عصرنا الحاضر يأخذون عليه كثراً وجود النقص والإبهام، وينادون بإصلاحه من عدة نواح وخاصة فيما يتعلق برسم الهمزة والألف اللينة، وابتداع طريقة لإحلال علامات ظاهرة ترسم في صلب الكلمة محل الفتحة والكسرة والضمة حتى يتقى اللبس في نطق الكلمات: (عَلِم، عُلِم، عِلْم، عَلَمَ. . . الخ). ولكن الرسم العربي ليس في حاجة إلى كثير من الإصلاح، فهو أكثر أنواع الرسم سهولة ودقة وضبطاً في القواعد ومطابقة للنطق.

هذا، وعلى الرغم من المساوئ السابق ذكرها، فإن لجمود الرسم على حالته القديمة أو ما يقرب منها بعض فوائد جديرة بالتنويه، فهو يوحد شكل الكتابة في مختلف العصور، ويسهل تناقل اللغة، ويمكن الناس في كل عصر من الانتفاع بمؤلفات سلفهم وآثارهم. فلو كان الرسم يتغير تبعاً لتغير أصوات الكلمات لأصبحت كتابة كل جيل غريبة على الأجيال اللاحقة له، ولا احتاج الناس في كل عصر إلى تعلم طرق النطق والإلمام بحالة اللغة في العصور السابقة لهم حتى يستطيعوا الانتفاع بمخلفات آبائهم. هذا إلى أن جمود الرسم على حالته القديمة يفيد الباحث في اللغات أكبر فائدة. فهو يعرض له صورة صحيحة لأصول الكلمات، ويقفه على ما كانت عليه أصواتها في أقدم عصور اللغة فالرسم للألفاظ أشبه شيء في هذه الناحية بالمتحف للآثار.

وقد كان للرسم في اللغات الأوربية فضل كبير في تيسير النطق بكثير من الأسماء المتداولة المركبة من عدة كلمات، فقد جرت العادة أن يكتفي في التعبير عن هذه الأسماء بذكر الحروف الأولى للكلمات التي تتألف منها:

وشاع هذا الاستعمال في أسماء المخترعات، والشركات، والأحزاب، والفرق الحربية، ; والنظريات، والشهادات العلمية. . . وما إلى ذلك. وقد أنزلت هذه الرموز منزلة الكلمات، وأخذ الناس يصرفونها وينسبون إليها ويشتقون منها أفعالا وصفات. وللاقتصار عليها وكثرة استخدامها في الحديث والكتابة تنوسي أصلها عند عامة الناس، وأصبح كثير منهم يعتقد أنها كلمات كاملة (النازي، الأنزاك. . . الخ).

وللرسم أثر كبير في تحريف النطق بالكلمات التي يقتبسها الكتاب والصحفيين عن اللغات الأجنبية. وذلك أن اختلاف اللغات في الأصوات وحروف الهجاء والنطق بها وأساليب الرسم، كل ذلك يجعل من المتعذر أن ترسم كلمة أجنبية في صورة تمثل نطقها الصحيح في اللغة التي اقتبست منها. فينشأ من جراء ذلك أن ينطق بها معظم الناس بالشكل الذي يتفق مع رسمها في لغتهم، ويشيع هذا الأسلوب من النطق، فتصبح غريبة كل الغرابة أو بعض الغرابة عن الأصل الذي أخذت عنه. وليس هذا مقصوراً على اللغات المختلفة في حروف هجائها كالعربية واللغات الأوربية، بل يصدق كذلك على اللغات المتفقة في حروف هجائها كالفرنسية والإنجليزية. فجميع الكلمات الإنجليزية التي انتشرت في الفرنسية مثلاً عن طريق رسمها في الصحف والمؤلفات ينطق بها الفرنسيون في صورة لا تتفق مع أصلها الإنجليزي. - ; - ; ; ; ;. حتى أن

كثيراً منها لا يكاد يتبينها الإنجليزي إذا سمعها من فرنسي.
علي عبد الواحد وافي
ليسانسيه ودكتور في الآداب من جامعة السوربون
القبر التائه!
الأستاذ علي الطنطاوي
كم ذا يقاسي العاشقون ويألمون، ولا يدري بهم أحد، ولا يبلغ وهم إنسان تصور ما يعانون.
كم للحب من شهداء عاشوا بائسين، وقضوا صامتين، فما حازوا مجداً ولا فخاراً، ولا اشتروا جنة ولا أمنوا ناراً. . . مساكين. . . يعيشون في دنيا الناس وليسوا فيها، يرون بغير العيون، فلا يرى الناس ما يرون، ولا يبصرون ما يرى الناس، يموت عندهم كل حي ما لم يتصل بالحبيب، ويحيا كل ذي صلة به حتى الجماد. . .
إن فكروا ففي المحبوب، أو تكلموا فعنه، أو اشتاقوا فإليه، أو تألموا فعليه. . .
فإن تكلمت لم أنطق بغيركم ... وإن سكت فشغلي عنكم بكم
وإن منحوا الدنيا باعوها كلها بقبلة أو شمة أو ضمة، ثم لم يأملوا إلا دوامها، أو الموت بعدها لئلا يجدوا فقدها، لا يألمون إن قال الناس مجانين، ولا يحزنون إن نالهم الأذى، بل ربما سرهم ما يسوء، إن كان فيه رضا المحبوب. . .
ويا ويلهم من العذال، ويا ويل الشجي من الخلي!
يلومون قيساً، لأنهم لا يرون ليلاه إلا امرأة كسائر النساء، ففي كل امرأة عوض عنها وبديل منها، ولو استعاروا عيني قيس فنظروا بها ساعة لرأوا ليلى هي الدنيا، وهي الأخرى، وهي الروح، لولاها ما كانت الحياة، ولا أضاءت الشمس، ولا أنار القمر، ولا بسم الروض، ولا ضحك الينبوع، ولا همس النسيم، ولا غنى الطائر، ولا كان في الدنيا جميل. . .
قصة الحب هي القصة الأزلية التي تتكرر دائماً، وتعاد أبداً، لا تمل ولا تسأم. وهل يمل حديث الحب ويحكم! نقرؤها كل يوم فلا نراها تبدل فيها إلا الاسم، فهي آناً قصة ليلى أو لبنى أو عفراء أو سلمى كرامة، وهي آناً قصة هلويز أو ماجدولين أو فرجيني أو شارلوت، ولا تغير إلا المنازل؛ فمن بطاح نجد إلى ضفة البحيرة، إلى ساحل الدنيا الجديدة، إلى ضلال الزيزفون. . . أما القصة فهي هي ما تبدلت ولا تغيرت. . . ولا يمكن أن تتبدل حتى تبدل الأرض غير الأرض. . .
على أن للحب مواسم، وله منازل، ينبت فيها كما ينبت النخيل في البصرة، والكرم في الشام. فمن منازله لبنان. . .
لبنان (شرقية والغربي) الذي برأه الله على مثال الجنة: روح وريحان، وحور وولدان، فمن حل فيه مؤمناً ذاق نعيم الخلود في دار الفناء، وأحس في الدنيا بسعادة الأخرى؛ ومن حل به غير مؤمن أذهب طيباته في حياته الدنيا واستمتع بها، وما له في الآخرة من خلاق!
لبنان الذي كان دار الأولياء والشعراء والسياح والزهاد، من كل عابد متبتل، ومحب هائم، وتائب أواب!
لبنان الذي جعل الله ماءه خمراً، وجماله سحراً، فلا تدري أهو السحر قد خيل لك أنك في جنة الخلد، أم هو السكر قد جعلك تحس التخلص من هذا العالم، الغارق بالدم الملتحف باللهب، وتشعر أنك تعيش في الأفق الأعلى عيشة اللذة الدائمة، والذهول الناعم الهنيء، وسط عوالم من النور تدرك ولا ترى.
لبنان الذي لا تدري أي شيء فيه هو أجمل: أذراه التي تبرقعت ببراقع الثلج فلم تبصرها عين حي من يوم خلق الله العالم، فعز بالحجاب جمالها حين ذل بالسفور الجمال، أم سفوحه الحالية بالصنوبر، أم القرى المنثورة على تلك السفوح، أم صخوره الرهيبة الهائلة، أم ينابيعه المتفجرة تفجر الحكمة على لسان نبي، أم أوديته الملتوية التواء الفكرة في رأس أديب لا يملك البيان عنها؟ وأيهُ هو أبهى: أصباح (بلودان) أم ظهيرة (الشاغور) من (حمانا)، أم الأصيل الفاتن في ربى (صوفر)، أم المساء الوادع في خليج (جونيه)، أم منجاة الملائكة في قمة (جبل الشيخ)، أم مسامرة الزمان عند (الأرز)، أو في (بعلبك)؟
أم أنت تؤثر هذا كله، وتتمنى لو شملته بنظرة منك واحدة، ثم ضممته إليك، ثم شددت

عليه، حتى أفنيته فيك، أو فنيت أنت فيه؟
تعالوا سائلوا سفوحه وذراه ووديانه ورباه، كم شهد من فصول هذه القصة الخالدة، قصة الحب. . . وكم أريق على صخوره من الحيوات والعواطف. . يطل جوابكم لو ملك الكلام. . . ولكنه أبكم لا ينطق والناس بكم لا يروون إلا تاريخ الوحشية المدمرة العاتية ويحفظونه أبنائهم ليكون لهم منه أظفار كأظفار الوحش، ومخالب كمخالب النسور، أما تاريخ الإنسانية العاشقة فإنهم يزدرونه ويترفعون عن حفظه، ويرون من الخطر على الأخلاق أن يدرس في المدارس!
. . .وكذلك أرى أنا. . . وهل أنا إلا من غزية؟
وإلا فمن يروي لي قصة هذا القبر التائه، الذي نأى عن موطنه، وفارق إخوانه، وطوف حتى استقر عند قدم صخرة هائلة من صخور (رأس بيروت)، يلطمه الموج صباح مساء، فيستغيث استغاثة غريق عاين الموت، ولا من مغيث!
قبر ضائع بين الصخور ليس ما يدل عليه إلا حجر منحوت نحتاً غير متقن، عليه كتابة قد براها الماء فلم يبق منها إلا أنقاض هذه الأبيات:
. . . . . .الشمس تطلع تارة وتغيب ... والليل يجمع شمل
. . . . . .وأنا محب لم أجد إلا الشقا ... أحيي الليالي
. . . . . .أفيجمع القبر الأحبة إن نمت ... ويكون
فمن (يا أهل بيروت) يعرف تلك القصة التي لم يبق منها إلا هذه الخاتمة الأليمة: قبر تائه، عليه شعر إن لم يحفل به علماء اللسان، كان حسبه أن يحفل به علماء القلوب؟
هل قي هذا القبر عاشق من لبنان يوم لم يكن قد فسد لبنان ولا عاثت فيه يد الحضارة، عرف فتاته في الطفولة الحلوة المبرأة التي تتهدى بين البيت السعيد، والحقل الخصيب، والمرعى الجميل، والكرم البهي، فكانا يلحقان الأفراخ (الصيصان) وهن بنات يوم واحد، قد خرجن من البيض كرات ذهبية من الريش الأصفر الناعم، تطير لخفتها مع النسيم، وتحل لحلاوتها في الفؤاد، فإذا رأتهما الدجاجة الأم، فأقبلت عليهما نافشة ريشها مستنسرة، خافا فارتدا إلى الجدي يلاعبانه، والجحش يركبانه.
وكان عالمهما صغيراً كله، والصغير من كل شيء فاتن محبوب. ومن منا لا يحب الصبي، والبنية، وفرخ الطائر، والهريرة، والكليب، وغصين الشجرة، وزر الورد، والكتيب، والقليم، وكل لطيف من التحف والطرف، ودقيق من الأشياء؟ من لا تنجذب إلى ذلك نفسه، ويحنو عليه قلبه؟
ثم كبرا، فكانا يصحبان القطيع إلى القمم القريبة وإلى الوادي. ثم أبعدا المرعى، فكانا يرافقان الشمس في غدوها ورواحها ويطوِفان تطوافها. ثم اكتمل جمالها وتمت رجولته، وكذلك تؤتي الفضيلة أكلها إذا عاشت تحت عين الشمس في الأعالي التي لا ترقى إليها جراثيم المرض وأمهاته، فصارا يقاسمان الكبار السمر على (المصطبة) في ليالي الصيف، وفي (العلية) في الشتاء. ومرت الأيام، فإذا هي فاتنة القرية وحسناؤها، وإذا هو بطل
الديرة ورجلها، ومقدم الشباب في المصارعة، وحمل الأثقال، والعدو، والسباحة، وتلك هي مفاخر الشباب الجبلي في تلك الأيام. وكان رقصهم الدبكة على (اليادل) أو على (دلعونة) وكان هو شيخ الدبكة.
وكان الحب قد ولد في نفسيهما، فكانا يجلسان على قلعة على شفير الوادي، يرعيان هذا الحب الوليد، ويدعان القطيع يرعى بنفسه، وكان لها عنده مثل الذي له عندها، فما الذي فرق بينهما؟ أهو المال أم الدسائس أم قد زوجوها من غيره. أم ماذا، من يحفظ قصتهما يا أهل بيروت؟
وكيف عاشت من بعده، وكيف عاش من بعدها؟
أم كان متكئاً في زورقه، يرقب الشمس وهي في موقف الوداع صفراء شاحبة، لا يحفل بها أحد ممن كان في الميناء، لأن هموم العمل لم تدع في قلوبهم مكاناً للشعر. فأيقظه من غفوة التأمل أسرة تريد أن تجول في البحر جولة في الزورق. . . هنالك رآها، واستقر حبها في قلبه، ولم يكن بذي صاحبة ولا ولد، فهام بها هياماً وقلب الأرض يفتش عنها عله يحظى منها بنظرة فلم يلقها. فعاش بقية عمره يتجرع غصص الألم المكتوم، حتى مات حيث لقيها، ودفن حيث مات.
وهذا الحب هو النار التي تأكل القلب. . . وما قرأت مرة قصة القاضي ابن خلكان إلا

رحمته مما يقاسي. وكان يبيت وحده في المدرسة العادلية الكبرى (دار المجمع العلمي بدمشق) فإذا أراد أن ينام تمثلت له صورة المحبوب، فغلى دمه في عروقه وفار، فأقبل يدور حول البركة ويقول:

أنا والله هالك ... آيس من سلامتي
أو أرى القامة التي ... قد أقامت قيامتي
حتى يؤذن الفجر، وكان يحب من ليس فوقه إلا السلطان

قلت: ومن هنا ما تجدون من الذوق في ترتيب كتابه (وفيات الأعيان) وما يختار فيه من الشعر!

أم أن هذا قبرها هي، يقوم على الشاطئ، على مسرح المأساة التي طالما مثلت عليه وأعيدت

هنا كانت تقوم ترقب عودته من المهجر من أمريكا، تذكر أبداً كيف ودعته بالدموع الغزار، وودعها بزفرة وعناق، ومناها الغنى والجاه والعودة القريبة؛ وانقضت الأيام وكرت الشهور ولا حس ولا خبر. . . والفتاة ترقب وتنظر وقد عافت عشها، وجفت أهلها، واختصرت دنياها كلها، فكانت هذه الصخرة الصلعاء التي شهدت مبدأ آلامها وتأمل أن تشهد نهايتها، تظن من حبها وتذكرها أن السفينة لا تزال قريبة منها، وأن الحبيب يلوح لها بمنديله. . . وبينها وبين الحبيب بحار ولجج، وأيام وليال، والحبيب قد سلاها ونسيها، وطمست صورتها في نفسه أمواج الثروة واللذة والدنيا العظيمة في نيويورك حتى محتها. . .

فماتت شوقاً إليه، وأسفاً عليه.

أم هي لم تمت وإنما شهدت عودته، فإذا هو قد عاد رجلاً غير الذي ذهب، لم يبق فيه من ابن القرية إلا كما يبقى من ندى الصباح تحت شمس الهاجرة، لا زيه زيه، ولا لسانه لسانه، فأعرض عنها وازدراها. ورأت إلى جانبه فتاة من بنات (باي باي). فخولطت وعادت إلى صخرتها تنتظر عودة من ليس يعود، حتى وافاها الأجل، فدفنت مكانها؟

أم هو قبر عاشق ماتت حبيبته كما ماتت ليلى، فعاش بعدها كما يعيش كل حبيب يائس؟

أم كانت قصة هذا القبر شيئاً آخر، فمن يعرف هذا الشيء؟

من يهتم بشهيد من شهداء الغرام؟ من يعنى بضحية من ضحايا العواطف؟ من يبكي المحب المجهول، ويقف على قبره وقوف الناس على قبر الجندي الجهول؟

يا رحمتاً للعاشقين! حبهم يائس، وميتهم منسي، وحديثهم ضائع. . .

يا رحمتاً للعاشقين! لا يقام لشهيدهم قبر، وإن أقيم له لم يقف عليه أحد، ولم يحفظ تاريخه.

ويا ضيعة هذا الكنز الأدبي العظيم، هذه الدنيا من العواطف لم يبق منها إلا ما أودع ديوان (العتابا) فمن يعنى بجمع هذا الديوان ونشره في كتاب؟

ألم تعلموا بعد أن في هذه العتابا من الصور والمعاني ما لا يملك بعضه غزل شعراء العرب كلهم مجتمعاً؟ فمن يهتم به؟ ومتى يأخذ الشعراء هذه الصور والمعاني فيودعونها الشعر الفصيح؟

وبعد فيا أهل بيروت

إذا جزتم هذا القبر التائه، فقفوا عليه كما تقفون على قبر الجندي المجهول؛ وقدسوا فيه

المحبة كما تقدسون هنالك البغض، وكرما فيه الحياة، فالحياة الحب والحب الحيات، واجعلوه تمثال العاطفة، فالعاطفة فوق العقل، والإنسان إنسان بالعواطف لا بالتفكير. . .

لا تحقروا العاطفة، ولا تزدروا القلوب، فإن القلب منزل اقدس شيئين في الوجود: الإيمان والحب. وحسب العقل جموداً وعجزاً أنه لا يستطيع أن يفهم الحب ولا يدرك الإيمان. وحسب العاطفة كرماً ونبلاً، أن من ضروبها حب الوطن والوفاء، والإحسان والرحمة، وذلك ما يميز الإنسان من سائر الحيوان. . .

ونحن اليوم في حاجة إلى الإيمان بالعاطفة الخيرة، فلنجعل الحب العفيف وسيلة إليها، ولنتخذ منه سلاحاً نحارب به الفسوق والدعارة، والغلظة والوحشية، ولنستكمل به

إنسانيتنا فمن لم يعرف الحب لم يكن له قلب.
إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى ... فكن حجراً من يابس الصخر جلمداً
علي الطنطاوي
إلى الدكتور زكي مبارك
للأستاذ محمود غنيم
سيدي الدكتور:
طالما ترددت في الكتابة إليك لتهيبي من قلمك، وأخيراً وجدتني مدفوعاً إلى ما أتوق بعامل خفي ذي مصدر مجهول.
ولست من أولئك المكلفين بالمصاولة وبالمجادلة ولا ممن يرغبون في مهاجمتك حباً في ثورتك أو إرضاء لغريزتك التي حار في مرادها - على ما أعتقد - الكثير من زملائك: فمن حاول منهم الارتقاء بك أحجم عن ذلك مخافة وصفك له بالملق والمصانعة، ومن تحدثه نفسه بنقد خطوة من خطواتك لدغته في غير ما هوادة ولا رفق، ومن سكت عن ذكرك بخير أو بشر وصفته بالجمود والخمول والنوم.
وقد استخلصت من تتبعي لك واقتفائي لأثرك: أنك أخطر مخلوق في الوسط الأدبي؛ فلم ينج من سنان قلمك - على ما أظن - إلا نسبة ضئيلة من أدباء هذا العصر سواء في ذلك من يضمر لك الخير ومن يتمنى لك المكروه، كما تساوى أمامك من تدين له بصقل لسانك وسلامة تفكيرك، ومن شرب من منهلك واستظل بظل ثقافتك.
رأيتك يا دكتور تطل على ذاك الجمع الزاخر من علو شاهق غير عابئ ولا مكترث بما قد يكون مخبأ لك من سقطة أو سقطات تهوي بك من ذلك العلو إلى هوة تجر عليك شماتة الشامتين، وكلهم بالمرصاد. ولست بصدد مناقشة آرائك ومعتقداتك وموقعها من آراء ومعتقدات من تتصدى لهم أو يتصدون لك، أو حيال الحكم لك أو عليهم، فقد تكون عادلاً في كل ما قلت، وقد يكونون محقين في ذكر ما يدعون، وبالعكس؛ ولكني أمام موقفك من أعصابك التي تطالبك في إلحاح بإعطائها برنامجاً منظماً يخدم نواحي لا يناقض بعضها بعضاً، وتطالبك كذلك بالترفق حين الزج بها في تيارات مضطربة الاتجاهات.
وعلى هامش نقدي لأعصابك يا دكتور أقرر أن الأدب مدين لثورة تلك الأعصاب بالشيء الكثير وبدرر غاليات تزن ثقل ما لك من خصوم في هذا البلد. وإذا كانت تلك الثورات واحدة من اثنتين من تجاربك في ازدهار أدبك فأنا أهنئك مغتبطاً بنجاح تلك التجربة وأطالبك في رفق بإجراء التجربة الأخرى: نريد أن نقرأك يا دكتور هادئاً كالنيل في غير
إبان الفيضان، وكالغصن عند سكون الريح، وكالوردة قبل أن تهاجمها أشعة الشمس وأعين الرقباء.
لو كنت يا دكتور من أشرار الأدباء - إن كان بين الأدباء شرير - أو كنت من أدباء الشرور (إن وجد بين ذخائر الأدب شر) لما ترددنا لحظة من يوم أن ظهرت على المسرح الأدبي في الحكم عليك بما فيك، وقدمنا لك حسابك وأسلمناك لما تقوم به من صراع، ووقفنا في صفوف المتفرجين، أو قبعنا في زاوية بمنأى عنك بعيدين عما يصب عليك. ولكنك رغم إقلاقك للنائمين من مضاجعهم بصوتك المدوي نلمس إخلاصك ونؤمن برقة إحساسك.
نريد أن نحكم عليك يا دكتور بعد أن تجري التجربة الباقية وبعد أن اجتزت التجربة الأولى بكل نجاح.
وإلا فاجعل لنا يوماً من نفسك على صفحات (الرسالة) تحدثنا فيه بالصراحة التي نعدها من أهم مقوماتك - عن زكي مبارك كما يعرفه زكي مبارك، شارحاً لنا وجهتك في الحياة الأدبية التي نعتقد أنك تعيش فيها منفرداً، فأنت أجدر من يتحدث عن نوايا النفوس.
(إدكو)
المخلص
محمود غنيم
سيجموند فرويد
العالم النفساني الكبير

زاول (فرويد) بعد عودته من فرنسا مهنة الطب بمدينة فينا وانصرف إليها يمارسها بالعناية التي انطبعت عليها نفسه والتي وصفناها في المقال الماضي.
وكان قد عرف قبل رحلته إلى باريس طبيباً يدعى (جوزيف بروير) فانضم إليه بعد أوبته واشتركا في مزاولة مهنتهما.
تحدث هذا الطبيب إلى (فرويد) قبيل سفره عن فتاة هستيرية أصيبت وغموض القوى الواعية، وروى له أنه لاحظ أن حالة الفتاة تتحسن كلما استطاعت التحدث ملياً عن نفسها. وكان لهذا السبب يصغي في صبر لحديثها عندما تترك فيه المجال لواهمتها الشعورية، وأنه لاحظ أن اعترافات الفتاة متقطعة، وأنها تخفي عن قصد أشياء يظهر أنها لعبت في حياتها دوراً هاماً، وكانت من مسببات علتها. فخطر له أن يستعمل التنويم المغناطيسي على أمل أنها، وهي معدومة الإرادة في حالة السبات، تبوح بما تخفيه في يقظتها. وهكذا استطاع أن يعرف من الفتاة أنها بينما كانت تعنى بوالدها المريض أحست في نفسها بمشاعر كبتتها لأسباب أخلاقية فاتخذت هذه المشاعر شكلاً آخر برز في أعراض مرضها. وكانت أعراض الهستيريا تزول كلما باحت بحقيقة الأمر.
لم يجد (بروير) في هذه الفتاة غير حادث مرضي استطاع كشف الستار عنه ومعالجته.
أما (فرويد) فشعر بغريزته العميقة أن الأمر أشد خطراً مما توهمه صاحبه، وأنتهي من ذلك إلى هذه الحقيقة وهي أن (قوى النفس تتحول عن مراكزها) وأنه يجب أن يوجد في العقل غير الواعي قوة عاملة تحول الشعور عن مجراه الطبيعي وتقذف به إلى مظاهر نفسية أو طبيعية.
ولما كان هذا العارض الذي كشف عنه (بروير) يؤيد الاختبارات التي شاهدها (فرويد) بباريس ويبرزها في صورة جديدة، استقر رأي الزميلين على متابعة أبحاثهما التي قصدا
إليها في طريق مظلمة وعرة. وهكذا وضعا كتاب (العمل النفسي في عوارض الهستيريا) الذي ظهر سنة 1893 و (رسالة في الهستيريا) ظهرت سنة 1895 فكشفا عن حقيقة هذا الداء في كتابيهما وأبرزاه تحت ضوء جديد.
وقررا للمرة الأولى في علم الطب أن الهستيريا ليست من علل الجسم الأصيلة ولكنها اضطراب ناتج عن صراع داخلي لا يشعر به العليل نفسه وأن تحت ضغط هذا الصراع تظهر عوارض هذا الداء، وهو انحراف مرضي.
تنتج إذن الاضطرابات النفسية عن كبت العواطف كما تنتج الحمى عن التهاب داخلي، وكما تهبط درجة حرارة المحموم عندما يجد الالتهاب منفذاً، كذلك تزول أعراض الهستيريا عندما يستطاع التفريج عن العواطف المكبوتة (والسير بها في السبل الطبيعية حيث تتركز القوى الشعورية منبسطة في حرية بعد أن كانت ملتوية أو بعبارة أخرى مخنوقة، وكان هذا الخنق سبباً لاستمرار عوارض الداء).
على أن الزميلين، (فرويد) و (بروير) انفصلا بعد لأي لأنهما كانا قد وصلا إلى نقطة لم يتفقا عليها. كان بروير طبيباً يخشى خطر الاعتماد المطلق على علم النفس ويصرف همه إلى وسائل معالجة الهستيريا والشفاء من أعراضها، بينما صار (فرويد) الذي اكتشف في مواهبه ميلاً إلى علم النفس مأخوذاً بالعوارض النفسية وبالأسرار التي يكشف عنها تبدل العواطف، وقد أثار فضوله أن هذه العواطف تكبت فتقوم مقامها عوارض جسمية فاستمر في البحث حتى بدا له أن هذه الظواهر تصح أساساً للتحليل النفسي، وأنها تفتح أبواب عالم جديد قائم على العقل غير الواعي، فوقف حياته منذ ذلك العهد على (درس المناطق غير الواعية في الحياة والنفس)، وكان ذلك أساساً لمذهبه الجديد الذي نفصله فيما يلي:
كان علماء النفس قبل (فرويد) يعرفون أن الطاقة النفسية لا تتلاشى كلها في عمل العقل الواعي، وأن هناك قوة أخرى خفية تؤثر في حياتنا وتفكيرنا، ولكنهم كانوا يجهلون هذه القوة ولا يحاولون إدخال العقل غير الواعي في محيط العلم والتجربة.
كان علم النفس أيامئذ، أي قبل سنة 1900، وهو العهد الذي قرر فيه (فرويد) نظرياته، لا يهتم بالأعراض النفسية إلا بقدر ما تدخل في دائرة الوعي الواضحة، فلا

تدرس العاطفة إلا إذا ظهرت تماماً، ولا يعنى بالإرادة إلا إذا أملت مشيئتها فعلاً؛ وهكذا كان علم النفس
يستبعد كل الظواهر النفسية التي لا تطفو على سطح الحياة الواعية في شكل بارز.
رأى (فرويد) أن العقل لا يعد مصدراً لكل عمل نفسي، وأن العقل غير الواعي ليس طبقة سفلى يختلف عن الأول ويخضع له؛ وقرر أن كل الأعمال النفسية ناتجة أولاً عن العقل غير الواعي، أو ما دعوه بالعربية العقل الباطن، وأن الأعمال التي نعيها لا تختلف عن الأولى ولا تتفوق عليها، لأن وعيها نتيجة عمل خارجي. ومثل هذا كمثل النور حين يضيء بعض الأشياء، فهذه الأشياء موجودة وجوداً مادياً، ولكن النور يجعلنا نراها فليس النور الذي أوجدها لأنها عالقة بالعالم الطبيعي سواء أكانت ظاهرة لتسليط النور عليها، أم مختفية تحت ستار الظلام حيث نستطيع أن نتعرف باللمس شكلها وحجمها.
وهكذا يجد (فرويد) أن (غير الواعي) لا يعني المجهول أو (غير المستطاع الوصول إليه)، كما كان يظن العلماء من قبل وقد اعتقدوا أن في النفس خزاناً مظلماً راكداً أو مستودعاً يحوي المنسيات والمختلفات، فتستمد الذاكرة منه بين وقت وآخر أشياء بمعاونة العقل الواعي. وكانوا يعتقدون كذلك أن عالم غير الواعي عاطل في نفسه لا عمل له ولا شأن له كأنه حياة انصرم عهدها وماض مدفون لا أثر له في عواطفنا الحاضرة.
أما فرويد، فقد رأى أن غير الواعي ليس من رواسب النفس بل هو مادتها الأولى ولكنه لا يصل إلى سطحها المستنار بالوعي غير جزء يسير منه. ولا يعني طي بعض أجزاءه أنه عقل ميت أو أن لا قوة له، لأنه في الحقيقة حي عامل يؤثر في تفكيرنا وعواطفنا، ولعله أقوى العوامل في حياتنا النفسية. وعليه فإنه يخطئ من لا يحسب حساب الإرادة غير الواعية في كل ما تعمله وتمليه، لأنه ينفي العنصر الدخيل في قوانا الداخلية.
ليست حياتنا مظهراً حراً للعقل الواعي يسيرها كما يشاء، وليس عالمنا ملكاً لإرادة واعية تسيطر عليه. إن من ظلمات العقل الباطن تنبع الأنوار التي تلقي ضوءها القوي على أعمالنا، وفي أعماق عالم الغرائز تتألف العواصف التي تسيطر علينا وتغير المجرى الطبيعي للحياة التي كان مقدراً لنا أن نعيشها.
تلتقي في هذه الأعماق المظلمة من طبقات النفس البشرية العواصف التي مرت بالوعي في حين من الزمان، ورغبات الطفولة المنسية التي يظن أنها دفنت إلى الأبد، والمخاوف والأهوال التي قيل أنها زالت ومحي أثرها، وهي جميعها تضطرب حيرى قلقة عطشى إلى
الظهور بواسطة الأعصاب.
لا يعيش هذا جميعه في أعماق النفس فحسب، بل هناك أيضاً شهوات الأجيال التي انقرضت واحداً بعد واحد صعداً إلى عهد الهمجية، فتلتقي فيها الذاتية الهمجية بالذاتية المتحضرة وفجأة تتحرك الغرائز الأولية الجامحة فتمزق سجوف المدنية الشفافة وتبرز قوية عنيفة من العالم غير الواعي إلى العالم الواعي وتحاول أن تنال قسطها من العمل الحر، فيتولد صراع عنيف بين عاطفتنا الأخلاقية المتمدينة وبين غريزة اللذة الهمجية الدفينة فينا. ولا شك أن كل كلمة نتفوه بها، وكل حركة نأتيها، مظاهر لهذا الصراع الذي تحاول فيه العاطفة المتمدينة التغلب على غريزة اللذة، بل إن حياتنا النفسية كلها صراع دائم مؤثر بين الإرادة الواعية وغير الواعية، وبين العقل المسؤول والغريزة غير المسؤولة.
وقد شاء (فرويد) من هذا جميعه أن يفهم كل إنسان معنى اندفاعاته غير الواعية، لأنه ليس من المستطاع معرفة عواطف الإنسان إلا إذا أنيرت طبقات نفسه المظلمة، ولا يعرف أسباب اضطراباته إلا إذا انحدر إلى أعماق نفسه، وليست مهمة العالم النفساني أن يكشف للإنسان عما يعيه، كما أن الطبيب لا يستطيع أن يعالج المريض إذا جهل حقيقة عقله الباطن.
ولكن كيف السبيل إلى الوصول إلى أعماق النفس المجهولة؟ يعتقد (فرويد) أن العقل الباطن يعبر عن نفسه بإشارات ورموز، وأن على من يريد الكشف عن أسراه أن يتعلم لغته. وقد وضع (فرويد) أصول هذه اللغة على الطريقة التي جرى عليها علماء

الآثار المصرية حين كشفوا عن اللغة الهيروغليفية. فقد أخذ يبحث إشارة بعد إشارة ورمزاً بعد رمز حتى انتهى إلى تدوين لغة العقل الباطن ووضع قواعدها. وهكذا استطاع أن يقيم لعلم النفس أسساً جديدة على طريقة علمية، وأن يكشف عن عالم مجهول.

(للبحث صلة)

صديق شيبوب

ولز في كلمة موجزة

للأديب محمد جمال الدين أبو رية

حياته:

في مقاطعة كنت بإنجلترا سنة 1866، خرج ذلك الأديب النابغ، ذلك العقل الجبار، ليظهر للعالم أنموذجاً صحيحاً للأدب الفني، للقريحة الممتازة القليلة النظير.

حصل ولز الأديب على شهادة في العلم في سن مبكرة، ولكن أبى القدر إلا أن يذوق ذلك الأديب من تجاربه القاسية، فساءت حال ولز المادية، فاضطر أن يشتغل في محل للأقمشة، ثم اشتغل بالصيدلة، ثم اشتغل بالتدريس. فكادت كل هذه التجارب تودي بحياته، إلا أنه اشتغل أخيراً بالتأليف والصحافة محافظة على حياته. وما من فنان أو عظيم بلغ أوج عظمته إلا وقد ذاق الأمرين.

لم يكن ولز كغيره من الأدباء، إذ كانت له نظرية فريدة، رفعته إلى المرتبة الأولى من الأدباء، فهو يصل الماضي بالحاضر متغلغلاً في أعماق المستقبل.

كانت قصص ولز الأدبية، قصيرة وطويلة، موضوعاتها منوعة، فقد عالج أساليب الحياة التي وصفها وصفاً دقيقاً، وكتب في الحب والحياة والموت والموضوعات العلمية.

وقد كانت تتخلل كتابات ولز قطع فنية، يكتبها بمداد من خياله الرائع الجميل مثل قوله:

(لقد كانت الزهرات تتدفق وتتعانق كألحان الموسيقى العذبة، وترفع إليَّ عيوناً كعيون الأطفال، وسرى إلى أذني غناء سحري من فم الزهر والأغصان والأوراق، وفجأة سمعت من أعماقها أغرودة طائر وخفق جناح مرتاع. . . الخ).

كان من أهم مميزات ذلك الأديب الفذ. . . صدق حدسه عن المستقبل، حتى وصفه أدباء فرنسا في ذلك الحين بأنه (رجل الأحلام) ووصفوا أحاديثه بأنها (أضواء تخطف الأبصار).

أغراضه:

1 - اهتم ولز بالفرد، وأراد أن ينزهه عن التحبب إلى من يعلو عنه مرتبة وينزهه عن التسخير فيقول (وما الأهرام، وما تلك المشيدات الرومانية العظيمة إلا بيد الفرد المستعبد المسكين).

2 - ترى أن ويلز غاضب من الحكومات، غاضب من الزعماء، غاضب من الساسة، لأنه يرى أن الزعيم لا يصل إلى المراتب العالية إلا بواسطة الفرد وإرضائه (رشوته). فهم يجتمعون ويتكلمون ويأدبون المأدب، كل ذلك لغرض واحد هو الوصول إلى الحكم ثم الاستبداد وحب الذات.

3 - يريد ولز أن تنتهي تلك الحروب وتخلق وحدة اقتصادية كبرى تشمل الدنيا، ووحدة مالية تحفظ العالم من الخراب والدمار.

ثم يرجع ولز فيبشرنا بالرخاء والرغد في المستقبل فيصيح قائلاً:

(إذن فاعلموا أني متفائل أرى الفجر يقترب، وأرى البشائر في حواشي الأفق).

ألا ترى بعد ذلك أن ولز ذلك الأديب يستحق بعض وقتك في قراءة تاريخه وكتبه.

(المنصورة)

محمد جمال الدين أبو رية

إلى معالي وزير المعارف

التعليم الزراعي

- 3 -

(هذا الفلاح المزيف لا يصلحه تنظيم قريته ولا تجميل داره؛

إنما يصلحه تربية ذوقه وإرهاف حسه. فإن صاحب الذوق

يبني الدار الجميلة ويخط الحديقة البهيجة؛ أما فاقده فخليق به

أن يجعل القصر زريبة والبستان مزبلة)

(الزيات)

ثانياً: المدارس المتوسطة

الآن أطوي صفحة المكتب الزراعي وإنه ليروعني أن يعيش هذا الفرع من التعليم الزراعي خمس سنوات لا يحس به جل من يعنون أنفسهم بالبحث في فروع التعليم، وإن كثيراً ممن اشتغلوا بالتعليم الزراعي لا يعرفون عن المكتب الزراعي إلا قطرات لا تبل غلة. ولقد سألني صديق من ذوي الرأي والمكانة في دهشة: (وماذا عسى أن يكون المكتب الزراعي؟) قلت: (هذا نوع من التعليم أسدلت عليه سجف كثيفة خشية الفضيحة).

وبعد فلا عجب إن امتد الزمن بالتعليم الزراعي خمساً وعشرين سنة لا يفيق من غفوته ولا يتخفف من ثقله، فهو لقي في ناحية الوزارة لا يستشعر وجوده أحد، ولا يجد هو من يهتك عنه أستاره ليتكشف أمام الملأ في غير تمويه ولا زيف. وأنا حين أجرد القلم ليرفع صوت التعليم الزراعي وينشر شكاته على أعين أولي الأمر لا أبتغي سوى كلمة الإنصاف أول قول الحق.

النظام و (فوضى النظام)

لا ريب فالطالب الزراعي خَلْقٌ شاء هو، أو شاء له القدر، أن يتحلل من أثقال الدراسة ليقضي سنوات في مدرسة ليست هي في رأيه مدرسة ولكنها بعض متع الحياة؛ وفي خاطره أنه سيطرح نصب الاستذكار وكد المطالعة وعناء الدرس. . . سيطرحها جميعاً وراء ظهره، لأنه سيكون فلاحاً نظيفاً يغدو إلى الحقل ويروح إلى المدرسة ينعم بالهواء الطلق ويمرح في الفضاء المنفسح، وينشق الحرية اللانهائية؛ يأكل وينام ويلعب ويهدأ متى شاء وأنى أراد؛ ثم هو بعد ذلك لا يستشعر بأساء الاختبار، ولا شدة الامتحان، ولا غلظة الدرس، ولا جفاء المدرس. . . ثلاث سنوات تمر مر السحاب، فإذا هو رجل يحمل بين يديه (دبلوماً) فتفتح أمامه مغاليق الحياة، وتهش له مصالح الحكومة!

يا ما أحلى هذه الأحلام حين تطيف بخيال الفتى وهو غر قد وقفت به همته عن أن يبلغ مبلغ الرجال، أو أعجزته الوسيلة عن أن يسمو إلى مراتب التعليم العليا، أو ضاقت به فرج التفكير عن أن يصل إلى الغاية!

هذا هو الطالب الزراعي، وإن نزوات الشباب لتتوثب في رأسه توحي إليه بأنه يوشك أن يكون رجلاً يعرف كل شيء في حين أنه يخرج من مدرسته لا يعي شيئاً، وهو أجهل ما يكون في الزراعة التي وقف عليها ثلاث سنوات من عمره.

ويغتمر الطالب في خضم هذه اللجة فتصفعه الحقيقة المرة صفعة تطير لها هذه الرؤى الجميلة بعد أن يكون قد استشعر لذتها حيناً من الزمان؛ فتعود إليه نكسة اليأس حين يرى أن المدرسة التي فزع منها هي المدرسة التي زج بنفسه فيها؛ فهو هنا سيقرأ ويكتب ويطالع ويجلس على مقعد في فصل يسيطر عليه مدرس، ثم يتذوق مرارة الدرس ولذع الامتحان ونكد الرسوب و. . . فإذا هو هو الطالب الذي أخفق ويخفق مرات ومرات، الطالب الذي حطمته السنون العجاف، الطالب الذي جاء ليموت في التعليم الزراعي أو يموت به التعليم الزراعي.

وليت كل طلاب المدرسة من بيئة واحدة وثقافة واحدة ووسط واحد، إذن لاستطاع المدرس أن يوائم بين نوازعهم ورغباتهم، أو أن يجد الحيلة فينفذ إلى عقولهم وأخلاقهم. ولكن هذا الجمع - وا أسفا - خليط لا يمت الأول إلى الآخر بسبب؛ فالفصل الواحد يضم بين جدرانه أشتاتاً من الطلبة تضطرب في غير ترابط ولا وفاق: فالحجرة الواحدة تجمع بين الطالب في الخامسة عشر والطالب في الخامسة والعشرين، وتؤلف بين من نال شهادة إتمام الدراسة الابتدائية هذا العام وبين من قضى سنوات ثلاثاً في السنة الرابعة الثانوية، وتربط

بين من هو ما يزال في فتوة العقل ومن نخر اليأس حشاشة قلبه؛ وتلقى في ركن الفتى الريفي الذي رأى الغيط وجلس إلى الفلاح، وفي الركن الآخر الشاب الذي درج في المدينة وشب وترعرع ونما واشتد في حضن الحضارة الرفيق لا تربطه بالريف آصرة. . . وهكذا يصطدم المرء - أول ما يتغلغل في المدارس الزراعية المتوسطة - بهذا الخلل الذي أسميه في غير تحرج (فوضى النظام).

و (فوضى النظام) تتسلل إلى المدرسة منذ أول يوم من أيام السنة الدراسية، حين تفتح المدرسة أبوابها على مصاريعها، لا تدفع طالباً ولا ترفض طلباً؛ ولقد تظرف معي

صديق فقال: (لعل كل هم مدارس الزراعة أن تستنفذ ما عندها من استمارات الدخول طلباً للربح، كدأبها في منتجاتها ومحاصيلها، ولا عليها بعد ذلك!) وقال آخر: (وإنه ليتراءى لي لو أن (عربجياً) تقدم إلى مدرسة زراعية لقبلته بين طلبتها في غير غضاضة، ولا أنفة!) هذه عبارات كانت تحز في نفسي وتؤج في صدري، لأن فيها التهكم اللاذع والسخرية المرة. وليت شعري أي مدرسة في العالم تفتح أبوابها لكل من كان (أفندياً) يتأنق في البذلة والطربوش؟

وتدخل (فوضى النظام) المدرسة فتتشعب لتفعم القسم الداخلي والقسم الخارجي، والصلة بين المدرس والطالب، وبين المدرس والناظر، وبين المدرسة وأولياء أمور الطلبة، و. . . ثم إلى بيت المدرسين.

إن الاضطراب الذي رأينا - من قبل - بين جدران الفصل نشعر به أيضاً في أركان (العنبر) في القسم الداخلي، فهناك مهزلة العلم يمثلها المدرس وتلامذته على مسرح الفصل حين يجهد نفسه ليتغلغل إلى عقول التلاميذ، فلا يجد السبيل، وقد ضرب بينه وبينهم بسور لا يستطيع أن يظهره إلا لماماً؛ وهناك مهزلة الأخلاق يمثلها التلاميذ وحدهم على مسرح (العنبر)، وإدارة المدرسة إما لاهية وإما عاجزة، ولها عذر؛ فهي لا تستطيع أن تسدل حجاباً بين الطالب الكبير والطالب الصغير وهما يقضيان عمر اليوم جنباً إلى جنب، صديقين في الفصل وفي الحقل، ثم. . . ثم في (العنبر)، والكبير يوسوس للصغير ويزين له فيندفع فتنفرط أخلاقه فيهوى، وينفض السامر عن أشياء تصم جبين العلم، لأن كلاً منهما ينطلق يريد أن يشبع رغباته الشريرة على حين قد غفا الرقيب. . .

وهكذا نجد أثر التباين في السن والثقافة واضحاً في هذه المدارس، ولا سيما في القسم الداخلي. ومن الغريب أن النظام الداخلي يوشك أن يعم التعليم الزراعي المتوسط، في حين أنه قد ثبت فساده في التعليم العام.

لهذا جاء ناظر المدرسة وإن أوصاله لترعد من شدة الخوف والفَرَق. . . جاء ليحول بين الطالب والمدرس، وبين المدرس وولي أمر الطالب، يبذل في ذلك جهد الطاقة، ثم هو يرمي أشرف مبادئ التربية الحديثة بأقذع الهجاء وأقسى الألفاظ.

هذا الداء. . . داء اختلاط الشر بالخير، حري به أن يدفع أولي الأمر إلى أن يجتثوا أصول الشر ليذروا الخير وحده ينمو ويسمو في هذا الوسط. غير أن شيئاً في المدارس المتوسطة يقوي الشر وحده فيضوي له الخير، هذا هو داء (إعادة القيد) وهو أيضاً أثر من آثار (فوضى النظام).

وداء (إعادة القيد) هذا هو نظام احتال به الرئيس مرة ليعيد طالباً إلى مكانه في مدرسته بعد أن رسب سنتين في فرقته فرفت؛ فأصبح قانوناً. وهذا الضرب من الطلبة هم الشر المحض الذي يتخلل أثناء المدرسة، وهم الفئة الباغية التي يجب أن تستأصل من هذه المدارس ليجد الخير سبيله فيها.

وانسربت (فوضى النظام) إلى (بيت المدرسين)، وهو بيت خلقته يد الإصلاح ليسكنه جماعة من المدرسين ليكونوا إلى جانب تلاميذهم، يراقبونهم ويهيئون لهم وسطاً علمياً أدبياً يستروحون من خلاله نسمات الهداية والرشاد؛ غير أن الانكماش الذي أرادهم عليه الرئيس نفث في هذا البيت معنى آخر، فأصبح خلوة للمدرس، وحاجزاً بينه وبين تلامذته؛ أو هو كبعض (تكايا) العهد البائد يسكن فيه المدرس ويأكل ويستمتع بالراحة والهدوء، لا يشعر بتكاليف الحياة ولا مضض العيش، دون أن يدفع من ثمن ذلك في الشهر إلا دريهمات لا تكفي غيره سوى يوم أو بعض يوم، وهذا البيت نفسه بعث في المدرس روح الكسل والتراخي والتواكل والحرص، فما فيه من نشاط جسمي ولا عقلي، وما فيه من فرحة للنفس ولا لذة للقلب؛ وإذا قدر لإنسان أن يرقى إلى بيت (المدرسين) ألفى هناك شراذم من المدرسين يزجون الوقت بين الهذر والمزاح والنرد والورق و. . . ثم لا يجد سوى بقايا مذكرات قديمة وأوراق متناثرة وجرائد ومجلات هزلية، أشياء مما تنحط بالعقل والتفكير،

ثم لا يعثر على كتاب أدب ولا رسالة في علم ولا نشرة زراعية ولا بحث في موضوع ولا. . . ولا. . . مما يرقى بعقل المدرس ويفيد الطالب.

(للموضوع تكملة)

(*)

رسالة الشعر
الهوَى يُغَنى
للأستاذ أنور العطار
يَا فُؤَادِي لَوْلاَكَ مَا هَدَّنِي الشَجْ ... وُ وَلاَ ذُبْتُ حَسْرَةً وَشَقَاَء
كنْتَ تَشْكُو وَكنْتُ آسَى لِشَكْوَا ... كَ وَأسْتَنْفِدُ الدُّمُوعَ بُكَاَء
وَأُسَلِّيكَ مَا وَدِدْتَ التَّسَلِي ... وَأعَزِّيكَ مَا حَبَبْتَ الْعَزَاَء
أرْقَأُ الدَّمْعَ خَيْرَ مَنْ رَقَأَ الدَّمْ ... عَ وَأطْوِي الْجَوَى وَأُقْصِي الدَّاَء
يَا فُؤَادِي لَوْلاَكَ مَا بِتُّ لَيْلِي ... سَاهِدَاً أَصْحِرُ النُّجُومَ اشْتِكَاَء
أَتَنَزَى أسَىً وَأنْتَ مِنَ الوَجْ ... دِ تَعُبُّ الظِّلاَلَ وَالأَنْدَاَء
وَتَرَى اللَيْلَ خَيْمَةً للتَّمَنِّي ... تُلْهِمُ الشِّعْرَ وَالهَوَى وَالغِنَاَء
هَاهُنَا يَرْقُدُ الْهُيَامُ كَئِيباً ... مَصَّهُ الْيَأسُ فارْتَمَى إعْيَاَء
هَاهُنَا تَسْتَرِيحُ دُنْيَا مِنَ الأشْ ... وَاقِ تُغْرِي الأُلاّفَ والشُّعَرَاَء
هَاهُنَا تَهْدَأُ المُنَى غَيْرَ نَجْوَى ... تَغْمُرُ الرُّوحَ هَاجِساً وَنِدَاَء
الْهَوَى جَدْوَلٌ يَظَلُّ يُغَنِّي ... يَتَنَدَّى بَشَاشَةً وَرُوَاَء
مَنْ يُسَايِرُ ضِفَافَهُ الْخُضْرِ يَهْتَ ... زُ مِرَاحَاً وَيَسْتَعِرُ خُيَلاَء
وَيَغِبْ في رَغَادَةِ الفَرَحِ السَّم ... حِ وَيَنْسَرَ الحَيَاةَ وَالأَحْيَاَء
ذَلِكَ الجَدْوَلُ الشَهِيُّ المُوَشَى ... حُلُمٌ يُلْهِبُ الْقُلُوبَ اشْتِهَاَء
رَفَّ بَيْنَ المُرُوجِ وَالقَلْبُ ضَمْآ ... نُ يُنَاجِي الأَمْوَاهَ والأَفيَاَء
نَضْرَ الْعُمْرَ فِي خَيَالِي وَهَزَّ ال ... كَوْنَ بِشْرَاً وَزَيَّنَ الأَشْيَاَء
أنور العطار
صفحات من الحب العظيم
الخلوة الأولى
في أرض الجزيرة على النيل
للأستاذ محمود الشرقاوي
في خلوةٍ كان الهوى بيننا ... وكانت النجوى وكانت دموع
وكانت الشكوى وكان الجوى ... وخافقٌ يضرب بين الضلوع
سقْيتني من روحك الطاهر ... عذبَ هوىً كنتُ إليه ظِمى
رويت فيه ظمئي وانتشى ... قلبيَ منه وجرى في دمي
شكا كلانا ما به وانثنى ... يستمع الشكوى إلى جاره
يستمع الشكوى وفي قلبه ... دنيا من الوجد ومن ناره
ومرَّت الساعات تعدو إلى ... حيث تهاوى في قرار سحيق
ونحن في خلوتنا نشتهي ... أن ينقضي الدهر وما إن نفيق
حتى أتت ساعتنا للوداع ... ثم وقفْنا موقفاً موجعا
مدْدت يمناك وأبقْيتها ... في قبضتي ثم صمْتنا معا
وقلت لي: كيف سأبقى إلى ... أن يصبح الصبح؟ أما تتَّقي!
يا حسرتا لي! نتوالى الليال ... لا نشتكي فيها ولا نلتقي!
بالله قل لي كيف كان الهوى ... وكنت بَعدي يا طويل الغياب
وكيف تُقضَى ليلةٌ في الشتاء ... بغير شكوى في الهوى أو عتاب
وكيف بالليل تولّى ولا ... تسمع فيه زفرةً من شجوني
وكيف بالأيام تمضي ولا ... تشهد فيها دمعةً من عيوني
يا قاسي القلب، أما تشتهي ... أن ترجع الأيام تلك العهود؟
أين الوفا منك وميثاقه ... وأين منه اليوم هذا الجمود
أين ليالينا وأيامنا ... ما بين شكوى في الهوى أو عتاب
إذ نتلاقى في الضحى والمسا ... ونشتكي في الصبح مرّ الغياب
طال ندائي لك في خلوتي ... وطال حرماني وطال العذاب
من بعد أنسى منك في وحدتي ... يوحشني بعدك بين الصحاب
هلّم نسترجع عهداً مضى ... كنت لقلبي فيه دنيا المنى
هلّم نسعد بكؤوس الرضى ... من بعد ما ذقنا كؤوس الضنى
هلّم نفرح بعد هذا النوى ... ونسدل الستر على ما مضى

أسقيك من روحيَ صِرف الهوى ... ونملأ الكأس بخمر الرضى
هيهات! لا قلبي له مسعد ... ولا حبيبٌ قربه يرتجى
بل أمنيات أشتهي أن تكون ... أشقيت عمري وهي ليست تجى
محمود الشرقاوي
نشيد
لك روحي. . .
للأستاذ أحمد فتحي مرسي
لكِ رُوحي فاسلمِي مصرُ وسودِي ... وابْلغِي بالمجْدِ هَامَاتِ الوُجودِ
من صُعودٍ للسَّمَا نحو صُعودِ ... وَبَقِينِ بالعُلا بَعدَ يَقِينْ
لكِ صَدْرِي فاتَّقِي سَهمَ المنُونِ ... وَيَمِينِي إنْ وَنَتْ شُلَّتْ يَمِيني
إنْ عَدَا العَادِي على الوادِي الأمينِ ... أَوْرَدَتْهُ القَبْرَ أيْدٍ لاَ تَلِينْ
إنني نَسْلُ جُدُودٍ خَالِدينَا .. مَلأوا الدُنْيَا جُنُوداً وَسَفِينا
لاَ تَقُلْ مَا كَانَ مِنْهُمْ لَنْ يَكُوناَ ... كلُّ مَا هَوَّنْتَ مِنْ صَعْبٍ يَهُونْ
صُلَّبٌ فِي حَقِّ أوْطَانِي فَإنْ ... لاَنَت الأحْجَارُ فيهَا لَمْ أَلِنْ
قَدْ سَقَانِي نِيلُهَا، إنْ لَمْ أكُنْ ... حَامِيَ النيلِ فَمَنْ غَيْرِي يَكُونْ؟
سَلِمَتْ مصرُ وَسَادَتْ فِي الْحَيَاهْ
فِي عُلاَ (الفَارُوقِ) تَعْلُو وَحِمَاهْ
جَلَّ رَبِّي مَنْ رَعَاهَا وَرَعَاهْ
أنَا فِي الرَّوْعِ فِدَاهَا وَفِدَاهْ
أيُّها الجنُدِيُّ قُمْ وَافْدِ الحِمَى ... وَابْلُغْنَ بِالنِيلِ أَسْبَابَ السَمَا
لاَ تَقُلْ: أعْجَزُ عَنْهَا، إنَمَا ... خَلَقَ العَجْزَ خَيَالُ العَاجِزِينْ
هَذِهِ الرَايَةُ فِي أوْجِ العَلاَءِ ... أنَا إنْ جُدْتُ فِدَاهَا بِدمَائِي
خَلَدَتْنِي كُلُّ حَيٍّ للفَنَاءِ ... لَيْسَ يَبْقَى غَيْرُ ذِكْرَى الخَالِدِينَ
يَا ثَلاَثاً هُنَّ خَيْرُ الأنْجُمِ ... أنْتِ: رُوحِي، وَحَيَاتِي، وَدَمِي
خَضْرَةُ الجَنَةِ فِي ذَا العَلَمْ ... وَبَيَاضُ الصُبْحِ وَالحَقِّ المُبِينْ
عشتَ يَا فاروقُ والدنيا فِدَاك ... وعُلاَ الأنجُمِ بَعْضٌ مِنْ عُلاَك
جَنَّةٌ للنيلِ ما شادتْ يَداك ... فاعمُروها بسلامٍ آمنين
سَلِمَتْ مِصْرُ وَسَادَتْ فِي الحَيَاهْ
فِي عُلاَ (الفَارُوقِ) تَعْلُو وَحِمَاهْ
جَلَّ رَبِي مَنْ رَعَاهَا وَرَعَاهْ
أنَا فِي الرَّوْعِ فِدَاهَا وَفِدَاهْ
أحمد فتحي مرسي
المحامي
رسالة العلم
قصة الفيتامين
الفيتامين المضاد للالتهاب العصبي أو فيتامين البري بري
للأستاذ عبد اللطيف حسن الشامي

زال كل شك على التقريب لدى من بقي متردداً في احتواء قشرة الأرز الرقيقة على هذه المادة الحيوية العجيبة المضادة للالتهاب العصبي، وخاصة بعد ما عزز اليابانيون هذه النظرية بنتائج قاطعة وقعت في جيوشهم وبحريتهم إذ كانت هذه تعتمد في غذائها على الأرز الأبيض المقشور، وكانت تقدم سنوياً ضحايا للبري بري من لا حصر لعدده من الرجال حتى بلغت نسبة الضحايا في بعض السنين أربعين في المائة من رجال القوات المحاربة مما تأثر به الجيش والبحرية، ولكن حدث بعد هذا أن أضرب عن طعام الأرز كغذاء رئيسي أساسي وأضيف إليه البطاطس والفواكه والدرنات وخبز الحبوب، فكانت النتيجة اختفاء مرض البري بري، وهذه الخطوة الأخيرة من أهم الخطوات العملية الجديدة التي خطاها البحث وقاوم بها الداء وكسرت بها شوكة المرض، ولا يلعب الآن هذا المرض إلا دوراً بسيطاً في تلك البلاد الآسيوية الشرقية التي عرفت الأهمية الصحية لما تحويه قشرة الأرز من المواد الحيوية، فأحلت الأرز

غير المقشور أو نصف المقشور محل الأرز المقشور، وقد لا يقدر قيمة هذا العمل الأخير أحد مثل الذين رأوا بعيونهم الفعل الوبيل للمرض الذي كان يتخطف الناس زرافات من الوطنيين وآكلي الأرز بعد أن يهلك أبدانهم ويضنيهم.

وربما يكتفي الإنسان في مثل هذه الأحوال في البلاد التي تعتمد في غذائها على الأرز اعتماداً كلياً بسن قانون يمنع تبييض الأرز. ولكن مثل هذا العمل لا يحل المسألة ولا يرضي الروح العلمية البحاثة التي تصبو إلى تقرير معرفة وتكييف طبيعة هذه المادة التي تمنع حدوث المرض وعلة وجودها في القشرة الفضية الرقيقة ضمن الطبقة البروتينية التي تكسو حبة الأرز؛ وقد توصل بعض لباحثين اليابانيين، وكذلك البيولوجي فونك الذي سبق

ذكره، وكان أول من وضع لفظ (الفيتامين) - إلى فصل وتحضير مادة من كساء (الطبقة الكاسية) الأرز كفت كميات منها متناهية في الصغر للقضاء التام على أعراض مرض الالتهاب العصبي الناتج من تناول الأرز المبيض غذاء أساسياً. وبعدئذ وعند تبويب وتصنيف الفيتامينات أطلق على الجزء الفعال من هذه المادة المحضرة الحرف الهجائي ولما كان الاسم العلمي للالتهاب العصبي هو المأخوذ من الإغريقية بمعنى أعصاب لقب هذا الفيتامين بالإنتينويريتيك.

وتوجد هذه المادة الحيوية في الأرز الغير المقشور بنسبة جرام واحد في كل ألف كيلو جرام أو بنسبة جرام ونصف في كل مائة كيلو جرام من نخالة الأرز (نخالة الأرز هي القشرة الداخلية للأرز التي تنزع عن حبة الأرز وتفصل عنها أثناء تبييضه) وقد استبعد وجود هذه المادة فقط في قشرة الأرز فدل البحث بعدئذ على وجود الفيتامين كذلك ضمن الطبقة البروتينية في الحبوب كالشعير والذرة والقرطم والقمح وفي بذورها كذلك، وقد لا يثير عجبنا غنى بذور تلك الحبوب بهذه المادة، فالبذرة هي مصدر الحياة، فلا بدع إن حملت كذلك المادة الحيوية اللازمة للبناء والنمو والحفظ، أما في داخل الثمرة (في الحبوب) أي النسيج الخلوي النشوي، حيث المستودع الغذائي للنبت الجديد، فيندر وجود الفيتامين أو ينعدم.

ولهذه النتيجة أهمية في حياتنا اليومية، فتقل إذن أو تكثر نسبة الفيتامين في الخبز الذي نأكله تبعاً للنسبة المئوية في طحن الحبوب أي نسبة إنتاج الدقيق من القمح المطحون، وهذا يعني كثرة وجود أو قلة النخالة والبذرة في الدقيق؛ فكلما قلت نسبة الإنتاج وقل وجود قطيعات النخالة والبذرة في الدقيق الأبيض الناتج قلت معه نسبة الفيتامينات؛ أما الدقيق ذو الإنتاج العالي أو الدقيق الكلي الذي يحوي معظم الحبة فنسبة وجود وهذا ما أثبتته التجارب الغذائية التي قامت للتدليل على التأثيرات المختلفة للفيتامين في أنواع مختلفة من الدقيق، وإحدى هذه التجارب قامت على تحضير عدة مجموعات من الفيران أطعمت كل واحدة على حدة نوعاً خاصاً من الغذاء من دقيق القمح والذرة والقرطم والشعير، فكانت أولى الضحايا هي المجموعة التي كان دقيق القمح من نصيبها، أما المجموعة المطعمة دقيق الشعير فقد مكثت أربعين يوماً حية رغم صنف غذائها الواحد - أما الفيران التي

أكلت من غذاء القرطم الأسود فلم يصبها أي سوء وذلك لاحتواء الدقيق الأسود على كميات وفيرة من الفيتامين.

ولم لا يصاب الإنسان إذن بتلك الأعراض القاسية للالتهاب العصبي إذا ما اعتمد في غذائه الخبز الأبيض لاسيما وقد أكد هذا القول نتائج تجارب قامت حول تغذية الحيوانات، فالكلاب إذا ما أطعمت بالخبز الأبيض فقط تمرض بالبري بري بعد أربعين يوماً والدجاج بعد عشرين، أما الفيران فيمضي اثني عشر يوماً. وفي كل هذه التجارب تلاشت أعراض المرض سريعاً عندما أضيف إلى دقيق القمح نخالة القمح، وإذا ما لاحظنا أننا قد لا نمرض إذا تناولنا الخبز الأبيض فإن لنا في بقية أصناف الطعام المتممة مصادر أخرى للفيتامين إذ نجد تلك المادة الأنتينويريتيكية خلاف الدقيق الأسود العالي الإنتاج في الخميرة بكميات كبيرة وفي الخضروات والفواكه الطازجة وفي الدرنات واللوز والبندق وصفار البيض واللبن والكبد واللحم الطازجة، ولا يتأثر الفيتامين كثيراً في هذه الأطعمة عند طهيها طهياً عادياً ولا يفقد قدرته الفعالة عند سواد الأطعمة فيمون الجسم بكميات كافية من الفيتامين عندما نتناول ألواناً مختلفة من الطعام العادي. وهنا تضرب الطبيعة مثلاً غريباً في القناعة، إذ يكفيها يومياً من

ثلاثة أرباع إلى واحد على الألف من الجرام من فيتامين الأنتينويريتيك ضمن الغذاء اليومي للقيام بمهمتها في حفظ كيان الإنسان وصونه من الأمراض.

ومن الثابت المحقق الآن أن مجال عمل الفيتامين الأنتينويريتيكي وموضع تأثيره هو عند تحول المواد في الخلية العصبية، ولذا نرى أنه عند غياب هذه المادة الحيوية تحدث الاضطرابات وأعراض الإصابة في محيط الجهاز العصبي. وزيادة على ذلك يعمل هذا الفيتامين على تنظيم عمل الغدد الدرقية وأخيراً وبفضل مجهود العالم إميل أبدرهالدن ثبتت أهمية هذا الفيتامين عند تمثيل الكربوهيدرات (المواد النشوية والسكرية) وأثر هذا أنه بغياب هذا الفيتامين تحدث اضطرابات في تحليل الجليكوجين (سكر الكبد) أو في أية مادة سكرية نشوية تبقى في الجسم كاحتياطي من الكربوهيدرات، ونتيجة ذلك ازدياد كميات سكرية نشوية في الكبد وفي عضلات وأنسجة القلب ازدياداً غير عادي، وتأخذ هذه الكميات في الهبوط والنزول عند تموين الجسم ثانياً بفيتامين

ومع أن البحث العلمي بذل قديماً جهوداً عظيمة في سبيل التعرف على طبيعة تكوين هذه المواد الحيوية التي تكفي منها كميات ضئيلة لحدوث تأثيرات بيولوجية هامة في جسم الإنسان، ورغم تعاون الكيمياء مع علم الطب لم تثمر هذه الجهود ولم يتحقق إلا حديثاً بعض الحلم في تحضير الفيتامين في حالة نقية. إذ توصل الكيميائي فونك الذي تردد ذكره مرات في هذا المقام إلى تحضير بلورات دقيقة من نخالة القمح استخدمت منها أجزاء ضعيفة من الألف من الجرام الواحد في علاج حمام مصاب بالبري بالبري، فكان لها مفعول السحر في شفاءه كما حضرت كذلك خلاصة من الخميرة كان لمفعول أربعة أجزاء من الألف من الجرام منها أثر بالغ العجب في إزالة أعراض الالتهاب العصبي في حمام مصاب بالبري بري، وفي ردهة اجتماع مؤتمر طب المناطق الحارة الذي عقد في برلين عام 1911 وضع العالم الألماني شاومان في حنجرة حمامة كسيحة مريضة بالبري بري - حبيبة من الفيتامين الخام كان من أثرها الشافي أن طارت الحمامة في اليوم التالي في جو ردهة المؤتمر. ولم تتضح درجة نقاء هذه المنتجات المحضرة إلا بالمقارنة. وعندما توصل العالمان الهولنديان، يانسن ودونات , في سنة 1926 بعد تحضير وتنقية تامة لبلورة محضرة من نخالة الأرز حالت كمية منها لا تزيد على عشرة أجزاء من مليون من الجرام دون إصابة حمامة رغم تقديم غذاء البر بري لها ورغم هذه الجهود الجبارة المضنية من يانسن ودونات، فلم يثبت أن المادة التي استخلصاها ونقياها ذات تركيب كيميائي واحد، ولم يتوصل أحد إلى معرفة الحجر الأساسي لهذا البناء الكبير، وكذلك الاحتفاظ بسر تركيبه قبل العالمين الألمانيين: أدولف ونداوس، فريتز لاكور & وذلك في أواخر عام 1931، إذ تمكنا مع مساعديهما من إزالة الستار عن الفيتامين وتحضير مادة نقية بلورية من الخميرة يكفي منها جزءان من المليون من الجرام لإظهار أثر حميد في شفاء حمام مصاب بالبري بري. وقد وصلا إلى تحضير كمية هي 100070 سبعين على ألف من الجرام من مائة كيلو جرام من الخميرة بينما توصل غيرهم من الباحثين إلى تحضير نصف جرام فقط من ألفي كيلو جرام من الخميرة مع الفارق العظيم في الإنتاج الصناعي، وللآن لم يذع أي شرح كيميائي تفصيلي لطبيعة هذه المادة.

والمعروف عن فيتامين الأنتينويريتيك فقط أنه يتركب من الكربون والإيدروجين والآزوت والأكسجين، وأحياناً من الكبريت، وأنه سهل الذوبان في الكحول والماء، وأنه يتأثر بالحرارة الطويلة المدى عند درجة 120° وأنه لا يتأثر عند الإغلاء القصير المدة.

ولو قدر يوماً ما الوصول إلى الإحاطة التامة بالتركيب الكيميائي لفيتامين البري بري والإعلان عنه، فسوف لا يصل العلم إلى هذا الفتح قبل الاصطدام بنواحي وأبواب كثيرة موصدة، إذ كلما تعمق العلماء في حل لغز الفيتامين تكشف لهم أنهم ليسوا حيال فيتامين واحد، بل أمام مجموعة من المواد الحيوية، بل المعروف الآن أن ما اعتبره الباحثون فيتامين ليس إلا مجموعة تكون من خمسة فيتامينات مختلفة على الأقل والتي منها ما تكلمنا عنه في هذا الباب تحت عنوان فيتامين الأنتينوترتيك (الفيتامين المضاد للالتهاب العصبي) أو فيتامين البري بري أما الفيتامينات , , فلا يعرف عنها إلا ما استنتج من التجارب الغذائية التي أجريت على الحيوانات وهي معرفة علمية نظرية بعيدة عن الناحية العملية - بينما تأثيرها وصلتها بفسيولوجيا الإنسان فلم تعرف بعد. أما الفيتامين فلصلته القريبة الهامة بالتمثيل عند الإنسان ووجوده في الطبيعة ملازماً للفيتامين فسنخصص له الكلام في المقال القادم.

عبد اللطيف حسن الشامي

البريد الأدبي

أدهم قال لي

حضرة الأستاذ الجليل رئيس تحرير الرسالة

تضمنت كلمة الأستاذ عبد الغني حسن دعوة لأصدقاء المغفور له إسماعيل أدهم أن يكتبوا عن مقدار ما وصل إليهم من العلم عن عقيدته. ولقد منعني أن اكتب عنه أنني كنت أتوعده بأن أكتب عنه. فلما مات منتحراً تحرجت من إنفاذ الوعيد!

على أن الذي قدم الانتحار بكتاب إلى النيابة يطلب فيه تشريح جمجمته لم يفته أن يتحداني في يوم انتحاره بمطالبتي أن أكتب عنه بعد موته، ولم يفته أن يختار للتحدي أقوى وسيلة عرفتها من وسائل الإغراء، وهي أنه أهداني كتاب ميخائيل نعيمة عن جبران خليل جبران، وسألني عما إذا كنت أستطيع أن أكتب عن صديق لي مثل هذا الكتاب إن مات.

أما أني كنت قد توعدته بالكتابة عنه فلذلك قصة تدل على طريقة تفكيره وعلى مقدار ما عانى من المتاعب التي أفضت إلى الانتحار بسبب هذه الطريقة:

ذلك أنني دخلت منذ أقل من عام إلى مكان اجتماعنا المعتاد في نادي جماعة الفنون الجميلة ومعي كتاب (هتلر قال لي)، فدار الحديث بين المجتمعين، وما فيهم إلا مصور أو مثال أو شاعر أو أديب، عن شخصية هتلر. وانفرد أدهم بالثناء وذم الإنجليز والمصريين والمسلمين، وأسرف في كل ذلك أشد الإسراف، فتوعدته إن لم يكف أن أضع كتاباً أجعل عنوانه (أدهم قال لي) وأدون فيه آراء أدهم كما سمعتها منه.

سكت أدهم إلى اليوم الذي انتحر فيه. وفي هذا اليوم طلب إليَّ أن أكتب عنه كما قدمت. فهل اكتب؟

أرجو أن يجيبني مجيب فإني حائر أتلمس النصح.

عبد اللطيف النشار

اضطراب في مقال

حضرة الأستاذ الجليل صاحب الرسالة

بعد التحية، كتب الأستاذ الدكتور زكي مبارك في حديثه ذي الشجون بعنوان (إلى المنصورة وطن الشعر والخيال) في عدد الرسالة رقم 378 ما يلي:

(بعد ساعة واحدة من الشروع في كتابة هذه السطور آخذ طريقي إلى المنصورة وطن الشعر والخيال؛ فهل تلقاني المنصورة بالضم والعناق وهي كناس الحور العين؟)

واستطرد الدكتور فعرج على بعض ذكرياته إلى أن ذكر الجهود الشاقة التي بذلها أدباء الطليعة في مصر (الستة أو السبعة كما كتب الأستاذ الزيات منذ ثلاث سنين في عدد مضى بالرسالة) حتى وصلوا إلى السيطرة الأدبية، ثم قال:

(وقد رجعت من المنصورة بعافية لأني لم أبت فيها غير ليلة واحدة؛ فلم يتسع الوقت لعقابيل الوجد حتى تجرب حظها في القدرة على تجريح قلب تكسرت فيه النصال على النصال).

ثم استطرد الدكتور فذكر ما لقي بالمنصورة وما فعل. والذي يقرأ هذا الكلام يرى بعضه يناقض بعضاً إذ كيف يقول الدكتور في أول المقال إنه سيأخذ طريقه إلى المنصورة بعد ساعة واحدة من الشروع في كتابة تلك السطور ثم يعود بعد كتابة

عمود واحد فيقول إنه رجع من المنصورة بعد أن أمضى بها ليلة واحدة. فالمعنى لا يمكن أن يستقيم إلا على فرض كون الدكتور قد كتب بعض مقاله قبل أن يأخذ طريقه إلى المنصورة ثم عاد فأتمه بعد رجوعه منها أي بعد يوم كامل على الأقل. وبفرض حدوث هذا فهلا كان واجباً أن يشير الدكتور إليه ليمنع اللبس وليستقيم المعنى.
لعل الإسراع في الكتابة إلى جانب احتمال أن يند بالقلم - كما يقول الدكتور تعليقاً على من أخذ عليه فتح كلمة (سجية) في بيت الشعر المشار إليه هناك - يمكن أن يشرد بالذهن مما نود دائما أن ننزه عنه قلم أديبنا الكبير الدكتور زكي مبارك.
وتفضلوا يا صاحب الرسالة بقبول إجلالي وإكباري.
(المحلة الكبرى)
محمود أحمد وصيف
القراءات السبع
حضرة الأستاذ الكبير صاحب الرسالة
السلام عليكم ورحمة الله. وبعد فقد كتب الأستاذ الباحث علي الطنطاوي في العدد 379 من الرسالة الغراء (كلمة في القرآن) جاء فيها:
(واقتصر الناس على الحرف الواحد حتى نشأ النحاة وأهل اللغة والقراء؛ فوقع بينهم اختلاف كبير في حركة أو إمالة أو مد أو همز فكان من ذلك القراءات السبع).
وهي عبارة تفهم القارئ أن للنحو واللغة والقراء مدخلاً في اختلاف القراءة. وما أظن الأستاذ - وهو باحث فاضل - يعتقد ذلك أو يميل إليه؛ فإن الحق الذي لا شبهة فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم أقرأ أمته على الأحرف السبعة تخفيفاً وتيسيراً؛ وأن هذه القراءات المشهورة الآن - وإن تكن على الحرف الذي اقتصر عليه عثمان رضي الله عنه حسماً لمادة الخلاف - مروية عنه صلى الله عليه وسلم بطريق التواتر، وإنما لم يكتب المصحف العثماني مشكولاً منقوطاً تيسيراً لقراءته على الأوجه التي صح سماعها عن صاحب الوحي قطعاً. ولا غرابة في أن يكون للحرف الواحد أوجه كثيرة؛ ومن ذلك - مثلا - اختلاف الكلمة بين الاسمية والحرفية في مثل قوله تعالى (فناداها من تحتها) قرئ بكسر (من) وفتحها. ومن ذلك اختلافها في حرف المضارعة في مثل قوله تعالى (وما ربك بغافل عما يعملون) قرئ بالتاء والياء ومن هذا أيضاً اختلاف حركة الإعراب في نحو قوله جل ثناؤه (واتقوا الله الذي تسألون به والأرحام) بنصب كلمة (الأرحام) وجرها.
فلو كتب المصحف الإمام مشكولاً منقوطاً لثبتت به قراءة واحدة فقط، وفيه من الحرج ما فيه. لكن لما كثر الناس ونشأ اللحن خيف على القرآن الكريم أن يلحن فيه، وان يقرأ على غير وجهه، فطلب زياد بن أبيه - وكان أميراً على العراق - إلى أبي الأسود الدؤلي، وهو من كبار التابعين المتقنين للقراءة أن يضع للناس علامات تضبط قراءاتهم ففعل، وكان ذلك مبدأ للشكل ثم النقط.
هذا، وأكبر الظن أن الأستاذ اطلع على تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير، وعلى الشفا للقاضي عياض، فوجد فيهما بغيتيه أو ما يدنو منهما. ولعل علماءنا لا يزالون يرون أنه ما ترك الأول للآخر شيئاً، أو أنهم ينتظرون من الشباب الناهض همة وإقداماً على أني أؤيد الأستاذ في ما ذهب إليه، وأسأل الله للعاملين سداداً وتوفيقاً.
هذه عجالة نمد بها سن القلم، أو نرفع بها سهو الكاتب، ولعل صدر الرسالة الغراء - وهي رسالة العلم والدين والأدب - ينشرح إن شاء الله لتحقيق معنى الحديث الشريف (أنزل القرآن على سبعة أحرف).
طه محمد الساكت
مدرس التفسير والحديث بمعهد القاهرة
أخلاق القرآن
أورد الدكتور عبد الوهاب عزام الآية الكريمة التي ختم بها بحثه في أخلاق القرآن هكذا: (تلك القرى نقص عليك من أنبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك نطبع على قلوب الكافرين) وقد نطق بها كذلك في حديثه في المذياع وصحتها: (. . . كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين) الأعراف (101) وأعتقد أنها اختلطت في ذهنه مع الآية الأخرى (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به

(74) يونس (من قبل كذلك نطبع على قلوب المعتدين).
حسين محمد الأنصاري
سؤال
على قمة جبل قاسيون أثران قديمان على شكل قبتين يعتقد أنهما شيدتا للرصد، وقد اختلفت أقوال العلماء فيمن بناهما، فأرجو ممن عنده علم به أن يخبرني على صفحات هذه المجلة الغراء وله مني الشكر.
(سائل)
تعقيب
سيدي المحترم رئيس تحرير الرسالة
سأل الأستاذ محمود المرسي خميس في عدد الرسالة 376
الصادر بتاريخ 1691940 (لمن تعطى الأفضلية في الاهتداء
إلى من اشتركوا في معنى واحد؟) ثم سأل: (أنقول إن المعاني
شائعة ولا تجوز الملكية والاختصاص؟) وأظن إن هذا السؤال
جدير بالبحث من الوجهة الأدبية.
فالذي يعرفه كل مطلع على الأدب العربي أن الشعراء يتفقون كثيراً في المعاني بل وفي بعض الألفاظ في البيت الواحد، وقد تعرض لذلك النقاد ووضعوا للأمر قانوناً عادلاً من قوانين النقد ساروا عليه في كل ما تعرضوا له في هذا الصدد.
ذلك القانون هو أن (من استرق شيئاً واسترقه، فقد استحقه) أي أن الشاعرين بصرف النظر عن أيهما أسبق للمعنى يَفْضُل أحدهما الآخر إذا اشتركا في معنى واحد بجودة الصياغة وحسن السبك واختيار الألفاظ إلى غير ذلك من أصول البلاغة. فقد كان الناس ينشدون بإعجاب بيت الأعشى
وكأس شربت على لذة ... وأخرى تداويت منها بها
فلما جاء أبو نواس بعد هذه المرحلة الطويلة من الزمن بين الشاعرين، وأخذ هذا المعنى بعينه وحسن فيه على قدر ما وسعه تملكه من زمام البلاغة ثم قال:
دع عنك لومي فإن اللوم إغراء ... وداوني بالتي كانت هي الداء
لما قال أبو نواس هذا نسي الناس بيت شاعرهم الأول وحكموا لأبي نواس بفصل الخطاب، واصبح هو صاحب المعنى ومبتكره وعلى ذلك قس كل شاعرين أو أديبين اشتركا في معنى من المعاني.
(الخرطوم - سودان)
(ا. ب)
إلى علماء النحو في جميع الأقطار
1 - تقول كتب النحو من صغيرها إلى كبيرها: إن مميز العدد من ثلاثة إلى عشرة حقه أن يكون جمعاً، مثلاً سبع ليالٍ، وثمانية أيامٍ، وخمسة آلاف. . . فما بالنا نقول (وتسكتون
على هذا القول): ثلاثمائة، وخمسمائة، وتسعمائة. . . بإفراد لفظ مائة الذي هو تمييز للعدد، ولم نقل ثلثمئات، وخمسمئات و. . . كنص القاعدة، وكما نقول في الألف، وما وجه العلة في جمع الألف دون المائة؟
2 - وتقولون: إن ألفاظ العدد من ثلاثة إلى عشرة تكون على عكس المعدود في التذكير والتأنيث، فما قولكم في قوله تعالى (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها)؟ حذف التاء من عشرة مع إضافتها إلى الأمثال وواحدها مذكر! وما تعليل ذلك؟
3 - وقلتم إن (لن) حرف وضع للنفي المؤبد (والعياذ بالله)! فإذا كان ما زعمتم صحيحاً، فمالي أقرأ في كتاب الله تعالى قوله (فلن أكلم اليوم إنسياً) فأرى كلمة اليوم في الآية جاءت بعد النفي بلن فأفسدت قاعدتكم، واقتلعتها من أساسها، ولو كانت (لن) لتأبيد النفي كما وهمتم لما كان هناك موجب لتقييد هذا النفي باليوم!. . .
وكذلك أقرأ قوله تعالى (ولن يتمنوْه أبداً) فأراني متحيراً في إيراد لفظ أبداً بعد لن، ولو صح ما قلتموه من تأبيد النفي بلن لكان لفظ (أبداً) تكرار لا داعي له، والأصل عدمه.
وحاشا لكلام الله أن يخضع لأحكامكم!. . .
أفتونا فيما جئتم به من علم في كتبكم، وهاتوا برهانكم إن كنتم صادقين.

مصطفى محمد إبراهيم
مدرس لغة عربية
القصص
صفحة من حرب الجبابرة
جيوكندا
للأستاذ محمد محمد مصطفى
السماء يومئذ تمطر شهباً تزلزل الأرض وتفتت الصلب، والمدفع تصم الآذان وتدك البنيان، والقذائف تشمل الجو ناراً ودخاناً. وانقلبت (بورجيا) قرية فرنسا الجميلة إلى حطام يلتهب وأنقاضاً تنفر منها الشياطين، وزخرت الطرق والمزارع بالنازحين منها والدبابات في أثرهم ترسل عليهم الموت ولا عاصم لهم منها إلا العراء.
وانتهت (جيوكندا) إلى ظل من ظلال الغابة، فجلست مكروبة محزونة تنظر من خلال الدمع إلى القرية وقد أضحت يباباً.
لقد ماتت أمها كمداً لمصرع وحيدها في الميدان، وكان أبوها مسبوتاً على فراش المرض فبات تحت الأنقاض.
ووقفت تنتفض ذعراً وهي ترى جموعاً مائجة ولجاً هائجة من دبابات الألمان تطوي الأرض وترسل ضوضاء وصفيراً يحطم العصب ويوهن القلب، ومع ذلك فقد كانت مدافع الفرنسيين ترسل عليهم لظى من نار، فلا يقفون ولا يهزمون كأنما قد بسط لهم أديم الأرض.
ودنت منها الدبابات متراصة تنفث لهباً وموتاً، وتترك ما وراءها صعيداً جرزاً، فجرت هالعة إلى غير هدف، ولبثت في عدوها تنظر بين الحين والحين إلى الوراء فترى الدبابات تقترب منها فتواصل العدو، وأضناها السير فسقطت لاهثة وانية ثم غابت عن رشدها.
- أأنت قائد فرقة باصقات اللهب الخامسة والستين؟
- نعم.
فحول الجنرال نظره وعبث بشاربه الأشيب وتمتم بصوت خافت:
- ولكنك صغير السن. . .
فأردف القائد الشاب:
- كبير القلب مخلص لألمانيا والزعيم.
- حسن. . . ألم يسبق لك الاشتراك في معارك؟
- كان لي شرف الاشتراك في حصار (لييج)
- تقضي أوامر الفوهرر بألا تقف دبابتك ولا تتراجع وسيكون هجومك على جبهة تمتد تسعين ميلاً من (بورجيا) دمرتها لك الطائرات وستسوق أمامك ألوف النازحين ليكونوا لك درعاً وليوقعوا الارتباك في صفوف الحلفاء.
والآن ما اسمك أيها القائد؟
- جون فريتش.
- إلى العمل يا جون فريتش. . .
لما اقتربت الدبابات من (جيوكندا) كانت نفس القائد جون فريتش تنازعه إلى إبعادها من طريق الدبابات.
ولما حملها بين يديه أفاقت وابتسمت له ابتسامة لو مات على أثرها لما أسف . . . على نعمة تركته في الحياة.
ولما سألها عن وجهتها لم تدر بم تجيب . . .
ولما جلست إلى جانبه بالدبابة ألهاها كثرة ما بها من عدد وآلات . . .
قالت بعد ما أدركت أنها بين ألمان:
- أتسوقون المدنيين هكذا كالنعاج؟
- إنها أوامر الفوهرر. . . والحرب لا ترحم.
- وتقولون إنكم تنتشلون العالم من ربقة الديمقراطية وتريدون به السلام؟
- لا شك في ذلك.
- فماذا أفاد حكمكم فيما اكتسحتموه من بلاد؟
- قضاء على الرأسمالية وأصحاب الثروات.

- وتقولون إنكم تناهضون الشيوعية؟
- ليس في القضاء على بطالة العمال بلشفة لهم. . . فأي عدل ترين يا فتاتي في رجل يملك الملايين وينام عمال مصانعه على الطوى؟
- ذا نصيبهم في الدنيا (وجعلنا بعضكم فوق بعض درجات).
- درجات. . . وليس ملايين الدرجات فلا يكون البون بين صاحب المصنع وعامله ساشعاً. والعامل الذي انتج الربح له قسم فيه وللدولة مثله لتثقف به أولاد ذلك العامل، فليست العبقرية وقفاً على أولاد الأغنياء.
- تالله أنتم أعداء لكل ما يحرص عليه المتمدينون من تقدم اجتماعي وحرية بشرية، وما من أمة تبيت اليوم في أمان من ظل الصليب المعقوف. وقهقه القائد حتى بدت نواجذه وقال:
- يا صغيرتي العزيزة. هاأنت ذي ترين جنود الحلفاء يفرون من وجه آلاتنا التي أنتجتها عقولنا، فهل من بين علمائكم من يستطيع أن يصنع شيئاً يقفنا ولو لبضع ساعات. . . والعقل الذي يذلل العلم لرغباته والأمة التي تخفف الفوارق المادية بين طبقات الشعب فلا يكون فيها فاحش الثراء ولا من يسمو بالفقراء، هي أرفع مدنية من أمة تتخم خزائن أفراد قلائل منها بالذهب ولا يجد العامل الذي أنتجه ما يقتات به كفرنسا أو مصر التي يسخر شعبها بأزهد الأجور لخدمة القلة من الأغنياء والتي دل الإحصاء على أن اثني عشر ألفاً منها يملكون نصف الثروة العقارية للبلاد مما لا أعرف له مثيلاً في بلاد أخرى.

وعملت هذه الملمات في نفس الفتاة عملها، وذكرت أولئك الغارقين في لذائذ الدنيا من أثرياء قومها، وما لقيته من شظف العيش في قريتها فأطرقت وأغرقت في صمت طويل، حتى إذا ما شارف سيل الدبابات على (باريس) كانت قد طوت نفسها على أمر.

يبدي الفوهرر خالص ثنائه على المعاونة القيمة التي قدمتها الجاسوسة س 107 في (الميدان الفرنسي).

وأفتر ثغر س 107 وهي تقرأ الرسالة الشفوية وملكها الزهو فأعادت قراءتها ثم سلطت عليها زفيراً من فمها تلاشت على أثره السطور وألقتها مزقاً في الطريق.

وأخذت سمتها شطر محطة (بوردو)، تلك المدينة التي كانت مسرحاً لعملها الشاق، وذكرت ذلك الحان الذي قضت فيه الوقت كله بين جواسيس الحلفاء تبيع لهم الخمور وتستدر الأسرار من الصدور، وسمعت صوت أقدام تتبعها فالتفتت في ذعر فلمحت شبحاً يقترب منها ويهمس في أذنها:
- أأنت س 107
فلما سمعت صوته هتفت:
- ميجر براون. . . لم جئت؟
- برسالة يا جيوكندا. . . وناولها إياها.
فهتفت نفسها:
- ترى أتكون من جون؟
تقوم فجر اليوم س 107 إلى مدينة إيفيل وترحل مع الهاجرات إلى دوفر لتتلقى) . . . الأوامر من ل 14 الذي سيستقبلها بربطة عنق زرقاء).

وألقت على الورقة زفيرها فابيضت ورمت بها إلى الطريق.

قال (ل 14):
- شاء الفوهرر أن يترك قليلاً من قوات الحلفاء التي رحلت عن (دنكرك) لتصف الأهوال التي أذاقها لهم الألمان، فيكونوا لألمانيا خير دعاة، فعليك تصويرهم في أسمالهم لدى نزولهم من البواخر لتزين بها المنشورات الألمانية التي تلقيها الطائرات على إنجلترا. . . والساحل الإنجليزي يا. . .

فأشارت إليه بالسكوت فهمس:
أقول إن الساحل الإنجليزي حاجز من الجحيم ضد القوات التي تحاول اختراقه فعليك مراعاة الدقة في تنفيذ هذه التعليمات، ومد لها يده بورقة.

وأبدت (جيوكندا) من الحذق والمهارة في الحصول على صور الحصون وأوكار المدافع وحركات الجنود والقوافل البحرية ما ألهج ألسن الجستابو بالثناء.

وجد قلم المخابرات البريطاني في تعقب الجاسوسة س 107 وضاق بحيلها ذرعاً، فهي آناً مهاجرة حليفة، وآناً ممرضة تندس بين الجنود، أو متطوعة توزع الحلوى في المعسكرات والمستشفيات ومالأها الحظ فكان يكلل مجهودها بالنجاح.
وطلعت عليها الصحف بنبأ الهدنة، وأخذ المارشال بيتان بنظم ألمانيا الاشتراكية، فخمدت فيها جذوة النشاط.
لقد أدركت غايتها وأصيب الهدف الذي كانت تسعى إليه.
ولكنها تعلم أن الجاسوس لا يمكنه التخلي عن عمله لأي حال كان. . .
وفرت جيوكندا على باخرة تعيد اللاجئين إلى فرنسا.
واستقبلها الجستابو على رصيف ميناء (كاليه)، وابلغها الأسف الشديد لصدور الحكم بإعدامها.
وشدهت جيوكندا وفرقت وهتفت بصوت خائر:
- ألا يشفع لي ما قدمت يداي لألمانيا من خدمات؟
سقطت (باريس) تحت أقدام الألمان فخيم على مدينة النور الظلام. . .
وأخذ حذاء القائد (فريتش) يدب في رفق على إفريز (السين) ولم تزل صورة (جيوكندا) تعبر في فكره وتتسلل إلى قلبه فتثير فيه الألم والشجون، ومرت بخاطره خيبته في إقناعها بالعدول عن الالتحاق بالطابور الخامس وإصرارها في عناد وقولها له في حزم:
- فلن أهدأ حتى تتحطم الرأسمالية في فرنسا وأرى بعيني فيها نظم الريخ.
وتصور أنها الآن تضرب في أرض الدنيا لا تكاد تستقر في بلد حتى يأمرها الجستابو بالانتقال إلى آخر.
وملكته رغبة ملحة في رؤيتها والوقوف على حالها.
ربما اعتقلت. . . ومن يدري لعلها أعدمت بالرصاص، وأفزعه هذا الخاطر فخفق قلبه الملتاع وتهالك على مقعد قريب وقد تولاه طائف من الوجد والذهول. . .
ووثبت صورة جيوكندا أمام ناظره تتهادى على صفحة السين الساكن ترنو إليه بعينين تحكي خضرة البحر، وشعرها الذهبي الهفهاف يداعبه النسيم
وبدا له أن الجاسوسية أنهكتها، وأن شبح الإعدام أرهف أعصابها، ورآها بعين الخيال تهرع إليه وتسرد عليه ما خاضته من أهوال، وهو مع ذلك لاه عن حديثها بضمها وشمها ولثم ثغرها العطري كأنفاس الياسمين.
ودبت خيوط الفجر في فحمة الليل فهب القائد من حلمه الجميل يمشي خفق الفؤاد مبلبل الفكر، وحينما مر بجريدة (باري سوار) التي اتخذت مركزاً للجستابو، طرأ عليه أن يسال صديقه الميجر (براون)، فعلم أنه أوصل لها رسالة سرية في بوردو وأنه رآها تركب عربة. ثم أردف: وأحسب أنني سمعتها تقول للسائق إلى (إيفيل).
وبذل الميجر لصديقه معاونة صادقة حتى علم أنها في دوفر ولكن دوفر واسعة، ووصول الألماني إليها مستحيل
. . . واخذ القائد يفكر ويفكر . . .
وانتشله من أفكاره صوت طرق الباب ودخل ضابطة المساعد وبيده الثبت اليومي لمن طلبت القيادة والجستابو إعدامهم بالرصاص، فألقى عليه نظرة عجلى، ولما أراد التوقيع عليه علق نظره باسم جيوكندا، فازدلفت تحت ناظره الأرض وانتفض قلبه في صدره كطائر مذبوح.
وكذب عينيه وقام ينهب الأرض إلى ميدان الإعدام.
وألفى فاتنته المومقة معصوبة العين بين طابور المحكوم عليهم تقف مهيضة النفس كاسفة البال.
يالها من لحظة هائلة. . . لقد آن موعد إعدامها. . . وأي محاولة لإنقاذها تفقده شرفه وحياته. . . فكيف السبيل؟
وشحب لونه شحوباً هائلاً وغلى رأسه كالمرجل واصطرعت فيه أفكار سود.
اقترب القائد من جيوكندا وهمس في أذنها كلمات.
وأمر الضابط أن يقف الإعدام لحظة ينهي فيها أمراً عاجلاً ويعود. وعاد بعد دقائق.
قال القائد فريتش لضابط الإعدام:
- أمتأكد أنت من حشو بنادق الجنود؟

- كل التأكيد يا سيدي. . . وتفضل بالتفتيش.
ومر القائد على الجنود. وفتش بنادقهم واحداً واحداً ليتأكد من حشو جميع البنادق.
وسقطت من يد القائد رصاصة أحد الجنود فانحنى الجندي لأخذها، ولكن القائد كان أسرع منه في التقاطها ووضعها بيده في بندقية الجندي. . .
وأشار القائد. . . فدوى الرصاص.
- ولكن المعجزة يا جون. . . كيف تمت؟
- كان جنوناً أن أراك تعدمين يا جيوكندا ولا أفعل شيئاً فهمست لك أن تتماوتي لدى إطلاق الرصاص وأتيت بطلقة فشنك وحشوت بها بندقية الجندي المكلف بإعدامك بدل التي تعمدت إسقاطها عند التفتيش عن بنادق الجنود.
فطبعت جيوكندا قبلة طويلة على ثغر جون فريتش.

محمد محمد مصطفى

بإدارة مدرسة البوليس

العدد 381 - بتاريخ: 21 - 10 - 1940

الحرب والشعر

للأستاذ عباس محمود العقاد

من رأيي الذي شرحته قبل الآن أن الحروب والثورات تشحذ ملكات الخطابة ولا تشحذ ملكات الشعر، بل تلجئها أحياناً إلى الصمت والركود، لأن الشعر (فردي) والخطابة اجتماعية تنشط بنشاط الجماعات، وتؤدي عملاً لا غنى عنه في أيام الحروب والثورات وما يروج من الأناشيد والأغاني في إبان الحرب أو الثورة، فإنما حكمه حكم الخطابة، لأنه يتردد بين الجماهير في حالات الاجتماع ولا ينظم بداءة كما تنظم القصائد التي يترنم بها الشاعر على انفراد

وقديماً نظمت الملاحم الكبرى عن حروب الأمم البائدة، فخيل إلى بعض الناقدين أن الملاحم تستدعي النظم وتلقح فراغ الشعراء، وهو في رأينا تخيل خاطئ، لأن اتخاذ الملاحم موضوعاً شعرياً لا يستلزم أن يزدهر الشعر في أيام الحروب، كما أن وصف إنسان في قصيدة لا يستلزم أن يكون ذلك الإنسان من عرائس الشعر التي توحي المعاني وتفتق الخواطر، وقد يكون في حقيقته على نقيض ذلك

ولقد كانت الملاحم فيما مضى تنظم على سبيل التدوين والتخليد بعد انقضاء عهدها بزمن طويل أو قصير، وكانت هذه الملاحم المنظومة هي وسيلة التدوين التي لا وسيلة غيرها بين أولئك الأميين من الأقدمين. فلما كثرت وسائل التدوين في العصر الحديث كان ذلك أقمن أن يضعف النزعة إلى تخليد الحروب بالمنظومات المطولة، وأصبحت القصائد التي تنظم في هذا الغرض أقرب إلى التعليق والاعتبار والإعراب عن فلسفة الشاعر في الحياة وحوادث الأيام منها إلى سجلات الحفظ والتأريخ

فليست أيام الحروب من أيام الشعراء. ولعل الحرب من حروبنا الحديثة تشغل الملايين وألوف الملايين أعواماً، ثم تنجلي عن بضع قصائد مختارة لا تملأ كراسة واحدة ولا تساوي في عدد سطورها رواية من الروايات التي تمثل في بضع ساعات وموضوعها محصور بين رجل وامرأة، أو بين شرذمة قليلة من الرجال والنساء

إلا أن النفوس لا تخلو من الشعر في إبان المعامع والمذابح البشرية، فهي لا تميته ولا تحجر عليه، ولا تمنع الأذهان فينة بعد فينة أن تنصرف إليه، وكل ما هنالك أنها ليست باللقاح الجيد لقرائح الشعراء

ومن العجيب أن أشيع القصائد التي خلقتها الحرب الماضية كانت لرجل ليس بالشاعر ولكنه طبيب

ولم يكن من عادته أن ينظم الشعر، ولكنه فتح له في لحظة من اللحظات كما تفتح أبواب الإلهام

ولم تنشرها صحيفة البنش الإنجليزية التي نشرتها دون غيرها إلا وهي تتردد في استحسان القراء لها بل في التفاتهم إليها

ثم كان من شأنها أنها ملأت العالم الإنجليزي في أيام، وحاولت أمم أخرى أن تترجمها فلم تفلح في أداء بساطتها وجرسها وما يتخللها من الحزن والتفاؤل الرصين

ثم أصبح من عادة الجماهير الإنجليز كلما تجدد ذكرى الهدنة أن يلبسوا في عروة

المعطف صورة أقحوانة مصنوعة تباع وتخصص أثمانها لأعمال الخير التي تقام باسم المارشال هايج، لأن الأقحوانة كانت موضوع ذلك القصيد
قال الطبيب الشاعر:
(ترفّ الأقاحي في سهول الفلاندرس
بين صلبان القبور صفوفاً وراء صفوف
معلماً من معالم المكان الذي نحن فيه
وللقنابر في الفضاء - يا لشجاعتها - لا تزال تغني غناءها،
وندر أن تسمعها الآذان تحتها بين قصف المدافع وانطلاق النيران)
(نحن الموتى!
قبل أيام قليلة كنا أحياء
وكنا نحيا ونحس الفجر الطالع وننظر إلى الشفق الوهاج،
وكنا نحب وكنا محبوبين
ونحن اليوم في سهول الفلاندرس ننام)
(خذوا بأيديكم عنان النضال مع الأعداء،
أيدينا المتخاذلة ألقت إليكم بذلك العنان.
وارفعوا الشعلة عالية. . . ارفعوها ولو بقيت في أيديكم سنوات
فإن نقضتم عهدكم لنا نحن الذين مضينا
فلن ننام في مضاجعنا
ولو ظلت الأقاحي رفافة في السهول)
نظمت هذه الأبيات قبل نيف وعشرين سنة، وعادت الأقاحي ترف في سهول الفلاندرس، وعادت الأجساد تهوي هنالك ألوفاً وراء ألوف، وتناول شاعر إنجليزي القلم من حيث ألقاه الطبيب الكندي الذي قضى قبل أن تنقضي الحرب الماضية فقال:
(الآن، ومن تلك الأرض التي يطل من قبورها الأقحوان
ينهض موتانا كرة أخرى!
علموا من قبل أنهم لا يهجعون
إذا قيل يوماً إنهم عبثاً ماتوا وعبثاً ضرجوا تلك السهول بالدماء.
لقد غرسوا ولم يحصدوا. . . أليس هؤلاء الأعداء يعودون؟
فالآن ينهضون ليحصدوا ما غرسوه، ويحصدوا الكيل ألف كيل.
(لأن الموتى كلمة يعرفون كيف يحفظونها، فلا تموت
والشاعر الذي أضاف هذه الأبيات هو ألفريد نويس صاحب القصائد التي تقرأ اليوم حيث تقرأ اللغة الإنجليزية، ولكنه يحسب نفسه من السعداء إذا جرى مع الطبيب الكندي في مضمار
وتجري مع هذه النغمة في سهولتها وشجاها أبيات الشاعر المعروف لورنس بنيون التي يرثي فيها لضحايا الحرب ويغبطهم لأنهم لا يشيخون حيث يقول:
إنهم لن يشيخوا كما نشيخ نحن المتروكين
إنهم لن يعرفوا سأم العمر ولن تثقل على كواهلهم السنون.
سنذكرهم حين تهبط الشمس وحين تؤب
(سنذكرهم وهم غالبون!)
أما في الحرب الحاضرة فالشعر الذي نشرته المجلات حتى الآن كثير، والمختار منه قليل
ومن هذا القليل قصيدة للسير روبرت فانسيتارت من رجال السلك السياسي النابهين ومن
الشعراء الذين يروق في شعرهم الترصيع الأنيق والإيحاء الموارب، لأنه يذكرك لغة السياسيين
نظم هذه القصيدة بعد هزيمة فرنسا كأنه يخاطب بها محبوبة ناكثة فقال:
(ألم أكن وفياً لك من البداية؟
ألم أخلص لك الحب منذ عهد الشباب؟
ألم أحببك غير مضلل عن عيوبك ولا واهم فيك؟
أعرف أسوأ ما عندك وأعرف أن الأحسن فيك هو الأقرب إلى الحق والصواب!

وإنك لمثلي كنت صفوحاً وكنت تعلمين ما لم أكن أخفيه من عيوب
فامتزجنا ومشينا جنباً إلى جنب
نواجه عالماً لا نقوى على مواجهته منفردين
أكنت تحفظين ودي والأيام مقبلة؟
نعم. . . ولكني كنت أحفظ والأيام ليست كذاك،
وكان الإغراء ينال من حصنك.
وبضعفك مرة أخرى تنتصرين
وتنسين!. . .
تنسين نفسك وتنسين الحرية وتنسين الصديق،
بل تنسين حتى ما ينفعك وحتى ما تغنمين.
واليوم يعود التورد اللماح من وهج الحب
مسحة من الخجل، وتنقضب القصة كما انقضبت قصص كثيرة من قديم
ويتم الوداع في بوردو
وإياي الآن تكرهين، ولن ينقص كرهك لي حين أذهب غير واهن ولا مهدود بما أصابك
(وحين أقف وحدي في وجه الدنيا، وأنظر جنبي فلا أراك
ومن قليل الشعر الرائق في الحرب الحاضرة ولا يقال مثله في حرب قبلها هذه الأبيات التي نظمها (ولفريد جبسون) وهو يصغي إلى موسيقى (بيتهوفن) من مذياع ألماني ويستمع إلى دوي القذائف الألمانية على بلاده. . . قال:
من بعض الديار الألمانية يشدو العازفون بالنشيد الخامس العظيم. . . كأن لا حرب)
هناك
تعيث خلال الديار
يكرمون الفن والخراب جائح
ونصغي في أكواخنا فتنسرب إلينا الأصداء العلوية بين أزيز الطائرات ونذير الدمار
لحن خالد يحمله أي فضاء؟. . . يحمله الفضاء الذي يطير عليه القاذفون ليصطرعوا
صراع الموت تحت نجوم باردة العيون
واللحن الخالد من أرض إلى أرض ومن سماء إلى سماء ينفذ في الأسماع والقلوب
كأنما يخلق الألفة والانسجام حيث أبناء الفناء لا يعرفون الألفة والانسجام
(. . .وكأنما ينفث التوفيق والتنسيق في قلوب تنحدر إلى قرار سحيق
على أننا لا نظلم الشعراء النابهين فنقول إنهم يتخلفون حيث يسبق المصلون المجهولون. ففي الحرب الحاضرة شعر حسن لبعضهم لا يمنعنا أن ننقله إلا أنه لا يقبل الإيجاز والاقتضاب
أما في الحرب الماضية فقد ارتفع فيها (كبلنج) بالشعر الحماسي إلى الذروة التي رفعته الشهرة إليها، ونظم تلك القصيدة التي لا يسمعها إنجليزي إلا سرت في عروقه هزة الحمية وصالت نفسه صولة الكبرياء. ومنها:
. . .الشأو هناك
لا يبلغنا إليه رجاء خادع ولا وهم كذوب
بل فداء من معدن الحديد
فداء بالأوصال والعزائم والأرواح
إنه لواجب واحد علينا
وإنها لحياة واحدة نعطيها
من ذا الذي تنهض قدماه وقد هوت الحرية
(ومن ذا الذي يموت وقد عاش الوطن!
وموعدنا الحين بعد الحين بما نختار من هذه الشذرات، وهي على قلتها بالقياس إلى غيرها مما تتسع له صفحات وصفحات
عباس محمود العقاد
ثانية في صحبة أم كلثوم 4500
للدكتور زكي مبارك
لم تسمح الظروف بلقاء الآنسة أم كلثوم بعد الذي دوناه من لحظات التلاقي في كتاب (ليلى المريضة في العراق) وهي لحظات قصار ولكنها جياشة بأقباس المعاني، ولو

طالت تلك اللحظات لظفرنا من سحر الحديث بأطايب وأفانين
ولم يكن ذلك الحرمان عن هجر منها أو صدود، فما يستطيع ذلك الروح أن ينسى أن
له مآرب وجدانية من مسامرة أرباب الوجدان، وإنما شاءت المقادير أن تصرفنا
بالشواغل القاسية عن التأهب لمداعبة الأفاعي والصلال
وما معنى ذلك؟
معناه أني سأتحف أم كلثوم بصورة وصفية تبسم لها في حين وتعبس لها في أحايين،
مع العرفان بأني لم أقل غير الحق في وصف ذلك الروح اللطيف
وهل لهذه الحمامة الموصلية روح لطيف؟
ما وازنت بين غناء أم كلثوم وحديث أم كلثوم إلا تذكرت قول شوقي في الصوت
الحنان
وَترٌ في اللَّهاة ما للمغنِّي ... من يدٍ في صفائه ولِيانِهْ
فهذه الحمامة تغرد بلا وعي ولا إحساس في نظر من يحكم بظاهر ما يند عن شفتيها
الورديتين من أغانٍ وأحاديث
فهل تكون في حقيقة الأمر كذلك؟
إن كانت أم كلثوم بلا وعي ولا إحساس فعلى الأدب والفن العفاء. وكيف تُحرم أم
كلثوم قوة الروح وهي بلا نزاع ريحانة هذا العصر وأغرودة هذا الجيل؟
وأين من يزعم أن قلبه سلم من الشوق لأغاني أم كلثوم، وما مرت لحظة واحدة في
المشرق أو في المغرب بدون زفرة أو لوعة تثيرها أغاني أم كلثوم؟
وهل سمع الناس في قديم أو حديث صوتاً أندى وأعذب من صوت أم كلثوم؟
تلك الفتاة هي الشاهد على أن الله يزيد في الخلق ما يشاء، فتبارك الله أحسن
الخالقين!
ولكن كيف نحل هذه المشكلة: مشكلة الفرق بين غناء أم كلثوم وحديث أم كلثوم؟
الحل سهل: لأن العقدة مشتركة بينها وبين محمد عبد الوهاب وإليه وإليها انتهى الإبداع في
عالم الغناء
عبد الوهاب رجل أعمال وأم كلثوم رجل أعمال، وذلك سر العبقرية عند هذين
الروحين، وهو الدليل على أن الله لا يهب المواهب لأهل التخاذل والانحلال، والزهد في
جمع الثروة هو الآية الحق على التخاذل والانحلال. وغضبة الله على من يحسبني أمزح
في هذا الحديث!
دعتني أم كلثوم مرة لتناول العشاء في أحد مطاعم القاهرة فأجبت الدعوة، ولكني
رأيت أن أدفع عن نفسي، فاستظرفتني جداً وصرّحت بأني لم أقل غير الحق حين
قلت: (إني أعظم من الجاحظ ولو غضب الدكتور طه حسين)
ولن أنسى أبداً موقف القصبجي الملحن وقد زعم أنه صائم مع أن العشاء كان في
جوف الليل ولم نكن في رمضان ولا شعبان، ولكنه كان يعرف أن (حمامة الشرق) لا
يسرها أن يكون القصبجي رجلاً له أمعاء تظمأ وتجوع كسائر الناس، وكيف يكون فناناً
وهو يحس الظمأ والجوع؟!
أشهد أن البخل حق، وأنه من خصائص أهل العبقرية، وإلا فكيف صحبت الدكتور طه
حسين عشر سنين ولم أتناول الغداء في داره غير مرة واحدة لظروف قهرية قضت
بأن نمضي النهار كله في درس شواهد الشعر المنحول سنة 1926؟
وكذلك يكون شقيق الروح محمد عبد الوهاب، فهو أبخل من الجارم بمراحل طوال،
وهو إلى اليوم لا يدرك أن الدينار قد ينقسم إلى دراهم، وأن الدرهم قد ينقسم إلى
فلوس، إنما الدينار دينار، فإذا انقسم فهو هباء، وإليكم هذا الخبر الطريف:
نشر الموسيقار محمد عبد الوهاب كلمات في مجلة الاثنين عن ذكرياته في زيارة
العراق، وقد قرأت تلك الذكريات وأنا في بغداد فحزنت لأني عرفت منها أن الأستاذ
الصراف خدعه فزين له الذهاب من دمشق إلى بغداد في سيارة عربية لا إنجليزية،
وكانت النتيجة أن يقضي ثلاثة أيام بلياليها في الطريق بين دمشق وبغداد، فصممت
على تأنيب الأستاذ الصراف حين أراه، ثم عظمت الدهشة وعظم الاستغراب حين
عرفت من الأستاذ الصراف أن الموسيقار عبد الوهاب هو الذي اختار تلك السيارة لأن
أجرتها أرخص بمبلغ لا يقل بحال من الأحوال عن دينارين!

ماذا أريد أن أقول؟
لعلي أريد القول بأن الاهتمام بجمع الثروة يدل على الشغف بحب الدنيا، وحب الدنيا هو الأصل الأصيل لحيوات النوازع والغرائز والأحاسيس
وحب الدنيا كان السر في عبقرية أحمد شوقي أمير الشعراء، فقد صحبته مرات كثيرة وهو يطوف على أملاكه بالقاهرة وضواحي القاهرة، وشهدت كيف ينظر إلى كل بقعة من أملاكه وقلبه يهتف: (كل مليحة بمذاق) ورحم الله شوقي، فما مات إلا وهو حزينٌ حزين على فراق أملاكه الواسعة بأرجاء هذه البلاد
وحب الدنيا هو السر في عبقرية عبد الوهاب وأم كلثوم، عبد الوهاب ساكن العباسية وأم كلثوم ساكنة الزمالك، وهل يستطيع مخلوق أن يقول إنه على شيء من الأدب أو الفن وجيوبه خاوية؟
آه، ثم آه!!
كنت غنياً وكانت لي أموال مرصودة في مصارف مختلفات، ثم شاء القدر أن أترفق بمرضاي من الملاح فأنفق عليهم ما أملك، فأنا اليوم فقير، فقير، فقير، بحيث ترفض أم كلثوم أن تكون (ليلى المريضة في الزمالك) بحجة أنها صحيحة، لا بحجة أني لم أعد أملك البر بمرضاي من ذوات الخد الأسيل والطرف الغضيض!
وهجرتي إلى العراق هي سبب هذا البلاء، فقد أعداني العراق بالكرم وراضني على البذل والجود، فأنا اليوم بلا ذخيرة ولا عتاد
ألم تسمعوا أني كنت أتمرد على رؤسائي بالجامعة المصرية وبوزارة المعارف، فكنت أملك الزهد في مناصب الحكومة في كل وقت؟
فإن صح أني صبرت أخيراً على خدمة الحكومة أربع سنين فاعلموا أن أخاكم مكره لا بطل، وأنه لم يتمرغ في تراب (الميري) إلا وهو في فاقة وإملاق
وآه ثم آه من الصبر على خدمة الحكومة أربع سنين!
وهل خلق الشعراء لهذا الاستعباد؟ وهل كان ذلك هو المصير المنشود لمن يؤمنون بفاطر النخيل والأعناب؟
ولكن لا بأس فمن واجب الشاعر الذي أخضعه الفن للقوافي والأوزان أن يقبل الخضوع
لقيود الوظيفة وقيود المجتمع وما قيمة الفلسفة إن لم نحسن تعليل الصبر على قيود الوظيفة وقيود المجتمع؟
وما حديث الـ4500 ثانية في صحبة أم كلثوم؟
كانت النفس حدثتني بوجوب السفر إلى الإسكندرية في أواخر أيلول لأرى كيف ينجزر الصيف عن الخريف في تلك الشواطئ لِلفيح، فرأيت على المحطة فتىً من عصبة الفن الجميل وهو يهتف: (أما ترى ثومة يا دكتور؟)
والتفت فرأيت إنسانة نحيلة تكبح سحر عينيها بمنظارين سمراوين وهي تحاور المودعين حواراً تقع فيه ألفاظ غلاظ على غير ما ينتظر من فتاة لها تلك المكانة بين البيض الخَفِرات من بنيات وادي النيل
وأقبلت فسلمت تسليم الشوق بتهيب واحتراس، لتفهم أني لا أريد نضالها في ميدان التنكيت، ولكن الشقية تغابت وتجاهلت رغبتي في البعد عن هذا الميدان، ولم تكن إلا لحظة حتى اقتنعت بأن الزمالك تجاور بولاق!
ما الذي يحمل ثومة على خلع البرقع وهي تحاور الرجال وفيهم من لا يتأدب وهو يحاور النساء؟
لم يبق بين ثومة وبين الفصيلة النسائية أية صلة، فهي اليوم رجل أعمال، وهي أبو كلثوم لا أم كلثوم!!
وقت ثومة لا يضيع في مراجعة الأدب القديم والأدب الحديث - كما تسمعون - وإنما يضيع وقت ثومة في تدبير المال لاقتناء النفائس من البيوت والبساتين
وثومة ليست غبية، فهي تعرف أن البيئات الفنية يكثر فيها الوباء، وأنه لا موجب لطاعة الفطرة التي يتجلى فيها الحنان النسوي، لئلا يكون من أثر ذلك أن تدور حولها الأقاويل والأراجيف في زمن الأقاويل والأراجيف
ومن أجل هذا لا تجيد أم كلثوم ممثلة إلا في مواقف الانفراد، فهي كتلة من الثلج حين تحاور رجلاً في مواقفها التمثيلية، وهي نارٌ تتأجج حين تخلو إلى نفسها في موقف من

مواقف التذكر والاشتياق
العزلة هي الفرصة الوحيدة لانفجار العواطف في صدر أم كلثوم، لأن هذه الإنسانة تتوهم
أن المجتمع لا يُحسن غير التجريح والاغتياب، فهي تلقاه بلسانٍ حديد لا يجيد غير السخرية والاستهزاء. فإذا اعتزلت الناس أو توهمت أنها اعتزلت الناس صارت أم كلثوم الحقيقية بشفتيها الورديتين وثناياها اللؤلؤية وأنفها المسنون. ولو استبحتُ مغازلة هذه الشقية لقلت إن ابتسامها يصدر عن وادٍ سحيق هو وادي الخلود!
وما أسعد من يظفر بابتسامة صفية من أم كلثوم ولو لحظة واحدة من عمر الزمان!
هانحن أولاء في محطة القاهرة، وإني وإياها لمختلفان، فهي ذاهبة إلى المنصورة وأنا ذاهب إلى الإسكندرية. وسنفترق في طنطا كارهين أو طائعين
وأترفق فأقول: ألا تحتاج الحمامة الموصلية إلى رجل يضايقها لحظات؟
فتجيب: وأنت؟ ألا تحتاج إلى من يضايقك ساعات؟
ثم نأخذ في الحديث بعنف ولجاجة وصيال، فهل كان بيني وبين هذه الروح ثأر قديم؟
وهل سمعت أني اغتبتها فقلت إنها ريحانة هذا العصر وأغرودة هذا الجيل؟ وهل نقل الوشاة أني زعمتُ أنها أطيب من العطر وأرق من الزهر المطلول؟
لا أعرف ما ذنبي عند أم كلثوم، ولم أخرج على الأدب فأقول إنها خير ما أخرجت مصر من ثمرات، وإنها ألطف روح سكن الزمالك وتخطّر في شارع فؤاد؟
ما هفوت في حق أم كلثوم إلا مرة واحدة حين قلت إن حنجرتها مسروقة من الحمائم الموصلية، وكان الرأي أن أقول إن حمائم الموصل سرقت رخامة الصوت من الحنجرة الكلثومية
ثم تشتط أم كلثوم في المزاح الغليظ، ولكن مع من؟ مع الرجل العليم بمواقع أهواء القلوب ولو سُدل على سرائرها ألف حجاب!
هل تذكرون المصباح المغطّى بالأوراق الزرق؟
هو قلب أم كلثوم، لو تعلمون!
وبلفظة واحدة نزعت تلك الأوراق لأواجه ذلك القلب الوهاج
فما هي تلك اللفظة السحرية؟
قلت: إن حمامة الشرق تستر بمزاحها الغليظ قلباً يحترق
فالتفتت الفتاة التفاتة رشيقة وهي تستزيد. فقلت: وقد حدثتني ليلى أن الأفعى تغفو أوقاتاً
طويلة ثم تستيقظ حين تجد الفرصة لتخدير الفريسة بالسم الزعاف
وبهذا الكلام تنبهت أم كلثوم من سباتها المتكلف المصنوع، وابتسمت ابتسامة لن أنساها ما حييت، فقصصت عليها قصة ليلى حين قرأت في كتب التاريخ الطبيعي أن الحيات تثور وتهتاج حين ترى إنساناً أخضر العينين، فزعمت الشقية أنها لم تكن تعرف أني أخضر العينين، فقلت: وما السر في نفرتك مني أيتها الرقطاء؟
وترفقت أم كلثوم وتلطفت بعد التأبي والتمنع، وانطلقت تتحدث بلا تكبر ولا ازدهاء، فمن قال إنه عرفها قبلي فهو كاذب، لأني أول من نزع الأوراق الزرق عن ذلك القلب الوهاج، وأنا أول من فرض على أم كلثوم أن تعرف أن الدنيا فيها أمانة وصدق وإخلاص من حق أم كلثوم أن تكون في دنياها رجل أعمال، فنحن في عصر سخيف لا يقيم وزناً لمواهب الأدب والفن إذاً فاتهم سناد الجاه والمال
ولكن. . . ولكن دنيا أم كلثوم صدّتها عن الانتفاع بأرباب المواهب، فلو كان لأم كلثوم مستشار أمين لوصلت إلى الإعجاز في الغناء والتمثيل، فلا عفا الله عمن من صدوا هذه الروح عن الاستئناس بأذواق أهل الآداب الفنون!
وهل أنسى بشاعة الاستئثار بتصوير عصر الرشيد؟
كان يمكن أن يكون فلم (دنانير) أعجوبة الأفلام التاريخية لو كانت أم كلثوم تعرف أن في مصر رجالاً أدق ذوقاً وإحساساً من فلان وفلان، وأن الانتفاع بآراء هؤلاء الرجال قد يعود عليها بالخير الجزيل، ولكن أم كلثوم امرأة وإن كانت رجل أعمال، والمرأة لا تفلح حين تتوهم أنها أعقل من الرجال
فلم دنانير جميل جميل، ولكن تعوزه قوة الروح، ولأم كلثوم أن تغضب كيف تشاء، ولفلان أن يقتل نفسه من الغيظ، فقد أخلف الظن به كل الإخلاف

إن هذا الفلم يلخص رأينا في أم كلثوم: فهي لا تجيد إلا عند العزلة والانفراد
فأين من يجعل أم كلثوم من أزهار المجتمع؟
أين من يحوّل هذه الفتاة إلى روح لطيف يشيع في المجتمع معاني الأنس والانشراح؟
إن كانت هذه الفتاة تحب أن تكون (ابن بلد) فقد ظفرت بما تريد، أما إن كانت تحب
أن تكون أعظم من أم كلثوم فلذلك حديث غير هذا الحديث
ثم وصل القطار إلى طنطا فانتقلت إلى قطار المنصورة وبقيتُ أتشوف إلى
الإسكندرية، وذلك آخر العهد بتلك الروح، فإن رضيت عن هذا المقال فقد نلتقي في
مصر الجديدة أو في الزمالك، وإلا. . . . . .
زكي مبارك

محاورة أفلاطون الخيالية
حول التربية الإنجليزية
للأستاذ عبد العزيز عبد المجيد

يعتبر سقراط أول من وضع الأسلوب الحواري الاستنباطي أسلوب التهكم الذي يقف
نفسه فيه موقف الجاهل، ثم يسوق أسئلته البريئة اللاذعة التي تصير بالمسئول إلى
حال التشكك والحيرة؛ غير أن سقراط لا يلبث أن يستدرج محاوره إلى الغاية الخفية
التي يضمرها، والتي يريد كشفها بأسئلته ونقاشه، فيتجلى الأمر ويصل إلى النتيجة، ولا
يجد محاوره مفراً من التسليم له بوجهة نظره من غير أن يقصد إلى ذلك
ولقد نهج أفلاطون فيما كتبه - ولاسيما في جمهوريته ومحاوراته - منهج أستاذه
سقراط: ففي (الجمهورية) مثلاً يعالج مبدأ العدالة في مدينته الفاضلة بأسلوب
استنباطي حواري على لسان سقراط نفسه. غير أن الحديث يتشعب به فينتقل من
موضوع إلى موضوع، ومن بحث إلى بحث، حتى يخيل لقارئه أنه يكاد يفقد الفكرة
التي بدأ بها موضوعه الأول، ولكن لا يلبث حتى يعود إليها
ومما عالجه أفلاطون في (الجمهورية) موضوع التربية. وآراؤه فيها - وإن كانت قد
أصبحت قديمة كبعض فلسفته - تستحق إيرادها هنا كتمهيد لتلك المحاورة الخيالية
التي سأنقلها للقراء من الإنجليزية، والتي دارت بين أحد المربين الإنجليز وبينه حين
بعث منذ أربع سنوات، بعد أن مر على وفاته ثلاثة وعشرون قرناً
يرى أفلاطون في (الجمهورية) أن هناك ثلاثة أنواع من الناس: نوع وهبه الله الحكمة
والذكاء، وهؤلاء يربون إلى أن يصلوا إلى مرتبة الحكام الفلاسفة، وهم الساسة
المفكرون، ذوو الأمر والنهي والرأي المطاع؛ ونوع دونهم في الذكاء والقدرة
الفلسفية، وهؤلاء يربون ليكونوا مساعديهم في الإدارة والتنفيذ وليكونوا رجال الجيش
الذين يحفظون النظام داخل الأمة ويذودون عن حياضها في الخارج؛ ونوع في المرتبة
الدنيا غير الموهوبة التي لا تصلح إلا للزراعة والتجارة والصناعة، وهؤلاء يكوّنون جمهرة
الشعب وعامته
والمحاورة الخيالية التي سأوردها هنا من وضع الأستاذ كرُصمان بجامعة اكسفورد. وقد
أذاعها من محطة لندن ضمن سلسلة أحاديثه التي تشمل أيضاً: أفلاطون والديمقراطية
الإنجليزية، أفلاطون والأسرة الإنجليزية، أفلاطون والاشتراكية، أفلاطون والنظام
الفاشستي الخ. وهاهي ذي المحاورة:
أفلاطون للمربي: يقال إنكم أنتم معشر الإنجليز مهتمون بالتربية ومعضلاتها،
ومصممون على بنيان نظامها على أسس قوية لأنكم تدركون أن تربية النشء تربية
صحيحة، إنما هي عامل فعال في إصلاح شؤون الدولة، وأن سلامة الأمة لا تكون إلا
بالتربية الحقة
المربي: نعم، الأمر كذلك. ولقد خطونا خطوات مباركة في الخمسين سنة الماضية.
ولعلك لا تدري أننا حتى سنة 1870 لم يكن لنا نظام تعليم حكومي موضوع، ولم يكن
عندنا تشريع للتعليم الإجباري، ولم تكن عندنا كليات ثانوية للبنات بجانب العدد القليل
من مدارس البنين الثانوية الصالحة، ولم يكن لغير أتباع الكنيسة الإنجليزية حق في
التعليم العالي مهما كانت ثروتهم. أما الفقير فلم يكن له نصيب من التعليم الجامعي
ولو كان من النابغين. ولكن كل هذا قد تغير الآن. فالتعليم الإجباري إلى الرابعة عشرة،
والتعليم الثانوي إلى الثامنة عشرة. وهو نصيب نسبة كبيرة من الناشئة التي هي أهل
له. وعندنا عدد لا بأس به من الجامعات التي تعينها الحكومة مالياً، والتي يتلقى فيها

الشباب التعليم العالي إلى الثانية أو الثالثة والعشرين
أفلاطون: حقاً لقد كنتم نشطين في ميدان التربية خلال هذه الحقبة الماضية، وإني لأهنئكم على أنكم أبيتم أن تدعوا التربية كما كانت في يد الأسرة فقط، أو غيرها من الهيئات التي لا تقدر هذه التبعة، تبعة تنشئة الجيل القادم. ولكني أود أن أعرف جلياً الأسباب التي من أجلها وجهتم كل طاقتكم لجعل التعليم العام حقاً لكل فرد من أفراد الشعب
المربي: مما لاشك فيه أن من بين الأسباب التي دعتنا لهذا إيماننا بمبدأ العدالة. فنحن شعب ديمقراطي، ونعتقد أن التربية يجب ألا تكون وقفاً على طبقة خاصة من الشعب، بل يجب أن تكون حقاً مشاعاً لكل فرد. وما فائدة أن نخول للفرد حق الانتخاب واختيار من يمثله في المجالس النيابية إذاً كان هذا الناخب جاهلاً لا يحسن اختيار ممثله. وتربية الشعب هي الوسيلة التي بها يكون للانتخاب أو التمثيل النيابي معناه ومغزاه، فلا يكون له ذلك المظهر الصوري التقليدي. ومن السهل أن يكون للأمة حكومة نيابية، وهيئة برلمانية، ومؤسسات ديمقراطية، هي نتيجة الانتخابات العامة. ولكن كل هذه مظاهر خادعة ما لم يكن الشعب
متعلماً. والمؤسسات الديمقراطية لا تجعل الشعب ديمقراطياً، ما لم يكن أفراده قد عرفوا معنى الديمقراطية واستطاعوا أن يتمتعوا بها، وأن يستفيدوا منها. ومعرفة معنى الديمقراطية واستغلالها الحكيم ليس شيئاً يسقط من السماء، بل لابد لخلقها في نفوس الشعب من المال والمجهود. ونحن جادون في هذا السبيل بالتربية التي نقدمها لأبناء الشعب في مدارسنا. وليست التربية عندنا أن نصب عقول الناشئة في قوالب منتظمة، فتخرج قطعاً منتظمة تركب في عجلات المحرك الحكومي، فتؤدي وظيفتها دائرة مع هذه العجلات دوراناً آنياً، حتى إذاً عراها الصدأ أو تحطمت ألقينا بها جانباً، واستبدلنا بها غيرها، والحقيقة هي أننا لا نريد أن نجعل أبناء الجيل القادم صناعاً مهرة فحسب، ولكنا نريدهم أن يكونوا مواطنين صالحين في شعب ديمقراطي، قادرين أن يقوموا بدورهم بنجاح فيما هم أهل له، سواء أكان ذلك في ميدان الكرة، أم في نقابة التجار أم في المجلس المحلي أم في دار النيابة. نريد أن ننشئهم بحيث يعرفون كيف يحكمون أنفسهم ويساعدون من يحكمهم. فأنت إذاً ترى أن غاية التربية في مدارسنا ليست إقدار الناشئة على كسب الخبز ونيل الوظائف، ولكن الغاية من تعليمهم التاريخ والجغرافيا والاقتصاد هي أن يصبحوا في أمتهم أعضاء يقدرون حقوقهم المدنية، ويعرفون واجب الأمة عليهم
أفلاطون: صحيح كل هذا، وهو يطابق تماماً ما قرأته لأحد ساستكم إذ يقول: إن التعليم العام للشعب ما هو إلا تجربة في الحكم الذاتي. ولقد كان لهذه العبارة أثرها ومعناها في نفسي لأني أنا كنت قد حاولت في مدينتي الفاضلة أن أجعل جميع أفرادها يشتركون في حكومتها الذاتية. غير أن تجربتي لم تنجح فحدثني إذاً عن نتائج تجربتكم التربوية هذه، وهل توقظ في الشعب شعوره بضرورة اشتراكه في أمور السياسة الخارجية والداخلية؟
المربي: نعم، أعتقد ذلك، فالشعب قبل الحرب الماضية مثلاً ما كان ليعنى بالشئون الخارجية، أما الآن فالشعب جميعه يعنى بالسياسة الخارجية، ووزير الخارجية في البرلمان أكثر النواب حديثاً، وأكثرهم إجابة عن الأسئلة المتنوعة التي توجه إليه من كل حزب ومن كل صوب، ولا تسمع الآن في أحاديث الأسرة الإنجليزية إلا أخبار الحرب والسلم
أفلاطون: ولكن هل تظن أن لاهتمام الشعب بالسياسة الخارجية وتدخله فيها كما ذكرت أثراً في اعتدال هذه السياسة وتحسنها؟
المربي: من غير ما شك. وآية ذلك أن الحكومة لا تستطيع الآن - كما كانت تستطيع من قبل - أن تقرر في الخفاء أي شأن من شئون السياسة الخارجية
أفلاطون: إن سؤالي مرة أخرى هو: هل كان لاهتمام الشعب بالسياسة الخارجية أثر في اعتدال هذه السياسة وتحسنها؟
المربي: أجل، لقد جعل اهتمام الشعب بالسياسة الخارجية الحكومة تدرك تبعة تصرفاتها، وأنها مسئولة عنها أمام هذا الشعب الذي انتخبها، فهي إذاً لا تستطيع أن تعمل ما تشاء، ولكن ما يشاؤه الشعب

أفلاطون: ولكن هب الحكومة أرادت أن تفعل شيئاً تراه هي صالحاً، ولا يراه الشعب كذلك، فما هو الموقف؟
المربي: نحن نعتقد أنه من الحكمة أن يفعل الشعب الفعلة الخاطئة بإرادته وحريته متى قرر ذلك بدلاً من أن يكره على عمل الصواب. . .
أفلاطون: كأني بك تعتقد أن الحرية خير من الفضيلة؟
المربي: لا، لا أعتقد هذا. ولكن الرأي عندي أن الفضيلة مستحيلة بدون الحرية. إنك لا تستطيع أن تكره الطفل على أن يكون خيِّراً، بله الكبار من الرجال والنساء
أفلاطون: قد تكون على حق! وإذاً فلماذا تريدون الحكومة مادام الشعب يريد أن يعاني التجارب القاسية بأفعاله الخاطئة وتصرفاته الحمقاء، وهو مطمئن لأنه قام بها بمحض حريته ومجرد رغبته. ألا ترى أن الأصلح إلغاء النظام الحكومي نهائياً!؟
المربي: إن أسئلتك كالحلقة المفرغة لا يدري لها طرف. وإنك لتلعب بعبارتي وتتهكم حتى ليحسبها السامع جوفاء. . . لا يختلف اثنان في أنه يجب أن يحال بين الأفراد وبين أي تصرف يتنافى مع حرية غيرهم. وهذه هي الحكمة في قيام الحكومات، ولكن يجب أن تترك الحرية لأفراد الشعب بقدر المستطاع ليقرروا بأنفسهم مصير شئونهم. إن الهدف الذي نرمي إليه - نحن المربين - في هذا العصر هو أن نعد مواطنين يحسنون استخدام حقهم الانتخابي، ويعرفون كيف ولِمَ ينتخبون، فلا ينتظر منهم أن يكونوا خبراء في شئون السياسة والاقتصاد، ولكن يكفي أن يكونوا ذوي بصر وفكر بهما
أفلاطون: ألست تقر أنكم لم تكوّنوا بعدُ هذا النوع من الرجال؟ فلِم إذاً تتعجلون - قبل أن
تتم مشروعاتكم التعليمية وتنضج - فتكلون إلى أنصاف المتعلمين من الشعب الفصل في شئونكم السياسية؟ إن هذا لقلب للموضوع وللوضع المنطقي! الواجب أن يكون عندكم أولاً نظام عام للتربية يكوّن هؤلاء المواطنين الذين وصفتهم في نقاشك، وحينئذ تكلون إليهم مطمئنين الإشراف على سياسة الدولة داخلية وخارجية، غير أني أعتقد أنكم متى كوّنتم هذا النوع من المواطنين كامل التربية لم تعد ثمة حاجة إلى أية حكومة
المربي: لقد عدت بنا من حيث بدأنا. إن العالم لم يصل بعد إلى المثل الأعلى، ولن يصل إليه، فلا مفر من مواجهة الواقع كما هو، ونحن في بلادنا نعتقد أننا إذا وكلنا إلى المواطنين العاديين الإشراف على أمورهم ومستقبلهم فإنما نعطيهم الحرية التي بدونها نرى الحديث عن الفضيلة والخلق لغواً
أفلاطون: لقد قلت الآن إن الغاية من قيام الحكومة هو منع الأفراد أن يتعدوا في تصرفاتهم إلى حقوق الآخرين، وإلزامهم أن ينصرفوا لأمورهم ويدعوا غيرهم وشأنهم، فإذا كان الأمر كذلك فمن واجب الحكومة، في سياستها الخارجية، أن تحول أيضاً بين أفراد شعبها وبين تعديهم إلى حقوق غيرهم من أفراد الشعوب الأخرى. وأنت الآن تريد مواطني بلادك أن يوجهوا الحكومة فيما تبحثه من الشئون العالمية، وأن يتدخلوا فيما تقرره منها. ومعنى هذا أن سياستكم الخارجية ستكون طبعاً خاضعة لنفوذ ذوي المصالح الشخصية من المواطنين الذين همهم الوصول إلى منافعهم المادية على حساب الشعوب الأخرى
المربي: كلا، إننا نتوقع عكس هذا. إن عامة الشعب لا ترغب في الحرب، وليس له مطامع مادية أو استعمارية، إن هذه إلا مطامع تجار السلاح والذخيرة والرأسماليين. أما عامة الشعب فتريد السلم والعدالة العالمية
أفلاطون: هذا جميل حقاً، ولكن هل يعرف أفراد الشعب كيف يحققون هذه المبادئ العالمية السامية؟ دعني أنبئك وما ينبئك مثل خبير؛ إن فن السياسة فن دقيق صعب المراس، وإن علوم الحرب ليست من العلوم التي تدرك في يوم؛ فهل ترى أن أفراد الشعب خبيرون بفنون السياسة عليمون بتاريخ العلاقات الدولية؟ أو هم فقط غيورون متحمسون تدفعهم العواطف النبيلة، فإذا ما صدمتهم الحقائق الصماء ذهبوا كفقاعات الصابون في الهواء
المربي: نحن الآن جادون في تعليمهم فن السياسة والعلاقات الدولية. ولكن الحق هو أن

هذا العالم يحتاج إلى قليل من المكر السياسي، وكثير من الخلق المستقيم
أفلاطون: نحن على وفاق. فإن كل ما يحتاج إليه المواطن هو العواطف الخلقية القوية القويمة. ولكن هذه العواطف وحدها لا تكفي لتكوين من يصلحون للحكم. وأنتم في تجربتكم التي تقومون بها الآن بتربية الشعب تحاولون أن تعدّوا جيلاً يستطيع أن يحكم نفسه بنفسه. وعندي أن هذا الجيل يحتاج إلى شيء آخر بجوار العواطف الخلقية التي أشرت إليها. إن مهنة السياسة تحتاج إلى مهارة ولباقة عقلية. وإذاً فلابد أن نفرق بين التربية التي يحتاج إليها المواطن العادي والتربية التي يحتاجها الحاكم السياسي. فهذا الأخير يجب أن يعرف شيئين: قواعد السياسة التي يريد أن يتبعها، والعالم الذي يريد أن يطبق فيه هذه القواعد. فهو باحترافه السياسة يشبه كل صاحب مهنة فقد نجد الرجل المغرم بالصور الجميلة، الذي يدرك الجمال أنى يكون ويحبه بكل قواه، ولكن هذا الإغرام أو الحب لا يخلق منه رساماً أو مصوراً. فالمصور لابد له من معرفة قواعد التصوير، وخواص الألوان ومزجها ونتيجة أخلاطها، وأنواع الأوراق والمواد التي يستعملها في تصويره، وأصناف الفراجين التي يستخدمها وهلم جرا. هذا إلى الهبة الطبيعية التي تكون فيه. والأمر كذلك في الحكم؛ فليس يكفي أن يكون الحاكم ذا ميول خلقية نبيلة كحبه للعدل والسلم، لا، بل لابد من أن يعرف أصول السياسة، وحوادث العالم اليومية، العالم الذي سيطبق فيه أصول سياسته. فأمر السياسة العالمية الخارجية إذاً ليس من السهولة بحيث يمكن أن يصير المرء بها وفيها خبيراً.
ولهذا لا أفهم كيف يستطيع مواطنوك أن ينقدوا سياسة الحكومة وأن يوجهوها
المربي: إن المواطنين لا يستطيعون طبعاً أن يفهموا دقائق الأمور، ولا أن يتعدوها أو يغيروها، ولكنهم يستطيعون أن يقرروا اتجاهات السياسة العامة التي يجب أن تتبعها الحكومة
أفلاطون: أخالفك في هذا. لأن الاتجاهات العامة من المكان والأهمية بحيث تحتاج إلى فيلسوف لحل معضلاتها التي هي معضلات الحرب والسلم، والاعتداء والدفاع، ولكن مهما يكن من الأمر فلنترك بحث السياسة الخارجية، ولنرجع إلى موضوع إصلاحاتكم في التربية ونظمها. لقد ذكرت في حوارك أن غايتكم المثلى في التربية هي أن تكون عامة لكل أفراد الشعب، ولعلي لا أكون بعيداً عن الصواب إذا قلت إنك تريد (أن تكون فرص التربية
والتعليم للجميع سواء). فما الذي تريد أن تصل إليه بهذا كله!؟
(يتبع)
عبد العزيز عبد المجيد
عراك في غير معترك
. . .وحكايات أخرى
للأستاذ محمد متولي
ذات صيف، إذ كنت صبياً في المدرسة الابتدائية، وكنت في الريف أقضي عطلتي، صادفت الليلة الختامية للاحتفال بمولد أحد الأولياء هناك، وذهبت أجوس خلال حلقات الذكر ليلتئذ، فإذا (مجذوب) ناحل هزيل، مأخوذ بشعور ما، يهذي بما هو أشبه بالدمدمة أو (الهلضمة) منه إلى الكلام الواضح المفهوم، بينما وقف بجانبه فتى شاب يصلح من شأنه وهو يقول له: (وحّد الله وحد الله. . .) ودفعني فضول المعرفة فرفعت قامتي القصيرة إلى الفتى وسألته: (الراجل دا بيقول إيه؟) فأجابني في ابتسام وإشفاق أنه يتكلم (اللاوندي)
ولقد كنت أنتظر من صديقي الأستاذ زكي طليمات، بعد أن لفته في مقالي السابق إلى وجوب (موضوعية) كلامنا، كنت أنتظر من هذا الصديق أن يكون أكثر لباقة فلا يدفعه الدكتور بشر في المزالق فيندفع وينزلق ويتورط في مسائل علمية وفنية، ويشط بعيداً، ويجيئنا بحكايات متناثرة متنافرة مشحونة بالزيف والبهرج، حتى لقد غُمض فحسبته، أول الأمر، يقصد بألفاظه إلى رموز خاصة بنفسه، كما في الصوفية؛ وصخب فخلته يتكلم ذلك (اللاوندي) الذي سمعت في حلقة الذكر منذ ربع قرن من الزمان، وجئت أردد له قول صاحبي الريفي: (وحد الله. . . وحد الله. . .)
كان العراك بين جبهتي بشر فارس والشاعر علي محمود طه في غير معترك، ولكن الأستاذ زكي لم ير هذا، لأنه لم يتفق معنا على أن (النقد الفني) يجب أن يقتصر على

تبيين قيمة (الصورة) التي يقدمها الفنان كإبداع له وحدته، بخلاف ما كان بين الجبهتين من خلط وتنابذ واتهام. إنما يتصور الأستاذ أني قصدت بتقريري أن (العراك كان في غير معترك) كون رواية (مفرق الطريق) تافهة ممسوخة، وأنا لم أرد غير ما رأيته من ضلال الجماعتين (أصول النقد) فليس ذنبي أن قصر فهم صديقي دون إدراك غرضي في تلك العبارة، وهو قريب بيّن

وأحببت أن يكون العراك في معترك، فبينت أن رواية بشر ليست من الرمزية في شيء، كما دللت على أن الدكتور المؤلف لا يفرق بين (رموز الصوفية) و (رموز الفن)، مع أنهما عمليتان تختلفان (سيكلوجياً)؛ ولكن بشراً وزكياً عقدا جلستهما وقررا كتابة الرد على هذا الرأي، ولعل لذة المعرفة فاتتهما، أو لعل غريزة (حب الغلبة) غلبتهما فحجبت جمال المعرفة عن بصيرتيهما، فنسيا موضوع الكلام وراحا يتفلسفان ويتعالمان!

وحدّ الموضوع كما قلنا - وكما يقرر (ريبو) - هو أن الرمزية في الفن (تستخف بتمثيل العالم الخارجي تمثيلاً صادقاً. . . فإذا الناس والأشياء تمر دون أن تنطبع بزمان أو مكان، ولكنها تمضي وما ندري أين حصلت ولا متى؛ فلا هي (تمت) بصلة لأي بلد، ولا هي تمثل عصراً بذاته)ـ والدكتور بشر يعرض علينا، في مفرق الطريق، صورة محلية (تجري حوادثها في مصر في أحد شوارعها، أمام صف من المنازل المنخفضة على شكل المنازل التي تصاب في الأحياء القديمة). فهل حاول أحد الفارسين أن ينقض هذا التحديد الذي يجرد مسرحيتهما من صفة الرمزية؟!

اللهم لا شيء من ذلك، ولكن بشراً يدفع زكياً ليقول أشياء لامعة، ويذكر أسماء رنانة بينها وبين مسألتنا من البعد قدر ما بين الدكتور بشر ومفهوم الرمزية في الفن. وهذه الأشياء هي الحكايات التي استنبتها الفارسان على هامش المسألة، والتي أتناولها الآن بالتفنيد للتدليل على ما ذهبت إليه من أن صاحبينا يجترئان ويتأملان كتب الفلسفة والفن بالاجتهاد، ويقرآنها كما يقرآن روايات الجيب - مثلاً - فيزلاّن ويقعان فيما يجب ألا يقع فيه المخلصون في طلب المعرفة

وإذن ندور حول الموضوع تمشياً مع منطق الأستاذ طليمات ونعتذر عن هذا اللغو لأستاذنا صاحب الرسالة، ونعده ألاّ نعود إلى الكلام (خارج الموضوع) مهما يقل بشر أو زكي أو غيرهما

1 - استهل زكي مناقشته بنص للمستشرق (بروكلمن) وساقه برهاناً على أن مسرحية بشر عمل أدبي، وترجمة ذلك النص الدقيقة هي (نحن هنا في بداية تطور هو تجديد يمكن أن يؤثر في الحياة الأدبية، بعد نضال عنيف) وهذا النص بذاته برهان على أن الرواية (محاولة) فجة، إذا صدقنا أن (بروكلمن) يمكن أن يقدم (دراسة) لعمل أدبي في بعض صفحة من القطع المتوسط، ولكن الواقع أن هذا المستشرق يعرض المسائل عرضاً تاريخياً بسيطاً، ثم هو كالأستاذ زكي لا يحسن النظر في الأشياء ويتورط في أحكامه، لأن بشراً قدم روايته عملاً مطبوخاً وغير ناضج عام 1938 فيما أذكر، بعد أن قدم توفيق الحكيم (شهرزاد) عام 1934 مثلاً رفيعاً للأدب الرمزي، ليس في أدبنا وحده، ولكن في جميع الآداب، فكيف لا نصف (بروكلمن) بالغفلة إذا اعتبر مفرق الطريق (بداية تطور) مع أننا قبل ذلك وصلنا إلى غاية الغاية برواية توفيق الحكيم؟!

2 - والمسألة عند زكي (محصورة فيما إذا كان بشر قد استلهم في كتابة مسرحيته. . . من (كذا) الفيلسوف (كانت). أو هو استوحى فلسفة برجسون، وهذا الحصر مرفوض لأنه لا معنى له عند من (يشعر) بمعنى الإيحاء أو الإلهام و (يعرف) طريق النظر في أية فلسفة، وكذلك هذا الحصر ليس إلا لفاً حول الموضوع ورجوعاً إلى (الخناقة على اللحاف)

3 - والأستاذ زكي يصف أسلوبه بأنه (أوضح وأدنى إلى الثقافة العربية) وأنا لم أعرف أني (مستشرق) وإذا كانت المصطلحات الفلسفية غريبة على ثقافته، فليس هذا من خطئي ولا هو مما يدعوني إلى أن أسوق له عبارات مبتذلة كي يفقه قولي. وعلى أي حال، كنا نحب أن نحمد الله لأنه (لم يغب عن ذهن زكي) التفريق بين (الصورة) و (الفكرة) في الفن، لولا أنه عاد فقال إن (اقتصار الفن على الصورة أو الشكل لا يعني أن يكون هناك فن رفيع وفن رخيص، وفن أصيل مبتكر وفن متبع مقلد، وشاعر يسرق

وكاتب يستمد) قال هذا فبدا لنا عقله كصندوق حروف، ورأيناه هو كأنه (مطبعجي) يرص الحروف وهو لا يقصد من ورائها إلى معنى في نفسه محسوس، ذلك أن الفن يجب أن يكون رفيعاً، وإلا فهو تهريج لا نسميه فناً، ويجب أن يفيض عن الروح طريفاً لطيفاً، وإلا فهو شيء صناعي لا حياة فيه؛ أما عبارة الشاعر الذي يسرق والكاتب الذي يستمد، فقد نرجو إعادة حروفها إلى (الصندوق) إذا كان ممكناً، فلا يقرؤها الناس فيسيئوا الظن بصديقي المعروف من أهل الفن

4 - ويحدثنا الأستاذ طليمات عن (شرائط الفن المقطوع بها) في المسرحية، ويحددها بأنها (مراعاة بلاغة العرض لحوادثها وجودة الحبك لمشاهدها، وبراعة الحوار ولطفه، وعمق التفكير وانسيابه إلى أعماق النفس يكشف عن خفاياها)؛ وهذا الحديث يذكرنا بذلك الطراز من نقاد المدرسة القديمة الذين يحتفظون بعدد من (الكليشيهات) يضيفونها إلى أسماء الشعراء والأدباء، من غير نظر ولا تأمل، فإذا الفرق بين شاعر وشاعر أن هذا (جزل الألفاظ)، وأن ذاك (سلس الأسلوب)، وأن الآخر (حسن الديباجة). زكي معذور في هذا، لأنه يتصور الفن تصوراً (ميكانيكياً) لا أثر فيه للعاطفة، فيبتدع تلك (الشرائط) ويقطع بها وحده، ويحاول أن يفرضها علينا قبل أن يطبقها، ولو استطاع تطبيقها لما انطبقت إلا على الرواية الفاسدة التي لا يمكن أن تصدر عن روح فنان، وإنما يخرجها (مصنع تزييف)

5 - ولقد كان الأستاذ زكي يستطيع أن يصفني بالتفلسف لو أنني أخذته إلى مجاهل ما وراء الطبيعة، ورحت أحدثه في نظرية المعرفة عند (كانت) أو (برجسون)، بينما نحن نتكلم في مسألة فنية، ولكني أردت أن أهديه سواء السبيل، فأخذت بيده إلى علم الجمال الذي موضوعه الفن، وبدلاً من أن يبهره هذا النور الجديد رأيته، كالتلميذ الكسلان، يركب رأسه، ويأبى متابعتي؛ بل رأيته أكثر من هذا يطالبني بأن أترك مصطلحات علم الجمال إلى ما يدعي أن رجال المسرح اصطلحوا عليه حتى يكون قولي قائماً على الدقة والإحكام في نظره. يطالبني بهذا الكفر، وليته كان صادقاً، فرجال المسرح لم يصطلحوا على شيء اسمه (الرمزية الفنية)، وهذا الشيء لا وجود له إلا في (صندوق حروف) الأستاذ المخرج الممثل

6 - وفي هذه الحُزُون، يصل الأستاذ زكي إلى الهاوية السحيقة، ويدفعه بشر، ويسقط، فإذا هو مبقور البطن مجدوع الأنف مصلوم الأذن، ثم هو، مع ذلك كله، يأسف من أجلي راثياً لأني لم أتعقب (المراحل الحديثة التي مر بها علم النفس بعد العهد الذي ألف فيه (ريبو). . .) ولأني لم أعرف (أن علم النفس الذي أفادت منه الرمزية كثيراً قد دخل في طور جديد تبدلت على أثره أوضاع في الأدب عامة وفي الرمزية خاصة) وبعد الأسف والرثاء (يود) الأستاذ العالم أن نقف (على آراء علماء اليوم فيما كتبه (ريبو) خاصاً بالمخيلة. . . وذلك كما وردت (كذا) في مؤلف كبير يدرس اليوم في جامعة السوربون بباريس) ويزيّف علينا أن (وليم جيمس) يقول في هذا الكتاب: (يلوح لنا أن علم النفس عند ريبو في مسائل المخيلة والاختراع لا يزال تحت تأثير النظرية الآلية البسيطة الخاصة بتجزؤ الذهن إلى ذرات متجاورة) وأخيراً لا ينسى حضرته أن يصف وليم جيمس بأنه (الفيلسوف الأمريكي المعاصر)

ولو أمكن إيجاد محكمة تحفظ كرامة العلم وتحاسب المستهترين بقدسيته وتعاقبهم على جناياتهم، لو أمكن إيجاد هذه المحكمة وقدمنا لها هذا الكلام الذي يرسله صديقي زكي إرسالاً، إذن لحكمت عليه بالحرمان الأبدي من القراءة والكتابة، ولحكمت على الدكتور بشر بسحب شهادته بتهمة التحريض والإفساد

أما أنا فأؤكد للأستاذ زكي أني أعرف موضوعي لدرجة تسمح لي أن أصحح له ولشريكه تلك الأوهام التي يعيشان فيها؛ فليسمع، أو ليسمعا

(أ) (وليم جيمس) ليس معاصراً، بل هو متوفى عام 1910، أي منذ ثلاثين عاماً، بينما (ريبو) متوفى عام 1916

(ب) ألـ (طبعة 1923 - 24 ذات الثلاثة الأجزاء) التي يعتمد عليها زكي وبشر أصبحت منسوخة لأنها تطبع الآن في تسعة أجزاء بزيادات وتفصيلات، وقد ظهر الجزء الخامس منها عام 1936، وظهرت قبيل الحرب أجزاء لا علم لي بها

(ج) لو أن الأستاذ زكي ذو عهد بالدراسة الجامعية لما قال إن كتابا يدرس بجامعة السوربون، كما تقرر الكتب في المدارس الابتدائية والثانوية، ولعرف أن أي كتاب يمكن أن يدخل الجامعة إنما ليقلب ويجرح، حتى ولو كان مؤلفه زكي طليمات الذي لا يرضي زكي طليمات، هو الذي عرف قدره فاختاره ليكتب مقدمة الـ (ريبو) (د) واعترف بفضله فأهدى السفر إلى ذكراه بعد موته

(هـ) لا وجود لكلمة (المخيلة)، ولا وجود لكلمة (الإختراع) في النص الذي ينقله زكي عن (وليم جيمس). وإذا كان هذا النص مذكوراً في باب (الاختراع) فقد جاء في عرض (جيمس) لوصف العملية الفسيولوجية لتداعي الخواطر ' عند (ريبو) (راجع ص20 في كتاب ' ولكن زكي يفتي فيما لا يدري فيضطر إلى تزييف هذا النص الذي يتعلق بمسألة (بسيكوفيزيولوجية)، ولا يتعرض للظاهرة النفسية ذاتها، والذي يدل على مكان فيلسوفنا العظيم ولكن من يقرأ؟! قال (وليم جيمس)

' , ' - ' - , '

(و) مفهوم علم النفس عند الأستاذ زكي شعبي خاطئ لا يزيد على ما نسمعه من بعض زبائن (قهوة بيرون) لأنه يفهم أن الرمزية (أفادت من علم النفس) والأمر بالعكس، فهذا العلم الذي موضوعه ظواهر النفس هو الذي أفاد من وجود الرمزية.

7 - وأنا لم أستنكر أن يحاول صديقي زكي أن يناقشني في مسائل الفن والفلسفة، فهل هو يستكبر إذا فسرت له نصاً فلسفياً لم يفهمه فأفسد ترجمته؟ (راجع النص الفرنسي وترجمة زكي ص1548 - العدد 379 من الرسالة) رضى أو لم يرض فواجبنا يحتم أن نعلمه أن الرمزية الميتافيزيقية (الفلسفية عند (ريبو) هي الرمزية الفنية التي يتكلم عنها الفيلسوف نفسه في صفحتي 169 - 170 من كتابه ' ولو أدرك زكي أنه لا وجود لغير نوعين من الرمزية، لعرف أن الرمزية الميتافيزقية، أو الفلسفية، هي بعينها الفنية، ولا استطاع أن يفهم (ريبو) ويترجمه في أمانة؛ وإلا فهل وجد هو (ريبو) يذكر اصطلاح في أي فصل من فصول كتابه؟!

إن زكي في حيرته ودورانه يدعي أني (أخلط خلطاً صريحاً) بين الرمزية الفنية وبين ما يسميه (رمزية ما وراء الطبيعة)؛ فهل يتفضل الزميل بأن يفسر لنا هذه الرمزية الثالثة التي يضيفها إلى النفس الإنسانية وكأنه يريد أن نتصور إنساناً بثلاث أرجل أو عيون مثلاً؟!

8 - بقي أن نهمس في أذن الصديق زكي أن تاريخ الرمزية الفنية، هو تاريخ تطور العقل البشري، وأن هذه الرمزية إذا كانت قد بلغت بهذه الصور المركبة، فهي قد بدأت بالأساطير في أحضان الدين، بل يرجع تاريخها إلى ابتداع الحروف الأبجدية كرموز تدل على أصوات، وهي في جميع مراحلها تقوم على أساس (سيكلوجي) واحد.

والفرق بين هذه الرمزية وبين الرمزية الصوفية هو أن الأخيرة تعتمد على رموز شخصية ينتزعها الصوفي من نفسه انتزاعاً ليس فيه أي عنصر عقلي، ولهذا السبب لا يفهمها أحد غيره، بينما الرمزية الفنية تقوم على رموز تنتزع من الحياة العامة، فتكون عند جميع العقول

ولقد أكتفي بهذا القدر لأن الأستاذين زكيا وبشرا يذهبان في مناقشتي على غير أساس من العلم الوضعي، مما أشاع الغلط والسفسطة في كل سطر كتبه زكي، ومما جعل المناقشة معهما سقيمة عقيمة؛ فإلى أن يجدا ما يقولانه في (الموضوع) سيجدانني في كل لحظة مستعداً لتقديم كل ما يحتاجانه لدراسة الرمزية وفهمها، على أن يعاهدني الدكتور بشر ألا يحاول التأليف، فليس الفن قواعد وتطبيقات، إنما الفن فيض من عند الله، يؤتيه من يشاء

محمد متولي

ماجستير في الفلسفة

ومفتش شئون التمثيل بوزارة المعارف

نفثات

أماه. . .

للأستاذ سيد قطب

من نحن اليوم يا أماه؟ بل ما نحن اليوم عند الناس وعند أنفسنا؟ ما عنواننا الذي نحمله في الحياة ونعرف به؟

إننا لم نعد بعد أسرة، ولم يعد الناس حين يتحدثون عنا يقولون: هذه أسرة فلان؛ بل أصبحوا يقولون: هذا فلان وهذا أخوه، وهاتان أختاه!

اليوم فقط مات أبي؛ واليوم فقط أصبحنا شتيتاً منثوراً، وإني لأضم اليوم إلى صدري ابنكما وابنتيكما. أضمهم بشدة لأستوثق من الوحدة، وأشعرهم بالرعاية. ولكن هيهات هيهات. فأنا وهم بعدك أيتام يا أماه!

لقد شعرت اليوم فقط بثقل العبء، وعلمت أنني لم أكن أنهض به وحدي، وأنني كنت أرعاهم وأرعاك معهم، لأنني قوي بك. أما اليوم فالعبء فادح، والحمل ثقيل، وأنا وحدي ضعيف هزيل!

إن الشوط لطويل، وإني لوحدي في الطريق، وأخي وحده كذلك، وأختاي وحدهما أيضاً، وإن كنا نقطعه جميعاً!

والعش الذي خلفته ستظل فراخه رُغباً مهما امتد بها الزمن، لأن يدك الرفيقة لا تمسح ريشها وتباركه، وكفك الناعمة لا تدرب أجنحتها على التحليق، وروحك الحنون لا تكلؤها في أجواز الفضاء

نحن اليوم غرباء يا أماه

لقد كنا - وأنت معنا - نستشعر في القاهرة معنى الغربة في بعض اللحظات؛ وكنا نشبّه أنفسنا بالشجرة التي نقلت من تربتها، والتي ينبغي لها أن تكثّر من فروعها، لتتقي الاندثار في غربتها

أما نحن اليوم فغرباء في الحياة كلها. نحن الأفرع القليلة ذوى أصلها، بعد اغترابها من تربتها، وهيهات أن تثبت أغصان في التربة الغريبة. . . بلا أم!

أماه. . .

لقد امتلأ حسي إرهاصاً بالكارثة قبيل وقوعها، يوم لم يكن يبدو في الأفق نذير بها. ولقد حدثت بهذا الإحساس بعض الإخوان فعجبوا من أمري، وحسبوها وسوسة الشعراء. وقد ناديتها مراراً: (أقبلي أقبلي لطال انتظاري!). ولكنني لم أكن أتخيل الكارثة فجيعة فيك. لقد دعوتها لتقبل وأنا قوي بك، فكم من كوارث صمدت لها وأنا معتصم بركنك الركين!

لقد تمتمت قبل الكارثة بليلتين اثنتين أقول: كم أنا في حاجة لمن يربت علي كتفي ويضمني إلى أحضانه! ولقد دعوتني مرة - في دعابة من دعاباتك الحلوة - أن آوي إلى حضنك كما كنت طفلاً. وكم كنت مشوقاً لتلبية دعوتك، لولا الكبرياء، الكبرياء التي أودعتها نفسي منذ الطفولة، فجعلتني أهرب من كل مظاهر الطفولة. ولو علمت ساعتها يا أماه أنك راحلة لنسيت كل تعاليمك لأرتمي لحظة واحدة في حضنك الرفيق. كما كنت طفلاً. . .!

أماه. . .

من ذا الذي يقص علي أقاصيص طفولتي كأنها حادث الأمس القريب، ويصور لي أيامي الأولى فيعيد إليها الحياة، ويبعثها كرة أخرى في الوجود؟

لقد كنت تصورينني لنفسي كأنما أنا نسيج فريد منذ ما كنت في المهد صبياً. وكنت تحدثينني عن آمالك التي شهد مولدها مولدي، فينسرب في خاطري أنني عظيم، وأنني مطالب بتكاليف هذه العظمة التي هي من نسج خيالك ووحي جنانك. فمنذا يوسوس إلي بعد اليوم بهذه الخيالات الساحرة؟ ومنذا يوحي إلي بعد اليوم بتلك الحوافز القاهرة؟

منذا الذي يصوغ لي الأحلام الذهبية في الآمال، ويبني لي قصور المجد في الخيال، فتصح الأحلام بعد لحظة، ويتجسم الخيال بعد برهة، لأنك تنفخين فيها من حرارة القلب، وتوسوسين لها برُقى الإيمان، وتسكبين عليها إكسير الوجدان

لمن أصعد درج الحياة بعدك يا أماه؟ ومن ذا الذي يفرح بي ويفرح لي وأنا أصعد الدرج، ويمتلئ زهواً وإعجاباً وأنا في طريقي إلى القمة؟

قد يفرح لي الكثيرون، وقد يحبني الكثيرون. . . ولكن فرحك أنت فريد، لأنه فرح الزارع الماهر يرى ثمرة غرسه وجهده؛ وحبك أنت عجيب، لأنه حب مزدوج: حبك لي وحب نفسك في نفسي. . .!

أماه. . .

عندي لك أنباء كثيرة، كثيرة جداً ومتزاحمة، تواكبت جميعها في خاطري على قصر العهد بغيبتك. وإنه ليخيل إلي في لحظات ذاهلة أنني أترقب عودتك لأسمعك هذه الأنباء، وأحدّثك بما جدّ في غيبتك من أحداث؛ وأنك ستسرين ببعضها وتهتمين ببعضها. . . وهي مدخرة لك في نفسي يا أماه، ولن تدب فيها الحياة إلا حين أقصها على سمعك. . . ولكن هيهات، فسيدركها الفناء الأبدي، وستغدو إلى العدم المطلق، لأنك لن تنصتي إليها مرة أخرى. . .!

. . . . . .أماه. . . أماه. . . أماه

(حلوان)

ابنك المفجوع

سيد قطب

سيجموند فرويد

العالم النفساني الكبير

للأستاذ صديق شيبوب

- 3 -

العقل الباطن سر من أسرار النفس المغلقة التي يصعب الوصول إليها وإماطة اللثام عنها، وكان الأطباء يلجئون إلى التنويم المغناطيسي في أول الأمر لشفاء داء الهستيريا، كما أشرنا إلى ذلك من قبل، ولكن (فرويد) أبى الأخذ بهذه الطريقة وقرر ثلاث وسائل يستطاع بها معرفة دخائل العقل الباطن. فإما بانتزاع السر عنوة وقوة كما كان يفعل رجال التحقيق في القرون الغابرة، وإما بتقريب الأدلة وحل ألغاز العواطف المكبوتة وتحليل بعض الظواهر، وإما بالانتظار والصبر حتى تطرأ على المريض حالة ضعف عرضية فيبوح بسره

عندما ابتدأ فرويد اختباراته اكتشف ظاهرة لم ينتبه إليها أحد من قبله، وهي ما أسماه (الأفعال الفائتة). ذلك أن الإنسان كثيراً ما يخطئ التعبير فيقول كلمة وهو يريد ضدها، أو يدلي بأمر وهو يقصد عكسه، وكان العلماء الأقدمون، كما كانت عامة الناس، يعزون هذه الأخطاء للغفلة أو الالتباس أو قلة الانتباه. أما (فرويد) فقد رأى أن الغفلة أو الالتباس معناهما أن أفكار الإنسان ليست حيث يريدها أن تكون. ففي (الفعل الفائت) فعل قام مقام آخر، وهذا الأخير هو الذي كان المراد إتيانه. قد تدخل إذن فجأة بين الإنسان وعمله عنصر ثالث حال دون القيام به وفقاً لإرادته. فإذا عرفنا أن لكل حادث نفسي معنى مقصوداً كما أن لكل فعل فاعلاً، وأن العقل الواعي ليس العامل الصحيح في (الفعل الفائت) لأن العقل الباطن طغى عليه فيه، قدّرنا أن الفعل الفائت ليس نتيجة غفلة أو التباس ولكنه دليل على ظهور عاطفة مكبوتة، والخطأ في الحديث يدل على صميم فكرنا بينما تصحيحه لا يدل إلا على ما يقصده إليه وعينا

وهكذا نستطيع أن نقرر أولاً: أن كل فعل فائت وكل عمل يظهر أنه نتيجة خطأ إنما يعبران عن إرادة خفية، وثانياً: أنه يوجد في المنطقة الواعية مقاومة فعالة لمظاهر العقل الباطن

وقد اندفع (فرويد) في التحليل بعد تقرير هذه المظاهرة ليفسر ظواهر وأعراضاً أخرى كان يظن أنها ضرب من المحال حتى انتهى إلى أشدها إمعاناً في المحال وهي الأحلام

كان الأقدمون يعتقدون في إيمانهم الخرافي أن الأحلام ضرب من وحي الآلهة، فاستحدثوا في أوائل عهد الإنسانية علم تفسير الأحلام، وشاع في هياكل مصر وبلاد اليونان والرومان وفلسطين. ثم زال هذا الاعتقاد وصارت الأحلام أضغاثاً لا معنى لها ولا قصد، وصار ينظر إليها كسديم، أو كشيء لا قيمة له، أو أنها ذبذبة متأخرة خرساء توقع على أوتار الجهاز العصبي، أو أنها نتيجة عدم انتظام الحركة الدموية واندفاع الدم إلى الدماغ

ولكن (فرويد) رأى غير ذلك، فنظر إلى الأحلام نظرة وضعية، وقرر أنها الوسيط بين عواطفنا المكبوتة والعواطف الخاضعة للفكر، وقال إن الحلم ليس كله محالاً، ولكن لكل واحد معناه الخاص به من حيث هو فعل نفسي كامل

صحيح أن الأحلام لا تعبر باللسان الذي تعودنا النطق به في ساعات اليقظة، لأنها لغتها لغة أعماق الطبيعة غير الواعية؛ لذلك لا نستطيع أن نفهم فهماً مباشراً معناها

ورسالتها، ويجب أن نتعلم وسائل تفسيرها، ولغة الأحلام تعبر بوسائل الصور كما كانت تكتب اللغات القديمة

رمى (فرويد) من تفسير الأحلام إلى قصد جديد. كان الأقدمون يحاولون بواسطة هذا التفسير الكشف عن المستقبل، أما فرويد فقد أراد الكشف عن الماضي النفسي وأسرار الإنسان العميقة، لأن (الذات) في الحلم مثلنا شكلا في حالة اليقظة، ولكنها تختلف عنا من حيث انعدام الزمان، فهي في ساعات الحلم يستوي لديها الماضي والحاضر، أي أنه يجتمع في الحلم الطفل والمراهق ورجل الأمس ورجل اليوم مما تتألف منه (الذات) الكاملة

كل حياة مزدوجة إذن، ففي الأعماق غير الواعية تتألف المجموعة الصحيحة من الأمس الدابر إلى اليوم الحاضر، ومن الرجل الأولي إلى الرجل المتحضر، بينما تطفو على السطح الحياة المستنيرة والذات الواعية القائمة في الزمان

تلتقي هاتان الحياتان في حرية كاملة في عالم الأحلام الذي يعبر تماماً عن أدق عناصر حياتنا، بحيث لا يستطاع معرفة مجموعة حياتنا الزمنية التي تتألف منها شخصيتنا، ولا فهم مرامي إرادتنا، إلا إذا تمعنا جيداً في مغزى أحلامنا

ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟ وضع (فرويد) طريقة لحل الأحلام المعقدة، فابتدأ بالسهلة البسيطة منها ثم قارب بين الشكل الأول والشكل الأخير؛ والأحلام كالزهرة التي لا تعرف حقيقتها إلا بعد درس أصولها المغروسة

ابتدأ (فرويد) بأحلام الطفل الصغير بدلاً من أن يبتدئ بأحلام المراهق، لأن الطفل الصغير لا يعي بينما المراهق يعي ويكتب؛ والطفل الصغير لا يكتنز خياله إلا أشياء قليلة، ودائرة تفكيره ضيقة، والتداعي ضئيل لديه، مما يجعل أحلامه سهلة المنال بالتفسير. يرى الطفل الحلوى فيلح في طلبها، فإذا رفض والده أو أبت والدته مشتراها، رآها في الحلم كما هي لأنه لا يفهم الخير من الشر. إنه يظهر رغباته بلا خشية كما يكشف عن جسمه بلا حياء

والأمر عكس ذلك عند المراهق فما فوق؛ فصور الأحلام الرمزية تخفي في أغلب الأحيان شهوات مكبوتة ورغبات لم تتحقق في النهار فتتخذ سبيلها إلى حياتنا عن طريق عالم الأحلام

هذا ما فهمته العامة من طريقة (فرويد) في تفسير الأحلام ولكنه في الحقيقة لم يقف عند هذا الاكتشاف السهل لأنه يعرف أن الإنسان خاضع للعقل الواعي حتى في أوقات النوم عندما يستسلم لعالم الأحلام. ففي الأحلام توجد عواطف تحاول أن تظهر ولكنها لا تجرؤ على ذلك في حرية خوفاً من المراقبة فتتحول إلى رموز في شكل دقيق والتواء مقصود وتختلط بضروب من المحال كيلا يظهر معناها الحقيقي، والحلم كالشاعر كاذب صادق، لأنه يخفي الحادث النفسي وراء مظاهر رمزية. ومهمة العالم النفساني أن يحل هذه الرموز وأن يفرق بين الصحيح والكاذب منها وأن يبحث عن الحقيقة من وراء مظاهرها الكاذبة

يريد (فرويد) أن يكون البحث علمياً وأن يكون عمل الطبيب كعمل الناقد الأدبي في دراسة ديوان من الشعر. فكما يحاول الناقد الفصل بين خيال الشاعر وبين المعنى المقصود والبحث عن أسباب استعمال الاستعارات والتوريات والتشابيه والوصول إلى نفسية الشاعر الكامنة وراءه، كذلك يجب أن يفعل الطبيب النفساني لأن عليه أن يبحث في الحلم الخيالي عن دوافع المريض الشعورية. ولما كانت غاية علم التحليل النفسي معرفة الشخصية فإن على العالم أن يستخدم مواهب الإنسان الخيالية، وأن يدرس العناصر التي تألف منها الحلم،

وأن يمعن تفكيراً وتحليلاً حتى يصل إلى الحقيقة

وهناك نظرية أخرى عرض لها فرويد لتدعيم رأيه

من المقرر أن النوم وسيلة طبيعية للراحة وتجديد القوى التي تستنفدها اليقظة. فيجب أن يكون النوم إذن سباتاً عميقاً في ظلام لا ينقطع. وإذا كان الأمر كذلك فلا معنى إذن للأحلام، وهذا ما قرره الكثيرون من العلماء. ولكن (فرويد) رأى فيها وسيلة للتفريج عن العواطف والشهوات المكبوتة وتحريرها من حكم العقل وسيطرته عليها. وهكذا تقوم الأحلام مقام الأفعال التي أبينا إتيانها في اليقظة. وقد قال أفلاطون: (يكتفي الرجل الصالح بأن يحلم بما يفعله الرجل الشرير في اليقظة)

هذه هي النظريات الأساسية التي بنى عليها (فرويد) علم تفسير الأحلام. وقد أبينا شرح وسائل هذا العلم وطرق التفسير لأنها كثيرة متشعبة، وهي في مجملها متروكة لفطنة الطبيب وذكائه

على أن الحلم ليس الوسيلة الوحيدة لتعرف شخصية المريض وشهواته المكبوتة. فهناك طريقة أخرى يقول (فرويد) بأن العالم النفساني يستطيع أن يمارسها في كثير من الدقة والصبر، وهي أن يفسح المجال للمريض ليتحدث بكل ما يمر بخاطره من غير إمعان فكر أو تحكيم عقل

يستلقي المريض على مقعد طويل بينما يجلس الطبيب إلى مكتبه بحيث لا يراه المريض الذي يجب أن ينسى حضوره. ثم يأخذ المريض بالكلام يلقيه على عواهنه فيدلي بكل بادرة تمر بذهنه، بينما يصغي إليه الطبيب ويلاحظ ما يجد فيه دلالة على حالة مريضه

ولاشك أن هذه الطريقة صعبة وخطرة لأن المريض الذي تعود الكبت قد لا يبوح بكل خلجات ضميره، ولأن العقل الواعي يسيطر أبداً على اللسان بالرغم من إرادة الإنسان، ولأن المريض كثيراً ما يكون قد أعد قصته ليرويها للطبيب فلا يستطيع الانفكاك من أثرها

لذلك يجب أن يطول المجلس وأن يتكرر أكثر من مرة، وأن يتذرع الطبيب بالصبر الطويل حتى ينفد صبر المريض فتجري على لسانه ألفاظ يستطيع الطبيب بواسطتها أن يتعرف إلى حقيقة الداء. والأمر بعد ذلك موكول إلى مهارة الطبيب وذكائه

صديق شيبوب

رسالة الشعر

أصداء الحب

للأستاذ أنور العطار

خَاطِرِي جَدْوَلُ تَرَقْرَقِ أَلْحَا ... ناً وَقَلْبِي عُشٌّ يَمُوجُ غِنَاَء
وَبِنَفْسِي قَصِيدَةٌ أنا مِنْهَا ... ثمِلٌ ما تُفيقُ رُوحي انْتِشاَء
كُلَّماَ رَنَّ هَمْسُهاَ في ضُلوعي ... صَفَّقَ الْقَلْبُ واسْتَحَالَ نِدَاء
يا حَبيبي أَرَاكَ في نِعْمَةِ الذِّكْ ... رى فأَصْبُو شَوْقاً وَأَهْفُو لِقاَء
عِشْ بِقَلْبِي لَحْناً عَلَى الدَّهْرِ حُلْواً ... واسْرِ في حُلْمِيَ الشَّجِيِّ صَفاَء
أَتَرِعِ الروحَ بَهْجَةً وَائْتِلاَقاً ... وَامْلأ النَّفْسَ فَرْحَةً وارْدِهَاَء
تَتَراَءى فَيَعْبَقُ الْكَوْنُ بُالْعِطْ ... رِ وَيَخْتَالُ جَنَّةً غَنَّاَء
وَظِلاَلاً يُنَغِّمُ الْحُبُّ فيها ... وَيَذُوبُ السَّنَا بها أَنْدَاَء
أَنْتَ لي عَاَلَمٌ يَمُوجُ مِنَ الرَّهْ ... وِ وَدُنْياَ تَألَّقَتْ أَفْيَاَء
وَمُنىً تَسْكُبُ الرَّغادةَ في الْقَلَ ... بِ وَتُحْيِي في ناظِرَيَّ الرَّجَاءِ
وَتُعيدُ الْحَيَاةَ جَمْرَةَ شَوْقٍ ... وَهْجُهَا يَمْلأُ الوُجُودَ ضِيَاَء
يا حَبيبي تَرِنُّ في الْقَلْبِ أَصْدَا ... ءٌ وبالْقَلْبِ أَفْتَدِي الأَصْدَاءِ
وَدَّتِ الْعَينُ أَنَّهاَ تَسْمَعُ الْهَمْ ... سَ وَتَحْياَ عَلَى المَدَى عَمْياَء
تَحْسُدُ الأُذْنَ أَنْ يُهَدْهِدَهَا اللَّحْ ... نُ وَتَفْنَى في سِحْرِهِ إِصْغَاء
يا هَوَايَ الْقَدِيمَ جَدَّدْتَ دَائي ... فَتَفَجَّرْتُ مِنْ أَسَايَ بُكَاَء

أنور العطار

الشاطئ والحرب

عودة إلى الشاطئ!

للأستاذ مصطفى علي عبد الرحمن

عدتُ واللهفةُ تدعوني إليكْ ... عودةَ المخذولِ من ساح الحروبِ
أذكرُ الأمسَ وأيامي لديكْ ... علَّ في الذكرى شِفاء لنُدوبي
زاحفُ الأحداثِ قد أخنى عليك ... وخطوبٌ جئنَ في إثرِ خطوب
كل سحر قد تولى ... وتوارى عن عيوني
لم يعدْ للقلبِ إلا ... ذكرياتي وحنيني
هذه الصخرة بالأمس جلسنا ... فوقها نرعى العهودَ الباسماتْ
وعلى أقدامِنا الموجُ يغني ... باعثاً في الشط عذب النغماتْ
هاهنا نامت عيونُ الدهر عنا ... بعض حين والأماني راقصاتْ

هاهنا في كل منحى معهدُ
ترقصُ الذكرى به أو تقعدُ
وأنا الذكرى التي لا تنفد
يا حبيبي كيف تصفو لي الليالي ... والذي كان تولى واندثرْ
أترى تهفو لأيامي الخوالي ... وعهودٍ هُنَّ في عمرِ الزهَرْ
نتغنى بالمنى فوق الرمال ... ونسيم الود مجلو عَطِرْ
هاهو الموجُ عبوسٌ مزبدُ
هاهو الشاطئُ جسمٌ هامد
وأنا وحدي شقي واجد
كل سحر قد تولى ... وتوارى عن عيوني
لم يعد للقلب إلا ... ذكرياتي وحنيني
عدت واللهفةُ تدعوني إليك ... ويقلبي ما بقلبي من وجيبِ
ذاكراً عهداً قضيناه لدَيْك ... آهِ ما أحلاه من عهدٍ حبيب
زاحفُ الأحداث قد أخنى عليك ... وخطوبٌ جِئْنَ في إثرِ خطوب
(الإسكندرية)
مصطفى علي عبد الرحمن
رسالة الفن
عهد جديد:
يوم القيامة - مايسة
للأستاذ عزيز أحمد فهمي
يوم القيامة - 1
منذ أنشئت الفرقة القومية وهي تعد الناس بأنها ستقدم لهم في يوم من الأيام أوبرا أو أوبريت، ولكنها لم تبر بوعدها هذا إلا اليوم فقط، ويقال إنها كانت مترددة إلى حد كبير في البر بوعدها هذا؛ ويقال إن عمر جميعي لاقى صعوبات جمة حتى استطاع أن يقنع ولاة الأمور في الفرقة وفي وزارة المعارف بأن إخراج الأوبرا أو الأوبريت شيء لا خطر فيه ولا خوف منه؛ ويقال إن هذه الصعوبات لم تزلل إلا بعد أن كتبت تقارير، وألفت لجان، وعرضت أبحاث، وتبدت وجهات مختلفة للنظر، وتضاربت وجهات النظر المختلفة هذه تضارباً حكومياً ممتازاً. . . ثم انتهى الأمر أخيراً بأن قال ولاة الأمور: لا بأس في أن نجرب هذا النوع لعله يفتح للفرقة فتحاً جديداً، ولعله يقربها من الجمهور تقريباً. . .
. . .ولقد كان. . . وأذن الله سبحانه وتعالى لنا بأن نسمع من الفرقة القومية ألحاناً
القصة:
قال الوالي للأهالي: إن يوم القيامة سيقوم يوم الجمعة المقبل فحزن الذين لهم بسمت الدنيا، وفرح الذين كشرت لهم الدنيا عن أنيابها، وتصدق كثيرون بأموالهم، وفزع كثيرون على أرواحهم وارتبكت سوق التجارة، وانخفضت أسعار الحاجات، وزهد الناس في الدنيا، واستغلها الوالي فرصة فجمع الأموال واكتنز الذهب. ثم جاء يوم الجمعة الموعود فلم تقم القيامة ولم ينفخ في الصور ولم تزلزل الأرض زلزالها، ولم تخرج أثقالها، ولم يقل الإنسان ما لها بل قال الناس: ما للإشاعة المزعجة لم تتحقق؟ وقال الأغنياء: ما لنا وزعنا أموالنا؟ وقال الفقراء. يا خيبتنا في رجائنا، ويا مرارة عودتنا إلى بؤسنا وشقائنا. . . ثم هاج الناس، وكان في البلد شيخ مجذوب فضح الوالي وقاد الثور عليه
هذه هي الناحية التاريخية من القصة، وقد دس المؤلف فيها قصة أخرى غرامية ليحليها بها
ويزخرفها، فابتدع عاشقاً ومعشوقة وزواجاً وزفافاً يشبع به شغف الذين لا يطيقون أن يظلوا الساعات يشاهدون قصة ولا يرون فيها امرأة. . .
ولست أريد أن أعرض للرواية من الناحية التاريخية فأبحث وراءها لأخرج من البحث بحكم عن صدقها أو كذبها، فهذا أمر أدعه للمؤرخين والباحثين والقارئين والمطلعين، وفي الصف الأول منهم أستاذي الدكتور زكي مبارك الذي قال لي إن في القصة غلطة تاريخية، وإنه سيدحضها

فليدحضها أو لا يدحضها، فأنا لا يعنيني من القصة شيء أكثر من اللذة الفنية التي أستمتع بها حين مشاهدتها، ولست أنكر أني ذقت لذة فنية سائغة في يوم القيامة، فموضوعها كما رأيت طريف، وحوادثها كما رأيت شاذة، وتأليفها لبق ولذيذ. وهذا كله من نعم الله التي لا أحب أن أتلفها على نفسي بمراجعة التاريخ وأسانيده الإخراج!

قلت في الأسبوع الماضي إن عمر جميعي أجهد نفسه، وأجهد الممثلين معه إجهاداً مضنياً في إخراج هذه القصة، وأقول اليوم إن هذا الإجهاد قد أثمر ثمرته وإني أعتقد أن الأوبريت الثانية ستكون أبهى من هذه بإذن الله، وأن الثالثة ستكون أبهى من الثانية، وإن أملي في عمر أمل كبير، وقد يكفيه فخراً أنه كان يسأل كل من يتصل به عما يستطيع أن يبديه له من الملحوظات وعما يمكن أن يدلي به إليه من الاقتراحات، مع أنه يعلم أن هذا السؤال قد يؤول تأويلاً سيئاً، ولكنه أعرض عن هذه الأوهام لأنه أراد أن ينجح، وقد نجح، ومادام متلهفاً إلى النجاح هكذا فسينجح أكثر مما نجح وأكثر

التمثيل

لم يشترك في تمثيل هذه القصة من فحول الفرقة القومية إلا اثنان أو ثلاثة ومع هذا فقد سرت في الرواية من أولها إلى آخرها حيوية ملحوظة كان سببها أن الممثلين والممثلات الناشئين الذين أسند المخرج أدوار الرواية إليهم طاوعوه بقدر ما استطاعوا المطاوعة، وقد نتج عن هذه المطاوعة أن توحدت روح التمثيل بين الممثلين، فلم يكن فيهم من أراد أن يبرز على غيره، ولا من أراد أن يشذ

صحيح أن بعض الحركات والإشارات والجمل كانت تلقى بأسلوب (إفرنجي). وهذا عيب. ولكنه ليس عيباً قاصراً على هذه الرواية وتمثيلها، فأغلب الممثلين المصريين لا يزالون يتتلمذون على الممثلين الغربيين، ولا يزالون قريبين من أساتذتهم بعيدين عن أنفسهم هم. وهذه حال ستنقضي يوم يكون لنا مسرح قوي يكتب له كتاب مصريون، حوادث مصرية، يعرفها الممثلون المصريون، ويعرفون ذويها ويستخلصون منها ومنهم فنهم عن طريق مباشر، لا بعد أن يصدر هنا الفن عنا إلى أوربا حيث يصنع صناعة غريبة ثم يعود إلينا وهو منا حقاً ولكن بعد أن لعبت اليد الأجنبية فيه. . . كما يحدث لقطننا. . .

الأزجال

كتبها بيرم التونسي، وبيرم التونسي هو بيرم التونسي

يقول في يوم القيامة:

لا الطفل يقول يا باه ... ولا أم تقول ولداه

وملايكة تقول: الله ... حاكم قهار يا ويل. . .

يا ويل الناس يا ويل

دا ميزان منصوب قسطاس ... ورصاص مصبوب ونحاس

فوق روس الناس. . . الخ

الألحان

أربعة عشر لحناً صاغها كلها زكريا أحمد، منها ألحان للمجموعة ومنها ألحان للأفراد، وألحان المجموعة أرسلها زكريا إرسالاً سهلاً في روعة واتساق امتاز بهما على غيره من الملحنين. وأما ألحان الأفراد فقد أودعها زكريا التطريب الشرقي الذي تتذوقه آذاننا وأرواحنا، والذي لا يتعثر في دخوله إلى أنفسنا. وقد كنت أحب أن أفيق ولو للحن واحد من هذه الألحان حتى أصفه لقرائي، ولكني مع كثرة ما سمعت هذه الألحان من زكريا ومن الفرقة لم أملك نفسي إلا أن أنساق لها مذهولاً مأخوذاً، فلست أملك اليوم أن أقول لقرائي شيئاً أكثر من أن أحيلهم على هذه الألحان ليسمعوها وليسكروا بها كما سكرت

على أني سأتربص منذ اليوم لزكريا وألحانه في دنانير، فقد كرهت أن أظل تحت تأثير سحره، وقد عزمت على أن أتحفز له. . .

الغناء

مع أن نجمة إبراهيم ليست من المطربات المعدودات فإنها مغنية بالطبع. يخيل إلي أنها حين تخلو إلى نفسها تغني، وأنها تبث في غنائها لواعجها وهمومها. وهذا هو ما

مكنها من أن تمر في يوم القيامة مغنية تلفت السمع وتلفت الشعور
وحسن سلامة مع أنه موسيقي أعده ممن يلهمون في اتجاه خاص هو تصوير نفوس النساء، فإنه استطاع أن يغني كثيراً من عواطف الرجال، وإني أترك حسن سلامة اليوم عند هذا فهو جدير بأن أقدمه إلى الناس على حقيقته في ظرف آخر على اعتبار أنه موسيقي لا مغن
فرقة الألحان
يتقاضى الفرد في فرقة الألحان من الفرقة القومية عشرة قروش في الليلة، وهو يؤدي بصوته وروحه غناء يساوي القروش العشرة. . . فلو أنه أعطى خمسين قرشاً في الليلة أو جنيهاً فإنه من غير شك يكون شيئاً آخر. . .
وماذا أيضاً:
لا أظنه بقي بعد ذلك في يوم القيامة شيء، ولكنه لا يزال بعد يوم القيامة أشياء، هي روايات الألحان التي ننتظرها والتي لا يمكن أن نشبع منها ولا أن نمل
مايسة - 2
قصة تصور حياة البدو المصريين الذين يعيشون على حدود مصر، وما يشعرون به من أنهم حماة السبل المؤدية إليها، كتبها بيرم التونسي زجلاً، ولحنتها ملك، فهي ألحان من النغم في ألحان من الكلام
وقد كنت، إلى أن سمعت ألحان ملك في مايسة، أحسبها مغنية كل ما تستطيعه هو أن تتلقى اللحن من غيرها وأن تؤديه بعد ذلك أداء فيه إتقان يتاح لها من قدرتها على أن تسلس راغبة لمن تريد أن تسلس له
ولكني بعد أن سمعت ألحان مايسة رأيتني أخاف من ملك، وكأني بها قد نفذت إلى عالم
آخر غير هذا العالم استرقت منه هذه الألحان، وإلا فمن أين أتتها هذه الشرارة التي اندلعت في روحها فتوهجت فيها هذه الأنغام اللامعة المصقولة
لقد حرت. . . وسألت. . . فقيل لي إن ملك استعانت باثنين موسيقيين أخفت اسميهما، ولكني قلت إن هذه الألحان مطبوعة كلها بطابع واحد، فلابد أن يكون صاحبها واحداً ولا أكثر. ثم إنها ألحان ظاهر جداً أنها حريق امرأة اندلعت في نفسها النار اللطيفة ذات السعير اللذيذ. . .
لست أدري. ولكن هذا هو رأيي. . . وأنا أعلم أن فيه مفاجأة، ولكنه شعوري. ولعل هذه هي المرة الأولى التي يستولي علي فيها الخبل من فن امرأة. . .
إن ملك تتكلف في الغناء أحياناً، وهي تثقل فيه على النفس أحياناً. . . ولها في هذه الأحيان العذر، فما يستطيع الإنسان أن يستنبع روحه في كل حين. . . ولكنها كانت في هذه الألحان نبعاً يتدفق. . .
فهل هذه ألحانها حقاً، وهل ننتظر بعد ذلك منها ألحاناً تشبه هذه. . .
إذا كان الأمر كذلك فعلى الملحنين أن يأخذوا حذرهم. . . وعلى بعضهم أن يتعلم وأن يتذوق
عزيز أحمد فهمي
البريد الأدبي
لا تناقض ولا اضطراب
لم أكتب عن المنصورة مقالاً واحداً، وإنما كتبت مقالين أحدهما قُبَيْل السفر وثانيهما بُعَيْد الرجوع، وبين المقالين فاصل هو الإمضاء، فقد نبهتُ مدير مطبعة الرسالة مرتين إلى ذلك الإمضاء، فقد كنت والله أشعر بأنه لن يُثبته في صُلب الحديث، وقد وقع ما توقعتُ وصحّ للسيد محمود وصيف أن يحكم بأن المقال وقع فيه تناقض واضطراب
ولعل هذه الملاحظة تذكر مدير مطبعة الرسالة بأن ليس من حقه أن يتصرف بالحذف والإيصال في مقالات الكتاب، فقد يكون من الذين يخفى عليهم وجه الصواب في بعض الأحايين، وإلى صاحب الملاحظة أقدم تحيتي وثنائي
زكي مبارك
غناغراف
حضرة الأستاذ الجليل رئيس تحرير مجلة (الرسالة) الغراء
تعلمون كما يعلم قراء الرسالة أن لدى إدارة البرق (التلغراف) نوعاً من الرسائل أعد

للتهنئة وهو يمتاز عن الرسائل البرقية العادية برسوم زخرفية ذات شكل بهيج
ومع أن هذه الميزة لا تكاد تؤدي مرح المهنئ المخلص وفرحه واغتباطه فقصارى ما
أتمناه لكم ولقرائكم أن تتلقوا رسائل من هذا النوع بما يقر أعينكم ويطمئن قلوبكم
ولكن الذي أرجو أن أعرف وقعه لديكم وأثره فيكم هو نوع رسائل التهنئة الذي ابتكرته
الولايات المتحدة، تلك الأمة الخالية القلب من متاعب العالم القديم
في عدد اليوم من جريدة الاجبشيان غازيت مقال ممتع بقلم المستر جرني وليمز عن
ذلك النوع من الرسائل واسمه (الغناغراف) فماذا ترون لو ازدحمت غرفتكم بالرسالة
أو بالمنزل العامر بفرقة من سعاة التلغراف تنشدكم برقية تهنئة من شعر رامي
وتلحين السنباطي أو من شعر الدكتور زكي مبارك وتلحيني أنا؟!
يقول كاتب ذلك المقال إن مكاتب البرق في الولايات المتحدة أعدت نماذج مختارة
من التهنئات المختلفة الأغراض وهي شائعة الألحان، ولكن للمهنئ أن يبعث بغيرها، ولدى
السعاة مقدرة على الأداء، ولدى إدارة البرق مقدرة على التلحين
وفي هذا الخبر على قصره بشريات لنا لو أخذنا بهذا النظام فمن لنا بالفرصة التي
تتيح حفظ مكتبة في كل مكتب للبرق تحتوي على كل دواوين الشعر العربي، ومن لنا
بفرصة لتوظيف الملحنين وبعض المغنين والمغنيات سعاة للتلغراف!! ولقد ينشأ بعد
ذلك شعراء عموميون كالكتبة العموميين لنظم التهنئات للبرقية، فما أسعد البشرى!
ويصف الكاتب استغلال الماجنين لنظام التهنئة المغنية فهم يبعثون لحفلة متزمتة
بفرقة من السعاة تنشدهم ما لا يتفق ونظام الحفلة، قال وعند ذلك يطرد الساعي
المنشد المسكين قبل أن يتمم إنشاد البرقية وقبل أن يعلن اسم المرسل
قال: وفي هذا النوع من الرسائل تكثر مداعبات الغزل بين الشبان والشواب، وروى
قصة فتاة أرسلت أغنية كبعض شعر عباس بن الأحنف إلى صديق لها، فطرب الشاب
وجعل الرد برقية إلى مكتب البرق في حي الفتاة يرجو فيها تقديم طعام الإفطار لها
فقدمه المكتب على حساب المرسل للظريفة المداعبة في غرفة نومها في ساعة الفجر
سيدي الأستاذ:
لا علينا من طبيعة نظام الغناغراف ولكن أمة يمكن فيها إنشاؤه واستمراره لهي أمة
سعيدة فهل تدعون إلى إنشائه بمصر إدارة المصلحة التي أنشأت قطار المفاجآت وقطار البحر
أحسب ذلك إن شاء الله.
عبد اللطيف النشار
أدهم قال لي
قرأت للأستاذ عبد اللطيف النشار كلمة بمناسبة دعوة أحد الأدباء لأصدقاء المرحوم
الدكتور أدهم في أن يكتبوا عن مقدار ما وصل إليهم من العلم عن عقيدته
وفي الواقع كانت دهشتي عظيمة لأمرين: الأول هي تلك الدعوة الغريبة التي لا أجد
لها أي داع، وقد حرت في فهم ما يرمي إليه الداعي من وراء دعوته، فإن كان يقصد
بالعقيدة (الدين) فإنني أعتقد أنها مسألة شخصية بحتة يجدر بنا أن نبعدها عن نطاق
الجدل؛ ثم إنني لا أفهم كيف يمكننا أن نخدم الأدب بتركنا الكلام عن الناحية الأدبية في الكاتب إلى مسائل
خاصة، ويجب أن تظل كذلك
وإنني أتساءل: متى يمكن لأفكارنا أن تسمو عن الاهتمام بمثل هذه الفوارق التي يجب
أن تتلاشى مادامت رسالة الأديب نبيلة في مرماها مجدة في الرفع من شأن الأدب؟
والأمر الثاني الذي دهشت له هو رد الأستاذ النشار نفسه وتلبيته دعوة كهذه، ولم
أخرج إلا بنتيجة واحدة من كلمته، وهي أنه قد انتهز فرصة الكلام عن أدهم ليرميه بمر
الذم والتعريض؛ وإنني أرجو أن تكون نية الأستاذ النشار - وقد كان صديقاً لأدهم - بريئة مما استطعت استنتاجه من كلمته
ليتكلم عن أدهم وأدبه كما يشاء، ليناقش آراءه الأدبية والعلمية إذا أراد، فهذه رسالة
الناقد؛ أما أن يدخل في أمور شائكة كهذه، فهذا ما لا يقره عليه أحد، وخاصة أنها
تتعلق بشخص انتقل إلى جوار ربه، فللموت حرمة يجب علينا تقديسها

شعبان فهمي
إلى الأستاذ النشار
في عنقك الآن قلادتان: أولاهما للأستاذ إسماعيل أدهم - رحمه الله - وأخراهما للأدب الحديث
أما قلادة أدهم فأرى أن يَوحْك بما (قال لك) قد يحيك له وشياً من الخلود لا يخلق ولا يبلي. أما قلادة الأدب فأعتقد أن أدب الأستاذ - وإن كان جافاً لا يخلب كما قال الأستاذ محمد عبد الغني حسن في مقاله - إلا أنه جديد في أفق الآداب، ورأيه غريب في سماء الآراء
وعالم الأدب الآن محتاج إلى كل جديد، ودنيا الآراء عطشى إلى كل غريب
فإن صح ما تقول فهنيئاً لبحر أدهم بغواص يتصيد الدرر الخبيئة، ولعالم الأدب بمرآة تشع نفساً غامضة تاهت (حتى حقائق نسبها) عمن تعرضوا لموضوعه الشائك فراح أخوه يخطئهم (الرسالة من عدد 369 إلى 373)
على أني لا أرى عليك حرجاً من (إنفاذ الوعيد) بل إن إنفاذه للزام عليك (إن صح إن هذا وعيد) لاسيما وقد اختارك لذلك واختار لك أقوى الوسائل المغرية للكتابة عنه في فلسفة عملية تكشف عن نية مبيتة للانتحار
أيها الأستاذ: أن في عنقك للعلم ثقة، فدع عنك مبضع الجراح، وانقل مزهرك في خيال رقيق، وانفذ إلى الحقائق في تمحيص وتدقيق، سدد الله خطاك
حلمي إبراهيم النبوي
إلى طلاب النحو في جميع الأقطار
ما كان أظرف الأستاذ مصطفى إبراهيم حينما وجه (إلى علماء النحو في جميع الأقطار) معضلاته الآتية:
1 - لِمَ أفرد لفظ مائة في ثلاثمائة إلى تسعمائة على خلاف القاعدة؟
2 - لِمَ حذفت التاء في قوله تعالى: (فله عشر أمثالها) على خلاف القاعدة أيضاً؟
3 - كيف قلتم إن لن لتأبيد النفي، وقوله تعالى: (فلن أكلم اليوم إنسياً)، (ولن يتمنوه أبداً) ينافي ذلك؟
وقد هممنا أن نفزع إلى أستاذنا العلامة صاحب النحو والنحاة، ولكنا وجدنا الأمر أيسر من ذلك
1 - إنما يكون مميز الثلاثة إلى العشرة جمع قلة ما لم يكن لفظ مائة أو اسم جمع نحو تسعة رهط وخمس ذود؛ لأن مائة - وهي مفردة في اللفظ - جمع في المعنى، لأنها عشر عشرات وهو عدد قليل اهـ توضيح وأشموني. وأقول ربما لوحظ في إفراد لفظ المائة خفة النطق؛ والتعداد بالمئات كثير بخلاف الآلاف، ولذلك وصل الإملائيون المضاف بالمضاف إليه فيها لكثرة الاستعمال وفرقاً بين الجمع والكسر في مثل رُبُع مائة وثُمن مائة الخ. ثم إن إضافتها إلى الآلاف جمعاً قد جاء على أصل القاعدة، وعندهم (ما جاء على أصله لا يسأل عنه) وظاهر أن اسم الجمع في حكم جمع القلة. هذا وشذ قول الفرزدق في الضرورة:
ثلاث مئين للملوك وَفَى بها ... ردائي وجلت عن وجوه الأهاتم
2 - يُعتبر في واحد المعدود - تأنيثاً وتذكيراً - لفظُه إن كان اسماً؛ وموصوفه المنويُّ إن كان صفة؛ فتقول ثلاثة أشخُص قاصدَ نسوة وثلاث أعين قاصدَ رجال؛ وتقول ثلاثة رَبَعات إن قدرت الموصوف رجالاً، وتحذف التاء إن قدرت الموصوف نساء؛ لأن الربعة يوصف بها المذكر والمؤنث. وعلى هذا قوله عز وجل: (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها)، تقديره
فله عشر حسنات أمثالها. ويمكن تخريجها على تأنيث المعدود مراعاة للجمع، ولكن الصحيح مراعاة واحد المعدود خلافاً للبغداديين. وقد يقال إن المعدود اكتسب التأنيث بإضافته إلى المؤنث. اهـ أشموني وتوضيح. واختر ما يحلو
3 - النحاة جميعاً على أن (لن) لمجرد النفي. والتأكيد أو التأبيد يستفادان من القرائن؛ ولم يخالفهم فيما نعلم إلا الزمخشري. وكيف نجعل المرجوح راجحاً ثم نستشكل بناء عليه؟
على أن من ينصر مذهب الزمخشري في إفادتها التأكيد أو التأبيد، فله أن يجيب عنه بأنها إنما تكون للتأبيد عند الإطلاق. فإذا ذكرت قرينة تمنع منه مثل (اليوم) في الآية

الكريمة فهي للتأكيد فحسب. وبأن التكرار في مثل: (ولن يتمنوه أبداً) يقع في بليغ الكلام لزيادة التأكيد
وإذا لم نرتض مذهبه فقد قطعت جهيزة قول كل خطيب
طه محمد الساكت
مدرس بمعهد القاهرة
شرح بيت ونسبة آخر
حضرة الأستاذ صاحب الرسالة الغراء المحترم
1 - مررت وأنا أقرأ ديوان (أبي نواس) جمع الأستاذ محمود كامل فريد بقصيدة نسبها الأستاذ للنواسي مطلعها:
لدوا للموت وابنوا للخراب ... فكلكم يصير إلى تراب
على أني قرأت هذه القصيدة بكتاب آخر منسوبة إلى أبي العتاهية. فهل لي أن أسأل سيدي الأستاذ أي القولين أصوب؟
2 - وفي صفحة (247) من الديوان نفسه قرأت البيت التالي:
وتبسم عن أغر كأن فيه ... مجاج سلافة من بيت راس
يقول الشارح في الحاشية: إن (بيت رأس) اسم لقريتين في كل واحدة منهما كروم كثيرة ينسب إليها الخمر، إحداهما بيت المقدس والأخرى من نواحي حلب. وأقول إن بيت رأس اسم لقرية صغيرة تقع قريبة من الحدود الأردنية السورية من جهة الشمال، وهي كما
وصف الأستاذ غنية بكرومها، فلا يبعد أنها كانت مشهورة بخمورها، وأنها هي التي عناها الشاعر. . .
أرجو إفادتي في أيهما وجه الصواب خدمة للحقيقة وتعميماً للفائدة
(عمان)
مصطفى علي عزام
القصيدة لأبي العتاهية لا لأبي نواس. وقولك في (الرسالة):
بيت رأس هو الصحيح
من لصوص المجلات
نشرت (الرسالة) في العدد (379) فصلاً طريفاً عنوانه (قداسة النقد) بتوقيع (اسكندر البطرسي)، الذي زعم لنفسه فضل ترجمته عن (برناردشو) وأحب أن أبين أن هذا المقال منقول بنصه من العربية إلى العربية عن عدد شهر نوفمبر سنة 1934 من (المجلة الجديدة) التي نشرته في صحيفة 89 و 90 مترجماً بقلم صاحبها الأستاذ سلامة موسى، وقد أردت بهذا البيان أن أضع الأمور في نصابها وأفضح هذا الدعي وأمثاله ممن يسرقون آثار الناس ليوهموا أنهم من الناس
أسعد حسني
حول مقال
أستاذي الكبير صاحب الرسالة
تابعت باهتمام ما دار على صفحات الرسالة حول مسرحية مفرق الطريق للدكتور بشر فارس، حتى قرأت في العدد 379 مقالاً للأستاذ زكي طليمات يرد به على مقال سابق للأستاذ محمد متولي وقد عنّت لي عند قراءة هذا المقال الملاحظات الآتية:
أولاً: يقول الأستاذ زكي طليمات إنه لا حرج على الدكتور بشر في تسميته بطلة مسرحيته (سميرة) وتحديد المكان الذي وقعت فيه حوادث المسرحية وهو مصر. ولو علم الأستاذ أن
القصة الرمزية يجب أن تكون رمزاً لما يحدث في كل زمان وفي كل مكان بين أشخاص غير معينين، لعرف أن هذه التسمية وذلك التحديد يتنافيان مع أبسط شروط القصة الرمزية. لذلك يجب أن يحيط الغموض والإبهام أبطال القصة الرمزية وحوادثها.
ثانياً: يذكر الأستاذ أنه (من المعقول أن يكون البطل (هو) لأنه عنوان لفئة خاصة من الرجال في مصر وأن تكون (سميرة) - سميرة - لا (هي) لأنها ليست عنواناً لفئة خاصة. ونحن لا نفهم كيف تكون القصة رمزية إذا كانت بطلتها امرأة شاذة لا يوجد على طرازها، ففي هذه الحالة تفقد القصة صفة الرمزية، لنفس السبب الذي أوضحناه في الفقرة الأولى.

ثالثاً: يعتقد الأستاذ زكي طليمات - كما ذكر في الفقرة الأخيرة من مقاله - أن الأستاذ متولي يقف علمه بالرمزية وعلم النفس عند ما كتبه العلماء في القرن الماضي.
لماذا؟ لأن الأستاذ متولي يقف علمه بالرمزية وعلم النفس عند ما كتبه العلماء في القرن الماضي. لماذا؟ لأن الأستاذ متولي أراد أن ينقد المسرحية فأتى بشاهد من فلسفة (ريبو) فالأستاذ زكي طليمات إذن قد أخطأ الفهم لأنه لو طُلِب من شاعر أن يأتي ببيت في غرض من أغراض الشعر كالهجاء مثلاً فأتى ببيت من الشعر الجاهلي، فليس ذلك دليلاً على أن الشاعر لا يحفظ من الشعر سوى الشعر الجاهلي
هذا ما أردت أن أنبه إليه الأستاذ زكي طليمات. والسلام
فؤاد كامل
أحوال النساء
كتب الأستاذ إبراهيم محمد نجا في (أجوبة عن أسئلة) أبيات علقمة الفحل عن (أحوال النساء) على هذه الصورة: عدد 379 من (الرسالة):
فإن تسألوني بالنساء فإنني ... خبير بأدواء النساء طبيب
إذا شاب رأس المرء أو قل ماله ... فليس له من ودهن نصيب
وأنا لا أريد أن أدخل بين الدكتور زكي مبارك والأستاذ نجا فيما يجري بينهما من سجال وصيال، ولكني أذكر أن الرواية الصحيحة لشعر علقمة هي:
فإن تسألنّي بالنساء فإنني ... خبير بأحوال النساء طبيب
إذا قل جاه المرء أو قل ماله ... فليس له من حظهن نصيب
يردْن ثراء المال حيث وجدنه ... وشرخ الشباب عندهن عجيب
وأظن صديقنا الدكتور زكي مبارك يطابق حفظه حفظنا في هذا الشعر
محمود الشرقاوي
تصويب
ورد في المقال الافتتاحي لرسالة هذا الأسبوع (خواطر مهاجر) نص الآية القرآنية الكريمة هكذا: (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولكن لا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم. . .) والصواب حذف (لكن)
ولكم في النهاية واجب التحية والإكبار.
السيد محمد أحمد الفقي
تصويب
في قصيدة (الخلوة الأولى) (عدد 380) من الرسالة نشر هذا البيت:
أين الوفى منك وميثاقه ... وأين منه اليوم هذا الجمود
وصحته: هذا الجحود
جريدة فتى النيل
دخلت زميلتنا (فتى النيل) في عامها الثالث وعهدها الجديد حافلة بكل ما يهم القراء الاطلاع عليه. وقد اشترك في تحريرها نخبة من حملة الأقلام الممتازين. وفي مقدمتهم الأستاذ عبد الحميد المشهدي. وجعلت موعد صدورها صباح الاثنين من كل أسبوع
فنتمنى للزميلة كل تقدم ونجاح.
القصص
لقاء!. . .
للأستاذ محمد سعيد العريان
كان النَّدِيُّ مزدحماً بالسامرين على عادته كل مساء؛ قد تحلقوا حول الموائد جماعات جماعات، في البهو، وفي الشرفات، وعلى الطّوار؛ وكان الميدان الفسيح الذي يشرف عليه الندي، مراد العيون ومستراح النظر؛ فما تقع العين منه إلا على منظر أنيق ومرأى فاتن، والسيارات تتهادى ذاهبة آيبة تحمل كل منها قصة حب أو تُسرّ حديث هوى، وأسراب الملاح تتواكب في مطارف الفتنة وعطر الشباب غادية إلى ميعاد أو رائحة إلى أمل، ونسيم المساء الهادئ ينفح عطره ويهمس في كل أذن حديثه. . .
وكان ثمة بضعة نفر جلوساً إلى مائدة مستديرة في ظل وارفة لفّاء يتجاذبون الحديث ويتبادلون الفكاهات في أنس ومسرة. أولئك (رفيق) وأصحابه . . .
بضعة نفر لا يشغلهم من هم الحياة ما يشغل الناس، جمعهم الشباب على هوى

مشترك، وألفت بينهم الحياة على رأيٍ جميع، واجتمع لهم من أسباب النعمة ما أغنى بعضهم عن بعض فقرّب بعضهم إلى بعض؛ فهم قدمٌ واحدة بكل سبيل، وقلب واحد في كل هوى، ورأيٌ واحد في كل مغامرة من مغامرات الشباب. ذلك مجلسهم كل مساء حيث يلتقون فيقص بعضهم على بعض من حديث الهوى والشباب؛ فلكل فتاة من فتيات المدينة بينهم حديث؛ ولكل منهم من حديثها خبر، ولكل غاديةٍ ورائحةٍ لحظة عين وبنتُ شفة

على أن رفيقاً وأصحابه لم يجتمعوا الليلة لمثل ما يجتمعون كل مساء؛ فإن لهم اليومَ لشأنا يشغلهم عن لحظات العيون وبنات الشفاه وأقاصيص الهوى والشباب؛ فقد غدا عليهم (رفيق) يؤذنهم بخبر لم يكن لهم في حساب؛ لقد اعتزم رفيق أن يتزوج. . .

وا أسفا! لم يكن يحسب هؤلاء الأصحاب أن يصير اجتماعهم بعد تلك السنين إلى شتات، وأن يكون رفيق أسبقهم إلى الفراق!. . . أتراه يكون لهم بعد الزواج ما كان لهم قبله؟ من يدري؟ بل إنهم ليكادون يدرون؛ فما يتأتى له أن يلقاهم بعدُ ويلقونه، وإنه لزوج ورب دار. . .

وتناولوه بألسنتهم وركبوه بالمزاح والدعابة، وهو يستمع إليهم مبتسماً في صمت، ثم مضى ومضوا. . .

لقد ذاق رفيق من ألوان اللذات ما ذاق، وباع في الحب واشترى، وربح وخسر، وتقلبت على عينيه مناظر لعل مثلها لم يجتمع لشاب آخر في مثل سنه؛ على أنه قد مل ذلك جميعاً وضاقت به نفسه، وحن إلى حياةٍ هادئة يحياها بين زوجٍ تحنو عليه، وولد يجدد أمله؛ فاعتزم أن يتزوج

وأتاح لرفيق ما لقي من تجارب الحياة، أن يعرف من شئون المرأة أكثر مما يعرف الشباب؛ فلم يكن تعجبه فتاة ممن رأى وعرف فيرضاها زوجة يملّكها داره ويأتمنها على سعادته؛ إذ كان يعرف أكثر من غيره ما وراء هذه القشور التي يتزين بها النساء في مجالس الرجال تجملاً من غير جمال؛ فزاح إلى أمه العجوز يسألها أن تختار له ويصف لها ما يحب في المرأة وما يكره

وكان عجيباً من فتى مثل رفيق - رأى من رأى وعرف من عرف - أن يتوسل بأمه إلى اختيار زوجته؛ ولكن ما رأى وما عرف هو الذي دعاه إلى ذلك؛ فقد كان مما جرّب لا يثق بواحدةٍ ممن عرف؛ فراح يتوسل بأمه أن تكون سببه إلى من لم يعرف

تلك مسألة أخفاها رفيق على صحابته، ولو عرفوها لنسبوه إلى فساد الرأي وأفن التفكير؛ فما ينبغي لفتىً مثله من أبناء الجيل الجديد أن يخطب فتاةً إلى نفسها من وراء حجاب، وأن ينظر إلى زوجته بعيني أمه؛ ولكنه كان موقناً يقيناً لا شبهة فيه، أن تلك الوسيلة التي ينسبها أصحابه إلى الرجعية وفساد الرأي وأفن التفكير، هي أسدّ وأحكم من اختيار فتاةٍ كبعض من يعرف، تقلبت على أعين الشبان وتنقلت بينهم من ذراعٍ إلى ذراع كجارية النخاس!

لو أن أحداً رأى له هذا الرأي منذ سنين، لسخر منه واستهزأ به ورماه بما يرميه به صحابته اليوم؛ ولكن تجارب الحياة لا تدع لذي رأيٍ أن يثبت على رأيه إلا أن يكون أحمق ليس له رأي ولا إرادة!

وراحت أمه العجوز في حاشية من صواحبها تطرق الأبواب وتهتك الأستار لترى وتعرف وتتخير، لتعود إلى ولدها كل مساء فتقص عليه ما رأت وما عرفت؛ وكانت تعلم من شئون ولدها ما لا يجهل أحد؛ فمن ذلك كان حرصها على أن تتخير له فتحسن الاختيار؛ وعادت إليه ذات مساء تخبره:

لو رأيتها يا رفيق. . .! لها غُرة الصبح الطالع، وابتسامة الأمل المشرق، وحياء الزنبقة البيضاء تحت عيون الزهر. . . لله هي يا بني! خارَ الله لك!

وقال رفيق: وددت لو رأيتها يا أمي!

ومطّت أمه شفتيها تنكر عليه، وقالت: وددتُ يا بني، ولو أنك رأيتها ما زادت في عينيك على ما أصف؛ ولكن، من أين لك؟ ما أرى أباها يسمح يا رفيق، ولو سمح أبوها ما أطاقت هي أن تتراءى لك. . . إنها. . .

وصمت رفيق وعاوده قلق الشباب، وراح يؤامر نفسه: كيف يطيق أن يقطع برأي في

المرأة التي يهم أن يشركها في عمره وما رآها؟
ثم ثابت نفسه إلى الاطمئنان والرضا رويداً رويداً، وغلبه عقله على هواه؛ فقال لنفسه: ذلك أحب إلي؛ وإن يقيني بطهارتها لأطيبُ لنفسي من اليقين بجمالها؛ وهل رضيتُ أن أخطبها من وراء حجاب إلا زهادةً في الجمال المبذول لكل ناظر؟
وذهب رفيق يتقصى خبرها ويسأل من يعرف عما لا يعرف، وأتاه جواب ما سأل؛ ولم يبق إلا أن يراها ليُبرم أمره؛ وأي حرج في ذلك؟
وعادت أمه تسعى مسعاتها بينه وبين عروسه؛ ثم عادت تحمل إليه الإذن في أن يراها يوم يقدم لها هدية الخطبة
لم ينقطع رفيق عن صحابته ولم يشغله أمره عن مجلسه وإياهم كل مساء؛ فما . . . كانت له طاقة على فراق بائن إلى غير لقاء؛ وكذلك لم يهجر ما كان من عادته وإياهم حين يتحلقون حول المائدة المستديرة على الطوار، يتجاذبون الحديث أو يتبادلون الفكاهات، أو يُتبعون أعينهم كل غادية إلى عمل أو رائحة إلى ميعاد، أو يتداعون إلى سهرة حمراء في عُش من عشاش الحب المأجور إلى أن تشيب ذؤابة الليل!
كان يعلم أنه عما قليل مفارق هذه الحياة الصاخبة التي عاش فيها عمراً من عمره؛ فلا عليه أن يتزود لما يأتي من لياليه، لا يمنعه عن ذلك ما يشغله من أمر يعد له عدته ويهيئ أسبابه. . . وتوزّعته شئونه، فنهاره تأهب واستعداد، وليله ليلُ الهوى والشباب!
أرأيت إلى الصائم يتأهب لنهارٍ ظامئ جوعان بالمائدة الحافلة بأطايب الطعام والشراب؟
كذلك كان رفيق في إسرافه على نفسه وفي غلبة هواه!
وراح يوماً لموعده فجلس يقص على صحابته من مغامراته:
(وكنتُ وحدي إلى هذه المائدة أنتظر، وغاظني أنني بكّرت فلم أجد أحداً منكم . . . آنس إليه، وتخايلت لعيني فتاة على مبعدة. . . ثم تجاوزتني ومضت؛ ومضيت في أثرها. . . . . .)
وتقصّف عليه أصحابه يستمعون إليه؛ فإنه لفارس هذا الميدان غير منازع، ومضى في قصته:
(وقلت لها وهي جالسة إلى جانبي على الصخرة الناتئة والأمواج تحت أقدامنا . . . تصفق على الشاطئ الغضبان: (إنك أول من أحببت. . .!) فنظرت إلي ساخرة وقالت: (صحيح. . .؟) ثم انفجرت إلي ساخرة ثم انفجرت ضاحكة. قلت: (وما يمنع. . .؟) قالت وتكاد تغص بضحكتها: (تلك كلمة ليست جديدة على أذني، كم مرة سمعتها قبل أن تلفظها شفتاك!)؛ وحدّقت في وجهي بعينين فيهما تصميم وإرادة، كأنما تتحداني لتبلو إرادتي، وزويت جبيني وتحوّلتُ ناحية أنظر إلى رشاش الماء يتواثب تحت أقدامنا وقلت: (ولكنك لن تسمعيها بعد، ولن أقولها!). . . ورحت أجمع طائفة من الحصى فأقذف بها الماء وأصابعي ترتعد؛ إذ لم يكن يعنيني إلا أن أثأر لكبريائي . . .
قال رفيق: وتخاذلتُ سريعاً حين رأت وجهي مصروفاً عنها؛ فدنت مني وهي تقول: (أنظر، أترى هذين الطائرين؟) ونظرتُ ونظرتْ، والتقت عينان بعينين، وشفتان بشفتين!. . . ثم . . .
قال الذي عن يمينه: ثم صحوتَ من النوم!
وعَلَت ضحكاتُ الجماعة، وسكت رفيق، ومضى أصحابه يتجاذبون الحديث . . .
ودنا الموعد الذي حدّده رفيق ليلقى عروسه فيقدّم لها هدية الخطبة؛ وكأنما أحب . . . أن يهيئ نفسه لهذا الحدث الجديد، فانقطع أياماً عن موعد أصحابه، ومضى يزوّر في نفسه الكلام الذي يلقى به خطيبته يوم يلقاها؛ أتراه كان يخشى أن يخونه بإزائها بيانه وخلابتُه وما عجز قبلها في مجلس فتاة قط؟ تُرى ماذا يقول الناس في هذا المقام؟
وتواردت على خاطره كلمات كثيرة، كلمات طالما جرى بها لسانه في مجالس الفتيات فكان لها في نفوسهن
فعل السحر؛ ولكنها جميعاً على لياقتها في هذا المقام وصدقها في التعبير عن حقيقة موضعها، لم ترُق له؛ كأنما كان ينزه لسانه في خطابها أن يلقاها بكلمة لم ينطقها قط إلا كاذباً ولم يلقَ بها قط فتاةً تستحق الاحترام!
وأعجزه القول حين وجد الحاجة إليه، إذ كان كل جديد في لغة الحب الصادق قد حال في لسانه عن معناه الحقيقي إلى معنى وضيع من معاني الخداع والغش والتغرير؛ فما

. .ثمة إلا كلام بالٍ قد أخلقه التكرار، أو كلام ساقط قد نسخه الكذب وأحاله عن معناه !.
وضحك رفيق حين أحس من نفسه العجز عما يريد، وخطر بباله حديث الناس عن عجز المحبين عن التعبير حين يتراءى العاشقان وجهاً لوجه وتتناجى العيون! فسأل نفسه: أتراني عشقتها؟
. . .ثم جاء الميعاد
وسبق البشيرُ يؤذن بمقدمه؛ وجلست فتاةٌ تنتظر، وفي رأسها أخيلة تتراءى وفي قلبها أمل. . .
وقال رفيق لنفسه والسيارة تقله إلى هناك: ينبغي أن تكون هي أول من أحب؛ أليس كذلك. . .؟ بلى، ومن ذا يستحق الحب غير الفتاة التي أهم أن تشركني في عُمري؟
وقالت الفتاة لنفسها وهي جالسةٌ مجلسها تنتظر: نعم، ولمن تهب الفتاة قلبها غير الشاب الذي تشركه في عمره؟
ودق الجرس، ودخل رفيق تسبقه البشرى. وعلى الكرسي المذهب في صدر غرفة الاستقبال جلس ينتظر، وكان إلى جانبه كرسيٌ خال؛ ثم انفتح الباب ودخلتْ. . .
وتراءيا وجهاً لوجه، وعرفها وعرفته. . . وهم الفتى أن يقول: (أنت أول من. . .) ثم سكت؛ وتهيأت الفتاة لتقول، ثم سكتت. . .
ودوّى في أذنيه مثلُ هدير الموج يتواثب رشاشه إلى وجهه، ودوَّى في أذنيها؛ كمجلسهما هنالك في يومٍ قريب. . . وطأطأت الفتاة رأسها في خزي، وطأطأ الفتى رأسه؛ وثقل على الفتى والفتاة موقفهما، وأحسا مواقع النظرات تأخذهما من كل جانب، فمشيا صامتين إلى مجلسيهما؛ وتبادلا نظرةً أخيرة أغنتهما عن الكلام.
ولم تتحرك شفتاه بكلمة، ولكنها سمعته يهمس في أعماقها ساخراً: (أنت أول من أحببت!!)
ولم تنطق شفتاها، ولم تجب؛ ولكن صوتاً من أعماق الماضي كان يهمس في نفسه: (. . . تلك كلمة. . . كم سمعتها أذناي قبل أن تلفظها شفتاك!!)
وتحوّل وجهه إلى ناحية وهو يقول: (ولكنك لن تسمعيها بعدُ، ولن أقولها!!)
وراحت أصابعه تعبث بحبات العقد الغالي فتتناثر على البساط كأنها حصيات من رمل الساحل؛ وعاد هدير الموج يدوّي في أذنيه ويتواثب رشاشه إلى وجهه؛ ونهض، ثم اتخذ طريقه إلى الباب في صمت. . .!
محمد سعيد العريان
العدد 382 - بتاريخ: 28 - 10 - 1940
من ليالي الملاح التائه
. . .في مخبأ الفيشاوي
جلست أنا وصديقي شاعر الجندول في قهوة (الفيشاوي) عشية يوم الأحد الماضي نحتسي أقداح الشاي العنبري الهنيء، بعد إفطار من طهو رمضان الدسم المريء؛ وكان الظلام قد هب يتموج لطيفاً بين المصابيح الزرق كأنه ظلال الأجنحة الخفاقة في جو بنفسجي قاتم، والحركات الهامدة والأصوات الخاشعة قد أخذت تتخلص رويداً رويداً من فترة الصيام وسكرة الطعام، فهي تنتعش في البيوت، وتنتشر في الشوارع، ويقبل الناس على المقاهي فيلقون ثقل بطونهم على مقاعدها ليعالجوها بالأفاويه المنبهة والأشربة الهاضمة. وكان صديقي الشاعر قد طفق بعد شايه يكركر في شقته الأعجمية وقد انمحى من خياله السباح جندول البندقية وخمرة الرين وبحيرة كومو، فلم يعد يشعر إلا بعطر الشرق وسحر الشرق ونور الشرق، وتراءت له من خلال ما يجلوه الحي الحسيني على عينيه من مختلف الأجناس والألوان والصور. بقايا الملك الإسلامي العظيم، ودلائل المجد العربي الخالد، فلم يتمالك أن قال في لهجة تنم على الأسى والأسف:
- يا ضيعة الشعر ويا ضلة الشاعر إذا لم يُسجَّل هذا الملك في ديوان، ويُخلَّد هذا المجد في ملحمة!
وكان شعوري في تلك اللحظة يجري مع شعوره من غير تنبيه ولا توجيه، فقلت له على الفور:
- لو أن شعراءنا في الماضي والحاضر قد خلصوا كما خلصت أنت الساعة من أنانية

الفكر وفردية الشعور لوجدوا في حضارتنا الزاخرة وتاريخنا الحافل أفانين عجيبة من الشعر القصصي توحد شتات الهوى وتكمل نقص الأدب؛ ولكنهم كانوا وما زالوا ينقلون عن ذاتية غالبة وطبع أثِر. فالقصيدة عواطف الشاعر لا تكاد تخرج عن دخائل نفسه ومدارج حسه، والأغنية لواعج المغني فلا تعبر المعاني العامة ولا تهتف بالأماني المشتركة. ولعل ملاحك التائه يُرسيه القدر الهادي على شطئان الشرق الجميلة فيقبس من شمسها نور إيمانه وأمانه، ويأخذ عن إلهامها سحر أوزانه وألحانه!

غصت القهوة على عادتها في ليالي رمضان بالسامرين من كل لون ومن كل طبقة، وكان القمر يضرب بأشعته الباردة الرخية في ضوء المصابيح الداخلية فيشعشعه ويقويه، والمذياع على جدار القهوة ينقل الأغاني المسئومة في فرقعة وصخب، والجالسون يتجادلون في السياسة أو يتحدثون في الأدب، والنّدُل يذهبون ويجيئون وألسنتهم لا تفتر عن ترديد عن هذه الجُمل: (واحد كِشَري مظبوط. . . فلوسك يا محمود. . . أيوه حاضر. . . ولْعَه لمين؟. . . واحد ساده، مستوى زيادة. . .)

وعلى حين فجأة سكت المذياع وانطلقت صفارات الإنذار تردد نعيقها المتقطع، فأطفئ النور، وأخذت الناس زلزلة من الفزع، فنهضوا وتجمعوا ودخل بعضهم في بعض كما تتداخل خراف القطيع إذا دهمتها العاصفة؛ ثم تدافعوا متدفقين في داخل القهوة وهي قبو مظلم مسلوك تحت بيت ضخم من البيوت القديمة؛ وعلى جانبي هذا القبو حجرات ضيقة من غير أبواب للخلوة أو للعب. فدخلت أنا وصديقي إحداها فوجدنا فيها شيخاً هادئاً يكركر، وشاباً مضطرباً يثرثر، وآخرين قد ألجمهم الذعر فهم في وجوم ذاهل. ثم أنصت الناس ونظروا، فلم يسمعوا رعداً يقعقع ولم يروا برقاً يلعلع، فتساير عنهم الخوف، وتذكروا أن القدر لا مفر منه، والقضاء لا حيلة فيه؛ فأخذوا يتنادرون على الصفارات والغارات، ويجددون ما أريق من الأكواب وأطفئ من الشياشات. والمصري أربط الناس جأشاً في الخطوب متى زايلته بوادر الجزع؛ لأن إذعانه لقضاء الله بكسر حدتها عنه، وأخذه المكاره بالمزاح يضعف أثرها فيه. وهو في ذلك كالإنجليزي، إلا أن ثبات المصري يرجع إلى حرارة يقينه، وثبات الإنجليزي يرجع إلى برودة طبعه: هذا يبلد ثم يجلد، وذاك يتفرق ثم يتماسك!

ليت الذي صبغ وجوه المصابيح باللون الأزرق استطاع أن يصبغ به بوجه القمر! لقد كان أجدادنا القرويون يقولون: (لم يبق من ليالي الهناء غير ليالي البدر) فهل يصح هذا القول إذا قلناه اليوم؟ إن بزوغ القمر أمسى نذيراً بالغارة، ودليلاً للجارة إلى قتل الجارة. فمن يزعم الآن أن الليل لا يزال لباساً وأن الناس لا يزالون ناساً، فقد جهل أن العالم الحاضر يسوسه الشياطين، فهو يرتكس ليسقط، وينتكس ليموت!

قال لي صاحبي وقد أعلنت الصفارة بصوتها المتصل زوال الغارة الأولى: قم بنا نتلمس الطريق إلى مكان آخر نتنفس فيه من كربة الحر والحرب

فقلت له وأنا أحبسه على كرسيه: هنا يا صديقي مخبأ هيأته لنا وقاية الله؛ فإذا تركناه وأدركتنا غارة أخرى فأين نختبئ؟

ليس في القاهرة ولا في غير القاهرة مخبأ حصين يعرفه الجالس في بيته أو السائر في طريقه. ولا أدري أي ضرب من ضروب الغفلة أطبق على مصلحة الوقاية المدنية فلم تقيم بإنشاء المخابئ الصالحة على وضعها الصحيح! هل أخذوا على الدهر عهداً بالأمان، أم حسبوا أن بضعة أخاديد في أمكنة متباعدة مجهولة تعصم سكان القاهرة وهم في المنازل أو في الطرق من شظايا القنابل؟

ليس من صالح الرأي يا صديقي أن تجهز قصور السراة ودور الحكومة بالمخابئ المسلحة المريحة؛ ثم يقال للشعب المسكين تبرع بالقروش لنشق لك لحوداً في ظاهرها الحمام المنقض، وفي باطنها الزحام المهلك! فقال لي الشاعر وهو يتمكن في مجلسه: إن سياسة الملاح التائه لا تزال هي سياسة الحكومة في كل أمر. فاسأل الله وحده أن يجعل لهذه الأمة مرفأ في كل عاصفة وملجأ من كل غارة!

أحمد حسن الزيات

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

الواقفون بالمرصاد - ما بيني وبين نفسي - طلعت حرب باشا

في ميادين الأدب والاقتصاد
الواقفون بالمرصاد
قرأت في (الرسالة) كلمة كريمة للأستاذ محمود غنيم دعا فيها كاتب هذه الأحاديث إلى الحذر من عواقب العنف والجُموح، لئلا يقع القلم في سقطة تشمت به الأعداء الواقفين بالمرصاد، وهو يرجو أن نخصص يوماً من أيام (الرسالة) نحدث فيه القراء بهدوء على نحو ما يكون النيل في غير أيام الطغيان؛ ثم استطرد فقسم قراءنا إلى فريقين: فريق عدو، وفريق صديق؛ ونص على أن الصديق لا يملك أن يقول فينا كلمة الثناء لئلا نتهمه بالتزلف، وأن العدو لا يستطيع مجاهرتنا العداوة لئلا نمسه بسنان القلم مسَّاً غير رفيق
والصورة التي قدمها الأستاذ محمود غنيم صورة صحيحة، ولا تحتمل المناقشة إلا من جانب واحد: هو القول بأننا قد نصم من يثنون علينا بوصمة التزلف، فما يسمح لنا أدب النفس بأن نتلقى كلمات الإعجاب بغير الحمد والثناء، وإنما ينهانا العقل عن استزادة المعجبين فراراً من أخطار الزهو والخُيلاء
وقد ترفق الأستاذ الزيات مرات كثيرة فدعاني إلى النظر فيما يرد إليه من كلمات الاستحسان لأقدم منها للنشر ما أريد، ثم نهاني الذوق عن الاستجابة لهذا الاقتراح النبيل، واكتفيت بالمرور عليه من وقت لأطلع على عواطف الأصدقاء من القراء، وهم بحد الله أكثر عدداً من أعدائي، وفيهم أفراد على جانب كبير شرف النفس وعظمة الروح
وإنما نصصت على هذا الفريق من القراء ليعرف بعض من أسكت عن كلماتهم الطيبات أنهم يخاطبون رجلاً وفياً، وأني أحفظ لهم في أعماق القلب أطيب الذكريات، وأن (الرسالة) لم تطو كلماتهم عن استهانة أو بخل، وإنما هو الواجب، الواجب الحازم الذي ينهانا عن الإصاخة لكلمات العطف والتشجيع
ثم ماذا؟ ثم ألتفت إلى الأعداء الواقفين بالمرصاد فأقول:
لم أرزق من الغفلة ما أطمئن به إلى أني أعيش بلا خصوم وبلا أعداء، وكيف وحياتي كلها قامت فوق مخازن من البارود لو وقعت عليها شرارة واحدة من الخطأ لحولتني في مثل لمح البصر إلى رماد تذروه الرياح؟
فمن كان يريد أن ينتفع من تجارب الرجل الذي اكتوتْ يداه بنار الحياة الأدبية فليسمع هذا القول:
من الخطأ القبيح أن يعتمد الكاتب على ماضيه الجميل، وأن يتوهم أن القراء قد يذكرون حين يخطئ أن الحسنات يُذهبن السيئات، وأن الذي يُحلق ألف مرة قد يُغتفر له الإسفاف مرة أو مرتين
هيهات، هيهات، هيهات، فليس للقراء ذاكرة، وليس للقراء ميثاق
إنما يعرف القراء آخر مقال، فإن كان جيداً فالكاتب مجيد، وإن كان وسطاً فالكاتب ضعيف، وربما أضافوه إلى أهل الغثاثة والهزال
الكاتب يواجه ميدان السباق في كل وقت، وهو معرض في كل شوط للحكم له أو عليه. ولو كان الكاتب كالجواد لخف الأمر وهان، لأن السباق بين الجياد لا يحتاج فيه الحكم إلى ذكاء، فأغبى الناس يدرك بنظرة عابرة من السابق ومن المسبوق، ولا كذلك الحكم بين كاتب وكاتب، فهو يحتاج إلى ذوق وفطنة وذكاء، ولا يظفر الكاتب بقصب السبق إلا حين يكون له من اللوذعية ما يقهر به أهل الغرض واللجاجة والعتاد، وهو لا يصل إلى ذلك إلا بقوة قاهرة عاتية لا يفلح في صدها المكابرون إلا كما يفلح نجم الأرض في مسايرة نجم السماء
نحن أشقى الناس يا صديقي، لأن من حق كل مخلوق أن يحكم لنا أو علينا، وإن كان من مواليد العقد الثالث من القرن العشرين!
وحظنا يا صديقي حظ ممسوخ، لأنه معرض لانتقاص الممسوخين
وأعيذك أن تظن خيراً بسماحة الأقطاب من أهل البيان، فأولئك قوم يصعب عليهم أن تذكر بالجميل، لأنهم يتوهمون أنك تعتدي عليهم حين تقضي ليلك ونهارك في تزويد عقلك وذوقك بذخائر الأدب الرفيع.
وهل عانى أحد في دنيا الأدب مثل الذي عانيت؟

لقد انتزعت حظي من أنياب الحيات السود، فهو حظ مدوف بالسم زعاف، ولو استطاع قوم أن يتجاهلوا وجودي لفعلوا، ولكن كيف يستطيعون وقد ضيقت عليهم الخناق وقهرتهم على الاعتراف بأن العاقبة للصابرين على مكاره الجهاد
وهل كانت مكايدة الأعداء هي أصل النار التي يقذف بها قلمي؟
العدو الحق هو الغلطة المطبعية التي وقعت في سفر الوجود
وهذه الغلطة قد تسمى أوهاماً أو عادات أو تقاليد، ومن واجب القلم أن يصحح تلك الغلطة بلا ترفق ولا استبقاء
وأنا أصنع في محو تلك الغلطة مثل الذي كان يصنع يأجوج ومأجوج، فأنا أمحوها في كل يوم وهي ترجع إلى ما كانت عليه في كل يوم، ولكني سأنتصر ولو بعد حين، لأني أملك من الصبر واليقين ما لم يملك يأجوج ومأجوج
وهل يغيب عني أن كتاب (التصوف الإسلامي) سيزعزع أقواماً وخلائق في آمادٍ قصار أو طوال؟
أن وصل كتابي إلى سرائر المجتمع الإسلامي فسيغير ما يغير ويبدل ما يبدل، وهو سيعيش لأنه لم يخلق ليموت، وكيف يموت وهو مقدود من صخر الوجود؟
ما بيني وبين نفسي
ويقترح الأستاذ محمود غنيم أن يعني زكي مبارك بشرح صرائر زكي مبارك. وأجيب بأني أخاف من ذلك أشد الخوف، فما رجعت إلى نفسي مرةً إلى تهيبت اقتحام ما في شعابها من وعور وصخور وأشواك. وقد وقفت مرةً على ساحل النفس في ظلمات الليل فرأيتني عندها من الغرباء، وكيف لا أكون كذلك وأنا منها على بعد سحيق سحيق يُعدّ بالملايين من الأميال؟!
وقد حاولت الاقتراب من نفسي مرات كثيرة ولكن الخوف في كل مرة كان يشعرني بصدق الحكمة التي تقول: الرفيق قبل الطريق.
فأين الرفيق الذي أعتمد عليه في مواجهة لجج النفس وحولها عواصف وأنواء؟
الرفيق هو القارئ، ولكن أين القارئ الذي يفهم عنك ما تريد؟
كان لأسلافنا قراء، ولنا قراء، أما قراء الأسلاف فكانوا فئة قليلة تعد بالآحاد أو العشرات،
وكان يندر جداً أن تصل إلى المئات، وكانت تلك الفئة القليلة هي عصارة العقلية العربية، فكان الكاتب أو الشاعر أو المؤلف يلقاها بلا تكلف ولا تصنع كما يلقي إخوانه الأصفياء، وكذلك كان الحال في أكثر الأمم الشرقية والغربية، ولهذا السبب وحده كانت الآداب القديمة أصدق وأروع، لأنها خلت من الزور والرياء
أما قرائنا فيعدون بالألوف وقد يصلون إلى الملايين، وفيهم الغبي والذكي والعدو والصديق، وفيهم من يطيب له أن يحمل أقوالك غرائب التفاسير والتأويل، فمن حدثك من كتاب هذا العصر وشعرائه ومؤلفيه أن يصدق كل الصدق فيما يكتب وما ينظم وما يؤلف فهو خادع أو مخدوع، إلا أن يصنع مثل الذي أصنع في إيثار الرمز والإيماء وإليك هذا الشاهد الطريف:
في وزارة. . . موظف أديب هو الأستاذ فلان حفظه الله، ومن هذا الموظف الأديب علمت وعلم جمهور من الأدباء أن مطبعة الرسالة نقلت إلى المنصورة، ولن ترد إلى القاهرة إلا بعد انتهاء الحرب. فهل تعرف كيف أستقي ذلك الموظف (الأديب) هذا الخبر (الصحيح)؟
استقاه من (خواطر مهاجر) التي ينشرها أخونا الزيات في الرسالة من وقت إلى وقت كلما بدا له أن يسجل مشاهداته عن أهالي الريف وقد أنتقل إليهم للترويح عن النفس في أيام الصيف، وسيرجع إلى القاهرة مع هلال شوال
ولو كان هذا (الأديب) أديباً لعرف أن نقل مطبعة الرسالة من القاهرة إلى المنصورة عسير لأسباب كثيرة أيسرها تكاليف ذلك النقل، لأن نقل مطبعة مثل مطبعة الرسالة من مدينة إلى مدينة يتكلف نفقات لا تغيب عن ذهن ذلك الأديب
وما دام الحديث ذا شجون فأنا أذكر ما قصه علينا المرحوم (أبو شادي بك) في إحدى خطبه بالأزهر أيام الثورة المصرية سنة 1919؛ قال الخطيب رحمة الله:
أردت أن أعرف إلى أي حد تجوز الخرافات على الناس فقلت صباح الأمس وأنا راكب) بالترام إن الألمان قد أتوا بالأعاجيب في العالم الاختراع، ومن ذلك أنهم حفروا بئراً في

المنطاد زِبلنْ لتغنيهم عن حمل الماء في الأسفار الطوال، فلما كان المساء رأيت الناس يتحدثون عن ذلك الاختراع في إحدى القهوات)
ذلك ما قصه علينا أبو شادي بك، فهل أستطيع القول بأني أعاني من بعض القراء لواعج
هي أشد وقعاً من ذلك القصص الغريب؟
تصل إلى من يوم إلى يوم رسائل أفهم منها أن في القراء من يحرف كلامي أبشع التحريف، وهم في الواقع على حق، لأن مذهبي في الأدب يقوم على أصول من الرمز والإيماء، ولكن لا مفر من التصريح بجزعي من هذا المصير المخيف، فقد كنت أتوهم أني فررت من جماهير العوام حين تحصنت بمجلة الرسالة وقرائها خواص، لأنهم في الأغلب من الصفوة المختارة بين أبناء هذا الجيل، فإلى أين أفر إذا كان في أمثال هؤلاء القراء من ينتظر أن أقدم إليه كلاماً في وضوح الكلام الذي يقدم إلى قراء الجرائد اليومية؟
وهل قلت الرقابات حتى نحسب حساباً لرقابة القراء، وهم فيما تفترض أخوان أصفياء؟
حولنا رقابة المنافسين (وهم أكثر من الهم على القلب)؛ وحولنا رقابة المتجاهلين، ورقابة المتعالمين؛ وحولنا رقابة عنيفة جداً هي رقابة أعداء الأدب الصريح. وليس لنا أصدقاء غير القراء، فهل نيأس أيضاً من القراء؟
وإلى من نتوجه إذا يأسنا من قرائتنا، وإليهم نبث نجوانا بعبارات هي نجوى الحبيب إلى الحبيب في محضر الرقباء؟
ومن موجبات الأسى أني لا أستطيع السكوت بحال من الأحوال، ولا يمر يوم واحد بدون أن أخلو إلى قلمي ساعةً أو ساعتين، ولو كان أخوناً الزيات ينشر كل ما أقدم إليه لظفر الأدب بألوان كثيرة من الحلم والجهل واليقين والارتياب.
ولكن الزيات يرى أنه أعقل مني، وأنه يعرف من العواقب ما لا أعرف، وبذلك يستبيح التغافل عن بعض ما أكتب في بعض الأحايين، وهو يعرف كيف يوشي ذلك التغافل يوشي الترفق والتلطف، كما كان يصنع سعادة عبد القادر حمزة باشا يوم كان يهذب ما أرسل إليه من المقالات الجوامح وأنا في باريس
وفي ظلال الرقابة التي يفرضها المجتمع ويفرضها القراء الأوفياء يراد منا أن نصدق كل الصدق في جميع الظروف، فهل رأيتم مثل هذا التحكم العنيف؟!
وأنا مع ذلك سأنتقم - وقد انتقمت - من أهل زماني. سأتركهم في بلبلة فكرية لا تنجيهم من أهوالها صَفارة الأمان. سأتركهم في حيرة أقصى وأعنف من حيرتي حين أهم بمواجهة نفسي، ولن أموت إلا وقد أوقدت في صدر كل قارئ جذوة لا تخمد ولا تبيت. وتلك هي
رسالتي الأدبية، فأنا موكل بتأريق الجفون وتأريث النفوس، ولن يرى مني الناس غير ما يروع ويوهل، فقد ابتلهم المقادير بقلم يقترب إلى الله لتوزيع الروع والهول على الأغنياء الآمنين!
أمثلي يُجزى بمثل الذي أتلقاه من بعض الناس من يوم إلى يوم، وما كنت في كل أدوار حياتي إلا نموذجاً من الصدق والأمانة والإخلاص؟
لبعض الناس الويل، وما أحب أزيد!
طلعت حرب
أخرج الأديب مصطفى كامل الفلكي كتاباً نفسياً عن طلعت حرب باشا، وهو كتاب يسجل أعمال ذلك الرجل العظيم في الميادين الاقتصادية بنزاهة وصدق. وهل يكذب الباحث حين يضيف ألوف الصفات الجميلة بلا تحقيق إلى طلعت حرب؟ أن كلمة (بطل الاستقلال الاقتصادي) هي أصغر كلمة يوصف بها ذلك المصلح الهائل الذي استطاع بالصبر والصدق والمثابرة أن يروض المصريين على الثقة بأنفسهم في ميادين الجد والكفاح والنضال. ولو أن طلعت حرب ظهر في ظروف غير هذه الظروف لكتب عنه الباحثون ألف كتاب، فهو أهل لكل تكريم وإعزاز وإجلال. وقد ينسى الشعب المصري كثيراً من الأسماء اللوامع، ولكنه لن ينسى أسم طلعت حرب، لأن أسم هذا الرجل أعظم وأخطر من أن يجوز عليه النسيان
كتاب الأديب مصطفى كامل الفلكي عن طلعت حرب كتاب نفيس، وهو يمثّل حرص

الشباب على تأثر خطوات ذلك الزعيم الحصيف، ولكن ذلك الكتاب لا يصور من طلعت حرب إلا ناحية واحدة هي الناحية الأقتصادية، وإلا فأين طلعت حرب الأديب والمفكر والمصلح الذي كانت له مواقف في مخاصمة قاسم أمين والاهتمام بمصير قناة السويس؟

وهل صور هذا الكتاب جهود طلعت حرب في إنهاض (الجمعية الخيرية الإسلامية)؟

هل صور هذا الكتاب جهاد طلعت حرب في إعزاز الشخصية الأدبية؟

أن كتاب الأديب مصطفى كامل الفلكي على نفاسته قد أغفل هذه الجوانب، فهل يعود إلى ترجمة طلعت حرب من جديد لنعرف كيف يصير الأديب رجل عمل واقتصاد؟

هنا المشكلة الحقيقية وهي درس الصلة بين الأدب والمعاش، فأين من يفهمنا كيف صار

طلعت حرب الأديب طلعت حرب الاقتصادي؟ وأين من يفهمنا كيف جاز أن ينتقل الرجل من نقد الألفاظ إلى نقد الأموال؟

زكي مبارك

في الاجتماع اللغوي

تطور اللغة وارتقاؤها

أثر العوامل الأدبية المقصودة: التجديد في اللغة

للدكتور علي عبد الواحد وافي

مدرس الاجتماع بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

تبدو حركة التجديد المقصود في مظاهر كثيرة من أكبرها أثراً في التطور اللغوي الأمور الآتية:

1 - تأثر الأدباء والكتاب بأساليب اللغات الأجنبية، واقتباسهم أو ترجمتهم لمفرداتها أو مصطلاحاتها، وانتفاعهم بأفكار أهلها وإنتاجهم الأدبي والعلمي. فلا يخفى ما لهذا كله من أثر بليغ في نهضة لغة الكتابة وتهذيبها وأتساع نطاقها وزيادة ثروتها. والأمثلة على ذلك كثيرة في تاريخ الأمم الغابرة وفي العصر الحاضر. فأكبر قسط من الفضل في نهضة اللغة العربية في عصر بني العباس يرجع إلى انتفاع العلماء والأدباء باللغتين: الفارسية والإغريقية. فقد أخذوا في ذلك العصر يترجمون آثارهما، ويعقبون عليهما بالشرح والتعليق، ويستغلونهما في بحوثهم، ويحاكون أساليبهما، ويقتبسون منهما عدداً كبيراً من المفردات العلمية وغيرها، ويمزجونها بمفردات لغتهم عن طريق تعريبها تارة وعن طريق ترجمتها تارة أخرى؛ فأتسع بذلك متن اللغة العربية، وأزدادت مرونة وقدرة على تدوين الآداب والعلوم. ويرجع كذلك أكبر قسط من الفضل في نهضة اللغة العربية في العصر الحاضر إلى انتفاع الصحفيين والأدباء والعلماء باللغات الأوربية الحديثة، ومحاكاتهم لأساليبها وتعريبهم أو ترجمتهم لألفاظها ومصطلحاتها، واستغلالهم في مؤلفاتهم ومترجماتهم لمنتجات أهلها في شتى ميادين الحركة الفكرية. ولغة الكتابة بفرنسا في العصر الحاضر مدينة بأهم نواحي رقيها إلى تأثرها باللغتين الإغريقية واللاتينية من جهة، وباللغات الأوربية الحديثة من جهة أخرى. فمنذ (عصر النهضة) لم ينفك أدباء فرنسا وعلماؤها دائبين على اقتباس المفردات اللاتينية واليونانية القديمة، ومحاكاة أساليب هاتين اللغتين، وترسم قواعدهما ومناهجها في البحث وقد أخذوا منذ عهد بعيد يقتبسون كثيراً من المفردات والأساليب عن اللغات الأوربية الحديثة وخاصة الإنجليزية والألمانية؛ ولولا آلاف المفردات التي أقتبسها المحدثون من أدباء ألمانيا وعلمائها من اللغة اللاتينية وما تفرع عنها ومن اللغات الأوربية الحديثة، وبخاصة الفرنسية والإنجليزية، ما قويت لغة الكتابة بألمانيا على أن تصل إلى الشأو الذي بلغته الآن. . . ومثل هذا يقال في معظم لغات الكتابة في العصر الحاضر

وكثيراً ما تقتبس لغة الكتابة عن اللغات الأخرى بمفردات لها نظير متنها الأصلي. وكثيراً ما تقتبس مفرداً من لغة، وتقتبس نظيره في الدلالة عن لغة أخرى. وإلى هذه الظاهر وما إليها يرجع السبب في كثرة الألفاظ المترادفة (المشترك المعنوي) في لغات الكتابة. فما يذهب إليه بعضهم من أن الترادف بالمعنى الكامل لهذه الكلمة لا وجود له في اللغات ليس صحيحاً إلا فيما يتعلق ببعض لغات المحادثة التي تظل بمأمن من الاحتكاك باللغات الأخرى. أما لغات الكتابة التي يستحيل بقاؤها بمعزل عن غيرها،

ولغات المحادثة التي يتاح لها هذا الاحتكاك، فلا تخلو من الترادف بالمعنى الصحيح للسبب الذي ذكرناه

2 - إحياء الأدباء والعلماء لبعض المفردات القديمة المهجورة فكثيراً ما يلجئون إلى ذلك للتعبير عن معان لا يجدون في المفردات المستعملة ما يعبر عنها تعبيراً دقيقاً، أو لمجرد الرغبة في استخدام كلمات غريبة أوفى الترفع عن المفردات التي لاكتها الألسنة كثيراً

وبكثرة الاستعمال تبعث هذه المفردات خلقاً جديداً، ويزول ما فيها من غرابة، وتندمج في المتداول المألوف. ولا يخفى ما لذلك من أثر في نهضة لغة الكتابة واتساع متنها وزيادة قدرتها على التعبير. وقد سار على هذه الوتيرة بمصر في العصر الحاضر كثير من الأدباء والعلماء والصحفيين، فردوا بذلك إلى اللغة العربية جزءاً كبيراً من ثروتها المفقودة، وكشفوا عن عدة نواح من كنوزها المدفونة في أجداث المعجمات

3 - خلق الأدباء والعلماء لألفاظ جديدة. فكثيراً ما يلجئون إلى ذلك للتعبير عن أمور لا يجدون في مفردات اللغة المستعملة، ولا في مفرداتها الدائرة ما يعبر عنها تعبيراً دقيقا.ً وقد لا يضطرهم إلى ذلك إلا مجرد الرغبة في الابتداع أو مجانبة الألفاظ المتداولة المألوفة، أو إبراز المعنى في صورة رائعة وتثبيته في الأذهان وتذليل سبل انتشاره بالإغراب في تسميته. وقد عم استخدام هذه الطريقة في الأمم الأوربية منذ القرن التاسع عشر، وكثر

التجاء الأدباء والعلماء إليها بنوع خاص في تسمية المستحدث من المخترعات الصناعية، والمصطلحات العلمية والأحزاب والمبادئ السياسية والاجتماعية، وفي التعبير عن بعض معان دقيقة في عالم الأدب والفلسفة، فناءت مؤلفاتهم بهذه الكلمات المصنوعة وتألف منها معظم المصطلحات في الفلسفة وعلم النفس والعلوم الطبيعية والطب والصيدلة. . . وما إلى ذلك، وصبغ معظم هذه المصطلحات بصبغة دولية، فأقرته المؤتمرات والهيئات العلمية الممثلة لمختلف الأمم الأوربية وعم استخدامها في لغاتها (تلغراف، تليفون، سوسيولوجيا، جيولوجيا. . . الخ)، وقد أجاز المجمع اللغوي بمصر الالتجاء إلى هذه الطريقة حيث تدعو إلى ذلك ضرورة، بألا يوجد في مفردات اللغة متداولها ومهجورها ما يعبر تعبيراً دقيقاً عن الاصطلاح المراد التعبير عنه

ولا يخفى ما لهذه الوسيلة من أثر في نهضة لغة الكتابة، واتساع متنها ودقة مصطلحاتها وزيادة مرونتها وقدرتها على التعبير وقد أرتضى الأدباء والعلماء بعض قواعد عامة في وضع هذه الألفاظ، ويستعينون عادة في تكوينها بالنحت والاشتقاق الأكبر ومزج كلمتين أو أكثر في كلمة واحدة. ويستمدون أصولها من اللغات الحية أو الميتة، وخاصة اللاتينية واليونانية القديمة. وكثيراً ما يستعان في تكوينها بأكثر من لغة واحدة. فمن هذه المفردات ما هو مؤلف من لغتين (سوسيولوجيا) أي علم الاجتماع: فصدر الكلمة (سوسيو) من أصل لاتيني معناه الجمعية، وعجزها (لوجيا) من أصل يوناني معناه المقال أو البحث أو الخطبة , بل منها ما هو مؤلف من ثلاث (بيسيكلت) أي الدراجة، فإن (بي) من أصل لاتيني يدل على التثنية، و (سيكل) من أصل يوناني , , معناه الدائرة، وعجز الكلمة علامة فرنسية للتصغير

وقوام هذه المفردات هو التواضع والاصطلاح. ولذلك كثيراً ما تختلف معانيها اختلافاً يسيراً أو كبيراً عن معاني الأصول التي استمدت منها

ولا تبقى هذه الألفاظ جامدة على الحالة التي وضعت عليها، بل ينالها ما ينال غيرها من المفردات، وتخضع في تطورها الصوتي والدلالي لنفس القوانين العامة التي تخضع لها الألفاظ الأصلية؛ فبمجرد أن يقذف بها في التداول اللغوي، وتتناقلها الألسنة، تفلت من إرادة مخترعيها وتخضع لنواميس الارتقاء العامة المسيطرة على ظواهر الصوت والدلالة.

فاللفظ الموضوع أشبه شيء بحجر يقذف به القاذف في جهة معينة بقوة خاصة؛ فإنه بمجرد أن يفارق يده يخضع في سيره لقوانين ثابتة صارمة لا يد للقاذف ولا لغيره في تعطيلها أو وقف آثارها. ولذلك يختلف الآن النطق بالألفاظ الموضوعة، ويختلف رسمها باختلاف الأمم واللغات. والأسلوب الصوتي الذي كانت تلفظ به منذ قرن أو قرنين مثلاً غير الأسلوب الصوتي الذي تلفظ به الآن. وقد أخذ كثير منها عند جميع الكتاب أو عند

بعضهم ينحرف في دلالته نفسها عن المعنى الذي له في الأصل
علي عبد الواحد وافي
ليسانسيه ودكتور في الآداب من جامعة السربون
من رسائل الصيف
النيل المنتصر
للأستاذ عبد الحميد يونس
أخي إبراهيم:
وشاءت الأقدار أن تحول بيننا وبين اللقاء فوق تلك الصخرة الناتئة في البحر عند . . . سيدي بشر، التي يعرفها الناس باسم صخرة (بئر مسعود). . . وكنا قد تعودنا اللقاء عندها كل صيف، ولعلك لم تنس بعد ما كان لنا هناك من مجلس وما دار بيننا من حديث
ألم يكن يهولنا البحر الذي رأيناه كائناً حياً يفيض بالمشاعر ويزخر بالأحاسيس؟ أما عجبنا من بغضه للقراءة وعداوته للأوراق مما يحجب الإنسان عن الاتصال به والغناء فيه؟ وكم من مرة اختطفت نسائمه، وما عرف عنها من فضول، الصحف من أيدينا، فما رددنا ذلك - لفرط افتتاننا به وقتذاك - إلى الجهل، وإنما رددناه إلى اختلافنا وهذا البحر في النظرة والاتجاه، فنحن قد عكفنا على القراءة عكوفنا على لفائف التبغ إنفاقاً لجهد محتبس وتزجيه لفراغ طويل، وفراراً من العقل والقلب جميعاً!
ألم نكن نأخذ على هذا البحر ولوعه بالجمال وكلفه بالحسن، لا يبالي في ذلك احتشاماً ولا يحفل بتقليد؟ ألم ننتقد فيه تلك الإباحية التي تدفعه إلى إيثار العري أو ما يشبه العري، ولا نأبه لدفاعه على ألسنة أمواجه المدمدمة ورياحه المصفقة، بأن التخفي والتستر ضرب من النفاق يجب أن يزول؟
ألم تكن تلمح فيه بنوع خاص عزوفه عن تكلف الزينة التي أصبح الناس يحذقونها إلى حد جعل السواد الأعظم منهم لا يفرق بين الطبيعة والصناعة في قليل أو كثير، بل حتى وأصبح الفن لوناً من التزييف المحكم الدقيق؟
ألم نلاحظ في ذوق هذا الهمجي توحيده بين الجمال والقوة، أو على الأقل تقريبه بينهما، ثم تفرقته بين الجمال والجنس حتى لكأنه يوناني النزعة في تفضيل الذكور على الإناث في النوع الإنساني. . .؟
لقد سرنا أيها الصديق شوطاً بعيداً في محاولة الكشف عن شخصية هذا الكائن المهوب ودراسة نوازعه ومعرفة أهوائه. ومن يدري فربما كنا نكسب عليه شعاعاً من نفوسنا نحن،
ونلقي عليه قبساً من نوازعنا نحن، وأهوائنا نحن؛ والإنسان يضفيُ من مشاعره على كل ما يحيط به، ينطق الصخور الصم الجلاميد بالشعر، ويرسل الحكمة على الألسنة الرياح المختلطة الأصداء والنغم. . . وإلا فكيف غاب عنا ما في هذا البحر من غدر وبطش وفتون؟ . . .
واليوم لا مجلس لنا عند تلك الصخرة العاتية، ولا سمر ولا حديث! أين المظلة المنعزلة عن أخواتها لأن أصحابها زعموا لأنفسهم أنهم أكثر اتصالا في الطبيعة وأقوى شعوراً بالجمال؟ وأين جنيات البحر اللاتي لم يكن يراهن سوانا ونحن ينشرن أجنحتهن على صفحة الماء بالألوان السبعة التي تتفرق وتتداخل حتى يرد عنها البصر وهو حسير؟ أين بنات (ليليت) وهن يرقصن في نشوة وجنون على موسيقى الأمواج والرياح الزاعقة؟ أين. . . أين؟
ولست أدري ماذا فعلت أنت في هذا الصيف. أما أنا فقد أستعظت عن البحر بالنيل، ولم يكن مجلسي منه على صخرة ناتئة صلبة إسفنجية السطح كصخرة بئر مسعود، وإنما كان حيث ما يلذ لي أن أجلس على شاطئه السخي الحنون. وما من مرةٍ خلوت إليه إلا ذكرتك. ترى لو كنت معي في هذه اللحظات التي لا تقاس بالأعمار، أكنت تشاركني في الإعجاب به؟. . أنه أسمر الطلعة، ولكنه واضح الجبين، تلتقي فيه الحكمة والشعر. أنه لا يحس الجمال فحسب، ولكنه يخلقه خلقاً ويبدعه إبداعا؛ ثم هو لفرط شعوره بالقدرة يعبد خالق القدرة وينفق جانباً كبيراً من وقته في التسبيح والترتيل والصلاة!
في كل بقعة من واديه حياة، وفي كل ناحية من أنحائه حب، وفي كل ركن من أركانه

. . .معبد للجميل الذي يحب الجمال
ولا عيب فيه إلا حلاوة في طبعه، ودماثة في خلقه، ورحابة في صدره، يراها الأغرار مظهراً من مظاهر ضعفه مع أنها سمة من سمات قوته، وشارة من شارات اعتزازه بنفسه صيانة لها عن إدعاء القوة في معترك لا شبيه له فيه ولا قريب. . .
النيل يبذل في غير تبذير، ويأخذ في غير اغتصاب دائم الصداقة، دائم الإحسان، معتدل في حالتيه بين البسط والقبض، لا تهاون فيه ولا غفلة ولا طيش. . .
النيل خلاق ولود فيه من الأبوة ميل إلى البناء والتعمير واختزان التجاريب على الأيام والعصور. . .
أتذكر أيها الصديق كتاب طبقات الأرض الذي شقينا بدراسته أيام الحداثة والذي كنا نعتبره إذ ذاك أنجع دواء للأرق! أنت تذكره ولا شك، ولكنك لن تصدق أنني مشوق إلى قراءته من جديد! أنه الكتاب الذي فتح عيني على سر العظمة في هذا الملك العظيم. . . ألم تقرأ فيه أن البحر كان يبسط سلطانه القاهر إلى الصعيد؟ فمن الذي رده إلى حيث هو اليوم، ومن الذي سيرده إلى أبعد من هذا غداً؟
قل لهؤلاء الذين ظنوا به الهرم: لقد جهلتم طبيعته واستخفكم هدوءه. . . إنه يحتمل ويحتمل، ولكنه لا يصبر طويلاً على الأذى. إنه يأخذ من الجبل الأشم ويبسط جناحيه على الصحراء الجافية ويطأ البحر بقدميه الثابتتين في أناة وبطؤ وعزم!
قد يستعدي البحر قبضات من رمال الصحراء عليه تستدرجها أمواجه ثم تقذفها عليه، وقد يرسل البحر رياحه تدفع الكثبان للإغارة عليه، ولكنه يهضمها فيما يهضم ويحيلها مادة من مواده وكتيبة من كتائبه، وما أندر ما عسر هضمه على معدته القوية الجبارة، إنه يلفظه إلى حيث لا يمكن أن يعود
تعال أيها الصديق أنظر إلى عرائس حقوله بعيونهن العسلية التي تفيض بالوداعة والبشر والإيناس. إنهن يتحدثن في همس، ويتحركن في لين وخفة، يزيد شغفك بهن كلما سترن محاسبتهن تحت الشفوف ذوات الألوان الثابتة، وإذا رقصن أعدن عليك مشاهد الصلاة القديمة التي كان يمتزج فيها الفن بالعبادة
فتننا البحر كما فتن غيرنا لأن الإنسان يكلف بما ليس في طبيعته. إننا ذرات صغيرة من هذا النيل، وأنا في هذه الأيام السود أشعر بقوة هذا الامتزاج حتى لكان هذا النيل يسعى على قدمين
إنه يتأهب لوقعة حاسمة سينتصر فيها كما أنتصر دائماً، ولن يبذل في سبيل ذلك إلا ذرات صغيرة، وأن تكن عزيزة عليه، وما أسعدني يوم يضمني إليها حين يدعو إلى التضحية والفداء
(طبق الأصل)
(حمدي)
تاريخ مصر ونهضتها القومية
للأستاذ عبد المجيد نافع
في نهاية القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين أثارت طائفة من فلاسفة الغرب وعلمائه وكتابه، حملة شعواء ظالمة على التاريخ كعلم من العلوم الإنسانية، وبلغت تلك الحملة أشدها حين طغت موجة العلوم العلمية على العلوم النظرية، وجرف تيار الروح المادي كافة المثل العليا التي تغنت بها الإنسانية طوال السنين أو كاد، وأسرف بعض الفلاسفة في توجيه النقد فنادى بأن التاريخ لا يعدو أن يكون (مجموعة أكاذيب) لا ينبغي للشعوب أن تشغل أذهانها بها، ولا يحل في شريعة التربية الوطنية أن نسمم عقول النشء بحشوها في ثناياها؛ وأبى بعض أولئك الفلاسفة أن يسمو بالتاريخ إلى مرتبة العلم الجدير باسم علم، إذ لم تكن له المبادئ الثابتة والمقاييس والضوابط والحقائق التي تنطوي عليها علوم الرياضة والهندسة والفلك وما إليها من العلوم المضبوطة، وإن من ضياع الوقت الضرب في مجاهل التاريخ بدل الإلمام بالكيمياء
والميكانيكا والجيولوجيا والبيلوجيا والفزيولوجيا وغيرها من العلوم العلمية. وذهب بعضهم إلى حد القول بأن الذي جنى على الحضارة الإنسانية شر الجنايات إنما هو التعلق بالخيالات، واطراح الحقائق العلمية ظهرياً ونعي أحدهم على التربية في عصره العناية بالنظريات، والتنكر للحقائق العملية إلى حد أن يجهل الناشئ جهلاً مطبقاً

أعضاء جسمه، على حين أنه يلقى عن ظهر غيب تاريخ ميلاد الملوك ووفياتهم وحروبهم، ولو لم يكن لأولئك الملوك أثر بارز في التاريخ، ولو لم تغير معاركهم الحربية مجراه في كثير أو قليل، كأنما التاريخ بات ثبتاً بمواليد الملوك ووفياتهم، وقائمة حمراء بالمعارك الدموية! وعلى الجملة فقد قام أولئك العلماء ينشدون (الإنسان الآلي) ويضلون عن الإنسان المركب من جسم وروح وعقل!

كان يمكن أن ترجح وجهة نظر دُعاة المذهب المادي لو أن التربية إنما تعني بالجسم والعقل دون الروح، ولكن التربية الحقة في ضوء العلوم النفسية، وعلى هدى التجارب التي تمليها نهضات الشعوب، ينبغي لها أن تعني بالجسم ثم بالروح ثم بالعقل، بحيث يحصل التوازن فلا تطغى قوة على أخرى والإنسان تسوقه العاطفة أكثر مما يسوقه العقل.

والعواطف الملتهبة الجياشة التي تبلغ حرارة اليقين وغليان الإيمان، وتترفع إلى الرضا بالاستشهاد في سبيل ما يعتقد المجاهدون أنه الحق، هي التي غيرت وتغير وجه التاريخ، لا برودة العقل والبحث العلمي المجرد. والأمم في جريها وراء تحقيق المثل العليا تشعر في أعماق نفسها بقوة تحفزها للنهضة والتقدم إلى الأمام. وما كان لحفنة من العرب أن يخرجوا من جزيرتهم الجرداء القاحلة غير مزودين بعدة أو عدد، أن يهدموا إمبراطوريتي الرومان والفرس ويقيموا على أنقاضهما الإمبراطورية العربية الضخمة، وينشئوا الحضارة الإسلامية، وهي أبقى على الزمن الباقي من الزمن، لولا الإيمان الذي يغمر قلوبهم، واليقين الذي يدفعهم إلى تحقيق مثلهم الأعلى وفي الحروب أفلا تراهم يتحدثون عن الروح المعنوية، وأنها هي التي ترجح كفة النصر.

ثم ألا ترى أن الدعاية القوية هي التي تقود خطوات الشعوب. ولعله لا يكون من الإسراف أن نحمل طائفة من مؤرخي الألمان وفلاسفتهم وعلمائهم النصيب الأكبر في تبعات الدماء التي سالت والأرواح التي أزهقت في حربين لم تكد تخبو نار أحدهما حتى تأججت نيران الأخرى أشد ما تكون ضراماً في فترة واحد وعشرين عاماً، ولا يعلم إلا الله ماذا تلتهم ومتى تخمد! ومن ذا يستطيع أن ينكر أن تريتشكه ونيتشه يساهمان بنصيب كبير في الروح الحربية الروسية، وأن عقول وأقلام راتينا وكيزرلنج وتوماس مان وشبنجلر ومولر فإن دن بروك وفيدر وروزنبرج وغيرهم من غلاة المذاهب الفلسفية المتطرفة هي التي صاغت ألمانيا النازية التي تتحدى اليوم العالم بمن فيه وما فيه! لقد نفخ هؤلاء وأولئك في روح الألمان أنهم من طينة كثير من الأمم، وأنهم خلقوا للتسلط والسيادة، وأن الحرب إنما هي صدام بين إراديتين، وإنما يعقد النصر بلواء الأقوى فيهما وأنه لابد لألمانيا من أن تصفي حسابها مع الغرب، أن لم يكن اليوم فغداً، ليتسع لها المجال الحيوي، ولتأخذ مكانها في الشمس، ولتأخذ مكانها من سيادة العالم، وتطالع الدنيا بنظام جديد ينهض على القوة والرقي بدل النظام الذي كان يقوم على الضعف والانحلال!

إنما تنكر بعض الفلاسفة والعلماء للتاريخ وأكبروا أن يرتفعوا به إلى مرتبة العلم، لأنه كان قائماً على مجرد سرد الوقائع وذكر الأرقام، وليس هذا من التاريخ في شيء. فإذا اصطبغ بصبغة الأدب فهو أدنى إلى القصص التاريخي منه إلى التاريخ الحق. إنما المؤرخ الجدير

بهذا اللقب، هو الذي يعتبر المجتمع الإنساني مثل الجسم الإنساني يجوز على أحدهما ما يجوز على الآخر من عوامل التطور، ودواعي الصحة والمرض، والقوة والضعف؛ ويساير الأمة منذ نشأتها، ويدرس البيئة وما يحيط بها من عوامل مؤثرة، ويحلل المؤثرات التي تنتاب الشعوب، ويعلل الظواهر الاجتماعية، ويلقي شيئاً من الضوء على ما أبهم في حياة الأمم ويضيء الجوانب المظلمة في التاريخ الإنساني، ويجلو الغامض في المسائل التاريخية التي أحدثت الانقلابات أو جرت إلى التحول والانتقال، ويطالعنا كيف ارتفعت بعض الأمم إلى الذروة، ثم هوت إلى الحضيض، وعلى الجملة يكون في تحليله وتعليله مثل العالم في معمله، والفلكي في مرصده

توفرت على دراسة كتاب (مصر القديمة) للعالم الأثري الكبير الدكتور سليم بك حسن، فأوحى إلي فيما أوحى بتلك الخواطر جميعاً. والحق أنه جعل التاريخ المصري القديم مادة حية تغذى نهضتنا الحديثة الغذاء الروحي والعلمي والعقلي الصالح، ووصل ما أنقطع بين مصر العصرية ومصر القديمة

لقد ظل تاريخنا القديم السنين الطوال حرماً مقدساً لا يغشاه إلا الغربيون، وكنا إذا شئنا أن نجيل الطرف في مجدنا التليد عمدنا إلى مصنفات الفرنج نقلب صفحاتها، ومن لم يكن ملماً بلغة أجنبية ضرب بينه وبين تاريخ بلاده حجاب، وكنا إذا أردنا أن نرتوي من عظات الماضي نهلنا من موارد الإنجليز والفرنسيين والأمريكان والألمان، فأكبر عالمنا الجليل أن تظل تلك الوصمة عالقة بنهضتنا، وهذه الشائبة، تشوب صحيفة ثقافتنا، وذلك النقص يعتور حضارتنا، فأقبل يستلهم الآثار النقوش، ويستهدي المحاجر والمقابر، ويبحث وينقب، ويبوب ويرتب، ويتابع، ويراجع ما كتبه الفرنج وغير الفرنج، ويساير البيئة المصرية منذ نشأتها ويرقب تطورها وتحولها، ويراقب العوامل التي أثرت فيها والملابسات التي أحاطت بها، ويرقب النتائج على المقدمات، ويفصل بين أصدق الآراء في معترك الآراء ويجلو الغامض والمبهم، ويمزج علم التاريخ بعلم الاجتماع، ويقدم من مجد الماضي مادة لتغذية الوطنية المصرية المتوثبة، ويكشف عن مواطن الأدواء التي انحدرت إلينا من الماضي السحيق، ويضع مشرطه على مكمن العلة في غير تهريج علمي، ولا نعرة وطنية كاذبة، بل في تواضع العلماء، فوفق إلى إبراز التاريخ المصري في حلة قشيبة يجدر بكل من

شرب ماء النيل وأظته سماء مصر أن يرجع البصر في ذلك التاريخ الحي كرتين

لقد ساهم العالم الفرنسي الكبير شمبليون بقسط كبير في خدمة قضية المدنية والعلم حين كشف عن الكتابة الهيروغليفية المنقوشة على حجر رشيد؛ وما احسبني مسرفاً أو مغالياً حين أقرر أن الدكتور سليم حسن قد خدم النهضة المصرية بمؤلفه الجديدة أجل الخدمات

ولعلي لا أعد محلقاً في أجواء الخيال إذ أجاهر بأن لفنجستون وستانلي قد كشفا عن مجاهل أفريقيا فخدما العلم والحضارة، وأن عالمنا المصري قد كشف عن مجاهل التاريخ المصري فتوج النهضة الحديثة بأبهى التيجان وأغلاها

لم يكن التاريخ المصري غامضاً فحسب، بل كان لفرط تشابهه يبعث السأم في النفوس، فانصرف عنه الشبان الذين يؤثرون تغذية الروح على تغذية العقل. ولكن عالمنا قد نفخ فيه من روحه وأسبغ عليه من فيض حماسه، وأضفى عليه من وافر إخلاصه ما جعل النفوس التي على ظمأ تتشربه تشربا

على أنه قد عف عن التهويش العلمي، وتورع عن أن يجعل كتابه مصطبغاً بالصبغة الأدبية البحتة ليكون سائغاً للنفوس، بل جعله بين ذلك قواماً في أسلوب علمي هادئ وبحث أدبي رصين

إلى عهد غير بعيد كانت معرفة التاريخ المصري القديم تعتبر ضرباً من ضروب الترف العقلي ولوناً من ألوان الزينة العلمية، ولكن اليوم ونحن أمة تبتغي أن تأخذ مكانها بين الأمم الناهضة وتطمح لأن تساهم بنصيب في خدمة قضية الحضارة، ينبغي لنا أن نعد الإلمام بتاريخ وطننا ضرورة قومية

الكبرياء رذيلة للأفراد، ولكن الكبرياء القومي فضيلة اجتماعية للشعوب، والكبرياء القومي والعزة الوطنية لا يتوفران لشعب إلا إذا شعر شعوراً صادقاً وعميقاً بمكانة وطنه في الماضي والحاضر، وإذن فليس يكفي القومية المصرية أن تشهد نهضة حقة في الحاضر، وإنما ينبغي لها أن تعرف أن الأمة التي بلغت ذروة الحضارة في الماضي البعيد بينا كانت أمم الغرب لا تزال تأوي إلى المغاور والكهوف لهي أمة خليقة بأن تكون في طليعة الأمم المتحضرة

ما أحسب الذين يدينون بمبدأ العنصرية القائل بجعل الأجناس بعضها فوق بعض درجات إلا مريدين به أن يكون حافزاً لشعوبهم لتحقيق غاية التسلط والسيادة، ولنا أن نسأل: إذا كان المصري قد بلغ ذاك الشأو من الحضارة في الماضي فما الذي يقعد به عن أن يكون في مقدمة المتحضرين اليوم

ذهب بعض علماء الاجتماع إلى أن المدنيات نشأت أول ما نشأت في الأمم التي تتوافر فيها وسائل العيش وتسهل، في الأمم التي لا تكون الطبيعة فيها قاسية لا تعرف الرحمة، ولهذه الاعتبارات نشأت المدنيات في مصر وآشور والهند والصين، فلما أشتد ساعد الإنسان فوق الأرض، واستطاع مكافحة عوامل الطبيعة ومغالبتها انتقل مركز المدينة. ولكن الرد على تلك النظرية هين ميسر، فالذين بنوا الأهرام ونحتوا أبا الهول في الصخر، وضربوا في العلوم بسهم وافر، وأنشأوا النظم على اختلاف أنواعها، خليق

بأبنائهم أن يأتوا في هذا العصر بالمعجزات
لقد كانت مصر القديمة مهبط وحي الأديان جميعاً. فالله، والروح، والبعث، والعقاب، كل أولئك قد اهتدى إليه آباؤنا المصريون. وأين نبتت فكرة الخلود إلا في الأرض المصرية؟ ولعله ليس من العجيب أن يؤلهوا ملوكهم، فعبادة البطولة كانت ولا تزال متأصلة في أعماق النفس البشرية
كان لأجدادنا المصريين حكومة منظمة بكل ما تحمل هذه اللفظة من معنى، يوم كان الغربيون يهيمون على وجوههم في الآجام، ويسكنون المغاور والكهوف، وكانت إدارة مصالح الحكومة تسير على أحسن وجه، وأكمل صورة، يوم كان الأوربيون لا يدركون حتى مدلول تلك الكلمة، وكانت لهم علوم وفنون، يوم كان غيرهم يعيشون على الفطرة
وآمن المصريون القدماء بأن العدل أساس الملك، فوضعوا التشريع المدني والجنائي، ونظموا الهيئات التي توزع العدالة بين الناس
وفطنوا إلى أن الثروة عنصر من عناصر قوة الأمم فاستغلوها على خير وجوه الاستغلال
وأدركوا أن عزة الشعوب ومنعتها في قوة جيوشها التي تحمي استقلالها وتصد المغيرين عن كيانها، وأن الحروب هي القانون القاسي الذي فرض على تلك الإنسانية البائسة، وأن السلام ليس إلا هدنة بين حربين، وأن الجار المتوثب لا يكبح جماحه إلا السلاح، أدرك المصريون كل أولئك فجيشوا الجيوش وغزوا البلاد وقلموا أظافر المعتدين
وضعوا نظاماً صالحاً للأسرة إذ آمنوا بأنها الأساس الذي يقوم عليه النظام الاجتماعي وأحاطوا بكل عناصر المدنية، فأوغلوا في العلوم والفنون والآداب، ومازالت أثارهم تنادي بالتقدم الذي بلغوه يوم كان العالم لا يزال يضرب في ظلمات الجهالة
إذا كانت السياسة هي فن حكم الشعوب، فلا مندوحة لمن يطمح لحكم شعب أن يلم بعلم التاريخ عامةً وتاريخه خاصةً
وسط ضجيج الحرب عمل الدكتور سليم في صمت، فطالع الأمة بذاك الأثر الخالد، فما أجدى المصريين أن يجعلوه مصباحاً يضيء لهم طريق المجد والمدنية.
عبد المجيد نافع
بعد الفاجعة
أماه. . .
للآنسة أمينة قطب
الثلاثاء 15 أكتوبر سنة 1940. . .
أماه. . .
أتراني أقوى الآن على أن أكتب شيئاً؟ يخيل إلي أني لا أستطيع، وأن استطعت فبضع كلمات لا تعبر عما في نفسي
لقد كنتِ القوة الغريبة التي لا تُشِع الحياة في عقولنا ونفوسنا، فنفكر ونحس، ونقوى على العمل. كنت الأمل الباسم الذي ينير لنا الحياة. كنت المصباح الهادي نسير على ضوئه غير مبالين ما يعترض طريقنا من صعاب
والآن ماذا فقدنا بفقدك يا أماه؟ لقد فقدنا كل شيء. فكفت عقولنا عن التفكير، وأظلمت نفوسنا، وخمدت فيها جذوة الحياة
كل هذا ولما يمضي أسبوع على غيبتك. فيكيف تمر بنا الأيام والسنون؟
هاهو ذا القمر الذي كنت أجلس إليه الساعات الطوال أتأمل في جماله وما يسبغه على الكون من جمال وسحر. هاهو ذا الآن يسطع أمامي ويملأ الكون نوراً، فماذا أرى فيه، أنه رقمه صفراء أو بيضاء لست أدري! لا توحي إلى النفس بشيء، بل تشوه الفضاء الواسع بلونها الباهت المريض. . . أي تبدل هذا الذي تم في نفسي خلال أسبوع؟. . . ويحيى ماذا أقول؟ أسبوع فقط؟ أني لأحس به سنين وأجيالا
آه ما أقسى الحياة، حين تموت في النفس الحياة!
أماه. . .
بربك تعالي وأعيدي إلينا الحياة. أن هذه الوحدة قاسية ومؤلمة. ولن نستطيع احتمالها أكثر من هذا الأسبوع! تعالي فلن نستطيع احتمالها السنين الطوال

. . .أماه
هل أطمع في تلبية ندائي؟ هل أطمع في عودتك يوماً من الأيام؟
. . .الجمعة 18 أكتوبر
. . .أمي
أصحيح إنما مضى على رحيلك عنا هو تسعة أيام؟ إذا كيف تمر الشهور والسنون؟ تسعة أيام فقط تتبدل فيها نفسي هذا التبدل؟ أين نفسي الأولى المرحة المشرقة المتفتحة للحياة الخالقة للآمال؟ أين هي من هذه النفس الميتة الغائبة عن العالم وما فيه من آمال وأحلام، البعيدة عن كل ما في الكون من مباهج الحياة وجمال؟ أنها هاتين النفسين لتفصل إحداهما عن الأخرى سنون وأجيال!
لقد طرق سمعي من بعيد منذ لحظات صوت (أم كلثوم) في تلك الأغنية الحبيبة إلى نفسك التي كنت تطربين لها حين أغنيها لك. . . تنبهت فجأة وكأنني أحلم: أو مازال صوت (أم كلثوم) يردد في الأفاق ويسمعه الناس ويطربون له؟ أو مازال في الدنيا غناء؟!
أين أنا أذن وأين نفسي التي كانت تطرب للغناء؟ لقد جمعت شتات فكري على نغمات هذا الصوت، وأخذت أبحث عن نفسي التي كانت تسمع وتطرب، فوجدت أنها كانت هنا قبل تسعة أيام!
. . .أمي
يخيل إلي عندما أسمع صوتاً كنت أسمع أو أرى شيئاً كنت أرى هناك في المنزل الأخر قبل أن نرحل إلى هذا البيت. . . يخيل إلي أنني لو ذهبت إلى المنزل الأول لوجدتك هناك! وعند إذن أجلس إليك وأحدثك وأغني لك تلك الأغاني التي كنت تحبينها! أجل، يخيل إلي هذا فأصدقه وأعتزم الذهاب. ويومض في نفسي شعاع من الماضي الحبيب، ولكن سرعان ما يطفئه صوت الحقيقة المؤلم الحزين، وتعود نفسي إلى ظلامها وموتها
. . .أمي
هل أطيع ذلك الخيال مرةً وأذهب إلى المنزل الأخر؟ من يدري يا أماه، ربما أجدك وأجلس إليك ولو بضع لحظات؟!
أبنتك الحزينة
آنسة أمينة قطب
محاورة أفلاطون الخيالية
حول التربية الإنجليزية
للأستاذ عبد العزيز عبد المجيد
- 2 -
المحاورة بين أفلاطون وأحد المربين الإنجليز. ولقد أسفرت في المقالة السابقة عن أن التربية الإنجليزية إنما تعد الفرد ليشترك في انتخاب الحكومة الديمقراطية التي يكونها الشعب لخدمة الشعب، وليساهم في حكم الأمة، وتسيير شؤونها الداخلية والخارجية. غير أن أفلاطون يتساءل كيف يتمكن أفراد الشعب، بما هم عليه من تربية محدودة، وخبرة في الحكم وسياسة ناقصة، أن يوجهوا سياسة الحكومة وأن يشرفوا على نظام الحكم، فهذا التوجيه والأشراف لا يقوى عليه إلا الفيلسوف. وكان آخر سؤال وجهه أفلاطون للمربي هو: لقد كنت أنك تريد أن تكون فرص التربية والتعليم سواء لجميع أفراد الشعب، فما الذي تريد أن تصل إليه بهذا كله؟
المربي: المسألة مسألة مبدأ العدالة العامة التي تقضي بأن يتاح لكل أطفال المجتمع على السواء جميع الفرص الممكنة في التربية، لا فرق بين غني وفقير
أفلاطون: أي الفرص تعني؟
المربي: الفرص التي تمكن الطفل من تنمية مواهبه وقواه الطبيعية إلى أقصى حد ممكن.

الفرص التي تفسح له طريق التعليم الجامعي أن كان عنده الاستعداد العقلي لذلك
أفلاطون: واضح كل هذا. أنت تريد تعطي كل فرد في المجتمع مجالاً ليتعلم، وليتخذ المهنة التي يصلح لها بمواهبه الفطرية، وتقصر التعليم الجامعي على ذوي الاستعداد العقلي، والذين يمكنهم الإفادة منه؟
المربي: أجل هذه هي غايتنا. وقد استطعنا - بوضع هذه الغاية نصب أعيننا - أن نبني نظام التربية في بلادنا على شكل هرمي؛ يكون التعليم الأولى قاعدته؛ وعليها يرتكز التعليم الثانوي، أما التعليم الجامعي العالي فيكون القمة
أفلاطون: وهل تُعُدُّون الذين لم ينالوا التعليم الجامعي كاملي التربية؟
المربي: لا أظن ذلك
أفلاطون: فكيف إذا يجوز لكم أن تخولوا هذا الذي لم يُتْمم التعليم الجامعي أن ينتخب الممثل النيابي، وأن يكون له رأي في شئون الأمة وسياستها، على حين أنك أنت تقرر أنه غير قادر على ذلك؟ فإذا كان السواد الأعظم من النشء لا يعدو مرحلة التعليم الأولي والثانوي، ولا ينال أي حظ من التعليم الجامعي فإنه من البين أن هذا الشعب الذي يمثله سواده الأعظم يجب ألا يتحمل أمانة الحكم الثقيلة ويجب أن يترك سلطة الحكم والسياسة في أيدي من ينجحون بتفوق في الامتحانات الجامعية من الرجال والنساء
المربي: حقاً إن هذا لصحيح من الناحية النظرية، غير أنا - معشر الإنجليز - لا نعتقد أن الدرجات العلمية والجامعية هي المؤهلات الوحيدة لتحمل أمانة الحكم وتبعة السياسة. والواقع أننا نجد معظم الجامعيين من الأساتذة والعلماء على نصيب قليل من الدربة السياسية، والدراية بطرق الحكم، إذا قسناهم بهؤلاء الذين تخرجوا في جامعة الحياة اليومية
أفلاطون: إذا كنتم تعتقدون في جامعة الحياة اليومية وإعدادها، فلماذا إذا أسستم الجامعات، ولم تتركوا الأمر للعناية السماوية أو لظروف الحياة (أيهما تختار) لإعداد حكامكم وتكوينهم؟ وإذا كنتم لا تعتقدون أن التربية تستطيع أن تنشئ الفرد وتسويه وتخلق منه شخصاً آخر أصلح من ذي قبل لمهنته في الحياة، سواء أكانت الصِّرافة أم التجارة أم الحكم، إذا كنتم لا تعتقدون هذا فنصيحتي لكم أن تضربوا بمشروعات التربية عرض الحائط، وأن تتركوا الأمر لظروف الحياة والقدر
المربي: يظهر أنه من المستحيل على أن أبحث أمور التربية مع رجل مثلك يضحي بأية فكرة في سبيل صحة القضايا المنطقية. إن نظام التربية عندنا في إنجلترا ليس منطقياً، لأنه نما نمواً تاريخياً على أسس رسخ أصلها في الماضي. فهو مملوء بالمتناقضات والغموض، لا لسبب إلا لأنه نشأ وتطور بحسب الحاجة والمناسبات المختلفة المعقدة. فليس نظام التربية عندنا من صنع أفراد مستبدين
أفلاطون: إن ما تقول لجائز. ولكن يجب أن تكون ثمة مبادئ ثابتة تسيرون عليها في إصلاحاتكم التعليمية، ومناهجكم التربوية، وحين تقررون خطوات الإصلاح الاجتماعي. هذه المبادئ الثابتة هي التي أحاول استيضاحها الآن في محاورتنا هذه. إن صحة المنطق واستقامته ليستا عيباً حتى ولو كان محاوري إنجليزياً! وإنني أعتقد أن عدم استطاعتك أن تجيب عن أسئلتي البسيطة دليل على عدم وضوح غايات التربية عندكم. فبالرغم من أنكم لن تقرروا بعدُ لمَ يربَّي الشعب ولم يُعلَّم، أراكم دائبين على افتتاح مدارس جديدة، ومطالبين البرلمان بمد أجل التعليم الإجباري إلى الخامسة عشرة بدلاً من الرابعة عشرة
دعني إذا أشرح لك الأمر بوضوح أكثر. هناك نوع من التربية يسمى التربية المهنية أو الفنية، أليس كذلك؟ ونعني بهذه التربية إعداد الفرد لمهنة خاصة أو حرفة
المربي: نعم
أفلاطون: وكنتيجة لهذه المقدمة المنطقية أعتقد أنه من الممكن أن تحكم على كل أنواع التربية بأنها فنية مهنية، لأن كل إنسان لا يخلو من أن يكون صالحاً بطبيعته لمهنة من المهن التي يمكن أن يتعلمها ويحذقها بالتربية؛ فالمزارع يمكن أن يتعلم الزراعة، والبناء يمكن أن يتعلم البناية وهكذا. وقد اعترفت أنت في حديثك أن الحكم مهنة من المهن، أفلا يكون من المعقول أن يوجد نوع من التربية بمكن الفرد من التمرن على فن الحكم وإجادته؟ فما رأيك؟

المربي: ربما
أفلاطون: إنني أعتبر (ربما) هذه دليلاً على أن ناحية التعقل عندك - لو لم يشبها التحيز والتعصب للرأي - تميل إلى قبول وجهة نظري. وما دمت توافق على أن هناك نوعاً من التربية، أو بعبارة أخرى أضبط يمكن أن يوجد نوع من التربية يعد طبقة الحكام ويكونهم،
فدعنا نشرح الآن في بحث ما إذا كانت التربية الجامعية قادرة على إعداد هذه الطبقة من الحكام، أموافق؟
المربي: أظن أنك تتوقع مني الإجابة (بنعم) ما دامت نظريتك هذه مبنية على المبادئ التي في (الجمهورية)
أفلاطون: لقد سررت كثيراً حينما عرفت أن التعليم الجامعي عندكم يشمل ناحتين: ناحية البحث العلمي الحر، وناحية الثقافة العامة، وحينما وجدت أنكم في الجامعات تعتنون بالمسائل المعنوية النظرية كجزء ضروري في التعليم الصحيح، ولكني أسفت حينما سمعتك تقول: إن خريجي الجامعات لا يعتبرون عندنا ساسة قديرين، ولعل السبب في هذا هو أن معظم الشبان الذين يدرسون في جامعاتكم لا يهمهم أن يعدوا أنفسهم لمهنة السياسة والحكم، ولكنهم يعدون أنفسهم لمهنة تجارية أو صناعية أو كتابية، يستطيعون بها كسب قوتهم ومعاشهم. فإذا كان الأمر كذلك فإن جامعاتكم لا تحتفظ بتلك المبادئ التي قررتها أنا في أكاديميَّ ولكنها قد أصبحت مدارس فنية عليا لإنتاج الصناع وذوي المهن المهرة، الذين يظلون دائماً بعيدين عن ميدان السياسة والحكم، ذوي المهن الذين همهم محصور في الطاحونة أو دواوين أعمالهم، ولا يعنيهم من أمر السياسة الدولية العليا وشئونها شيء
المربي: ربما يكون صحيحاً أن جامعاتنا قد أصبحت مدارس فنية عليا، لأننا لا نعتبرها مجرد معاهد لتخريج الساسة ورجال الحكم. كما أننا لا نحظر الالتحاق بها على أي فرد - رجلاً كان أو امرأة - عنده الاستعداد للبحث العلمي، أو يريد ثقافة عامة. إننا نريد أن يكون لكل فرد يلتحق بالجامعة حرية اختيار المادة التي يتعلمها والمنهاج الذي يتخذه، لا أن نزج بهم جميعاً في حلبة السياسة
أفلاطون: أفهم من حديثك هذا أنكم واثقون بساستكم الحاليين مطمئنون إلى خططهم، وإلا لما كنتم تتركون أبناءكم يختار كل منهم منهاج الدراسة الذي يريده. ونتيجة هذا هي أن خيرة أبنائكم ذكاء قد أقبلوا على دراسة ما يميلون إليه، وانصرفوا عن تحمل تبعات الحياة التي يفرضها عليهم ذكائهم، فنراهم مغرمين بمزاولة أشياء لا أثر لها في تقدم مصلحة الشعب العامة
المربي: يخيل إلي أن فكرتك عن أهمية رجال السياسة ضخمة ضخامة الطبل. إن الدولة لا
يقبض على زمام شئونها ويسيرها رجال السياسة وإنما أمور الدولة في أيدي الموظفين ورجال الدواوين والإدارة، وأصحاب الصناعات والتجارة. هؤلاء هم ذوو الخطر والشأن في أمور الدولة. أما رجال السياسة فمعظمهم كخطباء المسارح يقولون ما لا يفعلون
أفلاطون: الحقيقة أن الأمر تشابه علي، ولست أدري أين أنا من رأيك. إنكم لا تنتخبون رجال الإدارة أو الموظفين ورجال الدواوين، ولا تنتخبون الصناع والتجار ورجال الأعمال، أتنتخبونهم!؟
المربي: كلا، لا يحدث هذا
أفلاطون: ومع هذا تقول لي أن هؤلاء الرجال هم ذوو الشأن والخطر في نظام حكمكم الديمقراطي، وإن السياسيين ما هم إلا خطباء مسارح! فإذا كان الأمر كما تقول فكيف تزعمون أنكم تتمتعون بالحرية السياسية، وأن لكم إشرافاً على شئون الدولة وأمور السياسة؟ يجب أن أعترف بمعجزي عن فهم هذا الموضوع! كأني بك تقرر أن مؤسساتكم الديمقراطية، ومجالسكم النيابية ما هي إلا صورة ومظهر فقط، ولكن من ورائها يعمل رجال الدواوين والإدارة بحكمة وجد. إنني أعتقد بوجاهة هذا النظام، وأرى الآن كيف أن التربية عندكم لا ترمي لإعداد الساسة والحكام، ولكن لتخريج الكفايات - من الرجال والنساء - القادرة على أداء مهمتها ووظيفتها بإخلاص تحدوها المصلحة العامة، مصلحة الشعب. فإذا كان الأمر هكذا فلتعلنه بصراحة، ولتُلغ

ما ذكرته من أن التربية عندكم إن هي إلا تجربة في الحكم الذاتي للشعب، لأن من الواضح أنه ما دامت التربية هي إعداد الأفراد للمهن المختلفة والوظائف التي يصلحون لها، فأنواع التربية تختلف حتماً باختلاف الإعداد
المربي: نعم، الأمر كذلك.
(يتبع - بخت الرضا. السودان)
عبد العزيز عبد المجيد
سيجموند فرويد
العالم النفساني الكبير
للأستاذ صديق شيبوب
- 4 -
تعتبر الغرزية الجنسية أساساً لنظريات (فرويد) في علم النفس وقد كان أول من تجرأ على القول بأنها أهم القوى الفعالة في النفس
كانت الأجيال السابقة تعرف مدى انفعالات النفس بتأثير الغريزة، ولكنها كانت تضرب صفحاً عن ذكرها أو الإشارة إليها مراعاة للقوانين والأخلاق. وقد ساعدت الديانات والحكومات، على اختلاف أنواعها وأشكالها، على ضبط جماح الغرائز الأولية فلم يشذ هذا الإجماع إلا القليل
حاربت النصرانية شهوات الجسم بشهوات العقل والروح، وجعلت من تحقيق رغبات هذه الشهوات الأخيرة مثلاً أعلى في الحياة، وأوجدت وسائل تختلف قسوة ولينا للتغلب على الغرزية الجنسية، وكان بعض هذه الوسائل جسمياً وبعضها الآخر عقلياً، وهو حل قائم على العقل والمنطق، لأن الأخلاق برزت في شكل مادي قائم على فكرة تتصل بما وراء المادة. على أن هذا الحل ظهر غير فعال تماماً لأنه لم يشف الإنسانية من الغريزة الجنسية ولم يحل دون بروزها مسيطرة على الجسم والنفس معاً
أما الشرائع الوضعية فقد اختلفت عن الشرائع السماوية بأنها لم تحتم على الفرد أن يخضع للأخلاق في نفسه وضميره بل أقرت المجتمع على مظاهر أخلاقية متواضع عليها ولم تطالب الفرد بمراعاة الأخلاق إلا في المظهر فقط
أما القرن التاسع عشر، وهو عصر الاكتشافات الخطيرة والاختراعات الهامة والمذاهب المستحدثة التي غيرت مجرى العقل والذوق في شتى أنواع الفنون ومختلف أساليب الفلسفة والعلم، فقد حارب الغرزية الجنسية بطريقة سلبية لأن كبار مفكريه تواطئوا على إهمال وإغفال ذكرها أو الإشارة إليها، فلم يؤيدوا وجودها ولم ينفوه ولم يبحثوا في أثرها
لم يقتصر هذا الإجماع على العلماء المفكرين بل تناول الأطباء الذين أبو توجيه بحوثهم شطرها في معالجة مرضاهم واكتفوا بمعالجة الأمراض العقلية. بالوسائل الطبية المعروفة لديهم أو بإرسال مرضاهم إلى مستشفى الأمراض العقلية
على أنه عند ما أشرف القرن التاسع عشر على الزوال قام الطبيب الشاب (فرويد) يتحدث عن كبت الغريزة الجنسية وإمكان شفاء الأمراض العصبية، معتمداً في ذلك على الأبحاث التي أجراها في داء الهستريا؛ وأخذ يقرر أن أكثر الأمراض العصبية - إن لم يكن كلها - ناتج عن ذلك الكبت. فثار به أساتذة الجامعة، ونصحه أصدقاؤه بأن يتحول عن هذه الأبحاث التي لا ترجى فائدة منها والتي تتناول مسألة دقيقة من الخير أن تظل طي الكتمان
على أن (فرويد) تجاوز عن هذا النصح وسار في أبحاثه إلى أقصى حد؛ فاصطدم بمعارضيه واحتدم الجدل بين الفريقين الذين تتمثل فيهما طريقتان متباينتان لا سبيل إلى التوفيق بينهما؛ يتمثل في أحدهما علم النفس في أسلوبه القديم يحده مثل أعلى قائم على تغلب العقل على الغريزة في الفرد المتمدين المثقف، ويتمثل في الفريق الآخر فكرة مستحدثة تقرر أن الغرائز لا تقهر، وأنه من العبث أن نفرض أنها إذا كبح جماحها اندحرت واختفت إلى غير رجعة، لأن أقصى ما نستطيعه إزالتها من العقل الواعي وكبتها في غير الواعي؛ فإذا تجمعت في أعماق النفس اختمرت وأحدثت قلقاً واضطراباً في الأعصاب لا يلبث أن يتحول إلى داء عضال!
يقول فرويد: إن الشهوة بمعناها العام أول نسمة بتنفسها الفرد في حياته النفسية،

فهي للنفس كالطعام للجسم، والنفس تصبوا أبداً للوصول إلى اللذة، وهو ما يسميه (ليبيدو) الذي أطلق عليه بعض كتابنا لفظة (اللبيد) ومعناها الطموح إلى اللذة رغم كل العقبات، وهو طموح يملي على الإنسان كل أعماله

ولم تكن غاية (اللبيد) واضحة حتى أكتشف فرويد أن معناه التفريج عن الغريزة الجنسية. على أنه قرر بعد ذلك أن القوى النفسية تتحول عن مراكزها، وأن اللبيد لا يقتصر على الصلات الجنسية لأنه يمثل قوة هوجاء تطلب الظهور والبروز، كوتر القوس المشدود المستعد أبداً لإنفاذ السهم، أو السيل الجارف الذي لا يدري أين مصبه، فقد يظهر اللبيد في الصلات الطبيعية، وقد يتحرر من قيود الجسم فيسمو إلى النفس ويظهر في مناطق رفيعة كالفنون الرفيعة أو الدين أو الفلسفة. وقد يصدف عن هذه الغاية أو تلك فيتيه في مجاهل

العالم أو يتمركز في أشياء غريبة أثرت في غريزة الفرد منذ صباه، وقد ينحط إلى أسفل دركات البهيمة وقد يرقى إلى أسمى الغايات. وهكذا تختلف أشكال اللبيد ومظاهره، ولكن غايته تظل واحدة ترمي إلى ري صدا النفس الطموحة إلى اللذة، وهي غاية أصيلة فيه عالقة به

هنا يظهر التجديد في الآراء التي أقرها فرويد

كان علم النفس من قبله يجهل أن قوى النفس تتبدل وأن مراكزها تتحول، وكان يخلط بين المسائل الجنسية وبين أعضاء جسم الإنسان، ففصل فرويد بين هذه وتلك ودلل على تحول مراكز قوى النفس

وكان علماء التحليل النفسي يقررون أن المسائل الجنسية التي تسبب اضطراباً في الأعصاب ترجع إلى عهد قديم، وقد كان من الطبيعي أن يبحث عن هذه المسائل صعداً في حياة الإنسان إلى سن المراهقة، ولكن فرويد اهتدى إلى أن من الخير ألا يقف البحث عند هذا الطور من حياة الإنسان، بل يتعداه إلى الطفولة

وقد برهن فرويد على أن اللبيد أصيل في نفس الطفل بالرغم من أنه يجهل الحياة التناسلية، ثم ذهب ألب أبعد من ذلك فقرر أنه إذا كان للطفل حياة تناسلية فإن الحياة لا تستطيع أن تكون قويمة، بل إنها خبيثة، ولكنها تعمل في الذات غير الواعية بحيث يرضع الطفل كل اللذة من أثداء العالم

ثم تدرج فرويد في دراسة الفرد من الطفولة إلى المراهقة إلى الرجولة، فلاحظ أن حفظ الجنس يدفع الأفراد إلى المراهقة إلى الرجولة، فلاحظ أن حفظ الجنس يدفع الأفراد إلى مجرى طبيعي إذا سارت حياتهم على وتيرة متساوقة. أما إذا أعتورتها حالات خاصة ظهر الشذوذ الخلقي والتناسلي

وقد درس بعض هذا الشذوذ في حياة مشاهير الرجال فانتهى من دراسته إلى أن الاضطراب النفسي ينتج عامة عن تجارب شخصية تناسلية، وأن ما نسميه طبيعة ووراثة ليس سوى حوادث جرت في الأجيال السابقة وأثرت في الأعصاب. وهكذا وجد أن كل حادث - في نظر علم تحليل النفس - عامل حاسم في تكوين النفس، وقرر أنه يجب بحث ماضي كل فرد للوصول إلى فهم حياته، وأن العلل النفسية والعصبية فردية لا وجه للشبه

بينها وبين أمثالها في شخص آخر غير المصاب بها

وقد تفرعت عن هذه الأبحاث نظريات عدة في شذوذ الأخلاق وتفصيله إلى مراتب ودرجات يضيق مجال البحث دون استيعابها

وجملة القول أنه يتضح من مذهب (فرويد) أن كل شهوات النفس الأمارة بالسوء، ونوازعها التي حاربتها الإنسانية بشتى الأسلحة الأخلاقية والثقافية لا تزال أصيلة في النفس، وأننا نحمل في دمنا غرائز عصور الهمجية الأولى حين لم يكن للقوانين والأخلاق وجود، وأننا مهما بذلنا من جهد في سبيل إبعاد الغرائز عن ميدان عمل العقل الواعي، فإن هذا العقل لا يستطيع أن يتخلص منها تماماً ولا غرابة إذا كثر نقاد هذه النظرية (المعادية للمدنية) كما قالوا، لأنها أقامت الغريزة الجنسية أساساً لسائر نواحي الحياة، وجعلت اللبيد قوة لا تقهر

يقول (ستيفان زويج) في كتابه القيم عن (فرويد) وهو الكتاب الذي اعتمدنا عليه في أكثر فصول هذا البحث: إن (فرويد) لم يقل إن نظريته عامة وإن اللبيد أو الغريزة الجنسية هما العاملان الوحيدان اللذان يحركان الفرد ويمليان عليه أعماله ومآتيه بل

إنه قرر أن هناك غرائز أخرى تستولي على الفرد وتعمل في عقله الباطن مثل غريزة الموت وغريزة الذات ولكنه يؤخذ على (فرويد) أنه لم يسهب في شرح نظرية الغرائز الأخرى كما فعل في شرح غريزة اللذة، فجاءت مبهمة قلقة

ولاشك أن النقد الذي وجه إلى (فرويد) صحيح من حيث أنه بوأ غريزة اللذة مقاماً أسمى مما يجب وأبرزها كقوة لا تقهر وحط من قدر المدنية والشرائع ومقدرتهما على محاربتها

(للبحث صلة)

صديق شيبوب

ليالي الملاح التائه

(أهدى الشاعر النابه الأستاذ علي محمود طه نسخة من ديوانه إلى صديقه الأستاذ فؤاد بليبل فأوحت إليه هذه الهدية الأبيات التالية)

شاعرٌ تاهَ في بِحَارِ خَيالِه ... واهْتَدَى كُلَّ تائِهٍ بِضَلالِهْ
طافَ بالكونِ ينشدُ الحسنَ فيهِ ... ضارِباً في وِهادِهِ وجِبَاله
كلَّما شامَ بارِقاً من جمالٍ ... راحَ يَشْدُو بسِحْرِهِ وَدَلاله
يَتَغَنَّى مُصَوِّراً كلَّ ما يَبْ ... دوا لِعَيْنَيْهِ أَوْ يمرُّ بِبَاله
بارعُ الرَّسْمِ بالبليغِ مِنَ اللَّفْ ... ظِ خَبيرٌ بمَوْضعِ اسْتِعماله
تِلْكَ أَلْوَاحُ شِعْرِهِ ماثِلاتٌ ... حافِلاتٌ بالعَذْبِ منْ أَقْوَاله
قَدْ أرَانا بِبَدْرِهِ الصَبِّ لَوْحاً ... يَقِفُ المرءُ حائراً بِحيَاله
قمرٌ عاشقٌ قد اقْتَحَمَ الْحِصْ ... نَ على شَمْسِ مَخْدَعٍ لم تُبَاله
وَتَدَلَّى عَلَى النَّوَافِذِ وَلْهَا ... نَ إليها وَلَفَّها بحبَاله
واحْتَوَاها بِنَورِهِ وَهْيَ وَسْنَى ... يا لِبَدْرٍ مُتَيَّم بِمثَاله!
وَهْوَ رَانٍ يَغَارُ من قُبَلِ البَدْ ... رِ المُعَنَّى عَلَى شِفَاهِ غَزَاله
وَأَرَانَا بِهِ وَقَدْ غادَرَ الْخِدْ ... رَ عَشِيقاً يَبْكي عَلَى آماله
قَدْ سَبَانَا مِنْ كُلِّ فَنٍّ بسابٍ ... مِنْ أغارِيدِهِ وَرِقَّةِ قاله
وَبِمَا عاينَتْ مِنَ الْحُسْنِ عَيْنَا ... هُ وما قَدْ رَأَهُ في تَجْوَاله
أينَ مِنْهُ (فِينسيا) الآنَ و (الري ... نُ) وَأَيَّامُ حِلِّهِ وَارْتحاله؟
أين ذَاكَ (الْجُنْدُولُ) يُرْقِصُهُ المَوْ ... جُ فيَنْسَابُ مُمْعِناً في اختياله
بُحَّ صَوْتُ القيثَارِ فِي كفِّ حَادِي ... هِ وَطافَ السَّاقِي عَلَى آهَاله
مَوْكِبٌ يتركُ العقولَ حَيَارَى ... ليْتَ لِي أنْ أرَى سَنَاً (كرنفاله)
أيْنَ تِلكَ الآرامُ مِنْ فتيةِ (الآ ... رِ) وَهَلْ حَال عَهْدُهَا عن حاله؟
شاعرٌ هامَ بالجمالِ فغَّنا ... هُ بشعرٍ أيْنَ الطَّلا مِنْ زلاله؟
عَبْقرِيُّ الإيقَاعِ عَذْبُ القوافي ... تَتَمَشَّى الحياة في أوْصَاله
مَا لياليهِ غيْرُ مِنَ الوَحْ ... يِ عَلَيْهِ رَفَّتْ بَنَاتُ خَيَالِهْ
فَاتِكَأتُ اللَّحاظِ مِنْ كُلِّ بكرٍ ... سَلَّحَ السحرُ حِفنُها بِنِبَالهْ
خَاشِعَاتٌ، مَعَرْبِدَاتٌ، شَوَاجٍ ... عَابِنَاتٌ بكلِّ قَلْبٍ وَالِهْ
أيْنَ (بودليرُ) مِنْ رَقِيقِ مَعَاني ... هِ وَإبْدَاعِ نَظْمِهِ وَجَلاَلِهْ؟
أعْتَقَ الشِّعْرَ مِنْ عَتِيقِ صَحَاري ... هِ وَمِنْ عِيسه وَمِنْ أطلاَلِهْ
وَتمشَّي مَعَ الحديثِ جَرِيئاً ... لاَ يُبَالِي الرَّجْعِيَّ مِنْ عُدَّالِهْ
مُعْجِزَاتٌ من الْبَيَانِ تَجَلَّتْ ... فِي قريضٍ يسبى النُّهي بجمالِهْ

(دار الأهرام)

فؤاد بليبل

موعد الشروق

(يا حبيبي! إن الشعاعة الذهبية التي تلهم الهزار حب الإنشاد عند مولد النور قمينة بأن تسعد قلوب العاشقين)

زَقْزَقَ الطَّيْرُ فِي الْجَزِيرةُ يذْكِي ... وَقْدَةَ السَّحْرِ فِي الْقلوبِ الرقَاقِ
هُوَ ذَا الصُّبْحُ يا حَبِيبي تَهَادَى ... مَائِسَ النُّورِ، أبْيَضَ الأَطوَاقِ
حَامَتِ الوُرْقُ حَوْلَ زَهْرِ الرَّوَابي ... تَرْشُفُ الطَّلَّ مِنْ حَشَا الأَوْرَاق
وَالنَّسِيمُ الوَئِيدُ يَنْفَحُ عِطْراً ... ذَوَّبَتْهُ السَّمَاءُ لِلْعَشَّاق

لَيْتَنِي فِي جناحه خَفَقَاتٌ ... سَابِحَاتٌ لِوَجْهِكَ الأَلاَّق
نَشَرَ الصُّبْحُ فِي الفَضَاءِ جنَاحاً ... قُرْمُزِيّاً مِنْ مَوْكِبِ الإشْراق
فَوْقَ قَلْبٍ مِنَ الغُيُومِ وَضِئٍ ... مُطْفَإِ الماسِ، نَاصِعِ الأطبَاق
وَتُرُوحُ الْعقيَانَ مُرْتَجَّةٌ لَم ... يَعْصِمِ اللهُ شَمْلَهَا بِوِثَاق
فَضحَ النُّورُ جَبْهَةَ السُّحْبِ فَابْيَضَّ (م) ... تْ أَسَارِيرُهَا عَلَى الآفَاق
وَأطَلَّتْ ذُكاءُ مِنْ شُرْفَةِ الْغَيْ ... بِ تُزِيلُ الكَرَى عَنِ الآمَاق
لَيْتَما تُوقِظين يَا شَمْس حُبِّي ... فَيَبُلَّ الأَوَامَ فِي أَعْمَاقِي
اُسْكُبي فِي عَيْنَيْهِ ضُوءً! رَفِيقاً ... ذَكرِيهِ بِمَوْعِدِي وَاشْتِيَاقِي
عبد الرحمن الخميسي
رسالة العلم
قصة الفيتامين
الفيتامين المانع لمرض البلاجرا
للأستاذ عبد اللطيف حسن الشامي
- 6 -
يفشو المرض المعروف بالبلاجرا في الطبقات الفقيرة في البلاد التي تقوم فيها الذرة المقام الأساسي في التغذية. وأعراض الإصابة بهذا المرض ظهور قروح وطفح جلدي على الأجزاء والأطراف من الجسم المعرضة للشمس (العارية) وتسميته الإيطالية بالبلاجرا يقابلها بالعربية الجلد الخشن. ويوجد هذا المرض كذلك في أوربا الوسطى والجنوبية وفي بلاد البترول، ويكثر انتشاره في شمال إيطاليا وجنوب فرنسا وإسبانيا والبرتغال وفي بلاد البلقان وشمال أفريقية وظهر أخيراً في الأمريكتين. ويشهد على خطورة الإصابة به أن 1535 شخصاً ماتوا بالبلاجرا في سنة 1915 بأمريكا الشمالية في ولاية مسيسبي. وفي السنوات الأخيرة أصيب به في أمريكا الشمالية ما يقرب من نصف مليون من السكان مات منهم ما يزيد على خمسين ألفاً. وتبدأ الإصابة به غالباً في فصل الربيع بأعراض مرضية عامة يتبعها اضطراب جلدي فوق الأعضاء الجسمية العارية. فعلى الوجه والرقبة واليدين يظهر على شكل طفح دميم قد يكسو اليدين تماماً كما يكسوها القفاز. ويصحب هذا آلام حادة في الرأس والأطراف والظهر وضعف عام وخمول ثم اختلال في الجهاز الهضمي يعقبه اضطراب عصبي يكون نذيراً بالاضمحلال الجسماني والهلاك. وقد يقدر الجسم عند الإصابة على المقاومة ردحاً طويلاً من الزمن يمتد إلى عشر أو خمس عشرة سنة، كما أنه لا يقاوم أكثر من أسابيع قليلة يضني ويهلك بعدها سريعاً

ولقد كثرت الأقاويل قديماً حول أسباب البلاجرا. فكما أعتقد خطأ زمناً طويلاً عزو مرض البري بري إلى العدوى عن طريق مُسببات دقيقة حية - ظُنَّ ثانياً بالبلاجرا. بيد أنه ظهر بعدئذ ما ينقض هذا الزعم الخاطئ. إذ كيف لا ينتقل المرض وتقع العدوى مثلاً من المرضع المريضة بالبلاجرا إلى رضيعها. زد حقيقة ثابتة أخرى وهي انتشار مرض البلاجرا في الأوساط الفقيرة فقط في البلدان التي تعتمد في غذائها على الذرة اعتماداً كلياً فاستنتج من هذا ارتباط مرض البري برى بالتغذية. وذهب بعض الباحثين في استنتاجهم إلى وجود مواد سامة في حبوب الذرة التي تكون قد أصابها الفساد والعطب من جراء التخزين. وأكتسب هذا الاستنتاج بعض الأهمية والسند من الحالة الاقتصادية الرديئة التي عليها الطبقات الزارعة الفقيرة التي ترغمها هذه الحالة إلى حصاد الذرة مبكرة قبل تمام نضجها ثم تخزينها رطبة تخزيناً غير صالح يضر الحبوب ويفسدها

ومما قوى الزعم في اتصال البلاجرا بالذرة أنه في مدينة ترنتينو بإيطاليا حيث تنتشر البلاجرا، أخذت الإصابة في نقص تدريجي أثناء حرب 1914 - 1918 بسبب هبوط عام في محصول الذرة؛ مما أضطر القوم إلى الالتجاء لأنواع أخرى من الغذاء غير الذرة ولكن الحقيقة التي لا جدال فيها، والتي يؤيدها العلم الحديث - كما ثبت كذلك في حالة البري بري - هي أن مرض البلاجرا. لا يرجع إلى وجود مادة ما في الذرة، ولكن يرجع إلى شيء ينقصها ولا يوجد فيها، وينشأ عند غيابه ظهور أعراض البلاجرا. وتعليلاً لهذه الصلة الوثيقة التي تربط مرض البلاجرا كنتيجة للتغذية بالذرة، نجد الذرة نفسها لا تحتوي على كميات ملحوظة من الفيتامين زد على ذلك افتقارها إلى المواد الزلالية.

عاملان أو مادتان لابد عند نقصهما في الغذاء العام من رضوخ الجسم إلى تجارب واضطرابات غذائية قاسية، ولكنه يجب، مع ذلك أن تظهر البلاجرا في حالة أية تغذية أخرى لا تحتوي على الفيتامين ولا تدخلها الذرة بتاتاً وهذا ما حصل وشوهد أخيراً في المناطق الصناعية الأوربية التي يسودها عدم كمال التغذية ووفرتها ففي بعض البلاد السويسرية وفي برلين وفينا وبرسلاو وهامبرج أصيب بعض ساكنيها بالبلاجرا ولو لم يقربوا الذرة بتاتاً إلى مآكلهم وأفواههم

ومما دعم القول بأن مرض البلاجرا هو نتيجة لنقص الفيتامين وبدون سابق أية تغذية بالذرة - النتائج الأكيدة التي حصل عليها عند إجراء تجارب غذائية على القردة والكلاب والفيران فهذه أصيبت بأعراض مرضية شديدة الشبه بأعراض البلاجرا لدى الإنسان وذلك بإطعامها غذاء نزع منه الفيتامين كلية. ولقد توصل العلم إلى الكشف عن الفيتامين إلى درجة مرضية كما أمكن تحضير بلورات صغيرة منه من الخميرة وهو فيتامين يقاوم

الحرارة ويذوب في الماء ويتأثر بالأشعة فوق البنفسجية، وفي حالته النقية الدقيقة يمثل مادة ملونة صفراء تشبه المادة المعروفة باللاكتوفلافين التي تحضر من اللبن (لبن , أصفر ولقد حضر هذا الفيتامين على هيئة بلورات في مجمع القيصر ولهلم الطبي في مدينة هايدلبرج في ألمانيا باستخدام خمسين ألف لتر من اللبن. وكانت كميات ضئيلة من بلوراته لا تزيد على ثلاثة أجزاء من المليون من الجرام كافية لانتظام واطراد النمو في الفيران، ولكن حدث بعد أن انتزعت المادة الملونة الصفراء منه أن قل ووقف تأثيره في اطراد نمو الفيران، وبهذا أخذ قديماً في تسمية الفيتامين بفيتامين النمو، ولكن نسخت هذه التسمية فيما بعد عندما ثبت أن كل نقص في أي فيتامين يكون مدعاة لتأخير النمو الجسماني العام

والمهام الملقاة على عاتقه عديدة وذات أهمية كبيرة. فبتعاون هذه المادة الملونة الصفراء مع مركبات عضوية أخرى عويصة هي الأنزيمات تكسبه تأثيراً ومفعولاً في دورة الأوكسجين عند عملية الاحتراق في الخلية أي في النفس الخلوي وكذلك في حالة تحليل الكربوهيدرات التي يساهم فيها بقسط وافر. ويلعب كذلك دوراً هاماً في تكوين الكرات الدموية الحمراء، تساعده في إتمام هذه العملية مواد يفرزها الجسم هي الهرمونات الموجودة في العصير المعدي التي تساهم بدورها في تكوين الدم، ولذا يعزى فقر الدم أو عدم القدرة على تكوين كرات حمراء جديدة لسببين أولهما نقص الفيتامين والثاني غياب الهرمونات في العصير المعدي. ويأخذ العلم الحديث اليوم بأن فقر الدم البسيط يرجع إلى عدم وجود الفيتامين في حين أن الأنيميا الخبيثة أي الضعف الدموي الحاد الذي كان يعتبر إلى ومن غير بعيد من الأمور المستعصية العلاج، ترجع إلى غياب الهرمونات المكونة للدم عن العصير المعدي، وكم أفادت هذه المعلومات الحديثة الطب العلاجي فائدة جليلة الشأن

ولقد كشف لنا ظهور الفيتامين في هذا الميدان عن تأثيرات متداخلة جليلة الشأن والأثر لقوى عاملة. مادتان مؤثرتان يفرزهما الجسم تستأثران بمهام حيوية خطيرة لا تقومان بواجبهما على الوجه الأكمل حتى تظهر دعامة ثالثة لهما تكسبان بظهورها وحلولها قوة ذات حول وطول كما تكسب المواد القابلة للاشتعال زيادة قوة على الاشتعال بحلول الأوكسجين مثلاً ولا يقدر الجسم وحده على تكوين هذه القوة الثالثة حتى مع ضآلة جرمها وصغر الكمية التي يحتاج إليها، ولابد له من الحصول عليها إما من النبات والخضراوات

أو من لحم الحيوانات الآكلة للخضر والعشب وذلك في صورة مادة ملونة صفراء مشعة. فإذا تم الحصول على هذه القوة الثالثة اتحدت هذه الأخيرة مع الأخرى الموجودة في بطن الإنسان، تارة للمساهمة في عملية الاحتراق والتنفس الخلوي وتارة أخرى تتعاونان معاً على تنبيه النخاع الشوكي ودفعه إلى تكوين الكرات الحمراء الوسيطة في تبادل الغاز

وقد قامت الطبيعة بتخزين كميات وفيرة من هذه المادة الحيوية التي بدونها لا تقوى الخلية الحيوانية على القيام بعملها. وكما سبق القول بأن الفيتامين المضاد للبلاجرا يوجد غالباً بصحبة الفيتامين المضاد للبري بري؛ فالمصادر الرئيسية التي يوجدان بها هي: الخميرة، واللحم الطازج، والكبد، والأعضاء الفارزة الأخرى، والحبوب، وفي كثير

من الخضر والفواكه، وفي اللبن وفي زلال البيض. ويكونان في أغلب الأحايين بنسب متساوية، مع ملاحظة أرجحية وجود الفيتامين في الخضر والحبوب ومنتجاتها وأغلبية وجود الفيتامين في المواد اللحمية (اللحوم)؛ ومن الصعب جداً فصل تأثيريهما مع ضرورة وجودهما لحفظ الإنسان، وتبعاً لتلازمهما فقد صح حصرهما تحت التسمية الجامعة فيتامين

(يتبع)

عبد اللطيف حسن الشامي

البريد الأدبي

ديوان الطيران

حضرة الأستاذ الجليل رئيس تحرير مجلة الرسالة الغراء

يقول الشاعر العربي القديم في وصف الناقلة:

فلو إنما تمشي على الأرض أدركت ... ولكنما تهفو بتمثال طائر

وإني لأتمثل بهذا البيت كلما أطلقت صفارة الإنذار بالإسكندرية وشاهدت إحدى المغيرة، وأني لأحس أن البيت كأنما قيل لينشد اليوم في مثل هذه المناسبة؛ ولقد أتمنى أن أطير لألحق بتلك التي لا يمكن إدراكها لأنها لا تمشي على الأرض، فأتمثل بقول الشاعر العربي القديم:

أسرب القطا هل من يعير جناحه ... لعلي إلى من (لا أحب) أطير

أستشهد بهذين البيتين بمناسبة كتاب أقرئه الآن عنوانه (ديوان الطيران) جمعته الكاتبة الإنجليزية ستيللاولف موري ووضع مقدمته السير صمويل هور وزير الطيران البريطاني الآن، والذي كان وزيراً للطيران أيضاً في سنة 1925، وهي السنة التي طبع فيها هذا الديوان

والكتاب يختلف عن غيره من كتب أدب الحرب في الجزء الأول منه على الأقل لأنه مقسم إلى ثلاثة أجزاء أولها لم يوضع في زمن الحرب ولا مناسبة الحرب وإنما جمع من الشعر القديم (ليدل على أن الطيران كان أمنية من أماني النفس الإنسانية أحسها الشعراء قبل الأوان الذي يمكن تحقيقها فأعربوا عنها) وغرض الكاتبة من جمعه التنويه بفضل الفنون التي يرى أصحابها بأعين الخيال ما لا يستطيع الكافة أن يروه إلا بعد تجسيده حين تتحول الفكرة إلى عمل

ويشير السير صمويل هور في المقدمة إلى قصة حبشية قديمة تشبه قصة بساط سليمان ولكن القصة الحبشية تذكر سفينة سليمان الطائرة في الموضع الذي نذكر فيه نحن كلمة بساط، كما يشير إلى أجزاء من شعر هوميروس فيها وصف لسباق في الجو بين مركبات تقصف مثل قصف الرعد. ويشير أيضاً إلى خيول مجنحة ذكرت في أدب أهل الشمال في عصوره الأولى وإلى البساط المسحور في الآداب الشرقية؛ ويعد السير صمويل هور كل ذلك نبوءات بالطيران

وفي هذا الجزء شعر كثير للمتقدمين لم يقصد به أن يكون من شعر الحرب ولكنه صار من شعرها لما أفادته المناسبة معنى جديداً - مثله في ذلك كمثل البيت الذي بدأت به هذه الكلمة

أذكر هذا بمناسبة المقال الممتع الذي دبجته براعة العقاد في صدر العدد الأخير من الرسالة والذي تحدث فيه عن نوعين من شعر الحرب نوع يكتب بعدها ليؤرخها وهو شعر الملاحم، ونوع يكتب في عهدها ليصفها

ولكن هذا النوع الثالث الذي لم يشر إليه العقاد لندرته هو الذي كتب قبل الحروب ولم يقصد به إلى وصف معنى من معانيها ولكنه تضمن من المشاعر أو الأخيلة ما أسفرت الحرب عن خروجه من حيز المعاني التي يراها الشعراء إلى عالم الحس الذي يراه الجميع

ولعلي أستطيع ترجمة بعض هذه المختارات فهي من غير النوع الذي ينشأ مع الحرب ويموت معها

(الإسكندرية)

عبد اللطيف النشار

الحرب والشعر العربي

كتب الكاتب الكبير الأستاذ العقاد بالعدد الماضي من الرسالة في (الحرب والشعر) يقول بأن الحروب والثورات تشحذ ملكات الخطابة ولا تشحذ ملكات الشعر، بل تلجئها أحياناً إلى الصمت والركود، وفند القول بأن الملاحم الكبرى التي نظمت عن حروب الأمم البائدة تستدعي النظم وتلقح فراغ الشعراء إلى أن قال (إلا أن النفوس لا تخلو من الشعر في إبان المعامع والمذابح البشرية، فهي لا تميته ولا تحجر عليه، ولا تمنع الأذهان فينة بعد فينة أن تنصرف إليه، وكل ما هنالك أنها ليست باللقاح الجيد لقرائح الشعراء) وعرض بعض ما قاله شعراء الغرب من الشعر القليل في الحرب الماضية والحرب الحاضرة

ساق الأستاذ الكبير كل ذلك ببيانه الرائع ومنطقه السديد. وكتابة الأستاذ العقاد تبعث على التأمل والنقاش. فلما رأيته يسير في بحثه على ضوء الشعر الغربي والحوادث الغربية فيرى الحروب لا تشحذ ملكة الشعر - جعلت أستضيء بالشعر العربي والحروب العربية

فرأيت الحرب كانت لدى العرب من أفعل مثيرات الشعر كما يقولون: الشعر يوحيه الحب والحرب والموت

لقد هاجت الحروب شعراء العرب فقالوا في التحريض على القتال ووصف المعامع، والصبر والإقدام فيها، والجبن والفرار، والنوح على القتلى، والتغني بالانتصار؛ ووصفوا الخيل والسلاح، وأكثروا في كل ذلك وأتوا بالعجيب

وإننا لو نظرنا فيما بين أيدينا من شعر العصر الجاهلي لوجدنا نحو نصفه مقولاً في الحروب وما يتعلق بها، وكان كثير من الشعراء يستوحون الحرب أكثر ما ينشدون مثل عنترة الفوارس وعمرو بن معد يكرب

وقد أختار أبو تمام مجموعة من شعر العرب فكان نصيب الحروب منها أكثر من الثلث، على تنوع الأغراض الأخرى وسماها (الحماسة) تغليباً للشعر الحماسي

وقد اطرد قول الشعراء في الحروب وفي العصور الإسلامية المختلفة، فكان الشعراء يصفون المعارك الحربية في صدد مديحهم للخلفاء والأمراء، ويشيدون بشجاعتهم وبلائهم فيها. وقد صحب الثورات والانقلابات في الدول الإسلامية قيام كثير من الشعراء مناصرين ومعارضين، وهذا أبن هانئ الأندلسي - مثلاً - يجد متصفح ديوانه أغلب قصائده في مديح الفاطميين ووصف حروبهم وشجاعتهم.

وقد كان من كل ذلك نتاج شعري عظيم تزخر به كتب الأدب العربي

ومن أحسن ما قبل في وصف الحروب قولُ عمرو ابن معد يكرب:

الحرب أول ما تكون فتية ... تسعى بزينتها لكل جهول

حتى إذا حميت وشب ضرامها ... عادت عجوزاً غير ذات حليل

شمطاء جزت رأسها وتنكرت ... مكروهة الشم والتقبيل

ألا ليت شعري، ألم يشعر جبابرة الحرب الحاضرة الذين يحيلون خيرات العالم إلى حمم - أن الحرب قد صارت عجوزاً شمطاء لا تطاق عشرتها. . .؟

وللأستاذ العقاد تحيتي وإكباري

عباس حسان خضر

وفاة الأستاذ فخري أبو السعود

تنعى الرسالة إلى قرائها أديباً من صفوة أدباء الشباب هو الأستاذ فخري أبو السعود الشاعر الكاتب والمترجم المعلم

برم - رحمه الله - بالحياة في ساعة من ساعات الضيق الكاربة فأطلق على رأسه المسدس وهو جالس على كرسيه الطويل في حديقة داره برمل الإسكندرية، وقد كان يعيش وحده في المدة الأخيرة لأن الحرب فصلت بينه وبين زوجته الإنجليزية وولده الوحيد. وقد شاء القدر أن يغرق ولده مع السفينة التي كانت تحمل الأطفال الإنجليز إلى كندا وأن تنقطع عنه أخبار زوجته. ولعل في هذه الحادثة الأليمة تفسيراً للدوافع الخفية التي دفعت هذا الشاب القوي الفتي إلى الانتحار وهو في سن الثلاثين. رحمه الله رحمة واسعة وعوض مصر عن أدبه وشبابه خير العوض.

الديوان التائه بالبريد

أهدى الأستاذ الشاعر على محمود طه نسخة من ديوانه إلى صديقه الأستاذ محمود غنيم فتاهت في البريد وعلم صاحب الديوان بذلك بعث إليه بأخرى فكان مصيرها

كأختها فكتب إليه الأستاذ غنيم يقول:
بَعَثتَ بملاَّحَك التِائه ... وطوَّقْتَ جيدي بإهدائِه
ولكنَّه تَاه في ظلمات ال ... محيطِ وَضَلَّ بأحشائه
ألاَ ما لشعركَ في البحرِ تَاهَ ... وشعرُك أعمقُ من مائه؟
كأني به ضَلَّ بين اللآلي ... فلألاؤها مثلُ لألائه
له الله كيف اهتدى للجميع ... وأخطأ أشوقَ قرائه؟
ترى هل ألحَّ عليهِ الحياءُ ... فأعرضَ خشيةَ إطرائه؟
لعمرك ما تاهَ تِيهَ الظلالِ! ... متى ضَلِّ نجمٌ بعليائه؟
ولكنَّهُ تاهَ تِيهَ الدلالِ ... وقام الجمال بإغرائه.
(مدرسة فؤاد الأول الثانوية)
محمود غنيم
تفسير بيتين
طلب الأديب (ع. ا. سعد) إلى الأستاذ ناجي الطنطاوي أن يفسر له البيتين:
بذكر الله تزداد الذنوب ... وتحتجب البصائر والقلوب)
(وترك الذكر أفضل منه (حالاً) ... فأن الشمس ليس لها غروباً
وقد مضى على طلب الأديب السوداني أسابيع ولم يستجب الأستاذ له، فكان لزاماً عليَّ أن أتقدم لشرح معناهما:
الشاعر يقول: بذكر الله تزداد الذنوب الخ. ويعني بذلك أن ذكر الله يوسع أفق المعرفة ويظهر عظمة الله وسطوته وفضله على أتم ما تكون، فيرى المرء ما كان يعده هيناً حقيراً من الذنوب حدثاً جللاً وأمراً عظيماً. . . وهذا يطرد مع قاعدتهم: حسنات الأبرار سيئات المقربين. . . ثم أراد أن يعرج في الشطر الأخير على الذين يذكرون الله بألسنتهم، تاركين قلوبهم مغلفة وبصائرهم مطموسة. . .
وفي البيت الثاني أراد الشاعر أن يشير إلى صفة معروفة عند الصوفية تسمى (الحال). وقال الدكتور زكي في (التصوف) نقلاً عن (أبن عربي في اصطلاحاته) الحال: هو ما يرد على القلب من غير تعمد ولا اجتلاب اهـ فهو يقول:
إن المرء إذا ترك الذكر المجتلب والحديث المصطنع عن الذات العلية، وأمعن في الهيام الحقيقي، والحب الرباني، كان ذلك خيراً له وأجدى عليه. (فإن الحال إذا تمكنت لم تفترق الروحان ص 232 - التصوف)
ثم جاء الشطر الأخير تذييلاً لما قبله فقال: أن الشمس ليس لها غروب. وكذلك ذات الله تعالى لا تغيب ولا تحتجب ولا تفني ولا تحول، فلماذا إذن نذكرها؟ الواجب علينا أن نعبدها حق العباد، ونقدسها كل التقديس
وأدباء الصوفية هاموا باللغز والرمز. وما قول القائل: (معبودكم تحت قدمي) إلا من نوع (ما في الجبة غير الله). وهم يشيرون بمثل هذه الكلمات إلى مذهبهم في الحلول، وهو مذهب تحدث عنه المبارك في الصفحات 180 إلى الصفحات 210 وهو يتخلص في أن الله روح، والعالم جسمه
السعيد جمعة
تاريخ الإنسانية العاشقة
جاء في مقال الأستاذ على الطنطاوي (القبر التائه) الفقرة (أما تاريخ الإنسانية العاشقة فإنهم (الناس) يزدرونه ويترفعون عن حفظه ويرون من الخطر على الأخلاق أن يدرس في المدارس - وكذلك أرى أنا -)
من ذلك عرفنا أن الأستاذ يتفق رأيه مع الناس في خطر دراسة تاريخ الإنسانية العاشقة على الأخلاق، غير أن الأستاذ عاد وقال: (ولنتخذ منه (الحب) سلاحاً نحارب به الفسوق والدعارة والغلظة والوحشية ولنستكمل به إنسانيتنا)
فالأستاذ بقوله هذا يدعوا إلى إصلاح الأخلاق واستكمال الإنسانية عن طريق الحب.
فكيف يدعونا إلى هذا وقد رأى معنا أن في مجرد دراسة تاريخ الإنسانية العاشقة خطراً على الأخلاق؟ وكيف تكون أخلاقنا لو سلكنا هذا الطريق؟
هذا ما نسأل الأستاذ عنه وأنا في انتظار ما به يجيب وله مني أعظم شكر وأطيب تحية
عبد العظيم حسن زيد
في فلم دنانير

أبتدأ عرض (فلم دنانير) في سينما ستديو مصر، وانتقلت بنا الشاشة البيضاء إلى بغداد وإلى عصر الرشيد، فرأينا بيئة عربية وسمعنا حوراً عربياً، وغنت أم كلثوم (دنانير) في أول الأمر غناءً عربياً، وكان كل ما نرى ونسمع عربياً صريحاً، ثم إذا بنا نسمع دنانير تغني أمام الرشيد ووزيره جعفر باللهجة العامية الخالصة:

هلالك هل لعيننا ... فرحنا له وغنينا

وقلنا السعد حيجينا ... على قدومك يا ليلة العيد

فيتبدد الخيال المحبوك وتصدمنا الحقيقة الواقعة، وهي أن أغاني الرواية الواقعة حوادثها في عصر الرشيد، وذات الحوار العربي - معظمها عامي. . . ولعمري لقد أبدعت أم كلثوم في القصائد العربية التي غنتها أيما إبداع، فما الداعي لأن يتردد هذا الصوت الحنون في جنبات قصر جعفر بعاميتنا الحاضرة، فنسمع أمثال:

بكره سفر ويروق بالنا ... وأفرح بقربك واتهنى

أم كلثوم تغني في عصرنا هذا كلاماً عربياً فصيحاً، أفلا تغني للرشيد غناءً عربياً؟ وكيف يكون حوار القصة بلغة والغناء بلغة أخرى؟

وشيء أخر يجب التنبيه إليه في هذا القلم وهو أن المعروف في العصور الإسلامية - أن الجواري مغنيات وغير مغنيات - كن رقيقات يأسرهن المسلمون في حروبهم مع الأعداء. ولكن دنانير فتاة عربية من قلب البادية وليست أخيذة حرب، فكيف تعيش في قصر جعفر وتعاشره - على حبها - كجارية من جواريه. . .؟ ثم كيف يطلب الرشيد ضمها إلى جواريه وهي تلك العربية الحرة. . .؟

ع. ح. خ

رأيان يتناقضان

حضرة الأستاذ الكبير صاحب الرسالة

تحيتي وإجلالي وبعد فقد قرأت بعدد (الرسالة) 381 مقالاً بعنوان (4500 ثانية في صحبة أم كلثوم) للدكتور زكي مبارك. ولكني عدت من جولتي مع الدكتور أتراوح بين الشك واليقين في روح أم كلثوم الذي وعدنا الدكتور أن يتحفه بصورة وصفية. فهو يقول في افتتاحية مقاله (مع العرفان بأني لم أقل غير الحق في ذلك الروح اللطيف) ثم يقول في ختاميته (فأين من يحول هذه الفتاة إلى روح لطيف يشيع في المجتمع معاني الأنس والانشراح؟)

فكيف يجوز لرجل أن يطلب خفة الروح لروح خفيف؟ اللهم إلا إذا طلب لذلك الروح المزيد من تلك الخفة.

يا دكتور هل أخذتك فتنة من إحدى (ذوات الخد الأسيل والطرف الغضيض) فاضطربت في مخيلتك الأفكار؟ ورحت تأخذ وتعطي من صفاتها؟

أم كانت خفيفة الروح حين أرضتك، عديمة الخفة حين أغضبتك؟

لعل القلم لم يند في هذه المرة، ولعل مدير المطبعة لم يصل مقالاً بمقال، ولعلني لا أهاجم من دكتورنا بامتحان ذي عشرة أسئلة. . .

وإليك تحية أحد أبناء الجيل الجديد.

(المحلة الكبرى)

حلمي إبراهيم النبوي

القصص

التطوع للعذاب

للأستاذ نجيب محفوظ

انتهى الأستاذ حسان جلال - وهو محام تحت التمرين - من كتابة المذكرة القضائية - التي شرع ينشئها منذ الصباح الباكر - في تمام الساعة الثانية عشر وكان الجهد قد نال منه كل منال فأستند إلى ظهر كرسيه في إعياء ونصب. ومد يده إلى فنجال قهوة وأرتشفه وهو ينظر إلى الأمام بعينيه يوشك أن يلتقي جفناهما. ودخل الخادم عند ذاك فأقبل على سيده وبصره بخطاب كان تركه على المكتب قبل ساعة وشاب مستغرق في عمله. فألقى عليه نظرة فاترة، وتناوله بغير اكتراث، ولكنه حين وقع بصره على الخط المكتوب به العنوان حدثت في وجدانه صدمه عنيفة مباغتة أرهفت حواسه وأثارت انفعاله وأقلقت باله، فالتمعت عيناه بنور خاطف وبدأ شخصاً جديداً. عرف الخط من أول نظرة فتأمله بدهشة وكأنما ينظر إلى وجه كاتبه في ضوء النهار، فلم

يرى خطاً ولكن رأى وجهاً مستديراً كالبدر، خمري اللون، تدل قسماته الدقيقة على الأناقة والملاحة. وغشيه الانفعال ساعة لا يدري من أمره شيئاً. ثم جذبه الخطاب من العالم الداخلي الغارق فيه، ولكنه لم يطع لأول وهلة الدواعي الدفينة التي تهتف به أن يفض الغلاف، وأبقاه على يديه وجعل يديم النظر إليه في شغف ولذة وارتباك وخوف. وقد فرح به وحزن ورضي عنه وغضب. وتساءل في حيرة أيصح أن يطلع على ما فيه أم الأولى له أن يطرحه في سلة المهملات؟. . . على أنه كان يتساءل ويداه تفضان الغلاف بسرعة وتبسطان الخطاب. وما لبث أن قرأ مطلع الكتاب، وهو (عزيزي حسان) فلم يستطع أن يستمر في القراءة واستولت عليه خواطر وشجون، وأحس بخيبة لم يهون من شأنها أنه كان يتوقعها. كانت إذا كتبت إليه في ما مضى تبدأ خطابها فتقول: (حبيبي حسان) أما اليوم فأنها تتجنب هذه الكلمة الساحرة، ولعله دار بخاطرها ما يدور بخاطره الآن حين همت بالكتابة إليه فليس إبدال حبيبي بعزيزي بالشيء الهين، وإنما هو حدث من الأحداث وفجيعة من الفواجع. رباه. . . لماذا تراسله وتجذب أفكاره إلى واديها فتنكأ جرحاً في فؤاده أوشك أن يلتئم وتثير بركاناً كاد يخمد بين جوانحه؟ وتنهد من أعماق صدره وكر بعينيه الحالمتين إلى صفحة الخطاب، وألقى عليها
نظرة عامة، فأدرك إيجازها (التلغرافي) وأحس بذلك بكآبة خفية وانقباض صدر، وكأنه كان يرجو لو أنها أطالت وأسهبت. ثم قرأ ما يلي: (راودت نفسي مراراً على الكتابة إليك فكانت تتمتع وتتأبى حتى كدت أسلم لليأس بعد أن تقادم الفراق، وبعد أن نالني من تغاضبك ما نالني، لولا سؤال حيرني إدراكه فرأيت أن ألقيه عليك عسى أن يكون لديك الجواب عليه. أني أسأل لماذا هذا الجفاء؟ ولماذا هذا الهجران؟ هل دعت إليهما دواع معقولة؟. . . فإني أخشى أن يظل كلانا يتعذب لغير سبب. . .)
ورفع رأسه عن الخطاب وقد ثقل تنفسه ويبس حلقه. وحملق إلى لا شيء بعينين مظلمتين. يا له من سؤال! أليس يحق لها أن تسأل كما يحق له أن يسأل: لماذا هذا الجفاء؟. . . لماذا يتباعدان؟ لماذا يعانيان الآم والعذاب في صمت وعناد قرابة عام طويل وثقيل؟ آواه! كم كان يحبها وكم كانت تحبه! وأن آي ذاك الحب لتبدو لعينيه خلل الذكريات كما تبدو المشاهد الغارقة في الظلماء على ضوء المغنيسيوم فأنه ليذكر إخلاصها ومودتها وشدة وفائها، وكأنه كان يرى تألق عينيها حين تراه، أو يسمع تنهدها لدى قربه وعطفه. كانا يعيشان في غمرة الحب ذاهلين عن كل شيء سوى أمالهما الناظرة، ومع ذلك قضى أن يتباعدا ويتفارقا ويذوقا مرارة الهجران والألم الجفاء؛ وكان هو البادئ ولعله كان الظالم. وعلى أي حال فقد استسلم للأوهام فلم تجد هي سبيلاً إلا أن تلوذ بالصمت والصبر. لماذا هذا كله؟. . . على أنه كان في تساؤله متجاهلاً متبالهاً. وكان بذلك عليماً فذكريات الأمس من القوة والعمق بحيث لا يمحوها اليوم ولا الغد. وقد دعت أشجانه إلى ذاكرته صورة أخرى عزيزة حبيبة طالما سكنت قلبه محوطة بالعطف والإجلال حتى أنتزعها القبر بقساوة ولم يترك له منها إلا طيفاً رقيقاً يجفل من ضوء النهار ومشاغل الدنيا ويتسلل في رفق إلى الذاكرة في فترات الأحلام والحنين. جاءته بوجهها الذابل المكال بالشيب ونظرة عينيها الحنونة، فتنهد حزيناً كئيباً وتمتم قائلاً: (أماه). . . نعم هي أمه العزيزة التي قضى حبه إياها على سعادته وآماله، وفرق بينه وبين حبيبته وترك كلاً لوحدته وآلامه. . .
وارتدت عيناه إلى صفحة الخطاب تقلقان بين أسطرها التي اقتضبها الحياء؛ واختزلها الحذر والكبرياء، فلم يجد سوى هذه الكلمات: (سأنتظرك أصيل اليوم في مكاننا المعهود بالحديقة الأندلسية؛ فإن أنت أتيت لكي نصفي الحساب - أي حساب يا ترى؟ - رحبت
(بك؛ وإن أنت أصررت على الجفاء فسيكون هذا آخر ما بيننا إلى الأبد
ويلي ذلك الإمضاء المحبوب: حسان. ج. وكان أول ما فاه به بعد تلاوة هذه الكلمات أن قال باضطراب: (أصيل اليوم في مكاننا المعهود) وأحس بدنو الموعد فاهتاج شعوره واضطرم صدره، ثم أستقر بصره على هذه العبارة: (فسيكون هذا آخر ما بيننا إلى الأبد. فجفل منها وذعر، وأنقبض صدره؛ ألم يجعل فراق سنة هذه العبارة حقيقة واقعة!؟ أولم يكن يظن أنه نفض منها يديه إلى الأبد!؟. . . بلى، ولكن ذاك الخطاب رده إلى ماضيه بسرعة فانبعثت فيه حرارة كما تنبعث فيه حرارة كما تنبعث الكهرباء

في المصباح بعد سريان التيار إليه. وضاق عند ذاك بمقعده بالمكان، فاعتزم مغادرة المكتب الذي يتمرن فيه وطوى الخطاب وارتدى طربوشه ومشى إلى الخارج. وفي الطريق أرتد خياله إلى الماضي يتعقب حوادث الأمس المنطوي. . . لا يدري بالضبط متى تعرف بإحسان وإن كان يشعر أنها تملأ ماضيه جميعاً، ذلك أنه لم يعتد مطلقاً عادة كتابة المذكرات، فسجلت ذاكرته الحادثات بنسبة تأثرها بها لا على حقيقة وقوعها، ولكنه يذكر بغير ريب أنه في صيف العام الماضي سكنت أسرة إحسان في عمارة رقم 10 بشارع البستان بالسكاكيني، وأنه تعرف بالفتاة قبل أن يمضي شهر على نزولها بالحي الجديد. وقد جعلت المقادير حجرة نومها تجاه حجرة نومه، فتهيأت لكل منهما الفرص لتذوق صاحبه وتقدير مزاياه. وجذبته بادئ الأمر ملاحتها وأناقة قسماتها، فانجذب إليها ينشد الحب واللهو والعبث، وما يدري إلا وقد بهره ذكاؤها ورقة روحها وأنوثتها الناضجة، فأحبها الحب الصادق، وتعاهدا مخلصين أن يكون لها وأن تكون له ما أمتد بهما العمر. وشاركا المحبين حياتهم الهنيئة التي تطرد في هدوء بين المناجاة واللقاءات والوعود والآمال كأنها جدول صاف يشق حقلاً من بدائع الورود والرياحين إلى أن كان يوم عادت أمه فيه من إحدى الزيارات تكيل الذم لفتاة التقت بها لأول مرة في بيت جارتها. فدفعه حب الاستطلاع إلى السؤال والتحري فإذا بالفتاة فتاته دون غيرها، وإذا بأسباب غضب أمه عليها أنه دار حديث بين السيدات عن أعمارهن. ولما سئلت أمه عن سنها قالت: (كنت أبنه عشرين أيام الحرب) وكانت تعني الحرب الكبرى ولكن إحسان تساءلت بخبث تعقب على قول السيدة - وهي تجهل أنها أم حبيبها -: (حرب عرابي يا تيزة) وضحك السيدات طويلاً وضحكت إحسان كذلك ولم تكن

قالت ما قالت إلا بدافع الميل إلى الفكاهة، ولكن أمه لم تحتمل هذر الفتاة، وأحست بطعنة أليمة نغصت عليها صفوها

واستمع حسان إلى قصة والدته باستياء وغيظ وأسف وكان ينوى قبيل ذلك أن يعلن خطبته فاضطر إلى التريث مغلوباً على أمره، وعهد بإسكات ذاك الغضب إلى الزمن، ولما ظن أن ما كان من الأمر قد نسي وعفا أثره تقدم إلى والدته يحادثها في أعز أماني قلبه، ولكنه وجد منها ازوراراً وإباء، وكبر عليها جداً أن تستأثر بابنتها غداً التي أهانتها بالأمس، فرفضت الإصغاء إليه وأصرت على أن مثل تلك الفتاة غير جديرة به ولا كفء له وذهبت كل محاولته وتوسلاته لاسترضائها أدراج الرياح، وعجب حسان لغضب أمه أكان حقاً لتلك الدعابة المرة، أم لإشفاقها من احتمال تحول قلب أبنها الوحيد عنها إلى امرأة أخرى؟ أم كان لهذين معاً؟. . . ومهما يكن من الأمر فقد أسقط في يده وتوزع قلبه ألماً وحزناً بين أمه وحبيبته. وكابد فترة من الحياة مليئة بالقلق والعذاب، موزعة بين الألم والضجر واليأس والخنق. ثم أعلن ما كان سراً وافتضح ما كان خافياً، فصار عداوة صريحة بين أمه وخطيبته تحدثت بها ألسنة الحي جميعا. ً وأنها لعلى شدتها وقوتها إذ أحست بالمرض فجأة فلزمت الفراش ثلاثة أيام ثم انتقلت إلى جوار ربها في اليوم الرابع، ووقع عليه الخبر بعنف وشدة؛ ففزع وهلع وتقطع قلبه ألماً. كان يحب أمه حباً كبيراً؛ وقد هاج الفراق الأبدي الحب المتغلغل فاختنق بالعبرات وأظلمت الدنيا في عينيه. . .

ووسوس له قلبه بخاطر زاد من ألمه، قال عسى أن تفرح إحسان لموت أمه وقد كانت تعدها عثرة في سبيل سعادتها؛ فما من شك في أنها سعيدة مغتبطة وإن تظاهرت بمشاركته حزنه. وألمه هذا الخاطر ألماً عميقاً وزاد من وقعه أن سمع من حوله يتهامسون به فانطوى على الحزن والغضب ورأى قبر أمه العزيزة يقوم حائلاً منيعاً بينه وبين الفتاة. . .

فهجرها فجأة وامتنع عن الرد على رسائلها وانغمس في الكآبة والأحزان ومكابدة الآلام والأشواق زائغ البصر بين ذكرى أمه وذكرى سعادته حتى تعود على الألم وألف التصبر والتجلد وظن أنه يتناسى الماضي بهمومه وآلامه أو أنه نساه بالفعل

ازدحمت هذه الذكريات برأسه في طريق العودة إلى البيت ولكنها لم تصحب بعواطف في مثل مرارتها وحزنها إذ كانت الذكريات تمر برأسه أخيلة مجردة عن عواطفها واحساساتها.

أما وجدانه فكان كله مستغرقاً في أثر الخطاب والموعد. لذلك انصرفت نفسه عن الغذاء، وعز النوم على جفنيه وحامت أفكاره حول فتاته فتمثلها أمامه بقدها الممشوق ووجهها البدري وكأنه كان يسمع رنة صوتها، ويشم رائحة (سوار دي باري) التي تتعطر بها، فانفعل انفعالاً شديداً نبا به عن الطمأنينة. ولم يكن قر رأيه على شيء ولا بت في المسألة برأي، بل كان يحاذر من مواجهتها مواجهة حتى لا يقطع فيها برأي ينغص عليه أحلامه أو يميل بها إلى حل يثير كوامن أحزانه. حتى إذا وافى الأصيل وجد نفسه يغادر البيت ويقصد إلى قصر النيل مستسلماً لتيار عنيف لا يتنكب عن طريقه ويأبى أن يقر بالاستسلام. ولكنه ألفى نفسه أمام ما يحاذره حين عبر الجسر، وطالعته الحديقة الأندلسية بخمائلها المعشوشبة ومدرجاتها السندسية، هنالك أحجم عن التقدم وانعطف إلى يمينه يساير النيل مضطرباً حتى حجبه سورها الحجري ثم أستند إليه متريثاً وقد لفته الحيرة والاضطراب ولبث في جمود تام، وكانت أفكاره تنجذب بشدة نحو تلك التي لا يفصلها عنه سوى السور الحجري. وسرى في ملمسه من الحجر البارد تيار حار متدفق، فخفق قلبه بعنف وكاد يتحول إلى الباب مندفعاً وفي تلك اللحظة الفاصلة أرتد خياله - فجأة - إلى بعض حقائق الماضي الأليمة، فبردت حماسته وهبطت حرارته وانتكس انتكاساً غريباً أحس من جرائه بخجل واستحياء وألم فجعل يتساءل مغيظاً محنقاً: كيف حملتني قدماي إلى هنا! ولم يلبث أن احتدم بقلبه الغضب وخال أن إقدامه على الذهاب إلى هناك عيب حقيق بأن يجعله ضحكة للضاحكين والشامتين وهز منكبيه باستهانة وانحدر في الطريق الضيق مبتعداً عن الحديقة، ولم يعتوره التردد سوى مرة واحدة وقف عندها قليلاً والتفت وراءه ثم أستأنف المسير بعزم وبأس، ولم يكن يملأ فراغ خياله حينذاك سوى صورة أمه. . . وهكذا خان عهد سعادته ليكون وفياً لذكرى أمه، وكثيرون هم الذين يعانون الآلام والمتاعب في سبيل ما يتمثل في نفوسهم من الأوهام

نجيب محفوظ

العدد 383 - بتاريخ: 04 - 11 - 1940

السنويات الأدبية

للأستاذ عباس محمود العقاد

كتب إلي أكثر من مستفهم يسألون عن (السنوية التاجورية) التي أشرت إليها في تحيتي إلى تاجور إليها في تحيتي إلى تاجور من مقال بالرسالة قلت فيه: (خطر لنا أن نرجع إلى السنوية التاجورية لنستخرج الفأل مما كتب فيها من أقوال تاجور بازاء اليوم التاسع والعشرين من شهر سبتمبر، ولكل يوم من أيام هذه السنوية كلمة أو بيت أو خاطرة من مأثورات الشاعر العظيم. . .)

وهم يطالبون بياناً عن هذه السنوية، هل هي من صنع الشاعر؟ وهل للشعراء والأدباء المشهورين غير تاجور سنويات على هذه الوتيرة؟ وهل تتجدد في كل سنة أو تصدر في سنة واحدة، ثم تتكرر على نمط واحد؟ إلى أشباه ذلك من أسئلة وتعقيبات

وسنويات الأدباء والشعراء هي نوع من السنويات الكثيرة التي أفتن فيها الطابعون والناشرون في الأمم الغربية

فهناك سنويات لمحبي الأزهار ينشرونها للفن والجمال، أو ينشرونها للعلم والخبرة العملية. فما كان منها للفن والجمال زخرفوه بنقوش الأزهار الملونة ونثروا خلالها شذرات من أقوال الأدباء والشعراء في الرياض والرياحين، وجعلوا بعض حروفها البارزة على مثال الورود والأوراق، وجملوها بما استطاعوا من جمال الشعر والتصوير. وما كان منها للعلم والخبرة العملية رتبوا فيه مواسم الغرس والنقل وبثوا فيه الوصايا والنصائح عن السقاية والتظليل أو التعريض للنور مما له نفع في إنماء النبات وإنماء النبات وإنماء الزهر على الخصوص

وهناك سنويات لمحبي الكتب يذكرون فيها المعلومات المتفرقة عن المكتبات التاريخية والكتب النادرة ونشأة الكتاب في أطواره المتعاقبة، وقوانين الطبع والنشر وحقوق المؤلفين والمترجمين وما إلى ذلك من الحقائق والأنباء التي يعنى بها الكتاب والقراء، وقد يصدرون السنوية بمقدمة نفيسة تختلف كما تختلف المعلومات الأخرى عاماً بعد عام

وهكذا السنويات التي ينشرونها لمحبي العصافير أو محبي الرحلات أو محبي الصيد أو

محبي الرياضة وما إلى ذلك من ضروب اللهو والمتع النفسية والذوقية. فمن جمعها عنده
فليس من الضروري أن يملأ فراغها ويشتغل بما يشتغل به طلابها وهواتها، بل لعله يجمع منها مكتبة للمعرفة: كل سنوية منها بكتاب جامع لأشتات الطوائف والمقتبسات والأخبار
أما سنويات الأدباء والشعراء فهي المفكرات السنوية المألوفة التي تخصص منها صفحة أو أقل من صفحة لكل يوم من أيام العام، ولكنهم يجعلون للأديب أو الشاعر المشهور مفكرة باسمه يصدرونها بترجمته وفصل قيم لكاتب من كبار الكتاب في نقده والتعريف بخصائصه ومزايا شعره ونثره، ويقرنون كل صفحة ليوم من أيام السنة بصفحة من مختاراته تناسب الموعد أو تمت إليه، بسبب، وربما اشتملت الصفحة على فقرة واحدة أو بيت واحد، وربما اشتملت على أكثر من ذاك، حسب التفاوت في الحجم والموضوع
وقلما تتغير هذه المفكرات سنة بعد سنة، ولكن الطابعين المتعددين قد يصدرون مفكرات متعددة لشاعر واحد، وقد تكون المفكرة المفردة أو المفكرات المتعددة أوفي من أحسن المختارات التي تختار لذلك الشاعر، وأحظى بالقراءة والنظر من الكتب التي توضع على رفوفها ولا تحمل بالليل والنهار حيثما مضى صاحبها وكلما احتاج إلى النظر في مفكراته اليومية
وهنا معرض للعجب لا يفرغ منه المتعجب!
ففي الغرب حيث يستغني القراء عن التشويق والإغراء يوجد التشويق على أبرعه والإغراء على أشده
وفي الشرق حيث يحتاجون إلى جميع المشوقات والمغريات لا يوجد من يُغرى ولا من يُغرى، ولا يزالون على ما بهم من الجهل كأنهم أزهد الناس في الدرس والاطلاع
وليس هذا وحده بمعرض العجب في شؤون الكتابة والقراءة عندهم وعندنا
ففي الغرب حيث يظفر الكاتب بأحسن الجزاء من قرائه يعطيهم ما يعطي من ثمراته، ولا ترهقه الشروط، ولا تثقل عليه القيود، ولا يتمحلون له أسباب العيب والتجني والانتقاص. فليس في إنجلترا من يشترط على برنارد شو مثلاً أن يحلق لحيته، أو يقلع بدعة النباتية في طعامه، أو يدين في السياسة والاجتماع بمثل ما يدين به، أو ينهج في معيشته أو اعتقاده نهجاً غير الذي ارتضاه لنفسه
وفي الشرق حيث لا يغني الجزاء، ولو وفر القراء، ترى العالم القارئ أو جمهرة القراء كأنهم الطفل الممعود، لا أكثر من شروطه، ولا أقل من زاده، ولا أعجب من مطالبه ومقترحاته: تعطيه الحلوى فيطلب الفاكهة، وتعطيه الفاكهة فيطلب الخبز واللحم، وتعطيه الخبز واللحم فيطلب المطبوخ إذا أعطيته الشواء، ويطلب الشواء إذا أعطيته المطبوخ، ويتحكم وهو في مطعم الصدقة، أو شبيه بمطعم الصدقة!! ثم لا هو بالآكل، ولا هو بالشاري، ولا هو بالملتمس العلاج لما عنده من ضعف القابلية قبل أن يلتمس العلاج للطاهي وأصناف الطعام
واسمع غرائب ما يطرق الآذان ويصك الأذهان: فهذا الكاتب لماذا لا يكتب في القصة، ولماذا لا يكتب في الدين، ولماذا لا يكتب في الفكاهة، ولماذا لا يكتب في هذه الصحيفة أو تلك المجلة؟. . . وهذا الكاتب لماذا لا يطلق لحيته، أو لماذا لا يقصها؟. . . وهذا الكاتب لماذا لا يعجب بفلان ولا يقلع عن الإعجاب بفلان؟ وهذا الكاتب لماذا لا يتوجه إلى جمهرة القراء قارئاً قارئاً ليعفر وجهه بتراب الاعتذار والاستغفار، ويعترف بما يسومونه من اعتراف أو ينكر ما يسومونه من إنكار؟
وخذها قاعدة لا ريب فيها أن الشروط عندنا تزيد بمقدار ما يقل الجزاء، وأن الجزاء عندهم يزيد بمقدار ما تقل الشروط
أليس هذا بعجيب؟
بلى. ولكنه عجب في الظاهر دون الحقيقة، وما من عجب صحيح في كثرة الطهاة حيث يكثر الآكلون، ولا من عجب صحيح في كثرة الافتنان والتسابق إلى الإتقان حيث يكثر الطهاة في مكان
فالغربيون يفتنون في الطبع والنشر والتشويق والترغيب لأن طهاة الأدب كثيرون، وآكلي الأدب كثيرون

وكذلك تقل الشروط عندهم لأن الطعام مطلوب هنا إن لم يطلب هناك، وسائغ في بعض الأذواق إن لم يسغ في غيرها من الأذواق
أما الطفل الممعود فكيف يعيش الطاهي إلى جانبه؟ وكيف يقلع عن الاقتراح والاشتراط وهو لا يأكل ولا يشتهي؟
لو أنه أكل لما اشترط واقترح
ثم إنه ليجد شروطه كاملة وافية دون أن يطلبها ويلح في تقاضيها، لأن الطهاة يكثرون حيث يكثر الآكلون، ثم يتنافس الطهاة فيجيدون ويبدعون.
لقد أخذنا المفكرات السنوية من الطباعة الغربية، ولكننا لم نأخذ بعد افتنانهم في أوضاعها ولا في موضوعاتها. فقلما تختلف مفكراتنا السنوية بغير الحجم وصنف الورق ولون الغلاف، وقد يزيدون عليها بعض الحكم والأمثال على غير قصد مرسوم أو تفرقة منوعة
وإني لأكتب هذا المقال وأود أن يصل إلى طائفة من الناشرين والطابعين فيتخذوا من المفكرات مروجاً للأدب ومن الأدب مروجاً للمفكرات، ويخرجوا لنا مفكرة للمتنبي ومفكرة للبحتري ومفكرة لابن الرومي، ومفكرات للجاحظ وابن المقفع ومحمد عبده وقاسم أمين وسعد زغلول وسائر العظماء من الكتاب والمصلحين والقادة في عصورنا الغابرة والحاضرة. وإذا خيفت قلة الإقبال على مفكرة مقصورة على أديب واحد فلتطبع منها طبعات متفرقة لأدباء متعددين. فيجتمع من المفكرة كلها ديوان منتخب لأدباء العربية، ويقتني القارئ الواحد أكثر من مفكرة واحدة إذا حسن الاختيار والتنويع ومهما يكن من الإعراض عن القراءة فلا أخال أن الكتيب الصغير الذي يباع بدريهمات ويحتوي ثلاثمائة وستين معنى للمتنبي أو المعري يعدم مئات القراء إذا استكثرنا عليه الألوف، وقد يقبل عليه من لا ينشط لقراءة الدواوين والكتب، ولكنه يتسلى بالبيت بعد البيت والمعنى بعد المعنى كلما قلب صفحة لإثبات موعد أو تقييد حساب
ونعود إلى تاجور الذي بدأناه بالتحية وذكرنا من أجله هذه المفكرات السنوية
فنحمد الله أنه بات بمنجاة من الخطر وأن النبأ الذي انتظرناه مبشراً بسلامته قد سرى بين أرجاء العالم في هذا العهد الذي ندرت فيه أنباء السلامة، فكان له جمال الندرة المموقة وغبطة الترفيه المنشود في أوانه
ونفتح السنوية التاجورية على شهر أكتوبر فنقرأ له تحية الخريف التي يقول فيها:
(المساء يومئ. وبودي أن أتبع السفر الذين أقلعوا في الزورق الأخير لعبور الظلام: منهم من هو راجع إلى مقره، ومنهم من يذهب إلى الشاطئ البعيد، وكلهم قد اجترأ على الرحيل، وأنا على المورد وحدي قد تركت مقري وأخطأت الزورق وذهب مني الصيف وليس لي في الشتاء حصاد. وهأنذا أنتظر الحب الذي يجمع العثرات والخيبات ليبذرها دموعاً في
(الظلام، عسى أن تنبت الثمر حين يطلع النهار الجديد
ثم نقرأ له في الصفحة التالية: (تقبَّلني يا رب. . . تقبلني في هذه السويعة، واغمر بالنسيان تلك الأيام اليتيمة التي انقضت في البعد عنك. وانشر هذه السويعة موسعة فسيحة على جحرك وتحت ضيائك، فكم ذا أقتفي الأصوات التي تجذبني إليها ثم لا تهديني إلى مكان. فاليوم هبني يا رب أن أجلس في سلام حيث أصغى إلى كلماتك من خلال هذه السكينة)
ذلك وحي الشاعر الذي له رسالة من الغيب وإلى الغيب في صفحة كل يوم
عباس محمود العقاد
. . .إلى
للدكتور زكي مبارك
مولاتي
إليك أقدم نجوى القلب وحنين الروح، ثم أعتذر عنك إن سمحت، ففي رسالتك الكريمة ألفاظ تحتاج إلى اعتذار، فليس من الصحيح أني أصانع فلاناً وأتوسل إلى فلان، كما تتوهمين، وإنما أنا رجل مر العداوة حلو الوداد، ومن كان كذلك فهو خليق بأن يوغل في مخاشنة أعدائه حتى يوصم بالإفراط في القسوة والعنف، وأن يكثر من محاسنه أصدقائه حتى يتهم بالإسراف في الرفق واللين
ومع أني أنزه نفسي عن اختلاف المعايب لأعدائي فأنا أترفق في ابتداع المحاسن

لأصدقائي، ولست من الذين يستبيحون إيذاء أصدقائهم باسم الحرص على منفعة المجتمع أو الصوالح القومية لأن الصداقة عندي مبدأ من المبادئ ورأي من الآراء وعقيدة من العقائد، وأنا أعد الاستهانة بحقوق الأصدقاء جريمة روحية تعرض القلب لعقاب الله ذي العزة والجبروت

أنا يا مولاتي أومن بأني مسئول أمام الله عن واجب التلطف مع أصدقائي، بل أنا مسئول عن وجوب الاعتقاد بأنهم منزهون عن المآثم والعيوب، فاحترسي من اتهامي بالتقرب والتزلف، فلله غَضَبات تنصبُّ على رءوس من يتهمون الأبرياء، حماك الله من التعرض لغضبات السماء!

وقد يقع أن أصوب سنان القلم إلى زميل أو صديق، ثم أظل مع ذلك سليم القلب، أمين الروح، لأن لي رأياً في البر بأصدقائي، وذلك الرأي يحتم الاهتمام بآثارهم الأدبية والعقلية من حين إلى حين، لأني أومن بأن النقد البريء من الغرض صورة جميلة من صور العطف والرفق والإعزاز، وأصدقائي يرون في هذا المسلك ما أراه، إلا أن ينحرفوا عن القصد فيروه من مذاهب الاستطالة والكبرياء، كالذي وقع من فلان وفلان وفلان. على أيامي في صحبتهم ومودتهم سلام الروح وتحية الفؤاد!

أما بعد فما هذا الذي تقولين؟

كنت مريضة منذ شهور طوال؟؟؟

لله الحمد وعليه الثناء، فما كان المرض أهول ما أخاف، وإنما كنت أخاف عليك بغي وعدوان العقوق!

كان قلبي في تلك الشهور يهتف بالشوق إلى الروح اللطيف الذي كان يتصدق على بالسؤال من وقت إلى وقت، ثم انقطع عني مع قدوم الصيف، كأن لم يكف ما حل بنا من المخاوف مع قدوم الصيف! كان قلبي يقول ويقول ويقول، لقد قال كل شيء، ولم يقل إنك مريضة، ولو أنه قال لقدمته فداء لأظرف فتاة فهمت أسرار قلبي وسرائر روحي

كنت يا مولاتي أرجو دائماً أن أصل من الهتاف بالحب إلى محصول نفيس من فهم ما في الوجود من تيارات خفية تصنع ما تصنع في وصل القلوب بالقلوب، والأرواح بالأرواح، بلا جهد ولا مشقة ولا عناء

فهل أستطيع القول بأن قلبك الغالي كان من نفائس ذلك المحصول؟

وأعيذك أن تظني - وبعض الظن حق - أني أستهدي لمحة جديدة من لمحات العطف، فأنا راض بأن تظلي محجوبة عني، مادام لك هوى في ذلك الحجاب، فهو على كل حال فرصة ثمينة لمن يزدهيها أن تقول: أتحداك أن تعرف من هي (ليلى من الليالي) وأنا يا مولاتي أعرف، فلقلبي أرصاد وعيون يطلع بها على الذخائر التي تفرد بها وطني، الوطن العظيم الذي ينجب عرائس لها أرواح في مثل روحك العذب الجميل

وهل خفي عني منك شيء؟

في كل لفظة من رسائلك الكريمة عروس تتخطر وتميس في دلال وكبرياء، وفي كل نبرة من صوتك الرنان - ولم أسمعه إلا عن طريق التليفون - في كل نبرة من صوتك لحن ينقل قلبي برفق ولطف إلى أجواز الخلود

فإن كنت فتاة حقيقية، فأنت البشير بأمل معسول، وإن كنت فتاة خيالية، فأنت المطلع الجميل لأنشودة رائعة من وحي الخيال. . .

ولي غرض من هذا التشكيك، فما أحب أن تكوني أنت أنت، لئلا يعرف السفهاء باب التطاول على نجم السماء

إن الغرض الأصيل من نجوانا هو خلق روح جديد في الأدب الحديث، ولابد من أن نقول مثل هذا القول دفعاً لمكايد الرقباء، وهل يكون السياسيون أعقل منا وهم يستبيحون تسمية

الأشياء بغير أسمائها لغرض مدفون؟

المهم هو أن تعرفي بالرغم من هذا الرياء المصنوع أن قلبي أبر وأعطف من جميع القلوب، ألم أقل ألف مرة إني أول من تقرب إلى الله بالرياء؟

وأنا مع ذلك أشهد بأني لم اكن أصدق أن في مصر فتاة ترجع إلى مقالات صدها عنها المرض في شهور طوال، ثم تفكر في تقسيمها إلى لوحات فنية مختلفة الظلال والألوان

ولكن ما السبب في أن أطرب لرأيك الجميل كل هذا الطرب؟
أيرجع السبب إلى أنه يزدهيني أن أشعر بأن هنالك قلوباً يسرها أن أكون في دنيا الصبابة آمر يطاع؟
أم يرجع السبب إلى أنها أول مرة أشعر فيها مرة أشعر فيها بقسوة الحرمان من نشوة الافتضاح؟
!!لو تعرفين أيتها الروح بعض ما أعرف لسرك أن أكون في الحب من أبطال الرياء
ولو فهمت بعض الفهم لما آذاك أن أكون فيما تحدثت عن زيارة المنصورة من المرائين
أسمعي، أيتها الروح الطروب
قيل وقيل: إن طيارات الأعداء قد تنتفع من النور الضئيل إذا أضيف بعضه إلى بعض، لأنه عندئذ يكون هالة نورانية تدل على المستور من المنازل والقصور
وأنا كذلك أبخل بالكتابة عن الحب في جميع الأحاديث، كما تقترحين، لأن ذلك لو وقع سينتفع به الحاقدون من أعداء الأدب الرفيع
ومن هذا الحديث تفهمين أني أعرف هويتك الصحيحة، فأنت طفلة بالتأكيد، لأنك تجهلين عواقب الافتضاح
أنا افتضحت وسلمت - إن كنت سلمت - لأني أقمت أدبي على أصول من الرمز والإيماء، فما هواك في أن أدل عليك بلا ترفق ولا استبقاء؟؟
ومن يسترنا إذا افتضحنا، يا ظلوم؟
ومن يستر الشمس إذا أطلت بوجهها على الوجود؟
الحب هو الشمس، والرياء هو السحاب، وللشمس قدرة سحارة على تمزيق أردية السحاب، فإن زعمت أنك مستورة بسحاب من فوقه ظلمات، فاعرفي يا شقية أن ظلام الحب يعقبه
صباح، وسنلتقي ولو بعد حين، وسنذوق أذى الناس ولو بعد أزمان!! نحن أيتها الروح غرباء في هذا الوجود، وآية ذلك أني لا أستطيع التسليم عليك في صبيحة العيد، لأني - وفقاً للعرف - لا أمت إليك بغير الوشيجة الروحية، وهي وشيجة مجحودة الأصول والفروع عند أكثر الناس
فنم يعزي المحروم من طلعتك البهية وصوتك الرخيم في صبيحة العيد؟
ومن يواسي الهائم الحيران وهو من الهُيام والحيرة في شقاء وعناء؟
أمَا والله لو تَجدين وجدي ... جمحتِ إليَّ خالعةَ العذار
وهل كانت الحياة إلا في الشعور بألا تعيش روح إلا مجذوبة إلى روح؟
ما هذا الذي أقول؟ وما الذي أجترح بهذا القول؟
أمن الصحيح أننا لا نجد السعادة الحق إلا إذا تلاقينا في صبيحة العيد وجهاً لوجه، وتصافحنا يداً بيد، وأذنا الناس بما نحن عليه من وداد وصفاء؟
أشعر يا مولاتي بأن موازين الأحكام الروحية قد اختلت بعض الاختلال، وإلا فما بالنا لا نصدق بالتصاق التام إلا إذا تصافحت الأيدي وتلاقت الوجوه؟
وماذا يصنع مثلى إذا أبتلى بهوى فتاة روحانية ترى الأنس في أن تلقاني في مقالاتي ومؤلفاتي، وأن ألقاها فيما تكتب إلي من رسائل معطرة بعبير الرفق والحنان؟
إننا غلبنا أسلافنا بكثرة الإنتاج الأدبي، ولكننا لم نصل بعدُ إلى مسابقتهم في ميدان الخلود، لأن أدبهم على قلته مطبوع بطابع الصدق؛ فقد كان فيهم من يقضي العمر وهو مجذوب إلى صورة لا تطمع في رؤيتها العيون؛ أما نحن فنيأس وننصرف لأول بادرة من بوادر المنع، ويكون من أثر ذلك أن تحرم أكبادنا قسوة اللوعة والاحتراق، وهي قسوة لطيفة محبوبة لا يتذوق عذوبتها غير الأديب والفنان
ومن يدري؟ فلعل لي غرضاً في العزلة يشبه غرضك في الاحتجاب، والإنسان حيوان لئيم. وهل أجد نفسي إلا حين أخلو إلى قلمي؟
وما سر تلك الخلوة؟ وما أخبارها؟
هي خلوة أقترب فيها من نفسي بعض الاقتراب، وأشعر بمواجهة اللهب المقدس الذي يمن به الله على أحد الأرواح في إحدى الأحايين، وأسمع صرير القلم بلهفة وشوق، لأن كتاباتي

لها في أذني وقع، وفي قلبي وقع، وما خططت حرفاً إلا وأنا مشغوف بتصرف ما يتسامى إليه من ألحان وأغاريد، ولو شئت لقلت إن طاعة القلم هي التي تجذبني إليه، فهو لا يصدر إلا عن أمري ولا يصدح إلا بما أشاء، وهو لا يخطئ حين يخطئ إلا وهو مؤمن بأن أخطائي أصدق وأجمل من الحق ومن الصواب

فمن كان في صدره عتاب أو ملام لانصرافي عن محضره الأنيس فليذكر هذا القول، فأنا لا أصادق من يتوهم أني رجل يخطئ كما يصيب، وإنما أصادق من يعتقد اعتقادا جازماً بأن العيب حين يقع مني هو الغرة في هلال شوال. وهل كانت لي عيوب إلا في أوهام الذين أبنيهم ليهدموني؟ جزى الله بعض الزملاء (خير) الجزاء!

وماذا نصنع إذا التقينا يا شقية، يا شقية؟

سيهمك أن تعرفي الفرق بين زكي مبارك المؤلف وزكي مبارك المحدث (؟!)

وسيهمني أن أعرف الفرق بين الفتاة التي تكتب إلي من بعد والفتاة التي أراها من قرب (؟!)

وعندئذ آثم وتأثمين، لأن شريعة الحب تبغض هذا الفضول

ألم تقولي في إحدى رسائلك إني أصانع فلاناً وأتوسل إلى فلان؟

وأين كان التوسل والتصنع وقد صبرت على الحرمان من وجهك الجميل أكثر من عامين؟

وهل حُرمت منك عامين أو شهرين أو يومين أو ساعتين؟

الجواب عند ليلى، فاسأل ليلى، ليلى المريضة في العراق، اسأليها تخبرك أن صدها عني لم يكن إلا فناً من فنون الوصل، والصد المقصود ليس قطيعة، وإنما هو آية من آيات العطف، لا حرمني الله تعتب ليلاي هنا وليلاي هناك!

أين أنا مما أريد؟ وهل تريننى أفصحت بما أريد؟

ما نظرت في رسائلك إلي إلا زاغ بصري وطار صوابي؟

فهل من الحق أنك تخافين عواقب التصريح باسمك المكنون؟

أنا لم أجترح معك غير هفوة واحدة يوم استبحت تسجيل صورة من خطك البديع في الكتاب الذي تعرفين وقد نهيتني فانتهيت فما تحجبك عن المحب الذي (أدبتهُ عقوبة الإنشاء) فتاب وأناب؟

على أنني راضٍ عما صرنا إليه من الاكتفاء بمصافحة القلوب، أدام الله عليك نعمة العافية، وجعلك مصباحاً وهاجاً لبيتك الرفيع، ولا أراني فيك إلا ما أحب، يا زهرة الشباب في الوطن المحبوب، ويا أصدق شاهد على صحة ما قال قاسم أمين وهو يُهدي كتاب (المرأة الجديدة) إلى سعد زغلول

ثم ماذا؟ ثم كان العطف النبيل في منحى لقب (أمير البيان) فهل ترين هذا اللقب على سموه يستوجب الدخول في خصومات كالتي عاناها شوقي (أمير الشعراء)؟

أن لقب (أمير البيان) أضيف إلي أول مرة على سبيل السخرية في إحدى مجلات لبنان، ثم أضيف إلي مرات على سبيل الإنصاف في بعض الجرائد في مصر والعراق، فماذا ترين أن أصنع في حراسة هذا اللقب الرفيع؟

أنا أومن يا مولاتي بأنه لا يمكن لأحد أن يكون أكتب مني، إلا إذا استطاع أن يكون أصدق مني، ومن المستحيل أن يكون في الدنيا أحد أصدق مني، وهل هان الصدق حتى يكون لي فيه منافسون من أبناء الزمان؟

الصدق يحتاج إلى تضحيات عظيمة جداً، ومن تلك التضحيات ما تعرفين وما تجهلين، ولو علمت الغيب يا شقية لعرفت أن الصدق جرني إلى معاطب ومهالك لا يصبر على محرجاتها ومؤذياتها إلا من كان في مثل إيماني، وقد صبرت وصبرت حتى أتهمني الغافلون بالبلادة والجمود، لأنهم لم يعرفوا أن دنيا الأدب فيها مبادئ تروض أهلها على الترحيب بمكارة الظمأ والجوع، إن جاز القول بأن اللّه رضي لحظة واحدة بأن أحس مكارة الظمأ والجوع، ولن أموت إلا مقتولا بنعمة الترف في الطعام والشراب، فليغفر الله ما أدعية زوراً من الترحيب بكاره الظمأ والجوع، وهو الغفور التواب

وهل أنسي يا شقية أن الصدق حرمني نشوة الاستصباح بوجهك الوهاج؟

هل أنسى أن الصدق جعل لأعدائي حججاً دوامغ في مقاومة مؤلفاتي؟

الصدق في الدنيا غريب، وأنا في الدنيا غريب، والله هو المسئول عن رعاية الغرباء!

أما بعد، ثم أما بعد، فسأظل إلى الأبد عند ظنك الجميل، وسأغفر لك التطاول على

من حين إلى حين لأني آخر من يتذوق تجاهل المحبوب لأقدار الحبيب
من نعم الله أن نعيش قلباً إلى قلب، لا جنباً إلى جنب، فما كان الهوى العذري إلا الروح
المكنون في قصيدة الوجود
وإلى اللقاء يا شقية في عالم الفكر والوجدان
!ولكن متى؟ متى؟ متى؟ وأنت تؤمنين بأن البخل أشرف خلائق الملاح
قالوا عشقتَ فقلت كم من فتنة ... لم تغن فيها حكمة الحكماء
إن الذي خلق الملاحة لم يشأ ... إلا شقائي في الهوى وبلائي
زكي مبارك
سيجموند فرويد
العالم النفساني الكبير
للأستاذ صديق شيبوب
- 5 -
حين أربي (فرويد) على السبعين كانت نظرياته في علم النفس قد استحكمت حلقاتها وقامت كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً بعد أن عمل على تشييدها جزءاً فجزءاً، وكان (الجزء يلد من الجزء تباعاً) كما يقول: (ليوناردو فينتشي، وأخذت هذه النظريات تؤثر في كل علم وفن. فهل استراح هذا الشيخ مطمئناً إلى ما قدم من خدمات وما أحرز من نصر؟)
لا شك أنه رأى مجال العمل ذا سعة ولكن أزعجه أنه سوف لا يجد فسحة من الأجل لإتمام ما يبتدئه من بناء للمستقبل. لذلك صار يلقي من الذروة التي تنسم قمتها نظرة شاملة على الماضي على طريقته التحليلية المعهودة، ولكنه بدلاً من أن يعالج الأعصاب والنفس في الفرد، أخذ يعالج العالم ويبحث التاريخ كمجموعة إنسانية فريدة، وبدلاً من أن يوجه أبحاثه شطر المادة أخذ يسوقها ناحية المسائل النظرية بالرغم من أنه كان يأبى هذا التوجيه في شبابه، وهو القائل من قبل: (إني لا أرضى عن تركيب النظريات العامة) فكأنه أراد أن ينتحل لنفسه الأعذار حين قال: (لقد طرأ على أسالبي في العمل تغيير لا أنكر نتائجه. كنت من قبل لا أعرف كيف أحتفظ في نفسي بنظرية أعتقد أنها جديدة وكنت أفضي بها بالرغم من أنه لم تجتمع لدي الأدلة على صحتها. . .
لأن الزمان كان منفسحاً أمامي، كان الزمان خضماً واسعاً كما يقول شاعر ظريف. وكانت مواد البحث تتدفق عديدة بحيث أجد من الصعوبة اختيار كل ما بين يدي. أما اليم فقد تغير وضع الأشياء فالزمان محدود الأجل، وفيه من الفراغ ما لا يسده العمل بعد أن تضاءلت ظروف الاختبارات الجديدة. فقد أصبحت لا أجرؤ على الإفضاء بما أكتشفه من جديد مخافة ألا أجد متسعاً من العمر للتدليل عليه. . .)
سلخ (فرويد) خمسين عاماً من حياته لا يقابل فيها غير مرضاه، ولا يعرف من الإنسانية غير أفرادها المصابين التاعسين في غرو إذا نظر إلى الحياة في مجملها نظرة مليئة بالتشاؤم في الكتابين اللذين وضعهما في طور شيخوخته وهما (مستقبل وهم) و (علة المدنية) ولا غرو إذا قرر أن (الحياة عبء ثقيل على الإنسانية جمعاء كما هي على كل فرد)
عرض (فرويد) للإنسانية في عصرنا الحاضر فوجد أنها بلغت من الرقي حداً بعيداً بينما لم يستطع هذا الرقي أن ينيل الفرد السعادة التي يصبو إليها كل إنسان
وللتدليل على هذا استعرض (فرويد) تاريخ العالم منذ الإنسان الأول أي منذ كان الإنسان يجهل القوانين والأخلاق ويبعث كالبهيمة حراً طليقاً من كل قيد. وعندما تألفت الجماعات والقبائل حد هذا التآلف من أطماع الفرد وأهوائه، لأن كل حياة اجتماعية مهما كان شكلها أولياً تحد من حرية الفرد في سبيل إخوانه، فصار لزاماً عليه أن يمتنع عن أشياء كثيرة، فاستحدث الحرام والحلال، ونشأت التقاليد والتواضع والحقوق والواجبات واستتبع هذه جميعها العقاب الذي يقع على من يخالفها
ولم تلبث معرفة الحرام وخوف العقاب، وكانتا ظاهرتين ماديتين، أن نفذتا إلى رأس الفرد وقلبه فاستحدثتا فيهما ما هو أبعد من الذات المادية، أي أنهما أوجدتا فيه الضمير، ونشأت في الوقت نفسه الثقافة العقلية والفكرية والدينية، وأوجدت فكرة الإله القدير العليم يقظة الضمير وكبت الشهوات فتحولت القوى المادية التي كانت

تحرك الإنسان الأول إلى قوى عقلية وأخلاقية خالقة وأخذت تسيطر على العالم حتى أخضعت عناصره واستخدمتها في سبيل غايتها
ثم قرر (فرويد) أن الاختراعات والاكتشافات التي قربت الإنسان من درجة الألوهية من حيث الخلق لم توفر للإنسانية أسباب السعادة ولم تدخل الغبطة والسرور عليها. وسبب ذلك أن الثروة الثقافية التي أنتهى إليها الإنسان لم ينلها مجاناً لأن ثمنها الحد من حرية الغرائز. وكل ربح للإنسانية خسارة تلحق بالفرد في أسباب سعادته
تعاودنا في أحلامنا ورغباتنا الغرائز التي أجبرتنا المدنية والأخلاق على كبتها، ولا تزال الذات الأخلاقية تصبو إلى الفوضى والحرية والحيوانية التي كان الإنسان الأول يتمتع بها. فكأننا نفقد من حيويتنا كلما تقدمت المدنية. ويحق لنا إذن أن نتساءل: هل المدنية لم تسط على نفس الفرد، وهل (ذات) المجتمع لم تصب (ذات) الفرد بغبن فاحش؟
فما هو الدواء الذي يصفه (فرويد) لمعالجة العلة التي وصفها؟
إن علم تحليل النفس يقرر نظرياً تفوق العقل الباطن والغرائز على العقل الواعي، ويقرر عملياً أن تغلب العقل الواعي هو الوسيلة الوحيدة لشفاء الإنسان
ترى هل يصف (فرويد) للمجتمع ما قرره من قبل للفرد بعد ان لاحظ ما في قوله من الاختلاف بين النظريات وبين العمليات، وهو الذي قرر بشكل حاسم أن الغرائز حاسم أن الغرائز الهمجية هي التي تسيطر على العقل
كان فرويد قد شهد الحرب الأخيرة، ولاحظ تغلب الغرائز على العقل، فلم يقرر علاجه تقريراً باتاً ولكنه رجا أن تصل إليه اليد الإنسانية بعد ردح من الزمان متعللاً بالأماني فقال: (نستطيع أن نستمر على القول في حق بأن العقل الإنساني ضعيف إذا قيس بالغرائز، ولكن هذا الضعف أمر عجيب. إن صوت العقل خافت ولكنه لا يفتأ يتردد حتى يسمع، والعقل لا أشك واصل إلى غايته في النهاية بالرغم من اندحاره أكثر من مرة، وهي ظاهرة من المسائل النادرة التي تحملنا على التفاؤل في مصير الإنسانية. إن تفوق العقل قائم في منطقة نائية، ولكنها ربما كانت غير بعيدة المنال)
وكان آخر مؤلفات (فرويد) كتابه عن موسى وفكرة التوحيد عند اليهود، وهو الكتاب الذي قرر أن موسى لم يكن من العبريين، وأنه كان مصرياً مستدلاً على ذلك باسمه. إن كلمة (موسى) في رأيه مصرية معناها الطفل أو العبد بدليل أسم الملك (تحوتمس) أو (تحوت موسى) أي عبد (تحوت) فيكون أسم موسى اختزالاً كما نقول بالعربية (عبده) لعبد الله. وقد أطلقت أبنه فرعون عليه هذا الاسم المصري الذي لم يكن معروفاً عند العبرانيين
كان موسى من رجال حاشية الملك إخناتون الذي كان أول من قال بالتوحيد عند قدماء المصريين، وجرى بعد وفاة هذا الملك أن ثار الكهنة واستردوا سلطانهم فتفرق أشياعه، ومنهم موسى الذي هرب من مصر وأخذ معه الإسرائيليين لأنهم كانوا مستعبدين مضطهدين
وقد عرض في كتابه لأدلة عديدة مثل مصرية أسماء اللاويين الذين يقول إنهم كانوا أشياع موسى، واقتباس العبريين عن المصريين الختان وتابوت العهد وهندسة بيت المقدس إلى غير ذلك مما يطول بنا بيانه.
هذه آثار (فرويد) في العلم والفكر. ولا شك أن أسمه سيظل عالقاً بنظرية العقل الباطن التي أكتشفها والتي جعلته زعيم مذهب تشيع له علماء كثيرون نذكر في طليعتهم (يونج) و (ادلر) اللذين بنيا أبحاثهما على نظرياته ووصلا إلى نتائج تختلف عن نتائجه خصوصاً في تفوق الغريزة الجنسية واللبيد، وقد أراد بهذه الكلمة الأخيرة معنى آخر غير الذي قرره لها (فرويد)
على أن أثره لم يقتصر على علم النفس وطب الأعصاب بل تعداهما إلى مختلف العلوم والفنون كالتربية (بداجوجيا) ودرس الميثولوجيا والشعر والنقد والفنون الرفيعة حين قرر فرويد أن الناس قد يتشابهون في أجسامهم ولكن نفس كل فرد كائن قائم في ذاته لا وجه للشبه بينه وبين غيره فتح باباً جديداً، لا في العلم فحسب، بل في فن النقد والقصة وكتابة التراجم، وجعل من بعض العلوم التي كان العلم الحديث يعترها ضرباً من الوهم كقراءة الطالع بواسطة النجوم أو الكف أو الكتابة علماً يقوم على نظريات جديدة لعلها صحيحة
وخلاصة القول أنه مهما اختلف العلماء في الحكم على مذهب الفردية من ناحية العلم

والأخلاق فلا سبيل إلى إنكار فضله لأنه أفاد الإنسانية فوائد جمة في مختلف النواحي فسار بها شوطاً بعيداً في التقدم والرقي وساعد على تخفيف ويلاتها وزاد ثروتها العلمية والفنية فاتسعت آفاق البحث وتشعبت أصوله وفروعه.

صديق شيبوب

فخري أبو السعود

للأستاذ أحمد فتحي مرسي

قضي الأستاذ الشاعر فخري أبو السعود - طيب الله ثراه وخلد ذكراه - فانطوى بموته صديق يعز على الأصدقاء فقده، وأديب يشق على الأدب رزؤه فيه، وعالم لن ينساه العلم وإن نسي الكثير غيره، فمن حقه علي أن أكتب، ومن حقه علي الرسالة أن يتسع صدرها لما أكتبه عن أديب طالما طلعت علينا بالكثير من آياته وغرره.

قال البعض إنه مات منتحراً برصاص مسدسه في لحظة ضيق بعد أن خط هذا البيت على رقعة:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ... ثلاثين حولاً - لا أبالك - يسأم

وقيل إنه فقد ولده في باخرة ترحيل الأطفال الإنجليزية التي أغرقها الألمان، وقيل إنه انقطع اتصاله بأسرته في إنجلترا، وقيل إن في الأمر جريمة قتل. . . إلى غير ذلك مما يذيعه الناس في مثل هذه المناسبات، إذا عمي عليهم الأمر ووقعوا في الحيرة، فذهبوا يتقصصون الآثار، وينتحلون العلل، ويضربون في الأوهام. . . ثم انبرت أسرته تكذب كل ذلك وتقول إنه مات برصاصة طائشة من رصاص مسدسه أثناء إصلاحه. . . كل ذلك لا شأن لنا به فلقد مات الرجل - يرحمه الله - وانقضى الأمر؛ إلا أن ما عرفته في فخري طول صحبتي له من صموده للحياة، وثقته بالله وعدم تطيره من الحادثات، يجعلني كثير الشك فيما قيل عن الانتحار. . . فقد كنت معه مرة في معرض الحديث عن مقال في الانتحار لأديب كبير، ثم تطرق بنا الحديث إلى ذكر فلان من أدباء الشباب - وكان فخري يعجب بأدبه ولا يعرفه - وأنه قد حاول الانتحار في ذلك الحين، فسخر فخري منه، فلما عرضت على فخري أن أعرفه به أبتسم قائلاً: (إنني لا أود أن أعرفه)

عرفت فخري أول ما عرفته في أول عهده بالتدريس في المدرسة العباسية الثانوية، وكان ناظرها في ذلك العهد الأستاذ عبد الرحمن شكري. قدمني إليه صديق، فخلت بادئ ذي بدء، أنه أحد الطلبة، فقد كان - رحمه الله - ضئيل الجسم، قصير القامة قليل الكلام، شديد الخجل، لا تبدو عليه سنه؛ فلما قدمه الصديق إلى، خلت أنه هازل لا جاد، أو أنه ربما أشتبه عليه الاسم - فكثيراً ما تتشابه الأسماء -، وساعد على ذلك أن الصورة التي كنت

رسمتها لفخري في ذهني - من المطالعة - تتباين مع أراه جد التباين، فسلمت عليه في فتور ووناء، ثم إنه كان قليل الكلام - كما قدمت - فتوهمت أن ذلك قلة مبالاة، فقابلته بالمثل، فكانت مقابلة جافية أسرها لي فخري، وعتب علي بعد ذلك بزمن ثم مضت الأيام فذهبت إليه في بعض الشأن، وكنت قد نشرت قصيدة بجريدة الأهرام بعنوان (الصباح)، فقابلني مقابلة طيبة، وجلسنا نتحدث عن القصيدة، ثم عن الشعر في مصر، ثم قرأ لي قصيدة عنوانها (نجوم السينما) كان يعدها للرسالة، وأهدى إلى كتابه عن الثورة العرابية؛. . . ثم تكررت المقابلات بعد ذلك، واتصلت بيننا أسباب المودة، فكنا نلتقي في أكثر الأيام

نقل فخري بعد ذلك إلى الرمل الثانوية، وتركت أنا الإسكندرية، ثم عدنا فالتقينا في الإسكندرية بعد ذلك بعام، وكنت قد اتصلت بالرسالة، وكان قد بدأ يكتب فيها سلسلة مقالاته عن المقارنة بين الأدبين العربي والإنجليزي، فأثارت اهتمام كثير من الأدباء، وقد أبدى لي الأستاذ الزيات إعجابه بها أكثر من مرة، وكتب إلي فخري يقول في ختام خطاب له - أطلعني على فخري -: (فأستزيدك، ثم أستزيدك، ثم أستزيدك). وكان في نية الأستاذ الزيات طبع هذه المقالات بعد إتمامها، ولكن فخري لم يتمها

ظهرت بعد ذلك مجلة الرواية، وبعد ظهورها بنحو عام وقعت جفوة بين فخري وبين الزيات أدت إلى قطع هذه المقالات، وانقطاع فخري عن الرسالة. . . قابلته بعد ذلك بحين فشكا لي شيئاً من ركود الذهن بعد انقطاعه عن الرسالة؛ وقال لي إنه شديد الخجل لأن الأستاذ الزيات مازال يرسل إليه مجلتي (الرسالة) و (الرواية) في حين أنه لا يؤدي له أية خدمة نظير ذلك. . .

وظهرت في ذلك الحين مسابقة وزارة المعارف في التأليف؛ فعرض علي بعض ما كتبه. وكان - رحمة الله عليه - كثير الشك في الفوز، فطمأنته ورجوته أن يتم ما بدأ، فأتمه - وأظنه فاز بجائزتين -؛ ثم انقطع حيناً عن الكتابة وانصرف إلى القراءة، وكنت ألقاه في ذلك الوقت كل يوم تقريباً، فنمضي سيراً على الأقدام في طريق (الكورنيش)، ويمتد بنا الحديث في الأدب والجدل أحياناً حتى نجد أنفسنا في جهة لم نكن نقصدها؛ وكثيراً ما كان يشغلنا الحديث حتى نقطع في السير مسافات بعيدة دون أن ننتبه؛ فقد كان رحمه الله يؤثر السير على الجلوس؛ وكان شديد النفور من المجتمعات ولا أذكر أنني رأيته مرة في مقهى أو منتدى ولعل ذلك هو السبب في سعة اطلاعه، ووفرة إنتاجه، فكان يقسم فراغه بين التريض والقراءة، والكتابة. والظاهر أن ذلك يرجع إلى طبيعته الهادئة، فقد كان يكره الضجة، ويتجنب الناس. وكان منزله في بقعة هادئة من رمل الإسكندرية، وحتى طفله يبدو لي أنه ورث عنه هذه الميزة، فكان ينفر من الغريب، ويبتعد عن الناس، أذكر أنه تركه معي مرة وذهب لبعض شأنه، فجعل الطفل يصرخ ويبكي ويتملص مني ليجري، وعبثاً حاولت تهدئته ولكنه لم يهدأ حتى عاد والده إلى جانبه مبتعداً عني

ولا أود أن أختم هذه الإلمامة قبل أن أشير إلى دراسة فخري واتجاهه في الأدب؛ فقد تخرج في المعلمين العليا واشتغل بعض عام بالصحافة، ثم اختارته وزارة المعارف في بعثة لها فتخرج في جامعة إكسترا في إنجلترا - وهناك تزوج من زميلة إنجليزية له في الدراسة - فلما عاد اشتغل بالتدريس في المدرسة العباسية الثانوية بالإسكندرية وكان فخري - رحمه الله - كما علمت منه مكباً على القراءة من صغره ولا سيما قراءة القديم حتى أوشك أن يستظهر كتباً بأكملها، ويظهر ذلك جلياً في أسلوبه، فتمتاز كتابته بقوة الأسلوب وجزالة الألفاظ. كذلك تبدو في شعره محاولة تقليد القدماء، وقد تأثر في هذا بالبارودي، وكان يحفظ جل ديوانه ومختاراته. وكان يؤثر من الشعراء القدماء أبا تمام وبعض شعراء الجاهلية لاسيما طرفة بن العبيد. كل هذه الدراسات القديمة كان لها أثر واضح في شعره لا يخفى على قارئه، وكان يختار منها اكثر شواهده في مقارنته بين الأدبين العربي، والإنجليزي. وكان يؤثر العقاد على شوقي وحافظ، وكثيراً ما قام بيننا جدال طويل في ذلك. وكان رحمه الله ينظم الشعر في سيره فتراه يغمغم في سيره بكلام لا تستبينه لانخفاض صوته، حتى إذا جلس كتب ما قال، ولا يزال كذلك حتى يتم القصيدة

وهناك ناحية تجب الإشارة إليها هنا وهي ضيق صدره بالنقد، وإن كان سلم منه في الصحف، وكثيراً ما كنت آخذ عليه ذلك. حدث مرة أن عثرت له على بعض أخطاء في نسبة الشواهد، وعلى هنة لغوية في قصيدة له، وكان في ذلك العهد يقضي الصيف بإنجلترا، فانتظرته حتى عاد فنبهته لذلك فغضب مني ودعاني في اليوم التالي وقد جمع لي بعض ما كتب في الرسالة وجعل ينتقد لي بعض المعاني حتى يرد علي بالمثل وقد نشر فخري القسط الأكبر من كتابته بمجلة الرسالة، واتصل في أواخر أيامه بمجلة الثقافة وجعل يكتب بها حتى توفاه الله، وفيما عدا ذلك له متفرقات بجريدة الأهرام والهلال وغيرهما من الصحف هذا غير كتابيه (الثورة العرابية) وقصة (تيس) رحمك الله يا فخري، وأجمل عزاء الأدب فيك، ولطف بأصدقائك وعارفيك. فقد كنت نعم الأديب ونعم الصديق. . .

هذا بعض حقك علي، أرجو أن تجد لي العذر إن كنت قد قصرت فيه أو أخطأت فإن الحزن يغالب خاطري وذاكرتي كلما أمسكت القلم لأكتب عنك، أو أنا كما يقول شوقي:

رثيتك لا مالكا خاطري ... من الحزن إلا قليلاً خطرْ
سقتك الدموع فإن لم ... يدمن كعادتهن سقاك المطر

أحمد فتحي مرسي

عودة إلى الروض

للأستاذ محمود البشبيشي

كنت أعلم أن للقلم غفوة كما للقلوب، ولكن لم أكن أدري أن للقلم صحوة كصحوة القلوب

وما كنت أعلم أن القلم يدرك معنى الحنين، ويحس لوعة الفراق، أنه كالقلوب تحس أن الحنين دليل الرغبة، والرغبة سبيل العودة
لم أكن أعلم هذا، حتى قرأت كلمة الدكتور الفاضل زكي مبارك، فأحسست أن القلم غلبه الحنين والشوق، وأنه أصبح من مادة القلوب يسيره الشعور وبأمره فيطيع!
ودبت فيه الحياة من جديد وأخذ يمطرني وابلاً من الخواطر السيالة بالعاطفة، . . . المتلألئة بالنور، الفواحة بالزهر، تخلص من فكرة لفكرة خلوص كلمة الحب من قلب المحب! نقية طاهرة. وللقلم حق عزيز عليَّ. . . آه من تبعاته ورغباته!
فيا ليتك يا صديقي ما تلفت فهجت أحلاماً كانت هي أيضاً في حلم! ويا ليت قلبي ما تلفت وتسمع. . . يا ليته، يا ليته!
فأيقظ القلم وحرك الطبيعة الكامنة في النفس كمون سر الحياة فيها. . . أنت السبب في كل ذلك يا دكتور. . . أنت السبب في العودة وحنين العودة، فقد أحسست روحاً غريباً ينشره أريج كلماتك سحراً تتلفت إليه القلوب فيقيدها! ثم هي برغم ذلك تهنأ بالقيد لأنه روحي نبيل في ضغطه على النفوس. . . فأعجب لقلب ينعم بأن يتعذب ويتعذب بأن ينعم! إنني هذا القلب الغريب!
فمن الناس من يرق ويرق، وينبل وينبل، ويدق شعوره حتى يُصبح كل جزء من جسده البشري قلباً حياً. . .!
وأنت أيها الصديق من هذه القلوب التي تمشي على الأرض! وتتألم لأنها لا تستطيع إلا أن تتألم، وتحب لأنها لا تستطيع سوى أن تحب! هي حرة في كيانها وليست بحرة. . . صريحة في فعلها وميولها وليست بصريحة. . . يقيد حريتها خوف الجور على حرية الغير! وهذا نبل جميل. . . ويمنع صراحتها خوف جرح قلوب الغير. . . وهذا نبل آخر. . .
أنت من هذه القلوب أيها الصديق وإن احتار في أمرك الكثير، وطالبك البعض برفع القناع
عن زكي مبارك الأديب. وليتهم قالوا عن القلب المبارك الأديب!
أيها القراء إن أردتم معرفة زكي مبارك الرجل فأنا أقول: إنه الوفاء والشهامة والسهولة في الطبع. . . وإن أردتم معرفة زكي مبارك الأديب أو القلب المبارك الأديب واحترتم في أمره فعليكم بما كتب وما سوف يكتب في عالم الحب والجمال وصوفية الحب والجمال
هناك تلمسونه روحاً تتدفق، وقلباً يعرف كيف يحب وكيف يكره، كيف يصارح وكيف يرائي، كيف يتألم فيستر الألم لعزة في نفسه، ويفرح فيملأ الدنيا غناء، لأنه قلب إنساني كما قلت لا يحب أن ينعم وحده. بل يسعده أن يُطلع قلوب الغير على أطياف السعادة!
أيها الحائرون في أمر الدكتور، أنا لا أرى سبيلاً للحيرة في أمره. وكيف تصح الحيرة في رجل (يقتل الوقت والعافية في تذكر القلوب الغوادر، وفي دنياه تكاليف تميد من أثقالها الجبال. لأن الموجب معروف وهو الوثاق المسطور في اللوح المحفوظ بألا تعيش روح إلا مجذوبة إلى روح).
كيف الحيرة في رجل يرى من يكذبه صادقاً. لأنه كاذب في تصوير ما يعانيه!
تلك يا دكتور فلسفة جميلة، وأجمل منها أنك أحكت أحبولة الرياء وجه الوشاة والعذال. إنه رياء نبيل حقاً. . . ولكني في حيرة من أمر ذلك الرياء الذي تقربت إلى الله به. وأنا في حيرة فهل لك أن تأخذ بيد صديقك من الظلمة فيطمئن قلبه عليك وعلى نفسه! أهو رياء المجد كل ما فيه حب ووفاء!. . . ما أصدق حنين القلم وما أجمل العودة إلى الروض!
يا صديقي. . . لست أدري أي سحر في ظلال دوحة أفكارك استطاع أن يخرجني من صمت ظننته لا يفارقني ولا أفارقه. . . أي سحر يا صديقي أي سحر!
ترىُ هل ودعني الأدب يوم ودعته لغير عودة، وفي نفسه أن يعود، وأن يكون بعثه على يدك يا دكتور، وإلا فما هذا الصوت الغريب الذي يناديني من ثغور أزهارك؟ وما هذه الألوان النفسية الصوفية التي تغمرني من خواطرك الجريحة في الشوق والحب!
تسأل يا دكتور ماذا تضمر الدنيا في أيامها المقبلات؟! إنها تضمر الخير والحب والنور والمجد، وما كان لها سوى أن تضمر ذلك للقلب الذي صير الحديث عن الوفاء والحب

شريعة من شرائع الوجود!! للقلب الذي يسأل أين بائع النسيان؟ وأين بائع السلوان؟ للقلب الذي علمته صوفية الحب ألا يرائي من يبغض، ويرائي من يحب!! إنها القلوب أيضاً يا
دكتور لها من منطق شعورها صراحة لا يعرفها سوى الذين خلقوا وكل ما فيهم قلوب حية!!
يا طالما أحسست في نفسي شيئاً لم أستطيع إدراكه، ومر على قلبي إحساس لم تفسره دقاته! ولكنني اليوم واليوم فقط علمت هذا الشيء وعرفت هذا الإحساس. إنها أغنية العودة إلى الروض، أغنية القلم تذكرني بأيامه ولياليه، بل بأيامنا ولياليناً أيام كنا يا دكتور نصل الحديث بالحديث، نتقابل لنتكلم في النثر والشعر، ونفترق لنعود للنثر والشعر. . . أيام كانت نفس تشعر بالحياة لأن كل شيء في الحياة يشعر بها. . . وقبل أن تسود الضمائر وتجحد الأيادي!
لا يكاد يظهر كتاب حتى نقتله بحثاً أو ننقده نقداً نزيهاً يعلمه الدكتور. تذكرت هذه . . . الأيام والليالي، وما كان منا في هذه الأيام والليالي، وهاجت الذكرى في نفسي فأصبحت شعوراً قوياً وكبر الشعور للقوي فصار رغبة، وتجسمت الرغبة فكانت عودة إلى الروض، الروض الحبيب، روض الأدب، وكنت أنت باعث هذه الرغبة وصاحب الفضل في تلك العودة
فيا أيها القلم تحية لقاء حبيب مني!. . . علم الله ما تركتك زاهداً. . . إنما عز علي أن أشرعك في وجه من يشرع في وجههم السيف وشيء آخر أحقر من السيف! ولكنها عودة جميلة. . . ومن العيب أن أناديك فلا تلبي النداء. . . إن الروض قد ابتسمت أزهاره فلم لا تبتسم. . . وإن رفاق الفكر والقلب ينتظرون منك الأغنية. . . والعودة إلى الروض. . . بعد أن ظن رفاق السوء أنها غفوة لا صحوة بعدها! أيها القلم، عزيز على هذه الغيبة الطويلة. . . وحبيب إلى هذه العودة الجميلة. . . وليعلم الذين جحدوا آياتك. . . أن الدائرة تدور. . . وأنك بالمرصاد! وأن القلب الكريم إن هو لم يثر في وجه المعتدي يوماً فله عودة وعودته غير عودته إلى الروض!
(المنصورة)
محمود البشبيشي
عراك في معترك أي معترك
للأستاذ زكي طليمات
هذا التحدي بالسباب من جانب الأستاذ محمد متولي نرده إلى صاحبه
نحن هنا، على صفحات هذه المجلة للأدب الصرف وللعلم الخالص، وقد نكون في غيرها لما يريده الأستاذ الجامعي الثقافة. لهذا نقول له إننا نحجم عن ذلك في هذه الصحيفة، لا إكراماً لشخصه ولا ترفقاً لحاله، لأن من يقذف الناس بالحجارة من غير مبرر لا يرده ويحسن تأديبه إلا القذف بما هو دون الحجارة، ولا لأي اعتبار آخر سوى وقار الموضوع الذي تبادلنا الحديث فيه، وهو موضوع جدير بالرعاية في معالجته على الوجه الصحيح. كشف عن لون جديد من ألوان المعرفة، وتقرير صنف حديث من أصناف التأليف المسرحي، نقول إنه موضوع طريف، أثار وسيثير حوله جدلاً طويلاً ستتبارى فيه الأقلام وتختبر المعارف وتسقط الأقنعة المزيفة عن الوجوه، فيتضح - وليس للمرة الأولى - كيف أن النقد يجب أن يقوم قبل كل شيء على الخلق الرضي المتواضع لا على التعلم المزهو فحسب، لأن التعلم وحده لا يحقق إنتاج الأديب الأصيل الذي يصدر أحكامه عن عقيدة مخلصة في الحق والعدالة، وكيف أن الذكاء وهو من صقل التعلم، مجرداً عن الخلق العادل، إنما يكون أداة للتضليل ومعولاً للشر، ثم ينهض البرهان من جديد على أن بعض التعلم (وإن أذهب عن العاقل طيشه، فإنه يزيد الأحمق طيشاً، كما أن النهار يزيد كل ذي بصر نظراً ويزيد الخفاش سوء النظر)
نحن إذن أمام قضية خطيرة للعلم وللقراء ولهذه المجلة، قضية يجب أن يقضي فيها بشرعة الحق وبقسطاس العلم، والعلم أمانة وذهن القارئ أيضاً أمانة لدى الكاتب، ولدى أستاذنا صاحب هذه المجلة
لهذا سنمضي في أثر الأستاذ متولي مهما شاء له أدبه
وتمهيداً للبراهين التي سنسوقها للتدليل على ما وصفنا به نقد الأستاذ متولي، نعرض أولاً للباب الموضوع حتى يحسن القارئ تفهمه

الرمزية المستحدثة أوسع نطاقاً من رمزية (ريبو)

مثار الخلاف أنني دفعت رأي الأستاذ متولي في أن الرمزية التي نحن بصددها في مسرحية (مفرق الطريق) أوسع نطاقاً من الرمزية التي حددها الأستاذ متولي، نقلاً عن (ريبو) وحده في كتابه (المخيلة الخلاقة. باريس سنة 1900)

الأستاذ متولي يقول بلسان (ريبو): (إن الرمزية في الفن تستخف بتمثيل العالم الخارجي تمثيلاً صادقاً فإذا الناس والأشياء تمر دون أن تنطبع بزمان أو مكان، ولكنها تمضي وما تدري أين حصلت ولا متى، فلا هي تمت بصلة إلى أي بلد ولا هي تمثل عصراً بذاته)، ولما كانت (مفرق الطريق) تعرض صوراً محلية تجري حوادثها في مصر؛ وما دام بشر فارس قد أسمعي بطل مسرحيته (هو) وأسمى بطلتها (سميرة)، إذن فالمسرحية لا تمت في نظر الأستاذ متولي إلى الرمزية في شيء وأنها محاولة مخفقة، وأن مؤلفها لا يصح له أن يؤلف، إلى غير ذلك من العبارات التي أصدرها بمراسيم تحمل أسمه الكبير!!!

سجل متولي هذا في أول مقال له فرددنا عليه في مقالنا السابق

1 - بأن (ريبو) واحد ممن كتبوا في علم النفس وأن ما أدلى به هذا (الريبو) بصدد الرمزية في الأدب، قد فات أوانه بعد أن انبسطت للرمزية أطراف جديدة أخذ بها مؤلفون محدثون في تأليف المسرحية والقصص والشعر، وذكرنا أسماء لبعض هؤلاء المؤلفين وكلهم من المبرزين في عالم الأدب الرفيع أمثال (بيراندللو)، (جيرودو)، (حانتيون)؛ وهم مؤلفو مسرحيات رمزية صميمة لم تتقيد بآراء (ريبو) من حيث الاستخفاف بتمثيل العالم الخارجي وغير ذلك؛ بل هي مسرحيات تنطبع بزمان ومكان، وشخوصها يحملون أسماء كسائر الناس، وتجري حوادثها في مدن معروفة. وذلك أن الرمزية المستحدثة أصبح مدراها الأول استكناه خفايا النفس وبواطن الشياء، أو بمعنى آخر (استنباط ما وراء الحس من المحسوسات الخ)، كما أورده بشر فارس في مقدمته لمسرحيته المذكورة

2 - ولم نقف من هذه الأقوال عند مجرد الرد فحسب، وإنما أضفنا إلى هذا النقص عند (ريبو) ذكر نقص آخر، قرره العالم (أبيل راي أستاذ تاريخ العلوم وفلسفتها بجامعة السربون. وذلك في بحث له عن الاختراع بكتاب لجورج دوماس (صفحة 1441 السطر 14 - 20 الجزء الثاني طبعة باريس 1924) هذا نصه:

ا , ا - ا - , ا

ومجمل ترجمته: (يلوح لنا أن علم النفس عند (ريبو) في مسائل (المخيلة) والاختراع لا يزال تحت تأثير النظرية الآلية البسيطة الخاصة بتجزؤ الذهن إلى ذرات متجاورة)

3 - وأيدنا هذا النقص بذكر تقدم علم النفس في هذه المسألة بعينها على أيدي الفيلسوفين (وليم جيمس) و (بريجسون)!

وقبل أن أنتقل من هذه النقطة أرجو القارئ أن يقف قليلاً أمام هذا النص الفرنسي ومجمل ترجمته فله قصة طريفة سنوردها بعد قليل!)

4 - ولم نكتف بكل هذا، وهو من صميم العلم الذي لا ترقي إليه الشبهات، بل رجعنا إلى (ريبو) نفسه في كتابه المذكور (المخيلة الخلاقة) ووقفنا عند النص الذي اقتطعه الأستاذ متولي ليدعم دعواه في الرمزية، فوجدنا، ويا للعجب، أن (ريبو) لم يتحرج التحرج الذي أراده متولي، إذ أنه، أي (ريبو) لم يحتم التحتيم كله أن أن تكون الرمزية ممعنة في الإبهام إذ يقول (إنه كثيراً ما تفلت الرمزية - في عهده طبعاً - من التحديد الزماني والمكاني، وإذ يقول إن الأسماء، أسماء الأشخاص في المسرحية يعبر عنها أحياناً بهو أو هي، أو هم!

5 - ثم تساهلنا مع الأستاذ متولي فقلنا إنه على فرض أن (ريبو) إله في علم النفس، وأن آراءه في الرمزية لم يشحب لونها، وعلى فرض أن العلماء مثل لم تطعن في صحة موقف (ريبو) في كلامه عن (الاختراع) و (المخيلة) كما قدمنا، على فرض كل هذا، فإنه من الغريب أن يأتي متولي عام 1940 فيفرض على كل كاتب في الرمزية أن يخضع ما يكتبه فيها لآراء (ريبو)، فيقول للدكتور بشر فارس إما أن تنشئ على آراء (ريبو) وإما فما تنشئته لا يمت إلى الرمزية بصلة ما! ثم سألناه، بعد أن قررنا له أن العلم يتقدم والنظريات تتطور: وما نفع مسايره الأدب - وفيه الرمزية - للعلم في تقدمه وفي مستحدثاته؟

أين موضوعية النقد يا أستاذ؟
بهذا المنطق الواضح والبرهان المستقيم دفعنا أقوال الأستاذ متولي، وهي أقوال أتخذها أساساً لانتقاص مسرحية (مفرق الطريق)، فلم يدفع ما أدلينا به بحجة علمية واحدة مع أن ما نحن بصدده في هذا يؤلف جوهر الموضوع!
فهل قرأ متولي هذا في مقالنا ولم يفهمه، أو هو قرأه ووعاه ثم أسقطه من حسابه في رده علينا خشية أن يبدو أمام القراء في غيبوبة وتباطؤ في التحصيل لا يصح أن يكون عليهما
مزهو بإجازة الماجستير!!
لئن كان الأمر الأول فله العذر ولنا العزاء، ولئن كان الأمر الثاني فيا خيبة الأمل في نزاهة النقد وصدق النفس!!
الهارب المهزوم!!
بماذا طلع علينا متولي في مقاله الأخير؟؟
1 - سبحات في خيال، ونطحات في جدار، وسباب ساقه إليَّ وإلى بشر فارس يعزيني فيه، كما يعزي - على ما أظن - بشر فارس، أنه في غير حياء إلى المستشرق الكبير الأستاذ (بركلمن)، الحجة في تاريخ الأدب العربي، هجم متولي، الماجستير في الفلسفة من الجامعة المصرية على هذا الإمام الكبير فنعته (بالغفلة) لأنه قرر في تاريخه عن الأدب العربي الحديث عن مسرحية (مفرق الطريق): (نحن هنا عند استهلال تطور يستطيع أن يحدث تجديداً في الحياة الأدبية أو قل يجلب ثروة إليها)
ما رأى أساتذة كلية الآداب في هذا، وبماذا يعاقبون التلميذ محمد متولي؟
2 - عمد إلى المغالطات الصريحة والادعاءات الجريئة، وإلى القارئ بعضاً منها:
(ا) أدعى أننا نسبنا - غفلة وجهلاً وإمعاناً في تزييف الحقائق العلمية - ما قاله العالم (أبيل راي خاصاً بنقد (المخيلة) عند (ريبو) ونص هذا القول سجلناه بالفرنسية مع ملخص ترجمته قبل هذا بسطور ورجونا القاري أن يقف عنده - أدعى الأستاذ متولي أننا نسبنا هذا إلى (وليم جيمس) الفيلسوف المعاصر، ولا نعرف لهذه الدعوى وجوداً إلا في مخيلة متولي المبتدعة، لأننا أوردنا نص ما قال في مقالنا السابق مع إشارة صريحة إلى أنها واردة في كتاب لجورج دوماس، ولم نغفل تاريخ طبع الكتاب وأرقام الجزء والصفحة والسطر! وما على القارئ إلا أن يتفضل بالمراجعة ليحكم هل أنا المزيف أم الأستاذ متولي!
(ب) يدرس لا يدرس
قلنا في مقالنا السابق إن كتاب جورج دوماس هذا يدرس اليوم في جامعة السربون بباريس، ولم نضع شكلاً على كلمة (يدرس) باعتبار أن المعنى صريح لا يحتاج إلى ضبط لدى كل من له معرفة بدراسة الجامعات، وقد قمت بدراسة في جامعة السربون لتاريخ الفن ' الذي يصح أن يعرفه الأستاذ متولي، ولكن مخيلة الأستاذ شاءت أن ترى في كلمة (يدرس) بمعنى يقلب ويقرأ، معنى آخر تحدده كلمة (يُدرَّس) أي واجب على الطلبة الأخذ بكل ما جاء فيه. كبا متولي هذه الكبوة ليقول مزدهيا: إن زكي طليمات لا عهد له بالدراسة الجامعية وعليه فلا يجوز أن يناقش خريجاً من جامعة ولو!!
(ج) أراد متولي أن يسجل علينا رذيلة التطاول والتهجم على رجال العلم، وأولهم في نظره (ريبو)، لأنه عكازه ومنظاره فيما يكتب، فقال: إن (ريبو) هذا الذي لا يرضينا هو الذي عرف (جورج دوماس) فضله فاختاره ليكتب له مقدمة كتابه السابق الذكر. هذا في حين أننا لم ننتقص قدر (ريبو) هذا ولم نتطاول عليه، وكل ما قلناه عنه أن آراءه في الرمزية قد فات أوانها، ولم نكن في هذا أقل براً من جورج دوماس نفسه الذي أصطفى (ريبو) لكتابة مقدمة كتابه، ثم سجل عليه في نفس الكتاب ما أخذه عليه العالم السابق الذكر!
(ء) الفيلسوف المعاصر!
قرر الأستاذ متولي إرسالي إلى محكمة تحفظ كرامة العلم وتحاسب المستهترين

بقدسيته لتعاقبهم، قرر هذا تتقدمه عريضة اتهام مفادها أنني وصفت (وليم جيمس) بالفيلسوف المعاصر، هذا في حين (وليم) هذا توفي في عام 1910، فهو بذلك غير معاصر!

وهنا أقول إنه يؤسفني أن أصرح بأنه ما كان يدور بخلدي أن متولي يجهل كل المعنى التي تحت كلمة معاصر وموعدنا العدد القادم ليحكم القراء فيمن يقدم إلى هذه المحكمة وإلى محاكم أخرى من نوعها، أنا أم الأستاذ محمد متولي؟

(الحديث بقية)

زكي طليمات

قصة القمر العاشق

للأستاذ علي محمود طه

للأديب محمد سيد الكيلاني

هي قصة بارعة في قصيدة رائعة عدتها اثنان وثلاثون بيتاً، ومع هذا، فإنها تقع في أربعة فصول تمثل لنا العشق في صورة مستحدثة، وتعطينا لوناً لا عهد لنا به من ألوان الموسيقى. وهذه القصة واضحة المعاني، بينة المرامي، بالرغم مما فيها من رموز وإشارات. وهي مفعمة بالشذوذ، ولكنها مع هذا كله مما يستقيم به منطق الشعراء الواقعيين

يتحدث الشاعر في قصيدته عن (قصة قمر عاشق) يهوي الصبايا الحور، ويقتحم عليهن الخدور. ولقد تواضع الشعراء من قبل على أن يجعلوا من القمر معشوقاً جميلاً رقيقاً فاتن السمات، بديع القسمات، فشبهوا به وجه الحبيب، وفي ذلك يقول قائلهم وهو يخاطب الليل:

لو كان عندي قمر ... ما بت أرعى قمراً

ولكن شاعرنا المهندس خرج على هذا الإجماع فجعل من هذا المعشوق الوادع الرقيق عاشقاً سابياً وعربيداً فاتكاً، فأسبغ عليه منصفات الرخاوة حيناً، والضراوة حيناً آخر، ما جعل قصيدته قمينة بالنظر، حرية بالاستقراء، جديرة بتأمل كل حسناء كأنما يوجه إليها الشاعر قصيدته، كيلا يستخفها هذا الضوء الرطب المنحدر من قمر الليالي الصائفة فيلهيها عن نافذتها المفتوحة قال مخاطباً هذه الغادة:

إذا ما طاف بالشرفة ... ضوء القمر المضني

ورف عليك مثل الحلم ... أو إشراقة المعنى

فهنا شرفة يطوف حولها ضوء القمر متعباً من طول ما قطع من مسافة إليها وهذا الضوء لطيف عذب كالحلم، مشرق كالمعنى المتوقد في خاطر الشاعر، يرف على زنبقة نائمة في مهدها، وقد انحصرت غلالتها الرقيقة عن بعض جسمها. قال وأنت على فراش الطهر كالزنبقة الوسنى:

فضمي جسمك العاري ... وصوتي ذلك الحسنا

وفي هذا النداء الأخير تتجلى عبادة الشاعر للجمال وتقديسه له، فهو يربأ بهذا الجسم الفاتن أن يكون نهب هذا الضوء المفتون، أو بمعنى آخر نهب الأعين الشرهة الجارحة، فالشاعر ينصح صاحبته الحسناء أن تضم جسمها العاري وأن تستره حتى يبقي حسنها مصوناً. فنظرة شاعرنا المهندس إلى المرأة وجمالها في هذين البيتين نظرة فنية روحية في حين أن شاعراً كإسماعيل صبري كان ينظر إلى الجمال نظرته إلى المتعة المبذولة. قال:

إن هذا الحسن كالماء الذي ... فيه للأنفس ري وشفاء

لا تذودي بعضنا عن ورده ... دون بعض واعدلي بين الظلماء

فنظرة علي محمود طه إلى الجمال أسمى وأنبل وهي على أنها نظرة شاعرية متخيلة إلا أنها واقعية مستمدة من صميم الحياة وطبائع الأشياء. أما نظرة إسماعيل صبري فهي ساذجة أو قل إنها تنافى منطق الحياة وتجافي طبائع الأشياء إن هذه المرأة التي يطلب منها إسماعيل صبري أن تجعل من حسنها مورداً لكل ظمآن ومتعة لكل إنسان وأن تعدل بين الظماء فلا تزيد في كأس هذا قطرة عما في كأس ذاك لم تخلق بعد وهي كما يصورها إسماعيل صبري ليست من بني البشر، إنما هي آلة مصنوعة توزع الطعام والشراب بالدرهم والمثقال. هذا هو التمهيد الذي قدمه الشاعر لقصته

أما الفصل الأول فهو هذا الضوء الذي نظر من خلال السحاب فرأى هذه الفتاة النائمة وقد تعري بعض جسمها ففتنه جمالها فهبط من عليائه إلى أرض حديقتها، ثم نظر فإذا هي نائمة في فراشها تحت نافذتها وهنا يمثل الضوء دوراً تاريخياً من أدوار العشق والغرام التي قام بها روميو، فيسترق الضوء الخطأ حتى يصل إلى هذه النافذة فيراها عالية فيتسلق إليها الأغصان لا يبالي بأشواكها حتى يصل إلى فاتنته قال الشاعر:

ومس الأرض في رفق ... يشق رياضتها الغنا
عجبت له وما أعجب ... كيف استلم الركنا؟
وكيف تسور الشوك ... وكيف تسور الغصنا

والفصل الثاني حين يقف الضوء في مخدع الحسناء فيرى في خديها خمر صبابة. ولقد ألفنا الشعراء يصفون خدود الملاح بالتفاح ولكن علي محمود طه إلى وصف ما ينبعث من الخلود من سحر وجمال بخمر صبابة لا ينضب معينها قال:

على خديك خمر ... صبابة أفرغها دنا
رحيق من جنى الفتنة لا ينضب أو يفني

ثم أسترسل الشاعر في الخيال فتصور ضوء القمر غريماً له ومنافساً سبقه إلى هذه الغانية، ثم ذكر غيرته عليها كلما قبل ثغرها أو لف نهدها أو ضم جسدها قال:

أغار، أغار إن قب ... ل هذا الثغر أو ثني
ولف النهد في لين ... وضم الجسد اللدنا

ثم أخذ ينصح صاحبته بألا تستهين بهذا الضوء وأن تأخذ حذرها منه، وأن تخشى بأسه. وقد دعم أقواله بحقيقة من الحقائق العلمية، فذكر أن هذا الضوء يؤثر في الموجة الكبرى ويرغمها على الخروج من أعماق البحار. وفي هذا إشارة علمية لطيفة إلى المد فإن الأمواج ترتفع تحت جاذبية القمر. وهنا ينتهي الفصل الثاني

أما الفصل الثالث فيبدأ حينما تصور الشاعر هذا الضوء وقد عجز عن أن ينال من هذه الحسناء بعد أن أسبغ عليها كل فنه وجماله. . . قال:

أراد فلم ينل ثغراً ... ورام فلم يصب حضنا
حوتك ذراعه رسماً ... وأنت حويته فنا

في حين أن الفصل الرابع يتمثل في ثورة هذا الضوء الذي أظهر الرعونة والطيش ومضى يطوي السهول والحزون:

يثير الليل أحقاداً ... وصدر سحابه ضغنا
وعاد الطفل جباراً ... يهز صراعه الكونا

فهذا الذي كان يجثو أمامها كالطفل ملتمساً العطف عاد جباراً يهز الكون هزا بصراعه الشديد المتواصل، يثير الرياح ويرسل العواصف فيهرع الناس إلى منازلهم كما يهرعون عند سماع صفارة الإنذار من الغارات الجوية، ويسرع كل منهم إلى لقاء زوجته. وحينئذ يذكر الناس أن القمر لابد أن يكون مفتوناً بغادة ملكت عليه كل جوارحه. ثم نصحها بأن تتقي شر ذلك الجبار وتقفل النافذة حتى تصون حسنها من ثورة هذا العاشق، وحتى لا يظن الناس بمخدعها الظنون. وختم هذه الدرة الثمينة بقوله:

فكم أقلقت من ليل! ... وكم من قمر جنا!

محمد سيد الكيلاني

رسالة الشعر

من أمسيات الخريف

للأستاذ محمود الخفيف

حَتَّامَ تَوحي شَمْسُهُ الغَارِبَهْ ... للنَّفْسِ هَذا الشَّجَنْ؟
حَتَّامَ تَحْكِي لِي المُنَى الذاهِبهْ ... وَقَدْ تَرَاخى الزَّمَن؟
شُحُوبُهُ في وَجْنَتِي الشَّاحِبَهْ ... يَكشِفُ مِنْ أسْقامِهِ ما كَمَنْ
مَنْ مُبْلِغٌ آسِرَتي الغَائِبَهْ ... أنِّي غريبُ هَاهُنا في الوَطَنْ؟
أمْسُ انْقَضَتْ يا قَلبُ أحْلاَمُهُ ... فَفِيمَ هَذا العَذابْ؟
لا تَنْفَعُ المَحْزُونَ أوْهَامُهُ ... إلاَّ كَلَمْحِ السَّرَاب
هَذا الأسَى النَّوَّاحُ أنْغَامُهُ ... كالرِّيحِ أنَّتْ في شِعَابِ الهضابْ
وَدَمْعُكَ السَّحَّاحُ تَسْجَامُهُ ... كما هَمَى في القَفْرِ دَمْعُ السَّحَاب

وَأحَزَنَا هَذَي رِياحُ الخَرِيفْ ... نَوَّاحَةً شاكِيَهْ
أرْغُولُها غَنَّى بِهَذا الحَفِيفْ ... ألحَانُهَا النَّاعِيَه
حَشْرَجَةٌ فِيها نَشِيجُ مُخِيفْ ... لم تَخْلُ من أنَّاتِهَا نَاحِيَه
كَمْ أسْلَمَتْ للسُّقْمِ قَلْبِي اللَّهِيفْ ... وَأيقَظَتْ آلآمِي الغَافِيَهْ!
تَهَيَّأتْ لِلْمَوْتِ شَمْسُ الأصِيلْ ... رَاجِفَةً كاسِفَهْ
مَا زَادَ في العُمْرِ النَّهَارُ الطَّوِيلْ ... عَنْ لَمْحَةٍ خَاطِفَهْ!
في مِثْلِ هَذا الوَقْتِ كانَ الرَّحيلْ ... والشَّمْسُ في كَفِّ الرَّدَى راعِفَه
لمْ أنْسَ وَالقَوْلُ دُمُوعٌ تَسِيلْ ... أفْئِدَةً يَوْمَئِذٍ وَاجِفَه
تَجْهَشُ يا أُمَّاهُ هَذا السَّفَرْ ... تَحْزَنُ رُوحي لَهُ
أُمَّاهُ ما أحْسَسْتُ هَذا الأثَرِ ... في سَفَر قَبْلَهُ!
ولا تُحيرُ الأمُّ غَيْرَ النَّظَرْ ... في شَجَن ما عَرَفَتْ مِثْلَهُ
وَذَاكَ رَبُّ الدَّارِ مَهْمَا صَبَرْ ... يكادُ لا يُبْصِرُ ما حَوْلَهُ
وَالتَفَتَتْ هَامِسَةً بِالسَّلاَمْ ... بَاسِمَةً دَامِعَهْ
وَحِرْتُ وَاسْتَعْصَي عَلَيَّ الكَلاَمْ ... وَانْطَلَقَتْ جَازِعَهْ
تَنَاوَحَتْ حَوْلِي بهذَا المَقَامْ ... رِيحٌ عَلَى أوْتَارِهَا القَارِعَهْ
كَمْ نَثَرتَ حَتّى احْتَوَاني الظلامْ ... سِلْسِلَةً من أدْمُعِي الهامِعَهْ
هَاهِي ذِي فِي اليَأسِ تُطْوَى السِّنون ... وَفِي المُنَى البَاطِلَه
يُوحِي لِنَفْسِي فِي الخَرِيفِ المَنُونْ ... أطْيَافُهَا المماثِلَهْ
الصَّمْتُ في وِديَانِهِ وَالسُّكُونْ ... وَالمَوْتُ في أوْرَاقِهِ الذّابِلَهْ
والرِّيحُ غنَّتْ نَاحِلاَتِ الغُصُونْ ... ألحَانَ تِلْك الخُضْرَةِ الزّائِلَهْ
فِي الأُفُقِ الغَرْبِّي ألقَى المَساءْ ... ظِلاَلَه الحائَمهْ
وَانْطَفَأتْ فِي لاَزَوَرْدِ السَّمَاءْ ... جَمْرَتُهَا القَاتِمهْ
وَأقْبَلَ اللَّيْلُ وَمَاتَ الضِّيَاءْ ... وَأنْذَرَتني الظُّلْمَةُ العَارِمَهْ
مَعْنىً جَدِيدٌ مِنْ مَعَاني الفَنَاءْ ... يَلمَحُ لِي فِي هَذِهِ الخَاتِمَهْ
فِي كلِّ شَيْء شَاعَ حَوْلي الفُتُورْ ... وَدَبَّ طَيْفُ الكَرَى
فِي الدَّوْحِ والزّرْعِ وَهَذِي السُّطُورْ ... مِنَ دُورِ أهْلِ القُرَى
تَجسِّمُ الوَحْشَة تِلكَ القُبُورْ ... مَنْظُومَةً فَوْقَ الثَّرَى أسْطُرا
صَائحةً مَهْمَا يَطُل مِنْ غُرُورْ ... فِي العَيْشِ هذا مَصِيرُ الوَرَى!
وَاللاَغِبُ الفَلاّحُ فِي لَحْنِهِ ... أشْجَي مَعَاني الأسَى
لَحْنٌ قَبَسْتُ الشَّجْوَ مِنْ لَوْنِهِ ... وَصُغْتُ هَذَا البُكَا
الذُّلُّ وَالحِرْمَانُ فِي فَنِّهِ ... وَالخَوْفُ وَالجُوعُ وَطُولُ العَنَا
مِنْ شِقْوَةْ الدُّنيا إلى كِنِّهِ ... يَأوِي َوما فِي الكِنِّ غَيْرُ الضّنَى
الخفيف

بين الشرق والغرب

آفَةُ الشَّرْقِ اهتِضَامُ الضُّعَفاءِ ... وهَوى الظُّلْمِ وَإرْهَاقُ العِبَادِ
وَبَلاَءُ الشَّرقِ خُلْفُ الزُّعَمَاءِ ... وانْقِسَامُ الرَّأي في سَاحِ الجِهَادِ
وَبَنُو الشَّرقِ أُنَاسٌ نَبَذُوا ... خِشْيَةَ اللهِ وَحُبَّ الوَطَنِ
تَبَعوا الغَرْبَ عُمَاةً وَحَذَوا ... حَذْوَهُ فِي القُبْحِ لا في الحَسَنِ
تَرَكُوا نَهْجَ التُّقَي واتخَذُوا ... سَبْلَ الكفْرِ وَطُرْقَ الفِتَنِ
وَتَبَاهَوَا بِالمخازِي، بِالرِّياءِ ... بالمعاصِي، بِأفانين الفَسَادِ
فاتَهُمْ أنّ العُلاَ بِنْتُ الإباء ... وَبُلُوغُ المَجْدِ رَهْنُ الاتحادِ
غُلِبَ الشَّرْقُ عَلَى نَيْلِ الأرَبِ ... وَأبَى التَّفْرِيقُ أنْ يَنْصُرَهُ
ولو أنّ الشَّرْقَ ضَحّى وَدَأبْ ... كانَ لُطْفُ اَلله قَدْ أظْهَرَهُ
إنما أهْلُوه زَادُوهُ نَصَبْ ... قُتِلَ الإنْسَانُ ما أكفَرَه
لاَ يَميلونَ إلى غَيْرِ الهُرَاءِ ... أو يَهِيمُونَ بِغَيْرِ الانْتِقَادِ
شَأنُهُم فِي العَيْشِ شَأنُ الجُبَنَاءِ ... خَامِلو الذِّكرِ قلِيلو الاعْتِدَادِ
أيُّهَذَا الشَّرْقُ يَكفِيكَ عَمَى ... فَاتَّقِ الغَرْبَ وَكُنْ فِي حَذَرِ
لاَ يَغُرَّنَّكَ إمَّا أبْتَسَما ... بَسْمَةَ البَرْقِ قُبَيْل المَطَرَ
فَهْوَ لم يَعْشَقكَ إلا مِثْلَمَا ... يَعشقُ الجزّارُ سِرْبَ البَقَرِ

سَائِلِ السِّكِّينَ عَنْ هَذَا الوَلاَءِ ... وَسَلِ المَسْلَخَ عَنْ ذَاكَ الوَدَادِ
وَأحْذَرِ السُّمَّ بِمعَسُولِ السِّبَاءِ ... وَاجْتَنِبْ فِي وَرْدِهِ شَوْكَ القَتَادِ
لاَ تظُنَّ الغَرْبَ صَبًّا مُفْتَتِنْ ... بِكَ، فَالغَرْبُ وَلوعٍ بفَنَاكا
أوْ تَخَلْهُ الطَّاعِمَ الكاسِي المَرِنْ ... فَهْوَ مِنْ جِلدِكَ يا شَّرْقُ كسَاكا
وَهْوَ مِن لَحمِكَ غَذَّاكَ وَمِنْ ... دَمِكَ المَسْفُوكِ عُدوَاناً سَقَاكا
مُستبَدِاًّ جَائراً باسم الإخَاءِ ... شَائِقَ الأقْوَالِ شرَّبرَ المُرَادِ
قَدَّسَ الغَدْرَ وَنَادَى بِالوَفَاءَ ... وَيْلُ هَذَا الشِّرقِ مِنْ ذاكَ المنادى
(دار الأهرام)
فؤاد بليبل
رسالة الفن
تأملات:
الفن والاطمئنان
للأستاذ عزيز أحمد فهمي
منذ سنة شاهدت السيدة ميمي شكيب في رواية الدلوعة، فأعجبت بها إعجاباً خفيفاً، لأني لم أجدها أكثر من ممثلة درست دورها على يد أستاذها الريحاني، واتبعت إرشاداته وتعليماته بأمانة وتدقيق.
ومنذ أسبوع شاهدت السيدة ميمي شكيب في رواية الدلوعة أيضاً، فإذا بي أراها شيئاً جديداً، وإذا بشبح الريحاني الذي كان يصاحبها في السنة الماضية ويقودها على خشبه المسرح خطوة خطوة، ويلون صوتها في إلقائها نبرة نبرة، قد اختفى تماماً. . وإذا بالسيدة ميمي شكيب ممثلة أستاذة تعربد على المسرح عربدة حية توحي بها إليها خواطره هي، وتتبع فيها اختيارها هي، ولا تقيد فيها بإرشادات موجهة إليها، ولا تعليمات مدروسة. . .
فما الذي حدث للسيدة ميمي شكيب، حتى استطاعت أن تقفز هذه القفزة، وأن تخرج في عام واحد من صفوف التلميذات النجيات إلى صفوف الأستاذات المجيدات؟
لابد أن يكون شيء ما قد حدث لها، ولا يمكن أن يكون هذا الشيء اجتهاداً في دراسة المسرح، أو اهتماماً بالفن زاد عندها عن ذي قبل. فليس شيء من هذا بقادر على أن يخلق على أن يخلق الإنسان خلقاً جديداً، وإن كان قادراً على أن يصقله شيئاً ما، وأن يهذبه شيئاً ما، وأن يرفعه شيئاً ما. . .
فما الذي حدث للسيدة ميمي شكيب إذن؟
الذي حدث هو أنها تزوجت!
ولكن ما للزواج والفن؟ وكيف يمكن أن يكون الزواج سبباً في النهوض بفنانة نهضة تلفت الناقد هذه اللفتة المحيرة؟ وإذا كان الزواج هو السبب في هذه القفزة التي قفزتها السيدة ميمي شكيب، فإن أستاذها الريحاني نفسه ليس متزوجاً ومع هذا، فهو أستاذها، وهو الفنان الذي لا يشق له غبار. . .
الواقع أن الزواج يبعث في النفس اطمئناناً وارتياحاً وهو يبعثهما في نفس المرأة أكثر مما يبعثهما في نفس الرجل، وكل فنان محتاج إلى الاطمئنان والارتياح كي يتفرغ لفنه ويجيد فيه، وإذا عدم الفنان الاطمئنان والراحة فهو مهدد دائما بأن ينعكس على فنه ذلك يتردد في نفسة، وهومهدد كذلك بأن يصطبغ فنه بلون معتم مظلم أسود هو لون اليأس والشقاء اللذين يعانيهما من قلقة. وكثيرا ما كان هذا القلق سببا في اندحار الفنانين وذبولهم، وكثيرا ما كان سببا في الانزلاق بهم إلى مهاوي الخبل يطلبون الاطمئنان عبثا في الخمر، والمخدرات، والمواخير.
والخمر والمخدرات والمواخير، لاشك في أنها تبعث اطمئناناً عارضاً وارتياحاً وقتياً في نفس الفنان، ولكن آثارها عندما تزول ان يصبح الفنان فإذا به يرى نفسه فارغة كما كانت قبل السكرة، وإذا به يرى نفسه وحيداً هائماً على وجهه لا يدري له مستقراً، ولا يعلم له هدفاً، فيعود إلى ما كان فيه، ويطلب السم الذي يطمئنه ويقتله في الوقت نفسه، ولا يطول به الزمن حتى تتلف صحته، وتتحطم أعصابه، ويخمد عقله، ويتبلط إحساسه، ويخبو من نفسه ذلك النور الذي يهديه ويلهمه، فيصبح في آخر الأمر إنساناً مسكيناً لا حياة له إلا الأوهام، فهو يحسب نفسه قادراً على الإنتاج لأنه يلمح أطيافاً من الفكر تجول في رأسه، ولكنه إذا أراد أن يحصرها، وأن يجندها وأن ينظمها، وأن

يطلقها، إلى الدنيا فناً رآها تشق عصا الطاعة عليه، وتستعصي، وتلفت منه وتذوب في رأسه كأنها لم تكن. . . وإذا ابتلى فنان بحال كهذه فمآله الانهيار من غير شك فإما أن يموت كما مات سيد درويش وإما أن ينتحر كما انتحر إيفان مسجوكين، وإما أن ينطلق في الدنيا مشرداً مسكيناً إن عطف عليه الناس اليوم فسينبذونه غداً

والفنانون في الدنيا بأسرها ليسو غائبين عن هذه الحقيقة، كما أنه ليس في الدنيا إنسان غائباً عنها، فلماذا يعرض كثيرون من الفنانين والفنانات عن الزواج، ولماذا يجرؤ بعضهم على أن يدعو غيره إلى الإعراض عنه حتى أصبح هناك مذهب فاسد عشش في رؤوسهم أو في رؤوس بعضهم، واجتذب له أنصاراً يقولون بأن الزواج يعرقل الفن.

هناك سبب خفي لهذا وهو أن في الفنانين كثيراً من طبائع النساء، فهم أشد إحساساً من غيرهم من الرجال، ومن شدة إحساسهم هم أشد غيرة من غيرهم، ومن شدة إحساسهم هم أقل حكمة من غيرهم. ولهذا كان مما يشبه الأمر العسير أن يجمع الرجل بين الفن والمرأة، لأنه من العسير أو من المستحيل أن تجمع بين المرأة والمرأة

وقد نتج من هذا أن كثيرين من الفنانين شذوا عن الحياة الطبيعية، وأصبحوا يطلبون الاطمئنان والارتياح في المغالطات والأوهام. وقد كانت هذه المغالطات وهذه الأوهام مواد لذيذة لكثير من الفنون استمتع بها الناس، ولكنهم كانوا وهم يستمتعون بها يشفقون على أصحابها ويقولون دائماً: يا لهؤلاء من أشقياء مساكين محرومين. . .

والعجب أن هذا لم يكن في يوم من الأيام محرضاً على نبذ هذه المغالطات وهذه الأوهام، وإنما كان دائماً محرضاً على الإقبال عليها، فكلما نشأ فنان صغير وأحس في نفسه شيئاً من الضعف حيال الحياة الطبيعية، وأدرك أن ضعفه هذا راجع إلى قوة إحساسه وحدة نفسه، لم يسرع إلى تنمية عقله التنمية التي توازنه، ولم يسرع إلى توطيد أخلاقه التوطيد الذي يحميه من الوقوع في اضطراب الشذوذ، وإنما طلبته صور هذا الشذوذ، وحسبها نوعاً من الحياة يمكن أن يعيش إلى جانب الحياة الطبيعية التي لا سبيل إلى الخلود إلا بها. . .

وهكذا ضعف كثيرون من الفنانين، وهكذا انهاروا، وهكذا أعقبوا فنوناً لا أنكر أنها لذيذة وإن كنت أسخط عليها وأمقتها مقتاً جد على نفسي ووجدته حقا

وإلى هؤلاء الفنانين أريد أن أوجه الحديث اليوم

فليتصوروا سلماً يصل ما بين الأرض والسماء، وأن الناس جميعاً مطالبون بأن يصعدوا هذا السلم، وليقولوا لي أي الناس أضمن وصولاً إلى قمة هذا السلم!

الإنسان الذي يقبض عليه برجليه ويديه وأسنانه ويصعد درجة درجة فما تفلت منه درجة، أم الإنسان الذي يقفز عليه برجليه فقط بينما يداه يلوح بهما في الهواء، وبينما يزعق بحنجرته مغنياً أو نادباً أو مهللاً؟. . .

لاشك في أن الأول أضمن وصولاً من الثاني، كما أنه لاشك في أن الثاني كلما قطع مع الأول مرحلة كان ذلك دليلاً على أنه أبرع منه وأقدر. . .

فإذا كان الأمر كذلك، فكيف يكون هذا الثاني البارع القادر إذا استغل قواه جميعاً، واستخدم جوارحه جميعاً كما يفعل الأول؟. . .

لابد أنه يسبقه بمراحل، ولابد أنه يشعر بعد ذلك بدافع من نفسه يدفعه إلى مساعدة غيره

والأخذ بأيديهم. . .

وهذا هو ما يفعله الأنبياء وأصحاب الرسالات، فهم ليسوا إلا بشراً وهم أشبه الناس بالفنانين، ولكنهم يزيدون على الفنانين قوة العقل وقوة الخلق إلى جانب قوة الإحساس، ولذلك فإنهم ساروا دائماً نحو المثل الأعلى في خطى ثابتة ومن غير قلق، ومن غير يأس، ومن غير شذوذ ولا خروج على قواعد الطبيعة وسننها

ولعل أقوى حجة من حجج أولئك الأنانيين الذين يمقتون الزواج هو قولهم إن مسئوليات الزواج تثقل على كاهل الفنان وتحرمه من الفن وتحرم الفن منه. وهذا قول سخيف، لأن الحياة من غير زواج ليست إلا (رهبنة) أو قرصنة، و (الرهبنة) شيء ليس من اليسير على الإنسان أن يحققه، ولو حققه الناس جميعاً لتعطلت الحياة التي أرادها الله، والقرصنة شيء قد يكون من اليسير على كل إنسان أن يحققه، ولكنه لو

حققه كل إنسان لفسدت الحياة واضمحلت وتخاذلت ودبت إليها الأمراض البدنية والنفسية، ثم يعالجها بعد ذلك الموت السريع. ثم إن حياة الأسرة نفسها فيها تلخيص لقصة الخلق لا يمكن أن يتذوقه إلا من يباشرها؛ والعجيب أنه لا يمكن أن يتذوقها إنسان مثلما يستطيع الفنان الحساس العاقل القويم الخلق أن يتذوقها، فهي تجعل منه رباً صغيراً لجماعة من الناس الأحياء، وتمكنه من أن يرزق، ومن أن يعلم، ومن يصلح، ومن أن يوجه، ومن أن يعطي، ومن أن يجازى، ومن أن يحاسب، ومن أن يرحم، ومن أن يشفق، ومن أن يغفر، ومن أن يضمن الذكر لنفسه بعد موته، فيكون هو الوصلة بين الماضي والمستقبل، ومن أن يطلب حقه بلا تفريط ولا تهاون، ومن أن يعز ويعتز، ومن أن ينصر وينتصر، ومن أن يقول لشيء كن فيكون. . .

وهذا هو ما يريده الله لنا، وما يريده منا، ففي هذه الحياة من المعاني ما لو أنتبه الفنان وأستغله لأخرج منها صوراً وسلاسل لا نهاية من الفن الذاخر بالعواطف والفكر والمثل الخلقية العليا التي تفيض بها أنفس الآباء العاديين ويعجزون عن تسجيلها.

وقد يعترض علي معترض من غير المجربين ويقول لي: ما لنا نرى كثيرين من أفذاذ الفنانين الذين مجدتهم أنت نفسك واقعين في ذلك الشذوذ الذي تعيبه وهاربين من الزواج مع أنهم لا تعوزهم الحكمة ولا العقل ومع أن أفعالهم تشهد لهم بأن من الأخلاق الفاضلة ما

ليس لغيرهم، فهم محسنون غير أنانيين، وهم يربون أولاد غيرهم بأموالهم ويصنعون ويصنعون. . .

ولهؤلاء أقول. . . إن غلطة واحدة يرتكبها الإنسان في صغره مختاراً أو مجبراً قد تظل آثارها عالقة بأعصابه وحياته إلى أن يموت. فإذا لم يلفت الإنسان إليها التفاتاً خاصاً، ويقاومها مقاومة خاصة فإنه يظل منساقاً وراء نتائجها ويظل يعاني الأمرين من آثارها، وقد يخيل إليه في ظروف من الظروف أنه مستطيع الانخراط في طريق الحياة الطبيعية العادية إذا ما اعتزامها واصطنعها، فيعتزمها ويصطنعها ولكنه لا يلبث أن يرى نفسه بعد حين عاجزاً عن المضي فيها. . . كما حدث ذلك للفنان الكبير شارلي شابلن فإنه تزوج أكثر من مرة واحدة، وأنجب من زوجه الأول ولداً هو الآن شاب كبير. ومع هذا فإن شارلي لا يزال يتخبط في حياته وإن كان له عذره في تخبطه، وإن كان فنه السامي مما يشفع له، فنحن إذا طالبناه بإصلاح نفسه الآن بعد فوات الأوان فإن ذلك قد يستنفد منه بقية حياته، وإن أنانيتنا نحن لتمنعنا من أن نسدي إليه هذه النصيحة، فخيرنا في أن نستمتع بفنه، ولو كان في ذلك هلاك روحه. . .

إذن فمن الذي يستطيع أن يضع حداً لهذا الاضطراب. . .

هم الآباء، والمربون، والأمهات قبل هؤلاء وهؤلاء. . . فعلى أولئك تقع التبعة الأولى في المحافظة على تعادل أبنائهم النفساني. وإني لا أشك في أن حضارة القرن العشرين قد بدأت تحس بأنها في حاجة إلى تبديل وتغيير، وعلى الخصوص بعد أن انهارت فرنسا هذا الانهيار السريع الذي لم يكن المعجبون بها يتوقعونه لها؛ وإني لا أشك كذلك في أن أصحاب الرأي والفكر يتربصون اليوم للحرب القائمة يريدون أن تضع أوزارها ليستطيعوا بعد ذلك أن يقولوا كلاماً صريحاً مفهوماً تلخيصه: أن عودوا أيها إلى حياة الطبيعة فلا مفر منها، ولا مهرب من الشر إلا بها، وهي سنة الله

عزيز أحمد فهمي

البريد الأدبي

إلى المفكر الكبير الأستاذ خليل مطران - 1

إليك - وأنت مدير الفرقة القومية - أوجه القول:

هل ترى أن الأدب اليوناني القديم يقدم غذاءً نافعاً للعقل العربي الحديث؟

لقد شهدت تُمثيل رواية أوديب على مسرح الأوبرا الملكية فلم أرها إلا حماقة من حماقات الإغريق يوم كانوا يؤمنون بأن الآلهة أقوام مجانين يتصرفون في شؤون الخلق بلا بصيرة ولا خلق ولا رفق ولا ميزان

ومع أن المآسي تثير دموعي فقد أحسست قلبي وهو يتحول إلى جلمود عند شهود هذه المأساة، لأنها لم تكن إلا صورة من سخف الوثنية اليونانية، وهي وثنية عادت على أصحابها بأجزل النفع، لأنها مثلت أهواءهم وأوهامهم أصدق تمثيل، ولكنها لن تنفعنا بشيء، لأنها بلبلة خلقية وذوقية تلحق الضرر البليغ بأذواق الجيل الجديد. وهل هناك

لرياضة الجمهور على التحزن والتحسر والتفجع لمصاير مجهولة خلقها الروح الإغريقي ليوهم بني آدم أن لا قدرة لهم على الخير أو الشر وأنهم لم يخلقوا إلا ليكونوا ألعوبة في أيدي المقادير الهوجاء؟

أنا أفهم أن تترجم أمثال هذه الروايات إلى اللغة العربية لتعين على تصور بعض ما مر بالإنسانية من أوهام وأضاليل، ولكني لا أفهم كيف يتخذ من أمثال هذه الروايات نماذج لروعة الفن، ونفاذ الفكر، ورجاجة العقل؛ وهي قد نشأت في أحضان الطفولة البشرية يوم كان الملوك والوزراء والحكام عبيداً مسخرين لسدنة الهياكل الوثنية، ويوم كانت مصاير الأحكام إلى من يحسنون الرجم بالغيب من الكهنة والعرافين

قد يقال إن في مصر رجلاً أسمه الدكتور طه حسين، وأن هذا الرجل يُقسم بأبوللون أن الفن لفي خُسر إن لم يفلح بأدب الإغريق القدماء

ولكن هذا الرجل لا يزعم ولا يستطيع أن يزعم أن الرأي ما يرى، وأن القول ما يقول، ففي مصر رجال يملكون رجعة إلى الصواب بلا مشقة ولا عناء، وسيرى ما يسره إن هم ينقض هذا الاعتراض، ولكنه لن يفعل لأن كهنة دِلْف أنبئوه أن خير ما يجاب به على اعتراضات زكي مبارك هو الصمت البليغ!

للأستاذ خليل مطران أن يتفضل بالإجابة عن هذا السؤال:

هل استطاعت مأساة أوديب أن تصور مشكلة واحدة من مشكلات العدل والعقل والذوق؟

وكيف ولم تكن تلك المأساة إلا صورة بهلوانية من صور الوثنية اليونانية؟

كانت هذه المأساة مقبولة يوم كان الناس يتذوقون عبث الأساطير، وهي قد تقبل في مدينة روما أو باريس، حيث يطيب للناس أن يتلهوا بخرافات الوثنية بعد أن شبعوا من أطايب الأدب الحديث، وهو عندهم يقوم على نقد خلائق المجتمع بنزاهة وصدق

فهل الحال في القاهرة كالحال في روما وباريس؟ وهل تظن أن الفرقة القومية فرغت من تشجيع الروايات الاجتماعية والتاريخية التي تصور حاضرنا وماضينا، ولم يبق إلا أن تتحفنا بخرافات اليونان؟

الآن تذكرت ما كنت نسيت توجيهه إليك، فقد كنت أحب أن أسأل عما صنعت وصنع زملاؤك في الانتفاع بما في مصر من مواهب وآراء؛ وقد صح عندي أنكم ورجال الإذاعة سواء، فانتم جميعاً لا تعرفون غير من يتعرف إليكم، ولا تذكرون إلا من يذكركم بنفسه، وليست عندكم طريق مرسومة لاستثمار المواهب المكنونة في هذه البلاد.

أليس من العجيب أن يكون في زادكم الفني روايات بالية لا ينتظر من بعثها غير إعلان الفاقة والإملاق؟

والآن عرفت ما لم أكن أعرف، فقد تعب المفكرون في البحث عن السبب الذي استوجب أن يهتم العرب بنقل ما عند اليونان من فلسفة وأن يزهدوا في نقل ما عندهم من آداب

أهتم العرب بنقل فلسفة اليونان لأنها وليدة العقل، وزهدوا في آداب اليونان لأنها بهلوانية، تقوم على قواعد واهية من الزخرف والبريق

فهل يظن الأستاذ خليل مطران أنه أعقل من أئمة العقل لعهد ازدهار الحضارة العربية؟

وخلاصة القول أن الفرقة القومية في حاجة إلى العلاج وهي لن تعافى من أدوائها المزمنة إلا بعناية أطباء بارعين لا يكون منهم فلان وفلان وفلان، فللفن والأدب أصول لا يعرفها هؤلاء

فإن لم أكن على حق فحدثوني كيف جاز أن تنفرد الفرقة القومية بالإخفاق وقد جمعت نوابغ الممثلين والممثلات؟ يعوزكم شيء واحد: هو التأليف. فابحثوا عن المؤلفين، لأن التأليف هو الروح، وكل شيء في الفن ما خلا التأليف إخراج وتمثيل.

مسابقة الجامعة المصرية لطلبة السنة التوجيهية - 2

ذلك مشروع جميل أقرته وزارة المعارف ودعت إليه، وهو حين يحقق على الوجه المنشود يجذب الطلبة إلى مسايرة الأدب الحديث، ويغرس فيهم الشوق إلى تعقب الآراء الأدبية والمذاهب الاجتماعية.

ولكني لاحظت مع الأسف أن أكثر الطلبة انصرفوا عن الانتفاع بهذا المشروع بعد أن أقبلوا عليه. وقد أخبرني كثير من المدرسين أن طلبة السنة التوجيهية لم يعرفوا كيف

يدرسون المؤلفات المختارة للمسابقة. وأن المدرسين أنفسهم لا يعرفون على وجه التحقيق كيف يوجهون تلاميذهم إلى درس تلك المؤلفات، لأن الوزارة لم تضع منهاجاً واضحاً للاستفادة من هذا المشروع الطريف

وقد دعتني الرغبة في معاونة طلبة السنة التوجيهية على الاستفادة من مسابقة الجامعة المصرية إلى درس تلك المؤلفات على صفحات (الرسالة) درساً تحليلياً يستطيعون به الوصول إلى ما تشتمل عليه من مقاصد وأغراض، بحيث يصبح الانتفاع من المسابقة ميسوراً لكل طالب يُقبل على درس تلك المؤلفات بعناية واهتمام وقد وضح أمامه منهج الفهم والاستقصاء

وسنبدأ في الأسبوع المقبل بتحليل كتاب (فيض الخاطر) للأستاذ أحمد أمين، والله بالتوفيق كفيل

زكي مبارك

معنى القديد

وفق الأستاذ محمد فخر الدين السبكي في حديثه عن (زيارة الرسول صلى الله عليه وسلم) الذي أذيع من محطة الإذاعة مساء 21 رمضان - توفيقاً كبيراً

بيد أنه فسر (القديد) - في قول الرسول (ص) للأعرابي حينما دخل عليه فارتاع من هيبته: (خفض عليك فإنما أنا أبن امرأة تأكل القديد بمكة) - تفسيراً لم أسمعه قط. إذ قال: أي أنا أبن امرأة تأكل التمر الجاف!

والذي أعرفه في كتب اللغة، وفي كتب اللغة، وفي كتب السيرة أن القديد (هو اللحم المشرر

المقدد، أو ما قطع منه طولاً). اهـ قاموس

اهـ مصباح (هو اللحم. المجفف، فعيل بمعنى المفعول تنبيهاً (لحم قديد: مشرح طولاً) له على أنه مأكول المساكين) اهـ شرح الشقا، للفاضل علي القارئ

لهذا لزم التنبيه على ذلك في الرسالة الغراء والسلام عليكم ورحمة الله

عبد الحفيظ أبو السعود

حول تفسير بيتي أبن عربي

كتب إلى أديب من القاهرة في رسالة خاصة بشرح لي معنى بيتي أبن عربي اللذين استفتيت فيهما الأستاذ ناجي الطنطاوي على صفحات مجلة الرسالة وهما:

بذكر الله تزداد الذنوب ... وتحتجب البصائر والقلوب

وترك الذكر أفضل منه حالاً ... فإن الشمس ليس لها غروب

فجاء في رسالته هذه ما نصه (إن ابن العربي يعارض الآية القرآنية (ألا بذكر الله تطمئن القلوب)، ويدعى أن الله ليس حتماً أن يذكر لأنه حال فينا (كشمس ليس لها غروب) فالذكر في شرع أبن العربي يبعد بنا عن هذه الشمس، أما الذي يقربنا منها فشيء آخر يسأل عنه هو ومن أتبعه من المتصوفة لا ناجي الطنطاوي)

وقد رأيت في هذا الشرح ما تطمئن إليه النفس نوعاً ما فأحببت أن تتفضل مجلة الرسالة الكريمة وتسجله على صفحاتها فلعل من قرائها من ينتظره.

(الأبيض - سودان)

وجاءنا من صاحب الإمضاء الفاضل هذه الكلمة في هذا الموضوع:

عرفت رجلاً صوفياً وسمعت منه شرح هذين البيتين، وقال: (بذكر الله تزداد الذنوب الخ). في مذهب القوم، إنما يذكر الغائب، والله تعالى حاضر لا يغيب، وخاصة في مقام المشاهدة. فكيف يذكر؟ إن ذكره حينئذ يدل على بعد عن ذاته وجلاله. والبعد حرمان يدل على كثرة الذنوب والعيوب. والبعد عن الذات طمس في البصائر وظلمات في القلوب

وترك الذكر أفضل كل شيء ... فشمس الذات ليس لها غروب

هكذا رويت عنه. وهو وجيه في نظري وخاصة لما تضمنه الشطر الثاني من تعليل طريف. قال: إذا أستغرق العبد من مقام الشهود، وبت أسبابه بالعالم وما فيه من مخلوقات بائدة ليس لها وجود. فلا داعي للذكر حينئذ، لأنه في حال دونها كل ذكر. وكيف يذكر من يراه ومن لا يغيب عنه طرفة عين؟ لا. إن شمس الذات العلية مشرقة لا تغيب، وضاءة لا تحتجب، فذكر الله يدل على غيبته، وهو سبحانه حاضر مشاهد لا يفنى، وهو معكم أينما كنتم. اهـ باختصار.

وحديث القوم لا يفهمه غيرهم لأن لهم رموزاً تدق على الإفهام
محمود محمد بكر هلال
الأدب والانتحار
منذ شهرين أنتحر الأستاذ إسماعيل أحمد أدهم بأن ألقى بنفسه في أليم ليذيب فيه أحزانه ويدفن أحلامه. وأختار الأستاذ الموت على هذه الصورة ليروي ظمأه ويطفي حرارته
وفي هذا الأسبوع انتحر الأستاذ فخري أبو السعود بأن أطلق على رأسه الرصاص والأستاذ أبو السعود ليس غريباً عن قراء الرسالة فقد ساهم في تحريرها عدة أعوام
فهل كان اتفاقاً أن ينتحر أديبان لهما قيمتها في المحيط الأدبي؟
أم هي مصادفة ألقت بها المقادير في هذه الأيام التي كثرت فيها العجائب وطغى الشر
وأين أثر البحر الذي يشيد به الدكتور زكي مبارك في أعصاب هذين الأديبين
الواقع أن الأديب رجل مرهف الحس شديد التأثر، له من المنى ما أخفق فيه وما تحقق، وحتى هؤلاء الذين ظفروا ببعض الأماني يشعرون بالغبن ويحسون بالنقص
فلن تكن مصادفة أن ينتحر أديبان في مدة وجيزة وفي بلد واحد هو الإسكندرية وإنما هو الألم. . . ولعل الأدباء يفكرون في علاج هذه الظاهرة قبل أن تجر عليهم الفناء
رحم الله الأستاذ فخري وأجزل لأدهم الثواب
عبد العزيز سالم
الحرب والشعر
تفضل الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد فأتحف قراء (الرسالة) ببحثه التحليلي الممتع في العدد الماضي، وقد قرر فيه أن الحروب لا تشحذ ملكات الشعر، لأن الشعر فردي، وإن ما
يروج في أيام الحروب هو الأغاني والأناشيد، فإن حكمها حكم الخطابة، لأنها تتردد بين الجماهير في الاجتماعات، ثم قال أستاذنا الجليل إن الملاحم في الأمم البائدة ليست (هي التي شحذت تلك الأفكار التي نتج عنها تلك المنظومات الشعرية.
فهل يسمح الأستاذ الجليل أن أقول: كيف لا تكون الحروب شاحذة للملكات الشعرية في حين أن أستاذنا نفسه استشهد في ثنايا مقاله شعرية رائعة لشاعر إنجليزي، لو لم تكن الحرب لظل مغموراً في مهنته الطبية؟ فإذا كانت الحروب تخلق من الطبيب شاعراً، فكيف بالشاعر المطبوع؟
وهل يتفضل أستاذنا الجليل ويزيد الموضوع إيضاحاً في منظومات الملاحم؟ ولماذا لا تكون دليلاً على أن الحروب تشحذ ملكات الشعر في حين أنه لو لم تكن الحروب لما كانت تلك المنظومات؟
أجل، إن الشعر ينزر في أيام الحروب، ولعل السر في ذلك (ورأي أستاذنا القول الفصل) أن الأمم في أيام ثوراتها وحروبها تكون منهمكة بشئونها ما بين حاضرها ومستقبلها، ومضطربة الخواطر، جياشة بمختلف الأحاسيس، ليس لديها الصبر الكافي لقراءة الشعر والتروية فيه، فالخطيب يستهويها لأنه يستطيع أن يتخذ من الحوادث اليومية مجالاً لقوله وجلجلته، فهو لا يحتاج إلى ساعات يزور فيها خطبة، بل تأتيه الجمل عفو الخاطر، وقد تكون في أسلوبها عادية، ولكن موقفه الحماسي يجعل لها شأناً آخر، أما الشاعر فلابد له من سويعات يجمع أشتات فكره، ثم يدبج ببراعته صيحاته، فإن كان شاعراً حقاً عبقرياً استطاع أن يغتصب منبر الخطيب ويستأثر بالجماهير لترديد شعره وقراءته، كالشاعر الإنجليزي (كبلنج)، وإلا فهو بالطبع سيمنى بالفشل، ولعل هذا هو السر في أنه لا ينزل إلى ميدان الشعر في أيام الحروب إلا من وثق من نفسه أنه يستطيع بإلهامه وجودة شعره أن يستأثر بقلوب الجماهير ويحملهم على قراءة شعره
إذاً، فالحرب تشحذ ملكات الشعر وتجودها، غير أنها تمتاز بأنه لا يقوى على الظهور فيها والشيوع إلا الشعر العبقري الحق فحسب، وأنا في انتظار رأي الأستاذ الجليل والسلام

يحيى زيارة
عضو البعثة اليمانية
القصص
فتوة العطوف
للأستاذ نجيب محفوظ

عند هبوط المساء غادر المعلم (بيومي) الفوال نقطة بوليس الحسينية يحمل (إنذار التشرد)، يكاد يتصدع صدره من الغضب والغيظ. وكان يرغي ويزبد ويتمتم ويدمدم بأصوات كالخوار، خشنة مبهمة، ما زالت تعلو وتميز كلما باعدت الخطأ بينه وبين نقطة البوليس، حتى صارت في ميدان فاروق لعناً وسباباً وقذفاً صريحاً مخيفاً عنيفاً. وجعل يهز قبضة يده الغليظة في الهواء مهدداً متوعداً، ويدير في الفضاء عينين يتطاير منهما الشرر صيرهما الغضب كجمرتين ملتهبتين. فوقع بصره على (تاكسي) واقف بالميدان، فقصد إليه، ورآه السائق - وكان يعرفه - ففتح له الباب، فأندفع إلى الداخل وارتمى إلى جانبه. وأحس السائق بالثورة المضطرمة في صدر صاحبه، فسأله عما يقلقه، ووجد المعلم في السؤال متنفس عن صدره، فرما إليه بالإنذار وهو يصيح غاضباً: (أنظر كيف تعاملني الحكومة السنية!)، وشبك يديه على صدره وقال بلهجة تدل على السخرية والحنق: (ألا ترى أنه يحتم عليَّ أن أجد عملاً في ظرف عشرين يوماً، أو يزج بي في السجن مره أخرى؟ ما شاء الله!). وأشتد اكفهرار وجهه، وأرسل من تحت حاجبيه الكثيفين نظره شريرة، وكان صاحبه ساهماً متفكراً يردد ناظريه بين وجه المعلم المكفهر والإنذار المبسوط بين يديه

وكانت هيئة المعلم بيومي من الهيئات التي لا يمكن أن تقتحمها العين، أو تمر بها دون التفات إليها، لأن صورته كانت حافلة بآي القوة والجسارة. نعم كان مظهره الرث وملابسه البالية القذرة تنطق بما هو عليه من فقر وبؤس، ولكن هيكله الصلب وصدره العريض وعضلاته المفتولة دلت على القوة والبأس، ونظرة عينيه وإيماءاته توحي بالكبرياء والعنف، وتلك الندوب تكتنف وجهه وجبينه، وآثار من طعن سكين في صفحة عنقه تثبت أنه خاض معارك عنيفة شديدة الهول، ولذلك أحاط به في غضبه صمت رهيب ألزم ألسنه الأقربين من سائقي (التاكسي) الجمود الثقيل. وقد التفت إلى صاحبه وقال في غيظ وحنق: (أنا. . . أنا بيومي الفوال. تتنكر لي الدنيا إلى هذا الحد؟!) وكبر عليه الأمر فجعل يضرب كفا بكف ولسانه لا يكف عن القذف والتهديد، وأكثر من القذف والتهديد. وقليلاً ما كان

يحرك لسانه ساعة الغضب فيما مضي من زمانه. فكان إذا غضب انطوى على الغضب حتى ينزل عقابه الصارم بعدوه، ولكن لم يبق له من ماضيه ذاك إلا ذكريات تطوف بين الحين والحين برأسه المثقل. فتنشر في ظلماته ضياء منيراً مقتبساً من عز الماضي ومجده وسلطاته

كانت نشأة المعلم بيومي في العطوف. وقد شهد صباه الأول على جسارته الطبيعية، فكان من خيرة صبيان الأعور (فتوة) العطوف الذي أرهب السكان وأعجز رجال الأمن. يجلس بين يديه يستمع إلى قصص مغامراته ويشهد مشاجراته ويخرج في مؤخرة عصابته إذا نفرت لقتال عصابات الدراسة أو الحسينية عند سفح المقطم، يحمل في حجره (الزلط) (وقطع الزجاج) يمد بها المتعاركين من قومه ويلاحظ فنون قتالهم عن كثب ويمتلئ حماسة للقتال وأعمال الجرأة فما شارف الثامنة عشرة حتى أشتد ساعده وانفتلت عضلاته، ومهر مهارة عجيبة في الضرب (بالروسية) والعصا والسكين والكرسي؛ واشترك في معارك فردية وجماعية فأبلى فيها أحسن البلاء. وذاع أمره كمتعارك شديد المراس، يقدم على مقاتلة عشرات الرجال بقلب لا يهاب الموت، ويدمر مقهى كاملاً إذا حدثت النادل نفسه بمطالبته بثمن مشروب، وأكبر الأعور فيه هذه الصفات فاصطفاه وآخاه وجعله ساعده الأيمن، وقاسمه الغنائم والأسلاب. ومات الأعور فخلقه على أريكة (الفتونة) دون شريك. وأبى طموحه عليه الهدوء والراحة؛ فتحدى فتوة الحسينية وظهر عليه، وقاتل فتوة الدراسة فهزمه، وخرج بمجموعة إلى الوايلية فأذل كبيرها ومزق جموعه شر ممزق، ودوى أسمه في تلك الأحياء دوى نذير الغارات، واستكانت له نفوس الفتوات، وأفاد من سلطانه فائدة رمقتها عيون الجسد جيلاً طويلاً. فجعل مركزه قهوة غزال بالخرنفش حيث يجتمع بأنصاره وصبيانه. وفرض

الآتاوة على كبار الأغنياء والتجار والقهوجية وشركة سوارس يؤدونها إليه صاغرين، ومن يتردد عن دفع ما يطلب منه عرض نفسه وما يملك للهلاك المبين. هذا غير ما كان يؤجر له من أعمال الانتقام والتهديد وحماية بعض النسوة من أهل الهوى، وتنافس كثيرون في التودد إليه بإهدائه الهدايا الثمينة، فكان يتقبلها تقبل الزاهد فيها وهو من غير الشاكرين وعاش المعلم بيومي في ظل سلطانه عيشة راضية في بلهنية ونعيم.

يلبس الجلباب الحرير والعباءة من وبر الجمل، ويتلفع بالشال الكشمير الفاخر ويركب الدواكر تجره الجياد المطهمة. ثم عشق (عالمة) فتزوج منها وكان فرحه فرح أهل الجمالية والعطوف والدراسة جميعاً، وانتظمت (زفته) الفتوات من جميع الأحياء وعدداً عديداً من أصحاب (السوابق) وحاملي الإنذارات والمترددين على السجون. . . وأحيا ليالي العرس الشيخ ندا وعبد اللطيف البنا وبمبة كشر. ثم مازال يعلو نجمه يوماً بعد يوم حتى تسنم ذروة المجد في الانتخابات الأولى عام 1924. فقد أقر بنفوذه كثير من رجالات السياسة في مصر وسعوا إليه يرجون نصرته لهم ويساومن على شراء أصوات أنصاره وأتباعه، وشهدت قهوة غزال محضر باشوات وبيكوات يجلسون إلى المعلم بيومي الفوال متوددين متحادثين. وكان المعلم لهم ويستولي على نقودهم، ولكنه في يوم الانتخابات ذهب وصحبه إلى أقسام البوليس يعطون أصواتهم لمرشحي سعد زغلول

ومنذ ذاك العهد وهو يسمى أولئك الباشوات والبيكوات (بالكروديات) على أنه كان يباهي باتصالاته بهم في أحايين كثيرة فيقول في أثناء حديثه (وقال لي الباشا كيت وكيت) وقلت للباشا كيت وكيت

تلك أيام خلت. . . وخلفت وراءها دهراً قاسياً شديد الظلمات. فما يدري أولئك الفتوات إلا والبوليس يضيق بهم ذرعاً ويشمر للقضاء على أعمالهم، وكان من سياسته أن قذف الحسينية بضابط شاب لم تشهد الداخلية له من قبل نظيراً، سواء في قوته أم في شجاعته وشدة عناده. وكان يعلم أن هدفه الأول هو المعلم بيومي الفوال، فلم يحد عنه، ولم ينتظر الأدلة القانونية لأنه كان يعلم أن أحداً من الناس لن تواتيه شجاعته على الشهادة ضده. فهاجمه بجنوده بغتة وقاده إلى النقطة وأمر الجنود بضربه ضرباً مبرحاً. وأصيب المعلم بذهول شديد لذلك العدوان الجريء. فما كان من الضباط إلا أن أعاد الكرة مرة ومرتين حتى كسر شوكته. ثم جعل يسوقه أمامه محاطاً بجموع الجند الشاكي السلاح يصفعونه في كل منعطف طريق، ويركلونه أمام كل قهوة وينزلون بمن يظهر لهم من فتيانه أشد العقاب، فأفاق الناس من غشيتهم وانحلت عقدة الذعر الممسكة بألسنتهم فهرعوا إلى رجل الأمن يشكون ويستعدون، ووجد الرجل الدليل الذي يطلبه وزج بالمعلم في غيابات السجون يذوق أشد الأهوال والآلام. وهكذا أخذ المعلم بالإرهاب الذي أخذ به الناس جميعاً. وقضى في السجن بضع سنين. ولما فارقه لم يجد أحداً من الفتوات في استقباله يهنئه ويقول له:

فقد لاذ كل منهم بسبيله، منهم من سجن، ومنهم من هجر (السجن للجدعان) الحسينية، ومنهم من راض نفسه على العمل كما يعمل الناس جميعاً سعياً وراء الرزق. فألفى المعلم عالمه مهجوراً كئيباً، ومجده ذكرى أليمة لا يترحم عليها إنسان، حتى زوجه ضاقت بفقرة وتسوله فهجرته وعادت إلى بنات فنها في شارع محمد علي. وطحنت الآلام تلك النفس الجبارة العاتية. وترنح صاحبها تحت أثقال الهموم لا يستطيع أن يجأر بصوت الشكوى خشية عيون البوليس المحدقة به من كل جانب، وظل على حزنه وألمه حتى تلقى إنذار التشرد الذي يخيره بين العمل أو السجن

طافت برأسه - في ساعة بؤسه تلك - صور من أيام مجده تراءت راقصة أمام ناظريه خلل أغشية الحزن والألم. وكان صاحبه السائق في تلك الأثناء يراقبه بطرف خفي وأصابعه تبعث بالإنذار الذي أحدث كل ذاك الغضب. وكان يدير أمراً هاماً في عقله. فلما قلبه على أوجهه المحتملة التفت إلى المعلم وسأله:

- ماذا تقول يا معلم لو عرض عليك عمل يدفع عنك غائلة البوليس؟. . .

وحدجه المعلم بنظرة غريبة دون أن يفوه بكلمة. وتشجع السائق بصمته فاستدرك قائلا:

- سبق أن علمتك قيادة السيارة. وهي صنعة في اليد تعمر بيوتاً، وما من شك في أنك خبير بالطرق والمواصلات وأستطيع أن أدلك على عمل في (الجراج) الذي أعمل فيه

على شرط أن تتنازل وترضى. . . فما رأيك يا معلم؟
ولم يسارع المعلم إلى الفرح كما ينبغي لأي رجل في مكانه، لأن العمل كان التجربة الوحيدة التي لم يعرفها، وهو لم يكن شيئاً عظيماً قط في نظر الفتوات المحترفين، فتوجس منه خيفة، ولكنه لم يكن في حالة يستطيع معها رفض ما يعرض عليه مادام العمل هو المنقذ الوحيد له من السجن. فقال لصاحبه بلهجة لم تخل من الامتعاض:
وهل من الممكن أن ألحق بهذا العمل قبل مضى العشرين يوماً؟
- يغير شك ولا ينقصك إلا شيء واحد. فتساءل المعلم قائلاً:
- ما هو؟. . .
- بذلة يا معلم، لأنه لا يمكن أن تكون (شوفيراً) بغير بذلة. فاشتر بذله أو أجرها أو أستعرها كيفما أنفق. ولكن لابد من بذلة
ومال إلى التفكير في الأمر تفكيراً جدياً ووجد نفسه يحاول حل مسألة العثور على بذلة. ولكنه لم يدر له بخلد أن يجد ضالته عند صاحبه السائق أو عند أحد من أقرانه، لأنه كان يعلم أنهم لا يملكون سوى البذلة التي يلبسونها. على أنه لم ييأس لذلك من العثور على بذلة. فعليه بالأفندية الذي كانوا إلى عهد قريب يتقون أذاه ويرجون خيره، فلا يمكن أن يضنوا عليه ببذلة قديمة ناطت الأقدار باقتنائها قوام حياته. واعترض على أولئك الأفندية سلبهم وطرق أبوابهم ورجالهم بلهجة غير التي ألفوا أن يسمعوها منه، أن يتنازلوا له عن بذلة قديمة، ولكنهم ردوا عليه بأوجه من الأعذار لا تفند، فقال فريق إنهم لا يملكون سوى بذلة واحدة غير التي يلبسونها، واعتذر فريق آخر بسوء الحال وكثرة العيال ووطأة الأزمة. وقال واحد بقحة إن خادمه أحق ببذلته القديمة. وعجب المعلم لأولئك اللؤماء واهتاجه الغضب اهتياجاً شديداً وقال لنفسه بإصرار وعناد (ما دامت البذلة تنقذني من السجن فسأحصل عليها مهما كلفني ذلك من العناد) وكان يتخبط في الطريق على غير هدى حين وجد نفسه اتفاقاً أمام دكان كواء عند مبتدأ شارع السبيل، فألقى عليها نظرة سريعة لصقت بالبدلة المعلقة، فتراخت ساقاه عن المشي وأسند ظهره إلى شجرة قريبة ومضى يتفرس في البدل المتراصة تفرس الجائع المنهوم في فرن الحاتي المليء بالشواء من اللحوم، ثم عاين المكان فرأى الدكان قائماً إلى جانب جراج تحدهما من الخلف صحراء العيون. ودارت برأسه خواطر محمومة عنيفة وعزم عزماً أكيدا
وأصبح الصباح وجاء الكواء يفتح دكانه فما راعه إلا أن رأى في ظهرها ثغرة فانخلع قلبه وهرع إلى ثياب زبائنه. ووجدها كاملة إلا بدلة واحدة. . . فكانت دهشته قدر انزعاجه!
وصار المعلم بيومي سائق تاكسي ولم يعد لضابط نقطة الحسينية من سلطان عليه، ولأمر ما أختار الجيزة ميداناً لعمله فاراً بالبذلة التي لم تهده الحيلة إلى صبغها أو قلبها كما كان ينبغي أن يفعل اللص الماهر. وما كان يصبر على نظام العمل لولا أن السجن كان عودة على ما هو أشد إيلاماً ومقتاً، فرضي كارهاً أن يلبي النداء ويحمل الراكبين، ويبدي احترامه لمن كان بالأمس ينظر إليهم شزراً ويدعوهم (بالكرديات). . .
ولم تخل حياته في ذاك المهجر من حوادث، ففي ذات أصيل وكان مضى عليه ما يقارب الشهر في عمله. وكان ينتظر في موقفه برز رجل وجيه من باب الفانتزيو وناداه ولبى
المعلم مسرعاً وترك مقعده ليفتح الباب للسيد الوجيه ومضت دقيقة وهو ينتظر والرجل لا يتحرك، فعجب المعلم للأمر ونظر إلى الرجل فرآه ينظر إليه بإنكار بل رآه ينعم النظر في بذلته وخفق قلب المعلم. واضطرب وأحس كمن وقع في فخ، وهم بالتحرك ولكن الرجل دنا منه وأمسك بالياقة بسرعة وثناها ليقرأ اسم الطرازي ثم قبض على ذراع المعلم وصاح به بغضب:
- قف يا لص. . . من أين لك هذه البدلة؟
ونادى الشرطي بصوت عال. فحدجه المعلم بنظرة نارية وكان يستطيع بغير شك أن يبطش به لو أراد، ولكنه استشعر بأساً غريباً خرج به عن وعيه فما يدري إلا والشرطي يقبض عليه. . .
والظاهر أن الحظ الذي حالفه قديماً تخلى عنه إلى الأبد، وإنه ليعاني الآن السجن؛

والله وحده يعلم ما هو صانع به بعد ذلك
نجيب محفوظ
الفنون أسرار
للأستاذ عبد اللطيف النشار
كانت غرفة المكتبة في منزل المسيو (بنديبي) محتوية على (دواليب) قصيرة ذات طبقتين وفوق ظهورها عدد غير قليل من الصور والتماثيل الصغيرة والعاديات والتحف المختلفة الأنواع والأشكال، وكان (بنديبي) على فقره رجلاً على درجة من الأهمية لاشتغاله بالآداب والفنون، وكانت التحف الموضوعة فوق دواليبه مجردة عن النظام والترتيب، وكانت زوجته مدام بنديبي الضعيفة البصر تعاني جهداً في تنظيف الدواليب وما فوقها بمكنستها الصغيرة المصنوعة من ريش النعام
وفي يوم من الأيام أدت واجبها بالمنزل وجلست مستندة إلى ذراعي مقعد كبير تنتظر عودة زوجها فعاد وعلى وجهه كل علائم الاهتمام وقال: (انظري إلى هذه القطعة) وأشار بإصبعه إلى شيء فوق الدولاب واستمر يقول: (لقد استكشفت أن هذه القطعة الفنية تساوي مائة ألف فرنك). فأدارت السيدة نظرها الضعيف إلى حيث يشير إصبعه ورأت طبقاً عادياً من أطباق الحساء (سلطانية) فقالت: (أحقاً إنها تقوم بهذا الثمن؟) قال المسيو بندبي: (نعم والذي قومها بهذا الثمن من أشهر هواة العاديات، وقد رفضت بيعها مع إلحاحه في طلبها. وماذا أفعل بالمال؟ إنني لست تاجراً ولكنني هاو. وأذكرك أيضاً بأني كلما اشتريت تحفة من هذه التحف كنت تقولين لي إنها حقيرة لا تساوي شيئاً، فهل تقدرين الآن أنني كنت مصيباً لما اشتريت هذه القطعة بسبعة فرنكات؟)
ومن ذاك اليوم لم تكن الزوجة تجرؤ على أن تمس الطبق خوفاً عليه من الكسر. وكانت تنظر إليه فتتذكر أنه كان في بيت جدها آنية مثله تماماً وأنها كسرت فلم يحزن عليها أحد، فكانت تقول في نفسها: (حقاً إن الفن كله أسرار. وكان زوجها يقول: (انظري إلى بهجة لونها وإلى الرنين الذي تحدثه عند لمسها بالإصبع). فتنظر ولكنها لا تجد جديداً في اللون ولا في الرنين. وكان الأولى بها أن تقول ما تعتقد؛ فيحاول زوجها إقناعها، وتنكشف لها الحقيقة فتعرف خطأها.
ولكنها كانت توافق زوجها إذعاناً. وكان ذلك من سوء حظها، فمات زوجها بعد أمد قصير ولم يبين لها سر الفن الذي يعرفه هو وجامع العاديات الذي عرض عليه مائة ألف فرنك
في القطعة الأثرية. ولم تكن القطعة هي الآنية، ولكنها تمثال فتاة كان موضوعاً خلف الآنية. وكانت تلك المسكينة لضعف بصرها تحسب زوجها يشير إلى الآنية. وبعد موته رأت مدام بندبني أن تبيع كل ما تركه زوجها إلا الآتية؛ واستدعت أحد الهواة فأرته المكتبة وما فوق دواليبها، وقالت إنها تريد أن تبيع ذلك كله صفقة واحدة. وكان التمثال لسوء الحظ لا يزال موجوداً وراء الآنية، فنظر المشتري إلى كل الأشياء فأدرك قيمة التمثال وأشار إليه وقال: (وهل تدخل هذه القطعة ضمن الصفقة؟) فصاحت الأرملة محتدة (الآنية! فإنني لا أبيعها، فهي أنفس شيء عندي إنني لا أبيع هذه الأشياء لأني محتاجة إلى الثمن، ولكن لأنه ليس لها لزوم عندي) ونظر المشتري إليها وقدر أنها مجنونة فلم يناقشها، وأشترى التمثال بخمسين فرنكاً ثم باعه بعد ذلك في أمريكا بنصف مليون وباعت السيدة سائر التحف والمنزل وما فيه. وأخذت الآنية معها وذهبت إلى الريف. ولاحظ خدمها الجدد وأقاربها وجيرانها أنها لا تخشى على شيء غير الآنية، وأنها تحذرهم من المساس بها كل التحذير. وشاع في القرية أنها تعبد آنيتها هذه، وأن عقلها غير سليم
وأخذوا يناقشونها وهي تحتد في طلب سكوتهم، وتزيد في حرصها على آنيتها وإيصاء الخدم بها، فاستدعى أهلها طبيباً، وسألها الطبيب عن سر هذه الآنية. فقالت: إنها مستعدة لإطلاعه على الحقيقة على شرط أن يعادلها على الكتمان فالأمر سر عظيم؛ وقالت: (لقد اشترى زوجي هذه الآنية بسبعة فرنكات وهي الآن تساوي مائة ألف فرنك كما قرر ذلك أحد الهواة) قال الطبيب: (أظنك يا سيدتي تمزحين، فإن هذه الآنية لا تساوي شيئاً وأكثر العائلات تملك نظائرها) فقالت: (أو بمثل هذه البهجة في اللون؟ وهل تحدث مثل هذا الرنين؟!)
فأضطرب الطبيب ودهش لثقتها بشيء لا وجود له، فلم يكن للآنية لون مبهج ولا لها

أي رنين. ولم يشأ مجادلتها لاعتقاده أن مرضها هو (الجنون بالفكرة الواحدة) وأنها إذا عولجت فقد تشفى. وبناء على قرار الطبيب نقلها أقاربها إلى مستشفى الأمراض العقلية، فدخلته راضية ومعها الآنية؛ ولم يهمها هذا الانتقال ما دامت معها هذه الثروة العظيمة، ولم يضن أهلها عليها بها ولكنها انتقاماً منهم لكيلا يرثوها أوصت بها لمتحف (اللوفر)

ومن يدري كم بالمتاحف من أمثال هذا الأثر؟ أليست الفنون كلها أسراراً؟

(عن الفرنسية)

عبد اللطيف النشار

العدد 384 - بتاريخ: 11 - 11 - 1940

بشائر السلامة

. . .أمة التوحيد تتحد

قالت الأهرام في عدد يوم الجمعة الماضي: (إن هناك بحثاً يدور الآن في بعض الدوائر العربية حول تكوين حلف عربي يواجه به العرب الظروف الحاضرة التي يجتازها العالم اليوم. والمفهوم أنه إذا انتهى هذا البحث التمهيدي فستدعى الحكومة المصرية رسمياً إلى الاشتراك فيه. أما الدول التي يشملها هذا الحلف فهي: مصر وسوريه وفلسطين والعراق والحجاز. وقد يتسع نطاقه فيشمل إيران وأفغانستان)

هذا التفكير على أي شكل كان يدل على تيقظ الروح الهاجد في الجسم العربي، ويبشر بتجمع القوى الشتيتة في أعضائه، ويطمئن قلوب الأحرار الأبرار الذين تتفارطهم الهموم على مستقبل العرب والإسلام والشرق. وكان من أعجب العجب أن يرى العالم العربي الخطوب تتواثب على جوانبه، والنوازل تتفاقم في أحشائه؛ ثم تظل كل دولة من دوله سادرة في مشاعب هواها تتلهى بالنظر الغرير إلى حركات زعمائها وهم يتصارعون على المناصب ويتنازعون على الحكم؛ كأن السلامة والسلام أمران يجريان من حياتها مجرى الأمور الطبيعية كالنوم واللذة والضحك، فهي لا تشغل بهما البال ولا تدير عليهما الفكر

ولقد قلنا منذ عام حين تحلبت أشداق النازية على حدود الدول الصغيرة: إن الدويلات الضعيفة كان لها فيما مضى من الزمن السعيد حارس من سلطان الدين وحكم القانون وعرف السياسة، فكانت تعيش في ظلال الخلق الإنساني العام حره آمنة، لا تجد من جاراتها الكبرى إلا ما يجده الصغير من عطف الكبير، والفقير من عون الغني؛ فلما كفر النازيون والفاشيون بشرائع الله وقوانين الناس أخذوا العالم بسياسة السمك، ففسد النظام، واختل التوازن، واضطربت الحياة، وذل الحق، وأفلس المنطق. فليس لها اليوم من عاصم أن تنضوي إلى الديمقراطية التي تجاهد في سبيل السلام والحرية والمدنية بجانب جهادها في سبيل نفسها؛ حتى إذا انتصرت على هذا الطغيان المسلح الكافر نظرت هي في يومها وفي غدها، فتعالج ضعفها بما تعالج به الطبيعة ضعف النمل والنحل والقرود، وهو التجمع والتعاون، فيكون بين البلاد المتجاورة كشعوب الإسلام الأربعة عشر شبه ما بين الولايات الأمريكية الثماني والأربعين: من اتحاد السياسة الخارجية والدفاع العام، والدستور المشرع، والرئيس الحاكم. وإذن لا يبقى على الأرض أمة صغيره يقوم على استعمارها النزاع ويميل من جراها ميزان السلامة

إن من يستمع إلى الإذاعة العربية من بلاد المحور يرتعد فرقاً من هذا الإخلاص الإيطالي للإسلام وذلك العطف الألماني على العرب. ومن شقاء العقل أن نحمله على أن يسيغ هذه الدعاية الغريبة التي اتخذت وا أسفاه ألسنتها من بعض العرب الذين فتنهم المال الغرور لتقول: إن فيالق الدتشي وكتائب الفوهرر لم تحشد في صحراء مصر وجبال البلقان إلا لتنقذ العرب والمسلمين من عذاب الديمقراطية البريطانية! ليت شعري من الذي حملهم هذه الرسالة وأوجب عليهم هذه التضحية؟ لسنا اخوتهم في الجنس ولا في العقيدة ولا في المنفعة حتى يكون لما يبذلون في سبيلنا من الأموال والأنفس مسوغ. ولسنا من السذاجة والغفلة بمكان القطيع الذي حالف الذئب الجائع الطامع على الكلب الحارس الأمين. إنما نحن شعب مختار حكم العالم في ماضيه، وتمرس بالشدائد في حاضره؛ فله من بصيرته الموروثة نفاذ إلى صميم الخديعة، ومن تجاربه الأليمة سداد في مزالق الفتنه؛ فلا نجهل أننا نحن الغنيمة التي

يحتربون عليها، والطعمة التي يختصمون فيها؛ وكلما أرسلوا الأمواج من مذاييع باري وبرلين تحمل إلينا منهم الشوق المبرح والحدب الشديد، تضاممنا من الفزع ليتقي بعضنا ببعض سهام كيوبيد الأثيرية!

هذا التضام هو التكتل الذي يصير إلى الوحدة. والوحدة التي يقتضيها الدفاع عن النفس ويدعو إليها الخوف، أوثق وأصدق من الوحدة التي يوجبها النزوع إلى الأنس ويبعث عليها الأمن

لقد كان العرب والمسلمون فيما غبر متواكلين متخاذلين، لأنهم كانوا هم على هذه الحال يستطيعون في حمي الديمقراطية السمحة أن يعيشوا بوجه من الوجود. ولكن ماذا عساهم يصنعون وهذه الدكتاتورية الباغية تزحف شعبتاها إلى الشرق عن طريقين مختلفين: شعبة تبغي استغلال البلاد لأنها بطبيعة أرضها فقيرة، وشعبة تريد استعباد الناس لأنها بطبيعة عنصرها على زعمها سيدة. وإذا دهمك من اليمين ومن الشمال الجائع السلاب والمتكبر الغلاب فقدت وجودك المادي والأدبي السلب والغلب؛ ثم لا تدري أي شيء تكون بعد ذلك!

فاتحاد الأمم العربية أمام هذا الخطر الهاجم ضرورة خلقتها غريزة حب الحياة. وفي اعتقادي أن الأمر في هذا الاتحاد لن يقف عند مناقشة الفكرة ومواضعة الرأي؛ ولكنه سيتعداهما إلى إمضاء العزيمة وإنجاز العمل. ذلك لأن كل أمة من هذه الأمم تشعر في وسط هذه الكوارث الداجية بما تشعر به الشاة الشاردة عن القطيع. وإن أسهل على الطبيعة أن تعيد اتحاداً ألفه الله من صلة الدم ونسب الروح من أن تبدأ اتحاداً ألفه الشيطان من النازية والفاشية والشيوعية والوثنية؛ فإن هذه النحل المجرمة أضداد تنسجم في الباطل وتتنافر في الحق، ولا بد أن يدركها داء البغي فتحر ضارعة صريعة أمام قوى الخير والعدل ولو بعد حين!

أحمد حسن الزيات

أخلاق القرآن

الإحسان

للدكتور عبد الوهاب عزام

الإحسان الإتيان بالحسن من القول أو الفعل. والإحسان خلق ينزع بصاحبه إلى الحسن من كل شيء، وينفر به عن القبيح من كل شيء، ويطمح به إلى الأحسن فالأحسن رقياً في درجات الكمال

فعل الخير إحسان وتأدية الواجب إحسان؛ ولكن أكثر ما يقال الإحسان للتبرع الذي يزيد على أدنى درجات الواجب وللتفضل بأكثر مما يطلب

وذلك درجات يعلو بعضها بعضاً حتى تنتهي إلى الكمال

في كل عمل درجات من الإحسان يختلف فيها المتسابقون إلى الخير، ينال أدناها كثير من الناس، ثم يقلون كلما علت الدرجات حتى ينقطع معظم الناس دون الدرجات العلى فلا يبلغها إلا أفذاذ من الأخيار المحسنين

وفي كل صنعة درجات من الإحسان يتنافس فيها الصناع إلى أن يستأثر النابغون بدرجات يقف دونها الدهماء والأوساط

والأفراد والجماعات والأمم وتتفاوت في الضروريات كالطعام والشراب الذين يمسكان الحياة، والملبس الذي يقي الجسم عوادي الحر والبرد، بل يستوي في ذلك الأمم التي لا تزال في درك الهمجية والأمم التي بلغت في الحضارة مكاناً علياً، وإنما يتفاوت الناس في الحاجيات والكماليات تفاوتاً بعيداً، يقاس بما بين طعام الهمج وملبسهم ومعاملاتهم وبين نظائر أولئك في الأمم التي توفر نصيبها من الحضارة

وكذلك يعظم تفاوت الناس في الإحسان. الواجبات يحتمها القانون أو العرف، وفوق الواجبات ضروب من التبرع في المعاملة أو الإتقان في الصناعة يتلاحق فيها الناس إلى درجة الكمال أو ما يقرب منها

وفي الناس من يقنع بأداء الواجب، وهو الدرجة الدنيا من الإحسان، وفي الناس من لا يعرف في الإحسان حدا، ولا في الكمال غاية؛ طماح كلما بلغ درجة استشرف لما فوقها

والنفوس الكريمة تنزع إلى العلاء نزوعاً دائماً، وتتطلع إلى الكمال كل حين. تحس في

سريرتها دعوة من الله العلي تدعوها إلى الرفعة وتهيب بها إلى الكمال، وترى النقص في كل درجة فوقها درجة، لا أعني درجات من الغنى والجاه والسلطان، ولكن درجات من الخير والمواساة والرحمة، وتكميل النفس في معارفها وعواطفها، درجات من النظام والجمال في عقل الإنسان وخلقه وبيئته وكل ما يتصل به. رحم الله أبا الطيب الذي يقول:

ولم أر في عيوب الناس شيئاً ... كنقص القادرين على التمام

رحم الله النفس الطماعة اللوامة التي لا تحد طموحها غاية، النزاعة إلى الخير والكمال في غير نهاية. إنما يسير الله خلقه إلى الكمال بأمثال هذه النفوس، ويهديهم إلى المثل العليا بأفعالها وأقوالها

وقد جاء في الحديث أن الرسول صلوات الله عليه سئل:

ما الإسلام؟ فقال: (أن تعبد الله ولا تشرك به، وتقيم الصلاة وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان) ثم سئل: ما الإحسان؟

فقال: (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك). فقد جعل الرسول الإحسان تأدية العبادة على أحسن الوجوه، وأن يبلغ بها العابد أعلى الدرجات

وقد أرشد القرآن الكريم إلى هذا في قوله: (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طَعِموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات، ثم اتقوا وآمنوا، ثم اتقوا وأحسنوا، والله يحب المحسنين). جعل الإحسان نهاية التقوى والعمل الصالح

والقرآن الكريم يأمر بالإحسان كله: الإحسان بفعل الحسن واجتناب القبيح، والإحسان بمجاوزة الحسن إلى الأحسن. وقد أكد الأمر به وكرره وبين مكانة المحسنين من الله سبحانه وجزائهم عنده

بين القرآن أن الله تعالى أحسن خلق الناس وأحسن خلق كل شيء. قال: (ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم، الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين). وقال: (الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات، ذلكم الله ربكم فتبارك ربكم فتبارك الله رب العالمين).

وإذا كان خلق الله كله إحساناً فهذا العالم أولى به الإنسان، وأقرب إلى سنته وإلى مرضاة خالقه

بل بين القرآن أن الغاية من الحياة والموت والعمران استباق الناس إلى الإحسان وتنافسهم فيه

قال: (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً) وقال: (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً)

أمر الكتاب الكريم بالإحسان في العمل إذ قال: (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) والإحسان هنا إما أن يكون فعل الحسن وإما أن يكون زيادة على العدل. فالعدل إيتاء كل ذي حق حقه، والإحسان أن يعطي الإنسان ما لا يلزمه ويفعل أكثر مما يطلب منه.

ومهما يكن فهذا وذاك يأمر به القرآن ويدعو إليه ويحث عليه

وأمر بالإحسان في القول إذ قال: (وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن.) وقال: (وإذا جبيتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها. إن الله كان على كل شيء حسيباً.) فالمسلم مأمور أن يحسن في فعله وقوله جهد الطاقة، حتى ينتهي به الإحسان إلى الكمال الذي هو أليق به وأقرب إلى مقاصد دينه

وهذا الإحسان الذي أمر به المسلمون عام لا يخص فريقاً دون فريق إلا من ظلم واعتدى فليس له من إحساننا نصيب. يقول القرآن الكريم: (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم.)

الطريقة المثلى والدين الأحسن في شرعة القرآن أن يؤمن الإنسان بالله ويخلص له ويفعل الحسن. بين هذا القرآن في قوله: (ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن). وفي قوله (ومن يسلم وجه إلى الله وهو محسن فقد أستمسك بالعروة الوثقى)، وقوله (من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)

هذه هي الطريقة المثلى والخطة التي تكفل للإنسان سعادته واجتماع القلوب عليه وتجنبه الشقاء والبغضاء والشحناء مما يجعل الحياة شراً والأرض سعيراً. في الكتاب

المبين: (ولا تستوي الحسنة ولا السيئة. أدفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم) وهذا مطلب عظيم يحتاج إلى رياضة النفس على الخير وصبرها على المكاره. لذلك يقول القرآن بعد هذه الآية (وما يلقاها إلا الذين صبروا، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) وقال في آية أخرى: (والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار)

وبين القرآن أن الإحسان يكون في كل عمل وفي كل قول. فالاعتراف بالحق والإيمان به إحسان. حكى القرآن عن جماعة من القسيسين أنهم آمنوا وقالوا فيما قالوا: (وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين) وقال عقب هذا: (فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين). فقد عد قولهم المنبئ عن الإيمان إحساناً. وفي آية أخرى يعد العفو عن المسيء والصفح من الإحسان قال: (فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين)

وعد استجابة المسلمين لدعوة الرسول إلى تعقب المشركين بعد ما أصاب المسلمين في أحد - عد هذا إحساناً في قوله: (الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم من بعد ما أصابهم القرح، للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم) وعد احتمال المشقة في سبيل الحق إحساناً فقال في المجاهدين: (ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله، ولا يطئون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين)

النفس الكريمة الطيبة تنزع إلى كل عمل حسن وتنفر من كل قبيح ولا تقف في الإحسان عند حد، فهي تواقة إلى الأحسن فالأحسن؛ تحسن في كل فعل وفي كل قول وتطمح في كل في كل درجة إلى ما فوقها وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والمحسنون مقربون إلى الله سعداء بقربه ومحبته، لا يفارقهم إحسانه ورحمته. يقول القرآن: (وأحسنوا إن الله يحب المحسنين. ويقول إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون. ويقول: (إن رحمة الله قريب من المحسنين)

وأما جزاء الإحسان فقد قال فيه القرآن: (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان). وقال: (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) جزاء الإحسان أن يحسن الله إلى المحسن في الدنيا والآخرة. جزاؤه في الدنيا صلاح النفس وتزكّيها وفتح أبواب المعرفة عليها واستمتاعها بالحياة على أحسن وجه وتمكنها في الأرض وسيادتها وبلوغ الكمال الذي أراده الله للمحسنين. جاء في سورة يوسف: (ولما بلغ أشدَّه آتيناه حكما وعلما. وكذلك نجزي المحسنين) وقال في السورة نفسها: (وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء. نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين). جزاء الإحسان في هاتين الآيتين إيتاء الحكمة والعلم والتمكن في الأرض والرحمة. وأعظم به من جزاء

وأما في الآخرة فحسبك هذه الآية من آيات: (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا. أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار)

ذلكم الإحسان الذي يدعوا إليه القرآن، وذلكم جزاؤه في الدنيا والآخرة. على الإنسان أن يحسن ما استطاع ولا جناح عليه بعد إحسانه أن يستمتع بالطيبات من الرزق في هذه الحياة. وأن يبلغ من هذه الدنيا ما يشاء! وقد تلوت أنت هذه الآية:

(ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين)

وهذه آية أخرى جامعة:

(وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا، وأحسن كما أحسن الله إليك، ولا تبغ الفساد في الأرض، إن الله لا يحب المفسدين)

ذلكم هدى القرآن في الإحسان، وقد جاء في السنة حديث جامع: (إن الله كتب عليكم الإحسان في كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة) يعني إذا لم يكن بد من قتل إنسان قصاصاً فليقتل قتلة حسنة لا مثلة فيها ولا تعذيب؛ وإذا ذبحتم الحيوان فاذبحوه بأحسن وسيلة، الوسيلة التي تؤدي إلى المقصود دون تعذيب كذلك

وبهذا الهدى سار المسلمون الأولون، فأحسنوا أقوالهم وأفعالهم وأحسنوا إلى الناس

وبالغوا في الإحسان والإنفاق فنالوا جزاء المحسنين من السيطرة على الدنيا بالحق والسعادة بها وحسن الجزاء في الآخرة
وإن فيهم لأسوة حسنة للمتخلفين من بعدهم، فليجدوا في الإحسان ولينافسوا فيه. ليحرصوا على الإحسان في العلم والمعرفة والقول والفعل وفي كل صنعة وكل نظام تستقيم به أمور الناس على هذه الأرض، فقد دعا الإسلام إلى الإحسان كاملاً عاماً شاملاً. ومن أخلق من المسلمين بإجابة هذه الدعوة؟
عبد الوهاب عزام
مسابقة الجامعة المصرية لطلبة السنة التوجيهية
للدكتور زكي مبارك
- 1 -
تمهيد
كان يراد بالجامعة المصرية، الجامعة التي أنشأنها الأمة سنة 1908، والتي تحولت إلى جامعة أميرية 1925، وقد سميت (جامعة فؤاد الأول) سنة 1938 تكريماً لذلك الملك العظيم، لأنها أنشئت في عهده، ولأنه كان أول رئيس للجامعة المصرية.
وأنا حين أقول (الجامعة المصرية)، لا أريد (جامعة فؤاد الأول) بالقاهرة، ولا (جامعة فاروق الأول) بالإسكندرية، وإنما أعني (الجامعة المصرية) التي تنتظم هاتين الجامعتين، وما سينشأ من جامعات في مدائن الشمال ومدائن الجنوب: كالمنصورة وأسيوط
والحال كذلك في غير مصر، فالفرنسيون يقولون (الجامعة الفرنسية) حين يريدون المعنى الجامعي بلا تقييد، فإذا أرادوا التخصيص قالوا: (جامعة باريس) و (جامعة ليون) إلى آخر ما هنالك من جامعات
والمسابقة الجامعية التي أقرتها وزارة المعارف، لا تخص جامعة فؤاد الأول، ولا جامعة فاروق الأول، وإنما تعم جامعة القاهرة وجامعة الإسكندرية، فهي إذاً مسابقة (الجامعة المصرية)
موضوع هذه الدراسات
ويجب أيضاً أن نحدد الغرض من هذه الدراسات فنقول:
هو أولاً توجيه لطلبة السنة الخامسة بالمدارس الثانوية، وهو ثانياً تلخيص لطائفة من أثار الأدب الحديث
ولكن كيف نجمع بين هاتين الفائدتين؟ وكيف نسلك مسلك (التحبيب) وهو منهج من مناهج أسلافنا الفضلاء؟
يجب أن يكون مفهوماً أن هذه الدراسات موجهة إلى جميع القراء، وإن كان الغرض منها توجيه طلبة السنة الخامسة الثانوية إلى الاستفادة من مسابقة الجامعة المصرية. وذلك
يوجب أن ننظر في تلك المؤلفات بترفق وتلطف، بحيث يمكن جذب الطلبة والجمهور إلى إدراك ما فيها من مقاصد وآراء بدون تزيد وبدون إسراف، فما يجوز أن نصف كتاباً بما ليس فيه، أو أن نحمل مؤلفاً ما لا يطيق
تنبيه يفرضه منهج الدرس
ليس الغرض من هذه الدراسات أن يرجع إليها الطالب قبيل المسابقة بيوم أو يومين، وإنما الغرض هو توجيه إلى الاستفادة من تلك المؤلفات، فهو مسئول عن مراجعتها فصلاً فصلاً وجملة جملة ليدرك بنفسه أغراض المؤلفين؛ فإن لم يفعل فهو متواكل مخذول، ولن يظفر من المسابقة بشيء؛ ولو كنت أتوهم أن طلبة السنة التوجيهية سيستغنون بهذه الدراسات عن المراجعة والاستقصاء لطويتها عنهم، فما أحب أن يكون في شباب اليوم من يغنيه الوصف عن تعرف حقيقة الموصوف
قراءة الناقد وقراءة المستفيد
تنقسم القراءة إلى قسمين: قراءة فهم واستفادة، وقراءة نقد واستقصاء
فما قراءة الطالب هذه المؤلفات؟
يجب أن تكون القراءة الأولى - أو القراءات الأولى - قراءة فهم واستفادة، بحيث يهتم القارئ أولاً وقبل كل شيء بتفهُّم أغراض المؤلفين والانتفاع بما يحلون من مشكلات، وما يعرضون من آراء، فإذا انتهى من ذلك وتفهم الكتاب تفهماً صحيحاً رجع إليه فقرأه

من جديد قراءة النقد والاستقصاء، والمراد من النقد هو التعرف إلى نفسية المؤلف وإدراك ما في أقواله وآرائه من قوة وضعف، وصحة وبطلان؛ والمراد من الاستقصاء هو ربط أفكار المؤلف بما سبق للقارئ الاطلاع عليه من أفكار الباحثين، لتصح له الموازنات بين القراءات القديمة والقراءات الجديدة بصورة تقنعه بأنه تحرر من سيطرة المؤلف واطمأن إلى قدرته على المفاضلة بين رأي ورأي وأسلوب وأسلوب وإذا انتفع الطالب بهذا التوجيه فسيفوز حتما وسيخرج بمحصول نفيس يكون من أنفع ذخائره الأدبية في الحياة الجامعية. والله عز شأنه هو الموفق

فيض الخاطر

ونبدأ هذه السلسلة بدراسة كتاب (فيض الخاطر) لحضرة الأستاذ أحمد أمين عميد كلية الآداب، والمقرر للمسابقة هو الجزء الأول فقط، فإذا استطاع الطالب أن ينظر في الجزء الثاني أيضاً وأن يأخذ عنه فكرة مجملة كان ذلك أبلغ في الإحاطة باتجاهات المؤلف ومعرفة ما يعتلج في نفسه من أفكار وآراء

نشر الجزء الأول سنة 1357هـ 1938م وهو يقع في ستين وثلاثمائة صفحة بالقطع المتوسط (إلى أن نضع تحديداً دقيقاً لما يسميه الفرنسيون

والمؤلف يصور محتويات كتابه فيقول إنه (مجموع مقالات أدبية واجتماعية) نشر (بعضها في (الرسالة) وبعضها في (الهلال) وبعضها لم ينشر في هذه ولا تلك ومقالات الكتاب تُعد بالعشرات، أو هي بالضبط اثنتان وسبعون مقالة، وقد وضُعت في أماكنها من الكتاب بدون ترتيب، لأن الترتيب لم يكن ملحوظاً في إنشاء هذه المقالات، وقد وضعت أيضاً بدون تأريخ، لأن المناسبات لم تكن ملحوظة، فهي آراء يتصل بعضها بالعصر الجديد وبعضها بالعصر القديم، بدون التفات إلى روابط التاريخ

ومع هذا التلطف في الاعتذار عن المؤلف فقد كنا نحب أن يؤرخ تلك المقالات، لأن منهج التأليف يوجب ذلك ولأن الباحث قد يحتاج إلى تواريخ تلك المقالات بعد حين

الأسلوب

يتفق الأستاذ أحمد أمين في أحيان كثيرة أن يقول إنه يراعي في أسلوبه ذوق العصر، كالذي صنع منذ أكثر من عشرين سنة يوم نشر كتاب (الأخلاق)، وكالذي صنع في مقدمة (فيض) الخاطر حين قال: (وخير أسلوب عندي ما أدى أكثر ما يمكن من أفكار وعواطف في أقل ما يمكن من عسر وغموض والتواء، وراعك بجمال معانيه أكثر مما شغلك بزينة لفظه، وكان كالغانية تستغني بطبيعة جمالها عن كثرة حليها)

وهذا القول يشهد بشعور المؤلف بأن أسلوبه خالٍ من الزخرف والبريق والرواء، وبأنه لا يعول على جمال الألفاظ، وإنما يعول على جمال المعاني

والأمر كذلك في أسلوب الأستاذ أحمد أمين، فهو يكتب كما يتحدث، بلا عسر ولا غموض، ولا يهمه حين يؤدي المعنى تأدية واضحة أن يقال إن أسلوبه ليس بالأسلوب الرشيق، وقد

يتفق له أن ينقل العبارة الواحدة من موضوع إلى موضوع حين يراها تصل به إلى ما يريد، كعبارة (رواء في العين، ولا شيء في اليدين) فقد كررها بلفظها في معرضين مختلفين، وقد يأنس بتعابير العوام حين يراها تؤدي الغرض المقصود، كأن يقول: (وراحتْ أيام، وجاءت أيام) وهو مع ذلك ينقل بعض تعابير القدماء إلى كلامه من حين إلى حين؛ كأن يقول في سياق أحد الأحاديث (تجيئك بحمأة وقليل ماء)

أسلوب أحمد أمين ليس بالأسلوب الرشيق، وأحمد أمين ليس من (دهاقين الكلام) كما كان يعبر القدماء، ولا عبرة باعتذاره بأن المهم هو المعاني، ولا قيمة للغض من الزخرف والبريق والرواء، لأنها عناصر أساسية من الأسلوب الجميل

ولكن يجب الاعتراف بأن أسلوب أحمد أمين له شخصية تتميز بالسهولة والوضوح، فهو يعبر عن ذات نفسه تعبيراً صحيحاً، وهو يقنع وإن كان لا يفتن، لأنه يبغي الإقناع ولا ينشد الفتون، وليس ما وصل إليه بالمغنم القليل

موضوعات الكتاب

في كتاب (فيض الخاطر) موضوعات أدبية واجتماعية، وبعض الموضوعات الأدبية تراجم لرجال أنس بذكراهم المؤلف، كترجمة أبي محجن الثقفي، وفي هذه الترجمة تحدث المؤلف عن (الطائف) في الجاهلية والإسلام حديثاً طريفاً، وكان أكبر همه أن يبين قيمة الشخصية الخلقية لشاعر لا ينتهي عن الخمر إلا حين تصبح له من المباحات

بفضل ما أبلى في الحروب. والنظر في هذه الترجمة ينفع، لأن فيها معارف تاريخية وجغرافية، ولأنها تصور حرص المؤلف على التنويه بقيمة الاعتزاز بالنفس في بناء الشخصية الخلقية

وأبو محجن هو الشاعر الذي تعقبه عمر بن الخطاب بالنفي والتشريد لهذين البيتين:

إذا مت فادفنّي إلى جنب كَرمةٍ ... تروِّي عظامي بعد موتي عروقها

ولا تدفننّي في الفلاة فإنني ... أخاف إذا ما مُتّ أن لا أذوقها

وهنا يقول المؤلف: (ويشاء قاصّ من الظرفاء فيروي أنه رأى قبره بنواحي أذربيجان أو جرجان وقد نبتت عليه ثلاث كروم قد طالت وأثمرت واعترشت)

ونقول إنه لا موجب لعبارة (قاص من الظرفاء) التي تفيد الكذب والاختراع، فليس من المستبعد أن يحقق العرب مثل هذه الوصية، وكان من خير المدح عندهم أن يكون الرجل

وقد صقلت أذواقهم بالانتقال إلى فارس وطن الأعناب (شِرِّيبَ خمر مِسْعَراً لحروب) والصهباء، وهل يكثر على العرب أن يصنعوا مع قبر أبي محجن ما صنع الفرنسيون مع قبر ميسيه وما صنع الفرس مع قبر الخيام؟

العرب أظرف مما يتوهم الأستاذ أحمد أمين، و (القاص الظريف) لم يقل ما قال إلا استجابة لما فطر عليه العرب من الظرف في رعاية حقوق الشعراء

وفي كتاب (فيض الخاطر) ترجمة للأحنف بن قيس، وهي ترجمة نفيسة جداً، ويجب على الطالب أن ينظر فيها بعناية، فقد تفيد في الإجابات التحريرية أو الشفوية، لأنها بالفعل من أطايب هذا الكتاب، والأستاذ أحمد أمين يجيد حين يتعرض لموضوع وجدت عناصره الأصيلة في كتب القدماء

وفيه ترجمة لسيبويه المصري، وفي هذه الترجمة فكاهة وأدب وتاريخ، وهي جديرة بالالتفات

ويتصل بهذا النوع ترجمته للون الأصفر في العصر العباسي وهي نبذة طريفة تصور جانباً من الذوق الاجتماعي في ذلك العهد والأذواق تترجم كما يترجم الأشخاص!

أما التراجم الحديثة فأهمها ترجمة عاطف بركات وترجمة علي فوزي، وقد أجاد الكاتب في هاتين الترجمتين، وإن كان انحرف بعض الانحراف في الترجمة الثانية، لأنه صور فرار علي فوزي من المجتمع المصري بصورة العقل، ولو أراد الحق لعد ذلك الفرار من صور الجنون، وعذر المؤلف أنه أراد الترفق بأستاذه وهو يرثيه، وإلا فكيف يكون الانصراف عن الزواج رحمة بالمرأة وهي لا ترى الأمان إلا في رحاب الزواج؟

إن الكاتب حبر هذه المقالة في لحظة غضب على المجتمع، وبذلك استجاز أن يرى الانسحاب من ميدان الجهاد دليلاً على رجاحة العقل، ولو أنه كتب هذه المقالة في لحظة هدوء لرأى أن تصرف المرحوم على فوزي بك لم يكن إلا تصرف رجل مريض صده المرض عن الاضطلاع بأعباء الأسرة، وصرفه عن المشاركة في النهوض بالواجبات الوطنية

وعلى ذلك تكون هذه تكون المقالة من الأدب الذاتي، وهو الأدب الذي يصور الكاتب قبل أن يصور المجتمع، وهي مقالة لها تفاسير في أدب الأستاذ أحمد أمين، فقد شهد على نفسه

في كتابه هذا بأنه قليل الضحك كثير البكاء، وذلك سر نجاحه كاتباً، لأن الأمم التي تعاني الاضطهاد، أو تتوهم أنها تعاني الاضطهاد تميل إلى الكاتب الذي يكثر من شرح معاني الضجر والاكتئاب

وننتهز هذه الفرصة فنشير إلى المقال الذي عنوانه (الضحك) والمقال الذي عنوانه (سيدنا) فهما يصوران شقاء الكاتب بالناس والزمان، فقد ضربه معلمه في الطفولة ضرباً قاسياً عنيفاً، ضربه ضرباً قضى بأن يستريح في المنزل نحو أسبوعين، والذي يواجه بأمثال هذه المكاره وهو في طهارة الطفولة لا يرى الناس إلا قطعاناً من ضاريات الذئاب

ولم يفت الأستاذ أحمد أمين أن يعقب على ذلك السلوك الفظيع من معلمي الأطفال، فقد عده رياضة على تحمل مكاره الحياة، ولعله صدق، فقد قام الدليل على أن الخوف من المجتمع هو أنجح الوسائل في الانتصار على المجتمع

وهذه النظرة تفسر ما يغلب على كتابات الأستاذ أحمد أمين من الميل إلى الجد

الصرف، واستهانته بالأزهار البواسم في رياض الآداب والفنون، كالذي وقع في مقال (أدب القوة وأدب الضعف) وهو مقال جيد من حيث التصوير لنفسيته الذاتية، وهي نفسية الرجل الذي صرح في مقالة (الموت والحياة) بأن الأمر في السعادة إلى ما في داخل النفس لا في خارجها، وأن في الدنيا نفوساً قد تشقى في النعيم ونفوساً قد تسعد في الشقاء

وكذلك نرجو أن يفطن طلبة السنة التوجيهية وهم يقرؤون كتاب (فيض الخاطر) إلى أن المؤلف أديب يصور لواعج نفسه قبل أن يصور بلايا المجتمع، وإذا كان أحمد أمين قد نجح نجاحاً ملحوظاً في حياة الأدبية والمعاشية، فهو نجاح السباح المغامر الذي عانى ويلات الخطوب وهو يقارع الأمواج في ليلة داجية مُثقلة الحواشي بالعواصف والأنواء

ونخرج من هذا بأن أحمد أمين لم يكن مرائياً في قصر أدبه على الجد الصرف، فهو في حقيقة الأمر رجل حزين، وإن كان يستريح إلى أحاديث الدعابة والمجون حين يخلو إلى أصدقائه الخواص، وهل يستريح إلي الدعابة إلا الرجل المكروب؟

إن هذا الرجل أعلن في كتابه أنه يشتهي ضحكة قوية يمسك منها صدره، ويفحص منها الأرض برجليه، ضحكة تملأ شدقيه، وتبدي ناجذيه، وتفرج كربه الأليم، وتكشف همه المقيم. ولكن تلك الضحكة القوية لن تتاح لمن كان في مثل حاله من الحرص على الوقار

والتزمت، والخضوع لأهواء المجتمع البليد الذي يرى المرح من عيوب الرجال

وهنا أذكر نكتة قصها رجل سخيف، رجل لا يؤمن بأن الشيخ محمد عبده كان من العظماء، لأنه شهده مرة وهو يضحك بقوة وعنف كما يضحك الأطفال

والنكتة هي ضحك الشيخ (محمد عبده) بتلك القوة وبذلك العنف، والعظيم عظيم في كل شيء حتى في الهزل والمجون، وكان محمد عبده عظيماً في الجد وعظيما في المزاح، ولن تكمل الشخصية الإنسانية إلا إذا استوفت معاني المرارة والحلاوة والقسوة واللين

قال الراوي: كان محمد عبده يضحك ينافي وقار العلماء

وأقول إن محمد عبده لم يكن واحداً من العلماء، وإنما كان أوحد العلماء، وللأوحد مزايا لا يتمتع بها الآحاد

وقد أخبرنا الأستاذ (أحمد أمين) في كتابه أنه سيحاول الضحك. فهل ضحك؟ كتب الله لي وله نعمة القدرة على الاستهانة بمكايد الناس ومكاره الزمان!

أما بعد ففي كتاب (فيض الخاطر) مقالات نخصها بالحمد بلا تحفظ، وندعو الطلبة إلى فهمها بعناية وحرص، كمقالة (عدو الديمقراطية) وهي من بدع ما كتب بدع ما كتب أحمد أمين، ومقالة (الإشعاع) وهي مقالة رفضت النظر إليها في الكتاب، لأني فوجئت بها في مجلة الرسالة وأنا راجع من فرنسا في صيف سنة 1933 فكان لها تاريخ في تحديد ما بيني وبين الأستاذ أحمد أمين، ومع طول العهد ومع النفرة من مراجعة هذه المقالة فأنا أعتقد أنها من غُرر الأدب الحديث، وقد كتبت هذه المقالة في لحظة من (لحظات التجلي) وهو عنوان لمقال طريف وفق الكاتب في فقراته الختامية إلى معانٍ لا تصدر إلا عن رجل موهوب وأحمد أمين في بعض ما يكتب رجل موهوب

وهنالك مقال (الحلقة المفقودة) وهو مقال صادق، وقد كان له تأثير في بعض البيئات العلمية، والكاتب الحق هو الذي ينقل الفكر من حال إلى أحوال، ويعكر صفو الآمنين من حين إلى حين

ثم أما بعد فكتاب (فيض الخاطر) هو صور ذوقية وأدبية واجتماعية لرجل محترم يعاديه قوم ويصادقه أقوام، رجل له أهل وأبناء وأصدقاء وأعداء، ومن كان كذلك فهو خليق بأن يفهم سرائر المجتمع كل الفهم أو الفهم أو بعض الفهم، وهو جدير بأن ينصب لآرائه ميزان

أحمد أمين يمثل صورة الرجل المسئول، والرجل المسئول مسكين مسكين مسكين، هو مسئول أمام أهله وأبنائه وأصدقائه وأعدائه، وهو مسئول أما تلاميذه بكلية الآداب، وقد كففت عنه قلمي منذ اليوم الذي عين فيه عميداً لكلية الآداب، لأن الغض من عميد تلك الكلية خروج على ما لها في عنقي من عهود ومواثيق

ومعنى ذلك أنني أحب أن يقرأ طلبة السنة التوجيهية كتاب (فيض الخاطر) بتدبر

وإمعان، لأنه حقاً وصدقاً كتاب نفيس، ولأنه صورة لرجل كريم لم يأخذ عليه خصومه غير هنوات لا تغض من أقدار الرجال، ومن الدليل على كمال الرجولة أن يكون فيها ما يعاب، لأن الرجولة الحق مزاج من الرشد والغي والهدى والضلال

ثم ماذا؟ ثم أنتقل إلى كتاب (وحي الرسالة) بمثل هذا الأسلوب من الصدق في تشريح أغراض المؤلفين، وأنا أرجو أن يقبل طلبة السنة التوجيهية على هذه المؤلفات بشغف وشوق، ليكونوا برعاية الله أنصاراً أوفياء للأدب الحديث.

زكي مبارك

في الاجتماع اللغوي

اللهجات المحلية

للدكتور على عبد الواحد وافي

مدرس الاجتماع بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

تقضي القوانين الخاضع لها تطور اللغات أن تختلف اللهجات في الأمة الواحدة تبعاً لاختلاف أقاليمها وما يحيط بكل إقليم منها من ظروف وما يمتاز به من خصائص. وقد جرت العادة أن يطلق على هذا النوع من اللهجات أسم اللهجات المحلية وتختلف هذه اللهجات بعضها عن بعض اختلافاً كبيراً في المساحة التي يشغلها كل منها: فمنها ما يشغل مقاطعة كاملة من مقاطعات الدولة؛ ومنها ما تضيق منطقته فلا يشمل إلا بضع قرى متقاربة؛ ومنها ما يكون وسطاً بين هذا وذاك. وكثيراً ما تختلف هذه المناطق اللغوية في حدودها عن المناطق المصطلح عليها في التقسيم الإداري والسياسي. فقد تقسم القرى التي تتألف منها منطقة لغوية واحدة بين مديريتين أو أكثر؛ وقد يجتمع في مديرية واحدة أو مركز واحد عدد كبير من المناطق اللغوية. ولدينا نحن المصريين على ذاك شواهد كثيرة في مختلف أقاليم الصعيد والوجه البحري

وتعمل كل لهجة من اللهجات المحلية على الاحتفاظ بشخصيتها وكيانها، فلا تدخر وسعاً في محاربة عوامل الابتداع والتغيير في داخل منطقتها، ولا تألو جهداً في درء ما يوجه إليها من خارجها من هجمات. فاللغة نظام اجتماعي، وكل نظام اجتماعي، يحمل في طيه قوة المقاومة والقهر، على حد تعبير العلامة دوركايم

أما محاربة عومل الابتداع في داخل منطقها فتم بفضل العلاقات الوثيقة التي تربط الناطقين بها بعضهم ببعض وتربطهم ببيئتهم ومجتمعهم. وذلك أنه بقوة هذه العلاقات يقوي الضمير الجمعي، وتتأكد سيطرة النظم الاجتماعية، ويعظم نفوذها، ويشتد بطشها بالمعتدين. فكل محاولة فردية للخروج على النظام اللغوي تلقى في مجتمع كهذا مقاومة عنيفة تكفل القضاء عليها في مهدها. وبذلك تتقي اللهجة ما عسى أن يوجه إليها في داخل منطقتها من محاولات الابتداع وعوامل التغيير

وأما حمايتها من اللهجات المجاورة لها فيرجع الفضل فيها إلى ضعف الصلات التي تربط أهلها بمجاوريهم، وقلة فرص احتكاكهم بهم، وما يبدونه في العادة من نزوع إلى العزلة والاستقلال. ويظهر هذا على الأخص في البيئات الزراعية التي تقل فيها وسائل المواصلات، وتضعف حركة انتقال الأفراد، ويكاد سكان كل منطقة يعيشون في معزل عن سكان المناطق الأخرى. حقاً إن تزوج بعض الرجال في هذه البيئات إلى نساء من غير مناطقهم، وهجرة بعض الأفراد من بلادهم إلى البلاد المجاورة لها، كل ذلك وما إليه يجلب إلى البلد عناصر أجنبية عنه. ولكن قلة عدد من ينفذ من الأجانب عن هذه الطرق وما شاكلها وانتماءهم في الأصل إلى مناطق لغوية مختلفة، ودخولهم البلد فرادى وفي أزمنة متباعدة، وعدم وجود رابطة نربطهم بعضهم ببعض، وإقامة كل منهم بين مجموعة من الناس تختلف لهجة أفرادها عن لهجته، وما يبديه أهل المنطقة حيال لهجاتهم من سخرية وازدراء، وصعوبة فهم حديثهم أحياناً، كل ذلك وما إليه لا يحول دون تأثير لهجة البلد بلهجاتهم فحسب، بل من شأنه كذلك أن يحملهم هم على محاكاة لسان المنطقة التي يقيمون فيها. وأما البيئات التجارية والصناعية والساحلية التي يكثر في العادة احتكاك أهلها بغيرهم، فيرجع الفضل في حماية لهجاتها إلى قلة عدد الأجانب بالنسبة إلى سكانها الأصليين، وانتمائهم إلى مناطق لغوية مختلفة، وعدم وجود رابطة تربطهم بعضهم ببعض، وقصر مدة إقامتهم، لأن معظمهم يفد إلى البلد في شئون لا تقتضيه إلا إقامة ساعات أو أيام

غير أنه قد يتاح أحياناً للهجة محلية فرص للاحتكاك الدائم بلهجة أخرى. وحينئذ تشتبك

اللهجتان في صراع أهلي لا يختلف كثيراً في مظاهره وطرقه عن الصراع الذي ينشب بي لغتين مختلفتين والذي عالجناه في مقالات سابقة في الرسالة
وينتهي هذا الصراع إلى إحدى نتيجتين: فأحياناً لا تكاد إحدى اللهجتين تؤثر في الأخرى، وذلك إذا تساوى أهل المنطقتين في الثقافة والقوة والنفوذ. وأحياناً تكون إحداهما عرضة للتأثر بالأخرى، وذلك إذا كانت أقل منها في مظهر من المظاهر السابقة.
وتختلف درجة التأثر باختلاف الأحوال: فأحياناً يكون يسيراً لا ينال إلا بعض مظاهر، وأحياناً يكون عميقاً ينتهي بالقضاء على اللهجة المغلوبة
فيكون يسيراً إذا لم تكن الفوارق كبيرة بين أهل المنطقتين في الثقافة والنفوذ والسلطان.
ويبدو هذا في تأثر لهجة القرى بلهجة المدنية التي تجاورها أو يكون بها مقر المديرية أو المركز، أو في تأثرها بلهجة البلد الذي يتخذ مقراً لنقطة البوليس أو للعمدة أو التي يقام فيها السوق الأسبوعي. . . وهلم جرا. ففي هذه الحالات وما إليها يقف التأثر عند حد اقتباس الكلمات والتراكيب وطرق استخدام المفردات في معانيها الحقيقية والمجازية. . . وما إلى ذلك. أما الأساليب الصوتية وطريقة النطق بالحروف والكلمات فتظل بمنجاة من التأثر والتحريف. ومن ثم نرى أن القرى المحيطة بقاعدة مديرية من مديريات القطر المصري قد تقتبس عنها كثيراً من ألفاظها وتراكيبها ومدلولات مفرداتها. . .، ولكن لهجاتها تظل سليمة فيما يتعلق بالأصوات، وطريقة النطق بالكلمات. فالقرى المصرية التي تقلب في لهجاتها القاف العربية (جافا) أي جيما غير معطشة (جلنا=قلنا) قد تجاور مثلاً مدينة تختلف عنها في هذا الأسلوب الصوتي (بأن تقلب فيها القاف العربية همزة: ألنا=قلنا)، فنقتبس عنها كثيراً من مفرداتها، ودلالاتها وأساليبها؛ ولكن تظل طريقتها الصوتية حيال القاف العربية بمأمن من التأثر بطريقة المدينة، اللهم إلا في الكلمات التي تقتبسها منها
أما إذا كانت الفوارق كبيرة بين أهل المنطقتين في ناحية من النواحي السابق ذكرها، فإن التأثر يكون عميقاً لدرجة تصل أحياناً إلى القضاء على اللهجة المغلوبة. ويحدث هذا في حالتين:
الحالة الأولى: أن تكون إحدى المنطقتين خاضعة لسلطان المنطقة الأخرى، ففي هذه الحالة يكتب النصر للهجة المنطقة ذات السلطان، على شريطة ألا تقل عن المنطقة الأخرى حضارة وثقافة وآداباً. والأمثلة على ذلك كثيرة في التاريخ القديم والحديث. فلهجة باريس حيث كان مقر الحكومة والسلطان، قد قضت على كثير من لهجات المقاطعات الفرنسية التي خضعت لنفوذ باريس؛ وكذلك فعلت لهجة لندن مع عدد كبير من اللهجات الإنجليزية الأخرى، ولهجة مدريد مع اللهجات الإسبانية، ولهجة روما في العصور القديمة مع أخواتها الإيطالية؛ ولهجة قريش قبيل الإسلام مع اللهجات المضرية الأخرى. . . وهلم جرا. . .
الحالة الثانية: أن تفوق إحدى المنطقتين المنطقة الأخرى في ثقافتها وحضارتها وآداب لغتها، ففي هذه الحالة يكتب النصر للهجتها وإن لم يكن لها سلطان سياسي على المنطقة الأخرى. ولذلك أخذت اللهجة السكسونية بألمانيا تطارد اللهجات الألمانية الأخرى منذ
القرن السادس عشر الميلادي، أي قبل أن تتكون الدولة الألمانية الحديثة وقبل أن تظهر غلبة براين. وأخذت التوسكانية بإيطاليا تقهر اللهجات الإيطالية الأخرى منذ القرن الرابع عشر الميلادي، أي قبل أن تتكون الدولة الإيطالية الحديثة، وقبل أن يظهر سلطان روما؛ وذلك بفضل ما كان لكل من السكسونية والتوسكانية من إنتاج أدبي لا يذكر بجانبه إنتاج أخواتها التي اشتبكت معها في هذا الصراع
وفي كلتا الحالتين السابقتين يختلف الصراع في مدته وعنفه تبعاً لمبلغ قرب اللهجتين إحداها من الأخرى ومبلغ ثقافة المنطقة المغلوبة. فيطول أمده ويشتد عنفه كلما كثرت وجوه الخلف بين اللهجتين أو قلت ثقافة الناطقين باللهجة المقهورة. فلهجة مدريد لم تقو بعد على التغلب كثير اللهجات الأسبانية الأخرى ولا تزال إلى الآن تلقى مقاومة عنيفة من جانبها، وذلك لتفشي الجهل والأمية بين الناطقين بهذه اللهجات، ولهذا السبب نفسه لم يتم بعد للهجة القاهرة التغلب على لهجات المناطق المصرية المجاورة لها، وفي القسم الفرنسي اللغة من سويسرا لا تزال اللهجات المحلية تقاوم

الفرنسية الفصحى في المناطق الكاثوليكية (فاليه، فريبورج , على حين أنه قد تم انقراض هذه اللهجات أو كاد في المناطق البروتستانتية (نيوشاتل جنيف) وذلك لأن المناطق البروتستانتية من هذا القسم أرقى ثقافة وعلماً من المناطق الكاثوليكية وأقدم منها عهاً بالمدارس، ولسان باريس قد تغلب بسهولة على اللهجات التي كانت منتشرة في إقليمي السين واللوار، لقلة وجوه الخلف بينه وبينها، على حين أنه لم يقو بعد على التغلب على لهجات جنوب فرنسا ولا يزال يلقى منها مقاومة عنيفة لكثرة الفروق التي تفصلها عنه

واللهجة التي يتاح لها التغلب في أمة ما على بقية أخواتها، أو على معظمها تصبح غالباً (لغة الدولة) أو ما يطلق عليه اسم (اللغة القومية) أو (اللغة الفصحى) أو (لغة الكتابة). فتعلم وحدها في مدارس الدولة، ويجري بها تدريس المواد المختلفة في معاهدها، وتؤلف بها الكتب والصحف والمجلات، وتصدر بها المكاتبات الرسمية وغيرها، وتستخدم في مختلف مناحي الوعظ والخطابة، وتلقى بها الأوامر ويجري بها التخاطب في الجيش، وهلم جراً. فقد ترتب على تغلب لهجة باريس على معظم أخواتها أن أصبحت لغة الدولة بفرنسا؛ وعليها وحدها يطلق الآن اسم اللغة الفرنسية. وهذا هو ما حدث عقب تغلب لهجة لندن

بإنجلترا ولهجة مدريد بأسبانيا، واللهجة السكسونية بألمانيا والتوسكانية بإيطاليا؛ فقد أصبحت هذه اللهجات هي اللغات الرسمية، وعليها وحدها يطلق الآن اسم اللغات الإنجليزية والأسبانية والألمانية والإيطالية

وتسلك لغات الكتابة في تطورها طريقاً خاصة تختلف عن الطريق التي تسلكها لغات المحادثة. ولذلك نرى أن لغة الكتابة مع اتفاقها في المبدأ مع لهجة المحادثة الغالبة، لا تلبث فيما بعد أن تختلف عنها في كثير من النواحي، ولا تنفك مسافة الخلف تتسع بينهما، حتى تستقل كل منهما عن الأخرى. فلغة الكتابة بفرنسا مثلاً تختلف الآن عن لهجة المحادثة الباريسية اختلافاً غير يسير.

علي عبد الواحد وافي

الانتحار وعلاقته بالشخصية

للدكتور محمد حسني ولاية

حفزني إلى تناول هذا الموضوع الاجتماعي الهام انتحار عالمين من علمائنا هما الدكتور إسماعيل أدهم، والأستاذ فخري أبو السعود. وقبل أن أبين العلاقة بين الشخصية والميل إلى الانتحار أقول إن بعض علماء النفس والعقل يميلون إلى تقسيم الشخصيات البشرية (الطبيعية) إلى سبعة أقسام اختيارية على غرار الأمراض العقلية والنفسية الرئيسية

الشخصيات:

1 - الشخصية الهوسية: يمتاز صاحبها بالنشاط والحركة المستمرة والاعتداد بالذات، وهي تنطوي على كفاح بين الذات والضمير.

2 - الشخصية الملانخولية: تتصف بالهبوط النفساني، والكسل واليأس، واتهام النفس، واستحواز الأفكار السوداء على صاحبها. وتمتاز أيضاً بكفاح بين الذات والضمير.

يقول فرويد إن محتويات الهوس النفسانية لا تختلف في شيء عن محتويات الملانخوليا، وإن الشخص في كلا الحالين يصارع نفس المعقَّد وإن الذات تستسلم لهذا المعقد في حالة الملانخوليا ولكنها تسيطر عليه أو تطرحه جانباً في حالة الهوس

3 - الشخصية الوسواسية: يميل صاحبها إلى حسن الهندام والذوق السليم، ولكنه كثير التردد ضعيف الإرادة. وينطوي الوسواس على كفاح بين الذات ومستقر الغرائز الجنسية في العقل الباطن

4 - الشخصية الهستيرية: تمتاز بتركيز الاهتمام على الذات والأنانية الشديدة، والاعتماد على معونة الغير. وتنشأ التصرفات الهستيرية من كفاح بين الذات ومستقر الغرائز الجنسية في العقل الباطن

5 - الشخصية القلقة: تتصف بالقلق، وتوجس الشر، وبلبلة الفكر، والخوف من المجهول

يقول فرويد ليس للقلق صفة محدودة لعدم تعلقه بموضوع ما. وهو وليد دفاع الذات ضد خطر غريزي غير معروف. وكثيراً ما تصبح الحاجة الغريزية خطراً داخلياً ويؤدي

إشباعها إلى التماس خطر خارجي يمثله الخطر الداخلي، ولكي تتأثر الذات لابد أن يتحول الخطر الخارجي الموضوعي إلى خطر داخلي غريزي
6 - الشخصية البارانوياوية: تمتاز بإساءة الظن بالناس وتوقع الشر منهم وبهواجس اضطهادية منظمة، وتنطوي على كفاح إيجابي بين الذات والبيئة
7 - الشخصية الشيزية وتمتاز بالانزواء عن الناس والأنانية وانقطاع التعامل مع البيئة. وينتسب إليها كثيرون من الفلاسفة والأدباء. وتنطوي على كفاح سلبي بين الذات والبيئة
تبرز في كل إنسان (طبعي) ناحية أو أكثر من هذه النواحي الشخصية. والواقع أن شخصياتنا تتكون من خليط متفاوت من هذه الوحدات الشخصية، وكلما ازداد تعدد جوانب الشخصية ازداد تعقدها وتعددت أمانيها
وأكثر الشخصيات التجاء إلى الانتحار الشخصيات القلقة والبارانوياوية؛ أما أكثرها ميلاً إليه فهي الشخصيات الملانخولية والقلقة والبارانوياوية وأحياناً الشخصيات الوسواسية وكثيراً ما يحول الخمول المستحوذ على الملانخوليين وضعف الإرادة المتسلط على الموسوسين دون قتل نفوسهم. وإن أول ما يفكر فيه البارانويا‌ويون هو الانتقام من الناس فيقتلون الزعماء والعظماء بسبب الهواجس الاضطهادية، غير أنهم ينتهون إلى التماس الانتحار إذا غلب عليهم اليأس. ويندر أن يلجأ الهستيريون إلى الانتحار، لأنهم يحبون أنفسهم حباً أنانياً ويحرصون على سلامة أنفسهم
يقول فرويد في صدد الانتحار (إن السادية هي التي تحل مشكلة النزعة إلى الانتحار. وقد أظهر التحليل أن الذات تعمد إلى الانتحار عندما تنصب عليها طاقة موضوعية، وحينئذ تعالج الذات نفسها كموضوع أي أنها توجه العداء الذي كان موجهاً إلى موضوع ما إلى نفسها)
إن الشخص الذي يميل إلى الانتحار شخص مريض، وهو في حاجة إلى العلاج النفسي ككل مريض بمرض عصبي، فمتى ما حلت المعقدات النفسية وجب إعطاء المريض علاجاً عضوياً كالغدد الصماء والفيتامينات والأملاح المعدنية وغير ذلك لاستعادة النشاط الذهني
ويتصف الراغب في الانتحار ككل مريض بمرض عصبي بالمبالغة في الطموح وشدة الحساسية والتماس الأماني البعيدة المنال دون جهد، والعناد والأنانية
والسبب في أن كثيرين من كبار المفكرين يعمدون إلى الانتحار هو تعدد جوانب شخصياتهم وطموحهم الشديد وتلمسهم أهدافاً بعيدة المنال
ولابد أن نبين أن إنهاك قوى العقل الواعي يؤدي إلى تقوية الباطن وظهوره على المسرح متحدياً العقل الواعي، وحينئذ تتحكم في النفس نزعات دفينة في العقل الباطن، قد تكون وجهتها التماس الموت
ولما كان للعقل الباطن علاقة وثيقة باتجاهات النفس ونزعاتها ونزواتها وتصرفاتها فقد رأيت أن أختم كلمتي بتفسير حلم رآه أحد مرضى العالم النفساني (يونج) قال:
حلم رجل مثقف في الخمسين من العمر أنه حاول أنه تسلق جبل عال فكان صعوده) في أول الأمر شاقاً ولكنه كلما أمعن في الارتقاء كان التسلق أهون، وبعد أن بلغ القمة مشى في الفضاء ثم استيقظ
وبالتحري علمت أنه رجل متمرن على تسلق الجبال بدون مرشد وأنه يشعر بلذة عندما يرى نفسه في موقف خطر، وقد كان عاثر الجد في زواجه مشمئزاً من عمله، وقد فسرت حلمه بالآتي:
عندما كان متعلقاً بالحياة كان ارتقاء الجبل شاقاً إذ كانت تتنازعه رغبتان متضادتان: الرغبة الظاهرة في الحياة والرغبة الدفينة في الموت، ولكنه كلما أغرق في استسلامه لهواه صار لديه الصعود أسهل
ولم يكن سيره في الهواء سوى تعبير عن رغبته في الموت وقد هوى من قمة جبل ومات بعد مضي نصف عام من هذا)
محمد حسني ولاية
طبيب بصحة بلدية الإسكندرية
شعر الزواج
للأستاذ عبد المجيد مصطفى خليل

لعل (شعر الزواج) على هذا النهج موضوع جديد، كان لكل جديد غرابة، فقد تزول الغرابة بالبيان
يتناول الشاعر، وسائر أهل الفنون، حوادث حيواتهم بالشعر والتعبير. والزواج من أهم حوادث الحياة. فإذا تزوج شاعر يحسن الشعور بالزواج فكيف لا يكتب القصيد في حياته الزوجية؟! وإذا اقترن موسيقار فلماذا لا يشدو بقرانه؟
ويباح للشاعر وصاحب الفن الجميل الغزل بالفتاة الصبيحة، حتى نسب إلى أبي بكر الصديق أنه تغزل فقال:
أمن طيف سلمى بالبطاح الدمائث ... أرقت، أو أُمْرٌ في العشيرة حادث؟
وحتى أنشد كعب بن زهير النبي محمداً عليه الصلاة والسلام شعراً بدأه بالغزل على عادة العرب فقال:
بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ... متيم إثرها لم يفد مكبول
فهذا الغزل بالفتاة مباح للشعراء فكيف بالزوجية؟! إن الزوجة أحق بالغزل. ومن الغزال لائق وخليع. فللزوجة غزل لائق مهذب
هذا النقص في شعر الزواج يسترعي النظر. فهل وجد معظم الشعراء وأهل الفنون زوجاتهم تافهات؟ فإذا فرضنا هذا فإن لكل جديد فرحة ولو كان تافهاً. على أن الزوجة التافهة قد لا تظهر تفاهتها سريعاً. والناس مختلفون في غنى الشخصية. فقد تفرغ شخصية بعد أيام من الصحبة وتفرغ أخرى بعد أشهر، على حين تفرغ أخرى بعد أعوام، وغيرها لا تفرغ أبداً ما عاشت ثم بعد الممات. ففي فجر الحياة الزوجة تحس النفس المعبرة بتحية صادقة لهذي الحياة الجديدة. هذا منطق الشعور، وتلك طبيعة الإحساس. فإذا ما جاشت النفس وسطر القلم العواطف ثم بدت الزوجة تافهة عز على صاحب الفن وأد فنه. هنا يجب التفريق بين فن صادق وشيء خادع ألهمه. فهذا (شلي) كتب قصيدة رائعة في فتاة باهرة السطوح بائرة الدخائل، ظهر زيفها قبل أن تتم القصيدة! راحت فرحة الشاعر، وضاع أمله وعراه الخجل، ووشابه الكدر، ومع ذلك أبقى على القصيدة وعاشت وخلدت
وعلى رأسها إهداء تبطنته سخرية الحق من فطنة الإنسان!
في الحق أن نقص شعر الزواج يسترعي النظر!
لقد آن أن يكون أدب داري جنب ذاك الأدب الطليق من كل قيد اجتماعي. آن إنصاف الحليلة. آن أن ينصف الشعراء أنفسهم من ظنة حب ما لا يملكون ومقت ما يملكون لأنهم يملكونه كما يكثر بين البلداء والجهلاء والعامة
وللزواج نصيب عند شعراء أوربا في الأساطير والشعر الكلاسيك. غير أنه نصيب غير كاف وغير شامل عند شاعر واحد فيما أعلم
وله نصيب عند المثقفين
فمن الأساطير هذه القصيدة:
(أخيراً أقاما بيتاً كريماً، ظلة منزلية، والعرش غير بعيد من الأرض، مصنوع من القصب والقش معاً عاش هناك بوسيس وفيليمون، وهناك عاشا زوجين طويلاً، وزوجين سعيدين: والآن هما في الحب قديمان، مع أن ذخرهما ضئيل،. . . والأمر عدم، حيث تبودل الحب المتكافئ، أو الأصح أن كليهما أمر، وكليهما أطاع. . .
(هكذا حينئذ نظر رب الأرباب نظرات هادئة قائلاً: تمن يا واحد الرجال عدلاً؛ وأنت يا مرأة وجدت وحدها جديرة بمثل هذا الرجل في رباط زواج
(همسا هنيهة؛ عندئذ كلما (جوف) هكذا يفضل فيليمون دعاء وصالهما ولأن أي عمل في حياتنا لم يدنسه النزاع الأهلي، نسأل ساعة موت واحدة: فلا هي تبكيني بدموع الأرملة إذا عاشت لتدفنني، ولا أنا بذراعين واهنتين أحمل بوسيسي الهامدة إلى القبر باكياً
(وأشارت رؤوس الرب موافقة)
إلى أن قال بعد تحولها معاً إلى شجرتين مورقتين:
(. . .سنديانة فارعة قرب زيزفونة تنموان . . .)
ومن الكلاسيك:
تزوج لورد تنيسون بامبلي شلوود، و (كان الزواج من كل النواحي ناجحاً، وكان الشاعر يقول فيما تلا من حياته: حين تزوجتها نزل سلام الله على حياتي)

وقد نظم تنيسوون شعراً عنوانه (صباح القران) جاء فيه: (هنا للحب الختام الذهبي، كل
اختطابي قد فُعل) إلى أن قال: (لأن هذا للحب الصباح الذهبي، وأنت نجم صباحه)
حتى قال: (قلبي، أأنت كافي العظمة لحب لا يكل؟ أيها القلب، أأنت للحب كافي العظمة؟ فقد سمعت بأوراد وأشواك)
وقد كان لورد تنيسون حيياً شديد الحياء، وكان من الأرستقراط
اقترن شلي بهريت وستبروك، وبعد عامين نظم فيها قصيدة عنوانها (مساء. إلى هريت) ختمها قائلاً: (كذلك كان محبك يا هريت. هل استطاع إطارة أفكار كل ما يجعل عاطفته عزيزة؟ وينشد ثقوباً في نسيج سعادتنا الموصول عائداً بغير حس من مسك الدافئ؟)
وختم قصيدته (إلى أيانب): (وأنت عزيزة أكثر حين تبدي خصائصك اللطيفة رسم جمال أمك)
ثم اقترن بماري جدوين، ومضت سنوات ثلاثة فنظم فيها حينئذ يقول بعنوان (إلى ماري شلي):
(الدنيا موحشة، وأنا تعب من تطويفي بدونك يا ماري؛
كان في صوتك وبسمك من قبل فرح. وقد ذهب، يا ماري، حين وجب ذهابي كذاك)
ونظم (إلى ماري شلي) يقول: (ماري العزيزة، أين ذهبت وخلفتني وحدي في هذي الدنيا الموحشة؟ في الحق هنا شخصك - شخص جميل - لكنك فررت منحدرة في الطريق الموحش المؤدي إلى أظلم منازل الشجن. . . . . .)
وله غير ذلك في الزواج قصيدة متبوعة ولكنها عامة السياق وليست في زواجه
وكان شلي (جاداً على العموم، وكان مع ذلك قديراً على المزاح وكان كامل الأدب الذي هو طابع الأرستقراط الصغير)
وكان على حياء العذارى، يتورد وجهه من المقابلات أحياناً.
ومن المثقفين:
القائد الكبير الأرستقراطي فون هندنبرج، يقول في سيرته: (وجدت في زوجتي صاحبة محبة قاسمتني بولاء ودون ملل مسراتي وأحزاني، ومهامي وأعمالي)
كذلك للزواج نصيب في الموسيقى الأوربية الكلاسيك.
فقد ألف الموسيقار تشرد شتراوس (السيمفونية الأهلية) و (السيمفونية الأهلية) إحدى (كبريات قصائد شتراوس السيمفونية. وتمثل يوماً في حياته هو وقرينته وابنه الطفل
وألف الموسيقار يوهان شتراوس (فالزاً) سماه (أجراس القران) أيام عرسه
أما نصيبه عند العرب فضئيل، وهو على ضآلته شتيت
قال الحسين عليه السلام في امرأته الرباب وابنته سكينة وقد عاتبه أخوه الحسن عليه السلام في امرأته:
لعمرك إنني لأحب داراً ... تحل بها سكينة والرباب
أحبهما وأبذل جل مالي ... وليس للائمي عندي عتاب
وقال الحسن بن هانئ يحكي عن زوجته:
تقول التي من بيتها خف مركبي: ... عزيز علينا أن نراك تسير
فقلت لها واستعجلتها بوادر ... جرت فجرى في جريهن عبير
وهنا نعوج فنذكر من مراثي الزوجات والأزواج، فإنه غزل حزين
قال الوزير الشاعر محمد بن عبد الملك الزيات في زوجته حين ماتت:
يقول لي الخلان: لو زرت قبرها ... فقلت: وهل غير الفؤاد لها قبر؟
على حين لم أحدث فأجهل قبرها ... ولم أبلغ السن التي معها الصبر
وقال جرير في قرينته:
لولا الحياء لهاجني استعبار ... ولزرت قبرك والحبيب يزار
وقال الإمام علي في عقيلته السيدة فاطمة كريمة النبي وهو على قبرها: قل يا رسول الله عن صفيتك صبري، ورق عنها تجلدي
و (رَثَت) الرباب بنت امرئ القيس زوجها الحسين عليه السلام حين قتل فقالت:
إن الذي كان نوراً يستضاء به ... بكربلاء قتيل غير مدفون
سِبط النبي، جزاك الله صالحة ... عنا وجنّبْتَ خسران الموازين

قد كنت لي جبلاً صعباً ألوذ به ... وكنت تصحبنا بالرحم والدين
من لليتامى ومن للسائلين ومن ... يغني ويأوي إليه كل مسكين
والله لا أبتغي صهراً بصهركم ... حتى أغيب بين الرمل والطين

والشعر العربي الحديث مقصر في هذا الباب. وهاهم أولاء جل أعلامه المتزوجين: البارودي وصبري وشوقي وحافظ وولي الدين والزهاوي وشكري والمازني قد خلت دووانيهم من شعر الزواج الشخصي

ولا تثريب على كل شاعر عزب

أما البارودي فقد تأهل مرتين فلم يستقبلها بالقريض ولم يترنم بالزوجتين بعد ذلك. ولكنه رثى الأولى رثاءً كأنه غزل حزين وكانت الوفاة بمصر والمرثاة بسرنديب. وهذه أبيات مجموعة منها:

لا لوعتي تدع الفؤاد ولا يدي ... تقوى على رد الحبيب الغادي
كم بين عاديٍّ تملي عمرَهُ ... حقباً، وبين حديثةِ الميلاد؟
سر يا نسيم فبلغ القبر الذي ... بحمى الإمام تحيتي ووداد
لا تحسبيني ملت عنك مع الهوى ... هيهات، ما ترْكُ الوفاء بعادي

وأما الأستاذ المازني فحين كان ينظم لم يكن لقرينته نصيب من نظمه، فلما هجر الشعر كان لها من نثره أكبر نصيب؛ وكان النظم والتناول الشعري أولى بهذا الحديث! وهو مع هذا يقول عن نفسه: (. . . ومن متناقضاتي أني على حيائي أراني في كثير من الأحيان ثقيل الصراحة)

أستطرد من هذا إلى علمين من أعلام الأدب هما الدكتور هيكل باشا والدكتور طه بك، فهما وإن لم يطرقا الموضوع فقد طرقا هامشه طرقاً خفيفاً. ذلك أن الدكتور هيكل تحدث عن قرينته في كتابه (ولدي)، وأن الدكتور طه قال عن قرينته يخاطب كريمته: (لقد حنا يا بنتي هذا الملك على أبيك فبدله من البؤس نعيما، ومن اليأس أملاً، ومن الفقر غنى. ومن الشقاء سعادة وصفواً) وذكر كيف تعرف إليها وكيف كان أثر صوتها في نفسه

ثم أعود إلى حديث الشعر فإني قرأت قصيدة (ليلة الزفاف) للأستاذ إبراهيم العريض، وهي قصيدة (من وراء الستار) كما قال فإنه فصل فيها تفصيلاً ختمه بقوله: (فضمها شوقاً لأحشائه)

ثم قرأت قصيدة (عيد ميلاد سعيد) للأستاذ العوضي الوكيل قال فيها:

يا زوجتي، يا هواي، يا أملي ... قلبي بمعنى سناك محشود
من منذ عشرين غير واحدة ... ومعدن الفن فيك موجود

ولكن أين الخطبة وما تلاها إلى (عيد الميلاد) عند الوكيل؟ وأين ما قبل ليلة الزفاف وما بعدها عند العريض؟

فإذا جاز لي أن أمازحهما قلت: ألم يعجب الأستاذ العريض من الزواج غير ليلة الزفاف؟. . . وهل كفى الأستاذ الوكيل نفسه شر غلاء الحرب في هدية العيد فأهدي القصيد؟. . .

وهكذا لم أجد شاعراً نظم الشعر في حياته الزوجية أو نثره، فشمل بشعره تلك الحياة. وقد وجدت الشعراء المجيدين الذين لا أثر للزوجية فيما رنموا!

في الحق أن نقص شعر الزواج يسترعي النظر

عبد المجيد مصطفى خليل

من وحي المنصورة

الهروب من النفس

للأستاذ حبيب الزحلاوي

صديقي الدكتور مبارك

سواء خُدعت فوقعت في الشرك المنصوب، أو سولت لك نفسك صيد السمك في المنصورة، أو طمعت في سماع أحاديث (الزيات والزناتي) الحلوة وغير الحلوة، أو طاب لك أن تثرثر في رفاق ظننت أنه لا يستوي عندهم كلامك المقول والمكتوب، سواء أكان هذا أو ذاك، فأكبر الظن عندي أنك فزعت إلى البلد الأمين تنشد الهروب من نفسك!! أليس كذلك؟

للهاربين من نفوسهم قصص وحكايات يعرفها ويضمرها السكير والحشاش والمقامر،

وأيضاً المتسكع في الطرق، والضارب في الفلوات، والقاعد في المقاهي، وكل هذه أنواع من بواعث، وأشكال من أسباب، يفتعلها المأزوم للخلاص من همه، فيها الظريف المستملح، وفيها المجرح المؤلم
ومن أظرف حكايات الهاربين من نفوسهم حكاية فزع إبراهيم ناجي الشاعر إلى ديوان زميله ونده الشاعر قسطندي داود كلما استحكمت أزمة نفسه أو افتعلها لها من توهماته وظنونه، ومن يقرأ أشعار ناجي ير مسحة من روح (داودية) شفافة تجلي غمامة الصدر وتبعث الضحك؟ ولو كنت يا صديقي ممن قدر (عليهم) أن يكونوا عرضة للأزمات النفسية التي يزنها الشاعر بميزان مزاجه وعاطفته وتصوراته، فعليك بلا توان بواحد من ديواني شعر الدكتور ناجي أو قسطندي داود فالبرء في قراءة أشعارهما لاشك مضمون
وحكاية ثانية عن الهاربين من أنفسهم بطلها (العبد لله) فعندما تغشاني الغاشية وتكون مسببتها الشيطانة (هي) لا أعمد إلى المسكر، ولا إلى أي سبب يمت بصلة إلى تغشية الواقع بالأوهام أو طلائه بالضحك، بل أتناول كتاباً ضخماً أسميته أنت تجوزاً أو اعتباطاً (ليلى المريضة في العراق)
وكنت أقلب، يا صاحبي المبارك، صفحات كتابك صفحة فصفحة، وأمعن وأغذ السير معك، متشوقاً متطلعاً إلى رؤية وجه ليلى الممرضة يصطفق روحها نفسي المريضة، فكان
يجابهني وجه الحريري، أي الصفاح من خدك الأعوس، فأضحك وأضحك! ولكن سرعان ما أطرح الكتاب جانباً، وأنطوي على نفسي أستجمع قواي المبعثرة وذهني المرتكز حيال أمر واحد متكتل كخيوط في الشوك
لسبب لا أذكره ترفعاً وكبرياء، وجدت نفسي في حومة الأزمة الجائحة تحيط بي الثائرة المجنونة من كل جانب، تسد علي المسالك
تعلقت بكل خيوط الفرج من أضراب ناجي وداود ومبارك وأمين في قصة سارة، أطبقت الأزمة على نفسي وألقتني في الأسر والعبودية! وإن من الناس يا صاحبي من يفقدون آخر مزية لهم إذا هم انعتقوا من عبوديتهم
تذكرت الخدعة التي أوقعك فيها أصحابك، ووسيلة (صيد السمك) التي حفزتك إلى السفر إلى المنصورة، فلقيت أنت فيها الوحدة والوحشة وانقباض الصدر فأخذت تصرخ وتئن! أما أنا فقد صفقت لها طرباً، فعمدت في التو إلى خداع نفسي، فركبت السيارة إلى المنصورة، وصدفت عمداً عن (الزيات) وكافورته، وألقيت بنفسي في وهاد الوحدة
حقاً إنه لأمر مروع يا مبارك أن يبقى الإنسان منفرداً في عتمة الليل عند شاطئ النيل الساجي لا يسمع إلا رشاش الأمواه تقطر من مجاذيف الفلك، مع من أقامه قاضياً على نفسه ومنتقما منها بالشريعة التي اشترعها، ولكني لقيت الراحة في الانفراد ليقين صادق مني بقول نيتشه القائل: (إن في المنفرد عواطف تطمح إلى القضاء عليه؛ فإن لم تنل منه نالت من نفسها وانتحرت)
لم أستسلم لهذه الأمنية بل صممت على الظفر بالعواطف والانتصار عليها كدت أسقط يا صاحبي فريسة سمكة ليلية حاولت اصطيادي مستغلة وحدتي وانفرادي، والمنفرد كما تدري، يمد يده مسرعاً بلا وعي لمصافحة من يلتقي بطريقه، ولم يصدني عن مدها سوى خيال بدا كالشبح أمامي وهمس في أذني: (إن كثيراً من ساميات الأفكار أضراب شيطانتك تعمل عمل الأكرة المنتفخة فلا تكاد تتضخم حتى تضمر) وأردف قائلاً بصوته الأجش وقد شاع شيوع الروح في جوانب نفسي (أأنت عاشق أيها الأديب المنفرد؟ اعشق نفسك أولاً ثم احتقرها، فالأديب العاشق لا يبتدع إذا كان لم يبدأ باحتقار المحبوب!!)
غاب الشبح عن ناظري فلقيت نفسي أسير على غير هدى ويبدي ما يثقلها وهو كتاب لتوماس هاردي ترجمه الأديب فخري أبو السعود. جلست في أول قهوة رمضانية أقرأ روح هذا الشاب المنتحر وقد مزجها بروح المؤلف العبقري
عليك الرحمة أيها الأديب المنتحر فقد عرفت كيف تحب وتنجب وتحتقر، وكيف تتفوق على إنسانيتك. أما أنا فمازلت أحب، وأحب الحياة. . .

وأنت أيها الدكتور مبارك فسلام عليك من صديق يحبك ولا يحتقرك
حبيب الزحلاوي
عراك في معترك
أي معترك!
للأستاذ زكي طليمات
- 2 -
تعسف الأستاذ محمد متولي في رده علينا متسقطاً أخطاء لم تقم إلا في وهمه، وأسف إلى السباب وسقط الحديث في جدل يجب أن يسوده الوقار والحجة العلمية، كما أوضحنا ذلك في مقالنا الأول، فانحرف متولي بذلك عن (موضوعية) النقد الذي تحدث عنها بطرف لسانه دون طرف سنانه
حكاية الفيلسوف المعاصر (1)
والدليل على ما نذهب إليه - وهو ليس الأول والأخير - أن متولي في غيبوبة ألمه - ومصدر هذا الألم أننا رددنا أقواله بالحجة - أصدر أمراً بإرسالنا إلى (محكمة تحفظ كرامة العلم وتحاسب المستهترين بقدسيته وتعاقبهم على جناياتهم) لأننا وصفنا في سياق حديثنا الفيلسوف الأمريكي (وليم جيمس) بأنه (الفيلسوف المعاصر)، هذا في حين أن وليم جيمس هذا توفي عام 1910، وكأننا بالأستاذ متولي يقول إننا تكلمنا عن فيلسوف لا ندري متى انتقل إلى الدار الباقية، وإن كلمة (معاصر) هذه لا تنطلق وصفاً إلا لفيلسوف ما برح يعيش في عصرنا برئتيه وبقلبه!
وحرصنا على أن يزداد الأستاذ متولي علماً، وبرنا بذهن القارئ الذي هو أمانة بين أيدينا يدفعاننا إلى التبسط في حديث ما كان أغنانا عنه لو كان الأستاذ متولي يعرف الموضوع الذي يجادل فيه، أو يعرفه ولم يغالط ويعاند
إن كلمة (معاصر) هذه تعدل على أقلام الكتاب عندنا كلمة الفرنسية، وهي في اصطلاح مؤرخي الأدب ونقاده تطلق وصفاً للآراء والاتجاهات الأدبية والعلمية والفنية التي يأخذ بها عصر من العصور في نواحي من نتاجه الذهني. وقد نص على هذا المعنى المصطلح عليه العلامة في مؤلفه (معجم اللغة الفرنسية) وهو حجة المعجمات الفرنسية بما يأتي:
وترجمة هذا النص: (إن الرأي المعاصر هو مجموعة أشياء يعتبرها مجتمع ما حقيقة في عهد معين)
فإذا نحن وصفنا (وليم جيمس) المتوفى عام 1910 بأنه (معاصر فمعنى هذا أن آراءه الفلسفية مازالت يؤخذ بها في شئون الفلسفة وفي شئون الحياة. (فالبراجماتيزم) أو مذهب (الذرائع)، وهو المذهب الذي صاغه جيمس نفسه ما برحت له أطراف طويلة تمتد على الفلسفة الحديثة وعلى سلوك الناس. فقد قرر (موسوليني) يوماً أنه (يدين لوليم جيمس بكثير من آرائه السياسية، وأنه بتأثيره لا يحتكم في سياسته إلى نظريات العقل المجرد، إنما يسلك من السبل ما يراه أقوم وأدنى إنتاجاً)
ونستطيع أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول إن (نيتشه) الفيلسوف الألماني المتوفى سنة1900، أي قبل وفاة وليم جيمس بعشر سنوات، له جانب كبير من فلسفته مازال (معاصراً) على الرغم من مرور السنين ووفاة صاحبها. فالدكتاتورية اليوم، ومظهرها النازية والفاشية، بدعوتها إلى استخلاص العنصر الآري ورعايته يهدد جانب العناصر الأخرى، إنما تستمد معينها من فلسفة (نيتشه)، التي تقوم على عبادة القوة، إذ القوة في نظر هذا الفيلسوف، كما هي في نظر الألمان والإيطاليين اليوم، هي الفضيلة السامية، والضعف هو النقيصة السافلة، والشر المستطير الذي يجب القضاء عليه!!
فإذا كان الأستاذ متولي لا يفهم هذا، أو هو لا يريد أن يفهمه مكابرة وعناداً فهانحن أولاء نسوق إليه براهين حسية تنهض حجة على ما نذهب إليه في أن كلمة (معاصر) يذهب معناها إلى ما قررناه، وقرره قبلنا كبار الكتاب والنقاد.
ألف العلامة دانيل مورنيه كتاباً في الأدب الفرنسي أسماه (تاريخ الأدب والفكر (ا) الفرنسيين المعاصرين 1870 - 1927) درس فيه الشعراء والكتاب منذ 1870، فقدم أبحاثاً عن (زولا) و (دوديه) و (موباسان) و (فلوبير) وغيرهم من الكتاب و (بودلير) و (فيرها رين) و (مالارميه) و (فارلين) من الشعراء، باعتبار أنهم كتاب وشعراء

معاصرون في حين أن جلهم توفوا منذ سنوات بعيدة، ذكر (مورنيه) هؤلاء وغيرهم إلى جانب المحدثين باعتبار أن مذاهبهم في الأدب ما برحت تسود نواحي من نتاج الأذهان في هذا العصر
!هذا في المؤلفات الأدبية، وفي مؤلف يقرأه طلاب الأدب
وفي الفلسفة - والأمثال عديدة - أخذ العلامة بالمعنى الذي ذكرناه لكلمة (ب) (معاصر) وذلك في كتابه (المسألة الأخلاقية والفكرة المعاصرة)، وهو كتاب ظهرت له طبعة بباريس سنة 1909، وفيه أنشأ المؤلف بحثاً في آراء العالم الأخلاقي الكبير صاحب مذهب (الآراء على أنها قوى)، وحصل بعد ذلك أن توفي العالم المذكور سنة 1912، وفي عام 1920 أعيد طبع هذا الكتاب بعد الزيادة والتنقيح. فإذا هو لا يزال يحمل اسم (الفريد فوييه) باعتبار أن آراءه في الأخلاق ما برحت قائمة، ولم يأت بعدها ما يعطلها أو يضفي عليها مسحة فوات الأوان!
فما رأي الأستاذ متولي في هذا؟ وبماذا يحكم القارئ؟ أنا متولي الذي يصح أن يقدم إلى المحكمة التي تحاسب المستهترين المتطاولين على العلم؟
الرمزية وعلم النفس وأيهما أفاد من الآخر؟ (2)
وثمة شيء آخر لا أسميه من جانب الأستاذ متولي الذي يحمل من العلم شهادة يزهي بها
ذكرنا عرضاً في مقالنا الذي صححنا فيه أخطاء متولي أن علم النفس أفادت منه الرمزية، فرد علينا متولي بأسلوبه الموصوف: (إن علم النفس عندنا شعبي خاطئ لا يزيد على ما نسمعه من بعض زبائن قهوة بيرون)
وردنا المتواضع أن نكلف الأستاذ متولي مشقة قراءة كتاب (تاريخ الأدب والفكر الفرنسيين المعاصرين) السابق الذكر (الفصل الرابع الذي عنوانه (في البحث عن العوالم الخفية) صفحة 89 - 92) حيث رسم المؤلف العلامة (مورنيه) اتجاهات علم النفس عند الكتاب الاتباعيين والرومانيين، ثم عند الواقعيين والطبعيين، ليستطرد القول بعد ذلك في اللاوعية ' ونقتطع فقرة مما ورد في صفحة 92 خاصاً بما نذهب إليه ليقف القارئ على جلية الأمر ويحكم لنا أو علينا، وهانحن نترجم هذه الفقرة حرفياً: (وعند الفيلسوف برجيسون وغيره أصبح (اللاوعي) الشكل العادي للحياة الروحية، كما أنه غدا النبع الخفي الواسع العميق الذي تقطر منه حياتنا الواعية المنطقية. وإلى هذا النبع قصد الرمزيون منذ سنوات عديد يغترفون من معينه، وسار على أثرهم القصاصون والمؤلفون المسرحيون)
وإتماماً للفائدة التي نبتغيها للأستاذ متولي من هذا الدرس العابر نحيله إلى (الفصل الخامس) من الكتاب نفسه (ص107) لنضيف إلى ما تقدم ذكره، تأثير فلسفة برجيسون في الرمزية عن طريق تغليب (البصيرة) على الذكاء والمنطق
وعليه فظاهر مما تقدم أن آراء برجيسون في علم النفس أثرت في الرمزيين ومن ذهبوا إلى استكناء العوالم الخفية، بعد أن نفى برجيسون مقدرة الذكاء والمنطق، وأكد تغليب الحياة الباطنة على الحياة الظاهرية. وكفى هذا دلالة على انبساط أطراف هذه الآراء على الرمزية وما تشعب منها فأفادت منها
أين هذا النص؟ (3)
وهناك في مقال الأستاذ متولي مثال ثالث ساقه لي ليقيم الحجة على أنه (يعرف موضوعه لدرجة تسمح له أن يصحح لي وللدكتور بشر فارس أوهاماً علمية نعيش فيها)
يقول متولي إن كتاب لجورجدوماس (طبعة 1923 - 1924)، وهو الكتاب الذي كان اعتمادنا عليه في التدليل القاطع على أن آراء (ريبو) في الرمزية فات أوانها. . . متولي يقول إن طبعة هذا الكتاب (منسوخة لأنها تطبع الآن في تسعة أجزاء زيادات وتفصيلات، وقد ظهر الجزء الخامس منها عام 1936. . . الخ)
والذي ندلي به هذا أنه من الجائز أن يعاد طبع هذا الكتاب، وأن تدخل عليه زيادات وتفصيلات، ولكن الذي لا نجيزه أن يختلق الأستاذ متولي أن الكتاب قد (نسخ) ولما يمض على الطبعة التي اعتمدنا عليها عشر سنوات، لأن (النسخ) إنما يأتي عن طريق إحلال آراء مكان آراء، وما على وما على الأستاذ متولي إلا أن يقدم النص الجديد في الطبعة الجديدة. وهو النص الذي ينسخ النص الأول الذي سقناه عن كاتبه العلامة (أبيل

راي الذي عقد فصلاً بعنوان (الاختراع) في الجزء الثاني من الكتاب المذكور ص426، وفيه طعن في نظرية (ريبو) النفسية. . .
بيد أننا نؤكد أن متولي لن يقدم هذا النص، وعليه فسيبقى قائماً طعن (أبيل راي) في (مخيلة) ريبو، من حيث إنها خاضعة بعض الشيء لمذهب (الذرية الذهنية) وهو مذهب لا يؤخذ به اليوم. سيبقى هذا الطعن قائماً على الرغم من أنف الأستاذ متولي، مادام نظر العلماء إلى مذهب (الذرية الذهنية) حتى يومنا هذا يرفض الأخذ به
وقد يتساءل القارئ: لماذا يفتعل متولي هذه الأفاعيل ويفتئت على الآراء الفلسفية متحرجاً
راكباً رأسه؟ والجواب على هذا لا يخفى على من يعرف حكاية الثعلب الذي يطلق من جوفه ريحاً تعافها الأنف إذا أخذته الأيدي من كل حدب!!
نقف هنا وقد كفانا تدليلاً على ما تورط فيه متولي بعد أن ركب من غضبته شر الحمر
وفي مقالنا الآتي درس في الرمزية، كما نظر إليها (ريبو) نفسه، وكما أساء فهمها الأستاذ متولي
(للحديث بقية)
زكي طليمات
رسالة الشعر
جيرة الحرم النبوي
للأستاذ علي الجندي
أَتَنْني عَنْكُمُ الأنباءُ تَتْرى ... فإنْ صحَّتْ فقد عَظُمَ البلاءُ
أَحَقّاً أنكم بِتْمُ جياعاً ... ولوْلاكمْ لما عُرِفَ السَّخاء
وأَنّكُمُ حِيَالَ (القَبْرِ) صَرْعى ... أَنِيُنكمُ يَغَصّ به الفَضاء
تَفيضُ دموعُكم مِلْءَ المآقِي ... فَيُمْسِكها التَّصَوُّنُ والإباء
فإنْ نَاحَتْ صِغَارُكُمْ بَكَيْتُمْ ... لهَمْ من رحمةٍ وبَكى النِّساء
ولَوْ كُنْتُمْ (لموسى) أو (لعيسى) ... من الأتباع عَمَّكُمُ الرَّخاء
وَأَمْسَيْتُمْ وَقَفْرُكُمُ ظِلاَلٌ ... وأشجارٌ وأزهارٌ وماء
وكانَ لكم (بأمريكا) حُبُوسٌ ... وَوَافاكم من (الغَرْب) الحِبَاء
ولكن ضِعْتُمُ ما بَيْنَ قومٍ ... أَشِحَّاء، وَإِنَّ الشُّحَّ داء
خَبِرْتُ المسلمين، فمَا نَدَاهُمْ ... سِوى الألفاظِ يَذْرُوها الهواء
يَفوقون الحصى والرَّمْلَ عَدّاً ... وهُمْ - إنْ نَابَتَ البلوى - غُثَاء
أَيَفْنَى جيرَةُ الْحَرَمَيْنِ فقراً ... ونحن بمصرَ يُفْنِينَا الثَّرَاء؟
وهم مِلْحُ الأَنَام وآلَ (طَهَ) ... عليهم تحسُد الأرضَ السَّماء
أجيرانَ (الرسول) دَمي وَرُوحِي ... فِدَاؤُكُمُ، وإنْ قَلَّ الفِداَء!
شَجَانِي خَطْبُكُمُ فبكىَ قَرِيضي ... عليكم، والقريضُ له بُكاء
وَلَوْ حِيزَتْ لِيَ الدّنيا جَمِيعاً ... لُجَدْتُ بها وفي وجهي الحَياء
وكنْتُ كفيْتُكم جَدْوَى أُنَاس ... إذَا نُودُوا أَصَمَّهُمُ النِّداَء
وكان لكم - وَلاَ مَنٌّ عليكم - ... ثوابُ الله - ومن - والجَزَاء
ولكنْ حَسْبُكم - والمالُ يَفْنَى - ... دُعَائي، رَّبما نَفَعَ الدّعاء
علي الجندي
الفجر
سَكَب الفَجْرُ بالدُّجَى لألاَء ... عَبَّهُ الشّرْقُ فَانْتَشَى وَأَضَاَء
فَالسَّنَا زَاهِرٌ يُقَبِّلُ آثا ... رَ الدَّياجي وَيرْشِفَ الأَندَاَء
زفَّت الشَّمْسُ رَكبَهُ ثمَّ أَلقَتْ ... هُ عَلَى الأُفْقِ صَفْحَةً بَيْضَاَء
وَالجِنَانُ الْحِسَانُ عَانَقَهَا النُّ ... ورُ مَشُوقاً فَهَزَّها سَرَّاَء
هَتَفَتْ بينها الطيورُ وَصَاغَتْ ... وَحْيَهَا الحُلوَ نَغْمَةً وَغِنَاَء
والغُصُونُ الرِّطَابُ حِليَتُهَا الرَّهْ ... رُ عُقُوداً تُتَوِّجُ الوَرْقَاَء
أَطرَقَتْ والنَّسِيمُ طاَرَحَهَا الشَّوْ ... قَ فَأَغْضَتْ وَبَاعَدَتْهُ حَيَاَء
تَنثَنِي كَالقُدُودِ مَالَ بها الدَّ ... لُّ وَتَخْضَلُ إِذْ تَمُسُّ الماَء
والأَزَاهِيرُ إنْ تَرِفُّ فَسَكْرَى ... رَشَفَتْ مِنْ كُؤُوسِهَا الصَّهْبَاَء
أَلَفَّتْهَا يَدُ الطَّبِيعَةِ فَالْبَي ... ضَاءُ حُبّاً تُعَانِقُ الحَمْرَاَء

قَبْسَةَ الفَجْرِ لَمْحَةٌ مِنْكِ فَضَّتْ ... سُدَفَ اللَّيْلِ فَانْفَلَقْنَ ضِيَاَء
وَرَسُولٌ لِمُجْتَلاَكِ سَنِيٌّ ... بَلَغَ الشُّهْبَ فَانْتَثَرْنَ هَبَاَء
هَلْ لِفَجْرِ الرَّجَاءِ مِنْكِ انْبِثَاقٌ ... يَطْعَنُ اليَأْسَ طَعْنَةً نَجْلاَء
(بغداد)
مصطفى كامل ياسين
أنا وأنت. . .
أَنَا السَّمَاَءُ وَأَنْتِ البَدرُ بَرْعَمَهُ ... كِمُّ الظَّلاَمِ عَنِ الإِشْعَاعِ في صَدْرِي
قَدْ أَوْحَشَتْ رَحَبَاتِي يا حَبِيبُ وما ... أَجْرَيْتَ أَنْفَاسَكَ البَيْضَاء في نَحرِي
هُمْ غَلَّفُوكَ، فَمَزَّقْ سِتْرَ حُلْكَتِهِمْ ... وَاسْطَعْ عَلَى أُفقِي المَهْجُورِ يا بَدْرِي
أَنَا الخَمِيلَةُ، تِيجَانُ الوُرُودِ ذَوَتْ ... عَلَى ضَفَائِرِ أَشْجَارِي مِنَ الحَرِّ
والطَّيْرُ أَخْرَسَها عُريُ الغُصُونِ فمَا ... عَادَت تُسِرُّ أَغَانِيهَا إِلى الفَجْرِ
وَأَنْتِ. . . أنتِ رَبيعٌ في ضَمِيرِ غَدِي ... وَسَوْفَ يُلبِسُنِي ثَوباً مِنَ التِّبْرِ
أَنَا الفَيَافِي، وَأَنْتِ القَطْرُ تَحبِسُهُ ... أَنَاملُ الغَيمِ في العَلْياءِ عَنْ قَفْرِي
قَدْ أَخْمَدَتْ زَفَرَاتُ القَيْظِ في كَبدِي ... رُوحَ الحَياةِ وَمِنْكَ البَعثُ يا قَطِرِي
إِنْ يَعقِدُوكَ فَبلَّلورُ السَّحَابِ غَداً ... تُسِيُلهُ لَفَحَاتُ الشَّمسِ في ثَغرِي
أَنَا البَنَفْسجُ لَمْ يُبقِ الْهَجِيرُ عَلَى ... عُودِي سِوَى قَبَسٍ منْ هَالَةِ العُمْرِ
لَكِنَّما أَنْتِ دَمْعُ الطَّلِّ يَنْظِمُهُ ... جِيدُ السموات أَسمَاطاً مِنَ الدُّرِّ
وفي الصَّباحِ يَرُدُّ النَّسْمُ في وَرَقي ... بَعْضَ الدُّمُوعِ فَأَحْيَا ضَافِيَ السِّحرِ
أَنَا لَكِ العشُّ يَا قُمْرِيُّ. . . يُحْزِنُني ... أَنْ قَدْ نأيتَ وَلَكِنْ أَنْتَ لاَ تَدْرِي
اعْشَوشَبَتْ جَنَبَاتِي وَاللَّجَينُ جَرَى ... تَحتِي يُناديكَ يَا ظَمآنُ!! لِلنَّهْرِ
إِنْ يُسكِنوكَ بُرُوجَ الْمَاسِ سَامِقَةً ... سَيحْتَوِيكَ حَنِينُ الطَّيرِ لِلوَكْرِ
(السويس)
عبد الرحمن الخميسي
أين يقيني؟
صَحَتْ بين جنبيَّ الهمومُ وأيقظتْ ... دفيناً من الذكرى يثيرُ حنيني
حنيني لأيام الهوى وملاعب ... بهن صَبَاباتي وهنّ جنوني
عليهن قضينا الليالي هنيئةً ... تفيض بدنيا من منى وفتون
مضى الحُلمُ البسام وارفض سامري ... وغيَّبَ عن عينيَّ نورُ عيوني
وماتت أناشيدي وحطم أرغني ... ويا دهرُ هل شُوهدت غير ضنين
مضى في هدوءِ الوادعين وأغرقت ... لياليه في صفو وطيب سكون
وأين الأماني الزهر والدهر باسمٌ ... وهذي يد الأيام قبضُ يميني؟
وأين ربيع العمر والعود مورق ... وأين يقيني؟ هل فقدت يقيني
فأصبحت لا ألقى الحياة ونورها ... وأفراحَها إلا بعين سجين
سجين أضلته الهمومُ فما رأى ... سوى عصفِ أسقام وعين سنين
(الإسكندرية)
مصطفى عبد الرحمن
رسالة العلم
قصة الفيتامين
الفيتامين ومرض الأسخربوط
للأستاذ عبد اللطيف حسن الشامي
- 7 -
غالباً ما يكون حلول الربيع مدعاة لبدء الإصابة بمرض الاسخربوط، وذلك عندما تعم الشكوى من الأمراض الناشئة عن تقلبات الجو كالضعف والخمول وفقد شهية الإقبال على العمل وآلام الرأس والشعور بالثقل في الحركة وآلام في الأطراف. ولم يهتد بادئ ذي بدء إلى تعليل هذه الأعراض ومعرفة أسبابها إلا بعد ظهور المعلومات الحديثة عن المواد الحيوية الموجودة ضمن الأغذية والطعام، ولأنه كان غريباً وداعياً إلى الدهشة والتفكير تفشي هذه الأمراض بين الناس في هذا الوقت من كل سنة، وفي الشهور: مارس، أبريل، مايو، التي ترتفع فيها أثمان الخضر الجديدة (حسب المقتضيات الأوربية)، وصدوف سواد الناس عن شراء الخضروات أو إقلالهم من

استهلاكها، وبذا تقل طبعاً كمية الفيتامينات اللازمة لحفظ الكيان والصحة
ويعزى (مرض الربيع) هذا إلى نقص في كمية الفيتامين التي تدخل الجسم، يؤيد هذا القول ظاهرتان هامتان أخذتا من الإحصائيات. وأولى هاتين الظاهرتين هو بطء النمو عند الأطفال في هذه الشهور، وطبقاً لما تردد ذكره من ارتباط النمو بالفيتامينات، فقد تبين أنه تبعاً للنقص في تموين الجسم بالفيتامينات في وقت الربيع ينخفض مستوى النمو الجسمي العام، وثانياً ازدياد نسبة الوفيات في شهري مارس وأبريل؛ وهناك مثل ألماني يشير إلى هذا المعنى ويقول: (إذا أخطأ مارس وولى، كان لأبريل القدح المعلى). وإذا ما علمنا أن وجود الفيتامينات في الجسم يدرء عنه العدوى من الأمراض المعدية، ويحصنه ضد كثير غيرها، وأن خلو الجسم منها يجعله أكثر قابلية للرضوخ لكثير من الأذى والعلل - قام هذا دليلاً آخر على الصلة بين التغذية المفتقرة إلى الفيتامينات، وبين الزيادة الظاهرة في أرقام الوفيات. فإذا تم بهذا ولو لحد ما حصر الأسباب الرئيسية التي ترجع إليها أعراض مرض
الربيع. أي انخفاض مستوى نمو الأطفال وصعود نسبة الوفيات، فقد بقي سؤال آخر بلا جواب ألا وهو: أي نوع يا ترى يكون مرض نقص الفيتامين هذا الذي يسمى أول أعراضه وأولى صورة بمرض الربيع؟
ضمن أعراض مرض الربيع ظاهرة استعداد لحم الأسنان إلى الإدماء السريع حتى بأقل مجهود يبذل في تنظيفها، وتزداد هذه الظاهرة شدة وخبثاً وتتداعى عندها اللثة كلها إلى الإدماء وقد استعمل قديماً اسم الأسخربوط للتدليل على هذا المرض ولكنه نسخ بعدئذ بالتسمية الصحيحة بمرض نقص الفيتامينات. ويقابل الأسكربوط بالألمانية شاربوك، وهي منقولة عن الهولندية، شار بمعنى فتحة أو ثلمة، بك بمعنى فم، فيكون معنى الكلمتين مجتمعتين الفم الجريح أو الفم الدامي
ولقد كانت صورة المرض قديماً من البشاعة فوق ما يتصوره الإنسان، يدل على هذا البقايا العظيمة للجيوش الرومانية في عهود قياصرة الرومان وفي جيوش المحاربين الصليبيين. ويُحدث المؤرخ السويدي أولاوس ماجنوس المولود عام 1490 في كتابه (تاريخ الشعوب الشمالية) بإسهاب عن إصابة رجال السفن الشراعية من رائدي القطب الشمالي من البحاثين وتابعيهم ومن صائدي الحيتان والسمك. كذلك كان ينشب المرض أنيابه على اليابسة بين الناس وقت الحروب والأسر والمجاعات، وبلغ من شدة وطأته أحياناً في العصور الوسطى وفي أزمنة الشدة أن أعتبر في المدن الكبيرة بجانب أمراض التدرن من الأمراض المستعصية التي لا يرجى معها شفاء. كما تخذ في عام 1911 في مدينة نوربنرج بألمانيا شكلاً وبائياً كارثاً إثر نكبة في المحاصيل الزراعية
وأعراض المرض في أواخر الشتاء أو أوائل أيام الربيع على المصابين هي التهاب اللثة وإدماء أغشية الفم المخاطية وإدماء ونزيف من الجلد والأنسجة والعضلات، ثم تثقل حركة الأرجل وتهزل هذه وتصاحبها آلام مبرحة في العضلات، وتفقد الأسنان تماسكها وارتباطها، وتضعف العظام وتصير هشة غضروفية. وإذا استمرت التغذية على ما هي عليه رغم هذه الأعراض فمصير المريض إلى التهلكة لا محالة. ولكنه إذا تنوع الغذاء وتعددت ألوانه وأضيف إليه الخضر واللحم الطازج، ولو بمقدار طفيف، تزول هذه الأعراض كما يزول كيد السحر
لم يبق شك بعد هذا في أن مرض الأسكربوط هو مرض غذائي. وفي أثناء الحملة الاستطلاعية التي قام بها شارل الثاني عشر ملك السويد على أراضي أوكرانيا في مستهل القرن الثامن عشر، عالج أطباء حملته مرضى الجنود بالاسكربوط بالحقن بواسطة إبرة من الخشب بمادة أتت بنتائج طيبة مما جعلها تلقى طريقها إلى مستشفيات برلين للعمل بها في علاج الاسكربوط. وقاوم الإيطاليون من قديم الزمن مرض الأسكربوط بعصير العنب، وصرح أحد الأطباء العسكريين النمسويين في عام 1720 بأن عصير البرتقال والليمون أكثر فعلاً في مقاومة الأسكربوط وقد أخذت برأيه حينذاك رياسة البحرية البريطانية واستعملته في عام 1804 فوق سفنها في علاج رجال بحريتها الذين انتشر بينهم هذا المرض الخبيث
ولقد ساعدت هذه المعلومات القديمة حتى حرب سنة 1914 في مقاومة ودفع مرض الأسكربوط بالرغم من وجود بعض الإصابات الشاذة التي لم تنجح مقاومتها. وانتشر

المرض في بعض الأقاليم الريفية في روسيا التي تقتات بالحبوب وظهرت أعراض الأسكربوط بانتظام في بعض جهات ألمانيا والنمسا التي كانت تتناول غذائها من الأطعمة المحفوظة كاللحوم والبطاطس والخضر المجففة واللبن المكثف وتفشي كذلك بين الأتراك وأهل رومانيا ووجد مرتعاً خصيباً بين الأسرى الألمانيين والنمسويين الذين وقعوا في أيدي الروس. أما أثره في الكتائب الإنجليزية في العراق فيكفي أن أحصي عدد المرضى بالأسكربوط بأحد عشر ألفاً من الجند. وكذلك انتشر مرض الأسكربوط بين الأطفال في الجهات التي وقع عليها حصار بحري أو أرضي في الحرب الماضية، إذ تبعا لهذا الخناق وانقطاع الصلات عبر البحر أو الأرض لم يكن هناك غير اللبن المعقم للتدوال في إطعام الأطفال، واللبن المعقم تقل حتى تنعدم فيه الفيتامينات، وأخذ المرض في الأطفال شكلاً خاصاً وكان يخطفهم ويلقي بهم في دور الرعاية والمستوصفات حتى امتلأت بهم. وكانت أعراضه عليهم آلاماً حادة في العظام ومبرحة في الأطراف ومضخمة في المفاصل ومصحوبة بإدماء في الفم والجلد والأغشية المخاطية. وأما الظاهرة الهامة فهي الخوف الذي استحوذ على الأطفال من لمس أي شيء عفواً

وإذا ما أضيف إلى الغذاء أنواع أخرى منه غنية بالفيتامين كالإسباناخ مثلاً أو عصيدة البنجر فلابد من أمل في الشفاء في أجل قصير. ويجدر بنا أن نورد هنا ما تصنعه كثير من الفلاحات الأوربيات اللائي لا يعرضن أبنائهن بأنفسهن بحكم الضرورة فهن يضعن بعضاً من البنجر المقشور في زجاجات لبن الأطفال

وحتى مع هذه النتائج والتجارب العديدة لم يتوصل أحد آنئذ إلى الكشف الصحيح أو إلى نتيجة حاسمة شافية تميط اللثام عن هذا المرض العضال الذي أخذ أشكالاً متعددة تارة عند الأطفال وأخرى لدى الكبار، وفي كل يبدأ على هيئة (مرض الربيع) وبين عامي 1907 و1912 توصل بعض العلماء النرويجيين بناء على تجارب غذائية دقيقة إلى إثبات حقيقة مرض الأسكربوط بأنه مرض غذائي. فقد حضروا غذاء خاصا من الشعير واللبن والبرسيم والعلف الجافة خالية من الفيتامين الواقي من الأسكربوط وأطعموا منه عدداً كبيراً من الحيوانات، فما لبثت أن ظهرت عليها أعراض شديدة الشبه بأمراض الأسكربوط لدى الإنسان. وفي هذه الآونة فقط أمكن البحث وراء المواد الشافية التي تحتوي على هذا الفيتامين المضاد للأسكربوط، والذي أطلق عليه فيما بعد الفيتامين كما بدأت المحاولات لمعرفة الكميات اللازمة من هذا الفيتامين التي يجب أن تتوفر في الغذاء كي تقف وتحول دون ظهور أعراض المرض وبما أن عصيري البرتقال والليمون يعتبران من المواد الشافية الواقية من الأسكربوط، فكان طبيعياً أن يبدأ البحث فيها لاستخلاص الفيتامين، وكان لابد من التغلب على بعض العقبات التي اعترضت مجرى البحث في تحضير هذا الفيتامين في هيئة بلورية نقية ثم الكشف عن تركيبه الكيميائي. ولهذا أبتدأ تاريخ البحث عن الفيتامين أشبه شيء بالقصة، وكان من الأمثلة الحية على تعاون العلماء في مختلف البلاد تعاوناً جدياً للوصول إلى الحقيقة رغم بعض الاقتراحات الخاطئة المخلصة التي كانت تعرقل البحث وتؤخره.

(يتبع)

عبد اللطيف حسن الشامي

البريد الأدبي

اللغة العربية في ورقة رسمية

قال الأستاذ العقاد في مقال له بالدستور:

(وعلى ذكر الكتابة والوزراء والعيد والعيديات نقول إن الحكومة المصرية على ما يظهر قد أرادت أن تعيد على الناس بالورقة الجديدة ورقة ربع الجنيه فانتشرت هذه الورقة في أيام العيد بعض الانتشار

وما أظن أن نقوداً وصلت إلى يدي قد نغصتني كما نغصتني هذه الورقة الخاطئة ففيها يقرأ القارئ هذه العبارة: (أتعهد أن أدفع لدى الطلب مبلغ خمسة وعشرون قرش صاغ)

ثلاث غلطات نحويات في سطر واحد. . .!

فهل يسمح بمثل هذه الغلطات في عملة حكومة؟ وأية حكومة؟

!!حكومة مصر التي هي زعيمة الأقطار العربية
وحكومة مصر التي تضن على التلميذ الصغير بالانتقال من السنة الثالثة إلى السنة الرابعة الابتدائية إذا أخطأ مثل هذا الخطأ في ورقة الامتحان
لموا هذه الورقة مهما يكلفكم لمها من الأسواق والبيوت، وافرضوا على حصتي التي تخصني من هذه التكاليف، فهي أرحم من هذه الصدمة مع كل خمسة وعشرين قرشاً (صاغاً يكسبها الإنسان
العربية الغربية في دارها
سيدي الأستاذ الفاضل الجليل محرر الرسالة
تحية الله ورحمته عليك يا محيي العربية، ومعيد شبابها إليها وملبسها قديم حلاها حلة جديدة توائم العصر وتوافق الزمن، ولا تخرج - مع ذلك - عن المسنون من طرقها، والمعروف من مناهجها. وبعد:
فلقد قرأت يا أخي من سنوات في الأهرام قصيدة عصماء لشاعر عربي ممن رمت به مطارح الغربة إلى العالم الجديد يقول فيها هذا البيت عن اللغة العربية:
لغة يهون على بنيها أن يروا ... يوم القيامة قبل يوم مماتها
وقرأت قصيدة المرحوم حافظ إبراهيم على لسان اللغة العربية وهي مشهورة مذكورة لا يخلو منها كتاب من كتب المحفوظات المدرسية التي تختارها وزارة المعارف
وتابعت - منذ أن تعلقت من اللغة بسبب - كل ما كتب لها وفي سبيلها أو اقترح لأجلها من إصلاح منهج، أو إنشاء خطة أو تبسيط قاعدة. ولستُ في ذلك نسيج وحدي وإنما أنا واحد من كثرة كثيرة يقلق جنوبها أن تصبح العربية غربية في دارها، أعجمية إلى أهلها، بغيضة إلى أحبائها
ومن أعجب العجب أن لغة لا يستهين بها أهلها كالعربية، وأنها على الرغم مما وضع لها من قواعد، وما عمل لها من ضوابط، لا تزال تلقى من الكاتبين أو المتكلمين بها إهمالاً كثيراً وقلة مبالاة، وعدم اكتراث، وذلك أمر لا تجده في لغة أخرى غيرها. فالإنجليزية يكتب بها الإنجليز وينطقون بها صحيحة منحاة؛ والفرنسية - على كثرة شذوذ الأفعال فيها - يكتب بها الفرنسيون وينطقون بها صحيحة منحاة؛ والألمانية - على صعوبة نحوها - يكتب بها الألمان وينطقون بها صحيحة منحاة. . .
أما العربية فهي مسكينة بين أهلها وبين الغرباء عنها، وحق للغريب أن ينظر إليها شزراً مادام ابنها لا يحسنها ولا يبالي أن يحسنها. . .
هذا كلام ثار في نفسي بمناسبة ظهور الورقة المالية الجديدة ذات الخمسة والعشرين قرشاً. ففيها غلطة نحوية شنيعة أشار إليها كاتب فاضل في إحدى الصحف اليومية وهي لا تخفى على كل قارئ
ثم يشاء الله لهذه الثورة النفسية ألا تسكن، فقد ألهبها من جديد في نفسي إعلان غريب عن نوع من الصابون لا نذكره لئلا يؤخذ ذكرنا له على سبيل الإعلان عنه وإني لمقتبس من هذا الإعلان (العربي) بعض عبارات وأقدمها هدية متواضعة إلى الأخ الدكتور زكي مبارك مفتش اللغة العربية بالمدارس الأجنبية! فلعل عنده من الرأي ما يسعف، أو من العزاء ما يسلي. . . وإليك بعض العبارات:
صابون كذا هو محصول فاخر نتيجة اختبارات (ثلاثون) سنة. . . نظراً لكونه (صنف جيد) لتحلية وتنعيم الجلد ويجعله (خملي). . . والحراير يمكن غسيلها بهذا الصابون الذي يستطيع بأن (يبيضوا) بدون ما يؤثر عليها. وبالإطلاق جميع الأصواف يمكن بأن (يبيضوا) بصابون (كذا). ولا تحصل للملابس أي ضيق أو كشش
ومن الغريب أنه بجانب هذا (الإعلان العربي) كتب إعلان آخر بلغة فرنسية صحيحة كل الصحة سليمة كل السلامة.
فإلى متى تظل اللغة العربية غربية في أهلها؟ وإلى متى تبقى سقيمة عليلة والمداوون كثير؟
محمد عبد الغني حسن
سكران طينة
حضرة الأستاذ الجليل رئيس تحرير مجلة الرسالة الغراء
قرأت أن الدكتور الأديب أحمد عيسى قد نشر معجماً للمفردات العامية ذات الأصل العربي. وكان أحد عمداء الجامعة قد نشر أيضاً في بعض المجلات الأسبوعية شيئاً غير

قليل من هذه المفردات والتعابير؛ وعنى الأستاذ المازني بالتنبيه إلى أنه يتحرى استعمال العربي الذي شاع أنه عامي فنبذ من أجل ذلك. ومثل الذي فعله المازني قد فعله الأستاذ محمد سعيد العريان في أقاصيصه

ويبدو أن أمر الاهتمام باللغة العامية لا يقتصر على أي عدد من الأدباء قل أو كثر وإنما هو ظاهرة من ظواهر النهضة الأدبية، كأن اللغة العربية تبحث عن حقها المضاع وتبدأ أول ما تبدأ باللهجات العامية فتسترد منها ما سلبته؛ ففي غير تنبيه إلى مثل هذا الغرض نشر الأستاذ أحمد رامي وغيره عدة دواوين باللغة العامية، فحرصاً على خدمة المحافظة باسم التجديد، جزاهم الله خيراً عن المحافظين

ومن دواعي الدهشة في هذا البلد الشديد المحافظة أن تجد لفظاً جديداً في عاميته، فكلما سمعت كلمة خلتها جديدة أقنعتني مصادفة في كتب الأدب القديم بأنه لا جديد في اللغة،. .!

وآخر ما وجدته من ذلك كلمة سكران طينة؛ ففي شعر كشاجم في قصيدة مطلعها

متى تنشط للأكل ... فقد كللت الخونة

يأتي هذا البيت

فما عذرك في أن لا ... ترى من سكرة طينة

أم لعل للفظ معنى آخر، أم لعله من قواقع المطبعة؟

عبد اللطيف النشار

سكان مصر في الإحصاء الأخير

نقتطف هنا بعض ما تضمنه كتاب (الإحصاء السنوي العام) لمصلحة الإحصاء، من بيانات عن أحوال السكان في مصر

قدر عدد السكان في عام 1800، أي في عهد الحملة الفرنسية بنحو 2. 460. 200 نسمة، وكان عددهم في عام 1846 - مقدراً على أساس عدد المساكن - 4. 476. 440 نسمة

أما في عام 1917، وهو التاريخ الذي بدأت فيه مصلحة الإحصاء باتباع النظم الحديثة، فكان عدد السكان 12. 750. 918 نسمة، زادوا في سنة 1937 إلى 15. 904. 525، ثم بلغوا في سنة 1939 - 16. 522. 000 نسمة

وبلغ عدد سكان البحيرة حسب تعداد سنة 1937، 1. 060. 882 نسمة، بزيادة 91. 043 نسمة عن التعداد السابق

وسكان الغربية 1. 963. 654 نسمة مقابل 1. 791. 985 في سنة 1927، والدقهلية: 1. 080. 693 نسمة مقابل 1. 119. 456 والشرقية: 1. 119. 456 نسمة مقابل 1. 016. 912، نسمة والمنوفية: 1. 157. 433 نسمة مقابل 1. 105. 191، والقليوبية: 607. 304 نسمة مقابل 558. 948 .

أما سكان محافظات أقسام الحدود فكان عددهم 121. 493 نسمة مقابل 94. 588 في سنة 1927

وبين سكان مصر 1. 670. 895 يلمون بالقراءة والكتابة، منهم 1. 386. 843 من الذكور و248. 052 من الإناث أما عدد الأمين فبلغ 12. 506. 969، بينهم 5. 671. 203 من الذكور و6. 835. 739 من الإناث

كلية التأريخ في أنقرة

من أنباء أنقرة أن الدكتور رفيق سيدام رئيس الوزارة التركية فتح كلية اللغات والتاريخ والجغرافيا بحضور جمهور من الكبراء والعلماء، وقد ألقى خطبة قال فيها: (يسرني أن أفتتح كلية اللغات والتاريخ والجغرافيا التي أمر أتاتورك العظيم بتشييدها، وهي تعد من الأعمال المجيدة التي أنجزت خلال السنوات الأربع الأخيرة. وإني أشكر زملائي في العمل الذين وقفوا حياتهم على تلقين الشبيبة التركية مختلف العلوم

وقرأ الرئيس بعد ذلك فقرة من الخطاب الذي ألقاه رئيس الجمهورية التركية في حفلة افتتاح المجلس الوطني الكبير جاء فيه:

إن أهم ما يتضمنه برنامج التربية الوطنية إقامة المعاهد الثقافية الكبيرة في أنقرة،) لأننا نريد أن نجعل من هذه المدينة مركزاً للأناضول بما فيها من كليات ودور للأوبرا ومسارح ومعاهد، فيجب أن تعد أنقرة نموذجاً روحياً للجامعات الأخرى في البلاد. وبعد أن يتحقق ذلك لا نحجم عن تشييد مراكز ثقافية أخرى)

إلى علماء التاريخ
يقول الأستاذ الباحث صديق شيبوب في الرسالة الغراء عدد (383) أثناء تحليله للعالم النفساني الكبير سيجموند فرويد ما نصه: (كان موسى من رجال حاشية الملك إخناتون الذي كان أول من قال بالتوحيد عند قدماء المصريين
ويقول الأستاذ طه الساكت في مقال ترتيب الأنبياء بمجلة الإسلام عدد (39) أول نوفمبر سنة 1940: (كليم الله موسى عليه السلام. . . بعثه الله تعالى رسولاً إلى فرعون وقومه ومنقذاً لبني إسرائيل من الذل والاستعباد. وكان فرعون موسى - وهو رمسيس الثاني على ما رجحه بعض الباحثين - يضطهد الإسرائيليين ويذبح أبناءهم).
وقص علينا أساتذتنا أثناء دراسة التاريخ القديم أن فرعون موسى - هو الملك منفتاح -
فهذه ثلاثة آراء متخالفة، فإلى أي رأي نتجه؟ وبأي قول نقول؟
فإلى علماء التاريخ وأساتذته يوجه الاستفهام والرجاء. وإنا لتحقيقهم لمنتظرون
محمود محمد بكر هلال
وصية أمين الريحاني
روت المكشوف أن السيد ألبير الريحاني عثر بين أوراق شقيقه فيلسوف الفريكة، على وصية مكتوبة بخط يده، تحتوى على عشرين بنداً، ومؤرخة في سبتمبر 1931 وتتناول هذه الوصية شؤوناً في الأدب والسياسة والدين ولكنه لا ينتظر في الوقت الحاضر نشرها. وقد حفظت بين آثاره الكثيرة التي يعمل شقيقه ألبير على جمعها ومراجعتها وترتيبها بحسب تواريخها وموضوعاتها
ومما تجدر الإشارة إليه أن أمين الريحاني كان يحتفظ بنسخة من كل رسالة يبعث بها إلى صديق، ومن كل بحث يرسله إلى صحيفة، كما أنه كان يحتفظ بكل صحيفة له فيها مقالة.
القصص
الملازم ألبير
للأستاذ محمد محمد مصطفى
كان يحمل أملاً بساماً بين جنبيه، وبشراً طافحاً في عطفيه وهو ينهب الطريق إلى قريته. لا يحس مسغبة وبطنه طاو، ولا يشعر بظمأ وحلقه جاف. وبدا الطريق كئيباً موحشاً وسوق القرية خالية وعهده بها غاصة بالوافدين. . . لشد ما غيرت الحرب معالم الطريق فلا ظل وارف ولا طير غرد وهذه الحفر من فعل الطائرات، وتلك الغابة أحرقها الألمان فامتد لهيبها إلى الحقول وأهلك ما فيها من زرع وضرع
ورأى قسيس قريته مقبلاً عليه فخيل للفتى أن فاجعة ألمت به فهو يمشي وئيد الخطى أغبر الوجه، كأنما يحمل على كاهله وقر السنين. ونراه يدنو من الفتى فيعرفه ويسلم عليه ويسأله:
- أحقاً يا بني سقطت بروكسل وألقيتم السلاح؟
فسقطت دمعة كبيرة من عين الفتى وقال:
- كان ذلك حقاً يا أبتاه. . . وإلا فكيف تراني هنا. . . أمرنا الملك بإلقائه فأطعنا وما كان لنا أن نختار وآلات الألمان تفتك بنا فتك الوباء
- ليغفر الله لليوبولد زلته. . . وإلى أين يا بني؟
- إلى أمي وخطيبتي يا أبتاه. إلى قريبتي الحبيبة (فورنتيه)
- خير لك يا بني أن تعود. فقد مسحت القرية من خريطة الوجود
- ماذا. . .!
- أقول إن الجيش الألماني لم يترك حتى ما يدل عليها
- وأمي يا أبتاه!
فربت القسيس على كتف الفتى، فكاد يسقط لفرط ما دهاه، وقال له:
- يا لها من ليلة هائلة يا بني. تعال، اجلس هنا على حافة الطريق، فقد هدني من يومها الهم وتضافرت على جسمي الأمراض. . . وسكت قليلاً كأنما يستعيد ماضياً بعيداً ثم أردف:
- كانت فرقة من الجيش البلجيكي تعسكر في غابة القرية حينما هاجمتها الطائرات وأشعلت فيها ناراً أمتد لهيبها إلى عنان السماء، فبدت القرية على وجهها هدفاً ممتازاً دكته الطائرات. . .

وضرب الفتى في الطريق إلى بروكسل تنوء بحمله ساقاه وتخذله قوته، فيسقط في الطريق
- انظري! إنه ضابط من فرق القناصة يحتضر . . . أماه
- ماء يا فلورندا من النبع الرقيب
ويفيق الفتى ليرى رأسه على حجر امرأة فيشكرها، وتعاونه الأم وابنتها على المسير إلى كوخهما القريب
- تفضل فاجلس على هذه الحشية فلم يعد لنا بيت ولا أثاث
وبدا على وجه الفتى آيات من الألم الممض والحزن العميق. ولما قدمت له فلورندا شيئاً من الحساء، أحس بالدفء والراحة واستطاع أن يتكلم. . .
وانتشرت نفس الأم عليه رقة ورحمة، وأحبته الفتاة في صمت. ولم يأبه بذلك الفتى، ولم يجد له فراغاً بقلبه المعذب المفؤود
وجمعتهم نكبتهم المشتركة في قريتهم وأعزائهم فكان جل حديثهم يدور حول دمار بلادهم. وتصعب معرفة من كان منهم أشد سخطاً على الألمان، ولكن الفتى كان أكثرهم جنوحاً للصمت والتفكير العميق
ويوماً قال ألبير . . .:
- ليست فلاحة الأرض صناعة ضباط القناصة ولا يليق بي وقد رزئ وطني باحتلال النازي أن أكون هنا
- فأين يجب أن تكون يا ألبير؟
- في العاصمة أو حولها ليشعر الألمان أننا لم نستكن لحكمهم، وأن في بلجيكا رجالاً
فأدركت الأم مرماه وقالت: إنك تلقي بنفسك في أوار الجحيم
قال: لأشارك أمي ميتتها وقريتي محنتها
وعبثاً حاولت الأم ثني عزمه. . .
أما الفتاة فقد بكت قائلة:
- أرجو أن تبقى هنا إلى جانبي أعوضك من حناني ما فقدته من حنان الأم. . . ألا تسمع. . .؟ إنني أرجو. . .
- أرجو أن تسكتي فقلبي عنك في شغل. . .
صادفت دعوت ألبير هوى في نفوس المنكوبين المغامرين الذين سرحوا من فرقته، وكان عملهم منظماً شأن رجال الجيش، فبعضهم لنسف الكباري، والبعض الآخر لقطع الجسور، وهؤلاء للسطو ليلاً على المخافر الصغيرة، والاستيلاء على الأسلحة والذخيرة، وأولئك لاقتناص البارزين من رجال الحملة الألمانية وغير ذلك من الأعمال التي سببت للمحتلين شتى المتاعب
وشاع أسم ألبير في وطنه وأكبر مواطنوه ووضع الألمان جائزة لمن يأتي به حياً أو ميتاً وكانت فلورندا تتلهف شوقاً لأخباره وقلبها الطاهر الغض يذوب إشفاقاً عليه، وكان جل مناها أن تراه فتتبعه رضي أم كره وتعنى به، فمن يطبخ له يطبخ له ويوقد له النار ويرتق له الصدار. . . كانت غارقة في الحب مسبوهة اللب، وكأنما كان ألبير يضفي على الحقل بهاء والدوح رواء والسماء صفاء، فلما ذهب أضحى الكون موحشاً كئيباً والجو خانقاً والشمس مصفرة حزينة كأنما تشاركها الألم وتقاسمها الشجون
وتأسى الأم لذهول ابنتها وإغراقها في حب رجل أهدر دمه. . . ولن يعود، فتقول:
- وهبك ملأت الأرض أنيناً، أفتظنينه يسمعك يا فلورندا
وتحطمها كلمات الأم فهو حقاً رجل هالك كان في حياتها كل شيء فلما ذهب خسرت كل شيء ولكنها لا تطرف ولا تجيب وتلوي عنانها إلى الحقل تطوف بمجالسه، وتلثم آثاره، حتى إذا ما ألقى الليل غواشيه قفلت عائدة وفي صدرها سعير من الوجد يذيب الحشا ويرمض الجوانح
ولم يذكرها ألبير فقد ملكت عليه ثورته لوطنه كل جارحة فيه، وكان ينفث من حميته الهائلة وفكره الجبار ناراً تدفع بزملائه إلى أهول الأخطار. فإذا انكفأت إليه ذكرياته وألح عليه ماضيه بدت له فلورندا شبحاً باهتاً يظهر ويختفي كلما سلب من حياته الجديدة ساعة فراغ
وضجت قيادة جيش الاحتلال من فعاله فشددوا الرقابة وبثوا في مظان وجوده العيون

ويوماً شاع في العاصمة أن قطاراً قادماً يحمل زائراً عظيما فسرى بين الناس أن هتلر هو راكب القطار
وكيفما كان الراكب فقد عزم ألبير على أن يفجع الألمان فيه.
وكان بارع التدبير حار الحماسة لتدمير القطار
ووقف على شاطئ خياله ليرى هتلر تبعثره الألغام وإذا الدنيا كلها بين يديه تسأله أي جزاء يختار. . . حقاً. . . ماذا يختار؟
قال لنفسه: (أأكون ملكا. . . ولم لا. وأنا منقذ العالم من الدمار؟)
ودخل من خياله إلى قصره الملكي الموشى باليانع من الزهور الملفوف بالباسق من الأشجار تشدو عليها الطيور، فإذا العرش ممرد منيف والفراش وثير، وإذا المائدة تزخر بألوان من أشهى الأشربة وأطيب الآكال فيأكل ويروى ويسلم جسده لأريكة من فاخر الرياش
ويطير بأحلامه صفير القطار. . . إن نوره القاتم يشق غياهب الظلام وهو يقبل مسرعاً إلى حتفه المحتوم - فتهيأ ألبير للعمل العظيم. . . قال: القطار الآن فوق المنطقة الملغومة. فلأشعل الفتيل
وي. . . أن الألغام لا تنفجر. . . أترى رفعها خائن أم أخطأ في تركيبها زملائي المفاليك
وسمر ألبير في مكانه ليرى بغتة صرح آماله ينهار بينما يجري القطار على قضبانه متطامناً سلس القياد
وأخذت تنتاب رأسه فورات من اليأس والحزن العميق. فجلس على أنقاض حلمه وقد كست عينيه غشاوة حجبت عن ناظره المرئيات. وسمع قهقهة عالية فريع قلبه ونظر فإذا جنود تحيط به كأنما قد تثاءبت عنهم الأرض
- لقد أجهدتنا كثيراً يا ألبير
قالها قائد القوة في تهكم وتشف
وأسقط في يد ألبير ولكن روعه أفرخ حينما ذكر أنه أدى لوطنه رسالته وإن كانت لم تتم، وكان رافع الرأس شامخ الأنف وهو يمشي بينهم إلى حيث لا يعود
وطلعت الصحف بنبأ القبض على الثائر ألبير وقرار إعدامه في ساحة عامة ليكون عبرة لمواطنيه
وزلزلت فلورندا ومادت برأسها الدنيا واحلولكت مرائيها
وضربت في الطريق إلى بروكسل تتقصص أثره وتتسقط خبره، بينما يصهرها الأسى ويفري أحشاءها العذاب، وشاطرتها الطبيعة الألم، فاربد وجه الجو وهطل المطر غزيراً كأنما فتحت ميازيب السماء
وكنت ترى في شوارع بروكسل فتاة ذاهبة العقل تمشي الهوينى مرتهكة الأوصال والناس يقتحمونها بأنظارهم مشفقين
ولم يجد قائد حامية بروكسل في مظهر الفتاة القروية ريبة فسمح لها بوداع (شقيقها) ألبير
ومشت فلورندا في ممرات السجن الرهيب تتلمس سبيلها كالعميان، ونزلت إلى قبو رطب تنفذ أشعة ضئيلة من كوة فيه، وكان ألبير يقبع هادئاً في ركن منه. . . وتبينته بعد لأي فرمت نفسها على صدره، وطوقت عنقه وراحت تقبله:
- أواه يا ألبير. . . ألا تنبئي. . . أنا الوالهة فلوراندا
وأرتج على ألبير. . . وشدهته زيارتها الطائرة وفاض صدره بالسعادة التي أقبلت عليه في غمرة همه. . . أي مفاجأة هذه. . . أو كانت تضمر له هذا الوجد وهو عنها لاه بالفتك بالألمان؟ قال:
- ولكن ذلك يحببني في الحياة يا فلورندا وقد نفضت يدي منها
ويغص فم الفتاة بالأنين والزفرات، وتخرج كلماتها كحشرجة المحتضر؛ وقد بح صوتها فلم يدرك منه ألبير إلا أنها مريضة مدنفة، وأن نبأ إعدامه دمرها فهي راغبة عن الحياة. قالت: . . .
- إنني جد ظمأى يا ألبير
ولما قام ليأتي لها بماء أخرجت من ثنية في ذيل ثوبها ورقة بها مسحوق قاتم الزرقة، وفي غفلته وضعته في الكوب

وداعاً يا ألبير. . . والى اللقاء. . . في أطباق السماء. وبدأت تتسلل روحها وتهمد أنفاسها
وبدت في غفوتها الأدبية كطائر وسنان، وكأنما أزال الموت ما رسمه الهم على محياها اللاغب الوهنان؛ فأشرق وجهها وانتشرت عليه علائم الاطمئنان
وحدق فيها ألبير وحدثه نفسه:
- لقد تجرعت سكرة الموت من هذا الكوب ما في ذلك ريب، وفيه بقية تذهب بي إليها وتنقذني من إصر الألمان. . . وصبها في جوفه!
وانبعث من خلال أوهامه شبح فلورندا يناديه:
- تعال. . . تعال إليّ يا ألبير
فأجابها وهو يلفظ نفسه الأخير:
- هاأنذا قادم على أثرك يا فلورندا. . . ألا ترين جسدي يدب فيه الفناء؟!
محمد محمد مصطفى
بإدارة مدرسة البوليس
العدد 385 - بتاريخ: 18 - 11 - 1940
حول الحرب والشعر
للأستاذ عباس محمود العقاد
كتب بعض القراء الأدباء يعقبون على مقالنا في الحرب والشعر، وطلب إلينا بعضهم مزيداً من الإيضاح، فنحن نجمع هذه الملاحظات التي لعلها تلخص جميع الخواطر التي ترد على آرائنا في ذلك المقال، ونجيب على ما يحتاج منها إلى جواب في شيء من الإيجاز.
قال الأديب عباس حسان خضر: (لما رأيته يسير في بحثه على ضوء الشعر الغربي والحوادث الغربية فيرى الحروب لا تشحذ ملكة الشعر جعلت أستضيء بالشعر العربي والحروب العربية فرأيت الحرب كانت لدى العرب من أفعل مثيرات الشعر كما يقولون: الشعر يوحيه الحب والحرب والموت) إلى آخر ما قال الأديب في هذا المعنى والذي نراه أن الشعر العربي الذي قيل في الحرب كان ينبغي أن يبلغ عشرة أضعاف القصائد والمقطوعات التي قيلت في الأغراض الأخرى، لأن القبائل البادية قضت أيام الجاهلية في قتال، ثم أشتغل العرب بحروب الإسلام وفتوحه، ثم أصبحت الشجاعة الحربية معرضاً لمدائح الشعراء في الملوك والأمراء.
ومع هذا جميعه لا يبلغ شعر الحرب في اللغة العربية ما بلغه شعر العشاق في جيل واحد سواء نظرنا إلى قيمة الشعر أو مقداره
وقد استغرقت الحروب الصليبية ما استغرقت من الزمن، وشملت ما شملت من الأمم، وتناولت ما تناولت من الأقطار، وليس محصولها الشعري كله بمساو لقصائد عاشق واحد من المشهورين في معشوقة واحدة. وحسبك هذا دليلاً على مبلغ إيحاء الحروب لقرائح الشعراء حتى في الزمن القديم.
ونقول (حتى في الزمن القديم) لأن للزمن القديم في هذا حكما يخالف حكم الزمن الحديث. إذ كان الشاعر يومئذ يؤدي (وظائف شتى) كوظائف الخطيب والداعية والمسجل والشادي على ألسنة المعهودة في اجتماع الوظائف، ثم تفرقها بالتخصيص والتنويع. وعلى هذا النحو كان الرجل الواحد كاهناً وطبيباً، ثم أصبح طبيباً لجميع الأمراض وبطل عمله في الكهانة، ثم أصبحنا في الزمن الحديث وعندنا الحديث وعندنا خمسون طبيباً لا يعالج أحدهم مرض الآخر، وكلهم أطباء قادرون.
وهذا ما أومأنا إليه في مقالنا السابق عن الحرب والشعر فقلنا إن الملاحم المنظومة كانت (هي وسيلة التدوين التي لا وسيلة غيرها بين أولئك الأميين من الأقدمين، فلما كثرت وسائل التدوين في العصر الحديث كان ذلك أقمن أن يضعف النزعة إلى تخليد الحروب بالمنظومات المطولة، وأصبحت القصائد التي تنظم في هذا الغرض أقرب إلى التعليق والاعتبار والإعراب عن فلسفة الشاعر. . .)
فإذا تعرض الشعراء لموضوعات الخطباء والمسجلين في الزمن القديم فذلك شأن لا يدوم في زماننا هذا الذي تعددت فيه مطالب الخطابة ووسائل التدوين، فأصبح تضييع الشعر فيها من الفضول، أو من صرف الشيء في غير منصرفه المعقول
وقال الأديب يحيى زيادة عضو البعثة اليمانية: (أما الشاعر فلابد له من سويعات يجمع

فيها أشتات فكره ثم يدبج ببراعته صيحاته، فإن كان شاعراً حقاً عبقرياً استطاع أن يغتصب منبر الخطيب ويستأثر بالجماهير لترديد شعره وقراءته كالشاعر الإنجليز كبلنج، وإلا فهو بالطبع سيمنى بالفشل. ولعل هذا هو السر في أنه لا ينزل إلى ميدان الشعر في أيام الحروب إلا من وثق من نفسه أنه يستطيع بإلهامه وجودة شعره أن يستأثر بقلوب الجماهير ويحملهم على قراءة شعره)

وليس الأمر كما قال الأديب لأن ما نظمه كبلنج إنما كان من قبيل الأناشيد التي قلنا إنها اجتماعية وليست فردية، فحكمها في هذا الصدد كحكم الخطب والمقالات.

وقد حضر الثورات والحروب شعراء فحول في الذروة العليا بين أقوامهم فلم ينظموا فيها إلا قليلاً جداً بالقياس إلى سائر الأغراض والمعاني

فهذا ملتون كان أشعر أبناء عصره من الإنجليز، وكان في حومة الثورة الإنجليزية، فماذا نظم فيها بالقياس إلى ما نظمه في الأغراض الأخرى؟

وهذا فكتور هوجو كان أشعر أبناء عصره من الفرنسيين وقد حضر الثورة وحرب السبعين فماذا نظم فيها؟ وماذا نظم في سائر الموضوعات؟ وما يقال عن هوجو يقال عن شاتوبريان

ولا مرتين وشينيه وجملة الشعراء الذين لابسو الثورة الفرنسية في عهد من العهود.

وكذلك كارودتشي الإيطالي كان أشهر شعراء قومه وحضر الثورات الإيطالية وكان ثائراً أبن ثائر، ولكنه فضل الإعراب عن آرائه السياسية في نشيد الشيطان على تسجيل

الحوادث التي لا تنحصر في الحروب.

وكذلك جيتي وشيلر وهيني أعظم شعراء الألمان في زمانهم لم ينظموا في حروب عصرهم وهو عصر نابليون والثورات الوطنية إلا شذرات مهملة من شعرهم القيم المقدم على غيره.

ولقد شغلت الحرب الماضية أقطار العالم قاطبة أربع سنوات وفيه مئات الشعراء من غربيين وشرقيين ثم لم يعقبوا جميعاً من الشعر القيم ما يضارع ديوان شاعر واحد.

وجاء الشاعر الناقد بيتس الذي عهد إليه في اختيار مجموعة أكسفورد من الشعر الإنجليزي في خمسين سنة فلم يثبت من قصائد الحرب إلا النادر الذي نظم بعد أنتهائها، وقال في مقدمة المجموعة إنه أهمل تلك القصائد لأن الموضوع بحذافيره لا يستحق الإثبات.

وتلك هي الحقيقة التي تنجلي لنا من مراجعة دواوين الفحول ومن مراجعة أوقات الحروب الكبرى. فمن أين نأتي بزعم من يزعمون أن النظم في الحروب شرط من شروط الشاعرية، وأن إهماله معيب في أساطين الشعراء؟

ولكن طالباً أديباً في الجامعة كتب إلي يلفتني إلى رأي للأستاذ أحمد أمين أذاعه في يوم ذكرى حافظ رحمه الله وقال فيه عن قراء الصحف إنهم (يقلبونها اليوم فلا يجدون فيها شعراً في غارة ولا في هجرة الريف ولا في بطاقة البترول كما لم يجدوا فيها ما هو أهم من ذلك في آلام مصر والشرق وآمال مصر والشرق. . . قد كان يقول حافظ بذلك كله ثم لم نجد له خلفاً)

ويسألني الطالب رأيي فيما أفتى به الأستاذ أحمد أمين، ورأيي أنه كان أولى به أن يسأل أستاذه علام أعتمد في هذه الفتوى التي قرر بها أن ميزان الشاعرية هو النظم في الغارات وبطاقات البترول والهجرة إلى الريف؟

إن مشاكلنا التي من هذا القبيل لتغرق في نظائرها من مشاكل الأوربيين كما يغرق الجدول في العيلم الزاخر، فما بالهم لم يفرغوا همهم للنظم في تلك الموضوعات التي يقترحها الأستاذ أحمد أمين؟ أليس في أوربا كلها شاعر في طبقة حافظ رحمه الله؟

نحن لا نحرم على الشاعر النظم في بطاقات البترول وما إليها، ولكننا نحرم على الناقد أن يجعل بطاقات البترول ميزان الشاعرية، ونحسب أن إيمان الأستاذ أحمد أمين بخطئه

أحرى به من هذا الجزم العجيب بخطأ الشعراء الذين لا يجارونه في فهمه للشعر، وليس هو بشاعر ولا ناقد ولا صاحب سند فيما يرتئيه، وليست له إحاطة بما نظم الشعراء في مختلف المقاصد ومختلف المناسبات

وورد إلى الرسالة الخطاب التالي من صاحب الإمضاء: (. . . وبعد، نشرتم للأستاذ عباس محمود العقاد مقالاً افتتاحياً في العدد 381 بعنوان (الحرب والشعر)، اسمحوا لي أن أعلق على هذا المقال الممتع بما يأتي:

1 - ليس صحيحاً أن مجلة البنش الإنجليزية نشرت قصيدة جون ماك كراي التي عنوانها (في سهول الفلاندرز)، إلا وهي تتردد في استحسان القراء لها، بل في التفاتهم إليها كما قال الأستاذ العقاد. والحق والواقع كما قال برنهارد راجنر الأمريكي في مجلة نيويورك تيمس إن محرر المجلة قدر ما في القصيدة من جمال ونشرها بالحروف الكبيرة التي لا تستعملها البنش إلا في المناسبات الأدبية العظيمة.

2 - ذكر الأستاذ العقاد في الترجمة ما يأتي: (كنا أحياء وكنا نحيا) والواقع أن هذا تكرار من الأستاذ المترجم لا معنى له لأن الأصل الإنجليزي هكذا فقط.

3 - ترجم الأستاذ كلمة بالعنان وهذا غريب، ولو أنه قال شعلة النضال لكان أصدق، لأن الشاعر يقول على لسان الموتى: إن الشعلة أسلمناها إليكم من أيدينا المتخاذلة.

4 - ويقول المترجم: وارفعوا الشعلة عالية. . . ارفعوها ولو بقيت في أيديكم سنوات. وليس في كلام الكندي مطلقاً ما يشير إلى هذا الشرط الأخير، أي بقاء الشعلة (. . .سنوات. وأظن أن الأستاذ العقاد قرأ وشتان بين الاثنين

(محمد عبد الغني حسن)

فأما أن تردد البنش في استحسان القراء للقصيدة ليس صحيحاً فهو ليس بصحيح. وقد يفيد صاحب الخطاب أن يرجع إلى الصفحة (721) من كتاب (بعد عشرين عاماً) في فصل

الشعر والحرب العظمى فيقرأ هناك ما نصه بالإنجليزية:

, -

وترجمته: (إنه بعيد جداً أن الناظم أو محرر البنش الذي نشرها أول مرة توقعا أيّ توقع ما

(سيكون لها من السلطان على خيال الأمة

وأما أن قولنا (كنا أحياء نحيا) تكرار لا معنى له فهو خطأ يدركه من يدرك أن اللغة العربية لغة المفعول المطلق ولغة التوكيد بتكرار اللفظ والمعنى، وأن قولنا (كنا أحياء) غير قولنا (كنا أحياء)

وأما أن ترجمة بالعنان غريب فقد يكون صحيحاً لو كان هناك عنان حقيقي أو شعلة حقيقية؛ ولكنها حين تكون مجازاً لا غرابة فيها ولا سيما إذا كان المترجم لا يجهل أن معناها الشعلة كما ترجمها في السطر التالي حين قال: (وارفعوا الشعلة عالية) ونحن نترجم إلى اللغة العربية، والعرب يعرفون الأخذ بالعنان حين يراد به الاستلام، ولا يعرفون رفع الشعلة ألا للذكر والذكرى والنضر من بعيد، كما يتحدثون عن العلم الذي في رأسه نار

وأما ذكر السنين فهو مفهوم بمعناه وإن لم يرد بلفظه، وإلا فما هو بقاء الشعلة إن لم يقصد بها البقاء طول السنين؟

ونصيحتي لصاحب الخطاب أن يتعلم قبل أن يتهجم، فذلك أنفع له وأسلم

وبعد، فخلاصة القول في الحرب والشعر أن نصيب الحادث من الشاعرية لا يقاس بالضخامة ولا يحسب بالعدد. فرب شاعر تناول حياة فرد واحد فصور منها فاجعة خالدة تعيش حين تنسى الحروب التي نشبت في زمانها، فربما مات فيها مئات الألوف وقد تستغرق الحروب ما استغرقته الحروب الصليبية ولا يترك لنا معاصروها أثراً يضارع تلك القصيدة الواحدة التي تدور على حياة فرد واحد.

عباس محمود العقاد

مسابقة الجامعة المصرية

لطلبة السنة التوجيهية

للدكتور زكي مبارك

- 2 -

نحن اليوم أمام كتاب (وحي الرسالة) لحضرة الأستاذ أحمد حسن الزيات، وهو مختار من افتتاحيات (الرسالة) في ست سنين، ويقع في ثمانين وأربعمائة صفحة من القطع المتوسط، ويشتمل على نحو عشرين ومائة مقالة، فهو محصول غزير لا يستوعبه

طلبة السنة التوجيهية إلا إذا أقبلوا عليه إقبال من يدرك ما فيه من معان وأغراض، وذلك ما نحاول تيسيره على الطلبة في هذا المقال الوجيز

الأسلوب

هو أسلوب كاتب يؤمن بأن الكتابة فن من الفنون، فهو لا يكتفي بشرح الغرض الذي يرمي إليه، وإنما يتجه عامداً متعمداً إلى تأدية المعنى تأدية جميلة توحي إلى القارئ فكرة العناية بالأسلوب الأنيق

والزيات يغرب في بعض الأحيان، ومعنى ذلك أنه يوشي كلامه بالألفاظ الغريبة من حين إلى حين ليحوّل تلك الألفاظ إلى الكلام المأنوس، وذلك منهج مقبول في إحياء المهجور من المفردات اللغوية، فلم تخلق تلك المفردات مهجورة، وإنما عاشت دهوراً ثم تناساها الكتاب والشعراء فأضيفت ظلماً إلى الغريب

والزيات لم يبتكر هذا المنهج بين أدباء العصر الحديث، فقد اختطه المرحوم الشيخ حمزة فتح الله والمرحوم السيد توفيق البكري ودعانا إليه أستاذنا الشيخ محمد المهدي، ولكن مزية الزيات هي القصد في الأغراب بحيث لا يقع منه في المقال الواحد غير لفظة أو لفظتين، وذلك يزيد ثروة القارئ من الوجهة اللغوية بدون أن يوقعه في العنت أو الارتباك

ويستطيع الطالب وهو يراجع (وحي الرسالة) أن يقيد هذا النوع من المفردات، فقد ينفعه ذلك يوم الامتحان، لأن إحياء تلك المفردات خصيصة أصيلة من خصائص هذا الكتاب. ولتوضيح هذه المسألة أذكر كلمة (الرّيازة) بمعنى العمارة، ثم أترك للطالب حرية

الاستقصاء ليقنع لجنة الامتحان بأنه قرأ واستفاد

ويضاف إلى فكرة الأغراب فكرة الاجتهاد، ومعنى ذلك أن الزيات يحاول إيجاد ألفاظ عربية لبعض الألفاظ الفنية المنقولة من لغات أعجمية، كالذي صنع في إيثار لفظة (التناظر) بمعنى (السيمترية)

ولهذه اللفظة نظائر في كتاب (وحي الرسالة) وللطالب مسئول عن تقييد تلك النظائر، ليقيم الدليل على أنه ساير المؤلف في ميدان الاجتهاد

الموضوع

قلنا إن هذا الكتاب هو مختار افتتاحيات (الرسالة) في ست سنين، والرسالة مجلة أدبية، ولكنها مع ذلك صحيفة أسبوعية تواجه تطورات الحوادث الاجتماعية والوطنية، والمجتمع في نظر الزيات هو المجتمع المصري والعربي والإسلامي، ومن هنا جاز أن تكون في أبحاثه الاجتماعية آراء متصلة بالعرب والمسلمين في بلاد لا تصلها بمصر غير روابط اللغة والدين. وهذا المذهب يبدو لقصار النظر بعيداً عن (النزعة المصرية) النزعة التي خلقتها أوربا باسم (القوميات) ولكن المصري الحصيف يدرك جيداً أن هذا المذهب متصل أوثق الاتصال بالوطنية المصرية، لأن مصر في سرائر أبنائها الأحرار تريد أن تكون صلة الوصل بين الشرق والغرب، ويهمها أن تحيي العواطف التي تربط أمم الشرق بعضها ببعض، وذلك (الإحياء) لا يتيسر إلا بفهم ما يعتلج في صدور أمم الشرق من آلام وآمال

فإن استطاع الطالب أن يفهم الموضوعات المتصلة بهذا الغرض كان ذلك شاهداً على أنه قرأ الكتاب بعناية وإدراك

فما تلك الموضوعات؟ الطالب هو المسؤول، فقد شبعت من الابتلاء بمكاره الامتحان في جامعة القاهرة وجامعة باريس!

وبجانب الموضوعات العربية والإسلامية تنهض الموضوعات المصرية، الموضوعات التي تمثل الزيات كاتباً مصرياً يصوّر ما في الضمير المصري من قلق وتوثب وطموح في ميادين الأدب والسياسة والاقتصاد

فالزيات زار الأقصر وشهد ما خلف المصريون القدماء في ذلك الوادي الأفيح، فما الذي

قال الزيات في وصف ما رآه؟ وكيف كانت تلك الزيارة سبباً في أن يؤمن بأن فكرة (العروبة) لا تطمس فكرة (المصرية)؟ وكيف أطمئن إلى أن تاريخ مصر له في أعناقنا حقوق؟

والزيات شهد نمو المصانع المصرية، فما الذي قال في تشجيع المجاهدين من أقطاب

الاقتصاد؟
والزيات تحدث عن بعض المؤلفات الحديثة، فما هي تلك المؤلفات؟ وما رأيه في الأصول التي يقوم عليها التأليف الموصوف بالجودة والابتكار؟
هل تكلم عن حافظ عفيفي؟ هل تكلم عن عباس العقاد؟ هل تكلم عن مصطفى المنفلوطي؟ هل تكلم عن الرافعي؟
والزيات ترجم لبعض رجال العصر الحديث، فما هي آراؤه في لطفي السيد، وأحمد زكي، ومحمد عبدة، ومصطفى كامل، ومحمد فريد، وطلعت حرب، وأحمد شوقي، وحافظ إبراهيم؟؟
وتحدث الزيات مرات كثيرة عن المظاهر الإسلامية والقومية، فما الذي قال عن رمضان والأعياد وشم النسيم؟ وما هي الأوصاف الأساسية لمواسم هذه البلاد في مقالات هذا الأديب الفنّان؟
وتكلم الزيات عن الطيران، فما هي المناسبة التي استوجبت ذلك؟ وما هو المعنى (القومي) الذي قصد إليه في مقاله عن الطيران؟
وتحدث الزيات عن الريف، فماذا قال عن الريف؟
وتحدث عن الأوقاف، فماذا قال عن الأوقات؟ ولأي غرض شغل نفسه بالأوقاف؟
وتحدث عن سعد زغلول مرتين أو مرات، فما هو رأيه في سعد زغلول؟
وفي (وحي الرسالة) صفحات موجعات، فما موضوع تلك الصفحات؟
وتكلم عن الأدب المزّيف والأدب الصحيح، فما الذي أوجب أن يثور هذه الثورة؟
ونظر إلى الأزهر نظرة لها معان، فماذا أراد؟ ولأي سبب شغل نفسه بحاضر الأزهر وماضيه؟
وتحدث عن (تنظيم الإحسان) فما الذي قال؟ ومن هو الكاتب الذي شغل بهذا الموضوع قبل
الزيات؟
لا يمكن لطلبة السنة التوجيهية أن يقولوا إنهم اطلعوا على كتاب (وحي الرسالة) إلا إن نظروا في الموضوعات التي أشرت إليها في هذا المقال بعناية وتدّبر وإدراك، لأنها بالفعل أهم أغراض هذا الكتاب. ولأنها متصلة بشؤون أساسية من معضلات الحياة المصرية في هذا الجيل
والزيات يحس هذه المعاني أصدق إحساس، لأن قيامه على (الرسالة) قربه من المجتمع، وأخرجه من (العزلة) التي يفرضها ما فطر عليه من الاستحياء
بين الجمال والتفصيل
قال الزيات في مقدمة (وحي الرسالة) إن مقالاته لم تكن إلا وحي الساعة أو حديث اليوم أو صدى الأسبوع
وتلك دعوى تحتاج إلى بينات!
فليس من المعقول أن يكون الزيات صدق كل الصدق في هذا القول، والكاتب يباح له التمويه في بعض الأحايين؟!
وإلا فمن الذي يصدق أن مقال الزيات في (فنّ الجمال) كان وحي الساعة أو حديث اليوم أو صدى الأسبوع؟
ومن الذي يصدق أن ما كتب الزيات عن الفقر والغنى والبؤس والنعيم كان وحي ساعة أو يوم أو أسبوع؟
هو يخدع نفسه، أو يخدع قراءه، ليقول إنه يأتي بالعجب العجاب في لحظة أو لحظات
والحق أنه رجل ممتحن بنفسه وبالدنيا وبالناس، فأدبه الذي ينشره اليوم قد يكون صدى لتجاريبه منذ أكثر من ثلاثين سنة، والكاتب لا يعرف أين هو من حاضره وماضيه لأنه مشدود إلى قافلة الوجود.
يقول الزيات إنه كان يكتب مقالاته هذه في أصيل السبت من كل أسبوع، فهل يذكر أحد أنه كان يستطيع رؤية الزيات ولو بالتليفون في أصائل تلك السبوت؟
كان الزيات يخلو إلى قلمه خلوة صوفية، وكان في لحظات الخلوة إلى قلمه يكره الاتصال بمن في الوجود من أهل وأبناء وأصدقاء
فما الذي كان يصنع الزيات في تلك الخلوة؟
كان ينظر إلى معضلات المجتمع بقلب راضته الأفراح والأتراح على فهم ما للوجود وما

عليه من محاسن وعيوب
والمزية الأصيلة للزيات أنه يخلو بنفسه وإن كان محفوفاً بالرفاق في لحظة صفاء. ولن أنسى أبداً أننا كنا نقضي سهرات كوامل ونحن في أودية بعيدة، وإن كنا في مكان واحد، فلم أكن منه ولم يكن مني، لأن عالم الفكر غير عالم الشهود، ولأن الإقامة في ظرف المكان لا تمنع القلب المتحرك من التجول في آفاق العقول والقلوب والأحاسيس.
وهذه الظاهرة الروحية تفسر الهدوء (الظاهر) في كتاب (وحي الرسالة) فالكاتب يوهم قراءه أن حياته خلت من الابتلاء بالدنيا والناس، وأنه يخاطبهم من شرفة عالية لا تعرف ما يقع في (الشوارع) من انحطاط وانزلاق.
والواقع غير ذلك
والواقع أن الزيات (يعيش) في دنيا العصر الحديث، فتجاريبه ليست تجاريب من يعبر الطريق بلا وعي ولا إحساس، وإنما هي تجاريب من له في كل (شارع) دار وجيران. ويا ويل من كان له في هذه الدنيا دار وجيران، ولو أعتزل في حدود الصحراء!
الزيات أديب له مجلة أسبوعية، ومعنى هذا أنه يعرف الناس من جميع الجناس، ومعناه أيضاً أنه مسئول أمام من يباشرون تلك المجلة من عمال ومراسلين ومحررين؛ ثم معناه أنه مسئول أمام العقليات المختلفات في مصر وفي الأقطار العربية؛ وذلك يوجب أن يواجه الدنيا بعقل يقظ وقلب حساس.
فإن لم تتفق التجارب الصحيحة لمثل هذا الرجل فلمن تتفق؟
ومن الذي يفهم بلايا المجتمع إذا عز فهمها على مثل هذا الكاتب الأسيف للدنيا والناس؟
وهل يملك الزيات في (خلوته الفنية) قدرة الاستهانة بزيارة رفيقة يمن بها طفل كريم لا يعرف أن الأديب له خلوات؟
فما معنى ذلك؟
معناه أن الزيات رجل مسئول ولو أغلق بابه بألوف الأقفال وفي هذا ما يكفي للحكم بأن موقفه في فهم المجتمع موقف الأصيل لا موقف الدخيل.
فهل يفهم طلبة السنة التوجيهية هذه المعاني؟
ماذا أريد أن أقول؟
أنا أريد النص على أن الأدباء الذين ظهروا في هذا العهد لم يكونوا لاعبين ولا مازحين، وإن توهم من لا يفهم أن في أدبهم ميلاً إلى اللعب والمزاح في بعض الأحيان.
إن أدب المصريين في هذا العصر هو الفيصل بين عهدين: عهد الأدب الوادع الذي كان يعيش أهله في رعاية الوزراء والأمراء والملوك، وعهد الأدب المكافح الذي يعيش أربابه في رعاية مواهبهم الذاتية، فهم في الأغلب موظفون أو مدرسون أو صحفيون، ومن أجل هذا صح القول بأن أكثر أدباء مصر في هذا العصر رجال أعمال.
وهذه الحال أضرت من جانب ونفعت من جوانب: أضرت حين أيأست الأديب من الأريحية التي كان يعيش في ظلالها أدباؤنا القدماء، ونفعت حين قهرت الأديب على الإيمان بأنه لم يُخلق إلا ليكون قوة فعالة في بناء المجتمع الجديد. وكذلك عاش الأديب مرفوع الرأس، ولو اشترك بقلمه في خدمة الأحزاب السياسية، لأنه في جميع أحواله عضو نافع في المجتمع، ولأن موقفه من الأحزاب قد يكون موقف الهداية لا موقف الخدمة. وأضاع الله من ينسى أن رجال السياسة يدينون لرجال القلم أثقل الدين؛ فبفضل الأقلام صار عندنا سياسة وسياسيون، ولو كره بعض الجاحدين!
والذي يهمني هو دعوة الطلبة إلى التعمق في فهم المؤلفات التي أحدثهم عنها في هذه المقالات، فهي مؤلفات متصلة بحياة المجتمع أوثق اتصال. وهي حين تعبر عن تألم أصحابها من المجتمع أو ارتياحهم إلى المجتمع سجل صادق لما في الحية الاجتماعية من قوة وضعف وتحليق وإسفاف.
فإن نظر الطلبة إلى (وحي الرسالة) هذه النظرة رأوا فيه غير ما كانوا ينتظرون؛ فهو ليس روائع لفظية أو بيانية، وإنما هو تعبير عن الآم وآمال يحسها أبناء الجيل الجديد، حين تصح لهم مواجهة ما يعتلج في صدورهم من آلام وآمال
والزيات لا يتكلم وحده عن تلك المعضلات، وإنما يتم تصوير هذا العصر بتعقب ما ظهر

فيه من رسائل وقصائد ومؤلفات، وذلك ما قصد إليه من وضعوا مسابقة الجامعة المصرية لطلبة السنة التوجيهية.
وسننظر كيف ينتفع أولئك الطلبة بهذا المشروع المفيد.
اختبار سهل
قال الزيات في مقدمة (وحي الرسالة) إنه أعقب كل فصل بذكر اليوم الذي كتب فيه، ولكنه مع ذلك أهمل تاريخ بعض الفصول، فما هي تلك الفصول؟ ولآي سبب أغفل التأريخ؟
وأرخ فصلاً بالتاريخ الهجري وكان يجب أن يؤرخ بالتاريخ الميلادي، وأرخ فصولاً بالتاريخ الميلادي، وكان يجب أن تؤرخ بالتاريخ الهجري، فما ذلك الفصل، وما تلك الفصول؟
وفي أي المواضع يكون من الحتم أن ينص على تاريخ الهجرة أو تاريخ الميلاد؟
واهم فصل هو ما كتبه المؤلف (في الجمال) وقد وقع في هذا الفصل غلطتان مطبعيتان: الأولى تنافي المعنى، والثانية تنافي السياق، فما هاتان الغلطتان؟
أنا أنتظر من أحد طلبة السنة التوجيهية جواباً عن السؤال الأخير لأشير إلى اسمه في مجلة الرسالة إشارة تزيده ثقة بما فطر علية من فهم والعقل
وفي مقال الزيات (في الجمال) فكرة منحرفة بعض الانحراف، فما هي تلك الفكرة؟
والزيات (في الجمال) تلاقي في بعض مناحيه بكاتب معاصر، فمن هو ذلك الكاتب؟
وما شواهد الأغراب والاجتهاد في هذا المقال وقد احتفل الكاتب فحبره في أربعة أسابيع؟ والزيات متأثر في مناحيه الفنية والذوقية بمؤلف فرنسي مشهور تفرد أحد كتبه بالذيوع حتى طبع اكثر من مائة مرة، فمن هو ذلك المؤلف؟
وذلك الكتاب الذائع قد ظهر (يستعلم الطلبة من مدرسي الفلسفة بالسنة التوجيهية) أثره في مقدمة كتاب لأحد أدباء العصر في مصر، فمن ذلك الأديب؟ وما ذلك الكتاب؟
غرة الكتاب
أهم فصل في كتاب (وحي الرسالة) هو ما كتب الزيات (في الجمال) وهو فصل يقع في ثلاث عشر صفحة، وقد ضمنه ملاحظاته الأساسية على فكرة الجمال وما يحف بها من مشكلات ومعضلات
والزيات لم يبتكر كل هذا الفصل النفيس، وإنما تجرد عن نفسه وأسبغ على الفكرة أثوابا (موضوعية) ليحولها إلى موضوع (كلاسيك) له قواعد وأصول، وهو مع ذلك من المبتكرين في أكثر نواحي هذا الموضوع الدقيق، فما هو الجمال أو ما هي أهم عناصر الجمال في نظر هذا الكاتب؟
لا أريد أن أحد من حرية الطلبة في البحث والأستقصاء؛ ولكني أعتقد أن من الواجب أدلهم على أن الكاتب قد أستشهد بآراء عربية وأفرنجية، ولا يمكن للطالب أن يدرك هذا الموضوع بصفة جدية إلا إذا رجع إلى مصادر ذلك الاستشهاد، فما هي تلك المصادر في مؤلفات العرب واليونان والرومان؟ وما هي الصور والرسوم التي تشرح الفكرة مع أن ثمنها لا يزيد على بضعة قروش؟ (يستعلم الطلبة من مدرسي الأدب والفلسفة بالسنة التوجيهية)
ثم ماذا؟
ثم أقول أني أنتظر أن يكون في طلبة السنة التوجيهية مئات يظفرون بالفوز في مسابقة الجامعة المصرية
ولو شئت لقلت أني أطلعت على كثير من أجوبة الطلبة عن أسئلة امتحانات النقل والامتحان العمومية فلم أجد ما يرضيني، لان اكثر الطلبة يحفظون ولا يفهمون، ولا قيمة للحفظ إذا انعدم الفهم، فنحن نريد أن يكون أبناؤنا رجالاً يسمعون ويعقلون، لا ببغاوات تحكي ما تسمع بلا إحساس ولا أدراك
إذا استطاع طلبة السنة التوجيهية أن ينجحوا جميعاً في المسابقة بتفوق مرموق، وأن يقهروا الدولة على قبولهم بكليات الجامعة المصرية بالمجان، فسيكون هذا التفوق غرة في تاريخ مصر الحديث.
إن الدولة أمكنتكم من ناصيتها المالية، يا طلبة السنة التوجيهية، فعلموها كيف تهرب من التعرض لذكائكم الموروث، فما كنتم ولن تكونوا إلا أزكى نبات في أخصب أرض، وفي رعاية أصفى سماء.
أنا معكم والله معنا، ونحن بالصدق والعزم أقوى من وزارة المعارف ومن الجامعة

المصرية.
وإلى الأسبوع المقبل في تشريح كتاب حافظ عفيفي باشا. فلكتابه مذاق خاص، لأنه يقدم صوراً من أفق بعيد هو بلاد الإنجليز.
زكي مبارك
جيل وجيل!
للأستاذ محمود البشبيشي
من الأجيال ما يطويه الزمن تبعاً لقانون الحياة، ولكنة يطوي الزمن تبعاً لقانون الفكر، فلا يذهب الزمن إلا بأهله، ويذهب فكر أهله في الزمن كل مذهب! والذي يطيل في عمر الأجيال برغم فنائها، ويقصر في عمرها وهي على قيد الحياة، وهو قوة الروح فيها، وحيوية الفكرة في مجموع أفرادها
هذا ما أوحاه إلى حديث بيني وبين ولدي (حسين) وهو شاب له نظرته الخاصة . . . في نثره وشعره، لا يعترف بنظرة غيره إلا بمقدار ما فيها من صلات تربطها بفكرته وبصدق المنطق والعقل. . .
تناقشنا، فكنت أنا وحججي أمثل جيلاً مضى، أو أوشك أن يمضي، يحاول أن يحرج . . . ويقنع ويصلح جيلاً جديداً تجسم في نفس ولدي وفكره. . . وكان هو مؤمناً كل الإيمان بقوله، وإذا وجد الأيمان تفتحت أكمام الحياة والغاية عن ثغور النجاح باسمة جميلة. . .
وحاولت أن أفهمه أن البقاء للقوي، وأن الذي لا يحصن نفسه، ولا يتخذ الأهبة . . . للقاء الشرور والأفراح معاً لا يستطيع أن يقف على قدميه طويلاً، واضطرب أمام النسيم العابر قبل العاصفة الشديدة، وجار عليه كل من أتصف بالقوة وتحصن بها. . . شخص كهذا يقطع مسافة عمره كما يقطعها الحيوان والنبات، لا يسلم من اعتداء القوي والضعيف!. . .
حاولت أن أفهمه هذا فقال: إذن فأنت ترى أن البقاء للقوي، وان الذي لا يتصف بالقوة مثله كمثل النبات والحيوان الضعيف، وظاهر قولك من حكمك على النبات بالضعف أن الإنسان يزرعه ليقلعه! وهذا ما يحدث. . . ولكني لا أرى ضعف النبات كما تراه أنت ضعفاً بمعناه الذي هو ضد القوة، بل أراه قوة البقاء في النبات! فالقوة عندي ليست تلك التي يقع تحت صفاتها التدمير والجور والشدة، وإنما هي قوة الروح فقط!
وهذا الضعف في النبات هو أسمى درجات قوة الروح، فأنت لا تقتلع النبات إلا بعد . . . تمام أكتماله، أي بعد تمام قوة الروح فيه، فتستفيد منه ذلك غذاء وبناء للأجسام، وهذه الفائدة هي قوة الروح في النبات، فهو لا يفنى لضعفه، إنما ليكون حياة أخرى ويجدد بناء آخر، الفضل فيه لقوة روحه الكامنة في عناصره. . .
هكذا النبات، وفلسفة الطبيعة في النبات، يضعف ليخلق قوة، ويفنى ليجدد حياة. . . وليت الإنسان كذلك. . .
- لقد أصبت في ذلك يا بني، ولكن الذي يصلح للنبات قد لا يصلح للإنسان، والذي تراه أنت فلسفة في طبيعة النبات قد لا تعترف به العقول البشرية - لا لضعف فيه - وإنما لأن هذه العقول قد اختلط بها من صفات الحياة القبيحة الكثير، فامتزج بها الطمع، ودفعها إلى حب السيطرة على أشياء الغير، فكانت العداوة، وكانت البغضاء، وشعر الإنسان بأن لا أمان من جانب أخيه الإنسان، وصار كل فرد إذا صادق ونسج ثوب الوفاء، نسج بجواره ثوب الرياء؛ وإذا أخذ العدة لحسن اللقاء، أخذ الأهبة لدواعي الفراق، فاضطربت الحياة. . . لهذه الأسباب يصعب تطبيق فكرتك على حياة الإنسان، ويصدق منطقها في حياة النبات، لأن الطبيعة عادلة في تصرفاتها، فلم نر نباتاً اعتدى على نبات، فظهر في زمن نبات آخر. كل شيء يسير في الطبيعة وفي منطقه عدل وحكمة، فللقمح ميعاد، وللقطن ميعاد، ولا يصلح الأول في زمن الثاني. وهكذا سائر النبات. . . فهل الإنسانية كذلك؟ لو كانت كذلك ما واشتعلت يا بني اليوم النيران، واضطرب ميزان الحياة، وذهبت الرحمة من القلوب
فقال: ليس معنى هذا أن الفكرة غير صائبة، وأن فلسفة الطبيعة فيها نقص، بل لعل ذلك يثبت ضلال الإنسانية وتحكم شهواتها في ميولها ونزعاتها الفكرية.
- هذا حق يا بني، ولكن ما فرط الناس في أمور دنياهم والإنسانية والروابط الدينية، إلا منذ أن فرطوا في شخصيتهم وأخلاقهم، فأصبحوا لا يحكمهم شعور حي، ولا يقيد شرورهم رحمة، وأساء تقديرهم للأشياء، فعبدوا الكم، وابتعدوا عن الكيف! ونشأ فيهم

اختلاف الطبقات، فقدروا الغنى بالمال، والفقر بقلته، ما أبعد القوم عن الصواب. . . ما أبعدهم!
ورب فقير له من عزة نفسه ثروة تسجد أمامها جبابرة السنين. . . ورب غني تمر به الأيام كما تمر على الجماد لا تشعر به لأنه فقير الروح!
- أنت ترى يا والدي أن سبب انحدار الإنسانية هو التفريط في أمور الدنيا والدين. . . وأنا أرى أن السبب هو فساد التأمل في أفرادها واختلاطه بحب الذات، فأصبح الإنسان لا يرى الشيء حسناً إلا إذا كان له نصيب من حسنه!. . . ولكن هناك تأملات نقية وتأملات ساقطة. . . وأكبر الظن أن سر اضطراب الإنسانية اليوم هو تغلب التأملات الساقطة التي غلب عليها حب الذات. . . ولابد للحياة من تأمل. . . إما في غاية الحياة ومثلها العليا الإنسانية، وإما في الخلاص من قيود الحياة ومثلها الإنسانية العليا. وفرق بين التأمل الأول والتأمل الثاني يصل بك الأول إلى الغاية - إذا صدقت فيه - ولم تأخذ في ظنون الأمور بيقينها. وهذا النوع كان موجوداً في أيام طفرة الإسلام الأولى، أيام كان تأمل الرسول الكريم يتغلغل في المسلمين جميعاً. . . ما أحوج الإنسانية اليوم إلى هذا التأمل، فإنه إذا وجد في أمة بعث فيها روحاً يجعلها لا تصل بين شريرها ومجاهدها الصادق إلا مقدار ما يُصلح الثاني من أمر الأول، ولا تحث على جوار النقائض إلا بمقدار ما يُشعر الحَسنُ القبيح بأن فيه قبحاً!!
- إذن أنت ترى يا بني أن الإنسانية اليوم تأملت، ولكن في الخلاص من قيود الحياة وثقل مُثلها الإنسانية وتبعاتها. . . هذا حق يا بني، فإن الفضائل اليوم أصبحت قيود الحياة، لأن الإنسان قد غرق في الشهوات وحب الذات، ولأن نفسه قد فسدت فرأى الشرور فضائل!!
وما هذه الحرب الضروس غير صورة لفساد تأمله. . . لقد صبغت الحرب يا بني كل شيء في الحياة بصبغة سوداء، وظاهرها الخوف وباطنها الموت والدمار، فدعنا من فلسفة تقودنا إليها، وعرج بنا على ناحية أخرى. . . فقد عرفت منك أن التأمل أساس الحياة، وأن هناك تأملاً في غاية الحياة ومثلها، وتأملاً في الخلاص من غاية الحياة ومثلها وتبعاتها، وأن الجيل يفسد بفساد تأمله، كما قلت لي إن القوة هي قوة الروح، وإن الضعف والفناء قد يكونان قوة، والفناء يجدد حياة. . . عرفت كل هذا فأحسست أن الجيل الحديث - متجسماً في روحك وفكرك - يختلف كل الاختلاف عن جيلنا الذي ذهب بعضه وبقى بعضه! وأدركت أن الأجيال تتأثر بالفكرة التي تتولد فيها وتمتاز بها، ولكني لا أزال أشعر بامتياز جيلنا بالقوة والهيبة والشهامة. . . أحس فيه الهيبة الفطرية التي تتجلى في رهبة الابن لوالده والتلميذ لأستاذه، وكل الناس أمام رجل الدين. ولا زالت أشعر بامتيازه بسعة المعارف والمدارك وقوة الصبر والمجالدة. ولعل الدكتور زكي مبارك على حق في ثورته على شباب الأدب اليوم، وقلة صبرهم واضطلاعهم. . . فقال: هذا حديث آخر أحب أن أطلعك على خواطري فيه، فهنا خزان ماء صناعي يُزود بالماء في كل وقت، وهناك نبع سيال له من طبيعته مدد لا ينقطع، فأيهما تراه أنفع وأفضل؟ إن الأدباء كذلك: فيهم من استفاد علمه وأدبه في كثرة الاطلاع، فهو مقيد بألفاظ محفوظة، وأفكار مسبوقة، وإذا جاء منه الجديد جاء بعد عناء. وفيهم من فطر على دقة الحس وسهولة الطبع، فهو يغرف من بحر متماوج بين وجدانه وعقله. كل أفكاره جديدة لأن شعوره الفطري يتجدد، ومن هؤلاء الفلاسفة من الشعراء والكتاب، وقد يكون بعض الشباب اليوم من النوع الثاني.
- هذا حق يا ولدي، ولكنك لا تستطيع إنكار فضل الكثير منا، فقد كشفنا لكم ظلمة الطريق وقدنا القافلة وسط تيارات من الشدة والظلم، حتى وصلنا بكم إلى النور، وحتى استطاع الابن منكم أن يجادل الوالد ويناقشه! واضطر الوالد أن يقبل منه النقد لأنه هو الذي هداه إلى سبيله!
- حقاً أنا وغيري لا نستطيع إنكار قدرة الأستاذ الزيات على حسن الصياغة ودقة المعنى وعبقرية الفكرة، وسهولة الدكتور زكي مبارك وجمال عبارته الفني الذي يخيل إلي أنه ينسجها من روحه ودمه، وتسلسل الدكتور طه حسين واختصاصه بأسلوب رائع، ومنطق الأستاذ أحمد أمين وحرصه على الفكرة، لا أستطيع أن أنكر هؤلاء جميعاً وغير

هؤلاء لأني أبحث عن الحق، كما أني لا أستطيع أن أنسى الرافعي وسحر الرافعي وشوقي وحافظ والزهاوي، لا أستطيع أن أنكر فضلهم، كما أحب ألا ينكر منا النابغ. . .
فقد كان منا الشابي وشقيقي الراحل؛ ولم يزل فينا صالح جودت، والعطار، ومحمود إسماعيل، ومختار الوكيل، والعوضي الوكيل. ولم يزل فينا الذي يقول:

قد عصرتُ الفؤاد خمرة وجد ... وسكبت العصير في شفتيك
فسكرنا من الغرام وجُنتَّ ... نشوةُ الحب من سنا عينيك
قبلات الهوى صلاةُ محب ... قيَّد الحبُّ أصغريهِ عليك!

والذي يقول

داعبت ثغرها بثغري وقالت ... دائماً أنت في ابتسام وفنَّ
قلت لا غرو لو تبسم ثغري ... مذُ رأى القلب في الضلوع يغني

ومنا الذي يقول:

لا تهابي الفناء روحي يوماً ... إنما المرء لا محالة مودي!
وأضحكي واسخري فدهرك يجري ... ضاحكاً ساخراً لتلك اللحود!

ثم فينا الذي يقول:

فسيري بي يا ربة الآمي إلى السدره
فإني ضقت بالإنسان لما أفسد الفطره
ألا يا ليتني همت كما هامت به فكره
ولم ألق إلى الأرض كياناً سجنه بَشره

وأخيراً ما أجمل أن يتناقش جيل وجيل! وما أروع حديث الأب لولده والولد لوالده! إن في مثل هذا الحديث صلة روحية تسعد الآباء، وتشرح صدر الأبناء، وتخلق في نفوسهم صفة الاعتماد على النفس واستقلال الشخصية.

محمود البشبيشي

حاشية: كل ما جاء على لسان ولدي (حسين حسني محمود البشبيشي) فهو من فكره ويكاد يكون في ألفاظه.

السنوسيون

للأستاذ حسين جعفر

السنوسيون هم طائفة من الإخوان المسلمين تعتقد بولاية السنوسي. ومؤسس هذه الطائفة هو السيد محمد بن علي ابن السنوسي الخطابي الحسني الإدريسي المهاجري، ويسمى عادة الشيخ السنوسي أو السنوسي الكبير. ولد بالقرب من مستاجانم ببلاد الجزائر، وأطلق عليه أسم السنوسي تيمناً بولي من أولياء الله موجود قبره بالقرب من تلمسان. وتاريخ ميلاده غير معروف بالضبط، والمصادر المختلفة ذكرت السنين: 1791، 1792، 1796، 1803 ميلادية

وهو ينتمي إلى قبيلة ولد سيدي عبد الله، ويتصل نسبه بالسيدة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحينما كان صغيراً قضى بضع سنوات في فاس حيث درس التوحيد والفقه الإسلامي. ولما بلغ الثلاثين غادر مراكش في رحلة إلى المناطق الصحراوية الواقعة في بلاد الجزائر، داعياً إلى إصلاح العقيدة والإيمان، ومن الجزائر رحل إلى تونس ومراكش فالتف حوله كثير من المريدين والأتباع.

ثم ذهب إلى القاهرة حيث عارضه علماء الأزهر الشريف وعدوه مبدعاً في أحكام الدين، فغادر مصر إلى مكة وهناك أتصل بسيدي محمد بن إدريس الفاسي زعيم الطريقة القادرية المراكشية. ولما توفي سيد محمد بن إدريس الفاسي أصبح السنوسي رئيساً لأحد فرعي طريقة القادرية. وقد أسس أولى زواياه في سنة 1835 في أبو قبيس قريباً من مكة، وأثناء إقامته بشبه جزيرة العرب أتصل بالوهابين، وكان لهذا الاتصال أثر محسوس في النظر إليه بعين الشك والارتياب من علماء مكة. وفي مكة نفسها أكتسب السنوسي أكبر وأقوى عضد في شخص محمد شريف أمير واداي الذي تولى ملكها في سنة 1838 وهي أقوى إمارة إسلامية في وسط السودان. وحينما وجد السنوسي معارضة قوية في مكة غادرها في سنة 1843 إلى برقة وهناك بالجبل الأخضر أسس الزاوية البيضاء بالقرب من بلدة درنة. وكان على اتصال دائم ووثيق بجميع المغاربة، وأيده كثير من الأتباع الطرابلسيين والمراكشيين.

وكانت الحكومة العثمانية الحاكمة لطرابلس في ذلك العهد تنظر إلى انتشار نفوذ السنوسية
بعين غير عين الاستحسان. ومن الجائز أن انتقال السنوسي في سنة 1855 إلى جغبوب وهي واحة صغيرة في الشمال الغربي من واحة سيوة على خط عرض 30 كان لرغبته في تجنب الاحتكاك بالأتراك. وهناك في جغبوب توفي إلى رحمة الله في سنة 1859 أو سنة 1860 وخلف ولدين: الأكبر محمد شريف، سمي كذلك تيمناً باسم سلطان واداي ولد سنة 1844، والثاني المهدي ولد سنة 1845. وقد خلفه في زعامة الإخوان المهدي. ويقال إن الولد الأصغر أظهر ذكاء وكفاية أكثر من أخيه، ولذلك قرر الوالد أن يختبرهما؛ وأمام جميع الإخوان في جغبوب أمر ولديه بتسلق نخلتين عظيمتي الارتفاع وسألهما باسم الله ورسوله أن يقفزا إلى الأرض، فقفز المهدي في الحال ولم يصب بسوء في حين رفض الأكبر. وإلى المهدي الذي لم يخش أن ينفذ إرادة الله انتقلت ولاية العهد التي كانت من نصيب الأكبر. ويظهر أن محمداً قبل مصيره هذا بلا تذمر، وقد تولى القضاء والتشريع في زاوية الإخوان تحت رياسة أخيه إلى أن توفي إلى رحمة الله في سنة 1895.

السنوسي المهدي

كان عمر السنوسي المهدي حين خلف والده أربعة عشر عاماً ومع ذلك كان يتمتع بجميع ما كان يتصف به والده من الشهرة والحكمة والعلم. وقد فاتنا أن نذكر أن الأمير محمد شريف سلطان واداي توفي سنة 1858، وخلفه السلطان علي الذي حكم حتى سنة 1874 والسلطان يوسف وتولى الحكم حتى سنة 1898 وكلاهما كان مخلصاً في أتباع تعاليم السنوسية. وفي عهد السنوسي المهدي انتشرت تعاليم السنوسية من فارس إلى دمشق ومن القسطنطينية حتى الهند. وكان للطريقة في الحجاز أتباع عديدون، وفي معظم هذه الأنحاء احتلت السنوسية مركزاً قوياً يفوق كثيراً من الطرق الإسلامية الأخرى. أما في بلاد النيجر وهي تقع شمال بلاد نيجريا فلم تنل السنوسية نجاحاً، ذلك لأن مسلمي هذه البلاد ما كانوا يعترفون إلا بسلطة سلطان سوكوتو، ولكن الحال كان مختلفاً في الصحراء الشرقية وفي أواسط السودان، فإنه من حدود مصر الغربية جنوبي دارفور ووادي وبرنو، وغرباً إلى بيلما ومرزوق، وشمالاً إلى شواطئ طرابلس كان السنوسي المهدي أقوى شخصية وكان له من النفوذ ما يجعله الحاكم الفعلي، ولذلك كانت الواحات المنتشرة في صحراء ليبيا تحتل وتزرع بواسطة السنوسسيين؛ وازدهرت التجارة مع طرابلس وبنى غازي واستقر النظام والأمن بين البدو الرحل قاطني الصحراء.

وبالرغم من أن والده سماه المهدي فإنه لا يوجد أقل دليل على أنه أدعى أنه المهدي المنتظر ولو أن أتباعه يعتقدون فيه ذلك.

وحينما قام محمد أحمد الدنقلاوي بثورته على المصريين في شرق السودان وادعى أنه المهدي المنتظر قلق السنوسي وأرسل وفداً عن طريق وادي إلى محمد أحمد فوصل الوفد إلى معسكره في سنة 1883 بعد سقوط مدينة الأبيض بوقت قليل. ونترك هنا للسير ريجنالد ونجت وصف ما حدث كما جاء بكتابه عن المهدية والسودان المصري الذي ظهر سنة 1891.

كان وفد السنوسي مشبعاً بتعاليم السنوسية الدينية والأخلاقية فراع الوفد المذابح والخراب البادي حول محمد أحمد أينما حل، وكان الوفد يشعر بأن هداية العالم بواسطة المهدي المنتظر تكون بتأثيره في الغير كي يحيا الناس حياة صحيحة معتدلة عمادها العمل الشريف والاعتماد على النفس. وقد شاطر السنوسي المهدي وفده هذا الشعور وقرر قطع كل صلة بالمهدي السوداني بالرغم من أن محمد أحمد أرسل إليه مرتين ليقبل أن يكون أحد خلفائه الأربعة، رامياً بذلك أن يكسب تأييد السنوسي ذي التأثير العظيم على المصريين، ولكن ظلت رسالتاه بلا رد. وفي الوقت نفسه حذر أهالي واداي وبرنو والبلاد المجاورة بأن ينفضوا أيديهم من كل ما له علاقة بأمور السودان. ويجب ألا يخفي أن الثورة التي حدثت في سنة 1888 وسنة 1889 في دارفور ضد الخليفة عبد الله التعايشي كانت تدار باسم السنوسي.

اشتباك السنوسية مع الفرنسيين

قلق الأتراك من ازدياد شهرة الشيخ السنوسي مرة أخرى. وقد لاحظ السلطان عبد

الحميد الثاني أن سلطة الشيخ في كثير من أجزاء طرابلس وبنغازي أعظم من سلطة الحكام العثمانيين. ففي سنة 1889 زار الشيخ السنوسي في جغبوب حاكم بنغازي التركي على راس بعض قواته. وكان هذا الحادث سبباً في ترك الشيخ لجغبوب ونقل مركزه إلى الجوف في واحة الكفرة، وهو مكان بعيد بعداً كافياً يجعله في مأمن من أي هجوم مفاجئ

وحوالي هذا الوقت بدا خطر جديد على السنوسية، وهو أن الفرنسيين كانوا يزحفون من الكونغو متجهين إلى حدود مملكة واداي الغربية والجنوبية. وقد رأى السنوسي في سنة 1898 أن يجمع في اتحاد واحد جميع البلاد المهددة من الزحف الفرنسي، ولذلك فكر في التحالف مع رابح الزبير وسلطان بجرمي ولم يكونا من أتباع السنوسية، ولذلك كان سعيه بلا نتيجة.

وفي واداي كان خلف السلطان يوسف وهو السلطان إبرهيم الذي تولي الملك سنة 1898 يهمل نصائح الشيخ، متشجعاً في ذلك بهزيمة الخليفة عبد الله التعايشي في أم درمان. وكان رد السنوسي على هذا أن حرم على أهالي واداي تدخين التبغ وشرب المريسة (البيرة الوطنية) فأرسل السلطان إبراهيم إلى السنوسي بأن شعبه يحارب ويموت في سبيل المريسة، وأنهم قد ينبذون تعاليم السنوسية ليشربوها. وكان السنوسي المهدي حكيماً في تنازله عن رأيه، معلناً أن الله أجاب على صلاته بأنه جل شأنه قبل أن يستثني أهالي واداي من هذا التحريم. ولما توفي السلطان إبرهيم سنة 1900 وقع خلفاؤه تحت سلطان السنوسي المهدي مرة أخرى

وفي سنة 1900 غادر السنوسي واحة الكفرة إلى دار جوران على الحدود الغربية من سلطنة واداي، وهناك في جيرو على قمة التل الصخري أنشأ زاوية وحصنها تحصيناً قوياً رامياً بذلك أن يصد أو على الأقل يعوق تقدم الفرنسيين الذين قتلوا - في نفس هذه السنة - رابح الزبير في معركة واحتلوا بلاد بجرمي. ورأى الشيخ أيضاً أن يمنع الفرنسيين من احتلال قانيم وهي بلاد تقع في الشمال الشرقي من بحيرة تشاد على الحدود الصحراوية. وبذلك للمرة الأولى بدأ احتكاك السنوسية بالقوات الأوربية.

وقد كان هناك اعتقاد بين بعض الرحالة الفرنسيين والإنجليز أن السنوسيين ربما يعلنون حرب الجهاد وأنهم بذلك ينالون مساعدة جميع المسلمين في شمال وغرب أفريقيا، وهذا الاعتقاد كان بعضه مؤسساً على تعاليم السنوسية ذاتها والبعض الآخر على التخيلات المبالغ فيها من قوة السنوسيين.

وكان عدد محاربي السنوسية الذين يدينون بالطاعة للسنوسي مباشرة عدة آلاف قليلة. ولذلك كان السنوسي يعتمد على سلطته الروحية وتأثيره في هؤلاء الذين قبلوا تعاليمه بأن يأتمروا بما يريد ويستدل من تاريخ السنوسي الثاني على أنهما كانا دائماً في صف المدافع.

والسنوسي المهدي في تعرضه للفرنسيين لم يكن في الحقيقة يقوم بحرب هجومية، وقد أضعف مركزه أنه لم يجتمع تحت إمرته من القبائل عدد عظيم.

فاخذ يحارب في قانيم مع أتباعه من البدو متلقياً مساعدات قليلة كان يقوم بها أهالي هذه المدينة، وفي أثناء ذلك أنشأ زاوية في بيرعلالي، وهي ملتقي تجارة طرابلس بالبلاد الموجودة حول بحيرة تشاد، وحصنها تحصيناً قوياً واستؤنفت الحرب واستمرت ما يزيد على السنة، وبعد قتال شديد سقطت بير علالي في يد الفرنسيين في يناير سنة 1902.

وقد تأثر السنوسي المهدي بهذه الهزيمة ومات بعدها بقليل في 30 مايو سنة 1902 في جيرو ودفن في زاوية التاج ولكن البدو يعتقدون حتى الآن بأنه ما زال حياً وأنه غادرهم في مهمة سرية

وكان أبناء المهدي السنوسي صغاراً قاصرين، فانتقلت زعامة الإخوان إلى أبن أخيه السيد أحمد الشريف وهو رجل طموح ذو مقدرة فائقة ولكن تعوزه حكمة من سلفوه. وأستمر سيدي أحمد في سياسة عمه وهي مقاومة الفرنسيين، ولكن رغم جهوده وبعد كفاح طويل دام من سنة 1904 حتى 1911 سقطت واداي في أيديهم، وبذلك أنهار سلطان السنوسية في أواسط السودان.

وكان السنوسيون يحتفظون لمصر وللسلطات البريطانية فيها بأجمل الود. ولما رأى

سيدي أحمد نشاط الفرنسيين أستحسن الانتقال إلى الجوف في واحة الكفرة. وهناك وعلى واحات أخرى في صحراء ليبيا كان السيد المطلق، ولم يكن لاعتراف فرنسا بأن الصحراء واقعة في دائرة النفوذ البريطاني أي أهمية لديه

وكان عدد أتباعه في مصر دائماً في ازدياد، وفي الإسكندرية كان يعيش السيد محمد الإدريسي أكبر أبناء المهدي السنوسي وسط أملاكه مستقبلاً أتباع السنوسية من جميع أنحاء البلاد.

(البقية في العدد القادم)

حسين جعفر

المهندس الزراعي

عراك في معترك

أي معترك!

فصل في الرمزية

للأستاذ زكي طليمات

في مقالينا السابقين، دفعنا تهماً مصنوعة لا تقوم على حجج علمية، كما كشفنا عن مغالطات صريحة متعمدة لم يجد الأستاذ محمد متولي سواها مطية للرد علينا، ليوهم نفسه ويوهم القارئ العابر أنه سود ثلاث صفحات تلمع ببهرج الجدل الفلسفي

فعلنا هذا بعد أن جعلنا دبر آذاننا سباباً ومهاترات لفظية من جانبه تقيم الحجة على أن الأستاذ متولي لم ينزل إلى موضوعية النقد فيما نحن بصدده، بل أنحرف إلى أطراف الموضوع يشدها ويشدها، متخذاً منها أرجوحة تطوحت به إلى فضاء ما كنا نحب أن نراه يشغل فراغه!

حول الرمزية الفنية

وإذا قلنا إن متولي لا يريد أن يفهم ما نكتب، أو هو يفهمه ثم يتجاهله، لما قررنا غير الواقع!! وآية ما نذهب إليه - وقد سقنا قبل ذلك آيات بينات - أننا قررنا، فيما سبق أن كتبناه رداً على مقاله الأولى، أن متولي يخلط بين ألوان الرمزية، وأيدنا ذلك بقولة من كلام (ريبو) نفسه، مرجع متولي الأوحد في كل جدل، ثم شفعنا ذلك بتعليق آخر وارد في نفس الكتاب (صفحة 169 - 171)، وهو تأييد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فكان أن طلع علينا متولي بما زاده إمعاناً في خطئه وفي حيرته، ومرد هذا أن متولي هو أول من أسمى الرمزية الميتافيزيتية، أو رمزية ما وراء الطبيعة، أو الرمزية الفلسفية عند (ريبو)، باسم (الرمزية الفنية) وهانحن أولاء نسجل جملته التي وجهها إلى الدكتور بشر فارس: (ألست تحدثنا بهذا النزوع الصوفي ناسياً الفرق بين الرمزية الصوفية التي تفيض عن المخيلة والشعور، والرمزية الفنية التي تعتمد على المخيلة مضافاً إليها عنصر عقلي كما يقول ريبو). أسمى متولي هذه التسمية عن عدم تثبت أو عن قصد مرسوم - أيهما لا أدري - فلما جاريناه تساهلاً في هذه التسمية التي هي وليدة مخيلته المبتدعة وليست وليدة

مخيلة (ريبو)، وناقشناه على هذا الأساس ليفهمنا ويتبعنا، مدللين على أن متولي يخلط بين ألوان الرمزية لينفي عن مسرحية (مفرق الطريق) طابع الرمزية الأصيل، قام يتهمنا بما أخذناه عليه، وكأنه يأبى أن ينزل إلى حق أو حجة أو برهان . . .

ولكننا أوتينا الصبر والجلد، وهانحن أولاء نقدم فصلاً (في الرمزية) كما أرادها (ريبو) محاولته وليس كما أرادها الأستاذ متولي في مقاليه السابقين، وسنسوق في عرض هذا الفصل الأخطاء التي تورط فيها متولي عفواً أو عمداً.

المخيلة في رأي ريبو

يقسم (ريبو) المخيلة قسمين رئيسيين عامين كلاهما إزاء الآخر مكان الماء من النار.

1 - القسم الأول، وأسماه (ريبو) المخيلة المصورة وخاصيته وضوح الصور الجزئية وتحددها، وقربها من الإدراك، وإيهامها بأنها حقائق، وتداخل بعضها في بعض لصلات بينها موضوعية، قابلة للتعيين بدقة، ومن ضروب هذه المخيلة: مخيلة المثال والمهندس والشاعر الوصفي، وبعض أرباب العلوم والصناعات.

2 - والقسم الثاني؛ وأطلق عليه ريبو أسم (المخيلة السيالة) وخاصيته التقريب بين صور جزئية غامضة ملتبسة فياضة، ويكون هذا التقريب على هوى الاستعداد الشعوري من غير قاعدة ولغير سبب منطقي. ومن ضروب هذه المخيلة: أحلام اليقظة، وجولان

الفكر، وتلفيق القصص، وبعض التصورات الدينية، وبعض ألوان الفن، مثل فن الرمزية ولا سيما (الأدب الرمزي) الذي كان في عصر (ريبو) حين صدور كتابه، أي قبل عام 1900

ويذهب (ريبو) بعد ذلك إلى أن للمخيلة أنواعاً أخرى أقل عموماً من القسمين السابقين. منها (المخيلة الصوفية). وفي رأي (ريبو) أن هذه المخيلة الصوفية تمت بسبب إلى (المخيلة السيالة) ولا سيما في شكلها الشعوري، وإن كانت لها خصائصها، وهنا يحلل (ريبو) هذه المخيلة، ويميزها عن المخيلة الدينية والمخيلة الفلسفية.

ذلك هو مجمل مذهب (ريبو) في المخيلة على أقسامها وضروبها. والآن نرجع إلى ما كتبه الأستاذ متولي في الرمزية، ونراجع استشهاداته لنتبين مدى فهمه ومقدار أمانته وهو يستند إلى كتاب مطبوع متدوال. وفيما سنورده أقوال جديدة وأخرى سبق أن رددنا بها أخطاء

الأستاذ متولي في مقالاته السابقة، وقد آثرنا تكرارها لترد متراصة في صعيد واحد مع هذا الفصل، بعد إيفائها حقها من الشرح والبيان:

1 - ظن متولي أن الرمزية في توطئة مفرق الطريق محض صوفية، فخاطب صاحب المسرحية قائلا: (ألست تحدثنا بهذا النزوع الصوفي ناسياً الفرق بين الرمزية الصوفية التي تفيض عن المخيلة والشعور، والرمزية الفنية التي تعتمد على المخيلة مضافاً إليها عنصر عقلي، كما يقول (ريبو)).

والى القارئ نص (ريبو) ص 196س8 - 11 عن التفريق بين الرمزية الدينية، ورمزية ما وراء الطبيعة أو الفلسفية: (إن الرمزية الصوفية إذا اتجهت نحو الدين فإنها تعتمد على عنصرين أساسين: هما التخيل والشعور، وإذا اتجهت نحو الفلسفة أو ما وراء الطبيعة فإنها تعتمد على المخيلة مضافاً إليها عنصر عقلي واهن) فالقارئ يرى من معارضة حديث متولي بنص (ريبو) أن الناقد اعتسف الكلام إذ نسب إلى ما يسميه هو (الرمزية الفنية) ما خص به (ريبو) (الرمزية الصوفية) المتجهة نحو ما وراء الطبيعة أو الفلسفة. هذا، وأما العنصر الذي خص به (ريبو) (المخيلة السيالة) فهو الاضطراب (راجع كتاب (ريبو) المذكور ص 171س10 - 12). وقد تقدم أن (المخيلة السيالة) هي التي تتمثل في فن الرمزيين

وهذا الفن - ومعظم كلام (ريبو) عليه في ناحية الأدب - وثمة إشارة إلى ناحية ' التصوير - يصبح بجرة قلم من الأستاذ متولي يحمل أسم (الرمزية الفنية)!!؟

وللقارئ أن يتأمل كيف خلط متولي الرمزية الصوفية بالرمزية في الأدب والتصوير فجعلهما شيئاً واحداً، هذا في حين أنهما عند (ريبو) منفصلان أساساً وتقع كل منهما في باب مستقل عن الآخر

هذا والمتمعن ذو النظرة العلمية السليمة في توطئة (مفرق الطريق) يلحظ أن (الاضطراب) هو من أساس الإنشاء الفني فيما نريد أن نقرره (راجع مثلاً القسم الخاص بالرقص في التوطئة المذكورة).

2 - يعود الأستاذ متولي إلى الرمزية الصوفية التي في التوطئة الفنية البليغة فيقول مخاطباً صاحب المسرحية: (ألم تحدثنا بهذا أيضاً مع أنه وصف للتخيل الصوفي الذي يؤلف بين السطور الباطنة المبهجة ويستخرج منها رموزاً يستعملها كما هي بعكس الرمز في الفن الذي يحصل من (تحليل الصور) والحركات والألوان؟).

وإلى القارئ نص (ريبو) (ص187 س17 - 30)

إن مصدر طرافة المخيلة الصوفية أنها تحول الصور المعينة إلى صور فتستعملها على أنها كذلك لا كما هي، ونوع تعبير المخيلة الصوفية لابد له من أن يكون تركيباً.

وتختلف الرمزية الصوفية - بسبب هذا النوع وبالأدوات التي تستخدمها - عن المخيلة الشعورية

التي وصفتها آنفاً (السيالة) وعن المخيلة الإحساسية (يعني المصورة) التي (تستخدم) الصور والحركات والألوان على أنها لها قيم خاصة)

فالقارئ يرى أن متولي عكس الكلام وقلب الحقائق، إذ نسب إلى (المخيلة السيالة) ما نسبه (ريبو) إلى (المخيلة المصورة) من أن الصور والحركات والألوان (تستخدم) لديها، (لا تحلل كما توهم متولي في الترجمة!) على أن لها قيما خاصة، وقد تقدم بالقارئ أن (المخيلة السيالة) ضد (المخيلة المصورة) وهانحن أولاء نسجل نص (ريبو)

في التفرقة بين هاتين المخيلتين كما هو وارد في الكتاب المذكور ص 163س1 - 2، ص 165س4
' ' '
3 - ويقول الأستاذ متولي: (ثم ما رأيك في أن (ريبو) يقصد بالرمز في الفن أن يفقد بعض الألفاظ استعماله المعقول المعروف ليدل على معنى جديد بينما أنت).
وإلى القارئ نص ريبو (ص170) عند الكلام على أساليب الكتاب الرمزيين الذين يعمدون إلى الإيحاء في التعبير ويترجمون بالألفاظ عن اضطراباتهم أكثر مما يترجمون عن تمثلاتهم: (الأسلوب الأول أن تُستعمل الألفاظ الجارية مع تبديل مدلولاتها المتعارفة، أو أن يؤلف بينها بحيث تفقد معانيها المحددة، وأما الأسلوب الثاني فاستعمال ألفاظ جديدة أو ألفاظ مهجورة، وأما الأسلوب الثالث - وهو الأقطع هنا - فإن تجعل للألفاظ قيمة اضطرابية فحسب).
فأنت ترى أن السيد متولي أستشهد بجزء من كلام (ريبو) ليؤيد نظره المغرض، وإلا فكيف يبرر وقوفه عند الشطر الأول من الأسلوب الأول لكتاب الرمزيين، ثم تركه الشطر الثاني
من هذا الأسلوب، ثم الأسلوبيين الآخرين؟!
سبب هذا الترك المتعمد، ثم هذه الترجمة البتراء، أنه جاء في توطئة (مفرق الطريق) أن مؤلفها يبعد الرمز عن التشبيه والكتابة ومختلف ضروب المجاز - وهو ما قصد إليه (ريبو) في الشطر الأول من الأسلوب الأول - وعلى ذلك فقد زين اعتساف النقد المغرض لمتولي أن يسقط من كلام (ريبو) ما لا يصح أن يكون عكازاً له!!
4 - وهناك خلط آخر، والعجب ممنوع مقدماً . . .
وقف القارئ في عرضنا لمذهب (ريبو) على أن ريبو يدخل تحت (المخيلة السيالة) بعض التصورات الدينية وبعض ألوان الفن. ويشرح ريبو كيف تدخل هذه وتلك تحت المخيلة المذكورة. وقد عني بأن يفصل بينهما في السياق، فجاء كلامه على كل منهما قائماً بذاته (أنظر صفحة 166 - 171) ثم إنه ضرب مثلاً على التصورات الدينية المخيلة الهندية التي تعمل عن طريق الرمز فتمثل الآلهة بعدة أرؤس وأذرع وأرجل لتدل على الفطنة والعزة اللتين لا حد لهما.
وهذا الأسلوب في التمثيل والتعبير معروف، وهو الرمز بشيء إلى شيء آخر، وهو أولي فطري، ولا صلة - من حيث الجوهر - بالرمزية في الأدب (والتصوير)، وهي الرمزية التي ضربها ريبو مثلاً على بعض ألوان الفن كما مر بالقارئ. وقد شرح ريبو هذه الرمزية، وبين أغراضها وطرائقها على حسب مظهرها ومخبرها قبل عام 1900، فدل على أنها تقصد إلى الإيحاء فتبسط الإبهام على الأشخاص والأشياء حتى إنها تطلقها من قيود الزمان والمكان، وربما لم يعين الأشخاص بأسماء فيقال: (هو) و (هي). . . (ص169)
ذلك مجمل حديث (ريبو). . . أفيدري القارئ ماذا صنع السيد متولي؟ خلط رمزية المخيلة الهندية - وهي من باب الرمز بشيء حسي إلى معنوي - بالرمزية في الأدب التي تطلب الإيحاء من باب بسط الإبهام!! ودليل ذلك أنه أستشهد بهذه وبتلك، وهو يتكلم على ما يسميه (الرمزية في الفن) عند ريبو فجعل مصدرها واحداً، أي (فن الرمزيين)، ليأخذ على صاحب المسرحية أنه الرمزية في توطئته تعدل عن الرمز بشيء إلى شيء آخر، إلى (استنباط ما وراء الحس من المحسوس وإبراز المضمر وتدوين اللوامع والبواده)!!
والآن ألا يصح أن نقول لمتولي - وقد أخذ علينا مزهواً متطاوساً أننا لا نحمل شهادة ماجستير - إننا نحمد الله على هذا المكروه الجميل ما دام لم يسلمنا إلى ما هو غير جميل، وأن نهمس في أذنه بأن الألقاب العلمية، مهما كبرت، فإنها لا تخلق الرجل المخلص والأديب الحق، وأن هذه الألقاب إنما تزهي بحاملها، وإلا فهي تيجان من ورق على رؤوس من خشب!!
أعتقد أن هذا تساؤل مشروع، ما دام (الصديق) محمد متولي لم يتعوذ بالله وبالفن من التكلف لما لا يحسن والعجب بما يحسن، ولم يتعوذ بالأدب من السلاطة والهذر!
زكي طليمات

من وراء المنظار
صاحب السلطان
حملني من لا أطيق مخالفته من ذوي قرباي على مصاحبته لزيارة ذلك الذي أنعته بصاحب السلطان، فبلغنا داره وقد متع النهار أول أيام العيد. . .
واستقبلنا صاحب السلطان لدى مدخل حجرته، ونظرت - وهو يمد يده للسلام - إلى وجهه المنتفخ المتورد، فإذا الذي يكون ابتساماً على غير وجهه من الوجوه لم يكن على وجهه إلا شبه ابتسام. وطاف برأسي خيال: ذلك أنه لا يبتسم قط إلا حين يضطره العيد إلى مثل ذلك النوع من الابتسام الذي بدا على وجهه كما يبدو الشيء في غير موضعه وجلسنا فأتممنا حلقة من الزبائن كانوا بين يدي صاحب السلطان قبل مقدمنا، ودرت بعيني أو على الأصح درت بمنظاري في نواحي الحجرة الفسيحة فعجبت لأول وهلة أن رأيت كل شيء حولي تشيع فيه الحمرة، فالبسط حمراء لا أثر فيها لنقش، والأرائك حمراء، والستائر حمراء، ونقوش الجدر حمراء.
واستقرت عيناي على وجه صاحب الدار ونظرت إلى شاربيه الغليظين المرهفين فوق شفته الضخمة وتحت أنفه الذي حرت فيه، والذي لا أزال منه في حيرة أهو الذي زاد الشاربين رهبة أم هما اللذان زاداه غلظاً وفخامة! ولست أدري لم قرنت وأنا أنظر إليه تلك الحمرة التي شاعت حولي في كل شيء بلون الدم وكان الأحرى ونحن في العيد أن أقرنها بلون الورد! ولكن هيهات أن يتعلق خيالي بالورد وأنا أنظر إلى تلك السحنة والأحاديث التي سمعتها عن صاحبها تتواثب إلى ذاكرتي في نشاط عجيب وتتداعى صورة إلى صورة كلما بدت منه حركة أو ارتسم على محياه معنى. . . ولو أن الورد الجني كان في تلك الحجرة ساعتئذ لما رأيت في الورد نفسه إلا لون الدم!
واسند صاحب السلطان ظهره إلى المقعد فظهر بطنه المتكرش أعظم ضخامة، ونزل بذقنه حتى مست صدره فبدت لغاديده أعظم هولاً، وتكلم فإذا صوت كأنه صوت الطبل إذا نقر ينبعث في الحجرة وفيه على نكره صلف، فهو يتضخم مرة في الحنجرة، ويبدو مرة أخرى كأنه ينبعث من الأنف وتسبقه في كل مرة غمغمة يربد معها وجهه ويبدو الشر في عينيه كأنما يتهيأ لما أعتاده في غير ذلك الوقت من سباب وينصت من في الحلقة وكأن أكثرهم
من فرط اهتمامهم كأنهم يستمعون إلى من يتلو عليهم حكم الإعدام، اللهم إلا حين كان يشرق وجهه قليلاً إذ يزهي بما يتلو عليهم من غالي الحكم فيبتسمون ابتسامات عريضة، ويتنافسون في عبارات الموافقة والإطراء والإعجاب وإن لم يفقهوا شيئاً من حكمه الغوالي!
وتقاطر المزارعون والفلاحون للسلام على (البك) فكان يخلع الرجل منهم نعليه عند عتبة الحجرة ويسير حافياً على البساط الأحمر كأنما يخطو على نطع ليضرب عنقه: ففي وجهه من معاني الفزع ما لم يخفف منه إلا تذكره أن اليوم يوم عيد، فإذا بلغ إلى حيث يتكئ البك، ومد إليه البك أطراف أصابعه تناولها وانكب عليها فلثمها ورجع خطوتين دون أن يدير ظهره، ومشي إلى الباب فلبس حذاءه وكأنه ألقي عن كاهله عبئاً أي عبء.
وكان البك ينظر إلى كثيرين منهم نظرات ذات معنى فكأنما يذكر هذا بما بقي عليه من الإيجار، وكأنما يتوعد هذا حتى ينتهي العيد، وكأنما يستنجز غيره ما وعد، وكأنما يقول بعينيه لآخر إنه لولا العيد لما سمح له بالدخول عليه؛ إلى غير ذلك من المعاني التي كانت توحيها إلى نظرات هذا المتجبر المتكبر.
وازدادت الحلقة واتسعت إذ أنظم إليها من يجرءون على مجالسة البك أو من يستطيعون ذلك في العيد على الأقل؛ وكان يسلم على كل قادم ما له من مكانة ولو في عرف الناس، فهو مقتنع بما تنطوي عليه تحياته من معاني الشرف، ولذلك فهو ضنين بها عن الابتذال فلا يجود منها حتى في العيد إلا بمقدار
وأدار صاحب السلطان الحديث إلى الحرب، كأنه وقد رأى في زائريه بعض المطربشين يريد أن يبرهن للجميع على أنه وإن كان من غير أبناء المدارس إلا أنه يعلم من أمور الدنيا ما يغيب أكثره عن الكاتبين القارئين.
وبدأ بألمانيا وأنطلق يتحدث وأنا أعاني في كتمان الضحك ما أعاني وأتمنى أن يجود البك بنكتة من سخيف نكاته لأفرغ في جلبة الحلقة ما بنفسي من ضحك مكتوم كم

خشيت أن ينطلق على رغمي فأكون موضع استنكار الجالسين
ومالي حيله في أن أصور للقارئ كلامه وحسبك مما أذكره أنه كان يتحدث عن (هتلر)
كما يسميه كما لو كان يتحدث عن أبي زيد الهلالي والزناتي خليفة وعنتر بن شداد
وإضرابهم من المغاوير
ويحرص إليك أشد الحرص ويتوخى الدقة إذا تحدث عن أقطار الأرض وإن كانت
سويسرا وسوريا عنده شيئاً واحداً وأن كانت كندا لتتاخم الهند، وإن كانت دوله البلقان
لمن أعظم دول الأرض، وإن كانت استراليا لتقع جهة السودان، وإن كان جبل طارق
لذات ثروة عظيمة وبخاصة في القمح والقطن، وذات خطر يحسب له ألف حساب،
إلى غير ذلك من الأدلة على سعه علمه بجغرافية هذا الكوكب
ولن يقل علمه بالتاريخ عن علمه بالجغرافيه، يتجلى ذلك في سبب تفضيله هتلر على
نابليون، فنابليون كان يحارب منذ أكثر من خمسمائة سنه فكانت أمامه أمم ضعيفة،
أما (هتلر) فإنه يحارب إنجلترا التي ملكت العالم وسادت البحار
ويحاول إلبك أن يتكلم العربية كما يفعل المتعلمون، فيأتي بضروب من القافات لم
يسبقه فيها سابق ولن يلحقه لاحق إن شاء الله. فالقسطول الإنجليزي قسطول هائل،
وقيران دولة صديقة لنا. . . إلى غيرها مما أخشى إن ذكرته أن يحمل على المبالغة
وينتقل صاحب السلطان إلى المباهاة بجاهه فيما يذهب فيه من ضروب الحديث؛
فيصف كيف يقف له سعادة المدير إذا دخل عليه؛ ويذكر من شملهم بعطفه فعينهم
في وظائف مشيراً إلى أنه إنما فعل ذلك لا يقصد غير البر والإحسان؛ ويفخر بمن يزور
داره من الحكام ومن وجوده البلاد. ويقص الأقاصيص عن خوف رجال الشرطة منه،
وآخر ما حدث له معهم أنهم ما كادوا يعلمون أن الحمير (المسلوخة) التي قبضوا عليها
منذ يومين ملك له حتى أطلقوا سراحها معتذرين!! وأنهم عاجزون عن أن يقبضوا على
رجل من رجال عزبته إلا بأمره؛ وبدهي أنهم متى عجزوا عن الحمير كانوا عن الرجال
أعجز
وتكلم عن الفلاحين، وناهيك بحديثه عن الفلاحين، فله في ذلك من جوامع الكلم ومن
أصول الاجتماع ما يعجب ويطرب؛ خذ مثالاً لذلك قوله: (اضرب الفلاح على رأسه تأكل
خيره)؛ وقوله: (الفلاح جنس ما يستهلش النعمة)، و (الفلاح يخاف ولا يختشي). ولقد
كان يذكر هذه العبارات في لهجة الخبير الواثق الذي لا يقبل فيها جدلاً؛ وهل كان في
الجالسين من يجرؤ على جداله؟!
وتداعت الصور في ذهني وهو يتحدث عن الفلاحين، فتذكرت منظره وهو بين المزارع
تركض به دابته وخلفه فلاح يجري والعرق يقطر من جبينه وأنه ليلهث كما يلهث
الكلب.
وتذكرت أني رأيته يركل رجلاً توسل إليه أن يترك له بضعة قروش بقية إيجار لضيق
ذات يده، ركلة قلبته على ظهره. وتذكرت أنه أمر بجماعة من الفلاحين فطاف بهم
أعوانه القرية عراة بعد أن ألقيت ملابسهم في النار لأنهم اعترضوا سيارة قريب له
على غير علم كانت قد دهمت جاموسة لأحدهم. وتذكرت أنه ما من فلاح يستطيع أن
يحجز الماء ليصرفه إلى حقله حتى تروي أرض البك كلها وإن تركت أرضه هو قاحلة
جرداء
وحمل البك حملة قاسية على ما يسمونه الحرية ورد إليها أسباب جميع الجرائم ولعن
العصر وسخافاته وترحم على الأيام الماضية أيام لم يكن يسمع أحد بحرية وانتخاب
(ولا كلام فارغ زي ده) ونسي أنه كان نائباً مرتين!
وانصرفنا من لدنه وأنا أقول في نفسي إذا كان مثل هذا يتصدى للنيابة عن أولئك
الفلاحين، وإذا كان يفكر هذا التفكير في العصر، فياضيعة العلم ويا خيبة الآمال.
الخفيف
فيض الخاطر
قرأ الأستاذ أحمد الزين كتاب (فيض الخاطر) للأستاذ أحمد
أمين فأعجب به وحياه بهذه الآبيات:
قد سحرت النهى بسحر مبين ... فاتق الله يا يراع (أمين)
وسلبت القراء أفضل ما أو ... دعه الله في سليل الطين
وعجيبٌ لسارق حَدُه الشر ... عيَ فينا تقبيل تلك اليمين

جنة في يراعك الخصب تُؤتي ... أُكلها طيب الجني كل حين
قلم لم يقده في الطرس إلا ... رفع شك أو اجتلاب يقين
ما جرى مرة بغل ولا تبصر ... يوماً بحده من طعين
ويميناً لو أنهم أنصفوه ... كتبوا فيضه بماء العيون
-
الملق. . .
للأستاذ الشاعر الرواية أحمد الزين
يا لِسَانَ الْحَقِّ لاَ تَنْطَلِقِ ... فازَ بالحُظْوَةِ أَهْلُ المَلَق
عَلِّمونَا يا أُولِي الحُظوَةِ مَا ... قَدْ عَلِمْتُمْ مِنْ طِلاَءِ الْخُلُق
وامْنَحُونَا ذَلِكَ الصَّبْغَ الَّذِي ... يُظْهِرُ الْحُسْنَ وَيُخْفِي مَا بَقي
أَوْ فدُلُونا على صُنَّاعِهِ ... نَجْتَلِبْهُ بِبَقايَا الرَّمَق
أَيُّ صِبغٍ ذَاكَ مَا أَعجَبَهْ ... صَادِقُ الْغِشِّ وَإِنْ لَمْ يَصْدُق
ألْبَسَ الشَّمْسَ ظَلاَماً دَامِساً ... وَكَسَا الظُّلْمَةَ شَمْسَ المَشْرِق
عَلِّمُونَا نَصِفُ الَمرْءِ بِمَا ... لَيْسَ فِيهِ مَنْ يُنَافِقْ يَنْفُق
يَمْنَحُ الْفِطْنَةَ أَغْبَى خَلْقِهِ ... وَالذَّكَاءَ المحضَ رَأْسَ الأَحْمَق
إِنْ سَمِعْنَا نَاهِقاً قُلْنَا لَهُ ... إِيهِ يا مَعْبَدُ بالصَّبِّ أَرْفُق
لا تَقُلْ أَفْنَيْتُ عُمري دَائِباً ... وَبَذَلْتُ الْجُهْدَ جُهْدَ المُرْهَق
لَيْسَ لِلدَّائِبِ حَظٌّ بَيْنَهُمْ ... لاَ وَلاَ الْجُهْدَ سَبِيلُ المُرْتَقي
تَزِنُ الْعُمْرَ وَعُمْرَاً مِثْلَهُ ... لَحظَةٌ تَبْذُلُها في المَلَقَ
فاسْتَبْقِهَا فُرْصَةً إِنْ سَنَحَتْ ... إنما الفُرْصَةُ لِلْمُسْتَبق
لا تَقُلْ سُهْدِي وَجُهْدِي عُدَّتي ... إنما الْجُهْد عَتادٌ الأَخْرَق
إِيهِ يا عِلْمِيَ عُدْ جَهْلاً عَسَى ... يَنْهَضُ الجَهْلُ بِحَظٍّ مُوثَق
يا ذَكَائِي عُدْ غَبَاءً أَسْتَرِحْ ... بِغَبائِي مِنْ شَقَاءٍ مُطْبِق
كَمْ كِفَايَاتٍ نَفَاهَا قَوْمُهَا ... وَجُهُودٍ أُلْقِيَتْ في الطُّرُق
وُضِعَتْ في مَوْطِئِ النَّعلِ وَلَوْ ... أَنصَفُوهَا وُضِعَتْ في الْحَدَق
فَأَتِ عَلَيَائَهُمُ مِنْ بَابِهَا ... لا تُضِعْ عُمْرَكَ بَيْنَ الوَرَق
لمْ أَكُنْ في نَعْتِهِمْ مخْتَلِقاً ... لَعْنَةُ اللهِ عَلَى المُخْتَلِق
عَلمُونَا إِنَّنَا في بَلَدٍ ... فِيهِ مَنْ لمْ يَتَمَلَّقْ يُمْلِق
أَوْدَعُونَا فَلَكُمْ دُنْيَا الْغِنَي ... إِنما نَحْيَا بِدُنْيَا الْخُلُق!
أحمد الزين
الحب. . . .
للأستاذ فؤاد بليبل
الْحُب أَسْعَدَني وَالحُبُّ أَشْقَاني ... أَبْكى وَأَضَحْكُ مِنْهُ اليَوْمَ في آنِ
وَيْلِي عَلَيْهِ وَوَيْلِي مِنْهُ مِنْ أَلَمٍ ... عَذبٍ وَآسٍ شَفَي نَفْسي فأضناني
طغَى عَلَى القَلبِ عرْبيداً فَقُلْتُ لَهُ ... يَا حُب رِفْقاً بهذا الْخَافِقِ المْعاني
فِيكَ الشِّفَاءُ ومِنْكَ الدَّاءُ أَجْمَعُهُ ... كَفَاكَ أَنْكَ أَنْتَ الهادِمُ الْباني
حَتَّامَ تُخمِدُ من وَجْدي وَتُشْعِلُهُ ... وِتْلْتَقي فيك أفرَاحي بأَحْزَاني
يَا مَنهلاً ظلَّ يَرْويني وَيُعْطِشُني ... رحماكَ رِفقاً بِراوٍ مِنْكَ عَطْشان
قالوا هُوَ البُعْدُ قَدْ يُنْسِيكَ لوْعَتَهُ ... وَكُلَّمَا زَادَ بُعْدي زادَ تَحْنَاني
أَبْغي السُّلُوَّ ولا أَبْغيهِ وا أسفا ... قلبٌ تنازعَهُ في الحبِّ ضِدَّانِ
وللصَّبابةِ أحكامُ رَضيتَ بها ... ما كانَ أسعدني فيها وأشقاني
أُحِبُّ لِلحُبِّ لا أبْغي به غَرضاً ... لو كانَ يَرْحَمُ أَحْشائي وأجْفاني
أَنا الوَفِيُّ وَعَهْدِي لا يُغَيِّرُهُ ... بُعْدُ المَزَارِ وَعَذلُ العاذِلِ الشاني
فإِنْ أَرَدْتِ دَليلاً فاسْألي أرَقي ... سُهْدِي دَليلي ودَمعي خَيْرُ برهان
يا من أُحِبُّ وأخشى أن أسَمِّيها ... لا يُنَنِّيني عنكِ اليومَ من ثان
فلا تقولي فتىً لُبْنَانُ مَوْطِنُهُ ... هَلِ الْكِنَانَةُ كانَتْ غيرَ لُبنان
إنْ يَنْبُ بي وَطَنٌ نفسي الفِداءُ لهُ ... لم يَنْبُ بي في رُباها مَوْطِنٌ ثان
يا جارَةَ النِّيلِ ما أَهْلوكِ لوْ عَلِمُوا ... إلا رِفاقي وَإخواني وأعواني
يَمَّمْتُهُمْ فَإِذا بي منهم وإذا ... بالرَّبع رَبْعي وبالأوطان أوطاني

أنا الغريبُ بآرائي وَرَوْعَتِها ... وَصِدقِ قَوْلي وأشعاري وألحاني
أنَا الغَريبُ بُروحي بَيْنَ منْ جَعَلوا ... لِلْحبِّ مَعْنىً وَضيعاً غيرَ رُوحاني
أنا الغريبُ غريبُ الدار في وَطني ... ما بَيْنَ أَهْلي وأحْبابي وأخداني
يا مُنْيَةَ الرُّوحِ حَسْبي في هَوَاكَ ضَنيً ... رُدِّي عَلَى الْجَفنِ صَوْبَ المَدْمَعِ القاني
رُدِّي عَلَيَّ شبابي وارْحَمِي كَبداً ... عَادَرْتِها نَهْبَ آلامٍ وَأَشْجَان
صِلِي مُعَنَّاكِ لا تَخشَيْ عَوَاذِلَهُ ... قَوْلُ الْعَوَاذِلِ مَوْسُومٌ بِبُهْتَان
لا تَحْرِمِينِيهِ عَطْفاً عَزَّ مَطْلَبُهُ ... كَفَى بنَفْسي شَقَاءً طُولُ حِرماني
أَنْ يُنكِرِ الأَهْلُ وَالْخلاَّنُ مَوْقِفناً ... لا الأَهْلُ أهلي ولا الْخلاَّنُ خلاَّني
(دار الأهرام)
فؤاد بليبل
رسالة الفن
بعد دنانير
عودي فاصحي يا أم كلثوم
للأستاذ عزيز أحمد فهمي
أم كلثوم. عبد الله أباظة. عبد الحليم محمود. زكريا أحمد. محمد القصبجي. رياض السنباطي. أحمد رامي. أحمد بدر خان. عباس فارس. سليمان نجيب . . .
هؤلاء جميعاً ومعهم غيرهم تعاونوا في إخراج (دنانير). وهؤلاء وغيرهم الذين معهم، جميعاً، من جبابرة الفن في مصر، سواء منهم الذين يغذون الفن بالمال، وسواء منهم الذين يغذون الفن بالفكر والجهد، وسواء منهم الذين يغذونه بالشعور والحس
ومع يقيني بهذا، واعترافي به، فإني أريد أن أقول إن فلم (دنانير) الذي تعاون فيه هؤلاء كلهم ومعهم وغيرهم. . . فلم فاشل ميت! فكم من القراء يا ترى سيصدق قولي هذا ويعترف لي بالحق فيه؟ وكم منهم سيقول: (أسكت المفتون عن عبد الوهاب فاندار على أم كلثوم!).
فليقل من يريد ما يشاء أن يقول، فأنا مرتاح إلى حكمي هذا، كما أني أضمن مع صوتي فيه صوتين أثنين على الأقل، هما الصوتان الصارخان في انكتام، المنبعثان من صدري عبد الله أباظة بك والأستاذ عبد الحليم محمود المنفقين على الفلم والمغذيانه بالمال. فقد كانا من غير شك يؤملان في ربح كبير يدره عليهما هذا الفلم ليبعث في نفسيهما بعده التشجع على إخراج غيره وغيره تحقيقاً لما ينزعان إليه من النهوض (بصناعة السينما) على اعتبار أنها صناعة مصرية ناشئة، وعلى رجاء فيها لو نمت وترعرعت وازدهرت أن تنمو معها الفنون الجميلة جميعاً في مصر وأن تترعرع وأن تزدهر، فالسينما هي المعرض الحي الباقي المتنقل الحفيظ على إنتاج الروح من أدب، وتمثيل، وموسيقى، وغناء، وتصوير، وزخرفة، وهندسة، وتزيين، ورقص، وإخراج وغير ذلك. . . وكلما راج هذا المعرض راجت بضائعه، وكلما راجت بضائعه أنتعش تجارها من أصحاب الفنون المختلفة، وكلما أنتعش هؤلاء سرى الانتعاش من أرواحهم إلى أرواح جماهيرهم، وكلما شعرت أرواح
الجماهير بفرحة الفن ونشوته انتفضت أعصابها وارتعشت فيها الحياة، وعندئذ يرجى من هذه الجماهير الخير وعندئذ تراها الدنيا وهي شعوب مقبلة على حياة العمل والحركة والتوثب والسمو
وعندنا المثل على هذا. . . أمريكا فابرز ما في صناعاتها السينما، وأبرز ما في أخلاقها النشاط الذي يكاد يكون جنوناً
هذه من غير شك آمال كانت تخفق بها نفس عبد الله أباظة بك ونفس الأستاذ . . . عبد الحليم محمود، ونزوعاً إلى تحقيقها أنفقنا ما أنفقنا في إخراج هذا الفلم، والذي أنفقناه لابد أن يكون مبلغاً ضخماً جداً من المال، فمناظر الفلم وأثاثه ورياشه وملابسه كلها مما يقصم الظهر إعداده وتجهيزه، وأجر المؤلف وأجر المخرج وأجور الممثلين وإن كانت تقل بكثير عن أمثالها مما يدفع لزملائهم في الخارج فهي من غير شك كانت في مجموعها مبلغاً لا يستهان به، وأجور الملحنين هي وحدها لا أستطيع أن أقول إنها كانت شيئاً مذكوراً فهؤلاء وحدهم هم المظلومون الذين يعطون مادة الغناء للأفلام الغنائية التي ترتكز على الغناء أول ما ترتكز
ضحت شركة أفلام الشرق ما ضحت في سبيل دنانير، وجمعت لأم كلثوم كل القوى

التي حسبتها كفيلة بإبلاغ الفلم إلى درجة الكمال التي تتوق إليها، فإلى أي حد أدت كل قوة من هذه القوى واجبها، وحملت أمانة القسط المعهود إليها به؟

وقبل أن أقول كلمتي الهزيلة في هذه القوى وفي أم كلثوم من فوقها يجب أن أذكر لشركة أفلام الشرق تضحية أخرى غير التضحية المالية، بذلتها راضية عن حب وكرامة لتوفر لأم كلثوم كل أسباب الراحة والاطمئنان في العمل، تلك التضحية هي أنها أخضعت إرادتها لإرادة أم كلثوم في اختيار هذه القوى التي ساندتها وعاونتها، اللهم إلا واحداً فقط تشبث به عبد الله اباظة بك وهو زكريا أحمد فقد كان على خلاف مع أم كلثوم، واباظة بك هو الذي ذلل هذا الخلاف وأزاله. . .

أم كلثوم أولاً

والآن. . . ما الذي حدث لآم كلثوم حتى أنها استحالت في نظري من فنانة تشبع النفس إشباعاً مريحاً إلى هذه الجديدة التي حين سيطرت على عمل فني كبير مثل (دنانير) خرج

من تحت يدها وهو فاشل ميت مع وفرة المال الذي بذل فيه وطواعية المعاونين الذين عاونوها فيه. . .؟

لابد أن يكون قد حدث لأم كلثوم شيء وأصاب نفسها وقعد على روحها؟ فما هذا الذي حدث؟ وما هي دلائله؟

الكاميرا صاحبة العين النافذة تقول لنا ما الذي حدث!

قالت لنا الكاميرا إن أم كلثوم اغترت، وإن إحساسها ركد، وإن بدنها طغى على روحها، وإنها استمرت التكلف والتصنع حتى نضبت سجيتها وجفت عواطفها؛ فانحرمت من الفرح تبعاً للذي أرادته من الامتناع على الألم. وقد قالت لنا الكاميرا أيضاً إن أم كلثوم - لها الله - قد تحجرت.

أما غرور أم كلثوم فشيء رأيته شائعاً في الفلم ولكني لم أستطيع أن أطبق على عنقه متلبساً بحادثة، لأجره وأقفه أمام الأنظار وهو عريان. فللذين يريدون أن يروه أقول إن عليهم أن يشاهدوا الفلم ليتحسسوه فقد يلمسونه.

وأما ركود الحس فقد قبضت عليه متلبساً بحادثة، وقد ظهر على أم كلثوم في موقفها مع الخليفة حين كانت تستعطفه على جعفر فما بدا في هذا الاستعطاف إحساس بجعفر ولا بها ولا بالخليفة.

وإنما الذي بدا منها في هذا الموقف اهتزازات وغمزات بالكتفين وهمزات في الصوت لا يمكن أن تصدر من موجع يستعطف لمنكوب؛ وإنما هي قد تصدر من جارية تغري مولاها إذا هجرها وأما طغيان البدن فظاهر في هذا الموقف أيضاً لأنه مصاحب لركود الحس؛ فكل من ركد حسه طغى عليه بدنه، وهو ظاهر كذلك في مواقف أم كلثوم الغنائية جميعها. فقد كانت تغني وتحرص على أن تضم شفتيها وتصغر فمها فلا تفتحه مهما تطلب الغناء أن تفتحه، كأنما كانت تخشى أن يرى الناس فمها واسعاً وكأنما كانت تخشى أن يرى الناس شفتيها غليظتين؛ مع أن أهل الفراسة يقولون إن الفم الواسع والشفاه الغليظة من لوازم الغناء، لأنهما عضوان من الأعضاء التي يتكون منها جهازه البدني

ولأن أم كلثوم قد فعلت فعلتها هذه، فقد كانت الألحان تخرج من بين شفتيها مخنوقة مصفاة الدم مجهدة الروح، ولو كنت أنا زكريا أحمد لطالبت أم كلثوم بتعويض كبير، لأنها خنقت

لي لحن (بكره السفر) - على الأقل - فهو لحن كان من حقه أن يذيع في مصر من أقصاها إلى أقصاها اليوم لو أن أم كلثوم أرسلته حياً نابضاً كما أعطى لها. . .

وليس (بكره السفر) وحده هو اللحن الذي قتلته أم كلثوم، وإنما هي سامحها الله قد قتلت ألحان الفلم جميعاً، فبعضها مات موتاً، وبعضها أغمى عليه، وبعضها أصيب برضوض وعاهات

أما التكلف والتصنع فقد سجلته الكاميرا على أم كلثوم في هذا الذي رأيته، كما سجلته مع هذا في كل موقف من مواقف الفيلم تبسمت أم كلثوم فيه. . . فابتساماتها لم تكن إلا هذه الابتسامة الجامدة التي عرفت بها السيدة بديعة مصابني.

لقد كانت هذه الفتاة من عامين فقط حقيقة كالحلم الذي يطوف بروح القديس، فأصبحت اليوم حلماً كالحقيقة التي لا تطوف بروح القديس. . .

أختاه. . . لا تقولي ما لهذا الولد يتصدى لنفسي؟ فإني لا أعرف سبيلاً إلى نقد الفن إلا نقد النفس، لأني لا أعرف الفن إلا على أنه ثمرة النفس، ولست أعرف هذا من كتاب قرأته، ولا من (هبسلنتي) ولا من (شرونتسكي)، وإنما عرفته منك ومن غيرك ممن أتلقى غذاء روحي عنهم.

فأفهميني، واسمعي كلامي، وعودي واصحي. . .

وإلى اللقاء. . . إذا شئت.

المؤلف

هو الأستاذ أحمد رامي. . . والأستاذ أحمد رامي لا يؤلف شيئاً في هذه الأيام إلا إذا طلب منه هذا الشيء.

وأظنه لا يستطيع أن يقول إنه يدخر في نفسه أفكاراً وأحاسيس يرسلها حين يطلب منه ويؤلف، وهو لو قال ذلك لما صدقه أحد، لأن فلم دنانير لا يزال معروضاً على الناس وقصته هاهي ذي أمامنا حوادث هادئة متتابعة ومناقشات متتالية ليس فيها مفاجأة واحدة تصدم الفكر العادي مما يمكن أن يقال إنها من مذخرات كاتب فنان. . .

وقد نبلغ للأستاذ رامي هذا كله إزاء أبيات قليلة من الشعر أفلتت منه حية إلى حد ما، كما أننا قد نقبل هذا كله لأن الناس اتفقوا فيما بينهم يأساً وقنوطاً على أن هذه الأفلام الغنائية لا يرجى فيها الموضوع ولا يقصد فيها إلى الاستمتاع بالأدب. . . ومع أني لا أحب أن أخذ بهذا فإني آخذ به إرضاء للأستاذ رامي.

الإخراج

إذا كان الإخراج هو التنسيق والتزيين والترتيب فإن الأستاذ أحمد بدر خان قد وفق في دنانير إلى إدراك هذا كله.

أما إذا كان الإخراج هو نفخ الروح في التمثيل والممثلين، فإن الأستاذ أحمد بدر خان لم يوفق إلى شيء منه، وكان طبيعياً ألا يوفق الأستاذ إلى شيء منه لأنه إنما اختير لإخراج هذا الفلم اعتماداً على أنه رجل هادئ الطبع يرضي من يعمل معهم قبل أن يرضي نفسه. وعلى هذا الأساس نستطيع أن نعتبر كل ممثل في هذا الفلم مسئولاً عن نفسه وعن تمثيله.

التمثيل

عباس فارس. . . قلت إنه يجود، وقد جود دور الخليفة وإن كان أستهله استهلالاً بدا إنجليزياً في المشية والجلسة ولإشارات والحركات، وقد ساعدته على هذا الموسيقى التي وضعها الأستاذ الشجاعي لهذا الاستهلال، فقد كانت هي أيضاً موسيقى إفرنجية بحتة لو أغمض الإنسان عينيه وأستمع إليها لذكر فرانسوا الأول، أو فردريك الأكبر، أو شارلمان، أو ملك من الملوك إلا هرون الرشيد العربي. . .

سليمان نجيب. . . قد يؤلمه أن أقول إني أراه في التمثيل كما أرى إخواننا من طلبة الجامعة أعضاء فرقها التمثيلية، ولكن هذا رأيي، ولم يكن لرأيي في يوم من الأيام قيمة تؤثر على مكانة إنسان ما. . .

عمر وصفي. . . كان عظيماً في دوره القصير. دور أبي دنانير

فؤاد شفيق. . . كان مكتوفاً في دور أبي نواس، أراد أن يمثل شيئاً ولكن المؤلف أقعده.

التلحين

هو غرة الألحان في هذا الفلم. فهو لحن حي راقص منساب سلس (بكرة السفر) مطرب ثم إنه قبل هذا وذاك لحن شرقي. وهو من ألحان زكريا غنته أم كلثوم ثلاث مرات بثلاث تلاحين، وهذا تحد فني لا يجرؤ (قولي لطيفك ينثني) عليه إلا زكريا أحمد.

من ألحان السنباطي الحلوة لولا أنه بعيد عن روح عصر الرشيد. (لحن العيد) (لحن النبع) من ألحان القصبجي التي أعتاد أن يملأها هندسة وتفكيراً يستعيض بهما عن العاطفة التي اختطفت منه. . .

إني أعتذر

وأخيراً. . . لابد لي من أن أعتذر عن هذا النقد القاسي، فأنا أعلم أن الذي يقرأه من غير أن يشاهد الفلم، ويكون ممن يصدقونني، سيحكم على الفلم - بحكمي. . .

ولذلك أبادر فأقول: إن فلم دنانير لا يزال في طليعة أفلام الدرجة الأولى التي أخرجت في مصر، وإنه يستحق أن يشاهد مرتين وثلاثاً وأربعاً. . . وإن الذي يشاهده لا ريب سيخرج منه بمتعة ومتعة ومتعة. ولكنني إذ أقف أمامه هذه الوقفة المنكرة أرجو أن يصادف كلامي آذاناً مصغية، وقلوباً واعية، فإذا تحقق هذا انتفت من أعمالنا الفنية هذه العيوب التي أعيبها وأحب الخلاص منها.

وقد كنت أستطيع أن آمالي هذا الفلم بكلام يرضى أصحابه ولكنني أعلم انهم في غير حاجة إلى الممالقة، فهم ليسوا صغاراً، وليسوا ضعافاً، وليسوا فقراء إلى مثلي. . . بل ربما كنت أنا الفقير إليهم، أغناني الله عنهم. . .

وعلى هذا فإني أهدي إليهم تهنئتي القلبية الصادقة، كما أؤكد لهم أن (الرسالة) ليست مسئولة معي عن هذه القسوة، وكما أعيد عليهم قولا قالته (الرسالة) يوماً نقدت فيه (جندول) الأستاذ عبد الوهاب، وهو أنه في أغلب الظن ليس كثير من النقاد ينضم إلي في رأيي. . .

عزيز أحمد فهمي

البريد الأدبي

أغلاط نحوية وصرفية

قرأت في (الرسالة) كلمة للأستاذ محمد عبد الغني حسن عن استهانة الجمهور بقواعد اللغة العربية، وقد ضرب الأمثال بما يقع من الأغلاط النحوية والصرفية في الإعلانات، وتلطف فقدم إلي تلك الأمثال (هدية متواضعة) لأطبْ لها ونظائرها في المدارس الأجنبية، كأن إنشاء الإعلانات بالعربية مقصور على المتخرجين في تلك المدارس!

وأجيب بأن الأستاذ قد أشتط في تصور لغة الإعلانات، فمن القبيح حقاً أن ينصب جمع المذكر السالم وملاحقاته بالواو فيقال (ثلاثون) في مكان (ثلاثين) كالذي وقع في الإعلان الذي نص عليه، لكن من الواجب أن نتسامح حين نرى الإعلان يقول:

(نظراً لكونه صنف جيد)

فنصبُ كلمة (صنف) في خبر الكون من الدقائق النحوية، وهي لا تُطلب من موظف صغير في مخزن بنزيون أو مخزن سمعان، وكيف وهي من الألغاز عند طلبة الأزهر الشريف؟

ولو أن الأستاذ تأمل لعرف أن الموظف الذي نصب ثلاثين بالواو لم يقصد إلا الإفصاح، فهو يسمع الناس جميعاً يقولون ثلاثين، ومن هنا صح عنده أنها لا تكون منحاة إلا إن كانت (ثلاثون) لأنه يتوهم أن العامي هو الذي يسير على ألسنة الناس!

ومثل ذلك ما وقع في الإعلان عن رواية سينمائية أسمها:

(الرجل ذو الوجهان)

وما رسمها الخطاط كذلك إلا لتوهمه أن (الوجهين) عامية لأن الجمهور لا ينطقها في لغة التخاطب إلا بهذه الصورة في جميع الأحوال.

والحق أننا نسرف في محاسبة الناس على الأغلاط النحوية والصرفية، ولو أنصفنا لعرفنا أن التمكن من النحو والصرف لا يتيسر لجميع الناس. وإلى هذا الصديق أسوق العبرة الآتية:

كان من عادتي حين يتحدث رجل مسئول في الإذاعة اللاسلكية أن استمع وبيدي قلم وأمامي قرطاس لأسجل ما يقع في الحديث المذاع من الأغلاط النحوية والصرفية، ثم أطلب المتحدث بالتليفون فأنبهه إلى تلك الأغلاط برفق، إن كان من الأصدقاء أو أشير إليها في مقالاتي إن كان (أيضاً) من (الأصدقاء).

ثم اتفق أن أذاع الأستاذ الدمرداش مراقب الامتحانات بوزارة المعارف حديثاً عن رحلة في (وادي دجلة) شرقي المقطم فاستمعت وبيدي قلم وأمامي قرطاس، وما زلت أعد الأغلاط النحوية والصرفية حتى مللت، مع أني أصبر الرجال على المكاره وأقدرهم على تحمل الأرزاء.

فكيف كانت حالي بعد ذلك؟

هل تراني نفضت يدي من الثقة بكفاية الأستاذ الدمرداش مراقب الامتحانات بوزارة المعارف؟

وكيف وهو رجل فاضل بشهادة الجميع؟

لم يتغير رأيي في الأستاذ الدمرداش من حيث أنه موظف كبير يؤدي واجبه بنشاط

ملحوظ، وإنما اكتفيت بإضافته إلى من تصعب عليهم مراعاة قواعد اللغة العربية في الخطابة والحديث وهل أدعى الأستاذ الدمرداش أنه من أقطاب الأدب العربي حتى نحاسبه على الخطأ في النحو والصرف؟

يكفي أن يستطيع مثل هذا الرجل الفاضل أن يؤدي أغراضه بعبارة واضحة جلية، وإن خلت من الدقة في التعبير، لأن الدقة في التعبير لا تطلب ولا تنتظر إلا من أعيان البيان، ومن كان في مثل عقله لا يدعي ما لا يطيق.

قد يقال إن من حق التلامذة أن يطلبوا التغاضي عما يقع في أجوبتهم من أغلاط يقع في مثلها مراقب الامتحانات بوزارة المعارف.

وأجيب بأن هذا اعتراض مردود، فالأستاذ الدمرداش بعُد عهده بقواعد النحو والصرف، ولا يُطلب فيمن كان في مثل حاله غير الوصول إلى الغرض بأسلوب مفهوم وإن كان غير دقيق.

ولم يكن الأستاذ الدمرداش أول من حار بين الخطأ والصواب، وإنما اتخذت الشاهد مما وقع في حديثه الجميل، لأنه رجل تهمه الدقة في كثير من الشؤون، ولأنه بحكم وظيفته العالية يسره - أو لا يؤذيه - أن يكون النقد صدقاً في صدق

أما بعد فهل يكون اعتذاري عن الأستاذ الدمرداش إيذاناً باني أبيح حرية الخطأ في النحو والصرف؟ هيهات هيهات، فلن يكون جميع المخطئين في منزلة هذا الرجل المفضال!

زكي مبارك

الانتحار

سيدي الأستاذ الجليل رئيس تحرير مجلة الرسالة الغراء:

يبالغ بعض الكتاب مبالغة غير معقولة في التنويه بما بين الانتحار وبين المشاعر السامية من صلات، حتى لقد قال أحد الشعراء العصريين:

وحدثت نفسه عيسى بقتلهما ... وكاد أحمد يقضي غير مذكور

وفي أعداد الصحف الأخيرة رسائل لكثيرين من الأدباء ينظرون فيها إلى الانتحار كأنه بعض فضائل المنتحر، وذلك بمناسبة انتحار أديبين من أدباء الإسكندرية شملتهما رحمة الله.

ولقد نشرت كبرى الصحف اليومية أن أحدهما لم يمت منتحراً بل كان يجرب مسدسه فانطلق. والقول منسوب إلى رجال من أسرته في الذروة العليا من المجتمع المصري الكريم.

وسواء أكان ذلك أم كان غيره فإن الفاضل فاضل والنابه نابه بسبب أعماله وأقواله الطيبة لا بسبب انتحاره، والانتحار إن كان سبباً للإشفاق والرثاء، فما يصلح أن يكون سبباً للإعجاب ولا يجوز اعتباره عذراً عاذراً

ينسب إلى أحد الحكماء قول أظن الحكمة في عكسه. وهذا القول هو أن الناس لا يموتون بل ينتحرون، وهو يعني أن الموت الطبيعي إنما يكون نتيجة لخطأ

وأحسب القول الصحيح أن المنتحرين لا ينتحرون بل يموتون، لأن الانتحار لا يقع إلا والمرء مسلوب الحيوية فاقد التدبير فهو في حكم الميت حين اختار لنفسه الموت على أن العرف لا يقف عند هذا الحد من تقديره، وبعض القوانين تنظر إليه نظرة أقسى

ومهما تكن النظرة إليه فإن التغاضي عن استنكاره يوشك أن يكون أذى لطائفة يبلغ بها العجز مبلغ التفكير في الانتحار

للكاتب في نجواه أن يجامل أفراداً ولكن عليه ألا ينسى أن المقال المنشور موجه إلى سواد القراء لا إلى نفر من الأصدقاء والأهلين، وأن المقال المنشور يجب أن يصف شعور الكاتب نفسه نحو الحياة لا شعور من فارقوا الحياة نحوها

فإلى الذين قرءوا كلمة الأديب عبد العزيز سالم في العدد الأخير من الرسالة بعنوان (الأدب والانتحار) تلك الكلمة التي تعقد العلة بين الأدب وبين الانتحار وتحذر الأدباء من هذا المصير، إليهم أقول:

يا شاكياً عنت الدنيا وقسوتها ... دع لي الشقاء ودع لي فسحة الأجل

وإليهم أقول:

لو مدَّ عمر الكون في عمري ... لرميت هذا العمر بالقصر

وإليهم أقول:
انشق نسائمها فلم يك راحل=عنها لينتشق النسيم عليلا
أسأل الله أن يطيل أعمارهم وعمري وأن يهبنا التدبير للخروج من المآزق من غير هذا الطريق، ولا أسأل الله رد القضاء ولكني أسأله اللطف فيه
عبد اللطيف النشار
إلى الأستاذ النشار
إن العبارة التي تعود العامة أن يعبروا بها حين يريدون وصف السكران بأنه شديد السكر وهي قولهم (سكران طينة) قد وردت أيضاً في كتاب (شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل) لشهاب الدين الخفاجي
قال في الكتاب المذكور ص 126 ما يأتي:
تقوله لمن سكر سكراً شديداً كأنه لوقوعه في الطين، ومن ملح (سكران طينة) المعمار قوله:
وجرةٍ أبرزوها ... والروح فيها كمينة
شممت طينةَ فيها ... فرُحت سكران طينة
وقد قالوا: الطين غالية السكارى. . . الخ.
آنسة
سناء محمد
بين الكتاب والقراء
أخذ بعض القراء على الدكتور عبد الوهاب عزام أنه حين روى هذا البيت في مقالة أخلاق القرآن:
ولم أر في عيوب الناس شيئاً ... كنقص القادرين على التمام
نسبه إلى (أبي الطيب) ويرى أن الصواب أن ينسب إلى (المتنبي)
وأخذ قارئان آخران على صاحب مقال (شعر الزواج) أنه نسب البيتين الآتيين:
تقول التي من بينها خف محملي ... عزيز علينا أن نراك تسير. الخ
إلى (الحسن بن هانئ) والصواب أنهما (لأبي نؤاس)
وتحب (الرسالة) أن تذكر للقراء الأفاضل أن (أبا الطيب) هو (المتنبي). وأن (أبا الحسن بن هانئ) هو (أبو نؤاس).
دار الثقافة بالسودان
جاء في جريدة (المؤتمر) السودانية ما يأتي:
افتتحت أبواب دار الثقافة بالخرطوم ليجتمع بها السوداني والمصري والبريطاني جنباً لجنب يتناظرون ويبحثون في العلوم والفنون والآداب، وينهلون من بحر مكتبة ضافية بالمراجع العلمية في شتى ما وصل إليه الفكر الإنساني من المعارف
وحكومة السودان كانت حريصة كل الحرص لنشر الثقافة العامة عن طريق هذه الدار، وما زال أعضاء هذه الدار يواصلون محاضراتهم - منذ أن أنشئت - في مختلف الشؤون التي تهم الرجل المثقف. والدار فوق ذلك يراد بها أن تكون حلقة اتصال ثلاثي بين إنجلترا ومصر والسودان، أو إن شئت فقل محور ثلاثي ولكن للتعاون الثقافي وخلق التفاهم بين عناصر قد يكون من الخير لها جميعاً أن تتفاهم فكرياً حتى يأتي اليوم الذي تتفاهم فيه على أمور حيوية أخرى، ونحن نأمل أن يكون قريباً إن شاء الله
وكثيراً ما سمعنا همسات وكلمات لا ينقص بعضها الصراحة نشرت في الجرائد اليومية عن هذه الدار وعن الأغراض التي أنشئت من أجلها، ولست أرى معنى للتخوف والتردد في كل أمر جديد إذا اقتنعنا بأننا أفراداً أو جماعة لا يمكن أن يغرر بنا أو نساق سوق البهائم ما دمنا مدفوعين برأي وعقيدة!
لكن هناك مسألة أراها جديرة بالذكر والتعقيب تلك المسألة هي خوف بعض الناس على (ثقافتنا التقليدية) أن تطغى عليها تيارات أخرى غريبة عنا في وسط لا تتكافأ فيه عناصر المحور الثلاثي، ومع احترامي لهذا الرأي فلست أرى وجهاً لهذا التخوف للسبب الآتي:
تقوم دعائم الثقافة السودانية على أسس عربية إسلامية وهذا هو الوضع الطبيعي لبناء الثقافة في قطر كالسودان يدين بالإسلام ويمت إلى العروبة بوشائج الدم والرحم - والإسلام كما يعرف الناس جميعاً هو عقيدة وحضارة معاً ولا يمكن لأي حضارة أخرى

مهما بلغ سلطانها واجتمع نفوذها أن تطغى معالم الحضارة الإسلامية - والثقافة في رأينا تمثل جوانب عامة من النواحي العقلية والنفسية وأساليب العيش والتفكير التي تفرضها عادة الحضارة على الناس

ولست أريد هنا أن أتعرض لمن يتوهمون بأن السودانيين والشرقيين عامة يمكن أن يتخذوا الثقافة الغربية ثقافة عالمية تشمل الشرق والغرب وتقرب أوجه النظر بين الشعوب والأجناس المختلفة، ذلك وهم ساد بعض العقول فظنت أنه حقيقة وأنكرت ميراث الناس واختلاف بيئاتهم ونزعات عقولهم ومناط تفكيرهم وما لهذه العوامل من الأثر الفعال في خلق الثقافة العامة وتوجيهها في الطريق الطبيعي الذي تسلكه

إن ثقافة هذا الشعب عربية إسلامية، وهذه الثقافة قد كتب لها البقاء والتغلب لأن من خصائصها أنها تأخذ وتعطي في وقت معاً فهي لا تأبى الأساليب الجديدة والأفكار والمبتكرات والاتجاهات بل تأخذ هذه كلها ثم تصهرها في قوالبها الخاصة وتزيل عنها عوامل الضعف والفساد مما لا يتمشى مع روحها العام ثم تعيدها مرة ثانية وهي حرة خالصة عميمة النفع سليمة الأصل.

لهذا لا خوف على (ثقافتنا التقليدية) من هذا الاختلاط ما دمنا مدفوعين بعقيدة، وهذه العقيدة هي أننا أبناء أمة ناشئة تريد أن تبني مجدها على ميراثها العربي الإسلامي، وأن لا تتخلى عن مثقال ذرة من هذا الميراث الذي يأخذ ويعطي بطريقته الخاصة، والذي غالب الزمن فغلبه، وما زال حياً باقياً وسيظل كذلك ما دامت في الدنيا حياة

حول تفسير بيتين

قرأت في الرسالة الغراء أن الأستاذ السعيد جمعة رأى لزاماً عليه أن يتقدم لتفسير هذين البيتين

بذكر الله تزدادُ الذنوب ... وتحتجب البصائر والقلوب

وترك الذكر أفضل منه (حالاً) ... فإن الشمس ليس لها غروب

والتفسير الذي تقدم به مقطوع الاتصال بالمعنى المطلوب. والذي أراه أن لرجال التصوف نظرات عكسية تقلب الحقائق المعلومة إلى حقائق أخرى عليا لا يدركها غير أهلها. فالشاعر يشير إلى علمه بعيوب بشريته ومساقط نفسه ويرى أن مقام العزة الإلهية أجل وأعلى وأرفع من أن يتلوث بذكر لسان غير منزه عن فحش القول ويرى أن جرأته على ذكر العظمة القدسية وهو في دائرة عيوبه النفسية ذنب، وهذا المعنى العكسي ينبعث من مقام تنزيه الألوهية عن الحاجة إلى التنزيه

أما الشطر الثاني فليس المراد به ذكر اللسان الذي يترك القلوب مطموسة والبصائر مغلقة. وإنما المراد به وصف (الحال) في أرفع مقامات الشهود حيث يكون الذكر نفسه حجاباً للذاكر عن مذكوره.

وهذا ما يشير إليه في البيت الثاني بأنه راسخ القدم في (الحال) الشهود الرفيع الشأن كما تشهد الشمس عياناً فتستغني بشهود ذاتها عن ذكر أسمها. وهو في مقام شهوده لا يشهد في ذاته غير أنه عين شمس الوجود فشمسه ليس لها غروب. ويشير الأستاذ السعيد جمعه إلى هيام رجال التصوف باللغز والرمز وأنهم يشيرون بمثل قولهم (معبودكم تحت قدمي) و (ما في الجبة غير الله) إلى مذهبهم في الحلول. وما هي حيلتنا مع من يتهمنا بما لا يعلم. فأهل الحقيقة ليس لهم مذهب يسمى (الحلول) لأن (الحلول) يستلزم الظرفية بقولك (حل في كذا) وهذه الظرفية باطلة فلا يشهدون في الوجود غير الله إذ لا غيرية ولا أثنينية، فهو الله الظاهر والباطن إلّه واحد لو كنتم تعلمون.

أحمد فهمي الباجوري

جريدة الواجب في عامها الخامس عشر

دخلت جريدة الواجب التي تصدر عن المنصورة لصاحبها ورئيس تحريرها الأستاذ أحمد جاد جمعة في عامها الخامس عشر وبالرغم من تلك الأزمة التي انتابت الصحف بسبب ما وصلت إليه حالة الورق، ستظهر الواجب على عهدها صباح الاثنين من كل أسبوع في ثوب قشيب بالألوان والصور مدبجة بأقلام مجموعة من كبار الكتاب والأدباء القصص.

أمنية تحققت. . .!

للأستاذ محمد سعيد العريان

كانت (سمية) جالسة إلى مكتبها في الغرفة العليا من إدارة (شركة المبيعات الوطنية) وبين يديها الآلة الكاتبة تنقر عليها بأصابعها وهي تترنح وتهتز في مرح ونشوة كأنما توقع لحناً موسيقياً تناجي به أمنية عزيزة من أمنيات الشباب، وكان على شفتيها ابتسامة راضية كأنها من الأمل الذي تأمله على ميعاد؛ وإنها لجالسة مجلسها ذلك منذ ساعات لم ترفع رأسها ولم تبرح مقعدها، ولكن في وجنتيها حمرة ناضرة كأنما هي عائدة لساعتها من مجلس قصف وشراب؛ وكان في السماء برق ورعد ومطر، ولكن في قلبها هدوء الثقة وروح الاطمئنان.

وفرغت (سمية) من نقش الرسالة التي بين يديها، فكفت أصابعها عن الحركة وراحت تخلص الورقة من بين أضراس الآلة الكاتبة وهي تغني في صوت هامس أغنية من أغنيات الهوى والشباب. ثم نظرت في ساعتها وهمت أن تنهض لميعاد الغداء؛ ودق الجرس، وهبت سمية واقفة لترد تحية المدير الشاب، ثم استأذنت ومضت معجلة إلى مثواها حيث تتوقع أن يكون أخوها في انتظارها لموعده على الغداء. . .

لقد كانت سمية سعيدة بحياتها على ما فيها من نَصَب وجهد ورزق محدود؛ إذ كان لها نفس راضية قنوع، لا تتطلع إلى ما لا تملك، ولا تعرف من أيامها غير اليوم الذي تعيش فيه؛ فلا هي تذكر ماضياً تأسى عليه، ولا غداً تتشوق إليه؛ فوجدت سعادة الرضا حين فقدت سعادة المال ورفاهة الغنى، وتعوضت من شيء بشيء.

على أنها لم تكن كذلك في ماضيها؛ فقد كان أبوها رجلاً من رجال المال، وكان له جاه وصيت وشفاعة، ولكنها لم تدركه حين أدركته إلا شيخاً حُطمة قد لبسه الدهر فأخلقه وذهب بماله وجاهه، فلم يترك لها حين آن أوانه إلا حطاماً من الذكريات، وخلفها وأخاها وحيدين فقيرين تتدافع بهما أمواج الحياة من شاطئ إلى شاطئ غُثاء من غثاء البحر أو زبداً طافياً على الماء!

على أن من كرم الله على سمية أنها لم تفتح عينيها للحياة إلا على نور ذبالة توشك أن تنطفئ؛ وباكرها اليُتم والفقر قبل أن تذوق سعادة الاجتماع ورفاهة الغنى؛ فلم تشعر بمرارة لما صارت إليه، إذ كانت لم تشعر قبل بما كانت فيه؛ وتناولت الحياة كما عرضت لها . . .

وراحت سمية وأخوها يسعيان لرزقهما في رضاً واطمئنان، كما يسعى كل ساعٍ إلى رزقه في غير تبرم ولا سخط؛ ووجد أخوها عملاً في مصرف من مصارف المال يضمن له الكفاف؟ واستخدمتها شركة المبيعات الوطنية كاتبة حاسبة لقاء أجرٍ معلوم يقوم بحاجتها ويفضل؛ وزادها شعورها بأنها كاسبة مأجورة - وإنها لفتاة - زهواً وسعادة واعتداداً بنفسها. ولم يكن هيناً أن تجد فتاة مثل سمية عملاً ففي مثل الشركة التي استخدمتها؛ لولا أنها ابنة أبيها وأنه كان، وكانت له على شركة المبيعات الوطنية أياد تتقضيها الوفاء، فاستخدمت سمية عطفاً عليها وعرفاناً بأيادي أبيها، ولكنها لم تكن تدري، وكان أكثر من تعرف عطفاً عليها وتشجيعاً لها المدير الشاب (شفيق)

إن غداً يوم العيد؛ هذه أسراب الفتيات يزحمن الطريق ويملأ السيارات العامة . . . ومراكب الترام، رائحات غاديات من متجرٍ إلى متجر ينتقين ثياب العيد؛ وهذه أفواج الشباب يخطرون في مرح ونشوة على أرصفة الشوارع وعلى أبواب المتاجر يتأهبون لاستقبال العيد؛ وهؤلاء آباء وأمهات، وصبيان وبنات، في عيونهم نظرات البشر، وعلى قسماتهم آيات المسرة؛ وسمية بين هؤلاء وأولئك لا تلقى بالاً إلى أحد منهم، مُسرعة عجلى إلى مثواه حيث تتوقع أن تلقى أخاها في انتظارها لموعده على الغداء. . .

لقد أوشك شهر أن ينتهي ولم تجلس معه مرة واحدة إلى المائدة، فإن مواقيتهما لمختلفة، وإن عملها في المكتب ليقتضيها أن ترابط هناك كل ليلة إلى لمساء؛ فلا تلقى أخاها إلا رائحاً إلى فراشه، أو غادياً على عمله في الصباح وهو عجلان؛ ولكن غداً يوم العيد؛ فما أحرى أن تفرغ له قليلاً ويفرغ لها وأن تعد له المائدة التي يشتهيها، وأن يجلس إليها ساعة وتجلس إليه!

وهيأت سمية المائدة وجلست تنتظر، وأُذنها إلى كل خفقةِ نعل على سُلم الدار تترقب مطلعه. . . وسرحتْ عينيها على المائدة بين ألوان الطعام فاستشعرت الرضا؛ إنها لمائدة حافلة؛ ولكن أين أخوها؟ إنه لم يحضر بعدُ وقد مضى على موعده ساعة. . .

وسمعتْ طرقاً على الباب فخفتْ إليه؛ وكان الطارق ساعي المصرف يُؤذنها أن أخاها لن يحضر لموعده، لآن عمله هناك يشغله اليوم عن مشاركتها في مائدة العيد!

وأغلت سمية الباب ودخلت الدار وحيده؛ ووقفت في الشرفة برهة تنظر عيدها وعيد الناس؛ وكان في الشرفات المقابلة رجال ونساء، وبنون وبنات؛ وهتفت: يا أخي! الله لك ولي. . .!

بًلى، لم تكن سمية من بنات جيلها؛ ولكن في أعرقها من دم أُمها حواء؛ وألقى الشيطانُ في قلبها أمنيه. . .

وعز عليها أن يكون غداً عيد الناس جميعاً ولا عيد لها، فتمنت، وكانت متواضعة في أمنيتها. . . فلم تبلغ بها المنى أن تكون مثلَ فلانة وفلانة ممن رأت وعرفت، ولم تتسامَ إلى الأمل بأن تكون من ذوات الغنى والجاه والدلال، ولم تنس الحقيقة التي تعيش فيها فتأمل أن تتغير حياتها من حال إلى حال؛ ولكنها تمنت. . . تمنت على الله الذي يهب للناس سعادة العمر أن يذيقها حلاوة هذه السعادة حيناً ثم. . . ثم يسلبها. . .

ورفعت يديها إلى الله داعيه: يا رب! لا أريدها ألا مذاقاً أعرف به كيف يعيش السعداء من خلقك. . .!

وأومضتْ في حواشي الأفق بارقة من نور، ثم خبت. . .

وسمعت سمية طرقاً على الباب، فأسرعتْ إليه لترى. . .

(شفيق. . .!)

وظل المدير الشاب واقفاً بالباب وعلى شفتيه ابتسامه مستحية وفي عينيه رجاء، وهَمسه: أتأذنين يا سمية!

وأذنت له، فدخل ودخل وراءه ساعيه يحمل إلى سمية هدية العيد؛ وقال الفتى وقد اطمأن به المجلس: سمية، لعل زيارتي لا تسوءك يا آنسه! لقد طالما راودتني نفسي فنهنهتها، ثم هاأنذا وتضرَّجتْ وجنتاها من حياء ثم أطرقت، واستطرد شفيق: ولعلي إذا اخترتُ هذه الليلة لأزورك هنا، أن يكون رجائي مقبولاً لديك. . . انظري إليَّ. . . ولا يضيقْ صدرك بي يا آنسة؛ إن عليَّ لك حقاً، ولعلني أستطيع أن أصارحك في يوم قريب؛ أما اليوم. . .

وخفق قلب سمية وترادفتْ أنفاسها؛ وأحس الفتى خجلها فلم يثقل، وتهيأ للنهوض، وتواعدا على اللقاء!

وتمتمت الفتاة شاكرة وفي عينيها دموع للتأثر!

وخلت سمية إلى نفسها تفكر. . . وخرج الفتى يفكر. . .

أما هي فتبدَّلتْ نفسها منذ الساعة واستغرقها حُلم عميق، فراحت تعرض ماضيها وحاضرها وما تأمل أن يكون في غد، وذاقت أول ما ذاقت من طعم السعادة معنى القلق. . .!

وأما هو فقد خفَّت نفسه وحلقت في سماواتها وأحس شعور الراحة والرّضا والاطمئنان، فمضى يدبر أمره، أطيب ما يكون نفساً بما فعل وبما يريد أن يفعل من أجل الفتاة التي رفعه أبوها وهيأ له سبيل الغنى والجاه والرياسة، فإنه ليحس بأن له عليه ديناً ثقيلاً يقتضيه الوفاء لابنته!

واسترسلت الفتاة في أحلامها. . .!

لقد شعرت منذ زارها شفيق وأهدى إليها هديته شعوراً لم يكن لها به عهد، فراحت تذكر ماضيها منذ رأته أول مرة، ثم كيف كانت بعد؛ ومضت تعلِّل وتفسِّر وتستنبط وتستشف حجاب الغد. هذه الابتسامة التي كان يلقاها بها كل صباح، وتلك النظرة التي يوِّدعها بها كل مساء، وذلك الإحسان في المعاملة، وهذا السخاء في المكافأة، وهذه الهدية في ليلة العيد. . . إنها آيات بينات، وإنها لتزعم لنفسها أنها تعرف دلائلها؛ بل إنها لتحاول الليلة أن تقنع نفسها أن ذلك الشعور الذي تشعره منذ قريب، ليس جديداً عليها، ولكنه سر يستعلن، وضمير يتكشف، وحب كان يستره الحياء فانكشف عنه حجابه؛ بلى إنها لتحبه حباً صريحاً رسخت جذوره على الأيام في أعماق قلبها إلى أبانه! هكذا قالت لنفسها قبل أن تأوي إلى فراشها لتتم في منامها الحلم اللذيذ الذي بدأته في يقظتها. . .!

وقال شفيق لنفسه وهو في طريقه إلى داره: حسن! لقد فعلت اليوم شيئا ولكن . . . عليَّ أشياء؛ إن روح أبيها لتتمثَّل لي لتذكرني بواجبي أن أكون لها كما كان أبوها لي.

زهرة غضة لفحتها أعاصير الحياة الهوج فاقتلعتها من منبتها إلى حيث ألقتها دامية على الشوك فلم تشك حظها ولم تتسخَّط، ما أحراها وأحر بي أن أذيقها طعم السعادة التي حُرمتها، وأن يكون لها عيدُ مثل عيد الناس!. . . هؤلاء الفتيات اللاتي يغدون ويرحن مع أزواجهن أو آبائهن يحملان هدايا العيد ويرفلن في مطارف الشباب وإيراد السعادة، لسن أولى بما يتمتعن من سمية. . .! دينٌ طالما هممتُ بالوفاء به، ثم نهنهت نفسي حذر أن أجرح كبرياءها إن مددت إليها بالإحسان يداً؛ ولكنه دين الحي للميت، لا حل منه ولا براءة، وقد
. . .استأذنتها فأذنتْ
وراح شفيق لموعده صبيحة يوم العيد؛ وخرجا معاً يرودان مغاني الشباب ومجالي الأنس والمسرة ذراعاً إلى ذراع، وفي كل قلب حديثه ونجواه. . .
عاطفتان من أسمى ما غرس الله في قلوب البشر؛ أما قلبُ فيخفق بالحب وسعادة الآمل؛ وأما قلب آخر فتغمره سعادة الرضا وتملؤه عاطفة أسمى وأنبل؛ وأن في الحياة لما هو أسمى من الحب وأنبل. . .
وشعر كلاهما أن الله يظلهما بجناحي رحمته حين تحققت لكل منهما أمنيته. . .
ومضت الأيام بها وبه سعيدين لا يكاد يشغلهما عن أمرهما شيء؛ والشباب يجدد لسمية كل يوم مناها ويوقظ أحلامها وهي نائمة؛ ثم استيقظت فجأة. . .
وغدا عليها شفيق ذات صباح ينبئها. . .
كانت سمية قد ذاقت في أيام قلائل من ألوان السعادة ما لم تتوقع أن يتهيأ لها . . .
في عمر مديد، ونالت - بمعونة صديقها - حظوة ورياسة في العمل الذي تتولاه لا تتسنى لمثلها بعد سنين من المثابرة والدأب، وزاد أجرها زيادة مرموقة تهيئ لمثلها العيش الرغد في أمان وثقة بالمستقبل؛ ولكن الغد السعيد الذي كان يتخايل لها في أحلامها ويقظتها، وتتنوره على البعد قريباً قريباً دون مد ذراع - كان يشغلها عن الشعور بما هي فيه؛ فلم تكن من كانت، فتاه تعيش ليومها بلا ماض تأسى عليه ولا أمل تتشوق إليه؛ وهل يعيش العاشق إلا في أحد يوميه: أمسه وغده؟. . . ولكن هذا الغد الذي كانت تتوهم أنها تنظر إليه - حين تنظر - من وراء ستر رقيق، لم يكن إلا صورة في إطار ليس وراءه إلا الحائط الصلب، على حين كانت تظن أنها بالغة إليه بين صبح ومساء؛ ومدت يدها تهتك الستر لترى، فإذا الإطار الذي يمسك الصورة الخادعة يردها إلى حقيقة دنياها فيوقظها من أحلامها. . .
وقال لها شفيق: أنت مدعوه غداً يا صديقتي إلى حفل زفافي. . .! وفغرت الفتاة . . . فاها مدهوشة وهتفت: (حفل زفافك!)
إذن فهو لم يكن يحبها، ففيم كانت هذه العناية بها؟. . . وعرفت بعد لأي، فسكتت؛ ثم خلت إلى نفسها فأرسلتْ عينيها أسفاً وندامة!
نعم، إنها لم تخسر شيئاً، ولكنها فقدت الأمل الذي عاشت له أياماً من حياتها كانت كفيلة بأن
تنشئها خلقاً آخر؛ ولم يخدعها صديقها أو يزور لها الحقيقه، ولكنها هي خدعتْ نفسها فباءت بالخسران والحسرة!
قلبان كانا يخفقان لمعنيين متباعدين لم يتكاشفا معنى لمعنى، ألقى الشيطان بينهما أمنية فرقت بينهما على حين كان يرجى بقاء الوداد؛ ما ذنبها؟ وما ذنبه؟ ذلك حكم القدر!
وعادت سمية وحيدة إلى مثواها، كعادتها يوم كانت، ولكنها اليوم فتاة غير من كانت!
لقد نالت كثيراً مما كانت تتمنى، وحظيت من حظ الحياة بما لم تكن تأمل، ولكن. . .
وذكرت موقفها ذات ليلة، يوم رفعت يديها إلى الله داعية: (يا رب! لا أريدها إلا مذاقاً أعرف به كيف يعيش السعداء من خلقك. . .!)
هكذا كانت دعوتها، فهل كان شيء غير ما أرادت؟
لقد استجاب الله دعاءها، فأذاقها من ألوان السعادة ما لم تكن تتوقع، وزادها على ما أرادت؛ ولكنها لم تكسب شيئاً. . .
لقد باعت الغالي بالخسيس، يوم باعت سعادة الرضا بسعادة الأمل. . .!
محمد سعيد العريان
العدد 386 - بتاريخ: 25 - 11 - 1940

إنجلترا هي المثل

قال شوقي: (وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت). . . فقال تشرشل: صدق وإنجلترا هي المثل! وكأنه حين قال: (فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا). . . قال بيتان: صدق وفرنسا هي المثل!

ولكن الذي يضع القاعدة بالقول لا يستوي هو ومن يطبقها بالفعل؛ وشتان بين من يطبقها على وجه السلب بين من يطبقها على وجه الإيجاب!

إن تحريك اللسان في الفم أسهل على المرء من تقليب اليد في العمل. وإن رجل التجربة والخبرة، أصلح للحياة من رجل النظر والفكرة. وإن تنشئة الفرد على حب الفضيلة أدخل في إمكان المربي من بناء الأمة على أساس الخلق. . . ذلك لأن تهذيب النفس عمل البيئة والقدوة والعادة، وتهذيب الجنس أثر الانتخاب الطبيعي والدهر الطويل. ومن الكثير الغالب أن تجد واحداً تصلح فيه كل عريزة، ولكن من القليل النادر أن تجد فيه كل واحد. ولعلك لا تجد في عمر الإنسانية شعباً سلم جمعه بسلامة آحاده غير الشعب العربي في الماضي والشعب الإنجليزي في الحاضر. ومرجع ذلك فيما نظن إلى انعزال العرب في الصحراء، وانعزال الإنجليز في البحر، والعزلة في مثل هذه الحال تنفي خبث الاختلاط عن مزايا العنصر الأصيلة فتنضج وتخلص كما ينضج الدر اليتم في قاع البحر، ويخلص الحجر الكريم في جوف الأرض. فلما خرج العرب للفتح، ثم خرج الإنجليز للاستعمار، ضيع بنو الصحراء خصيصتهم لأنهم انماعوا في الشعوب الأخرى بالمصاهرة، وحفظ بنو الماء مزيتهم لأنهم انقبضوا عن الناس وترفعوا عن الأجناس فظلوا في عزلة

كان الناس يقولون أن إنجلترا أدركتها أعراض الهرم من دوام النعيم وطول السلامة، ويعجبون مع ذلك أن تملك سدس العالم وتستمكن فيه، والإنكليز في كل أرض قله، ووسائلهم في تملق القلوب ومداهنة النفوس قاصره، والتمويه والخداع والاستغفال والمصادفة والحظ عوامل قد تساعد على الغلب، ولكن فعلها لا يجوز على كل الناس ولا يدوم على طول الزمن. فلم يبق إلا أن يكون في هذا الشعب العجيب سر من أسرار الطبيعة تنبجس عنه حياته الدفاقه الخلاقة كما تنبجس الحيوات الدنيوية بمظاهرها وآثارها عن الروح المجهول

فلما أخذت العالم هذه الرجفة النازية ووقعت إنجلترا بقوتها وسطوتها وثروتها ووجودها في سمير المحنه، استعلن في حلك الخطوب ذلك السر فإذا هو الخلق، ولا شيء غير الخلق.

ولم تسفر الأيام عن أصدق من هذا المثل الإنجليزي الحاضر لقدرة الخلق العظيم على حياطة الدولة ووقاية الأمة وخلق المعجزة التي تحيل القنوط أملاً والضعف قوه

كانت أوربا في العام المنصرم من طول ما هولت عليها الهتلرية الباغية قد وقفت صفوفاً متلاصقة متلاحقة من الشباب والحديد والنار ترابط على الحدود لشياطين الصليب الآعقف؛ وكانت إنكلترا من وراء البحر تمدها بالمال والرجال والأسلحة لا تدخر لجزرها شيئاً منها، ولا تكاد تخطر على بالها أن العدو سيجد من بين هذه الصفوف المرصوصة ثغره يقتحمها ليرميها عنها. ولكن هتلر هجم على أخلاق أوربا قبل أن يهجم على جيوشها؛ فهتك أستار الدول بالجواسيس، وبلبل عقائد الناس بالدعاية، وشرى ضمائر الساسة بالمنى، وبث في دخيلة كل أمه دعاة الهزيمة وسماسرة النفاق يزيفون الوطنية في كل نفس، ويميتون الحميه في كل رأس، حتى تركوا القوم تماثيل من غير خلق ولا روح؛ ثم أرسلوا على هياكلهم النخرة الجوفاء الدبابات كما ترسل على هشيم الحنطة آلة الحصاد. فلم تك إلا أيام تضيق عن فناء القطيع بالوباء السريع، حتى استكان الضعيف، واستخذى القوي، وانبسط ظلام النازية، على ممالك كانت بالأمس مسارح للسلطان والمجد، فأصبحت اليوم سجوناً لأحياء وقبوراً للموتى، ووقفت إنجلترا وحدها أمام أوربا الصارعة المصروعة، وقد فرغ لها الطاغيتان وسلطا عليها في الغرب والشرق، وفي الجو والبحر، كل ما ادخراه وارصداه من آلات الدمار والبوار في بضع سنين

كانت خطتها في الدفاع قائمة في أكثر ميادين البر على عاتق فرنسا؛ فلما وهى هذا العاتق ونحل سقطت هذه الخطة على خلاء. فكانت على إنجلترا بعد نكبة جيشها في الشمال وانهيار حليفتها المفاجئ أن تجدد العدة وتسد الخلل وتدفع الموت الهاجم على

أرضها ونيلها من الجهات الأربع؛ وكل ذلك كان يقتضي أن يكون لها في كل أرض جيش، وفي كل بحر أسطول، وفي كل سماء أسراب. فلو أنها استجابت لهذه الجدود العواثر ونكلت نكول فرنسا لما خالف ذلك منطق الحوادث

ولكن هنا ظهرت المعجزة، وما المعجزة إلا خلق هذا الشعب المختار! تجرد هذا الشعب عن فرديته، ونزل عن حريته وثروته، وجعل مُلكه وجهده وروحه في يد تشرشل ينفقها حيث يشاء وكيف يشاء؛ وانكب هو على العمل الدائب ليل نهار، لا تعوقه الأخطار ولا

تضعضعه الكوارث، حتى رأيناه في أقل من خمسة أشهر يفسد على الفوهرر خطة الغزو، ويفوت على الدتشى فرصة الهجوم، ويشد على أنفاس أوربا بالحصر، ويلجئ الطغاة العتاة إلى استجداء المعونة من الأقل، وابتغاء النصرة من الأذل! ذلك ولم نسمع خلال هذا الصراع الجبار وذلك الخطر الموئس أن جنديا عبث، أو قائداً خان، أو وزيراً غش، أو حزباً نفس على حزب ما نسميه نحن نعمه الحكم

إن الله أمد الإنجليز بجيوش لا تقهر من الصدق والصبر والثقة بالنفس والإيمان بالله والحرية والديمقراطية والإمبراطورية

فيا ليتنا حين حالفناهم على السياسة والدفاع، حالفناهم كذلك على الآداب والخلق!

لقد كنا بأخلاق القرآن قدوة للأقوياء، فأصبحنا وا أسفاه بضلالات الأذهان عبرة للضعفاء!

أحمد حسن الزيات

أخلاق القرآن

الصدق

للدكتور عبد الوهاب عزام

الصدق هو الإبانة عن الحق، والإخبار بالواقع. وبه يستقيم التفاهم بين الناس، ويكون التناصح والتعاون، وتسجل الحقائق والوقائع؛ وبدونه يصير تخاطب الناس غشاً، وتفاهمهم باطلاً، وتعاونهم محالاً

يتخاطب الناس ليخبر بعضهم بعضاً عن حقائق واقعة في العالم أو في أنفسهم، أو ليبين بعضهم لبعض عن أمل يأمله، ورأي في بلوغ هذا الأمل. فإن كان الكلام غير مبين عن الحق فهو تضليل يسير أعمال الناس على ضلال، وهو غش يؤدي إلى للتفريق بين الناس لا التعاون

ثم الكذب يجر بعضه بعضاً لأنه لا مكان له بين حقائق العالم فُيضطر الكاذب إلى أن يغير حقائق كثيرة ليخيل كذبه على السامع وليلائم بين ما أخبر به وبين حقائق تخالفه. فإذا قال قائل: قابلت فلاناً أمس في مكان كذا، فقيل له إن فلاناً لم يكن أمس في هذا المكان أضطر إلى أن يقول جاء إليه ثم سافر. وإن قيل إن هذا المكان لم يكن الذهاب إليه أمس ممكناً أدعى من الأباطيل ما يوهم أن الذهاب إليه قد أمكنه، ولم يكن بد من سلسلة من الأكاذيب يربط بها كلامه بالوقائع المعروفة بين الناس وعلى قدر ما في كلام الناس من صدق توافق أعمالهم حقائق هذا العالم فتنجح، وعلى قدر الكذب تبعد الأعمال من الحقائق فتخيب. . .

وقد أجمعت أخلاق الأمم وشرائعها على الدعوة إلى الصدق، والنهي عن الكذب ووكّدت تجارب الناس ما عرفوا في الصدق من خير، وما رأوا في الكذب من شر. وهل كان التخاذل بين الناس والتنافر والتحارب والضلال إلا بضروب من الكذب والغش والخديعة؟ وهل ذهب كثير من أعمال الناس ضياعاً وكثير من أقوالهم هباء إلا بالكذب ونتائجه؟

والقرآن الكريم، وهو ترجمان الدين الحق والدعوة الصادقة، يؤكد الدعوة إلى الصدق ويشيد بذكر الصادقين، ويشتد في النهي عن الكذب ويلعن الكاذبين. كررت هذا آياته، ودارت عليه دعواته

والصدق، فيما يتبينه قارئ القرآن، يكون في القول والفعل؛ فكما يصدق الإنسان بالإنباء عن الحق يصدق بتأدية الواجب المرجو منه. فمن أوفى بعهده، ومن ثبت في نصرة الحق الذي يدعوا إليه، ومن قام في الخير المقام الذي يجدرُ به، فقد صدقت أفعاله ووافقت ما ينتظر منه في معترك الحياة

وقد عدد القرآن خلالاً من البر كالصدق والوفاء بالعهد والصبر في الشدة وختم الآية

بقوله: (أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون.) فسمي هذه الأعمال صدقاً
ويقول القرآن الكريم: (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً) ويقول: (وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق وأجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً)
مدخل الصدق ومخرج الصدق أن يدخل الله الإنسان في كل الأمور إدخالاً صادقاً ملابساً للحق والخير، وأن يخرجه من الأمور كلها كذلك إخراجاً مقارناً للحق والخير، فيجعل تصرفه في الأمور كلها كما يجب عليه ويرجى منه، في غير رياء ولا تزوير ولا تضليل ولا غش ولا خداع
وقال القرآن في جزاء المؤمنين والمتقين: (وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم) وقال: (إن المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر) فقدم الصدق يراد بها المسعى الصادق الذي يدخر عند الله جزاؤه، أو المقام المحمود عند الله تعالى، ومقعد الصدق المنزلة التي تفي بما استحقوا من ثواب
والكذب فيما يفهم من الآيات القرآنية يكون كذب الأقوال وكذب الأفعال كذلك. فمن فعل غير ما يقضيه حاله فهو كاذب، ومن حشر نفسه في غير زمرته فقد كذب، ومن اتخذ غير شارته فقد كذب، ومن قعد عن نصرة الحق وهو قادر فهو في مقام الكاذبين، ومن فر عما يلزمه الثبات له أو الدفع عنه فقد كذبت دعواه ومظهره، فان هؤلاء جميعا قد وعدت أحوالهم وأخلفت أفعالهم، وقد حكى القران الكريم وعن قوم آمنوا بالرسل ثم دعوا إلى الارتداء، أنهم قالوا:
(قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها). فقد سموا الرجوع إلى الباطل بعد ان استبانت دلائل الحق، كذباً على الله. وقريب من هذا قوله في قصه يوسف:
(وجاءوا على قميصه بدم كذب)
وحسبنا هذا بياناً لوصف القرآن الأفعال بالصدق والكذب كما توصف الأقوال
والقرآن الكريم يأمر بالصدق في كل صُوره، وينهى عن الكذب في جميع أشكاله؛ وكفى بقوله: (أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين)
واشتد القرآن في تقبيح الكذب ولعن الكاذبين؛ وجعل الكاذب أظلم الناس، ووصفه أشنع الأوصاف
قال: (فمن أظلم ممن أفتري على الله الكذب أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون.). وقال: ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أولئك يعرضون على ربهم، ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، ألا لعنه الله على الظالمين). وقال: (فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه؟ أليس في جهنم مثوى للكافرين. والذي جاء بالصدق وصدَّق به أولئك هم المتقون، لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين، ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون). وقال: (ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة. أليس في جهنم مثوى للمتكبرين). وقال: (انظر كيف يفترون الله الكذب. وكفى به إثماً مبيناً)
وبين القرآن أن الكذب يمنع صاحبه الهدى، ويجور به عن القصد. وكيف يهتدي الكذاب وهو يتعمد طمس الحق، والعدول عن الرشد؟ إنما يهدي الله من أخلص قوله وفعله وتحرى الحق جهده غير مائل مع الهوى، ولا سائر مع الباطل , قال: (إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار). وقال: (إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب)
وقد بالغ القرآن في عقاب بعض الكذبة فجعل كلامهم مظنة الكذب دائماً وأهدر شهادتهم. وتلكم عقوبة المفترى على النساء الصالحات، قال: (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلده ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون). وقال: (إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب أليم. يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون)
بل أمر القرآن بالتثبيت وحذر من الظن الكاذب وجعله إثماً فقال: (اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم)؛ ونهى عن مظان الكذب والخطأ فقال (ولا تقف ما ليس لك به علم إن

السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) وكذلك بين القرآن أن عاقبة الكذب أن يمرد الإنسان على مخالفة الصدق ومجانبة الحق، حتى يستقر النفاق في قلبه قال (فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون)

وكثيراً ما يقرن القرآن الكريم الصبر بالصدق، وهما من منبع واحد، هما من المرؤة والكرامة والأنفة والشجاعة التي تقول الحق غير مباليه، وتصبر على الشدائد غير مستخذيه

الصدق في القول والفعل خلق يبين عن صفاء النفس وخلوصها وصراحتها وحبها الحق، وميلها عن الباطل، ونفورها من المداجاة والمراءاة والنفاق والخداع، خلق يأبى التكلف والتصنع ويربأ عن المذلة والخنوع، خلق ينطق بالإباء والشجاعة، وحب الخير للناس، وتحكيم قوانين الله فيما بينه وبينهم لا يبغي صاحبه عن هذه القوانين حولا، ولا يرضى لمنفعة نفسه الاحتيال لإخفاء الحقائق، والتماس غيرها من الوسائل المخترعة المزورة

وذلكم هدى القرآن وشرعه الإسلام، وسيرة المسلمين الأولين نطقت به مآثرهم في الحرب والسلم وفي معامله العدو والصديق. كانوا في أقوالهم وأفعالهم حرباً على الباطل والبغي والكذب، فكانت سيرهم مثلاً من الحق الصريح الذي لا يشوبه رياء ولا مداراة ولا مداجاة، فجزاهم الله بصدقهم أن مكن لهم في الأرض وملكهم أزمة الأمم يسوسونها بعدل الله ابتغاء مرضاه الله كما قال: (ليجزي الصادقين بصدقهم)

وتلكم أيها المسلمون الأسوة الحسنه فاجعلوها نصب أعينكم واتخذوها هديا في رضاكم وغضبكم، ومنشطكم ومكرهكم، وحربكم وسلمكم، وشدتكم ورخائكم. فإنما هي قانون الله وهدى القرآن وصدق الإسلام وميراث السلف الصالح، وذخر الخلف الطامح

صدق الله العظيم (يا أيها الذين آمنوا أتقو الله وكونوا مع الصادقين)

عبد الوهاب عزام

مسابقة الجامعة المصرية

لطلبة ألسنه التوجيهية

للدكتور زكي مبارك

الإنجليز في بلادهم

كتب إلي أحد الزملاء يقول إنه كان ينتظر أن أكتب كلمه أنقد بها الطريقة التي اختيرت بها كتب المسابقة، وأجيب بأن هذا يعطل المشروع بعض التعطيل، وهو مع ذلك لن يغير الواقع، فلن تعدل الوزارة مشروع المسابقة في هذه ألسنه، ولن تلتفت إلى انصراف فريق من الطلبة عن بعض تلك المؤلفات، فلم يبق إلا أن نؤجل الكلام عن نقد طريقة الاختيار، وأن نمضي في هذه الدراسات إلى آخرالشوط، تحقيقاً للغرض الذي رمينا إليه وهو توجيه أولئك الطلاب.

وحديث اليوم عن كتاب (الإنجليز في بلادهم) لمعالي الأستاذ حافظ عفيفي باشا، فمن المؤلف؟ وما غرضه من تحبير تلك الفصول الطوال؟

نشر هذا الكتاب سنة 1935. أما مواده فقد جمعت بين سنة 1931 وسنة 1933، وكان هذا الرجل سفير المصري في لندن، فهدته فطرته السليمة إلى التفكير في تعريف المصريين بالإنجليز، (الإنجليز في بلادهم) لئلا يعترض معترض بما يضاف إلى الإنجليز خارج تلك البلاد، وكذلك كان التوفيق حليف المؤلف حتى في العنوان

لا أجد ما أقوله في حافظ عفيفي بعد الذي قلته في كتاب (الأسمار والأحاديث) ولكن يجب النص على أن حافظ عفيفي من الشخصيات الدبلوماسية التي تتجه إليها الأنظار من حين إلى حين، وكتابه عن (الإنجليز في بلادهم) صوره من صور الدبلوماسية، ولكن بمعناها الحق، لا بمعناها المألوف، فهو يريد أن نعرف الإنجليز في محاسنهم التي خلا وصفها من الترفق والتلطف، وفي مساويهم التي سلم وصفها من التزيد والافتراء.

و (دبلوماسية) حافظ عفيفي طراز جديد، لأنها تقوم على أساس التعارف الصحيح، وتنأى عن شوائب المصانعة والدهاء؛ ولهذا الطراز من الدبلوماسية عيوب، لأنه يعوق صاحبه في كثير من الأحايين، ولكن العواقب الحميدة لن تكون إلا من نصيب الدبلوماسية القائمة

على المصارحة فيما جل ودق من شؤون السياسة وشؤون الاقتصاد، ومن هنا جاز أن تقع في كتاب حافظ عفيفي عبارات لا يقولها رجل كان سفيرنا في إنجلترا بالأمس وقد يكون سفيرنا عندها في الغد، كالذي وقع حين نص على (أن إنجلترا لم تدخل ميدان الاستعمار لإغراض إنسانية كتمدين الشعوب المتأخرة ولا لفائدة المهاجرين الأوربيين بل سعياً وراء الربح من الاتجار في محاصيل المستعمرات والحصول على ما تحتاج إليه من المواد الأولية، وإيجاد حموله لأسطولها التجاري وسوق لتصريف محصولاتها ومصنوعاتها). وكالذي وقع منه حين أيد هذا الحكم بالقوانين التي أصدرتها إنجلترا، القوانين القاضية باحتكارها للتجاره الخارجية للمستعمرات بالنسبة لأهم المحاصيل، وتحريم تصدير الدخان والسكر والقطن الخام والأصباغ الطبيعية والنحاس ومواد بناء السفن على المستعمرات، والقوانين القاضية بتحريم نقل ما يصدر عن المستعمرات أو يرد إليها على السفن الإنجليزيه، وبعض القوانين التي كانت تحرم على المستعمرات إنشاء بعض الصناعات التي قد تنافس الصناعات الإنجليزية، كصناعة الحديد مثلا؛ وبعض القوانين التي كانت تحرم على المستعمرات تصدير بعض المصنوعات التي تزاحم المصنوعات الإنجليزية

فهذا كلام لا يقوله دبلوماسي (مصقول)، وإنما يقوله دبلوماسي (صريح) والصراحة عيب جميل، ان جازت مجاراة الزمن المقلوب في عدها من العيوب!

ما هو الغرض من هذا الكتاب؟

حافظ عفيفي لم يبتكر هذا الفن من التأليف، وإنما سار في طريق مسلوك عبده الأوربيون من أجيال طوال، فالأدب الفرنسي مثلا فيه عشرات من المؤلفات الجياد لتعريف الفرنسيين بحيوات الإنجليز والألمان والطليان والروس، وأهل مصر والشرق العربي يعرفون الكتاب الذي نقله فتحي زغلول عن الفرنسية منذ أكثر من ربع قرن عن (سر تقدم الإنجليز السكسونيين) وهو كتاب له نظائر وأشباه قد تصل إلى المئات إذا راعينا النشرات الطويلة والقصيرة التي أريد بها تعريف الفرنسيين بأهم أمم الشرق والغرب. . . ومؤرخو الأدب الفرنسي أم يفتهم أن ينصوا على التطور الذي صار إليه أدبهم بعد ذيوع كتاب مدام دي ستال عن الألمان

حافظ عفيفي لم يبتكر من الوجهة العالمية، وإنما ابتكر من الوجهة المصرية، فهو أظهر سفير مصري تعقب البلد الذي عاش فيه بالاستقراء والاستقصاء.

ومن الواضح أن في أدباء مصر رجالاً قدموا لبلادهم خدمات من هذا النوع، ولكن السفير يملك ما لا يملك الأديب من نواصي الوثائق والأسانيد، وله أفق يختلف بعض الاختلاف عن أفق الأديب، والمسئولية التي يحسبها السفير قد تجعله أدق من الأديب في الحكم على خصائص الممالك والشعوب

فهل يكون حافظ عفيفي قدوه لسفرائنا في أقطار الشرق والغرب؟ وهل ننتظر إلى أن تضاف إلى الأدب العربي ثروات من هذا الفن الطريف، فنعرف من كل سفير بعض ما عرفنا حافظ عفيفي؟

النظرة المصرية

إلى هنا عرف القارئ أن حافظ عفيفي يريد ضرب الأمثال، فأين نجد النضرة المصرية في كتاب هذا الباحث الحصيف؟

في كلام المؤلف عن الطبقات كلام ينفع أهل مصر، وهو الكلام الذي ينص على ألازمه الزراعية في بلاد الإنجليز. وفي كلامه عن الدستور البريطاني أحاديث تنفعنا أجزل النفع، وهي الأحاديث التي تشهد بقوه (التماسك الإنجليزي) وأريدُ بالتماسك القدوة الذاتي على مقاومة أسباب الضعف والانحلال، فللتقاليد الدستورية في نظر جميع الساسة البريطانيين احترام القانون (يرعاها الجميع حتى تحل محلها حقوق أخرى تكون أوفى منها في تأييد سلطه الأمة)، وتلك التقاليد تتغير دائماً مع الزمن، ولكنها تتغير في سكينه وهدوء. . . وسلطة البرلمان تستند إلى شخصية النواب ثم إلى التقاليد السياسية والسوابق أكثر مما تستند إلى المسطور من القوانين. . . والحركات الشعبية التي قامت في بريطانيا إنما كانت ترمي في أكثر الأحيان إلى رغبة الشعب في التمتع بحقوق الانتخاب أكثر مما كانت ترمي إلى زيادة سلطة البرلمان. . . ولم يحصل في إنجلترا أن يناط بفريق من المشرعين أو بهيئة نيابية مهمة تحرير دستور

شامل يرغم على قبوله حاكم مستبد، ويكون فاصلاً بين عهد الاستبداد وعهد الحرية. . . ومع أنه لا يوجد في الدستور البريطاني نص يمنع الملك من حق الرفض لإمضاء إي قانون يقره البرلمان ولا يوافق عليه الملك، فإنه لم يستعمل ملك بريطاني هذا الحق من عهد الملكة آن. . . ومع أنه لا يوجد نص مكتوب في أي قانون دستوري يحدد مسئوليه الوزارة أمام مجلس النواب ويرغمها على الاستقالة إذا لم تنل ثقته، فمبدأ مسئولية الوزارة محترم كل الاحترام. . . ومع أنه لا يوجد نص دستوري يمنع الملك من رياسة مجلس الوزراء فقد روعيت سابقه وقعت في عهد جورج الأول وكان ألمانيا يجهل الإنجليزية، ولم تر فائدة من رياسته لمجلس الوزراء وهنا أرجو طلبه السنة التوجيهية أن يقرءوا ما كتب في هذا الكتاب عن (الدستور البريطاني) قراءه فهم ونقد واستقصاء، لأن المجال يضيق عن تشريحه في هذا الحديث، والمهم هو ربط ما جاء في هذا الفصل بما درسه الطلبة في مرحله الثقافة العامة عن التربية الوطنية، فإن فعلوا - وسيفعلون - كان من السهل أن يدركوا مرامي المؤلف في هذه الشؤون

وأقول بصراحة إن المؤلف يهمه أن يبين قيمة الشخصية الإنجليزية من ناحية التماسك السياسي والاجتماعي، فأحوال إنجلترا تتغير من وضع إلى وضع، ولكن في هدوء وطمأنينة وثبات، ولولا ملكة التماسك لاستحال على شعب كان أفراده لا يزيدون على ثلاثة ملايين أن يملك شرف الاستقلال في آماد ترجع إلى عشرة قرون

وينبغي للطالب أن يقرن ما كتب عن الدستور البريطاني بما كتب عن الإمبراطورية البريطانية. فأقدم مستعمرة ظفرت بحقوق الاستقلال الذاتي هي المستعمرة التي وجد فيها سكان بريطانيون، ومعنى ذلك أن الإنجليزي ينقل مبادئه في الحرية إلى أي وطن ينتقل إليه، كما ينقل معه عقيدته الدينية. . . ومن فصول هذا الكتاب نعرف أن الإنجليزي حين يغترب لا ينسى خصائصه الذاتية، ونعرف أنه بطيء في التطور إلى حد الجمود، والبطء في التطور هو ما اسميه التماسك، لأن التطور السريع لا يخلو من ثورة على الشخصية الذاتية، وما يقال عن (البرود) الإنجليزي هو من ذلك، فالإنجليزي بارد أي بطيء التحول، وكذلك كان العرب سادة حين نعموا بمثل هذا (البرود) فكانوا في رياض الأندلس (متطبعين) بطباع أرباب الشيح والقيصوم، وكانت أخيلة الجزيرة العربية هي المثال في التشبيهات والاستعارات والكنايات، حتى صح لبعض الغافلين أن يقول أن العرب لم يتطوروا في كثير أو قليل، وإنهم ظلوا مشدودين إلى وطنهم الأصيل وقد قلت مرة أو مرات (إن العرب كانوا إنجليز زمانهم) ومعنى ذلك أنهم كانوا أوفياء لخصائصهم الذاتية، فكانوا يتكلمون كما كان يتكلم آباؤهم الأقدمون، وكانوا ينقلون المصحف والمسجد إلى كل أرض، كما ينقل الإنجليز الكنيسة والإنجيل إلى كل أرض. ولو كان التطور الشامل أداة من أدوات النفع لترك العرب قرآنهم في الأندلس، وترك الإنجليز إنجيلهم في الهند، فلم يبق إلا الاعتراف بأن التطور الشامل من صور الانحلال، وإن كان في نظر الغافلين من صور التحرر والاستقلال!

من كتاب حافظ عفيفي نعرف أن الإنجليز تطوروا تطوراً ملحوظاً، ومن كتابه نعرف أنهم ظلوا برغم ذلك التطور الملحوظ إنجليزاً أقحاحاً، فما معنى ذلك؟ معناه أن الرجل الأصيل يحفظ خصائصه الذاتية وإن قهرته الظروف على التنقل من حال إلى أحوال ومن كتاب حافظ عفيفي نعرف أن الإنجليز يلوحون دائماً بفكرة العدل - وما يهمني في هذا المقام تحقيق الغرض من هذا التلويح - وطواف الأذهان حول فكرة العدل له مدلول، فهو يشهد بأن الإنجليز يهمهم دائماً أن تكون سمعتهم بمنجى من الأقاويل والأراجيف، فكل مشكلة خليقة بأن تعقد لها لجنة أو لجان، وكل ثورة أهل بأن يطب لها بالترفق والاستبقاء، ومن هنا كان الإنجليز أساتذة الأمم في فن (الدعاية) وعنهم تعلم الطليان والألمان. وفن الدعاية يراد به (تحديد الموقف) وموقف إنجلترا في دعواها هو دائماً موقف المصلح المظلوم، وهي سياسة تدل على براعة أولئك الناس في التخلص من مواطن الشبهات. والسياسي الحق هو الذي يهتف في كل لحظة بأنه من الأبرياء، براءة الذئب من دم أبن يعقوب، وإن كان أعرف المخلوقات بمصدر العدوان على ذلك الشهيد!

فإن نظر طلبة السنة التوجيهية إلى كتاب حافظ عفيفي، كما نظرت إليه، عرفوا منه أشياء وأشياء، ولم يفهم غرض المؤلف فيما طواه بفضل براعته الفائقة من دقائق

الشؤون، والسياسيون يطوون أغراضهم في بعض الأحيان!

أسلوب المؤلف

هو أسلوب علمي يخلو خلواً تاماً من التحسين والتجميل، ويمتاز بالوضوح والجلاء، وقد تقع فيه ألفاظ تحتاج إلى تعديل، كأن يقول (الجمعية الإنجليزية) وهو يريد (المجتمع الإنجليزي) وقد يقع في تعابيره شيء من الغموض، كأن يقول: (ولم يترتب على عدم وجود نصوص محدودة لسلطة مجلس النواب الإنجليزي تحديد في الواقع لسلطته)، فهذه العبارة تحتاج إلى تأمل قليل، ومن واجب الكاتب أن يجعل تعبيره أوضح من أن يحوج القارئ إلى تأمل ما يريد.

والذي ينظر في كتاب حافظ عفيفي لا يشعر أنه أجنبي يكتب عن الإنجليز، فقد ملك المؤلف ناصية الموضوع بحيث يظن القارئ أنه ينظر في كتاب ألفه أحد أبناء تلك البلاد، ومع ذلك نلمح في مواطن قليلة أن المؤلف أستأسر للمراجع، كأن يذكر عدد الجرائد في إنجلترا سنة 1828 وسنة 1886 وسنة 1909، وكان المنتظر أن يذكر عدد الجرائد في الوقت الذي ألف فيه الكتاب، ولكنه فيما نرجع وقف عند أحد المراجع التي نشرت من قبل ولم يشغل نفسه بتحديد ما جد في تطور الصحافة بعد ذلك الحين

توجيهات

ينقسم كتاب حافظ عفيفي إلى ستة ابواب، وتنقسم الأبواب إلى فصول، فضلاً عما فيه من مقدمات تشتمل على محصول نفيس. ولن يستطيع الطالب أن يقول إنه استفاد من مراجعة هذا الكتاب إلا إذا جمع لنفسه خلاصة وافية لما كتب المؤلف عن تاريخ الحياة الدستورية، وما قاله عن السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية، وما فصل من الحديث عن الصحافة والأحزاب، وحرية التجارة والحماية الجمركية، وما شرح من أحوال الميزانية ونظام البنوك، وما دون من أغراض التعليم وأنظمة الجامعات، وما قيد من خصائص القضاء وأنواع المحاكم ومجالس التشريع، وما تعرض له في سرد أطوار الإمبراطورية البريطانية

تلك ملامح هذا الكتاب، أما جوهر المحصول فهو ثمين إلى أبعد الحدود، وهو مع ذلك سهل المنال على الطالب الذي أجتاز مرحلة الثقافة العامة بوعي وإدراك

ولكن كيف يجمع الطالب لنفسه تلك الخلاصة الوافية؟ لنفرض أنه شرع في الباب الخاص بتكوين الرأي العام فقرأ الفصل الأول عن الصحافة الإنجليزية، فماذا يفيد حين يقرأ هذا الفصل؟

يفيد تطور الصحافة الإنجليزية من أول ظهورها إلى اليوم مع ملاحظة ما مر بها من تطورات مذهبية واقتصادية، ثم يقيد انتقالها من أيدي الأفراد إلى أيدي الشركات مع بيان السبب في هذا الانتقال، ثم يقيد عدد تلك الشركات، ثم يقف وقفة طويلة عند الكلام عن المنافسة بين الجرائد الشعبية وجرائد الآراء ثم يلتفت التفاته خاصة إلى ما أصيبت به

شركة الديلي هرالد، ثم يتعقب ما ابتليت به الصحافة الإنجليزية من الانحطاط بسبب الانحدار إلى استغلال أهواء القراء، ثم يقيد الأخطار التي تعرضت لها السياسة الإنجليزية بسبب طغيان الجرائد الشعبية، ثم يقيد ما صنع فضلاء الإنجليز في تأمين جريدة (التيمس) وجريدة (الإيكونوميست) من جشع الجماعات التجارية، ثم يقيد الصلة بين الحكومة والصحافة ومراكز الصحفيين في تلك البلاد، ثم يقيد ما مر بالصحافة الإنجليزية من متاعب الجهاد في سبيل الظفر بحرية الرأي، ثم يقيد ما للصحافة في إنجلترا من أندية ومدارس (مع الفهم الصحيح لعناصر هذا الفصل الدقيق) ولنفرض أيضاً أنه قرأ الفصل الثاني عن الأحزاب الإنجليزية، فماذا يقيد وهو يقرأ هذا الفصل؟

من واجب الطالب أن يعرف الغرض الذي أنشئت من أجله الأحزاب في بلاد الإنجليز، وأن يعرف الفرق بين دعاية مصلحة الوطن ومنفعة الحزب، وأن يدرك كيف صارت الأحزاب في إنجلترا من الضروريات، وأن يقيد التاريخ الذي نشأ فيه النظام الحزبي بتلك البلاد

وهنا سؤال أو أسئلة:

ظهر في فرنسا كتاب لمؤلف معروف، فما أسم الكتاب؟ وما أسم المؤلف؟ وكيف أختصم الأحرار والمحافظون حول ذلك الكتاب؟ ومن الباحث الذي أتخذ منه دعامة

لنظرية الأحرار؟ ومن الباحث الذي أتخذ منه دعامة لنظرية المحافظين؟ وما جوهر الخلاف حول فكرة ذلك المؤلف؟ وما السبب في وصف المحافظين بالجمود؟ وكيف حُرموا الظفر بالحكم زمناً غير قليل؟ ومن المفكر الذي أنتشل المحافظين من ذلك الجمود؟ وكيف ظهر حزب العمال؟ وما هي الفلسفة التي أوجبت ظهور هذا الحزب؟ ومن هو المفكر الذي خلق هذه النزعة؟ ومن أتباعه في بلاد الإنجليز؟ وكيف كان حظ العمال حين واجهوا الجمهور الإنجليزي أول مرة؟ وكيف تخوف بعض الكتاب من أتساع شقة الخلاف بين تلك الأحزاب؟ وكيف نجت إنجلترا من عدوان الاشتراكية؟ وما هي الأسباب التي قضت بأن يكون الاشتراكيون الإنجليز أقرب إلى المحافظة والاعتدال؟ ومن أشهر الرجال في حزب العمال وحزب الأحرار وحزب المحافظين؟ ومن الرجل الذي خرج على حزبه في إحدى ساعات الحرج فأصابه بضعضعة لم يسلم منها إلى اليوم؟ وما مسلك الإنجليزي الشريف

حين يختلف مع الحزب الذي ينتسب إليه؟ وما أخلاق الإنجليز في مصاولاتهم الحزبية؟ فإذا ألم الطالب بهذه المشكلات كان من واجبه أن يدرك كيف يختلف الأحزاب حول السياسة الخارجية، والسياسة الإمبراطورية، والسياسة الاقتصادية والاجتماعية، وأن يعرف كيف تتكون لجان الأحزاب، وكيف تسيطر على الجمهور للظفر في ميادين الانتخابات

كلمة ختامية

قرأت كتاب حافظ عفيفي في ثلاث سهرات، ولم أجد في استيعابه أي عناء، لأنه مفصل أجمل تفصيل وبأوضح أسلوب، ولكن يخيل إلي أن الطلبة لن يدركوا مراميه في مثل الوقت الذي راجعته فيه، لأني على أرجح الأقوال سبقتهم إلى الدنيا بأعوام قصار أو طوال، وللتجارب تأثير في إدراك أمثال هذه الشؤون

فإلى أساتذة السنة التوجيهية أسوق الاقتراحات الآتية:

أولاً: يجب (إن أمكن) أن يحضروا مع تلاميذهم بعض جلسات مجلس النواب ومجلس الشيوخ ليمكنوهم من تصور الحياة الدستورية، وإلا فمن واجبهم أن يقرأوا معهم بعض (المضابط) التي تسجلها (الوقائع المصرية)

ثانياً - من السهل جداً أن يحضروا مع تلاميذهم بعض جلسات المحاكم الأهلية والشرعية ليعطوهم فكرة واضحة عن نظام القضاء

ثالثاً - ليس من الصعب أن يزورا مع تلاميذهم بعض البنوك ليروضوهم على تصور المعضلات الاقتصادية

رابعاً - من واجب المدرسين أن يطلعوا تلاميذهم على ألوان الصحافة وأنظمة الأحزاب ليعلموهم كيف تساس الجماهير في مختلف البلاد

خامساً - في أسبوع واحد يستطيع المدرسون أن يزوروا مع تلاميذهم معاهد التعليم في مراحله المختلفات، ليطلعوهم على الأساليب المعروفة في تكوين الأذواق والعقول

سادساً، وسابعاً، وثامناً، وتاسعاً. . . (؟!) إلى آخر الاقتراحات التي يراد بها أن يفهم المدرسون أن سطور الكتاب منقولة عن سطور الوجود، وأن المدرس الحق هو الذي ينقل تلاميذه إلى آفاق المشاهدة والعيان، ليهديهم سبيل الفهم الصحيح

وعندئذ لن يكون من الصعب أن يقرأ الطلبة كتاب حافظ عفيفي في حدود طاقتهم الفكرية

والعقلية وأن يخرجوا منه بمحصول يرضى عنه أساتذة الجامعة المصرية، وسبحان من لو شاء لجعل أولئك الطلاب طلائع الهداية للجيل الجديد

زكي مبارك

في الاجتماع اللغوي

اللهجات الاجتماعية

للدكتور علي عبد الواحد وافي

مدرس الاجتماع بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

تنشعب أحياناً لغة المحادثة في البلد الواحد أو المنطقة الواحدة إلى لهجات مختلفة تبعاً لاختلاف طبقات الناس وفئاتهم: فيكون ثمت مثلاً لهجة للطبقة الأستقراطية، وأخرى للجنود، وثالثة للبحارة، ورابعة للرياضيين، وخامسة للبرادين، وسادسة

للنجارين. . . وهلم جراً.

ويطلق علماء الاجتماع اللغوي على هذا النوع من اللهجات الاجتماعية تمييزاً لها عن اللهجات المحلية التي كانت موضوع حديثنا في المقال السابق

ويؤدي إلى نشأة هذه اللهجات ما يوجد بين الطبقات الناس وفئاتهم من فروق في الثقافة والتربية ومناحي التفكير والوجدان، ومستوى المعيشة، وحياة الأسرة والبيئة الاجتماعية، والتقاليد والعادات، وما تزاوله كل طبقة من أعمال وتضطلع به من وظائف، والآثار العميقة التي تتركها كل وظيفة ومهنة في عقلية المشتغلين بها، وحاجة أفراد كل طبقة إلى دقة التعبير وسرعته وإنشاء مصطلحات خاصة بصدد الأمور التي يكثر ورودها في حياتهم وتستأثر بقسط كبير من إنتباهم، وما يلجئون إليه من استخدام مفردات في غير ما وضعت له أو قصرها على بعض مدلولاتها للتعبير عن أمور تتصل بصناعتهم وأعمالهم. . وهلم جراً فمن الواضح أن هذه الفوارق وما إليها من شأنها أن توجه اللهجة في كل طبقة وجهة تختلف عن وجهتها عند غيرها؛ فلا تلبث أن تنشعب اللهجة العامة إلى لهجات تختلف كل منها عن أخواتها في المفردات وأساليب التعبير وتكوين الجمل ودلالة الألفاظ. . . وما إلى ذلك. وقد تذهب بعض اللهجات الاجتماعية بعيداً في هذا الطريق، فيشتد انحرافها عن الأصل الذي أنشعبت منه، وتتسع مسافة الخلف بينها وبين أخوانها، حتى تكاد تصبح لغة مستقلة غير مفهومة إلا لأهلها: كما هو شأن اللهجات الفرنسية المستخدمة بين طبقات اللصوص والمجرمين وبعض طبقات العمال ,

ويزداد في العادة انحراف اللهجة الاجتماعية عن أخواتها كلما كثرت الفوارق بين الطبقة الناطقة بها وبقية الطبقات، أو كانت حياة أهلها قائمة على مبدأ العزلة عن المجتمع أو على أساس الخروج على نظمه وقوانينه. ولذلك كانت في فرنسا لهجات الطبقات الدنيا من العمال واللهجات السرية لجماعات المتصوفين والرهبان، ولهجات المجرمين واللصوص ومن إليهم، من أكثر اللهجات انحرافاً عن الأصل الذي أنشعبت منه، وبعداً عن المستوى العامل لبقية اللهجات الاجتماعية الفرنسية

ولا تظل اللهجات الاجتماعية جامدة على حالة واحدة بل تسير في نفس السبيل الارتقائي الذي تسير فيه (اللهجات المحلية)؛ فيتسع نطاقها باتساع شئون الناطقين باتساع شئون الناطقين بها، ومبلغ نشاطهم واحتكاكهم بالأجانب وبأهل الطبقات الأخرى من مواطنيهم، وما يخترعونه من مصطلحات، ويتواضعون عليه من عبارات، ويقتبسونه عن اللغات الأجنبية من مفردات وأفكار، وتختلف أساليبها وطرق تركيبها باختلاف العصور وتطور الظروف الاجتماعية المحلية بالطبقات الناطقة بها؛ فلهجات العمال والمجرمين بفرنسا تختلف بعد الحرب العظمى أختلافاً بيناً عما كانت عليه قبل ذلك؛ وتختلف في القرن العشرين أختلافاً كبيراً عما كانت عليه مثلاً في القرنين الرابع عشر والخامس عشر. ولا أدل على ذلك من أن معظم القطع التي كتبها بتلك اللهجات في القرن الخامس عشر الشاعر الفرنسي فرنسوا فيلون لم يستطع بعد في العصر الحاضر حل جميع رموزها وفهم مدلولاتها

وتؤثر اللهجات الاجتماعية في لغة المحادثة العادية تأثيراً كبيراً فتستعير منها هذه اللغة كثيراً من التراكيب والمفردات، وبخاصة المفردات التي خصص مدلولها العام واصطلح على إطلاقها على أمور خاصة تتعلق بفن أو حرفة وما إلى ذلك. فلغة المحادثة العادية بباريس في العصر الحاضر قد دخل فيها عن هذا الطريق كثير من مفردات اللهجات الاجتماعية وبخاصة لهجات العمال والمجرمين

ولا تتميز في العادة اللهجات الاجتماعية بعضها من بعض تميزاً واضحاً في المدن الكبيرة حيث يتكاتف السكان، ويزدحم الناس، وتنشط الحركة الاقتصادية، وتتنوع الوظائف، وتتعدد المهن، ويشتد النزاع بين الطبقات كنيويورك ولندن وباريس وبرلين في العصر

الحاضر وكبغداد في العصر العباسي

وأهم أنواع اللهجات الاجتماعية ما يسمونه باللهجات الحرفية (نسبة إلى الحرفة)، وهي التي يتكلم بها فيما بينهم أهل الحرفة الواحدة كالبرادين والنجارين والبحارة. . . وهلم جرا. وتتميز اللهجات الحرفية بعضها من بعض تميزاً كبيراً في المناطق التي يسود فيها (نظام الطوائف) كل طبقة بحرفة أو وظيفة خاصة تكون وقفاً على أفرادها لا يجوز

لهم ولا لأعقابهم من بعدهم الاشتغال بغيرها كما لا يجوز لغيرهم الاشتغال بها: كما هو الحال في كثير من بلاد الهند، على حين أنه في الأمم الحديثة التي قضى فيها على نظام الطوائف، فأصبحت الحرف حظاً مشاعاً بين جميع أفراد السكان، يزاول كل منهم المهنة التي تروقه، وينتقل، إذا شاء من مهنة إلى أخرى، وأصبحت الطبقات الاجتماعية غير واضحة الحدود ولا موصدة الأبواب على غير أهلها، في هذه الأمم تتداخل اللهجات الحرفية بعضها في بعض، ويتأثر بعضها ببعض، وتقل بينها الفروق، وتضعف المميزات.

هذا، وقد خيل إلى بعض الباحثين أن (اللهجات الاجتماعية) لا تنشا من تلقاء نفسها، بل تخلق خلقاً، وتبتدع بالتواضع والاتفاق بين أفراد الطبقة والواحدة، وترتجل ألفاظها ومصطلحاتها أرتجالاً، وتابعهم في هذا الرأي بعض القدامى من علماء اللغة؛ ولذلك لم تنل هذه اللهجات كبير حظ من عنايتهم.

وليس لهذه النظرية أي سند عقلي أو تاريخي. بل إن ما تقرره ليتعارض مع النواميس العامة التي تسير عليها النظم الاجتماعية، فعهدنا بهذه النظم أنها لا ترتجل ارتجالاً ولا تخلق خلقاً؛ بل تتكون بالتدريج من تلقاء نفسها. هذا إلى أن معظم هذه اللهجات منتشر بين طبقات فقيرة جاهلة منحطة المدارك ضعيفة التفكير، لا يتاح لمثلها أن تنشئ إنشاء لغة كاملة المفردات متميزة القواعد، بل لا يتاح لها مجرد التفكير في مثل هذا المشروع الخطير: طبقات المتسولين واللصوص والحدادين والصيادين. . . وهلم جراً

والحق أن (اللهجات الاجتماعية) لا تختلف في نشأتها عن (اللهجات المحلية) التي تكلمنا عنها في المقال السابق. . . كلا النوعين ينشعب عن اللغة الأصلية ويستمد منها أصول مفرداته ووجهة أساليبه وتراكيبه وقواعده؛ وكلاهما تلقائي النشأة ينبعث من مقتضيات الحياة الاجتماعية وشئون البيئة. وكل ما بينهما من فرق أن السبب الرئيسي في نشأة

(اللهجات المحلية) يرجع إلى اختلاف الأقاليم وما يحيط بكل إقليم من ظروف وما يمتاز به من خصائص. . على حين أن السبب الرئيسي في نشأة (اللهجات الاجتماعية) يرجع اختلاف طبقات الناس في الإقليم الواحد وما يكتنف كل طبقة منها من شئون، وما يفصلها بعضها عن بعض من مميزات في شتى مظاهر الحياة

غير أننا قد نعثر أحياناً في بعض اللهجات الاجتماعية على مفردات لا أصل لها مطلقاً في لغة البلد ولا في اللغات الأجنبية. ومفردات كهذه يغلب على الظن أنها قد اخترعت في الأصل اختراعاً من بعض الأفراد وانتشرت عن طريق التقليد. ولكن هذه الظاهرة تكاد تكون مقصورة على لهجات الطبقات الراقية، ولا تبدو إلا في عدد قليل من الكلمات. أما معظم المفردات فترجع أصولها إلى كلمات منحدرة من لغة البلد، أو مقتبسة من بعض لغات أجنبية. غير الغالب أن ينالها مع تقادم الزمن كثير من التحريف والتغير فتبعد بعداً كبيراً عن الأصل الذي أخذت منه. وقد تصل في انحرافها هذا إلى درجة يخيل معها للباحث السطحي أنها ابتدعت بالتواضع والارتجال. ولعل هذا هو ما حدا ببعض العلماء على الظن بأن اللهجات الاجتماعية ناشئة عن تأليف واختراع

علي عبد الواحد داني

ليسانسيه ودكتور في الآداب من جامعة السربون

كتب لم أقرأها

(شتاء في بلاد العرب)

للأستاذ عبد اللطيف النشار

قد يظهر غداً من يترجم هذا الكتاب، وقد يظهر من يكتب عنه بعد الفراغ من قراءته، فلك أن تقول: لم يكتب عنه هذا الذي لم يقرأه؟

والجواب أنه ما من يوم إلا والصحف والإنجليزية تتحدث عن مؤلفات تعد بالمئات وفيها عشرات تهمنا. وقد يمر العام تلو العام ولا تظهر في لغتنا ترجمة لأحدها، ولا كتابة وافية عن ثلاثة أو أربعة منها. وليس بمتسع عمر كاتب لقراءة كل كتاب يقرأ عنه في غير لغته ويتمنى أن تظهر له ترجمة في لغته لما يتوسمه فيما كتب عنه من أهمية عند ذويه

وعن هذا الكتاب (شتاء في بلاد العرب) نشرت مقالتان في عدد 18 نوفمبر سنة

1940 من جريدة الأجبشان غازيت. أما إحداهما فهي افتتاحية الجريدة لمحررها بعنوان (الشرق والغرب) وأما الثانية ففي صحيفة (الكتب) بقلم المستر آرثر بنفولد أما والكتاب يشغل من جريدة واحدة في عدد واحد خمسة أعمدة طوال، وأما وهو عن العرب، وأما وهو واحد من عشرات تهمنا كلها موضوعاتها فلا أرى بدا من اقتراح أقترحه على أدبائنا. هو تلخيص ما يكتب عن كتب تهمنا ليكون هذا التلخيص تعريفاً بالجديد في الأدب الغربي مما يهم العرب، ولمن شاء أن يزيد فضله؛ وغير مجحود فضل السابق وإن بزه اللاحق، وغير مغموط فضل المشير وإن لم يأت بالكثير الكتاب من وضع الآنسة فريا ستارك - طبعة موراي. وهو يصف حياتها واثنتين من زميلاتها في حضرموت في فترة الشتاء الذي وقع بين عامي 1937 - 38

أما إحدى الثلاث الأوانس فعالمة في علم الآثار، وأما الثانية فعالمة في علم طبقات الأرض، وأما الثالثة وهي المؤلفة فأديبة ذات شهرة خاصة بجمال الأسلوب وروعة البيان؛ ولها كتب أخرى قبل هذا الكتاب

ويظهر من كتابة الكاتبين أن أداة البيان ضرورية جداً في كتاب مثل هذا يتضمن شطر كبير منه وصف الطبيعة الدائمة التغير في الصحراء، ووصف الحياة بين الرمال وبين الصخور في عزلة عن الناس وفي أجواء وأحوال مغايرة لما ألفه من يكتب هذا الوصف

وقد أقتبس المستر آرثر بنفولد فقرات كثيرات من هذا الكتاب للاستشهاد بها على تمكنها من ناصية اللغة والقدرة على الوصف

فإذا ما تخطينا هذا إلى ما هو أشبه بأن يهمنا وجدنا محرر الجريدة يقتبس الفقرة الآتية من مقدمة الكتاب بقلم السير كينان كورنواليس:

(والعربي إذا عومل كما ينبغي أن يعامل على أساس المساواة والمودة نيل منه خير ما يمكن أن ينال. أما إذا أحس بالتعالي عليه أو الانصراف عنه أو الميل إلى التحكم فيه، فلن ينال منه من يعامله كذلك إلا بما هو أهله. والعربي أكثر حساسية من الرجل العادي؛ فهو سريع اللمحة للدقيق، سريع الاستجابة للود والمحبة. وقد زادت وضوحاً أمامنا قيمة الصلات الشخصية والصداقات مع أهل الشرق الأوسط، كما وضح للجميع أذى الصلف والتعالي. وليس الإنكليزي العادي بالرجل المسرف في إظهار مشاعره نحو أبناء الشعوب الأخرى؛ ولكن الذي يقرأ كتاب الآنسة ستارك يتعرف الفوارق بين (ما ينبغي وما لا ينبغي فيفيد من ذلك

ويقتبس المستر بنفولد من صلب الكتاب فقرات يؤخذ منها فقرات أن في قبائل حضرموت سيادة دينية لرجال من قريش يقال لأحدهم (منصب). وهي تصف (المنصب) هذا بأن الناس يقبلون يده، وأنه مهيب الطلعة، يضع على رأسه عمامة خضراء، وأن سلطانه يتجاوز النفوذ الروحي؛ فهو يفرض ضرائب على الرؤوس، ويستولي على مواشي الذين يتأخرون عن دفع الضريبة حتى يؤدوها

وتقول المؤلفة إن الخطوة الأولى من خطوات الشرقي في سبيل الانحدار والسقوط هي تذمر من عوائده الموروثة، لأنه لن يستطيع أحد في تلك البلاد أن يشعر بالسعادة إلا إذا حرص على عوائدها واقتنع بها. . . إنه متى جنح إلى مثل الذي يجنح إليه الغربي من وسائل الراحة والرفاهية بدت له شدة فقره وصعوبة وسائله في الحياة وتراخي ففقد قوته الروحية، وفقد اعتداده بأهمية القوة الروحية في هذه الحياة

وتقول الكاتبة في وصف المرأة العربية إنها تحتفظ في شيخوختها بالجمال والهداة والعذوبة، ولا تظهر على وجهها تلك التجاعيد التي تظهر على وجه المرأة الغربية، وأحسب هذا نتيجة لنظام الاحتشام القاسي الذي يمنع اختلاف المشاعر المحدثة لتلك التجاعيد. وإذا كان لدى المرأة الغربية من ضبط النفس ما تقهر به تلك المشاعر، فلدى العربية مما فطرت عليه من الجد ما يذلل مشاعرها التي تراد في الغرب لتذليلها قوة ضبط النفس. ومثل العربية في ذلك كمثل الراهبات اللواتي قلما تظهر على وجوههن في الشيخوخة تلك التجاعيد، واللواتي يحتفظن بالوسامة رغم الشيخوخة، ويحتفظن بعلائم الاطمئنان والراحة

وفي الكتاب أقاصيص ونوادر يسرد منها مقرظة قول الكاتبة:

إن قاضي المدينة أخبرها بأنه سيفتتح دكاناً، وإن غرضه من ذلك تمضيه الوقت قالت في دهشة: وماذا تبيع به؟ فقال: إن رأيه لم يستقر على شيء. ثم أخرج من

جيبه أوراقاً وقال إنه لم يعد من مشروعه غير ما تضمنته هذه الأوراق من قصيدة سيعلقها على باب الدكان تحية للزبائن
وسواء أكان هذا القول من جانبها جداً أم هو هزل يراد به تجسيم محبة العرب للشعر في الكتاب هزلاً ولا شك فيه يراد به لفت نظر الغربيين، فمن ذلك ما زعمته من اعتياد الرجل في حضرموت أن يتزوج خمسين زوجة. وفيه إغراق في الوهم فمن ذلك زعمها أن حاكماً من حكام حضرموت أشترى ألف جارية من الصومال، فلما نقلن في سفن إلى البلاد العربية أتضح أنهن حوامل جميعاً وأنهن تركن في مكان ما من الصحراء حتى يضعن فتنشأ جيل من الناس بهذا المكان لا يشبهون العرب بل تدل ألوان بشرتهم وشكل شعرهم على أنهم من نسل صومالي
وتصف الكاتبة اعتقاد الأهلين بالجن وبالسحر وتنصف علماء الدين فتقول: إنهم ينكرون هذا كله، وتقول: إن مهر العروس هناك لا يجوز أن يزيد على أربعة عشر دولاراً ولكن تكاليف حفلة العرس لا تقل عن ستين دولاراً وتروي عن رجل عرفته أسمه السيد علوي أن نفقات زواجه بلغت ثلاثمائة دولار، وانه تزوج بدافع الحب، وأنه يعتقد إن زواج الحب هو الزواج الصالح وأنه لذلك لن يعدد الزوجات
هذا بعض ما وصف به الكتاب، ولعل فيه ما يكفي للتعريف به أو للاستزادة من التعريف
وأحسب أن في الكتابة عما لم أقرأه معتمداً على ما قرأت عنه ما لا تقل جدواه عن كتابتي عن كتاب قرأته إلى من لم يقرأوه، كلا الأمرين تعريف لمن شاء أن يعرف، وفي مجال
البحث متسع للمستزيد
عبد اللطيف النشار
السنوسيون
للأستاذ حسين جعفر
(بقية ما نشر في العدد الماضي)
غزو مصر:
خضع سيدي أحمد الشريف للحركة الإسلامية التي أحياها عبد الحميد الثاني سلطان تركيا وأستمر فيها خليفته. وذلك أدت السنوسية مساعدات مادية قوية للأتراك حينما غزا الطليان طرابلس الغرب سنة 1911، ولما اضطر الأتراك إلى الاعتراف بالهزيمة أستمر سيدي أحمد في حربه ضد الطليان في حربه ضد الطليان يساعده بعض الجنود التركية الذين ظلوا في البلاد - خلافاً لما قضت به معاهدة لوزان - وفي ابتداء الحرب العظمى الماضية لم يكن للإيطاليين غير جزء ضيق من الشاطئ، وكان السنوسيون حكاماً على داخل البلاد، وقد عرضت شروط للاتفاق بين الإيطاليين وسيدي أحمد في النصف الأخير من سنة 1914 وكاد يتم الاتفاق لولا أن السيد أحمد رفض أن يقبل مركز (باي) تحت الحماية وما جاء ربيع سنة 1915 إلا وكان السنوسيون يهاجمون المواني الموجودة تحت يد الطليان
وحوالي هذا الوقت تمكن عدد من الضباط الأتراك والألمان الذين يتكلمون العربية من الهرب إلى داخل البلاد، وبواسطة العروض المختلفة والتملق أمكنهم أن يؤثروا على سيدي أحمد - على كره منه - فيعلن حرب الجهاد ويغزو حدود مصر الغربية. وكان سيدي أحمد متردداً ولم يكن تردده هذا خافياً على الإنجليز في مصر. ولذلك أرسلوا في نوفمبر سنة 1915 أبن عمه السيد محمد بن إدريس من الإسكندرية ليتفق معه على أن يتخلص من مستشاريه الأتراك في مقابل مبلغ من المال، ولكن كان الوقت قد فات لأن سيدي أحمد كان مثقلاً بالأموال والأسلحة التركية والألمانية
وفي نهاية سنة 1915 غزا سيدي أحمد حدود مصر الغربية بجيش عدده خمسة آلاف مقاتل على أكثر تقدير مع عدد من الجند الأتراك يبلغون الألف عداً. وكان الخطر الحقيقي في أن أي نجاح يناله السنوسيون قد يدفع البدو المقيمين على حدود مصر الغربية وفي داخل البلاد نفسها إلى الثورة
وبسب الاستعدادات الاحتياطية التي قام بها الجنرال السير جون مكسويل - قائد الجيوش البريطانية في مصر إذ ذك - فشل السنوسيون في إحراز أي انتصار. ولم يأت فبراير سنة 1917 حتى هزم سيدي أحمد هزيمة تامة فتقهقر إلى واحة جغبوب.

ويظهر أن عدم نجاح هذا الغزو أثبت بصورة جلية أن طريقة السنوسية لم تكن ذات قوة سياسية أو روحية كما تصور الناس من قبل
وقد بذل الألمان والأتراك جهدهم في استخدام قوة السنوسي الروحية لإحداث اضطرابات في جهات غير مصر ففي السودان أمكنهم أن يؤثروا على السلطان على دينار سلطان دارفور ليثور ولكنه هزم هزيمة قاطعة بقوة مصرية تحت قيادة الماجور ب. ف كيلي في مايو سنة 1916
ولم يكن للسنوسي في باقي أنحاء السودان المصري الإنجليزي إلا أتباع قلائل، فإذا ابتعدنا غرباً متجهين نحو بحيرة تشاد نجد هناك أيضاً بعض الاضطرابات ولكن الفرنسيين في تقدمهم نحو الشمال من بلدة كانين واحتلالهم الحدود الصحراوية واستيلائهم على عين جالاكا - في إقليم بوركو وهي قاعدة السنوسي الجنوبية - في سنة 1913، كل هذا مع بعض المراكز الفرنسية الأخرى كونت حاجزاً دفاعياً ضد غارات السنوسي. أما في المناطق الداخلية من طرابلس فقد كان سلطان السنوسي قوياً أضطر الطليان معه إلى الانسحاب نحو الشاطيء، وكان سيدي محمد العبيد وهو شقيق السنوسي يحكم فزان حتى مدينة فزان صيف سنة 1917
العلاقات مع الطليان
لم يوافق سيدي محمد الإدريسي وبعض رؤساء الجنوبيين على غزو سيدي أحمد لمصر، وكان سيدي محمد من طول إقامته بمصر قد أكتسب معلومات عن الأحوال التي كانت تعوز سيدي أحمد، والإدريس رجل مسالم بطبيعته. وقد عقدت الحكومتان الإيطالية والإنجليزية معه اتفاقاً في سنة 1917، وأقر شيوخ الطريقة سيدي محمد الإدريس على أن يكون السنوسي الأكبر. وفي أغسطس سنة 1918 وجد سيدي أحمد المقهور والمخلوع أن من الأفضل له أن يغادر طرابلس، فغادرها على ظهر غواصة ألمانية من مصراطة إلى تركيا مع استمرار ادعائه أنه رأس الطريقة
وفي سنة 1919 أرسل الإدريس أخاه رضا في بعثة إلى روما وبواسطة اتفاق عقد في نوفمبر سنة 1920 أعترف الإدريس بسيادة الطليان وأعطى لقب أمير وجعل وراثياً في ذريته مع استمرار سلطته على واحات الكفرة وجغبوب وجالو وأدجيلة وجديبة. واستمرت العلاقات السلمية مدة من الوقت ولكن الإيطاليين تحت حكم الفاشيست وجدوا موقفهم هذا متعباً، وكان لديهم أدلة تثبت أن الإدريس كان يشجع الثوار في طرابلس الذين عرضوا عليه أن يكون زعيمهم وأميرهم. ففي أوائل سنة 1923 أعلنت حكومة الفاشيست أن الاتفاق السابق مع السنوسي يخل بكرامة الحكومة ولذلك فهي تنقضه. ولذلك أنسحب الإدريسي في يناير من تلك السنة إلى مصر وظل هناك والظاهر أنه لم يفقد أي سلطان روحي له على الناس وأعلن أتباعه أن السلطان الروحي أهم بكثير من السلطان الزمني. أما في شمال طرابلس فقد ظلت المقاومة السنوسية للطليان تحت زعامة الشيخ رضا وكانت بطبيعتها حرب عصابات وقد حسن الطليان مركزهم في مقاومة النشاط السنوسي بواسطة اتفاقهم مع مصر في 6 ديسمبر سنة 1925 وقد منحهم الاتفاق واحة جغبوب على أن تكون الحدود جنوب هذا المكان على خط عرض 25 درجة. وبذلك أدخلت واحة الكفرة ضمن الحدود الطرابلسية. واحتلت جغبوب بواسطة الإيطاليين في فبراير سنة 1926 بلا معارضة - وهي بالنسبة للسنوسيين مدينة مقدسة إذ أنها تضم جثمان مؤسس الطريقة السنوسية وكذلك تحتوي على زاوية لتعليم الإخوان
وفي سنة 1927 قام الإيطاليون في شمال طرابلس بحملة منظمة كانت نتيجتها تسليم سيدي رضا في 3 يناير سنة 1928 فنفى إلى صقلية. وفي ربيع نفس السنة احتلت واحة جالو وبعض واحات أخرى واستمرت الأعمال الحربية ضد رجال القبائل بشدة حتى ما جاءت سنة 1929 إلا وكانت واحة الكفرة هي الباقية للسنوسيين
تعاليم الطريقة:
من المحتمل أن عدد الإخوان السنوسيين. ليس كبيراً ولكن لهم أتباعاً ومريدين في كثير من البلاد، وفي حين نجد كثيراً من طرق الصوفيين بلا أساس وبغير ضابط مع تداخل في السياسة تداخلاً غير مجد - نجد السنوسيين شغلوا مركزاً واضحاً ومؤثرا في السياسة، وكل

رائدهم في ذلك أحياء الإيمان وتعاليم الإسلام الأول. ويمكن اعتبار الطريقة مقتبسة من الحركة الوهابية. ويفهم من المصادر التي يمكن الاعتماد عليها أن الطريقة ليست عديمة الأساس، وأنها كذلك ليست محافظة بل مجددة. وهي قليلة الأسرار بالنسبة إلى غيرها من طرق الإخوان المسلمين، واستعمال التبغ والقهوة محرم ولكن الشاي مسموح به، وكذلك لبس الملابس. الرفيعة وفي حين أنهم يعترفون بأنهم على المذهب المالكي فإن علماء القاهرة كثيراً ما كتبوا عن انحراف السنوسيين عن الإيمان الصحيح، ومعظم الاتهامات تنحصر في أنهم فسروا القرآن الكريم والسنة بدون الاعتماد على مصادر معترف بها، ولذلك يعتبر العلماء المصريون أن السنوسيين ينشئون بذلك مذهباً جديداً لا طريقة جديدة في العبادة وهم في ذلك يُشبهون الوهابيين خصوصاً في دقة أتباعهم لنصوص الدين

وبصرف النظر عن التعاليم الدينية نجد أن عملهم الرئيسي - وذلك قبل احتكاكهم بنشاط القوات الأوربية الاستعمارية - الغرض منه الاستعمار وتشجيع التجارة، وقد حفروا الآبار ووزعوا الواحات وانشئوا أماكن للاستراحة على طول طريق القوافل ورحبوا بالتجار من طرابلس وبرنو وواداي ودارفور. كل هذا دونه الكتاب الإسلاميون ووكالات الفرنسيين والإنجليز في تقاريرهم

والسنوسيون كانوا على اتصال دائم بالإدارة المصرية في واحة سيوه، ولسنين عديدة خلت كان ممثل السنوسي على وفاق تام مع السلطات المصرية، وإخلاص السنوسيين لرسالتهم لا شك فيه. وأتباع الطريقة خارج المناطق المجاورة لمركزهم من أوساط عالية على نقيض الطرق الإسلامية الأخرى، ووكلاء الطريقة في البلاد أشخاص معروفون أغنياء متعلمون تعليماً جيداً وخصوصاً في فقه الإسلام وهم عادة على وفاق تام مع حكام البلاد التي يعيشون فيها، وهؤلاء الوكلاء يقومون عادة برحلات سنوية إلى الزوايا المختلفة الموضوعة تحت إشرافهم شارحين لأتباعهم تعاليم السنوسية

حسين جعفر
المهندس الزراعي
محاورة أفلاطون الخيالية
حول التربية الإنجليزية
للأستاذ عبد العزيز عبد المجيد

- 3 -

المحاورة خيالية بين الفيلسوف أفلاطون وبين أحد المربين الإنجليز. وقد دارت في المقالين السابقين حول نظام التربية في إنجلترا والغاية منها، تلك الغاية التي يوضحها المربي بأنها إعداد الفرد ليشترك في الحكومة الديمقراطية بطريق انتحاب رجال الحكم، وأعضاء المجالس النيابية وهذه التربية كما يقول المربي الإنجليزي - تجربة في الحكم الذاتي، أي - حكم الشعب نفسه بنفسه. ويرى أفلاطون أن تربية الشعب عامة محدودة ولا تكفي لأقداره على الأشراف على تصرفات الحكومة، وسياستها الداخلية والخارجية. ولكن المربي يقرر أن نظام التربية في إنجلترا يسمح لكل فرد أن ينال خبرة مهنية فنية، وأن يصيب من الثقافة العامة ما يمكنه من معرفة شئون السياسة العامة للأمة. والفرص متاحة تؤهله مواهبه الطبيعية لأي نوع من أنواع التعليم أوليا كان ثانوياً أو جامعياً. وهنا يقترح أفلاطون أن تترك مقاليد الحكم للجامعيين، وحملة الشهادات العليا، لما هم عليه من ثقافة فلسفية وعلمية. بيد أن المربي لا يشاركه الرأي. ويقول: إن الحياة جامعة الجامعات، وأبواب المناصب مفتوحة لكل من تزكية كفايته وخيرته لأيها، سواء أكان من أبناء الجامعات أم من غيرهم.

أفلاطون: لا شك أنك ستجد ضرورياً أن تفرق بين نوع التربية الملائم للرجال المسئولين، وذوي التبعات الوطنية، وبين نوع التربية الملائم للصناع والعمال. فتربية الأول هي تربية ثقافية عالية، بينما تربية الآخرين تربية فنية مهنية.

المربي: أنا لا أومن بهذا الرأي. إننا نعتقد في بلادنا أن كل فرد يجب أن ينال نصيباً آخر من التربية غير تلك التربية الآلية التي تعده للمهنة أو الصنعة، لأن كل الأفراد قد منحوا صفة البشرية، وصفة التعقل والإدراك، ولهم قوى كامنة يمكن أن تتقبل الثقافة والحكمة. ولهذا يجب أن ينال كل فرد إلى تربيته المهنية تربية ثقافية عامة.

أفلاطون: ولكن أتسمحون بهذه التربية الثقافية العامة للموهوبين وغير الموهوبين على السواء؟

المربي: كلا هذا مستحيل، أولاً لأن السواد الأعظم من تلاميذ المدارس يكتفون بالتعلم إلى نهاية المرحلة الأولية، أعنى إلى سن الرابعة عشرة؛ وثانياً لأنه ليس كل الأفراد صالحين للتعليم الجامعي.

أفلاطون: إنني موافقك على هذا بكل قواي. إن الطبقة قلية الذكاء من أبناء الشعب والتي أسميها العامة في (مدينتي الفاضلة)، لا تفهم الفلسفة ولا تتمتع بها والأفراد القلائل منها الذين يتذوقون طعم الفلسفة يخدعهم أول أفاك يقابلون، أو متطبب، أو متدين محتال يستولي على قلوبهم بعبارات الدين الخلابة. إن ذوق العامة يميل دائماً إلى الدون من كل شيء. ولا يفرق بين التكحل والكحل، ولا بين الحقيقة والخيال. وهذا هو ما دعاني لأن أحظر على العامة دراسة الحقائق والعلوم الفلسفية، وأن أقصرهم على الأساطير، وأحاجي الآلهة، والأقاصيص الخيالية. تلك الأشياء التي أسميها (الأكاذيب النبيلة)، والتي يجب على الحكومة أن تهيئها للعامة لترضي رغبتهم الملحة في التثقيف والتنوير، ولتمدهم بشيء يتحدثون عنه وتلوكه ألسنتهم، حينما يجلسون ليقتلوا أوقات فراغهم. ولقد سمعت بأمة مجاورة لكم قد عملت وزارة للدعاية وتنوير العامة. وكم أفعم هذا الخبر قلبي سروراً، لأنه يدل على أن من بين أعضاء حكومة الأمة من يقدرون الأخطار التي تنجم ترك العامة يطمعون أخلاط الثقافات والآداب والموسيقى لا فرق بين غثها وسمينها، فتؤثر هذه الأخلاط في نفوسهم، وتحملهم على الثورة وسوء النظام

المربي: أحسب أنك لا تمتاز كثيراً عن الفاشستي! كيف تحل هذا النوع من الدعاية الحكومية التي يقصد بها استرقاق عقول الناس، وحقنهم بالأكاذيب، والأخبار المموهة؟ إن هذا لهو القضاء النهائي على الحرية

أفلاطون: وهل يتمتع حقاً أبناء شعبك بالحرية؟ أليسوا هم أيضاً أرقاء للأكاذيب والأخبار الفجة التي يطالعونها كل يوم في الصحف، وفي السينما، وفي القصص الروائية، ويسمعونها من الخطباء في الأندية والنقابات؟

المربي: يجب أن أعترف بكراهيتي لهذا النوع البخس من الصحف اليومية التجارية، ولهذا النوع الدون من إنتاج السينما. ولكن لا تنس أن الإنجليزي حرمها كانت الحال ليختار لنفسه، فهو ليس مجبراً لأن ينصت لجانب واحد من الدعاية، بل له أن يسمع كل الآراء والقضايا، ويكون هو بعد ذلك حكمه الخاص

أفلاطون: لا تتعجل في نتائجك. أنت تقول: إنه حر الاختيار فكيف يتسنى له هذا إذا لم يكن عنده مقياس للاختيار، ولم يكن له المحك الذي يميز به الزيف من الصحيح؟ من المؤكد أنه لا يستطيع الاختيار. ولذلك فهو زائغ الفكر متحيراً، قد بهرته أسراب الخيالات التي تطن في أذنيه طنين النحل، حتى لا يدري أواقف هو رأسه أم على قدميه. صحيح إن سماع أخلاط من الأخبار المموهة أكثر إمتاعاً من سماع خلط واحد، ولكني لا أستطيع أن أفهم لم تدعي أن الفرد في الحال الأولى حر ليختار وفي الحال الثانية رقيق يقبل كل ما يسمع. إن حقيقة الأمر هي أنه ما دام الفرد لا يستطيع التمييز بين الزيف والصحيح فليس بحر، سواء أكان هذا الفرد إنجليزياً أم ألمانياً أم أثنياً ولذلك فإنني حينما أفكر نظام التربية القائم عندكم، والذي تقولون عنه إنه تجربة في الحكم

الذاتي لا أجد شيئا من هذا الحكم الذاتي المزعوم، لأن هذه التربية التي تبالغ في حمدها لا تجعل العامة أحراراً، ولكنها تبعث على الغرور والادعاء في نفس متلقيها. والنتيجة هي أن هؤلاء العامة الذين تلقوا هذه التربية قد أصبحوا أكثر تعرضاً لخطر تجار الثقافة والمعارف، وأعني بهم أولئك الدجالين الذين يخدعون العامة بمقالاتهم الطنانة وإعلاناتهم الثقافية لابتزاز المال، لا من أيدي الصناع والعمال، بل من أنصاف المتعلمين. والدليل على قولي هذا بسيط. فلو كانت تربيتكم صحيحة حقاً لما ظل في

بلادكم هذا النوع من تجار الثقافة، بل لضاقت عليهم الأرض بما رحبت فهاجروا إلى بلاد أخرى. أما وهم لا يزالون بين ظهرانيكم فهذا دليل على أن التربية القائمة عندكم لا تكون المناعة الكافية ضد تجار الدين والثقافة والعلوم

وشبيه هذا ما يحصل في ميدان السياسة. فالجمهور لا يستطيع طبعاً أن يفكر في شئون السياسة تفكيراً سليماً. وهو يظن زعماً أن تربيته قد كونت منه سياسياً مفكراً، هذا الظن الذي يجعله أكثر خضوعاً لأنواع الدعاية والإعلان السياسي. ويخيل إلى أن كل صانع أو عامل نال شيئاً من التربية العامة الأولية يعتقد أنه قدير على الفصل في الأمور التي ليس له فيها تجربة أو معرفة

إنك تدرك معي الآن أنه من السهل على أي خطيب من خطباء السياسة مليء الجيب وحاد اللسان، أن يخرج على الناس بمشروعات ضخمة يخدع بها أنصاف المتعلمين، فيرضي فيهم الميول الطائشة، ويستولي على مشاعرهم بإثارة عاطفة الادعاء فيهم ولقد حدثت عن أنواع السفسطائيين الذين يحتالون باسم الثقافة والعرفان، والذين يعيشون بينكم ناعمي البال. وأعتقد أنك لا تستطيع أن تنكر أن هؤلاء إنما يرتعون في أموال المتعلمين من أبناء جنسك. على أن هذه الحال إن دلت على شيء فإنما تدل على أن النفس البشرية لا تخضع دائماً للحقائق والمعارف الصحيحة التي تقدم لها في المدارس والمعاهد، وإنما تجنح إلى شيء آخر: إلى الخيال والكرامات، والمعجزات. وتقبل - كلما سنحت لها الفرصة - الخرافات والخزعبلات، بدلاً من أن تتقيد بقوانين العلم وأسس المعرفة الصحيحة. وذلك لأن الحقائق ليست حلوة المذاق دائماً، وليس لها تلك الجاذبية التي للدعاوى الخادعة

من أجل هذا كله أرى لزاماً عليكم أن تكونوا حذرين فيما تعملون لأجل سعادة أمتكم وصلاحها. لأن التربية المحدودة تجعل الفرد يخدع نفسه بنفسه، ويظن أن المعارف أمر سهل المنال، وأن أبوابها مفتحة لكل من قرأ كتاباً أو سمع محاضرة

وهذا ينطبق أيضاً على الديمقراطية عندكم. فإنني أخشى أن تكون هي الدكتاتورية التي تكرهونها، ولكن في ثوب الديمقراطية، فيخدع العامة بما يقول مروجوها وفي ظني أن قادة الرأي عندكم ليسوا أحراراً أيضاً فيما يقولون ويفعلون فمحررو الصحف، وواضعو الأفلام، والخطباء، ورجال السياسة، والناشرون، كل أولئك ليسوا أحراراً يعملون ما يشاءون، ولكنهم خاضعون لميول العامة وذوقهم، حريصون أن يقدموا لهم ما تستسيغ حلوقهم

المربي: لقد تحقق ظني فيك، فقد حسبتك فاشستياً من طليعة حديثك. والآن أصبح الحسبان، يقيناً فأنت لا حرمة عندك للجماعة البشرية، وليس في قلبك حدب عليها ولا حب لها. أنت تريد أن تسيطر على كل فرد، وأن تجعله يعتقد ما تعتقد. وإنني أؤكد لك من الآن أنك لن تجد من يعطف عليك في بلادنا ولا من يشاركك الرأي

أفلاطون: أن ما تقول لجائز، ولكن أعلم أني غير راغب في إخفاء الحق رغبة مني في عطف أهل بلادك على، ومع هذا لا أعتقد أنهم سيكرهونني كما تفكر، إنهم أعقل مما تظن

المربي: إن ما أستطيع استنباطه من حديثك هذا هو أنك تريدنا أن نرجع إلى الوراء، إلى الزمن القديم، زمن جهالة العامة وحكم طبقة الأقلية الخاصة، زمن مدارس أولاد الأعيان

أفلاطون: كلا. أنا لا أريدكم أن ترجعوا إلى الوراء، وإلى الزمن القديم. لأن الرجوع للوراء مستحيل، ولكني أحب أن أذكرك أنه ليس من الضروري أن يكون القديم فاسداً والجديد صالحاً، فقديماً - وقبل الحكم الديقراطي، وقبل التعليم العام - كان شعبكم مكوناً من طبقتين: طبقة الأرستقراط، وطبقة العامة. ولم يكن ثمت ضير. وكان العامة صناعاً وعمالاً وزراعاً وكانوا مسرورين راضين بأعمالهم ومنهم، قادرين عليها وكانوا سعداء قانعين بحياتهم، بالرغم من أنهم لم يتمتعوا بنظام التربية العامة الحالي. وقد تركوا شئون الدولة للأعيان والأرستقراط، وكانوا يؤمنون بالتعليم، الديني، وكل ما يتعلق بالفضيلة والخطيئة والحياة الآخرة، وهل لي أن أذكرك أيضاً أن ذلك الزمن القديم هو الذي بنت فيه بريطانيا إمبراطوريتها، وأنتجت النابغين من رجال الفن ورجال الأدب الذين يحق لها أن تفخر بهم؟

وكان ولاة الأمور في ذلك الوقت ذوي بصر واتزان وحكمة، عليمين بالتبعات الشاقة الملقاة عليهم، وكان الشعب مطمئناً إلى أن السياسة الحكيمة للأمة لا يحسنها إلا الأرستقراط ورجال الدين

(يتبع - بخت الرضا. السودان)

عبد العزيز عبد المجيد

يا عروسي. . . في قبرها

(لقد تعجلنا يوم الزفاف. . وتعجل القدر فزفها إلى قبرها. . .

(ولم تلبس ثوب عرسها

للأستاذ علي متولي السيد

منذ أربعة شهور تحقق الحلم الذي أملناه. . . ودنت أو كادت - تلك الأماني التي طالما ترقبناها. . . ووضعت يد في يد. . . وسأل سائل وأجاب مجيب. . . وأخذنا الميثاق. . . وتعاقدنا أمام الله والناس. . . ثم أنفض المجلس وارفض السامر وخلا المكان إلا مني وإلا منك. . . ونظرات الحياء ترمقيني بها في سحر وفتنة. . . والابتسامة البنفسجية الرائعة تحدثيني بها في خجل ومتعة. . . رويداً رويداً ترفع الكلفة بيننا. . . فتنطلقين تحدثيني وأنطلق. . . ونظل زمناً من الزمن بعيدين عن العالم وما فيه. . . الدنيا تبكي ونحن نضحك والعام كله يقف على أسنة الحراب وألسنة اللهب ونحن في نشوة الفرح نرشف عذب الهوى وفي غمرة الحب نسقي بكأس الأمل ونهزج سوياً بأغرودة السعادة. . . وطيور السماء فوقنا تبارك بالنشيد الباسم حبنا الموفق. . . وهمسات الأهل والصحب حولنا تؤيد بالدعاء الصادق عهدنا المقدس. . . ونحن في حلم الهناء نتعجل يوم الهناء. . . فننطلق معاً إلى القاهرة نعد معدات العرس. . . ونختلف ونتفق. . . وأوثر اللون الأحمر وتفضلين اللون الأخضر، ونفتن في اختيار الأثاث نقلبه على شتى وجوهه ونطرق من أجله كل معرض نزاوج بين ذوق وذوق. . . ونرسم معاً - في أنفسنا - حجرة النوم وحجرة الاستقبال وموضع هذا في هذه ومكان هذا في تلك، ثم نعود وقد أعددنا كل شيء ولم تبق إلا أيام قليلة نسعد بعدها بالزواج الموفق الهنيء. . .

ثم تدفعني بعض أسباب الحياة لأسافر سفراً قصيراً، وأعودك بعد العودة، وقد حملت لك باقة من زهرات البنفسج التي تحبين وتعشقين. . . فأجدك طريحة الفراش، وأنظرك فأراك ساهمة واجمة، وأتأمل عينيك فأرى فيهما دمعة حائرة تترجرج. . . وأسألك ما بك؟ فتشكين إلى بذات الجنب. . . وأهدئ جزعك، وأنهنه شكواك وأكتم في نفسي الألم البالغ، وأتعمل الهدوء لأشعرك بأنها نكسة خفيفة. . . ونذهب إلى الطبيب ليفحصك. . . فيهون الأمر على نفسك وعلى نفسي. ويعطيك دواء حسبنا فيه الشفاء. . . وخلناه جميعاً سحابة صيف سريعاً تنكشف. ولكن المرض يلح، ولكن العلة تزداد. . . ولكن اللون الأحمر الطبيعي الجميل الذي يزين وجهك يتحول إلى صفرة باهتة فيها معنى الموت. . ولكن عينيك النجلاوين يشوبهما تلون غريب يشعر الناظر إليه بمعنى الفناء . وأقضي الليل مسهداً إلى جانبك مؤرق القلب والفكر مفتوح العين أرمق عينيك الساجيتين فأسمع من نظرتهما معنى الذبول، وأرنو إلى فمك النائم فيهزني صمته بنشيد الموت. وأجدك تحملين يدك بجهد وتمدينها إلي متثاقلة لأضعها بين يدي كما كنت تفعلين. . . وكأنك تطلبين مني اليوم عهداً جديداً على الوفاء. . .

ثم. . . ثم. . . ثم ما زالت يدك بين يدي تزلزلني شهقتك الطويلة وتسلمين الروح لبارئها. . . وتنتقلين سريعاً - ونحن معاً - من دار إلى دار. . .

يا عروساً لم تلبس ثوب عرسها. . .

إنها دارك. . . وقد زيناها معاً. . . فهي محرمة على غيرك. . . وسأقضي ما بقي من العمر فيها وحدي. . . أرتل - خاشعاً - في محرابها صلوات الهوى الطاهر اعف والحب الملائكي النبيل

هاهو ذا رسمك يا عروسي يطالعني صباح مساء وكأنك أنبته عنك ليكون شاهداً على إن نكثت بالعهد ولعبت بالميثاق. . .

هاهو ذا رسمك يا حبيبتي معي دائماً. . . لن أقبله. . . لن أضمه إلى صدري. . . وكيف؟! وقد تعاهدنا على أن نعيش في الحرمان حتى يوم الزفاف، وضننا على أنفسنا

حتى بالقبل البريئة. . . وكنا يهود الهوى فالخزائن ملآى. . . وما بها حلال لنا، والرقباء غفل ولكننا كنا البخلاء تدخر كل لذة وكل متعة ليوم الزفاف. . . يوم نعب كما نشاء في عش الزوجية الجميل. . .

يا عروسي. . . في سمائها!

لقد شئنا. . . وشاء الله. . . فما نملك من أمرنا شيئاً، وإن رحلتك إلى هنا ختامها. وأما شوطي فما زال فيه بقية. . . سأقطعها وفياً لعهدك صائناً حبك. . . مقدساً ذكرك. . . ولن أكون في هذا إلا راداً لك بعض حقك، مؤدياً لك يسيراً من دينك. . .

يا عروساً. . . زفت إلى قبرها!. . .

لقد كنا نتعجل الزفاف، نحشى أن يجرفنا تيار الحرب فنذهب في غباره. . . وكم أعددنا الهدايا الرقيقة الضاحكة نفاجئ بها صحبنا تعجلنا يا عزيزتي. . . وتعجل القدر. . . فاختطفك الحمام وأثواب العرس ما زالت تحاك. ووسائد الفراش ما زالت تنجد. وضمك القبر قبل أن يضمك الحبيب، وأعلام الفرح الخضراء نكسناها في يومك الرهيب. . . والبطاقات الوردية الجميلة التي أعددناها للمدعوين جللناها بالسواد، ونعياك بها للمشيعين والمعزين

يا عروسي. . . في جوار ربها!. . .

وداعاً. . . وداعاً. . . إلى لقاء. . .

علي متولي السيد

من وراء المنظار

صاحب السلطان الزائف

ليس لديه من دواعي السلطان غير رتبة البك، أما المال فحظه الحقيقي منه قد لا يسلكه حتى في أمثالنا من عباد الله القانعين المتواضعين؛ ومع ذلك فقد توافى له من البأس والسلطان ما يندر أن يتوافى لغيره من ذوي الثراء العميم والحسب القديم. وأتفق له في غير مشقة من وسائل جمع المال ما لو أنفق لسواه من أهل الكدح والجد لعد عندهم من أنعم الله التي ينسى معها كل عنت ويهون في سبيلها كل نصب. . . وهو والحق يقال أحد أفراد أسرة فيها من رزق حظاً عظيماً من الثراء وإن لم تكن كغيرها من الأسر الكبيرة القائمة حولها معرقة في الفضل والحسب

كان يتداخلني العجب كلما ترامى إلى شيء من أنبائه، حتى لقد تاقت نفسي آخر الأمر إلى رؤيته كما كانت تتوق وهي غريزة إلى رؤية الغول ولكن على بعد وفي مأمن من أظفاره وأنيابه، وكما قد تتوق اليوم إلى رؤية الدتشي مثلاً وغيره من غيلان الإنسانية رؤية آمنة في غير الورق أو السينما! ولقد تميل النفس إلى رؤية ما تكره كما تميل إلى رؤية ما تحب وهذه من عجائب غرائزها!

وتحققت لي رؤيته أخيراً في قريتنا وهي ملتقى عدد من القرى بينها قرية ذلك الآمر الناهي. وكان ساعة رأيته يجلس في حاشية من (محا سيبه) أمام مقهى من المقاهي على الطريق العام، وهو لا يحلو له الجلوس إلا حيث يراه الغادون والرائحون، فما يراه أحد من ذوي المكانة إلا أقبل عليه مرحباً مسلماً، وما من صاحب حاجة إلا ويشكو إليه حاجته ويلتمس عنده طلبته

وجلست غير بعيد أنظر إليه في جلبابه الفياض وقد دفع طربوشه إلى مؤخر رأسه، واتكأ على عصاه تحت إبطه، وشمخ بأنفه، ورفع رأسه إلى آخر ما يسمح به وضع طربوشه

الذي ضللت أتوقع من حين إلى حين سقوطه وراء ظهره حتى رأيته يهوى ولكن ليرفعه أحد الجالسين في أقل من ارتداد الطرف، وقد تزاحم عليه نفر منهم بطمع كل واحد أن يحظى بشرف إزالة ما علق به من التراب بكم جلبابه

وجاء الندلُ مذ رأوه فأحنوا جباههم ورفعوا أيديهم يحيون (سعادة البك) في ابتسام واحتشام، ودارت أقداح الشاي والقهوة على الجالسين؛ وكان لا يني البك عن طلبها لكل قادم في لهجة كريمة حازمة

وشكا البك من غبار الطريق، وسأل محنقاً: ماذا يصنع المجلس القروي إذا؟ ووعد أن يتحدث في ذلك إلى المأمور فسيلقاه في المركز غداً. . . وإذ جاء ذكر المأمور تقدم

رجل في يده عريضة وهو يقول: (يا سعادة البك الله يخليك. . .) وقطع عليه سعادة البك كلامه متسائلاً: ألم تنته مسألته بعد؟ ثم تناول منه ورقته ودمسها في جيبه وصرفه طالباً إليه أن يقابله عند باب المركز صباح الغد، وما لبثت العرائض أن تزاحمت على جيب البك. . . فهذا يرجوا أن يكون خفيراً، وذلك يطمع أن يعين فراشاً، وفلان يرجو نقل أبنه إلى بلد قريب، وآخر يستعجله ما وعد في أمره، وهو يكرر لهم جميعاً وعوده مؤكداً مستمهلاً إلى أمد قريب. . .

وتسلل أحد جلسائه إلى هؤلاء فتحدث إلى كل منهم على انفراد برهة، ثم عاد إلى حيث يجلس سيده وفي جيبه هو أيضاً ورق ولكن من نوع آخر!

ولاح ضابط الشرطة مقبلاً فأفسح الجالسون له مكاناً قبل وصوله، وأقبل فسلم على البك في اهتمام عظيم لا تفلته عبارة من عبارات الترحيب ولا يفوته شيء مما يحفظ من التحيات يشفعها جميعاً بألقاب التعظيم والتبجيل؛ وبدا لي أنه ضابط ذكي إذا كان يزيد في ترحابه وتحياته كلما رأى أثرها الطيب على قسمات البك، وقل في الضباط من لا يتقن هذا التهويل في مناسبة كهذه، فهو لا يكلفهم شيئاً، أما ما يعود عليهم منها فأقل ما يرجونه أن يكف عنهم أمثال صاحب السلطان هذا ألسنتهم عند أولى الأمر إن لم يجودوا عليهم بالثناء والإطراء بل وبالشفاعة والرجاء إذا اقتضى الحال شفاعة أو رجاء

وأرتاح البك إلى حضور الضابط فانطلق يتحدث عن مقابلاته التي ضاق بها ذرعاً، فحسبه أن قابل فلاناً وفلاناً من الوزراء في أسبوع أكثر من ثلاث مرات، أما مقابلاته للمدير فأكثر من أن يحصرها عد؛ ثم يمسك البك قليلاً ويعود فيقسم بحياة أبيه وقد تصنع الغضب أنه لولا ابتغاء وجه الله لما رضى بأن يسود وجهه من أجل الناس على مثل تلك الحال الأليمة

وتعلق منظاري بمرآه فما يكاد يتحول عنه؛ وذكرت ما ترامى إلي قبل من أنبائه وصدقت ما كنت أحمله قبل رؤيته على المبالغة؛ فهذا الرجل جدير حقاً أن يذهب بنفسه، كما علمت وقد توسلت به بغي معروفة، فيرجو لها من بيدهم الأمر ألا يحول الشرطة بينها وبين ما تأتيه من الفجور في أحد الموالد، لا لشيء إلا ليثبت جاهه في ساحة المولد. . . وهذا الرجل جدير بأن يوهم أغرار الناس بأنه قادر حتى على أن يحول بينهم وبين العدالة، وإلا فكيف ذهب يتوسل إليه، كما قد علمت علماً لا يداخله شك، من كانت تهمتهم جريمة القتل؟ وهذا الرجل جدير حقاً بأن يفهم كل من له به صلة بأن جاهه لا يقف عند الخفراء والفراشين وإنما يتعدى هؤلاء إلى العمد وإلى من هم أكبر خطراً من العمد من جماعة الموظفين. . . وهذا الرجل جدير بأن يحتجز سيارات النقل عند مدخل قنطرة على حدود قريته فلا تمر إلا أن تدفع قدراً معيناً من المال، وأخيراً هذا الرجل جدير بأن يصب نقمته على من يشاء وأن يختص بنعمته من يشاء، وله في مجال النقم حديث طويل أراه نقمة بالغة أن أوذي به أنفس القراء أما زرعه إذا حان وقت الزرع وأما حصاده إذا أراد الحصاد فحدث عنهما ولا حرج، فأهل قريته جميعاً لا يسألونه على جهودهم أجراً إلا الرضاء. . . على أن حظه من الزرع والحصاد لا يتطلب عظيم مشقة لقلة ما يمتلك من الأرض إلا إذا شاء له جاهه فأستجر أرضاً من أصحابها وزرعها في نظير أجر لا يحظى بمثله غيره من الناس

وحمدت الله أن لم تقع علي عين البك فلقد كنت منه كالجن أراه من حيث لا يراني، فما لي طاقة بأن أتلقى منه نظرات الكبرياء والاحتقار التي رأيته يشيع بها كل فرد ممن يسميهم المتعلمين سواء من سلم عليه منهم أو من أعرض عنه، وكان لا يفوته أن يسأل عمن يعرض عنه ثم يذكر آباءهم متسائلاً - وإنه ليعلم - تساؤل الساخر المستطيل، وهو يرد إلى هذا الصنف ممن يسمون المتعلمين في القرى كل أسباب الفساد والرذيلة، ولست أدري ماذا كان عسياً أن يحدث بيني وبينه إذا أخذتني عيناه فنظر إلي وهو لا يعرفني هاتيك النظرات؟ على أنه لم يفطن إلى مكاني وكفى الله المؤمنين القتال!

وأرسل البك في طلب سيارة فحضرت، ووقف السائق حتى نهض البك للركوب فخف به جلساؤه، ونادى أحد الندل ووضع يده في جيبه، ولكن الندل أسرع قائلاً: (الحساب خالص يا سعادة البك) وأشار إلى أحد الحاضرين وتظاهر هذا بالحياء وشكره البك

واتخذ مكانه في السيارة بعد أن سلم على مودعيه، وركب معه من يستصحبهم من أهل قريته
وانطلقت السيارة تحمل ذلك الوجيه العظيم ومن عجيب أمره أنه على عظمته التي رأيت لا يملك سيارة ولكن كل سيارة في هذه الجهة ملك له، فهي جميعاً رهن إشارته، ولن يعدم أن يجد (الحساب خالص) إذا أتخذ إحداها على يد رجل ممن يصحبونه وهو غالباً لا يتخذ سيارة إلا إذا أحضرها له صاحب حاجة يرجو قضاءها على يديه؛ فإن أتخذ سيارة في أمر خاص به وركبها وحده فهو لا يمسك الأجر عن صاحبها إلا إذا سهى، وقليلاً ما يسهو لأنه قل أن يتخذ سيارة وحده
وبعد، فأمثال هذا العظيم في الريف غير قليلين، ولكنا نقول على رغم ذلك: إننا في عهد العرفان والنور، وليت شعري إذا كان هذا عهد النور، فكيف كانت الحال في عهد الظلام، وكيف تكون حالنا غداً إذا نحن أغمضنا العيون عما يشين، ولم نتلمس السبل للخلاص منه؟
الخفيف
الحرب في أسبوع
للأستاذ فوزي الشتوي
هل تنتصر اليونان
هل يتاح للأمة اليونانية النصر في صراعها الحالي مع إيطاليا؟ أو هل يتاح لها على الأقل أن تحتفظ باستقلالها من العدوان الفاشستي؟ سؤالان لا أكاد أجلس في مجتمع حتى أسمعهما، فأسمع أحاديث المتشائمين والمتفائلين، وأسمع حججاً تبرر التشاؤم والتفاؤل، وأسمع مقارنات تدل على الحيرة والتردد في الأخذ برأي قاطع؛ ويرى كثيرون أن مأساة الحرب الروسية الفلندية تتكرر بين إيطاليا واليونان
ومن الواجب أن يقف الباحث لحظة أما هذه الأسئلة الدقيقة، فيستعرض موقف الدول الأربع مما يسمي الناحية العسكرية بما تضم من استعدادات عسكرية، والقرب أو البعد من البلاد الحليفة والمؤيدة، وسهولة صلتها بها أو صعوبتها، وانشغال الدول المعتدية بالحرب في ميادين أخرى
فبين إيطاليا وروسيا كثير من وجوه الاتفاق، وبينهما أيضاً كثير من وجوه الاختلاف ولا يسعنا إلا أن نرجح فيها كفة اليونان؛ وبين فلندا واليونان كثير من وجوه الاتفاق والاختلاف أيضاً؛ ولكن الاختلاف في مصلحة اليونان أيضاً
فعدد سكان الروسيا 185 مليون، وعدد سكان فلندا ثلاثة ملايين؛ وعدد سكان إيطاليا 40 مليوناً وعدد سكان اليونان ثمانية ملايين. كانت الروسيا تحارب فلندا وحدها أما إيطاليا فتحارب إنجلترا في مصر وفي شرق أفريقيا، ثم اشتبكت بالحرب مع اليونان. فلندا واليونان
حقيقة إن الروح المعنوية في فلندا كانت عالية، فباع جنودها أرواحهم بيع السماح، ووفقوا في أول أمرهم توفيقاً كبيراً وهو ما نرى مثيله عند اليونان وإن كانت اليونان تمتاز بعدد أوفر من الرجال تستطيع أن تضعه في ميدان القتال، فلا شك أن عدد المجندين الذين يمكن الانتفاع بهم في ثمانية ملايين يزيد على ضعفي العدد الذي يستطاع تقديمه من ثلاثة ملايين فقط
وأن اليونان تمتاز - في وضعها الجغرافي - بميزة عظيمة، فميدانها قريب من الميدان الشرقي؛ ومواصلاتها معه سهلة لا تعترضها صعوبات تمنع من إمدادها بالمساعدات العسكرية السريعة، وتجهيز جيوشها الباسلة بالعتاد الحربي الذي كان نقصه السبب الأساسي في هزيمة فلندا التي تعذر إمدادها بالذخائر والجنود لصعوبة مواصلاتها مع إنجلترا، ولعدم وجود مرا فيء لها على بحر الشمال، ولمعارضة النرويج أثناء الحرب الفلندية في السماح للجنود المحالفة بالمرور في أرضها، فكانت هذه المعارضة وحدها عاملاً كافياً لحبس المساعدة عن فلندا
أما في اليونان، فالجزء الشرقي في البحر الأبيض المتوسط يقع تحت السيطرة الكاملة للأسطول البريطاني، ويقع في منتصفه تقريباً جزيرة كريت اليونانية التي احتلتها القوات البريطانية، واتخذت منها قواعد حربية لإفساد خطط إيطاليا، ولإمداد اليونان بما يستطاع تقدمه من الرجال والمعدات، وإذا كانت بريطانيا قصرت معونتها لليونان على المعونة البحرية والجوية الآن فالغرض من هذا الاحتفاظ بقوتها البرية في

ميادين أكثر أهمية وهو الميدان المصري الذي يعتبر تعزيزه تهديداً قوياً يشتت شمل القوات الإيطالية ولا يسمح لها بتوجيه ضربتها الحاسمة إلى اليونان من ألبانيا

وقع في إيطاليا صعوبة أخرى فهي تهاجم اليونان من ألبانيا، ونظرة واحدة في خريطة البحر الأبيض تبين الفاصل البحري بين إيطاليا وألبانيا، وتبين أن طريق الإمدادات الإيطالية يجب أن يعبر البحر، فيسهل على أسلحة الطيران تهديده من جزيرة كورفو أو من غيرها، فضلاً عما يحتاج إليه النقل البحري من وقت واستعداد يفوق النقل البري؛ أضف إلى ذلك أن ألبانيا من الدول المحتلة التي تسعى للخلاص من الفاشست، فإذا كان أهلها لا يستطيعون الثروة بضغط الحديد والنار، فإنهم يكفون يد المساعدة للقوات الإيطالية على الأقل

والحوادث العسكرية في اليونان تشابه إلى أمد بعيد مثيلتها في فلندا، ففي الحرب الفلندية أحرز الفلنديون عدة انتصارات حربية، وأوقعوا بالشيوعيين خسائر فادحة حتى أعجب العالم ببسالة ذلك الشعب الصغير، إلا أن الحظ أو الموقع الجغرافي للمدن السوفياتية لم

يسعفهم بقدر ما أسعف زملاءهم اليونان، فلم يستيسر لهم الإحداق بمراكز الهجوم الروسية كما أتيح لليونان الإحداق بكوريتزا مركز الزحف الإيطالي

فإذا قدر لليونانيين الاستيلاء على هذه المدينة التي تقع في الميدان المتوسط للزحف الإيطالي تيسر لهم إحباط جانب كبير من خطط الغزو الإيطالي لبلادهم، أو وقفوا الزحف الإيطالي مدة طويلة وأنقذوا سالونيك التي تقع على إحدى الطرق المتفرعة من هذه المدينة كما يهددون طرق المواصلات الإيطالية في الجهتين الشمالية الممتدة إلى فلورينا في الجبهة الممتدة إلى الشاطيء في جبال أبيروس

ولو وفق الزحف الإيطالي في الوصول إلى سالونيك لتيسر له أن يشطر بلاد اليونان إلى قسمين ولأصبحت مقاطعة تراقية اليونانية لقمة سائغة سهلة الهضم، كما يتاح لإيطاليا الحصول على قواعد بحرية وجوية تعزز مركزها في جزر الدوديكانيز فتستطيع منهما أن تهدد القسم الشرقي من البحر الأبيض المتوسط وتسيطر على بحر أيجة بأجمعه وعلى منطقة المضايق

الصمت التركي

وأثبتت الساسة الترك في حوادث اليونان الأخيرة مبلغ خبرتهم كرجال عسكريين وساسة حكماء بابتعادهم الحالي عن الاشتراك الفعلي في الحرب مع ولائهم لقضية الديمقراطية والمدنية. فإن صمتهم الحالي أفعل وأجدى، وهم بصمتهم يقدمون إلى اليونان مساعدة أجل من مساعدتهم المادية فيكرهون طرف المحور الآخر (ألمانيا) على الوقوف موقف المتفرج

فلو تقدمت الجيوش التركية في تراقية لمساعدة اليونان لاستولت ألمانيا على بلغاريا ومنها تهاجم اليونان ومنطقة المضايق في الدردنيل والبسفور. إلا أن تركيا وفرت قوتها لفترة أكثر مناسبة فأصابت طائرين بحجر واحد، فصانت مصالحها أولاً، واضطرت ألمانيا إلى الانتظار وفوتت عليها فترة كانت ترجوها، حتى يتيسر لها الزحف إلى الشرق حيث منابع البترول في العراق وإيران، ثم تهديد قنال السويس

فاحتفاظ الجيوش التركية بمواقعها وانتظارها لخطط المحور الأصلية التي يستبعد - كما يرى بعض الساسة والعسكريين - أن تكون اليونان واحدة أساسية منها، ينذر بفشل تحقيق هذه الخطط. فالجندي التركي خبير ببلاده متمرن على وعورة أرضها ورداءة جو جبالها

بعكس الجندي الألماني أو الإيطالي. أضف إلى ذلك ما يتكلفه اجتياز منطقة المضايق من أوربا التركية إلى أوربا الآسيوية من ضحايا عسكرية تزيد خطورة كلما زادت القوات الحامية لها في الاستعداد، وخصوصاً إن ألمانيا أو إيطاليا لا تملك القوات البحرية التي تستطيع أن تمهد للاستيلاء على هذه المناطق

وشعرت إيطاليا في الأسابيع الماضية بخطورة المقاومة اليونانية فغيرت القيادة هناك، ورأى القائد الجديد أن يسحب الجنود الإيطالية من مواقعها ليبدأ خطة جديدة تعيد لإيطاليا كرامتها العسكرية، وهذا يدل على مقدار الخسارة التي منيت بها الجيوش الإيطالية حتى أقتنع القائد فشل الخطط السابقة وفضل أن يبدأ حركاته من جديد دون

أن يسيل لعابه من أجل المواقع التي تحتلها قواته
والخلاصة أن ظروف القتال في اليونان تختلف عن مثيلتها في فلندا وتبعث على التفاؤل أكثر مما تبعث على التشاؤم. وإذا كانت بريطانيا لم تمدها بالرجال فليس معنى هذا ضعف الأمل في نجاح اليونان بل ربما تجد القيادة البريطانية أنه سابق لأوانه الآن

فوزي الشتوي
بكالوريوس في الصحافة

بين أثينا وبين روما
للأستاذ عبد اللطيف النشار

بين (أثينا) وبين (روما) ... تغوص بالفكر أم تطير؟
في ظلمات بِقاعِ يمٍّ ... ليس بها ذَرَّة تنير
تختنق العين في دجاها ... والنفس والروح والضمير
فتلك (روما) التي يباهي ... بمجدها جيلها الأخير
ضخامة ما لها رواء ... ينكرها الحس والشعور
يا زهرة ما لها عبير ... في ظلك الضيقُ والنفور
يا زمناً لم يزل يدور ... مبدأ روما هو المصير
شعب ضعيف يسير كرها ... كما يرى حاكم كبير
هيهات هيهات يا أثينا ... لن تقبلي الحكم إذ يجور
دنيا من الحسن يا أثينا ... لا برحت شمسها تنير
يريد إطفاءها غشوم ... هذا لعمري هو الغرور
قد عاش حراً ومات حراً ... ذلكمو الشاكر الصبور
وأرث سقراط في حجاه ... تعجز عن كيده الدهور
في الحرب والسلم يا أثينا ... تشرق في جوك البدور
فيك بشير بكل ما لم ... يأت بمصر له بشير
لو لم تكن مصر لي بلاداً ... لقلت في أرضك النشور
لبيك لبيك يا أثينا ... أسمعني صوتُك الجهير
ما جن (بيرون) في هواها ... لكنه شاعر بصير

طلع الفجر. . .
للأستاذ أمين عزت الهجين

طلع الفجر يا حبيبي وغنى الط ... ير بين الغصون لحن الصباح
فاصح يا حلو، قد صحا الور ... د وطاف النسيم بالأقداح
خمرة هوت الغصون فمالت ... تتناجى تناجِيَ الأرواح
هاهو الغصن على الغصن يميلْ
والفراشات جرت بين الحقول
وحلت جلستنا تحت النخيل
هاهي الأزهار حولي ابتسمت ... ذكرتني بك فاشتقت إليك
فتعال إن روحي ظمئت ... والكؤوس وامتلأت بين يديك
أيها الساحر ماذا فعلتْ ... بفؤادي مقلتاك
صفق القلب وروحي سكرت ... حينما لاح بهاك
وهموم العيش يا بدري ومَضَت ... كلها عند لقاك
يا حبيبي كتب الله لنا ... أن تُقضى في الهوى أعمارنا
فتعال إنه يوم الهنا ... يا حبيبي. . . . . .
هاهي الأطيار تشدو حولنا ... وتغني للروابي حبنا
أنت دنياي ودنياك أنا ... يا حبيبي. . . . . .
ساعة في العمر تقضيها معي ... لا أبالي بعدها ماذا يكون
فإذا ما حان يوماً مصرعي ... وبدت في الأفق أطياف المنون
سوف لا أذكر إلا قبلة ... منك توجتَ بها هذا الجبين

ما أكذب الأحلام
للأستاذ فؤاد بليبل

لاَ الحُبُّ عَادَ وَلاَ جَمَالُكِ دَامَا ... فَعَلاَمَ أشْقَي في هَوَاكُ عَلامَا؟
أَغْرَيْتِنِي بِالمَالِ حَتَّى خِلْتني ... نِلْتُ المَرَامَ وما قَضَيتُ مَراما
خَاب الرَّجَاءُ فَيَا لَشَقْوَةِ شَاعِر ... ضَلَّ الحِسَاب وَأخْطَأَ الأرْقاما
وَقَفَ الحياةَ عَلَى الدَّمَى مُتَجَرِّداً ... مِنْ قَلْبِهِ وَتَعَشَّقَ الأصْنَاما
وَمَضَى يُخَادِعُ نَفْسَهُ في وَصْلِهِ ... مَنِ لا يُحِبُّ وَهَجْرِهِ الآراما
أغْرَتْكِ مِنْهُ صَبْوَةٌ كَذَّابَةٌ ... فحسبتِهِ بِهَوَاكِ جُنَّ هُيَاما
وَسَبَتْكِ رِقَّتُهُ وَعَذْبُ بَيَانِهِ ... فَظَنَنْتِهِ أرْعَى الأنَامِ ذِماماً
هَلْ كانَ حُبُّكِ غَيْرَ طَيْفِ عابرٍ ... نَادي الغُرورُ بهِ فَزَارَ لِماما
حُلْمٌ مِنَ الأحْلاَمِ مرَّ بخَاطِري ... يَوْماً وأجْفَلَ مُعْرِضاً أعْواما
حُلْم تَوَسْمتُ المسرَّةَ وَالرِّضا ... فيه، فكانَ كآبَةً وَخِصَاما
حُلْمٌ، رَجَوتُ به الشِّفاءَ وَلم أكُنْ ... لا أظُنَّ أن الدَّاءَ كانَ عقاما
حُلْمٌ، نَعَمْ حُلْمٌ تَصَرَّمَ وانْقَضَتْ ... أوْهَامُهُ، ما أكذَبَ الأحْلاَما
أغْنِيَّةُ الحُبِّ الذي ألهَمْتني ... أسْرَارَه، فَنَظَمْتُهَا أنغاماً
ماتَتْ عَلَى شفَتَيَّ حَتىَّ أصْبَحَتْ ... أنْاتِ حُزْنٍ تَبْعَثُ الآلاما
يا خَيْبَةَ الآمالِ كيفَ تَصَرَّمَتَ ... لم تشفِ جُرْحاً، أو تبلَّ أوَاما
خِلْتُ السَّعَادَةَ فِي غَنَاكِ حَقِيقةً ... وَطلبتُهَا، فَوَجَدْتُها أوْهَاما
والمالُ! ساَء المالَ! كم مِنْ شاعِر ... لَمَحَ الرَّدَى بِبَرِيقِه فَتَعَامَى
ليسَ السَّعَادَةُ أنْ تعِيشَ عَلَى القِلَى ... إنَّ السَّعَادَةَ أن تَموت غَرَاماً

البريد الأدبي

كتب لم أقرأها

تفضلت الآنسة سناء محمد فأرشدتني إلى مرجع قيم لموضوع كنت قد ألممت به في كلمة لي نشرتها الرسالة. أما المرجع فهو شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل، وأما موضوعي فيتعلق بالكلمات العامية. وسيرى القارئ أي فضل أسدته إلي الآنسة حين نبهتني في رفق ولين إلى وجوب البحث في المراجع قبل تناول ما يتصل بها من الموضوعات

على أني إن شكرت لها هذا الفضل فإنها قد أوحت إلي بخاطر سأظل معترفاً لها بالعجز عن الشكر عليه. وهذا الخاطر هو أن أنشر كتاباً عنوانه (كتب لم أقرأها) أقسم إنه لعنوان رائع. . . ولئن وفق كاتب إلى الإتقان في وضع كتاب كهذا فهو بالغ به الذروة في عالم التأليف! ألا يتاح له بث مشاعره كلها نحو المجهول؟ (كتب لم أقرأها). . . إنها لملايين وإن لدى الكاتب من الشوق إلى بعضها ومن العلم بشيء عن البعض، ومن الأوهام والجهالات عن أكثرها، ما تتسع له طوال الأعمار وطوال الأسفار

وفي غير هذا المكان من الرسالة كلمة عن أحد الكتب التي لم أقرأها، ويبين منه أسلوبي في تناول هذا الموضوع فلن أغرب وإن لم أعجب، ولن أتبع طريقاً غير مألوف بل سأتحدث عن كتب قرأت عنها في لغة أخرى وهي مكتوبة عنا ونحن أحوج إلى قراءتها

فإلى التي أوحت إلي بهذا الخاطر أهدى هذا المقال وما يتبعه تحت عنوانه - إن أفسحت الرسالة صدرها لهذه الرسائل

وإلى الرسالة وإليها أهدي خالص التحية.

عبد اللطيف النشار

حول الحرب والشعر

يؤسفني أنني أغضبت الأستاذ العقاد بملاحظات متواضعة على ترجمته لقصيدة سهول الفلاندر المشهورة للشاعر الكندي جون ماك كراي

وإذا كان الأستاذ تفضل فأسعفني بالنص الإنجليزي من كتاب (بعد عشرين عاماً) الذي أعتمد عليه في كتابه مقاله، فإنني أهدي إليه النص الإنجليزي من مقال الأديب الأمريكي المشهور برنهارد راجز وهو في مجلة نيويورك تيمس يناير سنة 1938والنص هكذا

, - ,

وترجمة هكذا (ولما أدرك محرر البنش ما في القصيدة من جمال نشرها في حروف كبيرة لا تستعملها الصحيفة إلا في المناسبات العظيمة) وهذا الكلام هو ما قلناه بعينه

في خطابنا المنشور بالرسالة في صلب مقال الأستاذ للعقاد
أما ترجمة كلمة بالعنان فلا زلت أخالف الأستاذ العقاد فيها لأنه كان الأصح أن يقول:
خذوا بأيديكم عنان النضال مع الأعداء
أيدينا المتخاذلة ألقت إليكم (بالشعلة)
فارفعوها أنتم أنفسكم عالية
أما ترجمته بقوله: (كنا أحياء وكنا نحيا) فهو تكرار لا وجود في الأصل كما قلتُ
وأما ذكر الجملة الشرطية في ترجمة الأستاذ بقوله (ارفعوها ولو بقيت في أيديكم)
فهو شرط لم يرد في الأصل
بقيت نصيحة الأستاذ المخلصة لي بأن (أتعلم قبل أن أتهجم) وهي نصيحة سأعمل بها،
وأجد من الشرف دائماً أن يكون الإنسان محتاجاً إلى العلم في كل لحظة وعليه منا
ألف تحية وسلام.
محمد عبد الغني حسن
تقسيم الجيش الحديث
تنشر هذا التقسيم لنساعد القارئ على فهم المصطلحات العسكرية التي ترد في
البرقيات اليومية، وهي لا تكاد تختلف في مختلف الجيوش
مجموعة جيوش جيشان فأكثر
فأكثر
فأكثر
الفرقة جيش صغير كامل العدة (1)
أو ثلاثة (2)
الآلاي كتيبتان أو ثلاث أو أربع
أربعة أو ستة مدافع بمعداتها
الكتيبة (مشاة) 3 أو 4 أو 5 سريات
الكتيبة 3 أو 4 أو 5 سريات
أو 4 فصائل
سرية خيالية أو 4 فصائل
أو 4 جماعات
الجماعة (الصنف) أصغر وحدة عسكرية
إلى الأستاذ الباجوري
شرحنا البيتين يا أخي شرحاً أيدتنا به كتب التصوف التي بأيدينا ووافقنا عليه أديبان - 1
في العدد 383، وإليك اليوم بعض أقوال الصوفية لتكون الحجة:
قال الشاعر:
(بذكر الله تزداد الذنوب ... وتحتجب البصائر والقلوب)
(وترك الذكر أفضل منه (حالاً) ... فإن الشمس ليس لها غروب)
والشطر الأول من البيت الأول يفسره قول الجنيد: (من قال (الله) عن غير مشاهدة
فقد افترى)، وقول الشاعر:
(وذكر يعزي النفس عنها لأنه ... لها متلف من حيث تدري ولا يدري)
ويقول ثالث: (. . . معناه أن التقرب إليه بالأعمال تفرقة). وسخر شاعر من
(الذاكرين) فقال:
(هبني أراعيك بالأذكار ملتمساً ... ما يبتغيه ذوو التلوين بالغير)
ويفسر الشطر الأخير منه، ويبين كيف الذكر باللسان (يحجب البصائر ويغلف القلوب)
قول القائل: (إنما يحجب العبد عن مشاهدة مولاه (أوصافه))
وفي البيت الثاني أنتقل الشاعر من الذكر اللفظي إلى الترغيب في الحال الذي هو
الغيبوبة عن هذا الوجود، والاتصال بالله تعالي مباشرة، وإلى هذا يشير (محمد بن
إسحاق) في
كتابه (التعرف لمذهب أهل التصوف) قال: (فكأن جمعي به فرقني عني فيكون حالة
الوصل هو أن يكون الله عز وجل مصرفي، فلا أكون أنا في أفعالي، فهو الله لا أنا، كما
قال لنبيه: (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى). وهذا لسان الحال ولسان العلم. . .
الخ) ويشير إليه أيضاً بقوله: (يكون فانياً عن أوصافه باقياً بأوصاف الحق) والحال هذا

هو الذي يفسرونه أحياناً بالمعرفة الحقة: (المعرفة إذا وردت على السر ضاق السر عن حملها كالشمس يمنع شعاعها من إدراك نهايتها وجوهرها)
وهنا أحب أن أقول للأديب (الباجوري) إنه ذكر أن (أصحاب البصائر والقلوب حال)، وليس الأمر كذلك، وإلا لما اضطر إلى النص في البيت الثاني على (الحال)، ولاكتفي بدلا عنه بالضمير
2 - نحن لم نتهمكم بما لا تعلمونه يا سيدي، وأنت وإن كنت صوفياً لا تقول (بالحلول) إلا أن غيرك من السادة آمن به وقال عنه بل واستشهد في سبيله، وصنف له الكتب. وما (الظرفية) التي تتحدث عنها إلا السلاح الذي يشهره أعداء الصوفية في وجوههم، ولنقرأ معاً بعض ما نقلوه وقالوه عن مذهبهم في (الحلول)
نقلوا عن أبن عمر أنه قال: (كنا (نتراءى الله) في ذلك (المكان) يعني الطواف) ونقلوا قول محمد بن واسع: (ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله فيه)، ونقلوا قول الرسول صلى الله عليه وسلم (كنت له سمعاً وبصراً ويداً في يسمع وبي يبصر)، كل هذا نقلوه ليقولوه: (من أدعى شيئاً من ملكه - وهو ما سكن في الليل والنهار - من خطرة وحركة أنها له، أو به، أو إليه أو منه فقد جاذب القبضة، وأوهن العزة) وليقول الجنيد: (هو العارف والمعروف)، وليقولوا ما تقدم: (فهو الله تعالى لا أنا فيكون (المعبود والعبد))
وبعد كل هذا أحيل الأديب على الدكتور زكي مبارك الذي دون في كتابه (التصوف) ما يقرب من نحو سبعين صفحة في تحليل هذا المذهب - مذهب الحلول - وهو يفاخر بأنه استطاع أن يحصره
السعيد جمعة
بين الرسالة والكتاب
كَثُر ما يرد على الرسالة مقالات وملاحظات لأسماء مستعارة فلا نستطيع نشرها لأن كتابها الأفاضل ينسون أن يذكروا أسمائهم الحقيقية بجانب أسمائهم الاصطلاحية ثم يلوموننا على إغفال النشر. وقد رجوناهم من قبل ألا يقفونا موقف المحرج بين رغباتهم الأدبية وبين واجباتنا الصحفية، ولا بأس أن تكرر اليوم هذا الرجاء.
حول كتاب
كنت أتصفح عرضاً كتاب (شرح المحفوظات والنصوص العربية) للمدارس الثانوية (الجزء الثاني - الطبعة الرابعة)، فاستوقفني شرح المؤلفين شرح لبيت المتنبي:
ولو أن الحياة تبقى لحي ... لعددنا أضلنا الشجعانا
فقد جاء في شرحه: (لو فرض أن إنساناً يخلد حياً لكان هذا الإنسان من الجبناء الذين يفرون من مواقف الخطر على النفوس دون الشجعان الذين يحافظون على كرامتهم وشرفهم في أحرج المواقف التي تعرضهم للهلاك. والواقع أن كل نفس ذائقة الموت متى حل أجلها)
ورأيت أن شرح البيت على الصورة المتقدمة لا ينطبق على معناه. والذي يدل عليه البيت هو أنه لو كان هناك خلود وان الإنسان يبقى حياً مهما أمتد به العمر لا يموت موته طبيعية لكان بالغ الطيش وعين الحماقة ومنتهى الظلال أن يكون شجاعاً يواجه الموت مختاراً. ولكن لما كان الموت مصير كل حي فإن في التشبث بالحياة والتنحي عما يمليه الواجب مذلة وهوناً. ويتم هذا المعنى البيت الذي سبق البيت المذكور والبيت الذي تلاه
وقد عن لي أن أطلع على شرح ديوان المتنبي للأستاذ عبد الرحمن البرقوقي فرأيته قد أورد شرحاً للبيت ما يلي:
(لو كانت الحياة باقية لكان الشجاع الذي يتعرض للقتل أضل الناس؛ يعني أن الحياة لا تبقى وإن جبن الإنسان ولزم عقر داره وحرص على البقاء، ثم أكد هذا بالبيت التالي
ولعله لا يسوء الأساتذة الشارحين هذا التعليق ودافعي عليه وجه الحق وحدَه
محمود أحمد وصيف
أمة التوحيد تتحد
سيدي الأستاذ صاحب الرسالة الغراء
كان لافتتاحيتكم البليغة في العدد 384 تعليقاً على ما نشرته الأهرام عن مشروع تحالف بين الدول العربية رنة استحسان عظيمة في الأوساط كلها لأنها عبرت عما

يتمناه كل مسلم وعربي من لم شمل العربية والمسلمين وجمع كلمتهم وتوحيد قوتهم حتى يتألف منهم حلف يستطاع الانتفاع به في هذه الظروف المدلهمة
وفي الأهرام الصادرة في 7 الجاري خلاصة لخطبة العرش التي ألقاها سمو الأمير عبد الإله الوصي على عرش العراق يوم 5 الجاري وقد جاء فيها: (إن الأحوال العالمية لم تزل تتطور تطوراً خطيراً يدعوا إلى أشد اليقظة والانتباه إلا أنه مما يستدعي ارتياحنا أن تكون حكومتنا ساهرة على مصالح البلاد واضعة نصب عينيها صيانة سلامة المملكة باتخاذها كل التدابير الممكنة، كما أنها لا تنفك عن مواصلة الجهود في سبيل ما تصبو إليه الأقطار العربية المجاورة من الأماني القومية. أما علاقتنا الحسنة مع المملكتين الشقيقتين العربية السعودية واليمن وكذلك مع جارتينا العزيزتين تركيا وإيران فتزداد وثوقاً ولا سيما في الظروف العصيبة هذه)
وللعراق فضل كبير في سبيل توحيد كلمة العرب منذ ما تبوأ مقعده بين الدول المستقلة ومنذ بدأ بعقد أواصر الإخاء والمودة مع جارته وأولاها المملكة العربية السعودية وكان بينهما جفاء شديد فعقد معها محالفة ثم عقد مثلها مع دولة اليمن وشرق الأردن، ثم دخل العراق في حلف سعد آباد فعقد أواصر الإخاء مع جاراته كلها، ولم يقتصر على ذلك بل سعى في بلاده وفي لندن وباريس وتركيا لخدمة فلسطين وسوريا
إن أول نواة كان لها أفعل الأثر في كيان العرب هو عمل جلالة الملك فيصل - رحمه الله - مؤسس مملكة العراق إذ سعى سعيه المشكور للاجتماع بجلالة الملك عبد العزيز آل سعود، ذلك الاجتماع التاريخي على ظهر باخرة بريطانية، فقد أظهر الرجولة الملك فيصل في كل تضحية في سبيل نسيان العداء، وتأسيس وحدة عربية قوية فعلت فعلها، والعمل على ما فيه خير العرب والمسلمين، وهاهو ذا خطاب العرش في عهد جلالة الملك فيصل الثاني حفيد مؤسس العراق يشير إلى خدمة العروبة في هذه الظروف المدلهمة وهو صادق في إشارته
فإذا تحققت الوحدة العربية والإسلامية كان العراق أفعل الأثر في هذا المضمار العظيم.
وسيدي الأستاذ الزيات من أعلم الناس بفضل العراق على البعثات العربية في بلاده وكيف يرسل البعثات العسكرية والعلمية والعملية إلى جاراته مثل اليمن والمملكة العربية السعودية للخدمة الفعالة في الأقطار الشقيقة. وهذه كلها مقدمات لوحدة عربية عملية سريعة.
نسأل الله أن يحقق للعرب والمسلمين وحدة تزيدهم قوة وأن يتولانا بلطفه وكرمه وينقذنا مما حولنا، إنه خير مسئول.
(القاهرة)
محي الدين رضا
القصص
هل كان حلماً
عن الفرنسية
أحبتها إلى حد الجنون! ولماذا يحب الإنسان؟. . . لماذا يجب؟ ما أغرب الحالة التي يصير إليها من لا يريد أن يرى غير امرأة واحدة ولا يفكر إلا في فكرة واحدة ولا يضمر إلا رغبة واحدة ولا ينطق إلا باسم واحد يخرج من أعماق نفسه متدفقاً كالماء من الينبوع ولا يزال يعيده في وحدته كأنه بعض الصلوات والأدعية!
سأخبرك بقصتنا وهي قصة لجميع المحبين، فإن للحب سيرة واحدة. . . قابلتها فأحببتها وبقيت عاماً كاملاً أعيش في حنانها ورحمتها. . . بين ذراعيها وثوبها. في كلماتها ونظراتها وكنت مغموراً في كل ما يصدر عنها فلم أعد أعرف الليل من النهار، ولا الحياة من الموت، ولا هل كنت في الأرض أم في مكان آخر
ثم ماتت ولكن كيف؟
لست أدري، لم أعد أذكر!
جاءت مبتلة الثياب في ليلة ممطرة، وفي اليوم التالي أصيبت بالسعال، ثم اشتدت الحالة بعد أسبوع فلزمت الفراش. ولست أدري ماذا حدث في خلال هذه المدة أن الطبيب كان يأتي ويكتب ورقة وينصرف. . . وكانت امرأة في المنزل تحضر الدواء

وتسقيها. وكانت يداها حارتين وجبينها يكاد يحترق. وعيناها تسطعان في حزن. وكنت أكلمها فتجيب، ولكنني لا أعي ماذا كنا نقول. . . لقد نسيت كل شيء! كل شيء. . . كل شيء! وماتت وأنا لا أزال أتصور شهيقها الخافت الضعيف

وقالت الخادم إنها عرفت كل شيء. . . فأما أنا ففقدت إدراكي؛ ثم رأيت القسيس يوجه الخطاب إلي ويقول: (خليلتك. . .)؛ فخطر لي أنه يريد إهانتها، ولأنها قد ماتت فما ينبغي أن يشير أحد إلى ما كان بيني وبينها، ولذلك طردت القسيس. . . وجاء رجل في غاية الشفقة واللطف فكلمتي عنها كلاماً أجرى دموعي

واستشاروني في أمر الجنازة ولكني لا أدرك كلمة مما قالوه، وإن كنت أتذكر شكل الصندوق وصوت الفؤوس، وحينما فتحوا القبر، عفوك اللهم ورضاك!

دفنوها! نعم دفنوها! هي في القبر. . . وجاء صواحبها وهربت، ولم أزل أجري من) طريق إلى طريق. وفي اليوم التالي بدأت السياحة. . .

وفي الأمس رجعت إلى باريس، ولما رأيت غرفتنا القديمة وسريرنا وأثاثنا وكل شيء يبقى من الحياة إنسانية بعد الموت، لما رأيت ذلك أصابتني نوبة جديدة من الحزن حتى كدت أفتح النافذة وألقى بنفسي منها

ولما لم يكن في وسعي البقاء بين تلك الجدران التي كانت تضمها فقد حملت قبعتي أريد الخروج، فلما وصلت إلى الردهة رأيت مرآة طويلة كانت وضعتها هناك لتصلح من هندامها وهي خارجة فوقفت أمام المرآة وكدت أرى صورتها مطبوعة عليها

وقفت أرتعش ونظري معقود بتلك الصفحة الصقلية العميقة المصنوعة من البلور في تلك المرآة التي كانت تحتويها. وشعرت بأنني أحب هذه المرآة فلمستها ووجدتها باردة. ما أوجع الذكرى أيتها المرآة المحزنة، المرآة المحرقة، المرآة المفزعة التي جعلتني أقاسي كل هذه الآلام!

سعيد من يستطيع أن ينسى كل ما انطبع على صفحة المرآة وكل من مر بها وكل من نظر إلى نفسه فيها. لقد كان الوجه الذي يرتسم عليها هو وجه الحبيبة الراحلة. فما أشد ما أعاني

خرجت من المنزل من غير رغبة ولا مقصد، وظللت أمشي حتى وجدت نفسي بين المقابر، وجدت قبرها البسيط وعليه صليب صغير من المرمر قد نقش عليه (أحبت وماتت)

هاهي ذي هناك ولكن جسمها أصبح بالياً، فما أكبر المصاب، بكيت هنالك ورأسي منحن على القبر، وظللت واقفاً مدة طويلة حتى أظلم الليل؛ ثم قامت بذهني رغبة جنونية غريبة رغبة المحب اليائس؛ أردت أن أقضي الليل كله باكياً لدى القبر وخشيت أن يروني فيطردوني فماذا أفعل؟

ابتعدت عن القبر وظللت أمشي في مدينة الأموات وما أضيقها بالقياس إلى مدن الأحياء! ثم ما أكثر الموتى وأقل الأحياء بالقياس إليهم! نحن نحب المنازل العالية والطرق المتسعة، ونحب أن نشرب الماء من ينابيعه والخمر من كرومها، ونأكل مما تنبت الأرض، ولكن ليس للموتى شيء غير أن الأرض تأكلهم كما أكلوا نيتها

وعند نهاية المقابر وجدت أجداثاً قديمة تكاد الأرض تعلوها وقد بلي ما عليها من الصلبان والأحجار وامتنع زوارها، وعند هذه الأجداث وجدت أشجاراً كثيفة وحديقة صغيرة جميلة تبعث الحزن لأن أعوادها تستمد الغذاء من لحوم الموتى

ولم يكن في هذا المكان أحد غيري فاختبأت وراء شجرة كثيفة متشبثاً بالثمامة كما يفعل الغرقى

ولما أشتد ظلام الليل تركت مكاني ومشيت بخفة وبطء حريصاً على ألا يسمعني أحد وإن كان المكان خالياً إلا من الموتى؛ وظللت أمشي مسافة طويلة ولكنني لم أهتد إلى قبرها فبسطت يدي وصرت أتلمس بها كل قبر فلم أهتد إليه. وكنت أمشي كما يمشي العميان فعثرت مراراً بقطع من الصلبان والأحجار والحدائد وبأسلاك معدنية كانت في وقت من الأوقات تلتف حولها أزاهر الأكاليل، وصرت أقرأ أسماء الموتى المنقوشة على قبورهم. فما هذه الليلة؟ ما هذه الليلة الرهيبة! لقد كادت تنقضي ولم أهتدي إلى القبر

ولم يكن في السماء قمر ولا نجوم وكنت خائفاً في هذه الممرات الضيقة بين صفوف القبور. . . القبور القبور، ولا شيء غير القبور. . .! عن يميني وعن يساري وأمامي

وحولي قبور. . . جلست على أحدها لأني لم أعد أستطيع موالاة السير، وكنت اسمع دقات قلبي، وكنت أسمع صوتاً آخر يشبه ذلك الصوت. . . ما هو؟ جلبة ضعيفة قد اختلطت فيها الأصوات، فهل كانت في رأسي من التعب أم كانت تحت التراب الممتلئ بالرمم؟

نظرت حولي ولكنني لم أتبين كم ساعة قضيت. وكنت كالمشلول من كثرة الخوف والانزعاج، وكدت أصرخ، بل كدت أموت

ثم تخيلت فجأة أن قطعة الرخام التي جلست فوقها قد بدأت تتحرك، وانتقلت منها إلى التي يجنبها، ورأيت القبر الذي تركته قد أنفتح وظهر الميت الذي كان به ولم يكن غير عظام عارية من اللحم وكان هو الذي يدفع غطاء قبره ليفتحه

نظرت إلى السم المنقوش على القبر فرأيت هذه الكتابة: (هنا جاك أوليفانت الذي مات في الحادية والخمسين، وكان محباً لأسرته رحيما شريفاً)

وقرأ الميت أيضاً هذه الجملة، ثم أخذ من العظم قطعة حديدة الطرف، وصار يمحو هذا النقش بعناية حتى طمسه ونظر بثقبي عينيه الأجوفين، وكتب بقطعة العظم الباقية بين

إصبعيه:

هنا جاك أوليفانت الذي مات في الحادية والخمسين وقد عجل بوفاة أبيه عقوقاً منه) وشرهاً إلى الميراث، وأشقى زوجته وعذب أولاده وخدع جيرانه وسرق كل ما استطاع (أن يسرقه ثم مات منكوداً

لما فرغ الميت من هذه الكتابة وقف بغير حراك ونظر إلى ما كتبه، ونظرت أنا فرأيت كل من في المقابر قد فتحوا قبورهم ومحوا الأكاذيب التي كتبها أقاربهم عليها وأثبتوا الحقائق بدلها ووجدت أكثرهم من أهل الحقد والدناءة والرياء والكذب والخداع والحسد، وقد ارتكبوا أبشع الآثام. وقد كان منقوشاً على قبورهم أنهم أبرياء بررة وزوجات أمينات وأبناء رحماء وبنات طاهرات وتجار شرفاء

وظننت أنها قد كتبت شيئاً على قبرها، فجريت غير خائف بين صفوف الموتى عرفتها وإن لم أنظر إلى وجهها بل كانت معرفتي لغطاء القبر الذي كان منقوشاً عليه: (أحبت وماتت) فرأيتها تمحو ذلك وتكتب: (خرجت يوماً لكي تخون حبيبها فأصابها البرد ومرضت فماتت)

ويظهر أنهم وجدوني في اليوم التالي بجانب القبر في حالة إغماء.

(ع. ا)

المسرح والسينما

في الفرقة القومية

تسنى لي أن أستمع إلى الألحان التي وضعها الأستاذ عباس يونس لرواية القضاء والقدر فقلت: كيف لم تتح الفرقة القومية من قبل لهذا الشاب أن يبرز هذه الكفاية الموءودة بعد ما انتهى إلى أن تأريخه الموسيقى يشهد له بالتفوق

إن العمق في الموسيقى يحببها إلى ذوى الأفئدة النابضة من الناس، ولسنا نقصد بالعمق عمق المستنقع الراكد العفن، ولكنا نعني به عمق المحيط وعمق الفجر وعمق الليل، فمن الناس من يعجب بائتلاق في راد الضحى، وهو لا يدرك الجمال الخافت في اهتزاز السحر بين جوانح الظلماء

وعباس يونس فنان عميق أتمنى أن يستمع إليه الصديق الأستاذ عزيز أحمد فهمي فهو أقدر مني على تحليل فنه وعلى التسرب بإحساسه إلى أغوار موسيقاه. وليس يسعني هنا إلا أن أحمد للأستاذ الشاعر خليل مطران بك الأخذ بيد هذا المغني راجياً كل الرجاء وملحاً كل الإلحاح في إعطائه الفرص الكافية لإظهار مواهبه الغريزة فقد تجمع له الإلهام والطبيعة الفنية والأداة

السينما المحلية

كثرت في هذه الأيام الأفلام المصرية التي في سبيلها إلى الظهور، فشركة تلحمي تعد فلم (انتصار الشباب) لفريد الأطرش وإسمهان. وستديو لاما يعمل في فلم (صلاح الدين الأيوبي)، وآسيا داغر وتوجو مزارحي وكثيرون غيرهما يواصلون العمل في أفلام عديدة تتراوح بين القوة والضعف. وإنا لنكبر هذه الروح التي تحفز أصحاب الشركات إلى الإنتاج، وخاصة في حالة الحرب؛ ولكنا نأسف كل الأسف حين نصطدم بحقيقة

مؤلمة، وهي أنهم ينتجون لأن السينما صناعة رابحة تدر عليهم من المال ما ينسيهم جلال الفن السينمي ودقته؛ فتخرج أفلامهم إلى الناس عرجاء مشوهة، ولو توخوا العناية لخدموا الفن وخدموا أنفسهم، وإنا لفي انتظار المشاهدة. . .

عند بديعة

أقامت السيدة (بديعة مصابنى) حفلة للصحافيين كعادتها السنوية عرضت فيها فرقتها مجهوداً طيباً من تمثيل ورقص وغناء وقد دلت بذلك على مقدار ما بذلته من تضحية لإقامة المسرح الدائر ولاستكمال عناصر فنية قوية يرجع إليها نجاحها الدائم.

أخبار هوليود

* سيظهر الممثل نلسن أيدي في ثلاثة أفلام موسيقية كبيرة، وهي: (قرصان النيومون)، (تزوجت ملاكاً)، بعد ما صادف نجاحاً منقطع النظير في فلم (بالاليكا)

* سيعود الكوكب شارلز وونجر في فلم (نيلي كيلي الصغيرة)، وهذا الفلم من إنتاج آرثر فريد منتج فلم (مائة فتاة وميكي واحد)، ومن إخراج نورمان نورج. وسيشترك في هذا الفلم جودي جارلاند والكوكب الراقص جورج مارفي الذي سنراه قريباً في (أنشودة برودواي لعام 1940) ودوجلاس ماكفيل كوكب قصة (مائة فتاة وميكي واحد)

* يسرنا أن نزف إلى رواد السينما نبأ رجوع النجمة هيلين جيروم إيدي إلى حلبة العمل؛ وهي صاحبة الشهرة الواسعة أيام السينما الصامتة فستظهر في رواية

عبد الرحمن الخميسي

العدد 387 - بتاريخ: 02 - 12 - 1940

حكمة الأقاصيص

للأستاذ عباس محمود العقاد

قرأت فصولاً كثيرة في التفرقة بين الفلسفات الاجتماعية والسياسية فلا أذكر أنني قرأت في سطور معدودة تفرقة أظرف وأفكه من التفرقة التي تمثلها لنا قصة البقرتين الأمريكية التي نلخصها فيما يلي:

فالاشتراكية هي أن تكون لك بقرتان فتعطي جارك إحداهما. والشيوعية أن تكون لك بقرتان فتأخذهما منك الحكومة كلتيهما وتعطيك من اللبن ما تحسب أنك في حاجة إليه والفاشية أن تكون لك بقرتان فتبقى البقرتين عندك وترسل اللبن إلى الحكومة. والنازية أن تكون لك بقرتان فتأتي الحكومة فتأخذك أنت وتأخذ معك البقرتين. والإصلاح الأمريكي الجديد على طريقة روزفلت أن تكون لك بقرتان فتصطاد الحكومة إحداهما وتحلب الثانية وتريق لبنها على التراب!

والديمقراطية أن تكون لك بقرتان ملكا فتؤدي ثمنها مرة أخرى على التقسيط ضرائب وإتاوات

و (الرأسمالية) أن تكون لك بقرتان فتبيع إحداهما وتشتري بثمنها ثوراً وتنتج منهما عجولاً وبقيرات

وفي هذه القصة من المبالغة ما في معظم الفكاهات والصور الهزلية، ولكن أين هي السطور القليلة التي تفرق بين الفلسفات السبع تفرقة أقرب إلى الفهم وحسن المقابلة من هذه التفرقة الفكاهية؟ وأين هو الجد الذي يسلم من المبالغة كل السلامة على إرادة من صاحبه أو على غير إرادة؟

ويبدو لنا أن المباحث الحديثة أحوج ما تكون إلى كتاب يعالجها على أسلوب القصة الأمريكية، وإننا نحن الشرقيين أولى بإخراج هذا الكتاب لأننا حذقنا فن القصة الحكيمة من عصور بعيدة، ولأننا قليلو الصبر على دراسة المطولات في هذه الموضوعات والظاهر أن بلاد كليلة ودمنة - ونعني بها الهند - تأبى أن يفوتها نصيبها من هذا الواجب الحديث، وأن الأستاذ الفاضل عبده الزيات قد اهتدى إلى كتاب من قبيل الكتاب الذي نقترحه على العالم الشرقي، حين ترجم إلى العربية (حكايات من الهند) يجتمع لها ما نبغيه

من حسن التقريب وحسن الفكاهة وحسن الإيجاز

فكتاب (حكايات من الهند) ثروة لا تقل في جوهرها عن الثروة الغالية التي ربحها العالم من كتاب كليلة ودمنة، وأنفس ما فيه تلك البساطة التي قد تصغر من شأنه في نظر السطحيين وهي هي مزيته الكبرى وغايته القصوى، بل غاية جميع الحكماء من تبسيط المركبات وتسهيل المعضلات. . . أليس المقصود بهذه الحكمة القصصية أن

تمثل لنا الحقائق العويصة في صورة البدهيات التي لا تحتاج إلى بينة ولا إطالة بيان؟
إليك مثلاً قصة الرجل الذي ترك لأبنائه الثلاثة بطيخة يحتفظون بها فظن أحدهم أنه
يحتفظ بتراث أبيه إذا أبقاها عندهم حتى تفسد وتفسد ما حولها، وظن الثاني أنه
يحتفظ به إذا باعها واشترى غيرها، وظن الثالث أنه يحتفظ بذلك التراث أجمل احتفاظ
إذا أنتفع ببذور البطيخة ولم يحرص على قشورها وفضولها
أليست هذه معضلة التجديد في أوضح صورة وأبسطها؟ أليس المحتفظون بالبطيخة
حتى تفسد ويفسد ما حولها هم الجامدين الغافلين؟ أليس الذين يبيعونها ويشترون
غيرها هم المجددين الذين يستبدلون جديداً بقديم ولكنهم يقطعون الصلة بين هذا
وذاك؟ أليس زارعو البذور هم المجددين الصالحين الذين يصونون تراث الآباء
ويضاعفونه ولا يخسرون طرافة الجديد في كل موسم؟ أليست هذه حكمة يسيرة
عسيرة تستدني النجم البعيد فإذا هو في متناول اليدين؟
ولقد حكى المؤلف حكايته ثم عقب عليها بمغزاها فزاد الحكاية الصغيرة توضيحاً على
توضيح حين قال: (. . . أما الاحتفاظ بالبطيخة الفاسدة حتى يأتي الدود عليها جميعاً
فمجلبة للسخرية والأمراض ومضيعة للبطيخة. . . وأما رميها برمتها والاعتياض منها
بجديدة نبتاعها فتبديد لتراث أبينا وللنقود التي نؤديها في ثمن هذه وأثمان غيرها، هذا
إلى أن كل ما نشتريه لابد أن يجري
عليه من الفساد مثل ما جرى على بطيختنا. إن التجديد هو ملاك الحياة والتقدم بيد أن
(جديد ينبغي أن يتولد من بذور الماضي
وذلك فيما نعتقد فصل الخطاب في مسألة التجديد.
ولقد رأيت في حياتي ألف مصداق لـ (عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم)، ورأيت
مرات أننا لو أطلعنا على الغيب لاخترنا الواقع، ولكني لا أحسب أن قصة صغيرة تقرب
هذه الحقيقة البعيدة كما قربتها قصة المؤلف الهندي التي جعل عنوانها (لم كان
الصخر صلباً؟) وروي فيها أن حجاراً تعب من صلابة الصخر، فتمنى على الله لو أصبح
هذا الصخر الصلب رخواً كالزبد والعجين، فلما أستجيب دعاؤه قطع في يوم واحد
أضعاف أضعاف ما كان يقطع في أيامه السابقة، ولكن الصخر بار وكسد، لأن الناس
استغنوا عن البناء به وأعرضوا عن شرائه؛ وعاد الحجار يقول: (رب! إنك لأعلم أين
الخير لعبادك، فاغفر لي دعوتي ورد الصخر صلباً ثقيلاً كما برأته أول مرة).
ويعرض المؤلف مزية الصلابة ومزية الرخاوة في معرض آخر حين يروي عن الصخر
أنه تكبر على الطينة القريبة منه، فشمخ بأنفه عليها وقال لها: (أنا صلب نظيف جميل
حمول قوي. أما أنت فرخوة قذرة متداعية قبيحة ضعيفة. . .).
فلم تنكر الطينة شيئاً من مزاياه ولا شيئاً من عيوبها، ولكنها أجابته قائلة: (إني لأنمي
الحبوب والخضر التي يعيش عليها كل حي، فماذا تنمي أنت؟ إن قوتك عقيمة، وأما
ضعفي فمثمر)
وكثير ما يستفاد من أمثال هذه المقابلات والمسجلات، كلما عرفنا أن ننقلها من كبار
المشكلات وصعاب المعضلات.
كنت في سيارة من سيارات الأجرة فخطر للسائق أن يختصر الطريق فينحرف إلى
الشمال مقاطعاً في بعض الميادين الصغيرة بدلاً من الاستقامة على طريقه إلى
الأمام.
وفرق المسافة مائتا متر على أكبر تقدير.
ولكنه حسب فرق المسافة بالمتر وأهمل كل حساب آخر، لأن السيارات كانت مقبلة
تتري من الجهة الأخرى، فكانت تعبره واجدة بعد واحدة وهو واقف في مكانه، وحاول
أن يرجع فإذا هو قد سد المجاز على من خلفه واستعصى عليه الرجوع، ثم تحول
المرور وهو في الانتظار حيث كان، ولو مضى من أول الأمر قدماً لوصل من جانب
التطويل قبل أن يصل من جانب الاختصار!
هذا السائق لم يخطئ في مسألة علمية أو مسألة سياسية أو عقدة من عقد البحث
والفلسفة، ولكنه أخطأ في العمل الذي يعمله كل يوم وينقطع له دون سائر الأعمال.
ولكنه مع هذا قد يشكو ظلم الأرزاق ويرشح نفسه لمهام الدولة التي يظفر بها
المجددون ولا يذوده عنها إلا غفلة الحظوظ وأنه لمثل واحد من أمثلة خالدة قلما
يخلوا منها زمن.

وما أكثر ما ذكرت من هذه الأمثلة وأنا أقرأ في الكتاب قصة الوزير والخادم!
خادم سمعه الملك يوماً يقول: (إن هذا العصر عصر ظالم، فأنا أعمل طول اليوم ثم لا أنقد إلا سبع روبيات في الشهر، والوزير الذي يركب السيارات ويضيع وقته في الكسل يقبض ألفين من الروبيات).
فأمتحنه الملك باستطلاع أمر مسافر قادم على بعد، فذهب مرة ليسأل عن أسم ذلك المسافر، وثانية ليسأل عن إقليمه، وثالثة ليسأل عن المكان الذي قدم منه، ورابعة ليسأل عن الوجهة التي يقصدها، وخامسة ليسأل عن المرحلة التي يقف فيها، وسادسة وسابعة وثامنة وتاسعة ليسأل عن غرضه وعمن يلقاه وعن موعد اللقاء إلى غير ذلك من الأسئلة التي لا يذكرها إلا إذا أمليت عليه
ثم بعث بالوزير مستطلعاً فعاد بالخبر كله في لحظة قصيرة وأجمل ما علم في مقال وجيز. فاستدار الملك إلى خادمه وقال له: (أرأيت أن ما كلفك تسع رحلات مضنية وخمس ساعات قد كلف الوزير نصف ساعة ورحلة واحدة؟ لعلك تتعلم الآن لماذا تقبض سبع روبيات في الشهر ويقبض الوزير ألفين. . .)
ومن السهل أن يقال إن من الوزراء من يخطئ خطأ الخادم ومن الخدم من يصيب إصابة الوزير، ولكن الحقيقة الباقية بعد هذا أن من الناس من يعمل في رحلة واحدة ونصف ساعة ما يعمله غيره في تسع رحلات وخمس ساعات، وإن الظلم كل الظلم أن يتساوى هذا وذاك.
وقد أشتمل الكتاب على نيف ومائة قصة من هذا الطراز، ما أظنها أهملت مسألة عصرية أو خلت إحداها من عبرة سهلة عصية، وكلها زاد قراءة سائغ لمن درس تلك المسائل في مراجعها ولمن يكتفي منها بهذه الأشباه المخيلة والعبر الممثلة، وهم أكثر من الكفاية في بلادنا.

عباس محمود العقاد

مسابقة الجامعة المصرية

لطلبة السنة التوجيهية

للدكتور زكي مبارك

- 4 -

على هامش التاريخ المصري القديم

كلمة اليوم عن كتاب (على هامش التاريخ المصري القديم) لسعادة الأستاذ عبد القادر حمزة باشا، وهو كتاب يقع في أربعين ومائتي صفحة بالقطع المتوسط، وبه كثير من الصور والرسوم التي توضح ملامح ذلك التاريخ.

الأسلوب

أسلوب عبد القادر حمزة أسلوب فريد بين أساليب الكتاب في هذا العصر، وهو في غاية من الجمال، وإن لم يذكرك بأنه جميل، لأن الصنعة فيه أخفى من الخفاء.
وعبد القادر حمزة يقيم تعبيره على قواعد المنطق، فالتعبير عنده مقدمات تصل إلى نتائج، ولا تمر صفحة مما يكتب بدون أن تلمس فيها وضوح الحجة ونصاعة البرهان.
وعبد القادر حر الفكر إلى أبعد الحدود، وما صحبه رجل إلا عجب من الشجاعة التي يمتاز بها عقله والوثاب، مع القدرة الغريبة على ضبط النفس، ومع المهارة في تقديم الحجج (على أقساط)
ليتسع له المجال في تشريح المعاني والأغراض.
ومن هنا كان عبد القادر عدواً خطراً حين يعادي، لأنه لا يحاول الإجهاز على خصمه بمقال أو مقالين، وإنما ينوشه برفق ودهاء من يوم إلى يوم ومن أسبوع إلى أسبوع، ثم يظل يراوحه ويغاديه إلى أن يأتي على مركزه من الأساس.

بين العلم والسياسة

قد يقال إن هذا أسلوب عبد القادر في مقالاته السياسية، لا في أبحاثه العلمية.
ونجيب بأن عبد القادر هو هو في جميع الأحوال، فعبد القادر لم يفكر في درس التاريخ المصري القديم إلا في سنة 1924، فماذا صنع في هذه الأعوام القصار ليكون من أقطاب المؤلفين في ذلك التاريخ؟
عمد الرجل إلى طائفة من المعضلات الأساسية فدرسها بتعمق واستقصاء، ثم خرج من ذلك الدرس بمحصول يحسده عليه الأخصائيون، وقد تمر أعوام وأعوام قبل أن

تظفر اللغة العربية بكتاب يضارع كتابه في دقة العبارة ونفاسة الاستطراد.
حشو اللوزينج
وحشو اللوزينج في تعبير كتاب القرن الرابع يُضرب مثلاً للشيء يكون حشوه أجود من قشره، ومن أشهره قول عوف بن محلم:
إن الثمانين - وبُلِّغتَها!! - ... قد أحوجتْ سمعي إلى ترجمان
فعبارة (وبلغها!!) حشو، ولكنها أجمل من المحشو، لأنها غاية في الرفق والحنان.
وكذلك ينقسم كتاب عبد القادر حمزة إلى حشو ومحشو، فالحشو هو الهامش، والمحشو هو الأصل، ولم أجد كتاباً يكون فيه الهامش أغزر من الأصل قبل أن أعرف كتاب عبد القادر الذي أغرم بحشو اللوزنيج بعد التفات النقاد إليه بعشرة قرون فأرجو الطلبة أن يلتفتوا إلى هامش هذا الكتاب أكثر من التفاتهم إلى الأصل، لأن عبد القادر جرى في الهوامش على فطرته الأصلية من التعقب والاستقصاء فأتى بالأعاجيب.
وهل برع عبد القادر إلا في الهوامش؟
إن هذا الرجل يحارب بالأخبار المنثورة أعنف مما يحارب بالمقالات الطوال، وهو قد نقل أسلوبه في الصحافة إلى أسلوبه في التأليف، فليراع الطلبة هذا الفن الدقيق.
شاهد
قلت إن عبد القادر يصل إلى غرضه بترفق وتلطف، فما شواهد ذلك؟
إليكم الشاهد الأول:
قال أبن عبد الحكم: (لما فتح عمرو بن العاص مصر أتى أهلها إليه حين دخل بؤونة. فقالوا: أيها الأمير! أن لنيلنا سنة لا يجري إلا بها. فقال لهم: وما ذاك؟ قالوا: إنه إذا كان لثنتي عشرة ليلة تخلوا من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر من أبويها، فأرضينا أبويها
وجعلنا عليها من الحلي والثياب أفضل ما يكون ثم ألقيناها في النيل. فقال لهم عمرو: هذا لا يكون في الإسلام، وإن الإسلام يهدم ما قبله. فأقاموا بؤونه وأبيب ومسرى وهو لا يجري قليلاً ولا كثيراً، حتى هموا بالجلاء، فلما رأى عمرو ذلك كتب إلى عمر بن الخطاب بذلك. فكتب إليه عمر: (أن قد أصبت، إن الإسلام يهدم ما قبله، وقد بعثت إليك ببطاقة فألقها في النيل إذا أتاك كتابي) فلما قدم الكتاب على عمرو فتح البطاقة فإذا فيها: (من عبد الله أمير المؤمنين إلى نيل مصر؛ أما بعد فإن كنت تجري من قبلك فلا تجر، وإن كان الواحد القهار هو الذي يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك) فألقى عمرو البطاقة في النيل قبل يوم الصليب بيوم وقد تهيأ أهل مصر للجلاء، لأنه لا يقوم بمصلحتهم فيها إلا النيل، فأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه تعالى ستة عشر ذراعاً في ليلة وقطع السوء عن أهل مصر في تلك السنة).
فماذا صنع عبد القادر حمزة في تفنيد هذه الأسطورة البلهاء وقد انتقلت من عصر إلى عصر ومن جيل إلى جيل حتى احتلت بعض الكتب المدرسية بالمدارس الثانوية، وحتى دخلت في منهج الاحتفال بوفاء النيل بصورة رمزية؟
أخذ عبد القادر يدور ويدور حتى صير هذه الأسطورة أضعف من وهم الخيال
ولكن كيف؟
هل فزع إلى المنطق فقرر أن من المستحيل أن يتوقف فيضان النيل على عروس تُلقى إليه؟ هل سارع فاستغرب قول أبن عبد الحكم إن النيل توقف ثلاثة أشهر عن موعده الموقوت وفي ذلك هلاك لأهل هذه البلاد؟ هل أنكر أن يكون لبطاقة عمر أبن الخطاب قوة الموهوم من آثار التمائم والتعاويذ؟
لو أن المؤلف اكتفى بهذه المحاولات لوصل إلى الغاية في نقص ذلك الحكم السخيف، ولكنه رأى الرجوع إلى المأثور عن المصريين القدماء فلم يجد لهذه الخرافة سنداً تعتمد عليه، فلو كان لها أصل لسُجلت في بعض ما سُجل من أخبار الفيضان، ولو كان لها أصل لعد فقدان عروس النيل سبباً في بعض ما أصاب مصر من مجاعات، ولو كان لها أصل لذكرت في (نشيد النيل) وهو نشيد قد استوفى خصائص هذا النهر العظيم وتحدث عما أطاف به من أوهام وأضاليل، ولو كان لها أصل لذكرت عروس النيل بين الهدايا التي كانت تقدم إليه

في الحفلات، فلم يبق إلا أن تكون خرافة خلقها وهم القُصاص، ثم تبعهم ابن عبد الحكم بلا تمحيص ولا تحقيق
سؤال
من حق طلبة السنة التوجيهية أن يوجهوا إلى سعادة عبد القادر حمزة باشا هذا السؤال:
كيف نشأت هذه الخرافة وهي من المستحيلات؟
وأتطوع بالإجابة عن هذا الصديق فأقول:
يشهد كتاب الأستاذ نفسه بأن النيل كان يلقى فيه قرطاس من البردي يُدعى فيه النيل إلى أن يفيض، وكان الكهنة يزعمون أن للكتابة التي في ذلك القرطاس قوة سحرية فذلك القرطاس هو الأصل لبطاقة عمر بن الخطاب، والأساطير يستقي بعضها من بعض
بقيت عروس النيل، فما أصل تلك العروس؟
يشهد كتاب الأستاذ نفسه بأنه كان يُتقرب إلى النيل بذبح عجل أبيض، ومن السهل أن نقول إن الذبيح كان بقرة بيضاء يعبر عنها مجازاً بالجارية الحسناء، وفي بعض تعابير الفرنسيين توصف البقرة بأنها
ويؤيد هذا التعليل أن المصريين القدماء لم يعبدوا البقرة إلا لأنهم رأوا فيها مخايل من حنان المرأة المفطورة على الطاعة والسجاحة والصفاء.
شاهد ثان
والشاهد الثاني على منطق الأستاذ عبد القادر باشا هو تحديده لمركز هيرودوت، فهذا المؤرخ اليوناني هو الحجة على مصر في تاريخها القديم، وما عرفت مصر القديمة في شرق ولا غرب بأكثر مما عرفت عن طريق هيرودوت.
فما الذي قال عبد القادر باشا في ذلك المؤرخ (الأمين)؟
لقد قتله بكلمة واحدة حين قرر أنه لم يزر مصر في عهد إشراقها وإنما زارها في عهد الأفول، فكان مثله مثل من يأخذ السيرة النبوية عن سدنة الكعبة في هذا الجيل، وهم لا يعرفون من سيرة الرسول غير أطياف تصور عن طريق الرمز الواهم ما كان عليه الرسول من عظمة وجلال.
شاهد ثالث
تحدث عبد القادر باشا عن (السذاجة المصرية) في تقدير ما للشهور والأيام من غرائب وأماثيل.
ومن رأي هذا الباحث أن ما قيل عن الأيام والشهور في عهد رمسيس الثاني لا يزيد عما يقال في عهد فاروق الأول، فهي هنا وهناك صور لأوهام العوام الجهلاء، وليست حجة على العقل الصحيح لأهل هذه البلاد، فما يقال عن يوم 5 طوبة في عهد رمسيس الثاني شبيه بما يقال عن يوم 5 طوبة في عهد فاروق الأول. ومعنى ذلك أن العوام لهم آفاق غير آفاق الخواص، وإلا فمن الذي يصدق أن أهل مصر في هذه الأيام يبنون أحكامهم المعاشية على ما يرد في مثل تقويم (طوالع الملوك)؟
شاهد رابع
وفي هذا الشاهد تظهر القوة المنطقية لهذا المؤلف الحصيف، فالمدنية المصرية هي أقدم المدنيات في التاريخ، وآثار المصريين هي أقوى وأنفس وأثمن ما أثر عن القدماء في جميع المماليك والشعوب؛ وقد دامت المدنية المصرية القديمة أكثر من أربعين قرناً في وقت لم يكن فيه لغير مصر سلطان ملحوظ في المشرق أو في المغرب،
فهل كان يمكن للمصريين أن يتفقوا على العالم القديم بلا علم وبلا أخلاق؟
وكيف كان يمكن للمصريين أن يسودوا إذا صح أنهم صح أنهم كانوا جهلاء؟؟
وكيف يجوز عليهم الجهل وقد خلفوا آثاراً فنية وأدبية هي الغاية في براعة الأذواق ورجاجة العقول؟
وهل من الجائز عقلاً أن تقام الأهرام في بلد لا يعرف أهله قيمة النظام وقيمة التطلع إلى الخلود؟
وهل يستطيع إنسان موهوب أن ينكر أن آثار الأقصر هي أثمن ما خلفت الإنسانية في عهدها القديم، إن صح أنها استطاعت خلق ما يفوق تلك الآثار في العهد الحديث؟

وبأي قوة سحرية جاز لتلك البقعة النائية أن تكون عروش القرون الخوالي؟
لقد شغلت نفسي بأسرار تلك البقعة من الوجهة الطبيعية، فلم أجدها تنتج غير اللحوم والبقول، فهل يكون سر التفوق في غزارة اللحوم والبقول؟
إن كان ذلك، فكيف انقضى عهد العظمة (الأقصرية) بعد ذلك التاريخ؟
وكيف انتقل مجد مصر من الجنوب إلى الشمال؟
تلك أسئلة توجه إلى الأستاذ عبد القادر حمزة، فهل يجيب؟
أما أنا، فأقول: كان المصريون تحصنوا بالأقصر ليسلموا من عدوان الوافدين من جهة الشمال، وبذلك حصروا نشاطهم الفني والاقتصادي في (كعبة) الأقصر، كما حصر العرب نشاطهم الفني والاقتصادي في (كعبة) الحجاز، والتاريخ هو التاريخ، وإن تلونت الأشعة والظلال.

عراقة المدنية المصرية

شغل المؤلف نفسه بالتدليل على عراقة المدنية المصرية، وهي أقدم مدنية عرفها التاريخ، ولا ينافسها في القدم غير حضارة الكلدان في وادي الفرات
وعلى الطالب أن يقرأ ما كتب المؤلف في هذا الموضوع بعناية وتدقيق، ولكن يجب قبل ذلك أن يعرف الأصل الذي استوجب عراقة المدنية المصرية، وذلك الأصل هو النيل، فالنيل هو النهر الثاني في العالم بعد المسيسيبي من حيث القوة، ولكنه النهر الأول في العالم من حيث المدنية، فهو اقدم نهر قامت على شواطئه كبريات المدائن، وأقدم نهر نُظمت فيه الملاحة واتخذت مياهه مطايا لخدمة الاقتصاد، وهو كذلك أقدم نهر أوحى إلى أهله عرائس الشعر والخيال.
فإذا تمثل الطالب هذا المعنى كان عليه أن يذكر أن المصريين أسبق الأمم إلى حفر الآبار، لأن أرض مصر لينة جداً، ولأن الماء مخزون في جميع البقاع بهذه البلاد، وقد يوجد في سفوح الجبال، وهذا وذاك يشرحان السبب في تعلق المصريين بواديهم أشد التعلق، حتى صاروا مثلاً في بغض الهجرة والارتحال.
أقول هذا لأؤيد حجة الأستاذ عبد القادر حمزة في قوله بأن المدنية المصرية بنت مصر لا بنت شعب آخر، ولو قال إنها نبت مصر لكان التعبير أظرف، لأن المدنية المصرية نشأت في خصائصها الأصلية وكأنها من عمل الطبيعة لا من عمل الناس
والمشكلة هي درس مسألة السبق إلى المدنية، فهل كان السبق للمصريين أم للكلدانيين؟
ولكن كيف خلقت هذه المشكلة؟ خلقها التشابه بين المدنية المصرية والمدنية الكلدانية في كثير من الشؤون. فهل يدل هذا التشابه على النقل؟ أم يكون شاهداً على تبادل الصلات الأدبية والاقتصادية بين هذين الشعبين العريقين؟
هنا تظهر قوة عبد القادر حمزة في التعمق والاستقصاء فقد وصل بالمنطق وبشواهد التاريخ إلى أن المصريين سبقوا الكلدانيين إلى الحضارة والمدنية ولم يترك الموضوع إلا بعد أن صيره غاية في الوضوح والجلاء.

التقويم المصري

وفي كتاب عبد القادر قضية من أغرب القضايا الإنسانية، وهي قضية التقويم، فقد كان العالم كله يعتمد في تقسيم الزمن على الدورة القمرية، وهو تقسيم مقبول ولكنه غير دقيق، لأنه لا يصلح قاعدة لتعيين مواسم البذر والحصاد.
وكذلك كان المصريون أول المتحولين عن التقويم القمري إلى التقويم الشمسي، وقد قسموا السنة إلى ثلاثة فصول، كل فصل منها أربعة أشهر، وهي فصل الفيضان وفصل البذر وفصل الحصاد.
والتقويم المصري هو التقويم الذي حمله يوليوس قيصر من مصر إلى روما، وهو التقويم الذي عدله مجمع الكرادلة تعديلاً طفيفاً في سنة 1582 ثم صار تقويم العالم كله إلى اليوم.
وإذا تذكرنا أن التقويم المصري كان موجوداً إلى سنة 4238 قبل الميلاد، أي قبل حكم الملك مينا بأكثر من ألف سنة، أدركنا فضل مصر في السبق إلى دقة الحساب.
وفيما كتب عبد القادر عن هذا الموضوع عن هذا الموضوع صفحات جديرة بالدرس والتعقيب، فليس من القليل أن نكون دنا أمم الشرق والغرب بذلك التقويم الدقيق.

معركة عقلية

هي المعركة بين الكنيسة وعلم الآثار المصرية، وهي المعركة التي انتهت بانهزام الكنيسة ورجوعها صاغرة إلى أن تفسر التوراة تفسيراً جديداً لتسلم من التصادم مع الآثار المصرية.

فما سبب تلك المعركة؟ ومن الرجل الذي درس البروج المصرية ثم انتهى من درسها إلى القول بأن الحضارة المصرية ترجع إلى أبعد من خمسة عشر ألفاً من السنين؟ وما الذي قال العلماء المرافقون لبونابارت؟ وما هو البرج الذي نقل إلى فرنسا فبلبل الأفكار الأوربية؟ ومن هو الشاب الفرنسي الذي أدى لمصر أعظم خدمة تاريخية ثم حمله الخوف من سلطان الكنيسة على المواربة في قضية البروج؟ ومن هو العالم الذي قرر أن الثقة بالمسيح لا تمنع من مسايرة الحقائق العلمية؟ وعلى أي أساس بررت الكنيسة خروجها على حرفية العهد القديم لتصح النظرية المصرية في قدم الوجود؟

عقيدة الحساب بعد الموت

ذلك بحث نفيس كتبه عبد القادر في أيام صفاء، فما تفاصيل هذا البحث؟

لهذا البحث عناصر كثيرة، ولكني أرجو أن يفكر الطلبة في الموازنة بين الأخيلة اليونانية ليعرفوا كيف استطاع المؤلف أن يقيم البراهين السواطع على أن المصريين سبقوا اليونان إلى تصور عقيدة الحساب بعد الممات بما يدل على فهمهم لفكرة العدل.

ودرس هذا البحثُ يعين على فهم البحث الذي يليه وهو تأثير المدنية المصرية في المدنية اليونانية وتعيين ما أقتبس وميروس من أساطير المصريين

وهذان البحثان يهمان كل مصري يحب أن يعرف مركز وطنه في التاريخ، فقد استطاعت أرض يونان أن تزعم أنها أثقب فكراً من وطن النيل، وساعد على تأييد هذا الزعم أن كان العرب سفراء العقل اليوناني في الممالك الأسيوية والأوربية، في أوقات لم يملك فيها المصريون أدوات النقض لمزاعم اليونان.

لمحة من التحقيق

المصريون هم أساتذة اليونان القدماء باعتراف الجميع، ولكن العقل المصري كان غفا بعد أن تعب من اليقظة التي هدمت أعصابه في عشرات الأجيال؛ ثم كانت صحوة العقل اليوناني بعد ذلك، وهي الصحوة التي عرفها العرب يوم عزموا على (إحياء) المطمور من آثار القدماء. فمن طاب له أن يزعم أن مصر تعيش بعقلية يونانية فسيقهره المنطق الحق على الاعتراف بأن اليونان لم تؤد إلى مصر إلا بعض ما بعض ما تلقت من علمها الأصيل في العصور الخوالي، ولا بد يوماً أن ترد الودائع، ولو كره

كهنة دلف وسَدنة

أنوللون!

قصة الغريق

هي قصة أوحت ما أوحت إلى الآداب العربية والآداب الإنجليزية، فكيف كان ذلك؟

الطلبة هم المسئولون عن مراجعة هذا الفصل النفيس، وعما كتب المؤلف في الاستشهاد بآيات التوراة لتبرير ما جاء فيه من تكرير وترجيع.

رسائل مصرية وفلسطينية وسورية

هو بحث شائق لا يحتاج إلى من يدل عليه، وهو يشرح وسائل قدماء المصريين في تسجيل الرسائل واللوائح والقوانين.

الصور، الصور، الصور

بهذا الكتاب صور فنية نقلت عن المعابد والهياكل والقبور، وهي تحتاج إلى درس خاص، فهل ينظر إليها الطلبة نظرة فحص وتأمل وتدقيق؟

لو كنت أملك الوقت لكتبت أملك الوقت لكتبت عن هذه الصور صفحة أو صفحتين أو صفحات، فهي أروع ما حُفظ من آثار القدماء، ولو كنت أملك المال لدعوت جميع طلبة السنة التوجيهية إلى رحلة فنية نتعرف بها إلى آثار مصر في الشمال والجنوب فلم يبق إلا أن أوجه أنظارهم إلى أن هذه الصور ستكون حتماً مما تفكر فيه لجنة الامتحان، فقد سمعت أن في أساتذة الجامعة المصرية قوماً يهتمون بالفنون!

ثم اكتفى بهذا القدر في توجيه الطلبة إلى فهم كتاب (على هامش التاريخ المصري

القديم)
زكي مبارك
نفسية المرأة الحديثة
مقتبسة من آراء العلامة (يونج)
للدكتور محمد حسني ولاية
لا شيء يضر طبيعة المرأة نفسياً أكثر من قيامها بأعمال الرجال. ولما كانت طبيعة الإنسان مشتملة على عنصري الأنوثة والذكورة معاً، فإن الرجل يستطيع أن يعيش بالمرأة التي في نفسه، كما أن المرأة بدورها تستطيع أن تحيا بالرجل الكائن في طبيعتها، وفي ذلك ما يقيد ذاتية الشخص الأساسية ويقضي عليها. فلا بد للرجل من أن يعيش كرجل، ولا بد للمرأة من أن تعيش كامرأة
إن تصرفات المرأة وانفعالاتها لا تتأتى من عقلها الباطن مباشرة، بل هي من خصائص طبيعتها الأنثوية، فليست انفعالاتها ساذجة، ولكنها ترمي إلى غرض لا تصرح به.
إن ما يصدر من الآراء عن عقل المرأة الباطن يسير بها في طريق شاذة، فهذه الآراء تنتحل
صفة الصدق والواقعية ما دامت لم توضع رهن الانتقاد الواعي.
وهي تشبه تصرفات الرجل في غموضها إلى حد ما، كما أنها تشبهها في عدم وصولها إلى العقل الواعي غالباً، وعلى ذلك يندر أن ندرك ألوانها على حقيقتها
إن الافتراضات والأفكار المنتمية إلى العقل الباطن لهي ألد عدو للمرأة، وذلك لأنها قد تنمو وتكبر في شكل هوى شيطاني يستقبح الرجال ويحنق جاذبية المرأة وأنوثتها، وينتهي مثل هذا الاتجاه إلى انفصام عميق في الذاتية أو بعبارة أخرى إلى عصبية. على أنه ليس من الضروري أن يصل الأمر إلى هذه الخاتمة، لأن تلوين عقلية المرأة بالذكورة يؤدي في حد ذاته إلى نتائج سيئة غير العصبية. فقد تكون مثل هذه المرأة زميلة طيبة للرجل ولكنها لن تشق طريقها إلى مشاعره وعواطفه، وهذا من قبيل تفاعل دفاعي ضد طابع الجنسية الذكرية.
إن كل ما حرم على المرأة في العصور الخالية قد تجمع الآن وتمخض عن حدوث عمليات تعويض نفسي، ورسل هذه العمليات هن كاتمات السر والمختزلات والمشتغلات بالأزياء، وهن اللاتي يقوضن أركان الزواج باتباعهن ملايين من الطرق الخفية وليست رغبة أولئك
النساء موجهة إلى مناصبة العلاقات الجنسية والمجازفات الغرامية العداء، بل محاربة الزواج هي غايتهن، فهن يرمين إلى مطاردة المرأة المتزوجة، ولكن بوسائل غامضة هادئة عنيدة تعمل كالسحر مثل عين الثعبان الجامدة.
فما هو موقف المرأة المتزوجة من هذا؟. . . لا ريب في أنها تتعلق بالفكرة القديمة التي تلقي اللوم على عاتق الرجل والتي تتضمن استطاعة الإنسان أن يصنع الحب بمحض اختياره، وأنها على أساس هذه التصورات الجاهدة تنطوي على نفسها في جو من الغيرة. على أن هناك أثراً أعمق من هذا، فما من امرأة تستطيع أن تتفادى أثر الحافز الذي يعمل في الخفاء في ذلك الجو الذي ربما غمرتها به. . . أختها مثلاً. . . ذلك الجو القاسي الذي لم تعش فيه بعد وحينئذ يستبد بالمرأة المتزوجة ريب في أمر الزواج.
أن إمكان منع الحمل قد مهد السبيل للمرأة غير المتزوجة لأن تحيا حياة تشبه الزواج، بل هو قد أصبح ذا أهمية للنساء المتزوجات. ولكن التخلص من حوافز نفسية عظيمة متعلقة بإنجاب الأطفال يؤدي إلى حدوث اضطراب في التوازن العقلي؛ فالطاقة التي لا تجد هدفاً واعياً تقوي العقل الباطن وتسبب الشك وعدم الاطمئنان.
ينطوي الزواج في عرف المرأة على علاقة مطلقة لا تربطها بالزوج فحسب، بل بالأطفال والأقارب، فإذا كان الرجل مستحوذاً على المرأة ضاق بهذا الإطلاق ذرعاً لأنه يجدها موزعة بين أطفالها والأقارب وبين نفسه. ولما كان أكثر الرجال عمياً في غرامهم بزوجاتهم فإنهم يعتقدون أنهم ملكوا نواصي زوجاتهم واستحوذوا عليهن كلية وترى المرأة أن الزواج علاقة روحية، وأن المسألة الجنسية ليست سوى عامل ثانوي مرتبط بالزواج.
وكما ابتدأت المرأة في نهاية القرن التاسع عشر تنحاز إلى الذكورة فقد انحاز الرجل

بدوره في شيء من التردد إلى الأنوثة.
المرأة أغنى نفسية من الرجل، فهو يقتنع في أكثر نزعاته بالمنطق فقط، ويعاف ما ينضوي نفسياً تحت لواء العقل الباطن لأنه لا يعبأ إلا بالواقع، ولا يعني بالبدوات والمشاعر التي لا تنطبق على الواقع.
أما بالنسبة للمرأة فإن أكثر ما يهمها معرفته ماهية شعور الرجل إزاء أمر أكثر من فهمها
الأمر نفسه. وكل ما يعده الرجل سفاسف وترهات ينال اهتماماً خاصاً من ناحية المرأة، وإن كثيراً مما يمكن رؤيته بوضوح في المرأة لا يمثل في الرجل إلا عملية ضئيلة غامضة لا يرغب غالباً في أن يعبر عنها.
حملت الظروف المرأة على أن تتحكم في شيء من الذكورة، وهذا هو الشيء الوحيد الذي ينقذها من البقاء في أنوثة عتيقة غريزة. أما الرجل فيضطر لأن ينشئ في نفسه بعض صفات أنثوية وهذا واجب عليه نحو نفسه لا قبل له بأن يتفاداه ما لم يفضل أن يتعثر خلف المرأة في شكل طفلي بائس لأنه مستهدف لخطر سيطرة المرأة عليه.
يرى رجل اليوم أن الزواج الحديث حافل بالمشاكل وترى المرأة الحديثة أن زواج القرون الوسطى لم يعد زواجاً مثالياً، فالذكورة التي اكتسبتها المرأة تجعلها ترفض أن تقول: (إنه سيكون سيدي) فالذكورة تعني أنها تعرف هدفها فهي تعمل كل ما هو ضروري لإصابته.
واكتسب الرجل بدوره أنوثة في نفسه بعد بذل مجهود ليس بالقليل وعلى حساب الكثير من الألم الذي عاناه. وهو لن يفرط فيما اكتسب لاقتناعه بأهميته.
إذا نظرنا عن بعد إلى الرجل الحديث والمرأة الحديثة تبادر إلى ذهننا أنهما لا شك ناجحان في زواجهما، ولكننا إذا رأيناهما عن كثب بدا لنا الأمر على النقيض لأن زواجهما إنما ينطوي على كفاح جديد، فكل ما تريد أن تفعله المرأة كصدى لإرادة وعيها الحديث النشأة لإيلام الرجل، كما أن المشاعر التي يستكشفها الرجل في نفسه ليست مناسبة للمرأة، فهما يريان أن ما استكشفاه في نفسيها حديثاً يمثل الجانب الوضيع من كل منهما؛ ذلك لأن ذكورة المرأة لا تقل ضعة عن أنوثة الرجل. ولكننا من ناحية أخرى نرى أن في المجموعة التي نسميها (الشخصية) ناحية غامضة، فلابد أن يكون الرجل القوي ضعيفاً من جانب ما وأن يكون الرجل الذكي غبياً من ناحية ما حتى يمكن للمرأة أن تعيرهما الثقة، فالمرأة تحب ضعف الرجل القوي أكثر من قوته، وغباوة الرجل الذكي أكثر من ذكائه.
إن حب المرأة يلتمس الرجل كله كوحدة. . . ليس الجانب الذكرى منه فحسب بل ذلك الشيء الذي ينافي الذكورة فيه أيضاً وليس حب المرأة بعاطفة مجردة بل هو رغبة حيوية تخلو أحياناً من العاطفة، وقد تدفع المرأة أحياناً إلى التضحية بنفسها. والرجل الذي تغمره المرأة بمثل هذا الحب لا يستطيع أن يتجاهل الشطر الوضيع من نفسه إذ ليس في مقدوره
أن يواجه المرأة إلا به وأن يكون مغموساً في قرارة نفسه.
وليست قرارة الإنسان متشابهة فحسب بل متكافئة مع طبيعة الإنسان الأبدية التي تربط كل الإنسانية التي تمثلها صورة الحياة البشرية في أعاليها وأعماقها المشتركة بيننا جميعاً، فنحن لن نكون أشخاصاً مختلفين في قرارة نفوسنا بل ندرك الروابط المشتركة التي تربط الإنسانية جمعاء. وفي هذه الأعماق نطرح الفوارق الاجتماعية السطحية من شخصياتنا.
ونصل إلى أساس المشاكل التي تعرض لنا في حياة اليوم. وهذه المشاكل تمثل الحقيقة الواقعة، لأنني هنا أشعر وأعرف أني واحد من كثيرين وأن ما يحدوني يحدو الكثيرين. إننا في ناحية قوتنا مستقلين ومنفردين بحيث يمكننا تشكيل مصيرنا بما نريد، ولكننا في ناحية ضعفنا بعضنا معتمد على البعض الآخر ومرتبط به، وهنا يمثل كل منا آلة في يد القضاء، فليس الفرد هنا هو الذي يحكم بل هي الإرادة البشرية.
ينطوي معنى الحياة الحقيقي على اكتساب الشخص قوة على التغلب العزلة الشخصية والابتعاد عن الأنانية في سبيل اشتراك فعال في حل المعضلات الحديثة.
فإذا أرخت امرأة اليوم تماسك الزواج واعية أو غير واعية ومستقلة استقلالاً روحياً أو اقتصادياً فإن هذا لا يأتي بدافع الرغبة الشخصية ولكن بدافع الرغبة الحيوية ذات القوة

المسيطرة المستقرة في أعماق البشر التي تتخذ من المرأة الفردية آلة لها
يمثل الزواج قيمة اجتماعية أدبية لا نزاع فيها، وليس الحط من هذه القيمة إلا من قبيل الفوضى. إن عدم تكامل الإنسانية ليس إلا نشوزاً يقطع انسجام نغمات مثلنا، ومن سوء الحظ أننا لا نعيش في دنيا التي نريدها بل في دنيا الواقع حيث يتناحر الطيب والخبيث ويهدم أحدهما الآخر، وحيث لا تستطيع الأيدي البيضاء التي خلقت للابتكار والإنشاء تفادي التلوث بالدنس. . . وكلما أستجد شيء عرضة للنقد ومحط للريبة فهناك دائماً من يؤكد لنا وسط عاصفة من التصفيق أن لا شيء حدث وأن كل شيء يسير في نظام

وإذا نفذت أبصارنا إلى كثير من لزيجات ألفينا بها كثيراً من أعراض ضعف خفي يتمخض عن مشاكل زوجية تشمل كل تصرفات الزوجة (والزوجة فقط) التي لا يمكن احتمالها كالعصبية والخيانة الزوجية.

إن أولئك الذين يرون أنفسهم غير مضطرين إلى مجاراة ميول العهد الحديث يعتقدون في

مثال الزوجية ويعتنقونه، وعندما يتهدم مثال الإنسان دون أن يحل محله شيء أفضل منه فإن الخسارة لا تعوض، ولذا تظل المرأة مترددة سواء أكانت متزوجة أم غير متزوجة فهي لا تجسر على العصيان بكل قلبها وإنما تظل في حيرة لقد أصبح الزواج أحسن حل وكل من لم يدخل في حظيرته عليه أن ينحني على أخطائه.

لم يعد الزواج سهلاً بالنسبة للمرأة الحديثة. ما دامت هناك فقرات قانونية تشرح ماهية الخيانة الزوجية فإن المرأة لابد أن تظل متخبطة في شباك الشك.

ويصح أن نتساءل (هل تعرف الفقرات التشريعية ما هي الخيانة الزوجية. . . وهل تعريفها لها هو الشكل النهائي الأبدي الصادق؟) فمن الناحية النفسية - وهي الناحية التي تعني امرأة - ترى في هذه الفقرات تشكيلة هازلة كما هو الحال في كل ما يصطنعه الرجل لوضع قوانين تتعلق بمسائل الحب.

وكثيراً ما يتعدى المؤمنون بالقانون حدود قوانينهم بما اتسموا به من غباوة، أو بالخنوع لإغراء المرأة أو لمجرد الرذيلة المختلطة بنفوسهم. وإن المرأة الحديثة لتتساءل عما إذا كانت تنتمي إلى هذه الفصيلة. . . أما من الناحية التقليدية فهي بلا ريب منتمية إليها. وعليها أن تفكر في ذلك لاستجلاء الحقيقة حتى تتهدم أصنام الاحترام التي نصبت في نفسها.

فما معنى أن يكون الإنسان محترماً. . . أمعنى هذا أن يلبس قناعاً مثالياً يستر به حقيقته عن الناس. . . أمعناه أن يكون خادعاً. . . إن الطيبة ليست خدعة، ولكن عندما يحبس الاحترام الروح. . . تلك الروح الحقيقية المقدسة لا يصبح الإنسان إلا ذلك الشيء الذي وصفه المسيح بأنه (القبر الأبيض).

لقد أصبحت المرأة الحديثة على بينة من الحقيقة التي لا نزاع فيها. . . إنها تستطيع أن تبلغ الأسمى والأحسن في مجال الحب فقط؛ وإن هذه المعرفة تحدوها للوصول إلى نتيجة أخرى هي أن الحب أبعد وأسمى من القانون. وإن احترامها الشخصي ليضيق حينئذ بنفسه ذرعاً. ولكن هناك ميلاً غريزياً يوفق بين تفاعلها والرأي العام هذا أهون الشرين. أما أهول الشرين فهو أن يسري هذا الرأي أيضاً في دمها. وهو يبدو لها كصوت داخلي يبعثه الضمير وكقوة كامنة تقفها عند حدها

إنها لم تكن قط واعية للحقيقة المنطوية. على أن أعمق ما تملكه في ذاتها يمكن أن يجعلها تصطدم بالتاريخ؛ ولا ريب في أن هذا الاصطدام يبدو لها مستهجناً وغير منتظر. ولكن أين هي التي فهمت واستوعبت جيداً هذا التاريخ كحقيقة واقعة فليس هذا موجوداً في المجلات الضخمة ولكنه يعيش في الدماء

وما دامت المرأة تحيا حياة الماضي فهي لن تصطدم بالتاريخ ولكن يندر أن تنحرف المرأة عن ميل ثقافي سيطر على التاريخ. والآن نرى أن ترددها أصبح مفهوماً لأنها إذا خضعت لقانون الحب وقعت في هاوية الألم والشك والحيرة، وتعثرت بين عاملين كبيرين: الجمود التاريخي والقوة الإلهية المبتدعة.

ففي النهاية لا تجد حلاًّ سوى أن تنبذ الجمود التاريخي، وحينئذ يتعين عليها أن تبتدع لنفسها تاريخاً جديداً أو أن تتعلق بالتاريخ وتخضع له. ولكنها لا تستطيع أن تبتدع تاريخاً حديثاً ما لم تجرؤ على المخاطرة بكل شيء لتحقيق غرضها ولو ضحت بنفسها، لأن

موضوع التجربة هو ذاتها التي تنتهي بها إلى نهاية مريرة. وهي عند هذا الحد لا ترى حياتها خلفاً لسلف بل تبدأ حياتها هنا. وهذا بمثابة تعبير ثقافي موروث يرمي إلى إيجاد شكل إنساني أتم، وإلى إيجاد معنى للحياة، وإلى نبذ انتحاء الإنسان ناحية واحدة من الحياة، وإلى تطليق حياة عزيزة محضة

إن المرأة تعي الآن أن الحب وحده هو الذي يمنحها قوامها، وأن الرجل الآن يستطيع أن يدرك أن الروح فقط هي التي تمنح حياته أسمى معانيها. وكل من المرأة والرجل يسعى إلى علاقة نفسية تربطه بالجنس الآخر، فالحب في حاجة إلى الروح والروح في حاجة إلى الحب.

إنها تشعر الآن بأنه لم يعد في الزواج طمأنينة ولا استقرار حقيقي؛ فأي معنى سام يحمله إخلاصها إذا كانت تشعر بأنها مكبلة بأغلال الشهوة التي ترمي إلى اقتنائها اقتناء قانونياً يحبس روحها. هناك إخلاص أهم من هذا يلوح لها، إخلاص للروح والحب، إخلاص يقوى على غزو الضعف الإنساني وعدم نضوجه ليقضي عليه. وربما تستطيع الوقوف على أن ما هو ضعيف وغير ناضج ليس إلا فوضى مؤلمة أو طريقاً محوطاً بالقلق، وأنه يستطاع تفسير ما استكشفته تفسيراً مزدوجاً تبعاً لطبيعته المشكوك فيها

وهناك في هذه التطورات طريق يؤدي إلى الإنسانية العتيقة التي تهوي إلى مستنقع العقل الباطن، طريق تؤدي إلى هدم الشخصية والقضاء عليها

إن الإنسان الذي يستطيع أن يحتفظ بما اكتسبه هو الذي يستطيع أن يختبر لأول مرة معنى الذات، وحينئذ يستطيع أن يغوص في نفسه حتى يبلغ الإنسان الفطري المستقر فيه

فكيف يستطيع أن يحرر الإنسان نفسه من ذلك الإنسان الفطري المتغلغل في أعماقه. . . كيف يستطيع أن يقيم قنطرة تربط ذاته بالإنسان الناضج؟

كلما أنكر الإنسان ذاته واكتسب الفضائل العليا، كان بعيداً عن ذلك الإنسان الفطري.

إن كلمة الإنسان ذات الرنين الجميل لا تعني في أساسها شيئاً جميلاً أو فاضلاً أو ذكياً ولكنها تعني دركات منحطة من هذه الصفات. إن الكفاح والخوف الذي يراودنا عندما نحاول الانفصال عن الإنسان الفطري يبين لنا أن قوة جاذبية عالمنا السفلي (أي العقل الباطن) ما زالت هائلة، هذه القوة التي لا يمكن إنكارها وإذا أنكرناها فإن هذا لا يعني الخلاص منها

لا يستطيع أحد أن يبدأ حياته بالحاضر ولكنه ينمو إليه رويداً رويداً، ومن لم يكن له ماض فليس له حاضر. فالإنسان الصغير لا يقوى على ابتكار الثقافات، فهو لا يملك شيئاً من المعرفة سوى أنه موجود، وإن العمر الناضج الذي عبر منتصف الحياة هو الذي يخلق الثقافات

مزقت بربرية الحرب الجهنمية روح أوربا. . . وفي الوقت الذي تعكف فيه أيدي الرجال على إصلاح الخراب الخارجي تبدأ المرأة بدافع من سريرتها العمل على التئام جروح البشر الداخلية بتأسيس العلاقات النفسانية البشرية على أساس وطيد، ولا شيء يحول بينها وبين تحقيق أهدافها أكثر من الزواج التقليدي. . . زواج العصور الوسطى. . . ولن تتأسس تلك العلاقات على أساس عرفي ما لم تتعطر بشذى الحرية

المرأة الحديثة في حاجة إلى وعي أوسع مدى حتى تتعرف هدفها وحتى لا تكون آلة الطبيعة العمياء. إن وسيلة المرأة هي وسيلة الطبيعة التي تعمل بطرق غير مباشرة بدون أن ترمي إلى هدف ظاهري، وأن يكون الهدف موروثاً في سريرتها. على أن هذه الطرق الملتوية التي تنتهجها المرأة خطرة، فعبثاً تحاول أن تصل بها إلى أهدافها

إن على عاتق المرأة واجباً ثقافياً كبيراً ربما كان مستهل عصر جديد

محمد حسني ولاية

. . .في مجالس الأدب

بين كاتب وشاعر وخطيب

تثبت هذه الدعاية الأدبية المستطرفة من أسمار ندوة (الأهرام) حيث يجتمع في بعض الأمسيات فريق من أصحاب الرأي وأهل الأدب في مكتب الأديب الكبير الأستاذ (أنطون الجميل بك) فيتناولون شتى الأحاديث بروح الجد تارة والتسلية تارة أخرى. وقد تساءل الأستاذ الخطيب (توفيق دياب) عن وحي الشاعر (علي محمود طه) وكيف طال اختفاؤه وسكوته في هذه الأيام وبدأ بنظم قصيدة على لسان الشاعر في هذا

المعنى استهلها بالشطر الأول من مطلعها، وأتم الجميل بك شطره الثاني، وأملى الشاعر البيت الثاني ثم ترسل ثلاثتهم في النظم حتى أتمها صاحب الوحي المفتقد

يا وحيَ شعري أين أنتْ ... في أيِّ زاويةٍ رَكَنْتْ؟
هل رُحْتَ في إغماءه ... أم بالمخدِّرِ قد حُقِنْت؟
أم نمت، أم نام الزما ... نُ، أم اعتُقِلت أم إنسجنت؟
أم خِفْتَ من قلم الرقيـ ... ب فما أشرتَ وما أبنت؟
أم هل سقاك (كزوزةً) ... أم هل سقاك (البرمننت)
أم قد شربتَ زجاجةً ... من صنعِ بار (الكونتننت)
أم في خزانةِ (صالح) ... تركوكَ سهواً فاختُزِنْت
أم في البنوك لأزمةٍ ... حَلّتْ بأهلكَ قد رُهِنْت
أم ذاك جندولُ الحبيـ ... بِ إلى لياليه حننت
وإلى عروس البحر هْمِـ ... تَ وفي شواطئها كمنت
أم زُعْتَ يوم الانتخا ... ب ولستَ عضوَ (البرلمنت)
لم تَدْرِ ما نال الرئيـ ... سُ أكان صوتاً أم (كَرَنت)
أنكرت ضَجَّةَ معشرٍ ... لم ينصفوكَ وقد غُبِنْت
أم طِرْتَ في جوِّ الحليـ ... فةِ منجداً أبطالَ (كِنْت)
يا وحيُ كم من غارةٍ ... شعواء فيها قد شننت
أم ثُرْتَ للحقِّ الطعـ ... ين وبالبطولةِ قد فُتِنْت
فسللتَ سيفَ مدافعٍ ... عن (كالماس) أو (كُرِنْت)
يا وحيَ شعري ما سكو ... تك في الخطوب ألا حزنت!
أفقدت رشدك أم شعـ ... ورك بالحياة؟ إذن جُنِنْت!
عشرون يوماً جاوز التقـ ... ديرُ فيها ما ظننت
عشرون يوماً أنفق الطلـ ... يان فيها كلَّ (سَنْت)
عشرون يوماً والبوا ... رجُ مائلات في (تَرَنْت)
والجيش مرتَّدٌ يولـ ... ول كلُّ جندي كبنت
يا وحي شعري مذ نأ ... يتَ وَهَي بياني أو وهنت
بعد القصائدِ كالقلا ... ع مُشَيَّدَاتٍ (بالسمنت)
من كلِّ بيتٍ مشرق ... يُزري بقصر (اللابرنت)
أمسيتُ بعدك كلَّ قا ... فيةٍ نطقتُ بها لحنت
يا وحيَ شعري هل أُسِرْتَ ... وأنت تهجم أم طُعِنْت
أم غصتَ في لجج البحا ... ر وفي مجاهلها دُفِنْت
أبكي عليك بكاَء (لا مرتـ ... ين) قبراً في (سُرَنت)
يا وحيَ شعري أين أنت ... في أي زاويةٍ ركنتِ؟!

محاورة أفلاطون الخيالية
حول التربية الإنجليزية
للأستاذ عبد العزيز عبد المجيد

التربية في كل الأمم وسيلة لإعداد الحكام والمحكومين. ويساير نظام التربية دائماً نظم الحكم القائم. ولما كان نظام الحكم ديمقراطيا في إنجلترا كانت الغاية من التربية فيها أن يعرف الفرد كيف يساهم بنصيبه في الحكم الديمقراطي، أو الحكم الذاتي؛ أي حكم الشعب نفسه بنفسه. وقد أظهر أفلاطون - فيما سبق نشره من محاورته - شكه في أن نوع التعليم الذي يتلقاه الشعب في المدارس الأولية كاف لا مكان الفرد من الاشتراك في الحكم الديمقراطي بانتخابه ممثله النيابي، والاشراف على سياسة الحكومة. ويرى أن يترك أمر الحكم نهائيا للجامعيين الذين هم خيرة أبناء الأمة ثقافة. والمربي الإنجليزي لا يشاركه هذا الرأي، لأنه يقصر الحكم على الطبقة المتعلمة من أبناء الأرستقراط. وفي هذا رجوع إلى الوراء بنظام الحكم إلى العهد القديم الذي كان رجال الحكم فيه هم أولئك الذين تخرجوا في مدارس أولاد الأعيان. وهنا يبدأ أفلاطون هذا الجزء الأخير من محاورته.

ومدارس أولاد الأعيان هذه أقدم مؤسسات التعليم الإنجليزية. وهي طراز من مدارس

التعليم الثانوي ومن أشهرها أيتون وهارو. ولا يدخلها إلا أبناء المثرين لكثرة نفقاتها. وفيها تخرج عدد كبير من قادة الرأي، والساسة الإنجليز، وأغلب أعضاء حزب المحافظين. وبالرغم من فضلها التاريخي في نهضة إنجلترا نجد الآن من يقول بعدم صلاحيتها في عصر الديمقراطية.

أفلاطون: لقد ذكرت في حديثك السابق مدارس أولاد الأعيان، وإن ما سمعته عنها يجعلني أوقن أنها كانت يوماً ما ذات آثار جليلة. فقد كانت تأخذ الناشئة من أبناء الأرستقراط، وتبعدهم عن نفوذ الأسرة، وتقدم إليهم نوعاً من التربية السليمة في الأخلاق، وآداب اللغة، والتمارين البدنية والألعاب، من غير أن تحاول تنمية الناحية العقلية الفلسفية عندهم. وبهذا غرست في نفوسهم حب الطاعة، والإخلاص لتقاليد البلاد واحترامها، وصاغت منهم نماذج صالحة لتكون حكاماً أمناء وجنود أشداء، عقدوا النية على صياغة دستور البلاد، وحماية نظام الحكم فيها، والدفاع عنه ضد أي تغيير. وبإبعاد الناشئة هكذا عن نفوذ الأسرة لم تفسد تكوينهم العواطف المائعة التي يسرف الآباء في إحاطة أبنائهم بها، ولا شواغل المال والفقر التي هي دائماً حديث الأسرة. فعاشوا في أماكن جميلة، واكتسبوا بمعاشرة بعضهم لبعض واشتراكهم في الحياة المدرسية صفات الرجولة النبيلة التي خلقت منهم خداماً لوطن مطيعين وقضاة أو حكاماً أو إداريين نزيهين، رائدهم العدل والحق

وهذا النوع من المعاهد وما يليه من الجامعات أحسبه جديراً بالصيانة والبقاء. ولو كنت أعرف أنه من المجدي حث شخص مثلك لنصحتكم أن تجعلوا نظام هذه المعاهد جزءاً من نظام تربيتكم الحديثة، ولكن يمنعني من حثي هذا اعتقادي أن هذه المعاهد لم تبلغ في تطورها درجة الكمال. وذلك لأسباب حيوية ثلاثة: السبب الأول هو أن أبناء مدارس أولاد الأعيان لم يتخرجوا فيها على فلاسفة، ولكن على أفراد لا يمتازون كثيراً عنهم. ونتيجة هذا أنهم حينما أصبح زمام الحكم بأيديهم لم يستطيعوا توجيه جمهور الشعب من عمال وصناع وتجار التوجيه الصحيح الصالح. ذلك لأن عصر الاختراع العلمي العملي قد أتاح لهذه الطبقة من الشعب أن تجمع القناطير المقنطرة من الثروة بمجهود قليل. ولم يكن عند طبقة الحكام وولاة الأمر من قوة التعقل وفلسفة الحكم ما يجعلهم يتداركون ما حدث من نمو حب المال في نفوس الشعب وروح الطمع والجشع المادي وسرت هذه العدوى لطبقة الحكام أنفسهم، بل لرجال الدين فلم يحاربوا هذه الميول، وأصبحوا خاضعين لها بدلاً من خضوعهم لنداء العقل والحكمة. وإنني أعتقد أن ما اتصف به حكامكم من أخلاق كريمة طاهرة خفف كثيراً من حدة المطامع المادية الاستعمارية. وكثيراً ما قضت أخلاقهم الكريمة على أسوأ ما في هذه المطامع من آثار. وإنني أصدقك النصح أنه لن يمكنكم أن تعيشوا آمنين، وأن تبقوا على ثراء شعبكم إلا إذا حرمتم ملكية الأرض والشركات ورءوس الأموال على حكامكم وأصبحوا هم عقلاء وذوي عزيمة قوية يلجمون بها غريزة حب المال والكسب. والسبب الثاني هو أن هذه المدارس كانت ولا تزال غير خاضع لإدارة الحكومة، ومقصورة على هذه الجماعة الغنية من الشعب التي لها من وفرة المال ما تنفقه بسخاء على تعليم أبنائها. وربما لم تكن هناك فائدة من خضوع هذه المدارس لإدارة الحكومة في الوقت الذي كان فيه رجال الحكومة أنفسهم من الأعيان ورجال المصارف وأغنياء التجار وإضرابهم. أما الآن والحكومة شعبية، وليس من الضروري أن يكون أفرادها من الأغنياء فإن هذه المدارس يجب أن تكون حكومية لا خاصة، وأن تفتح أبوابها لكل من تؤهله مواهبه للتعلم فيها من أبناء الشعب. والسبب الثالث هو أن جامعاتكم لم تدرك تماماً المهمة الإلهية التي نصبها الله من أجلها، لأنها وهي تحرج الرءوس المفكرة في الدولة لم تصن خريجيها عن المطامع المادية وشهوة المال. والنتيجة هي أن رجال الحكم من أبنائها بدلاً من أن يخضعوا المادة لمبادئهم خضعوا لها.

من كل ما ذكرته تستطيع أن تعرف أي أنواع الإصلاح أريد إدخاله على نظام التربية. يجب ان تبدءوا من القمة فتصلحوا من الجامعات حتى تنتج نوع الحكام الذي تحتاج إليه بلادكم. ولست أزعم أن هذا سهل التحقيق. إن العلماء ولو أنهم يتمشدقون دائماً باسمي، ويذكرونني بالإعجاب والثناء، لم يفهمون جيداً، ولم يفهموا الغاية (من أكاديمي) التي أسستها حتى لقد حرفوا معنى عبارة (التفكير الأكاديمي)، فأصبحت تدل

على كل تفكير عقلي لا يمت للحياة العلمية بسبب. وأنا أعرف بالطبع إلى أي حد يكره فلاسفة هذا العصر وعلماؤه الحياة الحالية المحيطة بهم ويحتقرونها، وهم لا يريدون في الوقت نفسه أن يعترفوا أنهم طلقوا هذا النوع من الحياة لا لسبب إلا لأنهم عجزوا عن إقناع ولاة الأمر والمشرفين على شئون الأمة بمبادئهم الفلسفية السامية. ولابد أن تتفق معي أنه لا فائدة من هؤلاء الفلاسفة العلماء، لا لشعبهم ولا للعالم إلا إذا اعتقدوا أن هذا العالم يجب أن يحكم بمبادئ العقل والحكمة التي يدافعون عنها. وأظن أن هذا بعيد الحصول، لأن العلماء والأساتذة الذين يتمتعون بحياة مريحة، ورزق مضمون، وهم مطمئنون لآرائهم وفلسفتهم الشخصية، ليسوا مستعدين إلا قليلاً أن يخاطروا بكل هذه المزايا في سبيل إعانة غيرهم. لهذا ستظل جامعاتكم في الغالب قانعة بوظيفتها، وهي تخريج رجال يخدمون العالم ولا ينتقدونه، فرحين بالقدر اليسير من المعارف التي ينتجونها والعلم الذي يخدمونه وبالعبارات الشفهية التي يفوهون به في محاضراتهم وأحاديثهم عن المثل العليا للحرية العلمية والعدالة العالمية.

وفي هذه الحال يجب عليك أن تفعل كما فعلت أنا، فتؤسس معاهد تنافس هذه المعاهد العلمية ودور التربية القائمة الآن، جاعلاً غايتك خدمة الحقيقة، والحقيقة فقط، معلناً أن الحقيقة واحدة لا تتغير في كل زمان ومكان ولكل فرد. وسوف تتهم بالتحيز والتعصب، وأنك تفسد عقول الشباب بتعاليمك، وتحطم المثل العليا للمبادئ العلمية الصحيحة فلا تصغ لهذه التهم واذكر أن الرجل العالم إذا لم يكن أيضاً رجل عمل فليس جديراً أن ينسب إلى أسرة العلماء الأكاديميين، ولتكن الدراسة في جامعتك شاملة للبحوث العلمية وللدربة والمران لمباشرة الإيالة واكتب على باب جامعتك هذا الشعار (يجب أن يكون الحكم للعلم فقط). ومتى ثبتت هذه العقيدة في قلبك فلن يزعجك ما تتهم به من التحيز أو التعصب، ومن إفساد عقول الناشئة، لأنك ستعرف جيداً أن كل حقيقة جديدة يتهمها الناس بالزيف، وأن اسم العدالة أداة تستخدم لإخضاع المصلحين للنظام القائم. وهناك تغيير آخر يجب أن يدخل على عقائد طلابك، إنهم في هذه السن كرام النفوس، بيض القلوب، يعتقدون بسذاجة أن الحقيقة والحكمة يمكن أن تسودا بطبيعتهما على القوة والحيلة! وبهذا ينزلون ميدان الحياة غير مسلحين ليغزو العالم. وسرعان ما يسفر النضال عن رضوخ في الرأس، وانخداع في التفكير، وحينئذ يظهر لهم أن الشر الذي يعيش ويترعرع في القوة عدو لا تمكن ملاينته بالكلمة الطيبة والعاطفة النبيلة، بل يجب أن يضرب ويصفع حتى يخضع ويصفد في الأغلال، وبهذا لا يستطيع النهوض مرة أخرى. وهذا الدرس يجب أن يتلقاه طلبتك كل يوم في جامعتك الجديدة، كما يجب أن يكتب فوق مدخل الجامعة شعار آخر وهو (لن يدخل هذه الجامع محب للسلم) ثم ذكر طلبتك دائماً أن حكم العقل لم يستطيع ولم يفلح أن يسود البشر ولو مرة واحدة في التاريخ باللين والرفق. ولهذا وجب على الفيلسوف أن يكون مستعداً لمواجهة خصومه بقوة وعزيمة أشد من قوتهم وعزيمتهم. وأنا أنصح للفيلسوف أن يدرع بالقوة،

لأني أعلم أن مبادئه ستكون دائماً عرضة لبعض الناس، على عكس المبادئ الأخرى التي يروجها أعداء الفلسفة من حقائق مموهة يخدعون بها غيرهم. ولهذا يجب أن يسلح الفيلسوف نفسه بكل أنواع القوة والشدة حتى يروض شهوات الشر المادية الجامحة فتخضع لحكم المعرفة. دع طلبتك إذاً يعلموا أنهم إذا أرادوا أن ينقذوا بلادهم من الخراب فعليهم ألا يجعلوا روح السلم تسيطر على نفوسهم، بل يجب أن يألفوا نظام الجندية، وأن يدربوا على

الروح العسكرية، تلك الروح لا تقشعر من سفك الدماء في سبيل المصلحة العامة ومتى ثبتت أركان جامعتك وأصبحت تشرف على شئون الدولة فوجه عنايتك بعد ذلك للمدارس، وهنا يجب ألا تزعجك أخطار مبادئ الفاشستية أو الاشتراكية الوطنية التي ذكرتها أنت في حوارك معي. فأنت توافق على أنه حتى الحكومات السيئة لها بعض الحسنات، وستسر وتعجب حينما تعرف أن ألمانيا وإيطاليا قد اتخذنا كثيراً من تقاليد بلادك وعاداتها، ولا سيما نظام مدارس أولاد الأعيان عندكم، ولكن بشيء من التهذيب يناسب حاجات الوقت الحاضر. وأعتقد أن هذا الخبر سيجعلك أكثر تعلقاً بهذه المدارس فتبقيها كركن قوي للتعليم عندكم في المستقبل، وستقبل عليها مفتحاً

أبوابها، معلناً أنها أصلح المعاهد لاعداد القادة السياسيين. فاختر لها حينئذ من بين أطفال الشعب أكثرهم قابلية لتحمل تبعة القيادة السياسية. أما البقية من أطفال الشعب فأعد لهم المدارس الفنية، الصناعية والزراعية والتجارية، حيث يتعلمون المهن التي يصلحون لها. ولما كانت هذه الطبقة من أطفال الشعب ليست بذات خطر فلا داعي لأن يعيشوا في المدارس بل اتركهم يعيشوا في المدارس، ويحضروا للدروس بالنهار فقط. أما أولئك الذين اخترتهم لمدارس أولاد الأعيان فخذهم بتربية صارمة، وامنعهم من رؤية ذويهم إلا في أيام الأعياد والإجازات العامة، وصير هذه المدارس في نظامها الرياضي البدني وفي بساطتها كمدارس إسبارطة القيمة، وخل تلاميذ هذه المدارس يخدمون أنفسهم بأنفسهم، فلا فراشين ولا فراشات، ولا مشرفين ولا ممرضات، ولا أي فرد من هؤلاء الذين يحوطون الأولاد بالعناية والعطف، ويغرسون في نفوسهم النعومة والرقة التي تضعف من خشونة تكوينهم. واجعل التعليم في هذه المدارس للبنين والبنات معاً من غير تمييز، ذاكراً دائماً أن غايتك هي إعداد شعب من الجنود والإداريين، لا هذا النوع من الجنتلمان ولا من الجنس اللطيف ذي الغيد والرقة الذي يتخرج في مدارسكم الآن ويجب أن يكون النظام شديداً قاسياً يمرن العقل والجسم معاً على الدقة والطاعة والإتقان، ويكون في ذوق التلاميذ الإعجاب بما هو بسيط ومتين من مظاهر الجمال التي لا يشين الجندي التحلي بها ومن أجل هذا يجب أن يتعلموا مبادئ الحساب والعلوم، وأن يدرسوا اللغة هذا إلى معرفة خير منتجات آدابكم وموسيقاكم، وأنواع الرياضة والألعاب العسكرية

ومتى فعلت هذا وجدت أنه من السهل حل معضلة التربية، التربية العامة لطبقة الشعب التي من أجلها عقدنا هذه المحاورة. وإذا علمت أن طبقة الشعب هذه غير قادرة على أن تحكم نفسها بنفسها أدركت أنه من الضروري أن تنمي فيها روح الخضوع والطاعة للحكام. وما دام من غير الممكن أن تعيد نفوذ الكنيسة الذي ربي هذه الروح في الماضي، فلابد إذاً أن تكبت كل الكبت المذاهب الدينية المختلفة السائدة الآن في بلادك والتي لا يفتأ بعضها يحارب بعضاً، وأن توجد أنت ديناً سياسياً من عندك يقضي بالإعدام على كل من يؤيد غير مذهباً الديني. ولن تستطيع أن تفعل هذا إلا إذا كان لك الإشراف المطلق على النشر والطباعة وعلى الإذاعة وكل وسائل الإعلان، وتسن إلى جانب هذا قانوناً يحظر تعليم أفكار أو مبادئ - كتابة أو شفهياً - من غير ترخيص من الحكومة، وإلا فالعقوبة الإعدام. فإذا ما فعلت كل هذا كان لك أن تأخذ الشعب بأي نوع من التربية تشاء، بشرط أن تتأكد أن هذا النوع الذي تختاره من التربية لا يشمل شيئاً من الحقائق أو العلوم، ولكنه مجموعة أكاذيب نبيلة تلائم أولئك الذين لا تسمو بهم عقولهم إلى مرتبة إدراك الحكمة الصحيحة ومعرفة الله.

المربي: شكراً جزيلاً على اقتراحاتك، وليس عندي من شك أنها تتفق ومبادئ حزب جديد نشأ عندنا يسمى الحزب الفاشستي فعليك برئيسه.

أفلاطون: لم أتشرف بعد بمعرفة رئيس هذا الحزب، فإذا كانت اقتراحاتي تروقه، فسأعمل على لقائه

(يتبع - بخت الرضا. السودان)

عبد العزيز عبد المجيد

إلى جمهرة أهل الأدب

للأستاذ إسماعيل مظهر

أوجه هذه الكلمة إلى جمهرة أهل الأدب في مصر والأقطار العربية على صفحات الرسالة إقراراً لحق يجب أن يُقر، ورداً لعادية ينبغي أن ترد، وتأييداً لدستور العرف المرعي بين الأدباء والناشرين وأصحاب الصحف على مختلف أنواعها

فقد نشرت مجلة الثقافة الغراء بحوثاً لحضرة الأب أنستانس ماري الكرملي نقداً على كتاب الذخيرة الذي نشره حضرة الأستاذ الدكتور جورجي صبحي بك الطبيب المصري المعروف، فتناول حضرة الأب ما شاء له علمه وبحثه أن يتناول من تصويبات في الكتاب، وحشا نقده وتصويبه بعبارات نال بها من حضرة الدكتور صبحي بك أشد النيل وأسف فيها شر إسفاف، فقد جاء نقده العبارات الآتية:

وهذا هو الجهل المركب الذي لا تركيب بعده وإن اجتمع جهلة العالم كله (العدد 81 - 1 ص 37 من الثقافة)

2 - حقيقة أني لا أفهم كيف أن مثل هذا الطبيب حصل على شهادته وكيف يجاز له أن يكون أستاذاً مساعداً في الطب في الكلية المصرية وطبيباً معالجاً في القصر العيني وأستاذاً للغة القبطية والدهماوية (الديموطيقية) إلى آخر ألقابه العديدة (العدد 82 ص 40 من الثقافة).

3 - لما اتضح أن هذا التصنيف (يعني كتاب الذخيرة) ليس لثابت بن قرة، وبان بالعكس أن واضعه قليل البضاعة في علم العربية، والكاتب قبطي من أهل المائة السابعة أو الثامنة للهجرة لجهله الألفاظ الطبية وتشويهه لها، وجهله الأحكام اللغوية ومسخه لها مسخاً شنيعاً، لم يبق ذريعة لإصلاح هذه الأضرار المتنوعة إلا جمع النسخ المطبوعة - وتبلغ الألف عداً صادقاً - وإحراقها وإزالتها من عالم الوجود صيانة لشرف ثابت بن قرة، وشرف الجامعة المصرية التي فقدت شيئاً كثيراً من حسن سمعتها لأنها سعت ببعثها في الدنيا، مروجة إفساد العربية، وباثة الألفاظ المشوهة، وصيانة أيضاً لشرف الدكتور جورجي صبحي الذي خسر كل ثقة من صدور عارفيه، إذا اشتهر عنه أنه لا يفهم ذرواً في العربية ولا يحسن الإنجليزية، ويسئ النقل من لغة إلى لغة، ومثل هذا الأمر في طبيب طامة عظيمة لا تقدر نتائجها الوخيمة (العدد 84 ص 40 من الثقافة)

4 - لو كنت وزيراً للمعارف في الديار المصرية لحكمت في أول يوم أتولى فيه الوزارة على الدكتور جورجي صبحي أن يؤدي جنيهاً مصرياً عن كل صفحة من صفحات هذه المذكرة المنسوبة ظلماً وكذباً إلى ثابت بن قرة. ولما كانت هذه الصفحات 186 في اللغة العربية و42 في اللغة الإنجليزية، فيكون مجموع ما يؤدي 228 جنيهاً، ويزاد على ذلك حبسه يوماً واحداً عن كل صفحة أيضاً، فيسجن 228 يوماً. فهذا أقل ما يستحقه هذا الرجل حتى لا يدفعه الغرور إلى نشر كتاب طبي آخر على هذا المثال المشوه ضناً بحياة الناس، وصوناً للغة الضاد، وتأديباً لمن يجرؤ على مجاراة هذا الدكتور في نشر الكتب وتشويهها تشويهاً شنيعاً فظيعاً، يكره في عيون الناس اللغة العربية والطب والعلماء على اختلاف درجاتهم وطبقاتهم، لأن نتائج مثل هذا العمل السيئ إهلاك الناس أولاً وإفساد لسانهم ثانياً، ودفعهم إلى المباهاة بأضرار الخلق ثالثاً.

صاننا الله من هذه الشرور العظام الجسام، ووفقنا لخير الناس من خواص وعوام (العدد 84 ص 40 من الثقافة)

هذا طرف مما جاء في نقد الأب أنستاس الذي نشرته مجلة الثقافة الغراء. ولقد اتفق أني كنت عالماً بأن حضرة الأب سينتقد الكتاب، وأن لهذا النقد تاريخاً قديماً ووقائع ينبغي أن يعرفها أهل الأدب ليظهروا بنشرها على لون من ألوان الأدب في هذا العصر، وليعرفوا شيئاً من العوامل التي تختفي وراء كثير من النقود التي ينشرها حضرة الأب أنستاس في مختلف المناسبات فكتبت نقداً لما نشر حضرة الأب أنستاس وخصصت به مجلة الثقافة الغراء كالعرف السائر، وأرسلت النقد مع كتاب إلى حضرة الأستاذ أحمد أمين محررها. ولقد أرسلت النقد في الثامن والعشرين من أكتوبر فرد إلي في التاسع من نوفمبر مع كتاب من حضرة محرر الثقافة الغراء نصه الآتي:

(جاءنا مقالكم والذي دعانا لنشر مقال الأب أنستاس ما فيه من تصحيح علمي يسوغ لنا نشره. ولكن مقالكم - مع قيمته - معظمه تعريض بالأب أنستاس من غير مناقشة علمية فإذا سمحتم باختيار مقتطفات منه نشرناها وإلا فنحن معتذرون.)

أحمد أمين

ولقد توقعت أن نقدي سوف لا ينشر في الثقافة وكان السبب الأول لهذا أني وجهت بعض اللوم لحضرة الأستاذ أحمد أمين لأنه نشر في مجلته ألفاظاً وعبارات كتلك التي وجهها حضرة الأب إلى الدكتور جورجي صبحي وهو له زميل في الجامعة وأستاذ مثله فيها، ولأنه قبل أن ترمى الجامعة المصرية التي هو أحد أساتذتها وعميد كلية الآداب فيها بأنها فقدت شيئاً كثيراً من حسن سمعتها، وأنها تروج إفساد اللغة العربية وأنها تثبت الألفاظ المشبوهة!!

ولئن كبر على حضرة الأستاذ أحمد أمين أن يوجه إليه هذا النقد من كاتب، وعسر على نفسه أن ينشر هذا اللوم في الثقافة، فما كان أجدره أن يهذب نقد الأب ويطلب منه أن يرفع منه تلك الأقوال الثقيلة الجارحة، ولكنه قد أجاز نشر كلمات الأب ورضى بأن يحكم على زميل له في الجامعة أن يدفع غرامة مالية وأن يسجن تلقاء نشره كتاباً

قديماً مشوه الأصل، فكيف لا يرضى لنفسه أن يلام وأن يوخز وخزة واحدة تلقاء ألف وخزة نال بها من أستاذ زميل له في الجامعة؟

وبأي حق يطلب الأستاذ مني ألا أعرض بالأب أنستاس ما دام قد أجاز للأب نفسه أن يعرض برجل من أفذاذ المصريين؟ أحرام علينا أن نعرض بالأب، حلال للأب وللأستاذ أحمد أمين أن يعرضا بالدكتور صبحي؟ ومن ذا الذي أعطى حضرتيهما هذا الحق وجعلهما فوق التعريض واللوم ما دام قد أجازاه لنفسيهما؟

فإلى جمهرة أهل الأدب عامة وإلى حضرة الأستاذ محرر الرسالة خاصة، أحتكم وأطلب الحكم، وآمل أن أنصف وأن ينصف معي الدكتور صبحي بك فينشر نقدي في الرسالة في العدد الذي يتلو العدد الذي تنشر فيه هذه الكلمة إحقاقاً لحق لا ينكره علي وعلى الدكتور صبحي إلا جرئ على حقوق الناس

إسماعيل مظهر

من وراء المنظار

مصري من الخارج

عرفته قبل أن يسافر ولقيته بعد عودته من الخارج، وأشهد لقد آمنت إيماناً لن يكون بعده جحود بما للخارج من عظمة، وتعاظمني ما بيننا نحن الشرقيين من بون في الحضارة وبين سادتنا الغربيين، حتى لقد أوشك يتملكني اليأس من أي إصلاح لحالنا، إلا أن نرسل جميعاً عالمنا قبل جاهلنا وكبيرنا قبل صغيرنا - اللهم خلا من سلف له أن سافر - بعثة واحدة في وقت واحد إلى بلاد الغرب لعود بعدها كأهل تلك البلاد لنا ثقافتهم ولنا ذوقهم ولنا أسلوبهم فيما يأتون من ضروب التفكير والأعمال ما جل وما هان

ولا يحملن القاري كلامي على اللهو والمبالغة، فالأمر أجل وأخطر من أن يسمح بشيء من هذا، ولو أنه رأى ذلك الذي أتحدث عنه، كما رأيته قبل سفره وبعد أوبته، لأيقن أني جاد كل الجد مقتصد غاية القصد فيما أقول، وحسبك أنه اغترب زمناً ثم عاد إلى وطنه العزيز وهو شخص آخر قد تغير تغيراً جوهرياً من جميع نواحيه إلا ناحية واحدة ستعلم نبأها بعد حين؛ وقد تم له ذلك على صورة أرى من الميسور معها على أن أصدق أن لماء التاميز وغيره من أنهار انجلترة فعلاً سحرياً، فما هو أن ينزل المرء فيه، أو أن يغترف منه غرفة فحسب، حتى يصبح مهما كانت جنسيته، بل إنه ليصبح وإن لم تك له جنسية إلا تلك الحلقة المفقودة التي لفقها خيال العلماء، إنجليزي المظهر والجوهر والخلق!

ما ذهب صاحبنا هذا مذهباً في حديث له إلا جعل غايته تلميحاً أو تصريحاً أن يلقي في روع السامع أنه كان في انجلترة، وأنه بذاك فوق مستوى من لم يتواف له مثل حظه مهما تكن مكانته؛ وكيف يكون لمن لم يحظ بذلك مكانة في نفسه على أية صورة من الصور؟ كذلك يعتقد ذلك الأستاذ الذي يتندر تلاميذه فيما أعلم من عبثهم أنهم يحصون عليه إشاراته إلى ذلك الشرف في دروسه، وإن أحدهم ليراهن صاحبه على درس يأمل أن ينسى فيه الأستاذ ذكر ذلك، ولكنه يخسر كل مرة، حتى لتحدثه نفسه أخيراً أن يذهب إلى أستاذه فيتوسل إليه أن ينسى مرة واحدة وله ما شاء بعدها من الإذعان والمودة!

وكيف ينسى الأستاذ، وإن هذا الأمر ليجري في نفسه مجرى النفس في رئتيه لا يكاد يستغني عنه لحظة؟ وأول ما يستطيل به عليك - إذا اغتررت بنفسك فطاولته، وأول ما يشتكي به إليك إذا اطمأن إليك فأفضي إليك بهمه على الرغم مما يتقلب فيه من نعمة أنه رجل وليعذرني القارئ إذا ذكرت عبارته كما يوردها، فإني لأخشى ألا يؤدي تعريبها ما يريد من معنى، فيضيف بذلك إلى أدلة جهلي عنده دليلاً آخر، ولا تنسى أن من لم يذهبوا إلى الخارج هم عنده جميعاً جهلاء أدعياء!

وهو لا يسمح أن تكون كفايته موضع شبهة من أحد رئيساً كان أو مرؤوساً، وإنه ليخطئ الخطأ في جدله لا يختلف اثنان في أنه خطأ، ومع ذلك فإنك لتزحزح الجبل الراسخ من موضعه ولا تزحزحه هو عن موقفه بأية وسيلة من الوسائل؛ ويظل في مكانه لا ينحرف قيد شعرة، ولن تزداد أنت بمحاولتك عنده إلا أنك تمعن في المكابرة وتسرف في الحمق وتبالغ في الغفلة؛ وإنه لن يؤمن أنه يخطئ إلا إذا كان أحداً ممن اغتربوا ولو إلى قبرص!

وليته يقف عند هذا الحد، فإنه ليقحم نفسه في كل جدال فيستمع لحظة حتى إذا قرر أحد المتكلمين أمراً جابهه بأنه يقرر الخطأ قائلاً: (لا، هذا خطأ) يقولها في غير مراعاة منه لأي وضع من أوضاع الذوق، ثم يزيدك نكداً بأن يسمعك نصف عبارته الإنجليزية ونصفها بالعربية، ولقد يستكثر النصف على العربية أحياناً فلا يأتي منها إلا ببعض ألفاظ؛ ويمعن في الكيد لك فيستدل على رأيه بما قرأ من كتب يذكر أسماءها، والله يعلم نصيب كل منها من الوجود! ولن يذكر فيما يستدل به من الكتب اسم كتاب عربي. وكيف يفعل هذا وهو لا يتورع أن يقول في صراحة إنه يضن بريال من ماله على شراء أي كتاب عربي بينما يدفع جنيهاً كاملاً ثمناً لأي كتاب إفرنجي؟!

إذا صرفت النظر عن طربوشه وسحنته فأنت منه - إذا تبقى بعد ذلك شيء - حيال إنجليزي لا حيال مصري؛ فسرواله وحلته وحذائه كلها إنجليزية اللون والتفصيل، وغليونه إنجليزي الوضع والهيئة والحجم، وأسلوبه في تفريغ ذلك الغليون بدقة على كعب حذائه وفي حشوه وإشعاله أسلوب إنجليزي على رغمي ورغم غيري من الذين ينكرون عليه كفايته، لأن الغيرة تملأ نفوسهم والحقد يوغر صدورهم.

وإنه ليدق الأرض دقاً بحذائه الغليظ إذا مشى، ويومئ برأسه مع كل دقة إيماءة الكبرياء، فيكون في ذلك إنجليزياً أكثر من الإنجليز أنفسهم؛ وهو يكمل بذلك أدلته على أنه قد صار أحد هؤلاء الإنجليز الذين أخذ عنهم؛ وإني لن يسعني مع هذا إلا أن أسلم له بأنه حقاً، وإلا

ثمة من فرق بينه وبين من يشتبه بهم؟

ويسيطر على سلوكه خيال إنجليزيته سيطرة عظيمة عند علماء النفس تأويلها؛ أما أنا فعملي عمل المصور الخبيث، فأراه إذا تكلم الإنجليزية مثلاً - وقل أن يتكلم غيرها - يلعب بفكيه لعباً لن أستطيع أن أنكر ما فيه من مهارة، وإلا كنت مكابراً حقاً. وأراه يلعب دور الملحن أيضاً فهو لا يقنع بالمبالغة في إمالة ما يتطلب الإمالة من الحروف، ولا بتفخيم بعض الألفاظ وترقيق البعض، ولا بمد أواخر كلمات واختطاف أواخر كلمات غيرها، ولا بالإتيان بغنة هنا وشنشنة هناك، ولا هناك، ولا بقلقلة لسانه فيما يقابل (الراء) عندنا من الحروف ليخرجه بعد حشره بين وسط اللسان وسقف الفم. . . لا يقنع بذلك كله وإنما يحاول أن يكون صوته كصوت الإنجليز فلا يتسق له وا أسفاه إلا خليط من اللغط والمواء يحمل أشد المحتشمين على الضحك. ولقد رأيت أحد الإنجليز يستمع إليه وهم أهل كياسة ودماثة، فلم يتمالك نفسه من الضحك فحجب وجهه بورقة في يده وضحك ملء نفسه ثم عاد يحاول في جهد الاحتشام والوقار. . .

وإذا اضطره إلى العربية جانب من عمله جاءك بها في ثوب إنجليزي وتسمعها على لسانه غريبة أكثر عوجا ولكنه في جرسها وإخراجها مما لو جرت على لسان أحد أساتذة إكستر أو لفربول وقد تعلمها منذ أسبوعين!

وهو يرم بمجتمعنا وتقاليده، فكل شيء فيه سخيف عنده؛ وإنه ليتعرف لديك في غير تحرج أو استحياء أنه لا يزور ذوي قرباه إلا كل عامين أو ثلاثة لأن صدره يضيق بما يرى بينهم من تقاليد وعادات بالية عتيقة. رجا منه مرة أحد أصدقائه ألا ينسى أمراً من الأمور، فهال الصديق أن يراه يغضب أشد الغضب ثم يصعر خده ويشمخ بأنفه قائلاً: (أنا أنسى ? ,

وليس للفن المصري في رأيه أثر في الوجود، ولا للموسيقى المصرية وقع في النفس، ولا للأدب نصيب من لا حياة، ولا للحياة المصرية كلها وضع من أوضاع الذوق. . .

وبعد فليت هذا الذي يتشبه بالإنجليز هذا التشبه؛ يحاكيهم في غير الحلة والحذاء والغليون واللهجة! نعم ليته ينقل عنهم بعض ما بهروا به العالم من خلفهم، بل ليته علم أن الإنجليز أبعد الناس عن التقليد السخيف لأنهم لا يرون بينه وبين الصعلكة كبير فرق!

ليته نقل علمهم وأتقن أسلوب تفكيرهم، ثم اقتنع بهذا الجد وحافظ على مظهر قوميته وروح وطنيته، وإن بعض إخوانه ليعود إلى وطنه وما أغناه ماء التاميز عن ماء النيل، وما إن يرضى بأن يقيم من نفسه دليلاً على شعوره بحقارته!

وما لهذا المتكلف وللعلم وبيده (رخصة) بأنه كفء على الدوام أحسن أو أساء؛ وما به حاجة إلى أن يعمل فهو سابق غيره إن جد وإن أهمل بحكم هذه الوثيقة بل هذه الحجة الدامغة التي تغني عن كل شيء! وإن وثيقته هذه لتذكرني (بصكوك الغفران) التي

كانت تبيعها الكنيسة للناس في العصور الوسطى فتغفر لهم ما تقدم من ذنوبهم وما تأخر، أو بما يكون لصوم يوم عاشوراء عند السذج من عامة المسلمين من جزاء في الدنيا والآخرة. . .
وإن إكبار المجتمع لمثل هذا المصري الآتي من الخارج ليجري على أسلوب كأسلوب العوام الذي تراه في مثل قولهم: (فلان متربي في بلاد بره) أو كأسلوب بعض جهلاء الذوات في الجيل المنصرم عندما كانوا يقولون (فلان جي من استنبول)
لقد ذهب الزمن الذي كان يراد فيه وضع هؤلاء القادمين من الخارج مهما يكن من عجزهم موضع التفوق ومات الغرض من ذلك بتيقظ قوميتنا وانبعاث نهضتنا؛ فختام نشهد على أنفسنا بالضعة ونقدح في كفاية معاهدنا وأساتذتنا؟
يا معالي وزير المعارف! لأنت أحد أساطين نهضتنا القومية المباركة، فمن غيرك اليوم يقتلع هذا الداء من أصوله ويقول لمن يعمل: المكافأة على قدر العمل، وقيمة كل امرئ ما يحسن! بذلك تقضي معاليك على عيب من أهم عيوب التعليم في هذا الجيل الذي يرتقب الخير على يديك.
الخفيف
-
بواب مصر. . .
السنيور (جرزياني)
بوابَ مصرٍ قف بجنب الباب ... أرأيت في الصحراء غير سراب
حرب ولا مثلَ الحروب، عجيبة ... دعوى المودة من عِدىً أو شاب
تركتك مصر بموضع ما اختاره ... من قبلُ أقوامٌ ذوو ألباب
سجل أسرت به جنودك طِّيعاً، ... حسناً فعلت بجيشك الغلاب!
فلتبق حيث اخترت في مهجورةٍ ... واسمع صداك جوابَ غير مجاب
يكفي عقاباً للجهول وقوفُه ... في موقف يكفيه كل عقاب
البحر عن يسراك فارشف رشفة ... وانعم بأمواه لديك عِذاب
والرمل عن يمناك فأطعم سائغاً ... ما شِئت بين رُبى وبين هضاب
بابٌ لمصرٍ لم يجادلك امرؤ ... فالزم مكانك فيه كالبواب
عبد اللطيف النشار
غَنّ. . .
أيها الشاعرُ قُمْ وانْقُرْ عَلَى ... عودِك الحانِي وَرَدِّدْ أغنياتِكْ
إنما أنتَ شُعَاعْ ... عن قريبٍ يغربُ
وأمانيكَ خداعْ ... وسرَابٌ يكذبُ
اركب الزَّوْرق واسْبَحْ فغداً ... لا ترَى الزَّوْرقَ يجْري ويَهيم
واجمع الطيرَ حواليْك وكنْ ... أوَّل الشادينَ ألحانَ النعيم
وارْتَشِفْ أكوابك السكري ففي ... هذه الأكوابِ صفوٌ مستديم
وابتذِلْ دنيا الجياعْ ... فهي هم يَنهبُ!
وهي عنْف وصِراعْ ... وضَجيجٌ متْعبُ!
موكبُ الدنيا يُغَنِّي لحَنه ... فانتَظِمْ في موكب الدنيا وغَنِّ
العذارَى يتهادين به ... راقصات فيه في صفْو وأمْنِ
قُمْ تَرَنَّمْ، قمْ وسَبِّحْ للهوى ... وانْسَ ما تحمِل من وهمٍ وحزْن
وانهب الحسن المشاعْ ... فقريباً يذهبُ
إنما الدنيا متاعْ ... ونعيمٌ طيبُ
عبد العليم عيسى
رسالة الفن
شيء قديم
السلطنة
مع سلام الله ورحمته وبركاته إلى فضيلة الأستاذ عبد الفتاح)
(خليفة، مفتش الخط المتصوف بوزارة المعارف العمومية
للأستاذ عزيز أحمد فهمي
الذين يسمعون الغناء في هذه الأيام معذورون إذا كانوا لا يعرفون ما هي السلطنة،

وهم معذورون أيضاً إذا سخروا من ذكرها وحسبوها رقاعة قديمة كان المغنون القدماء يصطنعونها تهريجاً منهم وتحلية لبضاعتهم، وكان الجمهور القديم يحتملها صبراً منه، وتضييعاً لوقته الطويل الرخيص الذي لم يكن ينتفع منه بشيء. . وهم معذورون في هذا وذاك لأن السلطنة قد انعدمت من عند المغنين في هذه الأيام أو كادت تنعدم.

والجمهور اليوم يسمع عنها - إن كان يسمع عنها - فلا يتصورها إلا نوعاً من أنواع التحكم الثقيل الممقوت يفرضه المغني فرضاً على جمهوره تهياً منه ودلالاً واستكباراً، فقد قيل لهذا الجيل إن المغني القديم كان لا يرد إلى المكان الذي سيغني فيه إلا بعد أن تمضي من الليل ساعات. . .

وإنه بعد هذا كان يطلب خمراً أو شيئاً آخر غير الخمر يقلب به دماغه ويغيب به عن وجوده، وإنه بعد ذلك كان يرجو أن إنساناً حلواً يقرب منه ليشاهده وهو يغني، وهو فوق هذا وذاك كان يصر على أن يصحب معه نفراً من الناس لا هم عازفون ولا هم مغنون وإنما هم مستمعون فقط يحبهم ويؤثرهم ويجرهم وراءه من حفلة إلى حفلة، ويجرون هم وراءه من فرح إلى فرح، والواحد منهم يعدل عنده ألفاً من وجهاء الناس الذين يدعون إلى سماعه والذين يجاملونه بالتطيب الرقيق والتشجيع الناعم. . .

وإنه بعد هذا كله لم يكن حضرته يغني إلا إذا تسلطن، وهو لا يتسلطن إلا بعد أن يقضي أفراد تخته زمناً طويلاً في تصليح آلاتهم، وبعد أن يعزفوا بشرفاً، وبعد أن يغنوا توشيحاً،

وبعد أن يقسم صاحب العود بعوده تقسيمات كثيرة أو قليلة، وبعد أن يتلوه صاحب القانون فيقسم هو أيضاً تقسيمات كثيرة أو قليلة، وبعد أن يعقبه صاحب الكمان فيقسم كذلك تقسيمات كثيرة أو قليلة، ربما بعد أن يغني واحد من أفراد التخت أغنية طويلة أو قصيرة، هذا كله وبعد طلوع الروح يبدأ حضرة المغني فيغني، فإذا نشط في غنائه قيل إن حضرته تسلطن

هذه هي الصورة التي يتصورها أهل هذا الجيل عن السلطنة، وهي صورة تنطبق على الحق وعلى الذي كان واقعاً، وإذا كان أهل هذا الجيل الذي نعيش فيه يكرهونها ويسخرون منها ولا يطيقون أن يرزءوا بها فإنما ذلك يرجع إلى أنه قد فاتهم تعليل كل ظاهرة من ظواهر هذه الصورة. . .

ولو أنهم عرفوا لأي سبب كان القدماء يحبون السلطنة من المغنين ويستجدونها منهم استجداء ويتكلفون تهيئتها لهم تكلفاً قد يرهقهم في أغلب الأحيان. . .

لو عرفوا هذا. . . إذن لأسفوا لأنهم قد حرموا اليوم ألذ متعة فنية قضى عليها جيلنا الحديث المتعجل الذي يستمع الناس الغناء فيه وكأنهم راكبون في قطار، يعدون على المغني أغانيه كما يعد ركاب القطار عليه المحطات؛ ويهرعون إليه قبل موعد الستار كما يهرع الركاب إلى القطار قبل موعد القيام، وينفضون عنه بعد الوصلة الأخيرة كما ينفض الركاب من القطار في محطة الوصول. . .

فلا تذوق، ولا استسلام، ولا واحد من المستمعين هؤلاء يتأخذ بالغناء، ولا واحد من المغنين هؤلاء يغزو نفساً من نفوس مستمعيه. . . وإنما هو (سلق بيض) كما يقول عامتنا الحكماء. . .

كان المغني القديم لا يحافظ على ساعة محددة يحضر فيها إلى الحفلة، وإنما كان يجعل موعده ليلة الحفلة بأكملها، فيحضر إليها وقتما يحضر. قد يبكر وقد يتأخر غير متعمد تبكيراً ولا تأخراً وإنما الذي يتعمده هو أنه لا يذهب إلى هؤلاء الناس الذين جاءوا ليستمعوه إلا بعد أن يستوفي راحة بدنه على الأقل، بأي صورة ما من صور الاستجمام تريحه هو.

ثم إذا جاء إلى مكان الحفلة طلب الخمر أو غير الخمر من قالبات الدماغ، لأن الغناء عورة من عورات النفس، لا يسهل على الإنسان أن يكشفها لغيره وهو يقظ منتبه إلا إذا كان فاجراً، فإذا كان فاجراً لم يكن مغنياً، لأن الغناء فن يستلزم في النفس حناناً ورقة ورحمة وشوقاً وأملاً ولهفة ورجاء وحباً وعطفاً ورضا وتضحية، وكل هذه عواطف بعيدة عن نفوس الفجار. . .

فإذا انقلب دماغه واستخفته الخمر وغاب عن رشده وهان عليه أن يفضح نفسه وأن يكشفها عارية للناس، لم يرضه أن يكشفها لكل الناس، وإنما يرضيه أن يتعرى أمام

الذي يعجبه هذا العري، والذي يرحم هذا العري، والذي يستجيب لهذا العري، والذي يكشف بالسماع من نفسه مثلما المغني من نفسه بالغناء. . .
وهذا هو الإنسان الحلو الذي كان المغني القديم يطلبه قريباً منه ليشاهده ويغني له، ولينسى به أنه قد تعرى أمام جمهور من الناس
والحلاوة في الإنسان تختلف، ولكل مغن ذوق هو ناشئ عن تكوين نفسه، فكما كانت حلاوة روحه كانت حلاوة مشهده. . .
والناس أجسام هي صور لأرواح محبيهم وعشاقهم. . .
ولا ريب أن هذه حال تشبه أن تكون موقعة بين المغني ومشهده الحلو، والمواقع لابد أن يحضرها شهود، والشهود هؤلاء ليست مهمتهم الحكم على المغني في آخر الليل بأنه انتصر أو بأنه فشل، وإنما مهمتهم أن يرقبوه وأن يرقبوا سامعه، وأن يتابعوهما بالإيحاء والتنبيه والتحريض و (تسجيل النقط) والتحميس والتطيب وغير ذلك من وسائل تفتيح النفس وإرهاف الحس وإشعال الروح. . . وهؤلاء الشهود هم أولئك المستمعون الذين يجرهم المغني وراءه من حفلة إلى حفلة، والذين يجرون وراءه من فرح إلى فرح. وهو يحبهم وهم يحبونه. أما هو فيحبهم لأنه يشعر بأنهم يتلقون خفقات نفسه ووثباتها فلا تضيع منها خفقة في الريح، ولا تذهب منها وثبة إلى العدم، فهم مسكن روحه ومأوى نفسه ونصراؤه المستجيبون له.
وأما هم فيحبونه لأنهم يرونه كأنما هو قائد لهم، إذا أن فكما كانوا يريدون أن يئنوا هم لو أن نفوسهم تفتحت تفتح نفسه، وإذا حن فكما كانوا يريدون أن يحنوا هم لو أن نفوسهم فاضت كما تفيض نفسه، وإذا هم فكما كانوا يريدون أن يهموا هم لو أن نفوسهم فزعت
وارتعشت كما تفزع نفسه وترتعش. . . هم من لونه وهو من لونهم ولكنه أشدهم تميزاً في لونه، وأشدهم تمكناً من لونه وأشدهم انطباعاً على هذا اللون. . . هم جمهوره. . .
فإذا جاء المغني إلى مكان الحفلة أو الموقعة، وتسلح بالخمر واستحضر شهوده، وواجه غريمه الحلو الذي ينتصر له الحاضرون جميعاً، والذي تجندت مع روحه أرواح المئات من المستمعين قاصدة تعزيزه، أو غير قاصدة وإنما تعززه بطبيعة الفضول المنساب منها إلى روح المغني يناوشه ويهاجمه ويقلقه. . .
إذا ما كان هذا استنجدت روح المغني بأرواح أفراد فرقته وهم جيشه، فما تلبث هذه الأرواح حتى تهب له ملبية، ولكنها قبل أن تبدأ الهجوم تستشير فيما بينها إن بالكلام وإن بالصمت عن موضع الضعف الذي يمكنها منه أن تبدأ الغزو فإذا لمست في الغريم ألماً وشجواً أرسلت إليه الحنين (سيكا) وإذا أحست منه استعصاء وصلابة رققته بالحجاز، حتى إذا ما اتفقت على مدخل روحه من أين هو، أرسل المغني وهو القائد أول رائد من رواده يناوش الغريم فإذا هي تقسيمات من الكمان أو القانون، هذه التقسيمات ليست إلا ومضات من الروح تعرض على السامعين وعلى رأسهم السامع المقصود بالذات، وهو كما علمنا من البدء معشوق للمغني بالفعل أو بالقوة، فبينه وبين المغني وأفراد جيشه وشهوده تلاؤم وتعارف مستكنان، وود متحفز للانطلاق، فإذا لم يقو على إطلاقه الرائد الأول بالكمان، استثاره الرائد الثاني بالقانون، فإذا لم يقو عليه هذا أيضاً نكثه الثالث بالعود، ثم كان البشرف كالنفير الذي ينفخ فيه نداء وتحفيزاً، ثم كان التوشيح كالمارش الذي يعزفه الجيش في أول الهجوم، ثم يبدأ المغني بعد ذلك يسدد طعناته طعنة في كل (ليل) يهتف بها، وفي كل (آهة) ولكل ليل معنى يتضمنه نغمها، ولكل آهة رجع مبثوث فيها، وليست هي أشكال صوتية صماء من المعنى والروح كهذه الآهات والليالي التي نسمعها اليوم فلا نعرف إن كان فيها فرح، أو كان فيها يأس، أو كان فيها رضا، أو كان فيها هم أو كان فيها غم
ويبدأ الهدف الحلو يضعف وينساق، ويبدأ المغني يعلو ويتمكن، ويجر الهدف الحلو وراءه تابعاً، ثم تابعاً وأفراد الفرقة والشهود يجذبون هم أيضاً الأتباع أفواجاً أفواجاً. . . حتى يشعر المغني بأنه لم يعد يتحرج ولم يعد يخجل من أن يكشف نفسه لأمة لا لفرد، فكل
عيوب نفسه الآن فضائل ما دامت لها أصداء في نفوس الناس جميعاً وما دام هو وحده القادر على نثرها مستطابة مشتهاة. . . لا يقصد منها قضاء الوقت، ولا تحصيل الأجر،

. . .فما خلف واحد من هؤلاء ثروة
عندئذ وعندما تكمل له السيطرة على هذا النحو يقال إنه تسلطن، وهو في الحق تسلطن على كل من في حضرته فما ينفذ من سلطنته إنس ولا جان. . . إلا لسلطان
. . .وهذه حال لا يشبهها إلا حال الشيخ أو الأمام مع أتباعه
. . .ولكن أي إمام؟. . . إمام من غير المحترفين. . . قلبه يعرف الله
عزيز احمد فهمي
البريد الأدبي
عراك في غير معترك
أرسل إلينا الأستاذ محمد متولي كلمة بعنوان (صورة) يرد بها على الأستاذ زكي طليمات فرأينا أن نقتصر منها على الجملة الآتية إيثاراً لخطة الرسالة من جهة، وإبقاء على ما بين الصديقين من جهة أخرى، والموضوع على كل حال لا يحتمل أكثر مما قيل فيه. قال الأستاذ متولي:
ولقد أقرر أن زكياً يهزل ولا يجد فلا يليق أن نشركه في المسائل العقلية، وإلا أضعنا وقتنا هباء دون أن نصل معه إلى نتيجة، وسأضرب مثلاً بمسألة واحدة مما هو شائع في مناقشاته
قال في رده الأول (وقبل أن ننتقل من هذا نود أن يقف القارئ على آراء علماء - 1 اليوم فيما كتبه ريبو) وبعد سطور قال أيضاً إن كلام ريبو (قد أصبح موضع نظر بعد أن بين الفيلسوف الأمريكي المعاصر وليم جيمس) كيت وزيت
وأنكرنا عليه أن يصف جيمس بالمعاصر وقد توفي قبل ريبو بست سنين، فعاد إلى - 2 كلمة معاصر يحاول أن يفسر معناها، وأنا شخصياً أعرف هذه الكلمة منذ خمسة عشر عاماً، وقد طالما سمعتها في دروس الجامعة المصرية من أستاذي أبل راي وأندريه لالاند، وكثيراً ما استعملتها بين أيديهما فلم أعرف لها غير معنيين وردا في معجم لاروس، في قوله
وهذا معناه أن المعاصر هو من يعيش مع غيره في وقت واحد فنقول إن فولتير - وفرانكلين كانا معاصرين. كذلك المعاصر هو من يعيش في الوقت الحاضر فنقول معاصرونا
ونحن حيثما ذهبنا مع زكي وبشر لن نجد أكثر من هذين المعنيين لكلمة معاصر - ولنذهب لتروا ضلال الفارسين
ينقل زكي أن قال. ' ' وهو كلام صحيح، لا كما فهمه بشر وزكي، ولكن لأن معناه (1) أن روح العصر هي مجموع الأشياء التي تقبلها جماعة على أنها حقائق في فترة معينة، فما دخل هذا في أن ريبو أحدث من جيمس؟! ربما أراد الفارسان أن يضيفا إلى كلمة معنى لا يعرفه أهل اللغة الفرنسية، وربما يصدران غداً (أمراً عسكرياً) باعتبار أرسطو أو نتشه أو كانت سبنسر أو غيرهم ممن تنفذ تعاليمهم خلال القرون نقول ربما يصدر الفارسان (أمراً عسكرياً) باعتبار أولئك جميعاً معاصرين برغم ما بيننا وبينهم من مئات السنين
إميل زولا (المتوفى 1903)، وألفونس دوديه (1840 - 1897) وفلوبير (1821 - (ب) 1880) وموباسان (1850 - 1893) وشارل بودلير (1821 - 1867)، وفيرهارين (ولد 1855) وفرلين (ولد 1844) ومالارميه (ولد 1842). كل أولئك عاشوا معاً أياماً بعينها، كما هو واضح في تلك التواريخ، فهم معاصرون بنسبة بعضهم إلى بعض، ثم هم يمثلون الفكر الفرنسي في عصر بذاته، والحال هنا كما لو أردنا أن نؤرخ للفكر المصري في هذا العصر، فتحدثنا عن: شوقي والعقاد وحافظ والزيات ومحمد عبده وطه حسين وقاسم أمين ومن إليهم فهؤلاء يمكن أن يمثلوا روح عصر مجتمعين
في أجرومية اللغة الإنكليزية
حضرة الأستاذ الجليل رئيس تحرير الرسالة الغراء:
ذكرني تعليق الأستاذ عبد الغني حسن على ترجمة الأستاذ العقاد بحادثين لاثنين من المدرسين أحدهما إنكليزي يدرس العربية، والآخر مصري يدرس الإنكليزية، وكلا الحادثين يدل على أن الاجتهاد والجدة ينشئان نوعاً من (الحنبلية) قد يسفر عن ظرف محض، وإن كانت الحنبلية في أغلب الأحيان لا تسفر عن ذلك
أما المصري الذي كان يدرس الإنكليزية فهو مجتهد مثابر على حفظ القواعد الجديدة

عليه حتى كادت تنسيه قواعد لغته. قيل له أعرب كلمة جداً في قولك أحبك جداً، فأجاب على الفور: أحب فعل والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا والكاف مفعول به، وجداً يا أفندم، وجداً. . . جداً إنها ليست وصفاً فهي لا تصف الاسم ولكنها تتمشى مع الفعل

أما الحادث الثاني فهو لمدرس إنكليزي كان يؤدي امتحاناً في وزارة المعارف المصرية وقال له الممتحن أسند فعلاً إلى الضمائر، فأجاب وهو لاجتهاده قد حفظ الضمائر ونسي الأفعال: (أنا مالكش دعوى. أنت مالكش دعوى. أنتم مالكش دعوى. نحن مالكش دعوى. هم مالكش دعوى. هن مالكش دعوى. هي مالكش دعوى. أنتن مالكش دعوى. . .)

عبد اللطيف النشار

المجمع العلمي المصري وكتاب الأخلاق

عقد المجمع العلمي المصري جلسته الأولى بعد العطلة الصيفية فألقى حضرة القس بولس سباط أحد أعضائه محاضرة عن كتاب نفيس عنوانه (علل اختلاف الناس في أخلاقهم وسيرهم وشهواتهم واختياراتهم) لقسطا بن لوقا العالم الكبير والطبيب الشهير في القرن التاسع

ذكر القس سباط في هذه المحاضرة أن لقسطا بن لوقا ثلاثة وستين مصنفاً وأن كتابه في الأخلاق أثر ثمين من الآثار العلمية التي تركها لنا العلماء المسيحيون القدماء، وختم المحاضرة بقوله: (أنشر هذا الكتاب راجياً أن يستفيد القارئ بمطالعته ويقدر عبقرية المؤلف وعلمه، فقد وصف قسطا بن لوقا في هذا الكتاب فوراق البشرية وصفاً بديعاً ورسم لنا بخطوط بارزة صورة للنفس الإنسانية يرى كل واحد منا صورة ميوله وشهواته ويلم بأسبابها فيجتهد في تهذيبها بما حباه الله به في القوى العاقلة التي تميز بين الخير والشر والنافع والضار)

عثر القس سباط على مخطوط من هذا الكتاب في مدينة حلب فاهتم بدرسه والتعليق عليه وترجمته إلى اللغة الفرنسية وسيبادر المجمع العلمي المصري قريباً إلى طبعه مع الترجمة فيضيف مأثرة جديدة إلى المآثر العديدة التي من بها على العام العربي.

وفاة السير جوزيف طمسن

توفي السر جوزيف طمسن وهو من كبار علماء الطبيعة في العقد التاسع من سنه واشتهر السر جوزيف هذا بإعلانه سنة 1897 اكتشاف ما يعرف الآن باسم الإلكترون وهو أصغر ما عرف من أجزاء المادة وأصغر مما كان يعرف باسم الجوهر الفرد.

ولما أذاع اكتشافه هذا في العهد الملكي قول بالشك الممزوج بكثير من السحرية. قال يصف مقابلة خطبته التي أذاع بها في المعهد هذا الاكتشاف:

فلم يصدق كثيرون وجود هذه الأجسام التي هي أصغر من الجواهر بل إن عالماً طبيعياً مشهوراً قال لي بعد زمان طويل من إلقاء الخطبة إنه ظن أني أسخر بسامعي. فلم يدهشني

(قوله لأني أنا نفسي كنت أشك في اكتشافي وتعليله)

هل موسى عليه السلام مصري أو عبري؟

نقلت مجلة (الرسالة) الغراء في العدد (383) عن الأستاذ (فرويد) أنه كان يذهب إلى موسى عليه السلام كان مصرياً لا عبرياً، وقد أيد رأيه في ذلك بأن موسى كلمة مصرية بمعنى عبد وذلك كما وردت في كلمة (تحوتمس) بمعنى عبد تحوت، ولكن هذا لا يمكن أن يؤيد رأي الأستاذ فرويد في أن موسى عليه السلام كان مصرياً لا عبرياً، لأنه لا يلزم أن يكون الشخص من أهل لغة من اللغات إذا سمي باسم من أسمائها، وهانحن أولاء الآن نسمى أولادنا بأسماء غير عربية، ومع هذا يبقي أولادنا عرباً ولا تؤثر فيهم هذه التسمية

على أن هناك أمراً أهم من هذا في هذه المسألة، فقد قرأت في بعض الكتب القديمة أن اسم موسى سرياني مركب من كلمتين (مو - و - شا) مو هو الماء بالقبطية، وشا هو الشجر، فعرب وقيل موسى، وإنما سمي به لأنه وجد بين ماء وشجر، ولا شك أن هذا النص صريح في أن كلمة موسى سريانية أو مصرية، ولكنها ليست بمعنى عبد، بل بمعنى ماء وشجر، فبأي الأمرين نأخذ في هذه الكلمة؟ ولا شك أن جواب هذا عند علماء الهيروغليفية، وليس عندنا معشر علماء العربية

عبد المتعال الصعيدي
موسى
ذكر الأستاذ صديق شبيوب أن فرويد قال في كتابه عن (موسى) إنه كان مصرياً مستدلاً على ذلك باسمه لأن كلمة (موسى) مصرية معناها الطفل أو العبد بدليل اسم الملك (تحتمس) أو (تحت موسى) أي عبد (تحوه) فيكون اسم موسى اختزالاً كما نقول بالعربية عبده أو عبد الله والصواب أن كلمة موسى ليست مصرية وليست بمعنى (عبد الله) كما التبس ذلك مرة على الدكتور زكي مبارك عندما قال إن كلمة شنوده بمعنى عبد الله أيضاً. فكلمة عبد الله عند الفراعنة هي (باك) مثل (باك إن أمون) أي عبد الإله أمون وغير ذلك
ولما كان فرعون هو الشخص المؤله على الأرض أمام شعبه فكان على بعض الفراعنة أن يتخذ لنفسه اسماً يثبت به أنه الوارث الشرعي للعرش وأنه من نسل الآلهة ومن هنا أتت
كلمة (تحتمس) أي (تحوه مس) المولود من صلب الإله تحوتي إله العلم والحكمة عند قدماء المصريين والأمثلة على ذلك كثيرة، ولذلك أساطير طويلة
أما الرد على الأستاذ بكر هلال فيما يختص بسؤاله عما إذا كان موسى من حاشية الملك الفيلسوف أخن أتون أو غيره فلم يهتد إلى ذلك أحد قط، وكل ما ذكر هو من الحدس وبالاستنتاج ولم تذكر الآثار شيئاً، وكل ما هنالك عن خروج بني إسرائيل من مصر مكتوب على لوح من الجرانيت موجود بالمتحف المصري من عهد الملك منفتاح، ولكن هذا لا يبرر خروجهم في عهد هذا الملك إذ المفروض أنهم خرجوا من مصر قبل ذلك بكثير.
ونرجو الله تعالى أن يوفقنا إلى البحث عن حل لهذه المعضلة التاريخية الدينية قريباً.
محمد صابر
مؤلف كتب الفراعنة
معنى سوى
جاء في كلمة الأستاذ على متولي السيد عدد 386 هذه الجملة:
فقد استعمل (سوياً) بمعنى (معاً). والذي ورد في . . .(نهزج (سوياً) بأغرودة السعادة)
كتب اللغة أن سوياً بمعنى مستو
جاء في القاموس في مادة (سوى): (ومكان سوى كغني وسي كزي مستوٍ، وسواه تسوية جعله سوياً)، وفي القرآن الكريم: (فتمثل لها بشراً سوياً) أي مستوياً تام الخلق.
فخري الدين غزي
ملاحظة على قصيدة طلع الفجر
قرأت في العدد 386 من (الرسالة) قصيدة عنوانها (طلع الفجر) للأستاذ عزت الهجين، فأعجبني فيها قوة الأسلوب وبراعة التصوير. . . إلا أن كلمة أرى من حق الأدب على أن أبعث بها إلى الرسالة
بدأ الأستاذ قصيدته بلون من الشعر أسبغه على ثلاث أبيات منها، ثم تحول فجأة إلى لون
آخر، وإن كان المعنى ما يزال موصولاً. وقد ورد البيت الثاني هكذا:
فاصح يا حلو قد صحا الور - د وطاف النسيم بالأقداح
ولعل صحة البيت:
فاصح يا حلو واستمع قد صار الور - د وطاف النسيم بالأقداح
حتى يستقيم الوزن ولا يختل المعنى. وما عن هذا أتساءل؛ ولكن أما كان يصح للناظم إذ نظم من بحرين مختلفين أن يجعل للأول نصيباً من باقي أبيات القصيدة حتى لا ينتقل القارئ أو السامع من نغم موسيقى إلى نغم آخر من غير وجود آصرة تربط بينهما حتى النهاية؟؟
وقد ورد لحضرته أيضاً: فتعال إن روحي ظمئت (يخاطب حبيبه)، ثم عاد فكرر الكلمة - فتعال - في قوله: (فتعال إنه يوم ألهنا) مما يضطر إلى إشباع اللام حتى يستقيم الوزن، على أن مثل هذا الإشباع لا يجوز إلا في القوافي من القصائد
وبهذه المناسبة أقول إن الرسالة كانت قد نشرت بالعدد 293 قصيدة للأستاذ إيليا أبو

ماضي، عنوانها (ابنة الفجر) وقد ورد فيها مثل هذا الإشباع - غير الجائز - لحرف من الحروف فنبهت إليه وعلقت عليه

علي سرور

القصص

عبث أرستقراطي

للأستاذ نجيب محفوظ

في ذلك المساء من شهر مارس أزيَّن قصر الوجيه حامد بك عرفان بحلة لألاءة من الأنوار المتموجة ذات الألوان، مدت أسلاكها الكهربائية على سور الحديقة فتعانقت مع الياسمين والبنفسج. وتعلقت بأفرع الأشجار والنخيل، وتوجت بها شجيرات الورود المنتثرة على هيئة أهلة ونجوم. وكان أعجب ما في القصر هو ذاك البهو المتسع الأنيق الذي فرش بفاخر الأثاث وحليت جدرانه وأركانه بروائع الفن من صور وتحف، وترك في وسطه مكان رحب للراقصات والراقصين، أما في صدر المكان فقد امتدت ردهة إلى مقصف حافل، وإلى يمينها فيما يلي الشرفة المطلة على الحديقة احتلت فرقة الموسيقى الإيطالية مكاناً جميلاً. . . وانتشر فيما بين البهو والشرفة والمقصف والحديقة المدعوات والمدعوون الذين لبوا الدعوة للاحتفال بعيد ميلاد كوكو الصغيرة ابنة الوجيه عرفان بك وزوجه أنجي هانم عرفان. . . كانوا يجلسون أزواجاً وجماعات يتجاذبون أطراف الأحاديث حيناً بالعربية وأحياناً بالفرنسية ويتضاحكون بأصوات عالية رقيقة وخشنة وإذا دعت الأنغام قاموا للرقص والعناق. وقد شاع في الجو عطر وأنس وحرارة كأنها أنفاس المودة نفثتها الأعين والشفاه والصدور والأماني الهامسة

وكانت الأحاديث متنوعة، ولكنها تدور في الغالب حول موضوع واحد يتجاذبها كما يتجاذب النور الفراشة، وهو المرأة، ولا يُستثني من ذلك الجماعة التي كان محدثها الأول الأستاذ على الجميل الصحافي المعروف والنائب المحترم، فما خرج الحديث فيها عن الزواج واختيار المرأة الصالحة، وكان النقاش يحتدم بين المتجادلين من الجنسين بصورة عنيفة مضحكة. أما الوجيه نور الدين فكان يتوسط حلقة أخرى يروي فيها ما اتفق من قصص مغامراته الغرامية في العواصم العالمية ذوات الشهرة في الحب والجمال؛ وفي ركن منعزل امتاز وفرة من حوى من الشابات والشبان أقيمت مسابقة سرية لاختيار أقبح امرأة بين المدعوات واتجهت أبصار المحكمات والمحكمين إلى امرأة اتخذت مكانها تحت صورة الفنانة وابنتها (لفيجيه لوبرين)، وكانت عجوزاً إلا أنها تتصابى وتستعير من ألوان الجمال

ما تظن أنه يغني عما استرده الدهر من حياة شبابها، فبدت تحت طلاء الأصباغ في هيئة مضحكة، وكانت تتجنب الناس وتقنع بالجلوس منفردة حتى تعود إلى مجالستها ربة الدار أنجي هانم كلما تاقت نفسها إلى الراحة. أما اسمها فدولت هانم وقد راضت نفسها على العزوبة بعد تجربة أربع زيجات غير موفقة، وكادت تيأس من الرجال والحب وقنعت من متاع الدنيا بمضغ الأعراض والخوض فيما تعلم وما لا تعلم من أسرار الناس فصارت معجماً لتواريخ السوء. وكانت في تلك اللحظة التي اختيرت فيها سراً ملكة للقبح. . . تجالس أنجي هانم، وكانت تلوذ بالصمت قسراً بعد أن لم تبق على أحد من الحاضرات والحاضرين، حتى أتيحت لها فرصة جديدة للكلام بحضور الوجيه الأستاذ محمد جلال المحامي وزوجه الحسناء صفية هانم جلال. وكانا يلفتان الأبصار حيثما سارا لثراء الزوج المالك لأربعة آلاف فدان في الصعيد، وجمال الزوجة ورشاقتها، وقد استقبلتهما أنجي هانم بمودة ظاهرة وباطنة، ولما عادت إلى جوار دولت هانم مالت هذه على أذنها وقالت بصوتها الخافت المبحوح:

- يا لهما من زوجين سعيدين جميلين!

فقالت السيدة بحماس:

- الأستاذ جلال شاب يندر أن يوجد نظيره بين الشباب الناجح الثري. . . ألا تعلمين أنه مرشح لكرسي النيابة؟. . . وأما صفية فهي آية للجمال والصفاء. . .

فابتسمت المرأة ابتسامة باهتة وقالت:

- نعم، نعم. . . لا شيء يعيبه إلا أنه يقال إنه قد يتبارز من أجل راقصة، أما إذا استثيرت غيرته الزوجية فقد يغضي. . .

وضاقت أنجي هانم ذرعاً بحديث صاحبتها، فلم تسألها إيضاحاً وتشاغلت عنها بمشاهدة

. . .بعض الراقصين، ثم استأذنت لاستقبال بعض صواحبها
وسلم الأستاذ محمد جلال وزوجه على عدد عديد من الأصدقاء والصديقات، ثم اختار أن يجلسا إلى زوجين جميلين مثلهما هما الوجيه طه بك العارف وزوجه الحسناء هدى هانم العارف، وكان الأستاذ جلال يبدي إعجاباً خاصاً نحو السيدة هدى. فلما عزفت الموسيقى دعاها إلى الرقص معه وقبلت بسرور ورقصت زوجه مع طه بك. . .
وطرب الجميع طويلاً وشربوا كثيراً، فدارت رؤوس وثرثرت ألسنة كتومة، وفاضت الأحاديث، وامتلأ الجو برنين الضحكات ووميض الابتسامات وإيماءات الغزل، والتقت أعين وتماست أنامل وارتعشت شفاه. . . حتى جاءت تلك الساعة المختارة من الليل فتوسطت المدعوين السيدة أنجي هانم وقالت بصوتها الرخيم:
- اسمحوا لي سيداتي وسادتي أن أقدم إليكم مفاجأة العيد السعيد
وتطلعت الوجوه إليها من كل صوب وتجمع حولها المبعثرون ما بين الشرفة والمقصف ينتظرون فرحين. وبغتة أطفئت الأنوار بغير نذير وساد المكان ظلام دامس دام خمس دقائق ما كان يسمع خلالها سوى همس خافت أو ضحكات مكتومة، ثم أضيئت الأنوار مرة أخرى فرأى القوم منظراً بديعاً. . . مهدا على قوائم أربع طويلة، مسقفاً بستار من حرير على هيئة هرمية، وفيه جلست كوكو متكئة على يديها الصغيرتين في قميص أبيض كأنها وردة بيضاء يانعة، وكانت ترمق الناظرين بعينين دهشتين صغيرتين ينعكس النور على زرقتهما الصافية! فصفق الجميع تصفيقاً رقيقاً وهتفوا باسمها، وقبل الآنسات يدها الصغيرة، ثم قدمت الهدايا النفيسة حول مهدها الجميل، وشمل القوم سرور عظيم فاستأنفوا لهوهم بإرادة أشد نزوعاً للصبا والمسرة. على أن فترة الظلام القصيرة لم تمر بسلام كما توهم الجميع. فقبيلها بدقائق كان الأستاذ محمد جلال يجالس هدى هانم في المقصف وقد دل عبثهما المرح على أنهما ثملان، فلما أطفئت الأنوار لم يتردد الشاب فدنا برأسه منها حتى كادت تمس شفتاه أذنها وهمس قائلاً: (هدى) وارتجفت المرأة كالمذعورة ولم ترد عليه فقال لها همساً وهي تحس بلمس شفتيه لأذنها: (هذه فرصة طيبة. قومي واتبعيني)
وكان بودها لو تتباله كما يقضي الدلال ولكنها خشيت أن يضاء النور بسرعة، فقالت همساً:
- إلى أين؟
- إلى حجرة التدخين في الطابق العلوي!
- قد يفتقدوننا
- وماذا يهم!. . . سيظنون أننا في الشرفة أو في الحديقة أو في المقصف أو هنا أو هناك، وسنعود من طريقين متباعدين. . .
وأمسك بكفها وقام واقفاً فقامت بدورها، واتجه نحو السلم وهي تتبعه، وارتقياه بسرعة، فوجدا نفسيهما في ردهة مضاءة بنور بنفسجي هادئ، تطل عليها أبواب متباعدة، فساروا إلى هدفهما ودخلا معاً ثم ردا الباب في سكون، وكان الجو مظلماً شديد الظلمة، ولكنه كان يعرف المكان فانعطفا إلى اليمين وتقدما خطوات، حتى عثرت يده بكنبة كبيرة وثيرة، فجلس وجلست، وتنهد من أعماق صدره، وقبض على كفها فوجدها ترتعش كالمقرورة، فسرت رعشتها إلى قلبه ووجد به غمزاً لم يبرأ منه حتى ضمها إلى صدره بعنف وانهال على وجهها يقبله بشغف وجنون، كم لبثا منفردين؟ إنه لا يدري ولكن المحقق أن تلك الخلوة السعيدة لم تخل مما ينغصها، فقد خيل إليهما أن أقداماً خفيفة كالمحاذرة تدنو من باب الحجرة، فتباعدا قلقين وأرهفا السمع واتجهت أعينهما في الظلام ناحية الباب، وخالا أكثر من هذا أن يداً تعالج الباب بلطف. . . ترى أحق هو أم وهم!؟ ولكن الباب تحرك ونفذ إلى الحجرة شعاع هادئ كروح محتضرة، فاشتد بهما الرعب وودا لو تبتلعهما الأرض، وما لبث أن تسلل شبح في حذر وتبعه آخر، ثم رد الباب إلى ما كان عليه فساد الظلام مرة أخرى، وكان الداخلان شديدي الحذر فلم يبديا حركة، ولم يصدرا أصواتاً، وكأنهما ذابا معاً في الظلمة الجاثمة. . . فسكن ذعر الآخرين وأحسا بشيء من الارتياح بل والطمأنينة، وخطرت لهما فكرة معاً هي أن الضيفين الجديدين مثلهما وأن لا خطر عليهما منهما، وتأكد هذا الظن حين شعرا بهزة تصيب الكنبة فعلما أن صاحبيهما اختار كنبتهما مقعداً لهما أيضاً، وتريث في قلق صار بعد حين ضيقاً وكدراً لأنهما لم يستطيعا أن يأتيا حركة

خشية أن يتنبه الآخران فيفزعا، وربما حدث ما لا تحمد عقباه!
أما الجديدان فكانا يظنان نفسيهما في أمان وخلوة فلم يحاذرا إلا مقدار، واستطاع العاشقان أن يسمعا همساً وهمهمة وأن يسمعا الرجل يهانغ صاحبته وهي تهانغه ولم يكتفيا بذلك، بل قال الرجل بصوت استطاع الآخران أن يميزاه: (حبيبتي. . . صفية. . .) وارتجف محمد بك جلال كأنما قطعة من الثلج ألقيت على ظهره، وأحس بارتجاف يد صاحبته في يده. . . كان الصوت صوت طه بك العارف. . . ومن هدى؟ أليست زوجه هو!. . . أي كارثة تجمعت في هذه الحجرة المظلمة! ودق قلبه بعنف وغلى دمه غلياناً كاد يفجر الشرايين في دماغه، ولكنه لبث ساكناً صامتاً وزوجه على قيد ذراع منه في أحضان خليلها! ولم يكن
يأسف على عجزه عن تحطيم رأس الرجل - فمثل هذا العمل يثير فضيحة حرية بالقضاء على مستقبله السياسي ومعركة الانتخابات على الأبواب - ولكنه كان مغيظاً محنقاً لأن غريمه لا يدرك في تلك اللحظة أن زوجه بين يديه هو أيضا. . .
وانتظر دقائق كالأجيال، وشعر أخيراً بحركة استدل بها على قيام الرجل وسمعه يقبل زوجه بحرية ويقول لها: (لو تعدل الدنيا. . . فزوجك الغبي ليس أهلاً لك وزوجتي ليست أهلاً لي. ولكن ما العمل؟!). . . ثم تسللا خارجين كما أتيا. . .
وكان الغضب قد أفسد على جلال بك مزاجه فقام هائجاً، وبحث عن سترته حتى عثر عليها وأخذ بيد صاحبته وخرجا في حذر ثم افترقا في الردهة. . .
ولبث ضيق الصدر شديد الكدر ساعة طويلة يلعن طه بك ويلعن زوجه المستهترة ولم تكن هذه أولى خيانتها، ولكنها وقعت على كثب منه بشعة لا يمكن أن تمحى من الذاكرة فسحقاً لهما!. . . وقام يتمشى في الحديقة فاراً بوجه الممتقع من الأعين جميعاً فؤاده المضطرم. وصح عزمه في تلك اللحظة على أن يسلم قياده لمغامرات الغرام الجنونية غير مبق على شيء ولو أدى الجنون إلى الظهور مع هدى في المجتمعات العامة وميادين السباق. وتملقته هذه الخواطر فأحس بارتياح ومضى يفيق من همومه ويتنبه إلى نفسه فاستطاع عند ذلك أن يشعر بتغير غريب، فعجب لشأنه وتناسى انشغاله، وبحث عن أسباب هذا التغير فوجد يديه تجسان السترة وكأنها أوسع مما كانت. . . ماذا حدث لها؟ يا للعجب. . . إنها أوسع مما يتصور. وخطر له خاطر غريب اضطرب له فؤاده، ولكي يتحقق من وساوسه وضع يده في جيب السترة وأخرج حافظة، لم تكن حافظته، ووجد بها بطاقة مكتوباً عليها (طه بك العارف).
ووضح الأمر، وعاوده القلق والحنق، ولم يكن ثمة خوف من الفضيحة، فسترات بدل السهرة متشابهة، ولكنه كان يشعر بحيرة شديدة ويسائل نفسه: (كيف يمكن أن تتبادل السترتان؟!)

نجيب محفوظ

العدد 388 - بتاريخ: 09 - 12 - 1940

الأخلاق وهذه الحرب

جلست ساعة إلى المذياع أقلب مفاتحه على أفواه المذيعين المختلفين في أقطار أوربا المجنونة، فخيل إلى أني انتقلت إلى عالم آخر من خلق الشيطان تقطعت بينه وبين خلق الله وشائج الآدمية؛ فلا الأيدي تستند في أفعالها إلى العدل، ولا الألسن تعتمد في أقوالها على الحق، ولا النيات تتجه في غاياتها إلى الخير؛ وإنما هو زِياط وعياط من الأضاليل السود والأراجيف الحمق والأفاعيل النكْر يحملها الأثير إلى النفوس الآمنة الرِخوة فترتاع، وإلى القلوب المؤمنة الساذجة فتشك، وإلى العقول الراجحة الوزينة فتدهش.
رباه ماذا جرى لأوربا العالمة العاملة المتمدنة حتى انقلب كل كلامها كذباً لا يستحي، وكل سياستها خداعاً لا يستتر، وكل قتالها تدميراً غاشماً أهوج لا يفرق بين المحارب والمسالم، ولا بين الشاكي والأعزل، ولا بين الرجل والطفل، ولا بين الحصن والكنيسة؟!
كانت الحرب في العصور الخوالي نظاماً من البطولة الإنسانية له سننه وآدابه وعرفه: لا يقاتل القوي من ضعف أو قل، ولا ينازل الكميُّ من هان أو ذل، ولا يطعن الفارس خصمه طعنة الغدر، ولا يعطي المتعهد من ذمته عهداً إلا جعله من ورائه دمه وماله. ثم دخلت الحروب في سلطان الدين فنظمها بقيوده وحدوده تنظيمه للشر الذي لا بد

منه، حتى غدت سلاحاً من أسلحة الحق يظهر بها على الباطل. ثم انشعب من نظامها المهذب أنظمة أخرى كالفروسية والفتوة والمرابَطة والكشف وما يدخل في بابها مما يقوم على المروءة والشهامة والشجاعة والإيثار والوفاء والعفة. وجرت المدنية الحديثة في تنظيم الحرب على سَنن الدين والخلق، فكفكفت طغيانها بالقوانين، وقللت عدوانها بالعهود، ووقفتها لدى الحدود التي رسمتها الطبيعة للدفاع المشروع والجهاد المقدس.

وفي الوقت الذي طمحت فيه الإنسانية الأوربية إلى قطع أسباب الحرب بالمجالس التحكيمية والمحاكم الدولية والعصبة الأممية، انبعث من ركنين متجاورين من أركان التمدن الحديث مسيخان دجالان فاستوحيا الشيطان دينين جديدين يجعلان الآخرة للدنيا، والأمة للفرد، والعقل للهوى، والعلم للشر، والحضارة للدمار، والحياة للموت. ثم خرجت هاتان النِّحلتان من الكهوف والمواخير وانتشرتا في أجواء برلين وروما انتشار الظلام المضِل والغاز الخانق؛ فعميت عيون كانت ترى، وغبيت قلوب كانت تفقه، ورمت النازية والفاشية جوانب الأرض وخوافق السماء بالموت الوحي في شتى أشكاله وأهواله، حتى أصبح أكثر أوربا الجميلة خليطاً من الأنقاض والأشلاء، ومزيجاً من الدموع والدماء. وأشد ما أصاب العالم من هذه الحرب الغشوم ضياع ما ورثته المدنية من حُر الخلال وكريم الأخلاق، فإنها القبس الإلهي في الإنسان تصدر عنه الألفة والثقة والاطمئنان فيكون لكل كلام معناه ولكل عَقد أثره. ومن المستطاع تجديد ما دُكَّ من البيوت وأغرق من السفن، وتعويض ما أزهق من الأنفس وأنفق من الأموال؛ ولكن تجديد ما انهار من البناء الأخلاقي وهو عمل الأديان المختلفة والحضارات المتعاقبة على كر الدهور أمر لا تتعلق به طاقة المخلوق.

افتح المذياع على أبواق الدعايات الأوربية واصبِرْ نفسَك على مكاره الفجور قليلاً تسمع الأعاجيب من فحش الكذب وسوء البغي: هذا يتبجح مما أحرق وأغرق، وذاك يتمدح بما راع وأجاع، وذلك يفيش بما أسر وقتل؛ وكل أمة إنما تبدأ الكلام وتختمه بلعن أختها ورميها بما تبرأ هي منه من التزيد والافتراء والخور والدس واستغلال الضعف في الشعوب الصغيرة. وكل شيء تسمعه من المذياع إلا الصدق والحق والرحمة. ومن كلال الحس وبلادة الضمير أن يصك المذيع مسمعيك بأخبار الدمار والبوار في كل أمة وفي كل مدينة وفي كل أسرة وفي كل نفس، ثم يرسل إليك في خلال ذلك أفاكيه الغناء وأفانين الموسيقى، كأنما فناء الشباب وثكل الوالدين وحرمان اليتامى وشقاء الأيامي وخراب الأرض أصبحت من توافه الأمور التي لا تنبه الوجدان ولا تمس القلب!

من كان يصدق قبل انهيار الأخلاق في الأمم الدكتاتورية أن روسيا تحارب بولونيا وفنلندة، وألمانيا تهاجم بلجيكا وهولندة، وإيطاليا تغزو ألبانيا واليونان؛ وكل أمة من هذه الأمم الباغية الثلاث تستطيع أن تحشد من الجنود ما يزيد على عدد السكان في كل فريستين من فرائسها الست!

إن الدكتاتورية تدير هذه الحرب على غير قانون ولا خلق. ومن الصعب على العقل السليم أن يفرض القانون والخلق فيما يعقب هذه الحرب من سلم ويقوم عليها من نظام. وإذا كانت الأخطاء لا يتألف من مجموعها صواب، والآثام لا تنشأ من جملتها براءة، والأباطيل لا ينتج من تعددها حق، فإن نزوَ النازية وفِياش الفاشية لا يمكن أن يؤديا إلى عدل شامل وسلام دائم. ولا يزال في الديمقراطية المجاهدة رجاء الحق المضاع والخلق الصريع، لأن السلطان القائم على دستور الحق، يساعدك على الانتصاف لنفسك منه بمنطق الحق.

والنصر مكفول للديمقراطية لا ريب فيه؛ فإن الديمقراطية هي الصحة التي انتهى إليها جسم الإنسانية العليل؛ أما الطغيان والبربرية فهما نكسة المرض؛ والنكسة خلل عارض لا يلبث بحسن علاج الطبيب وصدق إيمان المريض أن يزول!

أحمد حسن الزيات

أخلاق القرآن

الصبر

للدكتور عبد الوهاب عزام

الصبر خلق يعصم النفس من اليأس إذا طال بها الطريق إلى غاياتها، ويمنعها من

الارتداد إذا سدّت العقبات سبيلها، ويكبر بها عن الجزع إذا نزلت بها من أحداث الزمان نازلة.

في الحياة أعمال شاقة لا يستطيع الاضطلاع بها إلا الصابرون، وفيها غايات بعيدة لا يبلغها إلا من صبر على مشقة الطريق وبعد المدى.

والأخلاق الفاضلة تنأى بصاحبها عن شهواته، وتعلو به عن سفاسفه، وتكبر به على الهوان، وتسوم النفس ضروبا من الصدود عن الهوى، والعفاف عن الشهوة، ولا يتخلق بهذه الأخلاق إلا أهل الصبر. وفي الحياة عقائد حق ومذاهب خيّرة ينفر منها الناس أول عهدهم بها، وينال الدعاةَ إليها السخرية والأذى والألم في النفس والنقص في المال. فلولا الصابرون ما دعا إلى هذه العقائد داع، ولا ذهب هذه المذاهب أحد.

الصبر توطين النفس على المشاق والمكاره، والإباءُ على الخطوب، والاستكبارُ عن الخنوع للمصائب، والثباتُ في الموقف الضنك، والمقام الهائل، أو المسير إلى الغاية المخوفة حتى يستوفي العملُ أطواره، ويبلغ نهايته، ويُنجح الطلب، ويحمد الدأب.

والصابرون رواسي الأمم كلما زلزلتها الخطوب، وسكينتها إذا طارت من الذعر القلوب. إذا طاشت الأحلام في مآزق الحرب صبروا حتى يتبلج النصر، وإذا خارت العزائم في معارك الحياة دأبوا حتى يشرق الحق. والصابرون قادة الأمم إلى الحق والخير والظفر يسلكون إليها الأهوال حين ينكص غيرهم فزعاً، ويستقيمون على الطريق حين يحيد غيرهم بأساً، ويواصلون المسير حين يقف مَن سواهم عجزاً، ويحتملون المكاره حين تنوء بكل عاجز، ويبسمون للمصائب حين تزلزل كل رعديد. هم الذين يصلون مبادئ الأعمال بغاياتها، ومقدماتها بنتائجها وإن شق العمل وطال الطريق. هم الذين ينصرون كل دعوة إلى الحق، وكل مذهب في الخير وإن عظم ما يلقاهم من المحن، وما يعترضهم من المكاره.

ومن الكلام المأثور: الصبر على الطلب عنوان الظفر. والصبر في المحن عنوان الفرج.

والصبر هو تجلي النفس الإنسانية في أكمل صفاتها وأشرف درجاتها، تجلي النفس الإنسانية في عظمتها تعتز بقواها، وتستكبر على الأحداث، ولا تبالي الغضب والعنت، ولا تخشى الهلاك حتى تبلغ دعوتها واضحة وتؤدي واجبها كاملاً.

ولست أعرف فضيلة أكد القرآن الدعوة إليها توكيده الدعوة إلى الصبر، إذ كان عماد كل نجاح، وقوام كل جهاد، ونظام كل عمل صالح، وقرين كل خلق فاضل.

الصبر في القرآن قرين الحق لأن الحق لا ينصر إلا بالصبر. قال: (والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر).

والصبر قرين العمل الصالح إلا صبر النفس عما يزيَّن لها من الشهوات، وإقامتها على منهاج الفضيلة الذي يحرمها كثيراً مما تودّ. يقول القرآن: (إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير).

وقد جعل القرآن الكريم الصبر وسيلة إلى الإمامة والهداية فمن لم يصبر لم يقوم نفسه، ولم يستطع الدعوة إلى الحق والمسير إليه والجهاد في سبيله، قال: (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون).

وقد أعلى درجة الصابرين وأبان فضل الصبر أعظم إبانة إذ قال: (واصبروا إن الله مع الصابرين) وحسبك بمن كان الله تعالى معه يسدد قوله وعمله وينصره، قد ذللت له كل الصعاب وضمن له كل ظفر. إن الله مع الصابرين لأنهم بصبرهم يستجيبون لدعوة الله ويسيرون في سبيله على قوانينه حتى يبلغوا ما وعدهم به، ومن سار في سبيل الله إلى دعوة الله فأحر به أن يوقن بالنجاح وأحر به أن ينال النجاح غير منقوص.

وجعل القرآن الصبر وسيلة إلى إدراك آيات الله في خلقه. وهل كشف الباحثون عن الحقائق إلا بالصبر على الطلب والدأب في البحث؟ قال القرآن في أكثر من آية: (إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور).

وبين القرآن أن الصبر عُدَّة المؤمنين في جهادهم في هذه الحياة إذ قال: (يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين) أمرهم أن يفزعوا إلى الله فيما ينوبهم من النوائب، فيتوجهوا إليه بالصلاة ويصبروا به على المكروه. ونِعمَ هذان عوناً على كل خير.

كما جعل الصبر في آخر درجات الفضائل حين عددها في آية البر فقال: (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس. أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون).

وبين القرآن أن الله سبحانه يحب الصابرين الذين يثبتون على الشدائد، ولا يهنون لما يحزُ بهم من النوائب: (وكأيِّن من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين). وحسبك بمحبة الله نجحاً وفلاحاً وسعادة.

والصبر قوة أعظم من قوة العدد، تغلب به الفئة القليلة الفئة الكثيرة. قال في قصة طالوت وجالوت: (فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة اليوم بجالوت وجنوده. قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين. ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين. فهزموهم بإذن الله). وكذلك أمر القرآن المسلمين أن يلقوا عدوهم الأكثر عدداً وهم صابرون، وبشرهم بأن الجماعة منهم تغلب عشر أمثالها بالصبر، وجعل الصبر أكثر من تسعة أمثال العدو غَناء في الحرب. قال في سورة الأنفال: (يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال. إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون).

ولما أراد أن يخفف عن المسلمين هذا التكليف أمرهم بأن تلقى الجماعة منهم مثليها فقال: (الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين). فأقل مراتب الصابرين أن يغلبوا ضعفهم. والحق أن العدد لا يثبت للصبر، وأن كثرة العدد فاشلة إذا خذلها الصبر، وأن قلته ظافرة إذا أيدها الصبر. وربما تغلب الفئة الصابرة مثليها، وربما تغلب عشر أمثال أو مائة مثل. وحوادث التاريخ على ذلك شاهدة.

وأما في غير الحرب فالواحد الصابر يدعو إلى طريقته، ويصبر على دعوته، ويحتمل في سبيلها ما يلقى من عنت وأذى وسخرية حتى يغلب بصبره الأمة الكبيرة ويقودها إلى
الخطة التي يدعو إليها.

وأما جزاء الصابرين فالظفر في الدنيا والطمأنينة التي تلقى الشدائد ثابتة راضية ورضا الله تعالى وحسن الثواب في الآخرة. يقول القرآن الكريم: (وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنّا لله وإنّا إليه راجعون. أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون). وقال: (أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا). وقال: (ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) وقال في جزاء الآخرة:

والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية، ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار).

وللصوفية من المسلمين تعليم في الصبر وتربية عليه جديران بأهل القرآن الذين استمعوا له واهتدوا بهديه، وقد كانت أقوالهم وأفعالهم أمثلة في الصبر.

يقول الجنيد: الصبر تجرع المرارة من غير تعبيس. وقال ذو النون المصري: الصبر التباعد عن المخالفات، والسكون عند تجرع غصص البلية، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة. وقال ابن عطاء الله السكندري: الصبر الوقوف مع البلاء بحسن الأدب. وقال أبو عثمان: الصبار الذي عود نفسه الهجوم على المكاره. وقال عمرو بن عثمان: الصبر هو الثبات مع الله تعالى وتلقي بلائه بالرحب والدعة. وقال أبو محمد الجريري: الصبر ألا يفرق بين حال النعمة والمحنة مع سكون الخاطر فيهما، والتصبر هو السكون مع البلاء مع وجدان أثقال المحنة. وقالوا: تجرع الصبر فإن قتلك قتلك شهيداً، وإن أحياك أحياك عزيزاً.

وقد كانت سيرة الرسول صلوات الله عليه وسير أصحابه والمسلمين من بعدهم امتثالاً لأمر القرآن، وتصديقاً لبشارته، وإكباراً لتربيته. فغلبوا العدد الكثير والخطوب

المتزاحمة بإيمانهم وصبرهم، ولم يعسر عليهم مطلب، ولا أملّهم دأب، ولا فاتت عزائمهم غاية، ونالوا جزاء الصابرين في الدنيا طمأنينة وظفراً وغلبة؛ والله ولي جزائهم في الآخرة.

وما كان صبرهم استكانة للمصائب ولكن استخفافاً بها، ولا ذلاًّ للخطوب ولكن كبراً عليها،

ولا خنوعاً للقوة ولكن ثباتاً لها، وتصميماً على صدمها، والظفر عليها. يقول القرآن الكريم: (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون. وأطيعوا الله ورسوله، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، واصبروا إن الله مع الصابرين).

صدق الله العظيم

عبد الوهاب عزام

مسابقة الجامعة المصرية لطلبة السنة التوجيهية

المنتخبات للطفي السيد

الدكتور زكي مبارك

- 5 -

- المنتخبات - شخصية لطفي السيد - أسرار المنتخبات

أسلوب لطفي السيد - القول الفصل - وطنية لطفي السيد

حديث اليوم عن الجزء الأول من (المنتخبات) وهو مختار ما نشر في (الجريدة) من 25 إبريل سنة 1908 إلى 5 سبتمبر سنة 1912، بقلم الأستاذ الجليل أحمد لطفي السيد باشا مدير الجامعة المصرية.

وجامع هذه (المنتخبات) هو الأستاذ إسماعيل مظهر المحرر بالمجمع اللغوي، وهو باحث معروف بالتعمق والاستقصاء، وقد بذل جهوداً محمودة في الصحافة والترجمة والتأليف، فمن العقوق أن تمر هذه المناسبة بدون أن نخصه بكلمة ثناء، وإنه لخليق بكل إعزاز وإجلال، أسبغ الله عليه ثوب العافية، وكتب له دوام التوفيق فيما يعالج من الدراسات الأدبية والعلمية!

ثم أقول إن الأستاذ إسماعيل مظهر أشار بكلمات قصار إلى أنه آثر أن يخرج هذه (المنتخبات) بدون مقدمة (ذلك بأن المؤلف يجل عن أن يقدم له كاتب من أبناء هذا الأهل) ولم أفهم المراد من (هذا الأهل) ولعله يريد (هذا الجيل)، وللعبارة وجه، ولكنه لا يخرجه عن الإغراب في غير موجب للإغراب.

ويظهر أن هذا الصديق يفهم أن مقدمات المطبوعات لا يراد بها إلا التنويه بأقدار المؤلفين؛ ومن هنا صح عنده أن لطفي السيد غنيٌّ عن التعريف، فهو أجلّ من أن يقدم له كاتب من أبناء هذا الجيل.

ولو تأمل لعرف أن المقدمات يراد بها أيضاً شرح أغراض المؤلفين، والنص على مذاهبهم في فهم الحياة وسياسة المجتمع، وبذلك يكون من الواجب أن يقدَّم لمنتخبات لطفي السيد،

لأنها تحتاج إلى من يدل على ما فيها من مذاهب وآراء.

يضاف إلى ذلك أن هذا الصديق نصّ على أنه عُنِيَ (بأن يخرج الكتاب مبرئاً من الأوهام) فما تلك (الأوهام) التي يشير إليها بهذا التعبير المريب؟ أيكون تدخَّل في عبارات المؤلف بالحذف والإيصال؟ أيكون طوى بعض الأغراض لأسباب متصلة بتطور أفكار المؤلف، وتبدل ما كان يحرص عليه من أقوال؟

إن كان شيء من ذلك فقد كان من الواجب أن يشير إلى ضروب تلك (الأوهام) لأن لطفي السيد له في الحياة الفكرية تاريخ، ومن كان في مثل مركزه الأدبي فهو جديرٌ أن تؤرَّخ تطورات فكره بلا تحسين ولا تجميل.

شخصية لطفي السيد

لا أنكر أني لقيت عنتاً في قراءة هذه المنتخبات، لأن المؤلف لا يصل إلى شرح أغراضه إلا بعسر وعُنف، وإن قيل ما قيل في قدرته على البيان.

ولكن القيمة الصحيحة لأستاذنا لطفي السيد باشا ترجع إلى أنه كان في جميع أدوار حياته (شخصية)، ولو أردت الدقة في وصفه لقلت إنه كان فهذه الكلمة الفرنسية تمثله أصدق تمثيل. . . ألم يقولوا إنه أول كاتب عربي تحدث عن الديموقراطية

والديماجوجية؟
كان هذا الرجل ولا يزال قويّ الحواسّ إلى أبعد الحدود، وله في كل مسألة مَلحظُ خاص، وهو يجمع بين البداوة والحضارة فيما يتناول من شؤون الفكر والمعاش. وقد استطاع بقوة الذاتية أن يكون رجلاً مرموق المكانة في آمادٍ طوال، وربما صح القول بأنه أظهر البقية الباقية من الجيل الذي ظهر فيه، ولا يمكن ذلك لرجل غير مزوَّد بالزاد الأصيل من عافية البدن والروح.
وكتابات هذا الرجل لا تصور ما يملك من المواهب، لأن قلمه أضعف من روحه، ولأنه في سريرة نفسه يتهيب المجتمع، وإن اشتهر بالثورة على المجتمع؛ وإنما تظهر قيمة لطفي السيد حين يتحدث إلى أصفيائه بلا تكلف ولا افتعال، فعندئذ يظهر جيداً أنه خليق بما تسامى إليه من التفرد بين رجال العصر بشرح آراء أرسطاليس.
لطفي السيد كاتباً رجلُ هيوب، ولكن لطفي السيد محدثاً رجلُ شجاع، ومن هنا كان تأثيره بالكتابة أضعف من تأثيره بالحديث. . .
والحذَر المأثور عن لطفي السيد هو الذي قضى بأن تمرّ ثورته الفكرية بلا صخب ولا ضجيج، كما مرّت ثورة محمد عبده وثورة قاسم أمين.
فكيف أصيب لطفي السيد بمرض الحذَر، وهو مرض يشلّ عزائم الرجال؟
يرجع السبب فيما أفترض إلى أن الرجل بدأ جهاده الأدبي والسياسي في عصر كانت تغلب عليه فورة الأقاويل والأراجيف، فكان مَثَله فيما يكتب مَثَل من يمشي على الشوك. ثم انتقل من التطبع إلى الطبع، فكان آية من آيات الحذر والاحتراس.
وأضرب المَثَل فأقول: أشرف لطفي السيد على الجامعة المصرية في عهدها القديم وعهدها الجديد عشرين عاماً أو تزيد؛ فهل ظهر له في توجيه سياستها العلمية شأنُ خاص، مع أنه في حقيقة الأمر قد أثَّر تأثيراً شديداً في أكثر ما امتازت به من الشؤون؟
تاريخ لطفي السيد في الجامعة المصرية ليس بشيء، وهو مع ذلك كل شيء، وتلك هي النقطة، كما يعبِّر لافونتين!
وقد عرفت بالتجربة أن لطفي السيد من الحكماء، فقد أراد هذا الرجل في ظروف كثيرة أن يغيِّر من أسلوبي في نقد الحياة والمجتمع، ولكنه لم يفلح، لأنني أردت غير ما يريد. أنا أردت ما كان يسميه في شبابه بالحقيقة العارية، وهو أراد ما هدته إليه التجاريب من مصانعة الناس والزمان.
والمهم هو أن أسجل أنك لا ترى لطفي السيد إلا حكيماً في كل شيء. هو صورة صحيحة من صور العقل الصحيح، لأنه أقام حياته على (الاعتدال) فلا يسرف في الحب ولا في البغض، ولا يجهل الوسط بين النشاط والخمود، ولا يغيب عنه أن اليوم له أغداء، وأن ما توجبه الساعة الحاضرة قد يمتد وقته إلى عام أو عامين، فمن السخف أن يقتل الرجل نفسه ليقال إنه أنشطُ الرجال.
أسرار (المنتخبات)
نحن أمام كتاب ممتع يقع في اثنتين وثلاثين وثلاثمائة صفحة بالقِطع المتوسط. وكلمة (ممتع) لها عندي مدلول خاص، فليس المراد أن هذا الكتاب يجذب القارئ إلى مسايرة المؤلف من الألف إلى الياء، هيهات هيهات! فما استطعت استيعاب موادّ هذا الكتاب إلا بمشقة وعناء.
وإنما المراد هو وصف هذا الكتاب بجودة المحصول، فهو شاهد على ما يملك المؤلف من قوة الفكر والعقل، وهو شاهد على أن المنطق من أقوى خصائص الرجل الذي شغل نفسه بترجمة أرسطاليس، وهو دليل على حصافة الرجل الذي لم ينس العناية بهندامه في لحظة من اللحظات، ولو كان في قرار الخلوة بعقله الدقيق.
لطفي السيد في كتابه هذا مفكر حصيف، وإن تبذَّل في عرض بعض التوافه من الشؤون: كالحديث عن زينة النساء، والحديث عن عيوب (الانتخابات)، والحديث عن أوهام الفلاحين!
ولكن ما نسميه اليوم (توافه) لم يصر كذلك إلا لكثرة ما خاضت فيه أقلام الكتاب، وقد كان قبل ثلاثين سنة من الأمور ذوات البال.
وبهذا نعرف أن ما نراه اليوم من المبتذل كان قبلاً من الطريف.
قد يقال: وما الذي أوجب أن تثبَت بعض الموضوعات البائدة في (المنتخبات)؟
ونجيب بأن تلك الموضوعات لا يراد بها تعليم أبناء اليوم ما لم يعرفوه، وإنما يراد بها

تسجيل بعض مشكلات المجتمع في العهد الذي أثيرت فيه، فهي من أسانيد التاريخ، وللتاريخ ألوان.
ومن هذا الباب ما جاء في كلام المؤلف عن صلة مصر بالدولة العثمانية، وما قصّ من أخبار السوريين المقيمين بمصر، وما تحدث عن رحلاته في بعض بلاد الغرب والشرق؛ فكل أولئك لا يهمّ شبان اليوم إلا من جانب واحد هو التاريخ.
لطفي السيد في كثير من آرائه رجل وسط، ولكنه قد يحلِّق من حين إلى حين تحليق الجوارح، كالذي صنع وهو يتحدث عن أحمد عرابي باشا، فقد سجل أن عرابي ليس وحده المسئول عن الثورة التي انتهت بالاحتلال. وحجة لطفي السيد في هذا الحكم الطريف أنه لم يثبت أن العرابيين قتلوا رجلاً واحداً لأنه تنبأ بسوء الخاتمة وحذَّر من عواقب الثورة. ومعنى ذلك أن الثورة كانت فورة شعبية، فليس من العدل أن يطوَّق بآثامها عرابي حين انتهت بتلك النتيجة السوداء.
وفي (المنتخبات) فصل يبدو لأول نظرة من المبتذلات، لأنه في موضوع مطروق، وهو الكلام عن الثقة بين الناس.
ولكن هذا الفصل هو غرة هذه المنتخبات، وليته يضاف إلى مطالعات التلاميذ.
ومن هذه المنتخبات نعرف أن لطفي السيد زار (المدينة المنورة) وكتب عنها فصولاً تعد من الروائع، وكلامه في توديع ولديه يشهد بأن هذا الرجل من أرباب القلوب.
حدَّث ولديه بأنه سيغيب (ثلاثين) يوماً فبكيا، ثم ترفق فأخبرهما أنه سيغيب شهراً واحداً فاستراحا. وتلك دعابة لا تحتاج إلى ما يدل على ما فيها من لطف وظرف.
ولم يفت لطفي السيد عند زيارة المدينة أن يصور شعوره الديني تصويراً هو الغاية في الروعة والجلال.
وقد استطرد فتحدث عن المرأة العربية وعن لغة العرب (في بلاد العرب) حديثاً يشهد بأنه مفطور على التطلع والاستقراء.
وفي المنتخبات فصل عنوانه (أحبوا الجمال تحبوا الحياة) وقد بلغ الغاية في دقة النظر حين قرر أن تقدمنا في الأذواق لا يتناسب مع تقدمنا في العلوم، وهو يشهد بأن وقار بعض الناس ليس إلا صورة من صور الجمود!
وكلامه عن الصداقة كلام نفيس، ولعله استوحى هذا المعنى مما كان بين قاسم أمين وسعد زغلول.
أما كلامه عن الحب العصوف فهو كلام رجل يخاطب عوامّ الناس في صحيفة سيارة، وإن كان صدق حين قرر أن ذلك الحب يفسد الشعوب إذا تخلَّق به جميع الرجال.
وحديثه عن قاسم أمين يدل على إعزازه لحرية العقل والرأي، وفيه عبارة تشهد بأن الخطوب هي التي تؤرث مواهب العبقريين.
وأسفُه على حرمان أهل القاهرة من دخول حديقة الأزبكية بالمجان له مدلول.
وأحاديثه الصوارخ عن الآباء والأمهات والأبناء والبنات تشهد بأن الفكرة الإصلاحية سيطرت على عقله منذ أعوام طوال.

أسلوب لطفي السيد

جاء في المنشور الذي أذاعته مراقبة الامتحانات بوزارة المعارف على نظار المدارس الثانوية أن الطلبة الذين تقدموا لمسابقة الجامعة المصرية سيسألون عن أوصاف الأساليب من قوة وضعف، فما أسلوب لطفي السيد في الجزء الأول من المنتخبات؟
هو أسلوب لطفي السيد قبل ثلاثين سنة، وكان في مطلع حياته الأدبية، ولم يكن تمرَّس على (بناء الجمل) بناءً يعزّ على عوادي التصدع والانحلال.
أسلوب لطفي السيد بطيء الحركة إلى حد الجمود، وهو خال من البشاشة البيانية، وليس في كتابه صفحة واحدة تشهد بأن بيانه من وحي الطبع أو فيض الوجدان.
لطفي السيد كاتب متعمل متكلف، وهو يجرجر كلامه بتثاقل وإبطاء، ولولا البوارق الفكرية التي تلمع في كلامه من وقت إلى وقت لعد من المتخلفين.
ومن المؤكد أن أسلوب لطفي السيد قد مَرَن بعد ذلك كثيراً أو قليلاً، وشاعت فيه الحركة والحياة، ولكن من المؤكد أيضاً أن لطفي السيد قد طبع أسلوبه بطابع نفسه من التهيب والاحتراس، والمتخوِّفُ لا يكاد يُبِين.
أقول هذا وأنا مُشفِق، فليس من الذوق أن أستبيح الحكم على أسلوب لطفي السيد بكل ما أطمح إليه من الحرية والصدق، ولكن لطفي السيد أكبر من أن ينتظر كلمات

المداهنة والرياء، ومقامه في التاريخ الأدبي الحديث في غنىً عن التلطف المأثور عن بعض تلاميذه الأوفياء.

وضعفُ الحركة والحياة في أسلوب لطفي السيد لا يمنع من الاعتراف بأنه من المشاهير بين أصحاب الأساليب، فقد يكون مقامه بين كتاب القرن الرابع عشر مقام ابن خلدون بين كتاب القرن التاسع، ومعنى ذلك أنه تحرر من الزخرف كما تحرر ابن خلدون، فكان أسلوبه ملحوظ الخصائص بين أساليب معاصريه من أمثال حفني ناصف وعبد العزيز جاويش.

ولطفي السيد له ألفاظ في المنتخبات تحتاج إلى تعريف:

من ذلك كلمة (الدولة) وهي كلمة لا تُذكر بدون تخصيص إلا حين يريد الدولة العثمانية، فعلى الطلبة أن يراعوا ذلك.

و (التعليم الأدنى) في كلام لطفي السيد هو التعليم الأولي والجامعة المصرية في كلامه لا يراد بها الجامعة التي نُقِلتْ ربوعها الأواهل إلى الجيزة الروحاء، وإنما هي (الرابطة المصرية) أو (الآصرة المصرية).

والمجتمع في كلامه هو الجمعية، وعنه نَقَل حافظ عفيفي باشا.

وهو يكثر من ألفاظ المناطقة من أمثال (المقول) و (المحكومية) و (المصادقات).

وقد يتسامح في بعض الألفاظ الأوربية، فيساير في نطقها عوامّ الناطقين؛ كأن يقول (اللورد كرومر) والصواب (لورد كرومر) لأن (كرومر) مضاف إلى (لورد) وليس عطف بيان. وتلك غلطة وقع فيها الأستاذ أحمد أمين وهو يقدم ديوان حافظ إبراهيم.

والنعت السببي حيران عند إضافته إلى الموصوف، فقد يُعرَّى من اللام كما وقع في أمثال عبارة (الرجل الفلاح طويل القامة، كبير الرأس، كثيف اللحية) وقد يحلَّى باللام في مثل عبارة (الحديث القليل القيمة).

وقد يغيب وجه الإعراب عن أستاذنا لطفي السيد في بعض الأحايين، كأن ينصب (الصفات) بالفتحة كما ينصب (الذات) وهي غلطة غير مطبعية، وقد يُشكل عليه الرسم الإملائي أحياناً فيرسم ألفاً بعد الواو من (يدعو الرجال) وهو ينسى أن الألف الفارقة لا ترسم إلا بعد واو الجماعة، وتلك دقيقة إملائية تخفى على بعض الناس؛ ولعلها لم تخف إلا على مصحح الكتاب.

وقول (أَلفَتَ) والصواب (لَفَتَ).

ويتعرض للغة أحياناً فيخطئ، كأن يمر بكلمة (التقعر) فيرى استعمالها في الذم غير صحيح، وحجته أن الكميت يقول:

البالغون قُعُور الأمر تروية ... والباسطون أكفّاً غير أصفار

والمتأمل يدرك أن التقعُّر (تفعُّل) وهو من صور التكلف كالتشدّق والتصنّع.

القول الفصل

والقول الفصل أن أسلوب لطفي السيد في المنتخبات هو أسلوبه قبل ثلاثين سنة، يوم كان قليل الاحتفال بالأداء، ويوم كان قليل المحصول من ثروة اللغة العربية، كما صرح هو نفسه بذلك في الصفحة 162.

ويجب وفاءً للحق والتاريخ أن نسجل أن لطفي السيد اهتم بعد ذلك بالتزود من اللغة العربية، حتى جاز له أن يشارك في بعض المحاورات النحوية والبلاغية، وحتى صار بالفعل من أعرف الناس بخصائص الأساليب.

ذكَره الله بكل صالحة، فله علينا فضلٌ لن ننساه، ولو طال الزمان.

أما بعد فهذا لطفي السيد باشا في أبرز نواحيه، كاتباً ومفكراً ومديراً للجامعة المصرية، ولكن بقيت كلمة يفرضها الواجب رعاية لحق التاريخ.

كنا نسمع في عهد الحداثة أن (حزب الأمة) الذي تعبِّر عنه (الجريدة) يسالم الاحتلال.

فهل في (المنتخبات) ما يؤيد ذلك، وكان لطفي السيد رئيس التحرير لتلك (الجريدة)؟

كان (حزب الأمة) يمثل فكرة الاعتدال، ولكن مقالات لطفي السيد لا تشهد بأنه كان يسالم الاحتلال.

وكيف تجوز مسالمة الاحتلال على من يقول:

(الديار محتلةٌ بأجنبيّ لا هو صريح نقدِّر لشقائنا معه حداً، ولا نحن معه من الرجاء أو من اليأس في إحدى الراحتين)؟

كيف تجوز مسالمة الاحتلال على من يرثي مصطفى كامل أصدق الرثاء، ثم يعلن رأي

قاسم أمين في أن وجيعة الشعب لوفاة مصطفى كامل فرصة لإذكاء الروح الوطني؟
كان لطفي السيد من أنصار الاعتدال، ولكنه لم يكن أبداً من المفرِّطين في حق القومية، ومقالاته هي الوثائق الباقية لجهاده في سبيل الحرية والاستقلال.
والناس يشهدون اليوم تمثال مصطفى كامل في أحد الميادين الجميلة بالقاهرة، فمن يبلغهم أن لطفي السيد كان من أوائل الداعين لإقامة ذلك التمثال مع أنه كان من خصوم الرئيس الأول للحزب الوطني؟
لا يؤخذ على لطفي السيد إلا عيب واحدٌ: هو أنه لم يستهدف لأي خطر في سبيل حرية الفكر والعقل والوجدان، وبذلك خَلَتْ آثاره من اللهب الذي احترق به المبدعون من أقطاب الفكر والبيان، والسلامة ليست مَغنماً نفيساً في أنظار أكابر الحكماء.
لا يزال لطفي السيد قوة عاتية، فهل يجرِّب الثورة على نفسه مرة واحدة فيخرج من بعض ماله لينشر مجموعة كاملة للمختار من آثاره في الأعوام الخوالي؟
إن أخذ بهذا الرأي فسيحدّد مكانه الصحيح في التاريخ الأدبي الحديث.
وإلا فسيصير إلى ما صرت إليه يوم عققت نصائحه الغالية في مصانعة الناس والزمان.
وإلى أستاذي وصاحب الفضل عليّ، إلى أحمد لطفي السيد باشا مترجم أرسطاليس ومدير الجامعة المصرية، أقدم واجب الثناء، راجياً أن يتناسى ما مرّ بهذا المقال من عبارات لم
تكن على خشونتها إلا شاهداً على اتصالي الروحي بعقله الحصيف.
زكي مبارك
تعاليم الرجولة
للأستاذ محمد كامل سليم بك
سكرتير مجلس الوزراء
1 - لا تلم غيرك على إهمالك، واحتمل بشجاعة نتائج أعمالك.
2 - الاعتذار ضعف، فلا تعتذر لكائنٍ من كان، ولا سبيلَ إلى تلافي الاعتذار إلا إذا آليتَ ألا ترتكب ما يستدعي الاعتذار منه.
3 - لا تيأس: إذا المرض أصابك، وإذا الحزن دهمك وإذا الإخفاق صدمك، وإذا الصديق خدعك وإذا العدو غلبك، وإذا الحظ نكبك إذ مهما اضطربت الأمور وأظلم الجو فإنك بالصبر والعمل والشجاعة منتصر لا محالة.
4 - لا ترْجُ من اللئيم أن يصفح، ولا من السفيه أن يحلم، ولا من القويِّ أن يستكين. لأنك إن فعلت أرقت ماء وجهك وعدْتَ بخيبة الأمل.
5 - لا تكن متحيزاً لأقربائك، ولا محابياً لأصدقائك، ولا باغياً في خصومتك، ولا طاغياً في رياستك. بل اجعل العدل قائدك، والحزم رائدك، والكرم ملطفاً لشهوتك، والمصلحة العامة على الدوام قِبلتك.
6 - كن شجاعاً تكن صادقاً. فإذا اعتدت الصدق مشت الفضائل كلها في ركابك.
7 - أفعل ما تراه حقاً وعدلاً، ولا تحاول أن تُرْضي الناس جميعاً، لأنك إن حاولت ذلك أسأت إلى نفسك ولم تُرْض أحداً.
8 - أذكر دائماً أن قيمة الأعمال بنتائجها، فحذار أن تأتي عملاً تعرف مقدماً أن له نتيجة ضارة، اللهم إلا إذا أيقنت أن كِفَّة الخير للمصلحة العامة أعلى وأرجح.
9 - إذا كنت تحب الحرية حقاً فلا تحتكرها لنفسك وتنكرها على غيرك.
10 - حذار من لسانك وقلمك إذا كنت غاضباً أو ثائراً بعاطفة قوية فكلاهما يخونك، واعتمادك عليه يجر عليك الندم أو الألم عندما تهدأ وتستقر.
كتب لم أقرأها
مؤلفات اللورد دنساني
للأستاذ عبد اللطيف النشار
أما الكتب التي أتحدث عنها اليوم فعشرون كتاباً صفقة واحدة لا أعرف اسم واحد منها ولا عرفت شيئاً عن مؤلفها إلا في هذا الأسبوع حينما نشرت الصحف له صورة ظريفة مع حضرة صاحب السمو الملكي الأمير محمد علي في نادي الاتحاد الإنكليزي المصري.
وكانت مناسبة الاحتفاء به في هذا النادي أنه مر بمصر أثناء سفره إلى أثينا حيث يتقلد منصب الأستاذية في الأدب الإنكليزي بالجامعة اليونانية. وكرسي الأدب الإنكليزي في

تلك الجامعة يلقب باسم الشاعر الإنكليزي بيرون. فيقال (كرسي بيرون) للأدب الإنكليزي تكريماً لذكرى هذا الشاعر الذي ساهم في تحرير اليونان بقلمه وبسيفه. وما زالت اليونان تحتفظ له بأطيب الذكرى وله في عاصمتها أكبر تمثال فيها.

ولما مرَّ اللورد دنساني بمصر نظم أبياتاً هذه ترجمتها نثراً:

انتظار طويل

أيها الملوك الأربعة الجالسون في ساحة أبي سمبل متجهين نحو مشرق الشمس، (لقد رأيتم الإنسان يطير).

قلت لهم ذلك وخلت أني أسمع جواب ثلاثة منهم أثناء مرورنا أمامهم بالطيارة (أما الرابع فقد كسر عند منتصفه فانشطر شطرين).

وأحسب جواب الثلاثة:

(نحن لا نلحظ إلا ما كتب له الخلود. نلحظ نهرنا القديم في فيضانه، والشمس في سطوعها، والمطر في إبانه، وكل خالد في تغلبه على زمانه. ورأينا ورأى معنا هذا الرابع قبل أن ينكسر شعاعاً ذهبياً ينبثق من صخرة فيوقظ الروح في بلدنا هذا المقدس وقد أخذ هذا الشعاع الذهبي من زمن فات يتجه نحو الشمال، ونحن منذ ذلك العهد لم نلحظ ما يستحق أن يلحظ).

هذه الأبيات في أصلها ذات جرس ورنين، وهي كل الذي قرأته له عدا حديثاً له مع محرر الغازيت. أما الذي قرأته عنه فهو أنه أديب أيرلندي له مسرحيات ودواوين شعر وأقاصيص وروايات، ويبلغ عدد كتبه العشرين، وأسلوبه من السهل الممتنع. وهو رحالة ومن هواة الصيد، وقد قضى معظم الشباب في الجندية وعمره الآن قد تجاوز الستين. اشترك في حربين: حرب البوير والحرب العظمى. وجاب أقطار العالم في رحلاته، وقلما استطاع البقاء أمداً طويلاً في مكان.

ومن غريب أمره أنه لا يستطيع مزاولة التأليف راحلاً، ولا الرحلة ولديه موضوع يشغله بالتأليف. ويقول إن حياتيه: الروحية والجثمانية ليستا على ائتلاف، فهو يطلق لكل منهما العنان، حتى إذا فرغ من رحلة له عاد إلى وطنه، فاستجم وترك لخواطره متنفساً من يراعه خلافاً لبعض الكتاب الذين يجمعون الجذاذات في أثناء الرحلات، أو يدونون فيها بعض الخواطر أو المعلومات. وهو يقول في حديثه لمحرر الغازيت: إنه لا يرى في الكتابة واجباً يفرضه المرء على نفسه وينقطع له، وأنه لا يرى للكاتب أن يكتب سواء أكان لديه أفكار أم لم تكن لديه.

وحاول المحرر أن يستدرجه للحديث عن وطنه أيرلندا فأبى أن يخوض في ذلك الحديث. ويعرف القراء أن تلك البلاد لم تشترك مع إنكلترا في حربها الحاضرة؛ ولكن هذا اللورد الذي بقي في أيرلندا حتى شهر أغسطس الماضي قد رحل عنها إلى لندن وتطوع جندياً في الجيش الإقليمي (الجيش المرابط) وعدده في إنكلترا مليون وسبعمائة ألف لعل فيهم الكثير من هذا النوع.

ولما سئل عن رأيه في الحرب قال إن هتلر قد خسرها، لأنه أراد تحطيم روح الشعب البريطاني فأخفق، ولن يستطيع تحطيم تلك الروح بعد ثباتها ستة أسابيع على قنابل الغارات الجوية.

وهو يرى أن الحرب ضرورة لا بد منها كتناول الطعام وشرب الماء ما دام بعض الأمم يسبق البعض في اطراد النمو من ناحيتي الثروة وعدد السكان، فلا مناص من الحرب، لأن الذين تضيق بهم بلادهم لا بد لهم من طلب التوسع فتكون الغزوات وتكون الحروب، ولا يرى في الإمكان تدبير وسيلة للاحتفاظ بالسلام.

قال: (بعد الحرب الماضية اجتمع العقلاء من مختلف الدول في مدينة جنيف وحاولوا إيجاد الوسيلة لمنع الحروب في المستقبل. وأحسب أنهم بعد الحرب الحاضرة سيرسلون عقلاءهم إلى مدينة ما لإيجاد وسيلة لمنع الطعام وسيقولون إنه متعب في إعداده، متعب في هضمه، متعب في تناوله، فلنتدبر في وسيلة تريحنا منه. . . وسينجح هؤلاء الحكماء في محاولتهم منع الطعام بمثل القدر الذي ناله من النجاح من سبقوهم في محاولة منع الحرب. وهو مع رأيه هذا في الحرب يرى أن أذى الحروب أقل من نفعها، ومن نفعها أنها تولد الشجاعة والجرأة والنخوة.

هو متحدث بارع، وقد يدافع عن قضية خاسرة لمجرد الاغتباط بالحرب الكلامية.
ومن رأيه أن حملة الأقلام جميعاً رجال غير عاديين.
قال: وإذا نحن أحصينا من يكتبون وجدناهم قلة ضئيلة بالقياس إلى من لا يكتبون، وهذا وحده سبب كاف لاعتبارهم من الطراز غير طراز الرجل العادي.
هذه بداية تعرفي على المؤلف الذي أدرجت مؤلفاته العشرين في قائمة (كتب لم أقرأها) وليس كل ما في هذه القائمة مندرجاً بالطبع في قائمة (كتب لن أقرأها) فعلى حين أزداد تعرفاً عليه أزيد تعريفاً به.
أو لعل من سبقوا إلى معرفته أن يشركوا أهل لغتهم فيما أفادوه منه.
وبعد كتابة ما تقدم قرأت في جريدة الإجبشيان ميل عدد 28 نوفمبر سنة 1940 أن اللورد دنساني دعي إلى حفلة تكريمية أخرى بنادي الاتحاد الإنكليزي المصري فألقى بها قصة طريفة له عنوانها (بنت رمسيس).
وأنه سيلقي في الأسبوع القادم محاضرة عن الشعر الإنكليزي بالجمعية الملكية الجغرافية، وأرجو أن ألخص القصة والمحاضرة لقراء الرسالة.
عبد اللطيف النشار

حول نقد كتاب الذخيرة في علم الطب

للأستاذ إسماعيل مظهر

قرأت في مجلة الثقافة الغراء منظومة من النقود وجهها الأب أنستاس ماري الكرملي إلى صديقي الدكتور جورجي صبحي ناشر كتاب الذخيرة المنسوب في بعض المؤلفات القديمة إلى العلامة الكبير ثابت بن قرة.
ولنشر كتاب الذخيرة تاريخ لو أن حضرة الأب المهذب الرقيق قد علم طرفاً منه إذن لالتمس للدكتور صبحي بعض العذر عن أخطاء وقعت في الكتاب. فقد كان موعد الاحتفال بالعيد المئيني للقصر العيني قد أزف. وحَسُنَ عند صاحب السعادة الدكتور علي إبراهيم باشا أن يُطْبَعَ كتاب (الذخيرة) إحياءً لأثر قديم وتعبيراً عن اتصال ثقافتنا بثقافة أوائلنا وتذكيراً بتراثنا المجيد. وبُدِئ بطبع الكتاب من نسخة سقيمة سيئة الخط محشوة بالتصحيفات قبل موعد الاحتفال بشهر واحد. وما إن حان الموعد حتى كان الكتاب مطبوعاً معداً للنشر. فكان لهذا العامل أثره فيما يكون قد وقع في الكتاب من تصحيفات لا أشك أقل شك في أن أكثرها موجود في النسخة الأصلية؛ وكان من المتعذر مادياً بحثها وتصويبها في مثل هذا الزمن القصير الذي استغرقه طبع الكتاب.
وما قولك في أن حضرة الأب اشترى الكتاب في فبراير من سنة 1934 ولم يستطع أن يحقق ما ورده في نقوده من الألفاظ إلا في شهر يوليو من سنة 1940 إذ بدأ بنشر نقوده التي ألمعنا إليها. يدلك هذا على أن تحقيق هذه الألفاظ كان صعباً والرجوعَ إليها في مظانها أمر يستغرق السنين. فللدكتور صبحي على أية حال عذر إن تعذر عليه تحقيق بعض ألفاظ الكتاب وتصحيح عباراته تصحيحاً كاملاً.
ولا أريد أن أتعرض هنا لشيء مما صوب به حضرة الأب بعض أخطاء الكتاب، ولكن أريد أن أنشر حقائق ثابتة لا يتسرب إليها الباطل، عن الدوافع التي دفعت حضرة الأب المحترم إلى نشر نقوده هذه. فإن وراء هذا النقد ماضياً يجب أن يعرف، وله بداية كانت هذه النقود نهايتها. فقد أطلعني الدكتور صبحي بك على كتاب بخط يد الأب المحترم يسأله فيه أجراً على تصحيح الكتاب، وكان الدكتور صبحي بك مريضاً فلم يعر الأمر اهتماماً وشغل بمرضه عن كل ما عداه. واتصل طبيب بالقاهرة بالدكتور صبحي بك يغريه على
أن يجيب حضرة الأب إلى طلبه فرفض صبحي بك معتذراً. وإلى هنا تنتهي مقدمات النقد. وكان النشر بمجلة الثقافة نتيجة لهذه المقدمات.
ولعل القراء يعجبون كيف أن رجلاً من رجال الدين المنقطعين عن لهو الحياة الزاهدين فيها، المترهبين في سبيل الله والعلم ينزلق في هذا المنزلق ويزل هذه الزلة ولا حاجة له بمال ولا مطمع له في الدنيا ولا زوجة له ولا ولد؟ نعم إن هذا لباعث على العجب مفض إلى طول التأمل. ولكن ذلك هو الواقع مع الأسف. وما كنت لأتطوع جاهداً في كشف هذا السر العجيب لولا أن حضرة الأب المحترم قد تمادى في الهجوم على رجالات مصر، ومن قبل هاجم الدكتور شرف بك ثم الدكتور أحمد عيسى بك ثم حضرة صاحب العزة أحمد العوامري بك، وغيرهم من كبار رجالنا المشار إليهم بالبنان المكبين

على العلم لأجل العلم لا لأجل المال. أولئك الذين أفنوا أعمارهم وأموالهم في الطلب والفحص والتنقيب غير مترقبين من الناس مالاً ولا مستجدين منهم أجراً، عالمين أن أجرهم عند الله أبقى.

لئن كان حضرة الأب قد نشر هذا النقد خدمة للعلم حقيقة فما هي الحاجة التي حملته على أن يطعن حضرة الدكتور صبحي بك في علمه وفي مهنته؟ وإليك بعض أقواله في مجلة الثقافة.

إن هذا لمن أعجب العجب. يتساءل راهب لغوي كيف أن طبيباً مصرياً عظيما، وأستاذاً في كلية الطب، ومن أمهر المشتغلين في القطر المصري بهذه الصناعة: يتساءل كيف حصل على شهادته! ألست تجد أيها القارئ أن مثل هذا الأمر يدل على حفيظة سببها أن هذا الدكتور لم يجُد عليه ببعض المال ليصحح أخطاء كتاب قديم وقف على طبعه؟

كان إذن من الواجب على الذين أعطوا الدكتور صبحي إجازة الطب أن يرسلوه لحضرة الأب أولاً ليجيز لهم أن يعطوه شهادته.

ومن أعجب العجب أيضاً أن يعترف حضرة الأب بأن كتاب الذخيرة (في أصله) مشوه وممسوخ. قال في الثقافة (العدد 84 ص40):

(اتضح أن هذا التصنيف ليس لثابت بن قرة، وبان بالعكس أن واضعه قليل البضاعة بعلم العربية، والكاتب قبطي من أهل المائة السابعة أو الثامنة للهجرة لجهله الألفاظ الطبية وتشويهه لها وجهله الأحكام اللغوية ومسخه لها مسخاً شنيعاً).

هذا اعتراف حضرة الأب الصريح يدل على أصل الكتاب، أي الأصل الذي طبع عنه الدكتور صبحي بك. أفلا يصح أن يكون هذا شفيعاً عند حضرة الأب في بضعة أخطاء اضطر الدكتور لإثباتها كما هي مراعاة للأصل المطبوع عنه التماساً لإصدار الكتاب في شهر واحد من الزمان؟

أما أن يخطئ الإنسان فذلك أمر طبيعي، ولكن من غير الطبيعي ومن غير اللائق بالسداد أن يتمنى حضرة الأب أنستاس أن يصبح وزيراً للمعارف في مصر فيفتتح عهده بالحكم بغرامة 228 جنيهاً، وبالحبس 228 يوماً على الدكتور جورجي صبحي جزاء نشره كتاباً به بعض الأخطاء!

ولقد يدعي حضرة الأب أنه لا يخطئ، لأنه لو كان يسلم بأن الخطأ واقع من أبناء آدم لما انزلق في نقده إلى حيث انزلق، ولكني أقول له إنه يخطئ خطأ فاحشاً يتعدى فيه على العلم وعلى الثابت في مظان العلم.

فقد حدث في دورة المجمع اللغوي السادسة أن قام حضرة الأب يدعي دعاوى عريضة فسقط وكبا كما يؤخذ من رد حضرة العلامة الأستاذ فيشر عليه في محضر الجلسة السادسة عشرة من الدورة السادسة. وأنقل هنا نص رد الأستاذ فيشر عليه لأن به من البيان ما لا محل معه لبياني. قال:

(قرأت أمس في محضر الجلسة العاشرة بحث كلمة (موسيقى) (موسيقا) لحضرة الأب أنستاس ماري الكرملي. وقد أعجبنا جميعاً بكثرة معلوماته وذكائه، ولكن لا معصوم من الخطأ إلا نبي. وعليه فإني أعتقد أن حضرة الزميل العلامة قد زَلَّ في بعض مواضع بحثه إذ قال في صدر بحثه: (فأقول إن العرب لم يأخذوا لفظ الموسيقى عن الروم لاتينيين كانوا أم يونانيين، وإنما أخذوها من الإرميين بدليل أنهم يقولون (هنا كلمة إرمية) وتقرأ موسيقى بالياء. والدليل الثاني أن الموسيقار العربية في نفس الإرمية (هنا كلمة إرمية) وتلفظ موسيقاراً. والدليل الثالث أنهم (أي العرب) قالوا مثلهم موسيقاراً. ولم يراع أن كل ما نقل عن اليونانية كان بواسطة الآراميين كما أن كل ما نقل عن اللاتينية قبل فتح العرب لشمال أفريقية كان بواسطة اليونان وعنهم بواسطة الآراميين.

ولم يراع أن الكلمة الآرامية (. . . . .) يرجع أصلها إلى الكلمة اللاتينية وأهم من هذا) ما وقع فيه من خطأ قائلاً: وأما عرب الجاهلية وصدر الإسلام فإنهم قالوا: (المزيقَة) واستشهد على هذا القول ببيت للشماخ أورده كما يأتي:

له زَجَل كأنه صوت حاد ... إذا سَمِع المزِيقة أو زَمِير

ولا أدري من أين نقل هذا البيت. فإنه ورد في ديوان الشماخ طبعة أحمد بن الأمين الشنقيطي صفحة 36 ما يلي:

له زجل تقول أصَوْت حاد ... إذا طلب الوَسِيقة أو زَمِير

وهذه الرواية صحيحة فإن هذا البيت جاء وصفاً لحمار وحشي في قصيدة للشماخ، (ومعناها يتفق مع ما أورده الشنقيطي في الشرح إذ قال: (المعنى أن الحمار الذي يصفه يشبه صوته بأتانة إذا صوت بها صوت حادي الإبل أو صوت مزمار).
فكذلك لا توجد لكمة المزيقة في شعر الشماخ، ولا توجد في أي شعر آخر ولا في كل العربية).
وقد ظن حضرة الزميل العلامة، بعد اعتقاده بأن كلمة (المزيقة) قد وردت في شعر (الشماخ أن فعل مَزَّق الذي ورد في الشعر القديم بمعنى غَنَّى قد صحف عن مزَّق.
وقد قال حضرة العضو الأستاذ الشيخ محمد الخضر حسين في أثناء الجلسة: (لا أوافق حضرة الأب أنستاس على أن لفظتي ممزَّق وتمريق مصحفتان من ممزق وتمزيق. إذ لا دليل على هذا التصحيف الخ).
وإني متثبت من أنه على حق، فإنه قد وردت في لسان العرب وأساس البلاغة شواهد) على فعل مزَّق، وقد بين هذه الشواهد بيت للشاعر (الممزَّق) من قصيدة وردت مرتين في ديوان (المفضليات) - (طبعة تشارلس لايل صحيفة 603)، وفسر الأنباري (شارح المفضليات الفعل مزَّق كما يلي:
(ويمزِّق يغني والتمريق الغناء. يقال: قد مزَّق يمزِّق تمريقاً فهو ممرقٌ إذا غنى أ. هـ).
وورد هذا الفعل أيضاً في كتاب الأغاني (طبعة دار الكتب المصرية في الجزء السابع صحيفة 238) في سياق الكلام كما يلي: قال الحسن وحدثني غانم الوراق قال: خرجت إلى بادية البصرة فصرت إلى عمرو بن تميم فأثبتني بعضهم فقال: هذا الشيخ والله راوية. فجلسوا إليّ وأتوا بي وأنشدتهم وبدأت بشعر ذي الرُّمة فعرفوه وبشعر جرير والفرزدق
فعرفوهما؛ ثم أنشدتهم للسيد. . . (أتعرف رسما. . . الخ) ثمانية أبيات؟ قال: فجعلوا يمزِّقون لإنشادي ويطربون، وقالوا: لمن هذا؟ فأعلمتهم. . . فقالوا: هو والله أحد المطبوعين. . . لا والله ما بقي في هذا الزمان مثله) أ. هـ عبارات الدكتور فيشر.
أيليق بنا يا حضرة الأب المهذب أن نسأل: كيف حصلت على لقب لغوي ما دمت تسقط في مباحث اللغة هذه السقطات الشنيعات، ثم تتداري بعد ذلك وراء ألفاظ الهجاء لتخيف الناس من لسانك ومن قلمك، ولتستر بذلك خطأك وحذلقتك وتهجمك. . . .على اللغة عفو الخاطر، لأنه قيل إنك لغوي، ولأنه جرى بين الناس أنك كذلك؟
وبعد، فإني لا أود أن ألقي القلم قبل أن أفرغ من حضرة الأب المهذب أولاً وآخراً. فإني اتهمته بأنه طلب من الدكتور صبحي مالاً لينتقد كتاب (الذخيرة) سراً ثم يسكت؛ فإذا أبى الدكتور صبحي بك، نشر الأب نقوده متظاهراً بالغيرة على العلم وعلى لغة القرآن: نسأل للغة القرآن منه العافية.
والواقع أن هذه دعوى عليّ إثباتها: فإن الكتاب الذي أرسله حضرة الأب إلى الدكتور صبحي بك يسأله فيه ذلك، قد مُزِّق وألقي به في سلة المهملات مع الأسف الشديد؛ ولو أنه باق، إذن لنشرته بخط يده. ولكن حضرة الأب قد ينسى أن كتاباً آخر يدل دلالة قاطعة على أنه يأخذ المال باسم اللغة والغيرة على اللغة، ولكن بالسباب والشتم.
وإني أقتطف من هذا الكتاب عبارات مع حذف الأسماء. فإن أنكر الكتاب نشرته للناس بخط يده. جاء في ذلك الكتاب:
نعم إن احسانات الدكتور. . . قيدت يدي ورجلي ومنعتني عن أن أهجم عليه هجماتي (المعتادة على أصحاب سائر المعاجم، ولما رَدَّ عليَّ رده المعهود وكله سفاسف وجهل شنيع للقواعد العربية والأصول اللغوية، أخذت القلم لأكشف عوراته ثم فكرت في نفسي وقلت أهذا مكافأة من أحسن إليك وأنقذ مجلتك من أن تغلق في تلك السنة للخسارة التي لحقتها. فكسرت القلم وقلت الإقرار بالفضل والإحسان من شيم كرام النفوس، والغض عن الرد خير من الاستسلام للغيظ. وهكذا سكت، ولو لم يكن بِرُّ هذا الرجل وماله بالفضل علي لسحقته سحقاً، لأن ما في. . . من الأوهام والخبط والخلط يسود عين الشمس في رائعتها. والآن أقول إن. . . نصاب في الأدب ولا يقاربه أحد في نصبه، ولكن إذا كانت أموره
تجوز على بعض السذج، فإنها لا تجوز على من له أدنى إلمام بالأدب).
ثم يقول حضرة الأب المهذب:
أتعلمني بمنزلة. . . وأنا أعلم علم اليقين أنه لا يرى في مادة واحدة من مواده إلا (

أغلاط جمة؟ ومع ذلك أقول ولا أخاف لومة لائم إن أغلاط. . . دون أغلاط. . . فإن هذا الأخير أفسد كل مادة فساداً لا تقوم له قائمة، وليس للرجل أقل اطلاع على اللغة ولا على علم. . . ولا على نقل الألفاظ من الإفرنجية إلى العربية. والآن أجيبك على سؤاليك:

1) - إني تسامحت كل التسامح في نقد. . . لأنه أحسن إلي. ولم أفعل مثل هذا الفعل في نقد. . . لأنه لا فضل له عليَّ فلم أسامحه لأنه زاد فساد ألفاظ. . . وأوهامه زيادة فاضحة.

2) - إذا نقدت ثانية. . . أهتكه هتكا من غير أن أستعمل كلمة جارحة كما فعلت مع. . . لأن. . . اشتغل أكثر من. . . وعانى مشقات أعظم. أما لو أردت أن أنزله دركات جهنم لما صعب علي لأنه هيأ لي الوسائل والذرائع لإنزاله في تلك المهاوي. هـ ا

هذا كلامك يا حضرة الأب عندي بخط يدك أنشره على الناس ليعرف الناس لماذا تكتب وتحت أي تأثير تكتب، فإن لم تسكت نشرته في كراسة مطبوعة بالزنكوغراف، ولو أني بذلك سأسيء إلى أصدقاء هم من دمي وأهلي الذين تتهاتر عليهم بعلمك، وأتحمل في سبيل ذلك حساب ضميري على أن أنزل أسماءهم الشريفة المنزلة التي لم أجد بدونها وسيلة إلى إسكاتك أبد الآبدين.

وتحت يدي أيضاً كتاب آخر أرسلت به إلى صديق لك قديم يدل على مقدار ما تعرف من قدر الصداقة، إن أنكرته نشرته أيضاً.

وبعد فقد يكون في كتاب الذخيرة كل الأوهام التي أشار إليها حضرة الأب المهذب، وقد يكون بعض هذه الأوهام من (حذلقاته) المعروفة فإني لم أعن بتحقيق ما جاء بنقده، فإني ما أردت بهذا الرد إلا أن أقرر واقعاً وأنفي عن رجالنا شبهات يكيلها لهم هذا الرجل كيداً وظلماً. وإني لأعلم أني سأتلقى على يده من الإهانات والسباب ما سوف أتقبله.

وكلمة أخيرة أتوجه بها إلى الأستاذ الفاضل أحمد أمين عميد كلية الآداب ومحرر الثقافة فأسأله: هل من اللائق أن يُوَجَّه على صفحات الثقافة ألفاظ وعبارات كتلك التي وجهها حضرة الأب إلى الدكتور صبحي بك وهو له زميل في الجامعة وأستاذ مثله فيها؟

هل يقبل أستاذ أن ترمى الجامعة التي هو أحد أساتذتها وعميد كلية الآداب فيها بأنها فقدت شيئاً كثيراً من حسن سمعتها وأنها تروج إفساد اللغة وأنها تثبت الألفاظ المشوهة؟

إسماعيل مظهر

كلمات. . .

تعريف

هذه (كلمات) كنت أكتبها في مجلة أسبوعية أدبية منذ سنوات ست. ثم داومت على كتابتها في جريدة (البلاغ) وفي صفحتها الأدبية والثقافية بعد ذلك بضعاً من السنين.

وهذه (الكلمات) القصيرة التي أرجو أن يشرفني قراء (الرسالة) بقراءتها كل أسبوع لن تجاوز أن تكون نقداً لبيت قديم أو جديد من الشعر، أو إعجاباً ببيت كذلك أو أبيات من الشعر جديد أو قديم، أو نقداً لرأي أو فكرة أو عرَضٍ من أعراض حياتنا الثقافية أو الأدبية، إلى مثل هذه الشؤون الاجتماعية والأدبية التي هي وحي (الرسالة) ورسالتها لمصر والشرق.

كتب صديقنا الدكتور زكي مبارك يعلّق في الرسالة على كلمة الأستاذ محمد عبد الغني حسن بشأن (استهانة الجمهور بقواعد اللغة العربية) على حد تعبير الدكتور مبارك. وكان الموضوع الذي أثار الأستاذ عبد الغني فكتب ما كتب، هو إعلان في صحيفة وجد فيه طائفة من الأغلاط الشائنة.

وإذا كان الأستاذ محمد عبد الغني يثور ويغضب لأغلاط وجدها في كتابة إعلان تجاري حرّره عامل في متجر لم يقرأ سيبويه ولم يعرف ألفية ابن مالك ولا ألفية ابن معطى، وإذا كان الدكتور مبارك يثور ويغضب لأنه وجد صديقاً له من رجال وزارة المعارف يحاضر ويلحن، فإن هذا وذاك - إذا قيس بغيره - ليس مما يغضب ولا مما يثير.

ليستمع صديقنا الدكتور مبارك إلى كثير مما يذاع في الراديو المصري من المحاضرات والأحاديث، فأنه يجد كثيرين من المحدثين وكثيرين من المحاضرين يحرصون الحرص

كله على أن يكون نطقهم حين ينطقون الأسماء والأعلام الإفرنجية صحيحاً سليماً، ولا يعنيهم ولا يسوؤهم أن يكون نطقهم للعربي من الأسماء والأعلام عليلاً سقيما. فهم حين ينطقون اسم (بيتان) يحرصون على أن يضموا شفاههم على حرف الباء منه ضماً قوياً ثم يفرجون عنها مسرعة قوية كما يفعل الفرنسيون الأصيلون حين ينطقون به.
وهم حريصون على أن يدغموا في أنوفهم حرف النون في نهايته حتى لا يبين إلا غنة قصيرة مثلاً شبه ضعيفة كما يفعل الأصيلون من الفرنسيين.
ولكنهم حين ينطقون اسم محمد أو محمود أو غيرهما من الأسماء والأعلام العربية، لا يحرصون ولا يسيئهم أن يكون نطقهم لها على وجه خاطئ بيّن الخطأ.
وليقرأ صديقنا الدكتور مبارك العدد الأخير من مجلة الراديو المصري فسيجد أنها كتبت اسم الصحابي الجليل (أبا ذر الغفاري) هكذا (أبو زر) (عدد 297 من المجلة)
والراديو المصري هو المجلة الرسمية للإذاعة اللاسلكية المصرية ويشرف على تحريرها كاتب أديب من الطراز الأول هو الأستاذ محمد سعيد لطفي.
ولكن حين كتبت هذا عن المذيعين والمحاضرين وعن المجلة الرسمية للإذاعة المصرية نسيت أننا في مصر كنا إلى سنة واحدة نطبع جداول الجلسات لمجلس وزرائنا باللغة الفرنسية ولا نطبع باللغة العربية. . .!
وبلد هذا مقدار حرصه على لغته في مجلس وزرائه، لا يلام فيه عامل في متجر أو محاضر أو محرر مجلة على اللحن والخطأ. . .!
وأظن صديقنا الدكتور مبارك والأستاذ محمد عبد الغني حسن قد نسيا هذه الحقيقة من قبلي حين كتبا ما كتبا. . .!
(محمود)

الحرب في أسبوع

للأستاذ فوزي الشتوي

الحرب اليونانية ونتائجها

هل تؤدي الحرب اليونانية إلى انتصار قضية الديمقراطية؟ أو بعبارة أوضح هل يكون الميدان اليوناني الألباني ذا أثر كبير في وضع حد للحرب العامة؟ سؤال وجهه إلى أحد القراء، وهو سؤال طالما سمعته في المجالس، فرأيت أن أوضحه للقارئ. فإن انتصار اليونانيين وتقدم قواتهم السريع أمر غريب كما قال ملكهم. ولم يتوقع أحد أن يكون غزو إيطاليا لليونان سهماً قاتلاً يوجه للحركة الفاشستية، فيكشف عن ضعف عجيب في أحد طرفي المحور.
أما النصر النهائي لقضية الديمقراطية في الميدان الألباني فأمره مستبعد، فإن موقع الميدان الألباني الجغرافي لا يسمح بأن يرى العالم مصرع حكم الإرهاب، وإن كان هذا الموقع يعتبر أحد المنافذ القاتلة لحركات المحور العسكرية والسياسية، فقد كشف عن خطأ كبير، وأتاح للإمبراطورية البريطانية الحصول على مواقع كبيرة الخطورة جعلت الأهداف الألمانية والإيطالية أيسر تناولاً مما كانت عليه.
وليتاح لنا فهم الموقف بسهولة يحسن بنا أن نوضح ناحية من نواحي السياسة العسكرية البريطانية؛ فعندما انهارت فرنسا انهارت معها جميع الخطط العسكرية، سواء في الشرق أو في الغرب، وأصبح الدفاع عن الميادين التي تسيطر عليها أمراً متعذراً فضلاً عن اتباع سياسة الهجوم. ولكن هذا الوضع العسير لم يضعف من عزيمة الإنجليز، فرفضوا الصلح الذي عرضه هتلر وصمموا على مواصلة القتال. ولم يتمكن المحور من استغلال هذه الفترة والقضاء على قوات بريطانيا أو إضعافها في ميادينها بفضل الأسطول البريطاني البحري الذي عرقل مواصلات إيطاليا مع ممتلكاتها في أفريقيا ومنع عنها الإمدادات ومنع ألمانيا أيضاً من غزو الجزر البريطانية.
ويمكن القول أن سياسة إنجلترا العسكرية منذ ذلك الوقت إلى الآن هي سياسة استغلال الفرص. وكانت حماقة موسيليني في غزو اليونان فرصة ثمينة، مكنت القوات البريطانية من الحصول على أربع نتائج باهرة تحقق ثلاث منها وما زالت إحداها في دور التحقيق،
وإن يكن جزء منها قد تحقق.

الدوديكانيز

وإحدى هذه النتائج الثلاث زوال أهمية جزر (الدودكانيز) كقواعد حربية إيطالية، فإن

استيلاء القوات البريطانية على جزيرة كريت والجزر اليونانية القريبة من الدودكانيز عزلها عن قواعد تموينها، وأصبح اتصال إيطاليا بها أمراً شديد الخطر.
واقتراب القواعد يتيح للدوريات سواء كانت بحرية أم جوية مراقبة البحر مراقبة دائمة، وسرعة الاشتباك بالقوافل الإيطالية سواء بقوات تقصدها من الإسكندرية أو كريت أو اليونان، ومن ثم أوصد الطريق في وجه القوافل الإيطالية فضلاً عن سهولة مهاجمة جزر الدودكانيز واحتلالها من الجزر القريبة منها.
وكانت جزر الدودكانيز طرف قواعد الارتكاز التي تكون خطاً بحرياً طرفه الآخر على شواطئ ليبيا الأفريقية، والغرض منه عرقلة الملاحة في الحوض الشرقي للبحر الأبيض، وفقدان جزر الدودكاينز لأهميتها أو احتلالها يفقد إيطاليا كل سيطرة على الجزء الشرقي لحوض البحر الأبيض المتوسط، أضف إلى ذلك أنها كانت تعتبر إحدى القواعد التي يسهل منها تهديد تركيا في منطقة المضايق وسوريا وفلسطين.
الخسائر العسكرية
ومني المحور أو طرفه الصغير بخسائر عسكرية فادحة لها أثرها في استعدادات إيطاليا في الميادين الأخرى وهي النتيجة الثانية، فلم يكن غزو اليونان نزهة كما ظن موسوليني وأركان حربه، ولكنه كان فاجعة إيطالية، كلفتها عتاداً حربياً ورجالاً وهيبة عسكرية. ولا يتاح لنا الآن أن نكشف الغطاء عن حقيقة هذا الخذلان الإيطالي.
وقالت بعض المصادر إن القوات الإيطالية استعملت في زحفها طرقاً ضيقة محصورة بين الجبال، وكانت قوات يونانية تكمن فيها فلما توغلت الوحدات الإيطالية صبت عليها الجنود اليونانية نارها، وفي الوقت نفسه ثارت بعض القبائل الألبانية وهاجمت مؤخرة الجيوش الإيطالية فتعذر عليها التقدم أو التأخر، واضطر الإيطاليون إلى الهرب بأرواحهم مخلفين عتادهم وذخيرتهم في عملية انسحابهم السريعة.
فإذا أضيف هذا العتاد إلى ما أرسلته إنجلترا إلى اليونان من معونة، فإن استرداد الإيطاليين لمواقعهم السابقة يسبب لهم خسائر فادحة لا تتحملها مالية إيطاليا الضعيفة.
ويتبين من خط الزحف اليوناني كما يرى بعض الخبراء العسكريين أن خطة اليونان تعمل على تطويق القوات الإيطالية إذ توالي زحفها إلى الباسان - وهي منطقة ثائرة تؤيد اليونان وتعادي إيطاليا - ومنها إلى تيرانا فالشاطئ؛ فإذا تحققت هذه الخطة فلا يبقى للقوات الإيطالية إلا الانسحاب من ألبانيا.
صدمة سياسية
وثالثة النتائج هي ضياع هيبة المحور السياسية، فإن دول البلقان التي كانت تحرص على إجابة طلباته بدأت الآن ترى في اليونان بارقة أمل في الاحتفاظ بوحدتها، وفي وقف هتلر عند حد، ولاسيما أنها ترى القوات البريطانية والتركية بجوارها، فبلغاريا التي كانت إلى أمد قريب إحدى نصراء المحور قالت له أخيراً: لا. ويوجوسلافيا التي كانت ترى نفسها منعزلة عن العالم لا يتيسر إنجادها إذا دنت الساعة ترى النصير قريباً منها في اليونان وألبانيا.
وأخطأت السياسة الألمانية خطأ كبيراً بما ارتكبه رجالها في رومانيا باسم الحرس الحديدي، فإن جميع الوعود الألمانية لم يكن لها قيمة، وجميع التضحيات التي بذلتها رومانيا بمشورة هتلر لم تنقذ بلادها من الاحتلال واختلال الأمن، فقسمت أرضها بين الروسيا وهنغاريا وبلغاريا، ومع هذا احتل الألمان أرضها، فهل بعد هذا من داع يوجب الاستسلام؟ وإذا كان اغتيال رؤساء الوزارات هو النتيجة، فإن الساسة ليفضلون أن تحتل بلادهم قهراً وأن يموتوا في ميدان القتال على أن تهدر دماؤهم دون ثمن.
الأسطول السجين
والنتيجة الرابعة للحرب اليونانية هي تحكم إنجلترا في مدخل البحر الإدرياتيكي باحتلالها لكورفو وللشاطئ اليوناني الشمالي والألباني الجنوبي. فمنذ احتل الإيطاليون ألبانيا أصبحوا سادة هذا البحر، وزوال سيادتهم عن ألبانيا أو عن جزئها الجنوبي زوال لهذه السيادة، ويتيح للأسطول البريطاني السيطرة على القوات البحرية الإيطالية التي اتخذته قاعدة
حصينة لها فتمعنها من الخروج إلى البحر الأبيض بل قد يتيسر له مقاتلتها فيه.
ونقص القوات البحرية الإيطالية معناه إضعاف مواصلاتها في ليبيا وتعريض قواتها فيها

إلى الهلاك جوعاً.
مقتل المحور
والبلقان هو مقتل ألمانيا فليس لها من جهته الخطوط الحصينة التي أعدتها على حدودها الفرنسية، فمنه يسهل غزوها. وكان البلقان في بدء الحرب يتكون من دول محايدة لا يبيح العرف الدولي الاعتداء عليها، وبريطانيا تحرص على هذا العرف، ولكن سياسة ألمانيا الأخيرة أدت إلى كشف هذا المقتل، فأصبحت دول البلقان إما محتلة وإما مشتركة مع المحور باستثناء بلغاريا ويوجوسلافيا ولن تتركهما السياسة الألمانية في أمنهما. فإذا أزال المحور إحداهما زال الحائط المحايد، وسهل على القوات الديمقراطية الوصول إلى الاشتباك بالقوات الألمانية نفسها حيث تتم المعارك الحاسمة.
أما الميدان اليوناني فإن أقصى ما يمكن أن يحدث فيه هو طرد إيطاليا من ألبانيا، ويبقى بعد ذلك احتلال إيطاليا نفسها وألمانيا أيضاً وهو متعذر الآن فضلاً عن أن القوات البريطانية لم تبدأ بعد في تنفيذ سياستها الهجومية فما زالت سياستها حتى الآن سياسة استغلال للفرص.
فوزي الشتوي
بكالوريوس في الصحافة
إلى (الملاح التائه)
ما جفاك الإلهامُ يا شاعر الجن ... دول والحبِّ والجمالِ الحبيبِ
كيف يجفو وما رأى مثل قيثا ... رك يا صاح لاعباً بالقلوبِ
هبه يجفو! فأنت وحدك نبع ... عبقري الظلال جَمُّ الطيوبِ
غاب موسى عن قومه فتلقَّى ... كَلِمَ الله من وراء الغيوبِ
ولقد غاب مثلَه فتنظَّرْ ... أيَّ فن يأتيك منه عجيبِ
ثم غرِّد به فإنا ظماء ... ربَّنا في غنائك المحبوبِ
دمت يا شاعر الجمال ودامت ... أغنيات الهزار والعندليب
(طنطا)
إبراهيم محمد نجا
كما يرانا غيرنا
في الطريق. . .
(عن جريدة (الإجبشيان غازيت) عدد 26 نوفمبر سنة 1940)
لمصر وسائل متعددة لتعليم الأوربيين الصبر، ومعظم الذين أقاموا بها خمسة أعوام إما أن يكونوا:
1 - قد تعلموا الصبر
2 - أو استكشفوا فن (معلهش)
3 - أو انغمسوا في حمأة مرذولة
4 - أو غادروا البلاد وقد تحطمت أعصابهم
ومن أظرف الوسائل التي يستفاد بها الصبر أن تسير في شوارع القاهرة، وما من مدينة أصلح منها لذلك، لأن الإسكندريين مثلاً قد هداهم بعض الغريب من حيل الأقدار إلى اعتياد المشي على الطوار في غير حاجة إلى المزاحمة بالمناكب، ودفع هذا ومنع ذلك من المارة في الطريق، وبغير أن يضطروا المساير إلى الإلقاء بنفسه تحت عجل السيارة أو الترام أو الدراجة أو تحت أرجل الحمير والخيل والجمال الضالة والثيران. ومعظم أهل القاهرة يسيرون كل خمسة منهم معاً في خطوط متعرجة كالتي يرسم بها الضوء جماعة المصورين على لوحات التصوير، وكأن الرجل متى خرج للمسير في هذه المدينة الغريبة قد نسي أن له غرضاً معيناً من المسير، أو كأنه يغضب إذ يعرف أن للغير من هذا المسير وجهة معينة.
ومن المناظر المألوفة في القاهرة مسير أبوين مع طفل أو اثنين أو خمسة من ذوي الأحجام المتفاوتة يصحبهم خادمان أو ثلاثة يحملون خمسة رؤوس من الخس وستة أعواد من القصب. فإذا ما رأيت جمعاً كهذا فخير ما تصنع أن تقفز من الطوار حتى لا يمر فوقك هذا الحشد الذي تتألف من مجموعه دبابة آدمية. ومن المناظر المألوفة كذلك أن يمر بك أربعة أو خمسة من النوبيين (السفرجية) بيد كل منهم عصا يلوح بها

يميناً أو يساراً وارتفاعاً وهبوطاً فإذا ما تخطاك دون أن يصيب رأسك بضربة عصا كان من الطريف أن تبلغ
السلطات عن هذا الشذوذ النادر.
ومن المألوف كذلك في شوارع القاهرة أن ترى عشرة من البوابين قد جلسوا على مقاعد مصفوفة على شكل أفقي أو رأسي أو على شكل صليب في منتصف الرصيف، وقد حذقوا فن البصاق في كل اتجاه، ونصيحتنا لكل رجل أو امرأة أو طفل أو طائر إن رأوا منظراً كهذا أن يعودوا إلى منازلهم وأن يؤجلوا المشي في الطريق إلى يوم آخر.
ومن المناظر المألوفة كذلك مشية (العقدة التي لا تنفصم) وهذه المشية تتكون من اثنين من (الأفندية) متوسطي القامة يد كل منهما في يد الآخر وقد تشابكت أصابعهما وهما يسيران في خط متعرج، ولما يعرف العلم أية وسيلة لفك أحدهما عن الآخر. إنهما يسيران على مبدأ الدبابة التي تسير فوق أي شيء أو تحت أي شيء أو تخترق أي شيء. إنهما شديدا التماسك حقاً ومنهما تتكون وحدة ميكانيكية وإن تسميا بأي اسم آخر.
وأخيراً يرى السائر في شوارع القاهرة امرأة يتراوح وزنها بين المائة كيلو والمائة والعشرين يتبعها أربعة أطفال وخادمان وكلب وزنه ثلاثة كيلو جرام، والأطفال الأربعة يبكون، هذا في طلب كعكة وهذا في طلب موز والآخر في طلب عود من القصب أو رأس من الخس أو صفقة من البندق، والأم في انشغالها بالبحث عن (فستان) جديد لا تعنى بمطالب صغارها بل تضرب هذا وتصفع ذلك وتلطم الآخر وهم لا يزدادون إلا صراخاً والكلب يجري من بينهم تحت أرجل المارة ثم يعود.
إن رأيت منظراً كهذا فأسرع بالفرار قبل أن تصيبك من الأم لطمة أو صفعة.
ع
من أدب الحرب
أجنحة النمل
ضربُ المدائنِ ويْكَ ما سبَبُهْ؟ ... عجبَ الحكيم وما انقضى عَجَبُهْ
المجد لا يُعطيه من يهبه ... كلا، ولا يعطاه مُنْتَهِبُهْ
نبتٌ تزعزع في مواطنه ... ويعيش حيث يُظلّه حَسَبُهْ
فتيانَ روما ليس ينفعكم ... مجدُ ترفع عنكمُ نسبه
شركاؤكم رفعوكمُ صَعَداً. . . ... جاهٌ معارٌ بَعْدَه صببه
(وإذا استوت للنمل أجنحة ... حتى يطير فقد دنا عطبه)
ماء (اللوار) يزيدكم سَغَباً ... لا شهده لكمُ ولا ضَرَبهُ
قد شاء (هتلر) أن يداعبكم ... فأثار ثائر جدكم لعبه
تغدو فرنسا من توابعكم. . .؟ ... هذا المزاح كثيرة شُعبه
لا، بل يجدُّ بكم ليوقعكم. . . ... أنتم، وشارد لبكم، سَلَبُه
ويزيدكم بمزاحه طمعاً ... عجباً، أينفق عندكم كذبه
الشام واليونان ملككمُ ... والنيل أيضاً بعض ما يهبه؟!
جود ولا كالجود. . . ما سببه ... لا خوفه منكم ولا رهبه!
وعجزتمُ عن نصر أنفسكم ... أيكون في أمثالكم رغبه
عودوا بخيلكمُ ورجلكمُ ... كم طامع قد ساء منقلبه
أو فاستمروا إن حلت لكمُ ... كثبان (بقبقَ) أوحلت هُضُبه
في مصر متسع لمقبرة ... للبغي إن لم ينجه هربه
عبد اللطيف النشار
من صلواتي:
هُنا محْرابُها. . .!
هُنَا مِحْرَابُهَا!. . . فَاخْشَعْ ... مَعِي لِلْحُسْنِ يَا قَلْبِي!
وَبَارِكْ سِرَّ أَلْحَانِي ... فَهذَا مَعْبَدُ الْحُبِّ
هُنَا وَكْرُ الْهَوَى!. . .كَمْ فِي ... هِ هَدْهَدْنَا أَمَانِينَا!
وَكَمْ في ظِلِّهِ يَا قَلْ ... بُ رَدَّدْنَا أَغَانِينَا
فَيَا ذَاتِي!. . . تَعَالَيْ قَبْ ... لَمَا يَقْضِي مَعِي نَحْبِي
تَعَالَيْ!. . . حُبُّنَا يَا مَهْ ... دَ أَشْوَاقي يُنَادِينَا!

سَكَبْتُ الرُّوحَ قُرْبَاناً ... عَلَى مِحْرَابِكِ الظامِي!
وَصُغْتُ الْحُبَّ أَنْغَاماً ... عَسَى تُرْضِيكِ أَنْغَامِي
فَيَا دُنْيَا تَسَابِيحِي ... فُؤَادِي مِنْكِ مَسْحُورُ
أَنَا الشَّادِي. . . تَغَنَّتْ في ... لَهَاثِي بالْهَوَى الْحُورُ
فَعِيشِي في حِمى حُبِّي ... تَرِفُّ عَلَيْكِ أَحْلامِي
وَيَرْعَاكِ الْهَوَى وَالطُّهْ ... رُ وَالإِيمَانُ وَالنُّورُ!
أَنَا الصَّادِي!. . . وَكَمْ رَفَّتْ ... أَغَارِيدِي عَلَى ثَغْرِكْ!
وَكَمْ يَا فِتْنَتِي أَغْفَتْ ... مُنَى نَفْسِي عَلَى صَدْرِكْ!
وَكَمْ ضَمَّ الدُّجى الصَّابي ... عَلَى شَوْقٍ خَيَالَيْنَا
وَطَافَ السِّحْرُ يَا تَبْعَ الْ ... هَوَى الشَّافِي حَوَالَيْنَا
فَيَا دُنْيَايَ!. . . مَاذَا لَوْ ... غَمَرْتِ الرُّوحَ فِي نَهْرِكْ
وَقُلْتِ لَها: مَعِي عِيشِي! ... وَقَرِّي بِالْهَوَى عَيْنا!
تَعَالَيْ يَا هُدَى رُوحِي! ... وَعِيشِي لِلْخُلُودِ مَعِي .. .!
تَعَالَيْ!. . . قَدْ مَضَى أَمَلِي ... لِيَحْيَا فِي دَمِي جَزَعِي . . .
وَمَا يُرْضِيكِ أَنْ تمْضِي ... حَيَاتِي فِي الْيَبَابِ سُدَى!
فَهَيَّا نَسْكُبِ الأَشوَا ... قَ فِيَ ثغْرِ الزَّمَانِ هُدَى
وَنَسْقِ الْكَوْنَ بِالأَلْحَا ... نِ حَتَّى لاَ يَكَادَ يَعِي
وَنَشْرَبْ مِنْ عُبَابِ النُّو ... رِ، قَدْ كِدْنَا نمُوتُ صَدَى!
القاهرة
محمود السيد شعبان
وحي السويس
لهفات!
لَهْفَ نَفْسِي عَلَى رِبيعي النَّضِيرِ ... أَيْنَ يَمضِي مُطَرَّزاً بِزُهُورِي
وَشَبَابي كالْفَجْرِ غَرَّدَ فِيهِ ... كُلُّ طَيْرٍ مُسْتَيْقِظٍ فِي ضَمِيرِي
وَأَنَا شَاعِرٌ أُصَلِّي لِفَنِّي ... وَفَتَاتِي فِي مَعْبَدِ التَّفكِيرِ
الغُيُومُ الْبَيْضَاءُ يَركضْنَ رَكْضاً ... فِي أَصِيلٍ مُلَوَّنٍ مَسْحُورِ
قُدْرَةُ اللهِ صَوَّرَتْهُ فَجَاشَتْ ... فِي تَهَاوِيلِهِ فُنُونُ الدُّهُورِ
إِنْ هَذَا الأَصِيلَ، وَالأُفُقَ الْحَا ... لِمَ، وَالشَّمْسَ فِي أزرقاقِ الأَثِيرِ
كالْبَسَاتِينِ فِي الفَضَاءِ أَفَادَتْ ... عُمُرَ الوَرْدِ وَانْطِفَاءَ الْعَبِيرِ
غَيْرَ أَنّي قَدَّسْتُ أَلوَانَهَا في ... وَجْهِكِ الْمُشْرِقِ الْبَهِيِّ النَّضِيرِ
فَلأَنْتِ الأَصِيلُ وَالليْلُ وَالصُّبْحُ ... وَكَوْنٌ من الرُّؤَى والعُطُورِ
عَالَمٌ أَنْتِ. . . عَالَمٌ مُسْتَقِلٌ ... يَسَعُ الْخَلْقَ فِي خَيَالِي الْكَبِيرِ
مَا انْتِشَائي بِحُسْنِ هَذِي الْمَجَالِي ... وَهْوُ بَعْضٌ مِنْ حُسْنِكِ الْمَفْطُورِ
وَابْتِعَادُ الْمَزَارِ يَقْدَحُ فِي صَدْ ... رِي لَهِيباً مِنَ الأَسَى الْمَسْعُورِ
آهِ لَوْ كُنْتِ يَا شَقِيقَة رُوحِي ... تَحْتَ جِنْحِي لاَ صُورَةً فِي ضَمِيرِي
تَتَنَاغَى تَحْتَ الْجِبَالِ وَنشْدُو ... كالْعَصَافِيرِ بَيْنَ أَيْكٍ شَجِيرِ
لِلْغُرُوبِ الذَّهِيبِ، لِلْبَحْرِ، لِلأَمْ ... وَاجِ، لِلْحُبِّ، لِلشَّبَابِ الغَرِيرِ
لِلرِّمَالِ الصَّفْرَاءِ لِلجَبَلِ الشَّا ... مِخِ لِلعُشْبِ للدُّجَى المَنْشُورِ
آهِ لوْ كُنْتِ يَا شَقيقَةَ رُوحي ... تَحْتَ جِنْحِي لا صُورَةً في ضَميري
مَالَتِ الشَّمْسُ لِلْمَغِيبِ وَأَلْقَتْ ... جِسْمَهَا الدَّامِي في الْقَنَالِ السَّحيرِ
واكْتَسَى الطَّودُ حُلَّةً مِنْ طُيُوفٍ ... غَازَلَتْهَا يَدُ الظَّلاَمِ المُغيرِ
وَسَرَى في الأَجْواءِ رُوحٌ جَلِيلٌ ... شَاعِرِيٌّ مِنْ رَهْبَةِ الدَّيْجُورِ
وزَفيفُ الْمَسَاءِ يُمْعِنُ في السَّط ... وعَلَى النُّورِ أو بَقَايَا النُّورِ
والْيَنَابِيعُ نَجَّهَا اللَّيْلُ سُوداً ... في بِطَاحِ السَّماءِ نَجَّ الغَدِيرِ
وَأَوَاذِي الظَّلام مَرْتَطِمَاتٌ ... في خِضَمّ مِنَ الدُّجَى مَسْجُورِ
خَطَرَتْ فِيهِ سُفْنُ أَيُّوسَ شَتَّى ... بَعْدَ مَا صَاغَها مِنَ الْبِلُّورِ
والسُّكُونُ الْعَمِيقُ يَبْعَثُ في نَفْ ... سِي حَنِيناً إلى الْبُكاءِ المَرِيرِ
وَأَطَلَّ الْهِلالُ يَغْسِلُ بالضُّو ... ءِ جِبَاهَ الآفاقِ حُلْوَ الْفُتُورِ
وَتَدَلَّتْ ضَفَائِرُ الشَّجَرِ الْبَا ... سِقِ في الْفَجْرِ رَاقِصَاتِ الشعُورِ

دَاعَبَتْهَا الأَنْسَامُ فِي هَدْأَةِ اللَّي ... لِ فَهَزَّتْهَا سَكْرَةُ الْمَخْمُورِ
وَانْبَرَى خَافِقِي يُنَادِي نِدَاءً ... عَالِياً فِي عُمْقِي قَوِيَّ الْهَدِيرِ
آهِ لوْ كُنْتِ يَا شَقِيقَةَ رُوحِي ... تَحْتِ جِنْحِي لاَ صُورَةً فِي ضَمِيرِي
أَنَا يَا أُخْتُ قَدْ تَعَشَّقْتُ أُمّاً ... فِيكِ تَرْعَانِي كالوَلِيدِ الصَّغِيرِ
وتَمَنَّيتُ لَوْ عَلَى صَدْرِكِ النَّا ... هِدِ أَغْفُو إلى صَبَاحِ النشُورِ
لاَ أُبَالِي بِضَجَّةِ الكَوْنِ حَوْلِي ... لاَ وَلاَ أَصْغِي لاصْطِخَابِ الْعُصورِ
فَارْفَعِينِي إلى سَمَائِكِ. . . إنِي ... فِي حَضِيضٍ مِنَ الْخَنَا وَالْفُجُورِ
واسْمَعِينِي فَإِنَّنِي سَأُغَنِّي ... لَكِ لَحْناً مِنْ أَدْمُعِي وَزَفِيرِي
آهِ لوْ كُنْتِ يا شَقيقَةَ رُوحِي ... تَحْتَ جِنْحِي لا صُورَةً في ضَمِيرِي
عبد الرحمن الخميسي
رسَالة العِلم
من أمراء العلم
ماكسويل
للأستاذ قدري حافظ طوقان
أليس عجيباً أن يستنبط العالم بعض النظريات عن طريق الأرقام والمعادلات الرياضية؟ أليس مدهشاً أن تتنبأ المعادلات عن بعض الأجرام السماوية قبل أن يراها الفلكيون بالرصد؟
لقد رأى فراداي بعين البصيرة النافذة أن هناك صلة بين الضوء والاهتزازات الكهربائية المغناطيسية في الأثير، ولكنه لم يثبت ذلك عملياً. وجاء ماكسويل وأتى بالعجب العجاب، إذ لجأ إلى الرياضيات في حل هذه المعضلة: هل هناك صلة بين الضوء والاهتزازات الكهربائية المغناطيسية؟
وكانت محاولة، ولكنها موفقة، وانتصار عظيم للعلوم الطبيعية والرياضية. فلقد ابتدع معادلات أثبت بها أن في الفضاء اضطرابات كهربائية مغناطيسية تتصف بصفات الضوء، أي أن الاضطرابات الناشئة من شرارة كهربائية تبدو في مظهر أمواج في الأثير لا نراها، ولكنها كالأمواج التي تحدث الضوء والحرارة، وتسير جميعها بسرعة الضوء وقدرها 186000 ميل في الثانية! فهو بذلك قد وضع أساس الفنون اللاسلكية التي نراها متغلغلة في العمران ومنتشرة في كل مكان.
كانت معادلات ماكسويل من أعظم الأعمال العلمية التي قام بها عالم، فقد رفعته إلى مصاف العلماء العالميين الذين أدوا للحضارة أجل الخدمات التي قامت عليها الاختراعات العديدة والاكتشافات المختلفة التي تفرعت عن بحوث اللاسلكي.
رأى بعض العلماء أن هناك اضطراباً في فلك أورانوس، وقالوا بوجود قوة تقصيه عن الطريق التي تحددها الحسابات والأرصاد، وأن هذه القوة ليست إلا نتيجة لجذب كوكب غير معروف. وقام الفلكيان (أدمس) الإنكليزي و (الفريه) الفرنسي حوالي منتصف القرن
التاسع عشر للميلاد، بالبحث في هذه المسألة فاستطاعا بقوانين الجاذبية والمعادلات الرياضية وحساباتها المعقدة أن يعينا مكان السيار المجهول وأن يحددا موقعه والطريق التي يسير عليها حول الشمس. وقد وجه الفلكيون فيما بعد مراقبهم إلى مكان السيار الجديد (نبتون) فوجدوه في الموضع الذي تنبأت عنه رياضيات أدمس والفريه.
وكذلك تنبأ العلماء عن طريق المعادلات والأرقام عن موقع سيار تاسع جديد أطلقوا عليه اسم (بلوتو
كانت هذه الحوادث واكتشاف الأمواج اللاسلكية من أجل الأعمال التي أقامت الدليل على صحة القوانين الطبيعية والمعادلات الرياضية، وهي من العوامل التي زادت ثقة العلماء بأنفسهم وبمقدرتهم على اكتناه أسرار الكون وروائع الوجود، كما كانت أيضاً من العوامل التي دفعت بالعلوم الطبيعية والرياضية والفلكية خطوات واسعة إلى التقدم والابتكار.
انحدر ماكسويل من عائلة عريقة في سكوتلاندة، وولد في ادنبرغ عام 1831 وتعلم في جامعتها وفي جامعة كمبردج ونال الجوائز التي لا تمنح إلا للمتفوقين. شغل مركز أستاذ في الفلسفة في مدة أربع سنوات، وكذلك أستاذ في الطبيعة والفلك في كلية

الملك التابعة لجامعة لندن مدة ثماني سنوات (1860 - 1868) ثم اعتزل التعليم.
وفي سنة (1871) تعين أستاذاً للعلوم الطبيعية التجريبية في جامعة كمبردج، وتحت رعايته نشأ معمل كافندش الشهير بنتائج بحوثه وروائع تجاربه. وتوفى في كمبردج عام (1879) أي أنه مات وعمره (49) سنة. وعلى الرغم من هذا العمر القصير، فقد وصل إلى أعلى المراكز العلمية التي يطمح إليها رجال العلم، وكان له مقام خطير بين علماء الفلسفة الطبيعية.
لقد تفتحت مداركه ومواهبه حينما كان في الخامسة عشرة من العمر فنشر رسائل علمية قيمة منها رسالة تبحث في طريقة ميكانيكية لرسم الأشكال الديكارتية البيضوية، وقد قرأها عنه الأستاذ فوربس في جمعية أدنبرغ الملكية.
وفي سن الثانية والعشرين نشر في مجلة هذه الجمعية رسالتين نفيستين تبحث إحداهما في توازن الأجسام المرنة، ويعترف العلماء بأن هذا البحث هو من الموضوعات الهامة التي تناولها ماكسويل، وكان الأساس الذي بنى عليه ابتكاراته فيما بعد.
واعترف معاصروه بفضله وعبقريته فمنحوه جائزة أدمس من كمبردج وذلك على أثر نشر
رسالة مبتكرة في حلقات زحل، فقد بين فيها أنها ليست مناطق جامدة أو سائلة وأنها مؤلفة من نيزكان. وكذلك منح جائزة رومفرد من الجمعية الملكية لبحوثه وتجاربه في اللون والألوان الأساسية في الطبيعة. وعنى بنظرية الغازات وحركاتها، وكانت من أهم البحوث التي طرقها، وظهر فيها كعالم جمع بين التجربة والرياضة فقد قدم سنة (1860) إلى مجمع تقدم العلوم البريطاني موضوعاً يتعلق بنظرية (برنوي) القائلة بأن الغازات مؤلفة من دقائق عديدة متحركة في حالة تصادم شديد، فأثبت في هذا الموضوع أن السنتمتر المكعب من الهواء (على درجة عادية) يحدث فيه (8000) مليون اصطدام بين دقائقه. وكذلك كشف قانون توزيع السرعات في ذرات الغازات ويعرف هذا القانون بقانون (ماكسويل).
وألف كتاباً نفيساً في نظرية الحرارة ورسالة قيمة في المادة والحركة واشتهر بتبسيطه بعض البحوث الطبيعية، تشهد بذلك محاضراته التي كان يلقيها أحياناً في مجمع تقدم العلوم البريطاني في (الجزئيات) و (المادة والحركة) و (التلفون) وبحوث أخرى في الغازات ولزوجتها.
درس الرياضيات وجال فيها وغاص في أرقامها ومعادلاتها فرسخت قدمه فيها رسوخاً مكنه من تسخيرها لميادين الطبيعة، وفي ذلك كشف أعظم مكتشفاته، وبلغ درجة جعلته من المقدمين في تاريخ تقدم الاختراع والاكتشاف. لقد فسر (ماكسويل) بحوث فراداي في خطوط القوة رياضياً، وكان من ذلك أن مكّن العلماء فيما بعد من توسيع نطاق هذه البحوث وتطبيقها في ميادين الاختراع.
رأى في انتظام برادة الحديد خطوطاً في أشكال معينة عند نشرها على ورقة تحتها مغناطيس، دليلاً على وجود قوة مغناطيسية وأن خطوط هذه القوة هي شيء حقيقي أكثر من مجرد تفاعل بين قوتين، ويقول: (. . . ولا يسعنا إلا الظن بأنه حيث توجد هذه الخطوط لا بد من وجود حالة طبيعية أو فعل طبيعي على جانب كاف من الطاقة لإحداث ظاهرة انتظام برادة الحديد. . .) وفوق ذلك فرض ماكسويل أن للتيارات الكهربائية وجوداً مستقلاً في الفضاء والمواد المعزولة، وقد أسند إلى هذه التيارات الخواص التي تسند إلى التيارات الكهربائية التي تجري في دورات كهربائية مقفلة، وعلى ذلك فمن شأن هذه التيارات إحداث حقل مغناطيسي وتيارات بالتأثير بالإفاضة إلى حقلها الكهربائي. . .
وضع هذه الفروض أساساً وسخر الأساليب الرياضية، فإذا هو يستنتج وجود الأمواج الكهرطيسية وخرج بالقول إنه (. . . إذا تغيرت قوة (الحقل الكهربائي) تغيراً دورياً في السعة والاتجاه كان لا بد من حدوث موجة كهربائية. . .) وأوضح أنه إذا طبق هذا الأسلوب على الحقل المغناطيسي أمكن إحداث أمواج مغناطيسية، وقال: (إن الموجة الكهربائية يصحبها موجة مغناطيسية، والمغناطيسية يصحبها موجة كهربائية وأن الواحدة لا تحدث إلا والثانية معها، وأثبت أن قوة الحقل الكهربائي عمودية على قوة الحقل المغناطيسي، وأن كلا منهما عمودي على اتجاه التيار. . .) وظهر له أيضاً أن

هذه الأمواج مستعرضة تشبه أمواج الضوء وأنها تسير بسرعة الضوء.
ولا يخفى أن هذا الاستنتاج ذو أهمية عظمى وكان له شأن كبير في تقدم اللاسلكي، وقد حمله على القول بأن الضوء قد يكون نوعاً من أنواع الطاقة الكهرطيسية لولا بحوث ماكسويل ومعادلاته لما تقدمت المخاطبات اللاسلكية تقدمها الحاضر، ولما كان في إمكان العلماء أن يملئوا الأجواء بعجيج الأمواج اللاسلكية وقد حملت على أجنحتها الأنباء والأخبار والصور.
إن ماكسويل من الذين وضعوا الأسس التي يقوم عليها الاختراع في هذا العصر، ومن الذين أنعم الله عليهم بقوى خارقة عملت على ترقية الفكر العلمي وكشفت عن أسرار الطبيعة وغرائبها وأخضعت قواها لمطالب الإنسان، فهو من مفاخر الإنسانية ومن كبار العلماء المقدمين الذين تركوا آثاراً خالدة ومآثر جليلة في ميادين العلوم الطبيعية والرياضية. إن ماكسويل وأضرابه من المستنبطين من أغلى الممتلكات التي تملكها الأمة ويقول هوفر: (. . . إن كل مبلغ من المال مهما يعظم ضئيل إزاء عمل هؤلاء الرجال الذين يملكون قوة الإبداع والتفاني والمثابرة على ترقية الفكر العلمي خطوة خطوة حتى يصلوا به إلى البيوت فينشروا فيها أسباب الصحة والراحة والرفاهة. إننا لا نستطيع أن نقيس ما عملوه لترقية العمران بكل أرباح البنوك في جميع أنحاء المعمورة)

(نابلس)

قدري حافظ طوقان

البَريدُ الأدبيّ

حول مسابقة الجامعة المصرية

1 - كنت دعوت طلبة السنة التوجيهية إلى الإجابة عن طوائف من الأسئلة وأنا أوجههم إلى درس كتاب (وحي الرسالة) فأجاب الأديب فوزي مختار منصور الطالب بالمدرسة الخديوية إجابة تدل على فهم وذوق، وإن كان انحرف قليلاً عما رميت إليه من النص على الغلطتين المطبعيتين.
وأنص على الغلطة الأولى فأقول: جاء في كلام الزيات (كان جمال المرأة (داعي) الرغبة خافض الجناح)؛ والغلطة في (داعي) وصوابها (وادع) كما يشهد السّياق. وقد يقول الزيات إنها من القلب المكاني، فما هو القلب المكاني يا تلاميذ السنة التوجيهية؟ أما الغلطة الثانية، ففيها شبهة نحوية، فما تلك الشبهة يا صديقنا العزيز بمدرسة الخديو إسماعيل؟

2 - كنت وجهت إلى الطلبة سؤالاً وأنا أدرس كتاب حافظ عفيفي باشا عن (الإنجليز في بلادهم)، والسؤال خاص بالفيلسوف الفرنسي صاحب العقد الاجتماعي، وقد ظهر أن حافظ عفيفي أخطأ حين قرر أن كتاب روسو شغل عند ظهوره مفكرَين إنجليزيين هما هوبس ولوك. أما وجه الخطأ، فيرجع إلى أن روسُّو لم يكن مفكراً معروفاً إلا بعد ظهور هوبس ولوك بعشرات السنين، فمن المستحيل عقلاً أن يكون كتابه أثَّر في هذين المفكرين.
وإلى الأستاذ شفيق غربال أقدم واجب الثناء.

3 - قال قومٌ: إني بهذه الدراسات عطلت الغرض المقصود من مسابقة الجامعة المصرية، وأجيب بأن هذا المذهب في توجيه الطلبة مألوف في الجامعات، ولا سيما جامعة باريس، وقد أديت امتحاناً من هذا الطراز في أروقة السوربون، فلم أر توجيه الأساتذة ينفع غير الطلبة النجباء.

4 - وقال آخرون: إني غيرت مذهبي في النقد الصريح، وأجيب بأن المقام لا يسمح بغير ما صنعت، لأني وقفت موقف المدرس، وقديما قيل: لكل مقامٍ مقال.
وأنا مع ذلك قلت كل شيء بأسلوب ينفع الطلبة ولا يؤذي المؤلفين.

5 - واعترض أحد الباحثين بأني لم أشر إلى الناشرين، وهو اعتراض وجيه، وأقرر أن ناشر كتاب (فيض الخاطر) هو لجنة الترجمة والتأليف والنشر، وناشر (وحي الرسالة) هو إدارة مجلة (الرسالة)، وناشر (الإنجليز في بلادهم) هو مكتبة النهضة المصرية، وناشر كتاب (التاريخ المصري) هو صاحب (البلاغ)، وناشر (المنتخبات) هو مكتبة الأنجلو المصرية.
وفي الأبحاث الآتية سأنص على أسماء الناشرين، بدون منّ عليهم، لأنهم أصدق أعوان

المؤلفين، والله الموفق.
زكي مبارك
سكان المريخ في الشعر العربي القديم
لم يكتف الشاعر أبو العتاهية بالنص على أن في المريخ سكاناً بل هو يصف سكان هذا الكوكب باصفرار الشعر واحمرار الوجوه وزرقة العيون.
قال في وصف والبة الشاعر:
وكأن وجهك حُمْرة رئةٌ ... وكأن رأسك طائر أصفر
فعرفنا من ذلك أنه أحمر الوجه أصفر الشعر
وفي قصيدة أخرى يقول في وصف والبة:
أراك ولدت بالمريخ ... يا ابن سبائك الذهب
فجئت أقيشر الخدين ... أزرق عارم الذنب
ولقد نقر أبا العتاهية على أن هذه المجموعة من الألوان تصف أهل المريخ لأنها صفات الجنس النوردي وهم فيما يقول الألمان أرقى البشر، وسكان المريخ مفروض فيهم أنهم أرقى من سكان الأرض.
ولكن بقيت مسألة أخرى هي عرامة الذنب. فإن صح أن سكان المريخ من ذوي الأذناب العارمة كما يقول أبو العتاهية فإن الجنس الذي يحارب الألمان من أجل سيادته من ذوي الأذناب العارمة كذلك. . . أم ليس ذلك كذلك؟
النشار
حكايات من الهند
لصديقنا الأستاذ عبده حسن الزيات ملكة أصيلة في القانون وقريحة بصيرة في الأدب؛ تجلت هذه وتلك فيم بحث من مسائل الفقه والاجتماع، وفيما ترجم من عيون الروايات والقصص. واختياره لما يترجم كاختياره لما يكتب موسوم بطابع الجد والجمال والفائدة. وآخر ما أخرجه إلى قراء العربية (حكايات من الهند) وهي أمثال حكمية كتبها بالإنجليزية الكاتب الهندي (إيار) وأودعها الخلاصة الخالصة لفلسفة الهند وتصوفها وآدابها وأخلاقها وعاداتها؛ ثم جلاها في معرض أخاذ من البلاغة العالية والفن المحكم، فجاءت (بعيدة المغزى على قرب منالها، عميقة القاع على هدوء سطحها، قوية الإيحاء على بساطة مظهرها)ـ ثم ترجمها الأستاذ (عبده الزيات) ترجمة أمينة رصينة جلتها على الوضع الأصيل من سلاسة الأسلوب وسلامة الإيجاز ودقة الأداءـ وترجمة هذا النحو من الأمثال القصيرة أشق على المترجم وأدل على براعته، لأنها لقصرها تكره الفضول، ولإيجازها تخشى الغموض، ولبساطتها تنكر التكلف. فإذا لم يتح الله لها قلماً كقلم الأستاذ الزيات رصيناً بطبعه بليغاً بفنه، ذهب الجمال المستسر فيها، وبعدت الغاية المقصودة منها. والكتاب بعد ذلك أنيق الوضع والطبع؛ فنشكر للأستاذ الزيات هذا الجهد النافع. وننصح لقرائنا ألا يفوتهم الأنس بهذه الأقاصيص، فإن في معاريضها متعة وفي مغازيها عبرة.
وفاة الأستاذ محمد مسعود بك
في يوم الاثنين الماضي استأثر الله بالأديب البارع والعالم المحقق والمترجم الصادق الأستاذ محمد مسعود بك عن 69 عاماً أنفقها في رياضة القلم وخدمة الثقافة وتصحيح المعرفةـ ففي شبابه حرر (المؤيد) ثم أصدر (المنبر)؛ وفي كهولته ولي إدارة المطبوعات فوجه الصحافة والنشر التوجيه الصالح في الطريق البالغ. وفي شيخوخته عكف على البحوث التاريخية والجغرافية واللغوية، فنشر منها في الصحف الطريف الممتع. وكان في غضون عمره المبارك لا يفتر عن التأليف والتحرير والترجمة حتى ترك للمكتبة العربية ثروة قيمة لا ينقصها إلا الجمع والترتيب والنشر. رحمه الله رحمة واسعة، وعوض اللغة والأدب منه خير العوض.
موسى عليه السلام
نقل الأستاذ (شيبوب) عن العلامة (فرويد) أن موسى كان مصرياً لا عبرياً، وأيد رأيه بأن كلمة (موسى) مصرية بمعنى عبد، وفي العدد 387 من الرسالة سأل الأستاذ عبد المتعال الصعيدي عن موسى عليه السلام أمصري هو أم عبري، وذكر ما قرأه في بعض الكتب القديمة من أن كلمة (موسى) سريانية مركبة من كلمتين (مو - شا) و (مو) بمعنى ماء، و (شا) بمعنى شجر، فهي بمعنى ماء وشجر، لأنه وجد بين ماء

وشجر.
وأنكر الأستاذ محمد صابر أن كلمة (موسى) مصرية وأنها بمعنى عبد، ولكنه لم يذكر رأيه في أصلها.
والحقيقة أن كلمة (موسى) هي اسم مفعول من الفعل (مَشَاهْ) بمعنى انتشل بالعبرية؛ والتوراة تنص على ذلك، ففي سفر الخروج - الإصحاح الثاني ص89 (10) (ودعت اسمه موسى وقالت: إني انتشلته من الماء) (فتقراه شمو موشى فتومركي من هاميم مشيتيهو) فموشى بمعنى المنتَشل في العبرية.
وأما أصله فعبري أيضاً يدل على ذلك ما جاء في العهد القديم في سفر الخروج - الإصحاح الثاني (6) (ولما فتحته رأت الولد وإذا هو صبي يبكي، فرقت له وقالت: هذا من أولاد العبرانيين)
وفي القرآن الكريم (. . . فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه، فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه). وفي سفر الخروج نجد (11) (فرأى رجلاً مصرياً يضرب رجلاً عبرانياً من اخوته).
كل هذا يقطع بأن (موسى) عليه السلام عبري أصلاً واسماً.
محمود السيد أبو السعود
مجلة الحديث تصدر عدداً خاصاً عن الدكتور أدهم
من شهرين ونصف تقريباً أعلن الأستاذ إبراهيم أدهم شقيق الدكتور إسماعيل أدهم بمجلة الرسالة عن صدور عدد خاص بالفقيد من مجلة الحديث وفاء منها لأحد كبار كتابها الذين خدموا الأدب العربي الحديث بتلقيحه بثمار الفكر الأوربي ونتاج البحث الاستشراقي. وقد دعاني الأستاذ إبراهيم للاشتراك في تحرير هذا العدد كما دعا هو والأستاذ سامي الكيالي -
صاحب (الحديث) - الكثيرين من كبار الأدباء والمفكرين في الشرق العربي للمساهمة في ذلك العمل النبيل. وكان المنتظر أن يكون أول المجيبين لتلك الدعوة الأدباء الذين قدّم لهم الفقيد الخدمات الأدبية الخالدة. وهل ينتظر فناننا المصري توفيق الحكيم من يكتب عنه أمثال تلك الدراسة التي كتبها عنه الدكتور أدهم وصدر بها عدد خاص من مجلة الحديث، تلك الدراسة التي لم تخدمه فقط بل خدمت القصة المصرية جمعاء لعرض تاريخ كتابها كمقدمة للكتابة عن الفنان الحائر توفيق الحكيم. ولا يسعني أيضاً إلا أن أعجب من موقف الدكتور طه حسين الذي لم تلفته وفاة الدكتور أدهم لكتابة كلمة وفاء لذكراه التي إن لم تكن خالدة بالنسبة لما قدمه لأدبنا فهي خالدة لما قدمه من دراسة وافية عن الدكتور. وليسمح لي الأستاذ الكبير الزيات بأن أعرض عرضاً سريعاً لمواد ذلك العدد من الحديث. ومجلة الحديث قبل كل شيء مجلة تخدم الفكر الحر وتعمل في نهضة أدبنا الحديث بجد وإخلاص، إلا أن ظروف الحرب قد اضطرتها كما اضطرت غيرها من زميلاتها في الشرق العربي إلى أن تنقص من كمِّها بدون أن يؤثر ذلك على كيفها. وقد ظهر ذلك في العدد الخاص بالدكتور أدهم لمن يعرف الحديث قبل ذلك، وزين العدد بصورة للفقيد وقت تخرجه من جامعة موسكو، كما صدر العدد بكلمات قصيرة لبعض كتاب العربية من أمثال المرحوم الرافعي والأستاذ الزيات والأستاذ سلامة موسى والدكتور أبي شادي. وتأتي بعد ذلك كلمة وافية لمحرر المجلة الأستاذ سامي الكيالي تتبع فيها الفقيد في جميع أدوار حياته كما كتب الأستاذ صديق شيبوب عن ذكرياته مع الدكتور أدهم. وأودع صديق الفقيد الشاعر حسن كامل الصيرفي عصارة قلبه المكلوم قصيدة من أروع شعره الرمزي الطليق الخيال. وقد تناول الأستاذ محمد عبد الغني حسن أسلوب أدهم بالتتبع والنقد. وثم كلمة أخرى للأستاذ السحرتي المحامي. وعداها لا توجد كلمات أخرى لكاتب مصري غير كلمتي عن (أثر الرياضيات في حياة أدهم الفكرية والعملية) لا العلمية كما وقع خطأ في المجلة. وما كنا ننتظر ذلك من أدباء مصر ولا كانت تنتظره مجلة الحديث فقد كاتبني الأستاذ سامي الكيالي متأسفاً (لتقاعسهم) عن أداء الواجب عليهم.
وقد ختم العدد بمقال لشقيق الفقيد تحت عنوان (مع أخي في فترات حياته).
وغير هذه المقالات التي نشرت مقالات أخرى ضاق العدد عن نشرها فاضطر المحرر

لتأخيرها إلى الأعداد التالية من الحديث.
(دمنهور)
عبد الحفيظ نصار
القَصَصُ
أو الزاهد (سانياسي)
مسرحية رمزية رائعة لشاعر الهند طاغور
ترجمة الأستاذ فخري شهاب السعيدي
- 1 -
(خارج الكهف (سانياسي))
- إني لا أميز بين النُّهُر والليالي، ولا أعرف فارقاً بين الأشهر والسنين، لأن تيار الزمن الذي يتراقص العالم على متن أمواجه تراقص العُصَافةِ والعساليج ساكن لدي. إني في هذا الكهف المظلم وحيد، مغمور في نفسي؛ والليل الأبديّ ساجٍ كبحيرة في جبل خائفة من عمق ذاتها؛ والماء يرشح ويَنْقُطُ من الشقوق، والضفادع القديمة سابحة في البُركِ. فأجلس مترنماً بترانيم العَدم؛ وحدود الكون تتناءى خطّاً إثر خط. أما النجوم فإنها تنطفئ انطفاءَ الشرر المتطاير من سندان الزمن؛ وأما سروري فهو سرورُ الإله (شيفا) الذي يستيقظ بعد دهور يقضّيها في حلمه فيجد نفسه وحيداً في قلب الفناء الذي لا حَدّ له. إني حرّ طليق. إني أنا هو الأحد الصمد العظيم. إني إذ كنتُ عبدَكِ يا أيتها الطبيعة: سَلّطْتِ قلبي على ذاته، وجعلتِهِ يثير حرب الانتحار الشعواءَ في عالمه. وقد أثارتْ فيّ سَورْة الغضب تلك الشهوات التي لا غاية لها غير نهش ذاتها والتهام كل ما يقترب من أفواهها، فركضْتُ ركضَ المجانين في مطاردة ظلي. لقد سقتِني بأسواط ملذاتكِ الخاطفةِ إلى خلاء الشبع، ومشاعر الجوع، وقادَتني دوماً مغرياتُكِ إلى القحط الذي لا انتهاء له حيث انقلب الطعام إلى تراب واستحال الشراب إلى بخار! وإلى الوقت الذي كان فيه عالمي مُبقعاً بالدموع والرماد أقسمتُ بالانتقام منك يا أيتها السيدة التي لا حَدَّ لمظهرها وتنكّرها. لقد لذْتُ بالظلام، معقل اللامتناهى، وكافحتُ النور الخادع يوماً فيوماً إلى أن فقد جميع سلاحه وارتمى منخذلاً عند قدمي. والآن، وأنا منعتق من رق الخوف والشهوات؛ الآن، وقد زال الغمام وانبعث من عاقلتي نور الطهارة والذكاء. فَلأخرج
إلى عالم الأكاذيب ولأجلس على قلبه غير ملموس وبلا حراك.
- 2 -
(على الطريق (سانياسي))
- ما أصغر هذه الأرض وما أضيقها، وما أشد هذه الآفاق ثباتاً في تطويقها! إن مرأى الشجرِ والدور وجميع الأشياء ليضغط على عيني ضغطاً. والنور! إنه مثل قفص في حبسه ظلام الأبدية عن الدخول. والساعات! إنها لتصرخ وتتواثب داخل حواجزها كأنها الطيور إذ تُحبس. ولكن ما لهؤلاء الرجال الصاخبين ينطلقون راكضين ولأي مقصد يِسعون؟ لكأنهم خائفون من أن يضيعوا شيئاً لا تستطيع أيديهم بلوغه!
(تمر زحمة من الناس)
(يدخل شيخ القرية وامرأتان)
المرأة الأولى: يا لله إنك لتضحكني
المرأة الثانية: ولكن من قال إنك عجوز؟
شيخ القرية: إن بعض الحمقى يحكمون على الناس من مظاهرهم.
المرأة الأولى: وا حسرتاه! لقد كنا نرقب مظهرك منذ عهد حداثتنا، وهو باق على ما عهدناه لم يتغير في خلال هذه السنين
شيخ القرية: مثل شمس الضحى
المرأة الأولى: أجل مثل الشمس في رائعة النهار
شيخ القرية: أيتها السيدتان، إن في ذوقكما ميلاً إلى الصرامة في النقد، إنكما تعنيان بتوافه الأمور
المرأة الثانية: دعك من هذا اللغو يا (أناكا) ولنسرع في العودة إلى البيت وإلا ثار ثائر زوجي
المرأة الأولى: أستودعك الله يا سيدي. وأرجو أن تحكم علينا من ظواهرنا فلن نعير

ذلك اهتماماً
شيخ القرية: ذلك لأنه لا ذات حقيقية لكما يمكن التحدث عنها غير هذا الظاهر!
(يخرجون)
(يدخل ثلاثة قرويون)
القروي الأول: أيشتمني الوغد؟ لَيقْرعنّ سنّ الندم إذا
القروي الثاني: يجب أن يلقن الدرس بليغاً
القروي الأول: الدرس الذي سيتبعه إلى الرمس
القروي الثالث: أجل يا أخي، فلا تنثن عزيمتك ولا تترك له الفرصة السانحة
القروي الثاني: لقد أخذه الغرور والتعاظم
القروي الأول: تعاظم ينتهي به إلى الانفجار
القروي الثالث: إذا نجحت أجنحة النمل كان في ذلك هلاكه
القروي الثاني: وهل أحكمتم لأنفسكم منهاجاً؟
القروي الأول: لا منهجاً واحداً فحسب، بل مئات المناهج سأقلب عالي بيته سافله بمحراثي، وسأطوفه على حمار في المدينة مشهراً به صابغاً وجهه بالصباغ الأبيض والأسود، وسأثير غضب العالم كله عليه و. . .
(ينصرفون)
(يدخل تلميذان)
التلميذ الأول: إني واثق بأن الغلبة في المناظرة إنما كانت للأستاذ (مدهب)
التلميذ الثاني: كلا، بل الأستاذ (جاناردان) هو الذي فاز
الأول: لقد ثبت الأستاذ مدهب على رأيه حتى النهاية وقال بأن الرقة بنت الخشونة
الثاني: ولكن الأستاذ جاناردان قد أتى بالبرهان القاطع على أن الرقة هي أصل الخشونة
الأول: يستحيل ذلك
الثاني: بل هذا أمر واضح كالنهار
الأول: إنما أصل البذور الشجرة
الثاني: بل البذرة هي أصل الشجرة
الأول: ما قولك يا سانياسي؟ أي هذا هو الحق؟ أي هذين الأصل: الرقة أم الخشونة؟
سانياسي: لا هذه ولا تلك
الثاني: لا هذه ولا تلك؟ إن في هذا الكفاية
سانياسي: ما الأصل إلا النهاية، وما النهاية غير الأصل. إنها حلقة، وإن من جهلكما ينشأ الخلاف بين الرقة والخشونة.
الأول: الأمر واضح جداً. وما أرى في هذا غير قول أستاذي
الثاني: بل إن هذا لينطبق على تعاليم أستاذي أنا بغير شك
(ينصرفان)
سانياسي: هذه الطيور لواقط كلم، وما سعادتها إلا بالتقاط اللغو الملتوي الذي تملأ به أفواهها.
(تدخل بائعتا زهر)
تغنيان: (تمر الساعات بطيئة؛
وتذوى الأزهار المتفتحة في النور
فتسقط في الظل
وقد خيل إلي أنني سأضفر إكليلاً
في سجسج الصباح لمحبوبي؛
ولكن الصبح يجر ذيوله متثاقلاً،
والزهر على غصونه لا يجد قاطفاً،
لأن حبيب النفس مفقود. . .)
أحد السابلة: ولم هذا الأسف يا عزيزتي؟ إذا ما تهيأت الأكاليل فالأعناق حينئذ متيسرة
إحدى الفتاتين: وكذلك الأرسان!
الفتاة الثانية: إنك لشجاع مالك دنوت مني هذا الدنو؟!
الرجل: يا فتاتي، شجارك هذا لغير ما داع، فبيني وبينك ما يتسع لمرور فيل.

الفتاة الثانية: أفي الحق هذا؟ أمخوفة أنا بهذا القدر؟ إني ما كنت لآكلكَ لو أنك دنوت مني
(يخرجون ضاحكين)
(يجيء سائل)
السائل: أيها السادة الرحماء، اعطفوا، فلعل الله أن يكتب لكم التوفيق. أعطوني يسيراً من خيركم الوفير.
(يجيء جندي)
الجندي: هيا ابتعد من هنا، أما ترى ابن الوزير قادماً؟
(يخرجان)
سانياسي: هذه ظاهرة النهار. إن الشمس لتستطع وتتوهج، والسماء كأنها طاس من النحاس منكفئة تتقد، وهذه الأرض تزفر بأنفاس حرار فتتراقص الرمال المائجة. كم من مشاهد هذا الإنسان رأيت فهل في استطاعتي أن أتراجع ثانية في صغر هذه المخلوقات لأكون منها؟ كلا، بل أنا طليق لا يعوقني في هذا الكون شيء. إني إنما أعيش في قفر موحش!
(تدخل (فاسنتي) الفتاة وامرأة)
المرأة: ألست ابنة (رافو) يا فتاة؟ عليك أن تبتعدي عن هذه الطريق، ألا تعلمين بأنها مؤدية إلى الهيكل؟
فاسنتي: إني يا سيدتي على الطوار الأبعد منها
المرأة: حسبت أن قد مسك ثوبي. إني حاملة هداياي إلى الآلهة، وأرجو ألا تكون نجِّست
فاسنتي: أؤكد لك أن ثوبك لم يمسسني (تذهب المرأة) إني (فاسنتي) ابنة (رافوا) فهل أدنو منك يا أبت؟
سانياسي: ولم لا يا طفلتي؟
فاسنتي: لأني رجس كما يدعونني؟
سانياسي: ولكنهم جميعاً دنسون. إنهم يتمرغون في تراب الوجود؛ وليس من نقيّ غير من نقَّى ذهنه من هذا الكون، ولكن ماذا بدر منك يا ابنتي؟
فاسنتي - لقد استهزأ أبي الذي اخترمته المنون بقوانينهم وآلهتهم، ولم يكن يقيم شعائرهم
سانياسي - مالك تقفين بعيدة عني؟
فاسنتي - وهل سَتَمُسُّني؟
سانياسي - نعم، لأني لا يمسني في حقيقة الأمر شيء. إني موغل في اللانهاية، إذا شئت أن تجلسي هنا فافعلي.
فاسنتي - (متحسرة) لا تأمرني بمغادرتك إذا ما قربتني مرة منك
سانياسي - كَفْكِفي عبراتك يا طفلة، إني أنا سانياسي الذي ليس ينفذ في قلبه شيء من ضغينة ولا هوى، وإذا لم تكوني لي فليس بوسعي أن أطردكِ. إن مَثَلَكِ إذا قيس بي كان كمثل هذه السماء الزرقاء. إني أراك كائنة وغير كائنة - أنت - في نظري
فاسنتي - أبتاه، إني منبوذة من الآلهة والناس على حد سواء
سانياسي - وكذلك أنا، لقد نبذتُ الآلهة والناس
فاسنتي - أليس لكَ أم؟
سانياسي - كلا
فاسنتي - ولا عندك أب؟
سانياسي - كلا
فاسنتي - ولا اصطفيْتَ خِلاًّ؟
سانياسي - كلا
فاسنتي - فسأكون معك إذاً. أفلا تغادرني؟
سانياسي - لقد استغنيتُ عن الفراق. في إمكانِكِ أن تظلي بجانبي ومع ذلك فأنت بعيدة عني!
فاسنتي - إني لا أفهمك يا أبتِ! خبرني أليس ثمة ملجأ لي في هذه الدنيا كلها؟

سانياسي - أتريدين ملجأ؟ ألم يبلغْكِ أن هذا العالم هوّة سحيقة لا تنتهي إلى قرار؟ هذه جماهير الخلق خارجة من حفرة اللاشيء في البحث عن ملجأ لها، فإذا هي تدخل في هذا الخواء الفاغر فاه وتضلّ فيه! وتلك هي أخيلة الأكاذيب ملتفةً من حولكِ تقيم سوق أوهامها؛ وما الأطعمة التي تبيعها سوى الظلال! وإنها بذلك لتخدع جوعَكِ ولكنها لا تُشبِعُكِ، فاخرجي من هنا يا ولدي، اخرجي

فاسنتي - ولكني أراها في هذا العالم سعيدة يا أبتاه! أفلا نستطيع أن ننتبذ من هذه الطريق مكاناً نرقبها منه؟

سانياسي - إن هذه الجماهير لا تعي شيئاً ويا للأسف. إن بصائرها لا تدرك أن هذا الكون إنما هو الموت الأبدي الذي لا انتهاء له؛ إنه ليموت في كل لحظة ومع ذلك فلن ينتهي إلى الغاية. وأما نحن مخلوقات هذا العالم فإنما نحيا وقوام قوَّتنا هذا الموت.

فاسنتي - إنك لتملأ نفسي رعباً يا أبتاه!

(يدخل مسافر)

المسافر - هل أستطيع أن أتخذ لي ملجأ بالقرب من هذا المكان؟

سانياسي - يا بني ليس ثمة ملجأ إلا في أعماق نفس الإنسان. فابحث عن هذا وتمسك به إن أردت نجاة

المسافر: ولكني متعب وفي حاجة إلى ملجأ ما

فاسنتي: إن كوخي على مقربة من هذا المكان فهل تجيء معي؟

المسافر: ولكن من عسيت أن تكوني؟

فاسنتي: وهل لا بد لك من معرفتي؟ إنني ابنة رافو

المسافر: بارك الله عليك يا طفلتي؛ غير أني لا أستطيع بقاء

(ينصرف)

(البقية في العدد القادم)

فخري شهاب السعيدي

ï» ؟ Error
©ظپططµظٹظ‌طط¯ ط®ط·ط ظپظ‰ ط¹ط±ط¶ ظ‡ط°ظ‡ ظطظ„ط
ï» ؟ Error
©ظپططµظٹظ‌طط¯ ط®ط·ط ظپظ‰ ط¹ط±ط¶ ظ‡ط°ظ‡ ظطظ„ط
ï» ؟ Error
©ظپططµظٹظ‌طط¯ ط®ط·ط ظپظ‰ ط¹ط±ط¶ ظ‡ط°ظ‡ ظطظ„ط
ï» ؟ Error
©ظپططµظٹظ‌طط¯ ط®ط·ط ظپظ‰ ط¹ط±ط¶ ظ‡ط°ظ‡ ظطظ„ط
ï» ؟ Error
©ظپططµظٹظ‌طط¯ ط®ط·ط ظپظ‰ ط¹ط±ط¶ ظ‡ط°ظ‡ ظطظ„ط
ï» ؟ Error
©ظپططµظٹظ‌طط¯ ط®ط·ط ظپظ‰ ط¹ط±ط¶ ظ‡ط°ظ‡ ظطظ„ط
ï» ؟ Error
©ظپططµظٹظ‌طط¯ ط®ط·ط ظپظ‰ ط¹ط±ط¶ ظ‡ط°ظ‡ ظطظ„ط
ï» ؟ Error
©ظپططµظٹظ‌طط¯ ط®ط·ط ظپظ‰ ط¹ط±ط¶ ظ‡ط°ظ‡ ظطظ„ط
ï» ؟ Error
©ظپططµظٹظ‌طط¯ ط®ط·ط ظپظ‰ ط¹ط±ط¶ ظ‡ط°ظ‡ ظطظ„ط
ï» ؟ Error
©ظپططµظٹظ‌طط¯ ط®ط·ط ظپظ‰ ط¹ط±ط¶ ظ‡ط°ظ‡ ظطظ„ط

العدد 389 - بتاريخ: 16 - 12 - 1940

القمراء

للأستاذ عباس محمود العقاد

انظر القمر، وارقب الخطر، واسأل القدر!

واذكر قول صديقنا الزيات: (ليت الذي صبغ وجوه المصابيح باللون الأزرق استطاع أن يصبغ به وجه القمر. . . إن بزوغ القمر أمسى نذيراً بالغارة، ودليلاً للجارة إلى قتل

الجارة)
واسمع من يقولون: (لقد أوشك القوم أن يخيفونا من الأقمار. . .) فأقول: ومتى خلت الأقمار من الأخطار؟
لقد كان آباؤنا ينتظرون من كل قمر سهماً إلى قلب، واليوم ننتظر من كل قمر قذائف نيران!
إنه تقدُّم الزمن!
وهل تتقدم الأيام، إلا لتظهر القذائف بعد السهام؟!
وتخيلت شاعراً من أصحاب (الاختراعيات) وممن يقرنون بين الاستحداث والطيارات والدبابات، يتغزل فيقول:
قمري رمى بقذيفة من عينه ... وأذابني برصاصه ولجيته
وأطار نومي فانتفضت لأنني ... أنا هالك بحضوره وببينه
فناديت بيني وبين نفسي: الأمان الأمان. الكهوف أسلم من هذا الزمان، والعقول أحوج إلى المخابئ من الأبدان!!
قال بعض الفضلاء من قضاة المصريين: (متى نفهم هؤلاء الغربيين أو يفهمونا؟. . . إنهم يكتبون من الشمال إلى اليمين، ونحن نكتب من اليمين إلى الشمال. وهم يدخلون المعبد فيخلعون القبعة، ونحن ندخل المسجد فنخلع الحذاء. وهم يحبون فيغتبطون ويشكرون، ونحن نحب فنتأوه ونتألم. وهم يذكرون الشمس ويؤنثون القمر، ونحن نذكر القمر ونؤنث الشمس. وكل أولئك نقيض من نقيض. فمتى نفهم هؤلاء أو يفهمنا هؤلاء؟)
خطرت لي خاطرة ذلك القاضي الفاضل وأنا أذكر الغارات وأقمارها، والأقمار وأخطارها، فعاودني العجب من تذكيرنا القمر وتأنيث الغربيين إياه، وتساءلت: ماذا في القمر من صفات الذكورة وهو مقرون بالحنين والحياء، موصوف بالاتباع والاقتفاء، قليلٌ فيه ساطي المضاء وساطع الضياع، عارض له من المحاق ما يعرض للنساء؟
أهي زلة من زلات البداهة عند الشرقيين؟ أهم المستضعفون للأنوثة لا يفطنون لهذا المعنى الذي فطن له الغربيون؟ أم هو إمعان في البداهة أدركوا به من سطوة المرأة ما لم يدركه مذكرو الشمس ومؤنثو القمر، وأقاموا به ما عكسه أولئك الخاطئون؟
هو على كل حال من مفارقات الشرق والغرب، ولا بد لهما من مفارقات، ولو من طريق المصادفات!
وجاء البريد الإنجليزي الأخير فعاودتني هذه الخاطرة المتجددة كرة أخرى في إحدى مجلاته مقال جميل للكاتب (ريتشارد ستراود يستوحي به المعاني التي أوحت إلينا مخافة الأقمار، وأن نقرن بينها وبين الغارات والأخطار، ولكنه جرى فيه على سنة التذكير في موضع التأنيث، والغبطة موضع الألم، والكتابة من الشمال في موضع الكتابة من اليمين، فحمد ليالي القمر، وود لو تتعاقب وتتكرر، وحسب أنهم موشكون أن يفتنوا بالأهلة والبدور، وهم أمة فتنت بالشمس من قديم الدهور.
قال إن التخبط في الظلمات إن هو إلا رمز محسوس لتخبط العالم بأسره في ظلمات رأس مخبول، ودماغ جاهل مجهول، فما أجدر الناس أن يحمدوا ليالي القمر كما يحمدون لمحات الصواب بعد غمرات الجنون! وما أحق هذا الكوكب أن يرمز اليوم إلى العقل والرشاد، وقد كان رمز الهيام والفتون!
ثم قال ما فحواه: إن سخرية القدر هي التي حكمت على عصر الكهرباء أن تقفر لياليه من الضياء. . . فمنذ فجر التاريخ والطرقات ما خلت قط من ضياء مصنوع على يدي ابن آدم: انطفأت المشاعل فأضاءت الفتائل، وانطفأت الفتائل فأضاءت مصابيح النفط والزيوت، وانطفأت هذه المصابيح فأضاءت أشعة الكهرباء، فلما بلغنا هذا المدى شاء لنا القدر أن نرجع إلى يوم لا مصباح ولا فتيلة ولا شعلة! واقترن ذلك بضراوة كضراوة السباع، وأصبحنا نبحث عن القمراء كما كانوا يبحثون عنها في عصور الظلمات، وعاد السؤال عن القمر كالسؤال عن الجو: نشيداً مطروقاً في الأحاديث، وتعلة معادة لابتداء الكلام!
دع هذا ثم اقلب الصفحة إلى حيث تلمح بين سطور هذا الكاتب لمحة مما في سليقة أمته من روح الفن وحب الجمال

فهؤلاء القوم الذين تتساقط عليهم كِسَف الفضاء صباح مساء، والذين ينظرون إلى السماء فلا يأمنون رجوم الموت وصواعق الأعداء.

هؤلاء القوم تشوقهم ليالي القمر لما تعرض لهم من أشعة وظلال، ومشاهد روعة وجلال، ويقول كاتبهم هذا: (إن المدن والحقول وهي محلاة بالفضة القمرية لتبرز لك كأنها في يوم خلقها الجديد. ولقد قيل: إن هتلر فخور بأن يسلك نفسه مع رجال الفنون. فمن الحق إذن أن نقول إنه أفلح فلاحاً يتجاوز الأوابد من أحلام ريمبران. . . لأن الأشباح والظلال في أحقر الشوارع التي يفعمها الأسى والشجى بالنهار، لتضفي على أعطافها في القمراء جمالاً وهيبة كأفخر ما تلقيه هياكل يونان).

قلت: إن الكاتب الإنجليزي استوحى معاني القمراء على سنة الغبطة في موضع الألم وكتابة الشمال في موضع كتابة اليمين، وأخال أن الأمر فيه اختلاف غير اختلاف الشرق والغرب أو غير اختلاف كيلنج الذي قال إن الشرق شرق والغرب غرب وليس لهما لقاء.

فالمغيرون في إنجلترا ألمان، والمغيرون في مصر طليان، والأولون يغيرون ليل نهار، ولا يقصرون الإغارة على مواعد الأقمار.

أما الطليان فيغيرون في (القمراء)، ويخطئون الأهداف في الظلام والضياء على السواء.

فإذا كان أنس الإنجليز بليالي القمر أعظم من أنسهم بليالي المحاق فلا غرابة في ذاك؛ وإذا عكسنا نحن الأمر فما نحن بمخطئين وإن كنا لنرجو أن يكثر فيها المحبون للأشعة والظلال، إلى جانب المجفلين من الأوجال والأهوال.

وخصلة أخرى في هؤلاء الغربيين أنهم يسبغون خيالاً على كل حقيقة، ثم يستخرجون عبرة من كل نكبة، أو كما يقولون فضيلة من كل ضرورة.

هم لا ينامون مع الغارات المتواليات إلا غراراً، وفي النهزة بعد النهزة على غير موعد محدود ولا وتيرة معروفة.

فهل تركوا هذه الحالة بغير عبرتها؟ وهل أبطئوا في استخراج الفضيلة المشكورة من هذه الضرورة القاهرة؟

لا. لم يتركوها ولا أبطئوا في الاستفادة منها. فقد رجع أناس من باحثيهم المتفرغين للملاحظة والدراسة إلى الأصل في النوم المتعاقب بضع ساعات، أو إلى الأصل في زعم الزاعمين أن الرقاد في الفراش ثماني ساعات كل يوم ضرورة لا محيص عنها للإنسان فيما بين الشباب الباكر والكهولة العاملة.

فسألوا: أهذا صحيح؟ ولم يا ترى يكون هذا كذاك؟

وظهر لهم من مجرد السؤال أن هذا الزعم ليس بالحقيقة المقررة، وليس بالرأي المستند إلى أصل وثيق.

فالهرة تنام غفوات بالليل أو بالنهار، وفصائل شتى من الماشية تنام كما تنام الهرة ولو لم تكن من كوادح الليل.

فما بال الإنسان لا يشبع حاجته إلى النوم على هذا المثال؟

كل ما أوجب النوم المتعاقب من قديم الزمن فإنما هو عادة الإنسان الأول أن يلوذ بالكهوف ويأوي إلى المضجع، لأنه لا يحسن أن يصنع شيئاً غير ذلك قبل اختراع الضياء المصنوع الذي يشبه ضياء النهار.

ولو أنه استطاع في ذلك العهد الدابر أن يعمل بالليل عمله بالنهار لما رسخت فيه عادة الهجوع من مغرب الشمس إلى مشرقها، ولأضاف إلى عمره بتفريق أوقات النوم عشر سنين، وتعوَّد أن ينام ساعة كلما أعياه الكد والكدح ساعات، فإذا هو بعد ذلك مفيق ناشط للعمل من جديد.

ولنرجع إلى الحساب في عصر الحساب.

فإذا صح أن غارات الليل ستعلمنا أن نضيف إلى كل حياة عشر سنين فقد نخرج من الجمع والضرب على أن الأعمار التي كسبها الإنسان أكثر وأغلى من الأعمار التي تضيع الآن!

عباس محمود العقاد

مسابقة الجامعة المصرية لطلبة السنة التوجيهية

لطه حسين (الأيام)

جواب
دعانا الأديب محمد متولي عوف إلى الإسراع بالكتابة عن (تحرير المرأة) و (ديوان إسماعيل صبري)، وأجيب بأن عند (الرسالة) بحثين جيدين: صدر أولهما عن أحد المفتشين، وصدر ثانيهما عن أحد المدرسين. فإن وجدتُ ما يوجب الكلام عن هذين الكتابين بعد أن تنشر (الرسالة) ما ورد إليها في درس أفكار قاسم أمين وأشعار إسماعيل صبري، فسأعقِّب على ذلك الدرس بما يكمل الصور الأدبية والاجتماعية لموضوعات هذه السلسلة من الدروس، والله هو الموفق.
كتاب (الأيام)
هو قصة واقعية لحياة الدكتور طه حسين في طفولته وصباه، وهو يقع في جزأين لطيفين، بالقِطع الصغير، والمقرر هو الجزء الأول، ولكن النظر في الجزء الثاني واجب، لأنه يكمّل فكرة الطالب عن هذا النوع من القَصص الطريف؛ ويطلب الجزء الأول من لجنة التأليف والترجمة والنشر، أما الجزء الثاني فيطلب من مكتبة المعارف، وثمن الجزء عشرة قروش.
تاريخ (الأيام)
ولهذه الأيام تاريخ لم يُنشر من قبل، فمن الخير أن نشير إليه في سطور، لأنه تاريخ مجهول، ولأنه يصوّر كيف رجع الدكتور طه إلى ألفاف ماضيه لينشر منه صفحات تسير مسير الأمثال من حيث لا يقصد ولا يريد.
في مطلع الربيع من سنة 1926 ثار الأزهريون وتبعهم فريق من النواب على الدكتور طه حسين لآرائه (في الشعر الجاهلي) واشتدت الثورة ثم اشتدت، حتى كادت تزلزل مكانه في
الجامعة المصرية.
كنا في ذلك الوقت صديقين، وكنا نلتقي في كل صباح وفي كل مساء، لإعداد ما نُلقي من الدروس بكلية الآداب، وللنظر في صد الجمهور عن الثورة على آراء أدبية لم تصل إليه إلا وهي محرَّفة بعض التحريف، وإن كان فيها ما يَشُوك رجال الدين.
ظهرت بوادر الثورة في جريدة كوكب الشرق، ثم انتقلت إلى جريدة الأهرام، وكان الشر كل الشر أن تنتقل إلى جريدة الأهرام، لأنها جريدة موسومة بالرزانة والعقل، ولا يُطعن فيها على الرجال إلا حين تصبح أقدارهم أهلاً للتجريح والتزييف.
وقد انزعج الدكتور طه من حملة الأهرام أشد الانزعاج، ولم يعرف كيف يجيب، مع أنه من أقدر الناس على اللجاجة والجدال.
وكان الشيخ محمد عبد المطلب، طيب الله ثراه، بطل الحملة (الأهرامية)، فكتبتُ في الرد عليه مقالاً ضاق به صدر الأستاذ داود بركات - رحمه الله - ورجاني أن أؤجل نشره على أن يقف حملة الشيخ عبد المطلب، فصممت على أن ينشر مقالي، وله بعد ذلك أن يفعل بهجوم الشيخ عبد المطلب ما يشاء!
وظهر مقالي في صدر الأهرام، ورأى فيه الدكتور طه انتصافاً من خصمه العنيد، وشكر صنيعي بكلمات تدل على مبلغ ارتياحه لدفع قالة السوء عن مركزه المهدد في ذلك الحين.
وفي اليوم التالي حدثني الدكتور طه بعبارة حزينة أن مقالي في الدفاع عنه لم يقع من بعض المقامات موقع القبول، لأني مدرس في الجامعة المصرية، ولأن دفاعي عنه يصور الجامعة بصورة الإصرار على ما في الكتاب المغضوب عليه من مذاهب وآراء.
فما تلك المقامات؟
كان الدكتور طه في ذلك الوقت مسنوداً بثلاثة رجال: عدلي يكن وعبد الخالق ثروت ولطفي السيد. وكان هؤلاء الرجال يريدون أن تمرّ العاصفة بسلام، ولا يتمَّ ذلك إلا إذا سكت طه حسين وأصدقاء طه حسين عن دفع العُدوان بالعدوان.
وكذلك قررت أن أدفع عنه شر خصومه في جريدة المقطم بدون إمضاء لئلا تغضب تلك (المقامات).
وهنا يجيء الشاهد:

قضى الدكتور طه بقايا العام الدراسي بحنق وغيظ، فقد كانت الجرائد الوفدية تنوشه في كل وقت، وكانت المجلات الدينية تسوق إليه التهم الجوارح بلا حساب؛ ولا يملك الدفاع عن نفسه بحرفٍ واحد، وهو الرجل العِرِّيض الذي قضى صدر شبابه في التلهي بعداوات الرجال.

فماذا يصنع؟

رحل إلى فرنسا مع الصيف ليتناسى كروبه الداجية في ربوعها الفِيح!

وهنالك خطر له أن يُملي أشياء بعيدة كل البعد عن الشعر الجاهلي والأزهر والدين؛ فكانت تلك الأمالي وهي تاريخ طفولته بلا تزيين ولا تهويل.

وفي صباح يوم من أيام الخريف في سنة 1926 عرفت من الدكتور طه أنه كتب مذكرات عن حداثته، وأنه قدمها للأستاذ عبد الحميد العبادي ليطمئن إلى أنها مما تجوز إذاعته بين الناس.

وفي صباح يوم آخر حضر الأستاذ العبادي ومعه أصول المذكرات، وهو يقترح أن تحذف الفقرة الخاصة بالضريرة نفيسة؛ فلم ير الدكتور طه أن تحذف.

وفي ليلة شاتية جلسنا نتجاذب أطراف الأحاديث، فسألته عن موضوع تلك المذكرات، فوقف وقفة الخطيب المكروب وقصّ عليّ قصته يوم بدا له أن ينقل اللقمة إلى فيه بيديه الاثنتين، وكيف ضحك اخوته وبكتْ أمه وانزعج أبوه. فعرفت أن تلك المذكرات سيكون لها في تاريخ الأدب مكان.

ثم نَقل الحديث إلى شؤون الجامعة المصرية وإلى المصير المحتوم في مصر لحرية الفكر والرأي، وما نقل الحديث إلى هذا الميدان إلا ليهرب من مكاره تلك الذكريات.

مواهب طه حسين

هذا الرجل موهوب بلا جدال، ولكنه قليل الصبر على تكاليف المواهب، فهو يسطَع في اللمحة الأولى ثم يجنح إلى الأفول.

ترجَم لأبي العلاء فأفلح، ثم ترجَم للمتنبي فأخفق، لأنه لم يصحب المتنبي بقدر ما صحب أبا العلاء.

وأخرج الجزء الأول من الأيام فكان أعجوبة، ثم فتر في الجزء الثاني.

والجزء الأول من (هامش السيرة) سِفرٌ نفيس، أما الجزء الثاني فهو أيضاً (سِفرٌ نفيس).

وكان أستاذاً في الجامعة المصرية القديمة، أستاذاً عظيماً، أستاذاً يملك القدرة على إسقاط زكي مبارك في امتحانات الليسانس مرتين؛ أما في الجامعة المصرية الجديدة فهو أستاذ هيوب يستر كسله الجميل بالتغاضي عن ضعف الطلاب.

وأمره في الصداقة أعجب من العجب، فهو يؤاخيك ويصافيك إلى أن تظن أنه قطعة من قلبك، ثم يتحوّل في مثل ومضة البرق إلى عدوّ مُبِين.

وهو على الرغم من ضعفه عن الاضطلاع بتكاليف المواهب رجلٌ جذّاب، لأنه معسول الحديث، ولأنه قد يصدُق في الحب وفي البغض، إلا أن تهديه حاسة النفع إلى أن يعادي من يصادق ويصالح من يعادي، كالذي صنع في طوافه بأركان الأحزاب.

ويشهد الدكتور طه على نفسه بأنه ضرير، وذلك فنٌّ من الإعلان، فقد صحبته نحو عشر سنين ولم أتنبه إلى أنه ضرير. وكيف أصدِّق دعواه وما رأيت رجلاً أرشق منه في تناول الشؤون التي يتناولها المبصرون؟

كنا نخرج من الجامعة المصرية حين كانت في قصر الزعفران فنثب إلى (المترو) بعد أن يتحرك ولا يشعر أحد بأنني أصاحب رجلاً من المكفوفين.

ومن يصدِّق أني لم أفكر في حلق ذقني بيديّ إلا بعد أن رأيته يحلق ذقنه بيديه؟ وهو يمشي بقامة منصوبة تزري برشاقة الرمح المسنون.

وهو - لتوهمه أنه ضرير - يحاول التأثير باللسان حين فاته التأثير بعينيه، ومن أجل هذا نراه أعجوبة الأعاجيب في إبراز مخارج الحروف.

ولشعوره بأن لسانه مصدر قوته يلح في الحديث وفي الإملاء إلحاحاً يترك سامعيه وقارئيه على أهبة الاقتناع بما يُملي وبما يقول.

وخلاصة القول أن طه حسين هو طه حسين، هو الرجل الذي استطاع أن يقيم البراهين على أنه من أقطاب الأدب في هذا الزمان.

ولو كنت أصدق أنه أعمى لكففت عنه قلمي، ولكني واثق بأنه مبصر، وبأنه أستاذ

قدير، ومفكر حصيف، وأديب موهوب، وأنا لا أكف قلمي إلا عن الضعفاء.
وما قلت إنه أعمى إلا لأن درس اليوم يوجب ذلك، فليتناس هذه العُنجُهية القلمية، فما كنت
ولن أكون إلا أعرف الناس بواجب الذوق.
وإن استطال ناس على الدكتور طه بقواهم البصرية، فلن يستطيعوا الاستطالة عليه بقوى الفهم والذكاء، وإنه لشاهد على أن الله يؤتي الحكمة من يشاء.
أسرار كتاب (الأيام)
حدثني الدكتور طه بك أنه ينتظر رأيي في كتاب (الأيام) عساه يعرف كيف فتن به الناس حتى جاز له أن يترجم إلى عدة لغات في بضع سنين.
وكلام الدكتور طه في هذه القضية ليس من التواضع المصنوع، فمن المحتمل أن تغيب عنه قيمة هذا الكتاب الطريف، لأنه بالنسبة إليه غير طريف، وإنما تظهر طرافته للمبصرين، لأنه يطلعهم على آفاق من حَيَوات العميان قد تكون عند أكثرهم من المجاهيل.
ويزيد في طرافة هذه الاعترافات أن بعضها معيب، فصدورُها من رجل مثل طه حسين يشهد بأنه فنان يقيم فنه على قواعد من الصراحة والصدق، وإلا فما الذي يضطر رجلاً في مثل مركزه إلى أن يعترف بأنه كان في طفولته يجلس من أبيه ومن سُمَّاره مَزْجَر الكلب؟ وما الذي يقهره على التصريح بأنه كان يرى الدنيا بيديه فيعبث بالنعال الموضوعة حول دكة معلم الأطفال، ثم يمعن في تقليبها واختبارها حتى يعرف بالضبط عدد ما فيها من خروق ورقوع؟ وما الذي يحوجه إلى النص على أن ذمته كانت اتسعت كما اتسعت ذمة (العريف)، وأنه كان يرشو ويرتشي بلا تحرج ولا استحياء؟
وكيف يجوز لرجل أن يهجو اخوته، وأن يعرض بجَده وبأبويه، إلا أن يكون رجلاً سما بعقله وفنه عما في المجتمع من تصنع ورياء؟
يشهد طه حسين بأنه كان يستغفل أباه في بعض الظروف، ويشهد بأن المكاره التي عاناها في طفولته وفي صباه أورثته ألواناً من الاضطراب والخبال، فهل تصدر هذه الشهادة عن رجل يستر ضعفه بتناسي ماضيه؟ أم هي حجة على أنه أكبر من أن ينكر ذلك الماضي البغيض؟
طفولة طه حسين كما صورها بنفسه لم تكن طفولة مهذبة الحواشي، ولكن من الذي يزعم أن الأطفال ينشئون مبرَّئين من الهنوات والعيوب؟
الطفل في نشأته ضعيف، وهو لضعفه يداور ويماري ويحتال، فليس من الغريب أن يلجأ
طه حسين طفلاً إلى المراوغة والمماراة والاحتيال.
وهنا يظهر صدق طه حسين، فقد حدث عن نفسه أنه كان في طفولته سريع النسيان، وأنه لذلك قاسى مكاره الخجل والكسوف بضع مرات، ولو أنه أخبرنا أنه كان يحفظ كل ما يسمع، وأنه لم ينس أبداً ما كان يحفظ، لما كان في ذلك شبهة من تزيُّد أو إسراف، لأن سرعة الحفظ لا تُستَغرب من العُميان، ولكن طه حسين سما بفنه سمواً هو الغاية في الإخلاص للصراحة والصدق، وهما الدعامة الأصيلة للأدب الرفيع.
طه حسين أعمى، فيما يزعم، وهو كثير المزاعم، والأعمى يرى الدنيا بأذنيه ويديه، أما أذناه فهما طويلتان، وقد حدثنا أنه كان يمدهما مداً ليزيدهما طولاً إلى طول، عساه يستوعب ما يدور حواليه من أقوال وأخبار وأقاصيص. وأما يداه فقد قويت فيهما عضلات اللمس إلى أبعد الحدود، ألم يحدثنا أنه كان يعرف الناس بنعالهم لكثرة تقليبه في النعال؟
وخلاصة القول أن الدكتور طه قد التزم الصدق التزاماً تاماً في كتاب الأيام، وكان من آثار ذلك الصدق أن يأسر جميع من قرءوا مذكراته عن طفولته وصباه، لأن الصدق خُلقُ نفيس، وهو يزيد الأديب جلالاً إلى جلال.
يضاف إلى ذلك أن صدقه يوجب العطف عليه، ويحوّل شانئيه إلى أنصار أوفياء.
ماذا أريد أن أقول؟
أنا أُلاحق الفكرة التي تدور في خاطري عن كتاب الأيام، وهي تنفر وتَشرُد، فمتى أقتنص تلك الفكرة وهي نَفورٌ شرود؟
لعلي أريد القول بأن طه حسين رجلاً قد نسى أنه مسؤول عن طه حسين طفلاً، فهو

يشرِّح أوهامه وآثامه بلا ترفق ولا استبقاء، وهو يتجنى عليه كما يتجنى على خصومه الألدّاء.
لعلي أريد القول بأن طه حسين قد أراد أن يقيم الدليل على أنه يملك السيطرة على هواه حين يريد، وهل من هواه أن يَسخر بماضيه وأن يعترف بأنه كان نفعياً في طفولته وصباه؟
لعلي أريد القول بأن طه حسين قد انسلخ عن ماضيه كل الانسلاخ، ولم يعد يخشى أن يقال إن طه حسين الرجل ليس إلا صورة من طه حسين الطفل، وإن بقيت في وجهه وعقله وروحه ندوب من معارك ذلك العهد السحيق.
لعلي أريد القول بأن طه حسين قد أراد أن يدلل ويبرهن على أن الأشجار البواسق لم تكن
في الحداثة إلا أعواداً أماليد لا تأمن شر العواصف إلا بالانحناء والسجود.
لعلي أريد القول بأن طه حسين من أساتذة الأخلاق، فهو يقصد إلى إفهام الشبان أن العظيم لم ينشأ عظيما، وإنما عظُم بفضل الصبر على متاعب الجهاد، ومن حق طه حسين أن يتسامى إلى الأستاذية في الأخلاق، وهو بذلك التسامي خليق، فقد سمعت أنه أحرص الناس على رعاية واجبات الوفاء.
لعلي أريد القول بأن طه حسين أراد أن يخرج على نفسه مرةً واحدة فيشهد على نفسه بأشياء لا يعترف بها الرجل إلا وهو عارمٌ عَصوف.
لعلي أريد القول بأن طه حسين أراد محاكاة جان جاك روسُّو وأناطول فرانس، وقد فاتته صراحة روسُّو وعذوبة فرانس، لأنه طوى أهواءه الجنسية، ولأنه نسى أن الهيام بالجَمال أشرف من الهيام بالنعال.
لعلي أريد القول بأن طه حسين أراد أن يُفهمنا أنه طه حسين وتلك خدمة لن ينساها تاريخ الأدب الحديث.
صور المجتمع المصري في كتاب الأيام
كنت قضيت عاماً أو يزيد على استخلاص الصور التي رسمها الشعراني عن مصر في القرن العاشر، وهي الصور التي سجلتُها في كتاب (التصوف الإسلامي) والتي نهبها بعض الناهبين بكلية الآداب، يوم كان كتابي محفوظاً في تلك الكلية وهو مخطوط يأخذ عنه من شاء ما شاء، وعند الله جزائي، فما رُعِيَ لي عهد، ولا حُفظ لي جميل.
واهتمامي بتسجيل صور المجتمع المصري في القرن العاشر وأنا أدرس مؤلفات الشعراني جعلني أحرص الناس على تقييد ما سجل صاحب العزة الدكتور طه حسين بك من صور المجتمع المصري في القرن الرابع عشر، وهي صورٌ روائع، لأنها منقولة بأمانة ونزاهة وصدق. ويزيد في قيمة هذه الصور أنها أمست على شفا الانقراض، ولو رجع الدكتور طه إلى مسقط رأسه لعرف أنها أسقطت في غيابة التاريخ.
فعلى طلبة السنة التوجيهية أن يتأملوا تلك الصور، وأن يوازنوا بينها وبين ما يعرفون من أوهام العوامّ في الحواضر والأرياف، لأن في بعض أوهام العوام صوراً شعرية، ولأن خرافات اليوم لها نسبٌ صحيح إلى عهد الفراعين. . . وما أحب أن أزيد!
انتقال مزعج
تمضى في قراءة (الأيام) وأنت لاهٍ عابث، لأن الكاتب لاهٍ عابث، ثم تصطدم فجأةً بانتقال مزعج، هو الصورة المروعة لإحساس أبويه بقسوة الثُّكل في يوم عيد، وما تكاد تفرغ من الجزع لهذه الصورة حتى يفاجئك بصورة أعنف وأفظع، هي صورة أخيه الذي مات وهو مطعون.
فلو قلتَ إن الصفحات التي صوَّر بها طه حسين أحزانه وأحزان أهله لهاتين الفاجعتين تُعَدّ من أروع ما صوّرت به المآسي الإنسانية لكنت قريباً من الصواب.
وطه حسين في هذه الصفحات كاتبٌ قدير، لأنه يفجِّر الدمع في جوامد الشئون، ولقد هممت بأن أرسل إليه برقية عزاء، مع أن الأعوام التي مضت على هاتين الفاجعتين كادت تشارف الأربعين.
أما حديثه مع ابنته وهو يقص أخبار (أوديب) بعد أن فقأ عينيه، فهو حديثٌ يذيب لفائف القلوب، ومن واجب الدكتور طه نحو القَدَر المكتوب أن يذكر أن الله ترفق به كل الترفق، فجعله رجلاً من أكابر الرجال.
جلسنا مرة نسمُر بداره يوم كان يقيم بمصر الجديدة فأطلعته على خبر لطيف في

جريدة (لابورس)، خبر يبشر بأن أحد الأطباء قد اهتدى إلى علاج يرتدّ به العميان مبصرين، فهتفت زوجته: (إن صحَّ ذلك فسأبيع آخر قميص لأردَّ إليك بصرك، يا طه!) وأغلب الظن أن الدهر سيبخل على الدكتور طه بالعودة المنشودة لنور عينيه، وسيبخل على مدام طه بلذة البيع المنشود لآخر قميص، ولكن العمى لن يمنع الدكتور طه من التبريز في كثير من الميادين.

ولعل لله حكمة فيما وقع، فالدكتور طه هو حجتنا على أن مصر أخصب البلاد، وإلا فأين العميان الذين استطاعوا ما استطاع في هذا الجيل؟ ولولا خوف الإسراف لقلت إنه أشجع من أبي العلاء، لأنه رفض أن يعيش رهين المحبَسين، ولأنه وهو أعمى قد مهَّد السبيل لمئات أو ألوف من المبصرين. وأستغفر الله من الإشارة إلى عَمَى الدكتور طه، فتلك أول إشارة تصدر عن قلمي، ولم تصدُر أبداً عن لساني، وإنما استوجبها البحث، والبحث قد يستبيح ما لا يباح.

الأسلوب

للدكتور طه أسلوبان، أسلوب حين يُملي، وأسلوب حين ينظم؛ أما أسلوبه حين يُملي فلا يخلو من ركاكة واضطراب لأنه رهين بما في الإملاء من سرعة وإبطاء، كالذي يكتب لمجلة الثقافة من أسبوع إلى أسبوع.

أما أسلوبه حين ينظم - وله أبحاث ينظمها نظماً - فهو آية في السلاسة والعُذوبة والصفاء، ومن هذا الفن أسلوبه في كتاب الأيام، وهو بهذا الأسلوب من أقدر الناس على التصوير والتلوين، وله ألفاظ وتعابير هي العَجب العُجاب.

أما بعد فهذا طه حسين، كما صور نفسه، وكما صوره قلمي، فإن كان أساء إلى نفسه بعض الإساءة فقد أحسنت إليه كل الإحسان، بلا منّ عليه، لأنه من كتَّابنا ومفكرينا، ولأنه عانى من الصراحة بعض ما أعاني.

والمهم هو أن ينظر الطلبة إلى كتابه كما نظرت إليه، فما كان كتاب الأيام ألفاظاً ضُمَّ بعضها إلى بعض، وإنما هو جروح أضيفت إلى جروح، هو دماء تفجر بها قلبٌ حزين، هو لوعةٌ دامية لرجل طال شقاؤه بالوجود، منذ اليوم الأول لشهوده الوجود.

لقد أبكاني طه حسين وهو يقص بعض مآسي طفولته وصباه، أبكاني وأنا خَصمٌ لدود، فكيف يصنع إذا نفض هموم صدره إلى رجل يحمل بين جنبيه قلب الصديق الشفيق.

زكي مبارك

مختار الصحاح

وقيمة العناية به

للأستاذ حسن السندوبي

يحلو لمشيخة في وزارة المعارف، بلغوا فيها بمضي الزمن المراتب ذات الألقاب الملحوظة، أن يشيروا على الوزارة بطبع بعض كتب المتقدمين ليضعوا عليها أسمائهم بعد أن ينظروا فيها ويقوموا أودها ويصححوا أغاليطها، وأن يكون من ذوي الشأن في الوزارة المبادرة إلى إجابة طلبهم مع منحهم الأجر الحسن، وإخراج تلك الكتب في معرض من الطبع الجميل.

وقد قام بعضهم بمراجعة طائفة من هاتيك الكتب وتصحيحها ونالوا أمنيتهم في وضع أسمائهم عليها بعد أن استولوا على المكافأة المرضية والثناء الحسن. غير أن الكثير من هذه الكتب قد صدر دون أن يكون حظها بالقائمين عليها مقارناً للتوفيق، ودون أن يكون القائمون عليها قد أدوا الأمانة العلمية، فلم يحسبوا أن إبلاغ الإخلاف تراث الأسلاف خالياً من الشوائب بريئاً من المعايب، من أفضل الخلائق الكريمة.

وحسب القارئ أن يعلم أن من هذه الكتب كتاب (مختار الصحاح) فقد أصدرته وزارة المعارف بعناية بعض رجالها فجاء عيبة الأغاليط وجعبة الأباطيل. لم يعن فيه العناية الكافية في قيد الكثير من كلماته حتى تصحف منها ما تصحف، وتحرف من عباراته ما تحرف. وإذا علمت أنه كتاب لا يستغني عنه طالب، وكثيراً ما يفتقر إليه الدارس، علمت أي جناية تجنى على اللغة العربية تحت سمع وزارة المعارف وبصرها. وما ظنك بكتاب هو عدة المعلم وعمدة المتعلم في تحرير الكلمات، وضبط الألفاظ اللغوية، يخرج إلى الناس في هذا التشويه والإهمال! ولا يكون همّ القائمين عليه إلا الإسراع في عرضه بالطبع لينساب المال إلى جيوبهم دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة المراجعة والمعارضة، أو يتمثلوا بشيء من مثل التقوى في العمل والإخلاص في حسن القصد!

تفضل صديقي العلامة الأستاذ أحمد العوامري بك بإهدائي نسخة من هذا الكتاب في طبعته الرابعة لسنة 1938، وقد كتب عليها بالطبع أنه عنى بتصحيحها وتنقيحها وإكمال ضبطها وتعليق بعض حواشيها سنة 1916، أي منذ أربع وعشرين سنة، وهو إذ ذاك في سن القوة
وعهد الفتوة. والظاهر أنه لم يراجع طبعات الكتاب منذ ذلك التاريخ، ولذلك شاع فيه التحريف، وعمه التصحيف. وأعجب من هذا ما علمته من أن وزارة المعارف، لكي تيسر إعادة طبعه المرة بعد المرة، قد كلفت بعض الصناع بحفر صفحاته في رواشم (كليشيهات) زنك!!
وقبل عرض أمثلة من أغاليط هذه الطبعة من الكتاب، يحسن أن أعرض كلمة ألخص فيها التعريف بمؤلفه عن كتاب لي أضعه الآن في تاريخ المعجمات العربية ومؤلفيها، وهذه الترجمة لا أعلم أنها نشرت بمصر إلى الآن:
قال صدر الدين القونوي المتوفى سنة 673 هـ - 1874م: الشيخ العالم العامل الفاضل سيد العلماء، قدوة الفضلاء، محيي السنة، ناصر الشرعية، زين الدين أبو عبد الله محمد بن شمس الدين أبي بكر بن عبد القادر الرازي. جاء إلى مصر وأقام بها زمناً، وجال في ربوعها وأخذ عن بعض مشايخها، وأخذ عنه بعض طلبتها. وذكر المقريزي أنه وصف بركة الحبش التي بالقاهرة بهذين البيتين من الشعر:
إذا زين الحسناء قرط فهذه ... يزينها من كل ناحية قرط
ترقرق فيها أدمع الطل غدوة ... فقلت لآل قد تضمنها قرط
وهو من شعر العلماء الذي لا يعرج عليه الأدباء. ومن الغريب أن السيوطي لم يذكره فيمن وفد على مصر من العلماء أو من الأدباء أو من الحنفية. ثم ذهب إلى الشام وطوف في أنحائها، ومنها دخل بلاد الأناضول وأقام في قونية وبها صحب الشيخ العالم المحقق صدر الدين القونوي وعليه سمع كتاب جامع الأصول في أحاديث الرسول لابن الأثير الجزري الموصلي إلى سنة 666 والظاهر أنه توفي أواخر القرن السابع.
وقد ترك من المؤلفات: شرح مقامات الحريري، والذهب الإبريز في تفسير الكتاب العزيز، وتحفة الملوك والسلاطين في الفروع، وحدائق الحقائق في الأخلاق والمواعظ، وأنموذج جليل في أسئلة وأجوبة من غرائب آي التنزيل، والأبيات التي يتمثل بها في الأدب، وروضة الفصاحة في علم البيان، وضعه باسم السلطان المؤيد المنصور نجم الدين أبي الفتح غازي بن قرا أرسلان الأرتقي صاحب ماردين المتولي سنة 691 والمتوفى 712. ومختار الصحاح الذي نحن بصدد من شأنه، اختصر فيه صحاح الجوهري ووضعه على
ترتيبه وضم إليه الكثير من الفوائد أخذها عن التهذيب للأزهري، وديوان الأدب للفارابي، والمجمل لابن فارس، والمصادر للبيهقي، والمفصل للزمخشري، والفصيح لثعلب، والمغرب للمطرزي، والغريب لأبي عبيد، والغريبين وشرحهما للهروي وقد كتب بخطه في نسخته من المختار، بعد استشهاده بهذا البيت:
ألا يا أسلمي يا دار مي على البلى ... ولا زال منهلاً بجرعائك القطر
يقول: تم الكتاب المسمى مختار الصحاح بعون الله وحسن توفيقه على يد مؤلفه وكاتبه بيده محمد بن أبي بكر الرازي عفا الله عنه وغفر له ولجميع المسلمين، ووافق فراغه عشية يوم الخميس غرة شهر رمضان المبارك ليلة الجمعة الغراء سنة 660 الخ.
هذا، وفي المقال التالي نعرض إن شاء الله لذكر أمثلة من الأغاليط التي أشرنا إليها فيما سبق.
حسن السندوبي
كتاب تحرير المرأة
للأستاذ محمد أبو بكر إبراهيم
من بين ما قررته وزارة المعارف على طلبة السنة التوجيهية المتسابقين في امتحان اللغة العربية في خلال يناير المقبل كتاب (تحرير المرأة) للمرحوم قاسم بك أمين.
وقد يكون من الخير أن نبين - في إيجاز - بعضاً من المناحي والأغراض التي عنى المؤلف بعرضها في كتابه، لعلّ في هذا توجيهاً للطلاب، واستحثاثاً لهم على الاستزادة والاستفادة.

شخصية المؤلف (أ)

ولد المرحوم قاسم بك أمين في أسرة مصرية تنسب إلى أصل كردي، وتربى منذ نشأته تربية أمثاله، ثم سافر إلى فرنسا حيث درس الحقوق وعاد في سنة 1885 ميلادية. وظل منذ ذلك الحين إلى أن عاجلته المنية في سنة 1908 قاضياً ممتازاً، ثم مستشاراً بارعاً بمحكمة الاستئناف.

وكان من خلقه: الصراحة، وحب العدالة، وحرية الرأي. ولم يكن من القضاة الذين قال عنهم (أعرف قضاة حكموا بالظلم ليشتهروا بين الناس بالعدل) بل كان يحب الحق لأنه حقٌّ وفضيلة، ويمقت الظلم لأنه ظلم ورذيلة.

ولم يكن يتقيد في قضائه بآراء الفقهاء، وأحكام المحاكم، بل لم يتقيد بنص القانون إذا لم يصادف هذا النص مكان الاقتناع منه.

وكان مولعاً بالبحث والتنقيب عن كثير من شؤون الإصلاح والاجتماع؛ فدعا إلى تحرير المرأة من رق الجهل، ورق الحجاب. وكانت هذه الدعوة من الأمور الشاقة الشائكة لأنها خالفت العرف المألوف، والتقاليد الموروثة، وأدت إلى ثورة فكرية انقسمت بها الأمة قسمين: معه وعليه. وقد أوضحها في هذا الكتاب، ودعمها بالحجج والبراهين.

تصوير فكرته التي أودعها كتابه (ب)

حمل المؤلف - رحمه الله - حملة صادقة على الرجعيين الذين رضوا للمرأة أن تعيش في الإسار كما يعيش الذليل المستعبد، وأن تحبس في الدار كما يحبس الطائر المعذب، وأن تقضي أيامها في هذا الوجود كما يقضي السجين أيامه في غياهب السجون؛ فاستنّوا لها أن

يتصرف في شؤونها الخاصة والعامة قيّمٌ قهار يملك عليها إرادتها، ويقبض على ناصيتها، ويسيطر على عملها وحريتها؛ فلا تتحرك في ظلامها الحالك إلا بعلمه، ولا تتصرف في حياتها الضيقة الأفق إلا بمشيئته.

توهم هؤلاء القدامى أنها قليلة العقل، ضعيفة الإرادة؛ ومن ثم لا بد أن تحاط بسياج منيع يحول بينها وبين مشتهياتها، وإلا اندفعت إلى الشر وارتكبت ما يجلب لها الإثم والعار؛ فعطلوا فيها حرية الفكر والرأي، وحجبوها عن الوجود بحجاب كثيف لا تستشف ما وراءه من نور وضياء، وأقاموا بينها وبين حقوقها سداً لا تستطيع أن تظهره، ولا تستطيع له نقباً.

ظن هؤلاء أنها لا تصلح إلا للمعيشة في داخل منزلها فعزلوها عن البيئة الخارجية كما يعزل المريض عن الأصحاء، وفصلوها عن المجتمع كما يفصل العضو من الكائن الحي، وأخمدوا جذوتها، وأطفئوا شعلتها، حتى صارت لا حول لها ولا طول، ولا قوة لها ولا ناصر. فبقيت رهينة المحبسين، وثالثة الأذلّين أمداً طويلا.

وتحكم بداهة العقل أن في هذا التصرف جَوراً عن الاعتدال وإسرافاً في العسف والإذلال، وأن فيه كَبْتاً لغرائز المرأة وميولها وطبيعتها وسائر قواها، وأن نتائج هذا الكبت ضارَّة بها إلى حد كبير.

ومن أجل ذلك نادى المصلحون في عصور مختلفة بوجوب إعطائها حريتها المشروعة، وهي الحرية الصحيحة المقيدة بالنظم الدينية والقوانين الخلقية، ومن بينهم المرحوم قاسم بك أمين زعيم القائلين بإصلاح المرأة في مختتم القرن التاسع عشر ومفتتح القرن العشرين؛ إذ نادى بوجوب إنهاضها والأخذ بناصرها لتستمتع بما لها من الحقوق الطبعية والأدبية والدينية والاجتماعية ولتؤدي رسالتها التي خلقت من أجلها.

وإنه لم يجهر بهذه الفكرة إلا بعد أن محصها وقلبها على مختلف وجوهها، حتى اقتنع بصحتها، واستوثق من صدقها، وحلت منه محل العقيدة والإيمان، ثم أبرزها في كتابه (تحرير المرأة) وهذا ما عبر عنه في مقدمة هذا الكتاب حين قال: (هذه الحقيقة التي أنشرها اليوم شغلت فكري مدة طويلة كنت في خلالها أقلبها وأمتحنها وأحللها، حتى إذا تجردت من كل ما كان يختلط بها من الخطأ، استولت على مكان عظيم من موضع الفكر مني، وزاحمت غيرها، وتغلبت عليه، وصارت تشغلني بورودها، وتنبهني إلى مزاياها،

وتذكرني بالحاجة إليها. فرأيت أن لا مناص من إبرازها من مكان الفكر إلى فضاء الدعوة والذكر).

موضوعات الكتاب (ج)

اشتمل كتاب تحرير المرأة على مقدمة تمهيدية تصف حال المرأة في الأيام القديمة، وتصوِّر اضطهادها وإذلالها واستحواذ الرجل عليها بقوته وجبروته، ومعاملته لها معاملة فيها قسوة وامتهان وبطش: بسجنها في المنزل، وعدم الثقة بها، والحيلولة بينها وبين الحياة، وتعطيل حقوقها وما وهبها الله من قوى التفكير والإرادة والشعور. وجاء الإسلام فسوّى بين الرجل والمرأة في الحقوق، وهذه الأحكام مقتبسة من تاريخ الأمم، والتاريخ أكبر شاهد عليها.

وعالج الباب الأول من الكتاب موضوع تربية المرأة وأثر هذه التربية في تثقيف عقلها، وتهذيب خلقها، وتنشئتها تنشئة صالحة، وإعدادها إعداداً تاماً للحياة الكاملة، حتى تنهض بنجاح وجدارة في الحياة العملية؛ فتدبّر أمرها وأمر منزلها، وأولادها، وتقوم بوظيفتها في المجتمع قياماً حسناً، وتطرح الخرافات والأباطيل، وتتمسك بالعقائد الدينية والآداب الاجتماعية وتتمتع بما في الكون من علوم ومعارف وآثار.

وقد حرمت فيما مضى - من التربية الصحيحة - فضعفت قواها الجسمية والعقلية والخلقية، وصارت مصدر شقاء لنفسها وبعلها وذريتها وأسرتها. لأن التربية الحقة تحيي في نفوس النساء معاني الشرف والكرامة والعفة، وتصونهن عن الفساد.

وأفاض الباب الثاني في شرح حجاب النساء واعتباره أصلاً من أصول الآداب التي يلزم التمسك بها متى كان منطبقاً على ما جاء في الشريعة الإسلامية. وقد أنحى فيه المؤلف باللائمة على الغربيين لغلوهم في إباحة السفور والتكشف، وعلى الشرقيين لمغالاتهم في التحجب، وأبان أن الفضيلة وسط بين هذين الطرفين، ولا تتحقق إلا بالحجاب الشرعي. واستدل على ما يقول بما ورد في الشرع الشريف، وناقش موضوع الحجاب والسفور نقاشاً دل على درجة تمكنه من هذه المسألة الاجتماعية الخطيرة.

واختتم كلامه في هذا الباب بوجوب التدرج في السفور وإلا حدث انقلاب فجائي ينجم عنه ضرر جسيم، ويؤدي إلى عكس المقصود.

والباب الثالث من الكتاب يبين علاقة المرأة بالأمة، فهي النواة للأسرة، إن صلحت صلحت الأسرة، وإن فسدت هي فسدت الأسرة تبعاً لها، فهي المحور والمرتكز. ومن ثم كانت تربيتها أوجب من تربية الرجل. ومعلوم أن الأسرة هي الأمة مصغرة، ومن مجموع الأسر تتكون الأمة. فالمرأة المتمدينة تخدم بلادها أجل خدمة بما تؤديه من أعمال جليلة في مواقف عدة.

ولما كان ارتقاء الأمم يحتاج إلى عوامل شتى من أهمها ارتقاء المرأة، وانحطاط الأمم ينشأ من عوامل مختلفة من أهمها انحطاط المرأة، لزم العمل على إنهاض المرأة بتهذيبها وتطهيرها وتجميلها بالتربية الكاملة؛ فهي الدعامة لبناء مجتمعها، إن قويت قوي المجتمع، وإن ضعفت ضعف المجتمع وساء مصيره.

والباب الرابع خاص بنظام الأسرة وما يمس حياة العائلة من حقوق وواجبات وأحكام وعادات مما يتصل بمسائل الزواج، وتعدد الزوجات والطلاق. واستند المؤلف في هذا على ما ورد بكتب الفقه والمعاملات، والشرائع والاجتماع.

وقد أساء الناس فهم ما قصد إليه المرحوم قاسم بك أمين فظنوا أنه يدعو إلى الإباحة والمنكر؛ وهو إنما دعا إلى الخير والإصلاح بما يتمشى مع الشرائع ولا يتنافى مع روح الدين.

(د) الأسلوب

في أسلوب هذا الكتاب سهولة واسترسال. فلم يكن المؤلف متأنقاً في اختيار الألفاظ، ولا متحذلقاً في صوغ العبارات، ولم يعمد إلى زخرفة كتابته، ولم يولع بالصنعة التي أغرم بها معاصروه من الكتاب ومن كانوا قبله.

فجاءت كتابته خالية من التكلف والسجع. ولو أن قارئاً اطلع على كتاب (تحرير المرأة) ولم يكن يعرف أنه لقاسم أمين لعدّه من المؤلفات الحديثة في الوقت الحاضر؛ لأن أسلوبه يقارب الأسلوب الذي يتوخاه الأدباء والصحفيون في هذه الأيام من حيث السهولة والسلاسة.

أما المعاني والأفكار والبحوث فهي مرتبة ترتيباً منطقياً سليماً لأنه كان يأتي بالقضايا والأحكام بعد أن يمهد لها بمقدمات موصلة إليها، ثم يدلل عليها بأدلة عقلية ونقلية، ويعززها

بشواهد كثيرة يسوقها من التاريخ ومن الواقع، ليمنع عنها كل لبس، وينفي كل شبهة، ويسد على المعارضين طريقهم بالحجج القاطعة، والبراهين الساطعة. ولم تسلم ألفاظه وتراكيبه من أخطاء لغوية وصرفية؛ ولم تخل تعابيره من التواء في بنائها. والسبب في هذا النقص يرجع إلى أمور من بينها أن اهتمامه كان متجهاً إلى ناحية الفكرة الإصلاحية التي يرمي إليها أكثر من اتجاهه إلى الناحية اللغوية، وأنه لم يكن متضلعاً من فقه اللغة ولا من الدراسة الأدبية العربية في الكتب القديمة التي هي المنبع الفياض للأساليب القوية الجزلة السليمة؛ ونذكر على سبيل الاستشهاد بعضاً من هذه الأخطاء: فقد أكثر من استعمال كلمة (العائلة) وصوابها (الأسرة)، وجمع كلمة (الأهل) على (الأهالي) وصوابها (الأهلون)، وعدي الفعل (أعطى) باللام وهو يتعدى إلى المفعولين إذ قال: (وكثير من الرجال قد أعطوا لنسائهم مقاماً في الحياة العائلية)، كما عدى الفعل (أمكن) باللام إذ قال: (أمكن للأمة أن تنتفع بجميع أفرادها)، وجمع (عادة) على (عوائد) والصواب (عادات).

ومن أمثلة الالتواء في التعبير قوله: (وأذكر ملاحظة واحدة تؤيد ما قدمته - وهو أن نساء الإفرنج على العموم مهما كان حالهن في الباطن يحافظن على الظواهر فيعيش الواحد بين رجل وامرأة يحب بعضهما بعضاً أياماً وأشهراً ولا يكاد تقع منهما هفوة تظهر ما كان خافياً بينهما الخ) إلى غير ذلك من الهفوات اليسيرة التي لا تخفى على الأديب. ومهما يكن من شيء فالكتاب له قيمته الاجتماعية، ويعتبر أثراً من الآثار الخالدة.

محمد أبو بكر إبراهيم
المفتش بوزارة المعارف

من الأدب الإنجليزي

إذا . . .

للشاعر الإنجليزي كبلنج

إذا كان في إمكانك أن تحتفظ بوقارك في مجتمع فقده ثم عابه عليك، وكان في إمكانك أن تثق بنفسك حينما يشك فيك، بعد أن تفهم رأيهم ووجهتهم التي يعيبونك فيها

إذا كان في إمكانك أن تصبر دون أن تمل من الصبر، وتصدق ولو كذب عليك، وتمتنع عن الحقد ولو حُقد عليك، دون أن تفتخر بحكمتك وحسن شمائلك

إذا كان في إمكانك أن تتصرف في أحلامك دون أن تمكنها من نفسك، وأن تفكر دون أن تجعل التفكير هدفاً لك

إذا كان في إمكانك أن تثبت عند الهزيمة كما تثبت عند النصر

إذا كان في إمكانك أن تكبح جماح نفسك فتصبر على أولئك الأوغاد الذين ينقلون كلامك بغير ما أمانة فيحرفونه ويبدلون فيه لغاية يقصدون بها نصب الشراك لأمثالهم الحمقى المجانين

إذا كان في إمكانك أن تصبر على نوائب الدهر فتحاول اليوم بناء ما تهدم معك بالأمس؛

إذا كان في إمكانك أن تجازف بكل مالك في مشروع نافع دون أن تظهر يأساً أو تذمراً إذا كانت عاقبتك الخسران؛

إذا كان في إمكانك أن تسخر قواك لخدمتك في زمن شيخوختك، وتثبت في وقت لم يبق لك فيه إلا إرادتك التي هي مصدر قوتك

إذا كان في إمكانك أن تخالط من هم أقل منك قدراً دون أن تخسر شيئاً من قدرك ومقامك، وأن تماشي الملوك دون أن تفقد شيئاً من تواضعك ولين جانبك

إذا كان في إمكانك أن تتجنب شر أعدائك وأصدقائك ثم تضع ثقتك في الجميع دون أن تسرف فيها مع أحد

وإذا كان في إمكانك أن تملأ فراغ دقيقة يملأك فيها الحقد على أحد بركض مسافة لا بأس بها، لك الدنيا وما فيها، وفوق هذا فستصبح رجلاً بكل معنى الكلمة يا بني . . .

(حيفا. فلسطين)

عبد الواحد الخطيب
المدرس بالمدرسة الإسلامية

من وَراء المِنظَارُ

بين (دغف) وصعلوك ومغفل. . .!

أبداً يظل الترام لمنظاري موضع فرجة لا تنعد، وذلك أنه من ناحية، ملتقى ضيق يحشر فيه كل ساعة أنماط من الناس في هذا المضطرب الواسع الذي ندعوه المجتمع، ثم هو من ناحية أخرى المركب الوحيد الذي أتخذه في ذهابي إلى مقر عملي وفي أوبتي من هناك، فما كان لي وقد ضممت الفخر من أطرافه كما يقول مهيار وجمعت بين الحسنيين: وظيفة التدريس وحرفة الأدب، أن يكون لي سيارة، وبحسبي أن أركب كل شهر أو شهرين مع صديق في سيارته أو أن أزحم الناس لأتخذ لي موضعاً بشق النفس في سيارة عامة هي والترام شيء واحد!

كان الترام الجاهد بما يحمل من الخلق يجري جري من تقطعت أنفاسه ذات صباح، وكان بيني وبين موعد الدرس الأول دقائق معدودات، وكنت لا أفتأ أنظر إلى ساعتي وإني لضائق بسرعة عقربها بقدر ما أنا ضائق ببطء الترام أخشى أن أتأخر فلا أدري بماذا أعتذر لتلاميذي ولا كيف أخفي عنهم خجلي. دع عنك (البك الناظر) ونظراته على رأس السلم وغيظه المكظوم الذي لا آمن أن يظل مكظوماً. . .

وظللت أدعو الله ألا تفسد الزمارة أو تخرج (السنجة) عن خيوط الكهرباء، أو تتدلى عجوز لتنزل فتزل قدمها، أو يمر رتل من سيارات الجيش فيقف المرور، أو يدفع القدر أحد الناس إلى حيث يلتهمه الترام. وقضيت لحظة أليمة على هذه الحال أسأل الله وأستعجل الكمساري وأرهف أذني إلى زمارته وأتلفت نحوه كلما أبطأ في النفخ فيها.

وأبطأ الكمساري، والتفتت فإذا شاب (أفندي) يقف على سلم المركبة والكمساري يرجوه ويتوسل إليه أن ينزل، فلا يجود عليه ولو بنظرة؛ ويغلظ له الكمساري شيئاً فشيئاً، ولكنه يظل ثبت الجنان منتصب القامة مرفوع الهامة؛ وأنظر وقد كاد يخنقني الغيظ، وينظر الراكبون جميعاً نحو ذلك الأفندي عسى أن يستحي، فلا يشاء أن يرد أو يلتفت إلى أحد، ويعود الكمساري فيلين ويستعطف مبتسماً ابتسامة فيها معنى ذلك الصفاء الذي يسبق العاصفة ويذّكر الأفندي بأن منع الوقوف على السلم قد بات أمراً معلوماً لكل الناس، ولا حيلة له في ذلك فهي مشيئة المصلحة والحكومة وعليه وحده الغرم إن تهاون. . . ثم إنه

ييأس أخيراً فيقابل العناد بالعناد، ويقسم أن لن يسير الترام إلا إذا نزل ذلك الأفندي (المتشعبط). . . كل ذلك وصاحبنا لا يزداد إلا إصراراً واستكباراً. . .!

ويضج الراكبون، ويتقدم أحدهم بالرجاء في رفق إلى ذلك الظريف المتعلق بالترام فيرد عليه بقوله: (موش شغلك يا أفندي) وتجري على الألسن عبارات الاستنكار والتقريع والتوبيخ. . . وهو برغم ذلك مصر كأنه يجاهد في قضية من قضايا الأوطان فلا يعرف فيها معنى الهوان أو الخذلان!

ويأتي صعلوك حافي القدمين، حاسر الرأس، في يده عود ضخم من قصب السكر، كأنه مدفع لمطاردة طائرات العدو، وفي جلبابه آثار تمزيق، كأنه قادم لساعته من معركة، ويتعلق هو أيضاً بالترام، فلا يتمالك الناس أنفسهم أن يضحكوا على الرغم ما كانوا يعانون من ضيق وغيظ!

ويحار الكمساري بين الصعلوك والأفندي، فقد أعلن أولهما أنه لن ينزل حتى ينزل الأفندي، وهو لا يدري أنه بذلك قد علق الأمر على المستحيل وأصبحت المصيبة مصيبتين؛ وراح يتساءل ذلك الصعلوك في حدة: لم يطلب إليه وحده النزول؟ أذلك لأنه (غلبان)؟ ويصرخ الكمساري في وجه الأفندي ضجراً، فيرد عليه أخيراً بقوله (أما مغفل صحيح) ويوقن الكمساري أن الحرب واقعة لا محالة فيرد عليه بقوله (إذا كنت أنا مغفل تبقى حضرتك دغف). . . ويكتفي الصعلوك بذلك فينزل معتذراً وقد كان كفيلاً أن يحطم رأس الكمساري بذلك (المترليوز) في يده لو دعت الحال إلى ذلك.

وينفد صبر المغفل فيجذب (الدغف) من كتفيه ويطول النزال ويعظم هول القتال ويتزاحم المتفرجون من السابلة ويتعطل الطريق ويضيع نصف الدرس وتنجلي المعركة أخيراً عن هزيمة (الدغف). . . ويمضي الترام وأنا أسأل نفسي أيهما المغفل حقاً وأيهما (الدغف) حقاً وأيهما الاثنان معا؟ ولكنى لا أحتاج إلى طويل فكر لأقول إن المغفل لم يفعل ما يستحق من أجله أن ينعت بهذا اللقب، وإن نعته به من جانب ذلك الأفندي المهذب لهو الغفلة بعينها؛ ثم أسأل نفسي كذلك أي الرجلين كان أفضل وأكبر

في أعين الناس الصعلوك أم الأفندي؟ وأيهما إذا هو الصعلوك حقاً؟
أولى بنا والله أن نتساءل متى نتعلم النظام قبل أن نتساءل متى نظفر (بالاستقلال التام).
الخفيف
وزارة المعارف العمومية
عدوان لطيف
للأستاذ محمود محمد شاكر
حضرة المحترم ناظر مدرسة. . . الثانوية
قررت الوزارة (أي وزارة المعارف) كتاب المكافأة لأحمد بن يوسف للسنة التوجيهية في العام الدراسي الحالي 4041، والوزارة تطبع هذا الكتاب الآن بالمطبعة الأميرية، بعد أن عهدت في تهذيبه وتصحيحه وشرحه إلى حضرتي الأستاذين أحمد أمين عميد كلية الآداب، وعلي الجارم بك وكيل دار العلوم.
وقد ظهرت أخيراً لهذا الكتاب طبعة أخرى قامت بنشرها المكتبة التجارية الكبرى (بالقاهرة، وهي طبعة فيها فحش وتحريف ونقص في الشرح والتعريف بأعلام الرجال، وغير ذلك من العيوب).
فنلفت نظر حضرتكم إلى أن الطبعة التي ينبغي استعمالها والاقتصار عليها بالمدارس الأميرية والحرة هي طبعة الوزارة التي ستصدر من المطبعة الأميرية قريباً.
وتفضلوا بقبول فائق الاحترام
11111940
السكرتير العام
حسن فائق
وكان من قصة هذه النشرة الظريفة التي أذاعتها وزارة المعارف على المدارس الأميرية والحرة، أني نشرت كتاب المكافأة لأحمد بن يوسف من المكتبة التجارية الكبرى في 14101940، بعد أن حققت أصله وراجعتُه على الأصول، وشرحت ما يعرض للقارئ من غامضه، وكتبتُ لأحمد بن يوسف ترجمة وافية جمعتها من بين سطور كتب التاريخ والتراجم، إذ أن ترجمة أحمد بن يوسف لا تبلغ عشرة أسطر في الكتاب الفرد الذي ترجم له، وهو معجم الأدباء لياقوت الحموي.
وكان حقاً على وزارة المعارف، أو على الأصح، كان من الأدب المتبع أن تشكرني على الجهد الذي بذلته في تصحيح هذا الكتاب. ولكن الوزارة أبت أن تكافئ الجميل من العمل بالجميل من القول، وقذفت الكتاب وناشره وطابعه قذفاً جارحاً لا مسوغ له، وإذ كنت أعلم علم اليقين أن ليس بيني وبينها عداوة مستحدثة، أو حقد متوارث، فقد أذهلني اجتراء هذه الوزارة على الطعن في الكتاب طعن المنتقم المتضرم المغيظ الذي يفقده الغيظ سلطان الإرادة الحكيمة.
والقارئ يعلَم - ووزارة المعارف تعلَم أيضاً - أن القانون يقدعُها ويردها عن الطغيان كما يقدعني ويردني، وأن هذه الجملة التي وضعناها بين الأقواس في نشرة الوزارة، إن هي إلا حشو لا معنى له، وأن قد كان لوزارة المعارف مندوحة عنها، وأن الكلام يستقيم بإسقاطها، وأن أمرها لنظّار مدارسها وأساتذتها وطلبتها واجب الاتباع. فإذا قالت الوزارة لهؤلاء إن الطبعة التي ستصدر من المطبعة الأميرية قريباً!! هي الطبعة التي ينبغي استعمالها والاقتصار عليها، فهذا كفاية وفوق الكفاية في منع الأساتذة والطلاب!! من اعتماد طبعتي في الدراسة.
ومع ذلك، فمما لا شك فيه أن السنة الدراسية الحالية، قد انقضى من عمرها أكثر من الثلث ولم تصدر طبعة وزارة المعارف. أفيكون ثمة بأس على الأساتذة والطلبة أن يوفروا من الوقت المضاع أشهراً أخرى بالنظر في نسختي، حتى إذا ظهرت نسخة وزارة المعارف اتبعوها وألقوا نسختي ومضوا في دراستهم في كتاب الوزارة؟ إنه

مهما يكن في نسختي من العيوب، فلا يمكن أن يكون الأصل الذي طبعتُه من الكتاب غير الأصل التي تطبع عنه وزارة المعارف، وما دام الأصل واحداً، والنصُّ واحداً، فليس على الأساتذة والطلبة بأس. فهل تستطيع الوزارة أن تدَّعي أن نص الكتاب الذي طبعتُه - مهما يكن فيه الخطأ والتحريف - غير النص الذي يطبعونه؟ وبالطبع نقول: لا، وكلا، وليس معقولاً!!

وإذن، فالجميل الذي أوليته وزارة المعارف، وإخواننا من الأساتذة والطلبة، جميل يوجب الشكر على من قدِّم له. هذا، وأنت تعلم - ووزارة المعارف تعلم أيضاً - أن الأساتذة والطلبة مكلفون بشراء كتاب الوزارة كما اشتروا كتابي. فأمرُها للأساتذة والطلبة بالاقتصار على طبعة الوزارة التي ستصدُر من المطبعة الأميرية قريباً!! إيجاب عليهم بشراء كتابها وطبعتها، فليس يضير الوزارة على ذلك شيء، ما دامت ستنتهي إلى النهاية الطبيعية وهي بيع كتابها ورواجه بين المكلفين بدراسته.

ونحن نعلم - ووزارة المعارف تعلم أيضاً - أن المفروض في أمر هذه الكتب، أن الوزارة لا تتجر بها للربح، فإذا فرض - وهذا مستحيل بعد أمر الوزارة للمدارس بالاقتصار على طبعتها التي ستصدر من المطبعة الأميرية قريباً!! - أن بقيت جميع نسخ الوزارة معطلة موقوفة لا تباع ولا تشترى ولا ترهن!! كالأوقاف والحبوس، لما كان في ذلك شيء، ما دام الغرض من طبع هذا الكتاب قد حقق للطلبة والأساتذة على ما قد يكون في طبعتي من العيوب.

وبعد الاقتصار على هذا، أظن وزارة المعارف قد استطاعت أن تفهم الآن مقدار ما أساءت به، مع صرف النظر عن المسؤولية الأدبية والقانونية التي وقعتْ في نشرتها التي أذاعتها على المدارس الأميرية والحرة.

- وسأدع المسؤولية القانونية التي يكفلها القانون لي ولصاحب المكتبة التجارية الكبرى إلى أن يحين حينها وتأخذ طريقها الذي تقتضيه، وأنصرف الآن إلى المسؤولية الأدبية التي أغمضت فيها هذه الوزارة بغير رفق ولا حكمة ولا حرص.

إن عمل وزارة المعارف ليس إلا الإشراف على التعليم، وكل أمر أو نهي يصدر منها يجب اتباعه على المدارس الأميرية والحرة ونظارها وأساتذتها وطلبتها، هذا ما نعلمه - وأظن وزارة المعارف تعلمه أيضاً -، وليس من عمل وزارة المعارف فيما نعلمه - وأظن هذه الوزارة تعلمه أيضاً - أن تكون حكما قاضياً على ما يصدر من الكتب غير مرسوم برسمها واسمها، وإن كانت هذه الكتب مما قررته الوزارة لمدارسها. وما دمتُ لم أشر بحرفٍ واحدٍ في كتابي إلى أني قد نشرته لطلبة السنة التوجيهية بالمدارس الأميرية والحرة، فليس من حق وزارة المعارف أن تتعرض للحكم عليه أو الطعن فيه على الأصح.

ومع ذلك فأنا وأنت نعلم - ووزارة المعارف تعلم أيضاً - أن حكمها على الكتاب قد صدر، وأن هذا الحكم ليس نقداً ولا شبيهاً بالنقد، وإنما هو طعنٌ وتجريحٌ وطغيانٌ كلاميٌّ مُؤذٍ كان يجب على هذه الوزارة أن تترفع عنه.

ومع ذلك كله، فالوزارة تقول إن هذه الطبعة التي نشرتها المكتبة التجارية الكبرى فيها (فُحْشٌ)، هذا الحرف، بهذا النص، على هذه الصورة، في هذا الوضع! فأنا أتحدّى هذه الوزارة في هذا المكان وأطالبُها باستخراج (الفحش) الذي وقع في طبعتي، أين هو؟ فإذا فعلتْ، فسنرى أيُّ الفُحشين أفحش، أهذا الذي تدعيه وزارة المعارف على كتابي ادّعاءً، أم الذي هو قائمٌ مقررٌ مثبت في الكتب التي قررتها وزارة المعارف وطبعتها وأذاعتها، وأمرت مدارسها بدراستها أعواماً طِوالاً؟

وتقول وزارة المعارف إن في طبعتي (تحريف)؛ هذا الحرف، بهذا النص، على هذه الصورة، في هذا الوضع! فأنا أتحدَّى هذه الوزارة أيضاً في هذا المكان، وأطالبها باستخراج هذا (التحريف)، ليعلم من لم يكن يعلم أيُّ التحريفين أقبح، ما أقع أنا فيه، أم ما وقعتْ فيه هي في الكتب التي صححتها وشرحتها وأذاعتها وقررت دراستها أعواماً طوالاً؟

ومع ذلك كله، فأنا أقرر في هذا المكان أن (الفحش)! هذه واحدة، وأن (التحريف)! وهذه أخرى، ليسا سوى دعوى من الوزارة لا برهان لها عليها البتة، وأن الجرأة

والطغيان قد بلغا مبلغاً في هذه النشرة الرسمية، وأن كتب وزارة المعارف قد عرضت لي صفحتها، فإن شئت قضيت وإن شئت أمسكت.

أما ثالث أقوال الوزارة من أن الكتاب فيه (نقص في الشرح)، فليس صحيحاً بوجه من الوجوه، إذ كان شرحي مختصراً مبيناً عن وجه العبارة والمعنى؛ وقاعدتي في الشرح أن أدع نص أصحاب اللغة في شرح اللفظ اللغوي، إلى عبارة أعبر بها معنى الجملة على الوضوح والبيان. وبذلك أسقط من الكلام ما تحشو به وزارة المعارف كتبها من الشروح التي لا معنى لها. وسأضرب في كلمة أخرى أمثلة كثيرة أزعم أنها هي التي بغضت إلى الطلبة أكثر كتب الأدب التي وزعت عليهم، وصرفتهم عن الاستفادة منها.

هذا، ومن قرأ كتاب أحمد بن يوسف يعلم - ولعل وزارة المعارف تعلم أيضاً - أن الكتاب مجموعة من القصص القصيرة، في عبارة قريبة واضحة ليس فيها من غريب اللغة إلا القليل، ورب غريب فيها يبين عنه سياق الحكاية، فلا معنى لإرهاق نظر الطالب والتهويل عليه بالشروح المستفيضة التي تخوفه أو تثقل عليه. ورب شرح قصير موجز واضح يكون أعظم بركة على القارئ من تعالم غليظ ثقيل وتقعر.

وعندنا أن الأسلوب الذي جرت عليه وزارة المعارف في شرح كتبها أسلوب غير منتج إلا أسوأ النتائج، لأنه يصرف الطالب عن الاستمتاع بالنص، وعن التقليب له والنظر فيه، وعن الترديد لطلب المعنى بالجهد القليل، وتجعله حائراً بين الكلام الذي يقرأ وبين الشرح الطويل الممل الذي تتدلى حواشيه على كل كلمة أو حرف من عبارة قصيرة قريبة المعنى دانية البيان، وأن هذه الطريقة المضحكة هي التي تجعل الطالب لا يهتم كثيراً بالإصغاء إلى أستاذه اعتماداً على ما يتوهمه في الشرح الطويل العريض من الإبانة الصحيحة عن المعنى، فإذا فعل ذلك، ثم رجع إلى كتابه وقرأ شرح الشراح وأصحاب الحواشي لم يفهم، وربما أضله هذا الشرح عن بعض الصحيح من الفهم الذي فهمه قبل قراءة الشرح. وأنا لا أقول هذا عن رجم وتظنٍّ، بل أقوله وقد وقفت عليه من ملاحظتي لأكثر من عشرين طالباً من أبنائنا الذين كتب عليهم أن يتعلموا العربية في وزارة المعارف. ولست أشك أن أكثر أساتذة العربية في المدارس الأميرية، لو أتيح لهم أن يتكلموا لأظهروا هذه العيوب كلها لما يقاسونه مع الطلبة في دراسة النصوص العربية التي شرحتها وزارة المعارف.

ومع كل ذلك، فأنا أوافق وزارة المعارف، على أن كتابي فيه نقص في الشرح! فهل يعيبه هذا؟ إنما العيب أن يطول الشرح ويكثر، وتلج لجاجته، ثم يكون هذا الشرح تضرباً في خطأ بعد خطأ، وفي سوء فهم للعبارة، وفي إبهام آت من قلة المعرفة بأساليب العرب في كلامها. وأنا أتحدى وزارة المعارف أن تخرج من كل ما صححت من الكتب، بل من كل ما أكتب، شيئاً يدل على ذلك. وما دامت الوزارة تأبى إلا أن تعتدي عليَّ فسأضع يدها على ضرب مدهش من الشروح التي وقعت فيها فيما طبعت من الكتب، يدل كل الدلالة على أن الشراح لم يفهموا حرفاً واحداً مما قرأوا، وأنهم ينقلون من الكتب ما يصادفون من المعاني، لا ما توجبه الجمل من معاني اللغة، وأنهم لا يتذوقون الأدب إلا بالوظيفة وعن طريقها!!

أما النقص في التعريف بأعلام الرجال - كما تقول وزارة المعارف - فلا أظن أحداً قرأ كتاب أحمد بن يوسف ورأى ما فيه وعلم غرض مؤلفه منه، إلا وجد من عيب وزارة المعارف لكتابي بهذا النقص - كما تسميه - أسلوباً مضحكاً في النقد. أتظن الوزارة أنها تستطيع أن تعرف بفلان وفلان وفلان ممن ذكر في هذا الكتاب في سطرين أو ثلاثة، ثم يكون هذا تعريفاً؟ كيف تستطيع هذه الوزارة أن تعرّف قارئ كتابها في سطرين أو ثلاثة: بإبراهيم بن المهدي، وابن طولون، وابن بسطام، والمأمون، وابن مدبر، وخاله العشريّ، وابن أبي الساج، وخمارويه، وفلان وفلان ممن لا نحصي كثرة؟؟ وهل تعتقد أن التعريف بأحد هؤلاء إن هو إلا ذكر سنة مولده أو سنة وفاته أو وظيفته في الدولة؟ وقضي الأمر الذي فيه تستفتيان! هذه طريقة في التعريف بالرجال مضحكة، لا نلجأ نحن إليها ولا نقرها، ونعلم أن لا فائدة فيها للطالب أو غير الطالب بتة. وستخرج طبعة وزارة المعارف التي تطبع بالمطبعة الأميرية قريباً وسنعلم كيف فعلت! وندلها على الصواب في كل ذلك إن شاء الله.

وأخيراً. . وأخيراً، أيها القارئ، تقول وزارة المعارف بعد أن أنهكها تعداد عيوب كتابي،

وبلغ منها، وكدها، وأوهى منتها، واستصفى نشاطها، وحيرتها الكثرة التي لا تحصى من بلادتي وغفلتي وأخطائي. . . أخيراً تقول: وفي هذا الكتاب الذي نشرته: (غير ذلك من العيوب): (فقطعَ دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين).

وأخيراً أيضاً، أشكر وزارة المعارف على حسن جزائها لي في كتاب لم أتقدم به إليها، ولكني تقدمت به إلى قراء العربية، ثم أشكرها على توصيمها لاسمي واسم هذا الكتاب بالنشرة التي أذاعتها على مدارسها. وإذا كانت وزارة المعارف تجهل من أنا، وما عملي،

وكيف هو - ووزارة المعارف تجهل أشياء كثيرة - فكل ذلك لا يبيح لها أن تتهجم على الناس بالسيئ من القول.

إني أعلم كيف كتبت هذه النشرة، ومن الذي أملاها، ولأي غرض أمليت على من كتبها، ومن المضحك أن يجرؤ إنسان كل درجته في هذا الأمر تأتي من قبل وظيفة أو أن يجرؤ إنسان كل علمه يأتيه من قبل شهادة نالها، ثم من وظيفة قدر له أن يحرزها أو تحرزه، ثم من ثالثة الأثافي التي هي الحظ. . أقول: من المضحك أن يجرؤ أحد هذين أن يدعي لنفسه حق الحكم على عمل أعمله مستتراً وراء نشرة تصدرها وزارة المعارف، وهو لو وضعته بين ثلاثتي التي أمسك بها هذا القلم لمزَّقت عنه كل الوشي المصنوع الذي يكتسيه ويتجمل به. . . ومع ذلك فسوف نرى.

محمود محمد شاكر

. . .كلمات

الإصلاح الاجتماعي

قرأنا في الصحف أن وزير الشؤون الاجتماعية يقدم إلى مجلس الوزراء مشروع قانون بإنشاء مجلس أعلى للشؤون الاجتماعية.

وما نظن حكومة من حكومات العالم، ولا أمة من أمم هذه البسيطة، هي أكثر لجاناً ولا أطول لساناً في الكلام عن الإصلاح من حكوماتنا ولا من أمتنا المصرية.

وهذه (لجنة) أخرى جديدة للشؤون الاجتماعية، أي للإصلاح الاجتماعي.

والإصلاح الاجتماعي هو تمدين الأمة ونقلها مما هي عليه - والمثقفون منا يعرفون وتضيق صدورهم مما هي عليه - ويكاد يكون من العجيب أن تؤلف لجنة لهذا الغرض قبل أن يتحدد بيننا هذا الغرض نفسه.

فهل نحن نريد أن نكون أمة أوربية، أم نريد أن نكون أمة شرقية. . . أم نريد أن نكون - كما يقول كثيرون من المترددين - بين هذه الحضارة الشرقية التي ورثناها وبين هذه الحضارة الأوربية التي تغزونا؟

ونحن ليس من همنا في هذه الكلمة أن نقول رأينا فيما يجب أن تكون حضارتنا وثقافتنا بين الحضارات، بل همنا أن نقول: إنه عجيب أمر هذه اللجنة التي يؤلفها وزير الشؤون الاجتماعية للإصلاح الاجتماعي.

وقبل أن تؤلف لجنة لهذا الغرض يجب أن نحدد موقفنا قبل كل شيء، ويجب أن نعرف في أي مكان نريد أن نضع أنفسنا بين أمم الأرض، لا أن نسير فنخبط ونخلط كما نفعل الآن، وكما فعلنا منذ لابسنا الحياة الأوربية وذقنا ثقافة الغرب وتفكيره وحضارة عصره.

ويجب قبل ذلك أيضاً أن نهيئ الرأي العامل لقبول ما نريد أن نسوقه إليه وأن نقوم حياة شعبنا عليه من إصلاح جديد.

وسأضرب مثلين مفردين لتوضيح ما أريد:

فهذا تعليم الأمة وتنوير الجيل الجديد منها تسيطر عليه وزارة خاصة هي وزارة المعارف، وتهيمن على ثقافة الخلاصة منه جامعتان: جامعة فؤاد الأول، وجامعة الأزهر. ولكن هذه الوزارة وهاتان الجامعتان ليس لها ولا لهما سياسة ثابتة ولا منهج مستقر ولا غرض

مقصود من تعليم هذا الجيل الجديد ولا تثقيف الخلاصة منه. فهي تخبط وتخلط، ولها في كل يوم جديد ينسخ ما كان بالأمس جديداً وسينسخه بعد حين جديد.

وما يقال عن وزارة المعارف وعن جامعتينا يمكن أن يقال عن هذا الإصلاح الاجتماعي الذي تؤلف له وزارة الشؤون (لجنة) قبل أن تتحدد غاياته وأغراضه ومراميه. والمثل الثاني هو قانون أصدرته هيئة إصلاحية وصدر به قانون ألزم جميع المحاكم والناس أن يعملوا به: وهو قانون الطلاق الثلاثي يقع واحدة.

فلا يزال كثير من سواد الناس ومن الفقهاء لا يرضى فيه بما رضى الأزهر ورضيت المحاكم الشرعية العليا ولا بما أمرت وزارة العدل وقوانين الدولة، لا يزال هؤلاء الكثيرون من السواد ومن الفقهاء يوقعون الطلاق الثلاث ثلاثاً برغم هذا كله وقد مضت على هذا القانون عشر سنين أو تزيد، فهذا مثل للإصلاح الذي لم نهيئ له الرأي العام ولم نمهد له نفوس الناس حتى يمكّن لذيوعه ورسوخه رضاهم واطمئنانهم إليه قبل أن تمكّن له قوة القانون.

فقبل أن تؤلف وزارة الشؤون الاجتماعية لجنة للإصلاح الاجتماعي يجب أن يكون الغرض من هذا الإصلاح وأن تكون الغاية فيه واضحة بيِّنة معلومة الحدود والمراسم والتفاصيل، وأن تُهيأ له قبل ذلك نفوس الناس.

(محمود)

رسَالة الشِّعر

من وحي الحرب

أوراق الخريف. . .

(مهداة إلى الأستاذ (العقاد))

للأستاذ محمود الخفيف

يَا هَوْلَ مَا تُوحِيهِ مِن خَاطِرِ ... جُمُوعُهَا المَاثِلَهْ
الْمَوتُ في بَطْشٍ لَهُ قاهِرِ ... أَلْقَى بِهاَ ذَابِلَهْ
مَضْعُوفَةً بَعَد الصِّبا النَّاضِرِ ... مُصْفَرَّةً آلافُهاَ الرَاحِلَهْ
مَطْعُونَةَ الأَوَّلِ وَالآخِرِ ... مَذعُورَةً مُعْجَلَةً ذَاهِلَهْ!
تَسَابَقَتْ في وَثْبِهاَ لِلِفْنَاءْ ... صُفُوفُهاَ الوَاهِيهْ
كَأَنَّماَ يَدْفَعُهَا فِي الْخَفَاءْ ... لِحَتْفِهاَ طَاغِيَهْ!
أَوْ قَادَهَا لِلمَوْتِ كُرْهُ الْبَقَاءْ ... في عِيشَةٍ تُفْضِي إلى الهاوِيَهْ
الذُّلُّ في نَاحِيَةٍ وَالشَّقَاءْ ... وَالبَطْشُ وَالطُّغْيَانُ في نَاحِيَهْ
يَا سُوَء مَا تُوحِيهِ لي مِنْ خَيَالْ ... أَوْرَاقُ هَذَا الْخَرِيفْ
في حَشْدِها كَمْ ذَا أَرَى مِنْ مِثَالْ ... لِكُلِّ عَان لَهِيفْ
كَمْ مُوجَعٍ فِيهَا وَكَمْ ذِي كَلاَلْ ... مُهَدَّمٍ أَضنَاهُ كَسْبُ الرَّغِيفْ!
يَا قُبْحَهَا! تُوحِي لِنَفْسِي المَآلْ ... لِكُلِّ فَيْنَانٍ بَهِيجٍ رَفِيفْ
كَمْ صَوَّرَتْ رِيحُ الشَّمَالِ الطُّغَاةْ ... لَمْ تَلْوِهِمْ عَاطِفَهْ
مِنْ كلِّ عَاتٍ شَرُّ مَا فِي الْحَيَاةْ ... حَيَاتُهُ الْعَاصِفَهْ
أَصَمُّ كَمْ تُزْجِى المَنَايَا يَدَاهْ ... والأَرضُ مِنْ هَوْلِ الرَّدَى رَاجِفَهْ
مَا وَطِئَتْ أُذْنَيْهِ يَوْماً شَكَاهْ ... أَوْ عَطَفَتْهُ الرَّحْمَةُ اللاَّهِفَهْ!
جِنْكِيزُ أَوْ تَيْمُورُ هَذا الزَّمَنْ ... في عَصْفِهاَ مَاثِلُ
يُتْرِعُ لِلْعَصْرِ كُؤُوسَ الْمِحَنْ ... زُعَافُهاَ عَاجِلُ
وَذَلِكَ المِسْكِينُ مَهْماَ أَفْتَتنْ ... في غَدِهِ مِنْ سمِّهاَ نَاهِلُ
مَهْماَ يَكُنْ مِنْ هَوْلِ هَذِى الْفِتنْ ... عَمَّا قَرِيبٍ يَزْهَقُ الْبَاطِلُ
هَذِى الْجُمُوعُ الصُّفْرُ كَمْ نَبَّهَتْ ... شَجْوِىَ أَوْصَافُهاَ
لَشَدَّ عِنْدَ المَوْتِ مَا أَشْبَهَتْ ... بَنِيهِ آلاَفُهاَ
في غَمْرَةٍ مِنْ خَلْفِهِمْ مَا وَهَتْ ... أَيْدٍ بُرُوقُ الوَهْمِ أَهْدَافُهاَ
فَخَارُهَا في العَيْشِ مَا شَوَّهَتْ ... وَمُنْتَهَى الْعُمْرَانِ إتْلاَفُهاَ!
تَكْرُبُنِي أَشْلاَءُ تِلْكَ الْغُصُونْ ... تُذْرَي بِكُلِّ النَّوَاحْ
للرِّيحِ فِيهاَ مِنْ نَوَازِي الْجُنُونْ ... عَصْفٌ بِهاَ وَاجْتِيَاحْ
طَيْفٌ لِرُوحي مِنْ طُيُوفِ المَنُونْ ... الْوَيْلُ فِيهِ وَالأَسَى وَالنُّوَاحْ
فِيهِ الضَّحَاياَ سَاقَهاَ المُبْطِلُونْ ... أَشْلاَؤُهَا مِلْءُ الرُّبَى وَالْبِطَاحْ!
انْتَثَرَتْ أَوْرَاقُ هَذِى الشَّجَرْ ... وَأَوْحَشَتْ عَارِيَهْ
كَأَنَّهاَ في الأَرْضِ بَعْضُ الأَثَرْ ... لِهَذِهِ الْغَاشِيَهْ!
لكِنَّهَا خَضْرَاء لَمْ تُهْتَصَرْ ... تُكْسَى حُلاَهَا فِي غَدٍ ثَانِيَهْ
إِنْ أَوْحَشَتْ في الْعَيْنِ عِنْدَ النَّظَر ... فَفِي حَشَاهاَ تَكْمُنُ الْعَافِيَهْ
يَا وَيْحَ لِلإِنْسَانِ مَا إنْ لَهُ ... في غَيِّهِ مِنْ قَرِيعْ
تَنْثُرُ كَفُّ الدَّهْرِ آمَالَهُ ... وَمَا لَهُ مِنْ رَبِيعْ

وَالْبَغيُ كَمْ يُنْقِصُ آجَالَهُ ... وَالْعَيْش عَجْلاَن اللَّيَالِي سَرِيعْ
صَرِيعُ هَذا الْبَغْيِ يا وَيْلَهُ ... يَرْثِي جَنَانِي لِلشَّقِيِّ الصَّرِيْع!
الخفيف
رِسَالة الفَنّ
شيء موجود
الانجذاب
للأستاذ عزيز أحمد فهمي
يصف عامتنا الرجل الطويل اللسان الذي لا يكتم الحق، والذي يلقيه على عواهنه يخز به الصغير ويخدش به كبرياء المتكبر، ويجر به الخير ويسبب به الكارثة. . . بأنه (مسحوب من لسانه) وهذا الوصف يفهم فهمين: الفهم الأول هو ما تؤدي إليه هذه الصورة المادية التي يقعد عند إدراكها القانعون بالصور المادية، والفهم الثاني هو ما يدركه الطماحون الذين يسعون إلى المعاني، والموهوبون الذين تسعى المعاني إليهم، وهو أن يُعتبر الرجل المسحوب من لسانه إنساناً إذا رأى الحق انشدَّ إليه فلم يتثاقل عليه، ولم يفكر في الامتناع عنه، ولم يتريث في الذهاب إليه، وإنما هو يندفع قاصداً إياه ليسكن فيه، ولينعم بلذة هي السكنى، ولينتشي بما تبعثه في نفسه من الاطمئنان الذي لا يرتاح إلا إذا حصله والذي يقلق إذا فوّته، وهو في اندفاعه نحو الحق لا يمشي على رجليه، ولا يطير بجناحيه، وإنما يحرك لسانه بالقول يقرر به الحق الذي لمحه من غير جهد يبذله في تحريك لسانه، ولا عناء يتجشمه في تقريره للحق. بل إن الجهد يبذله إذا أمسك لسانه، والعناء يتجشمه إذا قاوم الحق وتعنت معه والتوى عليه. . .
وهذه الصورة المعنوية للرجل المسحوب من لسانه هي نفسها صورة المجذوب الذي يبيع الدنيا بكلمة حق يقولها فيفتقر ويخسر الناس، ويطيح إلى خارج أنظمتهم وقواعدهم، ويعدم النصراء منهم والأنصار ويتلقى على أم ناصيته التهم تكال له جزافاً أشرفها وأنظفها أنه مجنون لا عقل له ولا تمييز، والسخرية تنهال عليه من كل جانب لأنه الإنسان الشاذ الذي يقول ما لا يصح أن يقال والذي يفعل ما تواطأ الناس على ألا يفعلوه. . . وهذه الصورة هي أيضاً نفسها صورة الأديب الفنان الصادق الحس السليم المنطق الصادق التعبير الواضح القصد، فهو نفسه المجذوب وهو نفسه المسحوب من لسانه الذي يقول للمجتمع مهما اغتر المجتمع: إنك يا أيها المجتمع مغرور ومخطئ، والذي يقول للسلطان مهما قوي
السلطان ومهما اشتد: أيها السلطان إنك حائد عن الحق ومنزلق إلى الباطل، والذي يقول للعقيدة مهما تغلغلت في النفوس وتأصلت في القلوب: أيتها العقيدة إنك فاسدة ترتكزين على مغالطة، فانهاري لأقيم مكانك في نفوس للناس عقيدة أخرى تقوم على أساس من الحق الصافي.
وهذا الأديب لا يصل إلى هذه الدرجة من قوة النفس إلا عن واحد من سبيلين. فإما أن يكون قد ولد من أبوين صادقين غربلا نفسيهما قبل أن ينتجاه، ونفيا عن روحيهما كل خدعة وكل أكذوبة، وركنا إلى الحق في إحساسهما وتفكيرهما ونزعاتهما، ولم يعودا يتأثرا بالهوى، ولم يعودا يظنان بأنه كان يصح أن يكون لهما أكثر مما لهما، وهذان أبوان لم يلتقيا. . . وإما أن يكون كبقية الناس قد ولد وقد ورث نواة الخطيئة الحادثة من تفاعل الغرور عند أبيه والطمع عند أمه، وأن يكون قد انتبه إلى هذا على أثر حادثة من الحوادث، فبدأ يأخذ نفسه بمراقبة الحق وتحريه والقصد إليه حتى تنفتح نفسه للحق انفتاحاً فيحبها الحق كما تحبه وينزل فيها كما تنزع إليه، وليست نفس الإنسان إلا حقاً من الحق إذا صفت وانغلقت دون الغرور والطمع نمت خالصة واستدعت من الحق حقاً وحقاً، وكلما أحاطت بحق مثلته فصار منها، وكلما كبر ما فيها من الحق وزاد، اشتدت قوتها على استدعاء الحق الذي غاب عنها، ولا تزال هكذا حتى يكون لها إذا أرادت أي حق أن يلبيها مهما كان نزاعاً إلى التستر.
والإنسان الذي يحاول هذه المحاولة ويعاني فيها هذا العناء، ليس له قصد إلا هذا الحق المجرد، فهو إذا وصل إليه مجذوباً، حدث بينه وبين الحق تصادم هو عناق اللقيا، وكان لهذا التصادم صوت هو قبلة الشوق، وهي من الأديب كلام، ومن سواه فنون أخرى. . .
وقد تعجز أي قوة في الأرض عن أن تحول بين الأديب المجذوب المسحوب من لسانه وبين كلمة الحق يفرقعها رنانة مدوية كما يفرقع العاشق المجنون قبلة التحرق إذا

التقى بحبيبه.
وكما أن العاشق المجنون يظل يسعى، ويظل يصبر الزمن الطويل حتى يلتقي بحبيبه بعد أن يكون قد داخ في البحث عنه، وفي الصبر عنه، وفي الشوق إليه، فإن الأديب المجذوب هو أيضاً يظل يسعى، ويظل يصبر الزمن الطويل وهو مملوء شوقاً إلى حق يعلل به حقاً،
أو يقيم عليه حقاً، فكيف يمكنه إذا لمحه وتبينه أن يعود إلى الصبر عنه والصبر مر؟!
إنه لا يعود إلى الصبر، وإنه ليتهافت على معشوقه الذي كان غائباً عنه ثم تجلى. . . سبحانه من معشوق وتعالى!
هي دوخة يدوخها المجذوب قبل أن يصل، فلا يلومنه إنسان إذا هتف كذلك الذي هتف وهو عريان في الحمام، وقال: (وجدتها)! وانطلق من الحمام وهو عريان ليعلن أمام مخلوقات الحق أنه قد وجدها، وهي أنه إذا غطس جسم في الماء انزاح من الماء ما يساوي حجمه حجم ذلك الجسم الغاطس. . .
وفي أثناء هذه الدوخة تظهر على الأديب المجذوب المسحوب من لسانه إمارات لا تظهر إلا على الدائخين فعلاً وحقاً فهو إذا انفرد بنفسه أو إذ لم ينفرد بنفسه فهو لا يفتأ يفكر مع نفسه ويتناقش مع نفسه، ويتحدث مع نفسه بالإسرار أحياناً، وبالجهر أحياناً، وإن عقله ليهديه في بعض الأحيان إلى ما يحسبه حقاً ثم يهديه بعد ذلك إلى ما يهدم هذا الذي حسبه حقاً فإذا به يضحك فجأة وهو منفرد أو بين الناس ساخراً من نفسه لأنه حسب باطلاً من الأباطيل حقاً في زمن من الأزمان، وقد لا تقف به الحال عند الضحك. بل إنه قد يلطم نفسه لطمة، وقد لا يقف به الحال عند هذا بل إنه قد يضرب رأسه في جدار إذا كان قد رتب على هذا الباطل الزور قولاً فأعلنه أو فعلاً فأداه.
إنه يعامل نفسه كما يعامل غيره. بل إنه ليشتد مع نفسه ويصارحها بعيوبها أكثر مما يشتد مع الناس وأكثر مما يصارحهم بعيوبهم، فليس هناك ما يدعوه إلى أن يترفق مع نفسه كما يترفق مع الناس مجاملة أو تهيباً أو توقيراً أو عطفاً أو شفقة، وهو مع شدته هذه أشد الناس رحمة لنفسه، فهذا الذي يصنعه ليس إلا تخليصاً لها من أدران البهتان وظلمات الأراجيف.
وإذا كنا قد رأينا أديباً كهذا الأديب قد انشطرت نفسه شطرين وتسلط كل شطر منهما على الآخر يحاسبه ويناقشه ويناضله كمن بينهما عداوة تهدي إلى الحق، فإننا قد رأينا أيضاً مغنين مجذوبين ورسامين مجذوبين وممثلين مجذوبين ومجذوبين آخرين من غير هؤلاء وهؤلاء.
والفرق بين كل واحد من هؤلاء وبين الأديب المجذوب، أن الأديب المجذوب مسحوب من لسانه إلى الحق فهو يعلنه بالكلام الملفوظ أو بالكلام المقيد كتابة، وأن الواحد من هؤلاء
مندفع إلى الحق ومتجه إليه بناحية أخرى من نواحي نفسه المنشقة هي أيضاً شقين، والمشطورة هي أيضاً شطرين.
فالمغني المجذوب تراه وهو في حالة الانجذاب وقبيل أن يستقر على صوت روحه يهتز ويترنح - كما يفعل الشيخ علي محمود - يريد ألا يمر من حنجرته إلى الخارج إلا صوت مبعوث من قرارة نفسه فيه التعبير الصادق عن المعنى الذي يقصد إلى التغني به. وهو لا يزال في هذا الاهتزاز وهذا الترنح المتعبين حتى ينطبق كل شطر من شطري نفسه على صاحبه فإذا تم له هذا التوحد الروحي انطلق الغناء من صدره. . . ومن أعماق صدره. . . وجاز حنجرته منساباً مختاراً لا يتحسس أوتارها، ولا يضغط على مقاماتها، ولا يرعى ما يراه المغنون من وزن النغمات وربط الضرب وتقييد الواحدة، وإنما أرسل الغناء إرسالاً تعبيراً ساذجاً صادراً من نفس تغني. . . وعندئذ يكون المغني كما يكون الشيخ عبد الفتاح الشعشاعي وهو يقرأ غائباً عن الناس أو في شبه غيبوبته عنهم. . . وكما يكون أيضاً الشيخ علي محمود عندما يتجلى الله عليه فلا يجاريه إنسان.
وقد ينجذب المغني إلى حق التعبير عن نفسه بالغناء فلا يعبأ بالناس أن يستمعوه أو أن ينفضوا من حوله فهو يغني لغير مستمع أو لأي مستمع، وهو يغني منفرداً كما يغني في الجماعة، وهو يغني في مقام الغناء وفي غير مقامه، وهو يحترف الغناء أحياناً ويكف عن احترافه أحياناً كما يفعل الأستاذ مصطفى أمين الذي كانت له (شنة ورنة) منذ سنوات والذي لا يكاد أحد يدري أين هو الآن، والذي قيل لي منذ عام أن نفراً من

أصحابه يشتبهون في متسول مغن أن يكون هو الأستاذ مصطفى أمين أرسل نفسه في الدنيا ينشد تسبيحاً لله وصلاة وتسليما على رسوله. . .
والرسام إذا انجذب. . . فيا ويل الأوراق والأقلام والألوان منه. . . إنه يخبط بعضها في بعض، ويخرج من هذا الخبط بأشكال يرضيه بعضها وينفره بعضها، ويرى هو فيها جميعاً ما لا يراه غيره من العيب والنقص، وقد يكون رسمه مؤدياً لما لا تبلغ إليه أيدي الرسامين من معاصريه، ومع هذا فهو الذي يعلم أن عمله ناقص، لأنه هو الذي يحس أنه لا يزال في الطريق مدفوعاً نحو تلك الصورة التي تتخايل أمام عينيه غامضة وراء أحجبة الزور وسحابات الباطل. . . فإذا ما اقترب. . . أو إذا ما وصل فعندئذ ينفجر بالصورة الواضحة
البسيطة التي لا تعقيد فيها، ولا اضطراب، والتي لا أثر فيها لانشقاق النفس وانشطارها، والتي هي أثر من آثار توحد النفس: إحساسها، مع إدراكها، مع خلقها، مع تعبيرها. . .
والممثل إذا انجذب إلى دور كان كالأستاذ عزيز عيد وهو مجذوب إلى دور مجنون ليلى. . .
كل الممثلين، وكل النقاد، وكل الناس كانوا يسخرون منه، وعلى الخصوص بعد أن شاهدوا المجنون من الأستاذ أحمد علام الممثل المتعشق المتأنق اللبق، فلم يجدوا مطلقاً ما يبرر ظهور عزيز عيد في هذا الدور الذي قال الناس جميعاً إنه لا يصلح له لا بجسمه ولا بنفسه. . . وليس الأستاذ عزيز عيد بالرجل الذاهب العقل، ولكن عقله ذهب إلى هذا الدور، واستهان بعلام فيه، كما استهان بحسين رياض فيه، وهو لم يستهن بهما على تمكنهما المعترف به إلا لأنه كان يرى للمجنون صورة أبعد نحو الحق من الصورة التي رأياها هما. . . هي صورة لما رأيتها منه أبصرت فيها من المسيح ملامح. وقد ظل عزيز عيد يخاصم أهل الفن جميعاً في سبيل هذا الدور حتى تعب هو نفسه منه لأنه اقتنع في آخر الأمر بأن مادة بدنه تقعد عن تحقيق الصورة الخيالية اللطيفة التي يتصورها، وأنه لن يستطيع أن ينقل من هذه الصورة إلى أذهان الناس حتى ولا التظليل الباهت الغامض، وأنه محتاج إلى جمهور من الملائكة أو الجن يستشفون روحه من وراء مادة بدنه. . .
عافاه الله من ممثل عاشق لفنه، صادق في عشقه، مجذوب.
عزيز أحمد فهمي
البَريدُ الأدبيّ
تشابه الفكرة عند الكتاب
إلى الدكتور زكي مبارك
لاحظت أثناء مطالعتي كثيراً من التقارب بين أفكار المؤلفين مما يثير حب استطلاعي في معرفة سبب ذلك وهل هو تأثر بعضهم ببعض، أو تشابههم في وجهة النظر والتفكير، أو نقل أحدهم عن الآخر، أو تشبع أحدهم بآراء مشابهة لآراء الآخر. فمن ذلك أني لاحظت مثلاً في أثناء قراءتي مقالاً للأستاذ أحمد أمين منشوراً بمجلة الثقافة تحت عنوان (في المدنية الحديثة) بتاريخ 19111940 في عددها رقم 99 - أن بعض أفكاره خصوصاً عن الحقيقة العقلية في آخر الصفحة الثامنة وأول الصفحة التاسعة من المجلة - تشابه أفكار الأستاذ توفيق الحكيم السابق نشرها في كتابه (تحت شمس الفكر) في صفحة 10 و11 وما جاء بكتابه (عصفور من الشرق) في صفحة (111). كما أني قد لاحظت من قبل في مقال سابق للأستاذ أحمد أمين في مجلة الثقافة عدد 2 بتاريخ 10 يناير سنة 1939 تحت عنوان (بين الشرق والغرب) نفس التشابه في الروح والأفكار لما جاء في بعض صفحات (عصفور من الشرق) خصوصاً في صفحاته 90 إلى 94 وصفحة 203 و204.
فالرجاء إذا كان لديكم متسع من الوقت لمراجعة مثل هذه المسائل أن تفيدونا في مقال من مقالاتكم الطريفة الممتعة في الرسالة عن رأيكم في مدى ملاحظتي هذه، وفي مدى العلاقات الفكرية التي تربط الكتاب من حيث الاتحاد في وجوه النظر

وطرائق التفكير.
محمد الرفاعي
المحامي
جرائم أدبية!
هذا التعبير الفظيع هو الذي يصور ما أريد، وتلك الجرائم هي جناياتي على أدبي، الأدب الذي رجوت أن يكون صورة صحيحة لما يثور في القلب والعقل والوجدان، ثم لم يكن مع الأسف إلا شاهداً على أني أساير الناس وأصانع الزمان.
أقول هذا وقد مزقت بالأمس صفحتين أنشأتهما في لحظة صفاء، وقد عرفت أن أصحاب (الحب الغاضب) لا يزالون أحياء، وأنهم لم يكونوا غائبين، وإنما كانوا غاضبين
ألم أقل لكم إن القطيعة المقصودة من فنون الوصال؟
ولا أعرف كيف مزقت هاتين الصفحتين وهما عُصارة قلبي وروحي؟
هل كنت أخشى أن تكونا وثيقة جديدة على أني رجلٌ مفطور الفؤاد؟
وما العيب في ذلك وما ظهر في الدنيا أديب بلا قلب؟
هل كنت أخشى أن يقول السفهاء إن أصحاب القلوب لا يصلحون لكبار الأعمال؟
وكيف أخاف أقوال السفهاء ومنهم عرفت أن التجريح لا يصوب إلا إلى الأديم الصحيح؟
أمثلي يخاف الناس وهو يعبد الله كأنه يراه؟
لقد فكرت في أمري مرات فوجدتني أصدق من توكل على الله، ورأيته عز شأنه يرعاني رعاية رفيقة هي البرهان الساطع على حمايته لأرباب القلوب.
فما خوفي من زماني، وأنا بفضل الله في أمان من مكاره الزمان؟
النفاق عمل ضائع، والمنافقون ضائعون، ولن يبقى في صحيفة الخلود غير القول الصادق الصريح، ولو كان في ظاهره رجساً من عمل الشيطان.
كنت أقسم ثم يسوقني الهوى إلى الحنْث، فلما أقسمت بالله الذي أقسم بالقلم لم يعرف الهوى كيف يسوقني إلى الخُلف في اليمين.
فهل أُقسم بالذي أقسم بالقلم لأفينَّ لوحي القلب أصدق الوفاء؟
أخشى أن تكون في صدري بقية من الشِّرك، وللشِّرك دلائل منها تهيب الناس، وأنا أكتم بعض آرائي عن الناس.
فمتى يرحمني الله من هذا الشِّرك الموبِق؟ ومتى أنظر فلا أرى غير ما لذاته العالية من عظمة وجلال؟ ومتى أعرف أن جُموح القلم من أشرف الأرزاق، لأنه من شواهد الاعتماد على صاحب العزة والجبروت؟
زكي مبارك
سؤال إلى علماء الآثار عن المحيا النبوي بالأزهر
جاء في كتاب الخطط الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة للعالم الجليل علي مبارك باشا وهو الكتاب المعروف باسم الخطط التوفيقية - كلام عن أثر بالجامع الأزهر يسمى - المحيا النبوي - في أثناء ترجمة الشيخ أحمد شهاب الدين الكلبي المالكي (جـ15 ص101) وقد نقلت الخطط هذه الترجمة وما جاء فيها من ذلك الأثر عن كتاب خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، فذكرت أنه ممن ولد بمنفلوط الشيخ أحمد بن عيسى بن غلاب بن جميل المنعوت بشهاب الدين الكلبي المالكي شيخ المحيا النبوي بالجامع الأزهر نشأ بمنفلوط ثم تحول مع أبيه إلى مصر فحفظ القرآن وعدة متون وأخذ عن والده وأعيان العلماء. إلى أن قالت: وجلس بالمحيا بعد والده، ووالده بعد البلقيني، والبلقيني بعد الشيخ صالح، والشيخ صالح بعد الشوني المدفون بزاوية الشيخ عبد الوهاب الشعراني. ثم ذكرت أنه توفي سنة سبع وعشرين وألف ودفن بالقرافة الكبرى بمصر.
وهكذا عنيت الخطط كما عني كتاب خلاصة الأثر (جـ3 ص382) بسرد شيوخ هذا المحيا من الشيخ شهاب الدين الكلبي إلى الشيخ الشوني، ولم يرد فيهما شيء يبين هذا المحيا نفسه، فلم يعرفانا أمره، ولم يهتما ببيان مكانه بالجامع الأزهر، ولم يشرحا الغرض المقصود منه فيه، وقد أردت أن أعرف الآن شيئاً عن هذا المحيا النبوي من بعض شيوخنا بالأزهر، فلم أجد عندهم شيئاً من خبره، إذ نسي الآن أمره، ولم يعد له شيوخ يجلسون فيه كالشيوخ الذين جلسوا فيه سابقاً.
ولعلي بعد هذا أجد من قراء مجلة الرسالة الغراء - ولا سيما علماء الآثار - من يكون

عنده علم بهذا المحيا النبوي، فيبين لنا مكانه بالجامع الأزهر، ويشرح لنا أمره فيه.
عبد المتعال الصعيدي
تصويب وتعليق
ترجم الأستاذ النشار في العدد الماضي من الرسالة أبياتاً نظمها (لورد دنساني) أثناء مروره بمصر جاء في مطلعها:
أيها الملوك الأربعة الجالسون في ساحة أبي سنبل متجهين نحو مشرق الشمس، لقد رأيتم الإنسان يطير).
ولقد قرأت هذه الترجمة فسحرني خيال الشاعر المحلق وتعبيره الجميل، واستمتعت بلحظات نشوى حوم فيها خيالي على تلك الربوع الجميلة الساحرة من بلاد النوبة التي قضيت خلالها أربعة أعوام كانت ربيع العمر وفجر أحلامه. ثم حلق خيالي في أطباق الزمن إذ تمر مواكب القرون مطأطئة الرءوس أمام ذلك الأثر الخالد في أعماق الجنوب. . .
ولكني أفقت من هذه السبحات الجميلة على هتاف ينبعث من ثنايا الذاكرة أفسد عليّ ما أنا فيه من متعة بجلال الفكرة وجمال الأسلوب! فليس ثمة أربعة ملوك يجلسون في ساحة أبي سنبل، ولكنها أربعة تماثيل لملك واحد هو رمسيس الأكبر استقرت على واجهة معبده العظيم الذي أقامه هنالك تخليداً لذكرى انتصاره على الحثيين. . .
يا لله! لأحببت والله أن تتغير معالم التاريخ فتصير هذه التماثيل الأربعة لملوك أربعة لا لملك واحد، ليظل هذا التعبير الجميل الرائع في قصيدة لورد دنساني خالداً خلود هذه الآثار!
فإن في مخاطبة هؤلاء الملوك الأربعة وإشهادهم على ما وصل إليه الإنسان من عظمة مادية ومدنية شامخة، وفي جواب هؤلاء الملوك من معاني الخلود والروحانية والسمو، ما يفتح أمام الفكر عوالم من التأمل العميق والافتتان البالغ، لا يكشف عنها التعبير التاريخي عن حقيقة هذه التماثيل فلنسجل هذا التصويب للحقيقة والتاريخ، ولنستمتع بما في أبيات لورد دنساني من أدب رفيع.
(حلوان)
محمد كامل حتة
قصر اللابرنت
قرأت في عدد الرسالة رقم (387) تحت عنوان: (بين كاتب وشاعر وخطيب) البيت الآتي:
من كل بيت مشرق ... يزري بقصر اللابرنت
ووجدت في هامش التفسير ما يبين أن اللابرنت كان قصراً من قصور الفراعنة لا يزال بالفيوم إلى يومنا هذا.
ولكن الحقيقة أن اللابرنت هذا كان معبداً لهرم الملك (أمنمحيت الثالث) سادس ملوك الأسرة الثانية عشرة المصرية التي اتخذت إقليم الفيوم قاعدة لحكمها.
إذ كان المتبع أن يشيد كل فرعون معبداً جنازياً شرقي هرمه تقام فيه الطقوس الدينية والصلوات.
وكان ينقسم إلى قسمين: الرئيسي المتصل بالهرم وهو خاص بالكهنة وأقارب الملك المتوفى.
ثم القسم الثاني وهو ما نسميه بمعبد الوادي وكان خاصاً بالشعب لإقامة الشعائر الدينية على روح الملك المتوفى حتى يهنأ بالراحة الأبدية في الدار الآخرة. وكان يصل المعبدين عادة طريق طويل مسقوف ينحدر بميل من معبد الهرم إلى معبد الوادي.
ولكن تسمية معبد هرم الملك (أمنمحيت الثالث) بقصر اللابرنت أخذت عن كتاب اليونان الذين رأوا كِبر المعبد واتساعه وتعدد حجراته أثناء زيارتهم لمصر فظنوه قصراً.
ومع كل ما أظهره الكشف الحديث من تصحيحات فنية فإننا لا زلنا مع الأسف نجد المعبد منعوتاً باسمه القديم حتى في الكثير من كتبنا المدرسية. وغير ذلك من الأعلام الأثرية الكثيرة.
محمد صابر

أخصائي في الآثار المصرية القديمة
ومؤلف كتب الفراعنة.
اقتراح
سيدي الأستاذ رئيس التحرير. . .
في العدد (357) من الرسالة الغراء عقب الأديب حسن أحمد باكثير مقالة الأستاذ عبد العزيز الدوري في تفسيره للهند الصينية (بإندونيسيا) بما نصه:
لا شك أن الأستاذ يقصد بذلك جزائر الهند الشرقية الهولندية لا الهند الصينية الخ. نعم لا شك في ذلك ولكن الواقع - مع الأسف الشديد - أن أكثر كتاب العرب ليس لهم أقل معرفة عن (إندونيسيا) بما فيها من نهضات مباركة. إن إندونيسيا التي لا ينقص عدد سكانها - حسب الإحصاء الأخير - عن خمسة وستين مليوناً ليتكون مسلموها من نحو ثمانين في المائة أي لا ينقص عن خمسين مليوناً، وإن فيها جمعية - وهي الجمعية المحمدية - هي أكبر جمعية دينية في العالم الإسلامي. . . فكيف إذن يجور لأديب من أدباء الإسلام أن يجهلها. . . لذا كم يكون نبيلاً من الرسالة - وهي على ما لها من نفوذ . . .- لو ازَّيَّنت صفحة من صفحاتها بأبحاث عن العالم الإسلامي لسد هذا النقص
(مكة المكرمة)
صلاح الدين سليمان هاشم
أخلاق القرآن
ذكر الدكتور عبد الوهاب عزام في مقاله (أخلاق القرآن) المنشور بعدد الرسالة 388 الآية الكريمة هكذا: (فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة اليوم بجالوت وجنوده). والصواب (قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده).
سليم الحجري
امرؤ القيس
إلى الأستاذ عبد المجيد مصطفى خليل
بعد التحية. . . قرأت مقدمة كتابك (أغاريد الزفاف) المنشورة بالعدد 384 من الرسالة إلى
أن وصلت إلى:
ورثت الرباب بنت امرئ القيس زوجها الحسين عليه السلام حين قتل فقالت:
إن الذي كان نوراً يستضاء به ... بكربلاء قتيل غير مدفون. . . الخ
فمن هو امرؤ القيس هذا؟ أرجو الإفادة على صفحات الرسالة الغراء
(سائل)
القَصَصُ
أو الزاهد (سانياسي)
مسرحية رمزية رائعة لشاعر الهند طاغور
ترجمة الأستاذ فخري شهاب السعيدي
(بقية ما نشر في العدد الماضي)
(يدخل رجال حاملين شخصا في فراش)
الأول: إنه لا يزال نائماً
الثاني: ما أثقل هذا اللعين
مسافر (خارج عن الجماعة): من هذا الذي تحملون؟
الثالث: إنه (بندى) الحائك الذي ينام نوم الأموات، وهانحن أولاء قد حملناه لننأى به
الثاني: ولكني تَعب أيها الرفاق فدعونا نهزه هزاً عنيفاً لنوقظه
. . .بندى: (مستيقظا): إيه؟. . . آ. . . أو
الثالث: ما هذا الصوت؟
بندى: من أنتم يا هؤلاء؟ إلى أين تذهبون بي؟ (يضعون عن عواتقهم الفراش)
الثالث: ألا تستطيع المحافظة على السكينة مثل سائر الأموات المحتشمين؟
الثاني: تلك حماقته، توجب عليه الكلام وإن يكن ميتاً!
الثالث: لقد كان يخلق بك أن تلتزم جانب الصمت
بندى: إني لآسف إذ أخلف ظنكم يا سادة، لأنكم أخطأتم فما أنا بميت وما كان اعتراني غير سنة من النوم العميق

الثاني: إني لأتعشق سلاطة هذا الرجل تعشقاً! فهو لا يموت فحسب، وإنما يموت مجادلاً
الثالث: إنه لن يعترف بالحقيقة؛ فلنذهب لإعداد شعائر الميت وإتمامها.
بندى: أقسم لكم بكرامة لحاكم هذه إني حي مثلكم
سانياسي: لقد استغرقت الفتاة في نومها متوسدة ذراعها تحت رأسها الصغير، وما أرى إلا أن أدعها وأذهب الآن. ولكن هل يجب أن تلوذ بالفرار، أيها الجبان؟ هل تلوذ بالفرار من
هذا الكائن الصغير؛ إنما هذه في الطبيعة أنسجة عناكبها وما ينال خطرها غير الفَراش ولا يتجاوزه ليبلغني أنا الزاهد سانياسي
(تتنبه (فاسنتي) مذعورة)
فاسنتي: هل تركتني يا سيدي؟ هل ذهبت عني؟
سانياسي: وما الذي يوجب ابتعادي عنك؟ مِمَّ أخاف؟ أو أرتاعَ من ظل؟!
فاسنتي: هل تسمع اللغط في الطريق؟
سانياسي: ولكن السكينة مخيمة على نفسي
(تدخل امرأة شابة ومن ورائها بعض الرجال)
المرأة: اذهبوا الآن، غادروني لا تتحدثوا إلي في الحب
الرجل الأول: وَلِمهْ؟ ما هو ذنبي؟
المرأة: إن قلوبكم - يا أيها الرجال - قد قُدّت من الصخر
الرجل الأول: كلام لا سبيل إلى تصديقه. إذا كانت قلوبنا مقدودة من الصخر فكيف تمكنت منها سهام (كيوبيد) إذاً؟
رجل آخر: أحسنت. صدقت
الرجل الثاني: والآن، فبماذا تجيبين على قوله يا عزيزتي؟
المرأة: أتريد جواباً؟ وهل حسبت أنك قلت شيئاً حسناً؟ إنما هذا هذر محض
الرجل الأول: إني أحتكم إليكم أنتم أيها السادة. لقد كان قولي: إنه لو كانت قلوب الرجال قد نحتت من الصخر، فكيف. . .
الرجل الثالث: نعم، نعم، ليس على هذا الكلام من جواب
الرجل الأول: والآن، فلأشرح لكم هذا: قالت إن قلوبنا نحن الرجال، مقدودة من الصخر، أليس كذلك! حسن؛ فأجبتها إن كانت قلوبنا من الصخر حقاً فكيف استطاعت سهام (كيوبيد) أن تنالها بالتخريب؟ أتفهم؟
الرجل الثاني: لقد كنت أبيع الديس منذ أربعة وعشرين عاماً في المدينة يا أخي، أفتظنني لا أفهم ما تقول؟ (ينصرفون)
سانياسي: ماذا تصنعين يا طفلتي؟
فاسنتي: إني أحّدق في راحتِكَ الواسعة يا أبتِ! وكأن يدي طير صغير قد وجد عشه فيها. إن راحتكَ فسيحة كهذه الأرض التي تتسع لكل شيء: هذه الخطوط أنهارها، وتلك فيها التلال. (تضع خدها على راحته)
سانياسي: إن مَلمسَكِ لناعم يا بنيتي كملمس النوم، وإنه ليخيل إلي أن في هذه اللمسة أثراً عظيماً من آثار الظلام الذي يجرح النفس جرح الأبد الخالد؛ ولكنك يا طفلتي لست سوى فراشة النهار: لك طيورك وأزاهير حقولك. فماذا تستطيعين أن تجدي فيّ أنا الذي حصرت مركزي في الوحدانية؟
فاسنتي: لا أريد شيئاً آخر غير حبَّك هذا فإنه يكفيني
سانياسي: تتوهم الفتاة أني أحبها، فيا لَذَات القلب الطائش! إنها سعيدة بهذه الفكرة فلتنمِّها وتشجّعها! دعها تتعلّل بي لأنهم قد نشئوا في أحضان الوهم فلا بد لهم منه لِتسليهم
فاسنتي: يا أبت، هذا العُصْبَةُ التي تمتد على العشب في التماس شجرة تلتف حولها إنما هي عُصبتي: لقد تعهدتها وأرويتها منذ أن نجمتْ منها ناجمتان من صغار الورق في الهواء كأنهما صرخة الطفل الصغير. إني أنا هي تلك العصبة: نشأتْ على جانب من الطريق، فمن السهل أن تقتلع. هل ترى هذه الأزهار الصغيرة الجميلة ذات اللون الأزرق الفاتح المنقّطة قلوبها بالنقاط البيض؟ ما هذه النقاط سوى أحلامها! دعني أمسحْ جبينك في لطف بهذه الأزهار، فعندي أن الأشياء الجميلة إنما هي مفاتيح كل ما

لم أرَ وما لم أهتد إلى فهمه.
سانياسي: كلا، كلا، ما الجمال سوى ضرب من الخداع. وإن الزهرة والتراب في نظر الحكيم العارف لشيء واحد. ولكن ما هذا الضعف الذي يدب في عروقي ويسدل على بصري نقاباً خفيفاً من ألوان قوس قزح جميعها؟ هل هذه هي الطبيعة تحوك أحلامها من حولي لتضل حواسي؟ (ينهض فجأة ساحقا الأزهار) حسبي هذا، فإنما هو الموت.
ما لعبك هذا، يا أيتها الفتاة، معي؟ إني أنا هو الزاهد (سانياسي) لقد قطعت عُقد نفسي كلها فأنا الآن حر طليق. كلا ثم كلا، لا تذرفي الدموع فإني لا أطيق احتمالها؛ ولكن أين كانت تختبئ هذه الحية في قلبي أين كان هذا الغضب الذي زحف خارجاً من ظلماته مرهف الناب؟ كلا. . . إذاً فهي لم تمتْ بل ظلت حية لإنشاء المجاعة: هذه المخلوقات الجهنمية قد جَمَّعتْ هياكلَها المقعقِعة وقامت تتراقص بينا أخذت أستاذتُها الساحرة الخطيرة، في إيقاع ألحان
شبابتها السحرية في قلبي. لا تبكيْ يا طفلة، وتعالي إليَّ تعالي. إنكِ لتشبهين في نظري صرخة عالم ضائع، أو نشيد نجم جوال. إنك لتطيقين بذهني شيئاً أوسع من هذه الطبيعة سعة لا تحد. بل هو أوسع من الشمس والنجوم جميعاً. . . إنه لعظيم كالظلام، وإني لا أدرك كنهيه، ولم أدر ما هو، وذلك ما يبعث الرعب منه في نفسي، وعليَّ أن أفارقَك، فعودي من حيث أتيت يا رسالة المجهول
. . .فاسنتي: لا تفارقني يا أبت، فإنه ليس لي في الدنيا من أحد سواك
سانياسي: بل يجب علي أن أذهب. لقد حسبتُ أنني عرفت ولكني لما أعرف، ومع ذلك، فيجب أن أهتدي إلى العرفان؛ فأنا أغادرك لأعرف من عساك تكونين!
فاسنتي: أبت، إن غادرتني كنت في الهالكين.
سانياسي: أطلقي يدي ولا تمسكي بي، فإني يجب أن أتحرر
(يخرج راكضا)
- 3 -
(يشاهد (سانياسي) الزاهد جالسا على صخرة في شعب جبل. يمر صبي راع مغنيا)
الأغنية: (لا تشح، يا حبيبي، بوجهك عني؛
فهذا الربيع قد فتح صدره،)
وهذه الأزهار تبوح بمكنون سرها في الظلام.)
وحفيف أوراق الغابة يرتفع في الفضاء
مثل ارتفاع حسرات الليل؛)
(. . .فتعال يا حبيبي، تعال وأرني وجهك)
سانياسي: إن ذهب الأصيل ليذوب في قلب البحر الأزرق وهذه الغابة التي تقوم على سفح الأكمة ترشف آخر أكؤس أنوار النهار. تلك أكواخ القرية ترى إلى اليسار من خلال الأشجار، وكأن مصابيح المساء المضاءة فيها أم مبرقعة وقفت ترقب طفلها المستغرق في النوم
يا أيتها الطبيعة إنما أنت أمتي، لقد نشرت بساطك المهول في القاعة الفسيحة التي أجلس فيها وحيداً جلسة ملك، أرقبك تتراقصين وعلى صدرك تلتمع ونيتك المنظومة من النجوم.
(:تمر صبايا الراعيات منشدات)
تجيء ألحان الموسيقى مما وراء النهر المشمول بالظلام فتناديني)
لقد كنت في الدار؛ وكنت فيها سعيدة؛)
ولكن لحن الشبابة تعالى في سكون الليل،)
فإذا بفؤادي تنتابه وخزة من الألم،)
ألا فلتدلني على الطريق يا من تعرفها،)
دلني على الطريق التي تقود إليه؛)
فسأذهب إليه بزهرتي الصغيرة الواحدة لأضعها عند قدميه)
(وخبره بأن موسيقاه وحبي شيء واحد!)
(يبتعدن)
سانياسي: أحسب أن مثل هذا المساء قد طرأ علي مرة واحدة طوال حياتي؛ فأترع كأسه إلى حافته بالحب والموسيقى، وجلست مع شخص يعيد ذكرى وجهه إلى مرأى

. . .نجمة المساء
ولكن أين هي فتاتي الصغيرة ذات العينين السوداوين الحزينتين اللتين تترقرق فيهما الدموع؟ أهي جالسة هناك خارج كوخها تحدق في نجمة المساء ذاتها من خلال وحدة المساء الجليلة؟
ولكن لا بد للنجمة من أفول، ولا بد للمساء من إغماض عينيها في الليل؛ فأما الدمع فسيرقأ حتماً، وأما الحسرات فسيهدئها النوم بغير شك. لا، لن أقفل راجعاً، ولتثبت لأحلام العالم أشكالها؛ لن أعترض سبيلها، ولن أختلق لها أوهاماً جديدة، فلسوف أبصر، ولسوف أتفكر وأعرف
(تدخل فتاة في أسمال بالية)
الفتاة: أنت هنا يا أبت؟
سانياسي: تعالي واجلسي بجانبي يا طفلتي. وبودي أن لو استطعت لملكت دعوتكم لنفسي. لقد دعاني بعضهم بـ (يا أبت) مرة، وكان الصوت يشبه صوتك بعض الشبه، وها إن الأب يجيب الآن، ولكن أين هو النداء؟
الفتاة: من أنت؟
سانياسي: إني (سانياسي) الزاهد؛ فخبريني أيتها الطفلة ما مهنة أبيك؟
الفتاة: إنه يجمع الأحطاب من الغابة
سانياسي: وهل لك أم؟
الفتاة: كلا، لقد ماتت إذ كنت طفلة
سانياسي: وهل تحبين أباك؟
الفتاة: أحبه الحب الذي ما فوقه شيء في هذا الكون. إني ليس لي في الدنيا سواه
سانياسي: لقد فهمتك. أعطني يدك الصغيرة، دعيني أمسكها في راحتي، في راحتي الكبيرة هذه
الفتاة: وهل تحسن يا (سانياسي) قراءة الكف؟ هل تستطيع أن تقرأ كل ما في حاضري ومستقبلي من كفي؟!
سانياسي: أحسب أنني أستطيع، ولكن عسير علي إدراك معناه، ولسوف أعرف المعنى ذات يوم
الفتاة: يجب أن أبادر للقاء والدي
سانياسي: أين؟
الفتاة: في الطريق المؤدية إلى الغابة، فإنه سيفتقدني إن لم يجدني هناك
سانياسي: قرّبي رأسك مني يا طفلتي. تعالي أقبّلك قبلة التبريك قبل أن تذهبي
(تغادره الفتاة)
(تدخل امرأة وطفلتان)
الأم: ما أقواكما وما أثقلكما يا ابنتي (ميسيري)! أما إنهما لمتعة للنظر! وما أراكما، كلما أطعمتكما إلا قد زدتما هزالاً يوماً فيوماً!
الطفلة الأولى: ولم أراك تلومينا على هذا يا أماه؟ هلا فهمنا هذا!
الأم: ألم آمركما بالإخلاد إلى الراحة؟ ولكنكما لا تفتآن تتراكضان من هنا وهناك
الطفلة الثانية: ولكنما نركض في خدمتك يا أم
الأم: كيف تتجرئين على هذا الكلام؟
سانياسي: إلى أين تريدين يا ابنتي؟
الأم: لك تحيتي واحترامي يا أبت. إننا في طريقنا إلى الدار
سانياسي: وكم شخصاً أنتم؟
الأم: زوجي وأمه وطفلتان أخريان غير هاتين
سانياسي: وكيف تقضون أيامكم؟
الأم: صعب علي أن أعرف كيف تمضي الأيام. أما رَجلي فيخرج إلى الحقل، وأما أنا فأنصرف إلى منزلي أدبر شؤونه؛ فإذا أقبل المساء جلست مع كبريات بناتي للغزل (مخاطبة الطفلتين) اذهبا فحييا الزاهد. باركهما يا أبت
(يخرجن)
(يجيء رجلان)
الأول: أرجع من هنا يا صديقي ولا تعد أبداً

الثاني: نعم، أدري، فالأصدقاء إنما يجمعهم الاتفاق، والاتفاق هو الذي يحملنا إلى بعض الطريق معاً ثم تحين اللحظة التي يتحتم فيها الفراق
الصديق الآخر: ولكن لنحمل أمل الاجتماع بعد الفراق
الصديق الأول: إنما يعود اجتماع الشمل وتشتته إلى سير العالم كله، ولن ترعانا النجوم رعاية خاصة بنا!
الصديق الثاني: فلتحي النجوم التي جمعتنا إذا سواء، فإن ذلك لو كان للحظة واحدة فهو خير كبير
الصديق الأول: تريث للحظة قبل أن تذهب. هل تستطيع أن ترى لمعان الماء القليل في الظلماء، وأن ترى أشجار (الجزورين) على الضفة الرملية من النهر؟ لكأن قريتنا كومة من الظلال القاتمة السود. إنك لا تتبين منها غير الأنوار فهل تستطيع أن تقول أي هذه ضوؤنا؟
الصديق الثاني: نعم احسبني أستطيع
الصديق الأول: إن ذلك النور هو نظرة التوديع التي تلقي بها أيامنا الخالية على ضيوفها الراحلين، ثم إذا أوغلت قليلاً فهنالك تجثم الظلماء
(يخرجان)
سانياسي: هذا الليل يشتد ظلمة ووحشة، وكأنه في جلسته هذه المرأة المهجورة. وهذه النجوم دموعها قد انقلبت ناراً. لقد ملأ حزن قلبك الصغير يا طفلتي جميع ليالي حياتي حتى الأبد. ويدك المشتاقة الصغيرة قد تركت أثر ملمسها في هواء هذا الليل! وكأني أحسها على جبيني مخضلة بدموعك. أي حبيبتي! إن حسراتك التي تابعتني يوم أن هربت قد تعلقت الآن بقلبي، وسأحملها إلى مماتي.

- 4 -

(سانياسي في مخرفة القرية)
لتذهب نذور زهدي هباء، فقد كسرت عكازي وحطمت كشكولي، وهذه السفينة العظيمة، هذا الكون الذي يشق عباب الزمان ليحملني على متنه تارة أخرى كيما أدرك الحجاج ثانية، واهاً للمجنون الذي يسبح في البحث عن السلامة وحيداً رافضاً أشعة النجوم ونور الشمس معتمداً في التماس سبيله على ضوء مصباحه الدوري. إن الطير ليحلق في الفضاء ليعود إلى هذه الأرض العظيمة، لا لكي يضل في الفراغ! إني طليق من أغلال الانتفاء غير المجسدة. إني متحرر من قيود الأشياء والأشكال والغايات والمحدود هو في الحقيقة غير المحدود! وإن الحب ليعرف حقيقته. يا فتاتي إنما أنت روح ذلك كله، فلن أستطيع إلى تركك سبيلاً
(يجيء رئيس القرية)
سانياسي: هل تعلم يا أخي أين تكون ابنة (رافو)؟
رئيس القرية: لقد غادرت قريتها وإنا بذلك لفرحون
سانياسي: وإلى أين ذهبت؟
الرئيس: وهل تتساءل إلى أين ذهبت؟ لا فرق عندها حيثما كانت
(يخرج)
سانياسي: لقد ذهبت عزيزتي لتبحث لنفسها عن مكان حيث لا مكان في الفراغ، فيجب أن تهدي إلى
(يدخل جمهور من القرويين)
الرجل الأول: وإذا فسيتزوج ابن ملكنا الليلة
الرجل الثاني: وهل تستطيع أن تخبرني عن ساعة الزفاف متى تكون؟
الرجل الثالث: إنما ساعة الزفاف للعريس وعروسه فما لك ولها؟
امرأة: ولكن ألا تراهم سيعطوننا من أجل هذا اليوم السعيد بعض الكعك؟
الأول: بعض الكعك؟ ما أبلدك! لقد سمعت من عمي الذي يعيش في المدينة أنهم سيوزعون علينا اللبن والرز المشوي
الثاني: شيء عظيم
الرابع: ولكن ثقوا بأنا ستنالنا كمية من الماء أكبر من كمية اللبن
الأول: ما أبلدك يا (موتي) أفي حفلة زواج الأمير يشاب اللبن بالماء؟
الرابع: ولكنا لسنا بالأمراء يا (بانجو). إنما لنا - نحن الفقراء - حيلة المذق بالماء الوفير

الأول: اسمعوا، ذاك ابن الفحّام ما يزال منكباً على عمله فيجب أن نقفه عما هو فيه
سانياسي: هل علم أحد منكم أين تكون ابنة (رافو)؟
المرأة: لقد خرجت مهاجرة
سانياسي: إلى أين؟
المرأة: ذلك ما ليس يعلمه أحد
الرجل الأول: ولكنا واثقون بأنها ليست هي عروس الأمير!
(يتفرقون ضاحكين)
(تدخل امرأة ومعها طفلها)
المرأة: تحياتي أرفعها إليك أيها الأب. دع طفلي هذا يحني رأسه عند قدميك، إنه مريض فباركه يا أبت
سانياسي: غير أني لستُ كما كنتُ زاهداً يا بنيتي فلا تسخري مني باحتراماتك
المرأة: فمن عساك أن تكون إذاً! وماذا تصنع؟
سانياسي: إني أبحث. . .
المرأة: وعمن تبحث؟
سانياسي: إني أبحث عن عالمي الضائع - هل تعرفين ابنة (رافو)؟ أين تكون الآن؟
المرأة: ابنة (رافو)؟ لقد ماتت!
سانياسي: لا. . . إنها لا تموت. . . كلا. . . كلا
المرأة: ولكن ما أنت وموتها أيها الزاهد؟
سانياسي: ليس أنا وحدي الذي يعنيني موتها؛ بل ذلك يعني موت الجميع
المرأة: إني لست أفهمك
سانياسي: إنه لا يمكن أن تموت قط!
(تمت المسرحية)
فخري شهاب السعيدي
العدد 390 - بتاريخ: 23 - 12 - 1940
إلى رجال الجامعة ورجال المعارف
كلمة صريحة
لكاتب كبير
لقد هدأت الفورة التي ثارت في صدور طلبة الجامعة المصرية بمناسبة تفكير الوزارة في رفع درجات النجاح في الامتحانات وهي فورة لم يكن لها موجب، لأن من واجب الطلبة أن يرتاضوا على المصاعب، وأن يظهروا بمظهر التحدي الجريء لمتاعب الدرس والتحصيل.
ولكن هناك فورة منتظَرة، فورة حميدة العواقب، لأنها ستصدُر عن الأساتذة لا عن الطلاب؛ وفورة الأساتذة لا تعرف مغاضبة الشرُّطة، ولا تفكر في تحطيم المصابيح، وإنما هي فورة يقع فيها التصادم بين الأفكار والعقول.
ولكن متى يقع ذلك التصادم فنسمع أن فريقاً من الناس رجعوا إلى ضمائرهم فأدركوا أن لهم (فضلاً) عن زعزعة التعليم الابتدائي والثانوي، وأنهم مسئولون عن المصير الذي لا نجاة من شره إلا برفع درجات النجاح في جميع الامتحانات؟
لو ملكتُ حرية الخروج على الذوق لطوّقت رجال الجامعة ورجال المعارف بأطواق من حديد، وكيف وأنا أخاطب أقواماً تؤذيهم خطرات النسيم، ويرون النصحَ - وإن لطُف - ضرباً من التمرُّد والثورة على مقاماتهم العالية؟
وأنا مع ذلك سأحاول تذكير تلك المقامات بما اجترحتْ في ميدان واحد هو ميدان اللغة العربية، فاسأل في ترفّق وتلطّف:
من المسئول عن قصّ حواشي منهج اللغة العربية، بحيث صار من المؤكد أن تلاميذ المدارس الابتدائية قبل عشر سنين كانوا يعرفون من القواعد أضعاف ما يعرف تلاميذ المدارس الثانوية في هذه الأيام؟
ولأي غرض كثُر التغيير والتبديل في ذلك المنهج؟ وبأي حق جاز أن يظفر الشاب بإجازة الدراسة الثانوية، وهو لا يملك القدرة على تشريح فقرة واحدة من الجهات النحوية والصرفية والبلاغية؟ ولأية غاية تدرس اللغة العربية في المدارس إذا كان من حق كل تلميذ أن يجهل من قواعد اللغة ما يشاء؟

ثم قيل: إن كلية الآداب أطالت التأسف والتحسُّر على مصاير التعليم الثانوي، وإنها فرضت على وزارة المعارف أن تكف يدها عن ذلك التعليم لتطبّ له بالأساليب الجامعية المصرية فتصيّره غاية في القوة والعافية.

فماذا صنعت كلية الآداب وقد زعمت أنها تقدر على ما لا تقدر عليه وزارة المعارف من إحياء الموتى وهي رَميم؟

أشارت بالاستغناء عن الواجبات التحريرية في النحو والصرف والبلاغة لتنقلب الدروس إلى محاضرات (!) وأشارت أيضاً بأن يُترك المدرسون لضمائرهم فيما يأخذون وما يدعون (!) ولم يبق إلا أن تشير بحرية المواظبة لتتمَّ (النعمة الجامعية) على أولئك التلاميذ!

فإن قيل: وأين وزارة المعارف؟ فأنا أجيب بأن وزارة المعارف موجودة بالفعل، وإلا فمن الذي يوزع المنشورات التي تصدرُ عن كلية الآداب (وتوزيع المنشورات يحتاج على رجال!).

وهنا أذكر شيئاً من التناقض المزعج، أذكر أن كلية الآداب قد توفَّق إلى خاطر طريف يحبِّب التلاميذ في اللغة العربية، كالذي اتفق في (مسابقة الأدب العربي لطلبة السنة التوجيهية) ولكنها تترك تحقيق مثل هذا المشروع لمراقبة الامتحانات بوزارة المعارف.

ومراقب الامتحانات لم يكلف نفسه دعوة نظار المدارس والمدرسين الأوائل للنظر في توجيه الطلبة إلى هذه المسابقة الطريفة؛ فكانت النتيجة أن اكتفت كل مدرسة باختيار بعض الطلبة للمسابقة في الأدب، كما تختار بعضهم للمباراة في الألعاب!

إن كان مشروع المسابقة من ابتكار وزارة المعارف فكيف تتركه لرجل بعيد من الحياة الأدبية؟ وإن كان مشروع المسابقة من ابتكار كلية الآداب فكيف تتركه لمراقب الامتحانات بوزارة المعارف؟

أين المسئولية في هذا الشأن الدقيق؟ ومن الذي يحتمل وِزْرها الثقيل؟

أشهد أن سيطرة كلية الآداب على السنة التوجيهية حقٌ في حق، فقد أرَّق كاتب جفونها في الأعوام الماضية لاختيارها كتاب (نقد النثر) وكانت حجته أنه لا يصلح للمطالعة بحال من الأحوال، وقد استجابتْ الكلية لندائه فسحبتْ ذلك الكتاب، ولكنها مع ذلك كلفت وزارة المعارف أن تذيع منشوراً يقول: إن كتاب (نقد النثر) مرجع لأكثر النصوص المقررة في السنة التوجيهية!!

فهل سمع أحدٌ قبل اليوم أن كتاب قُدامة في نقد النثر من مراجع النصوص الأدبية؟ ليتني أعرف إلى من أوجِّه القول! فوزارة المعارف مُدغمة في كلية الآداب، ولن يُفَكَّ هذا الإدغام إلا يوم يُعرَف أن المسئولية لا تتضح إلا بتحديد جهات الاختصاص.

أما بعد فهذا نَذيرٌ من النُّذر الأولى، فإن ظن قومٌ أن مصير اللغة العربية موكول إلى أذهانهم (الثواقب) فسيندمون بعد حين، لأنَّ النقد الأدبي لن يترك أهواءهم بلا تجريح، وإن اعتصموا بأمنع الحصون.

لن يكون مصير الجيل الجديد تحت رحمة الأهواء، أهواء الداعين إلى (تيسير النحو) والقائلين بأن اللغة العربية لغة عصر ذهب وباد.

مصير الجيل الجديد في اللغة العربية لن يصوغه غير أهل الغيرة الصحيحة على لغة القرآن.

(كاتب)

مسابقة الجامعة المصرية لطلبة السنة التوجيهية

(في صحراء ليبيا)

لأحمد حسنين

للدكتور زكي مبارك

- 7 -

بسم الله الرحمن الرحيم

كذلك هتفتُ وأنا أهمّ بكتابة مقال عن هذا الكتاب، لأنه صعب المنال، ولأن المقدمة التي حبَّرها لطفي باشا السيد لم ترشدني إلى طريق تقديمه إلى القراء، وأنا أرجو أن تنفعني بركة (البسملة) فأسجل بعض ما سنح من الخواطر عند قراءته السريعة، وهي جهد المقل في ثلاث سهرات

الرحلة

هي رحلةٌ قام بها حضرة صاحب المعالي أحمد محمد حسنين باشا سنة 1923 من السلوم على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، إلى الأُبَيّض عاصمة مديرية كردفان بالسودان، وهي مسافة قدرُها نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة كيلو متر قُطعتْ على ظهور الإبل، وفيها وُفِّق الرحالة إلى كشف واحتين مجهولتين هما (أركنو) و (العوينات)، وكانتا غير معروفتين قبل ذلك للجغرافيين.

وقد سُطِّر تاريخ هذه الرحلة في نحو أربعمائة صفحة بالقِطع المتوسط، وهي مقسمة إلى جزأين، وفيها كثير من الرسوم العلمية والجغرافية.

شخصية المؤلف

هو رجل لم تلده ولاّدة، كما يعبِّر أهل مصر حين يصفون فتىً من النجباء. وقد حدثنا هذا الفتى عن أهله، فلم نعرف إلا أن أباه كان من علماء الأزهر الشريف، وقد تلطّف لطفي باشا السيد فحدثنا أن جد المؤلف كان من الباشوات، ولم يذكر بأية صفة نال ذلك الجد رتبة الباشوية، وأغلب الظن أنها الباشوية التي كانت تمنح لرجال الجيش، فإن لم تكن كذلك فهي

باشوية لم تقض على وارثي جاهها الفخم بمنحة الترف واللين، وإنما أورثت حفيدها القدرة على أن يقول: إن أهله كانوا من ساكني البادية؛ وعلى أن يقول: نحن أهلَ الصحراء، لا يغنينا النوم عن العشاء.

وقد كان أحمد حسنين في كل أدوار ماضيه من نماذج الفتوَّة واللوذعية، عاش في إنجلترا حيناً فكان صورة للفتى الموسوم بالبراعة والشهامة والصدق والجاذبية، ولم يمنعه تحضّره من الاتصال بالبادية، فاعتُمد عليه أيام الحرب الماضية في السفر إلى الصحراء الغربية للاتفاق مع زعمائها على رعاية واجب الجِوار في احترام الحدود.

ثم طوحت به همته إلى اختراق تلك الصحراء ليكشف واحتين كان لهما في أذهان أهل البوادي خيال، ولم يكشفهما أحد من قبل، فكان التوفيق من حلفائه الأوفياء.

ثم أراد أن يكون طياراً، ولكن الحوادث أرادت غير ما يريد، فقد طار من إنجلترا إلى إيطاليا، ثم سقطت طيارته، فأصلحها وطار، ثم سقطت فأصلحها وطار، وقد صمم على أن يدخل مصر طائراً ولو سقط بطيارته في جوف المحيط، ولكن برقية كريمة صدرت إليه بوحي من الملك فؤاد، فقهرته الطاعة على أن يدخل مصر وقد امتطى الماء، لا الهواء، وتلك أعظم محنة عاناها ذلك العربي الصوال.

الإنسان الكامل

وما أريد الإنسان الكامل في اصطلاح الصوفية، وإنما أريد القول بأن أحمد حسنين كان رجلاً كامل الرجولة حين اخترق الصحراء في سنة 1923، والرجولة التي أعنيها هي الرجولة المبرأة من شوائب الضعف والغفلة والقنوط. كان أحمد حسنين في ذلك العهد رجلاً بكل معنى الكلمة: كان بدويًّا في مواطن البداوة، وحضريًّا في معاهد الحضارة. كان حليما في أوقات الحلم، وجاهلاً في أوقات الجهل؛ فكان له في كل حالة لَبوس، وكان في جميع أحواله صورة من الرجل الذي يرى الخلُق الصحيح في رياضة النفس على مسايرة ظرف المكان والزمان.

ومن المؤكد أن رحلة الصحراء نفعته في مركزه الحاضر، وهو رياسة الديوان بقصر جلالة الملك، فقد وصفته مجلة (آخر ساعة) وصفاً هو أعجب الأوصاف، حين قالت: إن أحمد حسنين يتمتع بأعظم المواهب السياسية، لأنه أقنع الجميع بأنه رجل غير سياسي.

وأعود إلى تأثير الصحراء في عقل أحمد حسنين فأقول:

عاش هذا الرجل نحو ثمانية أشهر في ظلال المخاوف والحتوف، وكانت الرِّيب تحيط به من كل صوب، وكانت الثعابين تداعبه من حين إلى حين، وكان يُؤْثر سُرَى الليل ليتجه بصره إلى ناحية واحدة، ومن هنا عرف أن الظلمة قد تنفع (والسياسي يعيش في عوالم من الظلمات، ولو سطع النور حول أغراض السياسي لتخاذل وضاع).

الرحالة

لا يدلنا كتاب أحمد حسنين على أنه كان رجلاً من المُترفين حين قام بتلك الرحلة العاتية، وإنما يشهد كتابه بأنه كان رجلاً من صميم البادية. كان رجلاً يهمه أن يقيم البراهين على أنه لم يتعلم في جامعة أكسفورد غير حزم الأمتعة، والتعرف إلى مواطن الخوف والرجاء في مفاوز الصحراء.

هو فلاح متحضر، فهو لذلك أذكى الرجال وأعقل الرجال.
وقد عرف هذا الفلاح المتحضر ما في البادية من مكر ودهاء، فهو يلبس حُلة ذكائه في كل وقت، ويشتمل بثوب مكره في كل حين.
وما ظنكم برجل تحيط به الشكوك من جميع الجوانب وهو فريد وحيد ثم ينتصر بلا مشقة ولا عناء؟
ذلك هو أحمد حسنين الذي ائتمنه الملك فؤاد واصطفاه الملك فاروق، ومن الصعب جدًّا أن يكون الرجل أهلاً لثقة الملوك، فذلك مقام لا يظفر به إلا الأقلون من أعاظم الرجال.
وقد فَطِن أسلافنا إلى أن صحبة الملوك تحتاج إلى تثقيف خاص، فوضعوا المؤلفات الطوال في التعريف بما يجب أن يتحلى به أمناء الملوك من شمائل وآداب. وهذا الفن من التأليف لم يكثر إلا في العصور التي ازدهرت فيها الحضارة العربية الإسلامية، وإنما كان ذلك لأن ازدهار الحضارة يزيد في مشكلات المجتمع من النواحي الذوقية والاجتماعية، وتلك حال تزيد فيها تبعات من يتصلون بالملوك، لأنهم عندئذ يكونون صلة الوصل بين الحاكمين والمحكومين، وعلى ذكائهم وبراعتهم وإخلاصهم يرجع الفض في حل أكثر المعضلات. . . فمن خَطَل الرأي أن يظن بعض المتعاقلين أن إكثار أسلافنا من التأليف في هذه الشؤون دليل على أنهم كانوا يعيشون في عصور الاستبداد.
أغراض المؤلف
للمؤلف في ظاهر الأمر غرض واحد: هو تسجيل رحلته في الصحراء، ولكن من الذي يقف به القلم عند ما كان يريد؟ إن النفس تتفتح عند حمل القلم من وقت إلى وقت، وتتنادى خواطرها من فصل إلى فصل، فإذا بلغ القلم نهاية الشوط كانت النسبة بين ما ابتدأ به وما انتهى إليه كالنسبة بين النواة الضامرة والسَّرحة اللفَّاء.
يقع كتاب أحمد حسنين في عشرين فصلاً، وله في كل فصل مجالٌ خاص، وفقاً لاختلاف الأغراض.
فالفصل الأول عن الصحراء من نواحيها المادية والروحية، وفي هذا الفصل كلام يقوله كل الناس، إلا كلامه عن الشوق إلى ما في الصحراء من متاعب وصعاب، ولا تظهر قيمة هذه النزعة لمن يقرأها في الفصل الأول إلا حين يعاني قدها في الفصل الأخير، ذلك بأنها تواجهه أول مرة وهي أشبه بالفلسفة الروحية، والناس قد يقرءون الفلسفة هادئين، ولكن هذه النزعة لا تواجه القارئ في الفصل الأخير إلا بعد أن يكون شارك المؤلف في الأنس بالصحراء، وعندئذ يحق له أن يتوجع لبلواه حين يقول وقد وصل إلى دار الأمان:
(ودب في نفوسنا جميعاً دبيب الابتهاج بعودتنا إلى الاتصال بحياة الحركة، ولكني شعرت حين انقلبت إلى فراشي بوخزة حزن في قلبي، لأن ذلك اليوم كان آخر أيامي في الصحراء، ورأيتني أضيف إلى صلوات شكري دعاء خالصاً أسأل الله فيه أن يقدر لي العودة إليها يوماً من الأيام).
وفي الفصل الثاني يتكلم المؤلف عن وضع خطة الرحلة فيقول كلاماً يقوله سائر الناس، ولكنه يفاجئك بكلام نفيس عما صنع أبوه رحمه الله، وهو يزوِّده بالبخور والدعوات الصالحات ومن كلامه عرفت أشياء من عادات العرب في التأهب للرحيل.
وقد أطنب المؤلف في الثناء على أبيه، ثم أعرب عن فجيعته لوفاته بعبارات لا تصدرُ إلا عن نجباء الأبناء، وما مات من خلَّف مثل أحمد حسنين.
وفي الفصل الثالث يقف المؤلف موقف المعلم لمن يحاولون اختراق الصحراء، فيقدم من المعارف الضرورية للمغامرين أشياء يحتاجون إليها أشد الاحتياج.
وفي الفصل الرابع تظهر طلائع المخاوف، ونرى كيف يضطر الرحالة إلى تغيير خطة السير لينجو من مكايد الأعراب.
وفي الفصل الخامس يتحدث المؤلف عن السنوسيين بكلام ينهض على قواعد علمية، فيذكر تاريخهم بإيجاز، ويشرح عقائدهم بالتفصيل، ومن الواجب أن يدرس الطلبة هذا الفصل، لأنه من عيون الكتاب، ولأن موضوعه يهم أعضاء لجنة الامتحان.
وهنا أذكِّر الطلبة بأن الامتحان له قواعد، ومن أهمِّ قواعده أن تَرِد أسئلة في (الموضوعات الرئيسية، فمن واجب كل طالب أن يُعنَى عناية شديدة بالموضوعات التي لا يجوز جهلها على الإطلاق، فإن التمكن في تلك الموضوعات يغفر الضعف في

الموضوعات الفرعية بعض الغفران. . . وأذكِّرهم أيضاً بأن هناك شؤوناً تظهر كالتوافه، ولكنها رئيسية، كوجه التسمية لواحة أركنو، فهي مسألة هينة، ولكن الجهل بها يدل على عدم الاكتراث. . . ثم أذكرهم بأن الطالب الذي يُختَبر في كتاب أحمد حسنين سيسأل حتما عما قال المؤلف في وصف الواحتين الجديدتين. . . وأذكِّرهم كذلك بأن في المقدمة التي كتبها لطفي باشا السيد كلمة مهمة عن ارتياد تلك الصحراء في عهد الفراعين).

وفي الفصل السادس يتكلم المؤلف عن واحة جغبوب، وهي واحة مصرية نهبها الطليان منذ سنين، فليقرأ الطلبة أخبارها، وليذكروا أن لهم إليها عودة بعد حين.

وفي الفصل السابع يتحدث الرحالة عن الولائم والأدوية، فيذكر أشياء تنفع من يفكر في ارتياد تلك البقاع.

وفي الفصل الثامن يتكلم عن الزوابع في طريق جالو، ويصفها وصف العارف الخبير، والبدو هناك يرون الزوابع من عمل الجن، فليذكر الطلبة أن الزوبعة هي الجِنّية في لغة العرب، ولها اسم بهذا المعنى عند عوام المصريين، فهم يرون الزوبعة من الأنفاس الخلفية للعفريت.

وفي الفصل التاسع يفصل القول عن واحة جالو، ويذكر ما بينها وبين الطليان من نزاع وشقاق.

ثم ماذا؟ ثم ماذا؟

لا أرى من الضروري أن أشير إلى بقية الفصول، لأن هذه الإشارات العوابر لا تغني عن المراجعة والاستقصاء.

وإنما أرى من الحتم أن أوجه الطلبة إلى درس هذا الكتاب، ولا يتم ذلك إلا بدعوتهم إلى تعقب ملاحظات المؤلف، وتعرُّف ما كان يجول بنفسه من خواطر وشجون.

وأقول إن المؤلف مولع بوصف الأجسام فلا يرى شخصاً إلا حدثنا عن قوامه وعينيه، فما سر ذلك؟

يرجع السر إلى أن المؤلف عاش دهره موصول الأواصر بالأندية الرياضية، ومن هنا غُرست في نفسه بذور الثقافة الجسمية، فهو ينظر إلى الأجسام قبل أن ينظر إلى العقول، وهي نظرة تدل على أنه رجل هذا معنى غرام الرجل بالإبل والخيل، فهو جمّال إن أردت، وفارس إن شئت، وهو فوق هذا وذاك يحس مذاق الظل، وقد يتذوق طعم الغُبار في بعض الأحايين.

يمرّ أحمد حسنين بعظام رجل ميت فيستأنس، وكان الظن أن يستوحش، وإنما استأنس برؤية عظام الميت لأنها تشهد بأنه يسير في طريق سلكها الناس من قبل.

ويهتم أحمد حسنين بدرس عادات البدو دراسة مضمّخة بعَبير الشوق والحنين، وهو يرد تلك العادات إلى أصولها من العواطف الذاتية، فالفتاة التي يحرق حِذاءها البارود تُزهَي وتختال، لأن ذلك شاهد على أنها تَغُلّ الباب الرجال.

وفي هذه المرحلة يصرخ أحمد حسنين صرخات تنطق بأنه من أصحاب الأذواق.

وهذا الرجل المفتون بالبادية هو أيضاً مفتونٌ بالحاضرة أعنف الفتون، فلا يطيل المكث إلا في المواطن التي يكثُر فيها اشتباك العواطف والأهواء

وهنا أظفر بأحد مقاتله فأصرح بأنه لم يعش طويلاً في الواحتين الجديدتين - وهما محصوله الأصيل في تاريخ الاستكشاف - وإنما عَبَرهما عُبور الطيف، لأنهما خاليتان من مواسم العيون والقلوب.

وما عددت هذا من مقاتله إلا رياءً، فالجمال الحقيقي هو الجمال الإنساني، لأنه يفهم عنا ما نريد؛ أما جمال الطبيعة فهو جمالٌ غبيٌ بليد، ولا يكتفي بالأنس به إلا الممتحنون بالحرمان، وما كان أحمد حسنين من المحرومين.

أحمد حسنين يتفاءل في فرصتين: الأولى أن يَرمِيَ ظبياً فيصميه، والثانية أن يرى في صبيحة السفر وجهاً جذاب الملامح وضّاح الجبين.

فمن يكون الرجل السليم إن لم يكن هذا الرجل نموذجاً للرجل السليم؟

ثم يجب النص على اهتمام أحمد حسنين بأداء الصلوات، والتبرك بالأذان، فتلك شواهد على ما صرح به غير مرة من أن الصحراء تزيد من قوة الإيمان، وهو التصريح الذي أتاح لمعالي الشيخ مصطفى عبد الرزاق بك أن يقترح إرسال علماء الأزهر إلى الصحراء!! والنكتة الدقيقة من أبرز عناصر الفن الرَّفِيع

الأسلوب
أحمد حسنين ليس من أصحاب الأساليب، فليس له في الإنشاء مذهبٌ خاص، وهو فيما نعلم لم يفكر في أن يكون له مكان بين الكتّاب، وإن كان من أكابر الأدباء وقد أنشأ كتابه أول مرة بالإنجليزية، ثم ترجمه إلى العربية وهذا يفسِّر ما نشهد من تفاوت الأسلوب من حين إلى حين.
ولكن الكتاب مع هذا على أعظم جانب من الحيوية، فما سرّ ذلك؟
يرجع السر إلى قوة إحساس المؤلف، فكل سطر من كتابه ينطق بأنه يَعنِي ما يقول، وسياق الحديث يدل في كل صفحة على أن الرجل جابَ الصحراء وهو مرهف الحِسّ ذكيّ الجَنان، وملاحظاته فِطريَّة بعيدة من التكلف، فهو يُشعِرك بأنه بدويٌ لا يرى غير ما في البادية من مخاوف وآمال، وهو ينقلك إلى تلك المجاهيل بقوة سِحرية فتسايره بتلهف وتشوق، كأنك عانيت من صابها ما عانَى وذقت من رحيقها ما ذاق.
وإحساس أحمد حسنين يصل به إلى تذوق جميع الألوان، هو إحساس رجل سليم يرى ويسمع ويذوق بقوة وعنف، وكأنه طفلٌ يطّلع أول مرة على غرائب الوجود
تقدَّم إليه المائدة وهو في البادية فيُقبل عليها إقبال البدوي الغرثان، وينص على أنه أكل بشهية، ثم يصف ألوان الطعام بإسهاب، وذلك لا يقع إلا من رجل مدَّرع بالعافية ويدرس الوجوه باهتمام شديد، حتى جاز أن يحكم لفتاة بالجمال، ولم ترها عيناه، لأنه لاحظَ أن أخاها جميل
ويدرس عواطف أصحابه بمهارة وحذق فيعرف ما يطوون في صدورهم من لواعج وأشجان، ثم يمضي فيتعقب ما بينهم وبين نسائهم من كدر أو صفاء، وهذا التطلع لا يقع إلا من رجل متشوف إلى درس الغرائز والطباع
وهل ننسى حديث (السبحة) في ساعة أُنْس؟
كان في القافلة فتىً رخيم الصوت، وكان أحمد حسنين يتشهى السماع، ولكن الفتى له عمّ كهل، ومن العيب في البادية أن يتغنى الشباب بحضرة الكهول
وتلطف أحمد حسنين فأستأذن للفتى من عمه الكهل، فانطلق الشاب يغنِّي، واندفع الشيخ يسبِّح، ليشغل نفسه بالتسبيح عن الغناء
فماذا صنع أحمد حسنين؟
أخذ يرصد السبحة ليرى كيف يتواتر خفق الحبات، فعرف أن حباتها تصاب بالبطيء من لحظة إلى لحظة ثم تعود إلى الإسراع، وكان ذلك شاهداً على أن الكهل الوقور كانت له صَبَوات، وأن رنين السبحة لم يُلهه عن تشوف المحبين إلى أوقات الوصال
وأحمد حسنين لا ينسى تسجيل ما مرّ به من عواطف، كأن ينص على أنه استيقظ في أعقاب حُلمٍ رائع على وجه فتاة حسناء، وكأن ينص على أنه كان يتلبّث في بعض المواطن ليزوّد قلبه وعينيه بأطايب الجمال
وجملة القول أن أحمد حسنين شاعرٌ وصَّاف: هو يحدِّق في كل شيء، وهو يصف كل ما يراه وصفاً يشهد بأنه مفطور على قوة الإحساس.
وقد أطال أحمد حسنين في وصف القمر والنجوم، كما أطال في وصف الشروق والغروب، فكيف صنع في هذه الأوصاف؟
نقل إلينا أحاسيس أهل البادية بقوة وحيوية، لأن الكواكب في البوادي لها سِحرٌ يجهله من يأنسون بأضواء المصابيح
ثم ماذا؟ ثم أقول إن أحمد حسنين صوَّر نفسه في كتابه بصورة الرجل الممتحَن بهوى الصحراء، ولو قال له الغادون: ما تشتهي؟ لقال: أعود!! كما عبر الشريف الرضي عند فراق بغداد
وهنالك صورة أبدع وأروع، هي صورة العالم الحصيف الذي أباحه العلم ما لا يباح من هتك أسرار الصحراء
هنالك أحمد حسنين الذي يتمارض ليخلو إلى أجهزته العلمية في غفوة الليل
هنالك الباحث المستقصي الذي يدوِّن كل ما يرى وما يسمع وما يذوق بلا تأجيل ولا تسويف. . .
هنالك الرجل الذي يرصد الشمس من وقت إلى وقت ليمُدّ العِلم بزادٍ جديد
هنالك الوطني الغيور الذي ينص على قيمة بعض الواحات من الوجهة الحربية
هنالك المفكر الذي يشرح ما في الصحراء الغربية من مذاهب وآراء

أما بعد فتلك هي الملامح الفكرية والعقلية والذوقية للرحالة أحمد حسنين، وهي (الدليل) الذي (يوجّه) الطلبة إلى سرائر كتابه النفيس
وكل ما أرجو أن تكون الفتوّة التي اتصف بها المؤلف من أعظم مطامح الشبان في هذا العهد، فقد رأوا بأعينهم كيف تكون الخشونة أقوى الدعائم في بناء الرجال.
زكي مبارك

شخصية الأزهر العلمية

للدكتور محمد البهي

لا أودّ هنا أن أحدد الشخصية القانونية للأزهر فذلك محله عند ما يتعرض لعلاقة الأزهر بغيره لتسهيل الفصل في أموره الخاصة كمؤسسة عامة، وإنما أقصد بيان العناصر التي تتكون منها شخصيته (كجامعة علمية)، وفي الوقت نفسه هي عدته التي ينزل بها ميدان الحياة ليحافظ بها على وجوده الخاص بهذا الوصف
قد يكون عطف الوالي على رجاله ورعايته له من أسباب قوته في وقت من الأوقات، وقد تكون شخصية شيخه إذا علت مكانتها وكانت محببة لدى كثير من نفوس الخاصة من أسباب قوته أيضاً في وقت من الأوقات كذلك، وقد يكون لنفر من علمائه إذا منحه الشعب نوعاً خاصاً من الإجلال والاحترام أثر في قوة الأزهر أيضاً.
ولكن هذه الأسباب خارجة عن شخصيته كمعهد للبحث والدرس العلمي وإن كانت من مقومات شخصيته الدينية لأن عطف الوالي مثلاً على رجاله لما لهم من الصفة الدينية، والاحترام الذي يمنحه الشعب لبعض علمائه لا شك أن القسط الأكبر منه راجع إلى معنى ديني معه، وسيبقى عطف الوالي عليه ما دام معهداً للدين، وسيبقى احترام الشعب لبعض دائر بين علمائه ما داموا ينتسبون للدين، إذ الوالي في بسط سلطانه النفسي على الشعب في حاجة إلى رجال الدين، والشعب أيضاً ما دام يعتقد يمنح احترامه للمشرف على شئون العقيدة، واعتقاد الشعب باق ما دام هناك شعب، فالأزهر من هذه الناحية لا يضمن وجوده الذاتي فحسب، ولكنه وجود عنيف في قوته يتلاشى عند الاصطدام به أي شيء آخر
ولست أعني أيضاً هذه الشخصية، إذ أن للأزهر وصفاً آخر وهو كما أنه معهد ديني هو معهد علمي، فله بجانب الشخصية الدينية شخصية أخرى علمية، وهذه الشخصية الأخيرة بكونها أفراد ولكن لا بوصف كونهم دينيين، بل بوصف كونهم علماء باحثين وإن تناول بحثهم فيما تناول الدين نفسه، وبكونها كتاب ولكن لا بوصف أنه مصدر للأحكام الدينية ولكن بوصف أنه يتضمن إنتاجاً علمياً خاصاً، وعلى عدد من العلماء الباحثين، وعلى قيمة إنتاجهم العلمي تختلف الشخصية العلمية قوة وضعفاً، فإذا وجدنا من بين الأزهريين في عصر من عصور تاريخه عدداً يمتاز بالبحث ورأينا لبحثه قيمة علمية دل ذلك على أن
الأزهر له بجانب قوة وجوده الديني قوة أخرى لوجوده العلمي؛ وإن لم نجد بين رجال من له ولعلمه هذه الميزة كان اعترافنا بوجوده فقط لقوته الروحية الدينية، وهي أبدية خالدة، وأبديتها لا تتوقف على قيمة جوهرها في نظر العقل الإنساني لأنها وجدت فقط لانتسابها إلى شيء خارج عن نطاق الإنسان نفسه
وليس معيار البحث في كثرة الجمع أو الاختصار، وليست قيمته العلمية في الحفظ والتحصيل، بل في الاستقلال في التفكير في النقد الإيجابي. فكثرة عدد (العلماء) ووفرة مواد الدراسة وكثرة الكتب المتداولة في الدرس ليست عنواناً على وجود الشخصية العلمية، بل لا بد من أن نلمس في (العلماء) بوصف عام الاستقلال في التفكير، وتعثر في هذه المواد وتلك الكتب على شخصياتهم
وبهذه الشخصية العلمية فقط يمكن للأزهر أن ينافس غيره من الجامعات الدينية، وعلى نوعها يتوقف (مجاله الحيوي المدني) في الضيق والاتساع ونفوذه على الخاصة في الضعف والقوة. والذي يتولى شؤون الأزهر ننعته بالمصلح العلمي، لا من حيث أنه يغيّر من مواد الدراسة بالزيادة أو بالنقص، أو يعدل في النظام العام مثلاً، ولكن من حيث أن إشرافه كان ذا أثر في الإنتاج العلمي وفي تكوين الشخصيات الباحثة. لا ننعته بالمصلح العلمي لأن في عهده مثلاً يستطيع نفر من الأزهريين أن يخالف فهماً مألوفاً شائعاً في بعض الأحكام الفقهية الفرعية دون أن يتعرض الباقون منهم له بالأذى مجاملة له أو خشية منه، وإنما يستحق وصف المصلح العلمي حقاً إذا كان مبعث عدم

التعرض من الباقين الاقتناع الذاتي بحرية التفكير وبجواز الاستقلال في التفكير، ولكنه لا يعدم في كلتا الحالتين أن يلقب (بشيخ الدين) أو بالزعيم الديني إذا قاد مع ذلك مدرسة دينية مخصوصة لها ميزة إيجابية في حياة الإنسان العلمية. فالإمام المرحوم الشيخ محمد عبده زعيماً دينياً أكثر منه مصلحاً علمياً، وإن كانت له شخصية العالم الباحث، لأن بحثه قام على النقد، وإنتاجه يمثل استقلالاً في التفكير إلى حد ما، على الأقل أكثر مما كان مألوفاً في عهده

وفي العشرين سنة الأخيرة من قرننا العشرين، أي في المدة التي أخذ فيها الجامع الأزهر لقب جامعة علمية وأصبح الوصف العلمي جزءاً من شخصيته القانونية نجد نزاعاً متكرراً يأخذ ألواناً مختلفة بين جامعة فؤاد الأول المدنية والجامع الأزهر يدور من جانب رجال

الجامعة على أن الجامعة دون سواها هي موطن البحث العلمي، ومن جانب الأزهر على أن الأزهر يشارك الجامعة في هذا العمل. وبينما يعلل (الجامعيون) دعواهم باستقلالهم في التفكير في البحث - عن التقليد وما ورد من الثقافة الموروثة - إذ بكثير من الأزهريين يلجأ في تعليل المشاركة إلى نظام الكليات والتخصصات في الأزهر، وهو نظام جامعي. وكما يؤخذ على الفريق الأول عدم الدقة في تحديد معنى الاستقلال في التفكير، يؤخذ على الفريق الثاني التعليل بالشكليات. ويجب على الفريقين أن يجاوزا هذا ويحتكما إلى عمل الأستاذ نفسه.

ولكن ليس من السهل علينا نحن الأزهريين أن نحتكم إلى الأستاذ. وبالأخص إلى عمل النخبة من أساتذتنا، إلى عمل جماعة كبار العلماء - وهم أساتذة الأساتذة - لأن من العسير أن يطلع أجنبي عنهم على ما لهم من (رسائل) ومن هنا يصعب تقدير عملهم من الوجهة الفنية

والحكم على عملهم من عناوين رسائلهم فحسب لا يخلو من نقص. فعناوين كثير من رسائلهم وإن احتملت أن مضمونها جمع لمنثور أو اختصار لمطول أو لمعالجة مفككة لمسائل تافهة أي لا تشتمل على عمل علمي بالمعنى الصحيح، إلا أنها في ذاتها قد تكون - مع احتمال آخر - أبحاثاً مؤسسة على استقلال في التفكير ونوع من النقد العلمي.

فإلى أن تنشر رسائل جماعة كبار العلماء فينا - لأن عملهم وحده أمام التاريخ وأمام الحكم العدل هو الأساس الذي يبنى عليه الآن التقدير والاعتراف أو عدم الاعتراف بشخصية الأزهر العلمية - يجب علينا نحن الذين لم يصبحوا بعد من جماعة كبار العلماء، إما أن نسعى في أن نطلع غيرنا على أبحاثنا الشخصية، وبذا نكون علماء، أو نعمد إلى تناول عمل الجامعيين بالنظر العلمي فنؤمن بما يدعونه أو ندلهم على موضع الدعاية فيه

ومتى تنشر هذه الرسائل؟. . . علمه عند الجماعة نفسها!

محمد البهي

مدرس علم النفس والفلسفة

بكلية أصول الدين

أومنُ بالإنسان!

للأستاذ عبد المنعم خلاف

أومن به إيماناً عميقاً بصيراً. . . وأرصده رصداً مستوعباً يطيف به في جميع بقاعه ومختلف أوضاعه، واستوحى نظرة الله إليه ورحمته به تسديده إياه في طريقه إلى مستقبله المجهول. . .

أومن به حتى في هذه الأيام التي ساء الظن به فيها وقبح الرأي بقيمته وكفر هو بنفسه وسخط على حياته، وبدت فيها خبائثه ومكايده وقسوته، وذاق بعضه من بعضه البأس الشديد والشقاء المنكر! وتهددت حياته عوادي فناء صنعها هو على أسلوب الصواعق والزلازل والبراكين وسائر غضبات الطبيعة التي طالما جأر إلى الله بالدعاء والبكاء أن يحفظه منها ويحفظ الأرض بما حملت من مواريث صناعاته وابتكاراته وأمواله وأعماله وعياله من سوء عقباها في التدمير والإبادة. . .

أومن به لأومن بربه. . . فلو طاوعناه على مقتضى قساوته وشقاوته في حياته الراهنة لأنكرنا كل مثل كريم هبط من السماء أو صعد من الأرض. . . ولأخلدنا معه إلى عالم

!. . .الجحيم الذي فتح أبوابه على نفسه في أكرم البقاع عليها في لندن وبرلين وأوصي به الناظرين إلى حاضره في يأس وقنوط وإلى مستقبله في تشاؤم. . . فما ينبغي للذين آمنوا بالمثل العليا، وعرفوا أن الإنسانية كلها مخلوقة لإدراكها أن يزلزلوا عنها ويجحدوها إذا ما أصاب الأرض نكسة إلى جهالة قديمة، وارتداد إلى أعراض السفه الأول. . . بل عليهم أن يرفعوا شعلة تلك المثل وسط احتدام الظلام والظلم . . .حتى يمسك بخيوط نورها من يريد ألا تجرف روحه أمواج الظلمات

وإيماننا بالإنسان هو الذي يوحي إلينا أن نعمل له ونبسط عليه شعور حبنا ونقدم إليه ما نستطيع من خدمة. ولو أنكرناه وكفرنا بقيمته ما بقى لنا شيء في الأرض نلوذ به ونأنس إليه من وحشة الصمت المطلق والسكون المطلق، والبكم والصمم والعمى . . .التي تلف غيره من كائنات لم تدع في الحياة حديثاً مفهوماً عن غايات الحياة

وإنني ما أبصرت شيئاً غيره تَعمُقُ معه الحياة وتتسع وتتركب وبتنوع الإحساس بها. . . ولولاه لكنت صندوقاً أبكم فارغاً إلا من معاني غرائز معطلة وتجارب شهوات قليلاً ما تتحرك. . . ولا اضطربت بي مجهولات الكون كغريق طاف على أكف الأمواج. . . إن كل شيء في الطبيعة صامت جامد لا يعطي جواباً عن غايات الحياة إلا هذا النوع الذي أحمله في جسدي وأستوحيه في فكري وأبادله ما صح وما فسد!

لقد قلت في مقال سابق: إن الإيمان بالإنسان هو عندي أول المعاني الدينية، فلا يؤمن بالكون ولا خالقه من لم يؤمن بهذا النوع. . . وكان قولي هذا كضربة معول موفقة وقعت على باب كنز مرصود فانفتح! ولست أزعم أن ما رأيته وراء هذا الباب حقيقة ينشدها الناس ويجدون في ظلها راحة وطمأنينة فالله أعلم بموقع هذا القول من نفوس القارئين. . . وإنما وجدت وراء اهتدائي إليه راحة لنفسي وحلاً لكثير من المشكلات التي أجدها فيها وفي الإنسانية والطبيعة.

ولقد علمني الخروج من نفسي ونوعي بعض الأحيان ورصدهما بعين غريب عنهما أن أرى كثيراً مما خفي على الذين يلبثون رهناء سجناء في الشبكة التي تلفهم مع سائر أفراد القطيع

أجل، إني أرصد هذا النوع كغريب عنه فأرى منه ما لا يراه إلا الفارقون لنفوسهم الخارجون بالفكر عن حدود وجودهم الناظرون إلى حياتهم نظرات الملأ الأعلى ممن . . .هم فوق الإنسان، والملأ الأدنى مما هن دون الإنسان

فماذا وجدت في الإنسان؟ من قلوبه وعقوله تنبثق المعاني المكتومة المسجونة في أطواء المادة. وفي بيانه أصوات ربطت الكون كله ولاءمت بين نسبه المختلفة ولخصته واختزلته ووضعته أمام الفكر ملموماً. . . وفيه نغمة مفهومة رقيقة وسط صخب . . .الأمواج التي لا عدد لها في البحار، والهبوات التي لا عدد لها في الأجواء

إنه مشبوب الحاجة دائمها، واسع الآمال والخيال في تعظيم المادة وتنويعها وتصريفها والاحتفاء بكل سر فيها، لا يخرج من الأرض إلا بعد أن يصوغ ترابها ومواتها عرائس . . .ومباهج، ويبنيها أجساماً محبوكة ذات أوضاع وفنون

لقد استمرت الأرض من قبله جامدة لا يتغير فيها شيء من موادها إلا الدورات الأبدية المتشابهة من الهواء والماء والفصول وتعاقب الليل والنهار والشهور. . . ولم نر يداً غير يده تضع في الأرض حجراً على حجر أو تحفر قناة مستقيمة تصرف فيها ماء أو تجلب

ماء، أو ترسم صورة أو تقيم تمثالاً أو تمتهن حيواناً لخدمتها. . . وإنما يبدو من الطبيعة أن كل شيء فيها كان ينتظر وجود هذا النوع ليقول ليده وفكره: هاأنذا لكما!

وما زالت المرآة التي فيه وهي عقله تتطبع فيها صور الكائنات واحداً وراء آخر وهو يحولها وينقلها من عالم الجماد والصمت إلى عالم الأسماء والبيان والصور والتعبير . . .حتى فرغ منها أو كاد

وما زال يدور حول ظواهر المادة وصورها وأشكالها ويحللها وينبش فيها ويسبر أغوارها حتى وصل إلى عالم الكهارب والأثير وهو الآن يجري اختباراته وتحليلاته على هذه الأصول الأولى للمادة ليكثفها أو يرققها ويتحكم في إخراج أنواعها بعد أن وصلت يده إلى مفاتيح توجيهها.

إنه تعمق في عالم الأجسام والقوى حتى وصل إلى مصادر الحياة الآلية ومادة الوجود الأولية، وتعمق في عالم المعاني والأفكار حتى وصل إلى الخفقات الروحية العليا

والرياضيات العليا التي قام عليها تخطيط الطبيعة وهندستها
وإنه ليركب ما في الكون من المعاني كما يركب ما فيه من مواد، فيقيم الكتب العامرة والمقالات الحكيمة والصلوات المطهرة والألحان الساحرة كما يقيم القصر الكامل الجميل والصرح المشيد والقاطرة والطائرة والباخرة. . . وإنه ليسافر بفكره في الآفاق العليا كما يسافر بصوته وصورته في صندوق الراديو. . . وهكذا هو يتوجه في عالم المادة والقوى العمياء كما يتوجه في عالم الروح الواعي والفكر المميز المبصر الحاكم. . . وهكذا هو رباط بين العالم الساكن الخفي وبين العالم المتحرك المرئي
إن تكن للشرق الإسلامي رسالة جديدة في هذا العصر تضاف إلى رسالاته السابقة في العصور الخوالي فهي رسالة الدعوة إلى الإيمان بالإنسان سيد الأرض، وحبه وخدمته ومعرفة قيمته. . . ثم الضرب على أيدي محترفي السياسة واللاعبين بالشعوب ومؤرثي العداوة بينها في سبيل الأمجاد الشخصية والأطماع والتسلط والاستبداد والإخلاد إلى منطق الغرائز السفلى التي ما وضعها الله في تركيب الإنسان إلا لتكون له كالعجلات ودواب الحمل وآلات الدفع للقافلة السائرة إلى غاية تاريخه مصباحه
ولنستعرض تاريخ الإنسان على هذه الأرض لندرك مدى مركزه فيها، ولنعطيه من تاريخه مصباحاً يرى به نفسه: إن الله أسلمه الأرض، وليس فيها شيء معقد التركيب غير الأجسام العضوية الحية، وهي أجسامه وأجسام الحيوان والنبات. أما المادة فأسلمها إليه بسيطة في صورها الأولى وخاماتها البكر، فما زال يدور حولها ويعبث فيها وينبش ويخرج أسرارها واحداً بعد آخر حتى حدثته أخبارها، وأخرجت له أثقالها، ووضعت بين يديه أجنتها وعيالها، واستفاد من تجاربه فيها عقله وحكمه - والعقل هو حفظ التجارب والحكم بمقتضاها - وعلمه ووثائق سيرته ومدونات فكره. وكلما أنماها وعقد نموها أنمت هي فكره وعقدته - والتجاوب بين المادة والفكر قانون - حتى ملأ الأرض بما ولد منها وأخرجه من كوامنها وركبه من بسائطها
وشاء الله أن تكون قوة الفكر في الإنسان لا حد لها، فصارت تخاريج المادة وفروقها وتمايزها لا حد لها. . . وتارة يكون كشفه عن أسرارها بطريق الصدفة، فيلقط ويدون، كما هو واضح من نمو علم الكيمياء، فإن كل أمورها تجريبية لا دخل للفروض والظنون والتجريدات فيها. . . وتارة يكون الفكر سابقاً قادراً على الفروض وقياس النسب الغائبة على الحاضرة.
أي تارة تكون الطبيعة سابقة في الوحي إليه، وزيادة علمه وفكره، وتارة يكون هو سابقاً في الوحي إليها وزيادة موجوداتها ومشاهدها
وإني لأستعرض أعماله في الطبيعة منذ أن كان هائماً لا سقف له يصنع من ورق الشجر ستاراً لسوأته، ويتخذ من الحجر خنجراً لسطوته، إلى أن صنع لباسه الأوربي المعقد المنوع المزين الملون، وصنع بيته من ناطحات السحاب، وآلات سطوته من الطوربيد وسلة مولوتوف. . . ومركبه من الحصون الطائرة، واستوعب جميع أجزاء الآلات المعقدة في رأسه قبل تركيبها بمساميرها وحذافيرها. . . وصنع له مجاهر ومقربات يقرب بها مشاهد السموات والسدم ويحلل عناصرها، ويكبر بها أحجام الجراثيم ويقيس بها الخلايا ويحكم بها على كل أولئك حكما صحيحاً خاضعاً لمقاييس الحس والفكر. . . أستعرض أعماله هذه فأراه بعد ذلك قانوناً نامياً لا حد لنموه في ذاته وقانوناً منمياً للطبيعة وصورها وأشكالها لا حد له كذلك.
وجميع قوانين الطبيعة قوانين متحجرة صارمة إلا هذا الإنسان فإنه قانون مرن يذهب في كل اتجاه. أليس فيه نفخة من روح الله ليست في سواه؟! والله خالق هذه القوانين وواضعها؛ فلا عجب أن تدفعه هذه النفخة إلى الأمام في مجاهل الكون دائماً إن الأطفال يقلدون الرجال بغريزة التقليد والمحاكاة التي فيهم للاستعداد لمستقبل الفرد، والرجال يقلدون صنع الله للاستعداد لمستقبل الإنسانية كلها. وجميع آلاتهم التي ركبوها وجدوا نماذجها أمامهم مما خلق الله. وجسم الحيوان هو نموذج الآلات الكبيرة السريعة التي ابتدأ بها الإنسان يتسلط على المكان والزمان والمسافات والأبعاد. وجميع أعمالهم في الكهرباء والقوى الخفية إنما وجدوا نماذجها من المجموعات العصبية في الحيوان والنبات، فأرسلوا الإشارات والصور والأصوات إلى عيون وآذان

صناعية عبر المحيطات والصحارى والقارات والجبال الشاهقات كما يرسل الجسم الواحد خواطره وصوادره إلى كل خلية في أعضائه.

وعلى ذلك صارت الأرض كجسم ينبض ويترابط، وإنسانها فيها كالمراكز العصبية في الجسم الحي: تصدر وتتلقى الجواب

حياة الشرنقة

ولكن هل يجوز أن يقف الإنسان في ضجة ما صنع من الآلات والمفرقعات ضائعاً مغموراً غائباً فيها كما تغيب دودة القز في الشرنقة التي تنسجها، وكما تغيب النواة في النخلة السحوق والبذرة في الدوحة الفارعة؟

إنه يرسل في الطبيعة لمحات فكره وومضات خواطره، وصار الأثير والهواء والماء والتراب مليئاً بهمساته وأزيز محركاته وضربات معاوله إلى أعماق المناجم والركاز.

وهذا حسن لو أنه لا ينسى نفسه وسط الضجة والقوة والجبروت الآلي، والحديد البليد القاسي، حتى يختنق ما فيه من وداعة الروح وتأمل الفكر، والإحساس بالانفصال عما صنعته يداه

أجل يجب ألا يكون الإنسان قوة عمياء تعمل في المادة بدون فكر وروح وإحساس صوفي فيما تعمل ولذة به وإلا استحال إلى قوة متنقلة في عمليات التكوين والتركيب بدون وعي وفي ذهول وغفلات تشبه عمى القوى العمياء

إن طاعة الحديد البليد القاسي للفكر الطليق البارد تركت في أعصاب الأمم الصناعية آثاراً عميقة ستطمر لا محالة جوانب من عواطف الرحمة والمروءة في قلوب أفرادها، وتمحو آثار العصور الصوفية التي أدرك الإنسان نفسه فيها حين كانت النبوات تتلاحق عليه.

وإني لأتخيل الآن ما جرى في ساحات (الفلاندر) فأرى الإنسان وهو يدفع الحديد الجبار فيندفع، ويطلق البارود الصاعق فينطلق، والقنابل الصارخة فتصيح في نكر وشدة، ويملأ الجو بالدخان الأسود والنار الحمراء فيمتلئ، ويسيل النار من (باصقات) النار فتسيل على الأجسام البيضاء الجميلة ذات العيون الزرقاء والشعور الذهبية والجماجم المستوية وتذيبها كالشمع، وتسحقها كالرفات، وتذروها كالرماد. . . ويرفع القلاع الطائرة إلى أجواز الفضاء فترتفع. . . أتخيله وسط هذا كله لا يسمع صوت نفسه إذا تحدث، ولا يعي خروج نفسه إذا تنفس، ولا يحس ألمه إذا تألم، ولا صعق جسمه إذا أصيب؛ فهو في جنون الحرب يضرب الأجسام الحية النامية من شجر أو ضرع أو زرع أو حيوان أو إنسان ويخرب العامر ويهدم القائم فأقول: لقد تحول إلى قوة عمياء، وصار عاتياً كالريح. . . جارفاً كالتيار. . . أعمى كالصاعقة. . . قاسياً كالحديد. . . صابراً كالفولاذ. . . فظيعاً كالنار. . .

ولست أدري متى يفيق لنفسه ويعني بوضعه وتحولات حياته كما يعني بمستقبل المواد والقوى، ويربط ما بينه وبين الله مفيض الفكر والحياة كما يربط ما بين نفسه وأجزاء الأرض؟!

إن الآلة لا تدركه وهو يعمل فيها ويقوم عليها، وهي لا ترحمه من السحق أو البتر أو الصعق إذا تعرض لها جاهل بقوانين سيرها، فلا قلب فيها ولا فكر ولا حياة دم وعصب وروح. ولكن ما باله هو لا يفكر في الاتصال بمن أنشأه وركبه ونسقه وصوره وهو ذو الفكر والروح والوجدان والنزوع والإرادة والاختيار والتطلع والحزْر والحذَر والقدرة على قياس ما غاب بما حضر؟!

إن الاستسلام لغيبوبة الحياة الآلية ضياع وتطبُّع بطبع الحديد البليد الأعمى الدائر في غير وعي وإحساس، وأخوف ما يخاف على الإنسان أن يترك هكذا فريسة وضحية للآلات يعيش معها ويقدم لها وقودها إلى أن يفني وقود حياته هو وينطفئ مصباحه ويذهب إلى ظلمة القبور بدون بصيرة منيرة يسعى نورها بين يديه في العالم الباقي غير المنظور.

وعلى هذا ينبغي أن تقوم في الناس دعوة إلى الإحساس بالنفس واليقظة الدائمة لها وتزكيتها والرفع من قيمتها، وهذا لا يكون إلا بالدين والفن الرفيع: الدين العقلي الطبيعي المبني على إسلام النفس لله البارئ وللطبيعة الأستاذة! والفن الرفيع الذي يخلق جواً يحضر للقلب بعض المعاني الغائبة التي تري الإنسان وضعه الممتاز الفريد الطليق وسط ما في الكون من المواد والقوى والمخلوقات السجينة. . . تلك المعاني

التي تتراءى وراء بيان ذوي البيان النظيف، وألحان ذوي الأصداء البعيدة، وعيون ذوي الصفاء والإدراك. .

عبد المنعم خلاف

جيل وجيل - 3

للأستاذ محمود البشبيشي

إذا كنت في فكرك مع الفن الطبعي، كانت كل آثارك من نثر وشعر، صوراً فنية، لا . . . تكلف فيها ولا تعمل، والحيوية في الأثر الأدبي، ترجع إلى الحيوية الكامنة في نفس الأديب، وكلما كانت فطرية كان الأديب ينتزع من الطبيعة صوراً، ثم يخلع عليها من طبيعته ألواناً ضاحكة واضحة لا تنافر بينها. . . وكان موهوباً في كل ما يكتب ويقول. . . وأنت يا بني في كل ما حدثتني موهوب. . .

كنت قادراً على سرد أفكارك بوضوح. . . والحيوية في الكاتب هي قدرته على عرض أفكاره في غير ما تعقيد ولا ضعف.

وكانت لأفكارك القدرة على التأثير. . . والحيوية في الأفكار هي قدرتها على التغلغل في النفوس. . . وكانت ألفاظك لا تحمل غير معانيها. . . والحيوية في الألفاظ هي وجودها في المكان الذي إذا رفعت منه فقدت حيويتها، لا تستطيع أن تنقص منها أو تزيد عليها. . . لأنها وضعت كما توضع المقادير في سجل الوجود لا نقص فيها ولا زيادة!!

- جميل يا والدي أن جعلت للكاتب حيوية وللأفكار والألفاظ، ولكني أحب أن أعرف شأن هذه الحيوية في الكاتب

- شأنها عظيم يا بني. . . فقد يختلف الكتاب باختلاف الحيوية الفكرية فيهم. . . فهذا كاتب يملك ناصية الفكرة ولا يجد صعوبة في عرضها. . . فتخلص خلوص ماء السيل لا يقف ولا يتعثر، وتسطع كلماته أنواراً هي إشعاع نفسه وطبيعته، فتراه في أسلوبه، وتلمس في أسلوبه حيويته. . . وينسيك سحره كل شيء إلا ما أراد هو أن يخبرك به!! وهذا كاتب يملك ناصية اللغة ولا يملك ناحية الفكرة والحيوية. . . مهما أوجز أو أطنب وملأ كتابته بكل لفظ شارد خرجت أفكاره عارية، لأن ألفاظها لا تكسوها، أو لأنها لا تلبس ألفاظها تماماً. . . مثل هذا الكاتب يا بني تستطيع أن تسميه صانع ألفاظ. . .

- وكذلك الشعراء يا والدي. . . فإنك لتجد شاعراً تسمو شاعريته، ويدق إحساسه، فينتزع من كل مرائي الطبيعة صوراً مهما صغر أصلها، يرتفع بها إلى القمة في تصوير عجيب، وتدفق غريب، لأن في نفسه طبيعة خلق معنوية شاعرية تكسو كل أفكاره حيوية ساحرة،

فيخرج شعره صافياً كمضير الوليد، باسماً كثغر الغيد، راقصاً كالقلب في فرحة اللقاء. . . وهو في إحكام صياغته، وارتباط معانيه بعضها ببعض، وتسلسل أنغامه، كأنه شيء حي تكاد تلمسه وتسمعه، لأن نفس صاحبه وحيويته توزعت فيه نغما وصياغة وتسلسلاً وصفاء

- وأكثر من هذا يا بني، فالحيوية في الشاعر إذا سمت اجتمع لها من الإعجاز ما يفوق حيوية الكاتب، لأنها هنا تقوم بأعمال كثيرة منها الوزن، والقافية الرقيقة، واللفظ الموسيقي، والمعنى الشارد، والروح الشعري. على حين أنها هناك لا يطلب منها سوى صحة العبارة وسلامة المنطق. والحيوية في الشعر لا تكتسب بالاطلاع كما قد تكتسب أحياناً في النثر، لأن الشعراء قوم خلقوا وفي طبيعتهم روح الشعر، بل وفي منطقهم وفكرهم وحديثهم ونظرتهم. فمن قال الشعر من غير طبع وخلق شعري خرج شعره يتعثر في قيود الصنعة وفقد روح الشعر كما فقد تسلسل النثر! أيحسبون أن الشعر حين يكتسب بالاطلاع ويشترى بالحفظ يكون شعراً بمعناه الصحيح! ألا إن الحيوية الشعرية لا تكتسب أبداً ولا تباع. إنما هي تخلق مع الروح

- وكما توجد الحيوية يا والدي في الأديب وأدبه، توجد أيضاً في الرسام وفنه، وكما يختلف الأدباء باختلاف الحيوية فيهم يختلف الرسامون كذلك، فإنك لتقف أمام لوحة زيتية لفنان موهوب، امتزجت روحه بالفن وامتزج بها، وسبح في عوالم لا يصل إليها غير من رقت روحه، وكشفت عن كل خفي من المعاني، وخلع إحساسه الفني على صور الطبيعة ألواناً من نفسه، وخلعت صور الطبيعة على ألوانه ألواناً حية، لو وقفت أمام صورة لمثل هذا الفنان دبَّ في نفسك شعور غريب يملك حواسك، بل يخرج

بحواسك عن حقيقتها، فتعتقد أن هذه الشجرة الزيتية شجرة حية تهتز وتتحرك، وهذا النهر الملون تكاد تسمع له خريراً حلواً. ولا غرابة في ذلك، فحيوية الفنان هي سر حيوية لوحته الفنية. وأقسم أني وقفت يوماً أمام لوحة لفنان موهوب، تشع لوحاته إشعاعاً كله حيوية تتحرك وتؤثر وتعجب إلا وانقلب منطق إحساس. فأصبحت أسمع للألوان أصواتاً، وألمس في سكونها حركة. . . واللون الساحر يا والدي إذا وضعه فنان ساحر في موضعه الفني لا يظهر لوناً فقط، بل يظهر لوناً وحقيقة حية!

- والحيوية في الرجال يا بني هي سر الرجولة الكاملة في كل عمل يُعمل، والرجل صاحب الحيوية هو الذي أحكم دقيق أمره وجليله، وامتنعت صفاته السامية كثيرها وقليلها، واحتوى من قوة الروح وهيبتها ما يغمر الجو الذي هو فيه هيبة غير مصطنعة وكانت فيه قوة ذات رحمة إذا قدرت، وذات بطش إذا ظُلمت! وارتفع بكل هذا عن كل مغمز وكل مقالة. . .

- وحيوية الحقيقة يا والدي هي قدرتها على الذهاب بالباطل، وإن الحقيقة لا تسمى حقيقة حتى تستطيع أن تقول للكذب أنت كذب فيقتنع ويخر ساجداً، لأنه يعلم أنها تخاطبه بلسان الواقع والمنطق. . . وقد تسكن الحقيقة أحياناً وتحتجب إذا كان في نفس صاحبها ميل إلى الاستكانة إلى الواقع ولو كان ظلماً! فتظل مقنعة تحاول الظهور كلما تمردت في طبيعتها نزعة الحق، فإن أفلحت في ذلك خرجت تحمل قوتين: قوة الحق، وقوة الإقناع. وكانت مدفوعة بدافعين: دافع استحقاق الوجود، ودافع حب الانتقام من كل معارضة كاذبة. . .

- وهذا ما كان من أمر حقيقتك وحقيقة إخوانك شباب الأدب، فقد ظلت ساكنة مقنَّعة، راضية بالواقع، حتى تحركت طبيعة استحقاق الوجود فيها فقامت ثائرة تناقش، وكان لها من ثورتها قوة تمطر مطرة من الأفكار والحجج، كلها حق وكلها واقع في المقالين السابقين. . . ولكني أرى أن قوتها ترجع إلى سر الحيوية الكامنة في نفسك وفكرك ومنطقك. وإذا وجدت الحيوية في شيء كان وجوده في الحياة وجوداً للحياة نفسها

- أجل يا والدي كان لا بد أن يشعر الشباب بحقه في الحياة الأدبية، وبأن الواجب تشجيع الموهوبين منا، فليس معنى الحياة أنك تحيا وتتحرك وتسكن، وليس معنى الحياة أنك موجود فيها. . . إنما الحياة الحقة أن تشعر هي بك. . . فتكون في الوجود وجوداً، وفي الحياة حياة!!. . . وفرق بين أن تكون خبراً من الأخبار وأن تكون الحياة خبراً من أخبارك!!. . . إن الرجل من امتلأ حيوية، وظهرت حيويته في أقواله صدقاً، وفي أفعاله فلاحاً، وفي نظراته صواباً، وفي منطقه استقامة، وكانت أقواله وأفعاله ونظراته ومنطقه هي حقيقته التي تقول إن صاحبي خلق في الحياة حياة أخرى. . . وجعلها خبراً من أخباره!!

- هذا قول رائع يا بني ولكن كيف يصل الإنسان إلى هذه المرتبة السامية؟ وكيف يستطيع أن يكون نفسه هذا التكوين؟

- إن الأمر على شيء من الخطر والصعوبة يا والدي، فهو يحتاج إلى خلق شخصية خاصة به فلا يكون صورة لغيره، وعليه أن يتعود الصدق، وإن صعب اليوم تعوده، فلا يدخل في كل خبر كلامه، وأن يجعل ألفاظه من نور ضميره، لا من سواد رغباته وأطماعه!! لأن الرغبات إذا اسودت بسطت سلطانها وسوادها على كل عمل يعمله الإنسان. . . وأن يعرف كيف يكيف صور الحياة التكييف الذي يجعلها باسمة. . . وأن يخلق لنفسه مثلاً أعلى. . . وأخيراً أن يبعث في شخصيته وصدقه وضميره وتكييفه للحياة ومثله الأعلى حيوية تكفل له النجاح في كل سبيل ينهجه، وعمل يعمله، وفكر يتأمله. . . فتشعر الحياة بأنه موجود فيها!!

ولكن ليس من السهل يا بني أن تشعر الحياة بك، وإن هذه الصفات التي بينتها لا تجتمع لكل إنسان، ثم إن الوصول إليها من الصعوبة بمكان. . . وليس في مقدور كل فرد أن يكون رجلاً. . . يحسن مغالبة الحياة ومدافعتها ويجعل فكره وشعوره في الناحية التي لا تقيم للخطوب وزناً. . . وليس الرجل من يبكي لأن الطبيعة وهبته عيناً تدمع! ويصرخ لأنها أعطته لساناً يصرخ! ويأس لأنه عجز، ولأن الحر من طبيعته اليأس إذا لم يقدر! إنما الرجل من يخرج من عينه إشعاع كله حياة وابتسام لأن الطبيعة وضعت السحر في البصر، ويضحك لأنها وهبت فمه معنى الضحك، ولا ييأس لأن الحياة لا يأس معها. . . ولِمَ اليأس. . . وليس في الحياة ما تنقطع عنده حيلة من الخطوب؟

فإذا نظر الإنسان في أحوال حياته، وصدق تأمله، ولم يمنعه إحجام، ولم يقيده تردد، ولم يذهب بجلده رهبة، استطاع أن يجعل كل أمر قريب المتناول، هين المحاولة. . .
- أجل يا والدي. . . كم مرت علي أيام، علم الله لم يك فيها ألم ولا يأس. . . ولكنني استقبلتها وفي نفسي ألم ويأس فغمر إحساس نفسي الحزين كل صور الحياة فرأيتها عابسة قاتمة فشكوت منها قائلاً:

ظلام ببطن الأم ليس له سر ... وليل ببطن القبر ليس له سر
لعمري كأن العيش متصل الدجى ... فأوله قبر وآخره قبر!!
إذا كان في موت الحياة مرارة ... فموت شعور المرء حياً هو المر!

وقلت:

إيه يا قلب كم تعذبت بالدا ... ء ودارت عليك شر الدوائر
ومشت فوقك الحياة بشوكٍ ... بعد ما بعثرت عليك الأزاهر
وظلال من الفناء ترامتْ ... فوق جبينك يا طريد المقادر!

وإن أسعد أيامي تلك التي نظرت فيها إلى الحياة بعين السرور فرأيتها فناً من السرور وجعلت لها روحي قيثارة تغني:

ليتني بسمة على شفة الور ... د بفجرٍ مُعطَّر الأنداءِ
وطيور تطير في لهفة الشو ... ق إلى دوحها الحبيب النائي
وابتسام يلوح كالأمل الحلوِ ... على ثغر كاعب عذراء
ليتني أرغن يُغرِّدُ بالبشْر ... ويكسو القلوب ثوب الهناء
ليتني لم أكن من الطين كالنا ... س فأشقى بفكرةٍ قتماء

- عرفتَ يا بني كيف تستقبل الحياة، كما عرفت أن الحيوية هي سر وجود كل شيء، وشعور الحياة بأنه حي فيها، وعلمنا أن الكاتب من غير حيوية فيه، يكون صانع ألفاظ، وفهمنا أن الرسام تخرج لوحاته صامتة ميتة إذا حرم الحيوية الفنية. . . وأدركنا أن الرجل من غير حيوية لا يكون رجلاً. . . لأن أعماله تكون وليدة نقص في الخلق والرأي والتأمل. . . وقلنا إن حيوية الشاعر هي كل شيء في شعره. . . أما بعد فهل تتقيد الحيوية بسن؟ وهل هي وليدة اطلاع ومثابرة؟ وهل ظهرت في جيل وانعدمت في جيل. . .؟

- أظنها يا والدي لا تتقيد بطول سراية، وليست وليدة اطلاع. . . كما أنها تكون في كل الأجيال.

فكما تحسها في قول الزهاوي:

هناك نواميس بها أنا عالم ... وأخرى على جهدي بها لست أعلم
وما أنا شيء مثلما أنت فاهمي ... ولا أنت شيء مثلما أنا أفهم

وكما نلمحها في قول الدكتور أبي شادي:

تتلاقى الشفاه وهي ظماء ... ثم تظمى على ارتواء وتنفس
وتتطيل اللقاء وهي سواه ... عن حياة بوجدها تتنفس!

وكما تتلألأ في قول العقاد:

ليس بين الجنون والعقل إلا ... خطوتا سائر، فحاذر وأمسك
أول الخطوتين نسيانك النا ... س وأما الأخرى فنسيان نفسك

وتظهر أيضاً في شعر كثير منا. أفلست تحسها في قول صالح جودت:

جريان الغدير يُجري دموعي ... ومسيلُ الدموع يُدمي المحاجر
ملأ الصبّ من جمالك سحراً ... شفق الخد تحت ليل الغدائر

وفي قول مختار الوكيل:

حبذا أنت تطفرين مع الحلم ... يكون من الخيالات نائي
ترسلين الأنفاس وسني كعينيك ... عَلى وجْنَتَيَّ كالأنداءِ

وفي قول القائل:

يودعني القلب لو ودَّعك ... ويرجع لو قدرٌ أرجعكْ
لقد مزق الهجر زهر الغرام ... وضيعني البعدُ إذ ضيعكْ
ولكن تعود لروحي الحياةُ ... إذا عاد للقلب عهدي معكْ

أما بعد: فتلك أحاديث لا يسعني إلا أن أقول إنها كشفت لعيني أبعاداً جديدة، وعلمتني أن الحقيقة لا تختفي وراء الظلام، وأن الأجيال تتأثر بحيوية فكرتها، ويؤثر في حيويتها

صدق التأمل فتفسد بفساده وتصلح بصلاحه، وإن الضعف والفناء قد يكونان قوة سامية، ما دام الضعف يولد قوة، والفناء يجدد حياة. . .
ورأيت فيها فلسفة تعارض فلسفة، فآمنت بأن الحيوية في كل شيء هي سر وجوده، وليست الحياة ومعناها في كونك خبراً من أخبارها. . . إنما معنى الحياة أن تكون هي خبراً من أخبارك. . . آمنت يا بني بكل ما تقول. . . لأنك قيدت حقيقتي بكل ما تقول
محمود البشبيشي
كتب لم أقرأها
بريد الفراعنة
للأستاذ عبد اللطيف النشار
وهذا كتاب إلاَّ أكن قد قرأته فإن قليلين من أدبائنا هم الذين قرءوه. وفي اعتقادي أنه لا عذر لأحد في مصر ألاَّ يكون ذا نصيب منه إما مترجماً أو ناقداً أو قارئاً أو حاثاً على ترجمته أو قراءته.
وهو كتاب يقع في جزأين ويشتمل على الترجمة الإنكليزية لوثائق فرعونية عددها أربعمائة يوجد من أصولها المنقوشة بالخط المسماري على لوحات من الصلصال 194 وثيقة في متحف برلين و82 في المتحف البريطاني و50 في متحف القاهرة، وبقية الأربعمائة مبعثرة في متاحف خاصة وعامة في حواضر مختلفة ومن بينها وثيقتان في نيويورك
هذه المجموعة تعرف باسم وثائق تل العمارنة. وأول عهد اللغات الأوربية بها في برلين حيث نشر العالم النرويجي البروفسور كنودتسون طائفة منها - هي كل ما كان معروفاً منها إلى عهده. وقد استغرق مجهوده في ترجمتها الفترة ما بين عامي 1907 و1914 وترجم هذه المجموعة إلى الإنكليزية العالم الإنكليزي البروفسور كلاي من جامعة ييل، وأفرد لها جزءاً من كتابه (نقوش اللغة السامية القديمة) وأضاف إليها شروحاً وحواشي وقدمها بمقدمة طويلة
وفي المدة بين عامي 1919 و1929 اشتغل الدكتور مرسيه أستاذ اللغات السامية وعلم المصورلوجيا بجامعة ترنتي - بترجمة ما استكشف من الوثائق بعد نشر مجموعة كلاي وأضافها إليها ونشرها وهو يظنها كاملة. ولكن ظهرت بعد ذلك ثماني عشرة وثيقة أخرى فاشتغل بترجمتها أيضاً بين عامي 1936 و1937، وأعاد نشرها فكانت هي المجموعة موضوع هذا الحديث
وقد تحدث عنها المستر ألبرت فيلد جليمور في عدد 21 نوفمبر سنة 1940 من جريدة الإجبشيان غازيت فقال:
إن أهمية هذه الوثائق إنما تتضح لك إن تخيلت ما يمكن أن يحدث بعد أربعة آلاف عام) من استكشاف مجموعة في مثل عدد هذه المجموعة من رسائل متبادلة بين رئيس جمهورية الولايات المتحدة وبين ملك إنكلترا)
قال: إنه إن حدث ذلك فسيوضح هذا الأثر شطراً كبيراً من تاريخنا ومن أساليبنا السياسية وعلاقاتنا الثقافية وعاداتنا وصناعاتنا وحياتنا الاجتماعية
وأول العهد باستكشاف وثائق تل العمارنة هذه كان في سنة 1887 إذ كانت فلاحة مصرية من سكان قرية قرب هذا التل تجمع سماداً فوجدت قطعاً من الصلصال يختلف طول إحداها بين بوصتين ونصف البوصة وبين تسع بوصات. ويختلف عرضها بين ثلاث بوصات وأربع وعليها نقوش غريبة
وسرعان ما انتشر الخبر بين العلماء في القاهرة وفي باريس وبرلين ولوندرا واكسفورد وغيرها. وتبين أن هذه النقوش كتابة مسمارية، وأن هذه المجموعة ليست إلا رسائل متبادلة بين الملك امنوفيس الثالث وابنه اخناتون، وبين رجال مختلفين من حكام آسيا الغربية، ومعظمهم من حكام بابل وأشور وسوريا وفلسطين، وغيرها من بلدان آسيا الغربية
ويرجع تاريخ هذه الرسائل إلى المدة بين عامي 1411 و1358 قبل المسيح
ويقول هذا الكاتب وهو أستاذ في علوم الدين المسيحي: إن لهذه المجموعة أهمية خاصة لدى الذين يدرسون الكتاب المقدس لعلاقتها بسفر الخروج، وأخبار بني إسرائيل في رحلتهم إلى أرض كنعان، ولأنها تحدد التواريخ الدقيقة لبعض الأخبار التي تضمنها العهد القديم

لما اعتلى اخناتون عرش مصر خلفاً لأبيه امنوفيس الثالث نقل العاصمة من طيبة، ولعل ذلك كان اضطراراً بسبب ما ترتب على تغييره عقيدة مصر من الوثنية إلى التوحيد من خلاف مع رجال الدين. وكان المكان الذي اختاره لعاصمته الجديدة هو المعروف الآن بتل العمارنة. ولقد عاد مقر الملك إلى طيبة بعد أخناتون وأصبحت عاصمته الجديدة أطلالاً وعرفه الوثنيون من المصريين من بعده باسم (الكافر) لمخالفته عقائدهم

ولقد كان أخناتون شاعراً وفيلسوفاً ولم يكن ملكا فحسب.

ومن بين هذه الوثائق خمس تتضمن الحديث عن هدايا تبادلها الملك المصري وبعض الحكام والولاة. وتدل المصارحات التي تضمنتها هذه الرسائل الخمس على أن الحكام القدماء كانوا يحفلون بالقيمة المادية للهدايا

ومن أمثلة ذلك كتاب من أمنوفيس الثالث يشكو فيه اختيار الرسل الذين حملوا إليه الكتاب والهدايا من بين ذوي المراتب الثانوية في المجتمع، وكان هذا الكتاب وتلك الهدايا من ملك بابل. وقد تضمن الكتاب كذلك شكوى من ضآلة قيمة الهدايا ولكنه مع ذلك بعث مع الرد بهدايا قيمة ووعد بأن يرسل أكبر قيمة منها متى قبل الملك البابلي تزويجه من بنته

وبدأت المنافسات بين الملكين المصري والبابلي في عهد أمنوفيس الثالث، ولكن مداها اتسع في عهد أخناتون إذ تفوقت بابل على مصر. وتدل بعض هذه الرسائل على ما كان ملك أشور يعلقه على نفسه من الأهمية فقد كان يلقب نفسه (الملك الكبير الذي يصر على المساواة مع فرعون مصر الذي يخاطبه بلفظ أخي) وهو ينوه في خطابه لأخناتون بقدر الهدايا التي تلقاها جده من فرعون سابق فقد كانت عشرين وزنة من الذهب، وهو يذكر في الخطاب أنه لا يعدو جانب التواضع حين يطالب أخناتون بالا تقل قيمة هديته عن هذا القدر حفظاً لكرامته

وتدل الرسائل أيضاً على أن مصر رفضت التدخل في المنازعات التي كانت بين بابل وبين أشور، عدا أنه لما اقتصر الخلاف على أمر الحدود بين الدولتين قبل أخناتون أن يتوسط لمصلحة الآشوريين لدى البابليين سادتهم القدماء. وهذه السياسة بين الملوك الأقدمين تطرد مع ما يجري في زماننا كأنما التاريخ يعيد نفسه

وأكثر هذه الرسائل مبعوث به إلى ملك مصر، وأقلها مبعوث به من مصر. ومن بين ما بعثت به مصر أربعة كتب للملوك منها ثلاثة لملك بابل والرابع إلى ملك ارزاوا. أما الرسائل التي وردت إلى مصر فمنها ما هو من بابل ومنها ما هو من أشور أو من مملكة الحيثيين أو سوريا، وأحدها إلى أمنوفيس الثالث والد أخناتون. ورسالتان أخريان إلى سيدتين مصريتين

ولهجات هذه الرسائل مختلفة اختلافاً بيناً، حتى لقد وجد المترجمون مشقة شديدة في ترجمتها، فلها من هذه الناحية أهمية لغوية عند علماء اللغات السامية

وفي الرسائل وصف دقيق لبعض عادات القدماء ومراسيم الدين وتقاليد الزواج، كما أن لها أهمية جغرافية، وتدل هذه الوثائق في جملتها على سيادة مصر على آسيا الغربية وعلى هيبتها منذ طردت الهكسوس إلى عهد أمنوفيس الرابع

ولقد كان ملوك مصر في عهد مجدها محاربين، أما أمنوفيس الثالث فبدت فيه ميول أدبية، وأما ابنه أخناتون فقد بدأ به عهد الضعف، وقد كان شديد الكراهية للحرب

(انتهى ملخصاً)

عبد اللطيف النشار

القدر والقصص

(بمناسبة شقاء أشخاص روائيين)

للأستاذ عبد المجيد مصطفى خليل

في عام 1850 قدمت شارلوت برونتي الطبعة الثانية من قصة أختها إميلي برونتي المسماة مرتفعات وُذَرِنج بمقدمة جاء فيها:

لا أدري أكان صواباً أو ملائماً أن تخلق كائنات مثل هيثكليف، ويصعب أن أظن ذلك،) لكنني أدري أن الكاتب الذي يملك الموهبة الخالقة يملك شيئاً لا يسيطر دائماً عليه - شيئاً يريد ويعمل لنفسه بغرابة أحياناً، فقد يضع (الموهوب) قواعد ويبتكر مبادئ، ثم ترقد (موهبة الخلْق) أعواماً في خضوع لهذه القواعد والمبادئ؛ وعندئذ، ومصادفة

وبغير إنذار بالثورة، يحين وقت لا تعود تقبل فيه أن (تَسْلفَ الأودية، أو تربط برباط في خط المحراث) - حين (تضحك من زحام المدينة، ولا تهتم بصياح الحوذي) - حين ترفض كل الرفض أن تصنع من رمل البحر حبالاً لحظة أخرى، وتشرع تنحت التماثيل فتجد (أنت) صورة من بلوتو أو جوف وتيسيفون حورية ماء أو مريم كما يوجِّه القدر أو الإلهام. وليكن العمل عنيداً أو مجيداً، مفزعاً أو سماوياً، فإن لك اختياراً ضئيلاً متروكا، غير أنه اختيار هادئ ساكت. أما أنت أيها الفنان الاسمي (الصوري) فإن نصيبك منه كان أن تعمل مستكيناً بإرشاد لم تفهمه، ولا استطعت أن تستوضحه - إنه لا يلفظ في صلاتك، ولا يُلغى أو يغير على هواك. فإن كانت النتيجة خلابة، فسيمدحك العالم أنت الذي تستحق من المدح قليلاً؛ أما إن كانت تشمئز النفس منها، فإن العالم نفسه (يلومك، أنت الذي تستحق من اللوم قليلاً كذلك

وفي عام 1930 قدم هـ. و. جَرُد لطبعة هذا العام من هذه القصة، بمقدمة أيد فيها شارلوت في تفسير قسوة القصة بالقضاء والقدر أو الإلهام، وقال:

إذا لم يمكن وصف قصة مرتفعات وذرنج بأنها أعظم قصة (غير مسرحية) في لغتنا،) فإن لها على الأقل أن تدعونا بعدل إلى اعتبارها أصفى قصصنا إلهاماً؛ وقد أحسنت شارلوت برونتي كشف قوتها العجيبة إذ تكلمت على (القدر أو الإلهام) (إلى أن قال): ليست الطبيعة، بل القدر، يبدو أنه أخذ القلم من الكاتبة، وكتب لها. (حتى قال): لو كان مدبر

(القصة شيئاً أقل من (القدر أو الإلهام) لكانت سفينتها غرقت وسط متاعب الأنانية هكذا قال مقدماً القصة الغريبة الرفيعة. ولم يكن يسع شارت الموهوبة الملهمة إلا أن تتأمل غرائب القصة وسببها الدافع وإلا أن تجد أنه القدر. أما الإلهام فمن القدر. ولم يكن يسع (جَرُد) إلا أن يُعجب بهذا التوفيق إلى تفسير سبب هذا العمل الأدبي الطافح بالقسوة والغرابة، وإلا أن يؤيده ويكرره في راحة وسرور

ولو لم تتكلم (شارلوت) و (جرد) عن عمل القدر في هذه الرواية لكان جديراً بنصف قراء هذه القصة أن يتساءلوا مستنكرين: لماذا قسمت حظوظ شخصيات هذه القصة كما قسمت؟! ولماذا نجح الشر فيها كل ذاك النجاح؟! ولماذا شقيت شخوصها الطيبة ما شقيت؟!

طالعت كثيراً من المآسي فلا أذكر أني عجبت من المؤلف عجبي من إميلي برونتي وإن تكن قصتها المحشودة بالمآسي ليست في قالب المأساة

الناس يشقون بمكتوب القدر، ويسألون الله اللطف والرحمة؛ وقد يتعجبون في تسليم من الحكمة الخفية كيف تكون. وقد يستغربون وجود غاية مجهولة معقولة لأن عقولهم لا تغني في هذه القضية بغير إيمان ثابت. فقد يسأل القارئ بعد تلاوة هذه المأساة وأمثالها: أما كفى المؤلف شقاء الناس في الحياة فيشقي شخوصه في الورق والخيال وهي من صنع يده لولا أن قَدَر الحياة يتدخل في قَدَر الخيال! إنه لا يجوز أن تشقى هكذا تلك الأحياء الخيالية الطيبة. فإن جاز شقاء شخوص روائية فحين يصف مؤلف أشخاصاً حقيقيين في قصة وصفية غير وضعية إلا أن يكون المؤلف قاسياً وحشياً ويظهر أن مخرج هذه الرواية للسينما راعى شيئاً من ذلك، فرأيناها خلواً من شر ما فيها من شذوذ وقسوة. وإن يكن قد شوهها بالبتر والاقتضاب والتعديل

هذا، وقد كان كلام شارلوت على القدر والإنسان والاختيار المتروك له، وهو مناط الكسب، كلاماً صائباً يوافق في عمومه رأي السيد جمال الدين الأفغاني في مقالة (القضاء والقدر)

وفي (عهد الشيطان) للأستاذ توفيق الحكيم أقصوصة عنوانها (الأميرة الغضبى). وهي (ريسكا) بطلة قصته (أهل الكهف). والمؤلف يحاور بطلة قصته بهذا الحوار الذي طرق به موضوع القدر:

- قل لي أنت قبل كل شيء: ماذا عليك لو أنك أبقيت لي مشلينيا؟. . . لو أن قلمك تمهل

لحظة قصيرة ولم يقصف تلك الحياة لكنك ضننت بها أيها القاسي الظلوم!

- لست قاسياً يا سيدتي ولا ظلوماً. ولو كنت أملك أمر بقاء مشلينيا دقيقة واحدة لأبقيته لك عن طيب خاطر

- لو كنت تملك؟ ومن غيرك يملك؟

- لا تحمليني يا سيدتي هذه التبعة!
- جميل أن يتنصل خالق من تبعة خلقه كل هذا التنصل!
- آه، ما أظلم الإنسان! وما أحوج الخالقين إلى الرحمة والرثاء في هذا الوجود
- نحن الظالمون وهم المظلومون. . . شيء بديع!
- إنكم تحملونهم التبعات وترمونهم بالظلم، وهم براء من كل صفة من هذه الصفات. فلا ظلم ولا عدل، ولا قسوة ولا حنان، ولا غضب ولا رضى، تلك عواطف لا يعرفونها ولا يشعرون بها. ولو أصغى إله لصوت آدمي لانحل الكون في طرفة عين، كما تنحل قصة أهل الكهف لو أني أصغيت إلى شخص واحد من أشخاصها! فأنت تريدين أن أؤخر موت مشلينيا دقيقة، ولا تعلمين أن هذه الدقيقة الواحدة كانت كفيلة أن تغير وجه القصة وتقلب مصير الأشخاص وتلقي عناصر الفوضى في العمل كله. كلا يا سيدتي. إني لم أرد موت مشلينيا ولم أرد بقاءه، ولم أحب ولم أكره، ولم أظلم ولم أعدل، إن الخالق لا يمكن أن يخضع لغير قانون واحد: (التناسق)

فكيف لا يعرف الخالق الذي يحدثنا عنه الأستاذ الحكيم الظلم والعدل والقسوة والحنان والغضب والرضى وهو الذي خلقها؟! وكيف لا يشعر بها وهو يتصف بأكثرها؟ أو أن هذا الذي يصفه الأستاذ طراز من الخالقين طريف: اختصاصه الأبدان وليس من اختصاصه العواطف!

وكيف يجهل هذا الخالق المفاجآت ولا يحسب حساب الظروف وطارئ الطلبات، والمخلوقات يعرفونها ويعدون لها ما استطاعوا من عدة؟! أفينحل الكون العظيم لو أجاب الخالق دعاء إنسان يطلب شيئاً معقولاً هيناً على القدرة الإلهية؟!

وما عزاء المتدين عن مصائبه إذا لم يكن له أمل في رحمة الخالق وفي نعمة الجنة؟ إذن ما أضيع المخلوق!

وما هذا التناسق الغريب الذي لا يكون إلا مركباً من نسبة من الشر لا تنقص؟! فكيف إذن يكون الحال في الجنة التي لا شر فيها، ألا يكون فيها تناسق؟! كذلك القصص التي ليست مآسي، هل انعدم التناسق فيها؟! فإن يكن المراد (التناسق الذي يقتضيه الحال) فأين إرادة الخالق واختياره؟! وكيف يكون خالقاً من ليست له إرادة ولا اختيار ولا تدبير فيسيطر عليه المقام والسياق والاتفاق! فقد يسوقه التناسق فينساق فيكتب في لوح القدر تراجيدية أو درامة أو كوميدية. . . ثم هو بعد ذلك خالق وله قدر!

وقد انتهى دور أفلاطون في مسرح الدنيا، لكن ديكنسون استطاع أن يهيئ له مرة أخرى دوراً في محاورته (بعد ألفي عام) وهي حوار بين أفلاطون وبين شاب عصري كذلك أسدل الستار على حياة فولتير وواشنطون ونابليون، لكن مادارياجا أنطقهم وبعثهم في الخيال المسطور في (ساحات الفردوس). وقد رقد المعري بعد سهاد دنياه ولكن الأستاذ العقاد أيقظه ليسجل في صفحات (رجعة أبي العلاء) أنباء رحلته في هذا العصر في الدنيا الحديثة. هذا وإن كان الأستاذ العقاد قي استصوب كلام الأستاذ الحكيم في (كناشة الأسبوع) بقوله:

(وهذا كلام جميل أصيل لا يحل به المؤلف مشكلة بريسكا وحدها ولا مشكلة الفن وحده، بل لعله يحل به مشكلات كثيرة، ويكشف به أسراراً كثيرة، من مشكلات القدر وأسرار الوجود)

لقد أراد الأستاذ الحكيم أن يفسر القدر في القصص فنظر إلى القدر في الوجود فلم يوفق إلى حقيقتهما معاً حيث وفقت شارلوت برونتي إلى تفسير أقدار القصص برأي معقول. وللحكيم العذر في إخفاقه لأنه سلك سبيل القدر الإلهي، وهو عصي على الإفهام

شجعني على إبداء هذه الملاحظات على (سُنَّة) الأستاذ الحكيم في (مخلوقاته) الروائية، أنه (خالق) لا يعرف الغضب ولا يشعر به، وأني لست مخلوقاً روائياً فأدخل في اختصاصه. . .

عبد المجيد مصطفى خليل.

من وحي الريف

ريف وروح. . .

للأستاذ حبيب الزحلاوي

السرعة إحدى خصائص العصر، وهي على رغم أخذها الناس بالسوط تستحثهم على

المضي، تتهيب الأديب، لا تجرؤ على الدنو منه ساعة سبحه في الفراغ الطويل، أو تأمله بدائع الكون العظيم، أو انجذابه بسحر الطبيعة ومفاتنها
للأديب الذي يركب القطار من القاهرة إلى الإسكندرية، أو منها إلى الصعيد بعض العذر في رمي الريف بالصورة الواحدة ذات الوجه واللون الواحد، وله أن يدعي الملال من الرؤى الرتيبة، لا لأن طبيعة الريف هي كذلك، بل لأن أثر السرعة في نفسه أبلغ من أثر تهيئها لتقبل الجمال ولمح قسمات الروعة والبهاء المطوية والمنشورة، البادية والخافية والتشبع منها على مهل
والريف كالمرأة في مجموع تكوينها سحر يدرك بالغريزة، وفي تفصيل قسماتها فتنة تعيها لطافة الحس بالاشتراك مع الشعور والذوق وتفتق البصيرة
الريف للأديب المتسرع جمال موقوت وبهجة زائلة، ولقرينه المتأمل هيكل في مباءة الأرواح. . .
ما سمعت من أديب ثناء على ريفنا الصامت، بل رأيت ملامح الضجر تضج من الصمت فقلت هو ذا مظهر من مظاهر السطحية لا يقوى صاحبها إلا على مسايرة العصر في سرعته وتسرعه، ويعجز عن مجاراة الروح في سبحه وتأمله وانجذابه
لم ترني (الدقهلية) نخيلاً تبدى لي في الصعيد بقامته الممشوقة، وأغصانه المعروشة، وعناقيده المدلاة، وبلحه النحاسي القاتم والذهبي الصافي اللون، بل أرتني منابت الأرز تلبس عشرات ألوان متناسقة متساوقة من خضرة السندسي المفرح، تسبح في أمواه رقراقة لا تفيض حتى يدرك النبت النضج فيتناوله المنجل، وكأني سمعتها تقول: (نعوم في أمواهنا نستكمل حياتنا فيها كما يستكملها الأديب الموهوب في حب متقطع متواصل يحيا به حياة دائمة التوقد والالتهاب حتى قطعه المنجل!)
رأيت فصول العام مستوفاة في أرض الريف في ساعة واحدة هنا وهناك ربيع وخريف للقطن والقمح والأذرة والبرسيم، وهنالك صيف وشتاء لأرض تتأهب لغرس جديد
إن تعجب يا صاحبي فاعجب لقطان هذا الريف السمح السخي إذ لا شيء أدعى للعجب بله الدهشة من تلقيك عكس ما كنت تتوقع وتتأمل
في طباع قطان الريف جود وبخل، حلم وسفه، ظَرف وسماجة، ذكاء وبلادة؛ ولعلي لم أتلمس وألتفت إلى الاستكانة وضدها الأنفة، والتواضع وضده الكبرياء، والشجاعة يقابلها الجبن، وسهولة الخلق وتوعره، لأنها وإن كانت من الصفات التي تسم روح الفلاح بميسم الانطلاق والحرية والاعتماد على النفس ولكنها مكبوتة فيه، مخنوقة من الجور الذي لا تبلى جدته، ولا يصدأ معدنه، الجور الناعم الباسم وقد توارثته الأجيال الحاضرة عن الظالمين والمظلومين من أقدم العصور
والريف وضيء الطلعة، واضح السنة، كفتاة في مستهل الصبا، عفيفة الطوية، إن تصدت تتصدى لأليفها، أو للقريب من روحها، وليس للمحة الخاطفة عندها مهما بان سناها سوى أثر البرق. . .
اقتربت من فتيات ريفيات يجنين القطن، وكنت إذ ذاك متيقظ النفس، متشوقاً إلى رؤية جنى محصول مصر العزيز، ولكني ما كدت ألقي بالنظرة الخاطفة حتى غامت الرؤى في عيني. . .
لقد تذكرت الأديب فخري أبا السعود، هذا الرجل الذي صدمته الحياة فتغلب عليها بالموت. . . تذكرته للفصل الممتع من الكتاب القيم الذي نقله إلى العربية لمؤلفه توماس هاردي في وصف فتيات ريفيات يجمعن القمح في الحقل، وإني لأنقل شذرة من الفصل للدلالة على أدب السرعة الذي نأخذ ذواتنا به لسهولته وخفته وعلى الأديب الموهوب الذي يندمج في موضوعه فيمتزج به، فيشيع فيهما روح واحد، فتسمع تجاوب الروح الواحد. . .
تركت الآلة الحاصدة المحصول وراءها في أكوام صغيرة، كل كومة منها تصلح لأن) تكون حزمة، وعليها أكب الحاصدون بأيديهم، وكان معظمهم من النساء، وكان الرجال أما بنات الجنس) (يرتدون قمصاناً وسراويلات تجمعها حول أوساطهم أحزمة من الجلد الآخر فكن أهم شأناً وأمتع منظراً، شأن المرأة حين تندمج في مظاهر الطبيعة يدل أن تظهر بينها مجرد ظهور، كما هي الحال غالباً، فالرجل في الحقل يبدو شخصية قائمة فيه،

أما المرأة فتبدو جزءاً منه، قد فقدت استقلال شخصيتها وتشربت روح المنظر المحيط بها ومزجت نفسها به)

وفي هذا الصباح كانت العين ترتد عفواً إلى الفتاة ذات السترة القرنفلية الشاحبة، إذ كنت أعدل الجميع قداً، وألينهن غصناً، ولكنها كانت قد شدت قلنسوتها على جبينها حتى لم يعد يرى شيء ومن وجهها حين تنحني، وإن كان من الممكن التنبؤ بلون وجهها بالنظر إلى خصلات شعرها الأسود الرمادي الممتد من تحت حافة قلنسوتها، ولعل من أسباب طموح العين إليها أنها لا تحاول اجتذابها، وأن تلتفت الأخريات حولها من حين إلى حين

وظلت تنحني وتقوم في حركة رتيبة كسير الساعة، تستخرج من آخر كومة هيئت ملء يمناها من السنابل، وتضرب قممها براحتها لتسوي رؤوسها، ثم تنحني ملياً، وتتقدم ضامة العيدان بكلتا يديها إلى ركبتيها، وتدفع يسراها ذات القفاز تحت الحزمة لتقابل اليمنى على الجانب الآخر، معانقة القمح معانقة المحب، وتجمع أطراف الحزمة وتجلس عليها وهي تربط، وتدفع أذيالها إلى أسفل كلما عبث بها النسيم، وكان جزء من ذراعها يبدو عارياً بين جلد القفاز الخشن وبين كمها ناعماً رقيقاً، وكلما تقدم النهار ابتسمت عليه الخدوش وبض منه الدم، وكانت تعتدل قائمة من حين إلى آخر لتستريح وتصلح من ميدعها وقلنسوتها، وعندها يرى الناظر وجه فتاة مليحة بيضاوياً ذا عينين سوداوين تحف به خصلات من الشعر الأسود سبطة تعلق بكل شيء تقع عليه، وكان خداها أشد شحوباً، وشفتاها الحمراوان أرق، وأسنانها أكثر تناسقاً مما يشاهد في بنات الريف)

سلام على ريفنا الملهم، وعلى أديب ليستلهم فيصور، ورحمة لفخري أبي السعود فقد عاش وكتب بدمه، ومات وهو يعلم أن الدم روح مسفوكة

حبيب الزحلاوي

من وَراء المِنظار

صاحب السلطان الحقيقي - 1

وهذا صاحب سلطان آخر لم أدر بادئ الرأي ماذا أسميه، وترددت بين أن أنعته بصاحب السلطان الثعبان وأن أسميه صاحب السلطان المهرج أو المشعوذ أو النصاب، حتى رأيتني أدعوه آخر الأمر على رغمي صاحب السلطان الحقيقي، ولعلها بعد كرامة من كراماته! والحق أني لم أر حتى اليوم من أصحاب السلطان من بلغ من الجاه نصف ما بلغه منه ذلك الألعبان الثعلبان

دخل الحجرة في نفر من حاشيته فسلم مسبل العينين خافض الجناح مطأطئ الرأس يكاد يتهدم من الضعف ويبدو كأنما ينوء بعمامته الحمراء الضخمة التي تعلو جبينه العريض، والتي زاد من حمرتها شدة بياض لحيته وشعر عارضيه وفوديه؛ وجلس وهو يلملم هلاهيله ويضعها بحيث لا تخفى مسبحته العظيمة التي تدور بعنقه وتتدلى إلى منتصف بطنه، وما برح يتمتم ويحرك شفتيه وهو يخلع نعليه حتى تربع على الكنبة وأسند عصاه إلى جانبه

وأحسست وقد استوى على الأريكة جواً من الهيبة يشيع المكان كله، فقد سكت الجلوس سكوتاً لم تتخلله إلا عبارات الترحيب والتحيات تزجى إلى الشيخ من كل ناحية، وهو لا يرد إلا همساً كأنما يحدث نفسه؛ وما دخل إنسان من أهل القرية تلك (المنظرة) التي جلس فيها الشيخ، والتي اتخذها العمدة مكان سهره وموضعاً للفصل بين المتخاصمين، حتى أقبل على الشيخ فتناول يده من فوق المتكأ فلثمها وردها إلى مكانها في خشوع ورهبة وفي نفسه من الغبطة من لثم يد الشيخ ما ينسيه قضيته إن كان صاحب قضية، أو يذهب كربته إن كان ذا كربة. . وما رأيت قط صاحب قضية جرؤ على الإفضاء بما جاء من أجله في حضرة الشيخ، فليس من اللائق أن ينشغل المجلس عن الشيخ بقضية من القضايا مهما بلغ من خطرها، وإن كان الشيخ ليبدو وكأنه في شغل عمن حوله بما هو فيه من تمتمته وإطراقه

ولبث الشيخ على تلك الحال إلى أن رأيته ورآه من في الحجرة يهز رأسه هزاً عنيفاً ذات اليمين وذات الشمال ثم يدق كفاً بكف قائلاً في صوت مرتفع وعيناه مغمضتان: (الله! الله لطيف بعباده. . حي يا قيوم اصرف عنا الأذى. . . اصرف عنا الأذى يا الله!)

ونهض الشيخ فراح يمشي في الحجرة جيئة وذهاباً وفي وجهه عبوس وضجر وخوف وقد فتح عينيه ولكنه لم يرفعهما عن الأرض كما أنه لم يفتر عن هز رأسه تلك الهزة السريعة العجيبة. . . ودخل الحجرة فتى يلبس جلباباً أبيض فضفاضاً واسع الردنين والطوق إلى درجة غير مألوفة، وتبينت أنه من حاشية الشيخ فقد جلس بين أصحابه دون أن يسلم على أحد حتى على أهل المنزل وهذه أمور يتقنها هؤلاء (المجاذيب) وينفردن بها من دون الناس إلا من المجانين

ورأيت الشيخ يلمحه عند دخوله لمحة خاطفة ما أحسب أحداً لاحظها لفرط سرعتها؛ وبعد أن قطع الشيخ الحجرة في ذهابه ومجيئه بضع مرات عاد إلى مكانه وجلس فأطرق قليلاً ثم هب واقفاً في حركة (بهلوانية) عجيبة كأنما أطلقه لولب خفي وصاح قائلاً: (يا خفي الألطاف) وعاد فجلس والعيون ترمقه في دهشة وحيرة. ودخل الخادم يقدم القهوة فبدأ بالشيخ ولكن الشيخ أشار إليه بيده إشارة عصبية، ونهض اثنان من دراويشه فصرفا الخادم عنه لأنهما يعلمان من حال شيخهما ما لا يعلمه ذلك الخادم الذي التقت الدهشة في وجهه بالرهبة والاحتشام. ثم إن الشيخ عاد فوثب من موضعه وثبة من لدغته عقرب لدغة أطارت صوابه وصاح في صوت مزعج: (يا لطيف! يا لطيف. . . حوش يا رب حوش بحق جاه سيد المرسلين. . . الطف يا لطيف سقت عليك النبي. . . سليمة إن شاء الله، قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً. . .)

ولم يكد يتم كلامه حتى سمع الجالسون صفير الخفراء من أطراف القرية البعيدة، وحضر العمدة ومعه بعض الرجال، ثم عادوا بعد حين يعلنون أن الحرائق الثلاث أخمدت سريعاً والحمد لله. ونهض الشيخ يريد الخروج فقد رأى في وجه العمدة ما لا يخفى معناه عليه، وخرج الناس وراءه وما منهم إلا من يتمسح به ويزحم غيره ليحظى بلثم يديه فإن لم يستطع قنع بلثم ردائه، وقد ازداد الشيخ عظمة في نفوسهم بما أظهر من كرامة لا تنكر، ولما كانوا عند الباب الخارجي سمع لغط شديد وجلبة تتخللها الإيمان بالله والطلاق، وتبينا أن كلاً من هؤلاء يتمسك بأن ينال شرف مبيت الشيخ عنده؛ وفصل الشيخ في الأمر بإشارة منه أذعن لها الجميع فقد اختار من بينهم من يضيفه وأنعم عليه بهذا الشرف العظيم.

ودارت الأيام ورأيت الشيخ في مواطن كثيرة، أرجو أن أسوق إلى قارئي العزيز بعض ما التقطه منظاري منها ليؤمن معي إن لم يكن قد آمن بعد بأن الشيخ هو على رغم الناشين المنكرين من أمثالي صاحب السلطان الحقيقي.

الخفيف

رسَالة الشعر

ميعاد ليلة الأحد

للأستاذ صالح جودت

والضُّحَى، والغدائرِ الذَّهَبِ ... والعيونِ الشهباءِ كالسُّحُبِ
وبخديكِ كأسَيْ العنبِ ... وبنهديكِ حُلْوَيْ اللعِبِ
قَسَم صنتُهُ عن الكذِبِ
ذكريات اللقاء لم تَنَمِ ... يَقِظَاتٍ في مهجتي ودمي
غَرِداتٍ في نظرتي وفمي ... فبحقي، وحَقِّ ذا القَسَمِ
هل تُعيدين ليلة الهَرَمِ؟
ليلة كابتسامة القَدَر ... كنتِ فيها أحلى من القمرِ
جمعتْنا بجانبٍ حَذِرِ ... من أبي الهول ساخر النظرِ
ليت لي مثل قلبه الحَجَري!
قد رآنا بطرْفِ مُقلتِهِ ... ننقش العهد فوق رَمْلِتِه
يا لجهل الصِّبا وضلَّته ... وغرورِ الهوى وغفلته
درس العهدُ منذ ليلتِه
أين ميعادُ ليلة الأحَدِ؟ ... أين ميثاقنا إلى الأبدِ؟
أتصونينه؟ بل اقتصدي ... وتعالَيْ هنيهةً تَجِدِي
إنني في الثرى دفنتُ غَدِي
نصف عامٍ مضى ولم أَرَكِ ... أيُّ أمرٍ جرى فأخَّرَكِ؟

أحبيبٌ عَلَيَّ غَيَّرَكِ؟ ... أم طبيبٌ رأى فأخْبَرَكِ
أنني قد وقعتُ في الشَّرَكِ؟
علمي الرفْقَ قَلْبكِ القاسي ... ذكِّري بي فؤادكِ الناسي
ملأ الحب بالضَّنَى كاسي ... فارفقي ساعةً بإحساسي
أنا ما عُدْتُ غيرَ أنفاسٍ!
بعد عام
. . .ثورة
(مهداة إلى أخي الأستاذ محمود الخفيف)
للأستاذ أحمد فتحي مرسي
أَسْبِلْ جُفُونَ الْعَيْنِ يَا سَاهِرُ ... وَخَفِّضْ النَّوْرَةَ يَا ثَائِرُ
اللَّيْلُ حَوْلَيْكَ بَعِيدُ المَدَى ... لاَ أول يُرْجى وَلاَ آخِرُ
والنَّجْمُ رَجَّافُ السَّنَا واهِنٌ ... يَنْفُخُ فِيهِ الْعَاصِفَ المَاطِرُ
والكأسُ في كَفَّيْكَ قَدْ أوشَكَتْ ... تَنْطِقُ: دَعْ جَنْبَيَّ يَا سَاكِرُ
خَوَاطِرٌ زَارَتْكَ مَا تَنْتَهِي ... فَزَائِرٌ مِنْ بَعْدِهِ زَائِرُ
أَثَابَكَ اللهُ. . . أَمَا لَحْظَةٌ ... يَثُوبُ فِيهَا رَأْسُكَ الحَائِرُ
يَا نَفْسُ قَدْ أَوْهَيْتِ جِسْماً وَهَى ... وَهَدَّ مِنْهُ وَحْيُكَ الآمِرُ
مَا الخُلْدُ؟ مَا يُغْرِيكِ؟ مَا لَفْظَةٌ ... جَوْفَاءُ قَدْ أَرْسَلَهَا سَاخِرُ
فالنَّجْمُ إِنْ غَابَ عَلَى أُفْقِهِ ... لاَ يَحْفِلَنْ بالْغَيْبَةِ الْنَّاظِرُ
رفِيقَةَ (الدَّانُوبِ) طَالَ المَدَى ... وَنَالَ مِنَّا الزَّمَنُ الْجَائِرُ
وَاسْتَأْنَتْ الأيام في سَيْرِهَا ... وَعَادَ يَحْبُو الْفَلَكُ الدَّائِرُ
وَبَيْنَنَا دُنْيَا عَلَى رَحْبِهَا ... يَزْحَمُهَا الْقَاتِلُ وَالآسِرُ
يَجُولُ فِيهَا السَّابِحُ المُتَّقِي ... في سَبْحِه وَالصَّاعِقُ الطَّائِرُ
تَسَاقَطَ الصَّعْقَى بِأَرْجَائِهَا ... وَسَارَ فِيهَا الْغَالِبُ الظَّافِرُ
لوْ تَعْلَمِينَ اليَوْمَ مَا سَطَرتْ ... كَفِّي وَمَا فَاضَ بِه الْخِاطِرُ
لفَاضَ مِنْ عَيْنَيْكِ - أفْدِيهِمَا ... بالرُّوح - يَجْرِي دَمَعُكِ الطاهِرُ
أَتَذْكُرِينَ اللَّيْلَ إذ لفنَا ... وَضَمَّنَا زَوْرَقُنَا ألعابِرُ
مُدَلَلُ الْخُطْوَةِ فِي عَبْرِهِ ... يبدُو ويَخفىَ صَدْرُهُ الماخِرُ
وَيَنْثُرُ الأَمْوَاهَ فِي هَيْنَةٍ ... مِنْ حَوْلِه مجْدَافُهُ النَّاثِرُ
وَزُرْقَةُ (الدَّانوبِ) تمضْي بنا ... وَيَسْتَبَينَا لَوْنُها الزّاهِرُ
تَلَصُ مِنْ عَيْنَيكِ لوْنَيهِمَا ... وَأَيْنَ منها سِحْرُكِ السَاحِرُ
وَالكأسُ فِيّ كفيْكِ قد أشْرقَتْ ... وَضَاءَ مَنْهَا وَجْهُكِ النَاضِرُ
وَقُلْتِ و (الدَّانوبُ) فِي لَغْوهِ ... مَاذَا يَقُولُ الأزرق الهادِرُ
فَقُلْتُ وَالقبْلَةُ فِي خَاطِرِي ... يقولُ هيَّا. بادِرُوا: بادرُوا
وَاقْتَربَتَ أعْطافُنا وَاحْتَوَى ... صَدْرَكِ صَدْرِي النَّاحِلُ الصَّامِرُ
وَاتَحَدَ النَّبْضَانِ فِي لحظةٍ ... فِدَى لها مَاضِيَّ وَالحَاضِرُ
لوْ قُلِبَ الزَوْرَقُ مِنْ تَحْتِنَا ... لمْ يَشْعُرَنْ مِنَّا به شاعِرُ
أَوْ لفّنَا الزَّاخِرُ فِي مَوْجِهِ ... لمْ نَدْرِ مَاذَا فَعَلَ الزاخِرُ
وَأَيُّنَا المبْتَلَّ فِي مَائِهِ ... وَأَيُّنَا المرضُوضُ وَالْخَائِرُ
يا قلبُ ما الذِّكْرَى لنا، خَلِّهَا ... لاَ يَنْتَهِيَ ما يْذكُرُ الذَّاكرُ
يا طَاوِيَ الْصَّحْرَاءِ، فِي ظُلْمَةٍ ... ضَلِلْتَهَا، ما أنتَ وَالآخِرُ
وَسَائِلٍ أَيْنَ أَغَانٍ مَضَتْ ... وَأَيْنَ أَلْحَانُك يَا شَاعِرُ
وَمُسْكِراتُ اللفظ أَيْنَ انْطَوَتْ ... وَأَينَ وَلّي وَحْيُكَ النَّافِرُ
وَأَيْنَ مِنْ وَجْهِكَ إِشْرَاقَةٌ ... وَضاءَةٌ، أَيْنَ الصِّبَا البَاكِرُ
مَرَّتْ بِكَ البَسْمَةُ فِي جَفْوَةٍ ... كما يَمُرُّ العَاجِلُ السَّائِرُ
فقلتُ ما ضَرَّكَ صَمْتُ امرِئٍ ... طَوَاهُ جَدُّ مُظْلِمٌ عَاثِرُ
الصَّمت أَحْرَى بِيَ فِي أمةٍ ... أُمِّيُهَا كاتِبُهَا القَادِرُ
يَسُودُهَا العِيُّ وَيَسْمُو بِها ... وَلاَ يَسُودُ النَّاطِقُ الجَاهِرُ
أَشِرْعَةُ الإنْصَافِ فِي الدَّهْرِ أَنْ ... يَسْتَوِيَ الْمَقْهُورُ وَالْقَاهِرُ
وكلُّ ما أَعْجَزَ فِي فَهْمِهِ ... بها بَيَانٌ سَائِغٌ بَاهِرُ

لله صَوْتٌ رَنَّ في أُفْقِهَا ... أَخْفَتَهُ دَهْرٌ بِهِ غَادِرٌ
وَأَنْكَرَتْ دُنْيَايَ سَعْيِي بِهَا ... وَالضوْءُ لاَ يُنْكِرهُ النَّاكِرُ
حَتَّى يَكَادَ الصَّبْرُ مِنْ ضِيقِها ... يَهْتِفُ لاَ كَانَ الفَتَى الصَّابِرُ
إِنْ نَالَ قَلْبِي اليَأْسُ في سَاحِها ... فَغفْرَك اللَّهُمَّ يَا غَافِرُ
كَأَنَّنِي في يَدِهَا مُصْحَفٌ ... صَافِي السَّنِا يَحْمِلُهُ كَافِرُ
شِعْرِي وَأَنْتَ القلب قد صاغَهُ ... لفظاً بَنَانٌ صَنَعٌ مَاهِرُ
أَنْتَ مَلاَذِي إِنْ أَلَمَّ الأَسَى ... وَسَامِرِي إِنْ أَعْوَزَ السَّامِرُ
كنْ نَاصِرِي في عالَمٍ خَادِعٍ ... إِنْ عَزَّ فِيهِ الخِلُّ وَالنَّاصِرُ

البَريدُ الأدبيّ

تشابه الفكرة عند الأدباء

دعاني الأستاذ محمد الرفاعي إلى الفصل فيما نقل الأستاذ أحمد أمين عن الأستاذ توفيق الحكيم، وأجيبُ بأن هذه القضية لا تحتاج إلى تحقيق، فقد رأى في البحوث التي نشرتها الرسالة عن (جناية أحمد أمين على الأدب العربي) أن هذا الرجل الفاضل لا يهمه أن يرد الحقوق إلى أربابها إلا في موطن واحد، هو الموطن الذي يقول فيه إنه استأنس بآراء المستشرقين، ليقال: إنه يطلع على أقوال المستشرقين!

وهنا أذكر الغضبة المصرية، غضبة الأستاذ الدمرداش، حين حدثته في بغداد عن تهافت الأستاذ أحمد أمين في مقدمة الجزء الثالث من (ضحى الإسلام)، فقد حدَّث قراءه بأنه كان ينوي تأليف جزء رابع عن الأندلس، ثم نهاه أحد المستشرقين فانتهى، ونصحه فانتصح، ومعنى ذلك أنه لا يتقدم ولا يتأخر إلا بوحي يصدُر عن أمثال أولئك الناس!

والأستاذ الدمرداش معذور، لأنه لا يساير حركة الترجمة والتأليف، ولأنه يؤمن بأن أحمد أمين فوق الشُّبَه والظنون، وتلك خصلة تستحق الثناء، لأنها تشهد بأن الأستاذ الدمرداش رجلٌ حكيم، والرجل الحكيم يرى المشكلات الأدبية من وجع الدماغ!

ولو أن الأستاذ محمد الرفاعي رجع إلى أحد أعداد الرسالة في سنة 1934، لرأى أن الأستاذ أحمد أمين لم يعب على صاحب (النثر الفني) غير آفة واحدة، هي النص على ما سرَق منه الدكتور طه حسين، ومعنى هذا أن السرقة لا تعاب، وإنما هي من الرزق الحلال!

والحق أني أخطأت نحو نفسي في التنبيه على ما سرق مني طه حسين، وما سرق مني أحمد أمين. فهذان رجلان فاضلان جدًّا، وفي مقدورهما أن يشهدا صادقَين بأنني الرجل المهذَّب، إذا تواضعتُ فصرحتُ بأنني المعتدي الأثيم على ما لهما من أفكار وآراء

أخطأت، وأخطأت، ثم أخطأت، وإن غضب الأستاذ إسعاف النشاشيبي على هذا التعبير، فقد أنكر وروده في كتاب (ليلى المريضة في العراق)

ولكن الشبهة باقية، شبهة السرقة الأدبية، السرقة التي يستبيحها أحمد أمين وطه حسين، وهما رجلان شهد لهما قلمي بالسبق في بعض الميادين

آه، ثم آه!!

يراد منا أن نخدم الأدب بأمانة وصدق، ثم يراد منا في الوقت نفسه أن نكون متجمَّلين متلطفين، فأين من يدلنا على أساليب التجمل والتلطف في الأخذ بنواصي الناهبين لأفكار الكتاب، وآراء الشعراء؟

النقد الأدبي محنةٌ عاتية، فلنحتمل بلاياها صابرين

زكي مبارك

حول كتاب (المنتخبات)

أخي محرر الرسالة الغراء

سلاماً وتحية وبعد فقد قرأت الكلمة الطيبة التي خَصَّني بها الأستاذ الدكتور زكي مبارك في الرسالة عند ما عرض للكلام في كتاب المنتخبات لأستاذنا الكبير أحمد لطفي السيد باشا والله يعلم أني لموقن بأني لم أنتج شيئاً له من القيمة ما يستحق ذلك الثناء. ولكن الدكتور أبى إلاَّ أن يكون أسبق بالفضل.

أما مأخذه على كلمة (أهل) بمعنى: والتي يستعمل الكتاب كلمة (جيل) لتقابلها فأظن أني على حق في استعمالها في هذا المعنى. فإن (الجيل) في العربية هو: الصِّنف من الناس؟ فالمصريون جيل والإنجليز جيل والفرنسيون جيل؛ أما الأهل فيقصد به الطبقة

الواحدة المتعاصرة من الناس. وشاهدنا على ذلك شعر النابغة الجعدي قال:
لَبِسْت أُناساً فأفنيتهم ... وأفنيت بَعد أُناسٍ أُناساً
ثَلاثة أَهْلِين أفنيتُهمْ ... وكان الإله هو المُسْتآسا
(أنظر الأغاني ص6 ج5 طبعة دار الكتب)
وأنشد (أي النابغة الجعدي) عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أبياته التي يقول فيها: ثلاثة أهلين أفنيتهم؛ فقال له عمر: كم لَبِثتَ مع كل أَهْلٍ: قال ستِّين سنة. (أنظر الأغاني ص7 ج5)
فالأهل إذن هو المعنى الحرفي لكلمة؛ وكفى بما نقلت شاهداً - ومن العجيب أن هذا المعنى لم يثبت لكلمة (أهل) في القاموس واللسان، فعسى أن يُلتفت إليه في المعجم الوسيط
الذي يضعه المجمع اللغوي.
إسماعيل مظهر
موسى
رداً على كلمة الأستاذ محمود أبو السعود بالعدد 388 من مجلة الرسالة الغراء أقول إني مصر على أن كلمة (موسى) ليست مصرية، وذلك بعد أن بحثت عنها بحثاً هيروغليفياً دقيقاً، وإنها ليست بمعنى عبد كما قال فرويد وغيره ولكني لم أتعرض لأصلها وكانت كل كتابتي أن أبين حقيقتها من الناحية المصرية فقط
وكل ما كتبه حضرات الكتاب الأفاضل عن أنها مشتقة من كلمة (موشا) القبطية التي صحتها موشي (مو) بمعنى (ماء) وشي بمعنى (شجر) على اعتبار أن اللغة القبطية هي الدور الأخير للغة المصرية القديمة، وأولت على أنه وجد بين الماء والشجر فهذا كله من الحدس والتخمين لا أكثر ولا أقل
وأنا أميل إلى أن هذا الاسم عبري لعدم ورود ما يشابهه علينا أثناء دراستنا المصرية القديمة
وهو مشتق من كلمة (موشي تيو) العبرية أي الذي وجد سابحاً على وجه ماء النيل وانتشلته باتيا ابنة فرعون. وتقول القائمة الرسمية للإسرائيليين أن (موسى) ولد بالجيزة قرب منطقة الأهرام 3333
ومن كل ما ذكر لا نشك قط في أن موسى كان عبرياً اسماً وأصلاً
محمد صابر
أخصائي في الآثار المصرية القديمة
التماثيل الملوك
حضرة الأستاذ محمد كامل حتة. . .
قرأت تصويبكم وتعليقكم على أبيات اللورد دنساني وأحسب الشبه قريباً جداً بين موقف البحتري أمام تماثيل ملوك الفرس، وبين موقف اللورد أمام التماثيل المصرية. وقد قال
البحتري:
يغتلي فيهمو ارتيابي حتى ... تتقراهمو يداي بلمس
تصف العين أنهم جد أحيا ... ء لهم بينهم إشارة خرس
فتحدث عن التماثيل بضمير العاقل وعناها هي لا الذين تمثلهم. وأحسب اللورد دنساني حين خاطب التماثيل وأثبت جوابها إنما عناها هي فهي التي شاهدت تطور الزمن، وهي هي عنده الملوك الأربعة فهي التماثيل الملوك لا تماثيل الملوك. وعندئذ لا أحسب من التصويب أن يقال إنها أربعة تماثيل لملك واحد. بل أحسب أن رمسيس إنما عنى بإقامة أربعة تماثيل أن يجعل منها أربعة ملوك، والمجال في الفن كله من إقامة التماثيل أو من مناجاتها مجال خيال
وللتحقيق التاريخي قيمته على كل حال، ولكن التصويب إنما يكون في موضع الخطأ، ولا خطأ في قول يقول:
وتوهمت أن كسرى أبرويز معاطى. . .
ولا في قول من يقول: فتخيلت ما أجابني به الملوك الثلاثة لأن رابعهم كان قد كسر عند منتصفه فانشطر إلى شطرين، ولم ينكسر ملك وإنما انكسر تمثال. . .
ولكم خالص الشكر. . .

عبد اللطيف النشار
تأنيث الشمس وتذكير القمر!
يستنكر الأستاذ العقاد على العرب أن يذكِّروا القمر (وهو مقرون بالحنين والحياء، موصوف بالاتباع والاقتفاء، قليل فيه ساطي المضاء، وساطع الضياء، عارض له من المحاق ما يعرض للنساء)، ويؤنثوا الشمس وهي مصدر الحياة والحيوية؛ وذلك على عكس أكثر اللغات. ثم تساءل: (أهي زلة من زلات البداهة عند الشرقيين، أم هم المستضعفون للأنوثة لا يفطنون لهذا المعنى الذي فطن له الغربيون؟ أم هو إمعان في البداهة أدركوا به من سطوة المرأة ما لم يدركه مذكرو الشمس ومؤنثو القمر، وأقاموا به ما عكسه أولئك الخاطئون؟)
والحقيقة أنها ليس بزلة من زلات البداهة عند الشرقيين أو الغربيين، وليست إمعاناً في البداهة من أي الفريقين، ولكنها اختلاف نظر وملاحظة
فالغربيون لاحظوا في التأنيث الرقة والوداعة، والاستسلام والليونة فكان (القمر) مؤنثاً، ولاحظوا في التذكير القوة والفتوة، والقسوة والغلظة فكانت (الشمس) مذكرة عندهم.
أما الشرقيون فلاحظوا في الأنوثة الخصب، والإنتاج، والإخراج والولادة فكانت (الشمس) مؤنثة. والشمس هي التي ترسل بأذرعتها إلى معانقة الأكمام فتنفتح، وتبعث بها إلى الثمار فتنضج، وتبخر المياه في البحار، وتحرك السحاب في السماء فهي منتجة أي إنتاج، مخصبة أعظم إخصاب. ولاحظوا في الذكورة العقم، وعدم الإنتاج والإخراج، فكان (القمر) مذكراً والقمر لا أشعته تذيب جلمداً، ولا تهيج ساكناً
ومنشأ ذلك - كما يقول المازني، عافاه الله - (لأن آباءنا الأولين كانوا يقيسون حياة الطبيعة على حياتهم، ويتصورونها قائمة على ما تقوم عليه حياتهم من التناسل وغيره. ومن هنا أنثوا الشمس في لغتنا والريح وغيرها) من أرض ونخلة وروضة.
فالريح - مثلاً - أنثت دون الهواء، لما بينهما من فرق في الخصب والإنتاج؛ فالهواء الهادئ لا يحمل الديم، ولا ينقل اللقاح، وعلى العكس من ذلك (الريح) فهي تفعل ذلك وأكثر منه.
(الزقازيق)
السعيد جمعة
أسرة الشعر بدار العلوم العليا
كون لفيف من أساتذة الأدب العربي بدار العلوم العليا أسرة للشعر تنتظم الطلبة الشعراء بالدار، وقد أسندت رياستها للشاعر الكبير صاحب العزة الأستاذ علي الجارم بك. وعقد الاجتماع الأول بمكتب الرئيس لرسم الخطوات البدائية للاحتفال بموسم الشعر بدار العلوم. وقد اختير (أحمد عبد المجيد الغزالي) للقيام بأعمال سكرتارية الأسرة
وفيما يلي أسماء الأعضاء من مختلف سني الدراسة:
توفيق محمد جبر، عبد الحليم داود، عبد الرءوف عون، عبد الستار فراج، عباس العماوي،
محمود شافع، تمام حسان عمر، عبد الرحمن أيوب، أحمد شلبي، عبد العزيز المندوري، عبد العظيم دسوقي، سيد أحمد باشا، مصطفى زيد
القَصَصُ
عبء السلطة
للروائي اليوغسلافي ميلان بوجلج
ولد (ميلان بوجلج) سنة 1883 في مدينة ستيريا على الحدود
بين سويسرا وبين الجانب الجنوبي الغربي من النمسا، وكان
أبوه مدرساً في قرية. وبدأ (ميلان) ينظم الشعر وهو طالب.
ثم اشتهرت كتاباته النثرية حتى أصبح من كتاب لغته
المعدودين. وهو من أنصار المذهب الواقعي وفيه فكاهة قوية،
وله مجموعات قصصية كثيرة. وقد تولى إدارة المسرح
الملكي في يوغسلافيا في وقت ما.
كان كاتب العمدة جالساً إلى مكتبه وهو شاب طويل القامة نحيل، وكان على أذنه قلم

وفي يده قلم آخر يكتب به في سكون على ورقة أميرية
وكان يجلس في ركن الحجرة رجل من السوقة تبدو عليه علائم التشرد والشر وهو غريب عن القرية، وكان قد دخلها بغير مبرر ظاهر منكراً اسمه ومسقط رأسه
دخل العمدة وظل واقفاً عند الباب حتى تنبه الكاتب إلى وجوده فحياه، فاقترب العمدة من المكتب ونظر إلى الورقة وقال ويداه في جيبه: ما الذي تكتبه في هذا الصباح؟
قال الكاتب: لقد استدعيت هذا المتشرد وأجلسته بجانب الموقد وبدأت أكتب تقريراً عن صفاته الجثمانية لأرسله إلى المركز
ثم لمس الكاتب جبينه واستأنف الكتابة، ومشى العمدة نحو المتشرد البائس فتأمل ثيابه الخلقة وقدميه الحافيتين وعينيه الرماديتين الدائمتي الاختلاج وصاح به: (ما الذي جاء بك إلى هنا أيها المتشرد؟ هل سقطت علينا من السماء؟ قل الحق من أين جئت وإلى أين تريد الذهاب؟)
فهز الرجل كتفيه وقال: (لا أعرف! لا أعرف)
واستمر العمدة يسأل واستمر المتشرد يجيبه نفس الجواب ولما كاد صبر العمدة أن ينفذ طرق الباب طارق، ودخل طحان القرية وهو قصير هزيل ورفع قبعته في احترام وتنحنح قليلاً، ثم قال: (على شاطئ النهر بقرب الطاحون وجدت غريقين أظنهما انتحرا. . . إن شكلهما غريب وقد وجدت كلاً منهما مستلقياً على ظهره فوق الحشائش، ويد كل منهما في يد الآخر - يده اليمنى مشتبكة في يدها اليسرى. إنني لم أشهد بغير الحق).
بدت علائم الدهشة على العمدة ومد ذراعيه ونظر إلى كاتبه الذي نهض سريعاً، ورفع القلم الذي في أذنه واستعد لكتابة ما شهد به الطحان
وهنا صاح المتشرد بشكل يدل على الاهتمام: (هل هما ميتان؟) فضرب الطحان بيديه على ركبتيه وهو يضحك: (نعم ميتان بالطبع)
وأمر المعمدة المتشرد بلزوم مكانه ولزوم الصمت، وقال الطحان للعمدة: (لقد جئت لأخبرك لكي تأمر بنقل الجثتين من مزرعتي)
فقال العمدة وهو يلمس بأصابع يديه جانبي رأسه: (حسن! حسن! اذهب وسأتبعك لأعاين الجثتين)
ومشى الطحان وظل يعبث بأظافره في شعر رأسه ثم التفت إلى المتشرد وقال: (أنظر أيها الوغد الذي لا يصلح لشيء. هذه هي أعمال أصحابك المتشردين، إنهم يذهبون مع الشيطان في كل طريق ونحن الذين لا ذنب لنا نعاني نتائج شروركم)
ثم التفت إلى الكاتب وقال: (ما الذي تفعل؟ عندنا الآن متشرد حي ومتشردان ميتان، فما الذي نفعله بهم؟ لعنة الله على هؤلاء المتشردين)
فهز الكاتب رأسه وقال: (إن حياتهم معصية لله وخزي للناس، وهم حتى بعد الموت يضايقون خلق الله)
قال العمدة: (ولكن علينا عملا نعمله قبل كل شيء).
فقال الكاتب: (نعم يجب علينا أن نبلغ السلطات ثم ندفن الميتين على نفقة البلدية)
قال العمدة بلهجة التوكيد مناقضاً كاتبه ومستشاره: (كلا فإن أموال القرية لا تنفق على هؤلاء المتشردين الأفاقين. يجب أن نعرف من أين أتوا، ثم. . . ثم. . .)
فقال الكاتب وهو أكثر تجربة من العمدة: (إن هذا لا يصلح، وإن النهر يحمل الجثث من أماكن بعيدة، وأنا أتذكر أنه حمل إلينا مرة جثة من مدينة تبعد أربعة عشر ميلاً، وقد بقيت تلك الجثة أربعة أيام قبل الدفن، فكتبنا إلى جهات متعددة، فلم نهتد إلا بعد ثلاثة أعوام إلى المكان الذي غرقت فيه)
قال العمدة: (إذن فلماذا نكتب إلى السلطات؟ - ثلاثة أعوام!) فقال الكاتب: (نحن في هذه الأيام مضطرون إلى إبلاغ السلطات ولو كان القتيل هرة)
قال العمدة: إذن فاكتب إلى السلطات في الحال. فقال الكاتب وهو يحاول صياغة جملته في الصيغة الرسمية: ولكن يا حضرة العمدة أنا الآن مشغول جداً بكتابة التقرير عن هذا المتشرد وذهني مركز في هذه القضية فقط ولا أستطيع تركها للاشتغال بقضية أخرى. . . أسمع يا حضرة العمدة. . . ثم رفع عن المكتب ورقة وأخذ يقرأ: حضرة صاحب العزة مأمور المركز. . .
بالنظر إلى مرور أحد المتشردين في زمام هذه القرية، وبالنظر إلى أن هذا المتشرد

ينكر اسمه واسم بلده فقد حررنا هذا التقرير بتشبيهه:
متشرد غير معلوم موطنه، مجهول الاسم، حافي القدمين، نحيل، إصبع قدمه الكبرى) معوجة، في ذقنه شعر قليل مثل شعر الثعلب، أنفه محدودب رفيع مائل قليلاً إلى الجانب الأيسر وعندما يتكلم تهتز لحيته مثل الأرنب، ومشيته كمشية الثور. أي أن خطوته قصيرة، وركبته بطيئة الحركة، وإذا شده إنسان من أذنه اليمنى تهدلت شفته السفلى وأغمض عينه اليسرى)
وكف الكاتب عن القراءة وبدا عليه الزهو وشعور الثقة بالنفس وقال: (من المحال أن أقف عند هذا الحد من التقرير، فإن أفكاري مركزة وقد حرصت على الدقة)
ظن العمدة أنه قد فهم وقال: (هذا حسن فاقتصر أنت على نظر قضية المتشرد وسأنظر القضية الجديدة. هات ورقاً وقلماً جديداً وسأفكر وأكتب تقريراً للمركز)
وبعد دقيقة كان العمدة يبدأ في كتابة الخطاب. وبعد ساعة فرغ منه
استدعى العمدة كاتبه القدير وقال: (اسمع وقل لي رأيك؟
. . .حضرة صاحب العزة مأمور مركز
إن النهر ألقى على زمام القرية غريقين وجدا عند الطاحون. . . وجاء الطاحون وقال لي: يا عمدة أبعدهما عن أرضي. . . فأنا العمدة أرجو من عزتكم بإخباري بما أفعل. . .
(إن الناس يشيرون بدفنهما، ومن رأيي ذلك، فأرجو صدور التعليمات اللازمة
هز الكاتب رأسه وقال: (من المستحيل إرسال هذا الخطاب فإن لهجته غير رسمية)
قال العمدة في نفسه: (غير رسمية؟ وماذا يكون الخطاب الرسمي إذن؟)
تناول الكاتب الخطاب وقال: إن في المركز موظفين محترمين ولن يعجبهم خط هذا الخطاب
قال العمدة: ولماذا لا تكتبه أنت؟ أليس وجودك هنا من أجل هذا الغرض؟
فقال الكاتب: نعم، عفواً يا حضرة العمدة، الأفضل ترك هذا التقرير مؤقتاً
ثم قام الكاتب فجلس أمام العمدة ووضع القلم في سنَّا جديداً وبدأ يكتب. ووقف العمدة في وسط الغرفة يتأمل في خط كاتبه والمتشرد متبلد في مكانه يراقب هذين الموظفين، وكان وجه الكاتب مخضباً بالاحمرار لزهوه وتحمسه وثقته بأهمية نفسه وانتهى من كتابة الخطاب فوقف وأخذ يتلو خطابه مرتلاً كما لو كان يقرأ قصيدة من الشعر، وكان العمدة يصغي وهو معجب بهذا الأثر الرسمي البديع، ثم قال وهو يعبث بأظافره في شعر رأسه: يجب أن تذهب الآن إلى الطحان
وأدخلا المتشرد في سجن (الدوار) وذهبا فقادهما الطحان إلى مكان الغريقين عند حافة الماء، فلم يريا على وجهي الجثتين ما يدل على أثر جريمة، بل كانا يظهران كما يظهر وجها نائمين يحلمان ببعض أحلام الحب، وبدأ الكاتب يهز رأسه الضيق الجبين وقال: يظهر لي أنها جريمته هو
فقال العمدة: بل هي جريمة الشيطان
وقال الطحان: اسمح لي يا حضرة العمدة أن أقول إنه لا يمكن أن نعرف جريمة من هذه
وانتهت المحادثة والتحقيق عند هذا الحد، وعاد العمدة والكاتب إلى القرية، وقال الأول: ألا يستطيع الإنسان أن ينعم بيوم راحة؟ عندنا الآن متشرد حي ومتشردان ميتان، فكيف ننتهي من أمرهم؟
فقال الكاتب: لقد كانت الأمور كلها تسير سيراً حسناً لولا اضطرارنا إلى مخابرة السلطات،
فإن الصعوبة كلها ناشئة من تحرير المكاتبات
وأعقب هاتين الملاحظتين مسير نصف ميل في صمت. ثم ضحك العمدة فجأة ضحكة عالية وقال وقد بدا له أنه سيدهش الكاتب بفكرة موفقة: لقد عرفت الحل فلا تكتب شيئاً إلى السلطات
كاد الكاتب أن يغمى عليه، واستمر العمدة يضحك وكانت ضحكاته تزداد ارتفاعاً وقال: (لقد عرفت الحل وسأختصر الطريق؛ لكن عليك أن تسكت، وأن تخبر الطحان بلزوم الصمت).
وفي المساء ذهب العمدة إلى المتشرد وقال: (أخبرني ألم تعمل في حياتك أي عمل نافع؟)

فحملق المجرم في وجهه ولم يجب
قال العمدة: (ألا تعرف الطريق إلى الطاحون؟ إنها بجانب النهر) فقال المتشرد: (نعم قد عرفتها)
قال العمدة: (بجانب الطاحون عند المزرعة ستجد جثتي رجل وامرأة. هل سمعت؟ اذهب وألق الجثتين في النهر حتى يحملهما الماء. هل سمعت؟)
هز المتشرد رأسه علامة على الموافقة وافترقا، وبعد قليل كانت جثتا العاشقين طافيتين على الماء
وفي الصباح التالي كان الكاتب ماراً بجوار الطاحون وكان وراءه على مسافة قريبة حفار القرية يجر عربتيه الصغيرة وكان عليها إذ ذاك غطاء أسود، فلما وصلا إلى شاطئ النهر نظر الكاتب إلى الماء فلم ير فيه أثراً لميت أو لحي، وقال الكاتب: (بالأمس وصل بلاغ إلى (الدوار) بأن غريقين وجدا هنا على الشاطئ). وقال الحفار: (هكذا سمعت ولكن يظهر أن البلاغ كاذب)
فقال الكاتب: لعله (كذلك)
وقال الحفار: (ربما عاد الماء فحملهما كما أتى بهما)
فهز الكاتب رأسه وقال: (ربما كان ذلك)
ثم مشى كل منهما في طريقه.
(ع. ا)
العدد 391 - بتاريخ: 30 - 12 - 1940
الحرب وكتاب الإنجليز
للأستاذ عباس محمود العقاد
في إنجلترا كتاب عالميون لا يقع فيها حادث كبير إلا كان له شأن معهم أو كان لهم شأن معه، لأنهم أكبر من أن تعبرهم الحوادث منسيين في بلادهم، أو في البلاد الغربية عامة. ومن هؤلاء - إن لم نقل في طليعتهم - الرياضي الفيلسوف الناقد الاجتماعي برتراند رسل
هذا الرجل مؤلف كتاب في الرياضة العليا. سئل القراء العلميون في أنحاء الغرب عن مائة كتاب هي الأولى فيما ألف بنو الإنسان، فكان كتابه هذا واحداً منها وعلى رأسها وهذا الرجل هو ثالث النبلاء من آل رسل المشهورين، ولكنه نزل باختياره عن لقبه لأنه يقول بإلغاء الألقاب
وهذا الرجل حكم عليه بالحبس وبالغرامة في الحرب الماضية لأنه عارض الحرب اعتقاداً منه بإمكان اجتنابها. ودعته جامعة في الولايات المتحدة لإلقاء محاضراته الرياضية والفلسفية على طلابها فحيل بينه وبين السفر مخافة الرأي الذي قد ينشره هناك، ولم يبال قبل ذلك أن ينشره في صميم بلاده
وهذا الرجل أجرأ من كتب في الأخلاق من الإنجليز، غير مكترث لما يصيبه من جراء ذلك في حياته الخاصة وأعماله العامة، وقد أصابه من الأذى كثير
فلما نشبت الحرب الحاضرة كان قراؤه في أنحاء العالم يسألون: أين برتراند رسل؟ أين برتراند رسل؟. . . لأنهم قدروا له موقفاً لا يتخلى عنه، ثم عجبوا من سكوته كما عجبوا من السكوت عن ذكره، حتى جاء البريد الأمريكي يوماً فإذا بالرجل في الولايات المتحدة، وإذا بهم يحملون عليه هناك وقد كان مظنوناً في إبان الحرب الماضية أن الولايات المتحدة ملاذه الأمين الذي يتقي فيه الحملات!
لكنه تلقى حملة بعد حملة من رجال الدين وهو مترفع عن ردها، على كونه أجرأ الكتاب على المصاولة، ولم تمنع هذه الحملات أن يختاره العارفون به لتدريس الرياضة والفلسفة تارة في كاليفورنيا وتارة في نيويورك. ورأينا له صورة بين الطلبة الفتيان وهم حافون به كأنه واحد منهم وهو في الثامنة والستين مجلل الرأس بالشيب، وهم دون العشرين أو يتجاوزونها بقليل
وقد فتن هؤلاء الطلبة بآرائه فيما يحفلون بحملات رجال الدين عليه. وسئل عن نية الإقامة فقال: نعم، سأقيم في هذه البلاد وأنشئ فيها أبنائي على النشأة الحرة التي أرتضيها!
ورحل إلى الولايات المتحدة خلال هذه الحرب كاتب آخر من كتاب الإنجليز وأصحاب المذاهب الإصلاحية في العصر الحديث هو: هـ. ج. ولز الذي يعارض أفلاطون باختراع

المدن الفاضلة على النمط العصري، ويغتنم فرصة الحرب الحاضرة للتبشير بالمستقبل المأمول، وهو على شك في إمكان الوصول إليه، لأنه يريد أن يخلع جذور التفكير الإنساني التي لا تزال متأصلة في العقول من بقايا العقائد الأولى، والتي تغري بالحرب، لأن أشرفها وأعظمها يلاقي أضعفها وأخبثها في تقديس الموت وتفضيله على الحياة.

وكان ولز في الحرب الماضية (دماغ) الدعوة البريطانية التي كتب لها النجاح على يديه. وظن أناس من عارفيه أنه سيعود في الحرب الحاضرة إلى مثل ذلك العمل الجليل؛ ولكنه فضل السفر إلى الولايات المتحدة لخدمة أمته ومذهبه الإصلاحي هناك، وكانت له حملة عنيفة على بعض القواد الإنجليز وعلى الأسلوب الذي اتبعوه في ميادين الغرب والشمال، وربما كان لهذه الحملة أثرها في تنظيم القيادة على نحو جديد. فلما سمح له بالسفر إلى الولايات المتحدة خشي بعض الساسة أن ينطلق بالنقد العنيف بين الأمريكيين فلاموا الحكومة الإنجليزية على الترخيص له في مغادرة البلاد. وقال وكيل الشؤون الداخلية يومئذ بمجلس النواب إنهم قصدوا بالسماح له ألا يحسب الأمريكيون أنهم يكتمون عنهم بعض الآراء ويقصرون الدعوة بينهم على ناحية واحدة دون سائر الأنحاء.

وأبطل الكاتب الكبير مخاوف المتخوفين بمسلكه الذي توخاه في نشر دعوته بين الأمريكيين، فكان أول ما قاله بينهم أنه لم يلجأ إلى مخبأ قط، وأن الذي تخيلوا الإنجليز فزعين ليل نهار لا يريمون المخابئ مخطئون. ولم يطلب إلى الأمريكيين أن يشتركوا في الحرب، ولكنه نادى بكبح الطغيان تمهيداً لكل إصلاح، ونادى إلى جانب ذلك بضرورة إدخال الروسيين في جملة النظام العالمي الذي تسفر عنه الحرب الحاضرة أيا كان هذا النظام.

ولا بد أن يسأل السائلون: وما شأن برنارد شو؟ وماذا يصنع الآن وماذا يقول؟ والجواب أنه لا يريح ولا يراح

فما مضت على إعلان الحرب أيام حتى راح المذيعون وكتاب الصحف في ألمانيا وإيطاليا يزعمون أن برناردشو يائس من مصير الحرب متنبئ منذ الآن بهزيمة الإنجليز فلما سئل في ذلك قال: إن القوم يتملقونه إذ يشجعون قلوبهم بكلامه، ولعلها في حاجة إلى تشجيع!

وحاول بعض خبثاء الصحفيين أن يصوروه وهو في خوذة الوقاية فأبى أشد إباء وأحبوا أن يلذعوه بالتسوية بينه وبين ملاكم مشهور، فقالوا له: إنك وذلك الملاكم لثروة وطنية، ومن واجب كل منكما أن يحمي رأسه بخوذة!

فقال: بل عليه - إذا شاء - أن يحمي يديه بقفاز. . . وسألوه: أين تنام إذا سمعت نذير الغارة؟ فقال: حيث ينبغي أن ينام كل إنسان في الفراش!

وقيل له مرة: أليس من رأيه أن تقصر الغارات على الأهداف العسكرية؟ فقال: إن مراكز الحكومة محسوبة من الأهداف العسكرية، ولكنها قصدت مرة فأصابه هو تحطيم نافذتين وطارت الغارة بإفريز من باب ردهته

وليس من الضروري أن يظفر محدثو برنارد شو بجواب، ولكنهم يظفرون لا محالة بجواب لاذع أو جواب ساخر أو جواب يجمع بين الصراحة والروغان، والمقصود هو جواب من شو كيفما كان السؤال أو الجواب!

وفي إنجلترا كتاب عالميون غير هؤلاء مثل موام وبريستلي وهكسلي وجود وطائفة من هذه الطبقة المقدمة بين الكتاب الأوربيين

فأما موام فقد كان في باريس منذ نشبت الحرب الحاضرة وهو في خدمة وزارة الاستطلاع كما كانت في الحرب الماضية. ثم صدر إليه الأمر بالعودة إلى وطنه عندما خيف سقوطها فعاد مع ألف وثلاثمائة من اللاجئين الإنجليز في سفينة فحم قذرة طافت بهم عشرين يوماً بين فرنسا والجزائر وجبل طارق حتى وصلت إلى الجزر البريطانية، ولم ينس وهو يتجاوز السادسة والستين ويعاني متاعب السفر وقلة الزاد وخطر القبض عليه في تلك السفينة الهائمة أن يحصي ما تعوده من إحصاء النقائص الإنسانية ويحدثنا عن السيدات كيف حرصن على صبغة الشفاه والأظافر وهن بين الفحم والشحم ولا ناظر إليهن غير الجائعين الخائفين من أولئك اللاجئين الذين كانوا لا يفرغون من تهديد غواصة حتى

يهددهم حكام هذا الميناء أو ذاك بالاستيلاء على السفينة أو يضنوا عليهم بالزاد القليل!
وحب هذا الرجل للاستطلاع والقراءة لا يقل عن حبه لتتبع النقائص والعيوب، فهو هارب مهدد وفي حقيبته شيء عن ثاكري وشيء عن سقراط، وعقله مشغول بالحكمة السقراطية التي تعرف الجلد على الموت كما تعرف الجلد على الحياة.
أما بريستلي - وقد مثلت له رواية بدار الأوبرا في القاهرة - فهو يوشك أن يتجرد اليوم للدعوة في طريق الإذاعة
وجوليان هكسلي يود لو أنه ولد في سنة 1925 ليفقه شيئاً عن هذه الحرب القائمة ويعيش فتياً في الفترة التي بعدها مشتركاً بعمله فيما يراه حقبة من أمتع حقب التاريخ
وجود الفيلسوف المخلص للفلسفات يعلن أنه طلق الفلسفة السلمية وآمن بأن الحرب واجبة للخلاص من الطغيان
وكنت أود أن أسمع شيئاً عن فئة من الكتاب العالميين غير الإنجليز، وأولهم الكاتب الفرنسي رومان رولان الذي كان له في الحرب الماضية شأن بين الفرنسيين كشأن برتراند رسل بين الإنجليز، ولكني لم أسمع عنه خبراً من الأخبار، ولعله قابع في سويسرا كدأبه حين يسأم النصح وينجو بنفسه من الكيد والضغينة
ومنهم موريس مترلنك البلجيكي وقد لاذ بالولايات المتحدة (خالي الوفاض بادي الأنفاض). . . كان له مال بمصرف بركسل فسقطت بركسل في قبضة الألمان؛ وكانت له دار وعقار في نيس فسقطت نيس في قبضة الألمان والطليان. . . وهو اليوم يستأنف العيش من جديد وقد بلغ الثامنة والسبعين!
أما راوية الألمان الكبير في الجيل الحاضر (ليون فيختوانير) صاحب القصص التي عرض كثير منها على اللوحة البيضاء بالقاهرة فنجاته من ألمانيا ثم من فرنسا رواية كأغرب ما كتب الرواة: فر إلى فرنسا ثم اعتقل فيها، ثم جاءه رجل لا يعرفه فاحتال على إخراجه من المعتقل في ثياب النساء، ثم إخراجه من ميناء طولوز بجواز منحول، ثم عبر به إسبانيا والبرتغال، ولم يكشف عن حقيقته إلا وهو في سفينة أمريكية يلجأ إلى الولايات المتحدة مع غيره من اللاجئين!
لكن العجيبة الكبرى من عجائب الأدب والحرب هي تلك العجيبة التي قرأناها عن إقليم من
أقاليم رومانيا التي احتلها المجريون والألمان
فقد سمعنا أن مائتي شاعر وكاتب هجروا ذلك الإقليم الواحد ولا ندري ماذا كانوا يصنعون فيه!
والحرب والله رحمة إلى جانب مائتي شاعر وكاتب في إقليم، بين أميين وأشباه أميين، ولعلها رحمة بالشعراء والكتاب أنفسهم قبل الرحمة بالقراء ومن لا يقرءون!!
عباس محمود العقاد
مسابقة الجامعة المصرية لطلبة السنة التوجيهية
(أهل الكهف)
لتوفيق الحكيم
للدكتور زكي مبارك
- 8 -
تمهيد
الأستاذ توفيق الحكيم مَدِينٌ في وجوده الأدبيّ لرواية (أهل الكهف) فهي الحجَر الأول في بناء شهرته الأدبية. وقد ظهرت أول مرة سنة 1933 فظهر معها المؤلف أول مرة سنة 1933 ولم يكن له قبل ذلك في حياة الأدب تاريخ
وكلمة اليوم تشريحٌ لتلك الرواية بلطف ورفق، فما أحسبها شُرِّحتْ قبل اليوم، لأنها استُقبِلتْ بإعجاب، ولأن المؤلف أسرع فشغل عنها النقاد بمحصول وفير من الرسائل والأقاصيص، فإن انتهى التشريح إلى أنها رواية ضعيفة فلا بأس، فتلك باكورة المؤلف، والبواكير لا تسلم من العطب في جميع الأحايين، وإن ظهر أن المؤلف لم يستعد لموضوع الرواية كل الاستعداد فلا استغراب، لأنه رجلٌ قليل الجَلَد على مصابرة المراجع والأسانيد، وإن وصل بنا الدرس إلى أنها رواية جيدة على ما بها من مآخذ وعيوب فذلك هو المصير المنتظر لأثر يصدر عن أديب موهوب مثل توفيق الحكيم
أهل الكهف

هي مسرحية شائقة، مُثِّلت أول مرة في القاهرة سنة 1935 وبها افتُتِحتْ أعمال (الفرقة القومية المصرية)، ثم نُقلت إلى الفرنسية سنة 1940 بتمهيد تاريخي للأستاذ جاستون فِيتْ مدير دار الآثار العربية

ولم يتسع الوقت للبحث عن النسخة الفرنسية، للاستفادة بما في ذلك (التمهيد) من معارف تاريخية، فلم يبق إلا النظر في هذه المسرحية بدون التفات إلى ما كتب ذلك المستشرق المفضال

ومن المؤكد أن المتسابقين لن يُسألوا عن ذلك التمهيد، لأن المقرر هو النسخة العربية، ولأنه بعيدٌ عن بعض أعضاء لجنة الامتحان، فلن يكونوا جميعاً من قراء لغة هوجو ولامرتين

أصحاب الرقيم

خصَّص الأستاذ توفيق الحكيم صفحة من كتابه لآية قرآنية شريفة منتزعة من سورة الكهف، فكان معنى ذلك أنه اعتمد على تلك السورة في زَخرفة ذلك التاريخ، والتاريخ المزخرف هو ما يسميه الفرنسيون وكان معنى ذلك أيضاً أنه يجب على توفيق الحكيم أن ينظر في القرآن وتفاسير القرآن قبل أن يزخرِف ذلك التاريخ، فماذا صنع؟

قال الله تعالى في أصحاب الكهف والرقيم:

(سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم، رجماً بالغيب، ويقولون سبعةٌ وثامنهم كلبهم)

وبمراجعة التفاسير نعرف أن أصحاب القول الأول هم اليهود، وأصحاب القول الثاني هم النصارى، وأصحاب القول الثالث هم المسلمون

وبمراجعة المسرحية (التوفيقية) نرى المؤلف اختار قول اليهود فجعل أصحاب الكهف ثلاثة رابعهم كلبهم؛ وبمراجعة (حمار الحكيم) نرى المؤلف يتخاذل ويتهافت حين يسمع الحفيف (المعبود) لأوراق (البنكنوت) فهل يمكن القول بأن هذا المؤلف (المسلم) له أجداد تنسَّموا أرواح الأصائل والأسحار في أرض الميعاد؟

ما يهمني أن أحقق نسب توفيق الحكيم في هذا الحديث، وهو إن سمحت الدعابة نسبٌ مدخول، وإنما يهمني النص على إساءته لفنه حين اختار قول اليهود أصحاب الكهف في الرواية اليهودية ثلاثة، وهم في الرواية الإسلامية ثمانية، فأيُّ الروايتين أنفع للفنان؟

لو فكَّر توفيق لأدرك أن المجتمع الذي يكوَّن من ثلاثة أضيق من المجتمع الذي يكوَّن من ثمانية، لأن المجتمع الأول لم يصور غير ثلاث أواصر: آصرة الأسرة، وآصرة الحب، وآصرة المال البسيط الذي يحرص عليه راعي الغنم في حاله الرقيق

ولو أن أصحاب الكهف كانوا ثمانية - كما تريد الرواية الإسلامية - لاتسع المجال أمام المؤلف، فخلق من مشكلات المجتمع في نواحيه الاقتصادية والسياسية والذوقية آفاقاً رحيبة يجول فيها قلم الباحث ويصول

ثم ماذا؟ ثم وقعت غلطة في اسم الراعي، فهو (يمليخا) عند صاحبنا توفيق، ولكن يمليخا في التفسير (الكشاف) وفي حاشية الجمل على (تفسير الجلالين) لم يكن راعياً، وإنما كان من رجال (البَلاط)، بلاط الملك الوثني (دقيانوس)، أما الراعي فاسمه (فلسطيونيس)

ثم؟؟ ثم سكت توفيق الحكيم عن اسم الملك الذي بُعث في عهده أصحاب الكهف، فلم يعرف إلا أنه (الملك)، ولكن أي ملك؟ لو رجع إلى التفاسير لعرف أن ذلك الملك كان يسمَّى (بيدروس) والنصُّ على اسمه أوجب، لأنه ورد في القصة مقروناً بالتعظيم والتبجيل

العقدة المنسية

وهنالك (عُقدة منسية) في رواية توفيق الحكيم هي عُقدة البعث، وتلك العقدة تنقل القصة من وضع إلى وضع، فنشرُ أهل الكهف كان مصادفة عند توفيق، ولكنه في الرواية الإسلامية وقع في أعقاب أزمة عقلية بين رجال (بيدروس) هي الخلاف حول بعث الأرواح والأجساد؛ وهو خلاف كان كثير الغليان في تلك العهود

ولكن ما قيمة هذه العُقدة المنسية؟

لهذا العقدة قيمةٌ عظيمة جدّاً، فغاية القصة عند توفيق هي انتصار الحب، أما غاية القصة إذا روعيتْ تلك العُقدة فهي انتصار الإيمان، وتلك هي الغاية الأساسية إذا أردنا

الوفاء لمكان القصة من العقيدة ومكانها من التاريخ
بطلة القصة عند توفيق هي (امرأةٌ أحبتْ) وكان الواجب أن تكون (امرأة آمنتْ) لو كان توفيق من أصحاب الفكر العميق
استجواب
تحت أي تأثير كتب توفيق الحكيم هذه القصة؟
عندنا ثلاثة فروض:
الفرض الأول هو قوة الشهوة، والفرض الثاني هو قوة الحب، والفرض الثالث هو قوة الإيمان
أما الشهوة فلم يصورها توفيق الحكيم، الشهوة العارمة التي تزلزل أعصاب الرجال وأما الحب فقد عرض له توفيق بأدب ولطف، كما يصنع العذريون الضعفاء بقي الإيمان، فماذا صنع توفيق في وصف الإيمان؟ وماذا صنع في تشريح أوصال الارتياب؟ وأين المعركة التي أثارها بين نسائم الهدى وزوابع الضلال؟
(!أيها القديس! أيها القديس)
تلك أنشودته في التذكير بالنشوة الروحية، فأين أنشودته في التذكير بالغيِّ والرِّجس والإثم والفتون؟
المحصول الفني لصاحبنا توفيق الحكيم يرجع إلى صنف واحد هو البهرجة الروائية، أما التعمق في الفكرة، فهو غرضٌ لا يصل إليه إلا بمجهود شاق
لو كان التوفيق من حلفاء توفيق لأدرك أن من المستحيل أن تكون بريسكا لم تحسَّ الحب إلا أول مرة عند لقاء ميشلينا، وقد نشأت في أحد القصور الرومية، وهي قصور أقيمت على قواعد من طغيان الأهواء والأحاسيس، وكان من الخير لفنه أن يخضعها لذلك الطغيان
ولو كان التوفيق من حلفاء توفيق لجعل موت ميشلينا في القصر لا في الكهف، فالقصور هي ديار العطب، أما الكهوف فهي ديار الأمان
وكان من همّ توفيق أن يجرّد الراعي من جميع العواطف، فما سبب ذلك؟
هنا عُقدة إنسانية لم يَفطِن إليها توفيق، وهي احتباس العواطف في النفوس الفطرية، فما الذي كان يمنع من تشريح أهواء العوامّ لذلك العهد، وهم صورة مكررة في التاريخ؟
منع من ذلك أن الأستاذ توفيق الحكيم لم يحدد الغاية من تلك المسرحية، وإنما حصر همه في الرقش والتزيين والتهويل، فكان ما أراد!
والمعروف عند مؤلفي المسرحيات في أكثر الشعوب أن اللون المحليّ يُنتصب له ميزان، فأين اللون المحليّ في مسرحية أهل الكهف؟ هل شعرنا بأن عهد دقيانوس يخالف عهد بيدروس - الذي جهله توفيق - إلا في توافه الشئون؟
الخلاف بين العهدين يرجع إلى اختلاف الملابس والنقود، فأين الخلاف بين العادات والتقاليد وبينهما ثلاثمائة سنة وتسع؟
وأين الخلاف بين ألوان الحقائق وألوان الأباطيل، بعد اعتراك الأهواء والآراء في تلك العهود؟
كانت المسيحية لعهد دقيانوس تعاني اضطهاد الوثنية، وقد فصّل ذلك توفيق، وهو معنى سجله القرآن من قبل، فكيف كانت المسيحية في عهد بيدروس؟ لقد سكت عن ذلك توفيق سكوت أهل الكهف بعد الرقاد الأخير، مع أن الكلام في هذا الموطن أنفس من السكوت، فقد كانت المسيحية تحولت إلى معضلة عقلية، بعد أن كانت نفحة روحية، ولكن توفيق نسى أن ميدان هذه القصة مَصال فكر قبل أن يكون مجال خيال
الظاهر أن الأستاذ الحكيم لم ينظر إلى عصر الرواية من الوجهة العقلية والدينية، وأريد العصر الذي وقع فيه البعث، وهو الفيْصل في مكان تلك القصة من معترَك الشك واليقين.
وقد اهتم توفيق بأن يجعل في أصحاب الكهف رجلاً مُقلقل الإيمان بالمسيحية - وهذا ينافي الاعتقاد الموروث - فماذا استفاد من هذا التشكيك؟
كنت أنتظر أن يستفيد من هذا التشكيك فيقدم لنا بعض ملامح الوثنية على لسان ذلك المؤمن المرتاب، ولكنه لم يصنع، فلأية غاية فنية أو عقلية أثار ذلك التشكيك؟
كان من واجب توفي أن يشرح تلك الوثنية في صفحة أو صفحتين، ولو على طريق

الغمز والتجريح، لأن الوثنية لم تُخلَق من العدم، وإنما هي صورة من أهواء النفوس وأحلام القلوب
توفيق لم يصنع شيئاً ذا بال في هذه المسرحية. لم يصنع شيئاً يضيفه إلى أقطاب الفكر، وإن كان صنع شيئاً يضيفه إلى أرباب الخيال
وهنالك فجوة عميقة في صحة التخيل، فأصحاب الكهف بُعِثوا في مدينة اسمها طرسوس، وكان يجب أن يبلبلهم المؤلف فيذكّرهم بأن مدينتهم كانت تسمَّى أفسوس، وقد تغير ما في المدينة من ملابس ونقود، ولم يتغير قصر المُلك، فكيف وقع ذلك؟
وكيف جاز أن يجد ميشلينا غرفة الزينة على عهدها المألوف قبل يومين وقد مرت عليها ثلاثة قرون؟ وكيف جاز لميشلينا أن يحلق ذقنه بيديه كما يصنع توفيق الحكيم في هذه الأيام؟ ومتى كان حلق اللحية من مظاهر التزيُّن عند القدماء، ولاسيما المتطلعين منهم إلى منازل التكريم والتشريف؟
كان توفيق الحكيم يحتاج إلى هذا الدرس ليعرف أن المسرحيات لا تولد في أيام معدودات،
وقد ترفقت به كل الترفق، لأنه من أعز أصدقائي، وللصداقة حقوق
توفيق الحكيم في أهل الكهف
يتعثر المؤلف في الفصل الأول، وهو تعثُّر توجبه وضعية الرواية، كما يعبِّر أهل العراق، فأصحاب الكهف يستيقظون من سبات عميق، يستيقظون على أهواء كان لها في حياتهم وجود قهّار، ولكنها أهواء مزعزعة الرسوم والحدود، بفضل ذلك السُّبات العميق
فإذا كان الفصل الثاني رأينا المؤلف يصحو مع أهل الكهف فيقرر أن (قلب المرأة يتسع دائماً لله وغير الله) وأن (القصة ضمير الشعب، وأنه لا يمكن للبشرية أن تخطئ حين تتلاقى في قصة واحدة على اختلاف الديانات والأجناس، فنعرف أنه انتفع بكتاب لامرتين في تشريح سِفر أيوب. ثم نراه يقرر أنْ ليس للمحب عُمْر فنعرف أنه انتفع بكلمة الفرنسي الذي سُئل عن عمره فأجاب: ' ' ثم نراه يقول: (أستودعكما الله هانئين بشباب قلبيكما!) فنعرف أن هذا من ذاك
فإذا كان الفصل الثالث رأينا توفيقاً كبير العقل حين يقرر أن الحياة المطلقة المجردة من كل ماض ومن كل صلة ومن كل سبب هي أقل من العدم، وهل هنالك عَدَم؟ العدم الحق هو الحياة المجردة من التاريخ
ثم رأيناه يقرر أن الحب أقوى من العقيدة ومن الدين، لأن عقيدة الملائكة لم تكن إلا فناً من الحب العَصوف
ثم نرى غيرة بريسكا من فتاة تقطَّع به الزمن إلى أبعد من ثلاثة قرون فنعرف شيئاً من خلائق النساء
فإذا كان الفصل الرابع عرفنا من توفيق أن (الحُلم أحياناً كالفن، لا ينقل الحقيقة كما هي، بل يسبغ عليها من عبقريته جمالاً لم يكن، أو بشاعة لم تكن) وعرفنا أن (القلب أقوى من الزمن) وأنه لا يهمّ المرأة أن تكون قِدِّيسة، وإنما يهمها أن تكون (امرأة أحبت) فنفهم أن الحب في قلب المرأة أعمق جذوراً من الدين، وإلا فكيف صح أن تخاطب الراهبة فاطر السماوات بمثل هذا التعبير: (زوجي العزيز!)
وصدق شوقي حين قال: (الحياة الحبّ، والحب الحياة) وحين قال:
سَيْطرَ الحبُّ على دنياكمُ ... كل شيء ما خلا الحبَّ عَبَثْ
أما بعد فذلك توفيق الحكيم في أهل الكهف
هو أديب موهوب تناغيه الحياة من حين إلى حين. هو أمشاج من الوجد المقهور والحب الدفين. هو قيثارة رنانة لأحلام الشباب والكهول، وإن كانت قيثارة لا تعرف أصول الأنغام، لأنه كاتب بلا أسلوب، ولو كان توفيق من أصحاب الأساليب لأدّى للفكر والبيان خدمات تعزّ على من رامها وتطول
كم تمنيت وتمنيت أن يكون توفيق الحكيم من كتاب اللغة العربية!
لو كان هذا الرجل كاتباً لأتى بالأعاجيب، لأنه قوي الملاحظة وقوي الإحساس إلى أبعد الحدود، ولكن التعبير يعوزه في أدق الشؤون، والتعابير القوية لم تكون ولن تكون إلا شاهداً على عظمة الفكرة وقوة الروح
عيب توفيق الحكيم أنه نشأ مدلَّلاً بين كتاب هذا الجيل، فلم يتذوق صيال الأحقاد والأهواء والأباطيل

ألم يشهد على نفسه في مجلة الرسالة بأنه مَدين لكاتب لم يعرف قدره في جميع الأحايين؟ ومن ذلك الكاتب يا توفيق؟
حظك بيديك، يا ابن آدم، فاعرف نفسك بنفسك، ولا تعتمد على غير واجب الوجود
ثم أما بعد فقد قضى توفيق عشر دقائق وهو ينمِّق العبارة التي يهدي بها إليَّ (أهل الكهف) فأتت: (إلى الدكتور زكي مبارك إعجاباً بدراساته الصريحة ونقده الحر للأدب الحديث)
فكيف ترى مقامي منك، يا توفيق؟
هل هديتك؟ هل أضللتُك؟
تلك كلمة الحق فيك، فغيِّر ما بنفسك لألقاك وأنت أديبٌ صوّال الفكر، جوَّال البيان
والله يحفظك ويرعاك للصديق الوفي الأمين
زكي مبارك
من وحي الحرب
العلم والخلق
للأستاذ قدري حافظ طوقان
إن الخلق من النفحات الإلهية، به يكتب التوفيق وعليه تقام دعائم النجاح. والفرد يخلقه لا بعلمه، وكذلك الأمم ليست بعلومها وفنونها بل بأخلاقها وضمائرها لا تصلح إلا بهما ولا تشاد عظمتها إلا عليهما.
فالعلم إذا دخل دائرة الخلق اتجه نحو الخير والبناء والنمو والإثمار، وإذا خرق نطاقها ولم يتقيد بها أصبح أداة شر وهدم وتدمير، وعلى هذا فمن صالح البشرية والحضارة أن يحيط الخلق بالعلم وأن يسيطر عليه ويرعاه ليسير به نحو الخير والجمال والكمال
لقد تقدم العلم تقدماً نتج عنه انقلاب خطير بعيد الأثر في الحياة والعمران، فقد قضى على المسافات ومحا آيتها، وأتى على معجزة الاتصال بين الأقطار، فجعلها طوع إشارته. كشف المجاهل، وجفف المستنقعات، وأروى الصحاري، ومهّد الأدغال، وأباد أكثر الأمراض، فإذا الأرض أكثر تراميا وأرجاؤها أعظم اتساعاً. فتح أبواباً كانت مغلقة، ووصل إلى نتائج ما كانت لتخطر على بال إنسان، وتمكن من السيطرة على مصادر الطاقة في أشكالها المختلفة فنمت الثروة العامة نمواً لم يحلم به أحد من قبل، وطغت الاختراعات، وكثرت الاكتشافات، فالعائمات على الماء، والسابحات في السماء، والساريات والراسيات على الأرض وتحتها، والأسلاك الكهربائية تطوف هذه الكرة، والأمواج اللاسلكية تعج في الأجواء حاملة على أجنحتها الأخبار والأنباء والصور، وأصبح كثير من الناس في هذا العصر يتمتعون بأسباب من الرخاء والرفاهة والترف لم يرن إليها القياصرة في الأزمان الماضية
ولكن مهلاً. . . هل هذا التقدم كاف؟
هل هذا التقدم - وقد توافرت فيه كل الوسائل لتسهيل الحياة وتوفير العناء - قضى على المشاكل الاجتماعية التي يعانيها المجتمع؟ . . .
إن هذا التقدم قد زاد المشاكل الاجتماعية تعقداً، وسلب راحة البال وطمأنينة النفس، ويمكنني أن أقول إنه وضع الحضارة في مركز خطر.
ولماذا؟. . . لأن الإنسان في تقدمه لم يحسب حساباً للخلق ومعاني الحق والواجب والمثل
العليا، وقد قصرت حكمته عن تثقيف الرغبات والنوازع الإنسانية.
والذي يخشاه كبار الفلاسفة والحكماء أن الحكمة البشرية إذا أفلست في النهوض بعبء إدماج العلم وقواه العظيمة في أغراض الروح والخلق، اتجهت هذه القوى إلى التدمير والتخريب والتقتيل بدلاً من الاتجاه إلى البناء والإنتاج والإثمار والخير والجمال
لقد أصبح شعار هذا العصر (المادية فوق كل شيء) طغى هذا الشعار وتضاءلت أمامه قوة الناس المعنوية وتلاشت به الروابط الأدبية وانكمشت الرحمة والعطف والشفقة في صحف الأديان، وأشاحت الفضيلة بمزاياها عن النفس فإذا الإنسان في غمار من الزهو والغرور يهزأ من العفة والاستقامة والفضيلة والصلاح ولا ينظر إلى الحياة إلا من ناحية المتع والمسرات
لهذا لا عجب إذا قام المفكرون في أمريكا وإنجلترا يدعون الناس إلى حركة إصلاحية غايتها الاتجاه نحو المعنويات والروحيات، والاهتمامُ بتكوين الخلق، وجعلُ الحضارة

قائمة عليها، لينقذوا الإنسانية من الشرور المحيطة بها ويضعوا حداً للمشاكل العديدة التي يعانيها المجتمع. وهذا ما يجعلني أومن بأن العالم - على الرغم مما هو فيه من تخبط - سيتجه نحو الروحيات ونحو الاحتفاظ بمقام الروح فوق مقام المادة، ذلك أنه إن لم يفعل، وسمح للمادة أن تسيطر غير آبه للخلق ومعاني الخير والكمال، فلن تقوم لحضارة قائمة وسيبقى السلم مهدداً، والمثل العليا في خطر، والناس في قلق، والأفكار في اضطراب، والأعصاب في توتر، وتتضاعف مشاكل الإنسان ومتاعبه، وتزيد تعقداً والتواءً، فلا يخرج من فوضى إلا ويجابه فوضى أشد وأنكى فلا اطمئنان ولا أمان ولا راحة ولا سلام

وعلى هذا فالعلم وحده لا يكفي لوضع حدٍّ لشرور العالم وآثامه، والعلم وحده لا يكفي للخلاص من المتاعب والصعاب المحيطة به من كل جانب

يجب أن يقوم العلم على عناصر روحية ومعنوية تعلي من شأن المثل العليا والأخلاق السامية، كما يجب أن تقوم الحضارة على المعنويات وتوفق بين المادة والروحيات

وهل تكون حياة آمنة يسودها رحمة وسلام إذا كانت مادية؟

وكيف تكون الحياة ناميةً رائعةً إذا لم تسرْ على هدى الروحيات؟

لن يستطيع الإنسان أن يردّ عن الحياة آثامها وشرورها ومفاسدها إذا سار فيها على العلم

وحده منصرفاً عن معاني الخير والجمال!

بل كيف تكون الحياة سامية ذات أثمار إذا سيطرت عليها المادية من كل جانب؟

وهل يصفو عيش في جو مادي؟

وهل تستقيم حضارة بالمادية؟

لا. لا. لن تستقيم حضارة بها ولن تتخلص الإنسانية من ويلات العلم إذا لم تنزع إلى الروحية وتسر على هدى الخلق وطريق الحق والعدل

بلاء هذا العالم في طغيان المادية، وخلاصه في الجمع بين الخلق والعلم، خلاصه في روحانية تذكى في الناس معاني الخير والكمال وتسمو بهم إلى ازدهار العواطف، إلى حيث نمو الخلق وتفتح المواهب وبروز المزايا النفسية. . . وإن في هذا كله لثماراً يانعات تجني منها الإنسانية الخير والطمأنينة والسلام

إن في رجوعنا إلى عناصر الخلق وإلى الفضائل الاجتماعية التي نبتت في أصول الأديان، ما يضع حداً للمتاعب التي تواجه الإنسان وتجعل من العلم أداة خير وإصلاح وما يقضي على الفوضى الخلقية التي نراها سائدة في مختلف نواحي الحياة

إن العلم قد وضع في أيدينا قوة، إذا لم نحطها بسياج من الخلق والفضائل، انقلب إلى قوة هدامة مخربة. وعلى المعاهد والمفكرين أن يعملوا على حفظه ضمن هذا السياج، ليجني منه الإنسان قوى الخير والبناء والإثمار؛ وأن يسيروا بجهودهم في طريق إدماج العلم في أغراض الروح العليا، حتى يعرف النشء كيف يعيشون وكيف يقومون بواجبهم ويؤدون رسالتهم بنفحات روحية وعلى أساس متين من الأخلاق

(نابلس)

قدري حافظ طوقان

حول كتاب تحرير المرأة

للأستاذ مصطفى محمد إبراهيم

درجت الرسالة الغراء منذ شرعت وزارة المعارف سنة المسابقة بين طلبة السنة التوجيهية في امتحان اللغة العربية - على نشر مباحث كريمة فيها توجيهات قيمة لأذهان الطلبة في الكتب التي سيمتحنون فيها، وكان المتولي أمر هذه المباحث النافعة الأستاذ زكي مبارك

وقد قرأت في عدد الرسالة الأخير (رقم 389) بحثاً قيماً نفيساً حول كتاب من هذه الكتب هو كتاب (تحرير المرأة) للمرحوم قاسم بك أمين بقلم الكاتب الفاضل الأستاذ محمد أبو بكر إبراهيم المفتش بوزارة المعارف. وقد عنت لي بعد قراءته ملاحظات لم أر بداً من تدوينها تعميما لفائدة أبنائنا الطلاب

تناول الأستاذ شخصية المؤلف بشيء من الإسهاب فأحسن وأفاد، إذ أن التعريف بالمؤلف والإبانة عن مقومات شخصيته ومدى ثقافته له أثر كبير في تفهم آرائه والحكم على أفكاره. ثم عرض الأستاذ مباحث الكتاب عرضاً لطيفاً، غير أني تمنيت لو

أنه أسهب فيه قليلاً حتى تزداد هذه المباحث الخطيرة وضوحاً، خصوصاً وأن هذا الكاتب كان له من الأثر الاجتماعي العميق ما برَّ به كل كتاب في هذا الباب في هذا العصر؛ فكان الطلبة خليقين أن يوجهوا في دراسته توجيهاً واسعاً مسهباً

هذا وقد كنت قرأت كتاب تحرير المرأة هذا فرأيت من المباحث النفيسة التي احتفل لها المرحوم قاسم بك أمين وأعد لها ما استطاع من قوة وعتاد اقتضاه مجهوداً غير يسير - مبحث (الطلاق) وهو بحث سيبدو لمن يقرأه أنه مقطوع النظير

فقد عرض المباحث الإسلامية في هذا الموضوع الخطير عرضاً قوياً مكيناً، وأورد أقوال الأئمة وأصحاب المذاهب والفقهاء من أمثال الزيلعي والشوكاني وابن عابدين، ثم استوعب كل الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال الصحابة حول هذا الموضوع

درس ذلك كله دراسة الفقيه المتفهم لروح الدين، ثم هاجم أولئك العلماء الذين اشتغلوا بالتأليف في هذه الموضوعات الخطيرة وكان أكبر همهم تأويل الألفاظ وتخريج الحروف، حتى ملئوا كتبهم بنحو (طلقتك، وأنت طالق، وعلي الطلاق، وبالتسعين! وطلقت رجلك ورأسك) وما إلى هذا من الخيالات الغريبة؛ وغفلوا عن أن الشرع إنما يقوم أولاً وقبل كل

شيء على النية التي هي أساس الدين الإسلامي، وكانت حملة موفقة كل التوفيق فقد ظهر عليهم، ولا غرو فسلاح المرء يقينه

هذا الفصل من الكتاب هو في ظني البحث العلمي الفريد المبني على الدراسة الدينية المستنيرة المدعمة بالحجج الدوامغ، فليت الطلبة يولونه أكبر همهم، ويدرسونه دراسة تثبت وتفهم، ففي دراسة مثل هذا الفصل تنوير لأذهانهم وتعويدهم الصبر على مكاره العلم والقدرة على تخريج الأحكام الصحيحة من الاتجاهات المختلفة

هذه ملاحظاتنا على مباحث الكتاب. ولنا ملاحظات أخرى لغوية تعرض لها الأستاذ أبو بكر بالنقد:

فقد أخذ على المرحوم قاسم بك في كتابه استعماله كلمة (الأهالي) بدل الأهلين جمعاً لكلمة (الأهل). وليس جمع الأهل على الأهالي خطأ. وقد ورد هذا الجمع في الجزء الأول من كتاب (أساس البلاغة) - وهو من مراجع اللغة المهمة - في مادة (أهل) وخطأه الأستاذ في استعمال كلمة (عائلة) مكان (أسرة) وعندي أن الرفق خير من العنف وأننا نخدم اللغة وأهاليها بقبول الكلمات التي نجد لها وجهاً خصوصاً إذا كانت متواردة على الألسنة والأقلام منذ عهد طويل

ويخيل إليَّ أن الأستاذ الكبير حكم عليها بعدم الاعتبار لأنه لم يجدها في كتب اللغة مع أن المعاجم لا تذكر المشتقات.

وأذكر أن أستاذنا الجارم بك كان يلقي منذ سنتين محاضرات عن طريق المذياع في موضوع الأغلاط الشائعة في العربية فورد على لسانه ذكر هذه الكلمة (العائلة) فأظهر غيظه وتبرمه من محاربة المعلمين لهذه الكلمة الجميلة البليغة ومطاردتها من كراسات التلاميذ مع دورانها على الألسنة والأقلام أمداً طويلاً، فقد ذكر أنه وجد هذه الكلمة في شعر شعراء الدولة الأيوبية (وإن كان نسى أن يعطينا بيتاً نسكن به الثورة الدائرة حول هذه الكلمة)!. . .

ومما أذكره في تخريج الأستاذ الجارم بك لهذه الكلمة قوله:

إن عائلة وزن فاعلة مشتقة من عال يعيل إذا افتقر؛ فعائلة بمعنى مفتقرة، وزوج الرجل وصغاره مفتقرون إلى من يعولهم ويمونهم - عال الرجل أهله كفاهم ومانهم وأنفق عليهم،

فعائلة فاعلة بمعنى مفعولة أي معولة، وإنما استعمل فاعلة هنا مكان مفعولة لغرض بلاغي لا يخفى، قال تعالى: فهو في عيشة راضية. أي مرضي عنها.

وأحسبه قال أيضاً ما معناه: والمعنى البليغ في أن العائلة بمعنى المعولة أنها تدفعه إلى الكد والسعي، ولولاها ما جاهد ولا ثابر، فكأنهم يعولونه. قال تعالى: (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم). فقدم الأبناء على الآباء، لأن الآباء بأبنائهم يرزقون، أو كما قال. . .

فعائلة إذاً صحيحة من حيث الاشتقاق اللغوي

ويحلو لي بهذه المناسبة أن أطلب إلى أستاذنا الجارم بك أن ينشر أمثال هذه المباحث القيمة مما تعرَّض له في الإذاعة وليس أولى بها من صحيفة (الرسالة) حتى لا تضيع

مثل هذه الفرائد بدداً فوق أمواج الأثير، وأحسب الكثيرين من إخواني المدرسين يؤيدونني في هذا المطلب والله المستعان

مصطفى محمد إبراهيم

الأزهر وبعثاته العلمية

للأستاذ محمود الشرقاوي

في عدد الرسالة الأخير (390) كتب الأستاذ الدكتور محمد البهي مدرس علم النفس والفلسفة بكلية أصول الدين مقالاً فيه صدق كثير، كان عنوانه (شخصية الأزهر العلمية)

وقد قلت إن هذا المقال فيه صدق كثير، وهذا أكبر ما يمكن أن يُمدح به كاتب في هذا الزمن، وفي هذا البلد الذي فيه قول الصدق من أكبر العيوب ومن أكبر المعوقات للذي يريد أن ينجح وأن يصل إلى ما يريد يسلك له كل طريق

وقد أثار هذا المقال الجيّد الصادق في نفسي طائفة من الخواطر أعتقد أن فيها - هي أيضاً - صدقاً كثيراً وفيها صراحة، وهذا حسبي

عندما عاد فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي إلى مشيخة الأزهر منذ سنوات خمس، كان من ضمن منهاجه الإصلاحي لتجديد الأزهر والتفكير الديني بعثُ البعوث من علمائه ومن أساتذته إلى أوربا، وكان ذلك في رأينا أجرأ ما أقدم عليه شيخ للأزهر وأعظم ما فكر فيه مصلح شرقي بعد الشاذلي باشا لتقويم الحياة العلمية في الأزهر وتوجيه التفكير الديني وجهة الحياة والنماء والإصلاح، وتقويم هذه الحياة العلمية وتوجيهه هذا التفكير الديني وجهة الخير، هما أمتن العُمد وأرسخ الأسس للإصلاح الشامل في مصر والشرق

وعلى هذا الأمل العريض قابلنا وقابل المخلصون من المصلحين اختيار البعثة الأولى من هذه البعوث الأزهرية إلى أوربا، وكانت بعثة فؤاد الأول إلى فرنسا وإنجلترا وألمانيا وقام لوداعها فضيلة الشيخ الأكبر ومن خلفه العلماء والأزهريون، ثم خطبها وخطبهم أنه سيجعل الأزهر وتجديده ونماء غرسه الإصلاحي فيه وديعة بين يدي هذه الطائفة المختارة من رجاله ومن أساتذته؛ إذ يعودون من بعثاتهم وقد تلقحت ثقافتهم الأزهرية بلقاح جديد واستفادوا من جامعات أوربا طرائق تفكيرها ومناهج بحثها وخصائص إنتاجها العلمي

وكان جميلاً وكان حقاً ما تحدث به شيخنا الأكبر لو أن الأمور سارت إلى نهايتها كما بدأت

وقد سافرت بعوث الأزهر إلى أوربا واستقر أعضاؤها في باريس ولندن وفي برلين يدرسون في جامعاتها. ومضت سنوات خمس عاد بعدها فريق من أعضاء هذه البعوث وقد أتم دراساته فيها، وفاز بما قصد إليه من الألقاب العلمية والدرجات الدراسية ومن قبل هذه البعوث أرسلت ثم عادت بعثة المرحوم الشيخ (محمد عبده) التي أرسلها الشاذلي باشا سنة 1931 إلى ألمانيا فدرست وفازت بما قصدت إليه من الألقاب والدرجات. وعاد هؤلاء وهؤلاء أساتذة في الأزهر يشرفون على توجيه الفرق النهائية في كلياته وتخصصاته، حتى قام بعضهم يتساءل عن شخصية الأزهر العلمية، ويريد أن يضع في الميزان إنتاج كبار العلماء وأن يحكم على القيمة العلمية لما ألف جماعة كبار العلماء

الأزهر محتاج إلى لقاح علميّ جديد وإلى ثورة فكرية جديدة وإلى أسلوب من البحث العلمي قائم على الإخلاص للعلم وحده، وعلى الشجاعة في سبيل العلم وحده، وعلى حب الخير للعلم وحده وللأزهر وحده. ولا يزال في الأزهر روح قوي راسخ من الرجعية والردة والعود لعهود الظلم والظلام. وما من أحد يستطيع أن يرفع الشعلة ولا أن يديم اطراد السير لهذه الخطوات البطيئة من خطى التجديد والإصلاح، سوى أعضاء هذه البعوث التي أرسلها الأزهر من خلاصة رجاله، ولهذا وحده أرسلهم وانتظرهم حين غابوا ورجاهم حين عادوا

وأعضاء هذه البعوث العلمية التي فهمت الروح العلمي في جامعات أوربا واستقام تفكيرها على طرائق البحث العلمي فيها، هم الذين يعرفون ويقدرون ما هي الشخصية العلمية، وما هو الاستقلال في التفكير، وما هو النقد الإيجابي، وما هي حرية البحث؟ وهم الذين يعرفون ويقدرون مما شهدوا في جامعات أوربا وفي حياة أهلها ما هي

قداسة الفكر
فهم بما عرفوا وما قدروا وما أحسوا هم النواة الطيبة والبذرة المباركة النامية لبعث هذه الطرائق وهذا الروح العلمي في الأزهر. وهم الذين تنبعث من أفكارهم ومن نشاطهم ومن إخلاصهم لهذه الطرائق العلمية الجذوة الأولى لهذا الثورة الفكرية التي يحتاجها الأزهر، والتي بها وحدها يأمن الأزهر وتأمن الحياة الدينية في مصر ما تخشاه من طغيان الرجعة وردة عهود الظلم والظلام.
ذلك ما فهمناه وارتقبناه حين اختيرت البعوث العلمية من رجال الأزهر، ثم عادت لتقود فيه الطليعة من الرواد في حياته الإصلاحية الجديدة
فهل يرى الأزهريون أن هذه البعوث تكوّن فيه الآن (البيئة العلمية) الجديدة؟. . . وهل يرى الأزهريون أن لهذه البعوث طابعاً علمياً خاصاً تتميز به عن أشياخها الذين ذهبت هذه
البعوث لتكمل بما ليس عند هؤلاء الأشياخ من فهم ومن ثقافة ومن تفكير؟. . .
وهل يرى الأزهريون أن هذه البيئة العلمية الجديدة لها (معسكر خاص يتميز بنشاط خاص وبأسلوب خاص، ويقصد في دراساته وفي إنتاجه وفي توجيهه التعليمي مقصداً خاصاً يقوم على حرية البحث وقداسة الفكر والشجاعة في مواجهة ما يلقون من عنت (المعسكر الآخر) القديم؟. . .
وهل يرى الأزهريون أن هذه البيئة العلمية الجديدة قد اجتذبت حولها مدرسة خاصة من تلاميذها ومن مشايعيها تكثّر بهم جيش الحرية والتجديد في الأزهر وتحصن به نفسها وقوتها من جيوش الرجعية فيه؟. . . وهي جيوش لها هجمات، ولها هبوب بعد كل سكون
نحن نسأل ولا نحكم. ولو أننا لا نرى دليلاً على أن البعوث الأزهرية (بعثة الشيخ محمد عبده ومن عاد من بعثة فؤاد الأول) قد أقامت في الأزهر مدرسة للتجديد خاصة ولا نهجت فيه منهجاً دراسياً ولا تأليفا خاصاً ولا لمَّت حولها معسكراً جديداً يرفع معها وبعدها شعلة النور في الأزهر، ولم يبد من آثار رجالها وإنتاجهم ما يدل على تميزهم على أشياخهم، وقد ذهبوا ودرسوا في جامعات أوربا لتكمل ثقافتهم بما ليس عند هؤلاء الأشياخ
نحن لا نرى دليلاً ولا شبه دليل على وجود شيء مما ذكرناه نحن عند ذلك أمام واحد من فرضين: أن تكون هذه البعوث لم تفد شيئاً مما درست في جامعات أوربا ولم ترتفع بتفكيرها عن أشياخها وعن زملاء أعضائها الذين لم يبعثوا ولم يدرسوا
وهذا فرض بعيد يوشك أن يكون ممتنعاً لما رأينا ونرى من تبريز هذه البعوث في دراساتها الجامعية وفي درجاتها العلمية التي نالت بها في أوربا وفي البحوث التي نالت بها ما نالت من الدرجات. . .
أو أن تكون هذه البعوث العلمية قد أفادت من دراساتها الأوربية عقلية جديدة حرة وتفكيراً جديداً حرًّا ومنهجاً في البحث جديداً حراً. وهذا ما نراه ونعتقد به
وعند ذلك لنا أن نسأل: لماذا إذن كانت هذه العقلية الجديدة الحرة عقيما، وكان هذا التفكير الجديد الحر متوارياً، وكان هذا المنهج الجديد الحر مهجوراً من هذه البعوث في دراساتها وإنتاجها وأثرها في نفوس طلابها. . .؟
لماذا لا يفيد أعضاء هذه البعوث بما أفادوا ولا يعلمون ما تعلَّموا. . .؟
وهل يتوجّه اللوم في هذا لهم أم أين يتوجّه. . .؟
يقول صديقنا الدكتور البهي في مقاله الذي فيه صدق كثير:
فإلى أن تنشر رسائل جماعة كبار العلماء فينا - لأن عملهم وحده أمام التاريخ وأمام) الحكم العدل هو الأساس الذي يبنى عليه الآن التقدير والاعتراف أو عدم الاعتراف بشخصية الأزهر العلمية - يجب علينا نحن الذين لم يصبحوا بعد من جماعة كبار العلماء إما أن نسعى في أن نطلع غيرنا على أبحاثنا الشخصية، وبذا نكون علماء، أو نعمد إلى تناول عمل الجامعيين بالنظر العلمي فنؤمن بما يدعونه أو ندلهم على موضع الدعاية فيه)
ونحن نرد عليه ما سأل فنقول:
إلى أن نرى أثركم وإنتاجكم وتجديدكم وما جعلتم في الأزهر من بيئة علمية جديدة وثقافة جديدة وحرية جديدة في البحث. سنقول إنكم لم تفيدوا شيئاً مما تعلمتم ولا

تميّز لكم على من لم يبعث ولم يدرس في جامعات أوربا، أو أنكم لا تجدون من نفوسكم شجاعة ولا قوة لكي تكونوا منتجين ولا مقيدين
وذلك قول أقوله لصديقي كاتب مقال (شخصية الأزهر العلمية) وإلى أنداده أعضاء البعوث الأزهرية من أوربا
وقد كانت بعوث النهضة المصرية في أيام محمد علي الكبير وخلفائه سعيد وعباس الأول تكاد تكون في مجموعها من طلبة الأزهر. تعلّم رجالها ثم عادوا فكانوا روّاد الحياة الجديدة والحضارة الجديدة في مصر كلها ثم في الشرق كله
ولكن الأزهر يبعث البعوث من رجاله ثم يعودون إليه يرجوهم لنفسه حياة جديدة وحرية جديدة وتفكيراً جديداً
فهل نجد عند رجال البعوث الأزهرية الجديدة هذه الحياة وهذه الحرية وهذا التفكير يبثّونها بين رجاله وبين أهله؟
وهل نجد عند الأزهر نفسه ما يمكّن لهذا البعوث أن تعمل وأن تنتج وأن تفيد؟ ذلك سؤال ندع الجواب عليه لمن يجيب!

محمود الشرقاوي

خطرات سريعة

قصة كتاب الديارات

للأستاذ صلاح الدين المنجد

كتب إليَّ أخي من عمَّان يطرفني بما كتبه الأديب السيد كروكيس عواد تعليقاً على المقالة التي أثبتناها نحن عن الديارات
ولقد كنت بين إقبال على الرد وأدبار عنه، فقد عجبت من أمر من يدعي التحقيق والتدقيق (والعناية التي تفوق حد الوصف) ويسوق الدعاوى، ويغرق في الثناء على نفسه؛ ثم يعترف بأن الجهود كلها ليست جهوده، وأن الأساتيذ العلاَّمات أمدّوه بكثير من تلك المعلومات، وأرشدوه إلى تلك الملاحظات، وأن الكتاب بعد ذلك سيحمل اسمه
وقد سنحت لي خطرات أردت أن أثبتها هنا ليتضح للقرَّاء مبلغ صحة ما ذهب إليه الأستاذ
(أ) والحق أنه أتيح لنا نشر قصة كتاب الديارات أن نتمتع - ويتمتع معنا القراء - بأسلوب عربي مبين، وسبك رصين، وعرض لأسماء المستشرقين ثمين، أشباه فيشر وكيشر ولاهين، وأسلوب لا اعوجاج فيه ولا سقطات إلا ما يربو على الثلاثين!. . .
(ب) ولكن الأستاذ - مع الأسف - لم يجد في مقالنا شيئاً ولا أقل مما يريد. . . وما ندري ماذا كان ينتظر من لمح موجزات تنشر في مجلة أسبوعية للتعريف بكتاب سنصدره بعد حين!. . . ترى أكان ينتظر أن نصبّ له فيها كل ما هبّ ودبّ، وما اتصل إلى الكتاب بسبب، وما لم يتصل، وأن نصوغ له قصة كقصته، فيها دعاوى كدعاواه. . . فنرسم للقراء كل خطوة خطوناها إبان عملنا. . .؟ أم كان ينتظر أن يجد الكتاب كله في مقال واحد، مشروحاً مضبوطاً، مفهرساً مهمشاً، كما قدم له ذلك الأستاذ مصطفى والأب أنستاس؟
(ج) وعلى كل فقد كان اتفاقاً طريفاً - كما يقول كوركيس أفندي - أن يقوم باحثان بنشر كتاب واحد. ولا أدري لم ساق الأستاذ تلك المحاكمة التي دارت بينه وبين نفسه. . . فانتهت إلى عزمه على نشر الكتاب (خدمة للعلم بذاته)
مع أن الأمر جلل لا يستحق أن يستغرق ربع عامود في المجلة. . . لأن كتاباً يقوم عليه أستاذ يتقن اللغة الآرامية. . . وتدور فكرة نشره في رأسه منذ سبع سنوات، ويصححه أستاذان علامتان، يضعان له الملاحظات ويضيفان إليه الهوامش، ويحققان فيه ويدققان. . .
إن كتاباً هذا شأنه وتلك قصته لحري ألا يهمل نشره
ومهما يكن من أمر فإن تنفيذ ما عزم الأستاذ عليه سيكون حادثاً عظيماً وخطوة واسعة نحو التدقيق الصحيح. . . لأنه سيضم الفهارس المختلفة (وكلها في غاية الضبط) والملاحق الواسعة (وكلها على ما يرام)
(د) ومن يدري كيف يكون الكتاب كتاباً إذا هو لم يضم الفهارس التي يفخر الأستاذ بها وقد كنا نتمنى ألا يضيع الأستاذ وقته في الإشادة بها، لأنه عمل آليّ لا يُفخر به يستطيع

المبتدئون أن يقوموا به
بقيت هذه الإشارات الكثيرة إلى نسخة (فيشر) وإلى نسخة (الكرملي)، وإلى (هـ)
(العناية التي تفوق حدود الوصف) في استنساخ النسخة (الكرملية). وما ندري إن كان
تعداد النسخ على هذا النمط يوهم القراء أن هناك طائفة من النسخ لهذا الكتاب
ويصر الأستاذ على قراءة النسخة البرلينية، مع أننا ذكرنا في مقالنا الأول أن (و)
للكتاب نسخة قليلة الضبط كثيرة الأخطاء في دار الكتب المصرية، كما ذكر لنا ذلك
صديقنا الأستاذ شكري فيصل، وأثبته - كما أظن - صاحبكم حبيب الزيات
:أما الملاحظات التي أراد كوركيس أفندي أن نتغاضى عن ذكره لها فنقول فيها (ط)
أولاً: لم نرتجل الرقم ارتجالاً - كما يفعل بعض من يعرفهم الأستاذ - فقد وجدنا الرقم
هكذا على النسخة التي عندنا، ولقد أثبت الرقم نفسه، فيما أظن، السيد حبيب الزيات
في كتابه (الديارات النصرانية في الإسلام) وكنا نود لو يهب الله لنا علم الغيب، إذن
لاستطعنا معرفة الأرقام الصحاح. . . وقد أثبت ذلك أيضاً تيمور باشا على النسخة. . .
. . .ولعلكم تستطيعون أن تسألوه من أين أتى به. . . ولكن
ثانياً: ولقد كان الأستاذ في غنى عن أن يسوق إلى القراء هذه القائمة الطويلة من
أسماء المؤلفين. . . فنحن لم نقصد في قولنا إن أول من نقل عن الكتاب هو السيد
حبيب الزيات. . . إلى التعميم الذي يشمل كتب المستشرقين في اللغات الأجنبية
ولو دقق الأستاذ لوجد أن السيد حبيب الزيات هو أول من نقل عن الكتاب كما قلنا.
أما كتاب (الصليب والإسلام) فلم نتشرف بمعرفته، وأحسب أن الأستاذ كوركيس
أفندي يقرنا أن هناك فرقاً كبيراً بين الإشارة إلى الكتاب في هامش مقال أو في ثنايا
كتاب وبين النقل
عنه والبحث فيه
وعلى كل فالأستاذ يشير في مقاله إلى كتاب الحضارة الإسلامية في القرن الرابع
الهجري الذي ترجمه السيد أبو ريده، ويحتج بأصله الألماني الذي نشر في سنة 1917،
وما من شك في أن الأستاذ لم يطلع على الأصل الألماني قبل الترجمة، ولكنه يوهم
القراء أنه بعيد عهد بالكتاب وبمن نقل عنه وأشار إليه، ولو في هامش من الهوامش
ثالثاً: أما الملاحظة الثالثة فقد أجهد الأستاذ نفسه في تقسيم الأديار لينتهي إلى القول
بأن ثمانية وثلاثين ديراً كانت في العراق وأنه امرؤ عراقي، وأنه موظف بدار الآثار،
وأنه لم يستطع تعيين المواقع الحقيقية إلا لعشرة منها، ولو دقق الأستاذ فيما كتب عن
الأديار وخصوصاً ما كتبه ياقوت والعمري والبكري والشابشتي، لوجد أنهم يحدون
الدير، ويقولون إنه يقع في شرق كذا، وغرب كذا بجوار كذا على ضفة كذا، وتلك كلها
حدود تقريبية يستطيع معها الباحث المدقق أن يعلم موضع الدير منها، ولا شك في أن
الأستاذ كوركيس قد لاحظ أن (لوسترانج) قد حدد في مخططه الذي وضعه لبغداد بين
سنة (150 - 300) للهجرة أماكن كثير من الديارات، كدير سمالو وغيره، (وإن كان
الأستاذ مصطفى يخطئ لوسترانج) وبدهي أننا لم نسلك في تحديد الديارات والإشارة
إلى محالها، ما يسلكه موظفو دار الآثار ومأمورو التسجيل، وإنما رأينا أن ذلك يقرب
للأذهان محال تلك الديارات
ولعل الأستاذ كوركيس يدري بعد هذا كيف يمكننا أن نضع للأديار مخططاً
أما وفاة الشابشتي، فنحن لم نكن في معرض ترجمة المؤلف والتحقيق في سني (ك)
حياته، وما قصدنا بمقالنا إلى الظهور وإيهام الناس أننا نحقق وندقق، وإنما ذلك شيء
تركناه لغيرنا! وما كلمتنا عن الشباشتي إلا إشارة سريعة. . . خاطفة
على أنه مهما يكن من أمر قصة كتاب الديارات التي أطرفنا بها الأستاذ عواد، فإننا (ل)
أفدنا منها أموراً كثيرة كنا نجهلها، فقد عرفنا أنه ذو اطلاع ومعرفة بأسماء
المستشرقين، وأنه سيجمع في كتاب يضع عليه اسمه جهود عالمين، وأنه موظف بدار
الآثار وعالم من علماء العراق، وملم باللغة الآرامية
هذا ما بدا لنا على تلك القصة ذكرناه وللأب أنستاس، وللأستاذ مصطفى تحياتي على
جهودهما. . . أما كتابنا الذي بدأنا به منذ شهور، ولم نستعن في تحقيقه بأحد، فسيظهر
غداً، وإن غداً لناظره قريب
(دمشق)
صلاح الدين المنجد

كلمات. . .
غرامك علمني النوح. . .!
في سيارة كبيرة من سيارات (الأتوبيس) جلست وجلس من خلفي وإلى جانبيَّ خلق من الناس رجال وسيدات
السيارة تسير في طريق زراعيّ، وكل من الركب مشغول بنفسه، بعضهم يتحدث إلى جاره، وبعضهم - وهو قليل - يطالع صحيفته، وليس في الصحف مكتوب ولا في كلام الناس متحدث في هذه الأيام غير هذه الحرب العاتية التي يتقدم فيها كل جندي في كل أمة، إما إلى النصر وإما إلى الموت. وبعض من في السيارة يتسلى بالأكل وإلقاء الفضلات على أرضها وبين المقاعد
وارتفع من المقاعد الخلفية صوت رقيق، صوت مغنٍّ. . . وكان غناؤه مرتفعاً حتى سمعناه من أماكن جلوسنا، وبينها وبين مجلسه سطور من الناس
وأبصرت خلفي أنظر هذا الذي يتطوّع لتطريب الناس، وهم لا يستطربوه، وهو لا يعرفهم ولا يعرف تهيؤ نفوسهم لقبول الغناء في ذلك الوقت، وعلى هذه الصورة، وفي (الأتوبيس)
وكان الصوت الرقيق يخرج من أشداق رجل عملاق ضخم الجثة، ضخم المنكبين، ضخم الرأس، ذي أكتاف عِراض، قد استدارت حول ذراعه القوية حلقة حمراء، ورصَّعت على صدره أزرار نحاسية صفراء براقة، وأمسك بيمناه عصا المارشالية. . .!
إنه جندي من رجال جيشنا الباسل الذي فتح السودان وأداخ الدراويش والوهابيين في الجزيرة، والذي أوشك إبراهيم بن محمد علي أن يقتحم به على الدولة العثمانية
كان الجندي من رجال جيشنا الباسل يغني ويدير في شدقيه بصوته الرقيق هذه الأغنية:
يا نور العين يا غالي ... يا شاغل مهجتي وبالي
تعال اعطف على حالي ... وهني القلب ليلة العيد
نظرت ونظر غيري من الركب إلى هذا الجندي يرفع عقيرته يصيح بهذه الأغنية، وكأنما ظن أننا نستزيده فزاد، ولا غرو، فمن خلائق الجندية الشهامة. . .!
ونظرتْ إليه سيدة من الركب نظرة فهمها الناس. . .! ولكن صاحبنا المغني فهمها فهماً آخر، فعلا صوته يعيد: تعال اعطف على حالي. . . وجعل يعلو بها ويفتن في تنغيمها
كأنما قدر أن السيدة ستجيبه، وقد ناداها: تعال اعطف على حالي. . .
وانتهى الجندي الفخم الباسل من أغانيه، وانتهت بنا السيارة إلى حيث نقصد، وأتممت طريقي حتى صعدت إلى بيتي وما تزال صورة ذلك الجندي وما يزال صوته وما تزال أغنيته الذليلة في خيالي وفي صماخ أذني وفي ضميري
ولقيني من مسكني صوت الراديو بأنغام الموسيقى، ثم استفتحت وجلست أستريح وأستمع حتى انتهى العزف، وأعلن المذيع يقول:
سمعتم سيدات وسادتي فرقة موسيقى (الجيش المصري) تعزف لكم بعض القطع الموسيقية والأغاني المنتخبة وهي:
كذا. . . وكذا. . . وكذا. . . وأخيراً دور:
(غرامك علمني النوح. . .!)
ألا ترى - أيها القارئ - أنني وركب السيارة كنا ظالمين حين نظرنا إلى ذلك الجندي المغني تلك النظرات؟
(محمود)
كيف تضاءل التاريخ في الأزهر بعد الجبرتي
للأستاذ عبد المتعال الصعيدي
كان عصر الشيخ عبد الرحمن الجَبَرْتِيْ في أواخر القرن الثاني عشر الهجري وأوائل القرن الثالث عشر فاصلاً بين عصرين من عصور الجامع الأزهر؛ فإلى عصر الشيخ الجبرتي كان الجامع الأزهر يستأثر وحده بالتعليم العالي في مصر؛ وكان لرجاله نفوذ كبير في البلاد يضارع نفوذ حكامها من الترك الجراكسة والعثمانيين؛ أما بعد عصره فإن المدارس المدنية التي أنشأها محمد علي باشا أخذت تنافسه في وظيفته، وتضعف من شأنه، فصار يذوى وينكمش، وأخذ يرضى بالقليل من العلوم الدينية

والعربية، ويترك لتلك المدارس كثيراً من العلوم التي كان يعنى بها قبل إنشائها: كالتاريخ والأدب وتقويم البلدان وغير ذلك من العلوم التي كان يعنى بها؛ وكانت تزيد في ثقافة رجاله، وتعلي من شأنهم، وتقوي من عزائمهم. فلما رضى بالقليل من تلك العلوم الدينية والعربية ضاقت ثقافة رجاله، وضعفت فيه الهمم، وفترت العزائم، حتى صرنا نرى من رجاله من يذكر في تعليقه على بيت المتنبي الوارد في كتاب التلخيص للخطيب القزويني:

مُبارَكُ الاسم أغَرُّ اللقبْ ... كريم الجرّشي شريف النسبْ

أن سيف الدولة الممدوح بهذا البيت من بني العباس، لقول المتنبي فيه (شريف النسب) مع أن سيف الدولة كان من قبيلة تَغلب، وهي من قبائل ربيعة، فأين هو إذن من بني العباس وهم من بني هاشم، وبنو هاشم من قريش، وقريش من مضر.

وكذلك يزعم بعضهم في تعليقه على قول الفرزدق الوارد في ذلك الكتاب أيضاً:

إن الذي سَمَكَ السماء بنى لنا ... بيتاً دعائمهُ أعزُّ وأطولُ

أن المراد بالبيت فيه الكعبة لأن الفرزدق كان من قريش، مع أن الفرزدق كان من تميم، وهو يفتخر في ذلك على جرير ببيته فيهم، وقد صرح به بعد ذلك في قوله:

بيتاً زُرَارَةُ مُحْتبٍ بفنائه ... ومُجاشعٌ وأبو الفوارس نهشلُ

ولا غرو بعد هذا في أن يؤلف الجبرتي كتابه الجامع في التاريخ المسمى (عجائب الآثار في التراجم والأخبار) فيلمّ فيه بأخبار عصره كبيرها وصغيرها، ويترجم لرجاله تراجم وافية شاملة، وفيهم الفقيه والنحوي والأديب والشاعر والفلكي والطبيب والحاكم والقاضي

وغيرهم

فإذا جاء بعده الشيخ أحمد مصلح في أواسط القرن الثالث عشر الهجري، يحاول أن يترجم لعلماء عصره كما ترجم الجبرتيُّ قبله، أتى بشيء تافه يدل على مقدار ما وصل إليه الأزهر من ضعف في الثقافة قبل نهضته الأخيرة، فيقول بعد حمد الله تعالى والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم: وبعد فهذه صورة قائمة أذكر فيها العلماء المستعدين الذين هم موجودون بمصر في القرن الثالث عشر في عام تسع وخمسين سنة، وذلك لما شاع أن مصر لم تزل من قديم الزمان مشهورة بالعلماء والفضلاء الذين هم ذو فطنة وعرفان

ثم يذكر أن الذي دعاه إلى ذلك أن بعضهم قد قال بمقتضى وفور عقله: إن هذا الوقت لا يوجد فيه علماء مثل الذين أدركتهم من المتقدمين، وإنه لا يرى إلا الصم البكم من الجاهلين الجامدين، إلى أن قال: فحملتني حَمِيَّة الحرية على أن أذكر أسماء العلماء المعتبرين، ليكون ذلك عبرة للمعتبرين، وتذكره للمتذكرين، ولربما بصرف عنايته إليهم تكثر أفراد هذا النوع، وتشتعل العقول الفاترة بنار الفكرة، وينشب فيهم هذا الوصف الذي يتبعه علو الهمة، التي يتبعها عمار المملكة، وقوتها على من عداها من الممالك.

وتقع رسالة الشيخ أحمد مصلح التي قدم لها هذه المقدمة في تسع صفحات من القطع الصغير، وهي رسالة مخطوطة بخط نسخي لا بأس به، وتوجد بمكتبة الجامع الأزهر بين كتب سليمان أباظة باشا رحمه الله، ورقمها الخاص 396 والعام 6688 وهذا مثال مما كتبه الشيخ أحمد مصلح عن أولئك العلماء ليرد على ذلك الطاعن فيهم، وهو عبارة عن القائمة الأولى من علماء الشافعية:

1 - الشيخ إبراهيم الباجوري عالم فاضل وله تأليف
2 - الشيخ مصطفى البلقاني عالم فاضل وله تأليف
3 - الشيخ عبد الله النبراوي كذلك وله تأليف
4 - الشيخ أحمد المرصفي عالم فاضل
5 - الشيخ مصطفى الذهبي عالم فاضل
6 - الشيخ مصطفى المبلط عالم فاضل
7 - الشيخ حسن البلتاني عالم فاضل
8 - الشيخ أحمد أبو مصلح كذلك وله تأليف
9 - الشيخ إبراهيم السقا كذلك وله بعض تأليف
10 - الشيخ سليم الشرقاوي كذلك عالم فاضل
11 - الشيخ محمد الطوخي عالم فاضل أيضاً

12 - الشيخ صقر الأشموني عالم فاضل
13 - الشيخ محمد الخضري عالم فاضل
14 - الشيخ دسوقي المحلاوي عالم كذلك
15 - الشيخ محمد عبد القدوس عالم فاضل
16 - الشيخ نور الدين كذلك عالم فاضل
17 - الشيخ خليفة الفشني كذلك عالم فاضل
18 - الشيخ محمد الخناني عالم فاضل
19 - الشيخ سيد الأنصاري عالم فاضل

فهؤلاء تسعة عشر عالماً لا يذكر الشيخ أحمد مصلح في ترجمة كل واحد منهم إلا أنه عالم فاضل مرة، وعالم فاضل وله تأليف مرة ثانية، وعالم فاضل أيضاً أو كذلك مرة ثالثة، وهكذا هان فن الترجمة في عصر الشيخ أحمد مصلح إلى هذا الحد، وصار الذي يعنَى به لا يعرف في كل من يترجم له إلا أنه عالم فاضل، أو عالم فاضل وله تأليف، أو عالم فاضل كذلك. ومن الغريب أن الشيخ أحمد مصلح ذكر اسمه في هذه القائمة من علماء الشافعية، وتبرع لنفسه بذلك الوصف الذي كرره فيهم، ولعله تواضع فلم يزدنا تعريفاً بنفسه، لئلا يمتاز بذلك على هؤلاء العلماء ويعنَى بنفسه أكثر منهم. وقد ذكر بعد ذلك ترجمة ستة من علماء الحنفية، ولم يزد فيها على ذلك الوصف السابق، اللهم إلا في الشيخ السادس، وهو الشيخ محمد الكتبي، فقد ذكر أنه عالم فاضل إلا أن ذكره وصلاحه كادا أن يميلا به إلى الجهل. ولست أدري والله الجهل الذي يريده، ولعله يريد جهل الناس به فيكون مصدر المبني للمفعول، لا مصدر المبني للفاعل

ثم ذكر أسماء أحد عشر عالماً من المالكية على ذلك النحو الذي ذكره فيمن قبلهم من الشافعية والحنفية. وقال بعد الفراغ منهم: (هؤلاء هم العلماء الأذكياء الذين هم حقيقون
بالاعتناء،

ومن عداهم فهو إما طالب علم لم يبلغ هذه الدرجة، وإما متشبه بهم في المقال والأفعال، وإما مكتف بشهرة علم آبائه، البعض من هذا القسم قد ظن أنه وارثه، فتصور وتطور بما ليس فيه، وإما صاحب دعوى عمداً أو مع غفلته عن ذلك وإن جل في أعين العوام، وعلامة عدم صحة ذلك له الامتحان، وإما مكتف بتصوره بصورة العلماء، وتلبسه بزيهم، وكونه يركب بغلة على سجادة، وإما بشهرته بذلك بين بعض العوامِّ الذين هم كالهوامِّ، وإما بدعوى الديانة والصلاح، وإما بشقشقة اللسان بما تعورف بين العلماء، فيظنُّ أنه على شيء في صنعة العلوم، وإما بزخرفة الكلام والتنكيتات، والدعابة والهزليات، وعنده في ذلك لكل مقام مقال، وإما بنحو ذلك)

وهذه الخاتمة أهم ما في هذه الرسالة، لأنها ترينا كيف وصل حال الأزهر في عصر صاحبها إلى ذلك الاختلاط والاضطراب والتلبيس، حتى صار كل من يركب بغلة على سجادة عالماً، وحتى صار العلم فيه ينتسب إليه بالوراثة، لا بالجد في الطلب، والاجتهاد في الدرس والتعليم، بل نزل قدر العلم إلى أن صار يحشر في زمرة العلماء من يجيد زخرفة الكلام والتنكيتات والدعابة والهزليات، ولا يعلم إلا الله كيف كان مصير الأزهر في هذه الوهدة التي تردى إليها لو لم يتداركه المخلصون من أبنائه بهذه النهضة الأخيرة، فيقيلوه من عثرته، ويقضوا على ذلك اللبس والاضطراب فيه.

ولا شك أن هذه الرسالة بضعف أسلوبها، وبعجزها عن القيام بما حاولته من الترجمة لرجال عصرها، تمثل الأزهر في ذلك العصر أكثر مما تمثل تلك الشروح المنسوخة، والحواشي المنقولة في العلوم الدينية والعربية التي ألفت فيها، فالنقل عمل سهل لا يكلف شيئاً، وليس كالعمل المخترع في دلالته على القدرة وحسن الاستعداد

ولم يكن لي بعد هذا بد من تسجيل كلمة عن هذه الرسالة الصغيرة في مجلة الرسالة الغراء، ليكون لنا فيها عظة وعبرة، ونعلم فضل حاضرنا على ماضينا، فلا نسمع لمن يحاول النيل منه، ويحن إلى ذلك الماضي مفضلاً له. ومن جهل ماضيه لم ينتفع به في حاضره ومن علمه أيا كان أمره كان له منه العظة النافعة، أو القدوة الحسنة.

عبد المتعال الصعيدي

. . .يا ساعة الصفو

للأستاذ العقاد

قطعة من قصة شعرية سينمائية ألفها الأستاذ للفنانة (نادرة)
وستغنيها من محطة الإذاعة مساء 30121940 وهي من
تلحين الأستاذ (السنباطي) من مقام (الحجاز) . . .
المويلحي
يا ساعة الصفو غبتِ عني ... وحيرتْ لوعتي خطاكِ
غريبة أنت في طريقي ... هداك نور الهوى هداك!
أبطأتِ يا ساعة التمني ... وموعد الملتقى قريب!
هل يبطئ الحزن لو سعى لي ... كما سعى الموعد الحبيب؟
أصبحت من لهفتي عليه ... أنتظر الليل بالنهار
طال انتظاري له فماذا ... في الغيب يا ليل بانتظاري؟
من وحي الحرب
أبناء نيرون
للأستاذ عبد اللطيف النشار
أبناءُ برلين لهم عذرهم ... خيالُهم طاغٍ على الواقع
إلاّ تكن حقا أمانيُّهم ... فإنهم في حُلمٍ رائع
أهل حروب صادفوا أهلها ... فدافعوا عن حسبٍ رافع
إن يخفقوا في الحرب، وليخفقوا، ... فقد أتوا بالعجب الرائع
وأنت يا روما بلا عَاذر ... شربتِ من سم الوغى الناقع
(وإنما الفتك لذي خسة ... شبعان أو ذي كرم جائع)
حسبك يا روما رضى القانع ... أو فارقبي عاقبة الطامع
كرامة الدافع والوازع ... هما عماد الفاعل المانع
وأنت لا حقٌ ولا قوةٌ ... ولست أهلاً للسنا اللامع
وأنت لا شيء سوى نعرة ... أبلغ ما فيها أذى السامع
دعتك برلين فسايرتها ... هيهات ما المتبوع كالتابع
أبناَء نيرون بكم ما به ... من قدرة، لكن على الوادع
أبناء نيرون بكم ما به ... من جزع في الموقف الفاجع
أحرق روما طالباً لذة ... لذته في موقف الضارع
منتحراً يبكي على نفسه ... بين وميض اللهب الساطع
في كفه الموسى وألحاظه ... حائرة في المحجر الدامع
أبناءه لم تتركوا نهجه ... كلكمو من ذلك الطابع
وكلكم أجرم إجرامه ... وما له في الغد من شافع
وكلكم موساه في كفه ... فلتثأروا للأمل الضائع
أو هادنوا الإغريق من قبل أن ... يتسع الخرق على الراقع
أو أحرقوا روما كنيرونكم ... تنجو من المخدوع والخادع
القلوب المرضى
للأستاذ محمد عبد الغني حسن
أَرَى العالَم المجنَون تُبْرِمُ أَمْرَه ... عُقولٌ صحيحاتٌ وأفئِدةٌ مَرضى
إذا الْعِلْمُ أَسْدَى مِن عَوارفه يداً ... تَبَدَّلها هَدماً وَأَتْبعها نَقْضا
لقد سَوَّد الناسُ السَّماَء وقائعا ... كما زَلزلوا بالخيلِ والغارة الأرْضا
يَنامون إلا عن تِراتٍ دَفينةٍ ... تُؤَجِّجُ نيرانَ العداوةِ والبغضا
نَبَتْ بهمُ اليومَ المضاجعُ واغتَدوْا ... حِذارَ الرَّدَىَ لم يطْعَموا في الدُّجى غَمْضا
تَغَنَّوا بألحانِ السَّلامِ جميلةً ... ولم يُمْهلونا نَجْتَنِي زَهرَها الغضَّا
إذا صاحَ فيهم صائح الشَّرِّ أَرْقَلوا ... كما يَنْفُدُ السَّهمُ المُنازِعُ أو أَمْضى
عَجِبْتُ لهم قَدْ حَرَّموا القتلَ مُفْردا ... ويقتلُ في الهيجاءِ بعْضُهُمو بَعْضا
معضلة وجدت حلها
(مهداة إلى كل من وخط الشيب رأسه قبل الأوان)
للأستاذ علي الجندي
شعَرَاتٌ فِي مَفْرِقِ الرأس لاحتْ ... كنجوم تُضِيءُ فِي الدَّيْجُورِ
غَادَرَتْنِي فِي نَضْرَة العُمْر أبْكي ... ذِكرَيَاتِ الصِّبَا بدَمْعٍ غزِير

وَكَسَتْنِي ثوبَ الوقار، وهل أَسْـ ... مَجُ في العين من وقار الصَّغير؟!
يَا لَظُلْم الأيامِ إِذْ وَقَفَتْنِي ... بين رأس شَيْخ، وَقَلْب غَرِير
ذاك يدعو إلى الرشاد، وهذا ... مُسْتَهَامٌ بِكلِّ وَجْهٍ نَضِيرِ
تَرَكاني في حَيْرَةِ الدَّمْعَة الْحَرَّى ... بجفن المتَيَّم المهْجُور
إِنْ دَعَاني الشبابُ قَال ليَ الشَّيْبُ ... تَصَابى الشُّيوخُ رَأْسُ الفُجُور
أَنُزُوعاً إلى الصِّبا تحتَ سيفٍ ... للمنايا، فوق الشَّوَى، مشهور
هَبْ بياضَ القَذَال لم يَزَع الشَّيْخ ... ألمَّا يَزَعْهُ صَوْتُ الضمير
أَوْ أَطعتُ المشيبَ صاح بيَ القلبُ ... رُوَيْداً فلستُ بعضَ الصّخور
أَتُراني أَرْضَى بِجَنْبَيكَ أَنْ أَحْيَا ... - بلا صَبْوَةٍ - حياةَ الأمير
وَيَمرّ الشبابُ كالْحُلُمِ السَّا ... رِى، وعُمْرُ الشباب جِدُّ قصير
لستَ مِنِّي وَلستُ مِنْكَ فدعْني ... سَادِراً فِي غَوَايتي وَغُروري
وَتَخيَّرْ سِوَايَ قلباً يُجَارِيك ... غليظَ الإحساس صُلْب الشّعور
لاَ أُطِيق الْمُقَامَ بَين حَنَايَا ... كَ، كأني أُقيم بين القبور
وَيْكَ رَأْسِي تَركتَنِي أَصْحَبُ الدّنيا ... بقلبٍ دام، وطَرْفٍ حَسِيرِ
بَكَّرَ الشّيبُ فِي النّزول بفَوْدَيك ... وَيَا شُؤْمَ ذَلِكَ التَّبْكيرِ
قد خضبْنا مَا ابْيَضَّ منه فما جَا ... زَ عَلَى فِطْنة العليم الخبيرِ
وَبَرَزْنَا لِلنَّاظِرِين فقالوا: ... ذَاك رأسٌ يُدْلِى بِحقٍّ وَزُور
يا رسولَ الْمَنون يا وافد الأَسْقَا ... م يا طيفَ منكرٍ ونكيرِ
أَنتَ شَوَّهْتَ لِي الحياةَ وَأَفْسَدْ ... تَ صِلاَتي بمُرْهَفَات الْخُصور
كلُّ غيداَء حين أَبْدُو تُرَاعِيني ... بألحاظ كاشِحٍ مَوْتور
ثم تَزْوَرُّ كالْجَواد - عَلَى الطَّعْن - ... وتَعْدُو كالشّادن المذعور
ليتَ شِعْرِي وَمَا نضَوْتُ شَبَابي ... كيفَ صَبْرِي على جَفاء الحُور!
عَجباً للحسان يَزْهَدْنَ فِي الشّيْب ... وَمَا الشَيبُ غيرُ هالةِ نورِ
قلتُ: يا (نُعْمُ) لاَ يرُعْك مَشيبي ... إنّه حِلْيةُ الرُّمِيت الوَقور
هُوَ كالدّر في نُحورِ الرَّعَابيبِ ... وكَالنَّوْر في حِفَافِ الْغَديرِ
نَاسَبَ الأَوْجُهَ الرِّقَاقَ بياضاً ... وَحَكى وَمْضُه رفيفَ الثغور
وَهَيبه قِذَى العيون فَمَنْ يَسْطيع ... دَفْعاً لِعَادِيَات الدهور
كلُّ طِفْلٍ - مَا أَخْطَأَتْه الْمَنَايا - ... سوفَ يلقَى عَلَى الزمان مَصيري
وَإِذَا مَا اجْتَوَيْتِ شَعْري فَشِعْرِي ... حَلَبُ الكَرْم بالزُّلال النَّمير
لَكِ مِنْهُ وَشْيُ الرُّبَا وَجَنَى الرَّو ... ض وَأَكْمَامُ وَرْدِهِ المَنْضُور
وَنَسِيبٌ يَسْتَلُّ (قَيْساً) و (لَيْلاَ ... هُ) من الرَّمْس قبل يوم النُّشور
وَغِنَاءٌ ينْساب في مِسْمَع الكوْ ... ن ويَسْرِي على جناح الأثِير
فأجابتْ والرَّهْوُ يَعْطِفُ منها ... خُوطَ بانٍ تحت الصَّباح المنير
لا تُحَاوِلْ خَدْعي فشيْبُكَ أَزْري ... بنظيم - تُزْهَي بِهِ - وَنَثِير
قسَماً بالصَّفا وزمْزمَ والمَشْعَرِ ... والْبَيْت حَالِياً بالسُّتُورَ
لو نظمتَ النّجومَ والشمسَ والبد ... ر، وفصَّلْتَها بدرّ البحور
وحَوَيْت البيانَ شَطْرَيْه حتى ... فُقْتَ فيه ابْنَ هَانِئٍ والْحَريري
لستُ أُرضاكَ للغرام فدعْني ... أنشُد العيْش في ظِلال السّرور
أَبِرَأْسٍ مِثْلِ الثَّغَامَة عاثَ الشَّيْبُ ... فِيهِ عَيْثَ الْجَراد المُغير
وَبِجَنْبٍ كَجُحْرِ ضَبٍّ خَرَابٍ ... تَعْمُرُ الرِّيحُ جوْفَه بالصَّفير
تبتغي خُلّتِي وترجُو وِصالي ... شَدَّ ما سُمْتَني عذابَ السعير!
يُمْلَكُ الْحُسْنُ بالشَّباب وبالما ... ل فما الظنُّ بالكبير الفقير
قد رَضِينا مَشِيئَة الله فينا ... وامْتَثَلْنَا لِحِكمَةِ المَقْدُور
وَلبِسْنَا عَلَى الصِبا حُلَّةَ الشيب ... فأهلاً وَمرحباً (بالنَّذير)
وَلَزِمْنا المحرابَ نَجْأَرُ بالتَّهليل ... في صَدْره، وبالتَّكبير
وعكفْنَا على تِلاوة آيِ الذِّكر ... زُلْفَى ذلك العزيز الغفور
وَثَنَيْنَا العِنان عن منهل الرَّا ... ح إلى منهل القَراح الطّهور
وَأَعَرْنَا الْقِيَانَ سَمْعَ أَصَمٍّ ... وَمنحْنا الحِسان طَرْف ضرير
وَغَنِينا بالشمس مَطْلَعُها الأُفْقُ ... عن الشمس تَزدْهي في الْخُدور

وَاسْتَعَضْنَا بالْغُصْنِ يكسُوه آدّا ... رُ من الغصن رافلاً في الحرير
وَلَهِينَا عن وَجْنة الطَّفْلَةِ الكا ... عِبِ بالوَرد نَافحاً بالعبير
وَسَلَوْنَا بِأَعْيُنِ النّرجس الغَضِّ ... عُيوناً يَقْتُلْنَ بالتَّفْتير
وَوَجَدْنَا الرُّمانَ أَمْلأَ لِلعين ... وللقلْبِ مِن ثِمَار الصّدور
وَرَأَيْنَا أَقاحِيَ الروض أَشْفَى ... لِصَدَى الروح مِن أَقَاحي الثغور
إِنّ في الشّيب واعظاً لِلّذِي رَا ... نَ عَلَى قلبه ضَبَابُ الشُّرور
غَرَّنا الفاحِمُ البَهيمُ فَنمْنَا ... وصحوْنا عَلَىَ ضِياء القَتِير
بلِّغوا عَنِّيَ الغوانيَ: أَنيّ ... لستُ زِيراً لَهُنَّ أَوْ خِدْنَ زِير
لاَ سُعَادٌ أغدُو لها غُرّةَ الشهر ... وَلاَ هِنْد في سِرَار البدور
رَقأتْ عبْرتي، وعادْ رُقَادِي ... وَخبَتْ لوْعَتِي، وَقَرَّ زَفِيرِي

علي الجندي

البريد الأدبي

الأهل والجيل

كنت قلت وأنا أعرض كتاب (المنتخبات) لسعادة الأستاذ الكبير لطفي باشا السيد إن الأستاذ إسماعيل مظهر وضع كلمة (أهل) في مكان كلمة (جيل)، وهي خفية المراد، ثم قلت: (وللعبارة وجه، ولكنه لا يخرجه عن الإغراب في غير موجب للإغراب) والآن ظهر أن ما فاتني كان فات صاحب (لسان العرب) وصاحب (القاموس المحيط) فهو إذاً إغراب في إغراب

كلمة أهل بمعنى وردت في شعر النابغة الجعدي ثم هُجِرت فماتت منذ قرون حتى فاتت صاحب اللسان وصاحب القاموس، فأين نضع الأستاذ إسماعيل مظهر هذه المرة فقط إن لم نضعه بين المغربين؟

والجيل هو الصنف من الناس، هذا حق بشهادة المعاجم، وهو كذلك دائماً في كتابات ابن خلدون، كما نص بعض المستشرقين، وهو أستاذنا ديمومبين، حين كان يحاضرنا عنه في السوربون

ولكني أنظر فأرى الجيل بمعنى الطبقة المتعاصرة من الناس قد شاع في تعابير المصريين منذ أزمان حتى قيل في الأمثال: (من عاش في غير جيله عاش غريباً)، وحتى صح للأستاذ البشبيشي أن يصف الخلاف بينه وبين ابنه حسين بأنه خلاف بين (جيل وجيل) وحتى جاء لشوقي أن يصف سلامة حجازي بأنه (كان دنيا وكان فرحة جيل)

الجيل في تعابير أهل مصر هو الطبقة من أعمار الناس، وليس الأمة من الناس، فهل نشأ ذلك الفهم من العَدَم، وللمصريين عرق أصيل في اللغة العربية؟

المنطق يوجب أن يكون تصور المصريين لمعنى الجيل قام على أساس، وهذا ما يجب النص عليه في المعجم الوسيط الذي يضعه المجمع اللغوي، قبل النص على المفهوم البائد لكلمة أهل، لأن العجم المنتظر سيكون معجما حيًّا، لا معجما تاريخيًّا، أعني أنه سينص على مدلول الكلمة في استعمالها الحيّ، قبل أن ينص على مدلولهما المطمور في مهاوي التاريخ

وخلاصة القول أن كلمة جيل أدل على ما نريد من كلمة أهل، وليس من المنفعة ولا من

الفصاحة أن تقهر اللغة على تحمّل ما لا تطيق، فاللغة أداء وبيان (من أقرب طرق الكلام) كما قال عبد الحميد، وليس من الإفصاح أن تعبر بكلمة لم تجدها إلا في حوار النابغة الجعدي مع عمر بن الخطاب

وأنا بعد ذلك أذكر أني قرأت في مواطن كثيرة كلمة تنص على (تعاقب الأجيال) وهي تؤيد ما أقول، فإن لم يقتنع الأستاذ مظهر بهذه البينات، فسألقاه بشواهد جديدة ينحسم بها الجدل حول كلمة جيل

وكنت اعترضت على قول الأستاذ مظهر إنه عُنيَ بأن يخرج كتاب لطفي باشا مبرأً من الأوهام فقلت: إنه تعبير مريب، ثم لقيني أحد المتخرجين في كلية الآداب، فحدثني أن الأستاذ لم يُرد من (الأوهام) غير الأغلاط المطبعية، وأنه أظهر عجبه من أن يجهل زكي مبارك أن الأوهام هي الأغلاط!

أنا لا أجهل أن الأوهام هي الأغلاط، ولكني أُصر على القول بأن بين الكلمتين فرقاً

دقيقاً، وهو مع دقته صار من البديهيات - وإن كان الغلط والوهم قريبين جدّاً في المدلول، إذا راعينا مصطلحات القدماء - فإذا قال ناشر (المنتخبات): إنه عُنيَ بأن تخرج سليمة من الأغلاط؛ فهمنا أنه يريد الأغلاط المطبعية أما إذا قال إنه عُنيَ بأن تخرج (مبرَّأة) من (الأوهام) فلن نفهم إلا أنه جردها من أخطاء الفكر والإدراك، وهو المسئول عن هذا التعبير المريب

أما قول الأستاذ مظهر بأن لطفي باشا أجل من أن يقدم له كاتب من أبناء هذا الجيل، فقد قوبل بالدهشة والاستغرب، لأن لطفي باشا نفسه وضع مقدمة لكتاب أرسطاطاليس في الأخلاق، ولم يقل أحد بأن ذلك غض من منزلة أرسطاطاليس. . . والوثنية في نظر الفكر لا تقل بشاعة عن الوثنية في نظر الدين. . . وإلى الأستاذ تحيتي وثنائي

زكي مبارك

تصحيح خطأ مطبعي في القاموس وشرحه

لدى مراجعة (يَفتنُّون) في كتب اللغة ظهر لي غلطة مطبعية في القاموس وشرحه تاج العروس أحببت التنبيه عليها ليصلحها في الكتابين من ظهر له غلطها مثلي فأقول:

قال في القاموس في نسخة خطية منه في مادة (ف ن ن) (أفننَ: أخذ في فنون من القول) وشكلت أفنن بوزن أفعل، وفي طبعات متعددة منه قديمة وحديثة: (أفننَّ: أخذ في فنون من القول) بنونين الأولى مفتوحة، والثانية مشددة

وفي تاج العروس: (أفنن الرجل: أخذ في فنون من القول ويقال أفنن في حديثه وفي خطبته إذا جاء بالأفانين، وأفنن في خصومته إذا توسع وتصرف) مورداً جميع الألفاظ بالنون

فأما شكل النسخة الخطية (أفننَ) بوزن أفعل فظاهر الغلط لأنه لا يقال: (أفنن) بفك الإدغام، لأن هذا من باب الإدغام الواجب، وكان الصواب - لو صح ورود هذا الوزن - أن يقال (أفنّ)

وأما (أفْنَنَّ) بالنونات الثلاثة فلا توجد في كتب اللغة، والموجود فيها (افْتَنَّ) بالتاء والنون المشددة بوزن افْتَعلَ

ففي صحاح الجوهري ولسان العرب: أفتَنَّ الرجل في حديثه وفي خطبته إذا جاء بالأفانين، وهو مثل اشْتَقَّ. قال أبو ذؤيب: فافتَنَّ بعد تمام الورد ناجِيَة=مثل الهِراوَة ثِنياً بِكرُها أَبدُ

وذكر في اللسان تفسير هذا البيت، ثم قال بعده: افتَنّ أخذ في فنون من القول إلى أن قال: والأفانين الأساليب، وهي أجناس الكلام وطرقه

وفي أساس البلاغة: أخذ في أفانين الكلام، وافتن في الحديث وتفنّن فيه

وفي مختار الصحاح: الأفانين الأساليب، وهي أجناس الكلام وطرقه، ثم قال: وافتَنَّ الرجل في حديثه وفي خطبته بوزن اشتقَّ جاء بالأفانين

ولا ذكر لهذه الكلمة في جمهرة ابن دريد، وفائق الزمخشري، ومغرب المطرزي، ولا في نهاية ابن الأثير، والمصباح المنير، ولم يذكرها المرحوم أحمد تيمور باشا في كتابه تصحيح القاموس المحيط، ولا الشدقاق في كتابه الجاسوس على القاموس (دمشق)

محمد الكامل القصار

تأنيث الشمس وتذكير القمر

هذه الفكرة على قدمها حديثة عند الشرقيين، فقد كانوا قديماً يذكرون الشمس ويؤنثون القمر،

فقد كان الساميون في سوريا والعراق يعبدون الإله بعل إله الشمس ورب السماء، كما كان الإغريق يعبدون الإله فيباس أبولو إله الشمس، وكان المصريون في أون أو عين شمس أو هليوبولس يعبدون الإله رع إله الشمس، وكلمة هليوبوليس كلمة إغريقية معناها مدينة هليوس، وهي كلمة من مترادفات أسماء إله الشمس، وقد جاء في كتب التاريخ أن عبادة إله الشمس رع جاءت إلى مصر السفلى من آسيا، أما المصريون في مصر العليا، فكانوا يعبدون آمون ثم حاولوا توحيد الإلهين عندما اتحدت مصر العليا ومصر السفلى، وكل هذا يدل على أن الشرقيين كالإغريق كانوا يذكرون الشمس، وكان القدماء يجعلون الأرض زوجة للشمس ويعبدونها بأسماء

مختلفة مثل جيا أو يوناديا عند الإغريق والرومان كما كانوا يعبدونها أيضاً باسم ما أو مايا أو ماما، وأحياناً يعدون الأرض أم الآلهة، وكلمة أم في العربية مقاربة لكلمة ما التي كانت تطلق على ربة الأرض كما أن ربة القمر عند الإغريق كانت تسمى ديانا وهي مقاربة لكلمة الديّانة العربية مؤنثة الدّيّان أي المعبودة والمعبود، وكان الساميون في غرب آسيا يعبدون الإلهة أشتورث أو أرستارت ويسمونها الديانة، وينسبون إليها الصفات التي كان الإغريق ينسبونها لإلهة القمر ديانا، واتصال الإغريق بمدن سواحل آسيا الصغرى والشام أدى إلى تأثرهم بالثقافة الدينية الشرقية، كما أن الرومان في غربهم تأثروا بثقافة الإغريق الدينية حتى إنهم كانوا يوفقون بين كل إله من آلهتهم وكل إله من آلهة الإغريق، ثم جاءت أمم غرب أوربا وتأثرت بالثقافة الإغريقية الرومانية. ولا يزال الشعراء في غرب أوربا يطلقون على الشمس اسم إله الشمس عند الإغريق وهو فيباس أبولو كما أنهم يطلقون على القمر اسم ربة القمر ديانا. ويستنتج من كل ذلك أن الشمس كانت قديماً مذكرة عند الشرقيين والقمر مؤنثاً، وليس من البعيد أن يكون الأوربيون قد أخذوا هذه الفكرة عن الشرقيين.

عبد الله شاكر

الفياس

قرأت مقالكم المعجب (الأخلاق وهذه الحرب) في عدد الرسالة 388 فوقع من نفسي موقع غيره من مقالاتكم الافتتاحية الممتعة. وأود - لو يسمح لي الأستاذ - أن أبدي الملحوظة التالية:

لقد ورد في المقال المذكور العبارة التالية: (فإن نزوَّ النازية وفياش الفاشية لا يمكن أن يؤديا إلى عدل شامل وسلام دائم) وجاء في أسفل الصفحة: (الفياش: كثرة الوعيد في القتال من غير فعل). والفياش في اللغة، على ما أذكر، هو المفاخرة فقد ورد في قصيدة لأبي الطيب المتنبي في مدحه لأبي العشائر العدوى عند إيقاعه بأصحاب باقيس ومسيره في دمشق البيت التالي:

تزيل مخافة المصبور عنه ... وتلهي ذا الفياش عن الفياش

والضمير راجع إلى مواقف الممدوح في الحرب، والمعنى الذي يقصده الشاعر في هذا البيت دقيق معسر، وقد جاء في تفسيره: إذا سمع المصبور بمواقفه المذكورة شجعته وأزللت عنه خوف القتل لما يسمع من ذكر إقدامه واقتحامه للمهالك، وإذا سمع بها المفاخر ألهته عن مفاخرته، لأنه يتواضع لديها فلا يفتخر بنفسه

وأعتقد أن هذا التفسير هو أقرب ما يرمي إليه الشاعر وهو ما يقصده الشارح.

وللأستاذ الأكبر تحية المعجب المخلص

(بيرزيت - فلسطين)

سعيد العبسي

تلميذ يجرح أستاذه

ألقى الأستاذ السباعي بيومي بدار العلوم محاضرة عن (أسلوب المبرد في كامله) في مساء الثلاثاء السابع عشر من هذا الشهر

ولقد عقب على هذه المحاضرة أحد المستمعين بملاحظات تخالف ما ذهب إليه الأستاذ السباعي. ويبدو أن المعقب استقى آراءه مما كتب العلامة المرحوم سيد بن علي المرصفي فتملكت الأستاذ المحاضر عاصفة من الغضب الساخط لا على المعقب ولكن على المرصفي؛ فقد وصفه بكثير من الأخلاق الذميمة كالغل والحقد والحسد وسطحية البحث والتطاول الذميم؛ ثم تعداه إلى تجريح طوائف العلماء على اختلاف مهنهم، والحكم بأن

طبائع الحسد والحقد والغيرة لا تجد لها مراحاً خصيباً كالذي تجد من قلوب العلماء ولست أدري ما الدافع إلى كل هذا وكان يكفي الأستاذ أن يدفع الرأي بالرأي في هدوء لا أن يتعرض لمثل ذلك الرجل الجليل بمثل ما تعرض به له، حتى لقد حكم بأن أخلاقه ذهبت بفضله كما تذهب الريح العصوف بسحيق التراب

وإنه ليحزنني جد الحزن أن أرى مثل الأستاذ في علمه وفضله ومكانته يتناول السلف الصالح من الباحثين بمثل هذا الأسلوب العنيف من غير سبب ولا بينة، فإن في هذا نكراناً للجميل وجحوداً للفضل

محمد فهيم عبيد
امرؤ القيس الكلبي
كتب (سائل) فاضل في العدد 389 من الرسالة الغراء يسألني من هو امرؤ القيس الذي جاء في مقدمة كتابي (أغاريد زفاف) أنه أبو الرباب زوجة الحسين عليه السلام، فأجيب بأنه (امرؤ القيس بن عدي الكلبي، كان نصرانياً وأسلم على يد عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته، فولاه عمر على من أسلم بالشام من قضاعة، وخطب إليه عليّ عليه السلام ابنته الرباب على ابنه الحسين فزوجه إياها فولدت له عبد الله وسكينة عليهما السلام)
هذا، وكان يُسمى امرأ القيس صحابيون وشعراء غير الملك الشاعر الجاهلي صاحب (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل)
عبد المجيد مصطفى خليل
العدد 392 - بتاريخ: 06 - 01 - 1941
الرسالة في عامها التاسع
تدخل (الرسالة) في عامها التاسع والموكب البشري لا يزال منقطع السبيل، ترجف جموعه الجرارة على هوة من هُوى العدم لا يدرك نهايتها الطرف، ولا ينير غَيابتها الأمل، ولا يهتف في جنباتها الموحشة إلا زبانية الردى وأبالسة الشعر! وكان الظن بالعقل الذي عَّبد الجبال وذلل الرياح وسخر الأبحر أن يمهد للناس طريق الحياة فلا يضلوا هذا الضلال، ولا يهلكوا هذا الهُلك؛ ولكن الله الذي خلق العقل كان يعلم انه مهما تقدم وتعلم لابد مفتقر الى وحيه وهديه. وماذا يصنع العقل المحدود المدى والطاقة إذا شغبت به الأهواء وتمردت عليه الغرائز؟
لم يدخل العالم مع الزمن في مرحلة جديدة من عمره الطويل، ولكنما سار الزمان ووقف الإنسان؛ وقف أمام عقبة كأداء من الكفر بالدين كله وبالحق كله، تقاطرت على صخورها الصم دماؤه، وتناثرت على ثناياها الحداد أشلاؤه، والفلك السائر يرقب على مدار العام بني آدم وقد هاج بهم الضلال فتراشقوا بما في أيديهم وخزائنهم من طيبات الرزق وثمرات الحضارة وبُلَغ الحياة؛ ولا يعلم غير الله متى تجتاز الهوة الغامضة وتُذلل العقبة الكؤود، فإن منطق الناس لا تغنى أقيسته مادامت الأمور تجري على الهوى، وتقوم على الباطل، وتعتمد على القوة!
أجل تدخل (الرسالة) في عامها الصحفي التاسع، ولكنها في عمرها الطبيعي ظلت كما ظل العالم كله واقفة على حدود العام الماضي لاتجد قسطها من النمو والبدانة، لأن الحرب التي ضربت بكل شر وأضرت بكل شيء، كانت أقسى ما تكون على الصحافة: قطعت عنها الوارد من الورق حتى بلغ ثمنه أثنى عشر ضعفاً، فنقصت في الكيف والكم، بقدر ما زادت في النفقة والهم؛ وقطعت عليها السبيل إلى الأقطار الأخرى بصعوبة النقل وشدة المراقبة وعسر المعاملة، فتعذر وصولها إلى البلاد المحاربة، وقل انتشارها في الأقطار البعيدة؛ وشُغل الناس بأخبار الحرب وأفكارها وأوزارها وأطوارها عن النظر في الأدب اللباب والفن الخالص، فلم يقرءوا إلا ما يتصل من قريب أو بعيد بهذه القيامة القائمة. ولم يكن للرسالة مناص من أن تتأثر بما تأثرت به الصحف الكبرى في الأمم العظمى، فنقصت حجمها بعض النقص، واقتصدت في زينتها بعض الاقتصاد؛ ولكنها واءمت بين الأدب والواقع فجعلت من الأقلام المرهفة أسلحة مشروعة في هذه الحرب، تهاجم الطغيان، وتدافع الخور، وتؤيد الحق، وترسم الطريق، وتهتف بالبطولة، وتذود عن الخلق، وتمِّهد للسلام، وتبحث في المستقبل؛ حتى تهيأ لمجموعتها الثامنة من أدب الحرب في أبواب المقالة والشعر والقصص ما لم يتهيأ مثله للأدب العربي كله في سابق عصوره على أننا والحمد لله لا نخشى على (الرسالة) شر الحرب، فإن هذه الحرب الغشوم أبطلت كل قوة وعطلت كل عدة ما عدا قوة الإيمان وعدة الصبر. وفي إنجلترا الصابرة واليونان المؤمنة المثل والقدوة. ومادامت (الرسالة) مؤمنة بآرائها، مطمئنة إلى قرائها، فستلوذ بالصبر حتى تنسلى هذه الهموم وتنجل تلك الكرب. والشجرة كلما مكن الزمن لأصولها في بطن الأرض ضمنت لنفسها الغذاء والري، فهي في الظاهر تخضع لقوانين الطبيعة: تزوى في الصيف، وتعرى في الخريف، وتقشعر في الشتاء، ثم

تورق في الربيع؛ ولكنها في الباطن تزخر بالحياة المكنونة في غصونها القائمة وجذورها النائمة

لقد كانت لنا في مفتتح كل عام من أعوام الرسالة شكوى من ركود الأدب وكساد الصحافة وسطوة الأمية؛ ولكن هذه الشكوى أصبحت اليوم في جانب ما يشكو منه الناس ضرباً من الدلال والعبث. ليس في العالم شعب ولا مذهب ولا خُلق ولانظام ولاعمل إلا وهو الآن في موضع الشكوى من انقلاب الوضع فيه واستشراء الفساد به. وماشبوب هذه الحرب إلا نُفْضِة هذه الحمى الاجتماعية التي غيرت معاني الخير في فهم الإنسان وذوقه وعقله وضميره؛ فهو يلتمس السلامة والسلم من وراء هذه الحرب في دين يكمل نقصه في الإدراك، ويقيد طموحه للشهوة، وينظم علائقه بالجماعة، وينطوي على قوة ذاتية تضمن له البقاء والنماء والتجدد، فلا يهن على الأحداث ولا يبلى على الزمن. والرسالة تعرف هذا الدين بالعقل وتدعو إليه بالحكمة؛ نهى في جهادها الأدبي على ضوء هذه العقيدة منار للطريق القاصد ومنهج للإصلاح الحكيم إنا نعتقد مخلصين أن العروبة إذا اتحدت كانت بقوميتها أساساً لنهضة الشرق، وأن الشرق إذا نهض كان بطبيعته أضمن للسلام من الغرب، وأن الإسلام إذا تجدد كان بسياسته أصلح لإقرار العدل من كل نظام، وأن الأزهر إذا أُصلِحَ كان بثقافته أهدى إلى تربيتنا من أية جامعة

تلك عقيدتنا جعلناها دعوة الرسالة من يوم أصدرنا الرسالة. والحمد لله قد أبلغناها على الحق وأمضيناها على الصدق فلم نزَّين المحال ولم نموه الباطل. وسيرى قراء الرسالة أنها، من غير أن تقطع وعداً أو تجدد عهداً، تسير في سبيلها الواضحة بقدم ثابتة وخطى متزنة، فلا تعسف لتضل ولا تسرع لتكلَّ ولا تجازف لتنقطع. وإذا كان للرسالة ما تشكره وتُزهى به فتلك معونة الله التي وفَّتها تمليق الشهوات الحاكمة، وتحقيق الرغبات المريبة. ولَيزيدَنَّ الله من يشكره، ولينصرنَّ الله من ينصره، إن الله لقوي عزيز!

احمد حسن الزيات

هو عيد الميلاد ولكن أي ميلاد؟!

للدكتور زكي مبارك

كان من حظ المسيحية أن يُبعد مكانها في التاريخ، لتكثر فرص الشعر والخيال حول ميلاد المسيح، عليه السلام، حتى جاز لفريق من المؤرخين أن يرتابوا في شخصية المسيح، كما ارتابو في شخصية سقراط (؟!)

والارتياب في وجود تلك الشخصية النبوية لا يضر ذلك النبي في كثير أو قليل، ولكنه يؤدي إلى غاية لم يفطن لها أولئك المرتابون، وتلك الغاية هي التحقق من ظمأ الإنسانية إلى نور يُطلّ من علياء السماء. نور جميل جذاب يبدد ما في الضمائر من ظلمات الجحود

ولنفرض جدلًا أن الرأي ما رأى أولئك المؤرخون، وأن الإنسانية هي التي ابتدعت ذلك الميلاد، فكيف اختارت هذا الوقت من السنة وهو طليعة الشتاء؟ إن الذي اشتغل بالفلاحة يدرك ان الأرض في هذا الوقت تعتلج بقوة وعنف، وتتهيأ لثمرات العام المقبل بلذه وشوق، وهي في (الظاهر) غافية، ولكنها فيالباطن جذوة من اليقظة العارمة والإحساس الفوار في هذا الوقت تنظر الأرض إلى البذور وهي تقول: هل من مزيد؟ في هذا الوقت تستيقظ الأشجار التي جردها الخريف من الأوراق، ولو شرحت تلك الأشجار لظهرت عناصر (البزور) وهي الأثداء التي يرضع من رحيقها الورق الجديد في هذا الوقت تلقى بذرة فتنجح وتلقى بذرة فتخيب، لأن الأرض في هذا الوقت تحيا حياة عصبية، والحياة العصبية لاتعرف التدليل، فهي لاتقبل من البذور إلا ما يقوي على دفع عوادي البرد والجليد، ولن يكون الأمر كذلك بعد ثلاثة أسابيع من تاريخ الميلاد، فحينئذ ترق الأرض وتلطف فتحضن البذور الضعيفة بترفق واستبقاء فهل فهمنا الآن كيف اختارت الإنسانية هذا الوقت لتاريخ الميلاد، على فرض أنه تاريخ مصنوع، وعلى فرض أن البحث من حيث هو بحث يسمح بالنظر في الفروض، بدون اعتداء على مقام المسيح، عليه وعلى نبينا أفضل الصلوات؟! أما بعد فقد كان لي مع هذا التاريخ تواريخ كنت أحمل باقات الأزهار وطرائف الهدايا إلى مآلف القلوب والأرواح يوم كان لي قلب وروح، قبل أن تدور الدنيا من حولي بإفكها المرجف وبغيها الأثيم، وقبل أن أعرف أن

شجرة الحب كشجرة الميلاد فيها أوراق صناعية لا تحس ما يحيط بها من أضواء وألوان، ولا تقدر على نقل
القلب من مكان إلى مكان وما أقسى الصحوة من غفوة العقل! وماأشقى العقلاء! لو كانت أرادت ما أريد فأطالت في غوايتي لعرفتها أكثر مما عرفت، لأن المحب المفتون يتغلغل إلى السرائر، وإن اتهم بالغفلة والجمق، ولأن العاشق الجاهل قد يرى المحاسن قبل أن يرى العيوب، والتثقيف الصحيح هو الذي يروضك على النظر في المحاسن قبل النظر في العيوب، ولو قويت جوارحنا حق القوة لأنسنا بجميع الوجوه وجميع الأشياء، ولكننا مع الأسف نتلقى دروس الحياة عن المعلولين والضعفاء، والتلميذ صورة الأستاذ في أكثر الأحايين كانت لي غاية من الهتاف بالحب، والهيام بالجمال، فما هي تلك الغاية؟ كنت أرجو الطب للنفوس العليلة التي لا تستريح إلا إلى شكوى الزمان كنت أسمو إلى خلق البشاشة والأريحية في صدور هذا الجيل كنت أحارب النزعة الأثيمة التي تقتل الأرواح والقلوب باسم الوقار والعقل هل سمعتم بقصة الشيخ خليل؟ هو رجل من علماء المالكية كان يفتخر بأنه لم يخرج من الأزهر مرة واحدة ليرى النيل، ولهذا الشيخ أحفاد وأسباط في العقلية، وأولئك الأحفاد والأسباط هم السوس الذي ينهش عظام الأخلاق - إن صحت هذه العبارة المجازية - فأخطر الآفات أن تصدر النصيحة عن رجل خمد فعقل، لأن الناس يسمونه بالعقل ولا يسمونه بالخمود، وكذلك يتلقون عنه درس الموت وهم يتوهمون أنه يدعوهم إلى مزاحمة الأحياء إلى متى الصبر على هذا الفهم السقيم لمعنى الأخلاق؟ ومتى ندرك أن الخلق من صور الحركة، وليس من صور الركود؟ الخلق جارحة من الجوارح، وما سميت الجوارح جوارح إلا لقدرتها على السيطرة والامتلاك، فالعين التي لا تجرح ليست عينا طبيعية، وإنما هي عين صناعية، إلى آخر القول في وظائف الأعضاء، أو منافع الأعضاء، كما كان يعبر الأقدمون ولكن من الذي يسمح بعد هذا الكلام دعوة إلى الخلق الصحيح؟ وكيف يعيش المتوقرون والمتزمتون إذا استمع الناس لمن يقول بأن الابتسام للحياة من شواهدالعافية الأخلاقية؟ إن الشرق مبتلى بالانحراف في فهم الأخلاق، فهي عنده سلب لا إيجاب، وهو يفكر فيما يترك قبل أن يفكر فيما يصنع، والنواهي والزواجر هي عنده الهدف الأول حين يتسامى إلى الاتسام بكرائم الحلال فما أصل هذا الإنحراف في فهم الأخلاق؟ لعل هذا الإنحراف يرجع إلى المعلمين، وكان التعليم مهنة مقصورة على الرهبان وأمثال الرهبان. فالخلق في أذهانهم هو انحسار واحتجاز وانقباض،

ومن هنا يؤخذ المعلم بقيود لا يؤخذ بها غيره من طبقات المجتمع، لأن الرهبانية مفروضة عليه وأن لم يخطر في باله أنه مشدود إلى حظيرة الرهبانية. هو يحمل أعباء ميراث ثقيل من التبعات والتكاليف، ميراث يرجع إلى العهد السحيق يوم كان الناس يتوهمون أن كلمة الخير لاتجيء إلا من مصدر مجهول، ويوم كانسدنة الهياكل ينتفعون بهذه الغفلة العقلية فيتحدثون من وراء حجاب باسم السماء، وما تكلمت السماء، وإنما تكلم ناس مبرقعون خلقوا من الوحل لا من الطين! وبفضل تلك العقلية أنكر قوم أن تكون النبوة من حظ رجل يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، وهي عقلية باقية إلى اليوم، وإن زعمناس أنهم سلموا من دائها الوبيل لقد كثر المؤلفون في الأخلاق، فماذا صنعوا؟ هل غيروا ما بنفس الأمة من الفهم المنحرف لمعنى الحياة؟ هل راضوها على التخلق بأخلاق العصر، ولكل عصر أخلاق؟ هل استجابوا لدعوة العزةالروحية والعقلية فخلقوا الشوق إلى مسايرة ما في الآفاق العالمية من الصيال بين الأرواح، والصراع بين العقول؟ علم الأخلاق يدرس منذ أعوام طوال في معاهدنا العالية، فأين محصول تلك الدروس؟ كل ما وقع هو التلخيص لمشكلات أحسها بعض الأخلاقيين في الغرب، والأخلاق إحساس لا تلخيص، وفي الشرق مشكلات غير تلك المشكلات، لأن له أمراضا غير تلك الأمراض؛ ومن أمراض الشرق أن تجوز فيه الأستاذية الأخلاقية لناس لم يتمرسوا بمعضلات الوجود تلك خواطر ساقها ما وقعت فيه ليلة عيد الميلاد، فقد أخلفت موعدا لايخلفه الرجل إلا وهو مكروب، وهو موعد يذكر بإخوة له من قبل، يوم كنت مشبوب الصبوة في منادح باريس، عليها أطيب التحية وأجزل الثناء! وبماذا اعتذرت؟ قلت إني أحبر مقالا لإحدى المجلات، وهل يصعب الاختراع على من يعايش أبناء هذا الزمان؟! ومضيت وحدي أجوب الظلمات بعد إخلاف ذلك الميعاد، فراعني أن

أجد في قلبي فراغا عميقا مخيفا يذكر بالفراغ المنصوص عليه في بعض الأحاديث، ففي الآثار أن الجاني قد يهوي في قاع جهنم سبعين خريفا، وكان قلبي كذلك، فلو هويت في أعماقه سبعين سنة لما وصلت إلى قرار مكين. وكيف وقد أعفيته من ثورة الوجد في ليلة عيد الميلاد، فلم يمس إلا وهو فضاء في فضاء، وتلك حال القلبالخالي من الأهل، والوجد أهل، ولكن أكثر الناس لايفقهون! ورجعت إلى داري بعد لحظات، وكان في نيتي أن أطوف بأرجاء القاهرة إلى نصف الليل، رجعت سليم القلب من الأسواء ولا يسلم

القلب من الأسواء إلا وهو عليل، فالقلب كالطفل، لا يقبل على اللعب إلا في أوقات العافية، وإن جهل ذلك علماء الأخلاق وأردت أن أطب لقلبي فذكرته بما مر في العام الماضي من مكاره وعقابيل، ودعوته إلى النظر في قصة الصديق الذي كنت أشرب على ذكراه أكواب الدمع، وهو اليوم لا يذكرني حين يعاقر أكواب الصفاء. وذكرت قلبي بإحساني إليه حين جعلت له ماضيا في الصداقة والحب، فذلك الماضي وهو الأحجار التي بنينا بها وجودنا الصحيح، وجود القلب الخافق والروح العطوف، وهو الشاهد على أن حياتنا لم تخل من نوازع وأهواء، وأن لنا تاريخا في معاقرة الحقائق ومقارعة الأباطيل فهل وقع هذا المنطق من قلبي موقع القبول؟ إنه لم ينكر أنس الرجل بماضيه في الصداقة والحب، وإن زلزلت الأرض زلزالها فغيرت جميع المعالم من ذلك التاريخ ولكنه أنكر الاكتفاء بثروة الماضي، وإن امتلأبنميرِ الذكريات العذاب، فما كانت الذكريات إلا ومضة البرق لعين الساري الحيران، وهي ومضة تزيغ عينيه ولا تهديه، وهي ايضا تزيد حقده على ظلم الوجود وعمدت إلى القلم أثير به معركة أدبية، فقد كنت أعرف أن قلبي يكتحل بغبار المعارك التي يثيرها قلمي، فما نفع ذلك بشيء، وصاح القلب: هذه ليلة الميلاد، فأين الميلاد؛ أين الميلاد؟ وكيف؟ هل يجب أن أولد في هذه الليلة كما ولد المسيح؟ وهل أولد في كل سنة مرة، وما ولد المسيح إلا مرة؟! فأجاب القلب في حزم عنيف: يجب أن تولد من جديد في كل لحظة، لأن المقام على حال واحد يفسد مياه الأنهار، فكيف تراه يصنع بأفكار الرجال! _ولكن ليلة الميلاد قد ضاعت علي وعليك، ياقلبي! _إن ضاعت ليلة الميلاد فقد بقي يوم الميلاد وفي الصباح هتف الهاتف_وهو التليفون كما كان يسميه أهل لبنان_والهاتف روح لطيفة كانت بيني وبينها أشياء، وقد قدمت من بلد بعيد لتراني يوم الميلاد، فهتفت: ياقلبي يومي ويومك عيد!! وخرجنا معا، أنا وقلب، لاستقبال تلك الروح، وقد ولد الهوى من جديد، الهوى الذي ظلمناه باسم الوقار والعقل، وطال الحديث وطاب حول ما كنا عليه، وما صرنا إليه، ومن شرب من عيون تلك الظبية ما شربت لا يقول إنه رآها في يوم الميلاد، وإنما يقول إنه رآها في أبد الخلود! وعادت تلك الظبية إلى ضلالها القديم فأمرتني أن أكتب ما يجيش في صدري وأنا في حضرتها السامية، وهو امتحان أؤديه كلما التقينا، وحياتي كلها امتحانات! فامتشقت القلم وكتبت: باسم الله الذي أقسم بالقلم وما يسطرون أسجل هذه الكلمات: عنيت الحكومة المصرية كما عنيت سائر الحكومات بتدبيرِ معاشات الموظفين، بحيث يجد الموظف ما يقتات به بعد بلوغ الستين، ولكن الحكومة نسيت أو تناست أن في الأمة رجالا لهم خدمات صوادق وليسواموظفين فليس لهم معاش، وهم الرجال الذين انقطعوا للصحافة والتأليف؛ فالأستاذ فلان خدم الصحافة نحو عشرين سنة ثم هده التعب، فهو اليوم يعاني البطالة والمرض بلا عائل ولا معين. والأستاذ فلان أخرج طائفة من المؤلفات الجياد، وكان يعيش عيش الفقراء من تلك المؤلفات، وهو اليوم لا يقدر على التأليف، فهو في فقر مدقع ولا يسأل عنه أحد من أصحابه القدماء. وفلان كانت له سابقة في الابتكاراتِ الأدبية، وهو اليوم معوز لا يجد القوت الطفيف. وفلان قضى شبابه وكهولته في التدريس بالمدارس الحرة ثم قصمه المرض فخرج بلا معاش وله أطفال يصرخون من الجوع في كل صباح وفي كل مساء وعند هذه الكلمة شرقت بدموعي، وكاد صوتي يرتفع بالنحيب، فصاحت الظبية:_تبكي وأنا معك؟ هل تقص ما كان بيني وبينك؟ ويلي عليك وويلي منك!! _نعم، يا شقية، هي قصة حبي، فدعيني أدون كل شيء! ثم مضيت فكتبت والدولة التي تنفق ما تنفق على مختلف الشؤون لا تذكر أن في مصر كتابا وشعراء وباحثين أعجزهم المرض عن السعي في سبيل القوت، ولهؤلاء آثار ظاهرة أو خفية في نهضة الأمة وقد يكون لهم تلاميذ_ولو بالفكر_من بين كبار الوزراء فما الذي يمنع من أن تفكرالدولة في

حماية هؤلاء من قسوة الاحتياج ثم سكت، فقالت الروح: هل وصلت في مكايدتي إلى ما تريد؟ فقلت: ستعلمين بعد لحظات! ثم كتبت: قد يقال إن الدولة لا تستطيع معاونة أهل الأدب بصفة رسمية، لأن الأدب ليس له رسوم ولا حدود، وهو مباح الحرمات يدعيه من يشاء! وأجيب بأن الدولة تستطيع أن تجعل الفصل في هذه القضية من اختصاص مدير الجامعة أو وزير المعارف ومن المفهوم أن هاتين الجهتين لهما دراية صحيحة بأقدار الأدباء والباحثين، وأنا أرضى بأن ترصد الدولة مئتي جنيه فقط في كل شهر لعشرين رجلا من هؤلاء، فإن استجابت الدولة لدعائي فقد ترفع عن كاهلي عبئا ثقيلا جدا، هو عبء التفكير في أديب كانت له جولات موفقة في ميدان البيان، وإن كان من ألد خصومي وغلبني الحزن فبكيت، فقالت الروح: يظهر أنني دللتك أكثر مما يجب، فعدت أسرع من الأطفال إلى البكاء! فاستمهلتها لحظة وكتبت: والدولة مع ذلك. . . ثم

فكرت قليلا وكتبت. والدولة التي تترك بعض الأدباء يموتون من الجوع هي الدولة التي تمن علينا بأنها أنشأت وزارة للشؤون الاجتماعية! ثم؟؟ ثم أحسست يدا تصدني عما أكتب بقسوة وعنف، فعرفت، أني في حضرة تلك الروح، وأن المقام لا يسمح بمثل هذا الكلام الحزين_ماذا قلت في؟ _قلت إنك غبية وحمقاء! _أنت وحدك الغبي، وأنت وحدك الأحمق! _هذه كلمة حق، لأني قضيت عشرين سنة في خدمة أمة لا تعرف أن القلم له حقوقه_وما شأن القلم فيما بيني وبينك؟ _القلم هو الذي يجرني أحيانا إلى مجاورة الحمقى لأدرس الغرائز والطباع ليكن ما تريد، أيتها الروح، فإشارتك أمربطاع أما بعد، وسيطول شقائي بأما بعد! أما بعد فقد حدثني الشاعر حافظ ابراهيم مرات كثيرة أنه كان يتمنى الاتصال بقصر جلالة الملك ليكون سفيرا بين القصر الرفيع والأدب الرفيع وقد مات حافظ قبل أن يظفر بتحقيق تلك الغاية، ولم نسمع أن رجلا فكر فيما فكر فيه حافظ، ولم يصل إلينا من قرب أو من بعد أن ناسا يسرهم أن يكون للأدب حظ من الرعاية والتشريف بقصر الملك، مع أننا في عصر فاروق بن فؤاد بن اسماعيل لقد شقى قلمي في الدعوة إلى أن يكون للأدباء مكان في الحياة الرسمية، لأنهم عنوان الحياة وزينة الوجود، ولأن آثارهم هي الباقيات لصالحات فوق جبين التاريخ. ثم انتهى الحلم، حلم اليقظة في يوم الميلاد، ورجعت تلك الروح إلى بلدها البعيد، وبقيت حيث كنت أعاني بلاء الهجر وعناء الصدور أيها البلد الذي لا أسميه تخوفا من الرقباء! فيك أيها البلد الجميل روح لطيفة يصلني برها من وقت إلى وقت، فيك روح لا تحتفل بعيد الهجرة ولا عيد الميلاد، ولكنها تذكرني في عيد الهجرة وعيد الميلاد، لأنها تشعر باحتياجي إلى البر في مواسم الأرواح والقلوب أيتها الروح، أنا مشتاق إلى مصدر الوحي، فمتى تعودين؟ أنا في دنياي غريب، أيتها الروح، وأنت البلسم الشافي لوحشة الغريب هو عيد الميلاد، ولكن أي ميلاد؟ هو ميلاد الحب الصادق، فتلك أول مرة مسحت فيها دموعي بأناملك اللطاف، يا حجتي الباقية على أن الهوى إله معبود

زكي مبارك

2 - أومن بالانسان!

للأستاذ عبد المنعم خلاف

الطبيعة تنتظر - عالم جديد من الفكر والحديد_حيوانات ووحوش حديثة_قدرة الفكر_الثقة بالانسان_كنوز مدخرة_حياة مريضة كل شيء في الطبيعة يبدو عليه أنه ينتظر غاية الحياة الإنسانية. . . ويبدوعلى الإنسان كذلك أنه ينتظر غاية مجهولة في حياته على الارض. . . كل شيء ينتظر بلوغ الإنسان إلى غايته، كما ينتظر كبار البيت بلوغ طفل عزيز. . . وكل شيء في البيت مسخر للطفل: يضحك له إذا ضحك، ويألم إذا تألم، وتعرض أمامه دواب البيت وحيوانه ودواجنه ولعبه وهكذا الطبيعة أراها تنتظر صابرة غير متململة أن يسير هذا الطفل الإلهي ويهتدي إلى الطريق المقصودة المرصودة. . . وهو لا يزال يتعثر ويذهب ذات اليمين وذات الشمال ويرتد وينتكس ويعترك ويحترب ويخلد إلى تراب الطريق يعبثفيه في ذهول وغفلة، لا يعرف كيف يمد بصره إلى حدود الأفق البعيد الذي يناديه: أنظر إلي دائما، واضرب بيديك ورجليك في العقبات والسدود حتى تصل وكان لعبثه عذر فيما مضى أيام كان يدور على نفسه وسط المبهمات والألغاز، وأيام كانت طريق حياته بهماء معتمة تلفها جهالات وتحيط بها أهوال. . . كل ما فيها غامض مغلق، سواء أكان جامدا أم صائتا أم ناطقا أم ساكتا. . .

فهو لا يرحم سئلا ولا يجيبه. . . كهوف وأغوار ورياح مجهولة المهاب، وأمطار غير مدفوعة بتدبير، وصرخات وحش وطير وبهائم، ونجوم تطلع وتغور، وشمس تشرق وتغرب، وجبال واقفة لا تريم ولا تزول، ومالا عدد له من الأهوال والأحوال. ولكنه الآن راكب الريح والماء والأثير وطاوي الأرض في خطفات، ورائد السماء بالمقربات، وكاشف الجن المستور بالمكبرات، وقايس أبعاد النجوم وأضواءها بدقيق المقايسات، وصانع الحيوان والوحوش الحديدية من السيارات والدبابات والمدافع والطائرات والباخرات والغائصات، فلا يليق به أن يصر على العبث والزحام على التراب بعد رأى الكنوز في كل أفق تتفتح لعينيه وكان قدرا مقدورا أن تبقى العناصر والحيوانات خادمة له حتى يبلغ أن يستغنى عنها بما يصنعه تقليدا لها ومحاكاة لنماذجها. . . فحين عجز الحصان وضاقت طاقته عن إشباع شهوة السرعة عنده ركب آلات سرعتها كذا ألف من الأحصنة. . . وحين عجز الزيت والشمع عن إشباع شهوته للضوء صنع مصباح الكهرباء فأضاء له بقوة كذا ألفا من الشموع. . . وحين هدد بفناء أقواته ولباسه ابتدأ يركب أقواته من العناصر التي يتركب منها النبات واللحم. . . وصار يصنع الصوف والحرير من اللبن والخشب. . . وصار يأخذ الزبد والدهن من ال. . . بعد أن يحلل ويعزل ويطهر بالترشيح والتبخير والتكثيف كما ترفع الشمس والهواء الغازات والأمواه المقطرة من الأبوال والأقذار وتعيدها إلى الأرض صالحة في دوراتها الأبدية. . . وقد رصد لكل قوة في الطبيعة مقياسا يقيس قوتها ويبين اتجاهها حتى يحترس منها ويتقي وينتفع. . . فللأمطار مقياس، وللضغط الجوي مقياس، ولاتجاه الرياح مقياس، وللزمان مقياس، وللمكان مقياس، وللحرارة والرطوبة وغيرهما مقاييس وأظنه بهذا قد وضع عينه وفكره على حركة كل شيء واتجاه كل شيء في المادة. وذلك كله بمثابة خيوط الشبكة الحديدية التي ابتدأ يطرحها على قوى الطبيعة التي تنفعه أو تضره في مرافق حياته. . . وهذه الأرصاد التي أرصدها لابد ستنتج له عالما فكريا جديدا يسلم روحه إلى عالم خلقي جديد وأعتقد أن هذه الحرب ابتداء دورة زمنية بالإنسان وبعوالم فكره وروحه وجسمه. فليرصد الراصدون ذلك في يقظة وانتباه أجل، إنه عالم جديد من الفكر والحديد. . . الفكر المطلق البارد القانص لأسرار المادة والقوة. . . والحديد الطائع البليد القاسيالمتمم لإرادات الرجال. . . الذي وجد فيه القلب الإنساني أعظم معبر عن بأسه وتصميمه في اختراق السدود فصهره وشكله بنار عزمه قبل أن يصهره بنار كيره ويشكله بمطرقته ولقد ضمرت أظفار الإنسان منذ أن اعتمد عليه. وكان كشفه مبدأ انقلاب في حياته، والآن يبتدىء به انقلابا أعظم بعد أن سلط عليه خياله وعلمه وصار يطير به ويزحف ويدفع ويجر وهل تظنون أن هذه الأهوال التي يشهدها الإنسان الآن لا تترك في نفسيته آثارها المحتومة فتخلقه خلقا آخر؟ أتظنون أن قلبه وفكره لا تغيرهما رؤية هذه الطكرق الحديثة في البناء والإفناء والهدم والسرعة والانقضاض والحشد والتعبئة ومعاشرة هذه الوحوش والحيوانات الحديدية؟ إن من شهد تغير العالم بعد الحرب العظمى التي أظهرت قوة الآلة واختفى وراءها الإنسان يوقن أنه ستختفي بعد هذه الحرب أشياء وتظهر أخرى. . . وأخشى ألا يقام للحياة الفردية بعد هذه الحرب وزن بعد أن رأى الفكر أن ملايين من الجماجم والقلوب البشرية تسحق وتحرق بمصهور النار. . . وملايين من المعابد والمعاهد والمنازل المقدسة العامرة بالتحف ومخلفات العلم والفن والجمال تنسف وتذرى في الريح هشيما وهباء ودخانا لقد احترق الإنسان الأوربي مع جميع ما جمعه من الذهب وأقامه من البيوت والمحاريب

والتماثيل. . . ولقد اختفت روح الحياة الرفيقة الوديعة الماثلة في اللحم والدم والأعصاب الإحساس وابتدأ عالم جديد من فكر مجرد غير مصحوب بإحساس وقد لبس الفكر أجساما من المادة العمياء، وكأنه قد انفصل عن الأجسام الإنسانية، واختبأ واستسر في السيارة المصفحة والدبابة والطائرة. وصار يدب ويطير بهذه الأجسام الحديدية كأنه هو والحديد الذي يختفي فيه جسم واحد. فهو للآله كالروح والعقل في الجسم الحي. وقد صنع للآلات أحشاء فيها حرارة ونبض، ولكن ينقصها السر الإلهي فيالأميبة ذات الخلية الواحدة، ويخيل إلى أن الإنسان هو ذلك الإلهي لتلك الحيوانات الحديدية وحين قصرت دواب الأرض التي سخرها في خدمته عن سرعة عقله صار يبحث عن القوى المجردة كالكهرباء ويلبسها أجساما من الجماد، ويسيرها بها بطاقة

عظيمة مصحوبة بفكره وتسديده. فترى السيارة الآن تحيد عن العقبات بأسرع مما يحيد الحصان عنها. فهي أطوع للانسان من الحصان، لأنها ترى بعينه وتتحرك بسرعة فكره والفكر المجرد طليق في غير حدود. والوجدان والإحساس مقيدان في حدود الأذواق والمشاعر. فإذا لم يصحب الفكر بالوجدان والإحساس اختراق الإنسان به الآفاق في سرعة فائقة كأنه شعاع ثاقب، بل أسرع من الشعاع. بل ليس شيء أسرع من الفكر ولقد يخيل لفكر الإنسان أنه يستطيع أن يضع يده في النار فلا تحترق، ويمشي برجليه على الماء فلا يغرق، ويسلم جسمه للريح فيطير، وينظر بعينه وراء السدود فيرى ما وراء الآفاق. فالفكر لا يرى كل أولئك مستحيلا. . . ولكن الوجدان والإحساس يقيدانه بالحدود الموضوعة للمادة، ويهددان الجسم بالألم إذا لم يعترف بهذه الحدود والقوانين وقد خيل الفكر لبعض السفسطائيين اليونانيين قديما أن كثافة الأجسام وهم من الأوهام، وأقام الدليل النظري لمعارضيه على ذلك، فتحدوه أن يخترق بجسمه الجدار الذي أمامه، فقام واندفع إليه بقوة، وكانت النتيجة المحتومة: تحطم جسده وفدخ رأسه. . . إن فكر السفسطائي لم يخطيء في توهمه استطاعة اختراق لبجدار، ولكنه أخطأ حساب الوجدان والإحساس. والحقيقة أن الفكر لا حدود له ما دام يسير وراء القوانين الطبيعية. . . فلقد استطاع أن يخترق الجدران والجبال بالصوت والصورة والحركة حين خضع للنواميس الطبيعية فخضعت هي له كذلك. ولست أدري أقريب أم بعيد ذلك اليوم الذي يستطيع الإنسان فيه أن يخترق الأجسام بالأجسام مع وجود الالتئام وعدم الصدام، وأن ينقل الأجسام من مكان إلى مكان كما ينقل الصور والحركات والأصوات، وبالسرعة ذاتها التي يجري بها هذه المعجزات. . . إن الثقة بالعقل الإنساني بعد أن فعل ما فعل في تغيير الأرض ينبغي أن تكون من البدائه للانتفاع بها في بناء الحياة الجديدة. . . وكما آمنا بعلم الطب لتنظيم حياة الأجسام ينبغي أن نؤمن بعلم النفس لتنظيم حياة الأرواح وقد كان الإنسان في الحقب السابقة منزوع الثقة بنفسه لكثرة ضغط عوامل الطبيعة عليه وكثرة العقبات التي تعترض سبله وتجعله يشعر بحقارته وضعفه وسط عظمة الأسباب والقوى الطبيعية. . . ولكنه بعد أن تمكن من صنع كل شيء لنفسه والانتفاع بأكثر القوى، والمناعة ضد الأوباء والطوفان والقحط والصواعق يجب أن يكون إيمانه بعقله إيمانا أصيلا ليصنع به مستقبله صنعا يريحه ويرقيه ويجعله يتفرغ للفكر فيمن خلقه قادرا هكذا. . . إن الإنسان يأتي بأعمال عظيمة في صميم غايات الحياة وهو عنها غافل لا يدرك ماذا تكون نتائج عمله في مستقبله ومركزه. وإن مصانعفورد مثلا تخرج في كل ثانية واحدة سيارة كاملة! هذا جبروت وملكوت إنساني واسع يتفتح أمام عيون الراصدين لحركات الابن البكر للأرض! فهذه السيارات حيوانات حديدية تولد كاملة من أصلاب المصانع وأرحامها ولا تحبو ولا تدرج ببطء الطفولة وإنما تسير بسرعة الفكر الإنساني كما قدمنا في هذا المقال. . . وهي وأشباهها مما نتج من اللقاح بين الفكر والحديد قد ملأت الأرض وأدللت دولة الخيل والبغال والإبل، وصيرتها أشياء أثرية يوشك الناس أن يحتفظوا بها في المتاحف أو حدائق الحيوان. . . في كل ذرة رمل، وقطرة ماء، ولمعة شعاع، وخفقة نسيم. . . كنز مدخر لمستقبل الإنسان على الأرض. . . فليعرف ذلك الذين يشكون الفقر وشح المواد الطبيعية. أولئك الذين يثيرون الحروب من أجل الطمع والاغتصابأن تكون أمة هي أربى من أمة وليسلموا قياد الإنسانية لعلماء الطبيعة الذين يضربون معاولهم على كل منجم في الأرض والماء والهواء والشعاع ولنأخذ الحياة عريضة؛ بالانتفاع بكل ما في الأرض، وباستعمال جميع قوي الإنسان والجماد والحيوان، وباستخراج كل كامن من النبات والركاز، وباستنزال كل معلق من الشعاع والماء والهواء وبتوليد كل ما يمكن أن يولد من العناصر والقوى، وبوضع كل شيء أمام كل شيء لينشأ من الأوضاع المختلفة التي لا عدد لها حيوات جديدة معقدة لا عدد لها، يترقى بها الفكر والحياة ويغرز فيضهما وترحب بها آفاق النفس، ويظهر لنا بعدها أن الكون مليء بالأسرار وكلمات الله التي لا تنفد.

عبد المنعم خلاف

الأزهر وبعثاته العلمية

للدكتور محمد البهي

حقا - كما يقول صديقي الفاضل الأستاذ محمود الشرقاوي في عدد الرسالة الأخيرة (

391) تحت عنوان (الأزهر وبعثاته العلمية) _أن الأستاذ الأكبر المراغي كان جريئا يوم أرسل بعثةفؤاد الأول إلى أوربا عام 1935، وأن سعادة عبد السلام الشاذلي باشا كان جريئا ايضا أو أشد جرأة يوم أرسل من قبل بعثة الإمام محمد عبده سنة 1931 لأنه أرسلها في وقت كان الأزهر ممثلا في شخص شيخه السابق ضد فكرة إرسال البعوث من الأزهر إلى أوربا. ولولا لباقة الشاذلي باشا في أن أتاح لعضوي بعثة الأمام محمد عبده التشرف بمقابلة جلالة الملك الراحل، الملك فؤاد، والاستماع إلى رغباته السامية فيما يجب أن يكون عليه الأزهر لخلد ذكرى الإمام بشيء آخر غير بعثة أزهرية توفد إلى جامعات أوربا لتربط ثقافة الشرق الماضي بثقافة العصر الحاضر. وكان الشاذلي باشا جريئا، وكان الأستاذ الأكبر المراغي كذلك في إرسال هذه البعوث الأزهرية إلى أوربا، لأن ذلك منهما اعتراف بحاجة الأزهر إلى توجيه في البحث والتفكير، وفي الوقت نفسه اعتراف بجمود الثقافة الأزهرية ووقوفها عند حد معين لا تتجاوزه وهو ما وصل إليه المسلمون إلى القرن الخامس عشر تقريبا. والاعتراف بهاتين الحقيقتين في وقت يسيطر فيه على العقلية الأزهرية مبدألم يترك الأول للآخر شيئا، وتسيطر فيه كذلك فكرالكتاب في الدرس والبحث لا شك أنه يحتاج إلى جرأة وإلى جرأة كبيرة. وكان حقا أيضا أن يسأل صديقي الفاضل الشرقاوي عن إنتاجنا العلمي وأن يحاول شرحعدم إنتاجنا_إن وصل إلى ذلك_بما ذكره: إلى نرى أثركم وإنتاجنا وتجديدكم وما جعلتم في الأزهر من بيئة علمية جديدة وثقافة جديدة وحرية جديدة في البحث. سنقول إنكم لم تفيدوا شيئا مما تعلمتم ولا تميز لكم على من لم يبعث ولم يدرس في جامعات أوربا أو أنكم لا تجدون من أنفسكم شجاعة ولا قوة لكي تكونوا منتجين ولا مفيدينوهذا الذي يسأل عنه الصديق عنه كثير من إخواني ومعارفي في غير البيئات العلمية، في وزارة الخارجية؛ ولكنهم فقط لم يواجهوني بما حاول أن يجيب به الأستاذ الشرقاوي. وبالرغم من ذلك كنت أشعر أنه يتردد في نفوسهم صحيح أننا لم ننتج بعد إنتاجا جامعيا يتمثل في تأليف يقوم البحث فيه على الأستقلال في التفكير وعلى إبداء رأى خاص في مشكلة من مشاكل العلم الذي تخصصنا فيه، حتى يدمج هذا البحث ضمن البحوث العلمية فيكمل ناحية نقص فيهاوذلك طبعا غير التأليف المدرسي، فقد أخرجت من هذا النوع ثلاث مذكرات: في الفلسفة الشرقية، وفي الفلسفة الإسلامية، وثالثة في علم النفس العام (بالاشتراك مع الأستاذ عبد العزيز عبد المجيد في هذه الأخيرة) _. ولكن ليس عدم انتاجنا الجامعي راجعا ـ كما يقول الأستاذ الشرقاو ـ إلى أننا لم نفد شيئا مما تعلمنا في أوروبا، ولا إلى اننا لم نجد من أنفسنا شجاعة ولا قوة لكي نكون منتجين ولا مفيدين، بل يرجع إلى حالة أخرى خارجة عن معرفتنا وشجاعتنا؛ يرجعإلى بيئة الأزهر العلمية الأزهر يغاير الجامعة في أن بيئته العلمية لم تتهيأ بعد (تمام التهيؤ) للأبحاث العلمية الحديثة، للأبحاث الجامعية. لأن هذه تقوم أولا على حرية النقد، وهذا معناه عدم منح القداسة لبعض المواد دون بعض. وثانيا على عدم التقيد (بالكتاب) كمصدر للبحث ومقياس للحقيقة. والأزهر - في الواقع - يسير في أبحاثه على منح القداسة لبعض المواد دون بعض ـ وإن كان بينها شديد الشبه من وجهة البحث - وعلى التعلق بمبدأ الكتاب. نعم مناهج التعليم لا تنص على كليهما ولكنهما من الأمور المتوارثة التي اصبح لها حرمة المبادىء العامة. وليست العبرة في ملاحظة الظواهر بما يقوله المنهاج، ولكن بما تتبعه النفوس

فمثلا يفرض نظام التعليم في الأزهر تدريس الفلسفة، وأزيد من هذا بجعلها مادة أساسية في كلية أصول الدين؛ ولكن الفلسفة في نظر كثير من الأزهريين مازال منها (الفاسد)، وهو أكثرها، و (الصحيح)، وهو أقلها. ومازال كثير منهم يخفى في نفسه الضغينة للفلسفة والفلاسفة ويضعها في مرتبة دنيا عن عالم الكلام، مع أن هذا الأخير يشارك الفلسفة الإلهية في الموضوع وفي الغاية، وهي محاولة تحديد الإله أو مبدإ الوجود وعلاقته بالكون وبخاصة بالإنسان. ومع أن الفلسفة الإغريقية التي نقلت إلى المسلمين كانت سبب ثرائه ونمائه. هذه الفرقة أثر متوارث عن الغزالي؛ فكتابه (إحياء علوم الدين) قد أصبح منذ القرن الثاني عشر إلى الآن صاحب الكلمة في

التوجيه الديني وفي تحديد علاقة البحث العقلي بالدين. والغزالي هو صاحب (تهافت الفلاسفة)؛ وهو صاحب الرأي: بثلاثة كف الفلاسفة العدا. . . . . وهجومه ضد الفلسفة كان السبب غير المباشر في اختلاف الرأي في جواز الاشتغال بالمنطق ـ وهو فرع من الفلسفة ـ أو عدم جواز الاشتغال به أو الترديد بين الحرمة والجواز:

فاين الصلاح والنواوي حرما ... وقال قوم ينبغي أن يعلما

والقولة المشهورة الصحيحة ... جوازه لكامل القريحة

فمنهاج التعليم العالي في الأزهر وإن فرض تدريس الفلسفة إلا أنها لا تتمتعبقداسة ولا احترام كما يتمتع علم آخر كعلم الكلام مثلاً

وكما أن مبدأ (قداسة) بعض المواد دون بعض يسود التعليم في الأزهر، كذلك مبدأ (الكتاب) إذ أن (مدرس الموضوع) لم يخلق بعد في الأزهر وإن كان في طريق الخلق والتكوين. فالحقائق العلمية في مادة من المواد مصدرها كتاب معين بالذات، والتمكين في الخلافات العلمية ومشاكل البحث لم يزل إلى كتاب مخصوص. ولعل مبدأ الكتاب فرع من مبدأ القداسة لأنها إذا منحت لمادة من المواد قد تتعداها لأمر ما، إلى مؤلف بالذات فيها

وبيئة مثل هذه البيئة التقليدية لا تقبل طبعا بسهولة نتائج البحث العلمي الحديث لأنها قد ترى فيها مايجرح عاطفة عندها تحرص على صيانتها. وعلى صاحب البحث الجامعي قبل أن يبرزه إلى الوجود أن يهيىء النفوس له بالتوجيه تارة، وبالنقاش فيما ألفته وصانته حتى الآن عن النقاش تارة أخرى، وإلا كانت نتيجة بحثه الجامعي سلبية محضة، وكان شأن هذا الباحث شأن القانون الذي فرض مادة في منهاج الدراسة لم تهيأ لقبولها النفوس بعد في الإهمال وعدم الاعتبار

وهذه التهيئة كانت ـ وما تزال ـ من مهمتنا؛ وهي مهمة ليست يسيرة. كم كان شاقا ما صادفني من صعاب في العام الماضي عند عرض فلاسفة المسلمين! فكانت نفوس الطلاب متشوقة أولا وبالذات إلى سماع الحكم عليهم بالإسلام أو بالكفر. ولم أفلح إلا بعد جهد مضن في إقناعهم بالفصل بين القيم المختلفة، وفي أن مهمة مؤرخ الفلسفة الحكم على الفيلسوف من ناحية إنتاجه العقلي فحسب

على أن الإنتاج العلمي الجامعي كما هو وليد القدرة على الإنتاج وكثرة الاطلاع وهضم المقروء وليد الزمن أيضا. وبذا يفترق عن الإنتاج الصحفي أو الإنتاج المدرسي. ونحن نطمئنك أيها الصديق برغم عدم هذه التهيئة الكافية في بيئة الأزهر العلمية لقبول الأبحاث الجامعية، وبرغم هذه الصعاب التي نلقاها في التوجيه، على أن (بيئتنا العلمية) في نمو، وعلى أن لنا في جمهرة الطلاب وفي كثير من الشبان المدرسين أعوانا مخلصين، وعلى (أن لنا أسلوبا خاصا ونقصد في دراستنا وفي إنتاجنا وفي توجيهنا التعليمي مقصدا خاصا يقوم على حرية البحث، وقداسة الفكر، والشجاعة في مواجهة مانلقى من عنت) ونطمئنكأكثر من هذا على أننا قطعنا في إنتاجنا الجامعي خطوات عديدة. وكل ما نرجوه، حتى يبرز هذا الإنتاج إلى الوجود، هو توفيق الله.

محمد البهي

مدرس علم النفس والفلسفة

بكلية أصول الدين

من ذكريات أوروبا

باريس الصغيرة

للأستاذ أحمد فتحي مرسي

لم يكن من بد أن نكتب عن باريس الصغيرة بعد أن لحق بشقيقتها الكبرى ما لحق من نكد الحياة، وعنت الزمان، ما جعلها تشيع زمان اللهو والغفلة، وتستقبل زمان الجد والحذر والحرص، وبعد أن نالها هي الأخرى أو كاد أن ينالها ما نال أختا لها من قبل فتكاتفت عليها أزمات السياسة، وضائقات الحرب، ونكبات الطبيعة؛ وآن لهذه الوجوه التي لم تتقبض أسرتها إلا من الضحك أن تتقبض يوما من الجد والحزن والتفكير. . .

وإذا كانت باريس قد لقيت من أقلام المحبين والمعجبين والمحتفين بها الكثير من كلمات الرثاء والعزاء والذكر، فلا أقل من أن نشيع الشقيقة الصغرى بكلمة أو كلمتين وباريس الصغيرة، أو باريس شرق أوروبا كما أصطلح على تسميتها عارفو الباريسيين

هي مدينة بوخارست حاضرة رومانيا، وليس في هذا الاسم إغراق أو مغالاة، فبين المدينتين تشابه كثير، فأحياء بوخارست الجديدة تشبه أحياء باريس، وحياة اللهو والمجون في بوخارست تعدل حياة اللهو والمجون في باريس أو هي تزيد عليه، ونساء بوخارست
متحررات عابثات كنساء باريس مولعات بتقليد الباريسيات في التأنق والتجمل إلى حد بعيد، وإن كن أجمل منهن وآنق. وكما أن باريس هي مدينة المرح والحياة ومحط آمال الشباب في غرب أوروبا، فبوخارست هي مدينة المرح والحياة ومحط آمال الشباب في شرقها. وإذا كان شباب أوروبا يستقبل الموت اليوم في محور (روما برلين) فقد استقبل الحياة من قبل في محور باريس بوخارست. . . حتى نهاية المدينتين ـ يشاء القدر أن تكون متشابهة ـ فكما تعتز المرأة الجميلة بشبابها وجمالها وتحرص على صيانته، وتحذر أن يمسه سوء، كان ما فعلت الباريسيات، فسلمتا طائعتين مختارتين حذر أن يمس جمالها من الحرب سوء، أو يناله في الدفاع أذى.
هبطت مدينة بوخارست من عام وبعض عام، وكنت قبل سفري تتناثر حولي عن عبثها ومجونها أقوال أصدقاء لي زاروها من قبل، فلم أكن ألقى إليهم أذنا صاغية، وأحسب أن بكلامهم الكثير من مبالغات الشباب وخياله. ثم حدثتني عنها أديبة بولندية قابلتها في أثينا، فكنت أيضا كثير الشك في كلامها، وكان يعزز هذا الشك في رأسي أن بوخارست ـ وإن كانت مدينة أوروبية ـ إلا أنها أقرب إلى الشرق منها إلى الغرب، فليس ثمة مايجعلها تختلف عن نظيراتها من مدن شرق أوروبا كاستنبول وأثينا وصوفيا. فلما ركبت القطار من ميناء كونستنتزا ـ وهي مرفأ روماني ـ في طريقي إلى بوخارست، حدث ماجعلني أصدق ثم أصدق ما قيل، بل حدث ما جعلني أرى أن فيما سمعته عن هذه البلاد الكثير من القصد والإيجاز، لا المبالغة والإغراق
كان القطار مزدحما فوقفت في الممشى أتلهى بالنظر من النافذة، ثم أخذت أذني في أقصى الممشى ضجة، فتلفت فإذا شاب بدا لي من وجهة أنه تركي ـ مقبل عليّ وقد تحلقت به خمس فتيات ـ أستغفر الله ـ بل خمس فاتنات، إي والله خمس ـ وهو يسير بينهن في هيئة العروس أحاطت بها وصيفات الشرف، يجذب هذه، ويقبِّل تلك، ويعانق الثالثة، وهن يتضاحكن من حوله، ويتجاذبنه من سترته! فلما بلغني هذا الموكب المرح، حيَّاني الشاب ضاحكا، وجعلت الفتيات يحدقن في وجهي طويلا ثم قالت إحداهن: ـ هذا تركي آخر فقالت أخرى: - بل هو مصري وقالت ثالثة ضاحكة: ـأما تجيب أيها التمثال؟ ثم تضاحكن وانصرفن عني ضاحكات بمثل هذا العبث والمرح تقابلك
الفتاة الرومانية، فهي دائما باسمة مرحة، تغازلك إذا لم تغازلها، وترميك بالجمود إذا لم تسايرها في مرحها. وحسبك أن تعلم أن أول ما يتعلَّمه الأجنبي في بوخارست من اللغة الرومانية ـ وهي لغة تشبه الإيطالية إلى حد ـ هي كلمات ميلة. إلى أين يا فتاة. ما هذا الجمال النادر) وما شاكل ذلك من كلمات المعابثة والمغازلة. وكثيرا ما كنت أخطيء في نطق هذه الكلمات فكانت تصحح لي النطق بها من أعابثها من الفتيات فتقول لي مثلا: (فورمواسا (أي جميلة) وليس فورموزا. انطقها هكذا فورمواسا بحرف إنك لا تحسن النطق. اصحبني لأعلمك)
فإذا بدا لك أن تكون رجل جدٍّ واتزان، أخذن يثرنك ويغازلنك، ويتشبثن بأذيالك أينما رحت، بل يمسكن بك في الطريق، فإذا ألطفت بإحداهن ودعوتها إلى نزهة أو طعام لبتك طائعة دون روِّية أو تريث أو تفكير، وسايرتك في كل ما ترغب، فهي سهلة القيادة لا تعرف المعارضة!
وفتاة بوخارست اجتماعية بكل ما تحتمل الكلمة من معنى. قلما تراها تسير وحيدة، فإذا لم تجد من تنازله زاملت من تصادفه في الطريق. وهي في ذلك تتخير أتفه الأسباب للتعرف، ثم تضع يدها في يدك، وتطرح التكلف والملاينة جانبا، وكأنها تعرفك من سنين. . . حدث مرة أن كنت جالسا في مقهى في شارع اليزابيتا، فدنت مني فتاة جميلة، ثم سألتني إن كنت مصريا، فلما أجبتها بالإيجاب أخرجت ورقة وقلما وسألتني أن أكتب لها اسمها باللغة الهيرغليفية. فقلت لها: (إنها لغة قدماء المصريين وقد اندثرت، ولغتنا الآن هي العربية) فقالت: (إذن فلتكتب اسمي بالعربية) فكتبته لها، ولكنها بدل أن تنصرف جعلت تتعجب من الخط، فلم أجد بدا من دعوتها للجلوس

فأسرعت بالقبول ولم تقم حتى دعوتها للعشاء في اليوم التالي. . . ومثل ذلك يحدث للمرء مرات عدة في بوخارست
ومن الفتيات من لا تتحرى هذه المقدمات، فتراها تقابلك وتبدؤك بالسلام، والسؤال عنك وأني أنت يا أخي، أو هي تجذبك بيدها، أو تخطف قبعتك، أو تقبلك، أو تعانقك. كل ذلك دون أن يكون لك بها سابق عهد! والعجب في هذا أنها تفعل كل ذلك في بساطة ودون استحياء. وأعجب منه أن هذا العمل لا يلفت أنظار المارة، على الرغم مما لا حظته من فضول الرومانيين العجيب. . . فقلما تخرج من جيبك صورة أو خطابا في الطريق دون
أن يشاركك في النظر إليها أو قراءته من حولك، ومن ليسوا حولك. بل أكثر من ذلك فإنهم يبدون لك ملاحظاتهم، فيقول أحدهم مثلا: (لو وسَّدت رأسك كفك في الصورة لكان أفضل) أو: (لو كانت الصورة على مسافة أبعد لكانت أوضح من ذلك) أو: (هذا الخطاب مكتوب بخط عجيب). . . إلى غير ذلك من الملاحظات التي لا تنتهي إلا بإخفاء ما في يدك عن نواظرهم.
وعلى الرغم من هذا الفضول العجيب فقلما يلتفت إليك مارٌ وأنت تعانق فتاة أو تغازلها ولو كنت في جمع من الناس لكثرة ما أخذت عيونهم مثل هذا المنظر. وقد حدث لي في أول لياليَّ ببوخارست أن كنت أتناول العشاء في مطعم مع صديق مصري وصديقة رومانية؛ وكانت معي بعض صور لأهرام الجيزة فرغبت الفتاة في واحدة منها، فقال صديقي معابثا: (وكم تدفعين ثمنا لهذه الصورة؟) فقالت: (ما يطلب) فقال ضاحكا: (إنه يقنع بقبلة أو قبلتين، وإن كانت الصورة ثمينة جداً) فقالت: (إذن فليفعل) فقال: (ليس أمام كل هؤلاء الناس) فقالت: (وما شأنهم في ذلك؟). ثم قامت فقبلته وقبلتني، فأخذني الخجل، وجعلت لا أتلفت حولي خشية أن تأخذني الأنظار من كل جانب فتزيد في خجلي، ولكن لشد ما كانت دهشتي حين تلفتُّ فلم أجد أحداً أعار ما حدث أي اهتمام، بل وجدت كل من حولي يفعل ما نفعل!
ومثل هذه الحال من المجون والاستهتار كان لها أثر بالغ في حياة أطفالهم، وصغار الفتيات، ما كنَّ يترامين علينا في أوقات من الليل
والظاهر أن هذا الانحلال الأخلاقي في رومانيا، مرجعه الحروب المتلاحقة التي تقلَّبت عليها فأفنت رجالها، ثم خلفتها وعدد نسائها أكبر من عدد الرجال، وهؤلاء الرجال ـ على قلتهم ـ منصرفون عن النساء لكثرة عددهن، وسهولة منالهن، لذلك نرى رجال رومانيا وشبانها مدللين متراخين قليلي الغيرة على جانب غير قليل من الطراوة والضعف والتهاون مع نسائهم: فالفتاة في بوخارست. قد تسهر معك إلى الثانية عشرة، أو الواحدة صباحا، ويستأذن أخوها أو قريبها لينصرف، وهو يقول لكما مبتسما: أرجو لكما وقتاً طيباً، أو سهرة موفقة، أو شيئاً من ذلك. ثم ينصرف لشأنه
وفتاة بوخارست فوق ذلك من أجمل نساء العالم وجهاً وجسماً ومن أكثرهن تحرراً، فهي
تساير نزواتها وأهوائها إلى أبعد الحدود، لا تخشى في ذلك لومة لائم، أو كلمة رجل؛ ثم هي ساذجة مطواع طيبة القلب، تصارحك بكل شئونها ولو لم تقابلها إلا مرة واحدة، وهي بعد ذلك وفية كل الوفاء
والحدائق في بوخارست، هي مستراد الشباب، وميدان الغزل، وملاذ الهوى، يقصدها القوم جميعا قبيل الغروب. والمدينة غنية بحدائقها فقد وهبها الله موقعا طبيعيا غنيا بالبحيرات الطبيعية، فأنشأوا حولها الحدائق، ونموا الخمائل والأشجار والخضرة؛ ففي وسط المدينة تقع وبأطرافها تقع حدائق كارول الثاني على شواطىء بحيرة هيراستراو وحديقة تي شواطىء بحيرة وحديقة البوتانيك وحديقة كارول الأول وتتوسطها بحيرة طبيعية جميلة. . . وغيرها. . .
وكل هذه الحدائق آية في الجمال والتنسيق والموقع. ولن أنسى أمسية قضيتها في مطعم أنيق في حديقة كارول الثاني يطل على البحيرة، وقد انعكست أضواؤه على صفحتها الهادئة، وانتثرت بها الزوارق البخارية ذات الأضواء الملونة، وهي تتخطر في هينة ورفق على أنغام الموسيقى. . . منظر جعل يجذبني إلى هذا المكان كل مساء
وفي حديقة كارول الأول بحيرة طبيعية، يقع على شاطئها مسجد شرقي آية في الجمال والفن؛ فإذا أقبل المساء انسابت الزوارق إلى عرض البحيرة، وعلى كل زورق

عاشقان، جمعهما الهوى، وأظلهما الظلام، وأغرتهما هدأة الليل الجميل، فذهبا يتناقلان الحديث، ويتشاكيان الهوى، ويتبادلان العناق؛ فأنت لا تسمع أينما أدرت أذنيك إلا همسات الغزل، وأصوات القبل، وخفقات المجاذيف قد اختلطت بضحكات النساء وعلى مقربة من المدينة تقع غابة (بانيسا) وهي غابة صغيرة جميلة كانت لنا فيها جولات نذكرها بالخير، وعلى أميال منها بحيرة في موقعها الطبيعي الساحر، وهي أروع ما وقع عليه نظري في هذه البلاد

ولا أود أن أختم القول قبل أن أشير إلى رخص تكاليف المعيشة في بوخارست إلى حد لا يتصوره العقل، ولا يصدقه إلا من زارها، ويرجع ذلك إلى فقر البلاد، وانخفاض سعر (اللي) العملة الرومانية_انخفاضاً كبيراً_ وحسبك أن تعلم أن ما ينفقه الإنسان في القاهرة في يوم، يكفيه في بوخارست ثلاثة أو اربعة أيام على الرغم من كونها بلاداً أجنبية غريبة

عليه. وأرخص ما في المدينة الطعام ولا سيما اللحم - فالبلاد بلاد سهول ومراعي_وهم في طعامهم أقرب إلى الشرقيين منهم إلى الغربيين. ولعل ذلك يرجع إلى عهد الأستعمار التركي. وأظهر مشروبهم البيرة والنبيذ والسويكا_وهو الشراب الوطني للبلاد_وقلما تخلو مائدة من إحداها

هذه هي بوخارست أو باريس الصغيرة كما يسمونها، مدينة المرح والحياة والجمال. وهذا بعض حقها عليَّ، وإنه ليعزَّعليَّ وعلى عارفيها ما نالها من محنة، ولنا فيها ذكريات وأصدقاء وأحباب، خفف الله عنها وعنهم، وأجمل لهم العزاء

(فتحي)

(القاهرة)

وحي العلم الجديد

إنسان وحيد في العيد

في ليلة من ليالي هذه الأيام الأخيرة من ديسمبر، أيام الوداع والرجاء، وداع عام مضى ورجاء عام جديد، جلس إنسان وحده في حجرة باردة، طقسها بارد ولكنها حارةً الذكريات

إنسان وحيد جلس يكتب فلم يستطع، ما يحسه في قلبه لا يستطيع أن يكتبه، وما يكتبه يجده بعيدا غريبا عما في قلبه وصدره. ما يكتبه يجده بارداً كصورة الصورة الحريق واللهب والبركان على قطعة من الشمع الملون، وفي شعر هندي يقال: (مات المعنى الحيَّ حين احتواه اللفظ. ينطق اللسان فضلة ما في القلب)

إنه يجلس إلى الراديو يدير مفتاحه، ينتقل به من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب، فلا يسمع إلا الرقص والغناء والموسيقى. الأحاديث لا يسمعها، يمر عليها في مفتاح الراديو، كما يمر الشهاب في السحاب

الدنيا كلها تغني وسط هذهالمذبحة البشرية، والناس كلهم يرقصون على دقات الجاز الصاخب وعلى أنغام الفاس الهادىء الناعم كأحلام الصفاء في آخر الليل، وبعض الناس في هدوئهم وسمت وقارهم وصفاء قلوبهم ينشدون ويرتلون. أولئك هم المتوجهون إلى الله في السماء

أيها الصاخبون الراقصون على الجاز والفاس، خذوني معكم أنا إنسان وحيد غريب في هذه الدنيت. إنسان يريد أن يعيش وأن يعرف الحياة وأن ينطلق بعد حبس طويل. يريد أن يفرح ويقفز ويبتهج كما تفعلون. ثم يلقي جسمه المنهوك في الفراش بعد المرح الطويل فينام وقد حل في قلبه السلام

.أيها المؤمنون الخاشعون المرتلون المتوجهون إلى الله في السماء , خذوني معكم أنا إنسان يريد أن يهدأ وأن يعيش وأن يهب قلبه الصفاء والنقاء بعد سواد طويل، يريد أن يتوجه إلى أن يتأمل ويصلي، قد انصرفت عنه دنياه ويئس منها، يحبها ويريدها ولكنها لا تريده_ قد أشقاه إدبارها ولم تقبل عليه مرة، فهو يريد أن يعلو عليها يأساً منها، وأن يتوجه إلى ربه مثلكم يرتِّل ويتأمل ويصلي ويتبتل حتى ينهك جسمه كما أنهك الرقص جسوم الراقصين فينام وقد حل في قلبه السلام

إنه يسير في الطرقات ويركب ما يركب الناس، فيجد الشاب والفتاة والعجوز والصبي كلٌ قدأمسك لمن يحب قربان حبه، الورود والأزاهير يحملونها يضمونها إلى صدورهم ضمة العشق

ويرى الناس قد أذهلهم الشقاء واستولى عليهم جهد العيش فلا يتحدثون ولا يفكرون إلا فيما
يأكلون ويكتسون، ليس لهم حبيب ولا يريدونه، وليست لهم زهور ولا قرابين ولا يريدونها
أيها العاشقون السعداء يحملون الهدايا، خذوني معكم أنا إنسان وحيد يريد أن يهدي
إلى من أحب شيئاً، يهدي إليه قلبه وحنانه وحبه وحاضره كله ومستقبله كله
بلى. لقد أهدى إلى من أحب هذا كله وفوق هذا كله، ولكن من أحب لم يقبل منه ما
أهدى، وطرد الرسول والمرسل وانصرف عنه كما انصرفت عنه دنياه ويئس منه. . .
من حبيبه. إنه يحبه ويريده ولكنه لا يريده
قلبه وحنانه وحبه وحاضره كله ومستقبله كله، لا يريده. وفوق هذا كله لا يريده
أيها الحاملون الهدايا والأزاهير إلى عشاقكم ومحبيكم وأزواجكم، خذوني معكم
إني أريد أن أكون واحداً منكم فأقدم إلى حبيبي خيراً مما تقدمون. . . مع قلبي وحناني
وحبي، فإذا رضي عن هديتي وتقبَّل قرباني ملأ قلبي الفرح وشمخ رأسي فوق كل
رأس، وأتعبني حمل السعادة فأنام وقد حل في قلبي السلام
أيها الأشقياء الناعسون خذوني معكم
أنا إنسان وحيد أريد أن ابتئس وأن أشقى حتى أذهل، وحتى يموت في قلبي الرجاء
من كل شيء والأمل في كل شيء، وأن يستولي عليَّ جهد العيش والفكر فيما آكل
وما أكتسي حتى يرهق جسمي الفكر والجهد فأنام وقد حل في قلبي السلام
رأيتكم من قبل في كثير من مثل هذه الأيام الأخيرة من ديسمبر، أيام الوداع والرجاء
رأيتكم من قبل أيها الراقصون والمرتِّلون والعاشقون والذاهلون بالشقاء فلم أطلب
أن أكون منكم. لأني كنت أوقن أني سأكون خيراً منكم عندما تقبل عليَّ دنياي
دنياي كانت أخي الغائب حتى يعود، والقلب الذي رجوتُه واصطفيته وأحببته وارتقبه،
وصبرت على ما لم يصبر له الصابرون حتى يكون معي، حتى يكون لي وحدي
وكنت في سنوات كثيرة أجلس في هذه الأيام الأخيرة من ديسمبر أسمع مواكب
حياتكم أيها السعداء فأبتسم، ستقبل دنياي وأغدو خيراً منكم يوم يعود لي أخي البعيد،
ويوم يكون القلب الحبيب لي وحدي
ثم جاءت الأيام الأخيرة من ختام هذا العام، فإذا الأخ البعيد لم يعد، ولن يعود، وإذا
القلب الحبيب قد ردَّ عليَّ_مطروداً_قلبي وحناني وحبي، واختار أن يكون لغيري، له
وحده، وإني أحبه وما كرهته
في هذا العام أجلس وحدي في غرفة باردة، طقسها بارد لكنها حارة الذكريات، أسمع
وأرى مواكبكم أيها السعداء، ولكني لا أبتسم. لن أكون في يوم ما خيراً منكم إن أخي
لن يعود، والقلب الحبيب لن يعود، فلن تعود لي دنياي، وما كانت دنياي لي حتى تعود
إنسان وحيد في العيد
كان يسير في ركب الحياة معه أخوه وحبيبه. . . زوجه. . . لا يريد غيرهما ولا يرجو،
فسقط أخوه والركب يسير. فتخلف يقضي حقه يواريه ويبكيه، وقلبه يتوجه إلى حبيبه
الذي بقى يرجوه لا سواه
يتوجه إليه بالرجاء والعزاء، يريده وحده لا يريد غيره ولا يرجو وماذا يهمني من الركب
وليس لي فيه. . .؟
إنه_القلب الذي أحببته_معي. وأنا به مع الركب وأمامه أسبقه وأعلو عليه. ونحن وحدنا
القافلة والركب والحياة والدنيا لنا
أنا_معه_غني عن جميع الناس
إنني به غني عن العالمين
فلما أفاق وقضى لأخيه بعض حقه تلفت فإذا الحبيب الذي كان بقي. ما بقي. . .! سلك
بنفسه في زحمة الحياة وخلَّف القلب الوحيد لا رجاء ولا عزاء. وشق الطريق لذاته لم
يلتفت.
الركب بعيد، وهو منه منفرد وحيد. ما بقيت به قوة. ليس حوله سوى الظلام والوحشة
والأحزان وذئاب الطريق. وفي قلبه الحسرات الباقيات ولا أحد معه
أيها السعداء الذين أرى مواكبهم وأسمع رقصهم على الجاز الصاخب والفالس الهادىء
الناعم كأحلام آخر الليل، والذين يقضون هذه الأيام الأخيرة من العام. أيام الوداع

والرجاء، ثم ينامون وفي قلوبهم السلام.
خذوني معكم. . .
صاحب السلطان الحقيقي - 2
قدمت صاحب السلطان الحقيقي إلى قرائي في المرة السالفة أو بالأحرى قدمتهم إليه! فهو من يقدم إليه الناس جميعا ولا يقدم قط إلى أحد، ومن كان يماري في ذلك فليشهد مجلسا من مجالسه ثم لينظر هل يقدم هو مهما كان من خطره إلى صاحب السلطان أم يقدم صاحب السلطان إليه
حرصت بعد المرة الأولى على رؤيته حرصا أنساني كل متعة وحقر في نفسي كل فرجة فأعددت منظاري وظللت أنظر بصبر فارغ وشوق نازع حتى حانت الفرصة فدعاني إلى داره رجل من أطراف القرية رأيت وجهه يقطر السرور وهو يفضي إلى بما نال من شرف ضيافته الشيخ في تلك الليلة
وتفضل الرجل فدعا شاباً من ذوي قربای كان معي فقبل كما قبلت واشترط مثلما اشترطت ألا نمكث حتى العشاء، فما كان كلانا يتطلع إلا إلى رؤية الشيخ. وكان رفيقي الشاب قد تشوق إلى رؤيته بعد ما سمعه عنه وكان وقد ظفر بالأمس القريب بإحدى الإجازات العليا تمتلىء رأسه بفلسفة الفلاسفة. ولعله كان يرغب أن يعد لنفسه منظاراً مثل منظاري، أو
لعله كان يريد أن يطبق على الشيخ ما في رأسه من فلسفة. فقد حدثني أنه يعلم من أمر هؤلاء الأشياخ أنهم جدً أذكياء وأنهم يسيرون على قواعد (سيكولوجية) دقيقة تغيب عن الأغفال من العامة.
وكان صاحبي ونحن في الطريق إلى تلك الدار التي احتوت الشيخ وحاشيته يحدثني ضاحكا أنه كف يده في الصباح بعد أن هم بالتصدق على مسكين بنصف ريال وأنه يخشى أن يظهر الشيخ كرامته فيفضح بخله في المجلس
وبلغنا الدار فإذا حشد من أنماط الناس من رجال ونساء قرب الباب، وإذا الشارع أمامها مكنوس مرشوش، وإذا وفود المدعوين يدخلون الدار قبلنا؛ وإذا الدخان يتصاعد من النوافذ. ولما كنا في وسط الدار لم يفت منظاري ذلك النشاط الذي ملأها، فهؤلاء النسوة مشتغلات كل منهن بعمل يتصل بإعداد الطعام، وفتيان الدار يدخلون ويخرجون من المنظرة التي جلس فيها الشيخ وفي أيديهم (صينيات) القهوة والقرفة والشاي ووجوههم جميعا متهللة مستبشرة
ودخلنا المنظرة فهب من فيها جميعا وقوفا لتحيتنا إلا الشيخ؛ ولأهل الريف أريحية جميلة في اللقاء والترحيب. ورفع الشيخ عينيه وهو متكىء على وسادتين في صدر القاعة، وما إن رآنا من عنصر المطربشين حتى سرت في وجهه غمة أسرع فأخفاها؛ وتكلف البشاشة، وسرنا نحوه فتظاهر أنه يهم بالوقوف فأقسمت عليه ألا يفعل؛ ومد إلينا يده وهو جالس فسلمنا، وما كان أعظم دهشة هؤلاء الوقوف من الرجال حينما رأونا لا نقبل يد الشيخ! وما كان أعظم أسفي أن أكدر عليهم صفوهم بهذا الذي فعلت وصاحبي! ولكن ما الحيلة وعندي أن أبكيهم جميعا أسهل عليً من أن ألم تلك اليد الكريمة؟
وأرادوا أن يفسحوا لنا مكاناً في صدر الحجرة ولكن الشيخ حريص على أن يظل دراويشه إلى جانبه؛ وأنقذت أنا الموقف فأشرت عليهم بإحضار كرسيين لنا قرب الباب لنشتريح في جلستنا في ملابسنا الأفرنجية. وقبل أن نجلس سألت الشيخ ألا يؤاخذنا إن جلسنا ونحن أعلى منه فطيبت بذلك خاطر صاحب الدار وضيافته، ثم قلت إن بركة الشيخ لتمسنا ونحن بعيدان، فرشفني بنظرة مستريبة ثم ردها سريعا وفي وجهه الراحة والضيق معاً، فهو مرتاح إلى هذا التكريم الذي يصدقه مني الجلوس وإن لم يصدقه هو، ثم هو ضائق بخبثي
وبحضوري وصاحبي في تلك الساعة
واتجهت الأنظار إلى الشيخ وكان صاحبي من الدهشة كأنه ذهل عن نفسه؛ وساد السكوت لحظة فما يتكلم أحد حتى يتكلم الشيخ. وكنت قبل دخولنا الحجرة تبينت صوته وهو يتحدث عن المال وأنه عرض زائل، وعن الجود والبخل، وفطنت إلى أنه كان في سيرة أحد البخلاء. ولم يفطن صاحبي إلى شيء لدهشته ولأنه لا يعرف صوت الشيخ. وغمغم الشيخ ثم عاد إلى ما كان فيه من حديث، ولحديث البخل عنده قيمته

فقال: (هيه. . . سبحان من يرث الأرض ومن عليها. . . هو حد منا راح يأخذ حاجة معاه. . . يا ما فلوس بتروح في المسخرة)
وتشعب الحديث، وأديرت علينا أقداح القرفة أكثر من مرة ونحن لا نستطيع لما نسمع من الأيمان لها رداً. ثم سمعت صاحب الدار يسأل عن شخص اسمه عمر ورأيت الشيخ ينهض واقفا ثم يجلس بعد بضعة ثوان؛ ولكنه لا يلبث حتى ينهض مرة ثانية فعجبت وخفت أن يكون ذلك منه نذيراً بحريق جديد؛ وما جلس للمرة الثانية حتى صاح صاحب الدار بمن يدعى عمر كرة أخرى. فهب الشيخ واقفا من فوره، ففطنت أنه لن يطيق أن يسمع اسماً من أسماء الخلفاء الراشدين وهو جالس، وتتبعته أنظر مبلغ ما في هذا الظن من صحة فاتسق لي القياس كل مرة
وكان ذلك قد ألهاني لحظة عن صاحبي الذي سرت الدهشة في وجهه لذكر نصف الريال والذي أخذ إجلاله للشيخ وإيمانه به يتغلب شيئاً فشيئاً على مظاهر النكران والجحود في وجهه وخوافي العلم والفلسفة في نفسه ورأسه!. . .
ودخل رجل فشكا إلى الشيخ أن ابنه لا ينام مستريحا، وتناول الشيخ ورقًا وقلماً وخط له حجاباً وصرفه فخرج الرجل فرحاً مطمئناً. ودخل ثان فشكا إليه أنه محروم من البنين وأنه يتحرق شوقا إلى غلام يؤنسه وللشيخ ما يطلب. وضحك الشيخ من سذاجته إذ يصرح أمام الناس أو يظن أن الشيخ يطلب شيئاً، وطلب الشيخ منه منديلا فلم يجد معه شيئاً فأخذ طاقيته ووضعها في حجره وقرأ ثم قرأ وردها إليه وبشره بغلام؛ ونهض الرجل وكأنه يحمل بين يديه ذلك الغلام , , ,
ودخلت امرأة ملففة في ثيابها وطرحتها ترجو من الشيخ رقية لوحيدها كي يعيش، فجاد
عليه الشيخ برقية وخرجت المرأة مزهوة؛ ودخلت بعدها غيرها تستجير ببركة الشيخ، فإنابنتها يرتعد جسدها الملتهب وتمسكها (الملعونة) حتى ما تفارقها؛ وفهمت أنا أن المسكينة مريضة بحمى كانت الملاريا، وأمرها الشيخ أن تحضر وعاء به ماء، فذهبت فأحضرته، وتناوله الشيخ فقرأ ثم قرأ، وصاحبي ينظر دهشاً، وبصق فيه الشيخ بصقة على رغم علم صاحبي وفلسفته، وناوله المرأة لتشرب ابنتها من ذلك الماء أثناء الليل، وكم تمنيت لو قفزت من مكاني فحطمت ذلك الوعاء وأرسلت بركته على رأس الشيخ!
ودخل شاب قوي البنية، بادي الجرأة، فما دنا من الشيخ حتى صرخ الشيخ في وجهه يطرده ويصيح به: أيها العاصي، ابعد عني. وتوسل الشاب إليه حتى سمح له بالجلوس، وأمر الشيخ دراويشه، فطردوا ذلك الفتى ورفعوا رجليه على نحو ما فعل معلم الصبيان في المكتب، وتناول الشيخ عصاه وهم يضربه. فاستجار الفتى بالنبي، فألقى الشيخ العصا وهم واقفاً، ثم أمر أعوانه فأطلقوه، وأخذ عليه الشيخ العهود والمواثيق ويده على المصحف، ثم صرفه والناس يعجبون كيف عرف الشيخ أنه شقي، ونسوا أن للشيخ دراويش هم مصدر علمه اللدني العجيب
وجاء بعد ذلك أمر حيرنا معاً أنا وصاحبي، وحار منظاري حتى كدت أشك أن الشيخ قد أفسد عليَّ بكراماته سحره، فقد جيء للشيخ بأربعة فتيان متهمين في سرقة فجلسوا أمامه يرتعدون فرقا وكلهم ينكر ما نسب إليه، ولما يئس منهم الشيخ طلب بيضة بطة أو أوزة فذهب صاحب الدار ليحضرها ولما عاد بها قابله أحد الدراويش عند الباب وأخذها منه، ثم وضعها في جيبه حتى طلبها الشيخ فأخرجها وأعطاها إياه أمام أعيننا ووضعها الشيخ تحت يسراه، ثم قرأ وقرأ وقال إنه سيرفع يده فتتجه البيضة إلى السارق، ونظر في وجوه الفتية فأصروا على إنكارهم. وما كان أشد عجبي وعجب الجالسين جميعاً أن رأينا الشيخ يرفع يده فتظل البيضة في مكانها بضع ثوان، ثم تبدأ تتدحرج وتقف، ثم تتدحرج وتقف، وعظم خوف السارق بطبيعة الحال، وقبل أن تنحرف البيضة إلى من سرق أخذخا الشيخ وقد بعدت عنه نحو ثلاثة أذرع وأمر الفتية أن يخرجوا فيفضي من سرق منهم بسره إلى من يرسله معهم من الدراويش، وعاد ذلك الدرويش بعد قليل يحمل المصاغ المسروق!
وأقبل من في الحجرة على الشيخ يقبلون يديه، ونظر إلى صاحبي وقال في لهجة عجيبة:

ونهض الشيخ واقفاً فدعا (وما قولك؟ بل ماذا يرى منظارك في هذه المعجزة؟) دراويشه ومن جلس معه إلى (حلفة ذكر) وبدأ ذلك الذكر في حماسة شديدة واشتدت الحركات وارتفعت الأصوات، ونسي الناس أنفسهم حول الشيخ وعظمت الرهبة في وجه صاحبي الشاب فأمسكت بذراعه مخافة أن يثب فينضم إلى الحلقة!

وكان موعد تقديم الطعام قد قرب فانتظرنا وصاحبي حتى انتهت لحظة التجلي، وخرجنا بعد أن سلمنا من بعد على الشيخ ومن معه وسرنا وصاحبي يسألني في لهجة كلهجة طفل خارج من ملعب يستوضح أباه حركة (بهلوان)؛ ولم نكد نبعد حتى سمعنا من يشاركنا الحديث، فإذا هو أحد دراويش الشيخ السالفين وهو اليوم من الخارجين عليه، وقال ضاحكا: طول ما في البلد مغفلين وأكل العيش سهل. يا سيدنا الأفندي البيضة كانت موجودة في جيب صاحبنا غير الثانية، وهي فارغة وفي جوفها خنفسة. . . دا شغل احنا عارفينه، وبكرة يا ما يشيل الشيخ من الطيور والسمن والخرفان وهو خارج من البلد. وضحك صاحبي وأخذ يعود إلى جحوده ونكرانه الخفيف

العقد الفريد

للأستاذ محمد سعيد العريان

بعد أسابيع قليلة، تظهر الطبعة الجديدة من كتاب (العقد الفريد) التي تنشرها المكتبة التجارية بالقاهرة، في ثمانية مجلدات؛ وقد حققها وضبطها وراجعها على مصادرها الأولى الأستاذ محمد سعيد العريان

ونحن ننشر فيما يلي المقدمة الجامعة التي قدم بها هذه الطبعة للتعريف بالكتاب؛ إذ) كان مما يهم كثيراً من قراء الرسالة أن يعرفوا عن الكتاب ما لا بد أن يعرفوه؛ وخاصة إن كان هذا البحث مما يدخل في المنهج الذي أعدته وزارة المعارف لامتحان المسابقة (بين المدرسين للترقية إلى المدارس الثانوية

يعد كتاب (العقد) لابن عبد ربه من أقدم ما وصل إلينا من كتب الأخبار والنوادر؛ لم يسبقه إلى هذا الباب فيما نعرف إلا ثلاثة نفر: الجاحظ صاحب البيان والتبنين، سنة 255هـ وابن قتيبة صاحب عيون الأخبار، سنة 276هـ؛ والمبرِّد صاحب الكامل سنة 285هـ

على أن ابن عبد ربه وإن كان مسبوقاً إلى التأليف في هذا الباب قد اجتمع له في هذا الكتاب ما لم يجتمع مثله في كتاب قبله ولا بعده من كتب هذا الفن، فكان بذلك حقيقاً بالمنزلة العلية التي أحله إياها أدباء العربية؛ إذ كان مصدراً من أهم مصادر التاريخ الأدبي التي يعول عليها ويستند اليها، بحيث لايغني غناءه كتاب في المكتبة العربية على غناها وما احتشد فيها من تراث أدباء العرب

والحق أن هذا الكتاب هو موسوعة أدبية عامة، يوشك فيه أن يجزم بأنه لم يغادرشيئاً مما يهم الباث في (علم العرب) إلا عرض له، وأعني ب (علم العرب) مجموعة المعارف العامة في الأدب والتاريخ والسياسة والاجتماع التي تتكون منها عناصر الثقافة العربية العامة لعهد هذا الكتاب؛ وحتى الفروع التي انشعبت من علم العرب قريباً من ذلك التاريخ واختصت بالبحث في (علوم الدين) ثم تميزت باستقلالها. . . لا يعدم الباحث أن يجد فروعاً من مسائلها قد عرض لها صاحب العقد في أبواب متفرقة من كتابه، لعله لا يجد لكثير منها نظائر في كثير من الكتب الخالصة للبحث في هذه العلوم

وثمة فضل آخر يميز صاحب العقد على سابقيه ممن عرضوا لهذا الباب، هو أن ابن عبد ربه أندلسي من أهل الجزيرة يتحدث عن أدب المشارقة فلا تقصِّر به مغربيته عن اللحاق والسبق؛ ولعل هذا كان بعض دواعي ابن عبد ربه إلى تأليف كتابه؛ إذ كان في طبعه من المنافسة وحب الغلب ما يحفزه إلى هذا المضمار، كما سنذكره بعد

وليس بي حاجة إلى الحديث عن نهج صاحب العقد في تأليف كتابه؛ فقد تكفل هو بتبيان ذلك في مقدمة الكتاب؛ ولكن الذي يعنيني أن أذكره هنا، هو أن ذلك النهج الذي سلكه مسبوقاً اليه وسلكه كذلك من بعده، كان يستند إلى قاعدة مقررة (في علم الأدب) كما عرفه القدماء. أنظرإلى ابن خلدون يقول في مقدمة تاريخه: (هذا العلم - يعني علم الأدب - لا موضوع له ينظر في إثبات عوارضه أو نفيها، وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته، وهي الإجادة في فنَّي المنظوم والمنثور على أساليب العرب

ومناحيهم؛ فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الملكة، من شعر عالي الطبقة، وسجع متساو في الإجادة، ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة أثناء ذلك متفرقة، يستقري منها الناظر في الغالب معظم قوانين العربية، مع ذكر بعض من أيام العرب، ليفهم به مايقع في أشعارهم منها. وكذلك
ذكر المهم من الأنساب الشهيرة والأخبار العامة؛ والمقصود بذلك كله ألا يخفى على الناظر فيه شيء من كلام العرب وأساليبهم ومناحي بلاغتهم إذا تصفحه. . . . . ثم إنهم إذا أرادوا حدَّ هذا الفن قالوا: الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها، والأخذ من (كل علم بطرف
هذا الحد الذي ذكره ابن خلدون في تعريف علم الأدب_توفي سنة 808هـ، كان معروفا لكل المشتغلين بالأدب قبل عهد ابن خلدون، وعليه كان نهج المؤلفين قبل ابن عبد ربه وبعده: يجمعون من أشعار العرب وأخبارها، ويأخذون من كل علم بطرف؛ ليكون من ذلك سبيل إلى تحصيل الملكة، وإلى الإجادة في فنَّي المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم؛ وإذا كان ابن عبد ربه لم يقصد من كتابه إلى أكثر من هذا المعنى، فقد كان ذلك نهجه في تصنيف كتابه والحشد له، والتفنن فيما ينقل ويختار من أشعار العرب وأخبارها، ومن أطراف كل علم وطرائفه ولقد وفق ابن عبد ربه فيما جمع لكتابه من فنون الأخبار، ورعته العناية رعاية هيأت لكتابه الخلود والذكر؛ فإن كثيراً مما اجتمع له في هذا الكتاب قد عصفت الأيام بمصادره الأولى فدرست آثارها وضاعت فيما ضاع من تراث المكتبة العربية وآثار الكتاب العرب، وبقى العقد خلفاً منها لا غناء عنه ولا بديل منه، يرجع إليه الأديب والمؤرخ واللغوي والنحوي والعروضي وصاحب الأخبار والقصص، فيجد كل طلبته وغرضه ولا يستغني عنه غير هؤلاء من طلاب النوادر والطرف في باب الطعام والشراب والغناء والنساء والحرب والسياسة والاجتماع ومجالس الأمراء ومحاورات الرؤساء، وغير ذلك مما لا يستوعبه الحصر ولا يبلغه الإحصاء
على أن ابن عبد ربه لم ينظر فيما جمع لكتابه من الفنون نظر المختص، بحيث يختار ما يختار لكل فرع من فروع المعرفة بعد نقد وتمحيص واختبار، فلا يقع منه في باب من أبواب الفن إلا ما يجمع عليه صواب الرأي عند أهله، لا؛ ولكنه نظر إلى جملة ما جمع نظر الأديب الذي يروي النادرة لحلاوة موقعها لا لصحة الرأي فيها، ويختار الخبر لتمام معناه لا لصواب موقعه عند أهل الرأي والنظر والاختصاص. أنظر إليه فيما روي من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم مثلاً، تجد الصحيح والمردود والضعيف والمتواتر والموضوع. واقرأ له ما نقل من حوادث التاريخ وأخبار الأمم والملوك، تجد منه ما تعرف
وما تنكر، وما تصدق وما تكذب، وما يتناقض آخره وأوله، ولم يكن ابن عبد ربه من الغفلة بحيث يجوز ما لا يجوز، ولكنه جامع أخبار ومؤلف نوادر، جمع ما جمع وألف ما ألف، ولكل ناظر في الكتاب بعد ما يأخذ وما يدع , ذلك كان شأنه وشأن المؤلفين في هذا الفن من قبله ومن بعده، على حدود متعارفة بينهم ورسوم موضوعة على أن ذلك لا يعني أن ما جمع من مثل تلك الأحاديث وهذه الأخبار ليس له مغزاه عند أهل الاختصاص والفن، ولكنها أشياء للاستدلال لا للدليل كما يقول أصحاب المنطق ذلك هو موجز الرأي في التعريف بهذا الكتاب وقيمته فيما عرض له من أبواب العلم والأدب، وبقي علينا أن نعرف المصادر التي استند إليها ابن عبد ربه من الكتب والرواة يقول ابن عبد ربه في مقدمته: (وقد ألفت هذا الكتاب، وتخيرت جواهره من متخير جواهر الأدب ومحصول جوامع البيان، فكان جوهر الجوهر ولباب اللباب، وإنما لي فيه تأليف الاختيار، وحسن الاختصار، وفرش لصدر كل كتاب؛ وما سواه فمأخوذ من أفواه العلماء، ومأثور عن الحكماء والأدباء
وهذا الذي يقوله المؤلف في وصف كتابه، يدعونا إلى السؤال: من أين اختار ابن عبد ربه مختاراته؟ وما هي مصادره الأولى؟ انظر إليه تجده يروي عن الشيباني، والمدائني، والأصمعي، وأبي عبيدة، والعتبي، والشعبي، والسجستاني، والجاحظ، وابن قتيبة، والمبرد، والرياشي، والزيادي، وابن سلام، وابن الكلبي، وغيرهم من علماء المشارقة؛ وعن الخشني، وابن وضاح، وبقي بن مخلد، من علماء الأندلس؛ فأي هؤلاء لقي ابن عبد ربه فأخذ عنهم شفة إلى شفة، وأيهم نقل إليه من أخباره راوية عن

رواية؟
لم يعرض أحد ممن ترجموا لابن عبد ربه_للحديث عن رحلة له إلى المشرق، إلا
فروضاً نظرية استنبطها بعض المتأخرين لدلائل يستند إليها في كتاب (العقد) ولا نراها
تصلح للاستدلال؛ فلم يبق إلا أن صاحب العقد قد روي من أخبار المشارقة ما نقل إليه
حيث هو في مقامه من قرطبة، ولم يعبر البحر ولم يركب الصحراء؛ وقد كان من
شيوخ ابن عبد ربه في الأندلس كما سنذكره بعد: الخشني، وبقي بن مخلد، وابن
وضاح؛ وللأولين منهم رحلة إلى المشرق ورواية
على أن كثيراً من كتب المشارقة وعلومهم كانت ذائعة بالأندلس لعهد ابن عبد ربه، وكان
لها عند العلماء منزلة ومكان؛ فليس ثمة ما يمنع أن يكون ابن عبد ربه قد استعان
كثيراً أو قليلاً بما كانت تضم المكتبة العربية في قرطبة من آثار المشرقة ,
(البقية في العدد القادم)
محمد سعيد العريان
الشروق. . .
(مهداة إلى (الرسالة) عروس المشرق في صباح عيدها التاسع)
للأستاذ محمود الخفيف
شدَّ ما ذكر قلبي الفرحا ... مولد النور على الأفق البعيد
كم هفا القلب إليه وصحا ... واجتلى في الشرق هذا الوضحا
ورأى في كل ركن بسمة
حلوةً تهدي إلى الصبح الوليد
في شعاب النفس ألقى الابتساما ... فلق همت بمسراه المديد
زدت ما درت بعينيَّ هياما ... بسنا يا حسنه إذ يترامي!
لمحات كابتسامات المنى
ورؤى مثل رؤى الحلم السَّعيد
السَّنا الورديَّ الأفق ... ذاب في فيض من النَّور جديد
ملء نفسي سحر هذا الشفق ... ألق أجمل به من ألق
أمس كم كان لروحي منهلا
قبل هذا الثكل في قلبي الشَّهيد
رفَّ قلبي للسنا المنسكب ... في جناب أخضر الزرع رغيد
رمت الشمس خيوط الذهب ... فجرت فوق رفيف العشب
نهلت عيناي من بهجتها
آه! كم طفت بها غير وحيد
ونسيم عبهري خفق ... سرق العطر من الزهر النضيد
عبقت أنفاسه في الغسق ... وسرت في صبحه المؤتلق
راح يستاف فؤادي عطره
هاتفا في خفقه هل من مزيد؟
لألأ النور رؤوس الشجر ... في انهلال بالغ الحسن فريد
ووميض الطَّل فوق الزهر ... زاد حولي عبقري الصور
مجتلى صليت في محرابه
حلم النظرة صوفيَّ السَّجود
ساجعات الأيك في الحانها ... فرحة مرت على قلبي العميد
المراح الحق في تحنانها ... وهنيء العيش في أفنانها
سجعات لم تشبها كدرة
بدأت في مولد الدهر الأبيد
أيقظ الغافين نور المشرق ... حبَّذا يقظتهم بعد همود
أنا ما بين خيال مونق ... ملء نفسي ونهار مشرق
لمع في الشرق يوحي نورها
لفؤادي من أحاديث الخلود
مطلع النور شجاني نوره ... وجلى للنفس مومق العهود

أجمل البشر لنفسي ذكره ... أبدا يبهج روحي سحره
كم بعثت النفس في آفاقه
كلما ضاقت على نفسي قيودي
في فجاج الشرق أطوي الأعصرا ... من زمان شامخ العزِّ وطيد
إبتني المجد به عالي الذرى ... سادة كانوا كأساد الشَّرى
شدَّ ما يملأ نفسي كبرة
أن أغنِّي بالميامين الأسود
دولة الفاروق هزت خافقي ... وازدهاني الملك في دار الرشيد
أتأسى بجلال صادق ... كلما ضقت بشك طارق
في غد يوقظ فتيان الحمى
ومضات الوحي من مجد تليد
آذن المشرق بعد الغلس ... بصباح دافق النور جديد
لاح لي من فجره المنبجس ... لمح نور ليس بالمحتبس
إيه كم أبهجني من نوره
مولد هلَّ على الأفق البعيد!
صغت هذا الشعر من غرته ... وتغنيت به حلو النَّشيد
من سنا الشرق ومن روعته ... ومعاني السحر من فتنته
والوضاء الغُّر من أيَّامه
وحي (إليادي) وألحان قصيد
الى (الرسالة) الغراء
في عامها التاسع
للأديب إبراهيم محمد نجا
أقبلي كالربيع يخطر في الكو ... ن، فتهتز زهرة الأيام
أقبلي كالشباب يشرق في النف ... س فتشدوا عرائس الأحلام
أقبلي كالسرور، كالنشوة البي ... ضاء أو كالشفاء بعد السقام
أقبلي كالنسيم رقرقه الفج ... ر، فغنىً بأعذب الأنغام
أقبلي كالنمير يسكبه النَّب ... ع فتروي به القلوب الظوامي
كأغاني الطيور، كالأمل البا - سم، أو كالضياء بعد الظلام
كالأصيل الجميل كالشفق الحا ... لم كالفجر كالضحى البسام
كالندى في الزهور كالعطر في الأنفاس كالبدر في ليالي الغرام
أقبلي كالسلام بعد حروب ... طال فيها تناحر الأقوام
يا ابنة النيل إن في مصر نوًا ... ما، فهزِّي مضاجع النَّوام
وامسحي عنهم الفتور، يهبوا ... هبَّة الأسد روَّعت في الموامي
واسكبي في النفوس بلسمك الشا ... في، وبثي الحياة في الأجسام
واحملي المشعل الكبير وسيري ... في طريق الحياة نحو الأمام
إنما أنت قبسه من ضياء الله ... يهدي بها قلوب الأنام
إنما أنت يقظة بعد نوم ... وبلوغ المنى، ونيل المرام
ونعيم في العيش بعد شقاء ... وصفاء في الأفق بعد قتام
ووثوب إلى الأمام إلى الغا ... ية بعد النكوص والإحجام
وصمود إلى السماء إلى الذر ... وة بعد الحياة تحت الرغام
إنما أنت صرخة الحق في الشر ... ق، وبعث لعزة الإسلام
إنما أنت رجعة البطل الظا ... فر من ساحة الوغى والصدام
إنما أنت عودة النور والآ ... مال، بعد الظلام والآلام
لك في الشرق يا ابنة النيل ذكر ... ومقام أعظم به من مقام
في فلسطين كم أسوت جراحا ... ت وكفكفت من دموع سجام
ذدت عنهم أذى المغير بقول ... يتلظى لهيبه المترامي
ولو اسطعت غيره ذدت عنهم ... بشبا الرمح، أو بحد الحسام
في فلسطين! أين ما كان في مص ... ر، وأرض العراق أو في الشَّام؟
قد ربطت القلوب بعد انفصام ... وجمعت الصفوف بعد انقسام

وزرعت الآداب في شاطيء الني ... ل، ورؤيتها بماء الغمام
فزكا أصلها، وطابت فروعاً ... وتباهت بزهرها البسام
واستوت تحت ظلها لغة الدِّي ... ن، وقامت على أعز دعام
وحميت الأخلاق من سطوة الشر ... ر، وبغى الهوي، وجهل الطغَّام
وجمعت الشباب في ظل نبع ... عبقري الرؤى، طهور، سام
رفرفت فوقه الأماني، وغنت ... في رباه عرائس الإلهام
وهفت نحوه المواكب شتى ... تتشكى مما بها من أوام
فاسلكي في النفوس من نبعك العذ ... ب، وبثي الحياة في الأجسام
واحملي المشعل الكبير، وسيري ... في طريق الحياة نحو الأمام
واهزئي بالفناء يا زهرة الني ... ل، وعيشي على مدى الأعوام
وابسمي للخطوب إن عبس الدَّه ... ر، ولا تعبئي بكيد الخصام
ولك الحق غاية وطريق ... وإمام. . . أنعم به من إمام
ولك الله ناصر ومعين ... وهو نعم النصير، نعم الحامي
(طنطا)
إبراهيم محمد نجا
البريد الأدبي
متى ينضج الأديب؟ - 1
من قراء (الرسالة) شاب يقيم بإحدى قرى المنوفية، وهو شاب يشتعل حماسةً لأدبه، ويؤمن بأنه مظلوم أقبح الظلم، لأن (الرسالة) لا تلتفت إلى ما يرسل إليها من القصائد الجياد
كتب إليَّ هذا الشاب منذ شهرين خطابا يشرح فيه الأستاذ الزيات عن فنه الجميل، وكان خطابه قطعة نثرية مقبولة، فرجوت أن يكون شعره مثل نثره، ودعوته إلى إرسال إحدى قصائده (لأتوسط) في نشرها بالرسالة، فجاءت منه قصيدة طويلة تشهد بأنه بعيد من الصياغة الشعرية، وإن كان على شيء من قوة الإحساس. . . وكانت النتيجة أن أشارك هذا الشاب في حقده على الأستاذ الزيات لتغافله عن القيمة (الصحيحة) لأشعار المبتدئين!!
وفي هذا اليوم تلقيت خطابين من هذا الشاب يفيضان بالتوجع والتفجع، وينذران بخاتمة أليمة، إن قصَّرت في تشجيعه على نشر ما يريد. والخواتم الأليمة معروفة، وأخفها أن يحبس الشاب نفسه في قرار النيل إلى يوم البعث، بعث الأشعار والأجساد! وقد تفضل هذا الشاب بإرسال صورته إليَّ، فقد تبخل الأقدار بأن أراه، وعندئذ تكون هذه الصورة مبعث ندم مقيم على ما ضيعت عليه من فرص التشجيع!
وأجيب بأن لهذا الشاب أن يقتل نفسه حين يشاء، ما دام يتوهم أن الحياة كل الحياة أن ينشر قصيدة في إحدى المجلات، وإن لم يصل إلى النضج الصحيح
لقد قلت ألف مرة ومرة: إن التسامح مع المبتدئين جرم فظيع، لأنه يهوِّن عليهم الحياة الأدبية، ويوهمهم أن الأدب لا يفرض على أصحابه تكاليف من الدراية والخبرة والاطلاع على أسرار الوجود
اسمع. يا بني
تنقسم الأخشاب إلى أنواع: خشب للوقود، وخشب للسقوف، وخشب للنوافذ والأبواب، وخشب لدقائق الأثاث، والنوع الأخير هو أثمن الأخشاب فهل تعرف أعمار هذه الأصناف؟
تتفاوت أعمارها بحسب القيمة، فمن الأخشاب ما ينضج في خمسة أعوام، ومنها ما ينضج في خمسين عاماً، لأن الطبيعة لا تقدر على إنضاج الصنف الجيد إلا في الأزمان الطوال
فكم سنك، يا بني؟ كم سنك، فلن تكون قيمتك إلا بقدر ما أنفقت الطبيعة من الزمن في
تكوين عقلك؟
صورتك تحدثني بأنك لم تجاوز العشرين؟ فهل تصدِّق أن الأديب الجيد يتمَّ لأحد في سن العشرين، تلك أيام خلت، حين كان جمهور الشاعر والخطيب من عوامِّ الناس، أما اليوم فجمهور الشاعر والكاتب والخطيب، جمهور مزوَّد بثقافات لا تخطر لمن كان في

مثل سنك على بال، وهو جمهور لا يتصدق على أحد بالمنازلة الأدبية، وإنما يخضع راغماً لسيطرة العبقريين، أو شهرة النوابغ، فانتظر حظك إن استمعت قولي وأجلت توديع الحياة إلى أجل بعيد

وتقول إنك تحب، وإن لك عواطف تستحق التسجيل فما أنت والحب، وهو من مثلك أشبه الأشياء بعبث الوليد؟ الحب من مثلك فورة سطحية لا تصل إلى أعماق الروح، لأن الحب أيضاً يفرض ألواناً من التثقيف، وهي عزيزة عليك، لأنك في سن العشرين، سن الأطفال، فإن لم يكن بد من أن تعبر عن عواطفك فعبِّر عنها بأسلوب من يكون في سنك، وذلك بعض الأنامل، أو نطح الجدران، أو الامتناع من تناول الغذاء!!

اسمع، يا بنيَّ

لعلك خدعت بما كان يقال من بخل الكهول بتشجيع الشباب، فجئت تتهم صاحب (الرسالة) بالتجني عليك، فاعرف الآن أن ذلك اتهام مردود، وإنما الحق كل الحق أنك لم تقدم شيئاً يحسن عرضه على القراء، فأنت ما زلت في دور التكوين، إلا أن تريد أن يكون عمر مواهبك قريباً من عمر خشب الوقود، وهذا أيضاً أنواع، فخشب السنط يحتاج إلى عمر أطول من عمر الصفصاف، ليكون أقوى وأنفع، والقوة والنفع لا يوهبان في الزمن القليل

يجب أن يعرف شبان اليوم أن الصحافة الأدبية ليست ميداناً للتمرين، فالقارىء لا يدفع (القرش) إلا إذا اطمأن إلى أنه سيجد زاداً للعقل والقلب والذوق. والصحافة الأدبية هي عنواننا في الشرق، فيجب أن تكون حروفها من عصارة العقول والقلوب، وتلك هي المزية الأصيلة للصحافة الأدبية في هذا الجيل

أنا هذا، وأنا، فقد كنت أحب أن يكون في الصحافة ميدان للتمرين، ولكن ما الذي يصنع الصحفيون وقد صارت الصحافة من الميادين الاقتصادية، والنضال في عالم الاقتصاد لا يفوز فيه إلا من يقدمون أجود الأصناف؟

قلت لكم من قبل إن الكاتب الذي يعتمد على ماضيه كاتب مخذول، لأن القارىءيحكم على الكاتب بآخر مقال. ولمجلة الرسالة ماض جميل، ولكنها لا تعتمد عليه، وإنما تعتمد على ثروتها الجديدة في كل أسبوع، فاعرف ذلك أيها الأديب المنتظر. أعد نفسك لجهاد الأيام المقبلات. كتب الله لك العافية، ونجاك من جميع الأسواء؛ إنه قريب مجيب.

الى الأستاذ سباعي بيومي - 1

نشرت الرسالة كلمة بإمضاء محمد فهيم عبيد عن كلام وقع منك وأنت تحاضر عن المبرد بمدرسة دار العلوم، فقد تحدثت عن أخلاق الشيخ سيد المرصفي بما لا يليق، فإن كان ذلك الكلام لم يقع منك فانفه في العدد المقبل، وإن كان وقع منك فسارع إلى الاعتذار، إبقاء على ما بيني وبينك من وداد، فما أستطيع السكوت عن رجل يتعرض لأخلاق الشيخ سيد المرصفي بسوء، ولو كان من أعز الأصدقاء

وإلى أن يثبت الراوي افتري عليك، أعلن غضبي على ما بدر منك، فقد كنت أظن أنك تعرف أن الشيخ سيد المرصفي لم تلاميذه يحفظون عهده الوثيق

وسنرى كيف تجيب، إن كنت في العدوان عللا ذلك الرجل العظيم من الأبرياء

زكي مبارك

بحث لا تجريح

عزيزي الأستاذ الزيات

بعد التحية. أرجو أن يتسع عدد الرسالة القادم لرد أطلعني عليه اليوم عبد الرحمن أفندي أيوب الطالب بدار العلوم على التعليق الذي نشر في عدد الرسالة الماضي على محاضرتي (أسلوب المبرد في كامله) ولك الشكر

السباعي بيومي

مسألة المرحوم المرصفي لم تبلغ من الأمر ما وصف، وبفرض ذلك فمنذ متى . . . كان المرصفي من المقدسين الذين لا تجوز تخطئتهم ولا نقدهم؟ وإذا كان لتقدمه في الزمن سلفاً صالحاً_كما يعبر الكاتب_مبرأ من العيوب، أفليس من باب أولى أن يكون المبرد تبعاً لهذا القياس أصلح منه وأقوى لغة وأدباً وعلماًكما هو الواقع، يزين كل هذا تواضع واعتراف

بأن هذا أمر لا يعرفه إذا لم تكن له به سابقة علم، بينما يعبر المرصفي بقوله: (كذب المبرد في هذا)، و (المبرد في هذا كاذب) دون تورع عن هذا التعبير الجاف الجافي
إن الأستاذ السباعي لم يقل عن المرصفي إلا أنه كان يملكه الغرور؛ والمرصفي ذاته يسجل على نفسه هذا في كل ما كتب خاصة في مقدمة (رغبة الآمل وأسرار الحماسة)، وكأنه لا يعترف لأحد سواه بعلم من المتقدمين أو المتأخرين
والأستاذ السباعي في حديثه عن المبرد وما يتصل به إنما يصدر في ذلك عن دراسة بعيدة الأمد؛ فهو قد كتب (تهذيب الكامل) من أكثر من عشرين سنة؛ ثم كانت طبعته الأولى سنة 1923. فهل يستطيع الزميل أن يريني مظاهر الأستاذية بعد أن يعلم أن الطبعة الأولى من رغبة الآمل كانت سنة 1930، وأن فهارس الكتاب وعناوينه تتفق إلى حد كبير مع تلك التي كان أستاذنا السباعي أول من نظمها في كتابه الذي سبق كتاب المرصفي بنحو سبع سنين. أم أن الأمر لا يعدو أسبقية الزمن فيحكم الزميل بهذه الأستاذية في سذاجة سطحية
إن الكمال العلمي لا يهتم كثيراً بالتوافه، وإن السماحة الفكرية في دار العلوم تسمح بكل شيء إلا التهجم والنيل المستور بستار من الغيرة أو الحماسة للعلماء
عبد الرحمن أيوب
القصص
من أيام الصبا
للأستاذ محمود البدوي
كنا خمسة. . . خمسة من الشبان المتمردين على الجماعة والخارجين على حدود الناس، والذاهبين مع مرح الشباب ولهوه. . . كنا قد انقطعنا عن المدرسة، وتخلفنا عن الرفاق، وسرنا مع نزق الشباب وطيشه، فطردنا من الأهل وحرمنا من الصحب، وتقطعت بنا الأسباب. . . وذهبنا على وجوهنا نبغي العيش من التصعلك والتشرد وركوب متن الأهواء. . . ثم ارتددنا على أعقابنا، وضمتنا القرية الحبيبة بعد طول شتات. . . فانطلقنا نعمل في الحقول ونشرف على حراسة المزارع. . .
وكانت الأيام المشردة قد مسحت ما على أجسامنا من غضارة المدينة ولينها، فالتفت سواعدنا واشتد عودنا، وأصبحنا أقوى ساعداً وأعظم قوة من هؤلاء الريفيين الذين يقضون
حياتهم بين أحضان الطبيعة، ناعمين بالحياة الحرة، في الهواء الطلق، والجو المشمس. . .
كنا جالسين في حقل من حقول المزرعة وحولنا الأجران، والليل ضارب بجرانه والصمت رهيب. . . وكنا قد تأخرنا عن زمن الحصاد، فحرمنا بذلك من أمتع (أيام الصبا) ولهوه. . .
كنا نقف وراء صفوف الحاصدين ونرقب هذه السواعد القوية وهي تطوي سنابل القمح طياً، وخلفنا الفتيان الأشداء يكومون الأحمال وينيخون الإبل، ونساء الفلاحين يلتقطن السنبل الساقط، ويجمعن قوت الأيام السود. . . وكنا نزجر العجائز الدميمات منهن، وندع الصبايا الجميلات يتوغلن حتى الحقول. . . كانت أسواطنا تخطىء دائماً. . . ومع ذلك، فما قطعنا القلوب حسرات، ولا ندمنا على ما فرط منا من إثم. . . كنا ذاهبين مع الصبا بقلوب نزقة، لا نحسب لأوضاع الناس حسابا. نتخذ من عطلة الصيف وأيام الحصاد مرتعا خصبا لشبابنا الجامح وعواطفنا الجائشة. . . ونظل النهار بطوله واقفين في قلب المزرة تحت لفح الشمس، لا نكل ولا نمل، لأننا نرى في كل ساعة وجها فاتناً صبوحاً من تلك الوجوه القروية النضرة التي تستغرق الطرف، وإن كانت تعيش في ظلام الفقر وبؤسه. . .
فاذا أقبل العشى انطلقنا وراء الإبل المحملة بالقمح، وخلفها الجمالون يحدونها بأصواتهم الشجية. . . حتى نبلغ الأجران، فتناخ الإبل، وتفك عنها أحمالها، وهي تهدر هديراً قوياً كان يبعث فينا النشاط والحماسة والقوة. . .
فإذا تمت الأجران وعلت كالأطواد اتخذنا من ظلالها
جائزة بابا نويل
ذكرتني مقالة (ذوي السلطان) في بعض أعداد الرسالة الأخيرة بعظيم آخر من المتعاقلين المتعالين كنت مرؤوساً له يوم نشرت ترجمتي لأقاصيص طاغور، وقد

أهديت نسخة منها إليه بمحضر من بعض أصدقائه
قال وهو يتعالم: (طاغور هذا رجل عظيم)
قلت: (هو ممن حازوا جائزة نوبل)
وما كدت ألفظ بكلمة نوبل حتى بدت عليه علائم خيبة الأمل فيَّ وقال في صوت شديد الدلالة على الأسف: (أو أنت أيضاً تنطقها بالباء)
قلت فما صحتها أفادنا الله بعلمك؟ فقال هي جائزة بابا نويل وقد حذفت كلمة بابا على سبيل التخفيف، ثم شاعت كلمة نوبل من باب التحريف
قلت أفادكما الله! وما أحسب الحائزين لجائزة نوبل إلا فرحين مبتهجين لو ردت إليهم الطفولة فاستبدلوا بالجائزة هدية من هدايا بابا نوبل
وانصرفت مع أحد الذين حضروا الحديث، فقلت له ما رأيك فيما سمعت؟
قال: العلم واسع
قلت: والجهل أوسع
عبد اللطيف النشار
وأوكارها أعشاشاً لغرامنا. كان كل شيء في تلك الساعات النزقة اغتصاباً وقسوة. كانت لنا الساعة التي نحن فيها، لم نكن نفكر في المستقبل، ولا كانت عيوننا ترتد إلى الماضي. كنا نطوي الشهور في المزارع بين الرياض والغياض، ولا نرى منازلنا إلا نادراً.
كان من الصعب علينا أن نحبس قوتنا الدافقة وحيويتنا العظيمة بين الجدران. كنا كالأعشاب البرية وهي تنمو تحت أشعة الشمس على أتم غراس وأنضجه، نفتح سواعدنا عندما يشعشع النور ونستقبل بصدورنا ندى الفجر، ونود من قوة عضلاتنا لو نقاتل ونرضي تلك الغريزة الفطرية في الإنسان
كنا مسلحين دائماً حول أجسامنا أنطقة البارود، فإذا أقبل الليل وضل إنسان العين في سواده، صوبنا بنادقنا في كبد الفضاء، وأطلقنا النار وأرسلنا عيوننا وراء سهام البارود النارية وهي تخترق حجب الظلام الكثيف، وملأنا خياشيمنا برائحة البارود. . .
كانت تلك الليالي من أمتع ليالي حياتنا، وكانت ذكراها تبعث فينا الحماسة والنخوة. . . كنا نذكرها وكأننا ننظر إلى حلم جميل ولى
رحنا نسترجع تلك الذكريات الحلوة ونحن جالسون في هذه الليلة الصيفية المظلمة على جرن عال يشرف على أجران المزرعة، والظلام من حولنا شديد، والمكان موحش رهيب. . .
وكان جرن كبير من الأجران قد ذرىً وأعد قمحه للمخازن. وكان علينا أن نسهر عليه حتى تنطوي فحمة الليل، فأخذنا نتبادل الأحاديث الممتعة ونطرد النوم بكل الوسائل. .
أوقدنا النار، وشربنا الشاي، ولمعنا البنادق وملأنا خزاناتنا بالرصاص
وكان ينهض واحد منا كل ساعة ومعه كلبان من كلاب الحراسة، فيدور حول المزرعة ويتفقد مرابط الخيل وحظائر الماشية. . .
ونهض أحدنا، وكنا مستغرقين في الحديث فلم نشعر بغيابه. . .، وسمعنا على غرة نباح كلاب شديد قادم من شرق المزرعة. . . ثم ومض البارود، وأز الرصاص، وملأ الدخان عنان الجو، فنهضنا مسرعين واتجهنا إلى الناحية التي سمعنا منها صوت الطلقات. . .
ثم خفنا أن تكون هذه حيلة بارعة لتبعدنا عن المزرعة، فعدنا إلى مكاننا وأعيننا لا تتحول عن سهام النيران الحامية. . .
وانقطع صوت النار وبقى صوت الكلاب، وأخذ نباحها يقترب منا. . . ثم برز شبح في الظلام، فصوبنا بنادقنا وهتفنا بالقادم. . . فرد علينا اسماعيل (أحد رفاقنا) بصوت أجش. . . واقترب منا وهو يلهث، ووجهه يتصبب عرقاً، وغدارته تفوح منها رائحة البارود. . .
فصحنا في صوت واحد
- وهل أصبت. . .؟
- لا ولله الحمد. . . وإنما كدت أن أقتل. . . وكل ذلك بسبب هذين الملعونين. . .
واستطرد وهو يشير إلى واحد من الكلبين
_ لن ترافقني مرة أخرى يا مسعود!
فسأله رفيق له:

_ هل مررت على القرية؟
فأجاب في إيجاز متعمد:
_ أجل. . .
_ وهل كان من الضروري ذلك في هذه الساعة من الليل. . .؟
_ أجل. . . كنت في حاجة إلى تبغ. . .
_ أكنت في حاجة إلى تبغ أم كنت في حاجة إلى شيء آخر. . .؟
فصمت ولم يجب على أن وجهه كان ناطقاً بفعلته. . .
وسأله أحدنا مازحا:
_ أكنت تعس حول المزرعة أم كنت تسطو على بيوت الناس؟. . . هكذا والله هي الحراسة. . .
وضحكنا جميعاً، وعدنا إلى مكاننا الأول من الحقل، وجلس اسماعيل ناحية، وأخذ يمسح بندقيته، وعلى وجهه سمات من ارتد خائبا بعد جهاد طويل
وسأله أحدنا:
_ ولكن لماذا أطلقت النار. . .؟
_ أنا لم أبدأ بإطلاق النار، وإنما هم الذين بدأوا. . .
_ هم. . .! من هم. . .؟ من الذي أطلق عليك النار. . .؟
_ بصر بي بعض الفلاحين عندما نبح هذا الكلب الملعون وظنوني لصاً. . . وكنت على قيد أذرع من خبائها. . . فأطلقوا النار في الهواء. فغبت في جوف الظلام وأطلقت طلقتين معاً. . وجريت. . . وحلت لي هذه المطاردة وتصورت نفسي لصاً يبغي السرقة لا مخلوقاً دنيئاً يسطو على خباء امرأة في غلس الليل وتحت ستاره! وبادلت الفلاحين الطلقات السريعة. فظنوني عصابة كاملة من الأشقياء ثم راوغت تحت جناح الليل ووليت هارباً
_ ما كان أحلاها قتلة. . .!
_ أجل والله ما كان أحلاها قتلة. . . وما كان أطيب وقع النعي على نفسها. . .!
وقال عثمان وهو يبتسم ابتسامة عريضة وكان أشد رفاقنا بطشاً وأعظمهم قوة:
_ أي مشقة يلقاها الرجل دائماً وهو في طريقه إلى الرذيلة ومع ذلك لا يزجر. . .!
وصمت برهة ليشعل لفافة تبغ. . . والابتسامة لا تبارح وجهه القوي التعابير الدقيق الملامح. . . ثم أجاب على سؤاله بنفسه:
_ لماذا؟ أجل لماذا؟ ألأن ركوب الصعب من الأمور دائماً شائق، أم لأن الاستيلاء على ما في حوزة الناس فيه إمتاع ولذة؟ ماذا كان يحدث يا صاح لو رآك زوجها. . . أي موقف حرج. . . دفعت نفسك فيه. . . وأي مصيدة؟ أنا أعرف أن المرأة هي علة الشقاء الإنساني. . . كما أنها قد تكون علة هنائه أيضاً. . . ذكرتني أيها الأخ الشهم. . . بحادث كدت أن أنساه فما تحدثت به لإنسان؛ بيد أني أشعر برغبة قوية تدفعني إلى أن أقصه عليكم. . .
فسررنا وتوقعنا في حديث صاحبنا مغامرة ممتعة نتسلى بها حتى انبلاج الصبح ونظرنا إليه في شوق ولهفة، وكان قد أطرق، ثم رفع وجهه وقد غامت عيناه قليلاً، ثم لانت ملامح وجهه. وأنشأ يقول بصوت واضح النبرات:
_ كنت في التاسعة عشرة من عمري وفي أول دراستي العالية، وكان قد مضى عليَّ سبعة أعوام في القاهرة قضيت جانباً منها مع بعض أقربائي، ومضيت الجانب الآخر مع بعض الأسر الفرنجية التي تنزل عن غرفة من سكنها للطلاب البعيدين عن أهاليهم. . . وكنت دائماً أتخير الأسر الهادئة الكريمة الخلق وأقمت مرة مع سيدة أجنبية، وكانت صبية جميلة وحديثة العهد بالقاهرة. وكان زوجها يعمل سحابة النهار وجزءاً كبيراً من الليل، وكنت أرجع من المدرسة في الساعة التي يكون فيها الرجل قد عاد من عمله. . ولهذا ما كنت أراه إلا نادراً. وكانت الزوجة مع جمالها دمثة الطبع، طيبة الأخلاق؛ فأخذت تعني بي عناية فائقة: ترتب غرفتي، وتنظم كتبي، وترتق ملابسي الممزقة وتعمل لي أكثر مما تعمل لزوجها. وكانت تحب أن ترى ما في القاهرة من حسن، فزرنا معاً أجمل الضواحي وأنضر البساتين، وهي تزداد بي كل يوم تعلقاً وألفة، حتى توثقت بيننا عرى المودة وأصبحت تترقب عودتي من الجامعة أكثر مما تترقب عودة زوجها من عمله، وأصبحت ألج عليها غرفتها في أي وقت، وأراها على أي حال تكون

. . .عليه
ومرت أيام وأنا لا أحس بوجود الزوج معنا في منزل واحد وأصبحنا من وفرة السعادة كأننا في حلم جميل. . .
رجعت مرة إلى المنزل ساعة الظهر فلم أجد السيدة في ردهة البيت كعادتها، وكنا في قلب الصيف، والحر شديد فتمددت عل فراشي ونمت. واستيقظت قبل مغرب الشمس وهتفت باسمها فلم تجب. . . فنهضت من فراشي ومشيت نحو فسحة البيت فرأيت باب غرفتها مواربا فأدركت أنها نائمة
وحركت بابها برفق. . . ودخلت وعيني على السرير. . . فوجدت جسماً ممدداً ملتفاً في ملاءة بيضاء. . . وحلى لي أن أداعبها قبل إيقاظها فتقدمت من السرير حتى قربت منها وجذبت رجلها فلم تتحرك. . . فتحولت إلى خصرها ودغدغتها. . . ووقفت أرقب حركة جسمها وأنا لا أكاد أتماسك من مغالبة الضحك المكتوم. . . وتحرك الجسم أخيراً وانزاحت
الملاءة. وظهرت مقدمة رأس. . . رأس صلعاء. . .!
فذهلت وسمرت في مكاني مبهوتاً
_ كان وجه زوجها. . .؟
_ أجل. . .
فانفجرنا ضاحكين. . . ولما هدأت عاصفة الضحك عاد الصديق إلى حديثه
_ كان موقفاً حرجاً. . . فشدهت. . . ووقفت ذاهب النفس وجسمي يتصبب عرقاً. ثم رأيت نفسي أقول في غضب بصوت المحموم:
_ سأغادر الغرفة يا سيدي. . .!
فنظر إلى الرجل دهشاً. . . وقال وهو يصعد في بصره:
_ ستغادر الغرفة! ما السبب يا سيدي! ما الذي جرى؟
_ أثاث الغرفة رث. . . ثم هي بعد ذلك متناهية في القذارة
_ كيف ذلك يا سيدي وقد جئنا لك بكل شيء جديد؟
_ أبداً إنها غاية في القذارة
وتدفق من فمي كلام لا أعرف له مرمى وكان لا بد من ذلك لأنجو بأعصابي
وعدت إلى غرفتي وأنا لا أكاد أتصور شيئاً مما حدث، ولازمتني حالة من الهدوء غريبة. . . ثم لبست ملابسي وخرجت إلى الطريق. . . وهنا عادت إليَّ الخواطر وأخذت أتصور الموقف على شناعته وحال الزوج بعد أن يرجع إلى نفسه ويدرك أني كنت متهجما على مخدع زوجه. . . وواضعاً يدي على سريرها. . . وجسمها .!
وظللت جزءاً كبيراً من الليل وأنا متردد بين العودة إلى المنزل أو إيفاد صديق ليجيء لي بمتاعي وكتبي. . . ثم رأيت الرأي الأول واتجهت صوب البيت وأنا مقدر كل الأحداث. . . وكان الزوجان قد ناما. . . وبقيت أساهر النجم حتى الصباح
ورأت الزوجة في اليوم التالي جالسة تقرأ في كتاب على أريكة في الردهة. . . فمررت بها وأنا أذوب خجلاً. . . وتطلعت إلى وجهها فرأيته لا ينم على شيء مما حدث بيني وبين زوجها، فقد كانت تبتسم في مرح. . . فغاظني هذا وبلغ مني الألم مبلغه وقضيت بعد ذلك أياماً في البيت ونظري لا يقوى على مجابهة الرجل، وكان يغيظني منه
بروده وهدوءه وامتلاكه زمام أعصابه وكنت أتخيل أنه بلغ مبلغاً هائلاً من خبث الطوية وبراعة الحيلة وأرى في صمته تبييتاً لأمر في نفسه، وكنت أود لو يثور ويضاربني وتنتهي المعركة بيننا مع أسوإ الفروض
وجاءت عطلة العيد فبارحت الغرفة إلى الريف ولم أعد إليها بعد ذلك أبداً. . . تركتها فخلفاً فيها أمتعتي وكتبي. . . وهي تذكار دائم على أيام هنية
ولا زلت أرى المرأة وزوجها كلما ذهبت إلى القاهرة. . . وأغلب الظن أنهما لم يغيرا المنزل. . . كما أن الرجل لا يزال على حاله هادئاً بارد الطبع لا تعبر ملامح وجهه عن حزن أو فرح أو أي انفعال نفساني. . . أو عاطفة من عواطف الجنس البشري أما المرأة فقد أصيبت بأزمة نوعا!
وفرغ صاحبنا من قصته وانطلق يدخن، وعدنا نشرب الشاي، وكان الفجر قد قرب وبدت خيوط النور في الشفق، فدرنا حول المزرعة لآخر مرة، وكنا قد تعشينا في أول

الليل، فلما دنا الفجر أحسسنا بجوع شديد وكان الطعام سيجيء إلينا عند الشروق ولا طاقة لنا على انتظاره فقد اشتدت وطأة الجوع وأخذت بطوننا تعصرنا عصراً. . .
وبعثنا اثنين منا إلى حديقة كروم قريبة ليحملا لنا منها ما يمسك بطوننا. وجلسنا في انتظارهما بصبر فارغ وقد انقطعنا عن الحديث. وإذا بنا نسمع نباح كلاب المزرعة فجأة. فصوبنا أبصارنا تجاه الصوت فرأينا غباراً شديداً يسد عرض الأفق. ومددنا أعناقنا فأبصرنا قطعاناً كبيرة من الضأن قادمة من الطريق الزراعي الكبير ومتجهة إلى بعض القرى القريبة. . . وظهر أمامنا رجلان ضخمان يلوحان بعصوين طويلتين. . . وحول القطيع كلاب كاسرة تطوقه من كل جانب وخلف القطيع امرأة ترتدي دثاراً أسود فاحماً. . . وتهش بعصا رقيقة على الغنم وتزجر في صوت رنان كلاب المزرعة عن كلابها. . .
وقربت القطعان منا. . . وكان أحد الرجلين معلقاً في عنقه مزماراً طويلاً. . . أما الآخر فكان يحمل على ظهره قربة ضخمة فيها متاعهم. . . وأخذنا نرقب القطيع بعيني الصقر حتى بعد عنا فشيعناه بأبصارنا وبطوننا الخاوية تمزق أحشاءنا. وحدجنا الأحمال الصغيرة التي تتوثب حول القطيع الماضي في طريقه بعيون جائعة ومر في ذهننا خاطر سريع ودون أن ننبس بكلمة انسللنا في أثر القطيع متجنبين طريقه. . . وجرينا شوطاً، ثم كمنا
في جرن كبير من أجران القمح الهش في أقصى المزرعة ومرت قطعان الضأن وملأ خياشيمنا الغبار المتطاير من أرجلها. وكانت المرأة لا تفتأ تتلفت يمنة ويسرة وتضرب الصغار بعصاها. . . وجاوزوا حدود المزرعة وابتدأ الرجل حامل المزمار يزمر، ومدت القطعان أعناقها ثم تقدمت في صمت وسكون عجيبين. وانقطعت المرأة بعد صوت المزمار عن الكلام، وسكنت حركة الكلاب وانقطع نباحها. وكان في القطيع حمل صغير ما فتيء طول الطريق يتوثب ويركض في كل اتجاه، ويضرب برجليه الأرض. فلما سمع صوت المزمار سكن أيضاً واستقام بأعجوبة كسائر رؤوس القطيع. . . وكنا قد تهيأنا له لنقتنصه. . . فما سمعنا صوت المزمار حتى شلت أيدينا وعجزنا عن الحركة، وبقينا ممددين على الأرض وعيوننا تتطلع إلى السماء وتتأمل النجوم. . . ورجع المزمار الحلو يتردد. كان كأنه مزمار داود يبعث من وراء الأجيال ويدوي وحده في هذا الليل وهذا السكون. ظللنا في مكاننا حابسين أنفاسنا، وصوت المزمار يهفو، والقطيع يسير، ونحن نرقبه عن بعد ولا نستطيع أن نتحرك
ورجعنا إلى مكاننا من الحقل ونحن لا نستطيع أن نعلل هذه الظاهرة الغريبة التي اعترتنا في تلك الساعة. أكان ذلك من تأثير الموسيقى، أم شعور آخر أيقظته الموسيقى
وعاد الرفيقان الذاهبان في طلب الكروم. . . وكان أحدهما يحمل كروماً، أما الآخر فكان يحمل شيئاً آخر. . . كان يحمل حمل الضأن الذي أفلتناه من أيدينا وأشعلنا النار وشويناه. . . وكنا ننظر إلى اللهب الأحمر وهو يشوي لحمه. . . ونتصوره منذ لحظات وهو يجري ويتوثب بين رفاقه مرحاً سعيداً طروباً، فيعصر الهم أفئدتنا ولما جلسنا نأكل انقطعنا جميعاً عن الكلام كأن على رؤوسنا الطير. وكانت كل قطعة من اللحم تستقر في جوفنا تمزق أحشائنا تمزيقاً. . . كنا نتصور أن الحمل لا يزال يجري ويتوثب والقطيع يسير والمزمار يزمر

محمود البدوي

من وراء المنظار

صاحب السلطان الحقيقي - 2

قدمت صاحب السلطان الحقيقي إلى قرائي في المرة السالفة أو بالأحرى قدمتهم إليه! فهو من يقدم إليه الناس جميعاً ولا يقدم قط إلى أحد، ومن كان يماري في ذلك فليشهد مجلساً من مجالسه ثم لينظر هل يقدم هو مهما كان من خطره إلى صاحب السلطان أم يقدم صاحب السلطان إليه حرصت بعد المرة الأولى على رؤيته حرصاً إنسانياً كل متعة وحقر في نفسي كل فرجة فأعددت منظاري وظللت أنتظر بصبر فارغ وشوق نازع حتى حانت الفرصة فدعاني إلى داره رجل من أطراف القرية رأيت وجهه يقطر السرور وهو يفضي إلي بما نال من شرف ضيافته الشيخ في تلك الليلة وتفضل الرجل فدعا شاباً من ذوي قرباي كان معي فقبل كما قبلت واشترط مثلما

اشترطت ألا نمكث حتى العشاء، فما كان كلانا يتطلع إلا إلى رؤية الشيخ. وكان رفيقي الشاب قد تشوق إلى رؤيته بعد ما سمعه عنه وكان وقد ظفر بالأمس القريب بإحدى الإجازات العليا تمتلئ رأسه بفلسفة الفلاسفة. ولعله كان يرغب أن يعد لنفسه منظاراً مثل منظاري، أو لعله كان يريد أن يطبق على الشيخ ما في رأسه من فلسفة. فقد حدثني أنه يعلم من أمر هؤلاء الأشياخ أنهم جدً أذكياء وأنهم يسيرون على قواعد (سيكولوجية) دقيقة تغيب عن الإغفال من العامة.

وكان صاحبي ونحن في الطريق إلى تلك الدار التي احتوت الشيخ وحاشيته يحدثني ضاحكا أنه كف يده في الصباح بعد أن هم بالتصدق على مسكين بنصف ريال وأنه يخشى أن يظهر الشيخ كرامته فيفضح بخله في المجلس

وبلغنا الدار فإذا حشد من أنماط الناس من رجال ونساء قرب الباب، وإذا الشارع أمامها مكنوس مرشوش، وإذا وفود المدعوين يدخلون الدار قبلنا؛ وإذا الدخان يتصاعد من النوافذ. ولما كنا في وسط الدار لم يفت منظاري ذلك النشاط الذي ملأها، فهؤلاء النسوة مشتغلات كل منهن بعمل يتصل بإعداد الطعام، وفتيان الدار يدخلون ويخرجون من المنظرة التي جلس فيها الشيخ وفي أيديهم (صينيات) القهوة والقرفة والشاي ووجوههم جميعاً متهللة مستبشرة

ودخلنا المنظرة فهب من فيها جميعاً وقوفاً لتحيتنا إلا الشيخ؛ ولأهل الريف أريحية جميلة في اللقاء والترحيب. ورفع الشيخ عينيه وهو متكئ على وسادتين في صدر القاعة، وما إن رآنا من عنصر المطربشين حتى سرت في وجهه غمة أسرع فأخفاها؛ وتكلف البشاشة، وسرنا نحوه فتظاهر أنه يهم بالوقوف فأقسمت عليه ألا يفعل؛ ومد إلينا يده وهو جالس فسلمنا، وما كان أعظم دهشة هؤلاء الوقوف من الرجال حينما رأونا لا نقبل يد الشيخ! وما كان أعظم أسفي أن أكدر عليهم صفوهم بهذا الذي فعلت وصاحبي! ولكن ما الحيلة وعندي أن أبكيهم جميعاً أسهل عليَّ من أن ألثم تلك اليد الكريمة؟

وأرادوا أن يفسحوا لنا مكاناً في صدر الحجرة ولكن الشيخ حريص على أن يظل دراويشه إلى جانبه؛ وأنقذت أنا الموقف فأشرت عليهم بإحضار كرسيين لنا قرب الباب لنستريح في جلستنا في ملابسنا الإفرنجية. وقبل أن نجلس سألت الشيخ ألا يؤاخذنا إن جلسنا ونحن أعلى منه فطيبت بذلك خاطر صاحب الدار وضيفانه، ثم قلت إن بركة الشيخ لتمسنا ونحن بعيدان، فرشفني بنظرة مستريبة ثم ردها سريعاً وفي وجهه الراحة والضيق معاً، فهو مرتاح إلى هذا التكريم الذي يصدقه مني الجلوس وإن لم يصدقه هو، ثم هو ضائق بخبثي وبحضوري وصاحبي في تلك الساعة

واتجهت الأنظار إلى الشيخ وكان صاحبي من الدهشة كأنه ذهل عن نفسه؛ وساد السكوت لحظة فما يتكلم أحد حتى يتكلم الشيخ. وكنت قبل دخولنا الحجرة تبينت صوته وهو يتحدث عن المال وأنه عرض زائل، وعن الجود والبخل، وفطنت إلى أنه كان في سيرة أحد البخلاء. ولم يفطن صاحبي إلى شيء لدهشته ولأنه لا يعرف صوت الشيخ. وغمغم الشيخ ثم عاد إلى ما كان فيه من حديث، ولحديث البخل عنده قيمته فقال: (هيه. . . سبحان من يرث الأرض ومن عليها. . . هو حد منا راح يأخذ حاجة معاه. . . إيه نصف ريال ولا نصف جنيه ولا حاجه فارغة زي دي. . . يا ما فلوس بتروح في المسخرة)

وتشعب الحديث، وأديرت علينا أقداح القرفة أكثر من مرة ونحن لا نستطيع لما نسمع من الأيمان لها رداً. ثم سمعت صاحب الدار يسأل عن شخص اسمه عمر ورأيت الشيخ ينهض واقفاً ثم يجلس بعد بضعة ثوان؛ ولكنه لا يلبث حتى ينهض مرة ثانية فعجبت وخفت أن يكون ذلك منه نذيراً بحريق جديد؛ وما جلس للمرة الثانية حتى صاح صاحب الدار بمن

يدعى عمر كرة أخرى. فهب الشيخ واقفاً من فوره، ففطنت أنه لن يطيق أن يسمع اسماً من أسماء الخلفاء الراشدين وهو جالس، وتتبعته أنظر مبلغ ما في هذا الظن من صحة فاتسق لي القياس كل مرة

وكان ذلك قد ألهاني لحظة عن صاحبي الذي سرت الدهشة في وجهه لذكر نصف الريال والذي أخذ إجلاله للشيخ وإيمانه به يتغلب شيئاً فشيئاً على مظاهر النكران والجحود في وجهه وخوافي العلم والفلسفة في نفسه ورأسه. . .!

ودخل رجل فشكا إلى الشيخ أن ابنه لا ينام ليله مستريحاً، وتناول الشيخ ورقاً وقلماً وخط له حجاباً وصرفه فخرج الرجل فرحاً مطمئناً. ودخل ثان فشكا إليه أنه محروم من البنين وأنه يتحرق شوقاً إلى غلام يؤنسه وللشيخ ما يطلب. وضحك الشيخ من سذاجته إذ يصرح أمام الناس أو يظن أن الشيخ يطلب شيئاً، وطلب الشيخ منه منديلاً فلم يجد معه شيئاً فأخذ طاقيته ووضعها في حجره وقرأ ثم قرأ وردها إليه وبشره بغلام؛ ونهض الرجل وكأنه يحمل بين يديه ذلك الغلام. . .

ودخلت امرأة ملففة في ثيابها وطرحتها ترجو من الشيخ رقية لوحيدها كي يعيش، فجاد عليه الشيخ برقية وخرجت المرأة مزهوة؛ ودخلت بعدها غيرها تستجير ببركة الشيخ، فإن ابنتها يرتعد جسدها الملتهب وتمسكها (الملعونة) حتى ما تفارقها؛ وفهمت أنا أن المسكينة مريضة بحمى كانت الملاريا، وأمرها الشيخ أن تحضر وعاء به ماء، فذهبت فأحضرته، وتناوله الشيخ فقرأ ثم قرأ، وصاحبي ينظر دهشاً، وبصق فيه الشيخ بصقه على رغم علم صاحبي وفلسفته، وناوله المرأة لتشرب ابنتها من ذلك الماء أثناء الليل، وكم تمنيت لو قفزت من مكاني فحطمت ذلك الوعاء وأسلت بركته على رأس الشيخ!

ودخل شاب قوي البنية، بادي الجرأة، فما دنا من الشيخ حتى صرخ الشيخ في وجهه يطرده ويصيح به: أيها العاصي، ابعد عني. وتوسل الشاب إليه حتى سمح له بالجلوس، وأمر الشيخ دراويشه، فطرحوا ذلك الفتى ورفعوا رجليه على نحو ما فعل معلم الصبيان في المكتب، وتناول الشيخ عصاه وهم يضربه. فاستجار الفتى بالنبي، فألقى الشيخ العصا وهم واقفاً، ثم أمر أعوانه فأطلقوه، وأخذ عليه الشيخ العهود والمواثيق ويده على المصحف، ثم صرفه والناس يعجبون كيف عرف الشيخ أنه شقي، ونسوا أن للشيخ دراويش هم مصدر علمه اللدني العجيب

وجاء بعد ذلك أمر حيرنا معاً أنا وصاحبي، وحار منظاري حتى كدت أشك أن الشيخ قد أفسد عليّ بكراماته سحره، فقد جيء للشيخ بأربعة فتيان متهمين في سرقة فجلسوا أمامه يرتعدون فرقا وكلهم ينكر ما نسب إليه، ولما يئس منهم الشيخ طلب بيضة بطة أو إوزة فذهب صاحب الدار ليحضرها ولما عاد بها قابله أحد الدراويش عند الباب وأخذها منه، ثم وضعها في جيبه حتى طلبها الشيخ فأخرجها وأعطاها إياه أمام أعيننا ووضعها الشيخ تحت يسراه، ثم قرأ وقرأ وقال إنه سيرفع يده فتتجه البيضة إلى السارق، ونظر في وجوه الفتية فأصروا على إنكارهم. وما كان أشد عجبي وعجب الجالسين جميعاً أن رأينا الشيخ يرفع يده فتظل البيضة في مكانها بضع ثوان، ثم تبدأ تتدحرج وتقف، ثم تتدحرج وتقف، وعظم خوف السارق بطبيعة الحال، وقبل أن تنحرف البيضة إلى من سرق أخذها الشيخ وقد بعدت عنه نحو ثلاثة أذرع وأمر الفتية أن يخرجوا فيفضي من سرق منهم بسره إلى من يرسله معهم من الدراويش، وعاد ذلك الدرويش بعد قليل يحمل المصاغ المسروق!

وأقبل من في الحجرة على الشيخ يقبلون يديه، ونظر إلي صاحبي وقال في لهجة عجيبة: (وما قولك؟ بل ماذا يرى منظارك في هذه المعجزة؟) ونهض الشيخ واقفاً فدعا دراويشه ومن جلس معه إلى (حلقة ذكر) وبدأ ذلك الذكر في حماسة شديدة واشتدت الحركات وارتفعت الأصوات، ونسى الناس أنفسهم حول الشيخ وعظمت الرهبة في وجه صاحبي الشاب فأمسكت بذراعه مخافة أن يثب فينضم إلى الحلقة!

وكان موعد تقديم الطعام قد قرب فانتظرنا وصاحبي حتى انتهت لحظة التجلي، وخرجنا بعد أن سلمنا من بعد على الشيخ ومن معه وسرنا وصاحبي يسألني في لهجة كلهجة طفل خارج من ملعب يستوضح أباه حركة (بهلوان)؛ ولم نكد نبعد حتى سمعنا من يشاركنا الحديث، فإذا هو أحد دراويش الشيخ السالفين وهو اليوم من الخارجين عليه، وقال ضاحكا: طول ما في البلد مغفلين وأكل العيش سهل. يا سيدنا الأفندي البيضة كانت موجودة في جيب صاحبنا غير الثانية، وهي فارغة وفي جوفها خنفسة. . . دا شغل إحنا عارفينه، وبكرة يا ما يشيل الشيخ من الطيور والسمن والخرفان وهو خارج من البلد. وضحك صاحبي وأخذ يعود إلى جحوده ونكرانه الخفيف

العقد الفريد
للأستاذ محمد سعيد العريان
بعد أسابيع قليلة، تظهر الطبعة الجديدة من كتاب (العقد الفريد) التي تنشرها المكتبة التجارية بالقاهرة، في ثمانية مجلدات؛ وقد حققها وضبطها وراجعها على مصادرها الأولى الأستاذ محمد سعيد العريان
ونحن ننشر فيما يلي المقدمة الجامعة التي قدم بها هذه الطبعة للتعريف بالكتاب؛ إذ) كان مما يهم كثيراً من قراء الرسالة أن يعرفوا عن الكتاب ما لا بد أن يعرفوه؛ وخاصة إن كان هذا البحث مما يدخل في المنهج الذي أعدته وزارة المعارف لامتحان المسابقة (بين المدرسين للترقية إلى المدارس الثانوية
يعد كتاب (العقد) لابن عبد ربه من أقدم ما وصل إلينا من كتب الأخبار والنوادر؛ لم يسبقه إلى هذا الباب فيما نعرف إلا ثلاثة نفر: الجاحظ صاحب البيان والتبيين، سنة 255هـ وابن قتيبة صاحب عيون الأخبار، سنة 276هـ؛ والمبرِّد صاحب الكامل سنة 285هـ
على أن ابن عبد ربه وإن كان مسبوقاً إلى التأليف في هذا الباب قد اجتمع له في هذا الكتاب ما لم يجتمع مثله في كتاب قبله ولا بعده من كتب هذا الفن، فكان بذلك حقيقاً بالمنزلة العلية التي أحله إياها أدباء العربية؛ إذ كان مصدراً من أهم مصادر التاريخ الأدبي التي يعول عليها ويستند اليها، بحيث لا يغني غناءه كتاب في المكتبة العربية على غناها وما احتشد فيها من تراث أدباء العرب
والحق أن هذا الكتاب هو موسوعة أدبية عامة، يوشك من ينظر فيه أن يجزم بأنه لم يغادر شيئاً مما يهم الباحث في (علم العرب) إلا عرض له، وأعني بـ (علم العرب) مجموعة المعارف العامة في الأدب والتاريخ والسياسة والاجتماع التي تتكون منها عناصر الثقافة العربية العامة لعهد مؤلف هذا الكتاب؛ وحتى الفروع التي انشعبت من علم العرب قريباً من ذلك التاريخ واختصت بالبحث في (علوم الدين) ثم تميزت باستقلالها. . . لا يعدم الباحث أن يجد فروعاً من مسائلها قد عرض لها صاحب العقد في أبواب متفرقة من كتابه، لعله لا يجد لكثير منها نظائر في كثير من الكتب الخالصة للبحث في هذه العلوم
وثمة فضل آخر يميز صاحب العقد على سابقيه ممن عرضوا لهذا الباب، هو أن ابن عبد
ربه أندلسي من أهل الجزيرة يتحدث عن أدب المشارقة فلا تقِّصر به مغربيته عن اللحاق والسبق؛ ولعل هذا كان بعض دواعي ابن عبد ربه إلى تأليف كتابه؛ إذ كان في طبعه من المنافسة وحب الغلب ما يحفزه إلى هذا المضمار، كما سنذكره بعد
وليس بي حاجة إلى الحديث عن نهج صاحب العقد في تأليف كتابه؛ فقد تكفل هو بتبيان ذلك في مقدمة الكتاب؛ ولكن الذي يعنيني أن أذكره هنا، هو أن ذلك النهج الذي سلكه مسبوقاً إليه وسلكه كذلك من بعده، كان يستند إلى قاعدة مقررة (في علم الأدب) كما عرفه القدماء. أنظر إلى ابن خلدون يقول في مقدمة تاريخه: (هذا العلم - يعني علم الأدب - لا موضوع له ينظر في إثبات عوارضه أو نفيها، وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته، وهي الإجادة في فنَّي المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم؛ فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الملكة، من شعر عالي الطبقة، وسجع متساو في الإجادة، ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة أثناء ذلك متفرقة، يستقري منها الناظر في الغالب معظم قوانين العربية، مع ذكر بعض من أيام العرب، ليفهم به ما يقع في أشعارهم منها. وكذلك ذكر المهم من الأنساب الشهيرة والأخبار العامة؛ والمقصود بذلك كله ألا يخفي على الناظر فيه شيء من كلام العرب وأساليبهم ومناحي بلاغتهم إذا تصفحه. . . . . ثم إنهم إذا أرادوا حدَّ هذا الفن قالوا: الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها، والأخذ من كل علم بطرف)
هذا الحد الذي ذكره ابن خلدون في تعريف علم الأدب - توفي سنة 808 هـ، كان معروفاً لكل المشتغلين بالأدب قبل عهد ابن خلدون، وعليه كان نهج المؤلفين قبل ابن عبد ربه وبعده: يجمعون من أشعار العرب وأخبارها، ويأخذون من كل علم بطرف؛ ليكون من ذلك سبيل إلى تحصيل الملكة، وإلى الإجادة في فنَّي المنظوم والمنثور على أساليب العرب مناحيهم؛ وإذا كان ابن عبد ربه لم يقصد من كتابه إلى أكثر من

هذا المعنى، فقد كان ذلك نهجه في تصنيف كتابه والحشد له، والتفنن فيما ينقل ويختار من أشعار العرب وأخبارها، ومن أطراف كل علم وطرائفه

ولقد وفق ابن عبد ربه فيما جمع لكتابه من فنون الأخبار، ورعته العناية رعاية هيأت لكتابه الخلود والذكر؛ فإن كثيراً مما اجتمع له في هذا الكتاب قد عصفت الأيام بمصادره

الأولى فدرست آثارها وضاعت فيما ضاع من تراث المكتبة العربية وآثار الكتاب العرب، وبقى العقد خلفاً منها لا غناء عنه ولا بديل منه، يرجع إليه الأديب والمؤرخ واللغوي والنحوي والعروضي وصاحب الأخبار والقصص، فيجد كل طلبته وغرضه ولا يستغني عنه غير هؤلاء من طلاب النوادر والطرف في باب الطعام والشراب والغناء والنساء والحرب والسياسة والاجتماع ومجالس الأمراء ومحاورات الرؤساء، وغير ذلك مما لا يستوعبه الحصر ولا يبلغه الإحصاء

على أن ابن عبد ربه لم ينظر فيما جمع لكتابه من الفنون نظر المختص، بحيث يختار ما يختار لكل فرع من فروع المعرفة بعد نقد وتمحيص واختبار، فلا يقع منه في باب من أبواب الفن إلا ما يجتمع عليه صواب الرأي عند أهله، لا؛ ولكنه نظر إلى جملة ما جمع نظر الأديب الذي يروي النادرة لحلاوة موقعها لا لصحة الرأي فيها، ويختار الخبر لتمام معناه لا لصواب موقعه عند أهل الرأي والنظر والاختصاص. أنظر إليه فيما روي من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم مثلاً، تجد الصحيح والمردود والضعيف والمتواتر والموضوع. واقرأ له ما نقل من حوادث التاريخ وأخبار الأمم والملوك، تجد منه ما تعرف وما تنكر، وما تصدق وما تكذب، وما يتناقض آخره وأوله، ولم يكن ابن عبد ربه من الغفلة بحيث يجوز عليه ما لا يجوز، ولكنه جامع أخبار ومؤلف نوادر، جمع ما جمع وألف ما ألف، ولكل ناظر في الكتاب بعد ما يأخذ وما يدع. ذلك كان شأنه وشأن المؤلفين في هذا الفن من قبله ومن بعده، على حدود متعارفة بينهم ورسوم موضوعة على أن ذلك لا يعني أن ما جمع من مثل تلك الأحاديث وهذه الأخبار ليس له مغزاه عند أهل الاختصاص والفن، ولكنها أشياء للاستدلال لا للدليل كما يقول أصحاب المنطق

ذلك هو موجز الرأي في التعريف بهذا الكتاب وقيمته فيما عرض له من أبواب العلم والأدب، وبقي علينا أن نعرف المصادر التي استند إليها ابن عبد ربه من الكتب والرواة

يقول ابن عبد ربه في مقدمته: (وقد ألفت هذا الكتاب، وتخيرت جواهره من متخير جواهر الأدب ومحصول جوامع البيان، فكان جوهر الجوهر ولباب اللباب، وإنما لي فيه تأليف الاختيار، وحسن الاختصار، وفرش لصدر كل كتاب؛ وما سواه فمأخوذ من أفواه العلماء، ومأثور عن الحكماء والأدباء

وهذا الذي يقوله المؤلف في وصف كتابه، يدعونا إلى السؤال: من أين اختار ابن عبد ربه مختاراته؟ وما هي مصادره الأولى؟

انظر إليه تجده يروي عن الشيباني، والمدائني، والأصمعي، وأبي عبيدة، والعتبي، والشعبي، والسجستاني، والجاحظ، وابن قتيبة، والمبرد، والرياشي، والزيادي، وابن سلام، وابن الكلبي، وغيرهم من علماء المشارقة؛ وعن الخشني، وابن وضاح، وبقي بن مخلد، من علماء الأندلس؛ فأي هؤلاء لقي ابن عبد ربه فأخذ عنهم شفة إلى شفة، وأيهم نقل إليه من أخباره راوية عن رواية؟

لم يعرض أحد ممن ترجموا لابن عبد ربه - للحديث عن رحلة له إلى المشرق، إلا فروضاً نظرية استنبطها بعض المتأخرين لدلائل يستند إليها في كتاب (العقد) ولا نراها تصلح للاستدلال؛ فلم يبق إلا أن صاحب العقد قد روى من أخبار المشارقة ما نقل إليه حيث هو في مقامه من قرطبة، ولم يعبر البحر ولم يركب الصحراء؛ وقد كان من شيوخ ابن عبد ربه في الأندلس كما سنذكره بعد: الخشني، وبقي بن مخلد، وابن وضاح؛ وللأولين منهم رحلة إلى المشرق ورواية

على أن كثيراً من كتب المشارقة وعلومهم كانت ذائعة بالأندلس لعهد ابن عبد ربه، وكان لها عند العلماء منزلة ومكان؛ فليس ثمة ما يمنع أن يكون ابن عبد ربه قد استعان كثيراً أو قليلاً بما كانت تضم المكتبة العربية في قرطبة من آثار المشارقة.

(البقية في العدد القادم)

محمد سعيد العريان

الشروق. . .
مهدأة إلى (الرسالة) عروس المشرق في صباح عيدها
(التاسع)
للأستاذ محمود الخفيف
شدَّ مَا ذَكَّرَ قَلْبِي الْفَرَحَا ... مَوْلِدُ النُّورِ عَلَى الأُفْقِ الْبَعِيدِ
كَمْ هَفاَ الْقلْبُ إليه وَصَحَا ... وَاجْتَلَى في الشَّرْقِ هَذا الوَضحَا
وَرَأى في كلِّ رُكْنٍ بَسْمَةً
حُلْوَةً تُهْدَي إلي الصُّبْحِ الوَليد
في شِعَابِ النَّفْسِ أَلْقَي الاْبتِسَامَا ... فَلَقٌ هِمْتُ بِمَسرَاهُ المَدِيدِ
!زِدْت مَا دُرْتُ بِعَيْنَيَّ هُيَامَا ... بِسناً يَا حُسْنَهُ إذ يَتَرَامَى
لَمَحَاتٌ كابْتِسَامَاتِ الْمُنَى
وَرُؤًى مِثْلُ رُؤَى الْحُلمِ السَّعِيد
السَّنَا الوَرْدِيَّ حَوْلَ الأُفُقِ ... ذَابَ في فَيْضٍ من النُّورِ جَدِيدِ
ملْءُ نَفْسِي سْحرُ هَذا الشَّفَقِ ... أَلَقٍ أَجْمِلْ بِهِ مِنْ أَلَقِ
أَمْسِ كَمْ كَانَ لِرُوحي مَنْهَلاً
قَبْلَ هَذا الثُكْلِ في قَلْبِي الشَّهِيدِ
رَفَّ قلبِي للسَّنَا الْمنْسَكِبِ ... في جَنَابِ أخضر الزَّرْعِ رَغِيدِ
رَمَتْ الشمْسُ خُيُوطَ الذَّهَبِ ... فَجَرَتْ فَوْقَ رَفِيفِ العُشُبِ
نَهَلَتْ عَيْنَايَ مِنْ بَهْجَتِهَا
آه! كَمْ طُفْتُ بهَا غَيْرَ وَحِيدِ
وَنَسِيمٍ عَبْهرِي خَفِقٍ ... سَرَقَ الْعِطْرَ مِنَ الزَّهْرِ النَّضِيدِ
عَبِقَتْ أَنفَاسُهُ فِي الْغَسَقِ ... وَسَرَتْ فِي صُبْحِهِ الْمُؤْتَلِقِ
رَاحَ يَسْتَافُ فُؤَادِي عِطْرَهُ
هَاتِفاً فِي خَفْقِهِ هَلْ مِنْ مَزِيدِ؟
لألأ النورُ رُؤُوسَ الشَّجَرِ ... فِي انْهِلاَلٍ بَالِغ الْحُسْنِ فَرِيدِ
وَوَمِيضُ الطَّلِّ فَوْقَ الزَّهَرِ ... زَادَ حَوْلِي عَبْقَرِيَّ الصُّوَرِ
مُجْتَلًى صَلَّيْتُ فِي مِحْرَابِهِ
حَالِمَ النَّظْرَة صُوفِيَّ السُّجُودِ
سَاجِعَاتُ الأَيْكِ فِي أَلْحَانِهَا ... فَرْحَةٌ مَرَّتْ عَلَى قَلْبِي العَمِيدِ
المِرَاحُ الْحَقُّ فِي تَحْنَانِهَا ... وَهَنِيْءُ الْعَيْشِ فِي أَفْنَانِهَا
سَجَعَاتٌ لَمْ تَشُبْهَا كُدْرَةٌ
بَدَأَتْ فِي مَوْلِدِ الدَّهْرِ الأَبِيدِ
أَيْقَظَ الْغَافِينَ نُورُ المشْرِقِ ... حَبَّذَا يَقْظَتُهُمْ بَعْدَ هُمُودِ
أَنَا مَا بَيْنَ خَيَالٍ مُونِقٍ ... مِلْءُ نَفْسِي وَنَهَارٍ مُشْرِقٍ
لُمَعٌ فِي الشَّرْقِ يُوحِي نُورُهَا
لِفُؤَادِي مِن أَحَادِيثِ الْخُلُودِ
مَطْلَعُ النُّورِ شَجَانِي نُورُهُ ... وَجَلاَ لِلنَّفْسِ مَوْمُوقٌ العُهُودِ
أَجَمَلُ البِشْرِ لِنَفْسِي ذِكرُهُ ... أَبَداً يُبْهِجُ رُوحِي سِحْرُهُ
كَمْ بَعَثْتُ النَّفْسَ فِي آفَاقِهِ
كلَّما ضَاقَتْ عَلَى نَفْسِي قُيُودِي
فِي فِجَاجِ الشَّرْقِ أَطْوِي الأَعْصُرا ... مِنْ زَمَانٍ شَامِخِ العِزِّ وَطِيدِ
إِبْتَنَي الْمَجْدَ بِهِ عَالِي الذُّرَى ... سَادَةٌ كَانُوا كأَسَادِ الشَّرَى
شَدَّ مَا يَمْلأُ نَفْسِيَ كِبْرَةً
أَنْ أُغَنِّي بِالمَيَامِين الأُسُودِ
دَوْلَة الفَارُوقِ هَزَّتْ خَافِقِي ... وَارْدَهَانِي الْمُلْكُ فِي دَارِ الرَّشِيدِ
أَتَأَسَّى بِجِلاَلٍ صَادِقٍ ... كلَّمَا ضِقْتُ بِشَكٍّ طَارِقِ
فِي غَدٍ يُوقِظ فِتْيَانَ الْحِمَى
وَمَضَاتُ الوَحْيِ مِنْ مَجْدٍ تَلِيدِ
آذَنَ الْمَشْرِقُ بَعْدَ الْغَلْسِ ... بِصَبَاحٍ دَافِقِ النورِ جَدِيدِ

لاَحَ لِي مِنْ فَجْرِهِ المنْبَجِسِ ... لَمْحُ نُورٍ لَيْسَ بالمُحْتَبسِ
إِيهِ كَمْ أَبْهَجَنِي مِنْ نُورِهِ
مَوْلِدٌ هَلَّ عَلَى الأُفْقِ الْبَعِيدِ!
صُغْتُ هَذا الشِّعْرَ مِنْ غُرَّتِهِ ... وَتَغَنَّيْتُ بِهِ حُلْوَ النَّشِيدِ
مِنْ سَنَا الشَّرْقِ وَمِنْ رَوْعَتِهِ ... وَمَعَانِي السِّحْرِ مِنْ فِتْنَتِهِ
وَالوِضَاءِ الْغُرِّ مِنْ أيامهِ
وَحْيُ (إِلْيَادِي) وَأَلْحانُ قَصِيدِي
إلى (الرسالة) الغراء
في عامها التاسع
للأديب إبراهيم محمد نجا
أقبلي كالربيع يخطر في الكو ... ن، فتهتز زهرة الأيام
أقبلي كالشباب يشرق في النف ... س فتشدوا عرائس الأحلام
أقبلي كالسرور، كالنشوة البي ... ضاء أو كالشفاء بعد السقام
أقبلي كالنسيم رقرقه الفج ... رُ، فغنَّى بأعذب الأنغام
أقبلي كالنمير يسكبه النَّبْ ... عُ فتروى به القلوب الظوامي
كأغاني الطيور، كالأمل البا - سم، أو كالضياء بعد الظلام
كالأصيل الجميل كالشفق الحا ... لم كالفجر كالضحى البسام
كالندى في الزهور كالعطر في الأن ... فاس كالبدر في ليالي الغرام
أقبلي كالسلام بعد حروب ... طال فيها تناحر الأقوام
يا ابنة النيل إن في مصر نوَّا ... ما، فهزِّي مضاجع النوَّام
وامسحي عنهم الفتور، يهبوا ... هبَّة الأسْد روِّعت في الموامي
واسكبي في النفوس بلسمك الشا ... في، وبثي الحياة في الأجسام
واحملي المشعل الكبير وسيري ... في طريق الحياة نحو الأمام
إنما أنت قَبْسة من ضياء الل ... هـ يهدي بها قلوب الأنام
إنما أنت يقظة بعد نوم ... وبلوغ المنى، ونيل المرام
ونعيم في العيش بعد شقاء ... وصفاء في الأفق بعد قتام
ووثوب إلى الأمام إلى الغا ... ية بعد النكوص والإحجام
وصعود إلى السماء إلى الذر ... وة بعد الحياة تحت الرغام
إنما أنت صرخة الحق في الشر ... ق، وبعث لعزة الإسلام
إنما أنت رجعة البطل الظا ... فر من ساحة الوغى والصدام
إنما أنت عودة النور والآ ... مال، بعد الظلام والآلام
لك في الشرق يا ابنة النيل ذكرٌ ... ومقام أَعْظِمْ به من مقام
في فلسطين كم أسوت جراحا ... ت وكفكفت من دموع سجام
ذدت عنهم أذى المغير بقول ... يتلظى لهيبه المترامي
ولو اسطعت غيره ذدت عنهم ... بشبا الرمح، أو بحد الحسام
في فلسطين! أين ما كان في مص ... رَ، وأرض العراق أو في الشَّام؟
قد ربطت القلوب بعد انفصام ... وجمعت الصفوف بعد انقسام
وزرعت الآداب في شاطئ النيـ ... ل، ورؤيتها بماء الغمام
فزكا أصلها، وطابت فروعاً ... وتباهت بزهرها البسام
واستوت تحت ظلها لغة الدِّي ... ن، وقامت على أعز دعام
وحميت الأخلاق من سطوة الشرْ ... رِ، وَبغْى الهوي، وجهل الطَغام
وجمعت الشباب في ظل نبع ... عبقري الرؤى، طهور، سام
رفرفت فوقه الأماني، وغنت ... في رِباه عرائس الإلهام
وهفت نحوه المواكب شتى ... تتشكى مما بها من أَوَام
فاسكبي في النفوس من نبعك العذ ... ب، وبثي الحياة في الأجسام
واحملي المشعل الكبير، وسيري ... في طريق الحياة نحو الأمام
واهزئي بالفناء يا زهرة النيـ ... ل، وعيشي على مدى الأعوام
وَابسمي للخطوب إن عبس الدَّهْ ... رُ، ولا تعبئي بكيد الخصام
ولك الحق غاية وطريق ... وإمامٌ. . . أنعم به من إمام

ولك الله ناصر ومعين ... وهْو نعم النصير، نعم الحامي
(طنطا)
إبراهيم محمد نجا
البريد الأدبي
متى ينضج الأديب؟ - 1
من قراء (الرسالة) شاب يقيم بإحدى قرى المنوفية، وهو شاب يشتعل حماسةً لأدبه، ويؤمن بأنه مظلوم أقبح الظلم، لأن (الرسالة) لا تلتفت إلى ما يرسل إليها من القصائد الجياد
كتب إليَّ هذا الشاب منذ شهرين خطاباً يشرح فيه تغافل الأستاذ الزيات عن فنه الجميل، وكان خطابه قطعة نثرية مقبولة، فرجوت أن يكون شعره مثل نثره، ودعوته إلى إرسال إحدى قصائده (لأتوسط) في نشرها بالرسالة، فجاءت منه قصيدة طويلة تشهد بأنه بعيد من الصياغة الشعرية، وإن كان على شيء من قوة الإحساس. . .
وكانت النتيجة أن أشارك هذا الشاب في حقده على الأستاذ الزيات لتغافله عن القيمة (الصحيحة) لأشعار المبتدئين!!
وفي هذا اليوم تلقيت خطابين من هذا الشاب يفيضان بالتوجع والتفجع، وينذران بخاتمة أليمة، إن قصَّرت في تشجيعه على نشر ما يريد. والخواتم الأليمة معروفة، وأخفها أن يحبس الشاب نفسه في قرار النيل إلى يوم البعث، بعث الأشعار والأجساد!
وقد تفضل هذا الشاب بإرسال صورته إليَّ، فقد تبخل الأقدار بأن أراه، وعندئذ تكون هذه الصورة مبعث ندم مقيم على ما ضيعت عليه من فرص التشجيع!
وأجيب بأن لهذا الشاب أن يقتل نفسه حين يشاء، ما دام يتوهم أن الحياة كل الحياة أن ينشر قصيدة في إحدى المجلات، وإن لم يصل إلى النضج الصحيح
لقد قلت ألف مرة ومرة: إن التسامح مع المبتدئين جرم فظيع، لأنه يهوِّن عليهم الحياة الأدبية، ويوهمهم أن الأدب لا يفرض على أصحابه تكاليف من الدراية والخبرة والاطلاع على أسرار الوجود
اسمع. يا بني
تنقسم الأخشاب إلى أنواع: خشب للوقود، وخشب للسقوف، وخشب للنوافذ والأبواب، وخشب لدقائق الأثاث، والنوع الأخير هو أثمن الأخشاب فهل تعرف أعمار هذه الأصناف؟
تتفاوت أعمارها بحسب القيمة، فمن الأخشاب ما ينضج في خمسة أعوام، ومنها ما ينضج في خمسين عاماً، لأن الطبيعة لا تقدر على إنضاج الصنف الجيد إلا في الأزمان الطوال
فكم سنك، يا بني؟ كم سنك، فلن تكون قيمتك إلا بقدر ما أنفقت الطبيعة من الزمن في
تكوين عقلك؟
صورتك تحدثني بأنك لم تجاوز العشرين؟ فهل تصدِّق أن الأدب الجيد يتمَّ لأحد في سن العشرين، تلك أيام خلت، حين كان جمهور الشاعر والخطيب من عوامِّ الناس، أما اليوم فجمهور الشاعر والكاتب والخطيب، جمهور مزوَّد بثقافات لا تخطر لمن كان في مثل سنك على بال، وهو جمهور لا يتصدق على أحد بالمنازلة الأدبية، وإنما يخضع راغماً لسيطرة العبقريين، أو شهرة النوابغ، فانتظر حظك إن استمعت قولي وأجلت توديع الحياة إلى أجل بعيد
وتقول إنك تحب، وإن لك عواطف تستحق التسجيل
فما أنت والحب، وهو من مثلك أشبه الأشياء بعبث الوليد؟
الحب من مثلك فوره سطحية لا تصل إلى أعماق الروح، لأن الحب أيضاً يفرض ألواناً من التثقيف، وهي عزيزة عليك، لأنك في سن العشرين، سن الأطفال، فإن لم يكن بد من أن تعبر عن عواطفك فعبِّر عنها بأسلوب من يكون في سنك، وذلك بعض الأنامل، أو نطح الجدران، أو الامتناع من تناول الغداء!!
اسمع، يا بنيَّ
لعلك خدعت بما كان يقال من بخل الكهول بتشجيع الشباب، فجئت تتهم صاحب (الرسالة) بالتجني عليك، فاعرف الآن أن ذلك اتهام مردود، وإنما الحق كل الحق أنك

لم تقدم شيئاً يحسن عرضه على القراء، فأنت ما زلت في دور التكوين، إلا أن تريد أن يكون عمر مواهبك قريباً من عمر خشب الوقود، وهذا أيضاً أنواع، فخشب السنط يحتاج إلى عمر أطول من عمر الصفصاف، ليكون أقوى وأنفع، والقوة والنفع لا يوهبان في الزمن القليل

يجب أن يعرف شبان اليوم أن الصحافة الأدبية ليست ميداناً للتمرين، فالقارئ لا يدفع (القرش) إلا إذا اطمأن إلى أنه سيجد زاداً للعقل والقلب والذوق. والصحافة الأدبية هي عنواننا في الشرق، فيجب أن تكون حروفها من عصارة العقول والقلوب، وتلك هي المزية الأصيلة للصحافة الأدبية في هذا الجيل

أقول هذا، وأنا آسف، فقد كنت أحب أن يكون في الصحافة ميدان للتمرين، ولكن ما الذي يصنع الصحفيون وقد صارت الصحافة من الميادين الاقتصادية، والنضال في عالم الاقتصاد لا يفوز فيه إلا من يقدمون أجود الأصناف؟

قلت لكم من قبل إن الكاتب الذي يعتمد على ماضيه كاتب مخذول، لأن القارئ يحكم على الكاتب بآخر مقال. ولمجلة الرسالة ماض جميل، ولكنها لا تعتمد عليه، وإنما تعتمد على ثروتها الجديدة في كل أسبوع، فاعرف ذلك أيها الأديب المنتظر. أعد نفسك لجهاد الأيام المقبلات. كتب الله لك العافية، ونجاك من جميع الأسواء؛ إنه قريب مجيب.

2 - إلى الأستاذ سباعي بيومي

نشرت الرسالة كلمة بإمضاء محمد فهيم عبيد عن كلام وقع منك وأنت تحاضر عن المبرد بمدرسة دار العلوم، فقد تحدثت عن أخلاق الشيخ سيد المرصفي بما لا يليق، فإن كان ذلك الكلام لم يقع منك فانفه في العدد المقبل، وإن كان وقع منك فسارع إلى الاعتذار، إبقاء على ما بيني وبينك من وداد، فما أستطيع السكوت عن رجل يتعرض لأخلاق الشيخ سيد المرصفي بسوء، ولو كان من أعز الأصدقاء

وإلى أن يثبت أن الراوي افتري عليك، أعلن غضبي على ما بدر منك، فقد كنت أظن أنك تعرف أن الشيخ سيد المرصفي له تلاميذه يحفظون عهده الوثيق

وسنرى كيف تجيب، إن كنت في العدوان على ذلك الرجل العظيم من الأبرياء

زكي مبارك

بحث لا تجريح

عزيزي الأستاذ الزيات

بعد التحية. أرجو أن يتسع عدد الرسالة القادم لرد أطلعني عليه اليوم عبد الرحمن أفندي أيوب الطالب بدار العلوم على التعليق الذي نشر في عدد الرسالة الماضي على محاضرتي (أسلوب المبرد في كامله) ولك الشكر

السباعي بيومي

. . . مسألة المرحوم المرصفي لم تبلغ من الأمر ما وصف، وبفرض ذلك فمنذ متى كان المرصفي من المقدسين الذين لا تجوز تخطئتهم ولا نقدهم؟ وإذا كان لتقدمه في الزمن سلفاً صالحاً - كما يعبر الكاتب - مبرأ من العيوب، أفليس من باب أولى أن يكون المبرد تبعاً

لهذا القياس أصلح منه وأقوى لغة وأدباً وعلماً كما هو الواقع، يزين كل هذا تواضع واعتراف بأن هذا أمر لا يعرفه إذا لم تكن له به سابقة علم، بينما يعبر المرصفي بقوله: (كذب المبرد في هذا)، و (المبرد في هذا كاذب) دون تورع عن هذا التعبير الجاف الجافي

إن الأستاذ السباعي لم يقل عن المرصفي إلا أنه كان يملكه الغرور؛ والمرصفي ذاته يسجل على نفسه هذا في كل ما كتب خاصة في مقدمة (رغبة الأمل وأسرار الحماسة)، وكأنه لا يعترف لأحد سواه بعلم من المتقدمين أو المتأخرين

والأستاذ السباعي في حديثه عن المبرد وما يتصل به إنما يصدر في ذلك عن دراسة بعيدة الأمد؛ فهو قد كتب (تهذيب الكامل) من أكثر من عشرين سنة؛ ثم كانت طبعته الأولى سنة 1923. فهل يستطيع الزميل أن يريني مظاهر الأستاذية بعد أن يعلم أن الطبعة الأولى من رغبة الأمل كانت سنة 1930، وأن فهارس الكتاب وعناوينه تتفق إلى حد كبير مع تلك التي كان أستاذنا السباعي أول من نظمها في كتابه الذي سبق كتاب المرصفي بنحو سبع سنين. أم أن الأمر لا يعدو أسبقية الزمن فيحكم الزميل

بهذه الأستاذية في سذاجة سطحية
إن الكمال العلمي لا يهتم كثيراً بالتوافه، وإن السماحة الفكرية في دار العلوم تسمح بكل شيء إلا التهجم والنيل المستور بستار من الغيرة أو الحماسة للعلماء
عبد الرحمن أيوب
جائزة بابا نويل
ذكرتني مقالة (ذوي السلطان) في بعض أعداد الرسالة الأخيرة بعظيم آخر من المتعاقلين المتعالين كنت مرؤوساً له يوم نشرت ترجمتي لأقاصيص طاغور، وقد أهديت نسخة منها إليه بمحضر من بعض أصدقائه
قال وهو يتعالم: (طاغور هذا رجل عظيم)
قلت: (هو ممن حازوا جائزة نوبل)
وما كدت ألفظ بكلمة نوبل حتى بدت عليه علائم خيبة الأمل فيّ وقال في صوت شديد الدلالة على الأسف: (أو أنت أيضاً تنطقها بالباء)
قلت فما صحتها أفادنا الله بعلمك؟ فقال هي جائزة بابا نويل وقد حذفت كلمة بابا على سبيل
التخفيف، ثم شاعت كلمة نوبل من باب التحريف
قلت أفادكما الله! وما أحسب الحائزين لجائزة نوبل إلا فرحين مبتهجين لو ردت إليهم الطفولة فاستبدلوا بالجائزة هدية من هدايا بابا نويل
وانصرفت مع أحد الذين حضروا الحديث، فقلت له ما رأيك فيما سمعت؟
قال: العلم واسع
قلت: والجهل أوسع
عبد اللطيف النشار
القصص
من أيام الصبا
للأستاذ محمود البدوي
كنا خمسة. . . خمسة من الشبان المتمردين على الجماعة والخارجين على حدود الناس، والذاهبين مع مرح الشباب ولهوه. . . كنا قد انقطعنا عن المدرسة، وتخلفنا عن الرفاق، وسرنا مع نزق الشباب وطيشه، فطردنا من الأهل وحرمنا من الصحب، وتقطعت بنا الأسباب. . . وذهبنا على وجوهنا نبغي العيش من التصعلك والتشرد وركوب متن الأهواء. . . ثم ارتددنا على أعقابنا، وضمتنا القرية الحبيبة بعد طول شتات. . . فانطلقنا نعمل في الحقول ونشرف على حراسة المزارع. . .
وكانت الأيام المشردة قد مسحت ما على أجسامنا من غضارة المدينة ولينها، فالتفت سواعدنا واشتد عودنا، وأصبحنا أقوى ساعداً وأعظم قوة من هؤلاء الريفيين الذين يقضون حياتهم بين أحضان الطبيعة، ناعمين بالحياة الحرة، في الهواء الطلق، والجو المشمس. . .
كنا جالسين في حقل من حقول المزرعة وحولنا الأجران، والليل ضارب بجرانه والصمت رهيب. . . وكنا قد تأخرنا عن زمن الحصاد، فحرمنا بذلك من أمتع (أيام الصبا) ولهوه. . .
كنا نقف وراء صفوف الحاصدين ونرقب هذه السواعد القوية وهي تطوي سنابل القمح طياً، وخلفنا الفتيان الأشداء يكومون الأحمال وينيخون الإبل، ونساء الفلاحين يلتقطن السنبل الساقط، ويجمعن قوت الأيام السود. . . وكنا نزجر العجائز الدميمات منهن، وندع الصبايا الجميلات يتوغلن حتى الحقول. . . كانت أسواطنا تخطئ دائماً. . . ومع ذلك، فما قطعنا القلوب حسرات، ولا ندمنا على ما فرط منا من إثم. . . كنا ذاهبين مع الصبا بقلوب نزقة، لا نحسب لأوضاع الناس حسابا. نتخذ من عطلة الصيف وأيام الحصاد مرتعاً خصباً لشبابنا الجامح وعواطفنا الجائشة. . . ونظل النهار بطوله واقفين في قلب المزرعة تحت لفح الشمس، لا نكل ولا نمل، لأننا نرى في كل ساعة وجهاً فاتناً صبوحاً من تلك الوجوه القروية النضرة التي تستغرق الطرف، وإن كانت تعيش في ظلام الفقر وبؤسه. . .
فإذا أقبل العشى انطلقنا وراء الإبل المحملة بالقمح، وخلفها الجمالون يحدونها بأصواتهم

الشجية. . . حتى نبلغ الأجران، فتناخ الإبل، وتفك عنها أحمالها، وهي تهدر هديراً قوياً
. . .كان يبعث فينا النشاط والحماسة والقوة
فإذا تمت الأجران وعلت كالأطواد اتخذنا من ظلالها وأوكارها أعشاشاً لغرامنا. كان كل
شيء في تلك الساعات النزقة اغتصاباً وقسوة. كانت لنا الساعة التي نحن فيها، لم
نكن نفكر في المستقبل، ولا كانت عيوننا ترتد إلى الماضي. كنا نطوي الشهور في
المزارع بين الرياض والغياض، ولا نرى منازلنا إلا نادراً. كان من الصعب علينا أن
نحبس قوتنا الدافقة وحيويتنا العظيمة بين الجدران. كنا كالأعشاب البرية وهي تنمو
تحت أشعة الشمس على أتم غراس وأنضجه. نفتح سواعدنا عندما يشعشع النور
ونستقبل بصدورنا ندى الفجر، ونود من قوة عضلاتنا لو نقاتل ونرضي تلك الغريزة
الفطرية في الإنسان
كنا مسلحين دائماً حول أجسامنا أنطقة البارود، فإذا أقبل الليل وضل إنسان العين في
سواده، صوبنا بنادقنا في كبد الفضاء، وأطلقنا النار وأرسلنا عيوننا وراء سهام البارود
. . .النارية وهي تخترق حجب الظلام الكثيف، وملأنا خياشيمنا برائحة البارود
كانت تلك الليالي من أمتع ليالي حياتنا، وكانت ذكراها تبعث فينا الحماسة والنخوة. . .
كنا نذكرها وكأننا ننظر إلى حلم جميل ولى
رحنا نسترجع تلك الذكريات الحلوة ونحن جالسون في هذه الليلة الصيفية المظلمة
على جرن عال يشرف على أجران المزرعة، والظلام من حولنا شديد، والمكان
. . .موحش رهيب
وكان جرن كبير من الأجران قد ذُرِيّ وأعد قمحه للمخازن. وكان علينا أن نسهر عليه
حتى تنطوي فحمة الليل، فأخذنا نتبادل الأحاديث الممتعة ونطرد النوم بكل الوسائل. .
. أوقدنا النار، وشربنا الشاي، ولمعنا البنادق وملأنا خزاناتها بالرصاص
وكان ينهض واحد منا كل ساعة ومعه كلبان من كلاب الحراسة، فيدور حول المزرعة
. . .ويتفقد مرابط الخيل وحظائر الماشية
ونهض أحدنا، وكنا مستغرقين في الحديث فلم نشعر بغيابه. . .، وسمعنا على غرة نباح
كلاب شديد قادم من شرق المزرعة. . . ثم ومض البارود، واز الرصاص، وملأ الدخان
عنان الجو، فنهضنا مسرعين واتجهنا إلى الناحية التي سمعنا منها صوت الطلقات. . .
ثم
خفنا أن تكون هذه حيلة بارعة لتبعدنا عن المزرعة، فعدنا إلى مكاننا وأعيننا لا تتحول
. . .عن سهام النيران الحامية
وانقطع صوت النار وبقى صوت الكلاب، وأخذ نباحها يقترب منا. . . ثم برز شبح في
الظلام، فصوبنا بنادقنا وهتفنا بالقادم. . . فرد علينا إسماعيل (أحد رفاقنا) بصوت
أجش. . . واقترب منا وهو يلهث، ووجهه يتصبب عرقاً، وغدارته تفوح منها رائحة
. . .البارود
فصحنا في صوت واحد
- هل أصبت. . .؟
- . . .لا ولله الحمد. . . وإنما كدت أن أقتل. . . وكل ذلك بسبب هذين الملعونين
واستطرد وهو يشير إلى واحد من الكلبين
- لن ترافقني مرة أخرى يا مسعود!
فسأله رفيق له:
- هل مررت على القرية؟
فأجاب في إيجاز متعمد:
- . . .أجل
- وهل كان من الضروري ذلك في هذه الساعة من الليل. . .؟
- . . .أجل. . . كنت في حاجة إلى تبغ
- أكنت في حاجة إلى تبغ أم كنت في حاجة إلى شيء آخر. . .؟
. . .فصمت ولم يجب على أن وجهه كان ناطقاً بفعلته
وسأله أحدنا مازحاً:
- أكنت تعس حول المزرعة أم كنت تسطو على بيوت الناس؟. . . هكذا والله هي
. . .الحراسة

وضحكنا جميعاً، وعدنا إلى مكاننا الأول من الحقل، وجلس إسماعيل ناحية، وأخذ يمسح بندقيته، وعلى وجهه سمات من ارتد خائباً بعد جهاد طويل
وسأله أحدنا:
- ولكن لماذا أطلقت النار. . .؟
- . . .أنا لم أبدأ بإطلاق النار، وإنما هم الذين بدءوا
- هم. . .! من هم. . .؟ من الذي أطلق عليك النار. . .؟
- بصر بي بعض الفلاحين عندما نبح هذا الكلب الملعون وظنوني لصاً. . . وكنت على قيد أذرع من خبائها. . . فأطلقوا النار في الهواء. فغبت في جوف الظلام وأطلقت طلقتين معاً. . وجريت. . . وحلت لي هذه المطاردة وتصورت نفسي لصاً يبغي السرقة لا مخلوقاً دنيئاً يسطو على خباء امرأة في غلس الليل وتحت ستاره! وبادلت الفلاحين الطلقات السريعة. فظنوني عصابة كاملة من الأشقياء ثم راوغت تحت جناح الليل ووليت هارباً
- . . .ما كان أحلاها قتلة!
- . . .أجل والله ما كان أحلاها قتلة. . . وما كان أطيب وقع النعي على نفسها!
وقال عثمان وهو يبتسم ابتسامة عريضة وكان أشد رفاقنا بطشاً وأعظمهم قوة:
- . . .أي مشقة يلقاها الرجل دائماً وهو في طريقه إلى الرذيلة ومع ذلك لا يزدجر!
وصمت برهة ليشعل لفافة تبغ. . . والابتسامة لا تبارح وجهه القوي التعابير الدقيق الملامح. . . ثم أجاب على سؤاله بنفسه:
- لماذا؟ أجل لماذا؟ ألان ركوب الصعب من الأمور دائماً شائق، أم لأن الاستيلاء على ما في حوزة الناس فيه إمتاع ولذة؟ ماذا كان يحدث يا صاح لو رآك زوجها. . . أي موقف حرج. . . دفعت نفسك فيه. . . وأي مصيدة؟ أنا أعرف أن المرأة هي علة الشقاء الإنساني. . . كما أنها قد تكون علة هنائه أيضاً. . . ذكرتني أيها الأخ الشهم. . . بحادث كدت أن أنساه فما تحدثت به لإنسان؛ بيد أني أشعر برغبة قوية تدفعني إلى أن أقصه عليكم. . .
فسررنا وتوقعنا في حديث صاحبنا مغامرة ممتعة نتسلى بها حتى انبلاج الصبح ونظرنا إليه في شوق ولهفة، وكان قد أطرق، ثم رفع وجهه وقد غامت عيناه قليلاً، ثم لانت ملامح وجهه. وأنشأ يقول بصوت واضح النبرات:
- كنت في التاسعة عشرة من عمري وفي أول دراستي العالية، وكان قد مضى عليَّ سبعة أعوام في القاهرة قضيت جانباً منها مع بعض أقربائي، ومضيت الجانب الآخر مع بعض الأسر الفرنجية التي تنزل عن غرفة من سكنها للطلاب البعيدين عن أهليهم. . . وكنت دائماً أتخير الأسر الهادئة الكريمة الخلق وأقمت مرة مع سيدة أجنبية، وكانت صبية جميلة وحديثة العهد بالقاهرة. وكان زوجها يعمل سحابة النهار وجزءاً كبيراً من الليل، وكنت أرجع من المدرسة في الساعة التي يكون فيها الرجل قد عاد من عمله. . . ولهذا ما كنت أراه إلا نادراً. وكانت الزوجة مع جمالها دمثة الطبع، طيبة الأخلاق؛ فأخذت تعني بي عناية فائقة: ترتب غرفتي، وتنظم كتب، وترتق ملابسي الممزقة وتعمل لي أكثر مما تعمل لزوجها وكانت تحب أن ترى ما في القاهرة من حسن، فزرنا معاً أجمل الضواحي وأنضر البساتين، وهي تزداد بي كل يوم تعلقاً وألفة، حتى توثقت بيننا عرى المودة وأصبحت تترقب عودتي من الجامعة أكثر مما تترقب عودة زوجها من عمله، وأصبحت ألج عليها غرفتها في أي وقت، وأراها على أي حال تكون عليه. . . ومرت أيام وأنا لا أحس بوجود الزوج معنا في منزل واحد وأصبحنا من وفرة السعادة كأننا في حلم جميل. . .
رجعت مرة إلى المنزل ساعة الظهر فلم أجد السيدة في ردهة البيت كعادتها، وكنا في قلب الصيف، والحر شديد فتمددت على فراشي ونمت. واستيقظت قبل مغرب الشمس وهتفت باسمها فلم تجب. . . فنهضت من فراشي ومشيت نحو فسحة البيت فرأيت باب غرفتها مواربا فأدركت أنها نائمة
وحركت بابها برفق. . . ودخلت وعيني على السرير. . . فوجدت جسماً ممدداً ملتفاً في ملاءة بيضاء. . . وحلى لي أن أداعبها قبل إيقاظها فتقدمت من السرير حتى قربت منها وجذبت رجلها فلم تتحرك. . . فتحولت إلى خصرها ودغدغتها. . . ووقفت أرقب

حركة جسمها وأنا لا أكاد أتماسك من مغالبة الضحك المكتوم. . . وتحرك الجسم أخيراً
!. . .وانزاحت الملاءة. وظهرت مقدمة رأس. . . رأس صلعاء
فذهلت وسمرت في مكاني مبهوتاً
- كان وجه زوجها. . .؟
- أجل. . .
فانفجرنا ضاحكين. . . ولما هدأت عاصفة الضحك عاد الصديق إلى حديثه
- كان موقفاً حرجاً. . . فشدهت. . . ووقفت ذاهب النفس وجسمي يتصبب عرقاً. ثم
رأيت نفسي أقول في غضب بصوت المحموم:
- سأغادر الغرفة يا سيدي. . .!
فنظر إلي الرجل دهشاً. . . وقال وهو يصعد في بصره:
- ستغادر الغرفة! ما السبب يا سيدي! ما الذي جرى؟
- أثاث الغرفة رث. . . ثم هي بعد ذلك متناهية في القذارة
- كيف ذلك يا سيدي وقد جئنا لك بكل شيء جديد؟
- أبداً إنها غاية في القذارة
وتدفق من فمي كلام لا أعرف له مرمى وكان لا بد من ذلك لأنجو بأعصابي
وعدت إلى غرفتي وأنا لا أكاد أتصور شيئاً مما حدث، ولازمتني حالة من الهدوء
غريبة. . . ثم لبست ملابسي وخرجت إلى الطريق. . . وهنا عادت إليَّ الخواطر
وأخذت أتصور الموقف على شناعته وحال الزوج بعد أن يرجع إلى نفسه ويدرك أني
!. . .كنت متهجما على مخدع زوجه. . . وواضعاً يدي على سريرها. . . وجسمها
وظللت جزءاً كبيراً من الليل وأنا متردد بين العودة إلى المنزل أو إيفاد صديق ليجيء
لي بمتاعي وكتبي. . . ثم رأيت الرأي الأول واتجهت صوب البيت وأنا مقدر كل
. . .الأحداث. . وكان الزوجان قد ناما. . . وبقيت أساهر النجم حتى الصباح
ورأيت الزوجة في اليوم التالي جالسة تقرأ في كتاب على أريكة في الردهة. . .
فمررت بها وأنا أذوب خجلاً. . . وتطلعت إلى وجهها فرأيته لا ينم على شيء مما حدث
بيني وبين زوجها، فقد كانت تبتسم في مرح. . . فغاظني هذا وبلغ مني الألم مبلغه
وقضيت بعد ذلك أياماً في البيت ونظري لا يقوى على مجابهة الرجل، وكان يغيظني
منه بروده وهدوءه وامتلاكه زمام أعصابه وكنت أتخيل أنه بلغ مبلغاً هائلاً من خبث
الطوية وبراعة الحيلة وأرى في صمته تبييتاً لأمر في نفسه، وكنت أود لو يثور
ويضاربني وتنتهي المعركة بيننا مع أسوأ الفروض
وجاءت عطلة العيد فبارحت الغرفة إلى الريف ولم أعد إليها بعد ذلك أبداً. . . تركتها
مخلفاً فيها أمتعتي وكتبي. . . وهي تذكار دائم على أيام هنية
ولا زلت أرى المرأة وزوجها كلما ذهبت إلى القاهرة. . . وأغلب الظن أنهما لم يغيرا
المنزل. . . كما أن الرجل لا يزال على حاله هادئاً بارد الطبع لا تعبر ملامح وجهه عن
حزن أو فرح أو أي انفعال نفساني. . . أو عاطفة من عواطف الجنس البشري
!أما المرأة فقد أصيبت بأزمة نوعاً
وفرغ صاحبنا من قصته وانطلق يدخن، وعدنا نشرب الشاي، وكان الفجر قد قرب
وبدت خيوط النور في الشفق، فدرنا حول المزرعة لآخر مرة، وكنا قد تعشينا في أول
الليل، فلما دنا الفجر أحسسنا بجوع شديد وكان الطعام سيجيء إلينا عند الشروق ولا
. . .طاقة لنا على انتظاره فقد اشتدت علينا وطأة الجوع وأخذت بطوننا تعصرنا عصراً
وبعثنا اثنين منا إلى حديقة كروم قريبة ليحملا لنا منها ما يمسك بطوننا. وجلسنا في
انتظارهما بصبر فارغ وقد انقطعنا عن الحديث. وإذا بنا نسمع نباح كلاب المزرعة
فجأة. فصوبنا أبصارنا تجاه الصوت فرأينا غباراً شديداً يسد عرض الأفق. ومددنا أعناقنا
فأبصرنا قطعاناً كبيرة من الضأن قادمة من الطريق الزراعي الكبير ومتجهة إلى بعض
القرى القريبة. . . وظهر أمامها رجلان ضخمان يلوحان بعصوين طويلتين. . . وحول
القطيع كلاب كاسرة تطوقه من كل جانب وخلف القطيع امرأة ترتدي دثاراً أسود
فاحماً. . . وتهش بعصا رقيقة على الغنم وتزجر في صوت رنان كلاب المزرعة عن
. . .كلابها
وقربت القطعان منا. . . وكان أحد الرجلين معلقاً في عنقه مزماراً طويلاً. . . أما الآخر
فكان يحمل على ظهره قربة ضخمة فيها متاعهم. . . وأخذنا نرقب القطيع بعيني

الصقر حتى بعد عنا فشيعناه بأبصارنا وبطوننا الخاوية تمزق أحشاءنا. وحدجنا الأحمال الصغيرة التي تتوثب حول القطيع الماضي في طريقه بعيون جائعة ومر في ذهننا خاطر سريع ودون أن ننبس بكلمة انسللنا في أثر القطيع متجنبين طريقه. . . وجرينا شوطاً، ثم كمنا في جرن كبير من أجران القمح الهش في أقصى المزرعة ومرت قطعان الضأن وملأ خياشيمنا الغبار المتطاير من أرجلها. وكانت المرأة لا تفتأ تتلفت يمنة ويسرة وتضرب الصغار بعصاها. . . وجاوزوا حدود المزرعة وابتدأ الرجل حامل المزمار يزمر، ومدت القطعان أعناقها ثم تقدمت في صمت وسكون عجيبين. وانقطعت المرأة بعد صوت المزمار عن الكلام، وسكنت حركة الكلاب وانقطع نباحها. وكان في القطيع حمل صغير ما فتئ طول الطريق يتوثب ويركض في كل اتجاه، ويضرب برجليه الأرض. فلما سمع صوت

المزمار سكن أيضاً واستقام بأعجوبة كسائر رؤوس القطيع. . . وكنا قد تهيأنا له لنقتنصه. . . فما سمعنا صوت المزمار حتى شلت أيدينا وعجزنا عن الحركة، وبقينا ممددين على الأرض وعيوننا تتطلع إلى السماء وتتأمل النجوم. . . ورجع المزمار الحلو يتردد. كان كأنه مزمار داود يبعث من وراء الأجيال ويدوي وحده في هذا الليل وهذا السكون. ظللنا في مكمننا حابسين أنفاسنا، وصوت المزمار يهفو، والقطيع يسير، ونحن نرقبه عن بعد ولا نستطيع أن نتحرك

ورجعنا إلى مكاننا من الحقل ونحن لا نستطيع أن نعلل هذه الظاهرة الغريبة التي اعترتنا في تلك الساعة. أكان ذلك من تأثير الموسيقى، أم شعور آخر أيقظته الموسيقى

وعاد الرفيقان الذاهبان في طلب الكروم. . . وكان أحدهما يحمل كروماً، أما الآخر فكان يحمل شيئا آخر. . . كان يحمل حمل الضأن الذي أفلتناه من أيدينا وأشعلنا النار وشويناه. . . وكنا ننظر إلى اللهب الأحمر وهو يشوي لحمه. . . ونتصوره منذ لحظات وهو يجري ويتوثب بين رفاقه مرحاً سعيداً طروباً، فيعصر الهم أفئدتنا ولما جلسنا نأكل انقطعنا جميعاً عن الكلام كأن على رؤوسنا الطير. وكانت كل قطعة من اللحم تستقر في جوفنا تمزق أحشائنا تمزيقاً. . . كنا نتصور أن الحمل لا يزال يجري ويتوثب والقطيع يسير والمزمار يزمر.

محمود البدوي

العدد 393 - بتاريخ: 13 - 01 - 1941

الضحية

للأستاذ عباس محمود العقاد

كلمة لها تاريخ، ولتاريخها اتصال بالعادات والعقائد وأطوار اللغات والألفاظ، ولا سيما في انتقالها من المحسوسات إلى المجردات، ومن البساطة إلى التركيب

كم من الذين يتحدثون بالتضحية في معرض الحب أو الحماسة الوطنية أو المعاني الروحية يذكرون أن أصلها الأول أكلة في الضحى؟

فالتغذية تقديم الطعام في وقت الغداة، والتعشية تقديم الطعام في وقت العشاء، والتسحير تقديم الطعام في وقت السحر، والتضحية بالشاة أن تذبح الشاة أو تؤكل ضحى على هذا السياق.

وهذا هو المعنى الذي صعد به الإسلام من أكلة إلى قربان إلى فداء، إلى هذه المعاني التي نرددها اليوم كل صباح ومساء وتاريخ الكلمات في الانتقال من المادية إلى الروحية هو تاريخ العقل الإنساني في فهم الحقائق والنظر إلى الحياة.

فما العقل؟ وما الكتابة؟ وما الفن؟ وما الجمال؟ وما العلم؟ وما الرسم والتمثيل؟ وما الجوهر واللباب؟

كلها لها أصول لا تزال تلمس باليد وتدرك بالحس، وكلها قد صعدت من هذه الأصول المحسوسة إلى تجريد لا تدركه العقول إلا بعد شغوف وإمعان

وإذا كانت متابعة الكلمات في اللغة الواحدة متعة للفكر ومعواناً على فهم الأصول والحقائق، فأمتع من ذلك واعون على الفهم أن تضاهي بين الكلمات في لغات مختلفات. فإن لهذه المضاهاة فائدة صحيحة لا يستغني عنها باحث في علم ولا مستقص لتاريخ ولا متعمق في دين

انتقلت التضحية من أكل في الضحى إلى أسمى معاني المفاداة التي يهون فيها بذل

الأرواح
ولكن الفداء نفسه قد انتقل في معانيه مثل هذا الانتقال بل أبعد من هذا الانتقال فقد كان الفداء في بدايته الأولى أشبه شيء (بالزيارة) التي يحملها اليوم أهل الميت إلى قبره من فاكهة يفرقونها، أو ريحان ينثرونه، أو ذبائح ينحرونها ويفرقونها على المساكين في جدة الوفاة.
وكان اعتقاد الهمج الأولين أن الأموات يطلبون الغذاء كما يطلبه الأحياء، ومن هؤلاء الأموات أقوياء بطاشون ينتقمون أشد النقمة ممن يحرمهم نصيبهم في الطعام والشراب، ومنهم أعزاء محبوبون يشق على أحبابهم أن يتخيلوهم بعد الموت جياعاً عطشى محرومين هائمين يبتغون الري والشبع ولا يرتوون ولا يشبعون، ومنهم شفعاء مقبولون يأخذون ويعطون: يأخذون (الزيادة) ويعطون بديلاً منها في ضمير الزائرين والمتشفعين.
وترقى معنى الفداء الذي نشأ هذه النشأة قليلاً حتى هذبته وصقلته الحضارة، فاقترب من معنى الإحسان وابتعد من معنى الخوف على الأحياء وإشباع من في القبور.
فالذين يتصدقون بالطعام اليوم لا يقصدون به أن يأكله الموتى ولا أن يدفعوا به نقمتهم إذا جاعوا وظمئوا وصنعوا بالشاربين الطاعمين ما يصنع الجياع الظماء ولكنهم يقصدون أن يحسن الله إلى موتاهم كما يحسنون هم إلى المعوزين، ويودون أن يبلغوا الموتى أنهم لا يزالون من العزة عندهم بحيث كانوا في أيام الحياة، فهم يبذلون لهم ولا يضنون عليهم. ويتعمد بعض الزائرين أن يختاروا من صنوف الطعام ما كان شهياً مفضلاً عند الميت في أيام حياته، تعزياً بالفكرة لا تصديقاً بحاجة الميت إلى غذاء الأحياء.
وبعض الأحياء يعكس الأمر فيحرم على نفسه الصنوف التي كانت شهية مفضلة عند موتاه، كأنما يأبى أن يستمتع بما حرموه ويريد أن يساويهم في الحرمان، وكلاهما شعبة من معنى واحد هو الوفاء والادكار، والضن على النفس في سبيل من ضنت عليهم الحياة باللذات والطيبات.
ذلك أصل من أصول الفداء، وهو رعاية الأموات
وله أصل آخر أعرق من هذا في الهمجية وأبعد منه عن تهذيب الدين والحضارة وذلك الأصل يقابل الجزية التي يفرضها السيد على العبد، والأدب الذي يستوجبه الغالب من المغلوب
فمن الأدب الذي كان يستوجبه الفاتح المنتصر من المنكسرين أمامه أن تظهر عليهم ذلة الانكسار والتسليم، وأن يسومهم كل ما يريد ولم تكن له فائدة فيه، وأن يسلبهم فيعطوه صاغرين، ويقمعهم فيمتثلوا خاشعين، وأن يطالبهم بالإتاوات والرهائن من الرجال والنساء والأنعام، ومن الأزواد الخيرات والحطام.
وكان المنهزمون يستنقذون أنفسهم بتسليم فريق منهم للقتل، ويستنقذون أموالهم بإهداء نفيسها ومختارها واستبقاء ما يزهد فيه الفاتح أولا يهتدي إليه
فلما عبد الهمج أربابهم وأوثانهم واعتقدوا فيهم القوة والغلب جعلوا لهم حقاً في الضحايا والهدايا كحق المنتصر على المهزومين، وافتن الكهان في تنظيم هذه الجزية (المقدسة) التي تؤول إليهم في الحقيقة سرًّا وجهرة في كثير من الأحيان؛ فانتظمت من ثم شعائر التضحية والفداء؛ وبالغ بعضها في القسوة حتى تقاضت للأرباب والأوثان بواكير كل شيء من حيوان ونبات، وفي طليعتها الأبناء وهم رضعاء أو دارجون.
وقصة إبراهيم هي حد فاصل في نظرة الأديان إلى الفداء كما كان قديماً وكما هو مفروض الآن. وفي ذلك يقول القرآن الكريم: (فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى؟ قال يا أبتِ افعل ما تؤتمر، ستجدني إن شاء الله من الصابرين. فلما أسلما وتّله للجبين، وناديناه أن يا إبراهيم قد صدَّقتَ الرؤيا، إنا كذلك نجزي المحسنين، إن هذا لهو البلاء المبين، وفديناه بذبح عظيم) وهكذا ترقى لفظ الفداء ومعناه. فأما لفظه فحسبك انتقاله من الضحية التي هي شاة تذبح في الضحى إلى الضحية التي هي قربان وإحسان.
وأما معناه فالانتقال فيه أعظم، لأنه انتقال من أكلة إلى ذروة الأخلاق العليا. إذ كانت خلاصة كل خلق وكل عقيدة وكل تكليف أن يجود الإنسان بما يعز عليه، وأن يفضل بعض الحرمان على بعض المتعة، وأن يعصي داعي الغريزة إذا حسنت له كل سلامة

وكل كسب، وبغضت إليه كل إقدام وكل إعطاء.
وهنا يفوق الإنسان الغريزة فيرتفع من حضيض البهيمية إلى شرف الآدمية
وحيثما وجد دين وخلق فهنالك عصيان لغريزة من الغرائز لا مراء، فإن الدين والأدب
لازمان لهذا ونافعان لهذا، لا لأنهما مطاوعان للغريزة في كل ما تمليه وترتضيه.
الغريزة تقول لك إن اللذة خير من الألم، وأن الحياة خير من الموت، وأن الأثرة خير
من الإيثار، وأن حبس المال خير من بذله، وأن الراحة خير من المشقة.
ولو كان هذا هو الخير حقاً لما ظهرت الأديان والأخلاق، ولكانت الغريزة وحدها كافية
كل الكفاية وفوق الكفاية، ولأصاب الإنسان الخير كما يصيبه الحيوان بغير عناء.
ولكن الخير الإنساني شيء نفيس، والشيء النفيس له ثمن عزيز، وما الثمن العزيز إلا
الجود بما نضن به ونغليه
ولهذا كانت الضحية عنوان الدين كله وقوام الخلق كله، فحيث لا ضحية فلا دين ولا
خلق، بل غريزة حيوانية يتساوى فيها الناطق والأعجم، ويتلاقى فيها المريد وغير
المريد.
وفرائض الأديان تكليف
والتكليف لا يخلو من الكلفة بحال، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها معناها أن تعمل ما
تطيق وليس معناها ترك العمل لأنك تطيق تركه ويسعك أن تتناساه
وفي الشعر العربي بيتان لشاعرين حكيمين هما خلاصة الأدب وصفوة الخلق ومعيار
التفاضل بين الفضائل، وهما بيت أبى الطيب إذ يقول:
لولا المشقة ساد الناس كلهمُ ... الجود يفقر والإقدام قتال
وبيت أبى تمام إذ يقول:
بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها ... تنال إلا على جسر من التعب
ومعنى البيتين البليغين البالغين في الحكمة كلمة واحدة وهي: (التضحية) أو (الفداء)
فقولك أن الراحة خير من التعب، وأن الأخذ خير من العطاء، وأن السلامة خير من
الإقدام، قول مفهوم قبل أن يكون خلق وقبل أن يكون دين.
فلما وجب على الإنسان أن يفهم أن بعض العطاء خير من بعض الأخذ، وأن بعض
الراحة شر من بعض التعب، وأن بعض الموت أكرم من بعض الحياة، وأنه إنسان
مكلف وليس بسائمة مهملة، كان له خلق، وكان له دين، وكانت الضحية التي يرمز
إليها المسلم في عيده الكبير هي قوام ذلك الخلق وأساس ذلك الدين.
عباس محمود العقاد
مسابقة الجامعة المصرية لطلبة السنة التوجيهية
مطالعات في الكتب والحياة
لعباس العقاد
للدكتور زكي مبارك
- 9 -
موضوع الدرس في هذه المرة هو كتاب المطالعات في الأدب والحياة للأستاذ عباس
محمود العقاد عضو المجمع اللغوي، وهو كتاب يقع في أربع وعشرين وثلاثمائة صفحة
بالقِطع المتوسط، وقد نشرته المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة، وثمنه خمسة عشر
قرشاً. والنسخة التي أنقدها هي الطبعة الثانية، ولهذه الإشارة معنىً، فهي تشهد بأن
هذه الكتاب نال بعض ما يستحق من النباهة والذيوع.
شخصية المؤلف
العقاد أديب منوَّع المواهب: فهو كاتب وشاعر وناقد وخطيب، على تفاوت في هذه
الأوصاف لا يوجبه التقصير أو نقص الأدوات، وإنما يوجبه التفات هذا الأديب إلى بعض
الفنون أكثر من التفاته إلى البعض، فهو كاتباً أقوى منه شاعراً، لأن ذهنه ارتاض على
التعبير بالترسل، أكثر مما ارتاض على التعبير بالقريض.
ودرس اليوم لا يتصل بمواهبه الشعرية والخطابية، وإنما يتصل بمواهبه النثرية
والنقدية، فمن هو بين الكتاب والنقاد؟
للعقاد في الكتابة والنقد شخصيتان مختلفتان كل الاختلاف: فالعقاد الكاتب السياسي
يَرمي ويرمَى، ويَظلِم ويظلَم، في كل وقت، فهو من أبناء السماء عند قوم، ومن أبناء
الأرض عند آخرين. أما العقاد الكاتب الأدبي فهو من الطبقة الأولى بشهادة الجميع.

والعقاد الناقد لا ينحرف عن القصد إلا في حال واحد، حال الحكم على من يعاديه من المعاصرين، أما حكمه على المفكرين الذين بَعُد عهدهم في التاريخ فهو في غاية من العدل والسداد، وقد يصل به الرفق إلى المبالغة في إظهار المحاسن وإخفاء العيوب.
وانحراف العقاد في كتاباته السياسية والنقدية يشهد بأنه سليم الشخصية، وللسلامة هنا
مدلولٌ خاصّ، هو اكتمال الحيوية والإحساس، فالعقاد يصادق بعنف، ويعادي بعنف، فأصدقاؤه ملائكة ولو كانوا شياطين، وأعداؤه أبالسة ولو كانوا ملائكة مقربين. وهو مستعد لخوض النار مع أصدقائه إن أوجب الوفاء أن يشاطرهم عذاب الحريق، أما أعداؤه فهو لهم بلاءٌ وعناء، وهو يلقاهم في السر والعلانية بأقبح ما يكرهون.
وقد شاع وذاع أن العقاد رجلُ حقود، وهو كذلك، فالحقد من كبريات الفضائل في بعض الأحايين، وقد نُجزَي عليه خير الجزاء يوم الحساب، فالله أحكم وأعدل من أن يعاقبنا على تأديب من يحاولون الغض من أقدارنا الأدبية وهم جهلاء!
ما نظرت في شراسة العقاد مع خصومه إلا قلت: هذا رجل، والرجال قليل
وما نظرت في سماحة العقاد مع أصدقائه إلا راعني ما في طبعه من بشاشة وأريحية، فهو لهم عماد في جميع الظروف، وهم من أُخوَّته الوفيَّة في أنسٍ أنيس
والواقع أن الرجولة لها تكاليف، وهي تجشّمنا مصاعب لا تخطر لأحد من الضعفاء في بال، فالرجل الحق هو الذي يقدر على الضر كما يقدر على النفع، أما المخلوقات (الرقيقة) التي تحاكمنا إلى شريعة (الأخلاق) في كل ما نكتبُ وفي كل ما نقول فهي شخوصُ بوائد خلَّفها التاريخ، كما يخلّف النهر العارم أو شاب العشب المعطوب.
الرجولة الحق تَفرض الشجاعة الحق، ولا تتم الشجاعة لرجل إلا إذا جاز أن تصل به أحياناً إلى التهور والجنون، لأن ضبط النفس لا يتيسر في كل وقت، كما يتيسر لبعض من يفهمون أن الرجل (الصالح) للانتفاع بالمجتمع هو المخلوق (المصقول)!
وما قيمة القلم إن لم نَخِزْ بسنانه عيون المتعالمين والمتعاقلين من حين إلى حين؟
وما حظ الأمة في أن يتخلق جميع أبنائها باللُّطف والظُّرف؟
أعاذنا الله من زيغ البصائر في هذا الزمن المخبول!
مطالعات العقاد في الكتب والحياة
العقاد في هذا الكتاب ناقد وكاتب، وقد خلص من الشوائب التي تعرِض له في بعض كتاباته النقدية أو السياسية، خلص خلوصاً مبيناً، فهو لا يلتفت إلى ما يحيط به من أحقاد الساسة أو ضغائن الأدباء، وإنما يخاطب العقل وجهاً إلى وجهه، ويسمو بنفسه إلى طلب المنزلة بين أهل الخلود.
والعقاد من هذه الناحية أقدر من طه حسين على ضبط النفس. نجد العقاد يقول في هامش بعض الفصول (من مقال نشِر في البلاغ) فما المراد من عبارة (من مقال)؟ كان المقال في الأصل يحوي فكرة باقية أضيف إليها التحامل على أحد المعاصرين، وهو حين يجعل مثل هذا المقال فصلاً من كتاب يحذف الجزء المشوب بالتحامل ويكتفي بالجزء الذي يصور فكرة باقية، ومن أمثلة ذلك ما صنع العقاد في كتاب (الفصول) ففي ذلك الكتاب فصل عن (المتأنقين)، وهذا الفصل أنشأه العقاد للسخرية من سعادة الأستاذ (أحمد لطفي السيد باشا)، ثم رأى أن يحذف تلك السخرية من جانبها الخاص، وأن يكتفي بجانبها الأصيل، وهو احتقار التأنق في تناول عظائم الشؤون.
أما الدكتور طه حسين بك فقد أساء إلى نفسه وإلى تاريخه حين عجز عن تهذيب مقاله عن (عنترة بن شداد) في الجزء الأول من الطبعة الثانية لكتاب (حديث الأربعاء) ففي ذلك المقال تعريضُ قبيح بمعالي الأستاذ عيسى باشا، وسيسأل الناس في المستقبل عن الموجب لذلك التعريض القبيح، لأنه لا يصدر عن رجل يتسامى إلى الأستاذية في الأدب والأخلاق.
وما أعيبه على الدكتور طه أعيبه على نفسي، فقد أثبتُّ في الطبعة الثانية من كتاب البدائع فصلاً دميماً عن (طه حسين بين البغَّي والعقوق) وهو فصل عانيتُ من شؤمه ضروباً من العقابيل، وعرَّضني لمكاره ومتاعب لم أدفع شرها إلا بنضال عنيف.
ومن أعجب العجب أن يكون عباس العقاد أقدر على ضبط النفس من زكي مبارك وطه حسين!

الشجاعة الأدبية
يمتاز كتاب المطالعات بالشجاعة الأدبية، فما المراد من ذلك؟ أيكون المراد أن العقاد يبطش ذات اليمين وذات الشمال بلا تدبُّر للعواقب؟
أيكون المراد أن العقاد لا يبالي ما عليه الناس من عقائد وتقاليد؟
لا هذا ولا ذاك، فالعقاد في هذا الكتاب يساير الناس يساير العُرف إلى أبعد الحدود، وإنما المراد أن العقاد يثور على العوامّ بقوة وعنف، والعوامّ في هذا المقام ليسوا هم الطبقة العديمة العلم والمعرفة من التجار والزُّراع والصناع، وإنما هم طبقة المثقفين من أبناء الجيل الجديد، والعقاد لمُ يضف هذه الطبقة إلى العوام بصريح المقال، وإنما أضافهم إليها
بلسان الحال.
وتظهر هذه الشجاعة فيما كتب العقاد عن (المرأة) فكلامه في هذا الموضوع الدقيق لا يصُدر إلا عن الملهَمين، ولو شئت لقلت إنه فَصَل في هذه المشكلة بما لاُ يبقى مجالاً لأحد من بعد، فقد استوفى الموضوع من أطرافه بكلام مُحكم سديد، وهو من أقدر الكاتبين على الغوص في أعماق المعضلات.
(خيانة المرأة لا تعاب على المرأة)
هذا كلام غريب، ولكن العقاد يفسره تفسيراً صحيحاً، فتلك الخيانة المرذولة لها وجه جميل هو الوفاء للحياة.
(غرام المرأة بالمال فرع من غرامها بالشباب)
هذا أيضاً كلام غريب، ولكن العقاد يفسره تفسيراً صحيحاً فقد كانت القدرة على اكتساب المال من أقوى الشواهد على الرجولة في جميع الأزمان.
المرأة دون الرجل في جميع الأوصاف وهي لا تقدر أبداً على القيام بما يقوم به) الرجال)
وهذا كلام أغرب من سابقَيْه، ولكن العقاد يقف موقف النمر الشرس ويقول:
إننا في عصر يميل إلى محاباة المرأة فيما يكتب عنها من آراء فلسفية كانت أو) اجتماعية، لأن آداب الأندية توشك أن تبغي على آداب الكتابة ومباحث الفكر، فيحبس الكاتب قلمه عن كل ما يغضب المرأة ولا يوافق دعواها، كما يحبس لسانه عن ذلك في أندية الأنس ومجالس السَّمر، ويكتب حين يبحث في مسائل الاجتماع بقلم السمير الظريف لا بقلم الناقد الأمين)
ثم يجعل السذاجة والبلاهة والغفلة من نصيب المتظرفين الذين يحكمون بأن المرأةُ ظلمتْ فيما سلف من عهود التاريخ.
والحق أن أنصار المرأة لم يكونوا إلا رجالاً ضعفاء، فهي لم تخلَق إلا لغاية واحدة، هي بقاء النسل، وهي لم تقدر ولن تقدر على مباراة الرجال في جلائل الأعمال.
وكيف تستطيع ذلك وهي قد أشركت بوظيفتها الأنثوية؟ الرجل هو الذي يخلق المرأة، يخلقها على هواه، ويتمثلها كائناً حياً له مآرب وأغراض، وهي أمام العقل دُمية مصنوعة لاُ تفصِح ولاُ تبين بعد ذلك الشّرك الدميم
المرأة الصحيحة هي المرأة التي عرفها الآباء والأجداد، المرأة الطبيعية التي أوحت ما أوحت إلى الفنانين والشعراء، يوم كانت مخلوقاً له قلب خفاق، وروحُ حنّان.
أما المرأة اليوم فهي مخلوق سخيف، لأنها تطلب ما لا ينبغي لها من الحقوق، وهي لذلك تافهة القيمة، سقيمة الإدراك.
وتعرَّض العقاد للمرأة من جميع نواحيها فأسمعها ما لا تحب أن تسمع. ومن المؤكد أن العقاد كتب عن المرأة ما كتب وهو في عافية، لأن الرجل لا يغايظ المرأة إلا وهو فحل، لأنه حينئذٍ يثق بأنها ستُجذَب إليه ولو ضربها بأعنف السياط.
وقاسم أمين لم يكن في أول من أنصار المرأة، وإنما كان عدوَّ المرأة، فلما ضَعُف تظرَّف وصاغ لها عقود الثناء!
ورُوَّاد (الصالونات) في البلاد الغربية لم يكونوا من الفحول، وإنما كانوا من الظرفاء، ولو كانوا فحولاً لتغيَّر مركز (المتحذلقات) في التاريخ
وخلاصة القول أن التلطف مع المرأة يجب أن يكون فَّنا من فنون الغَزَل الخدّاع، فالدمع في عين العاشق هو السم في ناب الثعبان، والثعبان يخدّر فريسته بالسم كما يخدّر العاشق فريسته بالدمع. والاغتيال من ضروب القتال!

لحظات الصفاء
وللعقاد في كتابه هذا لحظات صفاء، وأظهر تلك اللحظات هي اللحظة التي كتب فيها مقالة (بين الله والطبيعة) أو (بين التاريخ الغابر والحاضر المشهود). فالعقاد في هذه المقالة قد ارتفع إلى آفاق السماء، ولو لم يكتب غير هذه المقالة لكانت سلّمة الأمين إلى معارج الخلود.
كتبها وهو في أُسوان، وقد نشأ هذا الأديب في أُسوان، ولعل نشأته في تلك المدينة تفسّر ما فطِر عليه من الهيام بالفنون
هي مقالة عجيبة في المعنى والأسلوب، مقالة كاتب راعته زُرقة السماء في أسوان، ومن لم ير زُرقة السماء في أسوان فلن يغنيه الزعم بأنه رأى جمال الطبيعة في سائر بقاع الأرض.
ولو جُمع ما أوحت أسوان إلى العقول والأحلام في مختلف اللغات لكانت منه ثروة تَرُوع
وتَهُول.
وقوة العقاد في هذه المقالة تستر ضعفه وهو يصور إحساسه حين وقف (على معبد إيزيس) فالفرق بين المقالتين بعيد، لأن الكاتب كان انتزف قوته في المقال الأول فهمد في المقال الثاني، والقُوي الإنسانية لها حدود.
المتنبي في كتاب المطالعات
انساق العقاد إلى الكلام عن المتنبي وهو يدرس رسالة الغفران للمعري، فكانت فرصة لتشريح بعض الجوانب من ذلك الشاعر الصوَّل.
وتظهر دقة النظر عند العقاد في أكثر ما كتب عن المتنبي، فالأدباء يرون تَسامي المتنبي إلى المُلك من شواهد العظمة النفسية، أما العقاد فيرى ذلك التسامي ضرباً من الخذلان، لأن المتنبي أخطأ حين (ظن أن السموْ لا يكون إلا بين المواكب والمقانب، وأن النبالة لا تصح إلا لذي تاج وصولجان وعرش وإيوان).
ثم انتهى العقاد إلى أن المتنبي المخذول في طلب المُلك صار على الزمن (أظفر ما يكون خائباً وأخيب ما يكون ظافراً). فهو (ليس بملِك ولا أمير ولا قائد ولا صاحب جاه، ولكنه فخر العرب وترجمان حكمتهم، والرجل الفرد الذي نظم في ديوان واحد ما نثرته الحياة في سائر دواوين التجارب والعظات)
وهذا كلامٌ نفيس جداً، ولكنه يحتاج إلى تعقيب، فانحراف المتنبي في فهم العظمة الذاتية هو السبب في ما صار إليه من العظمة الباقية على الزمان.
المتنبي قضي دهره في طلب المُلك، ولو عَقَل لأدرك أن الشاعرية الحق أبقى على الزمن من المُلك.
ذلك ما يريد العقاد أن يقول، ولكن ما رأيه إذا حدثناه أن ذلك الانحراف هو الذي أوجب أن يولع المتنبي بدرس أوهام العوامّ والخواصّ؟ ما رأيه إذا حدثناه أن تلك النزعة المنحرفة هي التي فرضت على المتنبي أن يدرس الموارد والمصادر من أخلاق الناس وأن يوغل في التعرف إلى ما هم عليه من هدى وضلال؟
لو أعفى المتنبي نفسه من طلب المُلك لوقف عند الخالص الصريح من أوطار النفس وأهواء الوجدان، فكان صورة ثانية من البحتري شاعر الروح الصداح والقلب الطروب.
طلبُ الملك غَّير ما بنفس المتنبي فنقله من أفق إلى آفاق، وحوله إلى رجل طُلَعة لا يهمه غير درس المستور من أصول الوشايات والأراجيف، وحوّله أيضاً إلى رجلٍ طاغية باغية لا يتذوق معاني العطف والإشفاق.
وهل عرف الناس قلباً أقسى من قلب المتنبي، المتنبي الثائر على الناس والزمان؟ يجب أن يُفصل نهائياً في هذه القضية، فأدب المتنبي من صور اليأس العصوف، وليس من صور الأمل العطوف، وهو لذلك خليق بأن ننظر إليه بحذر واحتراس.
حظ المتنبي من الشعر الوجداني حظ ضعيف، فما سبب ذلك؟
يرجع السبب إلى أن الدنيا في عين المتنبي لم تكن إلا منادح انتهاب واصطياد، والنهب والصيد يوجبان أن يبكر الرجل إلى المفاوز والآجام وهو في درع من المكر، ولثام من الدهاء.
زار المتنبي مصر وأقام فيها سنوات، فماذا رأى في مصر، وكانت لذلك العهد ما تزال عامرة بما ترك الفراعين من غرائب الفنون؟ أين بشاشة الحقول المصرية في شعر

المتنبي؟
لم ير المتنبي في مصر غير وجهين اثنين: وجه الفقيه المرائي، ثم وجه النديم الخَتُول، لأن ما كان يطلبه المتنبي كانت المقادير حصرته في أيدي الفقهاء والندماء.
وقد حقد المتنبي على مصر أبشع الحقد، لأنه لم يرها إلا في وجه كافور ومن يحيط بكافور. ولو كانت الشاعرية هي التي تسيطر على أهواء المتنبي لوجد لمصر مذاقاً غير ذلك المذاق، ولكان من المأمول أن تنسيه مرابعها الأواهل وحشة الغربة والانفراد، ولكن المتنبي كان طالب ملك، أستغفر الحق، بل كان يطلب (ضَيْعة) فلم يظفر بغير الضَّياع!
ورحيل المتنبي عن مصر رحيل بغيض، فقد ثار على مصر في البادية لا في الحاضرة، وذلك يشهد بأنه لم يفكر جديًّا في تأليب الجمهور المصري على ذلك (الأستاذ)!
ماذا أريد أن أقول؟
ما يهمني النص على ما وقع فيه المتنبي من خطأ وصواب، وإنما يهمني القول بأن حرص المتنبي على طلب الملك هو الذي خلق تلك الشاعرية الطريفة، الشاعرية التي لا تعرف الهيام بالأزهار والرياحين، وإنما تعرف الغرام بالصوالج والتيجان، فتقضي الدهر في
درس أسرار القصور، وفحص أخلاق الحاكمين والمحكومين.
ومن المؤكد أنه كان يجب أن يكون في تاريخ العرب شاعر من هذا الطراز الفريد، فالمتنبي إذا من الحجج البواقي على أن الشاعرية العربية موفورة الحظ من تنوع الطعوم والألوان.
ملاحظات
لا يتسع المجال لعرض ما أجاد العقاد وهو يدرس المتنبي، ولكن لا مندوحة من تقييد بعض الملاحظات، لأن لذلك فائدة في تشويق الطلاب إلى النقد الأدبي.
1 - قال العقاد: (مما لوحظ على المتنبي ولعه بالتصغير في شعره إلى حد لم يُروَ عن شاعر غيره) فأرجو أن يذكر العقاد أن أعظم الشعراء ولعاً بالتصغير هو ابن الفارض، وقد فصلت ذلك في كتاب (التصوف الإسلامي) فلا أعود إليه في هذا الحديث.
2 - حكم العقاد بأن عنصر المتنبي كان (بدعاً في العصور العربية) وقد قال مثل هذا القول في عصر ابن الرومي، فأي قولَيْه نصدَّق؟
3 - حكم العقاد بأن المتنبي (لم يفارق كافوراً إلا باختياره) فما حيثيات هذا الحكم، وفي أي كتاب قرأ أن الرجل يرحل عن بلد يحبه في ليلة عيد؟ وكيف غاب عن العقاد أن المتنبي لم يفارق كافوراً إلا بعد أن أصبحت حياته تحت رحمة العيون والأرصاد؟
4 - قضى العقاد بأن المتنبي صفح عن أبى العشائر، وقد كلف أحد الخدم باغتياله وهو سار في ظلام الليل. فعلى أي سند قضى العقاد هذا القضاء وهو يعرف أن الضغينة أقوى خلائق المتنبي؟ أيكون أستند إلى أقوال من ترجموا للمتنبي؟ وكيف وهو يعرف أن تلك الأقوال يغلب عليها الإفك والتهويل؟
5 - يرى العقاد أن التبحر في العلوم آفة يبغضها المتنبي، وحجته أن المتنبي يقول:
أبلغُ ماُ يطلَب النجاح به الطبع ... وعند التعمق الزلل
فهل كان المتنبي من الغفلة بحيث يقوهم أن التبحر في العلوم آفة إنسانية؟
هنا دقيقة لم يفطن لها العقاد، وهي ثورة المتنبي على (فيران المكاتب) كما يعبر الفرنسيون، و (فيران المكاتب) هم الذين يقولون ولا يفعلون، فإذا اقترن بالفعل، فتلك ظاهرة يرحب بها المتنبي كل الترحيب.
6 - غض العقاد من عمر بن أبى ربيعة، لأنه وقف شعره على فن واحد هو النسيب، ولو تأمل العقاد لعرف أن ابن أبى ربيعة من كبار المبتكرين، ومن عظام المغامرين، وهو عندنا أول شاعر رأى قضاء العمر في الهيام بالجمال عملاً تُنصب له الموازين.
7 - وحكم العقاد على ابن مناذر وابن الضحاك بمثل ما حكم به على عمر، فأين علمه الصحيح بمواهب هذين الشاعرين ولم يبق لواحد منهما ديوان يشهد بما له أو عليه؟ وكيف فاته التنبه إلى ما كان لهما من التأثير العميق في الحياة الذوقية والاجتماعية بالعراق؟
الظاهر أن العقاد لا ترضيه إلا أن يكون الشاعر مغرماً بتشريح الـ كما أجابني حين قلت له إن الشريف الرضي كان أولى بعنايته من ابن الرومي، فليعرف إن شاء أن الشاعر

لا يفكر في إرضاء الناقدين، وإنما يفكر في تأدية الرسالة الموحاة إليه من عالم الغيب، أو عالم الطبع، ولا يهمه بعد ذلك أن يقال إنه عرف شيئاً وغابت عنه أشياء.

موقف محرج!

لم أصل إلى ما أريد في تشريح كتاب (المطالعات) للأستاذ عباس العقاد، لأن منهج هذه الدروس الاكتفاء يوجب الاكتفاء بمقال واحد عن كل كتاب، ولأن امتحان المسابقة سيكون بعد أسبوعين اثنين، فماذا أوصى به طلبة السنة التوجيهية وهم يراجعون هذا الكتاب الدقيق؟

أوصيهم بأن يذكروا أن العقاد له في كل فصل منهج خاص وأنه قد يناقض نفسه من حيث لا يشعر، لأن يومه قد ينفصل عن أمه كل الانفصال.

وأوصيهم بأن يذكروا أن العقاد مولع بالرنين في الأسلوب لأنه شاعر، والشاعر حين يكتب لا يستطيع التخلص من الغريزة الموسيقية، وهل يطيب النثر الفني ويجود إلا من الكتاب الذين كانوا في مطالع حياتهم شعراء؟

وأوصيهم بأن يذكروا أن عيب العقاد وعيب المازني في الغرام بالسجع والازدواج عيب مغفور، لأن هذين الكاتبين لم يكونا إلا شاعرين ضاق عنهما نظام القريض.

وأوصيهم بأن يذكروا أن المازني والعقاد لم يغتصبا تلك المنزلة الأدبية بجهادٍ موصول جاوز الثلاثين من الأعوام السّمان والعجاف.

وأوصيهم بأن يذكروا أن غرام المازني والعقاد بالشرح والتفصيل فيما يعرضان له من دقائق الشؤون يرجع إلى أنهما ابتدءا حياتهما الأولى باحتراف التدريس، والتدريس يوجب التفكير في تفهم الأغبياء قبل التفكير في مسامرة الأذكياء، ولعل هذا هو السبب في اهتمام طه حسين وأحمد أمين بالطواف حول هوامش المشكلات!

وأوصيهم بأن يذكروا أن المازني والعقاد كانت إليهما زعامة النقد الأدبي في أعوام الحرب الماضية، وأن الكتابة السياسية لم تستطع أن تصرف هذين الرجلين عن العناية بالأسلوب.

أما بعد فأنا أشعر بأني لم أقل شيئاً في العقاد، مع أني قلت فيه كل شيء، فان كنت أنصفته فقد أنصفته بحق، وإن كنت ظلمته فقد ظلمته بحق، ولكني قبل كل شيء وبعد كل شيء قد انتصرت على نفسي فتناسيتُ ما كان بيني وبينه من القتال في سنة 1935 على صفحات جريدة الجهاد يوم سمحت له نفسه بأن ينضم إلى غريمي طه حسين.

والله المسئول أن يطيل حياة هذين الرجلين، فهما من ذخائر مصر على وجه الزمان. وهل سيطرت مصر على الحياة الأدبية في الشرق إلا بفضل ما في أبنائها من شراسة وعرامة واستطالة واستعلاء؟

زكي مبارك

الذوق الفني في مصر

وأسطورة نهر الجنون

للأستاذ سيد قطب

أسطورة (نهر الجنون) معروفة، ولكن لا ضرر من التذكير بها في هذا المقام؛ فهي تتلخص في أن ملكاً رأى في نومه أن النهر الجاري بجواره قصره يصاب كل من شرب منه بالجنون. وأصبح فوجد أفراد الشعب كله - والملكة معهم - قد شربوا من النهر وجنوا، فحزن وقلق على شعبه وعلى رفيقة حياته، ولم يكن هناك أحد لم يشرب إلا الملك والوزير.

وبينما كان الملك ووزيره في شغل شاغل بالطب لهذه الكارثة كانت الملكة حزينة قلقة على الملك الذي جن - في رأيها ورأى الشعب - لأنه لم يشرب هو ولا وزيره. . . وأخيراً، شرب الملك وشرب الوزير!!!

هذه الأسطورة تتكرر كل يوم في مصر - في عالم الفنون - بين العقلاء المجانين، وهو قلة قليلة، والمجانين العقلاء وهم كثرة كثيرة!!

ففي مصر مدرسة فنية عرفت باسم (المدرسة الحديثة)، وهي تجاهد منذ ثلاثين سنة لرفع الذوق الفني، بل لخلق الذوق الفني. ولكن الذين اتبعوها لا يزالون فئة قليلة، والذين فهموها فئة أقل، والذين تجاوبوا معها بعد فهمها فئة أندر. وهؤلاء هم الذين لم يشربوا من النهر، ولا تزال آراؤهم في الحياة والفن تثير العجب العاجب بين الشاربين!

وهذه المدرسة يبدو أن كل همها موجه لتصحيح مقاييس الأدب، ولكنها تجاهد في تصحيح مقاييس الإحساس بالحياة جملتها وتفصيلها، وتقويم الأذواق في أصولها وفروعها، فكل ما هو مادة حياة ومادة شعور ينال عناية هذه المدرسة. ومن ثم كان للموسيقى وللغناء نصيب وافر من جهادها.

ولقد أغضب زعماء هذه المدرسة وأملأ قلوبهم ظلاماً وبأساً إذا قلت لهم: إنهم فشلوا أشنع الفشل في رسالتهم، وأن أتباعهم - على قلتهم - ليسوا جميعاً بفاهمين حقيقة دعوتهم لأن طباعهم لا تتسع لها، وإحساسهم لا يستوعبها.

وإني لأخشى أن أقذف بها كلمة مزعجة مؤذية فأقول لهم: إن الظواهر حتى الآن تكاد تجزم بأن طبيعة هذا الشعب ليست على استعداد للتجاوب معهم، وأن الشذوذ وحده هو الذي أطلعهم بين ظهرانيه، وأن المشكلة ليست مشكلة الفهم والتفهيم، ولكنها مشكلة الطبيعة التي لا تتسع لمثل ما في نفوسهم من أحاسيس. وعليهم إذن أن يشربوا من النهر، أو أن ينزووا عن المجانين العقلاء!

وإنها لصيحة مزعجة، ودعوى يتمنى مدعيها من صميم نفسه ألا يكون محقاً فيها، ولكن الدلائل جميعها - مع الأسف - تدل على صدقها الأليم.

والخطب في هذه المسألة متفاوت الدرجات، فقد يكون في الأدب أخف - إلى حد ما - لظهور طبقة قليلة من الشبان تبشر بالخير الضئيل. ولكنه فادح فادح في الموسيقى والغناء. وهذه الموسيقى التي لا نسمع غيرها، وذلك الغناء الذي ليس لدينا سواه.

فقد مضت القرون تلو القرون، وليس لنا موسيقي واحد، ولا مغن واحد. وكان (سيد درويش) فلتة شاذة، وهو مع هذا لم يرتفع إلى المستوى العالمي، ولكنه كان (إنساناً) في فنه، يحمل طابع الآدميين، وكان هذه كسباً، لأن (الآدمية) وحدها، لا الآدمية الممتازة هي التي نفتقدها في موسيقانا وغنائنا، فلا نعثر على ظل لها في الجميع، وما نزال نسمع ألحاناً وأنغاماً، هي رجع التأوهات الحيوانية المريضة وصدى الميوعة المسترخية المئوفة، دون أن يخطئ ملحن أو مغن مرة واحدة فيسمعنا صوت الإنسان السليم!

والقارئ يرى من هذه الكلمات، أن قائلها (لم يشرب من النهر) ولا شك. وإلا فهل يصدق أحد والأغاني ترن في الآذان ليل نهار، وتحملها أجنحة الأثير بالعشي والأبكار، أن ليس في مصر مغن واحد ولا مغنية منذ أجيال، وليس فيها ملحن واحد منذ قرون، وليس فيها موسيقي واحد في تاريخها الطويل؟.

أهذا كلام؟! أليس هو الجنون بعينه، أو العقل الذي هو عين الجنون؟

في مصر مطربون ومطربات، وفي مصر مُلحنون وموسيقيون، والشعب كله يردد أغانيهم وألحانهم، ويتهافت على حفلاتهم ورواياتهم، ويدمي أكفه من التصفيق إعجاباً بهم، فها يصدق أحد أن مصر - فيما عدا أغاني سيد درويش لم تطعم الموسيقى، ولم تتذوق الغناء، ولم يتردد في جوها صدى واحد فيه مسحة الآدمية؟

هذه قولة غليظة - لم تشرب من النهر - ولكنها كانت خليقة أن تنبض بها كل فطرة، وأن يرددها كل لسان، لولا أن الجميع قد شرَبوا مع الأسف شربوا حتى فقدوا وعيهم فهم مخمورون لا يفيقون من هذه الألحان المريضة ولن يصدقوا من يقول لهم: إنهم مخمورون، لأن الأغلبية لا بد أن تكون هي الواعية في جميع العصور!

وبعد فما جدوى هذه الكلمات؟

لقد كان يرجى لها بعض الفائدة، لو سرت مع الشاربين المخمورين إلى منتصف الطريق، وكتمت عنهم نصف الحقيقة، وارتضيت أنصاف الحلول. لو قلت لهم: إن هناك أغنيات وألحاناً سليمة وأخرى غيرها مريضة، وأنك تعجب من فلان أو فلانة بكذا وكذا، وتنكر عليهما كيت وكيت. . .

أما وأنت تجبه هذه الملايين - على اختلاف ذوقها الفني - بأن ما يستحسنونه سواء من حيث أنه لا ينتسب إلى فن الموسيقى وفن الغناء، وأن ما يسمعون إنما يتفاضل في دائرة بعيدة عن دائرة الفنون الآدمية، فيرتفع أو ينحط، ولكنه لا يعير في ارتفاعه أو انخفاضه عن نفس إنسانية على الإطلاق. . .

أما وأنت تدعي هذه الدعوى غير المعقولة، فلا سمع ولا تصديق وعليك أن تشرب من

النهر الذي شرب منه الجميع. . .
هذه كارثة. كارثة أن نعيش أمة كاملة بلا موسيقى ولا غناء وأن يكون غذاؤها الروحي هو هذا الترنيم المريض الزائف. وأشد من هذه الكارثة هو لا أن تستسيغ هي هذا الغذاء.
ولست أدري كيف يكون العلاج، والذين يتولون العلاج في غالب الأحيان هم أنفسهم مخمورون، شاربون من النهر، وإن نعوا على الشاربين!
موسيقى جديدة وتلحين جديد ومطربون ومطربات جدد، وأذواق للسامعين غير هذه الأذواق. أذواق لا تستسيغ أية قطعة أو لحن مما تتردد في مصر منذ مئات السنين. كل هذا وفي آن واحد هو ما تحتاج إليه لتحسب في عداد الآدميين.
والمعجزة وحدها هي التي تستطيع أن تفعل ذلك لا الجهد البشري ولا المدرسة الحديثة، ولا عشرات الكتب، ولا ألوف المقالات في الصحف.
وتسألني: وفيم إذن تكتب هذه الكلمة، وتشغل بها فراغاً من صفحات هذه المجلة، وفراغاً من وقت القراء؟ فأجيبك: إنها صيحة من لم يشرب من النهر، أو هي صيحة الجنون في
عرف المجانين!
(حلوان)
سيد قطب
تقويم هذا العام
للأستاذ عباس محمود العقاد
تقويمُ هذا العام من ... لحظاته الأولى لديك
قومي ارفعيه وارفعي ... عنه الغطاء براحتيك
من يوم مطلعه إلى ... رُجْعاه، موقوفٌ عليك
وإذا انتهت أيامه ... ولكل عام منتهاه
فعليك أنت وداعه ... وترحِّبين بما تلاه
ويْحِيى إذا دار المدى ... ورعيتُ وحدي ملتقاه!
هي قبلةٌ ضمت عُرَى ... عامين فاتصلا اتصالا
ومُنى الخواطر في غدٍ ... عام كسابقه مآلا
لا نعجلن به فما ... أقسى الحياة على العَجَالى
لا. لا. فهذا يومنا ... وغد، وبعد غد، خفاء
أنا مغمضُ العينين ومست ... مع إلي حادي الرجاء
فإذا سمعت حداءه ... فدعيه يمضي حيث شاء
عباس محمود العقاد
خواطر في رأس السنة
للأستاذ صديق شيبوب
النظام أساس العالم، والتوقيت من الأسس التي يقوم عليها النظام. عرفه الإنسان منذ عصوره الأولى، أي منذ لاحظ أن اليوم ليل ونهار، وأن الأيام يتلو البعض الآخر متشابهة في شكلها البارز، متباينة طولاً وقصراً، وبرداً وحراً. فإذا الأيام مجموعة في فصول، والفصول مقسمة إلى شهور، والشهور مضمومة في السنة. ولم يلبث التوقيت بالسنة أن استولى على الإنسان في كل مرافقه.
لكل إنسان على اختلاف عمله سنته الخاصة به. فللمزارع سنة، وللتاجر سنة، وللعامل سنة، حتى الحكومة عندنا لها سنتها المالية الخاصة بها؛ وللشمس سنة، وللقمر سنة، وللنجوم سنة. وكل واحدة من هذه السنين تختلف في بدايتها ونهايتها عن السنين الأخرى؛ فسِنو الأجرام السماوية موقتة بدورانها، وسنو طبقات الناس موقتة باختلاف الفصول وتأثيرها عليها.
على أن الناس إذا اختلفت سنتهم الخاصة وفقاً لأعمالهم وأغراضهم فقد اعتنقوا كذلك سنة بعض الأجرام السماوية، وخاصة الشمس والقمر. فجعل بعضهم السنة الشمسية، كما جعل البعض الآخر من السنة القمرية، عامة لكل الطوائف.
هذا دليل من الأدلة على أن الإنسان يتطلع أبداً إلى السماء كأنها مهبط وحيه ومصدر هديه في حياته. فعيناه أبداً مرفوعتان إليها يتأمل في قبتها الزرقاء الجميلة، ويسر

بانعكاس أضوائها، وغرابة غيومها، واختلاف ظلالها، وتنوع ألوانها، من فجر طالع، إلى صبوح براق، إلى غبوق داكن، إلى شفق أحمر لامع إلى غسق أسود، إلى ليل حالك، ويعجب بخطوطها الزرقاء التي لا نهاية لها، وأجرامها المتقدة كأنها أنوار تتلألأ في بحر لا شاطئ له، ومجوهراتها الساطعة التي لا توزن حجارتها بالمثقال. إنها ثروة عظيمة بعيدة المنال، لا ينضب معينها، ولا تزول بهجتها، ولا تنحط قيمتها، لا أول لها ولا آخر؛ لا يستطيع الإنسان جمعها، أو تناولها، أو فقدها، أو ثورتها، ولا يحول بينه وبينها غير الموت.

ولكن الموت إذا نزل بالإنسان فإنه أضعف من أن ينزل بها وأن يزيل بهجتها ورواءها. إنه مثل النسر المحلق في كبد السماء العاجز عن أن يحول دون تغريد البلابل.

فالسماء رمز الأشياء التي لا تموت. هذه شمسها تعتلي قبتها العميقة كأنها هاوية لا قرار تنتهي إليه ولا جبال ولا أرض تضمها؛ هذه الشمس تشرق وتغرب على مناظر الطبيعة في شتى الفصول تثبت حرارتها في الأرض وما عليها. وهذا القمر حالم في تنقله وتطوره، وهذه النجوم تشع بريقاً كأنه خفق فؤاد مضطرم. . .

لله أحلام الإنسان وآماله التي تلتقي عند هذه النجوم! إنها محط أنظاره يسائلها عن ماضيه وحاضره، ويرى في بعضها مصدر تفاؤله وفي البعض الآخر مبعث تشاؤمه، بينما هي في أبراجها ساهمة تتابع سفرها الطويل اللانهائي لا تحير ولا تبدي، ولعلها لا تراه ولا يخطر لها ببال، ولا علاقة تربط بينها وبينه.

على أنها مصدر راحة وطمأنينة في سكونها الغريب. والسماء تتحدث إلى الإنسان بلغة عجيبة لا يستطيع التعبير بها أبلغ الألسنة. إن في سكوتها الرائع أعظم بلسم لشفاء القلوب. إنها قد تروع فكره حيناً، ولكنها - مهما اختلفت اعتقادات الناس بها - تظل غذاء للنفوس ببريق ألوانها وسطوع شموسها وأقمارها، وفكرة الاستقرار والسمو التي توحيهما إليهما

ما أجمل الحياة لو قضيناها محدقين في السماء!

يثير التحديق في السماء في نفس الإنسان فكرة أصله ومصيره. من أين أتى وإلى أين يذهب؟ هل الوجود والعدم سيان! وإذا كان مصدره لا يثير اهتمامه لأن الماضي قد فات، وهو في ذمة التاريخ، فما المستقبل؟ كيف يمهد له أسباب الطمأنينة والسعادة، وهما غايته التي ينشدها في وجوده، وهما قصده من مصيره، والمصير من عالم الغيب، ولكنه الرجاء يحدو الإنسان والآمال تبعث الشجاعة لقلبه ونفسه. والإنسان يقارن دائماً بين الماضي والمستقبل، متبرماً بالماضي منتظراً من المستقبل ما يعوض عليه ما فات. فكم سمعناه يقول: (لو كنت أدري. . .) و (إذا أتيح لي أن أعيش من جديد. . .)

أما الرجل الحكيم فهو الذي يعرف كيف يوفق بين الماضي والمستقبل، فكأنه يقضي حياته محاولاً استخلاص الحكمة مما يمر به من الحوادث، والحكمة كلمة كبيرة تدل على صفاء العقل والقلب. وما أحوج اليوم إلى مثل هذا الصفاء!

إذا نظر الإنسان إلى الحقائق الواقعية وجد أن الصبر من أدق مظاهر الحكمة، وله فوائد جمة تعود على صاحبه بالرضا. ومن فقده فقد خيرات وفيرة، لأن الزمان لا يحترم غير الأعمال التي كان الصبر من أكبر العوامل التي ساهمت فيها.

كان الكردينال مازارين، الوزير الفرنسي الكبير، يقول: (أنا والزمان)، وهو قول ينطبق على أفعال أعظم أمة في هذا العصر. وقد وصل الوزير الفرنسي بالمبدأ الذي سار عليه إلى أعلى قمم المجد، كما وصلت إليه الأمة البريطانية لأن الصبر معناه الرزانة والتعقل. لذلك نجد الصبر من المزايا التي يتحلى بها الإنسان سني نضوجه وشيخوخته، لأن في الشباب حماساً يدفعه إلى تعجل الأمور، وهو يتولى في وقت واحد حل شتى المسائل في أقصر مدة من الزمان.

ومن غرائب الاضداد عجلة الشباب وصبر الشيوخ. يستعجل الشباب الأمور وهو يعرف أن أمامه متسعاً من الحياة يتيح له التريث فيها ويعالجها الشيخ في أناة وصبر بينما يشعر أن ما بقى له من العمر قصير الأجل وأن الحياة تفلت من بين يديه وأن الموت قريب منه واقف له بالمرصاد.

وهذه ظاهرة تصدم المنطق صدمة قوية ولكنه ينتقم لنفسه إذ يدلل على أن الأعمال

المرتجلة هباء تذروها رياح الحياة، وأن الزمان أداة قوية تطلب قسطها من الاحترام له، وأنه سيد يجب إعطاءه ماله من حق.

والطبيعة خير أستاذ للناس في احترام الزمان لأنها ترضى بأحكامه وتخضع لقوانينه، فلكل ظاهرة من ظواهرها مدتها المقررة وفصولها المعروفة. لأن الطبيعة قوية تصمد لتقلبات الزمان ولا تتأثر بها.

حقاً إن الصبر من أبرز الدلائل على القوة، وهو من أكثر مزاياها أناقة وطرافة

كم في الحياة من أضداد تباعد بين المظهر والحقيقة!

يعيش الإنسان موزعاً بين المنافع التي يصبو إليها والغرائز التي تتنازع نفسه، وهو يحاول أن يوفق بين هذه وتلك وأن يضفي عليها ثوباً تظهر فيه للناس من غير أن تقذى عيونهم.

هناك عصور يستولي فيها الكذب على الإنسان فرداً ومجموعاً يعرف المجموع مواضع ضعفه فيخفيها ويظهر بمظهر القوة والغطرفة. ويعلم الفرد أنه حفنة من تراب في مصدره ومصيره بينما تمتلئ نفسه كبرياء وخيلاء. وتقبل كل طبقة من طبقات المجتمع على التعالي للوصول إلى ما فوقها: وطبقة العمال أقصى همها التركز لتوازي الطبقة الوسطى

بينما هي تحتقر مبادئها وتقاليدها. وتحاول الطبقة الوسطى التسامي إلى (البرجوازية) الأرستقراطية بينما تتناول وسائلها وترفها ومظاهرها بنقد شديد.

تنعت المرأة الرجل بالقوة وهي تعرف مكامن ضعفه، ويصف الرجل المرأة بالجمال وهو يرف أن في الرجولة جمالاً لا تقاربه الأنوثة. وهكذا أضفى كل واحد من نوعي البشر على صاحبه نعوتاً لا يعتقد بصحتها. وقد خلق كل واحد لصاحبه مزايا ثم اطمأن إليها. ولعل أبرع هذا الخلق وأجمله خلق الرجل للمرأة، فقد بنى لها عرشاً وأجلسها عليه إلهة يطالع في عينيها سعادته وغبطته. ويستنزل من جناتها نعمته ولذته. والغريب في هذا أنه صادق في عقيدته التي اختلقها، مغرور بكذبه الذي أجراه، وأن غبطته في أن يغتر بهما.

ولا غرو في ذلك فكثيراً ما يضحي الإنسان بسعادته في سبيل لذته، وتسهل عليه هذه التضحية إذا تعودها. إن طريق اللذة مفروش بالدمقس والحرير بحيث يستطيع السير عليه من وُلِد حافي القدمين كما يسير على العشب الناعم. أما السعادة فقد خلقت للصالحين من البشر، إما لأنهم يعتقدون بأنهم سعداء، أو لأنهم ينتظرون السعادة مطمئنين إلى نوالها.

فالسعادة مطمح النفوس الكبيرة، وكل نفس شريفة إذا كانت طموحة، لأن الطموح يتطلب قوة وتضحية، وهو في مجموعه دليل على كبرياء النفس، والكبرياء فضيلة إذا كانت سلاحاً من أسلحة النضال.

إن مظاهر الكذب التي ألممنا بها تجعلنا نستنتج أن كل الناس يمثلون دور المنفعة على مسرح الزمان، وأنهم في اطمئنانهم إلى ما يلعبونه يصبح الدور الذي يمثلونه أقرب إلى حقيقتهم من الأصل. لقد أصاب شكسبير كبد الحقيقة عندما تلهى بهؤلاء الأشباح وجعلهم يمثلون دور المجانين حتى صاروا في حقيقتهم مجانين.

إن الأشياء والبشر كافة يغالطون في هذا القمار العظيم الذي ندعوه الحياة.

. . . القلب يغالط العقل، والعقل يغالط القلب.

يولد الطفل ممسكاً بيديه أوراق لعب كبيرة ثم يرميها في الحياة مغامراً بها فإما أن تنطلي حيلته فينعم بما ربح، وإما أن تنفضح فيشقى بما فقد.

وبعد، فقد تعودت كل طائفة من الناس النظر في شئونها عند نهاية السنة المقررة لها. فالزارع يجيل رأيه فيما زرع وحصد، والتاجر يوازي بين ما أشترى وما باع، والحكومة توازن بين ما جمعت وما أنفقت؛ وهكذا فإن من فضائل الموقف بين عامين أنه يثير في النفس شتى الأفكار والتأملات.

وقد تنازعت نفسي هذه الأفكار وأنا أصغي إلى صراخ الإنسانية وأنينها، وإلى دوي المدافع وترجيع صداها، وإلى خصومات الأمم ودعاياتهم، وإلى صرير أقلام الكتاب ودوي آلات الإذاعة والطباعة؛ فرأيت أن أدون ما جال بخاطري، ولعلي أصبت المرمى ولم أخطئ السبيل.

صديق شيبوب

السياسة التوجيهية في الأزهر

للأستاذ محمد محمد المدني

في العدد (391) من (الرسالة) مقال كتبه الأستاذ محمود الشرقاوي، بمناسبة مقال في العدد الذي قبله للدكتور محمد البهي عن (شخصية الأزهر العلمية)

والأستاذ الشرقاوي يصف مقال الدكتور البهي بأنه مقال جيد، وفيه صدق كثير، وقد أثار في نفسه طائفة من الخواطر يعتقد أن فيها - وهي أيضاً - صدقاً كثيراً وفيها صراحة

ومع أن الأستاذ يبدو معارضاً لفكرة الدكتور، بل مهاجماً له فإن من يتأمل فيما قاله يجده قد وافقه في كل ما قاله، ثم نقل البحث إلى شيء آخر.

ولست فيما أكتب اليوم بالمدافع عن أعضاء البعوث الأزهرية إلى أوربا، فذلك شأن يخصهم، وهم أولى بأن يردوا على أسئلة الأستاذ التي وجهها إليهم؛ ولست كذلك مهاجماً لأحد من الناس أو لطائفة من الطوائف، ولكني أريد أن أقول إن الأستاذ الشرقاوي لم يكن صريحاً على الرغم مما ادعاه لنفسه من الصراحة في أول مقاله؛

فهو يقول للدكتور البهي: لا تحدثنا عن إنتاج جماعة كبار العلماء، ولا عن قيمة هذا الإنتاج في نظر العلم، ولكن حدثنا عن إنتاج هذه البعوث الأزهرية التي أنت واحد من أعضائها، والتي وضع الأزهر فيها آماله، وظل يرقبها في لهف وشوق، معللاً نفسه بعهد جديد يمتاز بالحرية في الرأي، والاستقلال في التفكير: أين هو هذا الإنتاج؟ وأين طابع هذه البعوث الخاص الذي تتميز عن أشياخها؟ وأين التجديد الذي أفاده الأزهر من بعثة الإمام محمد عبده أو بعثة فؤاد الأول؟

هكذا يتساءل الأستاذ، ثم يصرح بأنه لم ير دليلاً يدل على أن هذه البعثات قد جددت، أو سارت على نهج غير النهج الذي سار عليه الأشياخ من قبل (فلا هي قد أقامت في الأزهر مدرسة للتجديد خاصة، ولا نهجت فيه منهجاً دراسياً ولا تأليفياً خاصاً، ولا لمت حولها معسكراً جديداً يرفع معها وبعدها شعلة النور في الأزهر. . . الخ)

ثم يحاول الأستاذ تعليل ذلك، فيجد نفسه (أمام واحد من فرضين: إما أن تكون هذه البعوث لم تفد شيئاً مما درست في جامعات أوربا، ولم ترتفع بتفكيرها عن أشياخها وعن زملاء أعضائها الذين لم يبعثوا ولم يدرسوا. . . وإما أن تكون هذه البعوث العلمية قد أفادت من دراستها الأوربية عقلية جديدة حرة وتفكيراً حراً. . . الخ)

ردد الأستاذ بين هذين الأمرين، ولكنه نفى الأول منهما مستدلاً بأن أعضاء هذه البعوث جميعاً مبرزون في دراساتهم الجامعية، وفي درجاتهم العلمية التي نالوها، وفي البحوث التي فازت بالتقدير، فهو إذا يستبعد الغرض الأول ويستبقي الغرض الثاني، وهنا ينتهي عهده مع الصراحة، فيفر من مواجهة الحقيقة التي يراها، ويعود إلى الترديد فيقول: هل يتوجه اللوم في عدم إنتاج هذه البعثات إليهم أم أين يتوجه؟

كأني الأستاذ الشرقاوي يريد أن يكون صريحاً في نفس الموضوع كما كان صريحاً فيما وجهه إلى الدكتور البهي، فهو يهم بأن يطلق لنفسه العنان ثم يعود فيؤثر الإبهام، وكأني به متفقاً مع صاحبه في كل ما ذكره غير مخالف له في شيء منه، ولكنه يؤثر أن يظهر في ثوب المعارض له.

ولا علينا من ذلك، لكننا نسأل الأستاذ الشرقاوي: ما هي الناحية الثانية التي يحتمل أن يتوجه إليها اللوم؟ ما هو هذا الشيء الذي يحتمل أن يكون قد صرف أعضاء البعوث عن الإنتاج مع قدرتهم عليه؟ أتقصد به أن البيئة الأزهرية غير صالحة لتلقي الفكر الجديدة، وتقبل الإنتاج الحر المبني على التفكير المستقل لأنها ما زالت تعد التجديد خروجاً على ما ينبغي من تقديس القديم والفناء فيه، والدوران من حوله؟ أم تقصد أن التجديد والإنتاج العلمي مرتبطان بالسياسة التوجيهية، فكلما كانت هذه السياسة ماضية في طريقها القويم، حريصة على تشجيع العاملين، وإنارة الجهود، والانتفاع بالمواهب، نما الإنتاج، وكثر المنتجون، وتشجع العاملون. وكلما انحرفت هذه السياسة عن طريقها القويم وأدخلت في تقدير الأعمال اعتبارات غريبة عنها، فترت الهمم، وكلت العزائم، وضعف التفكير، وقل الإنتاج؟

نحن نعرف أن كثيراً من الاعتبارات قد يعوق سير الإصلاح، ويصرف الساسة الموجهين عن الطريق، ويلويهم من حيث يريدون أو لا يريدون عما رسوه من الإصلاح وأخذوا به

أنفسهم من التوجيه.
فقد يكون في بيئة من البيئات رجل حر الضمير، مستقيم الفكرة، له في الإصلاح برنامج شريف، وله غيرة محمودة على هذا البرنامج، ولكنه مع ذلك لا يرى بأساً من أن يجامل
شخصاً ما فيسند إليه عملاً ممتازاً من الأعمال الإصلاحية، لا لأنه ممتاز في نفسه، ولا لأنه ناجح في عمله، ولا لأنه لا يوجد في أقرانه من هو خير منه، ولكن لاعتبار آخر، كأن يكون صديقاً مثلاً، أو أن يكون قد تطلع في يوم ما إلى منصب ما فلم ينله، فمن الرأي أن يترضى، ومن الرأي أن يعوض!
وقد يحيط بالمصلح الشريف المخلص أعوان شرفاء مخلصون لا يدفعهم إلا الإخلاص للفكرة الإصلاحية، ولكنه مع ذلك ربما أهمل آراءهم، لا لأنه بحثها فتبين وجه الخطأ فيها، ولا لأنه اقتنع بأن غيرها أولى بالقبول منها، ولا لأن أصحابها مشكوك في إخلاصهم أو في حسن تقديرهم، ولكن لاعتبار آخر لا ينبغي أن ينظر إليه، ولا أن يغلب جانبه، كالميل إلى تمثيل عنصر معين في ناحية من النواحي.
وقد يخضع المصلح لاعتبارات أخرى غير هذه وتلك، يدفعه إليها على الرغم منه قانون تقليدي، أو عرف قائم، فتراه مثلاً لا يسند أعمالاً خاصة إلا إلى طائفة خاصة، لا لأن هذه الطائفة أجدر من غيرها بتولي هذه الأعمال، ولا لأنها أقدر من غيرها على السير بها في طريق النجاح، ولكن لاعتبار آخر قد لا يكون له صلة بهذا الموضوع أصلاً، كاعتبار شرط التوغل في السن مثلاً في حق الأعضاء الذين ينتخبون لعضوية جماعة ما، أو يرشحون لتولي منصب ما وهكذا.
نعرف هذا كله، ونعرف أنه شر ما تصاب به بيئة من البيئات، وأنه داء خطير يصيب الإنتاج العام بالشلل، ويؤدي إلى الخمول والركود، ثم إلى الانحلال والموت!
ونعرف أيضاً أن العامل الذي يجد أن المقاييس التي من حوله ليس أساسها التفكير والعمل والدأب والإنتاج، وإنما أساسها شيء آخر غريب عن هذا كله، وبعيد عن هذا كله، هذا العامل لا يلبث أن يفتر، وأن يضعف، لأن القدرة على الإنتاج وحدها غير كافية، ولكن ينبغي أن يصاحبها التشجيع والإغراء.
فهل يريد الأستاذ الشرقاوي شيئاً من ذلك ويمنعه شيء ما أن يقوله، وأن يكون صريحاً فيه؟
ألا إنه لو علل ما يقوم به من عقم البعوث العلمية بالسياسة التوجيهية لما كان منصفاً، ولما قال صواباً، فإن على رأس الأزهر شيخاً ممتازاً في تفكيره، ممتازاً في شخصيته، بعيد
النظر فيما يقدم عليه أو يحجم عنه من عمل، وهذا الشيخ العظيم فوق أنه يشرف على الأزهريين من أسمى مكان في الأزهر، يتمتع من حبهم وطاعتهم وحسن انقيادهم بما لم يتمتع به أحد من شيوخ الأزهر، فلا يستقيم مع هذا أن تكون السياسة التوجيهية في عهده ملتوية عن الطريق، غير مؤدية إلى الغرض المنشود. ولن يرضى الأستاذ الأكبر بأن يضع بالأمس أسس الإصلاح، ويرسم منهاج النهوض، ويضيء شعلة التجديد، حتى إذا اجتذب بها القلوب ووجه إليها النفوس، وضعها في طريق العواصف الجامحة من رغبات أو شهوات
فلنستبعد هذا الغرض، فلا يبقى معنا إلا أن الأزهر لم يصبح بعد بيئة صالحة لتلقي الإنتاج العلمي الذي أساسه التفكير الحر، والاستقلال في النظر، وعدم افتراض الثقة المطلقة إلا فيما ورد عن المعصوم.
فهل هذا هو ما أراده الأستاذ الشرقاوي؟ إن يكنه فلا ينبغي أن يعد العقم في الإنتاج قصوراً في البعثات الأزهرية، ولا عيباً في السياسة التوجيهية؟
محمد محمد المدني
المدرس بكلية الشريعة
العقد الفريد
للأستاذ محمد سعيد العريان
(بقية ما نشر في العدد الماضي)
قد قَّدمنا القولَ في صدر هذا البحث أنه لم يسبق ابنَ عبد ربه إلى التأليف في باب الأخبار والنوادر على هذا النحو إلا ثلاثةُ نفر: الجاحظ، وابن قتيبة، والمبرّد.

أما الجاحظ والمبرّد فقد كان لهما نهج في التأليف يخالف نهج العقد، على اتفاقهما ما في الموضوع والغرض؛ فكان انتفاعه بما اطلع عليه من مؤلفاتهما في المادة لا في الطريقة. وأما ابن قتيبة، فإن بينه وبين عبد ربه مَشابهَ من وجوه، حَمَلتْ بعض الباحثين على الزعم بأن صاحب العقد كان في نهجه وفي تبويبه لاحقاً مقلّداً، بل قد غَلاَ بعضهم في الاستنساخ فزعم أن ابن عبد ربه قد سطا على كثير من كتب ابن قتيبة، فنقلها نقلاً إلى عقده بحالها من غير تغيير كبير. وإنه مما يقوّي هذا الزعم، تلك الشهرة العظيمة التي كان يحظى بها ابن قتيبة عند أهل الأندلس، حتى كانوا يتهمون من خلت مكتبته من مؤلفاته. ولكن العقد الفريد على الرغم من ذلك غير عيون الأخبار، وابن عبد ربه غير ابن قتيبة، ولكل من الرجلين شخصيته المتميّزة بوضوح من خلال مختاراته، ولكل منهما مزاجُه وروحه ومذهبه وجوُه الذي يعيش فيه ويصدر عنه؛ فسواء كان هذا الزعم صحيحاً أو مبالغة في الاستنتاج، فلن يضيرَ صاحبَ العقد شيئاً، ولن ينقص شيئاً من قدر كتابه، إذ كانت المادة التي اجتمع منها الكتابان ليست ملكاً لأحد الرجلين، ولا هي أثراً من إنشائه الأدبي الخالص؛ ولكنها تراثٌ مشترك يتوزَّعه أبناء العربية مما خلَّف آباؤهم.

وليس معنى أنه لم يسبق ابن عبد ربه في بابه إلا هؤلاء النفرُ الثلاثة أنه لم يأخذ . . . عن غيرهم، ولكن الذي نعنيه أن انتفاعه بكتب هؤلاء النفر كانت أظهر دلالة على نفسها، وإلا فقد كانت مكتبة قرطبة لهذا العهد حافلة بطائفة من الكتب لم يجتمع مثلها في زمان في مكان، فلا بد أن يكون ابن عبد ربه قد استعان منها بالكثير إلى جانب ما أخذ من أفواه العلماء المغاربة الذين كانت لهم رحلة إلى المشرق أذاعوا بها علم العربية بين الشرق والغرب.

ويقول الأستاذ أحمد أمين عميد كلية الآداب في جامعة القاهرة، في بحث نشره للتعريف بصاحب العقد (مجلة الثقافة، العدد 94 - 15 أكتوبر سنة 1940): (إن أمالي أبى علي القالي كانت هي النواة الأولى التي بذرها أبو علي في الأندلس من علوم المشرق، وعليها تخرج مشهورو الأدباء في الأندلس، ومنهم ابن عبد ربه. . .)

وظاهر الكلام الأستاذ العميد صريح في أن ابن عبد ربه كان لاحقاً لأبى علي القالي، وأنه من تلاميذه، وأن كتاب (الأمالي) أسبق من (العقد الفريد)، وأنه أول ما نقل إلى المغاربة من علم المشرق. . .

وأرى هذا كله خطأ لا يستند إلى دليل من التاريخ، فقد كان مَقْدَم أبى علي القالي إلى الأندلس بعد وفاة ابن عبد ربه بسنتين وأشهر (توفي ابن عبد ربه بقرطبة سنة 328، وكان مقدم أبى علي القالي في إمارة عبد الرحمن الناصر سنة 330)، وكان تأليف كتابه الأمالي بعد مقدمه بسنين؛ إذ كان هذا الكتاب هو مجموع محاضراته في جامع قرطبة.

فإذا أضفنا إلى ذلك أن ابن عبد ربه قد فرغ من تأليف كتابه (العقد) في سنه 322 على ما نرجحه، وقدرنا المدة التي أملى فيها أبو علي محاضراته في جامع الزهراء قبل أن يجمعها في كتاب ببضع سنين، كان لنا من ذلك برهان لا يدفع بأن العقد الفريد كان أسبق من الأمالي ببضع عشرة سنة؛ فلا وجه هناك للقول بأن ابن عبد ربه كان من تلاميذ أبى علي، وبأن كتابه على منهاجه.

وأما قوله إن كتاب الأمالي كان النواة الأولى من علم المشارقة في الأندلس، فينقضه ما كان معروفاً قبل ذلك في الأندلس من كتب القوم، حتى روى ابن كثير في تاريخه: أن أهل المغرب كانوا يتهمون من لم يكن في بيته من مؤلفات ابن قتيبة شيء؛ (توفي ابن قتيبة سنه 276، وكان مولد أبى علي سنه 288)، وكان للمغاربة من العناية بتحصيل علم المشرق والتكبير إليه ما دعا المستنصر إلى أن يرسل وراء النسخة الأولى من كتاب الأغاني لأبي الفرج فيشريها بألف دينار. . .

أضف إلى ذلك أن رحلة المغاربة إلى الشرق كانت متصلة لطلب العلم منذ أوائل القرن الثالث؛ فلا يمكن مع هذا أن يكون علم أبى عليَّ جديداً على أهل الأندلس في أواسط القرن الرابع، وأن يكون نواة وقدوة، ومنشئ مدرسة يتخرج عليها مثل ابن عبد ربه مؤلف العقد. . . . . .

ويتحدث ابن عبد ربه في مقدمته عن (تأليف الاختيار وحسن الاختصار)؛ فأي معنى لما يذكر من حسن الاختصار في هذا المقام؟ أتراه يعني حسن الاختصار في المجموع، أو في كل خبر على حدته؟ أعني: هل كان ابن عبد ربه يروي الخبر بحروفه كما سمعه أو قرأه من غير اختصار فيه، وإنما كان يختصر في كل جملة ما يروي من الأخبار بحيث لا يثبت منها إلا ما تدعو الحاجة إليه، أو كان يختصر الخبر نفسه فيحذف من حروفه ما يحذف وينقص ما ينقص ذهاباً إلى الاقتصاد في التعبير عن المعنى الذي ينقله؟ . . .

أقول: هذا كتاب العقد بين أيدينا، وقد نظرت فيه طويلاً، وعاودت النظر مرات؛ فبدا لي من طول المراجعة أمر لا بد من التنبيه إليه: ذلك أن بعض دواعي ابن عبد ربه في تبويب كتابه، كانت تقتضيه أن يثبت الخبر مرات في أبواب متفرقة، لصلاحيته للدلالة في أكثر من موضوع واحد؛ فإذا أنت حققت النظر في هذه الأخبار المكررة فقلَّ أن تجد منها خبراً مروياً في موضعين بحروفه على وجه واحد؛ فثمة الحذف والزيادة والإبدال؛ وليس هناك من سبب - فيما نرى - لهذا الاختلاف في رواية خبر واحد في كتاب واحد لمؤلف واحد إلا أن يكون المؤلف يملك من حرية التصرف في رواية هذه الأخبار ما يسمح له أن يرويها بلغته، ويؤديها على الوجه البياني الذي يراه؛ فهو يرويها بالحذف والاختصار حيناً، وبالبسط والزيادة حيناً آخر؛ . . . فهل كان ذلك بعض ما يعنيه ابن عبد ربه بـ (حسن الاختصار)؟ . . .

ولقد يكون هذا الخلاف في رواية خبر واحد نتيجة لازمة لاختلاف الرواة الذين ينقل عنهم، أو نتيجة لازمة لاختلاف الكتب التي ينظر فيها ويقتبس منها؛ ولكن كيف يكون التعليل حين يكون راوي الخبر في الموضعين واحداً، والكتاب المنقول عنه واحداً كذلك؟ . . .

أظن أنه يحق لي بإزاء مثل ذلك أن أزعم بأن ابن عبد ربه لم يكن ينظر إلى شروط الرواية تلك النظرة المتحرجة التي تفرض على مثله في هذا المقام أن يلزم جانب الحرص في المحافظة على نص ما يرويه بحروفه، وأنه كان يجيز لنفسه أن يتصرف في رواية بعض الأخبار تصرفاً يؤدي بها معناها دون حروفها؛ وأحسب ذلك يصلح تعليلاً لانفراد ابن عبد ربه في بعض ما ورد في كتابه من نصوص تخالف ما أجمع عليه رواتها في مختلف كتب الأخبار والنوادر؛ وأحسبه كذلك سبباً فيما ألتزمه صاحب العقد ونبه إليه في مقدمته، وهو حذف الأسانيد فيما روى من أخباره

فإذا صح ذلك، كان العقد إلى جانب ما قدمنا من التعريف بمزاياه، مرجعاً لغوياً يمكن الاستناد إليه في بحث شيء من التطورات اللغوية لبعض معاني العربية بين الشرق والغرب.

صحيح أن بعض هذا الاختلاف في رواية بعض الأخبار قد يكون مرجعه رواة الكتاب نفسه وكتبَته ونساخه، ولكن ذلك إذا صح في قليلها لا يصح في سائرها؛ وقد نبهنا في هامش هذه الطبعة إلى كثير من أنواع هذا الاختلاف، فليرجع إليها من شاء للنظر والاستدلال.

بقى أن نسأل: لماذا قصر ابن عبد ربه كتابه على أخبار المشارقة وهو من هو علماً وتحصيلاً ومعرفة بآداب قومه، وقرطبة هي ما هي في ذلك العصر الزاهر في الأدب والعلم والفن والسياسة؟

تعليل ذلك سهل ميسور لمن يعرف تاريخ ذلك العصر في قرطبة وبغداد حاضرتي البلاد العربية في الغرب والشرق.

لقد كان فرار عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان إلى الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية في المشرق، محاولة جريئة لإقامة حكومة أموية في المغرب بإزاء الحكومة العباسية في بغداد؛ ولقد حالف التوفيق عبد الرحمن الداخل فتم له كثير مما أراد، وأقام عرشاً لبني أمية في الأندلس يتوارثه بنوه سيداً عن سيد، كلهم يحرص على النهوض بدولته إلى المنزلة التي يجعلها تناظر بغداد؛ فمن ذلك كانت المنافسة بين الدولتين في الشرق والغرب دائبة لا تني، وكانت الوفود لا تفتأ ساعية بين الحاضرتين، فلا يظهر جديد في بغداد حتى يكون نبؤه في قرطبة، ولا ينجم نجم في قرطبة حتى يذيع خبره في بغداد؛ واتخذت المنافسة بين الدولتين مظهراً علمياً يبدو أثره فيما كان من اهتمام المغاربة بالرحلة إلى الشرق للتزود من

معارفه، وفيما كان من تطلع المشارقة إلى الأندلس ليعرفوا كل جديد من خبره وما أحدث علماؤه وأدباؤه في مختلف فروع المعرفة.
على أن المغاربة مع ما كان فيهم من اعتداد بأنفسهم وعصبية لبلادهم لم يكن منكوراً لديهم
أن علم العربية في المشرق كله، منه نشأ وفيه نما وربا، فكانت إليه أنظارهم، وإليه حجتهم وقبلتهم، ولا يتم تمام العالم منهم - عند الرؤساء وعند العامة - إلا أن يكون علمه مشرقياً.
وكما نشاهد في مصر لعهدنا من يتزيد في الفضل بكثرة ما يروى من علم الأوربيين وما يقص من مشاهداته لديهم وما يروى من أخبارهم - كان هنالك في ذلك العهد . . . . .
وفي ذلك العهد كان ابن عبد ربه، وكأني به وقد رأى المنزلة التي ينزلها علماء المشارقة من نفوس قومه، والمكان المرموق الذي تحتله مؤلفاتهم وكتبهم؛ حتى كان شأن ابن قتيبة وكتبه عندهم ما قدمنا - كأني به وقد رأى ذلك، فدبر أمراً، وأحكم خطة، واتخذ طريقاً؛ ثم خرج على الناس بكتابه يقول: هاأنذا، وهاهم أولاء!
وكان علماء الأندلس يرحلون إلى المشرق، فرحل المشرق إلى الأندلس في كتاب ابنِ عبد ربه. . . !
ذلك وجه الرأي فيما أحسب لاقتصار كتاب ابن عبد ربه على أخبار المشارقة إلا قليلاً منه، لا أرى ذلك وجهاً سواه.
ورحل كتاب ابن عبد ربه إلى المشرق تسبقه شهرته، ووقع في يد الصاحب بن عباد، فأقبل عليه مَشُوقاً ملهوفاً يلتمس فيه عْلَم ما لم يعلم، فما هو إلا أن نظر فيه حتى طواه وهو يقول أسِفاً: (هذه بضاعتُنا رُدَّت إلينا!). . . ثم دار الزمان وجدَّت الحوادثُ في آثار العرب، فأخذتْهم بالسنين ونقص من الأموال والأنفس والثمرات. وتبعثرت المكتبة العربية فخلتْ بعد امتلاء؛ ولكن علم المشارقة ظلَّ محفوظاً بين دفتي كتاب ابن عبد ربه المغربي الأندلسيَّ القرطبي. . . !
هذا، وقد كان كتاب العقد من بعدُ، مرجعاً له خطره ومقداره عند كثير من علماء المشارقة؛ فنقل عنه القلقشندي في صبح الأعشى، والنويري في نهاية الأرب، والأبشيهي في المستطرف، والبغدادي في خزانة الأدب، وابن خلدون في المقدمة، وغير هؤلاء كثير؛ حتى قل أن يخلو كتاب من كتب النوادر بعدُ إلا كان العقد مرجعه وخزانة علمه. ولو أنني ذهبت أستقصي أسامي الكتب التي سطا أصحابها على العقد فاحتملوا من خزائنه ما أغناهم وذهب بشهرتهم كل مذهب لأعياني البحث وانقطع بي دون الاستقصاء.
محمد سعيد العريان
من أساطير الهند
شاد لها الحب لؤلؤة
(بتصرف عن اج. جي.
للأستاذ إبراهيم العريض
إني لا أستطيع أن أحكم لنفسي في الخلاف الناشئ منذ العصور حول هذه القصة. أهي أشد القصص مرارة في الحب، أم إنها مثل رائع لخلود الحسن؟ فالقصة وما دار حولها من نقاش بات في علم أولئك الذين يدرسون الأدب الفارسي في العصور الوسطى.
إنها أقصوصة جد قصيرة. وإن كانت شروحها قد شغلت حيزاً كبيراً من أدب ذلك الجيل المنثور، فحسبها بعضهم خيالا شعرياً، وأعتبرها آخرون رمزية، فكثرت في مغزاها الأقاويل؛ وذهب رجال اللاهوت فيها مذاهب شتى، واهتموا منها في الأخص بالجانب المتعلق بالبعث بعد الموت؛ وضرب رجال الأخلاق بها الأمثال، واتخذوها موضوعا للعبرة. وهناك غيرهم من لا يرى فيها إلا الحقيقة عارية من كل لبوس.
اج. جي. ولز
جلَوْها له في نقابِ الجمالِ ... عروساً أتمَّ الصِّبا عامَها
وكانَ قريباً بعهدِ الطُّفول ... ةِ لمَّا تتوَّج إذ رامَها
فحلَّت على قلبِه كالشُّعاعِ ... ترى عينُه فيهِ أحلامها

سل الزهْرَ عنِ ضَحْكِها عندَما ... تُفتحُّ للطلِّ أكمامها
سل الطير عن نُطقِها عندما ... تبثُّ مع الفجرِ أنغامها
وما حكَتا من معاني الفُتو ... نِ ما يُلْهِمُ الشِّعْرَ إلهامها
وما شَرِقَتْ عينُها بالسُّرورِ ... فتنفُضَ من خمْرِه جامها
إذا خَطرتْ شدَّ بينَ القلو ... بِ من لا يُبارِكُ أقدامها
وكانت يدُ الحكمِ عن أمْرِه ... تُنفذُّ في الخلْقِ أحكامها
فعاشَ لإمتاعها بالوُجودِ ... وتُّورِ بالحبِّ أيامها
وعاشتْ وإيَّاهُ في روْضةٍ ... من الحبِّ أفنانُها دانِيَهْ
إذا عادَ من هَمِّه بالنها ... رِ أَلْفَى لديْها المُنى غافيه
فَمِجْمرةُ العودِ في جانبٍ ... ومِعْزفةُ العودِ في ناحيه
ومن حولِ هاتْين شفّت ستائِ ... رُ عن كلِّ نُمْرقَةٍ غاليه
وقد عقدَ الوَرْدُ حولَ السري ... رِ من مثْلِ ألوانِها حاشيه
فتُسرعُ باسمةً نحْوه ... وتأخذُ يُمناه كالشاكيه
وتهْوي به بينَ تلكَ الظِّلالِ ... وتبْقَي الظِّلالُ على ما هِيه
فلا تسْمَعُ الأذنُ غيرَ الصَّدى ... صدى الرُّوحِ تهفو إلي ثانيه
وَلاَ تُبْصِرُ العينُ إلاّ يداً ... تمرُّ برِفْقٍ على ناصيه
إلى أن تذُوبَ الشِّفَاهُ التي ... تُنَاغِيهِ في هَمْسَةٍ خافيه
وكانت قِصاراً ليالي الهناءِ ... ولكنّها ازْدهرتْ كاملَهْ
فلمْ يشْعُرا بحُدَاءِ الربيعِ ... ولا كيفَ مرَّتْ بهِ القافلة
وحلَّ الخريفُ لتنْعَى الطيورُ ... إلى الروْضِ أوراقَه الهاطلة
تبدَّلَ في عيْنِها كلُّ لونٍ ... فيا لكِ مِنْ صُفْرَةٍ قَاتلَهْ
فهامتْ فرادَي علي وجْهِهَا ... وكانت تقِرُّ مَعاً نازلة
وماذا تُؤمّلُ بَينَ الغُصُون ... وقد تركَتْهَا الصَّبَا عَاطِلة
على كلِّ صَاوٍ لها رَنّةٌ ... تُسَائله، لو وعَي سائلَه
وأمْسى أدِيمُ الثرَى صورةً ... لِما رَسَمَتْهُ الخُطَا العاجلة
ومن بينَ مِنْ شيَّعَتْها الطيورُ ... إلى عالَمٍ لا ترَى ساحلَه
على صِغَرِ السِّنِّ بين الحسا ... نِ زهْرَةُ آمالِه الذّابلة
وأدْمَى المصَابُ فؤادَ الأمير ... وأفقدَهُ رُشْدَهُ في أساهْ
فظلَّ ثلاثاً بلا بُلْغةٍ ... وقد برِمَتْ نفسُه بالحياة
يلوحُ لناظِره طيْفُها ... فيَجْزَعُ من دمْعِه إن محاه
ويضحكُ مِنْ قلْبِهِ سَاخِراً ... إذا لم يرِنَّ اسْمُهَا في صداه
وكم أطْرَقَ الرأسَ حتّى إذا ... أحَسَّ بذلكَ جُنَّتْ يداه
وكم لبِثتْ عينه في الظلام ... شاخِصَةً لا ترى ما يراه
وتلّى على صَوْمِهِ رَابعٌ ... وما زال جُثْمانُهَا في كراه
فلم يجترئْ أحَدٌ بَعْدُ أنْ ... يواريَ هَيْكلَها في ثراه
تمُدُّ النِّسَاءُ عليها الحريرَ ... فيحسَبْنَهُ قائماً في صلاة
إلى أن تمثّلَهَا فِكْرَةً ... فقرَّرَ تنْفيذَها، في ضُحاه
فأصدَرَ أمراً إلي شعْبِه ... دعا فيه بادِيَهُمْ والْحضَرْ
فما خطَرتْ قبْلَه فِكرةٌ ... كتِلْكَ ببالِ جميعِ البشر
ووافاهُ مِنْ كلِّ فّجٍ عَمِيقٍ ... بُراةُ الدُّمَى الفنُونِ الأخر
وتمَّ له من مُعِدّاتِهِمْ ... وأسبابهم ما اقْتَضَاهُ الأثر
فصبَّ لتابُوتِهَا فِضّةً ... وزخْرفَ أطرافَه بِالصُّوَر
وقوَّمَ بالعاجِ أركانه ... وزانَ قوائمَه بالدُّرر
وشادَ على قُدْسِهِ حَضْرَةً ... بناها من المرمرِ المُحْتَفر
وقدَّرَ شُبَّاكَهَا صَنْدَلاً ... وجَمَّلَ كِسْوتَه بِالطِّرَر
وقامت له شُرْفَةٌ في البِنا ... ءِ مقْصورَةٌ غَلِفّت بالسُّتُر
فكان يُفارِقُهَا بالعِشاءِ ... ويأتي لزَوْرَتِهَا في السَّحر
ومرَّتْ سِنونَ على صرْحِه ... وما زالَ يعْملُ في شأنِهِ
يُحِسُّ إلى حُبِّها في الصُّلو ... عِ كالبحر يغْشَى بطُوفانه

فيَسْعَى ليُعْلِنَهُ للأنامِ ... ولا يستريحُ بإعلانه
وتلكَ التي أَجَّجَتْ قلْبَهُ ... فأغرتْ حَشاه بطُغْيانه
ففي طَرْفِهِ أبداً حيْرةٌ ... إذا جالَ في حُسْنِ بُنيانه
فكم عاودَتْ يدُه بالصلا ... حِ شَكْلاً يُدِلُّ بإتقانه
وكم أعْجَب الناسَ ما شادَهُ ... وأنْكَره هُو في آنِه
فهدَّم من سقْفِه ما اسْتقرَّ ... وبدَّل هيْئَةَ أركانه
وفي البدْءِ كانتْ له نزْعةٌ ... إلى المُسْتقلِّ بألوانه
فخفّفَ حِدّتَها تَوْقُه ... حَدِيثاً لإظهارِ سُلْطانه
مضى في التطوُّرِ ذاكَ البِناء ... ومَّهدَ أَوَّلهُ آخِرَهُ
فيأخذ إيوانهُ في اتِّساعٍ ... تحيط السواري به دائِرة
وتلكَ هيَ النارُ في صَدْرِه ... ولكنها التهبَتْ زاهرة
ففي كلِّ رُكْنٍ لها آيَةٌ ... تُحَدِّثُ عن حُسْنِها شاعِرة
لقد كانَ يُرْضِيه منها البَهاء ... فأصبَحَ لا يرْتضِي الباهرة
وأكْسَبَهُ ضرْبُه في الفنُو ... نِ ذوْقاً هدَى فِطْرَةً طائِرَة
ليختارَ من وحْيِها ما يَحِلُّ ... ويُهْمِلَ عن عَمدٍ سائرة
فكم شُرْفةٍ أثْقلَتْها النُّقو ... شُ ردَّ سُرادِقَها حاسرة
لِتَنْهَضَ من فوْقِها قُبَّةٌ ... تخالُ السماءَ بها غائرة
يغيبُ عن الحسِّ مَنْ زارها ... ويَشْهَدُ في ظلِّها الآخرة
تهلَّل بالحُسْنِ وجهُ الضريحِ ... وقامتْ منائِرُه باتِّزان
تُطِلُّ على أثَرٍ للخُلو ... دِ قامَ على آخرٍ وهْو فان
وكانت تجيءُ إليه الوفود ... تُبارِكُ سُمْعَتَهُ بالعِيان
فتَشدُو أدِلاَّوهُمْ بالتي ... على حُسْنِها عُقِدَ المهْرَجان
وكيفَ قضتْ في صِباها فشادَ ... لها الْحُبُّ لُؤلُؤةَ في الزمان
فَتَخْشَعُ أطْرَافُهم للمكينِ ... وتخْفِتُ أصواتُهم في المكان
وكم شاعرٍ هائمٍ في الخيالِ ... تمثَّلَها فبكَى من حنان
وحسناء تحبْسُ أنفاسَها ... لعاقبةٍ - مِثْلَهَا - في الحسان
وَعَاشَ الأميرِ على عَهْدِهِ ... يقومُ لها كلَّ يومٍ بشان
وَمِنْ حَوْلِه مُلْهمَاتُ الْفُنُونِ ... تَرِفُّ على قلْبِهِ بالأمانِ
وَأَمْسَى بشَيْبَتِهِ ذَاتَ يومٍ ... تُنَادِمُه روحُها الساريَةْ
يرى الوافِدَاتِ إلى قبْرِها ... وهُنَّ يزَغْرِدْنَ في عافية
فيُثمِلُه حُسْنُ ما قدْ أتمَّ ... وَيَذْكرُ ما لم يَكُنْ نَاسيَة
لقد لبِسَ الصْرحُ هذا الجلالَ ... بأشرافِ قُبَّتِه الْعالية
ولم يبْقَ ركنٌ على حَجْمِه ... سِوَى موْضِعِ التُّربة الزاكية
ونظْرَتُه ترْتمي في البِنَاء ... فتسْبحُ في جَوٍّ صافية
ولكِنهَا كلَّما راجعَتْ ... سواريْهِ. . . ساريةٍ سارية
أصابتْ عِثاراً على نُقْطَةٍ ... فكَرَّتْ على نفْسِها ثانية
فيشْعُر كالّشَوْكِ في صدْرِهِ ... يُوخزّ من قلْبِهِ دَامِيَةْ
فيَنْهَضُ فِي قبْضَةٍ منْ ذُهُولٍ ... يَجرُّ خُطاهُ بلا واعِيَة
وعادَ غداةَ غَدٍ واجِماً ... وفي سِرّهِ الْخُطْةُ التاليةْ
وسادَ الكونُ على الْمُلْهمينَ ... كأنّهُمُ الْجَمْرةُ الْخَابية
فشاعِرُهم قائمٌ بالوَصِيدِ ... يُسَائِلُ عمّا جَرَى رَاوِيَة
ودارَ بنظْرَتِهِ في الْمَكانِ ... وألْقَى على صَحنِه ثانِية
ورَوَّى طويلاً وقال: ارْفَعُوهُ! ... وَأَوْمَأَ لِلتُّرْبةِ الزاكية
(البحرين)
إبراهيم العريض
رسالة الفن
شيء نادر:
الوصول
للأستاذ عزيز أحمد فهمي

كن في مجتمع وانظر إلى الناس من حولك وتفرس فيهم، فإنك تستطيع بعد شيء من التدرب والتعلم أن تحدد، ولو بالتقريب، شخصيات الكثيرين منهم، فتقول إن هذا الأول شخص جاد مستقيم في عمله في لهوه، فهو يعمل ليعيش، ويلهو ليعمل، كأنما هو آلة حكم عليها أن تدور دورتين دورة ذات اليمين ودورة ذات الشمال. فإذا تركته ونظرت إلى الثاني قلت إن هذا الثاني شخص حائر لا يعرف لماذا نوجد في هذه الحياة ولا يعرف أي أعباء الحياة يحمل ولا أيها يدع، فهو يرمق كل شيُ باهتمام، ولا تعدو رمقته إلى الأشياء هذا الاهتمام، ولا تجوزه إلى الاختبار والمعرفة ثم الاستغلال. فإذا تركته ونظرت إلى الثالث قلت إن هذا الثالث مغالط اختلس في الدنيا ما كان غيره أحق به منه، وهو يعرف أنه مختلس، ويعرف أن المختلس مهدد بالانفضاح، ولذلك فإنه يعمد إلى تغطية مغالطته الأصلية المجرمة بمغالطات أخرى فرعية هي أيضاً مجرمة. فإذا تركته ونظرت إلى الرابع قلت إن هذا الرابع ضعيف هزيل ولكنه راغب في الحياة، وفي لون مريح من ألوان الحياة يرضاه، فهو يتوسل إليه بإهدار كل مواهبه وكل قواه لا يعبأ بأن يكون موضع النقد، ولا بأن يكون موضع السخرية، ولا بأن يكون موضع التحقير ما دام يصل إلى الذي يريد من الراحة الرخيصة التي استهوته والتي طمع فيها على غير جدارة منه لها. . . فإذا تركته ونظرت إلى الخامس قلت إن هذا الخامس حقود، فإذا تركته ونظرت إلى السادس قلت إن هذا السادس بخيل، فإذا تركته ونظرت إلى السابع قلت إن هذا السابع بحاثة، فإذا تركته ونظرت إلى الثامن قلت إن هذا الثامن فنان. . . وهكذا . . .

بل أن من الناس من تستطيع بالنظرة الأولى إليه أن تعرف الحرفة التي يحترفها، فهذا تعرفه معلماً من عنايته بالنظافة والنظام، ومن حركاته الميكانيكية التي اصطنعها لتكون نموذجاً للتلاميذ يتحركون على نمطها، ولتكون في الوقت نفسه ستاراً بينه وبين التلاميذ فلا يكشفون مع وجودها حركات نفسه الطبيعية التي فطره عليها الله، وأنت تعرفه كذلك من صوته وإشارته وحديثه الذي يتكلف به التفهم بحسب أصول البيداجوجيا. . . وذاك تعرفه محامياً من لباقته ورشاقة ضميره التي تبدو في اتساع آفاق أحاديثه، تلك الأحاديث التي يحرص المحامي البارع كل الحرص على أن تكون كلاماً لا معنى له حتى إذا اختلف مع موكله بعد الحكم الابتدائي استطاع أن يتفق مع خصم موكله ليترافع عنه لدى محكمة الاستئناف. . . وذلك تعرفه سمساراً من سهولة دخوله على الناس وسهولة خروجه من الناس، فهو يحدث من يشاء بما يشاء إلى أن يشاء قطع الحديث ليحدث آخر بما يشاء أيضاً حتى يرى أن يصل الاثنين وأن ينسحب هو ليصل غيرهما بالحلال أو الحرام. . . وأخر تعرفه عسكرياً من سماحة عقله وسماحة نفسه فهو لا يطمع من الدنيا في شيء أكثر من الذي يطمع الإنسان فيه إذا كان في (استراحة) إحدى المحطات: لقمة سائغة، وشربة هنية، بعدهما جرس القيام. . . ثم الصحافي تعرفه صحافياً بقدرته العجيبة على دس نفسه فيما يعرف وفيما لا يعرف، وبقدرته الأخرى على الاستخفاف بحكم الناس عليه؛ فهو يقبل عليهم في النكبة لا ليشاركهم الأسى ولا ليواسيهم ولا ليخفف عنهم وإنما ليراهم كيف يبكون، وكيف يذرفون الدمع، وليته مع ذلك يحاول أن يعرف هذا البكاء وهذا الدمع هل هما صادقان أو هما كاذبان وإنما الذي يعنيه هو تسجيل الوقت الذي بدأ فيه البكاء والوقت الذي انتهى فيه، وتقدير الدمع الذي كأنما ناس يريدون أن يشربوه أو أن يعوموا فيه. . . وهكذا هذا شيء يحدث. . . وأنت تستطيع - كغيرك - أن تميز الناس بالنظرة الأولى أو بالنظرة الثانية، فما الذي يحدث للناس حتى يتشكلوا هذا التشكل الذي يحددهم ويحصر شخصياتهم؟ وهل تحدد الشخصية وانحصارها مما يدل على قوتها، أو مما يدل على ضعفها؟

أما الذي يحدث للناس، فيكون من أثره أن تتشكل شخصياتهم وأت تتحدد وأن تنحصر وأن تتميز، فهو أن الواحد منهم يقع تحت تأثير عاطفة من العواطف أو حرفة من الحرف، ويتركها تعمل في نفسه. والنفس كما نعلم تعمل في البدن، ولكل عاطفة لون من العمل تنصبغ به النفس ويتشكل به البدن. ومهما كان الخير في العاطفة الواحدة أو في الحرفة الواحدة، فإن تغلبها على الإنسان فيه اختلال لتوازنه النفسي وفيه تشويه لشكل بدنه، فالله لم

يخلق بعاطفة إنساناً واحدة طاغية عليه، كما أنه لم يخلق إنساناً محترفاً حرفة واحدة تؤثر فيه هذا الأثر الشنيع.

وإنما الناس الذين خلقهم الله أطفال، أصفياء، عواطفهم موجودة لا حصر لها: فالسعيد منهم هو ذلك الذي إذا نما العقل فيه تمكن به من حفظ التوازن بين هذه العواطف الموجودة الكثيرة فلم يسمح لإحداها بأن تغلبه على أمره. . . فإذا استطاع هذا، فهو ينمو ويكبر ولا يزال وجهه كوجوه الأطفال، ولا تزال شخصيته كشخصيات الأطفال، فيها هذا الشيوع السمح الذي لا يستطيع الناظر إليه أو المحقق فيه أن يميزهم به فيقول: إن هذا الإنسان حقود، أو أنه غيور، أو أنه طماع، أو أنه محام أو أنه معلم، أو أنه مهندس، أو أنه شيء ما. . . وإنما يقول هذا إنسان، فإذا أراد أن يعرف أي إنسان هو كان عليه أن يعاشره وأن يختبره، فعندئذ تتبين له مواهبه واتجاهاته العقلية والنفسية. ولا بد في هذه الحال أن تنكشف له ميزات عجيبة، لأن الإنسان الذي يستطيع - وعلى الخصوص في هذا العصر - أن ينجو بنفسه من الخضوع لإحدى العواطف أو لمجموعة خاصة منها، وأن ينجو من آثار الحرفة والمهنة، لهو إنسان قوي النفس استطاع أن يصل أو أن يعود إلى الأصل الطبيعي لنفسه، وهو الأصل الذي فطره الله عليه، وهو أصل خصب صاف غني فيه كل العواطف، وكل المواهب، وكل القوى الخلقية، وإن تفاوتت مقاديرها عند الناس.

ومن الفنانين الذين استطاعوا أن يصلوا إلى هذا الصفاء: شارلس لاتون، فأنت تنظر إلى وجهه فترى وجه طفل لا يستطيع اللحم المتراكم فيه أن يحجب صفاءه ولا نقاءه. ونجيب الريحاني يقترب اليوم من الستين، ومع هذا فمهما تفرست في وجهه فإنك لا تستطيع - والصلاة على النبي - أن ترى فيه تجعيدة أو خطأ يستر عاطفة حادة أو يشير إلى أن هذا الرجل قد قهره الزمن على أن ينصبَّ في قالب ما. ولذلك فإنه قدير على أن يمثل كل شخصية من الناس، وعلى أن يعلم الممثلين كيف يمثلون ما اختلف من الشخصيات.

والأستاذ أحمد أمين - على ما أنا متحامل عليه - تراه فلا تعرف أهذا الرجل أديب، أم هو عالم، أم هو تاجر، أم هو من ذوي الأملاك، أم هو ممن يرزقهم الله يوماً بعد يوم. . . ولست أدري أأتاه ذلك لأنه من أولئك الذين تحدثنا عنهم، أم لأنه مجموعة من الرجال:

فمنهم الأديب والعالم والتاجر وذو الأملاك، والذي يرزقه الله يوماً بعد يوم، وقد تعادل فيه هؤلاء جميعاً فلم يقو واحد منهم على أن يختص بالظهور فيه.

ويشبهه في ذلك الأستاذ الزيات. . . بل إنه يزيد عنه غموضاً في صوته، فهو لا يزال إلى اليوم يشبه أصوات الأطفال. . .

أما الرجل الجبار في هذا الوصول فهو الاقتصادي الفنان الكبير طلعت حرب. . . فهذا الرجل إذا لم تكن تعرفه ورأيته وأقسم لك جمهور من الناس بأنه طلعت حرب لما صدقت، فهو لا يبدو عليه أنه باشا، ولا أنه اقتصادي، ولا أنه صاحب مشروعات، ولا أنه صاحب جهاد، وإنما هو رجل منكسر ينثني رأسه وهو جالس إلى صدره ذلاً واستغفاراً، وتتطلع عيناه إلى السماء رجاء واستعطافاً، ويتهادى صوته في حديثه كأنما يخشى التعثر أو الخطأ، مع أنه اليوم في السبعين أو نحوها، ومع أنه الرجل الأول في مصر. السنون مرت به ولكنها لم تفعل به شيئاً، والصعاب صدمته ولكنها لم تحفز في نفسه مجرى، وإنما كان يقبل في السنين الماضيات جميعاً على اليوم بعد اليوم، أو على الساعة بعد الساعة يبحث عن موضع الحق أين هو فيلصق به، والصعاب كانت تصدمه فكان يردها بدرع الحق أيضاً فلم تكن لتؤثر فيه، ولذلك استطاع أن يبقى إلى اليوم كأنه طفل كبر جسمه ولكن نفسه ما تزال صافية مرتاحة.

وإذا كان الوصول إلى هذا الصفاء لازماً للناس جميعاً، لأنه أهم أسباب الراحة والاطمئنان، فهو ألزم ما يكون لأهل الفن ما دام تعبيراً من حياة الروح عند صاحبه وعند غيره من الناس، فهذا الصفاء يمكن الفنان من الاطلاع على حقيقة نفسه كلما اعتراها طارئ من طوارئ الحياة، فيلحظ بهذا الاطلاع ما ينتاب النفس الطبيعية عند هذا الطارئ بالذات؛ فإذا ضمن صفاء نفسه واستقامتها فقد ضمن بها مقياساً لا يخطئ يمكنه من الحكم على سائر النفوس وهي تحت تأثير الطوارئ المختلفة، فإذا لحظ بعد ذلك كيف تعبر نفسه عما تفعله بها الطوارئ، وكيف تنزع إلى الاستغراق في هذا

الطارئ أو التنصل من ذاك الطارئ، استطاع بعد ذلك أن يقيس نفوس الناس على نفسه الصافية فإذا وجد اختلافاً بحث عن علته وسببه عندهم. . .
وهذه موضوعات للأدب، وللموسيقى، وللتمثيل، وللغناء، وللرسم، وللرقص. . .
إنها حياة النفس وما الفن إلا تصوير هذه الحياة، وما الوصول إلى الفن الصادق إلا من هذه الطريق. . .
كان الله في عون الفنان إذا أراد أن يكون صادقاً. . .
عزيز أحمد فهمي
البريد الأدبي
الجيل
يعضد مقالة الدكتور زكي مبارك في (الجيل) مستدرك التاج (والجيل القرن) (والقرن - كما في النهاية - أهل كل زمان وهو مقدار التوسط في أعمار أهل كل زمان، وكأنه المقدار الذي يقترن فيه أهل ذلك الزمان في أعمارهم وأحوالهم. وقيل: القرن أربعون سنة، وقيل: ثمانون، وقيل: مائة، وقيل: هو مطلق الزمان)
والجيل في هذه اللزومية:
دين وكفر وأنباء تقص وفرقان (م) ... ينص وتوراة وإنجيل
في كل جيل أباطيل يدان بها ... فهل تفرد يوماً بالهدى جيل؟
وما تزال لأهل الفضل منقصة ... وللأصاغر تعظيم وتبجيل!
الجيل في قول الشيخ قد يراه الدكتور من حججه
حول مسابقة الأدب العربي
في هذا العدد من الرسالة يظهر المقال التاسع، وفي العدد المقبل إن شاء الله يظهر المقال العاشر في نقد كتاب (المختار) للأستاذ عبد العزيز البشري، ويرى طلبة السنة التوجيهية أن موعد المسابقة اقترب وأنه صار من المتعذر أن نكتب عن (تحرير المرأة) و (ديوان إسماعيل صبري)
أما كتاب المرأة فقد نشرت عنه (الرسالة) مقالين لباحثين فاضلين، فأنارت الطريق أمام الطلاب، وأما ديوان إسماعيل صبري فمعه أربع دراسات لحضرات الأساتذة الأفاضل طه حسين وأحمد أمين وأنطون الجميّل وأحمد الزين، وفي هذه الدراسات ما يوضّح ملامح هذه الشاعرية أحسن توضيح.
لكن بقي جانبٌ من هذه الشاعرية لم يلتفت إليه هؤلاء الباحثون، وذلك الجانب هو تأثير إسماعيل صبري في الشعر الحديث من الناحية الوصفية، وأريد بها وصف الآثار المصرية وكنت أحب أن أنشر في (الرسالة) مقالة في خصائص هذا الجانب من شاعرية صبري، ولكني لم أجد ما أقوله بعد البحثين اللذين أثبتهما في الطبعة الثانية من كتاب (الموازنة بين الشعراء) وهما يقعان في سبع وعشرين صفحة، فإن رأي الطلبة أن يرجعوا إلى هذين
البحثين في كتاب الموازنة بين الشعراء فسيكون لذلك بعض النفع، لأنهم سيرون ملامح لم يروها في تلك الدراسات، وقد يكون فيما فصلنا من الموازنة بين صبري ومطران معان لم يلتفت إليها من قبل.
وأن أرجو أن يكتب الله التوفيق لجميع المتسابقين، وأنتظر بعون الله ورعايته أن يكون إجابات المتسابقين شاهداً على اهتمام الشبان في مصر بمسايرة الأدب الحديث والله عز شأنه هو الموفق.
زكي مبارك
الرواية الإسلامية في عدد أصحاب الكهف
ذكر الأستاذ الجليل زكي مبارك في العدد (391) من مجلة الرسالة الغراء أنه بمراجعة التفاسير في قوله تعالى: (سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب، ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم، قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل) يعرف أن أصحاب القول الأول هم اليهود، وأصحاب القول الثاني هم النصارى، وأصحاب القول الثالث هم المسلمون، وقد جعل الرواية الإسلامية أن عددهم ثمانية بإضافة كلبهم إليهم.
ولعل الصديق الأستاذ زكي مبارك يقصد الرواية الإسلامية المشهورة، فلا تكون هذه الرواية في الإسلام ضربة لازب وإن اشتهرت بين المسلمين، فكم من أمور اشتهرت

بيننا معشر المسلمين وليست في شيء من ديننا. والحقيقة أن ظاهر القرآن الكريم على أن هذه الأقوال الثلاثة لأهل الكتاب خاصة، فهم الذين قالوا مرة إنهم ثلاثة رابعهم كلبهم، وقالوا مرة إنهم خمسة سادسهم كلبهم، وقالوا مرة إنهم سبعة وثامنهم كلبهم، وقد أمر الله تعالى نبيه عليه السلام أن يرد عليهم أقوالهم المختلفة بقوله: (قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل) ثم أمره بعد هذا ألا يماري فيهم إلا مراء ظاهراً، واختيار أحد هذه الأقوال وحمله على القرآن والإسلام ليس من المراء الظاهر في شيء، والحكمة ظاهرة في ترك ذلك المراء، لأن الإسلام لا يعني بعدد أصحاب الكهف ولا غيره من شأنهم، وليس من شأنه أن يدخل في جدال مع أهل الكتاب في تلك التفاصيل، وإنما يسوق قصة أهل الكهف للعبرة والعظة، شأنه في كل ما قصه علينا في القرآن الكريم، والعناية بتلك التفاصيل من شأن علم التاريخ لا من شأن الكتب السماوية.

وقد تمسك الذين رجحوا أن يكون عدد أصحاب الكهف ثمانية من علمائنا بهذه الواو التي وردت في قوله تعالى: (وثامنهم كلبهم إذ لم يقل قبلها ورابعهم وسادسهم، ولكن هذه الواو إذا دلت على مثل هذا فإنما تدل عليه في قول الذين حكى الله تعالى هذا القول عنهم، ولا تدل على ترجيح الله تعالى لهذا القول على القولين قبله.

وإذن يكون الراجح عندنا في عدد أصحاب الكهف أنه مما استأثر الله بعلمه مع القليل الذي ذكره في كتابه، وليكن بعد هذه عددهم أربعة أو ستة أو ثمانية، فكل هذا من الرجم بالغيب. ولا يهمنا في ديننا بشيء، ولو كان المسلمون كلهم يعرفون عددهم وأنه ثمانية ما قال الله تعالى في عددهم (ما يعلمهم إلا قليل)

عبد المتعال الصعيدي

في ديوان إسماعيل صبري باشا

قرأت ديوان إسماعيل صبري باشا الذي صححه وضبطه وشرحه ورتبه الصديق الشاعر الأستاذ أحمد الزين والذي قامت بنشره لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة 1938م فَلفتَ انتباهي خطأ وقع فيه الأستاذ الزين رأيت أن يصححه كل من اقتنى الديوان. ففي صفحة 186 قصيدة عنوانها (الحرب الإيطالية في طرابلس أيضاً) أولها:

يَا بِنتَ رُومَا لا تكوني كماَ ... كانَتْ أَتِينا بَيْنَ قِيلٍ وقالِ

وهذه القصيدة مُشكلةٌ كل أبياتها بكسر اللام في القافية وهذا خطل تصويبه تسكين اللام يصير وزن القصيدة:

مُستفعلن مستفعِلُنْ فاعلنْ ... مُستفعلنْ مُستفعلن فاعلانْ

فليس من الجائز أن نقول:

مُستفعلنْ مُستفعلنْ فاعلنْ ... مُستفعلن مُستفعلن فاعلانِ

والخطأ في القول الثاني هو كسر النون في (فاعلانِ) وصحته تسكين اللام يقول (فاعلانْ)

عبد الرحمن الخميسي

قصيدة كبلنج

قرأت في العدد (389) من الرسالة الغراء ترجمة الأستاذ عبد الواحد الخطيب لقصيدة كبلنج الخالدة (إذا . .) فوقفت عند السطر الثاني والثلث منها عندما لاحظت اضطراباً في المعنى فقد جاء في ترجمة الأستاذ ما نصه (وكان في إمكانك أن تثق بنفسك حينما يشك فيك بعد أن تعرف رأيهم ووجهتهم التي يعيبونك فيها) فالضمير في رأيهم يعود على فاعل يشك التي بناها الأستاذ لصيغة المجهول، وكان الصواب أن يذكر فاعلها وهو (الناس) كما ورد في الأصل الإنجليزي.

هذا وإننا نشكر الرسالة الغراء فتحها المجال لأمناء العربية ممن قدِّر لهم الوقوف على الأدب الإنجليزي الزاخر ليطلعونا على عيونه وفرائده.

(عكا. فلسطين)

عرفات الطاهر

ميكرسكوب كهربائي يكبر 25 ألف مرة

من أخبار أمريكا الأخيرة أن أحد المصانع الكبرى بها وهو مصنع للراديو قد تمكن من إخراج ميكرسكوب يستعين بالقوة الكهربائية لإعطاء نظر قوته 25 ألف مرة. وهذا الميكرسكوب قد وضع تصميمه العالم الدكتور فلاديمير زوركين وتمكن المصنع من

صنعه بمعونة نفر من أقطاب صناعة العدسات وعلى رأسهم الدكتور لادسلوس ماركون أشهر أخصائي في صنع الميكرسكوبات.
ولا شك أن هذا المجهر يفتح مجالاً كبيراً للعلماء في شتى الأبحاث التي ظلت خفية أو مجهولة، بل وفي شتى الصناعات الكيميائية التي تعتمد على الكيمياء الصناعية كما هو الحال في الراديو، وقد يفسر هذا إقدام هذه الشركة على تمويل المشروع.
ومن البديهي أن استخدام هذا المجهر في علم البيولوجيا سيعود بأعظم النفع على الإنسانية إذ سيكشف عن جزئيات الميكروبات، كما أنه سيكون ذا فائدة كبيرة في دراسة علم المعادن العضوية وغير العضوية التي لا يمكن رؤيتها بالمجاهر العادية.
ومن قوة هذا المجهر أنه يستطاع به رؤية الميكروبات الدقيقة التي لا يمكن رؤيتها بالضوء العادي، فلقد استعمل المصنع ضوءاً قوته من 30 ألف - 100 ألف فولت حتى استطاعوا
أن يشاهدوا به الموجات الضوئية الدقيقة.
وهذا المجهر مزود بآلة فوتوغرافية غاية في الدقة تستطيع أن تصور التطورات المختلفة التي تمر تحت عدساته. وحسب القارئ في الدلالة على دقتها أن يعرف أن في استطاعتها تصوير جزء من مليون من السنتيمتر. وشريطها رقيق جداً بدرجة حساسة وهو مصنوع من مادة النتركيلولوس.
وعدسات هذا المجهر ثلاث: الأولى تجعل المشاهدة حوالي مائة مرة، والثانية تصلها إلى 250 مرة، والثالثة تضاعفها إلى 25 ألف مرة؛ وجميع هذه المكثفات واقعة تحت تأثير منبع كهربائي قوته كما قلنا أقلها 30 ألف فولت وآخرها 100 ألف فولت، وفي أسفل هذه العدسات الآلة الفوتوغرافية الدقيقة. . . أرجو أن أستطيع في فرصة أخرى توضيح هذا الشرح بصور لهذا المجهر العجيب.
مصطفى مشعل
سفساف لا سفاسف
جاء في كلمة عبد الوهاب عزام عدد (388) هذه الجملة:
فقد ند قلم الدكتور السيال عن هذه اللفظة، فاستعملها (ويعلو عن (سفاسفه)).
بمعنى الرديء، والذي ورد في كتب اللغة (سَفْساف) ولم يرد إلا سُفاسِفْ بالضم بمعنى شديد.
جاء في القاموس مادة (سفف)، (وجوعٌ سُفاسِف بالضم شديد، والسفساف الرديء من كل شيء والأمر الحقير، وسفسف عمله لم يبالغ في إحكامه) وفي لسان العرب السفساف الأمر الحقير وأورد شاهداً ما جاء في الحديث: (إن الله سبحانه وتعالى يحب معالي الأمور ويكره سفسافها) وأنكر سفاسفه قال: (وفي حديث فاطمة بنت قيس إني أخاف عليك سفاسفه قال ابن الأثير هكذا أخرجه أبو موسى في السين والفاء ولم يفسره وقال: ذكره العكبري بالفاء والقاف ولم يورده أيضاً في السين والقاف قال: والمشهور المحفوظ في حديث فاطمة هو: إنما هو إني أخاف عليك قسقاسته وهي العصا قال: فأما سفاسفه وسقاسقه فلا أعرفه إلا أن يكون من قولهم لطرائق السيف سفاسقه وهي التي يقال لها (الفرند) فارسية معربة.
وأستفهم من حضرة الدكتور الأديب: هل هناك فرق بين الصبر الجميل والصبر. فقد جاء
في القرآن الكريم حكاية عن سيدنا يعقوب (فصبر جميل) وأمر الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله: فاصبر صبراً جميلاً، وبقوله: فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، فهذا الدليل على أن هناك أنواعاً للصبر بينها فروق. أرجو الإجابة على هذا مع جميل الثناء.
فخر الدين غزي
إلى الدكتور عبد الوهاب عزام
إنك وحدك - فيما أعلم - الذي تستطيع بلسانك الفارسي أن تسلك القلم العربي المبين في هذه الناحية التي عنت لي في دراسة الأدب العباسي. تلك الناحية هي تأثير اللغة العربية في اللغة الفارسية تأثيراً شاملاً لا ريب فيه، وتلك الثغرة أتقدم إلى فتحها في البحث الأدبي إذ المستفيض في كتابات الناس على كثرتها وتنوعها أنها لم تتعد الحديث عن تأثير الفارسية في العربية تأثيراً عاماً في الألفاظ والأساليب والأخيلة

والمعاني وكل ما يضرب في هذه السبل، ويذهبون في العوامل التي أدت إلى ذلك كل مذهب، وليس يعنينا هنا أن نقول إن العربية اقتحمت على الفارسية معاقلها أو كادت تمحوها حيناً من الحين، أو أن نتاج العقول الفارسية الراجحة إنما هو بالعربية، إذ كان شعر الشاعر منهم بالعربية كبشار، وأدب الأديب منهم بالعربية كابن المقفع، وتأليف المؤلف منهم بالعربية كابن قتيبة والطبري، نعم هذا حسن ولكني أعتقد أن هناك شيئاً وراء ذلك كله وهذا الشيء لم يعرض له أحد من الباحثين فيما قرأت من تواريخ اللغة والأدب. وهل رأينا أحداً ألف كتاباً أو بحث بحثاً في تأثير اللغة العربية في الفارسية وآدابها. لا نقول إن هذا لون في البحث لا يعرض له مؤرخ الفارسية وأدبها، فالباحث الحديث لا يقف قلمه عند النظرة البدائية أو نظرة الطائر كما يقولون. والمهم هنا هو أن أنص بقوة على أن اللغة الفارسية لا بد أنها تأثرت تأثيراً عميقاً باللغة العربية في الألفاظ والأساليب والأخيلة والمعاني والأفكار، إذ المعلوم أن سريان مثل هذه التأثيرات شيء معنوي لا يمكن أن تضع يدك عليه وتقول إنه وصل إلى هنا وابتدأ من هناك، أو تستطيع أن تقف تياره عند حد معين، فذلك بالماديات أليق، وإذا كان كذلك فإني أتقدم إلى الدكتور الفاضل عبد الوهاب عزام راجياً أن يسلك القلم في هذا الموضوع الخطير وله في العربية العرفان بالجميل، وهذه إشارة عجلان لعلها تحظى بالجواب من العالم الوقور.

أحمد عبد الرحمن عيسى

القصص

الحب والسحر

للأستاذ نجيب محفوظ

انتهى من فرش شقته - أو حجرته إن أردت الدقة - لأنها كانت مكونة من حجرة متوسطة الحجم وردهة صغيرة، وكان الأثاث في غاية البساطة كذلك لا يعدو الفراش الخشبي الصغير وخواناً يستعمل مائدة للطعام ومكتباً للمذاكرة وكرسياً وصندوقاً لحفظ الملابس والكتب ومسطرة مدرسة الصنائع المعروفة بطولها. وهذه الشقة هي الطابق الأول لمنزل صغير مكون من طابقين متماثلين بحارة دعبس بالوايلية. هداه إليه أهل الخير، فوجده صالحاً لتلميذ مثله بمدرسة الصنائع ومن أسرة ريفية متوسطة الحال بقليوب، واكترى الشقة بخمسين قرشاً بعد أن فرضت صاحبة البيت تخفيض مليم من أجرتها. . .

واستقبل الحياة في البيت الجديد بنفس راضية، وعلم أن صاحبته تدعى (أم فردوس)، وأنها أرملة أسطى عربجي كارو ولكنها تعيش الآن من أجرة شقته وما تربحه من بيع مواد السمنة: كالمفتقة والمغات وبعض التركيبات الأخرى؛ ثم هدايا الأسر التي تعمل بها: (كبلانة) أو (خاطبة). وكانت امرأة قصيرة بدينة قوية البنية، تصبغ شعرها بالحناء، وتملأ ساعديها بالأساور الذهبية؛ وكانت قسماتها مقبولة، ولكن صوتها خشن جهوري، السب أهون ما يقذف به مما جعلها مرهوبة الجانب في الحي كله. وتساءل منذ اليوم الأول لإقامته في البيت: ترى هل لأم فردوس بنت تدعى فردوس حقاً؟. . . وأين هي؟ هل تقيم معها في البيت أم أنها في بيت زوجها؟. . . وربما كان الباعث على السؤال حب الاستطلاع ليس إلا، وعلى أية حال جاءه الجواب سريعاً، ففي صباح أحد الأيام، وكان يهم بمغادرة شقته إلى المدرسة سمع وقع أقدام خفيفة فصوب بصره إلى أعلى السلم فرأى فتاة في السادسة عشرة مرتدية مريلة المدرسة الزرقاء تهبط في تؤدة حاملة حقيبتها، فانتظر حيث هو موسعاً لها الطريق، وقد التقى بصره ببصرها وهي تعاينه بعين يعلوها الارتباك، ولما حاذته خال أنه سمعها تحييه خافت قائلة (صباح الخير) فقال لها بلهجته الريفية القحة (صباح الخير). . . ثم تبعها على مهل حتى خلصا إلى الطريق، ولم تلتفت الفتاة إلى الوراء، ووضعت حقيبتها على خاصرتها وأحاطتها بذراعها ومضت. . . ترى هل تكون الفتاة فردوس بنت أم فردوس؟. . . رجح ذلك مستدلاً بتحيتها له، وعلى أية حال كانت الفتاة خمرية اللون، سوداء العينين والشعر، ناهدة الثديين. . . فبدت لعينيه الريفيتين آية من الحسن، وكان يتمثل فردوس من قبل كأمها: غليظة، تسعى في الأسواق ملتفة بالملاءة اللف، فإذا به يجدها تلميذة لطيفة تسر الناظرين. . . فجرت ابتسامة على شفتيه الغليظتين، وولول قائلاً بلهجته الريفية: (وي وي يا بوي). . . ولذ له أن يعيش

في بيت واحد مع هذه الفتاة الجميلة، ولكنه كان قليلاً ما يسد برؤيتها بخلاف أمها التي كانت تقوم بتنظيف شقته، وتجالسه في أوقات الفراغ، وتحدثه - بمناسبة وغير مناسبة - عن شئون مختلفة وعن أناس كثيرين من الجيران، وقد ساق الحديث يوماً إلى ناحيته فسألته عن أسرته ومستقبله وصارحها الشاب بأنه من أسرة سيدهم!. . . وأنه يملك فدانين وعدداً من القراريط وجاموسة، وانه التحق بمدرسة الصنايع بعد أن قضى ثلاث سنوات بالمدرسة الثانوية وقال لها في شيء من المباهاة أنه سيكون يوماً ما مهندساً وأصغت المرأة إليه باهتمام وانتباه وكانت تتمثل الفدانين والجاموسة والمهندس الشاب وتختلس منه نظرات عميقة تدل على الحذر والدهاء. . . ثم دعت له دعاء طيباً بصوتها الأجش. . .

وسارت الحياة على وتيرة واحدة ولم يكن يغير من رتابتها إلا سفره كل أول خميس من الشهر إلى قليوب حيث يبيت ليلته ويعود مساء الجمعة حاملاً معه بيضاً وفطيراً وزبدة يهدى إلى أم فردوس منها نصيباً معلوماً. . .

وفي من الأيام وكانت المرأة تجالسه خاطبته قائلة:

- والنبي ياسي حماد تفهم فردوس الحساب لأنها ضعيفة فيه وابتهج الشاب بالدعوة أيما ابتهاج. ولم يكن الأمر سهلاً كما يبدو لأنه كان نفسه ضعيفاً في الحساب وكان بينه وبينه ثأر قديم منذ اليوم الذي اضطره فيه إلى اليأس من الاستمرار في المدرسة الثانوية وإجباره على اختيار مدرسة الصنائع بدل المدرسة الحربية التي كان على استعداد لأن يجود في سبيل الالتحاق بها ببيع الفدانين والجاموسة. ولكنه قبل الدعوة دون تردد وصعد إلى شقة أم فردوس، ووجد الفتاة وكأنها في انتظاره وكانت ترتدي فستاناً أنيقاً، وترسل شعرها الأسود في ضفيرة طويلة جاوزت ردفيها. فقامت لتحيته وجلسا تفصل بينهما مائدة وضعت عليها كراسة الحساب، وقالت لها أمها: إن (حماد أفندي قبل أن يدرس لها الحساب) وجلست معهما برهة ثم خرجت إلى الردهة لأعمالها التي لا تنتهي، وكان الدرس شاقاً على المعلم والتلميذة على السواء، ولكنه لم يرض بالهزيمة وإفلات الفرصة السعيدة من بين يديه فشرح لها الدرس على قدر فهمه. وكان إذا غلبه الارتباك نظر إليها وسألها قائلاً: (فاهمة؟) فتهو رأسها بالإيجاب سواء أكانت فاهمة أم غير فاهمة. ووجد حامد في هذه الدروس فرصة جميلة للاجتماع بفردوس، وكان يجذبه إليها ما يجذب فتى مثله في فورةالشباب إلى فتاة في نضوجها وحسنها انطوى عليهما بيت واحد، وربما كانا معاً يكابدان هذا الشعور الطبيعي ولكنهما لم يتقدما قي علاقتهما عن أول يوم التقيا فيه لأن الشاب كان ريفياً (خاماً) وكان يقنع بأن يقول لها صباح الخير أو مساء الخير وهو يحدجها بنظرة ذات معنى كأنها تتوسل إليها أن تفهم، أو أن يضغط على يدها إذا مدتها إليه بالسلام. وكان كثير الحذر في التعبير عن شعوره خشية تتنبه إليهما أم فردوس لأنه كان يتوهم أنها لم تتنبه إليهما بعد. . .

واطردت الأيام وهو جد سعيد بحياته، حتى كان صباح جمعة، وكان من عادته أن يمضي صباح الجمعة خارج البيت إلى ما بعد الصلاة؛ وكان يقطع حارة دسوقي في طريقه إلى شارع الملك فألتقى بأم بخاطرها الغسالة وهي ملتفة في ملاءتها القذرة كغرارة الفحم، وكانت تغسل له ثيابه ثم انقطعت على أثر شجار قام بينها وبين أم فردوس تبودل فيه القذف والسب وشد الشعر والبصق وحركات أخرى غاية في الغرابة، فأقبلت المرأة عليه وحيته وقالت:

- ياسي حماد أنا أرغب في مقابلتك منذ زمن طويل فالحمد لله الذي أراد بك كل خير. . . تعال أحدثك حديثاً يهمك. . .

وانتبذت به مكاناً خالياً من الحارة ثم استدركت تقول:

- أنت شاب طيب القلب لا تدري من أمور الدنيا شيئاً فاحذر هذه المرأة. . . أم فردوس داهية شريرة تجد منذ زمن طويل في الإيقاع بك. . .

فبوغت الشاب بهذا القول وأخذه العجب وسألها في ارتباك ظاهر: (أي إيقاع بي تعنين!)

فقالت المرأة وهي تخافت من صوتها:

- عارضة فردوس التي تسير في الطريق. . . ابنة العربجي. . . ألا تفهم؟. . . ابنتها؟

ردفيها وساقيها لكل من رأى، فلا هي من مقامك ولا مقام أسرتك وأنت الحسيب النسيب مالك الفدادين. . . فاحذر ثم أحذر، إنها تحتال عليك مستعينة بالشياطين. .
وسكتت المرأة ريثما تستريح وجعلت تلحظ الشاب وتقرأ الدهشة المرتسمة على وجهها بارتياح ثم أدنت رأسها من رأسه غير مشفقة عليه من رائحة رأسها ونكهة فمها واستطردت تقول:
- لقد أخذت منديلك خفية وأعطته للشيخة زهية وأعطت قميصك للشيخ لبيب وأنت لا تدري شيئاً والسحر في فعله، والبخور في عمله، وأرواح الشياطين تطوف ليل نهار.
فتبدى الخوف على وجه الشاب وعبس وجهه. . . ولم يكن خالي الذهن من هذه الأمور، ولا كان ممن يستهينون بها فساوره القلق وتساءل متجاهلاً عواطفه مظهراً عدم اكتراث.
- وما عسى أن يعني هذا؟
فضربت المرأة صدرها بيدها وقالت:
- هذا يعني كل شيء يا مسكين؛ هذا الذي أوقع المرحوم الأسطى شلبي من قبل.
واعلم أنها دخلت في العميق، وحصلت على حجاب رهيب تحت حشيّة سريرك، وحفظت ابنتها كلاماً سحرياً مخيفاً تتله صباح كل جمعة على فراشك وهي تثابر على ذلك أسبوعاً بعد أسبوع، فأفسد عليها عملها الشيطاني، وانج بنفسك. . . والآن وقد حذرتك، فإني تاركتك لحكمتك والله يلهمك الصواب. . .
وسارت المرأة في سبيلها، ولبث هو في مكانه لا يريم عنه متفكراً قلقاً يعجب لتلك الأمور الجليلة التي تدور من حوله وهو عنها غافل. . . رباه! أسحر وبخور وشياطين؟!. . . أكل هذا ليتزوج من فردوس؟ وكان بغير شك قلقاً خائفاً ولكنه أحس لذة خفية وفخاراً، ثم تساءل: هل يستمر في طريقه أم يعود إلى البيت ليرى بنفسه ما يحدث في غرفته؟ وولى وجهه شطر حارة دعبس دون تردد فبلغ البيت بعد زمن قصير وكانت النوافذ مغلقة والباب موارباً كعادته فدخل بهدوء لا يحدث صوتاً ورأى باب شقته مغلقاً، ترى هل هو مغلق بالمفتاح؟ وهل فردوس حقاً بالداخل؟ ثم صعد بصره إلى أعلى السلم وأدار الأكرة بخفة ودفع الباب في حذر فانفتح، فخفق قلبه وقال لنفسه إن أم فردوس لا تترك الباب هكذا إذا لم يكن أحد بالداخل، ثم دخل ورد الباب بهدوء، وهنا اقتحمت أنفه رائحة بخور جميلة مخدرة فانتفض رعباً وتمتم بصوت غير مسموع قائلاً: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم) ولكن شغفه تغلب على خوفه فتقدم بخفة كأنه يسير على حبل في ملعب ووضع أذنه على باب الحجرة فلم يسمع حركة ولا نامة فانحنى حتى استطاع أن ينظر إلى الداخل من خصاص الباب فرأى دخان البخور تتصاعد سحائبه في هدوء إلى سماء الغرفة، واستطاع أن يرى سريره بوضوح. . . رباه. . لم يكن خالياً. . . كانت فردوس تتربع عليه في ثوب أبيض ناصع البياض متلفعة بخمار أبيض كذلك كأنها على وشك صلاة، ورآها تضع على كفها رسالة مطوية تستغرق في النظر وتحرك شفتيها حركة منظمة كأنها تتلو آية؛ ولبث ينظر إليها في سكون ودهشة، وكان يجد قلقاً غريباً، ولكنه لم يشعر بغضب أو سخط بل جعل يراقبها أخيراً في شغف ثم رآها تثني حافة المرتبة وتضع ما بين يديها تحتها، ثم رآها تتمدد على ظهرها في هدوء وهي تظن أنها بمأمن من الرقباء وتسحب الوسادة وتضعها عليها بالطول، ثم احتضنتها بيديها وكأنما راحت في سبات عميق، وراقبها بعينين دهشتين وراح يتساءل أكل هذا من أجلي أنا؟!. . . أكل هذا لكي تتزوج مني أنا. . . واطمأن إلى المنظر الغريب ووجد في مراقبته لذة لا تعادلها لذة؛ وأحس تخديراً ود لو لم يصح منه أبداً. وتدفق الحنان من حناياه فتمنّى لو يحتويها في تلك اللحظة بين يديه. . .
ثم رآها تزيح الوسادة عنها وتعيدها إلى مكانها وتعتدل جالسة ثم تهبط إلى الأرض وتميل المبخرة لترفعها فتوقع أن تمضي بعد ذلك إلى الباب وانتبه إلى حاله، فسارع إلى الباب وفتحه وأغلقه بقوة متعمداً أن يحدث صوتاً مسموعاً واتجه نحو غرفته وهو يصفر صفيراً عالياً فانفتح باب غرفته وبرزت الفتاة وقد علا وجهها شحوب وارتباك وقالت باضطراب:
- عدت مبكراً. . . أنا كنت أنظم حجرتك وأبخر الشقة واتجهت نحو الباب مهرولة فاعترض سبيلها، وكانت عواطفه المضطربة تشجعه على الاستهانة فقال برقة:

- شكراً، لقد عدت لأني أحسست بتعب، وإني لآسف على إزعاجي لك. . . استريحي، ولكنها قالت بسرعة ولم تكن أفاقت بعد من ارتكابها.
- دعني أخرج وإلا استبطأنني أمي
فقال لها برجاء وهو يشير إلى الكرسي:
- استريحي قليلاً. . . أرجو أن تمكثي معي هنيهة فإن لدي ما أقوله لك. . .
وكانت عواطفه ثائرة فدفعها برقة نحو الكرسي حتى جلست كارهة، ثم قال لها بصوت متهدج:
- فردوس! هذه فرصة سعيدة لأنفرد بكِ وأقول لك. . . وأعياه القول فسكت؛ ولكنه كان يشعر بأنه ينبغي أن يقول شيئاً وإلا لم يجد عذراً ينتحله لإبقائها. فقال بصوته المضطرب:
- أنت جميلة في الثوب الأبيض. . . أعني أنك فيه أجمل منك في أي ثوب آخر. . . الواقع أنك جميلة دائماً وفي أي ثوب كان. . .
فاشتد الارتباك بالفتاة وتضرج وجهها بالاحمرار فازدادت فتنة وازداد افتناناً. فلم يملك أن قال لها:
- فردوس. . . أنا. . . أنا أحبك. . . وقد أبقيتك هنا لأقول لك إني. . . أريد أن أتزوج منك
لم تستطع الفتاة البقاء فقامت واقفة واتجهت نحو الباب ولكنه اعترض سبيلها مرة أخرى وقال لها:
- هل أنت غاضبة؟. . . صدقيني يا فردوس سأتزوج منك ونظر إلى وجهها بعين فاحصة فلم ير غضباً ولكنه أحس ارتباكها وتعثرها بالخجل فأوسع لها، ولما حاذته هوى بفمه فقبل خدها، ولم تقل له شيئاً، وسارت حتى غيبها الباب، ودخل الشاب إلى حجرته، وجلس على حافة سريره كعادته؛ ثم دس يده تحت الحشية حتى عثرت بالحجاب، فوضعه على كفه يديم إليه النظر في سكون وتهيب، ولم يجسر على فك رباطه فأعاده إلى مكانه، وتفكر ملياً ثم قال وهو يبتسم: (من يستطيع أن يقول بعد اليوم أن السحر خرافة؟!)
أما فردوس فصعدت السلم مسرعة تقفز كل درجتين معاً، ولم تكن أمها في الشقة، فجرت إلى الغرفة يكاد يصرعها الفرح وجعلت تروح وتجيء وهي تقول باضطراب: (يا بركتك يا شيخة زهية. . . يا بركتك يا شيخة زهية. . .!)
نجيب محفوظ
العدد 394 - بتاريخ: 20 - 01 - 1941
خواطر مريض
عقدني (الروماتيزم) شهراً بالسرير لا أتورَّك ولا أتحرك. وكانت دنياي في هذه الفترة الفاترة قد انحصرت في غرفة المرض كما تنحصر دنيا الطائر السباح في القفص، أو حياة المخاطر الطماح في السجن. فالنشاط الحيوي الجياش بالعمل والأمل ينقلب في المريض والسجين نوعاً من الهدوء الفلسفي الصوفي يردُّ كل ثورة إلى السكون، ويروض كل رغبة على الرضى، ويزيل عن البصر والقلب غشَوات الباطل فيرى المرء كل شيء على طبيعته، ويدرك معنى على حقيقته
أين القفص الضيق الحاصر من جو السماء يسبح فيه الطائر ملء جناحيه، فيرى في كل دوحة عشاً لحبه، وفي كل روضة مسرحاً لغنائه؟ ولكن البلبل الأسير يعرف بعد قليل كيف يطوى جناحيه على الصبر، ويختصر سماءه وهواءه وأرضه وروضه في هذه الأسلاك المعدنية الباردة يغرد بينها ويثب فوقها ويستقبل الصباح بمرح النشوان، والمساء بهدوء الخليّ
وأين السجن الموحش المظلم من رقعة الأرض يضرب فيها المغامر طليق العنان حر الإرادة، يفترس مع القوة، ويختلس مع الضعف، ويجمع فيشح، ويطمع فيهتلك؛ ولكن أشعب السجين يعرف كيف يرد طماحه، فيرى في جدران السجن حدود مطامعه وغاية دنياه، فيسخر من كيد المنافسة وبغي الخصوم، ويخطو بأنفاسه الرخية إلى أجله وهو زهيد العين مطمئن الجوانح
كذلك أنا: وجدتُني بعد معركة رابحة على أمر من أمور الدنيا دارت ثلاثة أشهر بين العجز والفقر يقودهما الحق الهيوب في صف، وبين القدرة والغنى يؤيدهما الباطل الجريء في صف آخر. وجدتني بعد هذا الجهاد على سريري كما يكون الميت في

نعشه! غير أن الميت فقد الحس والوعي فلا يتألم ولا يتكلم؛ أما أنا فكنت قوي الشعور بالألم، شديد الرغبة في الكلام، أبصر في كل صباح حواجب الشمس تنفذ إليَّ من خلال الزجاج رخية لينة، فتغمرني بالدفء، وتشيع فيَّ سر الحياة، وتُسكت عني صوت المرض؛ ثم تتركني لتعطي الدنيا الكبيرة، ما أعطته دنياي الصغيرة، وأظل أنا محدود الآمال مردود المطامع لا يصلني بحياة الناس غير طنُفٍ تتمثل عليه طول النهار صباحة الشباب في أفواف الربيع؛ والشباب الجميل لا يعنيه إلا أن يُعجب ويجذب ويلذ تلك هي حياتنا الدنيا! أراها من وراء المرض على لونها الأصيل ووضعها الحق: ظاهرةٌ متغيرة من ظواهر الطبيعة المتجددة، مَثَلها في الإنسان كمثلها في الحيوان، تعيش بالغذاء إلى أمد مأمود، وتبقى بحفظ النوع إلى أبد محدود.

ولو لم يتدخل الإنسان بعقله وعلمه في نظم الطبيعة لجرى تيار الحياة دفاقاً مستقيماً في مجراه المرسوم المحتوم كما يجري في النبات الوحشي والحيوان الأبد. ولكن آدم جعله الله خليفة في الأرض فلا بد أن يكون كل ما فيها خاضعاً لتدبيره مسخراً بأمره.

وكان أمره وتدبيره على الرغم من اعتماده فيهما على دين الله وفلسفة العقل لا يخلصان من سلطان الهوى وطغيان الغريزة؛ ومن أجل ذلك كانت حياة الإنسان وحدها عرضة للتعقيد والارتباك والتناقض

ومن أعجب أمور الإنسان أنه وحده الذي فطن عن طريق العيان والبرهان أن حياته على هذا الكوكب الفاني موقوتة؛ ومع ذلك كان وحده الذي استعمر هذه الأرض على أنه باق وهي خالدة؛ فهو يكدح حتى ما يعرف طعم الراحة، ويجمع حتى ما يدري معنى الإنفاق، ويسلب أخاه أو وديده حق الحياة ونعمة السلام ليزيد في ماله الضخم قطعة، أو يضم إلى أرضه العريضة رقعة. وقد سول له غروره أن يتبجح بأنه سخر الطبيعة لخدمته، وذلل قواها لمشيئته؛ والحق الذي طمسته الكبرياء في ذهنه أن نوعه هو الوحيد في أنواع الحيوان الذي استخدمته الطبيعة ليعمرها بعمله، وينظمها بعلمه، ويزخرفها بفنه، ويهيئ لها أسباب الازدهار والاستمرار والنمو بما يبتكر من وسائل، ويسن من نظم، ويؤثل من مال، ويدخر من رزق

والطبيعة كما تستخدم الإنسان في البناء لاطراد العمران، تستخدمه في الهدم لحفظ التوازن، فهي تستعين بحروبه الطاحنة كما تستعين بالبركان والفيضان والموئان على قطع الفاسد، وحذف الزائد وتجديد البالي، وتعديل القُوَّى، وكفكفة الباطل هؤلاء الذين يجمعون ما لا ينفقون، ويبنون ما لا يسكنون، ويدخرون ما لا يأكلون؛ وأولئك الذين زعموا لقومهم سيادة العالم، وأجازوا لأنفسهم قتل الشعوب، ووقفوا على شهواتهم طيبات الأرض، قد استقلتهم إرادة الطبيعة القهارة التي لا تعرف اليوم ولا المكان ولا الفرد، وإنما تعمل للأبد والكون والجنس

الغذاء والماء والهواء والمأوى وصلات الجنس هي النعم المبذولة لكل حي بحكم وجوده، فلو كان مما ينفع الطبيعة ويصلح الأرض سلامُ الناس وهدوء العيش لألهمتهم القناعةَ وعودتهم الرضى وجنبتهم الأثرة؛ ولكن فوضى الطبيعة هي نظامها المطرد، وفسادها الظاهر هو صلاحها المضمر؛ والفرد هو الأضحية المحتومة لبقاء الجنس، والحاضر هو القنطرة المهدومة لعبور المستقبل!

في المرض يزداد يقين المرء بأن الدنيا زائلة، فهو يأسى على ما جنى ويندم على ما جمع؛ ولكنه حين يصح تمتد آماله وتتشعب مطامعه ويعود عبداً للطبيعة يعمل لأنها تريد، وينفذ لأنها تحكم، فليت شعري إذا عقل كل الناس فعمل كل امرئ ما يلزم، وقنع بما يقوت، وكيف عما لا يحل، فبماذا يشتغل قضاة المحاكم وقواد الجيوش وصناع الأسلحة ورؤساء الأحزاب؟

وأوشكت يدي من برح الألم أن تقف! فعسى الله أحكم الحاكمين أن يبتلي الدكتاتورين الكبير والصغير بروماتيزم العقل والقلب فتقف رحى الحرب وتغلق أبواب جهنم!

الشمس تجمع هلاهل نورها على المنازل العالية لتهرب من رؤية الأكداس المكدسة من جثث الإنسان على عُدَّوتي البحر الأبيض. وفتاة الطُّنف الحسناء تلم غسيلها المنشَّر لتغلق عليها الباب من البرد القارس. وليل (طوبة) الطويليقترب بأوصابه رويداً من المريض المسكين! فاللهم حنانيك ورحماك!

أحمد حسن الزيات

مسابقة الجامعة المصرية لطلبة السنة التوجيهية
لعبد العزيز البشري (المختار)
للدكتور زكي مبارك
- 10 -
حديث اليوم عن (المختار) للأستاذ عبد العزيز البشري (عضو مكتب المجمع اللغوي) لا عضو المجمع اللغوي، كما ظن من أخطئوا فهم قرار وزير المعارف. ولسنا بهذا نستكثر عليه عضوية المجمع وقد ظفر بها الأستاذ أحمد أمين، وإنما أردنا تحديد مكانه بجوار (الخالدين)
فمن صاحب هذا الكتاب؟
كانت بيني وبين الأستاذ عبد العزيز البشري مصاولات سجلتُها في كتاب (الأسمار والأحاديث) ثم انتهت تلك المصاولات بالحقد من جانب، وبالصفح من جانب، فمن الذي حَقَد؟ ومن الذي صفح؟ لقد رجعتُ إلى قلبي أستفتيه فلم أجده يضمر لهذا الرجل غير الإعزاز والتبجيل، ولكني مع ذلك أنكر مذهبه في الإنشاء، ولا أرى رأى وزارة المعارف في إفهام الطلبة أن نثر البشري يصلح للاقتداء والاحتذاء، إن صح أن لوزارة المعارف رأياً في الكتب التي تفرضها على الطلاب، فسيأتي يومٌ نتبين فيه أنها قد تحكم على بعض الكتب بالسَّماع، وهو يومٌ غير بعيد، ما دامت وزارة المعارف إلى رجال لا تؤذيهم كلمة الحق من أمثال الدكاترة هيكل والسنهوري وغربال
عبد العزيز البشري كاتب مشهور، مشهور جداً، حتى جاز للأستاذ خليل مطران أن يحكم بأنه (أعرف من كل معرَّف بين الناطقين بالضاد) ومن كان كذلك فهو أقوى من أن يُهدَم، ولا خوف عليه من صيحة النقد الأدبي، وإذا فلا بأس من أسماعه قول الصدق بتلطف وترفق، عساه يغَّير ما بأسلوبه من تكلف وتصنّع وقعقعة وعجيج.
البشري كاتب (على الطريقة البشرية). كاتب يذكرك في كل سطر بأنه أديب يتصيد الأوابد من مجاهيل القاموس واللسان والأساس، وتلك حال المنشئين المبتدئين، وهي حال يُنكرها أعلام البيان، لأنها تشهد على أصحابها بالبعد من الاتسام بوسم الفن الرَّفيع
الكاتب الحق هو الذي يشغلك بنفسك، ويوجهك إلى مصيرك المنشود، ويفرض عليك درس غرائزك وأهوائك، بدون أن يفكر في حملك على الإعجاب بخصائصه الإنشائية.
ولو شئت لقلت إن الكاتب الحق لا يخطر في باله حين يكتب أنه من أصحاب الأساليب، لأن الكاتب العظيم تصبح عنده الكتابة من وحي الفطرة والطبع، بحيث لا يشعر أن التأنق غرض مقصود، وإن إضافة الفن الجميل إلى طوائف المتأنقين
الكاتب الحق يقتنص قلبك وعقلك في مهارة الصائد الختول الذي يرى الصيد ولا يراه الصيد. الكاتب الحق يروضك على تغيير ما بنفسك بنفسك، فلا تتوهم أن له يداً في نقلك من حال إلى أحوال، وإنما تشعر أنه يعبِّر بالنيابة عنك، وأنك لو حملت القلم لكنت أقدر منه على الإبانة والإفصاح.
الكتابة من فنون التدريس، والمدرس الحق هو الذي يحاورك وكأنه تلميذ مثلك. هو الذي عناه لامرتين حين قال:
والأساس في الكتابة أن تكون فنَّا أخفى من نظرة العاشق بمحضر الرقباء. هي سياسة دقيقة جدَّا. هي سياسة تشبه سُرى العافية إلى الجسم العليل، وقد تشبه تسرُّب الداء إلى الجسم الصحيح، لأن الكتابة فن، والفنون تتجه إلى الهدم كما تتجه إلى البناء، على فرض أن الفن قد يسيء في زعزعة بعض المأثور من التقاليد
الكاتب الحق هو دائماً من أصحاب المبادئ والعقائد، في حدود ما يتصور من المبادئ والعقائد، لا في حدود ما يتصور الناس، ومن هنا يجوز للكاتب أن يلقاك بما تحب وبما لا تحب، وهو حين يستفحل قد يزلزل رأيك في جميع الشؤون ولو حدثك عن مواقع هواك
والوصول إلى هذه الغاية يحتاج إلى سياسة عالية، وتلك السياسة قد تستوجب أن يطوي عنك الكاتب ما يرمي إليه من مقاصد وأغراض، ليضمن غفوة عقلك عن مقاومة ما يدعو إليه. وقد تحار فيما يريد منك الكاتب، ثم تعرف بعد قليل أنه لم يُرد لك غير ما تريد لنفسك، وهو في الواقع أصاب مقاتلك من حيث لا تشعر، وكيف تشعر وقد استدرجك بأسلوب ألطف من اللطف وأخفى من الخفاء؟

فأين البشري كاتباً من هذه المعاني؟
!!هو رجلٌ صخَّاب ضجّاج يدقّ الأجراس الضخام حين يدخل الغابة للصيد
ألم يَعجب البشري من أن يصل على يوسف إلى قمة البلاغة وليس في كلامه نظمٌ متكلف؟ وما ذلك النظم؟ هو عنده نظم يتكلفه (صدور الكتَّاب)، كأن صدور الكتَّاب لا يكونون إلا متكلفين! وكان الأمر كذلك عند البشري، لأنه لم يفهم البلاغة على وجهها الصحيح، فكانت في ذهنه أجراس طنطنة وأصوات ضجيج
كل هم هذا الرجل أن يفتنك في كل حرف بأن الكتابة شيءٌ ضخمٌ فخمٌ يروعُك وَيهولُك، وإن لم يكن لذلك موجب توحيه الفكرة أو يفرضه البيان، فلأي غرض يصنع بنفسه هذا الصنيع؟ ومتى يعرف أن السحر من أوصاف البيان، والأصل في السحر أن يقدَّم الأباطيل وهي في مرأى العين حقائق لا أباطيل؟
هل سمعتم بالرحا التي تطحن القرون؟ هي البشري في بعض نثره القعقاع؟
يندُر أن تجد في نثر هذا الرجل صفحة خلت من التكلف. ويندر أن تشعر بأنه خلا لحظة إلى قلبه يستلهمه ويستوحيه، فهو مشدود في كل وقت بزمام التفصُّح الثقيل، إلا أن يثور على (حرفة) الكتابة فيرسل نفسه على سجيتها الأصيلة، وذلك لا يقع منه إلا في أندر الأحايين
عبد العزيز البشري من الأذكياء، ولكن ذكاءه انحرف بعض الانحراف، فلم يكن له في أدبه من أثر غير ما عرفنا وعرفتم من القرم إلى التندر والأغراب
كنت أتمنى أن يدرك البشري كنه الوشائج بين جذور الفن وجذور الذكاء، ولكن البشري مضى لطِيته فلم ينتفع بآراء الناقدين.
كان البشري يستطيع أن يكون كاتباً عظيماً، لأن لهذا الرجل ذخيرة منسية من الفطرة والطبع، ولو أنه استجاب لوحي روحه لأتى بالعجب العجاب، ولكنه تكلف ما لا يطيق، فأضيف إلى المتحذلقين
ولكن ما الموجب لمواجهة هذا الكاتب الفاضل بهذا النقد الجارح؟
هو الموجب الذي فرض أن أفسد ما بيني وبين المرحوم مصطفى صادق الرافعي وكان من كرام الكاتبين
فأنا بصريح العبارة أتهم أهل التكلف وأراهم أطفالاً في دولة البيان
وليس معنى هذا أني أنكر قيمة الصياغة الفنية، فالكتّاب الكبار قد يشقون في تحبير ما يكتبون أعنف الشقاء، ولكنهم ينتهون إلى عرض آرائهم بأساليب هي الغاية في الوضوح والجلاء، فلا يتوهمُ متوهمٌ أنهم عانوا عنَت الإنشاء وقد هاموا على وجوههم في تجاليد الليالي
هل سمعتم بالسمك الرَّعاد الذي لا يوجد في غير نهر النيل؟
هو سمك كسائر الأسماك، ولكن فيه قوة كهربائية، وكذلك الكلام البليغ: فهو كلام كسائر الكلام، ولكن فيه قوة كهربائية وصلت إليه من ثورة الروح أو فورة الوجدان
ليست القوة في اللفظة اللغوية، اللفظة التي يدلنا المجمع اللغوي على قبرها المجهول، وإنما القوة في اللفظة التي يَحُلها روح الشاعر أو الكاتب فتصبح وهي محمَّلة بالمعنى الفائق والخيال الطريف
فكيف جاز للشيخ البشري أن يمنّ علينا بأنه أحيا بعض الألفاظ من موت، وهو لم يسكب عليها قطرة واحدة من دم القلب؟
حدثنا الأستاذ خليل مطران في مقدمته لكتاب الشيخ البشري أنه وقف منه موقف الدليل من المتحف، وقد صدَق ثم صدق، فزائر المتحف يخرج كما يدخل، فلا يكون محصوله غير ذكريات، ولا كذلك زائر المعرض فهو يقتني ما يروقه من النفائس حين يشاء
فهل كان الأستاذ خليل مطران يعني ما يقول وهو يجعل كتاب الشيخ البشري متحفاً من المتاحف، لا معرضاً من المعارض؟
!المتاحف نفائس، ولكنها لا تصلح للاقتناء، لأنه يعرِّضها للبوار الشنيع
فالمتحف المصري هو أعظم ما في العالم كله من النفائس، وهو يقدَّر بألوف الملايين من الدنانير، ولو بيعت ذخائره لجعلت المصريين أغنى الناس أجمعين، ولكن هذا المتحف النفيس يمسي وهو من سَقَط المتاع إذا عُرِض للبيع، فحياته في الموت، ونباهته في الخمول

وكذلك تكون (آثار) الكتّاب المولعين بالزخرف والبريق، فألفاظهم نفائس، ولكنها رسومٌ هوامد، وهي لا تُنقل من المعاجم إلى (المختار) إلا كما ينقل الرفات إلى (الضريح)

والقول الفصل أن الكتابة قلبٌ يُفصح وعقلٌ يبين، وليست ألفاظاً تُضمَّ إلى ألفاظ. الكتابة قوة روحانية لا تتفق للكاتب إلا بموهبة سماوية، فمن أراد أن يكون كاتباً فليرحل من طبقات الأرض إلى أجواء السماء

الكتابة رزق من الأرزاق، فمن حدثكم أنه يملك منها ما يريد فهو جهول، فما كانت الكتابة إلا بوارق يمنّ بها الرزاق الوهاب، وهو قد يمنّ بها على من يجهلون أنه أهلٌ لأعظم الحمد وأجزل الثناء، لأن المنة لا تعظم إلا حين تساق إلى أهل الجحود!

محصول (المختار)

بعد هذا الشؤبوب ننتقل إلى الجزء الأول من (المختار) فنراه محصولاً من الجهد المحمود في عرض طوائف كثيرة من سور الدنيا والناس، وإن كان قُدِّم بروحٍ مكدود، ونفَسٍ مجهود، لأن الكاتب لا يفصح عما بنفسه إلا بعد أن يعاني من المشقّات ما لا يطاق

هو تحفة فنية، وكيف لا يكون كذلك وهو عصارة ذهن البشري مدة الحياة، كما طاب له أن يقول في عبارة الإهداء. والبشري من كتابنا الكبار، وإن قيل في أسلوبه ما قيل

وهل من القليل أن يكون عندنا كاتب يقضي الليل والنهار في تعقب الألفاظ والتعابير ليؤلف منها قافلة حائرة لا تعرف أين السبيل في بيداء الوجود؟

هل من القليل أن يكون عندنا رجلٌ يستطيب الحبس بين جدران داره ليتسقَّط مرابع العشب اليابس من خيالٍ آبد، أو لفظ مجهول؟

هذا المعنى وحده مما يُطلب، فليكن عندنا ألف بِشريّ، لأن تنوعَ الأساليب من شواهد الحيوية في الشعوب، وبضدها تتميز الأشياء

عبد العزيز البشري كافَح في ميدان الكتابة كفاح المستميت، فلنعرف له هذا الفضل، ولنذكر أنه قضى ثلاثين سنة وهو معدودٌ من أبطال القلم في هذه البلاد. ولنذكر أيضاً أنه رجلٌ ذوَّاق إلى أبعد الحدود، فقد يندُر أن يكون له مثيل في الطرب لأطايب الدقائق الذوقية لعوامِّ الناس، أما فهمُ الشيخ عبد العزيز للشعر فهو أعجوبة الأعاجيب

ينقسم كتاب البشري إلى ثلاثة أبواب: الأدب والوصف والتراجم، وفي كل باب فصول منها الوسط والجيد والرائع، وهو يحتفل بالأسلوب في جميع الفصول على الطريقة البِشرية، ويكفي أنه صار كاتباً له أسلوبٌ خاص

مَطلع الكتاب محاضرة ألقاها البشري في أول اجتماع لنادي القلم المصري، وهو النادي الذي يجتمع أعضاؤه في كل سنة ليتناولوا معاً طعام العشاء!

فما الذي قال في تلك المحاضرة الافتتاحية؟

كان الظن أن تكون محاضرة ينقلها روتر وهاناس إلى جميع بقاع الأرض، لأن مصر أول أمة في التاريخ أقيم فيها لحامل (القلم) تمثال، ولكنها كانت محاضرة سطحية لم يرسم فيها المحاضر غير خطوط يغلب عليها العِوَج والانحراف. في غير موجب للعِوج أو الانحراف

فمن أغلاط هذه المحاضرة أن الكاتب جعل توليد الفنون الشعرية في الأندلس أثراً من آثار الانحطاط. ألم يقل إن الأندلسيين (وّلدوا في الشعر فنوناً لتؤدي من الأغراض اللينة الرخوة ما عسى أن تثقل عليه أوزان الشعر؟) ذلك ما قال بالحرف، وهو شاهدٌ على غفلته عن الغرض الذي استوجب أن يفكر الأندلسيون في توليد القوافي والأوزان

ومن أغلاط هذه المحاضرة أن الكاتب عاب التكلف على (أصحاب البديعيات) فهل يعرف مَن (أصحاب البديعيات) وقد عدَّهم من الشعراء المتكلفين؟

أصحاب البديعيات لا يعاب عليهم التكلف، يا فضيلة الأستاذ لأن التكلف عندهم غرض مقصود، فهو نظم تعليميٌّ يجري مجرى (المُتون)

ومن أغلاط هذه المحاضرة أن يظن الكاتب أنه كان من الطبيعي أن ينحط الأدب المصري في عهد الأتراك (ولو قد ظل مع هذا على شأنه الأول من القوة وسعة التصرف لما كان أدباً مصرياً، ولا كان مما يتسق لأذواق المصريين)

فما معنى ذلك؟ هل يتوهم أن مصر في العهد التركي كانت تحولت إلى بيئة تركية؟ هو

إذاً يجهل أحوال مصر في تلك العهود، فقد كانت في مصر بيئات منفصلة عن المجتمع السياسي كل الانفصال، وبفضل تلك البيئات ظلت مصر موئل اللغة العربية في عصور الظلمات، إلا أن يجوز قياس المجتمع في العهود الماضية على المجتمع في هذه العهود!

محاضرة البشري في افتتاح نادي القلم المصري تشهد بأن اطلاعه على تاريخ الأدب في مصر مبتور الأطراف

ثم ماذا؟ ثم نقرأ بحثه عن (حيرة الأدب المصري) فنعرف أن الكاتب هو الحيران! هو بحث نُشر في مجلة المعرفة سنة 1932 وإنما نصصتُ على التاريخ لأمسك بتلابيب الكاتب الذي يقول:

(وعلى الجملة فإنك لو تصفحت هذا الأدب المصري القائم لرأيته موزعاً بين حياة في الجزيرة لمصر الجاهلية وصدر الإسلام، وبين حياة في بغداد أو الأندلس، وبين حياة في لندن أو برلين أو باريس أو روما أو موسكو، ولكن أين هذا الأديب الذي يصور عواطفه المصرية التي يُلهمها ما ينبغي أن يُلهم المصري من عواطف وإحساس)

ذلك هو فهم الشيخ البشري للأدب المصري في سنة 1932 فهل رأيتم أغرب من هذا الفهم؟

في سنة 1932 كان أدباء مصر فريقين، فريقاً لا يعرف غير الأدب العربي القديم، وفريقاً لا يعرف غير الأدب الأوربي الحديث كما يتصور الشيخ عبد العزيز، فأين كان أدباؤنا الكبار من أمثال حافظ وشوقي والزيات وهيكل والمازني والعقاد وتيمور وطه حسين؟ هل كان هؤلاء جميعا من المذبذبين بين القديم والحديث؟ وأين كان الصحفيون من أمثال حافظ عوض وعبد القادر حمزة وتوفيق دياب؟

أشهد أن عبد العزيز البشري لم يصدر في حكمه إلا عن وَهمٍ هو أشبه الأشياء بالإفك المدخول!

أما بعد فما جملة القول في هذا الكاتب؟

هو من أمهر الوصافين للمرئيات، حتى لتحسب أن قلمه ريشة رسام تنتقل بين الألوان، ولكن أين الكاتب المنشود، الكاتب الذي يحدثنا عما نعرف أو نجهل من أسرار النفوس وسرائر القلوب؟

لقد تفقدتُ هذا الكاتب في مقالات عبد العزيز البشري فلم أجده، بالرغم من طول الصبر على البحث والتفقد؛ فأين ذهب وكنت أرجو أن أراه في ثنايا تلك المقالات؟

تحدثك مقالات البشري أنه صحب كثيراً من الناس، وتنظر فتراه وصف ملامح من صحب من الناس، ولكنك لا تجده تنبه إلى ما تدل عليه خصائص تلك الملامح، فهل يكون من حق الناقد أن يفترض أنه لم ير وجوه الناس إلا عن طريق (الصور الشمسية)؟

البشري الكاتب له عينان تريان الألوان، وأذنان تسمعان الأصوات، ولكنه عاش بلا قلب، فلم يدرك دقائق الفروق بين الألوان والأصوات من حيث الدلالة على المعنويات

كان البشري في مختلف أطوار حياته موصول بكبار الرجال، فماذا استفاد؟ وماذا أفاد؟ هل سمعتم أنه نقل رجلاً من رأى إلى رأى؟ هل سمعتم أنه انتقل من حال إلى حال؟ البشري هو هو لم يتغير ولم يتبدل، فقد قامت الشواهد على أنه ظل دهره على مذهب واحد في فهم الأدب والحياة، مع أن الدنيا تثور من حواليه في كل حين

انظروا ما صنع البشري وهو يصف (بنك مصر) لتروا كيف وقف عند المرئيات ولم يتعدها إلى المعنويات!

ما هو بنك مصر في نظر البشري؟

هو قصرٌ (فُرشت أرضه بجلود الصِّلال، أو بالوشى الصنعاني نُمنم بمثل أكارع النمال)

أتلك هي صورة (البُنُوك) في نظر الأديب؟

كنت أرجو أن ينظر البشري نظرةً أبعد من هذه النظرة، فللبنوك معانٍ أخطر وأعظم من السقوف والجدران، ولكن البشري لا يفكر في غير المرئيات

ثم أسأل نفسي مرة ثانية عن الموجب لإيذاء هذا الكاتب الفاضل بهذا النقد الجارح وأجيب بأن هذا أثر الغيظ من فجيعتي في هذا الكاتب، فهو من عصابة أدبية أساءت إلى الأدب المصري حين صيرته متاحف تهاويل، ومعارض تزاويق، ثم فَرضتْ على

الدولة وعلى الجمهور أن يفهموا أن هذا هو الأدب الحق، وأن لا أدب سواه!
لم يُجِد البشري إلا في فن واحد: هو وصف المرض، فما نظرتُ فيما كتب في وصف بلائه بالأمراض إلا صرخت بالتوجع له من أعماق القلب، ومن أجل حزني عليه مزقت الصورة الأولى من هذا المقال وكتبته مرة ثانية، وما أذكر أني كتبت مقالاً مرتين منذ عهدٍ بعيد. . . أجاد البشري وصف المرض، ولكنه وقف عند الغرض القريب فلم يتغلغل في وصف بلاء الرجال بالأمراض؛ فأين هو من مقال شِبلي شمُيِّل في وصف عناء المريض؟ شِبلي شميِّل الذي يقول:
(ذقتُ ذل السؤال، بعد عزَّ الإفضال، فلم أجد أشقى من المريض)!
إن الفرق بين مقال البشري عن المرض ومقال شميل عن المرض أبعد مما يتصور القراء، فما السبب في هذا البعد؟
السبب أن شميلا تأذى بالمرض فوصفه بصدق، أما البشري فرأى المرض فرصة لمقالة أدبية فقال كلاماً يُعوزه الصدق، ولم صدق البشري فيما حكى عن مرضه لكان من الحتم أن
يموت قبل أعوام طوال!
عبد العزيز البشري مزخرِفٌ ومبهرِج، وبفضل الزخارف والبهارج وصل إلى أشياء، لأن الجمهور عندنا قد يكتفي من الكاتب بإجادة التزيين والتلوين
يسأل البشري عن الكاتب الذي يصور العواطف المصرية وأنا اسأل عن الكاتب الذي يصور العواطف الإنسانية، فما يهمنا أن نكون مصريين كما يهمنا أن نكون إنسانيين، فالشاعر الإنساني يجد لعواطفه صدًى في جميع البلاد، أما الشاعر (المحلي) فأفقه ضيق محدود. . . وما أريد الغض من العواطف التي توحيها الأجواء المحلية، وإنما أريد أن يتغلغل الشاعر والكاتب في أعماق الأرواح والقلوب بحيث يحدث قراءه عن آفاق روحية وعقلية لا يهتدون إليها إلا بوحي من العقل الملهم والقلم البليغ
أنا أرجو أن يدرك كتّاب هذا العصر أننا مللنا من الحديث المعاد، وأننا نودّ أن يكون لهذا العصر تاريخ جديد في الأدب العربي، تاريخ ينطق بأننا عبّرنا عما في نفوسنا وقلوبنا بصراحة وصدق وإخلاص؛ تاريخ يشهد بأننا تغنّينا صادقين بعواطف هذا الجيل، وتألّمنا صادقين من مآثم هذا الجيل
لا أريد أن يكون الكاتب مصرياً، وإنما أريد أن يكون إنساناً مصرياً، إنسانً تعنيه الوشائج الإنسانية، ومصريًّا تعنيه الأواصر المصرية؛ وأنتظر أن يكون الكاتب المنشود رجلاً قديراً على تشريح العواطف والأحاسيس قبل أن يكون رجلاً قديراً على ترقيش الألفاظ والتعابير. وأرجو أن يفهم أن له مهمة أسمى وأعظم من القناعة بإعجاب أهل هذا الجيل؛ فالكاتب الحق لا يخاطب العصر الحاضر وحده، وإنما يسكب رحيق قلمه في أذن الزمان وقلب الوجود
الكاتب الحق هو الذي يفرض علينا أن ندرس عواطفنا وأهواءنا في كل وقت، ويشعرنا بأن حساب الضمير لا يقِل قدسيةً عن أداء الصلوات. الكاتب الحق هو الذي يروضنا على الاقتناع بأن نعمة القلم الصوّال أعظم من جميع النعم، وأنفس من جميع الذخائر، وأشرف من جميع ألوان التكريم والتعظيم والتشريف، لأنه يمكّن صاحبه من مناجاة الضمائر والقلوب، ويوحي إلى القارئ أنه قَبَسٌ من السر المكنون في سرائر الغيوب
الكاتب الحق هو الذي لا تصرفه الأكاذيب والأراجيف عما يجب عليه من الفناء في خدمة
الواجب. هو الذي يستعذب الأذى في سبيل الشريعة الأدبية - والأدب من الشرائع - هو الذي يرى أن لا بأس عليه من الحرمان في أبشع جانبه ونواحيه، ما دام يؤمن بأنه كاتب موهوب، لأنه يعرف أن نعمة الكتابة لا توهَب لغير المصطفين من أذكياء الرجال
الكاتب لا يستوحش من زمانه إلا وهو متكلف، أنه يستفيد من الظلم أكثر مما يستفيد من العدل، ولأنه ينتفع بالفوضى أكثر مما ينتفع بالنظام، ولأن الإساءة من أهل زمانه قد تصيره رجلاً لا يعتمد على غير صاحب العزة والجبروت
الكاتب رجلٌ مؤمِن. ألا ترون كيف يحتقر ما بأيديكم يا ظالمي أنفسهم بعبادة المنافع الفانية؟
زكي مبارك

3 - أومنُ بالإنسان!
للأستاذ عبد المنعم خلاف
نظرة واسعة - من الحياة؟ - ممثل مجهول. . . - زواج الفكر بالمادة - أعماق النفس عي أعماق الكون - الحياة هي الإنسان - الباقيات - أمومة الأخلاق وأبوة العلوم - نوعان من الرجال - العكازتان. . .

في السماء: كل نجم عليه غشاء سرمدي من السكون. . . ولو ألقيت نظرة على النجوم والكواكب لم تر شيئاً إلا لمحة عينك أنت واختلاج ضوء يكاد يكون من خداع النظر. . .

وفي الأرض: كل شيء يسير في حركات محدودة وسنن مطردة وتكاد لا تسمع إلا أصوات الريح أو لطمات الموج أو أصواتاً تظهر من تلاقي الريح أو عبث الأمواج بالأشياء. . . وما عدا ذلك فأصوات حيوان لا تعدو أن تكون مقاطع ونبرات بسيطة محدودة يصح أن تلحقها بعزيف الرياح على شعاب الجبال وقصبات الأشجار، أو بهدير الأمواج ذلك الصوت الواحد المكرر على توالي الأزمان.

ولا ترى تلك الدورات الأبدية من ليل ونهار، وربيع وخريف، وشتاء وصيف، ورياح وأمطار، وفيضانات دورية، وأرحام تدفع وأرض تبلع، وحياة رتيبة للبهائم والوحش والطير والأسماك. . .

تلك هي الحياة في الأرض من غير الإنسان. . . لا تجديد في أساليبها ولا تنويع إلا ما خلق الله على الجلود والريش والأزهار والثمار والجدد البيض والحمر في السفوح والجبال. . . وإلا ما تنقله الرياح والمياه في دوراتها من مكان إلى مكان. . . وإلا ما توزعه قوى الطبيعة بالمكيال الوافي الواسع الكريم. فلا يضاف للطبيعة شيء لم يكن منها، ولا يقلقل فيها شيء من موضعه، ولا ينقح فيها شيء يستحق التنقيح

إذاً لمن هذا كله؟ لمن الليل والنهار، وهذه الآلات الهائلة التي تدار، والحيوان الأبد والداجن والأزهار والثمار والأنهار والجبال وألوان الشفق في الأصائل والأسحار؟. أهو للحمير والقرود والنمور والثعالب والفيلة والاساد والفهود والثعابين والخفافيش والبوم والغربان والحشرات والديدان؟!

كلا! ليس في هؤلاء من يصح أن يفقه شيئاً من ذلك الإبداع والجمال ولا أن يسند إليه الدور الأول في رواية الحياة. . . وإنما هذه مخلوقات على هامش الحياة. . . هن أعاجيب وتهاويل وصور لزينة المسرح ودواب لحمل لأدوات إليه. . . أو أن شئت فقل إن هؤلاء (حروف) في أبجدية (الأسماء) التي يلزم أن تتألف منها رواية الحياة التي يمثلها ممثل مجهول. . . ممثل لا بد أن يكون حراً يذهب في أي اتجاه على المسرح، ويجدد في التمثيل والإخراج كل يوم، ويقوم بأدوار جميع ما على الأرض ويتمثل فيه الابتكار الذي يجعل الحياة غير يوم مكرور دائم مملول لدى النظار من سكان السماء، وسكان الأرض من الراصدين الواعين. . . ويحشر كل شيء في رواياته ويضع عقله وقلبه على كل شيء. . .

وَمنْ هذا غير الإنسان؟!

لقد وزع الله عقوله وقلوبه على المواد والقوى سافلة وعالية، فجعل أفئدة من الناس تهوى إلى خدمة شيء، وأفئدة أخرى تهوى لخدمة شيء آخر كي لا يتعطل أفق من آفاق الحياة من غير نظر إليه وتفرس فيه. ولكي يزاوج بين خواطر الفكر وخواص المادة فتنتج الأحكام عليها، وتتبين حكمته المخبوءة وراء أسرارها ولتطلع العقول على فنه وإحاطة علمه بكل شيء. . . قانون المزاوجة هنا أيضاً: فبين فكر الإنسان وبين أسرار المادة زوجية تنتج علماً أو فناً أو إحساساً أو شعوراً. . . (ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون)

والإنسان كالقيثارة ذات الأوتار الكثيرة. . . تظل صامتة ساكتة حتى تضربها يد الأقدار بالمعلومات والأحزان والأفراح فيظهر ما في أوتارها من نغم عجيب. . .

فالأرض من غير الإنسان هي ذلك البيت الصامت وذلك الدولاب الدائر وتلك الدورات الأبدية التي لا غاية لها ولا بد تتلقى فيضها وتنتفع بقواها. ولا اطراد في ارتقائها ولا تغيير في أوضاعها ولا زيادة فيها

فأين المخرج من تلك الحدود الواقفة الجامدة؟ وأين الباب إلى ما هو أعظم وأوسع؟
إن عمق النفس هو الذي يوحي بعظمة الدنيا وتنوع المناظر فإذا خرج المرء من نفسه تبين
له أن الحياة في وحدة قوانينها وتشابه دوراتها ومقاطعها ما هي إلا شيء محدود ممل مسئم. . . ولكن الإنسان أدرك عظمة الله وعظمة الكون لما أدرك عمق نفسه وعرف الطريق إلى الكمالات والصور التي لا تتناهى لما عرف باطن نفسه إلى عالم أرحب وأوسع لما طال النظر في نفسه
وما عرفت الإنسانية جلال الله ولا تبينت صفاته وتوضحت لها حكمته، إلا من عقل الإنسان الفائق الذي أطال النظر في الدنيا ذات الدورات المحدودة المكررة وأطال النظر في النفس ذات الدورات غير المحدودة وزواج بين هذه وتلك
وهذا يسلمنا إلى أن نقول: إن الإنسان هو الحياة الدنيا بالمعنى المعقد المركب غير المتناهي. . .
. . .ولا حد للحياة إذا التقت الطبيعة بالعقل الإنساني الذكي الحساس المفكر
ولا دخل الطبيعة إلا في تقديم المواد الخام إلى يده وفكره ليصنع بهما ذلك التنويع المدني. . .
ويخيل إلى أن روحه ميراثاً خفياً من نظام الجنة وجمالها وراحتها واتساعها، وهو يحاول بعد طرده منها أن يوجدها في الأرض. . . والله معه!
وإذا كان كل شيء في هذا الوجود يرمز إلى معنى بسيط فإن النوع الإنساني يرمز إلى جميع أنواع الحياة وألوانها مضروباً بعضها في بعض كما يضرب عدد هائل من الأرقام في نفسه من الواحد إلى آخر العدد إن كان للعدد آخر. . .
فالإنسان هو (مكان) التقاء عوالم الوجود المشهود كله ليحدث من النقاء كل شيء بكل شيء منفردين نتائج وصور بسيطة، ومن التقاء جميع الأشياء بعضها ببعض نتائج وصور معقدة لا يمكن تقريبها إلا للعقول الكبيرة التي لا تكاد تدركها إلا بالوهم أو الذهن الرياضي صياد الأخيلة والأحلام والفروض
وعمار عالم الفكر بتلك المعاني الناتجة عنه هو وتنوعها إلى ما لا نهاية أمره معجب! وخصوصاً إذا تصورنا أنها معان محدودة بحدود الرءوس البشرية، معدومة في غيرها، إلا إذا خرجت وتجسدت وتشكلت في قميص مادي. . .
ترى هل هي ذات وزن وحياة عند الله الكبير ذي العقل المحيط والعلم الواسع؟ وهل هي
على تناقضها واختلاف الانفعالات المتصلة بها ذات قيم عنده؟ أم هي ملاه وسلويات لذلك النوع المدلل في الأرض تموت معه وليس لها في سجل الوجود أثر بعده؟
إن تصورنا فناء عالم الأفكار العظيمة الرائعة التي تتداول عقول الإنسانية كاف وحده أن يقذف في قلوبنا الإيمان بوجود عالم ثان وعقل آخر يحصى ذلك الحصيد ويجني ذلك القطاف العجيب الناتج من ازدواج الحياة المادية والروحية في الإنسان
أسرتان اثنتان من أفكار الإنسان هما الباقيتان فيما أرى على وجه الزمان في سجل الأرض:
. . .أسرة الأفكار الخلقية وأسرة الأفكار العلمية التجريبية
والأسرة الأولى هي التي سددته إلى غايته وهيأته للخلافة في الأرض، وتحدرت في أعصابه، وأيقظته إلى سموه، وجعلته ذا قيمة لدى نفسه. . . والى تلك الأسرة ينتمي الدين، ومنها انفتحت أبواب السماء للإنسان ونزل إليه وحيها
والأسرة الثانية هي التي مهدت له طريق الحياة المادية، وسلطته على الطبيعة يرتفق منها مرافق حياته ما وسعته الطاقة، وهي التي أنمت ثقته بنفسه وأظهرت آثار وجوده وجعلته متصرفاً في المادة بما لا طاقة لغيره من الأنواع به. . .
والأسرة الأولى كانت الأساس في بناء الحياة المدنية وإتاحة الفرصة للفرد أن يفكر ويعمل لخدمة المجموع في حماية القوانين والمعاهدات، وكانت الأساس في توجيه روح الفرد إلى المثل العليا وبناء سيادة الإنسان. . .
وقد استصبحت الإنسانية بأنوار الأنبياء بناة الأخلاق قبل أن تستصبح بأنوار العلماء بمئات القرون. . . وكانت الأخلاق للحياة بمكان الأمومة الرحيمة تنمو في رعايتها وتشب وترشد. وكانت العلوم بمكان الأبوة الساعية الجاهدة. . .

فالأرض مدينة لنوعين من الرجال: الباحثين في أطواء الروح الإنسانية، المستخرجين منها وسائل طمأنينتها، السباقين إلى أدراك سموها وتفردها، الواضعين لها أسس قيمها الذاتية، الرائدين بأبصارهم وبصائرهم كل أفق في الأرض والسماء، المستنزلين لها أسرار السماء بالإخلاص والبكاء. . . وهم لا شك الأنبياء والأصفياء الذين لم يقفوا عند حدود الكثافات والسدود والقيود المادية، بل ارحبوا وأفضوا فأتوا بالخير والتفاؤل والاطمئنان

والنوع الثاني هو نوع المخترعين الذين يزيدون في وسائل راحة الأجسام ويخفقون المشقات والآلام وينمون قوة الخَلْق والتقليد في يد الإنسان ويزيدون صور الحياة بالتنويع والترصيع والتوشيع والافتنان

ولئن كان النوع الثاني هو صاحب الدولة على عقول الناس الآن لكثرة ما فتح عليهم من بركات الأرض فينبغي ألا ينسى المنكرون أن النوع الأول هو مقيم أساس الحياة الإنسانية والآخذ بيد البشرية حتى بلغت دور الرشد. وهو الأكبر خدمة والأبعد أثراً، إذ هو الذي بعث في النفوس طمأنينتها على قيمتها وأيقظتها لذاتها وأرشدها لمدخرات روحها وعقلها، وهو الذي أوجب عليها الملاءمة بين ما تصنع وما تنتظر

وستستحيل كل بركات العلم إلى آفات ونقم وشرور إذا لم تتذكر الإنسانية جهاد آبائها الأنبياء القدماء وتقيم حياتها الجديدة على أسس ما أفنوا أعمارهم في وضعه وتوسيده، وما قتلوا وصلبوا في سبيل إعلائه وتشييده

غير هاتين الأسرتين السالفتين من الأفكار فهو زبد يذهب جفاء. . . هو باطل لا حقيقة له ثابتة دائمة. هو صور عابرة لتسلية النوع في جهاده وتخفيف إعناته ويخيل إليّ حتى درجن الظن. . . أن فكر الإنسان لا يجدي عليه شيئاً إلا حين يتجه إلى فتح جديد في عالم أخلاقه أو في عالم المادة للانتفاع بها وكشف خصائصها، ولقط أسرارها واستخدامها، وأنه ما وضع في الحياة موضعاً أصيلاً إلا في هذا الموضع. . . فمعرفته بأخلاقه تقيم حياته على الصراط السوي الذي ليس فيه عقبات وسدود من فعل الغرائز والشهوات وعقابيل للطفولة وتفرغه للعمل المثمر الدائم في المادة ومعرفته بأسرار الطبيعة تفتح له أبواب العمل فيها وتنتج له بركات السماء والأرض وتريحه وترقيه وتفرغه للعبادة بالفكر والعمل

أما فترات التفلسف النظري والهيام وراء البدوات والفروض فتلك لا محصول وراءها أو هناك محصول ضئيل

هاتان عصَوان لا يستطيع الإنسان أن يمشي بدونهما خطوة واحدة، وإنما يدور على نفسه كما كان في العصور الأولى ولو كان في القرن العشرين. . .

ولا يمشي بإحداهما ويترك الأخرى إلا أصيب بالعرج والتعثر

فأمم الأخلاق بدون علم وعمل في المادة أمم بائدة مستضعفة معطلة القوى، محدودة الحياة، مسلوبة الحقوق.

وأمم العلم بدون أخلاق سباع ضارية يأكل بعضها بعضاً وتأكل غيرها، ويتجه كل علمها وفنها إلى خدمة الشر والإثم وتستحيل بركات العلم فيها إلى نقم، كما يتجه كل العلم والهندسة في الشوكة إلى قمتها الحادة، وكما يستحيل الدسم في الطعام إلى سم إذا ذهب صلاحه واختلت أخلاطه.

عبد المنعم خلاف

لامرتين ولوروج

يمتدحان النبي عليه أفضل الصلاة والسلام

للأستاذ محمد توحيد السلحدار

الله يهدي من يشاء و (لمل نفس هوى في الدين يعنيها). فليس غريباً ألا يؤمن المسيحي إيمان المسلم؛ غير أن بعضهم جهل أو تجاهل، من كل وجه، فضل الإسلام على الإنسانية والمدنية وقدر نبي المسلمين. وشعر بعضهم، في أحوال شتى، بحاجة إلى تقرير جانب من الحق في شأن هذا الدين القيم وآثر الاعتراف بعِظم نبيّنا الكريم.

ومن هذا الفريق ريمون لوروج الذي ألف كتاباً عنوانه (حياة محمد)، طبعه فاسكيل سنة 1939، في باريس

وقد كتب السيد قدّور بن غبريت مقدمة ذكر ضمنها أن تقديم مؤمن لكتاب صاحب له غير مؤمن أمر دقيق، خصوصاً في مقدمة لموضوع ليس بد من أن يتضح اختلاف

نطريهما فيه؛ وأنه لا يسلم من غير تحفّظ بالمعنى البشري البحت الذي تصوّره المؤلف في النبي، لبعد هذا المعنى عن الشهادة بالرسالة، ولاعتقاد المسلم أن الحوادث والأزمات قد تكون وجهت محمداً نحو الرسالة هي أمور فوقها ذلك النداء السماوي وكلمات الله نشرها الرسول بأمانة وإقدام بين الناس. وإن السيد، بعد أن تحفظ لهذا الخلاف على الأصل، هان عليه أن يحيي ضمير المؤلف ونبوغه في ترجمته النبي

وذكر أيضاً أن المؤلف فيلسوف لا تضطرب نفسه من مسائل الأجناس ولا من تعارض المذاهب؛ فهو يعيد المشاكل السياسية والاجتماعية كلها إلى مستوى المصالح المشتركة بين البشر أجمعين، لأنهم على رغم الاختلاف الثانوي المؤقت الذي يفرقهم فيه جهلهم وحدتّهم الأصيلة، ليس يمكن في الحقيقة تصورهم منقسمين انقساماً لا مرجع عنه

وذكر أن الكتاب يمثل جهداً من أصدق الجهود التي بذلت في جعل الكثيرين من غير المسلمين يعرفون قدر النبي ورفيع شأن الإسلام في تاريخ المدنية

وأهم ما جاء في هذه المقدمة كلام عن النبي للشاعر لامرتين يجانس الموضوع، أورده السيد قدّور و (عرف فضله لفرنسا) وقصد بإيراده أن يعجب به أبناء ملته. وقد نقله من (تاريخ تركيا) حيث قال ذلك السياسي الفرنسي ما ترجمته الحرفية:

(لم ينو إنسيٌّ قط، عن إرادة ذاتية أو غير إرادة، أن يبلغ غرضاً أسمى من غرض محمد إذ كان بلوغه فوق طاقة البشر: فهو تقويض الأباطيل التي جعلوها بين الخالق والمخلوق، وهداية الإنسان إلى الله، وإقامة معنى الربوبية المبني على العقل والتقديس في بهرة ذلك الزحم المختلط من آلهة الوثنيين المادية المسيخة. ولم يعتزم إنسي صُنعاً قط ويبدأه بوسائل على مثل ضعف وسائله ومثل هذا التفاوت بين قوى البشرية والعمل المنوي: إذ أن محمداً، في تصور مشروعاً على هذه الضخامة وفي إنفاذه، لم يكن له من وسيلة سوى نفسه، ولا من مساعد غير عدد قليل من الرجال في ركن الصحراء. وأخيراً لم يتم أنسيّ قط، في زمن أقصر من زمنه، انقلاباً في الدنيا على مثل هذه السعة وهذا الدوام: إذ لم يمض قرنان على الدعوة الإسلامية حتى كان الإسلام منادى به، مسلحاً، سائداً في ثلاثة البلاد العربية، فاتحاً للتوحيد فارس وخرا سان، ومصر وأثيوبية والمعروف من أفريقية الشمالية بأسره، وعدة من جزر البحر المتوسط، وأسبانيا وجانباً من فرنسا

وإذا كان سمو الغرض، وضعف الوسائل، وجلال النتيجة، أموراً هي ثلاثة المقاييس لعبقرية المرء، فمن ذا الذي يجرؤ على أن يوازن من الجهة الإنسانية بين محمد ورجل من عظماء التاريخ الحديث؟ فإن أشهرهم لم يقلّبوا غير أسلحة وقوانين وإمبراطوريات؛ ولم يؤسسوا، حين أسسوا شيئاً، سوى دول مادية كثيراً ما انهارت قبلهم؛ أما هذا فقد قلّب جيوشاً وشرائع وإمبراطوريات وشعوباً وبيوتات مالكة وملايين من الرجال في ثلث المعمور من الكرة؛ لكنه زاد فقلب مذابح وآلهة وديانات وأفكاراً وعقائد ونفوساً، وأسس قومية روحانية على كتاب أصبح كل حرف منه شرعة قومية روحانية تضم شعوباً من كل لسان وكل لون، وجعل لهذه القومية الإسلامية طابعاً لا يبليه الزمان بما نفث فيها من بغض للآلهة الزائفة، وحب لله الواحد المنزه عن المادة. وهذه الوطنية المنتقمة من الاستهانة بالله هي خاصة أتباع محمد وفضيلتهم. ولقد كان فتح ثلث الأرض لعقيدته معجزته، والأحرى أنها لم تكن معجزة رجل، بل كانت معجزة العقل. وإن معنى وحدانية الله التي نادى بها والناس في سأم من العبادات الوثنية كان معنى له في ذاته من القوة، حين تفجر على شفتيه ما أضرم معابد الأصنام العتيقة جميعاً، وأشعل بأضوائه ثلث العالم

إن حياة محمد وتأمله الديني ولعناته الشديدة الفعّالة لأباطيل بلاده، وإقدامه على . . . مواجهة حفيظة الوثنيين وحَنقهم مواجهة الجسَّار، وثباته على احتمالهم في مكة خمس عشرة سنة، وقبوله أن يُعد بين مواطنيه فضيحة علنية (يعني قدوة سيئة تثير السخط) حتى كاد يكون ضحّية، وهجرته أخيراً، ووعظه بلا انقطاع، وحروبه السجال، وثقته بالنجاح، وأمنه في الهزيمة أمناً فوق القدرة الإنسية، وحلمه عند الفوز، وطموحه الفكري

الخالص البريء من طلب السلطان وصلواته بلا نهاية، وحواره في البُرحاء، ووفاته وظفره بعد القبر، كل أولئك يشهد بأكثر من الكذب بل يشهد بالإيمان، وكان هذا الإيمان هو الذي جعل له القدرة على إقامة عقيدة، وكانت هذه العقيدة مثناة: وحدانية الله وتنزّه الله عن المادة، فواحدة تقول إن الله موجود والأخرى تقول ما ليس الله به، واحدة هادمة بالسيف لآلهة زائفة والأخرى مُشهرة بالكلام سيرة

إن محمداً فيلسوف، خطيب، داع، مشرع، محارب؛ وهو فاتح أفكار، مقيم عقائد معقولة وعبادة بلا صور؛ وهو مؤسس عشرين دولة دنيوية ودولة واحدة دينية، ذلكم محمد! فأي إنسيّ كان أعظم منه بكل المقاييس التي يقاس عليها العِظم الإنساني

محمد توحيد السلحدار

!. . .ويلات السَّلم

للأستاذ سيد قطب

هذه الحياة الدنيا عجيبة، فهي ما تزال تنشئ السم وتدس فيه الترياق، وتخلق السقم وبين طياته عناصر الشفاء. وما تزال تخيل لأبنائها السذج أنها موشكة على التلف مشرفة على البوار، فتثير فيهم قواهم الكامنة، وتستحث منهم هممهم الراكدة؛ ثم إذا هي تنصل من الداء، وتنهض من الكبوة، أشد ما تكون عافية، وأوفر ما تكون قوة؛ كصحو الطبيعة غب الوابل المنهمر، وصفو الكون بعد العاصفة الهوجاء! وإن من عجائب هذه الحياة أن تكون للسلم ويلات، ربما فاقت ويلات الحرب، بل هي تفوقها بكل تأكيد. ألا وإن من عجائبها أن تجعل الحرب ترياقاً لسموم السلام!

وما يخالجني الشك في أن فرنسا كسبت بهذه الهزيمة أضعاف ما كسبت غداة الهدنة بالنصر. ومهما بدا هذا القول عجيباً فإنه بالتصديق. ومن شاء أن يختبر صدقه فلينظر فيما كانت عليه فرنسا قبل الحرب، وما يلوح أنها ستكون عليه بعدها

لقد عبث النصر السابق والرخاء الغابر بفرنسا عبثاً شديداً، فلقد غدت قبل الهزيمة شيعاً وأحزاباً لا حصر لها، ولا تدرك أسماؤها فضلاً على مبادئها، بل أهوائها. ولقد كان التشعب السياسي والحزبي أهون ما نكبت به فرنسا، فلقد أصابها ما يصيب الأمم المنحلة من تدهور خلقي، إباحية، وبيئة، وفردية مقيتة، واستهتار معيب؛ ولقد نُسيت فرنسا ليُذكر الفرنسيّ! وبات كل فرد أمة، فكل فرد وشأنه، وكل امرئ ولذائذه، وكل نفس وشهواتها، وعاد الأخذ شهياً والمنح مريراً وغلبت الرفاهة وحب الراحة على الجميع

هذه فرنسا التي هزمت في أسبوعين، وكانت ستهزم نفسها لو لم يهزمها الجرمان، وكانت ستخذل قضيتها لو لم تخذل في الميدان. . .

وهذه - ولا شك - بعض ويلات السلام، أو الاطمئنان إلى السلام! أما فرنسا بعد الهزيمة، فها هي ذي مغلوبة على أمرها ولكنها أشد حيوية وأكثر يقظة؛ فلقد تنبهت فيها كل حاسة؛ ولقد وحدها الخطر وهي ممزقة كل ممزق - والجسم الحي يتنبه ليدفع الخطر -؛ وأخذ كل فريق يعمل على طريقته، ولكن لفرنسا، لفرنسا وحدها لا لنفسه أو حزبه، ولا لمطامعه ولذائذه

فهذا (بيتان) الشيخ يجدد شباب فرنسا! ويوحي إليها في كل حركة وكل عمل وكل خطبة أن تنهض، ويبشرها بالنهوض، وهو في الوقت ذاته يذكرها بالخطر الجاثم والهول المحدق، ويستنهض فيها الماضي المستقبل، ويقودها إلى الإيثار بعد الأثرة، والى التضامن بعد الفردية، والى الإنسانية العفة بعد الارتكاس في الشهوات

وهذا (فيجان) يحتمي في الشمال الإفريقي، ليشد ساعد الشيخ، ويثبت أقدامه أمام الغول الجرماني؛ وليبث في نفوس الفرنسيين الثقة بأن لهم بقية من قوة، ومسكة من مقاومة، وأنهم خليقون بالثبات بعد التقهقر، والنهوض بعد العثار، والرجاء بعد القنوط، والعزة بعد الاستسلام

أما (ديجول) فالحديث عنه نافلة، ذلك أن موقفه خطبة صامتة أبلغ من كل خطبة، وذلك أنه يمثل قلب فرنسا الحي، قلبها الشجاع الأبيّ، الذي لم يعترف بالهزيمة غداة الهزيمة. وإن (ديجول) وحده لشهيد بأن في هذه الأمة حياة، ولم طمست كل الأدلة والبراهين

وما من شك أن فرنسا ستنهض وقد تطهرت من أرجامها ونقيت من أدرانها. ستنهض باسم الرجولة والتضحية والأخلاق، وستكون خيراً لنفسها وللعالم من فرنسا الممزقة

الغارقة في الشهوات.
ولقد صنعت ألمانيا سنة 1918 ما تصنعه فرنسا اليوم؛ فكانت الهزيمة حافزها الأول إلى وثبتها الجديدة. ولو لم يقم على هذه النهضة رجل مريض النفس، شاذ السليقة، لانتفع بها العالم في التعمير بدل التخريب، ولصرفت هذه الطاقة الضخمة من القوة الخارقة في غير هذا السبيل
وما أريد أن أضرب المثل بإنجلترا، فقد يكون الخلق الإنجليزي فوق مستوى إفهامنا، بل فوق إفهام العالم. هذه الخلق الذي يخلق من الشعب كله أبطالاً في ساعة المحنة، ويجعل من البشر ملائكة في لحظة الخطر، ويحيل الأفراد كتلة واحدة ما لها من فكاك
ومع هذا فقد كاد السلم، وكاد الغنى، يضعفان من أعصاب هذه الشعب، فذهب إلى الحرب متثاقلاً، ونام عن الاستعداد حتى دهمته الأهوال. ومن يدري لو طال به السلم، وأمِليَ له في الدعاية ما كان يصيب هذه الخلق المتين من الوهن، وهذه الأعصاب الفولاذية من الانحلال
. . .للسلم ويلات
!ومصر - كنانة الله في أرضه - أشد أمم الأرض بلا استثناء إصابة بهذه الويلات
فأين ما كان في فرنسا من تشعب وتشعث مما في مصر؟ وأين ما كان هناك من فردية مقيتة وأثرة بغيضة مما في كنانة الله؟ وأين ما كان في وطن نابليون من رفاهة مريضة وترف ذليل، وفساد في الخلق والضمير، مما يجري هنا في وطن رمسيس؟
لا يحاول أحد أن يكتم عنا ما نحسه في أعماقنا، ولا يجادل أحد فيما تلمسه أيدينا وتراه عيوننا، ولا يفهم أحد أنه من الخير لنا أن نعصب عيوننا فلا نرى سوءاتنا
إن في مصر من (ويلات السلم) ما لا يتصوره أي أجنبي عنها؛ وفرنسا المنحلة المريضة الغارقة في الشهوات كانت قديسة طهوراً بالقياس إلينا. . . كانت أمة ولسنا نحن أمة، وهذا أخصر ما يصورنا من ألفاظ
في مصر ما لا يحفظ التاريخ من ... فحش يعج بها وفحش يكتم
كما قلت في قصيدة منذ سنوات
وليس هذا (الفحش) بقاصر على ما ينصرف الذهن إليه أول وهلة، ولكنه فحش يشمل كل شيء. يشمل الضمائر والأسرار، ويشمل التصرف الشخصي اليومي للألوف والملايين
في مصر فحش من الفقر من الغنى، فحش من الحرمان وفحش من المتاع. وفيها فحش من النعومة التافهة يقابله فحش من الخشونة العارمة
وفي مصر مشاحنات ومنازعات، ولكنها ليست على شأن جليل ولا غرض عظيم. وفي مصر أثرة عمياء صغيرة المطامع قريبة الآفاق لا تعدو لذة كلذة الحشرات والهوام ومنشأ هذه كله طول عهدنا بالسلم الرخيصة والدعة المريضة والأمان التافه. كل ذلك عبث بأعصابنا فأوهنها وبآمالنا فقرب مداها، وبهمومنا فأصغر قيمتها، والخطر الذي يثير الأعصاب، وينبه الحواس، ويكبر الهمم، ويغذي الطموح قد حرمتنا الأقدار إياه، فمنحتنا طبيعة سمحة لا تحوجنا للجهد ولا تثير فينا الجهاد، وسلبتنا نعمة الاستقلال أحقاباً متطاولة فلم نضطلع من عهد طويل بأعباء الاستقلال
علم الله لقد كانت أكبر أمنية لي أن أعيش حتى أرى مصر تخوض معركة. معركة واحدة، تطهرها كما تطهر النار الخبث، وتبعث فيها الرجولة الكامنة والتضامن الوطيد، وتشفيها من رخاوة السلم وانحلال الدعة ونعومة الفراش!
وإن مصر لكاسبة لو خاضت المعركة. كاسبة ولو تحطمت دورها وتمزقت أجسادها، لأنها ستبني أخلاقاً وتوحد كياناً، وترتفع فوق مستوى الحرص الحيواني على الحياة إلى مستوى الحرص الإنساني على الكرامة. ولأن حيويتها ستنبض في ساعة العسرة، وأعصابها ستشتد في مواجهة الخطر، فتعوض في المستقبل أضعاف ما تخسر من دور وما تفقد من أجساد!
لو خضنا المعركة - أية معركة - ما بقى ذلك الشباب الناعم الناعس، وما كان الإنذار بغارة جوية - لا الغارة - سبباً في ارتعاد الفرائص من الهلع، واصطكاك الأسنان من الذعر، وتساوي الرجال بالنساء في العويل والصياح!
لو خضنا المعركة - أية معركة - ما حدثك شاب (أرستقراطي) عن (النكبة) التي حلت به لأن (سهرة) فاتته، ولا عن الكارثة) التي تسود حياته لأن منافساً له من بني طبقته

فاز بقلب راقصة - إن كان لها قلب!. . . ولا عن (ويلات الحرب) التي رفعت من أثمان العطور والخمور!

أي والله هذه أحاديث شباب (الوسط الراقي) في مصر، وتلك مطامعه وآفاقه في الحياة. وإن كثيرين من أبناء الطبقة الوسطى - عماد الأمم - ليقلدون هؤلاء مع الأسف، فإن لم يقلدوه في هذا، فالكارثة عندهم أن لم يجدوا وظيفة بعد تخرجهم، والنازلة أن بعض زملائهم سبقوهم في الدرجات، وويلات الحرب عليهم هي وقف العلاوات والترقيات!

لو خضنا المعركة - أية معركة - لبرئنا من الأثرة الحمقاء التي يحسب فيها التبرع بالجنيه من صاحب الألوف مفخرة تشيد بها الصحف، وتطوع فتاة في مستشفى مبرة تنتشر من أجلها الصور. ذلك أن التبرع بالأرواح والتطوع بالدماء يصحبان إذ ذاك عملاً يومياً لا يلفت الأنظار!

لو خضنا المعركة - أية المعركة - لسكتت ألسن الدعاة الحزبيين عن الخوض في الشخصيات ولترفعوا عن المغانم والأسلاب، ولكان لهم من هموم مصر ما يشغلهم عن هموم الحكم، ومن مطالب الوطن ما يلهيهم عن مطالب الأنصار!

ولو خضنا المعركة لكان لنا أدب غير أدبنا الباكي الحزين ولكانت لنا أمجاد نتغنى بها، ومخاطر ندعو إلى اقتحامها، ومخاوف نثير الهمم إزاءها، ولكانت لنا عزة تستشعرها نفوسنا ويتغذى بها إحساسنا

إي والله، ولا سمعنا في ذلة باكية (ما يهو نش) أو (ميلت بختي في الحب يختي) أو (يا حبيبي تعال إلحقني شوف اللي جرالي من نار حبك) أو (ليه تلا وعيني وأنت نور عيني). ولأنفنا لأن يكون نشيدنا القومي المختار: (لا والنبي يا عبده)!

اللهم إن تكن قد كتبت علينا إلا نخوض المعركة، فابعث اللهم علينا بركاناً ثائراً أو زلزالاً محطماً أو سيلاً جارفاً أو كارثة ما من كوارثك الرحيمة التي تنقذ بها عبادك من نعومة الأمن ورخاوة الدعة وويلات السلام!

فإن تكن اللهم قد أردت حرمان هذا الجيل من رحمتك فلا تحرم الأجيال الآتية ما حرمتنا، إنك أرحم الراحمين!

(حلوان)

سيد قطب

يا قمر!

للأستاذ محمود البشبيشي

يا سمير الحزين في خلوته، ورفيق السعيد في جلوته!

كل ما فيك سحر. . . وكل ما فيك بشْر

سحر يغمر القلوب بشعاع النور فتطرب

وبشر يشمل النفوس فترتاع الآلام وتهرب!

لا حزن معك. . . ولا ضلال بظلك يا قمر . . .!

يا هادي الساري في البيداء. . . وقاهر الظلمة بالضياء

شراع أنت للملاح لا يبلى مع الزمن، ولا يضطرب مع الريح فيصيبه الوهن! يقهر موج البحر، كما يقهر أمواج الفكر، فتسير السفينة بفضله في أمان! ويهدأ الملاح فيصوغ لك شكره في ألحان

كم لك على الأمواج من قُبل ليست كالقبل! بل زادت عليها معنى النور!

قبلُ من نور! يا سحرك يا قمر! ترقص من فرحة اللقاء، على ثغور الماء. . .

قبلُ من نور! يا سحرك يا قمر! تخشى الرقيب فتضطرب وتنتقل!

ولا تقع في اضطرابها وتنقلها إلا على شفة من موج، أو خد من زورق!

قبلٌ من نور! يا سحرك يا قمر! تبعث الغيرة في قلوب الأشجار الحالمة، في الضفاف النائمة، فتمد لك أوراقها ثغوراً تطمع في قبلة من نور!

ومن عجب يا قمر أنك تقبلها وتقبلها غير ما هائب ولا خائف من عتاب الأمواج . . . وثورة قلوبها

للحقائق المجردة فعل السحر في كل شيء، تنزل بالغنى إلى الفقير لتقربه من النجاة، وترتفع بالفقير إلى الغنى لتشعره بالحياة

فكيف وحقيقتك يا قمر من نور . . .!!

تنزل بالسماء في معنى الشعاع إلى الأرض لتقول لها إنك لا زلت تراباً!! وترتفع بالأرض إلى السماء في معنى الظلال وانعكاس النور لتقول للسماء إنك لا زلت سماء ما دام فيك ضياء!!

في نورك يا قمر معنى قلب المؤمن، ولا يلمس شيئاً من أشياء الحياة إلا طهره!

في نورك يا قمر معنى كلمة الحق! لا تحل في مكان إلا خرجت منه كلمة الكذب!!

في نورك يا قمر معنى كلمة الحب! لا ترن في مكان إلا جعلت من صخوره قلوباً!

في نورك يا قمر ماذا في نورك يا قمر؟ . . .

حقيقة أنت. . . ولكن حقيقة متغيرة. . .!

فأنت عند الجاهل قرص لا أكثر ولا أقل من ضياء وسناء!

جُعلت لتخفف من وحشة الانتقال من معنى النور إلى معنى الظلام

لا يعلم من سرك غير أنك تغيب لتطلع الشمس، وأن الشمس تغيب لتطلع أنت!

وأنت في عين الفيلسوف حقيقة النور، ولسان السماء الذي تخاطب به الأرض لتذكرها أن هناك رقيباً عليماً خبيراً يرى كل شيء حتى دبيب الخواطر في النفوس!

ومن عيونه المحسوسة لو عقل القوم! عيونك يا قمر.

عجباً يا قمر! نظرة سطحية جعلتكَ قرصاً من ضياء، ونظرة عميقة جعلتكَ عيناً من سناء! فما نظرة العاشق إليك يا قمر؟

نظراته لا تنتهي إلى أمد. كل نظرة فيها تنعطف على نظرة انعطافاً لا نعلم كيف يكون، لأنه من أسرار قلبه وأسرار نورك! تقلبت على قلبه وجوه الأيام فيها من لقاء وما فيها من فراق فنظر إليك يا قمر كأنما فيك مفتاح قلبه، وتكلم كلاماً، إني لا أعلمه، فهل تعلمه يا قمر؟

لقد أحصرني التطول إلى أسرار نظراته إليك، فهل من معين منجد ومساعد منشد؟ أين أنت يا دكتور مبارك وهذا الموقف موقفك! وإنك لناصح أمين لا تعرض الرأي على تهمة؟

وأين أنت يا زيات وهذا حديثك (في الجمال)، فإن المعاني هنا أصبحت لقلبي قُلْباً؟ وإني لأخوض في أوعاث وأوعار!

فما نظرة العاشق إليك يا قمر!

يا قمر! أنت قمر!

وهذا كل ما يستطيع الشاعر أن يقول لأنك فوق كل ما يقول

نعم أنا لا أستطيع أن أصفك وصفاً يحمل كل معانيك يا قمر

ويكون في ألفاظه معنى النور والسحر والجمال والأحلام

لا أستطيع غلا إذا قلت: أنت يا قمر!. . . يا قمر

وهكذا لا توصف الحقيقة إلا بالحقيقة!!

يا أفكاري! لقد تمجّدت اليوم رغم الجاحدين الحاسدين

لقد بلغت اليوم عرش النور خفافيش الظلام

لقد أنصت لك القمر وتفتحت آذان السماء!

يا أفكاري لقد تمجدت اليوم، فأنصت لك القمر!

يا قمر هاأنذا أناجيك فهل تسمع النجوى؟

هاأنذا أعيد لك أنشودتي المنظومة شعراً يأرج ويتوهج بعبيرك وأنوارك. . .

يا أيها القمر السخي بنوره ... فيم احتجاجك عن وحيد ساري

في ظل نورك حين تبدو باسما ... أرب النفوس ومتعة الأنظار

كم في الدجى مذ غبت من متأمل ... بين النجوم ينوء بالأكدار

أمهديء الأفكار إن جد السرى ... هل رحمت مبلبل الأفكار

يا مشرق القسمات طبعك رحمة ... فإلام تتركني لوقت سرار

يا باعث الأنوار تنتظم الربى ... والوهد، طال الشوق للأنوار

(انظر القمر، وارقب الخطر، واسأل القدر!)

محمود البشبيشي

اللورد روبرت بادن باول

الكشاف الأعظم العالمي

للأديب خميس زهران

توفي اللورد بادن باول الكشاف الأعظم في نيري بكينيا في صباح 8 يناير وهو في الثالثة والثمانين من عمره. وكان قد مرض مرضاً خطيراً بنوبات قلبية في نوفمبر من السنة الماضية ثم تحسنت صحته ولكنها ظلت معتلة. . . وقد احتفظ الفقيد بصحته ونشاطه حتى الثمانين ثم أخذت بعد ذلك في الانحطاط. ومما يذكر عنه أنه له داراً فوق منحدرات جبل كينيا حيث عاش حتى توفي

واشتهر الفقيد في حرب البوير في جنوب أفريقيا ودافع عن مافكنج؛ ولكنه نال شهرته العالمية عندما أسس حركة الكشافة عام 1908 فنجحت نجاحاً عظيماً وأصبح عدد الكشافين والمرشدات في العالم قبل وفاته نحو خمسة ملايين

بادن باول اسم يعرفه كل من له إلمام بتاريخ الكشافة، ويمجده كل من درس مبادئها واعتنقها في أي قطر من أقطار المعمورة، فهو يتزعم تلك الحركة المضنية التي ابتكرها، وقد وقف نفسه على خدمة الشباب في العالمين. وهو هو في نفسه وأخلاقه وعاداته ونزعاته لا يفرق بين جنس وجنس، ولا يوازي إلا بين النفس والنفس مجردة

ولد الطفل الإنجليزي (روبرت) مؤسس مذهب الكشف من أبوين كريمين هما (بادن باول) والسيدة (هزيتا هراس) ورأى النور في هذه الحياة لأول عهده بها في 22 فبراير عام 1857 في شمال هايدبارك بلندن، وكان أبواه ممن اشتغلوا بالتربية ولم يكن يدور بخلدهما أن ذلك الابن السادس سوف يأتي بمذهب في التربية هو خلاصة أراء علمائها وأظهره عملياً في ثوب الكشافة، فحقق بذلك نظريات سقراط وأفلاطون، ثم أقوال ابن خلدون ولوثر

ومن بعدهم روسو وبستالوتزي وسبنسر فقد أجمع كل هؤلاء الفلاسفة الأخلاقيين وغيرهم أن أول الواجبات الإنسانية تأهيل النفوس إلى اكتساب الكمال الممكن بتأسيس الملكات الصالحة وتأصيل الفضيلة الذاتية بإصلاح الأنفس الناطقة حتى تستحق النظر في حال غيرها أو تمرين سواها؛ ووافقهم على هذا المبدأ الحقيقي حكماء السياسة والشرع عموماً لتسليم البرهان القاضي بعلو الغاية من التربية وإن اختلفوا في الكيفية على حسب المدارك والاقتضاءات الزمنية

وقد دخل في العقد التاسع من عمره وقد منحته الطبيعة ما عندها من فتوة وقوة ولم تحرمه لذة الألقاب والغنى فتدرج فيهما إلى أن بلغ ذروة الأولى وأصبح في درجة لا بأس بها من الثانية وكان لا يزال قدوة الشباب ومرجع المربين. يلبس كالطفل وكالشاب وكالرجل وهو في الواقع كهل لا بل شيخ. إنما تعاليم الكشف وحياة الكشف جعلت من شيخوخته الشباب الغض والعامل المجد الآخذ من المجتمع بأكبر نصيب. فبادن باول في حركاته وسكنا ته كان يعد من الشباب الناهض وإن يكن شيخاً في مظهره وفي منظره، لأنه كان يلبس ما يتذوق الشباب ويتحرك كما يتحرك الشاب، ويجانس الفتية ويجالسهم دون غضاضة أو تنافر. لعله في هذا كان يتحدى الطبيعة ويتحدى الذين إذا استقبلوا الخمسين ترحموا على الدنيا وعلى الحياة، وعاشوا أمواتاً يبحثون عن القبر ويستضيفون اليأس في كل أطوارهم

وتاريخ طفولة رو برت مملوء بالحوادث والمفاجآت فقد مات أبوه (بادن باول) الأستاذ بجامعة أكسفورد وهو في الثالثة من عمره فكفلته أمه السيدة هزيتا ابنة الأميرال (السير سدني سميث) من أعلام البحرية مدة الحملة الفرنسية مع اخوته الستة وكذا أخته الوحيدة. ولم تلحقه بمدرسة ما بل اكتفت بتعليمه المنزلي. وكانت لدى بادن واخوته سفينة يمخرون بها عباب اليم فيجازفون بأنفسهم متغلبين على الأعاصير حتى قويت ملكاته وصار يستعمل المجداف بلباقة وذكاء وتعلم الاعتماد على النفس. وبقى بادن يتلقى بعض العلوم الخفيفة والمعارف السهلة في منزله إلى أن بلغ الحادية عشرة من عمره فأدخل مدرسة روزهيل الابتدائية فمكث فيها سنتين كان خلالها العلم الفرد في الألعاب مما جعله محبوباً من أقرانه وأساتذته. ولقد قال عنه الدكتور هايج بروني في سياق كلام له: (ما شككت قط في كلمة قالها. ولقد برهن في جميع أدوار حياته أنه رجل شريف لا يعرف زوراً ولا بهتاناً ولا يخاتل ولا يشك في كلامه). ولما بلغ الثالثة عشرة من عمره التحق بمدرسة تشارتر هاوس تلك المدرسة التي تحدث (ثكري) عنها وأشاد بذكرها في رواياته القصصية.

وكان سيره التعليمي عاديا كشأن الطلبة المتوسطين أي أنه يبزهم في اللغتين اللاتينية واليونانية، وينافسهم في الأخلاق الفاضلة والصفات النبيلة. أما في الألعاب بأنواعها فهو ابن بجدتها وفارس حلبتها؛ شهد بذلك ناظر مدرسته حيث كتب على لوحة الإعلانات قبيل انعقاد مباريات كرة القدم السنوية: (إن الطالب روبرت بادن باول حارس مرمى يقظ هاديء الخلق يعتمد عليه دائماً)

وفي عام 1876 ترك الفتى روبرت مدرسة تشارترهاوس، وكان عمره إذ ذاك تسعة عشر عاماً، فأخذ يفكر فيما عساه يكون مستقبله، ولم يكن قد قرر اتجاه حياته بعد. وفي بعض الأحيان تخضع مصاير الناس لمصادمات تافهة لا وزن لها، وقد يتغير حظ الإنسان ويتبدل مصيره، لا لشيء إلا أن القدر يريد أن يحقق ما كتب في صفحته. ومن المحقق أن الامتحان العسكري الذي صادف انعقاده وقت خروج روبرت من المدرسة كان له الأثر مما كان يتوقع، فإن تفوقه ونجاحه بين سبعمائة طالب آخرين دخلوا معه هذا الامتحان بالرغم من عدم ميله إلى الجندية أرغمته على الالتحاق بالفرقة الثالثة عشرة من الهوزار بالهند، وهكذا هيأت له المصادفة الدخول في جيش بلاده ولما ذهب إلى الهند ضابطاً في الجيش أعجبته الطبيعة وهام بها، فأخذ يرمي بنفسه في أحضانها، ويطبخ طعامه بيده، ويهيئ فراشه من أغصان الشجر ويهتدي إلى الاتجاهات بالرياح والنجوم والشمس والقمر؛ ويعيش مع الحيوانات والطيور، ويلاحظ نظم حياتها ويدرس أنواعها حتى نمت لديه قوة الملاحظة والاستنباط، واتسع نطاق ذاكرته ورهفت حواسه ودقت. ولقد قيل إن أول عمل قام به هناك هو أنه جمع عددا كبيراً من أولاد الأوربيين الصغار ونظمهم واخترق بهم شوارع مدينة لكنو، لاعبين على بعض الآلات الموسيقية، وكان يعزف هو على آلة تدعى (أوكارينا)

واللورد بادن باول ذو اطلاع وافر على شئون ممالك كثيرة، فقد انتقل من الهند إلى بلاد الزولو فجنوبي أفريقيا بعد أن قام بسفرات أخرى طويلة كان له فيها مغامرات جريئة وتجارب قيمة

لا ننظر إلى بادن كما ننظر إلى شاب، فهو في طفولته وفي شبابه ككل منا، ولكن النظرة التي تهمنا هي من يوم أن هداه الله، أو قل من يوم أن بعث الكشف من رقدته في صدر (توماس ستون)؛ فقد وقع في سنة 1904 أن تنبه الأمريكيون إلى مسألة الكشافة وما يكون لها من وقع حيوي. فذهب المستر توماس ستون الذي كان يحاول إدارة غابات كندا إلى تأليف نفر من أبناء الإنجليز هناك لاستغلال هذه الغابات فجعلهم فرقاً على رأس كل واحدة منها واحد يقوم عليهم يدربهم على النظام والعيش في العراء، يأخذهم إلى الغابة ليعلمهم تسلق الأشجار واقتفاء الأثر، والمراوغة، والاختفاء عن أعين الرقباء، والتعرض للشمس. ويعلمهم كذلك السباحة وبعض الحرف النافعة، ويمنعهم شرب الخمر والتدخين

فلما رأى ذلك السير روبرت بادن باول وكان إذ ذاك في أمريكا الشمالية أعجبته خطة الرجل وصادفت هوى في نفسه، ولكن ما لبث أم أسدل النسيان عليها ستاره وذلك اليوم هو حين صدرت له الأوامر بالذهاب إلى جنوب أفريقيا لتأدية خدمة عسكرية، وحين عهد إليه قوة من الوطنيين لم يكن لهم عهد بالحربية مائة شاب من سكان جنوب أفريقيا كانوا المزرعة التي غرس فيها (الماجور بادن باول) تعاليمه كتجربة. ومائة لا أكثر استطاعوا أن يؤيدوا صدق مذهب الكشف، لكن بقيادة هذا الزعيم الكبير، وهم اليوم يعدون بالملايين في أنحاء المعمورة، لا يقف تيارهم جنس أو دين أو مذهب؛ بل كلهم يعتنقون مذهب الكشف راضين قانعين بفوائده سواء لأجسامهم ولعقولهم ولاستعدادهم للحياة كأفراد عاملين وكأعضاء في المجتمع نافعين. واللورد بادن باول فضلاً عن شهرته ككشاف أعظم كان يعتبر بحق بطل واقعة مفكنج، فقد أظهر أثناء حصار مدينة مفكنج عام 1899 من النبوغ والعبقرية في الفنون العسكرية ما أطلق ألسنة مواطنيه بالمدح والثناء عليه وتلك ولا شك كانت حرباً هائلة لم يكن الإنجليز يتوقعون أن يكون للكشافين أثر فيها. فلم يلبث أن دعي الجنرال بادن باول إلى جنوب أفريقيا عند قيام حرب البوير، فقام بأعمال جليلة رفعت من ذكره في بلاده

ومما يذكر في هذا الشأن أن الجنرال الإنجليزي حصر بجيشه في مفكنج وهي مدينة

صغيرة واقعة في سهول أفريقيا الجنوبية ولم يكن أحد يظن بأنها ستهاجم من العدو كما لا
تتوقع أنت مهاجمة العدو لبلدتك أو قريتك إذ أن هذا بعيد الاحتمال
قال بادن باول: (ولما وجدنا أننا سنهاجم في مكفنج أخبرنا حاميتنا عن النقط التي ينبغي الدفاع عنها. وكان عدد رجالنا قريباً من 700 ما بين شرطي ومتطوع ومنظم. ثم سلحنا من الأهليين 300 وكان بعضهم من رجال الحدود القدماء الذين هم أهل لهذه المهمة. غير أن كثيراً منهم كانوا تجاراً وكهنة وغير ذلك ولم يشاهدوا سلاحاً من قبل ولم يجربوا تعلم الحركات العسكرية أو الرمي. لذا لم يكن يرجى منهم خير في البدء. اجتمع لدينا بعدئذ ألف رجل كلفوا بالدفاع عن المكان الذي يضم 600 امرأة (بيضاء) وولد، 7000 من الأهليين وكان محيطه نحو خمسة أميال. أليس من المضحك أن تلقى عدواً يقصد قتلك وأنت لم تتعلم الرمي قط؟)
لقد اضطرب الجيش لهذا الحصار الشديد ولم تعد هناك نفس لم يداخلها الخور إلا صاحب ذلك القلم العظيم الذي عرف الحرب من قبل وبلاها فقد كان على بينة من أمره؛ ومعنى هذا أن لا سبيل أمامه غير الإذعان لمشيئة الظروف فلا بد مما ليس منه بد
اختلى بعد ذلك بزميله اللورد (إدوارد سيسل) لحديث قصير استشاره خلاله فيما يختص بالدفاع وأدلى باقتراحه ذاكراً خطة صديقه (توماس ستون) فوافقه عليها، وقد سره وأحيا الأمل في نفسه أنه قد وجد على الأقل رجلاً خبيراً بالعمل الذي ينتويه والذي عهد به إليه وخفف من غم الجنود وشجنهم، كما أعاد الثقة إلى نفوسهم هذا القوام العسكري المهيب وتلك اليد القابضة أبداً على السيف المتدلي بجانبه كأنه قد استحال قطعة متصلة ببدنه، وهاتان العينان الساكنتان أبداً لا تضطربان ولا تختلجان، وحديثه كلما تكلم عن المخاطر بلهجة المحتقر لها المستخف بها كل الاستخفاف (أرجو أن تحلوني مكاناً حامي الوطيس متأجج النيران) (نعم قد يحاولون الاقتحام ولكني أظن أن لا حاجة بي إلى أن انبه جندياً أن عشرين رجلاً من البواسل أولى العزم - وهو ما أعتقده فيكم جميعاً - قادرون بلا شك على الثبات في الدفاع عن مدينة كهذه إزاء عشرة أمثال أو أقل عشرين من أمثال العدد الذي يتقدم به البويريون لاقتحام مفكنج) (وما أنا إلا جندي مثلكم وما سيقع لكم هو واقع لي. فهل رأيتم أثراً للضعف أو التخاذل عندي، أو لمستم مني ناحية شك في النصر؟) ولما ضربت مدينة مفكنج لأول مرة طير خبر ذلك وعلق عليه قائلاً: (كسر إناء طبخ ومات كلب) ولقد
كتب إلى أحد القواد البويريين: (إنك لم تأخذ المدينة بالقعود عنها والتطلع إليها)
وجعل بادن باول يظهر الاستخفاف من الحصار إلى درجة جعلت الحامية جميعاً مطمئني الصدور مرتاحي الخواطر، كما أن ثقته التامة بالنتيجة واستعجاله القتال تركهم في ذهول من أمره وإعجاب بشجاعته
(البقية في العدد القادم)
خميس زهران
زعيم جوالة بإسكندرية
كلمات
رجل كسيح
رجلان أبرزتهما هذه الحرب وأبانت للعالم كله عن قيمتها وأن كليهما يصدق فيه قول شاعرنا العربي القديم: وما كل ألف لا تعدّ بواحد
أما أولهما فهو تشرشل، وأما ثانيهما فهو روزفلت
وقصة الحياة التي حيَّها رزفلت، هي قصة فذة عجيبة بين حيوات البشر. بل مثال كامل فريد لا يمكن أن تصل إليه الإرادة البشرية وقوة الخلق والكفاح
فهذا الرجل الذي استوى على كرسي الرياسة في أكبر جمهورية في العالم القديم والحديث، وتولى سياسة أعظم الدول مالاً وقوة وفتوة، والذي اختارته هذه الأمة ليسوس أمرها ثلاث دورات متواليات، ولم تُنل هذا الشرف ولا هذه الكرامة ولا هذه الثقة أحداً قبله في تاريخها
وهذا الرجل الفرد الذي يقف من وراء المحيطات يخطب مائة مليون من الناس يرسل في خطابه الصواعق والحمم، والذي يضع قوته وقوة أمته على كفة من كفتي هذه

الحرب العاتية فتشيل، ويسيّر بقوته وفكرته وعزمه تاريخ العالم الحديث والمستقبل، وتاريخ الحضارة البشرية ومستقبلها إلى وجهة خاصة من السير.
هذا الرجل الذي بلغ هذا المبلغ هو إنسان معلول كسيح. . .!
وقد رأيت هذا الرجل منذ أيام على شاشة السينما يخطب الناس لانتخاب الرياسة فيستولي على عقولهم وقلوبهم وعواطفهم ويكادون أن يدموا أكفهم تصفيقاً له. ويزور المصانع والمعامل فيتحدث ويسير ويضحك ويداعب كأنه شاب في الثلاثين فتوة وحيوية. وكان يقف يتوكأ على عصاه ويسير يجر نصفه الأسفل كأنه لا حياة فيه. إنه كسيح أصيب في طفولته بالشلل.
سألت نفسي يا ترى لو أن طفلاً مصرياً أو شرقياً أصيب بما أصيب به رزفلت في طفولته فمات نصفه من الشلل، فأيَّ إنسان وأي رجل وكهل بصير هذا الطفل المصري أو الشرقي؟
أما إن كان غنياً فسينشأ شاباً مدلّلاً تافهاً ساقط النفس خائر العزم مريض القلب والنفس كمرض جسده. شاب مدلل تافه يأكل خير الطعام ويلبس خير اللباس لا رجاء لنفسه في
نفسه ولا رجاء لأحد فيه، فقد خلقه الله - في زعمه - غير صالح لعمل ولا لرجاء. ستبكي أمه ويحوْقل أبوه ويزعم الثلاثة أنهم خاضعون لما قدّر الله حين ابتلاهم. فهو إنسان يطعم ويشكو حتى يجيء فيه قضاء الله
وأما إن كان فقيراً فهو كصاحبه ساقط الهمّة خائر العزم مريض النفس والقلب مشلول الفكر والعقل والعزيمة كمرض جسده. مستسلم - في زعمه - لقضاء الله لا عمل ولا رجاء حتى يحين فيه القضاء
بل إن صديقي يقول: لو أن روزفلت نشأ في مصر أو في بلد شرقيّ لوجدنا مكانه إلى جانب ضريح من أضرحة الأولياء قد مدّ نصفه الكسيح في الشمس يعْرضه على الناس فُرْجةً، ثم يمدّ يده يسأل الناس أن يدفعوا إليه ضريبة الصدقة. . .!
(محمود)
رسالة الشعر
من نوازي القلب!
للأستاذ محمود خفيف
أَيْنَ ليلاَتُ أَدمُعي وسُهادي ... وَرِضَائي بِشقْوتي وَعِنادي؟
أَيْنَ مِنِّي ضلالَتي أَشْترِيها ... بالَذِي قَدْ أَضَلَّني مِنْ رَشَادِ!
أَنا أَشْقى يَا وَيلَتا بانْطلاقي ... مِنْ إِسَارِي فَأَيْن مِنِّ وِثاقيِ
آهِ! مِنْ لي بِساعَةٍ منْ زَمَانٍ ... كانَ بَعْضَ النَّعيمِ فيهِ احتِراقيِ!
لَمْ يَعُدْ بَعدَ مَوتِ الأَماني ... غَيرُ مَاضٍ أَصْبو لهُ وأُعاني
إِنْ يَكنْ عَوْدُ عيْشِهِ مُسْتحيلاً ... فَشِفائِي فَي غَفْوةِ النِّسيانِ
كَيْفَ أَنْسى؟ اللهُ لي! ما لقلبِي ... مِنْ جِراحاتِهِ عُلاَلَةُ طِبِّ
وَقِصَارَى العَذَابِ ذِكْرىَ حُبًّا ... لَمْ يَعُدْ بَعدُ غَيرَ سَالفِ حُبِّ!
أَيُّ طِبٍ لِحائِرٍ في الصُّلوعِ ... بَينَ يَأسٍ في خفقِهِ وَنُزُوعِ
ذِكْرُهُ اليَأسَ إِن تَوَثَّبَ يَثْني ... هِ ويُغريهِ ثمَّ طولُ الهجوعِ!
سحرَ ماضِيَّ غَيَّرتكِ الليالي ... بَعضُ هذا لَمْ يجرِ يوماً بِبالي
لاَترى العَينُ في مُحيَّاكِ مَعْنىً ... غَيرَ ما تَدَّعينَ من إِقبالِ
في مُحيَّاي لهْفَتي وأَوَامي ... وخَيَالُ القَديمِ من أَحلامي
أَرْهَقَتْ بَسْمَتي عَلَى شَفَتَيَّا ... خَطَراتٌ فيهِنَّ ماضي هُيَامي
لا تَخالي ادِّعَاءَكِ الوُدَّ يُغني ... تَقَرَأ الصَّدَّ في وِدَادِك عَيْني
وَسَوَاءٌ لَدَيَّ ما تُبْصِرُ العَيْ ... نُ ومَا غَابَ في ضَميرِكِ عَنِّي!
يَسْتَوي الْيَومَ وَيْحَ نَفْسيَ وُدُ ... إِن أَردْتِ الوَلاَء حَقًّا وصَدُّ
رِعْدَةُ الأَمْسِ عِنْدَ مَرْآكِ إِثْمٌ ... وَلَئِنْ أَلهَبَ الحَشَا مِنكِ وَقْدُ
السُّلوَّ السُّلوَّ. . . وَيْكَ فؤادِي ... لَنْ يَبُلَّ السَّرَابُ غُلَّةَ صَادي
قَدْ تَوَلى بَعْدَ الثَّلاثِينِ عَاماً ... نِ فَقَضِّ الشَّبابَ في الرُّهَّادِ
لَحَرَامٌ عَلَيَّ كُلُّ حَلاَلٍ ... مِنْ مِراحِ الشَّبَابِ حُلوِ اللَّيالي
بَعْدَ دَعاني للهَّو بَعْضُ صِحابي ... واسْتَخَفَتهُمُوُ نَوَازِي الشَّباب

فأَنا فِيهُمو الضَّحوك الذّي يُخْفِ ... ي عنِ الصَّحْبِ غاشِيَاتِ العذاب
ضَحِكُ الرَّهْرِ فَوْقَ مُوحِشِ رَمْس ... ضَحِكاتي بينَ الأسى والتَّأسي
وَمُجُونُ الرِّفاقِ حَوْلَيَ ضَوضَ ... اءُ صَدَاها فيهِ عَذابٌ لِنَفسي
وَإذا اللَّيلُ هَزَّ في أسْحاره ... سَاجِعاتِ الخَمْيلِ مِنْ أطْيارِهْ
وَالنَّهَارُ الضَّحُوك هَلَّ مِنَ الأُف ... قِ وَفاضَ الوَضِيءُ من تَيَّارِهْ
وإذا ما الرَّبيعُ في رَيعانِهْ ... أَلَّفَ السِّحْرَ في رُؤى مِهرَجانِه
وَتَعالَتْ أَلْحانُهُ في الضُّحَى الطَّل ... قِ فَهَاجَ الحَنِينَ في ألحانِهْ
لا النَّهارُ الضَّحُوكُ يَملِكُ لُبِّي ... ولا وَلا في الرَّبيعِ عِيدٌ لِقلبي
ماتَ في مُهْجتي السُّرُورُ وِأمسى ... عَلْقَماً بَعْدَ مَوتِهِ كُلَّ عَذبِ!
الخفيف
البريد الأدبي
وفاة هنري برجسون
توفي في الأسبوع الماضي الأستاذ هنري برجسون الفيلسوف الفرنسي العظيم وعضو الأكاديمية الفرنسية عن 82 سنة
وقد تخرج برجسون في مدرسة المعلمين العليا وبعد أن حصل على دكتوراه الدولة في الفلسفة أخذ يدرّس العلوم الفلسفية
في مدرسة فرنسا فلم يلبث أن أصبح من أبرز أساتذتها منذ سنة 1900، وطبقت شهرته الآفاق فأخذ الطلبة يفدون عليه من جميع أنحاء العالم لسماع محاضراته وتعاليمه
وقد وضع برجسون مؤلفات عديدة في الفلسفة منها (قوة التطور المبدعة) و (القوة الروحية) و (الضحك). وقد انتخب عضواً في الأكاديمية الفرنسية سنة 1914 ونال جائزة نوبل للآداب سنة 1927
حقوق المؤلفين في الدانمرك
فكرت الحكومة الدانمركية في حظ المؤلفين وفيما يلحقهم من غبن فقررت أخيراً زيادة دخلهم المادي تشجيعاً لهم على مواصلة العمل والإنتاج
ومن التدابير التي اتخذتها أنها فرضت رسماً على كل من يطالع أي كتاب من المكاتب العامة أو في أندية المطالعة، وفرضت رسماً آخر على كل من يقتبس جزءاً من كتاب ويذيعه بالمذياع أو الحاكي
وهذه الرسوم تجمع بعد انقضاء فترة معينة وتوزع على الكتاب الذين انتفع بمؤلفاتهم للإذاعة أو المطالعة
إعلان الحرب على الفقر
نصب الأديب توم كرومر نفسه مدافعاً عن فقراء نيويورك، وعقد العزم هو وجمع من أنصاره على إعلان حرب شعواء على الفقر والتعطل، وقد أخرج كتاباً بعنوان (طريدو الجوع)، رسم فيه صوراً مروعة من حياة رجل أمريكي متعطل شريد.
ولقد تناول المؤلف بطل قصته في حياته اليومية، فأظهر لنا كيف يعيش، ومع من يعيش،
وماذا يأكل، وكيف يلهو، وفي أي أمكنة يقضي لياليه، وكيف ينحط جسمه وينحط عقله وتفني كرامته حتى يستحيل إلى آله صماء وقد أعجبت هيئة اتحاد العمال الأمريكيين بهذا الكتاب، واتخذت منه وسيلة لمكافحة الفقر والدعاية للطبقة العاملة ومحاربة التعطل، فطبعته على نفقتها ووزعت منه آلاف النسخ بثمن زهيد ليكثر انتشاره بين العمال وصغار الموظفين
ومن الظواهر التي أحدثها هذا الكتاب اهتمام الرئيس رزفلت به واعترافه في جمع من الصحفيين بقيمته ومصارحته لهم بأن توم كرومر هو أول أديب شعبي ظهر في أمريكا وأول قصصي إنساني تحرر من دراسة أخلاق الطبقة الوسطى وأقبل على دراسة حياة العامل والفلاح من الجانب الاجتماعي الاقتصادي الذي يسيطر في هذا العصر كل السيطرة
حول أهل الكهف
إلى أستاذي الدكتور زكي مبارك
قلت يا سيدي في تحليل كتاب (أهل الكهف) إن عندك ثلاثة فروض كان توفيق الحكيم

تحت تأثيرها عند كتابته القصة. . . وهي قوة الشهوة، وقوة الحب، وقوة الإيمان
وأنا معك أيها الأستاذ الجليل حين تقول إن الكاتب لم يصور الشهوة العارمة التصوير الذي يجعلها شهوة عارمة
ولكني لا أفهم الغرض الذي يرمي إليه الدكتور حين يقول إن توفيقاً عرض للحب في أدب ولطف كما يصنع العذريون الضعفاء. . . وهل عند الدكتور أن العاشق العذري ضعيف؟ وكيف يجوز هذا؟ وأهل الصبابة العذرية يكابدون في الحب أهوالاً، بل ويقاومون في الحب قوتين: قوة الحب نفسه والدكتور خبير بها عليم، وقوة كبت العواطف الملتهبة بنار الشهوة؟ إن العذريين لم يكونوا ضعفاء وعندهم قوة الصبر وقهر النفس وشهواتها. . .
وأكثر من هذا أن توفيقاً صور الحب تصويراً عاصفاً قوياً في مواضع كثيرة. وما ظنك بمن يقبر ويبعث فتكون أول عاطفة تموج في صدره هي عاطفة الحب. حب مشيلينا لبريسكا. . . ويظهر ذلك في حديثه مع مرنوش في أول فصل وفي حب مرنوش لزوجته وولده، وهو نوع نبيل من الحب جعله في آخر الأمر بعد أن شعر بفقدهما يفضل الموت في الكهف على الحياة بغير قلب!
وأكثر من هذا أيضاً أن قوة الحب في نفسه جعلته يعشق بريسكا الثانية مجردة عن حقيقته الأولى! ويظهر ذلك حين يقول (سيان عندي أن تكون هي أو لا تكون. أحب هذه المرأة التي رأيتها في اليقظة. . .)
هذا من ناحية الحب. . . أما من ناحية الإيمان والارتياب، فأنا أرد على سؤال أستاذي الجليل: (ماذا صنع توفيق في وصف الإيمان، وماذا صنع في تشريح أوضار الارتياب، وأين المعركة التي أثارها بين نسائم الهوى وزوابع الضلال؟)
إن توفيقاً صنع كثيراً في وصف الإيمان. . . بل الإيمان المتجسم الذي يبلغ حد التسليم بكل شيء في شخص يمليخا. . . حين أرى أجرى على لسانه الفرق بين التدوين بالوراثة والتدين عن عقيدة وإقناع؛ وحين يقول: إنه لا يتصور الوجود بدون عقيدة الإيمان ولا انتهاءه بدونه؛ وحين يقول: أنا لا نملك حق السؤال. . . إنما ينبغي لنا أن نعتقد
تلك ناحية الإيمان القوي، أما ناحية الارتياب فتبدو واضحة في حيرة وتهكم مرنوش حين يقول له يمليخا: (إن رحمة الله قريب)؛ فيصرخ: (حقيقة! قرب السماء من الأرض تلك الرحمة التي لا تسعف إلا من يستطيع الانتظار)؛ وحين يقول له يمليخا: (لا تسخر، إن الله حق)؛ فيقول: (لا شأن لله بناها هنا. . . نحن اللذان أوقعنا بنفسينا!) وحين يقول له يمليخا (كل شيء على الأرض بأمر الله)؛ فيصرخ: (إلا ما نحن فيه، فقد حدث بفعل الإنسان). . . الست ترى أن توفيقاً تعرض هنا لأخطر نواحي الارتياب حين يشك في رحمة الله. . . وحين لا يجعل له يداً في حالته. . . وحين يقول: إن ما يفعله الإنسان لا سلطان لله عليه
إن توفيقاً لم يكتب هذه القصة، ولم يعرض هذه الأفكار - وإن لم تكن جديدة - إلا لغرض في نفسه، وما أقام الإيمان يناقش الارتياب إلا ليعالج إحساساً اضطرب في نفسه من قبل. أنا أشعر بهذا فهل للدكتور العظيم أن يتكرم فيلقي نظرة كاشفة على حقيقته؟
(المنصورة)
حسن حسني محمود البشبيشي
اللوزينج
جاء في عدد الرسالة (387) في كلمة الدكتور زكي مبارك هذه الجملة:
وحشو اللوزينج في تعبير كتاب القرن الرابع يضرب مثلاً للشيء يكون حشوه أجود) وهذه كلمة عابرة لا تعطي القارئ الثمرة الكافية، وبخاصة من وجهت ،(. . .من قشرة إليهم تلك الدراسات. فتوضيحاً للفائدة وبسطاً للمقام. أذكر هذه الكلمة:
قال في المصباح: مادة لوز (اللّوزينج - بهذا الضبط - شيء من الحلواء شبه القطائف يؤدم بدهن اللوز) وهو جمع مفرده (لَوْزِينَجَه). جاء في كتاب حصاد الهشيم ن 347 (يا جمال) (جاء في يوم أمام المكتفي (لوزينجة) فقال: هل وصف ابن الرومي اللوزينج؟ فأنشُدِ قوله:
لا يخطئني منك لوزينج ... إذا بدا أعجب أو عجبا

لم تغلق الشهوة أبوابها ... إلا أبت زلفاه أن يحجبا
وهو على حسنه نادر جداً في اللغة قال في ثمار القلوب للعلامة الثعالبي ص488:
سمعت أبا الفرج يعقوب بن إبراهيم يقول سمعت أبا سعد رجاء يقول: دخلت يوماً على أبي الفضل ابن العميد فقال لي: امض إلى أبى الحسين بن سعد فقل له: هل تعرف لقول عوف (إن الثمانين وبلغتها) ثانياً في كون الحشو أحسن من المحشو؟ قال: فسرت إليه، وبلغته الرسالة فقال: سألني عنه محمد بن علي بن الفرات فسألت عنه أبا عمر غلام ثعلب فقال: سألت عنه ثعلباً فلم يأت بشيء؛ ثم بلغني أن عبيد الله بن عبد الله سأل المبرد عنه فأنشده قول عدي بن زيد لابنه زيد بن عدي في حبس النعمان
فلو كنت الأسير ولا تكنه ... إذا علمت معد ما أقول
قوله: ولا تكنه. حشو مستغنى عنه ولكنه في الحسن نظير، وبلغتها:
ومما عثرت عليه في حشو اللوزينج من الشعر قول البحتري يمدح المتوكل:
وجزيت أعلى مرتبة مأمولة ... في جنة الفردوس غير معجل
فقد تم الكلام عند قوله: في جنة الفردوس؛ وقال: غير معجل أي بعد عمر طويل لأن الجنة إنما يوصل إليها بالموت
وقول أبي الطيب يمدح كافوراً:
وتحتقر الدنيا احتقار مجرِّب ... ترى كل ما فيها - وحاشاك - فانيا
فقوله: وحاشاك. حشو فيه حلاوة، وعليه طلاوة
قال العكبري: وحاشاك من أحسن ما خوطب به في هذا الموضع؛ والأدباء يقولون هذه اللفظة حشوة ولكنها حشوة فستق وسكر)
وضد هذا الحشو. حشو الأكر لأنها تحشى بكل شيء ساقط: قال جحظة: أنشدت لأبي الصقر شعراً لي فقال: يا أبا الحسن، ولا زلت تأتينا بالغرور والدرر، إذا جاءنا غيرك بحشو الأكر (490 ثمار القلوب). ثم إنه قد ذكر مؤلف كتاب الثمار أنه افتتح كتاباً صغير الجرم لطيف في نظائر هذا الحشو وترجمه بحشو اللوزينج. فأطرح السؤال على الدكتور المبارك: أين يوجد هذا الكتاب؟
فخر الدين غزي
حول الفيتامين
جاء في مقال قصة الفيتامين للأستاذ عبد اللطيف حسن الشامي المنشور بالعدد (382) من الرسالة عن البلاجرا
1 - وأظنه يقصد بلاد التيرول (ويوجد هذا المرض في بلاد البترول)
2 - في العمود الثاني من الصفحة 1636 يقول: (زد حقيقة ثابتة أخرى وهي انتشار مرض البلاجرا في الأوساط الفقيرة فقط في البلدان التي تعتمد في غذائها على الذرة اعتماداً كلياً فاستنتج من هذا ارتباط مرض (البري بري) بالتغذية) وهذا خطأ إذ أن الأستاذ يقصد مرض البلاجرا كما هو مفهوم من معنى الجملة. فتكون (فاستنتج من هذا ارتباط مرض البلاجرا بالتغذية)
3 - وجاء في الصفحة 1637 - العمود الثاني - (وتارة أخرى تتعاونان معاً على تنبيه (النخاع الشوكي) ودفعه إلى تكوين الكرات الحمراء. . . الخ)
وهنا أخطأ الأستاذ أيضاً فهو يقصد النخاع العظمي لأن النخاع الشوكي هو قسم من الجهاز العصبي والموجود في القناة العظمية داخل العمود الفقري وليس له أي وظيفة في تكوين الكريات الحمراء فهو النخاع العظمي الأحمر أي الموجود داخل العظام. كما أن هذه الغلطة مكررة أيضاً في شرح الشكل المرسوم في الصفحة 1636
بهجت قدوري سلمان
بكلية الطب ببغداد
القصص
كنز في فندق
عن الإنجليزية
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار
فتح إدوارد لانجتون الباب في رفق وأطلَّ في الغرفة الخالية إطلال الخائف الحريص، والحرص من دأب الذي يقدم على الإتيان بعمل يحرمه القانون. وكان لانجتون لصاً لا

يحترف اللصوصية ولكنه من هواتها كأنها عنده بعض الألعاب التي تراد للتسلية.
ولما وجد الغرفة خالية دخل مسرعاً وأغلق الباب دونه، ثم دخل إلى غرفة أخرى
بداخل الأولى فوجدها زينة ليس بها سوى فرش قليلة، وأمشاط ومرآة فوق دولاب
صغير، وبضعة دبابيس، فقرر لانجتون أن هذه الأشياء لا تساوي المخاطرة التي قام بها لدخول الغرفة
وتردد لحظة ليقرر الخطة التي يتبعها. وفي هذه الأثناء كان (الكابتن كورنيش) نائماً في
فندق باريزيان في ميدان أفرتون في لوندرا وهو في هذه اللحظة تحت رحمة هذا
اللص الذي احتل جزءاً من المكان الذي استأجره الكابتن
ورأى اللص أن يفتش تحت المناضد لعله يرى شيئاً ثميناً قبل أن يخرج. فلما لم يجد
شيئاً فتح الأدراج في دولاب الزينة وهو مغضب، فكاد الدرج الأول أن يسقط على
الأرض للشدة التي استعملها في فتحه. وفي هذه الحركة رأى اللص في الدرج ذهباً.
وفي اللحظة التالية لاحظ أن مع الذهب شعر سيدة فرفع الصرة ووجد تحتها صورة
في شمسية لفتاة يعرفها وهي الآنسة (بورلورن)، فوضع الصورة في جيبه وهو مغتبط
كأن حصوله على الصورة قد أدناه من الفتاة نفسها. وشعر بعامل سري في ضميره
يدعو إلى السرور بهذا الاستكشاف، ونظر إلى الباب نظرة طويلة، ثم خرج في صمت
وهدوء تركا الذهب ومكتفيا بالصورة. واختار لخروجه ممراً لم يخط بضع خطوات فيه
حتى وقف خلفه، فوجد أنه قد غادر المكان المخصص للكابتن كورنيش، وأنه صار في
مأمن، واستأنف سيره وهو يتصنع مشية طبيعية حتى لا يكون موضع ارتياب، ولكنه
رغم تصنعه الهدوء، كان يلمس
بيده اليمنى جيبه الذي فيه المسدس ليستوثق منه
وأخيراً وصل إلى منزله، وهو منزل صغير نظيف، يبعد نصف ساعة عن الفندق؛ وكانت
أمه في الفراش، ولكنها غير نائمة، ولم تحس بحركته وهو خارج، لأنه توخى الابتعاد
عن غرفتها في أثناء ذهابه إلى الفندق
لكنها الآن أحست بحركته وهو عائد، وسمعت صوت المفتاح وهو يفتح به الباب، ووقع
أقدامه وهو يمشي في الممر. وأحست بحركته وهو يتناول الطعام على عجل، ويدخل
غرفة نومه فيغلق دونه بابها. وبعد أن امتنعت الأصوات من جهته، اطمأنت الأم وأدركها
النعاس. . . ولقد كان يكفي لقتلها غماً أن تخالج نفسها أية ريبة في أن ابنها، وهو
سليل أسرة كبيرة، يجرؤ على الإتيان بما يأتي به من الأعمال. ولم يخطرها ببالها كذلك
أنه الآن يشعر مشاعر غريبة شاذة لعثوره على صورة هي أهم عنده من الطلاسم التي
يقتنيها الغير لجلب الخير ودفع الشر
وبعد يومين كان لانجتون يكتب خطابات متعددة لأناس يعتقد أنهم على اتصال
بمرجريت بورلورن، وكتب كذلك إليها يطلب موعداً للقاء
وبالرغم من أنها لم ترد على خطابه، فإنه ذهب إلى المكان المعين في الموعد
المضروب؛ وبعد ربع ساعة كانت الفتاة مقبلة نحوه، وكانت تحيط بها من الجلال
والفتنة هالة مثل التي كانت بها في أول يوم فيه منذ سنين
وبدأته بالسؤال عن سبب كتابته لها وتعيين الموعد، فقال: إنني ما كنت لأجرؤ على
طلب مقابلتك في هذا المكان وفي هذه الساعة لولا أن معي شيئاً أريد أن أقدمه إليك
وكان صوته في مخاطبتها صوت من يعلم سراً؛ وقال لهل بصوت خافت: أكنت لا
تظنين سبباً لطلبي إياك غير الرغبة في رؤيتك؟
فقالت وقد احمرت وجنتاها: لست أعرف
قال: (إنني في المرة السالفة أديت لك خدمة ولكنها لا تذكر بالقياس لخدمتي في هذه
المرة فإنني دخلت خلسة في مكان لا بد أن تكوني قد زرته في إحدى المرات، ولكنني
لم أجدك في هذه المرة ووجدت. . . ماذا عراك حتى تغير لونك)
وكان لون الفتاة في هذه الآونة يكاد ينبط منه الدم
فقالت: (يظهر أنك تريد أن تكلمني عن شيء مضى ولكن. . .)
فقال مقاطعاً:
كلا. . . إنني لا أريد أن أكلمك عن شيء ماض، فإني كنت في مكان الكابتن آرثر)
كورنيش بالفندق
لم تكن مرجريت بعد ذكر هذا الاسم بحاجة إلى كلمة أخرى تنبه شعورها فأرخت

أهدابها إلى الأرض وأنصتت، وكان إصغاؤها سؤالاً، فأجاب عليه لانجتون: (إن الكابتن لم يعلم إلى الآن أنني زرت مكانه. ولعله لا يعلم كذلك أنني أخذت شيئاً)

قالت الفتاة:

(ولكن كيف عرفت أنني أعرف الكابتن؟)

فقال وهو يتظاهر بأنه لم يسمع سؤالها:

(. . .لقد دخلت مكانه في الفندق منذ ليال)

قالت الفتاة مقاطعة إياه:

(وهل تريد بواسطتي أن ترد إليه ما لأخذته من عنده؟)

فهز لانجتون رأسه وقال:

إنني إن رددت ما أخذته فلن يكون ذلك باختياري

ثم أدرك أن في قوله من الغلظة فقال: (إن كورنيش لن يعلم أنني زرت حجرته؛ وأنا إنما فعلت ذلك لمصلحتك ولمصلحتي)

قالت: (شكراً) ثم وقفت مرتبكة لأنها لا تعرف كيف يكون لها مصلحة في دخوله الفنادق خلسة. وعاد لانجتون إلى الكلام فقال: (بقى أن تعرف ماذا فقده الكابتن)

ثم ابتسم ابتسامة ضعيفة وقال: (إنني على كل حال لم أستطع مقاومة الرغبة في رؤيتك)

وظل ينظر إليها وهو صامت وظلت هادئة فقدم إليها الصورة وتركها في مكانها وعاد إلى منزله.

وبعد أيام قليلة كان الكابتّن أرثر كورنيتش واقفاً في بيت مارجريت بورلون. وكان يقول: (منذ أيام قليلة وصلت إليّ صورتك بالبريد دون أن أعرف أنها فقدت مني، وإني لأعجب كيف حصل عليها من ردها إليّ)

قالت: (إن الذي تقوله يدهشني، فإني كنت أحسبك تحرص على تذكار مثل هذا فتصونه في مكان أمين

فقال كورنيش: سأفعل ذلك في المستقبل

وكان يحاول أن يحدق في عينيها، ولكنها كانت تتجنب نظراته؛ وعدا إلى الكلام فقال: لكن الخط الذي كتب به عنواني على المظروف يشبه خطك، فهل أنت التي أرسلتها؟ كيف وصلت إلى يدك وكيف سرقت من عندي؟

ولما رأى الابتسامة التي على ثغرها تدل على صدق ظنه مد إليها يديه ليضمها إلى صدره، فقالت بهدوء: سأخبرك على شرط أن تبرهن لي على حبك

قال: أنت تعرفين أنني لم أكن في وقت من الأوقات قليل الحب لك، فما الداعي إلى هذا السؤال؟

فقالت: إن هذا التأكيد هو كل ما أريده منك. إن الذي أعطاني الصورة هو ذلك اللص المخاطر الذي أسداني خدمة في يوم من الأيام، هل تعرف اللفتنانت دورن؟

قال آرثر: اللفتنانت دورن! يستحيل أن يكون هو الذي أخذ الصورة

فقالت: نعم ليس هو، ولكنه الرجل الذي أنقذني من اللفتنانت دورن

قال وقد جرى في عروقه دم الغيرة: (وماذا حمله على ذلك؟ ولماذا يدخل غرفتي ليأخذ صورتك؟)

فقالت: (ألا تزال تشعر بالغيرة بعد أن رددت إليك صورتي وبرهنت على أنني لك وحدك؟)

فضمها الكابتن إلى صدره وقبلها.

وبعد هذا اليوم صينت صورة الفتاة في مكان أمين، ولكنه بالأسف ليس مكان إدوار لانجتون المخلص في حبه الشديد المهارة، فإن حسن الحظ لا ارتباط له بهاتين الصفتين.

عبد اللطيف النشار

العدد 395 - بتاريخ: 27 - 01 - 1941

في سوق الوراقين

للأستاذ عباس محمود العقاد

راجت سوق الكتب القديمة بعض الرواج في هذه الأيام كما راجت في أيام الحرب الماضية، لأن الوارد من كتب أوربا قليل، ولأن طالب الكتاب الأوربي الجديد ينتظره

طويلاً قبل أن يتلقاه في البريد، فإذا وجده مقروءاً قديماً فذلك خير من انتظاره جديداً بكراً بعد أشهر أو أسابيع، ومن هنا تروج الكتب العربية القديمة التي ترد من أوربا أو التي طبعت في هذه البلاد، لأن الذي يبيع مكتبته عند إحساسه بارتفاع الأسعار يبيع منها الإفرنجي والعربي على السواء.

وفي سوق الوراقين وباعة الكتب القديمة فلتات كثيرة من التاريخ، وفلتات كثيرة من الأخلاق، وفلتات كثيرة من العجائب: نسميها فلتات لأن المرء يجدها معروضة بين يديه دون أن يطلبها، وقد تكون الفلتة منها أنفس وأولى بالاقتناء من البغية المطلوبة.

أذكر أني عثرت بكتاب لي عليه تعليقاتي وملاحظاتي بعد فقده بخمس وعشرين سنة، ولو علم بائعه سره عندي لغالى بثمنه، ولكنه أعطانيه وهو مفرط فيه مسرور بما نقدته من ثمن قليل بالقياس إلى رغبتي فيه، كثير بالقياس إلى رغبة البائع في تصريفه.

وأذكر إني عثرت على عدة أجزاء من كتاب في إحدى المكتبات، ثم عثرت بعد حين على الناقص منه في مكتبة أخرى.

وأخبرني بعض الإخوان أن كتاباً من مكتبة الفيلسوف الإنجليزي برتراند رسل التي بيعت في إنجلترا وفاء ببعض الغرامات ما زال يطوف الأرض حتى وصل في مصر إلى يد أديب من المعجبين بالفيلسوف العظيم، فاشتراه وأرسله إلى صاحبه وتلقى منه جواباً بالشكر والتحية لا يزال من أعز محفوظاته.

وإلى جانب هذه العجائب والمصادفات عجائب أخرى من أخلاق الناس وولعهم بضروب الاقتناء والادخار.

فهذه كتب جديدة قديمة معروضة للبيع بعد طول احتباسها على الرفوف، وهي جديدة لأنها غير مفضوضة ولا مقروءة، وقديمة لأنها اشتريت منذ عهد بعيد.

لماذا اشتراها المشتري وهو لا يقرأها، ولعله لم يكن ينوي أن يقرأها؟. . . هنا العجب من

بعض الأخلاق والعادات. فقد عرفت أناساً يغالون بشراء الكتب على قدر قدمها في الطبع وندرتها في الأسواق؛ وأناساً يبذلون في الكتاب من الثمن على قدر سعة الهامش وصلاح الكعب للتجليد!

ويحضرني هنا أن الأوربيين يصنعون من الخشب نماذج لها شكل الكتب من بعيد، يملئون بها الرفوف العالية من المكتبات ويشغلون الرفوف السفلى بالكتب الصحيحة التي تقتنى للمظهر لا للقراءة، لأن قصراً بغير مكتبة معابة في البلاد الأوربية، فلا غنى لبعض أصحاب القصور عندهم عن هذا التشبيه والتزييف.

أما نحن فلم نرتفع بعد إلى هذه المرتبة!

لأن خلو القصور من المكتبات عندنا لا يعاب، فلا حرج على صاحب القصر أن تسأله عن مكتبة فلا تراها، وإن كان يتحرج من خلو القصر من الإسطبل. . . والقصر كله بمن فيه وما فيه أحرى أن يحسب في الإسطبلات!

والمصادفة التي صادفتها اليوم في سوق الوراقين هي شيء من غير هذا القبيل: هي كتب الدكتور شبلي شميل مرصوصة كلها في رزمة واحدة، ومعها رواية له عن الحرب الماضية كنت أتوق إلى الاطلاع عليها ولا سيما بعد شبوب نيران هذه الحرب القائمة، فكانت مصادفة (ورَّاقية) من أحسن المصادفات.

نظرت إلى كتابه عن (فلسفة النشوء والارتقاء) - وهو الجزء الأول من مجموعته - فعادت بي الذاكرة ثلاثين سنة إلى يوم صدور هذا الكتاب النفيس.

كان الدكتور شبلي شميل فقيراً كما ينبغي للأحرار الشرفاء من أمثاله في بلادنا الشرقية، وكان عسيراً عليه أن يطبع مجموعة بغير معونة من أصحابه الأريحية الغيورين على العلم والثقافة. فلما تبرع له المتبرعون بالمعونة الكافية طبع المجموعة في جزءين، وذكر أسماءهم جميعاً ومقدار ما تبرعوا به في ختام الجزء الثاني، وقدم الأسماء بهذه العبارة الصريحة الحكيمة: (أذكرها مجردة عن النواتئ مكتفياً بجمال الأعمال، وكم يجمل بالناس أن يتعودوا ذلك اختصاراً للوقت وانصرافاً للجد. وسيكون ذلك منهم متى غلب النظر إلى الجوهر على الاستمساك بالعرض في كل أعمالهم) وجعل الدكتور ثمن المجموعة الواحدة جنيهاً مصرياً عدا أجرة البريد، وهو ثمن معتدل

لنفاسة طبع الكتاب ونفاسة موضوعه، وقلة الراغبين في قراءة هذه الموضوعات.
ولكن الجنيه ثمن مرهق للشباب الخالي من العمل، وكنت يومئذ خالياً من العمل مريضاً أستشفي ببلدتي أسوان وأشعر بما يشعر به المريض الخالي اليدين من تكاليف العلاج.
فكتبت إلى الدكتور ما فحواه: (إني أعلم أنك تدعو إلى الاشتراكية الصالحة التي تتجنب الغلواء، ومعنى ذلك أنك تأبى على الأغنياء أن يحتكروا موارد المال، فما بالك الآن تريد أن يحتكروا موارد العلم والمال معاً، وهل تحسب أن أحداً من غير الأغنياء يقوى على شراء كتاب بجنيه؟)
فما هو إلا أن وصل الخطاب إلى الدكتور ووصلت الصحف اليومية إلى أسوان حتى قرأت فيها أن الدكتور شميلاً قد أهدى مائة نسخة من مجموعته إلى الأدباء والطلاب، ولم يمض يوم أو يومان حتى جاءني الجزء الأول ومعه خطاب منه يشبه الاعتذار لما فاته من ذكر هذه الحقيقة بغير تذكير، ويشبه الشكر على أنني قد نبهته إلى ما كان خليقاً أن يتنبه إليه!
هذه قصة عارضة تلخص مناقب هذا الرجل الحر الصريح الشريف أوفى تلخيص.
فهو عالم يحب العلم والتعليم، ويعمل بما يقول، ويؤمن بالحجة المقنعة ولو كانت فيها خسارة عليه، ثم يبادر إلى العمل بما يقتضيه ذلك الإيمان، وليست مائة جنيه بالخسارة الهينة على رجل محدود الموارد كانوا يحاربونه في رزقه وفي طبه وفي مؤلفاته وإن كان كسب الألوف ميسوراً له لو أنه نسي أمانة العلم وانصرف إلى طلب الثراء من حيث يطلبه أصحاب الأقلام.
أخذت المجموعة كلها من جديد، وأخذت معها الرواية التي كنت أتوق إلى مطالعتها فإذا العجب فيها أعجب من هذه المصادفة، لأنها نبوءة صدقت في الحرب الماضية قبل انتهائها بأكثر من ثلاث سنوات، ولو نشرها ناشر على أنها مما يقال في الحرب الحاضرة لما احتاج في إعادة نشرها إلى تبديل كثير.
قال بلسان أحد أبطال الرواية وهو المدعي العام الذي يشرح تهمة الإمبراطور أمام المحكمة الدولية: (إنه لغريب جداً أن أمة كالأمة الألمانية حاصلة على قسط وافر من العلم تخضع خضوعاً أعمى لنظام إمبراطورية كنظامها عريق في الأثرة والاستبداد وأغرب من ذلك دعواها وهي في رق هذا الحكم أنها ذات (كلتور) يجعل تربيتها أرقى من تربية سائر الأمم
العريقة في الحضارة. ونحن مع اعترافنا بأنها بلغت شأواً بعيداً في العلم والصناعة ونالت امتيازات جمة على سواها لا يجوز لنا أن نجهل أن هذا الكلتور الذي تفاخر به يجعلها عبدة لنظام حكومة يديرها فرد أو أفراد غير مسئولين حقيقة. وقط ما كان العبد أرقى من الحر. وإذا كان في علمها وعملها شيء كثير من الإتقان فإنك قلما تجد فيهما شيئاً من الابتكار، لأن العبد إذا كان أصبر على العمل فالابتكار من امتيازات الحر وحده. وإذا كنا نراها تتعمد الشر كثيراً لسواها وتستخدم علمها لهذه الغاية خلافاً للآخرين فلأن ذلك من أخلاق العبيد. ولولا أن تكون هذه الأخلاق غريزية في هذه الأمة لما مالأت إمبراطورها على جنايته الكبرى مع ما هي عليه من العلم، ولأدركت حينئذ أن الأمم التي قامت لتذلها وسعت لتبديدها لكي تحل محلها إنما هي أعضاء نافعة في جسم العمران، بل لعرفت أن نجاحها هي نفسها لا يتم لها بدون التعاون معها. . .)
إلى أن قال وما أشبه الليلة بالبارحة: (وليس الملام على الأمة الألمانية المتضامنة مع حكومتها في السراء والضراء مهما أساءت فهم مصلحتها بقدر الملام على مجموع الهيئة الاجتماعية التي يجب عليها أن تكون هي نفسها متضامنة لدفع الشر عنها وتوفير المصلحة لها عموماً، وهذا انحطاط في هذه الأمم وحكوماتها يخجل منه اليوم. فعوضاً من أن تهب جميعها هبة واحدة لنصر المجتمع والقبض على الجاني تركته يسرح ويمرح ويعيث في الأرض فساداً، وادعت الحياد كأن لا ناقة لها في ذلك ولا جمل، وزعمت أنها تستفيد من ممالأته، فشرعت تنصره في السر وهي تدعي العزلة في الجهر، وهو لو أتيح له النصر لما كان حظها منه إلا الإذلال؛ وكيف يكون غير ذلك وحظ حلفائه منه ليس أفضل. . . انظروا إلى حليفتيه العظيمتين النمسا وتركيا كيف أنه قبض عليهما بيد من حديد واستخدمهما لمصلحته دون مراعاة أقل مصلحة لهما، حتى لو أرادتا الانفصال اليوم عنه لما استطاعتا، كأنهما جزء من مملكته أو مستعمرة من مستعمراته)

وانتهى تأليف الرواية في نهاية شهر يونية سنة 1915 قبل انتهاء الحرب الماضية بأكثر من ثلاث سنوات، وقبل ظهور الهزيمة في صفوف الألمان بعهد بعيد، بل انتهت وهم منتصرون متقدمون، فإذا به يجزم بهزيمتهم ويصدق النبوءة حين يقول في لهجة الثقة واليقين:

قد يستغرب القارئ - وقد أنهيتها بهذه الصورة - مع أن الألمان حتى الآن في انتصار.) ولكن من يتدبر الأمور بعين الناقد البصير يعلم أن الألمان من بعد فشلهم في حملتهم على باريس لم يعد يرجى لهم تحقيق حلم، وما انتصاراتهم الجزئية اليوم إلا تطويل لأجل الحرب. ولذلك هم اليوم يتخبطون ويبذلون آخر ما عندهم من الجهد عسى أن يحرزوا من النصر ما يحمل الآخرين جميعاً أو فرادى لعقد صلح لا يغبنون فيه ولا يثلم مقام إمبراطورهم لدى أمته التي جر عليها كل هذه المصائب على غير جدوى أو بخسائر لا تعوّض. لأنه يستحيل اليوم أن يرجع العالم ويثق بهم ويخلص لهم ويفتح أبوابه لمتاجرهم ويحسن الظن بعلمهم وعلمائهم كما كان في الماضي. فهم في هذه الحرب خاسرون كل شيء: المقام الأدبي والمركز الاقتصادي التجاري. . . وانتصار الألمان على الروس اليوم وحفظ مراكزهم في الأماكن التي احتلوها في الغرب لا يستغربان لمن يعلم أنهم منذ أكثر من نصف قرن ولا سيما في عهد إمبراطورهم الحالي يستعدون لهذه الحرب ويعدون لها العدة. بخلاف خصومهم فقد ثبت أنهم من قلة حذرهم منها وفراغهم من العدة لم يكونوا ينوونها. . . فإذا كان الألمان حتى الآن أقوياء أشداء فذلك طبيعي، وهم ما خاضوا غمار هذه الحرب إلا وكانوا على أتم الأهبة لها. لكن إذا كان الألمان وهم في منتهى قوتهم لم يتمكنوا من تحقيق حلمهم، وخصومهم في غفلة غير مستعدين، فهل يرجى ذلك لهم بعد سنة وهم في تناقص وخصومهم في تزايد؟ هذا أمر لا يقبله العقل، ولا سيما إذا رأينا ما تؤول إليه حالهم بحصر البحار. . . ولهذا كله نرجع ونكرر القول أن انتصارات الألمان اليوم ليست إلا تطويلاً لأمد الحرب وأن مصيرهم في الآخر إلى الفشل التام)

صدق الدكتور وأصاب في ذلك الزمان، وكذب الأغبياء وأخطئوا في كل زمان. ولقد ذكر الأوربيون لحكمائهم أمثال هذه النبوءات النافذة والنظرات الثاقبة ولم تذكر هذه النظرة للدكتور شميل بين قراء العربية الذين هم أحوج إلى التذكر والاعتبار.

فإذا كان صواباً قول بعض الأدباء المازحين للدكتور: (إنك يا صاح نكبة على الناس، لأنك تخالفهم في كل ما يقولون). . . فأصوب منه جواب الدكتور على تلك التحية الجافية حيث قال: (إن كنت أنا نكبة على الناس لأنني أخالفهم فكم نكبة أعانيها وحدي من أولئك الناس وأنا واحد وهم ألوف؟)

عباس محمود العقاد

أخلاق القرآن

العفو

للدكتور عبد الوهاب عزام

العفو خلق يسمو بصاحبه عن الانتقام، ويكبر به عن المجازاة، ويتعالى أن يلقى الشر بالشر ويجزي السيئة بالسيئة. العفو خلة تؤثر الرحمة على العقاب، وتحل المودة محل العداوة، والوئام محل الخصام. ترى الرجل يؤذي في نفسه أو ماله فإذا قدر على خصمه استكبر أن ينزل إليه فيأخذه بجريرته، وآثر أن يغفر ويرحم، ووجد في هذا الإحسان من العزة والعظمة والطمأنينة ما لا يجد في الانتقام، ولقاء الجناية بجزائها.

وإنما العفو عند المقدرة. فليس الذي يصبر على الضيم، ويخنع للقوة، ويستسلم للظلم عفواً، ولكن خائفاً ذليلاً. رحم الله أبا الطيب الذي يقول:

كل حلم أتى بغير اقتدار ... حجة لاجئ إليها اللئام

وقد قال تعالى في وصف المؤمنين: (والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون). وقال بعض المفسرين: (كانوا يكرهون أن يستذلوا فإذا قدروا عفوا)

وعظماء الناس يؤثرون العفو ما لم يجدوا فيه مفسدة لأمر من أمور الدين أو الدنيا. وقد عرف بذلك كثير من ملوك المسلمين ولا سيما الخليفة المأمون العباسي. ورويت في العفو عند المقدرة أخبار تنبئ عما يملك قلب الرجل العظيم من الحلم والعفو في الخطوب الجسام. كما أثِر من استعطاف المؤمنين في مقام العقاب ما يذهب بالحفيظة، ويوجب المغفرة.

كانوا يرون العفو وسيلة إلى استصلاح النفوس وإزالة الأحقاد، وإحلال الوئام محل الخصام فيؤرثونه على الانتقام.

قال خالد بن الوليد لسليمان بن عبد الملك: (إن القدرة تذهب الحفيظة، وقد جل قدرك عن العقاب ونحن مقرون بالذنب. فإن تعف فأهل للعفو، وإن تعاقب فبما كان معنا).

وقال رجل لبعض الأمراء: (أسألك بالذي أنت بين يديه أذلُّ مني بين يديك، وهو على عقابك أقدر منك على عقابي، إلا نظرت في أمري نظر مَن بُرئي أحبُّ إليه من سقمي، وبرائي أحب إليه من جُرمي).

وقال بعضهم: إن عاقبت جازيت، وإن عفوت أحسنت، والعفو أقرب للتقوى.

والقرآن الكريم يحث على هذا الخلق الكريم ويهذي الناس إلى هذه الخلة التي تلقي جهل الجاهل بحلم العفو، وشر المسيء بخير المحسن.

سمى الله تعالى نفسه العفوّ، قال: فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم، وكان الله عفوًّا غفورا؛ وفي آية أخرى: وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون؛ وقال أيضاً: وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير؛ وقال: إن تبدوا خيراً أو تخفوه أو تعفوا عن سوء، فإن الله كان عفوًّا قديرا.

وقد أمر الله سبحانه الناس بالعفو فقال للرسول صلوات الله عليه: خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين؛ ويقول: فبما رحمة من الله لنت لهم، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفظوا من حولك، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر. ونهى أن يعاقب المسيء بحرمانه من الصدقة والبر فقال: ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا، ألا تحبون أن يغفر الله لكم؟ والله غفور رحيم.

وأجاز القرآن المجازاة بالعدل ولكن جعل العفو أقرب للخير فقال: (وأن تعفو أقرب للتقوى.) كما قال في وصف المؤمنين: (والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون، وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين. ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل. إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم. ولمن صبر وغفر إن ذلك من عزم الأمور.)

وقد أشاد القرآن بالعافين عن الناس، وبين عظم جزائهم في قوله: (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين).

وكانت سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم عملاً بأمر القرآن وتأدباً بآدابه. قال رسول الله: (أمرني ربي أن أصل من قطعني وأعفو عمن ظلمني.)

فانظر إليه يوم فتح مكة والجزيرة العربية في سلطانه، وصناديد قريش طوع أمره، وقد لقي ما لقي منهم أكثر من عشرين عاماً وفي كل بقعة من مكة والمدينة ذكرى ما لقي من ظلم وعدوان وأذى، وفي كل جماعة من قريش رجال قد قسوا عليه وعلى أصحابه ونالوا منه

ومن دينه، وصدوا عن دعوته جهد طاقتهم. فما مد إليهم يوم الفتح والقدرة يداً بعقاب، ولا جازاهم بما فعلوا ولا بأقل مما فعلوا، بل عفا عنهم عفواً عاماً شاملاً وكان أكبر أعدائه أعظمهم نصيباً من عفوه ورحمته. قال: يا معشر قريش ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً. أخ كريم وابن أخ كريم. قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء. وفر صفوان بن أمية أعدى أعدائه خوفاً من ذنبه ويأساً من العفو، فأرسل وراءه النبي من يؤمنه وأعطاه عمامته أمارة الأمان. فلما طلب منه أن يجعل له الخيار شهرين ليدخل فيما دخل فيه الناس أو يهاجر قال: أنت بالخيار أربعة أشهر.

ولما اجتمعت عليه قبائل هوازن بعد الفتح وأرادت أن تؤلب عليه القبائل وترد فتح مكة هزيمة خرج الرسول لحربها وكانت واقعة حنين التي لقي فيها المسلمون ما لقوا من الهزيمة أول الأمر ثم وثب الرسول وانحاز إليه أنجاد أصحابه حتى أنزل الله سكينته ونصره. فلما ظفر بالقوم وقد عظمت جنايتهم، جزاهم بالإساءة إحساناً وبالذنب عفواً. يقول الطبري:

أتى وفد هوازن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بالجوانة وقد أسلموا فقالوا يا

رسول الله إنما أهل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لا يخفى عليك، فامتنّ علينا منّ الله عليك. فقام رجل من هوازن. . . فقال: يا رسول الله إنما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كنّ يكفلنك (يعني أنهم قوم حليمة مرضعة الرسول). أمنن علينا رسول الله في كرم ... فإنك المرء نرجوه وننتظر.

فقال رسول الله: أبنائكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟ فقالوا: يا رسول الله، خيّرتنا بين أحسابنا وأموالنا؛ بل تردّ علينا نساءنا وأبنائنا فهم أحب إلينا. فقال: أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم. فإذا أنا صلّيت بالناس فقولوا إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا، فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم.

فلما صلى بالناس الظهر قاموا فتكلموا بالذي أمرهم به. فقال رسول الله: (أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم) وقال المهاجرون: (وما كان لنا فهو لرسول الله)؛ وقالت الأنصار: (وما كان لنا فهو لرسول الله). وقال الرسول: (أما من تمسك بحقه من هذا السبي منكم فله بكل إنسان ست فرائض من أول شيء نصيبه. فرُدَّ إلى الناس أبنائهم ونساءهم)

ذلكم مثل من أمثال تُبين عن خلق رسول الله، وهو الخلق العظيم الذي أوحاه إليه القرآن، وإنما تتجلى عظمة العظيم بالعفو حين القدرة، والترفع عن الاقتصاص بالذنوب.

وذلكم تأديب القرآن أمة القرآن، وتعلم رسول الله عباد الله، وإنما يريد القرآن أن يكون المسلمون أكبر من أن يُذلّوا إذا غُلبوا، وأعظم من أن ينتقموا إذا قدروا.

عبد الوهاب عزام.

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

(أدباء مصر الجنوبية - العقاد الحقود! - أين متحف وزارة المعارف؟ - جريمة الكتمان في نظر الجنية الحسناء).

أدباء مصر الجنوبية

مصر الجنوبية هي السودان، وهو تعبير جميل، ويزيده جمالاً أنه لم يصدر أول مرة إلا عن أدباء تلك البلاد.

والحق أننا فرطنا في حق السودان كل التفريط من الوجهة الأدبية، وإن لم نغفُل من الوجهة السياسية. ولو أننا بذلنا في خدمة السودان أدبياً معشار ما بذلنا في خدمته سياسياً لوصلنا إلى نتائج باهرة في توحيد القلوب بين من يقيمون هنا ومن يقيمون هناك، ولكننا تركنا أمر السودان للساسة، والساسة عندنا لا يفكرون كثيراً في الوسائل التي تجعل تعاطف سكان وادي النيل أمراً طبيعياً لا يحتاج إلى تعب أو نضال.

ومن العجيب أن يفكر السودان فينا قبل أن نفكر فيه، فهو يهتم بأخبارنا، ويساير حياتنا الأدبية والاجتماعية والسياسية، ويرى من الواجب أن يتعرف إلينا في كل وقت، فأين نحن من هذه الشمائل الروائع؟

أين الباحث الذي فكر في قضاء شهر أو شهرين في السودان لدرس ما هنالك من تطور الآداب والفنون والأذواق؟

أين الشاعر الذي رأى من واجبه نحو وطنه أن يستلهم الوحي من منابع النيل؟

أين المؤلف الذي خاطر بجزء من وقته وماله ليخرج كتاباً عن السودان، وهو اليوم في يقظة أدبية تستحق التسجيل؟ (مع عرفان الفضل للباحثين داود بركات وعبد الله حسين).

ولنفرض جدلاً أن السودان لا يرتبط بمصر من الوجهة القومية أو السياسية، فيكف يغيب عنا أن السودان قطر أصيل في العروبة، وأن أهله من النماذج الجميلة لأدب النفس وشرف الوجدان، ومَن كانوا كذلك فهم جديرون بعناية الباحثين والمفكرين من كتاب وشعراء!

الفطرة السليمة لا تزال من حظ أهل السودان. ولو أن معالي الدكتور هيكل باشا كان أقام

بينهم مدة أطول من المدة التي أثمرت كتابه الطريف (عشرة أيام في السودان) لأظفر بمحصول نفيس في تقييد الأوابد من مكارم الأخلاق.

أقول هذا صادقاً، فما أذكر أبداً أنني رأيت ما أكره فيمن عرفت من السودانيين، فالسوداني مفطور على طيبة القلب، وهو يرى نكران الجميل من أفظع العيوب، وله بوارق من الذكاء تؤهله لاحتلال الصف الأول بين رجال الفكر إذا ظفر بالتوجيه الرشيد.

فمتى نعرف واجبنا نحو أدباء مصر الجنوبية؟

ومتى نفهم أن الأخوة لها حقوق؟

أما بعد، فأنا أتأهب لكتابة سلسلة من المقالات عن الأدب الحديث في السودان، ولكن المصادر بعيدة مني، إلا شذرات قليلة قدمها إليَّ أحد أعضاء النادي السوداني بالقاهرة، وهي شذرات لا تحقق ما أريد، فماذا أصنع؟

كنت أتمنى أن تتاح فرصة لزيارة السودان والوقوف على أخبار الحياة الأدبية هناك لأحدث قراء (الرسالة) في جميع الأقطار العربية عن إخوان مجهولين حفظوا عهد العروبة والإسلام في بلد جميل، يغفُل عن جماله أكثر العرب والمسلمين.

كنت أتمنى أن أرى السودان، ولو في وقدة الصيف، لأقول لإخواني هناك: إن مصر لا تنساكم، ولن تنساكم، ولو ضُرب بينها وبينكم ألف حجاب.

فمتى أرى السودان؟ متى؟ متى؟

سأسارع فأراه في وجوه شعرائه وكتابه وخطبائه في حدود ما أصل إليه من آثارهم الأدبية، إلى أن يمنّ الله بزيارة أشرب فيها ماء النيل ممزوجاً بالطين، كما شربت ماء الفرات ممزوجاً بالطين، لأقول: إني ذقت رحيق النيل كما ذقت رحيق الفرات. متى أشرب أول كوب من النيل وأنا بنادي المعلمين في الخرطوم، كما شربت كوب من دجلة وأنا بنادي المعلمين في بغداد؟

لن أنسى أبداً كيف ذقت ماء دجلة أول مرة، ولن أنسى أبداً كيف رحلت إلى (الفلوجة) لأذوق ماء الفرات في طعمه الأصيل قبل أن ترفع عنه الأقذاء.

اللقاء قريب، يا أخواني في السودان، فسأتحدث عن أدبكم بعد أسابيع، على شرط أن تذكروا أن الخطأ يغلب في الحكم على المجهول، وقد قضت الأقدار بأن تكون أحكامي على أدبكم منقولة عن السماع، وهو يخطئ أكثر مما يصيب.

أما وفاؤكم لمصر، فلن يجزيكم عنه قلمي، وإنما يجزيكم عنه من شاءت إرادته العالية أن تكونوا مضرب الأمثال في الصدق والمروءة والإخلاص.

العقاد الحقود

في صبيحة اليوم الذي ظهر فيه مقالي عن نقد كتاب (المطالعات في الأدب والحياة)، طلبني الأستاذ عباس العقاد بالتليفون وأنبأني أن صدره انشرح لذلك المقال، وأنه موافق على ما ورد فيه من الملاحظات، إلا عبارة واحدة آذته أشد الإيذاء وهي العبارة التي تسجل أنه رجل (حقود)؛ فأجبته بأني نظرت إلى الحقد من بعض جوانبه الأخلاقية؛ ثم وجهته توجيهاً يرتضيه رجال الأخلاق، وأضفت نفسي إلى جملة الحاقدين لنكون سواءً! في التخلق بهذا الخلق الجميل! مع الاعتذار لحضرة الأستاذ نجيب هاشم الذي ساءه أن يكون لي بين أهل الحقد مكان.

وهل ينكر العقاد أنه رجل حقود؟

إليكم القصة الآتية:

في مصر شاعر (مشهور) هو الدكتور أحمد عارف الوديني المقيم بشارع العَجم في مصر الجديدة، وهو شاعرٌ قَصَر شعره على الإخوانيات، فلا يقرض الشعر إلا في تحية صديق، أو تهنئة زميل، وقد تسمو به همته إلى مجاملة الأمراء والملوك في المواسم والأعياد.

لقيته مرة في (المترو) بصحبة الأستاذ العقاد، فسألني عن الرأي في شعره، فقلت: أنت يا دكتور وديني أشعر رجل في مصر بعد الأستاذ الجارم! فظهرت عليه إمارات الاكتئاب، ولكن الأستاذ العقاد تلطف فصرح بأنه أشعر من الجارم في بعض الفنون! ومضى الدكتور الوديني إلى الجارم بك فحدثه بما قلت وبما قال العقاد؛ فأعلن الجارم أن الرأي ما رأي العقاد! ثم لقيني الدكتور الوديني بعد أشهر وهو يقول:

- هل تعرف كيف ناقضَك العقاد؟

- وكيف ناقضني العقاد؟

- العقاد يرى أنني شاعر العرب
- أنت شاعر العرب؟ أنت؟
- وبشهادة العقاد!
- وكيف والعقاد يرى نفسه أمير الشعراء؟
- هو أمير الشعراء، وأنا إمام الشعراء، والأمير يأتمّ بالإمام، كما قال الجارم الصنّاج.
- هذا جائز، ولكن ما الدليل على أن العقاد يعدُّك شاعر العرب؟
- كتب إليّ خطاباً يقول فيه:
(إلى المفرد العَلمَ، صاحب الإنبيق والقلم، شاعر العرب في شارع العجم؛ عزيزي ونور عيني، الدكتور عارف الوديني)
- وهل ترى أن العقاد مدحك بهذا القول؟
- تلك غاية المديح
- وهل ترى أن العقاد صنع معك أجمل مما صنعتُ؟
- بالتأكيد!
- اسمع، يا دكتور، أنا جعلتك أشعر الناس في مصر بعد الجارم، والعقاد جعلك شاعر العرب في شارع العجم.
- وما العيب في ذلك؟
- العيبُ أنه جعلك أشعر من الأستاذ أمين الخولي ولم يزد، والخولي جارك!
وعندئذٍ تربّد وجه الدكتور الوديني وقال: يظهر أن العقاد رجلٌ حقود!
والحق أن العقاد حَقودٌ حقود، وإلا فكيف جاز أن يجعل الدكتور الوديني شاعر العرب في شارع العجم، فقط، مع أنه شاعر العرب بعد الجارم!
والحق أيضاً أن الخطأ لم يقع إلا مني، فالدكتور الوديني كان استراح إلى ذلك اللقب الطريف وعدّه تلطفاً من الأستاذ العقاد، والعقاد يلاطف أصدقاءه في أكثر الأحايين، ولكنه في هذه المرة يسئ مع سبق الإصرار؛ فقد غاظه أن تتسع آفاق الشاعرية (الودينية) بحيث يكون صاحبها أشعر الناس بعد الجارم، والشعراء يحقد بعضهم على بعض!
وعزاءً الوديني، فلن يكون إلا شاعر العرب في شارع العجم، بفضل ما في هذه العبارة الطريفة من عذوبة الطِّباق والجِناس.
أين متحف وزارة المعارف؟
عرف قراء الرسالة خبر الخطاب الذي تلقيته وأنا في باريس من الدكتور طه حسين، الخطاب الذي قال فيه (أحمد الله إليك) وهي العبارة التي عدّها من المخترعات، وصار يبدئ ويعيد بأني تعودت الافتراء عليه؛ ثم ظهر أن الخطاب صحيح بشهادة كاتبه الأمين (توفيق)، وقد رجوت الدكتور طه أن يشتري مني ذلك الخطاب قبل أن أبيعه لمتحف وزارة المعارف، ولكنه لاذ بالصمت البليغ
أتركُ الدكتور طه لشأنه، فقلبي يحدثني بأنه رجلٌ لا يحفظ العهد، وأنتقل إلى الأستاذ مصطفى أمين المفتش المساعد لكبير مفتشي اللغة العربية بوزارة المعارف
عندي ذخيرة للبيع، ذخيرة أدبية ولكن أين المشتري؟ وأين من يعرف حاجتي إلى المال وقد شاع وذاع أني من الأغنياء؟
عندي كتاب لا يصلُح للاقتناء من حيث هو كتاب، ففي مكتبتي منه نسختان، وإنما يصلح للاقتناء حين يتبرأ منه من أُهدِيَ إليه، وهو صديق (أمين)!
هذا الكتاب هو (تاريخ آداب اللغة العربية في العصر العباسي) للمرحوم الشيخ أحمد الإسكندري وعليه إهداء بإمضاء المؤلف (إلى حضرة صديقه المفضال مصطفى أمين) وبتاريخ 26 يناير سنة 1913
فأي أثر أعظم وأشرف من كتاب يهديه الشيخ أحمد الإسكندري إلى صديقه الأستاذ مصطفى أمين في مثل ذلك العهد البعيد، يوم كان الناس يعرفون قيمة الوداد؟!
أين نحن من سنة 1913؟
وهل هان كتاب الشيخ الإسكندري وكان من المراجع التي اعتمد عليها مؤلف (ذكرى أبي العلاء)؟
هو كتابٌ وجدته عند أحد البقالين بمصر الجديدة وقد اشتريته بنصف درهم، فأين من يشتري مني هدية أحمد الإسكندري إلى مصطفى أمين؟

وأين متحف وزارة المعارف لأقدم إليه تلك التحفة السنية؟ أين لا أين؟!
جريمة الكتمان في نظر الجنية الحسناء
لم يكن الكتمان جريمة قبل أن أُسرف على نفسي بالكلمة التي نشرتها في (الرسالة) عن
الجرائم الأدبية، وكنت نسيت تلك الكلمة، فلم يذكّرني بها غير الملام الذي عانيتُه من
الجِنّية التي كانت ترى أن أعلم الغيب فأعرف لأي سبب قضت أيام الصيف في
الصعيد، الجنية الرخيمة الصوت التي تُزلزل وجودي حين تباغمني الحديث من وراء
حجاب، الجنية التي تقرأ الأشعار والمقالات والأقاصيص وتزعم أني أسرق أفكارها
المبتكرة في كل ما أحدث به قرائي من ألوان الجد والفتون، والتي تهدد برفع أمري
إلى القضاء إن عدت إلى انتهاب ما تُسِرُّ إلى أذنيّ أو عينيّ من معاني وآراء
من الذي يهدّد، يا شقية، أنا أم أنتِ؟
ومن السارق والناهب؟ أنا أم أنتِ؟
أتحداك في السر والعلانية أن تمضي خطوة واحدة في تنفيذ ذلك التهديد، فإن فعلتِ
فسوف ترين كيف أقتلع جميع الأشجار والأزهار من الجيزة الفيحاء، وكيف أصيّرها أقفز
من الفؤاد الذي حازه غيث الحب فأمسى وهو يَباب
ومن أنتِ حتى أسرق منكِ؟ هل كنتِ إلا طيفاً شفافاً يحاور روحي وهو معتصم بأجواء
السماء؟ هل كنتِ إلا روحاً يتمثل في صوت رنان حنان نُقِل من وادي الخلود إلى وادي
الفناء، إن جاز القول بأنك من أهل دنيانا الفانية؟
من أنتِ حتى أسرقُ منك، ومن دمي المسفوح على سنان القلم خُلِق روحك الظّلوم؟
أنا أسرق منكِ وما كان ذكاؤك الوهّاج إلا شرارة طارت عن فؤادي؟ ويطيب لك أن
تحتجبي عني لتصح دعواك في التأبي والتمنع. فهلا نطقت بقولة الحق فاعترف
بالخوف من المصير المحتوم لمن يواجه اللهب العاصف؟
حماك الله من روحي، يا شقية وكتب لك السلامة من غزوات قلمي!
ثم تعالَيْ إلى كلمة سواء:
لقد هدّدتِ بالقطيعة الباغية إن لم أكتب (الصفحتين الممزقتين من جديد) الصفحتين
المظلومتين بسبب التخوف من الأكاذيب والأراجيف
فمن يردّ عني عدوان أبناء الزمان، إذا خرجت على شريعة الكتمان؟
أنت يا طفلتي جاهلة جَهْلاء، ولو كنت تعرفين من خلائق أهل العصر بعض ما أعرف
لعز عليك أن تعدي الكتمان من الذنوب
أهل العصر، يا طفلتي الغالية، لا يسرهم أن يَنْبُغَ فيهم كاتب بليغ إلا أن يكون بوقة
ضَّجاجة تهتف بما يرتاحون إليه من الأفق والرياء
الكاتب، يا طفلتي الغالية، قد يستبيح ما لا يباح من النقد الجريء، وبعض أهل العصر
يفهمون جيداً أن منازلهم الأدبية لم تكن إلا ضرباً من المتاع المسروق، فهم يتصورون
الناقد في شبح رجل يقدم عنهم بلاغاً للنيابة العمومية!
ومن أجل هذا يحرص قوم على إفهام الجمهور أن الرجل لا تكون له إلا شخصية
واحدة، فهو موظف فقط، أو كاتب فقط، وليس من حقه أن يكون موظفاً بالنهار وكاتباً
بالليل، وكيف يحق له ذلك وهو بَشرٌ مثلهم خُلقَ للوظيفة بالنهار، ولمنادمة السخفاء
بالليل؟!
الكاتب، يا طفلتي، رجل مهدد في كل وقت، لأنه من عنصر غريب لا يرتاح إليه
المجتمع، إلا أن يكون من أهل البراعة في خل المجتمع؟ وذلك خلق لم أفكر فيه، ولا
يسرني أن أصير إليه، لأني أمقت الفناء في أقوام كل محصولهم من الشرف أن يقال
إنهم يبغضون الاستعباد، وكنت أرجو أن يكون قرائي ملوكاً يسيطرون على جميع
الممالك والشعوب، فعزة الكاتب من عزة القارئ، ولا يستريح إلى السامع الذليل إلا
المحدث الذليل
وقد أنفقت من شباب القلم ما أنفقت في خلق جيل يفهم عني ما أريد، ثم كانت
فجيعتي فيك يا شقية، فأنت تريدين أن أخضع للجمال، وأنا لا أعرف إلا خُيلاء السيطرة
على الجمال، والرجال قوامون على النساء، ولو كره المتظرفون من أبناء الجيل
الجديد!
وأنا مع هذا شديد الرغبة في الخضوع لإرادتك السامية، كما يتطامن الصائد في أصول

الأدغال، فماذا تريدين أن أقول؟ هل تريدين أن أكتب الصفحتين الممزقتين من جديد؟ أنا عندما تريدين لتكوني بإذن الهوى عندما أريد؟ وإلى قلبك البكر سوف أسوق الحديث في غير هذا الحديث

زكي مبارك

فرق لمكافحة الغناء المريض

للأستاذ سيد قطب

إذا صح ذلك الصدى الذي استرجعته لكلمتي في العدد الأسبق من (الرسالة) عن (الذوق الفني ونهر الجنون) من إخوان لي في الفكرة لم أعرفهم من قبل، كان عدد الذين (لم يشربوا من النهر) أكثر كثيراً مما قدرت، وكان عجيباً أن يضيعوا كل هكذا في غمار الشاربين المخمورين!

وإنهم ليفضون إليَّ بأسباب غريبة لصمتهم عن الجهر بآرائهم، أسباب لم تصادفني مرة واحدة، ولو صادفتني لعرفت كيف أثور عليها وكيف أحطم شباكها، ولكن مجرد اصطدامي بها حافزاً للثورة المحطمة لا للسكون الكظيم.

إنهم يشكون نفوذ بعض المشتغلين والمشتغلات بالغناء المريض في مصر هذا النفوذ الذي يعوق المقالات في إدارات الصحف فلا تنشر إذا كان فيها تصحيح لطريقتهم في الموسيقى والغناء، ويحبس الأغاني والألحان في محطة والإذاعة فلا تذاع، إذا كان فيها للضعف وتأثير في الشهرة، وفرصة للموازنة بين المشهورين وغير المشهورين. . . هذا النفوذ الذي يشتريه بعض المشهورين والمشهورات بالمال والشفاعات تارة، وبجاه المعجبين بهم الشاربين من النهر معهم من أصحاب السلطان والمرشحين للسلطان تارة!

ولست أدري مدى هذه الشكايات من الصحة، ولكن تواترها على ألسنة لا مصلحة لها في الادعاء، وبسط حوادث معينة في صحف (محترمة!) معينة. كل هذا جعلني أوجس شراً، خشية أن تقبر هذه الكلمة التي يخططها قلمي فلا تبصر النور، وأن تصدها الشفاعات والدسائس عن الظهور!

وعلى الرغم من ثقتي بالرسالة التي أوسعت صدرها غير مرة لنقد عظماء الفكر في الشرق والغرب، فأنا أرجو أن تعذرني في هذا التوجس، فإن الحوادث التي سمعت عنها تشير إلى الخطة منظمة يتوسل إليها بعض المشهورين والمشهورات بكل وسيلة مهما كلفتهم من جهد وتضحية، لكتم النقد وإذاعة الثناء، وقبر كل نبوغ يبزغ، ويهدد شهرتهم بين الغوغاء.

وحين يصح هذا يكون جناية على الفن والذوق والخلق، وعلى كل إحساس رفيع في الأمة وكل شعور كريم، جناية تجب مكافحتها، وأنني لأهب هذا القلم لهذا الكفاح وأعلم أن

الحواجز والسدود التي يشكو منها الشاكون لن تحول دون هذا القلم حين يريد.

إننا لن نشتم هؤلاء الناس الذين يسحقون روح الشعب في كل أغنية، ويهدون عزيمته في كل لحن؛ ولن نوجه إليهم فاحش اللفظ ولا هجر القول، ولا شأن لنا بأشخاصهم، ولكننا ننتقد طريقتهم، ونندد بآثارها المقيتة في النفوس. وما دام الأمر كذلك فسنجد لهذا القلم مجالاً غير محدود، على الرغم من كل الحواجز والسدود، لن يكون هؤلاء المشتغلون والمشتغلات بالغناء الزائف المريض بأعز من عظماء الفكر الذين تناولهم النقد في أبعد الحدود.

والأمم تنشئ الفرق لمكافحة المرض حين ينتشر الوباء، ولمكافحة اللهب حتى يصب الحمم على الأبرياء، ولمكافحة المخدرات حين تهدد سلامة البلاد. . . فمن الواجب مصر أن تنشئ الفرق لمكافحة الغناء المريض الذي يسحق كبرياءها، ويحطم رجولتها وأنوثتها، ويثير أحط غرائزها، ويخدر أعصابها كالمخدرات.

وما أمزح أو أتهكم! فأنا أقترح جاداً إنشاء هذه الفرق، من كل ساخط على هذا الترنيم الوجيع، مشمئز من هذا التكسر الخليع. وهذه الفرق تستطيع الشيء الكثير: تستطيع بث الدعوة، وضرب المثل، ومقاومة كل نفوذ تجاري يبذل في إدارات الصحف ومحطة الإذاعة. . . وتستطيع تتبع هذه الأنغام بالتجريح والتهجين في كل مجتمع وناد، مع تصحيح الإفهام وتقويم الإحساس.

ولست أبالغ حين أنهي إلى وزارة الشئون الاجتماعية إلى وزارة الدفاع أن هذه الأغاني

تعوق جهودهما في انتشال المجتمع المصري وتقويمه، وفي بث روح الحماسة وتقويتها، فشبان البلد وشوابها مشغولون ومشغولات بالمأتم الدائم في كل مذياع، الحافل بالنائحين والنائحات، وبالدموع الرخيصة المتصنعة، وبالدغدغات الخليعة المتكسرة في الألحان والأغنيات.

وحين نكافح (الطابور الخامس) يجب أن نحسب حساب (الغناء المريض) ويجب أن نسكت هذه الدغدغة وهذا التميع وتلك المخدرات المتسربة إلى الضمائر الهامسة في الإخلاد.

وما كان لأي (طابور خامس) أن يؤثر ما تؤثر هذه الأغاني - حتى الأناشيد الوطنية والحماسية التي خرجت أشبه بالمناحة مرة، وبالنشيج المترنح مرة - إذا استثنينا (نشيد الجامعة) لأم كلثوم.

لم تبق عاطفة إنسانية نبيلة لم يشوهها هذا الغناء، ولم يبق شعور وجداني كريم لم يفسد طبيعته.

فالحب مثار الحيوية في النفوس، ومبعث القوة في الوجود. هذا الحب الذي تدخره الحياة لأبنائها، لتبيحه لهم في أفضل ساعاتهم وأملئها بالفيض الروحاني، والتفتح العقلي، والنضوج الجسمي، وتعبر به عن أقصى غبطتها بهم ورضاءها عنهم، وتدل به على صلاحيتهم لها وأدائهم لحقوقها. هذا الحب الذي هو (جواز المرور) من حمله من الأحياء أباحت له الحياة خدرها وأثمن مكنوناتها (كما يقول العقاد). هذا الحب الذي يفجر في الإنسان كل منابع السمو والعطف والمرح والاستعلاء كما يفجر في الحيوان - في صورة الغريزة - كل منابع النضج والقوة والازدهار.

هذا الحب كله عاد في ذلك الغناء رجع الصدى الهزيل للغريزة المضعوفة، وصوت الأسى الذليل للحيوانية المريضة، ودمعة الضعف الكسير للرغبة العاجزة.

والألم أنفس الأحاسيس الإنسانية. الألم الطهور الكريم صقيل الطبيعة البشرية، ومنضج المشاعر الفجة؛ وبوتقة الشهوات الخبيثة. . .

هذا الألم عاد في ذلك الغناء تصنعاً زرياً، وتكسراً شائهاً، وتميعاً (مقرفاً) ونعومة خبيثة.

والفنون على الإجمال، هي رمز الأمل الطليق من قيود الواقع المحدود، المتعالي على مطالب الضرورة القاصرة، وهي مهرب النفس الإنسانية الطموح حين يعجز الواقع عن تلبيتها فتجد في الفنون دنيا من المستقبل، وعالماً من الملأ الأعلى، وفسحة من الكمال المومق.

ولم تكون الفنون تعبيراً عن جوعات الأجسام، ولا شهوات اللحم والدم إلا في أحط صورها وأولى درجاتها، ولكن ألواناً من القوة الحيوانية العارمة، والنشاط الغريزي الفاره، والجوع البهيمي المتنزي قد يعجب النفس لما فيه من معنى الحيوية المتوثبة والقوى المتحفزة.

فموسيقى الجازبند تعبيراً عن الحيوانية الهائجة ولكنها قد تجد لها شفيعاً في الدنو من دائرة الفنون بما فيها من قوة الهياج، وضجة الزياط، وثورة الدم في العروق.

ولكن أي شفيع للحن أو أغنية هي تعبير عن الحيوان المضعوف السقيم، يتميع بالغريزة العاجزة الكليلة، ويتخلع بالرغبة العجفاء الهزيلة، ويدغدغ غرائز السامعين المخدرين؟

ما سمعت أغنية واحدة أو لحناً واحداً، ولا سيما الأغنيات الأخيرة إلا أحسست بالتقزز للرجل المتراخي النائم على نفسه، المتخاذل في حركاته، المهوم للنعاس في نغماته، وللمرأة المتخلعة في نبراتها، المدغدغة في تأوهاتها، ولشواب البلد وشبانها يتهالكون من الرخاوة، ويتحاملون الهزال، ويرفعون عقيرتهم بالنواح: (يا لوعتي يا شقايا يا ضنى حالي - طول عمري عايش لوحدي - ما يهونشي)

وكل هذا هين لولا فجيعتي في شاعر أعزه وتربطني به روابط ودية وثيقة، وصلات أدبية طيبة. وقف مرة أمام المذياع يقدم قطعة من تأليفه لحنت هذا التلحين، وأديت هذا الأداء؛ فقال: إنها في صورتها هذه الممسوخة تعبر عما أحس به وهو ينظم مقطوعته، وأنه يعتز بهذا التعبير كل الاعتزاز.

شعرت بالفجيعة مع ثقتي بأن عوامل غير عامل الإعجاب الفني بكل تأكيد هي التي أوحت إليه بما يقول. شعرت بالفجيعة لأنه شاعر وصاحب قلم، وكل ذوي الأقلام يتعين أن يكون مكانهم في صفوف المكافحين عن ذوق الأمة الفني وعن سلامة فطرتها التي تنهكها هذه الألحان.

ولقد انتهيت إلى مقاييس لا تخطئ في تقدير صحة الفطرة الفنية وسلامة الشعور الإنساني، وهي في يدي كمقياس الحرارة في يد الطبيب. فأيما إنسان دل مقياس الحرارة في فمه على رقم غير الرقم الصحي، فهو مريض مهما نطقت ملامحه بالصحة وجوارحه بالعافية؛ وأيما إنسان أحس في ضميره اختلاجه للحن من تلك الألحان المريضة، فهو مشوه الفطرة سقيم الطبع، شارب من النهر مخمور.
وللصحافة رسالة يجب إلا تنكل عنها، وواجب يجبأن تؤديه؛ وقد تعاورني الرجاء واليأس في إصلاح هذه الحال، ولكن يجب أن تكون فداحة العبء مثيراً لعظائم الجهد، ومن يدري، فقد نعثر على كنز مخبوء في طبيعة هذه الأمة، أو منبع مطمور من منابع الفطرة، نزيل عنه الركام، فإذا تفجر اكتسح هذه الرواكد وتلك المخلفات.
(حلوان)
سيد قطب.
دير مِديْان
للأستاذ صلاح الدين المنجد
قال الشابشتي: (وهذا الدير على نهر (كرخايا) ببغداد؛ وكرخايا نهر ينبثق من المحوّل الكبير ويمر على العباسية ويشق الكرخ ويصبُّ في دَجلة، وكان قديماً عامراً والماء فيه جارياً، ثم انطمْ انقطعت جريته بالبثوق التي انفتحت في الفرات.
وهو دير حسنٌ نَزهٌ حوله بساتين وعمارة؛ ويُقصد للتنزه والشرب. ولا يخلو من قاصد وطارق. وهو من البقاع الحسنة النزهة. وللحسين بن الضحاك فيه:
حث المدام فإن الكأسَ مترعةً ... مما يهيج دواعي الشوق أحياناً
إني طربت لرهبانٍ مجاوبة ... بالقدس بعد هدوِّ الليل رهبانا
فاستنفرتْ شجناً مني ذكرتُ به ... كرخَ العراق وأحزاناً وأشجانا
فقلتُ والدمعُ في عينيَّ مطّردٌ ... والشوق يقدح في الأحشاء نيرانا
يا دير مِدْيان لا عُرِّيت من سَكنٍ ... ما هِجْتَ من سَقمٍ يا دير مِدْيانا
هل عند قَسِّك من علم فيخبرني ... أن كيف يسعد وجه الصبر من بانا
سَقياً ورعياً لكرخايا وساكنه ... بين الجنينة والروحاء من كانا
قال: وكان أبو علي بن الرشيد يلازم هذا الدير ويشرب فيه. وكان له قيان يحملهم إليه ويقيم به الأيام لا يفتر عزفاً وقصفاً. وكان شديد التهتك، وكان من يجاور الموضع يشكون ما يلقون منه. فانتهى الخبر إلى اسحق بن إبراهيم الطاهري وهو خليفة السلطان ببغداد؛ فوجّه إليه يقبّح له فعله وينهاه عن المعاودة لمثله. فقال: (وأيّ يد لإسحاق عليّ وأيَّ أمر له فيَّ؟. . . أتراه يمنعني من سماع جواريَّ والشرب بحيث أشتهي. . .؟) فلما أتاه هذا القول منه أحفظَه، وأمهل حتى إذا كان الليل ركب إلى الموضع وأحاط به من جميع جهاته. وأمر أن يُفتح باب الدير وينزلَ به على الحال التي هو عليها. فأنزل به وهو سكران في ثياب مصبَّغة، وقد تضمخ بالخلوق فقال: سوءة لك! رجل من ولد الخلافة على مثل هذه الحال؟) ثم أمر ففُرش بساط على باب الدير وبُطح عليه وضربه عشرين درَّة، وقال: إن أمير المؤمنين لم يولني خلافته حتى أضيَّع في الأمور وأهملها، ولا حتى أدعك وغيرك من أهله تعرفونه وتفضحونه وتخرجون إلى ما خرجت إليه من التبذل والشهرة وهتك الحرمة إلى الديارات والحانات، وفي تأديبك صيانة للخلافة وردع لك ولغيرك عن هذه الفضيحة. ثم أمر بعماريات كانت معه فأركب فيها مع حُرمه وردَّ إلى داره. فبلغ ذلك المعتصم فكتب إليه يصوب رأيه وفعله ويأمره ألا يرخص لأحد من أهل بيته في مثله
وأم أبي علي هذا تعرف (بشَكل). وكان الرشيد قد اشتراها وصاحبة لها تعرف (بشذر) في يوم واحد. فحملت شذر وولدت (أم ابنها)؛ فحسدها (شكل) وبلغ بها الحسد إلى أمر عظيم من العداوة حتى اشتهر ذلك. وحملت (شكل) وولدت أبا علي. وماتت أماهما؛ وبقيت العداوة بين أبي علي وأم ابنها، حتى بلغ الأمر إلى أن تهاجيا بالأشعار، وشاع أمرهما في جميع آل الرشيد. فلما قتل الأمين وورد المأمون إلى بغداد جلس يوماً وعمه إبراهيم بن المهدي وأبو إسحاق أخوه والعباس ابنه، وتذاكروا العداوة التي بين هذين، فقال: لقد سمعت بخبر عداوتهما بخراسان ولقد هممت أن أصلح بينهما. ووجّه فأحضر أم ابنها وأقبل يعاتبها وهي مطرقة لا تردّ جواباً. ثم أمر بإحضار أبي علي، فلما رأته أم ابنها تنقَّبتْ وسترتْ وجهها. فقال المأمون: كنت مُسفرة فلما حضر أخوك

تنقبت؟ قالت: والله يا أمير المؤمنين لسفوري بين يدي عبد الله بن طاهر وعلي بن هشام، أوجب من سفوري لأبي علي، فوالله ما هو لي بأخ ولا للرشيد بابن، وقد قال الله عز وجل: (الذين أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف). قال ابن عباس: (آمنهم من البرص والجذام). . . وهو والله أبرص، ما هو إلا ابن فلان الفراش. . .! فأمر المأمون أخاه أبا إسحاق فجلدها حداً. فقالت: (سوءة يا أمير المؤمنين أن تحد أختك لابن الفراش وسننت على بنات الخلفاء الحد، فوالله لقد ظننت أن أمره يستتر. فأما الآن فوالله لتتناقله الرواة وليتحدثن به إلى أن تقوم الساعة. ونهضت فقال المأمون: قاتلها الله. . . فلو كانت رجلاً لكانت أقعد بالخلافة من كثير من الخلفاء. . . وقلد أبا علي الصلاة على جنائز أولاد الخلفاء ليدرأ عنه العيب

(لهذا الفصل بقايا)

(دمشق)

صلاح الدين المنجد

عرابي الفلاح

حديث شيخ معمر من قرية عرابي باشا

للأستاذ محمود الشرقاوي

سيبقى اسم عرابي باقياً مذكوراً في التاريخ المصري الحديث ما بقى في مصر شعور بالقومية المصرية. وستظل الحركة العرابية أو (هوجة عرابي) باقية مذكورة في ضمير الشعب المصري حية على لسان أفراده وفي قلوبهم حتى تتمكن لمصر الحياة الحرة وحتى تتمكن للشعب المصري (الفلاح) السيادة التي جاهد عرابي لها ولقي في سبيلها ما لقي وما يلقي المجاهدون الأحرار

ومهما تكن نتائج الثورة العرابية. ومهما يكتب المؤرخون عن أخطائها فستظل ويظل اسم عرابي معها مذكوراً في ضمير الأمة المصرية كأول حركة قومية خالصة، وأول (تنبَّه) للشعور بالقومية المصرية في العصر الحديث، وأول هبة لتحقيق السيادة المصرية للدم المصري.

وقد عرف الكاتبون وكتب المؤرخون البحوث والتحقيقات عن عرابي البطل وعن ثورته. ولكني عرفت بمصادفة موفقة حديثاً عن العظمة النفسية التي كان يتميز بها عرابي؛ وعن الشعور الراسخ بالعزة الذاتية التي كان يحسها لمجرد أنه مصري وفلاح.

وقد بلغ شخص عرابي من الرفعة والمجد ما بلغ، وارتفع اسمه وعلا إلى حيث ارتفع، ولكن هذا كله لا يغير من نفسه ولا من شعوره بالفخار أنه مصري وفلاح، وبيننا إلى اليوم من لم يبلغ شيئاً ولا ارتفع اسمه شيئاً ولكنه يعلو بنفسه أن يكون فلاحاً وهو من طينه ومن ترابه.

بل لقد جعل عرابي نسب فخره أنه فلاح تحدّر من أصلاب فلاح ونشأ مثلهم ومعهم بين الماء والطين.

وحديث هذه الواقعة هو ما سأكتبه لقراء (الرسالة) كما سمعته.

منذ أيام عشرة قبض الله إليه شيخاً معمراً في قرية (هرّية رزْنة) قرية عرابي باشا في جوار الزقاريق وقد جاوز المائة.

وهذا الشيخ المعمر هو الشيخ علي نجم معلم القرية، وكان فيها صاحب (كتّاب) تعلم فيه

وحفظ القرآن أبناء هذه القرية وما جاورها جيلاً بعد جيل، وكان أبوه من قبله معلماً صاحب (كتّاب).

وقد قدر لي أن أجلس إلى هذا الشيخ المعمَّر قبل أن يقبضه الله إليه، وأن يحدثني عن نبْت قريتهم عرابي وأنه كان يتعلم القراءة وحفظ القرآن في كتاب أبيه، وكان (عرابي) يصغره سناً وإدراكاً ويتخلف عنه في الحفظ. فكان الشيخ محدثي - رحمه الله -. (عريفاً) عليه كما يقولون في لغة كتاب القرية.

وبقيت العلائق بين (العريف) المعلم الشيخ علي نجم وبين أحمد عرابي حتى انتهى لما بلغ من مجد ومن مكان، وكان من خاتمة الثورة العرابية ما عرفنا ونقل عرابي باشا إلى جزيرة سيلان ثم أعيد بعد عشرين سنة فيها.

قال الشيخ المعمر يرحمه الله:

وقصدت ومعي زميل من شيوخ القرية نهبط مصر لنرى عرابي باشا بعد رجوعه من

المنفى، وكان يوم جمعة وحلَّ علينا وقت صلاتها قريباً من عابدين، فدخلنا مسجداً نصلي فإذا بنا ونحن خروج ننتعل أحذيتنا على باب المسجد نرى عربة تقف أمامه وقد صعد إليها رجل كبير ضخم عرفته، فقلت لصاحبي الشيخ: أليس هذا عرابي باشا؟ لقد تغير كثيراً، وكأنه لم يعد يُبصر. فقال صاحبي بعد صمت: ألا ترى من الخير لنا أن نعود وألا نذهب إلى بيت عرابي، فإني لا أستطيع أن أراه هكذا في ختام أيامه كسيراً مخذولاً مهيضاً.

وهل تظن أنه يعرفنا بعد كل هذه السنين وهذه الأحداث وهذه الغربة؟ وإننا نخجل أنفسنا حين نعرض عليه أو يستأذن لنا منه فلا يذكر أشخاصنا بأسمائنا. فهلم بنا نعود.

قال محدثي ولكني عارضت صاحبي وشجعته وقلت له لقد جئنا إلى القاهرة لنزور عرابي ولا بد إن شاء الله أن نزوره. وقصدنا إلى بيته وفي شارع خيرت بعد صلاة الجمعة بساعات.

فلما قدمنا منزل عرابي باشا استقبلنا على بابه بعض الخدم والعبيد واستقبلنا واحد من أبنائه وهو لا يعرفنا. فلما عرفناه أنفسنا قال إن الباشا ليس في البيت وترك لنا أن نجلس أمام البيت على (دكة) البواب حتى يعود فيستأذن لنا عليه الخدم، فجلسنا وقد نظر إليَّ صاحبي كأنما يذكرني ما قال ونحن نترك المسجد وقد رأينا عرابياً وهم بنا صاحبي أن نعود.

ونحن وقوف على هذه الحال إلى حائط البيت انتهت إلى البيت عربة عرابي ونزل منها أمامنا يتمهَّل ووقع بصره علينا، وبعد دقيقة أو دقيقتين وقد همت بالتقدم للسلام عليه ناداني: ألست أنت (عريفي) الشيخ علي نجم؟

وسألني وصاحبي فقصصت عليه كيف جئنا وما قال لنا خدمه وابنه؛ وكنا دخلنا معه وقربنا إلى حيث يجلس يستقبل؛ فلما سمع منا تغير لونه ووقف ووقفنا؛ ثم رجع إلى أول الحديقة ونادى ابنه الذي استقبلنا وطلب معه من في البيت من اخوته ثم وقف وهم جميعاً أمامه، فحدثهم باللغة التركية حديثاً طويلاً كان فيه ظاهر الغضب. وقد وقفوا جميعاً أمامه صفاً واحداً رؤوسهم على صدورهم مشتبكة أيديهم كأنهم في صلاة؛ ثم قال ختام كلامه باللغة العربية، وقد فهمنا منه غضبته وما حدث أبناءه - وخدمه واقفون - باللغة التركية؛ وكان ختام عرابي باشا حديث أبنائه كأني أسمعه الآن يقول مشيراً إليَّ وإلى صاحبي:

هذا زميلي في الكتَّاب، وهذا عريفي جلست إليه يسمع مني القرآن فهو معلمي؛ وأنا فلاح ابن فلاح تحدرت من أصلابهم وأنا بهم فخور، فخور بأني نشأت ولعبت في الماء والطين معهم؛ وأنا عرابي باشا، ولكني فلاح ومن قرية (هرّية)، وهؤلاء الفلاحون هم أهلي وعشيرتي ومنهم دمي، فمن جاء منهم إلي لا يجلس بالباب.

ثم أولاده فانصرفوا وهم سكوت: فدخلنا فجلس معنا ساعات يحدثنا عن صبانا وأيام الطفولة ويسألنا عن رفقاء الكتاب. وأراد أن يستبقينا ليلتنا فشكرنا واعتذرنا. ولم يتركنا عرابي باشا حتى خرج معنا خطوات من حجرته واستحلفنا أن نعود إليه وأن يرانا.

قال محدثي الشيخ المعمر: ولم يشأ الله أن نزوره ولا أن نراه. ولكننا نحبه كما كان يحبنا.

قلت يرحمك الله أيها الشيخ كما يرحم الله عرابياً البطل الفلاح.

محمود الشرقاوي.

اللورد روبرت بادن باول
الكشاف الأعظم العالمي
للأديب خميس زهران
(بقية ما نشر في العدد الماضي)

انطلق بادن باول ومعه زميله إدوارد سيسل لتنفيذ التدابير التي ارتأياها. فوضع كل المتدربين في خط القتال وأخذ يجمع الأحداث الذين تتراوح أعمارهم بين 12، 16 سنة منهم فرقة ألبسها الزي العسكري وعهد إليهم ببعض الأعمال مثل نقل البريد والمؤونة والإشارات وحراسة المخازن وغير ذلك من الأعمال التي تحتاج إلى نشاط أكثر من احتياجاتها إلى تمرين (لقد كانوا فتياناً لا يسددون الرماية، ولكنهم كانوا يركضون حولنا كالأرانب). وشرع هو ورجاله في حفر الخنادق حول المدينة لتكون بمأمن من الأعداء.

كان لكل رجل قيمة وبما أن عددهم أخذ في النقصان شيئاً فشيئاً بسبب سقوط) القتلى والجرحى، أصبحت واجبات القتال والمراقبة ليلاً أصعب من الباقين. ثم أن اللورد إدوارد سيسل رئيس أركان الحرب جمع الأولاد في المكان وجعل منهم فرقة تلامذة حربيين وألبسهم وشرع في تدريبهم وأصبحوا بعد حين جماعة لبقية منظمين، وكنا حتى ذلك الحين نستعين بعدد وافر من الرجال لحمل الأوامر والرسائل والمراقبة وأمثال ذلك. فأضحت هذه الواجبات الآن على التلامذة الحربيين وذهب الرجال لتدعيم خط النار.

ولقد أدى هؤلاء الأولاد تحت رئاسة (جودبير) أعظم خدمة واستحقوا الأوسمة التي نالوها عند نهاية الحرب. كان معظم هؤلاء يحسن ركوب الدراجة، لذلك تمكنا من تأسيس بريد، استطاع الناس بواسطته إرسال الخطابات إلى رفاقهم الموجودين في مختلف القلاع أو حول المدينة دون أن يعرضوا أنفسهم لخط النار. وجعلنا لهذه الرسائل طوابع بريد رسم عليها صورة تلميذ حربي يركب دراجة.

قلت لأحد الأولاد مرة عندما جاء تحت وابل من النيران: ستصاب يوماً وأنت تركب على هذه الصورة والشرر يتطاير من كل صوب. فأجاب: سيدي إنني أنطلق سريعاً بالدراجة ولن يستطيعوا الوصول إليَّ.

يظهر أن هؤلاء الأولاد لم يفكروا في القذائف قط كانوا دائماً على استعداد لتنفيذ الأوامر مع أن الخطر كان منهم على قاب قوسين أو أدنى. وهكذا صارت المدينة في حركة ونشاط متواصلين وقد سرت في نفوس الجميع روح الثقة والأمل.

فإن نعجب فلنعجب لهذا الساحر كيف أوتي هذه الجاذبية المدهشة التي سرعان ما أحالت الحامية خلفاً جديداً وأشاعت في جنودها النشاط والرغبة في العمل.

وحدث في تلك الأثناء حادث طريف يدل على ذكائه الفطري فقد نصب أعلاماً سوداء حول المراعي الخضراء موهماً العدو أنها ملأا بالمفرقعات والألغام لكي يتقي شر الإغارة عليها ولتبقى سليمة ترعى فيها إبله وماشيته وهما قوام حياة جيشه المحاصر. فلما رأى جنود العدو هذه الأعلام ساروا في طريقهم ولم يصوبوا أفواه بنادقهم ولا قذائفهم صوب هذه المراعي خشية انفجار المفرقعات المهلكة والتي ظنوها شراكاً منصوبة لهم. ومما ساعد على نجاح خدعته هذه أن حدث أن الأعداء أطلقوا أعيرتهم النارية على إحدى عربات السكك الحديدية ظانين أن بها بعض رجال الحامية الإنجليزية ولم يكن بها إلا مفرقعات حقيقية فما لبثت أن تطايرت الشظايا والمفرقعات فأصابت المئات منهم. وهكذا سنحت الفرصة لرجال الحامية الذين هجموا على الأعداء فأدخلوا الذعر في قلوبهم وجعلوهم يلوذون بالفرار

تلك واقعة واحدة سقناها للتدليل على شجاعة بادن باول في تلك الحرب التي استمر لظاها مدة 280 يوماً وانتهت بأن طلب قائد الجيش البويري الصلح حقناً للدماء معترفاً بما أبدته تلك الحامية الضئيلة العدد من البسالة الفائقة والمقدرة النادرة

ولنترك الآن روبرت نفسه يصف الحالة أثناء الحصار بتلك الجمل التي خاطب بها رجال حاميته مفكنج بعد أن فك الحصار عنها ومودعاً لهم (لقد كان مثلنا إبان ذلك الحصار كمثل أسرة سعيدة واحدة، والآن جاء وقت الفراق. إني أذكر أني قلت لكم يوم أن حوصرنا وتقطعت بنا الأسباب: اربضوا ربضة الأسود. صوبوا إلى المرمى بنادقكم. ولقد قمتم بذلك خير قيام فكانت النتيجة ما ترون. ولقد أثنوا على شخصي الضعيف، ولهجت الألسن بذكري والثناء عليّ الثناء كله وفاتهم أنه من السهل أن يكون المرء ربان سفينة ونسوا الحامية التي هي شراع السفينة مفكنج التي أخرجتها من العواصف القاصفة والزعازع

(المتلفة وأوصلتها إلى الميناء بسلام

كل هذا حدث بفضل بادن باول الذي كان الناس يشكون في نجاحه في هذا الحصار ولكنه بجده ونشاطه ومثابرته على العمل وإيمانه بقدرته على النصر تمكن من التغلب على الصعاب التي اعترضته وفاز بنصر مبين رفعه إلى أوج المجد والشهرة

حياة بادن باول الملأ بالمجازفات والأخطار وما شاهده من بطولة الصغار في ظروف عدة وما لديهم من قوى كامنة تدفعهم لاختراق النيران بغية القيام بالواجب، وجعل الجنود بمعرفة الاتجاهات واستعمال الفؤوس في الغابات، وجهلهم أيضاً إيقاد نار في يوم اشتدت فيه الرياح أو هطلت فيه الأمطار: كل هذه أوحت إليه المبدأ الذي نسير

عليه
فلما وضعت حرب البوير أوزارها إلى السير روبرت بادن باول على نفسه أن ينشر نظام الفتية الصغار بطريقة أوسع وأنظم في بريطانيا العظمى إذا ما ألقى عصاه بها. ولما رجع إلى وطنه لم يأل جهداً في تنفيذ فكرته فأقام معسكراً تدريبياً في جزيرة صغيرة تسمى برونس ونجح نجاحاً جاوز الآمال فيه. شجع نجاح ذلك المعسكر السير روبرت بادن باول على المضي قُدُماً فجاهر بفكرته وأعلنها للملأ؛ فندَّد بها الاستعماريون لما فيها من إخاء عالمي ولما تحويه من إزالة للفوارق الصناعية بين الإنسان وأخيه الإنسان؛ وازدراها الاشتراكيون لأنهم توهموها عسكرية مقنعة ليس فيها لخير الإنسانية من شيء، وسخر كثير من زيها ورأوا فيه خروجاً عن اللياقة وضرباً من التصابي، فصمد لهم جميعاً وصابرهم إلى أن أصدر كتابه في ربيع سنة 1908 وقد وجه فيه الخطاب للفتيان أنفسهم فأقبلوا عليه إقبالاً عظيماً والتهموا ما فيه التهاماً، وانخرطوا في سلك الحركة مؤمنين بمبادئها مصدقين بتعاليمها
وفي عام 1910 أسست الكشافة ليتعلم فيها معتنقوها الصبر واحتمال المكاره والاستمساك بالعقيدة والاستهانة بكل شيء في الحياة عداها، ويلقنهم البساطة والحياة الطبيعية لتطهر نفوسهم من الأطماع ولتخلص من الدسائس والهواجس فيجتمع لكل أبنائها إرادة قوية وعزم من حديد، فإذا اجتمع للإنسان الإرادة وطهرت نفسه وقوى إيمانه بفكرته فمن ذا الذي يستطيع أن يقف في طريقه؟
وعاش الكشافون عيشة التقشف: ألم يعش الخلفاء الراشدون عيشة الفقر وأملاك دولتهم تمتد
وتتسع، ورقعة إمبراطوريتهم تعظم وتترامى؟ ألم يكن رداء عمر (مرقعة) ذهب أصلها وبقيت رقعها وجيوش المسلمين تهد إمبراطورية الروم؟ ألم يرسم محمد صلى الله عليه وسلم للقادة والزعماء وأصحاب الرسالات والمبادئ والعقائد دستوراً جليلاً حكيما حين قال: (طوبى لمن أنفق مالاً اكتسبه من غير معصية، وجالس أهل الفقه والحكمة، وخالط أهل الذل والمسكنة. اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً وأدخلني في زمرة المساكين). اتخذ بادن باول لجماعته زيًّا خاصاً خاكي اللون رخيص الثمن بسيط المظهر؛ وشجعهم على عقد الاجتماعات والقيام بالرحلات والمخيمات، وعلمهم الاقتصاد في معيشتهم، وعودهم إلى الأخوة في مأكلهم ومشربهم، والمحبة في معاملاتهم والإخلاص في صداقتهم، ومنعهم عن التدخين وشرب الخمور، وحرم عليهم الفسق والفجور، ليحفظ لهم صحة أجسادهم وقوة أبدانهم وسلامة عقولهم وبارز شخصياتهم ووافر كرامتهم. لم يكن وقت التمرين قاصراً على التربية البدنية، بل تعداها إلى التربية الروحية؛ فأقام المخيمات التدريبية لبث الروح العسكرية فيهم، وألقى المحاضرات التاريخية ليزيدهم تعلقاً بكل ما هو قومي، ومحبة لكل ما هو وطني، وأذكى فيهم شعلة الحماس بالأغاني القومية والأناشيد الوطنية. ويعزي السبب في انتشار الكشافة إلى إيمان بادن باول وعقيدته في صحة ما يدعو إليه. ولا غرو، فإن أصحاب المذاهب والمبادئ الاجتماعية الكبرى التي أثرت في تاريخ العالم وغيرت مجراه لم يتمكنوا من جذب النفوس إلى مبادئها إلا بعد أن ثملوا بخمرتها، وبذلك أمكنهم توليد تلك القوة العظيمة الأثر في النفوس، ألا وهي الإيمان، وهي التي تجعل المرء عبداً لمذاهبه.
وقد تزوج اللورد روبرت بادن باول في أكتوبر سنة 1913 بمس أوليف ورزق منها ولداً وإبنتين، وانتخب كشافاً أعظم للعالم في أول معسكر دولي أقيم في إنجلترا سنة 1920، ولقد أنعم عليه صاحب الجلالة ملك بريطانيا العظمى جورج الخامس عام 1930 بلقب لورد جزاء وفاقاً على قام ما به من عمل جليل. وكرمته جامعة ليفربول ومنحته لقب دكتور في القانون ولقد جمع اللورد بادن باول خريجي معهد جلويل بارك المخصص لتدريب معلمي الكشافة على فنونها المختلفة نظرياً وعملياً، وهو قصر فخم وسط ضيعة كبيرة في مقاطعة اسكس بالقرب من لندن وسألهم أن ينتخبوا اسمه الجديد الذي يضاف عادة بعد
اللوردية فأجمعوا على جلويل فاغتبط به وأظهر ارتياحه
فبادن باول رجل خليق أن يعلم عنه شيئاً وأن يشغل حيزاً في ذاكرة كل فرد منا ومكانة في نفس كل واحد؛ ولا غرو إذا تقدمنا لقراء الرسالة بسيرة هذا البطل إعجاباً

بهذا الطراز الجديد من الرجال وهم الذين لم يشهدوا في عصرنا غير رجال مزيفين من الحواشي. رجال أو أشباه رجال ولا رجال ممن لم يحذقوا غير التخنث والأناقة ولم يبرعوا في غير الخبث والمكر ومضغ الكلام وتزجيج الحواجب! أو بالاختصار رجال من أولئك الذين تلقى بهم المصادفة في طريق العظماء وتأتي بهم الظروف إلى مجالس الأمراء وأهل الخطر والشأو البعيد. وما أوسع المسافة بين أمثال هؤلاء وبين هذا الرجل النبيل العزيز الجانب الذي تعبق منه روائح المعسكر والخيام كما يعبق منه أريج المخدع والصالون! رجل وأي رجل!

من كان يدور بخلده أن صبي فرنسا وصبي استراليا وصبي مصر وصبي أمريكا يتلاقون في مكان واحد: لا يفرقهم جنس ولا تنفرهم ديانة ولا تبعدهم لغة أو سياسة؟ ومن كان يتوهم ولو على سبيل التفكهة أو المداعبة أن ابن مصر الشرقي الناطق بالضاد تأخذه العصبية الكشفية فينهض إلى منافسة ابن التاميز الغربي في اعتناق مذهب التربية الحديث

إنها آية للكشف وإنها معجزة بادن باول أن يأتلف الشباب حول المبادئ الكشفية، وإن شئت فقل إنها مبادئ الشباب الحديث الذي يريد أن يرث الأرض جميعاً لا فرق عنده بين وطن وغربة

إن شئت فقل عنها إنها آداب المعاشرة وآداب المؤاكلة وآداب العائلة وآداب الإنسانية وآداب المجتمع الراقي وآداب الحياة الصحيحة الخالية من شوائب السعادة. فما أعذبها مبادئ لو أن السياسة تتركها وشأنها في الدنيا دون أن تعكر لها صفو أو تكدر لها مجتمعاً

إنما هي في الواقع توحيد لنظم التربية وعامل قوي لإزالة الفوارق، لكن أنى للكشف وغير الكشف أن يزيل الفوارق وفي الدنيا من جنود الشيطان أضعاف أضعاف بني الإنسان

رحمك الله يا جبار الكشف وأنعم بك من مرب حطم القيود وزحزح العقبات من طريق مبادئه الصحيحة!

هاهي ذي الفقرة الأخيرة من رسالته التي أذاعها لأبنائه كشافي العالم من روديسيا: (لقد

عشت جندياً ثم كشافاً، أما المرحلة الثالثة من حياتي فتتوقف على ما يريده لي الأطباء) ذلكم هو المرحوم الدكتور روبرت بادن باول ولورد جلويل وملك قلب كل كشاف، فرحمه الله رحمة واسعة

خميس زهران

زعيم جوالة بإسكندرية

من وراء المنظار

محمد أفندي. . .!

قيل وما أكثر ما قيل إن قلة الذوق في مجتمعاتنا مردها في الغالب إلى خلوها من المرأة؛ وإلى هذا أشار صاحب الرسالة في أكثر من مناسبة، وعنده أن الشباب إذا ازدانت مجتمعاتهم بالأوانس شدوا الشكيمة وكبحوا جماحهم وحرص كل امرئ منهم على أن يظهر على خير ما يحب من دماثة الخلق ورقة الحاشية ولطف الحديث

ولكن منظاري قاتله الله بل عافاه الله وصرف عنه كل غشاوة يأبى إلا أن يكشف لي عن موقف لا تتحقق فيه هذه الفكرة بل لقد نقضت فيه من أصولها وجاء الأمر على عكس ما تفاءل المتفائلون وتمنى الكاتبون

كنت مسافراً إلى الريف الحبيب في قطار فالتقيت في ممر من ممراته بثلاثة من الشبان تقاربت أعمارهم، وكان كل منهم بادي العافية حسن البزة متهلل القسمات؛ ونادى أحدهم رابعاً لهم كان في اتجاهي يسبقني بخطوات فقال له: أمامك في هذه العربة قبل الآخر بديوان تجد محمد أفندي إلى جانب الشباك الأيمن وقد حجزنا أمكنة فانتظرنا هناك

ودخل (رابعهم) هذا الديوان المشار إليه وأحسست كأني أنجذب إلى هذا الديوان نفسه فدخلت واتخذت مكاني، ولكني لم أجد إلى جانب الشباك الأيمن غير آنسة أجنبية لم تقع عيني في نهاري كله على أجمل منها صورة وأملح منها محيا، وبدت لي في منتصف العقد الثالث من عمرها كالوردة في زمن الورد بلغت أقصى تفتحها

ومنتهى ريعانها
وكانت متجهة ببصرها إلى النافذة، لا تلتفت إلا ريثما ترمق الداخل، ثم تعود فتتجه اتجاهها الأول، وكان على محياها الجميل ما يشبه الهم من فرط سكونها واحتشامها وتحرك القطار وجاء الشبان الثلاثة وجلسوا في ضوضاء بعد أن نظر كل منهم إلى هيئته في المرآة، فأصلح ما تشعث منها، وتشاغلت عنهم بكتاب في يدي، ولكن منظاري لم يغفل عنهم، فرأيتهم يتخاطبون بالإحداق لحظة، وعلى فم كل منهم ابتسامة خبيثة، وكلهم يومئ لصاحبه برأسه نحو النافذة اليمنى
وقطع أحدهم فترة هذه الإشارات اللاسلكية بقوله: (محمد أفندي تقلان علينا يعني قوي)؛ وضحك الآخرون ضحكات ماجنة مائعة. . . وفطنت أن محمد أفندي لم يكن غير تلك
الآنسة التي تتجه بنظرها إلى الفضاء الممتد خارج القطار!
وأيقن أربعتهم أنها لا تعرف العربية. فانطلقت ألسنتهم بألوان من القحة، عجبت ولن أزال في عجب، أن لم يبد على وجه أحدهم أي قدر من الخجل لتلك الألفاظ التي أخجل الآن لمجرد أن أتذكرها! ثم ذهب كل منهم يتظرف بما وسعته سماجته، فهذا يأتي بضروب من النكات لا يسيغها إلا ذوقه وذوق أصحابه، وذلك يداعب خاتمه الماسي وساعته الذهبية، وآخر يخرج حافظة نقوده فيقلب الأوراق المالية ثم يردها إلى جيبه، هذا فضلاً عما تنافسوا في سرده من المغامرات التي صرف فيها ما صرف من الأموال وكلها بالضرورة من نسج الخيال - كل أولئك و (محمد أفندي) في شغل عن ظرفهم ولطف حديثهم بالنظر إلى فضاء الأرض
ولما أفرغوا ما في جعبتهم من بارد النكات وسخيف الحكايات انتظرت أن يتطرق إليهم اليأس أو يمسهم شيء من برودة الموقف فيخجلون؛ ولكنهم انتقلوا إلى ما هو أدهى وأمر مما كانوا فيه فراحوا يصفون في طريقة بهيمية جمال تلك الآنسة التي لم يبد على قسماتها إلا ما يبدو على قسمات تمثال من التماثيل من الثبات على حال واحدة، ثم شاءت لهم دماثتهم أن يجعلوها موضعاً لنكاتهم فهي ابنة بائع إسفنج في الريف أو هي لا تكلف أكثر من نصف ريال يدفع لحزيمي إلى غير ذلك مما أمسك القلم عن ذكره من عبارات هؤلاء الظرفاء المهذبين!
ودنا القطار أخيراً من إحدى المدن فنهضت الفتاة لتنزل ومدت يدها إلى الرف لتأخذ حقيبة فتقدم أحد هؤلاء الظرفاء وأنزلها لها فتناولتها وهي تقول له في عبارة فصيحة: (أشكرك جداً يا أفندي) ثم خرجت من الديوان
ونظرت إلى وجوههم وحمرة الخجل تلهب وجنتي، وأشهد لقد شاعت تلك الوجوه الصفيقة شيء من هذه الحمرة ولكن لعل ذلك مرجعه إلى وجودي، ولعلهم لو كانوا وحدهم لأجابوها بضحكة من ضحكاتهم أو بنكتة من ظريف نكاتهم.
الخفيف
رسالة الشعر
نَهْرُ النّسْيان. . .!
(إلى الذين هموا بالرحيل ولم يعرفوا إلى أين. . .!)
للأستاذ محمود حسن إسماعيل
اِسْقِيَانِي مِنْ خَمْرَةِ النِّسْيَانِ ... وَانْسَيَانِي فَقَدْ نَسِيتَ زَمَانِي!
وَنَسِيتُ الشَّبَابَ وَالسِّحْرَ وَالأَحْ ... لاَمَ وَالْفَنَّ وَالرُّؤَى وَالأَغَانِي
وَنَسِيتُ الْمُنَى وَكَانَتْ شُعَاعًا ... بَاهتَ الظِّلِّ حَائِرًا في جَنَانِي
وَنَسِيتُ الأَسَى وَكَانَ رِيَاحًا ... أَرْجَتِ الْجِنُّ خَطْوَهَا في كِيَانِي
وَنَسِيتُ الأَيَّامَ حَتَّى تَلاَشَتْ ... كَهَشِيمٍ عَلَى تُرَابِ الزَّمَانِ
وَنَسِيتُ الأَنْغَامَ رَعَّاشَةَ الشَّدْ ... وِ حَيَّارَى حَزِينَةَ الْعِيدَانِ
وَنَسِيتُ الدُّمُوعَ وَهْيَ أَغَانٍ ... أَحْرَسَتْهَا زَوَابِعُ الأَحْزَانِ
غرِدَاتُ السُّكُونِ مَخْنُوقَةُ اللَّحْ ... نِ تَشَاجَتْ بِسِحْرِهَا أَجْفَانِي!
وَنَسيتُ الْجَمَالَ حَتَّى كَأَنِّي ... لَمْ أُضمَّخْ بِنُورِهِ أَلْحَانِي
فَنَسِيتُ الْعَبِيرَ وَالزَّهْرُ يُذْكِي ... هِ بِفَجْرِ الطَّبِيعَةِ النَّعْسَانِ
وَنَسِيتُ النَّدّى وَقَدْ كَانَ خَمْراً ... لِبَنِي الطَّيْرِ لَمْ تُرَقْ في دِنَانِ
وَنَسِيتُ الأَنْسَامَ تَنْقُلُ قي الْمَرْ ... جِ صَلاَةَ الطُّيُورِ لِلْغُدْرَانِ

وَنَسِيتُ النُّجُومَ وَهْيَ عَلَى الأُفْ ... قِ نَشِيدٌ مُبَعْثَرُ الأَوْزَانِ
وَنَسِيتُ الرَّبِيعَ وَهْوَ نَدِيمُ الشِّ - عْرِ وَالطَّيْرِ وَالْهوَى وَالأَمَانِي
وَنَسِيتُ الْخَرِيفَ وَهْوَ صِباً مَا ... تَ فَسَجَّتْهُ شَيْبَةُ الأَغْصَانِ
وَنَسِيتُ الظَّلاَمَ وَهْوَ أَسَى الأَرْ ... ضِ وَتَابُوتُ شَجْوِهَا الْحَيْرَانِ
وَنَسِيتُ الأَكْوَاخَ وَهْيَ قُلُوبٌ ... دَامِيَاتٌ تَلَفَّعَتْ بِالدُّخَانِ
وَنَسِيتُ الْقُصُورَ وَهْيَ قبُورٌ ... صَاحِكَاتُ الْبِلَى مِنَ الْبُهْتَانِ
وَنَسِيتُ النَّعِيمَ وَالْبُؤْسَ مَاذَا ... تَرَكَا لِي مِنْ شَفْوَةٍ أو أَمَانِ؟
وَنَسِيتُ السَّلاَمَ وَالْحَرْبَ سِيَّا ... نِ شَذَا النَّورِ أو لَظَى الْبُرْكَانِ
وَنَسِيتُ الْهُدُوءَ وَالضَّجَّةَ الْهَوْ ... جَاءَ سِيَّانِ سَكْتَتِي أو بَيَانِي
وَنَسِيتُ الْفَنَاءَ وَهْوَ بِجِسْمِي ... هَادِمٌ يَرْصُدُ الْفَنَاءَ لِبَانِي!
وَنَسِيتُ الكَلاَمَ مَاذَا جَنَي المُصْ ... غِي إليه سِوَى بِغَاءِ اللِّسَانِ؟
وَنَسِيتُ النِّسْيَانَ وَالذِّكْرَ حَتَّى ... صِرْتُ وَهْماً فِي خَاطِرِ النِّسْيَانِ!
وَنَسِيتُ السُّكُونَ وَهْوُ عَزِيفٌ ... أَبَدِيُّ الصَّدَى أَشَلُّ الْمَثَانِي
وَتَجَرَّدْتُ مِنْ زَمَانِي وَكَوْنِي ... لِزَمَانٍ مُحَجَّبٍ عَنْ عِيَانِي
وَنَسِيتُ الْجِنَّ خَطْوَهُ عَنْ ثَرَاهَا ... تَ عَلَيْهَا صَوَامِعُ الرُّهْبَانِ
وَنَسِيتُ الدَّهْرَ لَيْلَهَا فَهْيَ دَهْرٌ ... مَا رَأَتْهُ سَرِيرَةُ الأَكْوَانِ
وَإِذَا بِي فِي قَفْرَةٍ أَلْقَتِ الصَّمْ ... تَ عَلَيْهَا صَوَامِعُ الرُّهْبَانِ
خَاصَمَ الدَّهْرُ لَيْلَهَا فَهْيَ دَهْرٌ ... مَا رَأَتْهُ سَرِيرَةُ الأَكْوَانِ
وَلَوَى الْجِنُّ خَطْوَهُ عَنْ ثَرَاهَا ... فَهْيَ حَتْفٌ لِكلِّ إِنْسٍ وَجَانِ
لاَ ظَلاَمٌ، وَلا ضِيَاءٌ، وَلَكِنْ ... هَمْهَمَاتٌ يَلْغَطْنَ فِي وِجْدَانِي
جُبْتُ فِيهَا حَيْرَانَ أَقذِفُ نَفْسِي ... فِي خِضَمٍّ مُغَيَّبِ الشُّطْآنِ
وَإِذَا أَشْيَبُ يُغَمْغِمُ كالْمَجْ ... نُونِ بَيْنَ السُّهُولِ وَالوِدْيانِ
شَعْوَذَتْهُ السَّمَاءُ فَهْوَ خَيَالٌ ... يتَرَبَّا بِصُورَةِ الإنسانِ
آدمِيُّ الرُّوَاءِ أَذْهَلَهُ الوَهْ ... مُ وَغَشَّتْهُ هَبْلَةُ الْحَيَوَانِ
نَقَشَ الْعَنْكَبُوتُ فَوْقَ مُحَيَّا ... هُ ظِلاَلاً مِنْ صُفْرَةِ الأَكْفَانِ
مُقْلَتَاهُ بِئْرَانِ دَلوُهُما الظَّ ... نُّ وَغَيْبَانِ فِي الدُّجَى تَائِهَانِ!
وَيَدَاهُ لَقَامَةِ الزَّمَنِ الأَعْ ... رَجِ عُكَّازَتَانِ مَشْدُوخَتَانِ!
ضَمَّ إِحْدَاهُما وَلَوَّحَ بِالأُخْ ... رَى لِوَادٍ مُخَدَّرٍ نَعْسَانِ
فِيهِ نَهْرٌ مِنَ الدُّمُوعِ، وَجُبٌّ ... مُترَعٌ بِالأَنِينِ وَالأَشْجَانِ
وَقلوبٌ أَقَلَّهَا بَيْنَ جَنْبَيْ ... هِ سَفِينٌ يَجْرِي بِلاَ رُبَّانِ
وَإِلهَاتٌ، مُجَرَّحَاتٌ، حَزَانَى ... مَزَّقَتْهَا فَوَاجِعُ الأَزْمَانِ
بَيْنَهَا ثَاكِلٌ، وَآخَرُ شَجَّتْ ... هُ يَدٌ لِلأَسَى بَغَيْرِ سِنَانِ
وَشَقِيٌّ يَسُوقُهُ نَحْسُ دُنْيَا ... هُ إلى مَرْفَأٍ شَقِيِّ الْمَكَانِ
وَيَتِيمٌ، وَبَائِسٌ، وَغَرِيبٌ ... وَشَرِيدٌ مُقَطَّعُ الأَرسَانِ
وَمُنَادٍ دَعَا الأَمَاني فَصَدَّت ... هُ! وَعَادَتْ إليه بَعْدَ الأَوَانِ
وَحَبِيبٌ أَرْدَتْهُ فِي لَهَبِ الأَسْ ... قَامِ وَالسُّهْدِ صَرْعَةُ الْحِرْمَانِ
وَطَعِينٌ بِخِنْجَرِ الظُّلْمِ بَاكٍ ... دَفَنَتْ نَوْحَهُ يَدُ الطغْيَانِ
أَرْعَشتنِي السَّفِينُ وَاسْتَلَبَ الأَشْ ... يَبُ وَعْيِي، رَبَّاهُ مَاذَا دَهَاني؟
فَتَهَاوَيْتُ كالْهَشِيمِ عَلَى أَشْ ... لاَءِ رُوحِي الْمُفَرَّعِ الأَسيَانِ!
ثمَّ نَادَيْتُهُ فَأَمْعَنَ فِي الصَّمْ ... تِ قَليلاً وَصَاحَ بِي: مَنْ دَعَاني؟
قُلْتُ: رُوحٌ مُعَذَّبٌ! قَالَ: مِنْ أَيْ ... نَ؟ فقُلْتُ: الأَسَى إليكَ رَمَاني
عَلِّنِي أَسْتَقِي الْهُدُوءَ، وَأَلْقَى ... بَيْنَ كَفَّيْكَ رَاحَةَ السُّلوَانِ!
قَال: أَقْبِلْ فكمَ بدُنْيَاكَ صَرْعَى ... شَرِبُوا مِنْ يَدِيَ رَحِيقَ الْحَنانِ
فَتَلاَشَتْ دُمُوعُهُمْ، أَرَأَيْتَ الشَّ - كَّ يُبْلِيهِ ثورة الإيمَانِ!
واْسَتطارَتْ شُجُونهُمْ أَرأَيْتَ الطَّي - فَ تَطْوِيهِ هَبَّةُ الوَسْنَانِ!
قُلْتُ: مَنْ أَنْتَ؟ قال: رُؤْيا خَيَالٍ ... كلُّ حَيٍّ عَلَى الوُجُودِ رَآني
أَنَا مَعْنًى فِي خَاطِرِ الْغَيْبِ ذَابَتْ ... حَوْلَ أَسوَارِهِ جَمِيعُ الْمَعَانِي
أَنا كَهْفٌ مُغلَّفٌ فِي حَشَا الدَّهْ ... رِ يَشِعُّ الْفَنَاءُ مِنْ جُدْرَانِي
غَلْغَلَتْ فِي ثَرَايَ دُنْيَا الشِّقِيِّـينَ، وَلاَ ذَا الوُجُومُ فِي أَرْكَانِي
وَارْتمَتْ حَوْلِيَ الْحُظُوظُ التَّعِيسَ ... اتُ وَنَامُ الْعَذَابُ فِي أَحْضَانِي

مَدْفَنُ لِلْخُطُوبِ قلْبي، وَمَنْفًى ... أَبَدِيٌّ لِنَكْبَةِ الحَدَثَانِ!
أَنَا طِبُّ الأَيَّامِ أَشْفِي جِرَاحًا ... تِ الرّمَانِ الْمُرَرَّإِ اللَّهْفَانِ
أَنَا بَحْرُ الْهُدُوءِ مَنْ مَلَّ دُنْيَا ... هُ رَمَي عِبْأَهَا عَلَى شُطْآنى
مُنْذُ مَا دَبَّتِ الْخَلاَئِقُ حَوْلِي ... لَقَّبَتنِي السَّمَاءُ (بالنِّسْيَان)
فَنَسَيْتُ الحَيَاةَ وَالْمَوْتَ مَا أَدْ ... رِى أَحَيٌّ أَنَا هُنَا أم فَانِ؟!
مَرَّ بِي (آدَمُ) قَدِيماً فَأَوْمَأَ ... تُ إليه بِطَرْفِ هَذَا الْبَنَانِ
فَسَقَي قَلْبَهُ مِنَ النَّهْرِ كَأساً ... وَتَلاَشَى عَنْ أَعْيُنِي فِي ثَوَانِ
وَإِذا بِي أَرَاهُ يَهْتِكُ سِرَّ الْ ... خلْدِ في غَيْرِ هَدأَةٍ أو تَوَانِ
مَالَ بِالدَّوْحَةِ الَّتِي قَدَّسَ الل ... هُ جَنَاهَا فَلَمْ تَنَلْهَا يَدَانِ
وَجَنَى مِنْ ثِمَارِهَا هَذِهِ الدُّنْ ... يَا وَأَحْدَاثَ هَذِهِ الأَكْوَانِ
عَبَّ خَمْرِي فَأَذْهَلَتْهُ عَنِ الْغَيْ ... بِ وَأَقْصَتْهُ عَنْ ظِلاَلِ الْجِنَانِ!
لَيْتَهُ لَمْ يَذقْ رَحِيقِي وَلَمْ يَهْ ... رَعْ لِنَهْرِي وَلَمْ يُطَاوِعْ بَنَاني!
. .أَنَا سِرُّ الوُجُودِ مَنْ رَامَ سِرِّي ... نَسِيَ الْحَشْرُ قَلْبَهُ في جَنَاني
قلتُ: يَا حَادِيَ الْخَطَايَا لِقَبْرٍ ... مَرَدَتْ رُكْنَهُ يَدُ الْغُفْرَانِ!
يَا هَوَايَ الَّذِي تَهَافَتُّ بِالرُّو ... حِ عَلَيْهِ وَبِالْحِجَا وَاللِّسَانِ
أَيْنَمَا سِرْتُ جَرَّ طَيْفكِ أَحْلاَ ... مِي وَمِنْ نَهْرِكَ الْمُصَفَّى سَقَاني
مُنْذُ مَا جِئْتُ لِلثّرَى وَأَنَا صَبٌّ ... كَ فَارْحَمْ عِبَادَتي وَافْتِتَاني!
مَزَّقَتْنِي أَشْوَاكُ دُنْيَايَ وَاغْتَا ... لَتْ شَبَابي وَأَزْعَجَتْ أَلْحَاني!
الْهَوَى وَالنَّشِيدُ - بَرْعَاهُما اللَّ ... هُ - بِتِيهِ الْخُلودِ قَدْ ضَيَّعَاني!
تَرَكاني أَهِيمُ كالْعَاصِفِ الْمَش ... دُوهِ فِي كلِّ بُقْعةٍ وَمَكانِ
لاَذَ عُمْرِي بِشَاطِئَيْكَ فَدَعْنِي ... فِي ثَرَاكَ الْغَرِيبِ أَدْفِنْ زَمَاني
فَتَمَطَّى فَزَلْزَلَ الأَرْضَ تَحْتِي ... وَطَوى الصَّمْتَ فِي الفَلاَ إِذْ طَواني

محمود حسن إسماعيل

رسالة الفن

شيء فظيع

أربعة قتلى، والخامس له الله

للأستاذ عزيز أحمد فهمي

أيام العصر الذهبي لشركة ترقية التمثيل العربي، أخرجت هذه الشركة رواية عن (محمد علي الكبير). وأسرفت الشركة في الإنفاق على إخراج هذه الرواية إسرافاً كان يريد أن يناسب ذكرى ذلك الأسد الذي جاء مصر جندياً صغيراً ثم استولى عليها بأخلاقه وعقله وشخصيته، ثم نفخ فيها من هذه الأخلاق وهذا العقل وهذه الشخصية الملكية ما استطاعت مصر أن تستولي به على غيرها من جاراتها القريبات والبعيدات، حتى لقد هجمت على تركيا الشائخة بقوتها الفتية الحقة، وحتى لم تجد تركيا مفراً من أن تستنجد بإنجلترا وفرنسا، وروسيا أيضاً على ما أظن، لتقف هذه الدول مجتمعة تيار الهجمة المصرية الجارفة. . .

هذه الذكرى الجبارة، أرادت شركة ترقية التمثيل العربي أن تخلدها برواية (محمد علي الكبير) فلم تأل جهداً في إعداد العدة لها، ولقد استعانت الشركة أيامها بالسراي الملكية نفسها، فاستأذنتها في أن يطلع مندوبون منها على مخلفات محمد علي الكبير في متحف القصر، وأن يأخذوا لها صوراً ورسوماً ما أرادوا ذلك، وكان أن تم كل الاستعداد على أكمل الوجوه، وكان أن وعد المغفور له الملك الأسد المسلم فؤاد الأول بشهود التمثيل في الليلة الأولى. . .

وهنا نقف وقفة أمام طيف فؤاد الأول فقيدنا الكريم

لقد كان رحمه الله رجلاً فذاً له جلال وله رهبة. وكانت تنبعث من ذاته ملكية طبيعية تنتشر حوله كل ما اشتملته خاضع لها خضوعاً طبيعياً لا إرادة فيه، وكان فيه من الحيوية ما ينشر هذه القوة إلى أفق بعيد قد لا تستطيع شخصية أخرى أن تمد سلطانها الطبيعي إليه. وقد لحظت هذا عند ما افتتح رحمه الله الجامعة المصرية في سنة 31 أو 32 إذ أعدت الجامعة له سر داقاً هائلاً في الفضاء الذي كان خلف كلية الآداب، وأعدت له الجامعة عرشاً

نصبته على منصة عالية، فلما جلس جلالته على العرش مستمعاً إلى الخطباء، ولما وقف الجارم بك يلقي شعراً انصرفت أنا عن الشعر، وكنت بين الطلاب، إلى مشاهدة هذا الجمع والتأمل فيه، وكان أن مددت بصري إلى نهاية السرادق أو نهاياته جميعاً، فإذا بي أرى كل فرد من هذا الزحم قد ترك الشعر مثلما تركته أنا، وأسلم نفسه بحواسه جميعاً إلى هذا الملك كأنه ينتظر منه أن يلقي إليه إشارة فيسرع إلى تلبية الإشارة. . . كل فرد كان على هذه الحال، ومن يومها آمنت بأن فؤاد الأول لو لم يكن ملكاً لكان ملكاً. . .

أمام هذه الشخصية. . . من الذي يستطيع أن يمثل دور محمد علي الكبير تمثيلاً حياً، يبدأ حياً، ويستمر حياً وينتهي بانتهاء الرواية حياً لا تخلخل فيه ولا هبوط؟! . . .

لقد كانت مشكلة، ولقد حلتها شركة ترقية التمثيل العربي بأن عهدت بالدور إلى عبد العزيز خليل. . .

ووجدها عبد العزيز خليل فرصة العمر

وفي ليلة الملك هدر عبد العزيز خليل ساعتين أو ثلاث ساعات من ساعات يقظته الفكرية وهي الساعات القليلة التي تعد في حياة الفنان الإنتاجية في إعداد شكله ونفسه بالمكياج، أما شكله فقد لعب فيه بالأدهان والشعر والأصباغ، وأما نفسه فقد لعب فيها بالكبر ليكون كالرجل الكبير الذي سيمثله، وبالتقوَّى حتى يكون كالرجل القوي الذي سيعيده إلى الأنظار والأسماع والأفئدة، وبالتسلط حتى يكون كذلك السلطان محمد علي

ورفعت الستار، وبدأت الرواية ودخل محمد علي. . . محمد علي الممثل دخل إلى المسرح

ولكن حدث أن حضرة صاحب الجلالة الملك بالقوة والحق فؤاد الأول وقف احتراماً لمحمد علي. . . فوقف الشهود معه أمراء ووزراء ومن هم دون ذلك

فهل كان جلالته يقف لأي ممثل آخر. . . مهما كان الممثل! لا. وإنما جلالته وقف جزاء وتكريماً لهذا الممثل الذي أفنى نفسه واستحضر بدلاً منها نفس محمد علي، فلم يبد من نفسه شيء وإنما دخل إلى المسرح وهو محمد علي فلم يكن عجباً من حفيد محمد علي أن يقوم إجلالاً لمحمد علي هذا الذي يراه ماثلاً أمامه. . .

لقد اضطرب عبد العزيز خليل ولم يعرف كيف يتخلص من هذا الموقف المربك، فكان أن ألهمه الله الخلاص إذ أشار بيده إشارة كاملة إلى الممثلين من حوله وقال: تفضلوا يا أولادي

وانتهى التمثيل، وبلَّغت السراي إعجابها إلى الأستاذ عبد العزيز خليل، ومنحت شركة ترقية التمثيل العربي ممثلها هذا الفذ مبلغاً كبيراً من المال مكافأة له على تشريفها في عيني الملك

ودارت الأيام، وانفضت شركة التمثيل العربي. . . وإذا بعبد العزيز خليل ممثل معطل، حتى الفرقة القومية التي تضم الأساتذة: محمد علي إسماعيل، وإبراهيم محمود عبد الله، وعبد الله محمود إبراهيم، لا تريد أن تعترف بالأستاذ عبد العزيز خليل ممثلاً لماذا. . .؟

ليس هناك سبب إلا أنه ممثل عظيم، وأنه وصل إلى ما لم يصل إليه ممثل مصري؛ وهذا عند أهل التمثيل كاف جداً لأن يكون مبرراً للقتل؛ فكلما جاء ذكر عبد العزيز خليل جاءت معه الغيرة وجاءت معه النميمة، والاغتياب، والتهم الحقة والتهم الباطلة، وكل ما يمنع عنه الرزق والخبز والماء والهواء إذا أمكن. . .

فإذا ثار عبد العزيز من شدة هذا الضغط الحرام وقال كلمة نابية، أو كلمة خارجة استشهد على هذه الكلمة الشهود وحوسب عليها أشد الحساب. . . وغيره يا ما أكثر ما يقول، ويا ما أكثر ما يفعل، ولكنه مسامح ومقبول منه كل ما يقول وكل ما يفعل إذ لا خطر منه على أهل الفن كالخطر المنظور من عبد العزيز خليل والرؤساء يسمعون المداهنين المتملقين، ولا يسمعون الصادقين

وعلى هذا الأساس سيموت عبد العزيز جوعاً في مصر بعد أن مات عطشاً إلى فنه. . .

فإلى من يشكو عبد العزيز وأمثاله؟! . . .

إلى الله وإنه سميع مجيب. . . وهو الرزاق وحده، وهو المنتقم الغفار، الجبار الرحيم وعبد الحميد الديب، الشاعر الذي يهجو بالشعر الأستاذ العقاد ويأخذ منه أجر الهجاء

لماذا يعطيه الأستاذ العقاد أجراً على هجائه وهو الذي إذا عمد إلى القلم هاجياً تقصفت أمام هجائه الأقلام؟. . . لا ريب أن العقاد يشعر بحلاوة في هجاء الديب، وهذا الشعور اعتراف من العقاد بأن الديب أديب كبير وشاعر يفاجئه بمعان وأخيلة يستحسنها ويطرب لها. . . وشهادة العقاد واعترافه لهما أثرهما في حياة الكثيرين من الأدباء في مصر؛ فهناك ناس أصبحوا بين الأدباء المعدودين والشعراء الملحوظين، وما كانوا ليكونوا شيئاً مذكوراً لولا
. . .أن العقاد زكاهم بكلمة أو كلمتين
وهذا عبد الحميد الديب لا ريب أنه كان يحب من الأستاذ العقاد كلمة عن شعره وأدبه . . .ينشرها فترفعه من صفوف المغمورين الجياع إلى صفوف البارزين المرتاحين ولكن الأستاذ العقاد له من شغله ما ينسيه عبد الحميد الديب فلا يذكره إلا وقت ما . . .يراه، ووقت ما يستمع إلى هجائه، ووقت ما يدفع ثمن هذا الهجاء. . . ثم ينساه لقد ضاقت الحياة النظيفة بعبد الحميد الديب. وانجرف في تيار لا ريب أنه أول من يكرهه ويمقته، ولكن كيف سبيله إلى الحياة النظيفة وهو كلما طرق باب عمل في صحيفة طن الذباب وأزت الصراصير في آذان أصحاب العمل بأن هذا رجل فاسد وأنه كيت وكيت، كأن أولئك الذباب والصراصير من مختلسي حرفة الأدب والشعر لا فساد . . .فيهم ولا كيت ولا كيت، والواقع الذي يعلمه الله أنهم كلهم فساد وكيت وكيت
. . .الذباب والصراصير
. . .أنقذ الله منهم عبد الحميد الديب
وحسن سلامة. . . الملحن الذي انجذب إلى حسن الأنوثة وجمالها فانطبعت في روحه بحركاتها وسكناتها، والذي يلحن كلما ضاق به الحال لبديعة أو ببا لحناً أو لحنين ولا يعود إليهما إلا إذا ضاقت به الحال مرة أخرى. . . والذي كلما لحن لحناً اغتصبته (المونولوجيستات) و (العوالم) ورحن يتاجرن به في الليالي والأفراح ملاقيات ما شاء الله من النجاح والترحيب والأجر الكريم. . . وصاحب الحق الأول في هذا كله مغمور مفلس لا يهتم به أحد ظهر في الميدان ظهوراً قد تنكسف معه أضواء الكثيرين من
. . .الكواكب والنجوم
وعلى هذا أيضاً تلوثت سمعة حسن سلامة، فكلما اقترح مقترح على واحد أو واحدة من أصحاب العمل باستغلال مواهب حسن سلامة هيأ الشيطان لحسن عثُلاً ذميما مناعاً للخير معتدياً أثيما يقول إن حسن سلامة مجنون بالنسوان وأنه خطر على الراقصات والمغنيات اللواتي يجمعهن به العمل، وأنه خطف فلانة من مسرح كذا، وفلانة من صالة كذا
والمسكين لا يخطف ولا يغتصب وإنما هو يتزوج ويطلق بحثاً وراء الراحة والعيش
. . .المطمئن
إن هذا الملحن جدير بأن يعهد إليه أستوديو مصر تلحين الأغاني في أفلام استعراضية قصيرة يتوفر عليها مخرج لبق رشيق وتقوم بأدائها فنيات خفيفات كأولئك اللواتي
. . .نراهن في استعراضات هوليود
هذا صحيح. . . ولكن أين هو ذلك المخرج، وأين هن الراقصات، وأين هو ذلك المدير الذي يسمح لملحن شاب بالتجلي والظهور يتبعهما المجد والربح الوفير
. . .لا شيء من هذا في مصر. . . وإنما يجب على حسن سلامة أن يموت
وسيد سليمان. . . الذي لا تنقصه الصبغة ليكون مثل (آل جولسن). . . إنه مغن وممثل ومونولوجست وزجال أيضاً
لو أن الفرصة أتيحت له للظهور في السينما لجذب الجماهير وقفز قفزة قد يعلو بها على مرتبة القابضين والقابضات على خناق الفن في مصر. . . ولو أنه أتيح له أن يلقي مونولوجاته الاجتماعية الحية بين الفصول الدسمة جداً التي تمثلها الفرقة القومية
. . .لغطى الفرقة وفنها الهائل جداً
ولكن منذا الذي يسمح له بهذا؟. . . أهم مجانين. . . إن عليه أن يموت. . . ولكنه لن
. . .يموت
. . .هؤلاء أربعة. . . والخامس
عزيز أحمد فهمي

البريد الأدبي
العوائد
الأستاذ مصطفى محمد إبراهيم ضم (الأهالي) محسناً إلى قبيل العربية، والأهالي والأهلون والأهلات عربيات خالصات. وحاول الأستاذ أن ينقذ (العائلة) في (تحرير المرأة) إنقاذاً لغوياً. . . بيد أنه نسى (العوائد) أو تناساها، فهل يماشي صاحبه ناقدها الأستاذ محمداً أبا بكر إبراهيم في تخطئته إياها؟
إن العلامة الفيومي في (المصباح المنير) يقول: العادة معروفة والجمع عاد وعادات وعوائد
والعلامة الشيخ إبراهيم اليازجي تقبل (العوائد) في (الضياء) تقبلاً مليحاً على حنبلية في اللغة عنده وعلى ولعه بتخطئة الصحيح، فقد ورد هذا الجمع في مقالة له لا لغيره في مجلته: (. . . ولا يطلب علماء هذه الأيام الوقوف عليها (أي على طائفة الكتب)، إلا بقصد الاطلاع على الشيء الغريب، كما يحب أحدنا الاطلاع على (عوائد) أهل الصين).
وروى نصًّا في التاج في جواب سؤال: ومن جموع العائدة عوائد ذكره في المصباح وغيره وهو نظير حوائج في جمع حاجة نقله شيخنا) ثم قال - أعني اليازجي -:
(فالظاهر من هذا النص أن هذا الجمع منقول عن العرب لثبوته عند أئمة اللغة)
وبين العلامة الفيلسوف ابن خلدون وبين (العوائد) حلف أو محالفة أو معاهدة متينة مستمرة فهو لا يترك (عوائده) هذه في حال في مقام يقتضيها:
(في أن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر - . . .) أحواله و (عوائده) - والسبب في ذلك أن النفس أبداً تعتقد الكمال في من غلبها وانقادت إليه، إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه، أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي إنما هو لكمال الغالب، فإذا غالطت بذلك انتحلت جميع مذاهب الغالب، وتشبهت به؛ أو لما تراه من أن غلب الغالب لها ليس بعصبية ولا قوة بأس، وإنما هو بما انتحله من (العوائد) والمذاهب تغالط أيضاً بذلك عن الغلب، وهذا راجع للأول، ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبداً بالغالب في ملبسه ومركبه وسلامه وفي سائر أحواله)
(أن (العوائد) تقلب طباع الإنسان إلى مألوفها، فهو ابن (عوائده) لا ابن نسبه)
(في أن رسوخ الصنائع في الأمصار إنما هو برسوخ الحضارة وطول أمدها - . . .) والسبب في ذلك ظاهر، وهو أن هذه كلها (عوائد) للعمران والأوان، و (العوائد) إنما ترسخ بكثرة التكرار وطول الأمد، فتستحكم صبغة ذلك، وترسخ في الأجيال)
فهذه (العوائد) التي طولنا الكلام فيها أو عليها هي من جموع العادة والسلام.
(* * *)
بشر بن عوانة
قالت جريدة المكشوف البيروتية في مقال نشرته في العدد (283) بعنوان (شاعر جاهلي غير موجود يعيش ألف سنة): إن الأستاذ بطرس البستاني صاحب كتاب (أدباء العرب) كان فيما تعلم أول من أنكر وجود بشر بن عوانة، وأظهر أنه هو وقصيدته في وصف قتاله للأسد من خلق بديع الزمان الهمذاني في مقامته البشرية. والمكشوف التي جعلت من همها حماية الإنتاج الأدبي وتصحيح نسبته إلى صاحبه، يسرها أن نعلم أن الرسالة هي أول من نبه إلى أسطورة بشر بن عوانة في الصفحة 35 من عددها التاسع والسبعين الصادر في 7 يناير سنة 1935، وهو العدد الأول من سنتها الثالثة، فنرجو أن تنتبه إلى ذلك
حول العدد الممتاز من مجلة الحديث السورية
نوَّه الأديب السيد نصار في العدد (388) من (الرسالة) بالعدد الممتاز الذي أصدرته مجلة الحديث السورية، وخصت به المستشرق المنتحر الدكتور (إسماعيل أحمد أدهم)، وقد أشار إلى ما كتبه أدباء مصر الأعلام عن المستشرق المذكور، وأغفل ذكر الكتاب الآخرين وقال: (وعداها لا توجد كلمات أخرى لكاتب مصري. . .!) كأن الكلمات الأخرى لا تستحق التنويه والإشارة، مع أن الوفاء كان يقضي على الأديب بأن يذكر الكتاب السوريين الآخرين (والمجلة السورية) ولا بدَّ من التنويه بأنه إلى جانب كلمات إخواننا المصريين كلمات أخر. منها كلمة عنوانها (دمعتي على أدهم) لأديبة الشام السيدة وداد سكاكيني، وأخرى عن (قوة الإيمان وعذاب المفكرين) للأديبة الرقيقة

الآنسة فلك طرزي صاحبة (الآراء والمشاعر)، وقصيدة رائعة للشاعر المعروف عمر أبي ريشة عنوانها (ظمأ الروح)، وثانية للشاعر الأديب الأستاذ زكي المحاسني عنوانها (الستار)، وثالثة للشاعر صلاح الأسير، ورابعة للشاعر شارل نحوري، وهؤلاء كلهم سوريون

ولعلى أعود إلى نقد العدد ومضامينه بعد حين.

(دمشق)

المنجد

إلى الدكتور زكي مبارك

قرأت مقالكم النفيس (مطالعات في الكتب والحياة) لعباس العقاد في مجلة الرسالة الغراء ولشدّ ما أعجبني حين اطلعت على ملاحظتكم الصغيرة حول كلمة الظرف إذ أنكم ضممتم الظاء فيها مراعين في ذلك الاتباع خصوصاً لأن الجمهور في مصر ينطق الظرف بضم الظاء؛ فهل لي أن أستبين من ملاحظتكم هذه وأنتم من خلفاء سيبويه القرن العشرين أنكم لا تبالون بقواعد النحو والصرف بل تسيرون على منهاج المراعاة في الاتباع من الألفاظ وتغالون في تحوير أصول النطق الصحيح وقواعده السليمة؟ وهل لي أن أنقدكم وأؤاخذكم على ذلك وأنتم أول من سبقني في نقده للأستاذ أحمد أمين وجنايته على الأدب العربي، فحملتم حملة شعواء عليه لغلطة في التحريك ارتكبها وهو أمام المذياع.

وتفضلو بقبول أسمى تحياتي إلى روحكم الطيبة من أبناء الجيل الجديد.

(حيفا - فلسطين)

الياس سليمان بحوث

فتيات في الأزهر

أتيح لي أن أستمع إلى المناظرة الطريفة التي أقيمت بطنطا بين فريقين من طلاب الأزهر. وكان موضوع المناظرة يدور حول السماح للفتيات بالانتظام في سلك طلاب الأزهر على نحو ما هو متبع الآن في كليات الجامعة المصرية. . .

وأذكر أن الأديبة أمينة السعيد كانت أول من أثار موضوع تعليم الفتاة في الأزهر، فتحدثت إلى صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي حديثاً نشرت خلاصته الصحف. أذكر منه أن فضيلته رحب بالفكرة على أن تكون الفتيات في عزلة عن الشبان، أي أن تنشأ لهن فصول خاصة يتلقين فيها أصول الدين الحنيف

وقد ذكر المستشرق الإنجليزي (مستردن) في كتابه (الحياة الفكرية والتعليمية في مصر في القرن التاسع عشر) ما خلاصته (أن الحملة الفرنسية في قدومها إلى مصر وجدت في صحن الأزهر بضع نساء يتعلمن إلى جانب الشبان ويتفقهن في قواعد الدين. وكانت هناك عالمة ضريرة يلتف الشبان حولها ويتلقون الدروس عنها؛ كما أنه كان في معهد طنطا الديني جماعة من الفتيات يحضرن الدروس الدينية ويستمعن إلى التفسير والحديث)

إبراهيم إبراهيم الخولي

تصحيح

كتب الأستاذ سيد قطب كلمة في العدد الماضي من الرسالة الغراء عن الذوق الفني في مصر وجهها إلى المدرسة الحديثة، ولا أريد الآن التدخل بين الأستاذ وجماعة الأدب الحديث ولكني أريد - وأرجو الأستاذ أن يغفر لي تطاولي - أن أصحح خطأ جاء في حديثه عما سماه سهواً منه (أسطورة نهر الجنون). فقد أراد الأستاذ أن يستند في حديثه إلى أسطورة قديمة ولكنه ذكر بدلاً منها مسرحية للأستاذ توفيق الحكيم على أنها الأسطورة القديمة

أما الأسطورة فإنما تتحدث عن بئر شرب منها الناس فجنوا ولم يجد الملك ووزيره بدا من الشرب منها هما أيضاً ليكون شأنهما شأن الناس، ولم يجيء في الأسطورة أي ذكر للملكة

وحديث النهر وحديث الملكة وقصة قلقها وحزنها كل ذلك من خيال مؤلف المسرحية، ذكرها ليصور مسرحيته وعرض مشاهدها ونسقها كما شاء له خياله متخذاً أسطورة البئر أساساً للمسرحية. . .

هذا هو التصحيح الذي أردته، وأسأل الأستاذ قطب المعذرة مرة أخرى

محمود عزمي
أسئلة
سيدي رئيس تحرير الرسالة
تتبعت كل ما قيل في تفسير بيت ابن عربي. بذكر الله تزداد الذنوب الخ في أعداد الرسالة السابقة وقد ذهب الأستاذ الباجوري إلى أن لرجال التصوف نظرات عكسية تقلب الحقائق
المعلومة إلى حقائق أخرى عليا لا يدركها غير أهلها. لذا أرجو من الأستاذ الباجوري أو الدكتور زكي مبارك الذي توصل لحل الكثير من قول أعلام الصوفية أن يفسر لي أحدهما تفسير ابن عربي لقوله تعالى: (مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً). ولقوله تعالى: (أنا ربكم الأعلى)
قال ابن عربي أُغرقوا أي قوم نوح في بحار العلم بالله وهو الحيرة، فأدخلوا ناراً أي نار المحبة، فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً، فكان الله عين أنصارهم وأن الكل بالله ولله بل هو الله
أما قول فرعون أنا ربكم الأعلى وإن كان الكل أرباباً فصح قوله أنا ربكم الأعلى وإن كان عين الحق، فالصورة لفرعون باختصار من كتاب النصوص. إه. والسلام عليكم ورحمة الله
(بواد وباوي. أم درمان)
يوسف عمر أغا
الجمعية العربية ببريطانيا
اجتمعت الهيئة العامة للجمعية العربية ببريطانيا يوم الأحد الموافق 7 يولية سنة 1940 في الساعة الخامسة بعد الظهر وقررت ما يلي:
أولاً: أن تبقى أموال الجمعية (ومقدارها مائة وثمانية وعشرون جنيهاً وستة عشر شلناً وبنسان) باسم (الجمعية العربية) في المصرف. ويودع حق نقل مالية الجمعية إلى ثلاثة أشخاص يمثلون ثلاثة أقطار عربية يكون لهم كاتم للسر من بينهم. وانتخب السادة: عبد المعز نصر (عن مصر) وموسى الحسيني (عن فلسطين) وعبد العزيز الدوري (عن العراق). ثم انتخب السيد عبد العزيز الدوري ليكون (نقيب الجمعية) أو كاتم السر
ثانياً: في نهاية الحرب، ترسل الهيئة الموكلة بياناً إلى الطلاب العرب في إنجلترا بواسطة:
(أ) المفوضيات والقنصليات العربية في إنجلترا
(ب) مكاتب البعثات والنوادي العربية في إنجلترا
(ج) الجامعات
(د) الصحف العربية
تنبئ فيه الطلاب العرب في إنجلترا بأن (الجمعية العربية) (1937 - 1940) تركت مبلغ (128 جنيهاً و16 شلناً وبنسين) لجمعية عربية تؤسس بعد الحرب في إنجلترا بشرط:
(أ) أن لا يقل عدد أعضائها عن خمسة عشر عضواً على أن يمثلوا قطرين عربيين على الأقل
(ب) أن تقبل مبدئياً دستور الجمعية العربية (ببريطانيا) السابقة.
(ج) أن يشهد بذلك أحد الوزراء المفوضين العرب في لندن
(د) وينقل حق التصرف بأموال الجمعية لأول جمعية عربية تثبت تحقق الشروط السابقة فيها.
ثالثاً: وإذا لم تؤسس جمعية عربية في إنجلترا بعد انتهاء سنتين من إمضاء معاهدة الصلح فإن اللجنة تتصرف بأموال الجمعية حسب مواد قانونها الأساسي
هذا مع العلم بأن الجمعية العربية قد وقفت أعمالها مدة الحرب
عبد العزيز الدوري
نقيب الجمعية العربية ببريطانيا
القصص
مكافأة رلف. . .

عن الإنكليزية
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار
كان النسيم يهب من جانب البحر لطيفاً هادئاً ولكنه بارد على الرغم من هدوئه، وكان رلف مانرنج يرتعش وهو واقف ويدثر نفسه بردائه وقد قلب ياقة السترة ولفها حول عنقه، وقد استمر وقوفه مدة طويلة وهو عديم الحركة. ثم مشى وهو يتلفت نحو كل باب يمر به ليعرف أي المنازل هو الذي يريد، ورأى على ضوء المصباح الرابع في ذلك الطريق منزلاً ذا حديقة صغيرة فوقف أمامه واشتد خفوق قلبه وحاول عبثاً أن يهدئ من اضطرابه، ثم أخرج من جيبه مظروفاً وراجع وصف المنزل الذي يراه على ما كتب على ذلك المظروف بالرغم من أن ما يقرؤه كان منطبعاً في ذاكرته وبالرغم من أن هذا المنزل هو الذي يريده بغير شك
وحاول رلف أن يفحص المنزل فيما وراء الحديقة؛ ولكن النور كان قليلاً فلم يستطع أن يرى غير هيكل يحيط به الظلام. ففتح باب الحديقة ومشى فوق ممر ضيق بين النبات. ولما صار أمام باب المنزل عاد إلى الوقوف مرة أخرى وهو يحاول تهدئة نفسه، ورفع بصره فوجد مصباحاً ضئيلاً يضيء في إحدى الغرف. أما سائر النوافذ فكانت مغلقة؛ فدق الجرس وهو يسائل نفسه كيف يقابل الفتاة التي جاء لمقابلتها؟ وفتح الباب فتنهد تنهد الراحة، وأطلت الخادمة فسألته ماذا يريد. فسكت لحظة ثم قال: هل بيرتا كاستر هنا؟
قالت: سأسأل، ولكن من أنت؟
فتردد رلف قبل الإجابة ثم قال: قولي لها إن صديقاً قديماً يريد مقابلتها!
فظهر الارتباك على وجه الخادمة من عدم ذكر الاسم، وقالت: انتظر قليلاً حتى أعود ثم أغلقت الباب ودخلت. فابتسم رلف ابتسامة مؤلمة من لجوئها إلى هذا الاحتياط وبعد قليل عادت وقادته إلى غرفة الاستقبال، فجلس وهو يدير لحظة في كل ما حوله ليفحص المكان، وقد اجتمعت في ذهنه في هذه اللحظة كل الذكريات القديمة. ورأى على
المكتب صوراً في أُطُر، فنظر إلى إحداها نظرة طويلة وقد علت وجهه مسحة من الحزن وهو ينظر إلى الوجه الجميل الذي يراه في الصورة ويوازن بينه وبين هذا الوجه الذي شهده في أيامه الأخيرة
وقد شوش عليه هذه الخواطر فتح الباب ودخول فتاة، فالتفت إليها ولاحظ أنها تتجاهله رغم ما كان بينهما من صداقة متينة منذ سنوات. فقال في نفسه: هل يحدث مرور سبع سنوات كل هذا التغيير أم لأن الخمس الأخيرة من هذه السنوات قد قضيتها في السجن؟
ثم دنت بيرتا فلاحظ اضطرابها وسألته: هل تريد مقابلتي؟ فلم يجبها، لأن اضطرابه كان أشد مما سبق فأعادت سؤالها: لماذا جئت إلى هنا؟
وكانت كلماتها تخرج ببطء وفي شيء من التردد. فمشى نحوها وقد خانه النطق، فقد كان منذ عهد طويل يحلم بهذه المقابلة، وكان قد أعد ما سيقوله في كل مرة فكر فيها في هذه المقابلة. ولكنه الآن لا يذكر حرفاً واحداً.
قالت: ماذا تريد؟ فأجابها: لقد جئت. . . ألم تلاحظي يا بيرتا أن حبي إياك لم يتغير بعد كل هذه السنوات؟
قالت بيرتا: لقد كنت أظن بعد حدوث. . . ثم سكتت فجأة كأنما أرادت أن تصوغ جملتها في أسلوب آخر. وقالت: لما كنت أعني بحبك لما كنت تستحقه. ولو أنك كنت تحبني حقاً لما هبطت هذا الهبوط.
فأصفر وجه رلف وعرته رعشة وقال: هل أنت تعتقدين إجرامي؟
فتراجعت بيرتا قليلاً وقالت: ماذا كنت أعتقد غير ذلك؟ إن القرائن كلها ضدك وأنت لم تدافع عن نفسك أي دفاع؛ وقد حاولت أن أفهم كيف لا تكون أنت المجرم؟
فمشى رلف في الغرفة ذهاباً وجيئة وهو مفقود الصبر، ثم وقف أمامها فجأة وقال: أقسم بشرفي أني لم آخذ المال، وأنت تقولين أنك تحبينني، ولكنك تعتقدين أني مجرم؛ وأنا أقسم بشرفي أني بريء يا بيرتا.
ثم قال بلهجة مؤلمة: لقد قضيت خمسة أعوام في الجحيم؛ ولكن آلامي في هذه المدة لا تذكر بجانب الآلام التي أعانيها في المستقبل إذا أنت طردتني.

لم تجبه بيرتا وكانت في أعماق نفسها تعرف أنها تحب الرجل ولكن شبح الجريمة المنكرة
التي كانت تعتقد أنه ارتكبها قد حال بينها وبين الجواب الذي تود من صميم قلبها أن تجيب به.
ومشى رلف نحو الصورة التي كان ينظر إليها أولاً ويلاحظ الشبه التام بين صاحب هذه الصورة وبين أخ لبيرتا؛ ثم عاد إلى الالتفات نحوها وقال: وقال إذا برهنت لك على براءتي، فهل تتزوجين مني؟
فأطالت نظرتها إليه وقالت: ربما، ولكن من الصعب أن أعد. إنك الآن غريب وإن أخي . .
ثم أحنت رأسها فاغرورقت عينا رلف بالدموع وقال بصوت يدل على التأثر: لقد علمت.
قالت بصوت فيه رنة البكاء: هل سمعت؟
فلم يجبها ولكنه عاد الالتفات للصورة.
قالت: لقد كنت أحبه؛ وبعد ذلك الحادث استقال من منصبه، وكنت أحاول منعه عن السفر ولكنه سافر وحصل على عمل في روسيا وقد مات بعد عهد قصير وكنت يوم سفره أشعر بأني فقدت كل شيء.
فقال رلف: لقد كنت معه عند موته.
التفتت بيرتا وأصفر لونها وابيضت شفتاها وأخذ يقص عليها كيف قام بواجباته في مدة المرض والاحتضار وبعد الوفاة. فقالت: شكراً لك يا رلف ولكن كيف قابلته؟
قال: بعد خروجي من السجن أردت السفر لأتناسى هذه النكبة وعلمت أنه سافر إلى روسيا فسافرت إليها فأدركته في الوقت الأخير.
وكان هو يتكلم يلاحظ ما يبدو عليها من التأثيرات، فأدرك أنه إلى ما قبل هذه اللحظة لم يكن يعرف مقدار حبها لأخيها.
وكره استمرارها على هذه الحالة النفسية فحاول تغييرها وجثا على ركبتيه بالقرب منها وأمسك بيديها وقال: ألا تسمحين يا بيرتا بأن تجعلي لي من قلبك مكان أخيك؟ إنني أجعل حياتي كلها وقفاً على إسعادك. تعالي نسافر من هنا فنقيم في مكان بعيد نحاول فيه نسيان هذه الذكريات.
فخلَّصت بيرتا إلى إحدى يديها من بين يديه ووضعتها فوق رأسه. فشعر رلف في هذه اللحظة بالسعادة التامة. وقالت: أنت تعرف يا رلف أني أحبك ولكنك تعرف الذي يحول بيني وبينك. وعليك أن تبرهن على أنه خطأ.
قال رلف: إنني لا أستطيع يا بيرتا أن أبرهن على أني بريء؛ ولكن ألا تثقين بما أقول؟ إذا كنت تحبينني فيجب أن تثقي بما أقول.
فلم ترفع بيرتا رأسها ولم تجب. فوقف رلف ثم مشى متباطئاً نحو الباب وهو يأمل أن تستوقفه بكلمة. ولكنها لم تتكلم. ففتح الباب ورأسه منحن إلى الأمام، واجتاز الممر على مهل وهو لا يزال يأمل أن تناديه. فلما صار عند باب الحديقة أخرج من جيبه اعتراف أخيها ومزقه بحالة تدل على أن عزمه على تمزيقه كان نتيجة فكرة فجائية. ووقف ذاهلاً وهو لا يعرف كم وقف.
وشعر بيد توضع فوق كتفه، وصوت رقيق يقول: (إنني يا رلف أكتفي بقولك فإني أثق بك وبما تقول).
عبد اللطيف النشار
تعليق المترجم
رحم الله الشاعر العربي الذي يقول:
بنفسي وأهلي من إذا عرضوا له ... ببعض الأذى لم يدر كيف يجيب
ولم يعتذر عذر البريء ولم تزل ... به سكتة حتى يقال مريب
لقد ظلموا ذات الوشاح ولم يكن ... لنا في هوى ذات الوشاح نصيب
العدد 396 - بتاريخ: 03 - 02 - 1941
في عيد الهجرة
تقليد كريم
يسنه صاحب الجلالة الفاروق

(لكاتب كبير)

لم يكن رأس السنة الهجرية من الأيام التي تحتفل بها الحكومة المصرية بصفة رسمية، وإنما يرجع هذا التقليد المحمود إلى دعوة هتف بها شباب الحزب الوطني قبل أكثر من ثلاثين سنة على لسان (إمام واكد) الذي سُجن فيما بعد مدة طويلة بعد أن حوكم في قضية سياسية كان لها في قلوب الجماهير دويٌّ وضجيج.

وقد استجابت الحكومة لتلك الدعوة في سنة 1327 وكان رئيس الحكومة يومئذ بطرس غالي باشا، فتقرر أن تُغلق المصالح والدواوين في اليوم الأول من السنة الهجرية، وبهذا أضيف يوم الهجرة إلى الأعياد الرسمية.

ولكن الاحتفال بذلك اليوم لم يُصبَغ بصبغة التعميم، فقد كان في بداية أمره مقصوراً على حفلة يقيمها الحزب الوطني في (كلية مصطفى كامل) بحيّ الجمالية. وقد حضرت ذلك الاحتفال مرة واحدة، وهي أول مرة وآخر مرة رأيت فيها الزعيم محمد بك فريد الرئيس الثاني للحزب الوطني. وكان خطيب الحفلة علي فهمي كامل بك، الذي مات وهو يخطب في رثاء محمد فريد، في مساء الحادي والثلاثين من ديسمبر سنة 1926.

ثم اتسع نطاق الاحتفال بعيد الهجرة بعد ذلك، فكان يحتفل به في الأزهر وفي الجمعيات الإسلامية.

ويظهر أن أول وزير أشار بأن تقام الحفلات في المدارس الأميرية تكريماً لعيد الهجرة هو معالي الدكتور محمد حسين هيكل باشا وزير المعارف.

ثم ماذا؟

ثم صار الاحتفال بعيد الهجرة موسماً عظيماً بفضل التقليد الكريم الذي شرعهُ جلالة الملك حين رأى أيده الله أن يحضر الحفل الجامع الأزهر الشريف. وهي أول مرة يظفر فيها عيد الهجرة بمثل هذا الاهتمام المرموق من ملك مصر والسودان، وفي معيته الشيوخ والنواب

والوزراء وسفراء الممالك الإسلامية

وحفلة عيد الهجرة في الجامع الأزهر بالقاهرة تذكِّر بصلاة (الجمعة اليتيمة) في جامع عمرو بالفُسطاط. فالجمعة اليتيمة يحضرها ملك مصر في كل سنة باحتفال جليل في جامع عمرو، لأنه أول مسجد أُسس في الديار المصرية بعد أن فتحها عمرو بن العاص؛ وكذلك ظفر الأزهر بمنغم جديد هو جعله بصفة رسمية مكان الاحتفال بهجرة الرسول.

ولكن بقي شيء وأشياء.

بقى التفكير في جعل هذا العيد موسماً حيويًّا يتصل بأذواق الناس في فنون المعاش؛ ولا يكون ذلك إلا يوم يصبح هذا العيد وله فَرحة دنيوية تشبه فرحة الميلاد في الغرب، وفرحة النيروز في الشرق. وهذه الفرحة لا تتمَّ إلا إذا وصلناه بحياتنا الاجتماعية، فمنحناه فرصة من الوقت تسمح بأن تكون أيامه مجالاً للهدايا والرحلات والانشراح من الجميل حقاً أن يبكِّر إمام جلالة الملك فيصلي الصبح بمسجد الحسين، ثم يخطب في الناس مذكراً بما عانى الرسول من مكاره الاغتراب في سبيل الدين. ومن الجميل حقاً أن يخطب شيخ الأزهر بعد صلاة المغرب مذكراً بفضل الأذى في إذكاء الأرواح والقلوب

كل أولئك جميل، ولكني أعتقد أنه لا يصيِّر هذا السيد موسماً شَعْبياً بالمعنى الذي نريد، كموسم (المولد النبوي)، وهو موسمٌ اتصل بأذواق الناس إلى أبعد الحدود، وإن لم يصل إلى الغاية في خلق فنون أدبية تذكِّر بالفنون التي خلقها النيروز في العصور الخوالي

فما الذي يمنع من أن تفكر وزارة الشؤون الاجتماعية في تنظيم عيد الهجرة تنظيماً دنيويًّا بعد أن فكرنا في تنظيمه تنظيماً دينياً؟

عيد الميلاد في الغرب له تقاليد دنيوية هي السبب الأكبر فيما له من جاذبية، فكيف يفوتنا أن نجعل لعيد الهجرة تقاليد دنيوية بخصائص تغاير خصائص عيد الميلاد؟

قد يقال إن قرب عيد الهجرة من عيد الأضحى يمنع الحكومة من السخاء بالامتيازات التي تجود بها في الأعياد، وهذا حق، ولكن لا بدّ من التفكير في خلق أسلوب جديد يجعلنا نشعر في أول ليلة من المحرّم بأننا مقبلون على عيد سعيد

تعوّد المصريون أن يذكروا موتاهم في الأعياد الإسلامية، وبذلك ضيعوا على أنفسهم

فرصة الانشراح في ليالي الأعياد، فهل يكون عيد الهجرة فرصة لموسم جديد لا تزرف فيه
الدموع ولا تشق الجيوب؟
افرحوا، أيها الناس ولو متكلفين!
افرحوا، أيها الناس ولو متصنعين!
افرحوا، افرحوا، فالفَرَح هو الزاد الوحيد الذي لم يذقه الناس جيداً في مصر والشرق
افرحوا لأفرح معكم، ولأوق بفضلكم نعمة الشهود لمواكب الأفراح!
(كاتب)
الحديث ذو شجون
للدكتور زكي مبارك
(في قصر جلالة الملك - التجني على مصر والشرق - أهل
- الكهف - حشو اللوزينج - مناجاة القمر ومناجاة الشمس
إلى طلبة السنة التوجيهية - الهجوم الآثم على الشيخ سيد
المرصفي - إن قول الحق لم يدع لي صديقاً)
في قصر جلالة الملك
كان من الحظ السعيد أن ألتفت إلى الروح اللطيف الذي يسود جوّ التشريفات يوم
دخلت قصر عابدين مع المهنئين بقدوم العام الهجري الجديد
فماذا رأيت هنالك؟
كنت أحسب أن الناس يقيدون أسماءهم في الدفاتر ثم يخرجون، كما كنت أصنع قبل
أن ألتفتَ إلى ذلك الروح اللطيف؛ ولكني في هذه المرة عرفت ما لم أكن أعرف،
فقد رأيت المهنئين من وزراء ونواب وشيوخ وأعيان وعلماء يتلاقون فرحين مبتهجين،
ثم يتبادلون الأحاديث الطوال، وكأنهم تلاقوا على ميعاد في مكان يرحِّب بتلاقي القلوب أطيب الترحيب
كان الرجال يستقبل بعضهم بعضاً في بشاشة وأريحية، وكان كل زائر يرى نفسه في
داره، وقد تجرَّد مما يجري خارج القصر من مختلف الشؤون؛ فهو في حَرَم مقدَّس لا
تهتف فيه النفوس بغير معاني الرفق والصدق والإخلاص
في قصر جلالة الملك ترى للوجوه ملامح لا تراها إلا هنالك؛ فقد ترى رجالاً يتلاقون
مبتسمين منشرحين، وكنت تعرف من قبل أنهم لم يكونوا إلا متباعدين متنافرين،
فتدرك أن جلال المكان يوحي بالتآخي والصفاء
إن باب ذلك القصر يُفتَح للجميع في المواسم والأعياد، فما الذي يمنع من اغتنام هذه
الفرصة السخيّة لنتخذ منه ملتقى لأرواحنا وقلوبنا في كل موسم وفي كل عيد؟
لا بدّ من لحظات ننسى فيها شو اجر الخصومات اليومية، ونلتقي فيها منزهين عن أسباب
التعادي والشقاق، فكيف يفوتنا أن نجعل رحبات ذلك القصر ميادين لسباق العواطف في تلك اللحظات؟
أقول هذا وقد شفى الله صدري من خصومات محاها تلاقي الوجوه والقلوب في قصر
جلالة الملك، فرجعت وفي صدري أنوار لم أشهد مثلها من قبل، والمكان الطيب كالبلد الطيب لا يثمر غير الخيرات والبركات
أعزّ الله جلالة الملك، وجعل قصره موئل العواطف والأرواح والقلوب، وأدام على أمته
نعمة الأنس بنفائس المعاني وكرائم الأغراض
التجني على مصر والشرق
أنا لا أقول بموجب التغاضي عما في مصر والشرق من عيوب، فالدعوة الإصلاحية قد
توجب أن نكشف عن مواطن الضعف في مصر والشرق، وإنما أكره أن نتجنى على
بلادنا بلا موجب معقول، فذلك يوحي إلى القراء أننا خلقنا متخلفين عن جيش العبقرية والنبوغ.
أكتب هذا وقرأت كلمة الأستاذ (محمود) عن روزفلت هو العبقريّ (الكسيح) ففي رأي
هذا الكاتب أن الشلل لو أصاب طفلاً مصريًّا أو شرقياً بمثل ما أصاب روزفلت لكان
مصيره أن يكون (تافهاً ساقط النفس خائر العزم مريض القلب) وما لمثل هذا التجني
حملتا الأقلام، أيها المربي المفضال.

في مصر والشرق مئات من أصحاب العاهات وصلوا إلى منازل لا تقل في قيمتها الجوهرية عن منزلة روزفلت، إلا أن تكون (رياسة الحكومة) هي المثل الأعلى بين منازل التشريف!

وما خطر الكساح في أرض مثل أمريكا، وقد عرف أهلها أن مرجع الحكم إلى العقل؟

إن كان عندك بقية من الإنصاف، أيها الأستاذ، فوجهها مشكوراً إلى المجاهدين في مصر والشرق، ولا أقصد المجاهدين من أصحاب العاهات، فأولئك رجال أقاموا ألوف البراهين على ما يملكون من قوة العزائم والنفوس، وإنما أقصد المجاهدين من أهل السلامة في الأجسام والحواس، فأولئك أقوام يعانون كساحاً أفظع وأثقل من الكساح الجثماني؛ فالكسيح جسمياً يشعر بأنه مشدود إلى الأرض من وجهة حسّية، أما الكساح الذي يرزأ به الرجل السليم من أخل النبوغ والعبقرية فيُرمى عليه من المجتمع المتخلّف، المجتمع الذي ينظر إلى النوابغ والعبقريين بارتياب واحتراس، ثم يشدهم بعنف ليقيموا حيث أقام في حضيض الغفلة والجمود.

في أوربا وأمريكا يتلهف الناس إلى المبتكر الطريف في الآداب والفنون، فيمضي الأديب إلى غايته وهو مطمئن إلى السلامة من تجني المجتمع عليه، فكيف ترى الناس يصنعون في (أفريقيا وآسيا) أو في (مصر والشرق) وقد أقفل باب الاجتهاد في الأدب، كما أقفل باب الاجتهاد في الدين.

كما ظفرنا به من الحرية

في الأدب هو الجدال حول القديم والجديد. وقد ظهر بعد أن انجلت المعركة أن الخلاف لم يَدُر إلا حول الأسلوب، ففلان من أنصار الجديد لأنه لم يستأسر لمثل أسلوب الجاحظ أو ابن العميد، وفلان من أنصار القديم لأنه لم يتحرر من أساليب القدماء.

أما التجديد في الفكر، فهو محرمٌ علينا تحريماً قاطعاً. وليس من حقنا أن نصارع الأمواج الفكرية إلا إذا جازفنا بحقوقنا المشروعة في التمتع بثقة المجتمع، وهو لا يثق بنا إلا إن جاريناه فيما درج عليه من إيثار القرار والركود.

وليس هذا شهادة على أننا خضعنا لأهواء المجتمع فيما نعالج من فنون الفكر والعقل، فقد ثُرنا عليه في كثير من الظروف لنوجهه كما نريد، ولكن تلك الثورة لم تمر بلا عقاب، فقد رأينا أن المناصب الفكرية أصبحت وقفاً على الموسومين بمسايرة المجتمع في ضلاله وهداه، ولم يصل إليها من أحرار العقل إلا أفرادٌ آزرتهم قوىً سياسية لا فكرية. ولو كان العقل وحده هو الذي يقدِّم ويؤخر لرأينا في مصر والشرق موازين غير تلك الموازين، ولكان من المؤكد أن تشهد مصر ويشهد الشرق موسماً جديداً من مواسم المذاهب والآراء.

إن رئيس الحكومة يستهدي جلالة الملك ألقاب التشريف لمن يتبرع بمبلغ من ماله الموروث لإحدى الجهات الخيرية، وذلك تشجيعٌ واجب، وهو يحض الأغنياء على بذل أموالهم في أبواب الخير، ويروضهم على الاقتناع بأن الدولة ترعى الضمائر اليواقظ، فتجزيها خير الجزاء.

ولكن الدولة التي تحفظ جميل المحسنين بأموالهم تنسى المحسنين بعقولهم، وإلا فهل تذكر الدولة جماعات المكافحين في سبيل الأدب والبيان وهم يؤدون خدمات تعجز عنها المدارس

والمعاهد والكليات؟

المال يُعَدّ فيكون له حساب، أما الدم الذي يُسفح على سنان القلم في تجاليد الليالي فليس له حساب. ولو أن حملة الأقلام الجياد كانوا أنفقوا أعمارهم الذواهب في الاتجار بالتراب لوصلوا إلى إدانة الدولة بما يستوجب أن تستهدي لهم من جلالة الملك ألقاب التشريف، بدون انتظار أو اقتضاء. . . فمتى تسمع الدولة هذا الصوت وهو تذكيرٌ بواجبها في إعزاز العقل؟ لقد حَفِيَ قلمي وهو يذّكر الدولة بحقوق الأدب الرفيع، الأدب الذي تَدين له الدولة دَيناً أرزن من الجبال، وهي تعرف وكأنها تجهل، وتجاهلُ العارف قد يَثقل في بعض الأحايين!

ذلك المصير المحزن هو مصير أرباب الفكر في مصر والشرق، فمن توهم أنهم في بلادهم سعداء فهو مخلوق نقلته الغفلة من أرض الواقع إلى سماء الخيال. . . وما

أسعد الغافلين!
هل سمعتم بالأدب القديم عند السُّريان؟
قيل: إن السريان كانوا أقدر الأمم القديمة على نظم أغاني الحزن والبكاء، فهل كان لذلك خمن سبب غير ابتلائهم الموصول بالكوارث والخطوب؟
ونحن في مصر أمعنّا في الدعوة إلى نظم أناشيد الجهاد، مع أننا كل لحظة في جهاد، فمتى ندعو إلى نظم (نشيد العدل) ومن بلوانا بالظلم صرخ الدهر صرخة الإشفاق؟
كم مرة فكر فينا مَن نخاطر في سبيل إسعادهم بأعز ما نملك وهو العافية؟
إن الزميل الذي يعرف في سريره قلبه أنه مَدينٌ لك ولو بلمحة من لمحات القلب والعقل، والذي يؤمن بأن الحياة الأدبية مدينةٌ بعض الدَّين لصرير قلمك، والذي يوقن بأنك نقلت صوت مصر إلى إسماع الشرق، هذا الزميل يتلقف إخبارك من أفواه أعدائك ليجوز له التطاول عليك في غيبتك، عساه يشفي صدره الموبوء بجراثيم الضغائن والحُقود.
وفي مثل هذا الهواء الفاسد يعيش الأديب في مصر والشرق ثم ينسى الناسون أنه لم يكن من المكافحين، وأن الشلل لو أصابه بمثل ما أصاب روزفلت لأصبح من المتسولين!
حدثتنا إحدى المجلات أن جرائد أمريكا عابت على روزفلت أن يُرقى كاتبه بلا استحقاق، وأنه أجاب: كيف لا يستحق الترقية وهو الذي يكتب خُطبي؟
فأي رئيس في مصر أو في الشرق يطمئن إلى عقل أمته فيصرّح بمثل هذا التصريح؟
وأين من يعترف للكاتب بأنه عنوان مصر من الوجهة العقلية أو السياسية؟
وهل يستطيع (خلف الأحمر) أن يميط اللثام عن وجهه ليقول: إنه المنشئ الأصيل لهذه الخطبة أو تلك، والمؤلف الأصيل لهذا الكتاب أو ذاك؟
وهل صدّق الناس قول (خلف الأحمر) قديماً حتى يصدقوا قوله حديثاً؟
الفرق بين (الخلفين) أن الأول استفاد من تزوير القصائد والأراجيز، أما الثاني فلم يظفر بغير الخيبة والحرمان.
أما بعد، فأين أنا مما أريد، وقد انتقلت من الدفاع عن مصر والشرق إلى الهجوم على مصر والشرق؟
أنا أريد القول بأن الحيوية لم تنعدم أبداً من مصر والشرق، والكساح الذي فرضته الصُّروف على الأفكار والعقول لم يمنع المصريين والشرقيين من الجري في ميادين الفكر والعقل، ولو اعتدل الميزان لعرف قوم أن القليل منا كثير وفوق الكثير، لأنه يُبذَل من دماء القلوب، ولأنه يقدَّم بلا انتظار الثواب، وقد يقدِّم من انتظار العقاب، فالفضل ذنب من لا ذنب له في (بعض) البلاد!
السائر الذي يقطع ألف مِيل في طريق مسلوك ليس أعظم من السائر الذي يقطع مائة خطوة في طريق شائك، ولكن أين من يعرف؟
والكاتب الذي يُعَدّ قراؤه بالملايين ليس أعظم من الكاتب الذي يُعَدّ قراؤه بالألوف، وقد ظهر الأول في الغرب وظهر الثاني في الشرق.
ارفعوا عن كواهلنا الأثقال، وانزعوا من أغلالنا، ثم انظروا كيف نستبق إلى أجواز الفكر والخيال.
فإن عجزتم عن تحرير كواهلنا وأقدامنا فحرروا قلوبكم من آصار الحسد والحقد لنشعر بأننا سنُجزَى على صدق الجهاد، ولو بالبَسمات والدعوات الصالحات.
إلى من يتوجه قلب الأديب في أمثال هذه البلاد، وهو من كيد الزملاء في عناء؟
إلى من يتوجه؟
يتوجه إلى الله الذي جعل سواد المداد أشبه الأشياء بسواد العيون فهو يحيي ويميت كيف يشاء.
يتوجه إلى الله، وهو الأنس الأنيس لغرباء الأرواح والقلوب.
يتوجه إلى الله خالق الشرق والغرب وفاطر الأرض والسموات، الله الذي أقسم بالقلم في كتابه المجيد، فكان بشهادته السامية أكرم ذخائر الوجود.
يتوجه إلى الله الذي جعل بأس القلم أفتك من بأس النار والحديد، ومن القلم يخاف من لا يخاف، ومن صريره استعاد من لا يَهُو لهم زئير الأسود.
يتوجه إلى الله الذي يجعل من عزلة الكاتب دنيا صاخبة هي العِوض الأنفس من كل ما

يفوته من الأنس بالمجتمع الصخاب. وهل يعرف الكاتب ما هي العزلة ودنيا الناس جميعاً ليست إلا سُمّ الخياط بالقياس إلى دنياه الفيحاء؟
يتوجه إلى الله الذي يخلق الضر للنفع، والذي يبتلي الأديب بما يشاء، ليصوغه كما يشاء، وليكون حجته البالغة على أن العاقبة للصابرين.
متى أومن بك يا ربي؟ ومتى أعرف حكمتك في بعض ما سوّيت من المخلوقات؟ ارفع الحجاب لحظة واحدة لأومن بأنْ ليس في الإمكان أبدع مما كان.
حول أهل الكهف.
أحسنَ فضيلة الشيخ عبد المتعال الصعيدي في استدراكه على ما سميته (الرواية الإسلامية) في تحديد عدد أهل الكهف، فهذه التسمية قد توهم أن ذلك هو الرأي الإسلامي بدون موجب لذلك. والحق أني لم أرد غير إثبات رأي كان قال به فريق من المسلمين قبل نزول سورة الكهف، وفي هذا الرأي ما يكفي لمناقشة المؤلف في خلق بيئة الرواية المسرحية، لأن هذا الرأي كان يجعل جمهوره أعظم وأضخم فيتيح له فرصة التعمق لدرس طوائف من المعضلات الاجتماعية.
أما كلمة الأديب حسين محمود البشبيشي فهي تشهد بأنه قرأ الرواية وقرأ النقد بفهم، ولكني أرجوه أن يلقاني بعد عامين، فقد يعرف من الأيمان والارتياب ما لم يعرف، وقد يدرك أني رميت إلى غرض فات عليه، لأني أرمز إلى معانيَ كثيرة في أغلب ما أعرض له من الشؤون.
وهنا يجب النص على أن مقالي في نقد رواية أهل الكهف وقع من الأستاذ توفيق الحكيم موقع القبول، ولم يعترض إلا على عبارة واحدة، وهي العبارة التي تقول بأنه ليس من
أرباب الفكر العميق، وهو اعتراض يؤيده أسف الشاعر صاحب (الجندول) هو يرى أن الحكيم مفكر متعمق وإن أظهرته السخرية بغير ما هو عليه. وأنا أيضاً أرى الأستاذ الحكيم من ذخائرنا الأدبية، وقد أعلنت إعجابي بكتابه (عصفور من الشرق) في كثير من المناسبات، وفي بيئات لا تخطر في بال، فقد وجهتُ إليه أنظار أهل الأدب في العراق، وليس ذلك بالقليل في تكريم هذا التصديق.
الأستاذ الحكيم رضي عن مقالي في نقد مسرحية أهل الكهف، فما شأنك أنت، يا سيد حسين؟
التفت إلى دروسك، أيها التلميذ النجيب، قبل أن أشكوك إلى أبيك!
حشو اللوزينج
سألنا الأديب فخر الدين عزي عن كتاب الثعالبي في (حشو اللوزينج) أين توجد؟ وأجيب بأن الثعالبي قال إنه كتاب (صغير الجِرم لطيف الحجم) ومعنى ذلك أنه رسالة صغيرة سجَّل بها ما صعُب عليه تسجيله في كتاب (ثمار القلوب) لئلا يخرج على شرط التأليف ولم يتفق لي أن أظفر بهذه الرسالة، فأرجو هذا الأديب أن يؤلف رسالة في معناها، فقد وَضَح المنهاج، ولم يبق إلا تقييد الشواهد وهي مبثوثة في رسائل الكتّاب وقصائد الشعراء.
مناجاة القمر ومناجاة الشمس
خطرتْ في بال الأستاذ محمود البشبيشي وهو ينظم مقالهُ في مناجاة القمر، فهل يعلم أنه خطر في بالي وأنا أنظم مقالي في مناجاة الشمس؟
سأوجه إليه هذا المقال بعد أن تنشر (الرسالة) كلمتي عن البلبل والروض، تعقيباً على كلمة وجَّهها إليّ منذ أسابيع، وهي كلمة لم يسرقها من (الجنية الحسناء) لأنها صدرت في اليوم الذي تلقيت خطاباً فيه، فكان ادعاء السرقة من المستحيلات!
آه، ثم آه!!
لقد ذكرتني نجوى القمر حين صدرتْ عن البشبيشي وهو في المنصورة بنجوى القمر حين صدرتْ عن صاحب (مدامع العشاق) وهو في سنتريس؛ فقد جاء في مقدمة ذلك الكتاب ما
نصُّه بالحرف:
وإنك لتعلم، أيها القمر، كيف كنت أَصدِف عنك، وأنا أطالع ذلك الوجه الذي نَعِمتَ) معي بثغرة المفلَّج، وأنفه الأقني، وطرفه الأحور، وجبينه الوضّاح. وإنك لتعلم، أيها القمر كيف هجرتك حين غاب، وتعلم أني لا أنظر إليك إلا حين السِّرار لأرى كيف يفعل

الشحوب بك، وكيف تنال منك الليالي! وإنها لشماتة طفيفة أحزن من بَعدها على خلود متعتك بصِباح الوجوه، وعلى عودتك لشبابك، في حين أني أودِّع كل يوم جزءاً من شباب، ووا حسرتاه على ما أودِّع من أجزاء الشباب!!)

ولكن لا بأس، فقد نويت أن أعيش إلى أن أرى الشمس والقمر من بعض ما أملك، وما دام هذا القلم طوع يميني فلن يَبيت قلبٌ إلا وهو مني على هوىً أو بغض فما كنتُ في زماني إلا صوت القلب والوجدان.

نويت أن أعيش، نويت أن أعيش، وليس على الله بعزيز أن ينصر أرباب القلوب إلى طلبة السنة التوجيهية.

تلقيت خطاباً من الأقصر (بفتح الهمزة وسكون القاف وضم الصاد، وهي جمع قصر، وبذلك سنيَّ العرب تلك المدينة لكثرة ما رأوا فيها من أَقْصُر الفراعين). أقول تلقيت خطاباً من الأقصر بإمضاء (غريب جادو) يثني فيه على الدراسات التي نشرتها (الرسالة) في تشريح الكتب الخاصة بمسابقة الأدب العربي. ثم يقترح أن أكتب مقالاً مفصَّلاً عن كتاب (المكافأة)، ومقالاً آخر عن كتاب (الأدب التوجيهي).

وأجيب بأني فصَّلت القول عن كتاب المكافأة ومؤلفه أحمد بن يوسف في بحث يقع في تسعَ عشرة صفحة من كتاب (النثر الفني)، وليس عندي ما أقوله بعد ذلك البحث المفصَّل، فمن كان يهمه أن يعرف أسرار (المكافأة) فليقرأ ذلك البحث. أما كتاب الأدب التوجيهي فسأخصصه بمقال أو مقالين بعد أسابيع.

الهجوم الآثم على الشيخ سيد المرصفي

كثرت الخطابات التي تَرِد إليّ في تحقيق ما ادعاه الأستاذ السباعي بيومي في حق الشيخ سيد المرصفي، وكنت أغفلت هذا الموضوع عن عمد، لأن الأستاذ السباعي له عليّ حقوق؛

فقد كان دائماً من أنصاري، ولم آخذ عليه ما يريب ولأن مقام الشيخ المرصفي أقوى من أن يُهدَم بكلمةٍ جارحة تساق إليه في إحدى المحاضرات.

ولكن سكوت الأزهريين عن الانتصاف للشيخ المرصفي أزعجني، وكنت أرجو أن يكونوا درعاً واقية لذلك الشيخ الجليل، وهو رجلٌ لم يرِ مِثله الأزهر منذ أجيال طوال.

فماذا أصنع؟

مضايقة الأستاذ السباعي بلاء، لأنه صديقي، والسكوت عن نصرة الشيخ المرصفي بلاء، لأنه أستاذي، فماذا أصنع؟

سأنقل القضية من وضع إلى وضع، فأصيرها قضية أدبية لا قضية شخصية، وأبيِّن أن السباعي بيومي يستُر جنايته على المبرِّد بجنايته على المرصفي.

ولكن كيف؟

سيرى صديقنا السباعي أن (تهذيب الكامل) لم يكن إلا جناية أدبية، وسيعرف أن التطاول على مقام الشيخ المرصفي لا يذهب بلا عقاب.

وقد زعم الأستاذ السباعي أن الشيخ المرصفي سرق بعض أفكاره، فليستعد للدفاع عن النظرية التي نهبها نهباً من كتاب (النثر الفني) ونشرها في مجلة (السراج) ولكن على شرط أن يؤمن في سريره نفسه بأني أكره البغي على أصدقائي، وأن أمري لم يكن إلا شبيهاً بأمر أكثم ابن صيفيّ حين قال: (إن قول الحق لم يَدَع لي صديقاً).

وإلى اللقاء في غير بغي ولا عدوان، فما أستبيح إيذاء أصدقائي، ولو ظلموا أنفسهم فظلموني.

زكي مبارك.

في الاجتماع اللغوي.

تطور الدلالة

أنواع التطور الدلالي وخواصه.

للدكتور علي عبد الواحد وافي.

مدرس الاجتماع بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

ترجع ظواهر التطور الدلالي إلى ثلاثة أنواع:

(أحدها) تطور يلحق القواعد المتصلة بوظائف الكلمات وتركيب الجمل وتكوين العبارة. . . وما إلى ذلك، كقواعد الاشتقاق والصرف (والمورفولوجيا) والتنظيم

(السنتكس). . . وهلم جرا. وذلك كما حدث في اللغات العامية المتشعبة من اللغة العربية إذ تجردت من علامات الإعراب وتغيرت فيها قواعد الاشتقاق واختلفت مناهج تركيب العبارات.

(وثانيها) تطور يلحق الأساليب، كما حدث للغات المحادثة العامية المتشعبة عن العربية إذا اختلفت أساليبها اختلافاً كبيراً عن الأساليب العربية الأولى، وكما حدث للغة الكتابة في عصرنا الحاضر إذا تميزت أساليبها كذلك عن أساليب الكتابة القديمة تحت تأثير الترجمة، والاحتكاك بالآداب الأجنبية، ورقي التفكير، وزيادة الحاجة إلى الدقة في التعبير عن حقائق العلوم والفلسفة والاجتماع. . . وهلم جرا.

(وثالثها) تطور يلحق معنى الكلمة نفسه، كأن يخصص معناها العام فلا تطلق إلا على بعض ما كانت تطلق عليه من قبل، أو يعمم مدلولها الخاص فتطلق على معنى يشمل معناها الأصلي ومعاني أخرى تشترك معه في بعض الصفات، أو تخرج عن معناها القديم فتطلق على معنى آخر تربطه به علاقة ما وتصبح حقيقة في هذا المعنى الجديد بعد أن كانت مجازاً فيه، أو تستعمل في معنى غريب كل الغرابة عن معناها الأول. . . وهلم جرا.

هذا وللتطور الدلالي بمختلف أنواعه خواص كثيرة من أهمها ما يلي:

1 - أنه يسير ببطء وتدرج. فتغير مدلول الكلمة مثلاً لا يتم بشكل فجائي سريع، بل يستغرق وقتاً طويلاً، ويحدث عادة في صورة تدريجية، فينتقل إلى معنى آخر قريب منه، وهذا إلى معنى ثالث متصل به. . . وهكذا دواليك حتى تصل الكلمة أحياناً إلى معنى بعيد كل البعد عن معناها الأول. فكلمة مثلاً كانت تطلق في المبدأ على صنف خاص من الأقمشة الصوفية ثم أطلقت على غطاء مائدة المكتب لاتخاذه غالباً من هذا الصنف، ثم أطلقت على مائدة المكتب نفسها، ثم أطلقت على مقرّ العمل والإدارة لملازمة المكتب له. فلا علاقة مطلقاً بين أول مدلول لهذه الكلمة وهو القماش الصوفي وآخر مدلول لها وهو مقر العمل والإدارة، على حين أن العلاقة وثيقة بين كل معنى من المعاني التي اجتازتها والمعنى السابق له مباشرة

2 - أنه يحدث من تلقاء نفسه بطريق آليّ لا دخل فيه للإرادة الإنسانية. فسقوط علامات الإعراب في اللهجات العربية الحاضرة، وتغير أوزان الأفعال، وتأنيث بعض الكلمات المذكرة، وتذكير بعض الكلمات المؤنثة، وجمع صفة المثنى، وتأخير الإشارة إلى المشار إليه، وتزحزح كثير من المفردات عن مدلولاتها الأولى إلى حقائق جديدة. . . كل ذلك وما إليه قد حدث من تلقاء نفسه في صورة آلية لا دخل فيها للتواضع أو إرادة المتكلمين

3 - أنه جبريّ الظواهر لأنه يخضع في سيره لقوانين صارمة لا يد لأحد على وقفها أو تعويقها أو تغيير ما تؤدي إليه. وإليك مثلاً حالة اللغة العربية، فعلى الرغم من الجهود الجبارة التي بذلت في سبيل صيانتها ومحاربة ما يطرأ عليها من لحن وتحريف، ومع أن هذه الجهود كانت تعتمد على دعامة من الدين، فإن ذلك كله لم يحل دون تطورها في القواعد والأساليب ودلالة المفردات إلى الصورة التي تتفق مع قوانين التطور اللغوي فأصبحت على الحالة التي هي عليها الآن في اللهجات العامية

4 - أن الحالة التي تنتقل إليها الدلالة ترتبط غالباً بالحالة التي انتقلت منها بإحدى العلاقتين اللتين يعتمد عليهما تداعي المعاني ونعني بهما علاقة المجاورة والمشابهة. فتارة يعتمد انتقال الدلالة على علاقة المجاورة المكانية، كتحول معنى ظعينة (معناها في الأصل المرأة في الهودج) إلى معنى الهودج ومعنى البعير؛ وتحول معنى ذقن في عامية المصريين إلى معنى اللحية، وتحول معنى من غطاء المكتب إلى المكتب نفسه، وكتأنيث الرأس في عامية بعض المناطق المصرية (انتقل إليه التأنيث من الأعضاء المجاورة له وهي العين والأذن). . . وهلم جرا. وتارة يعتمد على علاقة المجاورة الزمنية، كتحول معنى الوغى إلى معنى الحرب، بعد أن كان معناها اختلاط الأصوات في الحرب (فلا يخفي أن العلاقة بين هذه الأصوات والحرب هي علاقة المجاورة الزمنية)؛ وكتحول معنى العقيقة (هي في الأصل الشعر الذي يخرج على الولد من بطن أمه) إلى معنى الذبيحة التي تنحر عند حلق ذلك الشعر. وكتذكير كلمة (فصل الصيف) التي كانت

مؤنثة في الأصل لمجاورة مدلولها مجاورة زمنية لمدلول كلمة مذكرة وهي فصل الربيع. وتارة يعتمد على علاقة المشابهة، كتحول معنى الأفن (وهو في الأصل قلة لبن الناقة) إلى معنى قلة العقل والسفه، وتحول معنى المجد (وهو في الأصل امتلاء بطن الدابة من العلف) إلى معنى الامتلاء بالكرم. . . وهلم جرا

5 - إن التطور الدلالي في غالب أحواله مقيد بالزمان والمكان. فمعظم ظواهره تقتصر أثرها على بيئة معينة وعصر خاص. ولا نكاد نعثر على تطور دلالي لحق جميع اللغات الإنسانية في صورة واحدة ووقت واحد

6 - أنه إذا حدث في بيئة ما ظهر أثره عند جميع الأفراد الذين شملتهم هذه البيئة. فسقوط علامات الإعراب في لغة المحادثة المصرية لم يفلت من أثره أي فرد من المصريين

ومن هذه الخواص يتبين فساد كثير من النظريات القديمة بصدد هذا التطور فليس بصحيح ما ذهب إليه بعض العلماء من أن هذا التطور نتيجة لأعمال فردية اختيارية يقوم بها بعض الأفراد وتنتشر عن طريق المحاكاة

وليس بصحيح كذلك ما ذهب إليه أعضاء المدرسة الإنجليزية وبعض الباحثين من الفرنسيين كالعلامة بريال إذ يرون أن التطور الدلالي يسير باللغة نحو التهذيب والكمال ويسد ما بها من نقص ويخلصها مما لا تدعو إليه الحاجة. وذلك أن اتجاهات كهذه لا يمكن أن تتحقق إلا في تطور اختياري مقصود تقوده الإرادة الإنسانية في سبيل الإصلاح. أما وقد ثبت أن التطور الذي نحن بصدده تطور تلقائي آلي لا دخل فيه للإرادة الإنسانية فلا يتصور أن يتقيد في اتجاهه بالسبل التي تقول بها هذه النظرية.

وإن موازنة بين الحالة التي كانت عليها اللغة العربية فيما يتعلق بدلالة ألفاظها وقواعدها في الإعراب وغيره وما آلت إليه في اللغات العامية الحاضرة لأكبر دليل على ما نقول؛ فمن الواضح لان هذا التطور لم يتجه دائماً نحو التهذيب والكمال، بل أدى في معظم مظاهره إلى اللبس في دلالة

الكلمات والخلط بين وظائفها وأنواعها وجرد اللغة مما بها من دقة وسمو، وهوى بها إلى منزلة وضيعة في التعبير. وما حدث في اللغة العربية بهذا الصدد مثله في كثير من اللغات. وإليك مثلاً قواعد اللغة اللاتينية التي انقرضت في اللغات المتشعبة عنها، فإن معظم هذه القواعد كان كبير الفائدة في بيان وظيفة الكلمات وتحديد مدلولاتها وتعيين العلاقات التي تربط عناصر العبارة بعضها ببعض، وقد أدى انقراض هذه القواعد في اللهجات المتشعبة عن اللاتينية إلى كثير من اللبس والاضطراب

حقاً إن هذه المذاهب تصدق على بعض مظاهر التطور الدلالي الخاص بلغات الكتابة، فتطور لغات الكتابة يعتمد في كثير من نواحيه على عوامل أدبية مقصودة ترمي إلى تنقيح اللغة وتهذيبها والسير بها في سبيل الكمال.

علي عبد الواحد وافي
ليسانسيه ودكتور في الآداب من جامعة السوربون

4 - أومن بالإنسان!

للأستاذ عبد المنعم خلاف

عود لتوضيح معنى جليل - دنيا المهندسين - صوفية مادية) - إلى المعتمدين على المباحث الروحية - نتائج لقانون التسلسل والترقي - فرضية لا بد منها - إشارة قرآنية عجيبة - ضروب من العقول - أدوار المعرفة وأدوار العلم - إنسانية الشرق المضيعة - العلم دين - أين رجال القمة في الفكر والخلق؟

يدفعني التفاوت الكبير الذي أشرت إليه سابقاً بين قوة بعض الآلات التي صنعها الإنسان من الحديد وغيره من المعادن وبين قوة الحيوان والإنسان نفسه، إلى أن ألح بالبيان والتوضيح على هذا الموضع لأثبت به الحجة في الدعوة إلى الثقة بالإنسان بعد أن استطاع أن يصنع موجودات عظيمة وقوية تخلفه وتخلف الحيوان في السرعة والاحتمال والانبعاث والدقة في الحساب والرصد وقياس الدقائق وإبراز الخفايا وجلب المنافع والأضرار.

وهذا لا يعني أن هذه الآلات مستقلة بحياتها ومدركة لما تفعله، ولكنه يعني أن الإنسان

مد حياته وتفكيره إليها، وأقامها مكانه في رصد حوادث الحياة وأداء بعض أفعاله فيها كي يتفرغ لغيرها ويتجه إلى فتوح وغزوات جديدة في مجاهل الكون. . .
ولست أستطيع أن أغفل هذا التفاوت العظيم بين هذه الآلات، وبين النماذج الحية من أجسام الحيوان التي اتخذها الإنسان أساساً لعمله وطرق إيجاد ما أوجده بدون أن أصل منه إلى مدى بعيد من الاستنتاج قد ينفع العلم وينفع الدين وعلم الاجتماع في تحديد وضع الإنسان. . .
وينبغي قبل كل شيء أن أقول لمن عساهم يخشون من مغالاتي في تقدير قيمة الإنسان وإعجابي بما صنعه من الآلات التي فاقت قدرة الحيوان وقدرته هو على العمل والاحتمال آلاف الأضعاف: إنني لا أبغي من وراء ذلك إلا لفت أنظار الغافلين إلى قدرة الفكر
الإنساني وإلى وجوب تمجيده عن السفساف الحقير من التصرف وإطلاقه يرود وينظر ويعمل في ملكوت الطبيعة. . .
ولا أقصد بتمجيد الفكر الإنساني إلا تمجيد بارئه وواضع أسراره في هذا الجسم المحدود الضئيل. . . فلا يتوهمن متوهم أنني سأخرج بغلوي في تمجيد الإنسان إلى شيء أشبه بإشراكه في الخلق والإيجاد، فإنني قد حددت هذا النوع في مقال سابق بأنه آلة في يد البارئ يتمم بها التنويع والتفريع في خلق المادة وتصويرها.
ولا يسعني غير هذا بعد أن رأيت وفكرت في أعمال تلك الطائفة المجيدة التي لم يلتفت إلى وضعها في الحياة بعد ولم يعرف لها خطرها في تحقيق الغرض من خلق النوع ولم ينظر إليها ولم تنظر لنفسها نظراً صوفياً. . . وأعني بها طائفة المهندسين. . . أولئك الشعراء الصامتين الذين يرسلون قصائد مجسمة ويفعلون الأعاجيب من المواد المبعثرة المشوشة المختلطة الملقاة بدون نظام وتنسيق، ويقيمون منها هذه الأشكال الموزونة المصقولة المنوعة التي عملت فيها آلاف العقول والأيدي بالتلوين والتزيين والإخراج الفَنّي الغني باللفتات الذهنية واليقظة لألوان الشفق وأفواف الزهر، ومزج الأضواء والظلال. . .
أو يقيمون أجساماً آلية تنبض بالنار والبخار وتسعى بهما أو بالكهرباء وتضيف إلى عالم الحركة في الأرض قوى أخرى تملأ مسمع الزمان مع كل ما يدور فوق وتحت. . .
أولئك الذين تسير أعينهم على مواقع يد الله يلقطون أسرارها من غُمار الحياة الزاخرة وعباب المائع و (المتبلور) والجامد، ثم ينظمون كل هذه الأفانين ويتخذونها أساساً لقوة التقليد وقدرة الابتكار التي في أفكارهم وأيديهم
أولئك الذين يسيرون على أسلوب الله من العمل في المادة مع الصمت. . . ويتلقون فيوض المواد والقوى الطبيعية من يده الكريمة فيقسمونها ويوزعونها ما أراده فيها ويجلون ما أخفاه في أطوائها وثناياها ثم يضعونها في الأرض مجملة منسقة متاعاً للعيون ومثابة للأجسام ومظهراً وتأويلاً لأحلام الروح في عالم الجمال
ولن ينتهي العمل الهندسي للإنسان في الأرض إلا بعد أن يملأ شعابها وهضابها وهواءها وماءها وسهولها وأوعارها بآثار يده وفكره. فإنه مخلوق برهن على أنه يصلح للعيش في اليابس والماء والهواء، وأنه لا شيء إلا وهو واجد فيه حقلاً ليده يعمل فيه ويأخذ منه. . .
وإنني ما سمعت صوت قارئ واحد يتلو كلام الله في تمجيد ذاته العليا في محطة الإذاعة فتردد صوته جميع آلات الالتقاط في جميع الأنحاء وتبث ذلك التمجيد إلى زوايا الدنيا وأركانها وطبقات الجو إلا أحسست أن الإنسان ابتدأ يؤدي رسالته وعبادته ويُنطق بها الجماد ويُسمع بها على رغم الأبعاد. . .
تلك صوفية مادية حديثة ينبغي أن تكون من مظاهر التدين في هذه العصور التي تسير فيها المدنية المادية بحياة الإنسان في ساعة واحدة أضعاف ما كانت تسير به مدنيات العصور السالفة في عشرات السنين. . .
نعم إن أصول الدين واحدة ثابتة لا تتغير، ولكن ما نشأ حولها بفعل جهالات الإنسان وتزيداته ينبغي ألا يجعلنا جامدين متحجرين في طرق العبادات، فنفهم أن عباداتنا قاصرة على الأشكال الموروثة بل يجب أن تكون انتقالات العلوم بنا سبباً في أن نعبد الله بها وأن يزيد فكرنا فيه من أجلها. وتلك عبادة مطلقة من قيود الطقوس والرسوم والأشكال. . . عبادة يستطيع أن يقوم بها من يسير بسرعة ألف ومائتي ميل في

الساعة. . . ويرتفع إلى طبقات الجو العليا، وينخفض إلى أعماق البحار السفلى. . .
ويتنفس في أقصى الشرق فتسمع أنفاسه من أقصى الغرب. . . ذلك الذي يستطيع أن
. . .يترك في كل مكان كلمة تشهد بالله وينطق بها الأحجار والأشجار والماء والهواء
فبين العلم المادي والتصوف هنالك يجب أن يقف الإنسان الحديث ينادي الله وفي
!. . .قبضة يده مفاتيح أسرار المادة ونواميسها وفي قلبه صلاة دائمة جامعة
وهذه الصوفية المادية تمجد العلم المادي والعمل به وتخضع لدولة الأجسام ولا تثور
عليها ولا تعطل قواها بل تنميها، لأنها تعرف أننا ما خلقنا في عالم الأجسام إلا لنعرف
قوانينها ونؤمن بها.
وينبغي أن نقول هنا لبعض المغرمين بمباحث الروح الذين يفرحون إذا عثروا على
حادثة غريبة لا يمكن تفسيرها تفسيراً مادياً ليتخذوها حجة على وجود قصد وعالم آخر
وراء هذا العالم المادي: إن ما تغرمون به وتنفقون حياتكم من أجله لا يمكن أن يبلغ
مهما كثر إلى معشار الحجج التي تستطيعون أن تأخذوها من ذلك العالم الظاهر
المليء بالعجائب والمعجزات التي لا تحتاج العقول معها إلا إلى حركة ارتداد إلى
مبادئ الأشياء، وإلا إلى
اليقظة الدائمة لمراقبة كل شيء والدوران حوله.
وما حاجتنا إلى أن نستمد من عالم غير مرئي حججاً إن رآها شخص فسوف لا يراها
آلاف؟ مع أن ما بين أيدينا وما خلفنا مليء بالعجائب التي يراها كل فرد، ويخضع
للمنطق المستمد منها كل سليم الطبيعة غير شاذ ولا شارد. (وكأيٍّ من آية في
السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون)
فنحن نستطيع بجهد فكري قليل أن نأخذ من هذا العالم المادي الظاهر أدلة كثيرة على
أن وراء عالماً آخر بل عوالم أخرى مجردة من قيود حياتنا هذه ولو لم نر من ذلك
شيئاً. . . فإن الرؤية ليست هي الطريق الوحيد إلى التصور والحكم.
والنظرة العلمية المبنية على إدراك قانون الترقي وقوة التطور تبين لنا أنه ما دام قد
وقف الإدراك بواسطة جسم من الأجسام عند حد الإنسان بعد أن تدرج إليه في سائر
أنواع الحيوان، فينبغي أن يكون وراء الإنسان أفق حياة عاقلة أخرى هي بطبيعة سلم
الترقي مجردة من الأجسام. وكما أن هذه الآثار والمشاهد البارعة التي نراها في
العالم المادي نتيجة لعوامل خفية نوعتها وشكلتها فلا بد أن يكون في غير الأرض آثار
ومشاهد أخرى هي نتيجة لعوامل ونواميس أخرى غير التي كان من نتائجها ظهور
عالمنا الذي ندركه بحواسنا. وهذا هو اللائق باتساع الكون الذي أرضنا فيه كذرة رمل
في صحراء. فلا يصح أن تكون أساساً في الحكم على جميع ما فيه.
وهذا حكم نحكمه خضوعاً للفرضية الآتية التي تحل لنا هذا الإشكال وإن أوقعتنا في
غيره. . .:
تخيل إنساناً خرج إلى الحياة أعمى أصم أبكم معدوم اللمس والشم. . . فهل مثل هذا
يكون لعالمنا وجود عنده؟ بالطبع، لا. . . ولكننا مضطرون إلى أن نحكم أن عالمنا هذا
موجود ولو لم يوجد في حواس هذا الممسوخ. . .
وكذلك نحن مضطرون إلى أن نحكم أن وراء عالمنا هذا عوالم أخرى، ولو لم توجد لنا
حواس تدركها. . . لأن هذا هو الذي يتلاءم مع اتساع الكون واتساع قدرة المسيطر
عليه، واتساع عالم المفروض والصور في بعض العقول.
وقد أشار القرآن إلى معنى عجيب يتفتح معه خيالنا ويأخذنا في عالم لا نهاية له من
المفروض وإن كان لا طاقة لنا بإدراك ما فيه من الصور. قال: (أفرأيتم ما تُمْنوُن؟
أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون؟ نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن
نبذل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون. . .).
وما تحته خط هو موضع النظر الطويل، وباب للخيال المجَنَّح. . . ولكنه خيال مطموس
الصور لأنه لم يجد أصباغاً وألواناً ينتزع منها ما يريد أن يؤلفه ويركبه ويَفتَنَّ في تهاويله.
وكيف ذلك وقد قالت الآية: (فيما تعلمون. . .!)
وينبغي لمن لم يدرك ألا ينكر على من أدرك. . . فإن جوانب الكون واسعة ورسالات
علم الله إلى العقول كثيرة. . . وليست كل العقول قادرة على الغوص في أعماق
الكون. كما أنه ليست كل الأجسام قادرة على الغوص في أعماق الماء. فمن لم
يستطع السباحة والغوص في تلك اللجج والرجوع إلى الشاطئ فليلزم وليحذر حتى لا

. . .يغرق ويذهب في أهوال المعاني
وما في العالم (المتبلور) (شيء تافه بالنسبة للعالم الذي تلتقي فيه أمواج المعاني
ويعب عباب الفروض والغيوب والرموز، ولكن ما فيه لا يكون أساساً لأحكام الحياة
الدنيا. . . وعقل الإنسان كطفل الأم: ينبغي إلا تطلقه في المخاطر والمزالق إلا إذا
. . .شب وكان له قوة واقتدار
ومن المعقول نوع لا يعيش إلا في أعماق الكون. فإذا طفا على السطح وأخذ بظاهر
. . .الحياة اختنق وقلت فيه الحياة، كالسمك الكبير
. . .ومن العقول ما هو مساير لظاهر الحياة لا يتخلف عنها ولا يتقدم
ومن المعقول ما هو واقف متخلف انقطعت به الطريق فلم يصل إلى العالم الفكري
الموجود الآن في أذهان الأمم المتحضرة، وهذا عقل مخروم فاته كثير من رسائل الله
.إلى الفكر الإنساني
ومن العقول ما هو أسرع من الحياة بحيث يرى مشاهد آخر ساعة فيها كصور مكررة
قديمة لا تثير في نفسه تطلعاً، فلو خرج من الحياة لم يخسر شيئاً ولم يفته شيء،
.وهذا هو العقل الفائق السابق
والنفس إذا عرفت قرار الحياة وأولها لم تبال بما يحدث في فروعها من تلون وتبدل، وما
عند هذا الصنف من صور كمال الحياة أرحب من الموجود وأكمل. فهو يسير في
مستحدثات الأيام كما يسير المرء في طريق معروفة له تردد عليها مراراً من كثرة
.فكرة في الموجود والمعدوم وما يصح أن يوجد
وهذا قد يعمل في الحياة بجد وصبر، ويسير كما يسير الغافلون بدفعة دولاب الحياة،
وطواعية لحركات سيرها بالناس. وإنما يطيع آمالها ويزاول أعمالها خضوعاً لقانونين
. . .عظيمين من قوانينها: وهما الأمل والعمل
وهكذا الطبيعة رسالات من علم الله إلى الفكر الإنساني العام. يتلقاها كل عقل حسب
. . .طاقته واتساع حوزته، ويأخذ منها ما قدر ويسر له
فينبغي لمن لم يدرك ألا ينكر على من أدرك. . . ينبغي لرجل الشارع ألا يجادل في
عالم (أينشتين) أو (أديسون) أو الغزالي من إليهم من العقول الفائقة التي أطلت على
الأرض وكانت فيها كالثمرات التي تلقط أسرار نوعها وتحفظ بذوره وترقيها
وبين الإله البارئ الكبير وما عنده من عوالم المعاني والقوى المجردة والكمالات التي
لا تتناهى، وبين عالم المولد والكثافات، وقف الإنسان التائه المتأمل الساعي وراء
المعرفة حيناً من الدهر لم يتقدم فيه خطوات كثيرة، ثم انقسم فريقين: فريقاً استمر
في التفكير المجرد في الطبيعة وما وراءها، وأدرك بعض اتجاهات الكون باللمحات
والنظرات الشعرية الخاطفة، وقنع بذلك حتى خرج من الحياة (عارفاً) غير (عالم) ولا
. . .(عامل)
وفريقاً أعياه التفكير المجرد، ولم يجد له محصولاً يملأ يديه ويشهد له الناس بأنه أدركه
وقنصه، فانصرف إلى أنواع الحياة في الأرض وأشكال المادة يعبث فيها ويدور حولها
ويخرج أسرارها حتى (علم) ثم أخذ يقلد ويبتكر
وكما أن الأقدمين كانوا ينظرون إلى أعمال الطفولة وحب استطلاعها الأشياء على أنها
عبث ولعب لا طائل تحته. . . كذلك نظروا إلى أعمال أكثر الرجال في المادة وتنويعها
وملء الحياة بضجاتها وأصواتها على أنها عبث ولعب لا يليق بمن يسير إلى الموت
والفناء. وكان المثل الأعلى للحياة الصالحة عندهم أن يطلق الناس أعمال الدنيا
ويذهبوا إلى المعابد والمعاهد يتلون الأوراد ويفلسفون ويرسلون الأشعار ولا يرفعون
في الأرض حجراً على حجر، فيكونون عنصراً مستهلكاً غير منتج يأخذون من الحياة
أغذية وأعمالاً،
ولا يعطونها إلا أقوالاً وأشعاراً، ويقفون في طريق تحقيق بعض الغايات الكبرى من
خلق الإنسان
هؤلاء لا تزال منهم بقايا كثيرة في الشرق، بل هم الكثرة الغالبة فيه. وهم الذين جعلوا
إنسان الشرق كأكداس الحصيد وأهراء الغلال التي تترك في أماكنها حتى تقتلها الآفات
وينخر فيها السوس. . . وهم بذلك يضيعون على الإنسانية ثروات تحصل عليها من
تشغيل أفكار هؤلاء الملايين وأيديهم. وهم بذلك يتركون أفراد الناس من غير تنسيق

. . .وتنظيم في الحشد والتعبئة للمعابد والمعاهد والمعامل والحقول والجيوش
هؤلاء ينبغي أن زيلوا عن عيونهم غشاوات القرون الأولى ويعدلوا أفكارهم على
مقتضى ما توحيه سنن الله الدقيقة التي تجعل من تصرفات جميع قوانين الطبيعة في
وقت واحد لحناً موسيقياً متسقاً يشترك في توقيعه كل شيء. . . ويعلموا أن الكفر
بعلوم الطبيعة والفسق عن نظمها كالكفر بعلوم العقائد والفسق عن نظم الأخلاق
إن الإيمان بالعلم وتنظيم الحياة الإنسانية بطرقه وإطلاق الأفكار فيه هو الدين الواحد
الذي يدين الإنسانية جميعها وتلتقي عليه بأفكارها وأيديها. . . وقد جعلها تلمس عرشها
. . .المرموق، وتعرف دولتها المأمولة في مستقبل الحياة
ولكن أين العصا السحرية التي ستفعل في تعديل شهوات الأمم وغرائزها وتعصباتها
الذميمة، بحيث تجتمع على خدمة العلم والحياة بأفكارها وأيديها؟
ذلك ما يسأل عنه رجال التربية والمفكرون في الدين والاجتماع
. . .رجال التربية فلاحو حقول الطفولة: منطقة النمو الدائم وعُلَب أسرار المستقبل
. . .ورجال الفكر رسامو المثل العليا القادرون على استدراج الناس إليها وسجنهم فيها
ولكن هؤلاء وأولئك لا يزالون بعيدين عن مقاليد الحكم وتسلم مقاود القطيع بينما
مكانهم هناك لو صحت الأوضاع. . . ولا يزال محترفو السياسة والدجاجلة بها
. . .المتخلفون عن بلوغ القمة في الفكر والخلق هم الغالبين المتسلطين
. . .وهؤلاء هم سر البلاء النازل الآن بالناس، كما كانوا في القديم
عبد المنعم خلاف

لست أومن بالإنسان

للأستاذ زكي نجيب محمود

وقع لي منذ سبع سنوات كتاب، لعله أنفع ما قرأت من الكتب، لأنه غاص بي إلى قلب
الطبيعة ولبابها؛ فقد كنت قبل قراءته لا أفهم إلا عن بني الإنسان دون ألوف الألوف
من الكائنات التي تملأ فجاج اليابس وأغوار الماء، فعلمني هذا الكتاب النفيس كيف
أفهم عن الحيوان ما يريد. فلئن كان الإنسان يلوك لسانه يميناً ويساراً ويخبط به أعلى
وأسفل ليرمز بهذه الحركات إلى معان، فليس الحيوان بأقل قدرة منه في ذلك.
يتناقل أفراده المعاني بهز الأذناب وتحريك الأهداب. . . وقد كان علمي بلغة الحيوان
موضوع فكاهة وسخرية من أصدقائي جميعاً، يلذعونني بنكاتهم كلما نهق حمار أو
زقزق عصفور، ولكني مضيت في دراستي لا يثنيني ما لقيت في الدرس من مشقة
وعناء، لأني رأيت أنه إن جاز لمعاهد العلم أن تفني من طلابها زهرات أعمارهم في
دراسة لغة قديمة دَرَس أهلها وطواهم الزمن في جوفه العميق، فخليق بواحد من بني
آدم أن يعتني بلغات (أقوام) تعاصرنا وتعاشرنا وتبدل لنا وحشة العالم بهجة وأنسا.
وأحمد الله أن كتب لي التوفيق فأعانني على بلوغ ما أريد. فهاأنذا أجلس إلى مكتبي
ذات مساء، والليل منشور الذوائب ضارب بجرانه، والسكون عميق لا أسمع فيه إلا
حفيفاً خفيفاً وهمساً خافتاً، وهاتان فراشتان قد التقتا تحت مصباحي وأخذتا تسمران
. . .بحديث رائع جذاب، لم أملك معه إلا أن ألقي الكتاب جانباً لأنصت
- لقد أنبأتني زميلة حديثاً عجيباً هذا المساء: أنبأتني أن كاتباً بليغاً من بني الإنسان قد
رفع القلم يجول به ويصول في عشيرته من بني آدم، ليقول في ورع وإيمان إنه يؤمن
بالإنسان!
- وفيم كل هذا العناء؟
- لأنه واحد من بني الإنسان! يا ليت شعري ماذا تقول الأبقار لو تحركت بين حوافرها
الأقلام، وماذا تزعم الأطيار لو كان تغريدها كلاماً من الكلام؟
- وهل تؤمن البقرة إلا بفصيلة الأبقار، والعصفور إلا بقبيلة الأطيار؟
وجاء برغوث يقفز حول الفراشتين جذلان فرحاً، ويحوم فوقهما صاعداً هابطاً؛ ولم أكن
وا
أسفاه قد أتقنت لغة البراغيث لما فيها من عسر وتعقيد، ولكني استطعت رغم ذلك أن
ألتقط من حديثه مع إحدى الفراشتين ألفاظاً متناثرة علمت منها ما يريد.
قالت فراشة تحدث البرغوث الوثاب، وقد ضاق صدرها بلهوه وعبثه:
- هلا اصطنعت يا أخي شيئاً من الجد في ساعة يجد فيها الحديث؟ ما كل ساعة للهو
والطرب

- وفي أي أمر خطير تتحدثان؟
- في هذه النشوة التي أخذتك بغير مبرر معقول
- وأي حافز للطرب أشد وأقوى من عالم فسيح خلقه الله لي ألهو فيه وأمرح؟ . . .
فقالت الفراشة الثانية:
- أخلق الله هذا العالم الفسيح لك أنت؟ وماذا تقول إذن في الإنسان الذي سخر الطبيعة بعقله الجبار؟!
- ومن تقصدين؟ أتريدين هذا الحيوان الذي ضمرتْ فيه رِجلان وطالت رِجلان؟ هل تعلمين لماذا خلق الله هذا الإنسان؟ هل تعلمين فيم سعى هذا المسكين آناء الليل وأطراف النهار؟ ليطعمَ فيجود لحمه فيصبح طعاماً شهياً للبراغيث. ألا ما أشقى عالم البراغيث إن لم يكن بين صنوف الحيوان هذا الإنسان!!
وجاءت بعوضة تسعى، تهز جناحيها الصغيرين طياً ونشراً، وأخذت تدنو من الفراشتين قليلاً قليلاً، ومالت برأسها تستمع للحديث، فلما استجمعت أطرافه اقتربت من الفراشتين ولبثت بينهما صامتة. وحدِّث ما شئت عما ملأ نفسي من سرور حين رأيت البعوضة تهم بالكلام، لأنني بلغت في فهمها حداً بعيداً بحيث لا تخفى علي من ألفاظها خافية، ولأني عهدت في البعوض حكمة عجيبة وعلماً واسعاً، لست أدري أنى له بمثله، ولا أنفك يوماً عن التفكير في هذه الحشرة الغريبة، فهل جاءها العلم مكسوباً من تجاريب الحياة، أم هو موهوب مفطور في جبلَّتها؟
قالت البعوضة بعد صمت:
- فيم الحوار؟
فأجابت الفراشة المتحمسة، ولعل حماستها مستمدة من شبابها:
- في آدمي زعم لقومه أن كل شيء في الطبيعة يرقب أملاً واحداً هو الإنسان، كما ينتظر كبار البيت بلوغ طفل عزيز: كل شيء في البيت مسخر للطفل، يضحك له إذا ضحك، ويألم إذا تألم! ثم زعمه لقومه - ويا هول ما زعم - أن الليل والنهار والحيوان الآبد والداجن، والأزهار والثمار والأنهار والجبال، وألوان الشفق في الأصائل والأسحار. . . كل هذا وغير هذا من صنوف ما يطوي الكون بين دفتيه، إنما خلق للإنسان!!
قالت البعوضة:
- ومن يكون هذا الإنسان؟
- قرد نهض على قدميه
- أو يكون النهوض على الأقدام كفيلاً له بهذا كله؟ هل تعلمين يا عزيزتي أن هذا الإنسان أحدث صنوف الحيوان عهداً بهذه الأرض.
- عرفت ذلك من زميلتي منذ دقائق.
- إن كانت كائنات الله قد خلقت لينعم بها الإنسان وحده، فمن ذا كان يستمتع بها قبل ظهوره؟
فأجابت الفراشة العجوز في رزانة:
- قال كاتبهم هذا البليغ، إن ذلك كله صُوَرُ جاءت قبله لتزخرف له المسرح. . . إنها حروف تتألف منها الرواية التي يمثلها الإنسان!
- ويحه! هل صَوَّرَ الخيال لهذا المغرور أن الله قد زَيَّنَ الطاووس بريشه الجميل ليُمتِعَ الإنسان ناظريه، ورقَّشَ الأفعى لينظر إليها الإنسان وهي تتلوى وتتحوى في صندوقها الزجاجي في حديقة الحيوان؟ وماذا هو قائل قي الجراثيم التي تفتك ببدنه لتعيش؟ تلك الجراثيم التي إن أفلح في نزع واحدة منها مما يسكن في جوفه، باضت له ألوف الألوف من صغارها؟. . . لو أنصف المسكين لعلم أن الله جلت قدرته أبدع قصيدة الكون العظمى منظومة منغومة، والإنسان بيت من أبياتها. إن سر الوجود ليستعلن في الجرثومة الضئيلة كما يستعلن في الإنسان والقرد والأفعى! إنها أنغام تتسق كلها لتنشئ موسيقى الوجود! وهل يعظم الشاعر ببيت واحد أكثر مما يعظم بقصيدة عامرة بالأبيات والقوافي؟
فقالت الفراشة العجوز:
- أراكم تعجبون وليس في الأمر ما يدعو إلى العجب! لقد ذكرتم أن الإنسان بين صنوف الحيوان طفل وليد. إنه ما يزال يعبث في مهده ويلهو، أفيكون عجيباً من

الطفل أن يتشبث بالأشياء ويمسك بها في قبضته صائحاً: هذا كله لي، لي وحدي دون سواي؟ فاغفروا له هذه النزعة الصبيانية حتى تُعَلمه الدهور أنه جزء من كلٍّ عظيم. . .
وهنا قفز البرغوث قفزات لفتت له الأنظار، فقال:
- حدثوني - نشدتكم الله - ماذا حدا بالإنسان أن يتبجح فيزعم لنفسه ما زعم؟
فأجابت الفراشة المتحمسة:
- أغراه بذلك ما له من علم وأخلاق؟ وما يدري أنه بعلمه يكمل النقص في غريزته وفطرته، وأن أخلاقه حين تحلم بالمثل الأعلى فهي أحلامها دون ما يسود ممالك النمل والنحل من أخلاق! إن الحيوان لا يعرف العري والجوع، وأما الإنسان بكل ما له من علم وأخلاق. . . آه! وددت لو خرج هذا الكاتب البليغ من لفائفه (الصوفية) فيخوض في برد الليل ساعة فيرى بني جنسه قد ألقاهم البؤس في العراء. حرمتهم الطبيعة الفراء اتكالاً على علم الإنسان وأخلاقه، فعجز العلم والأخلاق أن يهيئا لهؤلاء الأشقياء وطاء أو غطاء! وددت لو خرج الكاتب البليغ لحظة من (تصوفه) الذي يدفئه بين جدران داره وفوق حشايا مخدعه ليرى كم من بطون قومه قد باتت خاوية على الطوى. . . ولكنه لن يبارح هذا الغشاء (الصوفي) ليرى الحقيقة (عارية) حتى يخزه في رقاده واخز.
فقال البرغوث وهو يثب في جذل طروب:
- لكم مني هذا الصنيع. والله لأقُضَّنَّ مضجعه هذا المساء، لعل السهاد أن يحفزه على التفكير في هؤلاء الذين ينبتون القمح حتى يملأ الأهراء ثم لا يأكلون، والذين يزرعون القطن حتى تغص به المخازن ثم لا يكتسون. . . والله لأؤرقنه هذا المساء لعله يعيد التفكير في هذا الإنسان الذي يقتل بعضه بعضاً بأدوات من العلم، ويهلك بعضه بعضاً بنزوات من الأخلاق.
وقال ذلك البرغوث وانصرف، وكان الليل قد انتصف، فأطفأت سراجي وأويت . . .
إلى مخدعي، وبي إشفاق على صديقي خلاف من هذا البرغوث اللعين!
خلافُ يا صديقي لا تسرف! أفيكون هذا الإنسان الذي جارت به السبيل والدليل جديراً منك
بالإيمان؟
زكي نجيب محمود
أسبوع في تاريخ الأزهر.
للأستاذ محمد محمد المدني
ليست الأزهر جامعة من الجامعات المحدثة التي عاصرت جيلاً أو جيلين من الزمان؛ وليس الأزهر وليد ثقافة واحدة لم تبلُها الأحداث، ولم تصقلها التجارب، ولم تمحصها العقول والأيام. . .
إنما الأزهر تاريخ حافل بأمجد الذكريات، وسفر ممتلئ بأروع الآثار؛ إنما الأزهر عمر ثقافة عالية في اللغة والفقه والتشريع، ومثال من أمثلة التدرج الهادئ الرزين في العلم والتفكير والنضوج.
أليس من العجيب مع هذا أن يقال: (أسبوع في تاريخ الأزهر) وهل تحسب الأسابيع والشهور في تاريخ طويل ممدود لا يحسب بالعشرات من السنين، وإنما يعد بالمئين؟ بلى أنه لعجيب، ولكنه مع ذلك الأسبوع، وسيظل أسبوعاً معروفاً متميزاً لا تغمره هذه المئات من السنين!
ذلك هو الأسبوع الذي ابتدأت فيه مناقشة الرسائل التي قدمها لأول مرة الطلاب المتخرجون من كلية الشريعة لنيل شهادة (الأستاذية) في الشريعة الإسلامية
احتفل الأزهر بهذه المناسبة احتفالاً ظاهراً لا فيما أعده لها من مكان منظم منسق، ولا فيما وضعه لها من نظام محكم دقيق، فإن الأزهر يسير في أمثال هذا على طبيعته الساذجة التي لا تعرف الدعاوة ولا تحب الإعلان.
ولكنه كان احتفالاً ظاهراً لما احتشد له من علماء وطلاب، ولما شهده من رجال الفكر وأهل العلم، ولما ضم في نسق واحد بين ألوان مختلفة من التفكير، وعناصر متباينة في وجهات النظر.
جمع هذا الحفل بين العالم الكبير الذي عاش طول حياته في ظل ثقافة محافظة ترى التجديد خروجاً على الدين، وافتياتاً على السلف الصالح من علماء المسلمين، وترى الاجتهاد والنظر مزلقة من مزالق الهوى والضلال، وبين العالم الشاب الذي يرى الحياة

أمام عينيه قد اصطبغت بصبغة غير التي يعهدها هؤلاء الآباء، واتسمت بطابع غير هذا الطابع الذي ألفوا أن يروها متسمة به، والذي يرى من حقه بل من واجبه ألا يعيش بعقله وروحه في
عصور عفّي عليها القدم، وأخنى عليها الزمن، بينما يعيش بجسمه وعمله في عصر العلم، والتفكير الحر، والتجديد النافع!
جمع هذا الحفل بين العالم الذي ظل عمره في أحضان الأزهر وبين ريوعه، وبين العالم الذي عاش دهراً في أوربا فرأى ما لم يكن قد رأى، وعلم ما لم يكن قد علم، فاشتجر في نفسه القديم مع الحديث، وامتزج في ثقافته الشرق بالغرب.
وكنت ترى إلى جانب هؤلاء وأولئك طلاباً أزهريين يحرصون في لهف وشوق، وإلحاح وإصرار على شهود هذا الحفل، والاستماع إلى نقاش فيه وجدال بين طالب منهم، وأعلام من أساتذتهم على أساس الحجة والبرهان، والبحث الحر، والنهج العلمي المستقيم.
وكنت ترى في هذا المحيط الأزهري الصاخب زواراً من غير الأزهر، جاءوا ليشهدوا هذه المناقشة العلمية التاريخية التي تدور في الأزهر لأول مرة والتي يرأسها رجل من أفذاذ المفكرين، وكبار المصلحين، وهبة الله عقلاً ممتازاً وفكراً رشيداً وقلباً جريئاً.
ودارت المناقشة، وتجلت فيها حرية الرأي سافرة ليس من دونها حجاب، سليمة لم تفسدها مداراة ولا مصانعة ولا تخوف. وانطلق العلم فيها على سجيته لا يتعثر في تركيب من تراكيب المؤلفين، أو لفظ من ألفاظ المصنفين، وسمعنا مبادئ لا نعدو الحقيقة إذا عددناها جديدة في جو الأزهر، أو حسبناها توجيهاً صالحاً للتفكير العلمي بين العلماء والطلاب، ومبدأ لتحول دراسي خطير في حياة هذا المعهد العظيم
وكان من المبادئ الجليلة التي سمعناها ما قرره فضيلة الأستاذ الإمام المراغي من أن الدين في كتاب الله غير الفقه، وإن من الإسراف في التعبير أن يقال عن الأحكام التي استنبطها الفقهاء وفرعوا عليها، واختلفوا فيها، وتمسكوا بها حيناً، ورجعوا عنها حيناً: إنها أحكام الدين، وأن من أنكرها فقد أنكر شيئاً من الدين، فإنما الدين هو الشريعة التي أوصى الله بها إلى الأنبياء جميعاً؛ أما القوانين المنظمة للتعامل والمحققة للعدل والدافعة للحرج فهي آراء للفقهاء مستمدة من أصولها الشرعية تختلف باختلاف العصور والاستعدادات، وتبعاً لاختلاف الأمم ومقتضيات الحياة فيها، وتبعاً لاختلاف البيئات والظروف. ولو جاز أن يكون الدين هو الفقه مع ما نرى من اختلاف الفقهاء بعضهم مع بعض، وتفنيد كل آراء مخالفيه، وعدها باطلة، لحقت علينا كلمة الله: (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم
في شيء)
وهذا معنى قد جلاه الأستاذ الأكبر في هذه المناسبة، وكان قد عرض له برفق في أحد دروسه الدينية عند تفسير قوله تعالى (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه)
وكان من المبادئ التي قررها فضيلة الأستاذ الأكبر أيضاً مسألة تأثير العرف في المعاملات، وقد ضرب لذلك مثلاً بأن عُرفنا الحاضر قد أهدر المعايير والأوزان في التعامل بالذهب والفضة، فأصبحنا نصرف الذهب بالفضة من غير نظر إلى الوزن ولكن على أساس العد، وكذلك الأمر في صرف الفضة بالفضة.
وكان من المبادئ التي قررها فضيلته أيضاً التفريق بين ما حرم لنفسه وما حرم لغيره، وما ينبغي على هذا التفريق من جواز إباحة الأخير عند الحاجة.
وسمعنا أيضاً مبدأ من المبادئ الهامة فيما يتصل بالمروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقوم على أساس التفريق بين ما يقرره النبي صلى الله عليه وسلم على أنه مبلغ عن الله، وما يقرره على أنه أمام للمسلمين، وما يقرره على أنه قائد للجيش في زمن الحرب، وما يقرره على أنه قاض. . . الخ، وأن بعض ذلك يكون ملزماً للمسلمين في جميع عصورهم، وبعضه لا يكون ملزماً.
سمعنا ذلك كله، ورأينا آثاره بين السامعين، وسمعنا غيره من أعضاء الهيئة العلمية التي كانت تناقش الرسائل، ثم تحرينا أن نعرف آثاره في أحاديث العلماء والطلاب، وتحرينا أن نعرف آثاره في الفصول الدراسية، فإذا الجميع طوال هذا الأسبوع مشغولون، بهذه المبادئ يتناقش فيها الأستاذ مع الأستاذ، والطالب مع الطالب،

ويرغب الطلبة إلى أساتذتهم في تفصيل مجملها، وتوضيح مشكلها، والتمثيل لها، والتطبيق عليها
ولعل من الظواهر السارة التي تستحق التسجيل أننا رأينا لأول مرة احتياطاً في التعليق، وحرصاً عند التعقيب، وزهداً في وصف الناس بالخروج أو المروق، وانصرافاً إلى الفكرة من حيث هي فكرة، لا باعتبارها قولاً يخفي وراءه غرضاً من الأغراض.
ونحن نسجل هذه الظاهرة الهامة في تاريخ الأزهر مغتبطين ونهيئ عليها فضيلة الأستاذ الإمام، كما نهنئه بهذا الأسبوع الفريد في حياة الأزهر العلمية، ونرفع إلى فضيلته
اقتراحين.
الأول: أن يأمر بوضع خلاصة لهذه المناقشة تعرض فيما بعد على فضيلته لإقرارها وإذاعتها بين أهل العلم، فإن هذه الصفحة جديرة بأن تضاف إلى تاريخ الأزهر كظاهرة من ظواهر الرقي الفكري في عهد الإمام المراغي.
الثاني: أن يعمل على أن تكون مناقشة السادة الأجلاء، المرشحين لجماعة كبار العلماء، مناقشة علنية، فإني أعتقد أن من حق العلم عليهم أن ينشروا بين الناس ثمرات عقولهم، وأن يقطعوا ألسنة الناقدين، وأن يردوا بذلك على الذين يتساءلون: لماذا يفرض على طلاب الأستاذية هذا اللون من التمحيص العلمي على ملأ من الناس أجمعين، بينما تمر رسائل (أساتذة الأساتذة) متسللة في خفية وتستر؟
محمد محمد المدني
المدرس بكلية الشريعة
كلمات
مكافآت للقراء. . .!
في بريد (الرسالة) الأدبي من عددها الأخير خبر قرأته ووقفت عند تلاوته بالعجب والحسرة
ذلك الخبر الذي يقول في عنوان: (حقوق المؤلفين في الدنمرك). إن حكومة هذه الدولة فكرت في حفظ حقوق المؤلفين وفيما يلحق بهم من غبن، فقررت زيادة دخلهم المادي تشجيعاً لهم على مواصلة الإنتاج والعمل
ومن التدابير التي اتخذتها لذلك أنها فرضت رسماً على كل من يطالع أي كتاب من المكاتب العامة أو في أندية المطالعة؛ ورسماً آخر على كل من يقتبس جزءاً من كتاب ويذيعه بالمذياع أو بالحاكي
قرأت هذا الخبر مرة ومرة، ثم أخذني - كما قلت - العجب والحسرة، وكيف لا أجد في قلبي الحسرة وقد مرَّ في خاطري اسم فلان، كاتب من أساتذة الجيل، وقد أوشك منذ سنين أن يُطرد من بيته لأنه عجز عن وفاء أجره شهوراً. ومرَّ في خاطري اسم فلان، مفكر من الطراز الأول، قضى سواد عمره في الكتابة والترجمة والتحرير، يكدح الكدح كله الليل والنهار في جزاء جنيهات قلائل ينفقها نصف حيوان، أو نصف إنسان مستكرش، لأنه قريب فلان أو محسوبه أو حميمه في سهرات الليل. . .!
وذلك الكاتب المفكر كان منذ سنوات عشر يربح في كل شهر ثمانين جنيهاً، فإذا هو الآن بعد الكهولة والجهد وكثرة العيال ينحدر منها إلى عشرين أو ثلاثين، كأنما عمله من نوع ذلك الذي قاله فيه ابن الرومي تهكمه الظريف اللاذع:
فيا له من عمل صالح ... يرفعه الله إلى أسفل!
ومر في خاطري اسم فلان الكاتب الشاب الملتهب الذي قعد به المرض والعجز من طول ما أجهد عقله وأعصابه وفكره ليكتب ويفيد، فلم تفده كتبه ولا مؤلفاته ولا بحوثه وترجماته حين عجز وانهد بالعجز والمرض، لم يفده شيئاً من ذاك كساء ولا طعاماً ولا دواء.
فهذا حظ الكاتب والكتاب في مصر منار الشرق وزعيمه وطليعة أقطاره
وذلك ما يجد الكاتب والكتاب في بلد من بلاد أوربا كما نقلت لنا الرسالة في بريدها، وحين
تفرض هذه الضريبة على القراءة في دنيمرك لن ينقص بسببها عدد القارئين، فإن الكتاب عندهم كالطعام والشراب، وتريد حكومتهم أن تزيدهم براً ورعاية
وقد وجدنا في مصر وزارة معارفنا تجري اختباراً وتقيم مسابقة للسنة التوجيهية تهدي

فيها الجوائز تحايل تلاميذ مدارسها حتى تعودهم أن يقرءوا، ووجدنا الصديق الدكتور زكي مبارك وهو يكتب عن واحد من تلكم الكتب المختارة يذكر أنه طبع مرتين. وذلك دليل على حظه من الرواج. . .! وعما قليل تخصَّص الجوائز في مصر للقراء. . .! وفي دنيمرك تفرض عليهم المكوس

وقد يخرج بعضنا بل أكثرنا قد نال درجة كبرى من الجامعة وهو لا يعرف أن يقرأ كتاباً، ولا يعرف أين في القاهرة دار الكتب، ولا يجد أن ذلك ينقصه ولا يعيبه. . .!

إنه لا يزال أمامنا شوط كبير تنقطع دونه الأنفاس حتى تصدق علينا القولة التي قالها الخديو إسماعيل:

(إن مصر قطعة من أوربا)

(محمود)

تجديد أغراض المجمع اللغوي

لصاحب المعالي وزير المعارف

نص كلمته في افتتاح مؤتمر مجمع فؤاد الأول للغة العربية

سيدي الرئيس. زملائي المحترمين. سيداتي. سادتي

تفضل معالي الرئيس فسألني خلال هذا الأسبوع الأخير:

أأنا على استعداد لألقي كلمة في هذه الجلسة الافتتاحية للمؤتمر أتناول فيها شأناً من الشؤون المتصلة بأغراض مجمعنا؟ وقد شكرت لمعاليه هذه الدعوة وقبلتها، مغتبطاً أن أتحدث إليكم، رغم ضيق الوقت، في أمر أعده جليل الخطر في حياتنا وفي مستقبلنا

وأود قبل أن أعرض لهذا الأمر أن أشكر لمعالي الرئيس ما وجه إليّ وإلى زملائي الجدد من عبارات التحية، كما أود أن أنوه بالجهود الكبيرة التي بذلها المجمع قبل أن أنظم أنا وهؤلاء الزملاء الأفاضل إليه. وحسب من شاء أن يطلع على المذكرة الموجزة التي وضعها المجمع ووزعت في هذا الاجتماع ليقدر ما بذل من هذه الجهود. أما الذين اطلعوا على مجلة المجمع وعلى محاضر جلساته، فهم لا ريب أعظم تقديراً لجسامة هذا المجهود. وإن جاز لي أن أعبر عن رأي زملائي الجدد فليس يسعني إلا أن أشكر باسمهم وباسمي زملاءنا المحترمين الذين قاموا بهذا المجهود، وأن نذكر الذين قضوا أجلهم بالخير، وأن نطلب لهم من الله مثوبة ومغفرة

وليس ينقص من قدر هذا المجهود الكبير أنه ما يزال في بدايته، أو أن لي أو لغيري بعض ملاحظات عليه براد بها مزيد من دقة التوجيه إلى الغرض المنشود حيناً، وتبلغ حد النقد في بعض الأحيان. فالغرض العظيم الذي أنشئ المجمع لتحقيقه، والعمل الجسيم الذي لا بد منه لبلوغ هذا الغرض، يحتاجان إلى كثير من الأناة والروية، وإلى زمن لا تعد السنين شيئاً مذكوراً فيه. لقد قضى المجمع الفرنسي منذ أنشأه ريشليو عشرات السنين قبل أن يضع معجمه الأول للغة الفرنسية. ومع هذه الأناة، ومع ضخامة المجهود الذي بذل خلال السنين الطويلة، وجهت إلى هذا المعجم ألوان كثيرة من النقد كانت موضع اعتبار المجمع وتقديره أثناء مراجعة معجمه. ولا تزال لجنة المعجم في المجمع الفرنسي تراجعه وتضيف إليه وتحور فيه تبعاً للتطور اللغوي في تلك البلاد، متوخية في عملها أن تحافظ على سلامة اللغة الفرنسية وعلى ملاءمتها لحاجات الحياة وتطورها، مؤمنة دائماً بأن اللغة كائن حي متصل أوثق الاتصال بكل صور الحياة، يسايرها في نمو ما ينمو وانقراض ما ينقرض وتطور ما يتطور. فالمجمع الفرنسي، ككل من درسوا اللغة ومارسوها، يرى أن اللغة هي صورة الحياة في إدراك الذين يتكلمون هذه اللغة، وأنها لذلك مرآة تقدم هؤلاء القوم أو تأخرهم، نشاطهم أو قعودهم، قدرهم الصحيح لحقائق الحياة أو توهمهم الباطل لهذه الحقائق:

وكيف لإنسان أن يغمط المجهود الذي قام به المجمع وقد أقر أكثر من أربعين قاعدة في اللغة تيسرها وتوسع أقيستها، وتلينها للترجمة عن مستحدثات المعاني، وقد استخرج آلافاً من المصطلحات في علوم الأحياء، والرياضة، والطبيعة، والاقتصاد السياسي، والقانون، وتاريخ القرون الوسطى، والموسيقى، والرسم، والعمارة، وقد أقر طائفة جليلة من المسميات الحديثة في الشئون العامة كأدوات المنازل وأثاثها، وما تتناقله الألسن والأقلام في الأسواق والأندية والصحف، وقد بدأ بوضع المعجمات

التي تدعو إليها الحاجة، وقد صحح من الأعلام الجغرافية في مصر وأفريقيا وآسيا عدداً عظيما، وقد نشرت مجلته بحوثاً بلغت صفحاتها نحو ألف وخمسمائة. هذا وما إليه جدير بتقدير الناس جميعاً وثنائهم، وإن وجه إلى بعضه من النقد ما قد يقره المجمع نفسه، وما قد يدعوه إلى أن يعدل عن شيء أقره إلى ما يراه خيراً منه وأدنى إلى تحقيق غايته.

سادتي: لقد كان ما يتصل باللغة من شئون التعليم مما وجه إليه المجمع عناية مذكورة؛ وأنتم تقرءون في المذكرة التي وضعها المجمع بين أيديكم أنه وضع نصب عينيه أخذ الناشئين بصحيح العربية فيما يتدارسون من العلوم والفنون، وأنه قد وجه جل همه من هذه العناية إلى المصطلحات التي تدخل في التعليم الثانوي، وأن بين المعجمات التي يتوفر على وضعها معجماً علمياً صغيراً للتعليم الثانوي في الأقطار العربية، وآخر تثبت فيه طوائف من المواد والألفاظ والصيغ تغني الطالب الثانوي والمثقف الوسيط عن غيره من المعجمات، وأنه في وزارة المعارف بنحو ثلاثة آلاف وخمسمائة مصطلح لإدخالها في كتب التعليم وفي التدريس.

ولم يتم بعد وضع المعجمين اللذين أشرت إليهما ليتسنى إبداء الرأي فيهما. وقد سألت وزارة المعارف عما وافتها به إدارة المجمع فعلمت أن هذه المصطلحات لما تعرض على رجالها، وأن تجارب الطبع لهذه المصطلحات لا تزال حبيسة في المطبعة الأميرية منذ سنة 1939. وقد أرسلت إليّ إدارة المجمع من أيام هذه المصطلحات فعرضتها على الفنيين من رجال الوزارة فأقروا طائفة مما اطلعوا عليه ولم يقروا طائفة أخرى.

ثم إنني ألقيت علة هذه المصطلحات نظرة عجلي ألهمتني ما أريد أن أتحدث إليكم اليوم فيه.

جاء في المذكرة التي وضعها المجمع بين أيدينا تمهيداً لهذه الجلسة أن من يترسم آثار المجمع (لا يرتاب في أنه، في تشدده في المحافظة على لغة العرب، وبعث ما لا عهد للجمهرة به من قديمها ومجفوها مما يقع عندها موقع الغرابة أو ما هو أشد من الغرابة في أول الأمر، فإنه من ناحية أخرى لا يفتأ يترخص أعظم الترخيص، وييسر أبلغ التيسير. على أن ترخصه هذا وتيسيره إنما يقعان في حدود اللغة، وما مضى من مذاهب علمائها الأعلام؛ فلا سيادة لعامية، ولا طغيان للعجمة على لغة الكتاب)

هذه الفقرة من مذكرة المجمع قد جلت أمامي كثيراً مما رأيته في المصطلحات التي اطلعت عليها، وفي المسميات التي وضعها المجمع لحاجات الحياة المتداولة. فهو قد آثر أن يبيع من تراث اللغة المهجور ما رآه معادلاً لهذه المسميات والمصطلحات. ولا إخالني مخطئاً في هذا التصوير وقد وضع المجمع منذ سنوات جوائز مختلفة لمن يضعون طوائف من الكلمات العربية الفصيحة للمسميات الحديثة وللمصطلحات العلمية والفنية والأدبية؛ ثم نبه الذين يتقدمون لهذه الجوائز أنه يفضل عند التسمية ما وضعه القدماء من الكلمات الصحيحة ثم هجر وتنوسى، واستعمل بدلاً منه ألفاظ مولدة حديثة، أو عامية، أو أعجمية؛ فإن لم يعثر على شيء من ذلك وضعت الكلمة وضعاً جديداً بطريقة من طرق الوضع القياسية

لست أتردد في الموافقة على هذه الخطة في أمر المصطلحات العلمية كلما وجد اللفظ العربي القديم الذي يؤدي الغرض من هذا المصطلح أداء دقيقاً يقره المتخصصون من العلماء. ولعلي لا أتردد كذلك في الموافقة عليها إذا استعمل لفظ أجنبي للتعبير عن معنى قديم كان العرب يعبرون عنه بلفظ عربي. لكنني أقف متردداً، ويطول ترددي، فيما خلا هاتين الصورتين؛ وفيما يوضع من المسميات لحاجات الحياة المتداولة. ولا احسبني دون ذلك تردداً في أمر الألفاظ العامية إذا أمكن تقويمها لتسترد صورتها العربية الصحيحة

أيها السادة: إن الغرض الأساسي من إنشاء هذا المجمع إنما هو جعل اللغة العربية ملائمة لحاجات الحياة في عصرنا مع المحافظة على سلامتها. هذا الغرض يتضح جلياً في المذكرة التي وضعها المجمع اليوم بين أيدينا، فكل ما بذل من جهود الأفراد والجماعات في أمر اللغة من عهد محمد علي الكبير إلى اليوم قد توخى هذا الغرض. وقد سجل مرسوم إنشاء المجمع هذا الغرض في المادة الثانية منه تسجيلاً صريحاً. ولكي تلائم اللغة حاجات الحياة في عصر من العصور يجب أن تكون صورة صادقة لكل ما تتناول الحياة في هذا العصر. ويجب أن تكونَ سليقة للمتكلمين بها والكاتبين

لها، ويجب أن تكون بذلك أداة التفاهم بين هؤلاء جميعاً تفاهماً يتم في غير عسر ولا مشقة. ويجب لذلك أن يكون القدر المشترك منها بين الجميع، من الصبي الناشئ إلى العالم الكبير، ومن ربة البيت في أهلها إلى المتحدث في الفنون والعلوم والآداب.
يجب أن يكون عظيماً بحيث ييسر هذا التفاهم ويجعله في متناول الجميع؛ فلا يقع خلاف بينهم فيه بسبب اللغة وألفاظها وإن أمكن أن يقع بسبب تفاوتهم في الثقافة. وكل جهد يبذل لزيادة القدر المشترك تيسيراً للتفاهم المتبادل، يدني من الغرض الذي تنشأ مجامع اللغة لتحقيقه
إذا كان هذا صحيحاً، وأعتقد أنا صحته، وجب ألا نتقيد في جعل لغتنا ملائمة لحاجات عصرنا بالحدود التي وضعت في عصر العباسيين أو في عصر الأمويين، أو في الجاهلية، لحاجات عصرهم. فإذا أردنا أن نضع معجماً يغني المثقف الوسيط، ويغني الطالب الثانوي، وجب مع محافظتنا على سلامة اللغة ألا نهمل تطورها إلى حيث وصلتنا اليوم، ووجب أن ندرس بعناية هذا التطور في لغة الكتابة وفي لغة الكلام
لقد رأى العالم العربي في كل العصور، إلى عصرنا الحاضر، خطباء اهتزت لبلاغتهم المنابر، ومحامين كانت مرافعاتهم مثلاً عالياً للبلاغة القضائية، وكتّاباً في الصحف وفي المجلات ومؤلفين قدرهم أهل هذه الأمم أسمى التقدير. هذه الخطب، وهذه المرافعات، وهذه الكتابات على اختلاف أنواعها وعصورها، تصور تطور اللغة، فلا سبيل إلى إنكارها. وهذه الخطب والمرافعات والصحف والمجلات والكتب تحوي قدراً مشتركا عظيما جداً من ألفاظ اللغة وتراكيبها! ومن أساليبها التي تتفق مع تصور الناس للحياة في هذا العصر؛ وأبناؤنا في المدارس، وجماهيرنا المثقفة تثقيفاً وسطاً، تستمع إلى هذه الخطب والمرافعات،
وتقرأ هذه الصحف والمجلات والكتب، بشغف أكثر من شغفها حين تقرأ الكتب القديمة. أفيقال مع هذا أن في هذه الخطب والمرافعات والصحف والكتب ألفاظاً عامية لا يجوز أن تكون في معجمات اللغة؟ أم الحق أنه يجب علينا ألا نهمل هذه الثروة اللغوية الحية، وأن نسجل منها كل ما يتفق مع ذوق العربية وأقيستها، وأن ما نقوم به من ذلك هو الذي يجعل اللغة لغة الحياة تسير معها وتتطور بتطورها؟
وأذهب إلى أبعد من هذا. إن في اللهجات العامية للبلاد العربية المختلفة لقدراً عظيما من الكلمات المشتركة، والتي يمكن أن ترد إلى أصل عربي دون حاجة إلى أكثر من تقويمها بعض التقويم. وهذه ثروة ضخمة تقابل حاجات الحياة وتعبر عنها أصدق تعبير.
مع ذلك درجنا على التنكر لهذه الألفاظ والعبارات، وعلى اعتبارها مبتذلة لا يجوز للمتكلم الفصيح، أو للكاتب البليغ، أن يكتبها أو يتكلم بها. أما وقد انحدرت هذه الألفاظ إلينا من العرب الأولين الذين نزحوا إلى مصر وإلى غير مصر من البلاد العربية، فلست أدري لم تكون مبتذلة، ولم لا تدخل في معجماتنا وفي كتاباتنا وخطاباتنا، وفي مصطلحاتنا المختلفة؟ السبب الوحيد في نظري هو أننا نريد أن تكون اللغة وقفاً على طائفة خاصة، وأن تكون لها من أجل ذلك أسرار تغيب عن الكافة، كما أراد الكهنة في عهد الفراعنة أن يجعلوا حقائق الدين سراً موقوفاً على طائفتهم، وأن يدعو للناس من الزيف ما يتنزهون هم عنه، وما يسخرون منه
أيها السادة: إن ما أطالب به المجمع من إقرار ما يجوز إقراره من هذه الألفاظ المتداولة في الكلام وفي الخطابة وفي الكتابة بعد رده إلى حدود اللغة السليمة هو ما تقوم به مجامع اللغة في بلاد العالم أجمع، وهو ليس بدعاً في لغتنا العربية منذ عهدها الأول؛ والمادة الثانية التي حددت أغراض مجمعنا تطالبنا به، فهي قد نصت على أن يقوم المجمع بوضع معجم تاريخي للغة العربية، وأن ينظم دراسة علمية للهجات العربية الحديثة؛ وهذان الأمران يتصلان أوثق الاتصال. فاللهجات الحديثة تشتمل كما قدمت على قدر عظيم مشترك من الألفاظ والعبارات العربية، كما أنه قد اندس إليها بحكم الحوادث التاريخية واختلاط الأمم العربية بشعوب أجنبية عدد عظيم من الألفاظ غير العربية. فالدراسة العلمية المقصودة هنا، والتي تتفق مع مهمة المجمع، لابد أن يكون مرماها تحديد الألفاظ العربية في هذه اللهجات
المختلفة تحديداً علمياً دقيقاً للاستفادة منها في وضع المعاجم التي نص عليها في أغراض المجمع؛ أما المعجم التاريخي، فيجب أن يتناول تطور اللغة على العصور إلى وقتنا الحاضر، وأن تكون الألفاظ العربية السليمة التي يصطنعها الناس في أحاديثهم

وخطبهم وكتاباتهم بعض هذا الذي يتناوله
أيها السادة: إن هذا الذي قدمت صحيح في نظري كل الصحة، واضح كل الوضوح. لذلك كان عجبي ولا يزال شديداً ألا يفصل من تاريخ اللغة وآدابها في معاهدنا شيء فيما وراء العصر العباسي ولم يدرس الأدب الحديث إلا من عهد قريب، وعلى نحو لا يزال بدائياً غير متصل بما سبقه من تاريخ الأدب واللغة. ولقد لاحظت منذ سنوات على المعجم التاريخي للدكتور فيشر، وهو المعجم الذي يعني المجمع بطبعه الآن، أنه لا يتناول إلا العهد الأول من صدر الإسلام، وكنت قد فهمت يومئذ أن هذا المعجم سيضاف إليه ما يتم الغرض منه بتناول تاريخ اللغة إلى وقتنا الحاضر. ولا أظن أحداً يخالفني في أن ما دون كتب الفقه والأدب والفن والعلم في العصور المختلفة يجب أن يكون بعض هذا التاريخ، ولا أظن أحداً كذلك يخالفني في أن الألفاظ العربية الأصل مما تتناوله لهجات العصر الحديث تدخل في نطاق هذا التاريخ
أيها السادة: إنني أعتبر هذا العمل أساسياً لتلائم اللغة حاجات الحياة في العصر الحاضر. فاللغة اليوم ملك مشاع للجميع. يقرؤها الناس في الصحف، ويسمعونها في الإذاعة، ويخطبهم بها الخطباء، ويتلونها في الكتب. لم تبق وقفاً على القارئين والكاتبين ممن تثقفوا ثقافة لغوية عالية، بل صارت أداة التفاهم في هذا العصر الكثير الحاجات والمطالب، والذي يسر للناس من كل الطبقات أن يقفوا على السر من كل شيء، لا تختص فئة منهم دون الأخرى، بما يزاول الناس من علم وفن وأدب وصناعة وتجارة. فكلما تيسرت اللغة للناس، وكلما شعر الطالب في دور العلم بأنها لا تقف عقبة في سبيل المعرفة التي يبتغي النهل من وردها كانت الأداة الصالحة للغرض الذي وجدت اللغات من أجله. بذلك يحب الناس اللغة ويرون جمالها في بساطتها، وفي وضوحها وفي تكشفها غير محجوبة بحجب التعقيد الذي يحتاج دراسة السنوات الطوال لحل رموزه وتبين أسراره.
أيها السادة: هذا ما تيسر لي أن أحدثكم اليوم فيه. وهو بعض ما نطلب به في هذا المجمع
لتيسير اللغة العربية حتى تفي بحاجات حياتنا ومطالبها. وقد أحيلت على المجمع مسألة الكتابة العربية وتيسيرها؛ وهذه مسألة جوهرية في نظري ونظر الكثيرين، فحلها يزيد الناس إقبالاً على القراءة وعلى اللغة ودراستها. وأرجو لذلك أن تنال ما هي جديرة به من البحث
وأختم كلمتي معتذراً لحضراتكم عما قصرت فيه؛ فقد كان واجباً عليّ أن أزيد فكرتي جلاء؛ ولكن الوقت لم يتسع أمامي. فلعله يتسع من بعد. ولعلنا نوفق إلى الوفاء بما يجب علينا من تيسير اللغة لتلائم حاجات العصر، مع المحافظة على سلامتها، والعمل على ما يزيدها حياة وقوة وجمالاً.

محمد حسين هيكل باشا

من وراء المنظار

صاحب السلطان الزائل

أقبل فسلم في صوت كأنه الهمس، وأحسست ولم أكن عرفت بعد شيئاً من أمره روح المذلة في صوته؛ ومد إلى من نهض لتحيته يداً معرفة مرتعدة كأن بها استخذاء من أن تصافح الأيدي الممدودة إليه، ونهضت فيمن نهضوا فسلمت وأنا في حيرة من عبارات التحية توجه إليه مشفوعة بلقب (البك)
وأخذت نعته بهذا اللقب على أنه ضرب من المزاح، فكثيراً ما رأيت بعض المازحين في القرية ينادون بهذا اللقب رجلاً بلغت به الفاقة حداً جعله مضرب المثل في البؤس، وجعل لقب (البك) مضافاً إليه أكثر بلاغة فيما يتضمن من تهكم وفيما يثير من ضحك باستعماله هذا الاستعمال
ولكني لم أر للمزاح أثراً في وجوه الجالسين، بل لم أر فيها إلا التزام الجد والحرص على مظهر الاحتشام والسكون، وفهمت أن الابتسام يتقي بين الجلوس فيما يدور بينهم من حديث، فما تكاد تنفرج الشفاه حتى تنضم في استدراك سريع
واتجه منظاري إلى هذا البك الجديد، وأخذت أختلس النظر إليه، وكان كلما زدته نظراً زادني دهشة ذلك اللقب الذي يسبغ عليه في جد لا أثر للعبث فيه. وظللت أنظر إلى معطفه الذي تراكم عليه ما تراكم من آثار الزمن، وإلى جلبابه الذي لم أعرف ماذا

كان لونه قبل أن يعلق به ما علق من تشويه، والذي راح يستر خروقه بأطراف ذلك المعطف الذي يعد تسميته بالمعطف وهو على تلك الحال من قبيل تسمية صاحبه بالبك. . .! أما طربوشه، فقد اتسق في هذا النظام اتساقاً بليغاً، إذ كانت اسطوانته من لون وقرصه من لون آخر، غير أن أحد جانبيه أكثر كدرة من الجانب الثاني، وإن كانت تلك الألوان جميعاً بقايا حمرة زائلة

وعرَّفه إليَّ وعرَّفني إليه أحد الخبثاء الذي أخذ ينظر إلى منظاري، وكأنه كان يرى فيه - كما حدثني بذلك بعد - آلة تصوير، وما كاد يذكر لي اسمه حتى ذهب اللغز من ذلك اللقب الذي لقب به؛ وقلت في نفسي: أهذا هو الذي سمعت من أخباره ما سمعت؟ وتزاحمت في ذهني صور ما علمت من أنبائه، وبرزت من بينها صورة كانت بين غيرها من الصور، كما يكون المارد بين الأقزام. فهذا الرجل الذي أراه أمامي، هو بعينه الذي أشعل ذات ليلة دخينة لإحدى المغنيات في بندر قريب، لا بعود من الكبريت كما يفعل عامة الناس، ولكن بإحراق رقعة من الورق تركها حتى أتت عليها النار بعد أن أشعل بلهيبها تلك الدخينة. ولم تك هاتيك الورقة بذات قيمة كبيرة، فهي من فئة الخمسة جنيهات فحسب!

واضطجع صاحب السلطان الزائل اضطجاعه فيها بقايا الكبرياء، ونظرت إلى وجهه فرأيت في سحنته خيال تعاظمه الماضي، واستكباره يحيط به خيال استخذائه الحالي ومسكنته. والحق لقد كانت نظراته مزيجاً عجيباً من العظمة والمذلة والرضاء والضجر والخجل والتبجح، ثم كان وجهه الشاحب يذكرني بتلك الصورة التي كانت تعلق على الجدران لمحاربة (الكوكايين)!

ووجهت إليه بعض عبارات التحية فرد في هدوء واتزان وهو ينظر إليّ نظرات من يريد أن يستوثق من صدق تحياتي، كأنه لا يصدق أنه اليوم أهل للتكريم بعد أن هلك عنه سلطانه. على أنه ينتمي إلى أسرة معرقة لا يزال لبعض أفرادها جاه عظيم وثراء. وإن كان ثراؤها لا يبلغ اليوم في مجموعه عشر ما كان لها منه بالأمس. ولعل خيال ذلك الجاه الباقي في أسرته هو الذي يجعل الكبرياء تتغلب في وجهه أحياناً على الاستخذاء وإن كان الاستخذاء قد بات وهو طابعه الجديد

وقدم إليه أحد الجلوس دخينة فتناولها في صورة عجيبة وفي وجهه إمارات توحي بأنه يفهم من هذه التحية أنها ضرب من إعطاء المحروم. وعلى شفيته ابتسامة تصور هذا المعنى وتبرز ما في قرارة نفسه منه. وأيد ذلك لي إسراعه بإخراج علبة الدخائن من جيبه وتقديمه دخينة إلى من سبق فقدم إليه مثلها، ثم إنه تقدم في خفة وظرف فيهما طيف أريحيته الماضية فأشعل الدخينة لصاحبه ولكن بعود من (الكبريت). . .

وأردت أن يتكلم لعل الحديث يميل به إلى الإفضاء ببعض ما يقوم في نفسه من هذه الحال التي تدلي إليها بعد عزة، ولكنه لزم الصمت، وكان صمته أيضاً يجمع بين الحياء والاستعلاء. . .

ودخل علينا شيخ من أهل القرية فما وقعت عيناه على ذلك البك حتى أقبل عليه في اهتمام شديد وهو لا يفتأ يكرر قوله: (شرفت بلدنا يا بك! أهلاً وسهلاً بابن الأكابر. دي البلد كلها

منورة بوجودك فيها! الله يرحم والدك البك الكبير)

وأخذ ذلك الشيخ يفيض في وصف سجايا البك الكبير وأبهته وجاهه، ويحكي في ذلك الحكايات الطويلة، ويذكر الضياع التي عمل فيها بأسمائها، ويقارن بين ما كانت تخرجه من خيرات هاتيك الضياع، مستشهداً برأي البك الصغير كأنها لا تزال ملك يديه يتمتع بخيراتها جميعاً؛ ثم تنهد ذلك الشيخ وختم حديثه في سذاجة محبوبة قائلاً: (هيه سبحان من له الدوام! يا ابني ما تزعلش أنت ابن الأكابر على كل حال، وعندنا إحنا يا فلاحين نقول إن دبلت الوردة ريحتها فيها).

ومضى الشيخ وأنا أفكر فيما ضرب من مثل، وأنظر إلى تلك الوردة الذابلة فلا أحس من سابق رائحتها فيها، ويتملكني الإشفاق حيناً، ولكني أذكر الورقة ذات الجنيهات الخمسة وأتصورها مشتعلة في يده فينفي الإشفاق من قلبي شعور يكاد بقرب من الشماتة لولا أني أكره الشماتة، شعور هو في الواقع إحساس خفي بعدالة الجزء وتطابق الجريمة والعقوبة.

ولما ذكر أمامي اسم البك الكبير وذكرت ثروته الهائلة التي انتهت إليه هو أيضاً من

والده، وموطن هؤلاء وأسرتهم الكبيرة قرية تقع غير بعيد من قريتنا، عجبت كيف بدد هذا البك الصغير الماثل أمامي أو هذا الشيطان الكبير ثروة أبيه على هذا النحو حتى لم يبق له منها إلا الذكرى.

وتكلم أخيراً صاحب ذلك السلطان الضائع، وكأن حديث ذلك الشيخ أثار شجونه، وأخذ يصف لنا كيف كان يعيش، وهو لا يدري أنه يسرد علينا قصة سفهه! ولعله كان يحس إن لم يبق له من الثروة إلا فخاره بما كان له من ثروة، إن كان ذلك من دواعي الفخار، ونسي سكونه الأول فأطنب وأفاض في غير تحفظ أو استحياء. ومن درر حديثه قوله: (يا ما شوفنا عز! دا الواحد كان يأخذ معه ألف جنيه إلى الإسكندرية فيعود بعد أسبوع ما فيش في جيبه غير أجرة الوابور. . . دا أنا كنت هرون الرشيدي اللي بيقولوا عليه).

وقلت وكان ذلك المال من إيراد أملاكك طبعاً، فلتعثم قليلاً وقال لو كان ذلك المال من إيراد أملاكي ما ضاعت أملاكي؛ إنما كان بعضه من الإيراد وبعضه من البنك، وآه من البنك. . . آه من البنك!.

وإذ ذكر لي البنك ذهب من نفسي كل عجب، فكم استدرج البنك من أمثال هذا الذي ورث

ما ورث فلم يشعر بقيمة ملكه حتى ذهب عنه كما جاء إليه. ثم سألته عن مصير هذا الضياع فقال أخذها الخواجة خريستو تاجر القطن. وأحزنني أن يمتلك مثل خريستو من ثري هذا الوادي أرضاً أولى بها بنوه، أرضاً كانت تكفي لأن يعيش عليها أكثر من مائتي أسرة من تلك الأسر التي تكدح صابرة في وهج الشمس وتسقى بعرق جباهها تربة وادينا ولا تمتلك الواحدة أكثر من فدانين أو ثلاثة فدادين.

وسألته عن شعوره إذا مر اليوم بهاتيك الضياع. ولشد ما أدهشني قوله إنه لم يرها كلها، وأنه لا يعلم إلا موضع ما كان يحيط بقصره منها؛ فلقد كان أمر زراعتها وتعهدها مفوضاً إلى نظاره الثلاثة الذين يمتلك الواحد منهم اليوم ما لا يقل عن ثلاثين فداناً، من أرض أجداده.

وكان مجلسنا هذا في دكان بدال. ولما هم البك بالانصراف طلب من التاجر أشياء ولكن التاجر نفي وجودها عنده. فلمحت عينا البك بعض الأصناف المطلوبة على رف من الرفوف فأشار إليها قائلاً: (أمال إيه ده؟) وأجاب التاجر بأن غيره دفع ثمنها وسيرسل في طلبها. وضحك صاحب السلطان ضحكة مُرَّة وهو يهز رأسه قائلاً: (هيه. . طيب! السلام عليكم) ثم خرج وتنفس التاجر الصعداء..

واتجه إلينا ذلك التاجر وقال في لهجة اعتذار: إن قريبه فلان بك الذي ينفق عليه أمره إلا يعطيه شيئاً إلا بإذن كتابي قال: (دا مسكين ضيع كل ما يمتلك في المكيفات، اللهم احفظنا وباع عفش بيته. وهل تاب بعد كده؟ لا، دا صنف لا يستحق النعمة).

ومضيت وفي نفسي كلمة التاجر الأخيرة وأنا أحدث النفس قائلاً كم ذا بمصر من هذا الصنف الذي لا يستحق النعمة!

الخفيف.

وداع الشكر

للشاعر الفرنسي لامرتين

كان لامرتين من أعظم شعراء فرنسا في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر وهو غني عن التعريف، وتعد آثاره الأدبية من أنفس ما أبدعه الخيال الرائع.

ومن تلك الآثار قصيدة بديعة نسج بردها يوم كان ملحقاً بمفوضية فرنسا بنابولي عام 1820 حيث كان انهماكه في تحبير الرسائل الدبلوماسية يحول بينه وبين استرساله في قرض الشعر فأفرغ في هذه القصيدة وداعه للشعر.

(المترجم)

لما اعتزمت اعتزال الشعر خالجني ... موطد العزم لكن خاب تصميمي
ودعته صادقاً لكنما عرضت ... منازع الفكر تدعوني لترنيم
تألبت وهي شتَّى في بواعثها ... وطالما ناشدتني نظم تلحيني
هناك في ساعة حل السكون بها ... في وحدة الصمت عاد الشعر يغريني
حيث الوجود حليف النوم أجمعه ... حتى الأماني استكنَّت في زواياها

في غابة برزت كالطيف ثابتة ... فما تهادى نسيم في حناياها
هناك مرحلة في العمر شاردة ... كأنما النفس فيها نفس وسنان
فلا التنفس في الأحشاء منسجم ... ولا الحماس لقرض الشعر ناداني
والطير وهو الذي يصُفي ببهجته ... على الرياض سروراً بالغ الأثر
لا ينجلي ساجعاً في كل آونة ... وفي الظهيرة يهوى ظُلَّةَ الشجر
فإن بدا الفجر ناغى الكون مبتهجاً ... وفي الغروب يناجي دورة الفلكِ
يشف تلحينه في الصبح عن طربٍ ... وفي المساء يناغي وحشة الحلكِ
ربابتي، ساعة الهجران قد أزفت ... لكِ الوداع إذن من مغرمٍ دَنِفِ
يا من تنَهُّدِكِ المشجي يثير جَوىً ... وكم يثير وداعي بالغَ الأَسَفِ
أنَّي تلامس كفي منكِ ناصيةً ... ولم يزل باكياً من شجوه الوتَرُ
قد أقبلت ساعة التوديع مسرعةً ... فهاكِ عَبْرَةَ ودٍّ وهي تنهمر
أيْهاً لعيني أن تُخفي لها أثراً ... وتلك ثائرة من واكف الشجنِ
كم دمعةٍ سكَبَتْهَا النفسُ وا أسفي ... فبلَّلَتْ وتراً أوفى ولم يخنِ
لم تستطع زفرات منكِ صاعدةٌ ... تجفيفها، فحكت طلاًّ على فَنَنِ
إن الربابة لم تُمنح مُكلَّلةً ... بالسر والناس في هذى الدنا التعِسه
إلا لتسكين آلامٍ لنا انتشرت ... حيث الدموع من الآماق منبجسه
ما كلُّ ما يرسل الأنغام مُشْجيةً ... إلاَّ يردد آلاماً وآمالاً
أما السعادة لم ينطِق بها وترٌ ... بل حالف الصمتَ تلو الصمتِ أجيالا
أحلى الأغاني أغانٍ طاب مسمعها ... من بلبلٍ ناحبٍ أو شاعر باكٍّ
تحت الظلال على قبر توسده ... أعز خدنٍ يناجي روحَه الشاكِي
ربابتي، أنتِ مثلي سرتِ في أثري ... حزينةَ الصوتِ والإنشادِ والنَّغَمِ
لم تمتزج قط بالأنغام يُنشدها ... أهل السعادةِ والإقبالِ والنعمِ
بغصن صفافة في الشط عالقة ... طليقة كطيور الغاب في الأيك
أبت يدي لكِ رَبطاً كالأسير على ... أبواب قصر عظيم أو حِمَي مَلْك
لم تُلهمي أبدا في أي آونةٍ ... ثوائر النفثِ تعزيزاً لذي حزب
فأنتِ قد فقت طهراً كل خاطرةٍ ... ولم تداعبكِ إلاَّ نفثة الحب
قد قُطِّبت جبهتي يوماً لكارثة ... هوجاء عاتية من قسوة القدر؟
كلا، بفضلك لم أجزع لصدمتها ... ولم أبالِ بما ألقاه من خَطرِ
وأينما ذهبت نفسي سمعتُ صدىً ... من السماء لصوتٍ حين تبعثه
نفسي الغريبة فوق الأرض ما برحت ... تُصغي لما دَأب الإلهام ينفُثُهُ
على الربا حيث يبدو للرقيب إذا ... لاح النهار كما لو فوقها بزغا
إذ كنتِ في صحبتي كيما أرددَ ما ... نظمتُ في مدح معبودي له صِيَغا
ما كان أول إشعاعٍ يُفيق بها ... إلا وقد فتر الإنشاد أو فرغا
كم كنتِ تُلْقين بالأنغام موحشةً ... على هدير حبالِ الفلك والموجِ
وقد بدا البرقُ خلاَّباً بزرقَتِه ... يخبو ويسطع عَبْرَ الأفق في الأوجِ
وكنتِ مثل طيور العاصفات تُرى ... محلِّقاتٍ على الأمواج في البحرِ
وكدتِ أن تلمسي من فوقها زَبَداً ... يهبط ويعلو من المد والجزرِ
تلك التي طالما استرعت مناظرها ... مرآي قد حالفت أنغامها نَغَماً
تنهُّداتك مع أصواتها امتزجت ... فكان رجع صدى الحنين منسجما
وطالما ارتعشت شجواً حبائلها ... القاتمات علتها نفثتي الرخوة
تحكي ارتعاشاً عرا الأوتار من سُجن ... أناملي حرَّكت في روحها النشوة
ربابتي! ربما ألقاكِ بعدُ، متى ... رأيتِ يوماً نذير الموت يقتربُ
تليه غاشيةُ الأحلام موحيةً ... من السماء أموراً ما بها لَعِبُ
تكون قد بعدت عنا الحياة كما ... لو أصبحتِ ذكرياتٍ مهدها الكتبُ
وإذ يعود شباب الخلق ثانيةً ... يحفه طائف حلو لنسيان
قد ينحني المرء أوقاتاً عليكِ ففي ... رنينِكِ العذب تلطيف لأحزان
وهذه الريح إذ تجري محلقةً ... من فوق أرواحنا في برزخ العدم
تهب في الفجر أحياناً مُبَكِّرَةً ... كما تهب بَيَاتاً هبَّ مُخترم
وكم يوق لها إمعانها عبثاً ... بشعر ريحانةٍ أو ذقن ذي هرَم

إيهاً للحية هوميروس تحجبها ... قُطَاعةٌ من جليد عن ذوي النظر
وكأن لمع شعاع الفكر مؤتلقاً ... يعيد نوراً خبا من قبلُ في البصر
ألم يكن ملتن البصر الأعمى بذي بصر ... فكم جلا غيهباً في حومة الفِكَر؟
ألم تحم حول عيني ملتنٍ طُرَفٌ ... من رائع الحب والآمال والصور؟
تحكي الفراشة حامت قبل أنٍ هبطت ... على فلورا التي تهوَى على الأثر
يبدو وميض جناحيها كبارقةٍ ... أضاءها شَفَق وضّاءُ كالشرر
ربابتي، ربما تأتين قاصدةً ... زيارتي بينما الميعاد لم يَحِن
فتمتطين مياه البحر طافيةً ... من شاطئ لسواه طفو متّزن
أكون قد غالبتني موجة فقضت ... على حياتي غريقاً ماؤها كفني
وغيَّب اليم صوتي تحت لجَّته ... فضاع لحن شَكاتي فيه من زمن
وقد نأي بي مصيري في غياهبه ... عن السموات، إن الهجر يؤلمني
كعُشبة البحر تحت الماء شاردة ... وقد رمى الموج عَظمى رمي مُمْتَهِن
على الرمال يُرى ملقًى بشاطئه ... فيا لهول رُفاتٍ هالكٍ عَفَنِ
لكنما أنتِ يا من ترسلين علي ... شتى المسامع أمواجاً من الطرب
وتركبين متون الموج سابحةً ... لا ترهبين دنو الموت والعطب
إن البعاج على متن البحار جرت ... تحكيكِ من حسدٍ في موكِبٍ لَجِب
(الإسكندرية)
محمد أسعد ولاية
البريد الأدبي
المجمع اللغوي والمعجم الوسيط
حدثنا ثقة من المتصلين (بالمجمع اللغوي) أن اللجنة المؤلفة لوضع المعجم الوسيط قد أنجزت حتى الآن مائة وستين صفحة فقط من هذا المعجم، إذا صفت حروفاً وطبعت لا تتجاوز جميعها مائة صفحة؛ وإن هذا العمل استغرق من عمر المجمع سنة ونصف سنة، وإنه استغرق من عمر المعجم ثلاثة أرباعه، لأن الزمن المحدد لإتمامه سنتان. وزاد محدثنا على ذلك أن العمل في هذا المعجم يكلف الدولة لا أقل من مائة وعشرين جنيهاً في الشهر. فكأن هذه الصفحات المائة قد كلفت الدولة 2160 جنيهاً مصرياً وأن الصفحة الواحدة كلفت الدولة قرابة 22 جنيهاً. فإذا كانت صفحات هذا المعجم ستبلغ على ما يقال ألفي صفحة، استغرق تأليفه ثلاثين سنة، وبلغت نفقات نقله من المعجمات القديمة 64800 جنيهاً مصرياً. هذا غير ما يستهلك فيه من ورق وآلات كاتبة وجزازات ونفقات طبع وأجور أخصائيين يحققون ما يرد به من الألفاظ العلمية وأسماء الحيوان والنبات ورد بعض الكلمات غير العربية إلى أصولها الصحيحة، وهذه قد تجعل نفقات هذا المعجم 100 , 000 جنيه
وبعد، فإذا قلنا إن المال لا قيمة له إلى جانب العلم، فما بالكم بالزمن؟ وإذا قلنا إن الزمن لا قيمة له إلى جانب المال؟ فما بالكم بالعلم؟ وإذا قلنا إن العلم لا قيمة له إلى جانب الزمن، فما بالكم بالمال؟
خبيرات في الكذب
حضرة الأستاذ الجليل رئيس تحرير الرسالة الغراء
يقول كثير عزة:
وإن حلفت لا يخلف النأي عهدها ... فليس لمخضوب البنان يمين
ويقول المثل العربي القديم
(لا يفل الحديد إلا الحديد)
ولعل وزارة الاستعلامات الإنجليزية ترى هذين الرأيين في الجنس اللطيف وفي وجوب الاستعانة به على فل حديده؛ وذلك أنها أنشأت كما ورد في البريد الإنجليزي الأخير مكتباً
اسمه مكتب فحص الأكاذيب وعهدت برياسته إلى آنسة تدعى (اليزابيث مونرو) يعاونها أربع أوانس إنجليزيات يحذقن اللغة الألمانية ويعمل معهن عدد كبير من النساء. ومهمة هذا المكتب فحص الأخبار الواردة من ألمانيا والتعرف على الكاذب منها بالمقارنة، لتظهر مواضع التناقض وبوسائل أخرى يعرفها
وتقول رئيسة هذا المكتب أن مكتبها مفتوح للعمل آناء الليل وأطراف النهار، وأن عدد

الموجودات به في أية ساعة لا يقل عن اثنتي عشرة. ولما سئلت عن عدد الأكاذيب التي يستكشفنها كل يوم أجابت: (إنني لا أحب أن أقترف أكذوبة أنا الأخرى. ولذلك أقول في غير مبالغة أننا نستكشف ما لا يقل عن مائة أكذوبة ألمانية كل يوم)
ومن أمثلة تلك الأكاذيب ما أذاعه الألمان من أن ساعة (بيج بن) دقت في منتصف الليل ثلاث عشرة دقة بسبب ما أصابها من التلف الناشئ عن الغارات. وأن أهل لندن فزعوا فزعاً شديداً من هذا الفأل السيئ لأن معظمهم يتشاءم من العدد 13
وثبت أن الساعات مهما أصابها من التلف فلا يمكن أن تزيد دقاتها عن الحد المعتاد
ولست أرى رأي كثير عزة في نسبة النساء إلى الكذب؛ ولكن النساء تتوقف سعادتهن وسعادة أطفالهن على صدق الرجال فهن أقدر على استكشاف الكذب. . . وهي خبرة فنية فيهن!

عبد اللطيف النشار

التعليم في مصر في السنوات العشرين الماضية

قال صاحب المعالي وزير المعارف من كلمة قيمة ألقاها في الاجتماع الأول للمجلس الأعلى للتعليم:
حسبي لتصوير السرعة التي سار بها التعليم وتطور في مصر أن أذكر لحضراتكم أن مصروفات التعليم المدرجة في ميزانية الدولة العامة كانت في سنة 1920 (1. 013. 503) جنيهات مصرية، وأنها الآن 5. 619. 181 جنيهاً مصرياً، منها لوزارة المعارف 4. 769. 881 جنيهاً وللجامعة 849. 300 جنيه. وقد كان عدد المدرسين بمدارس الوزارة في مراحل التعليم المختلفة سنة 1920 (1293) مدرساً، وهم اليوم 7277.
وكانت مدارس التعليم الثانوي سنة 1920 تسعاً بها 3314 تلميذاً، أما الآن فهي ست وثلاثون بها 19749 تلميذاً.
وقد انتقل عدد مدارس التعليم الابتدائي من 34 في سنة 1920 إلى 132 مدرسة الآن، وانتقل عدد من تلاميذها من 10749 في سنة 1920 إلى 24301 الآن.
أما التعليم الفني (صناعي وتجاري وزراعي) فكانت مدارسه سبعاً في سنة 1920 فأصبحت الآن سبعاً وثلاثين. وكان عدد تلاميذها 1412 سنة 1920 فأصبحوا الآن 13800.
ولم يكن بمصر في سنة 1920 غير مدرسة ثانوية واحدة للبنات، عدد تلميذاتها 28. أما اليوم فعندنا ثماني مدارس من هذا النوع بها ألف وستمائة تلميذة.
وهذه الفترة أنشئت إلى جانب التعليم الثانوي للبنات المدارس النسوية الراقية والمدارس الفنية والخصوصية: كالفنون الطرزية، والثقافة النسوية، وكلية البنات وما إليها. وقد بلغ عدد هذه المدارس الآن خلا مدارس المعلمات اثنتي عشرة مدرسة بها 2411 طالبة.
وكانت مدارس البنات الابتدائية خمساً في سنة 1920 عدد تلميذاتها 843؛ أما الآن فعدد هذه المدارس اثنتان وثلاثون، وعدد تلميذاتها 3489.
وقد تضاعف نشاط التعليم الحر واستأثر بالحظ الأكبر من التعليم الابتدائي، وبحظ غير قليل من التعليم الثانوي. كانت مدارسه في سنة (1920) 61 مدرسة للبنين، و25 مدرسة للبنات بها 14638 تلميذاً وتلميذة. أما الآن فللتعليم الحر الابتدائي 251 مدرسة للبنين و92 مدرسة للبنات، بها جميعاً 56691 تلميذاً وتلميذة. وكانت مدارس التعليم الثانوي الحر في سنة (1920) 32 للبنين فقط بها 4490 تلميذاً؛ أما الآن فقد صارت 59 مدرسة للبنين و12 مدرسة للبنات جميعاً 14621 تلميذاً وتلميذة.
وكانت مدارس التعليم الأولي والتعليم الإلزامي في سنة 1920 3978 مدرسة بها 5851 معلماً و262553 تلميذاً. أما الآن فمدارسه 4631 مدرسة بها 25130 معلماً و 1148219 تلميذاً. وحظه من ميزانية وزارة المعارف 1548884

تصحيح رواية في مقال

حضرة الأستاذ الجليل صاحب الرسالة الغراء.
لأستاذنا الجليل الدكتور عبد الوهاب عزام أسلوب قوي رائع في أبحاثه القيمة عن أخلاق القرآن نتابعها بدقة بدقة وشغف. . .
ونستزيده منها. وإنه لماض أعزه الله.
وغير أني لاحظت في موضوع (العفو) المنشور في العدد 395 من الرسالة ما . . .

يلي:
قال خالد بن الوليد. لسليمان بن عبد الملك: (إن القدرة تذهب الحفيظة. وقد جل قدرك عن العقاب ونحن مقرون بالذنب. فإن تعف فأنت أهل للعفو، وإن تعاقب فيما كان منا) ويبدو لي الخطأ في اسم خالد بن الوليد أو السهو أو إنه يقصد خالداً آخر، فما كان رضي الله عنه من رجال سليمان بن عبد الملك ولا شاهد عصره. ولا أخال أحداً يجهل تاريخ موت خالد إذ وافاه الموت في حمص سنة إحدى وعشرين في عهد الفاروق عمر ابن الخطاب. وهو القائل على فراش الموت: لقد طلبت القتل في مظانه، فلم يقدر لي إلا أن أموت على فراشي، وما من عملي شيء أرجي عنده بعد أن لا إله إلا الله من ليلة بتها وأنا متترس والسماء تهلني بمطر إلى صبح حتى نغير على المشركين فإذا أنا مت فانظروا في سلاحي وفرسي فاجعلوه في سبيل الله. . .
وأوصى وصية واختار أميناً عليها عمر بن الخطاب على ما كان بينهما، فلما بلغ أمير المؤمنين عمر نبأ موته قال في حزن وألم: ما على نساء الوليد أن يسفحن على خالد دموعاً.
وسمع راجزاً يذكر خالد فقال والأسف ملء فؤاده: رحم الله خالداً. رحم الله خالداً.
(المنصورة)
خالد عبد المنعم.
فتيات في الأزهر
نشرت الرسالة في عددها رقم (395) نبذة بقلم الأديب (إبراهيم إبراهيم الخولي) بعنوان: (فتيات الأزهر) ورد فيها أن المستشرق الإنجليزي (مستر دن) في كتابه: (الحياة الفكرية والتعليمية في مصر في القرن التاسع عشر) ذكر ما خلاصته أن الحملة الفرنسية في قدومها إلى مصر وجدت في صحن الأزهر بضع نساء يتعلمن إلى جانب الشبان. . . الخ.
والذي أعرفه أنه ليس للأستاذ (هيورت دن) مدرس العربية بقسم اللغات الشرقية بجامعة لندن كتاباً يحمل العنوان الذي ورد في سياق النبذة التي سجلها الأديب، وإنما عنوان كتابه هو: (مقدمة عن تاريخ التعليم في مصر الحديثة).
والكتاب مطبوع في لندن عام 1938
ولا يحوي هذا الكتاب أية معلومات من النوع الذي ذكره الكاتب، وإنما الشائع أنه كانت في مصر في الجيل الماضي بضع نساء لهن إلمام بالنحو والعروض والشعر ومنهن: (فاطمة الأزهرية) و (ستيتة الطبلاوية). وقد درست عليهما السيدة (عائشة التيمورية) القصائد والموحشات والأزجال. فإذا كان حضرة الكاتب يعرف غير ما تقدم، فأرجو إلا يبخل بإرشادنا إلى ما فيه النفع.
محمد أمين حسونة
القصص
الرفاق الثلاثة
عن الإنكليزية
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار.
(عزيزي:
إن خطابك المؤرخ في 16 من هذا الشهر قد تضمن من الحماقات ما تضمنه كل خطاب تضمنه كل خطاب تكتبه لأن المركز الذي وضعت نفسك فيه سببه فقدانك التروي والتعقل. . .)
بهذه الألفاظ بدأ هنري وارنج خطابه الذي كان يمليه على كاتبته وهو جالس إلى مكتبه وهي بجانبه تكتب على الآلة الكاتبة. ثم نهض متبرماً ومشى وعلائم الملالة والسأم بادية عليه حتى وصل إلى النافذة فأطل منها ثم أخرج من جيبه خطاب ابنه فأعاد تلاوته وهو يتأفف وقال: (خمسون جنيهاً! هذا كثير! هذا تصرف غير معقول) ثم عاد إلى السكوت وإلى الإطلال من النافذة فنبهته الكاتبة قائلة: (ألا تريد إتمام الخطاب؟).
فمشى نحوها ووضع يده على كتفها برفق وقال في صوت يتصنع فيه العذوبة: (لقد كنت شارد الذهن - إن ابني الشقي -).
وتنهدم ثم قال: (إن ابني يعاملني معاملة سيئة، فقد رفض مساعدتي إياه على اختيار

عمل مناسب واشتغل بحرفة التمثيل ثم تزوج من ممثلة تعسة).
وكان الأب يرتعش عند ما ذكر الجملة الأخيرة. فقالت الكاتبة: (هل هذه الممثلة جميلة).
قال هنري: (إنني لم أرها ولا أريد أن أراها). فقالت الكاتبة: (والخطاب؟).
قال: (اتركيه الآن). ثم أنعم نظرة في عنق الكاتبة وذراعيها وقال: (ألا تتعبين من العمل يا مس ماسترز؟).
فقالت: إنني أتعب كثيراً ولكن لي جلداً على العمل.
قال: ألا تحبين التنزه و. . . والسرور؟ فقالت: إنني أجلس أحياناً في مقهى من مقاهي حي
سوهو.
قال: إن المقاهي كثيرة في أحسن من هذا الحي الحقير. ثم سكت وعاد ذهنه إلى الشرود، وبعد قليل التفت إليها وقال: ماذا كنت أقول لك الآن؟
فقالت: هل كنت تدعوني إلى العشاء؟
. . .قال: إنني آسف، لقد كنت أفكر
فقاطعته قائلة: إنني أقبل إذا أردت.
فابتسم وبدا على وجهه السرور؛ وقال: هذا حسن.
قالت: ولكن خطاب ابنك؟
فتحولت حالته مرة أخرى إلى الغضب وقال: إنني لن أبعث إليه بدرهم واحد.
قالت: إذا كانت هذه هي معاملتك لابنك فإني لن آتمنك على نفسي.
فقال الأب في شيء من الغضب: لماذا تهتمي كثيراً بابني؟
قالت: أنا لا أهتم؛ فقال: إذن فلماذا. . .؟ فأحنت رأسها ولم تجبه؛ وكان منظرها وهي تتحدث باعثاً لخاطر جنوني في نفس هذا الشيخ الفاني فانحنى وقبل شعرها اللامع؛
فقالت بصوت خافت وهي لا تزال مطأطئة الرأس: متى. . . غداً؟
فأجابها: نعم في الساعة السابعة.
قالت: وماذا تقول في الخطاب؟
ثم نظرت إليه وهي تبتسم ابتسامة مغرية؛ فقال: أتمي الخطاب كما تريدين.
فقالت وهي تستأنف الكتابة: أما عن المال، فإن طلبك إياه وقاحة.
قال: اكتبي كما تريدين. فعادت إلى الكتابة وهي تقرأ ما تكتبه: ولكني مع ذلك أبعث إليك تحويلاً بمبلغ خمسين جنيهاً، ثم قالت: هل أوقع الخطاب بتوقيع (والدك الحنون)؟
فلم يجبها؛ وسكتت هي أيضاً.
كان مطعم لويز بلو مزدحماً عند ما دخل هنري وكاتبته فجلسا متقابلين في وسط الزحام على جانبي منضدة، وكانت تحدثه بصوت رخيم وينظر إليها نظرة إعجاب وسألها: (هل أبواك على قيد الحياة؟)
فبدا عليها الاضطراب وقالت بصوت متغير: (إن أبي لا يزال حياً)
فقال هنري: (إنني آسف إذا كان هذا السؤال قد جدد لك ذكرى تريدين نسيانها، ولكني أشتاق إلى معرفة شيء عنك.
قالت: (إن أبي تزوج بعد أمي ولم أستطع الحياة مع زوجته فتركتها) فقال هنري: (ألم تفكري في العودة؟)
قالت: (إذا أردت فإنني لا أستطيع لأنه طردني من المنزل)
فقال: (ولكنه بغير شك أعطاك شيئاً من المال)
قالت الكاتبة: (لقد أرسلت إليه مرة أطلب مالاً فرفض.
فقال هنري: (يا له من وحش! أيستطيع الآباء أن يفعلوا هذا؟. . .)
ثم تذكر الأب بعد ما نطق بهذه الجملة أنه كان بالأمس يريد أن يرفض مطلب ابنه في المال فخجل، وفي هذه اللحظة رأى شاباً يدخل المطعم وقد دلت حالته على أنه يبحث عن إنسان بعينه، لأنه كان يدور بلحظة حول كل المناضد، ولما أدار هذا الشاب وجهه عرفه هنري وإذا به ابنه.
أحمر وجه هنري فجأة ونظرت إليه الكاتبة مستغربة، ثم تمتم بكلمات فهمت منها أنه قد آن أوان الذهاب.
ولكن قبل أن يتحرك امتدت إليه يد الشاب وقال: سعدت مساء يا أبي.

فسأله هنري: ما الذي تعنيه باقتفاء أثري؟
قال الابن: أليس لي يا أبي أن. . . ولكن قبل يتمم جملته وقع نظرة على الكاتبة فسكت، وأشار له أبوه بالجلوس فشكر وجلس، وقال هنري وهو يقدم لابنه كأساً من النبيذ: قل لي لماذا أتيت هنا؟
فقال الابن ببرود: أليس لي أن أبحث عمن يأخذ زوجتي فيدعوها إلى العشاء في المطاعم؟
قال هنري قد احتدم غيظاً: زوجتك! هذه كاتبتي يا روبرت). فقال روبرت: (هذه السيدة كاتبتي أنا يا أبي)
فنظر هنري إلى ابنه ثم إلى الكاتبة فابتسمت ووافقت على قول روبرت فعادت إلى الأب حالة الغضب، فقال روبرت: (إننا نريد يا أبي أن نصطلح. فزمجر هنري وقال الابن: لقد مرت بي وبزوجتي ظروف عصيبة ففكرت في هذه الحيلة. وجاءت للاشتغال عندك ونحن
(آسفان على إغضابك
وقالت الكاتبة: (إنني على ما أراه قد حزت رضاك وإعجابك فلا أظنك تظل على غضبك من زواج ابنك بي)
ومدت قدمها من تحت المنضدة نحو قدمه لتعاكسه كما كان يفعل منذ خمس دقائق.
ولكنه لم يجرؤ على ذلك، وقال وهو مغضب: (لقد خسرت كاتبتي يا روبرت)
فقالت وهي تبتسم: (خير لك أن أكون زوجة ابنك)
عبد اللطيف النشار
العدد 397 - بتاريخ: 10 - 02 - 1941
فلسفة الضحك
للأستاذ عباس محمود العقاد
والذي ذكرني هذا الموضوع نعى الفيلسوف الفرنسي (برجسون)، لأنه صاحب رأي من الآراء المعدودة في (فلسفة الضحك)، ولأن الأشياء التي توضع في الذهن موضع المتناقضات من دأبها أن يذكر بعضها ببعض؛ فالبكاء من ألزم الأشياء لفجيعة الموت، والضحك يناقض البكاء على جميع الألسنة، وإن لم يكونا في الواقع نقيضين أو طرفين متقابلين
فالحزن نقيض السرور ولكنه ليس بنقيض الضحك؛ وقد يحزن الحيوان الأعجم ولكنه لا يضحك أبداً ولا يستطيع أن يضحك، إذ الضحك خلة إنسانية ملازمة للعقل والضمير.
ويقال: إن الإنسان حيوان ضاحك، كما يقال: إن الإنسان حيوان ناطق: كلاهما وصف لا ينفصل عن التمييز الإنساني ولا يكون لغير الإنسان
وهنا ينبغي أن ننبه إلى أن قهقهة القرد ليست من الضحك إلا في الصوت، وأن الببغاء قد تحاكي الإنسان الضاحك كما تحاكي الإنسان المتكلم، ولكنها جميعها أصداء وأصوات ليس لها من التمييز المنطقي نصيب
ولا غرابة في أن يُعرَّف الإنسان بالضحك كما يعرَّف بالمنطق والتمييز، لأن المنطق هو الذي يجعلنا نضحك، وكل عمل مضحك فهو في حقيقته منطق ناقص أو قضية يختل فيها القياس والترتيب
ومن ثم يضحكنا الأطفال لأنهم لا يحسنون القياس، ولكنهم يركبون القضايا المنطقية تركيباً في نقص واختلال
فالطفل الذي يرى أباه يحلق ذقنه فيصر على أن يحلق ذقنه مثله يقيس قياساً منطقياً لا يدري موضع النقص فيه
وكذلك الطفل الذي يصيح في أهله أن يردوا شعره إليه بعد حلقه، إنما يقيس الشعر على الأشياء التي تؤخذ منه وترد إليه كلما شاء استردادها، فيخطئ القياس
والكبار الذين يضحكوننا إنما يصنعون مثل هذا: يقيسون ويخطئون القياس، ويكتفون بالمحاكاة ولا يتصرفون
ولو أننا نظرنا إلى كبار الممثلين المضحكين لوجدنا أنهم يتعمدون اخطأ على هذا المنوال، ويتبعون أسلوباً في وضع الأمور في غير مواضعها يتنوع ويختلف على حسب أمزجتهم وملكاتهم ولكنه يلتقي في خلة واحدة وهي اختلال القياس
فلوريل وهاردي مثلاً قد أُدخلا السجن في إحدى رواياتهما ثم استطاعا الإفلات منه

ونعما بالسكر والنزهة وهما مفلتان، فلما طاردهما الحراس في الطريق هربا إلى باب السجن يلتمسان الخلاص هناك: قياس منطقي لا شك فيه، ولكن النقص فيه ظاهر للمتفرجين وإن لم يظهر للممثلين على حسب الدور الذي كانا يمثلنه

وشارلي شابلن قرأ فلسفة الضحك للفيلسوف برجسون قبل أن يمثل لنا الإنسان الآلي الذي يأكل بالعدد المتحركة في روايته (أنوار المدينة)، وكذلك لاحظ هذه الفلسفة على ما نظن في الكلمات التي كان يغنيها بغير معنى ولا وحدة في بعض مواقف تلك الرواية، لأن مذهب برجسون أن سبب الضحك هو تصرف الإنسان كما تتصرف الآلة، بغير تمييز بين المتفقات والمختلفات، وبين ما يقتضي التغيير وما ليس يقتضيه

وهذا مذهب مطابق لما أسلفناه من تعليل الضحك باختلال القياس أو الاطراد على نسق واحد لا يوجب الاطراد

رجل دخل السجن مرة فهرب وسكر وطرب فهو يحسب كل دخلة إلى السجن منتهية إلى هذه النتيجة، ويمضي على هذا السنن كما تمضي الآلة التي تأتي بحركة واحدة ولا تقدر على تغييرها إذا تغيرت الدواعي والموجبات

فاضحك إنما هو سلاح الإنسانية للمحافظة على المرتبة التي وصلت إليها فوق الجماد وفوق الحيوان، ومن هنا استحال على الحيوان أن يضحك لأنه لم يصل إلى هذه المرتبة وليس عنده من التمييز ما تستدعيه

ومذهب برجسون هذا هو جزء متمم لفلسفة كلها في حقيقة التطور وحقيقة المادة والفكرة، فهي تركيبة شاملة يفسر بعضها بعضاً ويقوم الدليل من إحدى نواحيها على إثبات سائر النواحي. وله براعة في هذا التوفيق مع سهولة في التعبير لم يرزقها فيلسوف حديث بعد (شوبنهور) الذي انفرد بهذه المزية بين فلاسفة الألمان وسائر الفلاسفة في عصره

وللقارئ أن يراجع النكات أو المواقف التمثيلية التي أضحكته ليعرضها على هذا المذهب، فهو واجد فيها لا محالة تصرفاً هو أشبه بحركة الآلة منه بتمييز الإنسان الناطق، أو واجد فيها شيئا من وضع الأمور في غير موضعها وقياسها على غير مقياس صحيح

ومن أمثلة ذلك تلك النكتة التي تروى عن ظريف من أبناء البلد يقول عن أحد الأطباء إنه يعلق مريضاً على باب المستوصف!

فذلك الطبيب على حسب هذه النكتة يرى أن أصحاب الدكاكين يعلقون على وجهاتها نماذج مما يعملون فيه، وهو يعمل في المرضى ويستمد منهم تجارته، فلماذا يا ترى لا يعلق مريضاً على باب دكانه؟

وهذا هو التصرف الآلي كما يقول برجسون، أو هذا هو القياس بغير المقياس الصحيح

ومن أمثلة ذلك (حانوتي) في إحدى الروايات الهزلية التي عرضت بمسارحنا المصرية يملأ جيوبه بالمناديل المطوقة بالسواد ليقدمها إلى الباكين من أهل الموتى على سبيل الإعلان (عن المحل)!

فالتصرف في هذا الموقف كتصرف الطبيب المزعوم، والقياس هنا كالقياس هناك

ومن الواجب أن نفرق بين موضوع الضحك وبين شعورنا الذي نواجه به الإنسان المضحك، فإنهما شيئان منفصلان كل الانفصال كانفصال حقيقة الجمال عن شعورك أنت بالإنسان الجميل

فنحن نعطف على الطفل الذي نضحك منه، ونزدري الرجل الكبير الذي يصنع مثل صنعه، وننفر من المغرور المكابر الذي يبعث الضحك والسخرية، ونألم للمريض الذي يخطئ كما يخطئ الأطفال وأشباه الأطفال، وما من إحساس من هذه الأحاسيس داخل في طبيعة الضحك وحقيقته الفلسفية، بل هو عارض يلازم الضحك أو يفارقه ويكون عند هذا الإنسان على خلاف ما يكون عند غيره: فقد يؤلمني ما يوجب الازدراء عند الآخرين؛ وقد تغتبط لرؤية العدو في موقف السخرية وتأسى لرؤية الصديق في ذلك الموقف بعينه

إن نعي برجسون لم يذكرني فلسفة الضحك وحدها بل ذكرني أموراً كثيرة منها ما يحزن ومنها ما يبعث الرجاء

ذكرني نصيب الفلسفة بيننا نحن المصريين منذ عشرات الآلاف من السنين، فلم يكن للفلسفة قط نصيب حسن بين المصريين أقدمين كانوا أم محدثين
لم؟ لأن الدولة القوية تنشأ إلى جانبها الكهانة القوية، ولأن الكهانة القوية قد استأثرت في مصر القديمة بالبحث عن حقائق الكون وأسرار الحياة، وأدخلتها في عداد المراسم الدينية التي تفرضها على الأفكار، ولا تسيغ فيها التجديد والابتكار
أما بعد انقضاء الدولة القديمة والكهانة القديمة فالاستعباد علة محققة من علل القضاء على الفلسفة في هذه الأمة، لأن الفلسفة هي المعرفة التي يطلبها العقل لذاتها أو يطلبها لذاته؛ فهي من مطالب الأحرار وليست من مطالب المستعبدين الذين يريدون ما يرادون عليه ويحصرون همتهم في المنفعة والجزاء
وقد ينبغ بين هؤلاء المستعبدين حكماء من معنى الحكمة التي هي اختبار واتعاظ وانتفاع بتجارب السابقين
أما الحكماء من معنى الحكمة التي هي نفاذ إلى كنه الحقائق، فظهورهم وارتفاع شأنهم بين المستعبدين مستحيل أو كالمستحيل
هاتان علتان أرضاهما لتعليل كساد الفلسفة بين أبناء هذه الأمة في الزمنين القديم والحديث، ولا بد من مرانة طويلة على الحرية قبل أن يزول هذا الأثر من آثار الاستعباد ولكن هل العلة التي أرضاها هي العلة التي تطابق جملة الأسباب؟ وهل هي دون غيرها التي تطابقها، أو هنالك علل أخرى يقول بها من ليس يرضيهم من أمر هذه الأمة ما نرضاه؟
العلل التي تقال في هذا الصدد كثيرة، ومنها ضيق الواعية وانطباع الذهن على سهولة التفكير والتقيد بالمحسوسات والعمليات
ومنها قلة الجد والجلد وأخذ الحياة بالظواهر والوقوف بها عند السكك المطروقة والعادات المكررة التي تصد عن الإبداع وتغلق منافذ الاستغراب والتساؤل والاستطلاع
وكلتا العلتين تستند إلى الأخرى، وكلتاهما لا نرضاها ولا نجزم بنفيها لأننا لا نرضاها!
قلنا إن نعي برجسون ذكرنا أموراً تحزن وأموراً تبعث الرجاء. فهذا الذي يحزن وهو حزن هين في عرف الكثيرين!
أما الذي يبعث الرجاء فهو تلك النبوءة التي أنبأ فيها الفيلسوف بهزيمة السلاح المادي أمام الآداب الإنسانية يوم أن نشبت الحرب الماضية وكان الناس في شك من عقباها لما شاهدوه من بطش السلاح المادي خلال المعارك الأولى
فقد كان برجسون مؤمناً بغلبة الروح على القوة المادية، وكان يبني ذلك الإيمان على مثل السبب الذي اعتمده في تعليل الضحك، وهو أن التقدم الإنساني مرهون بتقدم الروحيات على الآليات، وأن الإنسان لم يخلق ضاحكاً ليصبح آلة مغلوباً بقوة الآلة، بل خلق ضاحكاً ليسخر من الآلات، ومن يردونه إلى حكم الآلات.
عباس محمود العقاد
أخلاق القرآن
صلة الأرحام
للدكتور عبد الوهاب عزام
(خاتمة)
أمر القرآن الكريم بالرحمة العامة والإحسان الشامل - الرحمة التي تنال القريب والبعيد والإنسان والحيوان، والإحسان الذي يعم الناس جميعاً ويشمل كل فعل وكل قول. . .
ثم خص ضروباً من الناس فوكد الأمر بالإحسان إليهم وكرر الوصية بالبرّ بهم، ومن هؤلاء ضعاف الناس من الفقراء واليتامى إذ كانوا أحوج إلى العطف، وأجدر بالبر، وأولى بالإحسان.
وممن وكد القرآن الأمر ببرهم والإحسان إليهم، ذوو القرابة لأن القريب أعرف بقريبه وأدنى إليه، ولأن الإحسان العام يبدأ بالقرابة ثم يتسع فيعم، ولأن مودة القرابة تمكن الأواصر بينهم وتشيع المحبة فيهم، وتقربهم إلى التعاون. ومن هذه المودة في القربى تستحكم روابط الأسر، ومن الأسر تتألف الأمة متينة الأساس محكمة البناء. فمودة القربى دُربة على المودة العامة، وتمهيد للإحسان الشامل. والقطيعة بين الأقرباء فساد وإن صغر كبير، وشر وإن قل مستطير، وعلة في النواة تبين في الشجرة، وخلل

في الأسرة يظهر في الأمة
لذلك وكد كتاب الله الأمر بمودة ذوي القرابة وصلة الأرحام ولا سيما الوالدان
عظَّم القرآن صلة الأرحام إذ قرن تقواها بتقوى الله تعالى فقال: (واتقوا الله الذين تساءلون به والأرحام إن الله كان
عليكم رقيباً). وأمر بتوفية القرابة حقها إذ قال: (وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل). وقرن قطع الأرحام
بالإفساد في الأرض إذ قال: (فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم)
وقد جاء في حديث الرسول صلوات الله عليه وسلامه أن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ من
خلقه قالت الرحم: (هذا مقام العائذ بك من القطيعة. قال: نعم أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى يا رب. قال: فهو لك) وقال رجل للرسول: (أخبرني بعمل يدخلني الجنة) فقال: (تعبد الله لا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصل الرحم) وفي الحديث أيضاً: (لا يدخل الجنة قاطع)
ذلكم أمر القرآن والسنة بصلة الأرحام عامة والنهي عن قطعها. وأما بر الوالدين خاصة فقد أعظم القرآن أمره، وكرر الأمر به في آيات كثيرة. وحسبك أن القرآن قرن الإحسان إلى الوالدين بتوحيد الله، وشكر الله بشكرهما في آيات قال: (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسانا) وقال: (قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسانا) وقال: (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً. واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا.)
بل أمر القرآن الكريم أن يحسن الولد المسلم إلى أبويه غير المسلمين وإن دعواه إلى الكفر واجتهدا في ردّه عن الإسلام. قال: (ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك. إليّ المصير. وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعمهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إليّ ثم إليّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون)
وجاء في الحديث أن رجلاً سأل رسول الله أي العمل أحب إلى الله عز وجلّ؟ قال: الصلاة على وقتها. قال ثم أي؟ قال: بر الوالدين. قال ثم أي؟ قال الجهاد في سبيل الله. وروى عبد الله بن عمرو (أن رجلاً قال للنبي: أجاهد. قال: ألك أبوان؟ قال نعم. قال: ففيهما فجاهد.) وقد ذكر رسول الله الكبائر فقال: (الشرك بالله وقتل النفس وعقوق الوالدين.)
وأما الإحسان إلى الأولاد فله من شفقة الوالدين ما يغني عن الترغيب والإيصاء، ولكن يقع في البشر شذوذ يصيب الولد بقسوة الوالد. وقد علم القرآن الناس البر بالأولاد ولا سيما البنات فعصم دماءهن وجعل لهن حقاً في الميراث، ورفع مكانة المرأة وجعل لها مثل ما عليها من الحقوق والواجبات
وفي رسول الله أسوة حسنة للوالد الشفيق والأب البار. قبّل رسول الله الحسن بن علي
وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالساً، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً. فنظر إليه رسول الله ثم قال: من لا يرحم لا يرحم. وقال أعرابي للنبي: تقبلون الصبيان؟ فما نقبّلهم. فقال: (أو أملك لك أن نزع الله الرحمة من قلبك؟)
هكذا أشاد الإسلام بحقوق القرابة وأواصر الأسرة ووكد رعايتها وجعل لها مسحة من التقديس، لأن الناس لا يتاحبون ويتوادون ويتعاونون إلا ان تبدأ هذه المحبة وهذا التعاون من الأسرة، ثم تتسع عاطفة الخير فتعم القريب والبعيد، وتفيض على الأمة كلها ثم تنال الناس جميعاً
وإنّا لنرى اليوم أواصر الأرحام تنقطع، وعرى القرابة تنفصم، وبناء الأسرة يهن بما بعدنا من قرآننا وديننا وتاريخنا وسننا. شغل رب الأسرة عن أسرته، وثارت بالأولاد الفتنة، وظن الأحداث إن الحرية أن ينتهكوا حرمات الأسرة، وأن الجِدّة أن يثوروا على سلطان الوالدين
ألا إن على المصلحين أن يطبوا لهذا الداء، وأن يبذلوا ما يملكون من فكر وعمل في

تقوية أواصر القرابة وإحكام بناء الأسرة على قواعد من الحب والإيثار، وإكبار الكبير والعطف على الصغير، والتعاون على الخير والحق

خاتمة

قصصت عليكم طرفاً من أخلاق القرآن، وحدثتكم بنبذة من آدابه وشذرة من وصاياه، وإن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

تكلمت عن العدل، والوفاء بالعهد، وعن الإحسان والصدق والصبر والعفو ولم أرد أن أستقصي أخلاق القرآن وآدابه فهي شريعة الإسلام الأخلاقية كلها، وهي تهدي إلى ما بعدها وترشد إلى ما وراءها. والقرآن الكريم كنز من الأخلاق لا يفنى، ومنبع للفضائل لا ينضب. فليت المسلمين يرجعون إليه ليتبينوا سننه، ويتخلقوا بأخلاقه، ويتأدبوا بآدابه، لتكون لهم عصمة في هذا العصر المفتون، وقبساً وعزاً من هذا الذل، واجتماعاً من هذه الفرقة، وعلماً من هذه الجهالات، وهدى من هذه الضلالات، ولتكون لهم بعد الشقاء سعادة، وبعد الشدة رخاء، وبعد العسر يسراً.

أَلا إن كتاب الله الكريم لا يدعو إلى أخلاق الصوامع كما بينت لكم، ولكن يدعو إلى أخلاق

تسعد الناس في معارك الحياة، وترشدهم في فتنها، وتوفي بهم على الغاية التي أرادها الله لخلقه، وهدى لها عباده، وبعث من أجلها رسله. الأخلاق التي يحيا بها موتى الشقاء لا التي يموت بها الأحياء. وإن فيها لسعادة الفرد والجماعة وسعادة الناس كافة، وإن فيها لنجاة العالم من كوارثه، وخلاصه من مهالكه، وإنما هي السلام في نفس الفرد، وفي جماعة الأسرة، وفي نظام الأمة، وفي مجتمع البشر. وهل هي إلا تخليص النفس من ضلالاتها، وتطهيرها من أرجاسها، وإبراؤها من أهوائها، ثم حكمها بعدل الله الذي يبصّر بالواجب كما يبصر بالحق، ويدعوا إلى العطاء كما يدعو إلى الأخذ، وينزل الناس على حكم الإنصاف المؤلف للقلوب، والألفة المعينة على الخطوب، والتعاون الذي يذلل الصعاب، ويُبلغ المقاصد، وينيل المطالب، ثم إقامة الجماعة في نظام جامع من الإنصاف والألفة والمودة والتعاون يرد عداوتهم محبة، وحربهم سلاماً، وظلمهم عدلاً، وجشعهم قناعة، ويجمع القلوب والعقول والأيدي على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان.

إلى هذه الأخلاق يدعو القرآن، وإلى هذه المقاصد تقصد أخلاق القرآن. فمن لي بأن يهتدي المسلمون بها لتهدي الأمم بهم؟ ومن لي أن يلجأ المسلمون إليها ليكونوا لها حجة قائمة وإليها دعوة صادقة، ويذكروا أنهم أمة واحدة يهديها كتاب واحد، وأن أخلاق هي الوشائج التي تجمعهم والسنن التي تنظمهم، والأسطر التي تؤلف بين كلماتهم؛ ثم يحذروا أن يذهب نظامهم بدَداً، واجتماعهم اضطراباً، بما فرطوا بما أورثوا من هذه الأخلاق القويمة، وهذه السنن الصالحة، وهذه القوانين الجامعة

يقول الله تعالى: (إن هذا القرآن للتي هي أقوم). ويقول: (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا). صدق الله العظيم.

عبد الوهاب عزام

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

البلبل العائد إلى الروض - بيني وبين أصدقائي

البلبل العائد إلى الروض

كنت أحب أن أجزي الأستاذ البشبيشي ثناءً بثناء، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ ولكن غرامي بالمشاغبة غيَّر مقام الخطاب، فأنا سألقاه بالملام لا بالثناء، وهو المسئول عما سيقع في كلامي من قسوة وعنف، لأنه حدثنا أنه مُقْبلٌ على أمر عظيم هو العودة إلى الروض، وقد كادت كلمته بالرسالة تشهد بأنه يعاني مشقة أليمة في رياضة جناحيه على النهوض، بعد طول القرار بأرض الهُجود، إن جاز الوهم بأن الغفوة تجوز على قلب ذلك الصديق

وما لي لا أقول الحق فأصرح بأني أخاف على الأستاذ البشبيشي عواقب العودة إلى روض الأدب والبيان؟

أنا أخاف على هذا الصديق أشد الخوف، لأن ماضيه القريب داني على أنه تعرض لغضب الأدب مرتين، ولو شئت لقلت إنه تعرض لغضب الله مرات. . . ولكن كيف؟

نسي الأستاذ البشبيشي أو تناسى أن الله يسوق المكاره إلى النوابغ من وقت إلى وقت ليفتح عيونهم وقلوبهم على ما في الوجود من أنوار وظلمات، ونسي أو تناسى ان الله يطالب أولئك النوابغ بالحمد على تلك المكاره، لأنها في الواقع نعم سوابغ فما الذي صنع ذلك الصديق وقد تفضل الله بامتحانه مرة ومرتين ومرات ليشرع القلم في وصف ما يعتلج في ضمير الوجود من آراء وأهواء وحقائق وأباطيل؟

أُوذيَ البشبيشي بالظلم والغدر والعقوق، فهل استفاد قلمه من ذلك الإيذاء؟ أيكون آثر العفو عن ظالميه؟ إن كان ذلك فما الذي صدر عن قلمه في ذلك الصفح الجميل؟

المهم هو ان ينتفع الكاتب من جميع الظروف، فيكون لقلمه حنين ورنين وصرير وزئير، وفقاً لاختلاف الأحوال من قلق وهدوء، وبؤس ونعيم، فإن ضيع هذه الفرص السوانح وترك عواطفه تخمد وتبيد فهو غير أهل للعودة إلى الروض، ونحن على صده قادرون، فليس منا مَن يضيِّع فرصة الانتفاع بمواسم القلوب في القبض والبسط واليأس والرجاء

إن روض الأدب ليس حديقة مصقولة الحواشي كالحدائق التي تقام في قصور الأمراء والوزراء، فتلك حدائق لا تغنِّي فيها البلابل إلا وهي محبوسة في أقفاص، أو ما يشبه الأقفاص من المغاني المسقوفة بأسلاك الحديد

روض الأدب ليس من تلك الحدائق حتى يقول الأستاذ البشبيشي إنه قادم للغناء وفي يده وَترٌ حنّان هو قلمه البليغ

هيهات، هيهات، وإنما روض الأدب جنة وحشية تشبه الجنة التي اعترك فيها الخير والشر والهدى والضلال لعهد آدم وحواء

في روض الأدب أزهار ورياحين، وفيه أيضاً أشواك وحيات وشياطين

هو روضٌ وحشي تجاورَ فيه الكِناس والعرين، واقترب فيه عش الطائر من وكر الثعبان، وأنتَ واجدٌ بذلك الروض ما شئت من صنوف السم والترياق، ففيه أنهار من الشهد وبحار من الصلب، وفيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من أفانين الود والحقد والصدق والبهتان

في ذلك الروض الوحشي لا يغرد البلبل إلا وهو مطمئن إلى أنه تفرد بالقدرة على السباحة في لجج الهواء. . . وفي ذلك الروض يزأر الأسد وهو واثق بأنه السيد المطلق، وفيه يبغم الظبي حين يعرف مسالك الأمان من كيد أولئك (السكان) كل شئ حيٌ في ذلك الروض حتى هوامد الأعشاب وصوامت الغدران. فما الذي أعددت، أيها البلبل، لزيارة هذا الروض؟

ما أشد خوفي عليك، يا صديقي، فأنت فيما يظهر لم تسمع بأفاعي الرياض البلبل في ذلك الروض يغني بالنهار، ويسهر خائفاً بالليل، لأنه يعرف أن في ذلك الروض خلائق مؤذية تتسلق الأشجار في الظلمات لتعصر رقاب البلابل ثم تبتلعها برفق؛ والموت هو الموت ولو جاء في أعقاب النشوة بكؤوس الرحيق

وأنا جربت الحياة في روض الأدب، وعرفت من أهوال ذلك الروض ما لا تعرف. وهل تعرف أني كنت في روض الأدب بلبلاً وأفعواناً ورئبالاً؟ هل تعرف أني غَنّيتُ ولَدَغتُ وهَصَرتُ؟ هل تعرف أني قابلتُ خلائق ذلك الروض بأسلحةً مختلفات: منها الصوت الرخيم، والناب المسموم، والمِخْلبُ الفاتك؟

وهل ألام على ما صنعت وأنا أعيش في مَسبعة سميتْ تفاؤلاً بالروض؟

وتقول: إنني اجتذبتك إلى هذا الروض؛ وما قلت إلا الحق فقد كان قلمي ولن يزال مسموع الصوت، مستجاب الدعاء، ولكن كيف أجتذبك؟ ما صنعت ذلك ترفقاً بك ولا عطفاً عليك، وإنما أردت ان تكثر النفوس في تلك المسبعة الفيحاء، ليذهب عني بروحك المؤنس بعض ما أقاسي من مُضجِرات الاستيحاش، إن صح لمثلي أن يتهيب العزلة والانفراد في روض السباع الضاريات

أما بعد، فهذا روض الأدب، وهذا بلبل يعود بعد طول الغياب، ليغَّرد فوق أفنان الشَّجراء (الرسالة)

والحق أنه لن يرى لأول وهلة أن روض الأدب من الغابات الوحشية، وكيف وفي ذلك الروض كتاب وشعراء وعلماء؟ ولكن العبرة بالخواتيم، والخواتيم في أيدي أناس غير أولئك، ناس لا يعرفهم ولا يعرفونه، وهم الذين يحكمون على الأدب وهو منهم براء

لو فهم كل قارئ ما تريد أن تقول، لكان من السهل أن يأتلف الأسد والغزال، والبلبل والثعبان
ولو فهم كل قارئ أن للكاتب حقاً في أن يؤدي رسالته بالأسلوب الذي يختار لعرف قومٌ أن لا موجب للحيرة في أمري وقد طويتُ محاسني ونشرتُ عيوبي، لأسلم من آصار التكبر والإزدهاء، ولأجعل الرأي في سعادتي وشقاوتي لمن تفرد بالعزة والجبروت، وله الحمد وعليه الثناء
هذا روض الأدب، وهذا بلبل يعود
أهلاً وسهلاً ومرحباً!!
ولكن يجب أن يعترف الأستاذ البشبيشي بأننا خصصناه بالأهل والسهل والمرحب، وهي ألفاظ لم نسمع بها في هذا الروض فما كان إلا مسارب صِلال ومدارج ذئاب الأدب؟ الأدب؟
ماذا جنينا من أيامه ولياليه وقد سبَقَنا المتجرون بالنمائم والدسائس والأراجيف؟ إن الجاسوس يملك من الثروة أضعاف ما يملك الأديب، وأهون الحظوظ في الدنيا هي حظوظ الأديب؛ فأين من يتوجع لبلائنا بالدنيا والناس؟
آمنت بالله، وتُبتُ إلى الله؛ فما عرفت نعمةً أعظم من نعمة الخلوة إلى القلم في لحظات السيطرة الروحية على زمام الوجود
إلى القلم، إلى الروض، إلى مُعْتَرَك الهدى والضلال، إلى حيث نصافح بالفكر والروح شياطين النفوس وملائكة القلوب!
ومن الله الذي أقسم بالقلم وما يَسطُرُون نسأل الأمان من إخوان الزمان
بيني وبين أصدقائي
وأصدقائي في هذا الحديث هم قراء (الرسالة) الذين تطيب لهم مراسلتي من حين إلى حين، وهم خير الأصدقاء، لأن الصلات الروحية أعظم وأنفس من جميع الصلات؛ ومع اعترافي بهذه الحقيقة التي تؤنس روحي فأنا لا أؤدي حقوق هذه الصداقة إلا في أندر الأحايين، لأن صفحات (الرسالة) تضيق عن تسجيل ما يدور بيني وبينهم من فنون الأحاديث؛ فماذا أريد ان أقول لهم في هذه الكلمات؟
1 - أريد أن أُطَمْئن الأديب (البيسي) الذي نقل إلي عواطف بعض إخوانه في الإسكندرية عما كتبته في تأنيب الشاب المقيم بإحدى قرى المنوفية، فقد عدّوا كلامي تثبيطاً لعزائم الشبان، وتخوفوا عواقبه في قتل مواهب ذلك الأديب الناشئ.
وأجيب بأن ذلك الشاب لم ينتحر - كما توقعت - وإنما أجاب جواباً يشهد بأنه خُلق للحياة لا للموت، وذلك ما كنت أبغي، فما يسرني أن تكثر الأرقام، وإنما يسرني أن تكثر الأعلام، وأديبٌ واحدٌ متمكن أنفع للأمة من ألوف الأدباء الموسومين بالجهل المصقول، وأعيذ الأديب (الدسوقي) أن يكون من هؤلاء
2 - وأريد أن أقول للأديب (. . . .) إن ثناءه على ما أكتب في النقد الأدبي لا يغريني بالسير في ذلك الطريق إلى نهاية الشوط، لأن الجمهور يغيب عنه الفرق بين النقد والتجريح، وهو يتوهم أن لنا غاية في تعقب الآثار الأدبية بالتزييف والتصحيح. . . يضاف إلى ذلك أني أكره أشياء من بعض الناس، ففيهم من يعيش بوجهين، فيكتب إلي مشجعاً، ويكتب إلى من أنقدهم متوجعاً؛ كالذي صنع فلان حين رجا أن يكون كتابه خاصاً لا يصل إلى أسماع القراء! فهل تراهم سمعوا منه شيئاً؟! وهل عرفوا أنه يقيم في بلد يقيم فيه شاعر كبير اسمه أحمد. وهو غير الشاعر أحمد الكاشف؟
3 - وأريد أن أقول لصاحب (جريدة مصر العليا) إني راض عن التسمية الطريفة لمصر الشَّمالية ومصر الجنوبية، وهو يعرف ما أعني
4 - ثم أنظر في جريدة (الأحوال) البغدادية فأجد صورة (شارع فيصل) بجانب الكرخ، وتحت الصورة كلمات موجهة إلي برفق ولطف، كلمات دَّبجها أديبٌ كريمٌ عز عليه أن أشكو زماني فهو يقول:
(أنت أكبر من الزمان، ما دام لك إخوانٌ أوفياء)
وعندئذٍ أتذكر أن لي في العراق ذخيرة روحية، ثم أتذكر تمثال فيصل، فمع من جلست في رحاب ذلك التمثال وصدري يفيض بالكروب في ليلة عتاب:
يا روعةَ البدر في سَماهُ ... وفتنةَ الزهر في الغصونِ
تناسَ ما شئتَ سوف تخبو ... حرارة الدمع في الشؤون

وسوف تَبلَى على الليالي ... غرائب الِّحر في العيون
أستغفر الحبَّ سوف يَبقَى ... على صروف الأسى حنيني
وتذكرت الخطابات التي تلقيتها من الكرخ، وأجبت عنها بالصمت، فراراً من عواقب الافتضاح، وهل كنت إلا طيفاً زار في السحر بساتين الكرخ وبغداد؟!
5 - وهذا خطاب من الأستاذ جاسم الرجب يشرح خلافاً بينه وبين الأستاذ شاكر الجودي حول مقال نشر في (الرسالة) بدون إمضاء، ثم فنّدته بعنف، ويرى السيد جاسم أن الناقد هو الكاتب، وأجيب بأني نسيت ظروف ذلك المقال!
أما ثورة السيد جاسم على فِلم (فتاة متمردة) ودعواه أنه يغضّ من المجتمع المصري فهو كلام لا أوافقه عليه، فذلك الفلم من الأفلام الجيدة، وقد شاهدته فأبكاني، وهو يمثل صورة من أزمات النفوس تقع في مصر كل يوم، وقد تقع أيضاً في العراق، لو التفت هذا الصديق إلى ما يمرّ بالنفوس من مكاره وخطوب.
6 - وذاك خطاب من أخ صادق يقول فيه: (هل يذكر الدكتور زكي مبارك أنه ألقى في البريد المصري تذكرة واحدة لإخوانه في بغداد وما عرف فيهم غير الصدق والوفاء؟) وأجيب بأن العراق شغلني عن العراقيين، ولو جمع ما كتبته في الجرائد المصرية عن العراق لكان مادة تكفي لتأليف ألف خطاب، فهل ينفعني هذا الاعتذار الطريف؟
وأنتهز هذه الفرصة فأوجه العتاب إلى رقابة البريد في مصر، فهي تفتح جميع الخطابات التي ترد إلي من العراق، فماذا ينتظر الرقباء؟ هل يتوهمون ان من المحتمل أن يكون في تلك الخطابات ما يستوجب السؤال والجواب؟
وماذا يصنع رجل مثلي أكثر من الذي صنع ليقنع قومه بأنه لا يعرف غير الهيام بخلق المودّات لمصر في أقطار الشرق؟ وكيف كانت تصير الصلات بين مصر والعراق لو صفح قلمي عمن حاولوا تكدير تلك الصلات؟
الرقباء ينفذون خطة يقضي بها الواجب، ولكن من حقنا على الدولة أن نذّكرها بأننا نعرف من المسؤولية مثل الذي تعرف، فنحن جنودها الأمناء، وما يجوز لها ان تؤذينا ولو بالتلميح، إلا ان يقال إن الرقباء لا يعرفون اسم زكي مبارك وهو عُذرٌ مقبول!
7 - وأريد أن أشكر للأديب الذي يكتب إليّ من (فارسكور) حماسته البالغة في ملاحقتي بالنقد العنيف، ثقةً بأن خفاء اسمه ينجيه من بطش قلمي! ثم أرجوه أن يتذكر أن عنواني هو (مصر الجديدة) فلا موجب لهيام خطاباته بين إدارة الرسالة ووزارة المعارف، فقد يعرضها ذلك الهيام للضياع
أما التوجيه الذي ينتظره مني فهو سهل؛ فقد دلت رسائله على تباشير من الفهم الصحيح، ويكفي ان يثابر على المطالعة الجدية بدون انقطاع، وليقصر مطالعاته مؤقتاً على أطايب المؤلفات في الأدب الحديث، لأنه أقرب إلى الإفهام والعقول، إذ كان صوراً تمثل أذواق الناس في هذا الجيل، وله بعد ذلك ان يطالع من الأدب القديم ما يشاء
وأعتقد أن من حقه أن ينشر في (الرسالة) بعض خواطره، لأنه يملك القدرة على التعبير المقبول
8 - وأريد أن أقول للأستاذ (م. م. م) إن نثرك أقوى من شعرك، وقوة الروح لا تعوزك، وإنما يُعوزك ما كان يسميه القدماء (شِدة الأَسر) في صوغ القصيد، فأرجو أن تكثر من حفظ القصائد الجياد ليرتاض طبعك على النظم الرصين
أما الأديب (مجنون القريض) فسيكون له بين الشعراء مكان
9 - وأريد أن أقول للأديب (الصنعاني) إني تلقيت خطابه بأطيب القبول، ونحن أنصار الحرية في الرأي، فمن واجبنا أن نرحب بكل ما يؤيد دعائم الحرية، وإن أخطأ صاحبه في
التعبير عن قلبه السليم
10 - وأقول للأديب اليأس سليمان بحوث إني لا أصدِّق أن في الدنيا رجلاً أغير مني على لغة العرب، فليس من حقه أن يتوهم أني لا أبالي قواعد النحو والصرف حين ألتمس وجهاً لضم الظاء من (الظرف) في نطق المصريين، وما شأن هذه المسألة في بالنحو الصرف، يا حضرة الأديب؟
أنا أقول إن (الظُرف) أخذ حكم (اللُّطف) عن طريق الإتباع، ثم بقى له الحكم مع الانفراد، وهناك علة ثانية وهي التمييز بين المحسوس والمعقول، والمصريون عرب،

وهم لا يخطئون في لغتهم عن جهل، وإنما (يخطئون) لأسرار قد تخفى على بعض القراء، فنتوهمهم مخطئين وهم على صواب
والحق أنه لا بدّ من التماس العلل والأسباب لانحراف النطق عند بعض الجماهير، فذلك الانحراف قد يصدُر عن سليقة مستورة لا يتنبه لها اللغويون، وهذا ما أردت النص عليه، يا سيد (سليمان)
زكي مبارك
أومن بالإنسان - 5!
رد وتعليق
للأستاذ عبد المنعم خلاف
من الدفتر القديم - في حدود البداهة - فليكن قرداً نهض على
- قدميه، ثم ماذا؟ - وارث الحياة - الشر يلد والعلم يدفن
- الأشقياء الهالكون - نتائج الإيمان بالإنسان ونتائج الكفر به
أخلاق العلماء - الألمان والإنجليز والعرب - الهنادكة وعبادة
الأبقار والثعابين - صوفية شاردة تتخيل وصوفية مادية تتحقق
- استعلان سر الوجود على تفاوت - برغوث أبي العلاء -
مذهب هدامة - فترات التمهيد لظهور الإنسان - لا نقص في
غرائز الإنسان - العلم أضاف حياة للحياة - ما أشدت بأخلاق
الإنسان - الدولة كائن عضوي واحد - تقدم العلم وتخلف
الخلق - لو آمن بنفسه - يوم قريب - لغير المؤمنين
قرأت المقال الطريف لصديقي الأستاذ زكي نجيب محمود الذي أخرجه مخرج الإنكار لما ذهبت إليه من رأي في القيمة السامية لحياة الإنسان وتفرده بالسيادة بين الكائنات، وبتوجه منافع ما في الأرض كله إليه، وبتفرده بالتغلب على كثير من قوى الطبيعة الأرضية وتسخيره إياها، وببساطة الحياة في الأرض بدونه، وبقدرته على إيجاد عوالم ومعادن وصناعات ومدن وآثار ورسالات لم يكن في الحياة شئ منها، وبقيامه وسط دورات الأرض الأبدية المحدودة المكررة، بحياة حرة تذهب في أي اتجاه وتكاد تكون منفصلة عن حياة الطبيعة
وكنت أود أن أعيد في صدد الرد على صديقي ما سبق أن ذكرته في العددين 353، 356 من هذه المجلة رداً على سائل بيروتي سألني عن مسائل تدور حول الإنسان، وآخر مصري رأى أن يذكرني بحياة النظام والدقة التي تحياها أمم النمل والنحل وغيرهما حين رأى إشادتي بالقيمة السامية لحياة الإنسان، ولكن إعادة ذلك الحديث على قرب العهد به مما يضيق به صدري ويضيق عنه نطاق (الرسالة) ومنهاجها؛ فأحيل صديقي والذين قرءوا مقاله فأثر فيهم على هاتين المقالتين السالفتين فإن ما فيهما كفيل - فيما أرى - أن يلقي ضوءاً عريضاً غزيراً كاشفاً على الفروق بين أمم الحيوان وأمة الإنسان أبي العجائب. . .
غير أني أود أن أزيد هنا بعض أفكار أقدم قبلها أسئلة بديهية ألقيها على صديق خليفة (سليمان بن داود) (مفهم الطير والبهائم والمردة) والفراش المبثوث والبعوض والبرغوث:
هل رأى أو سمع أن أمة من أمم الحيوان والحشرات اصطادت إنساناً ووضعته في قفص وعرضته أمام الأنظار؟
وهل رأى أو سمع أن فرساً أو حماراً ألجم إنساناً وركبه أو حرث عليه حقله أو وضع على ظهره حمله؟
وهل رأى أو سمع ان جملاً أو فيلاً أو ديكاً أو خروفاً قدم لإنسان حفنة من شعير أو أعواد برسيم أو قدح ماء؟
وهل رأى أو سمع أن برغوثاً أو بعوضة أو فراشة صنعت دواء ووضعته في مضخة ماصة كابسة ثم أطلقته على الإنسان لتخدره أو تدفع أذاه أو تقتله؟
وهل رأى أو سمع أن حيواناً ما قطف زهرة ووضعها في أصيص يتأمل جمالها ويزين بها مسكنه، أو أقام معرضاً أو متحفاً للبذور والثمار أو منتجات الحيوان والإنسان؟
هل رأى أو سمع أن جماعة من الأبقار أو الأغنام ثارت على جزار وأمسكت به وذبحته وسلخته، وأخذت من لحمه وشعره وجلده وظفره منافع؟ أو على الأقل أدركت لماذا

تساق هي إلى المذابح؟
هل اصطنع ذئب أو سبع من سباع الأرض سلاحاً يدفع به غائلة الإنسان ومكايده وحبائله؟
أترك لصديقي زكي أن يدرك سير الحياة بالإنسان، ووضعه بين الأحياء من خلال الأجوبة على هذه الأسئلة
ثم لنفرض ما يقوله بعض شراح نظرية النشوء والترقي صحيحاً من أن الإنسان أصله قرد نهض على قدميه. . . ثم ماذا؟
لقد سبق هو وتخلفت سائر الأنواع. . . إذا هو وحده كان محقوفاً بعناية الذي خلق الأنواع كلها حتى جعله في قمة الحياة العضوية الحيوانية، ثم بثق في رأسه بثقاً صار منبع عالم جديد عريض مخالف لسائر أساليب الحياة المعهودة، إذ جعله يصنع موجودات تفوق قدرة الحيوان، وقدرته هو على السرعة والاحتمال والنقل والسمع والبصر والتكبير والتجهير والتقريب، ولم نر غيره حيواناً يخترع آلة لصيد فريسته. ولم نر أمة من أمم النمل تخترع عجلة تحمل عليها الأثقال التي تعاني نقلها من مكان إلى مكان، ولم نر أمة من أمم النحل تفكر في دفع عدوان الإنسان على عسلها الذي تتعب وتدأب في جنيه واشتياره من رحيق الأزهار ونوار الثمار على كثرة ما جربت من غزواته لها، وكل حيوان يعيش في نطاق ضرورات حياته لا يتجاوزه. فلئن كان قانونا (الانتخاب الطبيعي) و (بقاء الأصلح) أقنومين عظيمين من أقانيم نظرية النشوء والترقي كما يعترف بذلك أنصارها - صديقي زكي منهم - فهما اللذان وضعا الإنسان هذا الموضع الممتاز. . . موضع القمة في سلسلة الأنواع. وما دام الإنسان استطاع أن يتغلب على سائر حيوان الأرض يستبقي منه ما له فيه نفع ويبيد منه ما يشاء ويجد من الطبيعة إقبالاً عليه وكرماً في إمداده بوسائل التغلب على ما يريد إبادته ولا يصده صاد عن اقتحام الغابات والأجمات والبحار والمناقع للصيد والتلهي بالقتل. . . ما دام الإنسان استطاع أن يفعل كل هذا والطبيعة تساعده على فعله فهو إذا الابن البكر للحياة في الأرض، وهو المقصود بها بحكم قانون (انتخاب الأصلح)، وهو وارثها لأنه الأقوى. . .
سيقول صديقي زكي: (وماذا أنت قائل في الجراثيم التي تفتك ببدن الإنسان لتعيش؟ تلك التي إن أفلح في نزع واحدة منها مما يسكن جوفه باضت له ألوف الألوف من صغارها؟)
وأقول: إن مصير هذه الجراثيم مصير غيرها من قطعان الوحش وسائر أعداء الإنسان التي تغلب عليها وتحصن منها وأوشك أن ينظف الأرض من غوائلها. . . وإن تاريخ كشفه لها قريب جداً، ومع ذلك استطاع أن يقيم أسباب المناعة منها في المسكن والملبس والمطعم والمستنشق. . . وما دام قد رصد حياتها وعرف أوكارها، وسلط عليها حرساً من
المجاهر والمخابير والعقاقير، فهو لا شك واصل إلى التغلب عليها في سائر البقاع ما دام قد تغلب عليها في مناطق المستشفيات ودور النقاهة وكثير من المنازل والمدن التي لا تهمل وسائل الوقاية العلمية. . .
وإنه لجهاد مشكور وأمر عظيم أن يقتحم الإنسان بعلمه وأدواته هذه المناطق التي عاشت دهوراً وراء نظره وفوق وهمه وتخيله. . .
وإنها لعناية من بارئ الطبيعة بهذا النوع أن يعرفه أعداءه واحداً واحداً ويمكن له في الأسباب حتى يتغلب عليها جميعاً. . .
وإنه لبدء حياة جديدة لهذا الإنسان في الأرض أن يعلم ما ظهر وما بطن وما خفي وما استعلن من هؤلاء الأعداء. . .
وأظن يا صديقي أن من السهل على الذي تغلب على أعداءه من الجراثيم الخفية أن يتغلب على غيرها من البراغيث الظاهرة. . . تلك التي حسبت واحداً منها جديراً أن يقض مضجعي فأشفقت عليَّ. . .
فلتلد بطون الشر والألم ما تستطيع من أطفالها. . . فستلد قوانين العلم مقامع ومهالك لهذه الأطفال. . .
وإن الأشقياء الهالكين في الحياة الدنيا هم الكافرون بالعلم وبالإنسان الذي أنتج هذا العلم. . .

أولئك الذين يعيشون بأساليب القرون الجاهلة العاجزة، وينظرون إلى الحياة نظر العجز وضعف الثقة بروح الإنسان وعقله، ونظر القاصرين الذين لم يدركوا ذلك النمو السريع للحياة الإنسانية في مدى قصير جداً من الزمن وهو أربعة آلاف سنة وهي عمر التاريخ الذي نعرفه. . .

أولئك الذين لم يدركوا بعد كيف قفز الإنسان في السنوات الخمسين الأخيرة من عمره قفزات حققت كثيراً من أحلامه في الانطلاق والسيطرة والإنتاج والاستغلال والتوليد والتقارب بين أجناسه وأقطاره واختزال المسافات والأبعاد وإقامة الأرصاد لحوادث الحياة وظواهر الطبيعة

أولئك الذين لا يزالون يعيشون كما كان يعيش آباؤهم الأولون الذين لم يكونوا يعرفون من الدنيا إلا حدود البقعة التي ولدوا فيها أو القطر الذي ينتمون إليه. . . ولم يكونوا يعرفون أن في الأرض محيطات هائلة وقارات مجهولة وعوالم مستورة، وأن الأرض ما هي إلا كرة صغيرة جداً كذرة رمل في صحراء. . . الذين كانوا يبيتون في الظلام والبرد، وأنهارُ النور والنار على بعد ضربة معول منهم في منابع النفط والبترول. . . ويعيشون تحت رحمة غيض الماء وفيضه بدون أن يقيموا سداً أو خزاناً يحفظ الماء ويحفظهم من طغيان الماء. . . والذين كانوا يأكلون الموت ويشربونه في المطاعم والمشارب الملوثة بالجراثيم. . .

أولئك الذين كان كفرهم بالإنسان وعدم إدراكهم لسموه وتفرده بين سائر الأنواع السبب الأكبر فيما نراه يسود حياته من اصطناع أساليب الحيوان الفاتك الضاري المتشهي الغافل الذاهل عما يدور في السماء ويجري في الأرض من العجائب والمعجزات وأفانين الحياة. . .

وما يجر الشر والإثم والسفالة على النفس الإنسانية إلا غفلتها من مقامها الممتاز في الحياة، وإلا أخذها بظاهر الحياة الجسمية الآلية التي تجعلها والحيوان في حظيرة واحدة. وما كان جهاد أنبيائها وحكمائها الذين خطوا بها خطوات واسعة إلى الأمام إلا نتيجة لإدراكهم امتيازها وما فيها من قوى زائدة عما في غيرها من سكان الأرض. . . وأخلاق العلماء شئ عظيم عميق لأنها أخلاق بنيت على العلم بأعماق النفس الإنسانية. وقد قال سقراط (الفضيلة معرفة، والرذيلة جهل)

والفرق بين أخلاق السادة وأخلاق العبيد هو مبدأ الفلسفة الألمانية الحديثة التي سنها (نيتشه) للألمان فكان إدراكهم معنى السيادة وحديثهم حولها أكبر باعث لهم على نهضتهم الجبارة التي جعلتهم يفهمون في أنفسهم أنهم فوق مستوى سائر الأجناس وأخلاق الإنجليز المبنية على ثقتهم بأنفسهم وتفردهم من بين سائر البشر بطبيعة ممتازة وروح ممتازة هي التي جعلتهم فوق المستوى الإنساني الحالي في الصبر والاحتمال والثبات وسعة الحيلة والوقار والسكينة في السلم والحرب

فهم يؤدون لهذا الاعتقاد تلك الثقة بالنفس مهرهما من الفعال الكريمة والصبر الجميل والدم العزيز والمال المبذول ولامساكن المترفة

وقديماً كانت العرب أمة ضائعة المكانة لما كانت مفقودة الإحساس بسمو نفوسها ومواهبها، مغمورة فيما يحيط بها من الطبيعة، مدمجة فيها، عابدة للحقير والجليل منها حتى تسمى أفرادها بأسماء الجماد والحيوان السافل والنبات الحقير: فقالوا حجر وصخر وكلب ويربوع وحنظلة، إلى آخر أسماء ما يحيط بهم، وطافوا بالأحجار والأشجار عابدين عاكفين. . . فلما أيقظهم موقظهم العظيم لأنفسهم وما فيها من امتياز على سائر ما يحيط بها فلا يليق بها أن تلتمس لشيء من هذا المحيط عبادة، ولا أن تبتغي إليه زلفى أو وسيلة، ولا أن تقدم إليه قرباناً من دمائها ودموعها وسائر قرباتها؛ بل يجب أن تبتغي بذلك كله وجهاً أسمى وقدرة أعظم لا تدركها الأبصار ولا تستوعبها الأفكار. . . حين هذا بدا السر الخفي في هذه النفوس الضائعة واستعلن كما يستعلن نور الصباح عريضاً في الآفاق، ومضى أفرادها إلى فجاج الأرض حاملين رسالة وموطدين دولة ومقيمين حضارة

وهانحن أولاء نرى (الهندوكيين) يأتون في عبادتهم للأبقار والحيات وكثير من الحيوان مخازي وسخافات تلطخ وجه الإنسانية بالحياء والخجل والعار. . . كل هذا لأنهم توهموا أن في البقر والثعابين سراً وروحاً مقدساً يعبد، فتركوها تعيش وتسرح وتهيم في

الشوارع والبيوت والطرقات وهاموا وراءها وأكلوا روثها وشربوا بولها وتقربوا للثعابين ورحبوا بلدغاتها وموتهم بأنيابها وتركوا بلادهم تصاب بطواعين الأبقار التي تترك حتى تشيخ وتصير عشاً للجراثيم التي تنتقل منها إلى عابديها وساكني بلادها. . . والأبقار المسكينة في ذهول وغفلة عن قربات هذا الإنسان الضال وتقديسه إياها. . . فهي تبول عليه وتنطحه ولا تنفعه. . .

وهكذا كان الإنسان فريسة للأوهام وعبادة الأحجار والأبقار والجعلان والقطط والحيات وغيرها حين لم يكن مؤمناً بنفسه وطيد الثقة بها، فاهماً أن جميع ما في الأرض مخلوق له ومسخر لمنفعته. . .

ولست أدري من منا الذي أوغل في لفائف الصوفية وشرودها أنا أم صديقي زكي؟

إن صوفيتي مادية تؤمن بالعلم وتعترف بدولة الأجسام ولا تشرد وراء الأوهام، فلا تتخيل أن الإنسان العظيم الخصيم المبين الفكر المبتكر مخلوق ليكون طعاماً للبراغيث والبعوض والقمل. . . وإنما تعلم أن هذه الحشرات مخلوقة لحمل الإنسان على تنظيف جسده وثيابه

ومسكنه وبيئته من القاذورات والعرق والأتربة والمناقع الراكدة الآسنة. . . فلولاها لأصابه الكسل عن كثير من أعمال النظافة والتطهير والتجميل

وقد كانت هذه الحشرات تعيش في الأصل على النبات والحيوان، ثم لصقت بجسم الإنسان وتطورت بلصوقها به. فلا يصح أن يقال إن الإنسان خلق لأجلها. . .

وصوفيتي لا تخيل إلي (أن سر الوجود يستعلن في الجرثومة الضئيلة كما يستعلن في الإنسان والقرد والأفعى!) كلا. . . هناك فروق هائلة بين استعلان قدرة الله في الجرثومة ذات الخلية الواحدة ذات الوظيفة الواحدة، وبين استعلانها في الإنسان ذي الخلايا التي لا عدد لأنواعها وأشكالها وصورها وأوضاعها ووظائفها منفردة وموضوعة في مجاميع ومنتجة حياة كلية. هو كالفرق بين جزئ صغير في قالب حجر موضوع في عمارة من ناطحات السحاب، وبين العمارة نفسها بما فيها من زخرف وزينة. . . وفي هذا التشبيه تجاوز كبير وقياس مع الفارق الهائل. نعم إن الجرثومة شئ ثمين عظيم كأول خطوة في سبيل الحياة. . . ولكنها لن تبلغ مبلغ الإنسان الذي هو آخر خطوات الحياة وحلقتها النهائية كما تقول نظرية النشوء

وما أعتقد أن خالقاً عظيما حكيما يخلق كرة أرضية هائلة، ويجعل فيها رواسي من فوقها، ويجري فيها بحارها وأنهارها، ويقدر فيها أقواتها ليعيش عليها عالم من البراغيث أو النمال أو الثعابين أو الأبقار أو السباع عيشة أبدية بدون خليفة فائق عليها يستطيع أن يضع الحمل بجوار الذئب، والأسد بجوار الغزال، وكل عدو بجوار عدوه كما هو الحال في حدائق الحيوان. إن الحياة حينئذ تكون عبثاً وفيضاً لا يتلقاه أحد يعي ويفكر ويعمل في الأرض عملاً جيداً

وإن الصوفية التي تقول بهذا ما هي إلا شرود وراء الأوهام وعدم الإدراك لغايات الحياة والتمييز بين آفاقها

إنها صوفية كصوفية أبي العلاء المعري المريض شاذ الطبيعة الذي يقول:

تسريح كفك برغوثاً ظفرت به ... أبر من درهم تعطيه محتاجا!

كلاهما يتوقى، والحياة له ... عزيزة ويروم العيش مهتاجا

ولنتصور الناس جميعاً على مذهب أبي العلاء وبعض متصوفة الهند. . . لا يأكلون اللحوم

والألبان ولا العسل ولا سائر منافع الحيوان. . . ويتركون البراغيث والقمل والضفادع والعقارب والثعابين وسائر الحشرات، والسباع والبهائم حرة طليقة في الحياة ما دامت الأرض ميراثاً مشتركاً بيننا وبينهم، وما دامت جميعها مقصودة بالحياة، وما دام (سر الوجود) قد استعلن فيها استعلانه في الإنسان. . . فماذا تكون النتيجة؟

هي فناء الإنسان بفناء أقواته التي تأكلها قطعان الأنعام والسباع وعراجل الحمير وأسراب الطير والحشرات وغيرها. . . هذا إن عاشت وعمرت دهراً، فإن فنيت فالأرض خراب. . .

تساءل صديقي على لسان أحد حشراته: من ذا كان يستمتع بكائنات الله في الأرض قبل ظهور الإنسان؟

وأجيب: كان يستمتع بعضها ببعض ويعيش بعضها على بعض كما هو الحال الآن. . .

فالسباع تأكل الأنعام، والأنعام تأكل النبات، والحشرات يعيش بعضها على النبات وبعضها على الحيوان. . .
ولكن ينبغي أن نعلم ما يقوله العلم من أن الحياة الحيوانية على الأرض لم تكن غزيرة ولا كثيرة الأنواع قبل عصر ظهور الإنسان. . . نظراً لقسوة عوامل الطبيعة من الأمطار والثلوج والبراكين والزلازل التي لم تكن تسمح بحياة كائن ضعيف؛ فلما استقرت القشرة الأرضية قليلاً وهدأت عوامل الغليان والتشقق، وصارت الأرض صالحة للحياة، خلق الله فيها الحيوانات الضخمة الزاحفة، ثم انقرضت بفعل الزلازل والفيضانات واختلافات الطقس. . .
وهكذا الأرض مرت بأدوار وراء أدوار حتى صلحت لحياة هذه الأنواع التي نراها تعمر الأرض. . . وكان كل هذا تمهيداً لإخراج ذلك النوع الذي صار خليفة الأرض وفاتح إغلاقها ومخرج أسرارها. . .
وفترات التمهيد لهذه الحياة الصالحة المعمرة لا يصح أن يعترض عليها معترض بأنها ضاعت هباء. . . فإن أيام الله ليست كأيامنا تقاس بالسنين الشمسية والقمرية، بل هي دهور بالنسبة لنا، ولكنها لحظات بالنسبة للذي خلق الأزمان ويدير الأفلاك دورات هو أعلم بمقدارها. . . والله أعلم متى ينضج الثمار!
زعمت فراشة الأستاذ أن علم الإنسان وأخلاقه هما سر نجحه ودعواه الامتياز، مع أن علمه يكمل النقص الذي في غريزته وفطرته، ومع أن أخلاقه في مثلها الأعلى الذي تحلم به هي دون ما يسود من ممالك النمل والنحل من أخلاق. . .
وأنا أنكر إنكاراً باتاً أن يكون في غرائز الإنسان نقص يحتاج إلى تكميل، وأن يكون العلم هو هذا المكمل. . . وإنما أرى أن غرائزه التي تضمن له حياة آلية رتيبة كحياة أنواع الحيوان، غرائز كاملة يستطيع أن يعيش بها مفتتح حياته وتكفيه. . . فإذا نظرنا للعلم على أنه نتيجة لغريزة حب الاستطلاع فهو إذا أثر من آثار هذه الغريزة، ولكن لا يقال إنه تكميل لها إذ لا نقص فيها. . .
فالعلم نتيجة لهذه الغريزة كما أن الولد نتيجة للغريزة الجنسية. وحب الاستطلاع غريزة مشتركة في جميع أنواع الحيوان، ولكنها فيما عدا الإنسان محدودة بحدود ضرورات حياة الأنواع وفي الإنسان لا حد لها. ولذلك أنتجت للإنسان علماً زائداً عما يحتاجه وعما يمكن أن يدركه أي حيوان. وهذه القابلية الطبيعية الدائمة في هذه الغريزة هي التي أنتجت نمو علم الإنسان وفكره ونمو الحياة به دائماً. . .
والإنسان الفطري المحدود الذكاء يكاد يعيش بالغريزة وحدها فهو لا ينوع ما ورثه من الحياة ولا يزيد عليه ولا ينقص منه. وهو مع هذا يحيا وينمو وسط الأهوال. . .
فغرائز الإنسان التي تكفل له حياة كحياة الحيوان غرائز كاملة يحيا بها حياته الضرورية أما العلم فيفتح له أبواب حياة خاصة منفصلة عن حياة الطبيعة. . .
فالقول بأن علم الإنسان يكمل النقص الذي في غريزته وفطرته قول غير مفهوم. . .
وأما الأخلاق الإنسانية الحالية فلم أدافع عنها بل نعيت عليها واعترفت بفسادها وقصورها إلا في قليل من الأمم وهي
التي أدركت أن للحياة الإنسانية قوانين تشبه قوانين الطبيعة في صرامة عقابها لمن يخالفها. . .
واعتقادي أن الدولة كائن عضوي يسري عليه ما يسري على أي جسم ذي أعضاء من وحدة المنفعة والضر. . . الدولة كالجسم الواحد لا يصح أن يترك فيه شئ فاسد ولو كان ظفراً وإلا فسد كله. . . ولا يليق أن يكون فيه عضو مريض وآخر صحيح بل يجب أن
يصح كله. . .
والقلب في الجسم يقذف الدم إلى كل خلية لتحيا، وكذلك يجب أن يقذف قلب الدولة إلى كل فرد فيها غذاء الجسم والفكر والروح ليحيا الحياة الكاملة
والفكر في الجسم الواحد حارس يقظ أمين يتلقى الرغبات ويصدر الأوامر، وكذلك يجب أن يكون قادة الأمم والمسيطرون عليها. . .
فأنا لم أشد بأخلاق الإنسان الحالية وإنما أشد بعلومه وفتوحه في مجاهل الكون، وأريد من وراء هذه الإشادة يقظة النفس المادية الدائرة مع الحديد البليد القاسي في غير وعي وإحساس إلى آثارها وتفردها بين الكائنات حتى تعلم وضعها الصحيح. . .

والواقع أن أخلاق الإنسان لم تتطور كما تطور علمه وفكره، بل لا يزال يعيش بمواريث التاريخ السيئة المغلوطة، ولم يجد له زعماء انقلاب في روحياته، كما وجد زعماء انقلاب في مادياته. . .

فالانقلاب الجسمي والآلي والصناعي في حياة الإنسان لم يصحبه انقلاب نفسي يجعله يصفي تركات الماضي في الأخلاق ويتحرر من مواريث التاريخ السيئة ويقيم حضارة روحية تناسب هذه الحضارة المادية التي أقامها في مدى السنوات الخمسين الأخيرة.

ولو آمن الإنسان بالإنسان وأدرك مدى الرحلة التي رحلها في الحياة والخطوات التي سارها في التاريخ ومركزه بين الكائنات كخليفة في الأرض خلف الله على جميع مقدراتها، وصنع فيها موجودات فاقت نماذج الحيوان في الدقة والاحتمال والسرعة والخدمة آلاف الأضعاف، وعرف أن الله ما كان ليعطيه هذه القدرة العظيمة على الصنع والإنشاء والافتنان إلا وهو به حَفيٌ، وعليه متفضل، وله مكرم، وإياه مسدود وموفق، ولتطوراته مرتقب ومنتظر بلوغه رشده؛ لو آمن بهذا كله لأسرع إلى إقامة الحياة على ما أقام الله الطبيعة عليه من العدل الموزون والرحمة السابغة والتوزيع الكريم، فإذا لم يذهب الإنسان إلى هذا طائعاً مختاراً كما فعلت أمم الشمال في أوربا، فسوف يذهب إليه مكرها بالحديد والنار في يوم أحسبه قريباً. . .

ملء يدي الاثنتين نصوص من القرآن تثبت أن جميع ما في الأرض خلقه الله للإنسان وخوله إياه واستخلفه عليه وجعله متاعاً وتذكرة له، ولكني آثرت أن أقدم حججاً من الفكر

الطليق والنظر الحر والعلم العصري حتى لا يقول قائل من المنكرين المفتونين: أساطير الأولين. . .

عبد المنعم خلاف

الموسيقى والغناء والحروب

للأستاذ محمود البشبيشي

لا تستطيع النفس أن تتخلص من مشاعرها وعواطفها لأنها بضعة منها، بل إن الشعور والعاطفة هي الحياة نفسها. . .

وما تُحسب من الأعمار أيام تمر من غير أن يشعر بها الإنسان ولا يصيبه فيها ألم أو فرح. . . وإذا كانت الحياة هي الشعور بما في الحياة كانت مصادر الشعور من أسس الحياة التي لا سبيل لإنكار وجودها؛ ومن هذه المصادر: الجمال، والشعور به هو عاطفة الحب والوفاء، والوطن، والشعور به هو عاطفة الحنين والفداء

وليس في مقدور الإنسان وقد خلق وفي نفسه تقدير الحسن من الأشياء، ألا يعجب ويتأثر. . . بل إن الإنسان إذا فقد هذا الشعور فقد معه صفة الإنسانية، وأصبح كالصخر يحتضن الزهر والشوك ولا يفرق بين رقة هذا وغلظة ذاك. . .

تمر الصور بالإنسان فيتأثر بها، وقد يزداد هذا التأثر فيصير حباً يلازمه، فيتعلق بها تعلق روح وقلب. فإذا فارقها تعلق بها تعلق ذكرى وحنين. وإذا طال الفراق، وتمرد الشوق، صاغ أشواقه نغماً ورتلها نشيداً؛ وإن ذلك منه لهو الوفاء بعينه، الوفاء الذي ضاق بأسلوب الحديث والكتابة. فخرج في أسلوب منغم منظم أصدق في التعبير عما فيه من عاطفة روحية من كل الأساليب

ومن هنا كانت الموسيقى والغناء!

كانت الموسيقى وليدة الإعجاب بالشيء، فهو شعور وعاطفة نحو هذا الشيء. وكذلك الغناء، كانت الموسيقى تعبير الروح الذي عجز عن عرضه اللسان بلغة الكلام، فهي إحساس روحي نبيل لا سبيل للخلوص منه، وكذلك الغناء

الموسيقى إذن من مادة الشعور والعاطفة والروح، وليست من مادة الفكر والمنطق والاجتماع. . . ومن ثم لا يعقل أن نقيدها بموازين الفكر والمنطق والاجتماع. وكذلك الغناء. فمثلاً مما يقع تحت النقد الدعوة إلى تثبيط العزائم وقت الحروب. ومما يقع تحت النقد تنفير الناس من الجهاد بأساليب الخوف والتهاون

ومما يقع تحت النقد اشتغال القوم بالنظريات الفكرية والجدل والخطر يتوثب! كل هذا قد

ينتقد لأن من ورائه الضرر

ولكن ليس من المعقول أن ينتقد التعبير الموسيقي في مختلف صوره الوجدانية

وكذلك الغناء
لأن الموسيقى من الشعور، والشعور فوق القيود، بل هو قيد اتجاهات الحياة فينا
فقد يجوز أن تنتقد فكرة أو رغبة أو طريقة حياة وعمل، لأن العقليات صاحبة الحكم
هنا، تتفاوت وتتباين. يجوز هذا ولا يجوز أن تنتقد وتنكر أو لا تقبل قطعة موسيقية
وجدانية، لأن المشاعر والأحاسيس تتلقاها، إما بعاطفة الطرب للنغم، أو بعاطفة
الحنين والذكرى؛ والمشاعر في الحالتين محتاجة لها
ومن ثم لا يجوز لكائن من كان أن ينكر أناشيد العاطفة وموسيقى العاطفة في زمن
الحروب
لأنها صورة من صور الروح الإنسانية، وعبير من مشاعرها ولون الحياة فيها، ولا يمكن
أن تقيد أو تفقد. . . بل من العار أن يتجرد الإنسان منها، لأنه حينئذ يتجرد من آدميته -
وإن ظن بعض الناس غير هذا - إنه لو تجرد منها فقد أصبح لا يقيم لحوادث الحياة
وزناً، وساء تقديره لمؤثرات العيش. . . فلا حظ يحركه، ولا حزن يؤرقه، ولا فرح
يطربه، ولا شوق يقلقه. وغاية القول إنه لو تجرد من عواطفه التي تطرب للنغم
الوجداني في كل زمان ومكان، سقط من سجل الوجود، لأنه حينئذ لا يتأثر بما يدور
في المجتمع وما يطرأ عليه من تقلبات الحياة
أجل، إن من لا تتأثر عواطفه، وتتحرك مشاعره، ومن لا تكون في نفسه عقيدة الحب
لا يكون جديراً بالحياة ولا تنتظر منه المنفعة، ولا يكون فيه رجاء وغناء. وكيف وقد
انفصل عن كل شئ، فلا تربطه عاطفة بشيء!!
يا قوم إن موسيقى العاطفة والحب تلهب في النفس الحنين وتؤجج الشوق. واشتداد
الحنين والشوق إلى المحبوب مثلاً يكون في الجندي خاصة ألواناً من المثل العليا منها
الرغبة في حماية هذا المحبوب لتدوم له السعادة به، وحمايته تقتضي حماية الوطن
لأنه منه، وما الوطن إلا موطن الأهل وروض الأحبة
ومن هذه المثل الشعور بالعاطفة الروحية التي تربطه بالمحبوب. وإن هذه العاطفة
نفسها لصورة مصغرة لما يربطه بوطنه الذي يرتع في ظلاله ويحب
وحقيق بالذي ينجذب إلى محبوب ويحس بعاطفة روحية نحوه، ويميل إلى حمايته أن
ينجذب إلى الوطن، وتتغلغل عاطفة الوفاء له في نفسه، ويجد نفسه مدفوعاً إلى
حمايته، لأنه بذلك يحمي الأحبة فيه
وقد تكون الأغنية الوجدانية أشد أثراً في إشعال حمية المحارب من أي مؤثر آخر، لأنها
تحرك في نفسه رغباته ورغبات الأحبة، وتهيج أشواقه وأشواقهم، وتصور آماله
وآمالهم، فيستميت في القتال رغبة في النصر، ويرد الموت حباً في الحياة، بل حباً في
العودة إلى الحبيب قاهراً لا مقهورا
والموسيقى في حالة الحرب والسلم ترتفع بالإنسان عن عالم الأرض فيحتقر الأغراض
والشهوات، وتصوغه في قالب روحي نبيل، يجعله يرى الحياة بعين الروح التي لا تقيم
لعرض الدنيا وزناً، ولا تهتم إلا بصيانة الشرف والكرامة
ومن عظمة الموسيقى الوجدانية خاصة أنها تخاطب كل النفوس لا فرق بين كبير
وحقير، لأنها تخاطب الروح المشترك فيهم. ومن هنا يكون أثرها في تهذيب الإحساس
أعظم خطراً من كل المؤثرات المادية ومن الترهيب والترغيب
وليس هناك عيب في أن جندياً يتغنى بأغنية حب. . . بل العيب في أن يتجرد الجندي
من معنى القلب فلا تكون له صفة غير صفة إراقة الدماء ولو في الدفاع عن النفس.
إنك حين تقول للجندي: يا لك من رجل لا يعرف غير القتال، تجرده من كل معاني
الحياة؛ ولكنك لو قلت له: يالك من رجل جمع بين حاجات القلب والدفاع عن حاجات
القلب، وألف بين نزعات الروح والدفاع عنها. . . إنك لو قلت له هذا ترفعه إلى مرتبة
البطولة الروحانية
ليس في الأمر كارثة، ولن تكون فيه كارثة، بل إن في الأمر طبيعة. . . وطبيعة فطر
عليها المصري فلا سبيل لفك قيودها لأنها فيه وهو فيها
عجباً أي عجب! ماذا يريدون من المصري أن يغني؟ أنشيد القوة؟ ولم يفسر لنا
أحدهم معنى تلك القوة. وكيف يكون الغناء قوة وهو في طبيعته محاولة تحكم في
مخارج الصوت بالعواطف الرقيقة، فلا يخرج لفظ إلا وقد مسحه المغني بيد العاطفة

فخرج في ثوبها الرقيق الأنيق الندي
ليس في الأمر كارثة ولن تكون فيه كارثة
ولغة الغناء في مصر وعاطفة الغناء الرقيقة (المتهمة عند بعض الفضلاء) هي لغته وعاطفته في المغرب، والهند، وسوريا، وفلسطين؛ ثم هي نفسها عند الأتراك. وغاية القول أنها مشتركة في جميع بلاد الإسلام. . . فما السر في ذلك؟ والبحث وراء هذا السر هو الذي يجب أن يكون مجال القول. . . وكل ما عداه ضرب من الأوهام والأباطيل
السر في ذلك هو أن الإسلام طبعها بطابع الروحانية الرقيق النبيل. وكان القرآن الكريم أعذب ما يكون ألفاظاً يترنم بها ويتغنى. ومن منا لا يسبح في عوالم روحانية إذا مسه سحر من ترتيل (الشيخ رفعت)؟ ومَن من هؤلاء الدعاة يدلنا على طريقة أوقع أثراً في النفس من هذه الطريقة الرقيقة في ترتيل القرآن؟
أو ليس القرآن حافلاً بأبلغ معاني القوة وأبلغ معاني التوسل والدعاء وأبلغ معاني الوعيد؟. . . ولماذا ترى الناس يتلونه في نغم رقيق نبيل؟ ولماذا يشتد أثره وفعله إذا تلي كذلك وهو العظيم الأثر البالغ الغاية؟؟
السر في ذلك هو الوصول إلى مخاطبة المشاعر والروح قبل مخاطبة العقل، فيتذكر الإنسان ويتعظ. . . فتلك العاطفة النبيلة الضغط على النفوس، هي العاطفة التي سار على هديها الغناء في الشرق كله، وسلكت موسيقاه سبيلها. ومن هنا كانت الأغنية الوجدانية تدخل على النفس برقتها، فتهيج أشجاناً، وتحرك عاطفة، فيتذكر الإنسان العهود ويرتبط بالوفاء، ذلك الخلق النبيل السامي. . . وحين تكون الذكرى متصلة بالوفاء، يكون من ورائها الخير كل الخير والفداء والتضحية
ليس في الأمر كارثة، ولن يكون فيه كارثة، لأن الأغنية منتزعة من صور الطبيعة . . . المصرية السهلة الباسمة. . . هنا النيل ينساب في حلم كأنما يخشى أن يوقظ الشاطئ الحالم! والسماء أصفى من ضمير الوليد. . . ليس في مصر براكين ثائرة، وليس في مصر جبال شاهقة وعواصف وأنواء. . .
فكيف تنكرون أن يكون في الموسيقى هذا الصفاء وتلك الرقة؟ غيروا الطبيعة نفسها قبل أن تغيروا العواطف الصادرة عنها
من الغريب أن يعيب إنسان على جندي مصري أنه يتغنى بأغنية حب، وما علم أن هذا الجندي مقبل في يوم من الأيام على الموت. . . فمن الرحمة بنفسه أن يعيش على عبير الذكرى. . .
لقد أدركت بريطانيا العظمى خطر الموسيقى وخطر الغناء واللهو البريء في إيقاظ عواطف الجنود، فأنشأت في مصر أماكن خاصة (كفندق المتروبوليتان)، تعرض فيها عليهم شتى أنواع الأغاني والموسيقى واللهو الطاهر. . .
فعلتْ هذا لأن الخير فيه عظيم: فهي تعرض عليهم الأنشودة لتلهب فيهم الذكرى والحنين. . . فيشتد الوفاء، وترتبط أرواحهم بأرواح الأحبة في الوطن. . .
ومن ثم يكون الشوق إلى العودة ظافرين. وليس الأمر ببعيد، وهاهي ذي صفحات التاريخ العربي المجيد، ترينا كيف كان العرب في أشد المواقف حرجاً، وفي ظلال السيوف والرماح يتغنون بذكرى الأحبة. وكفى أن نتذكر قول عنترة في معلقته:
ولقد ذكرتك والرماح نواهل ... مني وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنها ... لمعت كبارق ثغرك المبتسم
(المنصورة)
محمود البشبيشي
من فصول كتاب (الديارات) للشابشني
دير مدْيان - 2
للأستاذ صلاَح الدين المنجد
ونرجع إلى ذكر إسحاق ابن إبراهيم، ونورد طَرَفاً من أخباره في حزمه وضبطه بقدر ما يليق بالكتاب
أسحق هذا هو ابن طاهر بن الحسين، ويكنى أبا الحسين، وكان المأمون اصطنعه وولاه خلافة عبد الله بن طاهر بحضرته لما أخرج عبد الله إلى خرا سان. وكان أشد الناس

تقدماً عنده واختصاصاً به. فذكر عبد الله بن خرداذَ أنه حضر مجلس المأمون يوماً وقد عرض عليه أحمد بن أبي خالد رقاعاً فيها رقعة قوم متظلمين من إسحاق بن إبراهيم؛ فلما قرأها المأمون أخذ القلم وكتب على ظهرها: (ما في هؤلاء الأوباش إلا كل طاعن واش. إسحاق غرسُ يدي، ومَن غرستُه أنجب ولم يخلف، لا أعدي عبيه أحداً.) ثم كتب إلى إسحاق رقعة فيها: (من مؤدب مشفق إلى حصيف متأدب. يا بني! من عز تواضع، ومن قدر عفا، ومن راعى أنصف، ومن راقب حذر، وعاقبة الدالة غير محمودة، والمؤمن كيّس فَطِن والسلام.)

وذكروا أن بعض ولد الرشيد - وكان له موضع من النسب ومكان في المعرفة والأدب - مرض ببغداد مرضاً طال، ولم يقدر على الركوب، واشتهى التفرج والتنزه في الماء، فأراد أن يبني زلاّلا يجلس فيه فمنعه إسحاق وقال:

فكتب إلى المعتصم يستأذنه (هذا شئ لا نحب أن يعمل مثله إلا بأمر أمير المؤمنين) في ذلك، فخرج الأمر إلى إسحاق بإطلاقه له. فكتب إسحاق (ورد عليّ كتاب من أمير المؤمنين بإطلاق بناء زلاّل لم يحد لي طوله ولا عرضه، فوقفت أمره إلى أن أستطلع الرأي في ذلك. . .) فكتب إليه يحمده على احتياطه ويحد له ذرع الزلاّل

قال أبو البرق الشاعر: كان إسحاق يجري على أرزاقاً. فأنشدته يوماً؛ فسألني عن عيالي وما أحتاج إليه لهم. ثم قال لي: يحتاج عيالك في كل شهر من الدقيق كذا، ومن كذا كذا. . . فما زال يخبرني بشيء من أمر منزلي كثير جهلته وعلمه هو

وذكر أبو حشيشة الطنبوري قال: كنت يوماً في منزلي إذ طَرَق البابَ صاحبُ بريد وقال أجِبْ. فلما قال: أجِبْ علمتُ أنه أمرٌ عال. فلبست ثيابي ومضيتُ معه حتى دخلنا دار

إسحاق بن إبراهيم. فعُدِل بي إلى ممر طويل فيه حُجُر متقابلة، تَفوح من جميعها روائح الطعام. فأدخلتُ حجرة منها، وقُدِم إليّ طعام في نهاية النظافة وطيبِ الرائحةِ، فأكلتُ. وجاءوني بثلاثة أرطال فشربت، وأحضروني صندوقاً فيه طنابير، فاخترت طنبوراً منها وأصلحتُه على الطريقة، وأخرجتُ من الموضع إلى حجرة لم أر أحسن منها، وإذا في مجلسها رجلان على أحدهما قباء ملجم وقلنسوة سمورية، وعلى الآخر ثيابُ خزّ وستارةٌ مضروبة. فسلمتُ وأمرتُ بالجلوس، فجلستُ. فقال لي صاحب السموّرية: عنّ، فتغنيتُ:

ما أراني سأهجرُ مَنْ لَي ... س يراني أقوى على الهجران
ملّني واثقاً بحُسنْ وفائي ... ما أضر الوفاء على الإنسان

فغنيته فشرب رطلاً، ونقر الستارة وقال: غنّوه. فغنى الصوت أحسن غناء في الدنيا، وخِلْتُ أن البيت يرقص!. فقال لي: كيف ترى؟ قلت: والله يا مولاي بغضوا إلى هذا الصوت وسمّجوه في عيني. فضحك واستعادنيه ثلاث دفعات، فشرب في كل دفعة منها رطلاً. ثم قال: أتعرفني؟ قلت: لا، قال: أنا إسحاق بن إبراهيم، وهذا محمد بن راشد الخناق ووالله لئن ظهر حديث هذا المجلس منك لأضربنك ثلاث مائة سوط. قم، إذا شئت. فقمت من بين يديه، فلحقني الغلام بصرة فيها ثلاث مائة دينار فاجتهدت أن يأخذ منها شيئاً، فأبى.

وذكر عمرو بن بأنه قال: وجه إلي إسحاق بن إبراهيم في آخر النهار. . . فصرت إلى داره، وأدخلت عليه وهو جالس في طارمة ملبسة بالخزّ على دجلة، وقد انبسط القمر على الروشن وعلى دجلة، وهو من أحسن منظر رأيت قط، والمغنون جميعاً بين يديه. و (بذل) جالسة وراء مقطع في الطارمة. فلم يزل جالساً بموضعه ونحن بين يديه إلى أن نودي الفجر، فقام وقمنا. وقال لنا الغلمان: انصرفوا. فنزلنا إلى الشط ودعونا بسميرية فجلسنا فيها جميعاً، وقلت لهم: إن منزلي أقرب من منازلكم فاجعلوا مقامكم اليوم عندي ففعلوا و. . . في المنزل؛ فطلبت فيه شيئاً يؤكل فلم أجد: فأمرت بإحضار المائدة، فأحضرت فارغة، وطرحت في وسطها مائة درهم صحاحاً وقلت: يوجه كل واحد فيشتري له ما يريد. فما كان بأسرع من أن امتلأت بكل شيء. . . فأكلنا وشربنا، ومرّ لنا يوم طيِّب، وتفرقنا في آخر النهار، وفي قلوبنا غصص مما فعله بنا إسحاق، وما فاتنا من تلك الليلة الحسنة في ذلك الموضع الحسن. فمضيت بعد ذلك إلى (بذل) وسألتها عن السبب فيما فعله. فقالت: قد

سألته عن ذلك فقال: ويحك أنا أشتهي الشرب في مثل هذه الليلة منذ سنة وأواقع نفسي به. فلما حصل لي جميع ما أريده واشتهيته أردت أن أرى نفسي سلطاني عليها، وقهري لها ومنعها مما تحبه لئلا تقودني إلى ما تريد ففعلتُ ما رأيتِ

وكان مع ذلك حسن المروءة كريم النفس فذكر أبو حشيشة الطنبوريّ قال: دعاني في بعض الأيام فصرت إليه وجلست أغنيه، وعليه درّاعة خز خضراء لم أر أحسن منها قط. فجعلت أنظر إليها. وفطن لنظري فدعا بالخازن وقال: كانوا جاؤونا منذ أيام بعشرة أثواب خز خضر، هذا أحدهما، فجئني ببقيتها. فأحضر تسعة أثواب يتجاوز حسنها كل وصف فأعطانيها، فبعت من رذالها الثوب بمائة دينار

وكان المأمون يصير إليه في داره، فيقيم عنده الأيام وغلمانه وحشمه أنساً به وثقة بمكانه

(دمشق)

صلاح الدين المنجد

الإنتاج الأزهري

للأستاذ عبد العزيز محمد عيسى

(أن الأزهر إذا أصلح كان بثقافته أهدى إلى تربيتنا من أية جامعة.)

(الزيات)

(افتتاحية الرسالة في عامها التاسع)

عادت الرسالة الغراء إلى العناية بالشئون الأزهرية على دأبها، بعد ما عادت الحياة إلى الأزهر أثر إجازته الطويلة، وبعد ما اطمئن الأساتذة والطلاب إلى موضوعاتهم وساروا فيها شوطاً ليس باليسير. وعدت أساهم مع الكاتبين، وألقي بدلوي في الدلاء، ولسنا نبتغي من وراء ذلك - علم الله - إلا الخير لهذا المعهد المبارك الذي نرجوا أن ينال من الإصلاح ما يتمناه المحبون المخلصون.

وفي النفس حاجات، وللقلب خفقات، إذا ما ذكر إصلاح الأزهر وجرى على الألسن. ولكننا نقف في كلمتنا اليوم عند الحديث عن الإنتاج الأزهري لتردده على أقلام الكاتبين فقد نغمط الأزهر حقه إذا وقفنا بالإنتاج عندما كان من جماعة كبار العلماء وجعلنا ذلك الأساس الذي يبني عليه التقدير والاعتراف بشخصية الأزهر العلمية. ونحن لا نؤمن بأن إنتاجهم بمثل هذه الشخصية، وإنما يمثل شخصياتهم أنفسهم ومدرسة تلقوا عنها وعقيدة في التحصيل والتأليف درجوا وما زالوا عليها

وسواء لدينا أنشر إنتاجهم أم لم ينشر فرسائل كثير منهم على ما نعتقد صورة أريد بها تبرير الرسميات، وأغلب الظن أنها لا تعدو في الجودة رسائل المتخصصين إن لم تكن الأخيرة أفضل من بعضها. فمن الغبن الكبير إذن أن نجعل إنتاج هذه الجماعة دليلاً إلى شخصية الأزهر العلمية

وفي الأزهر غير هذه الجماعة طائفة مهما قل عددها لها استقلال في البحث والتفكير، ولها حرية في الرأي والنقد وأبحاث قوية نشرت وتداولتها الأيدي، وهذه الطائفة من غير شك - لاعتراف الجميع بها - تمثل الأزهر الناهض من الناحية الفكرية، وهي بحق أولى أن تدل على شخصية الأزهر العلمية

قد يكون من الإحراج أن نقصر الإنتاج على إبداء رأي خاص في مشكلة من مشاكل العلم. ولو أننا فعلنا ذلك لكان كل ما نسميه الآن إنتاجاً للأزهر وما عدا الأزهر غير إنتاج؛ أو لكانت كثرته الغالبة على هذا الوصف. ولم لا نعد الإنتاج المدرسي إنتاجا متى كان قائماً على الشخصية والتصويب أو التخطئة لما للعقل فيه مجال، والمناقشة للموروث والتعقيب عليه؟ أليس ذلك هو الاستقلال في التفكير والإعلان للرأي الخاص بعد الدرس والبحث، وإذن ففي الأزهر إنتاج قل أو كثر

هناك فرق بين الإنتاج والقدرة عليه وإن كان أحدهما لازماً لصاحبه وأثراً من آثاره. ومما لاشك فيه أن هذه القدرة على الإنتاج موفورة لدى الكثير من رجال الأزهر وإن لم يظهر الإنتاج الفعلي إلا من قليل منهم

وإذا أنت سألت عن السبب في إحجام الكثير عن الإنتاج فلا يستطيع منصف أن يجيبك إلا بأن فقدان التشجيع والأغراء من ناحية القائمين بالأمر في الأزهر هو السبب الوحيد

لذلك. فهم قد رأوا إخواناً لهم حاولوا أن ينتجوا بل أظهروا صوراً من إنتاجهم كان معترفاً بها؛ ولكن أحداً من الرجال الرسميين لم يقل لهم إنكم أحسنتم، ولم يشجعهم بكلمة يدأبون على مثل هذا العمل أو تجعل غيرهم يسير في طريقهم. فخير لهم إذن ألا يسيروا في طريق لا يحمد السائرون فيها

إن الأزهر يطلب من علمائه أن يكونوا منتجين، وأن يعرضوا علمهم لناشئة الجيل الجديد في صور تلائم جيلهم، ولكنه لا يأخذ بأسباب ذلك. فهو مثلاً لا يأخذ بسنة وزارة المعارف فيعلن عن حاجته إلى الكتب اللازمة لتحقيق مناهجه، ويشترط فيها ما يشترط من نظم وتوجيهات، ويجعل ذلك كل عام أو عامين أو أكثر ليكون له من ورائه ثروة طائلة من الإنتاج سواء فيما يقرره من ذلك أو فيما ينشره أصحابه على الناس ليوازنوا بينه وبين ما اختير

إنه لو فعل ذلك لزرع في نفوس علمائه الاستقلال في الفكر والجهر بالرأي والصراحة في الحق - وهي أهم مقومات الإنتاج الصحيح - ولقضى على فكرة اعتقاد عجز العلماء عن مسايرة الحياة الجديدة وعن الخروج عما درسوه من كتب وعبارات

أليس من العيب أن يظل الأزهر إلى الآن يقرأ في سنتيه الأولى والثانية الثانويتين كتباً في البلاغة لمعاصرين من غير الأزهريين وفيه مائة من المتخصصين في البلاغة كل واحد منهم قادر على أن يخرج كتاباً مثلها إن لم يكن أفضل منها!

لا تقل أيها القارئ بعد ذلك ما لهم لا يؤلفون، فإن عدم التشجيع كما قدمنا وعدم الإغراء بتقرير الكتاب أو بشراء حق التأليف أو ما إلى ذلك هو الذي صرفهم فكان سبباً مهماً في قلة الإنتاج؛ ولو أن هذا الباب فتح لجاءت كتب كثيرة ولنشرت أبحاث ينبغي أن تحسب في إنتاج الأزهريين كما حسب مثلها لغيرهم

أو ليس من العيب كذلك أن يقرر الأزهر في أقسامه الثانوية كلها كتاب في تاريخ أدب اللغة لفظته وزارة المعارف منذ زمن طويل؛ وفيه كذلك مائة أو يزيدون من المتخصصين في أدب اللغة! وليس ذلك لعجزهم عن إخراج أفضل منه، فقد برهنوا على انتفاء ذلك عنهم، ولكن لاعتبارات أخرى على نحو الاعتبارات التي أشار إليها صديقي الأستاذ المدني في مقاله (السياسة التوجيهية في الأزهر) عدد الرسالة 393

ففيم كان يضيع هؤلاء وأمثالهم سني تخصصهم إذا لم يستطع أحدهم أن يؤلف كتاباً يرضي به منهج الدراسة ويعلن به رأيه في هذه الموضوعات الأدبية مثلاً التي لا ينبغي أن يعتقد الإنسان فيها رأي غيره، ولا أن يلقن الطلاب فيها عبارات كتاب بعينه

ذلك عيب واضح يشكو منه الأساتذة والطلاب جميعاً. ونحن إذ ندل عليه نرجو أن يلتفت إليه القائمون بالأمر في الأزهر فيعملوا على تلافيه وإبعاده حتى لا يظل الأزهر كَلاًّ على غيره فيما تخصص فيه أبناؤه وعطلوا أنفسهم سنوات للعناية به ومعرفة مناهج بحثه

ونستطيع أن نقول مثل ذلك في كثير من مواد الدراسة، فأنها تقرأ في كتب لا صلة لها بالعقلية الحاضرة ولا بالأسلوب المألوف. ومن الخير كل الخير أن يعدل عنها إلى ما يوافق ذلك وأن يوسع المجال للمستطيعين وتعطى الفرصة لهم. ولست أقصد بذلك - طبعاً - إلى عيب هذه المواد والتنقيص من قيمة كتبها. ولكني أعتقد أنها جعلت لزمان مضى، فمن الجائز أن يصلح بعضها لزماننا، وأن يتعارض بعضها الآخر معه فلنبق على ما يصلح ولندع ما عداه. فإننا إن لم نفعل ذلك صدق علينا أننا نعيش في عصر غير العصر الذي يعيش فيه الناس

على أنه مما يعوق الإنتاج الأزهري ويقف في سبيله أن الدراسة في الأزهر ما تلتزم (طريقة الكتاب). فأنا كمدرس حريص علي أن أهضم عباراته وأساليبه؛ السائغ منها والملتوي، وأفهم ذلك الطلاب كلمة كلمة وحرفاً حرفاً ما له ضرورة وما ليس له ضرورة، لأنه في الكتاب المقرر، والطالب أمامي يهتم بذلك ويوليه عنايته، لأنه يرى شبح الامتحان مخيفاً، ويرى أنه لا ينجيه منه إلا أن يفهم كلمات الكتاب، وكلما تمثل له هذا الشبح في أثناء (الحصة) حقق ودقق وأخذ وأعطى وفكر وقدر

وعلى فرض أنه لا بد من ذلك في بعض المواد، فما لنا لا نعدل في بعضها الآخر إلى (طريقة الموضوع)، لنمكن المدرس من الجمع والتحصيل والإبقاء والإلغاء، فيظهر بذلك شخصيته ويظهر إنتاجه واستقلال فكره. ألا إننا لو فعلنا ذلك لكنا محسنين إلى الأزهر، إلى علمائه وطلابه، وإلى العصر الذي نعيش فيه

أن الدراسة على هذا النحو فرصة من الفرص الجيدة التي تمهد السبيل لظهور الإنتاج الأزهري والانتفاع به، فإذا لم تتح هذه الفرصة لعلمائه، فعلى من يقع إثم التعويق عنها؟

لا ينبغي أن نسرف في التشاؤم ولا أن نقول: إن مدرس الموضوع لم يخلق، ففي الأزهر كثير عندهم هذا الاستعداد، فليكن عملهم بدء الغيث. فإن أصابوا فذلك ما نرجوه، وإلا كانوا النواة الحسنة لمن يجيء بعدهم من إخوانهم وأبنائهم. وإذا نحن انتظرنا بالدراسة الموضوعية إلى أن يخلق مدرس الموضوع ولم نعمل على خلقه وتكوينه، تقطعت بنا السبل وخلفتنا القافلة ولم نصل إلى ما نريد

إن أنسب الأوقات لإعلان هذه الآراء والمناداة بها هو ذلك الوقت الذي يدير الشؤون فيه شيخ هو خير شيوخ الأزهر فيمن رأينا

ونحن إذ نجهر بذلك وننادي به فإنما نعبر عن رأي الكثيرين من العلماء، وبخاصة ذووا الصراحة منهم، ونحتذي في الوقت نفسه خطة المصلح الأكبر الإمام المراغي التي رسمها في أول خطاب له في الجامع الأزهر حين عاد شيخاً له للمرة الثانية

فهل يجد هذا النداء المتواضع من سميع؟

عبد العزيز محمد عيسى

مدرس بمعهد القاهرة

فتنة الزَّنج ورثاء البصرة في شعر ابن الرومي

للأستاذ محمود الشرقاوي

في هذا الوقت الذي نسمع فيه ونقرأ أنباء ذلك الخراب الذي يصيب المدائن العظيمة من هذه الحرب بين إنجلترا وألمانيا؛ وذلك العذاب الذي يصب على الآمنين من أهلها، ينزل عليهم من السماء، ذكرت قصيدة من عيون الشعر وعجائبه قالها (ابن الرومي) في حال تشبه هذه الحال، هي قصيدته في رثاء البصرة. وقبل أن أقدم لقراء (الرسالة) هذه القصيدة العجيبة أذكر خلاصة سريعة من التاريخ عن (فتنة الزنج) الذين جرى على أيديهم خراب البصرة في القرن الثالث الهجري:

صاحب الزنج

في شهر شوال من ستة خمس وخمسين ومائتين، خرج في فرات البصرة رجل وزعم أنه علي بن محمد بن حمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب؛ وجمع الزنج الذين كانوا يسكنون السباخ وعبر دجلة فنزل الديناري، وكان قد شخص من سامرّا سنة تسع وأربعين ومائتين إلى البحرين، فادعى بها أنه علي بن عبد الله بن محمد بن الفضل بن الحسن بن عبيد الله ابن العباس بن علي بن أبي طالب، ودعا الناس بهجر إلى طاعته، فاتبعه جماعة كثيرة من أهلها ومن غيرهم. وكان أهل البحرين قد أحلّوه بمحل نبي، وجبى الخراج ونفذ فيهم حكمه، وقاتلوا أصحاب السلطان بسببه

ذلك هو مبدأ ظهور صاحب الزنج كما رواه ابن الأثير في تاريخه الكامل، ومنه نعرف أنه رجل دعيّ أفاق، كان اسمه الحقيقي علي بن محمد بن عبد الرحيم ونسبه في عبد القيس، وأمه من قرى الري، وأن أمه لأبيه كانت جارية سندية، وكان متصلاً بجماعة من حاشية المنتصر، كان معاشه منهم يمدحهم ويستميحهم بشعره منهم ومن غيرهم وقد جعل هذا الرجل العجيب لنفسه خطة بارعة للوصول إلى غرضه والحصول على ما يبتغيه من الحكم والسلطان. فجعل لنفسه زوراً هذا النسب الشريف يصل به إلى الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. مرة على أنه ابن محمد بن أحمد بن عيسى الخ. . . ومرة على أنه ابن عبد الله بن محمد بن الفضل. وهو في كليهما واصل نسبه إلى علي بن أبي طالب. ثم استولى على جماعة من ضعاف العقول في أهل البحرين، فجعل نفسه

بينهم نبياً يزعم لنفسه الآيات حتى قال: (إني فكرت في الموضع الذي أقصده حيث نبت بي البلاد فأظلتني غمامة وخوطبت منها فقيل لي: أقصد البصرة)

ومن الدهاء العجيب الذي تحايل به صاحب الزنج أنه بدأ دعوته بين العبيد والدهماء والأراذل من الشعب فزعم أنه ناصرهم وخارج بهم من الذل والفقر والعبودية

ذكر ريحان - أحد أصحاب الأول - قال: (كنت موكلاً بغلمان مولاي أنقل لهم الدقيق، فأخذني أصحابه فساروا بي إليه وأمروني أن أسلم عليه بالآمرة ففعلت. فسألني عن

الموضع الذي جئت منه فأخبرته. وسألني عن أخبار البصرة فقلت: لا علم لي. وسألني عن غلمان السودجيين وعن أحوالهم وما يجري لهم فأعلمته. فدعاني إلى ما هو عليه فأجبته فقال: أحتمل فيمن قدرت عليه من الغلمان واقبل بهم إلي. ووعدني أن يقودني على من آتيه به واستحلفني ألا أعلم أحداً بموضعه وأن أرجع إليه؛ وخلى سبيلي)

وما زال يدعو غلمان أهل البصرة ويقبلون إليه للخلاص من الرق والتعب، فاجتمع) عنده منهم خلق كثير فخطبهم ووعدهم أن يقودهم ويملكهم الأموال. وحلف لهم (بالإيمان ألا يغدر بهم ولا يخذلهم ولا يدع شيئاً من الإحسان إلا أتى به إليهم

وكان من الطبيعي وقد دخل هذا الأفاق على العبيد من هذا الباب وأطمعهم أن يكونوا أحراراً، بل وعدهم أن يملكهم الأموال وهم أنفسهم مملوكون لمواليهم، كان من الطبيعي أن يجد من نفوسهم قبولاً لدعوته وحماسة في الدفاع عنها

فهذا الرجل الماكر أقام دعوته على ثلاثة عمد وراسخ: أولها هذا النسب الشريف الذي ادعاه لنفسه متصلاً بالحسين بن علي. وثانيها دخوله على المستضعفين الأذلاء من العبيد حتى قال الطبري إنه جمع لدعوته الزنج الذين كانوا (يكسحون السباخ) وكذلك في النجوم الزاهرة. وهؤلاء يدفعهم ما هم فيه من البؤس والتعس والشقوة إلى المغامرة والاندفاع. وكيف بهم يقودهم رجل شريف من نسل الإمام على يمينهم وبعدهم ويجعل نفسه موكلا بخلاصهم من الرق والذل والفقر والهوان. ويصل نفسه بهم حتى يكون وهو الرجل الشريف (صاحب الزنج)

وثالث هذه العمد ادعاؤه النبوة أو ما هو قريب منها. وقد آمن بدعوته قوم من هؤلاء العبيد. وبذلك أثار في نفوسهم اشد ما فيها من العواطف قوة وجموحاً من العواطف: الإيمان والنفع

الذاتي بعد الوصول إلى الحرية، وهي أعز ما تشتهيه النفس الإنسانية.

ظهور الفتنة

لا أريد بعد ذلك أن أتابع الخطوات التي مشت بها فتنة الزنج في العراق؛ ولكني أبرز من ذلك أمرين يستطيع القارئ أن يعرف بهما إلى أي حد استطاع صاحب الزنج أن يكوِّن مع عبيده السود قوة قاهرة تخيف الولاة وتحارب جند الخليفة، وتدخل الرعب في قلوب الناس

أذكر أن صاحب الزنج استطاع في سنتين اثنتين أن يأخذ من جند الخليفة بلاء الأبلة وعبادان والأهواز والبصرة، واستطاع في هاتين السنتين (وهما سنتا ست وخمسين ومائتين وسبع وخمسين) أن يحارب من الولاة ومن القواد سعيدا الحاجب وابن المدبر، ومسيرا المولد وموسى بن بغا وعدة غيرهم، واستطاع أن يهزم كثيرين منهم وأن يأخذ منهم ما أخذ من البلاد

وأذكر هذه القصة التي رواها ابن الأثير تدل على ذلك الفزع والرعب الذي ملأ به صاحب الزنج قلوب الناس، وذلك الحقد والجبروت الذي ملأ به قلوب زنوجه العبيد على أسيادهم ومواليهم

يقول ابن الأثير إن موالي هؤلاء العبيد وقد رأوا سلطان صاحب الزنج على عبيدهم وخافوا بطشه أتوا إليه (وبذلوا له على كل عبد خمسة دنانير ليسلم إلى كل منهم عبده. فبطح أصحابهم وأمر كل من عنده من العبيد فضربوا مواليهم. . . أو وكيلهم كل سيد خمسمائة صوت. ثم أطلقهم)

فتأمل ذلك الرجل الذي يبطح السيِّد المالك ليضربه عبده ومملوكه خمسمائة صوت. ولا يبيع هذا العبد بخمسة دنانير لسيده وصاحب رقبته، وهو لا يملكه .!

خراب البصرة

وبقي هكذا حال صاحب الزنج وزنوجه يستفحل أمرهم، ويستشري داؤهم، حتى كان شهر شوال من سنة سبع وخمسين ومائتين، فاجتمع الأعراب من البحرين بآمرة محمد ين يزيد الدارمي، وتجمع عليهم كثيرون من مثلهم أتباع صاحب الزنج، وأحاطوا البصرة من أطرافها فدخلوها وقت صلاة الجمعة لثلاث عشرة بقيت من شوال. وأباح صاحب الزنج

لزنوجه البصرة يوم الجمعة وليلة السبت ويوم السبت يفعلون بها وبأهلها ما يشاءون. . حتى حرق المسجد وأحرقت البصرة في عدة مواضع، واتسع الحريق من الجبل إلى .!

الجبل
وقدّمت الخدعة إلى أهل البصرة بأن من دخل دار فلان فهو آمن؛ فجاء أهل البصرة قاطبة إلى دار الأمان ثم غُدر بهم وقتلوا، فكان السيف يعمل فيهم وأصواتهم مرتفعة بالشهادة، فقتل ذلك الجمع كله ولم يسلم إلا النادر منهم. وعظم الخطب بالقتل والتحريق والنهب؛ فمن كان من أهل اليسار أخذوا ماله وقتلوه، ومن كان فقيراً قتلوه لوقته. وبقوا كذلك عدة أيام
ابن الرومي
هذه الصورة الدموية البشعة التي نلخصها تلك السطور السابقة عن خراب البصرة على يد الزنج قد أوحت لعلي بن العباس ابن جريح (ابن الرومي) قصيدة عجيبة هي من غرائب الشعر العربي وضوح بيان وقوة تصوير وإعجاب خيال وصدق عاطفة. وهي من بدائع الشعر العربي كله. هذه القصيدة هي التي نقدمها لقراء الرسالة
(البقية في العدد القادم)
محمود الشرقاوي
من أدب الحرب
. . .نهاية زعيم
(!مرفوعة إلى المغفور له خالد الذكر السنيور موسوليني)
للأستاذ أحمد فتحي مرسي
خَفَّضْ عَلَيْكَ مِنَ الْعَذَابِ ... الصَّبْرُ أَجْمَلُ في المُصَابِ
وَلَى صَوَابُكِ لا أُصَبْ ... تَ ولا رَجعتَ إلى الصَّوَاب
لَكَ إِنْ تَشَأْ في الْخَطْبِ تَعْ ... زِيَتِي وَإِنْ شِئتَ انتِحابي
هَوِّنْ عليكَ فهذهِ الدُّ ... نيا كَلَمَّاحِ السَّرَاب
فيها الْقَريبُ إلى ابْتِعَا ... دٍ، والعبيدُ إلي اقتراب
لا تَجْزَعَنَّ مِنَ الصَّعَا ... بِ فَأَنْتَ غَلاَّبُ الصِّعَاب
كم ذا خَدعْتَ النَّاسَ بال ... تَّمويهِ وَالْكَلِمِ الْعِذَاب
فَلَكَ الْجَوَارِي المُنْشئا ... تُ مَلأنَ آفَاقَ الْعُبَاب
وَلَكَ الأَسودُ الضاريا ... تُ بغيرِ أظفارٍ ونَاب
وَلَكَ التَّحِيَّةُ والتَّجِلَّ ... ةُ في مَجيئِكَ والذَّهاب
ولك اللِّسانُ الطَّلْ ... قُ فيَّاضُ البّلاغةِ والخطاب
يأتيكَ من تَضْلِيلِهِ الغَرَّا ... رِ بأعْجَبِ الْعُجَاب
ولكَ الضميرُ العَفُّ يُلْبَ ... سُ ثمَّ يُخْلَعُ كالثياب
يَتَخَلَّصُ الوَعْدُ الكِذَا ... بُ بهِ إلى وَعْدٍ كِذَاب
ولكَ القليلُ من القَطا ... نةِ والكثيرُ من الرِّغَاب
وَلَدَيْكَ من خُدَعِ السَّيا ... سَةِ ما يزيدُ عَلَى الْحِرَاب
كَذَبَتْكَ أَحْلاَمُ الْكَرَى ... وَرَهَتْكَ أَوْهَامُ الشَّرَاب
أَسَدُ اللِّسانِ وَلَسْتَ في ... سَاحِ الوَغَى أَسَدَ الوِثَاب
ضَلَّ الذي ركبَ الضَّلا ... لَ إلى الرَّغَائِبِ والطِّلاَب
إِنِّي أُنَاشِدُكَ الدَّمَ الْ ... مُهْرَاقَ في شُعَبِ الهِضَاب
والرِّفقَ بالأرواحِ تَذْ ... هَبُ في الْعِرَاكِ والاحتِرَاب
وفلولَ جُندِكَ هائما ... تٍ في السُّهولِ وفي الرَّوابي
وكتَائِبُ الأَسْرَى تَوَا ... لي في شُحُوب واكتِئَاب
هَلاَّ قَنِعْتَ من (الْغَنِي ... مةِ) والهزيمة بالإياب
يَا أَوْحَدَ القُوَّادِ قُلْ ... لي ما لِجَيْشَكَ في اضطراب
أَعَلِمْتَ غَيْرَكَ عَبْقَرِيَّ (م) ... الْجَهْلِ، مشئومَ الرِّكاب
فِيمَ الترفُّقُ والتلطُ ... فُ بالمغيرينَ الغِضاب
أأقول مُحتشمٌ - هَداكَ الل ... هـ - بلْ خَوْف الغِلاب
أين الرِّجالُ، وَأينَ أب ... طالُ (الصِّراع) وَالانسحاب
قد سُقْتَهُمْ بل سُقْتَهُنَّ (م) ... إلى المماتِ بلا حساب
أَلْطفْ بهنَّ فما يُطِقْ ... نَ - فديتهنَّ - أذى الضِراب
رِفْقاً، فما صبرٌ لهنَّ (م) ... عَلَى الْبِعَادِ والاغتراب

من كلِّ ممشُوقِ القوا ... مِ حشدتَهُ غضِّ الإهاب
ما تفعلُ الصَّحراءُ بالأ ... غنَامِ في الأرضِ اليَبَاب
قد أجْدَبَ المرعَى وَجَفَّ (م) ... لَديهِ مُنْهَلُّ السَّحَاب
لَيْسَتْ مُوَطَّأَةَ الْفَرَا ... شِ، ولا مُمَهَّدَةَ الْجَنَاب
يَخْلُصْنَ من صَلْبِ الْقَنَا ... ةِ إلى الألوفِ من الصِّلاب
لما بدَا يومُ الهزي ... مةِ في دُنُوّ واقتراب
زِنَّ الخُدودَ لها وَخَضَّبْ ... نَ الأظافِرَ بالخِضَاب
وَرَمَيْنَ مُشْرَعَةَ القَنَا ... ونبذنَ مُرْهَفَةَ الْحِرابِ
وأخذنَ أَهْبَتَهُنَّ للأس ... رِالْمُبَارِكِ والذِّهابِ
وَجَعَلْنَ يَعْدُدْنَ الدقَا ... ئِقَ فِي اشتياقٍ وارتقابِ
أن تحملْ السيفَ النسا ... ءُ، فألفُ بشرَى لِلرِّقابِ
أقْسَمْتُ باللهِ العليِّ ... وَبالرسولِ وبالكتابِ
وَالليلِ وَالإصبَاحِ وَال ... جيْش المُشَرَّدِ فِي الشِّعابِ
لولا التعفُّفُ والترفُّ ... ق وَالْجُنوحُ عن السِّبَابِ
لجعلتُ منكَ، وَقدْ جلوْ ... تُكَ لِلعُيونِ بلا نقابِ
أُضْحُوكةَ الدُّنْيَا وَسُخ ... رِيَةَ المجالس وَالصِّحَاب
عطفاً على بلدٍ ضعي ... فِ الرُّكنِ مخذولِ الشبابِ
قد عادَ مهجورَ الرِّحَا ... بِ وكان محشودَ الرَحَابِ
عَمَّى بصائرَهُ الضّلاَ ... لُ عن الحقيقةِ وَالصَّوَابِ
وَالعينُ تبصرُ فِي الضيا ... ءِ وَليسَ تبصرُ فِي الضبابِ
قد سُقْتَهُ - ثَبْتَ الْجنا ... نِ - إلى الهزيمةِ وَالخرابِ
وَرَكَنْتَ للآمالِ، وَالآ ... مالُ أمنعُ من عُقَابِ
كُفَّ الخِداعَ عن الورى ... قد جاءهُمْ فصلُ الخطابِ
إن المحجَّبَ سوفَ يَبْ ... دُو لِلعيونِ بلا حِجَابِ
دَعْهُمْ وَشَأْنَهُمُ جَزَا ... كَ اللهُ مَوْفُورَ الثَّوَابِ
لاَ يَوْمَ لِلأَقْوَامِ حَتَّى ... تَذْهَبَنَّ بِلاَ إِيَابِ
(القاهرة)
(فتحي)
البريد الأدبي
خزائن الكتب في قصور الأندلسيين
حديث حضرة العلامة الأستاذ عباس محمود العقاد عن مكتبات القصور الأوربية في المقالة الأولى في الرسالة الغراء (395) - ذكرنا بشيء في (نفح الطيب) أرويه حاشية لحديث حضرة الأستاذ. وفي خبر النفح فائدة تاريخية وأملوحة:
قرطبة أكثر بلاد الأندلس كتباً، وأهلها أشد الناس اغتناء بخزائن الكتب. صار ذلك عندهم من آلات التعيين والرياسة حتى أن الرئيس منهم الذي لا تكون عنده يحتفل في أن تكون في بيته خزانة كتب، وينتخب فيها، ليس إلا لأن يقال: فلان عنده خزانة كتب، والكتاب الفلاني ليس عند أحد غيره، والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصله وظفر به
قال الحضرمي: أقمت مرة بقرطبة، ولازمت سوق كتبها مدة، أترقب فيه وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء، إلى أن وقع، وهو بخط مليح، ففرحت به أشد الفرح، فجعلت أزيد في ثمنه، فيرجع إلي المنادي بالزيادة علي، إلى أن بلغ فوق حده، فقلت له: يا هذا، أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلغه إلى ما لا يساوي. فأراني شخصاً عليه لباس رياسة، فدنوت منه وقلت: أعز الله سيدنا الفقيه! إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك، فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده
فقال لي: لست بفقيه، ولا أدري ما فيه، ولكني أقمت خزانة كتب واحتفلت فيها لأتجمل بها بين أعيان البلد، وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب، فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته، ولم أبال بما أزيد فيه، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير
قال الحضرمي: فأحرجني وحملني على أن قلت له: نعم لا يكون الرزق كثيراً إلا عند مثلك. يُعطى الجوز من لا أسنان له! وأنا الذي أعلم ما في هذا الكتاب وأطلب الانتفاع

به يكون الرزق عندي قليلاً، وتحول قلة ما بيدي بيني وبينه!
(باحث)
المجمع اللغوي والمعجم الوسيط
أخي الأستاذ الجليل صاحب (الرسالة) الغراء
بعد التحية اللائقة، قرأت كلمة تحت عنوان: (المجمع اللغوي والمجمع الوسيط) عرض فيها كاتبها لنفقات هذا المجمع وظل يترقى بهذه النفقات حتى أبلغها 100000 جنيه مائة ألف من الجنهيات!!!
والواقع أن وزارة المعارف تعاقدت مع سبعة من العلماء اللغويين بعضهم من حضرات أعضاء المجمع، وبعضهم من حضرات أساتذة الجامعة، على أن يقوموا في مدى عامين بوضع هذا المعجم على أحدث الأساليب في نظير مبلغ معين يقل عن ألف وسبعمائة جنيه لهم جميعاً. وقد قام تقدير هذا المبلغ على أساس ما تجيز به وزارة المعارف المؤلفين الآخرين
أما دعوى أنهم لم ينجزوا إلا مائة وعشرين صفحة إلى الآن فهي من نوع ذلك الحساب أيضاً!
وتفضل يا صديقي بقبول أزكى السلام، وأخلص الاحترام.
المخلص
عبد العزيز البشري
المراقب الإداري للمجمع
خصومة أدبية
ما أحبها إلى نفسي خصومة أدبية تقوم على صفحات الرسالة الغراء بيني وبين صديقي زكي مبارك، فإن في الخصومات الأدبية للمتخاصمين مجالاً واسعاً للبحث والتدقيق، ولحضرات القارئين مجالاً أوسع للموازنة والتحكيم
وإني لأشكر لصديقي الدكتور إثارة هذه الخصومة، وأطمئنه على نزولي ميدانها عن طيبة خاطر واستراحة فؤاد؛ غير أني قبل الخوض في هذه الخصومة أرى من حق نفسي وحق الموضوع عليَّ، كما أرى من حق الرسالة وقرائها كذلك، أن تتسع صفحاتها في العددين المقبلين لكلمتين اثنتين لي
فأما إحداهما فلوضع الأمر الأصيل في نصابه وتقريره على وجهه، لأنه الذي دعا الدكتور إلى كلمته الأولى المنشورة في العدد 392 وكنت أغفلت الرد عليها عسى أن يتحرى الحقيقة ولكنه لم يفعل.
وأما الأخرى فحول النظرية التي ادعى في العدد الأخير أني نهبتها من كتابه النثر الفني ونشرتها في مجلة السراج حتى يعلم حضرات القراء آينا الناهب
وأما الذي يهدد به ويعتزم تبيينه، من أن تهذيبي للكامل لم يكن إلا جناية أدبية، ومن أن التطاول على مقام الشيخ المرصفي لا ذهب بلا عقاب، فهو ما سيكون حلبة الخصومة، وليعرف الملأ إذ ذاك - إن هو اجترأ على الكتابة بعد كلمتي هاتين - آينا الجاني على الأدب بآثاره، وآينا القليل الاطلاع الطائش الأحكام في أبحاثه، وإلى اللقاء السباعي بيومي
أستاذ بدار العلوم
إلى الدكتور مبارك
كان قلمكم الثائر قد خط في مقالكم الخامس في نقد آراء الأستاذ أحمد أمين وتبيان جنايته على الأدب العربي (الرسالة 314 - 10 يولية سنة 939) أن هذا الأستاذ لم يؤت أسلوباً خاصاً، وأنه ما كان في يوم من الأيام أديباً، وكان مما قلتموه يومئذ:
- إن أحمد أمين ليس له أسلوب
وإن الرجل لا يكون له أسلوب إلا يوم يصح أنه يحس الثورة على ما يكره والأنس بما يحب. فعندئذ تعرف نفسه معنى الانطباعات الذاتية، ويعبر عن روحه وعقله وقلبه بأسلوب خاص. . .
ولقد عانى أحمد أمين في الواحات فلم يصفها، واشتغل بالقضاء الشرعي فما توجع مرة واحدة للمآسي التي رآها، ولو كان أحمد أمين أديباً كتب خواطره وسطر احساساته في القضاء وفي الواحات، (ولكن أحمد أمين لم يكن أديباً وإنما كان موظفاً

مخلصاً لواجب الوظيفة لا يرى ما عداها من الشئون) (الرسالة 314 ص 1337 - 1338)
ويمضي على ذلك سنة ونصف سنة، ويأتي العدد (384 - 11 نوفمبر سنة 1940) من الرسالة فما نجد يا ترى؟ وماذا نرى؟
نجد أن الدكتور زكي مبارك يقول: (يجب الاعتراف بأن لأحمد أمين أسلوباً. . . وبأن لهذا
الأسلوب شخصية تتميز بالسهولة والوضوح. . .)؛ وبأن في كتابه (فيض الخاطر) مقالات من الأدب الذاتي، (وهو الأدب الذي يصور الكاتب واحساساته . . .
ثم رجا طلاب السنة التوجيهية (أن يفطنوا وهم يقرءون كتاب (فيض الخاطر) إلى أن المؤلف أديب. . . يصور لواعج نفسه)
فهل للأستاذ أن يجلو لنا السر الذي جعل أحمد أمين أديباً؟ أم إن ذلك كان من باب: (رضيت فكسوته، وغضبت فجردته. . .!)
وللدكتور مبارك منا أجمل التحيات
(دمشق)
صلاح الدين المنجد
متحف وزارة المعارف
تساءل الدكتور زكي مبارك في أثناء مقاله في عدد الرسالة (395) عن متحف وزارة المعارف ليقدم إليه هدية سنية، وهي رسالة من الدكتور طه حسين، وكتاب من مؤلفات الأستاذ أحمد الإسكندري كان أهداه للأستاذ مصطفى أمين، وعلى الكتاب عبارة (إهداء بقلم الإسكندري)
وأذكر بهذه المناسبة أني بحثت عبثاً عن متحف وزارة المعارف لأهدي إليه تحفة تاريخية لها قيمتها الأدبية، وهذه التحفة هي عدة رسائل بخط المغفور له إبراهيم أدهم باشا ثاني نظار المعارف المصرية على عهد ساكن الجنان المغفور له الخديوي إسماعيل
ولا شك أن مثل هذه الرسائل مكانها متحف وزارة المعارف الذي يصونها من التلف ويحفظها من الضياع، فمثل هذه الرسائل أصبحت ملكاً للتاريخ والأجيال المقبلة
ومن العجيب أن يكون للبريد متحف، وللسكة الحديد متحف، وللصحة متحف، ثم لا يكون لوزارة المعارف متحف!
حقاً إن هذا نقص يجب أن يكمل، وثغرة من الواجب سدها
ونرجو أن تولي وزارة المعارف هذه الملاحظة عنايتها، وأن تنظر إليها بعين الاعتبار، ولا سيما وعلى رأس هذه الوزارة أناس عرفوا برجاحة العقل وقوة العزيمة ومضاء الهمة
(القاهرة)
إبراهيم أدهم
تصويب
جاء بالعدد 395 في مقال (دير مديان): قال الله عز وجل (الذين أطعمهم من جوع وأمنهم من خوف) والصواب (الذي أطعمهم من جوع وأمنهم من خوف)
محمد الساكت
بكلية أصول الدين
القصص
البغض الأول
للقصصي الروسي أنطون شيخوف
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار
جلس جماعة من المصطافين في كوخ بين الحشائش الخضر وكانت الليلة قمراء ونافذة الكوخ مفتوحة ينفذ منها ضياء القمر. وكانت روائح النبات تفوح في المكان والأصدقاء يتحدثون أحاديث مختلفة، وتناول الحديث ذكر النساء والحب فقص كل منهم أقاصيص كثيرة حتى تجاوز عدد هذه الأقاصيص المائة أقصوصة
وكان في ركن من الكوخ ضابط لزم الصمت من أول الليلة وظل يتثاءب؛ فلما جاء دوره صاح:
ليس في التحدث عن الحب غرابة، فكل النساء قد خلقن للحب، وليس لأحدكم أن)

(يفاخر بالحب؛ فهل منكم من جرب البغض الحق؟ هل عرف أحدكم الكراهية؟
لم يجبه أحد، واستمر الضابط يقول: (أنا قد جربت هذا البغض فقد كرهتني فتاة فدرست في شخصي أعراض الكراهية الأولى؛ وإنما قلت الكراهية الأولى كما يقال الحب الأول. ولكن هذه التجربة الغريبة قد حدثت في عهد من العمر لم تكن لدي فيه فكرة واضحة عن الحب والبغض فقد كنت لا أتجاوز الثامنة من العمر) وليس هذا مطلب القصة بل مطلبها فتاة فأنصتوا:
خرجت من المدرسة في أصيل يوم من الأيام وجلست أمام مكتبي في الغرفة التي أذاكر فيها، وكانت مربيتي - وهي فتاة حديثة عهد بالمدرسة - تطل من النافذة نظرت إلي فتبينت على وجهها الارتباك، وسألتني وهي لا تكاد تعني ما تقول: هل الأشجار تتنفس الأكسجين؟
فقلت: نعم
قالت: وماذا نتنفس نحن؟
فقلت: ثاني أكسيد الكربون؟
قالت: أصبت، وثاني أكسيد الكربون غاز خانق يوجد في الكهوف وفي بعض المياه، وقد رأيت كهفاً بالقرب من مدينة نابولي يكثر فيه هذا الغاز، ورأيت كلباً ألقي فيه فمات لساعته
قالت لي مربيتي بعد هذا الحديث: إن أبي وأمي ليسا بالمنزل، وإن أخي يشكو الصداع وأنه ذهب للطبيب وأن ليس بالمنزل غيري وغيرها، ثم سألتني وهي لا تزال تطل من النافذة على الأشجار وما يليها من الفضاء:
ما هو الأفق؟
فقلت: هو الخط الوهمي الذي عنده تلتقي السماء بالأرض
وعادت فسألتني وهي لا تزال تنظر إلى الأشجار: وهل الأشجار تتنفس الأكسجين؟
فقلت: نعم، ثم رأيت في يدها ورقة مطوية قد شدت عليها أناملها ونظرها يرتد عن الأشجار وقالت: في إيطاليا كهف بالقرب من نابولي يكثر فيه هذا الغاز الخانق، هل تقول: إن الأفق هو الذي تلتقي عنده السماء بالأرض؟
وكانت وهي تقول ذلك كالحالمة، وتجلى اضطرابها الشديد، ثم مشت ذهاباً وإياباً في الغرفة بحالة تدل على القلق وقالت لي: أقرأ درس الرياضة حتى أعود بعد نصف ساعة
خرجت مربيتي من الغرفة، ورأيتها وهي تمشي في الحديقة بخطوات كخطوات المحموم، وكان وجهها أكثر احمرارا من عهدي به، واضطرابها جلي إلى درجة استلفتت نظري، فقلت في نفسي: إلى أين تذهب يا ترى؟
وطويت الكتاب وقلت: أتبعها وكنت أحسبها ستنتهز غياب أمي فرصة وتسرق بعض الفواكه من أشجار الحديقة. ولكنها لم تفعل بل تجاوزت كوخ البواب وخرجت من المنزل، وتبعتها مختفياً وراء الأشجار حتى وصلت إلى البحيرة. وهنالك. . . هنالك وجدت أخي الذي قالت إنه مريض وأنه ذاهب إلى الطبيب
لم يكن أخي عندما شاهدته مريضاً بل وقف عندما رآها وكأن قوة غريبة دفعت كل منهما إلى الآخر فتعانقا وقبلها وقبلته وفهمت من كل حركاتها وإن كنت صغيراً أن هذه أول مرة فعلتْ فيها مثل ذلك
وكان وراءهما أكمة عالية فغابا خلفها وعدت إلى المنزل وأنا أشعر بخجل شديد. ولم أر أكثر من ذلك، ولكن لكوني متقدماً في الذكاء عمن كانوا في مثل عمري فقد فكرت في الأمر
وقلت لا بد من الاستفادة منه. ثم ابتسمت ابتسامة المنتصر، وذلك لأن في معرفة الأسرار لذة لا يستهان بها خصوصاً إذا كانت أسرار أخي الذي له نفوذ بالمنزل، ومربيتي التي لها نفوذ عليّ
لما عادت مربيتي إلى الغرفة كالعادة نظرت إلى وجهها الجميل وعينيها البراقتين، وكان السر الذي أكتمه يكاد يمزقني فقلت: لقد عرفت! لقد رأيت!
قالت: (ما الذي رأيته، وما الذي عرفته؟)
فقلت: (رأيت أخي يقبلك وأنت تقبلينه عند البحيرة)
عند ذلك وجدت النار تكاد تتقد في عينيها، وجلست خائرة القوى على المقعد ولم

تنطق بحرف، وأعدت جملتي وزدت عليها: (انظري حتى أخبر أمي)
فنظرت إلي باهتمام ورعب؛ ثم لما تبينت أني لن أفعل أمسكت بذراعي وهي في حالة شديدة من اليأس، وقالت بصوت خافت: (هذا لا يليق. . . أتوسل إليك. . .! بالله لا تقل شيئاً! إن الشرفاء لا يتجسسون. . . أتوسل إليك. . .!)
لقد كانت مربيتي المسكينة تخاف من أمي، وهذا سبب من أسباب فزعها، ولكن أهم هذه الأسباب هو افتضاح حبها الأول. وأنتم بلا ريب تقدرون شعورها في هذه الحال.
وفي الصباح عرفت أنها لم تنم طول ليلتها لأني رأيت حول عينيها هالة زرقاء مسودة، ورأيت في عينيها علامة السهاد. ولما وجدتها وحدها بعد ذلك في غرفتي قلت: (لقد عرفت، لقد رأيت!)
فنظرت إلي ولم تجب، ثم لما رأيت أخي وحده قلت له هذا القول، فلم يكن ليخاف خوف المربية، بل شتمني فخفت أنا. . . ولم أعد أجرؤ على تكرار كلمتي أمامه. أما المربية فقد أردت الاستفادة من معرفة سرها، فصرت لا أذاكر، وصرت أعبث في غرفتي كما أشاء فلا تشكو إلى أمي ولا تظهر لي الضجر. وحافظت على تلقيني دروسي متى أردت وعلى شرح ما أطلب شرحه، وهي تتغاضى وتلزم الوقار. ولكن مضى أسبوع وضاق صدري بالسر فجلست مرة مع أمي وكانت معنا المربية وأخي فقلت لأمي: (لقد عرفت! لقد رأيت!) فبدا الفزع والرعب على وجه المربية وبدا الغضب على وجه أخي ولكني لم أزد ولم تسألني أمي.
ومن ذلك اليوم صرت أرى نظرات المقت والكراهية الجنونية على عيني المربية وصارت تقرض أسنانها كالذئب كلما رأتني؛ وبدأت أعرف كيف تكون كراهية الشياطين. وفي يوم من الأيام كانت تلقنني الدرس فسمعتها تقول: (إنني أمقتك؟ ليتك تعرف مقدار كرهي لك أيها الحيوان) ثم زادت على ذلك: (إنني لا أخاطبك ولكني أعيد جملة من رواية.)
كانت بعد ذلك تأتي إلى غرفة نومي وتنظر إلي وأنا بين النوم واليقظة نظرة مقت؛ وصارت الحالة تزداد حتى أمسكتني من ذراعي مرة من المرار وقالت: (إني أكرهك وما تمنيت لإنسان من الشر مثل الذي أتمناه لك وأريد أن تفهم ذلك.)
كان ذلك في الليل، وكان ضياء القمر الشاحب ينير الغرفة، ونظرت إلى عينيها فسررت أولاً، لأن هذا الشيء جديد، ثم خفت فصرخت بصوت عال، ثم عزمت على أن أخبر أمي؛ على أني لو كنت أعرف جوابها لما عزمت هذا العزم الأحمق
لقد أجابتني: (وما شأنك أنت؟ أنت صغير فلماذا تتدخل فيما لا يعنيك؟)
وكانت أمي فاضلة رقيقة الإحساس؛ وكانت تتجنب ما يؤدي إلى الفضيحة فلم تطرد مربيتي في الحال بل انتظرت مدة كانت تنصرف فيها عن المربية شيئاً فشيئاً ثم أخرجتها بعد مدة من المنزل لسبب آخر انتحلته. وأنا لا أزال أذكر تلك النظرة التي رمتني بها المربية وهي تغادر المنزل
بعد ذلك بعهد طويل صارت مربيتي زوجة لأخي وهي فلانة التي تعرفونها جميعاً. وتغيرت ملامحي فلم أعد أشبه ذلك الغلام الذي كنته، ولكنها بالرغم من ذلك لا تزال تنظر إليَّ إلى اليوم نظرة بعيدة عن الود، وتعاملني كلما زرت أخي معاملة غير معاملة الأصهار، وما ذلك إلا لأن البغض الأول كالحب الأول ليس من السهل أن يزول
عبد اللطيف النشار

العدد 398 - بتاريخ: 17 - 02 - 1941

محمد محمود باشا

رجلان يُرْبكان الكاتب إذا حاول أن يكتب عنهما: رجل لا يستطيع أن يجد ما يقوله فيه، ورجل لا يستطيع أن يَختصر ما يعرفه عنه. ووصْف (الأول) بالرجولة تساهل في التعبير، وإطلاق لفظ الرجل على (الآخر) قصور في اللغة؛ فإن من المسلَّمات في تاريخ الإنسان أن من أفراده من يعلمون حتى يكونوا خيراً من الملائكة، ومنهم من يسفلون حتى يكونوا شراً من البهائم. أولئك هم أصحاب الرسالات فحياتهم للناس، وهؤلاء هم أصحاب الشهوات فحياتهم لأنفسهم. ولا مراء في أن الرجل الذي فقدته مصر في هذه الأيام السود كان من البابة الأولى في الرجولة: تجلت في خلائقه مزايا الإنسان الرفيع فاتفق على نبله الصديق الحميم والعدو الكاشح؛ وتمثلت في أفعاله خلال الشريف الحر فاعترف بفضله الوطني النزيه والأجنبي المنصف؛ وعاش محمد

محمود عمراً ثم مات، كما اشتعل القبس حيناً ثم انطفأ، فقال قوم هو النور والإشراق، وقال آخرون بل هو النار والإحراق؛ وما أرسل الله من قبلُ حكيماً ولا زعيماً إلا آمن به بعض وكفر به بعض. وليس الإيمانُ بالدعوة دليلاً على الصدق، ولا الكفران بها دليلاً على الكذب.

لا يَعني (الرسالة) من تاريخ صاحب الهوى الرفيع والنفس الكبيرة محمد محمود إلا دينه وخلقه وأدبه؛ وهو في هذه الثلاثة بإجماع الكلمة كان مضرب المثل وموضع القدوة. فدينه دين المعتقد عن علم، وخلقه خلق التقي عن عقيدة، وأدبه أدب السرى عن أصالة. وما اجتمعت هذه الصفات في زعيم حكيم إلا كانت ضماناً لحسن نيته وأماناً من سوء عمله.

أما السياسة فلا تزال في الشرق العربي كله أثراً للعوامل الأجنبية، فلا تتأثر برأي حزب ولا تتغير بإرادة حكومة. فمن الخطل أن ندخلها في أسباب الحكم على زعيم أو حاكم ما دام يتأثر بها ولا يؤثر فيها. وإذا اعتبرنا السياسة على هذا الوجه السلبي وشهوة من شهوات النفس الطموح تصل من طريقها إلى المال أو الجاه أو الحكم، فقد أبى لزعيم الأحرار الدستوريين نبل فطرته وكرم أسرته أن يجعل أي عَرض من هذه الأعراض الدنيا غاية لهذا الطريق.

اجتمعت لمحمد محمود باشا أرستقراطية النسب والمال والعلم والمنصب. فلو أنه كان يندلق على الناس بالبطر والزهو في الشوارع والمجامع لما كان ذلك بِدْعاً من الأمر، ولكنه - برّد الله بالرحمة ثراه - ظل طول حياته يطالع الجمهور ويعالج الأمور ومن دونه حجاب من التصون الكريم لا يسمح له أن يتخذ الشعب إطاراً لصورته، ولا مظهراً لعظمته.

لم يقل أحد من الناس في وقت من الأوقات:

هذا محمد محمود يعرض سلطان منصبه على عيون الفقراء، أو يفرض إعلان موكبه على حناجر الدهماء، أو يرفد ثروته الضخمة بعضوية ظنينة في شركة من الشركات أو في بنك من البنوك!

ولم يقل أحد من الناس في مناسبة من المناسبات:

هذه زوج محمد محمود تتمرد على تقاليد الشرق وآداب الإسلام، فتشهد مع الرجال حفلات النهار وسهرات الليل!

ولم يقل أحد من الناس في حالة من الحالات:

هذا ابن محمد محمود ينبو على القانون في الدواوين، أو يعربد على الناس في عماد الدين، أو يتنبل باللباس والمركب في طريقه إلى نادي القمار أو إلى سباق الخيل!

إن بيت آل محمود وبيت آل عبد الرزاق هما المثلان الصحيحان في مصر للأسرة المسلمة الحديثة. ذلك لما تهيأ لهما من وسائل السؤدد وشمائل الفتوة؛ وجماع هذه الوسائل وتلك الشمائل قيامهما على أركان من المجد والمال والعلم والشخصية القوية قلما تجتمع كلها لبيت واحد. والسر كله في الشخصية الأصيلة التي خلقت من التليد والطريف والشرقي والغربي مدنية مستقلة كانت أبلغ حجج الإسلام والشرق على من يقولون بلسان الجهالة والوضاعة إن الإسلام ينافي التمدن، وإن الشرق يجافي الحضارة.

ومن هنا كانت حياة الفقيد العظيم بخصائصها المميزة من العزة والعفة والإباء والصدق، رسالة خلقية تقوم على الدعوة والقدوة في فترة من المصلحين الصالحين تفككت فيها الأواصر وتحللت العقد وانماعت النفوس، وأصبح كل عمل يجوز، وكل شيء يمكن، وكل وضع يستقر!

رحم الله محمد محمود! لقد كان فوق الشهوات والحزازات والحوادث فكان عفَّ اليد واللسان والضمير. وكان الناس لندرة هذه الخلال فيهم يحسبونه قد نزع في ذلك إلى أبناء (أكسفُرد)؛ وما كان الشبه بينه وبينهم إلا في صفات القوة كصراحة الخُلق وصرامة النظام والاعتداد بالنفس والاستقلال في الرأي وما يستتبع أولئك من المحافظة على السَّنن الموروث والاكتراث للعرف المتَّبع. وأصول هذه الأخلاق مما ينبت طبيعةً في أقاليم الصعيد؛ ولكنها تزكو زكاء الكلمة الطيبة إذا غذت أرومتها

خصائص الجنس الممتاز وفضائل الدين الصحيح.
فإذا برَّح بالأمة الحزن عليه فذلك لأنه كان المثل الشاهد على أنها تلد الرجال الكمَلة إذا نشَّأتهم على سننها القويمة، ولأنه كان القدوة الحسنة لمن كان يشك في نجاح الأخلاق الكريمة.
رحم الله محمد محمود، وعزى أسرته على رزئه أجمل العزاء، وعوض أمته من فقده خير العوض!
أحمد حسن الزيات
الحديث ذو شجون
للدكتور زكي مبارك
اتجاه جديد في وزارة المعارف - الهجوم الآثم على الشيخ
سيد المرصفي سينزلون الهاجمين عليه وسيقهر بعض الناس
على الانسحاب من ميدان الدراسات الأدبية واللغوية. . .
والحق أقوى وأغلب.
اتجاه جديد في وزارة المعارف
لا يمرّ أسبوع بدون أن يطّلع الجمهور على أخبار جديدة عن وزارة المعارف، فهي في هذه الأيام مثار حركة ومجال نشاط، والحركة في أقبح صورها أجمل من السكون، لأن السكون في أجمل صوره من نُذُر الفناء
ومن مظاهر الحيوية في وزارة المعارف لهذا العهد خطب الدكتور هيكل باشا، وهي خُطب تشهد بأن هذا الرجل يريد أن يجعل لنفسه تاريخاً في تطّور التعليم، وهو بذلك خليق، فلهذا الرجل لفتات ذوقية واجتماعية تضعه في الصف الأول بين أقطاب الفكر في هذا الجيل
والظاهر أن وزارة المعارف أصبحت من الوزارات المجدودة، فهي منذ أعوام طوال صاحبة الحظ الأوفر من أحرار الرجال. ألم يتول أمورها أعلامٌ كان منهم: زكي أبو السعود، وأحمد ماهر، ولطفي السيد، وبهي الدين بركات، وعلي ماهر، ومحمد علي علوبة، وحلمي عيسى، وعلي زكي العرابي، وأحمد نجيب الهلالي، ومحمود فهمي النقراشي؟
وزارة المعارف هي تاج الوزارات، وإليها يرجع الفضل في تكوين العقول والقلوب والأذواق، وعن وزارة المعارف يصدُر النشاط الأدبي والفني والاجتماعي، وهي صوت مصر في الشرق والغرب يوم يوضع للفضل ميزان.
تلك وزارة المعارف، فما حالها في هذه الأيام؟
كان يُظَن أن المسيطرين على وزارة المعارف قد يفوتهم النظر فيما يوجَّه إليهم من الملاحظات عن طريق الجرائد والمجلات، ثم ظهر أن في الوزارة رجالاً يقرءون ما يكتب
ويسمعون ما يقال، وإن كان فريق منهم يعيش في أبراج من العاج!
لقد آمنت وزارة المعارف بأن من الواجب أن يظفر التلميذ المتوسط بالنجاح في امتحانات النقل والامتحانات النهائية، فأوصت بأن (توضع الأسئلة بحيث تكون الإجابة في متناول الأوساط من التلاميذ)
وهذا فتح جديد، فقد كان مفهوماً أن الامتحان من ضروب التأديب، ليصح القول بأن (من المحنة جاء الامتحان)؟
وماذا تغنم الأمة حين ينجح التلميذ المتوسط؟
يقول المتحذلقون إن نجاح الأوساط من التلاميذ قد يجني على سمعة العقلية المصرية، وهؤلاء المتحذلقون هم مصدر البلاء، وهم عند التحقيق بعيدون كل البعد من السياسة الحكيمة في رياضة العقول، والزمن الغافل هو الذي قضى بأن يكونوا من المرِّبين.
إن النجاح - ولو عن طريق التسامح الرفيق - يقّوي الشخصية المعنوية، ويزيد في عزائم التلاميذ، ويشعرهم بأن الجدّ له جزاء، ولو كان أقل مما يجب أن يتحلى به الطالب الرشيد.
لم يعرف المرّبون في مصر أن نتائج الامتحانات العمومية - تلك النتائج الضعيفة الهزيلة - كانت الشاهد على أنهم حُرِموا نعمة التوفيق في إيقاظ الغوافي من عزائم

التلاميذ؛ وكانت البرهان على أن الجاذبية بينهم وبين تلاميذهم قد انقطعت أقبح انقطاع؛ وإلا فكيف جاز أن يقضي التلميذ سنة كاملة بين أيدي أساتذته بدون أن يستفيد، أو بدون أن تعي آذانه نصف ما يسمع، أو بدون أن يتجه قلبه إلى معانيَ جديدة تسوقه سوقاً إلى منازل الفضل والتشريف؟

المرّبون هم علة العلل في فساد هذا الجيل، فهم السبب في ذهاب البشاشة من الحياة المدرسية، وهم الذين حولوا الجوّ المدرسي إلى مجازر نفوس، ومصارع قلوب، بفضل ما وَقر في أذهانهم من أن وزارة المعارف لا تريد إلا أن يكونوا جبابرة مستكبرين.

لا يصلح المدرس لمهنة التدريس إلا حين يشعر التلميذ بأنه أبّر به من أمه وأبيه. أما المدرس الجهم الوجه، الغليظ الكبد، القاسي القلب، فله مكان آخر هو حراسة المساجين. ومن العجيب في مصر ألا تنال المدارس من العناية بعض ما تنال السجون! فالسجون مصدر خير على من يعيشون فيها، لأنها تؤهلهم للحياة؛ أما المدارس فهي تؤهل بعض

أبنائها للتشرد البغيض، لأنها ترمي ثلاثة أرباعهم في الشوارع بلا رحمة ولا إشفاق، بحجة أنهم لا يجيبون وفقاً لنماذج الإجابة، وهي صور لا يضعها من شابت نواصيهم في التعليم إلا بعد إجهاد الفكر في غَفوات الليل!!

ليت المدرسين يعلمون! ليت المدرسين يعلمون! ولو استطعت لكررت هذه العبارة ألف مرة! ولكن أين من يسمع؟

يدخل المدرسون إلى أماكن التصحيح في الامتحانات العمومية وهم لا يدركون ما يُقبِلون عليه من شؤون لا يجوز فيها المزاح، فيصنعون ما يصنعون بمصاير جيل بريء لا ذنب له غير الاعتراف بأبوّة أولئك (الراحمين)، وتكون النتيجة أن يفقد أكثر الشبان فضيلة (الاكتراث) لأنهم يشهدون أن المقصر قد يفوز، وأن المجاهد قد يخيب. وأين الفوز في امتحانات لا ينجح فيها بين كل مائة تلميذ أكثر من ثلاثة وعشرين ثم لا يُقبل منهم في الجامعة غير آحاد!

والأمة المصرية التي تبحث عن المعادن المطمورة في الصحراء الشرقية والغربية هي ذاتها الأمة المصرية التي تقتل عواطف شبانها بسيف الامتحانات العمومية؛ ثم يأخذ بعض جلاديها جزاءهم على ذلك القتل، ولم يبق إلا أن تُحلّى صدورهم بالأوسمة والنياشين!!

غيِّروا بأنفسكم، يا بني آدم، من المدرسين بهذه البلاد. غيروا بأنفسكم، قبل أن يضع الله السم فيما تنالون من أجور الامتحانات!

المعروف للجميع أن البكالوريا في مصر أصعب منالاً من البكالوريا في فرنسا وإنجلترا وألمانيا. فهل نحن أعظم من الفرنسيين والإنجليز والألمان؟

وماذا غنمنا من قوة البكالوريا في مصر وهي لا تكفي للانتساب إلى الجامعة المصرية إلا في حدود أضيق من سمْ الخِيَاط؟

نريد أن نعرف مصاير أبنائنا في هذا البلد الذي قيل فيه إنه مَجمَع الغرائب!

نريد أن نعرف إلى أي حد تنتهي الخصومة بين الجامعة ووزارة المعارف!

ولكن من يبلغ هذا الصوت إلى الرجال المسئولين؟

من يبلغهم هذا الصوت والشيوخ والنواب لا يهتمون بغير مسائل فردية يتقدم فيها طالب على طالب بدرجة أو درجتين؟

ليس المهمّ أن يُستَجوب وزير المعارف عن هذه التوافه من الشؤون، وإنما المهمّ أن يُستجوَب عن مصاير المتعلمين في هذا الجيل.

المهم حقاً وصدقاً أن ينسى الوزير أنه مسئول أمام الشيوخ والنواب، وأن يذكر أنه مسئول أمام الضمير المصري، والضمير المصري يصرخ صراخ الجزع والرعب من ضياع أبنائه بين الجامعة ووزارة المعارف.

وقد ظهرت تباشير تشهد بأن الوزير قد سمع صراخ الضمير المصري لهذا العهد، فمتى يقال إنه نودي فأجاب؟ ومتى نسمع أن التعليم صار من وسائل الحياة الكريمة في هذه البلاد؟ متى؟ متى؟ علينا أن ندعو، وعلى الوزير أن يجيب!

الهجوم الآثم على الشيخ سيد المرصفي

في العدد 391 نشرت الرسالة كلمة بإمضاء محمد فهيم عبية جاء فيها أن الأستاذ

السباعي بيومي وصف الشيخ المرصفي (بكثير من الأخلاق الذميمة كالغل والحقد والحسد وسطحية البحث والتطاول الذميم) وأنه (حَكم بأن أخلاقه ذهبت بفضله كما تذهب الريح العَصوف بسحيق التراب)

وفي العدد 392 نشرت الرسالة رداًّ بإمضاء عبد الرحمن أيوب مع كلمة من الأستاذ السباعي بيومي تشهد بأنه أقر ما جاء بذلك الرد، وهو يلخص في أن الأستاذ السباعي حكم بأن الشيخ المرصفي (كان يملكه الغرور) وأن (الأستاذ السباعي في حديثه عن المبرد وما يتصل به إنما يصدُر في ذلك عن دراسة بعيدة الأمد) وأن كتابه ظهر في سنة 1923 على حين لم يظهر كتاب الشيخ المرصفي إلا في سنة 1930، وأن فهارس كتاب الشيخ المرصفي وعناوينه سُرقت من كتاب الأستاذ السباعي، وأن المرصفي لم يكن أستاذ السباعي!

وفي العدد نفسه 392 نشرت لي الرسالة كلمة عتاب موجهة إلى الأستاذ السباعي بيومي، وقد جاء في تلك الكلمة أن الأستاذ تحدث عن أخلاق الشيخ المرصفي بما لا يليق، (فإن كان ذلك الكلام لم يقع منك فانفِه في العدد المقبل، وإن كان وقع منك فسارع إلى الاعتذار، إبقاءً على ما بيني وبينك من وداد، فما أستطيع السكوت عن رجل يعترض لأخلاق الشيخ المرصفي بسوء، ولو كان من أعز الأصدقاء)

ثم لقيني صديق عزيز فقال: لم يرضني تحدَّيك للأستاذ السباعي بيومي، فقد كان يتفق في أحيان كثيرة أن يجعل مقالاتك من موضوعات الدروس بدار العلوم وذلك من شواهد الإعجاب.

وعندئذ رجعت إلى نفسي فحفظتُ للأستاذ هذا الفضل، وآثرت الصمت، ولكن الأديب علي محمد حسن كتب إليّ خلاصة ما تجنَّى به السباعي على المرصفي وأكد أنه قال: (أنا أحذركم من قراءة كتاب المرصفي فإن فيه من الخطأ أكثر ما يتوهم أن يكون في كتاب الكامل من الخطأ، وأنا أدعوكم مرة أخرى إلى إساءة الظن بهذا الرجل، فقد وأكد هذا الأديب أن الأستاذ السباعي لن ينكر ذلك الكلام (وقد كان (كان ممتلئاً غروراً الحضور كثيرين من أساتذة وطلاب)

ومع هذا فقد كان في النية أن أسكت عن الأستاذ السباعي لأنه صديق، ولأن هجومه لن يقلقل مركز الشيخ المرصفي وهو أرزن من الجبال، ولأن الأقدار قضت بأن يكون الأستاذ السباعي من زملاء الأستاذ محمد هاشم عطية والأستاذ أحمد زكي صفوت، وهذه الزمالة تمنحه عندي طوائف من الحقوق.

ثم ماذا؟ ثم رأيت أنه ليس من الصعب أن أدفع الشر عن تاريخ الشيخ المرصفي، وأن أقدِّم في الوقت نفسه خدمة أدبية للأستاذ السباعي، ولن يُخدَم الأستاذ السباعي وهو صديق إلا بجذبه إلى الجدل على صفحات الرسالة في أسلوب رفيق لا يغض من مركزه بين تلاميذه بمدرسة دار العلوم.

وإنما نصصت على الأسلوب الرفيق لأن أكثر الأدباء يفرّون من وجهي بحجة أني لا ألقاهم إلا بقلم تطير على أسلاته شظايا الشراسة والعنف.

وقد استجاب الأستاذ السباعي لهذه الدعوة، وأعلن على صفحات الرسالة أن في الخصومات الأدبية مجالاً واسعاً للبحث والتدقيق.

وما دام الأمر كذلك فأنا أقدم الحقائق الآتية:

أولاً - قضى الشيخ سيد المرصفي شبابه في خدمة كتاب الكامل للمبرد، وظفر من ذلك الجهاد بكتاب اسمه: (رغبة الآمل في شرح الكامل) وقضى الأستاذ السباعي بيومي شبابه في خدمة كتاب الكامل للمبرد، وظفر من ذلك الجهاد بكتاب اسمه: (تهذيب الكامل)

فماذا كانت النتيجة؟

كانت النتيجة أن يكون الفرق بين (رغبة الآمل) و (تهذيب الكامل) كالفرق بين المرصفي والسباعي، وهو بونٌ شاسعٌ جدًّا بحيث يعجز عن اجتيازه نوابغ الطيارين من الإنجليز والألمان، ولو كانوا أقدر من بعض الناس على التحليق في جواء الادعاء.

ثانياً - أعلن الأستاذ السباعي أن كتاب الشيخ المرصفي ظهر في سنة 1930 والصواب أنه ظهر سنة 1927 وليس لهذا التاريخ أهمية، وإنما الأهمية للتاريخ الذي أخذ فيه الشيخ المرصفي يشرح الكامل، وهو تاريخ يرجع إلى أكثر من أربعين سنة يوم أوصاه الشيخ محمد عبده بتدريس (الكامل) لطلاب الأدب من الأزهريين، ففي ذلك العهد ثار

الشيخ الشنقيطي وطلب إلغاء ذلك الدرس، وكان مفهوماً عنده أن المبرِّد أكبر من أن يتسامَى إلى نقده رجلٌ من المحدَثين، ولكن الشيخ محمد عبده تلطف فأرسل الشيخ إبراهيم عامر إلى الشيخ الشنقيطي ومعه ملزمة من شرح الشيخ المرصفي، فدهش الشيخ الشنقيطي وسارع إلى الاعتذار، ثم صارحَ الشيخ محمد عبده بأن المرصفي لا يقل علماً بأسرار اللغة عن المبرّد.

ثالثاً - كان كتاب (رغبة الآمل) كاملاً من جميع الجوانب حتى في سنة 1915 وقد رأيته بعينيَّ في ذلك العهد ورآه معي الشيخ الزنكلوني طيَّب الله ثراه!

ولن أنسى ما حييتُ تلك العبارة الشعرية التي صرخ بها الشيخ المرصفي وهو يقدِّم إلينا شرحه على كتاب المبرد، لن أنساها أبداً، فقد قال شيخنا العظيم وهو يخاطب المبِّرد:

(الله على أيامك، يا بَطَل!!)

والكتاب الذي كان كمل من جميع نواحيه حتى الفهارس قبل سنة 1915 هو الكتاب الذي سُرِقَتْ بعض فهارسه من كتاب ظهر في أواخر سنة 1923.

رابعاً - لم يكن الشيخ المرصفي يطلِّع على شيء من مؤلفات المعاصرين، فكيف اختص الأستاذ السباعي بتلك العناية؟ تلك والله إحدى الأعاجيب!

خامساً - كان الشيخ المرصفي أول رجل تسامَى إلى نقد مؤلفات الأكابر من القدماء، وكان أول رجل أقرَّ (كرسي الأدب) في الأزهر الشريف، وكان أول رجل جعل للأديب مكاناً بين (جماعة كبار العلماء) فكان بتلك الصفات أوحد عصره بلا جدال.

فماذا صنع الأستاذ السباعي في دار العلوم، ولن يكون إلا الرابع أو الخامس بين أساتذة تلك الدار، مع التسامح الشديد؟

سادساً - برَّأ الأستاذ السباعي نفسه وطهَّر تاريخه من التلمذة للشيخ سيد المرصفي، فأين هو من تلاميذ الشيخ المرصفي وكان منهم محمد إبراهيم هلال، ومحمود حسن زناتي، وأحمد حسن الزيات، وعلي عبد الرزاق، وطه حسين؟

سابعاً - ترك الشيخ المرصفي ذخيرة عظيمة، منها: شرح الكامل، وشرح الأمالي، وشرح الحماسة، وشرح العقد الفريد، وشرح أراجيز رؤية وأراجيز العجاج؛ ومنها: التعقيب على لسان العرب، والنص على أغلاط صاحب المفصَّل والكشاف. فماذا صنع الأستاذ السباعي، وكان عمره موقوفاً على نقل نصوص الكامل من مكان إلى مكان؟!

ثامناً - أثَّر المرصفي في عصره أبلغ التأثير، فكان الرجل يتشرف بالانتساب إليه، كما صنعتُ حين رثيته يوم وصل نعيه وأنا طالب في جامعة باريس، فكم طالباً يسرُّهم أن يقولوا: إنهم تلاميذ السباعي بيومي؟!

تاسعاً - كان تلاميذ المرصفي يقيِّدون جميع ما ينطق به، ولو عن طريق المزاح، وقد قيدتُ من كلامه ثلاثين كراساً، فأين ما قيَّد تلاميذ السباعي من كلامه البليغ؟

عاشراً - دخلتْ مؤلفات الشيخ المرصفي على القلوب بدون استئذان، ولم يدخل كتاب الأستاذ السباعي دار العلوم إلا بعد أن صار أستاذاً بتلك الدار، وبعد أن مات الشيخ علاَّم!

أما بعد، فهذه طلائع لغزوة شريفة تنقل عقل الأستاذ السباعي من وضع إلى وضع، وذلك فضلي عليه، وهو واجب الصديق نحو الصديق؛ وقد تلطَّف فأشار إلى أنه سيخاصمني خصومة أدبية، وهي خصومة أرحب بها كل الترحيب، لأني أشعر شعوراً صادقاً بأني موكلٌ بإحياء العزائم والقلوب.

وقد أسرف في الكرم فأعلن أني لن أجترئ على الكتابة بعد أن ينشر في (الرسالة) كلمتين!

وأقول: إني لن أصفح عنه أو يشتغل محرراً متطوعاً بمجلة (الرسالة) ثلاث سنين، كما قهرت أخاً له من قبل على أن يشتغل محرراً متطوعاً بجريدة (البلاغ) ثلاث سنين!

وهي محنةٌ صُبتْ من شاهق على الأستاذ السباعي، فليتحملها صابراً، وليوطن نفسه على أن الخصومة بيني وبينه لن تنتهي قبل بداية شهر مايو، وهو الموعد الذي حدده الشيخ

الأسيوطي لنهاية الحرب بين الإنجليز والألمان!!

وكيف يخيفني تهديد الأستاذ السباعي وليس في ماضيه الأدبي غير نقل نصوص كتاب الكامل من مكان إلى مكان، وتلك مهمة يقوم بها أحد النساخين بدراهم معدودات؟!

امثلي يخاف من عواقب الجهر بكلمة الحق وقد قضيت دهري ممتحَناً بعداوات الرجال؟
الأستاذ السباعي يهدد بمقالتين اثنتين، وهو يعرف من نفسه أكثر مما أعرف، فهل يتوهم أني سأخلي له الميدان ليخاطر نفسه كيف شاء؟!
لقد تلطفت معه أكثر مما يجب، ولم يحفظ جميلي، فكيف يراني أعطف عليه وقد تردَّى بثوب العقوق؟
ثم أما بعد، فقد حكمت على الأستاذ السباعي بترك دروسه في دار العلوم ليشغل نفسه بمخاطرتي، وليقول: إن (تهذيب الكامل) أعظم من (رغبة الآمل)، كما كان نجم الأرض أعظم من نجم السماء!!!
وماذا يمنع من أن يكون السباعي أعظم من المرصفي؟ ماذا يمنع وقد اختلت الموازين وفسدت الدنيا إلى أبعد حدود الفساد، حتى جاز للأستاذ السباعي أن يهدد صديقه القديم:
زكي مبارك
إلى الدكتور زكي مبارك
خصومة أدبية
للأستاذ السباعي بيومي
أولى الكلمتين
وعدت حضرات القراء في عدد الرسالة الأخير أني سأنشر في عدديها المقبلين كلمتين اثنتين، أتوجه فيهما بالحديث إلى صديقي الدكتور زكي مبارك. وهذي أولى الكلمتين، وهي كما رسمت حين وعدت، ترمي إلى تقرير الموضوع الأصيل الذي من أجله كتب الدكتور.
ألقيت محاضرة بمدرج على مبارك باشا في دار العلوم عن (أسلوب المبرد في كامله) وعقب انتهائي منها طلب أحد مستمعيها من طلاب كلية اللغة العربية السماح له بكلمة، فأجبته إلى ما طلب، وكانت كلمته أربعة أسئلة ألقاها، رمي المبرد في رابعها بالغرور والادعاء، وأنه كان لا يتحرى إذا أجاب. فرأيت الموقف يقضي عليّ أن أرد عليه، وفعلاً رددت، وكانت إجابتي عن السؤال الأخير تتلخص في نفي تلك الصفات الذميمة عن المبرد نفياً قاطعاً، استدللت عليه بامور، منها أن من شأن من لا يتحرز في إجابته إلا يمسك إذا لم يتثبت، وإنما يرمي بالقول جزافاً، ويخترع الإجابات اختراعاً، وعهدنا بالمبرد انه غير ذلك، فقد رأيناه في كامله إذا عرض له ما لا يعرفه اعترف بذلك، خضوعاً لتلك الكلمة الجامعة التي لا ينزل على حكمها إلا الثقات الأعلام، وهي (من قال لا أدري فقد أجاب) ثم أخرجت من الكامل شاهداً على ذلك أسمعته الحاضرين، ومنها أن من خالط قلبه الغرور وتملكه الادعاء لم يك في مقدوره أن يخفي ذلك في مصنفاته، بل لا بد أن يفضحه أسلوبه.
ومهما تكن عند امرئ من خليقة ... وإن خالها تخفي على الناس تعلم
وليس في كامل المبرد على كثرة كسبه فيه ونسجه حول أصوله، ما ينفي عنه صفة التواضع العلمي، أو يلقي على أبحاثه ولو ظلاً صغيراً من الكبرياء والادعاء.
ودعماً لهذا الاستدلال الأخير في أن أسلوب الكاتب يشف عن خلائقه، قلت للسائل - وقد ذكر أنه استقى ذلك من شرح الشيخ المرصفي على الكامل - إن مؤلفات المرصفي هي التي تنم عن خلق الغرور والادعاء فيه، كما يعلم ذلك من أطلع على هذا الشرح ومقدمته؛
وكذلك من أطلع مثلهما فيما عمله بديوان الحماسة. وقلت: وإنه لتأصل هذا الخلق فيه كان شديد التحامل على المبرد والتشهير به فيما يظن أن المبرد أخطأ فيه؛ ثم قلت: وكم كنا نتمنى للشيخ المرصفي أن يجرد علمه من غروره، ويسبل على تأليفه ثوباً ضافياً من التواضع والاعتدال، حتى يكون ذلك أبين لفضله وأدل على نبله.
وأخيراً قلت: ولا يبعد أن تكون البيئة العلمية التي عاش فيها المبرد قد تقولت عليه ما تقولت حسداً وبغياً، فإن علماء عهده ما كانوا يعهدون من علمائهم إمامة في اللغة إلا في ناحية واحدة منها، كناحية قواعدها، أو ناحية مفرداتها، أو ناحية آدابها، ولكن المبرد كان إماماً ذا آراء في هذه النواحي الثلاث جميعاً، فهم بما كانوا يتقولون عليه إنما يريدون انتقاصه شفاء لما دب في صدورهم عليه من حقد وحسد.

ولقد خفت أن يهجس في نفوس السامعين تنزيه قلوب هؤلاء العلماء من رذيلة الحسد فأتبعت ما سبق بقولي لحضراتهم: ولا تستبعدون الحسد على العلماء، فإن من طبيعته أن تكون أقرب إلى الأدنين منه إلى الأباعد، وأسرع إلى قلوب العلماء منه إلى قلوب الجهال، وإذا ما شئتم مزيداً في معرفة هذه الطبيعة - طبيعة الحسد - فاقرءوا رسالة الجاحظ فيه، وهي اكثر من اثنتي عشرة صفحة.

ذلك ما قررته في إجابتي عن السؤال الأخير، بعد الذي قررته في الإجابة عن الثلاثة قبله. وما كان أشده عجباً وأبعده غرابة أن تطوى صحيفة الإجابات الثلاث وقد سلخت فيها نحو الساعة، تم تشوه هذه الإجابة الأخيرة تشويهاً يمسخها مسخاً، وإذا أنا أمام الواصل إلى منها كالذي يستمع إلى الآية (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة) دون ذكر هذه الجملة الحالية بعدها (وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون) فقد كان هذا الواصل أنني وصفت الشيخ المرصفي (بكثير من الأخلاق الذميمة كالغل والحقد والحسد والسطحية البحث والتطاول الذميم) وأنني تعديت ذلك إلى (تجريح طوائف العلماء على اختلاف مهنهم وحكمت بأن طباع الحسد والحقد لا تجد لها مراحاً خصيباً كالذي تجد من قلوب العلماء)

وا رحمتا للأخبار من رواتها! فما كان مني عن الشيخ المرصفي علم الله إلا أسفي على ما خالط مؤلفاته من غرور وادعاء وتطاول على المبرد في أسلوب غير حميد؛ وما زلت معتقداً هذا رضى الدكتور أم سخط، وواثقاً أن كثيراً من أهل العصر يعلمونه علمي،

ويعرفون كيف يستدلون عليه استدلالي. وكم كنت كما قلت في إجابتي أتمنى خلوّ مؤلفات المرصفي من غروره، حتى لا يذهب هذا الغرور بفضله، وما كان مني عن العلماء شهد الله إلا أنهم في بيئة المبرد حسدوه تنوع ثقافته وتعدد إمامته، وأن هذا الحسد لم يك من شأن علمهم أن يبعده عنهم، لأن الحسد كما يقولون مُوكَل بالأدنى، وهو كما ذكر الجاحظ في رسالة الحسد: (قد صار العلماء أكثر منه في الجهال، ودب في الصالحين أكثر منه في الفاسقين). وأنا بهذا الرأي لا زلت ولن أزال أدين، وافق الدكتور أم خالف.

هذا يا صديقي الدكتور هو الأمر الأصيل على جليته، قد بسطته موضوعاً في نصابه مقرراً على وجهه، لا كما تطايرت به الإشاعات بل الإشاعات المغرضة، وأنت بما تدخله روايات السوء على الأخبار جد خبير. وقديماً قالوا: وما آفة الأخبار إلا رواتها. ولعلك يا صديقي عتبت عليّ أني لم أجبك أول ما سئلت، وما كان لك أن تعتب، فتلك عادة الناس فيك وموقفهم منك. على أني أخالف تلك العادة وأجيبك عسى أن تستريح.

تعلمْ يا صديقي أن إغفال إجابتك ما كان إلا استبعاداً عليك أن تفهم ما فهمت، وإلا أملاً أن يردك هذا الاستبعاد إلى الحقيقة تستقيها بعيداً عني، من غير كاذب فيها أو مشوه لها، وشهود المحاضرة كانوا بحمد الله كثيرين. ولا أكتمك سبباً آخر قوى هذا الإغفال في نفسي، ذاك هو أمرك لي أن أسارع إلى نفي ما سمعت إن كان لم يقع، وإلى الاعتذار منه إن كان قد وقع، وإسرافك في هذا الإسراع تطلبه في أول عدد يصدر من الرسالة، وثالثة الأثافي أن تقول لي: (إلى أن يثبت الراوي افتري عليك، أعلن غضبي على ما بدر منك). سبحانك اللهم وتعاليت! فما كان لأحد أن يقول: (ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى) إلا أنت.

تلك الثلاث يا صديقي وغيرهن كن محرضاتي على ترك أول عدد من الرسالة يصدر خلواً من نفيي واعتذاري، لأقف على ما في كنانتك من سهام، ولأتذوق ما قد يصبه غضبك في الجام. وهأنت قد اغتررت فكتبت كلمة ثانية تؤذنني فيها بخصومة تريدها أدبية، والله أعلم بما تريد، وترميني فيها بفرية السرقة منك، جاهلاً كما ستعلم في كلمتي الثانية أنك أنت الذي افتريت وسرقت.

وبعد فإن وصاتي لك يا صديقي أن نتريث، فإن في العجلة وبالاً عليك، وألا تعود تغتر بسكوتي عنك، فما مثلي ومثلك فيه إلا كما قال الأول:

ما بال من أسعى لأجبر عظمه ... حفاظاً وينوي من تطاوله كسري
أظن خطوب الدهر بيني وبينهم ... ستحملهم مني على مركب وعر
وإني وإياهم كمن نبه القطا ... ولو لم تنبه باتت الطير لا تسري

أناة وحلماً وانتظاراً بهم غداً ... فما أنا بالواني ولا الضرع الغمر السباعي بيومي

في الاجتماع اللغوي

تطور معاني المفردات

عوامله وآثاره

للدكتور علي عبد الواحد وافي
مدرس الاجتماع بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

لهذا النوع من التطور الدلالي عوامل كثيرة سنعرض لبعضها في هذا المقال، مرجئين تكملتها إلى مقال آخر إن شاء الله

1 - عوامل تتعلق بانتقال اللغة من السلف إلى الخلف. فكثيراً ما ينجم عن هذا الانتقال تغير في معاني المفردات. وذلك أن الجيل اللاحق لا يفهم جميع الكلمات على الوجه الذي يفهمها عليه الجيل السابق. ويساعد على هذا الاختلاف كثرة استخدام بعض المفردات في غير ما وضعت له عن طريق التوسع أو المجاز. فقد يكثر استخدام الكلمة مثلاً في جيل ما في بعض تدل عليه، أو في معنى مجازي تربطه بمعناها الأصلي بعض العلاقات، فيعلق المعنى الخاص أو المجازي وحده بأذهان الصغار ويتحول بذلك مدلولها إلى هذا المعنى الجديد. وإليك مثلاً كلمة الفرنسية؛ فقد كان معناها في الأصل (الشبعان) من الطعام، ثم كثر استخدامها في عصر ما في النشوان من الخمر، عن طريق المجاز والتهكم، وللتحرج من استخدام الكلمة الصريحة في هذا المعنى وهي فعلق هذا المعنى الجديد وحده بأذهان الصغار في هذا الجيل، وتحول إليه مدلول هذه الكلمة فأصبحت صريحة فيه، وانقرض معناها القديم في لغة التخاطب.

وإلى هذا العامل ترجع أهم الأسباب في تحول الكلمات إلى معان كانت مجازية في الأصل، وفيما يعتري المدلولات في نطاقها من سعة أو ضيق. بل إن طائفة من العلماء، وعلى رأسها العلامة هرزوج قد رجعت إلى هذا العامل وحده كل ما يحدث من تطور في الدلالة.

2 - وكثيراً ما يتغير مدلول الكلمة على أثر انتقالها من لغة إلى لغة؛ فقد يخصص مدلولها العام، وتقصر على بعض ما كانت تدل عليه في لغتها الأصلية، وقد يعمم مدلولها الخاص، وقد تستعمل في غير ما وضعت له لعلاقة ما بين المعنيين، وقد تنحط إلى درجة وضيعة

في الاستعمال فتصبح من فحش الكلام وهجره، وقد تسمو إلى منزلة راقية فتعتبر من نبيل القول ومصطفاه. . . كما أشرنا إلى ذلك في بعض مقالاتنا السابقة.

3 - وقد يكون العامل في تغير معنى الكلمة أن الشيء نفسه الذي تدل عليه قد تغيرت طبيعته أو عناصره أو وظائفه أو الشئون الاجتماعية المتصلة به. . . وما إلى ذلك. فكلمة (الريشة) مثلاً كانت تطلق على آلة الكتابة أيام أن كانت تتخذ من ريش الطيور، ولكن تغير الآن مدلولها الأصلي تبعاً لتطور المادة المتخذة منها آلة الكتابة، فأصبحت تطلق على قطعة من الحديد مشكلة في صورة خاصة. والقطار كان يطلق في الأصل على عدد من الإبل على نسق واحد تستخدم في السفر والنقل، ولكن تغير الآن مدلوله الأصلي تبعاً لتطور وسائل المواصلات فأصبح يطلق على مجموعة عربات تقطرها قاطرة بخارية. و (البريد) كان يطلق على الدابة التي تحمل عليها الرسائل، ثم تغير الآن مدلوله تبعاً لتطور الطرق المستخدمة في إيصال الرسائل، فأصبح يطلق على النظم والوسائل المتخذة لهذه الغاية في العصر الحاضر. و (بنى الرجل بامرأته) كانت تستخدم كناية عن دخوله بها؛ لأن الشاب البدوي كان إذا تزوج يبني له ولأهله خباء جديداً؛ ولا نزال نستخدم هذه العبارة كناية عن نفس المعنى مع أن الزفاف لا علاقة له في نظمنا الحاضرة بالبناء. وقد جرت العادة في بعض العصور بفرنسا أن يقضي المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة مدة عقوبتهم في أعمال التجديف على ظهر السفن الملكية؛ ومن ثم جاءت عبارة ولكن تغير الآن مدلولهما، مع بقائهما في الاستعمال، تبعاً لتغير النظم المتصلة بهذه العقوبة ونوعها.

4 - عوامل تتعلق باختلاف الطبقات والجماعات. فكثيراً ما ينجم عن اختلاف الناس في طبقاتهم وفئاتهم اختلاف مدلول الكلمات وخروجها عن معانيها الأولى. ويؤدي إلى ذلك ما يوجد بين الطبقات الناطقة باللغة الواحدة من فروق في الخواص الشعبية

والجسمية والنفسية، وفي شؤون السياسة والاجتماع والثقافة والتربية ومناحي التفكير والوجدان ومستوى المعيشة وحياة الأسرة والتقاليد والعادات. . .، وفي الظروف الطبيعية والجغرافية المحيطة بكل جماعة منها، وما تزاوله كل طبقة من أعمال وتضطلع به من وظائف، والآثار العميقة التي تتركها كل وظيفة ومهنة في عقلية المشتغلين بها، وحاجة أفراد كل طبقة إلى دقة التعبير وسرعته، وإنشاء مصطلحات خاصة بصدد الأمور التي يكثر ورودها
في حياتهم، وتستأثر بقسط كبير من انتباههم، وما يلجئون إليه من استخدام مفردات في غير ما وضعت له، أو قصرها على بعض مدلولاتها للتعبير عن أمور تتصل بصناعاتهم وأعمالهم. . . وهلم جراً. فمن الواضح أن هذه الأمور وما إليها من شأنها أن تخرج بالكلمات عن مدلولاتها الأولى وتوجه معانيها في كل طبقة وفي كل جماعة وجهة تختلف عن وجهتها عند غيرها فينشأ من جراء ذلك ما يعرف (باللهجات الاجتماعية) التي تكلمنا عنها في مقال سابق.

علي عبد الواحد وافي

ليسانسيه ودكتور في الآداب من جامعة السربون

أومن بالإنسان - 6!

للأستاذ عبد المنعم خلاف

بين الغفلة واليقظة - صيحة في أذن الإنسان - لو، ولعل، وربما - لا ملام على الأقدار - لم تفت الغاية - نقطة البدء في الحياة الفكرية - الجناية الأولى - حادث عظيم - آثار من الوثنية - الوضع الأصيل الدين - ديانة الحياة.

حينما أعس وأندس إلى مجلس في مقهى بلدي حقير أرقب الحياة الإنسانية في بعض جوانبها، وأتفرس في وجوه القوم ونواصيهم، وأتسمع إلى أحاديث دنياهم وآمالهم وأعمالهم، وأتتبع نظراتهم للحياة فأجدها لا ترتفع إلى شيء سام، ولا تدور حول قضية من القضايا العليا للحياة، ولا تفكر في مبدأ أو مصير، ولا تتساءل عن صلاح أو فساد. . .

وحينما أقذف بجسمي في زحمة سوق من الأسواق بين ضجيج الحركات والأصوات والأبواق وصفقات الأيدي الخاتلة على الأيدي المختولة في العقود والمبايعات، وسائر الارتفاقات والمشاحنات.

وحينما أرصد حياة الأفراد اليومية. فأجدها سلسلة من الغفلات والأكلات واللذات والأعمال الآلية التي لا استحضار فيها لمعان كريمة، ولا يقظة فيها إلى أسرارها ومآل الإنسانية بها. . . وإنما هي دورات رحوية وسير أعمى وراء دولاب الحياة من غير سؤال: إلى أين المسير؟

حين هذا كله أجد في نفسي كأن الإنسانية عريقة في غفلتها وذهولها، وكأنها خلقت لهذه الغفلات ولن تكون لغيرها، ولن تكون لحياة أخرى وراء هذه الحياة. . . وكأنها منفصلة عن حياة الطبيعة الحادة الواعية العادلة الموزونة انفصالاً يكاد يجعلها عالماً مستقلاً. . .

ذلك وحي رؤيتي لغفلات الناس وانقطاعهم عما يدور في الأكوان، وإهمالهم التفكير في مبدأ الحياة ومنتهاها وفي خفايا الطبيعة وأسرارها. . .

وحين أجلس مجلساً تثار فيه الأفكار عن الكون والفساد والحقائق والأباطيل وتصول فيه العقول وينبري بعضها لبعض بالاعتراض والرد والتعليق والتشقيق والبيان الساحر والحجج اللاقفة. . .

أو حين أقرأ كتاباً يعرض فكرة من أمهات الأفكار ويسيل به سيلها فيفيض على الفكر والفؤاد. . .

أو حين أرى آلة معقدة التركيب تطير أو تسير أو تخفق بالأصوات والبرقيات مما أخرجه عقل مهندس ذي قدرة على الاستيعاب والتقليد والابتكار. . .

أو حين أرى شيخوخة جليلة واقفة في محراب تتلو صلوات أو ترتل آيات في إطراق وخشية واستحضار لعظمة الكون وجلال بارئه. . .

أو حين أسمع نشيداً من شاعر ذي قلب اتسع وتيقظ للأحاديث الصامتة والناطقة في الطبيعة، واسترق السمع للنغم الذائب في الكون، والموسيقى الأبدية في حركات

. . .نجوم السماء ونجوم الأرض
. . .حين هذا وذاك وذلك أقول: هنا موضع تكريم هذا الجنس ومؤهلات خلافته
هنا الإنسانية التي تقنع العقل الحائر بقيمته وقيمة الطبيعة وقيمة الخير والحق والجمال.
هنا وضوح وانكشاف لمعنى سيادته وملكوت واسع يصح أن تستند إليه في تخيل
. . .مستقبله وفي تبين موضعه وسط ما يعمر الكون من المخلوقات
ثم أصيح: أيها الإنسان! تيقظ لنفسك لتفرح بها. . . تيقظ إنك حي تسعى وترى وتفكر
وتتجه في أي اتجاه تريد وسط الظلام والجماد والنور والصمت والبكم والصمم والعمى.
.أنت الذي تفقه وتدرك تلك الحياة التي لا تجد غير عينك وأذنك وسائر حواسك
تذكر أنت المقصود بكل هذا الذي يحيط بك وأنك خليفة على مقدرات الأرض وأن في
يدك قوة من قوى التعمير والإنشاء والتوجيه والتغيير والتنويع والتفريع، وذلك شرف عظيم!
تيقظ واهتف في سمع الزمان والمكان: أنا أنمو وأترقى وأتكلم وأفكر وليس أمامي
. . .حدود وسدود أيتها الخلائق الواقفة المحدودة
وأجلس بجانب الجماد والنبات والحيوان فترات لترى الفوارق بينك وبينها. . . ولن يغفر
خالق الإنسان لامرئ جاء إلى الحياة ولم يجلس مجلساً بين هذه الكائنات يوازن بينها
وبين نفسه ويحدد موضعه منها، ثم يرفع عينه إلى السماء ويخفضها إلى القبر حتى
. . .يرى الطريق بينهما
تيقظ إلى الذي مسنا بالحياة ونحن نجهلها ونجهله، وأخرجنا ذاهلين إلى الضحى النهار
وسواد الليل، وأرانا مشاهد ثابتة صارمة في السماء ومشاهد مَرنة متغيرة في الأرض،
وبدأ حياتنا من نطفة، ومَطّ أجسامنا من مضغة لحم ملقاة في ظلمات الأرحام إلى
أجنة مكتملة التخليق إلى أطفال دراجين إلى غلمان يافعين إلى مراهقين متفتحين إلى
. . .شبان مشبوبين إلى كهول وشيوخ منتظرين لا يعلمون وراء أيامهم أياماً
إلى الذي أدار الشمس أمام عيوننا دوراناً يبلي في أجسامنا نسيجاً وينسج آخر، ويزيد
في أفكارنا صوراً وينقص أخرى، ويطوي الأيام تحت أقدامنا سفراً من الزمن، ثم
. . .يطوينا بالأيام عضواً عضواً وذكرى وراء ذكرى
إلى الذي فتح في نفوسنا نهماً لا يشبع من أطايب الوجود وحقائق الوجود، ثم سجننا
. . .في سجون القبور إلى يوم النشور
إليه منا نحن الذين نبحث عنه منذ أن دخلنا عالم الفكر وننتظره وراء الأستار ونقرع
باب الزمان والمكان في غرة كل يوماً وقَفَا كل مساء نسائل عنه، ومعنا عيون تقود
وأقدام تسير وقلوب تتلفت وراء كل ورقة في كل شجرة وكل ذرَّة في كل مَدَرَة.
وتنظر في الوجوه والعيون والألسنة، وما يزحف وما يمشي وما يطير وما تحمله الريح
وما يحمله الماء والأثير وما تحمله قوة القوى: الفكر!
أواه! أية غفلة هذه التي تغشي الناس وتتركهم عمياً ذاهلين عن مجيء الحياة بهم من
غير اختيار إلى دار العجائب وعن سيرها بهم إلى دار المجهول! وعن سير الشمس
والقمر وتوارد الأيام وسقوط الأمطار وأسفار الرياح إلى مختلف النواحي!
ثم أية غفلة هذه التي تغشي عقولهم وتصرفها عن الفكر فيمن جاء بهم وسيذهب. . .
ذلك الذي استتر وأصر على تكبره واختفائه؟
ولو دخل الإنسان الدنيا بكامل نفسه وفكره حين يولد، ولم يدخلها في غيبوبة الطفولة
وذهولها وتدرجها به من البسائط إلى المركبات إلى المعقدات وهو في شغل عن
الأسباب والمسببات إذاً لخرج منها مجنوناً بمجرد دخوله إليها من شدة الفجأة ودهشة العجب!
ولعل الله الخالق المبدع شغل أكثرهم بصغائر الحياة والنزاع عليها، وجعلهم كالقطيع
الغافل المرتاح السادر في غفلته وعمله عن المعلوم والمجهول من أمور الحياة. . . وأخرجهم في
خطوط مرسومة وحلقات مفرغة ليعملوا في الأرض كما تعمل الثيران في
الطواحين. . . تدور وهي لا تعلم أنها تدور ولماذا تدور. . . وضربهم بفتنة الدنيا، فزاغت
منهم الأبصار عن الحقائق إلا في فترات الدين والصلوات. . . وحتى هذه أدركوها وهم

في خمار المادة وسعار الشهوات، إلا قليلاً منهم وهم العارفون المدركون لأرصاد الطبيعة وشيء من تدبير الله فيها. . . لعله فعل هذا ليخفف عنهم دهشة الفكر في أعاجيب صنعه التي كلما زاد فيها الإنسان تفكيراً زاد حيرة. . .

وهؤلاء العارفون لو أطلعوا على الغيب لاختاروا الواقع وانصاعوا تحت حكم الأقدار، ولو في مقارنة الأضرار والأوصاب، إذ قد عرفوا أنهم لا بد أن يخضعوا ليشتركوا في حبك الخديعة التي أرادها الخالق المبدع لأطفال الحياة الذين هم جمهور الإنسانية العاملة التي عليها عمار الأرض بالأسلوب المادي المعروف.

وربما كانت غرائز القطيع العنيفة هي التي تنمي حركة الحياة الدنيا وتوسع آفاقها، كما ينمي عنف غرائز الطفل مستقبله ويوسع من آفاق حياته. . .

إذاً، فلا ملام على الأقدار التي تدبر كل شيء وتضعه بميزان ولا يجوز مطلقاً أن نتوهم أن حياة الإنسان بما فيها من أزمات ومآثم قد خرجت على الأقدار، وأنه قد فاتت على الله الغاية من خلق هذا النوع - كما توهم بعض من كتب إليّ منذ حين - فإن الإنسانية لا تزال في دور تفتح المدارك واستقبال الشباب، والشباب فيه لوثات كثيرة، ولا بد أن تتدرج إلى أدوار الرشد الخالص في كهولتها وشيخوختها، وأن تحقق الغاية من خلقها كما أراد ربها. . .

وكل مآثم الحياة الإنسانية وأزماتها قد تغتفر ويجد الفكر لها تعليلاً، إلا الفكر بخالق الحياة أو الإشراك به!

وكذب من يريد خديعة نفسه وخديعة الطبيعة وخديعة رب الطبيعة!

ذلك الذي يريد أن يفرض للحياة الفكرية الإنسانية مبدأ غير نقطة البدء التي يراها الفكر أول حياته ومفتاح عالمه. . .

كذب وضل ضلالاً بعيداً وخسر خسراناً مبيناً، وقلب الحياة على أم رأسها وأم رأسه!

إن نقطة البدء في الحياة الفكرية، هي الفكر في صاحب الدنيا: هذا البيت الكبير الهائل الذي جاء بنا إليه وأسكننا فيه من غير اختيار منا. . . الفكر فيه حتى نعرفه وندرك طرق تسييره للحياة والطبيعة، فنسير على خطواته وأسلوبه. . .

إنه مجهول للحواس ولكنه معلوم للفكر. . . وقد رأينا ظل يده يقع على كل شيء ويضع كل شيء في موضعه.

ومن أضلُّ ممن يأخذ أطفال الحياة أول نشوئهم ويباعدهم عن نقطة البدء هذه وبعضهم في مكان سحيق، فيستمر أول الطريق عندهم مجهولاً وآخره مجهولاً، ووسطه مختلطاً مشوشاً كذلك!

الجناية الأولى هي إهمال الفكرة الأولى: وهي السؤال عمن جاء بنا إلى هنا، ويمضي بنا كعابري سبيل. ومن وراء الجناية الأولى تتلاحق أخواتها التي تجعل الحياة أغلاطاً مسلسلة.

إن انفصال جنين إنساني من رحم أمه حادث عظيم ينبغي للإنسانية أن تتلفت إليه وتوليه أجل عناية؛ فلعل في الوليد حلقة جديدة فائقة تحمل سراً جديداً من أسرار تكوين هذا النوع.

ولكن الإنسانية أو الدولة تجني على نفسها إذ تهمل وصل كل عقل ناشئ بمفتاح الحياة، ومفيض فيضها ومرسل رحماتها.

وكأن الوثنية لم ترتفع بعض آثارها من الأرض للآن. . . وما الوثنية؟ هي انصراف العقل الإنساني عن الفكر في مصدر الحياة وما يليق له من الكمالات وعن شكره الدائم ما دامت آلاؤه وفيوضه تملأ النفس بالحياة وتتواتر على الجسم. . . ثم الركون إلى حجر أو بشر أو شيء من الأشياء ينسى الإنسان معه الإحساس بالحياة ورب الحياة ويستغرق في ذلك النسيان حتى يتعبد ويلوذ بما ركن إليه. . .

وها نحن أولاء نرى في هذا العصر آلهة منصوبة من المتاع والشهوات والآلات والأعمال والصناعات يستغرق عقل الإنسان فيها حتى ينسى صاحب الحياة. . .

قد يظن ظان أني مغال في الصوفية حين أدعو إلى أن يكون عقل الإنسان دائماً مرآة لشعاع ساقط من سماء الله. . . ولكن هذا هو الوضع الأصيل الحقيقي للدين على ما أفهمه وعلى ما فسرته به في مقال سابق من أنه الإحساس الدائم بالحياة والفكر في مبدعها لتكون ذاتها وآلامها وأطرابها وأوصابها صوراً وألواناً من العبادة. . .

والإسلام الذي هو دين الطبيعة ودين الحياة قد رسم لنا هذا حين سن رسوله أن يذكر اسم رب الحياة عند الأكل والشرب والجماع وسائر الأعمال والآلام، حتى عند ما يريد الإنسان أن يدخل المكان الذي يخرج فيه ما في جوفه من الأذى. . .!
. . .ولن يكون الدين غير هذا. . . فليحمله في نفسه من شاء، وليتركه من شاء ألا أنها (ديانة الحياة) التي تستحق وحدها أن يحيا الإنسان بها ويسعى جاهداً في سبيلها لتحقيق غاياتها. . .
وغاياتها: العقيدة الثابتة التي لا تتزعزع بخالق الحياة الواحد وحفظ الحياة نقية قوية متجددة كما هي في الطبيعة. . . ورصد قوانين الطبيعة التي تسير الحياة بنظام دقيق في الجليل والحقير. . . واستخدام تلك القوانين لصنع موجودات جديدة على النماذج والأساليب التي في الطبيعة. . . وعدم الغفلة والذهول حتى لا نرى نهار اليوم كنهار أمس. . . فلا يكون الزمان عندنا يوماً مكرراً مملولاً، ولا يكون إحساسنا بالحياة واحداً في مراحل عمر الفرد وعمر الجماعة، فإن ذلك إحساس جسدي فقط بالحياة. . .
. . .ووراءه إحساس فكري روحي عند من لهم إخلاص الفكر في الكون أولئك الذين يرون كل يوم جديداً. . . ثم يسبقون الحياة والزمن. . . ثم يموتون ليولدوا مرة ثانية من بطن الدنيا ليروا مشاهد أخرى جديدة. . . فإن العالم لا ينتهي أمده عند رؤية النفس والأرض والنجوم.
وإن الذي صنع هذا العجب الذي نراه، لا بد قد صنع غيره لا نراه.
عبد المنعم خلاف
. . .أيام الرواق
للأستاذ محمد محمد المدني
الرواق العباسي هو أشهر أروقة الجامع الأزهر، وكان الأستاذ الإمام محمد عبده عليه رضوان الله، يلقي فيه دروسه التاريخية التي هي من مفاخر الأزهر، وقد شهد الرواق في الأيام الماضية القريبة مناقشات الرسائل الفقهية التي تقدم بها طلاب الأستاذية من كلية الشريعة، وكانت هيئة الامتحان برياسة فضيلة الأستاذ الإمام المراغي الذي انتهز هذه الفرصة ليلقي على الأزهريين أنفع الدروس، ويضرب لهم أحسن الأمثال، فما أشبه الليلة بالبارحة!
شفاك الله يا صاحب (الرسالة) وألبسك ثياب الصحة ضافية، وأدالك من هذا المرض عافية سابغة كما يتمنى لك أصدقاؤك ومحبوك!
في مثل هذه الأيام من العام الماضي، كنت تكتب، وكنا نكتب معك عن (فقهاء بيزنطة) الذين شغلوا الناس عما يجدي من العلم النافع، والفقه المفيد، بالجدال في المحراب والشيطان وفائدة الأربعاء، كما شغلوهم من قبل زر العمامة: (أيبتر أم يُضفي، وفي شعر الذقن أيُخفى أم يُعفى، وفي قبور الموتى: أتسوّى بالأرض أم تقام!)
وكنت تأسف، وكنا نأسف معك، على الواقع الذي يكسف البصر، ويرمض الفؤاد، ويثير الظنون، من أن أحداً من هؤلاء السادة لم يضم إلى المكتبة الإسلامية - على كثرة ما أرغموها عليه من رسائلهم - سفراً واحداً يشرح للناس عبقرية هذا الدين، وفلسفة تشريعه، ووجوه إصلاحه، وأسباب خلوده، على ضوء العلم الكاشف، ونظام التأليف الحديث!
فليتك الآن كنت معافىً طليقاً، لم يعقدك هذا العاقد الكريه، لتشهد معنا (أيام الرواق)! إذن لرأيت فقهاء من غير الطراز الذي أثار بالنقد قلمك، وأسال باللوم والتثريب بيانك، ولرأيت الأزهر يكتب صفحة خالدة سوف تسجل في تاريخه العلمي بيضاء ناصعة، وسوف يتحدث عنها الأبناء والأحفاد كما نتحدث نحن عن صفحات الفخار في ماضينا المجيد!
لم يكن الإمام المراغي في هذه الأيام رئيس هيئة الامتحان فحسب، ولو أراد ذلك واكتفى به لمرت هذه الأيام كما تمر غيرها من أيام الأزهر، لا تلفت نظراً ولا تثير عبراً، ولكنه أراد أن ينتهزها فرصة يضرب فيها للأزهريين جميعاً أروع الأمثال في شتى نواحي العلم والفقه والتأليف والإفصاح!
فرأيناه وهو يناقش رسالة (النسخ) يأخذ على صاحبها أنه نقد أبا مسلم الأصفهاني نقداً

مراً، وتعصب عليه تعصباً ظاهراً، لا لأنه هدم فكرته، ووصل إلى أنها باطلة بالدليل العلمي الواضح، ولكن لأنه يخالف جمهور العلماء وأكثرية المفسرين القائلين بوجود النسخ في القرآن.

وجه الأستاذ الأكبر هنا درساً نحب أن يلتفت إليه الأزهريون وأن ينتفعوا به، فإنه قال للطالب: لقد كنت قاسياً على أبى مسلم في غير ذنب جناه، ولا شطط صار إليه، فإن هؤلاء الذين قالوا بالنسخ في القرآن مثلوا له بآيات بلغت عدتها عشرين آية، فجاء الفخر الرازي وناقشهم في تسع منها أو ثمان فظهر له أنها لا ينبغي أن تعد من باب النسخ، فإذا جاء أبو مسلم ونقض بقية العشرين مبيناً بالدليل والبرهان ما صار إليه، أيكون مستحقاً لهذا اللوم العنيف، وكيف تحرمون على أبى مسلم ما تبيحون للفخر الرازي؟

ورأينا الأستاذ الأكبر في مناقشة لرسالة الزكاة، ثم في مناقشته لرسالة الحجر، مثال العالم الذي درس نظم المعاملات دراسة موضوعية وافية، وأدركها إدراكاً صحيحاً، فأصبح بصيراً بكل ما حوله، لا يُخادَع، ولا يُغالَط فيه.

تجلى هذا المعنى مرة في رسالة الزكاة، فقد أراد الطالب أن يعتبر (البنكنوت) من جنس الحوالات بالديون، فسأله الأستاذ الأكبر: هل تحققت في هذه الأوراق شروط الحوالة بالدين من رضا المحال والمحال عليه، حتى تكون حوالة صحيحة؟ ثم أفاض في شرح اقتصادي تاريخي لنظام التعامل بالورق قديماً وحديثاً جلّى به المسألة للسامعين، وضرب بهذه الدراسة الوافية أحسن الأمثال لمن يريد أن يصل إلى استنباط فقه جيد مستقيم!

وتجلى هذا المعنى مرة أخرى في رسالة الحجر، فقد قرر الطالب أن قانون المجالس الحسبية قد أخذ بمبدأ معين، فأنكر عيه الأستاذ الأكبر ذلك، وسأله عن مرجعه الذي اعتمد عليه في تقريره، فظهر أنه اعتمد على سؤال شفوي وجهه إلى أحد العارفين بنظام المجالس الحسبية واطمأن إلى جوابه! وهنا ألقى الأستاذ الأكبر درساً عاماً في الأمانة العلمية، وما يجب على الباحث من التحري وطول الصبر والأناة حتى لا يقع في مثل هذا الخطأ الكبير!

وقد أثار الأستاذ الأكبر في مناقشته لرسالة الطلاق مسألتين تستوقفان النظر، وتستحقان البحث والدرس.

إحداهما: أن الطالب كان يقرر أن الشريعة الإسلامية إنما أعطت حق الطلاق للرجل دون المرأة، لأن الرجل أسمى من المرأة تصرفاً وأرجح عقلاً، وأقدر على أن يحسن استعمال هذا الحق فيسمو به عن مواطن العبث ومواقع الهوى والغرض.

فقال له الأستاذ الأكبر وهو يحاوره: إننا أولاً لم نجرب المرأة لنعرف إن كانت تستطيع أن تحسن استعمال هذا الحق لو أعطى لها أو لا تستطيع، ولكننا إذا نظرنا إلى الرجل وجدناه قد أساء استعمال هذا الحق إساءة أصبحت مضرب الأمثال، فهو يقسم بالطلاق حين يبيع ويشتري، ويقسم به حين يمزح مع أصحابه، ويقسم به حين يلعب النرد، ويقسم به في كل تافه من الأمر، فإذا كانت العلة تدور حول إحسان استعمال هذا الحق أو إساءته، فها هو الرجل قد أساء، فهل لنا أن ننتزع منه هذا الحق لنضعه في يد القاضي؟ وحينئذ لا يجوز للزوج أن يطلق زوجته إلا أمامه، فنكفل بذلك مصلحة الرجل والمرأة معاً، ونجعل بذلك رباط الأسرة في يد أمين بعيد عن الهوى، خال من الغرض، قدير على التدبر والنظر والموازنة والحكم العادل!

هكذا أورد الأستاذ الأكبر سؤاله واضحاً لا يكتنفه غموض جلياً لا يحيط به لبس ولا تعقيد، ولكنه مع ذلك كان حريصاً على ألا تنسب إليه هذه الفكرة، على أنها أمر قد بُت فيه وفر منه؛ ولكن على أنها سؤال قابل للمناقشة والبحث، ولذلك قال الطالب: إني سائل فقط، ولست قائلاً بهذه الفكرة ولا مقترحاً الأخذ بها، ولا مشيراً بتشريع فيها!

ومسألة أخرى في رسالة الطلاق، عرض لها الأستاذ الأكبر، وشرحها شرحاً وافياً، ذلك أنه ورد في الصحيحات أن الطلاق الثلاث في لفظ واحد كان سبباً في وقوع طلقة واحدة فقط

على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وفي خلافة الصديق رضي الله عنه، وفي صدر من خلافة عمر، ثم قال عمر رضي الله عنه إن الناس قد استعجلوا في أمر كانت لهم فيه أناة، فلو أمضيت عليهم، فأمضاه. فهل لعمر بوصفه إماماً للمسلمين أن يشرع ما

لم بشرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ هل له أن يبطل سببية معتبرة شرعاً ويضع موضعها سببية أخرى؟ وكيف ذلك مع أن الحكم بسببية صيغة من الصيغ في استتباع أمر مما اختص به الشارع دون سواه؟

يقول الأستاذ الأكبر: إن عمر لم يبطل سبباً، ولم يرد سبباً، وإنما رأى مصلحة في أن يمنع الناس من بعض ما أبيح من قبل، ذلك أن الرجل كان إذا طلق امرأته ثلاثاً في لفظ واحد لم يلحقها بذلك إلا طلقة واحدة يباح للزوج معها أن يراجع ما دامت في عدتها، ويباح له أن يتزوج بها مرة ثانية إذا خرجت من هذه العدة بدون أن تنكح زوجاً غيره؛ فكل ما فعله عمر منع الأزواج من هذا الحق الذي كان مباحاً لهم، فأصبح الزوج لا يستطيع أن يراجع زوجته من هذا الطلاق وهي في عدتها وأصبح لا يستطيع أن يعقد عليها إذا خرجت من عدتها إلا أن تتزوج سواه ويطلقها، وإنما منعهم من ذلك لمصلحة رآها ومن المقرر أنه يجوز للحاكم أن يمنع الناس من شيء كان مباحاً من قبل إذا كان للصالح العام مصلحة في ذلك.

هكذا قرر الأستاذ الأكبر المسألة على هذا الوجه؛ + + بعد ذلك وجه آخر لم يعرض له فضيلته هنا، ولعله عرض في مذكرة قانون الطلاق سنة 1928.

أما بعد. فهذه الأمثلة مما اضطلع به فضيلة الأستاذ الأكبر الإمام المراغي من توجيه للأزهريين، (في أيام الرواق) لم نقصد بها إلا الاستعياب وإنما أردنا تنبيه الأساتذة والإخوان والأبناء إلى وجه العبرة منها ليستخلصوه وليعتبروا به، وليعلموا أن مجال العلم والتحقيق أوسع وأجدى مما يتصوره عليه سادتنا الأعلام (أعضاء الجماعة)، أولئك الذين قضوا عاماً كاملاً يتناقشون في حملة العرش، وما صفتهم، وهل هم أوعال أو غير أوعال!

محمد محمد المدني

المدرس بكلية الشريعة

بين رجال الدين والفلسفة

تمهيد. . .

للأستاذ محمد يوسف موسى

هذا موضوع لا زلت به حفياً وله متطلباً. تصديت لبحثه منذ زمن، وقرأت لأجله كثيراً من المراجع التي أرَّخت الإسلام وحالة العلم والعلماء في العصور المختلفة. وقد أعلم أن بحث الخلاف بين رجال الدين والفلسفة أبيّ الزمام عسير العلاج، وأنه حري أن يجعلني مرمي النظر الشزر وغرض الألسنة الحداد. ولكن الأيام وما خلعته من قداسة على بعض رجال الدين حالت دون نقد ما كان لهم من آراء وأحكام بالتحليل والتحريم والإيمان والتكفير، وما كان لهذا أثر جعل كثيراً يجمدون مع الزمن ويأبون إلا أن يجعلوا أصابعهم في آذانهم. ولكن الخصومة المشبوبة النار بين أنصار القديم وبين أنصار الجديد في الأزهر وغير الأزهر؛ لكن هذا وذاك جعلني أستسهل الصعب، ولا أتهيب الخطر، وأحاول أن أبين

بعد استعراض مراحل هذا الخلاف وألوانه ومظاهره عصراً بعد عصر - أن ما كان - يوماً ما بين الدين وبين الفلسفة، بل كان بين بعض رجال الدين وبين الفلسفة لبواعث يرجع بعضها لحب الدين والعمل على الدب عنه، وبعضها يرجع للجهل والتعصب وحب الرياسات. هذا واجب يتعين على بعضنا أن يندب له نفسه؛ لأنه مما يوجع القلب ويحز في الصدر ألا يزال الكثير - حتى في هذه الأيام - يرى ما كان يراه بعض الذين اتخذوا الدفاع عن الدين وسيلة لذيوع الاسم من أن هذا الفيلسوف ملحد وذاك كافر من غير بينة أو دليل، إلا ما سمعه عن أحد أولئك الذين تقدم بهم الزمن، دون أن يكلف نفسه محاولة الاطلاع على شيء من الآراء التي كانت السبب في الحكم بالفكر أو الإلحاد في الدين، ودون أن يتعرف البواعث الحقة التي بعثت على هذه الأحكام ليعرف ما كان منها لله وما كان للدنيا وزينتها! وأحب قبل كل شيء أن أجلو أمري وأشرح قصدي من هذه المحاولة.

1 - لست من القائلين ببقاء القديم على قدمه، ولا من الذين يعيبون بعض الشيوخ لما شبوا عليه، وانطبعوا بمرور الأيام به، من الحياة حسب مناهج القرون الماضية وأساليبها، والعزوف عن الجديد والتخوف منه، وعدم القدرة على تحضير البحوث العميقة الشاملة التي تحتاج لكثير من مراجع لا طاقة لهم بالرجوع إليها.

2 - ولست لهذا من الذين يرون أن شخصية الأزهر العلمية منوطة بجماعة كبار العلماء وما يقدمون من رسائل لا نعلم عنها شيئاً إلا أنها تتفق ومبلغ جهود مقدميها، وإلا أنها صور لا يستغني عنها المؤرخ لأنها تعبر عن الحياة التي حيوها والمنهج الذي درجوا عليه.

هذه الشخصية العلمية للأزهر يجب أن يخلقها - إن كانت غير موجودة - الشبان الذين واتتهم الوسائل، أو تهيأت لهم السبل، وعرفوا طرق البحث وأساليبه، وعلى حبل الذراع منهم ما يدنيهم من الغاية ويقربهم من المقصد. فلنقصد من أجل هذا في اللوم، ولنعمل على تدارك ما عجز عنه الآخرون غير ملومين، إذ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

إن في ميدان العمل لمتسعاً لجميع الجهود الصادقة. هناك مثلاً كتب علم الكلام في حاجة شديدة لمن ينفي عنها ما دخلها من آراء غير صحيحة النسب لمن تعزي إليهم من الحكماء والفلاسفة وغيرهم من أصحاب المذاهب الكلامية. هذه الكتب يجب أن يتوفر على دراستها نفر من الأكفاء الذين درسوا علم الكلام على النحو المعروف في الأزهر، وآخرون من الأزهريين الذين درسوا الفلسفة الإغريقية في مصادرها الصحيحة، ليكون في مقدورهم تقويم ما فيها من تلك الآراء ونسبة ما يصح منها لأصحابها، وتبيين ما دخل علم الكلام من فلسفة اليونان تبييناً يرتفع به الشك وينجلي به الحق، وتسهل معه دراسة علم الكلام. وهناك أيضاً مسألة أخرى أعدها هامة من الطراز الأول، أعني بها تاريخ الأزهر ببيان الرسالة التي أنشئ أولاً لأجلها، ومدى تطور هذه الرسالة على مدى القرون، وما يجب أن تكون عليه في المستقبل، وتاريخ رجالاته الأعلام حتى تصل للعصر الحاضر. إن من أعجب العجب أن يؤرخ مفكري الإسلام كثير من المستشرقين ومن بينهم العالم الفرنسي كارّ ادي فو في خمسة مجلدات تشمل ما يزيد على الألفين من الصفحات وأن نجد في المعجمات الفرنسية ترجمات لمن يجب أن يكون لهم ذكر في التاريخ، بينما كبار من خرجهم الأزهر، ومن لهم علينا أكبر المنة - بما تدرس من مؤلفاتهم وبما أفادوا العلم في النواحي المختلفة - أصبحوا منسيين منا ولا نجد السبيل لتراجم لهم إن أردناها! هذا وذاك من الأعمال جدير بأن يستأثر بكثير من جهود من يرى في نفسه الكفاية من حتى يكون لنا شيء نباهي به في العيد الألفي للأزهر، وأرجو أن يكون منا غير بعيد.

3 - الغاية التي أستشرف إليها هي إذاً المساهمة - في غير تثريب على الغير من كبار الشيوخ الذين أدوا ما طلب منهم كما فهموه - في تهيئة بيئة علمية ينظر فيها المطالب بعقله لا بعقل أحد ممن سبقوه، ويرى فيها الرأي لأن الدليل يعضده لا لأن الغزالي أو مثله ذهب إليه. بذلك يصح لنا وجه الحكم في العداء الذي زعموه بين الدين والفلسفة، ويسهل الإقناع والاقتناع، ونصحح كثيراً من قضايا الماضي وأحكامه، وتبني على ماض غير مدخول، وأساس متين ولا وهن فيه. وإلى اللقاء القريب - إن تفضلت الرسالة الغراء - إن شاء الله تعالى.

محمد يوسف موسى
المدرس بكلية أصول الدين

فتنة الزَّنج
ورثاء البصرة في شعر ابن الرومي

للأستاذ محمود الشرقاوي

- 2 -

خلاصة

جئنا في مقالنا الأول عن فتنة الزنج على مبدأ ظهور صاحب الزنج وبدء فتنته واستيلائه على العبيد الزنوج وخروجه بهم على الولاة حتى دخل بهم البصرة وخرَّ بها في شهر شوال من سنة سبع وخمسين ومائتين. وكان دخوله إليها وقت صلاة الجمعة لثلاث عشرة بقيت منه، فأباحها صاحب الزنج لأتباعه ليلة ويومين يفعلون بها وبأهلها ما شاءوا.

رثاء ابن الرومي

بدأ ابن الرومي قصيدته في وصف هذه الحال بهذه البداية الجازعة:

ذاد عن مقلتي لذيذ المنام ... شغْلها عنه بالدموع السجام
أيَّ نوع من بعد ما حل بالبص ... رة ما حل من هنات عظام؟

أي نوم من بعد ما انتهك الزن ... ج جهاراً محارم الإسلام؟
إن هذا من الأمور لأمر ... كاد ألا يقوم في الأوهام
ومن هذه البداية يشعر القارئ بما يريد ابن الرومي أن يوحي إليه من الجزع والتهويل والتقديم لأمر عظيم (انتهكت به محارم الإسلام) حتى أن هذا الأمر العظيم يكاد ألا تصدقه الأوهام.
ثم ينتقل بعد هذا الإيحاء وإثارة الغضب والسخط في قلب سامعه وقارئه إلى وصف ما يريد فيقول مجملاً في بيت واحد:
أقْدم الخائن اللعين عليها ... - وعلى الله - أيَّما إقدام
ثم يعود بعد هذا الإجمال البارع إلى ما في نفسه من الحزن واللهفة على ما أقدم صاحب الزنج من أمر فيقول هذه الأبيات:
لهف نفسي عليكِ أيتها البص ... رة لهفاً كمثل لهب الضرام
لهف نفسي عليك يا معدن الخي ... رات لهفاً يعضني إبهامي
لهف نفسي عليك يا قبة الإس ... لام لهفاً يطول منه غرامي
لهف نفسي عليك يا فرْضة البل ... دان لهفاً يبقى على الأعوام
لهف نفسي لجمعك المتفاني ... لهف نفسي لعزَّك المستضام
بهذه اللهفات المتواليات قد هيأ ابن الرومي قارئه لأن يقرأ وصفه القادم لما حلَّ بالبصرة، وقد امتلأ قلبه بالغيظ والغضب الذي أوحاه إلينا في مطلع قصيدته. ثم يقول:
بينما أهلها بأحسن حال ... إذ رماهم عبيدهم باصطلام
دخلوها كأنهم قطع اللي ... ل إذا راح مدلهم الظلام
أيّ هول رأوا به أي هول ... حقَّ منه يشيب رأس الغلام
إذ رموهم بنارهم من يمين ... وشمال، وخلفهم، وأمام
كم أغصوا من شارب بشراب ... كم أغصّوا من طاعم بطعام
كم ضنين بنفسه رام منجًى ... فتلقوا جبينه بالحسام
كم أخٍ قد رأى أخاه صريعاً ... تَرِب الخد بين صرعي كرام
كم أبٍ قد رأي عزيز بنيه ... وهو يُعلى بصارم صمصام
كم مفّدى في أهله أسلموه ... حين لم يحمه، هنالك، حامي
كم رضيع، هناك، قد فطموه ... بشبا السيف قبل حين الفطام
كم فتاة - بخاتم الله - بكرٍ ... فضحوها جهراً بغير اكتتام
كم فتاة مصونة قد سَبوْها ... بارزاً وجهها بغير لثام
من رآهن في المساق سبايا ... داميات الوجوه للأقدام
من رآهن في المقاسم - وسط الزن ... ج - يقسمن بينهم السهام
من رآهن يتَّخَذْن إماَء ... بعد ملْك الأمام والخدام
هذه القطعة من قصيدة ابن الرومي قد رأى فيها القارئ كيف دخل الزنج على البصرة وأهلها على أحسن حال، فكان جيشهم كأنه قطيع الليل. وكيف أخذتهم نار الزنج من خلفهم وأمامهم ومن يمين وشمال. ثم هو يقدم إلينا هذه الصورة الشعرية الرائعة كأنها الرسوم أو التماثيل في قوة تصويرها. فهذا شارب أو طاعم حين هجم عليه الزنج غصَّ بشرابه
وطعامه، وهذا هارب ضنين بنفسه قد جبهته سيوفهم وتلقت جبينه، وهذا أخ يرى أخاه صريعاً قد عفَّر التراب خده بين كرام غيره، معفَّرة خدودهم. ثم يقدم إلينا صورة من تلكم الفتيات الأبكار على خاتم الله قد فضحهم الزنج وفضّوهن حهرة بغير اكتتام. ثم ساقوهن إلى السبي يفرقونهن بينهم ويقتسموهن مماليك وكنّ من قبل يملكن الإماء والخدام.
ثم يعود بعد إبراز هذه الصورة القوية من السفك والقتل والعدوان إلى شعوره النفسي يوحي به فيقول:
ما تذكرت ما أتى الزنج إلا ... أضرَم القلبَ أيما إضرام
ما تذكرت ما أتى الزنج إلا ... أوجعتني مرارة الأرغام
ثم يعرج إلى ذكر صور مجملة بعض الأجمال عن بيع السبايا وتخريب البيوت البارة كانت مأوى الضعاف والأيتام. ودخول القصور العامرة كانت من قبل صعبة المرام. ثم يقدم لنا بعد ذلك صورة كلها حياة وكلها حركة وكلها دقة ووضوح وهي قوية غاية القوة

عن مدينة البصرة وكيف كان زحام الخلق فيها وعماد أسواقها وتلك الفلك التي تسير منها وإليها بالتجارة والناس، وتلك القصور ذوات الأحكام من بنيانها، وكيف استحال هذا كله - بفتنة الزنج - إلى خراب وصمت لا يرى فيه غير أيد وأرجل مقطوعة ورؤوس مهشمة ووجوه دامية بين الخرائب تسفي عليها الرياح:

عرَّجا صاحبّي بالبصرة الزه ... راء تعريج مدنف ذي سقام
فاسألها - ولا جواب لديها ... لسؤال - ومن لها بكلام. . .؟
أين ضوضاء ذلك الخلق فيها؟ ... أين ذاك البنيان ذو الأحكام؟
بدلت تلكم القصور تلالاً ... من رماد ومن تراب ركام
سلط البثق والحريق عليها ... فتداعت أركانها بانهدام
وخلت من حلولها، فهي قفز ... لا ترى اللعين بين تلك الآكام
غير أيد وأرجل بائنات ... نبذت، بينهن أفلاقُ هام
ووجوه قد رملتها دماء ... بأبي تلكم الوجوه الدوامي
وطنت بالهوان والذل قسرا ... بعد طول التبجيل والإعظام
فتراها تسقي الرياح عليها ... جاريات بهبوة وقتام
خاشعات كأنها باكيات ... باديات الثغور، لا لابتسام. . .!

ولا شك في أن القارئ يشعر بتلك القدرة الفائقة التي صورت بها ابن الرومي ذلك المشهد، مشهد خرائب البصرة وقصورها التي أضحت تلالاً، ومشهد تلك الأيدي والأرجل مبعثرة فيها قد نبذت بينهن أفلاق هام، ومشهد تلك الهام ملقاة خاشعة باكية قد بدأ منها الثغر وبرزت النواجذ ولكن لا لتبتسم. . .!

ثم ينتقل ابن الرومي بعد ذلك إلى ذكر مسجد البصرة وما حل به فيقول مخاطباً صاحبيه أيضاً:

بل ألما بساحة المسجد الجا ... مع إن كنتما ذوي إلمام
فاسألاه - ولا جواب لديه - ... أين عبادة الطوال القيام. . .؟
أين عمَّاره الألى عمَّروه ... دهرهم في تلاوة وصيام
أين فتيانه الحسان وجوها؟ ... أين أشياخه أو لو الأحلام

تحريض وإثارة

إلى هذه الغاية يكون ابن الرومي قد أبرز تلك الصورة البارعة القوية الصادقة عن وصف ما حل بالبصرة وأهلها على يد الزنج، فهو ينتقل بعد ذلك الوصف إلى تهيج الناس وتحريضهم وإثارة نفوسهم على صاحب الزنج وزنوجه حتى يثأروا منه لأنفسهم وأهليهم. وهنا تبرز الغاية التي قصد إليها ابن الرومي، ونعتقد أنه تعمدها حين بدأ قصيدته بتلك البداية. . . وقد أشرنا إلى ما تشعر به من الرغبة في التحريض والإثارة حين ذكر ابن الرومي (محارم الإسلام) وحين قال بعد ذلك بيتاً قصدنا أن نسقطه من موضعه لنذكره الآن وهو:

وتسمى - بغير حق - إماماً ... لا هدى الله سعيه من إمام

وقد ذكر هذا البيت بعد ذلك الذي يقول فيه إن الخائن اللعين صاحب الزنج قد أقدم عليها وعلى الله

كل هذه الإيحاءات بالهياج والثأر يجعلها ابن الرومي دعوة صريحة في هذه القطعة التي ينتقل اليها بعد ذكر المسجد الجامع وعبادة وفتيانه وشيوخه أولى الأحلام.

أي خطب، وأي رزء جليل ... نالنا في أولئك الأعمام
كم خذلنا من ناسك ذي اجتهاد ... وفقيه في دينه علام
واندامي على التخلف عنهم! ... وقليل عنهم غناء ندامى
وأحيائي منه - إذا ما التقينا ... وهم - عند حاكم الحكام
أي عذر لنا؟ وأي جواب؟ ... حين ندعي على رؤوس الأنام:
يا عبادي! أما غضبتم لوجهي ... ذي الجلال العظيم والإكرام؟
أخذلتم إخوانكم وقعدتم ... عنهم - ويحكم - قعود اللئام؟
كيف لم تعطفوا على أخوات ... في حبال العبيد من آل حام؟
لم تغاروا لغيرتي، فتركتم ... حرماتي لمن أحلَّ حرامي
إن من لم يغر على حرماتي ... غير كفء لقاصرات الخيام
كيف ترضي الحوراء بالمرء بعلاً ... وهو - من دون حرمة - لا يحامي

ثم يقدم لنا ابن الرومي بعد هذا التحريض القوي هذه الصورة البارعة عن خصومه تخيل أنها واقعة بينه وبين النبي عليه السلام عن هؤلاء الشيوخ والفتيان وكيف لم يثأر لهم:

واحَيائي من النبي إذا ما ... لا مني فيهم أشدّ الملام!

وانقطاعي إذا هُم خاصموني ... وتولى النبي عنهم خصامي!

مثَّلوا قوله لكم - أيها النا ... س - إذا لامكم مع اللوام

أمّتي! أين كنتمُ إذ دعتكم ... حرّة من كرائم الأقوام. . .؟)

صرخت: يا محمداه. . .! فهلاَّ ... قام فيها رعاةُ حقّي مقامي!. . .

(لم أجبْها إذ كنت ميتاً فلولا ... كان حيٌّ أجابها عن عظامي!)

وأريد هنا أن أشير إلى براعة ابن الرومي إذا انتقل من خطاب نفسه في الأبيات الأول إلى خطاب من يحرضهم حين بدأ يصف خصومه النبي عن قتلى الزنج فقال: (مثّلوا قوله لكم أيها الناس)

ثم يندرج ابن الرومي بعد هذه الإثارة وإهاجة النفوس إلى الدعوة الصريحة إلى الثأر من صاحب الزنج فهذه القطعة التي هي ختام قصيدته، والتي نكتفي منها في هذه الأبيات:

انفروا - أيها الكرام - خفافاً ... وثقالاً إلى العبيد الطغام

أبرموا أمرهم وأنتم نيام، ... سوْءة سوءة لنوم النيام

صدَّقوا الظن اخوة أمّلوكم ... ورجوكم لنوبة الأيام

أدركوا ثأرهم فذاك لديهم ... مثل ردَّ الأرواح في الأجسام

لم تقروا العيون منهم بنصر ... فأقروا عيونهم بانتقام

أنقذوا سبْيهم - وقَلَّ لهم ذا ... ك حفاظاً ورعية للذمام

عارهم لازم لكم، أيها النا ... س، لأن الأديان كالأرحام

لا تطيلوا المقام عن جنة الخل ... د فأنتم في غير دار مقام

فاشتروا الباقيات بالعرَض الأد ... نى، وبيعوا انقطاعه بالدوام

هكذا ينتهي ابن الرومي من قصيدته في رثاء البصرة وفيما أصابها وأهلها من صاحب الزنج وفتنة الزنج وتحريض الناس على الثأر منه ومنهم.

وأعتقد أن القارئ يجد أني لم أكن مغالياً حين قلت في ختام مقالي الأول عن هذه القصيدة من شعر ابن الرومي إنها قصيدة عجيبة من غرائب الشعر العربي، وضوح بيان، وقوة تصوير، وإعجاب خيال، وصدق عاطفة، وأنها من بدائع الشعر العربي كله.

وأزيد على ذلك اليوم أن ابن الرومي كان في تحريضه الناس وتهييجه لهم، ماكراً خبيثاً وقوياً عارماً شديد التأثير، يكاد شعره في ذلك يدفعنا نحن الآن - أحد عشر قرناً - إلى الثورة والهياج.

محمود الشرقاوي

من وراء المنظار

المتعاظمون

هذا الفريق من بني آدم أو هذا الصنف كثير شائع، ولكني أقصر الحديث هنا على بعض أصحاب السلطان منهم؛ ولسوء حظك أو لسوء حظي أنا - على أقرب الرأيين إلى الصحة - أن يرى هؤلاء في كثير من المجالس. ولست بحاجة إلى منظار، بل ولا إلى عينين - لا قدر الله - لنرى هؤلاء الناس، أو تحس سلطانهم إن صح عندهم أنهم ناس من الناس. . .

ومن عجيب أمر هؤلاء أنهم وإن كانوا على رغم أنوفهم الشم ناساً يجري عليهم ما يجري على سائر الخلق لا يؤمنون إلا بأنهم فوق مستوى الناس، وعسير عليك أشد العسر أن تقنعهم من بعيد أو من قريب بأن لهم مثلك يدين ورجلين وحواس وما إليها من جوارح وأحشاء، وأنهم يأكلون كما تأكل، وإن لم يكن مما تأكل، وأنهم يشربون وينامون ويفرحون ويغضبون ويمرضون ويموتون كما يجري عليك من أحكام الطبيعة سواء بسواء.

هذا الفريق الذي أتحدث عنهم أصحاب السلطان من أصحاب الديوان. ولعلك لم تنس بعد أحاديثي عن أصحاب الديوان، وإن كنت وقفت بك عند صغارهم لا خوفاً من كبارهم علم الله. وما لي أقسم وهاأنذا أعرضهم عليك جملة وأحشرهم أمام المنظار في غير

تهيب ولا رفق:
ترى الشخص منهم - وهو شخص رضى أو لم يرض - في ردهة من ردهات دور اللهو، أو في سيارة عامة، إن لم تكن له سيارة خاصة، أو في عرض الطريق، فتحييه تأدباً منك وعملاً بما يوجبه الذوق وتفرضه الإنسانية، فيدهشك أنه يبدو عليه كأنه لا يلقي منك تحية، بل تراه وكأنه يلقى منك إهانة؛ وإلا فما باله وقد كان منبسط الأسارير: يتجهم لك ويشمخ بأنفه ويرميك بنظرة كريهة كأنه يريد أن يخيفك في غير داع لذلك ولا مناسبة؛ ثم يرد تحيتك الحارة برفع سبابته قليلاً تجاه رأسه العالي، أو بإيماءة بسيطة، ويمضي وكأنه لم يكن يرد تحية، وإنما كان يرد على توسل سائل بإلقاء مليمين في كفه المبسوطة!. . .

ولقد تعجب لذلك، ولكن عجبك دليل بساطتك أو طيبة قلبك. . . والحق أني أريد أن أقول دليل (عبطك) فاقبلها مني ولا تدعني أموه فأتحايل على الألفاظ، ولخير لك على أي حال

أن تكون كما أذكر، من أن تكون فظاً غليظ القلب، وإلا فلك الخيار، ولكن على شرط أن يتوافي لك السلطان قبل كل شيء. . .

وفيم تعجب وعنده أن التحية توجه إلى مقامه ممن هم دونه، إنما هي ضرب من عدم الاحتشام بين يديه، فهي لذلك ضرب من عدم اللياقة، أو هي جرأة تلحق بقلة الأدب عند بعضهم، وما أردت أنت إلا أن تكون مؤدباً. . . ولقد يصور له كبرياؤه وغروره أن ذلك منك تحد لذاته الخطيرة والعياذ بالله، وفي ذلك سر تجهمه وتعاظمه وكريه نظراته وتفسيره تأدبك بأنه قلة أدب.

وكأني بك، أيها القارئ، تضحك مني وتقول في نفسك إنما يصور بما يكتب ما وقع له، وأريد أن أكون صادقاً، فأسلم لك بصحة هذا، ولكن قل لي بربك، ما ذنبي لتضحك مني يا أخي - سامحك الله - وأينا أجدر بضحكاتك، أنا أم ذلك المتعاظم المتكبر؟ ثم اعلم أني لم أغضب ولن أغضب لما يكون بيني وبين هؤلاء المتعاظمين. لم أغضب لأن ما حدث هو ما كنت أتوقعه، بل إني لأضحك إذا أقع من ذلك على مادة لمنظاري، ثم إني لم أغضب لأني أعرف كيف أكيل لهم بنفسي كيلهم متى أردت، فأزيدهم غيظاً وأزداد منهم ضحكاً، ولو علمت الحق لرأيت أني دائماً ألفاهم بالعصيان المدني، وهو سلاحي السلبي الوحيد الذي لا سبيل لي إلى غيره.

جمعني بفريق من هؤلاء مجلس من المجالس، أو قل قادتني الظروف على رغمي إلى هذا المجلس، فما كان لي أن أغشى مجالس أصحاب السلطان مختاراً، فانتحيت ناحية وجلست، وقادت الظروف كذلك بعض أصدقائي ممن هم في مثل سني، وفي مثل مركزي الصغير، فحمدت الله وزال عني القلق، فلقد كنت أحس نفسي غريباً قبل مجيء هؤلاء الذين لا حول لهم ولا سلطان، وانفرجت شفتاي لأول مرة منذ جلست أرد على تحيات هؤلاء الأصدقاء، فما وجه إلى أحد من أصحاب السلطان تحية تنفرج لها الشفاه، فلم تك ثمة إلا إيماءات متكلفة لاذعة قصيرة، أو إشارات باليد آلية لا روح فيها، اللهم خلا رجل منهم تلطف فجاد عليَّ بتحية منادياً إياي باسمي ولكن بعد أن فعل ذلك من هم على شاكلتي من الخلان.

وجلست صامتاً أترقب وأنا أخفي ضحكي مما رأيت على وجوه أصحاب السلطان من معاني الازدراء عند دخول أصحابي، ولقد حياهم هؤلاء السذج في أصوات طلقة، وفي إشارات وانحناءات دمثة جميلة، فما عادوا إلا بإشارات وإيماءات أرستقراطية كانت هي الأخرى جميلة على رغمي وعلى رغم منظاري!

واستأنف أحد أصحاب السلطان ما كانوا فيه من حديث، واحتدم النقاش بين هؤلاء السادة، فهذا يعترض على ذاك، وذلك يرى ما يرى جاره أو لا يرى الصواب في رأيه، وفي وجوه الجميع بشر أو تحمس أو ضحك من دعابة أو نكتة يطرد من هاتيك الوجوه شبح الكهولة أو يستمهل الشيخوخة لحظات.

وبدا لأحد السذج من الرفاق - رفاقي أنا - فحشر نفسه في الحديث يحسب أنه يكلمني أو يكلم أحد أقرانه، فما أسرع ما بدت الدهشة على وجوه الجميع! ثم تغافلوا عنه بأطراقهم، وقطع عليه أحدهم كلامه فساق الحديث إلى رأي جديد، وذهبت كلمات المسكين هباء أو أقل من الهباء.

ثم تكلم شاب آخر لم يتعظ بما جرى لسالفه فكان من أحب المناظر عندي، ولا أقول

من أبغضها أن أرى على وجوه أولئك السادة ذلك الاتفاق الذي لم يقصدوا إليه لأنهم اعتادوا كلما تطفل على حديثهم العالي متطفل لم تصل بعد مداركه إليه ولا هيأه مركزه حتى لمجرد الاستماع له، وهو اتفاق على المقاطعة أو الإغفال لأمر المتكلم. وأحسب أنهم لو نظروا ساعتئذ إلى ذلك الساذج الثاني لأخذتهم الشفقة لحمرة الخجل تتوقد في محياه فما تقسو قلوبهم إلى حد أن يعرضوا عنه وهو على تلك الحال.
على أن اثنين منهما رمياه بنظرة ولكن بعد أن خفت في وجهه حمرة الخجل ورأيتهما يزدريانه في صمت، فهو مرؤوسهما في الديوان ولا يجمل أن يجرؤ مثل هذه الجرأة فيناقش رؤساءه. وكم أتمنى لو يتاح لي من البيان ما أصور به ما ارتسم على محياهما الكريمين من اشمئزاز! وكم يؤلمني ألا تسعفني الألفاظ بما أريد!
وأني أحدهم بنكتة تصلح لأن تكون نكتة ولكنه أتى بها لسوء حظه في ضجيج من النقاش فلم يفطن إليها غيري فضحكت بصوت يسمع فالتفت نحوي ضاحكاً مسروراً وصاحب النكتة يبحث دائماً عن الضاحكين من نكتته ويسر إذ يجدهم. . . على أن هذا ما لبث أن قطع ضحكته بغته كأنما أزعجه أن يتبادل وإياي الضحكات ثم تكلف العبوس ونظر إليَّ ولكني لم أقطع ضحكتي فقد كانت هذه الحركة منه أدخل في معنى النكتة من عبارته
وأدعى إلى الضحك منها.
وما يريد أصحاب السلطان ممن هم أصغر منهم إلا أن يتزلفوا إليهم فينهضوا وقوفاً إذا أقبل أحدهم ويشيعوه إذا انصرف، فإذا تقدم أحد هؤلاء الصغار ففتح باب السيارة حتى يركب (سعادة البك) أو حمل له معطفه حتى يلبسه فذلك هو ما يكبر به في عين سعادته ولذلك دخل كبير في قياس كفايته في عمله وإن لم يكن لعلمه صلة ما بعمل (الجرسونات)! والعجيب أنك ترى الرجل من هؤلاء يتصاغر وينكمش كأنما يدخل بعضه في بعض إذا كان أمام من هم أكبر منه وذلك بقدر ما يتعاظم وينتفخ إذا نظر إلى من هم دونه.
وبعد فقد أفهم أن أرى أصحاب السلطان في دواوينهم متعاظمين وإن عد ذلك مرذولاً منهم أينما كانوا، فإن الرجل منهم يكون هناك في (منطقة نفوذه) وما يذهب إليه في الغالب حيث مقر سلطانه إلا طالب حاجة عنده.
ولكن كيف أفهم لعمري أن يتعاظم عليك هؤلاء خارج دواوينهم ولقد تكون بحيث لا تربطك بهم صلة من عمل أو من حاجة؛ بل كيف يتعاظمون وإن كان يصلك بهم العمل أكبر صلة وإن منهم من لا يفضلك إلا بما ساقته إليه الظروف من منصب بحيث لو رجع القهقري إلى مثل سنك لكنت أحسن منه عقلاً وأقوى تفكيراً وأكثر اطلاعاً. ولقد تكون اليوم أكثر منه ذكاء على رغم جاهه، بل ولقد يكون من الغباء بحيث لا يصح أن تقيس عقلك إلى عقله إلا إذا أردت أن تمتهن نفسك.
وبعد فنحن أمة تكثر الكلام في الديموقراطية وتبالغ في السخرية أحياناً من حيث لا تدري فتطيل الكلام عن الانتخابات مثلاً أتكون مباشرة أم غير مباشرة؟
الخفيف
رسالة الفن
إن كنت فناناً
فهذه نفسي . . .!
للأستاذ عزيز أحمد فهمي
يا رب محمد! استغفرك يا رب محمد!
أعصابي متراخية. عقبي نائم. عيناي تريدان أن تنطبقا كأنهما زهدتا النور، وما هو زهد ولكنه تسليم.
نفسي تتهرب مني، وتتحجب عني. . . أريد أن أعرف ماذا بها؟ أسألها فيقع السؤال فيها كما تقع الحجرة على كومة التبن المحروق، فلا صوت، ولا رد على الصوت، ولا شيء.
إذن فماذا بقي لي؟ لا شيء!
. . .وإذن فماذا أصنع؟. . . لا شيء. والصبر طيب. والنجدة عند رب محمد
اللهم إني قد أسأت، اللهم إني قد أسأت!
هأنذا أعترف لك وما أنت بحاجة لأن يعترف لك مذنب. ولكني أريد أن أفضح نفسي

لعلك تريد بعد ذلك فتمحو بلطفك وكرمك ما سطرته على جبيني بحكمتك وخبرتك من الإثم، وآثار الإثم. . .
لن أعدد ما ارتكبت، فإني لا أحصيه. ولكني أقول إني ما تركت إثماً إلا واقترفته.
ولكن كان شر آثامي أني في يوم أنكرتك. أعوذ بك من نفسي. وأعوذ بك لها.
لقد انطلقت يومها أعربد بروحي وبدني، وأقول - وبئسما كنت أقول - إن الخبطة العشواء التي أوجدت هذا الكون وإنما أوجدتني حكمتي في الكون كما حكمت الكون فيَّ، فما دام هو يأخذ مني فلآخذ منه، وما دام يستبد بي فلأستبد به. . . ومن أنا. . .؟؟
حقاً إني كفرت يا ربي. ولكني لا زلت أتوسل إليك حتى بكفري. فقد كنت أحبك وأنا منكرك
ألست أنت صاحب هذا البحر الذي كنت أصارع الريح وأنا ساع إلى أعتابه في ليالي الشتاء العاصفة المقمرة لأجلس عنده وأنا سكران وفي يدي السيجارة كلما شهقت منها نفساً
شهقت معه من البحر أملاً، وكلما زفرت نفساً زفرت معه إلى البحر هماً. لقد كنت أتبادل الأنفاس مع البحر، هذا الوحش المحبوس عن الأرض الراضي بالحبس.
لقد كنت أحبه. ولقد أحبني هو أيضاً فأعطاني الكثير من نفسه: جلداً، وصبراً، وصفاء، وغنى، وحياة، وقوة. . . ومسكنة مع هذا كله وذلاً.
لقد سبحتك فيه يا رب لأني كنت أراه وأبادله الحب، وكان عقلي أصغر من أن يؤمن بك غيباً
ثم ألست أنت صاحب تلك الماسة التي كانت تريق عليَّ أضواءها فأشرب منها وأشرب وأشرب وأنا لا أدري لماذا لا أرتوي على كثرة ما أنا شارب حتى علمت أن ما كنت أشربه لم يكن إلا نوراً، والإنسان لا يريه النور وحده إن لم يمزجه بشيء من الظلمة. فلما بحثت عن الظلمة انفلت النور مني، وكف يده عن أوتار قلبي.
من يومها يا رب وأنا غارق في ظلمات وظلمات ولكن بعد أن آمنت بالنور. فاللهم شعاعاً، رحمة منك وعزاء.
ثم ألست أنت صاحب حديقة النزهة. . . أنت صاحبها رغم أنف المجلس البلدي
كنت كلما اكتأبت وثقلت علي واجبات الجبر والكيمياء، وأرهقتني حياة المدرسة الجافة التجأت إلى النزهة أفرغ فيها ذبولي وآخذ من أزهارها وأشجارها نضرة. . . وبهجة. . . واطمئناناً وفرحاً. . .
ما أكرمها الأشجار والأزهار! ما أحلاها! إنها تتضور حباً، وتشرئب إلى عاشق يهفو إليها بنظرة. . . وخفقة.
وما أقسى عشاق الأشجار والأزهار. . . أطمعهم صمتها وسكونها واستسلامها فانهالوا عليها قطفاً. . . والقطف قتل. . . وأكرمهم يجود عليها بشعر. والشعر كلام. . .
إنني لم أسرف يا رب في قطف الأزهار، واسألها
كنت أقنع بالذي تنفثه هي راضية من الحنين المؤمل، والشهوة المتبخرة الرطبة. . .
وكنت أعوذ عنها إلى المدرسة وأنا كالقرنفلة الناطقة الحية. أبذر في قلوب الناس حباً أبعثره وأبعثر وراء من تلك الزأرة التي أعطانيها حبيبي الأزرق ذو الأمواج وذو الأنفة!
ثم ألست أنت صاحب هذه السماء التي كنت أنقلب على الرمال إليها لأسرح بنفسي فيها
مرتحلاً من نجم إلى نجم، ومن كوكب إلى كوكب، متباعداً عن الأرض ما استطعت، مختاراً من أكوانك أقصاها كأنما كنت أريد أن أستوعب ملكك، فما استوعبت شيئاً وما كنت إلا لأرتد حسيراً، ولكن بعد أن تطول حيرتي فيك وفي ملكك. . .
سبحانك! قد خلبت لبي. . .
يا صاحب الصحراء تخرج فيها الحي من الميت. . . يا لمسحرك هذا الأقفر من مسرح!
يا صاحب الناقة الصابرة! يا صاحب النخلة المتكبرة! يا صاحب السلحفاة الصائمة الساخرة! يا صاحب الغزالة النافرة!
أليس هذا فنك! وهل عشقت سواه حين كنت أنكرك!
ما عشقت سواه وأنا منكرك! ولا عشقت سواه وأنا راج أن أعرفك! وما سوى ذلك إلا العدم، فكل موجود من أثرك وصنعك.
يا رب محمد! أستغفرك!

وأحمدك وأشكرك. فلقد ذكرتني بك حين أنسيتني نفسي، وأنا حين أذكرك أهدأ وأطمئن، لأني أعرفك الرحمن الغفار الذي ينقشع أمام رحمته وغفرانه كل ضلال وكل عطب؛ والذي إن عاقب أرسل في العقاب راحة ورضى، وقرن بالعسر يسراً. وإن مع العسر يسراً.

. . .بدأت أنتعش

زوابع من الإسكندرية تناديني. أريد أن أنطلق. أريد أن أعربد مرة أخرى؛ ولكن عربدة المؤمن المطمئن.

أريد أن أصرخ. أريد أن أبطش بهذه الظلمات التي بطشت حين أمنت إليها. أريد أن أقيم الدنيا وأقعدها. فهل أنا قادر من ذلك على شيء. . .

. . .إذا أردت أنت فإني قادر، فإذا لم ترد فهاأنذا كما أردت

قلبي ينبض بالأمل فيك، وعقلي شارد وراء هذا الأمل يريد أن يعرف ما هو، ولكنه تعب ولم يعرف ما هو. . . فأرشدني.

ليس أشهى لدى من أشعر بأني أرضيتك وأنك أرضيتني

وأنا طماع، دنيء النفس. قد أتخم ولكني قد أشبع.

أنت الذي خلقتني. فساعدني على نفسي. وخذ بيدي، وأنت تستطيع. ولا أحد غيرك يستطيع.

أنت تطالبني بالتوبة؛ ولكنك أرجأت التوبة في قرآنك إلى سن الأربعين. فلي الآن إن مددت في عمري عشر سنوات باقية قد أستجديك بعدها عشراً، وقد أستجديك بعدها عشراً، فما أحسب التوبة ممكنة وقتك الخلاب يدغدغ العيون، ويناوش الأسماع، وينكث القلوب. . .

ثم لماذا يتحتم علي أنا أن أتوب؟!

أأنا إنسان عاقل ورشيد؟! إني لا أظن ذلك. فليس عاقلاً رشيداً هذا الذي يستمرئ أن يفضح نفسه بنفسه. ولا هو عاقل رشيد هذا الذي يطاول من هم أشد منه قوة وآثاراً في الأرض، وينوخ للضعيف الهزيل يركبه ويضرب بطنه برجليه. . .

أنا يا رب كما تعلم. فعافني. واسمح لي أن أقضي في ملكك هذا ما قدرت لي من البقاء وأنا تحت رعايتك وعطفك. فلست إلا طفلاً غراً آفته دلال استحكم في نفسه من كثرة ما استقاه وعَبَّه من نفح القرنفل والياسمين.

واحمني يا رب من الشر أن يسكن نفسي. واملأ قلبي سلاماً. وانزع منه كل حقد وكل غل.

واحمني يا رب من الشر أن يقذفني به حاقد أو مغلول؛ فأنا أعجز من أن أتلقى قذائف الشر المتستر، ولدغات الحقد والغل.

يا رب محمد. أحفظ يحيى السيد فقد أقرضني اليوم عشرة قروش وإن كان لا يعرف متى سيستردها.

هو طالب في ليسانس الحقوق. فخذ بيده في امتحانه القريب. . . أرجوك بحق محمد.

عزيز أحمد فهمي

البريد الأدبي

المسلمون (قواري) الله في الأرض

وردت لفظة من الجموع الشاذة في قول لابن الخياط (أو غيره) في الإمام مالك:

يأبى الجواب فما يراجع هيبة ... والسائلون نواكس الأذقان

هدْي التقي وعز السلطان التقي ... فهو المطاع وليس ذا سلطان

في كتاب (الحيوان) لإمام أبي عثمان الجاحظ ذي الأحاديث الطلّة المنورة، فقال محققه وشارحه الأستاذ عبد السلام محمد هرون في أمر تلك اللفظة:

(نواكس جمع ناكس وهو من الجمع الشاذ وقد أسهب البغدادي عن نحو هذا الجمع في الخزانة (1: 190 - 195) وفي مجلة الرسالة العدد (315 ص1394) بحيث قيم، واستدرك طيب لهذا الشذوذ).

راجعنا هذا البحث في (المجلة) فألقينا فيه ثمانية عشر جمعاً لكنه قد فاته جمعان ذواشان. ولا نقول: إن سبب هذا الفوت هو قلة الاستقراء أو العجز إذ لا نجهل أنها لغة العرب بل لغات العرب كما أنا ما نسينا ما روى في (الرسالة) عن (رسالة الإمام الشافعي في أصول الفقه): (لسان العرب أوسع الألسنة مذهباً، وأكثرها ألفاظاً، ولا

نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي) وذانك الجمعان الشاذان الفائتان هما القواري والسوابق.

1 - في الفائق: في الحديث: الناس قواري الله في الأرض، وروى المسلمون، وروى الملائكة. وفي الصحاح: الأصمعي: الناس قواري الله في الأرض أي شهداء الله، أخِذ من أنهم يقرون الناس أن يتبعونهم فينظرون إلى أعمالهم. حكاه أبو عبيد في المصنِّف. وفي النهاية: أي شهوده فإذا شهدوا الإنسان بخير أو شر فقد أوجبَ، وأحدهم قار، وهو جمع شاذ؛ حيث هو وصف لآدمي ذكر كفوارس ونواكس.

جرير:

ماذا تعهد إذا عددت عليكم ... والمسلمون بما أقول قواري

راجز:

حدثني الناس وهم قواري

أنك من خير بني نزار

لكل ضيف نازل وجاري

2 - قال محمد بن مالك:. . . وشذ في الفارس مع ما مائله. قال ابن عقيل: وشذ فارس وفوارس وسابق وسوابق.

حماسي:

إن تُبتدر غاية يوماً لمكرمة ... تلق السوابق منا والمصلينا

القناني في مدح الكسائي:

أبى الذم أخلاق الكسائي وانتهى ... به المجد أخلاقَ الأبُوّ السوابق

أغلب الظن أن نديدةَ سيبويه قد أحبره تضمين في الفعل (انتهى) أو حذف وإيصال كما سره هذا الجمع اللطيف للأب وهذا الجمع الشاذ، إنهم النحاة. . .

ضبط الكتابة العربية

أصدر معالي وزير المعارف قراراً جاء فيه: أنه رغبة في ضبط الكتابة العربية، بحيث يمكن أن تقرأ في غير تعرض للخطأ واللحن؛ وفي تقريب قواعد اللغة العربية إلى فهم الجيل الحديث دون أن يكون في ذلك مساس بجوهر اللغة وأصولها. ورغبة في تشجيع الأدباء المعاصرين على تصوير الحياة الحديثة في أدب يجمع بين نشر اللغة وروعة الأسلوب، تقرر أن يعهد إلى مجمع فؤاد الأول للغة العربية في أن يدرس ما من شأنه تيسير الكتابة العربية وقواعد النحو والصرف، والتماس الوسائل إلى تشجيع الأدباء على التنافس في الإنتاج الأدبي الممتاز؛ على أن يعرض المجمع على معالي الوزير في نهاية هذا العام ما تصل إليه مباحثه من النتائج.

وقد أبلغ هذا القرار إلى حضرة المراقب الإداري للمجمع للعمل على تنفيذه.

تحريف معنى بيت بالنحو

وعجيب أن يحرف معنى بيت بالنحو وهو لم يوضع إلا لصون اللسان عن الخطأ في الكلام، ليصح المعنى ويستقيم الفهم، وهذا البيت الذي حرف النحو معناه هو قول الشاعر:

لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى ... فما انقادت الآمال إلا لصابر

فأو في البيت من النواصب التي تنصب الفعل المضارع بنفسها عند الكوفيين. وبأن مضمره عند البصريين، وهي في البيت بمعنى إلى، وعلى هذا يكون معنى البيت: ليكونن منى استسهال للمصعب إلى إدراك المنى، لأن الآمال لا تنقاد إلا لمن يصبر على تحمل الصعاب في سبيلها - فهناك صعاب يستسهلها أولاً؛ ثم يكون بعدها إدراك المنى، ويجتمع في ذلك الأمر أن اجتماع السبب والمسبب؛ ولكن علماء النحو لا يرضون إلا أن تكون أو عاطفة مع كونها ناصبة، ويجعلون المعطوف المصدر المنسبك من الفعل المنصوب بها، ويجعلون المعطوف عليه مصدراً متصيداً من الكلام السابق عليها، ويكون تقدير البيت على ذلك العطف الذي يتكلفونه: ليكونن منى استسهال الصعب أو إدراك المنى - وهنا يقع التحريف في معنى البيت، لأن أو العاطفة لها معان غير معنى أو الناصبة، وقد جمع ابن مالك معاني العاطفة في قوله:

خَيِّرْ أبحْ قَسِّمْ بأو وأبْهِمِ ... واشكك واضرب بها أيضاً نُمى

وربما عاقبت الواو إذا ... لم يُلف ذو النطق للبس منفذا

أما أو الناصبة فتكون بمعنى إلى أو إلا، وكلاهما ليس من من معاني أو العاطفة، ولهذا

كان تقدير البيت على العطف تحريفاً لمعناه، وخروجاً به عن معنى إلى المقصودة منه.

عبد المتعال الصعيدي

حول الإنتاج الأزهري

قرأت في مقال الأستاذ عبد العزيز محمد عيسى (الإنتاج الأزهري) في عدد الرسالة 397: ما يلي

(أليس من العيب أن يظل الأزهر إلى الآن يقرأ في سنتيه الأولى والثانية الثانويتين كتباً في البلاغة لمعاصرين من غير الأزهريين وفيه مائة من المتخصصين في البلاغة كل واحد منهم قادر على أن يخرج كتاباً مثلها إن لم يكن أفضل منها)

ولعل هذا الذي يراه الأستاذ لا يراه أحد سواه، أو لعله إذا نظرنا إليه بالعين التي رآه هو بها لعددناه آخر العيوب إذا لم يكن بد من احتسابه أحد العيوب.

وإذا كانت الجامعة المصرية قد تقدمت الجامعة الأزهرية خطوات في الإنتاج والتأليف فهل قال أحد أساتذة الجامعة بوجوب أن تكون كل الكتب التي تقرأ في الجامعة من إنتاج الجامعيين.

ولقد أشار الأستاذ إلى ما سنته وزارة المعارف في إعلانها عن الكتب التي هي في حاجة إليها، وأريد أن أقول في هذا الصدد هل طلبت وزارة المعارف أن يكون المتقدمون للمسابقة ذوي ثقافة معينة أو يشغلون مراكز معينة في شعب التعليم، ولعله ليس ثمة شك في أنه لو تقدم أحد الأزهريين لمسابقة وزارة المعارف ورأت لجنة التحكيم أن كتابه أفضل الكتب المقدمة لما وقع الاختيار على غير كتابه.

محمود أحمد وصيف

كتاب (تشرتشل)

لا شك أن ونستون تشرشل هو رجل الساعة في بريطانيا؛ ويتصل التطور الذي حدث في الحرب أوثق اتصال مع رآسته للوزارة الإنجليزية.

ومن عجب أن هذا الشيخ الكبير لا تزال فيه ذخيرة من الفتاء والشباب تستمد منها إنجلترا في أحرج الساعات التي تمر بها الآن.

ولقد كتب الكاتبون عن أعداء الديمقراطية وذكروا حياتهم؛ ولكن صديقنا محرر المقتطف يكتب أول كتاب عن أول منافح عن الديمقراطية وأول مكافح لشرورها في العالم. ولعله يتحفنا بعد كتابه هذا بكتاب عن حياة (روزفلت) صديق الديمقراطية في العالم الجديد، فإن سير هؤلاء العظماء تعمل عملين: تحييهم من ناحية، وتحيي همم القارئين من ناحية أخرى وكتاب تشرشل ظهر في سوق الأدب في حينه المناسب، وفرصته السانحة، فإن هذا الرجل يزداد نجمه كل يوماً ألقاً وسطوعاً؛ وهو إلى جانب إرادته الماضية وعزيمته المصممة أديب كبير، وأدبه من نوع خلفته القوة وصاغته المشيئة فخرجا أدباً قوَّيا. فله كتاب في وصف الحرب العظمى. وله ترجمة لوالده اللورد راندولف تشرتشل؛ وله مئات من المقالات وعشرات من الخطب التي تفيض بالإيمان القوي: إيمان الواثق بنفسه لا المغرور بما يملك.

يصور هذا الكتاب حياة تشرشل تصويراً عذب السياق، حلو السرد؛ قرأته فما مللته ولا غالب النوم جفوني أثناء مطالعته. وكيف ينام الإنسان وهو يقرأ حياة حية يقظة، حياة قوية فتية، حياة ملآى بالمفاجآت والمغامرات.

وتشرتشل من يومه يحب الصيال والنضال، ولعل نضاله اليوم هو أعلى مثل لما يستطيع الرجل الصئول أن يفعل، وهو يتكلم. . . ولكن أفعاله دائماً اكثر من كلامه وقد أشار هو نفسه إلى ذلك في خطبته الأخيرة التي أذاعها على الشعب يوم 9 فبراير حيث يقول: (في أوقات الحرب توجد أشياء كثيرة تستحق القول ولكن شعارنا دائماً الأعمال لا الأقوال)

إن كتاب الأستاذ فؤاد صروف عن تشرشل هو قطعة من أدب الحرب؛ وكثيراً ما كتب صديقنا في أوقات السلم عن العلم والصناعة فأجاد في كل فن تناوله. وهو حين يكتب اليوم عن حياة رجل كُتب له أن يدير أفظع حرب عرفها التاريخ فإنما تجيء كتابته دائماً على الغرار الذي عودنا والنهج الذي طالعنا. وهو غرار فيه وضاحة في التعبير، وتسلسل في الأداء، ومتابعة للحوادث.

لقد قرأنا كثيراً عن وحوش هذه الحرب الطحون، فهل آن لنا أن نقرأ عن مصارعي تلك الوحوش؟
الحق أن كتاب تشرشل هو أول خطوة في هذه السبيل؛ فلعلنا نسمع غداً عن وايفل، وويلسون، وأوكونور، وماكي، وبيغر بروك، وماتكساس، وغيرهم من أبطال النضال وأعلام القتال؟
إن تاريخ هؤلاء العظماء يجب أن يتلى في كل زمان ومكان، ويجب أن ينتقل إلى كل لسان. لأنهم - كما كتبت إليَّ مسز ساتيز الكاتبة الأمريكية - لا يدافعون عن بريطانيا فحسب، ولكنهم يدافعون عن قضية الحق والسلام.
محمد عبد الغني حسن
القصص
فندق الدانوب
للأستاذ محمود البدوي
عدت إلى كونستنزا ونزلت في (فندق الدانوب) مرة أخرى كما شاءت كاترينا، على الرغم من أنه ليس من الفنادق التي نشتهي في هذه المدينة، فهو يبعد عن البحر ويبعد كذلك عن أنظار السائحين، والجانب الأكبر من حجراته لا يدور مع الشمس، ولا يشرف على مناظر خلابة، وهو إلى جانب هذا يقع في قلب المدينة، وعلى خطى قليلة من الخط الحديدي، فالمقيم فيه ينام على صوت العجلات وهي تدوي القضبان، وينهض على صفير القطر وهي تبرح المحطة!
على أن كل شيء يتحول في نظرك إلى جمال وفتنة عندما ترى كاترينا. . . تلك الفتاة الروسية الجميلة التي تعمل في الفندق.
وكنت قد لبست حلتي وتهيأت للخروج عندما دخلت كاترينا غرفتي فحيتني في ابتسامة ساحرة! وهصرت ستر النافذة وقالت ووجهها مشرف على الطريق:
- نمت نوماً عميقاً وحلمت بكاترينا كالعادة؟
- أجل يا كاترينا. . . وحلمت أننا نجري على ساحل البحر في كارمن سلفيا. . . وأنت تطفرين من المرح وتقذفينني بالكرة. . . والآن، هل تحققين هذا الحلم. . .؟
- ماذا؟ أتنزه معك؟ والعمل والفندق؟. . . أنا لا أمشي مع الشبان في الطرقات. . .!
- طبعاً يا كاترينا. . . أنت لا تمشين مع الصعاليك من أمثالي. . .!
- آه. . . صعلوك. . . ماذا تقول صعلوك؟. . . لا تقل هذا ومالت بخصرها على مائدة صغيرة في الغرفة وهي تهتز من الضحك وتزيح خصل الشعر المتدلية على جبينها، وتمر بأناملها على فمها، وقد تورد وجهها وأشرق محياها. . . ثم سكنت نأمتها. . . وأخذت ترنو إليَّ وعلى وجهها سحنة الفتاة الريفية التي لا تعرف من حروف الحياة شيئاً. . . وقالت بصوت حلو لين النبرات:
- أنت لا تعرف شعور الفتاة يا شوقي. . . كيف أخلع رداء الحياء وأمشي على شاطئ البحر شبه عارية وعيون الشبان تأكلني؟ كلا. . . أنا فتاة من أسرة روسية معروفة. . . وأنت تقول لي هذا الكلام لأنك لا تعرفني. . . ترى أمامك فتاة فقيرة تعمل في فندق. . . هذا هو كل ما تعرفه عني. . . افهم شعور العذراء يا شوقي!
- طبعاً. . . أنا أعرف شعور العذراء يا كاترينا. . . ولكن هذا لا يمنعك من التنزه معي لتري الدنيا. . . الدنيا ليست هنا في هذا الفندق. . .
فاحمر وجه كاترينا، وأسبلت جفنيها، وغضت رأسها كطفل صغير ارتكب عملاً يعده مزرياً. . . ثم رفعت أهدابها وقالت بصوت خافت:
- أنظر؟ . . . كيف أخرج معك بهذا الثوب. . .!
ونظرت إلى ثوبها وكان يبعث على الرثاء حقاً. . .!
- أليس معك غيره يا كاترينا؟
فغضت رأسها ثانية، وانسدلت أهدابها على هاتين العينين الزرقاوين اللتين لا تعرف من أسرارهما وتعابيرهما شيئاً. . .
ورفعت جبينها وقالت ويدها على عاتقي:
- أنا فتاة وحيدة وفقيرة. . . أبداً. . .!
- سأجود لك بثوب جديد يا كاترينا. . .
فاهتز جسمها. . . كأن سيالاً كهربائياً سرى في ألياف لحمها. . . وطوقتني بذراعيها

وقالت وهي نشوى طروب:
- والآن، سأجيء لك بالإفطار. . . وسنفطر سوياً. . . ولكن لا تأكل الطعام كله كما تفعل دائماً، ولا تدع للصغيرة المسكينة كاترينا شيئاً. . . أوه. . . أنت مروّع!
رجعت ذات ليلة إلى الفندق متأخراً، بعد أن قامرت وأفرطت في الشراب. . . لعبت الروليت في الكازينو وخسرت كثيراً، وطيرت الخسارة الأحلام من رأسي. . . وصعدت درجات الفندق متثاقلاً حتى بلغت غرفتي. . . وقد خيم السكون العميق على الطابق كله. . . وفيما أنا أدير المفتاح في الباب سمعت رنين قبلات في إحدى الغرف. . . ثم صوت ضحكات. . . ضحكات كاترينا بعينها، فلا أحد يضحك مثلها بقلب طروب. . . وسمعت إثر ذلك صوتها وهي تتحدث في همس. . . وفتحت باب غرفتي ودفعته ورائي بغيظ وحنق. . .
وبعد لحظات فتح الباب برفق، ودخلت كاترينا وهي تتثاءب وعيناها شبه مغلقتين كأنها مستيقظة من نوم عميق. . . وأفاقت في التو من تأثير مخدر! وجلست على الديوان وهي تفرك عينيها ووضعت ساقاً فوق أخرى ومالت بجسمها إلى الوراء وقالت وهي أشبه بالنائمة أو الحالمة:
- لماذا تأخرت هكذا؟ كنت في الكازينو طبعاً. . . لقد أبصرت بك ليزا مع بعض الغواني. . .
فصمت ولم أجب. . . ونظرت إلى هذه الفتاة وهي تتكسر وتتثاءب، وتتصنع التعب الشديد وتحاول الاستفاقة من النوم، وقد كانت منذ لحظة في أحضان رجل، وحاولت أن أقرأ في عينيها شيئاً ينم عن حقيقة أمرها فلم أستطع.
وجلست وهي تسارقني النظر. ثم نهضت ومشت إلى صوان الملابس وجاءت لي بجلبابي. فتناولته منها، ودفعتها عني فابتعدت قليلاً ولم تقل شيئاً، وظلت هادئة ووجهها ساكن الطائر ونظراتها لا تتغير.
وقلت بصوت خشن وقد تحول بصري عنها
- والآن أريد أن أنام يا كاترينا.
- ألا تريد شيئاً. . .؟
فرفعت وجهي ونظرت إليها نظرة يتطاير منها شرر الغضب. فوقفت في وسط الغرفة أكثر من دقيقة وهي لا تبدي حراكاً ولا تحرك ساكناً. . . ثم مشت متثاقلة إلى الباب. . . وأغلقت الباب وراءها بعنف وغيظ ولا أدري لماذا كنت أحمق إلى هذا الحد.
وذهبت مرة إلى مطعم من مطاعم السمك الفخمة في شارع كارول لأتعشى. . . بعد أن ترددت طويلاً في ولوج بابه. . . وجلست في ركن بعيد عن الخلق وأنا شاعر بالنفور والقلق. . . ودرت ببصري الحائر فيمن حولي. . . كما ينظر الرجل الغريب إلى قوم لا يعرفونه. . . وشد ما كنت دهشتي عندما لمحت كاترينا جالسة إلى مائدة في وسط القاعة مع كهل أنيق الملبس رائع المظهر. . . وكانت ترتدي ثوباً من الحرير الفاخر لا نرى مثله إلا في قصور الأمراء!. . . ولما وقع بصرها علي ابتسمت وأحنت رأسها في أرستقراطية أصيلة!. . . ولمحت في عينيها وهي تنظر إلي ذلك البريق الخاطف الذي يبدو ثم يختفي
في لمح الطرف. . . ولا تعرف منه شيئاً على الإطلاق. . . ونظرت إلى هيئتها وبزتها وقارنتها بالنساء الجالسات في المطعم فإذا بها تبزهن جميعاً. . . فهي أنق مظهراً وأحلى شكلاً وأنضر وجهاً ورجعت أذكرها وهي في ثوبها الأبيض البسيط في الفندق كفتاة ريفية ساذجة يبدو من مظهرها أنها لا تعرف من شئون الحياة شيئاً. . . وأدركني العجب.
وغافلتها وهي تحادث صاحبها وانسللت إلى الخارج وعدت من بعض المراقص إلى الفندق فوجدتها جالسة في غرفتي منكبة على المكتب تكتب رسالة! ورفعت وجهها لما شعرت بي. . . وتوقفت عن الكتابة ونظرت إلي وهي باسمة. . . ثم عادت تكتب وبعد دقيقتين طوت الرسالة وغلفتها وقالت: (إنني أكتب رسالة إلى صديقة عزيزة في بلغراد. . . هل رأيت ذلك العجوز الذي كان معي الليلة في المطعم؟ إنه عمي! جاء أمس من بلغراد وحدثني عن مرض كاتوشنكا العزيزة فجلست أكتب إليها هذه الرسالة في الحال. إنها من أعز صديقاتي وقد طرَتا الحمر معاً. وكنا نعمل سوياً في بودابست، ثم طوحت بنا الأقدار. . . وما زلت أنحط حتى وصلت بي الدرجة إلى العمل في هذا

الفندق! هل تتصور أنني سأترك هذا اليهودي يحاسبك على هواه. . . ويقدم إليك الكشوف في آخر الشهر كأنك مهراجاً من الهند. . . كل شرقي عند هذا الرجل الجشع مهراجاً. . . لا. . . أنت طالب مسكين يا شوقي؛ عندما يجيء ديمتري ويدفع لك بهذه الأوراق ألقها في هذه السلة. . . سأحضر الحساب فلا تسل عن ذلك اليهودي يا شوقي!)

وكانت تتكلم بسرعة وكأنها تتلو من ورقة أمامها ثم كفت عن الكلام. ونظرت إليها فإذا بها ساهمة كأنها تفكر. . . ولأول مرة في حياتي أشاهد كاترينا تفكر، فإن رأسها الصغير الجميل لا يتسع للتفكير. . .

وطوقتها بذراعي وقلت لها:

- هل نذهب غداً إلى أيقوريا؟

- أجل. . . ولكن ليس أيقوريا. . . أو كارمن سلقيا. . . أو مامايا. . . سنذهب بعيداً بعيداً عن كل هذه البلاد.

وكانت تحلم؛ وما أعذب الأحلام في رأس فتاة في مثل سنها وجمالها. . . وضممتها إلى صدري فسكتت واستراحت وأغمضت عينها نصف إغماضة، ثم انتفضت فجأة واعتدلت في جلستها وصاحت:

- ما هذا. . . هل تعلمت هذا الجموح في بخارست؟ أنت تعرف أنني عذراء. . . أنت مروع؟

وسافرت من كونستنزا إلى مدينة صغيرة على الدانوب، وعدت منها بقطار بوخارست السريع إلى ميناء مباشرة. . . ولم أشأ الذهاب إلى الفندق مخافة أن ألتقي بكاترين فتبقين أياماً أخر.

ولما اقترب موعد السفر صعدت إلى ظهر السفينة ووقفت على الجسر أرقب حركة المسافرين والمودعين وقد علت وجهي تلك الكآبة التي تعلو الراحل من بلاد يحبها. . . بلاد قضى فيها أسعد أيامه وأمتع لياليه. وكانت الشمس قد غربت وبدت تلك الميناء الصغيرة تتلألأ في غبش الغسق؛ وأخذت أستعرض في ذهني الصور الجميلة التي مرت علي في تلك البلاد. . . مناظر سينايا الخلابة. . . وشواطئ الدانوب الساحرة. . . وحسان بخارست. . . وغانيات كارمن سلفيا. . . وفاتنات ممايا. . . وفندق بولونا. . . وفندق الدانوب. . . وكاترينا. . . أجل كاترينا. . .! واتكأت على السور الحديدي وعيني إلى الأفق وكل شيء يمضي سريعاً. . . ولمحت فتاة تهبط المنحدر المشرف على الميناء. وكانت تمضي على عجل وبصرها لا يتحول عن السفينة. . . وفتحت عيني وتبينتها فكانت كاترينا. وقفت لحظة حائرة. . . ثم نقلت بصرها في الركاب. . . ولمحتني فجرت على الرصيف حتى وقفت أمامي وهي تلهث. . . فنظرت إليها مشدوهاً وسألتها:

- ما الذي جاء بك. . .؟ وكيف عرفت أنني سأسافر اليوم. . .؟

- هذا سهل!. . . دعك من هذا الآن. . . كيف حالك. . . شد ما تغيرت ونسيت كاترينا المسكينة لا يذكرها أحد. . .

ولم أستمع لباقي حديثها. . . فقد درت ببصري في الركاب لأحصى عدد الذين جاءت تودعهم كاترينا. . . فلا بد أن يكون منهم من نزل في فندق الدانوب والتقى بها! ورأت نظراتي، وقرأت ما دار بخلدي. . . فامتقع لونها وغضت طرفاً. . . ثم رفعت رأسها وقالت وقد اختلجت نبرات صوتها:

- شوقي. . . هل تحسب أنني جئت أودعك كلا. . . أنت مروع! إنني جئت أرقب هذه السفينة وهي مقلعة وسائرة برهة في الطريق الذي تسير فيه السفن إلى وطني. . . سأركب هذه السفينة يوماً ما. . . وأعود إلى وطني، وأرى بافلوفنا، وسونيا، وأولجا مرة أخرى. . . إنني أجيء إلى هنا كل أسبوع وأرقب السفن وهي مبحرة وأتخيل إلى ذلك اليوم سيأتي ولا بد أن يأتي. . . فلا تحسبن أنني جئت أودع الصعاليك أمثالك!. . . فاستغرقت في الضحك.

- لا تقولي هذا يا كاترينا. . . إنني مسافر اليوم وسأعود غداً لأراك ولا بد أن نلتقي ثانية.

- حقاً. . .؟

- أجل. . . لا بد وأن أعود في العام المقبل وكل عام بعده لأرى كاترينا. . .

والآن اصمت واقترب. . . أرأيت؟ إننا لا نستطيع أن نتصافح. . . انتظر لا بد من ذلك. . .
واحمر وجهها ولمعت عيناها، وظهرت في أبدع ما كونها الله. . . فقد اختلجت شفتاها، وتهدل شعرها، ورف لونها، وتورد خداها. . . وعلت أنفاسها، ومالت برأسها إلى الوراء، وارتفعت بجسمها قليلاً. . . وانحنيت عليها. . . والتقت يدانا. . . وتصافحت أنفاسنا. . .
ودوى صفير الباخرة. . . وتراجعت كاترينا. . . ووقفت جامدة كالتمثال. . . وعيناها مخضلتان بمثل الدمع. . .
وشيعتها ببصري وهي تصعد المنحدر الذي جاءت منه. . . ولكنها لم تكن تمضي مسرعة. . . بل كانت تسير على مهل كاسفة البال حزينة، كأنها استفاقت من حلم. . .
محمود البدوي
العدد 399 - بتاريخ: 24 - 02 - 1941
من دروس الحرب
بين اللاتينية والجرمانية
كان بعض المولعين بتصنيف الناس من علماء الأجناس يقولون أن الله اصطفى الآريين على الساميين بمواهب العقل الأصيل فآتاهم الحكمة؛ ومن يؤتَ الحكمة فقد أوتي العلم والحكم وهيئ فطرته لملك الأرض وتمدين العالم. واستغل المستعمرون هذه الفكرة فسرقوا بها ملك العرب، ونسوا أن العرب، وهم ساميون، كانوا خلفاء الله ووّراث المعرفة في الدنيا؛ واستغلها النازيون آخر الأمر فسرقوا بها مال اليهود، ونسوا أن اليهود، وهم ساميون، كانوا الرأس الخلاق واليد المصرفة في ألمانيا.
ولعل هؤلاء المصنفين لخلق الله يشغلون بالهم اليوم بما يتجلى من الفروق بين اللاتينية والجرمانية وهما شعبتان من الآرية، ليعلموا أن من عوامل البيئة والتربية وطريقة العيش ما لا يقل أثراً في اختلاف العقل وتغير الخُلق عن عوامل الجنس والوراثة. ولئن كان في فكرة الآرية والسامية أكثرُ الكذب الذي يسنده الغرض؛ فإن في فكرة اللاتينية والجرمانية أكثر الصدق الذي يؤيده الواقع. وإذا كان الغربيون قد انتفعوا بفكرتهم في أن يسودوا، فإنا حريون أن ننتفع بفكرتنا في أن نتحرر.
لأمر ما تنهار اللاتينية وتتماسك الجرمانية وقد مسهما من هذه الحرب الطحون عذاب لا يختلف!
هنا الديمقراطية الوادعة تتمثل في دولة جرمانية هي إنجلترا، ودولة لاتينية هي فرنسا؛ وهناك الدكتاتورية الباغية تتمثل في دولة من الدول الجرمانية هي ألمانيا، ودولة من الدول اللاتينية هي إيطاليا؛ فما هو إلا أن امتحنت الحرب بنارها معدن الفريقين حتى ذابت فرنسا هنا وتفككت إيطاليا هناك، وظلت الأمتان الجرمانيتان ثابتتين، تتصارعان بعبقريات الذهن، ومبتكرات العلم، ومهلكات المادة، والعالم كله يشهد هذا الصراع العنيف المخيف وهو من هوله الهائل لا يتقارُّ ولا يتمالك. وسيكون النصر ولا ريب للفريق الذي يحالفه الحق والصدق والصبر؛ ويومئذ تنقسم الجرمانية كذلك إلى سكسونية تعتمد على قوة الخُلق، وتوتونية تعتمد على سعة الحيلة.
ليت شعري من أين أُتِيت اللاتينية حتى انخرعت فما تقوم، وانماعت فما تتماسك؟ لم تُؤت
يا زعماء الشرق إلا من جهة خصائصها التي تبجحت بها حيناً من الدهر، وهي الإفراط في الأدب والفن والكلام، حتى غلب فيها النظر على العمل، والحفظ على التفكير، والخيال على الواقع. وقاعات التمثيل على أندية الرياضة؛ فمن المعقول ألا يقام لها وزن مع الجرمانية التي كان من أظهر خصائصها الممتازة أن ألّفت ثقافتها وحضارتها من عناصر معلومة المقادير مضبوطة النِّسب من كل ما يتصل بالمادة والأدب، ويدخل في غذاء الجسم والروح، فلا يطغى منى على معنى، ولا يجوز شئ على شئ؛ ثم هي لا تفهم الفرد إلا بالأمة، ولا العلم إلا بالتطبيق، ولا العمل إلا بالتجويد، ولا رياضة العقل إلا برياضة البدن، ولا غاية الآخرة إلا بطريق الدنيا. وكل ما يصدر عن الجرمانية من نتاج الفكر واليد موسوم بسمات القوة والدقة والجد.
ماذا عسى أن نصنع يا زعماء الشرق العربي وهذه اللاتينية المتخلفة العجفاء قد غلبت علينا لوجودنا على البحر الأبيض المتوسط، واتصالنا بشعوبها المختلفة في العمل والتجارة، واعتمادنا على رسلها الدينيين في التربية والتعليم، فأخذنا من أهلها حب

الكلام وشهوة الجدل. فقادتُنا كتاب ومحامون، وجيشنا هُتَّاف ومتظاهرون، وعُدتنا أحزاب وصحف! وإذا لم يكن زعيمنا من صاغة الكلام وراضة المنابر انصرفت عنه الأسماع ونبت عليه النفوس ولو كان ملء سكوته العمل المثمر!

من صفات اللاتينية فينا أننا لا نزال نتعلم بالحفظ، ونتقدم بالمحاباة، ونعمل بالواسطة، ونقنع بالشكل، فلا يهمنا من النظام إلا أن يبقى مظهره وإن ذهب جوهره.

ومن مظاهر اللاتينية فينا أن ضعف إيماننا بالمثل الأعلى والخير الأعم. فالأمة معناها: أنا أكون، والوطنية مغزاها: أنا أعيش. فإذا تناقضت منفعة الفرد ومنفعة الأمة، وتعارضت رغبة النفس وإرادة الوطن، وقع الضمير الاجتماعي في غشية ثقيلة لا يبالي المرء فيها أن يخون أو يسعف أو يسقط.

ومن بلايا اللاتينية فينا أننا نسرف في الوعود، ونتزيد في الحديث، ونداجي في النصيحة، ونكابر في الحق، ونجاحش في النقاش، ونركن إلى شعبذة الحظ، ونستكين إلى معابثة القدر، ونستأمن إلى مخادعة السلامة.

فإذا شئنا أن نتقي العواقب المحتومة لهذه التربية الفاشلة، فلنطهر قلوبنا من رواسبها المتراكمة، ولنهيئ نفوسنا لحياة جديدة تنكشف عنها هذه القيامة القائمة. فإن مما لا شك فيه أن الحياة الحاضرة بمذاهبها ونظمها تنصهر الآن في نار هذه الحرب لتصوغها يد الخالق المصور صياغة أخرى تتفق مع تقدم الإنسانية في سبيل الخير المحض والكمال المطلق؛ ومتى خلصت العقول من الهوى، وبرئت النفوس من الأثرة، وطهرت القلوب من الحقد، عاد الناس إلى شريعة الحق الخالد فيلتقي الشرق والغرب، ويأتلف الأحمر والأسود، وتطمع الأمم والشعوب أن يعيشوا في عالم من الإخاء والرخاء جديد. وهل ذلك على الله بعيد؟

أحمد حسن الزيات

ليحكم رجال الأدب العربي

السباعي بيومي

يستر جناية على المبرد بجناية على المرصفي

للدكتور زكي مبارك

- 1 -

عرف قراء (الرسالة) أن الأستاذ السباعي توعدني بمقالتين خطيرتين: الأولى في تحديد ما قال في الشيخ المرصفي، والثانية في دفع النظرية التي نهبها من كتاب النثر الفني، وكان يرجو أن أنتظر إلى أن يفرغ من المقالتين المرتقَبتين، لعلني أعتبر فلا أجترئ عليه، وقد شاع أني من كبار المجترئين!

وقد نشر مقالته الأولى، فعرفنا أنه يصر على اتهام الشيخ سيد المرصفي بالغرور، ولم يبق إلا أن ينشر مقالته الثانية، وهي مقالة عرفنا مضمونها مقدماً، فهو سيُثبت أنه لم يَسرق من كتاب (النثر الفني) وإنما سَرَق منه مؤلف (النثر الفني) فكان حاله حال اللص الذي رأى صاحب الدار يمشي من بُعد فصاح: (مين اللي ماشي هناك!)

وأنا لن أنتظر إلى أن يفرغ الأستاذ من تحبير مقالته الثانية، فما كان أول باحث سَرَق من كتاب النثر الفني، ولن يكون آخر باحث يسرق من كتاب النثر الفني، فقد كتمتُ سرقته من كتابي أربع سنين، لأني أشعر بالارتياح كلما تذكرت أن عندي ذخائر يطلع إليها الناهبون من الفضلاء.

لن أنتظر، لن أنتظر، فليواجهني إن استطاع؛ وأنا ماضٍ إليه بقلمٍ أمضى من السيف وأعنف من القضاء، ولن أتركه بعافية أو يعترف بأنه يستر جنايته على المبرد بجنايته على المرصفي.

ولكن كيف جَنَى على المبرد وقد قضى شبابهُ في خدمة كتاب (الكامل)؟

تلك هي النقطة، كما يقول لافونتين!

اسمعوا كلمة الحق، أيها الناس:

المبرِّد دان اللغة والأدب والنحو والتصريف والتاريخ الإسلامي بكتابٍ نفيس اسمه (الكامل)

وهذا الكتاب قد شرَّق وغرَّب فانتقل من يدٍ إلى يد ومن بلد إلى بلد على اختلاف الأجيال، وبذلك تعرَّض للتصحيف والتحريف، وإذاً كان من الواجب ألا يتقدم لنشره من أبناء العرب غير من يملك القدرة على إصلاح ما أفسدت تلك الأجيال.

فهل يكون السباعي بيومي هو المصلح المنشود وما قال أحدٌ بأن الله وهبه نعمة الذوق الأدبي، وهي نعمةٌ سامية لا يظفر بها من كل جيل غير آحاد؟
كان المصلح المنشود لكتاب الكامل هو شيخنا العظيم (سيد بن علي المرصفي) الذي قضى من عمره عشرين سنة وهو يراوح المبرِّد ويغاديه بالنظر الثاقب والفهم العميق.
ولكن المرصفي مات وصار من حق كل باغٍ أن يتقوّل عليه كيف شاء، ولو كان في منزلة السباعي بيومي، وهو كما وصف نفسه أستاذ بدار العلوم!
هل سمعتم أشياء من أقوال الدكتور طه حسين؟
أتعب الدكتور طه نفسه في النَّيل من (دار العلوم) فكان يقول: هي مدرسةٌ عاقر، ومن الواجب أن تُغْلَق بدون تسويف!
فهل غضب السباعي بيومي وهو (أستاذ بدار العلوم) كما ذيَّل اسمه وهو يحاورني بمجلة الرسالة الغراء؟
وكيف يغضب والدكتور طه رجل يضر وينفع، وهو يملك المحو والإثبات في أعضاء بعض اللجان بوزارة المعارف، والسباعي يطمع في أن يعيَّن عضواً باللجنة التي تنقل كتاب (هانوتو) من الفرنسية إلى العربية؟!
أما الشيخ المرصفي فهو اليوم جسدٌ هامد لا يملك دفع الضر عن سمعته ولو صدر عن باغٍ في منزلة السباعي بيومي
الشيخ سيد المرصفي مات وشبع من الموت، وهو اليوم لا يملك دفع عادية الذباب
مات المرصفي ثم مات، ولكن تلاميذه أحياء، والويل كل الويل لمن يتعرض لشيخنا العظيم بكلمة سوء، ولو كان من أعز الأصدقاء.
أَيُشتَم المرصفي في مصر وهو قَريع الزمخشري والمبرِّد؟
ألم يكف المرصفي أن يعيش غريباً ويموت غريباً؟
لم يوجد في الأزهر من يدرك قيمة الشيخ سيد المرصفي غير الشيخ محمد عبده، وبموت
أصبح المرصفي من الغرباء (الأستاذ الإمام).
وقد عرف المصريون قيمة الشيخ محمد عبده بعد الموت، فكيف يجهلون قيمة الشيخ سيد المرصفي بعد الموت؟
السباعي بيومي هو الذي أراد الإعلان عن نفسه بالقدح في الشيخ المرصفي، فليدفع ثمن ذلك الإعلان بلا إمهال
ولكن كيف يدفع ذلك الثمن؟
إلى رجال الأدب العربي أسوق الحديث:
أخرج السباعي كتاباً سماه (تهذيب الكامل) في جزأين أولهما في المنثور ثانيهما في المنظوم، ومعنى ذلك أنه قدَّم وأخَّر في نصوص الكامل ليقع المنثور في جانب والمنظوم في جانب. فهل يرى القراء أن هذا عملٌ مطلوب؟ وهل يرون أن المبرد كان يعزّ عليه أن يصنف كتابه على هذا الوضع لو أراد؟
المبرد راوَحَ بين المنثور والمنظوم لحكمة تعليمية، هي نقل الذهن من فنّ إلى فنّ ليبعد عنه السآمة والملال، وقد أضاع السباعي تلك الحكمة التعليمية بصنيعه (الجميل) والفرق بين الكامل وتهذيب الكامل هو الفرق بين روح المبرد وروح السباعي، فأنت حين تقرأ الكامل تواجه روحاً لطيفاً هو روح أبي العباس - طيب الله ثراه - وقد كان مثلاً رائعاً في صباحة الوجه ولطافة الروح، وحين تقرأ تهذيب الكامل تواجه روح السباعي بيومي، وهو روح السباعي بيومي بلا نزاع ولا جدال!
ومهما يكن من شيء فقد استطاع السباعي أن يطارد المرصفي، المرصفي شارح الكامل، المرصفي الذي أقام البراهين على أن مصر وُجِد فيها رجلٌ يصاول المبرد، ويمشي إليه مَشْيَ البازل إلى البازل في شراسة وكبرياء.
استطاع السباعي أن يحرِّم على شرح المرصفي دخول (دار العلوم) ليجهل طلبة تلك (الدار) أسرار كتاب الكامل، وليجهلوا مبلغ أستاذهم السباعي من (العلم) بما وقع في (الكامل) من تحريف وتصحيف.
أنا أعرف أن دار العلوم مدرسة عالية لا يزورها أحدٌ من المفتشين، إلا إن ظمئ إلى فنجان من القهوة يحتسيه في مكتب العميد أو مكتب الوكيل، وإذاً فمن العسير أن تسنح الفرصة

لمحاسبة الأستاذ السباعي بيومي على ما يصنع في تكوين الطلبة بتلك الدار، وهم الجيل المقبل من رجال التربية والتعليم.
أعرف ذلك، وأعرف أن الذوق نهاني عن زيارة دروس الأستاذ السباعي بالجامعة الأمريكية، وأنا عن تفتيشها مسئول، لأنه لا يجوز ذوقاً أن أفتش على مدرس رأته وزارة المعارف صالحاً للمشاركة في إعداد المدرسين.
ولكن يظهر أن الأستاذ السباعي محتاج إلى من يعاونه على إعداد دروسه بدار العلوم، فقد رأيت أنه لم يفطن إلى ما في كتاب (تهذيب الكامل) من تصحيف وتحريف قضى بهما انتقال (الكامل) من يد إلى يد ومن بلد إلى بلد على اختلاف الأجيال!
يضاف إلى ذلك أن كتاب (تهذيب الكامل) تسرَّب إلى (كلية اللغة العربية) وقد يتسرب إلى (كلية الآداب) بحجة أن الدكتور طه حسين قَرَنه بكتاب (مدامع العشاق) في أحد فصول (حديث الأربعاء)
ماذا أريد أن أقول؟
أنا أريد النص على الأغلاط التي عجز عن إدراكها ذهن السباعي، وفطن لها عقل المرصفي، وهي أغلاطٌ ستؤذي السباعي أعنف الإيذاء، لأنها ستقنعه بأن ثناء الدكتور طه حسين على صنيعه في كتاب خدمة الكامل لن ينجيه من عذاب النقد الأدبي، وهو عذابٌ أليم
سأقوم بهذا الواجب خدمة لأبناء دار العلوم وخدمة لجميع طلاب الأدب العربي، وعلى الأستاذ السباعي أن يناقشني إن استطاع، وهو لن يستطيع، ولو ظاهره ألوف من المعجبين بقدرته على الاستهانة بفضائل التدقيق والتحقيق
والأستاذ السباعي قد شتمني بمجلة الرسالة مرتين، فليكف عن شتمي - غير مأمور - فإن الألسنة والأقلام لم تبق في شتمي مزيداً لمستزيد، ولو حاسبَ الله أعدائي وخصومي على ما اجترحوا آثمين في إيذائي لسلط عليهم شآبيب البلاء.
لا تشتمني، يا سيد سباعي، فحسبي ما أعاني من البلوى بمحنة النقد الأدبي. ألا تراني أحاور أناساً لا أرتضيهم نساخاً لمقالاتي ومؤلفاتي؟
لقد لامني الناصحون على ما اقترفت من التنازل إلى مساجلة بعض الناس، فهل تعرف
كيف كان جوابي؟
لقد أجبت بأن الأدب كالعلم، والعالم يشرِّح جسم الضفدعة كما يشرِّح جسم الإنسان، فمن واجب الأديب أن يفهم أنْ لا عيب في أن يهتم بتشريح ما يضاف إلى الأدب ولو صدر عن نكرات
لا تشتمني، يا سيد سباعي، ولا تصفني بالغرور والاجتراء، فلو أنك رأيت الدنيا بعينيّ لطاب لك أن تتخلّق مثل أخلاقي، فما اغتررت وما اجترأت إلا وأنا أعرف أن في الدنيا ناساً أخف وزناً من الهباء
لا تشتمني، يا سيد سباعي، فأنا رجلٌ (شَقيم) وذلك حرف لا يخفى عليك
لا تشتمني، يا سيد سباعي، فما أملك محاسبتك لو أردت الانتصاف لنفسي، وماذا أقول في تجريحك ولستَ بشاعر ولا كاتب ولا مؤلف ولا خطيب؟
ليس لك غير نقل نصوص (الكامل) من مكان إلى مكان، فهل فهمت أسرار (الكامل)؟ وهل (هذبت) أو (شذبت) تلك الغابة الشجراء؟
ما أنت و (الكامل) أيها المفضال؟!
الأمر في ذلك لشيخنا العظيم سيد بن علي المرصفي، الشيخ الذي ربانا على الصراحة والصدق والاخلاص، وهو المنافس الأعظم للأساتذة الاماجد: محمد المهدي ومحمد الخضري وإسماعيل رأفت ومنصور فهمي وأحمد ضيف وطه حسين.
أما بعد فقد آن للأستاذ السباعي أن يقرأ ما يرضيه، وعليه أن يجيب، إن كان يملك الجواب، وهيهات ثم هيهات!!
1 - قال الأخطل ص 262 ج2 في تهذيب الكامل:
نازعتهم طيّب الراح الشمول وقد ... صاح الدجاج وحانت وقعة الساري
ولم يلتفت السباعي إلى التحريف في (نازعتهم) وقد التفت إليه المرصفي، فنص على أن الصواب (نازعته) لأن الأخطل يقول قبل هذا البيت:
وشاربٍ مزيجٍ بالكأس نادمني ... لا بالحَصوُر ولا فيها بسوّار

2 - في تهذيب الكامل ج1 ص38 ورد قول الشاعر:
إذا ما حقبٌ جالَ ... شددناه بتصدير
وهنا أتعب السباعي نفسه فأثبت في الهامش نقلاً عن المضاف إلى المتن أن هذا الشاعر هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وهذا خطأ ظاهر، وإنما الشعر ليزيد بن ضبة الثقفي يمدح الوليد بن يزيد، وقد أفضت إليه الخلافة (انظر تحقيق الشيخ المرصفي ج 1 ص101 من رغبة الآمل في شرح الكامل)
وعذر الأستاذ السباعي أنه غير مسئول عن التحقيق، لأنه أستاذ بدار العلوم!!
3 - في تهذيب الكامل ج2 ص307 قال المبرد: رُوي لنا أن رجلاً من الصالحين كان عند إبراهيم بن هشام فأنشد إبراهيم قول الشاعر:
إذ أنت فينا لمن ينهاك عاصيةٌ ... وإذ أجرّ إليكم سادرًا رسني
فقام ذلك الرجل فرمى بشق ردائه وأقبل يسحبه حتى خرج من المجلس، ثم رجع على تلك الحال فجلس، فقال له هشامٌ: ما بك؟ فقال: إني كنت سمعت هذا الشعر فاستحسنته فآليت أن لا أسمعه إلا جررت ردائي كما سحب هذا الرجل رَسَنه
والشاهد في كلمة (رجل من الصالحين) فقد أشقى الأستاذ السباعي نفسه بالنص في الهامش على أنه ابن أبي عتيق، نقلاً عما أضيف إلى متن الكامل، فهل سمع أحد أن ابن أبي عتيق كان يُعَد في الصالحين ومساعداته لعمر بن أبي ربيعة تشهد بأنه كان من أهل الخلاعة والمجون؟ لا يُطلَب من السباعي فهم هذه الدقائق، فلنرض تحقيق الشيخ المرصفي وقد نقل أن ذلك الرجل الصالح هو أبو عبيدة بن عمار بن ياسر (رغبة الآمل ج1 ص155)
4 - في تهذيب الكامل ج2 ص308 قال الشاعر:
فقلت له تجنّبْ كل شيء ... يعاب عليك إن الحرّ حرّ
ثم قال المبرد في التعقيب على هذا البيت: فهذا كلام ليس فيه فضلٌ عن معناه، وقوله (إن الحرّ حرّ) إنما تأويله أن الحرّ على الأخلاق التي عهدنَ في الأحرار، ومثل ذلك (أنا أبو النجم وشعري شعري) أي شعري كما بلغك وكم كنت تعهد، وكذلك قولهم (الناس الناس) أي الناس كما كنت تعهدهم.
وتعقيب المبرد سديد، ولكن الأستاذ السباعي ينقل في الهامش أن من هذا قول الله عز وجل: (فغشيهم من اليّم ما غشيهم) بدون أن يدرك أن الأخفش الذي نقل عنه قد أخطأ الفهم، فالآية ليست مما اتحد فيه المبتدأ والخبر لفظاً، وإنما هو موصول أسند إليه فعلٌ جُعل مثله
صلة، للمبالغة في التهويل (رغبة الآمل ج1 ص155). وكان المأمول أن لا تغيب هذه المسألة البسيطة عن ذهن أستاذ بدار العلوم.
5 - في تهذيب الكامل ج2 ص309 تكلم المبرد عن الخيل المحبوكة الأصلاب فقال: (المحبوك الذي فيه طرائق، يقال لطرائق الماء حُبك واحدها حِباك). وبهذا سها المبرد سهواً لم يفطن له السباعي، فقد فسر الكلمة بما لا يراد منها في تركيبها، والصواب أن يقول: فالمحبوك الذي أُحكم خَلقه، من حبكت الثوب إذا أحكمت نسجه، يريد أن أصلاب الخيل موثقة مدمجة. ثم يقول: والمحبوك أيضاً الذي فيه طرائق (رغبة الآمل ج 1 ص161) وهو كتاب المرصفي المحكوم عليه بالغرور والادعاء!!
6 - في تهذيب الكامل ج2 ص212، أنشد المبرد قول حاتم الطائي:
إن الكريم من تلفت حوله ... وإن اللئيم دائم الطرف أقودُ
وقد غيّر المبرد لفظ البيت وروايته، بدون أن يتنبه السباعي لذلك، والصواب:
فمنهم جوادٌ قد تلفّت حوله ... ومنهم لئيم دائم الطرف أقود
لأن حاتماً يقول قبل هذا البيت:
كذاك أمور الناس راض دنية ... وسام إلى فرع العلا متورد
(راجع رغبة الآمل ج1 ص177)
7 - في تهذيب الكامل ج2 ص312 ورد قول الأشهب ابن رُمَيْلَة:
أُسود شرًى لاقتْ أسود خفية ... تساقوا على حرد دماء الأساود
وقد تفضا الأستاذ السباعي فأثبت في الهامش أن رميلة هي أم الشاعر، ولم يتعب الأستاذ في هذا التحقيق، فقد نقله عما أضاف أبو الحسن إلى متن الكامل، فكيف يجيب لو سأله أحد طلبة دار العلوم عن أبي هذا الشاعر وهو قد عرف أمه وجهل أباه؟

الجواب عند الشيخ المرصفي (المغرور) فقد جاء في رغبة الآمل ج1 ص179 أن أبا هذا الشاعر وهو ثور بن أبي حارثة ابن عبد الدار.

8 - وفي تهذيب الكامل ج2 ص 92 ورد قول ابن الإطنانة

وإجشامي على المكروه نفسي ... وضربي هامة البطل المُشيح

وسكت السباعي عن (الإطنابة) فلم نعرف أهو اسم أم الشاعر أم اسم أبيه، وإنما سكت السباعي لأنه لم يجد ما ينقله عن أبي الحسن، فليعرف إن شاء إن الإطنابة هي أم الشاعر، أما أبوه فهو عامر بن زيد مناة أحد أشراف الخزرج (رغبة الآمل ج2 ص23)

9 - في تهذيب الكامل ج2 ص315 قال رجل من بني عبس يخاطب عروة بن الورد:

لا تشتمني يا ابن ورد فإنني ... تعود على مالي الحقوق العوائد

ومن يؤثر الحق النؤوب تكن به ... خصاصة جسم وهو طيان ماجد

وإني امرؤٌ عافى إنائي شِركةٌ ... وأنت أمرؤ عافي إنائك واحد

أقسِّم جسمي في جسوم كثيرة ... وأحسو قَراح الماء والماء بارد

والسياق الذي أورده الأخفش وغفل عنه السباعي يوهم أن الأبيات الأربعة من شعر ذلك العبسي، والصواب أن العبسي لم يقل غير البيتين الأولين، أما البيتان الأخيران فهما جواب عروة بن الورد، وقد نقل الشيخ المرصفي (ج1 ص195) أن عبد الملك بن مروان كان يحفظ لعروة الأبيات الأخيرة، وثانيها هذا البيت:

أتهزأ مني أنْ سمنتَ وأن ترى ... بجسمي شحوب الحق والحق جاهدُ

فإن ارتاب الأستاذ السباعي في تصحيح الشيخ المرصفي فليرجع إلى ديوان الحماسة في باب الأضياف والمديح ليرى هذه الأبيات الأخيرة منسوبة إلى عروة بن الورد، والمفهوم أن ديوان الحماسة مما يحفظه الطلبة بمدرسة دار العلوم!

ثم أما بعد، فهذا هو المنهاج الذي سنسلكه في بيان فضل المرصفي على السباعي وعلى جميع من يقرأون الكامل للمبرد، وسنرى فيما بعد غرائب وأعاجيب من غفلة السباعي عن فهم أغراض المبرد، فكيف ترونه يصنع؟ هل يصر على القول بأن المرصفي كان رجلاً مغروراً، وأن من الجريمة أن يدخل كتابه (دار العلوم) ليخلو الجوّ لمن تفوتهم البسائط من الأغلاط؟

لقد أنذرني الأستاذ السباعي، فهل يجيب عن هذه المؤاخذات قبل أن ينفذ ذلك الإنذار الفظيع؟

المهمّ هو أن ينظر أبناء دار العلوم في هذه المؤاخذات الموَّجهة برفق إلى نسخة (تهذيب الكامل) لا إلى الأستاذ السباعي، فما أجرؤ على الهجوم عليه، وهو أديبٌ يراني ويرى أستاذي من المغرورين المجترئين!

المهمّ هو الصدق في خدمة اللغة العربية، وأنا بهذه الدراسات أخدم لغة العرب خدمةً يعجز عنها السباعي بيومي. وإن طال الشوط وسيطول فسيندم السباعي على ما اجترح من ستر جنايته على المبرد بجنايته على المرصفي.

إن قلبي ليكتحل بالغُبار الذي يثيره قلمي، فمن طاب له أن يلقاني في ميدان النقد الأدبي فليوطّن نفسه على مكاره لا يصبر على لأوائها غير الخناذيد.

وإلى اللقاء، فللحديث شجون وشجون

زكي مبارك

إلى الدكتور زكي مبارك

خصومة أدبية

للأستاذ السباعي بيومي

معذرة يا صديقي الدكتور، فقد حملني ما ظهر في كلمتك السالفة من مخالفة الرفق الذي تطلبه قولاً وتنبذه عملا أن أقسو عليك في عبارة هذه الكلمة بعض القسوة، ولدينا مزيد. . .

كلمتي الثانية

أينا الذي نهب وادعى؟

وجه إليَّ صديقي الدكتور زكي مبارك كلمة بعدد (الرسالة) رقم 396 كان مما ذكره فيها قوله:

وقد زعم الأستاذ السباعي أن الشيخ المرصفي سرق بعض أفكاره، فليستعد للدفاع)

(عن النظرية التي نهبها نهباً من كتاب (النثر الفني) ونشرها في مجلة السراج
فهالني من صديقي أن يهفو تلك الهفوة، بل أن يسقط تلك السقطة، لأنه بنى هذا
الزعم الفاسد على شيء سطحي ظاهري لا يأخذ به محقق ولا يغتر فيه باحث، ذلكم
هو أنه رأى تاريخ العدد الذي نشرت فيه تلك النظرية بمجلة السراج، لاحقاً لتاريخ نشر
كتابه المذكور - ناسياً أنها ثابتة لي قبل تاريخ هذا النشر بزمن طويل - فادعى أني
نهبت وسرقت؛ وهأنذا باسط هذه المسألة للقارئين بسطاً يجعلهم يوقنون أن صديقي
هو الذي نهب وسرق؛ ثم أبى إلا أن يصحب ذلك بجاه عريض من الادعاء والتطاول
على رجالات الأدب قدماء ومحدثين، وإلى حضراتهم البيان:
قال الدكتور في كتابه (النثر الفني) من كلامه على نشأة المقامات: (وكان المعروف
أن بديع الزمان الهمذاني هو أول من أنشأ المقامات، ولم أجد فيمن عرفت من رجال
النقد من ارتاب في سبق بديع الزمان)؛ ثم قال: (وقد وصلت إلى أن بديع الزمان ليس
مبتكر فن المقامات، وإنما ابتكره ابن دريد المتوفى سنة 321، وإلى القارئ النص
الذي اعتمدت عليه في
تحرير هذه المسألة)؛ وهنا ساق النص الآتي:
قال أبو إسحاق الحصري حين عرض لكلام بديع الزمان: - كلامه غض المكاسر، أنيق)
الجواهر، يكاد الهواء يسرقه لطفاً، والهوى يعشقه ظرفاً؛ ولما رأى أبا محمد بن
الحسن بن دريد الأزدي أغرب بأربعين حديثاً، وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره،
واستنخبها من معادن فكره، وأبداها للأبصار والبصائر، وأهداها للأفكار والضمائر، في
معارض عجمية وألفاظ حوشية، فجاء أكثر ما أظهر تنبو عن قبوله الطباع، ولا ترفع له
حجبها الأسماع، وتوسع فيها إذ صرف ألفاظها ومعانيها في وجوه مختلفة وضروب
متصرفة، عارضها بأربعمائة مقامة في الكدية، تذوب ظرفاً وتقطر حسناً؛ ولا مناسبة
بين المقامتين لفظاً ولا معنى، وعطف مساجلتها ووقف مناقلتها بين رجلين، سمى
أحدهما عيسى ابن هشام، والآخر أبا الفتح الإسكندري؛ وجعلهما يتهاديان الدر ويتنافثان
السحر، في معان تضحك الحزين وتحرك الرصين، يتطلع منها كل طريفة، ويوقف فيها
أنتهي النص .(على كل لطيفة، وربما أفرد أحدهما بالحكاية، وخص أحدهما بالرواية
وأنا أؤكد لحضرات القارئين أن قول الدكتور (وكان المعروف أن بديع الزمان الهمذاني
هو أول من أنشأ المقامات) لم يكن المعروف وإنما كان المنكر الذي ينكره التاريخ
ويبرأ منه الأدب قديماً وحديثاً، وإنما هي مقدمة ساقها الدكتور باطلة ليبني عليها تلك
النظرية التي طنطن بها وعج. وليسمح لي صديقي أن أعيد على مسمعه ما سبق أن
رميته به من قلة الاطلاع، فإن ذلك النص التاريخي لم يكن هو الذي كشف عنه. وكيف
وقد كان نصاً معروفاً متداولاً نقله كثير من الأقدمين تدليلاً على أن البديع لم يكن
المنشئ الأول للمقامات، كابن خلكان وياقوت في كتابيهما وفيات الأعيان ومعجم
الأدباء، وكالشريشي في شرحه لمقامات الحريري. ولولا ضيق (الرسالة) في هذى
الظروف لنقلت نصوص هؤلاء الأعلام، ثم لذكرت غيرهم وأتيت على نصوصهم، في
سبيل نقض الدعوى التي ادعاها الدكتور، تلك التي أخجل أن أسميها دعوى بالمعنى
المعروف لأنها ظاهرة الفساد والبطلان، وليس للخصومة بشأنها أي مجال، ولكن
صديقي حين صادفه هذا النص وهو يقوم بما يقوم به في زهر الآداب - بتكليف من
طابعه الحاج مصطفى محمد صاحب المكتبة التجارية ولولاه ما كان عثر - أعتقد أنه
عثر على ما لم يعثر عليه إنسان، وأنه بهذا الكشف عن
ذلك الكنز: كنز توت عنخ آمون قد أصبح فارس ميدان أو فارس الميدان، وإذن فليجل
ويصل وليمش في الأرض مرحاً حتى يخرق الأرض أو يبلغ الجبال طولاً؛ ثم ليستمع
الناس له مرغمين ساكتين وهو يقول بعد القول الذي فندناه: (ولم أجد فيمن عرفت
من رجال النقد من ارتاب في سبق بديع الزمان إلى هذا الفن، وإنما رأيت من يعلل
سبقه بنزعته الفارسية) جاهلاً أن رجال النقد يأبون عليه ذلك إن كان قد عرفهم؛ فإن
تلك النظرية التي يزعم كشفها بيده وتقديمها للأدباء مخترعة ببحثه، معروفة للأدباء
الحديثين، ومدروسة منهم للمتأدبين. وها نحن أولاء أبناء دار العلوم فتحنا عيوننا أول ما
درسنا الأدب بتلك الدار على هذه النظرية المزعوم كشفها وتلقيناها على أيدي
أساتذتها في العُشر الأول من هذا القرن الذي أوشك أن ينتصف، أي منذ أربعين من
السنوات.

هذه هي الحقيقة ناصعة، ولكن ليس لي أن أتركها من غير دليل أقدمه لصديقي الدكتور، بعد الذي قدمه عن نفسه من أنه لا ثقة للناس في اطلاعه ولا علم لهم باتساع أفقه، وإذن فليتلق هذا الدليل من إحدى مذكرات المرحوم الشيخ أحمد الإسكندري، فقد كان يدرس تلك النظرية لطلبة دار العلوم قبل أن يكون الدكتور شيئاً.

قال رحمه الله في الصفحة 310 من مذكرة مطبوعة في الأدب العباسي لطلاب السنة المكتبية 1929 - 1930 طبعة أخيرة، وهو يتكلم على المقامات في ترجمة البديع ما نصه: (وكان ممن أعجبته هذه الطريقة - يعني طريقة المقامات - ابن دريد، فأراد أن يلقن نابتة زمانه اللغة والأدب في هذا النوع من الكلام. قال أبو إسحاق الحصري في كتابه (زهر الآداب): وقد ذكر أبا الفضل الهمذاني بديع الزمان - وهذا اسم وافق مسماه، ولفظ طابق معناه، كلام غض المكاسر، أنيق الجواهر) إلى آخر هذا النص الذي ادعى كشفه الدكتور ثم نقله في نثره معجباً به أيما إعجاب.

أصدقت إذن يا صديقي أنك كنت في قولك: (ولم أجد فيمن عرفت من رجال النقد من ارتاب في سبق بديع الزمان إلى هذا الفن) أجرأ منك في قولك السابق: (وكان المعروف أن بديع الزمان هو أول من أنشأ المقامات)

صدق صدق يا دكتور ثم أخل إلى نفسك واحسب عدد من درسوا في دار العلوم على هذا العالم الجليل حقبة تقرب من ثلث القرن؛ وما كان متوسط عدد كل فرقة على سنيه ينقص

عن الستين؛ فإذا ما حسبت علمت أن من يعرفون تلك النظرية من خريجي دار العلوم وحدهم، فما بالك بغيرهم، يناهزون الألفين بل يزيدون. ثم اذكر يا صديقي أن هؤلاء الخريجين يدرسون ذلك لتلاميذهم في مختلفات المدارس، وفيهم من درسوها لطلاب دار العلوم وطلاب كلية اللغة العربية؛ ودونوا هذا في مذكراتهم مفصلاً مبسوطاً، قبل أن تدونه أنت في كتابك موسوماً بسمة الاختراع؛ وأنا أحد من فعل ذلك لطلابي في المعهدين المذكورين منذ أن بدأت دراسة الأدب فيها سنة 32 - 33 وكتابك لم يطبع إلا سنة 34؛ وكذلك فعل زميلي وابن دار العلوم الأستاذ محمود مصطفى في كلية اللغة العربية التي لا يزال فيها إلى الآن.

الحق يا صديقي أنك كنت جريئاً إن صح أن يسمى جراءة هذا الادعاء؛ والحق أن الخجل كان قد رفع حينما زهوت بهذا الكشف المزعوم زهو الطاووس، فقلت أنك حين اطلعت عليه المسيو مرسيه بباريس دهش وعجب كيف اتفق الناس مع هذا على أن بديع الزمان هو منشئ فن المقامات، وأنه أتحفك بهذه العبارة بقولها لك من باب الإطراء وهي: (يظهر أنه ضاع علينا من تاريخ الأدب العربي شيء كثير)؛ ثم زدت في الزهو فنسبت إلى الدكتور طه حسين من العجب والدهش مثل ما نسبت إلى المسيو مرسيه، وأنه جال معك في حديث ألهمه إياه نبأ هذا الاختراع، ولم يك باقياً عليك إلا أن تذيع أخبار هذا الكشف على تيارات البرق وموجات الأثير.

والآن، أفما كان الأجدر والأولى بالأستاذ الإسكندري وأمثاله من المحدثين الذين سبقوا إلى هذا الكشف بسنين أن يدعوه لأنفسهم إن كان هناك اختراع؟ ولكن حاشا لهم وهم ممن يحترمون الحقيقة ولا يتغفلون السواد أن بدعوا دعواك. وأما كان لي أن أرميك - إذ رميتني بالسرقة والنهب - أنك أنت الذي افتريت ومني نهبت؟ ولكن حاشا ونحن كأساتذتنا نحترم الحقائق ولا نتغفل السواد، أن نفعل ما فعلت؛ فإنما الأمر مفهوم معروف، وأنت فيه المتأخر المسبوق. والذي لا شك فيه بعد هذا البيان أنك كذبت على القدماء، واغتصبت جهود المحدثين، ثم لم تتسلل لواذاً ولم تخلص نجياً كما يفعل السارقون، ولكن أبيت إلا أن تهلل وتكبر، وتتعالى وتتجبر، ثم تغالي بالزهو بنفسك، واجتذاب الإعجاب بك من غيرك، وإذا بالحق يصرعك وينتقم للأدب والجماهير منك. . .

وأني أستحلفك بالله يا صديقي

صادقاً، كيف وصفت نفسك إزاء ما سميتها نظرية وهي من البدهيات بما وصفت؟ أكان ذلك عن جهل منك إلى هذا الحد، أم هو تغرير وادعاء ليس من بعده بعد؟

وبعد فقد آن لي أن أكر راجعاً على كلمتك التي رميتني فيها بالسرقة منك بعد أن قبضت عليك متلبساً بالسرقة التي ادعيت، فأعلق على باقي ما ذكرت فيها بعبارات خاطفة؛ إن شئت بسطت كل عبارة منها في مقال كالذي سمعت:

1 - جعلت عنوان كلمتك (الهجوم الآثم على الشيخ سيد المرصفي) وهذا أمر غبت عنه

ولم تشهده فكيف أقدمت عليه قبل أن ينجلي لك؟ وإذا سوغك تطاولك أن تسميه هجوماً فكيف وصفته متسرعاً بالآثم فكنت الآثم بما وصفت؟

2 - تزعم أن الخطابات قد كثرت عليك في تحقيق ما ادعيته علي في حق الشيخ المرصفي، وأنا أجزم قاطعاً، وأحلف غير حانث، أنه لا خطابات؛ وإذا كانت فإنها لا تعدو ركب النميري الذي قال فيه:

فلما رأت ركب النميري أعرضت ... وكن من أن يلقينه حذرات

فلما سئل فيما كنت؟ قال والله إن كنت إلا على حمار هزيل ولي رفيق على أتان مثله

3 - تقول: (وكنت - أي لولا تلك الخطابات - أغفلت هذا الموضوع عن عمد، لأن الأستاذ السباعي له علي حقوق) وما كنت أفهم إلا أن تلك الحقوق إنما هي حقوق الصداقة، فإني لا زلت بها حفياً وعليها حريصاً، ولكنك جعلتها يا صديقي: (أنني كنت دائماً من أنصارك) وليس لمثلي أن ينخدع بخدعة الصبي هذه تسوقها إليه، فالحقيقة المرة التي أسمعك إياها الآن بعد أن طغيت زماناً ولم ترد، أنك ما كنت في يوم زعيما في الأدب حتى يصح أن يكون لك أنصار، وإنما زعامتك نسج عنكبوت حكته من حولك، وتركك الناس تلهو به وتلعب، ثم زدت هذه العلة أخرى تقول فيها: (ولأن مقام الشيخ المرصفي أقوى من أن يهدم بكلمة جارحة تساق إليه في إحدى المحاضرات). وإني أحذرك جريئاً على تحذيرك إن كنت تريدها خصومة أدبية بيني وبينك أن تترك الآن الشيخ المرصفي، فإن التحكك به لن يغني عنك بالموضوع شيئاً؛ وإذا ما صفي الحساب بيننا عدت أبين لك أن مكانة الشيخ المرصفي لا تعلو على النقد؛ وأن الذي يصفه ببعض ما وصف به المبرد لا يكون قد عدا الحقيقة، ولا تعدي على السلف الصالح، فإن المبرد على أية حال أعلم من المرصفي علماً، وآدب منه أدباً، ثم هو أدخل منه في السلفية الصالحة دخولاً يقوم شاهداً عليه عدد وافر من القرون.

4 - ورابعاً تقول: (ولكن سكوت الأزهريين عن الانتصار للشيخ المرصفي أزعجني وكنت أرجو أن يكونوا درعاً واقية لذلك الشيخ الجليل وهو رجل لم ير مثله الأزهر منذ أجيال طوال). وأنا أصدقك القول يا صديقي بغض النظر عن نصيب هذا التفضيل الذي أسبغته على الشيخ من الحقيقة والواقع، بأن عبارتك هذه من باب الاستعداء الذليل والملق الرخيص الذي ينقص منك ولا يزيد فيك، فقد فاتك أن الأزهريين يقدسون حرية البحث في دراساتهم أول ما يقدسون، وأنهم يرثون المبرد قبل أن يرثوا المرصفي، وأن ديدنهم في ماضيهم وحاضرهم يأبى عليهم إجابتك إلى ما تطلب، لما يحسونه في طلبتك من غرض وهوى، ولأنه إذا كانت هناك حقيقة اعتدى عليها كان من شأن هذا الاعتداء أن يحفزهم على نصرتها من دون صراخ لك فيها ولا استعداء منك بشأنها.

5 - وخامساً تعتبر مضايقتي بلاء لصداقتي، والسكوت عن المرصفي بلاء لأستاذيته، ثم تخرج من هذه الحيرة بنقل القضية من وضع إلى وضع، لتصيرها أدبية بعد أن كانت شخصية، ثم تعلن عن هذه الخصومة فإذا هي أمران، أحدهما زعمك أني زعمت الشيخ المرصفي قد سرق بعض أفكاري، وإهابتك بي أن أستعد للدفاع عن النظرية التي نهبتها من كتابك النثر الفني ونشرتها في مجلة السراج، والآخر أنني أستر جنايتي على المبرد بجنايتي على المرصفي، وأنك ستعرفني أن تهذيبي للكامل لم يكن إلا جناية أدبية، وأن التطاول على مقام الشيخ المرصفي لا يذهب بلا عقاب.

ورأيي لك يا صديقي في الأمر الأول، أمر سرقتي من نثرك إلى مجلة السراج قد سمعت فيه كلمتي الثانية هذه التي سقتها إليك بشأنه، واثقاً أن لك فيها دواء ناجعاً من الادعاء وشفاء شافياً من الغرور، وراجياً أن تكون أهلاً لثقتي هذه فيك.

أما رأيي لك عن الأمر الثاني فقد أنبأتك آنفاً بإرجائه إلى ما بعد كلمتي هذه والسابقة، لأنه موضع الخصومة وفيه سيكون النزال. وأني بهذه الخصومة لجد مسرور، أتدري لماذا؟ لأني سأعرضك فيها للجمهور على حقيقتك التي غشيتها ما غشيتها، وتسامح الناس فيها معك ما تسامحوا. وسيكون أول كشف لك فيما عملت، واقعاً على زهر الآداب، إن شاء الله،

لأنه دون سائر أعمالك أشبه بما عملت في تهذيب الكامل الذي عددته جناية أدبية، حتى إذا ما أخرجتك بمقالاتي فيه، معترفاً لي ببراءتي من هذه الجناية، ومعترفاً على نفسك بإجرامك على الزهر وصاحبه وعلى الأدب، انبريت إلى تصانيفك - التي لا شبه

لها عندي إلا أفراخ البغاث كثرة عدد وقلة غناء - أرد ما ليس لك فيها وهو أكثرها إلى مآخذه ذاكراً ما أوقعت فيه من تحريف، وأبين زيف ما هو من صنع يدك وهو القليل، بما لا مخرج لك منه أمام الناس لا أمام نفسك.

6 - بقي قولك في نهاية كلمتك إنك تكره البغي على أصدقائك وإن أمرك معهم لم يكن إلا شبيهاً بأمر أكثم بن صيفي (إن قول الحق لم يدع لي صديقاً) وما كان أكثم لك بشبيه، فإن الذي لم يدع لك صديقاً إنما هو دأبك على الباطل في كثير مما تبحث، وبغيك على حق الصديق في جل ما تنقد، حتى لقد أمللت ومللت. ولقد حدثتني نفسي أن أكون فيما بغيت عليّ عاملاً بالآية (ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور) كما فعل كثير، ولكني رأيت في بعض وجوه الحزم - وأنت عالم بالوجه الذي رأيت - أن أحيد في معاملتك عن تلك الآية السمحة إلى هذه الآية العادلة (ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل) وحقاً لا تثريب عليّ ولا سبيل (إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم)

وإليك يا صديقي سلامي حتى ألقاك في مقالي المقبل بالدفع العنيف لما كتبت في العدد الماضي مصحوباً بالهجوم الأعنف على ما صنعت بزهر الآداب.

السباعي بيومي

في العقد

لأستاذ جليل

- 1 -

طالعت الجزء الأول من كتاب العقد الذي أظهرته في هذا الوقت لجنة التأليف والترجمة والنشر، أو دولة العلم والأدب والفضل في مصر، وضبطه العلماء الإجلاء: الأستاذ الكبير أحمد أمين، والأستاذ الفاضل أحمد الزين، والأستاذ الفاضل إبراهيم الإبياري، فرأيت في هذه الطبعة الرائعة تحقيقاً كثيراً، وفضلاً في الشروح والتعاليق كبيراً. وقد عثرت على أشياء في هذا الجزء في أربع مئة صفحة كنت أعاين ضعفها (والله) في صفحة واحدة من تلك الطبعات القديمات الخبيثات. ولا ريب في أن أكثر الخطأ في طبعة اللجنة إنما هو تطبيع، وإن لم يرد في جريدة الإصلاح، وسأكتب في هذا (الإملاء) معظم ما وجدت غير متبع ترتيب الأقوال في صفحاته.

1 - قال الشنفري (119) ص:

إذا حُملتْ رأسي وفي الرأس أكثري ... وغودر عند الملتقى ثَمَّ سائري

وجاء في الحاشية: في 1: احتملت. وفي عيون الأخبار: هم ضربوا وفي البخلاء: إذا ضربوا

قلت: هذا البيت في مقطوعة (ثلاثة أبيات) رويت في العقد وفي ديوان الحماسة، ورواية أبي تمام: (إذا احتملوا)، وفي شرح التبريزي: (ويروى إذا احتملت)، واللفظة غير مشكولة. وإذا صحت هذه الرواية، فالفعل مبني لما سمي فاعله، فيعود الضمير إلى (أم عامر) في البيت قبله في أول المقطوعة:

لا تقبروني إن قبري محرم ... عليكم ولكن ابشري أم عامر

أو إلى شيء حذفه أبو تمام، فقد كان يختار من قصيدة طويلة بعض أبياتها. وضبط (حملت) بالبناء لما لم يسم فاعله مشكلة أي مشكلة، بل مصيبة. . . إذ يؤنث بها (وطن النهى) والرأس في أقوالهم في جميع أزمانهم مذكر. قال التاج: اجمعوا على أن الرأس مذكر.

ويلوح لي أن صاحب هذه الأبيات هو صائغ اللاميتين: لامية الشنفري ولامية تأبط شرّا. .

في الرثاء، وأولها:

إن بالشعب الذي دون سلع ... لقتيلاً دمه ما يُطل

قال التبريزي: (إنها لخلف الأحمر وهو صحيح)؛ وقال أبو علي في أماليه: كان أبو محرز أعلم الناس بالشعر واللغة، وأشعر الناس على مذاهب العرب. حدثني أبو بكر بن دريد أن القصيدة المنسوبة إلى الشنفري التي أولها:

أقيموا بني أمي صدور مطيكم ... فإني إلى قوم سواكم لأميل

له، وهي من المقدمات في الحسن والفصاحة والطول؛ فكان أقدر الناس على قافية.

قلت: وأبو بكر بن دريد كان خير خلف لخلف ولمن سلف من الصواغين المزخرفين،

فصنع ما صنع، وأمالي القالي ملآنة مما ابتدع.
2 - ص (361) ودخل أعشى ربيعة علي عبد الملك ابن مروان، وعن يمينه الوليد، وعن يساره سليمان، فقال له عبد الملك: ماذا بقي يا أبا المغيرة؟ قال: مضى ما مضى وبقي (ما بقى) وأنشأ يقول. ورويت مقطوعة بيتها الرابع هو هذا:
وإن فؤادي بين جنبي عالم ... بما أبصرت عيني وما سمعت أذني
وجاء في الحاشية: زيادة (ما بقي) يقتضيها السياق وألذ في ب: مضى وبقى
قلت: جاء في شرح الحماسة للتبريزي:. . . فقال له: يا أبا المغيرة ما بقي من شعرك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، لقد بقي منه وذهب، على أني الذي أقول. . . الأبيات.
وقوله: ذهب أي ذهب منه، وهو قول حلو محكم. والبيت الرابع هذه روايته في الحماسة:
وإن فؤاداً بين جنبيَّ عالم ... بما أبصرت عيني وما سمعت أذني
قال الإمام التبريزي: (نكَّر فؤاداً لأنه باتصال قوله بين جنبيّ - اختص، حتى علم أنه قلبه من بين القلوب) وقد ائتم المتنبي بهذا الشاعر في قوله:
وفي الناس من يرضي بميسور عيشه ... ومركوبه رجلاه والثوب جلده
ولكن قلباً بين جنبي ما له ... مدى ينتهي بي في مراد أحده
وتنكير فؤاد الرَّبعي وقلب الكندي في هذا المقام - من ألطف الكلام.
3 - والدهر (أطرقُ مستتب) (ص 367)
وجاء في الحاشية: كذا ورد هذان اللفظان (أطرق مستتب) في الأصول والأغاني (ج 18
ص74 طبعة بولاق)، وكذلك في النسخة الخطية ولم تتبين معناهما.
قلت: هذا القول من أمثالهم، وقد رواه الميداني في (مجمع الأمثال)، وقال في تفسيره: أي مطرق مغض منقاد. وفسره في مكان آخر بقوله: الطرق استرخاء وضعف في الركبتين، والاستتباب: الاستقامة: يريد أن الدهر تارة يعوج وتارة يستقيم
قلت وأطرق في التفسير الأول مبني من (أفعل) قال الرضي: وعند سيبويه هو قياس من باب أفعل مع كونه ذا زيادة، ويؤيده كثرة السماع، ومجوزه قلة التغيير لأنك تحذف منه الهمزة وترده إلى الثلاثي، ثم تبني من أفعل التفضيل، فتخلف همزة التفضيل همزة الأفعال، وهو عند غيره سماعي مع كثرته.
4 - فلا تجعل بيننا وبينك الأسدة (ص367)
قلت: لا تجعلن بجنبك الأسدة. وهو من أمثالهم. قال الميداني في كتابه: هذا مثل يقع فيه التصحيف، فقد روى بعض الناس: لا تحفلن بجنبك الأشد، وتمحل له معنى يبعد عن سنن الصواب. وقد تمثل به أبو مسلم صاحب الدولة حين ورد عليه رؤبة بن العجاج، وأنشد شعره ثم قال له أبو مسلم: (إنك أتيتنا والأموال مشفوهة، والنوائب كثيرة، ولك علينا معول، وإلينا عودة، وأنت لنا عاذر، وقد أمرنا لك بشيء وهو وَتِح. فلا تجعلن بجنبك الأسدة، فإن الدهر أطرق مستتب)؛ ثم دعا بكيس فيه ألف دينار فدفعه إليه.
قال رؤبة: فو الله ما أدري كيف أجيبه. . . قال الجوهري: السد بالفتح واحد الأسدة، وهي العيوب مثل العمي والصم، جمع على غير قياس، وكان قياسه سدوداً، ومنه قولهم: لا تجعلن بجنبك الأسدة، أي لا يضيقن صدرك فتسكت عن الجواب كمن هب صمم أو بكم. . .
قلت: كان أبو مسلم من كبار البلغاء الفصحاء. أورد الإمام الزمخشري في الكشاف قراءة له في تفسير الآية الكريمة: (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق. ومن قُتِلَ مظلوماً فقد جعلنا لوليِّه سلطاناً، فلا يسرفْ في القتل، إنه كان منصوراً) فقال: (وقرأ أبو مسلم صاحب الدولة: فلا يسرفُ بالرفع على أنه خبر في معنى الأمر، وفيه مبالغة ليست بالأمر.
وهذا الخبر في الكشاف يدلنا على مكانة أبى مسلم في العربية وقدره العظيم عند جار الله.
ووصف المدائني أبا مسلم - كما نقل ابن خلكان - فقال: كان قصيراً أسمر، جميلاً حلواً، نقي البشرة، أحور العين، عريض الجبهة، حسن اللحية وافرها، طويل الشعر، طويل

الظهر، قصير الساق والفخذ، خافض الصوت، فصيحاً بالعربية والفارسية، حلو المنطق، راوية للشعر، عالماً بالأمور، لم يُر ضاحكاً ولا مازحاً إلا في وقته، ولا يكاد يقطب في شيء من أحواله، تأتيه الفتوحات العظام فلا يظهر عليه أثر السرور، وتنزل به الحوادث الفادحة فلا يرى مكتئباً، وإذا غضب لم يستفزه الغضب.

وكان أبو مسلم ينشد في كل وقت:

أدركت بالحزم والكتمان ما عجزت ... عنه ملوك بني مروان إذ حشدوا
ما زلت أسعى بجهدي في دمارهم ... والقوم في غفلة بالشام قد رقَدوا
حتى طرقتهم بالسيف فانتبهوا ... من نومة لم ينمها قبلهم أحد
ومن رعى غنما في أرض مسبعة ... ونام عنها تولي رعيها الأسد

بين عامين

. . .سراب وأمل

للأستاذ شكري فيصل

- 1 -

رجعت اليوم مبكراً إلى غرفتي المتواضعة في الضاحية النائية، في موكب من الوحدة والصفاء والانطلاق، فلم يعد يحلو لي أن أطوف في أرجاء المدينة، أو أذرع شوارعها العابسة بعد أن لفّتها الظلمة، وغيض منها النور، وكرهت نفسي هذا الرداء الأسود ذا النجوم الزرقاء الكابية الذي يضفونه على جنباتها الزاهية، فلم أجد إلا مصباحي وزاويتي. . . أعوذ بهما من شر الظلام الحالك.

جلست إلى جوار النافذة أرقب النهار المدبر. لقد تجهمت السماء، وأخذت تودع ألقها الصافي، وانتشرت في أطرافها البراقع القاتمة كأنها نذر الليل الزاحف. . . ولم يبق من الشمس إلا تلك الشعاعات الجريئة القوية التي أبت الهزيمة، وكرهت الفرار، فوهبت دمها القاني لهذا الطرف البعيد من الأفق كآخر ما تملك من فداء وتضحية!! لشد ما يأسرني الغروب. .! إني لأجد له في نفسي أجمل الوقع. أترى كان ذلك لأنه يذكرني آمالي الغاربة التي بددتها الريح وابتلعها اليأس؟

- 2 -

كان كل من في الضاحية يتشح بالسكون، ويغرق في الصمت، ويدعو إلى التأمل. . . هذه الأرض الحلوة الطيبة تضم ذراريها التي تفتحت عنها من الخضرة الزاهية، وتنام معها على هدهدة المساء؛ وهذا النخيل القائم، يرتكز إلى نفسه، كأنما ملَ هذا الانتصاب؛ والشارع الطويل الممتد، كأنما كان طريقاً في صحراء لا يقطعه إنسان، ولا تجوزه مركبة، ولا تخترقه سيارة؛ وهذه الخرافة الصغيرة في أرض الجارة العجوز قد اطمأنت إلى حظيرتها الناعمة. . . لم يبق أحد أو شيء. . . إلا أنا. . . أنا وهذه الساعة التي لا تني تتحدث وتتحدث.

- 3 -

واستغرقت في هذا التأمل، وأصغيت إلى هذا الحديث، وأحسست له معنى جديداً. لقد كنت أستمع إليه في الصباح وعند الظهيرة وفي المساء، فلم يكن ليحظى بشيء من انتباهي إليه وإصغائي له، ولكنه يلقي إلي الآن معنى رهيباً أجد له في نفسي ألواناً من الصدى، وأنواعاً من التأثير، ثم هو يقترن إلى هذه الشعاعات الأخيرة الذاهبة في الفضاء فيكون معها شيئاً رائعاً ينفذ إلى أعماقي، ويستثير فيها الذكريات الجاثمة التي احتضنها الألم وغشاها الحزن.

أيظل الإنسان رهن هذه اللفتات النفسية التي تصرفه عن دنياه، وتباعد بينه وبين أجوائه، وتقذف به في عوالم مواجة، وتطيح به هنا وهناك ألعوبة في يدها. يذكر كل شيء وينسى كل شيء، ثم لا يخرج من هذا الذكر والنسيان بغير الابتسامة الفاترة أو النظرة القلقة أو الأمل المريض.

وتثاءب الكون، فسرت في جسم الأرض نسمة هادئة اهتز معها العشب الأخضر، وانثنت لها أغصان النخيل ورقص قرص الشمس المضطرب في كبد الأفق وهو يغوص في بحر اللانهاية.

- 4 -

في هذه الساعة كانت تتمثل آخر معارك النور والظلمة على مشهد الكون. لقد ظلت هذه المعارك أياماً كثيرة ما أطولها! لقد امتدت مع العام الراحل كله، تسجل غدر

الزمان وغلبة الشر وتظهر هذا الإنسان المتفائل على مكاره الحياة ومصاعب الدهر، ولكنه يأبى إلا أن يسرف في التفاؤل، ويُغرق في الضحك، ويرى الحياة بعيني طفل غرير.

وأصغيت من جديد إلى حديث الساعة، كما أصغي لوحي الحنين حين يهيج بي الشوق، وعجبت لنفسي كيف تأخذ على هذه التمتمات الخافتة كل مشاعري وانتباهي، أكان ذلك لأنها نشرت لعيني حديث الماضي، وطوفت بي في ثنايا العام، ووقفت بي عند هذه اللحظات من سنة خلت، حين كنت أرقب مطلع الشمس من ضمير الأفق ومنبت البذور في مغرس الأمل، وحياة النعيم في دنيا الشقاء؟ أم كان ذلك لأنها تريدني أن أعب من هذا النور المرتجف قبل أن يخنقه الظلام، وأتزود بهذه الحرارة قبل أن يودي بها العدم، وأشهد ساعة الوداع قبل أن يطغي الليل؟!

سواء لدي الأمر فلقد أثرت أيتها الساعة القابعة في طرف الغرفة كل شجوني فاستفاقت على أنغامك العذبة ذكرياتي الغافية كما تستفيق جماعة الطير على أنداء الفجر، وتحركت نفسي الراكدة على نبراتك الساحرة كما تتحرك صفحة الماء في استقبال النسيم، وأحسست حرارة الحياة حين خضت على هدى منك هذا الفضاء الذي أخلفه ورائي في العام الراحل.

لقد كنت أتجنب أن أنظر إليه، لأنه يرهبني أن أرى الزهرة الناظرة تذوي في الكهف المظلم، والبرعم الحلو ينطفئ في رطوبة الفناء، والشعلة المقدسة تخفت في مهب الريح العاتية.

- 5 -

في مثل هذه اللحظات من العام الماضي كنت اقتطفت هذه الزهرة من روضة الصبي فغرستها في أرض الحياة، وسقيتها بماء الأمل، وغذيتها بالأماني، وانتظرت ثمرتها الغضة. . . ولكن الحياة التي ألفت الغدر وعشقت الشر، تريد أن تمنع عني الأريج وتحول بيني وبين الثمرة!

وفي مثل هذه اللحظات من العام الفائت، حملت يداي المصباح الذي يستمد حرارته من دم القلب، ونوره من شعاع العقل، وطوّفت به أنشد الهدف وأرنو إلى الغاية. . . ولكن السبيل ما تزال تملؤها العقبات، وتعترضها الحواجز، وأنا أمضي وأمضي. . . ثم أجدني حيث كنت. . . كأنما أدور حول محيط الدائرة دون أن أستطيع بلوغ مركزها، والمصباح يرف رفيف الأمل المنكسر، كأنما يظهرني على خفقات القلب الآيسة من هذا الطواف الممل. . .

وفي مثل هذه اللحظات أيضاً مددت يدي إلى الحياة، في نفسي السرور، وعلى وجهي البشر، وفي يميني الحق. . . وانطلقت أصافحها، تملأني الثقة، ويزدهيني المستقبل، ولم أفطن لهذا العطاء الناعم الذي كان يكسو يدها ويربق عليها مظاهر الفضيلة. . . ثم أدركت بعدُ أن القفاز يستر الشوك، وأن الشوك ينطوي على السم، وأن السم يكيد للحق ويخنق المستقبل.

لقد أدركت الآن لماذا كان لدقات الساعة في هذه اللحظات مثل تلك الروعة وذاك الأثر. . . لقد كانت توقع بنبراتها الهادئة رنين الأمل الهادي في قرارة اليأس، وتمثل حشرجات الأماني في صدر الزمن، وتبكي بنغمتها المؤثرة العام الراحل. . . وكانت تستفزني أن

أرفع بصري إلى السماء، وأدير نظري في الكون لأشهد هذا الوداع. فما كنت أستطيع أن أرى شيئاً، فقد اختلط عليّ الأمل واليأس، كما يختلط قتام الليل بوضح النهار، وتساوى عندي الأمس واليوم، كما تساوى الماضي والمستقبل في عمر الدهر، وأحسست في نفسي فراغاً كبيراً ممتلئاً بكل شيء ويتسع لكل شيء. . . يتجاوب فيه كل صدى، وترن فيه كل نغمة. . . ثم تضيع فيه هذه الأشياء والأنغام والأصداء، كما تضيع هذه الأشعة في كهوف الأفق.

- 6 -

إني لأفتح عيني الآن فلا أرى شيئاً، لقد امتزجت في أذني الأصوات المنبعثة عن حداء الزمن، وضحك الأمل، وصعقات العاصفة، كما اختلطت في عيني الأنوار المنبعثة من جوف الماضي وغياهب الآتي، وصفحات الحاضر. . . فما تغريني دقات الساعة لأن الزمن لم يعد شيئاً في حياتي، فقد أسفت للزمن، وما تبكيني الشجون، لأن اليقين قد

طوى الألم، وما ينتابني القلق، لأن الإيمان يصرع الهواجس.
سأقتطف الزهرة الجديدة من قلب الصبي الناعم. . . وسأغرسها في رعاية الله وحنانه وبره، وستمتد يدي من جديد لتصافح ملائكة السمو والمجد، وسأحمل المصباح، يستمد نوره من الإيمان واليقين، وسأنشد الغاية رضى النفس، وسأقطف الثمرة، تباركها يد الله، وأحقق الهدف يهدي إليه نور الله. . .
في طرف الأفق، كانت تُغيب الأرض غلالة النور وفي كبد الجو كانت تطلع السماء أنوار النجوم، وتبعث شعاعاتها المهتزة على الأرض المكروبة، تبشرها بالنور الطالع والفجر القريب، وفي الحاشية البعيدة، كان يرقص خط دائر من النور. لقد طلع الهلال، وولد العام، فعاشت معه آمال، وانتعشت أماني وضحكت نفوس.
(القاهرة)
شكري فيصل
الفنون وضمائر الشعوب
للأستاذ سيد قطب
حين تفسد الفنون في أمة من الأمم تفسد فطرتها، والعكس صحيح، فما تفسد سليقة الأمة حتى تتبعها الفنون؛ ومن هنا كان اهتمامنا بمكافحة (الغناء المريض) لأننا نكره لهذا الشعب أن تفسد فطرته، كما نكره له أن يكون عنوان هذه الفطرة هو هذا الغناء.
والموسيقى والغناء أمسُّ بضمائر الشعوب من سائر الفنون، فقد يكون الأدب كما يكون النحت والتصوير لغة جماعة من خواص المثقفين المدبرين على الإحساس والفهم، أما الموسيقى والغناء فهما لغة البداهة والتعبير المباشر عن أعماق السليقة نعم إن الطبائع تتفاضل في فهم الموسيقى والغناء والحس بهما، ولكن يبقى مع ذلك فارق أصيل بين السلامة - وهي أولى درجات الفنون، والمرض - وهو لا يلتبس على طبيعة مستقيمة أو فطرة سليمة.
ونحن لا نتطلب من الملحنين والمطربين اليوم سمواً في التعبير عن الفطرة الإنسانية ولا امتيازاً في الإحساس على الجماهير، ولكننا نقنع فقط بالسلامة في الشعور الإنساني، بل نتواضع فنقنع بالسلامة الحيوانية، غير أننا لا نجد حتى هذا المطلب المتواضع فيما يذيعونه من أغنيات ولحون.
ويبدو أننا مبالغون فيما نطلب من هؤلاء الناس، وأنه تكليف مجهد لطبائعهم ولثقافتهم ذلك التكليف الذي نسومهم إياه. وإذا كانت هناك بارقة من أمل فلن تكون من محاولة توجيههم أو تقويم فطرتهم أو رفع مستوى إحساسهم؛ فذلك ما لم يتهيئوا له، ولكن المحاولة يجب أن تتوجه إلى وخز طبيعة هذه الأمة، فإن كان فيها خير عافت هذا الترجيع وانصرفت عن هذا الترنيم، وإلا فقد (وافق شن طبقة) وعفاء على الجميع!
ووجه المبالغة فيما نكلفه هؤلاء الناس أن الموسيقى والغناء مهما يكونا لغة الفطرة وتعبير البداهة، فهما في حاجة إلى طبائع سليمة، وتلك موهبة لا يؤتاها إلا القليلون وإن كانت تبدو حقاً مباحاً للجميع، وفي حاجة إلى ثقافة عقلية ونفسية كذلك وإلى فهم أو إدراك لدُني لمهمة الفنون، وتلك شقة بعيدة علة نشأة هؤلاء القوم، وآفاق لم يفتحوا أعينهم عليها ولم يتطلعوا مرة واحد إليها.
الفن - شعراً كان أم تصويراً أم غناء أم موسيقى. . . - هو (صورة الكون في نفس إنسان) وهو (تبلور الحياة في حس فنان) فهل ترى حين تقول هذا الكائن من كان من المشتغلين بالموسيقى والغناء في مصر يحسبك تتحدث بلغة مفهومة أم يفغر فاه عجباً من هذه اللغة الغريبة التي لم يسمع بها في لغة أبناء هذا الزمان ولم يحس لها تفسيراً في نفسه وهو يعالج ما يعالج من ألحان؟!
الموسيقى والتلحين، هما هذا الذي يدرسونه في معهد الموسيقى الشرقي من السلم الموسيقي والمسافات في النوتة والتوفيقات التوقيعية بين وزن القطعة التي بين يدي الملحن وبين النغمات التي تناسبها - أيا كان معنى هذه القطعة وجوها الفني فذلك آخر ما يفكر فيه الملحنون. فإن خرج (موسيقار مجدد) عن هذه الحدود، فإلى بعض الألحان الإفرنجية وبعض ألحان سيد درويش: سرقة واقتباساً وتمزيقاً وتشويهاً، ويا ليتها سرقة صريحة واضحة ولكنها (مرمطة) لهذه الألحان المسروقة حتى تلين وتتكسر وتتخلع وتناسب هذه الدغدغة الماجنة التي يدعونها تجديداً في التلحين.
هذه وتلك آفاق المشتغلين بالموسيقى والغناء في مصر، فما تكون إذن (صور الكون

في نفس إنسان وتبلور الحياة في حس فنان)؟ ما يكون هذا الكلام الذي يشبه المعميات والألغاز عند هذه النفوس الضعيفة الصغيرة، وهذه العقول المسكينة المحدودة؟!

بلغتني قصة طريفة عن مولد قطعة غنائية يتميع بها شبان البلد وشوابه في هذه الأيام، ولست متأكداً من صحة جميع تفصيلات هذه القصة ولكنها ليست بعيدة التصديق ولا متعارضة مع المعروف عن هؤلاء (الفنانين)!

قال مغني القطعة لمؤلفها: ما رأيك في (ما يهونش) ألا ترى أنها تكون (مؤثرة)؟ قال المؤلف: تكون!. قال المغني: وحياة أبيك تضع لنا عليها (طقطوقة). . . فكان هذه قصة لا أجزم بصحة تفصيلاتها هي بالذات ولكنها تتفق مع ما أجزم به من طريقة تأليف المقطوعات الغنائية وبواعثه وعن غناء هذه القطع وأسبابه في نفوس المؤلفين والمطربين، فليست هذه البواعث أحاسيس نفسية تبعث بالقطعة في نفس مؤلفها ألفاظاً وأوزاناً وفي نفس مغنيها نغمات وألحاناً.

فكيف يتأتى إذن لهذه الأغاني أن تكون شعوراً إنسانياً كريماً، أو شعوراً حيوانياً وتلك بواعث القول والغناء عند هؤلاء وهؤلاء!

ولكنني أغمط التأليف الغنائي حقه حين أسوي بين مستواه ومستوى التلحين والغناء في هذه الأيام، فنحن إذا تجاوزنا عن المؤلفين المحترمين الذين يطنون كالذباب حول المطربين والمطربات نجد آخرين من كرام الشعراء ومشهوري الأدباء قدموا بعض مقطوعاتهم للغناء، ولكنها خرجت من يدي الملحن جثثاً هامدة بعد إخضاعها للنغمات المحفوظة والترنيم الممجوج.

ولو سارت خطوات الموسيقى والتلحين في مصر على هدى خطوات الشعر، لكان لنا فن موسيقي محترم، ولكُنا شيئاً في رقعة العالم العريضة التي تموج بالفنون الحية، بينما نحن منها في الرميم.

ولا زلت أذكر أن مطربة كبيرة مشهورة ذات صوت فريد في جوهره مستعد لأداء كل النغمات، كانت تغني في مناسبة بهيجة قطعة تفيض ألحانها غبطة، ولكني كنت أتصورها هناك وراء (الميكرفون) وهي تعتصر دموعها اعتصاراً وتنوح نوح المفجّع المكلوم!

وإذا ذكرنا الأصوات فلنعترف مرة أخرى أن لدينا منها ثروة لم نحسن استغلالها بالتلحين، كما لم نحسن استغلال ثروة التأليف، فالتلحين هو علة العلل، لأنه جوهر الإحساس الفني وموجّه الأصوات والأنغام، وهو في أيدي هؤلاء الفارغين المشوهي الفطرة، بل في يد هذا الحطام الآدمي الذي لا يقوى على إحساس الآدميين.

وكل لفظ مؤدب عف لا يكفي لتصوير جريمة التلحين على بعض المطربات والمطربين، وعلى سبيل المثال أذكر المطربة (أسمهان) ففي جوهر صوت هذه المطربة تعبير عن لذة الغريزة وفورة الجنس، وهو في نظر المعدمين من التعبير السليم مثلنا مكسب كالكعكة في يد اليتيم! لأن السلامة الحيوانية مطلب من المطالب البعيدة عنا في عالم الغناء، ولكن التلحين الغشوم لم ينتبه إلى هذه الخاصة في ذلك الصوت، فما هي إلا أغنية أو أغنيتان فيهما حتى تتوارى وراء التلحين المريض الشائه والتكسرات المغشوشة التي ينفر منها حتى الحيوان السليم!

وبعد فما كان لنا أن نأمل شيئاً في محترفي الغناء والتلحين، ولكن أملنا كله كما أسلفت في طبيعة هذه الأمة، وفي ضمائر القلة القليلة التي (لم تشرب من النهر) أن يثيرها الاشمئزاز

من كل ما ترجعه الأوتار والحناجر في هذه الأيام، وأن تدفعها حوافز البشرية الحساسة، فتقوم بالدعاية الواجبة في كل مجتمع وكل صحيفة ضد هذا الزيف الكريه.

ولقد حمدت للأستاذ (عبد الحميد يونس) المذيع بمحطة الإذاعة برنامجه المختار (نصف ساعة من الموسيقى الغربية) وهممت أن أرسل إليه - على غير معرفة - رسالة شكر وإعجاب بحسن اختياره للأسطوانات التي أذاعها لولا أن صرفتني عن ذلك بعض المشاغل العارضة.

وإني لأذكر ذلك اليوم علاجاً مضمون العاقبة للسامعين وجرعة منبهة إلى ما في الكون من تعبير رفيع عن المشاعر الإنسانية في الموسيقى العالية يجب تكراره وتكراره كل يوم ضمن برامج محطة الإذاعة لا بين الحين والحين.

وإني لأخشى أن يكون وقف هذا البرنامج ثمرة لمسعى بعض المشهورين بالغناء المريض، فقد كان في بعضه كشف لمواضع سرقاته وفي بعضه عرض لمثل حية رفيعة تعاف النفوس بجوارها فهم الرخيص.

سيد قطب

دراسة شاعر

جوفري شوسر

للأستاذ أحمد الطاهر

إذا أنست لهذا الشاعر وتذوقت شعره، فإنك واجد فيه صورة ناطقة لبلاد الإنجليز في العصور الوسطى، أو في القرن الرابع عشر الميلادي. وأجمل ما في هذه الصورة أن (شوسر) يمثل بأسلوبه البارع - الذي وصفنا في مقال سابق - نظرية اجتماعية أخلاقية، تتلخص في أن الغرائز الإنسانية باقية كما هي على مدى الدهر، لا تتغير ولا تتحول، وهي سواء في الناس جميعاً، وأما ما يكتنفها أو يخفيها من التخلق أو اكتساب العادات أو ما إلى ذلك، فما هو إلا عرض لا يتصل بجوهرها. خذ مثلاً رجال الدين - كما أراد شوسر - أولئك الذين هاجمهم في عنف وشدة، تر أنه لا يحفل بما يبالغ فيه بعضهم من إبداء النسك والتبتل والتظاهر بالتأبد والتنطس، وإنما يعمد إلى المسوح السوداء فيرفع إسدالها، وإلى المسابح فيقطع أوصالها، ثم يبرز لك الرجل من وراء ذلك إنساناً ككل الناس: يأكل ويشرب ويلعب ويطرب ويضطرب في كل شأن من شئون الحياة، كما يضطرب سائر الناس. فينزع إلى الهدى والرشد أحياناً، وإلى الغواية والعشوة أحياناً. والشاعر حين يتناولهم بقلمه، لا يصدر عن ضغينة في نفسه، ولا عن ميل إلى التندر والتظرف، ولا عن استخفاف بالدين، كلا، بل لقد كان هو من أكثر الناس تديناً وإغراقاً في الصلاح والتقوى. إنما هي أسباب أخرى لو سمعها اليوم (شوسر) لم يرض عنها، أو لم يعترف بها: فعصره كان عصراً تغلي فيه مراجل الثورة النفسية، يؤجج أوارها عناصر أربعة متنافرة متدابرة: الكنيسة والشعب والبرلمان والقصر.

ففي القصر إدوارد الثالث ثم ريتشارد الثاني يرهقان الشعب بالجبايات والإتاوات، ويسرفان في التمكين للأشراف وأصحاب الضياع من إذلال الدهماء عبيدهم ومواليهم يبتزون جهودهم ويستغلون نشاطهم، ولا أقول أموالهم فما كان للعبيد والموالي أموال ولا أملاك. والبرلمان يأنس في الملك ضعفاً وخوراً في حين من الأحيان، وجبروتاً غاشماً في حين آخر، وطراءة في الشباب في عهد من العهود فيحفز للنضال حقه المهضوم وسلطانه المكلوم وتغريه كثرته فيثور ثم يناوئ ثم يعتدي ثم يمالئ. كل ذلك على حساب الشعب؛

والشعب مرهق مغلول ضعيف مفلول يتلقى العذاب من ملك يرميه بالتمرد ويكديه بالجباية، ومن أمير أو شريف يتهمه بالكسل ويرهقه بالعمل. والكنيسة يطيب لها أن تثبت وجودها بأن تتهم الناس بالكفر والضلال وتعزو سوء الحال إلى إسراف الملك في سلطانه والحد من سلطانها فتصور الشعب فريسة أطماع الملك الضليل، وتصور الملك مغلوباً على أمره من شعب مغرق في الأباطيل، وتستعدي الشعب على الملك والبرلمان يوماً، وتستعدي البرلمان أو الملك على غيره يوماً آخر. وهكذا ألقيت بينهم العداوة والبغضاء وألبِسوا شيعاً وأذيق بعضهم بأس بعض. تلك أمة قد خلت.

وهناك نتساءل أين موضع شاعرنا من هذا المعترك المصطخبة أمواجه المتلاطمة أفواجه؟ كان من رجال القصر وسفرائهم ومن خدم الملك، فليس عجيباً أن نراه من رجال الدين في الموضع الذي رأيناه؛ وليس غريباً أن نراه يصورهم بالصورة التي تفزعهم وإن تلطف أو داجى، ولا يتعاظمنا أن ينظم قصة فيسلكهم في صدرها ساخراً مقذعاً متندراً: قال:

في عصر الملك الصالح أرثور كنت ترى بلادنا الإنجليزية مشرقة بالبشر رافلة في حلل النعيم تمرح في أرضها وغابها أميرات الجن تحوطهن صاحبات لهن من الخود الرعابيب، فإذا أمسى المساء خطرن على مروج الزهر، وإذا أصبح الصباح رأيت في الأرض ما تناثر من عقود الزهر التي نظمنها في حلقات رقصهن. وأما الآن فما بقي في الأرض إلا شحاذو الكهان والرهبان نفروا كل مليحة من أميرات الجن، وأفزعوا كل غضة من بنات الغاب، وملئوا المكان بعد أن كان زاخراً بالأميرات. كان أحد فرسان

ذلك الملك الصالح ممتطياً صهوة جواده وعلى وجهه سحابة من الحزن وغشاوة من الشجن فأفضى به التسيار إلى جانب من الغابة قد اتخذته أميرات الجن مرقصاً فركض إليهن جواده يلتمس عندهن شفاء من آلام نفسه وأوصاب صدره، فما أن رأينه حتى شردن وتوارين ولم تبق إلا عجوز شمطاء شوهاء قامت إليه وأخذت عليه السبيل ثم قالت: (أأكول في عونك أيها الفارس؟) قال: (نعم أيتها الجدة، وإن لم تفعلي لأكون من الهالكين) لقد سلفت مني بادرة لا تليق بالسادة الأشراف. أسأت إلى فتاة فحكمت علي الملكة بأن أقصي عن بلاطها سنة ثم أعود فأنبئها وفتياتها الغاضبات بجواب عن سؤال حيرتني به ألا وهو (ما أحب شيء للمرأة؟) فإن أعجبهن جوابي كنت سعيداً موفقاً، وإن أخطأني التوفيق فهنالك هلاكي. ولقد تصرم يا جدتي العام بعد أن التمست الجواب عند الأمهات والزوجات والعاتقات فما اتفقن على رأي ولا عرفن شيئاً واحداً هو أحب ما يحب النساء: قيل لي أن النساء يعجبهن الملق والمداجاة؛ وقيل لي أحب شيء إليهن الحب والهوى؛ وقيل بل الزواج وقيل المرح والطرب؛ وقيل التكريم والثناء، وقيل البذخ والثراء؛ وقيل غير هذا وأنا لا أزال حائراً مضطرباً. فهل عندك الجواب وعندي لك كل حاجة تريدين قضاءها وكل مطلب مجاب؟) قالت العجوز: (أتقسم أن لي كل حاجة عندك مقضية؟) قال: نعم. وأقسم بشرفه ليفيَنّ لها بما وعد: قالت: (هلم معي إلى القصر) وأفضت إليه في الطريق بالجواب. فلما بلغا القصر عقدت الملكة مجلساً ومثل أمامها الفارس وقالت له: (حياتك رهن بالجواب عن هذا السؤال: أي شيء أحب إلى المرأة سواء أكانت عانساً أم بكراً أم زوجة) قال الفارس: (ليس أشهى إلى المرأة يا صاحبة الجلالة من السيطرة والسلطان تشتهي السيطرة على زوجها وعلى بيتها وعلى ثروتها وعلى ضيعتها وعلى كل شيء وكلهن في ذلك سواء. أنتن أيتها النساء تردن الحكم، تردن التحكم في جميع الناس، تردن أن يكون لكن الأمر وعلى الرجال الطاعة.) وما فرغ من إلقاء جوابه حتى أمَّن الحاضرات عليه وغشيت وجه الملكة حمرة لا تخفيها. وهنا برزت العجوز وصاحت: (أنا يا مليكة صاحبة هذا الجواب لقنته إياه بعد أن أقسم ليأتمرن بأمري ويجيبن مطلبي؛ وهاأنذا بحضرتك أتَنَجَّزه وعده، وما حاجتي إلا أن يتزوجني) شده الفارس لهذا المطلب العسير الفظيع، والتمس إليها الوسيلة للخلاص من وعده، وأخذ يغري هذه العجوز بالثروة والنشب فما أغنى عنه ماله وما كسب، وكرهت الملكة أن تكون هذه الشمطاء زوجة لفارس من فرسان القصر؛ ولكنها آثرت ذلك على أن يدنس الفارس شرفه فينقض عهده وينكث وعده وأمرته أن يتزوجها. وبنى بها الفارس مكرهاً في ليلة لم ير أسود منها. ولم يخف عليها حنقه وغيظه إذ قال: (ليت مصابي بك كان عند قبح وجهك وكبر سنك، ولكنه تجاوز هذا إلى خسة منبتك وضعة شأنك) قالت العجوز: (أهذا كل ما يؤلمك - ألا تعلم أن شرف المنبت وطيب الأعراق ليست إلا ثروة عتيقة موروثة، وماذا يغني عنك حسبك ونسبك؟ إن كان لك مجد تليد فالفضل فيه لمن كسبه من آبائك وأجدادك؛ وإن كان لك مال قد خلفوه لك واسم كريم قد ألصقوه بك واعتمدت على هذين في طلب المجد والشرف، فما أخيب مسعاك وما أبعدك عن بلوغ القصد. المجد والشرف لا يشتريان بالمال. هأنذى امرأة وضيعة المنبت لا أملك طارفاً ولا تليداً، ولكنني لست امرأة سوء هل كان المسيح غنياً وهو مثلنا الأعلى في المجد والشرف؛ كلا بل كان جهده أن يفعل أفعال الكرام. أما قبح وجهي وكبر سني فإني أعرض عليك في ذلك اختياراً: أتريدني عجوزاً حصيفة الرأي أم فتاة ضالة في سبيل الحياة؟) قال الفارس: (الرأي لك أيتها العجوز العاقلة) قالت: (ألا ترى أنني بسطت عليك سلطاني وأخضعتك لأمري فأذنت لي أن أفعل ما أريد) قال: (نعم) قالت: (أنظر إلي واعجب لما تحولت إليه قسماتي) فنظر الفارس وإذا بالعجوز قد تحولت إلى فتاة نضرة غضة لم تقع عيناه على أجمل منها.

(الإسكندرية)

الصباغ

أحمد الطاهر

معركة السياسة بين هتلر وبيتان

للأستاذ يوسف شبلي

كان المحور الدكتاتوري في المدة التي سبقت إعلان الحرب في سبتمبر في سنة 1939، وفي المدة التي لحقت إعلانها لا يقوم على أساس مشترك في العمل بين طرفيه، أو تساو عادل في إبداء الرأي والقطع فيه، بل استقل بتوجيه المحور في أعماله وفي أفكاره طرف واحد دون الآخر؛ وتطور الأمر فيما يختص بأحدهما إلى احتلال المقدمة؛ وفيما يختص بثانيهما إلى الوقوف في المؤخرة؛ حتى أهمل أمره وهان شأنه في الكبيرة والصغيرة على السواء.

لقد حار الكل في تعليل الموقف في مظهره الجديد، وطارت الأفكار في تلمس المعاذير والأسباب كل مطار ومدار؛ فكثرت الاحتمالات، وتعددت الإشاعات، واجتهد القريب والغريب في الاستنتاج والاستخراج؛ ونشط الفهيم والعقيم في الإفصاح والإيضاح. إلا أن شيئاً واحداً انقطع دونه التفكير وجف عنده مداد التحبير، وهو أن يكون الضعف سبب الجمود، ونفاد الحيلة العلة الأصيلة في هذا الهبوط والقعود.

أليس من دلائل القوة أن يعمد الزعيم الإيطالي في كل مناسبة وغير مناسبة إلى الخطب الحماسية يلهب بها أعصاب سامعيه، حتى إذا انتهى من إلقاء الخطاب تأبط شباب الفاشست - وكلهم دون سن النضوج - منشورات مليئة بالقذف والبذاء في الإنجليز والفرنسيين، وهرولوا مسرعين إلى حيث يقيم السفير الإنجليزي فيقابلونه بالصفير والتهليل، وبإلصاق تلك المنشورات على سيارته وعلى دار سفارته!

بل أليس من دلائل القوة أن يعمد السنيور موسوليني في تقديم مطالبه ونشر مآربه إلى رأس المدفع فيتخذ منه مسنداً، وإلى جناح طائرة فيجعل منه مقعداً، ليكون من مجمل هذه المظاهر الجوفاء والحركات النكراء صورة لقوة زعيم ورمزاً لغضب الحليم!

ما كان أحد يتوسم في إيطاليا غير القوة والجبروت، حتى إذا أشرفت معركة فرنسا في الميدان الغربي على الانتهاء، وأعلنت إيطاليا الحرب على الحلفاء، طمعاً في كسب غير مشروع، ورغبة في غنم مأمون ومضمون؛ وحتى إذا فوتت إنجلترا على الدكتاتورية قصدها بإطالة أجل الحرب، وتعين على إيطاليا أن تقوم بدورها في القتال، تكشفت الحقيقة

السافرة عن ضعف تام في جميع ميادين الحياة والنشاط

وبينما أحد طرفي المحور يعاني من مرائر الهزائم المتوالية في ميادين القتال: ففي الميدان الشرقي انقلبت الجيوش اليونانية في الدفاع في بادئ الأمر إلى الهجوم؛ وانقلبت الحرب من البلاد اليونانية إلى الميدان الألباني في بضعة أيام. وفي شمال أفريقيا وشرقها، أحرزت الجيوش الإنجليزية انتصارات حاسمة في معارك فاصلة، فوصلت في الشمال إلى ما بعد بني غازي وأسرت ثلاثين ومائة ألف أسير، وغنمت كثيراً من عتاد القتال؛ كما توغلت في الشرق أميالاً عديدة في المستعمرات الإيطالية.

نقول بينما أحد طرفي المحور يعاني كل ذلك، إذا بالطرف الثاني يفشل فشلاً تاماً فيما كان يأمله من غزو الجزر البريطانية جواً وبحراً، وما كان يرومه من إنهاء الحرب في هذا الميدان؛ وكلما امتد الوقت بالحرب زاد استعداد الجزر البريطانية لملاقاة العدو إذا غامر بغزوها، حتى صارت فكرة الغزو اليوم مما لا يمكن تحقيقه أو الإقدام عليه.

وهنا وجب على إيطاليا أن تطلب المساعدة الألمانية لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من حطام ومخلفات. . . كما وجب على ألمانيا أن تبحث في ميدان جديد تقهر فيه إنجلترا، يكون أقل مناعة، وأضعف حصانة.

ولما كان أمام الألمان خطة واحدة يجب عليهم أن يسلكوها، وهي أما الاتجاه شرقاً، والانتقال بالحرب إلى البلقان، ثم إلى الشرق الأدنى، وأما الاتجاه جنوباً، لتجربة خطة الغزو بحراً في ميدان ضيق إلى شمال أفريقيا؛ فقد وجدت في هزيمة حليفتها واضطرارها إلى طلب المساعدة الفرصة المرتجاة؛ فتسللت الجنود الألمانية إلى شمال إيطاليا، واحتلت أسرابها الجوية جميع المطارات لتعمل هذه القوات في ميدان البحر الأبيض المتوسط، وتمنع النجدات البريطانية في حالة الاتجاه شرقاً، أو الاتجاه جنوباً.

غير أن المطارات الإيطالية، صار يقابلها في ليبيا بعد الانتصارات الإنجليزية الأخيرة عدد مضاعف من هذه المطارات، مما يجعل التفوق للقوات الإنجليزية في هذا الميدان إذن يجب البحث عن قواعد بحرية وجوية تطل على البحر الأبيض المتوسط لضمان

التفوق والاطمئنان على نجاح التجربة الجديدة.
لكن كيف السبيل إلى ذلك، ولم يبق إلا أسبانيا وفرنسا. أما أسبانيا فقد قال جنرالها للهر
هتلر: إن للبحر الأبيض بابين، أحدهما غربي، والآخر شرقي؛ فإذا تمكنت من إقفال الباب الشرقي، فكرت في مساعدتك في إقفال الباب الغربي في جبل طارق، وهذا رد لا يفوت معناه ومغزاه على لبيب.
اتجه الهر هتلر إلى فرنسا، فهي أولى بأن تتحمل نتائج الهزيمة، وغرم الانكسار. فكاشف المسئولين من رجال حكومة فيشي بأغراضه ونياته، من الاستيلاء على المواني الفرنسية، في فرنسا غير المحتلة وفي المستعمرات؛ ومن انضمام وحدات الأسطول للعمل مع الأسطولين الألماني والإيطالي، ضارباً بشروط الهدنة التي حفظت لفرنسا أسطولها ومستعمراتها ناحية الأفق؛ فأبى عليه المريشال بيتان وصحبه أن يجيبوه إلى هذه المطالب والأغراض؛ وابتدأت المعركة السياسية بين هتلر وبيتان، تلك المعركة التي كانت منذ شهر يونيو من السنة الماضية، تتفاوت بين مظاهر اللين والشدة، وبين الاعتدال والاحترام، تبعاً لتطورات الحال، وظهور المفاجآت بين آن وآن. ففي الأيام التي تلت انكسار فرنسا في الميدان الغربي، كانت هذه المعركة بين ألمانيا وفرنسا، تعلوها مسحة من اللين والتهاون، حيث كان الزعيم الألماني يمني نفسه بقرب غزو إنجلترا، والدخول إلى قصر بكنجهام، إذ يشرب فيه نخب الانتصار! وأما اليوم، وقد أغلقت جميع الأبواب، وسدت كل المنافذ والفتحات؛ ولم تعد يد تمتد إلى الزعيم الألماني بالمصافاة، فقد تطورت المعركة بينه وبين بيتان إلى احتدام عنيف، وصفته التلغرافات بأنه نضال البقاء أو الفناء.
والحقيقة أن الهر هتلر يحسب حساباً خاصاً للفرنسيين، لما يعرفه عنهم من حدة المزاج، ولما يعلمه تمام العلم من استعداد المستعمرات لاستئناف القتال ضده عند الإشارة الأولى. لذلك جاملهم كثيراً في بداية الأمر، وحاول جاهداً أن يستدرجهم إلى داخل الدائرة الألمانية بالحسنى ولين الجانب. ولم يطرق بابهم بشدة إلا عندما أفزعته الحوادث، ووصل إليه فعل التيارات الآخذة في الاقتراب منه. حتى لقد فضل أن يلج الباب الإيطالي، بحيلة هتلرية، تحت ستار المساعدة ومباشرة عملية الإنقاذ، قبل أن يطرق الباب الفرنسي، ويلح في طلب ولوجه.
وإذا كانت الأنباء قد أجمعت على القول بثبات المرشال بتان أمام تهديد الألمان، ورفضه
إجابة مطالبهم، معرضاً فرنسا لما يحتمل أن تتعرض له، من ظروف قاسية، لن تكون بحال أقسى مما هي عليه الآن؛ فليس الغريب أن تأتينا الأنباء بمثل ذلك، بل الغريب أن يجيب المريشال بتان هذه الطلبات، ويستسلم للتهديدات، في وقت وضح فيه الطريق أمام الحلفاء، واتسعت فرجات النور وسط الظلام الذي كان مخيماً على أوربا عند عقد الهدنة بين الفرنسيين والألمان.
إن العوامل التي ترغب الفرنسيين في استئناف القتال، وتحفزهم إلى تجديد النضال، كثيرة وعديدة. تجد هذه العوامل في ثبات البريطانيين، وظهور قدرتهم التامة على الوصول بالحرب إلى نتيجة مرضية. وفي موقف أمريكا التي وعدت رسمياً بمساعدة الحلفاء مساعدة لا تسمح لدولتي المحور بالانتصار بأي حال من الأحوال؛ كما أن القانون الذي يطلق يد الرئيس روزفلت في العمل، على وشك أن يفوز بالإقرار في مجلس الكونجرس. وفي شجاعة اليونانيين، واستبسالهم في الهجوم في الميدان الألباني وفي الانتصارات الباهرة التي أحرَزتها الجيوش الإنجليزية في ميادين الحرب الإفريقية الثلاثة، مما يبشر بضياع الإمبراطورية الإيطالية قريباً. وفي موقف الدول التي لم تدخل الحرب بعد، ولكنها أعلنت في صراحة تامة عن عزمها على الدفاع عن كيانها ضد كل من توسوسه نفسه بمباشرة الاعتداء عليها. وأخيراً في روح الحماس البالغة عند أهل المستعمرات الذين يتحرقون شوقاً إلى ملاقاة العدو، والانتقام للشرف الفرنسي من هزيمة يونيو من السنة الماضية.
وإذا تركنا كل ذلك، نجد أن لفرنسا قوة مادية في أسطولها، وفي مستعمراتها كفيلة بترجيح كفة الحلفاء إذا اختارت أن تستأنف القتال إلى جانبهم. وإذا عرفنا أن الخمسين مدمرة التي أرسلتها أمريكا إلى إنجلترا، كانت سبباً حاسماً في بعض الميادين، خصوصاً

في ميدان البحر الأبيض المتوسط؛ فكم بالحرى يكون الفصل لمائة وخمسين مدمرة تملكها فرنسا. لا شك أن عدداً كهذا، يضاف إلى قوة المدمرات البريطانية، وما عساه أن يرد من أمريكا، وما تخرجه المصانع قريباً يكون له فصل الخطاب فيما هدد به الهر هتلر في خطبته الأخيرة من عزمه على مباشرة حرب الغواصات في الربيع القادم.

فإذا ألانت فرنسا قناتها، مع توفر أسباب الثبات، وأجابت الألمان إلى ما يطلبون؛ وقنعت بنصيبها الذي بذلته في هذه الحرب، وبنصيبها الذي قدر لها أن تنتهي إليه، من جرها في

ذيل العربة الألمانية؛ فكيف يكون موقفها من مؤتمر الصلح القادم، عند ما تنتهي الحرب بنصرة الحلفاء!

أترضى فرنسا لنفسها، ويرضى كبرياء شعبها، وكبرياء قوادها، وفيهم أبطال فردون، وأبطال المعارك الهائلة في الحرب الماضية، أن تلعب اليونان، وبولندا، وهولندا، والنرويج، وتركيا، دوراً رئيسياً في هذا المؤتمر، ولا تستطيع فرنسا أن تمثل دوراً ثانوياً فيه! وإذا أجلستها إنجلترا إلى جانبها في مكان الصدارة من المؤتمر، فكيف يكون موقفهما فيما بينها وبين نفسها وهي تعلم الدور الذي قنعت بتحمله والقيام به.

لا شك أن كل ذلك، في جملته وفي تفصيله، وقد قدره المرشال وأعوانه حق قدره وحسبوا حسابه في المفاوضات الدائرة الآن بين فرنسا وألمانيا، في صدد المطالب المزجاة. ومن يدري! فقد يرى المسئولون عن مصير فرنسا من رجال حكومة فيشي، أن متاعب الحرب من جديد إلى جانب حليفتهم أقل من المتاعب التي تنشأ عن مزيد من التسليم، فيفضلوا الحل الأول على الثاني ويصلوا بدورهم في الحرب إلى النهاية المفروضة على أمثالهم.

وليس الغريب أن يقر قرارهم على شيء من هذا، بل الغريب أن يقف الفرنسيون جامدين، وأن يدوم تصميمهم بالتخلف في الطريق. وستأتينا (جهيزة) في الأيام القليلة القادمة بفصل الخطاب في هذا الشأن الخطير، عند ما يقول المرشال بتان كلمته النهائية في شأن المطالب الألمانية، وهي كلمة الشرف والإباء، والأنفة والكبرياء، على ما نظن، ويظن معنا الكثيرين.

(دار الأهرام)

يوسف شبل

من وراء المنظار

المتعاظم الصغير

يملك حب العظمة عليه نفسه، ولقد ركبه هذا المتعاظم منذ مدرجه وكبر معه، فهو اليوم في منتصف العقد الرابع، طفل في الخامسة والثلاثين. قتر على نفسه حتى اقتنى سيارة قديمة راح يتشبه بها بذوي اليسار من أصحاب السيارات الفخمة، وإن كان مرتبه كله لا يساوي ما يدفع هؤلاء من (بقشيش)؛ وقتر على نفسه مرة أخرى، فقضى الصيف في أوربا، وإن كان من ذوي رحمه الأدنين من لا يكاد يجد قوته.

ومن أحب الأشياء إليه أن يذهب في سيارته إلى القرية، فيطلق نفيرها هناك عالياً في داع وفي غير داع، وينظر الفلاحون البسطاء إلى هذا (المحدث) مبتسمين، فيزهى إذ يخيل إليه غروره أنها ابتسامات الإعجاب. ولقد رأيته مرة - وكأنه أحد الدكتاتورين يدخل المدينة على رأس قوته المصفحة لكثرة ما تجبر يومها وتعاظم، ولكن سيارته لسوء حظه أصابها في تلك اللحظة عطل فوقفت، ونظر مبهوتاً على صوت ضحكات قريبة، وكنت غير بعيد من الفلاحين الضاحكين، فحبست ضحكاتي مخافة أن يفهم الدكتاتور أني غيران!

ومن آلم الأشياء عنده أن تمر به فلا تحييه، ففي ذلك إنكار منك لعظمته، ولقد يبلغ به الألم من ذلك حد الحمى، فإذا أقبلت مع ذلك تحييه: تباطأ وهو يقبل عليك، وتكلف سلام العظماء ونبرات العظماء وحركة رؤوس العظماء وعبوس العظماء أو تبسمهم حسب مقتضيات الظروف.

وشاع في القرية أو أشاع هو فيها أنه ما من كبير من رجال الحكومة إلا وله عنده مكانة مهما اختلفت على كراسي الحكم ألوان الأحزاب، وتهاوت عليه عرائض البسطاء يطلبون الاستخدام وما تزال تتهاوى عليه وهو يدسها كل مرة في جيبه في اتزان ووقار بالغين ولكنهما مع ذلك بثيران الضحك العميق!

وهو ينظر إلى هؤلاء من عل ويفرح أشد الفرح إذ يجد من يتملقه، ويغتر إذ يكون بعض الناس منه كما يكون هو ممن يطرق أبوابهم من ذوي المناصب مستجدياً متملقاً، وهو كثيراً ما يتملق ويستجدي، وقصارى أمره أن يظفر بتعيين فراش أو نقل ساع من جهة أخرى إلى أخرى يحبها ويحسب ذلك هو الجاه أعظم الجاه، وهكذا يتمسكن ويتضاءل في المدينة
ليزهي ويتعاظم في القرية ويريق ماء وجهه عند أولى المناصب من يعرف منهم ومن يعرف منهم ومن لا يعرف ليصعر خده لطالبي الرزق وذلك عنده من أعظم لذات حياته.

وإذا جلس أحب أن يلتف حوله طالبو جاهه وفضله وتراه؛ يعجب أشد العجب إن صغرت الحلقة من حوله، فهو يعتبر نفسه كبيراً عظيماً ومن حقه أن يلتف حوله الناس كما يلتفون حول أقرانه من العظماء، وما كان في حلقته إلا من يضمر له السخرية حين يريه الاحترام.

وتراه يلوك بعض كلمات إفرنجية تعد على أصابع اليد فيحرك بها لسانه في لهجة محطمة أكثر تحطماً من سيارته، لهجة أشبه بلهجة الأوربي الذي ينطق كلمات عربية لم تطرق سمعه إلا منذ شهر، وأرى شأنه في هذا كشأنه في استبدال ملابسه العربية بحلة إفرنجية.

أما مكانته عند من يزعم من الكبراء فقصاراه في هذا السبيل ألا تفلته فرصة إذا رأى أحد هؤلاء أو بعضهم في أي مكان فيتقدم إليهم محيياً متهللاً يهز الأيدي التي تمتد في فتور إليه هزاً حماسياً قوياً وهو يقول: (أهلاً فلان بك. . . كيف حال سعادة البك). ولا ينصرف إلا بعد أن يكرر تحياته وإن هموا هم بالانصراف دون أن ينظروا إليه لأنهم لا يعرفونه! وهي بعد مقدرة على أي حال أميل إلى أن أسميها (فن الحياة) ففي الناس من لا يستطيع أن يسلم على من يعرف حق المعرفة ممن هم أكبر منه!

رأيته ذات يوم يطلع المحيطين به على البطاقات الكثيرة التي جاءته في العيد، وقد مهد لذلك بذكر ما شاء له زعمه ممن يعرف من (الباشوات والبكوات). وكانت البطاقات كلها مرسلة إليه حقاً وفيها من هذه الألقاب حقاً؛ ولكن لم أر على واحدة منها غير كلمة (للشكر) فحسب!

وآخر مرة رأيته فيها كان محنقاً فقد حياه أحد الريفيين بقوله يا شيخ فلان، وهذا هو اللقب الذي يجري على ألسنة البسطاء من أهل الريف إذا أرادوا التعظيم، وعجبت لم يغضب وهو شيخ في نشأته العلمية قبل كل شيء وكان أولى به أن يجعل هذا اللقب مدعاة فخره، ولكن هيهات أن يرضى حتى بالأفندي وهو عند نفسه سعادة البك!

الخفيف

الفنان

(مهداة إلى الصديق النابغة صلاح الدين طاهر)

للأستاذ عبد المعطي حجازي

كلما أسفر في الليل القمرْ ... مثل معنى في خيال الشاعرِ
أو مشى الموج صفوفاً واندثر ... كأمان هجستْ في خاطرِ
أو سرى برق أو انهلَّ مطر ... كسنا الشرِّ ودمع الحائرِ
أو تهادي في الأصيل الجدْوَلُ ... خافتَ الأنغام حلو النَّبراتْ
قبس الفنان عنها ... بعض ألحان الخلود
وجلى للناس منها ... بعض أسرار الوجود
وإذا احمرَّتْ من العُتب خدود ... أوشكتْ من خجل تستعرُ
وإذا ماست من الدلَّ قدود ... عبث الكاس بها والوتر
وإذا ثارت على الصدر نهود ... يأمر الثوبُ فلا تأتمر
أو تناجت في الشفاه القُبل ... فتلاقت فاستحالتْ لثماتْ
ترجمتها رشة الفن ... ان للحسن نشيدا
وكستها روعة الأل - وان إبداعاً جديدا
وجمال العيش في صبح الربيعْ ... وجلال الموت في ليل الخريف
والمنى تشرق في الوجه البديع ... والأسى يعصف بالقلب الضعيف
وحنان الأم للطفل الرضيع ... ووميض الغدر في وجه المخيف

وابتسام الدهر لما يقبلُ ... وعبوسَ الحظ عند النائبات
كلها أصداء حس ... وخيال عبقري
مزجت سعداً بنحس ... وجميلاً بزَرِي
أيها السابح في دنيا الجمالْ ... كشعاع الشمس في الروض الأنيق
تنثر النور وتلقى بالضلال ... كسناء العين من الهدْب الرشيق
تمزج الحس بألوان الخيال ... مثلما يمزج بالماء الرحيق
أنت للفن نبي مرسل ... شهدت عيناي منك المعجزات
أنت ظل الله في الأر - ض افتناناً وابتداعا
أنت وحي الشمس للرو ... ض حياة وشعاعا
أيها الطائر كالنسر الجسورْ ... بجناحين: سمَوّ وابتكار
تحت ظل الغصن أو فوق الصخورْ ... ترسل الوحي إلى غير عثار
فإذا الطوَّد على الرق سطور ... وإذا الروض نزيل في إطار
وإذا الماضي جديد مقبل ... هب كالنائم من طول سُبات
أيها الجبار هذا الكو ... ن مَعْنًى في خيالك
وصدى سجله الفن ... ليحيى في ضلالك
أيها الساهر والناس نيامْ ... تصنع الحسن وتلهو بالخلود
أيها الراهب في دير الظلام ... تكشف الأستار عن لغز الوجود
هذه دنياك، دمع وابتسام ... وأغاريد عِذاب ورعود
ونعيم بالأماني مثقل ... وجحيم مستطير الجمرات
أنت عنوان الحياة=أنت رمز للزمان
مستبد أنت عات ... ورفيق أنت حان
إن يكن في الأرض سحر أو جمالْ ... فهو الفنان في الدنيا سناهْ
أو يكن في الحب شوق أو ملال ... فهو الفنان للحب صداه
أيكن للشمس نور أو جلال ... فهو الفنان مشكاة الحياة
ذلك الفنان وحي منزل ... انطلقَ الصامتَ بل أحيا الموات
أوقفت ريشته الدهر ... فلبى واستجابا
وكستْ من خلدها العمر ... مدَى العمر شبابا
بَشَر مثل جميع البشر ... رفعته ريشه عن مستواهْ
كاد لولا قطرة من حذر ... يزدري الناس ويحيا كإله
إنه الفنان، صوت القدر ... وهوي الفنان دستور الحياة
هو دنيا رف فيها الأمل ... وثوى اليأس ودارت دائرات
عالَم تصطخب الآلا ... م والآمال فيه
ويظل العقل والأفها ... م فيما يحتويه
(الإسكندرية)
عبد المعطي حجازي

البريد الأدبي

زهر الآداب

أخبرني جماعة من الأصدقاء أن الأستاذ السباعي بيومي حدثهم أنه سيكشف الأغلاط التي فاتتني وأنا أنشر كتاب الحصري، كما أصنع في كشف الأغلاط التي فاتته وهو ينشر كتاب المبرد.

وأقول: إني طبعت كتاب (زهر الآداب) مرتين، وقد تداركت في الطبعة الثانية ما فاتني في الطبعة الأولى، فإن كان الأستاذ يريد كشف أغلاط الطبعة الثانية فسيؤدي إليَّ جميلاً أذكره له مع الثناء في الطبعة الثالثة. أما إن كان يريد كشف أغلاط الطبعة الأولى فجهده ضائع، لأني سبقته بذلك بنحو عشر سنين، ولأن صفحات الرسالة تضيق عن الحديث المعاد.

الوحدة العربية

أجبت دعوة (جماعة الطلبة العرب) بكلية الآداب لسماع محاضرة الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام في شرح (عناصر الوحدة العربية) فالتفت ذهني إلى ظاهرة تستحق التسجيل، وهي إقبال الجمهور على تلك المحاضرة مع بعد المكان، فهل يكون ذلك إلا

دليلاً على أن فكرة الوحدة العربية صارت في مصر من الأمور ذوات البال؟
أرجو أن ينشر الدكتور محاضرته تبليغاً لما دعا إليه من كرائم الأغراض.
نقل الأديب
من واجبي نحو نفسي أن أعلن أني استوحشت لغياب الشذرات النفسية جداً، الشذرات التي كان ينشرها الأستاذ الجليل إسعاف النشاشيبي على صفحات (الرسالة) فمتى يعود؟
هي مختارات منقولة من هنا وهناك؛ ولكن الذوق في نقلها قد بلغ الغاية في شرف التحليق؛ وأظنها ستصبح كتاباً يحق لهم أن يسمى (كتاب الأمة العربية)
زكي مبارك
بعد انتهاء مناقشات رسائل الأستاذية
في يوم الاثنين الماضي انتهت المناقشات العلنية لرسائل (الأستاذية) الأزهرية المقدمة في
هذا العام. وقد رأيت بهذه المناسبة أن أدلي ببعض الملاحظات بشأن هذه الدرجة العلمية التي لا أشك في أن الأزهر يفتتح بها في حياته الدراسية الحافلة عهداً جديداً سيكون ذا أثر بعيد في توجيه نشاطه العلمي توجيهاً صحيحاً.
وقبل أن أدلي بهذه الملاحظات، أود أن أنوِّه بظاهرتين جديرتين بالتسجيل، تجلتا بوضوح أثناء المحاضرات العامة والمناقشات العلنية:
الأولى: أن الأزهريين قد خطوا خطوة موفقة في التقريب بين طريقتهم الخاصة في التعمق في النقاش والبحث والتحليل اللفظي، والطريقة الحديثة في العرض المنظم والابتكار، بما جعل جمهور المستمعين يدرك أن الطريقين تتكاملان ولا غنى عن الاستعانة بهما معاً في الدراسات الأزهرية في العصر الحاضر.
الظاهرة الثانية: وجود مدرستين علميتين في الأزهر: المدرسة القديمة التي تتشبث بما خلف السلف من تراث علمي تقف بنشاطها عند حد تفهمه وتفهم أحكام الشريعة والعلوم المتصلة بها في نطاقه؛ والمدرسة الحديثة التي ترى أن السير على منهاج أولئك الأئمة الأمجاد يقتضي بذل المجهود الشخصي المستقل لأداء رسالة العصر الحاضر للشريعة وعلومها، كما أدوا رسالة عصورهم لها؛ ومن وافر حظ الأزهر أن تتم الغلبة للمدرسة الحديثة في ظل إدارته الحالية.
تفضل الأنظمة التي اتبعت في امتحان هذه الدرجة نظائرها المتبعة في امتحانات الدكتوراه في الجامعات الأخرى في نواح، كما تقصر عنها في نواح أخرى.
أما ما تفضلها فيه فهو:
1 - إلزام طلاب (الأستاذية) بإلقاء محاضرات عامة تعطى مع الرسائل فكرة صحيحة عن مقدرة كل منهم في الإبانة بالقول والكتابة والبحث.
غير أننا نلاحظ على المحاضرات والرسائل أن موضوعات معظمها أبواب عامة من الفقه لا يكون للمجهود الشخصي فيها سوى أثر ضعيف قوامه التجميع والتنظيم. وعهدنا بموضوعات الرسائل والأبحاث الجامعية التي من هذا القبيل أن يتناول كل منها بالبحث نقطة معينة يتولى الباحث تقرير كيان مستقل لها مما لا يبرز فيه سوى المجهود الشخصي المستقل.
2 - خضوع كل عضو من أعضاء لجنة مناقشة الرسائل لرقابة بقية الأعضاء أثناء دوره في المناقشة، تلك الرقابة التي يظهر أثرها بتدخلهم للفصل فيما يكون موضع خلاف بين الأستاذ وصاحب الرسالة، أو لجلاء بعض النقط الغامضة أو لغير ذلك مما تتكشف المناقشة عن ضرورة الاشتراك في بحثه. وإننا مع ترحيبنا بمثل هذا التدخل النافع لا يفوتنا أن ننبه إلا أن ما تقضي به الضرورة يتقدر بقدرها الذي لا ينبغي تجاوزه بحال.
3 - جعل الحكم في صلاحية الرسالة للمناقشة في يد هيئة بدلاً من فرد.
ويقصر نظام هذا الامتحان عن نظام (الدكتوراه) في النواحي الآتية:
1 - لا يخصص لكل رسالة أستاذ يكون لصاحبها نصيب في اختياره ليشرف على توجيه توجيهاً علمياً أثناء كتابتها.
2 - التساهل في إقرار صلاحية رسائل للمناقشة ظهر أنها لم تكن جديرة بذلك مما أدى إلى تكليف أصحابها تقديم رسائل أخرى.
3 - لم يتبع التقليد الجامعي في إتاحة الفرصة لصاحب الرسالة لعرضها بإيجاز على

جمهور المستمعين قبل البدء في المناقشة.
4 - لم يبدأ أعضاء اللجنة أدوارهم في المناقشة بالتنويه بما يعتبرونه مواطن إجادة في الرسالة المقدمة، بل كان كل همهم محصوراً في تقصي النقائص أو الإطراء بصفة عامة مما فوت كثيراً من التشجيع النافع والتنويه بما يستحق التنويه.
5 - كانت الأحكام التي صدرت في الرسائل متأثرة في الغالب بما أصابه أصحابها من التوفيق في المناقشة الشفوية، لا بمجهود كل منهم في كتابتها وأثره الشخصي فيها.
6 - لا يقضي النظام الحالي - فيما نعلم - بطبع الرسائل ولم توضع قواعد لتبادلها مع الجامعات الأخرى؛ وينبغي - على الأقل - أن يقوم الأزهر بطبع الممتاز منها على نفقته مع تقرير نظام التبادل حتى يعم النفع.

إبراهيم زكي الدين بدوي
المتخرج في الأزهر وكليتي باريس والقاهرة

تعليق

طلب مني من لا تسعني مخالفته، أن أعلق على ما كتبه الأستاذ مصطفى محمد إبراهيم في العدد الأخير من الثقافة في أيجابه أن تكون مفاتيح جمعاً لمِفتَح، وتخطئة من يقول إنها جمع مفتاح.

وعندي أن الأستاذ قد أسرف في دعوى التخطئة، ولو قال إن جمع مفتاح على مفاتح في غير ضرورة مخالف لرأي البصريين لكان قوله أدنى إلى الصواب.

فلقد جوَّز الكوفيون زيادة الياء فيما يماثل مفاعل في عدته وهيئته، وحذفها مما يماثل مفاعيل، فقالوا في جمع جعفر: جعافر وجعافير، وفي جمع عصفور: عصافر وعصافير.

وجعلوا من الأول قوله تعالى: (ولو ألقى معاذيره) ومن الثاني قوله: (وعنده مفاتيح الغيب) على أن يكون مفرد الجمع الأول مقدرة، ومفرد الجمع الثاني مفتاح.

محمود حمزة
مفتش بالمعارف

إلى الأستاذ محمود الخفيف

تحية طيبة. . . وبعد فقد تهجمت (من وراء المنظار) على نائب محترم نعزه ونجلّه أعيان دائرته فكتبت إليك هذه الكلمة رداً على مقالك من غير تعليق.

قرأ أحد النواب الفرنسيين ذات صباح مقالاً يهاجمه فيه الكاتب هجوماً بلغ حد الإهانة، فبلغ به الغضب مبلغاً عظيماً وأسرع إلى صديق له يسأله كيف يستطيع أن يرد هذه الإهانة: أيدعو الصحفي إلى المبارزة؟ أم يطلب منه أن يعتذر رسمياً؟ ولكن صديقه كان عاقلاً إذ ابتسم وقال: (لا عليك يا صاحبي من هذا كله، فإن نصف قراء الصحيفة لم يلاحظوا هذا المقال، ونصف الذين لاحظوه لم يقرءوه، ونصف الذين قرءوه لم يفهموه، ونصف الذين فهموه لم يصدقوه، ونصف الذين صدقوه لا قيمة لهم. . . فماذا يبقى بعد ذلك؟)

هل أنت فاهم يا صاح؟ وهل عرفت أنك كالحادي وليس له بعير؟

حسين فهمي صادق
بكلية الحقوق

إلى الأديب حسين فهمي

حيرتني في غير داع بكلمتك، فما كتبت مقالي عن شخص معين؛ والذي كتبت عنه ليس بنائب ولا بذي دائرة بالطبع، ولا هو ممن يعزه أحد بالضرورة.

وما قابلت إنساناً ممن يفهمون ما يقرءون إلا حدثني أن هذه الصور التي أجلوها إنما هي صور شائعة في كل بلد فلا تعني واحداً بالذات.

أما عن قصتك فيكفي أن أنبهك وكنت خليقاً أن تنتبه من تلقاء نفسك أني لم أكن حادياً بغير بعير، وأظنك فهمت الآن مَنْ بعيري. . . فأنت بلا شك من ذلك النصف الذي فهم، ولا عليّ إن كنت صدقت أم لم تصدق.

الخفيف

شبابيك القلل

كتب الدكتور زكي محمد حسن في العدد 112 من (مجلة الثقافة) مقالاً بهذا العنوان أود أن أعلق عليه بكلمة صغيرة فقد قال: (ومن العجيب أن يعني بزخرفة شبابيك القلل إلى هذا الحد بينما تبقى القلل نفسها بغير طلاء أو رسوم زخرفية).

ولقد فات الزميل الفاضل أن القلل في العصور الوسطى كانت على نوعين أحدهما نسميه - في اصطلاحنا العرفي - (القلل الصيفية) وتستعمل صيفاً وهي من الفخار غير المطلي، لأن مسامها تساعد على تبريد الماء. والنوع الثاني (القلل الشتوية) وتستعمل شتاء لأنها مكسوة بطلاء زجاجي يحفظ على الماء درجة حرارته الطبيعية.

وقد لاحظنا أن بعض أبدان القلل التي وصلت إلينا من هذين النوعين تزدان برسوم زخرفية غاية في الجمال كما يظهر ذلك في اللوحات الثلاث الأول من كتاب الأستاذ أولمير الذي ذكره في مقاله. وإذا كنا لم نجد كثيراً من القلل ذات الرسوم الزخرفية فهذا يرجع إلى أن الأجزاء التي عثرنا عليها هي بقايا من هذه القلل فقط، ولا ينهض ذلك دليلاً على ما ذهب إليه الدكتور من أن أبدان القلل لم تكن مزخرفة.

وقال أيضاً: (إن الرسوم الآدمية ورسوم الحيوان والطيور والأسماك التي نراها على تلك الشبابيك يشهد معظمها بأن صانعها كانت تنقصه المهارة ودقة الملاحظة حتى أن رسومه
تبدو صبيانية وغير دقيقة).

ولئن صحت هذه الملاحظة نسبياً فيما يختص بالرسوم الآدمية فإنها لا يمكن أن تصح بأي حال في الحيوانات والطيور والأسماك وأن نظرة واحدة للرسوم التي نشرها الدكتور - وهي ليست بأجمل ما في مجموعة شبابيك القلل - لكافية للإقناع بما كان عليه هؤلاء الفنانون من دقة الرسم وحرية التعبير.

وعندما تعرض لتأريخ هذه الشبابيك قال (وليس من السهل تأريخ شبابيك القلل المحظوظة في المتاحف والمجموعات الأثرية لأنها من منتجات افن الشعبي).

فهل للزميل المحترم أن يعرف لنا ما يفهمه هنا من اصطلاح الفن الشعبي؟ ألم تكن القلل كباقي أنواع الصناعات الزخرفية في الفن الإسلامي مثل الخزف والخشب والمنسوجات والزجاج الخ. . . فيها الثمين والرخيص، يشتريها خاصة الناس وعامتهم كل على حسب مقدرته المالية؟ وكانت الرسوم الزخرفية والدقة الفنية في الصناعة توزع بين هذا وذاك كل حسب قيمته؟

وفي ختام كلمته قال الدكتور زكي بعد أن أشار إلى كتاب الأستاذ أولمير عن شبابيك القلل: وصفوة القول أن الأستاذ أولمير ظن أنه يستطيع الوصول إلى تأريخ بعض شبابيك القلل بواسطة الموازنة بين رسومها ورسوم سائر التحف الممكن معرفة تاريخها، ولكنا نظن أنه بالغ في تقدير النتائج التي تؤدي إليها هذه الطريقة.

فهل فات زميلي الدكتور أننا عثرنا على بعض هذه الشبابيك مطلية بالطلاء ذي البريق المعدني، وكان الفضل الأكبر في ذلك إلى الأستاذ حسين راشد رئيس أمناء دار الآثار العربية، كما ذكر ذلك الأستاذ أولمير في مقدمة كتابه (ص8 وما بعدها)، ونشر صورتها في اللوحة الأولى، وكان لهذه المجموعة أكبر الأثر في تاريخ شبابيك القلل التي تنسب إلى العصر الفاطمي؛ والبريق المعدني كما يعلم صديقي الفاضل معروف وقت استعماله في الخزف المصري. ولا أدري لماذا لم يذكر حضرته هذا النوع في مقاله. ولعله على رأي آخر في هذا الصدد نود لو يكشف لنا عنه.

دكتور محمد مصطفى
أمين مساعد دار الآثار العربية

القصص

الرجل الصامت
عن الروسية
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

كان في فندق القرية ضيوف كثيرون لا أعرف معظمهم، وانقضى النهار وجانب من الليل ونحن في هزج وضوضاء، فلما بلغت الساعة الثانية بعد منتصف الليل بدأنا نفكر في النوم فانصرف من انصرف وبقى في الفندق ثمانية. ولم يكن خالياً من غرفة غير أربع، فقالت لي صاحبة الفندق: إن هذا الضيف سيكون شريكاً لك في غرفتك واسمه (ماكسيم سيمو نوفتش) وأشارت إلى رجل قصير القامة ضئيل الجسم فقلت: لا بأس وإن كنت أوثر أن تكون لي غرفة وحدي.

تقدم نحوي سيمون وقال: أترى مانعاً من مشاركتي إياك؟. . .

فقلت: كلا وماذا عسى أن يكون المانع؟. فقال إنني قليل الكلام وأخشى أن يكون من

عاداتك قبل النوم أن تتحدث فلا تسر برفيق صامت مثلي.
قلت: وأنا أيضاً أحب الصمت. فقال: إذن فلن يؤذيك صمتي الطويل.
ودخلنا غرفة النوم فقال: في الناس من لا يستطيعون الصبر على صاحب صامت، ولذلك سألتك حين رأيتك هل تحب الكلام فإن كثيرين ممن عرفوني أبغضوني لأنني قلما أتكلم.
ابتسمت وقلت له: لا يشغل بالك هذا الخاطر. فقال: شكراً لك. وخلع إحدى حذاءيه وأمسكها بيده. ثم أطرق لحظة وقال: لقد حدثت لي حوادث بسبب الصمت أذكر لك منها: أنني سكنت في عهد شبابي في غرفة واحدة مع صديق لي اسمه أورلوف وكان ينقضي اليوم واليومان وأنا صامت؛ فتضجر وصار يسخر مني ويتهمني بأني سيئ الضمير، وسألني: هل أقسمت لا أتكلم؟ فقلت: كلا. فقال: إذن تكلم. فقلت: عن أي شيء؟.
وانقضى يومان وأنا صامت، فأمسك زجاجة وقال: تكلم وإلا ضربتك بها في رأسك.
قلت: إن ذلك لن يكون جميلاً منك لو فعلته.
ومضت ثلاثة أيام ولم أتكلم. ودخلنا نبدل ثيابنا كما نفعل الآن فخلع حذاءه ورماني به وقال: أنت كالميت لا تنطق ولا تتحرك، وأن الحياة معك كالحياة بين المقابر؛ فسأترك لك الغرفة غداً. هذا ما قاله ولكن هل تعرف ماذا فعل؟
قلت: كلا.
فضحك سيمون واستمر يقول: والله لقد خرج. . . خرج من الغرفة ولم يعد إليها وقد كان في حالة عصبية. . . ولكن هل تعرف أن فتاة غضة الشباب موفورة الصحة تنتابها هذه الحالة؟ لقد كانت لي خطيبة أحبها وكانت تحبني وقالت إنها أحبتني لأني رجل جد وعمل ولأنني مفكر غير ثرثار. لقد قالت ذلك في أول عهدي بها ولكن لما قدم العهد بيننا سألتني لماذا أنا كثير الصمت؟ فقلت ولماذا أتكلم؟ فقالت أليس لديك ما تقول؟ قل ما فعلته اليوم أو ما رأيته. فقلت لها باختصار لقد كنت في مكتبي ثم تغديت وجئت لزيارتك. فقالت: إنها تخافني لأني قليل الكلام فقلت: هذه طريقتي فأحبيني كما أنا . . .
وبعد أيام زرتها فوجدت معها شاباً كثير الكلام، فظل يحادثها بغير انقطاع، وكان كل حديثه تافهاً، وإنني لأعجب له كيف كان يواتيه هذا الكلام. لقد كان يسألها هل تعرف الرقص، ثم يقص عليها خبراً رآه ويسألها عن معنى إهدائها إليه وردة صفراء. . . كلام كثير لا أعرف من أين يخلقه وهل لإهداء وردة صفراء أي معنى؟ وكانت تصغي إليه. . . إلى أحاديثه التافهة. . . إلى أسئلته. . . وكانت تجيبه. . . وكنت أراهما ولا أتكلم. ثم أخذا يتهامسان ويبتسمان وهما ينظران إلي. وبقيت صامتاً ثم تركت لهما المكان. . .
وبعد أيام زرتها فجاء هذا الشاب وقال لي: ما الذي تفعله هنا! اذهب وإلا قتلتك فقلت: جئت لأزور ماريا بتروفنا فقال: اذهب أيها الوغد.
وأردت إقناعه بأنه مخطئ ولكني رأيت الفتاة تضحك وتقول: اذهب فإنني لا أحبك لأنك قليل الكلام! آه ما أحمق هذه الفتاة!
لما بلغ سيمون هذا الحد من حديثه كنت شعرت بحاجة شديدة للنوم، فابتسمت وقلت: قصة جميلة! أسعدت مساء.
فقال: سعد مساؤك وطاب نومك. إن الرجل خير من النساء، فهم يزنون الأمور بميزان المنطق، وأما النساء فهن غاية في الغرابة. إنني أعترف لك بأنني أحببت امرأة متزوجة وأحبتني في أول الأمر، ولكنها بعد ثلاثة أيام فقط زهدت فيَّ واحتقرتني وقالت: لقد قبَّلتُ قبلك كثيراً من الرجال، ولكنني لم أقبِّل غيرك جثة هامدة. . . أنت رجل مضحك فاذهب من أمامي لقد قالت لي ذلك؛ فلما لم أذهب، خرجت هي من تلك الغرفة، وقالت لزوجها بنفسها: إن في المنزل رجلاً غريباً. . . هل أنت سامع؟
فقلت له وأنا بين النوم واليقظة: إنني أريد أنام، فنحن في منتصف الساعة الرابعة، فقال: أنحن في منتصف الساعة الرابعة؟ لقد آن وقت النوم.
وخلع حذاءه الثاني وقال: لقد كنت مسافراً مع أحد الأعيان، فبقيت كعادتي صامتاً في الطريق.
عند ذلك أغمضت عيني ودفعت صوتي بالغطيط لكي يحسبني نائماً فيسكت، ولكنه استمر يقول: فسألني عن الجهة التي أسافر إليها؛ فقلت له: نعم. . . هل نمت أيها

الشاب؟ هل أنت سامع؟ أنائم هو؟ أهو غير نائم؟ ها ها! لقد كان الشاب الذي سكنت معه يفعل مثل ذلك. . . لقد كان ينام ساعة يضع رأسه على الوسادة. . . إن الناس لا يحبون كلامي. . . ها ها!

فرفعت رأسي وقلت له بلجة المتهكم:

- لقد قلت لي إنك رجل صامت، وأنا الآن أشك فيما تدعيه.

فقال: إنني أتكلم عن حوادث جرها حب السكوت. ومن تلك الحوادث، أنني ذهبت مرة لأعترف للقسيس فسألني:

- أي خطيئة ارتكبتها؟ فقلت: خطايا كثيرة.

فقال: قلها. قلت: كل الخطايا.

فسكت القسيس وسكت أنا.

فقلت له بصوت مغضب وقد جلست على الفراش:

- كلما زدت في حديثك عن الحوادث المؤيدة لحبك للصمت زاد في نفس اليقين بأنك كاذب!

فقال: لماذا؟ هل في حديثي ما يبعث على الشك في حبي للصمت؟ إن حبي للصمت قد آذاني كثيراً، فقد كنت مرة بالمكتب، فجاء رئيسي وسألني: هل لدي أخبار؟ فقلت: كلا، فقال: ما معنى قولك كلا؟

قلت: إنني نائم، ليلتك سعيدة! ليلتك سعيدة!

فقال سيمون: ليلتك سعيدة، وقد قلت له إنني لا أعلم شيئاً من الأخبار فقال: هذا جواب غير مناسب؛ فقلت: وبأي جواب أجيبك؟

غلبني النعاس فنمت نوماً عميقاً، ولما استيقظت في الصباح سمعت صوتاً بجانبي، فنظرت إلى سيمون فوجدته يقول:

- وقد طلبت مني زوجتي الطلاق لأنني صامت، وهي تريد إنساناً لا جماداً؛ فقلت لها: يا عزيزتي ليدا عن أي شيء أتكلم؟

عبد اللطيف النشار

العدد 400 - بتاريخ: 03 - 03 - 1941

يومان من أيام الرسول

يومان من أيام الرسول تضمنا سر النبوة كما تتضمن النواة سر النخلة، ولخصا تاريخ الإنسانية كما يلخص الجنين تاريخ الإنسان. ذانك يومه الخائف المجهود وقد خرج مهاجراً إلى المدينة، ويومه الآمن المشهود وقد رجع ظافراً إلى مكة!

كان يومه الأول خاتمة لثلاثة عشر عاماً من المحن الشداد والآلام الفواتن تظاهرت على الإيمان والصبر حتى قال الرسول وهو يلوذ بحائط من حوائط ثقيف: اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس. . .

وكان يومه الآخر فاتحة لثلاثة عشر قرناً من النصر المؤزر والفتح المبين، خنس فيه الشرك واستخذت الجهالة وذلت قريش حتى قال الرسول وهو واقف بباب الكعبة: لا إله إلا الله، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده!

وإذا كان للرسول في تاريخ الإسلام يومان لا تزال العقول تقع منهما كل يوم على سر، فإن مصدر هذه الأسرار معجزتان لله لا تزال الإفهام تكشف فيهما كل حين عن آية: معجزة الرسول في خلقه، ومعجزة القرآن في بيانه، وقد انكسر القرن الرابع عشر على هاتين المعجزتين والأذهان البصيرة الموالية والمعادية تدرس آثارهما وتستبطن أسرارهما، فما بلغت من ذلك كنها ولا غاية

كان محمد في يوميه العظيمين مثل الإنسانية الأعلى: حمل رسالة الله وحمل أبو جهل رسالة الشيطان، واستحالت مكة المشركة جبلاً من السعير سد عليه طريق الدعوة، فكان يخطو في طرقها وشعابها على أرض تمور بالفتون وتتسعر بالعذاب؛ وتفجرت عليه من كل مكان سفاهة أبى لهب بالأذى والهون والمعاياة والمقاطعة. وكل قريش كانت يومئذ أبا لهب إلا من حفظ الله. وافتن شياطين مكة في أذى الرسول، فعذبوه في نفسه وفي قومه وفي أصحابه ليحملوه على ترك هذا الأمر فما استكان ولا لان ولا تردد. وحينئذ تدخل الشيطان بنفسه في (الندوة) فقرر القتل، وتدخل الله بروحه في (الغار) فقدر النجاة. وانطلق محمد وصاحبه ودليله وخادمه على عيون المشركين في الطريق الموحش الوعر إلى يثرب. وكأن هؤلاء الناجين بدين الله لم يكادوا يدخلون

في غيب الطريق حتى انشقت الصحراء عنهم فإذا هم عشرة الآلاف من جند الله يجرون الحديد على النياق الكوم والخيول الجرد، والرسول في كتيبته الخضراء من المهاجرين والأنصار لا يظهر منهم
وراء الدروع غير الحدق، وإذا أبو سفيان زعيم قريش قد أشترى حياته بإسلامه، ثم وقف مع العباس بمضيق الوادي يشهد جيش الفتح وهو زاحف إلى مكة ويقول: هذا والله ما لا طاقة لنا به! لقد أصبح ملك ابن أخيك يا أبا الفضل عظيماً. فقال له العباس: يا أبا سفيان، إنها النبوة!
ثم نجا أبو سفيان إلى مكة فصاح بأعلى صوته: يا معشر قريش، لقد أتاكم محمد بما لا قبل لكم به، فسلموا تسلموا
أهذه مكة الطاغية التي لبثت إحدى وعشرين سنة تفور بالسفه والإفك والضغينة والمعارضة على محمد ودين محمد وأصحاب محمد؟ ما بالها خشعت خشوع الجناح الكسير وسكنت سكون المقبرة المهجورة؟ لقد باتت ليلة من ليالي يناير الباردة الطويلة وقلبها يرجف من هول الغد وانتقام الفاتح. ثم أصبحت مكة الساهدة فإذا أهلها بين قابع في منزله، أو عائد ببيت الله، أو لائذ بدار أبي سفيان؛ وإذا فرق الجيش المحمدي الظافر تنحدر من (ذي طوى) مكبرة ومهللة إلى جهات مكة الأربع، فلما ارفضت المخاوف عن الناس خرج القائد الأعظم من قبته المضروبة بأعلى مكة يؤم المسجد الحرام، وعلى جوانب الطرقات ألسنة المسلمين تذكر، ومن وراء الحجرات عيون المشركين تنظر، والرسول الكريم قد طأطأ رأسه على رحله حتى كاد أن يمس قادمته؛ فلم يجر على باله أن هذه الأرض التي طورد فيها وسال دمه عليها قد أصبحت ملكه، وأن هؤلاء الناس الذين قذفوه بالأحجار ورموه بالأقذار قد أصبحوا أسراه، حتى دخل المسجد فطاف؛ ثم أقبل على الأرستقراطية الصاغرة وهي تتطامن من القلق والفرق وقال لأهلها الذين افرطوا عليه في البذاء والإيذاء: يا معشر قريش، أذهبوا فأنتم الطلقاء!
كان يوم الهجرة وما قبله تشريعاً من الله في حياة الرسول للفرد المستضعف إذا بغى على حقه الباطل، وطغى على دينه الكفر، ليعرف كيف يصبر ويصابر، وكيف يجاهد ويهاجر، حتى يبلغ بحقه ودينه دار الأمان فيقوى ويعز
وكان يوم الفتح وما بعده تشريعاً من الله على لسان الرسول ويده للأمة إذا اتسعت رقعتها واجتمعت كلمتها واستحصدت قواها لتعلم كيف تنسى الضغائن إذا ظفرت، وتحتقر الصغائر إذا كبرت، ثم لا تحارب إلا في الله ولا تسالم إلا في الحق
كانت المدينة وحدها بعد يوم الهجرة مجالاً لسياسة الرسول يضم شتات الجماعة ويوثق عقدة الدين ويجمع أهبة الحرب؛ فألف بين الأوس والخزرج، وآخى بين المهاجرين والأنصار، وعاهد بين المسلمين واليهود، حتى تكتب في يثرب جيش الله الذي فتح الدنيا بفتح مكة!
ثم كان العالم كله بعد يوم الفتح مشرقاً لوحي الله وهدى الرسول، فطهره الإسلام من الأرستقراطية بالمساواة، ومن الرأسمالية بالزكاة؛ ثم علم الناس حكم الشورى، وألزمهم قضاء العدل، حتى أخرجهم من الوطنية المحدودة إلى الإنسانية المطلقة
ذالك يومان من أيام الرسول تضمنا أسرار نفسه ولخصا أطوار حياته. فهل تطمعون يا من تظنون أن الزعامة تجوز من غير صدق، والجهاد يفوز من غير صبر، والحياة تصلح من غير إيمان، أن تكون لكم في رسول الله أسوة حسنة؟
احمد حسن الزيات
الدين مصدر المدينة الفاضلة
لإمام المسلمين الأستاذ الأكبر
الشيخ محمد مصطفى المراغي
شيخ الجامع الأزهر
في هذا الوقت العصيب الذي يفرق الله فيه بين عهد وعهد، وبين نظام ونظام، تعود ذكرى الهجرة النبوية التي فرق الله بها بين الشرك والوحدانية، وبين الحيوانية والإنسانية، فتكون للقلوب المؤمنة هدى يزيل الضلال، وأملا يذهب اليأس
وذكرى الهجرة هي ذكرى ما لقيت دعوة الحق من كيد الباطل، وما أدركت بالصدق والصبر من نصر الله؛ إذ لم تكد تشرق من غار حراء حتى استخفت في دار الأرقم، ثم

لجأت إلى غار ثور وقد طاردها الظلم من كل سبيل، وهاجمها الكفر من كل جانب.
وهناك أراد الله سبحانه وتعالى أن تدرك قدرته كلمته فطمس عين الباطل فلم ير، وزلزل قدم الشرك فلم يلحق، ومكن لرسالته أن تشرق في الأبصار والبصائر، فاهتدى من حار ورشد من غوى وقوى من ضعف وعز من ذل. ذلك لأن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون. وقد (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً). ثم صدقهم الله وعده، فجعلهم وراثاً للأرض، وخلفاء على الناس، ووطد لدولتهم الملك، وأسعد بمدنيتهم العالم، حتى نسوا الله فأنساهم أنفسهم، واستجرّوا للهوى فأخضعهم لغيرهم، وتركوا الجادة وسلكوا البينات فضلوا آثار السلف، وغفلوا عن تطور الزمان، وقصروا في اتخاذ العدة، حتى تمزقت وحدتهم، وضاعت هيبتهم، وأصبحوا أتباعاً وأوزاعاً، يقضي عليهم ولا يقضون، ويمضي لهم ولا يمضون
ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق، ولا يكونوا كالذين)
؟(أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم، وكثير منهم فاسقون
لقد تحدث بعض الذين مكنتهم القوة المادية من السلطان عن نظام جديد للعالم يكفل له السلام والعدل؛ ومثل هذا النظام لا يمكن أن يقوم إلا على أساس الدين؛ فقد دلت تجارب
الماضي الطويل أن نظم الإنسان لا تبرأ من النقص لإعواز الكمال فيه وغلبة الهوى عليه. وإذا استحال على العالم كله اعتناق مدنية دينية واحدة، لأن الله لم يشأ أن يجعل الناس أمة واحدة، فإن المسلمين أولى الشعوب بالمبادرة إلى هذه المدنية الفاضلة، لأنهم مدينون لدين الله بسلطانهم الذي طبق الأرض، وعمرانهم الذي جمل الدنيا، وشريعتهم التي نظمت فوضى الطبيعة،؛ ولولا الدين ما كان لهم علم ولا حكم ولا حضارة
ولعل الذين استهوتهم مدنية الغرب من الشرقيين فقلدوها تقليد التابع الذليل، قد أدركوا اليوم بعد أن زيفتها التجارب وكشفتها الأحداث وحكم عليها أهلها، أن الرجوع إلى مدنيتهم أحق، واقتباس النافع من حضارة الغرب أولى، وإنشاء مدنية فاضلة مستقلة تقوم على الدين الصحيح والأخلاق القويمة والتقاليد الصالحة، هو الأشبه بأبناء الذين ورثوا مدنيات الشعوب وثقافات الأمم، ثم أجروها على دستور القرآن، ووسموها بطابع العرب، حتى جعلوها مدنيتهم الخاصة، إليهم تعزى وعنهم تؤخذ
اسأل الله سبحانه وتعالى أن يلهم المسلمين الصواب، ويسدد خطاهم في طريق الحق، ويهيئ لهم من أمرهم رشداً
محمد مصطفى المراغي
أدين قتال هو؟
للأستاذ عباس محمود العقاد
من المطاعن التي وجهها أعداء الإسلام إليه أنه دين سيف وليس بدين إقناع: يريدون بذلك أنه لا يقنع الأمم التي دعيت إليه لولا الغزو والإكراه بقوة السلاح
ولتمحيص هذا القول الذي يقال ويعاد في كل زمان نقرر هنا بعض الحقائق التي يسلمها المنصف ولا ينكرها إلا المكابر، لنثبت أن الإسلام شأنه في استخدام القوة كشأن كل دين، وأنه ما كان لينتصر بالقوة لو لم يكن إلى جانب ذلك صالحاً للانتصار
أن هذا المطعن لو صدق لوجب أن يصدق في بداية عهد الإسلام (فالحقيقة الأولى) الذي دان فيه بهذا الدين كثير من العرب المشركين ولولاهم لما كان له جند وى حمل في سبيله سلاح
لكن الواقع أن الإسلام في بداية عهده كان هو المعتدَى عليه ولم يكن من قبله اعتداء على أحد، وظل كذلك حتى بعد تلبية الدعوة المحمدية واجتماع القوم حول النبي عليه السلام، فإنهم كانوا يقاتلون من قاتلهم ولا يزيدون على ذلك: (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين)
وكانوا يحاربون من لا يؤمن عهده ولا يتقي شره بالحلف والمسالمة: (وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون)

وقد صبر المسلمون على المشركين حتى أمروا أن يقاتلوهم كافة كما يقاتلون المسلمين كافة؛ فلم يكن منهم قط عدوان ولا إكراه
وحروب النبي عليه السلام كلها حروب دفاع، ولم تكن منها حروب هجوم إلا على سبيل المبادرة بالدفاع بعد الإيقان من نكث العهد والإصرار على القتال، وتستوي في ذلك حروبه مع قريش وحروبه مع اليهود أو مع الروم
(والحقيقة الثانية) أن الإسلام إنما يعاب عليه أن يحارب بالسيف فكرة يمكن أن تحارب بالبرهان والإقناع
ولكن لا يعاب عليه أن يحارب بالسيف (سلطة) تقف في طريقه وتحول بينه وبين أسماع المستعدين للإصغاء إليه
لأن السلطة تزال بالسلطة، ولا غنى في إخضاعها عن القوة، ولم يكن سادة قريش أصحاب فكرة يعارضون بها العقيدة الإسلامية، بل كانوا أصحاب سيادة موروثة وتقاليد لازمة لحفظ تلك السيادة في الأبناء بعد الآباء، وفي الأعقاب بعد الأسلاف، وكل حجتهم التي يذودون بها عن تلك التقاليد أنهم وجدوا تلك السيادة في الأبناء بعد الآباء، وفي الأعقاب بعد الأسلاف، وكل حجتهم التي يذودون بها عن تلك التقاليد أنهم وجدوا آباءهم عليها، وأن زوالها يزيل ما لهم من سطوة الحكم والجاه
وقصد النبي بالدعوة عظماء الأمم وملوكها وأمراءها لأنهم أصحاب (السلطة) التي تأبى العقائد الجديدة، وتبين بالتجربة أن السلطة هي التي كانت تحول دون الدعوة المحمدية وليست أفكار مفكرين ولا مذاهب حكماء، لأن امتناع المقاومة من هؤلاء العظماء والملوك كانت تمنع العوائق التي تصد الدعوة الإسلامية فيمتنع القتال
ومن التجارب التي دل عليها التاريخ الحديث كما دل التاريخ القديم أن السلطة لا غنى عنها لإنجاز وعود المصلحين ودعاة الانقلاب؛ ومن تلك التجارب تجربة فرنسا في القرن الماضي، وتجربة روسيا في القرن الحاضر، وتجربة مصطفى كمال في تركيا، وتجارب سائر الدعاة أمثاله في سائر البلاد
فمحاربة السلطة بالقوة غير محاربة الفكرة بالقوة، ولا بد من التمييز بين العملين لأنهما جد مختلفين
(والحقيقة الثالثة) أن الإسلام لم يحتكم إلى السيف قط إلا في الأحوال التي أجمعت شرائع الإنسان على تحكيم السيف فيها
فالدولة التي يثور عليها من يخالفها بين ظهرانيها ماذا تصنع إن لم تحتكم إلى السلاح؟
وهذا ما قضى به القرآن الكريم حيث جاء فيه: (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله. فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين)
والدولة التي يحمل أناس من أبنائها السلاح على أناس آخرين من أبنائها بماذا تفض الخلاف بينهم إن لم تفضه بقوة السلطان؟
وهذا ما قضى به القرآن الكريم أيضاً حيث جاء فيه: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما؛ فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله.
(فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين
وفي كلتا الحالتين يكون السلاح آخر الحيل، وتكون نهاية الظلم والاعتداء نهاية الاعتماد على السلاح. ثم يأتي الصلح والتوفيق أو يأتي التفاهم بالرضى والاختيار.
(والحقيقة الرابعة) أن الأديان الكتابية بينها فروق موضعية لابد من ملاحظتها عند البحث في هذا الموضوع
فاليهودية كانت كما يدل اسمها أشبه بالعصبية المحصورة في أبناء إسرائيل منها بالدعوة العامة لجميع الناس، فكان أبناؤها يكرهون أن يشاركهم غيرهم فيها كما يكره أصحاب النسب الواحد أن يشاركهم غيرهم فيه، وكانوا من أجل هذا لا يحركون ألسنتهم، فضلاً عن امتشاق الحسام، لتعميم الدين اليهودي وإدخال الأمم الأجنبية فيه، ولا وجه إذن للمقارنة بين اليهودية والإسلام في هذا الاعتبار
أما المسيحية فهي عنيت (أولاً) بالآداب والأخلاق ولم تعن مثل هذه العناية بالمعاملات ونظام الحكومة
وهي قد ظهرت (ثانياً) في وطن تحكمه دولة أجنبية ذات حول وطول وليس للوطن الذي ظهرت فيه طاقة بمصادمة تلك الدولة في ميدان القتال

أما الإسلام فقد ظهر في وطن لا سيطرة للأجنبي عليه، وكان ظهوره لإصلاح المعيشة وتقويم المعاملات وتقرير الأمن والنظام، وإلا فلا معنى لظهوره بين العرب ثم فيما وراء الحدود العربية

فإذا اختلفت نشأته ونشأة المسيحية فذلك اختلاف موضعي طبيعي لا مناص منه ولا اختيار لأحد من الخلق فيه

وآية ذلك أن المسيحية صنعت صنع الإسلام حين قامت بين أهلها الدول والجيوش، وحين استقلت شعوبها عن الأجانب المتغلبين، وأربت حروب المذاهب فيما بين أبنائها على حروب صدر الإسلام مجتمعات. . .

(والحقيقة الخامسة) أن الإسلام شرع الجهاد، وأن النبي عليه السلام قال: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا عني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله)

وجاء في القرآن الكريم: (فقاتلوا في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين، عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً)

وحدث فعلاً أن المسلمين فتحوا بلاداً غير بلاد العرب ولم يفتحوها ولم يكن يتأتى لهم فتحها بغير السلاح

لكن هذه الفتوح لم يتم شيء منها قبل استقرار الدولة للإسلام، فلا يمكن أن يقال إنها كانت هي وسيلة الإسلام للظهور وقد ظهر الإسلام قبلها وتمكن في أرضه واجتمعت له جنود تؤمن به وتقدم على الموت في سبيله

ثم إن هذه الفتوح كانت تفرضها سلامة الدولة إن لم تفرضها الدعوة إلى دينها

فلو قدرنا أن الخليفة المسلم لم يكن صاحب دين ينشره ويدعو إليه لوجب في ذلك العهد أن يأمن على بلاده من الفوضى التي شاعت في أرض فارس وفي أرض الروم، ووجب أن يكف الشر الذي يوشك أن ينقض عليه من كلتيهما، وأن يمنع عدوى الفساد أن تسرها منهما إلى حماه

هذا إلى أن الإسلام قد أجاز للأمم أن تبقى على دينها مع أداء الجزية والطاعة للحكومة القائمة، وهو أهون ما يطلبه غالب من مغلوب

(والحقيقة السادسة) أن المقابلة بين ما كانت عليه شعوب العالم يومئذ قبل إسلامها وبعد إسلامها تدل على أن جانب الإسلام هو جانب الإقناع لمن أراد الإقناع

فقد أستقر السلام بين تلك الشعوب ولم يكن له قرار، وانتظمت بينها العلاقات ولم يكن بينها العلاقات ولم يكن لها نظام، واطمأن الناس على أرواحهم وأرزاقهم وأعراضهم وكانت جميعا مباحة لكل غاصب من ذوي الأمر والجاه

فإذا قيل أن المدعوين إلى الإسلام لم يقتنعوا بفضله سابقين، فلا ينفي هذا القول أنهم أقنعوا به متأخرين، وإن الإسلام مقنع لمن يختار ويحسن الاختيار إلى جانب قدرته على إكراه من يركب رأسه ويقف في طريق الإصلاح

ومن نظر إلى الإقناع العقلي تساوى لديه ما يستميلك إلى العقيدة بتوزيع الدواء والطعام، ومن يستميلك إليها بالخوف من الحاكم على فرض أن خوف الحاكم كان ذريعة من ذرائع نشر الإسلام

فالشاهد الذي تطعمه وتكسوه ليقول قولك في إحدى القضايا، كالشاهد الذي ينظر إلى السوط في يديك فيقول ذلك القول: كلاهما لا يأخذ بإقناع الدليل ولا بنفاذ الحجة ولا يدفع عن عقيدته دفع العارف البصير

وصفوة ما تقدم أن الإسلام لم يوجب القتال إلا حيث أوجبته جميع الشرائع وسوغته جميع الحقوق، وأن الذين خاطبهم بالسيف قد خاطبتهم الأديان الأخرى بالسيف كذلك: إلا أن يحال بينها وبين انتضائه أو تبطل عند أبنائها الحاجة إلى دعوة الغرباء إلى أديانها، وان الإسلام عقيدة ونظام، فهو من حيث العقيدة قد نشأ وتأسس قبل أن تكون له قوة، وهو من حيث النظام شأنه كشأن كل نظام في اخذ الناس بالطاعة ومنعهم أن يخرجوا عليه

عباس محمود العقاد

المنصور بن أبي عامر

للدكتور عبد الوهاب عزام

(مفخرة من مفاخر التاريخ العربي، ومثل من الهمة الطامحة،

(والنفس الهمامة، والعزم الذي لا يفل
- 1 -
ينتسب إلى قبيلة معافر إحدى قبائل اليمن. دخل جده عبد الملك بن عامر الأندلسي في جند طارق بن زياد، وأقام بعد الفتح في الجزيرة الخضراء فكان له ولبنيه شأن؛ واتصل أبو عامر جد المنصور بالخلفاء في قرطبة، وعدت أسرة أبن عامر في أسر الوزراء. وكان أبو حفص والد المنصور متألهاً زاهداً، شغل بالحديث عن خدمة الخلفاء، ومات قافلاً من الحج فدفن بمدينة طرابلس. وأم المنصور من أسرة تميمية - أسرة بني برطال - ويقول القسطلي في المنصور:

تلاقت عليه من تميم ويعرب ... شموس تلالا في العلا وبدور
من الحميريين الذين أكفّهم ... سحائب تهمي بالندى وبحور

- 2 -
ونشأ محمد (المنصور) نجيباً، طماحاً، عظيم الهمة، كبير القلب. أثر عنه أيام طلبه العلم بقرطبة نوادر تنبئ باعتداده بنفسه واستشراقه للمعالي. يقول محمد بن أسحق التميمي:

كان محمد بن أبي عامر نازلاً عندي في حجرة فوق بيتي، فدخلت عليه في بعض الليالي في آخر الليل، فوجدته قاعدا على الحال التي تركته عليها أول الليل حين فصلت عنه؛ فقلت له: ما أراك نمت الليلة. قال: لا. قلت: فما أسهرك؟ قال: فكرة عجيبة. قلت: في ماذا كنت تفكر؟ قال: فكرت إذا أفضى إلى الأمر ومات محمد بن بشير القاضي، بمن أستبدله، ومن الذي يقوم مقامه؟ فجلت الأندلس كلها بخاطري، فلم أجد إلا رجلاً واحداً. فقلت: لعله محمد بن السليم. قال: هو والله، لشد ما اتفق خاطري وخاطرك)

وكذلك رشحته للمعالي نفسه العظيمة وآماله الكبيرة، والمرء حيث يضع نفسه
- 3 -
صار محمد من أعوان قاضي قرطبة محمد بن السليم، ثم تقلب في القضاء، وجعل وكيلاً لعبد الرحمن ابن الخليفة المستنصر وأمه. ولما مات عبد الرحمن، جعل وكيلاً لأخيه هشام، ورتب له خمسة عشر ديناراً كل شهر

وعرف الخليفة قدر الرجل، فكان يندبه فيما يعضل من الأمور، ثم ولاه الشرطة الوسطى. ولم يأل ابن أبي عامر جهداً في التقرب من هشام وأمه صبح، وكانت ذات مكانة عند الخليفة

وعهد الخليفة إلى ابنه هشام فحرص أبن أبي عامر على أن يحتفظ لهشام بولاية العهد، ثم الخلافة بعد أبيه، على كثرة ما أجتهد الصقالبة في تولية المغيرة بن عبد الرحمن الناصر عم هشام

وتولى قيادة الجيش إلى غزوة نكص عنها كبراء الدولة، ورجع منها مظفرا فزاد هيبة ومكانة. ثم ولي شرطة قرطبة فسيطرت على المدينة هيبته وعدله. فأمن الأخيار وسكن الأشرار

يقول صاحب البيان المغرب:

فضبط محمد المدينة ضبطاً أنسى أهل الحضرة من سلف من أفراد الكفاة وأولي) السياسة، وقد كانوا قبله في بلاء عظيم يتحارسون الليل كله، ويكابدون من روعات طراقه ما لا يكابد أهل الثغور من العدو. فكشف الله عنهم بمحمد أبن أبي عامر وكفايته وتنزهه؛ فسد باب الشفاعات، وقمع أهل الفسق والدعارات، حتى أرتفع البأس وأمن الناس. وأمنت عادية المتجرمين من رجال السلطان حتى لقد عثر على ابن له فاستحضره في مجلس الشرطة وجله جلداً مبرحاً كان فيه حمامه. فانقطع الشر جملة)

ولما رجع من غزاته الثالثة ظافراً رفعه الخليفة إلى الوزارة وجعل راتبه ثمانين ديناراً وهو راتب الحجابة، ثم شارك أبا جعفر الحاجب ثم أستبد بالحجابة عام سبعة وستين وثلاثمائة؛ فقد بلغ أرفع مناصب الدولة
- 4 -
سيطر أبن أبي عامر سبعة وعشرين عاماً على الأندلس كلها فصرف أمورها في الحرب

والسلم كما يشاء، ولم تجتمع أمور الأندلس في يد واحدة قادرة إلا يد عبد الرحمن الناصر ويد المنصور أبن أبي عامر. أما الناصر فقد ورث ملكا ثبته رأيه وعزمه ومضاؤه وإقدامه، وأما أبن أبي عامر فقد رفع إلى السلطان نفس طماحة وعزيمة ماضية وخلق مريم. ولم تكن هيبته في نفوس أعداء الأندلس دون هيبته في الأندلس، فقد أولع بالغزو وانتدب للجهاد فغزا خمسين غزوة في شمالي الأندلس، لم تنكس له راية، ولا بعدت عليه غاية، حتى بلغ (شنت ياقوب) في أقصى الجزيرة إلى الشمال والغرب، وما طمع أحد من المسلمين قبله أن تنال همته هذا المكان القصي. لقد صدق صاحب البيان حين قال: (ثم أنفرد بنفسه وصار ينادي صروف الدهر: هل من مبارز؟ فلما لم يجده حمل الدهر على حكمه فانقاد له وساعده. فاستقام أمره منفرداً بمملكة لا سلف له فيها. ومن أوضح الدلائل على سعده أنه لم ينكب قط في حرب شهدها، وما توجهت قط عليه هزيمة، وما أنصرف عن موطن إلا قاهراً غالباً على كثرة ما زاول من الحروب، ومارس من الأعداء، وواجه من الأمم؛ وإنها لخاصة ما أحسبه يشركه فيها أحد من الملوك الإسلامية. ومن أعظم ما أعين به، مع قوة سعده وتمكن جنوده، سعة جوده، وكثرة بذله؛ فقد كان في ذلك أعجوبة الزمان)

- 5 -

وكان المنصور عادلاً شديداً في الحق لا تأخذه فيه محاباة ولا شفقة، ولا يعرف في إنفاذ الحق هوادة: (جاء إلى مجلسه رجل فناداه يا ناصر الحق لي مظلمة عند هذا الفتى - وأشار إلى أحد فتيانه - وقد دعوته إلى الحاكم فلم يأت. قال المنصور: اذكر مظلمتك، ما أعظم بليتنا بهذه الحاشية. وقال للفتى: أنزل صاغراً وساو خصمك في مقامه حتى يرفعك الحق أو يضعك. وقال لصاحب الشرطة: خذ بيد هذا الظالم الفاسق وقدمه مع خصمه إلى صاحب المظالم ينفذ عليه حكمه بأغلظ ما يوجبه الحق)

ولما عاد الرجل المتظلم إلى المنصور يشكره قال له: (قد انتصفت أنت فاذهب لسبيلك. وبقي انتصافي أنا ممن تهاون بمنزلتي). وعاقب الفتى وعزله

ما ثبت سلطان هذا الرجل الطماح المتسلط المقدام إلا بهذا العماد من العدل والإنصاف

وإيثار الحق على نفسه وخاصته

وكان له فصاد فاحتاج إليه يوماً فقيل له إنه في حبس القاضي لحيف كان منه على امرأته. فأمر المنصور بإخراجه مع رقيب من رقباء السجن ليفصده ثم يعود إلى محبسه. وشكا الرجل إلى المنصور ما ناله من القاضي فقال: (يا محمد أنه القاضي! وهو في عدله. ولو أخذني الحق ما أطقت الامتناع عنه. عد إلى محبسك أو أعترف بالحق فإنه هو الذي يطلقك)

فمن يسأل عن ملك العرب والمسلمين كيف ثبت هذه الحقب الطويلة على أعاصير الخطوب ففي هذا وأمثاله جواب

- 6 -

وكان على كثرة مشاغله ذا عناية بالأدب والعلم يجتمع العلماء والأدباء كل أسبوع ويتناظرون في حضرته، ويمدحه الشعراء

وكان رحمه الله دّيناً متألها ورعاً كتب بيده مصحفاً كان يحمله في أسفاره. وجمع ما علق بثيابه من غبار الحرب وأوصى أن يجعل في حنوطه إذا مات، كما فعل أمير العرب ابن حمدان من قبله: صنع من غبار الوقائع لبنة لتوضع في قبره تحت رأسه وأتخذ المنصور كفنه من مال موروث من أبيه ومن غزل بناته اتقاء للشبهة، وتورعا أن يكون في أكفانه مال يرتاب فيه.

- 7 -

توفي المنصور سنة ثلاث وسبعين وتسعين وثلاثماية غازياً بمدينة سالم في أقصى الثغور الأندلسية ففرح أعداؤه بموته وصوروا جنازته ولا تزال صور الجنازة في متاحف أوربة

رحم الله المنصور بن أبي عامر! إن في سيرته لقدوة حسنة لكل طامح يسمو بنفسه إلى الدرجات العلى في المنصب والدين والخلق.

رحم الله المنصور! إن في سيرته لحجة يوم نفاخر بتاريخ العرب والإسلام
عبد الوهاب عزام

فتح مصر
كما صوره الأديب المجهول
للدكتور زكي مبارك

دخل العرب مصر يوم الجمعة مستهل المحرم سنة عشرين لهجرة الرسول، على خلاف في ذلك لا يغير الجوهر من موضوع هذا الحديث

ولم تكن مصر بعيدة عن أذهان العرب في الجاهلية، فقد تحدث القرآن عن أخبار مصر بإفاضة وإطناب، ذلك يشهد بأن العرب كانوا يسايرون ما يقع في مصر من حوادث وتقلبات، ومن هنا كانت الحكمة العالية في عناية القرآن بالتحدث عن مصر وملوك مصر وهو يدعو إلى الاعتبار بمصاير الجبابرة والظالمين

كان العرب يعرفون مصر قبل الفتح، وكانوا ينزحون إليها من وقت إلى وقت، طلباً للغنى والثراء. ومن شواهد ذلك شدة القرب بين اللغة العربية واللغة المصرية، وهو قرب يؤيده الاتحاد في ألفاظ كثيرة تعد بالمئات، ألفاظ نطق بها العرب والمصريون مع تشابه في الجرس والمدلول، وذلك لا يقع بين أمتين عن طريق المصادفات، وإنما هو برهان على قوة التعارف فيما غبر من عهود التاريخ.

والحق أن الفترة التي سبقت ظهور الإسلام كانت من مواسم اليقظة العربية، فكانت للعرب سفراء من التجار بأكثر البلاد التي فتحت في أيام الخلفاء، ولا سيما مصر والشام، فمن العسير أن نصدق أن مصر لم تخطر في بال العرب إلا قبيل سنة عشرين وكانوا يعرفون في جاهليتهم أنها أعظم مصادر الخيرات والثمرات، وأنها الطريق إلى أفريقيا الشمالية، وبأفريقيا الشمالية أقطار تسامع بها العرب ودخلت في أساطيرهم قبل الإسلام بأزمان

أقول هذا - وهو حق - لأثبت أن ما سطر التاريخ من أخبار فتح مصر لم يكن إلا من صنع الأديب المجهول، فمن هو ذلك الأديب؟

في الأدب العربي عشرات أو مئات الأدباء المجهولين، فالذي سطر خطب وفود العرب على كسرى أديب مجهول، والذي دون مشاورة المهدي لأهل بيته أديب مجهول، والذي ألف رسالة الطير والحيوان بين رسائل إخوان الصفاء أديب مجهول، والذي حرر المساجلة بين المقوقس وعبادة بن الصامت يوم حصار حصن بابليون أديب مجهول، فماذا صنع هذا
الأديب؟

يجب أولا أن نفهم أن العرب لم يدونوا أخبار الفتوحات يوماً بيوم، كما يصنع الناس في هذا العهد. فقد كان العرب محمومين بالقتال والصيال، وهل دونوا القرآن إلا بعد الخوف عليه حتى يهتموا بتدوين أخبار الفتوحات؟

إذا فهمنا هذا أدركنا بسهولة أن من دون من أخبار فتح مصر لم يكن إلا صورة من التاريخ المزخرف، وهو تاريخ يمثل عقل الكاتب أكثر مما يصور الواقع، وإلا فكيف جاز أن يتفق عمر بن الخطاب مع عمرو بن العاص على خطاب يتلقاه عمرو في الطريق وفيه هذه الكلمات: (إن أدركك كتابي هذا قبل أن تدخل مصر فأرجع إلى موضعك، وإن كنت دخلت فامض لوجهك. . .)

ليس هذا خبراً من الأخبار، وإنما هو أقصوصة من الأقاصيص؛ فعمر بن الخطاب لا يسير جيشا لفتح مصر إلا وهو مصمم على ضم مصر إلى الممالك الإسلامية. وعمر بن العاص لا يدافع رسولا يحمل إليه خطاباً من أمير المؤمنين، كما تشاء (القصة) أن تقول لغرض شريف هو وصف عمر بالحذر، ووصف عمرو بالإقدام، وكذلك وصف عمر وعمرو في أكثر ما تحدث به القصاص، وهم أقطاب التاريخ المزخرف في شباب العصر الإسلامي

ثم أنتقل الأديب المجهول إلى وصف الحوار الذي دار حول حصن بابليون، وهو حوار ترى فيه المقوقس يتكلم اللغة العربية بفصاحة يصورها هذا التحذير الطريف:

(إنكم قد ولجتم بلادنا، وألححتم على قتالنا، وطال مقامكم في أرضنا، وإنما أنتم عصبة يسيرة، وقد أظلتكم الروم وجهزوا إليكم ومعهم العدة والسلاح، وقد أحاط بكم هذا النيل، وإنما أنتم أسارى في أيدينا، فابعثوا رجالا منكم نسمع من كلامهم، فاعله أن

يأتي الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب، وينقطع عنا وعنكم القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه، ولعلكم أن تندموا إن كان الأمر مخالفا لمطلبكم ورجائكم، فابعثوا إلينا رجالاً من أصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به من شيء)

ثم يتلطف الأديب المجهول فيجعل رسول عمرو إلى المقوقس هو عبادة بن الصامت مع جماعة من الفرسان، فلأي غرض تخير عبادة لذلك اليوم المشهود؟

أنا أفترض أن الفن الأدبي هو الذي قضى بذلك التخير، فقد كان عبادة أسود، وكان العرب يعيرون بالسواد، فلم يكن بد من قرن الشجاعة بالسواد ليصبح وهو من مزايا الرجال

المقوقس: كيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم، وإنما ينبغي أن يكون دونكم؟

أصحاب عبادة: إنه وإن كان أسود، كما ترى، فإنه من أفضلنا موضعاً، وأفضلنا سابقة وعقلاً ورأيا، وليس ينكر السواد فينا

المقوقس: تقدم يا أسود، وكلمني برفق، فإنني أهاب سوادك

عبادة: قد سمعت مقالتك، وإن فيمن خلفت من أصحابي ألف رجل كلهم مثلي وأشد سوادا مني

من هذا الحوار نفهم أن ذلك الأديب المجهول قد أتجه إلى الدفاع عن اللون الأسود، وهو لون كان يعير به العرب في بلاط كسرى وبلاط قيصر، وشعور العرب بالتأذي من السواد هو الذي فرض على شعرائهم أن يكثروا من التغني بالبياض، وهم لم يجعلوا (البياض نصف الحسن) إلا لكثرة ما عيرهم الناس بالسواد، وهل كانت رسالة الجاحظ في تفضيل السود على البيض إلا دفعاً لما تأذى به العرب من أراجيف الشعوبية وهم قوم ألحوا في تعيير العرب بالسواد؟

أنا أفترض أن سواد عبادة له دخل في جعله رئيس القوم عند محاورة المقوقس وقد شجع عبادة وهو أسود، وجبن المقوقس وهو أبيض، ليظهر الأديب المجهول فضل الأخلاق على الألوان، إن لم أخطئ في هذا الافتراض

ولكن ما الغاية الأصيلة لذلك الحوار الجميل؟

هو حوار يصور الخصائص الإسلامية في أدب النفس، وينفي عن العرب تهمة القول بأنهم لم يفتحوا الممالك إلا حبا في المغانم الدنيوية

لهذا نرى الأديب المجهول ينطق رسل المقوقس إلى عمرو بهذه الكلمات:

(رأينا قوماً الموت أحب إلى أحدهم من الحياة، والتواضع أحب إليهم من الرفعة، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة، وإنما جلوسهم على التراب، وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كواحد منهم، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم، ولا السيد من العبد، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد)

فهذا كلام مصنوع قد أبتدعه ذلك الأديب المجهول ليصور شمائل المسلمين على ألسنة رسل المقوقس، وإلا فكيف يمكن الحكم بأن هذا الكلام وقع بألفاظه ومعانيه، وما كان رسل المقوقس يتكلمون العربية، ولا كان الغزاة بقادرين على تسمع ما دار في مجلس المقوقس من وصف للعرب بتلك الأوصاف؟

والظاهر أن الأديب المجهول كان حريصاً على تأكيد هذه المعاني، فلم يكتف بإجرائها على ألسنة رسل المقوقس، وإنما أجراها بصورة أروع على لسان عبادة بن الصامت، إذ تصوره يقول وهو يحاور المقوقس:

(أنا قد وليت وأدبر شبابي، وأني مع ذلك بحمد الله ما أهاب مائة رجل من عدوي لو استقبلوني جميعاً، وكذلك أصحابي، وذلك إنما رغبتنا وهمتنا الجهاد في الله واتباع رضوانه، وليس غزونا عدوا ممن حارب الله لرغبة في الدنيا ولا حاجة للاستكثار منها، إلا أن الله عز وجل قد أحل ذلك لنا، وجعل ما غنمنا من ذلك حلالاً، وما يبالي أحدنا أكان له قناطير من ذهب أم كان لا يملك إلا درهماً، لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يسد بها جوعته ليلته ونهاره، وشملة يلتحفها، وإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه، وإن كان له قنطار من ذهب أنفقه في طاعة الله تعالى وأقتصر على ما يبلغه، لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم، ورخاءها ليس برخاء، إنما النعيم والرخاء في الآخرة، بذلك أمرنا الله وأمرنا به نبيه، وعهد إلينا أن لا تكون همة أحدنا في الدنيا إلا ما يمسك جوعته، ويستر عورته، وتكون همته وشغله في رضاء ربه وجهاد عدوه)

ثم ترفق الأديب المجهول فأدار الحوار بأسلوب رشيق يجد القارئ تفاصيله في الجزء الأول من (النجوم الزاهرة) ويرى فيه ملامح من الحجاج الذي دار بين كسرى وأشياخ العرب يوم صاولهم وصاولوه في الصورة التي زخرفها أديب آخر مجهول

ومن الطريف أن نرى المقوقس يزين لأصحابه الصلح مع العرب بطريقة تشبه ما يسمى في هذا العصر (حجة دعاة التردد والهزيمة) فنفهم أن ذلك الأديب كان من أئمة الابتداع

المقوقس لأصحابه: أطيعوني وأجيبوا القوم إلى خصلة واحدة من هذه الثلاث أفوالله مالكم بهم طاقة، ولئن لم تجيبوا إليها طائعين لتجيبنهم إلى ما هو أعظم كارهين

أصحاب المقوقس: وأي خصلة نجيبهم إليها

المقوقس: إذن أخبركم، أما دخولكم في غير دينكم فلا آمركم به، وأما قتالهم فأنا أعلم أنكم

لن تقووا عليهم، ولن تصبروا صبرهم، ولا بد من الثالثة (وهي دفع الجزية)

أصحاب المقوقس: فنكون لهم عبيداً أبداً؟

المقوقس: نعم تكونون عبيداً مسلطين في بلادكم آمنين على أنفسكم وأموالكم وذراريكم خيراً لكم من أن تموتوا عن أخركم

أصحاب المقوقس: فالموت أهون علينا

وبهذا انقطع الأمل في الصلح، ودارت الحرب فاقتحم المسلمون الحصن، وانتهت الأمور إلى الخصلة الثالثة بعد أن أدى المصريون واجبهم في الدفاع عن بلادهم دفاعاً سلم من الخضوع لتخاذل المقوقس، وإن انتهى بالتسليم بعد احتدام نار القتال، والهزيمة في الحرب لا تغض من أقدار المحاربين، فالغالب والمغلوب في شرف الرجولة سواء

قد يعترض معترض فيقول: وهل تظن يوم الحصن خلا من مفاوضات بين عمرو بن العاص والمقوقس حتى تحكم بأن ما دون من ذلك لم يكن إلا بدعا حبره أديب مجهول؟

وأجيب بأني واثق بأن المفاوضات دارت بين الفريقين، وإنما ارتاب في صحة الوثائق التي صورت بها تلك المفاوضات؛ لأنها أصغر مما يجب أن تكون، ولأنها أنطقت المقوقس وأصحابه بألفاظ صنعها كاتب فنان

ثم ماذا؟ ثم أهجم على خطاب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب في وصف مصر الخطاب الذي يقول: (مصر قرية غبراء وشجرة خضراء، طولها شهر، وعرضها عشر يخط وسطها نيل مبارك الغدوات، ميمون الروحات) والذي يقول: (فبينما مصر يا أمير المؤمنين، لؤلؤة بيضاء، إذا هي عنبرة سوداء، فإذا هي زمردة خضراء، فإذا هي ديباجة رقشاء، فتبارك الله الخالق لما يشاء)

أهجم على هذا الخطاب فأحكم بأنه موضوع لأني أستبعد صدوره عن عمر بن العاص، لأني أراه عبث عابث، لا كلام رجل مسئول

أما بعد فقد كان أسلافنا يقولون في ختام كل بحث: (والله أعلم) فأنا أختم هذا البحث بعبارة (والله أعلم) تأدباً بأدب السلف وفراراً من وصمة الرجم بالغيب

كتب الله لنا النجاة من الخطأ وهدانا إلى الصواب، إنه قريب مجيب

زكي مبارك

اثر الهجرة في التشريع الإسلامي

للأستاذ محمد محمد المدني

في هجرة النبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة عبر عظمى ما تزال الأقلام والأفكار جاهدة في كشفها، والبحث عنها، وتجلية أسرارها

ومن هذه العبر التي ينبغي أن يلتفت إليها المسلمون وينتفعوا بها، ما نجعله اليوم مساق الحديث وموضوع المقال

كان للهجرة في التشريع الإسلامي أثر معروف مذكور، ولهذا الأثر ناحية دلالة وإرشاد، ربما كان القول فيها جديداً، والبحث عنها مفيداً

فأما الأثر المعروف المذكور، فهو أن القرآن الكريم ظل ينزل بمكة ثلاثة عشر عاماً لا يعرض فيها إلا إلى أصول الدين، وقواعد الأيمان، وبرهان التوحيد، ومحاسن الأخلاق، يريد بذلك أن يقتلع ما كان للعرب من العقائد الفاسدة، والأخلاق المستنكرة، ويزيل ما

في نفوسهم من شبه في إرسال هذا الرسول إليهم على فترة من الرسل، وظلام من الشرك، وإغراق في الجهل، وجمود على تقليد الآباء والأجداد ولو كانوا لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون!

ولا يكاد يعرف أن القرآن الكريم عني في هذه الفترة إلا بهذه الناحية يضرب لها الأمثال، ويقص لها القصص، ويحشد لها الآيات البينات، فإذا عني بغيرها فإنما يعني بما كان من سبيلها من التشريع الذي له صلة بحماية العقيدة والحفاظ على أساس الدعوة

فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة جعل القرآن ينزل بياناً للعبادات والمعاملات والنظم وأحوال الناس، وجعلت آياته تترى في تشريع كل ما يتصل بحياة الفرد والجماعة من المواريث والوصايا والزواج والطلاق والقضاء والجنايات والحدود والجهاد وغير ذلك

هذه السياسة التي ساس بها القرآن أمر الإسلام في مكة والمدينة، وأخذ بها المسلمين في سبيل التمكين لهم، والتثبيت لسلطان دينهم، سياسة ظاهرة الرشاد، مضمونة النجاح، متفقة مع نظام التدرج الطبيعي الذي أخذ الله به جميع الكائنات فما كان الله ليدع الناس فيما هم عليه من رجس وعبادة أوثان وتقاطع وتدابر وحروب وفتن وسفك دماء، ثم يدعوهم فجأة

إلى النظام المطلق الشامل، وقد ألفوا الفوضى، ويأخذهم بالتشريع المحكم المفصل، وقد عاشوا في كفالة الأهواء والشهوات، ويتعبدهم بأنواع من العبادات فيها سمو وفيها تهذيب، وهم الذين كانوا في مراتع الغي يسيمون!

ذلك هو المعروف المذكور من أثر الهجرة في التشريع الإسلامي: أما موطن العبرة فيه، وناحية الإرشاد والدلالة منه، فهي أنه يحسن بنا، ونحن بصدد الدعوة إلى أن يكون التشريع الإسلامي أساساً للقانون العام في مصر والشرق، أن نطبق هذه السياسة الرشيدة التي ساس لها القرآن أمر المسلمين الأولين، لنضمن نجاح هذا المسعى الشريف، وليعود ذلك على الإسلام بالعزة والقوة!

إن أهم ما يعترض هذا المسعى، ويقف في سبيل تنفيذ هذه الفكرة ما يتخيله كثير من الذين بيدهم الحول والطول، وتحت إشرافهم مراكز المال والاقتصاد، وفي عهدتهم حراسة الأمن والطمأنينة في الدولة، وبث أسباب الرغد والرفاهية في الأمة من أن في الأخذ بالشريعة الإسلامية الآن إعناتاً للناس وإرهاقاً، وشلاً لحركات التعامل التي أصبحت جزءاً من النظم العامة في العالم كله، وتنفيراً للأجانب من الإقامة بيننا، ونحن أحوج ما نكون إلى التعاون معهم، والانتفاع بنشاطهم، وما يديرون بيننا من أموالهم!

يقول هؤلاء للذين يطالبون بالتشريع الإسلامي: ماذا تصنعون في هذه المصارف التي انبثت في صميم الحياة المالية، وأصبحت في سائر الدول أساساً من أسس الاقتصاد ولا يستغني عنه تاجر، ولا زارع، ولا موظف، ولا صاحب مال؟ وماذا تصنعون في هذه الشركات التي فتح الله بها للصناع أبواباً من الرزق، وجعل منها للأموال الراكدة حظاً من الربح، وسد بها حاجة بعد حاجة مما لا يستغني عنه الناس؟ لاشك أنكم ستضطرون إذا بسطتم سلطان الشريعة الإسلامية إلى إغلاق هذه المصارف، وفظ هذه الشركات، التي تتصرف تصرفاً لا يتفق وأراء الفقهاء، فإذا لم تغلقوا المصارف ولم تفضوا الشركات، أرهقتموها بالشروط والنظم التي توافق شريعتكم إرهاقاً لا تستطيع معه الحياة، ولا أداء ما تؤديه إلى الناس من خدمات!

ثم كيف تنفذون الحدود؟ كيف ترجمون الزاني، وتقطعون السارق، وتقتصون من عين بعين، ومن سن بسن؟ بينما العالم ناظر إليكم، متعجب من هذه العقوبات الصارمة تنزلونها

على الجناة بلا رحمة ولا شفقة في الوقت الذي اتجهت فيه أنظار المصلحين إلى مداواة الإجرام، بإصلاح نفوس المجرمين، وإلى اقتلاع أسباب الشر، بتهذيب الأشرار في غير عنف ولا تغليظ؟

ومتى نصبر على سياط الجلاد أجسام غذيت بالنعيم، ونشئت على الرفاهية وعاشت في عصر الطب والكهرباء والمدافيء والمراوح بين مروج الحدائق، ومتاع القصور؟

ومتى يعيش معكم أجنبي إن لم تنفذوا الحد فيه نفذتموه في صديق له أو جار أو عميل، فإذا هو يلقاه بيد مبتورة، أو عين مفقوءة، أو سن كسير؟

هكذا يقوا الذين يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم! وهم من غير شك مخطئون، لأن

الشريعة الإسلامية تستطيع أن تنظم أحوال المصارف والشركات بما لا يتنافى مع قواعدها، ولا يرهق القائمين بها، ولا المتعاملين فيها

وهم مخطئون فيما تخيلوه من أمر الحدود والقصاص، فإن هذه الأشياء التي اعترضوا بها هي الوسيلة إلى اقتلاع الإجرام من أساسه، واجتثاث الفساد من أصوله، وتوفير الجهود العظيمة التي تذهب سدى في مكافحة الإجرام والمجرمين!

وهم مخطئون لأنهم حين يظهرون بهذا المظهر الذي يفيض رحمة وشفقة بالمجرمين وأهل الفساد، ويتناسون إجرامهم وفسادهم وما أساءوا به إلى الآمنين!

وهم مخطئون لأنهم حين يذكرون اتجاه المدنية الحديثة إلى تهذيب الجناة وإصلاح نفوسهم بالرفق واللين، ينسون اتجاه بعض الأمم إلى إعدام المجرمين، وأصحاب الشذوذ، والمصابين بالإمراض التي لا يرجى لها شفاء، رفقاً بالأمة في مجموعها وصيانة لها كما يصان الجسم ببتر بعض أعضائه الفاسدة التي لا يرجى لها صلاح!

هم مخطئون لهذا كله، ولكنهم لا يقتنعون بخطئهم، ولا يرجعون عن غيهم، ومن العبث أن ننفق الوقت والجهود في سبيل إقناعهم وما هم بمقنعين، ونحن لا نستطيع أن نمضي في طريقنا، ونغض النظر عنهم، لأن هؤلاء - كما قدمنا - لهم أثر لا ينكر في توجيه سياسة البلاد، ولهم قوة وسلطان يستطيعون بهما إقامة العراقيل، ووضع العقبات في سبيل كل مشروع لا يرضون عنه، ولا يقتنعون به

فما هي الحيلة التي ينبغي أن نتوسل بها إذن إلى تنفيذ هذه الفكرة الجليلة، فكرة إحلال

التشريع الإسلامي محل التشريعات الوضعية؟

إن أثر الهجرة في التشريع الإسلامي يوحي إلينا بهذه الحيلة، ويرشدنا إلى هذه الوسيلة، فما دام الله القادر العليم الحكيم قد أرتضى للمسلمين أن يعيشوا حيناً من الدهر موقناً بدون تشريع تفصيلي شامل، لأن المصلحة كانت يومئذ تبرر ذلك، وما دام هذا لم يؤثر في اطراد تقدم المسلمين ونجاح دعوتهم، فيحسن بنا أيضاً وقد عاد الدين غريباً كما بدأ، أن ننادي بتنفيذ ما ليس بيننا وبين أحد خلاف عليه ونؤجل تنفيذ ما فيه الخلاف، حتى إذا اقتنع الناس فيما بعد بما لم يقتنعوا به اليوم مضينا في تنفيذه أيضاً، وإلا صبرنا حتى نهيئ لذلك العقول والأفكار

ينبغي أن نقول لهؤلاء الذين يحاجوننا عن دعوتنا: سنترك لكم المصارف والشركات تسير على النظام الذي شرعتم لها حتى نستطيع إقناعكم بنظام أفضل منه يتمشى مع التشريع الإسلامي وينهض بحاجات الأمة، وسنترك تنفيذ هذه العقوبات التي ترونها صارمة منافية للرحمة حتى نقنعكم يوماً بخطأ فكرتكم، وفساد تخيلكم، وسننفذ ما نحن وأنتم عليه متفقون؛ فقد رضى الله مثل ذلك للمسلمين من قبل. فتعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، ولنتعاون جميعاً على جعل التشريع الإسلامي أساساً لما نشرع بعد اليوم من قانون أو نضع من نظام!

إن الشريعة الإسلامية لا تأبى مثل ذلك، وقد أوقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه تنفيذ القطع في عام المجاعة، وأخذ بذلك أحمد بن حنبل والأوزاعي. وقد روى في سنن أبى داود أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن تقطع الأيدي في الغزو. وروى صاحب أعلام الموقعين أن عمر رضى الله عنه كتب إلى الناس: (أن لا يجلدن أمير جيش ولا سرية ولا رجل من المسلمين حداً وهو غاز حتى يقطع الدرب قافلاً لئلا تلحقه حمية الشيطان فيلحق بالكفار)

وفي كل هذا توسيع على المسلمين وإرشاد لهم إلى رعاية المصالح وتقرير الظروف والأحوال؛ ولا شك أن من مصلحة الإسلام الآن أن نأخذ في تشريعنا الحاضر بما نستطيع أن ننفذه من أحكامه، على أن نوقف ما لا يمكن تنفيذه حتى يهيئ الله للمسلمين من أمرهم رشداً

هذه فكرتي، ولعلي أكون قد جليتها وأوضحتها حتى لا أثير بها ثائرة الذين يحرفون الكلم

عن مواضعه، ويحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم

محمد محمد المدني
المدرس بكلية الشريعة

طارق بن زياد
من شاطئ إلى شاطئ
للأستاذ علي محمود طه
أشباحُ جِنٍّ فوق صدرِ الماءِ ... تهفو بأجنحةٍ من الظلماءِ؟
أم تلك عُقبَان السماءِ وَثَبْنَ من ... قُنَنِ الجبالِ على الْخضمِّ النائي
لا، بل سفينٌ لحْنَ تحت لواءِ ... لمن السفينُ تُرَى! وأيُّ لواءِ؟
ومَن الفتى الجَّبارُ تحت شراعها ... متربِّصا بالموج والأنواءِ؟
يُعلى بقبضتِه حمائلَ سيفهِ ... ويضمُّ تحت الليل فضلَ رداءِ
ويُنيلُ ضوَء النجم عاليَ جبهةٍ ... من وَسْمِ (إفريقيَّة) السمراء
ذَهَبٌ ببوتقةِ السَّنى من ذَوْبِه ... مَسَحَتْ مُحَيَّاهُ يَدُ الصحراء
لونٌ جَلَتْ فيه الصحارى سحرَها ... تحت النجوم الغُرّ والأنداء
وسماءِ بحرٍ ما تطامنَ موجُهُ ... من قبلُ لأبنِ الواحةِ العذراء
بحرٌ أساطيلُ الخيالِ شطوطهُ ... ومسابُحَ الإلهامِ والإيحاء
ومدائنٌ سحريةٌ شارَفْنَهُ ... بنخيلها وضفافِها الخضراء
ومعابِدٌ شُمٌّ، وآلهةٌ على ... سُفُنٍ ذواهبَ بينهنَّ جوائي
أبطالُ يونان على أمواجه ... يطوون كلَّ مفازةٍ وفضاء
يتجاذبون الغارَ تحت سمائهِ ... يتناشدون ملاحمَ الشعراء
ما زالَ يرمي الرُّومَ وهو سليلُهم ... ويُديلُ من (قرطاجة) العصماء
حتى طَلَعْتَ به فكنتَ حديثَه ... عجباً! وَأيَّ عجائبِ الأنباء
ويسائلونَ بك البروقَ لوامعاً ... والموجَ في الأزبادِ والإرغاء
من علَّم البَدويَّ نّشْرَ شراعِهِ ... وهداهُ للإبحارِ والإرساء!
أين القفارُ من البحارِ؟ وأين من ... جِنَّ الجبالِ عرائسُ الدأماء
يا ابن الِقبابِ الحمرِ ويحك! من رمَى ... بكَ فوق هذى اللجَّةِ الزرقاء؟
تغزو بعينيك الفضاءَ وخَلْفَهُ ... أفقٌ من الأحلامِ والأضواء
جُرُرٌ مُنَوَّرَةُ الثغورِ كأنها ... قطراتُ ضوء في حفافِ إناء
والشرقُ من بُعْدٍ حقيقةُ عالَمٍ ... والغربُ قُرْبٍ خيالةُ رائي
ضحكتْ بصفحتهِ المنى وتراقصتْ ... أطيافُ هذى الجنةِ الفيحاء
ووثبتَ فوق مروجها وتلمَّستْ ... كفاكَ قلباً ثائرَ الأهواء
فكأنما لكَ في ذَراها مُوعِدٌ ... ضَرَبَتْهُ أندلُسيةٌ للقاء!
ووقفتَ والفتيانُ حولك وانبرتْ ... لكَ صيحةٌ مرهوبةُ الأصداء
هذى الجزيرةُ إن جهلتم أمرَها ... أنتمْ بها رهطٌ من الغرباء
البحرُ خلفي والعدوُّ إزائي ... ضاع الطريق إلى السفين ورائي
وتلفتوا فإذا الخصمُّ سحابةٌ ... حمراءُ مُطْبِقَةٌ على الأرجاء . . .
قد أحرقَ الربَّانُ كلَّ سفينةٍ ... من خلفِه إلاّ شراعَ رجاء!
ألقى عليهِ الفجرُ خيطَ أشعةٍ ... بيضاءَ فوق الصخرة الشمَّاء
واتى النهارُ وسار فيه طارقٌ ... يبني لملكِ الشرق أيَّ بناء
حتى إذا عَبَرَتْ لَيَالٍ طوفت ... أحلامُه بالبحر ذاتَ مساء
ترعى على الأفُقِ المرصَّع قريةً ... أعْظِمْ بها للغزوِ من ميناء!
مَدَّ المساء لها على خلجانها ... ظِلا فنامتْ فوق صدور الماءِ!
على محمود طه
العقيدة الإسلامية تكون البطولة
عمر المختار
للأستاذ محمد عبد الرحمن الجديلي
دخلت الهزيمة على الطليان من أقطار الصحراء، فأمعنوا في الفرار لا يتلبثون ولا يستأنون. . . لا ينتظرون عند المساء صباحاً، ولا عند الصباح مساءً، كأنما يغزوهم الرعب، ويقتلهم الخوف، من قبل أن تدهمهم الجيوش، ومن قبل أن يحاط بهم كلما طلع نهار أو غسق ليل، تتابع الصور الشاحبة لتلك الهزيمة النكراء، وفي أعقابها ألمح صوراً مشرقة لأبطال (طرابلس) ومن بينها صورة فريدة تتألق أمام عيني في هالة من الجلال والتهيب، تلك هي صورة البطل المسلم الشهيد (عمر المختار) ومن

!عجب أن تتلاحق الصورتان: صورة الهزيمة النكراء، وصورة الشجاعة البلقاء هذه صورة للأفئدة الهواء، وتلك صورة للأحلام الرزان، وللنفوس الوثابة مطمئنة راضية مرضية

تباركت يا الله!! تجلت آيتك الكبرى في هذا البطل المسلم الصحراوي، فقد أفرغت عليه إيماناً من فرعه إلى قدمه، فإذا هو وقد خرج صورة مجسدة للعقيدة الإسلامية، يضرب للناس أروع الأمثال: من همامة نفس وقوة بأس، لا يحدث نفسه بالأدباء، ولا يفسد مروءته بعرض زائل، ولا ينتفض رجولته بقبول الهضيمة والهوان

في شوال من عام 1329هـ اندفعت القذائف (الطليانية) الغادرة، مصوبة إلى طرابلس وبرقة، فكانت مؤذنة بتوقد جذوة الإيمان في قلوب المجاهدين؛ ومن بينهم عمر المختار

ولم يكن لهم من العتاد ولا من الذخر ولا من الحشد ما اجتمع لأولئك الغادرين، ولكن كان لهم شأن واحد أغناهم عن كل أولئك الشئون. . . كان لهم أيمان، وكانت لهم عقيدة، ولم يكن لهم أهواء، ولا بهم نزوات. . . وحسبك هذا غناء أي غناء. . .! فلقد بقى عمر المختار يفل شوكة أعدائه، ويقلم أظفارهم، ويتخطفهم من حولهم، ويكسر سلطانهم، حتى كانت سنة خمسين وثلاثمائة وألف الهجرية!

اثنتان وعشرون سنة دأباً، وعمر لا تخضد شوكته، ولا تفل عزيمته، تتكسر الأحداث أمام يقينه وإيمانه

وما خطبه بعد ذلك؟ - نضر الله وجهه - امتدت يد غادرة من وراء ظهره، فعبثت بحريته، ثم عبثت بحياته الدنيا، لكنها - الحق - قد أطلقت روحه إلى أعلى عليين، فإذا موته حياة، وإذ ذكره خلود، وإذا سيرته سناء. . .

ويا فرق ما بين ثبات الأعزاء، وبين فرار هؤلاء الأذلاء، وبضدها تتميز الأشياء

نشأ (عمر المختار) ببرقه، من أبوين مسلمين، لقناه العقيدة الإسلامية، وثقفاه بالقرآن الحكيم، ونشأه أبوه (المختار) في زاوية (الجغبوب) في البيئة السنوسية، تلك البيئة التي تلهم النفس فجورها وتقواها، وتفقهها أن قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها، ثم تبعث في الإنسان: حرية الإرادة وحرية الفكر، وسلامة الرأي وصفاء الطوية؛ وقلما ينحرف ربيب تلك البيئة عن الفطرة النقية: فطرة الله التي فطر الناس عليها

فلما بلغ (عمر) أشده واستوى، اكتملت فيه معاني الرجولة، وبرزت صورته صورة (للرجل الكامل المسلم)

اختاره - في صدر شبابه - (السيد المهدي السنوسي) ليرافقه في رحلة إلى السودان، وكانت فراسة السيد المهدي فراسة صادقة، فقد اجتمع حول (عمر) بالسودان رجال أولو بأس وأولو قوة، عرفوه بالحاسة الصادقة، وعرفهم بنور الله؛ ثم أحبوه وأكبروه وأعظموه

والسيد المهدي معنى بأمره، معجب بإيمانه، يرى أنه قد جمع - في برديه - ما تفرق من القبيل وتناثر في الرجال، فكان يقول: ليت لنا عشرة كعمر، إذن لفتحنا بهم كل قلب موصد، وأنرنا كل بصيرة مطموسة. .! ثم تركه في السودان يعلم الناس الرجولة الإسلامية

عقد الصلح الأبتر بين تركيا القديمة وبين الطليان سنة 1912م واشتعلت نيران الحرب في البلقان، واستقدمت الدولة (أنور) فسلم الآمر (لعزيز) المصري، وهم (عزيز) أن يدع القتال وأن يذهب إلى الحدود المصرية، فتحرج الموقف، وثارت روح عاصفة عنيفة بين المجاهدين؛ وأخذ كل فريق يكافح الفريق الآخر، وتمشت فتنة عمياء صماء، وكاد المجاهدون يخربون بيوتهم بأيديهم

وهنا تتدارك الجميع رحمة الله، ويظهر الفيصل المغوار (عمر المختار) فيطفئ نيران الشر، ويجدع أنف الفتنة، ويهيب بالمختلفين: يا للفضيحة ويا للعار. . .! لو تسامعت الأمم: أن المجاهدين قد أصبحوا - وبأسهم بينهم شديد - تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى دوت تلك الصرخات في شعاب الصحراء، وفعلت في النفوس كما يفعل السحر، ونزل الثائرون على حكم (عمر)؛ عزمهم جميع وقبلتهم واحدة

وهكذا يكتب لهذا البطل الظفر على نوازع النفوس، وينبسط سلطانه على نزوات القلوب، ويستل السخائم والترات بهدى الدين، وبترياق الإخلاص

أحصى الرواة (لعمر) ألف معركة أشتبك فيها مع الطليان في اثنتين وعشرين سنة،

وهو يتعقبهم، وهم يحتالون لأمره، ويتحيرون في القضاء عليه، ويستبدلون القائد بالقائد، وعمر وحده هو القائد الصامد، حتى ظنوا - آخر المطاف - أنهم قد رموه بالداهية الدهياء (بجرازياني)

ويتحدث جرازياني في مذكراته: أنه قد نازل عمر في ثلاث وستين ومائتي معركة، كانت مدتها عشرين شهرا وعمر - كما وصفه شوقي -:

لم تُبق منه رحى الوقائع أعظماً ... تبلى، ولم تبق الرماح دماء

كان عمر قافلاً إلى برقة من رحلة له في مصر يصلح ذات البين، فلقيه عسس الطليان وتصدوا لقتاله وهم في سيارات ثلاث، مسلحات فتاكات مزودات، وعمر فوق صهوة جواده، وسلاحه سلاح أبناء الصحراء، فما هو إلا أن كر كرة في حصانه اليقين وثبات المؤمنين؛ فإذا بالسيارات الثلاث، وقد صرن سلباً وغنائم، وإذا بأصحابها الطليان، وقد صاروا خبراً من الأخبار؛ ولله إلهام شوقي:

بطل البداوة لم يكن يغزو على ... (تنك) ولم يك يركب الأجواء

لكن أخوخيل حمى صهواتها ... وأدار من أعرافها الهيجاء

. . .ما نسى جند عمر ولا قواده: أنهم يحمون عقيدة، وأنهم جند الله

ويا ما أروع وأرهب الصورة التي يصفها عمر لموقعه وكرسه بالجبل الأخضر، وقد حانت صلاة الظهر، وقائد الموقعة الشهيد (الفضيل أبو عمرو)، فقسم الجند طائفتين، وصلى بهم صلاة الخوف، فطائفة تأخذ حذرها وأسلحتها، وطائفة تتوجه إلى ربها وقد انجلت الموقعة هن قتلى عددهم خمسمائة طلياني بينهم (ماجور) وثلاثة ضباط

أعجز الطليان شأن عمر، وأعياهم أن يأخذوه أخذ الجند للجند، فهو لا يضجر ولا يستخذي، فأعملوا السفارة بينهم وبينه ليتهادنوا، وأرادوا أن يعرفوا شرطه لوضع السلاح وحقن

الدماء، فكانت شروط عمر، قطعة من عقله، كلها سياسة رشيدة، وكلها من العزة والكرامة والسداد

فأولها: أن يشهد المفاوضات مندوب من (مصر) ومندوب من (تونس) ليكون الناكث مسئولاً أمام العالم بشهادة مندوبي الأمتين.

وثانيها: حرية المسلمين الدينية، وتأديبهم لكل خارج على الدين أو هازئ به أو مستخف بتعاليمه أو متهاون في شعائره

وثالثها: أن تكون اللغة العربية لغة رسمية للبلاد، كالطليانية سواء بسواء

ورابعها: أن تنشأ مدارس يعلم فيها التوحيد والتفسير والحديث والفقه وعلوم الدين

وخامسها: أن يلغى قانون سنة 1923 م الذي يحرم على الوطنيين دخول المدارس العالية، كما يلغى القانون الذي ميز حقوق الطليان عن حقوق المواطنين، وأن ترجع الحكومة ما غصبته من الأملاك والأموال

عرف الطليان من تلك الشروط أن الأيام والأحداث لم تنل من شدة الشكيمة العمرية، فأظهروا له وفاء بشروطه، وأضمروا لها الغدر والخيانة. ثم راحوا يدبرون للمجاهدين الحصار والإجاعة؛ وفكروا أن يذروا عليه الصحراء من شمالها إلى جنوبها ومن شرقها إلى غربها بالإجاعة.

وقد أختار عمر المبيت على الطوى، وأن يسلم له الشرف الرفيع؛ كما وصفه شوقي:

خُيرتَ فاخترت المبيتَ على الطوى ... لم تبن جاهاً أو تلم ثراء

إن البطولة أن تموت من الظما=ليس البطولة أن تعب الماء

وهكذا بقيت البطولة العمرية تبعث اليأس في نفوس الطليان منها، حتى أصيبت في مأمنها! يوم سلمت (جغبوب) للطليان، فحصروا - بالأسلاك الشائكة - الرقعة التي يأوي إليها المجاهدون، وحموهم أن يتصلوا بالحدود المصرية، حتى لا يجدوا قوتاً، وحتى تنقطع بهم الأسباب

وبينما (عمر) يتنقل - بين الغداة والأصيل يوم الجمعة الثاني والعشرين من ربيع الثاني سنة1350 هـ - يستطلع كمينا، أو يناوش شرذمة، وهو في خمسين فارساً من رجاله، إذ التقى بطائفتين من الطليان، كانتا تجدان في قص أثره، فأحدقوا به، وثارت في نفسه - تلك

الساعة - كل المعاني التي قامت عليها بطولته، فهاجمهم هجوم المستأسد، من اليمين ومن الشمال، حتى تساقط رجاله، ونفق جواده من تحته، فنزل عنه يترنح من الجراح،

ثم يحاول النهوض، فتكاثروا من حوله رجالا وركبانا
واهتزت الأسلاك البرقية في جوف الصحراء، ومن فوق أعلام الشواطئ: أن البطل أمسى أسيراً، فسالت الأودية بالكتائب والفصائل، واجترأت السرايا والأجناد، وكانت من قبل تتحاماه وتخشاه
وجاء طراد حربي فنقله إلى بني غازي، وتقررت محاكمته في مركز الإدارة الفاشستية وإنها لمحاكمة أبانت عن نقائب وصفات في عمر، ما سمعنا بمثلها من قبل في الموقف الضنك والساعات الفاصلة
وقف عمر أمام الحكام العسكريين كما قال فيه شوقي:
لبى قضاء الأرض أمس بمهجة ... لم تخش إلا للسماء قضاء
وافاه مرفوع الجبين كأنه ... سقراط جر إلى الفضاء رداء
سئل عمر: هل أنت رئيس الثوار ضد إيطاليا؟
فأجاب بنبرات قوية وفي حزم قاطع: نعم!
سئل: هل شهرت السلاح واشتركت في القتال، وأمرت بقتل الجنود، وجبيت الضرائب؟ فأجاب على كل ذلك بنعم!
سئل: هل لديك ما تقوله بعد ذلك؟ وكأنما أرادوا أن ينتزعوا من عمر - في البرهة الذاهلة - ضراعة أو استعطافاً، ولكن هيهات هيهات، فقد أجاب:
ليس لدي شيء وراء ذلك:
الأسد تزأر في الحديد ولن ترى ... في السجن ضرغاماً بكى أستخذاء
واختلى الحكام العسكريون ثم أعلنوا حكم (الإعدام)
ولم يستطع محاكمو (عمر) إلا أن يصرحوا وقت المحاكمة بقولهم: إن المتهم يمتاز عن بقية الزعماء بأنه لم يبتز أموال الدولة
شهادة بأفواههم تسجل عليهم عار الحكم، وتخلد للشهيد النزاهة والعفة في جهاده المتصل العنيف!!
لقد لخص (الطليان) تلك المقاومة العمرية في اثنتين وعشرين سنة، فإذا هي تركزت في البلاغ الرسمي الذي صدر عقب تلك الأحداث يقول:
(هكذا انتهت حياة الرئيس العظيم (البرقاوي) أحد تلاميذ مدرسة (جغبوب) القرآنية)
فيا أيها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها:
من مبلغ أبناء هذا الجيل من المسلمين: أن تداع البطولة الإسلامية لا يتصل حاضره بماضيه، إلا إذا وجدت مدارس على غرار مدرسة جغبوب القرآنية، تعلم القرآن، وتعلم العقائد، وتعلم العزة والكرامة!!
الجديلي
في الحروب
بماذا كان ينتصر الإسلام
للأستاذ عبد العزيز البشري
ما وقع حدث من أحداث هذه الحرب، وخاصة في ألبانيا التي أصبحت معتركاً حامي الوطيس، بين دولة صغيرة، قليلة العدد، قليلة العُدد، ضئيلة الموارد، كل همها من العيش أن تحظى داخل حدودها بالأمن والسلام، قانعة باليسير مما أفاءت عليها الطبيعة، وما يعالجه أبناؤها النشيطون من فنون الصناعات، وما يزجونه إلى أسواق العالم المختلفة من ألوان التجارات؛ لها من كل أولئك مقنع وليس لها من وراءه أي مطمع، فإذا كان لها جيش أو كان لها أسطول فبقد ما تؤمن الحدود وتمنع الثغور، ولو إلى حين - أما الطرف الثاني من هذا المعترك فدولة عظيمة، قوية بعددها، قوية بصناعاتها وبتجاراتها، قوية بمستعمراتها الواسعة الشاسعة التي ضمنت أرضوها من الكنوز المعدنية ما يغني في كل شيء من أسباب الحياة القوية الفنية ليس أعز منها في هذا العالم حياة - ومع هذا فإننا نرى أن هذه الدولة الصغيرة الدقيقة في كل شيء، لا تفتأ تضرب هذه الدولة العظيمة الضخمة في كل شيء، كلما طلعت الشمس ضربة، وتركلها كلما غربت الشمس ركلة. وبين ذلك لا تفتأ في كل ساعة تجرعها من الصاب والعلقم ما يفري الحناجر، ومن الغسلين ما يذيب الأحشاء. وتلون لها من المهانات ما أجراها مثلاً للخزي على ألسن العالمين
لعمري ما وقع حدث من هذه الأحداث إلا اذكرني سير العرب السابقين، وأحضرني

شأنهم في فتوحهم ومغازيهم. فلم يكن هؤلاء في الأكثر الأغلب أكثر من عدوهم عددا، ولم يكونوا أقوى منه عددا، ولم يفوقوه في تنظيم الجيوش وتنسيق الكتائب، وتدبير المكايد، وإحكام خطط الحرب، وتدبير وسائل الكر والفر؛ بل لقد كانوا أضعف وأهون شأناً في كل أولئك جميعاً! ومع هذا فإنهم ما صارعوا إلا صرعوا، ولا قارعوا إلا قرعوا، ولا شدوا إلا ظفروا، ولا حملوا إلا قهروا، ولا هجموا إلا انتصروا؛ ففتحت بين أيديهم أبواب المعاقل، ومهدت لهم السبل إلى أمنع المدائن، وحشدت لهم أضخم الغنائم، واستأسر لهم من المقاتلة أضعاف أضعافهم في يسر، بلغت عين الدهر. وكذلك لم تجهد دورة الفلك إلا قرناً واحداً حتى دانت لهم مناكب الأرض، وذلت نواصي البر والبحر!

إذن لم يظفر العرب، في حروبهم، كل هذا الظفر، ولم يتهيأ لهم ما دوخوا من البلاد، وما ملكوا من الأقطار، وما فتحوا من هذه الفتوح العظيمة في قواصي الأرض وأدانيها لأنهم كانوا أكثر من عدوهم عدداً، ولا أمضى سلاحاً، ولا أعلم بفنون الحرب وأخبر بأساليبها ومكايدها؛ بل لقد علمت أنهم كانوا دائماً دونه في جميع أولئك بما لا يجوز فيه التشبيه ولا يصح معه القياس

وبعد، فلعمري ما مشى النصر بين أيديهم أنى قاتلوا في شرق الأرض وفي غربها، بالغاً ما بلغ من الضآلة عددهم، وواقعاً حيث وقع الضعف سلاحهم، إلا بأسباب ثلاثة:

1 - العدل 3 - الرحمة 2 - الإيمان

فالإيمان ييسر على النفس التضحية، مهما جلت، بل لقد يغري بها ويدفع إليها في المطلب الجسام.

ولا ننس أن من أثر الأيمان بناء النفس على الصبر عند معاناة الشدائد وخوض المكاره، فإن إصابة الغرض الذي يدفع المجاهد إليه إيمانه لحقيقة بأن تحد من عزمه، وتشد من متنه، فلا يعتريه خور ولا خذلان، وأنت خبير بأن الصبر هو مفتاح النصر، وصدق من قال: الشجاعة صبر ساعة، والأمثلة على هذا مما لا يحيط به الحساب!

وبعد هذا أحسب أن العجب قد أخذ فيك بادئ النظر، من نظم الرحمة والعدل في أسباب الظفر في الحروب والتنكيل بالأعداء، والواقع أنهما قد يكونان أمضى من السيف في كسب الحروب، وذلك بأن القسوة وغلظة الكبود لا تجدي على المقاتل شيئاً البتة، بل إن شهرته بين مقاتليه بالرأفة إذا تمكن، والمعدلة إذا حكم، لما يخزلهم عن الاجتهاد في قتاله، ويشيع فيمن وراءهم قلة الاستحماس لهم وثقل القادرين على القتال عن نجدتهم، بل لقد يرجون النصر لهذا العدو ليخرجوا من ظلمهم، وينعموا في ظلال حكم ملائكة الرحمن والرقة والعدل والإحسان

وكذلك ساد العرب الدنيا، وما هداهم إلى هذا إلا دينهم العظيم. . .

والشواهد على هذا في حروب المسلمين مما لا يبلغه كذلك الإحصاء

وبحسبنا أن نورد في هذا الباب مثلين يسيرين: أولهما أن أبا بكر الصديق، رضي الله عنه، قال في وصاة له لأسامة ابن زيد قائداً أحد جيوشه ولأصحابه، وهم مرتحلون إلى الحرب التي وجههم إليها: (لا تخونوا ولا تغدروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة، ولا تتبعوا موليا، ولا تقعروا نخلا ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا للأكل، وإذا مررتم بقوم فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له. الخ)

أسمعت حديثا في الرحمة بالعدو المقاتل والرقة له أبلغ من هذا الحديث؟

ذلك بأن الإسلام لا يبغي بالحرب كيدا ولا شفاء ضغن! إنما يبغي بالحرب أعلى المثل: فإما دفع أذى، وإما بسط الحق والخير والفضيلة في هذا العالم. قال الله تعالى يخاطب رسوله الكريم: (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) صدق الله العظيم

ولقد قال تعالى في كتابه العظيم: (إن الله يأمر بالعَدْلِ والإحسان، وإيتاء ذي القربىَ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، يعظكم لعلكم تذكرون)

وكيف ظنك بدين يأمر بالإحسان حتى في القتل! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا قتلتم فأحسنوا القتلة).

أما التمثيل حتى بالحيوان فقد أغلظ هذا الدين في النهي عنه، واشتد في الوعيد عليه، فقد روى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (من مثل بحيوان فعليه لعنة الله

والملائكة والناس أجمعين)
وتلك كانت سنة الغزاة والفاتحين في صدر الإسلام
وإن تعجب فعجب أن يكون ذلك أدب الإسلام في عصر كان من السائغ المألوف فيه سوم المحكومين المقهورين ألوان الخسف من إهدار الدماء، وتخريب الدور، واستصفاء الأموال، في غير جرم يقترف، أو إثم يجترح، حتى كاد يكون ذلك شرعا مشروعا وواجبا مفروضا!
وأما المثل الثاني فأجلوه لك في حادثين مأثورين عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وهذان الحادثان معروفان شائعان، وما كنت لآتي بهما لولا أنه قد اقتضى الإلمام بهما نظم المقال: وأولهما ما حكى من أن جبلة بن الأيهم - وكان آخر ملوك بني غسان - أسلم وخرج إلى مكة، فلما كان في بعض طوافه داس رجل من فزارة على طرف ردائه فحل أزراره، فلطمه جبلة، فاستعدى الرجل عليه عمر، فدعى به، وخيره بين أن يترضى الرجل أو يقيد له منه. فقال: يا أمير المؤمنين: أتقيده مني وأنا ملك وهو سوقة؟ فقال ولكن الإسلام
سوى بينكما؟
وأما الحادث الثاني، فما حكي عن رجل من أهل مصر قدم على عمر، فقال: عائذ بك يا أمير المؤمنين! فقال رضي الله عنه: عذت بمعاذ! فقال: لقد ضرب ولد عمرو بن العاص ولدي (وكان عمرو يومئذ عامله على مصر)، فأرسل في طلبه معه ولده واستقاد من الولد والوالد جميعاً؛ ثم أقبل على عمرو وقال: يا عمرو بماذا استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟
هذه الأمثلة، على قلتها، تريك مبلغ ما يدعو إليه الإسلام من الرحمة بالمقهور والرقة له، وإقامة العدل بين الناس، مهما يكن الفرق بين الظالم والمظلوم، وأخيراً توطيد الحرية وتوكيدها على أنها حق طبيعي للإنسان، كائناً من كان
أما الحرب في هذا العصر، فلقد صارت إلى ما ترى، وهي إن امتازت بشيء فأبرز ما في وجوه هذا الامتياز أن ضحاياها وصالو حرها من المستأمنين الوادعين، أصبحوا أكثر كثيراً ممن تجردوا للقتال، واستنفروا للكفاح والنزال؛ بل لقد تعدل الموبقات القواصف من الطائرات عمداً عن المسالح ومستودعات الذخائر، وثكنات الجند، وغير ذلك من أسباب الحرب، إلى دور المستأمنين، حيث المرأة ترضع ولدها، وحيث الرجل الذي نام ليستجم للعمل من بكرة الصباح إلى غاية النهار الأطول، سعياً على الأم الشيخة والزوج والطفل الثلاث أو الأربع، وحيث المريض المدنف يتلوى على الجنبين من ألم وعذاب - لقد تعدل تلك المدمرات القواصف إلى هؤلاء عمداً، وتزلزل بهم الأرض زلزلة، وتدمر الدور تدميراً، فإذا هؤلاء أجزاء تتناثر، وأشلاء تتطاير. فمن سلم منهم على الموت، فليستقبل حياة شرا من الموت
فإذا جاءك أن الإسلام فتح كل هذا الفتح، وملك كل هذا الملك، وانبسط له على وجه الأرض كل ذلك السلطان في أقل من قرن واحد، فإن السر لا يعدو ما قدمنا لك من قوة الأيمان، وإشاعة العدل بين الناس، وإيثار الرقة والرحمة بالإنسان وبالحيوان!
وإذا طلعت عليك الأنباء في كل صباح وكل مساء بأن الجيش اليوناني الصغير الضئيل لا يفتر لحظة عن صفع الجيش الطلياني الضخم الكثيف باليد، وركله بالرجل، إذ لا يكاد يرى فيالقه وكتائبه إلا من الأقفاء من انهزام إلى انهزام - إذا طالعتك الأنباء كل ساعة بهذا
فصدق، وأرحل عن الأمر كله على قوة الأيمان بحق الوطن المعتدى عليه بغير إثم ولا عدوان!
فإذا قال لك قائل، لقد ذهب عنك ما فعلت القوة القوية من اجتياح للممالك، وقبض على نواصي الشعوب، واستصفاء لأموال الأمم، وامتصاص لدمائها، واتخاذها عبيدا، فقل له لا تعجل بالحكم، فإن الله ليملي للظالم، ولتعلمن نبأه بعد حين
عبد العزيز البشري
فارس وفارس
للأستاذ محمود الخفيف
بَنَى الشرْقِ أَيَّام أَبْطالِكُمْ ... شَدَوْتُ أَحَدِّثُ أَخبارَها
أُغَنِّي لَكمْ لَحْنَ قيثارَةٍ ... تَهُزُّ البطولاتُ أَوْتارَها

وَأُسِمُعكُمْ من حديثِ الْخُلودِ ... أغاني الّليالي وأسمارَها
بَنُو السفِ نحنُ، بُنَاةُ العُلاَ ... رَكِبْنَا الرِّمَالَ وَخُضْنَا البِحارا
شَرَعْنَا عَلَى الدَّينِ منهاجَنَا ... وسِرنْا إلى حيثُ شِئنا اقتدارا
وأخلاقنا. . . كم بأخلاقِنا ... رَكزْنا صُوًى وَرَفَعْنَا مَنارا
وكم أُفقٍ في سماءِ العُقولِ ... شَأَوْنَا بني الأرْض فيهِ ابتكارا
إلى فْتَيةِ الشرقِ هذا النشيد ... تقارَعَ فيهِ القَنَا واشتَجَرْ
وَقعْقَعَتِ البيضُ بين الصفوفِ ... وَغَالَ الكُمَاةَ الرَّدَى وَاستَعَرْ
وَحَمْحَمَتِ الْخَيْل تَحْتَ الْغُبَارِ ... أضاءتْ جوانِبَهُ بالشّرَرْ
أدِيرُ النّشِيدَ إلى فارِسَيْنِ ... حَوَتْ رُكنَي الأرْض لُقْيَاهُما
فمِنْ أنْجُمِ الشّرْقِ هَذا الكَمِيُّ ... وَمِنْ أُفُقِ الْغَرْبِ ثَانيهما
وكلٌّ يُرَى بين فُرْسانهِ ... غَدَاةَ الوَغَى الفارِسَ الْمُعْلَمَا
على هذه الأرْضِ تَفنَى القُرُونُ ... وَتُوحِي البُطولةَ ذِكراهُما
سَمَا بابْن أَيُّوبَ مُلْكٌ بَنَاهُ ... فأعْلَى عَلَى السَّيْفِ هذا البِنَاء
أخو الْخَيلِ والسَّيْفِ والبيد واللْ ... يلِ يَمْضِي فيزُجي الردى كيفَ شاء
فتى كان في الشّرقِ بعد الظّلام الضيَ ... اء وكان بمِصرَ الرَّجَاء
كَرِيمُ الْخُصومَةِ عَفُّ الْحُسَامِ ... يُرِيكَ التُّقَى وَيُرِيكَ الْمَضاء
فتَى الغَرْبِ إفْرِنْدُهُ فَيْصَلٌ ... به المُلكُ في ظِلّهِ يَحْتَمِي
لهُ لَقَبٌ فوق تاجِ الْمُلوكِ ... به باتَ يُقْرَنُ بالضَّيْغَمِ
على الماءِ كرْسِيُّهُ قَائِمٌ ... وَذِرْوَتُهُ في ذرى الأنجُمِ
مَشَتْ في النّجيعِ إلى (أرْشِلِيمَ) ... جيَادٌ من الغربِ رُعْنُ الخَبَبْ
خَبَبْنَ بِكلِّ مُدِلٍّ الْحُسام ... صَرِيمِ الخِصامِ دَعِيِّ الْحَسَبْ
لقَدْ كان للدِّينِ ما هَزَّهُ ... فأصْبَحَ لِلْمُلْكِ حين أغْتَرَبْ
مَضَوا يَزدَهِي الفَوْزُ أفراخَهُمْ ... وَيُغْري بُزَاتَهُمُ الْمَأرَبُ
غِلاَظٌ، سَرَابيلُهُمْ مِنْ حَدِيدٍ ... مِنَ الصَّخْرِ أكبادُهُم أصْلَبُ
يُحَدِّثُ كلاًّ هَوَاه بما ... يُجَنْدِلُ في القُدْسِ أو يَسْلبُ
وَيَسْتَهْزِؤُونَ بدُنيا الْهِلاَلِ ... وَحَشْدُهُمُو بالْمُنَى يَصْخَبُ
فما إنْ نَجَا قَط مِنْ بَطْشِهِمْ ... صَبِيٌ ولا طِفلَةٌ لاَعِبَهْ
وَلاَ مُقْعَدٌ قَوَّسَتْهُ السُنونَ ... وَلاَ جَدَّةٌ شَمْسُها غارِبَةْ
وَلاَ سَلِمَتْ من بناتِ الحِجَالِ ... عروسٌ مُلَّفَقَّة هَائِبَةْ
لدَى مَدْرَجِ السَّمْح عِيسَى المسِيحِ ... أثارَ دُعاةُ السلامِ القِتالا!
مُسُوحُ الرَّهابينَ باتَتْ حديداً ... وَأَلسِنَةُ الزاهدينَ نِصالا
وَعُدَّ هُدًى كلُّ غَيّ جَسورٍ ... وأصبحَ كلُّ حَرام حَلالا
وطالَتْ عَلَى الشرْقِ سودُ السِّنين ... أذَلَّ الصَّليبُ بِهِنَّ الهِلالا
أقاموا على الْبَغْيِ بُنْيَانَهُمْ ... وعاشوا على البغي دهْراً طويلا
وَغُمَّ عَلَى الشرقِ تِسعينَ عاماً ... فَمَا يَلْمَحُ النورَ إلاّ ضَئِيلا
يَسيلُ عَلَى الأفْقِ جُرْحُ الِهلال ... إذا ما أطَلَّ، سَقيماً هَزِيلا
وتَسمعُ مِصْرُ وَمَنْ بالحِجازِ ... وَمَنْ بالعراقِ الأذَانَ عَوِيلا
وما زال يَبْطِشُ طُغْيَانُهُمْ ... إلى أن تَألَّقَ فجرُ الأمَلْ
وَهَلَّ من الشرقِ مثلَ الصباحِ ... زعيمٌ تردَّى ثِيابَ البَطَلْ
تُجدِّدُ وَثْبَاتُهُ أبنَ الوَليدِ ... وَسَعْداً وعَمْراً بنيه الأوَلْ
إذا سارَ فالنصرُ من يُمْنِهِ ... فتًى لا يرَى العيْشَ إلا كِفاحا
فتًى ذِكرُهُ هَزَّ شم الْحُصونِ ... ويغزو اسمُهُ إذ يَهُزُّ السَّلاحا
صِلاَحٌ ومن كابن أيوبَ سيفاً ... إذا ذكرَ الدَّارِعونَ صَلاحا!
وَمَنْ مِثلُهُ حينَ يُعْطِي العُهُودَ ... وَيَرعى الحُدودَ وَيأسو الجراحا
مشى نحوَ (حِطّينَ) في فَيْلَقٍ ... يَرِفُّ له النصرُ حوْلَ العَلمْ
يَدِينُ لأرْوَعَ ثَبْتِ الجنانِ ... جَمِيلِ الفَعالِ كريمِ الشِّيَمُ
ذَلولِ السَّماحَةِ حُلْوِ اللِّسَانِ ... عَصِيِّ الأبَاءِ بعيدِ الهِمَمْ
تقدَّم فانهارَ مِنْ حَوْلِهِ ... عَلَى الْبَغْيِ رُكنٌ أقِيمَ اغْتِصابا
رَأى يوْمُ حِطّينَ تحتَ العجَاج ... جُنودَ صلاَحٍ أسُوداً غِضابا

ألوفُ الرجالِ لدَيْهِ أسارَى ... ومَن فَرَّ ليس يطيقُ اقترابا
وَيُذْعِنُ كلَّ قوِيٍ عزيزٍ ... وتهوى المعاقِلُ باباً فبَابا
وَدَانَ له القُدْس بعدَ الإباءِ ... وَأَعْظَمْ بهِ لِلْهِلاَلِ انتِصَارا
وراحَ الْمُظَفَّرُ يُولي الأمانَ ... ويُطِلقُ في (أرْشِليمَ) الأسارى
وَأَجْمَلُ ما كان عَفْوُ الرِّجالِ ... إذا ساقَهُ ما نحُوَه اقتدارا
تَرَفَّعَ لا سَيْفُهُ قاتِلٌ ... بريئاً، ولا وعْدُهُ خاتلُ
ولا غرَّهُ النَّصْرُ في أَوْجِهِ ... ولا خابَ في عَدْلِهِ آمِلُ
وديعُ السِّماتِ جَمِيلُ الأَنَاةِ ... وفي دِرْعِهِ أَسَدٌ بَاسِلُ
يَلوذُ بهِ الحقُّ مُسْتَعْصِماً ... وَيَفْرَقُ من وَجْهِهِ الباطلُ
وَأَدْهَشَ أعداءَهُ نُبْلُهُ ... وذاعَتْ أحادِيثُ أفعالِهِ
وأروَعُ ما هَزَّ سَمْعَ الفِرِنج ... من الفضل غُرَّةُ أفضالِهِ
يجود لفدِيْةِ بعضِ الأَسَارى ... لفُرْسانهِ الشُّمِّ من مالِهِ!
تَألَّقَ في الشرق نور الهلال ... وصاحبه اليُمْنُ في طَلْعَتِهْ
وكان غريباً بأوطانِهِ ... خَيَالُ المذَلَّةِ في هالَتِهْ
تَبسَّمَ في الأُفْقِ بَعْدَ الشُّحُوبِ ... فغاظَ وَأعجَبَ في بَسْمَتِهْ
وَدَوَّى فأطَربَ صوْت الأذَانِ ... جلالُ المصلِّينَ في نَبْرَتِهْ
أفاقَ على نَبَأٍ جاءهمْ ... بنو الغَرْبِ، يَكرَهُهُ السامِعُونا
تثيرُهُمُ النُّذُرُ الشائِعَاتْ ... وَيَقْتَنِصُ الفرصةَ الطَّامِعُونا
وَيَنْفُخُ في الصُّورِ رُهْبَانُهُمْ ... فيأتي على الصَّيحَةِ الدَّارِعُونا
وهَّبتْ منَ المغْرِبِ العاصفة ... على الشرْقِ تُنْذِرُ بالراجفَةْ
ففي البحْرِ طائِفَةٌ في السَّفِينِ ... تُسَارِعُ في إثْرِهَا طائِفَةْ
وفي البَرِّ فَوْق مُتُونِ الجِيادِ ... ألوفٌ مُدَجَّجَةٌ زاحفَةْ
إذا هاجَها الزَّحفُ غَنَّى الحديدُ ... وغنَّتْ حناجرُهم هاتفةْ
أطَلَّتْ على الحشْدِ أسوارُ عَكا ... خِضَمًّا يَزيدُ لديْهَا ارْتِطاما
حَوَى الْمُرْدَ والشِّيبَ والعِلْيةَ الصِّ ... يدَ والتَّابِعبهم خليطاً تَرَامى
نَشَاوَى النِّصَالِ، بأرماحِهِمْ ... جُنونٌ سَقَاهَا هناك احتداما
ومِن دون عَكا شُبُولُ العَرِينِ ... من الشرْقِ يمْنَعُ أسوارَها
يطوفُ على الجُنْدِ سلطانُهُمْ ... مَهيبَ الملامِحِ قَهَّارَهَا
مُطاعاً له طَلْعَةٌ في الصُّفوفِ ... تَعَوَّدَتِ الْجُنْدُ إكبارَها
وَيَفْدِيهِ في الحرْبِ أجنادُهُ ... إذا رَاحَ يَرْكَبُ أخطارَها
وَعَزَّتْ على الطالبينَ القِلاعُ ... وإذ مَرَّ عامانِ زِدْنَ امتناعا
وَذَاقَ حُماةُ الصليبِ الهوانَ ... فما شَهِدوا مِثلَ هذا صِراعا
أهابوا وقد عَجَّ مَوْجُ المنَايا ... بأوْطانِهِمْ فأجابَتْ سِراعا
وَلبَّى الملوكُ النِّداءَ ففي البَ ... رِّ جيشُ (فِرِدريكَ) جَمُّ العددْ
وجيشُ الفِرِنْسِيسِ حشدٌ عظيمٌ ... وفي البحرِ أسطولُ قلبِ الأسدْ
فتَى الغربِ ريكَرْد خيْرُ السيوفِ ... الجسورُ النَّجيدُ القَوِيُّ السَّنَدْ
فتَى ليسَ يَنْزِعُ عن قَوْسِهِ ... سِواهُ ولا جَلَّ عنهُ أحدْ
وَأَرْغَمَ (رِيكَرْدُ) تلك الحصونَ ... فما إن تَطَامَنُ إلاّ لهُ
وَإِنْ كان لاَقَى من ابنِ القِفارِ ... من البطشِ والبأسِ ما هالهُ
وكانَ (صلاحٌ) رَمَى بالرِّجالِ ... (فِرِدْرِيكَ) يَدْفَعُ إقبالهُ
وما كادَ يُزْهَى بإكليلهِ ... فَتى الغَربِ حَتَّى اعتراه الهزالُ
أَلَحَّ على جِسْمِهِ الْقَسْوَرِيِّ ... لدى ساحِةِ المَوْتِ داءٌ عُضال
ثَوَى اللَّيْثُ حيناً على رَغمِهِ ... وَعُلِّقَ - حَتَّى يُبِلَّ - القِتال
يُعَذِّبُهُ خَوْفُهُ أن يطولَ ... ضناهُ، وأن يَتراخى الرِّجال
وَأَعْجَبَ ذاكَ الهصورَ المريضَ ... طَبيبٌ سعى من لدُنْ خَصْمِهِ
يقول لهُ قومُهُ: أَقْصِهِ ... وَنَجِّ دِماءكَ من سُمِّهِ
فقال: جَهِلتُمْ لعَمْرِي صلاحًا ... تَنَزَّهَ عن ذاكَ عالي اسمِهِ!
سقاهُ وناولهُ رُقعةً ... تَنَزَّي وَغَمْغَمَ لمَّا تلاهَا!
تمنى لهُ البُرْء في طيِّهَا ... صلاحٌ لِتَدْرِى الوَغَى من فَتاها:

إذا رُمْتَ سِلماً مَنَنتُ بها ... وإن رُمْتَ حَرْباً أَدَرْتُ رَحاها)
(وأَعْزِزْ بِنَفْسٍ كَنَفْسِكَ أن ... يكونَ بِغَيْرِ الحُسامِ رداها
وَأَكْبَرَ (ريكَرْدُ) هذا العَدُوَّ ... فأثنَى وأطنبَ في حَمْدِهِ
وكم أخجلت لدى ذِكْرِها ... شمائلهُ الغُر في جُنْدِهِ
أخو البيدِ أسمَى فروسيَّةً ... فأنَّى لهُ ذلكَ في بِيدِهِ؟
أَتَتْ بَابَهُ من بَنَاتِ الفِرِنْجِ ... تُوَلْوِلُ أُمٌّ، وَتَدْعُو بهِ
قَدْ اختَطَفَ ابناً لها فارِسٌ ... وَيَا هَوْلَ ما كان من غَصْبِهِ
بكى رَحْمَةً وَهْوَ ذاك الذي ... إلى اللّيثِ يُنْسَبُ في وَثْبِه
وَأَجْزَلَ لِلْجُنْدِ من مالِهِ ... فِدَى للصَّبيِّ، فَجيَء بهِ
وَمَالَ إلى السِّلمِ قَلْبُ الأَسَدْ ... وَلَبَّى صلاحٌ فأمضَى العُهُودا
وَلَكِنَّهُ رِيعَ أَنْ جَاءهُ ... من الْخَصْمِ خُلْفٌ أثارَ الْجُنودا
لقد فتَكَ القَوْمُ بالأبرياء ... وما إن رعَوا لِعُهُودٍ وُجُودا
سقَتْ أَرْضَ عَكَّا دِمَاءٌ حَراً ... وَطافَ الفِرِنْجُ بها باطشينا
فوارِسُهُمْ يَذبحونَ النِّسَاء ... وَزُغْبُ البَناتِ بها وَالبنينا
وَكم ذَكَرُوا الشرق سُلطَانَهُ ... وَصَفْوَةَ فُرْسَانِهِ هازئينا
أَهَابَ صلاحٌ بفُرْسانِهِ ... فَسَلّوا سُيوفَهُمو صائحينا
لدى غابِ أَرْسُوفَ سَوَّى الرجالَ ... صُفُوفاً تَلاَحَق تحتَ العَلَمْ
مِنَ الغِيل أَصْحَرَ أجنادُهُ ... وَجَرَّ الحدِيدَ أسُودَ الأَجَمْ
ونَادَى المنَادُون فيهم هَلُمُّوا ... تراءى العَدُوُّ لنا من أُمَمْ
هُنَا الشرْقُ جُنْدُ الهلالِ، هنا ... بنو الشَّمْسِ والبِيدِ شُمُّ القَنَا
دماءُهُموكم كَوَنْهَا الصَّحَارى ... وأعْظِمْ بِصَحْرَائِهم مَوْطِنا
خِفَافُ الهياكِلِ صُمْرُ الْجِيَادِ ... إذا رَحَفُوا قلَتَ وَمْضُ السَّنَى!
تَنَادَوْا على نقَرَات الطُّبولِ ... فداعٍ هناك وشادٍ هنا
على فْرسخينِ يُرَي الغَربُ حَشْداً ... خَلِيطاً هناك تَلاَقَوْا دِرَاكا
فَمِنْ كلِّ لِسْنٍ ومن كلِّ شَعْبٍ ... وَمَلْكٌ هنا وَأَمِيرٌ هناكا
حُمَاةُ الصَّلِيبِ نَسُوا الصَّلِيبِ ... خِصَاماً فَشَى بينهم واعتِراكا
وَدَارَ القِتَالُ فَطَارَت سِهامُ ... بَنِي البِيدِ يَغْرِقُ فيها البَصَرْ
تُصَوَّبُ تحْتَ مُثَارِ العَجَاجِ ... وَتَنقضُّ يقْدَحِ منها الشَّرَرْ
فَتُصْمِي الْجَيادَ وَتُلْقى الرِّجالَ ... على الرَّمْلِ مُلْتَهِباً وَالصَّخَرْ
كأَنَّ الْجَحيمَ رَمَتْ باللّظي ... على مُلتَقًى بالغُبَارِ أَعْتَكِرْ
وَذَاقَ الفِرِنجُ صُنُوف العَذَاب ... ففي كلِّ يوْمٍ يَرَوْنَ الرَّدى
وَرَاحَ قَبِيلٌ يقولون: ماذا ... نَرَى من سِهَام العَدُوِّ غدا
يُسِرُّونَ سُخْطاً على من دَعاهمْ ... وَأَوْرَدَهُمْ ذلِكَ المورْدا
وَغِيظَ الفِرِنْجُ فَشَدُّوا الوَثَاقَ ... وَجَدَّتْ لهمْ كَرَّةٌ خاسِرَة!
وَهَرْوَلَ ريكردُ بين الصُّفوفِ ... يَشُدُّ عَزَائِمَهَا الخائِرَةْ
وَزَمْجَرَ كاللّيثِ يَدْعُو الْجُنُودَ ... وَيَجْمَعُ آلافَهَا النّافرَة
وَهَاجَ، فَجُنَّ جُنونُ الرِّجالِ ... وَكَرَّتْ عَلَى صَوْتِهِ زائرَة
دَعا وَتَقَدَّمَ تحتَ السِّهام ... بِيُمْنَاهُ صَمْصَامُهُ الهائِلُ
تحَدَّى الرَّدى وَمَشَى تحْتَهُ ... فما إن تَصَدَّى لهُ صَائلُ
يُهَزْهِزُ في النَّقْعِ إفْرِنْدَهُ ... فيُومِضُ عالِيهِ وَالسّافلُ
مَضى مُغْضَباً خَلْفَهُ جُنْدُهُ ... يُفَزِّعُ ذاك وذا يَضربُ
يُجِنْدِلُ كلَّ فتًي مِن عِدَاهُ ... وَما كَلَّ من سيفِه الْمَضْرِبُ
لهُ وَثبَةُ الأسْدِ، صَمْصَامُهُ ... كما أنقضَّ في الُحلْكَةِ والكوكَبُ
وَطاشَ الكماة جنودُ صلاحٍ ... وَطابَ لهم في الوغَى المهْرَبُ
تَلَفَّتَ تحت اللِّوَاء صلاحٌ ... إلى جَحْفلٍ حَوْلهُ رُوِّعا
تَفَرَّقَ في البيدِ إلاَّ فَريقاً ... يُفَدَّوْنَ ذا الباسِلَ الأرْوَعا
وَمَا طاشَ في الرَّوْعِ مِمَّا رَأَى... وَهَلْ شِيمَةُ اللّيثِ أن يَفْزَعا؟
رَأَى جُنْدُهُ اللَّيثَ تحت اللِّواءِ ... فعادُوا يُموتُونَ دُونَ اللِّوا

وَجدَّ اللِّقاءُ وَحَقَّ الفِداءُ ... وَأَجْفَلَ بَعْدَ الصِّيالِ العِدا
وَخَفَّ صلاحٌ فقادَ العديدَ ... وَأَعمَلَ في الزاحِفين الظُّبَا
رَأى هَبَّةَ الأَسْدِ من دُونهِ ... فخافَ العَدُوُّ الوَغى وانثنى
وأرسَل ريكرُدْ يدعُو صلاحاً ... إلى السَّلم حينَ توافى الأَمَلْ
يقول: لَقيتُ هنا مُشْبِهي ... وَأَحْبَبْتُ في الشَّرْق هذا البَطلْ
وَلبَّى أبنُ أيُّوبَ عالي الجبين ... عَلَيهْ من المجدِ أضفَي الْحُلل
الخفيف

مشروعية الحرب في الإسلام
دفع شبهة لا موجب لها
للأستاذ محمد فريد وجدي

اشتد خصوم الإسلام عليه في إقراره الحرب، ذاهبين إلى أن الدين الذي يشرع لتطهير قلب الإنسان من الميول العدوانية، وتخليص نفسيته من آثار الحيوانية والوحشية، لا يجوز له أن يقر مبدأ التناحر في العالم الإنساني؛ فإن كان ولا بد فدفاعاً عن النفس، أو ذيادا عن الحوزة؛ أما الهجوم على الآمنين في ديارهم للتبسط في الأرض، والتوسع في وسائل الثروة، فإن رآه طلاب الدنيا سائغاً، فلا يصح أن يعده دعاة السمو الخلقي من محاولات الصالحين

كثرت هذه الشبهة في رؤوس خصوم الإسلام، ورأوا فيها مثاراً خصباً للتشهير به، ونبزه بالألقاب، حتى تأثر بعض المدافعين عنه، فأخذوا يحاولون أن يثبتوا أن كل ما ورد فيه خاصا بالحرب، فالمراد منه الدفاع لا الهجوم، وغاب عنهم أنهم بعملهم هذا يضرون بقضية الإسلام، ويسجلون عليه الشبهة أصرح تسجيل

الحق أن الإسلام أقر الحرب دفاعاً وهجوماً، لأن مهمته التي شرع من أجلها لا تتم إلا على هذا الوجه؛ فليس الإسلام بدين خاص شرع لجماعة من الناس في بيئة محدودة من الأرض كما كانت عليه حال جميع الأديان التي شرعت للأمم قبله، ولكنه شرع ليكون دينا عاما للأمم كافة، فهو بحكم الغاية التي أنزل من أجلها يجب أن يماشي ما فطرت عليه الطبيعة البشرية، في كل ما تدفعها إليه الغرائز النفسية، من الحركات الاجتماعية؛ وقد اندفعت الجماعات في التناحر لا لمجرد توفيه أغراضها المادية، ولكن لحاجتها الأدبية أيضاً، فلولا الحروب التي ثارت بين الجماعات، لتعطل تقدمها في طريق العمران والمدنية كما نبه إليه علم الاجتماع نفسه، ودورة الحياة الإنسانية العامة تجعل الحرب من ضروريات التطور أيضاً، فإن تلاشي الجامدين وعديمي الصلاحية للحياة، وضرورة نبوغ الأصلح فالأصلح للبقاء، لا يمكن أن يتم في بيئات يسودها السكون المطلق. هذه أمور يدركها أولو العلم إدراكهم للبدهيات، وهذا لا يمنع أن يجيء عهد تصبح فيه الحرب شراً مستطيراً بسبب زوال الموجبات الطبيعية لها، ونشوء عوامل أدبية تقوم مقامها في تطوير الجماعات دون أن تضطرها إليه بواسطة الحركات العنيفة؛ يجوز أن يكون قد أظلنا الآن ذلك الزمان، فيقرر البشر بعد هذه الحرب المستمرة حذف هذه الوسيلة الجائحة، فينعم الناس بسلام يناسب ما وصلوا إليه من علم ومدنية، وقد أشار الإسلام إلى إمكان حدوث هذا العهد، فجاء في كتابه: (وإن جنحوا للسلم فأجنح لها وتوكل على الله)

ولكن إلى العهد الذي شرع فيه الإسلام وما بعده إلى أكثر من أثني عشر قرناً، لم تكن فكرة السلام العالمي قد نشأت، وقد رأينا الأديان التي جاءت ناهية عن الحرب كالبوذية والنصرانية قد اضطرت إليها، وتوسلت بها، وهذه الديانة الأخيرة لم تستطع أن تستقر كدين إلا بواسطة حروب شنتها، حتى اضطرت البابوية إلى اتخاذ الجيوش البرية والبحرية، وإلى الاشتراك في الحروب دفاعاً وهجوماً على حد سوا

فكيف يراد من الإسلام وقد شرع دينا عالمياً، أن يتجرد منها، وهو مضطر بحكم مهمته أن يسيطر على الغرائز الجبلية، ويهيمن على الميول النفسية، محاولاً التأثير فيها بالتعديل والتقويم، دون أن يعرقل ناموس التطور الذي يعمل إلى إيصالها لغاياتها البعيدة من السمو الذي قدر لها أن تبلغه بجهودها الذاتية

إن الصفة المميزة للإسلام أنه دين يماشي الطبيعة ويعدلها، ولا يلاشي عاطفة منها؛ ولو كان غير ذلك لما صلح أن يكون ديناً عاماً للبشرية بأسرها، ولا يكون محترم الأصول، مراعي التعاليم، لا عذر للمتخلف عنه، أو للخارج عليه

أفكنت تريد أن ينشأ الإسلام ناهياً عن الحرب فلا يتم له قيام أصلاً، بدليل لجوء جميع الأديان إلى الحرب بعد أن أعيتها الحيل في القيام بدونها؟ أم كنت تريد أن يحرمها على أتباعه، ثم متى اضطرتهم الحياة لجئوا إليها، غير آبهين لنهيه عنها، كما حدث ذلك لأهل الأديان التي كانت قبله؟

لا هذا ولا ذاك، فالإسلام دين صراحة ومنطق، يعطي كل حالة من حالات الإنسان حقها من التقدير والرعاية، ويبني حكمه فيها على مصلحتي المادة والروح معاً

فالحرب إن كانت شراً فهي من الشرور الضرورية ولو في أوائل الأدوار البشرية، وإغفالها أو تركها بلا ضوابط قد يفضي بالآخذين به إلى الإفراط أو التفريط فيها، وقد يكون في ذلك القضاء عليهم، فجعلها الإسلام لهذا السبب من أهم ما عني به، وختم كل آية

نزلت في الحرب بوصاة مؤكدة بوجوب العدل فيها وعدم توخي العدوان بوساطتها، إلى حد لم يسبق له مثيل في كل ما أثر عن تعاليم الأمم قديماً وحديثاً

لم يكتف الإسلام بكل هذا فوضع للسلم والحرب أصولاً بدأها بوجوب احترام العهود، وبوجوب تتبع الحوادث الاجتماعية، مع إحاطة كل منها بما يحميها من التطرف والظلم، حتى إذا أفضت الأمور إلى تحكيم السيف أحاط حكومته بالملطفات من كل ضرب، عاملاً على ألا تراق قطرة دم ولم يكن لإراقتها موجب يوجبها، حتى أمر بعدم تعقب المهزومين، وباحترام حياة خدمة المحاربين، وحياة الهرمي والنساء والأولاد ورجال الدين

في تاريخ الإسلام من هذه الناحية طرائف لا يروى مثلها عن جماعة من الجماعات الإنسانية إلى اليوم، منها أن أسامة بن زيد تعقب مهزوما حتى صعد وراءه الجبل؛ فلما رأى الرجل السيف يهوي عليه نطق الشهادتين، فلم يكترث أسامة له وقتله، فلما بلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم استحضره وعنفه على فعله، فقال أسامة: يا رسول الله إنه نطق بها تقية لينجو بنفسه. فقال النبي منكراً عليه: أشققت عن قلبه؟

لا أظن أن بعد هذا غاية في التنبيه على وجوب احترام الحياة البشرية

محمد فريد وجدي

على طريقة الصين أو أبى دلامة

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

قرأت في بعض ما كتب عن الصين الحديثة وحروبها الداخلية - قبل أن تغزوها اليابان - أنه كان يحدث أن يخرج القائد من القواد الصينيين لقتال غريمه فيلقى الجمعان ويصطف الجيشان ويبرز أحد القائدين، ويدعو خصمه فيخرج إليه ويقف بين العسكرين يتبارزان ولكن بالحجة والمنطق، ويتصاولان ولكن على الورق والخرائط، ويتجادلان في أي الخطتين كانت خليقة أن تجيء صاحبها بالنصر، حتى يقتنع أحدهما بأن الدائرة ستدور عليه لا محالة، فيعد نفسه مهزوماً، ويرتد بجيشه عن الساحة، وينصرف خصمه وقد رفع ألوية النصر

كذلك قال بعض الكتاب. وزعموا أيضاً أن هذا بعض ما أطمع اليابان في الصين وأوهمها أن قتالها أمر هين، وأن المنال قريب والغاية في حكم المدركة، فإذا بها تتورط في حرب لا تعرف لها منها مخرجاً ولا تتبين لها نهاية قريبة، بعد أربع سنوات طويلات دخلت في خلالها مئات من المدائن، واحتلت رقعة أوسع من نصف القارة الأوربية وما زالت الحرب - إذا اعتبرنا قوة المقاومة - كأنها في بدايتها

وليس من همي أن أقول شيئاً عن الصين، وإنما سقت هذا الخبر لأني ذكرت له مشبها له من أخبار أبى دلامة الشاعر الماجن الظريف فقد حكوا عنه - وحكى هو عن نفسه فيما يروون عنه - أن الخليفة - المنصور أو المهدي - غضب عليه لاعتكافه على الخمر، فأمر به فخرج في بحث حرب مع روح بن حاتم المهلبي لقتال الشراة. قال أبو دلامة: (فلما التقى الجمعان قلت لروح: أما والله لو أن تحتي فرسك ومعي سلاحك لأثرت في عدوك اليوم أثراً ترتضيه) فضحك وقال: (والله لأدفعن ذلك إليك ولآخذنك بالوفاء بشرطك) ونزل عن فرسه ونزع سلاحه ودفعهما إلى ودعا بغيرهما، فلما حصل ذلك زالت عني حلاوة الطمع فقلت له: (أيها الأمير هذا مقام العائذ بك) فقال: (دع عنك هذا) وبرز رجل من الخوارج يدعو إلى المبارزة فقال: (اخرج إليه يا أبا دلامة) فقلت: (أنشدك الله أيها الأمير في دمي) قال: (والله لتخرجن) قلت: (أيها الأمير فإنه أول يوم

من الآخرة وآخر يوم من الدنيا، وأنا والله جائع ما شبعت مني جارحة من الجوع، فمر لي بشيء آكله ثم أخرج)
فأمر لي برغيفين ودجاجة، فأخذت ذلك وبرزت عن الصف فلما رآني الشاري أقبل نحوي وعيناه تتقدان، فقلت له: (على رسلك يا هذا كما أنت) فوقف، فقلت: (أتقتل من لا يقاتلك. . .) قال: (لا) قلت: (أتقتل رجلاً على دينك) قال: (لا) قلت: (أفتستحل ذلك قبل أن تدعو من تقاتل إلى دينك) قال: (فأذهب عني إلى لعنة الله) قلت: (لا أفعل أو تسمع مني) قال: (قل) قلت: (هل كانت بيننا قط عداوة أو ترة، أو تعرفني بحال تحفظك عليّ، أو تعلم بين أهلي وأهلك وتراً) قال: (لا والله) قلت: (ولا أن أعرف والله إلا جميل الرأي، وإني لأهواك وأنتحل مذهبك وأريد السوء لمن أراده لك) قال: (يا هذا جزاك الله خيرا فانصرف) قلت: (إن معي زاداً أحب أن آكله معك لتتأكد المودة بيننا ويرى أهل العسكر هوانهم علينا) قال: (أفعل) فتقدمت إليه حتى اختلفت أعناق دوابنا وجمعنا أرجلها على معارفها والناس يضحكون، فلما استوفينا ودعني، فقلت له: (إن هذا الجاهل - يعني روح بن حاتم - إن أقمت على طلب المبارزة ندبني إليك فتتعبني وتتعب، فإن رأيت ألا تبرز اليوم فافعل) قال: (قد فعلت) ثم انصرف وانصرفت، فقلت لروح: أما أنا فقد كفيتك قرني فقل لغيري أن يكفيك قرنه كما كفيتك. فأمسك. وخرج آخر يدعو إلى المبارزة، فقال لي: اخرج، فقلت له:
إني أعوذ بروح أن يقدمني ... إلى النزال فتخزى بي بنو أسد
إن البراز إلى الأقران أعلمه ... مما يفرق بين الروح والجسد
إن المهلب حب الموت أورثكم ... وما ورثت اختيار الموت عن أحد
لو أن لي مهجة أخرى لجدت به ... لكنها خلقت فرداً فلم أجد
فضحك وأعفاني
وهذا الذي كلم به أبو دلامة قرنه فكفاه شره، احتجاج قوي لترك الحرب، ولو كان الأمر إلى الجنود المسوقة وخوطبت بمثله لكان الأرجح في الرأي والأغلب في الاحتمال أن تلقى السلاح وتنفض يدها من كفاح لا تعرف باعثاً عليه أو موجباً له، ولكن الأمر للقادة والرؤساء وهؤلاء لا يعبئون إلا بما يطمعون فيه ويسعون له، ولا يبالون من رضى ممن سخط، ومن بقى ممن هلك، إذا هم أدركوا بغيتهم ونالوا وطرهم
وقد خاطب الألمان جنود فرنسا بمثل كلام أبى دلامة - في هذه الحرب فكانوا في الشهور الأولى - شهور الركود والتربص - كل ليلة ينادونهم من خط سجفريد (أن لماذا تحاربوننا
يا معاشر الفرنسيين ولا عداء بيننا وبينكم ولا مطمع لنا في مستعمراتكم، وقد سمعتم (الفوهرر) يقول في خطبته إن بناء خط سجفريد اعتراف من ألمانيا بأنها تعد الحدود بينها وبينكم نهائية، ولولا ذلك ما جشمت نفسها مشقة البناء ونفقاته، إنما غريمنا وغريمكم الإنجليز، وقد زجوا بكم إلى الحرب ليقاتلونا بكم) الخ الخ وقد فعل هذا الكلام فعله في نفوس الفرنسيين وظهر أثره في معركة فرنسا
وأعود بكم إلى صاحبنا أبى دلامة فأقول: إن الرصافي - شيخ شعراء العراق في هذا الزمان - أسبغ الله عليه برد العافية صنع شعراً في خبر أبى دلامة مطلعه (قضت المطامع أن تطيل جدالاً)
قال فيه:
أمن السياسة أن يقتل بعضنا ... بعضاً ليدرك غيرنا الآمالا
تفنى الجيوش ولا ضغائن بينها ... سبقت ولا ترة ولا أذخالا
وأستطرد إلى قصة أبى دلامة ثم ختم القصيدة بقوله:
إن الدهور - وهن أمهر سابك - ... سترد أضداد الورى أشكالاً
حتى كأني بالطباع تبدلت ... غير الطباع وزلزلت زلزالا
وكأنني ببني الملاحم أصبحوا ... لأبي دلامة كلهم أشكالا
ويا عسى ولعل، وسمع الله منك صديقنا، ولكن هيهات. . . هيهات! والسلام عليك إذا لم يكن على الأرض سلام
إبراهيم عبد القادر المازني
مزامير
للنفس العربية

للأستاذ عبد المنعم محمد خلاف
غول المهد الأول - 2
كان المهد الأول للعربية (غول) عجوز شوهاء، عمرت هناك دهرا طويلا تأكل أكباد الرجال بالحقد والضغينة والحسد والأنانية والتفرد، وتلعب بقلوبهم، تتخذ منها عقوداً وقلائد، إذ تغري بينها العداوة والبغضاء، فتوقد نيران الحرب الطاحنة لتلغ في دماء الجميع: القاتل والمقتول، والخاذل والمخذول. . .
وقد اتخذوها إلهة معبودةً وقدموا لها القرابين من دماء الأحرار، وزينوا عرشها بجماجم الشبان المفتون دائماً بالبطش والحرب، وأنشدوها الأشعار، واجتلبوا لها الأسمار، وقرعوا الطبول، ونفخوا الزمور. . .
ما تركت فيهم شاباً يكتهل أو كهلاً يشيخ؛ فكبدها عطشى مخلوقة من نهم الرمال، وجشعها للدم المسفوح والدمع المنضوح. . . فلم تك تبقي للحياة إلا النساء والأطفال والمستضعفين، من الذين يقال فيهم: بقايا السيف، وطلقاء عفو القادرين. . .
وكان لها كأسان: تتلقى في إحداهما دم الرجال، وفي الأخرى دمع النساء على الرجال. ثم تمزج وتشرب وتعربد وتقهقه. . . كاشفة عن أنيابها الزرق المسنونة. . . .. .!
تلك هي الفرقة! حليلة الشيطان المحظية. . . يقدمها بين يدي الجليل الخطير من كيده، ويرصدها لتحطيم الشأن العظيم في حياة الإنسان غريمه. . . أخرجه بها من الجنة حين فرق بين هوى آدم وحواء ووصايا ربهما، فأزلهما. . . فهبطا إلى الأرض للمحنة والعناء. . . فكانت بيده مفتاحاً عريقاً يفتح به قلوب بني آدم للشر، ويغلق به أبواب الخير. . .
وقد أسكنهما قلب الجزيرة العربية، وأوصاها ألا تترك قلوب هذه الأمة تجتمع وشملها يلتئم وذكاءها الخارق وبيانها الحاذق ييسران لما خلقا من أجله؛ إذ كان يعلم أن وثيقة ملاعنه وبيان خدائعه للنفس البشرية، ستكتب بقلم هذه الأمة، وتسجل في (كتابها)، وتنزل على قلب أحد أبنائها؛ فاستجمع لها كل خبائثه ومكايده، واستعان حليلته وأرصدها لها بكل سبيل،
وفتنها بأكرم خصالها: الشجاعة والكرم والبيان!
حول الشجاعة إلى وحشية وإسراف في سفك الدماء، كأن ذلك حرفة. . .
وحول الكرم إلى إسراف في مقومات الحياة وتفريط في بنائها المادي، حتى لا يحصل تمدين فيستقر السلام، فيكون وراءه عمران مستفحل وخدمة باقية في الذريات والأعقاب، للتحضير والترقية والتهذيب. . .
وحول البيان إلى شقاشق تهدر ثم تضيع، وأناشيد ترسل فيما لم تخلق له؛ إذ تسجل المخازي وتعرض العورات على الأسماع، وتهيم بأصحابها في أودية الخيال. . .
وكان يعلم أن الظلم والشرك والعبودية والجهالة - وتلك هي قوائم عرشه - ستهدم بأيدي هذه الأمة، وأن ألاعيبه وتماثيله التي كان يملأ بها معابد الأقوام وجوانح إنسانية الشرق والغرب ستتركها معاول العرب حطاماً وجذاذاً. . . فجعل من بينها سداً ومن خلفها سداً، وغشى أبصارها عن إدراك مواهبها ومكارمها وما عندها من الفطرة الصادقة. ووضع همه الأول في تفريق قلوبها وتمزيق وحدتها، ووسوس لكل قبيلة أنها أمة لها دم خاص منحدر من ماء السماء وضياء النجوم. . . وإلى كل فرد أنه خير هذه الأمة، وأنه عملها المفرد، وبدرها والفرقد! فغنى لنفسه وشرب على هواها مع النجوم في ظلمات الليل، ومع الشمس والشياه والبعران في مراعي الصحراء. . .
وفي الأرض أمامه سعه ومذهب لكل من أراد الاستقلال والتملك. . .
وفي السماء هول وعظمة يغريانه بمد آفاق نفسه كما يشتهي. . .
وفي القلب الإنساني حطب ولهب لكل فرقة ولكل شرود وجموح فلا عليه أن ينشد الإمارة ولو على الحجارة. . .
يا لهذه الصرخات الدائمة في أذن الصحراء من حناجر فتيان هذه الأمة!
يا لبكر. . .! يا لتغلب! يا لمضر! يا لربيعه! يا لعدنان! يا لقحطان! يا لكل قبيلة على كل قبيلة!
وسباع الأرض وهوامها وخشاشها، وعقبان السماء ونسورها، تتسمع إلى هذه الصيحات وتتبعها؛ لأنها أبواق دعوتها إلى الولائم التي تقام من الدماء التي تشخب، والبطون التي

تبقر، والأكباد التي تفرى، والقلوب التي تسحق، والعيون التي تفقأ، والأشلاء التي تتناثر.
فكم من قلب كبير لبطل كريم في فم ذئب لئيم. . .!
وكم من لسان فصيح بليغ في منقار غراب بكى منكر الصوت قبيح المرآة. . .!
وكم من عين نجلاء صافية تحت خنفساء قذرة وعقرب عمياء!
ثم يصحوا الذين نحروا الجزور وشربوا الخمور وأنشدوا الأشعار وهتفوا وصرخوا بدعوى الجاهلية، ويستيقظون بعد أبتراد الغلة وذهاب الحمية وسكون الترة، ويعودون إلى الخيام يسمعون للبوم والخفافيش وندب النساء وعويل الأطفال على الجثث الطريحة على الشراجع والنعوش. . .
والغول واقفة تقهقه فيذهب صوتها كصرخات مفزعة في شعاب الجبال وبطون الوديان وأغوار الكهوف. . .
ثم يسمع لقهقهتها صدى بعيد من حناجر الشباب الهاتفين: إلى الحرب. . .
إلى الفطام من الحب ونعيم السلم وقرار الأمن. . .
إلى الثأر من الذين قتلوا الآباء واستحلوا الحرمات. . .
ثم تدور الرحى على أمواج الرمال وضفاف بحار السراب والآل
فيلتقي رجل برجل (تحية بينهم ضرب وجيع)
ثم ترقص الحرب عارية حمراء، تنوس على الآفاق ذوائبها السود وغدائرها التي نسجت من ريح السموم. . .!
وتحولت الأمة العربية تحت سحر هذه الغول إلى أمة من الأحطاب. . . لا تتوهج عناصرها وتظهر عبقرياتها الكامنة إلا إذا مستها النار برهة تستحيل بعدها إلى رماد وهباء منثور تذروه الرياح على وجه الصحراء أرض الفناء والصمت الذي لا يخرقه إلا صرخات هذا الإنسان الضائع الفريد. . .
أما النمو والإبراق والإزهار والإثمار فتلك أدوار لم يكن لشجرة الأمة العربية منها نصيب كبير. . . وأنى للأخشاب والأحطاب أن تثمر وأن يكون فيها مناطق نمو؟ لقد أوشك الجفاف المادي والمعنوي أن يميت جذور هذه الشجرة العظيمة العريقة فاحتبس عنها فيض السماء وسيح الأرض مدة جعلت لبلبها يوشك أن يموت ويقسو كالأحجار أو يكون أشد
قسوة
ولكن الله رب الطبيعة وموزع إنسانها وحيوانها ونباتها على بقاعها بقدر موزون، ومخرج الحي من الميت ومفجر العيون الثرارة من قسوة الحجارة. . . كان يصنع هذه الأمة هكذا تحت عوامل الحرمان والقسوة والجفاف والجهالة ليصنع منها معجزتها الأخيرة ويخرجها فجأة على إنسانية الشرق والغرب الناعمة المتعلمة الغنية بموارد الخصب والمال وأفانين الحكمة والجمال كما يخرج الفجر الصادق الوضاح من ظلمة الليل البهيم. . . ليعلم الإنسان أن عقله وقلبه في قبضة الذي (الأرض جميعا قبضته والسماوات مطويات بيمينه. . .) الذي يجلو بياض النهار، وينسخ سواد الليل ويحيي الأرض بعد موتها ويحول بين المرء وقلبه. . . الذي وضع قوانين الطبيعة وإن شاء خرقها: فهو لا يخضع لها كما يخضع أبناء العجز والفناء. . .
فقال للفجر الصادق في حياة الإنسانية: أبزغ من هنا. . . من أفق هذه العقول المحرومة من هدى النبوات وإرشاد العلوم، واسطع من هذه السماء التي لا ينظر إليها أحد من عباد دنيا الروم وفارس والمفتونين بعلوم اليونان. . . وأشرق من أرض الأوثان على المعابد والهياكل والبيع والصوامع (لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء)
وقال للنهر الدافق مخصب العقول البشرية: تفجر من هنا. من هذه الرمال الظامئة والجبال الكزة القاسية، من غير نطفة دافقة ورحم لاقفة واعية، وأفض فيضك وأرسل سيحك على المواضع العفنة والبؤر الفاسدة التي اطمأن فيها الشيطان وعشش، ثم باض وفرخ. . . وأغسلها؛ فإن استعصت على التطهير فليجرفها عبابك وليحدر بها سيلك مع القش والغثاء والزبد الذي يذهب جفاء
هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين)!

وقال للوحدة القومية بل للوحدة الإنسانية الجامعة: استعلني من هذه الأرحام المقطعة والعرى المنفصمة، واقتلي (الغول) واجمعي الفلول. . . (. . . وألف بين قلوبهم. لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم) (إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون)

فإذا أمة من الرهبان الفرسان يحملون المصحف والسيف لرسم الطريق وحماية السائرين فيه. يأخذون الدين بكاء وخشوعاً بالقلوب في المحاريب. ودفاعاً نبيلاً في الميادين، وعملاً صالحاً مثمراً في الأسواق والمعاهد والحقول والمصانع والجيوش. . .

وإذا دولة يحكمها سائسون قديسون! ليس فيهم خيلاء الحكام ومطامعهم وغطرستهم، وخداع الساسة وختلهم ونفاقهم، إذ كانوا يفقهون أن الحاكم خادم، والأمير أجير، والسياسة نصح وتربية وإرشاد، لا تجارة واحتراف وذبذبة مع اتجاه رياح المطامع، وخطب جوفاء، ووعود خلابة، وأماني براقة كالتي يلقيها ساسة هذا الزمان على آذان الإنسانية الشقية ليحشدوها بها في مواكب مجدهم الشخصي الكاذب وخيلائهم العاهرة. . .!

عبد المنعم خلاف

غضبة إسلامية

للأستاذ عبد الله عفيفي بك

استهل عام اثنين وستين وثلاثمائة والدولة الإسلامية ببغداد تعاني جرحاً أليماً أصابها في الصميم، فقد اقتحم الروم بلاد الجزيرة وأمعنوا فيها، ودخلوا نصيبين واستباحوا وقتلوا وسبوا أهلها إلا من نجا بنفسه وهم عدد قليل

وجاء الناجون إلى بغداد ودخلوا المساجد وكسروا المنابر ومنعوا الخطباء ووقف رجالهم ونساؤهم وأطفالهم يخطبون الناس. وهل هنالك أخطب من امرأة تقص على الناس مأساة ابنتها العذراء، أو طفل يحدثهم عن مذبحة أخوته الصغار؟

هنالك ثار المسلمون ومادت بغداد بثورتهم حتى أصبحت أرضها وسماؤها وجوها ونهرها وجبلها رجوما من النار

وكان عز الدولة بن بويه القائم بالأمر في خلافة المطيع لله غائبا في بالكوفة، فذهب إليه وفد من علماء المسلمين ووصفوا له الخطب الفادح والثورة الجائحة، وأن ليس للمسلمين إلا أن ينتقموا أو يموتوا، وعادوا وعاد معهم عز الدولة، ونادى بالنفير في الناس. . .

هنالك ثارت الجماهير، وتألبت العامة، وخرج كل رجل عما يملك، وخرجت كل امرأة عما تملك، حتى عن أولادها فتياناً وصبياناً، وكل من يغني غناء قل أو كثر في سبيل الله

ونزل الخليفة عن ماله كله، وأثاث بيته كله، ثم جمع ثيابه وباعها، وهدم داره وباع أنقاضها، وقدم الحديد العاصم لها ليستعين به المجاهدون في الله

وسار الجيش كالسيل المندفع، أو كالعاصفة الثائرة، وأقوى أسلحته الغضبة الحامية لما أصاب المسلمين من ذل وهوان؛ وغضبة المسلم لله شعلة الإيمان في صدره وقوة الله في يده

وكان الروم قد أقاموا مقالع الصخر ومجانيق الحديد ومقاذف اللهب على أسوار نصيبين؛ فلما جاء المسلمون قذفهم الروم بذلك كله فلم يبالوا بشيء منه. وما أسرع ما أحاطوا بالعدو وأوقعوا به وقعة قد لا يكون لها نظير في التاريخ. وأسروا أمير الجيوش وقواده وبطارقته والسفاحين من رجاله وساقوهم إلى بغداد ليقضي فيهم أمير المؤمنين بقضاء الله المنتقم الجبار

وبعد ثلاث سنوات حشد الروم قوى هائلة ولم يهاجموا هذا الحصن من حصون الإسلام بل هاجموا الحصن الثاني وهو الدولة الفاطمية واقتحموا حلب وحمص وحماة وفعلوا بها مثل ما فعلوا من قبل بنصيبين

وهنا يظهر الروح الإسلامي النبيل

فقد كتب عز الدولة إلى العزيز بالله الخليفة الفاطمي يقدم له ولاءه وولاء الخليفة العباسي ليشترك المسلمون في مصر وبغداد على دفع العدو المشترك، فتقبل العزيز هذا الود الإسلامي بأحسن القبول وقال إن الجيش المصري سيحمل هذه المرة العبء كله

وسار الجيش الفاطمي يحمل الراية الإسلامية من نصر إلى نصر، حتى دفعوا العدو

دفعا وراء الحدود، ثم وقف الفريقان متحاجزين يحجزهما نهر يسمى (نهر المقلوب) ولكن الجيش الإسلامي آلى على نفسه أن يضرب العدو في عقر داره، حتى يقلم أظفاره عن الغدر بالمسلمين، فكيف وليس على النهر جسر، وليس فيه مخاضة؟ هنالك تظهر القوة الإسلامية التي لا تخاف الموت، فقد خلعت إحدى الفرق الإسلامية ثيابها الظاهرة، وتقدمت في النهر سابحة، وبينما هي تسبح كانت تضرب العدو بالنشاب!! وكان العدو ضربها كذلك بكل ما ملكت يداه

وبعد جهاد تحار من هوله العقول بلغت الفرقة الشاطئ وتبعها الجيش كله وضربوا العدو ضربة مزقته أشنع تمزيق. ولو طال عمر العزيز بالله أياماً لسار هذا الجيش يحمل رسالة الله إلى آخر مداه

أيها المسلمون في بغداد وفي مصر؛ بل أيها المسلمون في بقاع الأرض جميعا:

بعد عامين اثنين ينقضي على موقعة نصيبين التي باع فيها الخليفة ثيابه ونزع الحديد من أنقاض بيته ألف عام

وبعد خمسة أعوام ينقضي على موقعة حلب التي ضرب فيها المسلمون عدوهم وهم مندفعون سابحين في النهر ألف عام

وبعد خمسة أعوام ينقضي على الوحدة المقدسة التي انعقدت بين المسلمين في مصر وبغداد ألف عام

فهل تتأهبون لإقامة الأعياد الألفية لهذه الأحداث الجسام؟

وليست الأعياد زينات تمر ولا أعلاما تقام، ولكن الأعياد الشاملة عرض للقوة، وتوثيق للوحدة، وإبرام للعهد، وإذكاء للعزيمة، وإعزاز للإسلام

فهل أنتم مستعدون؟

عبد الله عفيفي

كتيبة الإسلام

للأستاذ محمد عبد الله العريان

مضى الركب على وجهه يطأ الحزونة ويجوب الصخر في المفازة الجرداء، لا يتكاءده سهل ولا جبل، فما هو إلا أن انتهى إلى (ثنية المرار) من أسفل مكة، حتى حط رحاله ووقف ينظر ما يكون من أمره وأمر قريش. . .

أربع عشرة مائة من أصحاب محمد عليهم الدروع والحلق، وفي أيديهم سيوف طالما رويت من دماء المشركين علا بعد نهل؛ لو شاءوا لدخلوا (مكة) دخول الفاتح لا يقف دون غايته شيء ولا يثبت له بطل؛ ولكن محمداً وأصحاب محمد لم يسعوا مسعاهم ذلك لحرب يحشون نارها في الشهر الحرام في البلد الحرام؛ وإنما جاءوا معتمرين حاجين يدعون دعوة السلام في دار الأمن والسلام. . .

أفترى قريشاً وقد أخرجت محمداً وأصحابه بليل منذ ست سنين فأجلتهم عن ديارهم وأموالهم عنوة، تأذن لهم اليوم أن يدخلوا البلد الحرام في عدة وعدد ليستلموا ويطوفوا ويدعوا دعوتهم بين سمع العرب وبصرها؟. . .

وكتبت قريش كتائبها وأجمعت أمرها على أمر؛ وخرج بنو عبد مناف وأحلافهم في جلود النمور، وعهم النساء والولدان، يقفون لمحمد على الطريق معاهدين ألا يدخلها عليهم عنوة أبداً!

ونظر محمد إلى أصحابه عليهم الدروع والحلق، وأيديهم على مقابض سيوفهم يريدون أن يقابلوا عدوانا بعدوان؛ ثم أرتد نظره إلى قومه الذين فارقهم وفارقوه، قد اجتمعت جماعتهم هناك تترقرق دماؤهم بين اللحى والترائب؛ ثم هتف محزوناً أسوان: (يا ويح قريش! لقد أكلتهم الحرب! فما تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة!)

هنا جيش وهناك جيش، والرسل ما تزال ساعية ذهاباً وجيئة تحاول (الهدنة) بين العسكرين المتعاديين، حفاظاً على حرمات الشهر والبلد؛ وهدأت فورة الدم حيناً ريثما ينتهي أمر المتفاوضين إلى أمر؛ ولكن هناك، في مكة، على مسيرة ساعة أو بعض ساعة، كان بضع عشرات من المسلمين يعض الحديد على أرجلهم، ويعانون ذل الأسر في ظلمات

فوقها ظلمات؛ أولئك جماعة من المستضعفين قد تقطعت بهم الوسائل، فلم يهاجروا فيمن هاجر من المسلمين إلى المدينة، وضرب عليهم وأهلهم ومواليهم بسور ليس له

باب، يجرعونهم الذل ويسومونهم سوء العذاب ليفتنوهم عن دينهم؛ ولكنهم صبر على الضراء، مؤمنين بأن يوما قريبا يوشك أن ينطلقوا فيه من إسارهم إلى حيث يعبدون الله جهرة، ويتملون وجه محمد وأصحاب محمد. . .

متى الميعاد. . .؟

كذلك راح كل واحد من هؤلاء الأسارى يسأل نفسه؛ فما هو إلا أن جاءهم النبأ بأن محمدا وأصحابه قد بلغوا ثنية المرار من أرض الحديبية، حتى راح كل منهم يأمل أملاً ويتمنى أمنية، ومضى بعد عدته لأمر؛ أليس جيش محمد يوشك أن يدخل مكة فاتحاً منصوراً لا يقف له شيء؛ فما بقاؤهم في الذل والإسار بعد!

وانتهى العسكران إلى شروط الهدنة الموقوتة، وراح محمد يملي على كاتبه:

(هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يامن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمدا من قريش بغير أذن وليه رده عليهم، ومن جاءه قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه. . .!)

ووثب عمر بن الخطاب كالملسوع يقول: علام نعطي الدنية في ديننا؟

قال محمد: أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيعني. . .!

ومضى الكاتب يكتب. . . ولاح شبح من بعيد يتقارب، تجاذبه أثقال الحديد في رجليه؛ وطلع فتى أشعث أغبر على وجهه قترة وفي عينيه ذبول، فما هو إلا أن لاح له مجلس محمد وأصحابه حتى ترامى عليه وهو يهتف: الحمد لله الذي آمنني بك يا رسول الله من ذل الإسار وعسف الكفرة!

ذلك (أبو جندل) بن سهيل بن عمرو، قد فر من أسر المشركين إلى رسول الله يستعينه على الخلاص. . .

وصمت محمد، وغمغم أصحابه بكلام؛ ونظر إليه أبوه سهيل ابن عمرو وقال وفي لهجته شماتة وسخر: هيهات أن يؤمنك محمد بعد. . .!

وعاد الفتى إلى محبسه وبين جنبيه هم يضيق به!

وكان ثمة رجل آخر يتربص، ذلك (أبو بصير) بن أسيد ابن جارية؛ إن الحديد ليعض على رجليه في محبس بني زهرة بمكة منذ سنوات؛ فمتى يحين له الخلاص بنفسه ودينه؟

وجاءه ما كان من أمر (أبى جندل) وما حكم فيه رسول الله، ولكنه لم يجزع

وآب النبي في صحابته إلى المدينة وإن قلوبهم لتفور بالحقد والحفيظة، فلولا أن رسول الله نهاهم لما انتهوا عما أرادوا؛ وتوزعتهم خواطر وهموم، وثقل عليهم ما يلقى إخوانهم هناك، ولكنهم طائعون لأمر الله ورسوله!

ووجد أبو بصيرة سهوة من حراسه فحطم أغلاله ومضى، وتقاذفته الفلوات وحيداً . . . بلا زاد ولا راحلة، حتى بلغ يثرب، وإنه ليعلم ما هناك. . .

وجد الطلب في أثره، فما أدركه قومه إلا وهو في أمان محمد، وما كان محمد ليغني عنه وذلك العهد بين محمد وقريش قائم، ولكن أبا بصير قد أعد عدته لأمر. . .

وجاء رسولا بني زهرة يذكران محمداً العهد القائم ويطلبان إليه أن يرد أبا بصير إلى قومه؛ وما كان لمحمد أن يغدر بما عاهد عليه القوم. . .

وطأطأ أبو بصير رأسه وعاد مع الرسولين أدراجه وعيون المسلمين تشيعه . . . بالدمع، وإن قلوبهم لتفيض بالألم والحسرة؛ ولكن أبا بصير لم يلبث أن عاد إلى المدينة وحيداً وعلى ظبة سيفه دم يسيل!. . .

وماذا على محمد بعد وقد وفى بما عاهد عليه القوم فرد إليهم رجلهم ثم أختار الرجل لنفسه؟

حر أنتصر فلا جناح عليه!

وافتر ثغر النبي عن ابتسامة وهو يقول: (ويل أمه مسعر حرب لو كان معه رجال!)

وسمعها أبو بصير فوعاها، ثم ودع صحابته ومضى لأمره وما تزال يده على قائم السيف. . .

وعلى سيف البحر من ذي المرؤة، كمن أبو بصير كمون القدر يتربص لكل رائحة وغادية

(ويل أمه مسعر حرب لو كان معه رجال!)

كلمة تجاوبت بها نسائم القفر بيمن مكة ويثرب، فإذا صداها يتردد بين جدران المعاقل

والسجون حيث يرسف المستضعفون من المسلمين تحت حكم قريش، فتلقفتها آذان ووعتها قلوب. . . (بلى، إن معه لرجالاً لا يريدون شيئاً إلا كان!)
ذلك كان رجع الصدى!
وفي ظلال صخور الحرة من ذي المروة على سيف البحر، كانت جموع تتجمع، وكما تجتمع الظلال ثم تفترق فتراها العيون ولا تلمسها الأيدي، كان أبو بصير وصحابته؛ وانطلق السجناء من محابسهم يدرعون الظلماء من كل حدب ليجتمعوا بذي المروة؛ وركز أبو بصير رايته في الوادي الأفيح يستظل بها بضع عشرات مرابطين على طريق قريش لكل غادية ورائحة؛ وانثال عليه المدد، فإذا العشرات بضع مئين؛ وعسكرت (كتيبة الإيمان) على الطريق تحمي الحمى وتمنع الجار، وكان على الميمنة (أبو جندل) وعلى الميسرة (أبو بصير)؛ وكانت قريش الكافرة تزودها وتميرها بكل قافلة تغدو وتروح!. . . وانقطع طريق الرائح والنادي على مكة من أرتد أن يطل دمه!
. . .وتسامع الناس بما هنالك ففزعوا وراحوا يداولون الرأي
وسعى ساعي قريش إلى محمد في المدينة: يا محمد، نسألك بالرحم إلا ما آويتهم، فلا حاجة لنا بهم بعد!
. . .وابتسم محمد، ثم دعا كاتبه ليكتب إلى أبى بصير يدعوه إلى الأمن والدعة
ومضى الرسول بكتاب محمد يغذ السير إلى ذى المروة ليدفع كتاب محمد إلى أبى بصير إلى الأمن والدعة، بعد جهاد العمر ومشقة الحياة؛ فما بلغ الرسول حتى كان أبو بصير سطيحاً بين أثنين من صحابته وهو ينشد في صوت يختلج:
الحمدُ للهِ العليَّ الأكبرْ ... من ينصر الله فسوفَ ينصرُ!
ودفع الرسول إليه الكتاب، فتناوله ونظر فيه نظرة ثم أغفى، وكانت إغفاءة الأبد!
وسكنت الريح، وخفت الصوت، وتجاوب بين الصخور صدى الصم هاتف:
(اللهم قد بلغت! اللهم إلى أمنك ودعتك!)

محمد سعيد العريان

درس في التصوف

للأستاذ زكي نجيب محمود

- مالي أراك يا بني مزوراً عن الدرس نافراً؟
- أخشى، يا أبتاه، أن يثقل على سمعي فيثقل ذلك على نفسك، فما لشبابي الغض وهو في شرخه وعنفوانه ولهذه النظرة البائسة العابسة، وهي نظرة المدبرين العاجزين
- انظر يا بني إلى هذا الفضاء الطليق، وأرسل بصرك في أرجاء الكون الفسيح. . . أو ينقص من عنفوان شبابك يا بني أن تكون هذا السيل الدافق وذلك الطود السامق؟ هل يحد من شبابك يا بني أن تكون هذا البركان الفوار وذلك الخضم العنيف الجبار؟ هل يضيرك يا بني أن تكون هذه الزهرة في رقتها وجمالها وهذا الليث الكاسر في جده وصرامته؟
- ومالي ولهؤلاء يا أبتاه، وأنا إنسان، وهي من الجماد والنبات والحيوان؟
- أنت يا بني كل هؤلاء؛ وهؤلاء كلها أنت. . . أنت الكون العظيم بكل ما فيه من قوة وفتوة وجلال وجمال. . .
ولكني يا أبت أراني فرداً واحداً محدوداً، فها هي ذي حدودي أراها بعيني وأحسها بأصابعي
- ذلك يا بني عند النظر الضيق السقيم، أو إن شئت فقل هذه لغة العيون والأيدي، ثم هي كذلك لغة العقل وحده، وهذه كلها أدوات لم يخلقها الله إلا لتفهم المادة المحدودة بالموازين والمكاييل. . .
- فأن لم أركن يا أبت إلى حواسي وعقلي، فإلى أي شيء أركن في فهم الوجود؟
- إلى فطرة عليا يا بني، هي فوق العقل والحواس. . . اركن يا بني إلى البصيرة لا البصر، فالبصر خادع خادع خادع، فهو تارة لا يريك الموجود، وهو طوراً يريك غير الموجود. . .
أن الوجود يا ولدي كائن واحد ضخم. وهذه الأشياء منه جذوع وفروع وأطراف، وهذا الوجود الواحد هو أنت، وأنت هو هذا الوجود. . .

- كيف لي أن أفهم هذا القول يا أبت؟
- إيتني بثمرة من تلك الشجرة، فسأحدثك بلغة تفهمها
- هاهي ذي
- ماذا ترى في جوفها؟
- أرى في جوفها بذوراً صغيرة
- اقطع بذرة منها إلى نصفين
- هاأنذا، يا أبت، قد فعلت
- ماذا ترى فيها؟
- لا أرى شيئاً
- أن الجوهر الدقيق الذي عجزت عيناك أن تراه قد نبتت منه هذه الشجرة الباسقة. فصدقني إن زعمت لك أن من مثل هذا الجوهر الدقيق جاء الوجود، وهذا الجوهر الذي لا تراه هو الحق الموجود، هو الروح الشامل لأطراف الوجود، هو أنت!
-. . . . . .
- تعال يا بني فضع هذه القطعة من الملح في الماء، ثم أذبه
- لقد فعلت
- إيت لي بالملح الذي وضعته في الماء
- لست أراه يا أبت. . .
- ولكن ذلك الماء كيف مذاقه
- إنه ملح!
- دع الماء جانباً واقترب مني. . . إن الملح الذي لا تراه موجود؛ وهكذا نعجز أن نرى الموجود الحق في دخيلة أجسامنا، ولكنه موجود، ومن وجود هذا الجوهر الدقيق جاء الوجود. إنه الحق، إنه الروح، إنه أنت

فهذا الرباط الخفي الذي يصلنا بأجزاء الوجود فيجعل منا كائناً واحداً، قد لا تبصره العيون، ولا تحسه الأيدي، ولكنه مع ذلك كوجود. وذلك يا بني أول ما أريد أن أعلمك إياه: الوجود كله حقيقة واحدة لا فرق بين إنسان عارف وكون معروف؛ فإن زعمت أنك شيء والوجود شيء آخر، فأنت في نغمة العالم (نشاز) بغيض. . . والتطبيق العملي على هذه الخطوة الأولى هو أن تحطم من ذهنك كل ما يميز إنساناً من إنسان، حطم هذه الفواصل التي تباعد

بين الغني والفقير، حطم هذه الفواصل التي تفرق بين القرشي والحبشي، حطم هذه الفواصل التي تفاضل بين سامي وآري. . . فالإنسانية كلها عند الصوفي رجل واحد أستغفر الله، بل حطم هذه الحواجز بين الإنسان وأبناء عمومته وخؤولته من بني الحيوان، فليس عبثاً أن حرم الله قتل الحيوان آناً من الزمان، فالحياة كلها عند الصوفي آية واحدة. . .

أستغفر الله، بل حطم هذه الحدود التي تجعل من النبات كائناً ومن الحيوان كائناً؛ ثم ماذا؟ ثم أمح يا بني ما أقامه العقل المتكلف بين الحي والجامد من سدود. . . فأن الوجود بأسره عند الصوفي كائن واحد

إن أس البلاء يا بني هي هذه الحواس التي تجزيء لنا الوجود قطعاً قطعاً فتحسب الوجود أشتاتاً وما هو بأشتات. . .
- وكيف السبيل إلى النجاة يا أبت؟
- عليك بثلاثة أمور: أولها الصلاة وثانيها الصلاة وثالثها الصلاة. . . عليك بالصلاة يا بني، فهي فترات أراد لنا الله فيها أن نخلص من جزئيات الوجود، لنتصل بالواحد القيوم خمس مرات كل يوم. ألست ترى كيف يحاول الماثل بين يدي ربه أن يغلق حواسه فلا يبصر مما حوله شيئاً ولا يسمع شيئاً؟ ذلك لئلا تعطل حواسه الفكر عن الوصل المنشود. . . ألا ترى إلى المساجد كيف تزداد روعة على روعة، ورهبة على رهبة، حين يخفت ضوءها ويهمس صوتها، وحين لا تكون فيها الحركة إلا في بطء وتثاقل. . .؟ ولم ذاك؟ ليساعد الفكر على التركز في الغرض المقصود، والحد من عوائق الحواس ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً: فلا نور يبهر البصر، ولا صوت يملأ السمع، ولا حركة تثير الأعصاب. . . عندئذ يتحقق ما أجراه أفلاطون في محاورة فيدون على لسان سقراط: يكون الفكر على أتمه حين ينحصر العقل في حدود نفسه، فلا يعكر صفوه . . .)

أصوات في السمع ولا رؤية في البصر، ثم لا يعكره شعور بألم وشعور بلذة. . . يكون الفكر على أتمه حين ينحصر روابطه بالجسم في أضيق دائرة ممكنة، فلا إحساس في الجسم ولا وعي في الشعور. . . عندئذ يطمح الفكر في أن يصل إلى الكائن الأسمى (وتلك هي الفكرة الثانية التي أريد أن أعلمك إياها يا بني هذا المساء: فارتفع عن صغائر الأشياء ما استطعت إلى الترفع عنها سبيلاً. . . إن هذه الأجزاء أشباح زوائل، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام. . .

- يا لهول ما تريد من يا أبتاه! إن لحمة الحياة وسداها هي هذه الأجزاء التي تدركها الحواس، فإن حكمت لي على الحواس بالطمس، وعلى هذه الأجزاء بالبطلان، ففيم عسى أن أجاهد في حياتي، ولطالما علمتني أن الحياة جهاد!؟

- لقد أخطأت يا ولدي، فإنما أردت لك أن تهمل أحداث الحياة الصغرى لتتعلق نفسك بمعانيها الكبرى، وفي هذا فليجاهد المجاهدون. . . إنما أردت لك أن تهمل القشور لتعب من اللباب. . . فاهجر ما تغريك به الحواس، ليتسنى لك أن تقبل على الحياة إقبال الجريء الباسل الذي لم تعد تهزمه المخاوف الصغرى والأخطار التوافه!

إن النبي عليه الصلاة والسلام حين قال: يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه، ما تركته. . . إنه حين قال ذلك كان المتصوف الأكبر الذي أهمل صغائر الحياة ولذائذ الحس لينصرف إلى أداء الرسالة الكبرى مهما لقى في سبيل أدائها من عناء

وتلك هي الفكرة الثالثة التي أردت أن أهديك بها اليوم: اترك جانباً من الحياة لتمعن في جانب. انفض عن كاهلك غبار الدنيا من ناحية لتقبل عليها تقياً نقياً من ناحية أخرى. . .

إن التصوف يريدك أن تقف من دنياك موقفا وسطاً بين الإهمال والإقبال، فإن أنت أهملت كأنك لست منها، فلست بالمتصوف الحق، وإن أنت أقبلت على الدنيا كأنها عندك كل شيء فلست بالمتصوف الحق. . . إن شغلت منصباً من مناصب الدولة الملحوظة، فأهملته ولم تأبه لشيء مما يتصل به، فلست بمنصبك جديراً، وإن شغلت المنصب بحيث تندك قوائم نفسك لو أفلت منك، فلست كذلك بالمنصب جديراً. فالرجل الحق هو الذي يبذل وسعه مجاهداً يريد النجاح ولا يخور للفشل. . . إن التصوف الصحيح ليريدك على أن تنغمس في العالم بقدر وتنسحب منه بقدر، بهذا تكون سيد نفسك، ولا تصبح ألعوبة لاعب في أيدي القدر. . .

ولتعلم يا بني أخيراً أن العالم الحق لا يكون كذلك إلا إن كان متصوفاً، فهل رأيت عالماً لا يفني نفسه إفناء في سبيل علمه؟ هل رأيت عالماً لا يضحي بشواغل الحياة الصغرى ليصل في بحثه إلى الحقيقة الكبرى؟ هل رأيت عالماً صحيحا يميل مع هواه فيثبت حقيقة تعجبه ويحذف حقيقة تؤذيه؟ ثم ماذا؟ ثم هل رأيت عالما لا يحب موضوعه إلى درجة الفتنة والجنون؟ وما موضوعه! هو الوجود أو ناحية من نواحيه!

- لو كان التصوف يا أبت هو أن أؤاخي بين أجزاء الوجود فأنا أول المتصوفين، ولو كان التصوف يا أبتاه يدعو إلى إهمال الأجزاء الحسية الصغرى لينعقد الفكر على مهمة كبرى، فأنا أول المتصوفين، ولو كان التصوف معناه الجهاد المخلص في سبيل الحق فأنا أول المتصوفين

زكي نجيب محمود

في الغار

للأستاذ محمود غنيم

(ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا)

(قرآن كريم)

مَنْ ذلك الساري على وَجْنائِهِ ... يطوي الدُّجى وَيَخُب في أحشائهِ
في قِلَّةٍ من صحبه، لكنه ... في فيْلق من عزمه ومَضائه
ما ضرَّه حَلَكُ الظلام وقلبُه ... يَتألَق الأيمانُ في أرجائه
الصبر والتّسليم حَشْوُ إهابه ... والهم والتصميمُ مِلْءُ ردائه
ينسابُ في آثاره أعداؤُه ... وحمامةٌ تنجيه من أعدائه
لو يُحْسِنُ الترحيبَ طيرٌ أعجمٌ ... هشَّ الحمام مرحَّباً بلقائه

أخفاه نسْجُ العنكبوتِ ولم تكن ... أُسْد الشرَى تقوى على إخفائه
جاء النَّفيرُ بخيله وبِرَجْلهِ ... تتزلزلُ الصحراءُ من ضوضائه
نفرت وحوشُ الغاب خشية بأسه ... ومحمدٌ كالطَّود في إرسائه
ما طوَّفت أشباحُهم بخياله ... إلا طوافَ الحُلْم في إغفائه
ضاق الفضاء بهم وصدرُ محمدٍ ... ما ضاق في اللأواء رَحْبُ فضائه
كَهْفٌ كَكِفَّةِ حابل في طيِّه ... صدر يتيه الظنُّ في بيدائه
نزلت عليه سكينةٌ من رِّبه ... ففؤاده مستسلم لقضائه
ما هَمُّهُ نفسٌ يريد نجاتها ... بل مذهبٌ يسعى إلى إعلائه
غرماءه شدوا إليه رحالهم ... واللهُ كان أشدَّ من غرمائه
ضلُّوا فلم تأخذه أعيُنهم ... ولم تمتدَّ أيديهم إلى إيذائه
وكذلك شاء الله نُصرَةَ عبده ... وارتدَّ شانِئُهُ بوجهِ شائه
ما كان أوْفى صاحبين كلاهما ... يَفدِي أخاه مرحِّباً بفدائه
سَهْلٌ عليه أن تسيلَ دماؤُه ... ويفوزَ صاحبُه بحَقْن دمائه
غار يضلّ النجمُ في دَيْجوره ... لا فرق بين صباحه ومسائه
لا يأمنان النابَ من ثعبانه ... أو يأمنان الذيلَ من رَقْطائه
لا أرضُه الجدباءِ مُثمرة ... ولا في صخره يَنْبُعٌ يجود بمائه
قضيا النهار على الطَّوى في جوفه ... وتقلَّبا ليلاً على حصبائه
قم سائل الصِّدِّيقَ ماذا صدَّه ... عن ماله وثناه عن أبنائه؟
وَعَلاَم يضربُ في المهامة هائماً ... في سيره كابن السبيل التائه؟
ما بين ليلٍ حالكِ الأسحار ... أو مُستقبَلٍ كالليل في ظلمائه
ما بين شدة رُعبه ويقينه ... يَنْبَتُّ أو يمتدُّ حبلُ رجائه
لم يخش إلا أن يُصَابَ محمدٌ ... بأذى فيفنى دينُه بفنائه
عجبي على الصِّدِّيق، ماذا يتَّقي ... واللهُ رَبُّ العرش من رفقائه؟
ما أصدقَ ابن أبي قُحافةَ صحبةً ... لمحمد هند اشتداد بلائه
لِمَ لا يكونُ خليفةً من بعده ... أرأيت كالصِّدِّيق أو كوفائه؟
ما ضر غاراً باتُ يؤوى المصطفى ... إجدابُ واديه وضيقُ فِنائه
وَدَّت بُرُوجُ النجم لو آوَيْنه ... إذ ذاك أو شاركن في إيوائه
غارٌ على (الإيوان) جرَّ ذيوله ... عُجْباً وتاه عليه من عُلَوَائه
ما سدُّ ذي القرنين قيسَ به ولا ... هَرَمُ الكنانة في علوِّ بنائه
هل كان يدري الغارُ أن نزيلَه ... سيرجُّ ركنَ الأرض بعد نجائه؟
وَيُزلزل الدنيا بعزم رَفيقِه ... وثلاثةٍ كالشُّهْب من خُلفائه
فإذا رجالُ الروم بعضُ عبيده ... وإذا نساء الفرس بعضُ إمائه
وَإذا بدين محمد يغزو الورى ... غزو الكتائب تحت ظل لوائه
وإذا كتاب محمد مُتَغَلغلٌ ... في الكون والثَّقَلان من قُرَّائه
نجمٌ من الصحراء كان بُزوغُه ... فإذا الحواضرُ تهتدي بضيائه
الله قدرَّ أن يُتِّممَ نورَه ... مَنْ ذا الذي يقوى على إطفائه؟
(مدرسة فؤاد الأول)
محمود غنيم
قبس من نور صاحب الهجرة
أدبني ربى فاحسن تأديبي
للأستاذ محمود الشبيشي
وأخذت القوم الحيرة الممزوجة بالإعجاب من سحر ما أبان، وصدق ما اظهر. . . وزاد من حيرتهم وإعجابهم انه كان أميا؛ فتلطف أبو بكر رضى الله عنه وقد أصابه ما أصاب القوم وأخذه ما أخذهم، وهو العالم الخبير بأنساب العرب وأخبارهم، فقال يا رسول الله: لقد طفت في العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت افصح منك؛ فمن أدبك؟
قال: (أدبني ربي فاحسن تأديبي)
إنها لكلمه جامعه، مركبه من كلمات قي منطق اللغة، كثيرة في منطق العقل، تملك القدرة التي تأسر بها كل الحواس. يخيل إلي أن الحروف فيها ليست كالحروف؛ فهي

من مادة الروح، وهي من عنصر القلوب، ثم هي بعد ذلك كله من جوهر النور السماوي، ينزل هبه علوية لخير من يعرف أقدار الهبات.
(أدبني ربي فاحسن تأديبي)
جماع الحكمة في ألفاظ حكيمة، ومبعث النور في ألفاظ من نور، وروض الأخلاق الكريمة في حروف كريمة، نطق بها اكرم الخلق فزادت فوق سموها سموا، لان الرسول الكريم ترنم بها. . .
يكاد المرء يلمس في طياتها تتحرك، ويحس هداية الرحمن خلال كلماتها تتلألأ، وهي من سر الروحانية؛ يخيل إليه إن سالت فجرت سيلا من طبيعة الحياة لا التدمير، فهو ينهل من عذبها، ويرى في ثناياها ألوان الروحانية السماوية تتألق بمعاني الهداية، وتتلألأ بأنوار الحكمة، فهو بتأملها ويكاد البصر يتعلق بها فلا يبرحها
ثم هو يوشك أن يشعر بألفاظها تتحرك من سحر ما فيها، وتحيا فكأنما يلمسها ويراها، وهو لما يظهر فيها من نضج الحكمة واكتمال ثمارها يكاد يلتهم أطايبها التهاما، ثم هو لا يشبع من معانيها. ومن ذا الذي يشبع من أطايب الرسول؟ (أدبني ربي فاحسن تأديبي)
ياله من اعتراف نبيل من اكرم الخلق بفضل بارئ الخلق! اعتراف مسلك الهداية، وقول نهج للناس منهج للسعادة. نعم أدبه ربه فاحسن تأديبه، فكان المثل العالي في خلقه؛ فهو
الأمين طفلا، وهو الأمين شيخا. ائتمنه قومه فكان له في الطيبات فضل سابغ وفي المكرمات مجد سامق. وأتمنه ربه فاختصه بأعباء الرسالة، فنهض بها على اكمل الوجوه، وما اختصه بها إلا وقد طهره من كل غرض ونزهه عن كل دنس. أدبه ربه فكان أميناً، ومن أمانته شعت أنوار أخلاقه. لقد أدب الرسول ربه فسمت أخلاقه، ونبلت صفاته، فكان أصدق الخلق حيث يقول: (أدبني ربي فأحسن تأديبي)؛ لا يقف صدق هذه الكلمة الروحانية على نبل صفات الرسول وأمانته، وصدقه، وسمو غايته؛ بل إنها لصادقة في كل تصرفاته كرجل اجتماعي. ومن ذا الذي جمع دقيق أمره وجليله مثلما جمع؟ ومن ذا الذي ربط بين أغراضه وأغراض الإنسانية مثلما ربط؟ ومن ذا الذي قبل الرأي قبل الفصل مثلما قلب؟
من ذا الذي جرى في أعماله وراء الضمير الطاهر مثلما جرى؟ أفلم يبعث للعرب ولم تكن تقيدهم غير تيهاء مترامية، فلم الشعث، وألف القلوب، وآخى بين النفوس، ورأب الصدع، ووحد الثقافة وناهيك بتوحيد الثقافة في إنهاض الأمم! لكم كان الرسول محقاً حين قال: (أدبني ربي فأحسن تأديبي) فهو مثال المصلح الاجتماعي الذي يعلم أن إدراك الداء هو سر الدواء، المصلح الذي يخاطب القلوب والعقول، المصلح الذي يلابس الحياة وما يضطرب في الحياة، فتسوقه هذه الملابسة إلى كل مناحي الإصلاح ولقد كان الرسول كل هذا، وكان فوق هذا المصلح القوي الكريم الذي لا يغويه السلطان فيبطش، وما كان إلا ما يدل على قوة اليقين، والترفع عن الأهواء، والعفو عند المقدرة، والنفور من الطمع. إلا إن هجرة الرسول الكريم لأعظم دليل على إدراكه لروح المجتمع، وحسن تصرفه كمصلح سماوي ذي رأي سديد، وفكر صائب. ما هاجر رجل وصاحبه، إنما هاجرت فكرة وعقيدة. وما اضطهدت فكرة وعقيدة. وما أنتصر رجل، وإنما انتصرت فكرة وعقيدة
ما هاجر الرسول إلا وقد عقد العزم على العودة، ولكن بعد أن يستشعر القدرة على رياضة تلك النفوس الجامحة. ما هاجر الرسول إلا بعد أن أدرك أن من العبث نقاش عقول جامحة غطى عليها الغضب، وران عليها الحقد، فلا سبيل لتقويم عوجها، وتثقيف منآدها إلا بعد أن تسكن فيها عوامل الثورة، وتبرد جمرات التحفز. وأدرك الرسول هذا فكان حكيما، وعلم أن امتداد الزمن بينه وبينهم وابتعاد الشقة - ولو إلى حين - سيفعل في النفوس الجامحة فعله فتتحرك الضمائر، وتحيا القلوب. ولقد كان كل هذا، ودارت السنون، واجتمع للرسول
العدد والعدة، وفعلت العوامل النفسية في القوم فعلها، فرجع فاتحاً منتصراً؛ ولكنه كان كريم الخلق، جميل العفو. لقد ضرب للناس بآدابه مثلاً لو أدركوه وساروا في هديه لعم العالم السلام، ولصفق في جوه الإخاء، ولكن العالم قد فسد تأمله، ففسدت أغراضه، وسار أكثره وراء الطمع، فكان ما كان من جور وطغيان، واستسلم العالم لحروب تأتي على الأخضر واليابس

وكان الرسول كريم الخلق، وكان المصلح الاجتماعي البصير، وكان الخطيب الذي لا يصيبه في الملمات عي، ولا يدركه في المخوفات بهر، يزن كلامه بميزان الحكمة، وما كانت آياته السامية إلا صورة لنفسه السامية. كان خطيبا لا يبارى؛ وكان الشجاع الذي لا يبالي الهلكات

اجتمعت له النجدة والبسالة والشدة، وكان شهما فيه صرامة وفيه قوة لا يطمع في خداعه، ولا يغمز جانبه؛ وكان عظيم الثقة بنفسه، وتلك صفة الرجل الذي يعلم أن الله معه وأن الثقة بالنفس من لوازم الرسالات، حسنت معاشرته واستقامت أغراضه؛ وكانت له هيبة الروح وسعة الحلم، وكرم العفو، ورعاية الرحمن

انظر إليه وقد لقيه عل ى غرة أحد أعدائه، وشهر السيف على رأسه قائلا: يا محمد، من يمنعك مني؟ فقال: (الله) ما أروعها كلمة! نعم يمنعه الله، ولقد منعه حقاً، فسقط السيف من الرجل وأخذه الرسول وقال: من يمنعك مني؟ فقال الرجل وقد أسقط في يده: كن خير آخذ. فقال الرسول: قل أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله. فقال: لا، غير أني لا أقاتلك، ولا أكون معك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك فخلى الرسول سبيله فهل رأيت أعظم نفسا من هذه النفس الروحانية؟ وهل رأيت رجلا يقدر الرجولة ولو في عدوه هذا التقدير؟ الرسول الكريم يطلب منه الأيمان فيأبى، ولكنه يعاهده على السلام فيكون له العفو الجميل. إن في ذلك لآية رائعة للقدرة حين ترحم. إن في ذلك لفلسفة عالية لو أدركها العالم لتجمعت أطرافه، ولرفرفت عليه أجنحة السلام إنها لحكمة من الرسول الكريم الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه

(المنصورة)

محمود الشبيشي

وأد البنات عند العرب في الجاهلية

عوامله الصحيحة وموقف الإسلام منه

للدكتور علي عبد الواحد وافي

لم يكن نظام وأد البنات متبعا عند جميع العرب في الجاهلية، بل كان مقصورا على بعض عشائر من ربيعه، وكنده، وطي، وتميم. وكانت الطريقة السائدة في الوأد أن تحفر بجانب الموضع الذي اختير لولادة الأم حفرة عميقة، فإذا ظهر أن المولود أنثى، قذف بها حية عقب ولادتها مباشرة في هذه الحفرة، وهيل على جسمها التراب، وبعضهم كان يلجأ إلى وأد بناته في أمكنة خاصة بعيدة عن المنازل حتى لا يدنسها بجثثهن ورفاتهن. وأشهر مكان كان يجرى فيه الوأد على هذه الطريقة هو جبل أبى دلامة

وقد ظل هذا النظام متبعا عن العشائر السابق ذكرها حتى قبيل الإسلام، ثم ألقيت في نفوس كثير من العرب كراهته، وانكشفت لهم شروره، وظهر لهم تنافره مع سنن الطبيعة ونواميس العمران، فنهض كثير من سادتهم إلى محاربته إذ كانت النفوس مهيأة لما يدعون إليه، فلم يجيء الإسلام حتى كان هذا النظام على وشك الانقراض، وقد شن الإسلام على البقية الباقية منه حرباً شعواء انتهت بمحوه محواً تاماً، فلم نسمع بعد وفاة الرسول عليه السلام بأي حادث من هذا النوع، حتى بين العشائر التي بقيت على دينها القديم

وقد اختلف الباحثون في العوامل التي حملت العشائر السابق ذكرها على اتباع هذا النظام الوحشي؛ وانقسموا بهذا الصدد إلى فريقين: فريق يعلله بالفقر، وآخر يتلمس أسبابه فيما جبل عليه العربي من شدة الحرص على صيانة عرضه، واتقاء ما عسى أن يصيبه بمكروه

فأما الفريق الأول فيرى أن أسباب هذا النظام ترجع إلى الإملاق وعدم القدرة على تربية الأولاد؛ وان التبعة في هذا تقع على بيئة بلاد العرب وحالتهم الاقتصادية: فإجداب أرضهم وضالة دخلهم من مهنة الرعي التي كان يزاولها كثير منهم، واحتكار التجارة في يد أفراد من سراتهم، وحيات الشظف التي كانت تعانيها الدهماء، والمجاعات المتوالية التي كانت تنتابهم، وكثرة تنقلهم في طلب الكلأ لإنعامهم. . . كل أولئك وما إليه جعل من الصعب على كثير منهم تربية أولادهم، واضطر القبائل السابق ذكرها على طريقة الوأد للتخلص من هذا العبء الثقيل ويرى هذا الفريق في قوله تعالى: ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق. .

ما يزيد مذهبه تأييدا
وهذا المذهب لا يتفق في شيء مع حقائق التأريخ ولا مع المنطق السليم. فمن الثابت إن هذا النظام لم يكن معمولا به في الطبقات الفقيرة وحدها، بل كان عاما عند الفقراء والأغنياء في العشائر التي أخذت به. وقد حدثنا التأريخ عن بعض من وأدوا بناتهم في العصر الجاهلي، وذكر من بينهم عددا كبيرا من سراة القوم وأغنيائهم، ومنهم عمر بن الخطاب نفسه. . .
هذا إلى أن في قصر الوأد في العشائر السابق ذكرها على البنات دون البنين، لدليلا على أن الدافع إليه شئ آخر غير الفقر؛ إذ لو كان الفقر هو الدافع إليه، للحق جميع الأولاد بدون تمييز بين الذكور والإناث. . . ويزيدنا إقناعا بفساد هذا المذهب أنه لم يرد مطلقا ذكر الفقر في أي آية من الآيات التي نزلت في وأد البنات. أما الآيات التي ورد فيها قتل الأولاد مقرونا بخشية الإملاق، والتي يزعم أصحاب هذا المذهب أنها تؤيد وجهة نظرهم فهي لا تتحدث عن النظام الذي نحن بصدده، بل تتحدث عن نظام آخر كان متبعا عند بعض عشائر العرب، وهو قتل الأولاد على الإطلاق بدون تمييز بين ذكورهم وإناثهم، تحت تأثير الفقر وعدم القدرة على تربيتهم
ويذهب الفريق الأخر من الباحثين إلى أن أسباب هذا النظام ترجع إلى مبالغة بعض العشائر العربية في الحرص على صيانة أعراضها واتقاء ما يحتمل أن يصيبها بمكروه. فكان الواحد منهم يخشى، أن هو أبقى على بنته، أن تجر عليه وعلى عشيرته عاراً في المستقبل، إذا وقعت سبيه في يد الأعداء واستباحوا عرضها أو زلت في حياتها وقدر لها السقوط. ويروى أنصار هذا المذهب قصة يدعون أن حوادثها كانت السبب الأول في توجته العشائر السابقة هذا الاتجاه. وخلاصة هذه القصة أن عظيماً من عظماء العرب يدعى قيس بن عاصم قد سبيت بنته في غارة شنتها عشيرة معادية على عشيرته، ثم عقد بين العشيرتين صلح كان من شروطه أن ترد السبايا مقابل فدية مالية. غير أن ابنة قيس هذا كانت قد شغفت حباً بمن وقعت في يده، فآثرت البقاء عنده، ولم تقبل الرجوع إلى أبيه وعشيرتها. فآلى أبوها على نفسه ليئدن كل بنت تولد له، وسارت عشيرته على سنته، واقتدى بها بعض العشائر الأخرى
وهذا الرأي لا يقل فسادا عن الرأي الأول. فالقصة التي يستند إليها تبدو عليها علامات الاختلاق وإمارات الأساطير. هذا، إلى أن ما تقرره يتعارض مع النواميس التي تخضع لها الظواهر الاجتماعية في نشأتها وتطورها. فعهدنا بهذه الظواهر أنها لا تنشأ من حادث فردي، بل تنبعث من العقل الجمعي، وترتكز إلى اتجاهات المجتمع وعقائده ونظمه العامة. على أن قيساً هذا شهد الإسلام ومات حوالي السنة العاشرة بعد الهجرة. فلا يعقل أن يكون هو الذي قد سن نظام الوأد عقب حادث حدث لبنت كبيرة له. إذ يترتب على ذلك أن نظام الوأد لم يظهر إلا قبيل الإسلام ببضع سنين؛ مع أنه من الثابت أنه سابق لبعثة الرسول بعهد طويل، وأنه كان على وشك الانقراض قبيل الإسلام؛ وفضلا عن هذا وذاك، فإنه لم يرد في أي آية من الآيات الخاصة بالوأد إشارة ما لسبب من هذا القبيل. ولو كان هذا السبب هو الباعث الحقيقي على الوأد، لعني القرآن بإظهاره وتقبيحه وبيان ما ينطوي عليه من سخف وانحراف عن التفكير السليم. . .
وقد رأيت، بعد أن تبين لي فساد هذين المذهبين، أن خير طريق للوقوف على أسباب هذا النظام هو الرجوع إلى الآيات القرآنية التي نزلت بصدده، وربطها بما يتصل بها، والتأمل فيما عسى أن تتضمنه من إشارة ظاهرة أو خفية إلى العوامل التي دفعت إليه. وقد هداني ذلك إلى النظرية التي أعرضها فيما يلي:
كانت طائفة من عشائر العرب تلجأ إلى قتل أولادها تحت تأثير الفقر ورغبة في التخلص من تكاليف تربيتهم. وهذه الطائفة ما كانت تفرق بين ذكور الأولاد وإناثهم. وهذا هو ما تشير إليه الآية الواحدة والثلاثون من سورة الإسراء: (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا)، والآية الواحدة والخمسون بعد المائة من سورة الأنعام: (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم إلا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم. . . الآية)
وغني عن البيان أن هذا نظام آخر غير النظام الذي نحن بصدد الكلام عنه
وكانت طائفة أخرى من العشائر العربية تئد البنات من أولادها على النحو الذي

شرحناه في صدد هذا المقال. ولم تكن تفعل ذلك خشية الفقر أو العار كما يزعم أصحاب المذهبين السابقين، بل كانت تفعله بدافع ديني بحت. وذلك أنهم كانوا يعتقدون أن البنات رجس من
خلق الشيطان أو من خلق إله غير آلهتهم؛ وأن مخلوقا هذا شأنه ينبغي التخلص منه. وأصل عقائدهم هذه أنهم كانوا يقسمون ما تخرجه الأرض وما تنتجه الأنعام قسمين: قسم ينسبونه لآلهتهم (اللات، العزى، مناة. . . الخ) ويعدونه من خلقها، وهو قسم طاهر زكي؛ وقسم ينسبونه لله تعالى يعدونه من خلقه، وهو قسم كانوا يعتقدون أنه مدنس بالرجس، فكانوا يحرمونه على أنفسهم، أو يرون أن واجبهم الديني يقتضيهم التخلص منه أو تقديمه قرباناً لآلهتهم، وما زين لهم اعتقاده بصدد نتاج الحرث والأنعام زين لهم اعتقاد مثله بصدد نتاج الإنسان، فقسموا ما يولد للإنسان قسمين: قسم طاهر زكي من خلق آلهتهم وهو جنس الذكور، وقسم من الله وهو نوع الإناث، وهو قسم مدنس بالرجس كانوا يحرمون بقاءه ويرون أن واجبهم الديني يقتضيهم التخلص منه ومن أجل ذلك كانوا يتقون ذبحهن ويؤثرون وأدهن عقب ولادتهن مباشرة حتى لا تنتشر دماؤهن فتنتشر معها ما تحمله من نجس ورجس.
بل كان بعضهن يبالغ في هذا التحرج فيئدهن بعيداً عن المنازل كما سبقت الإشارة إلى ذلك، ولم يقف أمر اعتقادهم هذا عند حدود العالم الطبيعي: عالم النبات والحيوان والإنسان، بل جاوزوه إلى عالم السماء. فكانوا ينسبون لله تعالى من هذا العالم كل ما يعتقدون أنه من نوع الإناث، ومن أجل ذلك نسبوا إليه الملائكة لاعتقادهم أنهم من هذا النوع
وإليك جميع الآيات التي عرضت لوأد البنات، وسيتبين لك من التأمل فيها وربطها بعضها ببعض صحة ما ذهبنا إليه
ويجعلون لما لا يعلمون (أي لآلهتهم التي لا علم لها لأنها جماد. اهـ بيضاوي) نصيباً) - 1 مما رزقناهم (من الزروع والأنعام اهـ البيضاوي) تالله لتسألن عما كنتم تفترون. ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم (أي لآلهتهم) ما يشتهون (يعني البنين) وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم. يتوارى من القوم من سوء ما بشر به. (النحل 56 - 59) (أيمسكه على هون أم يدسه في التراب، ألا ساء ما يحكمون
فالآية الأولى تقرر عقائدهم في نتاج الحرث والأنعام ونسبة بعضه لآلهتهم. والآية الثانية تقرر عقائدهم في نتاج الإنسان ونسبة الذكور لآلهتهم وجنس الإناث لله. والآية الثالثة تصف ما كان يفعله أحدهم إذ بشر بالأنثى. وغني عن البيان أن في مجيء الآية الثالثة عقب الثانية مباشرة لدليلا على أن ما كانوا يسلكونه حيال البنات من وأدهن وإمساكهن على هون كان مترتبا على نسبتهم الإناث إلى الله تعالى، فبدون هذا التفسير يكون المعنى الذي تقرره الآية الثالثة مجرد استطراد لا تربطه بالحقائق التي تقررها الآيات السابقة أية رابطة منطقية وهذا ينبغي أن ننزه كلام الله عنه
وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا، فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا) - 2 لشركائنا (أي لآلهتهم) فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله، وما كان لله فهو لا يصل إلى شركائهم (عن طريق تقديمه قرباناً مثلاً)، ساء ما يحكمون. وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم، ولو شاء الله ما فعلوه، فذرهم وما يفترون. قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله، قد ضلوا وما كانوا مهتدين (سورة الأنعام 136 - 140)
فالآية الأولى تقرر ما كانوا يعتقدونه بصدد ما ينتج من الحرث والأنعام وقسمتهم هذا النتاج بين آلهتهم وبين الله تعالى على النحو الذي شرحناه. والآية الثانية تقرر أن قتلهم أولادهم كان مبنيا على نفس الأساس الديني الذي بني عليه تقسيمهم السابق، كما يستفاد ذلك من عطف هذه الآية على ما قبلها، ومن تصديرها بقوله (وكذلك) ومن نسبة تزيين هذا الفعل إلى الشركاء (وكذل زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم)، ومن قوله (ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم).
ويستفاد من الآية الثالثة أن الذين كانوا يقتلون أولادهم على هذه الطريقة هم الذين كانوا يحرمون بعض منتجات الحرث والأنعام، وأن الباعث لهم على الأمرين عقيدة واحدة، والمقصود من الأولاد في هذه الآيات البنات وحدهن، كما أشار إلى ذلك كثير من المفسرين وكما يدل عليه السياق

3 - (وجعلوا له من عباده جزءا (وهو الإناث) إن الإنسان لكفور مبين. أم أتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين. وإذا بشر أحدهم بما ضرب الرحمن مثلاً (أي بالجنس الذي نسبه لله) ظل وجهه مسودا وهو كظيم. وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن (الزخرف 15 - 19) (إناثاً، أشهدوا خلقهم؟! ستكتب شهادتهم ويسألون

ولست في حاجة إلى أي تعليق على هذه الآيات، فهي صريحة في المعنى الذي قررناه،

وخاصة إذا ربطت بالآيات السابقة

4 - (أفرأيتم اللات والعزى ومنآة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى. تلك إذن قسمة ضيزى. . . إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى، ومالهم به من علم إن يتبعون إلا الظن. . . الآية (النجم 19 - 27)

5 - (ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً محصوراً. أفأصفاكم ربكم البنين واتخذ من الملائكة إناثاً إنكم لتقولون قولاً عظيماً) (الإسراء 39 - 40)

6 - (فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون؟! أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون؟! ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله، وإنهم لكاذبون. أصطفى البنات على البنين؟! مالكم كيف تحكمون؟! . . .) (الصافات 149 - 154)

علي عبد الواحد وافي

ليسانسيه ودكتور في الآداب من جامعة السوربون

الرنوك في عصر المماليك

للدكتور محمد مصطفى

للرنوك شان عظيم عند الغربيين، لها سجلات رسمية خاصة بها، يسجلون فيها شكل الرنك (الشعار) وألوانه والرسوم التي فيها، مع لقب العائلة التي يحق لها حمله، وأسماء أفرادها، وكل ما يتعلق بهم من البيانات عن تواريخ ميلادهم ونشأتهم وحالتهم المدنية مع إضافة علامة جديدة لبعض أفراد العائلة الجدد. وللرنوك عندهم علماء تخصصوا في البحث فيها، وفي تتبع رنك كل عائلة واستقصاء أصله وتاريخ نشأة العائلة. وهنالك رنوك أخرى للمدن والبلاد في أوربا لتمييز جماعات كل بلد أو صناعاته أو مناخها عن غيرها. وقد حاول بعض هؤلاء العلماء إرجاع أصل الرنوك عند الغربيين إلى الشرق، وقالوا إنهم اقتبسوا فكرتها أيام اتصالهم بالسلاجقة والأيوبيين والمماليك إبان الحروب الصليبية، بدلي وجود رنوك سلجوقية وأيوبية ومملوكية مشابهة لرنوكهم على بعض الآثار في مصر وسوريا وفلسطين

وبينما نرى أن للرنوك في أوربا صفة عائلية محضة يتوارثها الابن عن أبيه وجده، نجد أنها كانت تدل في عصر المماليك على الوظيفة التي كان يتقلدها حامل الرنك في البلاط السلطاني. وكان للمماليك في جيشهم نظام عسكري لا يحيدون عنه، فكانوا يعتمدون فيه على الجند من المماليك فقط، يجددون دائماً بشراء مماليك صغار، يتولى جلبهم إلى مصر موظف معين لذلك يلقب بتاجر المماليك. وهؤلاء المماليك الجدد كالهم حديثو السن، يلحقون بمدرسة المماليك بالقلعة حيث يقيدون كمماليك كتابية، ويتعلمون القراءة والكتابة، ويدربون على الأعمال والنظم الحربية. فإذا ما تم تعليمهم وتدريبهم، أعتقهم السلطان، ووهبهم ما يبدءون به حياتهم الحرة، وما يتناسب مع تدريبهم الحربي، أي ملابساً تميزهم عن إخوانهم الأرقاء وأسلحة وخيلاً. وتطلق كلمة مملوك عليهم بعد عتقهم أيضاً، فكان مؤرخو العرب يستعملون أسم (مملوك) لمن يؤدي أعمالاً داخلة في النظام العسكري، وكلمة (عبد) لمن يستخدم في أعمال منزلية مثلاً وهو في الرق

ثم يعين السلطان المماليك (الأحرار) الجدد للخدمة في الجيش أو في المقاطعات والبلاد، بعد أن ينتخب منهم عدداً لحراسته وخدمته الخاصة، ولذلك يسمون بالخاصكية. وهؤلاء هم

نخبة الجند، يقلدهم السلطان درجات ضباط الجيش ووظائفهم، فيبدؤها الخاصكي برتبة أمير عشرة، فأمير طبلخاناه، فأمير مائة، فمقدم ألف، وهذه أرقاها. وكان لكل من هؤلاء الضباط أو الأمراء شعار خاص به يسمى (رنكا) يرسمه على كل ما يمكن أن يتصوره العقل من الأدوات التي يستعملها في حياته اليومية كالأسلحة والمشكاوات والأقمشة والمخطوطات وأدوات الزينة وأواني الطعام والشراب، وعلى واجهات

المباني والشبابيك والأبواب والأعمدة وتيجانها وغير ذلك.
والرنوك في مصر والشام كانت موضوع بحث عند كثيرين من العلماء الأوربيين اذكر منهم ويعقوب أرتين باشا. وكان آخر من بحث هذا الموضوع الأستاذ الدكتور الذي ألف كتاباً فيه. ولا يزال يتابع البحث، وينشر ما أستجد من الأبحاث في المجلات العلمية.
ومما يؤسف له ألا نجد شيئاً وافيا عن هذا الموضوع في كتب مؤرخي العرب الذين عاصروا المماليك: كأبي الفداء والمقريزي والقلقشندي وأبي المحاسن وابن إياس سوى ما ذكروه من الرنوك عرضا - وفي حالات قليلة - في سياق كلامهم عن الحوادث أو وفيات بعض الأمراء. ومن هذه الحالات القليلة ما ذكره أبو الفداء في تاريخه من علامات وظائف الدوادار والسلاحدار والطشتدار والجمدار والأمير آخور والجاويش.
وإننا نعتقد أن مؤرخي العرب اعتادوا رؤية الرنوك، فلم يجدوا فيها ما يستلفت النظر ولذلك لم يبحثوا فيها، ويؤيد هذا الرأي الأستاذ جاستون فيبت في نقده لكتاب الدكتور ماير، ويقول إن الذهبي وصف مرة رنك السلطان كتبنا مع رسم توضيحي له. ولهذا فنحن مضطرون في دراستنا للرنوك إلى الاعتماد فقط على الكتابات التاريخية التي ترافقها في بعض الأحيان، ودراسة تراجم الأمراء المذكورة أسماؤهم في هذه الكتابات لكي نصل إلى معرفة الوظائف التي كانوا يشغلونها، ونستخلص من ذلك ما نفسر به رنوكهم
وقد دلت هذه الدراسات على أن الوظائف الممثلة في الرنوك هي وظائف صغيرة في البلاط السلطاني يشغلها الخاصكية؛ واستنتج الدكتور ماير أن المماليك كانوا يحتفظون مدى حياتهم برنوك وظائف الخاصكية التي شغلوها في خدمة السلطان قبل ترقيتهم إلى درجات الأمراء، بل إن كبار الأمراء كانوا يفخرون بما تولوه في أول عهدهم بهذه الوظائف الصغيرة
وأثبتت هذه الدراسات أيضاً أن سبع علامات من التي ترى على الرنوك يمكن الاستدلال بها بوجه قاطع على الوظائف التي تمثلها، وهذه العلامات هي: الكأس للساقي أو الشراب دار وهو من يتولى سقاية السلطان، والخانجة أو المائدة المستديرة للجاشنكير الذي يتذوق الطعام للسلطان، وعصاتا لعبة البولو للجوكندار وهو المشرف على هذه اللعبة. والدواة للدوادار أي كاتب السر - وكان المرحوم عبد الحميد مصطفى باشا أول من أثبت أن الدواة علامة كاتب السر - والبقجة المربعة للجمدار أي حامل الملابس، والسيف أو الخنجر للسلاحدار وهو الذي يحمل أسلحة السلطان، والقوس للبندقدار أي رامي النشاب. وجل هذه الوظائف لها صبغة عسكرية يتقلدها - على حد قول مؤرخي العرب - (أرباب السيوف) من المماليك. وهنالك علامات أخرى نراها على الرنوك، منها: السبع والنسر وزهرة الزنبق والوردة والهلال وغيرها. وهذه العلامات إما شخصية كالسبع الذي يرى على نقود السلطان بيبرس البندقداري ومبانيه، أو علامات لم يمكن معرفة ما تدل عليه، لأن تراجم الأمراء المذكورين في الكتابات المرافقة لها غير مستوفاة، أو لا تشير إلى الوظائف التي كانوا يشغلونها قبيل ترقيتهم إلى درجات الأمراء.
وقد استطاع أخيراً الدكتور ماير أن يفسر إحدى هذه العلامات تفسيرا قريبا من المنطق، وهي على شكل قرن، وقال إنها تدل على القرن الذي كان يحفظ فيه البارود، وذلك لأن أول ظهورها كان في رنوك الثلث الأخير من القرن الخامس عشر الميلادي، أي عندما عم استعمال البارود في الأسلحة.
وللرنك أشكال مختلفة منها المربع والمدبب والذي يتألف محيطه من تقاطع عدة دوائر، ولكن أكثر هذه الأشكال انتشارا هو الذي يتكون من دائرة يقسمها خطان متوازيان إلى ثلاثة أقسام يسمى القسم الأوسط منها (الشطب). وتلون الرنوك بألوان مختلفة حسب ما يختاره صاحبها؛ وتظهر هذه الألوان في رونقها في الرنوك المرسومة على الزجاج والخزف والفسيفساء والرسوم الحائطية
ويقسم الدكتور ماير الرنوك إلى نوعين: رنوك بسيطة، ورنوك مركبة. فالرنوك البسيطة هي التي تحوي علامة أو أكثر على الشطب، أو على الرنك إذا لم يكن بوسطه شطب، وهي رنوك شخصية تدل على الوظيفة التي كان يشغلها حاملها قبل ترقيته إلى درجات

الأمراء. أما الرنوك المركبة فيرى عليها علامات متعددة على أقسام الرنك الثلاثة، وهي ليست شخصية، كما هي الحال في الرنوك البسيطة، بل هي رنوك جماعات من المماليك تنتسب كل جماعة منهم إلى أحد السلاطين أو أحد كبار الأمراء كالمماليك المؤيدية والأشرفية والظاهرية مثلا

وكانت الرنوك البسيطة هي الشائعة في عصر المماليك البحرية. ولم تظهر الرنوك المركبة إلا في عصر المماليك الشراكسة، فبدأت بعلامتين فقط على الرنك أيام السلطان برقوق، وتدرجت إلى أن وصلت إلى سبع علامات على الرنك الواحد في عهد السلطان قايتباي والسلطان قانصوه الغوري

ويوجد نوع آخر من الرنوك خاص بسلاطين المماليك فقط ويسمى في الاصطلاح العرفي - نقلا عن الغربيين - (خرطوشاً).

وهذا النوع على شكل دائرة مقسمة إلى شطب في الوسط وقسمين آخرين أحدهما أعلاه والآخر أسفله ولا توجد عليه علامات كما في الرنوك الأخرى، بل عليه كتابات باسم السلطان، مثال ذلك كتابة باسم السلطان قايتباي (انظر الشكل) تقرأ: على الشطب: عز لمولانا السلطان الملك الأشرف، وفي أعلاه: أبو النصر قايتباي، وفي أسفله: عز نصره. ويرجع أقدم هذه (الخراطيش) إلى أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر الميلادي فظهرت أولاً على الأواني كالمشكاوات الزجاج، وأقدم ما نعرفه منها على المباني خرطوش باسم السلطان الناصر بن محمد قلاون على حائط في حوش بردق بجوار مسجد السلطان حسن

وتوجد بدار الآثار العربية مجموعة قيمة من الرنوك على الأواني والأدوات المختلفة الأشكال والأنواع من الزجاج والخشب والأقمشة والرخام والأحجار والقاشاني والخزف والفخار المطلي والنحاس إلى غير ذلك. وكذلك في المتاحف الأخرى والمجموعات الخاصة، ولكن عدد الرنوك المصحوبة بكتابات تاريخية قليل بالنسبة إلى العدد الهائل الذي وجد منها في حفائر الفسطاط.

محمد مصطفى

أمين مساعد دار الآثار العربية

صفحة لامعة من تراث العرب العلمي

ثابت بن قرة

للأستاذ قدري حافظ طوقان

يدهش المؤرخون من حياة بعض العلماء ومن نتاجهم المليء بالمبتكرات والنظريات والآراء، ويحيط هذه الدهشة إعجاب إذ يرون هؤلاء المنتجين يدرسون العلم للعلم وقد عكفوا عليه رغبة منهم في الاستزادة وفي كشف الحقيقة والوقوف عليها. ومما لا شك فيه أن هذا النفر كان يرى في البحث والاستقصاء والمتابعة لذة هي أسمى أنواع اللذات، ومتاعا للعقل هو أفضل أنواع المتاع، فنتج عن ذلك تقدم في فروع العلوم المختلفة أدى إلى ارتقاء المدنية وازدهارها.

ولقد كان في العرب نفر غير قليل رغبوا في العلم ودرسوه حبا في العلم وعرفوا حقيقة اللذة العقلية فراحوا يطلبونها عن طريق الاستقصاء والبحث والإخلاص للحق والحقيقة والكشف عن القوانين التي تسود الكون والأنظمة التي يسير العالم بموجبها.

ومن هؤلاء ثابت بن قرة فقد كان من الذين تعددت نواحي عبقريتهم، فنبغ في العلم والطب والرياضيات والفلك والفلسفة ووضع في هذه كلها مؤلفات جليلة، ودرس العلم للعلم، وشعر باللذة العقلية فراح يطلبها في الرياضيات والفلك فقط فيها شوطاً بعيداً وأضاف إليها ومهد إلى إيجاد أهم فرع من فروع الرياضيات - التكامل

كان ثابت يكنى بأبي الحسن، ويعجب كثيرون من هذه الكنية لأن (ثابتاً) لم يكن له ولد أسمه حسن، ولكن الثابت أنه كان له ولدان أحدهما اسمه سنان والآخر إبراهيم. وكنية (أبى الحسن) هي لسنان بن ثابت. أما سبب تكنية ثابت بأبي الحسن فلأن الخليفة المعتضد كان يكنيه بها تحببا.

ولد ثابت في حران سنة 221هـ، وتوفى في بغداد سنة 288هـ (وكان في مبدأ أمره صيرفيا بحران ثم انتقل إلى بغداد واشتغل بعلوم الأوائل فمهر فيها وبرع) ويقال إنه حدث بينه وبين أهل مذهبه (الصابئة) أشياء أنكروها عليه في المذهب، فحرم عليه رئيسهم دخول الهيكل، فخرج من حران وذهب إلى كفر توثا حيث اتفق أن التقى

لمحمد بن موسى الخوارزمي ولدى رجوعه من بلاد الروم فأعجب هذا بفصاحة ثابت وذكائه فاستصحبه معه
إلى بغداد ووصله بالخليفة المعتضد فأدخله في جملة المنجمين، ويقول إبن النديم: (. . . قيل قرأ على محمد بن موسى فتعلم في داره فوجب حقه فوصله بالمعتضد وأدخله في جملة المنجمين. . .) وعلى ذكر المعتضد نقول إنه كان يحترم العلماء وأصحاب المواهب والكفاءات ويجلبهم ويغدق عليهم العطايا، فقد روى أنه لما تقلد الخلافة أقطع ثابتا وغيره (الضياع الجليلة)، ومما يدل على تقديره لمواهب ثابت وفضله أنه بينما كان يمشي (ثابت) مع المعتضد في الفردوس وهو بستان في دار الخليفة، وقد اتكأ على يد ثابت إذ نزع الخليفة يده من يد ثابت بشدة (. . . ففزع ثابت فإن الخليفة كان مهيبا جدا، فلما نزع يده من يد ثابت قال له: يا أبا الحسن سهوت ووضعت يدي على يدك واستندت عليها، وليس هكذا يجب أن يكون، فإن العلماء يعلون ولا يعلون. . .)

كان ثابت من ألمع علماء عصره ومن الذين تركوا مآثر جمة في بعض العلوم، وكان يحسن السريانية واليونانية والعبرية جيد النقل إلى العربية، ويعده سارطون من أعظم المترجمين وأعظم من عرف في مدرسة حران في العالم العربي. وقد ترجم كتباً كثيرة من علوم الأقدمين في الرياضيات والمنطق والتنجيم والطب. وثابت أصلح الترجمة العربية لمجسطي بطليموس وجعل متنها سهل التناول. ولبطليموس كتاب آخر اسمه - كتاب جغرافيا في المعمور ووصفة الأرض - نقله ثابت إلى العربية، وأصلح أيضاً كتاب الكرة والأسطوانة لأرشميدس المصري، والمقالة الأولى من كتاب نسبة الجذور. وكذلك أصلح كتاب المعطيات في الهندسة لأقليدس - وقد عربه إسحق وهو خمسة وتسعون شكلا. واختصر المجسطي اختصارا لم يوفق اختصاراً لم يوفق إليه غيره. ويقول ابن الفقطي: (. . . إنه لم يختصر المقالة الثالثة عشرة. . .) وقد قصد من هذا المختصر تعمي المجسطي وتسهيل قراءته. ولا يخفى ما أحدث تعميمه من أثر في نشر المعرفة وترغيب العلماء في الرياضيات والفلك

وفي بداية القرن الثالث للهجرة استعملت الجيوب بدل الأوتار، ومن الصعب تعيين الشخص الذي خطا هذه الخطوة، ولكن ثبت أن ثابتاً هو الذي وضع دعوى (منالاوس) في شكلها الحاضر. وفوق ذلك فقد حل بعض المعادلات التكعيبية بطرق هنسية استعان بها بعض علماء الغرب في بحوثهم الرياضية في القرن السادس عشر للميلاد ككاردان وغير

ذلك من كبار الرياضيين، وقد لا يصدق بعض الذين يعنون بالعلوم الرياضية أن ثابتاً من الذين مهدوا لإيجاد التكامل والتفاضل ولا يخفى ما لهذا العلم من أهمية على الاختراع والاكتشاف فلولا هذا العلم ولولا التسهيلات التي أوجدها في حلول كثير من المسائل العويصة والعمليات الملتوية لما كان في الإمكان الاستفادة من بعض القوانين الطبيعية واستغلالها لخير الإنسان. جاء في كتاب تاريخ الرياضيات للعلامة سمث الأميركي ما يلي: (. . . كما هي العادة في أحوال كهذه يتعسر أن نحدد - بتأكيد - لمن يرجع الفضل في العصور الحديثة في عمل أول شيء جدير بالاعتبار في حساب التكامل والتفاضل، ولكن باستطاعتنا أن نقول إن ستيفن يستحق أن يحل محلاً هاماً من الاعتبار. أما مآثره فتظهر خصوصاً في تناول موضوع إيجاد مركز الثقل لأشكال هندسية مختلفة اهتدى بنورها عدة كتاب أتوا بعده. ويوجد آخرون حتى في القرون المتوسطة قد حلوا مسائل في إيجاد المساحات والحجوم بطرق يتبين منها تأثير نظرية إفناء الفرق اليونانية. وهذه الطرق تنم نوعاً ما على طريقة التكامل المتبعة الآن. من هؤلاء يجدر بنا أن نذكر ثابت بن قرة الذي وجد حجم الجسم المتولد من دوران القطع المكافئ حول محوره. . .)

وأظن إن أساتذة الرياضيات يوافقونني على أن العقل الذي استطاع أن يجد حجم الجسم المتولد من دوران القطع المكافئ حول محوره لهو عقل جبار مبدع، يحق لنا أن نباهي به أمم الاختراع والاكتشاف في هذا العصر، وهو دليل ساطع على خصب العقلية العربية، وعلى أنها منتجة إلى أبعد حدود الإنتاج

ولثابت أرصاد حسان تولاها ببغداد وجمعها في كتاب بين فيه مذاهبه في سنة الشمس، وما أدركه بالرصد في مواضع أوجهها ومقدار سنيها وكمية حركاتها وصورة تعديلها. . .

فقد استخرج حركة الشمس وحسب طول السنة النجمية، فكانت أكثر من الحقيقة بنصف ثانية، وحسب ميل دائرة البروج وقال: بحركتين مستقيمة ومتقهقرة لنقطتي الاعتدال

وهو أيضاً من الذين اشتغلوا في الهندسة التحليلية وقد أجاد فيها إجادة عظيمة وله فيها ابتكارات لم يسبق إليها. وقد وضع كتابا في الجبر بين فيه علاقة الجبر بالهندسة وكيفية الجمع بينهما. وله أيضاً مقالة في الأعداد المتحابة، وهو استنباط عربي يدل على قوة الابتكار التي امتاز بها ثابت. ومن هذه المقالة يتبين أن ثابتاً كان مطلعا على نظرية

في الأعداد، وأنه استطاع أن يجد قاعدة عامة لإيجاد الأعداد المتحابة. وقد (فيثاغورس) أوضحناها في كتابنا (تراث العرب العلمي)، الذي انتهينا منه، ومنعتنا ظروف الحرب من طبعه في هذه الأوقات

وثابت أول شرقي بعد الصينين بحث في المربعات السحرية وخصائصها؛ ويقال إنه قسم الزاوية إلى ثلاثة أقسام متساوية بطريقة تغاير الطرق التي كانت معروفة عند اليونان

واشتهر ثابت بالطب وبمؤلفاته القيمة فيه، ولم يكن في زمنه من يماثله في هذه الصناعة. ولا أظن أني بحاجة إلى القول أني لست من فرسان هذا الميدان، لذا أترك البحث في مآثره الطبية إلى من يعنون بناحية الطب عند العرب، ولكن لا بأس من إيراد هذه القصة الآتية التي تدل على ثاقب نظر ثابت وسرعة خاطره وحدة ذكائه. جاء في كتاب (أخبار العلماء بأخبار الحكماء) ما يلي: (. . . وحكى أبو الحسن بن سنان قال: يحكى أحد أجدادي عن جدنا ثابت أنه أجتاز يوما ماضيا إلى دار الخلافة. فسمع صياحا وعويلا؛ فقال: مات القصاب الذي كان في هذا الدكان؟ فقالوا له: إي والله يا سيدنا البارجة فجأة؛ فقال: ما مات، خذوا بنا إليه. فعدل الناس معه وحملوه إلى دار القصاب، فتقدم إلى النساء بالإمساك عن اللطم والصياح، وأمرهن بأن يعملن مزورة (وهي أكلة معروفة في ذلك العصر)؛ وأومأ إلى بعض غلمانه بأن يضرب القصاب على كعبه، وجعل يده في يده في مجسه، وما زال ذلك يضرب كعبه إلى أن قال: حسبك. واستدعى قدحا وأخرج دواء ووضعه في القدح مع قليل من الماء، وفتح فم القصاب وسقاه إياه فأساغه، ووقعت الصيحة والزعقة في الدار والشارع بأن الطبيب قد أحيا الميت، فتقدم ثابت يغلق الباب، وفتح القصاب عينه وأطعمه (مزورة) وأجلسه وقعد عنده ساعة؛ فإذا بأصحاب الخليفة قد جاءوه يدعونه فخرج معهم والدنيا قد انقلبت، والعامة حوله يتعادون إلى أن دخل دار الخلافة. ولما مثل بين يدي الخليفة قال له: يا ثابت، ما هذه المسيحية التي بلغتنا عنك؟ قال: يا مولاي كنت أجتاز على هذا القصاب وألحظه يشرح الكبد ويطرح عليها الملح ويأكلها، فكنت أستقذر فعله أولا، ثم قدرت أن سكتة قلبية ستلحقه، فصرت أراقبه، وإذ علمت عاقبته انصرفت وركبت للسكتة دواء أستصحبه معي كل يوم. . . فلما اجتزت اليوم الدار وسمعت الصياح قلت: مات القصاب؟ قالوا: نعم مات فجأة البارحة. فعلمت أن السكتة قد لحقته، فدخلت إليه ولم أجد له نبضاً،

فضربت كعبه إلى أن عادت حركة نبضه، وسقيته الدواء ففتح عينه وأطعمته (مزورة) والليلة يأكل رغيفا، وفي غد يخرج من بيته. . .)

والآن نأتي إلى مؤلفات ثابت فنقول إن المجال لا يتسع لذكر كل مؤلفاته لكثرتها. ويمكن لمن يرغب في الاطلاع عليها أن يرجع إلى كتاب طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة حيث يتجلى له فضل ثابت على العلم وأثره الكبير في تقدمه. لقد ألف كتبا عديدة ورسائل كثيرة في الطب والرياضيات والفلك نأتي على بعضها:

كتاب في العمل بالكرة، كتاب في قطع الاسطوانة، كتاب في الشكل الملقب بالقطاع. كتاب في المخروط المكافئ. كتاب في مساحة الأشكال وسائر البسط والأشكال المجسمة. كتاب في قطوع الاسطوانة وبسيطها. كتاب في أن الخطين المستقيمين إذا خرجا على أقل من زاويتين قائمتين التقيا في جهة خروجهما. كتاب في المسائل الهندسية. كتاب في المربع وقطره. كتاب في الأعداد المتحابة. كتاب في إبطاء الحركة في فلك البروج. كتاب في أشكال إقليدس. كتاب في النسبة المؤلفة. مقالة في حساب خسوف القمر والشمس. كتاب في صفة استواء الوزن واختلافه وشرائط ذلك.

كتاب في مساحة الأشكال المتكافئة. كتاب في عمل شكل مجسم ذي أربع وعشرين قاعدة تحيط به كرة معلومة. كتاب في إيضاح الوجه الذي ذكر بطليموس به استخراج من تقدمه مسيرات القمر وهي المستوية. كتاب في الهيئة. كتاب في تركيب الأخلاق.
كتاب في تصحيح مسائل الجبر بالبراهين الهندسية. رسالة في عدد الوفق. كتاب الفروضات، وهو ستة وثلاثون شكلا. . . وترجم ثابت أيضاً بعضا من كتاب المخروطات في أحوال الخطوط المنحنية. ويقول صاحب كشف الظنون: (وهو (أي الكتاب المذكور) سبع مقالات لأبولونيوس النجار الحكيم الرياضي؛ ولما أخرجت الكتب من الروم إلى المأمون أخرج منه الجزء الأول فوجده يشتمل على سبع مقالات. ولما ترجم دلت مقدمته على أنه ثماني مقالات، وأن الثامنة تشتمل على معاني المقالات السبع وزيادة، واشترط فيها شرطا مفيدة، فمن عصره إلى يومنا هذا يبحث أهل الفن عن هذه المقالة فلا يطلعون لها على خبر. لأنها كانت في ذخائر المأمون لعزتها عند ملوك يونان. وقال أبو موسى شاكر: الموجود من هذا الكتاب سبع مقالات وبعض الثامنة وهو أربعة أشكال، وترجم الأربع الأول منه أحمد بن موسى الحمصي، والثلاث الأواخر ثابت بن قرة. . .) -
كتاب المختصر في علم الهندسة. ولمنالاوس كتاب في أصول الهندسة عمله ثابت في ثلاث مقالات. كتاب في أشكال طرق الخطوط التي يمر عليها ظل المقياس. . . الخ
ولثابت عدا هذه كتب أخرى في الطب منها: كتاب في مسائلة الطبيب العليل. كتاب في صفة كون الجنين. كتاب في المولودين لسبعة أشهر. كتاب في أوجاع الكلى والمثاني. كتاب في أجناس ما توزن به الأدوية
أما مؤلفاته في الموضوعات الأخرى فهي كثيرة منها: كتاب في حل رموز كتاب السياسة لأفلاطون - مختصر في الأصول من علم الأخلاق - رسالة في اعتقاد الصابئين - رسالة في الطهارة والنجاسة - رسالة في الرسوم والفروض والعبادات - رسالة في ترتيب القراءة في الصلوات، وصلوات الابتهال إلى الله عز وجل كتاب في الموسيقى ويشتمل على خمسة عشر فصلاً
ومن المؤسف حقا إلا يصادف المرء إلا القليل من هذه الآثار التي تركها ثابت إذ القسم الأعظم منها ضاع في أثناء الحروب والانقلابات، ومنها ما هو غاية في الخطورة من الوجهتين الرياضية والطبية ولو عثرنا على بعض كتبه لانجلت النقط الغامضة في تاريخ الرياضيات فلقد ظهر من رسالة في النسبة المؤلفة أنه استعمل (الجيب) وأيضاً الخاصة الموجودة في المثلثات والمسماة (شكل المغنى) أو دعوى الجيوب، وكذلك لولا بعض القطع التي وصلت إلينا من كتاب له في الجبر لما عرفنا أنه بحث في المعادلات التكعيبية
هذا مجمل عن مآثر ثابت في الفلك والرياضيات يتبين منها الأثر الكبير الذي خلفه في ميدان العلم كما تتجلى العبقرية المنتجة التي تقدمت بكثير من العلوم خطوات واسعة، وقد اعترف معاصروه وبفضله وقدروا نبوغه ونتاجه فسجل بعضهم ذلك في قصائد رائعة قيلت في رثائه
جاء في قصيدة أبى أحمد يحيى بن علي بن يحيى المنجم النديم ما يلي:
ألا كل شيء ما خلا الله مائت ... ومن يغترب يُؤمل ومن مات فائت
أرى من مضى عنا وخيم عندنا ... كسَفر ثوى أرضاً فسارٍ وبائت
نعينا العلوم الفلسفيات كلها ... خبا نورها إذ قيل قد مات ثابت
وأصبح أهلوها حيارى لفقده ... وزال به ركن من العلم ثابت
ولما أتاه الموت لم يغنه طبه ... ولا ناطق مما حواه وصامت
فلو أنه يسطاع للموت مدفع لدافعه عنا حماة مصالت
ثفات من الأخوان يصفون وده ... وليس بما يقضي به الله لافت
أبا حسن لا تبعدون وكلنا ... لهلكك مفجوع له الحزن كابت
إلى أن يقول:
وكم من محب قد أفدت وإنه ... لغيرك ممن رام شأوك هافت
عجبت لأرض غيبتك ولم يكن ... ليثبت فيها ملك الدهر ثابت
تهذبت حى لم يكن لك مبغض ... ولا لك لما اغتالك الموت شامت
وبرزت حتى لم يكن لط دافع ... عن الفضل إلاّ كاذب القول باهت

مضى على العلم الذي كان مقنعاً ... فلم يبق إلّا مخطئ متهافت
ولقد توارث آل قرة العلم عن ثابت، فكان منهم ابنه أبو سعيد ابن سنان، وكان منهم أحفاده: إبراهيم ثابت وأبو الحسن ثابت وإسحق أبو الفرج. وهؤلاء نبغوا في الرياضيات والفلك والطب فقد كان منهم الطبيب والعالم والفيلسوف والمهندس، فأبو الحسن ابن سنان بن ثابت مثلا كان طبيبا عالما نبيلا قرأ كتب أبقراط وجالينوس، وكان فكاكا للمعاني، سلك مسلك جده في الطب والفلسفة والهندسة وجمع الصناعات الرياضية للقدماء وله تصنيف في التاريخ

(نابلس)

قدري حافظ طوقان

هو النبي المنتظر

مسرحية شعرية

للأستاذ محمد عبد الغني حسن

تقدمة

أبطال هذه المسرحية جماعة من شعراء العصر الجاهلي، هم: زهير بن أبي سلمى، وحسان بن ثابت، وأعشى قيس، وقس بن ساعدة. قد جعلناهم في المسرحية يلتقون ويتحادثون؛ وقد لا يكونون من الناحية التاريخية الزمنية التقوا، أو جمعتهم دار واحدة، أو ضمهم مجلس يدور فيه الكلام، أو تقع فيه الأحاديث

وأولهم (زهير) مات قبل البعثة، وثانيهم (حسان) عاش في الجاهلية وعمر في الإسلام، وثالثهم أعد للنبي قصيدة يمدحه بها ويعرض إسلامه، إلا أن الله لم يشرح صدره ولم يوفق له، ورابعهم عاش في الجاهلية

ولقد حاولت أن أعرض هنا ألوانا من تفكير كل واحد منهم، وطرفا من معيشته يبدو من خلال حديثه، كما تدلنا على ذلك كتب التاريخ والأدب.

(فزهير) حكيم مفكر يؤمن بالبعث والحساب، ويعتقد بالثواب والعقاب، وقيس يشعر ويخطب، وينظر في الكون وما فيه من ليل داج، وسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج فيؤمن بأن له موجدا أوجده، ومنشئا دبره، و (حسان) يحس في قرارة نفسه بأنه سيكون له في الغد شأن، وأن الأقدار تعده ليكون لسانا صارما، ويكاد يلمح من خلال الغيب ومن وراءه السحب مكانه في الإسلام وشهادة النبي له بالجنة أما (الأعشى) فهو عابث خليع. . . يلهو ويلعب، ويشرب ويطرب، ويرى الحياة لذة ومتاعا

المشهد

يجلس هؤلاء الشعراء الأربعة في ناحية من نواحي مكة، بعد أن جمعهم موسم الحج، وعلى (زهير) وقار وهدوء، وهو مطرق إلى الأرض، بينما يرفع (قس) بصره، ويقلب وجهه في السماء، و (الأعشى) يبدو في المجلس وقد عاودته خفة الطرب، وظهرت عليه مسحة من

روح عابثة ماجنة، وبجانبه (حسان) تتحرك شفتاه ويكاد يبدو من بينهما لسانه كأنه يريد أن يقول شيئا. . . ثم يبدأ الحوار هكذا:

الأعشى:

حَلَفْتُ بها وبأَرْبابها ... وَبالنَّعَمِ الْحُمْرِ في بابها
وبالمْعَبِد الطَّهْرِ في أرضها ... وباركْنِ منها وَمحرَابها
وَكُومِ المطَايا وقد أقبلتْ ... تُساقُ إلى يَدِ حُجَّابها
لأتّخذَنَّ بها طَوْقَتي ... وَأَقِضي الحقوقَ لأصحابها
وَأَرْجعُ بْعدُ إلى دارتي ... وفي النَّفْس من حُبَّهَا ما بها
فأَنْشقُ من طِيب رِيْحَانهَا ... وَأَشربُ من خَمْرِ أَعْنَابها
وَألوي بهَا غُصْنَ فتَّانةٍ ... يُلَفُّ الشبابُ بأثوابها
فأُسمِعها الشِّعْر مُسْتعَذَبا ... وَتُسْمِعني لحْن أقصابها

زهير:

ظننتَ حياةَ المرءِ يا شيخُ غادةً ... تُلَفُّ وأكواباً تُراقُ وتُسْكَبُ
دَع القَصَبات اليومَ واسمع لحكمةٍ ... يؤلفِّها شِعْراً حكيم مجرِّب
أَمَالك في الشِّعر المهذّبِ غايةٌ ... ومالك في صدق التجارب مَطلَب

وَحَتَّامَ تلهو والزمانُ كما ترى ... يجيءُ بأَحْداث جسام ويذهب
عجبتُ لمن يَقضِي الحياةَ مُلاعباً ... وأيامُهُ من جِدهَّا ليس تلعب!
الأعشى
ما العيشُ إلاّ صَباباتٌ موزْعَةٌ ... وَمُتعةٌ وَلذَاذاتٌ وأوْطَارُ
كم مجلسٍ كان لي فيه مُعَابَثَةٌ ... وأرْبُعٌ كان لي فيها أسمَارُ
تَظَلُّ فيها العَذارَى يَرْتمين على ... بُسْطٍ وشَاهدُنَا جلُّ وأزهارُ
وكم وقفتُ عَلَى الأطلالِ أسألهُا
قس: وهل تجيبُك في الأطلال أَحْجَارُ؟
الأعشى:
بالله هلْ نَفَعْتكَ اليومَ فلسفةٌ ... وحكمةٌ نَظَمَتْها منك أشعارُ؟
وهلْ تجاريُبك الغرّاءُ نَافعةٌ ... إذا نأتْ بكَ بعد الموْتَةِ الدارُ
وهل أَتَتْنَا من الماضين تَذْكِرةٌ ... أو طالعَتْنَا من الفِانين أخبارُ
قيس:
عَجِبْتُ لأَعشى قَيْس وَهَو يداورُ ... ويُمْعنُ في أهوائه ويُكابر
فما صَرَفَتْهُ عن هَواهُ شريعةٌ ... ولا ردَّه عن لهوهِ اليومَ زاجرُ
تجَاذِبُه تلكَ القِيانُ فؤادَهُ ... وَتَفْتِنَهُ تِلك المها وَالجآذِر
فهلْ فَتنَتْهُ في السماء نجومُها ... وَهُنَّ بآفاق السماءِ زَوَاهر؟
وهل ليلُها الداجي يُفتِّقُ ذِهنَه ... وهل صُبحُها اللمَّاحُ والضوء باهر
وهل فَتَنتْه الريحُ والريحَ عاصِفُ ... وَأَثَّر فيه البحرُ والبحر هادِر
بَدائِعُ شادَتها يَدُ القادرِ الذي ... تَدين لهُ الدنيا وَتَعْنو الجبابر.
هُوَ الموتُ ما في الموتِ شكٌّ على امرئ ... وللهِ منْ بعد الحياةِ المصائرُ
وَما نحن إِلا الواردون على الوَّرى ... وَلَوْ كَثُرَتْ بالواردين المصادِر
زهير:
يا قُسُّ إنك قد رُزقتَ لقانةً ... ووُهِبْتَ من فَصْل الخطاب نصيبَا
وأرى عليك من الحكيم مَلاحظاً ... تَرْمى الغُيوبَ فلا يَعُدْنَ غيوبا
عَينُ البصيرة فيك وَهْيَ قويةٌ ... نَظَرَتْ تَرُودُ العَالَمَ المحجوبا
أنّا ما عرفتُك قبلَ ذلك شاعرا ... لكِن عرفتُك في النَّدِيِّ خطيبا
سبحان من لَقَّاكَ من آياته ... وَحَباك من صدق اليقين صُروبا
قيس:
إني وجدتُ في السماءِ خبرَا ... كما وجدتُ في دُجاها عِبَرا
أَمْعَنْتُ فيهَا وأَطَلْتُ النَّظرا ... وَرُحْتَ أطوي في مَدَاها الفِكَرا
أَسْتَقرِئُ الشمس بها والقَمرا ... وأَقْطَعُ الفِكْرَ إليها سَفَرا
كأَنَّ لي عِنْد السماء وَطَرا ... فألْهمْني من ذَراها سُوَرَا
رَأَيْتُ فيها الخالِقَ المصوَّرا ... وقدِ تجلَّى وجهُهُ وأَسْفَرا
يَا لَيْتَ مَنْ أضاَء لي ونوَّرا ... أضاَء للأعشى الظلامَ الأكدرا
وفي هذه اللحظة تمر على الشعراء الأربعة فتاة في برد يماني مخطط. وقد اعتدل قوامها واسرعت خطواتها. . . فتغض عنها عيون ثلاثة من الشعراء. . . أما الأعشى فيتابعها بنظراته الطامعة المتلهفة. . . ولا ينصرف عن النظر اليها حتى تواريها بعض الجدران فيوجه الكلام إلى (قيس):
الأعشى:
يَا نَاظِراً في السماء اليومَ نَظرَته ... هلاّ أطلت لتلكَ الْقَيْنَةِ النَّظَرا
مَرَّتْ بنا كَوميض البرقِ مُعْجلةً ... كأنها الحُلْمُ بعد النَّوْم قد عَبَرا
تفوح أرْدانُها مِسكاً وأَصْوِرَةً ... وَينفَح الْغُصْنُ منها زَنبقاً عَطِرا
ما البدرُ أَجْمَل إشراقاً ولألأةً ... منها إذا مَا بدا في الأُفْقِ أو ظهرا
انظرْ إلى الشمس في أحضانِ غانيةٍ ... وَنَاج بين ذِراعيْ حِبِّكَ القمرا
لا تقطع الْعُمْر تفكيراً وفلسفةً ... تجني بها الشّوكَ لا تجني بها الزهَرَا
زهير:
صاحبُنا الأعشْى نَطَقْ ... بِسِقْهِ وما صَدَقْ
ما الشِّعرُ يا أَعْشى جنُوُ ... نٌ ومُجُونٌ يُسْتَبَقْ

الشعرُ حِكمة تُصا ... دُ من جوانب الأُفُقْ
في الأرضِ! في السماء! في ... ضَوْءِ الصَّباحِ! في الْغَسَقْ
حسان:
صَدَقتَ يا زُهَيرُ فالشِّ ... عْرُ هِدَايَةُ الْبَشَرْ
مَنْ لِي بميْدانٍ أَصُو ... لُ وأَجولُ بالْغُرَرْ
أَنُشرُ عَضْباً قاطِعاً ... كَأَنْهُ وَخْزُ الإبَرْ. . .
وهنا يمسك حسان لسانه ويضرب به أرنبة أنفه في زهو وخيلاء. . . من زهو الجاهلية!
ثم يتابع قائلا:
لسانُ حَسَّانَ الذي ... يَفْرى به صَلْدَ الحجَرْ
يَقذفُ بالحقِّ عَلَى ... باطل مَهْزومَ الزُّمَرْ
إنيّ أحس أنَّ لِي ... غداً مِكاناً يُدَّخَرْ
وأنني يَكونُ لِي ... فيه المقَامُ والخَطَرْ!
الأعشى:
لعلّها أضغّاثُ أَحْلاَ ... مٍ فَدَعْ عنك الهذَرْ
فأيّ شأنٍ تَرْتجي؟ ... وأيُّ أمْرٍ تَنْتَظِرْ؟
حسان:
لعَلَّ هَادياً بدَا ... لعلَّ مُصْلحاً ظهرْ
فَفي بطاحِ مِكةٍ ... شواهدٌ مِن الخَبرْ
زهير:
حَسَّانُ! أنتَ مُلهمٌ ... وأنتَ صَادِقُ النَّظِرْ
بَشَّرَ عيسى بِنَبِيٍّ ... مَنْ عَصَاه قد كَفَرْ
يَا ليتني يَطُولُ بي ... إلى لِقائهِ العُمُرْ!
حسان:
إني أُحِسُّ أنني ... مُدْرِكهُ على الكِبَرْ
إِنَّ دَليلي صادقٌ ... ما خانني ولا غَدَرْ
زهير:
والحكماءُ عِنْدَهم ... على ظهوره أَثَرْ
تَرَامَتِ البُشرَى به ... عند النَّصارَى في السُّوَرْ
حسان:
هُوَ الرَّسولُ المرْتَجَى ... هُوَ النَّبيُّ المُنْتَظَرْ
وهنا يخفض قس طرفه من السماء قائلا:
هو النبي المنتظر. . .
محمد عبد الغني حسن
يبغي رباً
للأديب لبيب السعيد
كان كغيره في القبيل يعكف على (نهم): يرجو رحمته ويخشى عذابه، ويتقرب إليه زلفى. . . وكان على سنة آله يسعى إلى معبوده بالقربان ويؤدي إليه بعض حقه، يدرأ بها غضبه، ويبتغي بها مرضاته!
كان في هذا على آثار آبائه مقتديا، ولكن شيئا من القلق كان يغمز على قلبه، ولكن جمرات من الشك كانت تلسع ضميره، ولكن أقباساً كانت تبدو لعقله حيناً بعد حين فتشعره أنه يخبط في ظلمات. . .
أهو الهدى يبدو له، أم هو الضلال توسوس به نفسه؟
وصبر أو تصبر. . .
وأتى يوماً إلى (نهم) يصب له لبناً، وإن فيه لإيماناً يمتزج بالشك، ونوراً وظلمة يتصارعان. . . على أنه قدم قربته المتواضعة خاشعاً، ثم أنصرف. . .
كانت نفسه تبتغي طمأنينة وهداية، فإما أن تعالج إيمانها بنهم، وإما أن تطرح هذا الإيمان طرحاً، لتؤمن إيماناً حقاً بإله لا ترتاب في أنه حق. . .
وحانت منه التفاتة عارضة لمعبوده، فما كان أبلغ دهشه! لقد رأى - ويا عجباً - كلباً يشرب اللبن المقدس، والمعبود مغلوب على أمره: أصم. . . أبكم. . . أعمى. . .

وتريث قليلا. . . فرأى الكلب وقد فرغ من اختلاس قربة المعبود العاجز يرفع رجله فيبول عليه!
أذلك مبلغ (نهم) من الحول والقدرة والعز؟ أهذه جلالته وذاك سلطانه:
ألا يا نهم إني قد بدا لي ... مدى شرف ببعد منك قربا
رأيت الكلب سامك حظ عسف ... فلم يمنع قفاك اليوم كلبنا
لقد تمرد فؤاده على الأيمان بالتمثال المهين، وقد بدا له ما كان يخوض هو وقومه من ضلال. . .
وسمعته أمه يسخر بإلهها وإله ذويها فهالها الأمر وأقبلت عليه غضبى تنبهه إلى فداحة جرمه وضلالة حكمه وهول زعمه مشفقة عليه من عذاب (نهم)!
بيد أن إنكارها ما لبث أن استحال إقراراً، وإخلاصها لنهم ما لبث أن عاد ازوراراً، ذلك أنها سمعت حكاية الإله التعس، والحق أبلج لا يستعصي على البصائر إدراكه، مادام القلب سليما والنية الخالصة
وأنشأت تقول:
فديتك فابغنا ربَّاً كريما ... جواداً في الفضائل يا بن وهب
فما من سامه كلب حقير ... فلم تمنع يداه لنا بربَّ
فما عبد الحجارة غير غاو ... ركيك العقل ليس بأهل لبَ
وظل النجل المشوق إلى الحق يتحرى ما تريد الأم المشوقة إلى الحق. . . يتحرى ربا كريما جواداً في الفضائل. . .
وصرم نهماً، ولبث يصلي حيث يستريح جنانه، وحيث توجهه القوة العظيمة التي بيدها مقاليد كل شيء. . .
الكون يريد الله به الخير والرحمة؛ والقلوب التي عذبها القلق وأضنتها الحيرة يريد الله لها السكينة والاستقرار والمعرفة، والدجنة الغالبة يريدها الله على أن تنقشع، والنور الذي أكن الله للمهديين من عباده آن انبثاقه. . . فالإنسان الكريم الذي اصطفاه الله لهذا وبلغ أبا ذر مبعث محمد صلى الله عليه وسلم، فخفقت الأماني في صدره، وود لو صح الأمل، وقال لأخيه: (اركب إلى هذا الوادي، فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء، واسمع من قوله، ثم ائتني.)
وتلبث أبو ذر يرقب أخيه بصبر فارغ، وعاد أخوه يقول: (رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، ويقول كلاماً ما هو بالشعر)
لم يبل هذا القول من أبي ذر أُواما، فهم يتزود لرحلة يقوم بها هو نفسه، وحمل شنة له فيها ماء، حتى قدم مكة بلد الرجل الذي يأمر بمكارم الأخلاق، ويقول كلاماً تذهب فيه العقول مذاهب. . . وأتى المسجد يلتمس هذا الرجل، ولكنه لم يكن يعرفه، وقد كره أن يسأل عنه. . .
وفي اليوم الثالث لمقدمه أقبل عليه علي بن أبي طالب، وقد أدرك أنه غريب، فقال: (ألا تحدثني ما الذي أقدمك؟) قال أبو ذر: (إن أعطيتني عهداً وميثاقاً لترشدنني فعلت) فلما أخذ
موثقه، أخبره بطلبته
إذن لقد هدى الجد الموفق أبا ذر إلى أحد أصفياء الرسول السابقين إلى الانتهال من معينه، الراغبين في نشر دينه
ولكن الظلم يومئذ كان للمؤمنين بالمرصاد، وكانت متابعة محمد يومئذ تكلف فاعلها ما لا صبر معه إلا أن تكون الحسنى قد سبقت له من الله هذا، وقد كان من دون لقاء الرسول أذى كثير
على أن عليا ذلل الصعب، فبلغ القريب غايته، وحظي بلقاء الرسول، وسمع الحكمة منه وفصل الخطاب
ووضحت المحجة لأبى ذر، واستضاء الحق أمامه، كأنه النهار إذا تجلى، وعرف الرب الذي طالما حن إلى معرفته. . . فأسلم مكانه ليكون من السعداء بالكرامة قبل أن تكون كرامة، وبالهداية قبل أن تكون هداية، وليكون من المؤمنين القليل قبل أن يكون مؤمنون كثير!
وقال له الرسول رءوفا به رحيما: (ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري) ولكن أبا ذر كان من إيمانه كالنهر الطافح الفياض لا بد أن يهدر بما فيه ويتدفق على ما

يلاقيه، فهو يجيب الرسول في لغة الواثق بربه، المعتز بعقيدته، المتفاني في حبها والدعوة إليها (والذي نفسي بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم)
ألا فليصرخ أبو ذر بها، فما أعذب وما أحلى!! وما الظلم، وما البطش، وما الناس، وما الدنيا تلقاء إيمان أقمر في الصدر فأضاء جنباته؟ ما الآلام توجع الضعيف، وما الإهانة تلحق الأبي، وما الموت نفسه يلحق بالحي ما دام يحرز إيماناً بنيله رضوان الله وإعزازه، وبنيله الآخرة التي هي الحيوان؟!
أتحسبها كلمة كان أبو ذر قائلها طواعية لعاطفة ملتهبة تنثني بعد حين هامدة؟ كلا! لقد خرج حتى أتى المسجد - وأهل المسجد يومئذ هم ما هم كراهية مجنونة لمحمد وأتباعه، ورغبة متسعرة في حسم شأفتهم جميعا - خرج حتى أتاهم فصاح بها ما وسعه الصياح، صاح بالشهادة: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله!
وكان ما كان مرتقبا. كان أن ضربوه حتى أضجعوه، ولم ينقذه منهم إلا العباس الذي أكب
عليه منذراً إياهم انتقام غفار الضاربة في طريق تجارتهم إلى الشام
ولكن أتحسب ثانية أن ذلك كان ليصد أبا ذر عن العودة إلى الجهر بشعار الإسلام الذي تشربه قلبه؟ أتحسب خشية العدو المتجبر دلفت إلى قلبه الكبير فمنعته الهتاف بكلمة الأيمان؟ أتحسب ضعفه وكونه وقتئذ خامس خمسة هم كل مسلمي الأرض. . .
أتحسب ذاك ليوهن منه ويقهره على كتمان قولة الحق؟ هيهات! فلقد عاد من الغد لمثل ما كان أمس، وقد عادوا فضربوه، وثاروا إليه، لولا أن عاد العباس فأكب عليه. . .
وقدم أبو ذر على أخيه فأخبره بإسلامه فأسلم؛ وانطلقا إلى أمهما وقد وجدا مبتغاها. . . وجدا (الرب الكريم الجواد في الفضائل)، فلم يكن إلا أن تؤمن! ودخلت بعدهم (غفار) جلها في دين الله، فكانت من كتائبه المجاهدة، وكانت أهلاً لقول الرسول الكريم فيها: (غفار غفر الله لها!)
(المنصورة)
لبيب السعيد
العدد 401 - بتاريخ: 10 - 03 - 1941
الفكر و (السلطة)
للأستاذ عباس محمود العقاد
جاءتني هذه الرسالة من الأديب صاحب الإمضاء أجتزئ منها بما يأتي للتعقيب عليه.
قال حضرته:
(. . . ما قصدت بهذه الرسالة إلا إلى استجلاء نقطة دقيقة في حياة الإنسان المفكر. وهي الصلة في شخص الكاتب بين العقل الكبير مصدر الآراء النافعة التي يرسمها القلم البليغ وبين الطموح إلى السلطة التي هي وسيلة تنفيذ تلك الآراء الداعية إلى الهداية والإصلاح. ولا أعرف مدى طموحك وما تريد. غير أني أعلم أنك تحمل عقلاً كبيراً وشخصية قوية، ومن اجتمعت له الشخصية المؤثرة والعقل النفاذ، لابد أن يكون عنصر حب السلطة والقيادة من أقوى عناصر طبعه. . . لقد جاهدت كثيراً في ميدان الصحافة والأدب، ثم بلغت مرتبة نائب، فهل هذا منتهى جهدك؟ يبدو لي أنك تبلورت في مركزك الأخير!
(قد تقول إنك لم تسع إلى منصب القيادة الإدارية مكتفياً بالقيادة الفكرية والأدبية، وقد تقول إن الرجل ذا الفكر الحر لا يمكن أن يطمع في السيطرة والسيادة؛ ولكن هذه بالذات هي النقطة التي أريد أن أبحثها معك. فهل يستطيع الكاتب النابغة أن يعمل كما يكتب، أم إن مهنة الكتابة والأدب تقتل فيه القدرة على العمل والتنفيذ؟ يبدو لي أن الكتابة تقضي تدريجياً على قوة البناء والتنفيذ في نفس الرجل، وتنمي بدلاً منها قوة سلبية - إن جاز التعبير - حتى إذا اختمر في رأسه مشروع أو فكرة عجز عن إبرازه إلا على الورق. وقد يعزي الكاتب نفسه بأنه يعمل عملاً إيجابياً من حيث تنوير عقول الغير، ولكن هذه غير العمل المباشر الذي يسعد المرء به عند تطبيق فكرة أو تنفيذ مشروع
(وقد كان ديزرائيلي كما تعلم أديباً وكاتباً، وكان يقرض الشعر قبل أن يخوض ميدان السياسة؛ ولكنه كان يقول: إن الشعر هو صمام الأمان لنفسي، غير أني أريد أن أفعل ما أقول. وكان ديزرائيلي من أقدر وأبرع رجال الحكم الذين عرفتهم إنجلترا في

تاريخها الطويل
إني أعتقد أن مصر بحاجة إلى رئيس حكومة من هذا النوع الرجال من الأدباء بطبعهم) ذوي العقول النابغة. فما رأيك؟ أرجو أن أسمع رأيك، ولو كبدك ذلك كتابة رسالة إليَّ، أو
. . .مقال (للرسالة) فإني من قرائها المدمنين، ولك مني ألف تحية
(الإسكندرية)
المخلص
الياس إبراهيم بدوي
والمسوغ الوحيد عندي للتعقيب على هذه الرسالة هو أن أتخذ منها موضوعاً لدراسة نفسية، وإن تناول هذا الموضوع شخصي فيما يتناوله من أطرافه وشعابه
فمكان الخطأ في رأي الكاتب - على ما أرى هو اعتقاده أن (السلطة) نهاية كل قدرة، وأن السلطة والقدرة شيئان من معدن واحد، أو شيئان لا ينفصلان
ولبيان هذا الخطأ نسأل: لماذا يطلب الإنسان السلطة؟ وجواب هذا السؤال أنه يطلب السلطة لسبب من هذه الأسباب الأربعة: أولها أن تسخير الناس طبيعة فيه كالطبيعة التي تشاهد في رأس القطيع بين الحيوانات الاجتماعية، وفي هذه الحالة تكون السلطة عنده بمثابة الوظيفة الحيوية أو التركيب البدني الذي لا علاقة له بقوى الفكر والروح. إنسان يسود لأنه لابد أن يسود، كالقوة المادية الدافعة التي لابد أن تدفع غيرها، فلا شأن لها بالتفكير ولا بالضمير
وثاني هذه الأسباب أن الإنسان يطلب السلطة ليشعر بالامتياز، وفي هذه الحالة يكون هذا الإنسان ناقصاً بين النقص إن لم يشعر بالامتياز من غير سلطة، ويكون ناقصاً بيّن النقص إن كان سبيله الوحيد إلى الشعور بامتيازه أن يرى إنساناً يقصده في حاجة، ويرى إنساناً آخر يقف مكتوفاً بين يديه، ويرى إنساناً ثالثاً يطيعه وإنساناً رابعاً يخشاه. فإن امتياز الفكر والروح يتحقق لصاحبه ولو ير بعينيه مظهراً من هذه المظاهر، كما أن هذه المظاهر تسقط عن صاحبها متى زالت عنه السلطة وزال عنه الأمل في العودة إليها، فلا يقصده بالحاجة من كان يقصده بها، ولا يقف مكتوفاً بين يديه من كان يقف بين يديه هذه الوقفة، ولا يطيعه أو يخشاه من كان يريه الطاعة والخشية، ولا يحس يومئذ شيئاً من الامتياز الذي أضافته السلطة إليه ثم زال عنه بزواله
أما صاحب الامتياز الحق فهو يشعر به ولو لم يشعر به غيره، كصاحب الجسم القوي يأكل
أكل ذوي المعدات القوية ويعدو عدو أصحاب السيقان القوية، ويقاوم عوارض الجو كما يقاومها أصحاب البنية القوية، ولو لم يعلم أحد أنه بهذه المنزلة من قوة البدن. بل إنه ليأكل ذلك الأكل ويعدو ذلك العدو ويقاوم تلك المقاومة ولو اعتقد أناس أنه ضعيف ممعود
وإن صاحب الامتياز الحق ليشعر بامتيازه ويزداد شعوراً به حين ينظر إلى الممتازين الذين يقوم امتيازهم على مظاهر الخشية والرجاء والركوع والانحناء، فلا يحب أن يبادلهم ما هم فيه، ولا يهون عليه أن يفقد من حريته ورقته ومتعة عقله ما يفقده هؤلاء للوصول إلى (السلطة) التي تناط بها تلك المظاهر
أيظن الأديب كاتب الرسالة أن الدينار الذهب يتضاءل بين يدي الورقة الزائفة ذات العشرة الدنانير؟ أيظن أن رواج هذه الورقة التي لا تساوي نصف درهم يغض من قدر المعدن الأصيل الذي لا زيف فيه؟ إن الطريق السهل لأحرى بالاتباع، وأسهل الطريقين هنا هو احتقار الذين تروج بينهم الورقة الزائفة ويعمون عن الذهب الصحيح. فذلك أسهل من الإعجاب بالورقة الزائفة، ومن مجاراة الغافلين في غفلتهم والجاهلين في جهالتهم، ومن نسيان القيم الصحيحة ذهاباً مع قيم الطلاء الذي يتراءى على وجوه الأشياء، ومن فقدان الوقت والأمانة والمتعة الفكرية والنفسية التي لابد من فقدها في كل سعي إلى لبانة من هذا القبيل
والسبب الثالث الذي يحفز الإنسان إلى طلب السلطة هو اتقاء شرور السلطة والأمان من سيطرة الغالبين، فهو يتقلد سلاحهم ليدفعهم به لا لأنه يحب ذلك السلاح وينزع إلى الضرب به لغير اضطرار
والسبب الرابع الذي تطلب السلطة من أجله هو الانقلاب الاجتماعي الذي لا يتم بغير

قوة مشروعة أو غير مشروعة؛ فيطلبها صاحب المذهب الاجتماعي ليستخدم سلطان الحكومة في إصلاح ما يحتاج عنده إلى الإصلاح
تلك هي الأسباب الأربعة التي تغري المرء بطلب السلطة فيما أراه
فإذا شاء بعض القراء أن نمد المشرحة قليلاً لنضع عليها حالة نفسية محققة في مواجهة كل سبب من هذه الأسباب فإليهم خلاصة هذه الحالة النفسية مع الإيجاز
فالرجل الذي يطلب السلطة لأنها وظيفة حيوية أو تركيب بدني هو رجل محسود في رأي
كثير من الناس، ولكني أنا لا أحسده ولا أشعر بإكباره، لأن قوته من قبيل القوى التي تحسب بعدّاد، وتقاس بمقاييس العضل والأوصال، وتخرج من نطاق الفكر والضمير
والرجل الذي يطلب السلطة ليشعر بامتيازه حين يخشاه من يخشى ويطيعه من يطيع، هو كذلك رجل محسود في رأي كثير من الناس، ولكني أنا أرثي له واستصغر همومه، وأرى أنه يشغل عقله ونفسه بالحواشي والظواهر التي تزول بزوال السلطة وتنتقل إلى غيره بانتقالها، فليست هي من أصالة الخلق ولا من حقائق الطباعة والملكات
والرجل الذي يطلب السلطة ليتقي بها السلطة هو رجل معقول مفهوم، ولكني أراه مسرفاً في طلبه إذا ترك ما خلق له وشغل حياته بالبحث عن سلاح قد يحتاج إليه وقد يستغني عنه كل الاستغناء، لأن طلب السلطة شغل شاغل لا يجتمع مع التفرغ للمتعة الفكرية والذوقية، وسبيلي الذي أوثره في هذا الصدد أن أرسم لحياتي الخاصة وحياتي الروحية حقوقاً لا أقبل المساس بها أقل مساس، فإن تركت لي تلك الحقوق فذاك، وإن اعتدى عليها معتد فيومئذ أرجع إلى سلاحي فلا أدعه حتى أدع ذلك المعتدي نادماً على ما جناه
أما طلب السلطة للإصلاح فله موضعان: موضع الهدم في المجتمع الذي لم يبق فيه ما يقيمه على أساس؛ ولا اختيار في هذا الموضع لأحد من الناس، لأنه إنما يفرض نفسه فرضاً على المصلحين، إما برسالة دينية أو بانقلاب يأتي في أوانه، وهو لا يأتي ولم يأت قط إلا في أعقاب الحروب والهزائم الكبار
والموضع الثاني موضع الإصلاح الحكومي وهو عمل نافع لا شك فيه، ولكنه يقتضي التفرغ له من البداية، ولا يعالج في فترة بعد فترة، ولا مناوبةً منتظمة بين الأدب والإدارة. وأكبر ما يأتي به المصلح في هذا الباب ليس بأكبر من فكرة أدبية أو ثمرة فنية يتفرغ لها الأديب جهد ما يتاح له التفرغ في بلادنا الشرقية، فإن إصلاح سنة أو سنتين لن يكون في نهايته غير إصلاح مرحلة قصيرة من مراحل الحياة البشرية في أمة واحدة، ولكن الثمرة الفنية حقيقة خالدة لذاتها ولو لم يكتب لها البقاء
وقد ذكر كاتب الرسالة اسم ديزرائيلي نموذجاً للأدباء والكتاب الذين يريدون أن يعملوا ما يقولون؛ فهل لكاتب الرسالة أن يذكر لنا ما هي الفكرة الأدبية التي عملها ديزرائيلي في أيام حكمه؟ وهل له أن يذكر لنا مثلاً آخر من الأدباء والكتاب الذين يعملون أدبهم في مناصب
الحكومة؟
فما طلب ديزرائيلي الحكم ليعمل فيه ما يفكر فيه الأديب أو الشاعر أو القاص أو الفنان، ولكنه طلبه ليدفع به الهوان الذي كان يلقاه بين البيئات الأوربية، وليكره من يزدرونه على أن يحسبوا حسابه ويرجعوا إليه. ولو ازدراني أحد لرجعت إلى نفسي أسألها: لماذا يزدريني هذا الأحد؟ فإن كان لسبب حق فالحكم لا يدفعه عني، وإن كان لسبب من هذه الأسباب العارضة، فأنا إذن أولى بأن أزدري ذلك الأحد، وهو على خطأ وأنا على صواب
وقال كاتب الرسالة: (لقد جاهدت كثيراً في ميدان الصحافة والأدب ثم بلغت مرتبة نائب. فهل هذا منتهى جهدك؟ يبدو لي أنك تبلورت في مركزك الأخير!)
فالذي يقرأ هذا الكلام يخيل إليه أن كرسي النيابة نهاية طريق لي أو مرحلة على الأقل في تلك الطريق
على أن الحقيقة فيما أرى أن كرسي النيابة تعريجه في منعطف الطريق الذي أسير فيه، وأعني به طريق الأدب والكتابة. وكل ما ألتزم به على هذا الكرسي أن أخدم الدائرة التي أنوب عنها، وقد فعلت؛ ولي أن أقول إن نائباً آخر لم يفعل لدائرته الانتخابية خيراً مما أفعل. وإلى جانب ذلك أؤدي عملي في النيابة على الوجه الذي

أراه، ولا أستبيح لنفسي أن أتخلف عن جلسات المجلس إلا لعذر قاهر سواء كان لي كلام في الجلسة أو لم يكن لي فيها كلام
تلك هي الصورة الصحيحة لمكان النيابة من حياتي العامة، وسأعود من تلك التعريجة راضياً مغتبطاً في اليوم الذي تأذن لي فيه حالة الأدب بيننا نحن الشرقيين أن أفرغ للكتابة و (العمل) الأدبي الذي أرتضيه
وصفوة القول أنني أعز الأدب هذا الإعزاز لأنه منحة لا يعطينها إنسان، فلن أعلق حياتي ولا قيمتي بمنحة يعطينها أحد من الناس ولو كانت الشهرة الأدبية التي قد يخيل إلى قوم أنها بغية المتمني وغاية الغايات، فإن جاءت الشهرة غير ممنونة ولا مبخوسة فقد سعت إلي وما سعيت أليها، وإن أبت أن تجئ على ما أختار فلست أخطو إليها خطوة. . . فكيف بالوظيفة والمنصب وما إلى هذه الأشياء؟
عباس محمود العقاد
ليحكم رجال الأدب العربي
السباعي بيومي
يستر جنايته على المبرد بجنايته على المرصفي
للدكتور زكي مبارك
- 2 -
ما الذي يوجب أن تشعر يا سيد سباعي بمثل لسع العقرب كلما لوّحتُ لك باسم الشيخ المرصفي؟
ما الموجب لهذا الفزع وقد مات المرصفي ومات ثم مات؟
السبب أوضح من أن يحتاج إلى من ينبّه إليه القراء، وهو عرفانك بأني سأقهرك على الاعتراف بأن كتابك (تهذيب الكامل) لن يظهر سليماً من الأغلاط يوم تطبعه للمرة الثانية إلا وأنت مدينٌ أثقل الديَّن لكتاب (رغبة الأمل في شرح الكامل) وهو الكتاب الذي دعوتَ الناس إلى الصدوف عنه ليخفي عليهم فضل مؤلفه عليك
وشبح الشيخ المرصفي سيلاحقك في يقظتك ومنامك، لأن كتابك لن يطبع بعد اليوم قبل أن تشهد كل صفحة من صفحاته بأنك استعنت بتحقيقات الشيخ المرصفي، وقبل أن تعترف علانيةً بأنك خضعت لجبروت الحق، بعد أن طال جدالك فيه
ولو كان الله منحك نعمة الذوق لقدرت قيمة التعصب لرجل ميت لا أنصار له ولا أشياع، ولا ينتظر أن يكون للتعصب له بارقة من بوارق الثواب، وقد عاش ما عاش وهو معدوم السناد من العصبيات، فما استهانتك بالوفاء وهو معنى لا يقيم له الميزان غير أحرار الرجال
ثم ماذا؟ ثم وجدتَ الفرصة للتخلص من تهمة السرقة من كتاب النثر الفني فيما يتصل بنشأة فن المقامات في الأدب العربي، لأن كتاب النثر الفني ظهر في سنة 1934 وأنت فيما تزعم أعلنت هذا الرأي في سنة 1933 فهل تصدق في سريرة نفسك أنك نجوت من صولة الحق؟
وهل تضن أن الأسانيد المدونة في مقالاتي ومؤلفاتي غير قديرة على إلقاء تهمة السرقة
فوق منكبيك بصورة لا تُبقي لك فرصة من فرص المكابرة والروغان؟
إليك أسوق البراهين التي تقطع بأن الشيخ الإسكندري نقل عني، والتي تجزم بأنك سرقت من كتابي
والحمد لله الذي أتاح هذه الفرصة، ليعرف تلاميذك بدار العلوم أنك تقدم إليهم معارف أدبية لم تشقَ في تحصيلها لحظة أو لحظتين، وإنما نهبتها في الخلفاء، ولم تكن تعلم لسوء حظك أن الحقوق تردّ إلى أصحابها، ولو بعد حين
أنت قلت في كلمتك الثانية إني التفتّ إلى نص زهر الآداب مصادفة حين قمت بتصحيحه في سنة 1925، وهذا حق، فالمصادفة هي التي هدتني إلى النص الذي يجعل بديع الزمان متأثراً بابن دريد في إنشاء المقامات، ولكن كيف رأيتُ لهذا النص قيمة تستحق التسجيل؟ إنما كان ذلك لأن الدكتور (أحمد ضيف) كان حدثنا في محاضراته بالجامعة المصرية أن فن بديع الزمان في المقامات مستوحى من الآداب الفارسية، ولولا ذلك لكان من الجائز أن يمرّ نص زهر الآداب بدون أن التفت إلى قيمته في تاريخ الفنون الأدبية

وقد حدثت الدكتور أحمد ضيف عن هذا النص فأجاب بأنه لا يزال عند رأيه الأول، ثم حدثت الدكتور طه حسين عن هذا النص فجادلني فيه وانتهينا إلى رأي سجلته فيما بعد بالتفصيل

وفي سنة 1927 شرعت في تأليف كتاب النثر الفني باللغة الفرنسية وأثبتّ فيه النص الذي اهتديتُ إلى قيمته في زهر الآداب، ومعنى ذلك أني حررت هذه المسألة قبل أن يلتفت إليها الشيخ الإسكندري في سنة 1930

ولكن كتاب النثر الفني لم يظهر في مكاتب باريس إلا في سنة 1931 فكيف يصح القول بأن الشيخ الإسكندري نقل عني؟

لم ينقل الشيخ الإسكندري في سنة 1930 عن كتاب ظهر بالفرنسية في سنة 1931 فذلك غير معقول، وإنما نقل الشيخ الإسكندري عن كتاب نشره زكي مبارك في سنة 1929 وهو الطبعة الثانية من زهر الآداب، ففي هامش الصفحة 307 قال زكي مبارك في التعليق على عبارة الحصري ما نصه بالحرف: (مؤدَّي هذا الكلام أن بديع الزمان ليس مبتكرِ فن المقامات، وأنه حاكى ابن دريد في أحاديثه، وقد استغللتُ هذا النص في كتابي الذي وضعته

بالفرنسية عن النثر الفني في القرن الرابع، وقد دهش المسيو (مرسيه) لهذه الفكرة وعجب كيف اتفق الناس على إن البديع هو منشئ فن المقامات، ولكني من جانب آخر أذكر أني لم أر مثل هذا الكلام في غير زهر الآداب، ولا أزال أتلمس له مصدراً آخر،

ولم أعثر على شيء إلى اليوم، ويزيد في الدهشة أن صاحب زهر الآداب يروي المسألة على أنها مقبولة معروفة لم تُمسَّ بنقض ولا تكذيب، وقد نقلها عنه ياقوت في (معجم الأدباء).

ذلك ما جاء في هامش الجزء الأول من كتاب زهر الآداب وقد ظهرتْ طبعتُه الثانية سنة 1929 وكان الشيخ الإسكندري يقتني جميع الطبعات كما حدثني غير مرة، رحمه الله

ومع ذلك لم تقف المسألة عند كلام أحدِّث به أساتذة الأدب العربي ثم أثبته في هامش كتاب يظهر في سنة 1929 فقد نشرتُ مقالاً رنّاناً في مجلة المقتطف (عدد أبريل سنة 1930) نشرته وأنا مزهوٌّ زهو الطاووس تحت عنوان: (إصلاح خطأ قديم مرَّت عليه قرون في نشأة فن المقامات)

وكان من أثر ذلك المقال الرنّان أن تثور بيني وبين المرحوم مصطفى صادق الرافعي معركة قلميه على صفحات المقتطف

فهل من المعقول أن تثور معركة قلميه بين زكي مبارك ومصطفى الرافعي ولا يصل صداها إلى الشيخ الإسكندري (وكان من المشتركين في المقتطف) وهي في موضوع يتصل بدروسه في دار العلوم؟!

من الكلام الذي نشرته في سنة 1929 بهامش الطبعة الثانية من زهر الآداب، والمقال الذي نشرته في المقتطف سنة 1930 أخذ الشيخ الإسكندري فكرة القول بأن بديع الزمان نقل فن المقامات عن ابن دريد، وإلا فكيف سكت الشيخ الإسكندري عن هذه المسألة في كتابه: (تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي) الذي ظهر سنة 1913 وكتابه الموسوم بالوسيط الذي شاركه في تأليفه الشيخ مصطفى عناني وقد ظهر قبل سنة 1925؟

لماذا أجّل الشيخ الإسكندري هذه المسألة إلى المذكرات التي ظهرت في سنة 1930 وهي المذكرات التي حدثتَنا أنها (طبعة أخيرة)؟!

إنما اهتدى الشيخ الإسكندري في (الطبعة الأخيرة) بما قرأ لزكي مبارك في هامش زهر الآداب سنة 1929 وبما نشر زكي مبارك في لمقتطف سنة 1930

ولك أن تغيِّر هذه الوقائع، إن استطعت، ولن تستطيع

ثم أذكر أن الأستاذ أحمد الزين أرسل إليّ خطاب ثناء بعد قراءة مقالي في المقتطف، وأحمد الزين كان يسمُر كل ليلة مع الشيخ محمد عبد المطلب، فلو كان من الصحيح أن أبناء دار العلوم كانوا يعرفون جلية هذا الأمر منذ بداية القرن العشرين لكان من الواضح أن يفهم الأستاذ الزين أن مقالي في المقتطف لم يأت بجديد حتى يستوجب خطاب ثناء

وأنا أتحداك أن تثبت أن شخصاً واحداً من أبناء دار العلوم تحدث عن هذه المسألة في

كتاب مطبوع أو مخطوط قبل أن أتحدث عنها في هامش زهر الآداب سنة 1929 انتهت قصة الشيخ الإسكندري، فما قصتك أنت؟

لا تقل إنك قرأت مذكرات الشيخ الإسكندري في طبعتها الأخيرة سنة 1930، ولكن قل إنك كنت ناضراً لإحدى مدارس المعلمين الأولية، وهي مدرسة يدخلها في كل شهر ثلاث نسخ من أعداد المقتطف، فهل يكون من الممكن أن تثور معركة قلميه بين زكي مبارك ومصطفى الرافعي على صفحات تلك المجلة ولا يلفتك إليها أحد من الأساتذة أو الطلاب؟

اسمع أيها الأستاذ المفضال:

أنت لم تقدم نصاً يشهد بأنك سجلت كلمتك في عبارة زهر الآداب قبل ظهور الطبعة العربية من كتاب النثر الفني سنة 1934 فلم يبق إلا النص المسجّل عليك في مجلة السراج سنة 1937 وهو قاطع بأنك سرقت من كتاب النثر الفني وإليك القرائن:

أولاً - من المفهوم عند جميع الباحثين أن الباحث يشير إلى الطبعة الأخيرة من الكتاب الذي ينقل فقرة من فقراته، فكيف تشير أنت إلى طبعة زهر الآداب القائمة على هامش العقد الفريد وقد انقرضتْ من الأسواق، ولا تشير إلى طبعة زكي مبارك التي ظهرت في سنة 1929؟ أليس ذلك شاهداً على أنك تخشى أن يفطن القراء إلى أنك انتهبت عبارة زكي مبارك؟

ثانياً - أنا لم أعيِّن النظرية التي انتهبتها من كتاب النثر الفني حين هددتك بكشفها أمام قراء الرسالة، فكيف عرفتَ أن هذه النظرية هي المقصودة بالذات؟ ومن أدراك أيها الأستاذ، إنها سِكين!

ثالثاً - أشقيت نفسك في التهوين من هذه النظرية، فما الموجب لذلك التهوين لو كانت من مبتكراتك أو مبتكرات أحد أساتذتك بدار العلوم؟

إنك تهوّن من شأن هذه النظرية لأنها من مبتكرات زكي مبارك، فهي عندك شيء عديم القيمة لا يستوجب أن يُزَهى به الرجل زهو الطاووس!!

هذه القرائن هي حجتي عليك، وهي البرهان القاطع على صحة العبارة التي تقول: (يكاد المريب يقول خذوني)

ما الموجب لأن تقول إن كشف هذه النظرية لا يساوي كشف مقبرة توت عنخ آمون؟ إنما مَثَلُكَ مَثَل اللص الذي يهوَّن شأن ما سَرَقَ لينجو من العقاب وأنت تدرك الخطر الملفوف في هذا الملحظ الدقيق!!

وهناك نظرية أخرى متصلة بالمقامات، وهي نظرية فاتني النص عليها في النسخة الفرنسية التي ظهرت سنة 1931 ولم تفتني في النسخة العربية التي ظهرت سنة 1934 فهل ترى لها (خبراً) في (الطبعة الأخيرة) من مذكرات الشيخ الإسكندري؟ وهل تراك حدثت بها قراء مجلة السراج في سنة 1937؟

وهناك نظرية ثالثة متصلة بالمقامات وفيها ردٌّ على المرحوم الشيخ محمد عبدة وهي مثبتة في كتاب (ليلى المريضة في العراق) فهل تعرف هذه النظرية؟

وهنالك تحقيق متصل بالمقامات، وهو موضوع مقال حدثت به صاحب (الرسالة) منذ أكثر من عامين ولم أقدمه لمجلة الرسالة إلى اليوم، لأنه يفرض الرجوع إلى عادات بعضها في النجف، وبعضها في بغداد، فهل تعرف موضوع ذلك التحقيق؟ وهل تعرف ما بقي مطويّاً من أسرار المقامات؟

أترك هذا الجدال لأوجه الكلام إلى الدكتور عبد الوهاب عزام وكان ألقى محاضرتين عن بديع الزمان في سنة 1934 فقد حدثني أمام جماعة من أساتذة الجامعة المصرية أنه اعتمد على كتاب النثر الفني في النظرية التي تقول بأن بديع الزمان نقل فن المقامات عن ابن دريد، فكيف غاب عن الدكتور عزام أن أبناء دار العلوم نشروا هذه النظرية قبل عشرات السنين؟

أما بعد فقد ظهر أن الأستاذ السباعي بيومي سَرَق من كتاب النثر الفني ما سرق، وتبيَّن للجمهور أنه يقدم لتلاميذه زاداً نهبه من كتابي بدون استئذان، ولست من الملائكة حتى أسكت عمن يسرق مني أكثر من أربع سنين

والأستاذ السباعي يبالغ في شتمي عامداً متعمداً ليقهر أصدقائنا على وقف هذه

الخصومة الأدبية، عساه ينجو من بطش قلمي
وأقول إني لم أكن أعرف أن اللغة العربية غنيّة بألفاظ الهجاء قبل أن أقرأ كلمته الثانية، وأنا من الذين يدينون بوجوب طلب العلم من المهد إلى اللحد، فمن واجبي أن أرحب بمن يعلمني طرائق السباب، ومن أجل هذا أرفض كل الرفض أن ينتهي ما بيني وبينه بالصلح، ولو صدر عن الرجل الكريم الذي أسرَّ في أذني عبارات ونحن بوزارة المعارف
لقد شتمني هذا الرجل ليصرفني عن تسجيل ما سَرَق مني، فهل نجا من تطويقه بتلك السرقة البلقاء؟
لو كان يعقل لعرف أن السرقة من كتاب النثر الفني لا تغض من أقدار الرجال، لأن كتاب النثر الفني كالشمس يعيش في ضيائها أرباب الوفاء، كما يعيش أصحاب العقوق السباعي يهدد ويهدد بنقد مؤلفاتي، وهو من فضلها يعيش، فهل رأيتم أقبح وأشنع من هذا الكفران؟
والسباعي يكاثرني بأبناء دار العلوم، فأين كان يوم دفعت عنها طغيان كلية الآداب وأنا مدرِّس بكلية الآداب؟
وكيف يُنكَر جميلي في حماية تلك الدار من البغي والعدوان؟ وفي الأسبوع المقبل يسمع الأستاذ السباعي كلاماً لم يخطر له في بال!
زكي مبارك
خصومة أدبية رضيت فيها الأدباء حكماً
زكي مبارك
يكتب كثيراً ولا يقول شيئاً
للأستاذ السباعي بيومي
- 3 -
ما كنت أحب لك يا دكتور أن تكتب شيئاً مما سودت به مقال العدد 398، ومعظم مقال العدد 399 - بل كله كما ستعلم - لأنه ليس من الخصومة ولا الخصومة منه وليس بذي فائدة للقارئين. وما كنت أحب أن أجول معك في هذا الخروج لضيق الصفحات الأربع - المحدودة في الرسالة - عن أن تتسع له ولما أوعدت به من الهجوم عليك في زهر الآداب، لولا ما تعتقده من أنه في صميم الخصومة، وما أخشاه من أن تزين لك نفسك أنك به قد انتصرت
ولقد كان واجباً عليك وخيراً لك أن تنتظر كلمتي السابقتين ثم تكتب في الموضوع، ولكنك تعجلت ولم تستطع معي صبراً. والآن فالق جزاء تسرعك في الرد على ما ذكرت بمقاليك مما لم تتناوله كلمتاي، مشفوعاً بطلبي منك ألا تعود إلى هذا الخروج، حتى نفرغ للخصومة الأدبية بالمعنى الذي تحمل ويريده الجمهور
تدعي أن صديقاً عزيزاً قال لك: (لم يرضني تحديك للأستاذ السباعي فقد كان يتفق في أحيان كثيرة أن يجعل مقالاتك من موضوعات الدروس بدار العلوم وذلك من شواهد الإعجاب).
وأنك حفظت لي هذا الفضل وآثرت الصمت لولا أن أديباً أثارك بما كتب إليك. ويظهر يا دكتور أن هذا الصديق من الخبثاء الظرفاء الذين عرفوا فيك ما قرره ابن المقفع من أن عجب المرء بنفسه أرحب باب يدخل عليه منه الضاحك عليه والمظلل له. فهو قد أضللت وضحك عليك بما تخيل فتحققت، وما كان لشيء من مقالاتك أن يكون من موضوعات الدروس في دار العلوم، ولو حدث لما سميت دار العلوم
وتدعي أنك مع هذا كنت على نية السكوت لصداقتي ولأن هجومي لن يقلقل مركز الشيخ
المرصفي، ثم لأني من زملاء الأستاذين هاشم وصفوت ولهما عليك حقوق؛ فأما الصداقة فما ينبغي أن تحول دون محاورة الصديقين فيما يفيدهما ويفيد الناس، وأما أن هجومي لن يقلقل من مركز الشيخ المرصفي فعما قريب ستعلم أثره
وتذكر أنك في سبيل دفع الشر عن الشيخ المرصفي ستقدم لي خدمة أدبية بجذبي إلى الجدل على صَفحات الرسالة، وأنا مرحب بدفع هذا الشر عن الشيخ، ولكن فيما صوبت أنا إليه؛ ثم إني لشاكر لك جذبي إلى التحرير وغير طامع في رفق أسلوبك، بل راغب ملِّح في أن تريني ما تزعمه لقلمك من أنه تطير عن أسلاته شظايا الشدة

والعنف، حتى أعلمك - إن لم تكن علمت - أن مثل قلمك أمامي مثل بنادق الأطفال تسمع لطلقاتها دوياً ولا ترى لها كلماً.

أما القلم الذي ستواجه مني فهو مسدس ذو طلقات تميت في غير جلبة ولا ضوضاء، وهاأنت ذا قدحت زنده فاصّلَ شرره

وتقول إن المرصفي قضى شبابه في خدمة الكامل، وأنني قضيت شبابي في خدمته كذلك، وإني لأكاد أكذبك في الأولى لأنك غير صادق في الثانية قطعاً. فما قضيت في تهذيب الكامل إلا ثلاث سنوات لا تستغرق شباباً ولا بعض شباب، ثم تتظرف وتحكم بأن الفرق بين الرغبة والتهذيب كالفرق بين المرصفي والسباعي. وإنه لحكم أعاد إلى ذاكرتي هذا البيت:

كأننا والماء من حولنا ... قومٌ جلوسٌ حولهم ماء

ثم تكذّب ما قاله الطالب أيوب من أن كتاب المرصفي ظهر سنة 1930 وتقول إنه ظهر سنة 1927، فتكون سطحياً أمام طالب، لأنك أخذت تاريخك من غلاف أول جزء في الكتاب والطالب أخذه من غلاف آخر جزء منه، فارجع إلى هذا الجزء رجوع الغافل الذي دل على أنه لم ير الكتاب، تجد عليه سنة1930 وهو التاريخ الحق الذي لا يعتبر في مجال الاحتجاج سواه. على انك شعرت بتفاهة ما لحظت لأن كتابي ظهر سنة 1923 فقلت: (وليس لهذا التاريخ أهمية) ولكنك عدت فوقعت إذ زعمت أن شرح المرصفي يرجع إلى أكثر من أربعين سنة، وأنه كان كاملاً من جميع الجوانب حتى الفهارس قبل سنة 1915 وأنك رأيته بعيني رأسك ورآه معك الشيخ الزنكلوني. وما رأيك يا دكتور أن المرصفي

نفسه يكذبك في ذلك بعبارته المدونة في آخر جزء من أجزاء الرغبة عن إتمامه الشرح فما بالك بالفهارس، وهي بنصها: (وقد انتهى شرح كتاب الكامل والحمد لله ليلة 11 رجب سنة 1340 من الهجرة) وهذه توافق سنة 1923، أي أن الشرح وحده دون الفهارس لم ينته إلا سنة 1923 لا قبل سنة 1915. أليست هذه العبارة تفهم بصريح العبارة أنك كذبت على عيني رأسك، وإذا كان لنا أن نتركك حراً تكذب على نفسك، أفلا نؤاخذك أن تكذب على غيرك. ولكنك يا دكتور كنت لبقاً إذ تخيرت هذا الغير ممن انتقلوا إلى جوار ربهم، وأنا جد واثق أن الشيخ الزنكلوني لو أمتد به الأجل إلى حيث كتبت ما كتبت لأشهدت غيره من الأموات سامحك الله

ثم لك هذه النقطة حشوة لا علاقة لها بالتواريخ، ولا هي من العبارات الشعرية كما تقول: تلك هي قولتك (ولن أنسى ما حييت تلك العبارة الشعرية التي صرخ بها الشيخ المرصفي وهو يقدم إلينا شرحه على كتاب المبرد - لن أنساها أبداً - فقد قال شيخنا العظيم وهو يخاطب المبرد (الله على أيامك يا بطل)) وبعد ذلك تقول: (والكتاب الذي كمل من جميع نواحيه حتى الفهارس قبل سنة 1915 هو الكتاب الذي سرقت بعض فهارسه من كتاب ظهر في أواخر سنة 1923) فلتسمح لي يا دكتور أن أتركك وأخاطب الناس. أيها الناس يعجب الدكتور من أن الطالب أيوب لا يستبعد على المرصفي أن يكون قد استعان في كتابه الذي ظهر سنة 1930 بكتابي الذي ظهر سنة 1923 زاعماً أن كتاب المرصفي كان كاملاً من جميع نواحيه حتى الفهارس قبل سنة 1915 بالرغم من تكذيب المرصفي له كما سبق ومؤيداً هذا الزعم بآخر حاط من قدر المرصفي إن كان حقاً، هو أن المرصفي لم يكن يطلع على شيء من مؤلفات المعاصرين فكيف اختص الأستاذ السباعي بتلك العناية. هذا ما يقوله الدكتور أيها الناس، وليس لي من تعليق عليه إلا الجملة التي ختم بها ما قال وهي (تلك والله إحدى الأعاجيب)

ويقول الدكتور عني بعد جعله المرصفي أوحد عصره بلا جدال (إنني الرابع أو الخامس بين أساتذة دار العلوم مع التسامح الشديد) ونحن أساتذة اللغة العربية بهذا العدد تقريباً في الدار فكأنه جعلني الأخير. والحقيقة يا دكتور أنك في تدخلك هذا غريب؛ فما أنت فينا والفاضل والمفضول والأول والأخير أولئك إخوان فضلهم فضلي ومكانهم مكاني وكلنا

أعرف بحق صاحبه منه بحق نفسه.

وتقول إن الشيخ المرصفي أثر في عصره وتعدد له ذخائر كثيرة، وليس لي رد على الشيء تعرفه أنت ويجهله غيرك. إني لا أعرف للمرصفي إلا ما عرف الناس ولا أدعي

لنفسي من آثار إلا ما لمسوه. فسلهم لتعلم منهم أن عمري لم يكن موقوفاً على التهذيب، ثم سل تلاميذي الذين تتحدث عنهم يخبروك بما يفحمك مخلصين صادقين وفخورين بتلمذتهم لي فخري بأستاذيتي لهم في غير زهو ولا إعجاب ذاك ما جعلته طلائع غزوة وبه تباهى. فهل لازلت على هذه المباهاة بعد تفسيقي لما ذكرت وردي على ما سودت ومع هذا فإليك رأي في تلك المباهاة نفسها تقول إنك لن تصفح عني أو أشتغل محرراً متطوعاً بالرسالة ثلاث سنين، وما هذا لي بالتهديد فما أنا ممن يضيرهم التحرير ولا ممن تعودوا أخذ أجر على ما يكتبون، لأني أكتب للكتابة لا طمعاً في مال، ولذلك يصدر ما أكتب في غير كلفة ولا إكراه.

وتقول إن خصومتك لي محنة صبت على من شاهق وتطلب مني أن أتحملها صابراً، وإنها لا تنتهي قبل بداية مايو، وليس مثلك معي في هذا التهديد إلا مثل القبرة التي وقعت على رأس فيل؛ فلما أرادت أن تطير قالت له إني مخففة عنك وطائرة فقال والله ما علمت بك نازلة حتى أشعر بتخفيفك طائرة. أما الموعد الذي ضربته فهو أمنية تتمناها وتشفق ألا تكون، ولست أدري أؤوافقك عليها مطمئناً أم أتجاوزها إلى ما بعدها مزعجاً، لن أبين لك حتى أتركك حيناً تتعزى بالأجل إشفاقاً عليك وآخر تجزع لطول الأمد تهديداً لك. وسأعلمك في حاضري ومستقبلي أن ماضي لم يكن قائماً على خدمة الكامل وحده وأن تهذيبي له لم يكن عملاً يقوم به أحد النساخين بدراهم معدودات وذلك بما أقفك عليه من أنه كان خدمة يعرفها العارفون

وتزعم أنك قضيت دهرك ممتحناً بعداوات الرجال. ورجائي أن تكون رجلاً فيما أصبت به من عدائي وأن تغالي في عدم العطف على، ذلك الذي أزمعت تركه لأني ترديت لك ثوب العقوق، والحقيقة يا دكتور أنه لا عطف منك على ولا عقوق مني إليك وإنما هو نقاش وحساب يتطلب منك أن تكون الجلد الصبور.

ثم تقول إنك حكمت على بترك دروسي في دار العلوم لأشغل نفسي بمخاطرتك. ويلوح لي

يا دكتور أنك ما قلت ذلك إلا لعقيدتك أن مخاطرتي لك تشغلني كما تشغلك مخاطرتك لي، ولكن عقيدتك هذه وهم باطل وظن خاطئ، فإن هجومي عليك وصدى لك لا يشغل مني كل أسبوع إلا الوقت يجري فيه القلم غير متوقف إلى حيث ينتهي المقال وهو وقت يسير في زمن اليوم لا الأسبوع، ثم هو لذيذ الوقع ترتاح لصريره النفوس.

وبعد فهاأنذا مرقل نحو مقالك الأخير فماذا أرى؟ رأيتك قد سودت أكثر من نصفه بأشياء خرجت فيها عن الجادة وجمعت بينها على الإكراه والقسوة، فبينا تبدؤه بالرد على كلمتي الثانية قبل ظهورها بهذه الجملة التي لا تقدم ولا تؤخر في الموضوع فتقول عني في تبرئة نفسك من السرقة التي ألبستك طوقها: (فكان حاله حال اللص الذي رأى صاحب الدار يمشي من بعد فصاح: مين اللي ماشي هناك)، ثم تعقب هذه بقولك: (إني أشعر بالارتياح كلما تذكرت أن عندي ذخائر يتطلع إليها الناهبون من الفضلاء) سبحان المنان الوهاب! وعلى هذا الغرار من قرع طبلك تقول عني (فليواجهني إن استطاع وأنا ماض إليه بقلم أمضى من السيف وأعنف من القضاء)، وستعرف أينا الذي يستطيع، وأينا الذي سيكون قلمه أمضى من السيف. أما أن قلمك أعنف من القضاء فمعاذ الله أن أشاركك هذا الكفران وقد علمت عن ابن دريد الذي تحدثت عنه في نظريتك المزعومة، أن تلميذه أبا علي القالي قال: (لما أصيب بالفالج كنت أدخل عليه فيتألم من دخولي فأقول: إن الله تعالى لم يبتله بذلك إلا عقاباً على قوله يخاطب الدهر وليس الدهر إلا الله:

مارست من لو هَوت الأفلاك من ... جوانب الجو عليه ما شكا

إذا بك تنتقل إلى أن كامل المبرد على ما به من فضل قد حرف وصحف وصار في حاجة إلى إصلاح، وإني لن أكون المصلح المنشود لأني لم أوهب نعمة الذوق الأدبي التي لا يظفر بها من كل جيل إلا آحاد، وأنت طبعاً من هؤلاء الآحاد إن لم تكن أوحدهم. ثم تقول كان المصلح المنشود له شيخنا العظيم سيد بن علي المرصفي وهو طبعاً من الآحاد الذين رزقوا نعمة الذوق الأدبي

والآن أقدم للجمهور شيئاً من أشياء أعرفها للشيخ المرصفي برهاناً واضحاً على أن الذوق الأدبي كثيراً ما خانه في أبسط مظاهره، ذلك الشيء هو أبيات جاء بها المبرد

في الهجاء الموجع فجعلها المرصفي في شرحه من المدح البالغ. ولو كان المبرد يعلم أن ذوقه إلى هذا
الحد لأنقذه وصرح بأنها هجاء. وهاهي الأبيات وتحتها شرح الشيخ من غير تعليق
(صفحة 132 ج 4)
قال أبو العباس المبرد: ومما يستحسن من شعر إسحاق هذا - يريد ابن خلف - قوله في الحسن بن سهل:
باب الأمير عراء ما به أحد ... إلا امرؤٌ واضع كفاً على ذقن
قالت وقد أملت ما كنت آمله ... هذا الأمير ابن سهل حاتم اليمن
كفيتك الناس لا تلقي أخا طلب ... بفيء دارك يستعدي على الزمن
إن الرجاء الذي قد كنت آمله ... وضعته ورجاء الناس في كفن
في الله منه وجدوى كفه خلف ... ليس السدى والندى في راحة الحسن
وإلى القارئين كل ما قال الشيخ المرصفي في شرحها بنصه وصورته، قال - وقاه الله شر تلميذه الدكتور زكي مبارك -: (في الحسن بن سهل) بن عبد الله السرخسي وزير المأمون بعد أخيه الفضل بن سهل (باب الأمير) كأنه يريد أميراً غير الحسن (لا تلقي أخا طلب الخ. . .). تريد إن استجديته أغناك، فلا تجد غريماً يطلبك (ليس السدى) يريد إلا رجاء السدى، وهو ندى الليل، (والندى): ندى النهار ضربهما مثلاً لجوده، وقد أخر هذا الاستثناء عن موضعه فثقل. . . انتهى شرح الشيخ، فما رأيك فيه يا دكتور، إن كنت ممن وهبوا نعمة الذوق الأدبي؟ وهل لا تزال مصرًّا على أن المرصفي قضى حياته يراوح المبرد ويغاديه بالنظر الثاقب والفهم العميق؟ أما أني أتقوّل على المرصفي لأنه مات وشبع من الموت وهذا لا ينبغي، فهي دعوى لو عمل بها في الأدب، لمات الأدب وشبع من الموت كما تقول؟
وإذا بك تقحم الدكتور طه حسين في الموضوع بأنه أتعب نفسه في النيل من دار العلوم، ولم أغضب، مع أني أستاذ بها، وهذا غير ما كان يا دكتور، فقد كتبت في الصحف والمجلات،
ولكنك لم تقرأ، كما لم تعرف ما ضحيته ومازلت مستعداً لتضحيته في سبيل الدفاع عن دار العلوم؛ ثم توغل في الإقحام فتدعى أن علة سكوتي هي أن الدكتور طه يضر وينفع، ويملك المحو والإثبات في أعضاء بعض اللجان، وردي على هذه الأكذوبة عني وعن الدكتور أني
لم أسكت، ومع هذا كنت عضواً في اللجان، وما ذنبي إذا كنت أُدعى وتترك، وأعرف وتنكر؟
فإذا بك تغادر الدكتور طه إلى الأزهريين، تحبط من قدرهم إذا لم ينصروك، وتسلبهم - كاذباً في الاثنتين - أبسط ما يعرف العلماء من أقدار الرجال فتقول: (لم يوجد في الأزهريين من يدرك قيمة الشيخ المرصفي غير الشيخ محمد عبده، وبموت الأستاذ الإمام أصبح المرصفي من الغرباء)؛ ثم تعود إليَّ تتهمني بأني أريد الإعلان عن نفسي بالقدح في المرصفي، وتطالبني بدفع ثمن هذا الإعلان بلا إمهال، وما كان هذا القدح ولا ذاك الإعلان لي بمراد؛ أما الثمن، فأنا على نقده لك عاجلاً - كما تقول - ولكن فيما يبصر الناس بقدرك
ثم تشرد يا دكتور فتقول: (أنا أعرف أن دار العلوم مدرسة عالية، لا يزورها أحد من المفتشين إلا إن ظمئ إلى فنجان من القهوة يحتسيه في مكتب العميد أو مكتب الوكيل)؛ وتخرج منه إلى أن محاسبتي لذلك من العسير، والحق أني لست فاهماً ما تعني بهذا الشرود. أتريد أن يغير نظام التعليم، فيدخل التفتيش إلى التعليم العالي قلباً لأبسط مبادئ التعليم؟ أم تأمل إذا انقلبت الأوضاع أن تكون المفتش لدار العلوم؟ وإذا كورت الشمس وكان ما تريد، فهل تحملك رجلاك لتقوم بهذا الحساب؟ أضنك على علم في كل هذه الأسئلة بالجواب، كما أنك على جهل بأن الدرس الذي أعطيه في الجامعة الأمريكية، إنما هو في قسم من أقسامها العالية - ولولا ذلك لم أعطه - هو قسم الصحافة والأدب، وشأنه في ذلك شأن دار العلوم وسائر المعاهد العالية التي يشرف على الدراسة فيها: ضمير الأساتذة ورقابة الطلاب، وهما أدق تفتيش
وأخيراً تكثر من هذه الجملة (لا تشتمني يا سيد سباعي) معقباً إياها بتعاليل هي الأباطيل. فالشتائم أنت وأنا عن الشتم بعيد، وإذا كنت تلحن لي في ذلك بأنك (شتيم)،

فأنا ألحن لك (بأني بشر ابن عوانة). وهاك تعليلاً منها ليس من الشتم، ولكن الشتم منه هو قولك لي: (فما أملك محاسبتك لو أردت الانتصاف لنفسي، وماذا أقول في تجريحك ولست بشاعر ولا كاتب ولا مؤلف ولا خطيب)؛ وأنا أقول إن لك في هذا أن تجاب:

فأما الشعر، فلو رضيت لنفسي ما قلته كما رضيت أنت ما قلت، لسويته ديواناً كما سويت، ولوقعت في الشرك كما وقعت، فقد اغتررت في طبع ديوانك بضحك من غرّروا بك،

وخالفت قول من نصحوا لك، وما ديوانك بشعر شاعر، ولكنّه تجميع ناظم

وأما الكتابة، فها نحن في ميدانها على صفحات (الرسالة) نجول، وسيصدر الجمهور - إن لم يكن أصدر - حكمه فيها عما قريب

وأما التأليف، فقد عرفت من عملي فيه تهذيب الكامل، وستعرف غيره من مؤلفاتي متى انتهيت منه، وناقشنا فيه الآن، فاثبت ولا تفر من الميدان

أما الخطابة، فرأيي لك فيها يا دكتور أن نتلاقى في حلبتها أمام جمع من الأدباء وجمهرة من السامعين ويقترح على كلينا التكلم بداهة وارتجالاً في موضوع عام من أدب أو اجتماع، فهنالك وهنالك فقط - ولست مزكياً نفسي ولكني مدافع عنها - تجد بحراً يغمرك، وأمواجاً تقطعك وتبهرك، فتندم طالباً النجاة ولات حين مناص

إلى هنا أقف، وقد طال الكلام، مرجئاً الرد على ما وازنت فيه بين (الرغبة والتهذيب) وكل ما يتعلق بهما في المقال، وذلك لأن دفعه - كما ستعرف - لابد أن يسبق بكلمة مني عن الكتابين، تريك سوء ما زينت، وهنيئاً لك الآن نفاد الصفحات دون بقية الرد والهجوم.

السباعي بيومي

في العقد - 2

لأستاذ جليل

ولحاتم بن عبد الله (ص 335، 336) - 5:

أماويَّ قد طال التجنب والهجر ... وقد عذرتنا عن طلابكم العُذرُ

أماويَّ إني لا أقول لسائل ... إذا جاء يوماً حل في ماليَ النزْرُ

وجاء في الشرح: العذر (بضمتين وسكن للشعر): جمع عذار وهو ما سال على خد الفرس من اللجام. و (عذرتنا. الخ) أي منعتنا الموانع. وأصله من عذرت الفرس بالعذار، أي شددته به. فالكلام هنا على سبيل الاستعارة

قلت: الشطر الثاني في البيت الأول هو هذا: (وقد عذرتني في طلابكم العذر) وفي الصحاح (عذر). والشطر الثاني في البيت الثاني هو هذا: (إذا جاء يوماً حل في مالنا نذر)

وعذُر جمع عذير - وقد جاء في الشعر مخففاً - والعذير الحال التي يحاولها المرء يعذر عليها، والبيت من شواهد الصحاح واللسان والتاج. والنذر معروف، نذرت أنذِر وأنذُر نذراً إذا أوجبت على نفسك شيئاً تبرعاً من عبادة أو صدقة أو غير ذلك، كما في النهاية

لما وجه عمر بن هبيرة مسلم بن سعيد إلى خراسان. قال له: بثلاثة: (ص 22) - 6 حاجبك. . . وصاحب شرطتك. . . وعمال القَدْر. قال: وما عمال القدر؟ قال: أن تختار من كل كوره رجالاً لعملك، فإن أصابوا فهو الذي أردت، وإن أخطئوا فهم المخطئون وأنت المصيب

وجاء في الشرح: يريد (بعمال القدر) ذوي الشرف والحسب. والذي في 1: (الغدر)، والذي في سائر الأصول: (القرى)، ولا يخفي ما في كلتا الروايتين من التحريف، وما أثبتناه عن محاضرات الأدباء (ج 1 ص 102) في خبر روى عن عمر عبد العزيز. . .

قلت: ذوو الشرف والحسب لا يُعذَر الإمام أو الوالي إذا وسد إليهم الأعمال فاخطئوا أو أساؤا، ورب وَحد خير من ألف حسيب نسيب، وقد نقلت في أحد دفاتري من كتاب لا أتذكره اليوم هذا الخبر: (استشار عمر بن عبد العزيز في قوم يستعملهم، فقال بعض أصحابه: عليك بأهل العذر، قال: ومن هم؟ قال: الذين إن عدلوا فهو ما رجوت منهم، وإن قصروا قال الناس: قد أجتهد عمر). وهو يشبه ما رواه محققو (العقد) عن (محاضرات

الأدباء) في الشرح. فأهل العذر هم فضلاء كبار كرام بأنفسهم قد اطمأن إليهم الجمهور، وقد يكونون من المحسوبين من الحسباء والمنسوبين وقد لا يكونون، فإذا وليت طائفة منهم فأخطأت عذر الناس من عمّلها أو ولاها

وينصر ما ذهبت إليه قولٌ في (مشاورة المهدي لأهل بيته) ص 248: (. . . واجعلْ عمال العذر وولاة الحجج مقدمّة بين يدي عملك، ونصفة منك لرعيتك، وذلك أن تأمر قاضي كل بلد وخيار أهل كل مصر أن يختاروا لأنفسهم رجلاً توليه أمرهم، وتجعل العدل حاكماً بينه وبينهم، فإن أحسن حُمدت، وإن أساء عُذرت، هؤلاء عمال العذر وولاة الحجج)

. . .والحجج تثبت العذر

7 - (ص 176) فرَّ أبو خِراش الهذلي من فائد وأصحابه ورصدوه بعرفات فقال:

وفوني وقالوا يا خويلد لا تُرَع ... فقلت وأنكرت الوجوه هُم هُم

قلت: رفوني. والبيت من شواهد الصحاح والأساس واللسان والتاج. قالوا: فزع فلان فرفوته إذا أزلت فزعه وسكنته، اعتبر بمشاهدة الوجوه، وجعلها دليلاً على ما في النفوس

8 - (ص 252) قال عبد الله بن الزبير لمعاوية - ويقال بل معاوية قالها لعبد الله -:

مالي أراك تطرق إطراق الأفعوان في أصول الشجر

قلت: في الحديث: إنما هو (في أصول السخبر) وهو شجر تألفه الحيات فتسكن في أصوله، الواحدة سخبرة

9 - (ص 2) فعند ذلك يعلم أنها شجرة باسقة الفرع، طيبة المنبت، ذكية التربة، . . .يانعة الثمرة. . .

قلت: زكيه التربة

في الأساس: زرعٌ زاك ومال زاك: نام بيّن الزكاء، وقد زكا الزرع وزكت الأرض وأزكت، ومن المجاز: رجل زكي: زائد الخير والفضل

وفي اللسان: أرض زكيه: طيبة سمينة

10 - (ص 149) فسلك به سبيل مَهلكةٌ معطشة . . .

قلت: مَعطشة

في التاج: المعاطش: الأراضي التي لا ماء فيها، الواحدة معَطَشة. المهلكة (ويثلث): المفازة

لأنها تهلك الأرواح فيها

11 - . . . وفرسي هذا حُبِس في سبيل الله

قلت: حبيس

في الجمهرة: حبست الشيء أحبسه حبساً إذا منعته عن الحركة، وأحبست الدابة إحباساً، إذا جعلته حبيساً فهو محبس وحبيس، وهذا أحد ما جاء على فعيل من أفعل في التلويح في شرح الفصيح لمحمد الهروي: (وحبست الرجل عن حاجته وفي الحبس فهو محبوس) إذا منعته من التصرف في أموره أو أحبست فرساً في سبيل الله فهو محبس وحبيس) إذا جعلته وقفاً على الغزاة يجاهدون عليه، ومنعت من بيعه وهبته في التاج: وفي شرح الفصيح لأبن درستويه: أما قوله: أحبست فرساً في سبيل الله بمعنى جعلته محبوساً فدخلت الألف لهذا المعنى لأنه من مواضعها، ولا يمتنع أن يقال حبست فرسي في سبيل الله كما تقول العامة لأنه إذا أحبس فقد حبس ولكن قد استعمل هذا في الوقف من الخيل وسائر الأموال التي منعت من البيع والهبة

12 - (ص 19) قال (زياد) لا ولكنه لا يسلم على قادم بين يدي أمير المؤمنين. . . فقال له ابن عباس: ما ترك الناس التحية بينهم وبين يدي أمرائهم، فقال له معاوية: كف عنه يا بن عباس، فإنك لا تشاء أن تغلب إلا غَلَبْت

قلت: غُلِبت، فمعاوية لم يخاطب ابن عباس - وقد سره أدب أخيه - مصوباً بل مخطئاً

13 - (ص 15) ثم دخل (معاوية) على أبيه أبي سفيان، فقال له: يا بني، إن هؤلاء . . . الرهط من المهاجرين سبقونا فرفعهم سبقهم، وقصر بنا تأخرنا، فصرنا أتباعاً وصاروا قادة، وقد قلدوك جسيماً من أمرهم، فلا تخالفن أمرهم؛ فإنك تجري إلى أمد لم تبلغه، ولو قد بلغته لتنفست فيه

وجاء في الشرح: لتنفست فيه كناية عن الاستراحة بعد بلوغ الغاية

قلت: لنوفست فيه أي غولبت وقوهرت، غالبك أقرانك وقاهروك أو نافسوك فيه
كنفِسوه عليك، ونفس عليه بالشيء ضن به ولم يره يستأهله
في جنب صلاح العامة وتلافي الخاصة . . .(ص 12) - 14
قلت: وتألف الخاصة
في حديث حنين: إني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر، أتألفهم ليثبتوا على الإسلام رغبة
فيما يصل إليهم من المال
وقد جاء في حاشية (تلافي الخاصة): في عيون الأخبار: وتلافي الحادث قبل تفاقمه
قلت: هنا يجئ التلافي في محله
. . .فأرْوِني تتألف لي نوافرها، ويسكن رُوعي. قال: قد فعلت . . .(ص 359) - 15
قلت: فأردوني، والإرواد الإمهال؛ وفي غير العقد هذه الرواية في هذا الخبر: (فليمهلني
أمير المؤمنين ريثما يتألف نافر القول والروع بالضم القلب، وبالفتح الفزع)
قال: فمن كان أبا النجم مثواك؟ . . .(ص 368) - 16
قال: رجلين أتغذى عند أحدهما وأتعشى عند الآخر
قلت: أبا مثواك. أتغدى
:في الأساس: وهو أبو مثواي، وهي أم مثواي: لمن أنت نازل به. قال
أفي كل يوم أم مثوى تسوسني ... تُنّقَض أثوابي وتسألني ما اسمي؟
في التاج: الغداء طعام الغدوة، أغدية وتغدي أكل أول النهار، وغديته تغدية في ذلك
الوقت
. . .وفي الغداء والعشاء غذاء
. . .وجعل ينادي: أبا عدي أَقرِ أضيافك . . .(ص 334، 335) - 17
فقال: إن حاتماً جاء في النوم فذكر لي قولك وأنه أقراك وأصحابك راحلتك . . .
قلت: أبا عدي، أقر أضيافك، وإنه قراك
قرى يقري (كرمى يرمي) قِرى وقَراء. وأقراه طلب منه القرى
من وحي الهجرة
. . .شكاة ونجوى
(مهداة إلى الرجل الكبير الذي أخذ بيدي في الحياة. . . إلى
خالي)
للأستاذ شكري فيصل
- 1 -
متى يا رسول الله متى. . . تكتحل عيناي بالتطلع إلى مقامك الكريم في أرض . . .
النبوة الطاهرة. . . ويقدر لي أن أقف بين يديك: أقرؤك السلام، وأبثك الحنين، وأفني
. . .في لثمات أعتابك؟
لقد طال بي الشوق، يا رسول الله، إلى التراب الذي لامس قدميك، والأرض التي
وطأت ركائبك، والجو الذي نثرت فيه النعيم والسلام. . . فمتى يا رسول الله. . .
. . .متى؟
إن الحنين ليحدوني، وإن الحب ليهزني، وأني لأجد في قلبي النور، وفي عيني الضياء،
وعلى شفتي النغمات الحلوة. . . حين أراني في مقامك يا رسول الله: هادئ النفس،
مطمئن الخاطر، كما يطمئن الإنسان إلى خيالات الأمل، ويهدأ إلى صور الخير، ويهيم
. . .في أودية من الجمال
متى يا رسول الله: ينسم عبق مكة، فأنتشي بهذا النسيم. . . وأعب منه ملء . . .
رئتي، وأذكر معه هذه البلاد التي كانت مثوى الضلالات، ففاضت بالنور. . . وكانت مثابة
العصبيات، فتدفقت بالتسامح. . . وعاشت أبداً في ظلام الجهل وحماقة الهوى
. . .وسلطان الغرض. . . ولكنها بدلتها أنوار المعرفة ونعمة العقل وزينة العلم
إني لتستثيرني الذكرى يا رسول الله. . . يا أسمى من كل إنسان، وأرفع من كل . . .
بشر، وأكرم من كل مخلوق. . . فأصمت لنجواها العذب، وأنصت لحديثها الرطب،
وأهيم في دنياها الرفافة التي تموج بالأمان، وتزدهر بالسلام، وتتسم بالحب. . . فمتى
يا رسول الله. . . متى أمرّغ خدي بأعتابك الطهور وأقبل بشفتي أرضك الحلوة، وأغيّب
وجهي في أطراف الستائر التي ترف حواليك رفيف الأمل في القلوب الآيسة. . . كأنما
تنعش فيها

. . .الموات، وتبعث فيها الحياة، وترد عليها التحية
- 2 -
متى يا رسول الله. . . يظلني المسجد النضر، لأحدثك حديث هؤلاء الذين تركتهم . . .
على بيضاء نقية لا يضل فيها السالك ولا يحار فيها الساري؛ فإذا هم قد ضلوا الطريق،
وتنكبوا السبيل وتاهوا في بيد مظلمة. . . لا يجدون المخرج، ولا يلقون المنفذ، ولا
. . .تتراءى لهم إمارات الهداية
هؤلاء، يا رسول الله، الذين خلفت فيهم القرآن، وأوضحت لهم الغاية؛ وحلقت بهم في
أجواء السمّو، وآفاق المجد، ودنيا السيادة؛ قد ذّلوا. . . فضعفوا عن الحق، وسكتوا عن
الواجب، واستخذوا لإرادة الناس الحقيرة. واطمأنوا إلى هذه الاستخذاء وهذا الضعف. .
. فإذا قلوبهم غلف، وإذا آذانهم صم، وإذا الدعوات التي تستمد منك قوتها، وتستلهم
!من وحيك نورها. . . لا تفعل فيهم إلا ما تفعل النسمات المطلقة في الصخور القاسية
إن الألم ليغمر النفوس العامرة يا رسول الله فتقعد عن العمل، وإن اليأس ليملأ . . .
القلوب النقية ليفسد عليها الأمل؛ وأن الهجمات لتتري. . . فمن يذكرنا مواطن العظمة
في حياتك وسر الخلود في دعوتك، وجمال الصبر في جهادك؟ من يبث ذلك في قلوبنا
يا رسول الله؟. . . من ينثره في أذهاننا كما تنثر السماء سحب الرحمة؟. . . من يقول
لنا هذا هو الطريق. . . بعد أن باعدت بيننا وبينك ضلالات فيها السحر، وصرفتا عنك
فتن فيها الإغراء
أين أنت يا رسول الله، لتشهد المسلمين اليوم وقد نكبوا بالفرقة، وابتلوا بالنزاع . . .
فإذا هم لا يد في حكم، ولا شأن في سيطرة، ولا رأي في مشورة، يعيشون في هامش
الحياة كما تعيش النبتة الصغيرة في ظل الشجرة الضخمة في جو معتم من الولاء، لا
!يمتد لها غصن يقبّل النور، ولا يشتد لها ساعد يحي السماء
أين من يقول لهؤلاء المسلمين يا رسول الله إنك كنت تجاهد للحياة التي تحل الضعف،
وتستهجن الصمت، وتكره الهدوء؟
أين من يقول لهم إن هذا الهدوء الذي يطمئنون إليه أول نذر الموت، وأدلة الفناء
لشد ما نحتاج إلى هديك يا رسول الله. . . لندرك أن الدنيا ليست دنيا الشهوات التي
نقبل
عليها، والغايات التي نسعى إليها، والمنافع التي نتكالب في سبيلها. . . ولكنها دنيا
.الحياة الحرة التي لا تستعبد فيها نفوس، ولا تحني رؤوس، ولا تبذل كرامات
لقد ضل القوم يا رسول الله. . . وزين ذلك في قلوبهم. . . فمن يكشف لهم عن . . .
وضح الحق؟. . . من يرفع علمهم حجب الضلالات؟ ومن يصرف هذه السحب القاتمة
من فوق رءوسهم، ومن بين أيديهم تشوه فيهم العقيدة، وتفسد عليهم الإيمان
- 4 -
يا رسول الله إلى الناس. . . لقد عمى الناس عن الخير، لا يفقهون معناه ولا يحسون
جماله، وإنما يتخبطون في ظلمات الشر وفي دياجير الخصومات. في أيديهم حراب،
وفي أيمانهم قذائف، وعلى وجوههم أقنعة. . . يتراشقون السهام ويتبادلون القذائف،
ويصطرعون في هذه الكهوف المعتمة من المادة، وهذه الأجواء الضيقة من الطيش. .
. فهلا انتبه أنصارك يا رسول الله في هذه الفترة من الزمن، فانتهزوا الفرصة البارقة،
. . .!ينشرون أردية السلام، ويبعثون دعوة الحق، ويهتفون بالصيحة الكبرى
حبذا يا رسول الله. . . حبذا الساعة التي ينشدون فيها نشيد اليقظة ويرددون . . .
صرخة الحق، ويحققون أروع ما جئت به من مبادئ السلام، وتتموج على حاشية الأفق
راياتهم التي تذكر الناس أكرم ما دعوت إليه وما جاهدت من أجله. . . وتتلألأ في
صفحة السماء آياتك الغر، تهدي السالكين، وتأخذ بيد الحيارى، وتزرع في النفس
معاني الحب والطمأنينة والغبطة
- 5 -
ألا هل في قوانا طاقة، وفي وسعنا جهد. . . فنحمل هذا العبء يا رسول الله؛ وننهض
بهذه الصرخة، ونوقد المصباح: زيته من دمائنا، وذبالته من نفوسنا؛ ونجعل من أجسامنا
مغرز الراية ومغرس العلم؟. . . وهل في أعمارنا آجال فنرى هديك فوق كل هدى،
وكلمتك فوق كل كلمة، وتنعم أعيننا بالإنسانية المطمئنة إلى الحياة الآمنة التي

. . .تختطها، والسبيل السوي الذي ترسمه؟
إن العالم يا رسول الله ليموج في حالك من الظلمة، وإنه ليسبح في جاهلية من . . .
الهوى. . . كهذه الجاهلية التي بددت ظلماتها، وكشفت غياهبها، ونشرت في جنباتها
الهداية. . . فهلا أهبت بأنصارك ليتأسوا بك. . . وليهاجروا إليك. . . وليبدءوا دعوتهم
بمثل ما بدأتها من قوة وعزيمة وجلد؟!
ركب الإنسانية يستغيث بك يا رسول الله إلى الناس. . . فاسأل الله له السلامة . . .
في مهمة الغرائز، والخلاص من ربقة الأهواء، والنجاة من حرب الغل والضغائن. . .
وخذ بزمامه إلى ساحل النجاة، فقد سئم صراع الموج، وزمجرة الغضب. . . وضاق
بفوضى المذاهب، وخداع المظاهر، وتناحر الآراء، وأسلم وجهه إلى الله. إلى الله
وحده يؤمن به، ويعمل له، ويتكل عليه. . . هذه حالنا يا رسول الله. . . فمتى ينبثق
الفجر من خلال الضباب الكثيف، ومتى تبصر العين وجه الحياة: لا تغطيها الدموع، ولا
تخدعها المظاهر. . . ومتى يجد المدلجون في سفين الزمن شعاعات الرحمة وأنوار
الهداية؟
- 6 -
إن الحديث يا رسول الله ليفجر ينابيع الألم، وإنه لينشر صفحات كابية: في إطار سواد،
وفي جنباتها حزن، وفي رحابها تاريخ يشهد بالضعف والخور. فما أحوجنا أن نهاجر إليك
فنملأ صدورنا من روحك الندي ونطهر عزائمنا بعبقك العطري، وندفع هذا الصدأ الذي
يأتكل نفوسنا بالتمرغ في أعتابك الطاهرات
إني لأرنو يا رسول الله إلى هذه الساعات؛ وإني لأهيل عليها الصور، وأريق عليها
الزخارف. . . فلا أبلغ بها معشار ما يكتنفها من روعة، وما يحوطها من جلال. . . فمتى
أشهد هذا الجلال، في مسجدك المتألق، وروضتك الطاهرة، وضريحك الحي؟!
آه يا رسول الله. . . ما أشد حنيني إلى نسمات الصحراء، ولفحات الشمس، وجرعات
زمزم
والسلام عليك يا سيدي يا رسول الله
شكري فيصل
من سماحة الإسلام
الله الله!
للأستاذ كامل محمود حبيب
(يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب
يردوكم بعد إيمانكم كافرين؛ وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم
آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط
مستقيم؛ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا
وأنتم مسلمون؛ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا
واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم
فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم
منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون)
(قرآن كريم)
ما لهذا الشيخ يقضي يومه مقبلاً مدبراً يختلس النظر إلى جماعات الأنصار وهم جلوس
يتحدثون في هدوء، وعلى وجوههم نور الهداية يتألق؟ ماله ينفضهم بنظراته وإن عينيه
لتقدحان شرراً، وإن قلبه ليضطرم حسداً وإنه ليحدث نفسه - في مغداه ومراحه -
يقول يا ويلي! لقد اجتمع ملأ بني قَيْلة بهذه البلاد لا والله مالنا معهم إذا اجتمع ملؤهم
من قرار؟ لعله يهيئ أمراً أو يصنع حادثة
إنه شيخ من يهود قد عسا، عظيم الكفر، شديد الضِّغن على المسلمين، شديد الحسد
لهم، يحزّ في نفسه ما يرى بين الأوس والخزرج من ألفة وإخاء، ويغيظه أن تجمعهم
آصرة أو تربطهم وشيجة، إنه هو شاس بن قيس
لا جرم، فلقد كان شاس بعض الفئة الباغية من يهود ممن عتوا عن أمر ربهم ونصبوا
الرسول الله صلى الله عليه وسلم العداوَة والبغضاء بغياً بغير حق ولا علم، يتعنتونه،
ويأتونه باللّبس ليلبسوا الحق بالباطل، ويحاولون جهدهم أن يفتنوه؛ ممن انحدر في
دمائهم حب العنت، وأشربوا في قلوبهم روح المكابرة من لدن مَن قال من أجدادهم:

(أرنا الله جهرة) حتى مشرق الإسلام على جزيرة العرب؛ ممن عموا وتاهوا وارتدغوا في حمأة الضلالة على يدي علمهم
أفكان لمحمد صلى الله عليه وسلم أن يلم شعث هذا الناس ويجمع شتاتهم على كلمة الدين. . . كلمة الأمان والسلام بعد ما كان بينهم من تنافر وتنابذ في يوم بعاث ومن قبله يوم مفلّس ومضرس، ثم لا يتلمس هذا الفاسق حيلة يريد أن يطفئ بها نور الله وأن يؤرث بها ضغائن مسحت عليها يد الإسلام الرقيقة؟ أفكان الدين الجديد أن ينفث سحره في قلوب الأعداء فيصبحوا بنعمة الله إخواناً. ثم لا يجد هذا الفاجر مَسَّ الغيظ في قرارة نفسه يوشك أن يعصف به؟
لعمري إنه ليعلم أن هذا هو الدين الذي كان ينتظر، يجده مكتوباً عنده في التوراة؛ وهذا هو النبي الذي كانوا يستفتحون به على أهل الشرك من قبل أن يأتيهم، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، وأعرضوا عنه، وحملوا عليه، حسداً من عند أنفسهم وانطلق شاس يفتش عن دواء لداء الغل الذي يحز في نفسه فيثور به فيمنعه القرار، وينفث في حياته قلقاً ما يطمئن. . . انطلق والشيطان يدفعه ويوسوس له، فاستنام إلى رأي الشيطان
ولا ريب، فللشيطان قدرة على أن يحل كل مشكلة بطريقة شيطانية تبذر - دائماً - غراس الخراب والدمار، وتلد - أبداً - الشقاق والبغضاء
وجلس الشيخ إلى فتى غرّ أهوج من فتيان يهود يتملقه حيناً وينشر على عينيه ضعفه حيناً؛ وراح الشيخ يمكر بالفتى يقول: (. . . واتخذوني يا بني سخرية إن أنا أقبلت أو أدبرتُ؛ وأنا رجل كبّار، قد دقّ عظمي وتقبّض جلدي على مثل ما ترى، لا حول لي ولا طول، وهم ما ينفكون يهزؤون بكتابنا ويحتقرون ديننا ويتندرون على أحبارنا، فنستشعر الهوان والذلة ونحن كنا في العز والمنعة. ومَن لنا وللدين إن لم نجد في شبابنا وهم كُثر، مَن يرد عنا كيد هؤلاء ويدفع أذاهم. يا بني. . . يا بني. . .)
وأطرق الفتى يتسمَّع دويّ صوت الشيخ، وإن الكلمات ليتردد صداها في مسمعيه فيخترق شغاف قلبه فيلقى السَّلم إلى أستاذه رويداً رويداً. ولا ضير فهو يحس مسكنة الرجل وانكساره
ورأى شاس الخديعة تنطلي على الشاب حين أسلس وانقاد فاندفع يحكم العقدة، فأقبل على الفتى يقول: (ياعجباً، لقد عرفتك أيّداً جلداً إذا حزب الأمر أو أعضلت المسألة، فما بالك الآن حيران لا تتماسك؟ لعل خشية القوم قد تسربت إلى قلبك فأنخلع فؤادك رهبة وجزعاً!). فأجاب الفتى في سرعة: (كلا، كلا يا سيدي، ولكني لا أجد الرأي)
فقال الشيخ في هدوء: (الرأي عندي أن تسعى فنفرق كلمتهم ونصدع ألفتهم فتنكسر شوكتهم وتنهد قوتهم، ونظهر نحن عليهم) قال الفتى: (وكيف؟) فأجابه الشيخ: (تعمد أنت إلى القوم وهم في مجلسهم يتسامرون فتذكرهم بأيام الجاهلية وتبعث في نفوسهم ذكرى ضغائن شغلتهم عنها أعباء الدين الجديد، وتنشر على أعينهم حديث يوم بعاث وما كان قبله، وتنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من أشعار. . . هذه، يا بني، هي الشرارة الأولى؛ ولا عجب إن هي سعرّت بينهم نار الحرب التي انطفأت منذ حين
وراح الفتى يندس بين جماعة من الأنصار يصحبه الشيطان، وأخذ يحمل القوم رويداً رويداً على ذكر أيام خلت، ويقص حادثات تبعث ميت الحقد، وتثير دفائن الغيظ، ثم هو يتلوى في حديثه ليذكر غلبة الأوس واستخذاء الخزرج. . .
ونفذ الفتى من ثغرات ضيقة إلى قرار القلوب، فتغلغل الحديث في نفوس القوم، وتشعب الكلام فنوناً، واندفع كل حزب يفاخر صاحبه ويباهيه، ويتطاول عليه ويكاثره. . . ثم شرى الأمر بين أوس بن قيظي أحد بني حارثة بن الحرث من الأوس، وجبار بن صخر أحد بني سلمة من الخزرج، فتواثبا على الرُّكَب يريد واحد أن يبطش بصاحبه، وتناثرت بينهما ألفاظ طمست على صفاء كان بينهما منذ ساعة؛ وانحازت طائفة من الأوس إلى صاحبهم، وأعان الخزرج محاميهم، وانفرط العقد، ودبّ دبيب الشحناء، وبدت البغضاء على وجوه القوم، وطغت عليهم طبائع الجاهلية التي تنشئوا عليها وعاشت في دمائهم سنوات وسنوات؛ فقال واحد لصاحبه: (إن شئتم رددناها الآن جَذَعةً). فغضب الفريقان جميعاً وقالوا: (قد فعلنا، موعدكم الظاهرة). ونفر القوم وهم ينادون: السلاح السلاح!

وأقبل شاس بن قيس في جماعة من ضلاّل يهود يرقبون ويبسمون، وفي رأيهم أن كيد الكافر يفلح، على حين أخذ الفريقان من الأوس والخزرج ينسلون في السلاح إلى موعدهم، إلى الظاهرة. وكادت الفتنة أن تقع فينهار صرح مشيد على يدي فاسق زنديق، لولا أن منَّ الله على أوليائه، فأنقذهم وهم على شفا جرف

وانطلق رسول السلام إلى رسول الله (ص) يخبره الخبر، (. . . وطارت الهيعة تجمع شتاتهم على باطل، فهم هناك في الظاهرة، تكاد نقمة الله أن تنحط عليهم فيرتدوا كافرين)

فخرج إليهم رسول الله (ص) قبل أن يبلغ الشيطان غايته. . . خرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم وإن سيفاً يوشك أن يقرع سيفاً، فناداهم: (يا معشر المسلمين، الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم، بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألّف به بين قلوبكم)

وأفاق الأنصار من ذهول حين هبطت كلمات الرسول (ص) على القلوب برداً وسلاماً، فبدت لهم سيئات ما عملوا وتخاذلت أيدٍ كانت تحمل السلاح، وأقبل بعض على بعض يتعانقون ويبكون؛ وانسل الشيطان من بين الفريقين وقد كبته الله، وارتد عدو الله شاس يستشعر ألذلة والهوان. وتصافت قلوب كانت توشك أن تتهاوى على أسنة الرماح لأنها أصغت إلى حديث الشيطان ساعة من الزمان. . . تصافت، لأن قوة الإيمان سماوية تترفع - أبداً - عن الحزازات الأرضية

(المحلة الكبرى الثانوية)

كامل محمود حبيب

من خلال التاريخ

بَّناءون مَنْسيُّون في تاريخ الإمبراطورية البريطانية

للأستاذ محمد عبد الغني حسن

تقابل الإمبراطورية البريطانية اليوم محنة قاسية، هي شر ما ابتليت به في تاريخها. ولا نستطيع أن نسبق الحوادث، أو نحكم على المستقبل، فإن في ذلك رجماً بالغيب ورمياً بالمجهول. ولكن الذي لاشك فيه أن هذه الإمبراطورية الواسعة الأطراف تتماسك على المحن وتزداد صلابة على الحوادث؛ وإذا كان في الماضي والحاضر دلالة على الآتي وعنوانٌ على المستقبل، فإن ماضي الإمبراطورية وحاضرها يبشران بمستقبل تعود فيه الأمور إلى قرارها، وترجع الأحوال إلى نصابها

ولم يسبق في تاريخ البشرية الحافل ومعرضها المملوء بالحوادث الجسام والأحداث العظام أن تجمع الملمات والظروف القاسية قرابة خمسمائة ألف ألف (500مليون) من أناس يختلفون في العقيدة، ويختلفون في لغاتهم وألسنتهم، ويختلفون في ألوانهم، فتراهم جميعاً صفاً واحداً وبناء متماسكاً: تؤلف المصالح المشتركة والعواطف المتحدة بينهم

ولقد قامت في التاريخ إمبراطوريات عظيمة: كالإمبراطورية الرومانية، والإمبراطورية المصرية القديمة، والإمبراطورية الإسلامية؛ ولكنها جميعاً انتابها ما ينتاب الكائنات: فطويت أخبارها وضاعت مقومات وجودها، ولم يبق إلا ذكر يتردد في أسفار التاريخ ولكل إمبراطورية بناءون اشتركوا في بنائها ووضعوا فيها اللبنة فوق اللبنة، والحجر فوق الحجر، حتى ارتفع البناء واستطال في الجو؛ وبعض هؤلاء البناءين مشهورون معروفون تردد الألسنة ذكرهم، وتقترن أعلامهم دائماً باسم الإمبراطورية التي أقاموا بناءها ورفعوا لواءها؛ وبعض هؤلاء البناءين منسيون مغمورون لا يهتف باسمهم لسان ولا يتردد ذكرهم على فم، على حين تبقى أعمالهم خالدة دائمة، لا تنتسب إلى صانع ولا تنتمي إلى مؤسس وهؤلاء المنسيون في كل أمة، وفي كل واد، وفي كل ناحية من نواحي الحياة. ففي بنائي الأمم منسيون، وفي العلماء مغمورون وفي الشعراء والأدباء مطويون مقبورون

وليس من الحق أن يطول الأمد على نسيان هؤلاء الناس، وليس من العدل أن تظل أسماؤهم مكتوبة وحياتهم غامضة؛ وليس مما يشرف الإنسانية أن الجور يجري على أحكامها، وأن المحاباة تدخل في تقديرها وحسابها، فهي اعدل من تُطلب عنده النصفة ويلتمس منه التقدير

وفي تاريخ الأمة الإسلامية كثير من أمثال هذا النسيان، كما في تاريخ غيرها من الأمم. فليس من العدل أن يذكر اسم (الحجاج بن يوسف الثقفي) في توطيد الملك لبني أمية وينسى عشرات غيره ممن لا يقلون عنه يداً في دعائم التثبيت. وليس من الحق أن يذكر أبو مسلم الخرساني في الدعوة للدولة العباسية وينسى غيره ممن ساعدوا في بناء هذا الملك الذي يقول فيه الشاعر العباسي:

أصبح الملك ثابت الأساس ... بالبهاليل من بني العباس

نعم إن في بناء الممالك وقيام الإمبراطوريات عوامل أخرى تقوم بجانب العوامل الشخصية؛ وإذا كانت هذه العوامل الأخرى تذكر في معرض البحث ومجال الدرس ويلقى عليها ضوء يكشف عن دجاها، فإن العوامل الشخصية أحق بأن تذكر جميعاً، وألا يطوي النسيان واحداً أو اثنين أو جماعة منها

والذي يتتبع تاريخ الإمبراطورية البريطانية يجد فيها أسماء كثيرة يعرفها كل شخص، ويرددها كل لسان، يلقنها الطفل في مهده، ويقرأ عنها في دراسته الأولى، ويستزيد البحث عنها كلما كبرت سنه، وكثر ميله إلى المعرفة، وزاد شوقه إلى الاطلاع فهناك (رودس) وأعماله الخالدة في جنوب أفريقية، وهناك (كوك) الملاح المستكشف الرحالة الذي راح ضحية مغامراته العظيمة فقتل بأيدي جماعة من سكان جزائر ساندويتش الوطنيين، وهناك (وولف) القائد العظيم الذي وطد للإمبراطورية في كندا وظهر في حصار (لويسبرج) واحتلال (كوبيك) في مفتتح القرن الثامن عشر؛ وهناك (نلسون) أمير البحر العظيم الذي جرح جرحاً بليغاً في معركة الطرف الأغر ضد الفرنسيين فلم يمنعه ذلك أن يقوم بواجبه وهو في ساعة النزع الأخير، وقد حشرجة نفسه وضاق بها الصدر

وهناك (دريك) (وكلايف) الذي مكّن لإنجلترا في بلاد الهند الواسعة وجعلها ملكاً للتاج البريطاني. وهناك عشرات غير هؤلاء يعرف الناس من أنبائهم الكثير

ولكن من سمع في تاريخ الإمبراطورية البريطانية عن (كلسي)؟ ومن حفظ اسم السير (جون ريتشاردز)؟ ومن خطر على باله أن يذكر في معرض الحديث عن القارة المجهولة

الأفريقية اسم (موفات)؟

هذه أسماء ثلاثة لا أظن أن قارئاً سمع بها أو عرف نبأ عنها. فهي مطوية في تاريخ الإمبراطورية مسدول عليها ستار كثيف من النسيان؛ إلى أن تناولها الكاتب الإنجليزي الكبير (آدام بوزويل) في إحدى المجلات الإنجليزية من شهور قريبة، وعرف كيف يقدمها إلى قرائه في إنصاف بعيد عن التهويل والتهليل، وتجنب أن يضفي عليها ثوباً فياضاً من المبالغة والخيال. أما (كلسي فقد نشأ وضيع المنشأ، فقير الأهل صرعه الجوع يوماً فسقط مغشياً عليه، فالتقطه أحد الموظفين بشركة (هادسون باي) وحمله معه على إحدى البواخر حتى بلغا (فورت نلسون)، وهو بناء خرب متصدع الأركان يحيط به فضاء موحش، وهناك قام عمل الفراء على يد هذه الشركة

وكان (كلسي) غلاماً شقياً لا يطيع أمراً، ولا يحترم إرادة، فحمل إلى الحاكم فأمر بجلده. وتقلبت عليه سنون سود اختلط فيها بالهنود في كندا وعاش عيشتهم، وأخذ أخذهم، إلى أن حان له وقت البناء لمجد بلاده فألّب الهنود على الفرنسيين في كندا، وكان الهنود يحبونه ولا يعصون له أمراً؛ فانهالوا على الفرنسيين من كل جانب وأخرجوهم، ومكنوا للإنجليز في السلطان

وكانت القبائل تدخل في طاعته، وتنقاد إلى زمرته بدافع من المحبة له، وهو أول إنجليزي كشف شمال كندا الغربي وأضافه برمته إلى أملاك الإمبراطورية

أما (جون ريتشاردز) فكان ابن فلاح من غمار الناس لا من خواصهم. دخل في الجيش جندياً صغيراً جداً لا يؤبه له ولا يعتد به، ثم أصبح في زمن يسير قائداً عاماً

وفي أوائل القرن الثامن عشر كان مؤمراً على كتيبة من الجند في مدينة (أليكانت) ببلاد أسبانيا. وقد كان حظ إنجلترا أن تقاتل ضد فرنسا في ذلك الحين. ولكن شجاعة (ريتشاردز) وروحه المعنوية القوية سرت إلى ضباطه الصغار وجنوده، فقابلوا خطراً محققاً من لغم وضعه الفرنسيين لهم، ولم يحيدوا عن أماكنهم؛ أو يتزحزحوا عن مواقفهم؛ إطاعة لأمر قائدهم. وانفجر اللغم فمات منهم عدد كثير. ومات القائد في طليعة ذلك العدد

ولكن موتهم كانت حياة لمن بقى بعدهم. فقد ثبت الباقون منهم أمام أعدائهم، ولم يلقوا سلاحاً أو يرموا عدة من عدد الحرب حتى جاءهم عدد كبير تحت قيادة أمير البحر الإنجليزي
الذي اضطر الفرنسيين إلى الفرار وتولية الأدبار (بنجز)
وبهذه الشجاعة الأدبية الفائقة، والتضحية الحق التي بذلها (ريتشاردز) استطاع عشرات من الجنود الإنجليز أن يعوّقوا عشرة آلاف جندي من الفرنسيين عن القتال، وأن يؤخروهم حتى يجئ المدد ويتم النصر، ويقضي على محاولة فرنسا لتستولي على أملاك الإمبراطورية البريطانية
أما (موفات) فلم يسمع به أحد إلا القليل ممن يقرءون تاريخ الكشف الأفريقي، وأين منه مثلاً الاسم الواسع العريض الذي يتمتع به ليفنجستون؟ والحق أن هذا الأخير قد قرر فيما قرره أن أعماله في أفريقية كادت تكون عملاً مستحيلاً لولا أن (موفات) ذلل له السبيل، ومهد له الطريق
كان (موفات) من أسرة وضيعة الحال، إلا أن ذلك لم يمنعه أن يكون أحد البناءين المنسيين في الإمبراطورية البريطانية. والحق أن بناء الأمم لا يحتاج إلى شخصيات من ذوي الحسب وأصحاب النسب؛ بل كثيراً ما تكون الإرادة القوية والعزيمة الصادقة، والتضحية الفائقة هي العوامل الفعالة في رفع البناء.
وإذا تجردنا من الهوى نجد أن أعظم الدكتاتورين المعاصرين هم من أسر رقيقة الحال، ومن طبقات لم تبلغ مكان السيادة، ولا محل القيادة.
وكذلك كان (موفات). فقد ظل يعمل في أفريقية مدة خمسين عاماً بين زنوج أفريقية. وكان أمة وحده في نشر الدعوة للإمبراطورية في وقت لم تشهد القارة السوداء فيه وجهاً واحداً من ذوي البشرة البيضاء، والعيون الزرق.
ولقد أحبه الرحالة العظيم لفنجستون، ووثق به واطمأن إليه وتزوج ابنته. وكان (موفات) في البعثة التي ذهبت إلى أفريقيا بعد عيشة خمسين عاماً فيها ليبحث عن حميه التائه في مجاهل القارة المظلمة
(مترجمة عن انجلش ديجست)
محمد عبد الغني حسن
كلمة أخيرة
التقليد في الفنون أو نسخ (الكربون)
للأستاذ سيد قطب
التعبير الفني في كل صورة من صوره - أدباً كان أم تصويراً أم نحتاً أم غناء أم موسيقى - هو انبعاث ذاتي، وفيض نفسي، وانفعال شخصي، يتميز فيه كل فنان عن كل فنان
والله الذي جعل بصمات الأصابع مختلفة في كل إنسان - وهي خاصة جسمية - جعل الشعور الإنساني والطبائع البشرية أشد اختلافاً وأكثر تفاوتاً، لأن الملامح النفسية أجدر بالتفاوت والاختلاف من الملامح الجسمية في بني الإنسان
وتفاوت الطبائع الفنية هو المبرر لظهور الفنان بعد الفنان، حتى يكون للحياة من هذه الطبائع معرض حافل بصورها المختلفة، ذلك أن الفن صورة الحياة في نفس فنان، وحين تختلف الصور وتتعدد، يحفل المعرض الخالد بالصور العجيبة
وحين ينعدم هذا التفاوت والتميز المطلوبان في الفنان، ينعدم المبرر الأول لظهوره على مسرح الفنون، ويفقد حجته في تمثيل دوره في الحياة التي لا تحفل بالنسخ المكرورة المعادة، ولا تبالي سوى الجديد المتميز تكثّر به نتاجها الممتاز، وتزيد في معرضها العجيب
تلك بديهيات مقررة، ولكننا هنا في مصر تحتاج أن نبدأ فيها ونعيد وأن نشرحها ونضرب الأمثلة لها، ولو نقلت هذه الشروح والأمثلة إلى أية لغة لكانت عجباً هناك بين القارئين، ودليلاً أي دليل على مبلغ تأخرنا في فهم وظيفة الفنون، بينما نحن في مصر لا نزال في حاجة إلى المزيد!
وقد كان معيباً أن يقلد شاعر شاعراً، وموسيقى موسيقياً، ومطرب مطرباً، في طريقة إحساسه أو طريقة أدائه، ولو كان هذا التقليد غير مقصود، لأنه يعارض غرض الحياة الأول من إظهار فنان بعد فنان، ويعطل وظيفة الفن الأولى من إبراز النماذج والأنماط

وظل هذا التقليد المستتر العارض معيباً، حتى فوجئنا أخيراً ببدعة فاقت كل ما يخطر على البال من جراء المسخ الذي أصاب الغناء المصري، تلك هي ظهور مطرب أو أكثر يقول علماً: إنه يغني على طريقة مطرب آخر، ويذيع فعلاً، فإذا هو صورة أخرى من أستاذه أو نسخة من نسخ (الكربون)!

كنا ننتظر كل مسخ أو تشويه للطبيعة البشرية - ودعك من الطبيعة الفنية الممتازة - إلا أن يصل هذا المسخ إلى رضاء إنسان أن يكون نسخة أخرى من إنسان، ونسخة مشوهة بطبيعة الحال كنسخة (الكربون) بالقياس إلى النسخة الأصلية

ولست أدري ما يبرر وجود النسخة الثانية متى كان في الإمكان الاطلاع على النسخة الأولى. ولست ادري لماذا يكلف إنسان نفسه مشقة الاطلاع على نسختين مكرورتين أو أكثر وفي واحدة غناء عن الأخريات؟

وما أدري أسأل المطرب المقلد أو المطربون المقلدون والمطربات المقلدات أنفسهم هذا السؤال؟ وهل علموا أنهم يلغون وجودهم ويفقدون المبرر الأول لهذا الوجود، أم لم يدر في إخلادهم مثل هذه الأسئلة وهم يندفعون إلى التقليد؟

وبعد فلو عزت الدلائل على المسخ والتشويه الذي بلى به عالم الموسيقى والغناء، ففي هذا التقليد الواضح المكشوف دليل لا ينقض على هذا البلاء، دليل على هؤلاء الذين يتصدون لأرفع وظيفة إنسانية وهم مجردون من المؤهلات البشرية الأولية التي ترتفع بالإنسانية عن التماثل أو التشابه الملحوظين بين حجر وحجر أو زاحفة وزاحفة، قبل أن تتميز الأشكال وتتنوع الأنماط في عالم الطبيعة وعالم الحياة. . .

وهو دليل على أننا لم نكن مبالغين حين نفضنا أيدينا من هؤلاء الناس، ويئسنا من استطاعتهم تغيير أنفسهم وتبديل طبائعهم؛ وحين التفتنا إلى هذه الأمة وحدها نفحص عن نبع مطمور في طبيعتها نرجو أن يتفجر فيكتسح هذه المخلفات

وفي ارتقاب هذه المعجزة نقضي الوقت في تأملات وملاحظات علها تمهد الطريق للنبع المرموق!

يتشقشق العصفور حين تمتلئ حويصلته بالحب والماء، ويحس بالدفْ والراحة، ويأمن المخاوف والأخطار، ويستشعر في قواه فضلة دافقة يناجي بها الأليف، ويطلب لها كفئاً من الأنيس

ويغني الإنسان - على مثال ما تشقشق الطير - حين يجد في نفسه فيضاً من شعور، وفضلة من طاقة، ويحس براحة التعبير، ولذة في التنفيس. يستوي أن تكون هذه الطاقة من لذة أو ألم

وأن يكون ذلك الشعور من نعمة أو بلاء، والألم في هذه الحالة دليل قوة كاللذة سواء، ومبعثه امتلاء النفس بعاطفة ملحة، لإفراغها من الطاقة الدافعة

ولن يكون الغناء في أية حالة من الحالات دليل ضعف وانحسار في الوجدان، ولن ينبعث حين ينطوي المرء على نفسه وتفرغ الطاقة الدافعة في شعوره، فهذه الحالة حين توجد تبعث على الصمت لا على التعبير، وتنزع إلى الانزواء لا إلى الظهور

فالذين يغنون فينضح الضعف في أغانيهم، ويسيل التخاذل في نبراتهم، والتهالك في ألحانهم، هم جماعة من الممثلين الزائفين لا يليق بأمة أن تطمئن إلى قيامهم بأرفع وظائفها وهو التعبير الفني والقيادة الروحية والتطلع إلى الكمال

والحب المظلوم مع المؤلفين والملحنين والمطربين، هو الآخر دليل فيض في القوة لا دليل انحسار. فلن يحب المحب وهو مضعوف هزيل، ولن يبحث عن الحب إلا حين تفيض قواه، ويطلب لهذا الفيض إنساناً آخر يعاطفه ويكافئه؛ حتى الحيوان - لا يحب! - إلا حين تصح بنيته وتفيض غريزته فيطلب الأنثى، ويجهر بالحب على طريقة الحيوان!

وقد يبعث الحب الألم في بعض الأحيان، ولكنه لن يبعث الضعف في حالة من حالاته، ولا التميع في صورة من صوره؛ إلا أن يكون هذا الحب (السوقي) المصطنع الذي يفيض به الغناء في هذه الأيام

إن حرقات الحب في حرمانه غريزة قوية كلذائذه في متاعه، وما كل هذه التكسرات و (المياعات) إلا دنس يلطخ وجه هذا الحب العزيز الكريم، ويشوه جبينه الطاهر النبيل، وما هو إلا مسخ للطبائع وتحريف للغرائز، أوقح ما فيه أنه يتزيا بزي الفنون

ومن المؤلم ألا يكون الغناء وحده هو الذي يقارف هذه الجريمة، بل يشاركه الشعر فيها؛ فإذا الحب بكاء ودموع ولا شيء غير البكاء والدموع. ولن يصاب الحب بالمسخ

فوق هذا المصاب، ولن يبلي هذا البلاء إلا حين تشيخ الأمم ويصيبها الانحلال. ومن هنا نحن نشتد في مقاومته خيفة أن يصدق نذيره في شعب يهم بالنهوض!
إن للحب ألواناً وأنماطاً، وإن له صعوداً وهبوطاً، وإقبالاً وأدباراً، ولذة وألماً، وفيه رجاء وقنوط، ويقين وشكوك، وجموح وانحسار، وقلق واطمئنان؛ وهو في كل حالة من حالاته يثير أحاسيس ويلهم تعبيرات؛ فأين هذا الغنى كله من ذلك الفقر المدقع في عواطف الشعر
والغناء، ومن ذلك الثوب الواحد الذي يرتديانه في كل حال؟
ووراء الحب عوالم أخرى من مباهج الحياة، ومجالي الأطياف والظلال، ومعارض الصور والأشكال، في الطبيعة والكون؛ فأين هذا كله في الموسيقى والغناء؟
أيتها الأمة: إن هؤلاء الذين يهتفون لك بأحط غرائزك، ويتملقون فيك أردأ أحاسيسكن ويخاطبون عندك أسوأ وجداناتك، هم جماعة من التجار المهرجين، يختلسون إعجابك، وينهبون نقودك، ويجزونك على هذا بنشر أسباب الانحلال، وبث عوامل التفكك.
وغريزة الدفاع عن النفس في أبسط صورها كفيلة أن تنبهك أيتها الأمة إلى الذود عن نفسك، وإلى نبذ كل من يخاطبك بغير ما تخاطب به الأمم الناهضة والشعوب الكريمة
وإلى اللقاء - أيتها الأمة - حين تقع المعجزة فينهض فيك فنان في عالم الموسيقى والغناء
سيد قطب
من وراء المنظار
المتعاظم الصغير أيضا
أحب من أعرف من القراء هذا المتعاظم الصغير وما منهم إلا من يراه فيما قرأ عذب الروح خفيف الظل، يرق كثافة ويلطف روحاً، حتى لتكاد ألا تراه إذا وقعت عليه العيون
جلست ذات يوم مع كبير من أصحاب الديوان، جئته زائراً فحسب، فراح - ولعله ظن أني جئته لأمر - يشكو إليَّ من كثرة من يجيئونه من طالبي الوظائف لأقاربهم والمحسوبين عليهم من الناس، وقال وهو يبتسم ابتسامة ساخرة: والعجب أنه كثيراً ما يطلب إليَّ ذلك من لا أكاد أعرف أشخاصهم، فمن هؤلاء من يرى أن مجرد رؤيته إياي مرة في أية مناسبة، كفيل بأن يجعل له حق الوساطة لدي!
وما كاد يتم صاحب الديوان عبارته، حتى ناوله حاجبه بطاقة فنظر فيها نظرة المتسائل وقطب، ثم ابتسم مثل ابتسامته السالفة وقال لحاجبه في شيء من الضجر: أدخله. . .
وفتح الباب، ونظرت، فإذا المتعاظم الصغير يقبل متهللاً فيسلم على صاحب الديوان سلام الصديق على صديقه، وبعد أن سأله كيف حاله وكيف حال أنجاله، وأعاد ذلك مرة ومرة، دنا منه وكلمه كلاماً لم أسمعه، وإنما رأيت في معارف وجهه التوسل والاستعطاف الشديدين؛ وأنصت صاحب الديوان وعلى وجهه إمارات من يكظم غيظه ومن يعاني من ذلك ضيقاً شديداً، ثم نفس عن نفسه بقوله: (يا سيدي الأستاذ هذا ضد القانون) ولكن الأستاذ راح يتوسل من جديد في ابتسامات قردية السمت، وحركات من لَيَّ العنق وإدارة الوجه: مرة إلى اليمين ومرة إلى الشمال، أشبه بما يفعل معك أحد الشحاذين إذا ابتليت به فقطع عليك طريقك
وما فرغ الأستاذ من مسكنته هذه إلا بعد أن راح صاحب الديوان يكرر - وكأنه يصرخ - قوله: (آسف يا سيدي. . . يا سيدي قلت لك آسف. . . لا تؤاخذني. . . آسف. . . آسف)
وبلغ المتعاظم الصغير منتهى عذوبة روحه وخفة ظله، فراح يلقي في روع صاحب الديوان أنه يعرف فلاناً وفلاناً، وأنه له عند (سعادة الوكيل) مكانة خاصة، وأن من أصدقائه كيت وكيت من العظماء والكبراء، وأنه ما جاء يرجو (سعادة البك) إلا لما عرف من كرمه وبره، ثم سأله ليغطي خجله أو ليحفظ على نفسه تعاظمها وقد يئس من التوسل، أيجيب
طلبه إذا ظفر بموافقة سعادة الوكيل عليه؟
وإذ ذاك نهض صاحب الديوان فمد إليه يده يسلم عليه أو يصرفه على الأصح وهو يقول مبتسماً: (يا أخي إن من يعرف هؤلاء لا حاجة به إلى أمثالنا). . . ولم يجد التعاظم بداً من الخروج؛ ونظرت إليه وهو يهز اليد التي امتدت متراخية إليه هزاً قويّاً حماسياً، فلم

. . .!أر في وجهه شيئاً من خجل أو اضطراب
ونظر إلى صاحب الديوان وهو يتنفس الصعداء الطويلة قائلاً وقد رأى في وجهي الاستفهام: (تا لله يا أخي ما أذكر أني رأيته من قبل ولم أعرف اسمه ولا وظيفته إلا من بطاقته!)
وانصرفت من لدن صاحب الديوان فمررت بذلك المتعاظم وقد وقف في ردهة من ردهات الديوان يحيط به بعض الريفيين وسمعته يقول لأحدهم: (خلاص يا مصطفى مسألتك انتهت وستعين قريباً. . . أما أنت يا حسن فأنا ذاهب إلى سعادة الوكيل من أجلك الآن. . . وأنت يا عليّ فكرني بكرة. . . فين عبد السميع؟ موضوعك ينتهي قريباً إن شاء الله، اطمئن. . .)
ومضى المتعاظم الصغير مرفوع الرأس شامخ الأنف يسراه في جيب سرواله ويمناه يلوح بها مسلما على من يعرف ومن لا يعرف ممن يمر بهم من صغار أصحاب الديوان وكثيراً ما كان يكتفي بإيماءة من رأسه العالي أو ابتسامة من ابتساماته العذبة وإن لم يفطن إليه بعض من كان يجود عليهم بهذه التحيات أو كان يحسبها بعضهم موجهة إلى غيرهم لأنهم يجهلون صاحبها، وفي نفسه أنه علم يشار إليه أينما سار؛ وكان كما زعم متجهاً للقاء سعادة الوكيل وإن كنت لأعلم حق العلم أنه لا يعرف عن سعادة الوكيل إلا اسمه وموضع حجرته من حجرات الديوان

الخفيف

البريد الأدبي

خصومة لا عداوة

رأى جماعة من كبار المفتشين وهم الأساتذة جاد المولى بك ومحمد علي مصطفى ومحمود محمد حمزة ومصطفى أمين وأحمد علي عباس، رأى هؤلاء الأكابر بأخلاقهم وآدابهم أن أقف الجدال الذي أثَرتُه في وجه الأستاذ السباعي بيومي، وحجتهم أنه وصل إلى درجات من العنف تؤذي كرامة المشتغلين بخدمة اللغة العربية
وأنا أجيب هذه الدعوة، لأنها أول دعوة كريمة صدرتْ لكفّ الشر بيني وبين من أخاصمهم بقلمي لا بقلبي، فلم أسمع مثل هذا الصوت يوم خاصمتُ رجالاً أعزّاء لم يكن يسرني أن يفصم القلم ما بيني وبينهم من عهود
وإنصافاً لنفسي أقول: إني كتبت ما كتبت وأنا أبتسم. فأنا قد أخاصم، ولكني لا أعادي. فما استطاعت الدنيا بأحداثها الفواتك أن تضيفني إلى أرباب الضغائن والحقود، وإلا فما هي البواعث التي تفرض أن أخص الأستاذ السباعي بالعداء وهو صديق قديم؟
أنا أُتهم بالقسوة والعنف بغير حق، فما كان من همي في كل ما أثرت من المجادلات إلا إيقاظ الروح الأدبي واللغوي. أما إيذاء الأدباء والباحثين فهو معنى لا يمر بخاطري، لأني أرجو دائماً أن يكون الهدم على عنفه من صور البناء
كان سبب الخلاف هو تبرئة الشيخ المرصفي من تهمة الغرور فما يكون الرجل مغروراً إلا حين يدعي ما لا يملك، والمرصفي من أقران المبرد، وجهد المرصفي في شرح الكامل قد يكون أعظم من جهد المبرد في تأليف الكامل، وستُعرف هذه الحقيقة يوم يقام في هذه البلاد موازين صحيحة لأقدار المفكرين في القديم والحديث. . .
أنا أديت واجبي في صيانة سمعة الشيخ المرصفي، فماذا صنع تلاميذ هذا الإمام الجليل، وفيهم أحمد حسن الزيات، ومحمود حسن زناتي، وعلي عبد الرزاق، وطه حسين؟
ولكن كيف يصنع أولئك الأساتذة في البر بذلك الإمام الجليل. . .؟
أنا أدعوهم إلى تأليف لجنة أدبية يكون عملها إنقاذ مؤلفات الشيخ المرصفي من الضياع. وأخص بالعناية شرح المرصفي على (أمالي القالي) فقد أخذ من وقت شيخنا العظيم سبع سنين، وهو لا يقل عظمة عن شرح الكامل، وقد يفوقه في أشياء
منذ نحو ثلاث وعشرين سنة وقف الخطباء والشعراء في المدرَّج الذي أنشأه الوزير علي مبارك باشا في ديوان المعارف بدرب الجماميز، وقفوا يرثون الشيخ حمزة فتح الله، وكان فيهم محمد الهراوي وعلي الجارم ومحمد الخضري، ثم وقف خطيب خُتمت خطبته بالدمع، فمن هو ذلك الخطيب؟
هو الأستاذ الشيخ محمد المهدي بك، أول أستاذ تلقيت عليه دروس الأدب بالجامعة المصرية؛ فقد كان في خطبته أن جماعة من المستشرقين أرادوا أن يشتروا

مخطوطات الشيخ حمزة فتح الله وأنه أجاب: هذه المخطوطات ملكٌ لوطني!
وقد بكى الشيخ المهدي فأبكاني حين فاه بهذا التصريح النبيل
وأنا من جانبي أذكر أن الشيخ المرصفي كان يصلي العصر بالأزهر منذ نحو عشرين سنة وبجانبه رجل يترصدّه من جماعة الناشرين؛ فلما انتهى الشيخ من صلاته أقبل الناشر يقول: أرجو فضيلة الشيخ أن يبيعنا حق النشر لشرحه على الأمالي. فصرخ الشيخ: هذا شرح لا يشتريه إلا ملك!
وكان ذلك آخر العهد بشرح المرصفي على الأمالي، ومصرُ لا تخلو من عقوق إلا أن يتفضل أستاذنا الشيخ محمد مصطفى المراغي فيشتري هذا الشرح من الورثة قبل أن يضيع كما ضاعتْ مئات وألوف من آثار أصحاب الفضل بهذه البلاد
إن نفعتْ هذه الفرصة بعض النفع في إنقاذ بعض مؤلفات الشيخ المرصفي فسيكون من حقي نحو ضميري أن أتناسى الإيذاء الذي صوَّبته إلى الأستاذ السباعي بيومي، وإلا فسأذكر أني أهنت رجلاً وادعاً بلا نفع ولا غناء، فما آثرت ميدان النقد الأدبي إلا لغرض نبيل هو إيقاظ الغوافي من العواطف والقلوب
المهم هو الظفر محقق لخدمة اللغة العربية، فأين من يستمعون هذا الصوت فينقذون مؤلفات الشيخ المرصفي من الضياع؟ وأين من يذكرون أن الشيخ المرصفي كان أول رجل أقام دولة للأدب واللغة في مطلع العصر الحديث؟
أما العبارات التي آذيتُ بها الأستاذ السباعي بيومي والتي استوجبتْ أن يتوسط بيني وبينه أولئك الأكابر من المفتشين، وهم لي وله إخوان، فأنا أراها عبارات هينة رقيقة، على شرط أن تنبه الغافلين من تلاميذ المرصفي العظيم، وإلا فهي إثمٌ اجترحتُه في بلاد لا تعرف
حقوق الرجال.
زكي مبارك
تصويبات
حضرة الأستاذ الجليل صاحب (الرسالة)
1 - قرأت في العدد 397 من الرسالة الغراء كلمة للدكتور زكي مبارك، توجيهاً لغلطة في ضم الظاء من كلمة (الظرف). فقد قال: (أنا أقول إن الظرف قد أخذ حكم اللطف من طريق الإتباع، ثم بقى له الحكم مع الانفراد. . والمصريون عرب، وهم لا يخطئون في لغتهم عن جهل، وإنما (يخطئون) لأسرار قد تخفي على بعض القراء، فنتوهمهم مخطئين وهم على صواب) الخ ما قال
ومعنى هذا كله أن الدكتور قد أخطأ، فشقّ عليه أن يعترف بالخطأ، فراح يتلمس أمثال هذه العلل. نحن لا ننكر أن جمهرة المصريين من أصل عربي، وأن لغتهم تتكون من لهجات القبائل العربية التي نزحت إلى مصر، وأنها تشتمل على كثير جداً من الفصيح، وعلى كثير جداً مما يحتاج إلى يسير من التهذيب والصقل حتى يعود صحيحاً. ولكنا ننكر أشد الإنكار أنهم لا يخطئون في لغتهم، بل الخطأ والتشويه فاشيان في صميمها. وما ظنك بأمة خالطت الأعجام من كل جنس قروناً وأحقاباً طوالاً. ولخطر المخالطة والامتزاج جَدّ السلف من اللغويين في ضبط اللغة ووضع قواعدها وجمع مفرداتها من أفواه العرب الخلّص، حفاظاً عليها من أن تتسرب إليها العجمة والتشويه. أفبعد كل هذه المخالطة والامتزاج نجرُؤ أن نحتج بكلام المصريين وضبط للألفاظ؟
ألا إن هذا المذهب إغراء صريح للشباب بالاستهانة بالبحث وأخذ اللغة من مصادرها الصحيحة
وقد اذكرني هذا أني رأيت في الرسالة منذ قريب كلمة لفاضل نبّه فيها الدكتور على أنه من غير الصواب أن يقول: (أمكن له) لأن الفعل متعد بذاته، ولكن الدكتور لم يجبه. وبينما كنت أتصفح للدكتور من بعد ذلك مقالاً في (الرسالة)، وجدته يُؤْثر الخطأ نفسه، حتى لا يقال - فيما أظن - إنه اعترف بأنه أخطأ. وقد يجيب الدكتور عن هذا بأن المصريين
يقولون: (أمكن له) فهو صحيح!
2 - نشب حوار في (الرسالة) بين الدكتور زكي مبارك والأستاذ إسماعيل مظهر حول معنى (الجيل). فأنكر إسماعيل مظهر المعنى المُتعالَم للجيل، وهو أهل الزمن الواحد. وقال إن الكلمة التي تؤدي هذا المعنى هي (الأهل)، وساق نصاً من الأغاني يؤيد رأيه

وقال - مستنداً إلى ما اطلع عليه من المعجمات - إن الجيل هو الصنف من الناس، فالمصريون جيل، والترك جيل. . . الخ، وأصر الدكتور زكي مبارك على أن المعنى المتعالم يُقصد أيضاً من (الجيل)، ووعد بمواصلة البحث حتى يأتي بالدليل. ولكنه لم يأت به بعد

وإني أدله على دليل: ففي (المصباح المنير) في مادة (ق ر ن) ما يأتي: (والقرن الجيل من الناس. قيل ثمانون سنة. وقيل سبعون) فأنت ترى أن للجيل معنيين قد نُص عليهما

أما (الأهل) التي بها الأستاذ مظهر من الأغاني فيظهر أنها قد تنوسيت لذلك المعنى. فأهمل استعمالها

3 - قرأت في مجلة (الثقافة) كلمة تحت عنوان: (مفاتح جمع مفتح لا مفتاح) قال فيها الكاتب بعد كلام: (والواقع أنه (أي مفتاح) جمع مفتح بالكسر. وهو الآلة التي يفتح بها. أو جمع مفتح بفتح الميم. وهو المكان لا جمع مفتاح. . . الخ. ولو كلف الكاتب نفسه المراجعة لما قال هذا القول. ففي المختار: (والمفتاح مفتاح الباب. وكل مستغلق. والجمع مفاتيح ومفاتح أيضاً). وفي هذا كفاية. ولا ضرورة لهذه الفلسفة الصرفية التي لجأ إليها الأستاذ الكاتب

ا. ع

صواب بيت

في عدد مضى من الرسالة، كتب الأستاذ الباحث (عبد المتعال الصعيدي) كلمة قصيرة، بعنوان خطأ بيت في النحو، اتهم فيها علماء النحو - جميعاً - من يوم أن كان هذا الفن بالبصرة والكوفة إلى أن باض وأفرخ في صحن الأزهر الشريف، ونسب إليهم من السهو والغفلة الكثير الجم، إذ أجمعت مؤلفاتهم وأفكارهم على أن (أو) في البيت:

لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى ... فما انقادت الآمال إلا لصابر

بمعنى (حتى) التي هي للتعليل أو الغاية وقد هداه بحثه إلى أن هذا المعنى الذي جاءت له (أو) لم يكن واحداً مما استقصاه ابن مالك في قوله:

خيْر أبح (يأو) وأبْهم ... واشك وإضراب بها - أيضاً - نمى

وربما عاقبت الواو إذا ... لم يلف ذو النطق للبس منفذا

والذي يقرأ الكلمة لأول وهلة، يخيل إليه أن الأستاذ هدم ما بنى البانون، وقوض ما شيد المشيدون في حين أن المسألة - كما يقولون - ليست مما يقال في أمثالها (قضية ولا أبا حسن لها) فإن هذا الذي يقوله ابن مالك، خاص (بأو) التي تتمخض للعطف. . . أما هذه فإنها تكون بمعنى (إلى) إذا كان ما قبلها مما ينقضي شيئاً فشيئاً كالبيت المذكور. . . وتكون بمعنى (إلا) إذا كان مما ينقضي دفعة واحدة. . . كقول زياد الأعجم:

وكنت إذا غمزت قناة قوم ... كسرت كعوبها أو تستقيما

وتكون بمعنى (لام التعليل) كما يقول القائل: لأعطين الفقير أو يرق لي قلبه. . . على أننا لو رحنا نتلمس (لأو) في كل هذه الأمثلة معنى حرف من الحروف التي جمعها صاحب (الألفية) في بيته - خير أبح إلخ - لما ضاقت علينا السبيل

وهل المعنى في البيت (لأستسهلن الصعب) سوى (ليكونن مني استسهال الصعب وإدراك المنى). . . وهكذا دواليك. . . وقد كان مما يؤثر عن علمائنا، أن نكت النحو - كالورد - تشم ولا تدعك.

إبراهيم علي أبو الخشب

القصص

. . .مازبا

للأستاذ محمد محمد مصطفى

ليست قصة الصبي البولوني (مازبا) من نسج الخيال. فلا تزال حوادثها مصورة على جدران كنيسة (سانت ماري) في مدينة (جالاتز) برومانيا).

قالت الأميرة (أوجستا) لخادمها وهي تحاوره:

- إني لأعجب من أمر الصبي القائم بباب قصري لا يبرح مكانه منه إلا ليطوف طرفه بنوافذ غرفتي، فإن عرضت لي حاجة خارج القصر علق بي نظره ما يرتد إلا إذا غبت

في حشد الطريق.
فقال الخادم: إنه مازبا يا مولاتي
- ومن يكون مازبا؟
- هو شريد غريب الأطوار طالما رقت له قلوب الناس ولكنه يمتنع عن أن يناله أحد بعطف أو إحسان إلا أجراً لخدمة يؤديها
- وما مقامه ببابي؟
وأرتج على الخادم ولوى شدقيه بكلمات لم تدرك منها الأميرة شيئاً. وكانت لحظة هائلة على الخادم المسكين، أيكذب على سيدته وما كذب في حياته قط. . . أم يقول الحق. . . وياله من حق. . .
أيقول لها إن هذا الشريد هائم بك قد تناهى كل جمال في دنياه إلى صورتك لا يقوم إلا بها، ولا يغمض عينيه إلا عليها؟ أيقول لها: إن قلبه لا يفتر عن الوجيب كلما خطرت أمامه خارجة من القصر أو عائده إليه؟ أيقول لها إنها سافرت إلى الريف أياماً قضاها البائس بين سعير وجده ولهيب حبه؟ أيقول لها إن المدينة كلها تتندر بغرامه وشغفه؟
وقال الخادم أخيراً:
- سليه يا مولاتي فهو أقدر مني على الجواب الصحيح
وخيل لمازبا أن الدهر قد مالأه وأن كل شيء في الوجود يبسم له حين دعاه الخادم للمثول بين يدي الأميرة، وكان يذرع الأبهاء لا تأخذ عينه تحفة، ولا يستوقف نظره أثاث. . . كان كل شيء يبدو في عينيه طبيعياً كأن له به عهداً. ولما أشار الخادم إلى غرفة الأميرة شحب لون الصبي قليلاً ولكنه واصل السير، وقالت له الأميرة: أخلت رقعة الأرض من مكان يأويك فجئت تصوِّب إليَّ في كل حين نظرة المتحين للشر؟
- شر. . . إني لا أحب الشر ومع ذاك فأنا. . . ومن أنا حتى أملك للأميرة شراً؟
وسمعت الأميرة ضجة خارج غرفتها فسألت الخادم عنها فقال:
- إنهن أتراب مولاتي أتين للسمر. فقالت: دعهن يدخلن
وحينما دخلن على الأميرة شدهن وفغرن أفواهن وصاحت إحداهن: يا لمعجزة الحب. . لقد وصل العاشق الشريد إلى مخدع الأميرة. وقالت أخرى:
- بالله لنتركهما يتناجيان فنسمع نجواهما. . . يا للمنظر الفريد والحدث الفذ
وعلت قهقهتن والأميرة تنظر ولا تدرك شيئاً من حديثهن ثم قالت: إنه مازبا يا رفيقات. يبدو أنكن تعرفنه فصحن جميعاً:
- وهل في المدينة من لا يعرفه؟
فقالت الأميرة: لقد كان يرسل إليَّ كلما مررت به نظرة أفاق فأوجست منه شراً. فقلن:
- كيف! ألا تفرقين بين النظرات؟
وأمرت الأميرة خادمها أن يطعمه ويكسوه وأضافت:
- ولكنك يا مازبا ستقيم بعيداً عن القصر فلا تعد إلى مكانك منه مرة أخرى
فقال الصبي بالله يا مولاتي. . . دعيني. . . لا أريد طعاماً ولا رداء، ولا تحولي بيني وبين مكاني فما في الأرض مكان إليّ منه، وما وجودي به بضارك شيئاً
فرقت له نفس الأميرة وقالت: لك ذلك يا مازبا
وحينما هم بالسير قالت إحدى رفيقاتها:
- مسكين! لقد شفه الهوى وأضناه الحب.
ودهشت الأميرة ونادته ثانية وقالت:
- أسمعت يا مازبا. . . إنهن يقلن إنك عاشق مدنف. . . فمن ترى تلك السعيدة التي سلبتك قلبك؟
وأخذت أذنا لا مسكين تتجاوب صدى ضحك الفتيات وقد سمر في مكانه لا ينبس ولا يطرف، وطال صمته والفتيات ينظرن إليه ويضحكن. فقالت الأميرة:
- تكلم يا مازبا. . . من هي تلك السعيدة. . . أتكون بائعة الزهور أم بنت بوابة المنزل المواجه لقصرنا؟
فقال الصبي: لا هذه ولا تلك
- فمن تكون إذاً؟

- إنها فتاة كبدر السماء أنظر إليها ولا أطمع في قربها. يغمرها الترف الذي نأت فيه، وتغمرني الأحزان التي ولدت في أحضانها. على أنه إذا كان ذلك بلاء بليت به فما أسعدني بهذا البلاء، وما أكثر جذلي حين أرقب وجهها في الليالي القمراء كأنها ملك هابط، أو كأنما قد فرت من الجنان حوراء

وأدركت الأميرة من كلام الصبي وضحك أترابها وتدله عيناه وخفق قلبه المتدارك أنها معشوقة ذلك الهزأة الشريد فانتفضت كمن مسها الخبل وصفعته صفعة طار لها صوابه، وأمرت الخادم أن يربطه عارياً على ظهر فرس يطلقها إلى غير وجهه في براري الدانوب

وكان وجه مازبا إلى السماء، والفرس تنهب به أرضاً عذراء لم تطأها قدما إنسان، وطوت في الفلاة أياماً، ثم ظهر لعينيها العمران فاتجهت إليه مسرعة كأنما كانت تحس أن حملها لاغب وهنان. ولما اقتربت الفرس من مضرب قبيلة (ساشا) القوقازية اشتد عليها نباح الكلاب. وسرعان ما رفع الخبر إلى زعيم القبيلة (دروفسكي) الذي انطلق يسائل مازبا عن قصته، ولكن الصبي كان لاه عن لغطهم وأسئلتهم بما قدم إليه من حساء وشواء، وكان لا يفتأ يسأل بين الحين عن فرسه وما قدم إليها من علف وماء.

وقال مازبا بعد ما طعم وروى: أشكر لكم أيها السادة هذا الطعام وهذا الكساء وأستودعكم الله. . . إلى اللقاء

فقال زعيم القبيلة: إلى أين يا مازبا؟

إلى أين؟ حقاً إلى أين؟ عفواً أيها الزعيم فإني لا أعرف إلى أين أذهب. فقال دروفسكي:

- يا بني. إن امرأتي عاقر ولم أعقب ولداً وقد أرسلك الله لي فلا تخفر ظني فيك

- لك ذلك أيها الزعيم على ألا تسألني عن ماضي لأنه قد تصرم وطواه الظلام

وبدت طلائع الفجر ولما يرقأ لعين الأميرة دمع، وطفقت تحدث نفسها: أي ذنب جناه الصبي لأميته على الصورة التي أوحاها لي غضبي ونزقي. الحديث حبه السامي وتدلهه بي. لقد أتيت أمراً إدّاً. وعاشت الأميرة ساهمة واجمة يروعها طيف الصبي يلاحقها في الغدو والرواح

ولا تقول أن مازبا قد سلاها، ولكنه طرحها في زاوية معتمة من زوايا قلبه، وراح ينسج عليها الزمن خيوط النسيان

وتحجرت عاطفته، فوجه كل حبه إلى وطنه الجديد، وتعلم الفروسية على فرسه وعلمها لشباب قبيلته، وأكسبته فطنته ودرايته ومكانته من زعيم القبيلة مهابة كان يزيدها عزوفه عن النساء وبغضه لهن، وكان الزعيم الكهل يفرك يديه سروراً كلما رأى مازبا جالساً على محفته يحكم بين الناس بالعدل ويصرف الأمور بعزم الشباب وحكمة الشيوخ. وحل موعد جباية الضرائب في عام كان الناس فيه يمترون، فجأرت القبائل بالشكوى قائلين: يا مازبا، كن شفيعاً لدى بطرس الأكبر ليرفعها عنا. إنك بمواردنا عليم

ويأسى مازبا لبني وطنه الجديد ولا يدرك فيم تنفق الأموال التي تأخذ منهم قسراً لتحشر في خزائن بطرسبرج فيتصل بزعماء القبائل يحضهم على العصيان والإبقاء على أموالهم قائلاً في حماسة:

- فليأت هذا البطرس هنا ليأخذ منا ضرائبه عنوة إن شاء. يا شباب القوقاز: أفيقوا من سورة الخمر وسحر النساء، وهبوا لنشعل أوار المعركة لتظفروا بالحرية والمجد

وهكذا نفث مازبا في روح القبائل جمراً من الوطنية يستعر ورغبة جامحة إلى خوض ميدان القتال. وكان بطرس الأكبر داهية أريب، فأقام ليلة عيد الميلاد حفلاً هائلاً دعا إليها الملوك والأمراء من كل قطر ومصر، واستدعى إليه مازبا وأمنه على نفسه ووطنه ووعده بالنظر في رفع ضريبة الدولة على أن يظلل القوقاز تحت حكم الروس

وكان القصر الإمبراطوري شعلة تتوهج بين الدوح السامق والرياض المزهرة؛ وقد نشرت الصحاف مثقلة باللذّ الشهي من ألوان الطعام، وقام وزير الخارجية بتقديم المدعوين إلى بعضهم، فهؤلاء مندوبو فنلندا واستونيا والقابعون على الشراب في البهو الخشبي حكام

سيبيريا والقادمون علينا يا مازبا أمراء وأميرات بولونيا

بولونيا. . . وقبض مازبا على صدره كأن طعنة أصابته: فذعر وزير الخارجية وقال: أبك

يا مازبا؟
- لا. . . لا. . . إنه جرح قديم. . . قديم جداً ولا أدري كيف آلمني الساعة
واقتربت أميرات بولونيا، وكأن أبرز ما فيهن جمالاً أوجستا وشخص مازبا إلى وجهها
. . .المتلألئ، فانبعث غرام عشرون عاماً من قلبه كبركان ثار بعد طول رقاد
وعرفته أوجستا، فجاءته على استحياء، ومدت إليه يدها، وقد تضرج وجهها وخشع
طرفها ونتحت به ناحية، وأخذت تخالسه النظر، وازدحمت الكلمات على شفتيها ثم
قالت: كأني بك طفل الأمس يا مازبا، لم تغير معارفك الحدثان
- طفل الأمس. . . إنه مات في براري الدانوب
- وقلبه وحبه؟
- . . .كلاهما معاً
- ولكني أرى بريق عيناك والتمعاهما بتلك المعاني الغامضة
- . . .تلك أوهام
- إنك تجاهد غرامك يا مازبا، ولقد لقيت قصاصي بما سهرته من ليال أذرف الدمع على
ما قدمت يداي. فهل أنت مقيل لعثرتي؟
- ما كان لي أن أصفح عنك ولا أرى لك ذنباً
- ألا زلت تحمل لي موجدة؟
- لا. . . ولكني أوصدت قلبي دون النساء، ثم إني على موعد مع القيصر، فأستودعك
. . .الله
- . . .مهلاً يا مازبا
ولكنه انسل بين الأضياف، وحينما بعد عنها حدث نفسه:
كادت المرأة تصرعك يا مازبا. . . أيها القلب الخائن، لن أصغي لحديثك المعسول مرة
. . .أخرى
لقد عاهدت نفسي على خدمة وطني الذي أطعمني حين حرمتني هذه المرأة، وكساني حين
جردتني، وآواني حين أطلقت بي فرساً تنهب بي البراري. فليكن جل تفكيري فيك ولك
أيها الوطن أما أنت يا أوجستا، فسأحاربك في قلبي حتى تموتي فيه
وانطلق في طريقه حتى مثل بين القيصر
وقال القيصر لمازبا: لقد رفع إلينا قرار المالية فلم نجد بداً من استمرار الضرائب،
فهل تعدني بشرفك أن تقوم على جبايتها؟
- لقد أقسمت لمواطني أنكم سترفعونها
فقال القيصر لمن حوله: اقبضوا على هذا السيد
وألقى مازبا في حجرة ببرج القصر تحوطه الأحراس، واندلعت الثورة في القوقاز من
أقصاها إلى أقصاها، وأرسل بطرس الأكبر حملة لإخمادها فزادت النار اشتعالاً
وكان الليل قد لف الكون بغلالة سوداء، والقصر ساكن حينما اعترض الأميرة أوجستا
حارس البرج، فأبرزت له أمر القيصر فتخلى الحارس عن لباب. وكان مازبا يقف هادئاً
إلى نافذة البرج كأنما ينتظر أحداً أو كأنه واثق من نجدة القوقاز، وقالت أوجستا:
- تبعث القيصر في كل مكان ولم أبرح مقصورته في الأوبرا حتى وقع على صك العفو
عنك، وقد وعدته أن تقسم لي على طاعته فيما آمرك به. فقال:
- لقد سمع القيصر أني لا أقسم على ذلك
- إن وطنك الجديد في حاجة إليك يا مازبا، فقم الساعة وأخمد فتنته، وانج بنفسك
فإنك لا تدرك أي حتف ستلقاه إن بقيت هنا ليلة أخرى
- واستقبل مازبا استقبال الفاتحين، وكانت الفتيات ينثرن في طريقه الورود والرياحين،
وكان ألمه بادياً لما حل بقومه على يد جنود القيصر. وقابل قائد الحملة وطلب منه أن
يرحل فوراً عن أراضي القوقاز، وقال قائد الحملة إنه موفد من قبل القيصر وليس
لأحد أن يأمره سواه. فقال مازبا: إذا هي الحرب
وطلب القائد من بطرس الأكبر مدداً سريعاً فأرسل إليه جيوشاً جرارة لم تصمد لها
جموع مازبا التي دافعت عن وطنها دفاع الأبطال وأحرقت عاصمة القوزاق وانتقم
منهم جنود القيصر أبشع انتقام. وفر مازبا إلى سلطان تركيا عدو القيصر ليجيره ويمده

بعتاد يستطيع بها مواصلة القتال ولكن السلطان اعتذر له ونصحه بإلقاء السلاح. وهكذا تخلى الحظ
الباسم عن الزعيم الشريد فصوحت به الأيام من بلد إلى بلد يفلح في الأرض لهذا ويحتطب لذاك
وكنت تراه بوجهه الكابد قابعاً في أسماله ومزقه يصطلي النار التي يضرمها في إحدى الخرائب فلا تصدق إنه ذاك الذي كان يغشي الولائم في أبهة الأمراء
وفي قرية (كييف) عثر حطاب في الغابة على جثته فأمر قسيس القرية بإلقائها في مقبرة المجهولين الغرباء
محمد محمد مصطفى
بإدارة مدرسة البوليس
العدد 402 - بتاريخ: 17 - 03 - 1941
العصبية داؤنا الموروث
كنا ستة في أحد مجالس القطار السريع الصاعد إلى القاهرة. وكانت غريبةُ الغرائب أن يجتمع في هذا المجلس الطائر القلق ثلاثة ينتسبون إلى ثلاثة أحزاب سياسية، واثنان ينتمي كل منهما إلى فرقة دينية؛ وكنت أنا وحدي المستقل فيما بيني وبين الله والناس. وكان مما ليس بُد منه أن يترامى بهم الحديث إلى ذكر ما يشغل الخواطر من شؤون الدين والسياسة والحرب؛ فكان لكل منهم هوى لا يتابعه هوى، ورأي لا يشايعه رأي، حتى انقلب الحديث اللطيف جدلاً صخاباً لا حيلة فيه إلا للإشارة العنيفة والحنجرة الصُّلبة
حينئذ ابتلعت لساني ودخلت في نفسي وتركت هذه الأفواه يقذف بعضها في وجه بعض؛ ثم أخذت أفكر في هذه الصدَعات التي مزقت الكلمة وفرقت الدين، وجعلت بعضنا يبني وبعضنا يهدم، وأحدنا يسوق والآخر يعوق، فلم أجد لها مصدراً تشتق منه إلا العصبية!
تصورت في هذا المجتمع الصغير، صورة ذلك المجتمع الكبير، فعجبت كيف يتسنى في هذا الجمع الشتيت أن يتفاهم لسان ولسان، ويتآلف قلب وقلب، وتتعاون يد ويد، حتى يجوز أن تنتج من اتحاده قوة، وأن تنشأ من آحاده أمة!
الفرد في نفسه هو كل الناس، وشيئه في عينه هو كل شيء، ورأيه في عقله هو كل رأي؛ وذلك داء موروث من أدواء العصبية التي أفسدت كيان العرب وأوهنت بناء الإسلام بما يلازمها من حب الاستئثار وشهوة الرياسة
لم تمتْ العصبية من حياة العرب إلا فترة موقوتة بحياة الرسول. فلما استعز الله برسوله انبعثت في (السقيفة) بين المهاجرين والأنصار تقول: منا أمير ومنكم أمير. ثم سلطها الشيطان على الخلافة فانقسم العرب إلى هاشمية وأموية، ثم إلى قيسية ويمنية، ثم إلى علوية وعباسية، ثم إلى عربية وشعوبية. وأغراها بالدين فانشعب المسلمون إلى اثنتين وسبعين فرقة، تتقاطع بالظلال، وتتعادى في الباطل، وتزعم كل فرقة أنها هي وحدها الناجية! ولو كان تحزب العرب وتشعب المسلمين لمبادئ تصلحُ الدنيا وتعز الدين، لكان ذلك أخلق بمن جعلهم الله أمة وسطاً، يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويسارعون في الخيرات؛ ولكنهم اختلفوا تعصباً للنفس أو الجنس أو الرأي، وتوسلاً لبلوغ الحكم أو خضوع الخصم أو فتون العامة
وحب الرياسة وشهوة الحكم هما شر أدواء العصبية وبالاً وأشدها استفحالاً في الشرق القديم
والحديث. ولو ذهبتَ تستقري عوامل الشقاق والانشقاق بين العرب في جميع الأطوار والأقطار لما عدوت ما رُكب في طباعنا من حب الظهور، ورغبة التفرد، ورذيلة الحسد إذا جاء الأمة خير لا نصيب لي منه ولا سلطان لي عليه، جعلته شراً يستعان على درئه ببدع تتسم بسمة الدين، وخدع تتستر بستار الوطن. وإذا نهضت في الأمة جماعة للإصلاح ولم يكن لي موضع الرياسة فيها ولا مرجع الفائدة منها، أشعتُ حولها الرَيب، وأطرْت فوقها الظنون، حتى يستوحش من ناحيتها الناس فتفشل
تنازع زعيمان عظيمان من زعمائنا على الرياسة أو ما يشبه الرياسة، فقسما الأمة بنزاعهما قسمين متعارضين لكل منهما آراؤه وحججه ومبرراته؛ وكاد يدخل على الناس

أن هناك مذهبين في سياسة البلد: أحدهما يصل والآخر ينقطع! وكان مبعث الأمر كله عصبية الرأي وشهوة الرياسة.

واجتمع أعضاء مجلس الإدارة لجمعية المعلمين في بغداد يوم أُنشئت لينتخبوا من بينهم رئيساً فلم يفز أحد من الثلاثة عشر عضواً إلا بصوت واحد! ذلك لأن كل عضو منهم أراد أن يكون الرئيس فانتخب نفسه!

أحزابنا السياسية وجماعاتنا الدينية أسماء وأزياء لا تجد وراءها مسمى يتميز من مسمى، ولا جسماً يختلف عن جسم. وإن طالب الثقافة ليستطيع أن يذكر لك في يسر ووضوح جملة الفروق في الوسائل والغايات بين اليسوعية والماسونية والشيوعية والنازية والفاشية، أو بين حزب وحزب من الأحزاب البرلمانية في جميع البلاد الدستورية؛ ولكني أتحدى أستاذ الجامعة أن يذكر لي فرقاً أو شبه فرق بين الوفديين والسعديين والدستوريين والمستقلين والوطنيين والشعبيين والاتحاديين، أو بين الشبان المسلمين، والإخوان المسلمين، والأخوة الإسلامية، والهداية الإسلامية، وشباب الإسلام، ومجد الإسلام، ومن لا علم لي به من هذه الجماعات. ولئن سألتهم ماذا يمنعهم أن يضموا الشتات ويوحدوا الكلمة ويحددوا الغاية ما داموا اخوة في الوطن أو في الله، ليقولنَّ كل حزب منهم: ما يمنعنا إلا أن يكون لغيرنا زعامة الأمة ورياسة الحكومة. ولو سمحت العصبية الآثمة أن يكون للمتحزبين غاية غير هاتين لأمكن الوفاق وسلمت الوحدة؛ ولكن العصبية هي داؤنا الموروث لا يحسمه عنا إلا طِبابُة الذي عالجه به الله ورسوله: محو الفروق بالحرية والشورى، وشفاء الصدور بالأخوَّة والمساواة، ورفع النفوس بالإيثار والتضحية!

ويومئذ يحيا فينا الضمير الاجتماعي فنعمل مرؤوسين ومجهولين، أصدق مما كنا نعمل رؤساء ونابهين، فنخلص للأمة كما نخلص للأسرة، ونحب لعامة الناس ما نحب لخاصة النفس، ونخرج من حدود العصبية إلى آفاق الوطنية سالكين سبيل القانون إلى غاية الحق، كما يسلك هذا القطار صراطه المستقيم إلى غايته المعلومة!

احمد حسن الزيات

الأدب العربي الحديث في مصر الجنوبية

للدكتور زكي مبارك

كان من توفيق الله - تباركتْ أسماؤه! - أن ألتفت إلى الأدب العربي في السودان، فقد تلقيت وتلقّى الأستاذ الزيات رسائل كثيرة تشهد بأن ذلك الالتفات صادفَ هوىً في أفئدة أهل الغيرة على الأدب في ذلك القُطر الشقيق

ومن الحديث المعاد أن أقول: إن المصريين والسودانيين إخوة، ولكن يجب أن نعترف صراحةً بأننا فرّطنا في حق تلك الأخوَّة، فلم نؤدّ لها كل ما يجب من التعهد والرعاية، ولم نبذل في سبيل إعزازها جهداً يستحق التسجيل

ويزيد في الأسف على ما وقع من التفريط أن البرّ بأشقائنا في مصر الجنوبية لم يكن يكلفنا عَنتاً لو أردناه، فالسودان قريب وجوّه مقبول في أكثر الفصول، والاتصال بأهله يفتح أمام قلوبنا آفاقاً جديدة من المعاني الأدبية والروحية، لأنهم يغارون على العروبة غيرةً لا يعرف صدقها إلا من عرف بعض رجالهم الأمجاد، ولأنهم حفظوا عهد الإسلام في أوقات قلّ فيها المؤمن الصادق والمرشد الأمين

ومن المؤكد أن السودان قادرٌ على المشاركة الجدية في إحياء الأدب العربي، فلأهله الأماجد ماضٍ مجيد في خدمة اللغة العربية وإن جهله الأكثرون، ولشبانه في هذا العهد مطامح وآمال، وقد يقدرون بعد قليل على الظفر بمنازل أدبية يصل صداها إلى جميع الأسماع بالبلاد العربية

في السودان تطلُّع شديد إلى الاستفادة من تقدُّم العلوم والآداب في العصر الحديث، ولهذا التطلع سنادٌ مما ورث أهله من معارف العرب القدماء. وإن دام هذا الحال وسيدوم، فلن يمضي إلا زمن قليل حتى يصبح للخرطوم وأم درمان مكان بين العواصم التي تحمل مشاعل الثقافة العربية من أمثال: القاهرة والقدس ودمشق وبيروت وبغداد. . .

أغلب أهل السودان من أرومة عربية، فغيرتهم على العروبة غير طبيعية. يضاف إلى ذلك مُقامهم في بقاع توصف عند القصد في الوصف بأنها الشؤون الذي تذرف ماء النيل، وهو أكواب من التِّبر المذاب

كان من الخطأ البيّن أن نترك أمر التفكير في السودان لرجال السياسة، وهم قومٌ لا يلتفتون
حين يلتفتون! - لغير الاتفاقات والمعاهدات، ولا يذكرون إلا أن السودان جزءٌ من - مصر تعرض لمصاعب قد تزول بعد زمن قصير أو طويل.
والأمة التي تعتمد على ساستها في (جميع) الشؤون، غير جديرة بشرف الاستقلال
يجب على رجال الأدب أن يعرفوا واجبهم نحو السودان، السودان العربي، بغض النظر عن صفته المصرية، فمن التقصير الذميم أن ننسى أن السودان من موائل العروبة، حين نتحدث عن: المغرب واليمن والحجاز وفلسطين وسورية ولبنان والعراق
والعتْب الذي أوجهه إلى أدباء مصر، أوجهه إلى إخوانهم بسائر الأقطار العربية، فقد كان يجب على إخواننا في الشرق العربي أن يذكروا إخوانهم في السودان، فما خلا رأس أديب بمصر الجنوبية من شواغل نبيلة تصل عقله وروحه بأقباس العروبة في هذا الزمان، وإن لمعتْ من أفق سحيق كالأفق الذي تشعْ منه بوارق العروبة بين المهاجرين في أمريكا الجنوبية
أليس من العقوق أن يجهل بعض أبناء العرب أخبار السودان، مع أن السودان يعرف من أخبارهم كل شئ؟
لمصر فرصة من فرص الجاذبية، وهي مكانتها العلمية، وللحجاز فرصة أعظم، لأنه وطن الحرمين الشريفين، والشام معهد ملك بني أمية، والعراق معهد ملك بني العباس، فماذا بقى للسودان حتى يهتم به العرب والمسلمون؟
بقى للسودان حق شريف نبيل: هو تفرده بالصدق الأصيل؛ فما تعب العرب ولا تعب المسلمون في توطيد سلطانهم الأدبي والروحي في البلاد التي ينبع فيها النيل، وإنما صدق السودان للعروبة والإسلام بلا دعوة ولا دعاة كأنه أبى أن يتلقى وحي الهداية عن أحد من الوسطاء
السودان العربي حصن حصين، والسودان المسلم كنز ثمين، ولو صدق جميع العرب والمسلمين كما صدق السودان لخفَّت بليتنا بالخوارج على العروبة والإسلام في بلاد لم يحفظ فيها مجد الآباء غير أفراد لا يزيدون عن مائة مليون، مع أن هَدي العروبة والإسلام كان وصل إلى مئات الملايين
قيل إن أهل السودان وصل عددهم إلى ثمانية ملايين من النفوس، وأقول إنه ثبت عندي
أن أهل السودان وصل عددهم إلى ثمانية ملايين من القلوب، فما في عرب السودان رجل بدون قلب، ولا جاز عند أهل السودان أن يكون الصديق ملكاً في المحضر وشيطاناً في المغيب، وإنما السوداني عدو أو صديق، لأنه يكره الختل والخداع، إلا أن يكون دخيلاً في الانتساب إلى تلك البلاد!
نصحني أحد الأصدقاء بأن أحافظ على الصلوات حين أزور السودان، لأن أهله لا يحترمون غير من يحافظ على الصلوات
فمتى أزور السودان لأعرف المدلول لكلمة الفجر وكلمة الشفق؟
كان أبي رحمه الله يوقظني من النوم لأؤدي صلاة الصبح قبل الشروق، وقد مات أبي، مع الأسف الموجع، ولم يبق لي صديق يذكرني بأوقات الصلوات
فما أسعد المصري المقيم بالسودان، لأن الجو هناك يقهره على مراعاة النوافل قبل أن يقهره على مراعاة الفرائض!
السودان السودان، السودان المسلم، السودان العربي، السودان المصري، وتلك أواصر لا ينكرها إلا جحودٌ أو جهولٌ
إن الذين غلبونا باسم السياسة لا يستطيعون أن يغلبونا باسم الوجدان، فمتى نعرف قيمة ما خصِصنا به من القدرة على الظفر بثقة الأرواح والقلوب؟
مصر غنية بالعواطف، ولكنها لا تعرف كيف تنتفع بذلك الغنى الجميل
مصر التي عذبت زعماءها وهي تذكرهم بواجبهم نحو السودان لم تقهر واحداً منهم على زيارة السودان
أليس من العيب أن يشهد التاريخ أن السودان لم يزره مصطفى كامل ولا سعد زغلول؟
إن الشيخ محمد عبده زار السودان وهو موقودٌ بمرض السرطان، فكانت تلك الزيارة

آية على أنه يعرف معنى الاستشهاد في سبيل الوطن الغالي، ومحمد عبده هو محمد عبده، فمتى يجود بمثله الزمان؟!

أنا أرجو أدباء مصر أن ينسوا الجدل السياسي حول مركز مصر في السودان بعد أن انتهت الأمور إلى ما انتهت إليه، وبعد أن صح أن الهجرة إلى السودان لا تستهوي ألباب المصريين لأن مصر تشدهم إلى ثراها الخصيب بقيود مجدولة من وشائج الخيرات والثمرات، وهم لهذا السبب أزهد الأمم في الانتقال من مكان إلى مكان

كل ما أرجوه من الأدباء والفنانين أن يذكروا أن بلادنا تنقسم إلى شطرين: مصر الشمالية ومصر الجنوبية، فإن فهموا هذا فقد يصبح من واجبهم أن يصطافوا في الخرطوم كما يصطافون في الإسكندرية. ولم يخبرني الأستاذ عبد العزيز عبد المجيد بجديد حين تلطّف فكتب إليَّ يقول: إن جوّ السودان في يوليه وأغسطس وسبتمبر لا يعرف ما سميتُه (وقدة الصيف): لم يخبرني هذا الصديق بجديد فقد كنت أتابع ما ينشر المذياع من درجات الحرارة في الصيف وكان يسرني أن أعرف أن الحرارة في الخرطوم أقل من الحرارة في الإسكندرية بنحو عشر درجات

فما تفسير ذلك؟

تفسيره سهل، فالصيف في السودان هو موسم الأمطار، الأمطار التي تعيش بفضلها مصر الشمالية منذ الأبد الأبيد، فأين الشاعر الذي تهزه هذه المعاني فيعيش موسماً أو موسمين في ضيافة الأمطار بالسودان ليعرف أن المصريين القدماء لم يسموا النيل (حابي) إلا وهم يدركون أنه حباهم الخيرات والبركات، بفضل ما ينقل إليهم من أمطار السودان. والحابي هو الوهاب، وذلك حرف نقله المصريون عن العرب، أو نقله العرب عن المصريين.

أين الشاعر الذي تهزه هذه المعاني فيزهد مرة واحدة في تعقّب أسراب الملاح في الشواطئ المصرية أيام الصيف ليرى بعينيه كيف تقتتل الأمطار في أعالي مصر الجنوبية ليكون من حظنا أن نجد الفرص لملاعبة الأمواج في أسوان والأقصر وأسيوط والقاهرة والمنصورة ودمياط؟

إن مصر الشمالية فتنت أبناءها أعظم الفنون، فلم يعرفوا أن الرواضع مدينة للروافد، وقد يكون فيهم من يجهل الفرق بين الروافد والرواضع

فمتى نصبر على هذه البلادة الدميمة، البلادة التي قضت بأن نجهل كل شئ من الجوانب الروحية والأدبية في السودان، وبحياضه وأرباضه قبائل صحيحة النسب إلى يَعرُب وقحطان؟

كتب الأستاذ الهادي إلى مجلة الرسالة كلمة تحدث فيها عن زعماء السودان، فمن أولئك الزعماء؟ لم أعرف منهم غير اسمين اثنين، مع أني أعرف مئات الأسماء من أهل الفضل في مختلف البلاد العربية والإسلامية، فكيف جاز أن أُطوق بهذا الغُل، وأنا أعرف أن أقبح الأغلال هو غُل الجهل؟

وهل تفردتُ بالجهل حتى أسوق إلى نفسي هذا الملام العنيف؟

لقد شاركني في هذا الجهل جماعة من الفنانين الفضلاء، ألم تشهدوا بأعينكم أفلاماً مصرية أخذت مناظرها من البلاد السورية واللبنانية والعراقية ولم يؤخذ منها منظر واحد من مناظر مصر الجنوبية؟

إن أردتَ التعرف إلى مناظر السودان عن طريق السينما - أو الخَيالة كما يسميها بعض أساتذة اللغة العربية -

فاطلب مشاهدة بعض الأفلام الإنجليزية أو الأمريكية، ولا تنتظر الأفلام المصرية، لأن الفنانين في مصر لم يعرفوا أن في الدنيا بلاداً غنية بالمناظر الطبيعية مثل السودان وهو الجزء الجنوبي من الوطن الغالي

ومع هذا يقال: إن المصريين يقدمّون دروس الوطنية إلى شعوب الشرق!

قد يجيب بعض الفنانين بأن مناظر السودان ممزوجة بسكان السودان وفيهم أقوام لهم أشكال وأزياء ينكرها الذوق الحديث (؟!)

وأقول إن الجمال الحق هو جمال النفوس والقلوب، لا جمال الأشكال والأزياء، فالبدويّ الممزَّق الثياب قد يكون أكرم نفساً وأطهر سريرة من الحضري الأنيق

ولسنا أطفالاً حتى ننخدع بالظواهر الكواذب، وإنما نحن طلاب حقائق، وطالب الحقيقة يعلم كل العلم أنها غانية عن التزيين والتلوين، فمن ظن أنه يؤذينا أو يؤذي تلك البلاد بنقل ما فيها من صور تمثل بعض من يعيشون هنالك على الأساليب الطبيعية فهو جاهل بالقيم الصحيحة لحيوات الشعوب، وهي حيوات تتأثر بظروف المكان إلى أبعد الحدود

وبأي حق نطالب أهل السودان بأن يُستعبدوا كما استعبدنا للأزياء الأوربية؟ وبأي حق يجوز لبعض الموظفين في السودان أن يدخلوا مكاتبهم في ملابس لا ترى الصيف والشتاء إلا بعيون الأوربيين؟

وهل ظفر الأوربيون بالسلامة من سواد قلوبهم حتى نحاكيهم في جميع الشؤون؟ أوربا هلكتْ بسبب التصنع، فلنرحم أنفسنا من مهالك التصنع، ولتذكر أن نجاحنا في ماضينا يرجع إلى فضيلة الاحتكام إلى العقل في جميع الأمور، وهي فضيلة حفظت وجودنا سليما على اختلاف الأجيال

أما بعد فأين أنا مما أريد؟

أنا ماضٍ في نظم سلسلة من الأبحاث عن الأدب الحديث في السودان، ولكن السودان يصدّني عما أريد؟ فكيف وقع ذلك؟

هنا يظهر نضج العقل في تلك البلاد، فما كاد يصل مقالي بالرسالة إلى مدينة الخرطوم حتى سارعت إحدى الجماعات الأدبية هنالك فأرسلتْ إليّ برقية ترجوني فيها إرجاء الحكم على أدب أهل السودان إلى أن أزور السودان. وكذلك صنع الأستاذ عبد العزيز عبد المجيد، فقد كتب إليّ خطاباً قال فيه: إن أدباء أهل السودان مع ارتياحهم للحديث عنهم يرجون أن أؤجل هذا الحديث إلى أن أزور السودان

فهل تعرفون السرّ في هذين الاقتراحين؟

يظهر السرّ جلياً حين تعرفون أني لم أتأهب لإنشاء بضع مقالات للتعريف بالأدب الحديث في العراق تيسيراً لمهمة المدرسين الذين سيتقدمون لمسابقة الترقية للتعليم الثانوي إلا بعد أن كتبت لسعادة مدير التربية والتدريس في بغداد خطاباً أرجوه فيه أن يتفضل فيحدد المعالم الواضحة لأدب العراق، خوفاً من أن يشط قلمي فيخوض في أحاديث ينكرها أهل العراق

فإذا جاز أن أتحفظ في الحكم على الأدب العراقي بعد أن زرت جميع الحواضر العراقية، وبعد أن تعرفت إلى جمهرة أهل الأدب هنالك، فكيف لا أتحفظ في الحديث عن أدب أهل السودان وأنا لم أزر تلك البلاد؟

الحق أن هذين الاقتراحين على جانب عظيم من السداد، وبهما يظهر أنه لا بدَّ من تأجيل الحديث عن أدب أهل السودان إلى أن أتشرف بزيارة ذلك القطر الشقيق؟

ولكن متى! سيكون ذلك بإذن الله في شهر أيلول، وهو موسم طغيان النيل، فعندئذ أزور السودان بصحبة صديق يحبه السودانيون وهو الأستاذ الزيات؛ ثم أكتب عن الجوانب الأدبية، ويكتب هو عن الجوانب الاجتماعية، وبهذا يمكن تسجيل صور صحيحة عن السودان ينتفع بها المتشوقون لأخباره من أبناء الأمم العربية

ثم ماذا؟ ثم أقول: إني علمت أن جريدة (صوت السودان) أخذت تُصدِر أعداداً خاصة في التعريف بأدباء مصر الجنوبية تمهيداً لتحقيق المشروع الذي فكرتُ فيه، فأرجو أن يتفضل الإخوان هناك بإرسال تلك الأعداد باسم: (زكي مبارك بمصر الجديدة) لأستطيع متابعة هذه الدراسات الأدبية، ثم أقول أيضاً: إني أرجو أن يتفضل أحد أدباء (السودان) فيرشدني إلى ما صدر عندهم من المطبوعات الحديثة مع النص على المكاتب التي تبيعها لأقتني منها ما يساعد على فهم هذا الموضوع الجليل.

والمهمّ هو أن نكون رجال أعمال، لا رجال أقوال، فلن يكون الوعد بزيارة (السودان) زُخرُفاً من القول نلاطف به إخواننا في ذلك القطر الشقيق، وإنما يجب أن يكون من نياتنا الصوادق أن نعاون معاونة صحيحة على تأريث الأدب العربي في السودان، وأن نسجل تطوّر الخواطر والأفكار في ذلك الشطر من وادي النيل، النيل الذي فتن (إميل لودفيج) فزاره في منابعه، ثم أنشأ فيه كتاباً خلق للسودان ملايين من الأصدقاء

كان أسلافنا أصدق منا يوم عَبدوا النيل، وكنا عاقين حين اتهمناهم بالوثنية، فما كان التعلق بمصادر الخيرات إلا فنا من الثناء على واهب الخيرات

لما هبطت أسعار الفرنك في فرنسا منذ بضع سنين هتف صوتٌ يقول: أيها

الفرنسيون، انتهزوا فرصة هبوط الفرنك وزوروا أقاليم وطنكم الجميل!
وأقول: إن الحرب قضت بأن تقفَل أبواب أوربا في وجوه المتشوقين إلى ما في أوربا من ملاعب الصيف ومراتع الشتاء، فانتهزوا هذه الفرصة يا أبناء العرب وزوروا أقاليم وطنكم الجميل، على شرط أن تذكروا السودان، فهو اليوم أكبر قارئ للمؤلفات والجرائد والمجلات، مع تفرده بالاغتراب ظلماً عن قافلة الوحدة العربية
وفي ختام هذه الكلمة أذكر بالثناء العاطر ما صنع طلبة كلية الآداب، فقد تألفت منهم بعثة سنة 1938 لزيارة السودان كما تألفت منهم قبل ذلك بعثات لزيارة العواصم العربية، فصنيع كلية الآداب يشهد بأن فيها عقولاً تدرك أن وصل الأمم العربية بعضها ببعض غرضٌ يوجبه الصدق في إحياء الأدب العربي والتراث الإسلامي. وسيكون لكلية الآداب في توكيد هذه المعاني مقامٌ يسجله التاريخ بأحرف مسطورة فوق جبين الوفاء.
زكي مبارك
في العقد - 3
لأستاذ جليل
18 - (ص50) قال زياد: ما غلبني أمير المؤمنين معاوية في شئ من السياسة إلا مرة واحدة: استعملت رجلاً فكسر خراجه، فخشي أن أعاقبه ففر إليه واستجار به فأمنه، فكتبت إليه: إن هذا أدب سوأ من قبلي. . .
قلت: إن هذا أدب سوْء لمن قِبَلي
في (تاريخ الأمم والملوك) لأبن جرير الطبري:. . . فبلغ الخبر المغيرة بن شعبة أن الخوارج خارجة عليه في أيامه تلك وأنهم قد اجتمعوا على رجل منهم، فقام المغيرة بن شعبة في الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:
أما بعد فقد علمتم (أيها الناس) أني لم أزل أحب لجماعتكم العافية، وأكف الأذى. وإني والله لقد خشيت أن يكون ذلك أدب سوْء لسفهائكم، وأما الحلماء الأتقياء فلا. وأيم الله لقد خشيت ألا أجد بداً من أن يعصب الحليم التقي بذنب السفيه الجاهل. فكفوا (أيها الناس) سفهاءكم قبل أن يشمل البلاء عوامكم. وقد ذكر لي أن رجالاً منكم يريدون أن يظهروا في المصر بالشقاق والخلاف؛ وأيم الله لا يخرجون في حي من أحياء العرب في هذا العصر إلا أبدتهم، وجعلتهم نكالاً لمن بعدهم. فنظر قوم لأنفسهم قبل الندم، فقد قمت هذا المقام إرادة الحجة والأعذار
19 - (ص 361) دعني من شعرك الذي لا يأتي آخره حتى ينسي أوله، وقل فيَّ بيتين يعقلان أفواه الرواة. . .
قلت: يعلقان أفواه الرواة. يقال علق به وعلقه. ومن التفريط أن يغفل القاموس هذا حتى يستدركه التاج. قال: (وما يستدرك عليه علق بالشيء علقاً وعلقه نشب فيه).
وفي الأساس والتاج: قال أبو زبيد يصف أسداً:
إذا علقت قرنا خطاطيف كفه ... رأى الموت في عينيه أسود أحمرا!
ومخاطب الشاعر إنما مرغبه سيرورة بيتيه، انتشارهما
20 - (ص346) أخبرني عن مالك فقد نُبئت أنك تتحرّى فيه. قال: يا أمير المؤمنين، لنا مال يخرج لنا منه فضل؛ فإذا كان ما خرج قليلاً أنفقناه على قلته، وإن كان كثيراً فكذلك. . .
قلت: فقد نبئت أنك تتجر فيه
21 - (ص140) قال أبو سعيد المخزومي وكان شجاعاً:
وما يريد بنو الأغبار من رجل ... بالجمر مكتحل بالنبل مشتمل
وجاء في الشرح: الأغبار إما جمع غبر (بالضم) وهو بقية الحيض، أو جمع غبر (بالكسر) وهو الحقد، والذي في الأصول (أغيار) ولم نجد من معانيه ما يناسب السياق
قلت: في البيت تبديل وتصحيف قديمان، وهو في قصيدة صالحة رواها أبو علي في أماليه، وهذه أبيات منها، وفيها ذاك البيت كما بناه صاحبه:
في الخيل والخافقات السود لي شُغُل ... ليس الصبابة والصهباء من شغُلي
ما كان لي أمل في غير مكرمة ... والنفس مقرونة بالحرص والأمل
ذنبي إلى الخيل كَرّى في جوانبها ... إذا مشى الليث فيها مشي مختَبل
ولي من الفيلق الجأواء غمرتها ... إذا تقحمها الأبطال بالحيل

سل الجرادة عني يوم تحملني ... هل فاتني بطل أو خِمت عن بطل
وهل شأني إلى الغايات سابقها ... وهل فزعت إلى غير القنا الذبل
مالي أرى ذمتي يستمطرون دمي ... الست أولاهم بالقول والعمل؟!
كيف السبيل إلى وَرد خُبَعْثِنة ... طلائع الموت في أنيابه المُصُل؟!
وما يريدون لولا الحين من أسد ... بالليل مشتمل بالجمر مكتحل؟!
لا يشرب الماء إلا من قليب دم ... ولا يبيت له جار على وجل
لولا الإمام ولولا حق طاعته ... لقد شربت دماً أحلى من العسل!
ومن طرف أمثاله السائرة - كما يقول الثعالبي في الإيجاز والإعجاز - قوله:
ليس لبس الطيالسْ ... من لباس الفوارسْ
لا ولا حومة الوغى ... كصدور المجالسْ
وظهور الجياد غي ... رظهور الطنافسْ
ليس من مارس الحرو ... ب كمن لم يمارسْ
لما منع أهل مرو أبا غسان الماء، وزجّته إلى الصحاري، كتب إليهم أبو (ص59) - 22
غسان: إلى بني الإساءة من أهل مرو، ليمسّينّي الماء أو لتصبحنّكم الخيل. فما أمسى
حتى أتاه الماء. فقال: الصدق ينبئ عنك لا الوعيد
قلت: الإساءة أو الاستناءة في الطبعات القديمة يصلحها ابن أوس الطائي:
وأغر يلهو بالمكارم والعلا ... إن المكارم للكريم ملاهِ
يمسي ويصبح عرضه في صخرة ... شدخت شواة العائب العضاة
قل للعداة الحاسدية على العلا: ... رغماً لأنفكم بني الأستاه
هو للوفي العهد ظل أراكة ... ولمضمر الشنآن شوك عضاه
(ص 177) - 23
فلولا إدراك الشر قامت حليلتي ... تخير من خطابها وهي أيّم
ولولا إدراك الشر أتلفت مهجتي ... وكاد خراش يوم ذلك يُيتم
قلت: هو الشد في البيتين (أي العدوْ) وشد واشتد: عدا، قال:
هذا أوان الشد فاشتدي زِيمُ
ويُيتم هي يَيتم بفتح أوله، وعين الفعل تفتح وتكسر.
والبيتان في حماسة البحتري في قصيدة لأبي خراش في أول الباب (25) (فيما قيل
في الفرار على الأرجل) وهذه روايتهما هناك:
فلولا دِراك الشد قاظت حليلتي ... تخير في خطابها وهي أيم
فتسخط أو ترضى مكاني خليفة ... وكاد خراش يوم ذلك يَيتم
ثم جعل يتشدد عليهم ويقول (ص254) - 24:
احمل على هذي الجموع حوثره
قلت: يشد عليهم
شد على القوم في الحرب يشِد ويشُد: حمل، وفي الحديث: ثم شد عليه فكان كأمس
الذاهب: أي حمل عليه فقتله، وشدوا عليهم شدة صادقة
وروى محققو الكتاب في الشرح عن الكامل: (ثم حمل (أي حوثرة) على القوم وهو
يقول) وحمل عليهم مثل شد عليهم. وجاء في ص255 من هذه الطبعة: (فشدوا عليه
شدة رجل واحد فهزموه)
قال القَطامي (ص75) - 25:
ومعصية الشفيق عليك مما ... يزيدك مرة منه استماعا
وخير الأمر ما استقبلت منه ... وليس بأن تتبعْه اتباعا
كذاك وما رأيت الناس إلا ... إلى ما جر غاويهم سراعا!
تراهم يغمزون من استركوا ... ويجتنبون من صدق المصاعا!
قلت: استجدت القول فرويته، والقصد هو البحث في (القطامي) في فتحة قافه
وضمها، فقد شغل هذا الاسم فضلاء في القديم وفي هذا الزمان. وسأورد طائفة من
أقوالهم لتزول الشبهة، ويستبين الحق:
قال العلامة الشيخ إبراهيم اليازجي في نقده طبعة (لسان العرب): ضُبط القطامي
بفتح القاف، وصوابه بضمها كما صرح به المؤلف في موضعه
وهذا قول اللسان: والقطامي بالضم من شعرائهم من تغلب واسمه عمير بن شُبيم.

. . .وقد تبع اللسان الصحاح، قال الجوهري: والقطامي بالضم لقب شاعر من تغلب
ولما وقف العلامة الأستاذ الشيخ محمد بهجة الأثري على قول العلامة الشيخ إبراهيم
:كتب في شرحه (بلوغ الأرب) لفخر العراق الإمام الشيخ محمود شكري الألوسي
القطامي بفتح القاف وضمها كما نص عليه ابن الشجري في أماليه، والمجد في
قاموسه، وعبد الرحيم العباسي في معاهده. وقول إبراهيم اليازجي في مجلة الضياء:
إن الصواب الضم، وهم من أوهامه الناشئة من غروره وهوسه، وقلة تتبعه ودرسه.
والقطامي لقب غلب عليه، واسمه عمير بن شييم، وهو شاعر إسلامي مقل، رقيق
:الحواشي، كثير الأمثال، حسن التشبيب وهو صاحب هذا البيت
إنّا محيوك فاسلم أيها الطللُ ... وإن بليت وإن طالت بك الطيل
:الذي انتحل صدره جميل الزهاوي المتفلسف فقال في مدح أمير عربي
!!إنا محيوك فاسلم أيها الملك ... ومصطفوك لعرش شاءه الفلك
وينصر قول العلامة الأثري شيخ العربية الإمام بن جني قال في (المبهج) كتابه الذي
فسر فيه أسماء الشعراء في ديوان الحماسة: القطامي بضم القاف وفتحها هو الصقر
. . .سمي الشاعر (يعني قطاميّنا هذا) به لقوله
وضبط العلامة محمد محمود الشنقيطي هذا (القطامي) بالفتح في (المخصص)
وضبطه العلامة الشيخ سيد بن علي المرصفي في (الرغبة) بالضم، وقال الإمام ابن
.سيدة في المخصص: أبو عبيد: القَطامي والقُطامي الصقر لأنه يقَطم إلى اللحم
وفي التاج: القَطامي ويضم، الفتح وسائر العرب يضمون
فمن المستحسن في طبعة (العقد) هذه أن يضبط القطامي - وتلك قصته. . . - بالضم
والفتح في المتن أوفى الشرح
كلمة حق
الدافع إلى كتابتها
للأب أنستاس ماري الكرملي
كنت اشتريت في 13 فبراير (شباط) من سنة 1934 (كتاب الذخيرة في علم الطب)
المنسوب وهماً إلى ثابت بن قرة، والذي نشره حضرة الدكتور جورجي بك صبحي،
فطالعته مراراً لأستفيد من الوقوف على مصطلحاته، فخاب أملي، ثم كتبت إلى
:حضرة ناشره، بعد مضي نحو من سنة ونصف، أي في 29 يونيو من سنة 1936
بعد إهدائي إليك أعطر السلام وأطيبه، أقول: اقتنيتُ (كتاب الذخيرة في علم الطب)،
فألفيت نسبتهُ إلى ثابت بن قرة غير صحيحة، وإني أوافق وِدمن على أنه ليس لهذا
الرجل الشهير كما ذكرت أنت ذلك، ناقلاً كلام ودمن في ص من مقدمتك الإنكليزية.
وأضنه لواحد من الأقباط من المائة السادسة أو السابعة للهجرة، وكان يجهل كل
الجهل أحكام اللغة العربية، إذ فيه شئ كُثار من الأغلاط، وشئ لا يحصى من أوهام
المصطلحات الطبية المشوهة أقبح تشويه. ثُم جئت أنت، فزدت الطين بلة، والطنبور
نغمة، فصحفت المتن تصحيفاً فظيعاً، وتحريفاً شنيعاً. ولم تجتزئ بذلك، فأتيت
بتصحيفات هي بالحقيقة تقبيحات، وأوردت تفاسير هي من أبعد التأويلات عن حقائق
.العلم، ودقائق العرفان
فقد ذكر المؤلف مثلاً صفةً لداء الثعلب وداء الحية في ص11 عدة أدوية، ومن جملتها
هذه الصفة: (وكذلك ذباب محرق. وكذلك قشور القنفذ وأصل القصب المجفف يدق
ويطلي به). - فقلت في الحاشية تعليقاً على قشور القنفذ: (البندق. (خط جديد).
ومعنى ذلك أن أحد الأدباء الذين اقتنوا الكتاب وضع في مكان (قشور القنفذ): (قشور
البندق). - قلنا: وكان يحسن بك أن تقول: (ما في المتن هو الصحيح وما جاء بخط
جديد أي البندق هو الخطأ؛ لأن المراد بقشور القنفذ هنا، قشور القسطل أي
الشاهبلوط المعروف عند بعضهم بأبو فروة. وسبب تسميته بالقنفذ أن على قشره
شوكاً يشبه بعض الشبه ظَهْر أو قشر القنفذ الشائك
وقلت في الصفحة المذكورة (أو بجلد السمكة الخشنة الجلد وهو السضن) - قلنا:
وليس في لغة من لغات العالم قشر سمكة اسمه السضن (بالضاد) إنما هو السَفَن،
وهو جلد سمكة
تعرف بالأطوم وهي بسين وفاء ونون كما ترى
وقلت في تلك الصفحة: (وتين يابس محرق مذيف) ولم أعثر على فعل (ذاف) بالذال

المعجمة. ولا على اسم المفعول منه (مذيف). والذي أعهده أنه (مدوف)، وزان مخوف بدال مهملة

وقلت - ونحن لا نزال في تلك الصفحة -: (ويجب أن يمنع أصحاب هذه العلة جميع الأنبذة والتملي من الطعام) - والصواب: (والتملؤ من الطعام - ولا أريد أن أمعن في تنبيهي إياك على كل ما ورد في هذا المصنّف من المشوهات، فإنها لا تحصى. ويحتاج القارئ إلى وقت طويل لتحريرها وتحويرها لإعادة النص إلى نصابه. ومع ذلك، يبقى أنه ليس لثابت بن قرة، لأنه كان صحيح العبارة، بديع الكلام، عارفاً بالمصطلحات الطبية كل المعرفة، وواقفاً عليها وقوفاً تاماً. ولما كان الوقت غير متيسر لي في هذه الأيام، لا يمكنني تصحيح هذا الكتاب

(ووفقك الله وسلمك من كل ضر وشر

الأب أنستاس ماري الكرملي

فأجابني حضرته بتاريخ 5 يوليو من السنة المذكورة 1936 بكتاب أحفظه عندي وأنشره مصوراً إن يُنكر على أنه كتبه إليّ لتسود وجوه وتبيض وجوه. فكتبت إليه بتاريخ 19 يوليه من السنة المذكورة ما هذا نصه:

أشكر لكم جوابكم بتاريخ 5 الجاري، ولقد طالعت المقدمة الإنكليزية، وعلمت أن السرعة التي أظهرتم بها هذا الكتاب شفيعة لكم لوقوع الأغلاط فيه؛ لكن هذه الأغلاط جمة، لا تكاد تسلم منها صفحة واحدة. على أن الأغلاط المتعلقة بالكلام المنثور لا أهمية لها، إنما الأهمية في المصطلحات العلمية. وحالما وصل إلى هذا الكنز، كتبت على أول صفحة منه (إنه ليس لثابت بن قرة؛ ومن المحال أن يكون له، لأن عبارته سقيمة ركيكة، مشوهة، كثيرة الأغلاط؛ ومن البعيد كل البعد أن ينسب إلى ثابت. ولا أريد أن أذكر هذه الأغلاط لكثرتها وأنا أنسب هذا الكتاب إلى رجل صنفه في المائة السادسة للهجرة (لا للثالثة)، لأن عبارته عبارة ذلك العصر. ثم إنه استعمل (القنفذ) بمعنى (الشاهبلوط)، بخلاف ما تقول حضرتك، ولا سيما أنك ادعمت رأيي هذا بأن قلت: إن الأصل لجالينوس هو بمعنى الفندق؛ إذن ثبت أن القنفذ هو في عبارة الذخيرة (ص11) حين قوله: (قشور القنفذ)؛ هو هذا النبت لا الحيوان؛ إذ لا يقال للحيوان قشور القنفذ، وهيهات أن يقال ذلك!

ووجدت ابن العوام يقول: إن القنفذ هو الشاهبلوط، وفسره كذلك من نقله إلى الأسبانية والفرنسية - راجع معجم دوزي العربي الفرنسي - فإنه يشرحه هكذا شرحاً صحيحاً مما يؤيد كلام العراقيين، وهذه التسمية لا تعدو المائة السادسة للهجرة.

وهناك شواهد أخر على أن الكتاب ليس لثابت، وذلك من الألفاظ اليونانية والسريانية شوهت أقبح تشويه، وأنا أُجل ثابتاً من ركوب متن هذه الفظائع؛ فالألفاظ انتقلت من مصحَّف إلى مصحف، ومن ناسخ إلى ناسخ، حتى جاءت بتلك الصور الشنيعة، وهي كلها للمؤلف الجاهل لا للنسّاخ - على ما أظن -. والبراهين التي ذكرتموها في النص الإنكليزي، لتبينوا بها صحة نسْبة هذا الكتاب إلى ثابت لا قوام لها، وليست منطقية، بل في نهاية الضعف. وما ذهب إليه هو الحق بعينه، وإن لم يبين لنا الأسباب والأدلة التي دفعته إلى ذلك القول. وإنما نسب الكاتب، أو الواضع، أو المزوَّر هذا الكتاب إلى ثابت بن قرة، ليروجه على الناس، كما فعل كثير من الأقدمين مثل هذه الأفاعيل، وقد اشتهروا بها

أما أن الواضع استعمل مرة شاهبلوطاً ومرة قنفذاً لمسمى واحدة فهذا ناشئ من اعتماده على عدة مؤلفات، وهذا أيضاً لكثير الوقوع في كتب القوم، وعندي شواهد لا تحصى تأييداً لهذا الرأي، ويحتاج هذا التفنيد إلى وضع مقالة طويلة تشرح فيها ملاحظاتي ولولا كثرة أشغالي لفعلت

وعلى كل حال إني شاكر لفضلكم وحرسكم الله

الأب أنستاس ماري الكرملي

هذا ما كتبته بيدي الفانية. وأما أن أحدهم (رأى عند الدكتور صبحي بك كتاباً بخط يدي أسأله فيه أجراً على تصحيح الكتاب، وأن طبيباً بالقاهرة اتصل بالدكتور صبحي بك يغريه على أن يجيب حضرة الأب إلى طلبه، فرفض صبحي بك معتذراً)

فالكذب ظاهر من كل كلمة من هذه الكلم. فإن كان بيد صبحي بك هذا الكتاب فليظهره للملأ حالاً بلا أدنى تأجيل، ويصوره وينشره ليصدقه الناس، ولا يزيد على ما

عرف به من الكذب على الأموات الكذب على الأحياء، وهذا من الجرأة في مكان ظاهر ظهور النار
على العلم
وإن كان أحد الأطباء قد اتصل به ليغريه على أن يجيب طلبي، فلا بد لهذا الطبيب من اسم يعرف به، فلماذا لم يذكره لنا؟ وكيف يكون لهذه الأكاذيب المنمقة المزوَّرة المزوقة مسحة صدق، والذخيرة طبعت سنة 1928، وأنا كتبت إليه أولى رسالتيَّ في سنة 1936، أي بعد مضي ثماني سنوات على طبعه؟ وأي فائدة من تصحيحي لهذا المصنف بعد تلك المدة الطويلة، وقد انتشر بين الناس، وعرفت أغلاطه، إذ شرقت وغربت، ونسفت هضاب العربية وجبالها ودكتها دكاً لا يرجى بعده بناية في مكانه؟ وأي طبيب فاقد الحظ يعرض مثل هذا العرض، وقد اشتهر غلط ما طبع وذاع بين الخلائق كلها؟ فكل هذه خزعبلات وترهات لا يصدقها أعظم الناس بلاهة فكيف تجوز على الأدباء؟
ولهذا سكتُّ طول هذه المدة ولم أنطق بكلمة، لأن هذه الأباطيل جبال، لكنها من ثلج، تذوب عند إشراق شمس الحقيقة عليها، ولا يبقى منها أثر. إلا أن بعض إخواني في مصر وفلسطين وسورية والعراق ألحوا على أن أقول كلمة الحق، فجئت بها، وإن كنت في غنى عنها.
ومهما يكن من أمر، فأنا أنذر اليوم الدكتور جورجي بك صبحي، وشريكه المدافع عنه الأستاذ الفاضل والكاتب النزيه إسماعيل أفندي مظهر، بأن يثبتا ما تقوَّلا عليّ بإبراز الكتاب الذي كتبته أنا واطلع عليه الفاضل الأديب مظهر أفندي. وأن يذكرا لي صريحاً اسم الطبيب الذي اتصل في القاهرة بالدكتور صبحي بك ليغريه على أن يجيب إلى طلبي، وإن لم يفعلا، فإني أقيم الدعوى عليهما في المحاكم المصرية لاتهامهما إياي بشيء أنا براء منه، ولمعاقبتهما على ما لفَّقا علي بهتاناً وافتئاتا. وسوف تظهر المحاكمة من الجاني ومن المجني عليه، ومن الظالم ومن المظلوم
وأنا أمهلهما ثلاثة أشهر من نشر هذا الإنذار، ليتسع لهما الوقت وليثبتا مدعاهما المختلق من أوله إلى آخره
أما قول الأستاذ إسماعيل أفندي: (فإن الكتاب الذي أرسله (كذا) حضرة الأب إلى الدكتور صبحي بك يسأله فيه ذلك (أي أجر التصحيح)، قد مُزق وألقى به في سلة المهملات مع الأسف الشديد) فهذا عذر أقبح من ذنب. وكيف يكون هذا الكلام صدقاً، وهما يزعمان أني
طلبت به أجراً؟ فلو كان صحيحاً لاحتفظ به الدكتور، أو لنشره بنصه وفصه، إذ هو أمضى سلاح بيده، ليصرعني به ويقتلني شر قتلة؟ - لكنه مزقه (؟!) - قلنا: (إذا كان التمزيق قد وقع حقيقة، ولعله صادق، فهو لكي لا يبقى أثراً في ربيدته، يطلع من يأتي بعده على جهله لمبادئ اللغة المَضريّة ذلك الجهل الذي لا جهل بعده. وحينئذ نطلب من الدكتور النصراني أن يحلف على الإنجيل بين أيدي الشهود في المحكمة أنه تلقى مني كتاباً أطلب به أجراً على تصحيحي لكتابه الذي نشره ممسوخاً باسم. . . ثابت. . . بن. . . قرة!. وأطلب مثل هذا الطلب من الأستاذ المسلم إسماعيل أفندي مظهر فيحلف على القرآن بين أيدي أولئك الشهود، ويؤكد أنه. . . قرأ. . . هذا الكتاب) فإن فعلا - ولا شك في أنهما فاعلان بعد أن بيَّنَّا أكاذيبهما - فإني أتخلى عن دعواي، وأكل أمري إلى الله (والله يعلم إنهم لكاذبون).
الأدلة التي جاء بها الأستاذ مظهر لإبانة أوهامي
أما الأدلة التي جاء بها الأستاذ الجليل إسماعيل أفندي مظهر لتبرير صديقه العزيز الدكتور صبحي بك من الأغلاط التي ركب منها، فكلها موسومة بسمة المنطق المسكت المفحم ودونك أعجمها عوداً، وأشدها هولا ورعوداً:
1 - ليس الأب في حاجة إلى دراهم لأنه راهب. وكأنه لا يحل للراهب أن يسند المدارس، ودور الأيتام، ومعاهد الشيوخ والعجائز، ولا مساعدة الأرامل بأي وجه كان.
2 - إن أصل الكتاب مشوه كل التشويه وهذا وحده يجيز نشر الكتب بأغلاطها من غير تحرير ولا تحوير
3 - إن الأب تعرض لنقد كثيرين من علماء مصر المشهورين، وكان عليه أن يسكت ولا يتعرض لهم ويقدس أغلاطهم.

4 - إن الأب سقط وكبا في دورة المجمع اللغوي السادسة، فمن اللازم إذن أن يكبو ويسقط إلى آخر نسمة من حياته!

5 - ومن آيات منطقه ومقنعات كلامه، هذه الكلمة التي نوردها بحروفها للقارئ: أيليق بنا يا حضرة الأب المهذب أن نسأل: كيف حصلت على لقب لغوي ما دمت تسقط في مباحث اللغة هذه السقطات الشنيعات. . . - قلنا: وهذه الأقوال من أكاذيبه أيضاً، إذ لم أحصل على لقب لغوي من مدرسة أو كلية أو جامعة، أو حكومة، أو دولة ما، ولم ادع هذا المدعى في ما كتبته. ثم لو فرضنا جدلاً أني حصلت على هذا اللقب، فهل لكوني سقطت مرة واحدة في المجمع يدل على تمادي سقوطي؟

فما هذه البراهين النخرة، الواهية الباردة، الخالية من أثر المنطق؟ - إذ كم وكم من الأحفياء الذين سقطوا؟ وهل ما تقوله الدكتور فيشر ومن ما شاء هو الصواب؟ - وقديماً سقط الخليل ابن أحمد وخريجهُ الليث، وكبا أيضاً الفراء والأصمعي وابن مكرم والفيروزابادي والزمخشري وكثيرون آخرون. فهل هذا يدل على أنه لا يؤخذ بما قالوا، لأنهم سقطوا مرة بل مرات؟

6 - وقال أيضاً الأستاذ المفوَّه إسماعيل أفندي: (ولقد يدعي حضرة الأب أنه لا يخطئ، لأنه لو كان يسلم بأن الخطأ واقع من أبناء آدم لما انزلق في نقده إلى حيث انزلق (كذا) 1 هجريه

قلنا: ولماذا لم يذكر لنا غلطاً واحداً من أغلاطنا في تصحيح عبارة صديقه الدكتور صبحي بك؟

7 - وقال أيضاً في ص 1798: (وكلمة أخيرة أتوجه بها (كذا) إلى الأستاذ الفاضل أحمد أمين عميد كلية الآداب، ومحرر الثقافة فأسأله: هل من اللائق أن يوجه على صفحات الثقافة ألفاظ وعبارات كتلك التي وجهها حضرة الأب إلى الدكتور صبحي بك وهو له زميل في الجامعة وأستاذ مثله فيها؟

قلنا: جاء في أمثال الفلاسفة العلماء الرومانيين ; ومعناه: أفلاطون عزيز علي، وأعز منه عليَّ الحق: وجاء في النهاية لابن الأثير في مادة (ع ط ا) ما هذا نصه بحروفه: (هـ. في صفته صلى الله عليه وسلم فإذا تُعُوطِيَ الحق، لم يعرفه أحد. أي أنه كان من أحسن الناس خلقاً مع أصحابه، ما لم ير حقاً يتعرض له بإهمال، أو إبطال، أو إفساد. فإذا رأى ذلك تنمر وتغيَّر، حتى أنكره من عرفه. كل ذلك لنصرة الحق

هذا هو الأستاذ العلامة الكبير ذو الفضائل العلية الممتازة فهو ذا يشار إليه بالبنان، دَيّن، تقيّ، ورع؛ فإذا جاء الحق انتصر له ولم يُحابِ، إذ كل ما يعرفه هو الأمانة والصدق ومكارم الأخلاق، وينسى كل ما لم يكن من هذا القبيل، وهدفه الحق، لأن الحق صورة الله،

ومن أحبَّ الحق فقد أحب الله، وتعالى فوق كل شئ على الأرض. وهذا هو المطلوب من كل إنسان على الأرض؛ والسلام على من اتبع الحق واهتدى، ولم يمار ولم يُداج ولم يلتفت إلى من سواه عز وجل!

3 - شكري لمتوخ للحق ثان

لا أمسح قلمي هذا إلا بعد أداء آي الشكر إلى كاتب كبير النفس، محب للحق حيثما وجده وكل من احتضنه، مقدر للعلم والأدب، ومتوخٍّ للصدق، اعني به الأديب احمد الشرباصي؛ فإنه نشر في (منبر الشرق) الصادر في القاهرة في 17 يناير من هذه السنة مقالة محجّلةً عنوانها: (من هنا وهناك) انتصر فيها للحق المبين وعدل عن محجة الكاذبين، إذ لم يستحسن ما نشره الأستاذ إسماعيل أفندي مظهر، وختم تلك الكلمة البديعة قاصمة الظهور، وفاتكة ما في مفاسد الصدور، فبدَّدت الأكاذيب والشرور، بهذه الخاتمة:

أما تفسير الأستاذ مظهر وكشفه للدافع الذي دفع بالأب إلى نقد الدكتور صبحي فهو -) إن صح - حقيق بأن يحدثَ في الأدباء ثورة، وأن يورث بين الكتاب حرباً تقوِّم المعوج وتهدي الضال إلى سواء السبيل)

لقد صدق - وايم الله - الأستاذ الشرباصي في قوله: (إن صح) إذ هذا الأمر ما صح ولن يصح، إلا إذا غلب الباطل الحق، وهذا لا يدوم إلا ريثما تنجلي الحقيقة بوجهها السافر الوُضَّاء. ولا يقع هذا الوهم إلا في من يخدع بالظواهر، على حد ما يخدع المسافر بالآل

أو بالسراب، ذلكم السراب الذي يحسبه الظمآن ماء. وأما العلماء الحكماء البصراء فهم أبعد الناس عن هذه الخوادع الكواذب. وقانا الله شرها

الأب أنستاس ماري الكرملي

من أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية

الفكر والسلطة

للأستاذ عبد المنعم خلاف

أود أن أعجل بالدخول في هذا الموضوع الذي أثاره الأستاذ الياس إبراهيم بدوي وأثار به قلم الأستاذ الكبير العقاد؛ فإنه موضوع يشغلني كثيراً في هذه الأيام وكنت على أن أفرد له مقالاً من مقالات (أومن بالإنسان) بعد ما أشرت إليه في إحداها فإنه جدير بالعناية؛ إذ التناقض بين السلطة والفكر هو السبب الأكبر في شقوة الإنسان وكفره بنفسه وبالعدالة وبالخير والحياة. فليكن هذا الحديث ملحقاً بتلك الأحاديث وإن لم يكن له عنوانها.

قلت في المقال الرابع من تلك المقالات: إن الإيمان بالعلم وتنظيم الحياة الإنسانية بطرقه وإطلاق الأفكار فيه هو الدين الواحد الذي يدين الإنسانية جميعها وتلتقي عليه بأفكارها وأيديها. . . وقد جعلها تلمس عرشها المرموق وتعرف دولتها المأمولة في مستقبل الحياة

ولكن أين العصا السحرية التي ستفعل في تعديل شهوات الأمم وغرائزها وتعصباتها الذميمة بحيث تجتمع على خدمة العلم والحياة بأفكارها وأيديها؟

ذلك ما يسأل عنه رجال التربية والمفكرون في الدين والاجتماع، رجال التربية فلاحو حقول الطفولة منطقة النمو الدائم وعُلب أسرار المستقبل، ورجال الفكر رسامو المثل العليا القادرون على استدراج الناس إليها وسجنهم فيها

ولكن هؤلاء وأولئك لا يزالون بعيدين عن مقاليد الحكم وتسلم مقاود القطيع بينما مكانهم هناك لو صحت الأوضاع. . . ولا يزال محترفو السياسة والدجاجلة بها المتخلفون عن بلوغ القمة في الفكر والخلق هم الغالبين المتسلطين. . . وهؤلاء هم سر البلاء النازل الآن بالناس كما كانوا في القديم

فأنا أتمنى بذلك أن يكون رجال الحكم في كل أمة هم رجال القمة في الفكر والخلق والقدرة على تربية الشعوب؛ فإن هذا هو الوضع الصحيح للحياة الإجتماعية التي يستقيم فيها كل شئ، ويؤمن المرء فيها بنفسه وبأمته وبالإنسانية جميعاً؛ إذ لا يجد في الحياة تناقضاً بين المثل العليا والقوانين المرسومة في الكتب والواضحة في نظام الطبيعة، وبين الوقائع العملية التي يسير بها الناس. وحيث لا تناقض بين ما في النفس وما في خارج النفس فهناك السعادة وهناك الإيمان وهناك الأمل والعمل المطرد

إن الذي يؤهل الأب لأن يكون قيما في الأسرة، هو بذاته الذي يخول الحاكم والسلطان أن يكون قيما في مجموع الأسر. وأول صفات الأب الفكر والرشد الممتاز والعدالة بين أبنائه والحب لهم جميعاً

والحكم كالأبوة وصاية وخدمة وقيام على الناس بالرعاية والإصلاح والعدل لا سيادة وسلطان أو مكاثرة أو حب تسخير للناس أو طلب للامتياز عليهم أو اتقاء لشرور سلطة أخرى إلى آخر أسباب الحكم التي ذكرها الأستاذ العقاد وبين تفاوتها في القرب من الصواب

وكما أن الأب في الغالب هو أكبر أهل البيت عقلاً وأقدرهم على الكسب والإنتاج والإصلاح. . . كذلك يجب أن يكون (الأب الشعبي) أي الحاكم الراعي

وقد أغفل الناس هذه البديهية في الحكم ووسدوا الأمر إلى غير أهله الطبيعيين، وصار مالكو رقاب الناس وموجهو الأمم غير رجال القمة في الفكر والخلق ومعرفة اتجاهات الحياة، وإنما هم المحترفون للسياسة والجائعون للشهرة والعاشقون للجاه والمناصب والبطش والخيلاء، والجاهلون بعلوم النفس والتربية وأرصاد القدر وسير قافلة الحياة بالأحياء. . . الذين صعدوا إلى المناصب بالمكر والخديعة والدجل السياسي، لا بالطبع الكريم والفكر الناضج والمجهود الصالح والخدمة النافعة. . . الذين نفوسهم نفوس عوام، أو هم جعلوا همهم تمليق العوام والنزول إليهم بدل أن يرفعوهم بالتربية وقسوة الآباء التي لابد منها في بعض الأحيان. . .

ومن رأي أن الأرستقراطية في الفكر ضرورية للاجتماع، وليست مقبوحة

كالأرستقراطية في المال. إذ لو اتبع الحكماء أكثر الدهماء ما خطوا بالإنسانية خطواتها في الترقي، وما وصلوا بها إلى شئ من أسباب سموها وهداها

والمحترفون للسياسة وعشاق المناصب يجعلون همهم تمليق العامة ليركبوها إلى المناصب. أما العلماء والمجاهدون في سبيل الفكر فهم الذين يحملون الناس على أكتافهم إلى واحات السلام والصلاح والانتفاع، وقد يضربهم الناس ويهينونهم كما يهينون الدواب التي تحمل متاعهم، ومع ذلك لا يتخلفون عن أداء رسالاتهم في نقل الناس من سيئ إلى حسن ومن حسن إلى أحسن

إن رجال الفكر المخلصين للحقيقة الباحثين عنها الحالمين بصور الكمال هم وحدهم الذين لا تبطرهم المناصب والرياسات ولا يسعون لها إلا لأنها تمكنهم من تحقيق ما يحلمون به من وسائل الإصلاح وإسعاد الناس. وهم الذين يقيمون السياسة على قوانين الفضيلة لا على الختل والخداع وتصيد المال والخيلاء بالجاه

واعتقادي أن شقاء الإنسان السياسي ناتج من أن رجال السياسة الآن صاروا بعيدين عن الأفكار العليا الحرة، وصاروا تابعين لرجال المال الذين يبعدون عنهم كل ذي فكر وأحلام ومثل عليا في الروح

وعالم المال بؤرة للشهوات العنيفة والغرائز الحادة، والمنافسة الذميمة، وحب التملك، وتبرير الواسطة، والخوف من التغيير والتحول

وقد نشأ من اللقاح بين هذين الصنفين: محبي تملك الرقاب ومحبي تملك المال، ذلك الإنسان السياسي الفضيع الذي يخدع القطيع ويلعب به ويحلبه ويسوقه ويذبحه حين الضرورة الشخصية على مذابح الهوان والظلم. ولن تتخلص الأمم من شقائها وفوضى حياتها إلا إذا اختارت رجال حكمها من بين مفكريها الذين لهم روح تحلم بالكمال، ولهم قدرة عملية على التنظيم والإخراج والتنفيذ، ولهم مع هاتين الهبتين شخصية قوية تصون المنصب وتخلع عليه هيبتها وسيادتها الذاتية. فعلى الأمم أن تبحث عن هذا الطراز المفكر الحالم العامل القوى الشخصية بين رجالها وشبابها الناشئين، وأن تربيه في مدارس خاصة بتخريج الحكام يكون لها برامج تكفل إنضاج الفكر الحاكم السائس المربي

وحين يوجد الفيلسوف الحاكم يكون التناسق والتربية النفسية والحقيقة والرضا عن الوطن و (المواطنين)

وقد كان عهد الرئيس الدكتور (مازاريك) في (تشيكوسلوفاكيا) مثالاً صالحاً للحكم تحت وصاية أرباب الفكر الذين لا يخضعون (للروتين) ولا يتحجرون في قوالب الواقع السيئ

فقد فاق (التشك) تحت حكمه جيرانهم جميعاً حتى الألمان، فاقوهم في التنظيم الداخلي والاقتصادي والرياضي والعسكري والاجتماعي. إذ أنهم كانوا تحت وصاية رجل بصير بآفاق الحياة مدرك اتجاهاتها، برئ السيرة والسريرة من آفات محترفي السياسة الطالبين للمناصب ولو لم يكونوا أهلاً للوصاية للعامة، الحاذقين (للمناورات) والمقالب والدسائس مع

الجهل بالإصلاح

إذاً فمن الخير للأمم أن يتولى سياستها رجال الفكر وعشاق المثل العليا وأن يطبقوا حياتها العملية على أفكارهم النظرية السليمة

ولكن هل من الخير لرجال الفكر أنفسهم أن يوسد إليهم أمر الناس وتدبير سياستهم ومعايشتهم؟ إن لذة الفكر المجرد والهدوء الذي يغمر عالمه والأنس به والأحلام فيه والانقطاع إليه شئ عظيم قد يفضله كثير من المفكرين على الاشتغال بصغائر الحياة العملية ومضايقات سياسة الناس وتدبير أمورهم، ولو كان مع هذا جاه ومال وسلطان وقوة وشهرة

بل إن أكثر الذين أخلصوا للفكر والفن يضيقون ذرعاً بحياة الناس العملية ويخلقون لهم جواً خاصاً بهم يعيشون فيه وحدهم ولا يعدلون به سواه. ولذلك قال الجاحظ ما معناه: (ما لذة الأسد بلطع الدم بأعظم من لذة العالم بعلمه). وقال أحد الصوفية: (لو علم الملوك ما عندنا من اللذات لقاتلونا عليها)

وقد صور (جبران خليل جبران) وجدانيْ رجل الأدب ورجل النشب ونَظْريتَيهما للحياة حين قال: (تبادل غني وأديب النشب والأدب، فرأى الأديب ما بيده حفنة من تراب،

ورأي الغنى ما برأسه نفخة من ضباب. . .)

فهل يلذ المفكرين أن ينزلوا عن أبراجهم العاجية المليئة بصور الكمال والجمال والهدوء إلى دنيا الواقع المليئة بالصخب والتشويش والمتاعب؟

وهل من الخير للحياة أن يظل رجال الفكر في نظرياتهم وأحلامهم يتصيدونها من آفاق بعيدة ويؤلفون صورها ويدمنون ذلك وينقطعون إليه، حتى يكثروا أمام الناس صور الكمال، وأن يتركوا للملوك والساسة العمليين أن يأخذوا منها الجانب الذي يروقهم ويحلو لهم تطبيقه في أساليب حكمهم؟ أم أن من الخير للحياة أن يتولى رجال الفكر بأنفسهم تنفيذ ما فكروا فيه ووفقوا إليه ولو قطعهم ذلك عن إنتاج الأفكار الكثيرة الرائعة؟

وهل من الخير للرجل أن يخلد ويذكره التاريخ على أنه مفكر أو فنان أو أن يذكره على أنه حاكم سديد مصلح؟

إن النتاج العلمي والفني قد يبقى كما هو دائماً في الكتب والدواوين والآثار. . . يراه الناس كما كان في عهد صاحبه. . . ولكن نتاج الحكم والإصلاح مؤقت بحياة صاحبه فلا تدركه الأجيال التالية، إلا بالحكاية عنه والسماع. وليس فيه خلود ذاتي كالأثر الفكري والفني، وإنما خلوده بتطبيقه على الحياة العملية. وهذا طبعاً ليس مطرداً ولا كثير الوجود في جميع العصور. . .

فحياة الإصلاح والقوة في زمن عمر بن الخطاب وعمر ابن عبد العزيز مثلاً انقضت بانقضائهما، وصار الحديث عنها حديث حكاية مضى أشخاصها. وقليل أن يقتدي بهما حاكم آخر، ولكن حياة أي كتاب ديني أو علمي أو فني تبقي تمثل نفس صاحبها ومنتجها دائماً. . .

ومع هذا يجدر بنا أن نعلم أن حياة الفكر وحده لا فائدة منها إلا لفترات (الترف العقلي) والترف العقلي كالترف المالي ما هو إلا شهوة. . . شهوة رفيعة

نعم إن للعقل شهوات كشهوات الغرائز! فالمفكر أو الشاعر الذي يتفرغ لعالمه الخاص ويترك العمل على إصلاح ما يحيط به ما هو إلا كالمدمن المستهتر على الخمر أو القمار؛ إذ يغيب عن حياة المجموع ولا يجعل بين عقله النظري والعقل العملي صلة والسؤال الذي يجب أن يقدم قبل البحث في هذا هو: أمن الخير للفرد الفقير المريض المحتاج في الأمة أن تقدم له غذاء ودواء وحياة عادلة أم أن تقدم له لحناً جميلاً أو شعراً رائعاً أو نظرية بارعة؟

إن الحياة العملية هي الحكم في هذا. . . وقد مضى العلم والفكر القديمان اللذان كانا يدوران على الذاتية واللذة الشخصية وأتى عصر الفكر العملي الذي ينتج محصولاً ينفع الناس في مرافقهم المعاشية

فصاحب الفكر التجريبي الآن قد صار صاحب الخطوة والخالد الأثر عند الناس. لأنه يشتغل فيما يعود عليهم جميعاً. . .

وقد لفظت الحياة الحالية كل من يفكر على الأسلوب التجريدي القديم الذي لا ينتج شيئاً يصح انتفاع الناس جميعاً به واحتضنت كل من يقدم لها أعمالاً وأغدقت عليه الثروة والجاه والسمعة. . .

وينبغي أن ينصرف حديثنا هذا إلى غير المفكرين من العلماء الطبيعيين الذين يكشفون عن أسرار الطبيعة. فهؤلاء يجب أن يتفرغوا ويعيشوا في عالمهم وحده إلا إذا كانت لهم قدرة على الجمع بين حياة الحكم وحياة هذا اللون من العلم

أما الذين يفكرون في النظريات الأدبية ويدرسون الاجتماع ويضعون فلسفته فيجب أن يختار منهم من يستطيع الاضطلاع بأعباء الحكم وتطبيق النظريات على الواقع

ويجب أن يعلموا أنه لا فائدة من أن يضعوا كثيراً من النظريات والأفكار ويتركوها دفينة بين دفات الكتب من غير تطبيق؛ وإن المفكر الناجح هو من يصنع فكرة ثم يصنع بها أمة أو جماعة

ويخيل أليّ أن كل المجهودات الفكرية التي ليست داخلة في منطقة العمل هي هوى ذاتي وترف عقلي وأقرب إلى الوجدانيات كالموسيقى والألحان

إننا لا نمسك ديوان شعر أو نسمع ألحان الموسيقى أو نقرأ قصص التاريخ إلا إذا فرغنا

من أعمالنا المعاشية وأقبلنا على أوقات الفراغ نستمتع بها، ولن يقبل على هذه الألوان في كل وقته إلا هاو مستغرق أو محترف مرتزق
وقد يكون من العجيب عند بعض الناس أن يعلموا أنني أعتقد أنه يجب للإصلاح السريع في مصر أن نضحي بعيشة الترف العقلي مدة موقوتة تغلق فيها جميع المعاهد العالية مدة سنة أو سنتين نحشد جميع أساتذتها وطلابها للخدمة العامة والاشتراك في حركات الإصلاح البدائي ونترك التفرغ للبحوث الفكرية والهوايات الفنية ونتفرغ لتدبير أمور الجمهرة الجاهلة من هذه الأمة حتى يعلو مستواها ويتقارب مع مستويات الأمم التي سبقتنا في التعليم والإصلاح
قد يبدو هذا غريباً عجيباً، ولكن هو ما أعتقده. لأني أرى وجود المريض جداً بجانب الصحيح جداً يفقد بهجة الحياة لدي الصحيح، ويؤلم المريض بالحسد والنظر المحروم؛ وأرى أن الأولى للعالم والمفكر ألا يوغل في علمه وفكره، ويترك غيره جهلاء لا يفهمونه ولا يقدرونه
ووجود عدد من جهابذة العلماء عندنا بجانب ملايين الجهلة التعساء المرضى هو بذاته كوجود الميادين والشوارع الجميلة في المدن المعدودة في مصر بجانب آلاف القرى التي تقام من الطين والسرجين والأحطاب والمستنقعات. . .
فعلى هذا ينبغي أن يقدر أدباؤنا ومفكرونا أن عملاً صالحاً يقدمونه في حكم صالح يسعون إلى أن يقوموا عليه، أولى ألف مرة من تقديم قصيدة رائعة أو مقالة بارعة أو فكرة عبقرية غير عملية. . . إذ أن هذا العمل الصالح المثمر أهنأ لدي آلاف من القلوب المحكومة، وأسرع إلى إسعادها، وأدنى إلى أسلوب الله في نفع عباده، إذ أنه يعمل لهم كثيراً في تدبير الطبيعة ولا يتكلم. . . وإن قانوناً عادلاً يضعه لأمته حاكم رشيد لأنفع ألف مرة من جملة كتب تعرض أفكاراً طلية للترف العقلي. لأن القانون العادل يضمن ضرورات الحياة للناس جميعاً. أما كتب الأفكار، فتضمن بعض ترف الحياة لبعض الناس. . .
ولو ترك محمد عليه الصلاة والسلام القرآن من غير أن يترك أمة قد قام عليها بالتربية والحكم والتوجيه والتعليم لظل القرآن ككتاب من الكتب لمؤلف من المؤلفين. . . ولكنه صنع أمة تجسدت في أشخاصها معاني هذا الكتاب ومشت تسعى بهم وصاروا هم كلمات حية تشرح آياته. . .
وأظن أن سعادة الرجل الذي ينجح في تطبيق مشروع يسعد الناس تربو كثيراً على سعادته بإخراج أثر فكري أو فني حبيس في الورق
فليحمل أدباؤنا ومفكرونا نصيباً من الخدمة العملية، وليرضوا أنفسهم على إسعاد القلوب بالأعمال كما يسعدون الآذان بالأقوال، وليجتهدوا أن يحققوا معاني مقالاتهم في أشخاص وأعمال مجسمة، وليسعوا دائماً إلى أن يكون حكامنا وزعماؤنا هم رجال القمة في الفكر والخلق حتى نلائم بين ما في النفس وما في خارج النفس.

عبد المنعم خلاف

الغناء والموسيقى

وحالهما في مصر والغرب

للأستاذ محمد توحيد السلحدار بك

- 1 -

هذه أولى أربع كليمات في الغناء والموسيقى، وحالهما في مصر والغرب؛ وهي ملاحظات عامة لم يُقصد بها إنسان معيَّن، وليس فيها محازبة لمذهب خاص، وعُرضها قد لا يخلو من فائدة
ذانك الفنان يجوز اعتبارهما من وجهين: القواعد الفنية؛ وبواعث الطرب الراجعة إلى ماهية الموسيقى والغناء الأصلية، أي الدلالة الصوتية على الأحاسيس والخواطر
فالغناء تطريب في الصوت في كلام المغني. والكلام العادي كلمات تدل بذواتها وبنسقها على خواطر وأحاسيس تتلوَّن فيه تلون الحال الفكرية النفسية في المتكلم؛ فيتلون صوته بالطبع والتبعية إذ يحدث فيه نبرات متفاوتات، ويجري في سرعة وبطء وخطف ووقف، وذلك كله يقوي دلالات الكلمات والسياق على الخواطر والأحاسيس، لأنه يزيدها وضوحاً وتأكيداً من حيث لا يشعر المتكلم. فهذا الذي يَحدث في صوته دلالةٌ صوتية تصاحب الدلالة الكلامية؛ وهي ماهية الإلقاء، وقد تكون أصدق من دلالة الكلام

الذي تصاحبه: في مثل عبارة معناها ثناء تلقى بصوت يدل على أن المراد بها مُزاح ساخر؛ وفي مثل قول غاضب لمغضوب عليه: تفضَّل، بصوت يعني الطرد مع أن الكلمة مستعملة في التكريم

وما الغناء، على الإجمال، إلا تطريب يُعلى تلك الدلالات الصوتية في اللحن المطابق لمعاني كلام الأغنية، ولمقتضى المقام المعين بهذه المعاني؛ فتعلو الدَّلالات درجات متفاوتات على مستوياتها في الكلام المغَنَّى به لو أن صاحبه الفرضي تفوَّه به، من غير تطريب، في ذلك المقام. يؤيد هذه الحقيقة أن الأغنية إذا جاد لحنها، وأجاد غناءها صوت حسن موافق، كانت معانيها أعظم وقعاً عند السامع منها إذا هو قرأها هادئ النفس، أو سمعها مقروءة بلا ترنيم ولا ترتيل. فمن أين تعلو عنده منزلة هذه المعاني والأغنية واحدة على كل حال؟ أفلا نرى أنها تشرف بتقوية الدلالة الصوتية المبينة عن معاني الكلام وعن

حقيقة المراد به؟ ليس شك في أن السر والسبب المهم هو تقوية هذه الدلالة، والأمر صحيح واضح لا في الغناء وحده بل في الخطابة والتمثيل أيضاً

تلك الدلالات الصوتية تصاغ في نغمات متوائمات محكمات على ضوابط فنية، لتنسجم بالإيقاع في لحن يبرز معاني الكلام المغنى به، وعلى قدر المطابقة الواقعة بين نص الدلالات، أي معاني الملحن، وبين معاني هذا الكلام يطيب الغناء ولو لم يكن صوت المغني من أجود الأصوات

بديهي أن الملحن لا ينطق بالكلام المراد تلحينه، ولا يستعين أحداً ينطق به أمامه، كي يلاحظ ما يقع في مثل هذا النطق من دلالات صوتية ليرفعها في نغمات يصوغها لحناً، لكنه إذا كان حقاً فناناً فقهاً فإنه يتفهم ما في ذلك الكلام من مقاصد وأغراض، ناظراً في دقائق ما يكسوها من معارض وأثواب؛ ويتأمل ما يصور من صور حتى يتوهمها أمام ناظريه، وحتى تستقر في بصيرته وعقله الباطن، وما تصف من أحوال نفسية حتى يجدها كأنها في نفسه هو؛ ثم يأخذ في التلحين متى تهيأت له ملكاته، فيأتي اللحن بطبيعة الحال حاملاً تلك الدلالات، مطابقاً بها معاني الكلام على قدر حساسات الملحن وحسته، ومواهبه ومحصوله الثقافي؛ وإذا كان الكلام أغنية من إنشائه، فقد يكون أقرب إلى السداد في إنشائه لحناً لها

وشأن المغني في التمكن من اللحن وتجويد غنائه شأن الملحن في تلحينه، وذلك هو الأساس والصراط المستقيم إلى الإجادة يهديهما إليه الطبع ونصيبهما من تحصيل أصول الفن ومن فهم معناه، ومن لم يهتد إليه ويوطد صنيعه على هذا الأساس المتين جاء بشيء غير طائل

أما الموسيقى، ففيها الدلالات الصوتية المصوغة في اللحن الذي يخرجه العازفون من المعازف؛ وهذه الدلالات أملتها نفس ملحنه، إما أخذاً عن أحاسيس وخواطر تضمنها الكلام الذي انشأ له اللحن، وإما تعبيراً عن حستها الذاتية حين تيقظت فيها ملكة التلحين، وهي حالة استكنت في أعماق تلك النفس بواعثها من خوالج صاحبها في مدى حياته، ومن أخيلته وخواطره إزاء ما شاهد في دنياه وما أدرك من الكون بشعوره وعقله أو بفضل غيره

تلك الدلالات تؤديها معازف تختص بها، معازف يَحدث من تناسق أنغامها السياق الأساسي في اللحن بينا ترسل معازف أخرى أنغاماً مساعدة، تتلبَّس به متنوعة فيه، متفاوتة ارتفاعاً

وانخفاضاً؛ فهذه تصاحب السياق الصوتي الأصلي وتزينه بتلونها الملائم، إذ تجري معه مؤتلفة، كصورة الظل مع صاحبه، فتزيده جمالاً وروعة، فهي مصاحبة أو تصوير. فما اللحن في الحقيقة إلا تعبير بدلالات صوتية مدلولاتها خوالج وخواطر وأخيلة جالت في نفس ملحنه، أو استعارتها نفسه من كلام لغيره، من فحواه ودقائق معانيه وما تصف.

ومن هنا نظروا إلى اللحن الذي يعبَّر هذا التعبير، ويصور هذا التصوير، نظرهم إلى الكتابة فقالوا: الإنشاء الموسيقي، وميزوا بين إنشاء موسيقار وإنشاء موسيقار آخر، وعرفوا لكل طابعه الخاص

الفهيم المستمع إلى موسيقى جيدة، لا يصاحبها غناء، تصل ألحانها إلى سمعه غير مقيدة دلالاتها الصوتية، أي معانيها، بدلالات لفظية. ولذا تجد نفسه بعض الحرية في فهم هذه الألحان الموسيقية التي تحرك في وجدانه خوالج وأحاسيس، وتثير تداعي

الصور في مخيلته والخواطر في ذهنه، فتذهب روحه مذاهبها في تأويل الدلالات الصوتية؛ فإذا سكنت إليها طرب ووجد الأريحية، وإذا هو آنس منها ما يعيب اللحن أو العزف أو لم يفهمها، أو لم توافق طبعه، فإنه لا تأنس إليها روحه. وعلى قدر موافقتها وسلامتها أو عيوبها يكون الاكتراث لها، أو الاستكراه والنفور منها

أما الغناء الذي تصاحبه الموسيقى ففيه الدلالة اللفظية تَفرض تأدية معان معينة، هي معاني الكلام المغنَّى، على الدلالتين الصوتيتين: دلالة الغناء ودلالة العزف الموسيقي معاً؛ فلا بد من المطابقة والائتلاف التام بين هذه الدلالات الثلاث حتى لا يُعكر نبوٌّ إحداها ونشاز الأخرى صفاء اللحن ونقاء الغناء والموسيقى جميعاً

والكلام الذي يغنِّيه المغنِّي بمصاحبة الموسيقى يصل مع صوتيهما إلى آذان المصغين البصيرين، ويتعيّن معناه اللفظي بيّناً في أذهانهم فيقيد حرية نفوسهم كل التقييد، في فهم تينك الدلالتين الصوتيتين فهماً يغايره، وبذلك يمنعهم من تأويلهما تأويلاً يجعل لهما وقعاً عندهم؛ فإذا لم يكن الائتلاف تاماً بين معاني كلام الأغنية ومعاني لحنها وغنائها ومعاني موسيقاها حال هذا العيب الشنيع دون الطرب، وربما سبب الاستكراه والنفور ولو جاد العزف لآلي وصوت المغني

والمستمع السليم الذوق قد لا يحلل بعقله ما يسمع من الغناء والموسيقى مثل هذا التحليل،

ولكنه لا يطرب من غناء وموسيقى تتنافر فيها تلك المدلولات اللفظية والصوتية؛ لأن عقله الباطن يدرك تنافرها، أو لأنها لا توافق مزاجه الروحي، وإن لم يكن بينها تنافر، أو لعدم وضوح معانيها له، ومدار ذلك كله هو الإدراك والذوق

ولكن الحقائق المتقدم بيانها ما مبلغ علمنا بها يا ترى؟ وهل يُلتفت إليها في بلادنا؟ الجواب في الكليمات الآتية في الأعداد التالية، وحسبنا الآن إشارة

لما دال الدهر القلَّب، وظعت أسباب الانحطاط على الشرق، وتفشَّاه الجهل، وذهبت الأخلاق، وضاعت فيه الآداب والفنون، لم يبق بعدها من الغناء والموسيقى، في الفترة المديدة التي سبقت بدء النهضة المصرية، سوى بقايا ضئيلة ههنا وثَمَّ، مستها الأسواء ولمّا نمعن في البحث عنها وعن أصولها وضوابطها، ولم نحسن الاعتناء بما بين أيدينا منها، ولم ندرك ماهيتها ونبني عليها؛ وليس لنا بد من طور آخر نقضيه متلمسين الفن الحق، متعثرين في سبله

نعم، فإن كثيراً من الملحنين والمغنين والموسيقيين والمستمعين - بقطع النظر عن الأقليات التي تدخل في باب الاستثناء - لا يزالون عندنا من بيئات دون الوسطى، ضئيل محصولهم، أولية عقولهم، ساذجة نفوسهم، سقيمة أذواقهم. وقصارى البارع من هؤلاء الفنانين أن يتقن تقليد ما ترك الجيل السابق، أو أن يعبث بشيء من بعض آثار القدماء، أو أن يمسخ الفن بما يزعم أنه تجديد وابتكار. وكثير من النقاد مثلهم ولم يفطنوا؛ لمواطن الأدواء، فليس في مقدورهم أن يصفوا الدواء، ونقدهم مغترض يساير الشَّهى ويتحرى مظان المنفعة، وخيره أقل من شره، ولو تنزه وصح لكان في مصلحتهم ومصلحة الجميع على السواء.

محمد توحيد السلحدار

-

ذكرى محمد محمود باشا

في ليلة الأربعاء الماضي وعلى منبر الجامعة المصرية أعلنت مصر ممثلة في زعمائها ووزرائها وأدبائها صادق رثائها وخالص وفائها لفقيدها الجليل النبيل محمد محمود باشا.

وكان من خير ما قيل في حفلة التأبين هاتان الكلمتان للشاعرين الكبيرين عباس محمود العقاد وخليل بك مطران؛ والرسالة تساهم بنشرهما في هذه الذكرى الجليلة

قال الأستاذ العقاد:

أكبرتُ في غيب الزعيم محمد ... من كان يكبر حاضراً في المشهد
حجب الردى عنا بشاشته ولم ... يحجب بشاشة ذكره المتجدد
هيهات ينتقص الزمان مجادة ... للسيد بن السيد بن السيد
فخر الصعيد، وفخر مصر جميعها ... بالرأي والخلق القويم الأيّد
من يرسل المثنى عليه ثناءه ... مسترسلا في القول غير مقيد
جمع القلوب على المديح وإن مضت ... نهجين بين مصوب ومصعد

لم نقض في هذي الديار قضية ... ومحمد مما قضوه بمبعد
ملء النديَّ وإن تطامن دقة ... كم دقة شحذت مضاء مهند
في دارة (الفلكي) قبلة كوكب ... يعلو على رصد المنايا الرَّصد
تطوي المغارب جرمه وشعاعه ... متألق في أوجِه لم يخمد
أكبرت مطلعه ولم يك طالعي ... في كل حين عنده بالأسعد
ورأيته أقصى وأقرب رؤية ... فإذا البروج لكوكب متوحد
مهما اختلفت حياله لم يختلف ... سمت السماء ولا علو المقصد
متحرر مما يعاب كأنه ... متقيد المسعى، ولم يتقيد
شفت سرائره فكل سريرة ... فيه تضيئك من سراج موقد
فإذا عهدت المحض من عاداته ... لم تلق يوماً منه ما لم تعهد
عز الكنانة فيه فهي فجيعةٌ ... تبلو الكنانة في الضمير وفي اليد
ما في مروءات الشعوب مروءة ... إلا رعته بنظرة المتفقد
البر، والمشهود من آلائه ... بين المحافل دون ما لم يشهد
ومعاهد التعليم بين مشجع ... للعاملين بها وبين مزود
وإغاثة الأدب اللهيف وإن تشأ ... سرداً فعدد ما بدا لك واسرد
ونزاهة اليد واللسان هداية ... للمهتدين، وقدوة للمقتدي
وصراحة الأخلاق ما اشتملت على ... مستغلق فيها، ولا متأود
والعزة الشماء، إلا أنها ... كالشاهق المخضر لا كالجلمد
وسياسة الوادي ولم يك رابحا ... منها سوى الشجن المقيم المقعد
وعزيمة لا تكره الشورى وإن ... كانت لتكره حيرة المتردد
شيم وآلاء إذا ما استفردت ... كالقطب عزّت في ازدواج الفرقد
عز الكنانة والعزاء ليعرب ... ما بين مُنْهم قومه والمنجد
كم ذاد عنهم والخطوب بمرصد ... والشمل بين مشرد ومبدد
للحق، لا لخبيئة مطوية ... تلقى العداة الرابضين بموعد
ولنصرة الإسلام لا لعصابة ... تسعى إلى الإسلام سعي المفسد
سمح على ما فيه من عصبية ... سهل، وإن أعيا قُوَى المتشدد
لا يستطاع على الخصام عناده ... وعليه تعويل الأخ المتودد
من أكسفورد ولو نماه معشر ... للأزهر المعمور لم تَستعبد
فيه محافظة، وفيه طرافة، ... وأراه في الحالين غير مقلد
ورث الحمية كابراً عن كابر ... والأريحيةَ منجداً عن منجد
غيث الفلاة ونيل مصر كلاهما ... سقياه من أصليه أعذب مورد
فإذا بكت مصر فغير ملومة ... وإذا الحجاز بكى فغير مفند
رحم الإله محمداً وأثابه ... في خلده الباقي ثواب مخلد
كأن السبيل السرمدي سبيله ... فعليه رضوان الإله السرمد
عباس محمود العقاد

وقال الأستاذ مطران:

هل يعالي الذرى مكان اعتصام ... بعد مهواك يا رفيع المقام
ما انتفاع النسر المحلق في الأ ... وج ويرمي به من الأوج رام
أي رزء ألم بالعَلَم الفر ... د فألقى الخشوع في الأعلام
أي خطب أصاب أوحد قوم ... فأشاع الأحزان في أقوام
ما جناه الردى بحجبك عنهم ... سبقته جناية الأسقام
فتحملت في ليال طوال ... ما تحملته من الآلام
كان عمرٌ قضيته في اضطلاع ... بالمعالي وفي مساع جسام
فيه أسرفت بالعزائم حتى ... لكأن المبذول بعض الحطام
جدت في حبك البلاد بأغلى ... ما به جادها شهيد غرام
همم بَلغتك أسمى الأماني ... من ثراء ورتبة ووسام
وأعزَّت بك البلاد وإن لم ... نقض أقصى ما رمته من مرام
فلأمر عاق المهيمن حقاً ... عن قضاء ومطلباً عن تمام
مصر تبكي محمداً بفؤاد ... أثخنته السهام بعد السهام

كلما لاح كوكب في ذراها ... كوَّرته حوادث الأيام
ينقضي الدهر وابن محمود باق ... خالد الذكر في بنيها العظام
الزعيم الخليق منها ولا مَ ... نٌّ عليه بالحب والإكرام
الرئيس النزيه في كل معنى ... من معاني ولاية الأحكام
الوزير النهاض ما حَرَبَ الأم ... ر بأعبائه الثقال الضخام
الخطيب الذي لمنبره الع ... الي جلال كمهبط الإلهام
الأديب الذي إذا جالت الأقلا ... م جَلّى في حَلبة الأقلام
الرصين الرزين إلا إذا ما ... عجل الرأي خطة الإقدام
العدو المبين للمتجني ... والنصير الأمين للمستضام
الولي الأوفى لكل موال ... والمذم الأكفى لراعي الزمام
رجل كامل الرجولة لا ير ... مي بعزم إلا بعيد المرامي
ليس يُعنى بالترهات ولا ين ... ظر إلا من المكان السامي
طبعته شمس الصعيد ولكن ... لم يطل منه محمل الصمصام
والنفوس الكبار ليس عليها ... حرج من تضاؤل الأجسام
أسمر اللون يعتريه شحوب ... قد ترى فيه صُهبة الضرغام
يتلقى الأحداث عسراً ويسراً ... وعلى الثغر منه وشْك ابتسام
ليس بالأصْيَدِ العَيوف ولا بال ... لبق المجتدي تحايا الأنام
شيعته البلاد والحزن غلا ... ب على الصبر في الدموع السجام
جيشها ناكس السلاح تماش ... يه وئيداً شجية الأنغام
وعلى جانبيه مشترفات ... جزعات مخفوضة الأعلام
ووراء السرير تَطّرد الأف ... واج والهام تلتقي بالهام
أمة أرْجت الجنازة في أس ... نى مجال الإكبار والإعظام
يا محييِّ محمد وهمُ صف ... وة مصر التقت بهذا المقام
عظم الله أجركم إن وعد ... الله حق للصابرين الكرام
يا شقيقيه إن بيت سليما ... ن بأن تبقيا متين الدَّعام
يا بنيه بسنة الله لوذوا ... فبها برء كل جرح دام
قاسمتكم مصر الرزيئةَ فيه ... وعلى قدرها مدى الاقتسام
فاخلفوه بالحق واتخذوا من ... هـ لكم خير مرشد وإمام
إن تلك الحياة إن تصلوها ... لحياةٌ جديرة بالدوام
خليل مطران

نشيد اللغة العربية القومي
للأستاذ محمد سعيد العريان
تلمين شتر بن ظاهر
(لمناسبة مهرجان النشاط المدرسي الذي تقيمه وزارة المعارف في هذا الأسبوع نقدم هذا النشيد لقراء العربية في مختلف أقطارها).

لغتي: ديني وطني
لُغةُ الأمجادِ مُنْذُ يُعْرُبِ: لغتي
ولِسانُ الحقِّ من عهد النبِي: لغتي
مجدُها مجدي وتاريخ أبي: لغتي
لغتي: ديني وطني
لُغةُ الرحمنِ في قُرآنِهِ: لغتي
ولسانُ الوحيِ في تِبيانِه: لغتي
وبيانُ الحرِّ عن وِجدانه: لغتي
لغتي: ديني وطني
يُغْفُلُ التاريخُ في تُسطيرِهِ ... عِزَّةَ الماضي ولا تُغْفِلُني: لُغتي
يَعْجِزُ الفنَّان في تعبيرِه ... عن معانيه ولا تُعْجِزني: لُغتي
ويَضيقُ الفنُ في تَصويرِهِ ... عن معانيه ولا تَخْذُلُني: لُغتي
لغتي: ديني وطني

وَسِعَتْ كُلَّ طريفٍ وتُليدِ: لُغتي
وَوَعَتْ لي عِزَّةَ الماضي المجيد: لغتي
ضَمِنَتْ لي في فَمِ الدنيا خُلودي: لغتي
لغتي: ديني وطني
البريد الأدبي
في مقالة الأستاذ السباعي بيومي
في القسم الثالث من مقالة الأستاذ المبجل جمع فخور على فخورين في قوله: (ثم سل تلاميذي الذين تتحدث عنهم يخبرونك بما يفحمك مخلصين صادقين وفخورين بتلمذتهم لي. . .) والعربية إنما تجمعه على فُخُر، قال طرفة:
ثم زادوا أنهم في قومهم ... غُفُر ذنبهم غير فُخُرْ
ودخلت (هل) في قوله: (فهل لا زلت على هذه المباهاة) على ناف، وهي لا تدخل على ناف أصلاً كما قال الرضي. ودخلت (لا) على ماض غير مستقبل في المعنى، ولم يكرر، وقد بين (المغنى) في الحرف (لا) ما بين. وجاءت (إليك) في قوله: (ومع هذا فإليك رأي في تلك المباهاة). وفي (الكتاب): (وإليك إذا قلت تَنَح) قال:
إليكم يا بني بكر إليكم ... ألماَّ تعرفوا منا اليقينا
وإليك من أسماء الأفعال غير المتعدية إلى المأمور كما ذكر (المفصل). قال التبريزي: (لا يجوز أن يتعدى إليكم عند البصريين، لا يقال إليك زيدا لأنه معناه تباعد) من النفع والخير أن يخطئ الكبار في حين من الأحايين حتى ينقدوا فتغنى اللغة ويستفيد الناس. . .
(ناقد)
مراجعات لغوية
نشرت الرسالة كلمة للباحث المفضال (ا. ع) في التعقيب على ما قلت به في توجيه ضم الظاء من كلمة (الظرف) بمعنى اللطف: ومن رأي حضرة الباحث أنني أخطأت فشق عليَّ أن أعترف بالخطأ، فرحت أتلَّمس العلل، إلى آخر ما قال
وأحدد وجه الخلاف فأقول: جاء في مقالي عن كتاب المطالعات للأستاذ عباس محمود العقاد أنه ليس من الخير لمصر أن يكثر فيها أهل اللطف والظرف، وقد رسمت الظرف بضم الظاء عامداً، لأنها بالضم تؤدي معنى لا تؤديه وهي بالفتح، فبين اللفظين ما يسميه العرب بالفرق اللطيف وما يسميه الفرنسيون
ثم انتهزت الفرصة فقدمت لقرائي توجيهاً لضم الظاء من الظرف في لغة المصريين فقلت إنه نوع من الإتباع لكثرة اقتران الظرف باللطف، والإتباع معروف في اللغة العربية، وله شواهد كثيرة سجلت بعضها في كتاب النثر الفني
ثم وقع بعد ذلك أن انتقد بعض أدباء فلسطين ذلك التوجيه وعدَّه دفاعاً عن أخطاء المصريين. وقد أجيب بأن هناك سبباً يضاف إلى الإتباع وهو التمييز بين المحسوس والمعقول، فالمصريون يفتحون ظاء الظرف إذا أرادوا (الوعاء) ويضمونها إذا أرادوا (اللطف) وأنا أسمي هذا (غريزة لغوية) وأراه من الصواب
وأنا أسأل الباحث المفضال (ا. ع) عما يُعرَف في لغة العرب بالمثلثات، وهي الألفاظ التي تنطق فاؤها بالفتح والضم والكسر أسأله عن السر في هذا التثليث، فهل يراه لغة واحدة ينطق بها من شاء كيف شاء في جميع البلاد؟ أم يراه باباً من اختلاف اللهجات يَفْصُح بعضها في مصر ويَفْصُح الآخر في الشام أو في العراق؟
وإليه هذا المثال: كلمة (جزاف) مثلثة الفاء فهي جَزَاف وجُزاف وجِزاف، ولكن المصريين ينطقونها (جُزاف)، بالضم، فهل ترى من الفصاحة أن ينطقها المصري في خطبته بالفتح أو الكسر بحجة أن المعاجم تبيحه ذلك؟
الحق كل الحق أن اللهجات المختلفة شرقت وغربت، وهي جميعاً صحيحة النسب إلى العرب، ولكن اللهجة لا تفصح إلا في المكان الذي استوطنت فيه، فإن تجاوزنا بها ذلك كان صنيعنا ضرباً من الإغراب. وعلى هذا يكون ضم الظاء في الظرف على ألسنة المصريين له ثلاثة توجيهات:
الأول: أن يكون اكتسب حكم الإتباع من اللطف؛ والثاني: أن يكون للتمييز بين المحسوس والمعقول؛ والثالث: أن يكون لهجة عربية تفردت بها بعض القبائل التي استوطنت وادي النيل

وبهذه المناسبة، أذكر أن الأستاذ أحمد العوامري بك كان كتب كلمة في مجلة المجمع اللغوي عن (نادي التجديف) بالدال المهملة، فكان من رأيه أنه (التجذيف) بالذال المعجمة؛ وقد ناقشته يومئذ في جريدة (البلاغ)؛ فقلت: إن الشعراني في مؤلفاته يرسمها بالقاف فيقول (التقذيف)؛ وعند مراجعة القاموس المحيط رأيته يثبت ثلاثة حروف هي: المجداف
والمجذاف والمقذاف. . . فما معنى ذلك؟ معناه أن العرب لهم في هذا المعنى ثلاثة ألفاظ تنقل بها الحظ من بلد إلى بلد ومن جيل إلى جيل،
فمن الواجب إذاً أن ندرك أن المصريين لم يقولوا (التجديف) إلا وهم يريدون (التقذيف)، فهم قلبوا القاف جيما كما يصنع بعض اليمنيين والعراقيين، وكما يصنع سكان مصر من أهل الصعيد بدليل أن سكان مصر من أهل المنوفية يقولون (التأديف)، على عادتهم في وضع الهمزة مكان القاف
وتلك فائدة لا ينكرها باحث مفضال مثل العوامري بك. . . ألم يسمع بالمثل المصري الذي يقول: (على قد فوله قدِّفوا له)
فهذا المثل يرى التجديف هو التقذيف، وقلبت الذال دالاً على طريقة بعض القبائل العربية في تحويل المعجمات إلى مهملات
ولهذا البحث تفاصيل سأقدمها لحضرة الأستاذ (ا. ع) إذا بدا له أن يُعقب على هذا البحث من جديد، فهو فيما أرى من أكابر الباحثين
أما القول بأني أعدّي فعل (أمكن) بالحرف وهو يتعدى بنفسه، فله توجيه سجلته في مجلة أبوللو منذ أعوام حين اعترض أحد أدباء العراق على تعدية فعل (حرَم) بالحرف في بعض قصائدي، وهو يتعدى بنفسه؛ وخلاصة ذلك التوجيه أني قد أرى المعنى في بعض الأحايين لا يؤدي تأدية صحيحة إلا إذا عبرت عنه بتلك الصورة، وكان الأستاذ محمد عبد الغني حسن يعرف عني ذلك الرأي، فلم أر موجباً لمناقشته فيه. . . ولم يكن إيثاري لذلك التعبير ضرباً من العناد، كما أراد حضرة الباحث أن يقول، وإنما كان إيثاراً لحرية القلم في شرح دقائق المعاني، وهي حرية تفرض الثورة على المعاجم في بعض الأحايين
زكي مبارك
خصومة لا عداوة
قرأت في العدد الماضي من (الرسالة) كلمة للدكتور زكي مبارك عن الجدل بينه وبين الأستاذ السباعي بيومي. جاء فيها:
رأى جماعة من كبار المفتشين وهم الأساتذة جاد المولى بك ومحمد علي مصطفى) ومحمود
محمد حمزة ومصطفى أمين وأحمد علي عباس.
رأى هؤلاء الأكابر بأخلاقهم وآدابهم أن أقف الجدال الذي أثرته في وجه الأستاذ السباعي بيومي، وحجتهم أنه وصل إلى درجات من العنف تؤذي كرامة المشتغلين بخدمة اللغة العربية.
(وأنا أجيب هذه الدعوة. . . الخ)
وقد رأيت في الصورة التي عرض بها الدكتور زكي مبارك هذه الوساطة ما دعاني إلى الاستفسار من حضرات من ذكرهم عن الصورة الدقيقة لتدخلهم؛ فعلمت منهم أن وساطتهم بين الأستاذ الدكتور كانت منصبة على أسلوب الجدل لا على موضوعه؛ وفي نظرهم أن مستوى المناقشة بين أديبين ورجلين من رجال التعليم يجب أن يرتفع عن هذه اللهجة. أما الفحص عن الحقيقة وتصاول الأقلام في الموضوعات العلمية والأدبية فليس لهم عليها اعتراض بل يسرهم أن يشجعوا عليهما ويستزيدوا منهما
هذا هو رأي حضرات الأفاضل الذين احتج الدكتور بتدخلهم في الانسحاب من المعركة التي أثارها. فإذا كان لدى الدكتور ما يقوله بالأسلوب اللائق فليستمر فيه غير ملوم من أحد ولا مرجو في الانسحاب
وما أبغي بهذه الملاحظة تدخلاً في المعركة؛ فليس من خلقي أن أتدخل في نزاع فرعي. ولو شئت معركة لاخترت ميدانها الأصيل.
سيد قطب
(الرسالة):

أرسل إلينا الأستاذ السباعي بيومي مقاله الرابع يهجم فيه على الدكتور زكي مبارك فهيأناه للنشر، ولكن بعض ذوي الرأي والفضل رغب إلينا أن نقف هذه المناظرة العنيفة عند هذا الحد بعد أن ألقى أحد المناظرين الفاضلين القلم إجابة لدعوة زملائه الكريمة

بستان النشاشيبي

أهدى أديب العربية الأستاذ إسعاف النشاشيبي كتابه (البستان) إلى صديقه الأستاذ محمد بهجة الأثري مفتش اللغة العربية ببغداد فأرسل إليه هذه الأبيات الرقيقة

سيدي (إسعافُ) يا أم ... ثل خُلصان وَخِلِّ
أنا من بستانك الزا ... هر في طيب وظل
بين ورد باسم الثغ ... ر وريحان وفُل
زمر نسقها الذو ... ق على أجمل شكل
أتملاها بعينيّ ... وأرعاها بفعلي
أتلقاها بلثم ... وَتَلقَّاني بِدَل
جل ما أهديت من را ... ح وريحان ونقل
أسكر المشموم نفسي ... وغذا المطعوم عقلي

محمد بهجة الأثري

شبابيك القلل

كان للكلمة التي كتبتها بهذا العنوان في العدد 399 من (الرسالة) أثر حسن فيما كتبه الدكتور زكي محمد حسن في العدد 115 من (مجلة الثقافة) تعقيباً على مقاله الأول في هذا الموضوع، فقد تدارك الدكتور زكي - إلى حد ما - ما فاته في مقالة الأول وإذا قلت - إلى حد ما - فذلك لأنه حاول في مقاله الأخير أن يفسر قوله: (إن من العجب أن يعنى بزخرفة شبابيك القلل إلى هذا الحد بينما تبقى القلل نفسها بغير طلاء أو رسوم زخرفية) فبعد أن نقل ما كتبته في (الرسالة) عن القلل الصيفية وهي من الفخار غير المطلي، والقلل الشتوية وهي المكسوة بطلاء زجاجي، أراد أن يجد لنفسه عذراً فقال: أما أن هناك قللا عليها طلاء فأمر لم ننكره أبداً، وحسب القارئ الذي بادر بالتعليق على مقالنا أن يرجع إلى كتابنا كنوز الفاطميين ولا نخاله بجهله، ثم استشهد بالعبارة الآتية نقلاً عن الصفحة 172 من هذا الكتاب

(فالفخار غير المدهون كانت تصنع منه أبسط الأواني اللازمة لطبقات الشعب، ولا سيما القلل التي كانت من الفخار غير المطلي، إلا في النادر جداً، لأن المقصود منها تبريد الماء، ولابد من المسام للوصول إلى هذا الغرض، ومن ثم فإن الذي وصل إلينا منها يكاد يكون خالياً من أي دهان زجاجي)

وإني أود أن أوجه نظر الدكتور إلى أن شبابيك القلل الشتوية ذات الطلاء الزجاجي، توجد في دار الآثار العربية وحدها بالمئات - كما كان يجب أن يعلم ذلك - ومن ثم فإني لا أرى ما يبرر قوله إن هذا النوع منها لا يوجد (إلا في النادر جداً) و (أن الذي وصل إلينا منها يكاد يكون خالياً من أي دهان زجاجي)، ولست أرى هنا أي مجال للتفسير اللغوي

وإذا كنت لم أشر إلى كتاب (كنوز الفاطميين) في كلمتي السابقة فقد كان ذلك لسبب واحد، وهو أنني اكتفيت بتصحيح ما جاء في مقال الدكتور زكي، ولم أجد ما يثير الرغبة في نفسي لنقد ما أورده في كتابه

وكيف أجهل هذا الكتاب وقد كان لي - إبان اشتغالي بالتدريس في جامعة بون - شرف مساعدة الأستاذ باول كالا في كتابة بحث واف عنوانه (كنوز الفاطميين) وقد نشر هذا البحث - كما يعلم حضرة الدكتور الفاضل - في مجلد المستشرقين الألمانية في المجلد 14 سنة 1935 (ص339 - 362) ولا ينسى الدكتور زكي محمد حسن ما لهذا البحث، ولما فيه من حواش قيمة، من فضل في وضع كتابه - الذي طبع في سنة 1937 - باللغة العربية في نفس هذا الموضوع وبنفس هذا العنوان! وما كنت أود أن أذكره بهذه الحقيقة، لولا أنه في تنويهه عن كتابه، بدلاً من الاعتراف بالفضل، وجدت - للأسف - ما هو دون ذلك، وهذا ما كنت أنزه الدكتور عنه.

دكتور محمد مصطفى

تحريف معنى بيت بالنحو

فهم صديقي الأستاذ الفاضل إبراهيم علي أبو الخشب أن ما ذكرته في تحريف معنى بيت بالنحو يدخل فيما يؤثر عن علمائنا - إن نكت النحو كالورد تشم ولا تدعك - والحقيقة أن ما ذكرته في ذلك من صميم النحو وليس من نكتة

وأما الذي ذكره من أن أو المتمحضة للعطف وأو الناصبة، فلم يأت فيه بجديد في المسألة. ونحن حين نجري قول الشاعر: (لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى) على معنى: ليكونن مني استسهال للصعب أو إدراك للمنى، نكون قد خرجنا بأو الناصبة إلى أو المتمحضة للعطف. وقد اعترفت أيها الأستاذ الفاضل بأن أو المتمحضة للعطف لها معاني غير معاني

أو الناصبة، فكيف تحمل إحداهما معنى الأخرى؟

وليس بحق ما ذكرته من أن المعنى في البيت على محض العطف، وأن معناه ليكونن مني استسهال للصعب وإدراك للمعنى، لأن هذا يجعل ما بعد أو داخلاً في حكم ما قبلها من إثبات ونفي وقسم ونحو ذلك، مع أن المضارع المنصوب بعد أو، لا يدخل في حكم ما قبله بذلك الشكل، ويظهر أثر ذلك صريحاً في نحو قولك - لا أكلمك أو أرضى عنك - فأوفيه بمعنى إلى، ولا يصح تقدير العطف فيه، لأنه لا يصح تقديره على العطف - لا يكون مني كلام أو رضاً عنك - لئلا يدخل الرضا في حكم النفي مع أنه ليس بداخل فيه

وكذلك الأمر في نحو - لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى، ولأجتهدن أو أنجح - لأنه على تقدير العطف يكون كاذباً إذا استسهل الصعب ولم ينل المنى، وإذا اجتهد ولم ينجح مع أنه إذا قال - لأجتهدن أو أنجح - فاجتهد ولم ينجح، لا يكون كاذباً. على أنه ليس بعد هذا كله ما يدعو إلى جعل أو الناصبة عاطفة، وإنما ذلك تكلف يلزم البصريين وحدهم

عبد المتعال الصعيدي

القصص

. . .مرض طبيب

للأستاذ نجيب محفوظ

قبل عامين تفشى وباء التيفود في مديرية الغربية تفشياً مخيفاً فتك بنفوس الكثيرين، وصادف ذلك انقضاء بضعة أشهر على تعيين الدكتور زكي أنيس طبيباً بمستشفى طنطا وفتحه عيادته الخاصة، وكان في تلك الأيام يلاقي الشدائد المقضي على كل مبتدئ في فنه أن يلقاها أول عهده بالحياة العملية. فكان ينتظر طويلاً وعبثاً توارد الزوار والمرضى مستوصياً بالصبر والتجلد حتى كاد يلحقه الجزع. فلما تفشى ذاك الوباء الخبيث تضاعف عمله بالمستشفى وشحذ نشاطه ومضى يراقب حركة السيارات التي تطوف بالبيوت وتعود محملة بالضحايا بعينين كئيبتين وعزيمة متوثبة، وأحس بالرغم من كل شئ بسرور خفي، وأحيا قلبه الأمل في أن يدعى يوماً لعلاج مصاب من الذين تثقل بهم جيوبهم عن الانتقال إلى المستشفيات العامة، ولم ييئسه تقاطر الناس على كبير الأطباء وبعض الأطباء القدماء بالمدينة وأصغى إلى هاتف تفاؤل ما انفك يهمس لقلبه بأن دوره لا محالة آت.

وصدق أمله، وإنه ليجلس إلى مكتبه يوماً يقلب صفحات كتاب وتجري عيناه على أسطره جريان الشرود والملل إذ طرق بابه كهل يدل منظره الوجيه وزيه الريفي الثمين على أنه من الأعيان؛ ولعله قصده بعد أن يئس من العثور على سواه، فطلب إليه بلهجة تنم على القلق أن يصحبه إلى العامرية على مسير ربع ساعة بالسيارة. وكان الشاب يعد العدة لمثل هذا اللقاء فلم يبد على وجهه أثر مما اضطرب في صدره من الفرح والظفر، فألقى على القادم نظرة رزينة وقام من فوره فخلع معطفه الأبيض وارتدى الجاكتة والطربوش وأخذ حقيبته وتقدمه إلى الطريق والتقى أمام الباب بسيارة فخمة فخفق قلبه مرة أخرى وتريث حتى فتح الرجل الباب وقال له (تفضل) وجلسا جنباً إلى جنب وانطلقت بهما السيارة، وحافظ على هدوئه ورزانته وصر بأسنانه ليطرد ابتسامة خفيفة تحاول أن تعتلي شفتيه؛ وكأنه أراد أن يداري عواطفه فسأل الرجل عن مريضه، وتكلم الرجل في إسهاب فقال إن المريض ابنه وأنه لم يجاوز العشرين من عمره، وأنه أحس منذ أيام بتوعك وخور ورغبة عن تناول الطعام، ثم ارتفعت حرارته واستسلم للرقاد فسأله: (هل حقن بالمصل الواقي؟)

فأجاب الرجل بالنفي، وأعلن عن رجائه الحار ألا يكون الشاب أصيب بالحمى الخبيثة، فصمت الطبيب ملياً يفكر في هذه الأعراض ويزنها بميزان اختباراته وعلمه، وكانت السيارة في أثناء ذلك تخترق الطريق الزراعي بسرعة البرق حتى بلغت العامرية وانعطفت إلى حاراتها الضيقة ثم وقفت أمام دار كبيرة، فدخلا معاً واستقبلتهما أوجه كثيرة بأعين يقتتل بها الخوف والأمل، فساوره القلق وتلبسه شعوره حين تعرض لأول مريض بدأ به حياته التمرينية في قصر العيني منذ ثلاثة أعوام، فاستصرخ قوة إرادته ليضبط بها وجدانه ويجتاز هذه التجربة الجديدة بالنجاح، وأغضي عمن حوله وسدد انتباهه إلى الشاب الراقد بين يديه، وكشف عليه بعناية فائقة وفحصه فحصاً دقيقاً فترجح لديه أنه مصاب بالتيفود، وأبدى رأيه في تحفظ وقال إنه ينبغي أن يفحص المريض في اليوم التالي ليستوثق من رأيه، فلا أمنهم من خوف ولا أفقدهم الأمل، وظن أنه ضمن لنفسه أن يتردد على المريض حتى يبلغ به الشفاء بفنه أو يودعه القبر بأمر الله. ثم أخذ حقيبته واتجه نحو الباب بخطى وئيدة كأنه يريد شيئاً، فلحق به والد المريض وهمس في أذنه قائلاً: (تفضل) فخفق قلبه لثالث مرة ذاك اليوم ومد يده وهو يقول: (شكراً) فأحس بثلاث قطع من ذات العشرة قروش توضع بها، ثم جلس في السيارة منفرداً هذه المرة، وانطلقت به في طريق العودة؛ وكانت هذه أول مرة يدعى فيها إلى زيارة مريض في بيته، فاغتبط ورضى وأشعل غليونه وراح يدخن بحالة من السرور لم تخل من اضطراب عصبي فأخذ (أنفاساً) سريعة فتوهج التبغ وسخن الغليون، ولم يستمر في التدخين طويلاً فوضعه في جيب الجاكتة الأعلى وأرسل بناظريه خلل زجاج النافذة يشاهد الحقول الممتدة على جانب الطريق الغارقة في الأفق البعيد، وكانت تنتهي عند الطريق الزراعي بجدول من الماء ينساب صافياً تستحم فيه أشعة الشمس المائلة للغروب وتغشاه بنور لألاء بهيج يخطف الأبصار؛ فاستسلم لسحر الرؤية، وشعر بتخدير لذيذ، حتى انتبه إلى تغير غريب يسري في صدره وجسمه فتحولت أفكاره من الخارج إلى الداخل فأحس بسخونة تنتشر في أعضائه جميعاً كأن حرارته ارتفعت بغتة، فتململ في جلسته وحرك رقبته بعنف، ثم لم يحتمل شدتها فخلع طربوشه وفك أزرار الجاكتة وأخرج منديلاً يروح به على وجهه وهو يعجب أشد العجب لأن الجو كان معتدلاً لطيفاً، واشتدت وطأة السخونة والتهب جسمه بالحرارة، فجس خديه

وجبينه وشعر بثقل في جفنيه ورأسه وضيق في التنفس، وتساءل في حيرة عما أصابه، وخطر له خاطر مخيف: هل يكون مريضاً؟!. . . وذكر لتوه الحمى الشيطانية التي تفتك بأهل المديرية فتكاً جهنمياً

وكان قد حقن نفسه بالمصل الواقي فكيف انتقلت إليه العدوى؟!. . . هل سبقت الميكروبات المصل إلى دمه؟!. . . ولفه الذعر وكان في الحقيقة جباناً رعديداً شديد الهواجس سرعان ما يستسلم للتشاؤم ويقع فريسة سهلة للمخاوف، فعاد يجس خديه وجبينه فوجدها ساخنة وأحس بجسمه يكاد يلتهب التهاباً فاستولى عليه الفزع وارتعدت فرائصه وقال بذهول (يا للويل. . . لقد أصبت وانتهيت. . .)

وقطعت السيارة مرحلتها وانتهت إلى عيادة الطبيب الشاب - وكانت عيادته ومقامه في شقة واحدة - فتركها على عجل وصعد إلى حجرة نومه واستدعى التمرجي وقال له: (ناد الدكتور سامي بهجة بسرعة وقل له إني أصبت بالتيفود) فجرى الرجل مرتعباً وأخذ الدكتور يخلع ثيابه بيدين مضطربتين وارتدى البيجامة وارتمى على الفراش في حالة يأس ورعب وغم شديد وقد خيل إليه أن شرايينه ستنفجر من الحرارة. وكان يستحضر في ذاكرته أعراض المرض فلم يعد لديه ثمة شك في أنه مريض؛ وثبت في وهمه بقوة أن هذا المرض سيختم حياته. كان شديد الجبن متهافتْ الأعصاب فلم يستطع أن يأمل قط في النجاة وبات في يأس عظيم، وظل يعد الدقائق الثقيلة المرهقة ويصيح غاضباً (هيهات أن يجد الدكتور في عيادته، وسأجن هنا وحدي. . .)

وفي أثناء الانتظار فزعت أفكاره المجنونة إلى القاهرة، إلى أمه، ووجد حاجة شديدة إليها، وإلى وجودها إلى جانبه لتسهر عليه؛ وفكر فعلاً في أن يبعث إليها ببرقية، ولكنه لم يقبل هذه الفكرة بسهولة، وأشفق من إرهاقها وإزعاج حياة والده واخوته الصغار وربما عرضها للخطر أيضاً - وكان هذا أول شعور طيب يخالط قلبه منذ قدم طنطا - فصدقت نيته على أن يطلب إلى الدكتور بهجة نقله إلى المستشفى، وربما تمكن من

رؤيتها هناك ليودعها إذا اشتد عليه الحال. وقد حن إليها في تلك الساعة حنيناً موجعاً. . وأغمض جفنيه هنيهة يلتمس الجمام ويطرد عن قلبه الوساوس والهواجس، ولكن وجدانه الثائر أبى أن يدعه في راحة أو طمأنينة، أو أن يصرفه عن الانشغال الأليم بمرضه. ولم يكن دار له بخلد أن الطبيب بمأمن من الأمراض، ومع ذلك أحس بمرارة وسخط وحنق وساءه أن يفتضح مرضه الغادر في أثناء عودته من زورة مريض. أما كان الأجمل أن يجزي غير هذا الجزاء. . . وقر في نفسه أن العدوى انتقلت إليه في أثناء قيامه بواجبه في المستشفى بالرغم من حذره ويقظته فتضاعف سخطه وحنقه، وأسى على حياته التي لم يتح له التمتع بها؛ وكان يدفع إلى فكرة الموت دفعاً عنيفاً، ويقسر على الاستغراق فيها بقوة شيطانية. . وحدثه قلبه الرعديد بأن نهايته حمت، فعطف رأسه إلى المرآة وأدام النظر إلى وجهه، فخيل إليه أنه محتقن بالدم الفاسد؛ ولكن كان ما يزال محتفظاً بنضارة الحياة وأثر الصحة الآخذة في الانحلال، فألقى عليه نظرة آسيفة حزينة، كأنما يودع آخر صورة للحياة والصحة عالقة به. . . ثم أدار رأسه قانطاً، وأسلمه القنوط إلى الاستسلام، وأسلمه الاستسلام إلى الاستهانة، ولاذ بها من مخاوفه، وقال لنفسه علام الخوف والذعر؟ الموت آت لا ريب فيه، إن لم يكن اليوم فغداً. . . هو النهاية المحتومة على أية حال لمهزلة الحياة. . . وماذا يضيره أن يقصر دوره في هذه المهزلة؟ فلعل في قصره اختزالاً لآلام مروعة. على أن تعزيه لم يدم طويلاً. . . وألحت على قلبه الآلام مرة أخرى. . . فذكر آماله وأطماعه في المجد والثروة، وارتسمت على شفتيه لهذه الذكرى ابتسامة مريرة ساخرة. . . وشعر بامتعاض يفوق الوصف. . . وذكر الثلاثين قرشاً التي طرب لها فرحاً قبل حين قصير: فأزداد امتعاضه، ولعن رزقه الذي يناله من أيد شحيحة، لا تفرط فيه حتى يهزلها المرض، فتراخى عن الضن به، ولعن النظام الذي يجعل سعادة القوم منوطة بأساء آخرين. . . يالها من مهنة مخيفة، يستمد رجالها حياتهم من النفوس المريضة كالجراثيم سواء بسواء. . . وسخر في ذعره وتشاؤمه من الإنسانية والتضحية والرحمة، تلك الألفاظ الصماء التي حفظها عن ظهر قلب ولم تختلج له في شعور قط. . . فهو لم يشمَر أبداً لغير المجد والثروة، ولم يتصور ساعة أنه يبلغهما بغير معونة المرض. . . فعبده وهو لا يدري، ونصبه آلهاً يقدم له القرابين البشرية كبعل القديم، حتى سقط هو أخيراً قرباناً له، فأي حياة هذه؟. . . وذكر أيضاً في هذيانه وتشاؤمه قروياً بسيطاً عرض له في العيادة الخارجية لقصر العيني، وكان يريد أن يكشف على حلقه، فأمره أن يفتح فمه. . . وكان كلما أدنى منه المجهر يرتجف الرجل الساذج ويغلق فمه. . . وتكرر ذلك منه حتى اشتد به الحنق، وكان مرهق الأعصاب من كثرة العمل، فضرب جبين القروي بالمجهر، فشجه وأسال دمه. . . وقد أسف لذلك حقاً ولكن أسفه لم يخفف عن الرجل شيئاً. . . وذكرته هذه الحادثة بما يقع خلف جدران قصر العيني من أعمال القسوة التي تفزع من هولها النفوس البشرية، فذكر أنه تكاسل مرة عن إجراء عملية لمريض، لأنه كان أجرى هذه العملية مرات عديدة بنجاح، فلم يشعر بحاجة إلى تمرين جديد. واسودت الدنيا في عينيه، وعافت نفسه كل شئ في تلك الساعة الخبيثة

ثم سمع وقع أقدام في الردهة وصوت التمرجي يحادث الدكتور، فتمشت في أعصابه موجة نشاط ونسى وساوسه، وفزع إلى القادم بأمل جديد، ودعا ربه بصوت متهدج قائلاً: (آه يا رب، خذ بيدي! هبني حياتي مرة ثانية، أهب الناس أشرف ما في نفسي حتى الموت)

وما انتهى من دعائه حتى برز الدكتور بهجة من باب الحجرة وهو يقول بصوت مرتفع: مساء الخير يا دكتور. مالك؟

فقال الشاب بهدوء وإن كان في الحق يستغيث: أُصبت!

ففحصه الدكتور بعينين نافذتين وأصابعه تفتح الحقيبة، ثم قال: لعلها أنفلونزا. . . فقال بيأس: كلا. . . لا أشكو زكاماً ولا صداعاً

- ولكنك لم تشك تعباً أو فقدان شهية في هذه الأيام. . . أليس كذلك؟

وتفكر الشاب قليلاً متحيراً ثم تمتم قائلاً: حرارتي فظيعة. . . إني أشعر بالمرض شعوراً مخيفاً. . .

- هل قست الحرارة؟

فعجب كيف فاته ذلك، وهز رأسه نفياً ولاذ بالصمت؛ فابتسم الدكتور بهجة ابتسامة ساخرة، ودنا منه والترمومتر في يده، ثم وضعه في فمه وانتظر هنيهة، ثم أخذه ثانية ورفعه إلى مستوى عينيه، ونظر إلى وجه الشاب رافعاً حاجبيه وقال ببساطة: حرارتك طبيعية. . . أنظر!

وقرأ الشاب الترمومتر وهو لا يصدق عينيه، وجس خده ثم قال: هذا عجيب! خدي ما يزال ملتهباً. كيف هبطت الحرارة؟

وأتى الدكتور بسماعة وطلب إليه أن يفك أزرار الجاكتة ففعل؛ ووقع بصر الرجل على الفانلا فبدت على وجهه الدهشة وصاح بسرعة وهو يشير إليها قائلاً: (انظر!)

فأحنى الشاب رأسه ناظراً إلى الفانلا فرأى فوق القلب دائرة مسودة من أثر احتراق خفيف. فاستولت عليه الدهشة وجلس في فراشه وهو يتساءل: (ما الذي صنع بي هذا!)

فضحك الدكتور بصوت عال وقال: (هاأنت ذا تكشف حمى جديدة يا دكتور!). وخطرت للشاب فكرة فالتفت إلى المشجب وقفز من الفراش واتجه نحوها ووضع يده في جيب الجاكتة الأعلى متناولاً غليونه، وفحص الجيب بعينيه فرأى آثار التبغ الذي أكل البطانة وحرق القميص وأثر هذا التأثير في الفانلا، ووقف مرتبكاً ينظر إلى الدكتور بعينين تسألان الصفح، وقد أحس بحرارة جديدة هي حرارة الخجل والارتباك

وبعد دقائق وجد الشاب نفسه وحيداً مرة أخرى، وكان ما تزال تعلو شفتيه ابتسامة الارتباك والخجل ولكنه كان يحس بغبطة وسلام، وكان قلبه يشكر الله الذي وهبه حياته مرة أخرى

وبر الشاب بوعده واعتزم أن يكون إنساناً قبل كل شئ، وعاد إلى عمله تنبض في قلبه أشرف العواطف وأنبلها، وكان يظن أنه سيصمد للتجارب لا ينكص على عقبيه مهما امتد به الزمن، ولكن وا أسفاه إن انقضاء الليل والنهار ينسى، ومن ينغمر في الدنيا يذهل عن نفسه، وللحياة جلبة تبتلع همسات الضمير، فقد أخذ يتناسى محنته ودعاءه ووعده حتى نسى ولم يعد يذكر إلا عمله ومستقبله وآماله وأطماعه، ثم ارتد إلى ما كان عليه، وكانت تلك الأيام القلائل في حياته كهدوء البحر الذي يصفو ويرق حتى يشف عن باطنه ثم لا يلبث أن تهيجه الرياح والعواصف فيرغي ويزبد وتعلو أمواجه كالجبال. ولعله لا يذكر هذه الحادثة الآن إلا كدعابة يتندر بها ويقصها على صحبه إذا دعا داعي الحديث أو السمر!

نجيب محفوظ

العدد 403 - بتاريخ: 24 - 03 - 1941

دوائر معارفنا الإسلامية

للأستاذ عباس محمود العقاد

أقتُرح على المجمع اللغوي تأليف معجم للألفاظ القرآن الكريم، فذهبت أنظر في المعاجم والموسوعات التي عندنا وعند غيرنا من هذا القبيل، فلم ألبث أن رأيت بعد مقابلة يسيرة أننا في هذا الباب جد فقراء

عند الأوربيين موسوعات مختلفة الأحجام والأغراض لأسفارهم الدينية ومأثوراتهم المقدسة

فللتوراة والإنجيل موسوعات صغيرة تفسر الأسماء والأعلام والوقائع والألفاظ، فلا تذكر في الكتابين اسم رجل أو بلد أو قبيل إلا استطعت أن ترجع إليه في موضعه، فتعرف شيئا عن تاريخه وموقعة ومناسبة ذكره؛ فإذا بك أمام كتاب يكاد أن يفيدك في كل شئ، ولا تنحصر فائدته في فهم التوراة والإنجيل

ولهذين الكتابين موسوعات صغيرة أيضا تتناول الآيات والأجزاء على الترتيب، فتقرن بين بعضها وبعض، وتقابل بين الفرائض المختلفة من قديم وحديث، وتفسر مدلولاتها على حسب العصور والمصادر اللغوية، فتجمع بين معرفة مدلولاتها على حسب العصور والمصادر اللغوية، فتجمع بين معرفة الشريعتين الموسوية والمسيحية، وكل معرفة لها بهاتين الشريعتين اتصال

وعندهم موسوعة للطيور التي ورد ذكرها في التوراة، أو للأشجار والأزهار التي تكلم عنها الأنبياء، فيستفيد منها الباحث في علمي الحيوان والنبات، كما يستفيد منها الباحث في الدين

أما الموسوعات المطولة الشاملة فهي ذخائر من المعلومات لا تند عنها دانية ولا قاسية من موضوعات المسيحية أو الموسوية، وقد يلتبس على القارئ الأمر بين دوائر المعارف العامة التي تتناول كل شئ وكل مادة، وبين دوائر المعارف الدينية التي يظن من عنوانها إنها مخصصة ولو بعض التخصيص لناحية من نواحي الحياة الإنسانية بل عندهم معاجم صغيرة للإسلام ليس لها نظير في اللغة العربية ولا في لغة من اللغات التي يتكلم بها المسلمون

من ذلك قاموس الإسلام الذي وضعة توماس باترك قبل نيف وخمسين سنة ثم أعيد طبعة قبل بضع سنوات

فهذا القس قضى في التبشير بين المسلمين والبرهميين والبوذيين ببلاد الهند اكثر من عشرين سنة، ودرس خلال ذاك ما استطاع أن يدرسه من التواريخ والمباحث الإسلامية، ثم جمعها في هذا القاموس أو هذا المعجم كما قال هداية للموظفين الذين يتولون الحكم بين المسلمين، ومساعدة للمبشرين الذين يجادلون علماء الإسلام، وللسائحين الذين يطوفون بلاد المشرق، وللباحثين الذين ينظرون في المقارنة بين الديان، ولكل من يشغله عمله أو نزعة فكره بشأن من شئون المائة والخمسة والسبعين مليونا (هكذا) من الأناسي الذين يتبعون محمدا عليه السلام.

ولكني أقول معترفاً إنني أرجع إلى هذا القاموس حين يستعصي علي الرجوع إلى المطولات الدينية للوقوف العاجل على مسالة من المسائل الإسلامية، سواء تناولت الفقه أو التاريخ أو تقويم البلدان، ولا أرى مناصاً من مراجعة هذا القاموس وأمثاله على عامي بما فيها من الزيغ المقصود ومن التعصب الذي لا تخلو منه كتب المبشرين ويتفق كثيرا أن يخوض بعض الجلساء في مسألة من مسائل الفقه الإسلامي لا يحضرنا الفقيه الحجة الذي نستفتيه فيها، أو نستدل منه على مراجعها، فما هي إلا لحظات حتى أوافيهم بالفتوى المجملة، أو بالدلالة على مظانها ومواقع استقصائها. ويعجبون فيزداد عجبهم حين أطلعهم على قاموس من هذه القواميس التي ليس اسهل من البحث فيها: كتاب إنكليزي يدلنا أسرع دلاله على مراجعنا نحن المسلمين أبناء العربية. فلم لا نعجب ويعجبون؟ . .!

إننا فقراء.

وقد نعلل الفقر في علوم الدنيا بخروجها في الزمن الحديث من أيدينا، فهل خرجت من أيدينا كذلك علوم ديننا؟ وهل البواعث الدينية التي عندنا أقل من أن تحقق لنا ما يحققه الغربيون ببواعث الشوق إلى المعرفة أو بواعث الشوق إلى السيادة؟

الحق أن الشوق إلى معرفة الدين نفسه تحتاج قبل ذلك إلى شوق المعرفة في أعم معانيها، وأن العجز عن العلم والسيادة يورث العجز عن الإيمان والعقيدة، حتى بين المتدينين المعتقدين

وأني لأجيل الفكر في هذا وأشباهه إذا بالمجلد الرابع من (دائرة المعارف الإسلامية) يصل إلى يدي، وهي الدائرة التي ألفها نخبة من المستشرقين بالغات الإنكليزية والفرنسية والألمانية، وثابر على نقلها إلى اللغة العربية الأدباء الأساتذة: (أحمد الشنتناوي، حافظ جلال، عبد الحميد يونس، إبراهيم خورشيد) من متعلمي الأدب والقانون

قلت: وهذا عمل ضخم كنا نحن أبناء العربية أولى بابتدائه وسبق الأمم كافة إليه وأستضخمت مع ذلك نجاح هؤلاء الأدباء الشبان في الوصول بالترجمة إلى هذه المراحل البعيدة، لأن عملهم في ترجمتها أصعب بين المشارقة من عمل المستشرقين في تأليفها وتحضيرها بين البيئات الأوربية

هناك تمهيد ملايين يعين على هذه الأعباء، وهنا تمهيد أفراد معدودين قلما يعاونهم أحد، وقد يثني عزائمهم ملايين!!

ففي بضع سنوات أتم مترجمو الدائرة الإسلامية ترجمة آلاف ثلاثة من الصفحات المزدوجة: كلها مصطلحات وإشارات مختزلة: وإحالة إلى مراجع مختلفة، وفيها من شعاب المعرفة ما ليس مقتصرا على الدين ولا على التأريخ ولا على السياسة ولا على المواقع الأرضية، بل يشمل هؤلاء جميعا ويزد عليها ما ليس يحصى

ولابد أن يدخل في حساب هذه السنوات حساب التبويب والتقسيم وإعادة الحروف الإفرنجية إلى الأبجدية العربية

فقبل أن يتناول القلم بالترجمة صفحة من ألوف الصفحات التي اكتظت بها المجلدات الإفرنجية ينبغي أن تترجم المواد واحدة واحدة ثم تدون في أجذاذها وتنتظم في ترتيبها الجديد: فلا تأتى الكلمات المبدوءة بحرف العين في المجلد الأول، بل تؤخر إلى موضعها من ترتيب الأبجدية العربية، ولا تبقى (أشبيلية) مثلا في حرف السين كما تكتب في الإفرنجية بل تقدم إلى حرف الهمزة، ولا تتأخر أسماء إسماعيل وإبراهيم وإدفو إلى الحرف التاسع أو الخامس بل يؤتى بها مع الحرف الأول والأجزاء الأولى. وليس هذا العناء بأقل من عناء الابتداء بتحضير المواد والكلمات. ولعل النقل وإعادة الترتيب عرضة لأخطاء لا يتعرض لها البادئون بتدوين الأسماء كما تكتب في لغات الأوربيين

فالوقت الذي يقضي في هذا التبويب الجديد ليس بالوقت القصير، واستدراك الخطأ فيه من أصعب الأمور، ووراء مشكلة الوقت مشكلة الإقبال على هذه الأعمال، ومشكلة المثابرة وهي أعضل ما نعانيه في كل عمل مديد الأجل متشعب الفروع، ومشكلة الأزمات الدولية والأزمات الداخلية التي تثقل على كاهل التجارة الرائجة والسلع الضرورية للمعيشة اليومية، فكيف بتجارة العلم وسلع القراءة!

قال الأدباء المترجمون في الجزء الأول من أجزاء الترجمة العربية: (. . . اختمرت فكرة ترجمة تلك الدائرة في رءوسنا منذ أعوام ثلاثة فعكفنا على دراسة المشروع من جميع نواحيه وألممنا بكل الصعوبات المادية والمعوية التي كثيرا ما تعترض الأعمال العلمية والأدبية في مصر، وظلت هذه الصعوبات حائلاً بيننا وبين تحقيق أمنيتنا، ولعلها كانت عين الصعوبات التي وقفت في سبيل غيرنا ممن حاولوا تحقيق تلك الأمنية، حتى لاح لنا أننا كنا مخطئين حين حاولنا أن نحل الصعاب كلها دفعة واحدة، فرأينا أخيرا أن نقسم العمل إلى أقسام ثم نشرع في التطبيق خطوة خطوة، وشعارنا أن كل شيء متيسر مستطاع)

وعندنا أن هذا الخاطر هو العلامة الأولى للعزيمة العاملة، لأن القدرة على تقسيم الصعوبات ضرب من القدرة على تذليلها، وليس أدل على النصر من قدرة القائد على تفرقة الخصوم وهزيمتهم فرقة بعد فرقة. فلو لم يكن الأدباء مترجمو الدائرة أهلا لفضيلة المثابرة لما كانوا منذ البداية أهلا لتصغير الصعوبات بتفريقها والتغلب على أجزائها، أو على رهبة الأحجام التي تلازم من يجمع الصعوبات ويستضخمها ويزيد عليها من الوهم ما ليس فيها

لقد شرع بعض الكبراء كما شرع بعض الدواوين الحكومية في طبع موسوعات دون هذه الموسوعة في حجمها وتعقيدها، وكان منها ما ليس يحتاج إلى ترجمة قبل طبعه، ومنها ما يحتاج إلى ترجمة ولا يحتاج إلى إعادة تبويب. ثم وقفوا عند البداية أو بعد خطوة قصيرة من البداية. فانفراد الأدباء مترجمي الدائرة بالمثابرة على هذا العمل الكبير مزية جديرة بالتسجيل في حياتنا الفكرية، ولهم حق في التهنئة بما جاهدوا وثابروا على قدر هذه الفضيلة النادرة، وعلى قدر الحاجة إلى تلك الدائرة، وهي حاجة توجبها الرغبة القومية كما توجبها الرغبة في العلم والثقافة

لكننا لا نكتفي بالتهنئة، بل نضيف إليها اقتراحاً في صدد ما أسلفناه من شكوى الافتقار إلى الموسوعات الموجزة في أمثال هذه الموضوعات. فمن اليسير على من ينهضون بعبء الدائرة الكبرى أن يتابعوا اختصارها وهم يترجمونها وينشرونها لتخلص لهم من ذلك في سياق العمل موسوعة صغيرة ينتفع بها عدد من القراء أكبر ممن ينتفعون بالموسوعة الكبيرة؛ بل ينتفع بها من لا يقدرون على التوسع في العربية ولا في اللغات الإفرنجية، وهم أحوج إلى النفع وأولى بالعناية، وليس النقص الذي نتمه بتفهيم هؤلاء دون النقص الذي يتم باستيفاء مراجع الإفاضة والاستقصاء.

عباس محمود العقاد

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

هذا عيب، ولكنه جميل - الظلم البغيض - عتاب موجه إلى

- الأستاذ الزيات - الدين الإسلامي في المدارس الأجنبية

تجربة جديدة للتعاون بين المصريين والأجانب - دفع
اعتراض - هل انتهزت وزارة المعارف فرصة الإضرابات
الدولية لتصفي ما بينها وبين المدارس الأجنبية؟ - للحق
والتأريخ.
هذا عيب، ولكنه جميل
أشار أديب غاب عني أسمه في مقال نشره بمجلة (الرسالة) إلى أني أتقاضى أجرا على ما أنشر من المقالات والبحوث في الجرائد والمجلات، وهي إشارة جرت مجرى التعريض، فكان معناها أن قبول الأجر على المقالات والبحوث عيب، وهو حقيقة عيب، ولكنه عيب جميل، إن كان الكسب الشريف من العيوب
ويظهر أن جمهور القراء في مصر لا يعرفون ما صارت إليه الصحافة المصرية، فهي اليوم أعمال اقتصادية يراد منها الربح كما يراد التثقيف. ورجال الاقتصاد لا ينفقون إلا بحساب، ولا يخرج الدرهم من أيديهم إلا بعد أن يطول حوله الجدال، وتلك أكبر مزية من مزايا رجال الأعمال، فهم الصالحون صلاحية حقيقية لتصريف الأمور بعقل وتدبير وسداد، والكرم رذيلة شنيعة حين يصدر عن رجال الأعمال، لأنه يشهد بأنهم حُرِموا مزية الضبط والتدقيق. فان سمعتم أن كاتبا يتقاضى أجراً على مقالاته في إحدى الجرائد فاعرفوا أن ذلك لم يقع إلا في سبيل الحرص على منفعة تلك الجريدة، فهو ليس إعانة تقدم إلى الكاتب وإنما هو ربح حلال يناله الكاتب تعويضاً على ما بذل من إجهاد الفكر في التحرير والإنشاء. وان سمعتم في مصر جريدة لا تنشر آلا ما يقدم إليها بالمجان فاعرفوا إن تلك الجريدة
صائرة إلى البوار ثم الزوال، لان القراء لا ينتظرون الكتاب المجهولين، وإنما ينتظرون الكتاب المعروفين، والكاتب لا يعرف في وطنه إلا بعد أن يشيب فؤاده في مساورة الأبكار من الحقائق والمعاني
وما أريد بهذه الكلمة أن أقول أني جدير بالانتفاع بما أنشر في الجرائد والمجلات، فهذا القول قد يعد من الزهو في موطن لا أريد فيه غير توجيه النصح إلى من يسألونني من وقت إلى وقت عن إمكان الاستفادة المادية من الصحف المصرية وفي توجيه النصح إلى هؤلاء أقول:
لا تصدقوا أن في مصر جريدة تدفع قرشا واحدا لكاتب على سبيل المعونة والتشجيع، ولا تصدقوا إن الصحفيين اليوم يجوز عليهم التلطف، كما كان يجوز على أسلافهم الكرماء من أمثال علي يوسف وعبد العزيز شاويش وأمين الرافعي، فتلك أيام خلت، وأصبحت الصحافة قوة أدبية واقتصادية لا ينتفع بخيرها إلا أقطاب البيان، ومن اجل هذا صح القول بأن الصحافة المصرية تحتل المكان الثالث في العالم بعد الصحافة الإنجليزية والصحافة الأمريكية، وستظل كذلك ما دام فيها رجال يعرفون انه لا عيب في أن تقوم الأفكار بالأموال، إن جاز الوهم بان الأفكار توزن بموازين الأموال الظلم البغيض
للظلم أشكال وألوان، فهناك ظلمٌ حُلوٌ عَذْب هو ظلم من يستملح منهم الدلائل، وهناك ظلم تافه هو ظلم من لا يقدمون ولا يؤخرون، وهناك ظلم بغيض هو ظلم من تحسن إليهم فيسيئون إليك. فالذين يعيبون علينا أن نتقاضى أجراً على ما ننشر في الجرائد والمجلات فيهم أناس يظنون فينا القدرة على كل شئ، فهم يدعوننا في كل وقت إلى تزكيتهم عند أصحاب الجرائد والمجلات، ليجولوا ويصولوا، كما يجول ويصول من وهبوا القدرة على التصرف بالخواطر والقلوب
ولو عرف هؤلاء أن حرفة الأدب الغانم قد تحكم على صاحبها بأن يموت قبل الأوان بعشرين عاما أو ثلاثين لزهدوا في الظفر المكسوب بثقة القراء، وهل يثق القراء بكاتب إلا بعد أن يطمئنوا إلى أنه يسود القرطاس بالدم لا بالمداد؟ ثقة القارئ عروس غالية يقدم إليها الكاتب خاتماً قد أتخذ حديده من الدم الذي سفحه على سنان القلم في الليالي الطوال
آه، ثم آه!!
من يصدق أن الكاتب الموثوق بكفايته البيانية لا ينقل عواطفه إلى قرائه إلا بعد أن تنفعل خواطره انفعالاً يحولها إلى نسيم تنتعش به أرواح الوجود؟
من يصدق أن الكاتب الذي يؤثر في عصره وزمانه لا يجود بكلمة من كلماته إلا وهو

يجود بأكواب جرار من دم الكبد والقلب
ومع هذا يقال أنه أجير لأصحاب الجرائد والمجلات!!
ولو قَدَرت مصر الكاتب حق قدرة لعرفتْ أنه عنوانها الصحيح في الشرق والغرب؛ فبفضل الكاتب قيل أن مصر زعيمة الأمم العربية، وبفضل الكاتب قيل أن صحافة مصر تزاحم الصحافة الإنكليزية والصحافة. الأمريكية. وهل من القليل أن نكون في الصحافة أعظم من أمم كثيرة تفوقنا في النفس والأموال؟
عتاب موجه إلى الزيات
إذا صح هذا - وهو صحيح - فكيف يجوز للأستاذ الزيات أن ينشر في مجلته تعريضاً بأجر يتقاضاه كاتبٌ صاحب (الرسالة) بصدق وإخلاص أكثر من أربع سنين؟
ومن الزيات الصديق؟
هو الرجل الذي يؤذيني بين قرائي وأصدقائي، فما ينشر لهم كلمة أقدمها إليه إلا بعد اختبار دقيق
أريد أن أعرف كيف يجوز للزيات أن يسمح بنشر كلمة فيها تعريض بمن ينتفعون بجهاد الأقلام، وهم أعظم من الذين ينتفعون بجهاد السيوف؟
وكيف يكون من العيب أن ننتفع بجهودنا الأدبية وهي جهود نخدم بها المجتمع كما يخدمه المشتغلون بالمحاماة والتدريس؟
وإذا جاز أن ينشر في الرسالة تعريض بمن ينتفعون بثمرات أقلامهم، ففي أي مكان ينتظر أرباب الأقلام كلمة الحق في الثناء على ما يقدِّمون من تضحيات، وهم أقل المجاهدين حظا من الثواب على الجهاد؟
ومتى نجد روح الوفاء إذا عز وجوده عند من قضوا أعمارهم في الأنس بمعاني الأدب الرفيع؟
وما هو الأجر الذي يقدم إلى الكتّاب في مصر حتى تصوب إليهم سهام التجريح؟
مازلنا نشكو الغبن الذي يلاحق الصحافة الأدبية في هذه البلاد، فليس أمام الكاتب الأدبي فرصة واحدة من الفرص التي يتمتع بها الكاتب السياسي، لأن مصر التي برعت في خلق العصبيات السياسية، لم تفكر في خلق العصبيات الأدبية، والكاتب السياسي قد يستطيع التمتع بإجازة يتذوق فيها طعم الراحة شهراً أو شهرين مع حفظ حقه في المرتب؛ أما الكاتب الأدبي، فهو مقهور على معاقرة الكدح الموصول، إلا أن يغنيه الله عن ذلك الأجر الممنون
من المزعج أن تُنسى حقوق الكاتب الأدبي، وهو يعاون معاونة جدية على ترقية الصحافة الأدبية، وهي صحافة لم تكن ولن تكن إلا لونا من ترف العقول، وهي الشاهد على إن الأمة لها في عالم الفكر مطامح وآمال، ولكن أين المنصفون؟
ونحن قد زهدنا في خدمة الصحافة السياسية، وهي الصحافة التي يخطب ودها أقطاب السياسة ورجال الأعمال، والتي تمكن أصحابها من نواصي المناصب العالية، فهل كنا من الموفقين في إيثار ذلك الزهد؟ هيهات. . . فما كان زهدنا في الصحافة السياسية إلا ضرباً من الخذلان!
قد نعزّي أنفسنا فنقول: إن الجهاد في الميدان الأدبي أبقى على الزمان، وتلك والله علالة المهزومين؛ وإلا فكيف يُحسد الكاتب الأدبي على الانتفاع بجهوده الأدبية، وهي لن تصل به إلى منازل المجد إلا يوم يتولى أمور الناس رجل في حصافة ابن العميد، أو عقل سعد زغلول؟
وما هي تلك المنافع التي نعير بها في مجلتك، يا صديقي الزيات؟
وما الذي استفدت أنت من خدمة الأدب، وبيدك مجلة أدبية تضر بها وتنفع؟
كل ما غنمته هو السلامة من مزالق الشبهات، وذلك مغنم عظيم جداً، ولكنه قليل الوزن في العصور الممسوخة، عصور الزهد في معالي الأمور. ولو اعتدل الميزان - كما رجونا ألف مرة - لكان للصحافة الأدبية مكان مرموق في هذه البلاد، ولكنه لن يعتدل إلا بعد أحيان طوال، ويومئذ ينسى الناس أن مصر عاش فيها أقوام حفروا أساس الصحافة الأدبية بأسنة الأقلام، وهم محرومون من عطف الصديق المواسي، والناصر الرقيق
ومهما تكن العواقب، فذلك حظي وحظك، وحظ إخوان كرام رضوا بالشقاء في خدمة الصحافة الأدبية ليرضوا شهوة العقل، وللعقول شهوات أقوى وأعنف من شهوات

العيون والقلوب
وهل أقبلنا على الصحافة الأدبية طائعين؟
لا، والله، فما أقبلنا على هذا المورد إلا مسوقين بسوَّاقٍ حُطَم، هو القلم المفتون بافتراع المعاني
وجملة القول أن ما يعاب عليَّ يعاب عليك، فمتى تكثر العيوب؟ ومتى يكثر القادرون على الانتفاع بثمرات الأقلام؟
العيب الحق هو أن تشهد الوقائع بأن الذين ينتفعون من الصحافة الأدبية لا يزيدون عن آحاد، لأن أدباء مصر لم يستطيعوا إلى اليوم أن يصيّروا الأدب غاية وجودية، يحيا بها الناس كما يحيون بالطعام والشراب
فهل يستطيع من عابوا عليَّ الانتفاع بقلمي أن ينتفعوا بأقلامهم؟
وهل فيهم من جُعِل رزقه في سنان قلمه، كما جُعل رزقي في سنان قلمي؟
ليت الله يكثر من المنتفعين بأقلامهم، لنؤمن ونصدق بان القلم صارت له دولة في هذه البلاد!
ليت، ثم ليت!!
الدين الإسلامي في المدارس الأجنبية
قرأت في الجرائد خلاصة ما انتهى إليه البحث بين وزارة المعارف ونظار المدارس الأجنبية فيما يتصل بتعليم الدين الإسلامي للتلاميذ المسلمين بتلك المدارس، وقد فهمت مما قرأت إن البحث وصل إلى غايتين:
الأولى انه لا يجوز أن يعلم تلميذ ديناً غير دينه ولو رضى أهله بذلك
الثانية أنه يجب تعليم الدين الإسلامي للتلاميذ المسلمين بالمدارس الأجنبية
وقد حدثني بعض من شهدوا تلك المحادثات إن نظار المدارس الأجنبية لم يعترضوا على النص الذي يوجب ألا يتعلم التلميذ ديناً غير دينه، لأنهم لا يريدون فتح باب الفُرقة والخلاف بين أبناء هذه البلاد، ولأنهم يعرفون انهم مؤتمنون على ضمائر من يدخل مدارسهم من أبناء المسلمين
أما النص الذي يوجب أن يتعلم التلاميذ المسلمون مبادئ الدين الإسلامي فقد وافق عليه نظار المدارس الأجنبية بعد جدال بسيط، وكانت حجة المجادلين إن بعض المدارس قد تتعدد فيها الديانات والمذاهب، فمن الإرهاق لجدول الدروس أن تخصّص فيه ساعات لتدريس ديانات التلاميذ على ما بينها من تباعد واختلاف، وهنا وجدت وزارة المعارف الحل فرضيت بأن تكون دروس الدين الإسلامي في أيام الآحاد
ذلك ما حدثني به الصديق الذي شهد تلك المباحثات فما الذي أملك في التعقيب على هذا الموضوع الدقيق؟
أواجه الموضوع بصراحة تنفعنا وتنفع ضيوفنا الأجانب فأقول: تنقسم المدارس الأجنبية إلى قسمين: مدارس مدنية ومدارس دينية
أما المدارس المدنية فهي على أتم استعداد لتدريس الدين الإسلامي في دورها، لأن نظامها يقوم على احترام جميع الديانات وإن كانت غير ملزمة بتدريس الديانات، وما دام الرأي العام في مصر يرى أن الدين الإسلامي مادة أساسية في تثقيف التلاميذ المسلمين فهي لا تمانع في أن يكون في دورها مكان لتعليم أولئك التلاميذ مبادئ ذلك الدين
بقيت المدارس الدينية، وهي مدارس لا يُطلب منها غير الحياد، فكيف نفرض عليها أن تعلم الدين الإسلامي في دورها؟ إنما يجب أن نسهل عليها هذه المهمة فنتولى تعليم من بها من التلاميذ المسلمين في دور المدارس المصرية وفي أيام الآحاد
ذلك ما رأته وزارة المعارف، وهو رأي أرادت به مجاملة المدارس الدينية، حتى لا يقال إن وزارة المعارف تجرح إحساس الأجانب من رجال الدين
كل هذا جميل، وجميل جدا، وجدا جميل، كما يعبر الدكتور طه حسين
ولكنه إن وقع فسيشهد بأننا جميعا نعيش في عصور الظلمات؛ فنظار المدارس الأجنبية لا ينكرون أن الإسلام دين يتقرب به إلى الله مئات الملايين. فكيف تضيق به مدرسة يديرها أوربيون أو أمريكيون، وقد نشأوا في بلاد لا ترى من العيب أن تدرس الأوهام والأضاليل حتى تشعر بالحرج في السماح بتدريس الدين الإسلامي (وهو إن لم

يكن وحيا من السماء كما يزعم من خاصموه فهو بلا جدال أقوى صورة من صور الضمير الإنساني، وأعظم
(شاهد على سيطرة الفكر والعقل والوجدان
لو جاز لي أن أتهم وزارة المعارف لقلت إنها تريد اختبار بعض رجال الدين من الأجانب، فهي تريد أن تجرب مبلغ استعدادهم لتقبل التعاون السليم من شوائب الأغراض، فما الذي سيصنع أولئك الرجال في الرد على وزارة المعارف!
أنا أرجح أنهم سيفكرون في منافع تلاميذهم من المسلمين فينظمون لهم دروس الدين الإسلامي بطريقة تعفيهم من التردد على المدارس المصرية وفي أيام الآحاد فما هي تلك الطريقة؟
في المدارس الأجنبية نظام مدرسي يسمى نظام آل وهو النظام الذي يسمح بأن يقسم التلاميذ إلى فرق مختلفة في وقت واحد. فمن السهل أن يُتَّبع هذا النظام في تدريس الديانات في المدارس التي تختلف فيها الديانات، وعندئذ يذهب الخطر المتوقع من إرهاق جدول الدروس
دفع اعتراض
قد يقال إن في تدريس الدين الإسلامي بالمدارس الأجنبية فتحا لأبواب الشقاق بين التلاميذ المختلفين في الدين
وأجيب بأن إغفال الدين الإسلامي هو الذي يخلق ذلك الشقاق، لأنه يفرض على التلاميذ المسلمين أن يتصوروا أنهم مضطهدون، ويوحي إليهم فكرة الوهم بأنهم يتعلمون في مدارس تضمر لدينهم معاني العداء المكشوف أو الملفوف
فما مصلحة تلك المدارس في إغفال الدين الإسلامي؟
وما الموجب لأن يتعبونا بتجديد خصومات نحب أن تموت؟
الواقع أن بعض نظار المدارس الأجنبية لم يجدوا من يدلهم على اتجاهات الأفكار والعقول في هذه البلاد. ولو وجدوا من يرشدهم لأعفونا وأعفوا أنفسهم من الدخول في محرجات تؤذينا وتؤذيهم أعنف الإيذاء
للمدارس الأجنبية ماض جميل في نشر اللغات الحية بالديار المصرية، وذلك الماضي الجميل يحتاج إلى حارس أمين من
الحاضر الجميل. . .
فمن يبلغ بعض نظار المدارس الأجنبية أن الصديق الحق هو الذي يرشدهم بصدق وإخلاص إلى جلية الأمر في مواطن قد اشتبكت فيها الأوهام والظنون؟
إن صدقت النيات في تحقيق ما تم عليه الاتفاق بين وزارة المعارف ونظار المدارس الأجنبية فسيكون لتلك المدارس مستقبل أروع وأجمل من ماضيها الرائع الجميل
ثم دفع اعتراض
قيل وقيل إن وزارة المعارف قد انتهزت فرصة الاضطرابات الدولية لتصفي ما بينها وبين المدارس الأجنبية، وذلك القِيل كذب وافتراء، فوزارة المعارف تفكر في هذه الشؤون منذ أعوام طوال، وهي بالفعل قد قررت التفتيش على جميع المدارس الأجنبية منذ سنة 1938 يوم كان الحديث عن وقوع حرب عالمية رجماً بالغيب، فمن التجني على وزارة المعارف أن يقال إنها تنتهز فرصة الاضطرابات الدولية لتحقق أغراضا سليمة لا يطعن في سلامتها إلا أهل الأغراض والأهواء
أما بعد فقد علمت أن قانون التعليم الحر سيعدل بعد تلك المباحثات تعديلاً يضمن السلامة من أخطار الخلاف بين المصريين والأجانب، ويؤكد الثقة والصفاء بين أولئك وهؤلاء
للحق والتاريخ
حدثني صديق شهد تلك المباحثات أن أعضاء اللجان الفرعية من الأجانب عز عليهم أن تنتهي في أسابيع، فقد راعهم أن يعرفوا أن في وزارة المعارف رجالاً موسومين بالرفق واللطف في معالجة الدقائق من المعضلات، وكانوا يتوهمون أنهم لن يلقوا إلا رجالاً يغنيهم الاعتصام بالحق عن مراعاة الرفق واللطف
وكذلك حثني ذلك الصديق أنه لم يكن ينتظر أن تتم تلك المباحثات في أسابيع، فقد كانت الأراجيف شاءت أن تصور بعض رجال التعليم من الأجانب بصورة من يعادون العروبة والإسلام في هذه البلاد. ثم شاء الله أن تشهد الظروف بأنهم أبرياء من تُرَّهات

تلك الأراجيف
ذلك ما حدثني به الصديق الذي شهد تلك المباحثات، وهو لم يخبرني بجديد، فقد اتصلت بنظار المدارس الأجنبية عدداً من السنين فلم أجد منهم غير الأدب واللطف والذوق، ولم
أشهد عليهم غير الاهتمام بمراعاة العواطف المصرية، كتب الله لنا ولهم التوفيق في خدمة العلوم والآداب والفنون.
زكي مبارك
في العقد - 4
لأستاذ جليل
25 - (145) كان بعض أهل التمرس (يعني التمرس) بالحرب يقول لأصحابه: شاوروا في حربكم الشجعان من أولي العزم، والجبناء من أولي الحزم، فأن الجبان لا يألو برأيه ما يبقى مهجكم، والشجاع لا يعدو ما يشد لنصرتكم، ثم خلصوا من بين الرأيين نتيجة تحمل عنكم معدة الجبان وتهور الشجعان، فتكون أنفذ من السهم الزالج والحسام الوالج
وجاء في تعليقه (ما يشد نصرتكم): كذا في ا. والذي في بقية الأصول: (بصائركم) وهو تحريف
قلت: النصرة تصحيف البصيرة أو تحريف البصائر، والشد يناسب البصيرة أو البصائر، فالبصيرة الحجة والاستبصار في الشيء، والبصيرة ما اعتقد في القلب من الدين وتحقيق الأمر. وليس أصل القول - كما أرى - (يشد نصرتكم أو يشد بصائركم) وإنما هو (يشيد ذكركم أو يشيد بذكركم) (كما جاء في هذه الوصية في زهر الآداب وثمر الألباب) وفي (غرر الخصائص الواضحة) و (الغرر) يروى عن (الزهر) أصل الجملة كما ذكرنا ثم نسى ناسخ نقط الياء فصارت (يشد ذكركم) فاستركت واستبدلت بالذكر البصيرة أو البصائر أو النصرة حتى يجئ معنى مقبول
وقد يكون أصل (السهم الزالج والحسام الوالج) ما سطر في الزهر والغرر: (السهم الصائب والحسام الغاضب) والسهم الصائب أقعد في هذا المقام من السهم الزالج في التاج: زلج السهم يزلج زلوجاً وزليجاً وقع على وجه الأرض ولم يقصد الرمية. وفي المخصص، وفي المثل: (لا خير في سهم زلج) وإذا وقع السهم بالأرض ولم يقصد الرمية قلت: أزلجت السهم
وقد يصوب (السهم الزالج) في قول القائل بعض التصويب ما ورد في اللسان: قال أبو الهيثم: الزالج من السهام إذا رماه الرامي فقصر عن الهدف، وأصاب صخرة إصابة صلبة، فاستقل من إصابة الصخرة إياه، فقوى وأرتفع إلى القرطاس فهو لا يعد مقرطساً
26 - (ص145) . . . وانفسدت نياتهم
قلت: من يجد هذا الفعل في مثل هذا الكتاب دون تنبيه عليه يثق بصحته وما هو بالصحيح
في الصحاح: لا يقال انفسد. ومثل ذلك في اللسان. وفي القاموس: لم يسمع عنهم انفسد. قال شارحه: في مطاوع فسد وإلا فالقياس لا يأباه
قلت: لم يحرك الفعل (فسد) في التاج، فأن قصد الثلاثي غير المضاعف فهي هفوة عالم
في ضياء اليازجي: رجل مفسود السيرة وقد انفسد، وكلاهما خطأ، لأن فسد لازم فلا يصاغ للمجهول ولا يبنى منه مطاوع
27 - (ص169) . . . فدخلت في غمار الناس . . .
قلت: في غمار الناس أو غمار الناس بالضم أو الفتح كما قيد ذلك بصريح الكلام لا بتوشيح القلام - كما يقول المجد - في تهذيب الألفاظ، والصحاح واللسان، والمصباح، وحرك بالضم والفتح في الجمهرة والمخصص وغيرهما
والأصمعي يقول: دخل في خمار الناس. وغمار الناس خطأ ليس من كلام العرب. وقد نسب صاحب المخصص هذه التخطئة إلى ابن السكيت، وهذا وهم من ابن سيدة. وإنما ابن السكيت ناقل وقد قال بعد كلام الأصمعي: الكسائي: دخلت في غُمار الناس وغَمار الناس وخُمار الناس وخَمار الناس.

وأثبت الجوهري في الصحاح هذا القول إثبات الموافق عليه
والغِمار - بالكسر - جمع الغمر وجمع الغمرة ليس بحجة لمن كسر الغمار في (دخلت في غمار الناس أو خمارهم) في كلام القدماء. . .
(ص35) - 28
جانيك من يجني عليك وقد ... تعدى الصحاحَ مبارك الجرب
ولرب مأخوذ بذنب عشيرةٍ ... ونجا المقارف صاحب الذنب
قلت: عشيرة. وقد روى الشريشي في الشرح الكبير هذين البيتين و (قرينة) فيهما مكان (عشيرة)
قال (الوليد بن عبد الملك للزهري): يحدثوننا أن الله إذا استرعى . . .(ص71) - 29
عبداً رعيته كتب له حسنات ولم يكتب له السيآت، قال: باطل يا أمير المؤمنين. . .
قال: إن الناس ليغوونا عن ديننا
وجاء في الشرح: في الأصول (ليغروننا) بالراء، وهو تحريف
قلت: إغواء: أظله، أو دعاه إلى شيء غوى به أي ضل؛ وغره يغره: خدعه وأطعمه بالباطل؛ والقوم قصدوا خدع الخليفة وإطماعه بالباطل؛ والغر أو الغرور مثل الإغواء، وربما فضل الأول الثاني في هذا المقام
وإذا جرد الوالي لمن غمط أمره وسفه حقه اللين بحقاً والخير . . .(ص234) - 30
محضاً لمن يخلطهما بشدة تعطف القلوب على لينة ولا بشر يحيشهم إلى خيره، فقد ملكهم الخلع لعذرهم
وجاء في الشرح: كذا في 1؛ ويحيشهم أي يجعلهم يفزعون يقال: حاشه يحيشه إذا أفزعه؛ والذي في سائر الأصول: (يحبسهم)
قلت: الحيش: الفزع، والفزع هنا الخوف والذعر، لا الفزع إلى الشيء، أي اللجوء إليه؛ وفي حديث عمر إنه قال لأخيه زيد حين ندب لقتال أهل الردة فتثاقل: ما هذا الحيش والقل؟! أي ما هذا الفزع والرعدة؟ فاللفظة في (العقد) هي يحوشهم أو يحيشهم أي يسوقهم؛ ففي حديث عمر أن الرجلين أصابا صيدا قتلة أحدهما وأحاشه الأخر عليه؛ يقال: حشت عليه الصيد وأحشته إذا نفرته نحوه، وسقته إليه، وجمعته عليه كما في النهاية؛ وفي الصحاح: حشت الإبل: جمعتهما وسقتها، وحشت الصيد أحوشه إذا جئته من حواليه لتصرفه إلى الحبالة
31 - (ص178) قال كعب بن زهير:
بخلاً علينا وجبنا من عدوكم ... لبئست الخلتان البخل والجبن
قلت:. . . وجبنا عن عدوكم. وقد نسبه أبو تمام إلى قعنب بن ضمرة. وفي المبهج: قعنب بن أم صاحب وهي أمه، وهو أحد بني عبد الله بن عطفان، وكان في أيام الوليد ابن عبد الملك، والبيت ثالث ثلاثة في (الحماسة) شقيقاه هما:
إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحاً ... مني وما سمعوا من صالح دفنوا
صم إذا سمعوا خيرا ذكرت به ... وإن ذكرت بشر عندهم أذنوا
وقد تمثل أبو جعفر المنصور بذلك البيت في مقامين في خطبتين ذكرهما الطبري في تاريخه في (الخبر فن بعض سيرة المنصور) والبيت فيهما كما روى ديوان الحماسة
احتلت هذه الضئيلة البئيلة (من) ذلك المكان من البيت - غير متحللة عنه - الدهر الأطول
في طبعات (العقد) وقد لمحتها في ثلاث منها، ثم لم نتئب (لم تستح) الملعونة من ظهورها في طبعة اللجنة المبجلة. واليقين أنها من ميراث الناسخين، لكن لكل كتاب أجل ولكل كاتب ولكل كتابة ولكل شئ، فلن تكون (من) في البيت في العقد - إن شاء الله - بعد اليوم. . .
32 - (ص334) ورؤى حاتم يوماً يضرب ولده لما رآه يضرب كلبة كانت تدل عليه أضيافه وهو يقول:
أقول لابني وقد سُطْتُ يديه ... بكلبة لا يزال يجلدها
أوصيك خيراً بها فان لها ... عندي يداً لا أزال أحمدها
تدل ضيفي علي في غلس ال ... ليل إذا النار نام موقدها
قلت: أقول لابني وقد سطَتْ يدُهُ. . .
33 - (ص170) وقال بعض العراقيين فيه (أي في أكول جبان):

ضعيف القلب رعديدُ ... عظيم الخُلق والمنظرْ!
رأى في النوم عصفوراً ... فوارى نفسه أشهر!
قلت: رعديدٌ، إذ لا تصريع في البيت، ولا احتياج إلى كف، واللفظة مصروفه وهذا ظاهر
كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يخرج كل يوم بصفين حتى (ص123) - 34
يقف بين الصفين ويقول:
أي يوميَّ من الموت أفرّ ... يوم لا يُقدر أو يوم قدرْ
يوم لا أقدره لا أرهبه ... ومن المقدور لا ينجي الحذر
قلت: أفرْ بالسكون بلا شدة حتى لا يختل الوزن
ذكرتني (صفين) في خبر (العقد) بيتين كانا يقالان في لياليها وهما هذان:
الليل داج والكباش تنتطح ... نطاح أسد ما أراها تصطلح!
فمن يقاتل في وغاها ما نجا ... ومن نجا برأسه فقد ربح!
وإن الدنيا لتتمثل في هذا الوقت بهذا القول. والمأمول - وقد استجبت الدعوة في
الرسالة (259) ص (932) فعادت جذعة - أن يكون نفع الناس منها جسيماً عظيماً مثلها
فيحيى فياح .. .!
* * *

الغناء والموسيقى
وحالهما في مصر والغرب
للأستاذ محمد توحيد السلحدار بك
- 2 -

نسمع اليوم ضجة في مصر بين أنصار القديم وأنصار الحديث؛ فما هو ذلك الذي توهموه القديم وثبتوا عليه؟ وما هو ذلك الذي أحدثوه واعتزوا به!

لمجلس الموسيقى والغناء الجدي عندهم نظام لا يمس ولا يتغير: مقدمة موسيقية، تقطعها تقاسيم بكل معزف لابد منها في نظرهم وإن تشابهت وتكررت منذ دهور؛ ثم ليال ناداها المغنون حتى سوأها فرط التكرار، فموال عامي، فدور أو طقطوقة، أو قصيدة مسيخة في ترتيب ما يختارون من أبياتها، معذبة على ألسنتهم اللحانة، وما أشنع لحانة المغني منتحل الفن والفن الجميل برئ من تشويه الجمال وإن تعمد تصوير الدمامة أحيانا! وجملة ذلك (وصلة) تجمع بين العامي والفصيح حين تضم الموال إلى القصيدة وتجمع بين المتنافرات والأضداد. أما التواشيح العربية القديمة التي أقحموا فيها (أمان) و (يا لا لُّلي) لموازنة ألحانها الحاضرة، فهي في حكم المهمل، إذ قلما يغنون بعضها أو جزءا منها، وقلما يغنيها أجود الأصوات. وأما الغناء في السنما وفي التمثيل، أو فيما يسمونه أوبرا، فهو أغاني مفردة، مبعثرة يصدق في أكثرها ما يقال في غيرها

والأغاني، على الإجمال، موضوعها ثابت ثبات الرواسي، يصور رزيئة عاشق ذليل يومه ناحس، ومهانة داله عليل ناكس، وأنين خائر، وحنين طريد شريد حائر، وسائل حزين بكى، مستغيث ولا مغيث؛ فهو موضوع يصف تحيته مخلوق مجرد من كل حمية، شاذ عن سجية الرجل السليم، كأن العشق مرض مهلك لا تكون فيه هنيهة هناء، أو لحظة بشاشة، أو فينة صفاء؛ وكأن العشق الكئيب لا يغني سواه، وكأن الإنسان لا يطرب إلا من العويل والنحيب مذ عمى هذا الفن الأنكد عما يفعم فؤاده من شتى العواطف والأحاسيس البشرية، وهو موضوع مستهجن مملول زاد سماجته الإمعان في تكراره وعبارة هذه الأغاني عامية على الأغلب، ونحن نزعم أننا نحارب الأمية والعامية؛ فكأن المصريين قاطبة عوام، وكأن الفصحى ليست في شئ مما يصلح للغناء ولم تغن بها مدنيات قبلنا، وكأن الأمم الحية لا تغني الآن في لغاتها إلا بعبارات الأوباش من أبنائها. والأغنية محدودة في قليل من الجمل، ولولا تكرار المغني لكلماتها - وأي تكرار - لما أستغرق غناءه دقائق معدودات

تبدأ الموسيقى بمقدمة هي جزئ من بشرف، أو بشرف في الأندر، أو تقليد أين هو من البشارف؟ وهي حين تعزف واحدة منها تقطعه بما تقحم فيه من تقاسيم بالمعازف تنبو لهجتها الطافحة شجوا عن لهجة البشرف الناطقة عن أحاسيس الرجولية، ولو اتفقتا في النغمة، فتكدر صفاء لحنه وتعرقل تسلسله وتسربه في

الآذان، وتضعف قوة أخذه في الأنفس الواعية وشدة أسره فلا تجد منه كل الطرب وهو عند تتابع روائعه واتصالها مطرب جد مطرب
وهذه المقدمة الموسيقية تباين ما بليها من غناء وإن كان لحنها ولحنه من نغمة واحدة، كنغمة الصبا أو البياتي، إذ أننا لم نفطن بعد للدلالة الصوتية ولم نزكن معنى الإنشاء الموسيقي، أو لم نسمع عنه شيئا
ثم أن الموسيقى تصاحب الغناء أو تتخلله، أي تعزف وتسكت، وتارة تخافت بلحنها مع بعض جمل الأغنية أو بعض كلماتها، وطورا يأتلف لحنها مع الغناء والأغنية، ويختلف أطوارا بمتباينة دلالاته الصوتية المتضاربة لدلالاتهما: إذ يثب اللحن الموسيقي بمدلولاته من البكاء إلى المرح مثلا، أو من الضعضعة إلى الثورة أو الرقص بينما يقيم المغني بغنائه مناحة حاميه، يشغف بها أذان المستمعين. ذلك بأن ملحن الموسيقى ليس يعرف اللحن إنشاء يتوخى فيه صاحبه أن يجعله معبراً للمستمع عن ذات ما يصل إلى سمعه من الموسيقى من معاني الأغنية والغناء بها؛ ولا يدرك أنه لا ينجح في صنيعه إلا بإحكام الدلالات، وإتقان المطابقة بينها، وتحسين الأسلوب بمحسنات صوتية توائم سياق اللحن الأساسي. وإنما هم الملحن أن يتلقط عبارات صوتية يظنها مؤتلفة لمجرد نظمه إياها في نغمة الأغنية، وقد تكون الواحدة من هذه العبارات مطربة في ذاتها، لو سمعت على حدة، وإن باينت أخواتها في لحنه وهو لا يدري؛ لأنه لا يقصد سوى التجعيد في اللحن والتوشيع بما يأخذ أو يسرق من هنا وهناك، ولا يلاحظ إلا ضبط الأقيسة وإحكام الوقف أو (المحط)
لتمكين المغني من استئناف الغناء ولإظهار أنة لم يخرج عن النغمة الأقيسة والمحطات! ذلك وحدة ما يعني به الملحنون والعازفون وما فيه يتبارون! ولذلك يبرزون القياس أي (الوحدة) بالدف أو الطبلة في عزفهم الألحان؛ وليس هذا موضع فخر لمنتحل الفن، إذ هو شئ أولي، دون مستوى الفن الرفيع؛ بل إن في إظهار القياس والوحدة إظهارا لتكرار يمل النفس اطراده وملازمته للحن والغناء، إلا أن يقع في مواطنه من الموسيقى المحركة كالتي تصاحب الرقص. والفن الحق يتفادى هذا العيب بإخفاء مساند البناء الموسيقي من قياس وغيره، كما يخفي المهندس دعائم البناء الجميل، وبعض نواتئه وزواياه، بحيله الفنية وبالطلاء والزخرفة
وما اكثر الجاهلين من ملحني الأغاني إن اللحن إنشاء صوتي يوجب عليهم المطابقة التامة بين مدلولاته والمدلولات الكلامية. وليس ينفي هذه الحقيقة ائتلاف الحزن الذليل الفائض من الأغاني والحزن الأذل المتدفق من ألحانها: لأنه ائتلاف لم يأت عن دقة في حساسية المؤلف ويقظة في مشاعره وملكاته ولا عن فطنة فنية، بل هو الشاهد باستقرار عادة التذلل والبكاء واستحالتهما شِنشِنةً بالإدمان. يثبت ذلك أن مدلولات لحن الأغنية الحزينة تأتلف مع مدلولات كلامها، لكن كثيرا ما تختلف معها في مصاحبتها لألفاظ العاشق المتضعضع الباكي، بمعان صوتية مرقصة مرة، أو ساخرة ومتغنجة أخرى، أو متميعة؛ ولو كانت نفس الملحن حساسة لما جاءت بأمثال هذا الاختلاف في لحنه. ولو كان مدركاً معنى الإنشاء الصوتي والغناء، لأصلح أخطاء لحنه بالتهذيب بعد تأليفه؛ أو لو كان فنانا حقا لما تعمد مثل هذا السخف لإرضاء أحد
أما المغني، فقد اصبح مثله الأعلى هو التفوق في حكاية الذل والحزن، الحزن والذل وحدهما! كل الحزن والذل! وفي وصف بنات الصدر، حتى تشبع قلبه من الكآبة تشبعاً ينفضها على صوته، شاء أو لم يشأ، وحتى قد يكون جيد الصوت، لكن غناءه على رغم هذه الجودة بكاء حقيقي وعويل، لا صوت مغن. والفرق عظيم بين الحقيقة والفن الذي يمثلها، فإن صار تمثيله حقيقة، فلا يكون فناً
وأكثر المغنين إنما صنعتهم مسخ لألحان مسيخة، مسخ يزيدها بشاعة بعيوب ليست من الفن ولا الغناء في شئ كما يتوهمون. وهؤلاء عيوب غنائهم عديدة وبيان بعضها فيما يلي:
فمنها أن المغني قد يغني للجماهير بصوت أدركته أعراض الشيخوخة، ويغني ولو كان من ذوي الخنخنة أو كان مزكوماً، ولا يفكر في سلامة صوته، ولا يعني بنقاء حنجرته وصحة صدره، وهو يزعم أنه مطرب.
ومنها إن يقدم على رفع صوته إلى أعلى الطبقات وهو غير قادر، فيظهر ما يعاني من مشقة. وليس هذا الجهد الجاهد بغناء الصوت الكرواني المخلخل الذي يحلق بسهولة

عظيمة، ورفاعته أنه غناء لا عناء.
ومنها أنه يقطع الأغنية كلمة كلمة، ويكرر الواحدة عشرين مرة زاعماً أن كل مرة تأتي بلون من الإيقاع غير ألوان الأخريات؛ وهذه وتيرة مملة وان صدق في زعمه، لان معنى الكلمة لا يتغير جوهره في هذا التلوين الصوتي الذي يؤكده؛ وهو زعم لا يصدق في كل المرات، وان صدق أحيانا في بعضها. على أن التكرار مرة أو مرتين، بشرط ظهور مزيته، معقول مقبول مواضعه؛ وحسب المستمعين والمغني، بعد ذلك أن يعرض ألوان صوته في سياق اللحن ويترك ما يسئم.
ومنها أنه يطيل الوقف بعد الكلمة بلا داع ولا معنى، وقد يطول الوقف بين كلمتين، أو كلمة وجملة، أو جملتين، لما يقحم بينها من عبارات موسيقية معانيها لا تلائم معاني الغناء: كأن تدل تلك على غضب ففرح، فثورة فمداعبة، بينا تدل هذه على شجن صاعق كالعادة، فتنفصم سلسلة الغناء وتختلط الدلالات الصوتية المتضاربة، ويذهب التقطيع والاختلاط بلذة اللحن والصوت المغنى أن كان فيهما لذة
ومنها أنه قد يقف على نصف كلمة، أو ثلث أو حرف منها، ولو كان همزة؛ وقد يستأنف من هذه الهمزة ويجأر بها مراراً فيحدث بذلك نواتئ ومنكسرات صوتية، مع أن المنحنيات أنق والطف وأحب إلى الأذن وتلك النواتئ مؤلمة
ومنها انه قد يترك السكوت بإطلاق صوته بغتة كالمدفع لقصور ذوقه عن حفظ التناسب، وقد يتنبه لهذه الفجاءة ويحاول تخفيفها متعجلا في الغض من صوته فيزيد وضوحاً.
ومنها أنه يمد كل حرف من كلمة مدا يطول حتى لا يستطيع المستمع أن يجمع حروفها، فيضيع معناها؛ وأنه قد يمسخ اللفظة بتأنق على ذوقه السقيم، كأن ينطق بكلمة الحرية مثلا: لو حووريية، فلا يفهم أحد هذه الأناقة الشنيعة
ومنها أنه يتأوه ويتوجع كأنه بين يدي سفاح يعذبه أو جراح يجرحه قبل اكتشاف وسائل التخدير الطبي، وتارة يتميع ويتغنج إثارة للشبق بين بكائه في غنائه بكاء الثكلى كل أولئك عيوب تشوه حتى احسن الأصوات وهي غريبة عن الصوت الغنائي، وكثيرا ما يجتمع منها وحدها ما يمض المستمع البصير، ويوهم أن مجلس الغناء مأتم مجانين، ويكفي لإخراج هذا الغناء عن الفن
تلك العيوب البينة في غنائنا وموسيقانا قد يلاحظها العامة وأشباه العامة، لكن لا على إنها عيوب بل على أنها محاسن من صميم الفن، ومن شواهد النبوغ والعبقرية؛ ويتبعهم في الإعجاب بها كل إمعَّة، خصوصاً في الحفلات حيث تسود روح الجمهرة، ثم يتأثر من إعجابها السواد الأكبر الذي لا يجرؤ على مخالفة رأيه الأكثرون من الأفراد، وهذا هو السر في كل صيت كاذب مفسد للأذواق.

محمد توحيد السلحدار

من الأدب الرمزي

الزمن الساحر . . .!

للأستاذ سيد قطب

أيها الزمن!

ما أعجبك! ما أقدرك!

إنني أراك اللحظة - أو يخيل إلي إنني أراك، أو تخيل إلي أنه يخيل إلي إنني أراك! - هنالك قابعاً منزوياً وراء منسجك الأبدي، تطل بعينيك العميقتين النافذتين من خلف المنسج القائم منذ الأزل، تنسل خيوط الكون وتنسجها، في دأب لا يمل ولا يفتر، ونظام لا يتقدم ولا يتأخر
أنك هناك في كل ذرة سابحة في الفضاء، أو غائصة في الأعماق؛ وفي كل خطرة نابضة في الفكر أو كامنة في الضمير؛ وفي كل ومضة مشعة في الأفق أو مستكنة في الذريرات. . .
وأنت هناك في البرعم النامي، والجرح المندمل؛ وفي الأمنية السائحة والذكرى المتوارية؛ وفي الأمس والغد؛ وفي الليل والنهار؛ وفي الغدو والأسحار؛ وفي الأرض والسماء؛ وفي كل مكان. . . ولكن أحداً - أيها الساحر القادر - لا يحس أنك هناك!
إنك لتلأم الجرح في اللحظة التي تثغره؛ وأنت هناك في أعماقه تنسج الأنسجة وتنشئ الذرات، وترتفع بغوره شيئاً فشيئاً، وإذا الطعنة الغائرة قشرة عالقة، وربما خيل إلى

الرائي أن وراءها ثغرة؛ وإذا القشرة نفسها تسقط بعد لحظات، وكأن لم يكن جرح ولا ثغرة ولا قشرة!

وكذلك تصنع بالجروح الغائرة في حنايا القلب وشعاب الضمير. . .!

وأنك لكامن هناك وراء البرعم المستكن في البذرة الساكنة تدفعه في رفق، وتمده في هدوء؛ ثم تنبثق به إلى الضياء نبتة ناحلة كابتسامة الوليد؛ ثم إذا هو فنن صغير، ففرع كبير، فدوحة باسقة، ذات أوراق وأزهار وثمار. . . ثم ماذا - أيها الساحر القادر - ثم إذا هي خشبه خشنة اللحاء يابسة اللباب؛ ثم إذا هي وقود النار؛ ثم إذا هي شعاع ذاهب، وهباب راسب. وأنت هناك من خلفها دائب في الإبلاء والإنشاء. . .!

وكذلك تصنع بالأمل البازغ، والحب الوليد. . .!

إنك لا تضيع لحظة واحدة! ويحي! وما اللحظات لديك؟

ليخيل إلي أنك تسخر منا ونحن نقسم الوقت لحظات! وكيف تعرف حدودها فنقول: من هنا تنتهي اللحظة الغابرة وتبدأ اللحظة الحاضرة! والوقت خيط طويل يلفه لولب الزمن فيمر بنا أو نمر به بلا توقف ولا فواصل ولا حدود؟. . . ما اللحظات والثواني والدقائق والساعات؟ ما أولها وما آخرها؟. . . ما من أول لها ولا آخر إلا في أوهامنا نحن أبناء الفناء!

إنك هناك وراء منسجك الأبدي تبلى وتجدد في آن، بعيداً عن الحس والوعي، بعيداً عن التأمل والملاحظة، بعيدا عن الشك والريبة. وربما خيل لبعض السذج أن يرقبوك في عملك الدائب، فإذا أنت تبدو لهم ساكنا صامتا كلما أمعنوا في الوعي والرقابة، بينما أنت تعمل عملك، تنسل وتنسج في كل شئ، حتى في وعيهم ورقابتهم وهم لا يشعرون!

أيها الساحر القادر. . . إنك لتحتفظ دائماً بسر اللحظة الحاضرة، فلا تدع عيناً تقربها ولاحساً يدركها، ولا فكراً يؤولها، ولا نفساً تلهمها. . . إنها لك وحدك. تنسل خيوطها وتنسج سواها، ويدك التي تنسل الخيط القديم هي التي تنسج الخيط الجديد، موصولا هذا بذاك، فلا مبدأ ولا نهاية ولا فاصل بين الخيطين تدركه العين أو الضمير. . . فإذا خرجت من منسجك أبحتها لحظة عابرة للأبصار والأفكار، ريثما تنسل وتنسج نفس هذه الأبصار والأفكار

وقد يحاول بعض السذج أن يقفوا دورتك، استبقاء للحظة يحبونها أو تفاديا من لحظة يرهبونها؛ وقد يتشبثون بالأوهام، ويثبتون أقدامهم بالوقت والمكان؛ وإذا أنت في غفلة عنهم تمر بهم، وتنقل أقدامهم وأوهامهم؛ وأنت تنسل وتنسج خيوط الإقدام والأوهام!

وكم مرة خيل إليهم أن هناك مفاجأة وطفرة. وما كان من ذلك شئ، إنما كنت أنت هناك، وراء المنسج، في صومعتك الأزلية، تبلى وتجدد، وتفني وتخلق، وتنسل وتنسج؛ وهم عنك في غفلة. ثم استيقظوا أو خيل إليهم انهم استيقظوا! فهالهم ما أبليت وما جددت؛ وصاحوا مشدوهين كالأطفال، وقذفوا في وجهك بعلامات التعجب والاستفهام بينما أنت دائب على منسجك تبلي وتجدد، حتى في ذلك التعجب وهذا الاستفهام!

أيها الزمن!

ما أرحمك! ما أقساك!

إنك لتلأم الجرح وتفتح البرعم؛ ولكنك تبلي الكيان وتذوي الحياة. وإنك لتمسح على الألم وتزوي الوجه الرعيب، ولكنك تطوي اللذة وتحجب الوجه الحبيب

إنك لتمنحنا الجديد وتهبنا الطريف؛ ولكنك تسلبنا القديم وتحرمنا التليد؛ لا بل أنت تسرق منا هياكلنا ونفوسنا، وتخطف ذراتنا وخواطرنا، وأيا كان ما تعوضنا فان تعويضك محدود بالعمر صائر إلى نفاذ، وفقداننا إلى غير رجعة ولا يستعاد من ذا الذي يستطيع أن يقول في لحظة ما: أنا. . . أنا. . . أنا الذي كنت منذ لحظة. . . إن كل شئ قد تغير منذ اللحظة الفائتة، فليس هو من كان هناك. . . إنك في هذه اللحظة الخاطفة نسلت منه خيوطاً، ونسجت فيه خيوطاً!

أين الشموس الغابرة وراء الآباد؟ أين الليالي السارية في مجاهل الأبد؟ أين النجوم مندمجة من السديم؟ أين مولد الأرض بجانب منابع الزمن؟ أين أول فجر وأين أول حي على هذه الكرة السابحة في الفضاء؟ أين إنسان الغاب في الكهوف والآجام؟ أين الزلازل والأعاصير؟ أين النسائم والنفحات؟ أين الوسوسة والخرير؟ أين الرفرفة والصدحات؟ أين البسمات التي رفت على الشفاه؟ أين العبسات التي غضنت الجباه؟

أين الهواجس والأفكار؟ أين الرغائب والاوطار؟ أين الحب والبغض؟ أين الهيام والسلوان؟؟. . .
أين. . . أين. . .؟ بل أين كلمة (أين) هذه التي لفظتها منذ لحظة؟ بل أين المقطع الأخير من (أين) الأخيرة؟. . .
!لقد نسلت خيوطها ونسجت سواها. . . وهأنت ذا دائب على المنسج الأبدي الجبار
هأنذا أعيد تلاوة هذه السطور التي خطتها يدي؛ ولكنها ليست هي كما خطتها، ولست أنا كما كنت لحظة تسطيرها. . . إنك نسلت ونسجت في خيوط يدي ونفسي، وفي حركاتي وخواطري؛ وفي خيوط الصحيفة التي حوتها، وفي خيوط المداد الذي أثبتها. . . وهأنت ذا لا تزال تنسل وتنسج في هؤلاء جميعا ولن يكون شئ منها كما كان مرة أخرى!
!أيها الزمان
!ما أعجبك! ما أقدرك! ما أرحمك! ما أقساك. . .
(حلوان)
سيد قطب
على هامش الحرب
الديمقراطية البريطانية
وأثرها في الحرب الحاضرة
تسربت الديمقراطية - كنظام سياسي - إلى العالم، من الولايات المتحدة الأمريكية، وقد تضمن هذا النظام الاعتراف بما نسميه الآن (حقوق الإنسان) وهي حقه في أن يعيش حراً ويتكلم حراً، ويعمل حراً، دون أن يتعرض للتعذيب أو السجن. وكان (أبراهام لنكولن) أول من أعطى الولايات المتحدة حكومة تقوم على المبادئ الأساسية لهذا النظام وقد أثر عنه أنه عرف الديمقراطية بقوله: (هي حكم الشعب، للشعب، بواسطة الشعب)، أو بعبارة أخرى: (هي حكومة ممثلين للشعب من الشعب ينتخبهم الشعب انتخاباً حراً)
أما في إنجلترا فقد كانت أولى الحركات الديمقراطية الكبيرة تلك التي قام بها (الشارتستس) وقد استمدت فلسفتها من أمريكا، ولكنها منيت بالفشل لأسباب عديدة، وما لبثت أن أعقبتها - بعد فترة من الزمن - حركة أخرى رمت إلى تحقيق (التمثيل العام)، وكان أول وأهم الداعين إليها (برايت) صديق (جوبدن) ومن بعده جاء (جلادستون) الذي تسنى له أن يدرس - خلال برلمان 1841 - 46 - كثيراً من مبادئ (جوبدن)
استمدت هذه الحركة وحيها من أقوال الفلاسفة الراديكاليين الذين يرجع إليهم - أكثر من غيرهم - تحديد (النظرية الديمقراطية) وتوضيحها. إلا أن نظام الحكومة في إنجلترا كان قد تضمن - من قبل - بعض المبادئ الديمقراطية. ومن أشهر الوثائق التي أصارت تلك المبادئ قانونا: الوثيقة الشهيرة المعروفة باسم (هاجنا كارتا)، وثيقة الحرية الكبرى لدى الإنكليز: استخلص البارونات هذه الوثيقة من الملك (جون)، وختمت في (رنيهبير) في الخامس عشر من شهر يونيو سنة 1215؛ ومن المبادئ التي تضمنتها:
1 - لا يبقى أحد في السجن دون محاكمة
2 - العدالة يجب ألا تباع، أو تؤخر، أو يرفض تحقيقها
3 - لا يدفع أحد غرامة، ولا يسجن، ولا ينفى إلا بعد محاكمة عادلة، وبموافقة محكمة اللوردات
4 - اكتسبت الحرية لمدينة (لندن) وعدة مدن أخرى
ثم تأيدت هذه الوثيقة بضع مرات، بواسطة الحكومات التي تولت حكم إنكلترا. وفي سنة 1215 كان السبب الأكبر الذي دعا إلى عقدها، هو الحيلولة بين الملك وبين أن يصبح دكتاتوراً، ويغتصب الحقوق والامتيازات التي كان يتمتع بها البارونات، أي أنها كانت في الأكثر لفائدة (الأرستقراطية) ولكن الحقوق التي تضمنتها هذه الوثيقة ما لبثت أن أخذت على التدريج تشمل أفراد الشعب، ثم ما لبثت حكومة البلاد بعد ذلك أن أصبحت في متناول يد كل فرد. وفي النظام الحاضر ما يؤيد ذلك. فمجلس اللوردات يمثل (الأرستقراطية) ومجلس العموم يمثل (الشعب)؛ والمجلس الأخير هو الأشد قوة، والأشمل سلطاناً، ومن حقه على الدوام أن يتأكد من أن مصالح (الشعب)

لم تطغ عليها مصالح (الأرستقراطية)
والفرق المهم بين الديمقراطية في إنجلترا، وبينها في غيرها من البلاد، هو أن الديمقراطية في إنجلترا تقوم - أكثر ما تقوم - على التأريخ والتقاليد. وحسبنا أن نعلم أن المجالس النيابية التي هي أهم مظاهر الديمقراطية الحديثة قامت في إنجلترا منذ القرن الثالث عشر!
وثمة فارق آخر بين (الديمقراطية الإنكليزية) وبين زميلتها الأمريكية، هو أن العاطفة الديمقراطية كانت حتى أوائل القرن الحاضر، زراعية في أمريكا، بينما كانت وما تزال في إنجلترا، مدنية صناعية؛ ولا يخفى أن الحال تغيرت في أمريكا في هذا الزمن، فقد أصبحت العاطفة المدنية الصناعية لا تقل، وربما كانت أزيد، من العاطفة الزراعية
ومن الفوارق الأخرى أن الديمقراطية كانت في أمريكا وفي القارة الأوربية قرينة للحركة الوطنية وللحركات العسكرية، بينما كانت الحال عكس ذلك في إنجلترا. أنظر إلى الثورة الفرنسية وإلى حرب الاستقلال الأمريكية، تجد انهما قرنتا الديمقراطية بالقوة العسكرية للدولة، بينما كانت القوة العسكرية في بريطانيا قرينة (نقص في الحرية)، ورد الفعل الناجم عن ذلك النقص. واستخدمت إنجلترا قواتها العسكرية في تنظيم الأمم الخاضعة لها أكثر مما استخدمتها في الدفاع عن نفسها، من أجل هذا السبب كانت الديمقراطية الإنكليزية أقل حكومات العالم ميلا إلى الحرب
وقد اصبح (عدم الميل إلى الحرب) هذا فيما بعد خاصية من أهم خواص الأمة البريطانية. ومع أن المعروف هو أن الشعب الذي كان لا يحب شيئا ما، فأنه عادة لا يتقنه، فأن هذه القاعدة تشذ، عندما يكون ذلك الشعب هو الشعب البريطاني، ويكون ذلك الشيء هو
الحرب. عرف ذلك نابليون سنة 1815 وقد بدأ (هتلر) يعرفه الآن
عندما يكون (ذلك الشيء) هو (الحرب)، تبدأ إنجلترا بطيئة؛ ولكن متى بدأت، كان من الصعب إيقاف تلك الآلة الحربية البريطانية الهائلة، بل قل إنها لا تقف حتى ينتهي عملها النهاية الناجحة المرجوة منه. والبدء البطيء والتقدم المتئد يرجعان إلى (الديمقراطية البريطانية)
في بعض الممالك يستطيع الديكتاتور أن يشن حربا متى أراد ذلك، ولكن - في إنجلترا - لا يستطيع أحد أن يقرر شيئا ذا أهمية قومية - بل الحرب - دون موافقة الشعب وتأييده الاختياري له. والإنكليز يكرهون الحرب لأنهم يعلمون أنها مضيعة ومناقضة للصالح العام. وهم يعلمون ذلك لأن حكومتهم تبيح لهم أن يطالعوا الحقائق في جرائدهم، وتشجعهم على أن يفكروا، ويتحدثوا، ويعملوا، بحرية، ومن أجل أنفسهم وهي هذه المعرفة التي تجعلهم يبطئون في إبداء موافقتهم وتأييدهم لحرب يعلمون عنها أنها تقتضيهم التضحية وتحمل الآلام. وهي الحرية التي يتمتعون بها عندما يفكرون لأنفسهم، التي تقنعهم بوجاهة السبب الذي من أجله يحاربون، وهذا كله هو الذي يصح من أجله القول بأنهم متى وافقوا على أن يحاربوا من أجل الحرية، فأنهم يوالون الحرب بشجاعة وقوة، حتى يفوزوا
إنها الديمقراطية التي علمت الإنكليز أن يكرهوا الحرب. وهي هي نفسها التي تعلمهم كيف يقاتلون، وذاك لأنهم يعلمون السبب الذي من أجله يحاربون. أما الدول الدكتاتورية، فالناس لا يدرون: لم يقاتلون؟ وهم هناك يغذون بالأكاذيب والتأريخ الزائف، فلا يجدون مناصاً من الاعتقاد به. وليس ثمة في وقت السلم ما يؤدي إلى ثلم هذه العقائد؛ أما في أوقات الحروب فإنهم يرون أن زعماءهم غذوهم بالأكاذيب والوعود الزائفة؛ وهذا يؤدي بهم إلى فقدان الثقة بالحكومة التي أخطأت قيادتهم، وينتهي بهم الأمر بأن يصيروا عاجزين عن معرفة ما يجب أن يعتقدوه، وهذا يؤثر في روحهم المعنوية كمحاربين، لأنهم متى فقدوا الثقة والعقيدة فقدوا معها الشجاعة والقدرة على تحمل الآلام.
ألا أن من واجب بريطانيا أن تشكر (الديمقراطية) شكرا جزيلا، فهي التي أكسبتها حروبها السابقة، وهي التي سوف تكسبها حربها الحاضرة، التي هي أكبر من كل حرب مضت
م. ح

على هامش حادث أليم
للأستاذ عبد الله حسين
روعت البلاد بالحادث الأليم الذي ذهب ضحيته القائمقام محمد شكيب بك؛ إذ أن الناس لا يزالون حين يعرضون لتفصيلات الحادث، تتجاذبهم النواحي المختلفة، وتجيش في صدورهم المعاني والعبر التي انطوت عليه. ولا شك أن كل قارئ قد نظر إلى الحادث النظرة التي تتفق وما شهده من أمثاله وما انتهى إليه من الدراسات والعلوم، وقابل بينه وبين ما وصل إلى مسامعه من أشباهه
ولا مراء في أن من الصور التي يعرض لها الخاطر معاني الانتقام والريبة والوسوسة وضعف السيطرة على الأعصاب، والصلات القائمة بين الرجل والمرأة، وبين القريب وقريبه، وبين الصديق وصديقه، وبين الرجل وعدوه، والوسائل التي تعالج بها المشكلات الإجماعية، حتى يسع المجتمع القضاء على ما يخالف القانون والآداب، وذلك بإزالة البواعث التي تؤدي إلى ارتكاب الجرائم واقتراف الآثام
ومن واجب المصلحين أن يتناولوا بالتفكير والدراسة علل المجتمع، وخاصة إذا ما نزلت كارثة، أو راع الناس خطب عظيم
ولما كان المقام لا يتسع للإفاضة في كل ما انطوى عليه ذلك الحادث الذي ذهب ضحيته ضابط كبير وشاب في مطلع الشباب، بل ذهبت ضحيته فتاة كانت لها آمال في حياة زوجية، وفزع من أجله صديق برئ لا ناقة له في الحادث ولا جمل، اللهم إلا رفقة تبرع بها كرهاً؛ فإننا نحاول في هذه الكلمة أن نعالج معنى من هذه المعاني التي قدمنا الإشارة إليها. ذلك أنني عرفت منذ بضع سنوات أحد الموظفين الذين لم يوفقوا في حياتهم الزوجية لأسباب تتعلق بما كان يملأ رأسه من بواعث الوسوسة والإسراف في سوء الظن، وأن بعض الظن إثم
كان صاحبي هذا يستريب من كل شيء، ويشك في كل حركة، لأنه مصاب بآفة سوء الظن في خلق الله جميعا وفي مقدمتهم المرأة. فكان يعود فجأة إلى داره لكي يقف على ما تفعله زوجه: أظلت قابعة في الدار، أم خرجت على غير انتظار؟ وهل بقيت في ثيابها المنزلية، أم ارتدت ثوبا نظيفا؟ فإذا رآها فعلت ذلك، أطلق لسانه فيها متسائلا عن سر النظافة
ودواعيها، ذاكرا أن هذا لابد قد دعا إليه رغبة في نفسها لكي تلفت أنظار الرجال إليها فإذا أجابته أنها داخل الدار حيث لن ترى من الرجال غيره، مضى إلى النافذة المحكمة الإغلاق ونظر إلى الشارع، حتى إذا لمح الشرطي يقف هنيهة أمام الدار ويلتفت صعداً
قال الزوج لزوجته: هاهو الشرطي يقف أمام دارنا ويحدق نظره في النافذة! إنه عشيقك، ولا شك، وهو ينتظرك ويريد منك أن تتحدثي إليه. . . هاهو يبتسم. إنه يبتسم لك. . . يا فاجرة
فإذا حدث أن كانت أن تصحب هذه الزوجة زوجها إلى زيارة أقاربها، أطلق لسانه، كلما مر برجل ينظر أليهما نظرة عارضة، مشيراً إلى أن الناظر رجل يعرفها وتعرفه، وأنه يومئ إليها لحاجه في نفس الشيطان!
وهكذا كان أسلوب حياة الزوجين يجري يومياً على هذا المثال، حتى وقع ما ليس منه بد، وهو الطلاق والفراق إلى حيث لا تلاق، حتى آثرت الزوجة المطلقة أن تفر من مطلقها إلى واق الواق. . .!
تلك صورة من صور بعض الأزواج، وتلك حال زوجاتهم معهم، ومن العسير أن يقف الناس على حقيقة، فأن الناس مطبوعون على إساءة الظن بالمرأة ظالمة كانت أو مظلومة
ومن أجل ذلك وجب على الذين يتتبعون عورات المجتمع، ألا تفوتهم دراسة النواحي المختلفة، ألا يتعجلوا بتصديق كل ما يروى، فأن الحياة مليئة بالغرائب والمدهشات والشذوذ. ومن الإساءة إلى الحق وإلى الإصلاح المنشود، أن يستقر الرأي على عقيدة لم تهد إليها دراسة صادقة، ولم ينته إليها تفكير صحيح وإنما بعث عليها وهم قديم أو ظلم مقيم.
عبد الله حسين
مرثية محمد محمود باشا
للأستاذ محمود حسن إسماعيل

دَفَنَتْ وَرَاءكَ فَجْرَهَا الأَيَّامُ ... سِيَّانِ بَعْدَكَ ضَحْوَةٌ وَظَلاَمُ!
نَفَضَ الرِدَى مَعْنَى الحَيَاةِ بِخَاطِرِي ... حَزَناً، وَمَاتَتْ في دَمِي الأَنْغَامُ
لاَ اللَّيْلُ مَسْحُورُ السُكونِ، وَلاَ الضُّحى ... كَجَبِينِ مَجْدِكَ آلِقٌ بَسَّامُ
أَنَا ذَلِكَ الطَّيْرُ الَّذِي خَلَّفْتَهُ ... وَلَظَى الْهَجِيرِ لِنَوْحِهِ إِلْهامُ
تَرِدُ الأَسَى شَبَّابَتِي فَكَأَنَّهَا ... حطَبُ يُجَاذِبُ صَفْحَتَيْهِ ضِرَامُ
وَكَأَنَّ عُمْرِيَ زَهْرَةٌ بَرَّيَّةٌ ... لاَ الظِّلُّ يُنْعِشُهَا وَلاَ الأَنْسَامُ
وَكَأَنَّ رُوحِي في الدُّجى صَبَّارَةٌ ... بَيْنَ الْقُبُورِ حَدِيثُهَا إِعجَامُ
سُقِيَتْ بدَمْعِ الثاكِلينَ فَأَطْرقَتْ ... ثَكْلَى تفَزِّعُ صَمْتَهَا الأَحْلاَمُ
ماذا دَهَى وَتَرِي وكانَ مُجَلْجِلاً ... بِعُلاَكَ تَنْقُلُ شَدْوَهُ الأَجْرام؟
شَلَّتْ عَلَيْهِ أَنَامِلِي وَتَمَلْمَلَتْ ... كَبَدِي وَغَشّتْ حَيْرَتِي الآلام
فَوَجِمْتُ كالمَأْخُوذِ أيُّ بَقِيَّةٍ ... لِلْوَعْيِ تَنْشُدُهَا بهِ الأَوْهَام!
أَرْثِيكَ، يَا لِخَطِيئَة الدُّنْيَا وَهَلْ ... يَرثِي المَعَانِي الشُّمَّ فِيكَ كَلاَم
ضَجَّ الأَثِيرُ وَقَدْ رَمَى النَّاعي بهِ ... خَبَراً لَدَيْهِ انْشَقَّتِ الأَفْهَامُ
وَالنِّيلُ كادَ جَوَى تَمِيدُ ضِفَافُهُ ... وَتُصَوَّحُ الرَّبَوَاتُ وَالآجَامُ
وَالشْرقُ جَلَّلَهُ السَّوَادُ، فَقُدْسُهُ ... دَامِي الحَشَا، وَعِرَاقُهُ، والشامُ
وَالأَرْزُ مُرْتَعِشُ الضَّفَائِرِ ذَاهِلُ ... بَثَّتْهُ نَارَ جِرَاحِهَا الأهرامُ!
أمُحَمَّدٌ كَذَبَ النُّعاةُ فَلَمْ يَمُتْ ... مَنْ رِيعَ يَوْمَ فِرَاقِهِ الإِسْلامُ
وَمَنِ التَقَتْ مِصْرٌ وَرَاءَ رِكابِهِ ... شِيَعاً يُؤَلِّفُهَا أَسىً وَونَامُ
وَمَن اصْطَفاهُ المجْدُ حَتَّى لَم يَكُنْ ... إلاَّ لهُ صَرْحُ النُّجومِ مَقَامُ
وَمَن انتَضَى الأَخْلاَقَ سَيْفاً شَرْعُهُ ... أنَّ الغُمُودَ عَلَى السُّيُوفِ حَرَامُ
وَمَن اسْتَعارَ النُّورُ حُجَّتَهُ فَلاَ ... زَيْفُ وَلا رَهَبْ وَلاَ إِبْهَامُ
وَمَن اسْتَجارَ القَيْدُ حِينَ أَذَاقَهُ ... لَهَباً يَؤُزُّ جَحِيمَه الإِقْدَامُ
وَمَن النّزَاهَةُ كالضُّحَى لاَ رَأيُهُ ... يَزْوَرُّ عَنْ فَمِها ولا الأحكامُ
وَمَن الحَدِيدُ يُفَلُّ دُونَ عِنَادِهِ ... إنْ رامَ كَيْدَ بِلادِهِ طَلاّمُ
فَلَكٌ يَهابُ الدَّهْرُ بَأسَ مَدَارِهِ ... دَارَتْ عَلَيْه بِضَعْفِها الأَسْقَامُ
وَطَواهُ مَنْ حَصَد السِّنِينَ بِمِنْجَلٍ ... ضَافِي الجَلالِ يُقالُ عَنْهُ: حِمَامُ!
قَدَرٌ رَمَي قدَراً عَلَى رَاحَاتِهِ ... يَبْيَضُّ مِنْ لَيلِ الخُطوبِ قَتَامُ
وَأَتَاهُ وَالأَيامُ حَوْلَ سَرِيرِهِ ... أَيْدٍ يُرَقرِقُ طُهْرَهَا الإِحْرَامُ
تَدْعُو السَّمَاء لِعَلَّ كَفَّ طَبِيبِهِ ... رَغْمَ القَضَاءِ يَعُودُهَا الإِلْهامُ!
وَاللّيلُ تَجْأَرُ بِالدُّعاءِ نُجُومُهُ ... وَيَئِنُّ تَحتَ قِبابِهِ الإِظْلامُ
وَالعائدُونَ الجَازِعونَ حَدِيثُهُم ... كَدُمُوعِهِم بَاكِي الصَّدَى هَمْهامُ
وَالقَصْرُ مَخْنُوقُ السَّكِينَة شَارِدٌ ... سَجَّاهُ فِي لَهَبِ الذُّهولِ مَنَامُ
هَتَكَ الرَّدَى أستارَهُ، فإذا به ... قَلْبٌ يُمَزَّقُ صَفْحَتَيهِ حُسَامُ
وإذا (مُحَمَّدُ) أُمَّةٌ مَحْمُولَةٌ ... فَوقَ الرِّقَابِ تَلُفُّها الأَعْلاَمُ
وَقَصِيدَةٌ دَهْرِيَّةٌ يَبْلَى البِلَى ... وَنَشِيدُهَا تَجثُو لهُ الأَيَّامُ
مَنْ كانَتِ الدُّنيَا تَهَابُ جِوَارَهُ ... أَمْسَى يُجَاوِرُهُ حَصىً وَرِجَامُ
يَا زَيفَ هاتِيكَ الحَيَاةُ! وَيَالَها ... دُنيا حَقَائِقَ سِرِّها أَوْهَامُ!
لَمَحَتهُ صَحْرَاءُ الإمامِ فَأَوْشَكَتْ ... يَخْضَرُّ في يَدِها بِلَى وَرِمَامُ
وَتَنَفَّسَتْ نَفَسَ الرَّبِيعِ كأنما ... فَضَّتْ فَوَاغِمَ عِطرِهَا الأَكمامُ
وَكأنها ظَمأى إلى نَبْعِ الْهُدَى ... وَالطُّهْرِ يُقْلِقُهَا صَدىً وأوَامُ
لَمَحَتْهُ فارْتَجَزَتْ مَسَابحُ رَمْلِهَا ... لَحْنَ الجَلاَلِ وَكَبَّرَ النُّوَّام!
وَتَوَاكَبَ الشُّهَدَاءُ أيَّ مُوَدَّعٍ ... هَذا الَّذِي خَفُّوا إِلَيْهِ وَقَامُوا؟
وَقَفُوا مَع التَّأرِيخِ صَوبَ رِكابِهِ ... يَحْدُوهُمُ التَّقْدِيسِ وَالإِعْظام
والشَّمسُ شَلاءُ الشُّعَاعِ بَكى لها ... لَمَّا بَكَتْكَ إلي المَغيب غَمام
غَرْبِيَّةٌ وَدَّتْ لَوْ انْشَقَّ الدُّجى ... وَأَضَاءَ لَيْلَكَ طَرْفُهَا السَّجَّام
لِمَ لاَ وَمَجْدُكَ سَارَ في أَبْرَاجِهَا ... وَعُلاَكَ مِنْهَا يُرْتُجَي وَيُرَام!
يَا مُرسِلِ النَّظَرِ البَعِيدِ بِخاطِرٍ ... في غَيبِهِ تَتَعَثّرُ الأَحْلام
قالوا السِّياسَةُ قُلْتُ كانَ بهَوْلِها ... الفَارِسُ المُتَجَبِّرُ المِقدَام!

قالوا الأمَانَة قلتُ تِلكَ صَحِيفةٌ ... سَيَظَلُّ يَقْرَأهُ بها الأقْوام!
قالوا الصَّراحَةُ قلتُ رِيحٌ عاصِفٌ ... بِيَدَيْهِ لا رَيْثٌ ولا إحْجام!
قالوا النَّزَاهَةُ قلتُ تَلكَ شِهادَةٌ ... سِيَّانِ فيها الصَّحْبُ والأخْصَام
قالوا النَّبالةَ قلتُ أرْوَعُ آيةٍ ... فِيهِ يُسَاجِل نُبْلها الحُكام!
قالوا البيانُ فَقِلتُ عِفةُ مَنطِقٍ ... لَمْ تَقتَرِبْ من طُهرِهَا الآثَام!
قالوا النَّدَى فأجَبْتُ واهِبُ عُمْرِهِ ... للنِّيلِ تَعْرِفُ جُودَهُ الأيَّام!
قالوا عُهودُ الشرق قلت شَأتْ بها ... لِلخافَقْينِ عَلَى يَدَيْهِ ذِمَامُ
في الدِّينُ في الأخلاق في الحُرَمُ التي ... نَادَى بها لِلعَالَم الإسْلاَمُ
قالوا. . فقال المَوْتُ أصْبَحَ سِيرَة ... سَتَظَلُّ تَرْوِى سِحْرَهَا الأهْرَام
وَأظَلُّ أقْبَسُ مِنْ ظِلالِ خُلودِهَا ... مَجداً تُرَقْرِقُ خَمْرَهُ الأنْغامُ
وَتَذُوبُ رُوحيَ كُلّمَا نَادَتْ بهِ ... مَن ذَلِك السَّارِي عَلَيْه سَلامُ
محمود حسن إسماعيل

مجد بغداد

للأستاذ محمود رمزي نظيم

في سنة 1936 زار مصر وفد عراقي كان بين رجاله شاعر العراق الكبير الأستاذ معروف الرصافي وألقى قصيدة حيا بها مصر، ودعا الأستاذ محمود بسيوني رئيس مجلس الشيوخ يومئذ ورئيس الرابطة العربية الوفد العراقي إلى داره بحدائق القبة، ونظم صاحب الإمضاء هذه القصيدة يحي بها العراقيين وشاعرهم، ولم تسمح الظروف بإلقائها ولا بنشرها. وقد رأى تسجيلها اليوم في الرسالة لتخلد بخلود هذه الصحائف

أهلا بسادة بغداد وشاعرها ... من شاد بالشعر ركناً في مفاخرها
تهز أعطافها تيهاً قصائده ... لما يصور فيها من خواطرها
في نهضة بعثت بغداد ثانية ... دار السلام لباديها وحاضرها
وآمنت برسول المجد أمتها ... والمجد ما زال يجري في مشاعرها
الهاشمي دعاها يوم صافحها ... بدعوة هي نور في بصائرها
هيهات تذهب بغداد وما صنعت ... والله خلد غراً من مآثرها
تلك الرصافة قد عادت مباهجها ... والحسن في الجسر مجد في سرائرها
ونهر دجلة فياض كعادته ... في المجد يربط ماضيها بحاضرها
فكم ليالٍ تغنت في شواطئه ... أصغى الزمان إلى تطريب زامرها
وكم حديث كأزهار الربيع بها ... يفيض في الحي من الهام سامرها
وكم مجالس علم حوله عقدت ... تجلو القرائح فيها عن جواهرها
واهاً لأيام إخوان الصفاء بها ... وللرسائل تتري في محابرها
قد خلد المجد والتاريخ شاعرها ... والعلم والنور من تخليد ناثرها
بالدين والعلم قد سادت أوائلها ... وهكذا الحال يجري في أواخرها
واليوم عادت لبغداد مظاهرها ... بالجيش أو طائرات في حظائرها
قامت لتحمي من الدنيا كرامتها ... كرامةُ الناس أمست في عساكرها
يا من نزلتم ضفاف النيل تشبهها ... حول الفرات ضفاف من نظائرها
أرض تآخت بغرس في منابتها ... كما تآخت شعوب في حواضرها
وفد العراق بلاد النيل ترفقه ... كأنما هو نور في نواظرها
إن القلوب التي سُرَّت بمقدمه ... تترجم اليوم من أعلى منابرها
بني العروبة حييتم برابطة ... تهدي تحيتها في دار كإبرها
دار إذا حلت الأضياف ساحتها ... قامت تهلل ترحيبا بزائرها
أهدي التحية تقديراً لشاعركم ... إن العروبة في زهو بشاعرها
بالأمس قد عطرت مصراً بتحيته ... واليوم يسمع منا مثل عاطرها

(الجيزة)

أبو الوفاء

محمود رمزي نظيم

رسالة النقد
الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي
تأليف الدكتور زكي محمد حسن
للدكتور محمد مصطفى
لهذا النقد قصة أطرف بها قراء الرسالة قبل أن أمضي فيه.
وذلك أن المؤلف قد طلب مني أن أكتب عن هذا الكتاب تقريظاً بالإنكليزية في مجلة الآثار القبطية. فلما قرأته رأيت فيه مآخذ لا يسمح لي الضمير العلمي أن أسكت عنها، ورأيت من اللياقة أن أطلعه عليها، فتظاهر باغتباطه لتمحيص الحق، ولكنه لم يكد يعلم أن النقد أوشك أن ينشر في المجلة حتى نسى أخلاق العلماء، فحاول أن يمنع المجلة من نشره، وسعى إلي بالصداقة مرة وبالعداوة أخرى أن أكف عن نشر النقد أو أعدل فيه، فنزلت بعد لأي على حكم بعض الأصدقاء وحذفت من النص الإنجليزي بعض الفقرات ولكني رأيت واجب الأمانة العلمية يقضي بإيثار الحقيقة على الصداقة فعزمت على نشره كاملا في الرسالة
بدأ المؤلف كتابه ببيان عن الأسرات التي حكمت إيران، ثم أعقبه بالكتابة عن مقام إيران في تأريخ الفنون، وتلا ذلك بتقسيم الطرز الإيرانية في الفن الإسلامي إلى الطراز العباسي، والطراز السلجوقي، والطراز الإيراني المغولي أو التتري، والطراز الصفوي، متناولا
العمارة والخط والتهذيب والتصوير والتجليد والسجاد والخزف والمنسوجات والتحف المعدنية والزجاج والخشب في كل من الطرز السالفة الذكر؛ وخرج من ذلك إلى الكلام عن العناصر الزخرفية الإيرانية في العصر الإسلامي، وتأثير الفن الإيراني الإسلامي على الفنون الأخرى، واختتم ذلك بذكر بعض ميزات الفن الإيراني. وألحق بكتابه بابًا ذكر فيه المراجع، وتلاه بكشاف عام، وفهرس للوحات، ثم أورد اللوحات وخريطة لإيران
وقد كانت إيران كما يقول المؤلف في كلامه عن مقام إيران في تأريخ الفنون (ص 11): (ملتقى الفنون القديمة في الشرق الأدنى، ونمت فيها أساليب فنية، تأثرت بفنون بابل وأشور ومصر والهند وبلاد اليونان، وانتشرت في العصور القديمة والعصور الوسطى، وأثرت في فنون الأمم الأخرى)
وكان لفتح الإسكندر الأكبر لإيران، ولأمراء الإغريق الذين آلت إليهم إمبراطورية الإسكندر، أثر كبير في نشر الثقافة الإغريقية في الشرق الأدنى. ثم استولت دولة بني ساسان على مقاليد الحكم في إيران منذ سنة 224 ميلادية، وقضى ملوكها السنين الطويلة في حروب ومناوشات مع الدولة البيزنطية في الغرب إلى أن جاء الفتح الإسلامي ووضع حدا لذلك
ويقول المؤلف (ص12): (ولم تكن تلك الحروب الطويلة في العصر الساساني تمنع الشعب من العناية بالفنون الجميلة بل كانت من أهم عوامل الاتصال بين الشعبين العظيمين في ذلك الحين: الإيرانيون (كذا) والإغريق، فزاد التبادل الفني رغم أنف الفريقين، وتسرب إلى فنون بيزنطة كثير من الموضوعات الزخرفية الإيرانية، ولم تلبث هذه الموضوعات أن اندمجت في الفنون البيزنطية اندماجاً تاماً. ثم نقلتها أقاليم البحر الأبيض المتوسط التي كانت تابعة لبيزنطة في ذلك الحين. ويبدو ذلك واضحا في زخارف كثير من المنسوجات التي عثر عليها المنقبون عن الآثار في مصر العليا، كما يظهر أيضا في كثير من الزخارف التي استخدمت في العصر القبطي، ولا سيما الرسوم المحفورة في الحجر والخشب)
ولكن المؤلف لم يذكر في هذا الفصل شيئا عن مدى هذا (التبادل الفني) بين دولة بني ساسان من جهة وبيزنطة ومصر من جهة أخرى، ولا عن نوع هذه (الأساليب الفنية) و بل لم يذكر شيئا عن ذلك في أبواب كتابه الأخرى إلا ،(الموضوعات الزخرفية الإيرانية) ما كتبه في بابي المنسوجات والتحف المعدنية عن بعض أنواع الزخارف وأشكال التحف الفنية. وقد كنا نود أن نعرف مبلغ هذا التبادل في الأساليب الفنية ومقدار

تأثيرها في الفن الإسلامي، إذ أن الإسلام أخذ الشيء الكثير من هذه الأساليب مجتمعة أو متفرقة عن حضارات البلاد التي كانت قائمة قبيل الفتوح الإسلامية، ألا وهي إيران وبيزنطة ومصر، وكون لنفسه منها فنا ذا شخصية خاصة به

أما عن تقسيم الطرز الإيرانية في الفن الإسلامي إلى أربعة طرز مبتدئاً بالطراز العباسي فالسلجوقي فالإيراني المغولي أو التتري ثم الطراز الصفوي، فأن المؤلف لم يذكر لنا الأسباب التي جعلته يفضل هذا التقسيم. وإني لا أتفق مع المؤلف فيما يخص بالطراز العباسي، إذ أن هذه التسمية لا تطابق التقاليد الفنية التي ورثتها إيران عن الساسانيين، لأن حالة سائر الفنون الإيرانية فيما قبل العصر السلجوقي ظلت - كما قال المؤلف في ص214 - (مدة طويلة لا تعرف من التجديد ما يخرجها تماما من دائرة الأساليب الفنية الساسانية). ففي العمارة (ص44) (تطورت الأساليب الساسانية تطورا بطيئا)، وفي التصوير (ص84) أولى مدارس التصوير هي مدرسة العراق أو المدرسة السلجوقية، وفي السجاد (ص148): (أن أقدم السجاجيد الإيرانية المعروفة ترجع إلى العصر السلجوقي) وفي الخزف (ص161) (كانت صناعة الخزف من أهم الميادين التي حاز فيها الإيرانيين المكانة الأولى بين الأمم الإسلامية)، وإذا استثنينا الخزف ذا البريق المعدني الذي اختلف مؤرخو الفن في موطن صناعته - إيران أو مصر أو العراق - فإن أنواع الخزف الأخرى حافظت كلها على الأساليب الفنية الإيرانية، وفي المنسوجات (ص214): (إن صناعة النسيج في إيران ظلت في القرون الأولى بعد الإسلام متأثرة بالطراز الساساني)، وفي التحف المعدنية (ص238) (أن ما صنع منها في العصر الإسلامي ظل محتفظا بالأساليب الفنية الساسانية إلى حد كبير) ومن العبارات السابقة المنقولة من كتاب المؤلف نجد أن الأستاذ زكي محمد حسين نفسه يعترف باستمرار أثر الفن الساساني في إيران في القرون الأولى من العصر الإسلامي

وإذا استعرضنا تاريخ إيران في العصر الإسلامي نجد أنها ظلت تحت الحكم المباشر للدولة

العباسية في بغداد إلى سنة 205هـ (820م) أي سبعين سنة فقط. فقد قامت في إيران بعد ذلك عدة دول كان بعض أمرائها يدعون أنهم من نسل الساسانيين، وكانوا يشجعون الشعراء والفنانين على إحياء التقاليد الفنية الساسانية وقرض الشعر باللغة الفارسية، فظهر بينهم (رودكي) عميد شعراء الفرس، وكتب الفردوسي ملحمته (الشاهنامة) وهذه الدول هي: الطاهرية والصفارية والسامانية ودولة بني بويه

ويقول المؤلف (ص17): أن الطراز العباسي في إيران يمتاز في الفنون التطبيقية أو الفرعية باستخدام الموضوعات الزخرفية الساسانية مع تهذيب بسيط يجردها في بعض الأحيان من العنف والقوة

وهذا يقارب في مجمله - وإن كان يتناقض في الموضوع - مع ما قاله الأستاذ بوب من أن الطرز الإيرانية أيام حكم الخلفاء العباسيين، استمرت تظهر في صفات الحماسة والبطولة الساسانية، فكل شيء كان بسيطاً وجريئاً وقوياً. . . وفي جهات معينة من إيران تحكم خلق البساطة والقوة هذا في الفنون خمسة قرون أخرى بعد الفتح الإسلامي

وإذا بحثنا في إيران عن تأثير الطراز الإسلامي - أو بعبارة أخرى طراز سامرا (838 - 883م)، وهو أول الطرز الإسلامية الحقة - نجد أن هذا الطراز الجديد في الإسلام يظهر في إيران بعد هجر سامرا بمدة طويلة، أي في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، وذلك في جامع نايين، وقد قال الأستاذ بوب في ذلك:

حوالي سنة 1000 للميلاد نجد الطراز الجديد مجسماً تجسيماً بديعاً في الزخارف) الجصية في نايين، وأخذت هوامش نسخ القرآن الشريف تغنى بالرسوم الدقيقة؛ وفي هذا الوقت بدأت تختفي التقاليد الساسانية في الحيوانات الخرافية، ولكن قوة الفن الساساني لم تنهك بعد، بل استمرت في التعبير عن نفسها في الأشكال القوية النبيلة من الأواني النحاسية التي كانت تنادي بما ورثته من شعب الأبطال الساساني بالرغم من التكفيت (التطعيم في النحاس) الذي كانت غنية به، ولا تزال الموضوعات والزخارف الساسانية ترسم إلى يومنا هذا)

ومما تقدم يتبين أن اصطلاح (الطراز العباسي) لا يمكن إطلاقه على الفن الإيراني

فيما بين الفتح الإسلامي لإيران والعصر السلجوقي، وكذلك لا يمكن إطلاق اصطلاح (عصر
الانتقال) على هذه الفترة لأن التأثيرات الساسانية الفنية - كما رأينا - استمرت حتى بعد ذلك العصر. وإني اقترح لهذه الفترة استعمال (العصر الإسلامي الأول) وهو نفس التعبير الذي يستعمله مؤرخو الفنون الإسلامية الذين اشتركوا في كتابة كتاب عند تقسيم كلامهم في الموضوعات المختلفة عن الفن الإيراني في العصر الإسلامي
وإذا رجعنا إلى كلام المؤلف نجد أنه لم يستعمل اصطلاح (الطراز العباسي) في كتابه إلا في موضعين اثنين: أحدهما (ص17) عند تقسيم الطرز الإيرانية، والثاني (ص290) حين تكلم عن (أثر إيران في الطراز الإسلامي العباسي). أما في باقي أبواب كتابه فلم يحافظ على هذه التسمية، بل استعمل اصطلاح (فجر الإسلام) متأثرا في ذلك - كما يبدو لي - بطريقة
وفي كلام المؤلف عن الطراز السلجوقي قال في (ص24) (أجل، وفق الخزفيون بمدينة الري في القرن السادس (منتصف القرن الثاني عشر الميلادي) إلى صناعة الخزف ذي البريق المعدني ويسمونه مينائي)
وأظن أن هذا غير ما يقصده المؤلف، لأن الخزف ذا البريق المعدني نوع أخر يختلف عن الخزف المسمى مينائي كما ذكر ذلك فيما بعد (ص168، 189). وأظن كذلك أن المؤلف يقصد هنا النوع الثاني فقط، لأن الخزف ذا البريق المعدني معروف منذ القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) (ص172)، ولأن نسبته إلى إيران لا تزال موضع خلاف بين مؤرخي الفنون (ص169)، وفضلا عن ذلك يقول الأستاذ بوب إن نوع الخزف في البريق المعدني في مدينة الري (أخذ في الانحطاط المستمر منذ أواخر القرن الثاني عشر الميلادي، وبما يرجع ذلك لسببين: ازدياد ضغط مزاحمة الخزف ذي البريق المعدني المصنوع في مدينة قاشان، وارتقاء صناعة جديدة في نوع معين من الزخارف على الخزف، قدر لها أن ترفع الفن إلى منتهى درجات الكمال) إلا وهي صناعة الخزف المسمى (مينائي)
والآن إذا حذفنا كلمات (الخزف ذي البريق المعدني) من جملة الدكتور زكي السالفة الذكر، فأن العبارة التي تتلوها في كتابه لا تتناسب تماما في معناها مع وصف الخزف من نوع (مينائي)
وفي كلام المؤلف عن العمارة يقول (ص50) تحت عنوان (العقد المدبب الإيراني)، (وفي القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ذاع استخدام العقد المدبب، والذي أصبح من ميزات العمارة الإسلامية. وسرعان ما عم استخدام العقد المدبب في كل العمائر الإيرانية وصار ينسب إلى إيران)، وكذلك في (ص290) يقول المؤلف: (ويمكننا أن نتبين الأساليب الفنية التي انتقلت منها (بغداد) إلى سائر الأقطار الإسلامية، والتي لاشك في أنها إيرانية الأصل، ومن ذلك العقد المدبب)
ولم يذكر لنا المؤلف هنا المراجع التي اقتبس منها والتي جعلته يقطع بأن العقد المدبب إيراني الأصل، مع أنه ذكر بين المراجع التي جمعها في آخر الكتاب عدة كتب عن العمارة. يقول الأستاذ كريسويل في أحدهما ما يأتي: (وهكذا يتبين أن السبعة نماذج الأولى من هذا الشكل (العقد المدبب) توجد كلها في سوريا، وبناء على هذه الحقيقة يجب أن لا نأخذ بآراء الأساتذة رودوكانا كيس وديسو وديل وهرتزفلد الذين يقولون أن العقد المدبب إيراني الأصل)
وهذا رأي جدير بالاعتبار في أن العقد المدبب ليس إيراني الأصل. وقد كنا نود لو أن المؤلف ناقش هذا الرأي لنعلم الأسباب التي جعلته يقطع بأن العقد المدبب إيراني الأصل. وكذلك في كلامه عن الأقباء والقباب والمآذن والمقرنصات لم يذكر من المراجع سوى (دائرة المعارف الإسلامية)
وعلى ذكر المراجع أقول: إنني عندما لاحظت قلة عدد المراجع التي ذكرها المؤلف في حواشي كتابه بالنسبة للعدد الكبير من المراجع التي جمعها في آخر الكتاب، رأيت أن أعدها بنفسي على سبيل العلم بالشيء، فوجدت أنه ذكر في حواشي الكتاب واحدا وستين مرجعاً فقط من المئتين والثلاثة والعشرين مرجعاً المذكورة في آخر الكتاب.
وقد كان بودي لو أن المؤلف أكثر من كتابة الحواشي وذكر المراجع التي أخذ منها لتعم الفائدة العلمية. وبهذه المناسبة أقول أن عدد المراجع 221 لا 223 لأن المرجع

رقم 4 تكرر في رقم 19، والمرجع رقم 126 تكرر في رقم 130. وإذا أضفنا إلى هذه المراجع 64 مرجعا أخر ذكرها المؤلف في حواشي الكتاب ولم يذكرها مع المراجع في آخره، وكان عدد المراجع التي جاء ذكرها في هذا الكتاب 285 مرجعاً.

(له بقية)

محمد مصطفى

البريد الأدبي

حول العصبية في الجماعات الدينية

يا أخي الأستاذ الزيات

السلام عليكم

قرأت الآن مقالك (العصبية داؤنا الموروث) فرأيته نفثة من عربي مصري مسلم يأسى لما جره الخلاف على قومه في ماضيهم وحاضرهم، ويطب لهذا الداء بالحكمة والموعظة الحسنة، فدعوت لك ولكل داع إلى الخير فينا، وسألت الله أن يجمع عقولنا وقلوبنا وأيدينا على الحق والخير. ولكني أخذت على الأخ أنه عدد الجماعات الإسلامية في مصر، بعد أن عدد الأحزاب السياسية، يرى أن هؤلاء وهؤلاء أنشأتهم العصبيات وفرقت بينهم. ولست أرى رأيك في الجماعات الإسلامية التي ذكرت؛ فما أحسب أن تعددها لعصبية أو تنافس، ولكن أراه تعاوناً على مقصد عظيم، تتوسل كل جماعة بإحدى وسائله. وحسبك حجة على ما أقول أن هذه الجماعات لا تختلف فيما بينها ولا تتحاسد ولا يفتري بعضها على بعض؛ وكثيرا ما تتعاون في أعمالها، وأن هذه الجماعات لا ينال القائمين بها إلا إنفاق أوقاتهم وأموالهم ابتغاء الخير ولا يطمع أحدهم في جر مغنم نفسه أو نيل سلطان من وراء عمله.

وقد دعا داع إلى توحيد هذه الجماعات فلم ينفر أحد من هذه الدعوة بل تلقتها الجماعات بالتفكير فيها والنظر إلى ما يرجى منها. وإذا رأوا أن توحيد الجماعات أجدى عليهم، وأقرب إلى غايتهم، فعلوا غير مفكرين في عصبية أو هوى أو رياسة أو جاه. فإن استثنى الأستاذ الفاضل هذه الجماعات من داء العصبيات كان أقرب إلى الصواب، وحسن الظن، والسلام.

عبد الوهاب عزام

يا أخي الدكتور عزام

إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء، لأني أعلم أن إخوان (قبة الغوري) لم يتآخوا إلا لجمع شتات المسلمين وأجناسهم على كلمة التوحيد، وهم بطبيعة مبدئهم لا ينفرون من دعوة الاتحاد. أما الجماعات الأخر فأن عندي من أخبارهم ما يدل على أن ما بينهم من التنافس والتحاسد مثل ما بين الأحزاب السياسية من ذلك. ولنا عودة إلى هذا الموضوع

الزيات

شعر ذو وجهين

في أواخر سنة 1940 تفضل حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك برتبة (باشا) على الوزير العالم الفيلسوف الشيخ مصطفى عبد الرزاق باشا، وغداة ذلك اليوم أسمعني صديقي الشاعر الشيخ أحمد الزين أبياتاً في تهنئة الوزير على مسمع من زملائنا بدار الكتب وحملني أمانة روايتها إلى معالي الوزير - ولعلي فعلت

وفي فبراير سنة 1941 تفضل حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك برتبة (البكوية) على الأديب الكبير الأستاذ أحمد بك أمين، وإذا بمجلة الثقافة تنشر الأبيات نفسها موجهة إلى الأستاذ أحمد أمين بك في عددها الأخير

أما الأبيات فهي:

حبوه بها أم حبوها به ... لقد حرت: أيهما يزدهي؟

وما فخر من ليس بالمنتهى ... على أن تَقلَّد ما ينتهي!!

لقد نلت ما تشتهي من فخار ... ونال بك الفخر ما يشتهي

وليس الشاعر هو الذي (حار) وإنما الحائر

(أنا)

إلى ناقدي لغة في مقالي الثالث

قلت أيها الناقد المشكور: (من النفع والخير أن يخطئ الكبار في حين من الأحايين حتى ينقدوا فتغنى اللغة ويستفيد الناس). وأنا معك فيما تقول، ولكني أزيد: (ومن السهل أن يقال لكاتب عربي قد أصبت، ولكن من الصعب أن يقال له إنك أخطأت).
وإنما زدت ذلك لأن لغتنا كثيرة مناحي الصواب، ومن هذه الناحية خذ فيما سألت الجواب:
1 - أخذت على جمع فخور على فخورين بالتصحيح حاتماً أن يكون جمعه على فخر بالتكسير، تريد أن فخوراً وصف مشترك بين الذكور والإناث وما كان كذلك لا يجمع جمع تصحيح، ولكنك نسيت أن هذا الشرط محل خلاف بين النحويين، ولم يكن النابذون له آحادا، إنما كانوا الكوفيين جميعا، وبرأيهم أخذت مؤثراً على رأي البصريين لما في تصحيحه من إزالة اللبس، ولأن في سياق عبارتي من التناظر ما يقتضيه، فهو مسبوق فيها بجمعين صحيحين كما نقلت وهي: (ثم سل تلاميذي الذين تتحدث عنهم يخبرونك بما يفحمك مخلصين صادقين وفخورين بتلمذتهم لي). ألست ترى أني لو قلت: (مخلصين وصادقين وفخراً) لضاع جرس الكلام؟
2 - وأخذت علي إدخال هل في قولي: (فهل لازلت على هذه المباهاة) على ناف وهي لا تدخل على ناف أصلاً محتجاً بقول الرضي، كما أخذت علي في تلك العبارة نفسها إدخال لا على ماض غير مستقبل في المعنى ولم يكرر هو (زال) محتجاً بما بينه المغني. وأنا أسلم بقول الرضي، ولكني لا أسلم بأنها دخلت هنا على ناف، فإن الفعل زال ليس فعلا تاما وإنما هو فعل ناقص يستلزم كسائر أخوته نافياً قبله، ولو حذف لقدرناه، وذلك ليفيد مع هذا النافي الاستمرار ثم هو يكون للمستقبل لا للماضي. ألا ترى أن معنى قولي: (فهل لا زلت على هذه المباهاة) هو: (فهل تستمر على هذه المباهاة). أما إدخال (لا) على ماض غير مستقبل في المعنى إلا مع التكرار ففضلا عن أن المعنى هنا للمستقبل كما تقدم هو محل خلاف، وقد دخلت (لا) في الفصيح على الماضي الصرف من غير تكرار، وقد قال الله تعالى: (فلا أقتحم العقبة)
3 - ثم أخذت على قولي: (ومع هذا فإليك رأيي في تلك المباهاة) فأهما أن (إليك) معناه تباعد وتنح، ولكن له معنى آخر هو خذ وإياه أردت. قال صاحب القاموس وهو يذكر معاني (إلي) ما نصه: (وإليك عني أي أمسك وكف؛ وإليك كذا أي خذه). على أن عبارتي لا تحتم أن يكون (إليك) فيها أسم فعل بل تسعه على أنه جار ومجرور محذوف المتعلق المفهوم هو (أسوق) مثلا والمعنى صالح على التخريجين
هذا ما به أجيب في إيجاز وهو محقق لما تريد من غنى اللغة واستفادة الناس، وإليك سلامي.
السباعي بيومي
المجمع اللغوي وتشجيع الإنتاج الأدبي
قررت لجنة الأدب - في المجمع اللغوي - وضع القواعد الآتية لتشجيع الإنتاج الأدبي
أولاً: تؤلف اللجنة العامة للأدب ثلاث لجان فرعية: لجنة للشعر، ولجنة للقصة والرواية، ولجنة للمقالات والبحوث الأدبية من نقد وتأريخ ونحوهما
ثانياً: على كل لجنة من هذه اللجان أن تتقصى الإنتاج الأدبي في الفرع الذي أسند إليها؛ وأن تقدم تقريرا في شهر ديسمبر من كل سنة بملاحظاتها للجنة العامة، يشتمل على سير الحركة الأدبية في مصر والعالم العربي طول العام، وعلى ما يمكن أن يمتاز من الإنتاج في هذا الموضوع امتيازا يقتضي تشجيع صاحبه تشجيعا معنوياً أو مادياً وعلى اللجنة العامة أن تدرس هذه التقارير في شهري ديسمبر ويناير وتعرض تقريرها على مجلس المجمع في شهر فبراير
ثالثاً: يعقد المجمع جلسة علنية في شهر مارس، تعلن فيها قراراته في ذلك وأسبابها، وينوه فيها بما استحق التنويه به من الآثار الأدبية
رابعاً: ينشئ المجمع بنصف المبلغ المحدد ميزانيته لتشجيع الإنتاج الأدبي جائزتين يمنحان كل عام بعد مسابقة في فرع من الفروع الأدبية يتغير من عام إلى عام وينشئ المجمع بالنصف الآخر جوائز تمنح لخير ما يكشف من الآثار الأدبية
خامساً: الآثار الأدبية التي تجتاز هي التي تتحقق فيها الشروط الآتية:
(أ) أن يكون الأثر مظهراً للإنتاج المستقل

أن يأتي في بابه بفائدة محققة (ب)
ألا يكون قد سبق نشره قبل السنة التي تتناولها تقارير اللجان التي سبقت (ج)
الإشارة إليها
سادساً: لا يجوز لأعضاء المجمع أن يشتركوا في المسابقات ولا يجيزهم المجمع، ولا
ينوه بأثر من آثارهم الأدبية
حول مبدع فن المقامات
كثر الكلام في هذه الأيام على نص الآداب الذي يجعل ابن دُرَيد أبا عُذْر المقامات
ومبدعها، وقد وقف على هذا النص في هذا العصر الدكتور زكي مبارك أو غيره، وإني
وقفت على كلام للشريشي شارح المقامات الحريرية يذكر فيه هذا النص وأرى أن
أسوقه هنا وهو
هذا: (وذكر الحصري رحمه الله في كتاب الزهر أن الذي سبب للبديع رحمه الله تأليف
مقاماته هو أنه رأى أبا بكر بن الحسين بن دريد قد أغرب بأربعين حديثا ذكر أنه
استنبطها من ينابيع صدره وأنتخبها من معادن فكره، على طبع العرب الجاهلية، بألفاظ
بديعة حوشِّية. فعارضة البديع بأربعمائة مقامة لطيفة الأغراض والمقاصد، بديعة
المصادر والموارد). أنظر ج1 ص12 من هذا الكتاب
محمد علي النجار
من أدب آل عبد الرازق
منذ أيام توفى خادم من خدم بيت آل عبد الرازق، فخرج أهل الفقيد ومعارفه
يشيعونه، وخرج فيهم، وسار في مقدمتهم، صاحب المعالي مصطفى عبد الرازق باشا
يشيع الفقيد إلى مقره الأخير.
رأى الشاعر ذلك المنظر ففاض إعجابه بهذا المظهر النبيل بهذه الأبيات:
يا مصطفى، إن المكارم لم تزل ... فيكم، ومنكم تستمد جمالها
نشأت ببيتكم، فكانت منكمو ... نسبا، وكنتم في الحقيقة آلها
إن المعالي عند قوم رتبةٌ ... وأراك تشرح للورى أعمالها
أنشر مناهجها على طلابها ... واضرب لنا يا مصطفى أمثالها
علم، فإنك كنت خير معلم ... إن المكارم أصبحت يرثى لها!
تمشى تشيع خادماً مستعبراً ... مستشعرا عند المنون جلالها
وتسير حولك زمرة من جنسه ... ألفوا المذلة واكتسوا أسمالها
أنا ما عجبت فإنني أدرى بكم ... لكن رأيت الناس قالوا: يا لها!
إن قلت: ما أديت إلا واجباً ... قلنا: فمن في مثل فضلك قالها!
عش للمروءة راعيا من بعدما ... يَتِمَتْ وأفنى ذا الزمان رجالها
محمد جاد الرب
ولم يسعه إلا أن يرسل إلى معاليه هذه الأبيات، فتلقى من معاليه الرد البليغ الآتي:
حضرة الفاضل الأديب الأستاذ محمد جاد الرب
السلام عليك ورحمة الله وبركاته - أما بعد، فقد تلقيت كتابك البليغ في شعره ونثره،
والبليغ في إعرابه عن عواطف نفس فاضلة تسارع إلى التشجيع على مكارم الأخلاق،
وتلمح أدنى مظاهر الوفاء فتجعل منها فضلاً كبيراً
ولقد وقع في نفسي أبلغ وقع ما وجهه إلي الأستاذ من كلمات عطف وود، وأسأل الله
أن يجعلني عند حسن ظنه، وأن ينفعني ببركة دعائه، ولا يفتنني بعظيم ثنائه. وحيا الله
الأستاذ وبياه
مصطفى عبد الرازق
رحلة الشتاء والصيف
كتب الأستاذ أحمد أمين في العدد الهجري الممتاز من مجلة الثقافة (سيرة الرسول
في كلمة) وقد جاء في مقالته ما يلي: (وجده هاشم - والضمير يعود إلى الرسول
صلى الله عليه وسلم - صاحب إيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف. سن لهم
رحلة اليمن والحبشة في الصيف، ورحلة الشام في الشتاء الخ. . .) وكان مستنداً في
هذا إلى قوله تعالى: (لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف)
وقد لحظت الخطأ الظاهر في ذلك القول منذ أول قراءتي المقال، ولكنني كنت أظن
أن الأستاذ الفاضل سينتبه إليه، ويعود إلى تصحيحه، وقد مرت بضعة أسابيع دون أن

يفعل، فرأيت من الخير أن أعود إلى الموضوع منوهاً عنه بكلمتين. بإذن الأستاذ الزيات عجل الله في شفائه

فمن المعروف أن رحلة الشتاء لم تكن إلى الشام، ولا رحلة الصيف إلى اليمن والحبشة، وإنما الأمر بعكس ذلك تماما؛ وليس من المعقول أن يرحلوا إلى الحبشة واليمن في وقد الصيف وحره، أو يقصدوا الشام في برد الشتاء وزمهريره. وقد جاء في الجزء الثاني من (الكشاف) للزمخشري (الطبعة الأولى المطبعة البهية المصرية سنة 1925) صحيفة 561 سطر 30 - 32 في تفسير الآيتين الكريمتين المذكورتين آنفاً ما يلي: (وكانت لقريش رحلتان، يرحلون (في الشتاء إلى اليمن)، (وفي الصيف إلى الشام)، فيمتارون ويتجرون، وكانوا في رحلتيهم آمنين لأنهم أهل حرم الله وولاة بيته، فلا يُتَعرضْ لهم، والناس غيرهم يُتخَطفون ويغار عليهم) وكذلك في البيضاوي وسائر التفاسير

والمسألة قد تكون من باب السهو أو الهفو، وأغلب الظن أنها كذلك؛ إلا أن الخطأ في مثل هذه الأحوال لا يجوز، وهو إن دل على شيء فإنما يدل على عدم التدقيق. لذا رأيت المبادرة بتصحيح ذلك واجبا لأنه يتعلق بما جاء في القرآن الحكيم، ويمت إلى تأريخ قريش بأسباب، وسبحان من تفرد بالعصمة

نجدة فتحي صفوة

شرح شافية ابن الحاجب للاسترابادي

جمعت شافية ابن الحاجب زبدة فن التصريف في أوراق قليلة، وشرح الاسترابادي عليها شرح جليل المباحث، جزيل الفوائد؛ جمع بين تدقيق ابن جنى، وتعليل الأنباري، وترتيب المنازني، وتمثيل سيبويه. وقد وفق الله السيد محمود توفيق الكتبي فطبع هذا الشرح الجليل مع شرح فوائده للعلامة البغدادي صاحب خزانة الأدب، بعد أن وكل مراجعة أصوله، وضبط مبهماته، وشرح مفرداته، والتعليق على مسائله، لثلاثة أساتذة من خيرة المدرسين في كلية اللغة العربية فجاء الكتاب على خير ما يحب طلاب العربية من دقة التصحيح، وشدة التمحيص، وجودة الطبع

تصويب

جاء في كلمتي في العدد 401 من (الرسالة) - ص304 ما يأتي: والواقع أنه (أي مفتاح) والصواب: (أي مفاتح)

(أ. ع)

تصويب

وقع نظري في عدد الرسالة الممتاز 400 على تحريف لبعض آي الذكر الحكيم، فرأيت أن أنبه عليه، خصوصاً وقد صدرت الأعداد التي تلته خالية من تصحيح ذلك التحريف ورد في مقال الأستاذ عبد المنعم خلاف (ص253) استشهاد بقول الله تعالى: (والأرض جميعا قبضته والسموات مطويات بيمينه) والصواب (والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه)

وفي مقال الأستاذ الدكتور عبد الواحد وافي (ص267) استشهاد بقول الله تعالى: (ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى في جهنم ملوماً محصوراً) والصواب (مدحوراً)

أحمد محمد شكم

القصص

سكون العاصفة

للأستاذ محمود البدوي

كان خالد أفندي يتردد على مقهى (الحرية) في مدينة المنصورة أصيل كل يوم. ومع أن المقهى يشرف على النيل، ويقع في أجمل بقعة في هذا البلد؛ فإنه لم يحاول مطلقاً أن يملأ عينيه مما حوله من جمال وسحر. . . فهو لم يشاهد منظر غروب الشمس في النيل، ولا طلوع القمر من وراء السحاب، ولا الزوارق الشراعية وهي تسبح في ظل الغسق. . . كما أنه لم يعبر جسر طلخا قط، ويرى من وراء الجسر من مناظر خلابة في مدى السنين التسع التي قضاها في المنصورة منذ أن نقل إليها كاتباً في تفتيش الري!

وكان يجلس على ناصية الطريق زمن الصيف، فإذا جاء الشتاء انتقل مع الجالسين إلى الجزء الشتوي من المقهى على الرصيف الآخر من الطريق، وألقى بنفسه في مكان

ضيق يعج بالخلق ويزهق الأنفاس. هذه المقاهي الغريبة المنتشرة في طول البلاد وعرضها تضم خلقاً عجيباً من صعاليك الأرض، ومحترفي النرد، وأصحاب العقول الذهبية الذين يدخلون أنوفهم في كل شيء على ظهر البسيطة، وينتقدون أنظمة الاجتماع الإنساني قاطبة! ويشعرون بأنهم ضحية نظم فاسدة لا سبيل إلى إصلاحها! فما يعوزهم هو شيء خارج عن نطاق البشرية وحدودها! على أن خالد أفندي كان يختلف عن هؤلاء جميعا، فهو رجل قد جاوز بسنه عمر الشباب، وحاد بتفكيره عن تفكير المخبولين!.. بيد أنه كان يتفق معهم في الحيرة والقلق، والشعور المطلق بالنقص أبدا، ولهذا ظلت حياته تسير على منوال واحد ممل معذب... وكان قد أدرك الجيل الذي يتزوج فيه الشبان قبل الأوان، فتزوج معهم وأنجب، وكان زواجه من فتاة طيبة من أسرة كريمة، والأسر الكريمة كثيرة الود، فالزوجة عند عماتها وخالاتها، وخالات عماتها وعمات خالاتها! كما أنهم محط الرحل في المدينة لكل من يشرف المدينة من الأهل والصحب. ولهذا فر خالد أفندي من المنزل إلى المقهى، وقعد على حافة الطريق يرقب الرائحات والغاديات بعين عطشى...

ولما امتد لهب الحرب، وكثر عدد المهاجرين إلى الشرق، اكتظت المنصورة بالخلق، وازدحم منزل خالد أفندي بأفراد أسرته من المدن المعرضة لشر الغارات. فلما مضت الأيام

على غير حادث، وقفت حركة الهجرة، وسئم المهاجرون تكاليف العيش الجديدة ورجعوا إلى بلادهم بالتدريج، ورحل ضيوف خالد أفندي ورحلت معهم زوجته، فقد رافقت أختها إلى القاهرة. وهكذا أصبح خالد أفندي وحيدا في المنصورة، أو أعزب إلى أجل! وتنفس الصعداء، وشعر بالحرية المطلقة في غدوه ورواحه، وراح يحن إلى أيام شبابه ولهوه

وكانت تمر أمامه، بعد غروب كل شمس، فتاة رائعة الحسن جذابة الملامح، من هؤلاء اللواتي تدفعهن الفاقة إلى العمل. كانت تبيع الحلوى، وتمر على الجالسين في المقهى ضاحكة مازحة. وكانت تخص خالد أفندي ببعض وقتها ومزاحها، لأنه رجل وقور حسن السمعة! وكان يمازحها ويتلطف معها في الحديث. ثم يشيعها بنظراته النهمة. وكان جسمها أكبر من سنها بارز المفاتن رائع التكوين. وفي عينيها بريق وإغراء قل أن يجتمعا في عيني امرأة. وكان خالد أفندي يدرك هذه المحاسن كلها ولكنه كان يرد نفسه عنها تورعا. على أنها لما مرت أمامه في ذلك اليوم تثنى وتميل بجسمها وعلى شفتيها الرقيقتين ابتسامة، وفي عينيها ذلك البريق الأخاذ استوقفها وابتاع منها بعض الحلوى، وهو يضاحكها ويداعبها. ثم همس في أذنها كلاما فتورد وجه الفتاة، وغضت رأسها. ثم مضت عنه، وهي تهز رأسها ضاحكة وغابت في جوف الظلام

وظل ساكنا في مقعده لحظات. وهو ينفض المكان بعينيه ويرقب! ثم اندفع في الطريق الذي سارت فيه، وقد زاده تمنع الفتاة حماسة وثورة. وأوسع المجال لخطاه لما اجتاز المقاهي المتناثرة على حافة النهر حتى بدأ يلهث ونفض جسمه العرق. يا لله... إنه يسير الآن في الطريق الذي كان يتنزه فيه مع زوجه وأولاده مساء كل خميس حتى يبلغوا شجرة الدر! لقد مات الآن في نظره كل شيء وانمحت الذكريات وأسدلت الستر على الماضي كله بخيره وشره. وأصبح لا يرى الآن تحت تأثير العاصفة التي ألهبت جسمه وأشعلت النار في كيانه، غير نساء عاريات سابحات في النهر يتضاحكن ويهتفن به!

وبصر بها وهي تجتاز ميداناً صغيراً على رأس الطريق ينعطف إلى المدينة، فجمع حواسه في باصرته، وانطلق في أثرها

ومضى معها تحت ستار الظلام إلى البيت، ودارت ببصرها في جوانب القاعة في تهيب وخجل. ثم جلسا للعشاء، فأرغمها على الشراب، فزال عنها حياؤها بالتدريج، وتفتحت نفسها، فانطلقت تغني وتتبختر في أرض الغرفة كالطاووس الجميل

ولعباً بعد ذلك الورق وتكدست أمامها أكداس القروش! فرمقته بعينيها وسألته وهي سكرى: (هل تعطيني كل هذه النقود حقا؟) فضحك وطمأنها

وظهر عليها التعب وبدأت تتثاءب. ورف لون وجهها من فعل الخمر، وانفرجت شفتاها، واحمرت عيناها، وثقلت أهدابها وتفككت أوصال جسمها. فارتمت على أريكة بالقرب من المائدة وظلت تحادثه من حين إلى حين، وتنظر إليه بعينيها الناعستين، حتى

. . .أحست بلين الفراش فنامت
وبقى في مكانه يحتسي الجمر ويدخن، وعيناه سابحتان في قرار الكأس. ثم رفع بصره إليها وهي نائمة حالمة، وقد تهدل شعرها، وتوردت وجناتها، وظهرت على وجهها كله آيات الطفولة البريئة، وانمحت تكاليف العيش ومظاهر الصنعة من جسمها ونفسها. . . فأشرق روحها وبدت على فطرتها. . . وبان لون جسمها في بياض العاج ونعومة الحرير، وكانت إحدى ذراعيها تحت رأسها والأخرى عند خصرها. . . فتحرك الجسم قليلا وارتفعت الذراع حتى جاوزت العنق، وغاصت الأنامل الرقيقة في الخد المورد، وانحسر الثوب عن الساق، وانزاح الشعر عن الجبين، واهتزت الشفتان قليلا، وتحرك الجسم حركة من يود الصحو؛ على أن الأهداب بقيت مطبقة، والأجفان مسبلة، والنفس هادئاً حالما
ونظر إلى هذه الصورة الرائعة وهو سادر ساهم، فنهض عن مقعده ووقف أمام النافذة المغلقة، وفتح مصراعها، ومر هواء الصيف المنعش على وجهه وأشرف على الليل، وأطل على الوادي الصامت. ورأى لأول مرة في حياته محاسن الطبيعة، وبدائع ما أبدع الله وصور، واعتمد بجسمه على النافذة وبصره يخترق حجب الليل ويعبر النيل والجسر وما وراء الجسر، حيث تتجلى الطبيعة في أروع صورها، وسبحت عيناه في الظلام، واستغرق في تأملاته ومرت في ذهنه صور كثيرة واضحة وغامضة. . . الحرب. . . والغارات. . . والريف. . . والقرية. . . وزوجه. . . وأولاده. . . وشعر بطراوة الهواء ولينه وهو يصافح وجهه، وبجسمه يعود إلى حالته الطبيعية، ورأسه يصفو من فعل الخمر، فانثنى من النافذة، وانطلق يتمشى في أرض الغرفة، وعينيه على الفتاة النائمة ووقف أمامها لحظة. . . ثم انحنى عليها، وحملها على ذراعيه كطفل صغير، ومشى بها إلى مضجعه،
وأضجعها على السرير بحنان ورفق، وأسدل على جسمها ملاءة خفيفة، وأبقى وجهها الناضر عاريا، وأنسحب من الغرفة سائرا على أطراف أصابعه!!
ونام على أريكة في الردهة نوماً عميقاً هادئاً تشوبه ألذ الأحلام
محمود البدوي
العدد 404 - بتاريخ: 31 - 03 - 1941
يوم الفقير
تفضل صاحب المقام الرفيع علي ماهر باشا فدعاني أمس إلى زيارته في داره بالزمالك؛ ومن طبعي أن أتهيب الزيارة الأولى لأولئك الذين رفعتهم مواهبهم أو مناصبهم عن مستوى العرف؛ لأن اعتيادهم إمضاء الرأي وإنفاذ الأمر بالصوت الرفيع والسلطان القوي أرهف في نفوسهم الحس بما يجب لهم على الناس من أدب الجلوس ومصطلح الحديث. والرجل الذي يلف رأسه الحياء، ويعقل لسانه التزايل، لا يسهل عليه وهو يستمع إليهم أن يعرف متى يصح أن يسأل، ومتى يجوز أن يعارض، ومتى ينبغي أن ينصرف
على أنني كثيراً ما جلست إلى بعض هؤلاء، جلسة التحفظ والاستحياء، فكنت أشعر بعد قليل أن المهابة تنجلي عني، وأن الجلالة تنسري عنه، حتى أزعم لنفسي أني أفهم للموضوع وأجدر بالحديث. ولكن علي ماهر باشا ليس كأحد من أولئك الطبول! إنما هو رجل - كما توسمته من وراء لفظه - ألمعي الذهن يكتفي منك باللمحة الدالة، رصين اللب لا يحرك لسانه إلا بالكلمة المرادة، رفيع النفس لا يسر في مطاوي حديثه عصبية ولا ضغينة. وأخص ما يميز ماهر باشا رسوخ الطبع الاجتماعي فيه. ولعل نبوغه في القانون الدولي العام على الأخص سر من أسرار هذا الطبع. وأصحاب الفكرة الاجتماعية ينفرون من السياسة الحزبية لأنها فردية مجتمعة، ولا يميلون إلى الأعمال المالية لأنها أثرة محتالة. وإذا طُلبوا إلى الحكم نهجوا فيه منهاج الدين من تنظيم أمر الجماعة، وإصلاح حال العامة، على قدر ما يسعه طوق الإنسان الضعيف من توخي الإحسان وإيثار العدل. فإذا خرجوا منه لم يسعوا للدخول فيه؛ لأن السعي للحكم لا يخلو من خطوات في سبيل الشهوة الذاتية والمنفعة الخاصة. لذلك كان أظهر العزائم وأصدقها في وزارتي علي ماهر باشا سلسلة من الإصلاح الجماعي تتحقق على وجوهها الصحيحة في وزارة الشؤون الاجتماعية والجيش المرابط. وكانت حياة الفلاح والعامل موضوع هذا الإصلاح وموضوعه فلو أن طوارق الحدثان نامت عن مصر حيناً

آخر من الدهر لكان من الممكن أن يشعر الفقير بأن له حقاً في خير الله، وحظاً من نصيب الوطن. ولكن الحرب التي تتنمَّر أخطارها على الرمال والمياه من حدود (الوادي) لا تتيح لأولي الأمر أن يرصدوا الأهبة كلها لمعالجة الفقر؛ فلم يكن بد من قيام المعنيين بإصلاح الجماعة ليحلوا هذه المعضلة الأزلية بما حلها به الله، فيجمعوا المبرات، ويجبوا الصدقات، وينظموا الإحسان، ويسهلوا العمل، ويوفروا القدرة عليه بمكافحة الجهل والمرض؛ وذلك هو مشروع الزعيم الاجتماعي علي ماهر باشا، سماه (يوم الفقير) وجعله يتجدد في تاريخ بعد تاريخ، ويتحدد في إقليم بعد إقليم، ليكون مظهراً جميلاً لأريحية النفوس المؤمنة المحسنة، تتعاون فيه على الخير، وتتنافس في المعروف، وتقيم ركن الإسلام الخامس

حدثني صاب المقام الرفيع عن سياسته الاجتماعية وما يتذرع لها باليوم الثامن والعشرين من هذا الشهر وما يتلوه من أيام أخر؛ فسمعت لأول مرة كلاماً له معناه، ومنهاجاً له غايته. وكان الأخلق بمن سمع كثيراً من القول، ورأى قليلاً من الفعل، ألا يبالغ في الثقة ولا يسرف في الأمل، لولا أن صاحب الفكرة وممضيها علي ماهر باشا، وهو رجل لم يجرب عليه الناس لغواً في كلام ولا عبثاً في فعل. والحق أن الفقير يستطيع منذ اليوم أن يأوي إلى ركن شديد من عطف المليك ورعاية الحكومة ومعونة الشعب. ولعل مقاومة الحفاء ويوم الفقير هما المحاولتان الجديتان لمحاربة البؤس ومعاونة البائس؛ لأن المشروع الأول يعتمد على إرادة كريمة، والمشروع الآخر يستند إلى إدارة حكيمة. وكانت وزارة الشؤون الاجتماعية عسية أن تكفي المصلحين هذا الأمر لو أنها انتفعت بما توخاه لها الكتاب من مناهج الرشد؛ ولكنها حصرت معونتها للفلاح في إقامة الموالد لتفريج الهم عنه، وتحرير (المجلة) لمعالجة الأمية فيه!

وعسى أن تكون قد بلغت من ذينك مبلغاً يعوض عليها ما تبذل من مال وما تنفق من جهد!

لقد قطعنا سنة من عمر الرسالة في تذكير المترفين بأن لهم أخوة من خلق الله يأكلون ما تعلف الكلاب من المآكل، وينامون مع الحيوان في المزابل، ويقاسون من الأدواء ما لا يقاسيه حي في غير مصر؛ فلم يؤثر فيهم ما كتبناه إلا كما تؤثر النسمات اللينة في الصخر الأصم. ذلك لأن حق الله في أموالهم قد وكل أداؤه إلى ضمائرهم؛ والضمائر قد نامت على هدهدة الشهوات، والعواطف قد قست على جفاف المادة؛ وبين غفوة الضمائر وقسوة العواطف ذهب وازع الدين ولم يبق إلا وازع السلطان؛ لذلك لا ينتظر ليوم الفقير ما ينتظر لمقاومة الحفاء من الفوز، لأن الدافع هناك رهبة الحكومة أو رغبة (الرتبة)؛ أما الدافع هنا فعاطفة البر وهي في أكثر النفوس رسم دارس بين الجشع والأثرة!

يا أغنياءنا، لقد جربتم بذل المال في اللهو، وقتل العمر في العبث، وفقد الصحة في المجون؛ فهل كسبتم من وراء ذلك مجداً، أو وجدتم في عواقبه سعادة؟ جربوا ولو مرة واحدة أن تمسحوا دمعة على خد حزين، أو تنفسوا كربة عن قلب بائس، أو تسهلوا طلب العلم لفقير، أو تمهدوا سبيل العمل لمتعطل، أو تشاركوا أبناء الشعب في منفعة عامة؛ ثم انظروا بعد ذلك كيف يشيع في صدوركم الرخاء، ويرتفع بقلوبكم الإخاء، وتنعم نفوسكم في الحياتين بين عاجل المجد وآجل الخلود!

احمد حسن الزيات

نظرة عامة في شؤون الصحافة

لصاحب العزة أنطون الجميل بك

كل شئ كان يغريني بالإقبال على التحدث إليكم هذه الأمسية في كثير من الارتياح، بل من الاشتياق.

فموضوع الحديث (الصحافة) موضوع شائق طريف، يتصل بعملي اليومي، فلا هو غريب عني ولا أنا غريب عنه.

والمحدثون صفوة من الشباب المثقف المتطلع إلى العلم والعرفان، المتوثب إلى الخوض في ميادين البحث والتفكير: طلبة معهد الصحافة، وغيرهم من الذين شرفوني بالحضور من أساتذة الجامعة ورجال الأدب والسياسة والجيش، وصاحبة الجلالة (الصحافة) حرية بمثل هذه البطانة الكريمة.

ومكان الحديث هذا، هيكل من الهياكل المقدسة التي أقامتها الأمم الراقية للحريات:

حرية التفكير، وحرية البحث، وحرية الرأي والقول. في جوه تتقابل الأفكار، وتتصادم الآراء، فتشرق من اصطدامها أنوار الحقيقة واليقين ساطعة زاهية، لا تحجبها سحب الشك والرياء، ولا تشوبها شوائب المصانعة والمداراة. وما أشوق الصحفي الذي يكتب في ظل الرقابة والأحكام العرفية إلى مثل هذا الجو النقي الطليق يتنفس فيه ملء رئتيه! فالظروف إذن كلها مواتية للحديث: موضوعاً، ومكاناً، ومستمعين!

لقد وجدتَ مجال القول ذا سعة ... فإن وجدتَ لساناً قائلاً فقلِ

ومع كل ذلك ترددت في تلبية الدعوة التي وجهها إلى الزميل الصديق الأستاذ محمود عزمي لإلقاء هذه المحاضرة حتى كنت أحجم. لا لأني لم أجد اللسان القائل أو القلم الكاتب أمام جميع هذه الظروف المواتية والمغرية، بل لأن حصر الحديث عن الصحافة في محاضرة هي بطبيعتها ضيقة النطاق، محدودة المجال، ليس من الأمور السهلة في (معهد الصحافة) أمام طلبة يتلقون دروساً مستفيضة على أيدي أساتذة أعلام في أصول هذه الصناعة وفروعها وتاريخها، حتى حذقوا قواعدها وألموا بأسرارها وبكل ما يمت إليها عن قريب أو بعيد. لذلك كان اختيار موضوع هذا الحديث، على سعة المجال، صعباً. ولم يكن أمامي مفر من جعله يدور حول العموميات فأفرغته في لمحة عامة ونظرة إجمالية ألقيتها إلى الصحافة وشئونها.

تاريخ الصحافة المصرية من بدء عهد الاحتلال هو تاريخ هذه البلاد في ستين سنة. فمن حاول كتابة تاريخ هذه كتب تاريخ تلك في هذه الحقبة الحافلة بالحوادث التي وصلت بنا تطوراتها إلى ما وصلت إليه البلاد من رقي أدبي ومادي، ومن مركز سياسي واجتماعي.

فما من نهضة قومية سياسية إلا وكانت الصحافة قائدها، وما من حركة اجتماعية أو إصلاحية إلا وكانت الصحف رائدها، عليها اعتمد وبها استعان رجال الفكر والعمل: من الشيخ محمد عبده، إلى جمال الدين الأفغاني، إلى قاسم أمين، إلى مصطفى كامل، إلى سعد زغلول، إلى سائر زعماء السياسة والاجتماع. فكانت الصحافة في أيدي هؤلاء القادة - وفي أيدي أنصارهم ودعاتهم - السلاح الماضي للذود عن آرائهم، والبوق النافخ الذي يذيع صيحاتهم في جميع أرجاء البلاد وفيما وراء حدودها.

أي حادث وقع في مصر، وأي إصلاح تم في مصر، ولم يكن الدور الأول فيه لصحف مصر؟ وأي اعتداء وقع على الدستور أو على الحرية ولم تصب شظيته الأولى صحف مصر؟ وإذا عاد كل منا إلى تذكر أول نبضة وطنية نبض بها قلبه، أو أول اختلاجه قومية اختلج بها فؤاده، أو أول ثورة فكرية تأثر بها عقله، وجد أن مصدرها كان مقالاً في صحيفة قرأها أو سمع والده يقرؤها

وهذا الذي نذكره عن مصر يجوز أن نذكره عن كل بلد آخر؛ ولذلك قالوا إن صحافة كل بلاد هي مرآة صادقة لأخلاقها وميولها ومثلها العليا

ومادام هذا مقام الصحافة، فما أكثر الصفات الواجب توافرها في من يتجندون لخدمتها. . . إذا وجبت الأمانة والصدق والإخلاص في كل عمل، فإنها في الصحافة أوجب منها في غيرها؛ لأن ضرر الرجل الذي يخون هذه الواجبات في عمله محصور في نطاق محدود؛ ولكن ضرر الصحفي الذي يخونها يتعدى إلى الألوف، بل عشرات الألوف، بل مئات الألوف الذين يتناولون غذاءهم الأدبي والفكري في كل صباح وكل مساء من الصحيفة التي يقرءون، فيكون لهم فيها الغذاء النافع أو السم الناقع لذلك نرى الصحافة تتدرج وتترقى من الوجهة المادية، فتزاد صفحاتها، وتكثر أبوابها، وتتنوع أنباؤها، ويتفنن في بحوثها ومقالاتها

ولكنها من الوجهة الأدبية، لا تزال شروطها وواجباتها كما كانت بالأمس وكما ستكون في الغد، واحدة لا تتبدل ولا تتغير (صدق في رواية الحوادث والأنباء، وإخلاص في بسط الأفكار والآراء، ونقد حيث ينبغي النقد، وثناء حيث يجب الثناء. ومن وراء كل هذا، العمل على تنوير الأذهان، وتثقيف العقول، وتقويم الميول، ومقاومة الأهواء لإرشاد الرأي العام، وتوجيهه إلى الغرض الأسمى والمثل الأعلى)

نعم ما أكثر واجبات الصحفي! وما أتبعها وأشقها في التنفيذ! ولكن ما أنبلها وأسعدها في النتائج!

قلت في محاضرة ألقيتها منذ أربع سنوات على أسلاف لكم أيها الطلبة النجباء في

معرض الكلام عن واجبات الصحافة:
كم لدينا من المشاكل الاجتماعية والعمرانية والمسائل المالية والاقتصادية والشؤون الاشتراعية والإدارية، ينبغي للصحافة أن تعالجها وتقتلها بحثاً وتمحيصاً، لتحييها نشراً وتنفيذاً
إن أمامنا أمة أضر بها النظام الماضي، يجب أن تتعلم، فتعرف أن لها عقلاً يجب تثقيفه، وصحة يجب تدبيرها، وثروة دفينة يجب استغلالها، وأدباً عالياً يجب إحياؤه، وتراثاً مجيداً يجب إنماؤه، حتى تدرك الأمة في نهاية الأمر أنها هي (الأمة مصدر السلطات) حقا. فمن لهذه الواجبات المقدسة غير الصحافة الوطنية، وهي بعد السلطة الاشتراعية والسلطة القضائية والسلطة التنفيذية رابعة السلطات؟
إن لنا وطناً كان قد هيض جناحه وشتت قواه، واستبيحت حياضه واعتدى على حماه، فيجب الذود عن حقوقه، والدفاع عن مصالحه وشئونه، وإعلاء كلمته بين الأوطان، ليظل زعيم جيرانه، ويصبح قرناً محترماً بين أقرانه. فمن لهذا الواجب غير الصحف، والصحف كما تعرفون قلاع منيعة من الورق لا تؤثر فيها قنابل المدافع، والأقلام التي تكتب بها مصنوعة من الفولاذ الذي تصنع منه السيوف؟
إن لنا دستوراً، وقد حلفنا يمين الأمانة له، وعلى أساسه قام الحكم النيابي بيننا، فلابد من الدفاع عنه لتصان حرياتنا الدستورية. وكيف تصان هذه الحريات إذا فقدت صحافتنا حريتها؟ إن كلمة (شاتوبريان) أشد انطباقاً على تاريخنا الدستوري منها على تاريخ سوانا
قال: (إذا فقدت البلاد دستورها فإن الصحافة كفيلة بأن تجده وترده إلى البلاد). فلقد ضاع دستورنا أولاً وثانياً، فكانت صحافتنا في طليعة من جد وراءه ورده إلى مصر سليماً. فواجب الصحافة إلا تتخلى عن هذا الواجب
إن على رأس الأمة حكومة يجب أن تعاون في مشروعاتها الإصلاحية، مادية كانت أم أدبية. أما معاونة الصحف للحكومة فتقوم على مناصرتها وتأييدها، كما تقوم كذلك على نقدها ومؤاخذتها في مواطن النقد والمؤاخذة. فكلتا الصحافتين: المؤيدة والمعارضة تقوم بواجبها الصحفي الحق، مادام الإخلاص رائدها والصدق نبراسها، فلا تميل مع الهوى، ولا تذهب مذهب الأغراض الملتوية. ومن المسلم به أن لكل كاتب أسلوبه ولكل صحيفة خطتها: فهذه تأخذ باللين والهوادة، وهذه تعمد إلى الشد والعنف. وأمراضنا الاجتماعية كأمراضنا الجسمية: هذه تحتاج إلى الكمادات والمراهم، وهذه لابد لها من المبضع بعمل فيها عمله. والحكومة الرشيدة ترحب بالنقد العادل ترحيبها بالثناء الحق. وإذا كانت الحكومات تجزع أحياناً مما تقوله الصحف، فإنها أحياناً قد تستهدف للتهلكة من جراء ما لا تقوله الصحف
أعني بذلك أن حرية الكتابة يجب أن تكون مكفولة، وذلك لمصلحة الحكومة نفسها؛ فإن حرية القول هي الوسيلة الوحيدة لوضع حد لاستباحة التمادي في حرية الفعل. ولا أعني بذلك حرية الافتراء والتضليل، كما لا أعني أن تنشر الصحف كل ما تعلم، فللقول ساعات يضر فيها الخطأ ولا ينفع الصواب
هذه واجبات الصحافة. وأكرر القول أنها واجبات كثيرة متشعبة وشاقة. وهيهات أن تستطيع الصحافة النهوض بها وحدها على الوجه المروم، إذا لم تقم الحكومة والأمة بواجبهما نحو الصحف
ولقد سبق لي في موقف آخر أن أفضت في تبيان هذا الواجب، واكتفى اليوم بالقول أن الأمل بحصول الصحافة على ما لها من حقوق بات معلقاً على تأليف (نقابة الصحفيين) ويخجلني أن أذكر أن ليس للصحف نقابة حتى الآن، في حين كاد يصبح عندنا لكل صناعة ولكل مهنة نقابة. وتاريخ المحاولات لتأليف نقابة الصحافة طويل مؤلم. ورد ذكرها لأول مرة منذ نصف قرن. فقد كتب منشئ (الأهرام) - طيب الله ثراء - فصلاً في مثل هذه
الأيام منذ 50 سنة جاء فيه:
لم نقصد فيما كتبناه مراراً عن الجرائد واتفاقها على (سنديك) ينظر في مصلحتها، إلا) لأننا رأينا هذه المبادئ قاعدة جرائد أوربا المتمدنة وأمريكا الحرة
وشتان بين أهمية جرائدنا وأهمية تلك، وبين الرأي العام هنا وهناك، وبين حكامنا) وحكامهم. فأصحاب الجرائد الأوربية أقل احتياجاً منا إلى الاتفاق تحت شروط تضمن

نجاح المصلحة، ولنا من أعمال سانيدك الجرائد في باريز ولندره وغيرهما شاهد عدل ومهما تتباين مبادئ جرائدنا سياسة. فهي أقل تبايناً من أخواتها في باريز. . . وعند) الاتفاق يمكن أن يكون لجرائدنا شأن معهم في خدمة المصلحة العامة بتهذيبها الظالم والمرتشي والمستبد، فضلاً عن الخدمات الجليلة التي تترتب على اتفاقها من نشر المبادئ الصحيحة، والاهتمام بالأعمال العامة. . . فنرجو من زملائنا الذين يعرفون واجبات الجرائد ويعترفون معنا بفضل المشروع أن يهتموا بتحقيقه، ويسعوا إلى (الوصول اليه، وكلما أسرعوا في الأمر حققوا للجرائد أغراضها. والله ولي التوفيق ومنذ ذلك العهد قام الصحفيين بمحاولات كثيرة لتأليف جمعية أو نقابة لهم، فكانت هذه الهيئات تعمر سنة أو بعض سنة، ثم يجر عليها العفاء ذيوله، إلى أن استصدرت وزارة علي ماهر باشا الأولى مرسوماً في 20 أبريل سنة 1936 باعتماد (نظام جمعية للصحافة)، ولكنه لم يوضع موضع التنفيذ. فوجهت بعد مرور سنة - 18 أبريل سنة 1937 - سؤالاً برلمانياً إلى وزير الداخلية في هذا الموضوع، فردت الحكومة واعدة بالعمل على تأليف هذه الجمعية. ثم مرت الأيام إلى أن انتهى الأمر بتقديم مشروع بقانون إلى البرلمان بإنشاء نقابة للصحفيين

عرض هذا المشروع على مجلس النواب فأقره في العام الماضي. وجاء إلى مجلس الشيوخ فعد له وأعاده إلى النواب، ولكن النواب لم يقروا تعديل الشيوخ. فتألفت لجنة مشتركة من بعض أعضاء المجلسين، وانتهى بها البحث في أوائل هذا الشهر إلى صيغة ارتضتها، وعرضت على النواب فأقروها يوم الأربعاء الماضي (12مارس) وسيؤخذ الرأي عليها مناداة بالاسم في جلسة غد. ثم ترسل إلى مجلس الشيوخ حيث شرفني زملائي بأن أكون مقرراً لهذا القانون. والأمل وطيد بأن يقره المجلس في الأسبوع القادم فيصبح قانوناً نافذاً

ويضمن للصحافة شيئاً من حقوقها الأدبية والمادية لقاء ما عددته مما عليها من الواجبات.

وهذا القانون ينص في مادته الثانية على أغراض النقابة وهي:

1 - العمل على صيانة حقوق الصحفيين وتحديد واجباتهم

2 - تنظيم علاقات الصحافة مع الحكومة والجمهور

3 - سن القواعد المنظمة لمزاولة المهنة الصحفية وبيان العادات المرعية فيها

4 - تسوية المنازعات ذات الصلة بالمهنة التي قد تنشأ بين أعضاء النقابة أو بينهم وبين غيرهم

5 - العمل على تحقيق كل مشروع أو عمل من شأنه رفع مستوى الصحافة وإعلاء كرامتها. يحظر على النقابة الاشتغال بأي عمل خارج عن هذه الأغراض)

كما أن المشروع ينص في مادته الرابعة على الشروط التي يجب أن تتوافر في من يرغب في الالتحاق بهيئة الصحافة. وهذا النص ذو أهمية كبرى للعمل على رفع مستوى المهنة فلا يلتحق بها كل من هب ودب، ولا يدعى كل من لا عمل له أنه صحفي. أما هذه للشروط المفروضة على طلب القيد في جدول الصحفيين فهي:

1 - أن يكون مصرياً

2 - ألا يقل سنه عن 21 سنة

3 - أن يكون متمتعاً بالأهلية المدنية

4 - أن يكون حائزاً لما يؤهله للاحترام الواجب للمهنة

5 - أن يكون حاصلاً على شهادة دراسية عالية من مصر أو من الخارج، أو أن يكون على درجة الثقافة التي تقتضيها مهنة الصحفي

6 - أن يكون مالكاً لصحيفة أو ممثلاً له أو مديراً لصحيفة أو لوكالة استعلامات أو رئيس تحرير صحيفة أو محرراً فيها مدة سنتين على الأقل. وفي تطبيق هذه المادة لا تشمل كلمة صحيفة الصحف ذات الموضوعات الخاصة كالجرائد المالية والرياضية والفنية وغيرها، ولا المجلات التي لا تظهر مرة واحدة في الشهر على الأقل

7 - أن تكون الصحافة مهنته الرئيسية، وألا يحترف التجارة فيما ليست له صلة بمهنته.

وقد فرض المشروع عقوبات على أدعياء الصحافة. فقد نصت المادة 22 على ما يأتي:

(لأعضاء النقابة وحدهم الحق في حمل لقب صحفي. ويعاقب بغرامة لا تتجاوز عشرين جنيهاً مصرياً كل من وصف نفسه علناً بهذا الوصف أو أستعمله مخالفة لأحكام هذا

القانون. فإن عاد تكون العقوبة الغرامة التي لا تتجاوز عشرين جنيهاً والحبس لمدة لا تزيد على ثلاثة أشهر أو إحدى هاتين العقوبتين)

رأيتم أن مشروع القانون الذي تلوت على حضراتكم بعض أحكامه قد عرفنا من هو الصحفي أو الذي يجوز بعد الآن أن يحمل هذا اللقب. فقد اشترط فيما اشترط عليه أن يكون حاصلاً على شهادة عالية أو أن يكون على درجة الثقافة التي تقتضيها مهنة الصحفي.

ذلك أن الصحفي مدعو بطبيعة عمله إلى الكتابة في شتى الموضوعات، وهذا الشرط غير مقصور على الذين يدبجون المقالات ويكتبون ما يسمونه (الافتتاحية) أو بل يمتد إلى الذين يكتبون الأخبار ويترجمون التلغرافات الخارجية. إذ كيف يكتب الصحفي عن الأنباء البرلمانية والوزارية، وعن أخبار القطن والأوراق المالية، وعن أعمال اللجان وسائر الهيئات؟ أم كيف يترجم التلغرافات عن الحوادث العالمية وتطورات السياسة الدولية، إذا لم يكن ذلك المخبر وهذا المترجم كلاهما ملماً بنظام البلد ودستوره ونظمه، ويعلم الاقتصاد والقانون والجغرافيا والتاريخ العام؟ لذلك كان البرنامج الذي يسير عليه أساتذة هذا المعهد (معهد الصحافة) حافلاً بأنواع الدراسات القانونية والاقتصادية والتاريخية والجغرافية ليخرجوا لنا صحفيين مثقفين يشرفون لقب (الصحفي) عندما يلقبون به ويتشرفون هم بالخدمة في بلاط صاحبة الجلالة

ولعل أحوج ما يحتاج إليه الصحفي إلى جانب ثقافته العامة شيئان: قوة الملاحظة، فترى عينه في مشاهداته ما لا تراه عيون الآخرين، ويلمح خاطره في الحوادث والأنباء ما لا تلمحه خواطر الناس. فإذا قرءوا ما دونه من ملاحظات قالوا: (حقاً. . . إن الأمر لكذلك)

ويحتاج بعد هذا إلى قلم رشيق يترجم عن آرائه وأفكاره، ويدون الملاحظات والمشاهدات في أسلوب لبق بعيد عن الركاكة بعده عن التقعر، وأنتم تقرءون كل يوم الخبر الواحد مصوغاً في أساليب مختلفة: هذا يروقكم ويستوقفكم، وهذا لا تأبهون له فتمرون به مر الكرام. والصحفي أكثر من كل كاتب مفروض عليه الإسراع في الكتابة، فليس أمامه من

الوقت ما أمام الباحث والأديب والمحاضر ليبحث وينقب ويراجع، بل هو مضطر إلى تدوين الأنباء تدويناً خاطفاً، أو إلى التعليق على الحوادث تعليقاً يكون ابن ساعته. فسر الصحافة الحديثة السرعة: السرعة في تلقي الأخبار، والسرعة في إيصالها إلى القراء.

وقد جاء انتشار التليفون والتلغراف السلكي واللاسلكي خير معوان لخدمة الصحافة من هذا القبيل؛ وإذا كان (الراديو) قد نهض ينافس الصحافة في سرعة نشر الأخبار، فإن منافسته ستظل محصورة، لأن العبارة المكتوبة لا تزال أحب إلى العقل من العبارة المقولة.

ومادمنا في معرض الكلام عن الأساليب الصحفية وتنوعها فلابد من القول أن صحافتنا في مجموعها قد أصبحت شاملة لكل هذه الأنواع فتوافق جميع الأذواق. فصحافتنا منوعة في مواعيدها: فمنها الصباحية والمسائية، ومنها الأسبوعية والشهرية منوعة في موضوعاتها: فمنها السياسية الأخبارية، ومنها الأدبية العلمية، منها المصورة الفكاهية منوعة في أسلوبها: فمنها الرزينة المعتدلة، ومنها المتحمسة المندفعة، ومنها المنتقدة اللاذعة

ولا سبيل إلى المفاضلة بين هذه الأساليب، فالأمر راجع إلى ذوق الكاتب ومزاج القارئ. والمهم، أياً كان الأسلوب، أن يكون قائماً على الصدق والإخلاص كما ذكرناه هذه صفات عامة تتناول جميع كتاب الصحف. وهناك صفات خاصة تتناول كل طائفة من كتاب الصحيفة الواحدة: فللكتاب والمحررين صفات، وللمخبرين والمندوبين صفات، وللمكاتبين والمصححين صفات، وللمترجمين صفات، وللموضبين والذين يتولون عمل (تواليت) الصحيفة صفات، يطول بنا المقام لو شرحناها وفصلنا كل واحدة منها. ولا يقل عمل طائفة من هذه الطوائف التي تحضر الجريدة أهمية عن عمل الأخرى، وإن كان الغرباء عن الصحافة يتصورون خطأ أن الذي يكتب مقالة هو كل شئ في الجريدة

وقبل أن نختم هذا الحديث، فلنفتح صحيفة من صحفنا اليومية لنرى تطبيق ما قدمت. ماذا نجد فيها عادة؟

نجد المقالة أو التعليق على أهم حوادث اليوم
ونجد الأخبار والأنباء التي تتصل بحياة البلد
ونجد الأنباء التلغرافية، وقد طغت في هذه الأيام على سائر أبواب الجرائد نظراً إلى خطورة حوادث الحرب واشتباك جميع المصالح بها
ونجد أيضاً الإعلانات، وقد أصبح الإعلان فناً قائماً بنفسه من حيث الشكل والأسلوب، وهو ركن أساسي في إيراد الجريدة لا غنى لها عنه لتكفل حياتها، أو على الأقل لتكفل استقلالها
قال لي مدير إحدى كبريات الصحف الأمريكية: (كل مشترك جديد في جريدتنا يخسرنا سبعة دولارات، ولكننا نرحب به، لأن (تعريفه) الإعلانات عندنا ترتفع بنسبة زيادة عدد النسخ المطبوعة فتعوض أجرة الإعلانات هذه الخسارة وتعود علينا بربح)
ولا أريد أن أطوي حديثي معكم على هذه البيانات المادية، بل أستميحكم بضع دقائق أخيرة نتحدث فيها عن أسلافنا البعيدين، وهم الصحفيون عند العرب في الجاهلية وصدر الإسلام وقد عنيت بهم (الشعراء) فانهم كانوا يدونون حوادث القبيلة أو الربع في قصائدهم، فيتناقلها الرواة. وكم من قصيدة سجلت حوادث القوم ووقائعهم الحربية أو في تسجيل، حتى لكأنها الصحيفة العصرية تسرد الأنباء والأخبار سرداً. . .
ودواوين الشعراء زاخرة بهذا النوع من الشعر الإخباري، فنجد فيها الشيء الكثير منه اسمعوا على سبيل المثال هذين البيتين لبشار بن برد، وقد تكلم في البيت الأول عن الحرب الخاطفة - وضمن البيت الثاني وصفاً لواقعة حربية جاء أشبه شئ ببلاغ من البلاغات الحربية التي نقرأها كل يوم، قال:
بعثنا لهم موت الفجاَءة، إنما ... بنو الموت خفاق علينا سبائبه
فراحوا: فريق في الإسار، ومثلهُ ... قتيلٌ، ومثلُ لاذَ بالبحر هاربه
وهكذا كان الشعراء يدونون الحوادث في أشعارهم كما يفعل الصحفيين اليوم في جرائدهم. وكانوا كذلك يقومون بمهمة الإعلان، ولا نعرف (التعريفة) التي كانوا يتقاضونها عن الإعلان في شعرهم
ولعل ألطف إعلان بالشعر ما ذكره كتاب الأغاني، وخلاصته: أن تاجراً من أهل الكوفة قدم المدينة بخمر - والخمار ما تغطى به المرأة رأسها، وقد عادت (مودته) الآن - فباعها كلها، وبقيت السود منها فلم تتفق، وكان صديقاً للدارمي فشكا ذلك إليه. وكان الدارمي قد نسك وترك الغناء وقول الشعر؛ فقال له: (لا تهتم بذلك فإني سأنفقها لك حتى تبيعها أجمع)، ثم وضع شعراً للغناء:
قل للمليحة في الخمار الأسود ... ماذا صنعت براهبٍ متعبدِ
قد كان شمّر للصلاة ثيابه ... حتى وقفت له بباب المسجد
فشاع غناؤه في الناس، ولم نبق في المدينة ظريفة إلا ابتاعت خماراً أسود، حتى نفذ ما كان مع العراق منها
أقف عند هذا الجد، معتذراً عن تقصيري، بأني ما ادعيت قط حصر جميع شؤون الصحافة في محاضرة، بل هي نظرة إجمالية تناولت بعض شؤون الصحافة، ولكم أيها الإخوان، في محاضرات أساتذتكم في هذا المعهد ما يسد الفراغ ويكمل النقص
ولم يبق لي إلا أن أتمنى لكم التوفيق في الصناعة التي اخترتموها لأنفسكم، وهي صناعة شريفة إذا عرفنا أن نحتفظ لها بمكانتها. وكل ما أرجو ألا تخرجوا إلى ميدان العمل إلا وتكون جميع القيود التي قضت الأحوال الحاضرة بفرضها على الصحافة قد سقطت: القيود المادية التي تحدد عدد الصفحات، والقيود الأدبية التي تقيد جولات الأقلام، فتجدوا المجال أمامكم حراً واسعاً، فالصحافة لا تزدهر إلا في جو الحرية والاستقلال
أنطون الجميل
الأدب العربي الحديث في العراق
للدكتور زكي مبارك
تمهيد - الصلات الأدبية بين مصر والعراق - كيف صارت العروبة في ديار الرافدين بعد سقوط بغداد؟ - الجدال بين السنة والشيعة هو الذي حفظ اللغة العربية في عهود الاحتلال الفارسي والاحتلال التركي - بواكير النهضة الأدبية في

العراق - إحياء الأمجاد العربية - الأدب المجهول - روافد الأدب العراقي - لمحات من الفروق بين الاتجاهات الأدبية في مصر والعراق.

تمهيد:

صار من المقرر في وزارة المعارف المصرية أن تكون الترقية من التعليم الابتدائي إلى التعليم الثانوي مقصورة على من يفوزون في امتحان المسابقة لذلك الترفيع، وهذا نظام يسوق المدرسين سوقاً إلى تزويد عقولهم بما يجد في ميادين الدراسات العلمية والأدبية والاجتماعية

وفي هذا العام يجب على المتسابقين في اللغة العربية أن يؤدوا امتحاناً في الأدب الحديث بمصر وسائر البلاد العربية، وهي مفاجأة لم يستعد لها مدرسو اللغة العربية، لأن الأدب الحديث في غير مصر، لا يعرفه من بين المصريين إلا أفراد سمحت لهم الظروف بأن ينتقلوا في بعض أقطار الشرق من أمثال: المازني والزيات وعزام. فكيف السبيل إلى تعرف اتجاهات الأدب الحديث في بلاد مثل: المغرب واليمن والحجاز وفلسطين وسوريا ولبنان والعراق؟

وقد دعاني جماعة من المدرسين إلى إنشاء طائفة من البحوث في التعريف بالأدب الحديث في غير مصر من البلاد العربية، فأجبت بعد تردد، لأني أعرف أن ذلك عبء لا ينهض به رجل واحد، فقد تعددت المذاهب الأدبية في تلك البلاد، وصار من الواجب أن يلتفت إليها عدد كبير من الباحثين ليسجلوا ما فيها من خصائص ذوقية وأدبية واجتماعية

ولو لم تفاجأ (الرسالة) بغلاء الورق، لكان في تنفيذ الاقتراح الذي قدمته إليها في صيف سنة 1939 ما يغني المدرسين المصريين من التعب في تعرف الاتجاهات الأدبية بالأقطار العربية؛ فقد كنت اقترحت أن تصدر (الرسالة) أعداداً خاصة تصور ما بتلك الأقطار من المذاهب الفكرية والأدبية، وتعرف المصريين بأحوال إخوانهم في بلاد لا يعرفون من أخبارها العقلية غير بوارق تنقلها الجرائد والمجلات من حين إلى حين بأسلوب قد يصل في الإيجاز إلى الإخلال

وأنا لم أبتكر الاقتراح الذي قدمته إلى (الرسالة) في صيف سنة 1939، فقد استوحيته من العدد الممتاز الذي أصدرته مجلة (العرفان) عن مصر، والعدد الممتاز الذي أصدرته مجلة (المكشوف)؛ وهما عددان يفصلان الأحوال الأدبية والاجتماعية في مصر أجمل تفصيل، فإلى هاتين المجلتين أقدم أطيب الشكر وأصدق الثناء

ثم رأيت أن أبدأ بالكلام عن الأدب الحديث في العراق، إلى أن أستعد للكلام عن الأدب الحديث في سائر البلاد العربية، فماذا وجدت؟ وجدت المهمة أصعب مما تصورت، لأن العراق الذي عشت فيه وتعرفت إلى ما عند أهله من آراء وأهواء ونوازع وميول، يحتاج إلى دراسة دقيقة تستنفذ أوقاتاً لا أملك منها غير سويعات قصار أسترقها استراقاً من العمر الموزع بين أعباء ثقال أخفها الجهد إلى أواجه به قرائي من يوم إلى يوم أو من أسبوع إلى أسبوع

فهل أحجم عن مواجهة هذا الموضوع الجليل إلى أن أجد الوقت المنشود؟

سأتوكل على الله وأتحدث عن الأدب العراقي في الحدود التي يسمح بها جهد المقل، وجهد المقل غير قليل. وسيكون الغرض تصوير أدب العراق في أشخاص شعرائه وكتابه بأسلوب يجمع ما تفرق من مذاهب الأدباء بتلك البلاد، إلى أن تسمح الظروف بإعداد كتاب شامل عن العقلية العراقية في العصر الحديث، والله سبحانه هو الموفق

الأدب العراقي:

بسم الله الرحمن الرحيم

وبالبسملة أبتدئ حين أقدم على موضوع تعترضه عقاب وصعاب

وموضوع اليوم هو تحديد المرحلة التي يبتدئ بها الأدب الحديث في العراق، فما هي بداية النهضة الأدبية الحديثة في تلك البلاد؟

كان العراق يحمل مشاعل الثقافة العربية إلى أن أجتاحه المغول في منتصف القرن السابع، فبعدئذ نهضت مصر بما كان ينهض به العراق، وقامت القاهرة بما كانت تقوم به بغداد، ورحبت المدائن المصرية بمئات من العائلات الراقية، ولعل هذا هو السر في التشابه الشديد بين المصريين والعراقيين في النطق ومخارج الحروف، وفي كثير من

العادات والتقاليد، بحيث يمكن الحكم بأن المصريين والعراقيين لم يكونوا على بعد الدار إلا أخوة أشقاء نقلتهم الحوادث من بلد إلى بلاد
فكيف صارت العروبة في العراق بعد سقوط بغداد وبعد انتهاء ما تلا عهد المغول من خطوب؟
ظل العراق العربي محتلاً بالقوى الفارسية نحو ثلاثة قرون، وهو أمد يقدر بثلاثة أرقام، ولكنه أمد طويل جداً، وكان يكفي لمحو اللغة العربية لو صادف أمة لا تمت إلى العروبة بعرقٍ أصيل. ثم جاء عهد الترك فأيد عهد الفرس من حيث الاستهانة بمقام اللغة العربية، فماذا صنعت تلك اللغة لتحفظ حيويتها إلى أن يجيء يوم البعث، وهو يوم استقلال العراق؟
ظفرت اللغة العربية في العراق بأسلحة تضر من جانب وتنفع من جوانب، وتلك الأسلحة هي مصادر النزاع والشقاق بين المذاهب السنية والمذاهب الشيعية. فقد تناسى العراقيون بلواهم بالاحتلال الفارسي والاحتلال التركي، وظلوا يتجادلون ويتناقشون بلغة القرآن، وهي اللغة التي حملت إليهم بذور ذلك الخلاف (السعيد) ومن المؤكد أن المناقشات بين السنة والشيعية فتقت الأذهان وألانت الألسنة في العراق. ومن المؤكد أيضاً أن المساجد هي صاحبة الفضل الأول في تأريث الخصومات العقلية، وهي خصومات عادت بالنفع الجزيل على الأدب والبيان، فمن كان يهمه أن يعرف كيف عاشت اللغة العربية في العراق برغم الاحتلال الفارسي والاحتلال التركي فليسأل أساطين المساجد في البصرة والحلة والموصل وبغداد والنجف وكربلاء تناسى العراقيون بلواهم بالاحتلال الفارسي والاحتلال التركي وأقبلوا على الجدال في المفاضلة بين الأمويين والهاشميين، فعاشوا في دنيا من الفكر والعقل والوجدان كانت أجدى عليهم من دنيا السيطرة المالية والسياسية، وبذلك حفظوا لغتهم من التضعضع والفناء. ولله حكمة عالية في خلق أسباب الشقاق بين الرجال.
اللغة العربية في العراق مدينة أثقل الدين للخلافات المذهبية، فتلك الخلافات هي التي أوجبت أن يحرص أقوام على رواية أخبار بني أمية وبني العباس، وإن يحرص قوم على رواة أخبار الحسن والحسين، وكانت جميع تلك الأخبار مصبوبة في قوالب هي الغاية في الفصاحة والبلاغة والبيان
ولو جاز لي أن أستعين هذا الأسلوب من المنطق لقلت أن اللغة العربية لم تنهزم في البلاد الفارسية والتركية إلا بسبب انعدام الخلافات المذهبية في تلك البلاد، فالفرس انحازوا إلى جانب، والترك انحازوا إلى جانب، وبهذا السلام خلوا إلى أنفسهم هنا وهناك فحلت النزاعات القومية محل النزاعات المذهبية، واستغنى أولئك وهؤلاء عن الاستنصار بلغة القرآن
فمن كان غلب عنه أن الخلاف نعمة من نعم الله فليذكر هذه الحقيقة ليعرف أن الله قد يبتلي بالخلاف عباده الأصفياء
عاشت لغة العرب في العراق أجيالاً طوالاً بإسناد مذهبية، فمتى فكر العراق في أن يجعل لغة العرب لغة رسمية بعد انقضاء عهود الخلفاء؟
العراق الحديث
هنا يتسع المجال لبيان الأسباب التي أنهضت العراق العربي في عهده الحديث، فمتى انبثقت شرارة العروبة في العراق؟
ثبت عندي بعد مطالعات كثيرة أن الأدب العراقي كان انطوى على نفسه في عهود الظلمات فلم يكن إلا مطارحات شعرية أو مراسلات نثرية لا تصور صراع العواطف ولا صيال العقول، بغض النظر عن الشجار الذي لم ينقطع بين المذاهب والآراء
فمتى خرج الأدباء العراقيون من صوامعهم ليحدثوا الجمهور عن المطامح السياسية والقومية؟
كان ذلك يوم صار العراق مبعوثون في استنبول، فهنالك وجدوا أخواناً ثائرين على الدولة (العلية) من رجال مصر واليمن والحجاز والشام ولبنان، ومن أولئك وهؤلاء تكونت جماعات أدبية وسياسية تنتصف للعرب من الأتراك، وتطالب بأن يكون للعرب وجود أدبي وسياسي يسترد الحقوق التي أضاعها الزمان
ولهذه النزعة جذور دخيلة سجلتها بصراحة في كتاب (ليلى المريضة في العراق)

ونشرت من أخبارها أشياء فيما تحدثت به إلى قرائي في مجلة الرسالة، ولكن المصير الواحد وإن اختلفت الأسباب، وذلك المصير هو الإيمان الراسخ بأن العروبة فكرة سليمة قد تؤتى أطيب الثمرات إذا تعهدها الوطنيون المخلصون بالرعاية والتشجيع

إذا عرفنا هذا صح لنا القول بأن النهضة الأدبية الحديثة في العراق نشأت مع ثورة الأمم العربية على الدولة التركية، وهي ثورة كانت لها بواعث كثيرة أهمها تطلع تلك الأمم إلى التمتع بنعمة الاستقلال

ومن الواضح أن اللغة العربية كانت أداة التعبير عن تلك الثورة بالتصريح أو التلميح فظهرت مقالات وقصائد ومطبوعات أثارت ما أثارت من نوازع الحمية العربية، وانطلقت الألسنة والأقلام بأدب جديد هو الأدب السياسي، وأريد به الأدب الذي لا يقف عند شرح العواطف الذاتية، ونما يتسامى إلى شرح ما يعاني المجتمع من أزمات قومية كما يصنع الأدب الاجتماعي

تلك الفترة من حياة العراق الثائر على حكم الأتراك هي التي فتحت عيون أدبائه على فنون الأدب الحديث في الديار المصرية والسورية، وهي التي أوحت إليه أن يجعل العروبة عماد سياسته القومية في أكثر الشئون.

ثم ماذا؟ ثم نجا العراق من الاحتلال التركي ليواجه مصاعب خلقها مصاعب الاحتلال الإنجليزي، فماذا صنع وقد استبدل احتلالاً باحتلال؟

كانت شخصيته قد استَحْصَدتْ وقويت، ومازالت تستحصد وتقوى حتى صارت أعز من أن يطمع فيها طامع يعتمد على القوة أو يتوسل باللين، وما هي إلا أعوام قصار حتى شرع العراق ينشر العلوم والمعارف باللغة العربية بعد أن ظلت الفارسية ثم التركية لغة التعليم بتلك البلاد في آماد لا تعد بالأعوام وإنما تعد بالقرون، وبفضل هذه الفتوة رجعت السيادة للغة العرب في بلاد كان لها في خدمة هذه اللغة تاريخ مجيد

وبجانب هذا الفضل في جعل اللغة العربية لغة التدريس في جميع العلوم كان فضل آخر هو الحرص على إحياء الأمجاد العربية والإسلامية، فأكثر الشوارع وأكثر المنشآت لها أسماء عربية وإسلامية، وأغرم الناس هنالك بمقاومة الألفاظ الأجنبية، لتصبح لغتهم جديرة بالمطمح الذي يتسامون إليه وهو إحياء عهد الرشيد

يضاف إلى هذا وذاك حرص العراق على الاتصال بجميع الأمم العربية، أو الأمة لعربية - كما يعبر الأستاذ أبو خلدون - ولذلك الاتصال ألوان مختلفات، فهو يتابع جميع الحركات السياسية في البلاد العربية، ويتابع ما يجد فيها من تطور الآداب والفنون، ويسره أن يقال إن له فاعلية في إحياء التمدن العربي الحديث

وخلاصة القول أن بداية النهضة الأدبية في العراق تؤرخ بثورة العراقيين على الحكم التركي، ثم تؤرخ بجعل اللغة العربية لغة التدريس في عهد الاستقلال

الأدب المجهول

وهنا نقف وقفة قصيرة نشير بها إلى لون من الأدب العراقي تصح تسميته بالأدب المجهول، وهو الأدب الشعبي، الأدب الذي لم يدون، ولن يدون بعد أن صارت اللغة الفصيحة هي الغاية التي يسعى لتأييدها جميع أدباء العراق

فذلك الأدب الذي يتناقله الناس هناك من بلد إلى بلد قد صور طوائف كثيرة من أحلام القلوب، وأوهام العقول، وهو الشاهد على أن العقل العراقي لم يذق طعم الغفوة برغم ما مر بالعراق من أحداث وخطوب تعصف بمنابت الأهواء والآراء

روافد الأدب العراقي

يقال أن الأدب المصري الحديث قد انتفع من اتصال أدباء مصر بالآداب الأوربية، وهو قول حق، فمصر قد نقلت عن أوربا أكثر ما صدر عن أدبائها ومفكريها من المذاهب العقلية والاجتماعية، وقد تكون مصر أول أمة عربية عنيت عناية جدية بنقل آراء أهل الغرب إلى أهل الشرق، ولعلها أول أمة زودت الغرب بعلوم الشرق في أزمان الحروب الصليبية

فما هي الروافد التي أمدت الأدب العراقي الحديث؟

أنا أرجح أن الأدب الحديث في العراق قد انتفع بثلاثة ينابيع: أولها الأدب الفارسي وثانيها الأدب التركي وثالثها الأدب المصري (مع الاحتفاظ بفضل الأدب العربي القديم)

ولكن كيف وصلت إليه بتلك الينابيع؟

الجواب حاضر، فاتصال العراقيين بالأدب الفارسي معروف، ولا يزال بين أدبائهم رجال

يسايرون الآداب الفارسية ويتأثرون ما بها من أخيلة وتعابير، وقد يكون فيهم من ينظم الشعر باللغة الفارسية كما صنع الزهاوي يوم ذهب إلى إيران للاشتراك في إحياء ذكرى الفردوسي، وقد يكون فيهم من يؤلف بالفارسية كما يصنع السيد هبة الدين الشهرستاني

واتصال العراقيين بالأدب التركي لا يحتاج إلى بيان، فقد كان جمهور أدبائهم على صلة وثيقة بالتيارات الأدبية في البلاد التركية، وأكثر رجالهم الكبار تلقوا دروسهم العالية في استامبول

أما اتصال العراقيين بالأدب المصري فهو أقوى من اتصال المصريين بالأدب المصري، وهذا كلام يستغربه من تغيب عنه الموازنة بين القراء في مصر والقراء في العراق، فالقراء في مصر لا يعنون بالصحافة الأدبية كما يعنون بالصحافة السياسية، ومن أجل ذلك تفوتهم أشياء وأشياء من النتاج الأدبي. ولا كذلك القراء في العراق فهم يسايرون الصحافة الأدبية في مصر مسايرة جدية، ويعرفون من أخبار الأدب في مصر أضعاف ما يعرف القراء المصريون

فما السبب؟ أيكون شبان مصر أقل ذكاء من شبان العراق؟

لا، وإنما يرجع السبب إلى قوة الصحافة السياسية في بلادنا وضعف الصحافة السياسية في بلادهم، فشبابنا يجدون من أخبار السياسة ما يلهيهم عن الأدب الصرف ويحولهم إلى جنود سياسيين، وشبان العراق لا يجدون من أخبار السياسة ما يلهيهم عن الأدب الصرف، ولهذا يقبلون على الصحافة الأدبية إقبالاً يستوجب الثناء

ونصل بهذه المحاولة إلى النص على أن أدباء العراق لهذا العهد ينقسمون إلى جيلين مختلفين بعض الاختلاف: الجيل الوثيق الاتصال بالآداب الفارسية والتركية، والجيل الذي يأخذ أكبر مادة لغذائه العقلي والروحي من الآداب العربية المصرية، والتفريق أو التمييز بين آثار هذين الجيلين لا يحوج الباحث إلى عناء

ولن يمضي زمن قليل حتى يكون من الصعب أن نجد اختلافاً جوهرياً بين أساليب الكتاب والشعراء في مصر والعراق، ويومئذ نضمن اتحاد المشاعر والعواطف والقلوب بصورة لا يبقى معها مجال لدسائس الطامعين في تمزيق الوحدة العربية، وهم أقوام يدخلون من أبواب لا تهتدي إليها الشياطين!

خصائص الأدب العراقي

لكل بلد خصائص ذاتية ترجع إلى طبائع الحياة المحلية. واختلاف الخصائص هو المميز الأعظم لثروة الأدب العربي، وقد تختلف الخصائص في القطر الواحد، كالذي نجد من الفرق بين اتجاهات الأدباء في القاهرة والإسكندرية، أو الفرق بين اتجاهات الأدباء في دمشق وبيروت، أو الفرق بين اتجاهات الأدباء في النجف وبغداد، فمن السهل إذاً أن نعرف أن للأدب العراقي خصائص لا توجد في الأدب المصري، أو توجد فيهما ولكن لا على السواء، وهل انفق الجوهر الذوقي في الرائيات الثلاث: رائية أبي نؤاس ورائية ابن دراج ورائية البارودي؛ وهي قصائد موزعة الذوق الفني بين مصر والأندلس والعراق؟

لا جدال في أن لكل بلد خصائص، فما خصائص الأدب العراقي؟

نقيد (أولاً) أن العراق يميل إلى التحرر من التزام القافية والتزام الوزن في القصيد الواحد، وتلك رجعة إلى نظام الموشحات، ولكنها من حيث الصورة تخالف نظام الموشحات، وأشهر شعراء العراق في الميل إلى هذا التحرر هو الزهاوي. وقد يكون فيهم من انساق مع تيار الموشحات في أغلب ما نظم من القصائد، وأشهر هؤلاء هو الحبوبي

وهذه النزعة وجدت في مصر، ولكن بأخف مما وجدت في العراق، وقد ظهرت ظهوراً قوياً بين الشعراء السوريين واللبنانيين الذين أقاموا دولة للأدب العربي في أمريكا الجنوبية

ونقيد (ثانياً) أن الأدب العراقي يمتاز بالإكثار من الحديث عن الأمم العربية، فلمصر وفلسطين والشام ولبنان صور كثيرة جداً في أشعار العراقيين، ويرجع ذلك إلى هيامهم بزيارة البلاد العربية والى تعرف أكثرهم بمصر عن طريق القراءة أو طريق الدرس، فكثير من أدباء العراق عاشوا في مصر وتزودوا من معاهدها العلمية. وكثير

منهم زاروا مصر وعرفوا من أخبارها الصحيحة ما زادهم بها فتوناً إلى فتون، وقد يصفها أحدهم من قبل أن يراها كما صنع الأستاذ شاكر الجودي
وقد اهتم الأدب المصري بوصف البلاد العربية ولكن بأقل مما اهتم الأدب العراقي، وإن كانت قصائد شوقي في وصف مرابع سورية ولبنان سارت مسير الأمثال
ونقيد (ثالثاً) أن الإخوانيات لا تزال مرموقة المكان عند أدباء العراق؛ فهم يتراسلون بالرسائل والقصائد على نحو ما كان يتراسل أسلافهم القدماء
وقد انقرض هذا النوع من الأدب المصري أو كاد، فما عدنا نسمع برسالة كرسالة حفني ناصف إلى توفيق البكري، أو قصيدة كقصيدة المازني في مداعبة العقاد
ونقيد (رابعاً) أن الهجاء لا يزال من الفنون الأدبية في العراق، وإن كان لا ينشر في الجرائد ولا يسجل في المطبوعات؛ وهذا الفن لم يبق له في مصر مجال، وإن كان تهاجي الصحف الحزبية في مصر قد وصل إلى أبعد الآفاق في الغمز والتجريح!
ونقيد (خامساً) أن أشعار المجون لها بقايا في العراق، وهي أشعار تغلب عليها لطافة الدعابة وخفة الروح، وهذا الفن قد انعدم في مصر بموت (الحاج) محمود الهراوي؛ وإنما قلت (الحاج) لأمطر قبره بفكاهة ينتعش بها ثراه، فقد نظم الهراوي قصائد مجونية تفوق مجونيات أبي نؤاس، إن جاز القول بأن الدنيا عرفت ماجناً يفوق أبا نؤاس، إلا أن يكون الماجن هو الهراوي، وكان رحمة الله غاية في التقى والعفاف، ولم ينظم أشعار المجون إلا حباً في تزويد الأدب بمختلف الألوان
ثم نقيد أن للأدب العراقي خصيصة تفوق تلك الخصائص وهي إمعانه في الصدق، فهو صورة لما يعاني العراق من خطوب وما يطمح إليه من آمال، ولو عصر الروح العراقي كما يعصر الورد لكان عصيره دموعاً تشتهيها الحمامة الموصلية يوم فراق الأليف
أما بعد، فهذا تمهيد للكلام عن الأدب العراقي، وهو تمهيد أردنا به تحديد المرحلة التي قطعها العراق ليصل إلى ما وصل إليه من إعزاز اللغة العربية، وأردنا به النص على روافد الأدب وخصائص الأدب في ذلك القطر الشقيق
ومن المحتمل أن يكون في الأحكام التي سقناها في هذا التمهيد ظل من الخطأ الطفيف، ولكنها في الجملة تستند إلى قواعد سليمة من آفات الميل والانحراف. فما الذي سنصنع بعد هذا التمهيد؟
سنتحدث عن الأدب الحديث في العراق بالتفصيل، وبأسلوب يقربه إلى أذهان القراء كل
التقريب، وسنرى ويرى معنا قراء الرسالة في مختلف البلاد العربية أن البلاد التي أنجبت المتنبي والرضي خليقة بأن تؤيد ماضيها الجميل بحاضر جميل
وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت، واليه أنيب
زكي مبارك
في العقد - 5
لأستاذ جليل
35 - (ص 221) . . .وأنا أنظر متى يرميني بسهم يَقصِد به قلبي . . .
قلت: ضبطت يقصد بفتح الياء وكسر الصاد وإنما هي يُقصد
في الأساس: رماه فأقصد وتقصده: قتله مكانه. قال أبو حية النميري:
رمين فأقصدنَ القلوب ولم تجد ... دماً مائراً إلا جوى في الحيازم!
وروت النهاية لحميد بن ثور:
أصبح قلبي من سليمى مُقصدا ... إن خطأ منها وإن تعمُّدا!
36 - (ص 309) إبراهيم بن المهدي قال: قال لي جعفر ابن يحيى يوماً إني استأذنت أمير المؤمنين في الحجامة وأردت أن أخلو وأفر من أشغال الناس وأتروح، فهل أنت مساعدي؟ قلت: جعلني الله فداك، أنا أسعد الناس بمساعدتك، وآنس بمخالاتك . . .
قلت: إن قصد بـ (أتروح) التروح بنفسه بالمروحة - وما أظن ذلك - فاللفظة في مكانها وإلا فهي (أتوحد) كما جاء في الشرح في (العقد) أو أستوحد، أي أنفرد، أو أستريح وقوله (بمخالاتك) فيه تحريف، قد يكون أصله بمخالتك أو مخادنتك (أي صحبتك) أو خلوتك أو إخلائك، يعني خلوته وإخلاءه به أو إليه أو معه. و (آنس) هي آنسهم ومن معاني (المخالاة) في اللغة: الترك. المتاركة. المخالفة. المبارزة. المصارعة. قال: (ولا يدري الشقي بمن يخالي). قال الأزهري: كأنه إذا صارعه خلا به فلم يستعن واحد

منهما بأحد. وكل منهما يخلو بصاحبه. وهذا التفسير المتوهم لا ينعش اللفظة المحرفة
37 - (ص 123) ونظير هذا قول قطري بن الفجاءة:
وقولي كلما جشأت لنفسي ... من الأبطال ويحك لا تراعي
فإنك لو سألت بقاء يوم ... على الأجل الذي لك لم تطاعي
قلت: رواية البيت الأول هي هذه:
أقول لها وقد طارت شعاعاً ... من الأبطال ويحك لن تراعي
وهو مطلع مقطوعة رواها أبو تمام في حماسته وابن خلكان في الوفيات. وجاء فيهما بعد ذينك البيتين:
فصبراً في مجال الموت صبراً ... فما نيل الخلود بمستطاع
ولا ثوب البقاء بثوب عز ... فيطوى عن أخي الخنع اليراع
سبيل الموت غاية كل حي ... فداعيه لأهل الأرض داعي
ومن لا يعتبط يسأم ويهرم ... وتسلمه المنون إلى انقطاع
وما للمرء خير في حياة ... إذا ما عد من سقط المتاع
قال ابن خلكان: هذه الأبيات تشجع أجبن خلق الله، وما أعرف في هذا الباب مثلها، وما صدرت إلا عن نفس أبية، وشهامة عربية!
ومن قول قطري:
ألا أيها الباغي البراز تقرين ... أساقك بالموت الذعاف المقشَّبا
فما في تساقي الموت في الحرب سبة ... على شاربيه فاسقني منه واشربا
38 - (ص 190)
أو أبلق ملأ العيون إذا بدا ... من كل لون معجب - بنَموذج
قلت: البيت للبحتري في قصيدة في الخيل. والرواية في الديوان وشفاء الغليل والتاج هي: أو أبلق (يلقي) العيون. . . ويلقى في هذا المقام أدق من (ملأ) وأكثر بحترية. . .
39 - (ص 187)
إمليسة إمليدة لو علقت ... في صهوتيه العين لم تتعلق
وجاء في الشرح: إمليسة إمليدة: أملس أملد، أي لين ناعم. والذي وجدناه في كتب اللغة أن الأمليسة: الصحراء التي لا شئ فيها من نبات ونحوه، فاستعاره الشاعر هنا للفرس
قلت: روى البيت في العقد في قصيدة لحبيب يصف فرساً. وأغلب الظن أن القول هو أمليسه أمليده. والهاء في اللفظتين ضمير يعود إلى (الأديم) في بيت جاء في الديوان المطبوع بعد هذا البيت:
صافى الأديم كأنما ألبسته ... من سندس برداً ومن إستبرق
والأمليد والأملود الناعم، وإمليس أفعيل من الملامسة، النعومة
40 - (ص 177) وقيل لرجل جبان في بعض الوقائع: تقدم. فأنشأ يقول:
وقالوا تقدم قلت لست بفاعل ... أخاف على فخارتي أن تَحطَّما
فلو كان ليَ رأسان أتلفت واحداً ... ولكنه رأس إذا راح أعقما
قلت: زاد الناسخون الواو في أول البيت وصاحبه لم يجلبه وفي البيت خرم، وهو في شعرهم كثير، والحركة في (لي) تطبيع
41 - (ص 42) وقال ابن قتيبة: لم يقل في الهيبة مع التواضع بيت أبدع من قول الشاعر في بعض خلفاء بني أمية:
يغِضي حياء ويغَضي من مهابته ... فما يُكلم إلا حين يبتسم
وجاء في الشرح: الشاعر هو الفرزدق
قلت: الذي قاله ابن قتيبة في (الشعر والشعراء) هو هذا: (تدبرت الشعر فوجدته أربعة أضرب: ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه كقول القائل:
في كفه خيزران ريحها عبق ... من كف أروع في عرنينه شمم
يغضي. . . البيت. لم يقل أحد في االهيبة أحسن منه)
والبيت للحزين الليثي (عمرو بن عبد وهيب) في أبيات قالها في عبد الله بن عبد الملك (ووفد إلى مصر وهو واليها) كما جاء في معجم الشعراء للمرزباني، وقد نسب البيت في كتب كثيرة إلى الفرزدق خطأ، وربه أولى به، وفي الرسالة 316 ص1450 بحث في هذه النسبة وأبيات الحزين

42 - (ص 144) . . .أي المكائد فيها أحزم. قلت: هي المكائد مثل المخايل؛ وهمز
قراء معايش على التشبيه بصحائف مخطأ. وقد وردت اللفظة في الشرح وفي
الصفحة 243 مضبوطة
43 - (ص 80)
لو عُدّ وقوم كنت أقربهم ... قربى وأبعدهم من منزل الذام
قلت: البيت في مقطوعة منسوبة إلى هشام الرقاشي، وقد ذكرت في الشرح روايات
مختلفة لها، ورواية الحماسة والخزانة التي لم يشر إليها قد تكون أصحها، وهي هذه
أبلغ أبا مسمع عني مغلغلة ... وفي العتاب حياة بين أقوام
أدخلت قبليَ قوماً لم يكن لهم ... في الحق أن يدخلوا الأبواب قدامى
لو عُد قبر وقبر كنت أكرمهم ... ميتاً وأبعدهم عن منزل الذام
فقد جعلت إذا ما حاجتي نزلت ... بباب دارك أدلوها بأقوام
44 - (ص 354) ومنهم (أي من الأجواد) يزيد بن حاتم. كتب إليه رجل من العلماء
يستوصله، فبعث إليه ثلاثين ألف درهم. وكتب إليه: أما بعد فقد بعثت إليك بثلاثين ألفاً
لا أكثرها امتناناً، ولا أقللها تجبراً، ولا أستثيبك عليها ثناء، ولا أقطع لم بها رجاء. والسلام
قلت: فبعث إليه بثلاثين ألف درهم، كما جاء بعد ذلك، والتعدية بالباء هنا أسلم،
ولقولهم بعثة وبعث به قصة طويلة أنقل بعض ما قيل فيها:
. . .في اللسان: بعثه أرسله وحده، وبعث به أرسله مع غيره
في دره الغواص في أوهام الخواص: ويقولون بعثت إليه بغلام وأرسلت إليه هدية،
فيخطئون فيهما لأن العرب تقول فيما يتصرف بنفسه بعثته وأرسلته، كما قال تعالى:
(لقد أرسلنا رسلنا)، وتقول فيما يحمل بعثت به وأرسلت به، كما قال سبحانه إخباراً
عن بلقيس: (وإني مرسلة إليهم بهدية)
في شرح الدرة للخفاجي: قال ابن بري: بعثت يقتضي مبعوثاً متصرفاً كان أو لا، تقول:
بعثت زيداً بغلام وبكتاب، فلهذا لزمته الباء، وكذا أرسلت يقتضي مرسلاً ومرسلاً به
. . .منصرفاً كان أو غير متصرف
في المصباح: كل شئ ينبعث بنفسه، فإن الفعل يتعدى إليه بنفسه، وكل شئ لا ينبعث
بنفسه كالكتاب والهدية، فإن الفعل يتعدى إليه بالباء فيقال بعثت به. وأوجز الفارابي
. . .فقال: بعثه أي أهبه، وبعث به: وجهه
وروى خبر (العقد) في (الأمالي) وفيه (روح بن حاتم) مكان (يزيد بن حاتم) و (لا أقللها
تكبراً) مكان (لا أقللها تجبراً) و (تمنناً) مكان (امتنانا)
ونقل البغدادي في (الخزانة) هذا الخبر من بن عبد ربه، أي من (العقد)، وفيها (لا
أقللها تحقيراً)
وقد حوت خزانة كتب البغدادي نسخة من (العقد)؛ وقد تكون هي الصحيحة
المضبوطة. فأين هذه النسخة وأين سائر كتب الرجل التي سماها في مقدمة مصنفه
وهي - كما قال -:
؛ وقد (اجتمع عنده (المواد التي اعتمدنا عليها، وانتقينا منها، وهي ضروب وأجناس)
بفضل الله من الأسفار، ما لم يجتمع عند أحد في هذه الإعصار)
وقد كان البغدادي في القاهرة، وفيها خزانة كتبه العجيبة المدهشة، والعهد قريب. قال
آخر مؤلفه: (وكان ابتداء التأليف بمصر المحروسة في غرة شعبان من سنة ثلاث
وسبعين وألف. وانتهاؤه في ليلة الثلاثاء الثاني والعشرين من جمادي الآخرة من سنة
تسع وسبعين. فتكون مدة التأليف ست سنين مع ما تخلل في أثنائها من العطلة
بالرحلة. فإني لما وصلت إلى شرح الشاهد (69) بعد (600) سافرت إلى قسطنطينية
في الثامن عشر من ذي القعدة من سنة سبع وسبعين، ولم يتفق لي أشرح شيئاً إلى
أن دخلت مصر المحروسة في اليوم السابع من ربيع الأول ثم شرعت في ربيع الآخر
وقد يسر الله التمام وحسن الختام. . .)
ومن الكنوز التي ذكرها في المقدمة: (الكامل للمبرد وشرحه لابن السيد البطليوسي،
ولأبي الوليد الوقشي، ولغيرهما. . .)
فأين هذه الشروح؟! أين هذه الشروح؟! هل عثر عليها أحد؟! هل اطلع على أحدها
أحد. . .؟!

هل يكفي التراث الشرقي لنضج الحياة العقلية عند الشرقيين؟

للأستاذ عبد الرحمن الرافعي بك

التراث الشرقي في العلوم والآداب والفنون هو ولا شك تراث مجيد، ولكنه مع ذلك لا يكفي لنضج الحياة العقلية الحديثة عند الشرقيين؛ بل يجب لكي يصل هذا النضج إلى مداه من التقدم أن يجمع إلى التراث الشرقي خير ما أنتجته وتنتجه القرائح والعقل البشري في الغرب. ولا غضاضة علينا في ذلك، فإن الأمم الأوربية نفسها وهي التي تم نضج الحياة العقلية فيها، لا تفتأ كل منها تقتبس عن آية أمة أخرى في الغرب أو الشرق ما يظهر فيها من مستحدثات التجارب والاكتشافات والمذاهب العلمية. ولذلك قالوا: إن العلم لا وطن له، وإن كان العالم له وطنه كما قال (باستور)

إن التراث الشرقي في ذاته لم يقف عند مستوى واحد، ولم يقتصر على طابع واحد، بل كان ينمو ويتطور على مدى العصور. وفي خلال هذا التطور قد اقتبس عن التراث الغربي القديم، وكان ذلك من عناصر نموه وارتقائه

فالآداب والعلوم والحياة العقلية في عصر الجاهلية تختلف طبعاً عما صارت إليه في الإسلام على عهد الخلفاء الراشدين، ثم في عصر الأمويين والعباسيين؛ وإنتاج القرائح العقول في هاتيك العصور قد نما وتطور تبعاً لسنة التقدم الإنساني، بحيث أن التراث الشرقي يحتوي على أدوار متعاقبة، لكل دور طابعه وخصائصه. ولست أريد التوسع في بيان ذلك لكي لا تخرج عن جوهر الموضوع، واكتفى بالإشارة إلى أن الحياة العقلية والأدبية في عصر العباسيين قد نمت وازدهرت واتسعت آفاقها عما كانت عليه في عهد الأمويين. وكان من مظاهر هذا الازدهار ظهور العلوم الدخيلة أي المقتبسة عما وضعه رجال العلم والفلسفة والأدب في الحضارات القديمة: كالمصريين والفرس واليونانيين والرومان. فإذا قلنا: إن علوم المصريين القدماء والفرس تعد من التراث الشرقي، فإن علوم الإغريق والرومان وآدابهم هي من التراث الغربي القديم نقل إذن علماء العصر العباسي علوم اليونانيين إلى اللغة العربية، فترجموا الفلسفة والأدب والمنطق عن أفلاطون وأرسطو، والطب عن أبقراط وجالنيوس، والرياضيات والفلك عن

أقليدس وأرخميدس، وغير ذلك كثير، فكان لهذا الاقتباس أثره في نضج العلوم والأفكار واتساع محيط الحياة العقلية عند الشرقيين. ولاشك أن العصر العباسي في التراث الشرقي يعد العصر الذهبي من الناحية العلمية والأدبية والفلسفية. وقد ظهر طابع هذا العصر في الشعر والأدب والعلم والفلسفة، وفي تعدد العلوم وظهور علوم جديدة، كالطب والكيمياء والصيدلة والجغرافيا والموسيقى والفنون الجميلة. فهذا الطابع يدلنا على أن ازدهار الحياة العقلية في التراث الشرقي في ذاته كان مقترناً بالاقتباس عن الحضارات الأخرى

انتهى هذا العصر الذهبي بسقوط الدولة العباسية، أو بعبارة أخرى بسقوط بغداد في يد التتار سنة 656 للهجرة (1258م) وجاء العصر المغولي، ثم العصر العثماني، وفيهما أصاب التراث الشرقي الركود ثم الجمود، وتبع ذلك وقوف حركة التقدم. نعم إن قرائح العلماء والأدباء في الشرق قد استمرت في الإنتاج إلى ابتداء العهد العثماني، ولكن مما لا شك فيه أنه منذ الفتح العثماني لمصر سنة 1517 قد وقفت حركة التقدم تماماً، فكسدت العلوم، وانحط الأدب، وجمدت القرائح، وتراجعت العقول، وانقضت نحو ثلاثة قرون والشرق في تأخر من الناحية العلمية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية؛ بينما الغرب قد أخذ بأسباب الحياة والنهوض فسبق الشرق عدة قرون في النضج العقلي. فبديهي أنه عندما ابتدأ الشرق يستفيق من سباته العميق في نهاية القرن الثامن عشر كان لابد أن يقتبس من الغرب ما سبقه إليه في خلال القرون المتعاقبة؛ لأن العلوم والآداب والاكتشافات والاختراعات قد ضاعفت تراث الغرب بحيث لا يستطيع الشرق أن يأخذ قسطه من الحياة العقلية إلا إذا اقتبس عنه خير ما أنتجته قرائح علمائه وفلاسفته وأدبائه في خلال هذه الحقبة الطويلة من الزمن. فمثل الشرق في ذلك كمثل التلميذ الذي يقعده المرض أو الكسل عن متابعة الدرس والتحصيل زمناً ما، فإذا عاد إلى الدرس كان مضطراً إلى أن يأخذ عن أساتذته أو عن مؤلفاتهم ومذكراتهم ما فاته في مدة المرض أو الكسل لكي يصل إلى مستوى أقرانه

في المدرسة
ولم يتردد الغرب حين بدأ عهده بالبعث والنهوض في أن يقتبس عن التراث الشرقي حضارته وعلومه؛ فقد نقل علماؤه فلسفة ابن رشد ودرسوها واقتبسوا منها، وكانت ينبوعاً لليقظة العلمية في الغرب
واقتبسوا أيضاً في عهد الحروب الصليبية العلوم والحضارة الشرقية وحملوها إلى بلادهم وأفادوا منها، وكانت من العوامل الجوهرية في نهضة أوربا
فمن الواجب إذن على الأمم الشرقية إلى جانب إحياء التراث الشرقي القديم أن تقتبس عن الغرب تراثه الجديد، وتأخذ عنه محاسنه ومزاياه. ولو أن حركة التقدم قد تابعت سيرها في الشرق ولم يقفها ذلك التأخر الذي أصابه خلال قرون عديدة لزاد من غير شك تراثه في العلوم والآداب، ولما سبقه الغرب في هذا المضمار. أما وقد بعد عهده بازدهار الحياة العقلية فعليه إذا أراد بعث هذه الحياة أن يقتبس عن الغرب علومه الحديثة. وهذا على وجه التحقيق ما اتجهت إليه حركة النهضة العلمية والعقلية في مصر منذ بداية القرن التاسع عشر، عندما ولى أمرها محمد علي الكبير. فهو إذ أراد أن يبعث الحياة العلمية والعقلية في مصر لم يقتصر على إحياء التراث الشرقي القديم بل نقلها إليها إلى جانب ذلك علوم الغرب وآدابه. وأوفد لذلك البعثات العلمية إلى أوربا فتلقى أعضاؤها العلوم والفنون والآداب في جامعات فرنسا وغيرها وعادوا إلى مصر وقد اكتملت ثقافتهم فنقلوا إلى اللغة العربية كتب الطب والطبيعيات والرياضيات والفنون الحربية والآداب والحقوق والعلوم الاقتصادية والاجتماعية. فهؤلاء العلماء الذين استوفوا قسطهم من التراث الغربي هم الذين على يدهم بعث التراث الشرقي القديم في ثوب قشيب، فعادت إليه الحياة. ولو انهم اقتصروا على هذا التراث وحده لما كان في استطاعتهم بعثه واستظهار مفاخره ومزاياه. فعلى ضوء العلوم الأوربية والثقافة الأوربية قد تكشفت لهم حقائق التراث الشرقي وفهموها حق الفهم، وربطوا بينها وبين عوامل التقدم الحديث بحيث تابعوا هذه العوامل فنهضوا بهذا التراث وجعلوه ملائماً لمقتضيات العصر الحاضر
هناك وجهات نظر ثلاث لا تزال النهضة العلمية والعقلية في الشق مترددة حائرة بينها: إحداها ترمي إلى الاقتصار على التراث الشرقي القديم وإحيائه، وقصر الحياة العقلية على حدوده، ومقتضياته؛ وهذه الوجهة لا تكفي فيما أعتقد لاستكمال أسباب النهضة والحياة في العصر الحديث. والثانية إطراح التراث الشرقي جانباً وقطع صلاتنا بالماضي واقتباس الحضارة الأوربية والعقلية الأوربية كما هي بما لها وما عليها، بمزاياها وعيوبها. وهذه أيضاً وجهة نظر خاطئة تنتهي بنا إلى اقتباس العيوب دون المزايا، وتؤدي إلى نوع من
التبعية العقلية والثقافية لأوربا تتطور مع الزمن إلى تبعية سياسية وقومية. والوجهة الثالثة هي إحياء التراث الشرقي مع اقتباس خير ما أنتجه وينتجه التراث الغربي من الناحية العلمية والأدبية؛ وهي في اعتقادي الطريقة الوسط التي تكفل لنا نهضة صحيحة في الحياة العقلية والفكرية
إني أجد في تاريخ الأستاذ الإمام لشيخ محمد عبده ما يؤيد وجهة نظري؛ فهو الإمام الديني العظيم، ومع ذلك قد اقتبس في علمه وتفكيره عن العلوم والفلسفة الأوربية، وطالع الكثير من كتب العلماء والمستشرقين والفلاسفة الأوربيين. وكان يتابع دائماً حركة التقدم العلمي في أوربا ويخالط العلماء الغربيين ويحادثهم ويأخذ عنهم خير ما أنتجوا. ولقد كان لذلك أثر كبير في اتساع مداركه وتفكيره، بل في قدرته على الدفاع عن الإسلام وتخليصه من الشوائب التي علقت به في عصور الركود والجمود، وتفهم المسلمين وغير المسلمين حقائقه السليمة. ولا اعتقد أنه كان يصل إلى هذه المنزلة لو اقتصر في علمه وإدراكه على مدارك التراث الشرقي. ولا اعتقد أن معاصريه من العلماء الذين اقصروا على التراث الشرقي قد وصلوا إلى مثل هذه المنزلة أو خدموا الإسلام مثلما خدمه الأستاذ الإمام
فحينما حمل (هانوتو) حملاته المشهورة على الإسلام لم تجد من يرد هذه الحملات ويفندها تفنيداً علمياً سديداً مثل الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، وكذلك لا تجدون كتاباً دحض حجيج الطاعنين في الإسلام مثل كتابه (الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) ومن يطالع هذا الكتاب أو يطالع رده على هانوتو يجد مبلغ ما اقتبسه عن

الفلسفة الأوربية والعلم الأوربي والشواهد الأوربية
قد يكون لنبوغ الشيخ محمد عبده دخل فيما بلغه من ألمكانه ألعلميه، ولكن هذا النبوغ ذاته قد وجهه إلى الاقتباس من التراث الأوربي إذ وجده ضرورياً لاكتمال نضجه وثقافته وعلمه وفي الحديث الشريف: (اطلبوا العلم ولو في الصين)
وصفوة القول أن التراث الشرقي يحتوي ولا شك على كنوز من العلم والحكمة والأدب، ولكننا في حاجة أيضاً إلى كنوز التراث الغربي الحديث لكي يتم لنا النضج والكمال في حياتنا العقلية
عبد الرحمن الرافعي
الغناء والموسيقى وحالهما في مصر والغرب
للأستاذ محمد توحيد السلحدار بك
- 3 -
أشتد الاتصال بين مصر والغرب منذ أوائل القرن الماضي بتعدد ضروبه، مع الزمن، وتشعِّب دروبه؛ فنمت نزعة المصريين إلى تقليد الغربيين، شأن المُتخلف المُستضعَف مع التقدم صاحب الشوكة والغلبة السياسية
وخرج العالم من الحرب الكبيرة الماضية ظمآن إلى التشييد والتجديد والتفوق، مبتلى بأنواع من الفساد وصنوف من الادعاء، وأدرك عندنا جيل نبت في أثنائها أو بُعيدها، واتسع أمامه ميدان التقليد في الضلالة والهدى؛ وكثر بيننا سالكو مناهجه ومدعو العلم والفن، والابتكار والعبقرية؛ فُوجد بطبيعة الحال مَن دعا إلى التجديد في الغناء والموسيقى، والى تقليد الغربيين فيهما، وأقبل عليه فريق من المشتغلين بهما قام بعضهم بتقليد طائش وهم يحسبون انهم يحتذون مثال الغرب في فنه؛ وكان الأصوب والأجدى ألا يقلدهم إلاَّ من كان على قدر من المعرفة بفنهم، بماهيته الأصلية وأصوله وأنواعه، مع صحة الفهم لتعابيره، كي يكون في مأمن من تشويه ما في يده بأخلاط لا هي من هذا ولا هي من ذاك، كما صنع أناس لا يعرفون من الغناء والموسيقى جملة، إن عرفوا، سوى المقام وربع المقام وبعض النغمات ومواقعها على المعازف، وسوى أقيسة ما يغنون أو يعزفون من الألحان الشرقية والغربية
تورط هؤلاء في تخليط قديمهم المسيخ بما يسرقون ويحرفون من الألحان والموسيقى الغربية القديمة والحديثة، ومن أصوات (الجاز) وهم يسمون هذا الخليط الغريب من ألحانهم وغنائهم وموسيقاهم فناً وتجديداً، مع أن هذا الجديد موصوم بالعيوب المبينة في هذه الكليمات، ومع ركوده في قرار سحيق يبعد به كل البعد عن مستوى الفن الحقيقي الذي أوضحنا ماهيته الأصلية
فكل لحن من أكثر جديدهم ألف صنف (أو سلطة روسية - على استعارة في العامية الفرنسية للمجموع المشوَّش من الأشياء المختلفة) فقد تجد في هذه السلطة العجيبة عبارة صوتية ممسوخة من أوبرا، تتصل بأخرى من شارلستون، تعانق ثالثة من لحن دور عربي
تنتهي إلى نغم من تنجو أو رُمْبا، يتعليق بذنبه شئ من موسيقى (عشرة بلدي) وما ذلك إلا تنافر صارخ بين دلالات موسيقية على مدلولات تجمع غضبة مستفحلة - مثلاً - إلى خلاعة إلى بكاء إلى إيحاء شهوي، إلى ما لسنا نفهم في الغناء الجديد أو المبتكر، من أصوات يمطُّ ويمدُ فيها حرف أو أحرف مداً قلقاً في مواقعه، شاطاً خالياً من التناسب مضحكا في شذوذه؛ وتسمع منها جلجلات مستنكرة ينبو عنها الطبع، وخلخلات مستغربة غالباً، لوقوعها في مواضع ليست لها بين عويل ونواح طويل
واللحن البدِع في الغناء على ذوق الآن (الموضة: مركب أيضاً، بعضه شرقي وبعضه غربي، يولد مسخاً على سنة هذا المذهب الحديث حتى الأغنية العربية التي يلفقونها على أوزان لحن بأكمله من رمبا مشهورة أو تنجو معروف؛ إذ يدخلون فيه عبارات صوتية من ألحان غربية مباينة له وإذ تتنافر مدلولاته الصوتية ومعاني كلام الأغنية في أذن من يدرك اختلاف المقام المعَّين بالنص العربي، والمقام المعين باللحن خصوصاً إذا كان يعرف كلام الأغنية الغربية التي سُرق منها اللحن، فأبشع بهذا الفن الزائف!
الحق أننا لم نفهم غرض القائلين بأن الموسيقى الغربية أقدر من الشرقية الحاضرة، وبأنه يجب من أجل ذلك أن نحتذي على مثل منشئيها في موسيقانا؛ فلم نفطن لما يجمل بنا أن نقّلد فيه الغربيين، بل اعتززنا بفننا الضالّ، محدود الإحساس والمدى

توهما منا أن موسيقانا أوسع مجالاً وأقدر بربع المقام الذي به نفاخر ونكابر، ومن قلت عرفته زاد اعتقاده المعرفة
كان الأحرى أن نقلد غناء الغرب وموسيقاه من حيث هما إجهار بالدلالات الصوتية في الكلام، أي لغة نغمية تعبر تعبيره عن خواطر القلب وأحاسيس النفس وجلاجلها، لأن تلك الدلالات مصداق القائل:
(إن الكلام لفي الفؤاد وإنما ... جعل اللسان على الفؤاد دليلا)
نعم، كان الأحرى أن نقلد غناء الغرب وموسيقاه من حيث هما يصفان ما يصف الكلام، ويتناولان مثله شتى الموضوعات من نواحي الحياة الإنسانية وظواهر الطبيعة ومظاهرها التي يتأثر منها الإنسان الحي في أحضانها، لأنهما يسايران دلالة اللفظ الصوتية، مفخمين لها بالإنشاء الغنائي وبالإنشاء الموسيقي، ويصفان مواقف المسرحيات التي تمثل الحياة من
الأوجه المختلفة وكان يحسن أن نقلد الغرب فيما ارتقت إليه موسيقاه من التصوير الذي عظم شأنه بالتحسين والابتكار في المعازف
ولقد رأى زوار معرض الموسيقى بمدينة فرانك فور الألمانية سنة 1928 أن معازف الغربيين كانت تشبه معازف الشرقيين، وانهم ظلوا يحسنونها ويستحدثون غيرها حتى أصبحت آلاتهم الموسيقية متقنة، ميسرة للمنشئ الموسيقى أن يزوق سياق اللحن الأصلي بألوان من أصواتها تصاحبه وتنمقه وتؤنقه في تواؤم بينها وموافقة له، فتحجب بهذا التصوير كل وحدة مملة وكل اطراد مسئم. وقد يبلغ عدد العازفين في النوبة الكبرى زهاء مائة
ذلك كله هو الشيء الجوهري الذي يجب أن نعالج تقليد الغربيين فيه عسى أن يشبه فننا فن الأحياء في العبارة عن الشعور السليم والمدارك السامية، وإلا فما فضل ربع المقام الزائد؟ وماذا يفيدنا ونحن نقف جامدين به وبالمقامات والنغمات جميعاً عند موضوع واحد محدود ليس فيه غير المذلة البشعة، والحزن القتال، والشهوة الوضيعة؟ ولماذا نرضى بالجمود وليس في فطرتنا الشرقية شئ يمنعنا من التعبير الفني عن حركات ما أودعنا الخالق وأودع الغربيين على السواء من نفس بشرية واحدة وغرائز وملكات متماثلة؟
يعتذر بعض المغنين والموسيقيين عن عيوب فنهم بذوق الجمهور الذي يرتاح إليه ولا يقبل منه بديلاً. وهم على حق من حيث أنهم من هذا الجمهور وأنه يحتملهم، ومن حيث أن الذوق كالمثل الأعلى: ثمرة تنتجها عناصر عديدة منها الوراثة، والبيئة والتطور.
لكن حق كذلك أن من عوامل التطور تأثير البيئة في الأفراد وتأثيرها منهم، خصوصاً من الشخصيات القوية بينهم؛ فالفنان يؤثر في بيئته وجمهوره وإن تأثر منهما، ومن هنا نصيبه في تهذيب ذوق الجمهور وأعلاه مثله الأعلى بقدر مواهبه وسحر فنه، ومن هنا تبعة الفنون الضالة ومسؤولية أصحابها الخلقية في إفساد الأذواق
وحق أيضاً أن أولئك طلاب منفعة وليسوا بفنانين إلا مجازاً، لأن محب فنه لا يضحيه تملقاً للعامة وللجماهير، بل يقدسه قانعاً من الكسب بما يمسك الرمق. وإن شئت مثلاً لتقديس الفن فانظر كيف أن الموسيقار الفرنسي (بيزيه - منشئ موسيقي كرمن، الرواية المشهورة عند فنانينا منذ ألف الخلعي ألحان أغانيها العربية - لم يستسلم لذوق مواطنيه الفرنسيين، حين
استهجنوا هذه الموسيقى الوصفية التي أبدع فيما صور بها من حياة الإسبانيين، ولم يهمل أسلوبه الفني؛ فلما علا قدره بكرمن في عاصمة النمسويين وطار صيته رجعوا عن خطئهم، وعرفوا فضل نابغتهم.
نحن إن كففنا عن العيش في الظلام، وفتحنا بصائرنا لنور الحق، وسلك الموهوبون منا سبيل الإصلاح، ظهر فينا المغنى الأحوزي والموسيقار العبقري
فإذا أتيح للموسيقى والغناء المصريين أن يظهر من محبيهما فنانون لا تعبأ شخصياتهم القوية بغير فنهم، ويعرفون ما عندنا وعند غيرنا، فانهم يئنون بالجديد السليم الذي يسري في النفوس، ويسوق طوائف المحترفين والهواة والمستمعين إلى الطريق القويم فينصلح الذوق العام شيئا فشيئاً؛ ثم يتصعد مستوى الفن مع انتشار التعليم والثقافة، وارتقاء البيئة والحياة الاجتماعية، فنبلغ الشأو بعد حين. ووجود نقاد يدعون إلى سلوك سبل الإصلاح هو علامة أوانه بل آية أبانه.

ومن لم يصدق ما قرأ في هذه الكليمات فإني أوصيه بأن يطلع على بعض كتب الموسيقى الشرقية، وعلى شئ من تاريخ الموسيقى الغربية ومذاهب أصحابها ونقادها؛ وبان يصغي بانتباه إلى مختارات منها بإرشاد من يفهمها؛ ولعله يستيقن بعد ذلك أن سبيل الإصلاح والترقي في الغناء والموسيقى عندنا هو دراستهما دراسة فنية ثقافية جدية، وتقليد الغرب فيما تقدمت الإشارة إليه؛ وليس شك في أن المعارضين يسلمون بهذا في مستقبل قريب أو بعيد، تسليم أناس كانوا قبل سنين أدبرت ينعون على المستنيرين معالجتهم إنقاذ اللغة والأدب من جمود طالما أرادوهما عليه، ويرمون بما ليس دون الكفر كل من قال بوجوب الإصلاح من شئون الأزهر

محمد توحيد السلحدار

من ليالي كليوبترا

للأستاذ علي محمود طه

،كتبت إلى الشاعر تقول: (قرأت لك عن ليلة النيل والموج)

وهو يروي حلم ليل من ليالي كليوبترة، فهلا وصفت لنا ليلة

(من هذه الليالي؟ وهل لنا بصورة حلم أحلامها؟

(فإلى صاحبة تلك الإثارة الرائعة إهداء هذه القصيدة

كِلْيُوبُتْرَا! أيُّ حُلمٍ مِن لَيالِيكِ الحِسانِ
طَافَ بالموْجِ فَغَنَّى وَتَغَنَّى الشاطِئانِ
وَهَفا كلُّ فُؤَادٍ وَشَدَا كلُّ لِسانِ
هَذِهِ فَاتِنَةُ الدُّنْيَا وَحَسْنَاء الزَّمانِ
بُعِثَتْ في زَوْرَقٍ مُسْتَلْهَمٍ مِنْ كلِّ فَنِّ
مَرِحِ المِجْدَافِ يَخْتَالُ بِحَوْرَاءَ تُغَنِّى
يَا حَبيبي هَذِهِ لَيْلَةُ حُبِّي .. آهِ لوْ شَاركْتَنِي أَفْرَاحَ قلبي!
نْبأةٌ كالكأسِ دَارَتْ بَيْنَ عُشَّاقٍ سُكَارَى
سَبَقَتْ كلَّ جَنَاحٍ في سماءِ النِّيلِ طَارَا
تَحْمِلُ الْفِتْنَةَ وَالْفَرْحَةَ وَالوَجْدَ المُنَارَا
حُلوَة صَافِيَةَ اللَّحْنِ كأَحْلاَمِ الْعَذَارَى
حُلْمُ عَذْرَاءَ دَعَاهَا حُبُّهَا ذَاتَ مَسَاءِ
فَتَغَنَّتْ بِشِرَاعٍ مِنْ خَيَالِ الشُّعَرَاءِ
يَا حَبيبي هَذِهِ لَيْلَةُ حُبِّي ... آهِ لوْ شَاركْتَنِي أَفْرَاحَ قلبي!
وَتَجَلَّى الزَّوْرَقُ الصَّاعِدُ نَشْوَانَ يَمِيدُ
يَتَهَدَّاهُ عَلَى المَوْجِ نَوَاتِيٌّ عَبِيدُ
المَجَادِيفُ بِأيدِيهِمْ هُتَافٌ وَنَشيدُ
وَمُصَلُّونَ لَهُمْ في النَّهْرِ مِحْرَابٌ عَتِيدُ
سَحَرَتْهُمْ رَوْعَةُ اللَّيْلُ فَهُمْ خَلْقٌ جَدِيدُ
كلُّهُمْ رَبٌّ يُغنِيِّ وَإلهٌ يَسْتَعِيدُ
يَا حَبيبي هَذِهِ لَيْلَةُ حُبِّي ... آهِ لوْ شَاركْتَنِي أَفْرَاحَ قلبي!
إِصْدَحِي أَيَّتُهَا الأرْوَاحُ باللَّحْنِ الْبَدِيعِ
وَامْرَحِي يَا رَاقِصَاتِ الضَّوْءِ بالمَوْجِ الْخَلِيعِ
قَبِّلِي تَحْتَ شِرَاعِي حُلُمَ الْفَنِّ الرَّفيعِ
زَوْرَقاً بَيْنَ ضِفَافِ النِّيلِ في لَيْلِ الرَّبيعِ
رَنَّحَتْهُ مَوْجَةٌ تَلْعَبُ في ضَوْءِ النُّجُومِ
وَتُنَادِى بِشُعَاعٍ رَاقِصٍ فَوْقَ الْغُيُومِ
يَا حَبيبي هَذِهِ لَيْلَةُ حُبِّي ... آهِ لوْ شَاركْتَنِي أَفْرَاحَ قلبي!
لَيْلُنَا خَمْرٌ وَأشْوَاقٌ تُغَنِّى حَوْلَنَا
وَشِرَاعٌ سَابحٌ في النُّورِ يَرْعَى ظِلَّنَا
كانَ في اللَّيْلِ سُكَارَى وَأَفَاقُوا قَبْلَنَا
لَيْتَهُمْ قَدْ عَرَفُوا الْحُبَّ فَبَاتُوا مِثْلَنَا
كلّمَا غَرَّدَ كأسٌ شَرِبُوا الْخَمْرَةَ لَحْنَا
يَا حَبيبي كلُّ ما في اللَّيْلِ رُوحٌ يَتَغَنَّى

هَاتَ كأسِي إنَّهَا لَيْلَةُ حُبيِّ ... آه لوْ شاركتَني أفْراَحَ قلبي!
يَا ضِفَافَ النيِّلِ باللهِ وَبَا خُضْرَ الرَّوَابي
هَلْ رَأَيْتنَّ عَلَى النهرِ فَتىً غَضَّ الإهَابِ
أسمَرَ الْجَبهَةِ كالخَمْرَةِ في النُّورِ المُذابِ
سَابحاً في زَوْرَقٍ مِنْ صُنْع أحْلامِ الشَّبَابْ؟
إنْ يَكنْ مَرَّ وَحَياً مِنْ بَعيدٍ أو قرِيبِ
فَصِفِيهِ، وَأعيدِي وَصْفَهُ فَهْوَ حبيبي!
يَا حَبيبي هَذِهِ لَيْلَةُ حُبِّي ... آهِ لوْ شَاركْتَنِي أفْرَاحَ قلبي!
أنْتِ يَا مَنْ عُدْتِ بالذِّكْرَى وَأحْلاَمِ اللَّيَالِي
يَا ابنَةَ النهرِ الذي غَنَّاهُ أرْبَابُ الْخَيَالْ
وَتَمَنَّتْ فِيهِ لْو تَسْبَحُ رَبَّاتُ الْجَمَالِ
مَوْجُهُ الشَّادِي عَشِيقُ النُّورِ مَعْبُودُ الظِّلالِ
لم يَزَلْ يَرْوِي وَتُصْغِي للَرِّوَايَاتِ الدُّهُورُ
والضِّفَافُ الْخُضْرُ سَكْرَى والسَّنَى كأسٌ تَدُورُ
حُلمٌ لمْ تَرْوهِ لَيْلةُ حُبِّ ... فَاذكُرِيه واسَمعِي أفراحَ قلبي!
علي محمود طه
رسالة النقد
الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي
تأليف الدكتور زكي محمد حسن
للدكتور محمد مصطفى
- 2 -
وفي كلام المؤلف في الفصل الذي كتبه عن (التذهيب) يقول في (ص 70) - بدون أن يذكر المرجع - ما يأتي:
(أما زخارف الصفحات المذهبة، فكانت في البداية خليطاً من العناصر الزخرفية الساسانية والبيزنطية والقبطية، فضلاً عن الرسوم المنقولة من كتب اليهود وكتب المسيحيين من أتباع الكنيسة الشرقية)
وأجمل المؤلف في العبارة التالية لهذه كلامه عن بعض هذه الزخارف.
وقد كتب الدكتور ريشارد أتينجهاوزن بحثاً وافياً عن تذهيب المخطوطات في إيران ووصف هذه (العناصر الزخرفية) في صفحتي 1944 و1945 من هذا البحث
ومن الغريب أن نلاحظ أن الدكتور زكي محمد حسن في هذا الفصل الذي كتبه عن (التذهيب) (ص 68 - 73) لم يشر في أية ناحية منه إلى هذا البحث الذي كتبه الدكتور ريشارد أتنيجهاوزن في نفس هذا الموضوع، مع أن هذا البحث يعد أحدث بحث علمي واف عن تذهيب المخطوطات في إيران، فضلاً عن أن جميع البيانات التي كتبها الدكتور زكي عن التذهيب في إيران في عصوره المختلفة بما في ذلك الحواشي الأربع التي وردت في هذا الفصل من كتابه، قد جاءت كلها ضمن ما كتبه الدكتور أتنيجهاوزن في البحث المذكور وما أروده فيه من حواش
فإننا نرى أن ما كتبه الدكتور أتنيجهاوزن في ص1947 مفصلاً عن ميزات المخطوطات المذهبة في العصر السلجوقي، قد أورده الدكتور زكي مجملاً في الفقرة الأخيرة من ص 70، وفي ص 1951 - 1952 تفصيل ما جاء في الفقرة الأولى من ص 71 عن الطريقة الجديدة في الزخرفة والتذهيب في هذا العصر. وفي ص 1559 - 1956 ما جاء في
الفقرة الثانية من ص 71 عن المصحف المحفوظ بدار الكتب المصرية. وفي ص 1960 بما في ذلك الحاشية رقم 1 ما جاء في الفقرة الأولى من ص 72 والحاشية رقم 1 في الصفحة نفسها عن مخطوط الشاهنامة المؤرخ سنة 831هـ. وأيضا في ص 1960 وفي الحاشية رقم 5 ما جاء في الفقرة الثانية من ص 72 والحاشية رقم 2 في هذه الصفحة عن أعلام المذهبين في العصر التيموري. وفي ص1960 - 1961 ما جاء في الفقرة الثالثة ص 72 عن رسوم النبات والزهور. وفي ص 1968 - 1969 ما جاء في الفقرة الرابعة من ص 72 عن أعلام المذهبين في العصر الصفوي. وفي ص 1969 ما جاء في الجملة الأولى من الفقرة الأولى في ص 73 عن بعض ميزات

المخطوطات الصفوية. وفي ص 1970 - 1971 والحاشية رقم 9 ص 1970 ما جاء في العبارة الثالثة من الفقرة الأولى في ص 73 بما في ذلك الحاشية رقم 2 في هذه الصفحة عن مخطوط بستان سعدي المحفوظ في دار الكتب المصرية، وما فيه من (رسم بطة تطير بين سحب صينية). وفي ص 1972 والحاشية رقم 5 في هذه الصفحة ما جاء في الجملة الثانية من الفقرة الأولى في ص 73 والحاشية رقم 1 في هذه الصفحة عن مخطوط منظومات الشاعر نظامي

ومما تقدم يتبين أن الدكتور ريشارد أتنيجهاوزن قد سبق الدكتور زكي محمد حسن في سرد الحقائق العلمية عن التذهيب في إيران، وقد كان من الواجب على الدكتور زكي أن يشير، في الفصل الذي كتبه عن التذهيب، إلى هذا البحث، لاسيما وأن جميع البيانات والحواشي التي أوردها في هذا الفصل قد جاءت - كما رأينا - بنفس التسلسل الذي جاءت به ضمن البيانات والحواشي التي كتبها الدكتور أتنيجهاوزن

وفي كلامه عن مسألة كراهية التصوير في الإسلام (ص74 وما بعدها) لم يأت المؤلف برأي شخصي قاطع في هذا الموضوع، بل اكتفى بأن قال: (على أننا لا نميل إلى أن نصدق أن التصوير كان غير مكروه في عهد النبي عليه السلام وعصر الخلفاء الراشدين، بل أكبر الظن أن. . .) ثم بدأ الفقرة التالية لهذه العبارة بقوله: (ومهما يكن من الأمر فإن. . .) وقد أشار إلى آراء العلماء الأوربيين بدون أن يناقشها وبدون أن يذكر شيئاً مما جاء في أبحاثهم العلمية

ويقول في ص 76: (وقد قيل أن العرب ورثوا عن اليهود كراهية التصوير، وإن أقل الشعوب الإسلامية اكتراثاً بتحريم التصوير في الإسلام إنما هي الشعوب غير السامية الأصل وبنى على ذلك قوله في ص 79

رابعاً - إن الإيرانيين قوم من الجنس الآري، ولم يكونوا كالساميين يحسون شعوراً نفسانياً ببعدهم عن التصوير

ولكن نسبة العرب إلى الجنس السامي لا تزال موضع دراسة عند علماء الأجناس. والمسألة هنا مسألة أحاديث نسبت إلى النبي (ص) ويهم المسلمين جميعاً - سواء منهم العرب أو الإيرانيون والشيعة أو النسيبون - أن يعرفوا مبلغ صحة نسبتها إليه. وهل تربت كراهية التصوير في الإسلام على هذه الأحاديث أو على عوامل أخرى دخيلة على الإسلام. وإذا تكلمنا عن نسبة العرب إلى الجنس السامي، وجب علينا أن نبحث فيما إذا كان مسيحيو الشرق الأدنى من الجنس السامي أو الآري، وهم كما نعلم من العرب أيضاً، وقد أخذت عنهم مدرسة العراق أو المدرسة السلجوقية (الأسلوب الفني) في التصوير، وكما يعترف المؤلف في ص 84 أن هذه المدرسة (كانت عربية أكثر منها إيرانية، فالأشخاص فيها عليهم مسحة سامية ظاهرة، والأسلوب الفني مأخوذ - إلى حد كبير - عن الصور في مخطوطات المسيحيين من أتباع الكنيسة الشرقية)

وفي ص 80 أورد المؤلف حاشية طويلة عن تصوير مخطوطات كتاب كليلة ودمنة، وكذلك بعض العبارات التي قالها ابن المقفع الذي ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية، عن فوائد الكتاب تستنتج منها أن التصوير يمكن إرجاعه إلى عصور مبكرة في الإسلام. ولكن المؤلف لم يذكر المرجع الذي أخذ عنه هذه الحاشية. وبالنسبة لما لهذه الحاشية من الأهمية الخاصة في تاريخ التصوير، أقول إنني قد عثرت على حاشية مماثلة لحاشية المؤلف كتبها الأستاذ بوب يعلق بها على ما جاء في كلام الأستاذ كينل عن مخطوط كليلة ودمنة

وقال المؤلف أيضاً في ص 80 (ونحن نذهب إلى أن المسؤول عن طبيعة التصوير الإيراني هي البيئة التي يعيش فيها الفنانون، والأساليب الفنية التي ورثوها عن أسلافهم من سكان الهضبة الإيرانية وبلاد العراق والجزيرة والشرق الأدنى عامة، فإن هؤلاء لم يكن لديهم، من الحفلات والألعاب الرياضية والمناظر الطبيعية والعناية بالتربية البدنية وتقوية الأجسام، ما يمكن أن يدفعهم - كالإغريق مثلاً - إلى دراسة الجسم الإنساني دراسة

متقنة والعمل على تصويره أو صناعة التماثيل له بدقة يراعى فيها صدق تمثيل الطبيعة)

ولكن المؤلف يقول في ص 186: (وقد استعمل الخزفيون في الري عدداً وافراً من الزخارف الهندسية والنباتية، ورسموا معظم الحيوانات التي عرفوها في ذلك الوقت،

ولاسيما الأرنب وكلب الصيد، كما اتخذوا بعض الزخارف من مناظر الرقص والطرب والموسيقى والصيد، ولعب الصوالجة (البولو) والحفلات الرسمية، بل لقد رسم أحدهم صورة طبيب يقصد سيدة أنيقة)

وعلاقة خزف مدينة الري بالتصوير يقول عنها المؤلف ص 85: (ولعل أكبر دليل على العلاقة الوثيقة بين هذه الصور السلجوقية وإيران أن رسومها تشبه الرسوم الموجودة على الخزف الإيراني المعروف باسم (مينائي) والذي كانت مدينة الري أعظم مراكز صناعته)

ومن عبارة المؤلف عن الخزف نرى أنه كانت لديهم من الحفلات والألعاب ما يمكن أن يدفعهم إلى مراعاة الدقة في صدق تمثيل الطبيعة. ولكني أظن أن السبب في ذلك هو كما قال الأستاذ لورنس بنيون: (إن الروح التي تسود التصوير الإيراني هي روح الخيال، فالإيرانيون يحبون ما هو عجيب ومدهش. والخيال بالنسبة لنا (للأوربيين) هو الهروب من عالم الحقيقة إلى عالم العجائب. أما بالنسبة لهم (للإيرانيين) فهو نسيم الحياة)

ويستشهد المؤلف في ص 129 بمثال ضربه الأستاذ لورنس بنيون ولكنه لم يذكر المرجع. وإني أظن أنه هذا المثال من مقال الأستاذ بنيون في

وفي ص 130 يقول المؤلف (أجل، إن تصوير المناظر الطبيعية لم يكن عندهم فرعاً مستقلاً من فروع التصوير، ولم تكن له المكانة التي وصل إليها عند الغربيين والصينيين، ولكنهم عرفوه. ولم ينصرفوا عنه لعجز، وإنما لأنه لم يوافق طبيعتهم الفنية. واعتقادهم أن الإنسان هو المحور الذي تدور حوله هذه الحياة. فالفنان الإيراني يأخذ من الطبيعة ما يريد، ولكنه لا يتقيد بها.

وقد جاءت هذه العبارة شديدة الاقتضاب بحيث يمكن أن يفهم منها عكس ما يريد المؤلف قوله، وإني أورد فيما يلي عبارة مماثلة من مقال الأستاذ لورنس بنيون لشرح ذلك: (لا تختلف التقاليد الصينية واليابانية في التصوير اختلافاً جوهرياً عن تقاليد الفنانين الإيرانيين فيما يختص بالصور المخصصة لرسم الأشخاص أو الصور التي يرى عليها أشخاص في

وسط مناظر طبيعية. أما المناظر الطبيعية نفسها فإنها وإن كانت معروفة في الفن الإيراني، إلا أنها لم تصل إلى الدرجة التي تكون فيها كفرع مستقل من فروع التصوير، فلم تصبح أبداً مرآة تنعكس فيها أعمال الإنسان، بل كانت تمثل فقط صورة لأحد المناظر. وكانت للمناظر الطبيعية في الصين هذه الدلالة، بل وأكثر من ذلك، فإنها كانت محاولة للتعبير عن صلة الإنسان بالكون، وبما أن الكل أعظم من الجزء، وحياة الإنسان جزء من الطبيعة، لذلك نرى أن الصينيين ينزلون تصوير المناظر الطبيعية في أعلى منزلة بين فروع التصوير. وهذا الاختلاف في طبيعة الفن يأتي من الاختلاف في تكوين عقلية الشعوب. فعند الإيرانيين، كما هو الحال عند الأوربيين في أغلب الأحيان، نجد أن الإنسان وأعمال الإنسان هي الموضوع الرئيسي الذي تعطى له أهمية خاصة، (أما الطبيعة فتبقى فيما بعد ذلك، ولا تدرس لنفسها

وفي هذا المعنى يقول الأستاذ بوب والدكتور أكرمان ما يلي: (الحديقة موضوع رئيسي في كثير من الفنون الإيرانية. . . وقد أدى استعمال لوحات القاشاني المباني إلى إمكان تحويل مبنى بأكمله إلى مجموعة ذات ألوان بهجة من الزهور، تكون كتلة واحدة مع الحديقة ذات الزهور الحقيقية التي يقوم المبنى في وسطها. . . وقد تركت الديانة الزردشتية الحياة في الآخرة غامضة ومبهمة؛ أما الإسلام فقد كان صريحاً في ذلك ووعد المتقين بحياة خالدة في جنات النعيم

ويقول الأستاذ بوب وقد كان معروفاً أن الإيرانيين لم يباشروا أبداً تصوير المناظر الطبيعية الخالصة، ولكن لا يكاد المرء يكون نظرية في أي فرع من فروع الفن الإيراني حتى يظهر اكتشاف جديد يقضي على هذه النظرية، وقد وجد الدكتور أجا أوغلو في استانبول اثنتي عشرة غاية في الإبداع والجمال، من المناظر الطبيعية الخالية من أية صورة آدمية

وقد نشر الدكتور محمد أجا أوغلو تسعاً من هذه الصور وهو يقول عن تصوير المناظر الطبيعية ما يأتي:

وإذا حكمنا بما وصل إلينا من الصور إلى الآن، نجد أن تصوير المناظر الطبيعية لم)

يعالج كفرع قائم بذاته من فروع التصوير في إيران. . . وليس هذا معناه أن تمثيل الطبيعة كان غريباً على الفنانين الإيرانيين، فقد كانت المناظر الطبيعية والمباني في أشكالها
المختلفة موضوعاً محبوباً لديهم لتمثيل الفروسية والحماسة والمناظر الأخرى. ومنذ بدء ارتقاء فن التصوير يمكننا أن نلاحظ ابتهاجاً آخذاً في الازدياد في معالجة المناظر الطبيعية كموضوع زخرفي).
(له بقية)
محمد مصطفى
البريد الأدبي
إعجاب وتقدير
(* * *) أيها الأستاذ الجليل
إني ليطربني يا سيدي أن أقرأ لكم هذه المقالات القديرة، الزاخرة بالفائدة، في نقد الطبعة الأخيرة من (العقد الفريد). وليست تلك النقدات وحدها هي التي سبتني من علمك الغزير، واطلاعك المنقطع النظير، وإحاطتك بما تكنه ضمائر أسفار السابقين الأولين من أئمة اللغة وحفاظها، بل قد تتبعت في الرسالة الغراء كل ما دبجته براعتك منذ أول عهدك بها، لم تفتني منه فائتة؛ بل لقد اتخذت منه دروساً أتوفر عليها وأعكف على الإفادة منها، والتضلع من مغنيها الفياض
وإني لأعجب يا سيدي كل العجب - في هذا العصر الذي يباهى فيه بالقشور وسخف القول - كيف تتستر وتحتجب، وتقف في تواريك هذا وعزلتك مرشداً وهادياً، لا تبغي غير خدمة وطنك ولغتك
وإن أسفت على هذا التستر والاحتجاب، فإنما أسفي على أن أمثالي من طالبي المعرفة يودون لو أتيحت لهم فرصة لقائك، ليستزيدوا منك، وليتحلوا بما يشهدون فيك من كمال الخلق، ولكنك زهدت في نباهة الذكر، وعفت الإعلان، وآثرت العمل في جو خلو من الصخب والضوضاء
ضربت يا سيدي المثل في التواضع وإنكار الذات، وضربته في طهر قلمك من لوثة الزهو والعجب والمباهاة، فليتعلم من هذا المثل الصالح من يتصاولون على صفحات الجرائد والمجلات، فيدعون ما يتصاولون من أجله، ويخرجون إلى ميادين العيب والتجريح. ليتعلم هؤلاء منك ومن أمثالك الأعفاء، أن يقصروا أقلامهم على ما يدافعون عنه من عقيدة: الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان. ولينسوا أنفسهم وأهواءهم في سبيل الحق، وليدعوه شهوة الانتقام والتشفي، فإن أوقات القراء لأنفس من أن تبعثر في مثل هذا اللغو والزور من القول.
مزيداً أيها الباحث الجليل، فإنا إلى علمك وفضلك وخلقك لعطاشى
(أ. ج)
مقالة الأستاذ السباعي بيومي
أثبتت مقالة الأستاذ الكريم ما قلته في غنى اللغة واستفادة الناس من خطأ الكبار في بعض الأوقات، فأعطى لسان العرب ما أعطاه إياه، وأفاد القوم بما أملاه وإن أحب أن يخالف الأئمة: سيبويه والزمخشري والتبريزي والرضي وابن هشام. فهل بمن اليوم (أطال الله بقاءه ولا زال في حصن العربية: (دار العلوم) من أكبر حماته وحماتها) بعلاوات، بشواهد لجاهلين أو إسلاميين أو المولدين الأولين متفضلاً بمراجعة ما قال الأئمة في قوله تعالى: (فلا اقتحم العقبة) وحياه الله، وحيا ربعه!
ناقد
الفقر
الحرب قائمة في هذه الأيام بين الأديب الكبير الدكتور زكي مبارك وبين جماعة من أجل مقالة نعى فيها الدكتور على الفقراء (المساكين) كسلهم وتواكلهم وغير ذلك. وقد ذكرني البحث في الفقر والفقراء - والشيء بالشيء يذكر - بقول موجز للراغب في (الذريعة) فأحببت نشره في (الرسالة) الغراء وإن كان فقراء (الراغب) يخالفون فقراء (الدكتور زكي مبارك). فالراغبون بعثهم الفقر على الكد، والمباركيون دعاهم فقرهم إلى الكسل. . . قال الراغب
حصول الفقر وخوفه المنتجان للحرص هما الباعثان على الجد واحتمال الكد ومنفعة)

الناس أما باختيار وأما باضطرار. وقد قيل: قيام العالم بالفقر أكبر من قيامه بالغنى، لأن الصناعات القائمة بالغنى ثلاث: المُلك والتجارة والكتابة، وسائرها قائمة بالفقر؛ فلو لم يكن الفقر وخوفه فمن كان يتولى الحياكة والحجامة والدباغة والكناسة، ومن كان ينقل المير والملابس من الشرق إلى الغرب ومن الجنوب إلى الشمال؟ وعلى منفعة الفقر نبه الله تعالى بقوله: (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض) ومن تدبر صنع الله تعالى في ذلك وتأمل ما أشار إليه في هذه الآيات التي ذكرها لم تعرض له الشبهة التي تعرض لمن يقول: (إذا كان الله جواداً واسعاً فلِمْ خص بعضهم بالغنى، وجعل أكثرهم فقراء؛ ومن حق الغنى الذي لا يفنى غناه، والجواد الذي لا يعرف لجوده منتهاه، إلا يخص بالعطية بعضاً

دون بعض) وذاك أن الجواد هو الذي يعطي كل أحد بقدر استئهاله على وجه يعود بمصلحته ومصلحة غيره وقد فعل ذلك بالعباد.

ذلكم قول (الذريعة)، وتلكم شرعة الدنيا إلى أن تشاء المقادير، تبديل الدسانير.

(باحث)

في العقد

ورد في مقالة الأستاذ (الجليل) الذي يستدرك ما في طبعة العقد من الخطأ البيتان الآتيان:

جانيك من يجني عليك وقد ... تُعْدِي الصحاحَ مبارك الجرب

ولرب مأخوذٍ بذنب عشيرهِ ... ونجا المقارف صاحب الذنب

وقد اختلفت روايات البيت الثاني في الكتب، والرواية التي ذكرها الأستاذ تجعل صدر البيت (متفاعلن متفاعلن متفاعلن) مع أنها في صدر الأبيات الأخرى وفي عجزها أيضاً على وزن (متفاعلن متفاعلن فَعِلن أو فَعْلُن) فتجعل قول الشاعر (ولرب مأخوذٍ بذنب عشيرهِ) شاذاً زائداً عن كل صدر وعجز وإن كان وزنه كاملاً تاماً. وشذوذ هذا الصدر مما لا تسيغه الأذن وإن كان العرب قلما كان يكرثهم أن يشذ الشاعر منهم فيخرج من ضرب إلى ضرب ويرد التفعيلة إلى تمام مبناها في بعض أبيات قصيدته. لكن اختلاف الرواية إذا أضيف إلى الشذوذ والنبو في الأذن يجعلنا نأخذ برواية البيت التي هي على ضرب وزن الأبيات الأخرى والتي يتفق فيها الصدر والعجز وهذه الرواية هي:

ولرب مأخوذ بلا قرفٍ ... ونجا المقارف صاحب الذنب

وورد أيضاً (بلا تِرَةٍ) أي من غير وتر؛ وأورده صاحب مجموعة المعاني (ولم يقترف) ولكن روايته تغير فعلن إلى فاعلن. أما الزيادة في المعنى التي أوجبت الزيادة في ضرب الوزن في قوله (بذنب عشيره) فغير ضرورية لأن المأخوذ ظلماً قد يؤخذ ظلماً بذنب غير عشيره. ونرجو من أستاذنا الجليل أن يردنا إلى الصواب أن كان في قولنا خطأ.

عبد السميع صبري

وأد البنات عند العرب في الجاهلية

ذكر الأستاذ علي عبد الواحد وافي في العدد الممتاز أنه لا يصح إرجاع وأد البنات عند العرب في الجاهلية إلى فقرهم، لأن ذلك كان يفعله أغنياؤهم وفقرائهم، ولا غيرتهم على أعراض البنات، لأن ذلك يرجع عند من يراه إلى قصة قيس بن عاصم. ووأد البنات أقدم منها عند العرب، وقد رأى أن يرجع ذلك إلى سبب استنبطه من الآيات القرآنية التي وردت في وأد البنات؛ وهو أن بعض العرب كانوا يعتقدون في البنات إنهن من خلق إله اليهود، وكانوا ينظرون إليه نظرة كنظرتنا الآن إلى الشيطان؛ أما الذكور فمن خلق آلهتهم، ولهذا كانوا يعتقدون في البنات أنهن رجس يجب التخلص منه بالقتل، ثم ساق الآيات التي استنبط ذلك منها، فساق أولاً قوله تعالى: (ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم تالله لتسألن عما كنتم تفترون. ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون، وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به؛ أيمسكه على هون أم يدسه في التراب، ألا ساءوا ما يحكمون) الآيات 56 - 59 من سورة النحل، وقد فسر البنات في ذلك بالإناث من البشر، وحمل قوله تعالى (ولهم ما يشتهون) على انهم يجعلون لآلهتهم ما يشتهون من البنين، وكل من التفسيرين غير صحيح، لأن المراد من البنات الملائكة الذين كانوا يقولون عنهم انهم بنات الله، والمراد من قوله تعالى (ولهم ما يشتهون) انهم يجعلون

لأنفسهم لا لآلهتهم البنين الذين يشتهون، فينسبون لله من البنات ما يكرهونه لأنفسهم، وهذا هو الذي ينطق به ما ساقه من باقي الآيات، كقوله تعالى: (وجعلوا له من عباده جزءاً أن الإنسان لكفور مبين، أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين، وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون) الآيات 15 - 19 من سورة الزخرف، فمن جعلوهم جزءاً هنا لله هم البنات في آيات النحل، وهم الملائكة الذين جعلوهم إناثاً هنا، والمراد انهم جعلوهم أولاد الله، فأين هذا من تفسير الأستاذ وافي لهم بالبنات من بني آدم، وإن العرب كانت تعتقد أنهن خلق الله لا خلق آلهتهم، وكذلك قوله تعالى (وأصفاكم بالبنين) وصريح في انهم كانوا يجعلون البنين لأنفسهم، وليس الأمر كما فهمه الأستاذ وافي من انهم كانوا يجعلونهم لآلهتهم، وأصرح من هذه الآيات في ذلك قوله تعالى (أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً إنكم لتقولون قولاً عظيماً). فليس في شئ من الآيات التي ساقها الأستاذ وافي ما يفيد أن العرب كانوا يعتقدون أن بناتهم من خلق الله، وانهم كانوا يئدونهن كرهاً لهن لأنهن غير مخلوقات لآلهتهم. وليت شعري بعد هذا من أين أخذ الأستاذ وافي أن العرب الذين كانوا يئدون البنات كانوا يعتقدون في الله تعالى ذلك الاعتقاد، وينظرون إليه كما ننظر إلى الشيطان، وهم الذين قال الله في حقهم من سورة الزخرف أولاً (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العظيم) الآية - 9 - ثم ذكر بعد ذلك الآيات السابقة في نسبتهم البنات من الملائكة إليه تعالى

والحق عندي أن وأد البنات كان بعضه للفقر من الفقراء، وكان بعضه لخوف الفقر من الأغنياء، وكان بعضه لخوف العار والسبي، ولا مانع من أن يكون بعضه لعقيدة دينية غير التي يذكرها الأستاذ وافي، فقد كان الرجل يحلف في الجاهلية لئن ولد له كذا غلاماً لينحرن أحدهم كما حلف عبد المطلب بن هاشم

عبد المتعال الصعيدي

حول سقط وكبا

جاء في مقال الأب الفاضل أنستاس ماري الكرملي المنشور بعدد الرسالة 402 تحت (كلمة حق) يستنكر فيه تعبير الأستاذ إسماعيل مظهر لكلمة (سقط وكبا)؛ ويقول في هامش صفحة 320 هذه العبارة: (كذا بتقديم السقوط على الكبو لا يعرفه إلا سكان جزيرة الوقواق)

فهذا التعبير، وقد أجازته لغة القرآن في كثير من آيها، والواو فيه للجمع المطلق، ولا تقتضي الترتيب بدليل قوله تعالى حكاية عن منكري البعث (وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا)، وإنما يريد نحيا ونموت، وفي آية ثانية (فكيف كان عذابي ونذر)، والنذارة قبل العذاب بدليل قوله تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً)؛ وفي آية ثالثة (إني متوفيك ورافعك إلى)، فإن وفاته عليه السلام لا تقع إلا بعد الرفع

حسين سلامة دياب

القصص

ما ليس يفهمه الطفل

قصة روسية

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

رجل من أغنياء بطرسبرج يبلغ الثانية والثلاثين من العمر، وهو ممتلئ (نيقولاي أليتش) الجسم، قوي البنية، محمر الوجه. وكان قد اتخذ من زوجة المسيو (أرنين) خليلة له، فقضى معها شطراً من الزمن في غرام حار متبادل، ثم خمدت جذوة حبه، فصار يتردد على منزلها بين حين وحين، وبينهما نوع من الحب الفاتر . . .

وزارها في يوم من الأيام، فلم يجدها، وجلس ينتظرها في غرفة الاستقبال، فدخل ابنها الصغير وحياه وقال: إن أمه ستعود سريعاً، وهي الآن عند الخياطة مع أخته (صونيا) . . .

وكان عمر هذا الطفل ثمانية أعوام، واسمه (أليوشا)، وهو حسن البزة، قوي البنية، عليه ثوب نظيف من القطيفة، وفي قدميه جورب أسود طويل؛ وكان يلعب ألعاباً رياضية، مستمتعاً بما وهبه الله من صحة جيدة. . . وبدأ الرجل يحدثه ليمضي الوقت

ولكي يداعبه، فقال: هل أمك في صحة جيدة؟
فأقبل الطفل نحوه وقال: (أنها لم تكن قط في صحة جيدة، وهي كل يوم تشكو من مرض)، وأخذ الرجل يتأمل في وجه الطفل ليرى فيه محاسن أمه في صباها يوم كان حبهما لا يزال في سورته وسأله عما يتلقاه في المدرسة؛ فقال أنه وأخته صونيا يحفظان قطعة من الشعر الفرنسي. وقال الرجل للطفل: (هل حلقت شعرك اليوم؟)
فقال: (نعم. وأنت حلقت أيضا، لأن لحيتك أصغر من العادة. أتأذن لي أن أمسكها؟)
قال الرجل: (لا لا! لن آذن بذلك) فقال الطفل: (لماذا؟ هل يؤلمك أن أنزع شعرة أو شعرتين؟) ثم أمسك السلسلة الذهبية المعلقة في صدر إيلتش وقال: (إن أمي قد وعدتني أن تشتري لي ساعة إذا انتقلت من فرقتي. إن هذه السلسلة كالتي في صدر أبي)
قال إيلتش: (ومن أخبرك بذلك؟ هل رأيت أباك؟) فتلعثم واضطرب وقال: (أنا. . . كلا!)
ولكن الرجل نظر إليه نظرة حادة وقال: (هل رأيت أباك؟) فقال: (كلا. . . كلا!)
فقال الرجل: كن شريفاً فإني أرى من ملامحك أنك تكذب. قل لي: هل رأيت أباك؟
فقال الطفل همساً: (وهل تعدني ألا تخبر أمي)
فقال: (أعدك)
قال الطفل: (وهل تقسم بشرفك؟)
فقال الرجل: (نعم أقسم)
فنظر الطفل حوله وقال بصوت منخفض: (أستحلفك ألا تخبرها فإنها لو علمت لضربتني أنا وصونيا والخادم. . . أنا وصونيا نقابل أبي كل يوم من أيام الاثنين، وذلك لأنه اتفق مع الخادم على أن يمر بنا على حانوت ينتظرنا فيه، وهناك يشتري لنا فواكه وحلوى وبيضاً ويحدثنا)
قال الرجل: (يحدثكم بماذا)
فقال: (بكل شئ، ويقبلنا ويقص علينا قصصاً جميلة، ويقول أنه سيأخذنا لنعيش معه متى كبرنا. وقد قالت له صونيا لا، ولكنني قلت نعم، وسأبتعد عن أمي ولكني سأرسلها وأزورها في أيام العطلة. ويقول أبي أنه سيشتري لي جواداً، وأنا لست أعرف لماذا لا تدعوه أمي للمعيشة معنا؟ ولماذا لا تقابله مع أنه يحبها ويسألنا عنها دائماً. ولما مرضت وأخبرناه بذلك بكى وأمرنا باحترامها وطاعتها. . . ألسنا بائسين!؟)
قال الرجل: كيف؟
فاستمر الطفل يقول: أبي قال ذلك، وقال أن أمي بائسة، وقال لي كلاماً غريباً لم أفهمه، لأنه أمرني بأن أصلي من أجلها
قال الرجل: إذاً فأنتم تتقابلون بغير أن تعلم أمك؟ فقال: لا نستطيع أن نخبرها، فقد أكد علينا الخادم بذلك. وبالأمس قابلت أبي واشترى لي كمثرى!
قال الرجل: ألم يتكلم أبوك عني؟
فأجابه الطفل: عنك!؟ لماذا؟ ثم هز كتفيه
فسأله الرجل: ألم يقل شيئاً؟
قال الطفل: ألا يغضبك ما يقول؟
فأجاب الرجل: لماذا؟ هل شتمني؟
قال: كلا. . . ولكنه قال إن أمي بائسة بسببك، وأنك أفسدت سعادتها؛ وقد قلت له إنك لا تسبها ولا تهينها، فهز رأسه!
قال الرجل: هل أبوك يقول إنني أفسدت سعادتها؟
فقال الطفل: نعم، ولكن لا تغضب فأنت وعدتني عند ذلك مشى أليتش في الغرفة ذهاباً وجيئة وقال وهو يهز كتفيه ويبتسم ابتسامة المتهكم: (أنا أفسدت سعادتها! أنا؟ هل قال ذلك يا أليوشا؟)
فقال الطفل: (ألست وعدتني ألا تغضب؟) فقال: (أنا لم أغضب ولكن هذا شئ عجيب. . . أنا أقع في الفخ ولا أسلم من اللوم) وهنا دق الجرس، فجرى الطفل نحو الباب، ودخلت أولجا أم أليوشا وخليلة أليتش، وقال الأخير عندما رآها: (نعم نعم أنه مظلوم فهو الزوج المخدوع)
قالت أولجا: (ما الخبر؟)

فقال: (اسمعي ما يقوله زوجك. . . إنه يقول إنني أفسدت سعادتك وسعادة أولادك)
قالت أولجا: (لست أفهم ما تقول يا أليتش؟)
فقال: (سلي ابنك)
فنظرت الأم إلى ابنها في دهشة، ونظر الطفل إلى أليتش في انزعاج، وقال الأخير:
(إن خادمك يأخذه ويأخذ صونيا إلى حانوت يقابلهما فيه زوجك الذي يحسب نفسه شهيداً، ويحسبني أفسدت حياته وحياتك)
عند ذلك صاح الطفل: (أنت حلفت لي بشرفك)
فأشار أليتش بيديه وقال: (إن هذا أمر أهم من يمين الشرف)
فقالت أولجا والدموع تملأ عينيها: (أخبرني يا أليوشا متى قابلت أباك؟)
فلم يصغ إليها الطفل لأنه كان ناظراً نظرة غيظ إلى أليتش وقالت الأم: (هذا محال! سأذهب وأسأل الخادم)
ثم خرجت وصاح الطفل وهو يرتعش: (ألم تقسم لي بشرفك؟)
فأشار الرجل بيديه مرة أخرى ثم لم يعد يلحظ وجود الطفل فهو رجل ضخم الجثة لا يعبأ بالأجسام الصغيرة، جلس أليوشا في ركن من الغرفة يخبر أخته كيف خدعه الرجل حتى
عرف سره؛ وكان يرتعش ويبكي، وكانت هذه أول مرة وقف فيها وجهاً لوجه أمام أكذوبة. وكم في الدنيا من أشياء لا أسماء لها في لغة الأطفال!
عبد اللطيف النشار
العدد 405 - بتاريخ: 07 - 04 - 1941
عود إلى الفكر و (السلطة)
للأستاذ عباس محمود العقاد
راجعني الأديب أليس إبراهيم بدوي فيما كتبت بالرسالة منذ أسابيع عن (الفكر والسلطة)، وكتب إليّ يقول:
(اسمح لي بأن أضيف إلى الأسباب الأربعة التي ذكرتها في إيضاح الدافع إلى طلب السلطة سبباً خامساً، وإن لم يكن بسبب، فهناك أناس يطلبون السلطة كحق من حقوقهم الموروثة أو تقليد من تقاليد الأسرة التي لا يليق بهم التخلي عنها. ولعل هذا السبب أبرز الأسباب نتائج من حيث طلب السلطة، ليس في هذا البلد وحده، بل في جميع البلدان بوجه عام)
وأتبع ما تقدم بقوله: (وكان لابد أن ينشأ عن هذا السبب سبب سادس معاكس له: سبب يدفع بالرجل الموهوب ذي الشخصية العارمة والإرادة المدربة إلى النظر إلى مثل أولئك الأفراد المتهافتين على السلطة نظرة متعالية، نظرة من يعتقد مخلصاً أنه أحق منهم إذ كانت الغاية من الحصول على السلطة استخدامها في بناء مجد للوطن. وإن مثل هذا الرجل ليعتبر في رأيي خائناً لرسالة ممتازة خلق لها إذا لم يعمل على نيل الأداة التي يمكنه بها إبراز مواهبه وممكناته وقدرته على الخلق والإبداع. وما قيمة المتعة الفكرية أو الذوقية إذا لم يستطع الرجل أن يستثمر قدرته البناءة بمطلق طاقته وحيويته)
ثم يقول الأديب: (أما صاحبنا (ديزرائيلي)، فلم أذكر اسمه نموذجاً، بل ذكرته عرضاً كرجل كانت له نفسية الأديب ودقة إحساسه بالحياة، وفق إلى كسف عناصر القوة في نفسه فسخرها في سبيل بلوغ المنصب الأعلى للحكم. . . وربما كان في التاريخ الأمريكي والبريطاني والفرنسي كثير ممن يصح أن يتخذوا أمثالاً. وربما كان عندنا هنا من يصح أن يذكر في معرض التمثيل. غير أن عدم وجود أمثال لا يمنع من خلق أمثال وابتداع خطط جديدة في الحياة والعمل)
ثم يقول في ختام خطابه: (فإذا كنت تعتقد أنه لا يمكن الجمع بين الأدب والإدارة فهذا رأيك وأنت حر فيما ترى. ولئن كنت أشك في صحة هذا الاعتقاد فما يعزز شكي ما قرأته لك في رجعة أبي العلاء في معرض كلامك عما كان يساور أبا العلاء من طموح إلى السلطان
لولا ظروفه الجسمية الخاصة التي حالت بين عقله الكبير وما أراد. وهو القائل:
(ولم أعرض عن اللذات إلا ... لأن خيارها عني خنسته)
ويلوح من خطاب الأديب أن صاحبه ممن يحبون الاستدراك لمحض الاستدراك، وهو

طبع في غير قليل من الناس.
فنحن نقول إن أسباب طلب السلطة هي فطرة الرياسة، أو حب الامتياز، أو اتقاء شرور المسيطرين، أو الرغبة في تسخير الأداء الحكومية للإصلاح، فيأتي صاحب الخطاب بسبب خامس هو ميراث السلطة عن الآباء والحرص على بقائها في الأسرة! كأنما هذا السبب لا ينتهي إلى واحد من الأسباب الأربعة التي قدمناها! أو كأننا حين نقول إن الناس يرثون البيوت ننفي أن البيوت تبنى للسكنى، أو كأننا حين نعلم أن الناس يصنعون الطعام ليبيعوه ننفي أن نهاية الطعام هي الغذاء سواء صنع في الأسواق أو صنع في الدور.
فالناس لا يحبون أن يرثوا السلطة إلا لأنها تكفل لهم غرضاً من الأغراض التي قدمناها. وإلا فما بالهم لا يحرصون على وراثة المسكنة من آبائهم المساكين؟ وما بالهم لا يحتفظون في الأسرة بالديون والمغارم والوصمات؟
إنما يحرصون على بقاء السلطة في ميراثهم لأنها مطلب محبوب، وإنما هي مطلب محبوب للأسباب التي قدمناها لا لأنها تركة موروثة عن الآباء.
أما أن المفكر النابغ مفروض عليه طلب السلطان، فهذا خلاف للواقع، وخلاف للقياس المطرد في (تطور) الملكات.
ففي الواقع لم يوجد قط مفكر موهوب وعبقري مثمر في عالم الفنون تخلى عن الفكر والفن ليطمح إلى الحكم وإدارة الدواوين.
وقبل أن يوجه إلينا الأديب خطابه الأول كنا نكتب (هتلر في الميزان) فقلنا من فصل عن كفاءته الذهنية: (إن الحقيقة الراسخة من وراء كل جدل وكل مراء هي أن الفنان الموهوب لن يترك فنه ليعقد مصيره بالسياسة وغيرها من المطالب كائناً ما كان نصيبه منها، لأن الهبة الفنية كالوظيفة العضوية التي لا تقبل الإهمال، ولا تزال في إلحاحها على صاحبها كالهيام القلبي في إلحاحه على العاشق الممتلئ بالحياة، فلا هو يغفل عنها ولا هي تمهله إلى زمن طويل.
وهذه الحقيقة وحدها بنجوة عن جميع الأقاويل وجميع الأسانيد. هي الحكم الحاسم) في كفاءة هتلر الفنية، أو فيما يدعيه من مواهب التصوير والبناء. فهي لن تعدو الطبقة الوسطى بحال، ولن تتجاوز نصاب التذوق الشائع بين مصطنعي النقد والموازنة في الفنون)
فهذا رأى قديم لنا نبنيه على الواقع كما نبنيه على المعقول، لأن التاريخ لم يذكر لنا قط اسماً واحداً من أسماء العباقرة الفنيين طلق الفن ليحكم الناس ويطلب السلطة. وليس بمعقول أن تمتعه السلطة كما يمتعه الخلق في عالمه الفني الذي يصرفه تكوينه إليه.
وهذا الرأي مطابق لسنة التطور التي تنتقل من الجمع إلى التوزيع، من حصر الملكات إلى انتشارها في عقول كثيرة.
فاتفق في زمن من أزمان الهمجية أن حاكم القبيلة كان حكيمها وساحرها وكاهنها وطبيبها وحافظ تاريخها. فهو فيها جامع لوظيفة السياسة ووظيفة الدين ووظيفة العلم ووظيفة الفن والثقافة، ثم انقضى هذا العهد وتوزعت الملكات وأصبحت كل وظيفة من هذه الوظائف شعباً لا تحصى ومقدرة يستعصي الجمع بينها وبين غيرها، ولا يؤدي هذا الجمع إلى مصلحة للنابغ ولا للمنتفعين بنبوغه.
وبعد هذه الدهور المتطاولة يأتي من يزعم أن إعراض المفكرين وعباقرة الفن عن طلب الحكم خيانة لأمانة النبوغ إذا كانوا يستخدمون السلطة في بناء مجد الوطن. . .
ويسأل: ما قيمة المتعة الفكرية أو الذوقية إذا لم يستطع الرجل أن يستثمر قدرته البناءة بمطلق طاقته وحيويته؟
فما قيمة الحياة نفسها بغير متعة فكرية أو ذوقية؟ وما قيمة مجد الوطن إذا خلا من المفكرين والعباقرة الذين يعيشون ويموتون للفكر، ويعيشون ويموتون لمتاع الأذهان والأذواق؟ أكل مجد الوطن إذن في رفع الأيدي بالسلام، ودق الأرض بالأقدام، وخطوة إلى الوراء وخطوة إلى الأمام، وتفرج على السلطة ومواكب السلطة أيام الزحام؟ أهذا هو مجد الوطن الذي يخونه أمناء الفكر والذوق لأنهم لا يتطلعون إلى السلطة ولا يتحولون جميعاً إليها كلما وفر عندهم نصيب الفكر والذوق؟
أن كان الأديب يخال أن المفكر الصادق التفكير لن يشعر بالامتياز إلا وهو متسلط في

الحكومة، ولن يقعد عن طلب التسلط في الحكومة إلا لأنه عاجز عنه، فهو بعيد كل البعد عن دخائل العظمة الفكرية التي هي عظمة لا شك فيها وإن لم يكن لها في الحكم سلطان.

لكن العجب في هذا أن الزهو بالعقول شائع بين جمهرة الناس، فكيف يفوت الأديب صاحب الخطاب أن يفطن إلى زهو العقول العالية التي تشعر بما لها من الرجحان؟ يقولون في أمثالنا الدارجة أن الخلق غضبوا عند قسمة الأرزاق فأرضاهم القدر بقسمة العقول، فما منهم إلا راض عن عقله وإن سخف وإن ضاق.

وتعليل ذلك قريب، فإن الأرزاق تنتقل من مالك إلى مالك، فللطمع فيها معنى مفهوم؛ أما العقول فلا تنتقل من أصحابها إلى غير أصحابها، فليس للطمع فيها معنى غير الإقرار بالقصور، والحرمان من لذة الغرور.

ومغزى المثل كما يقولون أن رضى الإنسان بعقله سهل مألوف في جميع الطبائع البشرية، فكيف بالعقل الذي يعلم ما عنده وما عند غيره علماً ليس بالدعوى ولا بالغرور؟ أليس خليقاً بامتيازه المرضى عنه أن يغنيه عن طلب الامتياز من طريق ولاية الأحكام؟

قلنا في كتابنا رجعة أبى العلاء: (إن أبا العلاء كان لا يرضى من الدنيا إلا بالسيادة عليها أو بالإعراض عنها. فلما الملك وأما الرهبانية ولا توسط عنده بين الأمرين. فلا يحسبن أحد أن فكرة الملك عارضة في ذهنه كما يعرض في الخاطر في خلد للشاعر، فإن للمجد الدنيوي لنزعة مكبوتة في قرارة ضميره يدل عليها شعره ونثره، ولا تزال غالبة عليه في جمحات الأهواء وفلتات اللسان. فسرعان ما يثب إليها كلما عرضت لها لمحة ظهور)

وقد ظن الأديب صاحب الخطاب أن ما قررناه هناك شذوذ مما نقرره في كلامنا عن الفكر والسلطة، وما به في الحقيقة من شذوذ؛ فالحنين إلى السيطرة في نفس أبى العلاء إنما هو تعبير عن جانب الحرمان من تلك النفس وليس بالتعبير عن جانب الامتياز والرجحان.

وليس الوجه كما فهم الأديب أن أبا العلاء كان يزداد طلباً للسلطان لو أبصر وملك القوة الجسدية، ولكن الوجه أنه كان يقلع عن هذا الطلب لو زال عنه شعور الحرمان الذي داخله من كبريائه مع فقد بصره ووهن جسده. فيغلب عليه جانب الثقة والامتياز.

وأي عجب في تداخل النزعات واشتباكها في جميع النفوس الآدمية؟ ألا يوجد بين ذوي السلطان من يحب أن يشتهر بالكتابة فينتحل ما يكتبه له الكاتبون وليس هو بأديب؟ أفمن أجل ذلك نقول إن الملكة الأدبية لاصقة بكل حاكم وكل أمير وكل طامع في الشهرة بالمنثور والمنظوم؟

ومن الخطأ أن نزعم أن أبا العلاء قد عكف على التفكير لأنه لم يظفر بالملك والإمارة؛ فإن التفكير ليس بالمنحة (الاحتياطية) التي تجود بها الطبيعة على من فاتته المنح الأُخرى، ولكنها منحة أصيلة من رزقها فكر ومن لم يرزقها لم يفكر وإن أراد. وغاية ما هنالك أن المفكر المتكبر المحروم يمثل حرمانه في آماله ودخائل وجدانه شوقاً إلى الغلبة والبأس والولاية، وهو شوق لا يعد من الملكات ولا من النزعات التي يقاس عليها في غير هذه الحال.

وجملة الرأي أن حاجة الحاكم إلى الفكر كحاجة كل عامل اليه، فلا يلزم من ذلك أن يشتغل المفكرون بجميع الأعمال لأن جميع الأعمال تحتاج إلى تفكير.

على أن الحكم إلزام والفكر إقناع، وإذا بلغ الإقناع مداه ألزم الحاكمين أن يستمعوا له فكان سلطة فوق السلطة في هذا المقام.

عباس محمود العقاد

في المصادر والأصول

نساؤنا بين التقاليد والتجديد

لصاحب العزة الدكتور منصور فهمي بك

مدير عام دار الكتب المصرية

مقدمة

من الدقة أن يرمى بحثنا إلى تناول أحوال المرأة المصرية المعاصرة، لأن فينا من

مدله ي العمر فتيسر له أن يصف مسلك نسائنا في فترة محصورة من الزمن، لعلها البرزخ الفاصل بين ما كانت تجري عليه أحوال النساء عند السلف القديم، وبين ما أصبحن عليه الآن، وما قد يصرن إليه في مستقبل الأيام.

وإني، مع حرصي الشديد على تضييق مجال البحث وحصره، قد أتعرض للماضي أحياناً في نظرة خاطفة، لأجلي فيه بعض المعالم التي ترسمتها المرأة المصرية في مسيرها لكي تتبين: ألا يزال الدرب الذي تعدو الآن فيه موصولاً بالطريق الذي سلكته عدة قرون؛ أم أصبح مسيرها مقطوع الصلة بماضيها القريب والبعيد؟ ولعل المرأة حين اتخذت أسلوبها الجديد، أخذت تتعرض لمنحدر كثير الزلل والخطر. وإني حين أعني بالبحث في أحوال نسائنا، إنما أعني بحملة الرسالة الكبرى في تشييد أركان الهناء في الحياة، بل بحملة سر الرحمن وكلمته في بذل المحبة والرحمة والسلام.

وإني إذ أثير اليوم موضوع المرأة المصرية بين التقاليد والتجديد، إنما أثير موضوعاً حيوياً للزوجات والبنات والأمهات. وعلى الجملة موضوعاً يتصل بكيان الأسرة وكيان الأمة التي تنتمي إليها، ونرجو أن تحيا بنا عزيزة ونحيا بها كراماً.

لمحة تاريخية

فمن نيف وثلاثين عاماً كان (قاسم أمين) يحلق بخياله في متسع تاريخ مصر الاجتماعي، ويلقى بنظراته الناقدة في صحائف حياتها العمرانية، وكان يصيب نفسه وخز من الألم منشأه المظاهر الاجتماعية السيئة التي اتصلت بحياة الأسرة، دون أن يقرها العقل السليم، أو يرضاها الشرع الحكيم. ولقد حركت وخزات الألم لسانه وقلمه بما كان ينشده لأمته من

ظهور امرأة جديدة تكون على حد قوله: (شقيقة الرجل، شريكة الزوج، مهذبة النوع، مربية الأولاد)

ولعل الصورة المثلى التي كان يتخيلها (قاسم أمين) ويريدها للمرأة المصرية تجعل للنساء كما كان يكتب ويقول:

- رأياً في الأعمال. فكراً في المشارب، ذوقاً في الفنون، قدماً في المنافع، مقاماً في الاعتقادات الدينية، فضيلة وشعوراً في الوطنية.

وكان يعتقد أن المرأة قد تسمو إلى ما ينشده لها من المكانة لو كملت تربية النساء على مقتضى الدين، وقواعد الأدب، ووقف بالحجاب عند الحد المعروف في أغلب المذاهب الإسلامية.

ومن حق المتأمل أن يجد فيما كان ينشده ذلك المصلح الكبير صورة للمرأة العاملة الجادة الشريفة الكريمة، وليست صورة المستهترة العابثة في مهازل العيش وترهات المجتمع، وأن الاختلاط الذي كان يدعو إليه بين المرأة والرجل إنما هو ذلك الاختلاط البريء من مثيرات المفاسد، وتدعو إليه مقتضيات الحياة النزيهة المثمرة، وأن ما كان ينادي به قاسم من الحرية إنما هي الحرية التي تعين على الخير، وليست تلك التي تركب للشرور ولآثام. على أن قاسماً كان شأنه في دعوته لمثله الأعلى شأن كل مصلح تلك فؤاده ولبه المثل الذي كان يدعو إليه، فكان اهتمامه لتحقيق دعوته أشغل لفكره، وأصرف لنفسه عن الاشتغال بالبحث في مختلف الوسائل التي تقي أغراضه الصالحة من الانحراف.

لقاء الدعوة

وجد قاسم أمين حين دعا دعوته للمرأة المصرية من أيدوه ومن عارضوه، ومن حذروه سوء العقبى إذا لم تتخذ الحكمة وأسباب الاحتياط.

فأما الذين أيدوه فكانوا ممن يعتقدون أن نهضات الأمم وعظمتها تفتقر إلى مسعى الرجال ومسعى النساء، ورقي الرجال ورقي النساء، ويكون ذلك بإشاعة التربية والتعليم ونشر الحرية بين أفراد الأمة جميعاً.

وأما من عارضوه فكانوا ممن يعز عليهم أن يتغير ما ألفوه في حياتهم من عادات راسخة ضيعت على المرأة الكثير من حقوقها في الحرية والتعليم، وكانوا من المستضعفين لضغط

التقاليد التي أثقلت كواهلهم وكواهل عدة أجيال من آبائهم وأسلافهم.

وأما من حذروه، فكانوا يعتقدون أن للمرأة صفات نوعية تتميز بها عن الرجل، وأن مسلكها وتقدمها ينبغي أن يساير ما انتزع عن فطرتها من الصفات، وألا يتعدى دائرة

ما اختصتها. به الأقدار، وألا يخرج عن الميدان الذي يتحقق فيه فوزها في كفاحها الحيوي، ويتجلى فيه إنتاجها في الوجود؛ وهؤلاء يقررون على نحو ما يقول الأستاذ فريد وجدي:

أنهم ليسوا بدعاة إلى ظلمة القرون الأولى، ولا بمروجي خطة أسر المرأة، بل طلاب) كمال يناسب كرامة الإنسانية، ورواد مدنية حقة يقوم عليها الإنسان غير خائن لأمانته، (ولا غاش لنفسه

على أن دعوة قاسم كان لها الفوز على دعوة معارضيه، ولم يكن تحذير المحذرين من بعض ما لا يرضون من نتائج هذه الدعوة بمعوق لها عن الانتشار المتواصل السريع، وذلك لأنه حركة النهوض المصري كانت تشتعل في شتى ظواهر الحياة الاجتماعية من نيف وخمسين سنة. وكان لابد لها أن تمتد إلى الأسرة وتتصل إلى المرأة التي هي دعامة البيت وركنه الركين.

وعلى ذلك سايرت دعوة قاسم مجرى الحياة الاجتماعية المندفعة للرقي، وفسح للمرأة طريق معبد في النهضة العامة، وفتحت لها أبواب التعليم، ونظمت القوانين لمصلحة النساء؛ وعلى الجملة سارت النهضة النسائية في بداية أمرها مؤيدة بالحق يشجعها كل ميال لرؤية المجتمع المصري يسير من السيئ إلى الحسن، ومن الحسن إلى الأحسن.

الانحراف

لكن بينما كانت تسير نهضتنا النسائية في مجراها الصافي إذ شابها ما يعكر شيئاً من صفائها برغم أنها صدرت عن نبعها الأول، ومن دعوة قاسم، نقية طاهرة، فتحول خروج النساء من عزلتهن عن أن يكون وسيلة يسوغها شرف الغاية ليكون غاية لذاته، أو وسيلة لغاية وضيعة. ولعل من أشد العوامل التي أضعفت قيمة الاختلاط بين المرأة والرجل وسوأت خروجها عن معزلها الذي ظلت فيه طويلاً هو انتشار بعض الآراء دون أن تفهم على وجهها الصحيح، ودون أن تنضج في فهم من تخطفوها وتلقفوها؛ ومن هذه الآراء ذهابهم إلى أن الاختلاط بين النساء والرجال وتوالي المجامع التي يتلاقون فيها من شأنه أن

يهذب من المظاهر، ويعمل على ترفيع النظرات، وترقيق الآداب. وحقاً أن تلاقي النساء بالرجال في الحدود التي تقتضيها حياة التعاون والعمران من شأنه أن يجر إلى عالم النسيان كل الاعتبارات الجنسية.

فالفلاحون الذين يتلاقون في الحقول مع الفلاحات لاستغلال خيرات الأرض، إنما يجتمعون اجتماعاً طبيعياً لمقتضيات نافعة قاهرة فيتلاقون بدافع هذه المقتضيات ويفترقون عند انعدامها. والمتبادلون من الناس في المتاجر، إنما يتلاقون لحاجة وينصرفون عند انقضائها، والمتلاقون في المعابد قد يجتمعون رجالاً ونساء لأداء حق من حقوق دياناتهم.

وعلى الجملة، فإن في دواعي الاختلاط الطبيعي الذي يتحقق لدوافعه الداعية ما يعين على ترويض النزعات الجنسية للاستقرار في مكامنها، والوقوف عند حدودها التي تحول دون كل مكروه.

التوسع في الاختلاط وأضرار ذلك

لكن الناس قد توسعوا في هذا الترخص واستباحوا لأنفسهم أن يحوزوا مجتمعات الجد الطبيعية إلى مجتمعات هازلة مصنوعة من شأنها أن تؤدي إلى تحريك الانفعالات التافهة والشهوات الوضيعة والمواقف المرذولة أكثر مما تؤدي إلى ما تزكو به العقول، أو تترفع به النفوس، أو تتحقق به فائدة من فوائد الحياة.

فقد يزدحم النساء والرجال في مجتمع من مجتمعات الشاي أو الخمر (الكوكتيل) فلا يلبث هذا المجتمع أن يتحول إلى معارض التزيين والأناقة، والى مضمار للتأنق بالأقوال الرخيصة، وبذل التظرف المصنوع، واتخاذ الابتسامات المنافقة. وإذا كان لبعض النساء من وسائل الزينة ما ينحدر في المرتبة عن زينة الأخريات، فسرعان ما تنبض القلوب بالغيرة والحسد، أو تدق دقات الزهو الأجوف. وإذا كان في هذه المجتمعات من يعوزه يقظة الفضيلة، وصلابة الخلق، فثم النظرات المسمومة، وثم الأحاديث المهيئة لنزعات السوء ونزعات الشيطان، ومن ثم فضائح لغواية، ومآسي الغيرة، وما قد يجره ذلك من الكوارث في هدم سعادة الأسر.

وإذا ذكرنا مجامع الشاي وحفلات الخمور، فلنضف إليها ما هو أسوأ منها أثراً من منتديات الميسر، والمراقص، والرحلات المشتركة، ومسارح التمثيل الخليع، وحمامات السباحة
الجامعة. وعلى الجملة ضروب المجتمعات التي تخلط بين النساء والرجال، وإثمها أكبر من نفعها لو أن لها نفعاً مذكوراً عند من يحسنونها وينزلقون إليها.

وإذا صح أن بعض ما ذكرت من هذه المجتمعات يخلو مما أشرت إليه من المساوئ ويؤدي إلى فوائده المزعومة من جر الاعتبارات الجنسية إلى عالم النسيان، فإنها تضعف من المرأة عاطفة الحياء، وتوهن في الرجل عاطفة الغيرة، وفي إضعاف عاطفة الحياء خسارة كبرى في المرأة، فإن الحياء زينة لها؛ وفي إيهان غيرة الرجل خسارة كبرى على الرجولة وحماية الأسرة.

ولعل قاسم أمين يخشى أن يتجاوز الناس حدود المعقول فيما دعا إليه من الاختلاط حين دعا إليه بعد أن تجاوزوا حدود المعقول في العزلة فقال:

(والذي أراه في هذا الموضوع هو أن الغربيين قد غلوا في إباحة التكشف للنساء إلى درجة يصعب معها أن تتصون المرأة من التعرض لمثارات الشهوة، ولا ترضاه عاطفة الحياء)

وهكذا ظلت حركة اختلاط المرأة بالرجل تنمو سريعاً وتشيع إلى أن أصبحت الفتاة التي كانت أمها من نيف وثلاثين عاماً لا تستبيح نفسها الاتصال ببعض المحارم أصبحت هذه الفتاة ترى الاتصال بالرجل للسمر والتسلي حقاً من حقوقها، وليس في الحرص على ذلك من عار ولا تأثيم.

ومن المقرر أن الاختلاط بين النساء والرجال إذا قام على غير مقتضياته الضرورية الجادة، وكان مبعثه اللهو والترف، فإنه لا يلبث أن يقوض دعائم الأمم. وفي تاريخ الرومان شاهد على ذلك:

(فلما دعاهم داعي اللهو والترف إلى إخراج النساء من خدورهن ليحضرن مجالس الأنس والطرب، فخرجن خروج الفؤاد بين الأضالع، فتمكن ذلك العنصر المهاجم وهو الرجل لمحض حظ نفسه، من إتلاف أخلاقهن، وخدش طهارتهن، ورفع حيائهن حتى صرن يحضرن التياترات، ويغنين في المنتديات، وساد سلطانهن حتى صار لهن الصوت الأول في تنصيب رجال السياسة وخلعهم. فلم تلبث دولة الرومان على هذه الحالة حتى جاءها الخراب من حيث تدري ولا تدري).

الحرية وسوء فهمها

ولقد أساء الناس فهم معاني الحرية كما أساءوا فهم الاختلاط والدعوة إليه، وجر ذلك إلى عدة شرور. وليس من شك أن الحرية من مطالب النفوس عندما يشكو الناس من نظم اجتماعية تحول بينهم وبين الحقوق الفطرية التي وهبت لهم لتأدية رسالتهم في العمران. وقد ينزع الطير المحبوس لحريته، ويحن للهواء الطلق والأجواء الواسعة، لأن في الحبس تعطيلاً لأجنحته التي سواها الله للطيران، وتتدرج بممارسته لكمال وظيفتها. وقد ينزع الشعب المقهور للحرية التي ضيقها عليه القاهرون لينعم بعزته القومية المسيطرة عليه، ويطمئن إلى عاداته وآماله المحببة إليه، ويستغل ثروة بلاده ونتائج كسبه ومسعاه. وقد يطلب المتبادلون المنافع في أسواق التجارة حرية البيع والشراء ليجد كل من الطالب والعارض ما تتحقق به حاجته ومصلحته وأجره. وقد يهيم المؤلف والكاتب والخطيب حين يصدقون بطلب الحرية لاعتقادهم أن في دعوتهم عوناً للخير والحق. وعلى الجملة قد تطلب الحرية كأداة صالحة يستعين بها المرء لأغراضه العليا من الخير والكمال. فما هي إذن تلك الأغراض العليا التي يقصد النساء إليها ويتخذن من الحرية لها أداة صالحة؟

أما إذا كان طلب الحرية ليصبن من العلم ما يصقل نفوسهن ويقوم أخلاقهن، فلا يمانع في ذلك أحد؛ فطلب العلم الذي تتكمل به النفس فريضة على الناس جميعاً. وإذا كان الباعث على طلب الحرية هو القيام بما ينتفع به المجتمع حين يحتاج لنشاط نسائه، فليس من ينكر عليهن تلك الحرية حين يقتضيها الحال وتدعو إليها الظروف. لكن إذا طلبت المرأة حريتها لغير ما ينفع، كما لو أرادت أن تلبى داعي النزق لتلهو بمخالطة اللاهين، وكما لو اتخذت من الحرية ما يستخدم لهجران بيتها لتأنس بالملاهي والمزارات والتسكع في الأسواق، وكما لو أرادت أن تتخذ من الحرية مطية للتبرج

رغبة في الزهو بنفسها والغرور بزينتها، فليس من أحد رشيد يرضي عن حرية تركب للعبث والشطط.

لقد أبيح للكثرة من نساء الغرب تمشياً مع سوء فهم الحرية أن يتعرفن بمن شئن من الناس ويختلطن بالرجال بمحض اختيارهن حينما يشأن طوعاً لحقهن في الحرية، أو اعتماداً على ثقتهن الموهومة بأنفسهن؛ وقد يحاكيهن في ذلك بعض نسائنا في هذا العصر، وفي بعض الطبقات مطوحات بأنفسهن بعيداً عن مألوف العرف المصري والإسلامي، غير مكترثات بما قد يجر إليه هذا الإمعان في الاختلاط من مفاسد خلقية ومن أثر سيئ في بنية الأسر

وفي تقدم المجتمع وكيان الدولة. وفي الحق أن هذا التجديد المروع في عادات نسائنا، هو أشد ما يخشى أثره في أمة كأمتنا ما زالت في طورها الحاضر تحبو في السبيل الموصلة لعظمة الأمم.

فإذا كان قد أصاب دولة الرومان ما أصابها من الضعف عند التوسع في الاختلاط المفسد بين الرجال والنساء، وعند التوسع في إطلاق حريتهن، فإن مثل هذا الاختلاط المنحرف كان له أكبر الأثر في إضعاف بعض الأمم الغربية المعروفة في العصر الحديث حين خبت ثقافتها، وهزل إنتاجها الأدبي المعاصر، وانحلت قوة المقاومة منها عند الجهاد والكفاح الحيوي.

(البقية في العدد القادم)

منصور فهمي

الأندية العربية في العراق

للدكتور زكي مبارك

تمهيد - حفلات القبول - السهرات الصحفية بين القاهرة وبغداد - نادي المعارف - نادي المثنى - نادي الشبان المسلمين - نادي الهداية الإسلامية - النادي العسكري - نادي البصرة - نادي الجزيرة - الرابطة العلمية والأدبية بالنجف - نادي القلم العراقي.

تمهيد

حين زرت بغداد للمرة الثانية سألت معالي الدكتور سامي شوكت عن منزل أخيه الدكتور صائب شوكت فقال: (إنه يقيم في شارع المرحوم أبي نؤاس) وقد فخم كلمة (المرحوم) ليبرز معنى الدعابة في تعبيره الطريف.

والمرحوم أبو نؤاس يحدثنا في خمرياته أنه كان يجد الحانات مغلقة الأبواب، وأنه كان ينادي أهلها من وراء الحجرات ليسعفوه بالشراب وأدوات الشراب، وللشراب أدوات مختلفات الألوان.

وقد سمعت أن حانات بغداد لا تزال على عهدها القديم: فهي تغلق بعد مضي ساعات قلائل من صدر الليل، وتحوج قاصديها إلى قرع الأبواب، برفق أو بعنف، وفقاً لظرف الزمان وظرف المكان، فلكل محلة في بغداد ظروف.

ماذا أريد أن أقول؟

أنا أريد القول بأن تقاليد العراقيين في القديم والحديث توجب أن تكون سهراتهم في البيوت، على نحو ما كانت الحال في مصر إلى عهد قريب، ويشهد بقوة تلك التقاليد إغلاق الحانات في صدر الليل، وسهرات البيوت في العراق القديم وجدت خلفاً سعيداً هو سهرات الأندية في العراق الحديث.

فكيف الحال هنالك؟ وهل بقى للمنازل حظ بجانب الأندية الأدبية؟

حفلات القبول

في العراق ما يسعى (يوم القبول) وهو ما نسميه في مصر (يوم الاستقبال) وهو يوم من أيام الأسبوع ينتظر فيه الرجل زائريه في الصباح أو في المساء: فمعالي السيد محمود صبحي الدفتري يستقبل زائريه في صباح الجمعة، وهو صباحية جميلة يتلاقى فيها أعيان أهل الأدب في بغداد، ولها تأثير شديد في توجيه الحياة الأدبية والاجتماعية.

ومعالي الشيخ محمد رضا الشبيبي يستقبل زائريه في مساء الخميس، وقد يتلطف باستقبال زائريه في كل مساء، لأنه يقيم بضاحية نائية تسمى (الزوية) وله على شط دجلة ناد جميل يشرح الصدور، ويؤنس العيون، وفي ذلك النادي تثار مشكلات متصلة

بالعلوم والآداب والفنون، وتسمع فيه أغاريد (أبى كلثوم الوفدي) وهو الشاعر المفتون بأغاني أم كلثوم وأخبار الوفد المصري، هو السيد باقر الشبيبي الذي يحب مصر أكثر مما يحبها المصريون أعزه الله وأدام عليه نعمة الوفاء.

وخلاصة القول أن لأكثر أهل العراق أندية تقام في البيوت أيام القبول وهي أندية توجه الحياة الأدبية والاجتماعية والسياسية وتسير بالمجتمع العراقي إلى غايات فيها القريب والبعيد، وقد تكون لها صلة بما يظهر في الجو العراقي من شؤون وشجون، فالرجال هنالك لا يكفون عن مراقبة الاتجاهات المحلية إلا في أندر الأحايين.

السهرات الصحفية

وبجانب حفلات القبول تقام سهرات الصحفيين في دور الجرائد والمجلات، وهي سهرات فاتنة إلى أبعد الحدود. وهل أنسى سهراتي في إدارة جريدة (العراق) وجريدة (البلاد)؟ وهل أنسى أن إخواني في جريدة (الهدف) كانوا يمدون روحي بأكواب الصفاء؟ وهل أنسى أن كؤوس الشاي في جريدة (بغداد) كانت أطيب من كؤوس الصهباء؟

الصحفيون في العراق يذكرون بإخوانهم في مصر من حيث الجاذبية وخفة الروح، وأنديتهم في جرائدهم تذكر بأنديتنا في جرائدنا، فما ينسى أحد كيف كان النادي الأدبي في جريدة (الجهاد) وكيف يكون النادي الأدبي في جريدة (الأهرام) وجريدة (المصري) وجريدة (السياسة) وإن امتزج نادي (السياسة) بنادي الأحرار الدستوريين. وهل كانت (ندوة الدستور) إلا ندوة أدبية قليلة الأمثال؟

إن الأنس الذي يجده من يسمر بدار (الرسالة) أو دار (الأهرام) له نظائر فتانة في دار (العراق) أو دار (البلاد)

وكما نجد في سهرات الصحافة المصرية أقطاب الرجال في أكثر الميادين، نجد في سهرات الصحافة العراقية أقطاب الرجال في الأدب والسياسة والاجتماع.

وإذا صح للمنفلوطي أن يسجل أن النادي الأدبي في جريدة (المؤيد) خلق أكابر الباحثين فإنه يصح لنا أن نسجل أن الأندية الصحفية في مصر والشام والعراق سيكون لها فضل عظيم في تكوين الجيل الجديد.

نادي المعارف

وأنتقل إلى الحديث عن الأندية الأدبية فأقول:

أول ناد أدبي عرفته في بغداد هو نادي المعارف، والمعتمد لهذا النادي هو السيد رشيد العبيدي، وهو أديب عراقي تخرج في مصر بمدرسة دار العلوم، وهو زميل السيد حسين بستانة، إليه والى من تخرجوا في دار العلوم أقدم أطيب التحيات، فهم سفراء مصر في العراق.

ونادي المعارف هو نادي المعلمين، وفيه شربت أول كأس من ماء دجلة، وفيه كنت ألقى من يسألون عني في مساء كل خميس.

في نادي المعارف يلتقي المعلمون كل يوم، فيقرءون الجرائد والمجلات، ويتجاذبون أطراف الأحاديث، ويستعدون لاستقبال من يفد على بغداد من رجال العلوم والآداب والفنون.

فإن قلت إن (نادي المعارف) في بغداد له تأثير في توجيه الحياة الأدبية فأنت صادق كل الصدق، لأنه موصول الأواصر بأكثر البلاد العربية، ولأن رجاله من أكابر المدرسين، والمدرسون هم المصلحون الأوائل في جميع الشعوب.

نادي المثنى

ونادي المثنى هو نادي العروبة، ومعتمده هو الدكتور صائب شوكت، ولهذا النادي حفلات أسبوعية لاستماع المحاضرات ومجاذبة الأحاديث، ومن أعضائه السيد محمد مهدي كبة والدكتور عبد المجيد القصاب والسيد عبد المجيد محمود، وقد تفضل أعضاء هذا النادي فمنحوني (عضوية الشرف)، والذي وصلني بهم هو تلميذي القديم السيد جلال الأورفه لي، ذكره الله بكل صالحة، وأكرمني بدوام نعمته عليه، فهذا المحامي النابغ كان السبب في أن أقضي سهرات جميلة بقصر صاحب السمو الأمير عبد الإله قبل أن يصير وصياً على عرش العراق.

نادي الشبان المسلمين
هو ناد يقوم بالكرخ في دار جمعية الشبان المسلمين، وهو ناد خفيف الروح، وتقام به سهرات مصقولة الحواشي، وفيه سمعت محاضرة جيدة للأستاذ محمد بهجة الأثري، وهو شاعر مجيد يعرفه قراء الرسالة، وله صداقات متينة مع كثير من الأدباء الكبار في مختلف البلاد العربية. وكانت له مطارحة أدبية مع الأستاذ الزيات سجلها في كتيب لطيف. وقد عرفته أول مرة حين دعاني سعادة الأستاذ عبد القادر الكيلاني للتسليم عليه في دار المفوضية العراقية بالقاهرة، والسيد عبد القادر هو اليوم عراقي له دار مصرية في بغداد، وهو النموذج الحق للذاتية العربية والإسلامية، أدام الله نعمة التوفيق.
نادي الهداية الإسلامية
لم أزر هذا النادي، وإنما رأيت آثاره الجميلة في إحياء المواسم الإسلامية، وله مجلة باسمه يديرها الأستاذ الطائي، ومن أعاظم رجاله الأستاذ طه الراوي، وهو رجل عظيم لا أمل ولن أمل من الثناء عليه، بعد أن رأيت دموعه تنحدر يوم أطلق الرصاص على بعض الأساتذة المصريين في بغداد.
وطه الراوي أستاذ مخضرم تزود من الثقافة الدينية والثقافة المدنية، وهو من أقدر الناس على ضبط النفس، فما تسمع منه كلمة تشوك خصومه في محضر أو مغيب. ويوم تفكر مصر في مبادلة الأساتذة سيكون من واجبي أن أقترح استقدامه للتدريس في كلية اللغة العربية أو دار العلوم أو كلية الآداب.
فمتى تفكر مصر في هذا النظام ليتعارف المصريون والعراقيون بدون التعرض للتكاليف
المالية؟
والمهم أن أسجل أن هذه الجمعية لها مجلة تنشر الثقافة الدينية والأدبية كالجمعية الشبان المسلمين مجلة تسمى (العالم الإسلامي) ولهاتين المجلتين تأثير في تكوين الأذواق وتهذيب النفوس، وإن كنت لا أدري ما صارتا إليه بعد أن حرمت الاستصباح بظلام الليل في بغداد.
النادي العسكري
هو نادي الضباط، وهو ناد له في ذهن الأستاذ الزيات تاريخ. فقد قال فيه كلمة لن ينساها البغداديون، فما هي تلك الكلمة؟ أظنه قال أنه كان يسمع فيه صوت السكون، فما استطعت الاتصال به عند كتابة هذا الحديث فأعرف بالضبط ماذا قال، لأني شرعت في كتابة هذا الحديث وأنا بغبار السفر بعد الرجوع من بغداد، بل أسوان.
وفي النادي العسكري سمعت نكتة عراقية: صحبني إليه رفيقان: هما السيد صادق الوكيل، والسيد جواد الشهر ستاني، وأراد السيد جواد أن يدلني على الطريق، فقال السيد صادق: لن يحتاج الدكتور مبارك إلى دليل عند الدخول، ولكن سيحتاج إلى دليل عند الخروج!
فهل كان يعرف هذا الشقي أن نشوة الأسمار والأحاديث ستحوجني بعد السهرة إلى السؤال عن الطريق؟
في النادي العسكري يسهر جماعات من ضباط الجيش العراقي وهم رجال على جانب من العلم والأدب والوطنية، وفيهم السيد مجيد الهاشمي، وهو رجل منوع المواهب، وله دراية بكثير من فنون المعارف والآداب، وهو من صلات الوصل بين مصر والعراق، لأنه موصول القلب والعقل بأكثر ما يصدر عن وادي النيل.
نادي البصرة
هو مجتمع أهل الفضل بوطن (الجاحظ) و (إخوان الصفاء)، ولو طالت إقامتي بالبصرة لاستطعت تسجيل ما به من خصائص تمثل ما عند أهل الجنوب من شمائل بيض، فأهل البصرة بشهادة جميع أهل العراق يمتازون باللطف والوداعة والكرم والجود، وقد سمعت عن السيد الشمخاني أحاديث تذكر بأخبار معن بن زائدة الشيباني، وآخر ما سمعت هو ما
قرأت في جريدة الأستاذ عبود الكرخي عن أخبار السيد الشمخاني في مواسم الصيد.
نادي الجزيرة
هو منتدى أهل الفضل بالموصل، ومعتمد هذا النادي هو تلميذي القديم الأستاذ

جيلمران، وهذا النادي يقع على شط دجلة وفي رحاب حديقة جميلة هي معترك العواطف بالموصل، وله تأثير شديد في وصل الأواصر الأدبية بين الأمم العربية.

الرابطة العلمية

هي أعظم جمعية أدبية بالنجف (الأشرف)، وإنما وصف النجف بالأشرف منافسة للأزهر (الشريف). ففي النجف معهد ديني يسير على أسلوب الأزهر في أكثر الشؤون، وإن لم يستطع مسايرة الأزهر في الانطباع بطابع الزمان.

والرابطة العلمية والأدبية بالنجف لها لون خاص، فأدباؤها في حكم المنعزلين عن أدباء الموصل والبصرة وبغداد، ولهم في إنشاء الشعر طريقة لا يعرفها من سكان العراق غير النجفيين، وهي طريقة تقوم على قواعد الترنيم، وعلى مثلها كان الشيخ سيد المرصفي ينشد الشعر في دروسه بالأزهر الشريف.

نادي القلم العراقي

هو تاج الأندية العراقية، أسس منذ سبع سنين أسوة بأندية القلم في كثير من أقطار العالم القديم والعالم الجديد، واختير الشاعر جميل صدقي الزهاوي رئيساً، والدكتور محمد فاضل الجمالي نائب رئيس، والدكتور متي عقراوي أميناً للصندوق، والأستاذ إبراهيم حلمي العمر كاتم أسرار.

والرئيس اليوم هو معالي الشيخ محمد رضا الشبيبي، ونائب الرئيس هو الدكتور محمد فاضل الجمالي، وأعضاؤه يزيدون على الثلاثين، وهم يختارون من بين الرجال الموسومين بالمواهب العلمية والأدبية.

ليس لهذا النادي دار، وإنما يجتمع الأعضاء من وقت إلى وقت في منازل يتوافون إليها على ميعاد، فهم اليوم في منزل الأستاذ عباس العزاوي، وهم غداً في منزل الأستاذ جعفر خياط، وهم بعد غد في منزل الأستاذ باقر الشبيبي. . . الخ. وعلى من يجتمعون في داره

أن يقدم إليهم الشاي أو المرطبات، إن اجتمعوا في العصرية، فإن اجتمعوا في المساء كان من واجبه أن يتلطف بتقديم العشاء الخفيف. ولا يجتمعون في المساء إلا إن كانت دار الداعي في مكان بعيد.

وفي كل اجتماع يلقي أحد الأعضاء مسامرة علمية أو أدبية أو اجتماعية. ثم يدور النقاش بعد استئذان الرئيس، وقد يصل النقاش إلى درجات من العنف لا يخففها إلا ضحكات الدكتور الجمالي وفكاهات الأستاذ أبى إيناس.

وأعضاء هذا النادي في غاية من الحيوية، وهم يرسلون من يمثلهم في المؤتمرات التي يقيمها نادي القلم العالمي. وقد أصدر أخيراً مجموعة نفيسة ضمنوها طوائف من المحاضرات التي ألقيت في اجتماعاتهم الدورية، وتقع هذه المجموعة في أكثر من ثلاثمائة صفحة بالقطع المتوسط، وبها رسوم لجميع من حوى هذا السفر أبحاثهم الجياد.

نجد في صدر المجموعة مقالاً علمياً عن المجريطي إمام فلاسفة الأندلس في الرياضيات والطبيعيات، وهو مقال مفصل دبجه الأستاذ محمد رضا الشبيبي. ولهذا الأستاذ الجليل بحث آخر في هذه المجموعة سماه (قصة فتح بغداد)، وهو يصور ما كان عليه المغول من القوة الحربية والسياسية يوم استطاعوا اجتياح العراق؛ ويمكن بسهولة أن نعد هذا البحث من فلسفة التاريخ.

وهنالك بحث شائق للأستاذ أحمد حامد الصراف عن (الغلاة) وهي الفرقة التي تعبد عليا وتراه خالق الكون وسر الوجود

ولنا ملاحظات على هذا البحث يضيق عنها هذا الحديث، وقد نرجع إليها بعد حين.

وفي هذه المجموعة خلاصة وافية لأعمال المؤتمر الرابع عشر لأندية القلم وقد عقد في بونيس إيرس بالأرجنتين (5 - 15 أيلول سنة 1936)، وهذه الخلاصة هي تقرير قدمه الأستاذ مجيد خدوري مندوب نادي القلم العراقي، وفي هذا التقرير إشارات إلى شؤون أدبية وفلسفية تستحق الالتفات.

ويهمني أن أوصي قراء الرسالة باقتناء هذا السفر النفيس، فهو عصارة جهود محمودة في خدمة العلوم والآداب، وهو يصور جوانب من النشاط العلمي والأدبي في بغداد.

ثم ماذا؟ ثم أجمل الغرض من هذا الحديث فأقول:

إن الآثار المدونة في الجرائد والمجلات والمطبوعات لا تمثل أعمال الأندية العراقية كل التمثيل، ففي تلك الأندية تدور مطارحات ومساجلات تفوق العد والإحصاء، وفيها تدرس أعمال الأدباء الذين يصل صرير أقلامهم إلى العراق. ولأدباء الرافدين موازين في النقد الأدبي لا تخلو من تحري الدقة والعدل، وهم يعرفون من أخبارنا الأدبية كل شيء، ولا تغيب عنهم مراميناً إلا في النادر من الأحيان، كأن يصدقوا أقوال المصريين بعضهم في بعض، وما دروا أن تهاجي الصحف المصرية باب من الرياضة على إجادة التعبير في مختلف الأغراض.

والظاهر أني مضطر إلى تذكير أدباء مصر بأنهم لا يكتبون لأنفسهم، وإنما يكتبون لأقطار كثيرة، وتلك الأقطار قد يغيب عنها غرام المصريين بالنكتة والمزاح، فما ترسله على سبيل الفكاهة قد يظن من الحقائق، ثم يؤول أسوأ التأويل.

أما بعد فهل يرى القراء أني دللتهم على مظاهر الحيوية الأدبية في أرجاء العراق؟ إنني أوجزت القول عن الأندية الأدبية لأدخر الفرص للحديث عن رجال الصحافة وقادة الفكر في تلك البلاد، فما أحوال الصحافة العراقية؟

سأرى ويرى معي القراء كيف تجول الأقلام وتصول في وطن دجلة والفرات، على شرط أن يرفع الحجاب بيني وبين زملائي هناك، فلا يقال إنني أخرج على آداب الصداقة والأخوة حين انتقل من الحمد إلى الملام. وهل أذكر أهل العراق بالسوء إلا مصانعة للكاشحين والحاقدين؟

كلانا مُظهِرٌ للناس بُغضاً ... وكلٌّ عند صاحبه مكينُ
تخبَرنا العيونُ بما أردنا ... وفي القلبين ثَم هوَى دفين

زكي مبارك
عضو نادي القلم العراقي

في العقد - 6
لأستاذ جليل
هند بنة أسماء (ص 372) - 45
بإبراهيم (ص 99)
لا ستر الله عليّ إذاً ذنبي (ص 35)

كان خالد بن الوليد يسير في الصفوف يذمر الناس ويقول: يأهل الإسلام، :(ص 117) إن الصبر عز، وإن الفشل عجز، وأن مع الصبر النصر.

قلت: أراد محققو (العقد) أن تظهر (ابنة، وإذن، ويا إبراهيم، ويا أهل) كما رأيت استناداً إلى بعض مؤلفات في (الإملاء) على انهم لم يعملوا في كثير من الألفاظ بما جاء فيها.

وللفظة (ابنة) بين علمين في (أدب الكتاب) لابن قتيبة قول يخالف غيره، وهو هذا: (وتكتب هذه هند ابنة فلان بالألف وبالهاء، فإذا أسقطت الألف كتبت هذه هند بنت فلان بالتاء)

وفي (الاقتضاب في شرح أدب الكتاب) لابن السيد البطليوسي بحث في إذن وغيرها جدير بالنشر وهو هذا: (قد اختلف الناس في إذن كيف ينبغي أن تكتب، فرأى بعضهم أن تكتب بالنون على كل حال، وهو رأي أبي العباس المبرد. ورأى قوم أن تكتب بالألف على كل حال، وهو رأى المازني ورأى القراء أن تكتب بالنون إذا كانت عاملة وبالألف إذا كانت ملغاة. وأحسن الأقوال فيها قول المبرد. لأن نون إذن ليست بمنزلة التنوين ولا بمنزلة الخفيفة فتجري مجراها في قلبها ألفا، إنما هي أصل من نفس الكلمة، ولأنها إذا كتبت بالألف أشبهت إذا التي هي ظرف، فوقع اللبس بينهما. ونحن نجد الكتاب قد زادوا في كلمات ما ليس فيها، وحذفوا من بعضها ما هو فيها للفرق بينها وبين ما يلتبس بها في الخط. فكيف يجوز أن تكتب إذن بالألف، وذلك مؤد إلى الالتباس بإذاً؟

وقد اضطربت آراء الكتاب والنحويين في الهجاء، ولم يلتزموا فيه القياس، فزادوا في مواضع حروفاً خشية اللبس نحو واو عمرو، وألف مائة، وحذفوا في مواضع ما هو في نفس الكلمة نحو خالد ومالك، فأوقعوا اللبس بما فعلوه، لأن الألف إذا حذفت من خالد صار خلداً، وإذا حذفت من مالك صار ملكا. وجعلوا كثيراً من الحروف على صورة واحدة كالدال

والذال والجيم والحاء والخاء، وعولوا على التقط في الفرق بينها، فكان ذلك سبباً للتصحيف الواقع في الكلام. ولو جعلوا لكل حرف صورة لا تشبه صورة صاحبه كما فعل سائر الأمم، لكان أوضح للمعاني وأقل للالتباس والتصحيف. ولذلك صار التصحيف في اللسان العربي أكثر منه في سائر الألسنة. . .)

قلت: أصاب ابن السيد في بعض ما قال، وأشط في بعض و (ألقى الشيطان في أمنيته. . .). وإن الإعجام ولا سيما في التنقيط، والعمل بأقوال أئمة في الإملاء مسهلة، وعلامات الترقيم، وشيئاً من التيسير لا يضير. . . في كل ذلك مرغب البطليوسي وأمثاله في هذا العصر من مستصعبي الحروف العربية وأكثر من مطلوبهم. والحروف العربية والحروف الفرنجية كلها من جنس واحد، كما ذكر ذلك في (الرسالة) رقم 226 ص 1781. وليست المشكلة ولا البلية في الحرف، ولكن في الانحراف. . .

46 - (ص 360):

الوحي بين بني البنات وبينكم ... قَطع الخصامَ فلات حين خصام

قلت: قطع الخصام، والجملة خبر الوحي، وهذا ما يعنيه الشاعر المستجدي، وإن كان لذاك الشكل وجه. والبيت في قصيدة من أشهر قصائد (التملق) وفحواها أن الله أعطى العباسيين لا العلويين الفاطميين (إمامة) المسلمين وسياسة دنياهم كيف؟ ولماذا؟

مروان بن أبي حفصة لا يسأل عن هذا (الإنطاء)، ولا يدري لماذا؟ لا يبحث عن كيفية ولا سببية، ولا يهمه عباسية ولا علوية، و (بيت القصيدة) عنده هو تلك المنقوشة المسجدية واللينية

(وعلى المنقوش داروا)

وفي (الإسلام الصحيح) القول الحق الصريح في الإمامة وفي أمور ذات بال.

47 - قال عيسى بن موسى: لما وجهني المنصور إلى المدينة لمحاربة بني (ص 158): عبد الله بن الحسن. . .

قلت في طبعات العقد السابقة: لمحاربة عبد الله بن الحسن، وفي هذا القول خطأ، فزاد محققو الكتاب محسنين الكلمة (بني) وزيادة (ابني) أوفق؛ فالثائرون هما: محمد (النفس الزكية) وأخوه إبراهيم ابنا عبد الله بن الحسن.

48 - ص 66. . . قال أبو جعفر لابن أبي ذئب: ما تقول في بني فلان؟ قال: أشرار من أهل بيت أشرار. قالوا: اسأله يا أمير المؤمنين عن الحسن بن زيد - وكان عامله على المدينة - قال: ما تقول في الحسن بن زيد؟ قال: يأخذ (بالإحنة) ويقضي بالهوى. فقال الحسن: يا أمير المؤمنين، والله لو سألته عن نفسك لرماك بداهية أو وصفك بشر. قال: ما تقول في؟ قال: أعفني. قال: لابد أن تقول؛ قال: لا تعدل في الرعية، ولا تقسم بالسوية. قال: فتغير وجه أبي جعفر؛ فقال إبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي صاحب الموصل: طهرني بدمه يا أمير المؤمنين، قال: اقعد يا بني، فليس في دم رجل يشهد أن لا اله إلا الله طهور.

وجاء في الشرح في تعليقة (بالإحنة): كذا في 1. والذي في سائر الأصول: (بما لا يحققه)، والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين.

قلت: الإحنة الحقد، والغضب الطارئ من الحقد. والظن أن (بالإحنة) هي (الرشا)، ولا يستبعد هذا في باب التبديل والتحريف والتصحيف، وما بذ (العقد) بسائر الكتب بكل ذلك من شيء قليل. . . والرجل يسجع، والرشا والهوى يتفقان. . . ووصفه العامل بأخذ الرشا أهون خطباً من ذلك (التقريظ) الذي لطم به وجه الخليفة. . . وهو الخليفة.

48 - قال سابق البلوى (ص 250):

وداهن إذا ما خفت يوماً مسلطاً ... عليك، ولن يحتال من لا يداهن

قلت: أظن أنه سابق البربري كما في حماسة البحتري وشرح المقامات للشريشي. وفي التاج: (سابق بن عبد الله البرقي المعروف بالبربري، روى عن أبى حنيفة رحمه الله وعن طبقته، مشهور عندهم) وروى البحتري له في حماسته هذا البيت الفذ:

وفي البحث قدماً والسؤال لذي العمى ... شفاء، وأشقى منهما ما تعاين

وقد يكون هو وبيت العقد من قصيدة واحدة، وروى الشريشي هذين البيتين لسابق البربري:

فحتى متى تلهو بمنزل باطل ... كأنك فيه ثابت الأصل قاطن

وتجمع ما لا تأكل الدهر دائباً ... كأنك في الدنيا لغيرك خازن
49 - (ص 252) قال ابن أخت تأبط شرا:
مطرق يرشح موتاكما ... أطرق أفعى ينفث السم صلّ
قلت:
مطرق يرشح موتاكما أطرق أفعى ينفث السم صلّ
وقافية البيت مطلقة، والتشديد غير جائز ولو كانت مقيدة، والبيت من قصيدة تنسب إلى تأبط شراً والى ابن أخته وكلاهما من الأسرة الخلفية. . . وقد نقل (جوته) معانيها نظماً إلى الجرمانية وسماها نشيد الانتقام، وسأنشرها وكلمة موجزة في شاعر الجرمان الأعظم
50 - (ص 218) كان رجل من أهل الكوفة قد بلغه عن رجل من أهل السلطان أنه . . . يعرض ضيعة له بواسط في مغرم لزمه للخليفة، فحمل وكيلاً له على بغل وأترع له خرجاً بدنانير وقال له: اذهب إلى واسط
قلت: بواسط. . . إلى واسط
قال (الكتاب): وأما واسط فالتذكير والصرف أكثر، وإنما سمى واسطاً لأنه مكان وسط بين البصرة والكوفة؛ فلوا أرادوا التأنيث قالوا واسطة، ومن العرب من يجعلها اسم أرض فلا يصرف.
في معجم البلدان: قال أبو حاتم: واسط التي بنجد والجزيرة تصرف ولا تصرف، وأما واسط البلد المعروف فمذكر لأنهم أرادوا بلداً واسطاً أو مكاناً واسطاً فهو منصرف على كل حال.
قالوا: وقد يذهب به مذهب البقعة والمدينة فيترك صرفه. وأنشد سيبويه في ترك الصرف:
منهن أيام صدق قد عرفت بها ... أيام واسط والأيام من هجرا
ولقائل أن يقول: أنه لم يرد واسط هذه فيرجع إلى ما قاله أبو حاتم:
51 - (ص 370)
إذا ما أبى شيئاً مضى كالذي أبى ... وإن قال إني فاعل فهو فاعل
وجاء في الشرح: في الأصول والأمالي في الموضعين (أني) وهو تصحيف
قلت: في طبعة الكامل في التاريخ لابن الأثير مثل رواية الأمالي والأصول، ورواية (العقد) هنا أفضل. وفي تاريخ الطبري (ج 9ص 209)
إذا ما أتى شيئاً مضى كالذي أبى ... وإن قال إني فاعل فهو فاعل
وإن ثبتت هذه الرواية فالمعنى أنه إن قال فعل، وتصميمه على ما يأتيه ومضيه فيه كإبائه ما يأباه كما قال:
أبى لما آبى سريع مبانء ... في كل نفس تنتحي في مسرتي
52 - (ص 142)
أريد حياته ويريد قتى ... عذيرك من خليك من مراد
قلت: البيت في قصيدة لعمرو بن معد يكرب. وروايته في كتاب سيبويه والكاسر والطبري والخزانة وغيرها: (أريد حباءه)، وكان أحد الفضلاء خطأ في (الرسالة) أريد حياته. وهي رواية في البيت، ففي شرح شواهد الكتاب للشنتمري: (ويروى أريد حياته) وفي الخزانة للبغدادي: (ويروى أريد حياته بلفظ ضد الممات) فلا خطأ هناك.
في القول ذي الرقم 5 لسنة 401 ص 292) قلت:
وعذر جمع عذير وقد جاء في الشعر مخففاً. وقد استندت في أمر التخفيف إلى الصحاح وغيره ثم رجعت في المخصص (ج 13 ص 82): والعذير ما يخلو به لإنسان ويلزمه، والعذير أيضاً الحال منه، وكل ما يعذر عليه عذير والجمع عذر، وأنشد:
(وقد أعذرتني في صلالكم العذر)
احتاج إلى تخفيفه، هذا قول أبي عبده وهو خطأ، بل التخفيف جاء على اللغة التميمية
وقلت في (حل في مالي النزر: حل في مالنا النذر. وهي رواية الديوان وغيره، ثم وجدت في الخزانة (ج 2 ص 164) حل في مالنا النزر أي القلة
وفي القول ذي الرقم (25) الرسالة (402 ص 317) طارت قيس في (التاج) والجملة هي هذه: في التاج: القطامي ويضم، الفتح لقيس وسائر العرب يضمون.
ويضاف إلى ما ذكره العلامة الأستاذ الأثري وما ذكرته في شأن الفتح والضم في

القطامي هذا القول في (تهذيب إصلاح المنطق) ج 1ص 186 في باب الفعل والفعال: (وقطامي وقطامي للصقر)، وهذا القول في خزانة البغدادي (ج 1 ص 392):. . . وله (أي عمير بن شييم) لقبان، أحدهما القطامي منقول من الصقر، يقال له قطامي بفتح القاف وضمها واللقب الآخر صريع الغواني، قال النطاح: أول من سمى صريع الغواني القطامي بقوله:

صريع غوان راقهن ورقنه ... لدن شبَّ حتى شاب سود الذوائب

وصريع الغواني لقب مسلم بن الوليد أيضاً لقبه هارون الرشيد بقوله:

هل العيش إلا أن تروح مع الصبا ... وتغدو صريع الكأس والأعين النجل

قلت: أنا أنشد:

هل العيش إلا أن تروح أخاعُلا ... وتغدو خدينَ النُّبلِ والعلمِ والفضلِ

(* * *)

يكفي التراث الشرقي لنضج الحياة العقلية عند الشرقيين

للأستاذ عباس محمود العقاد

جرت في هذا المعنى وضده مناظرة في كلية الآداب بين الأستاذ العقاد وفريق آخر من جهة، وبين الأستاذ الرافعي وفريق آخر من جهة أخرى. وقد نشرنا في العدد الماضي رأى الأستاذ الرافعي، وفي هذا العدد ننشر رأى الأستاذ العقاد.

حضرات الإخوان والأبناء

كان من نصيبي في مناظرة هذه الليلة أن أؤيد الرأي القائل بأن التراث الشرقي كاف لنضج الحياة العقلية عند الشرقيين.

وقبل أن أدخل في تفصيلات هذا الرأي أسال سؤالاً لا أنتظر عليه جواباً لأن جوابه معروف. وهذا السؤال هو: هل يستطيع أحد أن يقول بأن الشرق خلا من العقول الناضجة في العصور القديمة؟ هل خلا الشرق من الحياة العقلية الناضجة يوم أن كان التراث الشرقي هو التراث الذي لا تراث غيره؟

فإذا كنا لا نرى أحداً يستطيع أن يزعم ذلك فقد حكمنا بأن التراث الشرقي كاف لنضج الحياة العقلية، لأننا إذا أنكرنا هذه الحقيقة وجب أن نقول إن الشرق خلا من العقول الناضجة قديماً وحديثاً؛ وهذا ما لم يقل به أحد من الشرقيين ولا من الغربيين. وأحسب أن مناظري الفاضلين أول من يشتد في نفي هذا الزعم لو جرى به لسان في هذا المكان أو في غير هذا المكان.

وبعد فمن الواجب أولاً أن نعرف ما هو التراث الشرقي؟ ثم نعرف ما هو النضج العقلي؟ ثم نصل إلى النتيجة التي تؤدي إليها معرفتنا بهذا وذاك على وجه الدقة كما يقول الأدباء مقترحو المناظرة. . .

فإذا تكلمنا عن التراث الشرقي أو التراث الغربي خرجت من حسابنا العلوم الطبيعية التجريبية أو العلوم التي اصطلحنا على تسميتها بالعلوم الحديثة؛ لأن الحقيقة من حقائق الحرارة أو الضوء أو قوانين الحركة أو خصائص الأجسام - هي حقيقة ثابتة في جميع الجهات الأصلية شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً بلا اختلاف. أو هي حقيقة إنسانية عالمية تتقرر في لندن كما تتقرر في القاهرة وبغداد، ولا يكشفها الإنسان حين يكشفها باعتباره شرقياً أو غربياً، أو باعتباره مولوداً في الشمال أو الجنوب، ولكنه يخترعها باعتباره إنساناً مدركاً لما حوله حيث كان. وإذا اتفق أن كثيراً من هذه الحقائق العالمية قد كشفها أناس من الغرب فليس معنى ذلك أنها خاصة بالغرب وأهله؛ إذ هي تتمة للحقائق الطبيعية التي سبقتها منذ بداية عهد الإنسان بالمعرفة، فهي جزء من التراث الإنساني لا مراء.

ويخلص لنا من ذلك أن التراث الشرقي هو التراث الذي عليه صبغة الشرق وينتمي إليه ولا يمكن أن ينتمي إلى غيره، وإن التراث الغربي هو التراث الذي عليه صبغة الغرب وينتمي إليه ولا يمكن كذلك أن ينتمي إلى غيره. أما العلوم الطبيعية فليست عليها صبغة شرقية ولا غربية، ولا مانع من أن يكون الإنسان شرقي التراث وإن يكون ملماً بالعلوم الطبيعية في وقت واحد. وعلى هذا كيف يتطرق إلينا الشك في أن التراث الشرقي كاف لنضج الحياة العقلية عند ذويه؟ بل إذا كان التراث الشرقي وحده

قد أخرج عقولاً ناضجة في جميع العصور، فكيف لا يخرج هذه العقول إذا جاز أن يقترب بالعلم الطبيعي وما إليه من تراث الإنسان؟

شيء آخر يجب أن يخرج من حسابنا إذا تكلمنا عن تراث الشرقيين وتراث الغربيين، ونعني هنا المعارف الرياضية من هندسة وحساب وما هو من قبيل هندسة والحساب، فإن الحقيقة الرياضية لا تتغير بتغير الزمان والمكان ولا بتغير الأمم والأفراد. وليس من شأنها أن تصطبغ بالصبغة الشخصية أو بالصبغة القومية حيث كانت، بل هي لا تتوقف على المشاهدات والمحسوسات بمقدار ما تتوقف على قوانين العقل المجرد المعزول عن خصائص الأوطان والأزمان. . . وأين هي الحقيقة الرياضية التي يصح على أي وجه من الوجوه أن تسمى حقيقة يونانية أو مصرية أو صينية؟ وأين هي الرياضة الشرقية أو الرياضة الغربية؟ إذا قيل أن هذا قانون رياضي فقد قيل هذا قانون إنساني يمسكه الشرقيون والغربيون على السواء، وامتنع أن يتعارض هذا وما يسمى تراثاً للشرقيين أو للغربيين.

ومما تقدم يتبين لنا أن التراث الشرقي يجتمع مع العلم الطبيعي والعلم الرياضي في بيئة واحدة. ونعود فنقول مرة أخرى: إن أحداً لم ينكر أن العقول نضجت في الشرق على تراثه دون غيره، فكيف ينكر أحد أنها قابلة للنضج إذا جاز أن تضم إليه العلوم الطبيعية والعلوم الرياضية؟

ونصل بعد هذا إلى النضج العقلي لنقول في التعريف به كلمة وجيزة تؤكد معنى ما قدمناه.

فالعقل الناضج كجميع الملكات الناضجة والحواس الصحيحة إنما يتم له النضج بالمرانة والمزاولة أيا كان الشيء الذي تقع فيه المرانة والمزاولة.

فحاسة البصر مثلاً تستوفي حظها من القوة بالنظر إلى الأشجار كما تستوفي حظها من القوة بالنظر إلى الصخور.

وعضلات الجسم تقوى بحمل النحاس كما تقوى بحمل الحديد أو الفضة أو الذهب أو الجواهر الكريمة.

والعقل يستوفي نضجه بأن يعمل ويفكر ويبحث فيما يراه ويحيط به، أيا كانت المسائل التي يتناولها بتفكيره وبحثه.

فالمهم في تصحيح الملكات والقوى العقلية أو الجسدية إنما هو في العمل والمرانة، لا في الموضوعات والمواد التي يتناولها عمل العامل ومرانة المتمرن؛ إذ هي في المنزلة الثانية من الأهمية. وقد يقوى النظر في الصحراء وهي خاوية أشد من قوته في المدن وهي آهلة حافلة، ما دام النظر في الصحراء عاملاً لا يكف عن الرؤية والانتباه.

ومؤدى ذلك أن المهم في إنضاج العقل الشرقي أن يعمل ولا يكف عن العمل، سواء كان موضوعه تراث الشرقيين أو تراث الغربيين.

فإذا عمل فهو ناضج، وإذا وجد مادة التفكير فهو مفكر، وإذا امتلأ بالإدراك فهو مدرك: أيا كان موضوع تفكيره وإدراكه

والمثل المحسوس هنا أحق بالتقرير من الآراء العامة والأحكام المطلقة، فلنضرب الأمثلة بالأسماء المعروفة ولا نقصر القول على رأي مقنع أو حكم مسلم البرهان.

فما القول في هارون الرشيد؟ وما القول في ابن خلدون؟ وما القول في جمال الدين الأفغاني؛ وما القول فيمن سبقهم أو لحق بهم من (الناضجين) الأفذاذ؟

أكان هارون الرشيد حاكماً ناضج العقل أو لم يكن كذلك؟ وابن خلدون - ألم يكن مفكراً تاريخياً للتفكير يقل نظيره في السابقين واللاحقين؟

وهكذا يقال في جمال الدين الأفغاني وكل دراسته شرقية، وكل ما استفاده من قليل الثقافة الإفرنجية لم يؤثر في تكوين عقله ولا في طبيعة التراث الشرقي الذي نشأ عليه. فهم جميعاً أنضج عقلاً من التلميذ الحديث الذي يعلم من العلوم العصرية ما لم يكونوا يعلمون.

هؤلاء ناضجون لا مراء، وكانت لهم ومن حولهم حياة عقلية ناضجة لا مراء، وكان التراث الشرقي هو التراث الذي عولوا عليه بغير التباس ولا مناقضة، إذا جاز الالتباس أو جازت المناقضة في شؤون الرجال النوابغ الذين يعيشون معنا الآن.

والواقع - أيها الإخوان والأبناء الأعزاء - أن الشرقيين لا يمكن أن تنضج لهم حياة عقلية

في غير تراثهم الذي ينتمي إليهم ويصطبغ بصبغتهم.
فغير ممكن كما أسلفنا أن نجعل العلم الطبيعي تراثاً شرقياً أو غربياً بأية صفة من الصفات؛ وغير ممكن كذلك أن نجعل العلم الرياضي تراثاً ينسب إلى الشرقيين أو إلى الغربيين.
فلم يبق إذن إلا التراث الخاص بالشرقيين الذي لا يشاركهم في خصائصه مشارك من العالمين، وهو التراث المشتمل على ما لهم من أشعار ومواعظ وأمثال وحكايات وآداب وقواعد سلوك، وفي طليعته روح العقائد الدينية والحكمة النفسية والفكرية، وما يصاحب ذلك من فقه شريعة ودين.
وقد يسأل السائل في هذا المعرض: وما الرأي في الأشعار والأمثال والحكايات التي تنقل من الغربيين، وهي تراث غربي لا نزاع فيه؟
فجوابنا على هذا السؤال أن التراث الغربي الذي ينتقل إلى الشرقيين ينقسم إلى قسمين: القسم الذي يمكن أن يمتزج بحياتهم وهو من نوع تلك الحياة فلا يلبث أن يدخل في الشرق حتى يصطبغ بصبغته ويجري على سنته، ومثله في هذه الخصلة مثل التفاحة الأمريكية التي تجري في دم آكلها من المصريين: هي تفاحة أمريكية ما في ذلك خلاف؛ لكن الدم الذي يتولد منها في عروق آكلها دم مصري وليس بالدم الأمريكي أو الذي ينمى صاحبه إلى الديار الأمريكية.
وفرق بين هذه الحالة وحالة النسب الذي يخلط الدماء بالدماء ويخرج لنا سلالة لا هي إلى هنا ولا إلى هناك.
والقسم الآخر من التراث الغربي الذي ينتقل إلى الشرق هو القسم الذي لا يمتزج بحياة الشرقيين ولا يدخل لهم في عقل ولا روح. وهذا غريب عنهم وهم غريبون عنه. وحكمهم فيه حكم المتفرج العابر الذي يمر به وكلاهما باق حيث كان: هؤلاء شرقيون وذلك تراث غربي لا يدخل في عوامل النضج العقلي أو في عوامل التكوين، سواء رجعنا فيها إلى الأفراد أو إلى الشعوب.
ومعنى هذا أن الحياة العقلية إذا نضجت بين الشرقيين فهي شرقية لاحقة بالتراث الشرقي، أيا كان المصدر الذي جاءت منه أو حملت عنوانه، ولا يصح أن تنسب إلى غير الشرق إلا كما يصح أن تنسب دماؤنا إلى استراليا وأمريكا لأننا نأكل القمح الأسترالي والفاكهة الأمريكية في بعض الأوقات.
وعلى أية حال ليس لنا مناص من إحدى اثنتين: إما أن نقرر أن الشرق خلا من الحياة العقلية الناضجة في جميع العصور وهو مخالف للمعقول ومخالف لإجماع الآراء؛ وإما أن نقرر أن الشرق قد عرف الحياة العقلية الناضجة ولو في عصر واحد من عصوره، وهذا في لبابه مرادف لقولنا: إن التراث الشرقي كافٍ لنضج الحياة العقلية بين الشرقيين.

عباس محمود العقاد

الغناء والموسيقى وحالهما في مصر والغرب

للأستاذ محمد توحيد السلحدار بك

- 4 -

ثلاث الكليمات التي تقدم إيرادها هي بيان وجيز لملاحظات على الغناء والموسيقى في مصر والغرب، يلاحظها كثيرون منا، ولم يقصد بعرضها جميلة سوى لفت النظر إلى ضرورة الأخذ في إصلاح جدي يقوم من أود هذين الفنين وما يتعلق بهما عندنا. فإن استصوبها فنان محب لفنه، وأحس بقدرة على شيء من هذا الإصلاح وتهيأ له، فتوخاه ومهد سبيله، كان له فضل الابتداء والسبق في خدمة جليلة.
والذي يجمل بذوي الهمة من الفنانين هو قبل كل شيء، أن يحاولوا رفع ذلك الحب المريض من حضيض ذله الذليل، وإن يطبوه بأشعة البشاشة وروح الهشاشة لعلهم يزيلون عن قلبه تسعة وتسعين في المائة - على الأقل - من هذا الحزن الذي ران عليه، وينقذونه من طوفان دمعه السخين؛ والمجال، بعد هذا الإسعاف، واسع شاسع الأطراف: أفليس أمامهم حب الأصحاء، سعيده وشقيه؟ وسائر الأحاسيس والخوالج كنز لا يفنى. لهم أن يختاروا منه ما يسهل وصفه: كألوان العواطف الوطنية والعائلية، وكالحماسة والفرح وغيرهما؛ وفي الطبيعة جمال مشرق باسم يمرح الشباب أمامه في أحضانها ويلاعب ويداعب، ويتهكم ويغاضب، ويجالس ويؤانس، ويتراقص ويتعاشق،

ويغني ويطرب في هناء وابتهاج. كل ذلك قد لا يتعذر على الفنان الحي تصويره بمنظوم شعره ومنثوره، أو بألحانه، أو غنائه، أو موسيقاه، إن هو أن اعتمد على بصيرته وبصره، واستهدى شعوره، وراد آفاق نفسه، وطلوع وحي قلبه محترساً من تقليد سواه.

وإذا حل أن يعبر للعامة عن أمثال هذه الموضوعات بالعامية فهل يحرم أن يعبر عنها بالفصحى للصفوة المثقفة، وبالفصيحة السهلة الواضحة للخاصة المتعلمة على أن يكون إلا تجاه بها إلى التعميم؟

والمأمول أن ترجح في الغناء كفة ما كان من النثر والنظم شعراً ما دام مجرد استعمال الكلمات التي ألفها الشعراء. كالقمر والزهر والفؤاد والوداد والنيل والنخيل، لا يرد غث الكلام وسفسافه شعراً. وإن بين الناثرين والناظمين شعراء بصراء، تشعر أغانيهم بقدرة تمكنهم من الإتيان بأغان تشرفها، لولا استقرار العادة على مراعاة التقاليد التي سلطها الجهل وضعف الطبع، ولولا طلبات الملحنين والمغنين الخاضعين لأذواق الجمهور الفسيدة.

أما الملحن، فالنصيحة الخالصة له أن يوطد العزم على نبذ العادة القديمة ومقاومة التقاليد السقيمة؛ وإن يتحاشى عن نية تقليد الشرقي والغربي على حد سوى، ولا سيما التقاليد الأعمى من اقتباس عبارة صوتية معينة - مثلاً - يعجبه أسلوبها فيقحمها في لحنه غافلاً عن مدلولها، أو من مد مخصوص، أو من تعمد التحزين الخارج عن الفن، ومما إلى هذه الأمثلة.

فإن كان صادق العزم، فسبيله أن يطب نفسه أولاً من الذلة والخور والخنوع، ويشفيها من داء الحزن العضال، ومن التفجيع المقيت والعويل الثقيل؛ وإن يحررها من بدعة التخنث والتكسر والتميع، ليخلص أولاً من كل هذه العلل الوبيلة التي مكنها منه استحسان العامة وأشباه العامة. ومما يعينه على النجاة النزهة الخلوية، والرياضة البدنية، والمطالعات المنعشة، والصاحب المؤنس المفرح، وإجالة الخاطر في الموضوعات الملائمة للغرض، والإيحاء التلقائي.

والأجدى له في عمله هو أن يمعن في التفكير بادئ بدء في فحوى ما هو مقبل على تلحينه من الكلام، وإن ينظر ملياً في جمله وكلماته وحروفه، ليتبين الروح الذي أملاه، والموقف الذي يصف؛ ثم يتصور أنه هو في هذا الموقف، وأن ذلك الكلام كلامه؛ فإذا أرهف حسه، وأيقظ ملكاته، وهيأ نفسه وشعر بإيحائها وارتياحها إلى التلحين، أخذ في الترنم بالأغنية؛ ثم يكرر التغني حتى يجيء مدلول اللحن مطابقاً لمدلول الكلام المعبر عن الحال النفسية التي استعارها لنفسه هو من الموقف الموصوف بالأغنية؛ ثم يترك اللحن الذي وضعه أول وضع، ويرجع إليه مرة بعد مرة لتهذيبه وإحكامه على مقياس تلك المطابقة، لا ابتغاء جعله مشابهاً للحن آخر، أو مرضياً لذوق خاص؛ فيدع الصوت يعبر التعبير الطبيعي، ويطابق مقتضى المقام المدلول عليه بالكلام بما أنه قد تعمد اعتقاد وجوده هو في هذا المقام، واعتاد هذا الاعتقاد حتى استقر ما بفكره ونفسه في عقله الباطن.

وأما المغني، فسبيله أن يعمل في التدرب على غناء اللحن ما عمل صاحبه في إنشائه، بعد أن ينفي عن نفسه ما استطاع من ذلك الحزن المميت وتلك الذلة الساحقة، سواء أكانت تقليدية أم طبيعية؛ ولابد له من أمور منها:

أن يقضي مدة قبل مزاولة الغناء في تقوية صدره وتعميق نفسه ومده، وإلانة حباله الصوتية، والتمرن على التنفس في الغناء، حتى لا يقطع بقصر نفسه عبارة صوتية من لحن يغنيه، وحتى لا يظهر أنه يختمها ونفسه وشيك الانقطاع، لأن هذا يخدش أسلوب العبارة. ومن مقتضيات الإجادة أن يؤديها أحسن اداء، ويختمها قادراً بما في نفسه من بقية وافرة؛ ولذلك كله وأمثاله طرائق وتمرينات معروفة.

وإن يهجر الغناء إذا كان من ذوي الخنخنة، ولا يغني مزكوماً أو متخوماً، أو مخموراً. وأن يحرص في غنائه على نقاء صوته وصفائه، فلا يعرقل جريانه بمثل قلبه الياء من حرف النداء همزة لينطق آبدل يا، أو بما يشبه مأماة، وتارة عواء، أو ما يشبه عند الوقف شهقة الحمال حين يلقي حمله، أو ما يماثل توجع المريض والجريح في تصويره

ألم العاشق.
وألا يقطع صوته بالوقف إلا بالقدر الضروري لإحداث مزية، كتنبيه المستمع إلى معنى الكلمة التي يقع الوقف على آخرها
وألا يطيل غناءه مستعيناً بغناء الجوقة معه ولا يكرر ذلك كثيراً، وإذا غنى معها فلابد له من إظهار صوته على أصواتهم وأصوات معازفهم، لأن الناس إنما يريدون سماع صوته هو، وهذا غير الجوقة الغنائية؛ لكن لا ينبغي له أن يعلو بصوته إلى طبقة لا يبلغها بغير عناء، لأن أقله يعكر صفاء صوته ويزيل رواءه ويعيب غناءه وإن أطرب في الطبقة التي يقدر عليها. من أجل ذلك يجب عليه أن يتخير من الألحان والأغاني ما يلائم طبعه، وقوة صوته، ونوعه.
إن المتقدمين من أهل المدينة العربية ميزوا أصوات المغنين فقالوا مثلاً: أجش ومجلجل وكرواني؛ والغربيون يميزونها فيقولون مثلاً: باس وتينور وكونترالتو وسوبرانو؛ فلا يغني كل صوت إلا ما يلائمه من الألحان؛ وظننا أنه قد آن لنا أن نبدأ هذا التمييز مثل أصحاب الفن الصحيح.
يحسن بمن يزاول فن الإطراب أن يعتبر بهذه الملاحظات ويتحرز من الخطأ الفني ويتحاشى العيوب المشار إليها في هذه الكليمات وعن أمثالها، كعدم إخراج الحروف من
مخارجها بالدقة، وعدم لفظ الكلمة واضحة. ومن الأصوات المسموعة في مصر ما يطرب ويمكن الافتنان فيه، وبين الملحنين والعازفين مهرة ليس يستحيل عليهم التفوق على أنفسهم، وإنما المعول كل المعول على فهم حقيقة الفن ومقاصده، بدل القناعة بوسائله.
ولسنا نقول إن المسلك الذي ننصح بسلوكه يغلب الوراثة وأثر البيئة واستقرار العادة، فيغير الحال في الساعة، لكنه مهما كان شأنه فهو مؤثر، وعامل من عوامل التطور؛ أو هو كالدواء الذي يوصف لذي علة لا برء منها، فقد لا يخلو من نفع للمعلول إذ الطبائع متفاوتة والشذوذ قد يوجد في بعضها، ولأسرار الطبيعة مفاجآت، ومحاولة الاهتداء خير من الاسترسال في الضلال، وكل ما يبلغ غاية، له بداية.
هذا وإن المقدمة الموسيقية تليها التقاسيم بالمعازف، فالليالي فالموال فالأدوار، نظام لا بأس به؛ على أن تقديسه والتزامه في كل حفلة لا يوجبها الفن كما يتوهمون، بل أن تحسينه واجب. ولم لا تقام حفلات كبيرة مخصوصة بالموسيقى وحدها وهي مطربة إذا جادت، وفي البلاد ألوف العازفين والمحبين لها؟ وفي الغرب قاعات مخصوصات بها مشهورات تكتظ من المستمعين. ولم يصغرون شأن البشرف والتوشيح في حفلاتهم فلا يغنون هذا كله ولا يعزفون ذاك بأجمعه؟ ولم لا يحاول أحد منهم أن ينشئ شيئاً يماثلهما، أو يبتكر أنواعاً أخر إن استطاع؟
إن موسيقانا لم تدرك شأو غيرها إذ عجزت حتى الآن عن التصوير وليس يعقل أن التصوير مستحيل في الموسيقى الشرقية؛ لأن الموسيقى الغربية مثلها، لها سلم ومقامات ونغمات، ولها الأقيسة الزمنية والإيقاع، ولها الأساليب الصوتية تعبر بها عن الأحاسيس تعبير الأساليب البيانية؛ والأحاسيس جميعاً موطنها النفس، وشأن النفس واحد في الإنسان أينما كان؛ والموسيقيان كاللغتين العربية والفرنسية، مثلاً، اللتين فيهما المجاز والتشبيه والاستعارة والكناية والمحسنات البديعية، وأوجه البلاغة، لوحدة المصادر البشرية من الفكر والمخيلة والمشاعر، بل بينهما أوجه شبه في النحو والصرف؛ وقد كانت موسيقى الغربيين ومعازفهم بسيطة، كموسيقانا ومعازفنا، فتناولوهما بالتحسين حتى ارتقيا إلى مرتبة التصوير الذي تفوقا به منذ عرفوا تركيب الأنغام في زمن معاً، أي في إيقاع واحد، وإخراج الصوت الآلي من طبقته الضيقة، أو من الجزء الضعيف في زمنه، وإنشاء الجملة الغنائية تسمع
بعيد الجملة الأساسية في انسجام وئتلاف معها فأي شيء في الموسيقى الشرقية يمنع من تقليد هذا الفن؟ إذن لا يقول بأن التصوير مستحيل فيها إلا جهول كسول.
والرأي للمشتغلين بالغناء والموسيقى عندنا أن يجدوا في ترقيتهما معتقدين أن الموسيقى ستبلغ، أو سوف تبلغ، مرتبة التصوير العالية؛ وإذا أتجه نظرهم إلى مظنة وسيلة للترقية فتعرفوها واستخدموها ارتقوا بفنهم درجة، وطمحت أبصارهم إلى ما فوقها.

ونحن، بحمد الله، عندنا الناي كالفلوت، والفانون كالبيانو (وقد استصنع بعضهم بيانو فيه ربع المقام (إياه) فصنع)، وطبلة كطبلة، والكمان، في وسع الموسيقيين أن يستعينوا الصناع على تحقيق أغراضهم بتحسين المعازف على الوجه الملائم لما يتفرسون من وسائل الإصلاح، أو باستحداث ما يعوزهم من الآلات بدل ادعاء الابتكار والتجديد والتفوق بلا حق.

فإذا نحن أردنا أن نخرج موسيقانا من حالها البدائية، أو طورها الأول الذي ما برحت عاربة فيه، فلابد من أن نأخذ في نسج ثوب موشى لها - ثوب التصوير، وهو غير التوافق بين الألحان وأصوات المغنين.

ومتى تيسر التصوير، وتميزت أصوات المغنين بحدود طبقاتها وألوانها، وتبينت نسبتها إلى المعازف، وبدأ التلحين يوحي النفس الحرة من التقليد، الطليقة من قيد القوالب، البريئة من السرقة، أمكن أن يرتقي الغناء المسرحي بمصاحبة الموسيقى، وأن يقدم أصحاب الفن وشعراء المسرحيات إلى الجمهور أوبريت قم أوبرا - كوميك، ثم أوبرا جيدة ليس شك في أنها تطربه وتعجبه وإن لم يستسغ ما قدم إليه حتى الآن بهذا العنوان من خليط مستغرب، ومسمى يتبرأ منه اسمه.

وليتهم على الأقل يزيدون المعازف إلى ثلاثة أضعاف العدد المعتاد لكل نوع منها في الجوقة، ريثما يهتدون إلى التصوير، فإن ذلك يقوى العزيف فيحسنه فيما نرى تحسيناً متواضعاً أفضل من لا شيء، لكنه لا يكون من الإصلاح المنشود.

ألا أن الجهل والاقتصار في الاشتغال بهذه الفنون على استرزاقها لا يوصلان إلى شيء مما ينبض بها؛ ونهضتها، يوم يتحقق، إنما يكون ثمرة التطور في ضوء العلم والثقافة؛ على أن الأمة تتقدم إذا قام كل جيل من أبنائها بما عليه من حمل أعبائها مسافة على طريق

الفلاح؛ وكلما صح ذوقها، ورق ودق، يسمو مثلها الأعلى في الفن. فعلى محبي الغناء والموسيقى والتلحين، المشتغلين بالفن من شبابنا المعلم، أن يتعلموا ولو مبادئ ما في الغرب منه، وأن يكثروا من الإصغاء إلى تحف الموسيقى والغناء لأعاظم المغنين والموسيقيين الغربيين أينما وجدوا إلى ذلك سبيلاً؛ هذا إلى قراء شيء من تاريخ الموسيقى وكلام نقادها في إحدى اللغات الأجنبية، وقراءة بعض المؤلفات العربية.

لكن ذلك وحده لا يسعف وليس يكفي الآن، بل العمل المنظم في هذا الزمن المستنير هو السبيل القصد إلى الغاية، وفي مصر معاهد أهلية وحكومية للموسيقى يجب عليها أن تلتفت إلى حقيقة حال هذه الفنون عندنا، والى ما يصلح من شأنها، فذلك خير لها من أن تظل على الأيام صوراً جوفاء خاوية لا تصلح إلا لتمكين الفن السقيم الضعيف والمحافظة عليه، ويجعل بالوزارة المختصة أن تعنى بهذا الأمر.

يجب أن يحمل أرقى هذه المعاهد وأقدرها أعباء النهوض بفنونها، وإن ينشئ لذلك قسماً مخصوصاً يهتم بها من الجهة الفنية النظرية، والعلمية الثقافية؛ وأن يقوم بشؤون القسم نخبة من أصحاب الفن المولعين به لا يعينهم لوظائفهم فيه سوى مؤهلاتهم الطبيعية والفنية والثقافية وقدرتهم على ما يندبون له نخبة ممن يطمحون إلى المنزلة الرفيعة والفضل في إحياء فنونهم وإنهاضها في الشرق يرأسهم أحقهم بهذه الرئاسة، ويجب أن يقتنى القسم مكتبة ينظمها التنظيم العلمي الحديث، ويجمع فيها المطبوعات الغربية والمؤلفات الشرقية المطبوعة والخطية؛ ويبحث في كل مكان عن النصوص الشرقية الدفينة والضائعة ولو مترجمة إلى بعض اللغات الأجنبية كاللاتينية واليونانية والفارسية، إذ قد يجد فيها ما يلقى ضوءاً على فنون المتقدمين فينير المنهج للمتأخرين؛ ويشترك في المجلات الفنية، ويسترشد عند الحاجة بعض المعاهد الغربية المختصة بهداية السائل إلى جميع الكتب أو الطبعات أو النصوص في أي موضوع يعينه. ويجعل القسم بعض رجاله صلة بين جهده النظري وجهد معهده في إنتاجه العملي. ويجب أن يقوم المعهد بنوع من الإرشاد والرقابة على سائر المعاهد، وبإرسال البعثات المختارة من الناجحين في الفنون الشرقية إلى المعاهد الغربية.

ولابد، أخيرا، من التنبيه إلى آفة الغلو في بذل الثناء لكل من هب ودب من المغنين والموسيقيين، وعلى ضرر نعته بأعظم النعوت، كأن الناعت يريد إظهار شاعريته هو وبراعته البيانية فلا ينجح ببعده عن الحقيقة. ذلك يضر حقاً ولو كان بحجة التشجيع أو تمجيد الأمة والوطن حتى لكأن البلاد تنبت النبغاء في كل فتر من أرضها والعباقرة في

كل شبر؛ فإن مثل هذا الغلو في الثناء الكاذب يهزأ منه وليس من الحكمة ولا الوطنية في شيء، لأنه يغر فيعمى ويصم فيسبب الوقوف، بل التأخر بدل التقدم، وهو لا يصدر عن أهلية للتقدير، وإنما يكون في الغالب لأغراض بعيدة عن مصلحة الفن والأمة.

محمد توحيد السلحدار

من وراء المنظار

قطط وكلاب وناس!

منظر كم تمنيت بعده أن لم تقع عليه عيناي! ومع ذلك فقد لبثت دقائق كثيرة أحملق فيه وأطيل النظر، كأنما وقعت منه على فرجة تبتهج لها النفس!

في شاعر كبير من شوارع هذه المدينة العظيمة: - القاهرة عين أفريقية وملتقى الحضارتين الشرقية والغربية - وقعت على مقربة من صندوق القمامة، فإذا بي أرى في ناحية قططاً ثلاثة، وفي ناحية أخرى كلبين، وعلى قيد خطوة من هذه المخلوقات بنتين وصبيين وعجوز

وقفت أنظر. . . فيا لشناعة ما رأيت من منظر، ويا لهول ما جاشت به نفسي عن المعاني تلقاءه! وأني أعيذك أيها القارئ أن تستكثر على استشعار الهول فيما رأيت، وأن ترده إلى استغراق في العاطفة يلحق بالضعف؛ وإلا رميتك أنا بالقسوة، وعندي أن القسوة هنا - على أي حال - إنما هي شر مما تزعم من ضعف.

راحت هذه المخلوقات الآدمي منها وغير الآدمي تنبش القمامة فتمد الكلاب والقطط أرجلها الأمامية ويمد الآدميون أكفهم حتى لتكاد تلتقي تلك الأرجل وهاتيك الأيدي كأن لا فرق بينها في شيء.

وجعلت أنقل البصر من القطط إلى الكلاب ومن هذه إلى البنتين والغلامين والعجوز وأول ما برز لي من المعاني هو صورة من تنازع البقاء في هذه الدنيا لاحت بين أفراد كل فريق من جهة، ثم بين كل فريق وفريق من جهة أخرى.

كانت القطط تقوس ظهورها وتنفش شعورها وتخطف العظام إحداها من الأخرى، فإذا أرادت أن تخطف شيئاً من الكلبين دارت معركة قصيرة بين الفريقين، فإذا زجر الصبيان الكلبين والقطط في حذر وخوف، جرت القطط فتربصت على خطوتين لتعود بعد لحظة، واستعلن الشر في وجهي الكلبين، فتركهما الزاجرون من الآدميين ومضى كل إلى ما كان فيه من عمل. وكان يفرح هؤلاء التعساء من الآدميين إذا دارت المعركة بين الكلبين والقطط واستمرت لحظة طويلة، فيكبون إذ ذاك في عجلة ونشاط في التقاط ما تنكشف عنه القمامة من بقايا العظام ولقيمات الخبز وقشور الفاكهة وما إليها قبل أن يعود فيشاركهم في التقاطها أفراد الفريقين الآخرين.

وكان كل من الصبيين والبنتين والعجوز يزحم الآخر ويسابقه في نبش كومة جديدة من الكناسة فإذا عثر أحدهم على لقمة كبيرة نوعاً لاح في وجهه مثل ما يلوح في وجه الباحث عن الذهب في أرض الذهب إذا التمع في عينيه عرق من المعدن النفيس؛ ويقذف الصبي باللقمة في حجره وقد زادها قيمة عنده أنها خلصت له من قرنائه ومن القطط الثلاثة ومن الكلبين.

ومرت بي أثناء ذلك بعض السيارات الفخمة تحمل أنماطاً من سراة القوم، ومن هؤلاء من لاحظت أن عيونهم رأت ما رأت عيناي إلى جوار صندوق القمامة، ولكني لم أتبين في وجه من هاتيك الوجوه الناعمة الراضية أية اختلاجة من أسف أو من رثاء. أجل لم أتبين في هؤلاء السادة (عبيطاً) مثلي يرى في ذلك المنظر ما يستوقف بصره. وإذ ذاك ازداد رثائي ضعفين على أولئك التعساء الذين يشاركون الكلاب والقطط في نبش الكناسة وليس يملك مثلي لهؤلاء إلا العطف والرثاء.

ألا ليت أولئك السادة انتبهوا ففطنوا إلى أن هؤلاء الذين نزلوا إلى مستوى الكلاب ينتمون إليهم في (آدميتهم) وانهم في هذا الوضع يشينون الجنس كله. قم ألا ليت أولئك السادة تذكروا أن القليل مما ينعقون في شهواتهم كفيل بأن يقضي على أمثال هذه المناظر إن كان يهمهم القضاء على تلك المناظر. . .

آه. . . ليت أولئك السادة حين تقع أعينهم على بنيهم وبناتهم إذ يلقونهم فرحين بما يتقلبون فيه من نعمة، يذكرون انهم رأوا بنين وبنات من تعساء الإنسانية تلتقي أيديهم

الهزيلة بأرجل الكلاب والقطط في نبش صندوق القمامة.
الخفيف
لذكرى المولد النبوي
ميلاد نبي. . .
للأستاذ محمد عبد الغني حسن
مَنْ ذلكَ المبعوثُ في الصَّحْراءِ ... كالصُّبح بْينَ جوانبِ الظَّلْمَاءِ؟
نُورٌ مِن الحقِّ المُبين ومطْلعٌ ... جَاءتْ به البُشْرَى معَ الأنباءِ
قَبسٌ من اللهِ الكريم وشُعْلةٌ ... من رحمةٍ ومنارةٌ لضياءِ
يَجدُ السُّراةُ به دَليلَ سَبيلِهمْ ... وَمَنارَهُم في الظُّلْمَةِ العَشْواء
كانوا حَيَارَى ما تألَّفَ جَمْعُهُمْ ... في عُصْبَةٍ أو ألفُوا بإخاءِ
يَتَخَبَّطُونَ على ظلامٍ حالكٍ ... جهمِ العواصِفِ مُظلمِ الأنواء
ما فيه من وَضَحِ الطَّريقِ معَالمٌ ... أو فيه من هَدْيِ السَّبيلِ مَرائي
هذا طريقُ الجاهليةِ لم يكنْ ... إلا طريقَ الخُلفِ والشَّحناء
تَجدوهُمُ فيه نوازعُ فتنةٍ ... وتحثهُمْ فيه دَوَافعُ دَاء. . .
هذا طريقُ الجاهلية موحشٌ ... ما فيه من نَبْتٍ ولا خَضْراء
يتعثر السّارونَ فيه بخُطوةٍ ... مَحْبوسَةٍ وَمَوَاطئ عَمْيَاء
لا يَستقِرُ على المسيرِ قرارُهُمْ ... كيفَ القَرارُ على الطَّريقِ النَّائي
هذا طريقُ الشركِ مُختلط الصُّوى ... وَعْرُ المسالِك ضَيقُ الأنْحَاء
ما فيه من مَسْعى بَغيرِ تعثرٍ ... أو فيه من قدمٍ بلا إعْيَاء
يمشي الحَيَارَى فيه بين مَسَاربٍ ... مَطْمُوسةٍ ومَعالِمٍ نَكْراء
متحيرين على السَّبيلِ كأنهُمْ ... قَدْ مَسَّهم جِنُ مِنَ الصَّحْراءِ
شاءٌ بِلا رَاعٍ يؤلفُ بَينَها ... وَرَوَاحلٌ تمشي بغَيرِ حُدَاءِ
أيْنَ الدَّليلُ على السَّبيلِ يَسُوقَها ... وَيردُّ عنها صَوَلَة الأعداء؟
هَذا ظَلامُ الجاهليةِ لم يكنْ ... إلا ظلامَ الفِكر والآراء
أدْجَى من الليل البهيم حُلوكةً ... وأشَدّ وَقْعاً منْ يدٍ سَوداء
كانوا خَفَافيشَ الدَّياجي لم تَعِشْ ... إلا بجوٍ حَالك الأرْجَاء
يَمْشُون في الجَهْلِ القَدِيمِ قبائلاً ... يَتَرسَّمُونَ به خُطى الآباءِ
متفرقين هُناك. . . لم يتفَّيأوا ... لخميلةٍ. . . أو يُمْسِكوا ببناءِ
عَبَدُوا من الأوْثَانِ كلَّ حجارة ... مَنْحوتةٍ أو صَخْرَةٍ صَّماء
وأدُوا وَلِيدَتَهْم بغيرِ جريرةٍ ... أرأيْتَ مَقْتُولاً بغيرِ جَرَاء
ما ذنُبها حتَّى يَعَفَّرَ لَحْدُها ... برمالِ تلكَ الحُفرةِ الصَّفْرَاء؟
لو أنها سُئِلتْ لكانَ جَوَابُها ... يُدْمِي القُلوبَ بأنفُسِ الرُّحَمَاء
إرثٌ من الجَهْلِ البغيضِ وفكرةٌ ... أدْلَى بها الآباءُ للأبْنَاء
الجهلُ رَقْطاءٌ يُسمم نَابُها ... كيْفَ الحياةُ على يَدِ الرقْطاء؟
وَبد الصَّباح على بَطائح مكةٍ ... ضَاحى المشارقِ سَاطِعَ الأضواء
يمشي إلى النُّوامِ في غَفَلاتهم ... ويُفِيُقُهْم مِنْ هَجْعَةِ الإغفاء
يا أيها النوامُ. . .! أن مَساءكمُ ... قد غَيَّبَتْه جوانبُ البَيْداء
ومحنه كفُّ الله وهي كفيلةٌ ... بالصُّبحِ واللمَعَانِ واللألاَء
في نور (أحْمَدَ) منه نُورُ سَاطعٌ ... أكِرْم بتلكَ الآيةِ البَيْضَاء
يَمْشي على ظلَم الجزيرة ماحياً ... ظُلماتِ تلك الشبهة القَتْماء
الليل طَال على الهجودِ فَابْشِروا ... بالفَجر بيْن سنَي وبين سَنَاء!
هذه عَمُوُد الصُّبح أبْلَج واضحاً ... يَمْشي بنور الحُجْةِ الغرَّاء
هذا هو الحقُّ المبينُ فلم يكنْ ... خُدَعَ السَّرب ولا مخَايلَ ماء
هو نعمة لله من قبائلٍ ... ما كان أحْوَجها إلى النَّعماء
فَضْل تمثلَ في ظهور (محمدٍ) ... والله جمُّ الفضل والآلاء
هذا الصباح على الجزيرة مشرقٌ ... في كل رُكْنٍ منه لمْحُ رَجَاء
قد آذن الليلُ البهيمُ بجَلْوَةٍ ... وانشقَّ عن صُبْحٍ بَغْيرِ خَفَاء
نُورٌ أضاءَ الحقُّ في جَنباته ... مُتألق النَّسَمات والأنْداء
تَنْجابُ عن مَسْراه كل دُجُنَّةٍ ... ويغيبُ من مرآهُ كلُّ مَسَاء

تلك الأشعةُ من خِلالِ وميضه ... فيها لمرضَى النَّفسِ كلُّ شِفَاء
بُشراكمُ مَرْضَى القلوبِ، فإنما ... جَاَء الطبيبُ لكُم بخْيرِ دَوَاء
هذا نبي الله أشْرَقَ بينكم ... وأتى لكُم بالوحْي والإيحاء
الله يُلهمهُ بكل كريمة ... ويُمدُّه بالنَّصر والنُّصراء
هذا المبَّرأ من عيوب زمانهِ ... والخالصُ الخالِي مِنَ الأقذاء
لم يَمشِ في الجهلِ القديمِ ولم يكنْ ... من يَومه في زُمرِة الجهلاء
الله صفَّاهُ لنُصرةِ دينه ... واختارهُ لتحُّمل الأعْباء
حَمَل الأذاةَ فكان أقوى عُدةً ... وأشدَّ مُصْطَبَرًا على الإيذاء
هذا الوفيُّ لربهِ ولدينِه ... هل يَنْجَحُ المسْعَى بغير وفاء؟
يا مَن تَغُرُّهُمُ الحياةُ رخيصةً ... الله في أخذٍ وفي إعْطاء!
هذا الفقيرُ أتى يقودُ جماعةً ... استعصتْ منهُ بخيرِ لِواء
قُلْ للمُدِلِّ بجاهِه وبمالهِ ... المالُ ليس مُكوَّن العُظماء
هذا رسولُ الله لم يَعْقُدْ به ... عن مجِده أن كان في الفُقراء
يا مُلْكَ قَيَصْرَ قد رُزِئتَ بحادثٍ ... ما شاهدتهُ الرومُ في الأرزاء
ميلادُ (أحمدَ) كان مولدَ أمةٍ ... عربيةٍ وشريعةٍ سمحاء
خرجتْ من الصَّحْراءِ أصْلبَ مكسراً ... كصلابةِ الأحْجار في الصَّحْراء
الرُّمحُ في يدها عَسِيُر المُلْتَوَي ... والسيفُ في يدها صَقِيلُ الماء
كانَتْ أشدَّ علي السَّلامِ رعاية ... وأشد صبراً في رَحَى الهْيجاء
تَدْعُو إلى الإسلامِ كلَّ جماعةٍ ... ونُجيبُ في الإسْلام كلَّ نِدَاء

محمد عبد الغني حسن

البريد الأدبي

دراسة اجتماعية لبعض قبائل السودان

في عصر يوم الخميس الماضي ألقى الأستاذ محمد جلال عبد الحميد في سراي الجمعية الزراعية الملكية محاضرة موضوعها (دراسة اجتماعية لبعض قبائل السودان)، وهي ملخص لمشاهداته ودراساته العلمية أثناء رحلة استغرقت نحو السنتين بين هذه القبائل في السودان وأوغندا، استهلها بنبذة قصيرة في تاريخ البعثات الإثنولوجية بالسودان وأواسط إفريقية فقال: إن البعثات في أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر كانت جغرافية وعسكرية ودينية، ولم تبدأ البعثات الإثنولوجية في تلك المناطق إلا في نهاية القرن الثامن عشر، وآخر هذه البعثات هي التي قام بها هو في حوض النيل ابتداء من أكتوبر سنة 1936 إلى ديسمبر سنة 1940؛ فبحث فيها أولاً عن الريف المصري، ومنطقة نيمولي، والمنطقة الجنوبية من مديرية الجزيرة، ومنطقة البحر الأحمر، ومنطقة بلاد النوبة؛ وثانياً عن الثروة العلمية لحوض النيل.

ثم انتقل إلى دراسة البيئة الجغرافية وأثرها في السكان. ثم تكلم عن الأجناس البشرية، ثم عن الحياة الاجتماعية، ثم عن الحياة الدينية، ثم عن الحياة الأدبية والفنية، ثم عن النشاط المادي؛ وختم المحاضرة بخلاصة لدراسة سكان حوض النيل من الوجهة العلمية، وإمكان وجود قانون اجتماعي للتطور البشري، وقد اكتفينا بسرد عناصر هذه المحاضرة القيمة اعتماداً على أن الأستاذ المحاضر سيرسل إلينا خلاصة وافية لها.

وقد قدم المحاضر إلى الجمهور الدكتور محمد محمود غالي بهذه الكلمة:

عندما سمح سعادة فؤاد أباظة باشا لجماعة تبسيط المعارف أن يقوموا بإلقاء محاضرات في السراي الصغرى، كان هذا كسباً لأعضاء هذه الجماعة، وهذه هي المحاضرة الثانية يلقيها صديقنا الأستاذ محمد جلال عبد الحميد، يحدثنا فيها عن شيء من بحوثه الاجتماعية عن قبائل تحيا في الحوض الطبيعي ذاته الذي نحيا فيه وعلى النهر العظيم الذي نعتمد عليه.

كان يربطني بصديقي المحاضر ذكريات تجعلني أثق بشخصه وأنظر بعين الاطمئنان لبحوثه، وإنني سعيد باهتمام حضرة صاحب السعادة أباظة باشا بشأن جلال ومعاونة سعادته له ودعوته إياه، هذه الدعوة التي جاءت تكريماً لصديقنا العالم.

رأيت المحاضر لأول مرة في باريس منذ عشر سنوات، ولم تكن قد صقلته الأيام بعد، أو غيرت فيه ما تلقنه من المجتمع أو المنزل أو المدرسة. دخل (السوربون) يتخبط

كغيره ليعلم ما لا يعلم، ويهضم ما يتعلم، ويوازن بين ما كان يعلم وما يجب أن يعلم؛ ولم يكن لجلال معين يكفيه مئونة العيش، فكافح للأمرين: كافح للكسب أولاً وللتعليم ثانياً. وظننت في وقت أنه سيخر صريع هذا الكفاح العنيف، ولكنه كسب عيشه في باريس شريفاً، وصرف ذلك من أجل ما هو أشرف: في الدرس والتحصيل. وعلمته الأيام يتكون، وكيف يكون رجلاً.

جمعتنا مصر بعد فرقة، وسعى إلى يحدثني عما فعل، وأي شرف ناله من هذا السعي، وأي غبطة شعرت بها عندما تتبعت الفروع التي نجح فيها، وأي فرح غمرني عندما علمت أنه أصبح مبعوثاً لمعهد الأجناس الفرنسي لدراسة المناطق الإفريقية التي لا يقبل الكثير منا على ارتيادها، ثم مبعوثاً لجامعة فؤاد الأول. عندئذ علمت أن الرجل قد تكون، وأنه نال تقدير العلماء. بعد ذلك رحل وحيداً إلى قبائل (المابان) وغيرها، وعاد بعد غيبة طويلة، ثم عرج إلى مناطق الحدود المصرية السودانية على ساحل البحر الأحمر. وها نحن أولاء نسترق من الصديق العالم ساعة قبيل رحلته التي سيقوم بها بعد يومين إلى بلاد النوبة.

محمد محمود غالي

تعقيب على مقال

في المقال الذي نشره الدكتور زكي مبارك في العدد 402 من الرسالة، رداً على، مسألتان جديرتان بالتعقيب، وهما:

1 - أن الدكتور قال: إنه قد عدى (حرم) بالحرف (أي من) في بعض قصائده، وهو يتعدى بنفسه، فاعترض عليه بعض أدباء الشرق، فدافع عن هذه التعدية بأنه قد يرى المعنى في بعض الأحايين لا يؤدي تأدية صحيحة إلا إذا عبر عنه بتلك الصورة - وهو نفس الدفاع الذي اعتضد به الدكتور في تعدية (أمكن) باللام.

وأقول لحضرة الدكتور أن الفعل (حرم) يتعدى بمن أيضاً. وعندي شاهد لذلك عثرت عليه في بعض مطالعاتي للأغاني.

1 - أن الدكتور ذكر في هذا المقال استطراداً أن العوامري بك كان كتب في مجلة المجمع اللغوي عن (نادي التجديف) بالدال المهملة، فكان من رأيه أن (التجديف) بالذال المعجمة، قال الدكتور: وقد ناقشته يومئذ في جريدة البلاغ، فقلت أن الشعراني في مؤلفاته يرسمها بالقاف، فيقول: (التقذيف) الخ ما قال.

وأقول لحضرة الدكتور: إني رجعت إلى مجلة المجمع اللغوي، فوجدت أن العوامري بك لا يقول شيئاً من ذلك، بل رأيته قد خطأ التجديف والتجذيف والتقذيف. وقال إن الصواب هو: الجدف والجذف والقذف، مصادر جدف وجذف وقذف. وبرهن على ما قال في بحث مسهب.

أقول: وأما أن الشعراني في مؤلفاته يرسمها بالقاف فيقول: (التقذيف)، فالشعراني ليس بحجة. ولعله يحكي اللفظ الذي كان شائعاً في زمنه، كما يقول المصريون الآن: (التجديف). وليس بين معنى (الجدف) و (التجديف) صلة، إذ (التجديف) هو الكفر بالنعمة.

أ. ع

نصيب السودان من جهاد الديمقراطية

جميل من مكتب الصحافة أن يطالعنا بأسماء أبنائنا الألى جادوا بالأنفس العوالي والمهج الغوالي في تدعيم أركان السلام، سلام قوامه المبادئ الصحيحة والقوميات المعتدلة التي يهمها أن تبقى وإن تساعد الغير على البقاء، وإن تعين الإنسانية على الخير والنماء.

وجميل من مكتب الصحافة أن يسجل لنا والحرب دائرة رحاها أننا لم نكن في المؤخرة يوم أن حمى الوطيس بين الخير والشر. وجميل منه أن يبادر فيلبسنا تلك القلادة الفاخرة التي يشهد العالم أجمع أننا لم نرض أن يطغى الطغيان على هذا الكون فيعذب الإنسانية ويكبلها بأقسى القيود ونحن واقفون موقف المتفرج الذي لا يهمه الأمر؛ بل قمنا بنصيبنا في حفظ تراث الإنسانية الخالد الذي قام على الفضيلة والحق والمساواة.

أجل! فليشهد العالم أننا قمنا بنصيبنا في حفظ تراث الإنسانية نصيباً بذلناه في سبيل المال على ما نحن فيه من عسر، فبعثنا به إلى ما وراء البحار لنشعر أنفسنا هنالك أننا

لم نكن ناسين ما هم فيه ولا جاحدين ما يعملون. وليشهد العالم أننا قد قمنا بنصيبنا فقدمنا إلى
الموت أنفساً عزيزة علينا في ذاتها عزيزة علينا لأن بلادنا قلة منها، بل وتشكو أرضنا القافلة والبوار حيث لم تجد من يعمرها فيجيها ولا من يثتثمرها فيغنيها.
قدمناها إلى الموت أنفساً كان في حياتها للبلاد نماء وثراء، وقدمنا إلى الموت أنفسا كانت لأهلها أملاً ورجاء. وقدمنا إلى الموت أنفسا كانت للنزلاء عوناً وسخاء ولجاراتها ذخراً لدى البلوى وبهجة في الخير والسراء.
قدمناها لتحمي ذمار الإنسانية وليلقى عدوها من أيدي أصحابها بلاء ونكالاً ما داموا أحياء، ولينوء - إن ماتوا - ملطخاً بدمائهم وهي على وجهه عاراً ولأبنائه شناراً.
أما هم ففي موتهم خلود، وفي موتهم فخار، وفي موتهم حياة. خلود لأسمائهم وبلادهم وحياة للإنسانية الطاهرة التي لا ترضى أن تسود الفوضى ويتحكم الطغيان.
ففي ذمة الله من مات ولينم في خلده منعما بما حفظت له البلاد من يد هي سندها يوم أن تجلس الأمم لمطالعة الحساب وهي باقة عبقة نقدمها لأبناء الإمبراطورية يوم يزف لهم النصر الأخير.
وأنتم أيها الجرحى فلتهنئوا بما متعكم الله به من أوسمة لا تخلع وبما حمدته لكم البلاد من بلاء لا يجحد. إذ أنكم أقمتم الدليل على أنكم لم تهابوا الموت ولم ترحموا العدو حتى تقاكم بما عطلكم عنه أياماً نرجو ألا تطول لتتمكنوا من العودة إلى حيث تسهرون عينه وتطيرون لبه؛ فلا يقوى على حمل السلاح ليتقيكم به، بل يتقيكم بما يكف أيديكم عنه (وهو الاستسلام) لأنكم لم تقصدوا تعذيب بني البشر وإنما قصدتم أن تهزموا الشر الذي كان قد استحوذ على النفوس فأغواها وأضلها عن السبيل السوي والخير المشترك.
(الخرطوم)
عبد الله عبد الرحمن
جريدة (الإصلاح) في عامها الخامس
دخلت جريدة (الإصلاح) التي يصدرها بالسنبلاوين الأستاذ عبد الفتاح قنصوه في عامها الخامس، وهي أتم ما كانت استعداداً، وأصدق ما تكون اجتهاداً، وأبصر بالغاية التي تتوخاها منذ أنشئت، وهي علاج الأدواء الاجتماعية بالحكمة الهادية والموعظة الحسنة، حتى غدت في إقليمي الدقهلية والشرقية وحدة اجتماعية وأدبية لها أثرها الظاهر ومكانها المعروف. و (الرسالة) تقدم إلى زميلتها العاملة اخلص التهنئات بعامها الجديد، وتدعو الله أن يديم عليها التوفيق في خدمة الله والوطن.
للأستاذ محمود تيمور (مكتوب على الجبين)
بعث إلى الأستاذ محمود تيمور بسفره القيم (مكتوب على الجبين) فأنست إليه وقتاً غمرني فيه بألوان اللذة والمتاع فكان من أسعد الأوقات لنفسي، سعادة العقل بإحساس الجمال، وإرهاف الحس بتذوق الفن، وإمتاع النفس برائع التصوير، وهو إذ يطالع العربية بمكتوب على الجبين يضيف إلى القصة تحفة فنية من الأدب العالي، وصفحات خصبة من القصص السامي، وعالم جديد يطفر بالفكر إلى لحياة الرقيقة، ويشير إلى المثل العليا من العاطفة.
مكتوب على الجبين مجهر ينفذ إلى الأعماق فيظهر وراءه ما دق من خلجات النفوس، ودنيا زاخرة بألوان العواطف. ولم ينهج الفنان فيه نهجه في مؤلفاته الأولى وإنما تجلت في مؤلفه الأخير دقة تعبير، وسلامة نظر، وهدوء طبع، ساعد المؤلف على كشف نواحي مغمورة في أدب القصة. ومكتوب على الجبين مجموعة تنتظم من قصص صغيرة تتناول نواحي حيوية مختلفة بالبحث الدقيق والتحليل العميق، فهو يستلهم فنه من الأعماق كما يتصيد الغواص أثمن اللآلئ من أعماق البحر، وهو الآن لا يكتب عن حوادث واقعية وكلها من ابتكار الخيال المحض، فهو إذ يبتكر صورة تكون شخصاً أقرب إليك من أشخاص الحياة، يمتعك الفنان إذ تشهد حوادث القصة وهي تسير سيراً مألوفاً ينفذ إلى النفس حقيقة تتسم بمبسم الواقع ولا يخطر ببال أنها من عمل الخيال الفني البارع في تشبيهاته ومعانيه بالغاً غاية الطرافة والإبداع ما يستهوي النفس ويأخذ بمجامع القلوب قد تأمل أن أذكر لك ما هذه القصص، وفي ذلك عبث بجمالها وسحرها.

صدر الأستاذ كتابه بموضوع فريد عن كتابة القصة الفنية تتلوه أربع عشرة قصة منها: (كان في غابر الزمان - العيون الخضر - ذات مساء - ابتسامة - قلب كبير - و. . . كلها من روائع القصص، وشعاع الحس المرهف، والخيال البديع الذي يخلع على الفن آيات الجمال؛ وللأستاذ أسلوب سهل لين يحاكي النسيم رقة، وأنت إذ تطالع قصصه، سرعان ما تحلق بك إلى سماء الفن، إلى أعالي لبنان وجبالها الشامخة، وبين ربوعها الجميلة وأنسامها العاطرة، إلى الصحراء الواسعة وبين صخورها، إلى المجتمع الصاخب، إلى الموسيقى البديعة، إلى. . . إلى. . .

ومكتوب على الجبين هو عاشر مجلد أخرجه الأستاذ محمود تيمور في العربية، وله في الفرنسية، وله في الألمانية مجموعة ترجمها واختارها المستشرق السويسري الدكتور (ديودمار)؛ ولا غنى لمثقف عن مطالعة مؤلفات الأستاذ تيمور عامة، ومكتوب على الجبين خاصة: ففيها غذاء العقل والروح وتعتبر بحق أثمن وأجل ما ظهر في أدب القصة وذلك ما يشهد للأستاذ بالإبداع، ويكتب لآثاره الفنية الخلود.

فإلى الفنان أبعث آيات الإعجاب والتقدير. . . والى القصة تهنئتي بأميرها الأستاذ تيمور.

طه عبد الحميد الشميمي

القصص

الهذيان

للأستاذ نجيب محفوظ

أوشك الفجر أن يطلع، وتصايحت الديكة إيذاناً بطلائع النور، فأخلدت الحجرة إلى السكون والصمت، كأنما أسلمها أنين المرض الموجع وتأوه الإشفاق الأليم إلى الهمود.

كانت ترقد على الفراش امرأة شابة يبدو من اصفرار وجهها وذبول خديها وشفتيها وتضعضع كيانها أنها تعاني وبال مرض يهتصر شبابها. وعلى فراش قريب رقد شاب في مقتبل العمر يثقل جفنيه السهاد، ويأبى القلق أن تلتقي أهدابهما، يطالع وجه المريضة في حزن ثم يعطف رأسه إلى مهد جديد فيجري الحنان في عينيه الذابلتين ويتمتم في رجاء صادق: (اللهم صن حياة الأم المسكينة. . . وطفلتنا البريئة). وكان الشاب من ذوي القلوب الرقيقة والنفوس الندية بالرحمة والعطف. وكان على عهد صباه يلذ لرفاقه أن يدعوه رجل البيت، لما طبع عليه من النفور من المجتمعات والأندية، والاشتراك في المظاهرات التي تستهوي أفئدة أقرانه، والانجذاب نحو البيت بسبب وبغير سبب؛ فكان يقضي نهاره في الحديقة يسقي أشجار البرتقال والليمون، أو في السطح بين الدجاج والحمام؛ فإذا كان الخميس أعطى ذراعه لشقيقته ومضيا معاً إلى السينما. ولذلك أخذ يفكر في الزواج تفكيراً جدياً منذ اليوم الذي عين فيه مهندساً بمصلحة الأشغال العسكرية. وراح يقصد من مرتبه ما يقوم بنفقات الزواج من هر وشبكة وهدايا وفرح، كما كان يفعل شباب الجيل الماضي. فلم يكن يمضي عليه عامان خارج المدرسة حتى تزوج، ولم يدهش أحداً أن تنعطف هكذا سريعاً إلى الزواج هذه النفس المطمئنة إلى الحياة البيتية منذ نعومة الصبا، ولكنه كان سيئ الحظ، فما كاد يستدير عام ويستقبل طفلة حتى أصيبت زوجه بحمى النفاس فزلزل بيته الهادئ المطمئن وارتجت حياته السعيدة. وقد عرف منذ اليوم الأول للمرض ما الخوف وما الإشفاق وما الجزع، واندفع إلى استدعاء أعظم الأخصائيين من الأطباء حملة الباشوية والبيكوية غير مبق على مال أو ضان بثمين، حتى اضطر إلى بيع المذياع وساعته الذهبية، ولو طلب إليه أن ينقل دمه إليها لأداء إلى آخر قطرة. . . وبالغ في ذلك، فطلب من مصلحته إجازة كي لا يفارق المريضة، وكان يرقب أعين الفاحصين من الأطباء ويسألهم، ويطالع وجه زوجه ساعة بعد ساعة، ويسأل العرافين، ويزور أضرحة الأولياء ويفسر الأحلام، ملتمساً الطمأنينة في مظانها جميعاً. . .

وهل ينسى الليالي التي قضاها مسهداً قلقاً لا يغمض له جفن ينظر ببصر حائر إلى الوجه الشاحب على ضوء المصباح الأحمر الخافت؟. . . وكانت هي مسكينة تستحق الرثاء، تضطرب بين النوم القلق واليقظة الحائرة، وبين النزاع والهذيان، وما هذا الهذيان!. . . إنه ظاهرة عجيبة تدل على أن الإنسان قد يخون نفسه كما يخون الآخرين. كان يصغي إليها وهي تذكر بلسان متقطع أسماء أناس وأماكن وحوادث

كثيرة، وكان شاركها شهود بعضها، فجرى الابتسام على فيه، وترطب التهاب عينيه المحمرتين بنظرة حنان. وفي ذات ليلة سمعها تناديه بصوت واضح قائلة: (صابر) فهرع إليها متسائلاً: (نعيمة. . . هل تحتاجين إلى شيء؟) ولكنه أدرك أنه خدع لأنها كانت مغمضة العينين يابسة الفم كما يبدو ازدراد ريقها بصعوبة، فعلم أنها ماضية في هذيانها الذي لا ينتهي فعاد إلى سريره، وما كاد يرقد مرة أخرى حتى سمعها تقول وكأنها تحادثه: (صابر. . . أنا متألمة خجلة) فهز رأسه المثقل المتعب وقال لنفسه: (أنت متألمة بغير شك. أعانك الله على ما أنت فيه، ولكن مم تخجلين! أن هذا الابتلاء لا يخجل أحداً وإن كان يحزننا جميعاً) وظن أنها تألم لما يتكلفه من حولها من العناء والسهر، فرمقها بنظرة حنان ورجا أن يكون هذا الشعور من آي اليقظة والشفاء؛ واستدركت المرأة تقول: (زوجي أحسن الأزواج؛ أما أنا فشقية. . . لست أهلا لوفائه) فتنهد الشاب حزناً وتمتم قائلاً بصوت غير مسموع: (أنت أهل لكل خير). وأراد أن يناديها لعله ينتشلها من تيار أفكارها المحمومة، ولكنها حركت رأسها بعنف على الوسادة وقالت بحنق: (راشد. . . كفى وابتعد عني. . . أبتعد ودعني. . .) وكان يهم بمناداتها فاحتبس الكلام في فيه، وحملقت عيناه المسهدتان، وبدا على وجهه الذهول والإنكار وجلس في فراشه وهو يتساءل:

وكان يشعر شعوراً باطنياً بأنه لا يسمع هذا الاسم لأول مرة، .(راشد! من راشد هذا؟) وكأنما سبق أن آذى مشاعره. واسند جبينه إلى كفه وأغمض عينيه، وكأن صاحب هذا الاسم يعيش في الظلام، فقد رآه وعرفه، وأحس لذلك رجفة تسري في مفاصله. . . راشد أمين أو أمين راشد - لا يذكر - شاب نافسه في طلب يدها على عهد خطبته لها، ولولا أن والدها فضله هو واختاره لكان قد تزوج منها. وقد تذكر أنه رآه مرة وإن كان لا يحفظ من صورته أي أثر؛ ورفع رأسه مرة أخرى ونظر إليها بعينين مرتابتين لا تصدقان؛ ورغب رغبة حارة في أن يستزيدها ويستوضحها، ولكنه لم يدر كيف يحثها على الكلام، ورأى شفتيها تتحركان في ضعف؛ فدنا من حافة سريرها وأرهف السمع وكتم أنفاسه وهو يعاني جزعاً مجنوناً فسمع صوتها يقول فيما يشبه الأنين: (من يقول هذا. . . أف. . . والخيانة. . . راشد. . . صابر. . . الخيانة شيء قذر. . .) فشبك كفيه وشدهما على صدره بحالة عصبية كأنما يضرع إلى شيء مجهول أن يمنع كارثة على وشك الوقوع، وذهل بصره من طول الجمود على وجهها، فغاب عنه ما حوله، وكبر الوجه في وهمه حتى ملأ الفراغ الذي أمامه فثقل عليه وسمج، ودوى صوتها في أذنيه، فصار كطنين لا ينقطع، وثقل تنفسه ويبس حلقه. . . ما هذا الذي تتكلم عنه؟! ما هذه الخيانة التي أطلق الهذيان عقدة كتمانها فانطلقت خبيئة منكرة أنكى من الحمى؟! هل يكذب الهذيان؟ كيف يكذب الهذيان؟! ولكن كيف يصدق أذنيه وما بذل زوج لزوجة عشر ما بذل من الرقة والمودة، وما بذلت زوجة لزوجها عشر ما كانت تبذله له من الصفاء والإخلاص؟ فكيف انطوى هذا على أقذر ما تبتلي به الضمائر والنفوس؟ رباه. . . أنها تقول أن الخيانة شيء قذر، وإنها لكذلك، ولكن لا يفزع في هذيانه من قذارتها إلا من انغمس في بؤرتها. رباه. . . لقد ظن أن ما ابتلى به من مرض زوجة أقسى ما ابتلى به إنسان، فإذا به بلاء هين عابر، لا يقاس بما هتك الهذيان أستاره، وأحس اليأس يحبس أنفاسه، وكان صابر دمث الأخلاق، لين الجانب رقيق الحاشية، لا يدفعه الغضب إلى الانفعال الشديد والعدوان ولكنه يشل حركته، ويعطف اندفاع أعصابه إلى صميم نفسه، فيجعله كسيارة يدفعها محركها، وتقيد الفرملة عجلاتها، ولكنه بالرغم من هذا، تحولت رأسه بحركة عصبية إلى سرير الطفلة، وبرح فراشه في سكون، ودنا منه وأزاح ستاره، وألقى نظرة غريبة على الوجه الصغير المدمج القسمات وأدام إليه النظر والشك والألم يأكلان قلبه بقسوة، ثم تحول عنه إلى وجه زوجه كأنه يسألها ويستوضحها، ودنا من فراشها كالسائر في نومه حتى التصق به وكانت مغمضة العينين بادية الاصفرار والخور، تقلب رأسها ذات اليمين وذات الشمال، فألقى عليها نظرة جامدة، جرى فيها بريق القسوة جريان البرق في السحاب الداكن، وكان قبل لحظات إذا وقف موقفه هذا اضطرب جسمه من الحنان والرحمة، ودمعت عيناه، ولكن قلبه تحجر هذه المرة فمال عليها حتى نسمت عليها أنفاسه وسألها: (نعيمة. . . نعيمة. . . ماذا فعل

راشد؟) فلم تنتبه إليه ولم تصح، فرفع صوته وناداها وهو لا يدري: (نعيمة) فبلغ صوته مسمعي أمها في الحجرة القريبة. وقامت المرأة من فراشها مضطربة وهي تظن الظنون وهرعت إليه متسائلة: مالها. . . هل أعطيتها الدواء؟ ولم يكن أعطاها شيئاً، وكان يريد استبقاء حالة الهذيان التي تعانيها ليستنطقها ما يريد فكذب عليها قائلاً في استهانة وقسوة: (نعم وهي بخير والحمد لله) وعاد إلى فراشه وأسند رأسه المثخن بالجراح إلى الوسادة ليتخلص منها، ولبثت حماته قليلاً. وفي أثناء ذلك أخلدت المريضة إلى الهدوء والسكينة كأنما راحت في نوم عميق فبرحت المرأة الغرفة وكان يتشوق إلى إيقاظها ولكنه خشى التي في الخارج، فمضى بقية الليل مفتوح العينين محموم الرأس بالأخيلة الشيطانية وعيناه زائغتان ما بين فراش المريضة ومهد الطفلة.

وحين سفور الصباح عاودت اليقظة المريضة وبدا عليها أنها لا تحس شيئاً حتى اهتدت عيناها إليه فبدت فيها حياة ضعيفة وقالت بصوت غدا من وهنه كالصفير (ما الذي أيقظك؟ لماذا ترهق نفسك هكذا؟) فرد عليها بنظرة جامدة وكانت تبدو ذاك الصباح أشد هزالاً وشحوباً، ولاحت في عينيها نظرة الوداع المخيفة، وكان يشغل باله شيء واحد أسهده الليل ولم يجهل أن إثارته خطر يهدد بالقضاء عليها، ولكنه لم يحس سواه ولم يبال غيره، وكان يشعر نحوها ساعته بحنق وكراهية ورغبة في الانتقام فقال بلهجة جافة: (تكلمت الليلة الماضية كثيراً، فشرقت وغربت، وأجرى الهذيان على لسانك كلاماً يحتاج إلى إيضاح) فلم تفهم شيئاً ونظرت إليه بعينين لا تعبران عن شيء سوى الذهول المطلق، وأراد أن يسترسل ولكن منعه عن الاسترسال صراخ الطفلة فجأة، فما لبثت أن هرعت إلى الحجرة حماته والمرضعة فنكص على عقبيه مغضباً وهو يقول لنفسه: (الطفلة الملعونة تداري فضيحة أمها وأبيها!). وغادر البيت يهيم على وجهه ومضى يحدث نفسه: (كان ينبغي أن أعلم كل شيء وقد أتيحت لي فرص، لماذا أفر من صراخ الطفلة؟ أو من ظهور جدتها؟ الحقيقة أني ضعيف. . . ضعيف. . . دائماً يندى قلبي بالحنان وبالعطف، فما كان أجدر بي أن أكون ممرضة. . . أما رجلاً فلا. . . لست رجلاً ولست زوجاً. . . فأمثالي نساء

كاملات، أو رجال مغفلون. . . ومع هذا هل أنا في حاجة إلى دليل جديد؟ دمرت حياتي وانتهى كل شيء)

وقضى النهار ضالاً لا يقر، بترد الألم في صدره مع أنفاسه، وعاد مع الأصيل إلى البيت فوجدها أسوأ حالاً وأشد هزلاً. وأقبلت عليه حماته تسأله أين كان، وتقص عليه ما قال الطبيب، فلم ينفذ شيء من قولها إلى صدره وعاف الرد عليها بتاتاً، بل لذله أن تقول أن الحالة سيئة، فلتتألم كما يتألم، ولكن كيف يفهمها أنه يعلم كل شيء؟ كيف يحادثها في هذا الموضوع الخطير وأمها لا ترضى بمفارقتها في مثل تلك الحال الخطيرة؟. . . واشتد به الحنق، فاعتزم أن يمنع عنها الدواء ليعاودها الهذيان سريعاً فيسمع منه ما امتنع منه سماعه في اليقظة؟ وملأ الفنجان ماء خالصاً ووضعه على فم المريضة فازدرته بامتعاض. . . وعاد إلى فراشه يرقب الفرصة، ولكن زوجه لم تنم في تلك الليلة ولم تهذ واشتد عليها الألم الموجع فباتت تئن وتشكو وتضطرب. واستدعى الطبيب عند منتصف الليل فعاينها ولكنه لم ينصح بشيء، وهمس في أذنه بأن الحالة جد خطيرة. . . وبعد هذا التصريح بنصف ساعة احتضرت المريضة وفاضت روحها.

وخلا إلى نفسه، وكان الذهول مطبقاً على حواسه جميعاً؛ لأن الموت والخيانة الزوجية انتظما تجاربه الشخصية معاً في ساعة واحدة دون عهد سابق بهما. وماتت نعيمة ولم يحزن لموتها، ولكن حادثة الموت أذهلت نفسه الرقيقة المرهفة؛ على أن الحقيقة لم تغب عنه فقال: (لم تمت كما يظنون. . . أنا قتلتها. . . قتلتها لأني منعت عنها الدواء ليلتين متواليتين هما أشد ليالي المرض. . . فأنا قتلتها. . .) وجعل يردد (أنا قتلتها).

فكان يشعر لها بوقع غريب في نفسه يمتزج فيه الخوف بالارتياح ثم قال مرة أخرى: (وقتلتني هي حياً، والصقت أسمي قسراً بطفلة إنسان سواي. . . ولكني قاتل فلست إذن مغفلاً). وأسند رأسه إلى يده وراح في تأمل طويل وقد سرت في جسده قشعريرة البرد والخوف.

كيف انقضت الأيام التي أعقبت الوفاة؟. . . انقضت في ألم وقلق ومخاوف لا يمكن أن تتمثل لعقل إنسان، ثم أعلن عن رغبته فجأة في السفر إلى لبنان انتجاعاً للصحة

والراحة، وكان في الحق يفر من أفكاره وطفلته. ومضى إلى الإسكندرية واستقل السفينة، والظاهر
أن نفسه الرقيقة تعرضت في البحر لأزمة عنيفة هدت كيانها وأتلفت أعصابه، فاستشعر اليأس من الدنيا جميعاً وألقى بنفسه في ليم خلاصاً من عذابه وآلامه، محتفظاً بأسراره لقلبه ولبطون الأسماك. . .
وكان يترحم عليه المترحمون فيقولون: (ما رأينا إنساناً يحب زوجه كالمرحوم صابر، فلا هو صبر على فقدانها ولا احتمل الدنيا بعدها فقضى على نفسه بعد موتها بأيام. . . رحمهما الله!)
نجيب محفوظ
1
1
العدد 406 - بتاريخ: 14 - 04 - 1941
مفتاح السر المجهول
(لكاتب كبير)
لكل موجود قوة حيوية تنفع كل النفع أو بعض النفع في إذكاء روح الوجود، وما كان تفاوت الأوصاف بمانع أهل الضعف من القول بأن لهم فضلاً في إكمال الصورة الملونة لخريطة الموجودات. وهل عرفت قيمة الفاضل إلا بالقياس إلى المفضول؟
ولكني لا أريد لك أن تكون إشارة تكميلية في الصورة الوجودية، ولا يرضيني أن يقال أنك على ضعفك مظهر من مظاهر الوجود، فما أرضى لك هذا المصير إلا يوم يصح عندي أنك لا تملك تغيير ما بنفسك، وانك لم تخلق إلا لتكون شاهداً على أن الناس درجات. ومن أين عرفت يا جاهل أن الله لم يرد لك الصيرورة إلى منازل الأشراف من أحرار الرجال؟
أنك تستطيع أن تكون عظيما حين تشاء، والعظمة الحقيقية هي أن تكون رجلاً نافعاً إلى أبعد الحدود في الميدان الذي أرادت الطبيعة أن تقفك فيه وقفة الحارس الأمين، فتكون أعظم الأدباء والمفكرين أن شئت، وتكون أكبر رجال الأعمال أن أردت، وتكون إماما في الصناعة أو التجارة أو الزراعة، وفقا لما خصك به الله من المواهب الأساسية، على شرط أن تهتدي إلى مفتاح السر المجهول.
فما هذا السر؟ وما ذلك المفتاح؟
السر هو نفسك، والمفتاح هو عقلك. واليك أسوق الحديث:
في النفس قوى غافية تفوق العد والإحصاء، وهل عرف إنسان قيمة ما تنطوي عليه نفسه من أعاجيب البراعة وغرائب القدرة على خلق المستحيل؟! لو عرف بنو آدم أقدار أنفسهم لحولوا الصحارى إلى رياض وبساتين، وعاشوا من أرواحهم في جنات وفراديس. وكيف وبنو آدم بلا عقول، كما عبر أبو العلاء؟!
ادرس نفسك في كل وقت وحاول التعرف إلى ما في قرارها من القوى الغافية، وتذكر يا جاهل أن أكثر العظماء لم يكونوا في بداياتهم إلا نكرات لا تبشر بشيء، وتذكر أنك لم تصل إلى غاية بعيدة أو قريبة إلا بعد لاستصباح بالأقباس المكنونة في سرائر نفسك، فما
الذي يمنع من أن تجعل التعرف إلى قواك النفسية والروحية فرضاً من فروضك في صباحك ومسائك؟
احترس من الغفلة عن نفسك، فللنفس ومضات تغير أرجاء الوجود. والتأهب للاستفادة من ومضات النفس يزيدها إشراقا إلى إشراق.
وهل كان ما ترى من الروائع والنوادر والغرائب في آثار الأذواق والقلوب والعقول إلا إثارة من التأهب لتلقي الوحي الصادر عن ومضات النفس؟
هي جوهر يشع في كل وقت، فارفع الحجاب عن عينيك لتنتفع بذلك النور الوهاج، فإن لم تفعل فأنت مجرم في حق نفسك، وفي حق وطنك، وفي حق الإنسانية.
وهل ترى من المستحيل أن توفق إلى كشف أفق جديد يزيد ثروة الناس في الفكر والمعاش؟
جرب حظك في محاولة التعرف إلى سرائر نفسك، فقد تصبح قوة كهربائية تغير ما

بحيوات الناس من ألوان وأفانين؛ وقد تكون لمحة واحدة خليقة بأن تجعل لك مكانا بين أهل الخلود أن أحسنت التأهب لتلقي ذلك الوحي الجليل.

ولكن متى تحسن فهم أسرار نفسك، وأنت عنها في شغل بالظواهر الخوادع من توافه الشؤون؟

أن عقلك هو الذي يهديك إلى الانتفاع بالقوى المستورة في أطواء نفسك، فهل استهديت عقلك؟ وهل فكرت في أن أكابر الموهوبين قد لا يكون بينهم وبينك من الفروق ما يستوجب أن يتقدموا وتتخلف؟

فكر في مصيرك، يا جاهل، فقد يحطك الله في جهنم لأنك لم تحسن الانتفاع بهدى عقلك في معرفة قوى نفسك، والنفس هي اشرف الأرزاق.

وما النفس وما العقل؟؟

الذي يهمني هو الاطمئنان إلى أنك تعرف جيدا أنك خلقت لغاية غير الغاية التي خلق لها أخوتك وزملاؤك، فالإنسان هو الحيوان الوحيد الذي تختلف فيه ملامح الوجوه، ومن الواجب أن تختلف فيه ملامح العقول، فمن أنت؟ وما صورة وجهك؟ وما سمة نفسك؟ وما صبغة عقلك؟

تفرد وتوحد، يا خلقة الواحد المتفرد. كن أمة وحدك ليرضى عنك من سواك، فما خلقك إلا وهو يريد أن تكون فريداً في الصورة والمراد. فهل تراني دللتك على مفتاح السر المجهول، وأنا من البحث عنه في حيرة وضلال؟

أنا وأنت رفيقان هائمان في بيداء الوجود، وفي صدري من اللوعة إلى كشف المجهول بعض ما في صدرك، فخذ بيدي كما أخذت بيدك، لنصل إلى شاطئ المعرفة واليقين بسلام وأمان، والله يهديني ويهديك!!

(كاتب)

في المصادر والأصول

نساؤنا بين التقاليد والتجديد

لصاحب العزة الدكتور منصور فهمي بك

مدير عام دار الكتب المصرية

(بقية ما نشر في العدد الماضي)

التبذل

وإني لمناسبة ما ذكرته من الاختلاط لغير مقتضياته الاجتماعية ذكرني صديق بأن بعض فتياتنا قد يغشين المجامع لغرض شريف ذلك هو الرغبة في الزواج وبناء البيت، وإذا صح ما ذكره صديقي، فإن نبالة النية وشرف القصد لا يحولان دون فساد الأسلوب وتعثر الطريق المتبع، لأنه لا مأمن من نزوات النفوس ووساوس الشيطان، إذ يضيع على الرجولة شهامتها فيستخدم الخلطة للعبث والتسلي دون تقدير لما يترتب على ذلك من تردي الفتيات والنساء في سبيل الغواية، ودون نظر إلى فداحة الآثم حين يصيب كل من جنس الرجل والمرآة من الآخر آنسا لا يحلله إلا صدق المواثيق والعقود وإخلاص النفوس. وزيادة على ذلك فإن الفتاة إذا غشيت هذه المجامع المصنوعة دون حذر شديد، أو حامت حول حماها، فقد تقع في مخاطرها، لأن حظ الفتاة من طيبة القلب وليونة العاطفة وروح الإيثار وسذاجة الوجدان يربو كثيرا عن حظ الرجل الذي راضته أحداث الزمن على مرانة في التفكير وقلة في الحساسية وتغلغل في الأنانية، مما قد يساعده على أن تكون المرأة هدفاً لخديعة الرجل وتغريره. ولطالما يهفو الرجل فتدفعه هفواته لاستباحة المتعة من المبذول، لكنه طالما يكرم نفسه باختيار زوجته ممن يكرمن أنفسهن في حمى العزلة وقداسة الصيانة. وأزيد على ذلك أن ابتذال الفتيات لأنفسهن مضيع للعزة والكرامة. وينبغي أن تكون عزة المرأة وكرامتها فوق شرف الزواج، ولا عزة لمن يتقدمن من النساء في سوق العرض والطلب، ومن الخير لهن أن يكن معززات مصونات محببات يطلبن في شغف، لأن في الابتذال إضعافا للرغبة. ومن الخير للرجل أن يكون شهما كريماً، فيستخدم شهامته ومروءته لصيانة شريكة حياته وأم بنيه عن مواضع الذلة ومواطن الابتذال حين تنزل الفتاة في ميدان العرض والطلب فيصيبها ضعة العارض ومهانة المعروض.

فساد الذوق

وفيما سلف ذكره، قد أشرت إلى انحراف الاختلاط عن وجهه القويم، وأشرت إلى

سوء فهم الحرية المعقولة والى مهانة الابتذال. أشرت إلى كل ذلك لعناصر مسيئة لنسائنا المجددات؛ ويجدر بي أن أشير إلى عنصر آخر لا يقل أثره سوءاً. ذلك هو اختلال الذوق في اللباس والتزين. لقد ذكر أحد العلماء الممتازين الحاليين الدكتور (كاربل) في كتاب له إلى ما أصاب العصر الحديث وأهله من ضعف في الإنتاج الصالح، وضمور في الجسوم، وضعف في الذوق الفني. وليس من شك في أن ملابس السيدات الغربيات قد أدركها ذلك الضعف، من حيث الذوق ومن حيث اللياقة. وإن مستحدثات الأزياء التي يتخذها نساؤنا عن الغربيات ويغيرها بين حين وحين مبدعو الأناقة من أهل التجارة، تدل أبين دلالة على ضعف هذا الذوق الفني وانحلاله. فالجلباب القصير والمحاسر والقبعات قد يؤلم الكثير من أشكالها نظر ذي الذوق السليم. فهبك رأيت امرأة طويلة نحيلة في جلبابها الذي لا يبلغ ساقيها، ويخرج عن كمية ساعداها الطويلان النحيلان العاريان وتمتد رقبتها الدقيقة من طوقها المفتوح، وتتخم شفتاها الظاهرتان في وجهها الضئيل بتلك الأصباغ الدامية. أفلا يخيل إليك أنها كالأفعى ولغت في الدماء؟ وليست هذه الصورة الدميمة البشعة إلا من نتائج اللباس القصير الحاسر الذي لا يرضه لهذا الجسم ذوق صحيح.

التغرير بالمرأة

وكما أساء الاختلاط المطلق الحرية السقيمة المعتلة وفساد الذوق الشائع إلى النساء والحديثات المعاصرات كذلك أساءت إليهن فلسفة التغرير. فقد يغرر العصر الحاضر بالنساء حين يدفعهن إلى ميادين من الأعمال الشاقة. كان من الخير أن يزاولها الرجال ويحتملوا أوصابها وتبعاتها دون النساء حرصا على أن تسلم وظيفة الأمومة التي هيئت لها المرأة، ووقاية من زجها في الجهود المضنية التي تعطل فيها صحة أنسجتها العضوية، وتفسد عليها رقة الطبع وسلامة الأعصاب.

كتب الأستاذ فريد وجدي (حين بحث في مشاركة النساء الرجال في أعمالهم) قال:

إن من أقبح مظاهر اسر المرأة في الأفراد والأمم ترك حبلها على غاربها، وقذفها) بذلك الجسم اللين والعواطف الرقيقة والفؤاد المملوء رحمة، والمهجة المتشعبة الشفقة، أن تزاحم الرجال في معترك الحياة كتفاً لكتف لسد رمقها، فتقضي طول نهارها وجزءاً من ليلها بين لهيب المعامل ودخانها أو على قارعة الطرق بين هيجاء تلك المدينة المفزعة. ولو تسنى لك يوماً من الأيام أن تزور معامل أوربا وأمريكا مما جمع إلى فخامة المبنى وضخامته سعة لا يكاد يحيط بها البصر، رأيت في داخلها أمرا عجيباً: رأيت جماعات من ذلك الجنس الرقيق مكلفات بأشق الأعمال وأقسى المحاولات العضلية واقفات أمام التنانير المسجورة يعانين أوصاب الحياة ومرارة العيش، تقرأ على وجوههن التي لفحتها تلك النيران المستعرة هذه الجملة التي لا تذهب من مخيلتك أبدا:

(هذا منتهى أسر الرجل للمرأة)

ومحررو المرأة عندنا بدلا من أن يعدوا هذا مرضاً اجتماعياً كما يعده علماء العصر الحاضر ويضعوا كل همهم في حياطة بلادنا منه مثل ما يفعله حكماء أوربا وأمريكا تراهم يودون أن يفتحوا علينا ذلك الباب الهائل لظنهم أننا سائرون خلف أوربا قدما بقدم.)

ولقد صدق الأستاذ وجدي فيما كتب فمحاكاتنا للغرب تدفع نساؤنا الحديثات في كل ميادين العمل الاجتماعي ويغرر بهن ليسرن في هذا السبيل من غير قيد ولا حذر. وقد توقع الكثير من علماء الاجتماع سوء عاقبة هذا التمادي في التغرير بالمرأة وتوريط المجتمع في كوارث اقتصادية وخلقية، حتى أن (أوجست كومت) وهو رأس من رؤوس فلاسفة الغربيين كان يرى من واجب الهيئة الاجتماعية أن تضمن للنساء حياة ناعمة مريحة إذا أعوزهن من يكفلهن من الأقارب والأزواج. وذلك لكي تتجه النساء وجهتهن فيما خلقن له من إسعاد الأسرة ودعم أسسها، ومن إنعاش جو المحبة، ومن إشاعة نسمات السلام. وإن ما يذهب إليه هذا الفيلسوف يساير تعاليم الإسلام حين يوجب على بيت المال أن يقوم بنفقات من يفقدن كافلهن ولا يملكن ثروة تدرأ عنهن العوز، أو ليس لهن من يعولن عليه من ذوي القربى الواصلين للأرحام.

ولقد ذهب كذلك (جول سيمون) الاجتماعي الفرنسي إلى تأكيد ما يفصل بين واجبات

المرأة وواجبات الرجل في الحياة الاجتماعية مما يدعو في جملته وتفصيله إلى الحد من التغرير
بالنساء بزجهن في كل الأعمال التي تقتضيها الحياة العمرانية
الأسرة وقيودها
يتبين مما تقدم ذكره أن للمرأة كمالاً نوعياً خاصاً، ومضمار هذا الكمال الأمومة وتربية الأولاد وتنظيم البيت وإسعاد من فيه. وعلى حد ما يقول قاسم أمين في كتاب المرأة الجديدة:
نحن لا نجادل في أن الفطرة أعدت المرأة للاشتغال بالأعمال المنزلية وتربية أولادها، وأنها معرضة لعوارض طبيعية كالحمل والولادة والرضاعة لا تسمح لها بمباشرة الأعمال التي يقوى عليها الرجال؛ بل نصرح هنا أن أحسن خدمة تؤديها المرأة إلى الهيئة الاجتماعية هي أن تتزوج وتلد وتربي أولادها. هذه قضية بديهية لا تحتاج في تقريرها إلى بحث طويل)
ومن المعلوم أن تأسيس الأسرة وتكوين العائلات إنما دعم على انتقاد من حريات الأفراد وحد من استقلالهم حيال ما يعود من الفوائد الناتجة عن التكامل العائلي حين يشمل أفرادها الحدب والحنان والعودة والتراحم وما يترتب على ذلك من تبادل المنافع.
لقد كانت المرأة في حالة الهمجية الأولى واسعة الحرية، وكذلك كان الرجل. لكن تقدم النوع الإنساني وأطوار العمران قضت شيئاً فشيئاً على هذه الحرية الهمجية إلى أن وصل المجتمع إلى تكوين الأسرة المهذبة المتراحمة على أنقاض هذه الحريات.
ولقد حددت الشرائع وما تعارف عليه الناس لكل من أفراد الأسرة مختلف النظم والحدود، وعلى ذلك يجب أن يمارس كل من الزوج والزوجة والبنين حقه وواجبه في حدود الله والعرف الصالح.
ويسوءنا أن نلاحظ على مجتمعنا في العهد الأخير أن الناس نساء ورجالاً قد تعدوا حدود المعقول والمشروع في السلوك. وبخاصة فيما يتعلق ببنية الأسرة وجوهر آدابها. ففي حين قضت حكمة الإسلام أن يكون للزوج درجة على زوجته في تسيير دفة الحياة العائلية اصبح الحال بعكس ذلك في الأسر التي طغى عليها التقاليد المنحرف الدخيل، وفي حين كانت تدعو التقاليد الإسلامية بأن تحتجز زينة النساء وتبرجهن للبيت والأزواج؛ اصبح الكثير من النساء لا يستسغن التزين والتبرج إلا للمجتمعات مع ضعف في الذوق
جرت إليه المحاكاة الطائشة.
وفي حين كانت تقاليد الإسلام لا تبيح للنساء مخالطة الرجال ولا تبيح للرجال مخالطة النساء إلا بشروط وقيود. أصبحت حرية الاختلاط في بعض الطبقات الاجتماعية رهينة وحي اللهو والهوى والفتون، وفي حين كانت التقاليد الإسلامية تدفع بالناس إلى التبكير بالزواج والتناسل أصبحت أطوار الأخلاق، وفلسفة الزمان المستحدثة تغري بعكس ذلك من التقاليد التي قامت عليها عظمة الماضي وقوة السالفين.
وليس من شك أن هذه الحالة التي تواضع الناس على تسميتها بالحياة العصرية حيناً وبحالة التجديد حيناً آخر يتنافى مع التقاليد الأصيلة فينا، وإن هذه الحالة السيئة تسللت إلى مصر مع غفلة الزمن وضعف الشخصيات والولوع بالمحاكاة، ولقد شعر الكثيرون منا بخطر هذا الحال الاجتماعي واخذوا يثورون عليه سراً وفي استحياء في حين أن دعاة من صميم الغرب قد دعوا جهرة للحد من خروج المرأة عن نطاق عملها ودوائر نشاطها.
ورد في جريدة المقطم منذ أسبوع: أن سيدة سورية طلبت إلى الجهات المختصة في حكومتها الموافقة على انتظامها في سلك المحاماة، فردت تلك الجهات بامتناعها عن إجابة هذا الطلب لمخالفة ذلك لروح القرارات التي أصدرتها الحكومة الرئيسية في فيشي.
على أني لا أتعرض لإقرار ذلك أو رفضه، إنما أريد أن اتخذه دليلاً على ما يبديه الغرب من الروح الجديدة، والرجوع بالمرأة إلى الحدود الواجبة.
المعاول
ومما يزيد الأمر عندنا سوءا أن معاول الإتلاف في الحياة الاجتماعية متعددة وكثيرة،

فإشاعة الروايات الغرامية، وعرض المسرحيات الرخيصة، وترديد النظر فيما يعرض في دور الخيالة السيئة، وما يوحيه ذلك للفتيات والفتيان والزوجات والأزواج والاختلاف إلى المتنزهات العامة دون رقابة واحتشام وعصمة، وقراءة ما يسمونه الأدب المكشوف، وكثرة الاطلاع على الصور في أوضاعها الخليعة، وما إلى هذه المغريات. كل ذلك شأنه شأن المعاول في هدم الحياة الاجتماعية المنتجة، وفي زعزعة أسس التربية الصالحة في كيان الأسر.

الدعوة والعمل

وأصبح لزاماً على المفكرين دعوتهم للإنقاذ من هذا البلاء، ولعل هذه الدعوة تجد آذاناً صاغية لما آلت إليه حالة المجتمع من التدهور كما وجدت دعوة قاسم أمين آذاناً صاغية عندما اشتدت التقاليد القديمة وضيقت الخناق في حياة النساء، وعسى أن يكون لوزارة الشؤون الاجتماعية وللهيئة الحاكمة عمل في ذلك مذكور قد أتعرض لتفاصيله وبيانه في فرصة أخرى أن شاء الله.

على أنني أرجو من المرشدين الراشدين والكاتبين والكاتبات ورؤوس الأسر رجالاً ونساء أن يفطنوا للخطر الذي حقت كلمته في الغربيين وراء الاستهانة بروابط الأسرة ومقتضياتها ومقوماتها فاستيقظ الغرب يبتغي الوسيلة لوقايتها مما حاق بها وبرد المرأة إلى ما هيأته لها المقادير.

منصور فهمي

الصحافة العراقية

للدكتور زكي مبارك

- ما عناصر هذا الموضوع الدقيق؟

في صلب المقال جواب عن هذا السؤال

لا يجوز إغفال الصحافة عند التكلم عن الحياة الأدبية في بلد من البلاد العربية، فإلى الصحافة يرجع أكبر الفضل في نشر المذاهب والآراء، واليها يرجع الفضل كله في المرونة التي ظفرت بها الأساليب في هذه الأيام، لأن الكتاب لم يعودا يهتمون بالخواص، كما كانت الحال في العصور الخوالي، وإنما يوجه الكاتب كلامه إلى جماهير كثيرة فيه العالمون والجاهلون والأذكياء والأغبياء، وذلك يوجب أن يكون الوضوح هو الخصيصة الأولى من خصائص البيان.

والمحصول الأدبي في مصر وسائر البلاد العربية هو في أغلب أحواله مقالات وبحوث نشرت في الجرائد والمجلات، والحال كذلك في الأمم الأوربية والأمريكية، فجانب كبير جدا من الأدب الفرنسي لم يكن إلا صحائف مختارة من بين ما نشر في الجرائد والمجلات. وكان من تقاليد جريدة (الطان) أن تنشر كتباً جيدة تختار موادها من بين ما نشرت لأكابر الكتاب والباحثين. وكانت جريدة (المؤيد) في مصر صنعت مثل هذا الصنيع فنشرت ما كانت تسميه (منتخبات المؤيد) ولو فكرت الجرائد المصرية في إحياء هذه البدعة الطريفة لظهرت مجموعات علمية وأدبية وفنية تزيد محصولنا الفكري قوة إلى قوة، وتحفظ ما يعرض للنسيان من آثار الأذواق والقلوب والعقول.

وكانت دار الكتب المصرية شرعت في طبع فهارس لأهم ما ينشر في الجرائد والمجلات، وهي فهارس لا يلتفت إليها جمهور الباحثين، وأخشى أن تكون عطلت بعد غلاء الورق، فتلك الفهارس تؤدي خدمات عظيمة لمن يهمهم الرجوع إلى محصول الفكر والعقل في هذه البلاد، وتشهد بحرصنا على تقييد الأوابد من معالم الأدب والتاريخ.

ويدور الجدل من وقت إلى وقت حول المفاضلة بين المعاهد التي خدمت اللغة العربية كالأزهر ودار العلوم وكلية الآداب، وعند التأمل نرى أن هذه المعاهد لم تخدم إلا علوم اللغة العربية، أما نشر الأفكار والمذاهب والآراء، ورياضة الأقلام على وصف ما جل ودق من شؤون الحياة بأسلوب واضح مقبول يفهمه العوام ولا ينكره الخواص، وخلق الروح الوطني والديني في نفوس الجماهير، وتقريب ما بين الشرق والغرب من المسافات العقلية، فذلك كله من ثمرات الجهاد المحمود، جهاد الصحافة الأدبية والسياسية، فهي التي رفعت اسم مصر بين أقطار الشرق، وهي التي أذكت مواهب الرجال، وهي التي أمدت اللغة العربية بروافد لم تر مثلها في أيامها الزواهر لعهد بني أمية وعصر بني العباس فما حال الصحافة العراقية؟

لم يصح عندي أن في العراق صحافة تساير ما فيه من النهضات العلمية والقومية، وإن كثرت فيه الجرائد والمجلات، فكيف تخلف العراق في هذا الميدان مع أنه تقدم في أكثر الميادين؟

قد يجاب بأن الصحافة هناك ترزح تحت أثقال من القيود بسبب العواصف السياسية، وهو كذلك، ولكن ما سبب تلك القيود؟

يرجع السبب إلى أن الصحافة العراقية ترى أن الحرية لا تكون إلا في الحدود التي تتمتع بها الصحافة المصرية، وذلك خطأ فظيع: فالمصريون والعراقيون يختلفون اشد الاختلاف في الميول والأهواء، ولو شئت لقلت أن في الطبع المصري هدوءاً لا يعرفه الطبع العراقي؛ فالمقالة القاسية في جريدة مصرية لا تغير إحساس الجمهور إلا بمقدار ضئيل، ولا كذلك المقالة القاسية في جريدة عراقية، فهي تزلزل إحساس الجمهور اعنف الزلزال، وقد تقبح سمعة من كتبت فيه ابشع التقبيح.

سمعت أن جريدة عراقية أغلقت لأنها كتبت مقالا عنوانه (الفرات الهائج)، فكيف أغلقت من أجل هذا العنوان؟ أغلقت لأنها تناست الفرق بين الهياج والطغيان، فالهياج يضاف إلى السكان، أما الطغيان فيضاف إلى الماء.

والسبب مضحك لمن ينظر فيه وهو يجهل المدلول السياسي لهياج الفرات، أما الذي ينظر فيه وهو يعرف محرر الجريدة ومذهب الحزب الذي ينتمي إليه فقد يعده باباً من التحريض، وقد يراه بوادر لمصاعب لا تطاق، وما احب أن أزيد!!

ومعنى ذلك أن الصحفيين العراقيين يخربون بيوتهم بايديهم، فهم لا يعرفون سياسية القول،

وهم يجنون على أنفسهم حين يفكرون في محاكاة الصحافة المصرية، وهي صحافة باغية لم تدع أديماً صحيحاً إلا مزقته بلا ترفق ولا استبقاء.

قضيت ليلة من ليالي الطوال في بغداد وأنا حزين بسبب ما كان ينشر في جريدة (الرأي العام) طعنا في مصر والمصريين؛ ولكن كيف؟ هل كانت تلك الجريدة تشتم مصر والمصريين؟ لا، وإنما كانت تنشر أقوال المصريين بعضهم في بعض، فتذيع ما كان يقع من التهاجي بين جرائد الدستوريين والسعديين والوفديين. . . فماذا صنعت؟ رأيت أن اذهب لمقابلة مدير الدعاية بوزارة الداخلية هناك لأفهمه أن الجمهور العراقي سيحقد على الحكومة العراقية حين يرى نفسه محروما من الطعن في وزرائه على نحو ما يتمتع به الجمهور المصري، وهو حال أن دام فستكون له عواقب سود. فكانت النتيجة أن تكف جريدة (الرأي العام) عن تقديم ذلك الطعام (المسموم) لقرائها (الأصحاء)

الصحافة الحزبية في مصر صحافة مؤذية، وهي كريهة المذاق، ولن ينجو العراق من شر هذه الصحافة إلا يوم تنجو منها مصر، وهيهات ثم هيهات!

ولكن الصحافة الحزبية عندنا تستر شرها بالتحدث عن أشياء من العلوم والآداب والفنون؛ أما الصحافة الحزبية في العراق فهي سياسة في سياسة في سياسة، ولا يظفر منها القارئ بزاد على أو أدبي إلا في أندر الأحايين.

تذكرت صحافة العراق حين نظرت في كتاب (السلوك، لمعرفة دول الملوك) وهو كتاب ألفه المقريزي ونشره الدكتور (محمد مصطفى زيادة) بعناية تضيفه إلى أقطاب المحققين، فرأيت المؤلف لا يرى الدنيا إلا في أخبار الملوك والوزراء، أما الشعب فليس له من جهد المؤلف خلاف وكذلك تكون صحافة العراق.

لو أن الصحافة العراقية جعلت أحوال المجتمع العراقي همها الأصيل لظفرت بجاذبية روحية وأدبية تغنيها عن الاهتمام بأخبار الوزراء، والجريدة الموفقة هي الجريدة التي تحدث الشعب عن ذات نفسه وتنقله إلى أفاق من الفكر والقلب والوجدان.

أما الجريدة التي لا تعرف غير الأخبار الرسمية، ولا توجه جهودها لغير الجانب السياسي فهي جريدة قليلة النفع في تربية العواطف وإحياء الآمال.

والصحافة الحزبية في مصر خليقة بأن تسمع هذا القول قبل أن تسمعه الصحافة الحزبية
في العراق.

ومن صحافتنا الحزبية استعيذ بالله، فهي معول يهدم ما بيننا من أواصر وصلات ولكن لابد من النص على أن مصر تتمتع بمزية عظيمة هي (التماسك) فما يهدم الرجل

العظيم في مصر ولو صوبت إليه ألوف الأكاذيب والأراجيف، أما الرجل العظيم في العراق فتهدم قوته المعنوية حين تشتغل الصحافة بتجريحه أسبوعا أو أسبوعين، وتلك حال طيبة من جانب وخبيثة من جوانب، فهي طيبة لأنها تجعل الحاكمين في حذر من تغير المحكومين، وهي خبيثة لأنها تجعل سوء الظن أساسا لأكثر الأعمال.

والصدق في حب العراق هو الذي يسوقني إلى النص على هذا الملحظ الدقيق، ولكن هل قلت كل ما يوجبه الصدق؟

يجب النص على أن الصحافة العراقية مشلولة بسبب انعدام التعاون بين السلطة التنفيذية والسلطة الأدبية، فمن واجب الحكومة أن تعين الصحافة على نشر ما لا خطر في نشره من أخبار السياسة الداخلية والخارجية، ومن واجب الصحافة أن تراعي جميع الظروف، فلا تعمل على تهوين أقدار الحاكمين في انفس المحكومين في بلد يتأثر بالقيل والقال.

!!وانعدام التعاون بين هاتين السلطتين في العراق له نتائج تلمحها من حين إلى حين أليس من العجب أن نقرأ في جميع الصحف العراقية أن الحال على ما يرام وفوق ما يرام، ثم يكون الواقع أن العراق يعاني أزمة وزارية أو دستورية؟

وأقارن بين الحالة في مصر والعراق فأقول:

الحرية الصحفية في مصر تصرف المصريين عن خلق الإشاعات والأراجيف، لأن الصحافة المصرية تقوم بهذه المهمة (خير قيام) فهي تزود أهل الفضول بما يكفي لإزجاء أوقات البطالة والفراغ، وتغنيهم عن الافتنان في اختراع الأقاصيص حول مسالك الكبراء والوزراء.

ومن هنا يكون في مقدور الحكومة المصرية أن تعرف ما يتحدث به الناس فتطب له قبل استفحال الداء.

أما صمت الصحافة العراقية عما يدور في أروقة الدوائر والدواوين فيروض العراقيين على الظن بأن الصحافة تطوى عنهم اشياء، فيتولون بأنفسهم خلق صحافة جديدة اسميها

(الصحافة الشفوية) وهي صحافة لا يشرف عليها حسيب أو رقيب، فتجول في الأندية والمجالس بلسان مسموم لا يكبحه عنان ولا يصده وثاق.

ومن هنا تعجز الحكومة العراقية عن الطب لوساوس الجمهور قبل استفحال الداء.

وهل احتاج إلى النص على أن الصحافة التحريرية أخف وقعا من الصحافة الشفوية؟

إن الصحافة التحريرية يديرها رجال ينهاهم العقل والمنطق والذوق عم الإمعان في الإرجاف، أما الصحافة الشفوية فيخب فيها كل مخلوق على حسب هواه، وقد يحترفها أقوام لا يعرفون أخطار (الغيبة الاجتماعية) وهي افظع من الغيبة الفردية، فأنت حين تغتاب شخصا لا تؤذي غير رجل واحد، ولكنك حين تغتاب حكومة قد تعرض أمة برمتها إلى التصدع والانحلال.

ولكن ما نتيجة انعدام التعاون بين السلطة التنفيذية والسلطة الأدبية في العراق؟

النتيجة هي ضعف الأدب السياسي هناك، وكيف يقوى الأدب السياسي وما تستطيع جريدة أن تقول إنها أسندت هذه الوزارة أو قوضت تلك؟؟

وكيف ينبغ الكتاب السياسيون وقد حرموا القدرة على تشريح المذاهب والآراء؟

وارجع مرة ثانية إلى الخطر المخوف على الصحافة العراقية وهو محاكاة الصحف المصرية، فتلك المحاكاة هي سبب البلاء، ويجب أن يكون للصحافة العراقية مسالك جديدة تراعي فيها ظرف المكان، وتطب لأدواء المجتمع العراقي بلا استطالة ولا بغي ولا عدوان.

والى أن يجيء اليوم الذي يتم فيه التفاهم بين السلطة التنفيذية والسلطة الأدبية. . .

ما الذي يجب أن تصنع صحافة العراق إلى أن يجيء ذلك اليوم؟

أرى أن يفكر الصحفيون العراقيون في تزويد جرائدهم بأطيب الزاد من العلوم والآداب والفنون لتصبح الجريدة وهي جارحة من الجوارح الروحية لا يستغني عنها رجل يتنسم هواء العراق.

إن كان للصحافة العراقية عذر في العجز عن خلق الكاتب السياسي، فما عذرها في العجز عن خلق الكاتب الأدبي والكاتب الاجتماعي؟

ما عذرها وليس للحكومة سلطان على كتاب الأدب والاجتماع؟ وما عذر أدباء العراق في
التخلف عن السبق في ميدان التأليف؟
لن أنسى واجبي في دعوة أدباء العراق إلى التفكير في الانتفاع بذخائر الثروة الروحية والعقلية في تلك الأرجاء.
كان الكبح السياسي في القرن الرابع أعنف من الكبح السياسي في القرن الرابع عشر، فأين العراقيون اليوم من جهود أسلافهم بالأمس؟ لقد تمخض الكبح السياسي والديني في القرن الرابع عن ذخائر فلسفية هي (رسائل إخوان الصفاء) فأين ثمرات الكبح السياسي في هذا العهد؟ وأين محصول العقول في تدبير الرسائل لشر أحلام القلوب وأهواء النفوس؟
كنت كتبت كلمة في الرسالة اصد بها الأديب (الدسوقي) عن الاغترار بما يصدر عن وحي القلب في سن العشرين، فثار جماعة من أدباء الشباب وعدوا كلمتي تعطيلاً لمواهبهم الأدبية. ولكنهم لم يستطيعوا أن يفحموني، وأفحمني شاب عراقي حين سألني وهو في بغداد عما كنت اصنع بأحلامي وأفكاري يوم كنت في سن العشرين!
ومن هذا الكلام فهمت أن الخميرة الفلسفية لها بقايا في العراق. وقد عرفت في بغداد شاباً كان ينفق على أهله وهو تلميذ بالمدارس الثانوية من دراهم معدودات كان يجنيها بعرق الجبين في خدمات أدبية شريفة لا تصرفه عن استذكار الدروس؛ ولا أدري ما صار إليه أمر ذلك الشاب، وإن كنت أعرف أن مجلة الرسالة قومت أدبه فنشرت له قصة من أدب طاغور بعناية والتفات. وإن صحت فراستي في هذا الشاب فسيكون له بين أكابر الأدباء في العراق مكان.
العراق روحياً بخير وعافية، ولكن كيف نخلق الفاعلية الأدبية في العراق؟ وكيف تخلق المنافسة الجدية بين القاهرة وبغداد؟
أما بعد فأين أنا مما أريد
حديث اليوم عن الصحافة العراقية، وقد تكلمت عنها بالتفصيل في كتاب (وحي بغداد)
فما هو الجديد في هذا الحديث؟
الجديد هو أن الصحافة العراقية لا تزدهر إلا حين تبتعد عن المشكلات السياسية، ولكن كيف وكل امرئ في العراق يشغل نفسه بالسياسة ولو عاش في الدربونة الواقعة خلف شارع صريع الغواني؟
في العراق صحافة أدبية لا تعرف تصريف الفعل من ساس يسوس، وهي صحافة مبثوثة في أرجاء العراق، فنرى لها ملامح في البصرة والحلة والنجف والموصل وبغداد، وقد نراها في الكوفة المسكينة التي عاشت مساجدها الجوامع طول العهد بالخراب، وقد نراها في (العمارة) ممثلة في صحيفة تسمى (الفرزدق)، قد نرى ملامح الصحافة الأدبية في كل مكان بالعراق، وإن لم تكن في قوة الصحافة الأدبية في وطن الأزهر والجامعة المصرية.
ولكن. . . ولكن هل ننسى قيمة الاستقرار في بلد الرشيد؟
لم يسم العراقيون عاصمتهم (مدينة السلام) أو (دار السلام) إلا استجابة لرغبة مقهورة هي الشوق إلى أن تكون عاصمتهم دار الأمان، وهي في جميع عهودها دار الخوف، أو دار الحرب، فما فيها موضع قدم إلا وهو معهد صيال لعزائم الأبطال.
والعراق حين يسألك عن حالك يقول: هل أنت مستريح؟ ومعنى ذلك أن التعب هو الحال الغالب في تلك البلاد!
وأقول إن الاستقرار الصحفي تظهر قيمته في (مجلة المعلم الجديد) فما هي تلك المجلة؟ هي مجلة تصدرها وزارة المعارف العراقية لشرح شؤون التربية والتعليم، وقد ظهرت في سنة 1935، ولا تزال تصدر بقوة وحيوية تشهدان بقيمة النظام في العمل الذي يستريح مزاولوه من أعباء التكاليف الثقال: تكاليف المال.
مجلة المعلم الجديد هي السجل الصادق لآثار العقول العراقية في مختلف الشؤون، وقد عجب الشاعر على محمود طه صاحب (الجندول) من أن ينال من رعاية تلك مكانا لم يظفر بمثله بين مجلات وادي النيل، فكان ذلك شاهدا على أن مجلة المعلم الجديد تتسامى إلى الرعاية الأدبية لجميع آثار العقول في سائر الأقطار العربية.
ما شاء الله كان، فما نظرت في محصول مجلة المعلم الجديد إلا أيقنت بأن زملائي

في بغداد قد وصلوا إلى أشياء، ولكن كيف وصلوا وهم بأعمالهم التعليمية مشاغيل!
السر كل السر في أن مجلة (المعلم الجديد) لا ينشر فيها حرف بالمجان، فهي تتخير من محصول العقول ما تشاء، ومن أخصب تخير - كما كان يعبر الأسلاف - وكيف تضيع مجلة تنفق عليها الدولة بسخاء؟!
لو أردنا اختبار المواهب العراقية في الصحافة والتأليف، لدعونا مجلة (المعلم الجديد) إلى
التحرر من (كرم) وزارة المعارف هنا، ولكننا نطلب المستحيل، فالشرق هو الشرق، ولا يدوم عمل في هذا الشرق إلا بسناد متين من أسندة الحكومات! واه ثم آه من بلاء الاتكال على الحكومات في جميع الشؤون!
ثم أما بعد، فهذا مقال تحررت فيه من مراعاة الظروف والملابسات في مصر والعراق، فهل جنيت على نفسي بالهجوم على الصحافة هنا وهناك؟
أنا الغريق، فما خوفي من البلل - كما يقول المتنبي - أنا الرجل الذي عاتى مكاره الاغتراب في كل أرض، فكانت غربته في القاهرة أقسى وأعنف من غربته في باريس وبغداد!
وهل كانت الصراحة من اظهر صفاتي؟ وكيف وقد قضيت العمر في جمع المال لاشتري مثقالاً من الرياء، وسأموت قبل أن اجمع الثمن لغالي لذلك المثقال!!
إليك، يا فاطر الأرض والسموات، أوجه الرجاء، فما تقدمت ولا تأخرت إلا بحكمة عالية من كرمك البالغ وحصنك الحصين.
زكي مبارك
على هامش الأبحاث النفسية والفلسفية
الدين والفلسفة
للدكتور محمد البهي
هل للفلسفة قيمة العلم واعتبار اليقين في بحث الله وبحث ما وراء الطبيعة كقيمتها واعتبارها في بحث العقل الإنساني وفي بحث القيم الأخلاقية؟ هل للدين اعتبار فحسب فيما يحكيه عن الله وعن عالم ما وراء الطبيعة أم يتجاوز اعتباره في نظر العلم إلى دائرة الإنسان؟
أطال فيلسوف المذهب الألماني (كانت) في الإجابة عن هذين السؤالين، ولم يرتض مكس شلر من الفلاسفة العصريين ما ذهب إليه فيلسوف كونس برج بشأن الدين.
هل الدين يعادي العلم أو يؤاخيه؟ وهل في طبيعة الدين ما يساعد أو يمنع الاستمرار في البحث والاسترسال في التفكير الحر؟ . . .
تناول كثير من الكتاب علاقة الدين بالفلسفة على هذا النحو، وهي علاقة الدين بالعلم في نظرهم. ولم تخل الإجابة من تحيز لطرف منهما، أو من سوء تحديد لميدان كل منهما، أو عن سوء فهم لطبيعة الدين أو لحرية الفكر والبحث العلمي.
لا عن هذا ولا عن ذاك أريد الآن الكلام. بل أريد فحسب أن أضع أمام القارئ مادة للإجابة عن سؤال يتصل بعلاقة الدين بالفلسفة كذلك على نحو آخر وهو: هل من مصلحة الدين أن يجذب نحو الفلسفة؟ وهل من مصلحته أن يفلسف بأن تشرح حقائقه بآراء الفلاسفة؟
في العصر الحاضر يميل بعض العلماء الشرح القرآن بما عرف - وتستجد معرفته - لعلماء الطبيعة والكيمياء، وعلماء الهندسة الميكانيكية والكهربائية، وعلماء المعادن والأحياء؛ وبالجملة يميل إلى شرحه في ضوء العلم والفلسفة. ويذهب إلى أبعد من هذا في وضع منطق ديني لمعرفة الصحيح والفاسد من الدين؛ وقوام هذا المنطق الديني الأقوال التي تذكر في استحضار الأرواح، وما يدور حول التنويم المغناطيسي، ونظرية الأثير و (التجارب الحسية) على إثبات الروح.
وقديماً مال فلاسفة المسلمين وبعض علماء الكلام إلى شرح العقيدة الإسلامية في الله وفي صفائه، وفي صدور العالم عن الله ونشأته عنه، وفي ملائكته ورسله، وفي الجنة والنار،
وفي الإنسان: في روحه ونفسه، وفي صلة جسمه بروحه، وفي مستقرها ومستودعها، بما نقل عن فلاسفة الإغريق خاصاً بالمبدأ الأول للكون وبنشأة الكون عنه، وخاصا بالأفلاك وبالنفس الكلية التي هي نفس العالم وبفيضها على النفوس الجزئية، كما مال

فريق آخر من هؤلاء القدماء إلى شرح الآيات الكونية بما عرف لبطليموس وأقليدس من فلاسفة اليونان الطبيعيين والرياضيين.

وكما ادعى فلاسفة المسلمين الأولون ممن فلسفوا العقيدة أن تفلسف العقيدة وشرح حقائقها بالآراء الفلسفية وسيلة من وسائل تقويتها وعنوان على تطابقها مع الفلسفة اليونانية، وفي ذلك إبراز لكمال العقيدة، لأن الحكمة اليونانية - هكذا ظن أو اعتقد هؤلاء الفلاسفة من المسلمين - تمثل أعلى درجة من المعرفة وارفع مرتبة من الفضائل. يدعي كذلك بعض العلماء المعاصرين المفلسفين للعقيدة أن تفلسف الدين إبراز له في ثوب ملائم للعصر وموافق لأهم مظاهره - وهو مظهر العلم - وبذا يقرب من نفوس الخاصة المثقفة من المسلمين، ويقرب كذلك من إفهام بعض العلماء الغربيين الذين أساءوا إليه عن (جهل بحقيقته)، وفي الوقت نفسه يبرهن على (صلاحيته لكل جيل وزمان).

والإنسان الحديث ربما يسر لهذا اللون من الشرح، بل ربما يتحيز له ويدعو إليه لما فيه من جدة لن تؤلف، ولأنه يدل على أن (الكتاب لا يفرط في شيء)، كما هلل إنسان القرون الوسطى قبله، وبالأخص إنسان القرن الثالث والرابع الهجري، لخلط الدين بالفلسفة الإغريقية، وذهب في هذا الخلط إلى حد بعيد.

ولكن وراء سرور الفرد ووراء انفعاله وإكباره لهذا العمل حقيقة لا تتغير بمظاهر انفعاله وإكباره، وهي: أمثل ذلك الصنيع يلائم طبيعة الدين ويلائم غايته؟ ولاشك أن يسر الدين وكونه قريباً من إفهام أكبر عدد ممكن من الجماعة البشرية من أهم خصائص طبيعته. ولاشك أن اقتناع الكثرة به واجتماعها حوله غير متفرقة ولا متحزبة لتأويل معين لحقيقة من حقائقه غاية رئيسية له.

فإذا كان تفلسف الدين إذا يساعد على نمو طبيعة الدين ويساعد على تحقيق غايته، كان من مصلحة الدين جذبه نحو الفلسفة، وكان من مصلحة شرح عقيدته بآراء الفلاسفة.

دخلت الفلسفة الإغريقية بشرح رجال مدرسة الإسكندرية منذ عصر المأمون في ثقافة المسلمين، وأحدثت على إثر دخولها تحولاً في نشاط المسلمين الديني والعقلي أساسه الميل إلى الفلسفة في إنتاجهم في هاتين الناحيتين. وكانت العقيدة الإسلامية اشد تأثراً بالفلسفة في نطاق الإنتاج الديني؛ إذ من أهم ما تناولته الفلسفة بالبحث المبدأ الأول للكون، وصفات هذا المبدأ، ونشأة العالم المشاهد عنه، والإنسان أمام العقل الإسلامي المشتغل بالعقيدة الإسلامية نظرية الواجب والممكن، ونظرية وساطة العقل الفعال بين الله والعالم، ونظرية الصورة والهيولي، ونظرية العقول المجردة، ونظرية فيض النفس الكلية على النفوس الجزئية. . .

ولم يشأ العقل الإسلامي أن يعالج هذه النظريات في عزلة عن الدين، ولا أن ينقدها - إذا نقدها - من غير رعاية للدين بل حاول جهد طاقته، وبالأخص بدء اشتغاله بها، أن يشرح بعض حقائق العقيدة بما ورد في الفلسفة من آراء لأنه جعل شعاره: (إذا انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال). إذ أنه يقول: (وهل الحكمة إلا مولدة الديانة؟ وهل الديانة إلا متممة للحكمة؟ وهل الفلسفة إلا صورة النفس؟ وهل الديانة إلا سيرة النفس؟). وإذ أنه يقول: (لا خلاف بين أحد من العلماء بالفلسفة ولا بين أحد من العلماء بالشريعة بأن غرض الشريعة هو غرض الفلسفة على الحقيقة)

وقد كان للعلماء المسلمين بعض العذر في تحديد الصلة بين الدين والفلسفة الإغريقية بعد ترجمتها على هذا النحو لأن الفلسفة الإغريقية نقلت إليهم من ثوب ديني صوفي في كثير من نقطها، نتيجة عمل رجال الإسكندرية، ولأن منطق أرسطو الذي ترجم أولاً، في عهد المنصور، أحدث في نفوس المسلمين شبه يقين برجاحة العلم اليوناني وعصمة الحكمة اليونانية)

وتبعاً لذلك الشعار وهذا التحديد في الصلة بين الدين والفلسفة من العقل الإسلامي، أصبحنا نرى علماء العقيدة يستدلون على مغايرة الله للعالم بنظرية الواجب والممكن التي أسسها أرسطو على نظامه الفلسفي في الصورة المحضة والمادة المحضة، والتي استتبعت مما استتبعت من صفات، وحدة الوجود الواجب بمعنى عدم تعدد ذاته وعدم تركب ذاته الواحدة من أجزاء. وقد بنى فريق من المسلمين على مبالغته في

إثبات الوحدة ففي صفات الباري، كلها أو الكثير منها، لأن إثباتها - في نظره - يقتضي التعدد. وسلك فريق آخر من الراغبين في إثبات الصفات، تمشياً مع ظاهر القران، وفي الوقت نفسه من الحريصين
على نفي ما يوهم عدم الوحدة طريقاً هو أقرب إلى التلاعب بالألفاظ منه إلى الإتيان بنصيب إيجابي جوهري في حل هذا الإشكال. فقال: (الله له صفة كذا. . . وهي عين ذاته)
كل هذا بعد أن كان المسلم، وبعد أن كان في استطاعة كل مسلم كذلك أن يفهم، أن المعبود غير متعدد لا شريك له، وأنه غير ما في الكون من مخلوقات إذا تليت عليه آيات ربه الداعية إلى التوحيد وعبادة الخالق مثل قوله تعالى: (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم). وبعد أن كان يكفيه في إثبات هذه الدعوى مثل قوله تعالى: (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما انزل من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون)
تبعاً لذلك الشعار أصبحنا نسمع لأبى الهذيل العلاف من شيوخ المعتزلة رأيا في أن كلمة التكوين (قول الله للشيء: كن) التي تعبر عن الإرادة الإلهية حادثة لا في محل، وإن الإرادة تغاير المريد والمراد. وعلى هذا فكلمة التكوين في المكان الوسط بين الخالق الأزلي وبين العالم المخلوق الحادث. وهذه الكلمات المعبرة عن الإرادة الإلهية هي بمثابة جواهر بسيطة تشبه المثل وعقول الأفلاك.
يقرأ الكثير من المسلمين لأبى الهذيل العلاف هذا الرأي ولكن الذي يفهم المراد منه قليل، وهو الذي يعرف المثل، ويعرف لأي غرض وضع أفلاطون نظرية المثل، ولماذا كان القول بالوساطة بين المبدأ الأول (الله) والعالم؟ بينما المسلم إلى عهد الترجمة كانت نفسه مطمئنة إلى الإيمان بخلق الله للعالم على أية كيفية، وكانت حرارة هذا الإيمان تعمر قلبه فانتج وساد، وبينما كان لا ميزة لأحد على غيره في تصور تأثير الله في العالم، ولا مختصاً بسر من أسرار هذا التصور.
تبعاً لذلك الشعار أصبحنا نرى الملائكة تحدد بأنها (جواهر بسيطة، عقلية، علامة، فعالة، وبأنها صور مجردة عن الهيولي مستعملة للأجسام، مدبرة لها، ومنها أفعالها. كما وجدنا هذا التحديد يتخذ أساساً من أسس الإيمان (والثاني من الأمور التي يضعها واضع الشريعة - في نظر إخوان الصفا - ثم يبني عليها سائر ما يعمل أن يرى ويتصور موجودات عقلية،
مجردة من الهيولي، كل واحد منها قائم بنفسه، متوجه نحو ما نصب له من أمره وهم ملائكة الله تعالى وخالص عباده.)
فما معنى الجوهر؟ وما معنى بساطته؟ وما معنى كونه علامة؟ وما معنى كونه فعالاً؟ وما معنى الصورة؟ وما معنى تجريدها عن الهيولي؟ وعلى أي كيفية يكون تدبيرها الأشياء؟
لاشك أنها معان لا تفهمها إلا قلة من الخواص فضلا عن أن تفهمها عامة المسلمين. ومع هذا طولبوا بالإيمان بها في نظر فريق من علماء المسلمين في نظر إخوان الصفاء.
تبعا لذلك الشعار رأينا الشريعة الإلهية تحدد (بأنها جبلة روحانية، تبدو من نفس جزئية في جسد بشري، بقوة عقلية، تفيض عليها من النفس الكلية، بإذن الله تعالى، في دور من الأدوار لتجذب النفوس الجزئية، وتخلصها من أجساد بشرية متفرقة ليفصل بينها يوم القيامة)
لماذا وجدت النفس الكلية؟ ولماذا كانت المصدر المباشر للفيض، أو كانت القوة التي تتولى نقل الأثر - وهو الإيجاد - من الله إلى هذا العالم؟ وما معنى جذب النفوس الجزئية إليها؟ لاشك أنه لا سبيل إلى فهم ذلك إلا لمن اطلع على فكرة النفس الكلية في الأفلاطونية وفي الرواقية وفي الأفلاطونية الحديثة؟ وعلى فكرة جذب (الصورة المحضة - للهيولي) في رأي أرسطو.
تبعاً لذلك الشعار، رأينا الجنة تفسر بأنها عالم الأفلاك والعقول المجردة، والنار تفسر بأنها عالم ما تحت فلك القمر، وهو العالم الأرضي عالم الكون والفساد. ورأينا الشهداء الذين ذكرهم الله في قوله تعالى: (أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين

والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً) تعلل تسميتهم بالشهداء لمشاهدتهم تلك الأمور الروحانية المفارقة للهيولي.

هذا مثال من صنيع العلماء المسلمين بالعقيدة الإسلامية بعد دخول الفلسفة الإغريقية، وبعد رغبتهم في شرحها بالفلسفة، وفي تفلسفها.

والعلماء الحديثون المفلسفون ينهجون نهجهم في تفلسف العقيدة، ولكن فقط يستمدون شرحهم الفلسفي من نظريات العلم التجريبي التي تطبع العصر الحاضر بطابعها الخاص! وقد يستمدونها أيضاً مما بقي لدى أصحاب العلم والحضارة اليوم، وهم الأوربيون، من

الآراء الميتافيزيكية والأقوال الروحية، واثر صنيعهم في العقيدة لا يقل عن أثر ذلكم من قبل.

فنرى بعضهم يحاول تحديد الروح، وهي التي اختص بها علم الله (ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي) بما يسميه أدلة حسية (تجريبية طبقاً لطابع العصر العلمي) فيقول: (إن الروح وإن كانت أمراً إلهياً لا يدرك لها كنه، إلا أن لها جسدا أتيزياً على صورة صاحبها، غاية في اللطافة، لا يتعريه البلي ولا التحلل، في قدرتها أن تستبدل مادة من الخارج وإن تظهر بصورة صاحبه في أحوال خاصة، ويكون صاحبها إذ ذاك واقعاً في غيبوبة)

ونرى تعليقاً من أحد هؤلاء المعاصرين على رأي (لأحد أقطاب الفلاسفة العصريين) يذكره على هذا النحو: (هذه محاولة فلسفية تعتبر أبدع ما أنتجت الفلسفة العالية إلى تأييد الكتاب المجيد. أليس كل ما في هذا البحث الجليل - وهو رأي أحد هؤلاء الأقطاب - محصورا في قوله تعالى: (فأقم وجهك للدين حنيفاً، فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون))

وصنيع كل من السابقين والحديثين هذا، وهو جذب الدين نحو الأفكار الفلسفية وشرح العقيدة وحقائقها بآراء الفلاسفة، شيء آخر يختلف اختلافاً جوهرياً عن محاولة تعليل مبادئ دين من الأديان مما يسمى (حكمة التشريع)، ويختلف كذلك عن تعليل العاطفة الدينية في الإنسان وضرورة وجود الدين في الجماعة البشرية تبعاً لذلك مما يسمى (سيكولوجية الدين)

فتعليل مبدأ الزكاة في الإسلام مثلاً، وجعل حظ الذكر في الميراث مثل حظ الأنثيين، ومبدأ صلاة الجماعة والحج. . . وتعليل: لماذا كانت طبيعة الدين تحتم وجود أمور تعبدية في العقيدة؟ أو لماذا كان الدين ضرورة اجتماعية وعنصراً أساسياً في التنشئة والتهذيب؟ أو لماذا كان القانون المستمد من الدين اشد أثرا على النفوس من القانون الوضعي به؟ تعليل مثل هذه الأشياء غير شرح الحقائق الدينية التي ترد في أصل العقيدة وفي كتاب العقيدة غير محددة وغير معرفة تعريفاً منطقياً - ويجب أن تبقى غير معرفة، لأن في عدم تعريفها أساس أبديتها وأساس عمومها - بشروح مستمدة من محيط الفلسفة كما تقدم.

وما عنيته للآن بالكلام تحت عنوان (الدين والفلسفة) هو جذب الدين نحو الفلسفة، ومحاولة

شرح حقائق العقيدة بالآراء الفلسفية.

والآن نلقى السؤال مرة أخرى: هل مثل هذا الصنيع يساعد على نمو طبيعة الدين، ومن خصائصها أن يكون وإن يبقى ميسراً سهلاً؟ وهل مثل هذا الصنيع يساعد على تحقيق غاية الدين وهي تتجلى في التفاف الجماعة حوله من غير تحزب ولا تعصب لتأويل معين في حقيقة وردت مجملة من حقائقه؟ أم أن مثل هذا الصنيع سبب من أسباب تعقيد العقيدة وإبهامها على كثير من الناس؟

واعتقد أن في المحاضرة التي أذاعها الأستاذ الكبير الشيخ شلتوت وكيل كلية الشريعة منذ أسبوعين من محطة الإذاعة للحكومة المصرية عن (موقف المسلمين من القرآن وموقف القرآن من المسلمين) ما يلقى كثيراً من الضوء على فهم طبيعة الدين وفهم غاية الدين. ولو تفضل بنشرها على صفحات (الرسالة) لاتضح - أكثر من الآن - قيمة تفلسف العقيدة، وتحدد - بشيء أكثر من الدقة - أثره في تفلسف العقيدة نفسها، إيجاباً أو سلباً.

وهو لما له من شخصية علمية دينية ناضجة، أن فعل لاشك أنه يؤدي خدمة جليلة

للبحث العلمي في تراثنا الإسلامي، والبحث العلمي في هذا التراث غايتنا وغايته وغاية شباب الأزهر الحديث.

محمد البهي
مدرس علم النفس والفلسفة بكلية أصول الدين

محمد عبده ومحاولته إصلاح الأزهر

للأستاذ عثمان أمين
المدرس بكلية الآداب

للأزهر منذ إنشائه قصة طويلة، وله مهمة معلومة نيط به أداؤها. فلم يكن المقصود منه أن يكون مسجدا للعبادة، ولا أن يكون مدرسة للتعليم فحسب، وإنما أثر الأزهر في العالم الإسلامي وفي تكوين العقلية الإسلامية أثراً عميقاً يفوق أثر المساجد والمدارس والجامعات. من أجل ذلك كان إصلاح ذلك المعهد في نظر الشيخ محمد عبده من الأهمية بمكان عظيم، لأنه بمثابة إصلاح للأمة الإسلامية كلها.

توجه الشيخ محمد عبده إلى إصلاح الأزهر منذ كان مجاوراً فيه يتلقى على أستاذه السيد جمال الدين الأفغاني. وشرع في العمل لذلك أيام الخديو توفيق. ولكنه لم يستطع في ذلك الحين أن يدخل إلا بعض الإصلاحات الثانوية. ووجد محمد عبده، من البداية، في أكثر شيوخ الأزهر خصوصاً ناصبوه العداء. وأدرك حينئذ أنه لن يستطيع السير في حركة الإصلاح دون أن يظفر بتأييد الخديو والحكومة. ولكن الخديو توفيق لم يكن لديه استعداد لفهم التجديد المنشود، فلم ينظر إلى جهود الشيخ محمد عبده بعين العطف والرعاية. ولما جاء الخديو عباس الثاني - وكان قد تربى في أوربا - استبشر الناس بولايته ورأوا فيها فاتحة عهد جديد. وتقدم الشيخ محمد عبده إلى الخديو عباس وكاشفه بجملة رأيه في الأزهر، ورغبة في إصلاحه وتحويله من الحال التي كان عليها، وكان في ذلك الحين أشبه بتكية من التكايا أو ملجأ من الملاجئ، يأوي إليه العجزة والفقر، وأهل الكسل والبطالة.

ويمكن أن نلخص رسالة الأزهر كما تراءت حينئذ للشيخ محمد عبده في الأمور الآتية: أن يكون مدرسة جامعة بالمعنى الصحيح يتلقى فيها الطلاب العلم الصحيح الذي يعدهم لأن يكونوا رجالاً عاملين، فيكون منهم لمصر وللإسلام قضاة ذوو نزاهة، وأساتذة باحثون، وعلماء متخصصون، ومرشدون مخلصون يعملون على بث الآراء الدينية الصحيحة، والمعاني الأخلاقية السليمة، ومكافحة الخرافات، والقضاء على البدع والأباطيل.

وكلف الخديو الشيخ محمد عبده أن يضع مشروعاً للإصلاح فشكل الشيخ لذلك (مجلس إدارة) من أكابر علماء المذاهب في الأزهر وجعل هو وصديقه الشيخ عبد الكريم سلمان من أعضائه. وكانت مهمة ذلك المجلس الإشراف على التعليم والتربية في الجامعة الأزهرية.

وسار الشيخ في إصلاحاته أول الأمر بسرعة اغتناماً للفرصة، ولم يلق معارضة من أحد مباشرة، وإن كان قد أشير عليه من وقت إلى آخر بتأجيل بعض المشروعات بحجة التدريج والسير بهوادة!

وكان أول أبواب الإصلاح التي وجه الشيخ عنايته إليها هو تحديد مدة الدراسة بالأزهر: فقد جرى العرف منذ زمان طويل أن ينفق المجاورون من أعمارهم الأعوام الطوال في الأزهر، دون أن يجدوا من أولى الأمر أية رقابة على أعمالهم. وحدد القانون بدء السنة الدراسية ونهايتها، كما حددت أيام العطلة والمسامحات. وقد كانت الحال قبل ذلك بلا ضابط: فكان المشايخ والطلاب يمكنهم التغيب متى شاءوا فضلاً عن تغيبهم أيام المسامحات الرسمية.

ووجه الشيخ بعد ذلك عنايته إلى نظام التدريس والامتحان: فاقترح أن تعقد للطلبة امتحانات سنوية. ولم يكن ذلك النظام معروفاً قبل ذلك في الأزهر، بل لم يكن عدد من يمتحنون كل عام يزيد على ستة، وهؤلاء كانوا يتقدمون إلى الامتحان لا بحسب دورهم أو ذكائهم أو علمهم، بل بشفاعة الشفعاء وإلحاح الملحين، والغرض من ذلك طبعاً هو بث روح التسابق فيهم وترغيبهم في التحصيل.

وثالث الإصلاحات التي اقترحها الشيخ محمد عبده: إصلاح لا يقل عن سابقيه أهمية

وأثراً، وهو يقضي بإلغاء دراسة بعض الكتب العقيمة - كالشروح والحواشي والتقارير - التي اعتاد المشايخ تلقينها الطلبة من غير فهم، وكان من شأنها أن تشوش عليهم موضوعات العلوم التي يدرسونها؛ واستعيض عن ذلك كله بكتب أنفع وأقرب إلى مدارك الطلاب.

ورابع الإصلاحات يرمي إلى تقسيم العلوم التي تدرس بالأزهر إلى مقاصد ووسائل؛ فأطيلت مدة الدراسة في (علوم المقاصد): كالتوحيد والتفسير والحديث والفقه وأصول الفقه والأخلاق. أما (علوم الوسائل): كالمنطق والنحو والبلاغة ومصطلح الحديث والحساب والجبر، فهي التي يلزم طلاب شهادة العالمية بأداء امتحان فيها.

والإصلاح الخامس يقرر إدخال دروس ومحاضرات جديدة في علوم: التاريخ والتاريخ الطبيعي والرياضيات والجغرافيا والفلسفة والاجتماع وما إلى ذلك من العلوم التي كان قد أهمل تدريسها بالأزهر إلى ذلك الحين.

ويلاحظ أن تلك الإصلاحات المتواضعة لم يستطع الشيخ محمد عبده أن ينفذها جميعها لمقاومة الشيوخ إياها، إما عن سوء قصد أو سوء فهم، فضلاً عن وقوف الخديو نفسه حجر عثرة في وجه المشروع انتقاماً من الشيخ محمد عبده - كما سنرى - ولكن ما نفذ من الإصلاحات المقترحة لم يخل من أن يحمل ثمراً طيباً: فقد شوهدت في طلبة الأزهر إذ ذاك حماسة جديدة، ودبت فيهم روح فتية، وشاعت عندهم رغبة في التوسع في التحصيل واستيعاب البرنامج التعليمي. وربما كان من الميسور اطراد ذلك التقدم لولا قيام مصاعب جديدة لم تكن في الحسبان.

والواقع أن الشيخ محمد عبده إذا كان قد استطاع أن يضع مشروعاً كاملاً للإصلاح، فذلك لأنه كان يحس بأن من ورائه سلطة الخديو تؤيده. هذا إلى أن شيخ الأزهر الشيخ حسونة النواوي كان يشاطر الشيخ محمد عبده كثيراً من آرائه. ولكن سرعان ما تبدل موقف الشيخ حسونة عندما ظهر له أن الشيخ محمد عبده لم يكن من أهل الحظوة لدى الخديو عباس. ولما عزل الشيخ النواوي، حل محله الشيخ سليم البشري، وكان رجلاً محافظاً مناوئاً لكل فكرة عن التجديد. ومع ذلك، فقد حظي هذا الرجل برعاية الخديو، وصدر قرار بإلغاء الإعانات التي كانت تعطى للطلبة المتفوقين. وكان معنى هذا العدول عن عقد الامتحانات السنوية. ولكن الشيخ سليم البشري اخذ يعود شيئاً فشيئاً إلى آراء الشيخ محمد عبده. وفترت علاقات البشري بالخديو فعزله دون أن تذكر أسباب العزل في المرسوم الصادر بذلك.

ومنذ ذلك الحين اصبح منصب شيخ الأزهر شاغراً. وكان لابد من اتفاق الحكومة المصرية مع ممثل الاحتلال الإنجليزي على تعيين من يشغل ذلك المنصب؛ فعرضت المعية السنية على الحكومة - بواسطة اللورد كرومر - أسماء طائفة من مرشحيها ومن بينهم الشيخ حسونة النواوي - وكان قد عاد إلى الحظوة لدى الخديو - والشيخ محمد بخيت الذي كان معروفاً بعداوته الشيخ محمد عبده، والشيخ محمد راشد الإمام الخاص للخديو، والشيخ أحمد

الرفاعي الذي كان معروفاً بصلته بالبلاط الخديوي. ولم تقبل الحكومة أحداً ممن رشحتهم المعية السنية، ورشحت المعية أخيرا الشيخ علي الببلاوي، فوافقت الحكومة عليه، وصدر قرار بتعيينه شيخاً للأزهر.

وكان الوفاق تاماً بين الشيخ محمد عبده والشيخ الببلاوي، فعاد الهدوء إلى الأزهر، واقبل الطلاب على دروسهم وامتحاناتهم، وانصرف مجلس الإدارة إلى الاشتغال بإنجاز الأعمال العديدة التي كانت أهملت في عهد الشيخ سليم البشري: فقرر المجلس عقد امتحان لشهادة العالمية التي تمنح الحاصلين عليها حق التدريس في الأزهر أو القضاء أو الإفتاء. . .

وراجت في تلك الفترة إشاعة مؤداها أن حديثاً دار بين الخديو عباس وبين (الشيخ الببلاوي) على موضوع الإصلاحات الأزهرية التي أنجزها (الشيخ محمد عبده). وذكروا أن الخديو قال ضمن حديثه للشيخ الببلاوي: (سمعت أنك تعمل في الأزهر كل ما يريد المفتي (الشيخ محمد عبده)، مع أنك حر في أن تعمل برأيك. . .). وذكروا أيضاً أن الشيخ الببلاوي أجاب الخديو: (إني أوافق المفتي كلما رأيت أن الحق معه، ولو اخطأ لقلت له، ولكن لم تعرض بعد فرصة لذلك، فالحمد لله على تلك الحال)

وتالف في الأزهر خلال تلك الفترة حزب لمعارضة الإصلاح؛ وكان على رأس ذلك

الحزب (الشيخ محمد الرفاعي) الذي ذكر اسمه بين مرشحي (المعية السنية) لمنصب مشيخة الأزهر. وكان من أعضاء الحزب (الشيخ المنصوري) الذي كان قد عينه (الشيخ البشري) شيخاً لرواق الصعايدة. وشرع الحزب يقدم عرائض ينتقد فيها أعمال مجلس إدارة الأزهر. وفي ذلك الحين كان بعض المسلمين قد طلبوا إلى الشيخ محمد عبده - وكان مفتياً للديار المصرية - أن يدلي بفتوى في جواز أكل المسلم من ذبائح أهل الكتاب، وفي جواز لبس (البرنيطة) والتزيي بزي الأوربيين. وأفتى الشيخ محمد عبده مصرحاً بأن القرآن لم يحرم طعام غير المسلمين ولا لباسهم، لاسيما إذا كان المسلم مضطراً إلى أن يعيش مع الأوربيين. فضج حزب المعارضة وأرجف في تلك الفتوى، واخذ يطعن عليها وعلى شخص المفتي. وكان له مأجورون أخذوا يذيعون أن المفتي إنما يعمل على التقريب بين المسلمين وغير المسلمين. وأسس حزب المعارضة جريدة يومية اسمها (الظاهر)، كان غرضها محاربة الفتوى. وقيل حينئذ أن مدير تلك الجريدة كان مؤيدا من الخديو. . .

وراجت الأكاذيب والإشاعات، وتفاقم الأمر حتى اخذ الناس يهمسون باحتمال عزل المفتي. وقالت جريدة (المقطم) حينئذ أن اللورد (كرومر) هو الذي حال دون ذلك العزل، إذ تدخل في الأمر وصرح بأن الشيخ محمد عبده أصلح من في مصر للإفتاء، وأنه لذلك ينبغي أن يبقى في منصبه.

ولاحظ (الشيخ الببلاوي) أن حزب المعارضة اخذ يشتد ويعظم نفوذه بتأييد الخديو إياه، حتى أصبح وكأنه الحزب الرسمي، ووجد هو نفسه معطلاً عن العمل. ثم حدثت حادثة (رواق المغاربة) الذين احتموا بالقنصلية الفرنسية، واحتلوا بعض غرف خالية في الرواق العباسي، وانتهى الأمر بإخراجهم منها؛ ولكن شيخهم كان أكثر الوقت يتردد على (سراي القبة). وكبرت هذه الأمور على (الشيخ الببلاوي) ويئس من صلاح الحال فاستقال.

ولما وجد الشيخ محمد عبده نفسه وحيداً محروماً من معاونة شيخ مجرب كالببلاوي، آثر أن يستقيل من مجلس إدارة الأزهر. وتبعه في تلك الاستقالة عضوان آخران من أعضاء المجلس هما الشيخ عبد الكريم سليمان والشيخ أحمد الحنبلي

تلك خلاصة لما حدث بالأزهر في السنوات الأولى لهذا القرن، ومنها يتبين مقدار ما لقي الشيخ محمد عبده من الأذى في سبيل إصلاح مناهج التعليم والتربية في الأزهر، ومبلغ ما بذل من جهود لتقويم ما فسد من نظم الإدارة فيه.

ولكن رغم ما عاناه المصلح من عنت الشيوخ الجامدين، وما حيك حول مساعيه من دسائس الخديو وحزبه، فإن شيئاً لابد أن يبقى ولا تستطيع قوة أن تقضي عليه: ذلك البذر الصالح الذي ألقاه الأستاذ الإمام في ذلك المعهد يوم ألقى فيه دروسه فبث فيها من حر الآراء وسليم الأفكار ما نرجو أن يحسن الخلف القيام عليه.

عثمان أمين

في جنة الدنيا دمشق

غماغم الربيع

للأستاذ صلاح الدين المنجد

- 1 -

تعالي يا عروسي الخلوب

تعالي. . . يا سيدة بردى المعطر وابنة قاسيون الجميل. . .

اسمعي أيتها الغوطة المفتان. . .

لقد جئتك مسرعاً ولهان، وباسماً فرحان. . .

خرجت من الغيوم البيض كالعذارى، فخفقت في الفضاء، ورتعت في الهواء، وطوفت في الأرض، ثم أويت إلى أحضانك الريا. . . يا غوطة الشآم!. . .

لقد حملتُ إليك كل ما تشتهين. . .

لك الزهر. . . لتحليك بسماته

ولك النحل. . . لتطربك همساته

ولك العطر. . . لتسكر نفحاته

فتعالي. . . جعلك لك الخلود، وحملت إليك الجمال، وأوتيت إلى أحضانك من بين الغيوم. . .!

- 2 -
. . .اسمعي. . . اسمعي
. . .سأجعلك فتنة النظر
سأحييك بالنور والجمال، وأجعلك مغنى الحب ومرتع الخيال، وأوشي جنباتك الزهر بالأفياء والظلال، وأحلى أعطافك الخضر بلآلئ الغمام. . . الغمام الذي أذيته لك لؤلؤاً
. . .يبسم ويرف!
. . .فانظري إلي
. . .أنا الربيع الجميل
. . .إليك أويت يا غوطة الشآم!
- 3 -
ما لربوعك صامتة لا تبين. . .؟
أأحزنها خفوق المجد، وزوال النعيم. . .؟ أم شجاها تولى الصحب وفقد الحبيب. . .؟
. . .اسمعي همسي. . . ولا تحزني
لقد شهدت مواكب الملوك العظام. . . وفتحت أحضانك للمحبين والهيام. . . وسمعت أحاديث المجد يرويها آل غسان. . . ثم استقبلت الفاتحين والغزاة، وبسمت للطارئين والبداة. . . فرتعوا في المغاني، وهوموا في الرباع، ثم. . . ثم غيبتهم على حفافي
. . .نهرك، وكفنتهم بوردك وزهرك، بين العشب والنعناع
. . .إلا تحسين. . . إلا تحسين
وتحتك عظام تئن، وأطلال تنام! عظام أو الملوك الغطاريف الرافلين بالحرير، الغارقين في النعيم، اللاهين في الحنايا والقصور.
وأين القصور يا غوطة الشام؟ أين أغاني الوليد وأهازيجه. . . أين سكرات يزيد
. . .وصبواته. . . أين ترانيم المجد وأغاريده؟
. . .أين. . . أين. . .؟
اقدر لتلك الدماء التي شربتها أن تصبح زهرات حمراء، ولتلك الرفات التي طويتها أن
. . .تنقلب أعاشيب خضراء؟
. . .فاضحكي يا عروسي
:لقد مضوا كلهم وبقيت أنت. . . وسيمضي غيرهم وتبقين
اضحكي لعيني الحلوتين. . . أنا الربيع. . . فلقد حملت إليك النور. . . وأتيت من أجلاك
. . .من بين الغيوم!
- 4 -
. . .أيامي قصيرة في الأرض يا عروسي
. . .تمر كومضة البرق، وبسمة الأمل، وقبلة الحبيب الراحل
. . .فافتحي لي أحضانك. . . وسأنثر قلبي في جنباتك. . . وأروي من دمي أكنافك
يا من في أحضانك نثرت قلوب. . . وبين ذراعيك جادت نفوس، وعلى شفتيك أهرقت
. . .دماء
وكان للمجد في صدرك تاريخ، وللنور في فضائك عيد، وللحب في محانيك تغريد،
. . .وللأغاني في سمائك ترديد
فابسمي لعيني الحلوتين. . . يا عروس الشآم فلقد ولدتني الغيوم البيض كالعذارى. . .
فجئت أحمل لك الحياة والنور!
- 5 -
. . .واسمعوا أيضاً. . . اسمعوا!
أنتم أيها الفنانون
. . .يا من تبعدون الجمال وتقدسون النور
. . .تعالوا إلى غوطة الشآم
انظروا لجمال الفينان؛ والدلال النشوان، والتبرج والفتون!
واسمعوا غماغم الهوى المعسول، وتأوهات الزهر المسحور وتمتعوا بالربيع النديان غافياً على ركبتي العروس. . . ينفث الرحيق، وينشر الأريج، ويداعيها بالقبل، ويسكب
. . .بين يديها الدموع. . . فنبت عند كل قبلة زهرة. . . ويتفجر عند كل دمعة ينبوع
. . .تعالوا. . . وانظروا ميلاد الشعر والحب

. . .أقبلوا. . . وارنوا إلى هداياي
زهور سمت نجوم السماء
. . .وعطور فاقت أفاويه الهنود
ومياه رقيقة كنجوى المحبين
. . .ولكن. . . لا. . . ما العطور، وما الزهور
لقد وهت لها الحياة، الحياة، والجمال والنور
- 6 -
. . .بشرك يا غوطة الشآم
. . .إلى أحضانك جئت من الغمام
أنا الربيع الجميل
أنا الذي أدغدغ النهود فتثب، وأشعل الخدود فتلتهب، وأغرق الألحاظ بالسحر
. . .والفتون. . . وأهز القدود بسكر الشباب، وأغمر القلوب بالحب والحنان
. . .أنا الربيع
. . .أنا ضحكات الشفاه، وخفقان القلوب، وغمز العيون
. . .أنا رنين القبلات، واختلاج القسمات، وأحلام العذارى، وهمس الأحباب
. . .أنا. . . أنا نصوع الزهر، وسطوع العطر
. . .أنا الحب، أنا الجمال
. . .مررت على الجنان. . . واصطفيت أبدع الألوان، وجئت إلى أحضانك مسرعاً عجلان
. . .فابسمي. . . واضحكي
فلقد ولدتني الغيوم البيض كالعذارى،
. . .فجئتك أحمل لك الحياة الحياة، والنور. . . والجمال!
(دمشق)
صلاح الدين المنجد
رد على رد
وأد البنات عند العرب في الجاهلية
لدكتور علي عبد الواحد وافي
عقب الأستاذ عبد المتعال الصعيدي على مقال لي في وأد البنات عند العرب في الجاهلية بكلمة ترجع خلاصتها إلى النقط الآتية:
1 - يسألني من أين أتيت بالرأي الذي ذكرته في هذا المقال بصدد عقائد القبائل التي كانت تئد بناتها، والعوامل التي كانت تحملها على ذلك.
2 - يرى أن العرب في الجاهلية كانت تعتقد أن الله خالق كل شيء، بدليل قوله تعالى: (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم). فكيف يصح مع هذا ما ذكرته من أنهم كانوا ينسبون خلق الذكر لآلهتهم وخلق الإناث لله.
3 - يرى أن ليس المراد بالبنات في الآيات التي استشهدت بها الإناث من بني الإنسان، وإنما المراد بهن الملائكة.
4 - يرى أن آية النحل التي ذكرتها: (ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون)، لا تدل على انهم كانوا ينسبون الذكور لآلهتهم، وإنما تدل على انهم كانوا ينسبونهم لأنفسهم.
5 - يرى أن وأد البنات لم يكن للسبب الذي ذكرته، بل كان بعضه للفقر، وبعضه لخوف الفقر، وبعضه لخوف السبي والعار، وإن لا مانع من أن يكون بعضه تنفيذاً لنذور كانوا ينذرونها. فقد كان الرجل يحلف في الجاهلية لئن ولد له كذا غلاماً لينحرن أحدهم كما فعل عبد المطلب.
وردي على هذه المسائل يتلخص كذلك في النقط الخمس الآتية:
1 - لم آت بالرأي الذي ذكرته من كتاب، ولم أنقله عن أحد، بل هي نظرية لي استنبطتها استنباطاً من آيات الذكر الحكيم؛ وصرحت في مقالي أنه لم يسبقني بها أحد. فلا محل إذن لمطالبتي بالمرجع الذي رجعت إليه بصددها.
2 - لم يكن العرب في الجاهلية على دين واحد، بل كانوا فرقاً كثيرة يختلف بعضها عن بعض اختلافاً كبيراً في العقائد والعبادات، فكان منهم من يعبد الله على مل إبراهيم،

وكان من هؤلاء الرسول عليه الصلاة والسلام قبل بعثته وكثير من السابقين الأولين إلى الإسلام،

وكان منهم اليهود، وهؤلاء كانوا ينتمون إلى عدة قبائل يسكن معظمها المدينة وضواحيها وشمال الحجاز (بنو قريظة، بنو النضير. . . الخ) وكان منهم المسيحيون، وهؤلاء كانوا فرقاً كثيرة تنتمي إلى مختلف مذاهب المسيحية المنتشرة في ذلك العصر، وكان منهم عبدة الكواكب، فكنانة كانت تدين للقمر وللدبران، وبنو لخم وجرهم كانوا يسجدون للمشتري، وبنو طبئ ألهوا سهيلا، وبنو قيس بن عيلان توجهوا للشعري اليمانية (وهم الذين قد سفه الله عقائدهم إذ يقول عز وجل: (وأنه هو رب الشعري). . . وهلم جراً، وكان منهم الدهريون الذين لا يؤمنون بإله وينسبون كل شيء للطبيعة: (أن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر) وكان منهم الوثنيون عباد الأصنام، وهؤلاء كانوا فرقاً كثيرة تختلف كل فرقة منها عن غيرها اختلافاً كبيراً في نوع الأوثان، ونظرتها إليها، ومبلغ تقديسها لها، وعقيدتها في الله تعالى. ففريق من هؤلاء كان يعتقد بوجود الله وينسب إليه الخلق والأمر، وما كان يعبد الأصنام إلا لتشفع له عند الله وتقربه إليه. وفي هذا الفريق جاءت الآية التي أوردها الأستاذ وآيات أخرى كثيرة (ألا الله الدين الخالص، والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى)؛ (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله. . . الخ). وفريق من الوثنيين كان ينسب الخير لأصنامه والشر لله تعالى. فكان الله في نظرهم إليه الشر أو ما يشبه الشيطان في نظرنا، (تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً). ولذلك كانوا ينسبون إليه ما يكرهون. وفي هؤلاء يقول الله تعالى: (ويجعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى) (النحل 62). والقبائل التي كانت تئد بناتها كانت من هذا الفريق، لأن الآية السابقة جاءت في سياق الحديث عمن كانوا يئدون البنات. وغنى عن البيان أن من ينسب لله ما يكرهه والدنيء من الأشياء لا يمكن أن يكون ممن يعتقدون أنه تعالى خالق كل شيء. فالآية التي أوردها الأستاذ عبد المتعال والآيات الأخرى التي من نوعها تتحدث عن فريق من العرب غير الفريق الذي نحن بصدد الكلام عنه.

3 - تفسير البنات بالملائكة لا يستقيم في معظم الآيات التي أوردتها في مقالي السابق. ففي قوله تعالى: (أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين)؛ وقوله: (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، ألكم الذكر وله الأنثى، تلك إذن قسمة ضيزى)؛ وقوله: (فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنين). في هذه الآيات وما إليها لا يستقيم في نظري تفسير البنات بالملائكة، لأن الملائكة لا تقابل الذكور من بني آدم. فلا يصح أن يقال فيمن يقتصر على نسبة الملائكة لله معتقداً أنهم إناث: أنه يختص نفسه بالبنين من الآدميين دون بناتهم، كما تصرح هذه الآيات، وإنما يقال فيه أنه ينسب لنفسه النوعين من الآدميين - أي الذكور والإناث - وينسب لله الملائكة ويجعلهم من نوع الإناث لا غير.

على أن كثيراً من الآيات التي ذكرتها في المقال لسابق، قد جعلت وأدهم للبنات مترتباً على عقيدتهم هذه (ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون، وإذا بشر أحدهم بالأنثى الخ) ولا يستقيم هذا إلا إذا كان الغرض من البنات الإناث من بني آدم لا الملائكة.

حقاً انهم كانوا يعتقدون أن الملائكة إناث وأنهم كانوا ينسبونهم لله ويعتقدون أنهم أولاده، كما يصرح بذلك كثير من الآيات؛ ولكن هذا لا يتعارض مع ما ذهبنا إليه من أنهم كانوا ينسبون البنات من بني آدم لله تعالى، بل يزيده تأييداً كما أشرت إلى ذلك في مقالي السابق. وذلك أن القسمة الضيزى التي أجروها في عالم الأرض ونسبوا فيها لله تعالى الإناث ولآلهتهم الذكور، قد أجروا مثلها في عالم السماء، فكانوا ينسبون لله تعالى من هذا العالم كل ما يعتقدون أنه من نوع الإناث. ومن أجل ذلك نسبوا إليه الملائكة لاعتقادهم انهم من هذا النوع. ولذلك جاءت عقيدتهم بصدد الملائكة في معظم الآيات التي أوردناها في المقال السابق مصاحبة لعقيدتهم بصدد الأولاد من الآدميين. وذلك يدل على انهما عقيدتان مرتبطة كلتاهما بالأخرى ومترتبة عليها: (فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون؟ أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون؟ (أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، ألكم الذكر وله الأنثى؟ تلك إذن قسمة ضيزى. . .

إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى). فالقرآن في هذه الآيات يحدثنا عن حقيقتين لا عن حقيقة واحدة: إحداهما ما يعتقدونه بصدد الذكور والإناث من الآدميين؛ وثانيتهما ما يعتقدونه بصدد الملائكة.

4 - وأما نسبة الذكور لآلهتهم أو لأنفسهم فهذا لا يهم كثيراً في موضوعنا، ولا يؤثر شيئاً في النظرية التي أوردتها؛ لأن المهم أنهم كانوا ينسبون الإناث لله وانهم لذلك كانوا يئدونهن؛ وسواء لدينا بعد ذلك أن كانوا ينسبون الذكور لأنفسهم أو لألهتهم. على أن ما ذكرناه في المقال السابق بصدد الذكور تحتمله آية النحل، وخاصة لأن الضمير في الآية التي قبلها يرجع إلى الشركاء: (ويجعلون لما لا يعلمون (أي لآلهتهم التي لا علم لها لأنها جماد. آه البيضاوي) نصيباً مما رزقناهم تالله لتسألن عما كنتم تفترون، ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون). فرجع الضمير في لهم إلى الشركاء المذكورين في الآية السابقة ليس محتملاً فحسب، بل أرجح كثيراً في نظري من رجعه إلى المشركين. لأن موضوع الحديث هو تقسيمهم المخلوقات بين الله وشركائهم لا بين الله وأنفسهم. ويزداد هذا المعنى تأييداً إذا ربطت هذه الآيات بآيات الأنعام: (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً، فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا. . .). (وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم. . .)

ويزاد هذا المعنى تأييداً كذلك إذا لاحظنا انهم ما كانوا ينسبون خلق شيء لأنفسهم، بل كان ذلك يتردد بين الله وآلهتهم.

5 - لا يمكن أن يكون سبب الوأد هو الفقر أو خوف الفقر؛ لأن هذا النظام لم يكون معمولاً به في الطبقات الفقيرة وحدها، بل كان عاماً عند الفقراء والأغنياء في العشائر التي أخذت به، ولو كان الفقر هو الدافع إليه للحق جميع الأولاد بدون تمييز بين الذكور والإناث. ولا يمكن أن يكون سببه خوف العار والسبي للأسباب التي ذكرتها بتفصيل في مقالي السابق. ولا يمكن أن يكون سببه نذوراً من نوع نذور عبد المطلب بن هاشم لأننا بصدد قبائل كانت تئد كل بنت تولدها لا بصدد حالات فردية كانت تنحر فيها بعض البنات وفاء لنذور سابقة.

علي عبد الواحد وافي

حول السنوسيين

للأستاذ محمد الأخضر العيساوي

جاء في الرسالة الغراء عدد 385 مقال عنوانه (السنوسيون) للأستاذ حسين جعفر بعضه صحيح وبعضه مبالغ فيه وبعضه الآخر خطأ.

وإلى القارئ ما جاء من أخطاء في مقاله الأول، قال: (خلف السيد السنوسي الكبير المولود بالجزائر ببلد مستغانم سنة 1202هـ والمتوفى بالجغبوب سنة 1276هـ ولدين الأكبر محمد الشريف والثاني محمد المهدي) والصواب العكس لأن السيد محمد المهدي هو الكبير حيث ولد بماسة بالجبل الأخضر سنة 1260هـ والسيد محمد الشريف هو الصغير لأنه ولد بمدينة درنة سنة 1262هـ

وقد استمر الكاتب في الكلام إلى أن قال: (ويقال إن الولد الأصغر أظهر ذكاء وكفاءة أكثر من أخيه ولذلك قرر الوالد أن يختبرهما أمام جميع الأخوان في الجغبوب فأمر ولديه أن يتسلقا نخلتين عظيمتي الارتفاع وسألهما باسم الله ورسوله أن يقفزا إلى الأرض، فقفز المهدي في الحال ولم يصب بسوء في حين رفض الأكبر). والحقيقة أهذه القصة كلها لا أصل لها، وقد جاء فيه أيضاً: (ويجب إلا يخفى أن الثورة التي كانت حدثت في سنة 1888 سنة 1889 في (دارفور) من الخليفة عبد الله التعايشي كانت باسم السنوسي) وحقيقة الحال انهم لم تكن باسمه ولا كان له دخل فيها. والدليل على ذلك ما جاء في جريدة (الجزيرة) التي تصدر بشرق الأردن بتاريخ 23 ذي القعدة سنة 1359 الموافق كانون الأول سنة 1940 بقلم المجاهد الكبير علي باشا العابدية المهاجر بتلك الديار وهو من أتباع السنوسيين المطلعين على بواطن الأمور حيث قال فيها (تنبؤ السنوسيين بمستقبل الإنكليز) عند قيام مهدي السودان على المصريين والإنكليز سنة 1888 أرسل إلى السيد المهدي السنوسي رسولاً في إعلان الجهاد وإن يكون خليفة من بعده، ولكن السيد المهدي رفض ذلك لسببين (الأول) أن الحكومة المصرية حكومة إسلامية (والثاني) أنه كان يعتقد أن الطليان سيستولون على

طرابلس وبرقة وأنه سيأتي يوم يقوم فيه الإنكليز بمحاربة الطليان في طرابلس وبرقة وسيمدون إلى الأمة الطرابلسية البرقية يد المساعدة لتخليصها من محنتها. . . الخ). وكتاب السيد المهدي لعبد الله التعايشي في هذا الموضوع مذكور في تاريخ مصر، فمن أراد الوقوف عليه فليراجعه. نعود إلى المقال الأول، قال فيه أيضاً: (وفي (واداي) كان خلف السلطان يوسف وهو السلطان إبراهيم الذي تولى سنة 1898، كان يهمل نصائح الشيخ متشجعاً في ذلك بهزيمة الخليفة عبد الله التعايشي في أم درمان. وكان رد السنوسي على هذا أن حرم على أهل واداي تدخين التبغ وشرب المريسة (البيرة الوطنية)، فأرسل السلطان إبراهيم إلى السنوسي بأن شعبه يحارب ويموت في سبيل المريسة، وأنهم ينبذون تعاليم السنوسية ليشربوها. وكان السنوسي المهدي حكيماً في تنازله عن رأيه، معلناً أن الله أجاب على صلاته بأنه جل شأنه قبل أن يستثنى أهل واداي من هذا التحريم)؛ فكان حقاً على الأستاذ إلا يذكر هذه الأسطورة التي يمجها السمع ويأباها العقل السليم والنقل، لأن مثلها يتحاشاها أجهل الجهلاء، فكيف بأعلم العلماء وأتقى الأتقياء وهو السيد المهدي السنوسي الذي أشتهر بالتقوى والصلاح أن يحلل ويحرم من عند نفسه، سبحانك هذا بهتان عظيم.

وجاء في الرسالة أيضاً عدد 386 مقال آخر، وإلى القارئ ما جاء فيه: (وقد عرفت شروط للاتفاق بين الإيطاليين وسيدي أحمد في النصف الأخير من سنة 1915، وكاد يتم الاتفاق لولا أن سيدي أحمد رفض أن يقبل مركز (باي) تحت الحماية) والحقيقة أن الإيطاليين خطبوا وده كثيراً ومنوه بأماني معسولة، ولكنه لشرفه وأمانته وعلو همته أبى أن يصالحهم على شبر واحد من أراضي المسلمين ولو أعطوه ملء الأرض ذهباً.

وجاء فيه أيضاً: (ولذلك أرسلوا (أي الإنكليز) في نوفمبر سنة 1915 ابن عمه السيد محمد إدريس من الإسكندرية ليتفق معه (أبى سيدي أحمد) على أن يتخلص من مستشاريه الأتراك في مقابلة مبلغ من المال). فهذا أيضاً مخالف للواقع، وكان على الكاتب إلا يذكر شيئاً منه حتى يتصل بالسيد إدريس ليكون على بصيرة.

وجاء فيه أيضاً: (وأقر شيوخ الطريقة السنوسية سيدي محمد إدريس السنوسي على أن يكون السنوسي الأكبر إلى أن قال: وجد سيدي أحمد المقهور والمخلوع أن من الأفضل له أن يغادر طرابلس، فغادرها في غواصة ألمانية من مصراته إلى تركيا مع استمرار ادعائه أنه رأس الطريقة السنوسية)

وهذا أيضاً بينه وبين الحقيقة مراحل، لأن رئاسة الطريقة السنوسية موكولة للأكبر الأرشد بنص وصية من مؤسس الطريقة السيد محمد بن علي السنوسي الكبير، والسيد أحمد وقتئذ هو أكبر العائلة وأرشدها، فهو أول بالرئاسة، وبأن يطلق عليه اسم السنوسي الكبير. وليس لأحد كائناً من كان أن يخلعه أو يقهره، لا من مشائخ الطريقة ولا غيرهم.

نعم ذهب إلى تركيا في غواصة كما قال الكاتب. لكن بدعوة منها وقد استفادت منه كثيراً، حيث فض لها مشاكل كثيرة وثورات في الأناضول كادت تقضي على حركة مصطفى كمال وهي في مهدها، ولولاء ما جنح الأكراد إلى الهدوء والسكينة بعد ثورتهم المشهورة.

وجاء أيضاً في آخر مقاله الثاني ما نصه: (في حين أنهم أبى السنوسيين يعترفون بأنهم على المذهب المالكي، فإن علماء القاهرة كثيراً ما كتبوا عن انحراف السنوسيين عن الإيمان الصحيح، ومعظم الاتهامات تنحصر في انهم فسروا القرآن الكريم والسنة بدون الاعتماد على مصادر معترف بها)

فأقول: إن هذا أيضاً مما لا ينبغي للكاتب أن يذكره، لأنه مخالف للواقع، فالسنوسيون سنيون مالكيون، وهاهي كتبهم بين أيدينا شاهد عدل على ذلك، فليراجعها من أراد الوقوف على الحقيقة. وهي (بغية المقاصد) و (إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن) و (شفاء الصدر بأرى المسائل العشر)، وكلها للسيد السنوسي الكبير، توجد في المكاتب الشهيرة بمصر وغيرها.

وإني أتحدى حضرة الكاتب أن يأتينا ولو بآية واحدة أو بحديث واحد مما زعم أن السنوسيين قرءوهما بدون أن يعتمدوا على مصادر معترف بها، كما أني أتحداه أيضاً أن يثبت لنا من هم أولئكم العلماء الذين كثيراً ما أفتوا بانحراف السنوسيين عن

الإيمان الصحيح، وفي أي زمان ومكان حصل منهم ذلك؟ أظن الأستاذ يمكنه أن يثبت ذلك، ولو أجهد نفسه مدة حياته. هدانا الله وإياه للصواب.

محمد الأخضر العيساوي
عالم بالأزهر

أطياف الربيع. . .

(مهداة إلى جماعة الشعر من شباب كلية الآداب)

للأستاذ محمود الخفيف

هَات يا رَامِرُ أَلَحْانَ الرَّبيعِ ... رَاقَ مِزْمَارُكَ يا رَاعي القَطيعِ
غَنَّ ما هَزْكَ في هَذا الضُّحى ... مِنْ رُوي شَتَّى وَمِنْ سِحْرٍ جَميعِ
عَنَّ يَا هَيْمَانُ أَلَحْانَ الهَوى ... والصَبا الجَذْلانَ يَلْهُو بالمُنَى
لَحْنَ أرغو لكَ نَشْوانُ الصَّدَى
في الضفافِ الخُضْرِ والحَقْل المَريعِ
الفَرَاشاتُ بهَاتِيكَ الضفافِ ... دَائبَاتٌ بَيْنَ وثْبٍ وَطَوافِ
فَرَحاتٌ بالزَّمانِ المُونِقِ ... بَعْدَ أيَّامٍ كَئِيباتٍ عِجَافِ
هَائماتٌ في ضُحَاهُ المُشْرقِ ... لائِمَاتٌ كُلَّ غُصْنٍ مُورِقٍ
فَرْحَة أَعْيَا بَيَانِي وَصْفها
وَأَتَا النَّاسِجُ مَوْشِيَّ القَوَافي!
قَضَّ سَاعاتِكَ رَفافَ الجَنَاحِ ... دَائِبَ التَّطْوافِ في كل النَّواحي
عَانِقِ الزَّهْرَ هُنَا أوْ هَاهُنَا ... أَيُهَا العَاشِقُ أفْوَافَ الصَّباح
لَكَ مَاءٌ سَلْسَبِيلٌ وَجَنَى ... أَيْنَمَا مِلْتَ وَظِلٌّ وَسَنَى
لَيْتَ يَا جَذلانُ لي بَعْضَ الذي
يَتَوَافى لكَ من هَذا المِراحِ!
الرَّبيعُ الغَضُّ نَشْوانُ الشَّبابِ ... مَرِحٌ يَظْفُرُ في كل الرَّحابِ
أَيْنَمَا دُرْتُ بعَيْنَيَّ أَرَى ... لَمَحَاتٍ مِنْ سَجَاياهُ العِذابِ
كُلما يَمَّمْتُ رُكْناً مُزْهِواً ... لاحَ لي تَالِيه أحْلَى مَنْظَرا!
كلَّ حُسْنٍ ملْء سَمْعِي هَاتِفٌ
خُلِقَ الحُسْنُ لقَنْصٍ وانتِهابِ
أيُّ سرٍ شاعَ في هَذا النماء ... فانْجَلىَ للعَيْنِ مَرْمُوقَ الرُّواءِ
فاضَ واسْتَعْلَنَ في آثَارِهِ ... وَهْو صِنْوُ الرُّوحِ في مَعْنَى الخَفاءِ
كم أَجَلْتُ الطرْفَ في أزْهَارِهِ ... والجَدِيد الغَضَّ مِنْ نُوَّارِهِ
في زَمانٍ زَيَّنَتْ أفْوَافُهُ
كلَّ رَوْضٍ وَكَسَى كلَّ فَضَاء
رَفَّ قلبي لِمَجَاليه الحِسَانِ ... وَلأطْيَافٍ بهِ زِدْنَ افْتِتَانِي
لَمَحَتْ في كلِّ شيْء نَشْوَةٌ ... مَلَكَتْ حِسيَّ وَفَرَّتْ في جَنَاتي
وَمشَتْ مِلْء كِياني هِزةٌ ... أَنِسَتْ رُوحي بها صُوفيةْ
لمْ تَكُنْ لِلطينِ يَوْماً تَنْتَمي
حَرَّكتْ قلبي وإنْ عَيَّ لسَاني!
كم أَرَى البُرْعُمِ الْغَضَّ الوَليدِ ... مِنْ طُيُوف ضَاقَ عَنْهُنَّ قَصِيدي
كم تَرَى رُوحَي في مَوْلِدهِ ... مِنْ مَعَاني البَعْثِ والخَلْقِ الجَدِيدِ
مَوْلِدٌ ما شَذَّ عنْ مَوْعِدهِ ... حَدَّثَ المْبِصَر عَنْ مُوجِدهِ
مَوْلِدٌ ما مَرَّ عَجْلانَ بهِ
غَيْرُ لاهٍ مُظْلِمِ الحِس بَلِيدِ!
غِبْطَةٌ تَزْهَدُ نَفْسِي في سِواها ... فَطَنَ القَلْبُ إلَيْهَا فاحْتَوَاها
لَيْتَ مَنْ يَقضِي غُرُوراً عُمْرَه ... نَسِيَ الأوْهامَ يَوْماً فاجْتَلاهَا
لَيْتَهُ في العَيْشِ ينْسَى زُورَه ... فَيَرَى الحُسْنَ وَيَهْوِى سِحْرَهُ
لَيْتَ هَذا الحَيْ يَنْسَى جَشَعاً
يُوبقُ الرُّوحَ وَيُنْسِيَها هُداها!
يَا جَمالاً هاجَ في الكْونِ هُيَامِي ... أَجْتَلى دُنياهُ علماً بَعْدَ عامِ
نَشْوَةٌ كم أَلْهَمْتني الفَرَحَا ... يَوْمَ أَتْرَعْتُ بها كأسَ غَرامي

أَتُرَى يَعْلَمُ ألفٌ نَزَحَا ... أنني اليَوْم حَطَمْتُ القَدَحَا؟
وَيْكَ يَا قلبي! أَتَبْكي كُلَّمَا
جَدَّدَ الْعَيْشُ دَوَاعِي الابتِسامِ؟
إِغْنَمِ الْمُتْعَةَ مِنْ هَذا الَجْمالِ ... وَانْسَ آلاَمَكَ في هَذِى المَجَالى
أَيُّهَا الْقَلْبُ إِلاَمَ المُشْتَكى ... إِبْتَهِجْ فالْعَيْشُ عَجْلاَنُ الليالي
إِخْتَلِسْ عُمْرَ زَمَانٍ ضحكاً ... وَانْهَبِ الحُسْنَ إذا الحُسْنُ زَكا
هَذِهِ الزَّهْرَة تَزْكُو في الضُّحى
والدَّجى يَمْشِي عَليها بالزَّوالِ!
الخفيف
رسالة النقد
الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي
تأليف الدكتور زكي محمد حسن
للدكتور محمد مصطفى
- 3 -
وفي كلام المؤلف عن امتداد (نفوذ الأساليب القبطية الإسلامية في التجليد إلى إيران) بقول في (ص 133): (بل أن ذلك النفوذ امتد أيضاً إلى بلاد منغوليا في أواسط آسيا حيث عثر في أطلال مدينة كانت عامرة في العصور الوسطى على جلد كتاب ينسب إلى القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، وعليه زخارف من إطار ذي فروع نباتية عربية، وفي وسطه جامة أو صرة من جرابل، وفي كل من الأركان الأربعة ربع جامة)
ولم يذكر المؤلف المرجع الذي اقتبس منه عبارته هذه، وقد كان يهمنا أن نعرف اسم هذه المدينة التي - كانت عامرة في العصور الوسطى - وكذلك المكان الحالي المحفوظ فيه جلد الكتاب المشار إليه بما عليه من (فروع نباتية عربية)
وفي (ص 134) يقول المؤلف: (وقد عرف المسلمون التجليد في إيران وغيرها من الأقاليم الإسلامية في القرون الأولى بعد الهجرة. وذكر ابن النديم في كتابه الفهرست أسماء بعض المجلدين، كان الحريش الذي كان يجلد في خزانة الحكمة للمأمون)
ولم يذكر المؤلف هنا أيضاً المرجع الذي اقتبس منه في كتاب الفهرست لابن النديم، وبالنسبة لطرافة الموضوع رأيت أن أنقل هنا عبارة مماثلة لعبارة المؤلف كتبها الأستاذ (بوب في حاشية يعلق بها على ما كتبه الدكتور (جراتزل) عن التجليد، وأورد ابن النديم أسماء المجلدين في ترتيب تاريخي حتى وقته (القرن العاشر الميلادي) وذكر منهم ابن أبى الحريش الذي كان يجلد في خزانة الحكمة (مكتبة المأمون) والمجراز العيبي، وأبي عيسى وابن شيران ودميانة الأعسر والحسين بن الصفار.
وقد أعطى الأستاذ بوب كمرجع لعبارته هذه، كتاب الفهرست لابن النديم طبعة فليجل ص 10
وإني أستغرب كيف أن الدكتور زكي لم يشر في أية ناحية من الفصل الذي كتبه عن التجليد (ص 132 - 138) إلى البحث الذي كتبه الدكتور أميل جراتزل في نفس هذا الموضوع مع أن هذا البحث بعد أحدث بحث علمي واف عن تجليد الكتب في إيران. هذا فضلاً عن أن الدكتور جراتزل - وإن كان قد توسع في كتابة بحثه عن المؤلف - قد أورد نفس الحقائق بنفس تسلل الأفكار الذي سار عليه للدكتور زكي محمد حسن في هذا الفصل من كتابه.
فإننا نرى أن ما كتبه الدكتور جراتزل في الفقرة الأولى (ص 1975) مفصلاً عن ميزات جلود الكتب الإسلامية، قد أورده الدكتور زكي محمد حسن، مجملاً في العبارة الأولى من الفقرة الثانية (ص132)، وفي الفقرة الثانية (ص1975) ما جاء في العبارة الثانية من الفقرة الثانية (ص132) عن استعمال الخشب والجلد والورق المضغوط في التجليد. وفي الفقرة الثالثة (ص1975) والفقرة الأولى (ص1976) تفصيل ما جاء في الفقرة الثالثة (ص132) وبداية (ص133) عن أساليب التجليد القبطية. وبين مراجع الحاشية رقم 1 (ص1975) نجد المرجع المذكور في الحاشية رقم 1 (ص133)؛ وفي الحاشية رقم 1 (ص1976) ما جاء في العبارة الأولى من الفقرة الأولى (ص134) عن أسماء بعض المجلدين؛ وفي الفقرة الثانية (ص1976) ما جاء في العبارة الثالثة من

الفقرة الأولى (ص134) عن جلد كتاب عثر عليه الأستاذ بوب؛ وفي الفقرة الثالثة (ص 1976) ما جاء بالعبارة الرابعة من الفقرة الأولى (ص134) عن الجلود المحفوظة بمتحف الفنون الإسلامية والتركية في استامبول، بما في ذلك (جلد مصحف لسلطان الجابتو) (هكذا أيضاً في جراتزل)، وهو كما نعلم السلطان محمد خدا بنده. وبين مراجع الحاشية رقم 3 ص1976 نجد المرجع المذكور في الحاشية رقم 1 ص134. وفي الفقرة الأولى ص1977 ما جاء في الفقرة الثانية ص134 من أن تيمورلنك استقدم إلى بلاطه مهرة المجلدين في مصر والشام. وفي الحاشية رقم 1 ص1977 نجد المرجعين المذكورين في الحاشية رقم 2 ص134. وفي الفقرة الأولى ص1977 أيضاً ما جاء في الفقرة الأخيرة ص134. وبداية ص135 عن المجامع التي أنشأها شاء رخ لفنون الكتاب. وفي الحاشية رقم 2 ص1977 نجد المرجعين المذكورين في الحاشية رقم 1 ص135. وهكذا. . .

ومما تقدم نرى أن الدكتور اميل جراتزل قد سبق الدكتور زكي محمد حسن في سرد الحقائق العلمية عن تجليد الكتب في إيران ولقد كان من الواجب على الدكتور زكي أن يشير في الفصل الذي كتبه عن التجليد إلى هذا البحث لاسيما وإن البيانات والحواشي التي أوردها في هذا الفصل، قد جاءت - كما رأينا - بنفس التسلسل الذي جاءت به ضمن البيانات والحواشي التي كتبها الدكتور جراتزل.

وإني أود أن أكتفي بهذا القدر من ملاحظاتي على هذا القسم من متن كتاب الدكتور زكي محمد حسن وطريقة تأليفه، ولو شئت أن استرسل في استعراض باقي فصول الكتاب لتبين لنا أن طريقته في هذا القسم لا تختلف عنها في القسم الأول

والآن ألقى نظرة سريعة على لوحات الكتاب. فأذكر للمؤلف بالثناء، أنه أورد صوراً لبعض التحف الإسلامية الأثرية التي لم يسبق نشرها - أو نشرت، ولكن ليس في كتاب شامل عن الفنون الإيرانية مثل كتاب بعضها من مجموعة معالي الدكتور إبراهيم باشا، وهي الأشكال 55 و56 و57 وتمثل ثلاث صور لتزيين الجدران، والأشكال 69 و71 و 73 لثلاث سجاجيد، والأشكال 85 و89 و91 و99 و100 و101 و106 و107 و109 لتحف مصنوعة من الخزف. والبعض الآخر من مقتنيات دار الآثار العربية وهي شكل 111 لطائر من الخزف، وشكل 132 لحزام من الحرير، وشكل 136 لإبريق من البرونز مع رسمين توضيحين له في شكلي 137 و138 وشكل 172 لحشوة من الخشب.

ولكن المؤلف لم يشر في متن الكتاب إلا إلى سبعة وثمانين شكلاً من المائة والسبعة وسبعين شكلاً التي تتضمنها اللوحات ولم يصف التحف المصورة في اللوحات ويوضحها توضيحاً كافياً يوفر على القارئ البحث عن وصفها في متن الكتاب، بل ولم يذكر المؤلف مقاسات التحف المختلفة - لا في المتن ولا في اللوحات - لكي يتمكن القارئ من تصوير هذه التحف في مخيلته بهيئتها وحجمها الطبيعي.

فمثلاً يقول في وصف شكل 97 في اللوحة 87: (صحن من الخزف، مؤرخ سنة 607 هجرية - 1210 ميلادية، في مجموعة يومور فوبولوس).

وإني أعطي هنا وصف هذا الصحن نفسه في للمقارنة،

صحن من الخزف ذي البريق المعدني، عليه رسم خسرو

يكتشف شيرين مؤرخ سنة 1210 (جمادي الآخرة سنة

607هـ) مكتوب عليه: صنعه السيد شمس الدين الحسني، في

مجموعة يومور فوبولوس، مقاس القطر 13 و83 بوصة (34

سم)

هذا الوصف غير الوصف الذي أعطاه الأستاذ بوب في متن الكتاب في أثناء كلامه عن الخزف من صناعة مدينة قاشان، كما فعل الدكتور زكي، ذلك في ص196.

وقد وصف المؤلف شكل 75 من اللوحة 71 بقوله: (صحن خزفي القرن (3هـ - 9م)، في المتحف الأهلي بطهران) بدون ذكر نوع الصناعة، وتكلم المؤلف في متن الكتاب (ص167) عن هذا (الصحن) ونسبه إلى نوع (خزف بلاد ما وراء النهر)، ثم تكلم عنه ثانية في ص168 وسماه (سلطانية) ونسبه هنا إلى نوع آخر من الخزف وهو (الخزف الأبيض ذو النقوش الزرقاء والخضراء، بينما يسميه الأستاذ بوب (صحن) وينسبه إلى هذا النوع الأخير فقط.

ويظهر لي أيضاً أن المؤلف لم يدقق في ترتيب بعض لوحات الكتاب، فمثلاً رسم الصحن في شكل 81 كان يجب أن يوضع إلى جانب الصحن في شكل 76 لأنهما - كما يقول بنفسه - من نوع خزف بلاد ما وراء النهر. لكي يستطيع القارئ أن يقارنهما معاً، وإن يوضع شكل 75 فيما يليهما حسب تقسيم كلام المؤلف عن الخزف.

محمد مصطفى

البريد الأدبي

المجمع العلمي العربي يبعث

كان (المجمع العلمي) قد توقف عمله منذ سنوات سبع، وقد أصدرت مديرية المعارف العامة مرءماً ببعثه وإحيائه، واجمع الأساتيذ أعضاؤه على انتخاب العلامة الكبير الأستاذ كرد علي بك رئيساً له، فصدر مرسوم جمهوري بذلك.

ولا شك في أن المجمع العلمي الذي استطاع بسعي رئيسه وجهود أعضائه - في مدة قصيرة من الزمن - أن يؤدي إلى اللغة العربية ما لم يؤده إليها كثير من الرجالات والمجامع في مدة طويلة، والذي رفع اسم الشرق في ندوات المستشرقين في الغرب سيعود إلى سيرته الأولى: فيحيي ما اندثر من آثار السلف، ويسعى للقضاء على الدجاجلة المتجرين باللغة، ويعنى بانتخاب أعضاء له ممن كانت لهم في اللغة جهود، وفي إصلاحها طرائق، وكان لهم على آدابها وفرائدها وأسرارها ودقائقها اطلاع، دون غيرهم من المتطفلين، ولو كانوا من أرباب الألقاب الجوفاء.

وقد وضع له برنامج واسع ونظام دقيق، وسننوه بهما مرة ثانية.

(دمشق)

(المنجد)

مناصرات كلية الآداب

مناظرات كلية الآداب شائقة ولكنها في دعوتها إلى التفكير أكثر منها في ختامها للتمحيص وهذا شأن المناظرات في كلية الآداب وفي غير كلية الآداب، لأن المناظر شأنه غير شأن المحاضر، ولابد أن يتقيد بجانب الرأي الذي يدافع عنه أكثر من تقيد المحاضر بجانب خاص من جوانب الرأي وليس تمحيص الحقيقة ووضوحها في المقارنة بين أقوال المناظرين وحدها بل هي في التوفيق بين أقوالهما وفيما يظهره هذا التوفيق من آراء قد تسقط في المناظرة للدفاع كل مناظر عما يدافع عنه من الرأي وتمحيص الحقيقة أيضاً في مناقشة الجملة التي هي موضوع المناظرة وهذا ليس من شأنه المناظر وفي بيان أوجه صلاحها للمناقشة واوجه فسادها ويتضح لنا صواب ذلك إذا رجعنا إلى المناظرة التي كان

موضوعها (هل يزدهر الفكر في عهد الفوضى أم في عهد الأمان) كما يتضح في المناظرة التي كان موضوعها (هل يكفي التراث الشرقي - أو العربي - لتمام نضوج الذهن). ففي المحاضرة الأولى لم يتضح من الجملة نوع الفوضى ونوع الأمان كما لم يتضح من الجملة الثانية معنى التراث ومعنى تمام النضوج فإن من الفوضى فوضى قد تكون ناشئة من التقاء الثقافات واجتماع الحضارات، وفوضى قد تكون ناشئة عن المحركات النفسية التي تبعث إلى التفكير، وكلاهما قد تكون فوضى نسبية تساعد على التفكير وازدهار الثقافة. كما أن من الفوضى فوضى ناشئة عن اختلال النظام واضطراب الدولة، والفتن والحرب التي تعم وتجعل الحياة غير موثوق من بقائها وتعطل الأرزاق وتشغل المفكر عن الفكر بالتماس طرق تأمين الحياة وطلب الرزق أولاً حتى يستطيع أن يفكر بعد أن يتهيأ له ما أراد، ومثل هذه الفوضى تعطل أمور التفكير وتمنع من ازدهاره. ومن الفوضى فوضى قد تكون بسبب شدة العصبية للرأي؛ فكل طائفة تريد أن تغلب رأيها، فإذا تعدت العصبية للرأي وسيلة الإقناع إلى وسائل القهر والإلزام، وصار النصر في تلك الوسائل سجالاً ومداولة وتبع هذه المداولة الفتك والقتل والنهب. منعت كل هذه الأمور من ازدهار الفكر إلى أن تستقر الأمور. ومن الفوضى فوضى نسبية هي أيضاً نتيجة شدة العصبية للرأي، ولكنها لا تلجأ إلى وسائل الفتك أو لا تدوم على تلك الحال أو لا يكون الفتك سجالا إلى أمد طويل. وهذه قد يزدهر معها الفكر ومن الفوضى فوضى تتخللها مواطن الأمان، أو كما يقولون جزائر الأمان ولا يراد بمعنى جزائر الجغرافي وإنما المراد مواطن أمان يطمئن فيها ويستقر إليها المفكرون إذ لا أمان في بقاع أخرى في الوقت نفسه فيكون ازدهار الفكر في

مواطن الأمان لا في أماكن الفوضى ومن الفوضى فوضى لا توجد فيها جزائر الأمان فلا تساعد ازدهار الفكر والأولى مثل دويلات العهد الأخير من الدول العباسية ودويلات مدن الإغريق ودول ملوك الطوائف في الأندلس وغيرها، ومن الفوضى فوضى ناشئة عن عبث النفوس وقلة اكتراثها للجد والحق وهذه لا تعين على التفكير. ومن الفوضى فوضى يعقبها تعمير، وفوضى لا يعقبها إلا الخراب والاضمحلال، وفوضى تكون في أول نشأة الأمم والحضارات، وفوضى في أواخر عهدها. والأمان أيضاً أنواع، فمنه أمان يكون في عهد مجد الدولة وبأسها، واستقرار أمورها، واتساع نطاق تجارتها ونمو ثروتها، وهو أمان

يساعد على ازدهار الفكر، وقد تتخلله حروب أو لا تتخلله، وهذا الأمان النسبي هو كالذي كان في عهد الأسرة الرابعة والثانية عشرة والثامنة عشرة في تاريخ مصر القديم، وكالذي كان في العهد الأوجستي في تاريخ روما، وعهد أسرة تيودور والملكة إليصابات في إنجلترا، وعهد لويس الرابع عشر في فرنسا، وعهد هارون الرشيد في الدولة العباسية، وعهد بركليس في الدولة الأثينية، وعهد عبد الرحمن الثالث في الأندلس، وعهد الديمقراطيات والنظم الحديثة بعد الثورة الفرنسية وبعد حروب نابليون. ومن الأمان أن يكون معه الخمود والركود وقهر الفكر والفقر وهذا لا يعين على ازدهار الفكر. فنرى أن موضوع المناظرة الأولى لم يحدد معنى الفوضى والأمان ونوعهما. وإغفاله هذا التحديد لم يكن داعياً إلى تمحيص الحقيقة وإن كان داعياً إلى الفكر. ثم أن موضوع تلك المحاضرة قصر عوامل ازدهار الفكر أو ركوده على الفوضى والأمان ولم ينظر إلى العوامل الأخرى مثل التجارة وأنواعها، وطرق المواصلات وأثرها، والصنائع وأنواعها، مثل مصالح الحكومة، ومثل مقدار الثروة والتعليم الخ. وإذا نظرنا إلى المناظرة الثانية وجدنا أيضاً أن معنى تمام النضوج لم يحدد، ولم يحدد معنى التراث كما اتضح من أقوال الأستاذين الكبيرين اللذين تكلما في المناظرة. ولكنهما كانا متفقين في لباب الحقيقة وإن اختلفا في الظاهر.

إسماعيل فهمي

ليبيا وبرقة

تكتب الصحف فيما تنشره من أخبار عن طرابلس الغرب كلمتي: ليبيا - برقة. والكثير لا يعرف مدلولهما الصحيح ويذهب به الظن إلى أن ليبيا يسمى بها طرابلس الغرب، فلا ظهار الصواب نورد ما ذكره ابن خلدون في تاريخه. قال المؤرخ عن ليبيا: (وهي اسم قبيلة من البربر دخلت تلك الصحراء وعمرتها وهي لا تزال آثارها باقية، وهي تعرف الآن بالتوارق). وعن برقة: (أطلق العرب هذا الاسم على ولاية رومانية كانت تعرف عند قدماء اليونان بالقيروان نسبة إلى قوربنة إحدى مدنها وهي غير مدينة القيروان التي مصرها العرب في أفريقيا بعد الفتح. وقد كان الجزء الشمالي منها يعرف عند اليونان

ببنطابلس أي المدن الخمس، لأنه كان فيه خمس مدن كبيرة، الأولى هسبريدرس، وقد سماها بطليموس الثالث (هسبربدرس برنيقة) نسبة إلى زوجه برنيقه وسماها العرب برنيق وتعرف الآن بيني غازي. والثانية برقة وتعرف الآن بالمرج وبها سميت البلاد عند العرب. والثالثة قورينه وبها سميت البلاد عند اليونان، ولا تزال آثارها باقية ويسميها الأعراب قورينه. والرابعة البولونيه وتعرف الآن بمرسى سوسه. والخامسة توخيره أراسينوي وتعرف الآن بتوكره ونشأ فيها في زمن البطالسة مدينتان أخريان وهما بطلمايس وتسعى الآن طولميطة ودونيس دورينا وتعرف الآن بدرنة. وكل هذه المدن على الساحل ما عدا برقة وقورينه فإنهما على بضعة أميال منه. هذا ما أثبته ابن خلدون ومنه يعرف أن ليبيا ليست اسماً لطرابلس الغرب.

أبو القاسم سعيد الباروني الطرابلسي

تأبين الأستاذ فؤاد بليبل

لا تزال أندية الأدب ومجالس الشعر تردد عبارات الأسف على فقد الشاعر الشاب فؤاد بليبل، وتجدد في كل مناسبة أساها على فجيعة الشعر فيه، فقد كان المتصلون به والقارئون له يعتقدون أن سيكون له في الشعر الوجداني اثر مذكور بفضل ما وهبه الله من صدق الشعور وصفاء النفس وعذوبة الروح واستكمال الأداة. والحق أن الحياة القصيرة المضطربة التي حييها فؤاد كانت أشبه بأغرودة البلبل الجريح أدركه الإعياء

قبل أن يسكن إلى عشه.
وقد فكر لفيف من أصدقائه أن يقيموا له حفلة تأبين يوم الأحد 4 مايو سنة 1941 بنادي لبنان في شارع توفيق رقم 12 ولا شك في أن هذه الحفلة ستكون مظهراً صادقاً لما يكنه إخوان الأدب والروح من الفجيعة واللوعة لهذا الفقيد الكريم
أخطاء في كتاب
للأستاذ محمود مصطفى أستاذ الأدب العربي بكلية اللغة العربية كتب في الأدب يفرض تدريسها على الطلاب. من هذه الكتب كتابه في (الأدب العربي وتاريخه، في عصري صدر الإسلام والدولة الأموية)، وقد تصفحنا هذا الكتاب فعثرنا فيه على أخطاء نحب أن نلفت إليها أستاذنا الجليل ليتلافاها في الطبعة المقبلة، كما نحب أن نلفت إليها زملائنا الطلاب وجلهم بحمد الله من المشتركين بمجلة الرسالة الغراء.
يقول المؤلف في ص35 (وقوله - يريد النبي صلى الله عليه وسلم - لأبي تميمة الجهيمي: (إياك والمخيلة) فقال يا رسول الله نحن قوم عرب فما المخيلة؟ فقال عليه السلام: سبل الإزار)
والصحيح أن النبي قال هذا لجابر بن سليم الجهيمي، لأن تميمة تابعي وليس بصاحبي حتى يخاطب.
ويقول المؤلف في ص127 مفسراً بيت حسان:
كلتاهما حلب العصير فعاطني ... بزجاجة أرخاهما للمِفصَل
كلتاهما: كلا الماء والخمر. والمعنى في البيت أن الماء والخمر ناتجان عن عصر (شيء؛ فالماء عن عصر السحاب، والخمر عن عصر العنب. . .) وهذا التفسير خطأ (أولاً) لآن (كلتاهما) للمثنى المؤنث والماء مذكر والمعروف تغليب المذكر على المؤنث (ثانياً) لأنه قال (أرخاهما) للمفصل وأرخى أفعل تفضيل يقتضي المشاركة مع أن الماء لا إرخاء فيه أصلاً. (ثالثاً) لأنه قال كلتاهما حلب العصير والعصير إذا أطلق انصرف إلى عصير العنب. . . والصحيح: كلتاهما التي قتلت والتي لم تقتل في البيت الذي قبله وهو:
إن التي ناولتني فردتها ... قُتِلَت قتلْتَ فهاتها لم تقتل
وهكذا روى الأغاني وخزانة الأدب وشرح ابن هشام لبانت سعاد
ويقول المؤلف في ص175: (. . . فقد قيل: أن عمرو ابن العاص لما رأي مكتبة الإسكندرية أرسل بخبرها إلى عمر. فقال له: إن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنه غنى وإن كان فيها يخالفه فلا حاجة اليه، فتقدم بإعدامها: فأحرقها . . .عمر)، وهذا كلام يكذبه المؤرخون. . . ويعتمدون على أن إحراقها كان قبل الفتح
ويقول المؤلف في ص178: (فقد ذكروا أن عبد الله بن المقفع اعترف بأنه دس على المسلمين أربعة آلاف حديث). . . والصحيح أنه لم يكن محدثاً، ولم يقل أحد عنه ذلك، ولم يرو حديثاً واحداً لا صادقاً ولا كاذباً.
ويقول المؤلف في ص182: (عمران ابن حطان السدوسي شاعر فصيح من الشراة، وكان
(في آخر أيامه من القعدة. . . لأن عمره طال فضعف عن القتال، فكان يدعو بلسانه
وهذا التعليل نقله المؤلف عن جورج زيدان وهو خطأ. . . ولم يكن عمران في آخر أيامه من القعدة كما ذكر. القعدة فرقة من الخوارج كانوا يرون التحكيم بين علي ومعاوية، ولكنهم قعدوا فلم يقاتلوا. . .
ويقول المؤلف في ص308 مترجماً لجرير: (ولد باليمامة سنة 42هـ في خلافة عثمان)، وهذا خطأ، لأن عثمان توفي سنة 35هـ
ويقول المؤلف في ص309: (وما زال جرير بالبادية حتى قال الشعر. ثم قدم الشام على يزيد بن معاوية وهو ولي العهد، ومدحه بقصيدة منها:
وإني لعفُّ الفقر مشترَكٌ الغنى ... سريع إذا لم أرض داري انتقاليا. . . الخ
والصواب أن هذه القصيدة قالها جرير يرد بها على الفرزدق قصيدة على وزنها ورويها وهما معاً في النقائض، وليس فيها بيت واحد في مدح يزيد. . . والصواب أيضاً أن جريراً لم يقدم على يزيد بالشام إلا وهو خليقة .. .)
وبعد، فنحن نقدر الأستاذ محمود مصطفى ونجله، ونعتقد أنه من الأساتذة العاملين في كلية اللغة العربية، وما قصدنا بهذه التصحيحات إلا خدمة الأدب، وخدمة الكتاب،

وخدمة الطلاب الذين سيمتحنون فيه آخر العام.
عبد العليم عيسى
1
1
العدد 407 - بتاريخ: 21 - 04 - 1941
المبالاة
للأستاذ عباس محمود العقاد
كتب إليَّ الأديب صاحب الإمضاء من خطاب يقول فيه بعد تمهيد:
(إن الإنسان يفيد دائماً من التجارب المادية. فالأطباء مثلاً يهتدون بالتجارب الماضية ويطبقون في فنهم آخر ما يصل إليه العلم؛ ومن ثم كان التقدم الملحوظ في الطب وسائر العلوم والفنون والآداب. فلماذا لا تسير الأمور كذلك في معالجة المشاكل النفسية؟ أريد أن أقول أن الإنسان - كل إنسان - لا يريد أو لا يستطيع أن يطبق القاعدة السابقة على مشاكله النفسية. فمثلاً حدثنا الكثير من الفلاسفة والكتاب عما انتابهم من أزمات منها ما أخافهم أو أيأسهم أو آلمهم، ثم أردفوا ذلك بأن وضعوا تحت أعيننا تجاربهم وتجاوزهم هذا الطور إلى طور آخر. . . وعندنا مثلاً أقرب هو صديقكم المازني الذي كتب كثيراً مصوراً ما كان يلح عليه في شبابه من يأس وخوف، محاولاً أن يقنعنا أن كل ذلك كان عبثاً لا طائل تحته، وأن الإنسان يستطيع أن يعيش دون أن يكون بحاجة إلى شيء من ذلك. . . فلماذا لا يعتبر الشباب بقول المازني فيأخذ الحياة من حيث انتهى. ويقضي شبابه في أنس وراحة وسعادة؟ لماذا يأبى كل امرئ إلا أن ينهج في حياته على طريقته الخاصة، فيقبل على ما يسلمه للخوف والشقاء ويعج في الألم واليأس؟. . . وأريد أن أقول أيضاً: إذا قيض للإنسان أن ينتفع بتجارب غيره النفسية على النحو الذي ينتفع به في التجارب المادية، أيكون هذا رقياً وازدهاراً، أم عندئذ تنتفي الحياة؟)
وبعد إسهاب في هذا المعنى يقول الأديب: أرجو أن يتيح لنا الأستاذ ساعة نهرب فيها من حديث السياسة والحرب ونأنس به فيها إلى ظل الأدب الوريف، وأن يكون ذلك على صفحات (الرسالة)، فإني من قرائها المدمنين
(دمنهور)
صلاح المسيري
ويحضرني في الإجابة عن هذه الأسئلة قول الكاتب الإنكليزي الحديث ستيفنسن إننا حين نقول للشاب: هكذا أيضاً كنا نفهم في شبابنا فنحن نؤيده ولا نفنده بهذه الحجة! وهو قول حق نافذ إلى اللباب؛ لأننا ندل به على أن هذا الفهم الذي ننقده ونحاول أن نثني الشباب عنه إنما هو من طبيعة الشباب التي لا محيد عنها ولا استثناء فيها. فكل شاب إذن خليق أن يفهم الأمور كما فهمها الشاب الذي نلومه ونهديه إلى خطئه!
وهكذا يسألنا الأديب: لماذا لا يعتبر الشاب بقول صديقنا المازني فيأخذ الحياة من حيث انتهى. ويقضي شبابه في أمن وراحة وسعادة!
والجواب أن صديقنا المازني نفسه لو عاد إلى الشباب لما اعتبر هذا الاعتبار ولا سلك في الحياة إلا المسلك الذي عدل عنه بعد حين
وخيراً تصنع الحياة إذ تجعل كل حي مستقلاً بحياته عن التجارب النفسية التي جربها سابقوه. فليس من الحياة أن يعيش الإنسان عالة على شعور غيره، وليس هذا بالمستطاع لو حسن أن يكون
وفرقي شاسع بين المعلومات والتجارب النفسية في هذا المجال، فإنني لا أستطيع أن أعرف وحدي جميع المعارف الإنسانية التي عرفها السابقون وأضاف إليها اللاحقون ما أضافوه؛ ولكني أستطيع أن اجرب وحدي ما جربه كل فرد وحده، ولا خسارة علي في ذاك!
لا بل الخسارة كل الخسارة في تركي إياه يشعر (بالنيابة) عني وإلغائي لشعوري أنا معتمداً على ما جربه واهتدى إليه. أما المعلومات فيكفي أن تنتقل إلي ليصبح نصيبي منها ونصيب من عرفوها جميعاً على قدر سواء، فلا خسارة في انتقالها من جيل إلى جيل
وينبغي أن نذكر هنا أن التجربة ليست مسألة فهم ولكنها مسألة رياضة

فالحصان الوحشي الذي تربطه بالقيود وتقيم من حوله العوائق لتمنع جماحه وتسلس قياده لا يثوب إلى السلاسة لأنه فهم أنها خير من الجماح، أو وازن بينهما موازنة فكرية فاختار أفضلهما في الرأي والمنطق؛ ولكنه (ريض) على حالة لا يستطيع غيرها ولو فهم أن غيرها هو الصواب

ولو كانت التجارب مسألة فهم لما استعصى خطبها على أحد، فإن حكمة الحكماء الذين قالوا إن (الصبر مفتاح الفرج) تفهم لفظاً ومعنى في لمحة عين، ولكن النفس لا تراض عليها قبل سنين حافلة بالحوادث والدروس؛ وقد تمضي السنون ولا تبلغ بها مبلغ الرياضة على

تلك الكلمات الثلاث!

إن الأقدمين قد أكلوا فشبعوا. فهل نشبع نحن لأن الأقدمين قد عرفوا الشبع من قبلنا دون أن نأكل كما أكلوا؟

إذا جاز هذا جاز مثله أن نشبع من الحوادث والتجارب دون أن (نأكلها) كما أكلها الذين من قبلنا

ولكنهما خطتان بمنزلة واحدة من البعد والاستحالة: فألوف الألوف لا يشبعونك بما تناولوا من غذاء؛ وألوف الألوف لا يعطونك التجربة التي تناولوها من حوادث الأيام؛ وإنما الشبع شيء لا تناله إلا بما تعمله وظائف جسمك؛ وكذلك التجربة شيء لا تناله إلا بما تعمله وظائف نفسك، ولو رأيت أمامك كل المجربين وسمعت وصف التجارب من كل لسان مبين

والرجل بمفرده قد يجرب الحالة الواحدة على أنماط وألوان لا يحيط بها الإحصاء؛ فيخونه عشرة أصدقاء ولا تحذره إحدى هذه الخيانات أن يستهدف لغيرها لأنها مختلفة المنحى والنتيجة. ويحب عشر نساء ولا تعطيه إحداهن ما تعطيه الأخريات. ويسافر إلى القطر الواحد مرات ثم يعود من كل مرة بتجربة جديدة لا تنسخ ما قبلها ولا تنسخها التي تليها

وهذا معنى التجربة، وهذا معنى الحياة

والأصل في الحياة المبالاة بالحوادث والمؤثرات، لأن الكائن الحي كجهاز التلقي والإرسال الذي لا ينعزل مما حوله ولا تنقطع الصلات بين العالم الخارجي وبينه. فإذا انتهى به الأمر إلى تجاهل الحوادث وقلة الاكتراث لها فتلك ضرورة طارئة تراض عليها النفس بعد معالجتها وتكرير علاجها، ثم يكون الاستقرار عليها بمثابة الصدأ الذي يمنع الاتصال، فلا تلقٍّ ولا إرسال، أو يكون على أحسنه بمثابة رفع المفتاح وتعطيل الأداء والاستقبال

وربما فهم ذلك في بعض مراحل الحياة التالية؛ أما الابتداء به في المراحل الأولى فغير مفهوم ولا معهود، إلا أن يكون عن نقص في التكوين وعجز عن التجربة ما يراد منها وما لا يراد

قيل أن السعيد من وعظ بغيره. ولكن أين هو السعيد؟ وما جدواه من السعادة إن كان اتعاظه (شعوراً) غير أصيل فيه! أما إن اتعظ أصيلاً في شعوره فهو هنا مبتدئ وليس بتابع، وهو يجتنب الخطر لأنه أحسه واختبر منه ما يدعوه إلى اتقائه. فليس هو بعالة على تجربة

غيره، وليست تجربة غيره إلا تذكيراً لناس أو تنبيهاً لغافل

ولنتخيل عالماً يستريح الناس فيه من (المبالاة) فماذا يبقى لهم من الحياة؟

ماذا يبقى من الحياة لمن لا يبالون الخوف والرجاء ولا يحنون إلى ماض ولا يتوقون إلى غد ولا يحفلون بحاضر؟

العريان في القافلة مرتاح

وهذا عري في قافلة الحياة!

ولاشك أن التجارب تعلمنا كثيراً أن العناء لا يفيد، ولكن من هذا الذي يعاني باختياره؟

ومن هذا الذي يعاني لفائدة يلتمسها من عنائه؟

إنما يعاني الإنسان على حسب ما عنده من طاقة العناء لا على حسب ما يستفيده من العناء

ولهذا يوجد بين الناس آحاد معدودون يطلبون العظائم ويبلغونها ولا يقنعون بما بلغوه منها، وينظر إليهم ملايين الملايين فلا يتحركون لمثل ما ابتغاه أولئك الآحاد المعدودون،

لأن المحرك هنا هو الطاقة الموجودة وليس هو الفائدة التي لم توجد بعد ولا يضمن وجودها
إن كرة المطاط تنضرب إلى الأرض مائة مرة ولا تزال تعلو وتسفل في أثر كل ضربة. ثم تنضرب بعد هذا فتقع حيث هي لا علو ولا استفال. ألانها علمت أن العلو لا يفيد؟ كلا. . . بل لأنها أضاعت مرونتها التي تعلو بها وتهبط. . . فمن الذي يطلب من الكرات الجديدة أن تعتبر بمصير هذه الكرة (المجربة) فتقع حيث هي وتضيع من مرونتها باختيارها ما ضاع (بالتجربة) على غير اختيار؟
ولست أقول للكرة التي سكنت إلى موضعها: غالطي الحقيقة وعاودي الوثوب وقد راضتك الحوادث على اجتنابه!! ولكني أقول للكرة الجديدة: إياك أن تغالطي الحقيقة وإن تسكني لأن غيرك قد سكن من قبلك. بل اسكني حين يوائمك السكون ولا تقدرين على غيره؛ واطلعي وانزلي مادامت لك طاقة بالطلوع والنزول
فقلة المبالاة لا قيمة لها أن لم تأت بعد مبالاة، لأنها تكون يومئذ مرضاً أو قصوراً لا يغبط عليه. ولابد إذن من مبالاة ولو قصيرة الأمد قبل أن تصبح قلة المبالاة تجربة نفسية ورياضة خلقية. وليس شرطاً مع هذا أن تكون تلك التجربة مما يحمد على كل حال، وأن تكون تلك الرياضة مما يقتدي به كل إنسان
وغاية ما يرجى من انتفاع بتجارب من مضى أن نعيد تجربتها في وقت أقصر وعلى ثقة أوضح وأبصر. . . ولم؟ ليتسع العمر لتجارب أكثر مما جربه الأولون، لا لينقص نصيبه من التجربة اكتفاء بما جربوه
فتكرر الأجيال عبث إذا كان معناه أن جيلاً واحداً يعالج مشكلات الحياة ثم تعفى بقية الأجيال من علاجها. وتكرر الأجيال معقول إذا كان لكل جيل نصيبه من عبء الحياة وعليه مزيد جديد.
عباس محمود العقاد
القرآن والمسلمون
للأستاذ الشيخ محمود شلتوت
وكيل كلية الشريعة
إن خير حديث يتحدث به المسلمون بعضهم إلى بعض في هذا الشهر الذي يذكرون فيه ميلاد نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، هو ما يتصل بهذه المعجزة الخالدة التي أظهرها الله على يد هذا النبي الكريم، وبها حول العالم من سبل الشر والشقاء، إلى سبل الخير والسعادة
وإن الحديث فيما يتصل بالقرآن الكريم لكثير النواحي. متشعب الأطراف. وقد رأينا أن يكون حديثنا في ناحية من هذه النواحي هي علاقة المسلمين بالقرآن في عصورهم المختلفة، وذلك ينتظم:
(1) القرآن والمسلمون في العهد الأول
(2) القرآن والمسلمون في العصور التالية
(3) القرآن والمسلمون في العهد الأخير
وقد رأينا تمهيداً لعرض الموضوع الذي نحاوله أن نقدم بين يديه ما يجلي لنا الغاية التي من أجلها نزل القرآن، والفكرة التي يعمل لإقرارها في هذا العالم
مقدمة
أ - كان الناس قبل القرآن في عقائدهم وأعمالهم على طرفين متناقضين: إما الإفراط أو التفريط؛ وكلا الفريقين بعيد عن جادة الاعتدال. فبينما كنت ترى فريقاً عكف على المادية البحتة، وشغف بها حتى جرت منه مجرى الدم في العروق، وحرص على تنمية عواملها، وتوطيد وسائلها، وحرم نفسه تذوق اللذة الروحية، إذا بك ترى فريقاً آخر قد نزع إلى الطرف المقابل، ونسي حظه المقدر له في المادة بمقتضى خلقه وتكوينه، فتحكمت فيه تقاليد
الروح المحضة، وأعرض عن الدنيا وما فيها، وحرم نفسه متاعها ومباهجها
هذان هما الفريقان المتقابلان يستظل أولهما بظل اليهودية أو الوثنية، ويستظل الآخر بظل المسيحية أو الصابئية أو نحو ذلك
ب - إن اقتسام هاتين الفكرتين للعالم على هذا النحو، أو طغيان إحداهما على الأخرى،

من شأنه أن يحول بين الناس وبين القيام بواجبهم الذي من اجله خلقوا، وجعلهم الله خلفاءه في أرضه: ذلك الواجب هو عمارة الكون والانتفاع بما خلق الله فيه من شيء، والسمو بالعقل الإنساني على وجه يسعد به الناس في معاشهم ومعادهم؛ ذلك الواجب هو الذي تضمنته الآية الكريمة في بيان حكمة هذا الخلق

(هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً. ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم. وإذ قال ربك للملائكة أني جاعل في الأرض خليفة. قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟ قال: أني أعلم ما لا تعلمون!)

ج - جاء الإسلام وهاتان الفكرتان تقتسمان العالم وتسيطران عليه. فحدد غاية الإنسان في الحياة وأرشده إلى مقوماتها الصحيحة، وأهاب به إلى الفكرتين جميعاً، وحثه على قصد الجادة والاعتدال، وطلب إليه أن يأخذ في كل ناحية بقسط ملائم حتى تتحقق له السعادة على أكمل وجوهها. . .

أوسع له في ضروب القول مستدلاً على عقم المادية البحتة بأنواع الاستدلال، وأخذ يصورها أمامه بأبشع الصور، واتجه به إلى كثير من مواطن الحياة، وحثه على استكمال حاجته منها؛ ونعى على الروحية المحضة، وجعلها من الأساليب التي تنافر الغاية من خلقه لعمارة الكون وخلافته عن رب العالمين

اقرءوا - إن شئتم - قوله تعالى في التنفير من المادية البحتة:

(من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون. أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون) (وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو، ولدار الآخرة خير للذين يتقون. أفلا تعقلون؟)

واقرءوا قوله تعالى في الحث على ترك الروحية المحضة:

(قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة) (ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها)

واقرءوا قوله تعالى في الحث على الأخذ بالنصيبين:

(وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا، وأحسن كما أحسن الله إليك، ولا تبغ الفساد في الأرض) (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون)

جاء القرآن لهذا الغرض: مهمته أن يبلغ العقل البشري رشده، وإن ينتفع الناس بالصالح من المادة والمفيد من الروح

وقد اتخذ هذا الاعتدال نهجاً له في إصلاح العقائد وتهذيب الأخلاق وترسيخ قواعد التنظيم الاجتماعي، وصرح في كثير من آياته بأنه يعمل على إخراج الناس من الظلمات إلى النور، ويهديهم إلى الطريق الأقوم، وينذرهم سوء العاقبة، ويبشرهم بالحياة الطيبة إذا هم تمسكوا بمبادئه وعملوا بإرشاداته، وحرصوا على تنفيذ أحكامه واقتضت حكمة العليم الخبير أن يكون بعضه مفصلاً وبعضه مجملاً: يفصل ما لا تختلف فيه أغراض الإصلاح، ولا تتغير فيه وجوهه بتغير الأزمان والأمكنة، وذلك ما يرجع إلى العقائد والأخلاق ورسوم العبادات، ويجمل ما تختلف أحكامه بحسب ما تقتضيه أحوال الزمن وتطورات الحياة واختلاف الأمكنة، تاركا للعلماء تطبيق ذلك على الحوادث والواقعات الجزئية التي يجود بها الزمن

وذلك كله عملاً على سعادة البشر، وإطلاقاً لسراح العقل، وحثاً لأهل البصيرة على التمتع بلذات النظر والتنافس في مجال الاجتهاد

عالج القرآن بذلك العلل النفسية والأمراض الخلقية، وحل المشاكل الاجتماعية، ورسم طريق الحياة الطيبة الصالحة فكان كما وصف نفسه:

(إن هذا القرآن يهدي التي هي أقوم)

(كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير)

(وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين)

(تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً)
القرآن والمسلمون في العهد الأول:
على هذا الأساس آمن الأوائل من المسلمين بالقران، فوضعوه بالمحل الأول من مكانة التقديس والعناية، وسلموا إليه نفوسهم، وتركوه يتصرف فيها بالتزكية والتطهير والتعليم والحكم والسياسة وسائر شئونهم، العامة والخاصة، الداخلية والخارجية، حتى اتسعت أمامهم مسالك الحياة وانفسحت رقعة المملكة الإسلامية طولاً وعرضاً، فما احتاجوا وهم يقبلون القرآن بين أيديهم، ويفهمون آياته الواضحة، وإشاراته الواردة على سنن اللغة العربية القويم، إلى قانون سياسي أو مدني، ولا إلى نظريات الآداب والأخلاق، بل كانوا كلما تقدمت بهم الحياة ونظروا في القرآن، رأوا فيه حاجتهم، واستفادوا منه أكبر ما تطمح إليه النفوس الوثابة المتطلعة إلى عز الدنيا ومجد الحياة! حصروا نظرهم إلى القرآن في الفهم والاتعاظ وتنفيذ الأوامر واجتناب النواهي، وأخذوا ينشرون ما يفيضه عليهم من أصول التشريع وقوانين الأخلاق والاجتماع على سائر المسلمين في جميع بقاع الأرض شرقا وغرباً، فوحد القرآن بينهم حول الغاية التي لأجلها نزل. وما كانوا ليتجهوا أو ليحاولوا أن يخرجوا بشيء من آي القرآن كلا أو بعضاً عن هذا النهج: نهج العمل، وتهذيب الخلق، وإصلاح العقيدة
ما فكروا يوماً في أن القرآن يبرئ لهم مريضاً، أو يرد عنهم غائلة عدو، أو يكشف لهم عن معضلة كونية إلا عن طريق ما أمر به من اتخاذ الأسباب، وقدح زناد العقل، والسلوك في الحياة على ما تقتضيه سنة الحياة.
بهذا سار المسلمون الأولون، وعظم سلطانهم، وتربت مهابتهم في قلوب الأمم، ودخل الناس في دين الله أفواجاً.
وبهذا حافظوا على وحدتهم فلم يتفرقوا في العقائد، ولم تشتتهم الأهواء والمذاهب، وسلم لهم دين الله وكتابه خالصين متينين لم تلعب بهما الشهوات، ولم يتطرق إليهما عوامل الأحداث والابتداع
القرآن والمسلمون في العهود التالية
مضى ذلك العهد، وقد اتسعت بفضل القرآن وتأثيره في النفوس رقعة الإسلام، وامتد سلطانه، ودخلته حضارات وثقافات وعناصر مختلفة وأمم متباينة، فبدأت عوامل التفكك تتسرب إلى الوحدة الإسلامية
حدثت بدعة الفِرق، والتطاحن المذهبي، والتشاحن الطائفي، وأخذ أرباب المذاهب وحاملو رايات الفرق المختلفة يتنافسون في العصبيات المذهبية والسياسية، وامتدت أيديهم إلى القرآن، فأخذوا يوجهون العقول في فهمه إلى وجهات تتفق وما يريدون وبذلك تعددت وجهات النظر في القرآن، واختلفت مسالك الناس في فهمه وتفسيره، وظهرت في أثناء ذلك ظاهرة خطيرة هي تفسير القرآن بالروايات الغريبة والإسرائيليات الموضوعة التي تلقفها الرواة من أهل الكتاب وجعلوها بياناً لمجمل القرآن وتفصيلاً لآياته، ولم يروا بأساً من أن يضيفوا إليه خصائص موهومة في شفاء الأمراض وقضاء الحاجات وتفريج الكربات
ومنهم من عني بتنزيل القرآن على مذهبه أو عقيدته الخاصة، وبذلك وجدت تحكمات الفقهاء والمتكلمين وغلاة المتصوفة وغيرهم ممن يروجون لمذاهبهم ويستبيحون في سبيل تأييدها والدعاية لها أن يقتحموا حمى القرآن، فأصبحنا نرى من يؤول الآيات لتوافق مذهب فلان، ومن يخرجها عن بيانها الواضح وغرضها المسوقة له لكي لا تصلح دليلاً لمذهب فلان، وبهذا اصبح القرآن تابعاً بعد أن كان متبوعاً، ومحكوماً عليه بعد أن كان حاكما
كانت هذه ثورة، وثورة غير منظمة، عقدت حول القرآن غباراً كثيفاً حجب عن العقول ما فيه من نور الإرشاد والهداية. وكان من سوء الحظ أن صادفت هذه الثورة عهد التدوين، فحفظت ودونت كثير من الآراء الباطلة في بطون الكتب، وأخذت بحكم الأقدمية ومرور الزمن نوعاً من القداسة التي يخضع لها الناس، فتلقاها المسلمون في عصور الضعف الفكري والانحلال السياسي كقضايا مسلمة وعقائد موروثة لا يسوغ لهم التحلل منها ولا الاعتداء عليها ولا التشكيك فيها
قيد هذا التراث العقول والأفكار بقيود جنت على الفكر الإسلامي فيما يختص بفهم القرآن، والانتفاع بهداية القرآن، فجمد الناس على تقليد هذه الكتب، واتخذوها حكما

بينهم، واعتقدوا كل ما فيها من غير تمييز بين حق وباطل ونافع وضار، واعتقدوا أنه لا يصح لمؤمن أن
ينكر شيئاً منها، وقالوا: هذا شيء درج عليه السابقون المتقدمون، ودونوه في كتبهم، وشرحوا به كتاب الله، وتلقته الأمة بالقبول؛ وما كان لنا، ولسنا بأعلم منهم بالدين، ولا بأبعد نظراً في فهم أساليب القرآن وتخريج الأحكام، أن نحيد عما تلقيناه منهم قيد شعرة، ولا أن نخالفه في قليل ولا كثير
وبذلك اسلموا عقولهم إلى غيرهم، وجنوا على أنفسهم بحرمانها لذة التفكير، وجنوا على دينهم باعتقاد أن هذه الأوهام من الدين
وكما أفسدت عليهم هذه النزعة حياتهم الفكرية، وصورت لهم دينهم بهذه الصورة المشوهة، جنت كذلك على حياتهم العملية فتركتهم يزهدون في الدنيا، ويكبلون الناس بما يفهمونه من معنى القضاء والقدر، ويكلونهم إلى التوكل الجاف الذي لا يعتمد الأسباب: وبذلك افتقر المسلمون والناس من حولهم أغنياء، وضعفوا والناس من دونهم أقوياء، وحيل بينهم وبين الأخذ بالأسباب على حين سخر الناس السماء والأرض والجو والماء!
(البقية في العدد القادم)
محمود شلتوت
المسألة الاجتماعية في مصر والشرق
بيني وبين الأستاذين
فكري أباظة وتوفيق الحكيم
للدكتور زكي مبارك
كنت توهمت أن طول عهدي بالصحافة السياسية والأدبية جعلني أعرف الناس بأساليب الجدال، وأقدرهم على الفهم لمذاهب الصحفيين في إقرار الحقائق وإزهاق الأباطيل
وكنت توهمت أيضاً أن الصحافة تهدي الجمهور، وإن كان الظاهر يلوح بأنها تستهديه، فقد كان مفهوماً عندي وعند أكثر الناس أن الصحافة قوة نورانية تبدد الظلمات، وتأخذ بيد المجتمع إلى درجات التقدم والارتقاء
كنت وكنت، إلى أن تلقيت عن الأستاذ فكري أباظة درساً لن أنساه، فما هو ذلك الدرس؟
كان الأستاذ توفيق الحكيم نشر مقالاً في مجلة المصور عن الإصلاح الاجتماعي، وقد صرح في ذلك المقال بأن المجتمع المصري سيظل في انحطاط مادام في مصر جماعة من الأغنياء يستأثرون بمصادر الخيرات؛ ثم قرر أنه لا نجاة لمصر إلا يوم تصبح (المسألة الاجتماعية) في قوة (المسألة السياسة): فتسبب إسقاط الوزارات، وتقدم وتؤخر في مراكز الأحزاب
وقد رأيت مقال الأستاذ توفيق الحكيم ضرباً من الحديث المعاد؛ فقد مضت أجيال والناس يتحدثون عن (اليوم الموعود): اليوم الذي توزع فيه أموال الأغنياء على الفقراء. وانتظارنا لذلك اليوم سيطول، فمن الخير أن نفكر في إسعاد الفقراء بطريقة عملية، فندرس أسباب الفقر لنقتلع جذوره من الأساس. ثم رأيت أيضاً أن الكلام عن (المسألة الاجتماعية) ليس إلا (بضاعة أجنبية) فهو منقول عن جماعة من الكتاب الأوربيين والأمريكان، وما يقال في الغرب لا يصلح دائماً لأهل الشرق
وسارعت فأرسلت مقالاً إلى المصور في تقرير هذه المعاني. وفي العدد الذي تلا ظهور المقال رأيت الأستاذ فكري أباظة يتبرأ مني، ويعلن أنه تلقى مئات الرسائل في تفنيد ما رأيت، وأنه سيتولى الرد علي في العدد المقبل؛ فكان رده تحريضاً للجمهور على الكاتب
الذي توهم أن الأستاذ فكري أباظه رجل يحترم حرية الرأي؛ فرددت عليه بمقال أعلنت فيه أن (الفقر مرض، ولكل مرض أسباب)، فعاد فقرر أن الرسائل التي وردت في الرد علي بلغت الألف عداً. ثم وجه إلي كلمات لا يليق صدورها عن زميل كنت أراه غاية الغايات في رعاية أقدار الزملاء
واليوم، ماذا أريد أن أصنع؟؟
أريد أن أحرر الأستاذ فكري أباظة من الاستعباد للرسائل التي تعد بالمئات أو بالألوف،

فقد يخاف على (المصور) من غضبات القراء، وأنا أحب أن تدوم عليه وعلى مجلة (المصور) نعمة العافية، فهو صديقي وهي صديق، وإن لقيت منه ومنها ما لقيت!!

أريد أن أختبر قدرة الأستاذ فكري أباظة على الأبحاث التي تحتاج إلى تعمق واستقصاء؛ فقد رأيته ينتقل تنقل الطير من فنن إلى أفنان، ورأيته لا يصبر على (الطعام الواحد) غير أوقات تعد بالآحاد، وهو يدرك مرد هذه الإشارة في الأدب والتاريخ

أما الأستاذ توفيق الحكيم فقد خرج بالصمت عن لا ونعم، ولكني سأعرف كيف أسوقه برفق أو بعنف إلى شرح مذهبه في الإصلاح الاجتماعي، إن كان في اعتناق ذلك المذهب من المؤمنين؛ فأنا أخشى عليه عواقب التودد إلى القراء بأساليب يغلب عليها الترفق المصنوع

وأنا لا أخاف على (الرسالة) كما خاف الأستاذ فكري أباظة على (المصور)، فالقراء لن ينصرفوا أبداً عن مجلة تواجههم بالصدق في تشريح الآراء والأهواء. ولو كنت أعرف أن مجلة المصور ستخذلني لطويت عنها رأيي، وتركتها تتودد إلى القراء، كما تشاء!

أخذ الأستاذ فكري أباظة يبدئ ويعيد في التوجع لمصاير الصناع والعمال والفلاحين، كأنه يتوهم أن التوجع شفاء من كل داء!

نحن لا نريد أن نقيم الملاطم والمناحات على ما صرنا إليه، وإنما نريد أن ندرس جميع الظواهر الاجتماعية بصدق وإخلاص، وإن غضب علينا بعض من لا يفقهون

فهل يخرج الأستاذ فكري أباظة على مذهبه المألوف في تقييد الخواطر اليومية ليلقاني على صفحات الرسالة وقد استعد لنضال شريف سيعود على المجتمع بالنفع الجزيل؟

لقد نهاني الناصحون عن هذا الموضوع الشائك، وقالوا إن في مصر تياراً من الحقد على الأغنياء، وإن من العقل أن أساير ذلك التيار، كما يصنع الأستاذ فكري أباظة والأستاذ

توفيق الحكيم

وأقول إني أقاوم ذلك التيار لمنفعة وطني، فالوطن الغالي يناشد أبناءه جميعاً أن يعيشوا في تعاون وتساند، وهو يدعو الفقراء إلى الفرح بسعادة الأغنياء، كما يدعو الأغنياء إلى البر بالفقراء. ولن يعطف الله على الفقير إلا يوم يفرح بحلول النعمة على جاره المسعود، والفقير الذي يفرح جاره الغني هو الصورة الصحيحة للأدب الذي دعانا إليه الأنبياء

أما بعد فما هو أصل الخلاف؟ يقول الأستاذ فكري أباظة: إني حملت على الفلاحين والفقراء. لا، يا صديقي، وإنما كان رأيي أن الفقر الذي يعانيه بعض الفلاحين والعمال والصناع له أسباب، لأن الفقر في الجيب كالعلة في الجسم، ولكل نتيجة مقدمات

فما وجه الخطأ في هذا القول؟ وهل من الصحيح أن جميع الفلاحين والعمال والصناع منزهون عن الأغلاط؟

إن كان ذلك فكيف يصيبهم الفقر وهو لا يصيب غير من حرموا قوة الأخلاق الاجتماعية والمعاشية؟

وكيف اتفق لجميع المصلحين أن يضعوا آداباً لطلب الرزق، وهي آداب موجهة إلى الفقراء؟

وكيف يحرم علينا أن ندعو فقراءنا إلى التخلق بالأخلاق الاجتماعية والمعاشية، وهي دعوة تلقيناها عن أسلافنا الأمجاد؟

وأهجم على الأستاذ فكري أباظه فأوجه إليه هذا السؤال:

إذا صح أم جميع الفلاحين والعمال والصناع على جانب عظيم من الأخلاق الاجتماعية والمعاشية فكيف جاز أن يعيشوا فقراء ونحن نعرف أن السلامة من الآفات الأخلاقية تضمن السلامة من آفات البؤس؟

ثم أوجه إليه سؤالاً آخر فأقول:

إذا صح أن جميع الفقراء في غاية من الأمانة والصدق فكيف جاز أن يقوم بينهم وبين الأغنياء حجاز سميك لا تنفذ منه بوارق التعاون إلا في أندر الأحايين؟

ثم اوجه إليه سؤالاً ثالثاً فأقول:

إذا صح أن الناس جميعاً بخير من الوجهة الأخلاقية فلأي غرض تنشأ الجرائد والمجلات؟

ولأية غاية تقام حدود الشرائع والقوانين؟
إن كان الأستاذ فكري أباظة راضياً عن أحوال الصناع والعمال والفلاحين ففي الدنيا أقوام يرون غير الذي يراه، ومن حق أولئك الأقوام أن يعلنوا آراءهم بلا تخوف ولا تهيب، لينقلوا المجتمع من حال إلى أحوال، وليخطوا في كتاب الإصلاح الاجتماعي صفحة جديدة يحفظها التاريخ
ثم ماذا؟ ثم يسألني الأستاذ فكري أباظة عن أهلي في الريف، وهو يؤكد أن أقدامهم الممزقة وأياديهم الخشنة وصدورهم المحروقة ووجوههم الملوحة تشهد بأنهم أشقى سكان العالم وأعنفهم عملاً وكداً وكدحاً
وأقول إن أهلي ليسوا كذلك، مع الأسف الموجع؛ فلو كنت أعرف أن لأهلي في الريف أقداماً ممزقة، ووجوهاً ملوحة، لطابت نفسي، وأيقنت أن الريف لا يزال بخير، وإنما أعرف أن أهلي وأهلك تسامعوا بأن القاهرة نشأ فيها رجال يبكون أو يتباكون لشقاء الفلاح، ويزعمون أن الفلاح الأوربي أو الأمريكي يعيش عيش السعداء، فلا يعاني صحبة الفأس والمحراث إلا وفي يده جريدة يطالع فيها أخبار الصباح أو أخبار المساء!!
ليت أهلي في الريف حفظوا عهد جدي، فقد كان جدي رحمه الله يحدث أبناءه بأن الحقل يفرح بصاحبه حين يراه، وهم اليوم لا يرون حقولهم إلا في الحين بعد الحين، وأكثرهم يخجل من أن يسحب بقرة أو يركب جملاً! وكيف يسبحون البقرات أو يركبون الجمال وهم من أبناء الجيل الجديد، الجيل الذي ينشئ في سنتريس أكثر من سبع قهوات مع أن أهلها لا يجازون عشرة آلاف، ومع أن الآباء والأجداد في سنتريس لم يكونوا يشربون غير الماء القراح
أريد أن أرى بين أهلي رجلاً ممزق القدمين من آثار الكدح الموصول لأتقرب إلى الله بالثناء عليه، ولأنشر عنه مقالاً في مجلة مصرية أو شامية أو عراقية
أنا لم أفكر في (إحداث ضجة) تقع كارثتها فوق رأسي، كما يهددني الأستاذ فكري أباظة، وإنما أفكر في مصاير قومي، وأنا بشهادة خصومي أصدق الناس في الوطنية، ولله الحمد على هذا الميراث النفيس
وأهجم على الأستاذ فكري أباظة مرة رابعة فأوجه إليه هذا السؤال:
هل تعرف، أيها السيد، كيف حرم أبناء الريف نعمة الشاعرية؟
ولكن ما هذه الشاعرية؟
إليك أسوق الجواب:
كان جميع أبناء الريف يتعلقون بمزارعهم إلى حد الفتون، فكان الرجل منهم يراعي مزروعاته بشغف وشوق، ويكاد يعرف كيف تطول الورقة الخضراء من ساعة إلى ساعة، بل من دقيقة إلى دقيقة، بل من لمحة إلى لمحة؛ وكان الرجل منهم يعطف على مواشيه كما يعطف على أبنائه الأعزاء؛ وكان الفلاح يعرف ملامح كل شجرة، ويأنس بكل نبتة، ويكاد ينظم قصيدة رثاء حين يرى سنبلة قصمتها الرياح
فأين أهلونا في الريف من هذه المعاني بعد أن سمعوا بقصة التمدن الحديث؟
أين أهل الريف من هذه المعاني، وما نشأ منهم ناشئ إلا وهو يرجو الرحيل إلى القاهرة، ليجد وظيفة تغنيه عن الأنس بمزارع القطن والقمح والفول؟
إن أسلافنا القدماء عبدوا مصادر الخيرات في بلادهم إلى الحد الذي سمح بأن يروا معنى الألوهية في البقرة الحلوب، والى الحد الذي سمح بأن يعتقدوا أن النيل اله معبود
فأين نحن من أولئك الأسلاف؟ وأين فينا من يتشرف بأنه فلاح وابن فلاح؟
لقد توهم الأستاذ فكري أباظة أنني من (سادة الصالونات الأرستقراطية التي تعيش في دنيا الجاتو والجيلاتين والجامبون والمارون جلاسيه). فليعرف أن هذه الألفاظ تحتاج إلى شرح يقربها إلى ذهني بعض التقريب، لأن بيتي لا يعرف هذه الأصناف، ولان من يتفضلون بدعوتي إلى بعض الولائم يطوونها عني، ولأني نسيتها نسياناً تاماً بعد فراق باريس، أن كنت ذقت في باريس غير أقذاء العينين تحت ضوء السراج
ماذا أريد أن أقول؟
أنا أريد القول بأن دنيا الناس في مصر قد أصيبت بالانحراف وإلا فكيف جاز أن تكون دعوتي إلى إصلاح أخلاق الفقراء كارثة لا تقع إلا فوق رأسي؟!
وكيف يجوز أن يكون الأستاذ فكري أباظة من خصومي، وقد اكتوت يداه بالانحراف

الاجتماعي كما اكتوت يداي؟
بلادنا مهددة بالشقاء، بسبب سوء الفهم لعناصر النظام الاجتماعي، فما الذي يمنع من أن
نتعاون على الإصلاح المنشود؟ ومتى ندرك أن تمزيق أقدام الفلاحين هو شارة من شارات التشريف، وليس باباً من أبواب الرثاء؟
من حق الأستاذ فكري أباظة أن يتوجع لمصاير الفقراء من العمال والصناع والفلاحين، أما أنا فلن أتوجع لمصاير أولئك ولا هؤلاء، لأني أومن بأن الله خلق منافع الوجود لجميع الناس ثم دعاهم إلى التسابق بقوة العزيمة والأمانة والصدق والإخلاص فربح من ربح وخسر من خسر، كما كان يعبر أستاذنا الشيخ مصطفى الطماوي
الله وحده هو الذي يعلم سريرتي في إثارة هذه المشكلة الاجتماعية، ومنه وحده استمد العون على من يعادونني ظالمين آثمين. والى اللقاء بعد أن اسمع حجج المناظر المفضال
زكي مبارك
في العقد
لأستاذ جليل
صاحب البيت الثاني: (ولرب مأخوذ بذنب عشيره) هو غير صاحب البيت الأول: (جانيك من يجني عليك. . .) وإذا كان قد قاله كما روى صاحب (العقد) والشريشي شارح (المقامات) فقد سار مع العروض التامة. ويظهر أن أديباً استطال الصدر فاستبدل به: (ولرب مأخوذ بلا قرف) - واقترف في هذا المعنى أكثر - فخرج بذلك من (العروض التامة والضرب الأحذ المضمر) إلى (العروض الحذاء المضمرة والضرب الأحذ المضمر) ولم يذكروا هذه العروض، ولم ترد في أشعارهم، وإذا جاءت فإنما تجيء في مطالع القصائد مصرَّعة كما قال صاحب (العقد) في مقطوعة (عروضية):
عينيّ، كيف غررتما قلبي ... وأبحتماه لوعة الحب؟!
يا نظرة، أذكت على كبدي ... ناراً قضيت بحرها نحبي!
خلوا جوى قلبي أكابده ... حسبي مكابدة الجوى حسبي!
عيني جنت من شؤم نظرتها ... ما لا دواء له على قلبي!
جانيك من يجني عليك وقد ... تعدى الصحاح مبارك الجرب
ولا تصريع في بيتينا
وقد يقال: إن أديباً آخر فطن لذلك الخروج في (بلا قرف) فبدل به (بلا ترة) فأقبلت النغمات متوائمة وإن لم يبن البيت هنا إبانته في تينك الروايتين
وبعد فإن رواة البيت: (جانيك. . .) في كتب اللغة والأدب قد غلطوا في روايته فالبيت مرفوع لا مخفوض، ولا إقواء فيه، وقد قصد صاحب اللسان (وتبعه صاحب التاج) جبره بهذه الرواية:
جانيك من يجني عليك وقد ... تعدى الصحاح فتجرب الجرب
فما انجبر، و (مُبارك) في البيت ليست مرفوعة وإنما هي منصوبة
وقد شاء الله أن يكون الفضل في إعلان الرواية الصحيحة المحققة لهذا البيت لمجلة (الرسالة) في هذا الزمان؛ والإفضال على الأدب العربي في كل جزء، في كل أسبوع، هو هجيراها، هو دأبها، وحسبها وحسبنا تلك (الأولى) لربها فيه
البيت لذؤيب بن كعب في مقطوعة (ستة أبيات) قالها في يوم تياس، وهو من أيام العرب، وقد ذكره صاحب (العقد) مختصراً، وأورد ثلاثة أبيات من المقطوعة. وروى الخبر أتم والمقطوعة كاملة أبو عبيدة في تعاليق (النقائض)، وستظهر تعليقة البيت حقيقة الرواية. وقد رأيت أن انقل الخبر والأبيات والتعليقة لندور تلك الطبعة الغربية في الشرق. ومحقق (النقائض) وناشرها هو العرباني الأستاذ (ا. ا. بيفن)
قال أبو عبيدة: (كانت قبائل بني سعد بن زيد بن مناة، وقبائل بني عمرو بن تميم التقت بتياس، فقطع غيلان بن مالك ابن عمر بن تميم رجل الحارث بن كعب بن سعد بن زيد مناة، فسمي الأعرج، فطلبوا القصاص، فأقسم غيلان ألا يعقلها ولا يقصها حتى تحشى عيناه تراباً وقال:
لا نعقل الرجل ولا نديها ... حتى ترى داهية تنسيها
فالتقوا فاقتتلوا، فجرحوا غيلان حتى ظنوا انهم قتلوه، ورئيس عمرو كعب بن عمرو،

ولواؤه مع ابنه ذؤيب، فجعل غيلان يدخل البوغاء في عينيه ويقول: تحلل غيل، حتى مات. فقال ذؤيب بن كعب لأبيه كعب:

يا كعب، إن أخاك منحمق ... إن لم تكن بك مرة كعب
أتجود بالدم ذي المضنة في ال ... جليّ، وتلوي الناب والسقب
فالآن إذ أخذت مآخذها ... وتباعد الأنساب والقرْب
أنشأت تطلب خَطة غبناً ... وتركتها ومسدُّها رأب
جانيك من يجني عليك وقد ... تعدى الصحاحَ مباركَ الجرب
والحرب قد تضطر جانيها ... إلى المضيق ودونها الرحب

قال أبو عبيدة: أنشدني داءود أحد بني ذؤيب: (الصحاحَ مباركُ الجرب) فرفعوا مبارك، وجروا الجرب، وذلك أقواه

قال أبو الخطاب: إن عامة أهل البدو ليس تفهم ما يريد الشاعر، ولا يحسنون تفسيره، وإنما أتى إقواء هذا من قلة فهم الذين رووه، وإنما عنى الشاعر (وقد يعدي الأجربُ الصحيحَ مبركا) فلما وجدوه مقدماً ومؤخراً لم يحسنوا تلخيصه، ووجدوا مبارك لا (ينصرف، فأظلم عليهم المعنى، وإنما أراد: وقد تعدى الصحاحَ مباركَ الجربُ

قلت: (الصحاح مبارك) التي لم يفهمها البدو في ذلك الوقت. . . هي مثل الحسن وجهها في قصة (الصفة المشبهة) ذات الستة والثلاثين وجهاً. . .!

ومن أبيات الكتاب:

فما قومي بثعلبة بن سعد ... ولا بفزارة الشُّعري رقابا

قال الشنتمري: (نصب الرقاب بالشعرى على حد قولك الحسن وجهاً، ويجوز فيه (الشُّعرِ الرقابا) على ما أنشده بعده وهو كقولك: الحسن الوجه بالنصب على الشبه بالمفعول به. وصف فزارة بالغمم وهو كثرة شعر القفا ومقدم الرأس، لأنه عندهم مما يتشاءم به ويذم، والمحمود عندهم النزع، وهو انحسار الشعر عن مقدم الرأس، والشعري مؤنث الأشعر، وهو منه كالكبرى من الأكبر، وأنثه لتأنيث القبيلة، والشعر جمع أشعر، فجمع لأنه جعل كل واحد منها أشعر، فجمع على المعنى)

وأختم هذه الأسطر بالشكر للأستاذ المفضال عبد السميع صبري

* * *

على ذكر المولد النبوي

للدكتور عبد الوهاب عزام

الذكر العظيمة في تاريخ الأمم نجوم يهتدي بها في ظلمات الأيام، وأعلام يستبين بها الطريق في ضلالات الزمان، ودعوات إلى الحق والخير تدوي على مر السنين. والزمان بالناس دائر لا يفتر، تعتورهم أحداثه، وتتداولهم غيره، فمن لم يعتصم بسبب من الحق، ويستمسك بعروة من العمل الصالح، ضل وانبهمت عليه السبل، والتبس عليه الحق والباطل، والهدى والضلال. ومن لم يجعل له قدوة من سير العظماء تردد وتحير، والزمان لا ينتظر المترددين الحيارى، أو ضل وهلك، والدهر لا يشفق على الضلال والهلكى.

وإن لنا معشر المسلمين من سيرة رسولنا خاتم النبيين نجوماً نيرات، وأعلاماً واضحات، وأسى تهدي إلى الخير والبر، والتي هي أقوم من أعمال الدين والدنيا. إن لنا من سيرة الرسول الكريم هدي في كل صغيرة وكبيرة من أعمال الفرد والجماعة. فقط حفظ لنا التاريخ سيرته في بيته ومسجده، وفي سياسة الجماعات، وتربية الأمم، وقيادة الجيوش، وفي الإصلاح بين المتعادين، والقضاء بين المتخاصمين، وفي السفر والحضر، والشدة والرخاء، والحرب والسلم، والغضب والرضا، فما تلقانا حادثة من حوادث الزمان، أو عمل من أعمال الحياة خيرها وشرها، وحلوها ومرها، إلا وجدنا في سيرة سيدنا ونبينا وحبيبنا محمد صلوات الله عليه وسلامه مثلاً عالياً، وأسوة حسنة، ورأياً هادياً، وقضاء فصلاً، يهدينا إلى ما فيه صلاح الدنيا والآخرة. كل فرد منا يجد في سيرة محمد وهديه شفاء دائه، والتحرر من أهوائه، وإصلاح خلقه؛ وكل فرد منا يجد في سيرة نبيه الجهاد في الحياة والصبر على لأوائها، والطموح إلى معاليها، والاستكبار عن دناياها، والإباء على كل ضيم والنفور من كل مذلة

وكل أمة من أمم المسلمين تدوي فيها ليل نهار الدعوة المحمدية تدعوها إلى أن تقوم في أرض الله على عباد الله بقانون الله (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون

بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله)
وكل أمة على هذه الأرض تجد في هُدى محمد ما يطب ادائها، ويقيم من عوجها. وهل أودى بالجماعات إلا عصبيات باطلة، وأهواء جامحة، وشهوات مسلطة، واستكبار على الحق، ونفور من العدل؟ هل كب الناس في جهنم إلا ما استعر في قلوبهم من الضغينة، وثار في رؤوسهم من الهوى؟ وهل يعرف التاريخ كمحمد رسولاً جاء بالشرع الجامع، والأخوة العامة، والعدل الشامل؟ هل يعرف التاريخ كمحمد هادياً ألف بين منازع النفس على قانون من العفة والعدل، وألف بين الإنسان والإنسان على شريعة من المودة والأخوة، وألف بين الأمة والأمة على منهاج من الحق والبر والعمل الصالح لخير الناس أجمعين؟ من رفع للناس لواء الأخوة لا يفرق بين الأبيض والأسود، ولا يميز بين المشرق والمغرب؟: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله اتقاكم). من دعا الناس جميعاً إلى التنافس في الخير على اختلاف أديانهم ونحلهم وأنزل عليه: (ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً إن الله على كل شيء قدير). (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما أتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعلمون)
أين أنتم من هذه الأخوة الجامعة يا ضلال البشر؟ أين أنتم من دعوة الخير العامة يا دعاة الشر؟ أين أنتم من هذه الرحمة يا قساة القلوب؟ أين أنتم من هذا الصلاح يا فساد الشعوب؟
المسلمون أحق باللوم وأجدر بالتعنيف. فهم أهل هذا الدين وأولى الناس بهديه، وهم هم خذلوه وهجروه، وحفظوا ظاهره وضيعوه. (وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا) فإن ترهم اليوم في فرقة وشقاق فبما ضيعوا أخوة الإسلام، وإن ترهم في مذلة وهوان فبما فرطوا في عزة الإسلام، وإن ترهم أتباعاً فقد علمهم الإسلام مشرعة السيادة فنبذوها، وأعطاهم أزمة القيادة فأضاعوها
أيها المسلمون، هذه ذكرى نبيكم، وميلاد تاريخكم، ومبدأ مجدكم، ومنشأ سعادتكم؛ فإن شئتم لأنفسكم السيادة والسعادة فكونوا أهلاً لهذا الشرف. كونوا بأخلاقكم وأعمالكم جديرين بأن تسموا أمة محمد. ولا تتخذوا الانتساب إلى محمد هزواً ولعباً، وتحسبوا الإسلام أسماء وأقوالاً، فإنما هو الأخلاق والأفعال والجهاد الذي لا يفتر، فمن شاء أن ينتسب إلى محمد فهذه سنته، ومن شاء مجد محمد فهذه طريقته
(يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا).
عبد الوهاب عزام
نظرة في مناظرة
للأستاذ محمد توحيد السلحدار بك
قال بعض أصحاب الفكر والذوق للمعاني: إن الثقافة وعي أطراف صالحة من أثمار العقول، العلمية والفنية والأدبية، بها يلتفت المثقف إلى المبادئ والأسباب والقوانين والحقائق، ويرشد قومه إلى الأصلح لحالهم، والأنفع لترقيتهم، والأخلق بالإنسانية . . .
ومناظرة الأستاذ العقاد بكلية الآداب - في أن (التراث الشرقي كاف لنضج الحياة العقلية بين الشرقيين) - هي مشاركة في بحث يمت إلى هذه الثقافة، إذ يرمي إلى إنارة الأذهان بالكشف عن الحقيقة في الخلاف بين الذاهبين إلى الأخذ عن الغرب وبين القائلين بالاقتصار على تراث الشرق، في سبيل نهضتنا؛ والحقيقة تتبين من مقابلة الشيء بضده، والموازنة بين الرأيين
ألقى علي الأستاذ الفاضل عبء الدفاع عن الرأي الذي يصعب تأييده، وهو ابن بجدته، فجاء من الحجج بما يعسر الخروج منه. وكان كلامه، مع إيجازه المطابق لمقتضى المقام، أحسن ما يستطيع مثقف أن يقول في الموضوع. وفي الأدب العربي فصول في مثل إيثار الدمامة على الجمال، ونحو ذلك من الموضوعات التي لا يجيد متناولها إلا بأوفر دراية ولباقة. لكن ذلك الكلام أذكرنا مناقضات نوردو للآراء المألوفة في الاجتماعيات والنفسيات، ورسالة روسو في حمد الجهل وتفضيله على العلم، وقد أجازه عليها مجمع ديجون وكدنا نصدقها يوم قرأناها
استخدم المناظر منطقاً وبياناً في طريقة حصيفة هدته إليها ثقافته؛ وصاحب المنطق يستطيع أن يهدي به ويضل، وصاحب البيان ساحر، والثقافة قدرة إن شاء حائزها

أحالت الهدى ضلالا والضلال هدى، وهو لم يشأ، بل أراد فتق الأفكار والآراء بالمناقضة، وتعليم النظر الأدبي وذلاقة اللسان بالمثال البارع؛ وافتتح كلامه بقوله (كان من نصيبي) أن أؤيد هذا الرأي، فكأنه أراد أن ينبه في لطف على قبوله القيام بهذا التأييد كي تقوم المناظرة المفيدة؛ ولم يقل أن رأيه الشخصي هو الاكتفاء بالتراث الشرقي، وإن ساق الحجج الحاذقة في كفايته لنضج الحياة العقلية (عند الشرقيين) قال: إن تراث الشرقيين هو (ما لهم من أشعار ومواعظ وأمثال وحكايات وآداب وقواعد سلوك، وروح العقائد الدينية والحكمة النفسية والفكرية، وما يصاحب ذلك من فقه شريعة ودين).

أما العلوم الطبيعية التجريبية - يعني العلوم الحديثة - والمعارف الرياضية، فإنها خارجه عن التراث الشرقي والتراث الغربي معاً، لأن (الحقيقة الطبيعية ثابتة في جميع الجهات)، يكتشفها (الإنسان باعتباره إنساناً مدركا حيث كان) و (ما كشف منها في الغرب تتمة لما سبقها منذ بداية عهد الإنسان بالمعرفة، فهي جزء من التراث الإنساني)؛ ولأن المعارف الرياضية (لا تتوقف على المشاهدات والمحسوسات بمقدار ما تتوقف على قوانين العقل المجرد، المعزول عن خصائص الأوطان والأزمان).

لكن تحقيق النظر في التراث الشرقي محصوراً في هذه الحدود يظهر أن لبابه من ثمر أحوال النفس الواحدة في البشر، ومن أحكام العقل البشري ونتائج تجارب الإنسان أينما كان، ومن مقتضيات حاجاته في الحياة الإنسانية: فالحب - مثلاً - في الشرق هو الحب في الغرب، وكذلك البغض أو الشجاعة أو الجبن، أو الفرح أو الحزن وسائر الوجدانيات، وكل أولئك معزول في ماهيته عن خصائص الأوطان والأزمان؛ والإنسان (باعتباره إنساناً مدركا حيث كان)، قد عرف حاجته إلى الحث على الخير والنهي عن الشر، والى إقامة النظام يتقي به آفات الفوضى؛ وهذه المعرفة ونتائجها من التراث الإنساني. ومن الحكم والمواعظ العربية ما له نظائر في تعاليم (كونفوشيوس) مثلاً، أو في أخلاقيات (فوفنارج)؛ وفي الشرائع الرومانية ما يقارب بعض الشرع الإسلامي؛ وفي الأدب اليوناني ما يماثل بعض الشعر العربي، وفي الأدب العربي ما يشبه أمثالاً وحكايات هندية أو فارسية أو غيرها؛ وذلك كله بأن الإنسانية دارجة في تطور عام واحد مطرد، على نحو ما بينه (ريكلو) و (ويلز) وإن لم تخل قبائلها وشعوبها من أنواع التفاوت في المدنية

فمهما كان على هذا التراث من مسحة وطنية ومن أثواب اللغة العربية، فهو في جوهره حلقة من سلسلة الأثمار العقلية والنفسية، وهي سلسلة لا يقف تمددها (منذ بداية عهد الإنسان بالمعرفة).

وتلك أمور إنسانية في صميمها مهما كانت من قبيل ما يمتزج بحياة الشرقيين، و (مصطبغ بصبغة الشرق ويجري على سنته)

وليس هذا بمانع من أن يقال: (إن الحياة العقلية إذا نضجت بين الشرقيين، فهي لاحقة بالتراث الشرقي أيا كان المصدر الذي جاءت منه أو حملت عنوانه)، مثل الفلسفة اليونانية كما نقلتها الحياة الشرقية إلى الشرق العربي؛ أو يقال: إن الحقيقة الطبيعية أو الرياضية منسوبة إلى العقل الناضج الذي كشفها - كنسبة قوانين الجذب العام إلى نيوتن - وإن كانت من (التراث الإنساني)

أما العقل فإننا إذا اعتبرناه عضواً في الإنسان، كعينه وأذنه وسائر أعضائه الظاهرة والباطنة، فهو ينضج كما تنضج بالبلوغ وتستحصف إلى الأربعين، وهو يؤدي وظيفته كما تؤدي وظائفها، وذلك منذ تميز الإنسان عن الحيوان في ظلمات الماضي الأقصى، بالنسبة إلى علمنا، من اللانهاية الزمنية. وإنما تميز بقدرة عقله على التصور والقياس والحكم. وعقل الإنسان (يعمل ويفكر، ويبحث فيما يراه ويحيط به، أيا كانت المسائل التي يتناولها بتفكيره وبحثه) منذ لم يكن له أي تراث في أي مكان؛ ولولا ذلك لما سما إلى مستوى هذه المدنية. فالسلامة البدنية والصحة النفسية تكفيان وحدهما أبداً لتصحيح العقل الذي يصيب ويخطئ، كما تخطئ العين وتصيب؛ وبين الأفراد تفاوت في حصافته الفطرية كتفاوت حدتها فيهم، ولكنه عقل ناضج بهذا الاعتبار على كل حال.

كان العقل الناضج هذا النضج في الإنسان (يعمل ويفكر فيما يراه ويحيط به) يوم كان صاحبه يعيش عيشه الوحوش المفترسة، ويخشى ظواهر الطبيعة التي يجهل كل شيء

من أسرارها؛ ويوم أدرك ضرورة الحد من حريته الفردية الفوضوية، ويوم وضع نظماً للعائلة فالقبيلة، إلى آخر ما هنالك. وهذه مستويات تدرج الإنسان في الرقي إليها مع تدرج عقله الناضج في نضجه التطوري بما غذاه، في كل وقت، من تجاربه وتجارب سلفه وعمل عقولهم الإنسانية

ويتضح مما تقدم بيانه أن العقل باعتباره عضواً من الإنسان له نضجان: نضج أول هو قدرته على تأدية وظيفته الفطرية، وهو عام بين الأصحاء لا يحسن تأديتها إلا به: ونضج ثان هو إدراكه محصول أعمال العقول الإنسانية في زمان معين من حياة البشر مع قدرته على المشاركة في زيادة هذا المحصول أو تحسينه؛ فللعقل البشري في كل مستوى أعلى من مستويات العرفان العام نضج أتم.

والجدير بالنظر إنما هو النضج الذي غذته أثمار العقول الإنسانية في هذا الوقت، والذي يتيسر للمثقف أن يشارك في إنماء هذه الأثمار أو تحسينها، في آية ناحية يميل إليها، فيكون لعمله شأن يذكر له ويشكر، والأستاذ نفسه أدرى الناس بالفرق بين نضج عقله القوي قبل أن يعي كل ما استوعب من الثقافة الغربية، أو العصرية، وبين نضجه بعد ذلك؛ لكن كان عليه أن يعارض رأي مناظريه، فعارضه بطريقة حاذقة شفت عن هذا النضج الأخير، أي عن ثقافة سامية

والخلاصة أن العقل يعد ناضجاً، أو غير ناضج، لا من حيث تأديته وظيفته فحسب، بل من حيث قيمة ما وعى وما ينتج، فهي قيمة مناسبة لدرجة علمه وثقافته، والمهم إذن في النضج إنما هو مستوى (الموضوعات والمواد التي يتناولها) عمل العقل؛ ولذا ليس يمكن أن تنضج للشرقيين حياة عقلية إذا هم لم يأخذوا عن الغرب في هذا العصر. أما إن هم اقتصروا على تراث الشرق بحاله المحدودة في ثقافته عصر غابر كانوا كأنهم عائشون فيه، ولمن أراد بنضج العقل ذلك النضج الأول، أو أراد نضجاً عتيقاً، أن يقول إن (التراث الشرقي كاف لنضج الحياة العقلية، ولم يخل الشرق من العقول الناضجة قديماً وحديثاً)

فهارون الرشيد وابن خلدون كان كل منهما ناضج العقل في مستوى الثقافة العربية في زمانه ومكانه، بعدئذ مضى على خروج العرب من شبه جزيرتهم قرنان إلى ثمانية قرون بنوا دولهم فيها على ما طوعوا للدين والشريعة من نظم ومدنيات وفلسفات لأمم كاليونان والرومان والفرس وسواهم. أما جمال الدين الأفغاني فقد يكون فيما نعتوه به مواضع نظر لعلها تستدعي التحقيق العلمي المتحرر من المؤثرات الوجدانية والسياسية؛ ولولا تفاهة ما أفاد من الثقافة الفرنجية لاختلف شأنه . . .

وليس يصح إن نوازن بين عقول أمثال هؤلاء الرجال وبين عقول تلاميذنا لتفاوت الأسنان والتجارب والمشاغل، ولقلة المحصول في التلمذة فضلاً عن أننا ما نزال في سبيل التحصيل من الثقافة الحديثة؛ ولسنا نشك في أن بين تلاميذنا النجباء من لا يقل في نضج العقل، ذلك النضج الأول، عن أولئك الرجال حين كانوا في سن التلمذة ألا أن البحار والجبال لم تحل دون التنقل والاتصال بين بني الإنسان من قديم الأزمان حتى عصر الطيران. والناس إلى الآن يفرقون بين الشرقي والغربي، وبين الأسود والأبيض، والأسمر والأصفر؛ ولكن ما تحت الجلود لون واحد، والأجسام جميعاً مكونة من عناصر وخلايا متماثلة، لا يتميز بها جسم عن جسم إن حلل لم يبق منه سوى أملاح ومواد قليلة، لا تختلف في واحد من هذه الأجسام. وليس يستحيل عقلاً وقياساً أن يتكامل ما بدأ في الدهارير من تطور، وإن يأتي على الإنسان حين من الدهر وطور يصل فيهما بالتجارب أيضاً والتقارب، كلما صغرت عقبة المسافات بسرعة المواصلات، إلى ثقافة واحدة شاملة، تكبح من شر الغرائز، وتهدي العقول والنفوس إلى تفاهم أتم، وسلام أدوم وأعم، في إنسانية أصفى وأسمى نحول المثل الأعلى

لكن ما لنا وللفكر هنا في مثل هذا المستقبل الخيالي الأبعد؟ وحسبنا أن نلاحظ أننا منقادون لسنن التطور، يسوقنا توافر عوامله في وجهته الطبيعية، ولا يمنعه اختلاف آرائنا في موضوع المناظرة إذ نحن في الواقع آخذون عن الغرب كما أخذ عنا؛ وقد نفعل ما فعل السلف الصالح حين صبغوا الفلسفة اليونانية في زمانهم صبغة عربية، وكما فعل اليابان في عصرنا هذا

فلا يفهن أحد من الرجعيين أو من الشباب مضللاً بشهوة جاهلة، أو بعاطفة غالبة، أن المناظر الفاضل أراد في تأييده القوي لذلك الرأي القائل أن يقتصر الشرق العربي

على تراثه، ويهمل كل ما فيه ذرة حديثة أو غربية، ثم يعمل بهذا التراث وحده إلى أن يبلغ مستوى يسابق فيه الغرب في الرقي؛ لأن ذلك مستحيل عملياً وإن جاز فرضه نظرياً. وإذا نحن جارينا هذا الفرض الخيالي انتهى بنا التخيل إلى أن الشرق، يوم يبلغ ذلك المستوى، قد يجد أن الغرب رحل إلى السيارات يستعمرها أو ما شاكل هذا من الأعاجيب التي لا يعرفها العلم. وليس من المعقول أن يهمل الشرق كسب الإنسانية في قرون ليكد هو قروناً مثلها في تحصيله.

محمد توحيد السلحدار

من آثام الربيع!

(. . .إلى صلاة جريحة ترتعش في زمني بعد الغروب)

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

مَضَى رَبِيع وتَهادَى رَبِيعْ ... ولم يَزَلْ حَوْلي هُمودُ الشِّتاءْ
لاَ عِطْرَ في الفَجْرِ لِقَلِبي يَذِيع ... وَلاَ شَذىً للرُّوحِ عِنْدَ المَسَاءْ
يَمُرُّ في صَمْتِي اَلنَّسِيمُ الوَدِيعْ ... إِعْصَارَ لَيْلٍ في مَغَانِي فَناءْ
وَمَا بِكَأسِي غَيْرُ هَذا الأَنِينْ ... وَلاَ بِجُرْحِي غَيْرُ هَذا النَّغَمْ
غَدَا زَمَاني جَذْوَةً مِنْ حَنِينْ ... وَعُمْرِيَ المَشْبُوبُ رُؤْيَا عَدَمْ!
نَزَعْتُ نَفْسِي مِنْ ضَجِيج الحَيَاهْ ... وَطِرْتُ كالنَّسْرِ لأِعْلَى القِمَمْ
الْغَيْبُ حَوْلي سَابِحٌ في أَسَاهْ ... والصَّمْتُ مَشْبُوبُ الْهَوى مُضْطَرِمْ
وَإِذْ عَلَى سَفْحِ اللَّيَالي (فَتَاهْ) ... مَذعُورَةُ الرُّوحِ كَشَجْوِ الحُلُمْ
سَأَلْتُهَا: عُمْرِي طِوَاهُ الْجُنُونْ ... فَهَلْ بِكَفَّيْكِ لِجُرْحِي شِفاءْ؟
قالتْ: رَبِيعِي أَرْهَقَتْهُ السِّنُونْ ... وَمَا بِكَفِّي غَيْرُ هَذا الشِّتَاءْ!!

7 - أومن بالإنسان!

للأستاذ عبد المنعم خلاف

(أكره أن أضايق القراء ببحث مطول في مجلة، ولكن رغبة الأستاذ الكبير الزيات، وفيض الخاطر في هذا الموضوع الخطير، حببا إلي أن أعود إليه)

إنسان غير مفهوم - أوربا المعمرة المدمرة - نكسة - خديعة ذهبت إلى جهنم! - نغمات وترتيلات جديدة - تناقض بين حياة الأرواح وحياة الأجسام - من الطبيب؟ - قانون طبيعي ينتقم لنفسه

الغربي إنسان غير مفهوم! فقد كفر الأوربيون بالحياة في هذه الحرب بعد أن جنوا بها جنوناً في وقت السلم. وهم لا يذكرون السلم في هذه الحرب كما لم يذكروا الحرب في فترة السلم

لم يتخذوا من قانوني الحياة والموت حداً وسطاً يقيمون عليه حياتهم وما استخلفوا عليه من حياة الآخرين، فيعيشوا على كفتي ميزان معتدلين آخذين حظاً صالحاً يعدل السلام ويعدل الحرب

هم فجروا في فترة السلم: فتشهوا وكفروا وعبدوا الهوى واحتقروا الضعيف وشرهوا للمال وغصبوه من أفواه الآخرين بالحديد والنار، وخانوا أمانة الاستخلاف على الأرض، وتنازعوا على الطعام الكثير كما يتنازع الأطفال!

وهم فجروا في هذه الحرب، فلم يرعوا حرمات الحياة الإنسانية التي قدستها الأجيال: فصبوا العذاب على الأطفال والنساء والمستضعفين والمرضى وسكان المعاهد والمعابد المسالمين، وحرقوا الأقوات والأرزاق والمأوى. . . فحياتهم لا تحتمل ولا تستحق العمل بعد هذه الحرب إذا أصروا على أن يلجئوا لحرب أخرى بهذه الكيفية النكراء التي تدمر ما

. . .عمروا وعمر الناس

من يصدق أن أوربا البانية العالمة المعمرة المخترعة العابدة للحياة، الساعية الجاهدة في سبيل الكشف والمال والاختراع، الباحثة المنقبة عن خبايا الأرض وركازها، الرائدة الكاشفة عن مجاهلها، المبشرة بالمثل العليا بين الأجناس المتخلفة، القاضية على تجارة الرقيق، الحاملة للتجارات والمعلومات، الواصلة بين أقطاب الأرض صلة اللاسلكي والراديو والتلفزيون، المرسلة (المبشرين) لتحرير الناس من الوثنية،

الدارسة للأنواع والأجناس. . . هي هذه المخربة المدمرة الباطشة بطش النمور والأسود، القاسية على النساء والأطفال والضعفاء، المفتنة في رسائل الآلام، الهدامة للدور، المحيلة عمار المدن إلى خراب القبور؟!
الأجسام العاجية الجميلة تذوب وتصهر وتسحق عظامها وجماجمها تحت أثقال الحديد والجلاميد. . .!
الوجوه المشرقة البيضاء ذات العيون الزرقاء والشعور الذهبية ذهبت قرابين تأكلها النار باختيارها
مسكينة! طافت في جميع بقاع الأرض تجمع الذهب الأصفر والذهب الأسود والحديد، ثم أوقدت على الجميع في النار واحترقت معه!
جمعت في أنانية وجشع واعتزاز واعتزام. . . لا لتملأ البطون الفارغة، وتكسو الأجسام العارية، وتعين أبناء الحياة على نوائب الحياة، ولكن لتملأ أفواه المدافع وبطون المقابر. . .!
خلاصة الإنسانية العاملة المجاهدة المتاجرة المخربة العالمة. تحترق الآن على مشهد من الزنوج والإسكيمو!
الحياة تتحطم بأيدي بنائها ومقيمي صروحها العالية وجامعي مواد بنائها من لحومهم وعظامهم ودمائهم وذهبهم وحديدُهم ونور عيونهم في المعامل والمعاهد!
الغادة اللعوب الفاتنة ذات المساحيق والأصباغ والعطور والأزهار واللؤلؤ والديباج (والمونوكير) تتكشف عن العجوز الشوهاء الدرداء المريضة الرسحاء العجفاء ساكنة الكهوف والمغارات، الضاربة على الدف لشن الغارات!
الأم العاقلة العالمة تصيبها جنة وجهالة فتأكل بناتها وبنيها!
لندن وبرلين عليهما الخراب والدمار صباً فيباد ما فيهما من مراكز نمو الحياة وعلب أسرارها (وقماقم) أجنتها وولائدها. . .!
والإنسانية الجاهلة الغافلة المقيمة بالأكواخ في القارة السوداء وأواسط التبت ترى هذه الإنسانية العالمة المدبرة الجميلة تشن الغارة على الحياة بالزلازل والبراكين والصواعق الصناعية. . . فتحمد الله على الحياة في الغابات مع الأسود والقرود التي لا تلتقم منها إلا أفراداً!
الحياة تصاب بنكسة حادة يا أطباء الحياة. . . فهل من دواء لها فيما صنعتم من العقاقير والأقرباذين؟!
كنا أوشكنا أن نعبد الدنيا ممثلة في لندن وباريس وبرلين، وننسى نهاية رحلتنا في هذه الدنيا غرباء عابري سبيل، لا تملك المكث ولا البقاء، ونخضع لقوانين الزوال والفناء، ويدور الفلك بنا دورات حتمية تشب الطفل وتشيب الصغير وتفني الكبير وتلقي بنا إلى العالم المجهول. . .
وكنا أوشكنا أن نظن تلك الأجسام الأوربية القوية الجميلة الرقيقة الرشيقة الذكية هي الإنسان المقصود بالحياة. وأما من عداها (فحيوانات بشرية) - كما تعبر الهتلرية - ومخلوقات تكميلية خادمة لها تعيش على هامشها وتسير في خدمتها، وقبح اعتقادنا في أنفسنا تبعاً لذلك حتى تركنا لها الأرض طوعاً وكرهاً وخلينا لها مكاننا من الدنيا. . .
وكنا اعتقدنا أن عناوين النظم الأوربية ثابتة لا تتزلزل، ونظمها البارعة عزيزة على أصحابها، وأن الإنسان الأوربي مقدس لدى نفسه وأممه، فلا تحطيم لدنياه ولا نسف لنظم حياته ولا تمثيل به ولا سحق ولا نثر لأشلائه. . .
وكنا أوشكنا أن نرى العالم المادي الدقيق الذي صار التنويع فيه والتشكيل والتلوين والدقة والتركيب كأنه دنيا أخرى من مخلوقات الحديد والصلب والخشب وسائر المواد الجامدة منفصلة عن روح الحياة في الإنسان فأخذنا نعيش بها عيشة آلية صخابة بدون وعي ووداعة وإحساس من الروح ويقظة للمصير المحتوم!
ولكن هذه الحرب أخلفت تلك الظنون الخاطئة، وصححت أفهامنا الفاسدة، وكشفت عن
أبصارنا غطاء التمويه وسحر التخييل، فإذا بنا نعود وإذا بالأوربيين أنفسهم يعودون معنا إلى المعاني الأزلية الخالدة التي بزغت من قلوب أنبيائنا واستنزلوها من السماء بالإخلاص والبكاء لرب الحياة الذي وضع الإنسان فيها موضعه بين الأهوال والألغاز والأسرار. . .

وإذا المثل العليا تعود ذكراها إلى الألسنة والأقلام يرددها الساسة وسماسرة المال!
ويخطبون فيها خطابة الأنبياء والمرسلين بين عباد الأوثان بالبيان الساحر والحجج الأخاذة، والإذاعة العريضة الواسعة
وإذا الترتيلات بالحق والسلام والعدالة تنبعث من جميع بقاع الأرض وتنطلق بها حناجر الناس جميعاً، وتزيد كل أمة في طنبورها نغمة
وإذا بالنظم الأوربية الظالمة الجائرة المتحجرة تذوب وتنماع تحت حرارة أنفاس الدعاة إلى السلام والحق والعدالة، وتحت نيران هذه الحرب التي انتقمت شر نقمة من طغيان السياسة والرأسمالية والدعوات الهدامة
وإذا بالروح الإنسانية الوديعة الرحيمة المؤمنة بالله وبالإنسانية تعود في جو مخضب بالدماء، مندي بالدموع، مطرز بالآلام، إلى القلوب المهجورة القاسية الكافرة، كما يعود طير شارد تائه إلى عشه المهجور، ومكان حنينه وأشواقه، فيراه خرباً منثور الأعواد، عبثت به الرياح، وعششت فيه العناكب. . . فما يزال يضم عوداً إلى عود، وورقة إلى ورقة، ويرفرف عليه بجناحيه حتى يطرد عنه أنفاس السوء وأوساخ الحشرات، ثم يعمره بالرحمة والحب والحنين. . .
لقد بنى الغربيون حياتهم على مناعة الأجسام وحدها من أمراضها، ولم يبحثوا عن وسائل مناعة الأرواح من آفاتها. فأخذوا الحياة من جانبها الضعيف وتركوا الجانب الآخر، وقوانين الطبيعة لا ترحم من يخالفها ولا تحابيه، بل تدافع عن وجودها وتهدم من يحاول هدمها
فمن يدع ثغرة في بناء الحياة من غير سدها أوشك أن يدخل منها إلى البناء ما يأتي عليه من القواعد، ويجعله خاوياً على عروشه
وكان جديراً بالإنسان الأوربي الذي يعرف حجم الميكروب الصغير وخطورة آثاره، فيحترس منه ويقيم الأرصاد والجواسيس خشية اقتحامه عليه ثغرة من ثغرات جسمه. . .
أن يعرف أن للحياة الروحية جراثيمها الفتاكة فيجاهد لكفاحها وقتلها كما يفعل بأخواتها جراثيم الأجسام، حتى تسلم جميع قواعد بناء الحياة من أسباب الانهيار
ولكنه لم يعرف بعد الجراثيم الروحية، ولا يزال روحه يعيش في عصر التطبيب بالخرافات، كما كان يعيش في عصر الخرافات في طب الأجسام. . .
ولا يزال يسخر بأطباء الأرواح وعلاجاتهم كما كان يسخر بأطباء الأجسام حين يفاجئونه بكشف جديد لمرض قديم
فإلى أن يؤمن بما يصنع له طب الأرواح ويعمل به سيظل شقياً بتلك الأمراض التي هي اشد فتكا من الطاعون والسل والجدري وغيرها من الأمراض التي تهدم الإنسان وحده، ولا تهدم معه تاريخه ومبادئه ومبانيه وأمواله. . . فمن أعراض أمراض الروح تلك القنابل والصواعق والحرائق التي تترك المدن التي صبت فيها جداول المدنية والعلوم والتقت فيها الحضارات وثمار الجهود المشتركة خراباً ودماراً كأن لم تغن بالأمس
ولكن ينبغي له قبل ذلك أن يخرج من بين أطباء الأرواح أولئك الدجالين المشعوذين والأغبياء المحدودين الذين قد يقتلون النفوس بالعلاج الخاطئ، أو يغلقونها دون رحمة الله أو يصيبونها بعاهات، أو يعالجونها بالخرافات والشعوذة وأسباب الضلال، كما فعل بأشياعهم الذين كانوا يندسون بين أطباء الأجسام من قبل. . . حتى يستقيم علاجه على أيدي الأخصائيين الذين خلقهم الله لقيادة النفوس بالسلوك والمعاملة والبيان الواضح والفكر المضيء المنير. . .
أولئك الأوصياء لا يلزم أن تكون منهم في الأمم كثرة. بل ينبغي أن يكونوا قلة؛ حتى لا تصيبهم مصائب الزحام على الأرزاق والوظائف. . .
ويجب إلا يرتفعوا إلى المناصب بالوساطات والشفاعات و (الشهادات) بل بأنفسهم وما فيهم من خلق الوصاية الرشيدة والسياسة الحكيمة، والقدرة على إدراك الداء في كل نفس، ووصف العلاج
وينبغي أن يدقق في اختيارهم غاية التدقيق. وينبغي أن تكون وسائل العلاج هي ما صلح من مواريث القديم، وأصلح الآراء في علم النفس الحديث. . . أي ينبغي أن يكون

علم النفس هو أساس التربية الروحية والدعوة إليها كما صار علم وظائف الأعضاء وعلم
الأغذية أساس الطب الجسدي الحديث
وعلم النفس أوشك أن يكون من الدقة والصحة بحيث يستطيع أن يضع الإنسان في المخابير والمسابير ويقيس كل ما فيه بأرقام لا تخطئ!
إن قوانين الروح قد غضبت وانتقمت لنفسها شر نقمة من الإنسان الذي لم يقم لها بعد وزناً. وأنه لجهل وصفه إلا يفطن الإنسان الأوربي بعد إلى أن يحمي نفسه من غضبها ونقمتها كما يحتمي من غضب قوانين صحة الأجسام
أنه يحشى أن يمد يده في النار لئلا تحرق، أو يلقي نفسه في الماء لئلا يغرق، أو يقف في طريق قاطرة لئلا يسحق. . . ولكنه يرضى لنفسه أن يبخل فيسرق، وإن يطمع فيكره، وإن يستبد فيحارب؛ وإن يخل موازين العدل فتفسد حياته بفساد حياة الآخرين، وإن يترك الناس إخوانه جاهلين مرضى الأجسام والنفوس فيحرضوه ويشقوا حياته بشقائهم. . .
كلمة يجب أن تعلم وتكرر دائماً أمام الدولة وأمام الفرد وهي:
إن الدولة كائن عضوي واحد كالجسم الواحد ذي الروح الواحد. . . فإذا سمحت لشيء منه ولو كان ظفراً أو منبت شعرة أو خطرة نفس أن يدخله الفساد، فسيلحق الجسم كله - وأنت خلية فيه - آثار ذلك الفساد وآلامه
فأحذر أن يمرض أخوك أو خادمك حتى لا تنتقل عدواه إليك. . . واشترك في إطفاء الحريق في بيت جارك قبل أن تمتد النار إلى دارك!
عبد المنعم خلاف
الكتب
وحي المطبعة
كتب جديدة
للأستاذ سيد قطب
- دائرة المعارف الإسلامية - علم اللغة - ضحكات إبليس
أسبوعان مع علي ماهر في السودان
لست أدري لم يغمرني شعور بالنشوة كلما أخرجت المطبعة العربية كتاباً جديداً، وبخاصة في هذه الأيام التي يرتفع فيها ثمن الورق وتكاليف الطباعة بينما تنصرف الأذهان عن الكتب وعن الدراسة إلى الأخبار اليومية والى ضجيج الحرب وويلاتها
بل أنا أدري سبب هذه النشوة وهو الشعور بأن الأمة العربية حية نامية لأنها تقرأ، والقراءة هي الدليل الذي لا يخطئ على الحيوية والتطلع إلى آفاق جديدة ومستقبل خير من الحاضر. فإذا كانت لا تزال تقرأ، أي لا تزال تحيا وتتطلع في هذا الجو الخانق الذي يشغل الذهن والقلب عن كل شيء، والذي يبث اليأس والقنوط من الإنسانية ومن المعرفة والثقافة جميعاً، فهذا دليل لا ينقض على أن في هذه الأمة ذخيرة وإن فيها أملاً
وسبب آخر وهو شعوري ببطولة المؤلفين الذين يؤلفون ويطبعون وينشرون فيضطلعون بمهمات ثلاث لا يضطلع أمثالهم في أوربا وأمريكا إلا بواحدة منها مع عظم الفرق بين البيئة والظروف التي تحيط بهؤلاء وهؤلاء
ولعل هذه البطولة تتجلى حين نعلم أن عدد الناطقين باللغة العربية في جميع أنحاء العالم يبلغون حوالي الأربعين مليوناً، نسبة المتعلمين فيهم لا تزيد على خمسة في المائة (2. 000. 000)، ونسبة المثقفين في هؤلاء المتعلمين لا تزيد على عشرين في المائة (400. 000) ونسبة القارئين في هؤلاء المثقفين لا تزيد على 25 في المائة (100. 000) مقسمين بحسب ميولهم وثقافتهم على أنواع التأليف المختلفة، فأقصى ما يطمع فيه مؤلف أن يقرأ كتابه عشرة آلاف في جميع أقطار العالم، وهو رقم نظري يهبط عند التطبيق العملي إلى النصف
بينما عدد الناطقين باللغة الإنكليزية مثلاً يبلغ نحو مائة وثمانين مليوناً نسبة المتعلمين منهم تبلغ نحو 80 في المائة، ونسبة المثقفين في هؤلاء المتعلمين لا تنقص عن 50 في المائة، ونسبة القارئين من هؤلاء المثقفين لا تنقص عن 50 في المائة. فعدد من يطمع المؤلفون في قراءتهم للكتب لا يقل عن 36 مليوناً من القراء موزعين بطبيعة

الحال على حسب مذاهب التأليف ورغبة كل فريق في نوع معين منه بحيث يخص كل مؤلف نحو مليون قد يهبط عند التطبيق العملي إلى نصف مليون
وهذه الموازنة تبين مقدار بطولة المؤلفين بلغة العرب وضآلة الجزاء الذي ينتظرونه على مجهودهم بالقياس إلى زملائهم الإنجليز أو الفرنسيين. ومع هذا فالمشهورون منهم محسودون
جالت في نفسي هذه الخواطر وأنا أتلقى المؤلفات الأربعة التي وردت في عنوان هذا المقال، فرددت قول القائل: (فليسعد النطق إن لم تسعد الحال!)
دائرة المعارف الإسلامية:
منذ سنوات خلت ران اليأس على كثير من نفوس الشبان المتخرجين في الجامعة وسواها، لأن أبواب العمل قد سدت في وجوههم، وارتفعت الأصوات بالشكوى، لأن المثقفين لا يجدون ما ينفقون فيه ثقافتهم ونشاطهم
وفي ظلام ذلك اليأس وضجة هذه الشكوى كان جماعة من لشبان يأوون إلى حجرة مفردة في عمارة كبيرة وضعت عليها (لافتة صغيرة) باسم (لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية)، ومن حولهم غرف كثيرة لأعمال كثيرة ليس بينها وبينهم صلة في سمت ولا اتجاه!
وفي هذه الحجرة المنعزلة لم يأذنوا لظلام اليأس الذي يغشى حياة الشبان، ولا لضجة الشكوى التي يتعزون بها في هذا الظلام، أن يطرقا بابهم، ولا أن يعكرا عليهم لذة العمل الذي اتجهوا إليه في عزيمة وصبر وسكون
عرفت في ذلك الحين بعض أعضاء اللجنة، وشاهدت خطواتهم الأولى في عملهم المرتقب؛ ثم مرت السنون وانقضت الأيام، وتعاقبت أحوال وظروف على هؤلاء الشبان وعلى مصر والعالم، ولكنهم لم يقفوا يوماً ما عن عملهم المختار؛ وإذا بي أجد لدي في هذا العام المجلد
الرابع من مجهودهم الضخم وعددين من المجلد الخامس، وإذا مصر والعالم الغربي كله ينتفع بمجهود هذه الجماعة الصغيرة العاملة في صمت العلماء وتواضعهم، وإذا المسلمون يعرفون من (دائرة المعارف الإسلامية) أكثر مما عرفوه من الكتب الإسلامية العربية، لأن الدائرة تركز ما حوته تلك الكتب وتشير إلى مراجعه، ثم تناقشه وتدلي بالآراء المختلفة فيه، وتزيد عليه ما كتبه كثير من المستشرقين عن الشؤون الإسلامية، وتعليقات من كبار المسلمين الأحياء على كتابة المستشرقين؛ وإذا الدائرة بعد هذا كله مرجع ثمين من مراجع الإسلام وبلاد الإسلام، ودليل مرشد إلى المراجع الكثيرة في مؤلفات المسلمين وغير المسلمين
ولست أدري كم قارئاً عربياً أقبل حتى اليوم على قراءة (دائرة المعارف الإسلامية)، ولكنني أدري أن كل مثقف عربي في حاجة لأن يقرأها ليجد فيها كثيراً جداً مما لا يعثر عليه إلا متفرقاً في مؤلفات عربية ضخمة، ومما لا يعثر عليه في الكتب العربية على الإطلاق، وليس هذا بالمغنم اليسير
علم اللغة
الدكتور علي عبد الواحد وافي مؤلف هذا الكتاب شاب تخرج في (دار العلوم)، ثم درس في فرنسا حتى حصل على الليسانس والدكتوراه في الآداب من جامعة باريس، والآن هو أستاذ بكلية الآداب
وليس هذا كل ما يذكر للمؤلف، فكثيرون تخرجوا في (دار العلوم)، وكثيرون درسوا في أوربا، ولكن قليلين هم الذين انتفعوا بدراستهم وثقافتهم كما انتفع الدكتور علي عبد الواحد وكتاب (علم اللغة) مثل لهذا الانتفاع الناضج المكين
قرأت هذا الكتاب، فإذا هو الأول من نوعه في اللغة العربية، وإذا الجهد العلمي والدراسة والاطلاع على الكتب العربية والإفرنجية في موضوعه واضحة أشد الوضوح، وإذا الرغبة في الكمال متجلية فيه كل التجلي، فلم يكن هناك جهد يجب بذله في الإتقان لم يبذله المؤلف بوفرة وسخاء
والكتاب مقسم إلى ثمانية فصول بعد المقدمة والتمهيد هي: نشأة اللغة الإنسانية وتطورها، لغة الطفل ومراحلها ومبلغ تمثيلها لنشأة اللغة الإنسانية وتطورها، فصائل اللغات وخواص

كل فصيلة منها وما بينها من صلات، صراع اللغات، تفرع اللغة الواحدة إلى لهجات ولغات، تطور اللغة وارتقاؤها، أصوات اللغة، حياتها وتطورها، الدلالة وتطورها وبعض هذه الفصول نشر في (الرسالة)، ولعل الذين اطلعوا على ما نشر ثار في نفوسهم ما ثار في نفسي من الشوق لأن يقرءوا المؤلف كاملاً متسلسلاً متناسقاً.
فلقد كان كثير من الأفكار عن اللغة متقطعاً مشوشاً، حتى جاء هذا البحث فنظمه ورتبه وكساه الثوب العلمي، وصور اللغة كائناً حيا حياة حقيقية واضحة الملامح، تخضع لقوانين ثابتة، لا للمصادفات والأهواء.
وفي هذا الكتاب درست خصائص اللغة التي تدل عليها عنوانات الفصول، ودرست خصائص المؤلف في آن واحد!
فالوضوح والدقة والعناية بالشواهد والأمثلة ودراسة كل ما يتعلق بالموضوع وغربلته ومناقشة الآراء المختلفة والاستقلال في الرأي بعد هذه المناقشة، واستخدام كل شوارد المعلومات المتعلقة بالفكرة. . . كل هذه الخصائص تلمحها في الكتاب وتلمحها في صاحبه على السواء.
وقد طالعت بلذة وشغف الأمثلة التي أوردها المؤلف من دراسته لتطور اللغة عند (ابنته عفاف) وأعجبت بانتباهه وصبره على ملاحظتها فتلك بعض سمات العلماء، وأخشى أن يكون تطور اللغة عند هذه الطفلة متأثراً بمصاحبتها لأبيها أكثر من مصاحبتها لأمها، وإن يكون في هذا التطور شيء من البعد عن الطريق المألوف للأطفال الذين يتأثرون بأمهاتهم أكثر من آبائهم؛ فإن طريقة المرأة في الحديث وقاموسها اللفظي ونوع معاملتها وتدريبها لطفلها غير طريقة الرجل في هذا جميعه.
وشيء وددت لو خلا منه الكتاب، فقد عني الدكتور بإثبات المصطلحات الإفرنجية مرة بالحروف اللاتينية ومرة بالحروف العربية مع ذكر ترجمتها. وتلك دقة مشكورة، ولكنها تشوش ذهن القارئ العربي الذي لا يعرف لغة أجنبية، والذي يعرف على السواء. وكان يكفي كتابة المصطلحات بالحروف اللاتينية مع إثبات ترجمتها العربية فالقارئ العربي الذي يعرف لغة أجنبية لا يحتاج لكتابة الاصطلاح الإفرنجي بحروف عربية ولا ينتفع به والذي لا يعرف لغة لا تجديه صورة الاصطلاح بالحروف العربية شيئاً وحسبه ترجمة وذلك مأخذ شكلي صغير. أما الكتاب كله فتحفة للمكتبة العربية جدير بأن يفتح للنقد اللغوي والأدبي مجالاً جديداً في مطالعات القراء.

ضحكات إبليس

هي قصص قصيرة كل منها ضحكة خفية أو غمزة متوارية تبدو فيها (العفرتة) التي تهيئ للعنوان العام!
وقد أصدر مؤلف هذه المجموعة الأستاذ صلاح الدين ذهني مجموعة قبلها باسم (رئيس التحرير) وقصة طويلة اسمها الدرجة الثامنة، وهذه هي محاولته الثالثة تضم هذه المجموعة أربع عشرة قصة قصيرة؛ والقصة القصيرة أصعب وأدق من القصة الطويلة التي تتسع للترسل والعرض والتحليل، كما أن القصة أصعب على العموم من الرواية، لأنها تستغني عن الوقائع الروائية، فلابد أن تستعيض عنها بعناصر أساسية في صلبها تعوض هذا النقص، وتلذ للقارئ لذاذة العنصر الروائي الجذاب ومؤلف هذه المجموعة قد خطا خطوات تستحق الالتفات في مجموعته الجديدة، ففيها خمس قصص على الأقل تعد ناضجة كاملة وهي نسبة كبيرة جداً في فن ناشئ في اللغة العربية لم يتعد حتى اليوم حدود المحاولات، وهذه القصص هي: مانكان، وقريتنا النموذجية، وكلاب وناس، والعفريت، والتوبة
والقصص الثلاث الأولى اجتماعية تلمس ثلاث جوانب في حياتنا الاجتماعية المصرية تصور أولاها (كاريكتيرا) صادقاً لكثيرين من المشتغلين بالمسائل السياسية، الذين لا تتعدى وسائل نجاحهم في هذه المسائل أن يكون كل منهم (مانكان) دمية لا رأي لها ولا عقيدة إلا شرح آراء الآخرين ومناصرتها والتقلب على أشكالها، وتصور الثانية (كاريكتيرا) حقيقياً لتفكيرنا في إصلاح الريف ذلك التفكير الذي يجنح للترف والرفاهية والظواهر ويغفل المشاكل الحقيقية ولا يحاول الاتصال بعقلية الريف الصميمة. وتصور الثالثة (كاريكتيرا) مؤلماً لتفاوت الحياة بين قوم وقوم في مصر، حيث يموت الناس في سبيل الكلاب المدللة المحبوبة عند الأسياد المترفين!

والقصتان الأخيرتان إنسانيتان ملونتان باللون المصري، اختار لأولاهما شخصية (وكيل المحامي) في الحي البلدي، فأبدع في تصويرهما معاً إبداعاً ذكرني بالقصص الروسي البسيط العميق. واختار للثانية شخصية (الزوج المقامر)، الهاجر للبيت والزوجة حين يستيقظ ضميره؛ وقد استوحى فيها قصة (مفلسة نيم) للكاتب الفرنسي (أندريه ديماس)، وبالفعل جاء أفقها أوسع من آفاق القصص الأخرى.

وفي القصص الباقية محاولات تنبئ عن تبلور وشيك، وتركز مرقوب

أسبوعان مع علي ماهر في السودان

مؤلف هذا الكتاب الأستاذ (محمد حسنين مخلوف) شاب اشتغل بالصحافة حيناً من الزمن فانطبع تفكيره بالطابع الصحفي. وفي كتابه يبدو هذا الطابع واضحاً: العناية بالأخبار والدراسة السريعة المختصرة المفيدة للحوادث والمظاهر، والسرد الممتع الجذاب. . .

وتبدو في هذا الكتاب (روح الدعاية)، ولكن هذا لا يؤثر في شخصية الكتاب، ولا يحجب ما فيه من لذة موضوعية وفائدة محققة، فلست أنكر أن السودان كان قبل قراءتي لهذا الكتاب شيئاً غامضاً مجرداً من التعاطف الحي بينه وبين نفسي. كان فكرة سياسية في خاطري كل ما يجمعني به هو أنه شطر وادي النيل الذي يحتم علي الإخلاص الوطني والكبرياء القومي أن أستمسك به، وأدعو للاستمساك به. . .

ولكن السودان قد استحال في نفسي بعد قراءة هذا الكتاب كائناً حياً يعاطفني وأعاطفه، وقد شعرت بحقيقة الأواصر الدموية والعاطفية والعقلية والاقتصادية والسياسية التي تربط شطري الوادي، وتعيد وقائع التاريخ الجامدة قصة حياة نابضة وكل مصري في حاجة إلى الاطلاع على هذا الكتاب؛ وإن وزارة المعارف لتحسن صنعاً لو جعلته في متناول أيدي مدرسيها وطلابها، إذا شاءت أن يحس الجميع إحساساً حياً قوياً بحقيقة العلاقة بين مصر والسودان، وشاءت أن تمد القومية المصرية بجرعات منبهة، وإن تحيل مصر والسودان فكرة واضحة في هن الناشئة. وهذا ما يجب أن يكون.

(حلوان)

سيد قطب

البريد الأدبي

مساجلات

1 - عرفتُ من كلمة الأستاذ (ا. ع) كيف كان وجه الخلاف بيني وبين حضرة صاحب العزة العوامري بك يوم تعقبته في جريدة (البلاغ) بمناسبة الكلمة التي نشرها في مجلة المجمع اللغوي عن (التجديف) وكنت ظننت أن تعقيبي كان يرمي إلى إقرار كلمة (التقذيف) لأن ورودها في مؤلفات الشعراني بهذا الضبط يشهد بأن المصريين لا يقولون (تجديف) إلا كما يقولون جال في مكان قال، وأهل اليمن ينطقون القاف جاف، وعلى سنتهم يسير بعض أهل الصعيد وبعض أهل الشرقية

وأختصر الطريق فأقول: يرى العوامري بك أن التجديف والتجذيف والتقذيف كلها خطأ، والصواب: الجدف والجذف والقذف.

فهل أرجو من الأستاذ (ا. ع) أن يحكم بيني وبين العوامري بك؟

إليه أقدم البرهان فأقول:

الجدف أو الجذف أو القذف لا يصور الحركة التي يثيرها المجداف أو المجذاف أو المقذاف. والعرب لا يضعفون الفعل إلا وفقاً لغريزة لغوية تجعل الفعل المضعف أصرح دلالة في تعيين المعنى المراد، ومصدر المجرد لا يؤدي الصورة التي يؤديها مصدر المضعف، فقطع الحبل غير تقطيع الحبل، والمقذاف لا يَقِذف وإنما يُقذِّف، كما تشهد عملية التقذيف

أما القول بأن كلام الشعراني لا يغني في الاستشهاد فمردود بأني لم أقصد الاستشهاد وإنما قصدت الاستئناس، والشعراني يحكي كلاماً صحيحاً لا غبار عليه، إلا في نظر المتكلفين، وحوشي العوامري بك من التكلف، فهو من أعضاء المجمع اللغوي، وهم رجال يبيحون الاستئناس بكلام العوام في مختلف اللهجات!

وسكت الأستاذ (ا. ع) عما قلت به من استيطان الألفاظ، والاستيطان هو الاستوطان، ولعنة الله على الإعلال فهو إعلال!

فهل يكون سكوته دليل القبول؟
2 - لما جمع الأستاذ السباعي بيومي فخوراً على فخورين تعقبه (ناقد جليل) بكلام يأخذ
قوته من السماع والقياس، فما رأي الناقد الجليل إذا رجوته أن يتسامح في جمع فخور على فخورين وجمع غيور على غيورين؟ وما رأيه إذا صارحته بأن التصحيح في أمثال هاتين الكلمتين أقوى في الإبانة من التكسير؟ وهل تكون كلمة غُير في مثل قوة كلمة غيورين؟ في التكسير نفسه شواهد تؤيد القول بحرص العرب على زيادة المبنى: فأسد يجمع على أسد يجمع على أُسْد وأسود، فهل تجري أسد على ألسنة الناس بقدر ما تجري أسود؟
يضاف إلى هذا أن البلاغة قد توجب الخروج على القياس في بعض الأحيان، وهل كان القياس في أغلب مناحيه إلا ضرباً من الشذوذ؟ وإلا فبأي حق يكون (فَعِيل) بصورة واحدة في التذكير والتأنيث إذا كان بمعنى مفعول؟ وما الذي يمنع من الاستئناس بقول صاحب اللسان (امرأة دفينة) وقد جرى كلامه على الأصل في التفرقة بين المذكر والمؤنث؟ والقِدْر بدون تاء في كلام الشعراء، وهي قِدرة على ألسنة العوام في مصر، فأي اللفظتين أفصح؟ الأفصح هو قِدرة، لأن التاء تؤكد التأنيث، ولو كره العوامري والنشاشيبي
وخلاصة القول أني أدعو إلى التخفف من أثقال التصريف حين تطغى العلة الصرفية على المعنى اللغوي، ولو كانت مراعاة التصريف نافعة في جميع الأحايين لراعاه العوام وهم أصدق إحساساً بمدلولات الكلمات، لأن محصولهم اللغوي يتكون من ألفاظ تنبض بالحياة في كل وقت، فالعوام يقولون: إوعَ، والصرفيون يقولون: عِ. وهل تكون عِ أفصح من إوعَ إلا في نظر من يستخفون بحكم العقل؟ والعوام يقولون في أغانيهم: إوْفِ بوعدك، والصرفيون يقولون: ف بوعدك. فأي الكلمتين أفصح؟ وخادم يذكر ويؤنث، ولكن عوام مصر لا يقولون إلا خادمة في التأنيث، فمن ينكر أنهم على صواب؟ وأنا أسمي الزوجة زوجة في جميع ما أكتب، ولا أرى رجلاً يقول: (سأستشير زوجي) إلا عرفت أنها عليه من القوامين
3 - يتوهم كثير من الشبان أن لي مكتباً في دار الرسالة وأني أشارك الأستاذ الزيات في فحص ما يرد على الرسالة من أقوال الكتاب والشعراء، ومن أجل هذا يوجهون إلي العتب عما يتأخر نشره من آثارهم الجياد!
وكنت أرجو أن يصح هذا التوهم الجميل، لأشارك الزيات في توجيه الجيل الجديد، ولأنشر كلمة الأستاذ محمد كامل سليم بك، فما هي كلمة هذا الأستاذ الجليل؟
رجاه الأديب الأريب عبد الرحمن أبو العينين أن يوصي الأستاذ الزيات برعاية ما يقدم إلى (الرسالة) من كلمات أو مقالات فرد عليه بهذا الجواب النفيس:
(لست أرى من مصلحة الأدب أن أقحمك بنفوذي في ميدانه، ولا أرى من مصلحتك أنت أن أظهرك بسلطاني بين فرسانه، وإنما أرى من مصلحة الأدب ومصلحتك معاً أن تبرز مستقلاً بأسلوبك وبيانك، وتشغل الناس بأفكارك وبرهانك، وفي ذلك مصلحة ظاهرة للأدب وكرامة واضحة للأديب)
ويخطئ أشنع من يتوهم أن التشجيع ينفع بشيء، فالقوة الذاتية تقتحم الحواجز والحصون حين تستكمل عناصر الجبروت. والأديب الموهوب سيجد مكانه وإن تخلف عن نصرته ساسة الفكر وقادة البيان
4 - لم أجب الأستاذ صلاح الدين المنجد في سؤاله عن أسلوب الأستاذ أحمد امين، وقد أجاب عني أحد الفضلاء في جريدة (صوت السودان) فليرجع إلى ذلك الجواب أن شاء.
5 - لبعض القراء مزاج غليظ، وهو إرسال خطابات مغرمة وبدون إمضاء
وأقول إني سأرفض جميع الخطابات المغرمة ولو صدرت عن (الصدرية) في بغداد، فمن طاب له أن يداعبني بهذا الأسلوب (المقبول) فليعرف أن دِعابه مردود
6 - يظهر أن مقالاتي في مجلة الرسالة تضايق فريقاً من الناس فيتصدون للرد عليها في بعض الجرائد والمجلات. فأرجو من أولئك الغاضبين أن يرسلوا إلي ما يكتبون لأجيبهم إذا اقتضى الحال
7 - تصل إلي من وقت إلى وقت بعض الكتب عن طريق الإهداء، وأنا أرجو في باله

من المؤلفين أن يرسل ما يرسل بثمن محول على البريد، لأستطيع القول باني أشارك مشاركة جدية في إنهاض التأليف، ودفع ثمن الكتاب لا يمنعني من الإعلان عنه في مجلة الرسالة بالمجان حين أراه جديراً بالثناء

وبهذه المناسبة أذكر أني تلقيت مؤلفات في غاية من الجودة، منها (حكايات من الهند) وقد ترجمها الوطني الصادق عبده حسن الزيات أحد نوابغ المحاماة والاقتصاد، ومنها (مصر القديمة) للمؤرخ الكبير الدكتور سليم حسن بك، و (علم اللغة) للباحث المحقق الدكتور علي عبد الواحد وافي، و (تاريخ الدروز) الذي ترجمه الكاتب المبدع أحمد تقي الدين، و

للشاعر محمود أبو الوفا، و (الأغاريد) للشاعر محمد فهمي، و (المكتوب (الأشواق) على الجبين) للرجل الكامل محمود تيمور، وسأتحدث عن هذه المؤلفات بعد قليل أما دائرة المعارف الإسلامية - وقد ظهر منها المجلد الرابع - فلا تحتاج إلى تنويه، لأنها أظهر عمل قام به المتخرجون في كليات الجامعة المصرية، ولأن الأستاذ العقاد لم يترك في الثناء على مترجميها مزيداً لمستزيد

زكي مبارك

في اللغة

قرأت في العدد 405 من الرسالة الغراء قصيدة بليغة عنوانها (ميلاد نبي)، للشاعر الكبير الأستاذ محمد عبد الغني حسن. فعنت لي ملحوظتان لغويتان أود أن اعرضهما على الأستاذ وهما:

1 - قال في وصف الجاهلية:

متفرقين هناك. . . لم يتفيئوا ... لخميلة. . . أو يمسكوا ببناء

فعدى الأستاذ (يتفيئوا) باللام وهذا ما لا أعرفه

قال الجوهري: (وفيّأتِ الشجرة تفيئة، وتفيَّأت أنا فيها). وفي الأساس: (وتفيَّأتُ بالشجرة). وفي التاج: (وعداه أبو تمام بنفسه في قوله: فتفيأت ظله ممدوداً) فهل اطلع الأستاذ على نص يتعدى فيه (تفيأ) باللام؟

2 - وقال:

ميلاد (أحمد) كان مولد أمة ... عربية وشريعة سَمْحاء

والذي أعرفه أن يقال: (سمحة) لا (سمحاء)، فإن من معاني السماحة السهولة واليسر. فيقال: (عود سمح: بين السماحة مستولا أبن فيه) كما في الأساس وفي التاج: (وقولهم الحنيفية السمحة: هي الملة التي ما فيها ضيق ولا شدة) هذا مبلغ اطلاعي. والله اعلم

(ا. ع)

حول الدين والفلسفة

قرأت كلمة الزميل الفاضل الأستاذ الدكتور محمد البهي بعدد الرسالة رقم 406، وفيه أراد كما يقول أن يضع أمام القارئ مادة للإجابة عما إذا كان من مصلحة الدين (أن يُفلسف بأن تشرح حقائقه بآراء الفلاسفة؟) وهذا موضوع للرأي فيه مجال كبير ليس من همي الآن الأخذ بنصيب فيه، ولكن وقفني عند قراءته ما ذهب إليه السيد الأستاذ من أن العقل الإسلامي جعل شعاره وهو يعالج ما أثارته الفلسفة الإغريقية من مسائل أنه (إذ انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال) لأن الحكمة ليست إلا مولدة الديانة وإن هذه ليست إلا متممة لتلك كما جاء في مقابسات التوحيدي، رأيت في هذا الرأي وما تقدم به حضرة الأخ الكاتب لتأييده من سند ما يستوجب هذا التعليق القصير

1 - القارئ لهذين النقلين قد يظن انهما جميعاً لأبي حيان التوحيدي نفسه، والواقع غير هذا؛ فالأول الخاص بانتظام الفلسفة اليونانية والشريعة ساقه التوحيدي في أثناء عرضه لرأي أخوان الصفاء، وطريقتهم في الفلسفة، والثاني الخاص بأن الحكمة مولدة الديانة الخ من كلام أبي سليمان السجستاني محمد بن بهرام شيخ أبي حيان، وليس من كلام التوحيدي نفسه، وكل هذا يظهر بالرجوع لصفحة 46 وصفحتي 199، 200 من المقايسات

2 - من الحق أن فلاسفة الإسلام عنوا فيما عنوا به بفلسفة الدين والتوفيق بينه وبين الفلسفة لعوامل عدة، منها أن الحكمة - كما يقول ابن رشد في فصل المقال - هي

صاحية الشريعة والأخت الرضيعة، وهم في هذا مسبوقون بمحاولات اليهود والمسيحيين في هذه السبيل. ولكن لا أرى من الحق أن هذا كان شعار مفكري الإسلام جميعاً. هناك كثيرون من مفكري الإسلام لم يكونوا يرون هذا الرأي، ولم يكونوا يذهبون إلى فلسفة الدين بشرح حقائقه بالفلسفة، وأعني بهم المفكرين غير الفلاسفة من متكلمين وغير متكلمين. ولعل من أقوى الأدلة لهذا ما ساقه التوحيدي ذاته في أثناء كلامه عن إخوان الصفاء من أن شيخه أبا سليمان السجستاني صرح في كلام له كثير بعد أن قرأ جملة من رسائل إخوان الصفاء ووقف على قصدهم، ومنه التوفيق بين الدين والفلسفة، من أنهم (تعبوا وما أغنوا، ونصبوا وما أجدوا، وحاموا وما وردوا. . . لأنه أين الآن الدين من الفلسفة؟ وأين الشيء المأخوذ من الوحي النازل من الشيء المأخوذ بالرأي الزائل)؟

بعد هذا أظن أن الأمر أوضح من أن نطيل فيه الكلام ويكفي هذه الكلمة التي لم اقصد بها

إلا بيان الحق، ولعلي أصبت، وبالله التوفيق.

محمد يوسف موسى

المدرس بكلية أصول الدين

إلى الأستاذ عبد المنعم خلاف

سيدي الأستاذ الزيات

اسمح لي بنشر هذه الكلمات التي تخطر لي اثر قراءة مقالات الأستاذ خلاف:

إن هذا هو الطراز من الكتاب الذي كنا نتشوق إليه في العربية:

منطق قويم، وفطرة سليمة، وحرارة وحماسة وإخلاص، وإدراك للمدنية الغربية، وعدم تعصب عليها لمجرد التعصب، وفهم لمحاسنها، وإدراك لروح الإسلام والدين، وعدم تعصب له لمجرد التعصب، وفهم لمحاسنه، وإدراك للمثل العليا الأخلاقية الصحيحة، وأفكار سديدة بارعة، وبيان رائع

هل تدري يا سيدي خلاف أننا نقرأ مقالاتك المرة تلو المرة تلو المرة، ثم لا نكتفي، ونحس بدافع يدفعنا إلى الإعادة. . .

إننا نود لو نتلوها كل يوم، ولكن يعوقنا عن ذلك أنها غير مجموعة كتاب

أن كل ما تكتبه جميل ورائع وحبيب إلى نفوسنا لصيق بها

هذه كلمات صوادق. أنها ليست لك؛ إنما هي للفكرة التي تدعو إليها وتدافع عنها، أنها لنا (المقالات). . . لأنك تخدمنا بها وتفيدنا.

(دمشق)

بشير صادق

القصص

عطر المنصور

للأستاذ رفعت فتح الله

في إحدى قباب بغداد قرأ المنصور ورقة تشكو، ثم قبضها في يده تتلوى، وقد ظل يردد كلماتها، يكاد يتمزع من الغضب، كأنه سحاب راعد: في عينيه برقه، وعلى جبينه قطره، وفوق سمرته غيمه، ولم يكد يخفف عن الورقة قبضته حتى انتفضت، كأنها منخنقة فك خناقها، فبدت آثاره على صفحاتها اثناء، وعلى كتابتها شحوباً!

ألقى المنصور الورقة من يده، بعد أن ألقى ما فيها في نفسه، ولقد ارتعد إذ رأى رعيته تشكو بعض عماله، وكل راع مسؤول عن رعيته، فأين يفر الظالم من شكاية المظلوم؟ وكيف يواجه ظلم العامل حزم الخليفة؟

واخذ يفصل أنواع المظالم، ثم ينثرها في رأسه ليرسل إليها تفكيره، فتواردتها آراؤه كأنها حمام سراع إلى حب منثور، وتزاحمت، وتضاربت، حتى أحس ضرباتها في رأسه، ثم تلاقت الآراء على رأي سن عليه أمره، وعقد عليه قلبه: أن يعزل العامل لظلمه، ويأخذ ماله على عينه، ويترك المال في بيت مفرد، يسمى (بيت مال المظالم) ويكتب عليه اسم صاحبه

ولما استراح إلى رأيه نادى صاحبه ليأمره آمره، ثم قام إلى مجلس أهله ليقضي حق الاهل، فلقى في طريقه صبيا يلعب، فمس فرع أذنه بسبابته؛ فنظر إليه الصبي نظرة الصغر إلى الكبر، فأخذه على ذراعه، وغمز نغانغه، وكلمه مداعباً، ثم قبله على شغف،

وأرسله على مرح قائلاً: إذا كان الحزم مع الكبير مجازاة، فهو مع الصغير مناغاة:
ونظر غير بعيد، فإذا رجل يمشي مشية الأسيان، يرسُّ الحديث في نفسه فتتحرك شفتاه بما لا تسمع أذناه، ويفتح عينيه ولكنه لا ينظر بهما، كأنهما انعكستا على رأسه، فتجسمت فيهما صور ما وراءها من تفكير، ولم تتصور أشباح ما أمامها من منظور، فهجس في نفس المنصور أنه يرى مظلوما أصابه بعض عماله، وارتجع إليه فكرة الأول، فلم يلبث أن أشار إلى الرجل الذاهل إشارة ضاعت في ذهوله، فأومأ إلى عصا ألقيت في طريق الرجل فاعترضته حتى كاد يتعثر، ولكنه اعتدل ولم يلتفت!
صاح حاجب المنصور: أيها الرجل!
فالتفت الرجل التفاته كأنها أفاقة المغشي عليه، ثم برق عينيه وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين
قال المنصور: وعليك السلام يا أسير الشجون! هل تتذكر اسمك؟!
قال الرجل: سعيد. . . سعيد. . . يا أمير المؤمنين!
قال المنصور: أسعيد أنت؟
قال الرجل: ذاك اسمي لا وصفي، والأسماء من اختيار الآباء، والأوصاف من اختيار الأقدار!
قال المنصور: وكيف كنت مع الأقدار؟
فتأوه سعيد، وقال:
- جعلت حياتي تتلون تلون الزمن: من سواد الليل إلى بياض الصبح، ومن حمرة الهجير إلى صفرة الأصيل. . . فلقد كان مشرق شبابي مغرب والدي، وكان ميراثي منه وفراً من الوصايا ونزراً من الدراهم، فما مددت يدي إليها حتى بعثت فيهما نشطة العمل، كأنها رقية التكسب، فتاجرت وأخلصت للتجارة حتى برت بي ودرت، لله درها! فقد صرت أعد أوقاتي بالدنانير حتى خيل إلي أن أشعة الشمس تجمد في يدي ذهباً!
فحدقه المنصور بعينين تطل منهما نفسه المحبة للمال، وقد كان المنصور يجمع في صفاته قوة الحزم ورجاحة الرأي وحب المال وطهارة اليد. فسطع في عينيه من معنى الذهب بريقه، ثم غلب عليهما من معنى الحزم حديده؛ ثم قال: أليس في هذا سعدك يا سعيد؟ فكيف احتضرك الهم؟
قال سعيد:
- لقد كنت أمس قرير العين بهيج القلب، إذ رجعت من سفرة راشدة - في تجارة رابحة - فدفعت إلى امرأتي ما أحضرت من كرائم الأموال، وطفقت اشغل يدي بتصفيفها ولساني بتحسينها، حتى أخذتني نشوة الظفر بما كسبت فأهديت، وأسرعت المرأة القبول. . . آه! يا لها من عجول!! تركتها ضائق النفس، وخرجت إلى الناس أؤدي حقوقاً لزمتني بالإياب، ثم رجعت إلى منزلي مع الليل، فأسر إلي حلماً منعما، تشيع فيه أضواء الذهب، وتنوس عليه
أهداب الديباج، حتى استرد الليل بردته السوداء، وطوى فيها حلمي ألهني، فصحوت أمد يدي. . . قالت المرأة: مالك؟ قلت أين المال؟ قالت: المال أخذ. . . أحسست أن عقلي أخذ معه، وقمت أتفحص عن الجدار فما وجدت نقباً، وطفت أتوسم في الأثاث فما رأيت أثراً، فأي لص هجم على بيت كأنه حصن؟ وكيف تسور أو تدخل؟ تخيل لي أن عقلي قد اختنق، وأن صدري قد اشتعل، فسرت تيهان هائماً كمحترق يفر من نار شبت فيه!!. . . وهكذا رأيت قرة عيني تسيل في دموع كأنها ينبوع!. . . وأحسست بهجة قلبي تطير في خفقان، كأنها غربان!. . .
قال المنصور: لعل المال مأخوذ غير مسروق
فنظر إليه سعيد نظرة سائلة وهو يردد قوله: مأخوذ! مسروق!. . . مأخوذ! مسروق!. .
فأطرق المنصور عنه قليلاً، ثم قال: منذ كم تزوجت امرأتك؟
قال سعيد: منذ سنة
قال المنصور: شابة أم مسنة؟
قال سعيد: شابة
قال المنصور: ألها ولد؟
قال سعيد: لا!

قال المنصور: أبرْزة إلى الرجال، أم مقصورة في الحجال؟
قال سعيد: برزة
قال المنصور: جميلة؟
قال سعيد: أن وجهها كالدينار: أخذت بريقه واستدارته
فهمس المنصور: وتركت لك رنينه وصفرته
ثم قال: يروقك جمالها إذن!
قال سعيد: أنها كالبدر يا أمير المؤمنين
قال المنصور: ذكية؟
قال سعيد: أن ذكاءها هو السماء التي تطلع بدرها
قال المنصور: تلك امرأة حبيبة
قال سعيد: وذاك اسمها يا أمير المؤمنين
قال المنصور: والمال الفقيد حبيب أيضاً! وابتسم، ففز سعيد وابتأس!
قال المنصور: لا تبتئس، فعسى أن يرجع إليك مالك ثم دعا بقارورة طيب كان يهتم به ويختص، وقال: يا سعيد هذا طيب يتفاءل به، فخذ منه شيئاً عسى أن يكون جلاء همك وصقال نفسك، واستبشر بمسيسه كأنه حظ عصر لك في مدهن! وتمتع من شميمه كأنه من أرواح الجنة!
فأخذه سعيد وقبله كأنه تميمة سعادة، واصطانه كأنه مفتاح خزانة؛ ثم سلم على الخليفة، وانقلب إلى أهله وقد انتشر الأمل على أصغريه، كما انتشر الطيب على عطفيه. فلما دخل على آمراته قالت: أني أشم عطراً يتضوع منك. قال: ذاك عطر وهبه لي أمير المؤمنين، وإني واهب لك منه شيئاً عسى أن يكون لبيتنا فألاً ميمونا.
فابتسمت شاكرة للزوج الواهب، ثم انصرفت مفكرة في العطر الموهوب
دعا المنصور أربعة رجال من ثقاته وأراهم طيبه، وأشممهم منه، ثم قال لهم: أقعدوا على أبواب المدينة، فمن مر بكم وعليه شيء من هذا الطيب فأتوني به. فذهبوا حيث أمرهم الخليفة، وجعلوا يتربصون بمن يمر بهم أريج الطيب، حتى ضم الليل شملته السوداء ومضى، وبعث الصبح في أطماره؛ فرقعت الأرض بالأقدام والظلال، وهم يترقبون ويتشممون، كأنهم من كلاب الصيد في توقع الفريسة، وإذا رجل قد توهج منه الطيب يجتاز أحد الأبواب، فانقض عليه أحدهم انقضاض عتاق الطير؛ فاهتز اهتزاز فراخ الصيد، وغيمت الدهشة في رأسه، فمادت نفسه، وحارت عينه، وسأل فلم يجد جواباً، ونظر فلم ير مناصاً، وسيق تائه المساق حتى قدم إلى الخليفة، فتقدم، ثم سلم تسليم مروع لا يدري من أين روعه؟
قال المنصور: ما الذي أقدمك؟
فنظر الرجل إلى الذي ساقه وقال: الجواب عند هذا يا أمير المؤمنين!
قال المنصور: ما اسمك؟
قال الرجل: حبيب!
قال المنصور: ما احب اسمك!
ثم مد رأسه من وراء أنفه وتشمم، ثم قال: وما أطيب طيبك!. . .
قال حبيب: هو نفحة من يمنك يا أمير المؤمنين
فضحك المنصور، واستعجب حبيب من ضحكه
قال المنصور. أنى لك هذا الطيب؟
فارتد حبيب كأنه لديغ، ونظر نظرة قد تخشعت جزعاً
فتبسم المنصور، وقال: لا ترع، فما أريد بك سوءاً، وأما كان مثل هذا الطيب يفوح من سرقة بالأمس، وقد باح به جسمك اليوم، وإني أخشى أن يلصق بك ما تتهم به!
قال حبيب: يا أمير المؤمنين. . .
قال المنصور:. . . وتخفي في نفسك ما الله مبديه. . .
قال حبيب: أنا. . .
قال المنصور: وأنا أرى على وجهك مسحة براءة، وعلى يديك مسة طهارة، ولكني أمرت أن احكم بما ظهر، ولله ما بطن.
قال حبيب: ليس عندي من المال قديم ولا جديد إلا هدية أهداها إلي من لا اشك فيه
قال المنصور: ومن أهداها إليك؟

فاعتقل لسان حبيب في فمه!
قال المنصور: لقد رأيتك تدرأ عن نفسك حتى كدت تبرأ لولا غموضة تريب تلك الهدية، فهلا استكملت البراءة، ونزعت عن يديك تهمة ليست لبوساً لك! وإني موسع عليك ومخيرك: فإما أن تذكر من أهدى إليك فتجلو صفحتك ويقلب القضاء صفحته؛ وإما أن تنزل عن الهدية لنعرضها على صاحب المال فتسلم من آخر شيء يعلق به الاتهام، ويكون ذاك أغنى عن التصريح وأنفى للشك وابلغ في العذر
كاد حبيب يتكلم فيسلم، ولكن قلبه خفق فسكت، ودارت عينه، ودار من ورائها رأسه، لا يدري: أيمسك المال على بغض يبعثه اتهام الأمير! أم يتركه على حب يوحيه إهداء الحبيب؟ فإما أن يذكر مهديه المال خلاصاً فنفسه دون ذلك فداء، والفداء من سنة الحب، وما كان لفم طهره الحب أن تدنسه الوقيعة!. . . ولقد تعجب حبيب من صروف الأقدار في تصريف الأموال، فإنه ما كان ليعبأ بمال حتى يَفتن في جمعه ويُفتن بكنزه، وما تكاتفت
سحابة من كسبه حتى تقاطرت في صرفه! كأن المال زائر عابر: ما سلم حتى ودع! ولكن هذه الهدية عريت عنده من معنى المال ولبست معنى القلب، فما يحسب رنين ذهبها إلا صدى الخفوق! ووثب خياله إلى رجل هنالك قد جمد قلبه جمود الذهب حتى عد خفوقه رنيناً!. . . رجل هنالك!. . . وأزعجه الخيال بوثيته، فصحا من غفوته، فإذا الخليفة يجسه بعينه وبجانبه صاحب الشرطة!
قال المنصور لصاحب الشرطة: خذ هذا الرجل، فخيره في ما خيرته، وأمهله، فعسى أن ينجده وقته، فإن أبى فصب عليه من العذاب ألف سوط!
(البقية في العدد القادم)
رفعت فتح الله
العدد 408 - بتاريخ: 28 - 04 - 1941
هل انبعث الأزهر؟
يغلب في ظني أن الأزهر انبعث فسمع فرأى ففكر! انبعث كما ينبعث الربيع في أوائل مارس، تراه الشجر سليب جديب الأرض مقرور النسيم، ولكن أسرار الحياة تكون - من وراء بصرك - قد انبثت في الثرى، وجرت في الأصول، وسرت في الجو، فلا تلبث أن تستعلن فتسعد الأرواح بجميل الزهر، وتمتع الأجسام بطيب الثمر
هؤلاء هم شباب الأزهر الجديد أساتذة وطلابا، قد جلت نفوسهم ثقافة العصر، وصقلتها مدنية الحاضر، فاشرق عليها أشعة النبوة ساطعة بعدما حجبها الغمام والقتام حقبا بعد حقب. فهم وحدهم الذين يدركون مسافة البعد بين روح الأزهر وحياة الناس؛ وهم وحدهم الذين يملكون تزييف الأباطيل المقدسة التي اتسمت بسمة الحق، وتسمت باسم الدين؛ ولكنهم حول هذا الهيكل البالي أشبه بالأغصان الخلفة التي تنبت نضيرة على اصل الدوحة العتيقة، ثم لا يتسنى لها الغلظ والسموق لأن الجذور الشيخة لا تمدها بالغذاء كله، والفروع الميتة لا تمكنها من الهواء كله. فإذا لم يرسل الله رسول الإصلاح ويؤته ما آتى أولي العزم من الرسل، فيقطع من أعالي هذه الدوحة ما اعوج، ويجتث من أسافلها ما ذبل، ويكتشف عن جذعها الواهن ما التف عليه من طفيلي النبت، بغي الجفاف على هذه الأفنان النواشئ فتذوي في زهرة العمر وبكرة الربيع دفعني إلى تعجيل هذه البشرى وتسجيل هذه الظاهرة في هذا الوقت الذي شغل الأذهان بوحوش النازية الهاجمة ما قرأته للأستاذ شلتوت اليوم، وللأساتذة المدني والبهي والشرقاوي من قبل، وما سمعته من صفوة من أولئك الأساتذة الأزهريين الشباب ضمهم مجلس من مجالس الرسالة؛ فلقد كنت - علم الله - أدعو إلى إصلاح الأزهر وفي نفسي خلجات من اليأس؛ لأن أهله الذين وقفوا عقولهم عند حد النقل، وقصروا جهودهم على درس القديم: يشرحونه، أو يحشونه، أو يقررونه، أو يختصرونه، أو ينظمونه، حتى قر في نفوسهم أن القديم افضل من الجديد، والماضي خير من الحاضر؛ فالقرن الأول خير من الثاني، والثاني خير من الثالث، وهلم جرا حتى يجعلوا القرن العشرين شر القرون، وعلماءه أجهل الناس، فلا يجوز لفهم أن يبتكر، ولا لعقل أن يعترض، ولا للسان أن يقول: أن في الإمكان أبدع مما كان؛ أولئك لا يستجيبون لدعوة الإصلاح لأن الإصلاح تتغير أو ابداع؛ وقبول التغيير محال ما لم يتغير ما بالنفس، وإجازة الإبداع باطلة ما لم يتضح معنى

البدعة. ومن أجل ذلك كان لكل مهدي (عليش)، ولكل محمد عبده (رفاعي)، ولكل مراغي (. . .)

أجل، كان يخالجني اليأس من نهوض الإصلاح قبل أن اتصل عن طريق الرسالة بهذه الطبقة الممتازة من الأساتذة الشباب وتلاميذهم الإنجاب في كليات الأزهر الثلاث.

فلما عرفتهم وفهمتهم انبثق في صدري الأمل في أن الأزهر سيعود ويقود، وإن الإسلام سيحكم ويسود؛ والأمر رهن بدفن الرميم وكسح الهشيم وانفساح المجال وتحرر العقلية العامة

أعجبني من الأستاذ شلتوت وأصحابه خلوص الدين في قلوبهم، ونصوع فكرته في عقولهم، وفهمهم إياه على أنه دين هذا العصر وشريعة هذا الناس، فنحن ابصر بموقع الحكمة فيه، واجدر باستنباط الرأي منه. والدين كالشمس، لا هي تراث ولا هي اثر.

وإنما الشمس للحاضر لا للماضي، وللحي لا للميت، يستفيد منها الفرد بعد الفرد، والجيل بعد الجيل؛ ثم يقتضي اختلاف النظر وتقدم العلم أن يختلف فيها العلماء، وتتعارض في نظامها الآراء؛ ولكن رأي فيثاغورس أو بطليموس، لا يجوز أن يوازن برأي نيوتن أو هرشل

هذه هي المرونة البصيرة التي توجبها سنة الحياة ولا يكون بدونها إصلاح ولا تطور. ولم يصب الأزهر بهذا الجمود إلا لأنه فقد هذه المرونة، فلم يبال فعل الزمن في الدنيا وفي الناس. لذلك لم يعلم التاريخ جامعة من جامعات الأرض بقيت في القرن العشرين على ما كانت عليه في القرون الوسطى غير الأزهر!

كان الأزهر اسبق الجامعات الباقية في الدنيا إلى الوجود. أنشئ عام 972م وأنشئت جامعة بولونيا عام 1100م وجامعة باريس سنة 1150م؛ ثم تتابعت بعدهن الجامعات في أوربا وأمريكا وكانت كلها تنحو منحى الأزهر في النظام والمنهاج والطريقة؛ إلا أنها سايرت الزمان وأطاعت التطور واستجابت لداعي الحاجة، حتى أصبحت موردا ومرادا لأسمى ما بلغه العقل الإنساني من الثقافة والمعرفة. ولبث الأزهر وحده حيث كان يمضغ كلام السلف، ويردد لغو الالسن، ويعلل ضلال الأقلام، ويصم أذنيه عن أصوات العالم وحركات الفلك، حتى أصبحت المدارس الأولية آدني منه إلى طبيعة العصر، وافهم منه لمعنى الحياة!

لسنا اليوم بسبيل البحث في علل هذا الجمود المزمن المحزن، فذلك شيء تتصل أسبابه بما انتاب المسلمين من ضلال العقيدة وشيوع الجهالة وفساد الحكم. وبحسبنا أن نسجل نهاية هذا الجمود بما بدا على بعض الأساتذة واكثر الطلاب من الطموح إلى السبق والنفور من التخلف والزراية على نهج المعلم وطريقة الكتاب. ومن تفاعل في نفسه القلق والاشمئزاز والسخط لسوء حال أو فساد أمر، شق عليه الاطمئنان إليه والاحتفاظ به. وتغير النفس إيذان بتغير الحال، والشعور بالنقص أول مراتب الكمال!

أحمد حسن الزيات

القرآن والمسلمون

للأستاذ الشيخ محمود شلتوت

وكيل كلية الشريعة

(بقية ما نشر في العدد الماضي)

القرآن والمسلمون في العهد الأخير

وصلت إلينا هذه الثورة التي دونت في بطون الكتب ووضعت موضع التدقيس؛ وهي من الخلط والخبط وتشويه معالم الدين على ما وصفنا

فأقعدت الناس عن النظر في القرآن، وملأت أذهان الناس بألوان من الأوهام الفاسدة عن التشريع والعقيدة، وما يحل وما يحرم؛ وصار كثير من المسلمين يعتقدون أن الحلال ما أحله فلان في كتاب كذا، وإن الحرام ما حرمه في كتاب كذا؛ وأن فلانا ذكر في معنى الآية الفلانية كذا وكذا. بل وصل الأمر ببعض أهل العلم إلى أن يقول: أن هذا الشيء ثابت في القرآن، لأن فلاناً وفلاناً حملوا عليه بعض آيات الكتاب الحكيم!

لم يستطع الجمهور أن يستخلص خطة عملية واضحة من القرآن بطريق مباشر، ولم يستطع أن يعتمد على هذه التفاسير الموروثة في استخلاص هذه الخطة التي هو في أشد الحاجة إليها

أما أنه لم يجد غرضه وحاجته في هذه التفاسير فذلك يرجع إلى ما في كثير منها من الحشو والتخليط والاعتماد على الروايات التي لا تصح
وأما أنه لم يستطع الوصول إلى هذا الغرض من القرآن مباشرة، فلأن هؤلاء القائمين على أمر القرآن من أهل العلم أوهموا الناس - لغرض ما - أن فهم القرآن ومحاولة النظر في آياته، بدون استعانة بكتب السابقين وآرائهم التي دونوها غرض بعيد لا يصل إليه إلا الأفذاذ من أهل العلم وأصحاب العقول الراجحة، وإن من يطمع في ذلك أو تحدثه به نفسه من غير أن يستكمل شروطه، فقد عرض نفسه لغضب الله!
يومئذ تصور الناس القرآن كتابا عزيز المنال، بعيداً عن الأفهام، فهابوه ويئسوا من الوصول إلى معانيه، وتقبلوا فيه وساطة هؤلاء المحتكرين، وتلقفوا من أفواههم ما جادوا به
عليهم، واقتنعوا به من القرآن كوسيلة من الوسائل يداوون بها ضعفهم النفسي والاجتماعي
انفتح لهم بهذا باب من الانتفاع بالقران لا عن طريق النظر في آياته أو التدبر في معانيه أو معرفة هدايته وإرشاده، ولكن على أساس ما تلقفوا من هؤلاء، فصاروا لا يعرفون القرآن إلا على نحو من الأنحاء الآتية:
1 - التعبد بتلاوته مجردة عن التدبر والاعتبار لا تعدو أن تكون حركات لفظية تضطرب بها الشفاه، وتغمغم بها الخياشيم ومن وراء ذلك قلوب عليها أقفالها
2 - التبرك به، فاتخذوا منه التمائم والاحجبة والرقي والتعاويذ!
3 - استنزال الرحمة به على موتاهم فجعلوا يستأجرون لذلك القراء المحترفين ليقرأوه في البيوت أحياناً وعلى القبور أحياناً لقاء اجر معلوم، ومال مقسوم
4 - التماسه دواء للأمراض والعلل الجسمية عن طريق تلاوته أو كتابته أو التبخير به أو محوه بالماء ثم شربه
5 - اتخاذه وسيلة لاستدرار عطف الغادين والرائحين، فتسولوا به في الطرقات وأمام المساجد وعلى أبواب البيوت في صور تنافي الكرامة ولا تتفق مع التقديس
وهكذا اخذوا ينتفعون بالقرآن، أو بعبارة أدق يستغلون القرآن على هذه الأوضاع المزرية التي لا تليق بكتاب أنزله الحكيم العليم ليخرج الناس من الظلمات إلى النور
قد يجد الناظر في كتب السنة ما يفيد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في رقيته شيئا من القرآن كالفاتحة وغيرها، كما أنه قد يجد في كتب الفقه ما يدل على مشروعية القراءة وهبة ثوابها لأرواح الموتى
وسواء أصح هذا أم لم يصح، وسواء أكانت الرقية ونفعها لخصوصية في نفس الراقي، أم لأسرار ذاتية تحملها آيات القرآن وحروفه، فإن الذي ننكره على المسلمين اليوم ونلقي التبعة فيه على علمائهم أن ينبذوا كتاب الله وراءهم ظهرياً في كل شيء، ويتخذوا هذا القرآن مهجوراً إلا في هذه النواحي التافهة التي لا تقاس بجانب عظمة القرآن
إلا إن في ذلك لتصويراً للقران بصورة تنبو عنها الأذواق ودعاية سيئة عنه أمام العقول المفكرة لو كانوا يعلمون
استطار شرر هذه النزعة، وتفشى وباؤها، حتى تأثرت بها أذهان المفكرين من أهل العلم
والسلطان؛ تأثر هؤلاء جميعاً إلا قليلاً منهم بهذه النزعة الشعبية الجمهورية؛ وكان منهم من مالأ العامة وسايرهم في اتجاهه خوفا منهم، وكان منهم من تسمم عقله فعلاً، وفسد تصوره لحقائق القرآن الصحيحة، واعتقد ما اعتقده العامة فيها
نزل هؤلاء وهؤلاء على حكم الشعب، فلم يقاوموا هذه النزعة فيه، بل سايروه فيها وزينوها له، وأخذوا يدافعون عنها كأنما يدافعون عن حق يتوقف عليه بناء الدين ويرتفع به شأن الإسلام والمسلمين. وإذا ما دعا داع إلى استقبال القرآن ككتاب هداية وإرشاد وتشريع، تناولوه بالألسنة والأقلام، واتهموه بالزيغ والالحاد، والتضليل والإفساد؛ والله يعلم المفسد من المصلح، والمضل من المرشد، أنه عليم بذات الصدور!
أما الحكام الذين طغت عليهم هذه النزعة وبيدهم مقاليد الأمور والتشريع للبلاد، فقد توهم بعضهم أن الكتاب بعيد عن مجاراة الحضارة والتشريع الحديث، وأنه لا يفي بحاجات العقول المفكرة والأمم المتحضرة!

نعم يوجد من بين هؤلاء من يفهم حقيقة القرآن، وأنه لا يضيق صدره عما يقتضيه التطور الحديث من تشريع وتنظيم، ولكنه يخشى سلطان هؤلاء العامة من جهة، ويؤثر أن يجاري هؤلاء العلماء من جهة أخرى، لئلا يتهموه بالمروق ومعاداة القرآن، فلذلك تراه لا يحب أن يعقد بينه وبين هذه الموضوعات الشائكة صلة، ولا يشاء أن يمد يده ليضعها في أيدي المصلحين ليطالبوا بالرجوع إلى شريعة القرآن والنزول على حكم القرآن.

وأنه لما يحز في قلوب المؤمنين الصادقين أن هذه الفكرة قد طغت على أذهان كثير من أهل الحكم والنيابة عن الأمة، حتى صاروا يعتقدون عدم كفاية التشريع القرآني لتنظيم شؤون الأمة ومعالجة أمراضها الاجتماعية!

ويبيحون لأنفسهم أن يلجأوا إلى التشريعات الأجنبية، فيستمدوا منها ما ينظمون به شئون المسلمين: في المدنيات والجنائيات والآداب العامة

وهكذا هانت على المسلمين أحكام القرآن، بل هانت على المشتغلين بها أنفسهم، ولم يقدروا قيمتها العلمية والعملية حق قدرها، فضعفت هممهم عن دراستها وموالاة النظر فيها والانتفاع بها، وصاروا يكتفون منها بالقليل، واستساغوا لكرامتهم أن يفروا من التحصيل والعكوف على العلم بكل ما يستطيعون، وأصبحوا يؤدون ما يؤدون من ذلك في الحدود

التي تروقهم، وفي الأزمان التي يحددونها؛ ذلك بأنهم مسوقون إلى العلم بعوامل شخصية لا تمت إلى إرادة العلم والتثقف وخدمة الدين والقرآن بأدهى الأسباب

يحسن بعد هذا أن نتحدث عن موقف طائفة أخرى من القرآن - زعمت لنفسها ثقافة خاصة وأخذت تستند إليها في فهم القرآن وتفسير آياته؛ تلكم هي طائفة المثقفين الذين أخذوا بطرف من العلم الحديث وتلقنوا أو تلقفوا شيئا من النظريات العلمية والفلسفية والصحية وغيرها ثم نظروا في القرآن فوجدوا الله سبحانه وتعالى يقول: (ما فرطنا في الكتاب من شيء) فتأولوها على نحو زين لهم أن يفتحوا في القرآن فتحاً جديداً. فسروه على أساس من النظريات العلمية المستحدثة، وطبقوا آياته على ما وقعوا عليه من قواعد العلوم الكونية، وظنوا انهم بذلك يحترمون القرآن، ويرفعون من شأن الإسلام، ويدعون له أبلغ دعاية في الأوساط العلمية والثقافية

نظروا في القرآن على هذا الأساس فافسد ذلك عليهم أمر علاقتهم بالقرآن وأفضى بهم إلى صور من التفكير لا يريدها القرآن ولا تتفق مع الغرض الذي من أجله أنزله الله

فإذا مرت بهم آية فيها ذكر للمطر، أو وصف للحساب، أو حديث عن الرعد أو البرق، تهللوا واستبشروا وقالوا هذا هو القرآن يتحدث إلى العلماء الكونيين ويصف لهم أحدث النظريات العلمية عن المطر والسحاب وكيف ينشأ وكيف تسوقه الرياح.

وإذا رأوا القرآن يذكر الجبال أو يتحدث عن النبات والحيوان وما خلق الله من شيء قالوا: هذا حديث القرآن عن علوم الطبيعة وأسرار الطبيعة

وإذا رأوه يتحدث عن الشمس والقمر والكواكب والنجوم قالوا هذا حديث يثبت لعلماء الهيئة والفلكيين أن القرآن كتاب علمي دقيق!

ومن عجيب ما رأينا من هذا النوع أن يفسر بعض الناظرين في القرآن قوله تعالى: (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين، يغشى الناس هذا عذاب أليم)، بما ظهر في هذا العصر من الغازات السامة والغازات الخانقة التي أنتجها العقل البشري فيما أنتج من وسائل التخريب والتدمير في هذا الزمان!

يفسرون الآية بهذا ويغفلون عن قوله تعالى بعدها: (ربنا اكشف عنا العذاب أنا مؤمنون، أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين، ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون)، مما يدل على

أن هذه الظاهرة كانت على عهد النبي صلى الله عليه وسلم أصيب بها الذين عارضوه وكذبوه وقالوا معلم مجنون

روى أن رجلاً جاء إلى ابن مسعود قال له: تركت في المسجد رجلاً يفسر القرآن برأيه: يفسر قوله الله سبحانه: (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين) بأن الناس يوم القيامة يأتيهم دخان فيأخذ بأنفاسهم حتى يأخذهم كهيئة الزكام. فقال ابن مسعود: (من علم علما فليقل به، ومن لم يعلم فليقل الله أعلم)! إنما كان هذا لأن قريشاً

استعصوا على النبي صلى الله عليه وسلم فدعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام؛ فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد!

وأغرب من هذا وأعجب أن يفسر بعض هؤلاء المفسرين الحديثين شأناً غيبياً من شئون الله الخاصة لم ينزل بتفصيله وحي، ولم يطلع الله على حقيقته أحدا من خلقه، ببعض الظواهر الحاضرة التي اكتشفها العلم واهتدى إليها بنو الإنسان:

يفسر الكتاب المبين والإمام المبين الذي تحصى فيه الحسنات والسيئات وتعرض على أصحابها يوم القيامة، بالتسجيل الهوائي للأصوات، ويقول: أظهر العلم ذلك بالمخترعات البشرية واستخدمه الإنسان فيما يختص بالاصوات، ولا تبعد أن يستخدمه فيما يختص بحفظ الحركات والسكنات والخواطر النفسية، والله القادر خلق الكون على هذه السنن لغاية أسمى من ذلك هي محاسبة الناس يوم القيامة، وعرض أعمالهم عليهم كشريط مسجل يضم جميع حركات الناس وسكناتهم وخواطرهم وأقوالهم، وما قدموا من عمل

يقولون هذا ويفسرون به قوله تعالى: (علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى). وقوله تعالى: (وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشوراً). ويهجمون على الغيب بما لم يأذن به الله، ويجدون من العلماء من يؤيدهم ويشجعهم ويزكيهم ويتمنى أن يكثر الله من أمثالهم!

إن هؤلاء في عصرنا الحديث لمن بقايا قوم سالفين فكروا مثل هذا التفكير، ولكن على حسب ما كانت توحي به إليهم أحوال زمانهم، فحاولوا أن يخضعوا القرآن لما كان عندهم من نظريات علمية أو فلسفية أو سياسية

ولسنا نستبعد إذا راجت عند الناس في يوم ما نظرية داروين مثلا أن يأتي إلينا مفسر من

هؤلاء المفسرين الحديثين فيقول: أن نظرية داروين قد قال بها القرآن منذ مئات السنين!

هذه النظرة إلى القرآن خاطئة من غير شك، لأن الله لم ينزل القرآن ليكون كتاباً يتحدث فيه إلى الناس عن نظريات العلوم ودقائق الفنون وأنواع المعارف

وهي خاطئة من غير شك لأنها تحمل أصحابها والمغرمين بها على تأويل القرآن تأويلاً متكلفاً يتنافى مع الإعجاز، ولا يسيغه الذوق السليم

وهي خاطئة لأنها تعرض القرآن للدوران مع مسائل العلوم في كل زمان ومكان. والعلوم لا تعرف الثبات ولا القرار ولا الرأي الأخير، فقد يصح اليوم في نظر العلم ما يصبح غداً خرافة من الخرافات

فلو طبقنا القرآن على هذه المسائل العلمية المتقلبة لعرضناه للتقلب معها، وتحمل تبعات الخطأ فيها، ولأوقفنا أنفسنا بذلك موقفاً حرجاً في الدفاع عنه وإقناع الناس به فلندع للقرآن عظمته وجلالته، ولنحفظ عليه قدسيته ومهابته، ولتعلم أن ما تضمنه من الإشارة إلى أسرار الخلق وظواهر الطبيعة إنما هو لقصد الحث على التأمل والبحث والنظر ليزداد الناس أيماناً مع أيمانهم

وحسبنا أن القرآن لم يصدام ولن يصادم حقيقة من حقائق العلوم تطمئن إليها العقول. قيل: يا رسول الله ما بال الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط، ثم يزيد حتى يعظم ويستوي ويستدير، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان لا يكون على حالة واحدة؟ فنزل قوله تعالى: (يسألنك عن الأهلة، قل هي مواقيت للناس والحج. وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها، ولكن البر من اتقى، وآتوا البيوت من أبوابها، واتقوا الله لعلكم تفلحون)

وانك لتجد هذا في سؤالهم عن الروح حيث يقول عز وجل:

(ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا)

أليس في هذا دلالة واضحة على أن القرآن ليس كتاباً يريد الله به شرح حقائق الكون؛ وإنما هو كتاب هداية وإصلاح وتشريع؟؟

قد عرفنا مهمة القرآن التي لأجلها نزل، وعرفنا موقف المسلمين الأولين من هذه المهمة، وما كان لهم بفضل موقفهم هذا من عز وجاه وسلطان

ثم عرفنا موقف المسلمين في العصور التالية، وكيف عقدوا على الناس طرق الانتفاع

بالقرآن والاهتداء بهديه
وعرفنا كيف تلقى المسلمون في عهودهم الأخيرة كتاب لله في وسط هذا المزدحم فاشتبهت عليهم معالمه واختلطت بغيرها، فانصرفوا عن القرآن وهدايته وتدبر آياته إلى أشياء لا تنفعهم في دينهم ولا دنياهم، أو خرجوا به عن مهمته الكبرى، وحملوه مالا يحتمل مما يروج عندهم أحياناً وتزيفه العقول أحيانا
وعرفنا كيف تقلص عن المسلمين خير القرآن، وحرموا الانتفاع به في الهداية والإرشاد والتشريع وقد آن لنا أن نتساءل هل للمسلمين أن يفكروا فيما يعود بهم إلى سالف غيرهم ورفيع مجدهم عن طريق القرآن وتشريع القرآن؟
هذا سؤال لابد أن يدور في خلد كل مؤمن يعتقد أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين
هذا سؤال لابد أن يتوجه إلى كل من يهمه أمر الإسلام والمسلمين ويكون صادقاً في غيرته على الإسلام والمسلمين
هذا سؤال لابد أن نوجهه إلى طائفتين من الأمة، عن آرائهم تصدر وفي خطتهم تسير: هما طائفة العلماء وطائفة الحكام
بل هذا سؤال لابد أن نوجهه إلى كل فرد في هذه الأمة من عالم ومتعلم، من حاكم ومحكوم، من شيخ وشاب
فعلى كل من هؤلاء قسط من المسؤولية لا مناص له من تحمله: على العلماء البيان والنصح والإرشاد وتيسير سبل الدين وهداية القرآن للناس؛ وعلى الحكام الرجوع إلى هذا المصدر الإلهي في التشريع والتنظيم؛ وعلى الأمة أن تشعر ولاة أمورها بتلك الرغبة، وإن تنادي بتنفيذها، وتؤازر من آزرها وتحارب من حاربها.
أيها العلماء: اسمعوا ما يقول الله في كتابه العزيز:
(إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب، أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون. إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم؛ وأنا التواب الرحيم)
أيها الحكام: اسمعوا ما يخاطبكم الله به في شخص الحاكم الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم:
(وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم، وأحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك، فإن تولوا فاعلم إنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم. وإن كثيرا من الناس لفاسقون. أفحكم الجاهلية يبغون؟ ومن أسن من الله حكماً لقوم يوقنون؟)
أيها المسلمون: اسمعوا ما يناشدكم به الله في كتابه:
(ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم، وكثير منهم فاسقون. أعلموا أن الله يحي الأرض بعد موتها. قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون)
محمود شلتوت
الفرد هو الحجر الأول
في بناء المجتمع
(ما رأي الأستاذين الكبيرين الزيات والعقاد في موضوع هذا الحديث؟)
للدكتور زكي مبارك
منذ ليال وقفت في جمعية الشبان المسيحية ألقي محاضرة في تشريح آراء الدكتور طه حسين، وألقى السامعون طوائف من الأسئلة فأجبت عنها بحذر واحتراس، لأن أغلبها انصب على نقطة دقيقة متصلة بالرأي الذي أعلنته في معالجة أمراض الفقراء من صناع وعمال وفلاحين، ولكن الاحتياط الذي التزمته في الإجابة عن تلك الأسئلة لم يمنع من أن يصرخ جماعة من الحاضرين: يسقط عدو الفلاح! يسقط عدو الفلاح! ولم يؤذني هذا الصراخ؛ لأنه صدق في صدق، فأنا عدو الفلاح الكسلان، وسأمضي في معاداته إلى أن ينظر في نفسه فيعرف نعمة الله عليه، ويدرك أن من الخطر أن يسمع أقوال المرائين الذين يتقربون إليه بأساليب دميمة ستشقيه وترديه، لأنها تصوب إلى هدف واحد: هو إقناعه بأنه يعيش عيش الأشقياء، مع أنه في حقيقة الأمر أسعد السعداء. وكيف يحرم السعادة وهو أول منتفع بثمرات الأرض، وأخر من يحمل هموم الكساد عند اختلال الأسواق؟

الفلاح سعيد، سعيد، سعيد، على شرط أن يسد أذنيه عن أقوال من يرون في التوجع لشقائه المزعوم وسيلة للظهور بمظهر الغيرة الوطنية، والوطن برئ ممن يزعزعون ثقة الفقراء بالأغنياء. الوطن برئ من جميع الذين يحاولون زعزعة يقين الفلاح بأن لجماله الحق صورة واحدة: هي تلويح وجهه وتشقق قدميه بسبب الجهاد في استخراج ثمرات الأرض: الأرض الجميلة التي لا ترضي من عشاقها بغير الكفاح الدائم والكدح الموصول؛ ولن يكون الفلاح سيد هذه الأرض إلا يوم يتخلق بما تخلق به أجداده الشرفاء. وقد كان أجدادنا يبغضون التأنق ويتفاخرون بالتقشف ويتبارون في الاخشيشان، ليصح انتسابهم إلى الأرض التي لا يسود فيها غير من يملكون القدرة على التصرف بالفؤوس والمحاريث

وأرجع إلى موضوع البحث فأقول:

لما شاهد الأستاذ سلامة موسى جماعة يصرخون في وجهي هاتفين: (يسقط عدو الفلاح! يسقط عدو الفلاح!) حدثته النفس بأن وقت الانتصار على خصمه القديم قد حان، فانتضى قلمه ومضى يجرحني في مجلة اللطائف المصورة بعبارات لا تصدر إلا عن كاتب فقد القدرة على ضبط النفس، وأنا لن أجزيه عن تلك العبارات بما يباريها في القسوة والعنف، فما أحب أن يتحول الجدل إلى ملاحاة تصرف القراء عن فهم دقائق الموضوع الذي ثار من أجله الخلاف

وأنا أرى أن الفرد هو الحجر الأول في بناء المجتمع؛ وأرى من الواجب أن توجه الجهود الصوادق إلى إصلاح الفرد، لأن المجتمع يتكون من أفراد. ولا يمكن القول بسلامة بناء من الأبنية إلا عند التأكد من سلامة المواد التي كونت ذلك البناء

ويجب حتماً أن يكون لكل فرد (شخصية خلقية) لتكون له (كرامة ذاتية)

ولكن ما هو الخلق الذي يتحلى به الفرد، لتكون له شخصية خلقية؟

تنقسم الأخلاق إلى قسمين: أخلاق سلبية وأخلاق إيجابية؛ فالأخلاق السلبية يصورها ترك المحظورات، وهي الأخلاق التي تخطر في بال الناس عندما يسمعون كلمة أخلاق أما الأخلاق الإيجابية فهي التي تفرض على أصحابها مشاق ومتاعب في تحصيل المزايا النفسية؛ المزايا التي تنقل الرجل من حال إلى أحوال، فيحلق بعد الإسفاف، وينبه بعد الخمول، ويخلق لنفسه مكاناً بين المياسير والأغنياء

ولا تكون للرجل شخصية خلقية إلا حين يتحلى بالأخلاق الإيجابية، أما الاكتفاء بحلية الأخلاق السلبية فقليل الغناء، لأن ترك المحظورات لا يشهد بقوة الخلق إلا حين يكون الرجل على جانب من القدرة على اقتراف السيئات، وهو لا يكون كذلك إلا يوم يملك من أسباب الغنى والعافية ما يجعل انصرافه عن المهلكات شاهداً على أنه يجاهد في سبيل التصون جهاد الأبرار

وحين يتضح هذا المعنى في نفس كل فرد، أو في أنفس أكثر الأفراد، يمكن الاطمئنان إلى أن بناء المجتمع يتكون من أحجار صحاح؛ فالبناء المتين لا يعيبه أن يكون فيه حجر منخوب في أحد الجوانب، وإنما يعيبه أن تكثر الأحجار المناخيب فيخشى عليه التصدع والسقوط

فما الفرد وما المجتمع في بناء الأمة؟

المجتمع هو صورة البناء؛ والأفراد هم الأحجار التي يتكون منها البناء

فمن حدثكم أن العناية بالفرد علامة الأنانية فاعرفوا أنه رجل سطحي التفكير، لا يصل ذهنه إلى لباب الحقائق، ولا يهتدي عقله إلى دقائق الشئون

يرى الأستاذ سلامة موسى أن من الخطر أن يقول الفرد: (أنا وحدي) وأقول أن من عظمة الأمة أن يكون لأفرادها من القوة ما يسمح لأحدهم بأن يقول (أنا وحدي). . .

وما ضعفت بعض أمم الشرق فيما غبر وفيما حضر إلا بسبب عجز أفرادها عن الشعور بتلك الوحدانية، فكان أكثرهم شبيهاً بالنباتات الضعيفة التي لا تفارق ذلة اللصوص بالأرض إلا حين تعتمد على جذع منصوب

واعتماد الفرد على المجتمع في أكثر الشؤون من علائم الانحطاط، وأعظم كلمة قبلت في وصف الشخصية الخلقية هي كلمة الشاعر الذي يقول:

يرى الوحشة الأنس الأنيس ويهتدي ... بحيث اهتدت أم النجوم الشوابك

والمنحطون هم الذين ينتظرون من الحكومة كل شيء، فهي عندهم مسؤولة عن صيانة جميع المرافق، وتدبير جميع المنافع، وإبعاد جميع المخاطر، و (إصلاح جميع

الأحوال)
المنحطون هم الذين يفاضلون بين المرشحين للمجالس النيابية على أساس البراعة في التزيين والتهويل، فأقدر الرجال وأصلحهم للنيابة هو من يزعم أنه سيفرض على الحكومة أن تحول الدائرة التي ينوب عنها إلى فردوس لا يقتات ساكنوه بغير أقراص الشهد وأكواب الرحيق!
وما كان ذلك إلا بسبب الضعف في شخصية الفرد، ومن الأفراد الضعاف يتكون المجتمع الضعيف
ومن أجل هذا ادعوا إلى أن يكن لكل فرد وجود خاص، بحيث يشعر بالمسؤولية الخلقية في جميع ما يباشر من الشؤون: فالفلاح في المزرعة يشعر بسعادة عظيمة لوقوفه تحت الشمس حافي القدمين طاعة للواجب، والعامل في المطبعة يجد من الأنس في صف الحروف ما لا يجده اللاعب الظافر بالصيال فوق رقعة الشطرنج؛ لأن لصف الحروف
وترتيبها جاذبية يخلقها شعور العامل المخلص بأنه لا يؤلف بين حرف وحرف، وإنما يؤلف بين معنى ومعنى ويصل روحاً بروح. والمدرس الموفق يشعر بأنه مسئول أمام الله عن كل تلميذ، فتزيده تلك المسئولية قوة إلى قوة، وتسكب في ضميره رحيق الاطمئنان. والكاتب الصادق في كل ما يكتب يتلقى أحسن الجزاء من الشعور بأنه يصدر عن عقيدة منزهة عن الرياء
تلك قطوف من ثمرات الشخصية الخلقية، ومنها ندرك أن ليس في الدنيا سيد ومسود، ومستأجر وأجير، فكل امرئ في الدنيا يعمل لنفسه قبل أن يعمل لمن وثقوا بكفايته لما يسند إليه من أعمال
الشخصية الخلقية هي مصدر السعادة في حياة الفرد ومظهر السلامة في بناء المجتمع
ولا تكمل الشخصية الخلقية إلا لمن يملك القدرة على أن يقول (أنا)، ولا تصدر (أنا) صادقة إلا عن رجل له وجود خاص، وأنا أتمنى أن يكون لكل فرد في مصر (أنا) لأستطيع الاطمئنان إلى أن المصريين ليسوا أصفاراً تضاف إلى اصفار، وإنما هم أرقام تضاف إلى أرقام، والصفر في ذاته عدم يلبس ثوب الموجود، ولكنه يصبح وجودا ذاتيا حين يقف على يمين الرقم الصحيح
والـ (أنا) لا يراد بها التكبر والاستعلاء، وإنما يراد بها الشعور بقوة الذاتية؛ فالرجل الذي يطيع القانون (أدباً) رجل من أهل الأخلاق. أما الذي يطيع القانون (خوفاً) فهو من أهل الانحطاط. والذي يباشر الأعمال البسيطة طلباً للرزق رجل شريف، لأن طلب الرزق عن نية صادقة مطلب من أعظم المطالب، ولا يعاب على طالب الرزق إلا أن يقترف في سبيله ما يعاب
زعم عدو نفسه - وهو الأستاذ سلامة موسى - أني حكمت على خمسة عشر مليوناً من المصريين بضعف الأخلاق، لأني قلت أن الفقر يشهد على صاحبه بضعف الأخلاق الاجتماعية والمعاشية، فليعرف عدو نفسه وعدو الحق أن الفقير في نظري هو الشخص الذي يقاسي الحرمان بسبب الكسل وقلة الأمانة والرضا بالدون من مطالب الوجود، وليس في مصر من هذا الطراز غير مئات أو ألوف، وهم أهل للشقاء الذي يعانون
الصانع الذي يرجع إلى بيته في كل مساء وفي جيبه خمسة قروش ليس فقيراً
والفلاح الذي يدبر قوت أهله في كل يوم بعرق الجبين ليس فقيراً
والكناس الذي كحل عينيه بالغبار ليظفر بالقوت الجلال ليس فقيراً
وإنما الفقراء هم أولئك الكسالى المقاطيع الذين يطلبون ما لم يكونوا له بأهل، كأن ينتظروا الوظائف الحكومية وهم جهلاء؛ وكأن يخجلوا من ازدراع الأرض وترابها أشرف من نفوسهم التي ترى حمل الفأس أصعب من التعرض للسؤال؛ وكأن يتوهموا أن سلامة موسى، وفكري أباظة، وتوفيق الحكيم سيخلقون المستحيل فيوزعون أموال الأغنياء على الفقراء، وذلك وهم أعرض من البادية التي تفصل بين دمشق وبغداد
إن عدو نفسه وعدو الحق - وهو الأستاذ سلامة موسى - يقارن بين الوزير والكناس في المرتب، ويقترح إلا يزيد مرتب الوزير على مرتب الكناس بأكثر من خمسة أمثال وذلك كلام لا يصدر إلا عمن سخروا أنفسهم لخدمة الرياء الاجتماعي
وهل اختلفت الأصابع في القصر والطول إلا لحكمة عالية هو تضامها بصورة متساوية

عند تناول الأشياء؟
وكذلك اختلف الحظ بين الوزير والكناس لحكمة عالية، وما كان هذا الاختلاف أثراً من آثار انعدام العدالة الاجتماعية إلا في نظر من يسخر نفسه لخدمة الرياء الاجتماعي
ألم أقل لكم: أن الدنيا فسدت بحيث أصبح الرياء سيد الأخلاق؟
وإلا فعلى أي سناد اعتمد الأستاذ سلامة موسى حين جرؤ على القول بأن الدكتور زكي مبارك يعيش في ظلال عقائد بالية، لأنه يقول بأن انحطاط المجتمع فرع من انحطاط الفرد؟
لقد اعتمد على مراءاة المجتمع، وهو مجتمع يخدع فينخدع، وهو أيضاً مجتمع جبان، فقد عسر عليه أن يدفع قاله السوء عن الأغنياء، مع أن أغنياء مصر أقاموا أصدق الشواهد على أنهم عماد الوطن الغالي، فهم الذين ثبتوا قواعد الأزهر الشريف بما وقفوا عليه من الأملاك الثوابت، وهم الذين أنشأوا الجامعة المصرية، وهم الذين أقاموا الجمعية الخيرية الإسلامية، وهم الذين أسسوا المستشفى القبطي والمستشفى الإسرائيلي، وهم الذين أقاموا لعبادة الله وخدمة العلم مساجد ومدارس تعد بالألوف فهل من العيب أن أقول بأن المغنى يشهد لأهله بقوة الأخلاق الاجتماعية والمعاشية؟
وكيف وأغنياء مصر كانوا أسبق الناس إلى داعي الوطن والدين؟
وما الموجب لأن نضطهد أغنياءنا بغير حق، وكان يجب أن نفرح بنعمة الله عليهم، وإن نسأله حمايتهم من التعرض للآفات التي تقضي على النعم بالزوال؟
ما رأيت رجلاً غنياً إلا فرحت وطلبت له المزيد، ولا رأيت رجلاً فقيراً إلا حزنت وسألت الله أن يجعل له من بعد عسر يسراً
فما ذنبي إذا كان الله فطرني على هذه السجية؟
ما ذنبي وأنا ادعوا قومي إلى التعاون الصادق بين الفقراء والأغنياء، ليظل الوطن في أمان من النزعات المجلوبة على أيدي جماعات من الأجانب لا يسرهم إلا أن يرونا جميعاً في تأخر وتقاتل وانصداع؟
وأرجع إلى جوهر الموضوع فأقول:
حين يصبح لكل فرد شخصية خلقية تضمن منفعتين صحيحتين: الأولى شعور الفرد بقوة الذاتية فتصبح كلمة (الرعاع) بلا مدلول، وينعدم التعادي بين الأفراد، التعادي المسبب عن انعدام الإيمان بتنويع المزايا والمواهب؛ ولو آمن الناس بأنهم خلقوا مختلفين في الوجوه والغرائز والطباع لغرض صحيح هو تجميل صورة الوجود لأقلعوا عن مساوئ كثيرة مردها الثورة الآثمة على اختلاف المصاير والحظوظ، فلا يوجد منهم من يوازن بين الوزير والكناس، كأن الكناسة عمل حقير، وكأن مزاوليها حقراء، مع انهم يؤدون خدمة نافعة لا يغض من شأنها إلا غافل أو جهول
أما المنفعة الثانية من منافع الشخصية الخلقية فهي الإقبال على أعداد النفس لجلائل الأعمال، بدون اعتماد على الحكومة أو المجتمع
وأخاطر بالمشي فوق الشوك فأقول:
صح عندي أن أضعف الناس إرادة وعزيمة هم المحميون بالحكومة أو المجتمع؛ فالأقليات في جميع البلاد يفزعون إلى أنفسهم فيعيشون أقوياء وسعداء، لأن شعورهم بالعزلة يوحي إليهم فكرة التسلح ضد الفقر والضعف، وما اعتمد إنسان على غيره إلا باء بالخذلان
عيب الفرد هو اعتماده على المجتمع واحتماؤه بالقوانين، فقد شلت من الإنسان مواهب كثيرة منذ اليوم الذي اطمأن فيه إلى أن له عصبية تنصره وحكومة تحميه. . . وأنا أدعو
إلى اعتصام الفرد بنفسه قبل اعتصامه بعدالة الحكومة وحصانة المجتمع، فقد يمضي به التواكل إلى غاية حقيرة هي صيرورته عالة على الحكومة وعلى المجتمع. وإذا أصبح كل فرد عالة على سواه فعلى الأخلاق ألف عفاء
ليست الغربة في أن ينقطع ما بينك وبين أهلك وأحبابك، وإنما الغربة في أن ينقطع ما بينك وبين نفسك، وهي الأهل والصديق، وهي معوانك على الظفر بحقك من شرف الوجود
جاهد ليلك ونهارك في التعرف إلى سريرة نفسك، ففيها عجائب وغرائب من القوى الكامنة كمون النار في السرحة الزهراء، واعلم أن المجتمع لا ينصرك حين تستنصره

إلا أن وثق بأن قوته من قوتك، وشداه من شداك
يجب أن يكون موقفك من المجتمع موقف الشريك من الشريك، لا موقف التابع من المتبوع؛ وليس معنى هذا أني أدعوك إلى مجاوزة قدر نفسك فتدعي ما ليس لك، ولكن معناه أن يصح شعورك بالمسئولية في جميع أحوالك ولو كان عملك في ظاهره من أصغر الأعمال
وأنت لا تنال السعادة بالحقد على المسعودين، فلن يزيدك الحقد إلا شقاء إلى شقاء، وإنما تنال السعادة بالجهاد الشريف في سبيل الرزق وإن قضت عليك الأقدار بالعجز عن تحقيق ما تريد، فما كانت السعادة بكمية ما نملك، ولو كانت كذلك لامتنع أن يكون في الفقراء سعداء، وفي الأغنياء أشقياء، ونحن نرى أن الغني والسعادة لا يجتمعان إلا في أندر الأحايين
تنبع السعادة من معين واحد: هو الشعور بأنك تخدم نفسك وتخدم المجتمع بأمانة وصدق، ولا عيب في أن تقول أنك تخدم نفسك بخدمة المجتمع، فالمجتمع فرد مكرر، والذين يدعون الناس إلى التجرد من طلب المنافع ليسوا لا جهلاء، فلا عليك أن اتهموك بحب نفسك حين تطلب الجزاء على ما تقدم من خير ونفع؛ فمن حقك على أمتك أن تدعوها إلى مجازاتك على جهادك، وليس من حقك أن ترجو ما عندها بالسؤال والاستجداء وإن برعت في الحيلة فسميت هذا المسلك باسم مصقول، كالأسماء التي اخترعها المتسولون من صنائع الحذلقة الاجتماعية.
وقد تكلم الأستاذ العقاد في العدد الماضي من (الرسالة) عن (المبالاة) كلاماً في غاية من
الجودة، وهو يرى المبالاة أقوى الشواهد على الشعور بالحياة
وأقول: أن عدم المبالاة قد يصبح وجوداً حيوياً إذا صدر عن عمد، وهو عندئذ من مقومات الشخصية الخلقية. والحق أن لا وجود لعدم المبالاة ما بقي الشعور بالترك والانصراف، والذين اشتهروا بعدم المبالاة من أقطاب الفكر والعقل كانوا أصحاب مبادئ من هذه الناحية، ولم تكن استهانتهم بالمبالاة إلا مبالاة من نوع جديد
وخلاصة القول أن الفرد مسئول أمام نفسه قبل مسئوليته أمام المجتمع، ولا قيمة لمسئولية الفرد أمام المجتمع إلا أن صدرت عن نية، كأن يشعر بأن النظام هو الذي يفرض عليه تلك المسئولية، والصدقة وهي خير لا تزيد قوة الخلق إلا إذا صدرت عن نية، وإلا فهي تبديد وإتلاف، وإن انتفع بها من تقدم إليه
وهل أخطأ علماء الشافعية حين أوجبوا تقديم النيات على الأعمال؟ أن لذلك معاني لا يدركها إلا أولو الألباب
أما بعد فأنا مقتنع بهذا الرأي كل الاقتناع، ولكني حين أسير في شوارع القاهرة أرى أو شاباً من الناس لا يعنيهم خطأ ولا صواب، ولا يهمهم - أن كان يهمهم شيء - إلا أن ترفع عنهم جميع التكاليف، وإن يرزقوا بغير حساب. وما رأيت تلك الأوشاب المبعثرة ذات اليمين وذات الشمال إلا سألت نفسي عن قيمة الإحصاء الذي تشقى به الدولة من حين إلى حين، فما يجوز أن نباهي الأمم بالعدد إلا حين نثق بأن كل شخص في مصر له وجود خاص
الرأي عندي أن نكون جبهة جديدة تحارب الغفلة الفردية والاجتماعية، جبهة لا يكون فيها كتاب مراءون يخدعون الأفراد والجماعات ليتسموا بوسم الإصلاح الاجتماعي وأعضاء الجبهة المرجوة لن يكونوا من الباكين لشقاء العمال والصناع والفلاحين بدموع التماسيح، ولكنهم سيكونون رجالاً صادقين يؤمنون بأن الشهرة كالرزق فيها حلال وحرام، ويتقربون إلى الله بالصدق، ولو عرضهم الصدق لغضب الجاهلية وكيد المتجاهلين
وبالله أستعيذ من جهل أولئك وسفه هؤلاء!
وأنا بعد هذا أنتظر آراء المفكرين الصادقين فيما تقدمت من بينات
زكي مبارك
أومن بالإنسان - 8!
للأستاذ عبد المنعم خلاف
النقص والتكامل - الإنسانية الواحدة - من وحي الحرب
العصرية - مقدمات الوحدة - عصر القبيلة الأممي - الأقدار

تفصل الجسم الواحد - دفع وهم - الخميرة في أمريكا - أم
مجنونة وبنت عاقلة - من توحيد الأرباب إلى توحيد الإنسان
لا حياة مع هذه الحرب - قيامة صناعية - سلم طويلة من -
- حرب خاطفة - المبضع من السيف - دم الحرب دم مخاض
معان تبقى من أمم تفنى

ألمس في نفسي وفي كل فرد عرفته من الناس مهما كان عظيماً نقصاً أجد تكميله عند غيري وغيره. وهذا مما يؤكد في فكري أن الدولة أولاً جسم واحد يكمل بعضه بعضا ولا يستقل عضو منه بحياته إلا ظهر مبتوراً ناقصاً فيه تشويه. . . وكماله وجماله في أن يتضام إلى غيره ويتعاون ويصبر على مضايقة ذلك الغير حتى يستطيع إدراك الكمال المنشود. . .

وكذلك ألمس في كل أمة وحدها نقصاً أجد تكميله لدى غيرها. وهذا مما يؤكد في فكري ثانيا أن الأمم في المجموعة البشرية كالأفراد في مجموعة الأمة الواحدة، كل منها لها ميزة تكمل غيرها، وفيها نقص يكمله غيرها. . .

فالفرد الكامل الذي يستطيع أن يحيا وحده لم يخلق بعد ولن يخلق
والأمة الكاملة التي تستطيع أن تحي وحدها لم تخلق كذلك ولن تخلق

تلك حقيقة توحي إلينا الإيمان بالإنسانية الواحدة، وتحتم علينا أن نتناسى مواريث الوحشية القديمة والجهالات الأولى، وإن نفكر للحياة الواحدة المستقبلة التي يصح أن تنتظم الإنسانية جميعها بعد أن ذهب عنها دور الطفولة التي كانت فيها حدود الأرض ومعارفها مجهولة،
ومواردها وأرزاقها محدودة

ويعظم في نفسي يوماً بعد يوم وجه الشبه بين سير الحياة بالفرد الواحد من طفولته إلى رشده إلى شبابه إلى كهولته، وبين سير الحياة بالإنسانية جميعها من طفولتها إلى شبابها إلى كهولتها

وإني أكاد أجزم أن خطوات سير الحياة بالإنسانية كلها هي خطوات سيرها بالإنسان الواحد. . . وكل من يتفرس في الحياة الاجتماعية يجدها كحياة الفرد سواء بسواء في تدرجها من الغرائز والعواطف إلى الرشد والعقل

وكما يحصل للطفل والشاب أن يغضب كثيرا ويكون أنانيا فرديا في حاجاته، ويحطم ما أمامه ولا يبالي النتائج؛ كذلك الإنسانية في دور طفولتها: أنانية غضوب تحطم كل شيء في سبيل منفعتها الضيقة

ولكن كما تمنع التربية وضبط الأعصاب وفعل الزمن الرجولة من أن تلجأ إلى أساليب الأطفال وغرائزهم وتحبسها عن الغضب والتحطيم، إلا إذا امتدت فيها حياة الطفولة لضعف التربية، أو للشذوذ أو عدم تقدير النتائج كذلك الإنسانية لابد أن تصل إلى هذه المرحلة في يوم ما قريب أو بعيد. . .

يوحي إلي ذلك ما أراه في الحرب الحالية من عنف التحطيم وشدة البأس وجنون الإنسان وقسوة الآلة، بحيث لا يمكن مطلقاً أن تحتمل الحياة بعد هذه الحرب إذا لم تقمع الغرائز والحماقات التي أثارتها، وإذا لم يوضع أساس حياة مشتركة للإنسانية الواحدة التي ابتدأت وحدتها تبدو وتستعلن في هذه المجموعات الكبيرة من الأمم، وهذه الرباطات الوثيقة بينها ومن اختزال المسافات والأبعاد واشتباك المصالح، واشتراك مناهج الدراسة والثقافة العامة، ومن معرفة كل جنس بخصائص كل جنس، ومن الدراسات المنظمة والمؤتمرات الجامعة والجمعيات العالمية، ومن كثرة الأسفار وامتزاج الطبائع، واختلاط الأجناس وتفكير أرباب الأعمال في الأسواق العالمية، ومن تبادل تعلم اللغات والأغاني والرقصات وأدوات الزينة. ومن (الصندوق السحري): الراديو الذي سيصوغ حواس الطفولة وقلوبها غير صياغة قلوب الأباء الذين نشأوا محجوزين محجوبين بعضهم عن بعض بالسدود والحدود والتخوم، ومن (السبورة السحرية) السينما التي تنقل الدنيا وناس الدنيا وتعرض الجميع في حجرة ضيقة

يصح أن نسمي عصرنا الحاضر (عصر القبيلة الأممي)، والإنسانية كلها الآن تمر به كما مرت كل أمة بعصر القبيلة. واشتداد التناحر بين مجموعات الأمم المختلفة في هذا العصر هو صورة مما كان يحدث بين القبائل في الأمة الواحدة

ولم يحمل القبائل المتعادية في القديم على الصلح الدائم والاندماج والوحدة الشعبية إلا عنف ما كان بينها من حروب وتخريب وتعطيل للحياة. فلما رأت أنه لا حياة مع الحرية الكاملة والوحشية المطلقة تنازلت كل قبيلة عن بعض حقوقها وحرياتها ورضوا ذلك إما بضغط الأقوى وإما بالإدراك الصحيح للموقف ومراعاة مقتضيات الحياة وكذلك كان الأمر في تكوين الإمبراطوريات المختلفة: حروب ونزاع مستمر وتخريب للممالك والمملوك ثم اتفاق أخير ونزول من الجانبين عن بعض المصالح في سبيل المصلحة التي لا غنى عنها للجميع

وكذلك تكونت الولايات المتحدة الأمريكية من جنسيات ومذاهب مختلفة بعد حروب ونزاع دمر حياتهم في بعض مراحل تاريخهم. . .

وكذلك وجدت البذرة التي لابد أن تنمو بعد هذه الحرب: وهي بذرة (عصبة الأمم) التي سيحافظ الغالب والمغلوب في هذه الحرب على إيجادها وجوداً فعالاً مسلحاً، لا وجوداً صورياً كالذي كان عقب الحرب الماضية

وعندي يقين ثابت أن الأقدار تفصل الآن بالحديد والنار جسم الإنسانية الواحدة ذات الحكومة الواحدة كما فصلت جسم كل إمبراطورية على حدة كما فصلت جسم كل أمة على حدة كما فصلت جسم كل قبيلة على حدة كما فصلت جسم كل أسرة على حدة كما فصلت كل جسم على حدة كما فصلت كل عضو على حدة كما فصلت كل خلية على حدة. . .!

هو قانون واحد يلف الكون كله! قانون الجزيء والذرة هو قانون المجاميع. . . واللقاح السياسي واللغوي والعلمي والاقتصادي في المجموعات الكبرى والإمبراطوريات واتحاد الولايات، هو الوسيلة إلى ذلك الأمل المنشود

ولا يتوهمن واهم أنني أزعم أن الخلاف سيذهب من الأرض كلا. . . وإنما سيبقى كما هو في حدود الدولة بين الأحزاب والآراء والمذاهب الاجتماعية. . . وكما يبقى بين الأسرة

الواحدة، وكما يبقى بين القوى المتنازعة في الفرد الواحد: بين العقل والعاطفة والغريزة لأن الدفع قانون طبيعي كقانون الجذب. . . ولكنه دفع لا يفلت من قانون القوة والقهر، كما هو الحال في الدولة الواحدة القوية التي لا يفلت منها من يريد الخروج عليها

أن نفوس الأجناس وطبائعها تتغير تغيراً سريعا من التمايز إلا الاندماج والاتحاد. فلم يبق في الولايات المتحدة أجناس، وإنما صارت كتلة واحدة بمرور جيل أو جيلين وبتوحيد اللغة. . .

والولايات المتحدة خميرة للحياة الإنسانية المقصودة، هي نموذج ناقص ولكنه أقرب إلى الكمال؛ وكان من الواجب أن يحذو العالم القديم حذو هذا العالم الجديد السعيد، ويترك مواريث التاريخ السيئة وعصبيات الأجناس ونعراتها، ويتفق على الحد الوسيط الذي يرضي الجميع مع التضحية ببعض الاعتبارات والحريات

أوربا ولدت أمريكا. . . والبنت هنا أعقل من أمها وأسعد. فلا تزال القارة العجوز تحتفظ بأحقادها القديمة ومواريث تاريخها السيئ في عالم الحسد والبغض والخديعة والبطش والتنازع. . . ولا تزال تشقى الأرض كلها معها. . . بينما أمريكا تسعدها وتجدد الحياة يوماً بعد يوم، وتنشر الأفراح والمباهج في كل مكان. . .

لقد برئت أمريكا من حب الاستعمار والتنازع عليه، فبرئت من السعار المادي الذي يصاحبه، وبرئت من الصفات الذميمة التي تصاحب خلق الافتراس. . . وصارت حبيبة إلى جميع أمم الأرض. . .

اتخذت الطريق المشروع إلى الغنى والثروة، وهو طريق التجارة والمنافسة المحمودة واستغلال الموارد الطبيعية، لا طريق الغصب والغلاب. . . فعاشت تجمع وتعيش بما تجمع وتوزع منه على مؤسسات البر والعلم في بقاع الأرض، ثم لا تفجع فيما تجمع ولا تحترق وتدمر معه كما جرى لأمم أوربا الآن. . .!

لقد خطا الإنسان بإدراكه عقيدة توحيد الله خطوته العظمى إلى الكمال العقلي والقلبي، حين رأى أن العالم كله يساق بيد واحدة، وتوزن أموره بميزان رب واحد. . . وسيخطو خطوته العملية والعلمية العظمى، حين يدرك (الإنسانية الواحدة) ويؤمن بها؛

وكما حلت عقيدة توحيد الإله مشاكل العقيدة ووجهت الحياة وجهة واحدة بعد أن كانت موزعة
على أرباب متفرقين. . . كذلك سيحل الإيمان بوحدة الإنسان مشاكل وعقداً مستعصية، وتوجه به لأمم وجهة واحدة هي وجهة الخير المشترك، بدل الخير المتفرق الضيق الأناني، ووجهة العلم الباني المعمر، بدل العلم المخرب المدمر. . .
لقد كان منطق الفرقة والتنازع العنيف بين الناس معقولا في الأزمنة الماضية التي كان بين الأمم فيها حواجز سميكة من الجهالة والأسفار الطويلة، واللغات المجهولة، والثقافات المختلفة إلى حد التناقض. . . وكان دور تحكيم الغرائز لا بد منه لحمل ذلك الإنسان الجاهل على التسابق العنيف إلى كشف بقاع الأرض المجهولة، وتلقى منافعها الضائعة إذ لم يكن له علم وعقل يغنيانه عن الغريزة. وكان الاختلاف الحاد بين الناس معقولا لأنه لم يكن هناك أفق عقلي أو علمي أو عملي مشترك بين أمة وأمة متجاورتين بله المتباعدتين، ولم تكن الظروف لتسمح بوجود ذلك الأفق المشترك إلا عن طريق الحرب التي كانت وحدها هي الوسيلة الوحيدة للاختلاط بين المتفرقين، والتعارف بين المتجاهلين. . .
أما الآن فقد صار هذا التفرق والتنازع ضارا بالجميع قاطعاً للعلاقات التي تنمو في وقت السلم نموا عظيما غزيراً لم يكن له مثيل في العصور الأولى. . . وصارت العودة إلى تحكيم الغرائز ارتداداً وانتكاساً في الحياة كانتكاس الرجل الحليم إلى غضب الطفولة الذميم، إذ قد صار في يد الإنسان من أدوات الهلاك والدمار أشياء فظيعة تهدم الحياة من أساسها وتسحق براعم نموها وتجعل العمل للحياة، والسعي لها بعد الحرب عبثاً لا طائل تحته ما دامت الحرب تأتى بعد ذلك لتأكل الأخضر واليابس ولا تبقى ولا تذر
وقد ثبت الآن أن كل ما يصل إليه العلم من أدوات السيطرة والتغلب على قوى الطبيعة وأدوات ترف الحياة ومباهجها يتحول إلى أدوات دمار وإبادة إذا ما ثارت بالأمم ثورة الحرب وبراكين الحقد الدفين. . . فلا أمان على الحياة من شيء مع غضب الإنسان. وقد عاد شعار الجاهلية القديم الذي كان يهتف به المحاربون القدماء؛ وهو تلك الصيحة: يا منصور أمت!
وقد كانت الأديان والأخلاق قد جعلت للحرب في العصور المتوسطة قوانين فيها بقيا غلى مناطق نمو الحياة؛ وفيها ذكرى للود القديم والدم والنسب وصلة العلم والفن والعمران، وكانت الحرب تجد لها في وقت احتدامها ما يخفف آلامها من نبل الفروسية، ورحمة
القادرين، ووصايا القواد بالضعفاء والمرضى والشيوخ والأطفال والنساء والحرث والنسل:
إذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها ... تذكرت القربى ففاضت دموعها!
أما الآن فإذا بطشوا بطشوا جبارين! لا يذكرون طفولة ولا شيخوخة ولا مخلفات الفنون والعلوم والآثار الثمينة التي هي ملك الإنسانية جميعها. . .
ومن كان يظن أن الإنسان الأوربي العالم الفنان الذي فتنته أحاسيس الحياة وجن بها جنونا فعبدها في الزهور والرياحين والحب والألحان والعناية بالطفولة، واقتنى التحف والمخلفات الأثرية من الجماجم والعظام والأحجار والخرزات، ولم يدخر في سبيلها مالاً، وجميع مجموعات النبات والحيوان، وحرص على استخراج كنوز الأرض، والتقى على صفاء في المجاميع العلمية والأدبية والملاعب الرياضية والمؤتمرات العالمية وتبادل تعلم اللغات، وسكن جميع بقاع الأرض، وعرف آلام الأجسام والأرواح، وأنفق الأموال الطائلة على نبش الأرض ليستخرج منها حلقة مفقودة تنير له تاريخ الإنسانية التي يعتز بها. . . من كان يظن أن من فعل كل أولئك يجرؤ على أن يهدم حاضر الإنسانية بكل ما حمل في طياته من الماضي، ولا يبالي أن يزهق الإنسان ومدنه وكل ما حمله عقله وقلبه!!
فأين عالم الدفاتر والمحابر والمنابر والمؤتمرات والمجامع والمعاهد والمعابد؟ أين عالم العقول والقلوب؟
أين الشعر والفن والرحمة والحب والجمال والخير؟
أين المعاني التي سجلها الدين والأدب عن الآلام، ودارت عليها فلسفات وقصص

ومسرحيات؟
أين مؤسسات الرفق بالحيوان؟
أين كل (الدراما) و (الترجيديا) التي كانوا بها يبكون في المسارح؟
أكانت ملاهي وملاعب لا أكثر؟ يا لها إذا من خديعة عبقرية!
ولكن هذه هي الحرب العصرية. . . صورة مصغرة من أهوال القيامة. . . بل القيامة ساعة ثم تنقضي الحياة ويستريح الناس بالموت إلى حين. . . ولكن الحرب العصرية (قيامات) لا عدد لها. . . بها يموت الناس ويبعثون ثم يموتون ويبعثون كلما شنت عليهم غارة جوية إلى أن تضع الحرب أوزارها. . .
فيا بني الحياة! أي حياة هذه!؟
أن الله أرحم بالناس من أن يجعلهم لمثل هذه الحياة. . . الناس أرفع بأنفسهم من أن يعبدوا مثلها. . . أنها مرحلة لابد منها في طريق الإنسانية الشقية إلى الاستقرار والراحة واللقاء الذي لابد منه بعد الافتراق والتقلقل
. . .ومن بين ظلمات هذه الحرب الخاطفة السريعة يلمع نور السلام البطيء الطويل
. . .ومن بين نيرانها وزلازلها وبراكينها يبدو برد الحياة وثباتها واستقرارها
. .ومن بين قسوة القلوب فيها بقسوة الآلات والمدمرات تلوح عواطف الرحمة والحب
.
لقد كان من نتائج الحروب الكبرى دائما ابتداء دورة زمنية بالإنسان وانقلاب في أوضاع الحياة. . . والذين عاشوا قبل الحرب العظمى الماضية وبعدها يدركون الفرق الشاسع بين الحياتين. . .
هذه السرعة التي في الحرب ستكون في السلم. . . وكما استحال سيف الحرب إلى مبضع الطب ستستحيل جميع آلات الدمار إلى آلات إنتاج وتعمير ورفاهية
ولاشك أن تشبيه الحرب بحادث المخاض والولادة تشبيه صحيح من كل وجه. . . فكل حرب تلد مولودا من الطباع والأوضاع والأفكار والآلات والمرافق. . . مولودا يجدد الحياة ويقذف في شعلتها حطبا ويسقيها زيتاً. . . ولا ضير فيما يصحب ذلك من الألم والدم والهزة والخوف؛ فكل هذه أعراض تصحب حادث الولادة في حياة الإنسان. . .
ولن تضيع سدى تلك الأرواح لتي ذهبت قرابين للمعاني السامية التي في قلوب الأمم المتحاربة. وإنما هي لبنات في البناء الخفي للوجود الإنساني. . . وأنها كلها حية تنظر إلى عراك الجماعات في عالم الظواهر كعراك ذرات تحملها الريح أو حصى يحمله ماء السيل حتى تبلغ مكانها المرصود في بناء الوجود. . .
وسواء أوضع حجر في خفاء الأساس أم رفع في علانية القمة، فالكل بناء واحد. . . وتبلغنا الآن أنباء انكسار أمة وانتصار أخرى فلا نلتفت إلى الأفراد فيها. وإنما يعلو عنوانها أو ينخفض وهي صورة موحدة ليس فيها توزيع. فتفرح كلها بالانتصار ولو باد في سبيله كثيرون، وتستاء كلها بالانهزام، ولو انتصر فيها كل فرد نصرا فرديا وأتى بأعمال البطولة المعجزة
فهل لأصحابنا الفرديين الأنانيين أن ينظروا موضع الفرد من الأمة على ضوء نار هذه الحرب، وموضع الأمة من مجموعة الأمم التي تنتسب إليها حتى يتبينوا أنه لا وجود إلا للمعاني العامة التي هي ملك الإنسانية جميعها؟
أن هذه النظرة تجعلهم يحملون السلم بقلب عارف بها، ويحاربون إذا كتبت عليهم الحرب بسيوف كمباضع الأطباء: تقطع لتشفي، وتقتل فتحسن القتلة بدون مثلة ولا نية أثم أو جريمة. وتجعلهم خصوماً شرفاء رحماء يحاربون بروح رياضية كأنهم يلعبون. وتجعل من السيوف ظلالا للضعفاء والمسالمين.
أولئك هم الربانيون المؤمنون بالله وبالإنسان أثمن ودائع الله في الأرض!
عبد المنعم خلاف
أشكر للأستاذ بشير صادق تقديره الكريم، وأرجو الله التوفيق في طلب الحق والإبانة عنه.
صورة وصفية دمشقية من القرن الماضي
العجوزان!
للأستاذ علي الطنطاوي
أغلق الشيخ الباب فتنفس أهل الدار الصعداء، وأفاقوا إفاقة من يودع الحلم . . .

المرعب، أو الكابوس الثقيل، ثم انفجروا يصيحون، يفرغون ما اجتمع في حلوقهم من الكلمات التي حبسها وجود الشيخ فلم ينسبوا بها. وانطلقوا في أرجاء الدار الواسعة - والأولاد (صغار أولاد الشيخ وأحفاده) يتراكضون ويتراشقون بما تقع عليه أيديهم من أثاث الدار، ويتراشون بالماء، أو يدفع بعضهم بعضا في البركة الكبيرة التي تتوسط صحن الدار، فيغوص الولد في أمواهها، فتعدو إليه أمه أو من تكون على مقربة منه فتخرجه بين قهقهة الصغار وهتافهم وتقبل عليه لتنضو عنه ثيابه وتجفف خشية المرض جسده، فإذا هو يتفلت من بين يديها، ثم يركض وراء أخوته وأبناء عمه ليأخذ منهم الثأر، والماء ينقط من ثيابه على أرض الدار المفروشة بالرخام الأبيض والمرمر الصافي، التي أنفقت الأسرة ساعات الصباح كلها في غسل رخامها ومسحه بالإسفنج، حتى أضحى كالمرايا المجلوة أو هو أسنى. . . وعلى السجاد الثمين الذي يفرش القاعات الكثيرة والمخادع، وهم يتنقلون من غرفة إلى غرفة، ومن درج إلى درج، ويفسدون ما يمرون به من الأغراس التي لم تكن تخلو من مثلها دار في دمشق، من البرتقال والليمون والكباد والفراسكين والنارنج والأترج (الطرنج) وقباب الشمشير (زينة الدور) والياسمين والورد والفل؛ تتوسط ذلك كله الكرمة (الدالية) التي تتمدد على (سقالة) تظلل البركة تحمل العنب (البلدي) الذي يشبه في بياضه وصفائه اللؤلؤ، لولا أن الحبة الواحدة منه تزن أربع حبات مما يسمى في مصر والعراق عنباً. . . والجدة تعدو وراءهم ما وسعها العدو تصرخ فيهم صراخا يكاد من الألم يقطر منه الدم: ولك يا ولد أنت وياه. . . يقصف عمري منكم. . . وسختم البيت. . . يا ضيعة التعب) والهلاك. . . الله يعجل علي بالموت حتى اخلص منكم(!

فيختلط صراخها بصياح الأولاد، وضحك الضاحكين منهم وبكاء الباكين، وهم يتضاربون، ويسقطون ما يعثرون به من الأواني والكئوس. . . لا يصغي لنداء الجدة أحد منهم. . . ويلبثون على ذلك حتى ينادي المؤذن بالظهر، فتنطفئ عند ذلك شعلة حماستهم، وتتخافت أصواتهم ويحسون بدنو ساعة الخطر، فينزوي كل واحد منهم في ركن من أركان الدار ينظر في ثيابه يحاول أن يزيل ما علق بها من الأوساخ، أو أن يصلح ما أفسد منها، كيلا يبقى عليه أثر يعلن فعلته، ويتذكرون ما هشموا من آثار المنزل حين عاثوا فيه مخربين، فيجمع كل واحد منهم ما يقدر عليه من حطام الأواني فيلقيه في زاوية الزقاق في غير الطريق الذي يمر منه الشيخ، ويرجع النسوة إلى أنفسهن فيسرعن في إعداد الطعام وإصلاح المنزل. وتدور العجوز لتطمئن على أن قبقاب الشيخ في مكانه لم يزح عنه شعرة، لا تكل هذه (المهمة) لكنتيها ولا لبناتها، لأنها لم تنس طعم العصي التي ذاقتها من أربعين سنة. . . في ذلك اليوم المشؤوم الذي وقعت فيه الكارثة ولم يكن قبقاب الشيخ في مكانه، وضم إليها القدر مصيبة أخرى أشد هولا وأعظم خطرا، فتأخر صب الطعام عن موعده المقدس (في الساعة الثامنة عشر دقائق كاملات الغروبية) . . .

وللشيخ حذاء (كندرة) للعمل، وخف (صرماية) للمسجد، و (بابوج) أصفر يصعد به الدرج ويمشي به في الدار، و (قبقاب) للوضوء، وقد تخالف الشمس مجراها فتطلع من حيث تغيب، ولا يخالف الشيخ في عادته فيذهب إلى المسجد بحذاء السوق، أو يتوضأ بباجوج الدرج. . .

وتعد العجوز قميص الشيخ ومنديله، وتهيئ (البقجة) التي تضع فيها ثياب السوق بعد أن تساعده على نزعها وتطويها على الطريقة التي ألفتها وسارت عليها منذ ستين سنة، من يوم تزوج بها الشيخ وكان في العشرين وكانت هي بنت ست عشرة، وهي لا تزال تذكر إلى الآن. كيف وضح لها أسلوبه في الحياة وبين لها ما يحب وما يكره، وعلمها كيف تطوي الثياب وكيف تعد القبقاب، كما علمها ما هو أكبر من ذلك وما هو أصغر وحذرها نفسه وخوفها غضبه إذا هي أتت شيئا مما نهاها عنه، فأطاعت ولبثت هذا العمر كله وهي سعيدة مسعدة طائعة مسرورة لم تخالف إلا في ذلك اليوم المشؤوم وقد لقيت فيه جزاءها، ونظرت العجوز الساعة فإذا هي في منتصف الثامنة. لقد بقي نصف ساعة. . . ففرقت أهل الدار ووزعت عليهم الأعمال، كما يفرق القائد ضباطه وجنده ويلزمهم مواقفهم استعدادا للمعركة، فأمرت بنتها الكبرى بإعداد الخوان للطعام، وبعثت بالأخرى لتمسح

أرض الدار التي وسخها الأولاد، وأمرت كنتيها بتنظيف وجوه الصغار وإبدال ثيابهم حتى لا يراهم الشيخ إلا نظافاً. . . ثم ذهبت ترد كل شيء إلى مكانه؛ ولكل شيء في هذه الدار الواسعة موضع لا يريمه ولا يتزحزح عنه، سنة سنها الشيخ لا تنال منها الغير ولا تبدلها الأيام، فهو يحب أن يوضع يده على الشيء في ظلمة أو نور، في ليل أو نهار، فيلقاها في مكانه. ولما اطمأنت العجوز إلى أن كل شيء قد تم، نظرت في الساعة فإذا هي دون الموعد بخمس دقائق. . . فاستعدت وغسلت يديها ووجهها ولبست ثوبا نظيفا كعهدها ليالي عرسها لم تبدله، واستعد أهل الدار بكبارهم وصغارهم. فلما استوى عقرب الساعة الثامنة أرهفوا أسماعهم فإذا المفتاح يدور في الباب. أنه الموعد ولم يتأخر الشيخ عن موعده هذا منذ ستين سنة إلا مرات معدودة عرض له فيها شاغل لم يكن إلى دفعه من سبيل. فلما دخل أسرعوا إليه يقبلون يده وأخذت ابنته العصا فعلقتها في مكانها، وأعانته على خلع الحذاء وانتعال البابوج الأصفر، وسبقته زوجته إلى غرفته لتقدم إليه ثياب المنزل التي يتفضل بها

غاضت الأصوات، وهدأت الحركة، وعادت هذه الدار الواسعة إلى صمتها العميق، فلم يكن يسمع فيها إلا صوت الشيخ الحازم المتزن، وأصوات أخرى تهمس بالكلمة أو الكلمتين ثم تنقطع، وخطى خفيفة متلصصة تنتقل على أرض الدار بحذر وخوف. . . وكانت غرفة الشيخ التي يؤثرها على يمين الإيوان العظيم ذي القوس العالي والسقف المنقوش الذي لا تخلو من مثله دار في دمشق، والذي يتوجه أبداً إلى القبلة ليكون لأهل الدار مصيفاً يغنيهم عن ارتياد الجبال في الصيف، ورؤية ما فيها من ألوان الفسوق، يشرفون من على الصحن المرمي وأغراسه اليانعة وبركته ذات النوافير. . . وكانت غرفة الشيخ رحبة ذات عتبة مستطيلة تمتد على عرض الغرفة التي تعلو عن الأرض أكثر من ذراع كسائر الغرف الدور الشامية، تغطيها (تخشيبة) مد عليها السجاد وفرشت في جوانبها (الطراريح): الوسائد والمساند، وقامت في صدرها دكة أعلى ترتفع عن (التخشيبة) مقدار ما تهبط عنها العتبة، وكان مجلس الشيخ في يمين الغرفة يستند إلى الشباك المطل على رحبة الدار، وقد صف إلى جانبه علبة وأدواته، وهن حق النشوق الذي يأخذ منه بيده ما ينشقه من التبغ المدقوق الذي ألفه المشايخ فاستحلوه بلا دليل حتى صاروا يشتمونه في المسجد كما حرموا الدخان بلا دليل. . . والى جنب هذا الحق علبة نظارات الشيخ ومنديله الكبير والكتابان اللذان لا ينتهي من قراءتهما: الكشكول والمخلاة، وفي زاوية الشباك أكياس بيضاء نظيفة مطوية يأخذها معه كل يوم حينما يغدو لشراء الطعام من السوق، فيضع الفاكهة في كيس واللحم في آخر، وكل شيء في كيسه الذي خصصه به، وهذه الأكياس تغسل كل يوم وتعاد إلى مكانها. وعن يساره خزانة صغيرة من خشب السنديان المتين أشبه الأشياء بصندوق الحديد، لا يدري أحد حقيقة ما فيها من التحف والعجائب، فهي مستودع ثروة الشيخ وتحفه. ومما علم أهل الدار عنها أن فيها علباً صغاراً في كل علبة نوع من أنواع النقد: من النحاسات وأنصاف المتاليك والمتاليك وأمات الخمسين وأمات المائة والبشالك والزهراويات إلى المجيديات وأجزائها والليرات العثمانية والإنكليزية ووالفرنسية، كل نوع منها في علبة من هذه العلب، فإذا أصبح أخذ منها مصروف يومه الذي قدره له يوم وضع (ميزانية) الشهر، ثم إذا عاد نظر إلى ما فضل معه، فضم كل جنس إلى جنسه. وفي هذه الخزانة (وهي تدعى في دمشق الخرستان)، الفنار العجيب الذي كان يخرجه إذا ذهب ليلا (وقلما كان يفعل) يستضيء به في طرق دمشق التي لم يكن فيها أنوار إلا أنوار النجوم ومصابيح الأولياء وسرجهم، واكثر هذه السرج يضاء ببركة الشيخ عثمان نهارا ويطفأ ليلاً. . . وفيها الكأس التي تطوى. . . والمكبرة التي توضع في شعاع الشمس فتحرق الورقة من غير نار. . . وفيها خواتم العقيق التي حملها الشيخ من مكة، فأهدى إلى أصحابه قسما منها وأودع الباقي خزانته. . . وفيها الليرات الذهبية التي كان يعطيها الأطفال فيأكلونها لأنه حشوها (شكولاته). . . وكانت هذه هي عجائب الدار السبع!

وأمام الشيخ (الرحلاية) وفوقها (السكمجاية)، وهي صندوق صغير فيه أدراج دقيقة ومخابئ وشقوق للأوراق، وبيوت للأقلام في صنعة لطيفة، وهيئة غريبة، كانت شائعة يومئذ في دمشق، موجودة في أكثر البيوت المحترمة. . . . . .

والويل لمن يمس شيئاً من أدوات الشيخ أو يجلس في مكانه. ولقد جنى الجناية أحد

الأطفال مرة فعبث بعلبة النشوق فأسرعت أمه فزعة وأخذتها منه وأبعدته وأعادتها إلى مكانها، فانزاحت لشؤم الطالع عن موضعها مقدار أنملة وعرف ذلك الشيخ - فكأنها أهل المنزل اسود - وحرموا بعده الدنو من هذا الحمى!

كان الشيخ في الثمانين ولكنه كان متين البناء شديد الأسر، أحاط شبابه بالعفاف والتقى،

فأحط العفاف شيخوخته بالصحة والقوة، وكان فارع الطول عريض الأكتاف، لم يشك في حياته ضعفاً، ولم يسرف على نفسه في طعام ولا شراب ولا لذة. ولم يجد عن الخطة التي اختطها لنفسه منذ أدرك. فهو يفيق سحراً والدنيا تتخطر في ثوب الفتنة الخاشعة - والخشوع الفاتن - والعالم ساكن لا يمشي في جوانبه إلا صوت المؤذن وهو يمجد الله في السحر، يتحدر من أعلى المنارة فيخالط النفوس المؤمنة فيهزها ويشجيها، يمازجه خرير الماء المتصل يصعد من نافورة الدار يمجد (هو الآخر) ربه ويسبح بحمده، (وإن من شيء إلا يسبح بحمده)، فيقف الشيخ متذوقا حلاوة الإيمان، ثم ينطلق لسانه ب (لا اله إلا الله) تخرج من قرارة فؤاده المترع باليقين، ثم ينزع ثيابه وينغمس في البركة يغتسل بالماء البارد ما ترك ذلك قط طول حياته، لا يبالي برد الشتاء ولا رطوبة الليل. وكثيراً ما كان يعمد إلى قرص الجليد الذي يغطي البركة فيكسره بيده ويغطس في الماء ثم يلبس ثيابه ويصلي ما شاء الله أن يصلي، ثم يمشي إلى المسجد فيصلي الصبح مع الجماعة في مجلس له وراء الإمام ما بدله يوماً واحداً، ويبقى مكانه يذكر الله حتى تطلع الشمس وترتفع فيركع الركعتين المأثورتين بعد هذه الجلسة، ويرجع إلى داره فيجد الفطور معداً والأسرة منتظرة، فيأكل معهم اللين الحليب والشاي والجبن أو الزبدة ولزيتون والمكدوس، ثم يغدو إلى دكانه فيجدها مفتوحة قد سبقه ابنه الأكبر إليها ففتحها ورتبها

والدكان في سوق البزازين أمام قبر البطل الخالد نور الدين زنكي، وهي عالية قد فرشت أرضها بالسجاد وصفت أثواب البز أما الجدران، ووضعت للشيخ وسادة يجلس عليها في صدر الدكان ويباشر أبناؤه البيع والشراء بسمعه وبصره، ويدفعون إليه الثمن، فإذا ركد السوق قليلا تلا الشيخ ما تيسر من القرآن أو قرأ في (دلائل الخيرات) أو تحدث إلى جار له مسن حديث التجارة، أما السياسة فلم يكن في دمشق من يفكر فيها أو يحفلها، وإنما تركها الناس للوالي والدفتردار والقاضي والخمسة أو الستة من أهل الحل والعقد، وكان هؤلاء هم الحكومة (كلها. . .) وكان الشيخ مهيباً في السوق كهيبته في المنزل، تتحاشى النسوة المستهترات الوقوف عليه، وإذا تجرأت امرأة فكشفت وجهها أمامه لترى البضاعة، كما تكشف كل مستهترة، صاح بها فأرعبها وأمرها أن تستتر وإن تلزم أبداً حدود الدين والشرف، وكانت تبلغ به الهيبة أن يعقد الشباب بينهم رهاناً، أيهم يقرع عليه بابه، ويجعلوا الرهان ريالا مجيدياً أبيض، فلا يفوز به أحد منهم.

وكان الشيخ قائماً بحق أهله لا يرد لهم طلبا، ولا يمنعهم حاجة يقدر عليها، ولكنه لا يلين لهم حتى يجرؤوا عليه، ولا يقصر في تأديب المسيء منهم، ولا يدفع إليهم الفلوس أصلا. وما لهم والفلوس وما في نسائه وأولاده من يخرج من الدار ليشتري شيئا؟ وما لهم ولها كل طعام أو شراب أو كسوة أو حلية بين أيديهم، وما اشتهوا منه يأتيهم؟ ولماذا تخرج المرأة من دارها، إذا كانت دارها جنة من الجنان بجمالها وحسنها، ثم أن فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين؟

يلبث الشيخ في دكانه مشرفاً على البيع والشراء حتى يقول الظهر: (الله أكبر)، فينهض إلى الجامع الأموي وهو متوضئ منذ الصباح، لأن الوضوء سلاح المؤمن، فيصلي فيه مع الجماعة الأولى، ثم يأخذ طريقه إلى المنزل، أو يتأخر قليلا ليكون في المنزل عندما تكون الساعة في الثامنة. أما في العصر فيصليه في مسجد الحي، ثم يجلس عند (برو العطار) فيتذاكر مع شيوخ الحي فيما دق وجل من شؤونه. . . أختلف أبو عبده مع شريكه فيجب أن تؤلف جمعية لحل الخلاف. . . والشيخ عبد الصمد في حاجة إلى قرض عشر ليرات فلتهيأ له. . . وعطا أفندي سلط ميزابه على الطريق وأذى السابلة فلينصح وليجير على رفع الأذى عن الناس. . .!

أي أن هذه الجماعة محكمة، ومجلس بلدي، وجمعية خيرية إصلاحية تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر. وكان (برو العطار) مخبر اللجنة ووكيلها الذي يعرف أهل الحي

جميعاً برجالهم ونسائهم، فإذا رأى رجلاً غريبا عن الحي يحوم حول أحد المنازل سأل عنه من هو؟ وماذا يريد؟ وإذا رأى رجلا يماشي امرأة نظر لعلها ليست زوجته ولا اخته، ولم يكن في دمشق صاحب مروءة يماشي امرأته في طريق فتعرف به حيثما سارت، بل يتقدمها أو تتقدمه ويكون بينهما بعد بعيد، وإذا بنى رجل غرفة يشرف منها على نساء جاره أنبأ الشيخ وأصحابه فألزموه حده، وإن فتح امرؤ شباكاً على الجادة سدوه، لأن القوم كانوا يحرصون على التستر ويكرهون التشبه بالإفرنج، فالبيوت تبدو من الطريق كأنها مخازن للقمح لا نافذة ولا شباك، ولكنها من الداخل الفراديس والجنان. فكان الحي كله بفضل الشيخ وصحبه نقياً من الفواحش صيناً؛ أهله كأهل الدار الواحدة لا يظن أحد منهم على الآخر بجاهه ولا

بماله؛ وإذا أقام أحدهم وليمة، أو كان عنده عرس أو ختان، فكل ما في الحي من طباق وصوان وكؤوس تحت يده وملك يمينه

مر دهر والحياة في هذه الدار سائرة في طريقها لا تتغير ولا تتبدل ولا تقف. مطردة اطراد القوانين الكونية، حتى جاء ذلك اليوم. . . ودقت الساعة دقاتها الثمان، وتهيأ أهل الدار على عادتهم لاستقبال الشيخ؛ ولكن العجوز الطيبة والزوجة المخلصة لم تكن بينهم، وإنما لبثت مضطجعة على الأريكة تشكو ألما شديدا لم يفارقها منذ الصباح. وأدار الشيخ مفتاحه ودخل فلم يرها وهي التي عودته الانتظار عند الباب، ولم تحد عن هذه العادة مدة ستين سنة إلا أيام الوضع ويوم ذهبت لتودع أباها قبل وفاته؛ فسأل الشيخ عنها بكلمة واحدة أكملها بإشارة من يده، فخبرته ابنته وهي تتعثر بالكلمات هيبة له وشفقة على أمها، أنها مريضة. فهز رأسه ودخل، فلما وقع بصره لم تتمالك نفسها فنهضت على غير شعور منها تقبل يده، فلما مست أصابعه أحس كأنما لمسته جمرة ملتهبة؛ وكان الشيخ على ما بيده من شدته وحزمه وحبه النظام، قوي العاطفة، محبا لزوجته مخلصاً لها، فرجع من فوره ولم يأكل، ولم يدر أحد في المنزل لماذا رجع ولم يجرؤ على سؤاله واكتفوا بتبادل الآراء في تعليل هذه الحادث الغريب، الذي يشبه في أنظارهم خروج القمر من مداره. ومضت على ذلك ساعة أو نحوها، ثم سمع المفتاح يتحرك في الباب فسكتوا وحبسوا الأنفاس وترقبوا هذه المفاجأة. فدخل الشيخ وصاح: (روحوا من الطريق)؛ فاختبأ النسوة ليدخل الضيف، غير أنهن نظرن من شق الباب - على عادة نساء البلد - فأبصرن الطبيب وكن يعرفنه لتردده على المنزل كلما تردد عليه المرض. . . وكان الطبيب شيخاً وكانت بينه وبين العجوز قرابة، ومع ذلك فقد أمر الشيخ العجوز بلبس ملاءتها وإلا تظهر منها إلا ما لابد من إظهاره؛ ثم أدخله عليها، فجس نبضها، وقاس حرارتها، ورأى لسانها. وكان ذلك منتهى الدقة في الفحص في تلك الأيام، ثم خرج مع الشيخ يساره حتى بلغا الباب، فودعه الشيخ وعاد، فأمر بأن تبقى العجوز في غرفتها وإن تلزم الحمية وتتناول العلاج الذي يأتيها به . . .

مرت أيام طويلة والعجوز لم تفارق الفراش، وكان المرض يشتد عليها حتى تذهل عن نفسها، وتغلبها الحمى فتهذي. . . (صارت الساعة الثامنة. . . يلا يا بنت، حضري الخوان. . . والقبقاب؟ هل هو في مكانه. . .)! وتهم أحيانا بالنهوض لتستقبل زوجها؛ وكانت بنتاها وكنتاها يمرضنها ويقمن في خدمتها فإذا أفاقت حدثتهن وسألتهن عن الشيخ هل هو مستريح؟ ألم يزعجه شيء؟ والدار؟ هل هي كما تعهدها أم قد اضطربت أحوالها؟ ذلك همها في مرضها وفي صحتها، لا هم لها سواه

وحل موسم المعقود وهي مريضة فلم تطق على البقاء صبرا، وكيف تتركه وهي التي لم تتركه سنة واحدة من هذه السنين الستين التي عاشتها في كنف زوجها، بل كانت تعقد المشمش والجانرك والباذنجان والسفرجل، منه ما تعقده بالسكر ومنه ما تعقده بالدبس، وكانت تعمل مربى الكباد والبقطين، فيجتمع لها من أنواع المعقودات والمربيات والمخللات (الطرشي) ومن أنواع الزيتون الأسود والأخضر والمفقش والجلط وأشكال المكدوس معمل امقار (كونسروة) صغير تقوم به هذه الزوجة المخلصة وحدها صامتة، ولا يعيقها ذلك عن تربية أولادها ولا عن إدارة منزلها وتنظيفه ولا عن خياطة أثوابها وأثواب زوجها وبنيها، بل تصنع مع هذا كله البرغل، وتغسل القمح وتعجن العجين، وكذلك كانت الزوجات في القرن الماضي

حل الموسم فكيف تصنع العجوز المريضة. . .؟ لقد آلمها الأمر وحز في كبدها، وبلغ منها أكثر مما بلغ المرض بشدته وهوله، فلم يكن من ابنتها المخلصة وكنتها الوفية إلا

أن جاءتا بالمشمش فوضعتاه أمام فراشها وطفقتا تعقدانه أمامها، وتعملان برأيها فكان ذلك أجمل ما تتمنى العجوز

واشتدت العلة بالمرأة وانطلقت تصيح حتى اجتمع حولها أهل الدار جميعاً، ووقفوا ووقف الأطفال صامتين وحبهم لهذه العجوز الطيبة التي عاشت عمرها كلها لزوجها وبنيها يطفر من عيونهم دمعا حاراً مدراراً، وهم لا يدرون ماذا يعملون، يودون لو تفتدى بنفوسهم ليفدوها. ثم هدا صياحها، وجعل صوتها يتخافت حتى انقطع، فتسلل بعض النسوة من الغرفة، ووقف من وقف حائرا يبكي

ولكن العجوز عادت تنطق بعدما ظنوها قضت، فاستبشروا وفرحوا؛ وسمعوها تتكلم عن راحة الشيخ وعن المائدة والساعة الثامنة والبابوج والقبقاب. . . بيد أنها كانت يقظة الموت، ثم أعقبها الصمت الأبدي. وذهبت هذه المرأة الطيبة، وكان آخر ما فكرت فيه عند

. . .موتها، وأول ما كانت تفكر فيه في حياتها: زوجها ودارها

ارتفع الكابوس عن صدور الأطفال حين اختل نظام الفلك ولم يبق لهذا الموعد المقدس في الساعة الثامنة روعته ولا جلاله، ولم يعد يحفل أحد بالشيخ لأنه لم يعد هو يحفل بشيء. لقد فقد قرينه ووليفه وصديق ستين سنة، فخلت حياته من الحياة، وعادت كلمته لا معنى لها، وانصرف عن الطعام وأهمل النظام، فعبثت الأيدي بعلبه وأكياسه، وامتدت إلى (الخرستان) السرية التي أصبح بابها مفتوحا، فلم تبق فيها تحفة ولا مالا، وهو لا يأسى على شيء ضاع منه بعدما أضاع شقيقه نفسه. وتهافت هذا البناء الشامخ، وعاد ابن الثمانين إلى الثمانين، فانحنى ظهره وارتجفت يداه ووهنت ركبتاه، ولم يكن إلا قليل حتى طويت هذه الصفحة، فختم بها سفر من أسفار الحياة الاجتماعية في دمشق كله طهر وتضحية ونبل!

علي الطنطاوي

المحامي

نظرات في الشعر

للأستاذ محمود البشبيشي

من الشعر ما يلعب بالنفوس لعباً، بل يقلب جوهره قلباً، فيبعث في الرجل الصخري المزاج روحاً ارق من نسيم الفجر، والطف من شفاء الورد، وأنقى من دموع الفرح؛ ومن الشعر ما ينفذ إلى القلوب بغير إذن، لأن كل لفظ فيه لفظ من القلب، وكل مقطع من مقاطعه قطعة من الفؤاد، تتفتح له القلوب لأنه منها، وتتلقاه خافقة لأن كل نغم فيه من خفقاتها. في الشعر قيود لا انفكاك لها، ولكنها قيود محبوبة، يحس بضرورتها من كان من ذوي النفوس الحية، والقلوب الندية، ويحس بضرورتها من يضيقون بحرية الحياة الجائرة وقد فسدت، وحرية الشهوات والنزعات الداجية وقد تمادت، فيميلون إلى قيد من قيود الشعر يسعدون به، ويشعرون فيه بمعنى حرية الطهر والنقاء. إنهم يشعرون بالحرية في قيده، لأن الشعر حين يقيدهم إنما يقيد صوراً حية من الحياة الجائرة، ويمنعها من الوصول إليهم، أو يطهرهم منها لحظة، ويتيح لهم أن يتصلوا بعالم منغم حلو نقي هو عالم الشعر

بحث الكتاب في الشعر، وسيبحثون لأنه موضوع الشعور الحي، موضوع الروح: موضوع الحياة، سار مع الزمن، يضعف في عهد فتذبل أناشيده على الشفاء، ويشتد في عهد فتغنى به القلوب، وما ضعف ولا أشتد لعجزه عن مسايرة الزمن وأطواره، ولكنه ضعف حين ضعف المشاعر النبيلة في النفوس، وغشيت القلوب الأطماع، وأشتد حين تلألأت في النفوس أنوار الشعور، وأحس الناس أن في صدورهم قلوبا تخفق، فمالوا إلى ترجيع الكلام، حتى يجانسوا بين أنغام القلوب وبينه. . ولعل هذه الصلة هي أصل الشعر! ومن هنا كان الشعر محبباً إلى النفوس لأنه منظم لمشاعرها، ولأن الطبيعة وهي مصدره منظمة منقمة. ولا عجب، فكل ما في الشعر من وزن وقافية وموسيقى أساسه النظام. من روعة الشعر أنه خلق نفسه خلقاً في حياة الإنسان، لينظم ويرتب وينسق كل ما يتصل فيها بالشعور. . .

قاله الشاعر حين اضطربت مشاعره في نفسه وغلبته الآلام والآمال، وتراكمت ففقدت النظام؛ وشعر هو بذلك فضاق واضطرب، وضج وثار، وفكر وتأمل، ولما صدق

تأمله أدرك أن في نفسه تعبيرا عجز عن بيانه، وإن حديثه وخطابته لم يجدياه نفعاً ولم يخففا
ألمه؛ فهو لا يزال مضطرباً، عاجزاً عن بيان ما يشعر به في قرارة نفسه. . . وهو لا يزال يشكو ولا يعقل أن يكون سبب شكواه ضعفاً في رجولته وهو ابن البادية. . . إذن لعل في أسلوب شكواه والعبير عن آماله نقصاً. . . أنه لكذلك فراح يبحث عن لغة جديدة ينفث بها آلامه وأماله فتهدأ نفسه، فكان الشعر لغته الجديدة، وكان شفاء علته، وكان لسان الروح ولسان القلب.
ما أروع الشعر! لقد خلق نفسه خلقاً، بل لقد خلقته حاجة النفس البشرية إلى تنظيم مشاعرها، ومنذ عرف الشعر أصبح ترجمان القلوب، ولغة النفوس، ينتقل بك من عالم القيد إلى عالم الخيال، وتجد أنت في ذلك لذة لا تدري كنهها، ولا تعلم مصدرها، ولكنك برغم ذلك تحبها وتود السبح في سمائها الحالمة، والشعر يغمر نفس الشاعر وجدانا موزوناً نغماً
يولد الشاعر والشعر في روحه سر من اسرارها، لا يظهر إلا إذا انتظمت مشاعره، ولكنه لا يتقيد بسن ولا بزمن، وقد تفاوت مواعيد ظهوره بتفاوت نفوس الشعراء واستعدادها لتنظيم حياتها بطبيعة النظام الشعري الكامن فيها، فمن الشعراء المفطورين من يتمادى به العمر قبل أن يقول الشعر، ومنهم من تشع نفسه إشعاع الشعر، وهي في أيام الصبا الندية. . . ليس معنى هذا أن ملكة الشعر تقبر طيلة هذه الفترة الخامدة في نفس الشاعر، بل أنها لتظهر ولكن في صور أخرى كأن يميل صاحب النفس الشاعرة في طفولته إلى اللعب المنظم وجمع الصور الملونة والى سماع الموسيقى، وفي شبابه إلى الرسم الجميل وابتكار الصور البديعة. ذلك بأن ملكة الشعر موجودة فيه، تنظم اتجاهات نفسه، وتعمل على السمو بها حتى تتهيأ لرسالة الشعر. ومن عظمة الشعر أن يكون للشاعر المكفوف عيناً يغمر قلبه بالنور فيبدد غياهب الظلمة، وينثر الشعر أمامه نجوماً وشموساً تبهر عيون المبصرين. إلا أن الشعر وحي يرتفع بالشاعر إلى مرتبة الروحانية، ففي استطاعة الشاعر أن يعرض لك الصور الحسية الجافة الصامتة عرضاً كله حيوية ناطقة؛ يصور لك الشيء الذي لم تره، فتشعر كأنك رأيته ولمسته وخبرته. وما رأيته ولا لمسته، ولكنه سحر الشعر وفنه وأعجازه، يجعل من المعنويات محسات، ومن الأخيلة حقائق، فما أبدعه وما أروعه!
انتهينا إذن إلى أن الشعر لغة روحية، هب نسيمها على النفوس عندما انتظمت المشاعر، وحينما
تهيأت لتلقي الرسالة الشعرية؛ وأنه أسلوب خلق نفسه في الإنسان خلقاً، عندما ضاقت النفس بمعان لا تصورها خطابة، ولا يعبر عنها حديث، وقد ارتاحت النفوس إلى الشعر لأن طبيعته الوزن والنغم والنظام والأناقة؛ وأحبته حين نظم مشاعرها، ونظم أحاسيسها فأراحها
وإن الشاعر المفطور يخلق وفي طبعه روح الشعر، أن روح الشعر لا تخمد بخمود روح الشاعر، بل أنها لتظهر في صور فنية أخرى. ولما كان الشعر وليد العاطفة المنظمة لابست أغراضه أغراض النفس أصدق ملابسه، وتساوقت معاني القلوب وأحاسيسها في معانيه وأحاسيسه، وصار أمرا طبيعيا أن يكون الشعر صورة لنفسية الشاعر، وعبيرا لأزاهير حبه، ولهيباً لما يشتغل بين جوانحه من عاطفة، وشعاعاً لما يتألق في وجدانه من آمال. وكان بكل هذا حقيقاً أن يكون مجتلى لسائر العواطف الإنسانية السامية
وإن الباحث البصير ليستطيع أن يحدد زمن الشعر الذي يقرؤه إذا أوتي حظاً من دراسة النفس في مختلف العصور، بل أنه ليستطيع أن يهتدي بالشعر إلى كثير من أخلاق الشعوب، فيعرف ما شاع في كل عصر من الأخلاق، وما اضطرب فيه من العادات والتقاليد، وما كان يعتبر فيه مناط الفخر والمفاضلة، وأنه في كل ذلك لسائر على هدى ما يتأرج به الشعر، وما تشبه أرواح الشعراء؛ هبك قرأت الأبيات آلاتية:
تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد ... لنفسي حياة مثل أن أتقدما
فلسنا على الأعقاب تدمى كومنا ... ولكن على أقدامنا تقطر الدما
تفلق هاماً من رجال أعزةٍ ... علينا وهم كانوا أعق وأظلما
ألا تشعر بعد طول التامل، بل بقليل منه أنها من إنتاج الأدب القديم، أدب التضحية

والفداء، عصر الشهامة والإقدام؟ وهبك قرأت قول الشاعر:
إن العيون التي في طرفها حور ... قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به ... وهن أضعف خلق الله إنسانا
ألا تحكم لأول نظرة بأن هذا كلام متمعن في الحضارة، ممعن في الرفاهية، فياض بالرقة، تلوح على محياه نضرة النعيم، فلا يحلق بنفسك أقل عجب إذا علمت أنه من كلام (جرير). وهبك قرأت قول الشاعر:
أصبحت لا أحمل السلاح ولا ... املك رأس البعير إن نفرا
والذئب أخشاه أن مررت به ... وحدي وأخشى الرياح والمطرا
ثم قرأت بعده قول الشاعر:
أصبحت لا أستطيع الثوب أحمله ... وقد أكون وضافي الدرع سربالى
ولا تكاد يدي تجري شبا قلمي ... وكان طوع بناني كل عسال!
ألا تشعر بأن الشاعر الأول بدوي النشأة، صحراوي البيئة، تتراءى في كلامه مظاهر العربي الصميم، الذي كل عتاده السلاح والبعير، ومن طبيعته جوب الفلاة والتعرض للذئاب والرياح والأمطار؟ أو لا تشعر أيضاً بأن روح الحضارة تهب من عبارة الشاعر الثاني؟ أفليس أدق فكرا نظاما من الشاعر البدوي؟ أو ليس له من مفاخر الحضري القلم يجريه كيف شاء؟ وإذا أمعنت في التأمل استطعت أن تدرك أن الشاعر الثاني فارس في حلبتي البيان والحرب. إلا تراه يقرن بين القلم والرمح؟ فهل تعجب بعد ذلك إذا علمت أنه رب السيف والقلم (محمود باشا سامي البارودي)؟!
وهكذا يستطيع الفنان البصير أن يلمح صور الزمان والحضارات في مرآة الشعر؛ ويستطيع أن ينتقل من عهد إلى عهد على هدى من الشعر ومن نور البصيرة.
وإنك لتستطيع أن تزن أخلاق الشاعر بشعره، وتدرك ما كان عليه من مختلف الصفات، وتعلم من خلال شعره أكان قوي الروح أم ضعيفة، جياش العاطفة أم فاترها، بعيد مدى الآمال أم رهن محابس القنوط، واسع الرغبة في الغلبة وذيوع الصيت أم قانعا بما فرضه عليه الزمان، وتقيده به المقادير
الشعر أصدق في الإفصاح عن نفسية الشاعر من المخالطة، لأن الشاعر قد يكون في وقت المخالطة متكلفاً مسوقاً إلى ملابسة الأحوال التي تضطرب حوله. أما إذا قرض الشعر، فإن عواطفه تتراءى بين سطوره، وإن حاول الاختفاء واجتهد في التنكر؛ ومن هنا كان الإنتاج الشعري صورة لمختلف الوجدانات؛ وطبيعي أننا نريد من كل ما تقدم شعر العاطفة، لا الشعر البالي المأجور، ولا عجب بعد ذلك أن توفر الناس على الشعر الحي النابض بالشعور الإنساني دراسة واستيعاباً وشرحاً ونقداً، أو معارضة واقتباساً، وكما دل الشعر على أن أبا نواس كان صاحب مجون، وإن البحتري كان صاحب موسيقى، كشف لنا عن
سر طموح المتنبي وتحليقه في مساء عالية، وغلوه في الفخر والاعتزاز بقدره، فقد كان الرجل يحمل قلب ملك، ولسان شاعر؛ فلطالما رأيناه يبوح برغم محاربة الدهر له بما يضطرب في صدره من آمال جسام، وقد كان لا يصنع بما دون النجوم، وكان يريد من الزمان ما لا يبلغه الزمان من نفسه، أليس هو الذي يقول:
وما رغبتي في عسجد أستفيده ... ولكنها في مفخر أستجده
إذا لم تنط بي ضيعة أو ولاية ... فجودك يكسوني وشغلك يسلب
وهكذا كان الشعر وليد العواطف إذا احتدمت، ومنظمها إذا اضطربت، ومرآة الحياة العامة والخاصة؛ تنطبع عليها خبايا النفوس؛ فما أروع الشعر وما أجمله!!
(المنصورة)
محمود البشبيشي
البعث. . .!
للأستاذ محمود حسن إسماعيل
عَلَى يَدَيْكِ زَمَاني ... طَيْرٌ شَقِيٌّ الأغَانِي
بَكَى إليكِ حَناني ... مُرَوِّعاً مُسْتَطارا. . .
اللَّيْلُ مِنْهُ اسْتَجَارَا
وَالفَجْرُ ضَجَّ وَثَارَا
وَالعُمْرُ كالطَّيْفِ. . . صَارَا

بَقِيَّةً مِنْ أمانٍ ... عَلَى قلُوبِ الحَيَارَى!!
أشْعَلْتِ نَارَ الحَنِينِ ... عَلَى رَمَادِ السِّنِينِ!
. . .عَلَى لَظَاهَا دَعِيني ... أصَارِعُ الأقْدَارَا
يَا مَنْ لِجُرْحٍ تَوَارَى؟
وَعَادَ لَلرُّوحِ ثَارَا
هَاجَتْ زَمَانِي فَصَارَا
. . .بَقِيَّةً مِنْ جُنُونٍ ... عَلَى شِفاه السُّكارَى
مَاذَا وَرَاءَ السِّتارِ؟ ... يَا غَيْبُ أوقِفْ مَدَارِي!
. . .لَيْلِي أضَلَّ نَهَارِي ... فَلَمْ يَعدْ لي نَهَارَا
بَلْ عَادَ جُرْحاً مُثَارَا
أدْمَى اللّيَالي وَدَارَا
عَلَى كِيانِي. . . فَصَارَا
بَقِيَّةً مِنْ غبَارَ ... عَلَى سُكونِ الصَّحَارَى
هَاتِي لِيَ البَعْثَ هَاتِي ... المَوْتُ مَلَّ رُفَاتي!
فَإنْ أرَدْتِ حَيَاتِي ... قُومِي اسْكُبِي الأنْوَارَ
وَأرْعِشِي الأوْتارَا
أحِسُّ عِطْرَكِ طَارَا
إلى خَرِيفِي. . . فَصَارَا
. . .بَقِيَّةٍ مِنْ شَكاةٍ ... عَلَى رَبِيعِ العَذْارَى
يَا كَوْكَباً هَزَّ دَهْرِي ... يَا فَجْرِ خُلْدٍ لِشِعْرِي
خَمْرِي لدَيْكِ وَسِحْرِي ... فَأيْقِظِي الأسْحَارَا
وَنَاغِمِي الأطْيارَا
وَألهِمِي الأشعَارَا
بَارَكْتِ عُمْرِي. . . فَصَارَا
. . .بَقِيَّةً. . . لَسْتُ أدْرِي! ... هَيَّأَ نُزِيجُ السِّتارَا
محمود حسن إسماعيل
البريد الأدبي
الفرس والعراق
إلى الأخ الدكتور زكي مبارك
السلام عليكم
أطلعت على مقالك الأول (في الأدب العراقي الحديث)؛ فإذا أنت تقول:
(فكيف صارت العروبة في العراق بعد سقوط بغداد وبعد انتهاء ما تلا عهد المغول من خطوب؟ ظل العراق العربي محتلاً بالقوى الفارسية نحو ثلاثة قرون، وهو أمد يقدر بثلاثة أرقام، ولكنه أمد طويل جداً)
وقد وقفت أيها الأخ الفاضل عند هذه الجملة، وسيرت فكري في تاريخ العراق بين غارات التتار وهذا العصر، فلم أعرف أن الفرس ملكوا العراق ثلاثة قرون. ولكن كان تسلطهم على العراق في عهد الشاه إسماعيل مؤسس الدولة الصفوية (907 - 930هـ)، ثم تداولوه هم والأتراك العثمانيون حتى سنة 1048، حينما استولى عليه السلطان مراد الرابع العثماني. وكان العراق في هذه الحقبة دولة بينهم وبين الترك العثمانيين، وكان سلطان هؤلاء أغلب عليه؛ ثم استولى الفرس على العراق زمنا قصيرا في عهد نادر شاه بعد زوال الدولة الصفوية
فليس حقا أن الفرس ملكوا العراق بعد غارات التتار ثلاثة قرون ولا قرنين ولا قرناً، وإنما كانت مدداً غير متصلة بين عهد إسماعيل الصفوي وعهد مراد الرابع العثماني كما بينت
والأخ مشكور على اجتهاده واحتماله المشقة لتاريخ الأدب العربي في العراق، وله تحيتي وسلامي
عبد الوهاب عزام
عود إلى (التجديف)
عاد العلامة الدكتور زكي مبارك، في العدد 407 من الرسالة الغراء، يطرق باب

(التجديف)، وكنت ظننت أنه أوصد لا إلى رجعة. وقد لخص ما كان قرره من قبل في هذا الموضوع، ببيان أوفى، وزيادات متممة. وتلطف في أثناء بحثه هذا فطلب إلي أن أكون
حكماً بينه وبين العوامري بك.
وقد رأيت، نزولاً على إرادة الدكتور، أن ارجع كرة أخرى إلى مقال العوامري بك في مجلة المجمع اللغوي، حتى أضبط الرأي وأحكمه، فوجدت أنه في هذا المقال، كما هو في غيره من مباحثه اللغوية، من أولئك (المحافظين) المتشددين الذين يقفون عند النصوص وأقوال الثقات فيما هو قياسي وما هو سماعي.
فهو لذلك لا يبيح أن يقال: التجديف أو التجذيف أو التقذيف؛ لأنه لم يعثر على أفعال هذه المصادر فيما رجع إليه من الكتب والمعجمات. وليس معنى هذا - كما هو بدهي - أنه يجزم بأن العرب لم تنطق بهذه الأفعال؛ كما أنه ليس معناه أنه لم يروها راو، أو أنها لم تدون في كتاب؛ وإنما هو يقول - كما يقول دائما في بحوثه الغوية -: أن هذا مبلغ جهدي، وقصارى اطلاعي. فمن عثر بعد ذلك على شيء مما أنكره فليدل به ثم هو بعد ذلك يحظر تضعيف جدَفَ وجذَفَ وقذَفَ، لأن التضعيف للكثرة والمبالغة سماعي، يحفظ ما ورد منه ولا يقاس عليه، ولو أن (الجدف أو الجذف أو القذف لا يصور الحركة التي يثرها المجداف أو المجذاف أو المقذاف) كم قال حضرة الدكتور. فليس يصار إلى التضعيف إذا لمحنا في الفعل الذي لم يسمع تضعيفه معنى الكثرة أو المبالغة، كما أنه لا يصار إليه إذا أردنا منه (أي من ذلك الفعل) الكثرة أو المبالغة، فلا يقال مثلا في نَصَرَ (نّصر)، ولا في كِرهَ (كرَّه)، ولا في فهم (فهَّم) وهكذا
هذا شأن العوامري بك. وأعتقد أنه شأن الجمهرة من المشتغلين باللغة.
أما العلامة الدكتور زكي مبارك فالذي أستخلصه من نقاشه في هذا الموضوع وغيره (أن كنت قد وعيته حقا) أنه ربما يترخص ويتوسع، فيعدل عن المقطوع بصحته إلى غيره، لعلل وأسباب (رأينا بعضها في مناقشاته في الأعداد الأخيرة من الرسالة) هو مقتنع بكفايتها.
هذا يا سيدي الدكتور ملخص فهمي للرأيين أو المذهبين. فالواقع أن الخلاف بينكما ليس على الأمثلة، وإنما هو على المبادئ والأصول.
(أ. ع)

مسابقة وزارة المعارف لتشجيع التأليف في القصة المصرية

تتجه وزارة المعارف إلى تشجيع الأدب والتأليف في صورة مسابقات تعلن عن جوائزها وتدعو الكتاب لها، وستعلن قريبا عن مسابقة في القصة المصرية الطويلة وسيختار قريباً أعضاء التحكيم من بين كبار الأدباء الموظفين في الوزارة
وقد علمنا أن الوزارة ستشرط أن تكون مادة القصة رامية إلى واحد من هذين الغرضين:
1 - إحياء صورة من صور التاريخ المصري الإسلامي، أو التاريخ المصري القديم
2 - تصوير الحياة الاجتماعية الحاضرة مع اقتران التصوير بإيحاء وسائل العلاج والإصلاح التي يتطلبها المجتمع المصري
وستكون الجوائز كما يلي:
الجائزة الأولى 100 جنيه، والجائزة الثانية 80 جنيهاً، والجائزة الثالثة 60 جنيها
وأخر موعد لتقديم قصص المتبارين إلى اللجنة هو منتصف أكتوبر القادم

تعقيب على نقد المناظرات

قرأت كلمة الأستاذ إسماعيل فهمي، وأود أن أعقب عليها بما يأتي:
أولاً: أن عصر بطليموس الأول والثاني والثالث هو عصر أمان نسبي ازدهر فيه الفكر، فهو مصداق آخر يدل على أن ازدهار الفكر في عصور أمان كالتي ذكرها
ثانيا: عصر إحياء العلوم في مدن إيطاليا هو عصر من عصور جزائر الأمان، وهو يثبت أيضاً أن ازدهار الفكر في أماكن الأمان لا في أماكن الفوضى
ثالثا: أن الفكر يزدهر حقيقة عند ملتقى الثقافات والحضارات المختلفة، ولكن ازدهاره عند ذلك الملتقى بسبب الأمان الذي يكون عند تبادل الشعوب لسلع التجارة والأفكار وليس بسبب ما قد ينشأ من الفوضى الفكرية.
رابعا: أن اختلاف الآراء ليس دليلاً على الفوضى الفكرية، وإذا نظرنا إلى عصور

الحضارة والأمان وجدنا شيئا كثيرا من ذلك الاختلاف، إما لتسامح فيه أو تغاض عنه أو عجز عن منعه، أما إذا لم يتحقق أمر من هذه الأمور الثلاثة بطل ازدهار الفكر وبطلت الحضارة

خامسا: أن مواطن الأمان الذي يصحبه الركود والخمود والجهل والفقر وقهر الفكر، توجد مع الأمان السياسي فيها الفوضى الفكرية الناشئة من ارتباك الجهل وخطله وارتباك الغباء، وكثيرا ما يكون تحت الأمان السياسي الظاهر فوضى في أداة الحكم، فهو إذا أمان مزيف

سادسا: إن اشتراط الحذر النفسي والفكري لنمو الفكر في الحياة أمر يختلف كل الاختلاف عن اشتراط الفوضى، وكذلك اشتراط المحركات النفسية أمر يختلف عن اشتراط الفوضى في قول من يشترطها

سابعا: إذا كانت الإنسانية قد كسبت من تقاتل الأجناس فقد خسرت كثيرا، وطالما اضطرت إلى أن تعيد بناء الحضارة من جديد بعد فوضى ذلك التقاتل؛ فاشتراط فوضى تقاتل الأجناس لازدهار الفكر شرط غير وجيه في قول من يشترطها

ثامنا: أن الركود والخمود الاجتماعي في الأمة إذا منعا من ازدهار الفكر لم يكن جالبهما الأمان وانقطاع الحروب والتدهور بسبب السكون والهدوء، بل لهما أسباب عديدة تختلف باختلاف الأمم، فمن تلك الأسباب ما هو حيوي (بيولوجي) ومنها ما هو (باثولوجي) طبي، كالأمراض التي تجتاح أو تتوطن فتهلك أو تضعف الجسم والعقل، وهذه الأسباب لم تذع دراستها كما ينبغي أن تذيع - ومنها ما هو سياسي لفساد نوع الحكومة. . . الخ

تاسعا: أن ازدهار الفكر في جزائر الأمان كثيرا ما يكون لأنه من بعض غراس عهد أمان شامل سابق أو قديم ووجدت بذوره وبقاياه من تعهدها برعايته في جزائر الأمان.

محمد عبد الله

الفكر والفوضى

أن رأيي في مناظرة ازدهار الفكر أن الوضع الصحيح قد عكس، فأني أستطيع أن أفهم أن الفكرة إذا أريد تطبيقها إلى أبعد غاية من غير نظر إلى ما يخالفها ويلطفها من الأفكار الأخرى التي تعين حدودها قد تسبب الفوضى أي أن الفكر قد يسبب الفوضى - ولكني أجد صعوبة في أن أفهم كيف أن الفوضى تسبب ازدهار الفكر ما دامت الفوضى فوضى، ولا أفهم كيف تكون معه حتى من غير الصلة السببية، فإن الفكر خطواته نظام، والنظام ضد الفوضى، والفوضى عمياء والفكر بصير، وكل فكرة - حتى الفكرة التي تقول أن الفوضى تسبب ازدهار الفكر - قد تضيء عليها فوضى المقاطعة والمعارضة وفوضى الاضطهاد

والأحقاد، إلا إذا ناصرتها الفوضى حباً لذاتها. ويا حبذا لو قرأنا في الرسالة مناظرة في الموضوع الآتي: (هل يؤدي الفكر إلى الفوضى أم يؤدي إلى الأمان والنظام؟) وهو عكس موضوع مناظرة كلية الآداب

وتكون الفائدة عظيمة إذا تتبع كل مناظر حياة الأمم ومظاهر الفكر قديماً وحديثاً، ولكل مناظر مجال واسع في الجانبين من الموضوع، وهو موضوع قد يستلزم النظر في موضوع ثان، وهو: هل الفكر والفلسفة نتيجة النزعات النفسية والعواطف والأهواء أم هما سبب لإثارة تلك النزعات والأهواء؟

ولا داعي لأن أقول: أن الصواب في الجانبين معا: ولكن الفائدة في بيان شواهد الصواب في الجانبين؛ ونضرب مثلا من التاريخ القديم فنقول: أن الفكر الإغريقي هو أنفس ما يعتز به الأوربيون، وهم يعدونه أساس حضارتهم ومخترعاتهم ونظامهم، ولكنه مع ذلك أدى قديماً إلى مذهب السوفسطائية الذي كان له ضرر محقق. إلا أننا نعود فنقول: هل أدى مذهب السوفسطائية إلى فساد النفوس وفساد ميولها، أم أن فساد ميول النفس أدى بالفكر إلى السوفسطائية؟ وهذا الموضوع الثاني قد يستدعي موضوعاً آخر للمناظرة، وهو هل ينبغي أن يكون الفكر حراً طليقا، أم ينبغي أن يقيد؟ وإذا وجب قيده فكيف يقيد؟ والى أي حد؟ ومن الذي يقيده؟ وإذا جلب قيده فائدة فهل يجلب ضرراً مع الفائدة؟ وأيهما أشد وأبقى: الفائدة أم الضرر؟ وهل كان الفكر الإغريقي أو العربي يثمر كل ثمراته لو كان مقيداً قيداً حقيقياً؟ هذه مشكلة أخرى من

مشكلات الفكر العديدة
السيد خليل
وأد البنات عند العرب في الجاهلية
قرأت ما كتبه الأستاذ علي عبد الواحد وافي رداً علي في هذا الموضوع، وقد ختم رده بأنه بصدد قبائل كانت تئد كل بنت تولد لها، لا بصدد حالات فردية كانت تنحر فيها بعض البنات. وإني أقول في ذلك كلمة لا أحب أن أقول بعدها كلمة أخرى، لأن مثل هذا الذي يقوله الأستاذ علي عبد الواحد وافي لم تذهب إليه قبيلة عربية أصلاً، ولا يمكن أن تذهب إليه قبيلة في أمة من الأمم، اللهم إلا إذا أرادت أن تقضي على نفسها وتقطع نسلها من
بنات وبنين معاً، وإذا كان هذا شأن ما هو بصدده، فهو غير صحيح في نفسه، ومثله لا يصح أن نحمل آيات القرآن عليه، ولا سيما إذا كانت لا تحتمله
وقد رأى الأستاذ أن حمل قوله تعالى (ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون)، على معنى أنهم يجعلون لآلهتهم ما يشتهون، لا يستقيم مع الآيات الأخرى - كما ذكرت - لأنها صريحة في أنهم كانوا يجعلون ذلك لأنفسهم لا لآلهتهم، فذكر أن نسبة الذكور لأنفسهم أو لآلهتهم لا يهم كثيراً في موضوعه، مع أن موضوعه قائم على نسبة خلق البنين لآلهتهم والبنات لله تعالى
وكذلك رأى الأستاذ أن النصوص القرآنية صريحة في أن العرب كانوا يجعلون الملائكة بنات لله كما ذكرت، فلم يسعه إلا أن يعترف بهذا، ولكنه ذكر أنه لا يتعارض مع ما ذكره، من أنهم كانوا ينسبون إليه البنات من البشر، وإن المقابلة بين البنين والبنات في نحو قوله تعالى: (أم أتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين) تقتضي أن تكون البنات من البشر كالبنين، وقد نسى الأستاذ في هذا آية الإسراء: (أفأصفاكم ربكم بالبنين وأتخذ من الملائكة إناثا أنكم لتقولون قولاً عظيماً). فالمقابلة فيها صريحة بين البنين من البشر والبنات من الملائكة، وهي مقابلة سائغة مقبولة، ووجه ذلك لا يخفى على مثل الأستاذ وافي
ولا أحب أن أطيل بعد هذا فيما أطال به الأستاذ، ويكفي أن مذهبه يؤدي إلى أنه كانت هناك قبائل تئد كل بناتها لأنها من خلق الله أو الشيطان، مع أن ذلك لم يكن إلا حالات فردية في تلك القبائل، وكان يدعو إليها الفقر من الفقراء، أو خوفه من الأغنياء، كما صرح بذلك القرآن الكريم؛ وخصوا البنات بذلك لأنهن لا يكتسبن
عبد المتعال الصعيدي
القصص
عطر المنصور
للأستاذ رفعت فتح الله
(تتمة ما نشر في العدد الماضي)
وأمر المنصور حاجبه أن يستقدم سعيداً، ثم يستقدم زوجه، فلما قدم سعيد رأى في الفناء حبيباً مع صاحب الشرطة، فتعجب، وقال: أنت أمامي هنا وهناك!! ثم جد في السير كأنه يفر، حتى دخل على المنصور، فسلم وحيا، وبدت في عينيه نظرة الاهتمام.
قال المنصور: أتعرف الرجل الذي مررت به في فنائنا؟
قال سعيد: أعرفه
قال المنصور: أبينكما صداقة؟
قال سعيد: بيننا شيء
قال المنصور: كيف وجدته؟
قال سعيد: وجدته رجلا لا يعرف قيمة المال
قال المنصور: وكيف وجدت عقله؟
قال سعيد: هو رجل يروي أدباً ويقرض شعراً
قال المنصور: هل تتزاوران؟
قال سعيد: قد يزورنا
قال المنصور: ولكنك لست فارغاً للشعر والأدب!
قال سعيد: أن زوجي تحب الشعر والأدب، فإذا حضر تناشدا الشعر وتقارضا الأدب، حتى إذا أفلس أدبه قام عنا

فهمس المنصور: وهل يفلس الأدب كما يفلس المال؟! ثم قال: لعلك ترغب عن حديثه؟
قال سعيد: أن أكثر كلامه لا يسمن ولا يغني من جوع، فكيف أرغب فيه؟
قال المنصور: أولست ترى له خيراً ترتجيه؟
قال سعيد: أنه ليس غنيا أرتجيه. . . غير أني. . .
فبادر المنصور قوله: غير أنك قد استفدت منه!
فاضطرب سعيد وقال: قد كان له جاه وجهه في عرض تجارتي، وله رأى رآني به في بعض أمري، وإني لأعجب من جاه لا مال معه! ومن لسان لا يد له!
قال المنصور: أتنكر مروءته؟
قال سعيد: لا، ولكني وددت لو كان غنياً لم تدركه حرفة الأدب
قال المنصور: وطهارته؟
قال سعيد: لم يذكر الناس فيه رجساً
وأسكتا!
ولما قدمت حبيبة أبصرت في طريقها حبيباً وهو على حيرته، يستحثه صاحب الشرطة، فأنكرت بصرها، ورنت إليه، وأطال العجب رنوها، وألهم حبيب النظر نحوها. فالتقت العين بالعين، ووجب القلب للقلب، ثم أخضع الأسى عينيه، وأسجد جفنيه؛ فسارت نحوه مضطربة السير، قد مد الاستفهام ذراعيها، وابتدر سؤاله فمها. قالت: ما لك؟ فقص عليها قصته. فهزت رأسها وقالت: فهمت. . . فهمت. . . لقد فاح ذكاء المنصور عطراً، فنصبه شركاً؛ أنه صراع الملك في قصة يوسف! (وغمزت بعينها وضحكت)؛ ثم قالت بصوت حزين: يا حبيب. . . أعط الخليفة الهدية!
قال حبيب: لقد كانت صلة تحمل طابع الحب؟
قالت: أن حبنا معنا، وأما هذا الطابع فنحن الذين طبعناه، ونحن إذا شئنا محوناه، ليعود خاتمها الأول. . . خاتم البخل؛ فلقد يغلط البخيل فتكون غلطته جوداً، ثم ينقلب معنى الجود في نفسه ندما. ولقد علمت سعيداً بخيلاً، يكاد يسترجع قيئه إذا ذكر أنه كان طعاما!!
فاشمأز حبيب شمأزيزة المال، واطمأن طمأنينة الحب، ونادى صاحب الشرطة حيث وقف جنبه، فقال له: قد رضيت حكم الخليفة، وإني ذاهب لأحمل المال إليه. فقال صاحب الشرطة: أرحت واسترحت! وأمر شرطياً أن يذهب معه فيحمل عنه؛ ثم ذهب إلى الخليفة في سكاته، فأسر إليه رضى حبيب بحكمه، فتبسم ضاحكاً!
والتفت المنصور إلى سعيد وقال: إيه!
فنظر إليه سعيد نظرة تتألق بطلب الحديث!
قال المنصور: إلا يزال حديث المال يتردد في نفسك!
قال سعيد: أنه يتردد مع أنفاسي، ولقد بت الليلة ضجيع خياله!
قال المنصور: كأنه امرأة ثانية!
وضحك ثم قال: أرايتك أن رددت عليك مالك بعينه أتحكمني في امرأتك؟
فأشرق وجه سعيد كثيراً، وأغيم قليلاً؛ ثم قال: نعم
قال المنصور: دعني إذن أستخلصه لك، واجلس عند الأذن قليلاً حتى يأذن لك بالحضور مرة أخرى
فخرج سعيد متفائلاً، وهو يجمجم: نعم العطر!
فاهتز المنصور ضاحكاً، وهو يزمزم: نعم ذكاؤه!
ودخلت حبيبة تتهادى، وقد ربط التجلد على قلبها، فبدا وقارها. . .
قالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين والمؤمنات
قال المنصور: وعليك السلام أيتها المؤمنة
قالت: أحب أن أشكر أمير المؤمنين على عطره الذكي؛ فقد كان بشير يمن لزوجي، وأرجو أن يمسني يمنه كذلك
قال: ولكني أظنكما فرطتما فيه
قالت: ما وضعناه إلا حيث تخيرنا، عسى أن ينتشر طيبه على الطيبين
قال: (والطيبات للطيبين، والطيبون للطيبات) وابتسم!
فانتفضت وقالت: (أولئك مبرؤون مما يقولون، لهم مغفرة ورزق كريم)!

قال: أوليس زوجك طيبا؟!
فارتجفت وقالت: أنه طيب المال، يجري حبه في دمه، كأنه ابن الدوانيق. . .
فأربد وجه المنصور غضباً وقال:
- أتغمزينني بكنية (أبي الدوانيق) التي كناني بها بعض المرجفين في المدينة، إذ رأوني حين بنيت بغداد - أباشرها بنفسي وأحاسب الصناع وأجازي المهملين، فظنوا أني فتنت بالدرهم والدانق، وإنما راقبت ربي فراقبت عملي، وقومت أمري فأرضيت نفسي، وما أنا بمفتون أو بخيل، ولكني رأيت كثيرا من الناس عبيد المال، فأمسكته لهم، ليكونوا عبيد الله وخليفته!
قالت: أني أجل أمير المؤمنين أن أغمزه بتلك الكنية، فلقد رعيت المال: كثيره وقليله، ودينارة ودانقه، فكنت أباه! وأما سعيد، فقد حكمه المال وتولاه، حتى صار خادمه ومتبناه!
فتساير الغضب عن وجه المنصور وقال:
- أني أكبر عقلك!
قالت: وهل أكبرت عقل سعيد؟
فنظر إليها المنصور وسكت ثم قال:
- أراك برزة!!
قالت: ما رأى مني أحب الناس إلي إلا ما رآه الخليفة من وجهي ويدي، فما ضرني أن أكون برزة؟! إنما خلق الله المرأة رجلة ولم يخلقها جنة! وجعل اللسان حجة ولم يجعله عورة! وإن المرأة التي تخشى الرجال هي التي أخشى عليها الرجال. . .! أليس الله أحق أن تخشاه؟!
ولقد حجبت نفسي بالعفاف، فبلغت غاية الحجاب؟
- أظن سعيداً معجبا بعفافك؟
- يعجب بعفافي بعد أن يعجب بماله!
- هو سعيد بك
- لو وجد هواه مع غيري لكان أسعد!
- وأنت سعيدة؟
- أسمي (حبيبة)
- ليست الأسماء حقائق
- قد تكون الأسماء آمالاً، ألم يسم أمير المؤمنين قصره (الخلد)؟
فنظر إليها المنصور نظرة رائعة ثم قال:
- وكيف تزوجت إذن سعيداً؟!
- تعارفنا بالأسماء وتقاربنا بالأنساب، فتزوجنا، وقد كان قلبي على فطرته ينبض كما كان ينبض منذ ميلادي، وكان زوجي يرعاني كما يرعى إحدى قريباته، ويحبني كما تحبني إحدى قريباتي. . . وقد رأيته يتاجر فساعدته، وساعده الحظ معي، حتى أثرى، فكشف ثراؤه عن نفسه، وتجسد أمامي حبه للمال، يستكثر ولا يستكفي ويبخل ولا يستمتع، والمال تجاهه سلسلة لا تنتهي حلقاتها، كلما جذب حلقة بانت له أطراف أخرى فجرى إليها. . . فكرت وقدرت، فإذا موضع المال من قلبه في الأعماق، وإذا موضعي من ذلك القلب على الشط: أحمل دلوي لأغرف له، كأن عقد الزواج من عقود المال، وكأني شريكته في متجره لا في بيته. غير أني شريكة لا تشارك في ربح ولا تطالب بأجر!! وكيف يراني أو يسمعني وقد طرفت الدنيا عينيه، وسدت أذنيه؟! وهكذا حفر في قلبي أسفاً! وتتالت الأيام على حفر ذلك الأسف، فكان غضباً! وبالغت الشهور في حفر ذلك الغضب، فكان كرها!. . .
هناك سمعت من حفيرة قلبي دقاته الجديدة، فخلت خفقاته وقع المعاول!. . . أنا لم أولد على دكان ربوي شحيح، ولم أنشأ في رحل بدوي غليظ، فقد كان أبى أدبياً طبعني على أدبه، حناناً أرقني بحنانه، فكيف أعيش في كنز أسمع رنينه ولا يسمع أنيني؟ طار قلبي عن بيتي، فلم أدر: كيف يقع؟ وأين يقع؟ ولكني أحسست صدري فارغاً، قد طلاه الآسي بسواد، يعلن الحداد! ثم رأيت - في من رأيت - فلاناً

فابتسم المنصور ابتسامة المعرفة، واستكملت قولها:
تعرفته فتبينت فيه العفافة، وتأملته فتأولت فيه المروءة، رأيته شاعر النفس واللسان، رقيق القلب والبيان، فأحسست أن قلبي قد هبط معه، فما قابلته حتى تحادثت حمرة في الوجهين ودف عرس في القلبين!
قال المنصور: حسبك! فإني أخاف عليك الغرق والإغراق
قالت: قد بلغنا الساحل! (وأشارت إليه)
قال: وأين واجب الزوج؟
قالت: قد عرفت الواجب فرعيته، وقدرت الأمانة فأديتها؛ وما أثقل الواجب والأمانة إذا وغلت فيهما الكراهة! وأمير المؤمنين يعلم أن الله قد شرع الزواج آلفة لا نفرة، وشرع الطلاق ضرورة يلجأ إليها المضطر لا المغتر؛ ولكن كثيراً من الناس تعاموا عن حكمة الله، فاتخذوا الزواج مواجهة وجهين، لا معاقدة قلبين! وارتكبوا الطلاق مطية غرور لا قضية نفور، وما أحكم قول الله: (فامسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف، ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه!)
وأستأذن حبيب فأذن له، ودخل مع المال يحيي الخليفة، وابتسم لحبيبة ابتسامة ردتها بأحسن منها، ثم قالت: أن هذا المال لحبيب. إذ أهديته اليه، وقد كان مالي من قبل. إذ أهداه لي زوجي، فما أبعد زوجي عنه!
قال المنصور: إلا تفتديان به قلبيكما؟!
قال حبيب وحبيبة معا: نعم الحكم أمير المؤمنين!
ثم ابتسما في خجل من تطابق الصوتين على الجواب، فابتسم المنصور. . . وأخذت العيون تسارق النظر: فالمنصور يرخي طرفه ثم يلمح الحبيبين، وكل واحد منهما ينظر إلى صاحبه والخليفة نظرة مقسمة بينهما، كأنها نظرة الأحول، وما أروع نظرات الحول المستعار! وإذن المنصور لسعيد بالحضور فحضر يدير عينيه!
قال المنصور: أهذا مالك يا سعيد؟
فرنا سعيد فرحاً؛ ثم قال: هو يا أمير المؤمنين
قال المنصور: خذه كما أشرت، وقد طلقت امرأتك كما شرطت فرفع سعيد رأسه ينظر إليه، ويقول: ولكنني رأيت عندها حبا وإخلاصاً!
قال المنصور: لقد أدت واجب الزواج فظننته حباً، ورعت أمانة العفاف فحسبته إخلاصاً، وما ربط قلبيكما حب، ولا جمع كبديكما ولد. . . على أنني قد تخيرت لك امرأة على هواك أسمها (سعدى) يا سعيد!
قال سعيد: الخيرة ما أختار أمير المؤمنين، وأنا درج يديه
وألتفت المنصور فجأة إلى حبيبة وحبيب؛ فإذا هي قد سدلت جفنها، وحدرت من تحتها إلى حبيب نظرة قد رويت من قلبها، بحبها! وإذا هو معقود النظر بها، كأنما نفثت فيه من سحرها!. . .
فهمس المنصور: خلقت هواك كما خلقت هوى لها!
ثم قال لهما: جمع الله بينكما بشرعه
ثم إذن لهم جميعاً، فخرجوا راضين، وهو يقول:
الحمد لك، الآن تلاءمت الأسماء، والتأمت الأهواء
وبعد أيام زفت سعدى إلى سعيد، وزف مالها إلى ماله، فتواصيا بالاكتناز، وتباعثا على الاكتساب؛ فما أصبحت ليلة الزفاف حتى امسكا دفتر الحساب!
وبعد أشهر زفت حبيبة إلى حبيب، وزف حبها إلى حبه، فورى القلبان بنار الشوق، كأنهما زنداه! وتلاقى الفمان على قبلة ال (حب) كأنهما حرفاه! واستبدت بهما القبلة، فتطاعم المتلاثمان، كأنهما حمامتان!

رفعت فتح الله

العدد 409 - بتاريخ: 05 - 05 - 1941

وتقديم الساعة مرة أخرى

للأستاذ عباس محمود العقاد

يقول الراوي: سمعت فيما سمعت من فكاهات الناس أن غريباً نزل ببلد من البلدان يتفرج بالسياحة ويحتال للرزق، فلم ينفرج ضيقه، ولم يتسع في طلب الرزق طريقه؛

فخرج يوماً إلى مدافن البلد يتعظ ويستعبر، ومال على القبور يقرأ ما كتب عليها، فأذهله ما قرأ وعى بتفسيره وتأويله
هنا قبر كتبوا عليه أنه قبر الوزير العظيم فلان: حكم وعدل وأصلح وبلغ من العمر عشرة أيام
وهنا قبر كتبوا عليه أنه للقاضي الجليل فلان: كانت له أحكام يؤتم بها في مجالس القضاء، وأثرت عنه مؤلفات يتداولها الطلاب والأدباء، ومات ولم يجاوز من العمر أسبوعين
وهناك قبر لطبيب، وإلى جانبه قبر لأديب، ووراءهما قبر لسرى حسيب، وعلى مقربة منه قبر لناشئ نجيب، وما منهم معمر ولا مغتضر يجاوز الساعات والأيام، إلى الشهور والأعوام، ولا منهم إلا من تذكر له المآثر ويرتفع به المقام
فأستغرب الغريب، وسعى إلى الحارس يسأله في هذا الكلام المريب: ما خطبكم يا هذا؟. . . أحياؤكم في المدينة يشيبون ويعمرون، وأمواتكم في المقابر لا تعدّ لهم شهور ولا سنون. فهل يجاء بالأموات من بلد غير هذا البلد، أو تعدون العمر عندكم بغير ما ألف الناس من عدد؟
قال الحارس: بل هي مدافن القوم، وهي أعمار أبناء آدم، ولكنهم يسقطون منها مالا يسر ولا يؤثر، ويثبتون منها ما قضى في سرور وعمل مشكور. فمن ثم تنحسر السنوات بعد السنوات، فلا يبقى غير لحظات ولمحات، وهي التي تراها، وتحار في معناها!
قال الغريب: إن كان هذا فوصيتي لك أن تكتب على قبري حين يتوفاني الله في بلدكم: من بطن أمه إلى القبر!
ويقول الراوي مرة أخرى: ثم أدركتني سنة من النوم وأنا أعيد حكاية هذا الغريب اليائس وأسل نفسي: كم من الناس يحق له أن يزيد على ما أوصى؟ وكم من الأعمار يبلغ الساعات على هذا الحساب؟
وإني لكذلك إذ ارتفع بصري إلى دائرة هائلة الأقطار كأنها صفحة الساعة التي نقيس بها الزمن، ولولا أنها شيء لا يدرك له آخر ولا تظهر لعقربيه حركة، ولولا أن العقربين لا ينتهيان ولا يزالان ذاهبين ذاهبين إلى وجهة بخيل إليك أنها حافة وما هي بحافة، ولكنها أشبه شيء بخط الأفق المخلوق من وهم الناظر إليه الأبد كله يقاس بهذه الصفحة!! أو هي الساعة السرمدية التي ترصد بها حركات الأكوان، إن صح أن تسمى هذه الساعة وهي تشمل كل حين!
يقول الراوي: وألمح على الصفحة علامات مختلفة الشيات، لا أهم بأن استوضحها حتى يتضح لي جواب ما هممت بالسؤال عنه كأنه خطرة من خطوات الضمير لا أسمعها ولا أرى قائلها. . . هذه علامات السعود والنحوس، وهذه مفاتيح الإسراع والإبطاء، وهذه لوالب الأفلاك ومنها فلك الأرض الصغير، وهذه وهذه إلى آخر ما في الصفحة السرمدية من مجهول ومعلوم
وتتحرك يدي إلى مفتاح من المفاتيح، ويهجس في ضميري المجيب الذي لا أسمعه ولا أراه: مكانك! إلى أين؟
قلت: إلى المفتاح الذي يعبر أوقات النحوس في لمحة عين
قال: ويحك. وما أنت وعلم هذا؟ وأي نحوس تريد؟ نحوسك أنت، أو نحوس العالم أجمع، أو نحوس فريق من الناس دون فريق؟ هذه أسرار لا تهديك فيها العلامة ولا يطيعك فيها المفتاح. وإنما قصاراك أن تنظر في الساعة التي تخص حياتك إن اهتديت إليها. فهنالك ترى من ساعاتك وأيامك ما يقتضب أو يستطال، على شروط يدلك عليها الدليل الموكل بتلك الآجال
قلت: وأين أجد هذه الساعة أصلحك الله؟
قال: في خلف هذه الصفحة. . . فهنا صفحة الكون الخالد وهناك صفحات الأحياء من أبناء الفناء
واستدرنا أو خيل إلينا أننا نستدير فإذا الدوائر أمامنا متشابكات متداخلات لا يحدها الطرف ولا يحصيها الحساب، وإذا بالمجيب الذي لا أراه ولا أسمعه يشير إلى إحداهن ويقرئني عليها أسمي وعلامات السعد والنحس في عمري، ويقول لي: دونك ساعتك فاصنع بها ما

أنت صانع. فهي إن عمرت أو خربت لك أو عليك قلما يضار من جرائها أحد سواك
ثم يعود صاحبنا فيقول: وأعلم أنك لا تأخذ السعادة ولا تتقي الشقاوة في هذا المكان،
فإنما هو للحصر والتسجيل ثم تحال إلى الخزانة التي فيها ما تشتهيه وتتقيه، فعلى
حسب ما في يدك من سجل أوقاتك وسعادتك وشقاواتك يكون التسليم من يد الخازن
الموكل بهذه الأمور
ودارت المفاتيح، وذهبت إلى الخازن، وأريته السجل والتعداد، وانتظرت ما يقول، فإذا
هو يراجعني مراجعة البائع المتحرج الذي تأبى له ذمته أن يستر بخساً أو يبالغ في
مزية، ولا يثنيه عن ذلك غضب ولا استعجال
قال: هذه سويعات بل لحظات لك في سجل السعادة، أفأنت نازل عن عمرك كله من
أجل هذه اللحظات؟
قلت: أو ليست هي سعادة خالصة؟
قال: بلى، ولكن مأمور بأن أبصرك بالحقيقة قبل أن آخذ منك أو أعطيك
فهذه اللمحات لا يدخل فيها الوقت الذي تشتاق فيه إلى السعادة، ولا الوقت الذي تحن
فيه إلى ذكراها، ولا الوقت الذي تعرف فيه قدرها بفقدانها والشعور بالفارق بينها وبين
نقيضها.
وهذه اللمحات تتصل بسعادات أناس آخرين لولا هم لما ظفرت بحصتك التي كتبت
بعنوانك، فإما أن تتسلموها جميعاً أو تتركوها جميعاً ولا انفراد لك بالرأي فيما تختار
وهذه اللمحات إنما هي كالري للظامئ فلا إرواء لها إلا بعد إظماء، ولا محل للإيجاز في
أوقات الشقاء إلا أن تصاب لمحات السعادة بمثل هذا الإيجاز
قلت: أني أغليت الثمن وبذلت عمراً كاملاً في سبيل هذه اللمحات القصار
قال: أنك لم تبذل شيئاً بل استرحت مما أنت باذل من شقاء، ولهذه الراحة ثمنها، فمن
عسى أن يبذل الثمن غير المستفيد؟
قلت: أننا في عالم الدنيا نشتري الحلو والحامض ونلقي بالحامض جانباً إذا كرهناه،
وغاية ما يسومنا البائع أن يبيعنا الفاكهة المنتقات بأغلى من سعر الفاكهة التي ليس
فيها انتقاء. فلم لا تتبعون في بيعكم وشرائكم ما نتبعه فيما بيننا من بيع وشراء؟
قال: ذلك لأن حلاوة الحلو عندنا من حموضة الحامض، فليس بينهما انفصال!
وسألته: وما النتيجة؟
فأجابني: والنتيجة أننا ننقصك من السعادة بمقدار ما ننقصك من الشفاء، وليس الأمر
كما ظننت زيادة على هذه يقابلها نقصان من ذاك
يقول الراوي: فتدبرت كلام الخازن الناصح فوجدته على صواب، وتبين لي أن الصفقة
لا تنعقد إذا هي انعقدت إلا على ما أشترط ووفق ما رسم. فهذه الساعة التي نعمت
بها لأنني قضيتها مع من أحب، كيف أنتزعها وحدي وأعزل حسابها من حساب عمره؟
وهذه الواحة التي ابتهجت بها لأنني عبرت إليها الصحراء كيف أبتهج بها ولا أبتئس
بصحرائها؟ وهذه المرارة في كأس الفتنة، كيف أتركها ولا أترك معها نشوتها وأحلامها؟
وهذه الخلاصة كيف أستخلصها ولا أتعب في استخلاصها
أيها الخازن الناصح: شكراً لك، فقد نصحت وأبلغت فهل يضيع تعبي في تقديم الساعة
بغير جزاء؟
أيها الباحث عما ليس يوجد: هذا هو الجزاء، وهكذا يتعب من يختصر العمر ليختصر
الشقاء!
وبعد فقد كتبت في السنة الماضية عن تقديم الزمن وتأخير الزمن، فحق لهذه السنة
أن نحفل بتقديم ساعاتها وإن كنا لا نقدم ولا نؤخر بهذا الاحتفال
وأراني عشت عشرين سنة ولم أتبين جديداً يقال منذ قلت:
تبغي السعادة لا سعادة مثلها ... والعدم قسمة طالب الإكسير
ومنذ تبين لي أن الفقر نصيب من يطلب الإكسير الذي يعطي المعادن الخسيسة قيمة
الذهب الإبريز، وأن الشقاء نصيب من يطلب الإكسير الذي تتساوى به معادن الأيام
فكلها نفيس وكلها محمود وكلها سعيد؛ فلا ذاك يبلغ الغنى ويسلم من الفقر، ولا هذا
يبلغ السعادة ويسلم من الشقاء، وحسبنا نصيب أهل، الفناء فهم في أخر الأمر تراب،
وكل ما أصابوه أنفس من التراب
عباس محمود العقاد

. . .صورة. . . وصورة
للأستاذ محمد محمد المدني
هذه كلمة من نوع ما كنت أكتب عن الأزهر من قبل، جاشت
النفس بها ثم احتبستها، ولكن كلمة الأستاذ الزيات:
قد أثارت كامن الشوق القديم (هل أنبعث الأزهر):
وذو الشوق القديم وإن تعزى ... مشوق حين يلقي العاشقينا!
الصورتان متقابلتان كأتم ما يكون من التقابل، متنافرتان كأعنف ما يتصور من التنافر، وهما مع ذلك مجتمعتان في مكان واحد، وبينهما صلة جوار قريبة ورابطة قوية يبدو أنه لا سبيل إلى التخلص منها قبل زمن بعيد!
ليس الموضوع خيالاً يا عشاق الخيال، وإنما هو الواقع الذي لم تفسده التصاوير، والحقيقة المبرأة من المبالغة والتهويل!
الصورتان في الأزهر، والأزهر يحتفظ بهما معاً، ويصانعهما معاً، ويود لو يبقى الناس غافلين عنهما، منصرفين عن النظر إليهما
الصورة الأولى
صورة باسمة مشرقة متميزة الملامح والقسمات، يشع منها نور الإيمان، وتبدو على محياها سمات العقل والتفكير: لمن هذه الصورة؟؟ إنها صورة أزهري صحيح الفكر، رشيد العقل، واسع الأفق، لا يضيق صدراً بما يأخذ به الناس من أسباب حياتهم، وألوان ثقافاتهم، وطريقة تفكيرهم مادام ذلك في حدود العقل الصحيح والعلم الصحيح!
يشعر بأن الأزهر في عهده الحديث مطالب بأن يفهم ما حوله فهماً صحيحاً، لأن هذا الفهم ضروري له، وضروري للدين الذي يحمل لواءه، وضروري للأمة التي تجعله منها في مكان القيادة!
فهو ضروري له، لأنه إذا لم يفهم ما حوله فهماً صحيحاً، ظل يخبط في ظلمات، ويضرب في مجاهل، فتكون النتيجة - ويالهول! - أن يفقد اعتباره أمام الأمة، وأن يكره بعد حين قريب أو بعيد، على التخلي عن مركزه التاريخي العظيم فيها!
وهو ضروري للدين، لأن الدين عدو الجهالة والجمود، ولو كان الإسلام يرضى بالجهل أو يسكت عنه، أو يحب الجمود أو يصبر عليه، لما عاش هذا العمر المبارك الممتد إلى آخر الزمان إن شاء الله، بل لما وصل إلينا اليوم إلا طعيناً جريحاً، أو هرماً عملت الليالي والأيام فيه، ولكنه وصل إلينا شاباً تجري في شرايينه دماء الحياة نقية متدفقة، وصل إلينا قوياً غلاباً مرَّ بحضارات وحضارات فلم يضق بشيء منها صدراً ولم يقف أمام واحدة منها حائراً متردداً، ولا مأخوذاً مشدوهاً؛ وصل إلينا سليما منتصراً، قد تكسرت من حوله النصال، وتحطمت السهام؛ ذلك بأنه دين الفطرة والعقل والعلم والإصلاح!
وهذا الفهم الصحيح ضروري للأمة نفسها، لأن الأمة تنشد لأبنائها ثقافة قومية إسلامية خالصة، ولا ترضى بأن تفنى في غيرها، أو تؤخذ بثقافة غربية عنها عاجزة عن أن تمدها بوسائل الحياة التي تصلح لها، قاصرة عن أن تثير في نفسها شعور العزة والكرامة والتطلع إلى تاريخها ومفاخرها. تنشد الأمة لأبنائها هذه الثقافة وتتجه إلى الأزهر طالبة منه أن يمدها بها، لأن الأزهر قد زامل تاريخها الذي به تعتز، ولأنه هو الذي حفظ لها هذه الكنوز في الدين والفقه واللغة والأدب، ولأن الأزهر هو مدرسة الشعب العليا التي تجمع ابن الفلاح وابن الصانع وابن التاجر من سواد الأمة الذين يفهمون حاجاتها، ويدركون ما يصلح به شئونها!
فإذا ما تخلف الأزهر عن تلبية هذه الرغبة، ولم يقابل ثقة الأمة به، وتعويلها عليه، بالنشاط والعمل والتقدم نحو الكمال، ولم ينتفع بهذا المركز الفريد الذي ميزه به تاريخه وعلومه وطبيعة رسالته - أذاق الأمة لباس الحرمان والفجيعة، ودفعها إلى أعداء الإسلام كرهاً من حيث لا يحتسب
تقول الأمة الإسلامية للأزهر: إن من أعز آمالي أن أحمل عليك عبء تزويدي بما أحتاج إليه من قانون وتشريع، وفقه وقضاء، وأن أعمل برأيك الناضج في جميع نواحي الحياة: في الاجتماع، في الاقتصاد، في السياسة، في العلم، في الأدب، ولكن ينبغي أن يكون منك تقدم وخطوات عملية في جميع هذه النواحي، تشعرني بأنك عرفتها

ودرستها عن خبرة وفهم وتحقيق ومقارنة، ولا أكتفي منك بهذه الدراسات اللفظية الأثرية، ولا بهذه الأفكار التقليدية التي لو كان أصحابها الآن بيننا لتخلو عن كثير منها لقد كان الفقيه المجتهد يغير رأيه في المسألة الواحدة مراراً، لاطلاعه على ما لم يكن قد اطلع عليه، أو لانكشاف حالة لم تكن قد انكشفت له، أو لمناقشة عالم أقنعته بما لم يكن مقتنعاً به؛ وقد مر على هؤلاء الرجال المفكرين قرون وقرون، وحدثت أحداث، وجدّت نظم، وتغيرت دول، وانكشف للناس من أسرار الله في الحياة ما لم يكن قد أنكشف، وظهرت مشكلات ومسائل وقضايا من طراز جديد، فكيف يلتوي عنق الأمة إلى الماضي من غير نظر إلى الحاضر، وكيف نقف والفلك المحرك دائر؟ في البلد شركات مالية تقوم على أساس من الاقتصاد خاص، وفي البلد مصارف أصبحت جزءاً مقوماً من نظام المال في الدنيا، وفي البلد ألوان من النظم والمعاملات لم تكن معروفة فيما مضى، فهل درستم نظام هذه الشركات والمصارف؟ وهل تفهمتم أصول هذه المعاملات والنظم؟ وهل تبينتم من ذلك كله ما يتفق مع التشريع الصحيح ومالا يتفق؟

في البلد مشكلات اجتماعية، وعلل تحتاج إلى الإصلاح، فهل فكرتم في أن تجدوا حلاً لهذه المشكلات ودواء لهذه العلل، ثم عرضتم ذلك عرضاً منظماً جاداً حازماً على ولاة الأمور، وأقنعتموهم بالصلاح فيما تعرضون؟

إن أحداً من الناس لا يستطيع أن يقول: إن التشريع الإسلامي ليس كفيلاً بإسعاد المجتمع، وإنهاض الأمة؛ ولو قال ذلك أحد من الناس لكان ممعناً في الخطأ، جاهلاً بالحقائق، أو عدواً للإسلام جاحداً بفضله

ولكن قبل أن تنادوا بذلك، تحللوا أنتم أولاً من هذه القيود التي أثقلتكم. تحللوا من هذه الدراسات اللفظية الأثرية التي شغلتكم. برئوا أنفسكم وكرموا وجه العلم من أن تخلعوا على كل رأي قديم، مهما كان أمره، هذه القدسية التي لا يعرفها الإسلام إلا لله ورسوله!

إن هؤلاء الذين سبقوكم قد قاموا بما يجب عليهم، وأدوا إلى الله أماناتهم، ولبوا حاجات عصورهم وكانوا يصدرون فيما يرون أو يقولون عن نظر وتأمل واقتناع، فمن البر بهم أن تسيروا على سنتهم، وأن تهتدوا بهديهم؛ فتلبوا حاجات عصركم - في حدود الشريعة - كما لبوا حاجات عصرهم، وتصدروا عن فهم ووزن صحيح لحاجات أمتكم، كما أصدروا عن مثل ذلك

ذلك هو النداء الروحي الذي يشعر الأزهري الناضج بأن الأمة تنادي به الأزهر؛ وذلك هو الصوت المدوي الذي ينادي به الدين أبناء الدين؛ وذلك هو الروح الكريم الذي يوحي به الإخلاص للأزهر ورسالة الأزهر؟

هذه إحدى الصورتين المتقابلتين في الأزهر!

الصورة الثانية

أما الصورة الثانية فيا الله! كيف أصورها؟ إنها صورة مظلمة قاتمة تنبو عنها العين، وينقبض لمرآها الصدر: شيخ يعيش في عصر النور والعلم ويأبى إلا أن يكون بروحه وعقله في عصر الجهالة والتعصب والغموض والإبهام

تقول له: قال الله، فيقول لك: قال فلان في شرح كذا أو حاشية كذا. وتقول له: تأمل هداية الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، واعتبر بتطبيقه لآيات الله، وفهمه وفقهه في أحكام التشريع. فيقول لك: هذه مهمة المجتهدين وقد انقضى عهدهم، وأصبح الزمان لا يجود بمثلهم. أما أنا فمقلد وسأبقى مقلداً، لأن فلاناً يقول في منظومته: (. . .وواجب تقليد حبر منهمُ)

وهكذا يجعل التقليد واجباً له مرتبة العقيدة!

وتقول له: أنظر ماذا كان يفعل الأصحاب الأولون، وكيف كانوا يفهمون العقائد والأحكام كما نزلت في كتاب الله، لم تشبها الشوائب، ولم تفسدها المذاهب الباطلة، ولم تؤثر فيها النحل الغريبة؛ فيخالطه الشك في أمرك، ويجري لسانه بألفاظ يرددها ولا يفهم لها معنى: أهل السنة، المعتزلة، الباطنية، الإجماع، الإلحاد، الزندقة، إنكار الحقائق الشرعية. . . إلى غير ذلك. ولو سألته ماذا يقصد بهذه الألفاظ؟ ومتى حدثت في تاريخ الإسلام؟ ومتى جعلت معايير للكفر والإيمان لما وجدت جواباً!

وآفة الآفات في ذلك كله افتراض الثقة المطلقة في نظريات بعينها وأشخاص

بخصوصهم، مع الشك المطلق أو الرفض المطلق لنظريات أخرى وأشخاص آخرين؛ ومثل هذه الطريقة لا يعرفها الإسلام ولا يرضاها لأهله، ويأباها القرآن الكريم الذي عظم شأن البرهان، ونعى على الذين يجمدون بدون تفكير على تقليد الآباء
هاتان هما الصورتان المتقابلتان في الأزهر. وقد أبدع الأستاذ الكبير صاحب الرسالة في تصوريهما إذ يقول في العدد الماضي من الرسالة:
1 -) هؤلاء هم شباب الأزهر الجديد أستاذة وطلاباً، قد جلت نفوسهم ثقافة العصر، وصقلتها مدنية الحاضر، فأشرقت عليها أشعة النبوة ساطعة بعد ما حجبها الغمام والفناء حقباً بعد حقب. فهم وحدهم الذين يدركون مسافة البعد بين روح الأزهر وحياة الناس، وهم وحدهم الذين يملكون تزييف الأباطيل المقدسة التي اتسمت بسمة الحق، وتسمَّت باسم الدين)
2 -) ولكنهم حول هذا الهيكل البالي أشبه بالأغصان الخلفة التي تنبت نضيرة على أصل الدوحة العتيقة، ثم لا يتسنى لها الغلظ والسموق لأن الجذور الشيخة لا تمدها بالغذاء كله، والفروع الميتة لا تمكنها من الهواء كله. فإذا لم يرسل الله رسول الإصلاح ويؤته ما آتى أولى العزم من الرسل، فيقطع من أعالي هذه الدوحة ما أعوج، ويجتث من أسافلها ما ذبل، ويكشف عن جذعها الواهن ما التف عليه من طفيلي النبت، بغى الجفاف على هذه الأفنان النواشيء فتذوى في زهرة العمر وبكرة الربيع)
فمتى يرسل الله هذا الرسول، يا فضيلة الأستاذ الأكبر؟
محمد محمد المدني
المدرس بكلية الشريعة
عندما حيرها الصمت!
للأستاذ محمود حسن إسماعيل
قَالَتْ: أرَاكَ كَأَنَّمَا إنْ ... فَجَرَتْ حَيَاتُكَ مِنْ شِهَابْ
وتَدَفَّقَتْ بِكَ مَوْجَةٌ ... سَوْدَاءِ مِنْ حُلُمِ الصَّبَابْ
فَكَأَنَّ عُمْرَكَ في يَدِ الأ ... (م) قْدَارِ إعْصَارٌ مُذَابْ
وَكَأَنَّ. رُوحَكَ كَوْكَبٌ ... مُتَمَرِّدٌ فَوْقَ السَّحَابْ
. . .لا النَّجْمُ يَعْرَفُهُ، وَلاَ ... يَدْرِي مَتَابِعَهُ التُرَابْ
أفْصِحْ عَنِ السِّرِّ الدَّفِينْ
!!يَاأَبُّهَا لقَلقُ الحَزِينْ
إنِّي أرَاكَ كَعابِدٍ ... نَشْوَانَ يَحْضُنُهُ الإلهْ
!سَكَبَتْكَ رَاحَاتُ لغُيُو ... بِ رَحِيقَ خَمْرٍ في صَلاَهْ
!وَكَشَاعِرٍ ذُبحَتْ عَلَى ... قَيْثَارِهِ الدَّامِي رُؤَاهْ
!نَفَضَتْكَ أجْنِحَةُ السُّكو ... نِ ظلاَلَ مَوْتٍ في حَيَاهْ
. . .أشْعَلْتَ في قَلْبِي الهْوَى ... وَتَرَكْتَنِي في النَّار!ِ آهْ
!لَوْ كُنْتَ تُفْصِحُ أوْ تُبْينْ . . .
!أهَوىً أذَابَكَ أمْ جُنُونْ؟
!قُلْتُ: اصْخَبِي بِهَوَاكِ حَوْ ... لِيَ يا حبيبة وَاعْصِفِي بِي
أنَا عَاشِقٌ قَذَفَتْ بهِ ... بَلْوَاهُ في عَدَمٍ رَهِيبِ
أنَا قِصَّةٌ بَكْلَمة تَرْ ... وى سِحْرَهَا شَفَةُ الغُيُوبِ
أنَا جَدْوَلٌ تَجْرِي بهِ الأ ... (م) حْزَانُ في وَادٍ غَرِيبِ
مَلَّتْ جِرَاحُ الحُبِّ صَمْتِ ... يَ فَارْتَمَيْتُ عَلَى اللَّهيبِ
رُحْمَاكِ بِي. . . وَدَعِي الحَنِينْ
يُلْقِي سُؤالَكِ لِلسِّنِينْ
!وَغَدً. . . تَرَيْنَ وَتَعْرِفِينْ
(مراقبة الثقافة العامة)
محمود حسن إسماعيل
في الأدب العراقي
ديوان الحبوبي
للدكتور زكى مبارك
- حق الأدب على الأديب - خطبة لمبسون وخطبة تشرشل

انتقام الغزالي - الحبوبي بين الشعر والتدريس - لمحات من شاعرية الحبوبي - مراجع - شهيد الدفاع - الشاعر المصري المجهول احمد زناتى

حق الأدب على الأديب

بعد أن فرغت من مقالي عن (الصحافة العراقية) وقدمته لمطبعة الرسالة جاءت الأخبار بانقلاب جديد في العراق وهي أخبار آذتني اشد الإيذاء لأني أتمنى في كل وقت أن يعيش العراق في هدوء واطمئنان ليفرغ لتحقيق ما يسمو إليه من التفوق في ميادين العلم والأدب والاقتصاد

وكان من أثر ذلك الانقلاب وأثر اشتداد الأزمة الدولية أن أسكت عن حديث الأدب إلى أن تنكشف الغمة هنا وهناك فنجد ويجدون مساغاً للكلام عن الأدب والبيان

ولكني رجعت فنظرت في حق الأدب على الأديب ومن حق الأدب الذي نتشرف بخدمته أن نجعل الهيام بتقييد أو أبده فرضاً من أوجب الفروض فلا نسكت عنه ولو آذنت أشراط القيامة بسقوط السماء على الأرض، والله الحفيظ من مكاره هذه الأيام. . .!

فمن طاب له أن يعجب من اشتغالنا بالأدب في أوقات لا يشغل فيها الناس بغير أخبار الحروب فليعرف أن للأدب ميداناً لا يقل خطرا عن ميدان القتال وقت شاءت المقادير أن نكون جنودا في الميدان الأدبي فمن واجبنا أن نقف صادقين في ذلك الميدان وان نتناسى ما سواه من الميادين وان كان تناسى ما يهدد مصر والشرق من المستحيلات

ولو شئت لقلت إن روح الغزالي ينتقم منى. ففي كتاب الأخلاق عند الغزالي تنديد بالرجل الذي غرق في خلوته وانقطع لأوراده، والدنيا من حوله تضج بغارة الإفرنج على بيت المقدس، وتذكره بالواجب في الدعوة إلى الجهاد

الآن عرفت أن العلماء والأدباء لا يصورون عصرهم أصدق التصوير من النواحي السياسية، وإنما يصورونها من النواحي العقلية والروحية، فأنا لا ألتفت التفاتاً جدياً إلى أخبار الحرب ولا يهمني أن أدون ملاحظاتي على ما أقرا من أقوال الزعماء، وإنما اوجه جهودي إلى متابعة الحياة الأدبية والفلسفية عساني أصل إلى أشياء يستنير بها روحي وعقلي

أليس من العجب أن تستهويني خطبة السير لمبسون عن القديس جورج أكثر مما استهوتني خطبة المستر تشرشل عن مراحل الحرب في لوبيا والبلقان، مع أن الظروف توجب أن يكون اهتمامي بالخطبة الأولى أقل من اهتمامي بالخطبة الثانية؟

كان في خطبة لمبسون فكرة فلسفية آذنتني بأنه يسايرنا في آفاق الأرواح والعقول؛ أما خطبة تشرشل فتسير في الطريق لست منه وليس مني، لأني بعيد كل البعد عن آفاق السياسة والحرب، ومن الخير ألا يعي خطبة تشرشل غير من يشتركون في توجيه دفة السياسة والاستعداد لدفع أخطار الحرب، فهم المسئولون عن وعي الدقائق من هذه الشؤون

وليس معنى هذا أني أفاضل بين ميدان وميدان، فجميع الميادين أمام الواجب سواء، وإنما أقول بأن الاشتغال بالأدب الصرف لا يعد انسحاباً من المعترك السياسي، ولا هرباً من الإصاخة لدعوة الواجب عند احتدام الخطوب، فقد أعدنا الوطن لفروض لا تقل أهمية عن السياسة والحرب، وهو لن يطالبنا بغير الوفاء لتلك الفروض، وسيرى كيف نكون عند ظنه الجميل إن أشار بإغماد الأقلام وإشهار السيوف، فلنا سواعد وعزائم وقلوب، ولن تضام مصر وهي موصولة الفتوة برجال أقوياء يعدون بالألوف وألوف الألوف

أما بعد، فإن الأخبار السود التي أطالعها في الصباح والمساء لن تصدني عن الواجب الذي أعدني له وطني، وهو خدمة الأدب في مصر وفي سائر الأقطار العربية، وأنا ماض في أداء ذلك الواجب مهما اعتكرت الظروف

فما حديث اليوم؟

ومن الأديب الذي نلوذ بماضيه الهادئ فننسى أو نتناسى ما يحيط بنا من متاعب لا يتجاهل وقعها الأليم إلا من قد قلبه من الصخر الجلمود؟

الحبوبي
نحن أمام ديوان طبع في بيروت سنة 1331هـ 1913 م على نفقة الحاج عبد المحسن شلاش، والشاعر هو السيد محمد سعيد حبوبي (أشعر شعراء الشرق أمس وأكبر علمائه اليوم) كما كتب في صدر الديوان، فمن هو بين الشعراء والعلماء؟ إن العبارة التي رقمت على صدر الديوان تشهد بأن الرجل واجه لونين من ألوان الحياة الفكرية، فعاش أولا للشعر، ثم انقطع للعلم، وبذلك طغت شخصيته العلمية على شخصيته الشعرية؛ فإن انتهى بنا البحث إلى القول بأنه كان من الطبقة الثانية أو الثالثة بين الشعراء فسيصدق أقوام حين يقولون بأنه كان في صدر الطبقة الأولى من العلماء، وهل من القليل أن يسمو العلم بالحبوبي فيحفظ له ضريحاً في رحاب الحرم الحيدري بالنجف؟
ولكن كيف هجر الحبوبي حياة الشعر وانقطع العلم والتعليم مع ذلك الحظ من الفطرة الشعرية؟
يرجع السبب فيما أفترض إلى الرغبة في التفوق، وكان الحبوبي يعرف في سريرة نفسه أن طاقته العلمية أقوى من طاقته الأدبية. وفي المقدمة التي كتبها الشيخ عبد العزيز الجواهري لديوان الحبوبي عبارة تشهد بأنه كان مفهوما أن الحبوبي لا يقدر على مسايرة شوقي وحافظ وزناتي وصبري، وهم شعراء وصلت قصائدهم إلى العراق في ديباجة مصقولة لم يسبق لها نظير في الشعر الحديث، ولا تسهل محاكاتها على رجل يعيش في بيئة تأخذ زادها الأعظم من أقوال النحاة وقضايا الفقه والأصول على أنه لا موجب للتكلف في البحث عن الأسباب التي قضت بانتقال الحبوبي من ميدان الشعر إلى ميدان التدريس. فالرجل فيما يظهر كان يميل إلى إيثار الحياة العلمية، وكان الناس من حوله يطيب لهم أن يروه من أعاظم العلماء، إن صح أن البيئة التي سكن إليها وسكنت إليه كانت تملك صرفه عن الانخراط في سلك أكابر الشعراء، لو أرادت به شياطين الشعر غير ما يريدون!
والواقع أن البيئة التي أحاطت بالحبوبي كانت ترجو أن يظفر بأعظم الحظوظ من الشاعرية، ولكن الرجل عرف ما يملك من الطبع، فلم يجاوز ما يطبق إلى ما لا يطبق، وإن أثقله محبوه بأضخم الألقاب
والواقع أيضاً أن الحبوبي الشاعر أضاعته الحياة الفقهية، وهي حياة لا يرتفع معها شعر ولا خيال، وإن كانت في ذاتها من أجمل الحيوات، وهل تعز الشاعرية على من يسعفه الروح بمثل هذا الهتاف
إسقني كأساً وخذ كأساً إليك ... فلذيذ العيش أن نشتركا
وإذا جدت بها من شفتيك ... فاسقنيها وخذ الأولى لكا
أو فحسبي خمرة من ناظريك ... أذهبت نسكي وأضحت منسكا
وانهب الوقت ودع ما سلفا ... واغتنم صفوك قبل الرَّنق
إن صفا العيش فما كان صفا ... أو تلاقينا فقد لا نلتقي
وقد فتن الشاعر بهذا المعنى فأعاده بأسلوب آخر حين قال:
يا غزال الكرخ وأوجدي عليك ... كاد سرى فيك أن ينهتكا
هذه الصهباء والكأس من لديك ... وغرامي في هواك احتنكا
فاسقني كأساً وخذ كأساً إليك ... فلذيذ العيش أن نشتركا
أترع الأقداح راحاً قُرْقفا ... واسقني واشرب أو اشرب واسقني
فلماك العذاب أحلى مرشفاً ... من دم الكرم وماء المُزن
إن الشاعرية لا تعز على من يسعفه الروح بمثل هذا الهتاف ولا تعظم على من يزور داراً في بغداد فيروعه ما عند أهلها من صباحة الوجوه وطهارة القلوب فيقول:
فلست أدري أأملي فيهم غزلاً ... لما رأيتهُم أو أنشئ المِدَحا
إن الفقه هو الذي وأد الشاعرية في صدر من كان يجيد مثل هذا النشيد:
رويداً سائق النوق ... فما ودعتُ معشوقي
فبالأحداج لي رشأ ... رمى سهماً بلا فُوق
يسهم اللحظ يرشقني ... وقلبي جِدَّ مرشوق
كأن القلب يوم سرى ... هوى من فوق عيِّوق
فليت العيس ما رحلت ... ولا قامت على سوق

فقد خفَّت بمنبلج ... من اللألاء مخلوق
والبيت الأخير من وثبات الخيال
الفقه هو الذي أضاع صاحب هذا الهتاف:
يا حامل الوردة ما ألطفك! ... فهل ترى لي اليوم أن أرشفك؟
يا وردة الناظر بالله قل ... بهذه الوردة من أنحفك؟
لا أقطف الوردة، ولكنني ... قد كدت من روضك أن أقطفك
وخلاصة القول أن الحبوبي كان آية في قوة الطبع، ودقة الذوق، ولكن الفقه جني عليه فلم يحفظ له مكان بين أكابر الشعراء
مراجع
رأى القارئ في صدر هذا المقال أني ضيق الصدر بسبب ما يثور من الأزمات الدولية، وقد حاولت أن أنتفع بفرصة الكلام عن الحبوبي فأسوق طوائف من البحوث المتصلة بتاريخ الشعر العراقي في العصر الحديث، ولكن الحوادث صدتني عما أريد، فلم يبق إلا أن أوجه نظر القارئ إلى المراجع التي تساعد على فهم شاعرية الحبوبي، وأهمها بعد الديوان كتاب (العقد المفصل) ففيه أخبار كثيرة عن الحبوبي، وفيه إشارات تشرح بعض الغوامض من ذلك الديوان
شهيد الدفاع
هذا عنوان قصيدة نظمها معالي الأستاذ محمد رضا الشبيبي في رثاء الحبوبي ومن هذه القصيدة نعرف أن الحبوبي كان نهض إلى الدفاع في المحرم سنة 1333 (1915) فأجابه خلق من أهل الفرات والأقاليم الجنوبية وسار بهم إلى (الشعيبة) ولكنهم أصيبوا بالخذلان فعاد إلى الناصرية ورابط فيها إلى أن مات في عشية الأربعاء ثاني شعبان سنة 1333
ومعنى ذلك أن الحبوبي لم يكتف بالمنزلة الأدبية والعلمية فتسامت نفسه إلى الاتسام بوسم الجهاد
وقصيدة الشبيبي في رثاء الحبوبي تضمنت إشارات إلى أغراض سياسية يضيق عنهما هذا الحديث، وفيها نفحة من قصيدة شوقي في (الأندلس الجديدة)
زناتي
مرت إشارة إلى الشاعر زناتي عند الحديث عن الشعراء الذين عجز عن مجاراتهم الحبوبي، فمن هذا الشاعر المصري المجهول؟ هو الشيخ أحمد زناتي، أحد أساتذة اللغة العربية، وكان الشاعر الثاني بعد شوقي في نظر أستاذنا الشيخ محمد المهدي، وكنا نحفظ له في عهد الحداثة قصيداً نخاله مبتدأ بهذين البيتين
أرِقتُ وأصحابي خليّونُ نوَّمُ ... وما أنا ذو شوقٍ ولا أنا مُغرَمُ
ولَكِنَّ هَّما بين جنبيِّ شبَّهُ ... علىَّ ذوو القربَى عفا الله عنهمُ
وقد أرجع إلى البحث عن آثار هذا الشاعر بعد حين، الشاعر الذي جهله المصريون وعرفه العراقيون.
زكي مبارك
في الاجتماع اللغوي
اللهجات العامية الحديثة
عوامل تطورها وصفاتها المشتركة
للدكتور علي عبد الواحد وافي
أستاذ الاجتماع بكلية الأدب بجامعة فؤاد الأول
- 1 -
تقتضي نواميس اللغات أنه متى انتشرت اللغة في مناطق واسعة من الأرض، وتكلم بها طوائف مختلفة من الناس، استحال عليها الاحتفاظ بوحدتها الأولى أمداً طويلاً، بل لا تلبث أن تنعشب إلى لهجات، وتسلك كل لهجة من هذه اللهجات في سبيل تطويرها منهجاً يختلف عن منهج غيرها، ولا تنفك مسافة الخلف تتسع بينها حتى تصبح كل منها لهجة متميزة غير مفهومة إلا لأهلها. وبذلك يتولد عن اللغة الأولى فصيلة أو شعبة من اللهجات يختلف بعضها عن بعض في كثير من الوجوه. ولكنها تظل مع ذلك متفقة في وجوه أخرى، إذ يترك الأصل الأول في كل منها آثار تنطق بما بينها من صلات القرابة ولحمة النسب اللغوي. وكثيراً ما يبقى الأصل الأول مدة كبيرة لغة أدب وكتابة بين

الشعوب الناطقة باللهجات المتفرعة منه
ولهذا القانون خضعت اللغات الإنسانية من مبدأ نشأتها إلى العصر الحاضر. فاللغة اللاتينية مثلاً - وهي إحدى لغات الفرع الإيطالي من الفصيلة الهندية - الأوربية، قد أخذت في أواخر العصور القديمة وفي العصور الوسطى تنشعب إلى عدد كبير من اللهجات، وأخذت كل لهجة من هذه اللهجات تسلك في سبيل تطورها منهجاً يختلف عن منهج غيرها، حتى أصبحت كل منها لغة متميزة مستقلة غير مفهومة إلا لأهلها. وقد بقيت اللاتينية مدة كبيرة لغة أدب وكتابة بين الشعوب الناطقة باللهجات المتفرعة منها (الفرنسية، الإيطالية، الإسبانية، البرتغالية، لغة رومانيا. . .). ولكنها تنحت عن هذه الوظيفة بعد أن اكتمل نمو هذه اللغات. . .
ولم تفلت اللغة العربية - وما كان يمكن أن تفلت - من هذا المصير؛ فمنذ أن اتسع انتشارها، أخذت تنشعب إلى لهجات يختلف بعضها عن بعض وتختلف عن الأصل الأول الذي انشعبت عنه في كثير من مظاهر الصوت والقواعد والدلالة والمفردات؛ وسلكت كل لهجة منها في تطورها منهجاً يختلف عن منهج غيرها، تحت تأثير ظروفها الخاصة، وأخذت مسافة الخلف تتسع بين هذه اللهجات، حتى أصبح بعضها غريباً عن بعض: فلهجة العراق أو لهجة المغرب مثلاً في العصر الحاضر، لا يفهمها المصري إلا بصعوبة وفي صورة تقريبية. غير أنه قد خفف من أثر هذا الانقسام اللغوي بقاء العربية الأولى بين هذه الشعوب لغة أدب وكتابة ودين
ويرجع السبب في أنشعاب هذه اللهجات عن العربية الفصحى وفي تطورها المطرد في نواحي: الأصوات والقواعد والدلالة والمفردات، إلى عوامل كثيرة من أهمها ما يلي:
1 - انتشار اللغة العربية في مناطق لم تكن عربية اللسان فقد تغلبت اللغة العربية على اللغات اليمنية القديمة في معظم بلاد اليمن، وعلى اللهجات الآرامية في العراق والشام، وعلى الألسنة القبطية والبربرية والكوشية في مصر وشمال أفريقيا وشرقها. ومن المقرر أن اللغة الغالبة ينالها كثير من التحريف في ألسنة المحدثين من الناطقين بها (المغلوبين لغوياً) تحت تأثير لهجاتهم القديمة وأصواتهم ومفرداتها وما درجوا عليه من عادات في النطق وهلم جراً. . .
وقد كان لهذا العامل أثر واضح في اختلاف لهجات هذه المناطق الجديدة بعضها عن بعض، واختلافها عن اللسان العربي الأول. فقد تأثرت اللغة العربية في كل منطقة من هذه المناطق بلهجاتها القديمة، وانحرفت في ألسنة أهلها انحرافاً خاصاً اقتضته عاداتهم الصوتية المتأصلة ومناهج ألسنتهم الأولى؛ وتأثرت ألسنة الجاليات العربية نفسها في كل منطقة من هذه المناطق بألسنة أهلها، فنشأ من جراء ذلك في كل بلد من هذه البلاد لهجة عربية تختلف عن لهجة غيرها، وتختلف عن اللغة العربية الأولى فالعربية في الشام مثلاً متأثرة بالألسنة الآرامية القديمة، وفي المغرب باللهجات البربرية التي صرعتها العربية في هذه البلاد. . . وهلم جراً. . .
2 - عوامل اجتماعية سياسية: كاستقلال البلاد العربية بعضها عن بعض، وضعف السلطان المركزي الذي كان يجمعها ويوثق ما بينها من علاقات. فمن الواضح أن انفصام
الوحدة السياسية يؤدي إلى انفصام في الوحدة الفكرية واللغوية
3 - عوامل اجتماعية نفسية تتمثل فيما بين سكان هذه المناطق من فروق في النظم الاجتماعية والعرف والتقاليد والعادات ومبلغ الثقافة ومناحي التفكير والوجدان. . . وما إلى ذلك، فمن الواضح أن الاختلاف في هذه الأمور يتردد صداه في أداة التعبير
4 - عوامل جغرافية تتمثل فيها بين سكان هذه المناطق من فروق في الجو وطبيعة البلاد وبيئتها وشكلها وموقعها. . . وما إلى ذلك؛ وفيما يفصل كل منطقة منها عن غيرها من جبال وأنهار وبحار وبحيرات. . . وهلم جرا. فلا يخفي أن هذه الفروق والفواصل الطبيعية تؤدي - عاجلاً أو آجلاً - إلى فروق وفواصل في اللغات
5 - عوامل شعبية جنسية تتمثل فيها بين سكان هذه المناطق من فروق في الأجناس والفصائل الإنسانية التي ينتمون إليها والأصول التي انحدروا منها. فمن الواضح أن لهذه الفروق آثار بليغة في تفرع اللغة الواحدة إلى لهجات ولغات
6 - اختلاف أعضاء النطق باختلاف الشعوب. فمن المقرر أن هذه الأعضاء تختلف في

تكوينها واستعدادها ومنهج تطورها تبعاً لاختلاف الشعوب وتنوع الخواص الطبيعية المزود بها كل شعب والتي تنتقل بطريق الوراثة من السلف إلى الخلف. فلم يكن مناص إذن أن تختلف أصوات اللهجات العربية بعضها عن بعض باختلاف الشعوب التي انتشرت فيها، وأن تتجه كل لهجة منها في تطورها من هذه الناحية إلى منهج يختلف عن منهج غيرها

7 - التطور الطبيعي المطرد لأعضاء النطق. فمن المقرر أن أعضاء النطق في الإنسان في تطور طبيعي مطرد في تكوينها واستعدادها ومنهج أدائها لوظائفها. فحناجرنا وحبالنا الصوتية وألسنتنا وحلوقنا وسائر أعضاء نطقنا تختلف عما كانت عليه عند آبائنا الأولين، إن لم تكن في تكوينها الطبيعي، فعلى الأقل في استعداداتها؛ بل إنها لتختلف عما كانت عليه عند آبائنا الأقربين

وغنى عن البيان أن كل تطور يحدث في أعضاء النطق أو في استعداها يتبعه تطور في أصوات الكلمات، فتحرف هذه الأصوات عن الصورة التي كانت عليها إلى صورة أخرى أكثر منها ملاءمة مع الحالة التي انتهت إليها أعضاء النطق. فكان من المستحيل أن تجمد ألفاظ اللغة العربية على حالتها الأولى في الأمم الناطقة بها؛ ولم يكن مفر من أن ينالها كثير

من التطور باختلاف العصور. ومن آثار هذا ما حدث في اللغة العربية بصدد أصوات الجيم والثاء والذال والظاء والقاف. فقد أصبحت هذه الأصوات ثقيلة على اللسان في كثير من البلاد العربية، وأصبح لفظها على الوجه الصحيح يتطلب تلقينا خاصاً ومجهوداً إرادياً وقيادة مقصودة لحركات المخارج. ولعدم ملاءمتها مع الحالة التي انتهت إليها أعضاء النطق في هذه البلاد أخذت تتحول منذ أمد بعيد إلى أصوات أخرى قريبة منها، فصوت الجيم الذي كان ينطق به معطشاً بعض التعطيش في العربية الفصحى قد تحول في معظم المناطق المصرية إلى جاف (جيم غير معطشة)، وفي معظم المناطق السورية والغربية إلى جيم معطشة كل التعطيش والثاء قد تحولت إلى تاء في معظم المناطق المصرية وفي بلاد أخرى فيقال: (توب. تلج. تخين. تعلب. تعبان. تفل. تئيل. تلت. تلاتة. تمن. تمانية. تور. أتنين. نتر. جتة. عتة. عتر. . . الخ. بدلاً من ثوب. ثلج. ثخين. ثعلب. ثعبان. ثفل. ثقيل. ثلث. ثلاثة. ثمن. ثمانية. ثور. أثنان. نثر. جثة. عثة. عثر. . . الخ). والذال قد تحولت في كثير من المناطق العربية إلى دال في معظم الكلمات، فيقال: (داب. دراع. ديب. ده. دي. دبل. دبح. دبان. دأن. أدان. ودن. دهب. دبل. . . إلخ بدلاً من: ذاب. ذراع. ذئب. ذا. ذي. ذبل. ذبح. ذبان. ذقن. أذان. أذن ذهب. ذيل. . . الخ)؛ وإلى زاي في بعض الكلمات، فيقال مثلا: (زنب. زهن. زكي. بزر. رزالة. . . الخ؛ بدلاً من: ذنب. ذهن. ذكي. بذر. رذالة. . . الخ). والظاء قد تحولت إلى ضاد في معظم الكلمات؛ فيقال: (ضلام. ضفر. ضل. ضهر. الخ. بدلاً من ظلام. ظفر. ظل. ظهر. . . الخ) وإلى زاي مفخَّمة في بعض الكلمات (كما ينطق في عامية المصريين بكلمات: ظالم. ظريف. أظن. حظ. . . الخ). والقاف قد تحولت إلى همزة في بعض الكلمات المصرية، فيقال: (أط. ألت. أبل. عأد. نطأ. . . الخ؛ بدلاً من: قط. قلت. قبل. عقد. نطق. الخ)؛ وإلى جاف (جيم غير معطشة) في معظم اللهجات العامية في مصر وغيرها من البلاد العربية، فيقال: (جط. جلت. جبل. عجد. نطج. الخ)؛ (بدلاً من: قط. قلت. قبل. عقد. نطق. الخ

8 - الأخطاء السمعية وسقوط الأصوات الضعيفة. قد يحيط بالصوت بعض مؤثرات تعمل على ضعفه بالتدريج، كوقوعه في آخر الكلمة، وزيادتها عن بنيتها، وعدم توقف المعنى المقصود عليه؛ فيتضاءل جرسه شيئاً فشيئاً حتى يصل في عصر ما إلى درجة لا يكاد

يتبينه فيها السمع؛ فحينئذ يكون عرضة للسقوط. وذلك أن معظم الصغار في هذا العصر لا يكادون يتبينونه في نطق الكبار؛ فينطقون بالكلمات مجردة منه.

وقد كان لهذا العامل، مع عوامل أخرى سيأتي ذكرها، أثر كبير في سقوط علامات الإعراب بالحركات من جميع اللهجات العامية المنشعبة عن العربية؛ على حين أن الإعراب بالحروف، لعدم تأثره بهذا العامل، قد بقيت آثاره في اللهجات العامية (أخوك، أبوك، المؤمنين، الطيبين. . . الخ)

9 - موقع الصوت في الكلمة. وموقع الصوت في الكلمة يعرضه كذلك لكثير من

صنوف التطور والانحراف
وأكثر ما يكون ذلك في الأصوات الواقعة في أواخر الكلمات سواء أكانت الأصوات (ا) أصوات مد أم أصواتاً ساكنة
أما أصوات المد، فقد لوحظ أن وقوعها في آخر الكلمة يجعلها في الغالب عرضة للسقوط، ويؤدي أحياناً إلى تحولها إلى أصوات أخرى. وقد كان لهذا العامل أثر كبير في سقوط أصوات المد القصيرة المسماة بالحركات (التي يرمز إليها في الرسم العربي بالفتحة والكسرة والضمة) التي تلحق أواخر الكلمات العربية. ففي جميع اللهجات العامية المنشعبة عن العربية (عاميات مصر والعراق والشام وفلسطين والحجاز واليمن والمغرب. . . الخ) قد انقرضت هذه الأصوات جميعها، سواء في ذلك ما كان منها علامة إعراب وما كان منها حركة بناء. فينطق الآن في هذه اللهجات بجميع الكلمات مسكنة الأواخر (فيقال مثلاً: (رجعْ عمرْ للمدرسة بعد ما خفْ من عياه) بدلاً من (رجع عمرُ إلى المدرسة بعد ما خفَّ من إعيائه). - ولعل هذا هو أكبر انقلاب حدث في اللغة العربية؛ فقد أتى جميع الكلمات فانتقصها من أطرافها، وجردها من العلامات الدالة على وظائفها في الجملة، وقلب قواعدها القديمة رأسا على عقب.
ومن هذا القبيل كذلك ما حدث في اللغة العربية بصدد أصوات المد الطويلة: (الألف والياء والواو) الواقعة في آخر الكلمات، فقد تضاءلت هذه الأصوات في عامية المصريين وغيرهم حتى كادت تنقرض تمام الانقراض، سواء في ذلك ما كان منها داخلاً في بنية الكلمة (رمى، يرمى. . . الخ وما كان خارجاً عنها (ضربوا، ناموا. . . الخ)، فيقال مثلاً
في عامية المصريين (رام وعيسَ ومصطفَ أبُ حسين سافَر يوم الخميس لجرجَ) بدلاً من: (رامي وعيسى ومصطفى أبو حسين سافروا يوم الخميس إلى جرجا)
وما حدث في اللغة العربية تحت تأثير هذا العامل، حدث مثله في الكثير من اللغات الأخرى. فمعظم أصوات اللين المتطرفة في اللغة اللاتينية قد انقرض في اللغات المنشعبة عنها.
ووقوع الصوت الساكن (ونعني به ما يقابل صوت المد في آخر الكلمة يجعله كذلك عرضة للتحول أو السقوط، فمن ذلك ما حدث في اللغة العربية بصدد التنوين ونون الأفعال الخمسة والهمزة والهاء المتطرفتين. فقد انقرضت هذه الأصوات في معظم اللهجات العامية المنشعبة عن العربية، كما يظهر ذلك بالموازنة بين العبارات العربية المدونة في السطر الأول ونظائرها في عامية المصريين المدونة في السطر الثاني:
محمدٌ ولدٌ مطيعٌ؛ الأولاد يلعبون، الهواءُ شديدٌ؛ انتظرته ساعةً كاملةً
محمدْ ولدْ مطيعْ؛ الأولاد بِيلعَبُ؛ الهَوَ شديدْ، انتظرتُ سَاعَ كامْلَ
ومن هذا القبيل كذلك حذف آخر الكلمة التي يوقف عليها في عامية كثير من المناطق المصرية، كبعض مناطق بني سويف والشرقية ورشيد، فيقال مثلاً (إنت يَا وَلَ)؛ بدلاً من (أنت يا ولد)؛ (فين أخوك محمو) بدلاً من (أين أخوك محمود)؛ (إدِّيلُ خَمْسَأرو) بدلاً من (أدِّ له خمسة قروش)
وما حدث في اللغة العربية بهذا الصدد حدث مثله في كثير من اللغات الأخرى. فمعظم الأصوات الساكنة المختتمة بها الكلمات اللاتينية قد انقرضت في النطق الفرنسي أو تحولت إلى أصوات ساكنة أخرى أضعف منها أو إلى أصوات لين
ووقوع الصوت في وسط الكلمة يعرضه كذلك لكثير من صنوف التطور (ب) والانحراف. فمن ذلك ما حدث في اللغة العربية بصدد الهمزة الساكنة الواقعة في وسط الثلاثي، فقد تحولت إلى ألف لينة في عامية المصريين وغيرهم، (فيقال: راس، فاس، فال، ضاني. . . الخ بدلاً من: رأس، فأس، فأل، ضأن. . . الخ)
ومن هذا القبيل كذلك ما حدث بصدد الياء والواو الساكنتين في وسط الكلمة في مثل (عين) و (يوم). فقد تحولتا في بعض المناطق المصرية وغيرها إلى صوتين من أصوات المد،
فأولهما تحول إلى صوت يشبه صوت () في اللغة الفرنسية (عين، خيل، بين، زنيب. . . الخ)، وثانيهما تحول إلى صوت يشبه صوت () الفرنسي (يوم، نوم، فوز، لوم. . . الخ)
ومن ذلك تحريك الحرف الساكن إذا وقع في وسط كلمة ثلاثية في كثير من لهجات البلاد العربية (عامية الشرقية، وبعض عاميات الصعيد، ولهجات القبائل العربية النازحة

إلى مصر، ولهجة العراق. . . الخ؛ فيقال مثلاً: إسِم، رَسِم، مَصِر، جُرُن، بَدِر، فِجِلْ، فَجِل. . . الخ، بدلا من اسْم، رسْم، مصْر، جرْن، فجْل، فحْل. . . الخ)

وقد سجل الباحثون ظواهر كثيرة من هذا القبيل في اللغات الهندية الأوربية ووقوع الصوت في أول الكلمة يجعله كذلك عرضة للانحراف. فمن ذلك ما حدث (ج) في بعض المفردات العربية المفتتحة بالهمزة؛ إذا تحولت همزتها في بعض اللهجات العامية إلى فاء أو واو ((أُذُن) تحولت في عامية المصريين إلى (وِدْن) و (أين) تحولت إلى (فين) أو إلى (وين) في عامية القبائل العربية النازحة إلى مصر، وفي عامية العراق والحجاز؛ و (أدَّى) تحولت في بعض المواضع في عامية المصريين إلى (ودَّى) فيقال مثلاً: (ودَّاه المدرسة) بمعنى (أدى به إلى المدرسة) أي أوصله إليها)

وسنعرض لبقية هذه العوامل في المقالات التالية إن شاء الله

علي عبد الواحد وافي

ليسانسيه ودكتور في الآداب من جامعة السربون

هل لليهود فن؟

رد على رد

للدكتور أحمد موسى

جاء بالعدد رقم 93 من مجلة الثقافة مقال بعنوان (هل لليهود فن) قرر فيه الدكتور زكي محمد حسن مبدأين خطرين كانا سبباً في اهتمامي، وهما (أولاً) أن اليهود لم يعرضوا للفنون الجميلة أبداً. و (ثانياً) أن اليهود تركوا أدباً وديناً أثروا بهما أثراً لا يقل عن أثر الإغريق في الحضارة الإنسانية. وقد نفينا الزعم الأول في استفهام أرسلناه إلى مجلة الثقافة ونشر بالعدد رقم 99 مزوداً بمصادر علمية، وطلبنا إلى الدكتور زكي أن يدعم الزعم الثاني بالأدلة؛ لأننا اعتبرناه فتحاً جديداً في العلم يحتاج إلى البحث والفحص وذكر المصادر

وقد زد الدكتور على استفهامنا رداً نشرته مجلة الثقافة بالعدد 100 لم يكن مقنعاً - والقارئ يستطيع أن يكون لنفسه فكرة عامة عن المقال الأول وعن الحوار العلمي الذي دار حول هذا الموضوع الخطير، بقراءة هذا الرد).

(أ. م)

نشرت لي مجلة (الثقافة) استفهاماً بالعدد 99 ونشرت للدكتور زكي محمد حسن رده على استفهامي بالعدد 100 وهاهي مجلة (الرسالة) تفسح الصدر لنشر ردي على رده والدكتور زكي مؤلف وكاتب معروف، ولا ينتظر من قراء مقالاته أن يهملوا ما يكتب، فنشكره ونعتذر إليه عن العودة إلى الكتابة لأن رده لم يكن مقنعاً

فمن رده على استفهامنا تؤخذ المسائل الآتية حسب ما ورد في مقاله بالعدد 100 في مجلة (الثقافة):

1 - أن الأركيولوجيا أو علم الآثار تعني بدراسة المخلفات كلها وتدرس حياة الشعوب وطرق معيشتها، وهي مرجعنا الوحيد في دراسة مدنيات الأمم التي اندثرت بدون أن تصل إلينا وثائق مكتوبة عنها (ص 25 العمود الأيمن)

2 - إن تاريخ الفن هو دراسة التحف التي صنعها الإنسان مراعيا فيها إلى حد ما شيئا من مبادئ الجمال، وهو لا يعني إلا بالتحف والآثار ذات القيمة الفنية (ص 25 العمود الأيمن)

3 - أنه إذا كان في كتب الآثار الموضوعة عن شعب من الشعوب ما يدل على أن الفنون كانت زاهرة بين أفراده؛ فإن هذا لا يستلزم أن هذه الفنون كانت فنونهم ومطبوعة بطابعهم (ص 25 العامود الأيمن)

4 - أن الدكتور زكي يرجح أننا لسنا على حق في حسبان بنسنجر من بني إسرائيل، لأنه كان مدرساً في كلية اللاهوت البروتستانتية بتوبنجن (ص 25 العمود الأيسر)

5 - إن المراجع والكتب في تاريخ الفن تتحدث عن الطرز الفنية طرازاً طرازاً، ولكن (مستفهم) لن يجد بين صفحاتها فصلاً أو بعض فصل عقد للكلام عن فن ينتسب لليهود (ص 26 العمود الأيمن)

6 - يأبى (مستفهم) أن يصدق أن اليهود أثروا بدينهم وأدبهم أثر لا يقل عن أثر

الإغريق، ويقول إن هذا فتح جديد في العلم يحتاج لتصديقه والإيمان به إلى البحث والفحص وذكر المصادر، ويدعو (مستفهم) إلى دراسة العلاقة بين اليهودية والمسيحية والإسلام، وقراءة سير كبار العلماء والمفكرين اليهود واستعراض صلة اليهودية بحركة الإصلاح الديني في أوربا، وتبين أثر اليهود في القوانين الغربية؛ حتى أرى بذلك أن أثر اليهود في الحضارة لا يقل عن أثر الإغريق (ص 26 العامود الأيسر)

إن أثر الإغريق في الحضارة الإنسانية وأثر اليهود فيها مسألة اعتبارية ونسبية (ص - 7 26 العمود الأيسر)

وردنا على هذه المسائل ما يأتي:

1 - لم تعن الأركيولوجيا بدراسة المخلفات كلها وحياة الشعوب وطرق معيشتها إلا في عصر ديونيزيوس الهاليكرناسي (31 ق. م). الذي ذهب إلى روما وألف كتاباً في عشرين جزءاً لم يبق منها إلا نصفها تقريباً عن أركيولوجية روما تناول فيه حياة الشعب وطرق معيشته وعاداته وفنونه، وعصر يوسيفوس اليهودي المولود في أورشليم عام 37 بعد الميلاد الذي ألف كتاب الأركيولوجيا اليهودية في عشرين جزءاً ذكر فيها كل ما يتعلق ببني جنسه وأحوالهم وعاداتهم وفنونهم من أقدم العصور إلى آخر أيام نيرون

وقصد بالأركيولوجيا في عصر إحياء العلوم والأدب والفنون:

(ا) تفسير المخلفات الأثرية القديمة وتقدير الدرجة الفنية التي بلغتها ليدرك الناس ماهية الآثار والفنون، كما كان الحال عند (الإنسانيين) عندما تناولوا التراث الأدبي القديم لتحويله إلى دراسات عامة بعد أن كان من شأن الخاصة.

(ب) وتأريخ المخلفات التي يرجع عهدها إلى المرحلة الزمنية المحصورة بين عامي 1500 و1750 من مبان وتماثيل ونقوش

واتخذت الأركيولوجيا اتجاهاً جديداً بعد ظهور كتاب أوتفريد مولر (1717 - 1768) عن أركيولوجية الفن. وكتب غيره من العلماء والأدباء والباحثين في الفنون في بلاد الإغريق وآسيا الصغرى والشرق، وبذا تم تأسيس معهد الدراسات الأركيولوجية في برلين سنة 1828، فاستقلت الأركيولوجيا علماً قائماً بذاته بفضل فنكلمان

وفي فجر القرن الثامن عشر عنى بنجهام الإنجليزي بوضع كتاب (أركيولوجية الكنائس في عشرة أجزاء، طبع لندن سنة 1710 - 1722، كما عني أوجستي الألماني بوضع كتاب آخر في أثني عشر جزءاً، طبع ليبتسج في نفس الفترة الزمنية

وظاهر مما تقدم أن الأركيولوجيا تطورت تخصيصاً؛ فأصبحت لا تعني بالمخلفات كلها، أو حياة الشعوب وطرق معيشتها، ولم تعد المرجع الوحيد في درس الحضارات البائدة، إذ لا بد من الاستعانة بعلوم أخرى لإكمال هذا الدرس، كعلم تطور القشرة الأرضية وعلم الجماجم والعظام البشرية وعلم الأجناس وسلالاتها وعلم المسكوكات والدراهم

2 - أما قصر تاريخ الفن على دراسة التحف التي صنعها الإنسان (مراعياً إلى حد ما شيئاً من مبادئ الجمال)؛ فقد يبدو براقاً وإن يكن غير صحيح؛ والصحيح أن درس كل إنتاج فني من اختصاص تاريخ الفن بغير حساب للجمال، لأن مجرد نسبة هذا الإنتاج للجمال،

تقلل من قيمته الفنية لاختلاف الآراء في الجمال في كل زمان ومكان

يعني تاريخ الفن الفكرة واتصالها بالطبيعة صلة إلهام (البرشت دورر) وتتلوها وسيلة الإنتاج الفني (المسلك) وبها تقدر كفايته، وعلى هذا الرأي في الفن الأديب الأشهر جوتهولد ليسنج

وجعل العلامة فكلمان (3) التناسب أساس الفن ووصف الجمال بأنه بالمثل الأعلى، متتبعاً في رأيه خطوات أوجستين (354 - 430) ,

3 - إذا كان في كتب الآثار الموضوعة عن شعب ما يدل على أن الفنون كانت زاهرة ؛ فهذا (بين أفراده؛ فهذا لا يستلزم أن هذه الفنون كانت فنونهم ومطبوعة بطابعهم مردود عليه باستحالة جمود شعب عن ممارسة فن يُنتجَ ويُخرَجَ ويُبرز في وطنه! على أن الجائز هو أنه لا يشترط حتماً أن يكون الفن المزدهر في بلد ما خالصاً لأبنائه دون أثر أجنبي فيه

4 - وترجيح صديقي الأستاذ الدكتور زكي حسن أن بنسنجر ليس من اليهود، لأنه كان مدرساً في كلية اللاهوت البروتستانتية بتوبنجن مخالف للواقع؛ فأنه ولد في شتوتجارت وتخرج في جامعتها وجامعة توبنجن ودرس لاهوت التوراة ببرلين إلى سنة

1901، ثم صار نائباً لقنصل هولاندا في أورشليم إلى سنة 1912، ثم ندب للتدريس اللغات السامية في جامعة تورنتو إلى سنة 1914، فأستاذاً لآداب التوراة في مدفيل إلى نهاية الحرب الماضية. أما مؤلفاته فكتاب الآثار العبرانية وشرح أسفار الملوك، وتاريخ بني إسرائيل، وفضل اليهود في ابتداء التشريع، ويافت، وإلوه ودليل (بيدكر) عن فلسطين وسوريا سنة1912 كل ذلك مما يؤيد أن بنتسنجر يهوي

5 - لم تخل كتب تاريخ الفن من صفحات وفصول عقدت للكلام على فن ينسب لليهود، وإليك يا صديقي ثلاثة منها:

(ا) طرز الزخرفة، تأليف شبلتس، صفحات 39 - 41 ولوح رقم 14

(ب) الفن القديم تأليف لوبكه - برنيس، الجزء الأول، صفحة 105

(ج) أسس تاريخ الفن، تأليف لوبكة، الجزء الأول من صفحة 58 إلى 67

وهذه الكتب الثلاثة قليلة بالنسبة إلى كتب أخرى عالجت تاريخ الفنون عامة وألمت بتاريخ الفن اليهودي

6 - أما قول الدكتور الفاضل بأن اليهود أثروا بدينهم وأدبهم أثراً لا يقل عن أثر الإغريق فلا يوافقه عليه أحد، على حين توافقني على نقيضه الكثرة الغالبة من العلماء والمؤرخين حتى من اليهود أنفسهم. وأقرر بأن اليهود تأثروا بالعرب في مصر وشمال أفريقيا وأسبانيا وغيرها، ونقلوا عنهم. وكان الفضل فيما وصلوا إليه راجعًا إلى علوم الإغريق التي أشتغل العرب بترجمتها

قال أبن ميمون (1185 - 1204) في كتابه (مرشد الحائرين) أن ما أقتبسه اليهود من العلم والفلسفة كبصيص من النور وصل إليهم عن طريق العرب الذين استفادوا من حكمة الإغريق

أما ما كتبه العالم اليهودي الألماني (مونك) في كتابه (مزيج من الفلسفة العربية واليهودية)؛ فهو يؤيد فضل العرب على اليهود، كما يقرر بأنه لم يكن لبني إسرائيل فليسوف سوى ابن ميمون

ولا نحب في هذا المجال أن ننقص من فضل، (باروخ شبينوزا) الفيلسوف الهولاندي المتوفي سنة 1677 المنسوب إلى اليهود، وأن كان التنويه بذكره لا يكسب بني جنسه شيئاً فيما نحن بصدده، لأنه كان مغضوباً عليه ومحروماً من دخول المعبد لإلحاده ولمذهبه في وحدة الوجود

هاتان شهادتان ليهوديين من كبار رجالهم لم يزعما قط أن أدب اليهود أو حكمتهم دنت من حكمة الإغريق أو أدبهم، ولم يدعيا أنه كان لأدب اليهود ودينهم أثر في تاريخ الحضارة لا يقل عن أثر الإغريق

أما ما أستند إليه الأستاذ وهو درس العلاقة بين اليهودية والمسيحية والإسلامية فهذا ما لا دخل له في موضوع الحضارة من حيث هي إنتاج إنساني قائم بذاته؛ إذ أن العقائد في جوهرها تمس الباطن، كما تمس الحضارة من حيث الحالة النفسية للمتعبد، ودرس الحالة النفسية من اختصاص علم النفس، وهو فرع من البحوث الإنسانية التي لا دخل لليهود فيها. وإن اتفاق الإسلام واليهودية في بعض التعاليم والآداب كالختان والصوم والطهارة من الجناية. . . الخ؛ فهذه أمور كان التشابه فيها لتشابه ولتسلسل الشعبين من الجنس السامي، مع اختلافهما الجوهري في العقلية والنظر إلى الحياة والمثل العليا، ولا إخال صديقي يرمي إلى إثبات محاولة انتحال الإسلام عن اليهودية

والإصلاح الديني عند المسيحيين وهو أبرز ما في تاريخهم الكنسي قام به رجل ألماني أسمه مارتن لوتر، وآخر سويسري أسمه كلفن، وثالث من أهل سانت جال بسويسرا أسمه تسوينجلي وليس واحد من هؤلاء من اليهود.

وحتى حركة حرية الفكر التي ظهرت في أوربا قبل الثورة الفرنسية فهي لرجال أمثال فولتير وروسو وديدرو ومونتسكيو، وفي إنجلترا أمثال دودويل وتيندل وكوليتر وكلهم كما يعرف الأستاذ مسيحيون لا علاقة لهم باليهود

وإن كان لليهود أثر ملحوظ في الدنيا الجديدة فهذا الأثر محصور في الأعمال المالية والتجارية، وهي مع قيمتها الاقتصادية لا تمت بصلة إلى الأدب أو الفلسفة أو الفن كما يمت أدب الإغريق وفلسفة الإغريق وفن الإغريق

ولعلي لم أدرك تماماً قصد الدكتور من علاقة القوانين الغربية باليهود؛ فغير خاف أن

القوانين في إنجلترا مأخوذة في أول أمرها من العرف الذي تواضع عليه الناس هناك، وفي الدول اللاتينية أخذ في لبه عن القانون الروماني. أما في العصر الحديث فهو عن الثورة الفرنسية والقانون الألماني. وقانون روسيا لا يخرج عن التشريع الشيوعي. وفي البلاد الإسلامية عن الشريعة المحمدية وعن بعض الدول الأوربية كقانون بونابرت.

على أن هذا لا يمنع أن نذكر أن لليهود أثراً في التشريع الخاص بهم حيثما وجدوا، فيما يتعلق بالأحوال الشخصية كالزواج والطلاق والنسب. . الخ وطهارة المأكل وصحة الذبح، غير ما جاء في التوراة بسفر الخروج وأخبار الملوك.

وكتاب (تراث بني إسرائيل) مكتوب في عصرنا هذا لتمجيد اليهود، فلم يكن إلا نوعاً من الدعاية لقضية معينة؛ فكانت المبالغة فيه ظاهرة واضحة لمن يتعمق في درسه.

7 - أما أن أثر الإغريق وأثر اليهود مسألة اعتبارية ونسبية فهذا يخرج بنا عن حدود المقارنة العلمية التي يقوم الحكم فيها على الحالة الذاتية للشيء وليس على الحالة النفسية للباحث.

وخلاصة ما تقدم:

1 - أن الأركيولوجيا لا تفسر وحدها الماضي بما خلفه، وليست مرجعنا الوحيد في دراسة
مدنيات الأمم التي اندثرت

2 - أن تاريخ الفن لا يعني بتوافر شيء من مبادئ الجمال في الخلق الفني

3 - أن من المستحيل جمود شعب يزدهر الفن بين أفراده دون اشتراكه، كما أنه من المستحيل أن يوجد شعب له أثر ملحوظ في الأدب والفلسفة والعلم ولا يعرض للفنون الجميلة أبداً

4 - أن بنتسنجر كان من اليهود حقاً وصدقاً

5 - أن مراجع كتب تاريخ الفن لا تخلو من فصل أو فصول عقدت لتاريخ الفن عند اليهود

6 - أن أثر اليهود بدينهم وأدبهم لا يدنو من أثر الإغريق في الحضارة الإنسانية

7 - عند المقارنة والموازنة - بين حضارتين - لا يكون للاعتبارية والنسبية المقام الأول في البحث العلمي

ولما كان الاتجاه الذي رغب الأستاذ زكي محمد حسن إلباسه ثوب الحقيقة العلمية، وهو الإقرار لليهود بفضل التأثير في الحضارة الإنسانية بما لا يقل عن فضل الإغريق بأدبهم وحكمتهم وعلومهم وفنونهم يعد من أشد الاتجاهات العلمية خطورة، ولا يجوز لباحث مثلي ومثله إبقاءه على هذه الحالة من الإيجاز والغموض؛ فقد صحت عزيمة كاتب هذه السطور خدمة للعلم، على أفراد فصل قائم بذاته لتصفية هذه المسألة عندما يحين الوقت أن شاء الله.

أحمد موسى

ألقاب الشرف والتعظيم عند العرب

للأب أنستاس ماري الكرملي

1 - توطئة

ضَرِيَ السوريون منذ برهة، باستعمال ألفاظ جديدة، للتعظيم والتبجيل، واستهجان كل كلمة دخيلة تدل على نظائر تلك المعاني. ولذا تجدهم اليوم، لا يتخذون لقباً أو جلاء يدل على أدب، أو تكريم، أو علم، أو إدارة، أو سياسية، أو نبالة، أو كل لفظ عليه طابع دخيل، فليس فيهم كاتب يتخذ في كلامه كلمة آغا، ولا أفندي، ولا بك. وأما مسيو. ومستر، وسنيور، وهر وضون، فقد أصبحت في خبر كان. وكذلك لا تجد أثراً لماجستير وليسانسية ودكتور وبروفسور. وقد نفوا من عبارتهم الكبتن والماجور والكولونل والجنرال هذا في الرجال. وكذلك نقوا كلامهم من ألقاب الإناث مثل: هانم، خانم، خاتون، ومدموازيل، ومدام، ومس، ومسز، وليدي. والكلام هنا على ما يقال في الأجانب على اختلاف قومياتهم. وليس هناك خلاف في أنه إذا جرى الكلام على أبناء العرب من ذكور وإناث فيتخذ لقب السيد، والسيدة، والآنسة، والكريمة، والعقيلة، إلى ما ضارع هذه المفردات

أما أنهم يحاولون إطلاق هذه القاعدة على الأجانب، وعلى ما وضعه هؤلاء من الألقاب

العلمية والسياسية والأدبية بشروط وامتحانات وأحكام، فأنهم يحاولون القبض على حبال القمر، أو على قبض الماء بأيديهم؛ إذ لا حق لهم فيها، ولا يوافقهم على تحكمهم هذا إلا كل أهوج، خال من الوقوف على تقدم علوم العصر ومصطلحاته وأدبه، وأنفاق جميع الأقوام على اتخاذه، لأنها أصبحت من أوضاع الأقوام جميعها، ومن مشتركاتهم فيها ومن حق الجميع وممتلكاتهم لها

ومن مضحكات أوضاعهم أنهم أخذوا يستعملون (العليم) و (الحكيم) في مكان (الدكتور). وجهلوا أن هذا اللقب وأمثاله بمنزلة الأعلام، أي أعلام الألقاب. والأعلام تروي، أو ينطق بها على علامتها، ولا يحق لأحد أن يبدلها بغيرها، أو يصلحها، أو يحرر فيها أي تحرير، كبيرا كان أم صغيراً. فكما أن أحمد غير حامد، وهذا غير محمود، محمود غير محمد، وهذا غير حماج، وحماد غير حميد، وإن كان الأصل واحد كذلك ألقاب الآداب لا يبدل بعضها ببعض، ولا يقوم اللفظ الواحد مقام اللفظ الآخر؛ فـ (المسيو) مثلا يدل على أن المتكلم

عليه رجل فرنسي، و (المستر) على أنه إنكليزي، و (السنيور) على أنه إيطالي، و (الهر) على أنه ألماني، و (الضون) على أنه أسباني. وفي كل ذلك من تسهيل معرفة قومية الرجل عند ذكر لقبه مالا تجده في قولك: السيد فلان. إذ هذه الكلمة تدل على أن المدلول عليه هو من أبناء الناطقين بالضاد؛ بل يدل عند بعضهم على أن من نسب النبي العربي. فأين هذا الحرف من الحروف التي سردنا لك منها أمثلة؟ إن السورين يجورون على الأمم، ولا يجارون السلف في أعمالهم منذ القدم

2 - ألقاب رؤساء الممالك:

اتصل السلف مع تمادي لزمن بأقوام مختلفة وبدول شتى، وعرفوا ألقابهم مع ما فيها من الغرابة، ولم ينقلوا إلى معانيها في العربية، بل حافظوا عليها أعظم المحافظة. ونحن ننقلها لكمن كتاب الآثار الباقية لأبي الريحان، وهي هذه (عن النسخة المطبوعة في أوربا):

أنواع الملوك الألقاب الواقعة على أشخاص تلك الأنواع

1 - ملوك الفرس الساسانيةشاهنشاه وكسرى
2 - ملوك الرومباسلي وهو قيصر
3 - ملوك الإسكندريةبطليموس
4 - ملوك اليمن تبَّع
5 - ملوك الترك الخزر والتغزغز خاقان
6 - ملوك التُرك الغُزية حنوته
7 - ملوك الصين بغبور (أو فغفور)
8 - ملوك الهند بلهرا
9 - ملوك قنُّوجرابي
10 - ملوك الحبشةالنجاشي
11 - ملوك النوبة كابيل
12 - ملوك ملوك جزائر البحر الشرقيمهراج
13 - ملوك جبال طبرستانإسَفْهبد
14 - ملوك دنباوندمصْمغان
15 - ملوك غرجستان شار
16 - ملوك سرخسزاذويه
17 - ملوك نساوابيورد بهمنه
18 - ملوك كش نيدون
19 - ملوك فرغانةإخشيد
20 - ملوك أشروسفة افشين
21 - ملوك الشاشثدن
22 - ملوك مرو ماهويه
23 - ملوك نيسابوركفبار
24 - ملوك سمرقندطرخوت
25 - ملوك السريرالحجاج

26 - ملوك دهستان صول
27 - ملوك جرجاناأناهبذ
28 - ملوك الصقالبة قبَّار
29 - ملوك السريانيين نِمرُوذ
30 - ملوك القبطفرعون
31 - ملوك باميان شيرباميان
32 - ملوك مصر العزيز
33 - ملوك كابلكابل شاه
34 - ملوك الترمذترمذ شاه
35 - ملوك خوارزمخوارزم شاه
36 - ملوك شروان شروان شاه
37 - ملوك بُخارابخار خداه
38 - ملوك كوزكانانكوز كان خذاه
وكل ما جاء هنا يتعلق بالشرق الأدنى أو الشرق الأوسط، ولم يتعرض المؤلف لألقاب أهل
الغرب، مع أنها وردت في كتب التاريخ، لا سيما حين اتصل العرب بأهل الغرب في أيام الحروب الصليبية وبالتجارات والمراجعات التي جرت في عهد العباسيين والفاطميين والأندلسيين من ذلك:
3 - الباب
4 - الأنبراذور أو الأنبراظور أو الأنبرور
5 - البطرك
جاء في مقدمة ابن خلدون في آخر الفصل الثالث والثلاثين ما هذا نقله بحروفه:
واختص اسم البابا ببطرك رومة لهذا العهد، ولا تسمى اليعاقبة بطركهم بهذا الاسم. وضبط هذه اللفظة بباءَين موحدتين من أسفل والنطق بها مفخمة والثانية مشددة. ومن مذاهب البابا عند الإفرنجة، أنه يحُّضهم على الانقياد لملك واحد، يرجعون إليه في اختلافهم واجتماعهم، تحرجاً من افتراق الكلمة، ويتحرى به العصبية التي لا فوقها منهم، لتكون يده عالية على جميعهم، ويسمونه الأنبرذور، وحرفه الوسط بين الذال والظاء المعجمتين. ومباشرة يضع رأسه للتبرك، فيسمى المتّوج، ولعله معنى لفظة الأنبرذور. وهذا ملخص ما أوردناه من شرح هذين الاسمين الذين هما البابا (كذا) والكوهن)
ونحن نورد هنا أيضاً الحاشية التي جاءت على كلمة الأمبرذور. قال الناشر: (المشهور قديماً إيمبراطور، بالطاء المهملة، والفرنسيس تقول: إيمبرور وعناها عندهم ملك الملوك) اهـ. ولنا هنا عدة ملاحظات، منها: 1 - أن المؤلف كتب الباب ولم يكتب البابا. ولما لم يكن عنده يومئذٍ الباء المنقطة بثلاث، ضبطها بالكلام لا بالقلم.
2 - إن صريح كلامه لتقييد الكلمة أنها بباء مفخمة والثانية مشددة ولم يذكر أنها تختم بباء وألف بل بباء مشددة، فكان يجب أن تكتب هكذا (البابّ) لا (البابا) ونحن نظن أن رسم الكلمة البابا من الناسخ لا من المؤلف بما أن نص المؤلف واضح هو بباء مفخمة مشددة. وأول من نقلها بهذه الصورة ابن رُسته، وقد وضع كتابه في آخر المائة الثالثة للهجرة، أي في نحو سنة 908 للميلاد كما سترى
3 - أما كتابة الانبرذور فتكاد تكون صحيحة، لأنها في لغة اللاتين ومعناها: الآمر. وكان أصل وضعه لرئيس الجيش، أي القائد العام له، ثم في أيام كيكيرون جعل لقباً للقائد الظافر، ثم للقنصل وفي الآخر للملك الأكبر؛ فانتقل بعد ذلك إلى كل ملك كبير؛ فهو كقولك ملك الملوك، أو كشاهنشاهان عند الفرس. إذن ليس معناه المتَّوج ولا معناه ملك الملوك
4 - إن كتابة الإمبراطور بهذا الرسم كما يرسمه المعاصرون لا يوافق القواعد العربية، لأنه لا يُرى في الكلم الضادية من عربية ومعربة، فيها الميم ساكنة، ويليها باء متحركة، فإذا وقع مثل ذلك رُسمتْ الميم نوناً. ولهذا يجب أن تكتب (الانبراطور) بنون
5 - جرى العرب على كتابة الكلمة (أنبرور) بهذا الرسم. عند اتصالهم بالألمان والفرنسيين في نحو أواخر المائة الثانية عشرة وأوائل المائة الثالثة عشرة من تاريخ

الميلاد، أو بعبارة أخرى في أواخر المائة السادسة وأوائل المائة السابعة للهجرة. فقد قال ابن خلكان في ترجمة أبي العباس أحمد عبد السيد الملقب صلاح الدين: (وعند وصول الأنبرور، صاحب صقيلة إلى ساحل الشام في سنة 626 هـ (1228م) بعث الملك الكامل الصلاح إليه رسولاً).

وقال في ترجمة أبي طاهر يحي بن تميم: (ولما هلك غنيمة (بن زُجَار. كذا. والصواب بن رُجَار براء مهملة). ملكت أبنته، وهي أم الأنبرور ملك ألمانيا في زماننا. ثم هلكت أم الأنبرور) اهـ

وجاء في تقويم البلدان لأبي الفداء: (وسلطانها (سلطان ألمانية) هو المعروف بالأنبرطور ومعناه ملك الملوك والعامة تقول الأنبرُوز) اهـ. وفي كتاب العبادين في كتاب ألفُنْس بن سانشس إلى الخليفة المعتمد الإنبيطور

فهذه عشر لغات في تعريب كلمة واحدة، أصلها اللاتيني فقيل فيها: إنبيطور، إنبرذور، إنبرظور، إنبراطور، إنبرادور، إنبرطور، إنبرور. وقال فيها البعض المعاصرين خطأ: إمبراطور، إبمبراطور، إيمبرور. ومن اللازم على المعاصرين أن يلاحظوا كيف أن الأقدمين باختلاف بلدانهم وعصورهم كتبوا بألف ونون، وليس أبداً بألف والميم، لأنهم عرب صميم والعرب لا تخالف قواعد سلفهم أبداً، وذلك سلبقة لا تطبُّعاً!

(له صلة)

الأب ألستاس ماري الكرمل

من أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية

صفحة من كتاب

من جوف الليل

للأستاذ شكري فيصل

- 1 -

أرقت في هذه الساعة فما استطعت أن أنام. . . لقد حاولت أن أغمض عيني، وأن أستسلم لهذه الرؤى البارعة، وتلك الأحلام الرائعة، وذاك الجمال الذي أهواه، لعلي أنام على ذكراه وأغني على هدهدته، وأجد اللذة في مداعبة خياله، والأنس بحثاً له، ولكني لم أفد شيئاً من هذه المحاولة. إن النوم ليعصيني كأن بيني وبينه عداء؛ وما كنت لأعادي إنساناً أو أغضب رجلاً، أو أسئ إلى مخلوق، لأن قسوة الحياة علمتني منذ كنت طفلاً منكمشاً في زاوية المدرسة، وحيداً في أطراف الطريق، معتزلاً في ركن البيت، ألا أقسو على أحد، وأن أنشد الخير لهؤلاء الناس جميعاً؛ فليس أحلى من الخير، ولا أحسن منه استثارة العاطفة، وإرضاء للشعور الغاضب المضطرب

- 2 -

لِمَ يجفوني النوم؟ ولِمَ يباعد بيني وبين أحلامي الهانئة وقصوري الناعمة في جنات الخيال؟ ولِمَ يريدني على أن أساهر النجم وأراقب الكواكب وأشهد صفحة السماء بعيني، بيناً، تتطلع إلى السماء بألف عين فأخافها وأخشاها، وأرتعد منها، وأفر إلى أعماق السرير، وأستر وجهي بهذا الغطاء الكثيف؛ فلا أنجو من الرعب ولا أخلص من الارتعاد، وتظل هذه الأعين تطل علي، وتلحق بي، وتتعثر في ناظري، وترمقني بشعاعاتها النافذات؟!

أي شيء أصبت من إثم حتى يجردني الله من لباس الليل، فلا أرتع فيه، ولا أغيب في آفاقه السعيدة أنسى هموم اليوم ومتاعب النهار، وأخبار السوء؛ ولم تتوافد علي الذكريات أليمة محزنة، وتطوف في خاطري كئيبة سوداء، وتنشر في نفسي ليلاً آخر بكل سواده القاتم، وجلاله القائم، ونجومه المنطفئات؟!

- 3 -

لم تعد لي قوة أحتمل بها هذه الوحشة. . . لقد كنت ألقي أهوال النهار فأفر منها إلى الليل،

ولكن الليل يطردني عنه، وينفيني منه، ويريد أن يحول بيني وبينه. لقد وسع كل شئ؛ كل الخيرين والأبرار، والآثمين والأشرار، والغاصبين والأخيار؛ ولكنه ضاق عني، وقذف بي إلى مغارة هائلة لا أدري أين أستقر فيها. . .

رحمة بالضعفاء يا ليل! إن الذين تزدريهم أعينك الليلة، ويتجافى عنهم مداك الواسع، وسلطانك الممتد. . . ليس لهم ما يستريحون إليه إلا هذه الساعات يقتطعونها من

عمر الزمن، ويختلسونها من حياة الدهر، ويسرقونها سرقة الجائع المتهالك للكسرة الجافة واللقمة الشاردة لينعموا بها ساعة في نوم عميق ينسون فيه أنفسهم، وهذه الآفاق التي تحيط بهم، وتلك الذكريات التي تنتاشهم، وحادثات الألم التي تصك مسامعهم فلا يملكون بعدها الحركة والشعور، فهلا رفقت بهم أيها الليل هلا ضممتهم في نعيمك الممتع، ولففتهم بسكونك المتراخي، وتركتهم إلى هذا الهدوء الذي ينشدونه، وهذا الصفاء الذي يرمقونه، وتلك الفترات التي يتطلعون إليها ليجددوا بعد القوة على احتمال الأسى، ولقاء الشرور

- 4 -

إني لأخشى هذا الفضاء الهائل الذي أجدني فيه، ليس من حولي شئ، ولا إلى جانبي إنسان، لقد ذعرت حقا حين مددت يدي هنا وهنالك، وأجلت بصري أمام ووراء، فلم ألق هذه الإنسانية البرة الحنون التي رعت طفولتي بشقائها، وغذت يفاعتي بدموعها، ونشأت صباي من دم قلبها. . . لقد أدركت. . . إنها بعيدة عني، وأن بيني وبينها آماداً ومسافات يرعاها الله، ويكلؤها الرحمن، فمن لي باليد التي تطوق عنقي، من لي يفيض على الجرأة، ويبعث في القوة، ويطرد عني خوف الليل؟

إن فضاءً كبيراً حولي. . . وإن فضاء أكبر في نفسي. . . وليس في وسعي أن أملأه بما أرى في النهار، وأسمع في الطريق، وأحس في العمل، لأني لا أرى شيئاً، ولا أسمع صوتاً، ولا أحس حركة. لقد ابتلع الليل كل شئ، فطواه في ثناياه، وضمه إلى حشاه الواسع. . . إلا أنا. . . إلا أنا سهران لأنه يفيق عني، فأظل مشرداً في كهوف مرعبة من الشكوك والأحزان: شأن هؤلاء المشردين في أطراف الأحياء، وأرصفة الشوارع، وحافات المقاهي في النهار، ولكني أنا مشرد ليل، وليس لهذا الليل ندى آوى إليه، أو صديق أسلو معه، أو شارع أجوس خلاله. . .

ليس فيه إلا الفراغ المرعب، وهذه السهام المسددة التي تبعثها النجوم في نفسي

- 5 -

أخذت أتقلب في أطراف السرير وألوذ بجوانبه، ولكن الحركة لم تكن لتنجو بي من هذا الذي أشقى به، وأطراف السرير وجوانبه قلقة حائرة. لقد نبا بي كل شئ: حتى هذا الغطاء الذي آلفه في الليل وفي طرفي النهار. . . إنه ليضطرب فوق جسمي كأنما أنا أرتعد، وما أدري سر هذه الرعدات الخانقة وما أعرف متى أخلص منها. . . إن القمر الدائر ليتراءى لي، وإني لأحاول أن أفزع إليه. . . ولكن المسكين لا يقوى على شئ. لقد أهزله الطواف حول الأرض مدى عشرين يوماً ونيفاً فلم يبق منه إلا الجسم الناحل والعظم المقوس، ولم يعد له ذلك البريق الذي كان يفيض منه، ولا ذاك لألق الذي ينساب من أطرافه، ولا تلك الأضواء التي كانت تغمر الأرض، وتنير حواشي السماء، وتطرد ظلمات النفوس. لقد أضحى كابي النظرات، خامد الحسن. متهاتف القوى، وأصبح جمرة هامدة بعد أن كان شعلة متقدة. إن طبقة من الرماد الأزرق تحاول أن تطغي عليه. لقد امتدت إليه فعملت فيه كما يعمل السل؛ ونفذت في طرف منه فتقبلها بضحكته الكاملة وبسمته المستديرة وغمرها بألقه الحنون، ولكنها كانت من طباع الناس: فبها لؤم وغدر، وفيها إثم وشر فلم تزعه، وإنما أخذت تنفث سمومها فيه، لقد بترت أوصاله، وإنها لتسرى الآن إلى أحشائه تلتهمها. لم يبق بينها وبين قلبه شيء. إنها لتكاد تلتهم هذا القلب الكبير الذي وسع الأرض وطاف حولها، لا تكبر شيخوخته، ولا تحترم مشيبه ولا تذكر إحسانه إليها. . . هاهي الماكرة تسرق قلبه وتأتى عليه. . . لقد أضحى القمر المسكين ذؤابة بيضاء منحنية لا تملك أن تتماسك، ولا تستطيع أن تشتد، وستلحق هذه الانحناءة النادية بالقلب الكبير: لتجدد معه في العالم الآخر عهود الصفاء والضياء والنور

- 6 -

لقد نهضت أمشي. . . ولكني لا أملك أين أضع قدمي مخافة أن أنزلق به. . . إني لأحبو كالطفل، أتلمس الطريق بكل أطرافي وحواسي. لقد عدت طفلاً لا يعرف كيف يسير، فهو محتاج إلى من يمسك بيده ويأخذ بساعده ويمضي به، فهلا أخذت بساعدي - أيها ليل -

ومضيت بي كما تمضي بكل هؤلاء الناس إلى أحبتهم يناشدونهم الوصل، ويعتبون عليهم القطيعة، ويلومون منهم هذا الإهمال، وإلى أهلهم البعيدين منهم المتغربين

عنهم: يبثونهم الحنين، ويهدونهم التحيات، ويطبعون على جبينهم قبلة الحب الذي يملأ كل جارحة ويغطي على كل شئ، وإلى معاهد الصبا يطوفون فيها ويسمعون في جنباتها ويرددون في آفاقها نشيد المرح والسعادة، وإلى أرض الوطن يسألونها ماذا حل بها وأي شيء أصابها، وماذا فيها من مكر الدهاة ومكارة الدنيا وعبث الزمان؟؟ وهل من بلاء - لا كان - يلقاه أبناؤها الغر: الذين يحملون فوق كل ما يحمل أبناء العالم من واجبات المدرسة والبيت، وحقوق المدن والريف، وأهداف الوطن والمستقبل، وغايات العرب والإسلام؟؟

- 7 -

لم يعد في وسعي شيء - أيها الليل - لقد سددت النافذة وأقفلت الباب ودفنت وجهي في الوسادة، ودسست كل أطرافي في أعماق السرير كمن يتحصن. . . ولكنك لم تشأ أن ترفق بي: إن الباب ليطرق طرقاً عنيفاً، وإن النافذة لتهتز هزة شديدة، وإن كل ما حولي ليتحرك. . . ولكني سأجمع كل قوتي، وستتركني أنت هنا في هذا الأسر الموحش. . . غير أن النهار سيضيء وسيحسن إلي مرة، لأنه يعرف أنه أساء إلى مرات، وسأنهض على قدمي وأفتح ناظري وأرى النور. . .

- 8 -

إنّ غبش الفجر ليلمع في جبين الليل، وإن همسات خافتة من أضوائه لتتراءى لي. . . هذا السواد يهزل ويهزل، إنه ليمضي في طرف الأفق مطرقاً مستحيياً، ولكني سأغفر له هذه الإساءة لأني أحب هدؤه وأعشق صفاءه وأعيش في أحلامه. . .

(القاهرة)

شكري فيصل

المرحوم محمد مسعود بك

للأستاذ خليل مطران بك

مضَوا تَباعاً وهذا يوم مسعود ... هل في الكِنانة قلبُ غُيرٍ مكمود
نوابغٌ ملأوا بالفخر عصرهمُ ... وجددوا المجد فيه كلَّ تجديد
عادت به لِفحول الشعر دُولتُهم ... ودولةٌ للتحرير المجاويد
الكاتب الفذُّ قد ألقى يراعتَه ... بعد اصطحاب طويل العهد محمود
بحر من الأدب الزخَّارِ مُصْطَفِقٌ ... بِصَدرِ أرْوَعَ فيه حِشمة الرُّود
تراه في وجه مُسْتحيٍ وتَخبُرُه ... فلَست تَخبرُ غيرَ النبل والجود
تبدي ظواهره ما في سرائره ... وقد تشعُّ نفوسٌ في التجاليد
يحيا وَدُوداً ومودوداً كأحسنِ ما ... يرجو وهل مِن ودوَدٍ غيرُ مودود
ولم يكن مع لين الطبع واهِيَهُ ... ولم يكن بمداجٍ أو بِرٍ عدِيد
وربما صال ذَوْداً عن حقيقته ... فجال في الشوط جولاتِ الصناديد
جاري صِحافةَ مصر منذ نشأتها ... وِعبئُها مرهِقٌ في نضرة العود
بالعزم والحزم يستوفي مطالبها ... وهل بغيرهما إدراك منشود
حتى إذا آب من أقطاب نهضتها ... وسدَّد الرأيَ فيها كل تسديد
أجرى بما يخصب الألباب أنهرها ... كالنيل بالخصب يجري في الأخاديد
وعلم الطير في أفنان روضتها ... شتى الأفانين من شَدْوٍ وتغريد
إن الصحافة موسوعات معرفة ... يزود العقل منها خير تزويد
تزيد أخبارها بالناس خبرته ... حتى تُقَوَّمَ منه كل تأويد
مسعودُ مَهَّدَ في مِصر السبيلَ لها ... فحاز فضلين من سبق وتمهيد
ثم انتحى مُرْصِداً للعلم همته ... متابعاً كل مجهود بمجهود
يعي معارف ألواناً ويخرجها ... لفظاً ومعنى بإتقان وتجويد
فمن تأليف لا تُحصى فوائدها ... محدودة ومداها غير محدود
ومن رسائل في فن وفي لغة ... سيقت لإفرار رأي أو لتفنيد
ومن مباحث في التاريخ شائقة ... وفي البحار وفي الأمصار والبيد
وفي صفات بني الدنيا وما اصطلحوا ... عليه في عهدهم من غير معهود
وفي عوالم أفلاك تحيط بنا ... ما بين محتجب منها ومرصود
هديةٌ وهُدى منه لأمته ... وموطنٍ بعد وجه الله معبود
مسعود يبكيك أبناء بررت بهم ... فنشئوا نشأة الغر الأماجيد

يبكيك قوم مشوا والحزن يشملهم ... في مشهد لك يوم البين مشهود
يبكيك إخوان صدق هاهنا احتشدوا ... ينوهون بفضل غير مجحود
يمضي الزمان وتبقى في ضمائرهم ... خليق ذكرى بتكريم وتخليد
خليل مطران
غريب
للأديب محمد قطب
غريب أنا في ذلك الكون كله ... على سعة في الكون توحي بإيناس
غريب بنفسي عن نفوس كثيرة ... غريب بفكري عن دُنى ذلك الناس
وأحسب أنى تائه في غمارهم ... كما ضل ومض في غمار الدجى القاسي
وما نلتقي في خفقة أو وشيجة ... ولا فكرة عليا ولا طيف وسواس
وما بيننا من رابط غير أننا ... نجوب معاً دنيا من الحلك الكاسي
ترى أينا أصفى ضميراً وعنصراً ... ومن فيه صدق أو سلامة إحساس
لأحسب في دنياهُم كل ضلة ... وأحسبها دنيا شرور وأرجاس
لقد كنت قبل اليوم هيمان في الذرا ... أحلّق نشواناً إلى كل مرتاد
يفيض بنفسي الفن بشراً وغبطة ... ويهتف في أذنيّ كالطائر الشادي
ويخلق في نفسي مُنىً عبقرية ... ويلهمني الإحساس كالكوكب الهادي
ويمنحني صفو الحياة وذخرها ... وأجمل ما يهفو له الناهل الصادي
فأشبع حبي للحياة نقية ... ويسمو إلى خلد السماء فؤادي
فأرقب هذا الناس في ديوانه ... كما أرقب الأنعام تنساب في الوادي
فيأخذني رفق بهم في ضلاهم ... يهيمون في دنيا الظلام بلا حادي
ولكنني أقفرت يوماً من المنى ... وجئت إلى الظلماء غير مزود
فلفتني الظماء من كل جانب ... وبثت ليَ الأشواك في كل مقصد
وما أرتوي من مورد، أي مورد ... وما ألتقي إلا بدجوان أجرد
وطال هيامي في الظلام بلا هدى ... فأجهدت من سير ممل مشرد
وأخلد قلبي لسكون وللكرى ... بليداً من الإحساس أي تبلد
فلما أفقت اليوم من ذلك الكرى ... تلمست حولي الكون علّيَ أهتدي
فألفيتني فيه غريباً مشرداً ... أهوِّم في واد من التيه سرمد
(معهد التربية)
محمد قطب
البريد الأدبي
فقر الأنبياء
ليس الفقر عيباً، وإنما السكوت عن مقاومة الفقر هو العيب، فنحن جميعاً مسؤولون عن محاربة ما يحيط بنا من متاعب معنوية وحسية، ومن واجبنا جميعاً أن نطمع في الانتفاع بما في الوجود من ثمرات على شرط أن ننال ما ننال عن طريق الجهاد المحمود.

وقد سأل الأديب (ح. ع. مطر) عن فقر الأنبياء وما يدل عليه من معانٍ على فرض ان الفقر يدل على ضعف الأخلاق الاجتماعية والمعاشية.

وأجيب بأن الأنبياء رحبوا بالفقر طائعين، لتقل شواغلهم الدنيوية فيستطيعوا القيام عروض الهداية والتهذيب، وليكون في انصرافهم عما في الدنيا من منافع قطعٌ لألسنة من يروق لهم اتهام الأنبياء بحب المال، وهو اتهام يزعزع ثقة الجماهير ويروضها على التمرد والعصيان

والمعروف أن الناس في كل أرض يتزيدون على الزعماء والمصلحين ويجعلون طلب الدنيا من أكبر العيوب، فليس غريباً أن ينسلخ الأنبياء من المنافع الدنيوية ليصدوا من يعارضون باسم الغيرة على الأخلاق؛ كأن الأخلاق تكره أن يتزود المصلحون بثروة الرزق الحلال!

وفي طلب السلامة من أذى السفهاء قال الرسول: (نحن معاشر الأنبياء لا نورث. ما تركناه صدقة) أو كما قال، فلست أملك الرجوع في هذه اللحظة إلى نص الحديث والعدل يوجب أن يكون ما يترك الأنبياء ميراثاً حلالاً لأبنائهم، ولكن الحرص على قطع ألسنة المتزيدين هو الذي أوجب أن يحرم الأنبياء أبناءهم من ذلك الميراث، وذلك ظلم

جميل
ومن نحن حتى نرحب بالفقر كما رحب به الأنبياء؟
أولئك رجال يأخذون زادهم من الإيمان واليقين قبل أن يأخذوه من الطعام والشراب، فمن أنس في نفسه القدرة على الظمأ والجوع لينقطع إلى مجاهدة النفس ومجاهدة الآثام
الاجتماعية فهو أقرب منا جميعاً إلى التخلق بأخلاق الأنبياء
العصاميون
وقال قائل: كيف تهتم الفقراء بضعف الأخلاق الاجتماعية والمعاشية، ومن بين الفقراء نبغ العصاميون؟ وأجيب بأن العصاميين هم حجتي على أن الفقر داء له دواء. فالرجل العصامي يقيم الدليل على أن القوة الخلقية قد تقتلع ما يعترض طريق الرزق والمجد من حواجز وأسداد. والتاريخ يشهد بأن أكثر العظماء كانوا في البداية فقراء، فما تفسير هذا الذي يشهد به التاريخ؟
إنما كان ذلك لأن الفقير الموهوب تقوى عزيمته بفضل الاعتماد على الله وعلى النفس، ومثله في ذلك مثل من يعيش بلا عصبية تحميه، فهو يستعد للمقاومة في كل وقت، ومن ذلك الاستعداد يفوز بمناعة جسمية وروحية تصد عنه عدوان المعتدين فالذين يمنون الفقراء بأموال الأغنياء يقتلعون بذور العصامية من النفوس، ويعدون الجيل المقبل لأمراض أخفها الاعتماد على الغير، وهو بداية الخذلان
الإحسان إلى من يعجزون عن الارتزاق هو أوجب الواجبات، وهو الشاهد على اتصافنا بالكرم والجود، أما الإحسان إلى من يقدرون على الارتزاق فجريمة اجتماعية، ولا يشجع على هذه الجريمة غير الكتاب الذين يعيشون بفضل الرياء الاجتماعي وهو رياء له عواقب سود، في الدنيا وفي الآخرة، والآخرة حق، ولو كره من يراءون الناس
الحب والبغض
أما الأديب الذي كتب من المنصورة خطاباً في صفحات طوال عراض فمن حقه أن يبغضني كيف شاء، فما أفكر في الحب ولا في البغض حين أحاور قرائي، وإنما أفكر في الصدق، لأستطيع القول - ولو بيني وبين نفسي - بأني لم أفكر أبداً في مخادعة قومي، فالدنيا أصغر وأحقر من أن تروضنا بمغرياتها الأواثم على جلب منفعة وقتية ببعضها الصدق
وفي مجلة الرسالة كتاب أعظم مني، فما الذي يمنع بعض الناس من غض النظر عما أكتب، وقد صح عند ذلك (البعض) أن مقالاتي في الإصلاح الاجتماعي لم تصب هوى من
قلبه الرقيق؟
أفلح الدكتور طه وأخفقت: أفلح لأنه دعا الحكومة إلى إنقاذ الفقراء، وأخفقت لأني قلت باعتماد الفقراء على أنفسهم وعلى سواعدهم، فما تستطيع الحكومة أن تعين رجلاً لا يعين نفسه، ولا يستطيع المجتمع أن يحمي مخلوقاً يعجز عن حفظ مكانه بين طبقات المجتمع
أنا رجل فقير يحارب الفقر في كل وقت، وأنتظر من إخواني الفقراء أن يعينوني على محاربة ذلك العدو البغيض، لأصبح ويصبحوا من المياسير بفضل الكسب الشريف
لا يهمني أن يحبني قرائي، فما يبكي على الحب غير النساء، وإنما يهمني أن يكون ما أكتب صورة صادقة لما يعتلج في صدري عن آراء وأهواء
الصدق هو الذي يرفع أدب اللغة العربية. وهو الذي يزيد في ثقة الرجال بعضهم ببعض. أكرمنا الله جميعاً بنعمة الصدق وهدانا جميعاً إلى ما يحبه ويرضاه، فهو وحده الحبيب الذي تتشرف بحبه القلوب
زكي مبارك
(* * *) إلى الباحث الجليل
السلام عليكم:
وبعد فقد جاء في بحثكم الممتع في العدد 404 من الرسالة الغراء ما يلي:
في درة الغواص في أوهام الخواص: ويقولون: بعثت إليه بغلام، وأرسلت إليه هدية،) فيخطئون فيهما؛ لأن العرب تقول فيما يتصرف بنفسه: بعثته وأرسلته، كما قال تعالى: (لقد أرسلنا رسلنا) وتقول فيما يُحمل: بعث به وأرسلت به، كما قال سبحانه إخباراً

عن بلقيس: (وإني مرسلة إليهم بهدية) فعقبتم على ذلك في الحاشية بقولكم: (قلت: هل يرى الحريري الريح والصيحة والحاصب مما يتصرف بنفسه؟ ففي الكتاب: (إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً)، (إنا أرسلنا عليهم حاصباً)، (إنا أرسلنا عليهم صيحة). . .) قلت: الإرسال في هذه الآيات الكريمة بمعنى التسليط، لا بمعنى التوجيه، فليس يقال في مفعوله: (إنه مما يتصرف بنفسه، أولا يتصرف)، حتى يتفرغ عليه دخول الباء عليه أو عدم دخولها؛ إذ يمتنع أن يقال: سَلَّط عليه بكذا

ومن أمثلة الإرسال بمعنى التسليط قول الأساس: أرسل كلبه وصقره على الصيد، أرسل الله عليهم العذاب

وإكمالاً للبحث نورد ما جاء في (التاج) قال: (والإرسال التسليط، وبه فُسِّر قوله تعالى: (إنا أرسلنا للشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً)، أي سُلِّطوا عليهم وقيضوا لهم بكفرهم. والإرسال أيضاً التوجيه، وبه فسر إرسال الله عز وجل أنبياءه عليهم السلام) هذا ما عنَّ لي أعرضه على الأستاذ المحقق

(ا. ع)

وفاة الأستاذ محمود مصطفى

استأثر الله في الأسبوع الماضي بالأستاذ (محمود مصطفى) أستاذ الأدب العربي بكلية اللغة العربية؛ وقد كان رحمه الله من أصحاب الملكات القوية في الأدب واللغة. تخرج في دار العلوم ثم أشتغل في التعليم في المدارس الأهلية والأميرية بقية شبابه الأول، ثم فاختير للتدريس في كلية اللغة فقسم حياته العاملة بين التعليم والتأليف حتى زود المكتبة العربية بطائفة من الكتب النافعة في تاريخ الأدب والعروض. وقد قال الأديب البر محمد عبد المنعم خفاجي إن للفقيد سفرين جليلين في الأدب المصري منذ الفتح العربي إلى الآن يقعان في ألف صفحة، وقد عكف في آخر حياته على إعدادهما للطبع حتى انتهى منهما قبل وفاته بأسبوع. رحمة الله رحمة واسعة وعوض الأدب والعربية منه خير العوض.

تأبين المرحوم محمد مسعود بك

اجتمع في مسرح الحديقة في مساء الأربعاء الماضي جمهرة من أعيان الفضل وأقطاب الأدب ورجال الصحافة للاحتفال بتأبين العالم البحاثة المرحوم (محمد مسعود بك). فألقي كلمة الافتتاح معالي الأستاذ محمد علي علوبة باشا؛ ثم تتابع الخطباء والشعراء فجلوا مواهب الفقيد وآثاره في الصحافة والعلم والخلق والأدب والوطنية والترجمة. وكان الشعراء على الأخص قد احتفلوا لما قالوا فجاءت قصائدهم من محكم الشعر وجيده. وقد نشرنا منها في هذا العدد قصيدة الشاعر الكبير خليل مطران بك، وسنختار في العدد المقبل فرائد من قصيدتي الأستاذين محمد مصطفى الماحي ومحمد الأسمر لأنهما نشرتا بالأهرام.

وقد كانت الكلمة البليغة التي ألقاها الأستاذ يحيي مسعود نجل الفقيد شكراً جميلاً للمحتفلين وتحية بره لوالده. أجمل الله عزاءه وعزاء الوطن في الراحل الكريم

حول بشر بن عوانة

كانت (المكشوف) قد ذكرت في بعض أعدادها أن الأستاذ بطرس البستاني أول من نفى شخصية بشر بن عوانة في الجزء الثاني من كتابه (أدباء العرب) فرأت (الرسالة) من واجبها أن تنبه إلى أنها أشارت إلى هذه الأسطورة في يناير سنة 1935. ويظهر من العدد 296 من المكشوف أنها نشرت هذا التنبيه ولاحظت عليه أن الجزء الثاني من (أدباء العرب) طبع للمرة الأولى في شباط سنة 1934 فيكون أسبق نقول يظهر لأننا لم نطلع على العدد الذي نشرت به هذه الملاحظة لاضطراب البريد بين البلدين في هذه الظروف. ولو كنا اطلعنا عليها لنشرناها فينتهي الأمر من جهة الزميلة، ويبقى الرأي من جهتنا موقوفاً إلى أن نطلع على الطبعة الأولى من هذا الكتاب

اكتشاف جديد لا طالة عمر الإنسان

جاء من هنتنجتون في ولاية فرجينيا أن الأستاذ ماليسوف أستاذ علم الكيمياء الحيوية في معهد الفنون والصناعات في بروكلين أعلن في اجتماع عقد في هنتنجتون أن الإنسان يستطيع أن يعيش 185 سنة بفضل المادة الجديدة المسماة (صوديوم ثيوسيانتت) وقد اكتشف تأثيرها بعد تجارب عديدة

وكان مما قاله أيضاً أنهم استطاعوا في التجارب التي أجروها في الأرنب أن يبطلوا فيها أعراض كبر السن. ثم قال إن مادة الكولستروك اللزجة التي تشبه الشمع ترسب كمية منها في الأوردة والشرايين، وأن ثمة علاقة بين العمر وهذه الراسبة، وأن هذه المادة الكيميائية الجديدة (الصوديوم ثيوسيانيت) توزع الكولسترول من غير أن تحدث ضرراً في الجسم.

حول وأد البنات عند العرب في الجاهلية

لجأ الأستاذ الصعيدي - وهو من علماء الأزهر الشريف - إلى المغالطة والتقول عليَّ بما لم أقله بعد أن سُدّت أمامه السبل في تأييد ما يذهب إليه. فقد أنقسم رده الأخير إلى نقطتين تمثل كلتاهما أقصى ما يمكن أن تصل إليه الجرأة في طمس الحقائق:

1 - يقول في النقطة الأولى: (وقد رأى الأستاذ علي عبد الواحد وافي أن حمل قوله تعالى (ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون) على معنى أنهم يجعلون لآلهتهم ما يشتهون لا يستقيم مع الآيات الأخرى كما ذكرت (أي كما ذكر الأستاذ الصعيدي)، لأنها صريحة في أنهم كانوا يجعلون ذلك لأنفسهم لا لآلهتهم)

وأنا لم أر مطلقاً هذا الرأي، بل رأيت - عكسه تماماً - كما صرحت بذلك في كلمتي الأخيرة إذ قلت ما نصه: (على أن ما ذكرناه في المقال السابق بصدد الذكور (أي نسبتهم لآلهتهم) تحتمله آية النحل، وخاصة لأن الضمير في الآية التي قبلها يرجع إلى الشركاء: (ويجعلون لما لا يعلمون (أي لآلهتهم التي لا علم لها لأنها جماد. . . ا. هـ. البيضاوي) نصيباً مما رزقناهم، تالله لتسألن عما كنتم تفترون، ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون) فرجع الضمير في (لهم) إلى الشركاء الذكورين في الآية السابقة ليس محتملاً فحسب، بل أرجح كثيراً في نظري من رجعة إلى المشركين، لأن موضوع الحديث هو تقسيمهم المخلوقات بين الله وشركائهم لا بين الله وأنفسهم. ويزداد هذا المعنى تأييداً إذا ربطت هذه الآيات بآيات الأنعام: (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً، فقالوا: هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا. . . وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم. . .) ويزداد هذا المعنى تأييداً كذلك إذا لاحظنا أنهم ما كانوا ينسبون خلق شيء لأنفسهم، بل كان ذلك يتردد بين الله وآلهتهم

2 - وذكر في النقطة الثانية ما نصه: (وكذلك رأى الأستاذ علي عبد الواحد وافي أن النصوص القرآنية صريحة في أن العرب كانوا يجعلون الملائكة بنات الله، فلم يسعه إلا أن يعترف بهذا)؛ ويقصد بذلك - كما يفهم من سياق كلامه - أنني كنت أنكر هذه الحقيقة، حتى كتب ما كتب، فلم يسعني حيال قوة حجته إلا أن أعدل عن إنكارها وأعترف بها

مع أنني لم أذكر أنكر مطلقاً هذه الحقيقة، بل اتخذت منها دليلاً على صحة ما ذهبت إليه، كما صرحت بذلك في أول كلمة لي في هذا الموضوع؛ إذ قلت ما نصه: (ولم يقف أمر اعتقادهم عند حدود العالم الطبيعي: عالم النبات والحيوان والإنسان، بل جاوزه إلى عالم السماء؛ فكانوا ينسبون لله تعالى من هذا العالم كل ما يعتقدون أنه من نوع الإناث. ومن أجل ذلك نسبوا إليه الملائكة لاعتقادهم أنهم من هذا النوع) ثم أوردت الآيات التي تؤيد هذا ومنها قوله تعالى: (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً. . .). (إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى). (أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً. . .). (أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون، ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله. . .)

وأسأل الله أن يوفقنا إلى تحري الصدق في القول ويهيئ لنا من أمرنا رشداً

علي عبد الواحد وافي

في اللغة

من حق الأستاذ الكبير (ا. ع) عليّ، وقد سلفت عندي يده، وطوق رقبتي ثناؤه، ان أشكره على حسن ظنه وجميل رأيه في قصيدتي التي نشرتها بالرسالة وجعلتها ذكرى لمولد النبي عليه السلام.

ولقد تقبلت نقده المؤدب المهذب بقبول حسن، فقد والله لمحت من خلال سطوره أدب الناقد، ورقة الأديب، وتواضع العالم وأنا مع الأستاذ الكبير أن كلمة (سمحاء) التي استعملها في قصيدتي النبوية لم ترد في كتاب من اللغة مما بين أيدينا. ويظهر أنها دلفت ألينا فيما دلف من ألفاظ أخر. ومن الغريب أنها دائرة على شباة أقلام كثير من

كتابنا المعتمد بهم ولقد وجدت المرحوم قاسم أمين يستعملها اكثر من مرة في كتابة تحرير المرأة (راجع الطبعة الثانية من الكتاب ص 128، 162)
على أن نفراً من محققي كتابنا الأعلام فطن إلى خطئها، واستعمل في مكانها كلمة (السمح والسمحة) للمذكر والمؤنث، وفقاً لما جاء في اللغة. وفي الحديث الشريف (بعثت بالحنيفية السمحة).
وللأستاذ الجليل أحمد حسن الزيات فظل إشاعة هذا الاستعمال الصحيح ولا زلت أذكر له مقاله البليغ (أمة التوحيد تتحد) في العدد 384 من الرسالة، ويشير فيه إلى الديمقراطية (السمحة) وكيف كان في مكنة العرب والمسلمين أن يعيشوا في حماها بوجه من الوجوه.
أما قول الأستاذ الفاضل إن الفعل (تفيأ) يتعدى بالباء أو بنفسه كما صنع أبو تمام. ولا يتعدى باللام كما جاء في قصيدة (ميلاد نبي) فهو قول نقبله على العين والرأس، ولكني
أضيف إليه أن تعدية هذا الفعل باللام ليست خطاء، فحروف الجر ينوب بعضها عن بعض. وقد عدى القرآن الكريم الفعل (يخيَّل) بالي في قوله تعالى (يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى). ولكنه يَرِدُ كثيراً في الشعر العربي معدّى باللام كما لا يخفى على علم الأستاذ الكبير.
محمد عبد الغني حسن
الكتب
مجالس الغوري
للأستاذ محمد لطفي جمعة
نشرت لجنة التأليف والترجمة والنشر منذ شهر للأستاذ النابغة الدكتور عبد الوهاب عزام كتاباً جميلاً يمثل فترة من تاريخ مصر في آخر القرن التاسع الهجري، وطرفاً من القرن العاشر.
وقد شاء أدبه وفنه ووفاؤه وثقافته أن يجعل من علاقته بقبة الغورى أثراً أدبياً، لأنه رئيس جمعية الأخوة الإسلامية التي تعقد اجتماعها في القبة مرة في كل أسبوع؛ فبحث ونقب في مكاتب مصر والآستانة حتى اهتدى إلى ثلاثة آثار نفيسة للغوري: أولها ترجمة تركية للشاهنامة التي نشرها الدكتور منذ بضع سنين؛ وثانيها هذا الكتاب للمجالس؛ والثالث في المجالس أيضاً، ولكنه أصغر حجماً وأضيق نطاقاً، وفيه تكرار لبعض المجالس الواردة في الكتاب الكبير. ويحسن بي قبل أن أتكلم عن الكتاب أن أشكر الدكتور العالم الذي أثبت بنشر هذين الكتابين أن كانت لبعض سلاطين مصر ندوة أدبية هي أشبه الأشياء بمجمع العلوم والآداب يضبط فيها الوقت بالدرجات ويحضرها لفيف من العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء وتدور فيها الأحاديث حول المسائل العقلية والفقهية والتاريخية، ولا تخلو من سمر رقيق وفكاهة ودعابة. وكان السلطان نفسه يرأس الاجتماع ويتلقى الأسئلة ويجيب على بعضها عندما يثبت عجز الحاضرين.
وهذه الصورة الجميلة لسلطان صالح كريم شجاع من أجمل صور التاريخ وتجعل لآثار الغوري التي نشهدها ونراها أثراً حياً في النفوس. كان الملك من رجال قاتيباي، ولم يكن ينظر إلى السلطنة؛ ولكن تقواه وعلمه وإخلاصه أوصلته إليها فقابل ذلك بالشكر لله والإحسان إلى الفقراء. وكان زمنه زمناً رخواً فهناك قصة عن هجوم بعض السفن الحربية على شواطئ مصر وانصرافها بقراءة الفاتحة. وهناك صورة أخرى لأخلاق البدو والحضر في الحجاز ومؤامرة بعض أمراء مكة مع هولاكو على جيوش الظاهر بيبرس ومحمله، وتدبير مكيدة لقتل أمير المحمل المصري. فدلت على أن تلك البلاد المقدسة ما زالت على وتيرة واحدة إلى ان أنقذها الله بالعهد السعودي
وكان السلطان إذا فقد ولده بالوفاة أو صديقاً عالماً أو وزيراً حكيماً كف عن الجلوس في ندوته يومين أو ثلاثة، وكان يجلس للناس ويسمع شكواهم، ويوزع الصدقات عليهم بيده، ويجد في ذلك لذة عظمى؛ وكان ينظم الشعر العربي والتركي ويضع الألغاز بهما، ويداعب جلساءه بمعضلات الفقه. ولم يكن مقصراً في الحرب فقد بنى قلاعاً في جدة وفي ينبع؛ ومن أسماء سلطان الحرمين ما يدل على أن كل حكومة شرقية طمعت في أن يكون لها سلطة في الحجاز

وقد اهتدى الدكتور الأستاذ عبد الوهاب عزام إلى نسخ مخطوطة فقارنها وصححها وطبعها ولقى في ذلك مشقة يستحق عليها كل إعجاب وثناء. ومن محاسنه أنه أبقى الأسلوب على حالته ليدل على حقيقة ما كان يكتب. وللسلطان الغورى هنة واحدة وهو أن كرمه أفقره فاحتاج إلى أخذ ضرائب فادحة من الشعب؛ ومن بين الذي وقع عليهم هذا الحيف سيدة مغنية معاصرة فرض عليها خمسة آلاف دينار فباعت حليها أو ما زعمت أنه كل ما تملك وحملت إليه ألف دينار وشفاعة القاضي فقبلها السلطان وأعفاها. وإذن كان في القرن التاسع الهجري في القاهرة قيان يغتنين من الغناء ويدخرن المال الكثير ولا يدفعن عنه زكاة حتى يأتي السلطان وينتزعه انتزاعاً. فما أشبه اليوم بالبارحة فيما عدا اغتصاب مال القيان. وأشكر اللجنة التي أعانت على نشر الكتاب والدكتور عزام على عمله الجليل

محمد لطفي جمعة

العدد 410 - بتاريخ: 12 - 05 - 1941

ما خلفته أثينا ورومة

أهل رومةَ الأولون قومٌ بناهم الله بنية وثيقة، فنشأوا عظامَ التجاليد أشداء العضل أقوياء العصب، يعطون البهيمية من نفوسهم، أكثر مما يعطون الإنسانية من قلوبهم. ووثاقة البنية وسورة الهوى تحركان في المرء شهوة الغلب وحب الأثرة؛ فبغى الرومان على الناس بحدة القلب وبأس الحديد، فملكوا أمم البحر المتوسط ملك الرقيق، واستعانوا على تدبير هذا الملك العظيم بالسيف واللسان والقانون، فتهيأت لهم بذلك مَلَكة أصيلة في الحرب والخطابة والتشريع، وحرمتهم جِبلتهم فنون النفس الرفيعة فكانوا في الأدب والفلسفة والفن حَميلةً على الإغريق. فلما أذن الله لدولتهم أن تدول سلّط عليهم الترف والفسوق فتدفقوا في اللهو و (الأرجي) حتى ترهل من لحومهم ما اكتنز، وهش من عظامهم ما صلب، وانسرق من قواهم ما اشتد، وذهب بذهاب سلطانهم ما شرعوا من قوانين وسنوا من نظم وألقوا من خطب؛ وأصبحوا لا يد تطول ولا لسان يقول، ولا فكرة تجول؛ ثم بادوا ولم يتركوا لأخلافهم على تعاقب القرون إلا ما يُعقبه السلطان الزائل من الغرور والتبجح والفيْش، وإلا ما يورثه اللهو الباطل من الغناء والموسيقى والرقص

وأهل أثينا الأقدمون قوم صاغهم الله صيغة حسنة، فكانوا مثلاً للكمال الممكن في الإنسان الأعلى. سمت فيهم ملكات العقل والقلب واللسان والجسم سمواً لا شبيه له في شعوب الأرض، فأبدعوا في نواحي الفكر والشعور والبيان ما ربأوا به أن يكون من صنع الإنس فنسبوه إلى أرباب من خلق أنفسهم. ثم تعاقبت على المدن الإغريقية أطوار الحياة العقلية للجنس البشري تامة غير مُخدَجة: فمن الغناء الفردي في المعابد إلى التمثيل الجماعي في المسارح، ومن الحياة الأبوية إلى الحياة النيابية، ومن شعبذة الكاهن إلى فلسفة أرسطو؛ ولم يبد في سائر الأمم إلا ظواهر لبعض هذه الأطوار تقل أو تكثر على قدر نصيبها من كمال الخلق، ثم تضعف أو تقوى على نسبة حظها من محاكاة الإغريق. فكأنما هذه البقعة وأهلها لِما جمعوا من شتيت المزايا صورة مصغرة لأمم العالم، ونسخة لتاريخ الإنسان

فلما أصابهم داء الأمم فني مُلكهم في ملكوت الرومان، ولكنهم انبثوا في عقول الناس وحضارات الأمم وثقافات الشعوب، فكراً لا يأفن، وفناً لا يبلى، وأدباً لا يقدُم، وفلسفة لا تبطل، ونظاماً لا يفسد، وعلماً لا يذهب؛ فكان الفكر اليوناني أساساً قائماً لكل حضارة، ولقاحاً مثمراً لكل ثقافة

ذلك أثره في الناس عن طريق الاقتباس. أما أثره في أعقاب بركليس والإسكندر فمن طريق الوراثة المتحدرة في الدماء حاملة مجد السلطان والغلَب، وعظمة الفكر والروح، وعزة الملك والقيادة، ومزية الإبداع والخَلق، وفضيلة الجمال والحق، وسمو الإيمان والعقيدة؛ فكان يونان اليوم كيونان الأمس مثلاً مضروباً في شهامة النفس وشجاعة القلب وحمية الأنف وصدق الوطنية والضرب في الأرض من أفق إلى أفق أولئك أعقاب رومة يتمثلون في الطاغية (موسو)؛ وهؤلاء أخلاف أثينا يتمثلون في الرئيس ماتكساس. هناك الرأس الخواء، والقلب الهواء، والصلف البغيض، والغرور العريض، واللسان الطائش. وهناك العمل الصامت، والقول الثابت، والدماء التي تفور بمزايا الجنس، والقلوب التي تنبض بحب الوطن. ويشاء الله عزت حكمته أن يخرج

العبرة للناس في هذه الكوارث الموئسة من تراث وتراث وجيل وجيل، فسلط نُعَرةَ نيرون على أنف الدتشي فوقف على ماسورة مدفع ضخم، ثم رفع أنفه إلى السماء، وبسط يده في الفضاء، وأرسل أمره الأرعن إلى عديده وحديده أن يخترقا حدود اليونان وهم في إغفاءة الفجر ينعمون تحت الكلل بأواخر الأحلام السعيدة. فسالت من البانيا فِرق الجيش الإيطالي بسياراته المصفحة، ودباباته المسلحة، وطائراته الموقرة بالقذائف والرصاص؛ وعلى رأس الطليعة المزهوة قائد جهم الوجه، كثيف اللحية، غليظ الألواح، يحمل إلى الجيش اليوناني المضطرب الهالع شرط الهدنة وصك الأمان!

يا سخَر القدَر ممن زعم أنه يصرِّفه! ويا عار (سيزار) ممن ادعى أنه يخلفه! ما باله يرمي فترميه أبابيل من طيور العذاب، ويهجم فتصده حصون من سواعد الشباب، ويصيح بأبطال الألب فلا يجيبه إلا صناديد الأولمب بالهجوم الجارف والضرب الدِّراك والقصف المزلزل، فذوو القمصان السود كالأرانب يتوارون في أخاديد الأرض، ويلوذون بجلاميد الصخر؛ فإذا أعجلهم الفزع عن التماس النجاة ألقوا السلاح صاغرين واستأسروا!

حينئذ تصبب الزعيم الشحيم عرقاً لا ندري أمن الكلال هو أم من الخجل، فأقسم ليحشدن الإمبراطورية كلها أمام الجيش اليوناني الصغير الفقير الذي يقاتل الطائرات بالحجارة، وينازل الدبابات بالسلاح الأبيض، ويزوده بالميرة والذخيرة النساء والشيوخ والأيفاع في شعاف الجبال وبطون الأودية، فكانت أفواج الجيش تذوب أمامه ذوبان الشمع، وأمواج

الحديد تنكسر دونه تكسر الهشيم، والأكياس الحازمون من قواد الفاشية وجنودها يتقهقرون حتى ارتدوا عن اليونان، وكادوا يجلون عن ألبانيا، لولا أن استغاث الدتشى بالفوهرر، فكانت الفاجعة التي لا ينصل عارها من تاريخ الألمان أبد الدهر!

أرأيت؟! هذه هي الفئة القليلة التي يصيح في دمائها وأعصابها تاريخ أثينا بأسره. وتاريخ أثينا ليس كتاريخ روما مسارحَ دراسة لصراع الثيران، وآثاراً عافية من مغامرات الفرسان، وأسفاراً ميتة من شرائع جوستنيان؛ وإنما هو ومضات الضمير التي لا تخبو، وآيات العقل التي لا تموت

وتلك هي الفئة الكثيرة التي تنتفخ بالهواء كالفقاقيع، وتعيش بغير مثل كالجراد، وتحارب بغير إيمان كالمرتزقة. لذلك تراهم يستأثرون بجانب الهزيمة في هذه الحرب، ويؤثرون وسائل الحقارة في هذه الجريمة. وإذا كان في انتصار اليونان وانكسار الطليان عبرة، فهي للعرب الذين يتميزون على الإغريق بوراثة القرآن الخالد الذي لا يتبدل، واكتساب الإيمان الصادق الذي لا يحول!

أحمد حسن الزيات

الإسلام بين السلف والخلف

للأستاذ محمد محمد المدني

مقدمة

يرجع الإسلام في أصل دعوته وتفاصيل شريعته إلى قسمين:

1 - العقائد وما يلحق بها من أنواع العبادات

2 - الأحكام العملية التي ينظم بها شئون الحياة

وللعلماء في بحث هذين القسمين طريقتان:

1 - طريقة السلف من العلماء الأولين الذين تلقوا دعوة الإسلام من معينها الصافي، لم تشبها الشوائب، ولم تتحكم فيها الأهواء ولا المذاهب، ولم تفرقها الفرق ولا الطوائف

2 - طريقة المتأخرين الذين خلفوا من بعدهم بعد أن دخل في الإسلام ما ليس منه، وطغت على عقول المسلمين فلسفات أجنبية، وأفكار طارئة لا عهد لهم بها من قبل ونريد أن ننظر في هاتين الطريقتين، لنعرف: أيتهما هي الطريقة القويمة التي يصلح بها شأن المسلمين في حاضرهم

طريقة السلف (ا)

تمتاز هذه الطريقة بالبساطة المطلقة في العقائد وما يتصل بها، فهي لا تعرف التعقيد، ولا تتكلف التأويل، ولا تنزل على أساليب الفلسفة الملتوية ولا المنطق المركب، ولا تتصيد الأخبار والروايات لتضخيم العقائد أو تركيب العبادات

إيمان بالله لا يعدله إيمان، مصدره الاقتناع النفسي، والاطمئنان القلبي الناشئان من النظر في ملكوت السموات والأرض، والتأمل في بدائع هذا الكون وأدراك أسراره، والإذعان لقدرة خالقه
وإيمان برسوله الذي أيده بوحيه، وأنزل عليه كتابه يتلى عليهم بكرة وعشياً، ويهديهم للتي هي أقوم، ويخرجهم من الظلمات إلى النور
ورضا فيما وراء ذلك بما يخبرهم به الله أو الصادق الأمين عن عالم الغيب، لا يكلفون أنفسهم بحثه أو التعمق فيه، أو الوقوف على تفاصيله علماً منهم بأن الغيب لله لا يظهر
على غيبه أحداً، وبأن للعقل حداً يجب أن ينتهي إليه، ويقف عنده
1 - كانوا يؤمنون - كما نؤمن - بأن لله ملائكة يسبحون الليل والنهار لا يفترون، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون: ولكنهم لا يكلفون أنفسهم بعد ذلك الوصول إلى حقيقة هؤلاء الملائكة ولا تعرف كنههم، وهل هم أجسام نورانية أو أرواح علوية أو نحو ذلك؟
2 - وكانوا يؤمنون بيوم الحساب - كما نؤمن - وبأن الله سيخرج للناس كتباً فيها أعمالهم، يلقونها منشورة، وبأنه سيضع الموازين القسط ليوم القيامة، فلا تظلم نفس شيئاً، ولكنهم لم يكونوا يكلفون أنفسهم ما وراء ذلك من معرفة هذا الكتاب، ولا أين تكون ساحة هذا الحساب، ولا حقيقة هذه الموازين، وكيف تقام، وهل لها كفتان ولسان، أو هي على شكل ميزان القبان، وهل هي من حديد أو نحاس، وهل تجسد الأعمال ثم توزن بها، أو تكتب في صحف ثم توضع في كفتيها
3 - وكانوا يؤمنون - كما نؤمن - باللوح المحفوظ، ولكنهم لا يكلفون أنفسهم أن يثيروا نقاشاً أو جدالاً حول هذا اللوح: ليعلموا أنه فوق السموات السبع أو تحتهن، أو أن مساحته كذا وكذا، أو أن قلمه كيت وكيت!
4 - وكانوا يؤمنون - كما نؤمن - بأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، لكنهم لا يتطلعون إلى معرفة كنه هذه الحياة، ولا نوع هذا الرزق
5 - وكانوا يؤمنون بأن الرحمن على العرش استوى: (وأينما تولوا فثم وجه الله) و (يد الله فوق أيديهم) و (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم)؛ ولكنهم لا يشغلون أنفسهم بالبحث في الاستواء وكيف كان، ولا بالسؤال عن اليد أو الوجه أو تأويل معناهما، ولا يتطلعون إلى معرفة حقيقة هذه المصاحبة وعلى أي حال تكون
سئل مالك - رضي الله عنه - عن معنى الاستواء المذكور في القرآن، فغضب وقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة!
وسئل علي - رضي الله عنه -: كيف يحاسب الناس يوم القيامة؟ وهل يكون ذلك دفعة واحدة؟ فأجاب: يحاسبون كما يرزقون!
وكان عمر - رضي الله عنه - يضرب أمثال هؤلاء بالدرة ويعنفهم ويتعقبهم، وقد مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوم فسمعهم يخوضون في القدر، فغضب حتى احمرت وجنتاه وقال: أفبهذا أمرتم؟ إنما هلك من كان قبلكم بكثرة السؤال!
هذه طريقة السلف الصالح في الإيمان بالله وما أخبر به من الغيب: لم يكونوا يكلفون أنفسهم شيئاً من التفاصيل التي لم يذكرها الله في كتابه، ولم ترد عن الصادق الأمين من طريق يعول عليه في إثبات العقائد، لأن العقائد إيمان ويقين لا يغني فيهما الظن: إن الظن لا يغني من الحق شيئاً!
وقد أدركوا بما لهم من العقول الصافية أن قياس الغائب على الشاهد لا يستقيم، وأن الله كلفهم بالإيمان بالغيب كما يريده غيباً يحتفظ به لنفسه ولا يطلع عليه أحداً من خلقه (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو) (وما كان الله ليطلعكم على الغيب)
وعلموا أن الاشتغال بما لم يأذن به الله من هذه التفاصيل هجوم على الغيب، وتعقيد للعقيدة، وتشتيت لأفكار المسلمين، وصرف لهم عما يجب من العمل بمقتضى إيمانهم إلى أنواع من الجدل، ليس فيها فائدة في العقيدة ولا في العمل!
وقد كان لهم في العبادات شأن كهذا الشأن: يعبدون الله كما يريد الله، لا ينظمون ذلك على ما يشاءون، ولا يبتدعون فيه أو يحدثون علماً بأن العبادة، أنواعها ورسومها وهيئاتها، شأن يرجع فيه إلى المعبود ويؤخذ فيه بما ارتضاه لنفسه، وإذا كان الملوك والحكام لا يستحبون لأنفسهم، ولا يرضون من رعاياهم أن يخرجوا على تقاليدهم أو

يعدّلوا فيها، بل يوجبون في تشريفاتهم أوضاعاً خاصة، وملابس خاصة، وأوقاتاً خاصة، فهل يجوز للناس أن يبتدعوا أو يخترعوا في عباداتهم ما لم يأذن به مالك الملوك؟ لهذا كله سلم الدين في عهد الأولين من الابتداع والتفرق بالأهواء. ولم يدخل على العقائد والعبادات ما دخل من بعد، ولم يكثر الزيغ والإلحاد، ولم تتحير العقول، ولم يتقاذف الناس في الدين والعقيدة تهم الكفر والزندقة والفسوق تجري على ألسنتهم بغير حساب!

أما سنة الأولين في النظر إلى المعاملات وأحكام الحياة، واستنباط ذلك من شريعتهم: فقد فهموا أن هذه الشريعة إنما وضعت لإسعاد العباد وتحقيق مصالح الناس، وأنها تقوم على أساس العدل والرحمة، وأن السياسة الصالحة جزء من أجزائها وفرع من فروعها

فهموا ذلك، فلم يتعنتوا، ولم يتزمتوا، ولم يضيقوا واسعاً، ولم يحجروا على العقول والأفكار، ولم يصادموا حرية الرأي، ولم يفرضوا على الناس مذهباً بعينه، ولم يقفوا أمام أحداث الزمن جامدين، بل وضعوا لكل مشكلة حلها، ولكل قضية قضاءها، وفتحوا باب الاجتهاد والرأي والنظر ليجاروا سنة الله في الحياة التي لا تعرف الركود ولا الجمود، والتي لا تنتظر المتخلفين والمترددين، ورسموا لذلك حدوداً لا يقصد بها تقييد العقول ولا التضييق على الأفكار؛ ولكن يقصد بها تنظيم الفكر، وتقويم الرأي، وتجنب الزلل، وضمان الصواب!

استمدوا كل ذلك من كتاب الله وسنة رسوله، ومن مقاصد الشريعة الكبرى التي هي رعاية المصلحة، وتحقيق معنى العدل والرحمة، وتطبيق ما تقضي به السياسة الرشيدة والقياس الصحيح!

وقد أوسعوا بذلك دائرة الشريعة علماً وعملاً، ولبوا بها مطالب عصورهم ونهضوا بحاجات قومهم وأوطانهم، واشتركوا مع رجال الحكم والرأي في تدبير شئون الأمة، والحفاظ عليها، وحياطة دينها وشريعتها؛ وكان لهم في ذلك مفاخر ترفع الرءوس وتكرم شأن العقول، وتحدث عنهم بأنهم عرفوا لأنفسهم حقها ومتعوا عقولهم بلذات النظر والفكر!

أخصبت في ظل هذه الحرية الفكرية عقول المسلمين، واتسع نطاق الرأي والنظر في جميع علوم الإسلام، وكثر المجتهدون والمستنبطون لأحكام الشريعة، وانبثوا في كل قطر من أقطار المسلمين، وصاروا يعدون بالمئات لا بالآحاد ولا بالعشرات؛ ووجد الخلفاء والأمراء والقضاة والحكام حاجتهم من المبادئ والأحكام والنظم والقوانين في الشريعة، فلم يحاولوا الخروج عليها، ولم تحدثهم نفوسهم بنبذ أحكامها أو استبدال غيرها بها، واحتفظت الشريعة بما ينبغي لها من الاحترام والمكانة والكلمة العليا في المراكز العملية وقصور الحكم والسلطان، ودور الإدارة؛ ولم تقصر على الدراسات في المدارس أو المساجد، ولم يتخذ أهلها وحملتها طابع الروحية والكهنوت، يحشرون لأيام الزينة، ويعرضون للاحتفالات!

هكذا كان شأن علمائنا السافين في فهم العقائد، وإدراك المقاصد، وتطبيق أحكام الله: تسليم فيما يتصل بالعقائد والعبادات أغناهم عن الجدل والتفرق بالأهواء والبدع، وحرية واجتهاد في فقه الحياة، فتحا أمام الناس أبواب الحياة!

فماذا فعل الخلف من بعدهم؟

طريقة الخلف (ب)

لقد عكسوا طريقة السلف: ففصلوا ما كان مجملاً، وأجملوا ما كان مفصلاً، وضيقوا ما كان واسعاً، وظلموا أنفسهم بتجاوز حدودهم، وجنوا على شريعتهم بتفريطهم!

1 - جروا في العقائد على تفصيل أدخل على المسلمين الفرقة والانقسام، وفتح أمامهم أبواباً من الجدل المفضي إلى التشاحن والتدابر كانوا في غنى عنها وسلامة منها، وشوهوا أمام الناس علم الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتجرأوا على الغيب يستطلعون خباياه ويستكشفون أسراره، وزحموا العقائد الصافية في زحمة الروايات الموضوعة، والأخبار الملفقة، والإسرائيليات المدسوسة!

وصفوا لنا عالم الأرواح، وما يدور فيه من أقوال وأفعال، وحدثونا عن حياة الأولياء في قبورهم، والشهداء عند ربهم، فذكروا أنها حياة حقيقية يأكلون فيها ويشربون؛ بل وتمتعون فيها ويتزاجون!

وصفوا لنا الملائكة وأصنافهم وأحوالهم وأجنحتهم ومقاييس أجسامهم، وما يقولونه في تسبيحهم حين غدوهم أو رواحهم، وما يكون من حوارهم بعضهم وبعض!
وصفوا لنا أرض المحشر وساحة الحساب، ومواقف الأولين منها والآخرين وحدثونا في تفصيل دقيق عن الصحف المنشورة والموازين المنصوبة، وعن الحوض ومياهه، وأكوابه وسقاته، وتدافع الناس من حوله، وازدحامهم بالمناكب عليه؛ كأنما كانوا شهوداً لكل ذلك إذ يفيضون فيه، أو كأنما أطلعهم الله على برنامج هذا اليوم المشهود فهم يقرأون منه على الناس كتاباً مفصلاً!
وحدثونا عن اللوح والقلم، والعرش والكرسي: أيها خلق قبل الآخر، وأيها يصدر إليه أمر الله أولاً، وكيف يكتب القلم وما عدد أسنانه، وما عدد ما سطر في اللوح من آيات الله وكلماته، ونسوا أن ذلك كله من عالم الغيب، وأنهم يتهجمون منه على ما احتفظ الله به، ويتعدون حدود بشريتهم، ودائرة عقولهم، ويركبون متن الشطط والغرور!
ثم صوروا للناس قضاء الله وقدره بصورة تدفعهم إلى التواكل، وتعلمهم الركود والإخلاد، وتوهمهم أنهم مكبلون من فوق هذا الكون بقيود أو أغلال لا سبيل إلى تحطيمها، ولا إلى التخلص منها!
2 - وأدخلوا على العبادات أنواعاً من البدع لم يأذن بها الله: يتصيدون لذلك من الأحاديث الضعيفة ما يؤيدون به شهواتهم، ويحاجون به ناصحيهم، حتى اختلط على الناس أمر الدين، ولم يعد أكثرهم يميز بين ما شرعه الله وما شرعته الأهواء: ففي الصلاة بدع، وفي الصيام بدع، وفي الحج بدع، وفي الذكر بدع، وفي الأذان بدع، وفي تشييع الجنائز وزيارة القبور بدع. بل استباحوا لأنفسهم أن يركبوا أنواعاً من العبادات أو الرسوم الدينية لم يكن يعرفهم المتقدمون: كفائدة الأربعاء، وإقامة الموالد، وإسقاط الصلاة عن الميت، وعدية يس، والعتاقة، ونحو ذلك من ألوان العبث الهازل الذي لا يليق بأمة دينها الإسلام، وكتابها القرآن!
ولقد أصبح المسلمون بذلك أشتاتاً: كل طائفة بإمام، وكل شيخ بطريقة، يكفر بعضهم بعضاً، ويفسق بعضهم بعضاً، وكل حزب بما لديهم فرحون!
3 - أما في الفقه والتشريع، وتطبيق أحكام الله على مشكلات الحياة، وأمراض المجتمع وأحداث الزمن، فهناك الجمود والخمول: جمود لواهم عن التفكير، وأغمض عليهم كلام الله، وباعد بينهم وبين إدراك روح التشريع، وتقدير المصالح ودراسة فقه الحياة، وخمول زواهم عن الناس، وأنساهم أنفسهم وصرف العقول عنهم، وأيأس المفكرين منهم، وأضعف ثقة أهل الحكم والسياسة بهم وبشريعتهم: فذهبوا يلتمسون أحكام الحياة والمعاملات، ونظم المال والاقتصاد والعقوبات من شرائع أوربا، ويحكمون في بلاد الإسلام بغير ما أنزل الله، وتركوا هؤلاء قابعين في مساجدهم ومعاهدهم يتناقشون في حملة العرش هل هم أوعال أو غير أوعال، ويتدارسون أحكام المياه المطلقة والمياه المختلطة، ويختلفون في سؤر البغل: أطاهر هو أم طَهور، ويكتبون في مجلاتهم عن الحسد والرقية منه، وعن الجذب والشطح وما يكون فيهما، وعن العباد المكلفين: أيخلقون أفعال أنفسهم أم يخلقها الله لهم، وعن تلقين الميت: أمشروع هو أم غير مشروع؛ ثم عن العمامة والفاروقية، وأيتهما (تحقق) الشخصية العلمية. . . الخ
تركوهم لذلك وأشباهه يدرسون منه ما يدرسون، ويتركون منه ما يتركون، وينقطعون عنه ما ينقطعون، ومراكز الفقه والتشريع والإدارة والقضاء في أيدي غيرهم، وكراسي الحكم
والنيابة خالية منهم، وبيئات العلم والأدب جاهلة بهم معرضة عنهم، والأمة لا تراهم إلا حيث يكون الاحتفال بالمحمل، أو الاجتماع للموالد مع أرباب الطرق، أو الحشد للمواسم والأعياد!
وهكذا قضي عليهم بالموت البطيء ينساب إليهم في مثابرة واتصال كما ينساب إلى المصدور أو العليل!
في مثل هؤلاء يقول (ابن القيم) منذ ستة قرون:
(لقد جعلوا الشريعة قاصرة لا تقوم بمصالح العباد، محتاجة إلى غيرها، وسدوا على أنفسهم طرقاً صحيحة من معرفة الحق والتنفيذ له، ظناً منهم أنها منافية لقواعد

الشرع، ولعمري إنها لم تناف ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، وإن نافت ما فهموه من شريعته. . . والذي أوجب لهم ذلك نوع تقصير في معرفة الشريعة، وتقصير في معرفة الواقع، وتنزيل أحدهما على الآخر، فلما رأى ولاة الأمور ذلك وأن الناس لا يستقيم لهم أمرهم إلا بأمر وراء ما فهمه هؤلاء من الشريعة أحدثوا من أوضاع الطرق) (. . .سياستهم شراً طويلاً، وفساداً عريضاً، فتفاقم الأمر، وتعذر استدراكه (الحكمية ص13

وفيهم يقول الأستاذ الأكبر الإمام المراغي في مذكراته الإصلاحية التي كتبها في سنة 1928: وجعلها برنامجه في إصلاح الأزهر

ولكن العلماء في القرون الأخيرة استكانوا إلى الراحة، وظنوا أنه لا مطمع لهم في) الاجتهاد، فأقفلوا أبوابه، ورضوا بالتقليد، وعكفوا على كتب لا يوجد فيها روح العلم، وابتعدوا عن الناس، فجهلوا الحياة وجهلهم الناس، وجهلوا طرق التفكير الحديثة وطرق البحث الحديثة، وجهلوا ما جد في الحياة من علم وما جد فيها من مذاهب وآراء، فأعرض الناس عنها، ونقموا هم على الناس، فلم يؤدوا الواجب الديني الذي خصصوا (أنفسهم له، وأصبح الإسلام بلا حملة وبلا دعاة بالمعنى الذي يتطلبه الدين

هذا، ولعل الرسالة توفق إلى نشر مذكرة الأستاذ الأكبر الإمام المراغي بعد أن مضى عليها أكثر من اثني عشر عاماً، فأني أخشى أن يكون طول الزمان قد خلع عليها ثوب النسيان، ولستُ أعلم مذكرة عالجت شئون الأزهر والفقه والدين بمثل ما عالجتها به هذه المذكرة في العصر الحديث.

محمد محمد المدني

المدرس بكلية الشريعة

مقال أوحاه قصف المدافع في ليلة قمراء

دنيا الشقي السعيد

في 172800 ثانية

للدكتور زكي مبارك

في الساعة العاشرة من مساء الجمعة وهو اليوم الثاني من شهر مايو، شهر الأزهار، كما يسميه أحد شعراء الفرنسيس، مضيت إلى دار المفوضية العراقية مع مترجم (آلام فرتر) لنشهد آلام الأصدقاء الأعزاء وقد أذتهم أخبار الحرب في يوم الاحتفال بميلاد الملك الشبل) وهو ابن غازي وحفيد فيصل (

وفي الساعة العاشرة من مساء الأحد، وهو اليوم الرابع من شهر مايو، حملت القلم لأحدث قراء (الرسالة) عن تفاصيل ما ثار بيني وبينهم من خصومات، ولكن المدافع ثارت فوق رأسي حتى كدت أتوهم أنني المقصود بعدوانها الأثيم، فالبيت الذي أقيم فيه يرتج ارتجاجاً عنيفاً جداً؛ وأنا أكتب هذه السطور بدون أن أعرف كيف تنتهي هذه الليلة السوداء، وإن كانت قمراء. وصاحب البيت يطرق باب غُرفتي بعنف ليحضني على النزول إلى السرداب، فأجيب: دعني، دعني، فأنا أشتهي أن أموت والقلم في يدي!! ومعنى ذلك أنني في الإسكندرية وفي أخطر مكان وهو (الرمل)

الغرفة محجوبة النوافذ بحجاب سميك، وفيها نور ينفعني ولا يراه أحدٌ غيري، وأنا مع ذلك أكاد أشهد نيران المدافع وهي تخترق أحجبة النوافذ، فهل حان الوقت لأستريح من دنياي، ولأنجو من بغي الأعداء، وغدر الأصدقاء؟

طاخ! طاخ! طاخ!

تلك أصوات المدافع، وكأنها تقصدني بالذات، فهي تُزلزل الدنيا من حولي، وتنذرني بغاية كريهة دميمة هي الموت في مكان لا أودِّع فيه أهلي وأبنائي

طاخ! طاخ! طاخ!

اصنعوا ما شئتم، أيها العادون من بني الألمان، فأنا أشتهي أن أموت والقلم في يدي، ولن أنزل أبداً إلى السرداب، ولو لقيت الحتف بمدافعكم الباغيات

طاخ! طاخ! طاخ!

لكم الويل ماذا تريدون مني، وقد قضيت شبابي في خدمة الآداب والفنون؟

طاخ! طاخ! طاخ!

تلك إذن خاتمة المطاف لدنيا الشقي السعيد، وهو الرجل الذي شهد الاحتفال بعيد 14 يوليه في باريس ست مرات، ونعِم بالألعاب النارية في باريس أكثر من عشر مرات

في مواسم مختلفات، ولعلها تزيد على العشرين، فلا ضَيْرَ عليه في أن يموت بالنار الحقيقية في إسكندرية وفي يده قلم أعنف من قنابل الألمان، وإن عشت بعد هذه الليلة الباغية، فسيرون كيف صدقتُ في الثناء على نفسي، فأنا بالرغم منهم فَتى مصريٌّ لم يعرف الخضوع لغير صاحب العزة والجبروت

طاخ! طاخ! طاخ!

الجيران يصرخون ويولولون، ونوافذ غرفتي تصرخ وتولول، وقلمي مع هذه المزعجات أكثر طمأنينة من التمساح الجاثم بأعالي النيل، فكيف أغمِدُ قلمي في هذه اللحظة وأنا أشتهي أن أموت وقلمي في يدي؟

طاخ! طاخ! طاخ!

سأموت بعد لحظة أو لحظتين، فقد كادت نوافذ غرفتي تتصدع من هول الصيال بين مدافع الإنجليز وقنابل الألمان، فما أسعدني حين أموت والقلم في يدي، وإن كنت أرتاب في إنصاف التاريخ

توت! توت! توت!

انتهت الغارة بعد تسعين دقيقة، فواخجلتاه من العيش، وليس في يدي مدفع ولا سيف!

فما دنياي وأنا الشقيُّ السعيد في الثواني التي تعد بال172800؟

ما دنياي في تلك الثواني التي تفوق الأزمان الطوال؟

دخلت المفوضية العراقية في ليلة حرب وقد تهيأت أبهاؤها لتكون ميدان رقص، فقلت: إن اللهو لا يعاب على الأمم القوية والعراقيون أقوياء بالروح، وإن أتهموا كذباً أو صدقاً بنقض العهود.

قال الحجاج: إن أهل العراق أهل شقاق ونفاق

وأقول: إن أهل العراق أهل شقاق، ولكنهم ليسوا أهل نفاق

فأين من يسمع كلامي قبل أن ينجح من يسرهم إفساد ما بين إنجلترا والعراق؟ وأين من يسعى للصلح بين جيشين كانا بالأمس حليفين؟ ولن يستفيد من تأريث القتال بين هذين الجيشين غير من يتربصون لأولئك وهؤلاء؟

وهل ضاعت الفرصة لإصلاح ذات البين؟

ثم اشتركت في الحديث مع الرجلين الكريمين عبد الستار الباسل وعلي الشمسي، وكان الحديث حول ما تستطيع مصر أن تصنع في هذا الظرف الدقيق (؟!)

وقيل كلام وكلام وأنا ضيِّق الصدر بكل ما أسمع؛ فقد كان دخان المدافع في حدود الحبانية يصل إليَّ، على بُعد ما بيني وبين الحبانية. وهل يبعد عني شرٌّ يطير أُواره في أروقة بغداد؟

الله وحده هو الذي يعلم كيف كان حالي والرقص محتدم بأبهاء المفوضية العراقية، والرقص من فنون الحرب، لأنه صراع بين العواطف والأحاسيس

ورجعت إلى داري في سيارة رجل كريم من أشراف الحجاز وصدري يكاد ينشقُ من الألم والغيظ؛ فقد كنت أحب أن تعفيني الحوادث من صدمة الكرب في ليلة الاحتفال بميلاد ملك العراق!

ماذا أصنع؟ ماذا أصنع؟

سأمضي في الصباح لمقابلة رئيس الوزراء، وسأقول له كيت وكيت، وسيكون لي مقام محمود في التمهيد لشئون تقوى المركز الأدبي لمصر في الشرق

ثم جاء الصباح فتذكرت أني مسئول أمام وزير المعارف لا أمام وزير الخارجية؛ وخطة السير في هذا الأسبوع توجب أن يكون عملي في المدينة التي تواجه عدوان الحرب من يوم إلى يوم، فهل أغيِّر الخطة وقد عرفت أن عملي سيكون في مدينة مبتلاة بمخاوف الحرب؟

وكيف وأنا لا أرحم نفسي في أداء الواجب؛ لأني أؤدي الواجب بلا رقيب، فقد وثق بي رؤسائي وأسلموني إلى ضميري لأقتل نفسي بلا ترفق ولا استبقاء. ولو راقبني رؤسائي لرحمت نفسي، وانتفعت بحقي في تعديل خطة السير وفقاً للظروف، ومَن أسلمك إلى ضميرك فقد أسلمك إلى رقيب لا يعرف الغفلة ولا الهجود!

ثم امتطيت القطار إلى الإسكندرية وصدري معتكر بالمعاني التي ساورتني في الليل،

وبعد الوصول بدقائق كنت أحاور الأدباء الإسكندريين، فهم سلوتي كلما حللت بمغاني ذلك الشاطئ الجميل
- ستطيل عندنا الثواء، يا دكتور؟
- خمس ليالٍ طوال!
- إذن فستمتع عينيك وأذنيك بقصف المدافع!
وفي صدر اليوم التالي كنت أؤدي واجباً بمدرسة الطائفة الإسرائيلية، وهي مدرسة لا تعطل في أيام الآحاد، أو هي المدرسة الإسرائيلية الوحيدة التي لا تعطل في الأحد الأول من كل شهر، وما يرضيني أن أقضي يوماً بلا عمل؛ وقد آذتني وزارة المعارف حين أسلمتني إلى ضميري
السنة الأولى الثانوية بهذه المدرسة مكانها في السطح. وعند الظهر صكت آذاننا المدافع بأصوات أعنف من قصف الرعد في لحظات الخوف والبأس
ومدير المدرسة يشير بأن ننزل إلى مكان أمين
وأقول: يجب أن نموت ونحن في الدرس
ثم يصلصل الجرَس مؤذناً بالانصراف فتضعف حجتي في العناد
وفي المساء يقع ما عرفه القراء في مطلع هذا الحديث
أما بعد فأين أنا مما كنت أريد؟
كنت أحب أن أتحدث عن الشاطئ الذي أوحشَ بعد إيناس
كنت أحب أن أدرس بعض الشؤون الأدبية أو الاجتماعية
كنت أشتهي أن أقول كلمة في (الإنسان) الذي رُفِعَ عنه بعض الحجاب فعرف من أسرار الوجود أشياء، ثم كان حاله حال الطفل الذي وُهِبَ مسدّساً محشواً بالرصاص فهو يصوبه إلى صدور الآمنين كيف شاء عقله الوليد! وإني لأخشى أن ينتقم الله من (الإنسان) فيسلبه القدرة على (استغلال) ما عرف من أسرار الوجود!
انتصف الليل أو كاد، وسكتت المدافع منذ لحظات، فهل هدأ البلبال الذي يساورني كلما
فكرت في مصير الشرق؟
ما أشقى الرجل الذي يعيش وهو موكَّلٌ بتعقب ما في الدنيا من قُبح وحُسن، وجهل وعلم، وقنوط ورجاء، وإن استباح القول بأنه الشقيُّ السعيد
زكي مبارك
ألقاب الشرف والتعظيم
عند العرب
للأب أنستاس ماري الكرملي
- 2 -
ونعود إلى الكلام على الباب فنقول: إن القلقشندي قال (صبح الأعشى 472: 5): (الباب بباءين موحدتين مفخمتين في اللفظ. وهو لقب على القائم بأمور دين النصارى الملكانية (أي الكاثوليك) بمدينة رومية. . . وأصله البابا بزيادة ألف في آخره، والكتاب يثبتونها في بعض المواضع ويحذفونها في بعض، وربما قيل فيه الباب ' بإبدال الألف هاء، وهي لفظة رومية (أي لاتينية) معناها أبو الآباء. . .) انتهى المطلوب من إيراده وقال ابن رُستَه في كتابه الأعلاق النفيسة ص148 من طبعة الإفرنج: (مدينة الرومية وهي مدينة يدير أمرها ملك يقال له الباب)
وفي نزهة المشتاق للإدريسي ما هذا نصه (74): (وفي مدينة رومة قصر الملك المسمى البابة، وليس فوق البابة فوق في القدر والملوك دونه)
وجاء في تقويم البلدان لأبي الفداء في مادة رومية: (وهي مدينة مشهورة، ومقر خليفة النصارى المسمى الباب). وقال في أهل بيزة: (وليس لهم ملك؛ وإنما مرجعهم إلى الباب خليفة النصارى)
وذكر ابن الوردي في كتابه خريدة العجائب طبعة مصر سنة 1300 في ص58: (وبها قصر الملك المسمى البابا وهو قصر عظيم أجمع المسافرون على أنه لم يبن مثله على وجه الأرض)
وورد في رحلة ابن بطوطة ذكر البابة فقال (في436: 2 من طبعة باريس): (ويأتي إليها البابة (وهو يريد هنا نائب البابة الذي سماه أبو شامة في كتاب الروضتين في ص

183 من طبعة باريس) مرة في السنة، وإذا كان على مسيرة أربع من البلد يخرج الملك إلى لقائه، ويترجل له، وعند دخوله المدينة يمشي بين يديه على قدميه، ويأتيه صباحاً ومساء للسلام عليه، طول مقامه في القسطنطينة حتى ينصرف). اهـ
وابن خلدون تكلم مراراً على البابا، من ذلك ما ورد في مقدمته ونقلناه في صدر هذا البحث، ثم قال: (وأردوا أن يميزوا البطرك عن الأسقف في التعظيم فدعوه البابا، ومعناه أبو الآباء. وظهر هذا الاسم أول ظهوره بمصر، على ما زعم جرجيس بن العميد في تاريخه، ثم نقلوه إلى صاحب الكرسي الأعظم عندهم، وهو كرسي رومة، لأنه كرسي بطرس الرسول كما قدمناه، فلم يزل سمة عليه إلى الآن. . .)
وممن كرر أسم البابا مراراً المقريزي. فقد قال في كتابه المواعظ والاعتبار طبعة بولاق (في484: 2): (وكان بطرك الإسكندرية يقال له البابا. . . ومعناه أبو الآباء؛ ثم انتقل هذا الاسم عن كرسي الإسكندرية إلى كرسي رومية. من أجل أنه كرسي بطرس، رأس الحواريين، فصار بطرك رومية يقال له البابا، واستمر ذلك إلى زماننا الذي نحن فيه). انتهى
ونحن لا نريد أن نمعن أبعد من هذا في المدى لإيراد الشواهد على هذا الاسم، وأنه لاتيني، أي رومي أو روماني، ففيها مجزأة، لمن يتحرى الحق، ويرمي إليه.
فهذه سبع لغات في البابا، وهي: الباب، والباب. والبابة، والبابة، والبابَّ، والبابا، والبابا.
وكل كاتب، حاول أن يؤدي اللفظ على ما ينطق به أصحابه، ولم يحاول واحد منهم أن ينقل معناها إلى العربية، بعكس ما يفعل اليوم بعض المتفصّحين والمتحذلقين من السوريين وأشباههم
وأما البطرك، فقد اختلفوا في تعريبهم إياه اختلافهم في الباب، والإنبراطور. قال في التاج في (ب ط ر ك): (البطرك، كِقمطر وجعفر، أهمله الجوهري. وقال الأصمعي: هو البطريق، وهو مقدم النصارى، وبه فسر قول الراعي يصف ثوراً وحشياً:
يعلو الظواهر فرداً لا أليف له ... مشى البطرك عليه ريط كتان
ويروى مشى النطول، وهو الذي يتنطّل في مشيتِهِ، أي يتبختر. قالهُ الأزهري، أو سيّد المجوس. قال الأزهري: وهو دخيل ليس بعرَبي) اهـ.
قلنا: البطرك: يوناني، وهو في هذا اللسان أو ومعناه الأب الأكبر أو الأب الديني
وقال في صبح الأعشى (473: 5): (البطرك: بباء موحدة مفتوحة، ثم طاء مهملة ساكنة، وبعدها راء مهملة مفتوحة، ثم كاف في الآخر. وهو لقب القائم بأمور دين النصرانية. . .
وأصله البطريرك، بزيادة ياء مثناة تحت مفتوحة، بعدها راء ساكنة، وهو لفظ رومي. . .
ورأيت في ترسل العلاء ابن موصلايا، كاتب القائم بأمر الله العباسي في تقليد أنشأه: الفطرك بإبدال الباء الموحدة فاءً. . .)
وفي التنبيه والإشراف، للمسعودي في ص159 من طبعة الإفرنج: (وأخبار أصحاب الكراسيّ الذين هم البطاركة أحدهم بطريرك)؛ قال ناشره في الحاشية: (وكل مرة وردت البطريرك ذكره الثعالبي صاحب اللطائف باسم بطريرك)
وقال المسعودي نفسه في كتابه الآخر (مروج الذهب) (406: 3 من طبعة باريس): (وذلك أن مدينة إنطاكية بها كرسي البطريق المعظم عندهم)
وورد في تاج العروس في مادة بطرق: (. . . وقيل البطريق هو الحاذق بالحرب وأمورها بلغة الروم، وهو ذو منصب، وقد يقدم عندهم. قلت: (أي الشارح وهو السيد مرتضى) هو بالرومية بترك، قاله الجواليقي وغيره). انتهى
قال الأب أنستاس ماري الكرملي: وهذا وهم من السيد الشارح، لأن بترك هو تخفيف البطريرك، كما ذكره القلقشندي وأما البطريق فرومية أي لاتينية لا يونانية، وهي معجم لاروس الوسيط: (أنشأ منصب البطريق قسطنطين وقلده خلفاؤه أشهر ضباطهم، ولما صارت دولة الغرب في أقصى دركاتها إتخذ بعض الرؤساء لقب البطريق وكان يقابل البرنس أو نائب الملك. ولما أعلن أُرستس بانبراطورية ابنه أوغسطس، كان لقبه يومئذ بطريقاً وآيتيوس الذي أذل أتّيلا وغلبه، كان لقبه بطريقاً يومئذ، وتلقب بلقب البطريق أيضاً كلوفيس ملك فرنسة، وكذلك ملوك برغونية. ولقب الملوك البرابرة بطارقة قواد جيوشهم. وكان قياصرة الروم يجودون به على لباب الوظائف العليا من مدنية وحربية، وبعد ذلك بكثير خلع البابوات هذا اللقب على ملوك

الإفرنج لما استأنفوا التقاليد الانبراطورية، فكان ممن تلقب به: بيبن، وشرلمان، ودُعوا بطارقة رومة ا. هـ تعريباً

ويُرى من هذه النصوص المنقولة هنا، أن بعض الكتّاب لم يميزوا بين البطرك أو البطريرك، وبين البطريق. فصاحب الاسم الأول رجل ديني، وصاحب الاسم الثاني رجل مَدَني. واللفظ الأول يوناني الوضع، لاتينيُّهُ على أن كِلاَ الاسمين مأخوذ من معنى الأب. فالأول يعني الأب الروحاني، والثاني الأب النبيل أو الشريف. لكن لابد من أن يُميَّز الواحد

من الآخر حرصاً على المعنى، وتمسكاً بمدلولات الألفاظ الأصلية، لكي لا يقع التباس فيها

ويُرى من هذه النصوص أيضاً أن في البطريرك ثمانية أوجه معربة؛ وهي: البَطْرَك، والبِطَرْك، والبَتْرَك، والبطريك، والبطريرك، والفطرك، والفطريرك، والبطريق. فهل بعد هذا من ينكر هذه المفردات، ومعانيها ولغتها، وقد أيدناها بالشواهد والنقول الموثوق بها؟ وهل يستطيع المُتَبَلْتِعُون السوريون، أن يضحكوا من كتّاب مصر، لأنهم يستعملون في مقالاتهم مثل سكرتير، بروفسور، ودكتور، وماجستير، وليسانسيه؛ وكلها ألقاب وضعها الغربيون كأنها أعلام ألقاب. ومن ثمّ لا حقّ للناطقين بالضاد أن يغيروها، ولا أن يترجموها بأي صورة كانت. وقد جمعنا من الألقاب الغربية التي عرَّبها العرب نحواً من مائتين وخمسين؛ ولم يفكروا يوماً بوضع مقابلات لها في لغتهم، لا بل أن بعضهم ظنها مُضَرِيَّة محضة، ولا صلة لها بغير لغتهم. وأنا أذكر هنا بعضاً منها مصداقاً لكلامي. من ذلك ما يتمم بَحْثي السابق:

الدوفن - 6

قال ابن مكرّم في تركيب (د ف ن) ما هذه عبارته بنصها: (ودَوْفَن: اسمٌ. قال ابن سيده: ولا أدري أَرَجُلٌ أم موْضع. أنشد ابن الأعرابي:

وعلمت أني قد مُنيتُ بِنِئطِلٍ ... إذ قيل: كان من آل دَوْفَنُ قُمَّسُ

قال: فإن كان رجلاً، فعسى أن يكون أعجمياً فلم يصرفه، أو لعل الشاعر احتاج إلى ترك صرفه، فلم يصرفه؛ فإنه رأيٌ لبعض النحويين. وإن كان عنَى قبيلة، أو امرأة، أو بقعة، فحكمه ألا ينصرف؛ وهذا بين واضح. اهـ

وقد نقل صاحب التاج عبارة اللسان من غير أن يشير إلى مأخذها مع أن النص واحد بلا أدنى تغيير، سوى أنه قال: قمَّسِ وهي قمس؛ وقال: إن كان عنى قبيلة والصواب وإن كان عنى قبيلة

وقال صاحب القاموس: ودوفن رجل وامرأة. وفي بعض النسخ: رجل أو امرأة

قلنا: فما معنى هذه اللفظة، ومن أي لغة هي؟ فعند الوقوف على الحقيقة، تضمحل الآراء المتضاربة، ويقبض على ناصية الحق فنتمسك بها

أما رأينا فهو أنها من الفرنسية على حد اللفظ العربي ومعناه. وكان أصل وضعه لقباً للثنيان الفرنسي أي للذي يكون دون السيد أو الملك في فرنسة؛ ثم غلب هذا اللقب على كثيرين من أولئك الأشراف، فصار بمنزلة العَلم لهم، وأول من لقب بذلك، كان في عهد كيك أحد قمامسة فيئّة الفرنسية، المتوفى سنة 1142 للميلاد. وفي أوفرنية كان أحد القمامسة في عهد غليوم السابع. وكان لقب به لأول مرة سنة 1152؛ ثم أنقلب هذا اللقب فصار علماً لأولئك الرجالات، ومن أراد التفصيل فليراجع كتب التاريخ والمعاجم في مادة دَوْفن. وهناك دوفن أشتهر بدوفن أوفرنية وهو شاعر بروفنسي، من المائة أل 12 أو أل 13، واسمه الحقيقي روبر وكان دوفناً من سنة 1169 إلى سنة 1234

ودوفن أيضاً امرأة الدوفن، وبالفرنسية والأحسن أن يقال في العربية دَوْفَنة لكي لا تلتبس بالمذكر ودَوْفن أيضاً، والأحسن دَوْفِينَه عَلَم بقعة في فرنسة. فصحَّ بهذا التأويل أن (دوفن) كلمة أعجمية وإنها أتت بمعنى أسم رجل، وأسم امرأة، وأسم بقعة، ومما يؤيد أن الدوفن هو بالتأويل الذي ذكرناه أن الشاعر قال:

(كان من آل دوفن قمَّسُ)

والقُمَّس هو سابقاً، والذي نقل بعد ذلك إلى صورة كُنْت ومعلوم أن البيت الذي فيه دَوْفن، قد يكون فيه عدة قَمامِسة، إذا كان فيه عدة ذكور، غير البكر ونحن نذكر بعد هذا القمس ونبحث في مختلف لغاتِهِ

ومن الغريب أن المعاجم الإفرنجية، وبالعكس أي المعاجم العربية الإفرنجية. لم تذكر مقابلاً للفرنسية كما لم تذكر مقابلاً إفرنجياً للدَوْفَن. فمعجم بادجر الإنكليزي العربي، (وهو أساس جميع المعاجم الإنكليزية العربية ذكر مقابلاً لها في العربية (بكرُ ملك فرانسا) - وقال نجاري بك، في معجمه الفرنسي العربي: (بكري الأمير) وهو كلام لا معنى له. - ومعجم غسلين الفرنسي العربي ذكر المؤنث ولم يذكر المذكر فقال: (زوجة ولد سلطان فرنسة) وهذا غريب. - وقال الأب بلو في معجمه الفرنسي العربي: (ولي عهد ملوك فرنسا) - وأما صاحبنا الشهير إلياس بقطر فقد قابله بقوله: (ابن بكر سلطان فرنسا)

ولا تسألني عمن نقل (دوفن) إلى لغة أجنبية في المعاجم العربية الغربية، فإن أصحابها جميعهم أهملوها كأنها لم تكن، وفي كل ما ذكرناه من النقول، ما يبين لك قصور أرباب تلك الدواوين، وبذلك يظهر لك ما فيها من النقص والعجز، والحاجة إلى الإصلاح الأعظم

(له صلة)

الأب أنستاس ماري الكرملي

من أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية

خواطر في الموسيقى والناس

في الإنسانية خير

ما دام فيها أمثال (شتروس)

للأستاذ سيد قطب

منذ لحظات كنت أستمع إلى أفراح الإنسانية العذبة في موسيقى (شتروس) في أحد الأفلام الشهيرة. لست أدري كم مرة شاهدت هذا الفيلم؛ ولكنني أدري أنني انسقت لمشاهدته كالمسحور، كلما قرأت عن عرضه في إحدى الدور.

وفي لحظة من لحظات الشك التي تساور النفس هذه الأيام في ضمير الإنسانية وطبيعتها؛ وفي غمرة من غمرات اليأس أن يكون في الفطرة البشرية خير أو تطلع؛ وفي فترة من فترات الخمود الروحي والجسمي، رانت على النفس فيها غشاوة، وحطت على الجسم فيها أثقال، ذهبت منساقاً إلى استماع هذه الألحان وإن هي إلا لحظات، ونغمات، ورقصات، حتى أحسست بالخفة الناشطة في نفسي وجسمي؛ وبالرجاء المشعشع والاطمئنان المصفى، والأمل المحلق، والإنسانية الطليقة، والفرح السعيد.

قلت في نفسي: إن الإنسانية التي وسع ضميرها كل هذه الأفراح النقية وكل هذه الغبطة البريئة، والتي ذخرت طبيعتها هذا الفيض الإنساني المرح، وتلك الطلاقة الروحية المرفرفة في ألحان (شتروس) ورقصاته، لا يمكن أن تخلو من الخير، وأن تتهم بالإقفار من الحب، مهما نغل فيها اليوم من أحقاد وأضغان

هذا الفرح الملعلع في أجواز النفس وأجواز السماء؛ وتلك الطلاقة التي لا ظل فيها لقيد من قيود الأرض والغريزة؛ وذلك التحليق النابض بالحياة الحلوة البريئة؛ هذا كله لا يكون إلا أن يكون في البشرية خير مذخور، ورجاء منظور، وقبس من نور. وإلا أن يكون لها في السماء أمل، وفي الفراديس مكان، لا يتاح لغير الإنسان

وذكرت في هذه الساعة من يتحدثون عن (الفكر والسلطة) ومن يتحدثون عن (منفعة) الفنون المجردة. أولئك الذين يرفعون مرتبة التنفيذ فوق مرتبة التوجيه، وهؤلاء الذين لا يريدون أن يروا في (الإنسان) إلا معدته.

قلت: أين هي السلطة الكائنة على وجه هذه الأرض التي تستطيع أن تصنع من الخير ما تصنعه هذه الحان؟ بل أين هي النبوة التي تستطيع أن ترتفع بالفطرة إلى أعلى من هذا المكان! ثم أية (منفعة) في هذه الدنيا الفانية أنفس من هذه السعادة التي تقرب وتقرب، حتى لها نغمة في الآذان وحركة في الأبدان

لن يستطيع ذو سلطان يعتمد على السلطان، مهما سما فكره، وطابت نفسه، أن يصنع مثل هذا الخير، وأن يطلق النفوس من غرائزها وقيودها، فرحة سعيدة راضية، لا تخطر الخطيئة لها ببال، ولا يهجس الشر لها في الضمير؛ وهي محلقة في هذا الأوج، مرفرفة في هذه الآفاق، خالصة من وحي الفناء ولذع الشقاء.

ولن يستطيع أكبر المخترعين والمهندسين والعالمين أن يزجي إلى الإنسانية باختراعاته وآلاته ونظرياته هذه السعادة التي تحسها وهي تستمع لمثل هذه الأنغام.
وإذا لم تكن غاية الجهاد في الحياة هذه السعادة العالية وتلك الغبطة الراضية، فما عساها تكون؟
جالت في نفسي هذه الخواطر ثم استعرضت لخيالي صورة المجزرة البشرية في هذه الأيام، وصورة الحقد الوخيم، والضغن الذميم الذي يؤرثها، وصورة الغرائز المتسفلة التي تهيجها الدكتاتورية وتملقها في طبائع الأفراد والشعب، وصورة الذلة المشتعلة التي تثير الإعجاب في بعض النفوس ببطش الباطشين وغدر الغادرين. . .
فقلت: كيف اضطغنت البشرية هذا الحقد الحيواني كله، ووسعت معه ذلك الفرح الإنساني كله؟ ثم ذكرت قول العقاد: ثقلة في الحياة لم ينج طبع من عراقيلها ولم يخل عرف
وذكرت أن الإنسانية - كما يقول تاريخ الحياة - لا تزال طفلة تحبو في مدارج الزمن والارتقاء، وأن الحياة كلها لم تتجاوز الفجر الأول؛ فهي ما تزال تعيش حتى اليوم على نبات الأرض وحيواته، كما يعيش الطفل الرضيع على لبن أمه؛ ولن تبلغ هذه الحياة طور الصبا حتى تتطلع إلى غذاء تصنعه وتخلقه غير الغذاء الذي تجمعه وتؤلفه، كما يصنع الطفل بعد الفطام سواء
فينبغي ألا نستعجل الزمن، وألا نخدع بأبناء الحياة السابقين أولئك الفنانين الذين نضجوا قبل الأوان، وسبقوا خطوات الإنسانية بمراحل وأزمان، فتلك بواكير الروض، وطلائع
الثمار. والغد كفيل بالجني والقطاف!. . .
وما كنت أملك إلا توغل نفسي هكذا في الرجاء، وألا تتطلع إلى الأجواز والآفاق، وأنغام (شتروس) تتخلل دمي فترقرقه مزاجاً صافياً، وتلمس روحي فتطلقها ترفرف في السماء، وتخلصني من ثقلة الأرض ووكسة الغريزة، فأتطلع إلى هناك. . . إلى حيث الإنسان المرموق في آمال الوجود
وتشاء المصادفات الساخرة العجيبة أن أخرج من هذا العالم الوضئ الإشراق، فيطرق سمعي - على غير إرادة - صوت المذياع وينقل إليَّ بعض الحشرجات البائسة التي يسمونها في مصر أغنيات جديدة!
يا للشيطان! بل أظلم الشيطان، فما تستطيع طبيعته أن تهبط إلى هذه المناقع والقيعان وأن تدبر لي تلك المفاجأة في هذا الأوان!
رباه!
أيمكن أن يكون واضعو هذه الهنبشات والحشرجات ومستمعوها من أبناء آدم الذي نعرفه، وأن يكون (شتروس) ومستمعوه من أبنائه كذلك في آن؟
محال. فما تلك إلا دويبات وجنادب وهوام، وأشياء أخرى مما يرتكس في المناقع والقيعان. وإلا فما كانوا يطيقون مجرد الصبر على هذا الغُثاء؛ وفي متناولهم تلك الموائد الربانية الشهية وذلك الغذاء السماوي المريء!
(حلوان)
سيد قطب
بين الأدب والتاريخ
الرحلات العربية
كيف بدأت ومتى دونت؟
للأستاذ محمد عبد الغني حسن
الرحلة هي النقلة من مكان إلى آخر. وقد تكون فردية لا يحتاج الإنسان فيها إلا إلى راحلته وهمامة نفسه ومشدود رحله. وقد تكون جماعية يخرج فيها الجم الغفير من الناس لغرض من الأغراض أو باعث من البواعث
وأكثر الرحلات يأتي طوع الإرادة ووليد المشيئة من غير اضطرار ولا قسر. وبعضها يكون وليد ظروف طارئة أو مناسبات قاهرة، تخرج المرء أو الجماعة عن الموطن الأول، أو ترمي به بعيداً عن مراتع صباه وملاعب شبابه، إلى وادٍ سحيق، أو مطرح بعيد. . .
ومن الرحلات ما يغير أوضاع التاريخ ويفرض على العالم نظاماً جديداً، فيقرب بعيداً، أو

يبعد قريباً، أو يصل بين شعب وشعب، أو يربط بين جنس وجنس، فتظهر لغات جديدة، وثقافات جديدة. ومن هذا النوع رحلة القحطانيين من الجنوب إلى الشمال؛ أو إذا شئت التدقيق من اليمن إلى الحجاز. وهي رحلة جماعية كبيرة، وسَّمها إذا شئت هجرة، وسمِّها إذا أردت انتقالاً. ولكنها على كل حال أخرجت القحطانيين من ديارهم ونشرتهم في أنحاء الجزيرة العربية وأخرجت منهم بطوناً كثيرة وقبائل كثيرة يعرفها كل من قرأ تاريخ الأدب

ولقد كانت هذه الرحلة بنت القهر ووليدة الاضطرار، وسببها أن سيل العرم فاض وبلغ الزبى فاكتسح السدود، ورمى بالحواجز، وغمر الأرض، وبُدِّل السبئيون حالاً بحال، فارتحلوا إلى الشمال - ولولا هذه الرحلة الجامعة ما قام المناذرة على حدود الفرس، ولا استقام ملك الغسانيين على حدود بلاد الروم

ومن سوء حظ التاريخ والأدب أنه لم يهتم بهذه الرحلة واحد من المهاجرين المشتركين فيها ولم يدون أبناءها ولم يصف مشاهدها وكل ما وصل إلينا منها أنباء قليلة بعضها من مصادر دينية، وبعضها يعتمد على الرواية والأخبار. ولو اهتم بها أحد ممن حثوا مطاياها أو شدوا رحالها لخرج لنا سفر عظيم من أسفار الرحلات الخالدة.

وبعض الرحلات أو الهجرات يكون ضرورياً لإكمال دعوة في أرض بعيدة غريبة، واجتناب أذى في دار قريبة حبيبة، ومن ذلك هجرة النبي محمد عليه السلام إلى المدينة بعد ما أوذي في مكة بين أهله وعشيرته مما هو مدون بالتفصيل في كتب السيرة الزكية

ولقد هاجر بعض المسلمين الأولين إلى الحبشة فراراً من الأذية، واستجابة لدعوة الجهاد - والحبشة بلاد كانت معروفة عند العرب وكان الاتصال بينها وبين الجزيرة قائماً إلا أن الإسلام زاده ووسعه. وكان في استطاعت بعض الراحلين أليها من المسلمين أن يدونوا رحلتهم ومشاهدها، إلا أنهم لم يفعلوا. ولعل مشاغل الجهاد ومتاعب الكفاح صرفتهم

والرحالة الذكي الفطن يستفيد دائماً من رحلته علماً وتجربة، ويكتسب منها فوائد، ويفتح عينيه دائماً على ما أمامه من مشاهد وما يلاقيه من معالم. فلا يدع شيئاً يمر من غير أن يقف على حقيقته، أو يكشف عن ماهيته، كما صنع بعض الرحالين من العرب الذين سنشير إليهم فيما بعد

وتزداد الرحلات بالطبع تبعاً لسهولة الاتصال بين المكان والمكان؛ فإن الاتصال هو الأداة الوحيدة لاستكمال الرحلة ونجاحها. ومن هذا نفهم قلة الرحلات وندورتها في الزمن القديم

وقد كان لقريش قبل الإسلام رحلتان عظيمتان: إحداهما إلى اليمن والأخرى إلى الشام. أشار إليهما القرآن الكريم في سورة خاصة من القصار. وكانتا تتعاوران في كل عام. وكان فيهما بالطبع ما في كل رحلة من لذة ومتعة واستجمام وطرائف ومشاهد. . . إلا أن ذلك كله لم يدون لمكان العرب من الأمية ومنزلتهم من البداوة. . .

واكتفى أعضاء هذه الرحلات - وسنسميهم رحالين تجاوزاً - بقص القصص وسرد الحديث وإطالة الأسمار كلما حطوا الرحال إلى مكان، أو أستقر بهم النوى في أي مستقر

ومن حكماء العرب وشعرائهم من جاب البلاد، وطاف كل مطاف، وأنهم وأنجد، وشرق وغرب؛ إلا أنه لم يسجل لرحلته تاريخاً ولم يضع لها ثبتاً، ولكنه مضى على السفر إلى غير غاية. . . اللهم إلا المتاع ورياضة النفس واستجمام الخاطر. وقليل منهم من سافر لحكمة يصطادها أو معرفة يقتنصها

ولقد طوف امرؤ القيس في الجزيرة فخرج من بني أسد، ومر على السموأل بن العاديا في حصنه، وذهب إلى اليمن؛ وشاهد الموج يصطخب في البحر ويتعالى لجة فوق لجة فشبه

به الليل في قوله:

وليل كموج البحر أرخى سدوله ... علي بأنواع الهموم ليبتلى

وأبعد في الرحلات والأسفار حتى وصل إلى بلاد الروم، ودخل أنقرة. ويقال أنه لقي قيصر وأتيح له من أسباب الرحلة ما لم يتح لغيره لغناه وشرفه ومكانه من السيادة في قومه، إلا أنه لم يدون هذه الرحلة في شعر طويل أو في نثر عريض، ولكنه أشار

إليها في بعض قصائده
ولقد طاف أبو بصير الأعشى كذلك وأكثر من الرحلة، وظهر لذلك بعض الأثر في شعره، فقال:
قد جبت ما بين بانيقيا إلى عدن ... وطال في العجم ترداديِ وتسياري
وأدخل بعض ألفاظ أعجمية في شعره تظرفاً أو تعالماً كقوله:
وشاهدنا الجل والياسمي - ن والمسمعات بأقصابها
إلا أنه لم يصنع أكثر مما صنع أمرؤ القيس
وجاء الإسلام وفتح المسلمون بلاداً جديدة، ودخلوا أرضاً كثيرة لم يدخلوها، وصار إليهم ملك واسع يحتاج إلى سهر كثير لحفظه، ويحتاج إلى تعب كثير لضبطه. فعرفوا الكثير عن البلاد المفتوحة ودروبها وجوادها وجبالها وأنهارها وغلة أرضها ومتنوع ثمارها ليجمعوا الخراج على قدر ذلك وليفرضوا الأموال على نسبته. ولم تكن هذه المعرفة مبنية على علم دقيق أو بحث متين ولكنها كانت تميل إلى التقريب أكثر منها إلى التحديد
ثم كثرت الرحلات التجارية بين أجزاء المملكة الإسلامية - وهي تذكرنا برحلتي قريش في الشتاء والصيف - إلا أن هذه كانت بين أقطار بعيدة وكانت تحمل من عروض التجارة ألواناً عديدة
ولقد ساهم الشعراء في نوع جديد من الرحلات يلتمسون به المال ويطلبون العطاء من ممدوح يقصدونه، أو عظيم يندبونه، فيكون ذلك الاتصال سبباً في بروز الشعراء وتألق نجمهم. يخرج الواحد منهم من رمال البادية إلى معالم الحضر، أو يخرج من مدينة إلى مدينة، أو يرحل من قطر إلى قطر طلباً للجاه والشهرة؛ ولكن واحداً منهم لم يفكر في تدوين رحلة أو تسجيل مشاهدة، لأنه مشغول عن ذلك كله بالحاجة التي قام إليها وركب الأسفار
من أجلها . . .
ولقد خرج (جرير) من بادية اليمامة إلى عاصمة الخلافة الأموية يقصد عبد الملك بن مروان ويقول لامرأته:
سأمتاح البحور فجنبيني ... أذاة اللوم وانتظري امتياحي
وخرج أبو نؤاس إلى مصر (راحلاً) يمدح الخصيب ويقول:
ذريني أكثر حاسديك برحلة ... إلى بلد فيه الخصيب أمير
وابن هانئ الأندلسي يخرج من الأندلس إلى شمالي أفريقية فيمدح الخليفة المعز ويرحل معه إلى مصر ويصف هذه الرحلة في بعض شعره
وإذا كانت هذه الرحلات الفردية وكثير غيرها قد أضافت بعض الثروة إلى الأدب إلى أنها لم تكن منتجة بالنسبة للرحلات والأسفار. فهي عقيمة كل العقم من هذه الناحية ولم يبتدئ الاهتمام بالرحلات لذاتها وتدوينها في أسفار خاصة، وتقييد كل ملاحظات الرحالة عليها إلى في القرن الرابع الهجري - المقابل للعاشر الميلادي -
ومن المقدمين في هذا الباب المسعودي صاحب (مروج الذهب) وقد أولع بالأسفار وهو صغير، وخرج للسياحة ولم يسلخ العشرين من عمره. ويمتاز ببعض الدقة العلمية، وعدم التصديق لكل خرافة تذاع أو ذائعة تشيع. وعبارته في الكتابة قوية لا تميل إلى ضعف ولا تجنح إلى ركاكة
أما البيروني - وكان من رحالي القرن الرابع أيضاً - فقد ترك لنا كتابيه (الآثار الباقية عن القرون الخالية) و (تاريخ الهند). ويعد كتابه الثاني أوفى مرجع عن بلاد الهند وأملأ كتب الأسفار تعريفاً بها
ولقد ظهر في هذا القرن أيضاً رحالة عظيم اختصه الأستاذ أحمد أمين بمقال ممتع في الجزء الثاني من فيض الخاطر. وأسمه أبو عبد الله القدسي. وكتابه الذي وضع فيه قوانين الرحالين، وقواعد السفر، وشروط من يتصدى لشد الرحال اسمه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم). وقد رأيته عند صديقي المستشرق الهولندي (مستر ستريكر)، وكان يعتمد عليه في دراساته الجغرافية التاريخية
ويمتاز هذا الرحالة باستجماع عدة الجوّاب، واستكمال أدواته. فقد عمل كل ما يستطاع

عمله لدرس حالة البلد الذي ينزل فيه. واتصل بالملوك، وخالط السوقة وعمل في أشرف الأعمال، وزاول أحقرها. ولقي في تأليف الرحلة وتدوينها عنتاً كثيراً ليكون كلامه عن صدق، وروايته عن تجربة، أو كما قال هو عن نفسه: (وإنما ذكرت هذا القدر ليعلم الناظر في كتابنا أننا لم نضعه جزافاً، ولا رتبناه مجازاً، فكم بين من قاسى هذه الأسباب وبين من صنف كتابه في الرفاهية ووضعه على السماع)

ومن الرحالين المشهورين ابن جبير الأندلسي وابن سعيد المغربي صاحب كتاب (المغرب)، وياقوت الرومي صاحب المعجمين المشهورين: (معجم الأدباء) في تراجم الرجال (ومعجم البلدان) في جغرافية البلاد

وفضل معجم البلدان على كتب الرحالين جميعاً أنه - كاسمه - معجم مرتب ترتيباً أبجدياً لكل بلد أو مكان أو قطر مشهور أو مغمور، أو أرض عامرة أو غامرة، أو مدينة صغيرة أو كبيرة. وطالما أسعف الأديب بطلبته في الكشف عن محلة، أو الاهتداء إلى موضع، أو تحقيق غوطة، أو معرفة واد، أو متابعة نهر في مجراه. ويتخلل ذلك كله شعر جميل، أو رواية واسعة، أو قصة طريفة، أو حادثة تاريخية، أو ذكر يوم من أيام العرب

ولقد أعتمد عليه من أتى بعده من الرحالين في تحقيق الأماكن، ومعرفة المواطن.

ولابن بطوطة شهرة واسعة برحلته المعروفة. وتمتاز بما فيها من ذكر الكرامات واستطراد الحكايات، وتصديق الخرافات. . . ويظهر أن صاحبها كان حسن الاعتقاد سهل التصديق. والحق أنها ليست تَسْوي من الناحية الأدبية شيئاً بالقياس إلى الناحية الجغرافية؛ ومؤلفها من رحالي القرن الثامن الهجري، المقابل للرابع عشر الميلادي

ولقد سكنت ريح الرحلات حيناً في عصور الاستبداد المظلمة لقلة الأمن وصعوبة الرحلة. ويظهر أن سلسلة الرحلات العربية كانت باعثاً لرحلات الغربيين التي تمخضت عن كشف أستراليا وجزرها. وكشف العالم الجديد الذي يبلغ عمره الآن أربعة قرون ونصف القرن

وفي مفتتح القرن التاسع عشر عاد العرب إلى نشاطهم في الرحلات. وكان حظ مصر في هذا المضمار عظيماً؛ فظهر جماعة من الرحالين الذين أنتجوا كتباً قيمة في أدب الأسفار. منهم: رفاعة بك الطهطاوي، وعلي باشا مبارك، وأمين باشا فكري، والشيخ أحمد فارس الشدياق صاحب كتاب (الواسطة في أخبار مالطة) وهو ممتع لذيذ. ومحمد لبيب البتانوني

بك صاحب (الرحلة الحجازية) و (رحلة الأندلس) وغيرهما. وأمين الريحاني زعيم الرحالين في العصر الحديث، وقد ماتوا جميعاً إلى رحمة الله

أما الأحياء فنذكر منهم المكتشف الرحالة أحمد حسنين باشا صاحب (في صحراء ليبيا)، والأمير شكيب أرسلان صاحب (الحلل السندسية)، والأساتذة: محمد ثابت، وجميل خانكي المحامي، وتوفيق حبيب، ونزيه مسعد الصحافيين. أطال الله حياتهم

محمد عبد الغني حسن

من مدهشات العلم الهندسي والصناعة الحربية

المدافع الثقيلة

للأستاذ عبد اللطيف حسن الشامي

لاشك في أن مدفع برتا الذي ظهر في أواخر سني حرب 14 - 18 من مدهشات العلم والصناعة. أراد الألمان به أن يعزّزوا هجومهم في جبهة باريس بعدما طال وقوفهم أمام استحكامات الحلفاء في الخط الأخير في الميدان الغربي. وهذا المدفع الضخم العظيم كان من تصميم ووضع البروفسور المهندس راوزنبرجر من حوالي عالم 1909 وأخرجته إلى حيز الوجود مصانع كروب في مدينة إيسن بإقليم الرور الصناعي

وأسطوانة هذا المدفع (الماسورة) من الصلب الكهربائي أي الصلب المصهور في أفران كهربائية ويضاف إلى المعدن المصهور السائل بعض عينات من معادن كالمنجنيز وغيره تزيد في صلابة السبيكة وشدة مراسها ومقاومتها للظروف العظيمة واحتمال الحرارات العالية الناجمة من انفجار وخروج المقذوفات. وتصنع كذلك بعض أجزاء المدافع الأخرى التي عليها ضغوط أو رضوض أو ارتكازات هائلة من نفس المعدن النفيس السابق ذكره؛ وأمر هذا المعدن من اختيار خاماته إلى صهره إلى حرارته إلى إضافات معدنية أخرى إلى صبه إلى تبريده من الأسرار الصناعية التي يُحرص على

تكتمها
وكان لشدة انفجاره عند بدء تجربته في تهديد استحكامات الخلفاء دوي مفزع وقعقعة شديدة وصلصلة مصمة وصفير حاد نافذ صارخ، أخذ كل ذلك بألباب الجنود أول الأمر وأفزعهم وأزهق منهم الأنفاس، وأدخل الارتباك في صفوفهم والذعر بينهم، وتناقلته الألسن بالتهويل. أما آثار التخريب الحقيقية من وقوع القذائف على الأهداف فلم تكن مما يناسب هذه الأصوات المدويَّة، وإن كانت لبعد المرمى تصيب التحصينات الخلفية الأقل استعداداً. وأخذت قيادة الحلفاء بهذا الأمر على غرة فاستعدت له وأصلحت من آثار وقعه في نفوس الجنود
ونظراً لبعد المرمى الذي يبلغ عشرات الكيلو مترات لا يمكن ضبط وتحديد الهدف، وعدم سقوط كل قذيفة تالية على سابقتها. وتتعذر الرؤية، وقد تسوء وقد تخطئ، ولابد من ستر المدفع وإخفاء موقعه؛ وهو يشغل مساحة كبيرة ويعلو في الهواء، فأمر تعميته وتغطية
العمليات العسكرية التي حوله ليست أمراً سهلاً؛ وهي اليوم من الفنون الحربية. وهو لا يشتغل دواماً برمي قذائفه بل لابد من راحة طويلة بعد كل سويعات، ولابد من راحة أطول بعد كل عملية، إذ الحرارة الشديدة لا يمكن تلطيفها بسرعة، وهي تقوِّس من استقامة الاسطوانة. وكذلك التآكل المعدني في سطح الاسطوانة الداخلي نتيجة احتكاك وانزلاق المقذوفات وخروجها حلزونية، وللترفيه كذلك والتخفيف النفساني عن الجنود القائمين بأمره
وسمي (برتا) باسم بنت أو أخت كروب الكبرى. وأنتظر الألمان من وراء استعماله مفاجأة للعدو وأثار تخريب وتمهيد نفساني؛ ولكن برغم سقوط بعض القذائف في باريس ودويّها في ضواحيها، فلم يتأت لهم جني ثمرة مغرية من غرسه. وكانوا يودون نصبه في كاليه ليضربوا منها الساحل الإنجليزي عند دوفر عبْر بحر المانش ولم يدركوا هذه الأمنية كذلك. وإذا ما علمنا أن الألمان عند أول استعمال هذا المدفع أعوزتهم بعض أمور نقص في البناء والتصميم والتركيب والحساب والخبرة وضيق الوقت والعجلة في الصنع وحرج الموقف الحربي، فيمكن القول أجمالاً بأن تجربته تمخضت عن فشل في الخارج والداخل. وإذا ما قدرنا ثمن أجزاء المدفع الباهظة ومعادنه النفيسة وثمن تشغيله وتضخم النقد وما علق الألمان عليه من آمال، أدركنا قيمة سقوط هذا المبتدع المخرب العظيم، وانتهت الحرب بانتهاء سنة 1918 على الوجه الذي نعلم جميعاً
غير أن الألمان أخذوا من الفشل درساً وعبرة، ولم تعجزهم تضييق شرائط الهدنة والصلح، حتى ولا سقوط النقد بعد الحرب والاضطراب السياسي، عن متابعة التحسين ومداومة الإبداع والاستحداث سراً، فأكملوا النقص وأصلحوا الأخطاء وصححوا المعايير الحسابية والأوزان الهندسية والنظريات العلمية والتراكيب المعدنية؛ وظهر مدفع برتا الثقيل من جديد في مخابئ كاليه على الساحل الفرنسي المحتل يطل بفوهته على البحر ويرنو إلى الشاطئ الإنجليزي، يقذف عليه الحمم ويصب النار والدمار تدله الطائرات بالاتصال اللاسلكي، وكذلك السفن الصغيرة السريعة على مواقع الأهداف وعلى سرعة واتجاه القافلات البحرية
إلا أن الإنجليز من جانبهم كالوا للألمان صاعاً بصاع وقذيفة بقذيفة وطلقة مدوية بطلقة داوية، فبهت الألمان وأدهشتهم المدفعية الإنجليزية الثقيلة. ولابد من الانتظار حتى تنتهي
هذه الحرب لنقول أي المحاربين كان لسلاحه أحسن استعمالاً وأدق تصويباً، وأي مدفعية أحق بالذكر والخلود في سجل مخربات حرب 1939
ويعقب كل طلقة تمزق في الهواء وتخلخل فيه واضطراب، ويمتد أثر هذه الخلخلة المدمرة والضغوط الهوائية إلى وديان واسعة، وينتشر أثرها المخرب إلى أبعاد مترامية. وعند أول استعمال هذا المدفع قضى على رجاله وطوح بهم، فكانوا بعد ذلك يطلقونه بالاتصال الكهربائي بعد شحنه وهم محتمون بالخنادق الأرضية والغرف المحصنة. وحدث أن كان جنديان من جنود مراقبة الحلفاء واقفين على شجرة مرتفعة يرقبان حركات العدو، أن هويا على رأسيهما من حالق إثر طلقة تمزق بعدها الهواء وأندفع بقوة عاتية

ومع أن تكاليف هذا المدفع الثقيل باهظة وتشغيله يكلف الأموال الطائلة فإن أثره المخرب لا يوائم هذه المصاريف. إنما يقصد به زعزعة الروح المعنوية وانتشار الذعر والهلع والدهشة الانتفاض والإحراج والفوضى وبلبلة الأفكار والتهويل، وهذه كلها تتطلب ثمناً ولا يقل أثرها في الحرب عن أثر التخريب والتدمير. ويقصد كذلك دك الحصون القوية وأجزاء الجيش المحصنة داخل الأسوار وتحت الأقبية. وحدث في الحرب الماضية أن وقف المغيرون الألمان أمام بعض الحصون البلجيكية التاريخية كنامور وليبج عاجزين عن سحق مقاومتها وتركوا أمر ذلك أخيراً لأعمال هذه المدافع. وحدث مثل هذا في هذه الحرب. ولما تابع الألمان زحفهم لتطويق جيوش الحلفاء في سهول الفلاندر قامت المدفعية الثقيلة في البوارج بتغطية الانسحاب وتعجيز الألمان عن اللحاق بالمنسحبين. وكانت تقع القذيفة على الدبابة الهائلة فتنثر أشلاءها وتصبحها فتاتاً. ولما قاومت فارسوفيا ورفضت التسليم طوقها الألمان بالمدافع الثقيلة فدكوا ربوعها وروعوا أهليها

ويحتاج المدفع الثقيل الواحد إلى 12 عربة نقل من عربات السكة الحديد، وإلى 5 عربات ذات بناء خاص لنقل الاسطوانة وغيرها من الأدوات الهامة، وهو يزن 88. 750 كيلو جراماً (ثمانية وثمانون طناً وثلاثة أرباع الطن). وتزن اسطوانته وحدها التي يبلغ قطرها الداخلي 42 سنتيمتر أو 17 بوصة 7500 كيلوجرام (سبعة أطنان ونصف). ويزن الترباس 1250 كيلو جراماً (طناً وربع الطن). وتزن كمية الخرطوش المتفجرة ثمانين كيلو جراماً، وهى من المفرقعات ذات القيمة العالية والضغط الهائل؛ وتشغل غازاتها

وأبخرتها إثر الاحتراق والتسامي من حالة الصلابة إلى الغازّية حيزاً كبيراً جداً. ويندفع لسان اللهب بعد الطلقة ويسير عشرين متراً، كما ترتد الاسطوانة عقب كل انفجار مائة وستين سنتيمتراً إلى الوراء رغم صدِّها وفرملتها بأسطوانة تحوطها مليئة بالجليسرين والهواء المضغوط. وترتفع القذيفة (الدَّانة بالوصف العسكري) في الهواء إلى ستة آلاف متر؛ ويحتاج المدفع الثقيل إلى 135 جندي لإدارته وتشغيله. والمدفع مصفّح من الأمام بدرع متينة لحماية جنود النيشان وضبط آلات الرصد. وتكلف الطلقة الواحدة ما يقرب من ألف جنيه. وتزن القذيفة تسعمائة كيلو جرام

وتتطلب هذه المدافع أسساً قوية تتحمل الضغوط والرضوض والأثقال. فالأرضية منها تُبنى لها حصيرة من الأسمنت المسلح أو ظهر الحديد المصبوب في قوالب. تربط هذه القوالب ببعضها ويحوطها سِياج من الحديد يضمها إلى بعضها، وهي بهذا الوضع يمكن نقل أساساتها. أما المدافع الثقيلة في البوارج البحرية فهي من الأعمال الهندسية الجبارة. وتحمل بعض وحدات الأسطول الإنجليزي من هذا المدفع ما سعة قطر فوهته 14 بوصة من الداخل. وهي مثبتة على ظهور السفن ذات السطوح المدرعة، وروعي فيها الإقلال من الوزن قدر المستطاع لضمان حرية في التوجيه والدوران أكبر، وزوايا الارتفاع والانخفاض

وما دمنا قد ذكرنا بعض ما قامت به المدافع الثقيل الأرضية من أعمال في هذه الحرب فلنعرض كذلك لبعض ما قامت به المدافع البحرية الثقيلة ولننوه بعملها الشاق ليل نهار في الانسحاب الناجح من أوربا بعد تسليم الجيش البلجيكي ولندلل على البسالة في بحار الشمال قبالة الساحل النرويجي. كما برهنت المدفعية البحرية الثقيلة في الأسطول الإنجليزي على تقاليد عظيمة وهندسة عالية وفن راق في مياه البلطيق والبِلت والاسكاجراك وفي البحر الأبيض مواجهة الساحل الليبي وفي البحر الأدرياتيكي مكنت لهندستها وصيتها ذيوعاً وإحقاقاً من ضرب العدو الإيطالي في عقر بحره وفي وهران ودكار. وبعض أعمال البطولة البحرية والرماية المدفعية أكدتها روالبندى وجارفس بي وكوزاك وأشيل وأجاكس وسدني. والمدفعية الساحلية الثقيلة في جبل طارق ودكار وكاليه ودوفر وهي كلها آيات ناطقة بالمكنة الهندسية والمقدرة الصناعية والعقل الإنساني وصفحات عظيمة في التاريخ

الهندسي في الجزء الخاص بالحرب

عبد اللطيف حسن الشامي

في مهرجان التاج

فاروق. . .

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

. . .فلَكٌ بِحُبِّكَ في الشَوَاطئ دَائِرُ ... أَمَلُ الحَيَاةِ بهِ عَتيٌّ هَادِرُ
رَقَصَتْ لَهُ الأَيَّامُ وازدَحمتْ عَلَى ... كَفَّيْه مِنْ سِحْرِ الخُلْوُدِ بَشَائِرُ
وَتَنَفَّسَ الوَادِي بهِ. فَكَأَنَّهُ ... نَغَمٌ مِنَ الفَجْرِ المُهَلِّلِ طَائرُ
فإِذَا رَأَيْتَ النَّيلَ قُلتَ مُتَوَّجٌ ... الدَّهْرُ صَوْلَجَهُ القُويُّ القَاهِرُ!
وَإِذَا رَأَيْتَ الحَقْلَ قُلْتَ قَصِيدَةٌ ... خَضْرَاء وَقَّعَها الرَّبِيعُ السَاحِرُ
وَإِذَا رَأَيْتَ الطَّيْرَ قُلْتَ مَلائكٌ ... لِلْحُبِ في فَمِهَا نَشِيدٌ طَاهِرُ!
وَإِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ خُلْتَ بِهِمْ هَوَى ... ممَّا يُحَمِّلُهُ المَشُوقُ السَاهِر
مُهَجٌ يَرِفُّ بها سَنَاكَ كَأَنَّهَا ... ظَمَأ يَدِفُّ إِلَيْهِ نَبْعٌ زَاخِرُ
وَدُعَاء أَلسِنَةٍ يَكادُ لِطُهْرِهِ ... تَرْفَضُّ مِنْهُ عَلَى الوُجُودِ مَحامِرُ
وَيَكَادُ يَنْقُلُهُ إلى شفَةِ الرُّبَى ... وَيعيدُ نَغْمَتَهُ الحَمَامُ الذَّاكِرُ
وَأَكادُ في مَوْجِ الضِّفَافِ أَرَى لَهُ ... رَجْعاً يُرَدِّدُهُ الرَشَّاشُ الثَّائِرُ
وَأَكادُ أَسْمَعُهُ جَنِينَا لَمْ تُذِعْ ... أَصْدَاء لِجَّتِهِ إِلَيْكَ سَرَائِرُ
أَنَا مُرْعِشُ الأَسْرارِ في كَبِدِ الدُجى ... واللَّيْلُ عَرَّافُ الظَّلاَمِ مُحاذِرُ
شِعْراً هُوَ الدَّمُ لوْ لَمَسْتُ خَيَالَهُ ... فِي الروحِ أَحْرَقَني الهُدُوءُ السَّاعِرُ
أَرْسَلْتُ في فارُوقَ آيةَ حُبِّهِ ... إِعجْازَ فَنٍّ وَحْيُهُ يَتَوَاتَرُ
إِنْ لَمْ أُذِعْ لِلنَّجْمِ سِرَّ جَلالِهِ ... حَتّى يَهِيمَ بِهِ الشُّعَاعُ الطَّائِرُ
إِنْ لَمْ أُرِقْ لعُلاَهُ أَحْلامَ الضُّحَى ... حَتّى أَرَى الدُّنيا بهِ تَتَسَامَرُ
إِنْ لَمْ يَطِرْ نَغَمِي إِلَيْهِ عَلَى رُؤىً ... بَيْضَاء يَحْمِلُها الصَّباحُ العَّاطِرُ
إِنْ لَمْ أَرَّ الأَفْلاكَ تُصْغِ لِمِزْهَرِي ... وَأَنَا أُغَنِّي التَّاجَ مَا أَنا شَاعِرُ!
فاروقُ يا حَادِي العَظائِم فِي حِمّىً ... بِكَ نَجْمُهُ فَوْقَ العَوَالِم سَائِرُ
في ضَجَّةِ الأيام وَالدنيا غَدَتْ ... بُرْكانَ هَوْلٍ نارُهُ تَتَطَايَرُ
وَالحَربُ عَاجَلَتِ القِيَامَةَ يَوْمَهَا ... فَمشَتْ بها بيْنَ العِبَادِ تُقامِرُ
نَقَلتْ جَهَنَّمَ لِلشُّعُوبِ وَإِنما ... حَمَلَ الخَطِيئَةَ فِي لَظاها الطَّاهِرُ
إِنْ حَلَّ جَاحِمُهَا بأَرْضٍ أَصْبَحَتْ ... وَبها القُصُورُ الشاهِقَاتُ مَقَابرُ
نَشَرتْ خَرِيفَ الموتِ في سَاحَاتِها ... فَجَمَاجِمُ الْهَلكَى بِهِنَّ أَرَاهِرُ
ذَبَحَتْ أَمَانيَهَا عَلَى رَاحَاتِهَا ... فَغَدُ الْمُؤَمِلُ فِي هَواهَا خَاسِرُ
وَغَدا بها سِيَّيْنِ فِي لَهب الرَّدَى ... ذُو رَحْمَةٍ يَخْشَى السَّماء وَجَائِرُ
لا تَرْوِ لِلزَّيْتُونِ ذِكْراً عِنْدَها ... فَحدِيدُهَا بِالسِّلْمِ جَانٍ كافِرُ
دَفَنَتْ شَرَائِعَهَا فَضَلَّلَ دَهْرَها ... فِي غَيْهَبِ الطَّغْيَانِ شَرْعٌ حَائِرُ
فِي لَيْلِها الداجي وَدُونَ قَتَامِهِ ... خَطْوُ الرِّياحِ الْهُوجِ خَطْوٌ عَاثِرُ
سَطَعَتْ بِكَ الأَوطانُ شَرقِي السَّنَا ... فَجْرُ البَشائِرِ مِنْ يَمِينِكَ سَافِرُ
تَشَرتْ خُطَاكَ بها سَكِينَة مُؤْمِنٍ ... يَحْدُوهُ بَطَشٌ لِلْعَزِيمَةِ قَادِرُ!
أَنَّى مَشَيْتَ بدَتْ بِرَكْبِكَ آيةٌ ... لَيْسَتْ لَها في المالِكينَ نَظَائِرُ
حُبُّ مَدَاهُ إِلى القَدَاسَةِ يَنتهيَ ... لوْ كَانَ لِلْحُبِّ المُقَدَّسِ آخِرُ!
أَذكاهُ شَعْبٌ في ظِلالِكَ سَابحٌ ... يا طَالَمَا أَغفَى وَطرْفكَ سَاهِرُ!
أَوَلَسْتَ آسِيَ جُرْحِهِ مِن بَعْد ما ... شُقتْ بِنَارِ الخُلْفِ مِنْهُ مرَائِرُ؟
أَولَسْتَ جَامعَ شمْلِهِ مِن بَعْد ما ... أَرَدَاهُ فِي لَهب الشِّقَاق تَنافُرُ؟
أَولَسْتَ بَاعِثَ جِيلِهِ مِن رَقْدَةٍ ... بُوقُ النشُورِ لَها أَنِينٌ عَابِرُ؟
أَولَسْتَ قَائِدَهُ لعصرٍ أَبيضٍ... آياتُ مُلْكِكَ فِي سَمَاهُ مَنَائِرُ
أَولَسْتَ فَجْرَ البَائِسِينَ بِشِطِّهِ ... وَزَمَانُهُمْ كاللَّيْلِ دَاجٍ عَاكِرُ
أَولَسْتَ مِنْ مَاضِيهِ بَعْثاً أَوْشَكَتْ ... أَيَامُ (فِرعونٍ) بِهِ تَتفاخَرُ
أَولَسْتَ لِلشرْقِ المُجَرَّحِ بَلْسَماً ... يَا طَالَمَا بِنَدَاهُ قَرَّ الثائِرُ؟
يَاأَيُّهَا الأَمَلُ الفَتِيُّ لأُمَّةٍ ... كَادَتْ يُشَيِّبُهَا الشَبَابُ السَّادِرُ
قُدْهَا إِلى الجَوزَاءِ أَنْتَ شَبَابُهَا ... وَمَعِينُ حِكْمَتِهَا الدَّفِيقُ الزَّاخِرُ
وَاسْبَحْ بِها فَوْقَ النُّجُومِ فَطَرْفُهَا ... أَبَداً لِحَيَاةِ بِنُورِ عَرْشِكَ نَاظِرُ
قَالوا: وَعِيدُ التَّاجِ! قُلْتُ: تميمَةٌ ... لِلنِّيلِ تُنْشِدُهَا رُبي وَمَخَاضِرُ
إِنْ هَزَّتِ الأَوْتَارُ فيهِ غِنَاءَهَا ... وَتَرَنَمَتْ لِلشَّعْبِ فِيهِ قَيَاثِرُ

فأَتَا بِقَلبِيَ جَدْوَلٌ مُتَدَفِّقٌ ... بالشَّدْوِ مَشْبُوبُ الأَغَاني ثَائِرُ
اللهُ ظَلَّلَهُ، وَكَرَمَ شدْوهُ ... تَاجٌ رَعَتْهُ مِن السَّماءِ مَقادِرُ
محمود حسن إسماعيل

من وراء المنظار

آدمي. . .!!

كان يوم رأيته آخر مرة في الحقل يبدو مصفاراً مضعوفاً لم تبق العلة في وجهه غير أثر ضَئيل مما كان يترقرق فيه من نضرة العافية، ولم يدع السقم في بدنه إلا بقية طفيفة مما كان يكمن فيه من فتوة الشباب؛ وكان يجيل الفأس في حركة أشبه بحركة الآلة البخارية نفد وقودها أو كاد فبدت كأنما أوهنها طول العمل

وألح عليه الداء فلم يبرح داره أياماً؛ وساورتني رغبة قوية أن أذهب لأعوده، ولم أكن أعرف موضع بيته من القرية فاستصحبت من يدلني عليه

مشيت دقيقتين أو ثلاثاً فيما يسمى القرية شارع (داير الناحية). ثم قادني صاحبي إلى حارة لا يزيد اتساعها على ثلاثة أمتار أخذت تلتوي، فأنعطف تارة نحو اليمين وطوراً صوب اليسار وأنا أمر على الجانبين بهاتيك المباني المتلاصقة التي تتشابه في كل شئ، في صغر منافذها وقلتها، وفي حجم أبوابها ووضاعة مظهرها، ثم في هذه الأقراص الجافة المتخذة من روث الماشية والمرصوص فوق هامتها كأنها الأكاليل!

ولم أكن دخلت من قبل داراً من هاتيك الدور البائسة، ولم أرى إحداها من الداخل إلا بالنظرة العابرة حين أمر بباب مفتوح من تلك الأبواب القبيحة التي تزين صدر كل منها ضبة أشد قبحاً منه

ووجدتني في فناء دار ذلك المريض الذي جئت لأودعه، وهو فناء لا يزيد اتساعه كثيراً على ثلاثة أمتار في مثلها، في ناحية منه مصطبة عليها جرة من تلك الجرار التي يحمل فيها الماء من الترعة؛ وإلى جانب المصطبة موقد من الطين أحسب أنه لم توقد فيه نار من زمن طويل فلا أثر للرماد فيه؛ وفي ناحية أخرى من الفناء وقفت جاموسة عجفاء هي أثمن ما في الدار من متاع، بل هي أصل ما في الدار من متاع، وعليها وحدها يتوقف ما فيها من معيشة. وكانت أرض الفناء إلا مساحة قليلة مبللة بالماء الذي ينساب إليها من فوق المصطبة حيناً ومن تحت الجاموسة أحياناً!

ودهشت زوجة المريض أن رأتنا وأخذتها ربكة حتى ما تجد كلاماً تقوله، وبدت الدهشة في عينيها وفي وجهها وفي ارتعاش أطرافها وتعثر خطواتها وهي تشير إلى القاعة التي يرقد

فيها زوجها. . . وما كنا لنخطئ تلك القاعة لو لم تدلنا عليها، فلم يك أمامنا غير باب تحكم إغلاقه ضبة عتيقة، وآخر أنفرج قليلاً؛ وليس مما يجوز في العقل أن تلك الضبة العتيقة، تغلق الباب دون المريض، فليس إلى حبسه سبب ظاهر أو خفي فيما نعلم. . .

وأسرعت المرأة أمامنا فدخلت قاعة المريض تخبره بمجيئنا. وتألمت إذ أدركت أنه سيحاول القيام، فأسرعت في أثرها لأقسم عليه ألا يفعل؛ ودخلت ولكني لم أره أول الأمر، فالقاعة مظلمة لا يدخلها نور النهار إلا من كوة صغيرة قرب السقف

وسمعت صوتاً يئن ويقول في إعياء وهمود بالغين: (كتر خيرك يا سيدي. . . الحمد لله. . . الله يخليك يا رب ولا يريك اللي أنا فيه)

وحركت نبرات ذلك الصوت نفسي من أعماقها، وخيل إلي أني داخل قبر أستمع إلى صوت آدمي عادت إليه الحياة منذ لحظة، فهو لطول عهده بالصمت لا يستطيع إخراج الألفاظ إلا في عسر شديد. . . وكاد يغلب الخيال يقيني، فرحت أستمع إلى ذلك الأنين المؤلم، وفي وهمي أنه يخلص إلي من تحت الأرض

ولكني رأيت الرجل حينما اعتادت النظر في الظلمة عيناي فسألته عما به؛ فأشار إلى فخذه وأسترسل في أنينه. وقالت امرأته وهي تحبس دمعها: (بعيد عنك، طالع له طلوع في فخذه وجسمه سخن زي النار)

ونظرت فرأيت الرجل ممدداً على التراب، فليس تحت جسده فرش ما ولا تحت رأسه وسادة اللهم إلا خرقة قديمة كورتها له امرأته. وعاد الخيال يغريني أنه ميت بعث، وأنه برز من جوف الأرض، حتى لقد توهمت أني أرى خضرة الكفن فيما تهدل على جسده الهزيل من ثياب!

ونظرت حولي في القاعة، فلم أجد غير بعض الحبال ومنجل وفأس في زاوية، فوثبت إلى ذهني صورة أخرى من صور الموت فقد كان آباؤنا الأقدمون يضعون مع الميت في قبره متاع دنياه!

وخرجت أستدعي الطبيب وخلفي زوجة المريض تقول في نبرات حزينة: (حصلت البركة، مستعجل ليه يا سيدي، خليك نذبحلك خروف)

أيها التعساء البائسون! إن بهائم سادتكم الذين يسخرون مثلكم في فلاحة الأرض لأسعد حالاً منكم، ومع ذلك فأنتم آدميون كما أنهم آدميون!

الخفيف

مختارات من مراثي مسعود

من قصيدة الأستاذ محمد مصطفى الماحي:

مسعودُ يا عَلم الفصحى ومنجدها ... ومرسل النور في أيامها الجُون
ويا مجل اليراع العفِّ في صحف ... برئن من غمزات المطمح الدون
وكم عكفت على بحث كشف به ... ما حير الناس من سر الدهاقين
إذا تغشت صحيح الرأي غاشيةٌ ... جليتها برهيف الحد مسنون
وإن تكشَّف عن رعناء جائرة ... خَصم تكشفت عن حق وعن لين
ما العلم مجداً إذا لم يحمه خلق ... ولا الإخاء على حقد بمضمون
فارقت دنيا تبدت في مفاتنها ... لكلِ غر هواءِ القلب مفتون
لا الخل فيها بموفٍ في مواثقه ... ولا الصديق على سر بمأمون
بغى القوي وكم للبغي من صور ... ذاق الضعيف بها شتى الأفانين
وأصبح الناس فوضى لا منارَ لهم ... ولا مدبر من عقل ومن دين
وأطبق الشر حتى عاد أحْزَمهم ... يمضي برأي من الأهواء مأفون
لا يؤمنون وإن لانت قناتهمُ ... وكيف تؤمن غرات الشياطين
فمن مداج رمى عن قوسه عجباً ... من النقيضين: تمكين وتوهين
ومستبد رمى الدنيا بآبدة ... كأنما هي أفواه البراكين
في لمحة الطرف أمسى أهلها سِيراً ... ما بين محترق منهم ومطعون
فبات ظاهر ما فوق التراب صدى ... لكل ناء من الماضين مدفون
وبات باطن ما تحت التراب حمى ... يأوي إلى غوره شم العرانين!
لم ينج في سبح الأفلاك معتصم ... من البلاء ولا في مسبح النون
ويل الحضارة باتت لا تطالعنا ... إلا بفن إلى الآثام مقرون
ومرحباً بالوحوش الضاريات ففي ... جوارهن أمان غير موهون
هل غاية العلم أن تشقى النفوس به ... وأن تسام عذابَ الخسف والهون
وأن يعيش ذووه عيشة نكدا ... طاوين ما بين محروم ومسجون
فأهنأ بتركك داراً لا قرار لها ... ما كان تاركها يوماً بمغبون

ومن قصيدة الأستاذ محمد الأسمر:

أمسعود خانتنيَ القافيات ... وحبل القوافي لديَّ أضطرب
وماذا تقول بحورُ القصيد ... وطوفان قولك شئ عجب
يعب ففي الصحف من موجه ... على كل أرض وبحرٍ لجب
كتابة مطَّلع قادر ... دءوب وليس يمل الدأب
خبير بأبحاثه صادق ... تراه مع الحق أنى ذهب
وكم كاتب لا يعي ما يقول ... وآخر لا يتحاشى الكذب
وكم كاتب ليس همٌّ له ... سوى أن يقال فلان كتب
وكم كاتب همه كسبه ... ولو كسب العار فيما كسب
يُرَى أبداً مُسْرَجاً مُلْجماً ... رهين الإشارة، تحت الطلب
فيا ضيعة الحق بين العبيد: ... عبيد الهوى، وعبيد الذهب

ومن قصيدة الأستاذ حسين شفيق المصري:

أمسعود هات تحدث إلينا ... فإن لك السَّمَر المشتهى
تحدث إلينا عن العادلين ... من المالكين وعمن بغى
فعندك أخبارهم كيف كانوا ... ومن للضلال ومن للهدى

تحدث إلينا بهم في العصور ... وعد في الحديث بنا القهقرى
إلى عهد مِينَا الذي كان أو ... ل من عرف الناسُ ممن علا
أرى الناس من قبل مينا توالت ... عليهم دهور وطال المدى
وما جهلنا بِقُدَامَى الأناسيّ ... جاعلُهم يذهبون سدى
أما كان في الأرض مُلْكٌ كبير ... يدين لِمَلْكٍ شديد القوى
بلى كانت فيها ممالك بادت ... وباد الذي ملكت وانمحى
فزالت مساكنهم والقبور ... وآثارهم، كزوال الرؤى
وما الدهر إلا سحاب تمر ... فعهد يجئ وعهد مضى
ومن تلد الأرض تأكله إما ... شواء وغى أو قديد ضنى
أما في ظلال السلام الردى ... كما هو تحت قتام الوغى
رويد الجحافل فيما القتال ... وفي اللهو قتل لهذا الورى
وهذا الغرور إذا ران يوماً ... على مبصر فالنهار دجى
وليس بعينيه ما يُشْتَكى ... ولكن عمى القلب شر العمى
ومن يغترر يحسَب الناس عبدا ... نه وقديماً أتيلا طغى
وكان هلاكو ظلوماً جهولاً ... ونيرون كان يبيد القرى
وكانت جيوش تلاقي جيوشاً ... بضرب يذيب غلاظَا الكلى
فمات الكميُّ وملقي السلاح ... وجاء الفناء على ذا وذا
فلم يبق مستضعف مستكين ... يخال الحضيض له مرتقى
ولم يبق ذو مِرة مُسْتَبِدٌ ... يدوس بنعليه هام العلى
ولولا الردى في صروف الحروب ... لكان الردى في صنوف المنى

رسالة العلم

علاقة الكهرب بالأثير

للأستاذ حسين عباس قائدبيه

ما هي علاقة الكهرب بالأثير؟

أهي مباشرة أم غير مباشرة؟ وهل يمكن وجود أحدهما بدون الآخر؟

وهل يوجد مصدر لحركة هذه الكهارب؟

هذه الأسئلة لا بد أن تعترض الباحث في هذا الموضوع الغامض؛ ويمكن الجواب عنها كما يلي:

نحن نعلم أن الكهرب يسير في فلكه حول النوات بانتظام، كما تسير الأرض حول الشمس لحفظ كيانها، وإذا غادر هذا الكهرب مركزه لسبب ما من الأسباب اختل توازن الذرة.

ونعلم أيضاً أن الأمواج الكهرطيسية لا تنتشر في الفضاء إن لم تقذفها الكهارب؛ وأشعة الراديوم الخارقة ليست سوى فيالق من الكهارب المنطلقة من ذراته فإذا انطلقت الكهارب من أفلاكها، أحدثت ارتجاجاً أو تموجاً في الأثير. ومن الثابت أنه لا يمكن إحداث تموجات ضوئية في الأثير بدون انفعال الكهارب وانطلاقها من مراكزها والارتجاج الذي يحدث في الأثير من انطلاق الكهارب من مراكزها، حالة من حالات الأثير غير الاعتيادية، كما أن انطلاق الكهارب من مراكزها، حركة من حركات الكهارب غير الاعتيادية؛ فعندما تكون الكهارب في حالتها الاعتيادية سائرة في أفلاكها بحركتها الدائمة المنتظمة حول النواة، يكون الأثير في حالته الاعتيادية المنتظمة

ومن الثابت أن الكهارب تدور حول النواة باستمرار وانتظام، وأن الفراغ الموجود بين الكهارب والنواة، يشبه الفراغ الموجود بين الأرض والشمس؛ كما أن الأرض تدور حول الشمس بقوة جاذبية الشمس، والفراغ الموجود بين الأرض والشمس ندل عليه بالأثير

إذن يمكن الاعتقاد بأن حركة الكهارب حول النواة ليس لها علاقة مباشرة بجاذبية الأرض والشمس؛ وإنما هي نظام خاص محصور بالمادة؛ ولكن الفراغ الموجود بين الكهارب والنواة يشبه إلى حد ما الفراغ الموجود بين الأرض والشمس

وعليه يمكن القول بأن الأثير الذي يشغل فراغ الكون، هو نفس الأثير الذي يشغل فراغ

المادة، ونحن إذ نلمس المادة إنما نلمس الأثير، لأنه يملأ كل فراغ، وكل المسافات بين أجزاء المادة، إذن فالأثير هو شئ في كل شئ: أوليست السيارات والشموس

والنجوم نقاطاً في بحار الأثير
وبعد كل هذا أرى أن للكهارب صلة بالأثير، وهذه الصلة أما مباشرة أو غير مباشرة، وهذا الاتصال لا ندركه لأننا نجهل خواص الأثير وفعله، ولكن نعلم أنه الرابط بين دقائق وأجزاء المادة. ومن صفات الأثير أنه لا يرى ولا يلمس ولا يسمع ولا يشم ولا يتحول ولا ينحل، لا تؤثر فيه الحرارة ولا البرودة، شديد الصلابة كثير الليونة، تتحرك فيه المادة بدون مقاومة وبسهولة مطلقة. هذا كل ما يعرف وما يظهر من صفات الأثير
فإذا كانت حواسنا لا تدرك الأثير، ألا يمكن أن ندركه بالواسطة؟ ولكن ما هي الواسطة التي تمكننا من الإطلاع على أسرار الأثير المحتجبة وراءها أسرار الكون بما فيها سر الحياة الغامض؟! ويمكنني الإجابة عن هذا السؤال ببساطة: ربما كان الكهرب!
أقول ربما كان الكهرب أو ما يتفرع من الكهرب، لأن العلم لم يجزم بأن الكهرب هو نهاية الصغر في تركيب المادة، ولا يحق له أن ينفي وجود دقيقة أخرى أصغر من الكهرب لها تأثير ما على حركته في كيانه أو خارجاً عنه، لأن النفي أصعب من الإثبات، وسواء أكان هناك دقيقة أصغر منه أم لم يكن، فلا بد من وجود صلة بين الكهرب والأثير
فالكهرب سبب كل حركة في الكون، واستمرار حركته يرجع إلى الأثير؛ وهو الذي سيكون المعتمد في الكشف عن أسرار الأثير
الكهرب لا علاقة له بالوقت (أنا أقصد الوقت الذي نعرفه نحن سكان الكرة الأرضية)، لأن بإمكانه الانطلاق بسرعة النور تقريباً: - سرعة دوران الكهارب تختلف باختلاف الذرة المرافقة لها، فذرة الإيدروجين مثلاً أصغر وأخف من جميع ذرات العناصر الاثنين والتسعين المعروفة، وسرعة الكهرب الذي يدور حول نواة الإيدروجين تبلغ 2100 كيلو متر في الثانية، بينما سرعة الكهرب الذي يدور حول نواة ذرة الأيرانيوم تبلغ 190 ألف كيلو متر في الثانية. ومهما كانت ظروف الكهارب مناسبة فقد لا تتجاوز سرعتها أل 200 ألف كيلو متر في الثانية أي ما يعادل ثلثي سرعة النور
وحسب النظرية النسبية العامة (لإينشتين) - التي أعتقد بصحتها - فأن كل جسم يسير بهذه السرعة - أي سرعة النور أو ما يقاربها - يعتبر الوقت لهذا الجسم صفراً
وعليه يمكن القول بأن القرون والدهور في عرفنا ليست إزاء الكهرب سوى لحظة.
نحن نستعمل الأوقات والقياسات حسب المكان والزمان الذي يحيط بنا والذي تدركه حواسنا، وبالنسبة إلى السرعة التي نسير بها في الفضاء وهي 18 ميلاً في الثانية، فما هي نسبة الأوقات والقياسات المستعملة لمن يسير بسرعة النور؟
نحن لنا حواس خمس، أيمكن بهذه الحواس الخمس أن نصل إلى أعماق أسرار الكون؟ وهل يقتضي للمعرفة الشاملة خمس حواس فقط؟ وهل هناك ما لا يمكن إدراكه بهذه الحواس الخمس؟
في الأثير أسرار عظيمة محجوبة، وهو القابض على زمام الحركة في الكون، وفي عبابه سر الأسرار الذي يتطلع إليه الإنسان بلهفة وحسرة، وهو كمن عرف مقر الكنز الثمين، ولكنه يجهل كلمة السر التي يفتح بها الكنز؛ فمن يا ترى سيحمل إلى العالم كلمة السر هذه؟
إذا نفحنا الدهر برسول يحمل إلى العالم كلمة السر التي يفتح بها كنز الأسرار، فعند ذلك الرسول سيكون الجواب الفصل.
نحن نقول أن الأرض مضى على وجودها ملايين السنين، ولكن الكهرب ينكر علينا هذا القول. أليس من المدهش أن نثبت بالبرهان حسب التواريخ والآثار أنه مضى على وجودنا على الأرض ألوف ومئات الألوف من السنين، ثم يأتي الكهرب فينكر علينا هذه الحقيقة! أوليس من العجب العجاب أن نسمع الكهرب يقول - لو كان للكهرب لسان - بأننا خلقنا الآن!
لاشك بأنه شاهد سيارات غير هذه التي نعرفها وقد اندثرت وربما شيدت هذه السيارات التي نعرفها من بقايا تلك؛ والساعة التي تنتقل فيها هذه الكرة الأرضية من حالة إلى حالة يراها الكهرب كما نشاهد نحن الرؤيا
هو يسير منذ الأزل ويقطع فيافي الأزمان والدهور، وسيبقى إلى الأبد يتخطى رحاب الكون في حركته الدائمة وسرعته التي لا يحصرها الوقت، يقع على هذا النجم

ويصطدم بذاك، ويعمر الآخر، ويدمر الذي بعده ليجعل منه مذنبات ونيازك يبعثها إلى العوالم الأخرى، ليدل على وجوده ودوام حركته السرمدية

(عين عنوب - لبنان)

حسين عباس قائدبيه

البَريدُ الأدَبي

الملاح التائه

وأخيراً عاد (الملاح التائه) إلى مرفأه الأول يتزود من روح خالقه ويزداد. عاد وهو ينشد دعاء سيده الشاعر لحبيبه الهاجر:

فاجعل البحر أماناً حوله ... واملأ السهل سلاماً واليفاعا

وقُد الفُلك إلى بر الرضى ... وانشر الحب على الفُلكِ شراعا

ولله ما لقي الملاح التائه تحت الشراع المضطرب على ثبج البحر الهائج من تصاوير الشر وتهاويل الموت! كان زورقه الفضي الراقص ينساب بين الغواصات والمدمرات والبوارج كما تنساب عروس الماء بين عمالقة التماسيح والتنانين في نهر العَدم. كان نشيده في وسط الزعازع كصوت السلام في وغى الحرب. وكلمة السلام لا تبيد ولا تخفت لأنها من الحق وإلى الأبد. وهي على كل حال وفي كل وقت حجة في فم الطاغية الفاتك يبرر بها الحرب الضروس، كما يحلل الذابح بذكر الله الدم المسفوح!

ليس (الملاح التائه) قصائد أجراها علي طه على بحور الخليل؛ وإنما هو نبضات قلب، وخلجات نفس، ولفتات ذهن، صاغها الفنان الموهوب أناشيد يرددها المجهودون والمعمودون ومن شق عليهم أن يبصروا ومضات المنار على خِضم الحياة

صاغها أناشيد يتسع الخيال فيها اتساع اللانهاية، ويعمق الفكر فيها عمق الأزل، ثم تعيها ألفاظ مونقة متخيرة كزهرات الطاقة المفوَّفة نسقتها يد عاشقة شاعرة

كان ديوان (الملاح التائه) يوم ظهر في طبعته الأولى حادثاً أدبياً استفاض حوله الحديث، واستطال به الشعر، وانتعش على حسابه النقد. ومن النادر أن نال شاعر ما نال علي طه من تقدير أعيان الأدب وتكريم أقطاب الصحافة. ذلك لأن علي طه شاعر بالمعنى الأخص الذي تريده السليقة والصنعة من لفظ الشعر. واليوم يظهر في طبعته الثانية على فترة يسيرة من ظهور شقيقه (ليالي الملاح التائه) فيضخُم ويعظُمُ بالديوانين ديوان الألحان في موسيقى الشعر الحديث.

الزيات

مسابقة القصة

ذكرنا من قبل ما علمناه عن المسابقة القصصية التي تعتزمها وزارة المعارف. ونزيد اليوم أن معالي الوزير قد أصدر قراراً وزارياً بذلك؛ وهذا نصه:

تحتاج وزارة المعارف إلى قصة مصرية في نحو مائتين وخمسين أو ثلثمائة صفحة يكون موضوعها مصرياً من أحداث التاريخ الماضية أو وقائع الحياة العصرية، وأن تكون في مستوى المثقف المتوسط صالحة بذلك لأن يقرأها تلاميذ المدارس الثانوية وتلميذاتها داخل المدرسة وخارجها، وأن تكون خالية مما ينبغي أن يتصون عنه الشبان والشابات، وأن تكون في لغة سهلة بأسلوب عربي صحيح تستسيغه جمهرة المثقفين، وبألفاظ واضحة لا يحتاج قارئها إلى معجم. وتترك لغة الحوار فيها إلى ذوق الكاتب وحسن مسلكه

وستمنح الوزارة الفائز الأول جائزة قدرها مائة جنيه، والفائز الثاني 75 جنيهاً، والثالث خمسين جنيهاً. وإذا تبين للوزارة صلاحية القصة لأن تدرس في المدارس للمطالعة فهي مستعدة لشراء حق تأليفها وفق القواعد المرعية

في تأبين محمد مسعود بك

كان حفلاً أدبياً رائعاً حفلُ تأبين المغفور له الأستاذ محمد مسعود بحديقة الأزبكية مساء الأربعاء 30 أبريل. سمعنا فيه من غرر المنظوم والمنثور، ما الفقيد به جدير.

واسمحوا لي أن أسجل هنا ظاهرتين غريبتين لفتتا نظري في هذا الحفل.

الأولى أن أكثر ما سمعناه من شعر - على جودته - كان أميل إلى الصنعة والتقليد، فيه من التشبه بالقدماء والمحدثين الشيء الكثير. فقصيدة الأستاذ حسين شفيق المصري هي هي مقصورة ابن دُرَيْد المشهورة معانيً وألفاظاً وقوافيَ، وقصيدة الأستاذ الأسمر هي هي (وحقك أنت المنى والطلب) قافية وبحراً بل. . . ولفظاً. يحضرني منها:

وماذا تقول بحور القريض ... وطوفان بحرك شئٌ عَجَب
أو نحوٌ من ذلك.
أما قصيدة الأستاذ الماحي فلعلها القصيدة التي انفردت بالطبع وقلة الصنعة، ويلوح لي أنها وليدة نفس فجعها المصاب أكثر مما فجع غيرها
هذا وإن لدي ميزاناً قلما يخطئ في نقد الشعر كان عمدتي في هذا الحكم. أما الميزان فهو
أني أقرأ الأبيات الثلاثة أو الأربعة بإمعان ثم أنكس الصحيفة وأمتحن ذاكرتي، فكل بيت يحضرني فهو - عندي - جيد وإلا فلا
ولقد انصرفت من هذا الحفل وفي خيالي صدى يتجاوب لأبيات من قصيدة الماحي منها:
لم أنس قولك في حفلٍ سمعتَ به ... شعري وقد كنت تطريه وتطربني
أَجدت صوغ المراثي في أحبتنا ... فهل تراك إذا ما مت ترثيني؟
لبيك مسعود. . . . . الخ
ألا ترى الصدق والطبع في هذا الشعر على بساطته؟
أما الظاهرة الأخرى ففي كلمة الأستاذ كامل كيلاني؛ ولا أدري إن كان غيري تنبه لها ذلك أنه وقف فقال أول ما قال: (لقد ألم الذين سبقوني من الخطباء بما كنت أريد أن أقول، ولم يبق إلا الذي لم أكن أريد أن أقول، وهو ما سأقوله الآن). ثم أن الأستاذ أخرج أوراقاً وأخذ يتلو منها رثاءه وذكرياته عن محمد مسعود؛ ومضى يتلو من هذه الأوراق فصولاً من (رسالة الغفران) لشيخ المعرة ليدلل على أن مسعود لن يفوته الاشتغال بالتأليف والتصنيف في قبره
فليت شعري. . . هل أوحى الله إلى كامل كيلاني بما لن يقوله الخطباء فأعده ليلقيه من أوراقه. . .؟ أطّلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً؟
(حدائق القبة)
محمد محمد رضوان
المدرس بالمدرسة النموذجية
زناتي:
في العدد (409) من (الرسالة) الغراء مقال للدكتور زكي مبارك ذكر فيه: (الشاعر المصري المجهول الشيخ أحمد زناتي)، (الشاعر الذي جهله المصريون وعرفه العراقيون)
فليأذن لي حضرة الدكتور أن أنبهه على أن الشاعر الذي يعنيه هو الشيخ عثمان زناتي الذي درس في الأزهر، وسلخ وقتاً غير قصير من حياته مدرساً للغة العربية بالمدرسة الحربية، ولا يزال كثير من أصفيائه يتحدثون بمناقبه، ويروُون شعره، ويتمثلون به وكان رحمه الله بين الفئة الممتازة من شعرائنا الذين ازدانت بهم أواخر القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن
ولم يبالغ الشيخ محمد المهدي في أن عدَّه (الشاعر الثاني بعد شوقي)؛ فقد رؤيت لي منذ حقبة طويلة بعض قصائده ومقطوعاته، فأحسست من الرصانة والجزالة شيئاً كثير الشبه بشعر المتنبي والبحتري وأبي تمام. وليتني كنت قد دوَّنت إذ ذّاك ما سمعت؛ فإني والله لشديد الأسف على أن أفلتت مني هذه الفرصة. على أني عظيم الرجاء أن يُتاح لأنجاله (وهم - على ما بلغني - من صفوة المثقفين) أن ينشروا هذا التراث، حتى يضيفوا إلى ثروتنا الشعرية - في تلك الحقبة من تاريخ الأدب - فناً ممتازاً
أما الشيخ أحمد زناتي بك فأخو شاعرنا؛ وكان (أحد أساتذة اللغة العربية)، كما قال الدكتور، وتخرج في دار العلوم لنحو خمس وأربعين سنة خلت. فالتحق بخدمة سمو الخديو عباس حلمي، فعينه ناظراً لمدرسة (القبة) التي أنشأها على غرار المدارس الأولية الآن، ليتعلم بها بعض أطفال الطبقة الراقية في ذلك الحي. وكأني أذكر أن سمو الأمير محمد عبد المنعم تعلم بها فترة غير طويلة
وكان أحمد زناتي بك - إلى هذا - من ذوي المكانة والحظوة عند سمو الخديو، يشاوره ويجالسه، ويصحبه في رحلاته الصيفية إلى الآستانة وأوربا
ثم ألقى عصا التسيار في المرحلة الأخيرة من حياته العلمية بوزارة المعارف، فعمل في التفتيش، وتوفي سنة 1929 قبل أن يحال إلى المعاش، وتوفي الشيخ عثمان بعده

بنحو خمس سنوات، على ما أخبرت
وكان الشيخ أحمد زناتي بك من دماثة الأخلاق وحميد الخلال بالمنزلة السامية؛ كما كان مضرب المثل في جمال البزة وطلاقة المحيا. ولقد خالطته طويلاً، فما رأيته مرة عابساً ولا مكتئباً ولا مضطرباً. وهذا نادر في الرجال
رحم الله الأخوين الكريمين وأجزل ثوابهما.
(ا. ع)
توجيه وأمل
سيدي الأستاذ الزيات
تطالعنا في رسالتك الغراء ببحوث ممتعة ناضجة، تحلق فيها بفكرة سابحة جوالة، وتصقلها بعقلك المتزن الحصيف، ثم تُنمقها بقلم في يدك برته لك المواهب الممتازة التي خصك به وبها حكيم عليم
وتحمل إلينا في رسائلك فصولاً رائعة فاتنة يبثها إلينا من طريقك أولئك العباقرة الأفذاذ، والكتاب النابغون العلماء: تقتطفون الزهرات الفياحة من مختلف الرياض، وتلتمسون لنا في رحاب أفكاركم الفسيحة ما تنفسون به روح الحياة العلمية، وتبردون غلة النفس الصادية
لك يا أستاذنا العظيم، ولهؤلاء الصفوة الأخيار، من: الدكتور منصور فهمي بك، والدكتور زكي مبارك اللبق، والأستاذ الكبير العقاد، ومن هم أصحاب فضل علينا وعلى الناس في إبلاغ صوت (الرسالة) ندياً إلى الآذان من أسبوع إلى أسبوع. . . لكم الإحساس المرهف والتقدير الصادق والصوت المسموع؛ وفي أيديكم الأقلام، وعندكم الغيرة، وفيكم الأقدام
وقد عالجتم ولا تزالون تعالجون الكثير من نقائض المجتمع، وبحثتم ولا تزالون تبحثون عن مواضع الداء لتطبوها بما توفر لكم من قدرة وما وهبكم الله من حكمة
غير أن شيئاً واحداً هاماً لا أذكر للرسالة نظرة فيه، ولا عناية به، وهو عندي وثيق الصلة بأغراض (الرسالة)، وهدف كان ولا يزال مما يسر النفوس أن تأخذوا بالأسباب في إصلاحه، ذلك هو شأن الحياة الزوجية في مصر وما أحاط بها من سوء تأصلت جذوره وتشعبت فروعه، حتى باتت مهددة بالزهاد فيها من شباب الجيل الحاضر
أضنكم في غير حاجة إلى ما دب في نفوس الكثرة المتعلمة من كراهية للبناء العائلي، حتى سرت عدوى ذلك إلى الكبار، أو هي منهم بادئة، وسرت إلى الصغار أخيراً
يقول الناس: إن التفكير في هذا إنما يعنى ويتصل برجال الدين وعليهم الدعاوة له؛ فإن يكن هذا حقاً: أفتكون الرسالة في معزل عن الإدلاء بصوتها في شأن يتصل أكثر الصلة بالدين؟ ما أظن.
على أن المسألة فيما أعتقد مسألة اجتماعية، وما تكون للدين عناية بها إلا لأنها أساس الاجتماع؛ وأنتم في غنى عن هذا، بل في تعرض له الآن تطاول عليكم، وإنما يكون التعرض لقوم يجهلون
شجعني على كتابة هذا إليكم وفي هذا الشأن بخصوصه أمور ثلاثة:
1 - ما نراه يتفشى من مرض العزوبة مع ما يلحق من تلاعب في الحياة بين الأزواج
2 - أنني بالذات تحدثت عن هذا في نبذة قصيرة بالإذاعة منذ أسبوعين، فتلقيت رسائل جمة تستحثني على الكلام كثيراً في هذا مما يدل على أن الأسرة المصرية في مضض وبحاجة إلى من يتلطف عليها بنظرة إصلاح
3 - أننا قرأنا للدكتور منصور بك فهمي كلاماً غاية في الجودة والصدق عن حالة المرأة في مصر، فهل له ولك أن تمدا الحديث إلى هذه الناحية قياماً بحق (الرسالة) عليكما للناس؟ إنا لمنتظرون، والسلام
(ع ف)
مدرس في كلية الشريعة
أسبوع الفنون الجميلة
كان الأسبوع الأخير من شهر إبريل الفائت أسبوع الفنون الجميلة حقاً، فلقد تفضل مولانا الملك حفظه الله فأفتتح معرض محبي الفنون الجميلة الحادي والعشرين الذي أقيم بسراي الفنون الجميلة، وذلك في صباح السبت 26 إبريل الماضي، ولقد دل ذلك على حب جلالة الملك للفن وعطفه على المشتغلين به، وإن أسرة الفنون الجميلة

العليا لتتقدم إلى جلالته بأسمى آيات الشكر والولاء
كما كان الأسبوع الأخير من شهر أبريل هو أيضاً أسبوع مختار الفنان المثال، فقد أقيمت مسابقة للتصوير والنحت، وقد تفضلت السيدة هدى هانم شعراوي فتبرعت بجوائز مسابقة النحت كما تفضل صاحب العزة محمد بك ذو الفقار فتبرع بجوائز التصوير. وقد تكرم صاحب المعالي الدكتور محمد حسين هيكل باشا فأفتتح المعرض الذي أقيم في بهو المعرض بفندق الكونتننتال وذلك في يوم الخميس 24 من إبريل الماضي. . .
مسابقة مختار وقيس
أعلن منذ أكثر من شهر عن هذه المسابقة للنحت والتصوير وكان موضوعها (عروس النيل) فتقدم الكثير من المصورين الشبان بلوحات ذات موضوعات جميلة، كما تقدم الكثير
من المثالين بتماثيل فنية تبشر بنهضة في فن النحت. وقد فاز بالجائزة الأولى في التصوير الأستاذ عبد العزيز خالد درويش وقدرها عشرة جنيهات، وفاز بالجائزة الثانية وقدرها خمسة جنيهات الأستاذ علي كامل الديب. وفاز بالجائزة الأولى في فن النحت الأستاذ فتحي محمود علي وقدرها 20 جنيهاً، وفازت بالجائزة الثانية السيدة فريدة كساب وقدرها 15 جنيهاً
ولقد أعجبتني كثيراً فكرة الأستاذ عبد العزيز خالد درويش فقد رسم منظر النيل ورسم العروس في مركب وحولها أشخاص يزفونها، بينما تخيل النيل في هيئة رجل وقف على الشاطئ في انتظار عروسه، فوفق إلى حد كبير في إظهار فكرته، فنهنئ الأستاذ درويش على توفيقه
معرض محبي الفنون الجميلة
أقيم هذا المعرض كالمعتاد بسراي الفنون الجميلة بشارع مجلس النواب وقد تبين من هذا المعرض تقدم محسوس للفنون في هذا العام، فقد أشتمل على أكثر من خمسمائة لوحة، ويسرني أن أسجل هنا الهمة المشكورة التي بذلها مدير وأساتذة وطلاب مدرسة الفنون الجميلة العليا. فقد قام بتنظيم المعرض وزخرفته الأستاذ حسين يوسف فوزي، وزين طلبة المدرسة السلم بمشاريع زخرفية جميلة. ولقد أعجبت بصور كثيرة أخص بالذكر منها صورة (المسيو جورج ريمون) مراقب الفنون الجميلة التي صورها وقدمها الأستاذ محمد بك حسن مدير مدرسة الفنون الجميلة العليا. كذلك أعجبتني صورة (الصديقان) للأستاذ الكبير يوسف كامل رئيس قسم التصوير بمدرسة الفنون الجميلة. وكذلك صورة (الدلالة) التي عرضها الأستاذ حسين محمود فوزي، و (اللبانة) من تصويره أيضاً وقد اشترتها وزارة المعارف العمومية، و (حياة القرية) للأستاذ صلاح الدين طاهر، و (فناء جامع) للأستاذ حسن البناني الرسام بدار الأبرار الملكية، وكذلك قدمت الآنسة كوكب يوسف صورة طريفة أسمتها (سعاد). ولقد أبدع الأستاذ محمود بك سعيد في لوحاته التي قدمها، وكذلك الأستاذ عبد العزيز خالد درويش في صورته (الرسام). هذا وقد زين الأستاذ صالح الشيتي بالفرقة القومية الصالة الخارجية للمعرض بمشاريع مسرحية مثالية كانت غاية في الإتقان والإبداع وقد اشترت معظمها وزارة المعارف
وقد أعجبني من التماثيل المعروضة تمثال المرحوم عبد الحميد بك سعيد من عمل النحات المشهور الأستاذ مصطفى متولي، وكذلك تماثيل الأستاذ السجيني. وعلى الجملة كان معرض هذا العام موفقاً إلى حد كبير؛ إذ ظهر منه النشاط الذي ساد شبابنا في هذه الأيام؛ ولكن يؤلمني حقاً أن أذكر هنا أن فتياتنا المصريات لم يقمن بما كنا ننتظره منهن؛ فإن مجهودهن لا يكاد يظهر في هذا المعرض
أحمد كمال خواسك
العدد 411 - بتاريخ: 19 - 05 - 1941
مسألة الفقر
للأستاذ عباس محمود العقاد
سألني الأستاذ زكي مبارك عن رأيي في الخلاف القائم على مسألة الفقر بينه وبين الأساتذة: توفيق الحكيم، وسلامة موسى، وفكري أباضة، وبعض حضرات القراء وخلاصة هذا الخلاف أن الدكتور زكي مبارك يرجح أن الفقر عقوبة مستحقة على شيء

من القصور، وان مخالفيه يرجحون ان الفقر غلطة اجتماعية تصيب الناس من خلل في (المجتمع) أكثر من إصابتها أيام من تقصير في الجهود. وعندنا نحن أن الفقر داء كسائر الأدواء: يصيب المريض به من إهماله كما يصيبه من ضعفه الموروث، ويصيبه مع الحيطة إذا جرى مجرى الوباء الذي تنتشرعدواه، كما يصيبه مع ترك الحيطة في هذا الحال وفي غيرها من الأحوال

وليس في وسع أحد أن يزعم أن ميزان المجتمع سليم من الخلل في توزيع الأرزاق أو تقدير المكافآت على حسب الجهود. ففي كل أمة أغنياء لا يستحقون الغنى وفقراء لا يستحقون الفقر وإن تفاوت الخلل وتفاوت الجور وتفاوت السعي في الإصلاح.

ولست أنا ممن ينكرون فضل البراعة المالية، لأنها في الحقيقة براعة لازمة لتأسيس المرافق الاجتماعية والأخلاق القومية وتنظيم العلاقات، واستشارة الهمم، وتوزيع الأعمال التي لا يستبحر بغيرها عمران

وقد قلت منذ نحو عشرين سنة حين عرضت للبحث فيما يعاب من أخلاق المرأة خطأ وجهلاً بالبواعث النفسية:

أننا قد نرى للمرأة سبباً غير الأسباب التي تغري بحب المال وإعظام أصحابه: . . .) نرى أن كسب المال كان ولا يزال أسهل مسبار لاختبار قوة الرجل وحيلته، وأدعى الظواهر إلى اجتذاب القلوب والأنظار، واجتلاب الإعجاب والإكبار. فقد كان أغنى الرجال في القرون أقدرهم على الاستلاب وأجرئهم على الغارات وأحماهم أنفاً وأعزهم جاراً، فكان الغنى قرين الشجاعة والقوة والحمية، وعنواناً على شمائل الرجولة المحببة إلى النساء أو التي يجب أن تكون محببة إليهن. ثم تقدم الزمان فصار أغنى الرجال أصبرهم على احتمال المشاق وتجشم الأخطار والتمرس بأهوال السفر وطول الاغتراب، وأقدرهم على

ضبط النفس وحسن التدبير. فكان الغنى في هذا العصر قرين الشجاعة أيضاً وقوة الإرادة وعلو الهمة وصعوبة المراس. ثم تقدم الزمان فصار أغنى الرجال أبعدهم نظراً وأوسعهم حيلة وأكيسهم خلفاً وأصلبهم على المثابرة وأجلدهم على مباشرة الحياة ومعاملة الناس، فكان الغنى في هذا العصر: قرين الثبات والنشاط ومتانة الخلق وجودة النظر في الأمور؛ وهكذا تجد اكتساب المال الكثير في كل عصر دليلاً على فضل الرجل، وعلاقة توحي إلى نفس المرأة ما يعين غريزتها على اختيار أجدر الرجال بحبها وأصلح الآباء لأبنائها. فلا تثريب عليها أن تختبر مزايا الرجل بهذا المسبار السهل القريب، ولا لوم عليها أن تريد ثراء المال ولا تعدل به الفقر والفاقة. . .)

فنحن لا نبخس البراعة المالية حقها ولا نغض من نفعها في باب الخدمة الاجتماعية، ولا من دلالتها على الخلق والكفاءة العقلية، ولكننا مطالبون في هذا العصر الحديث بإنقاذ المجتمع من الخلل الشديد الذي ألم بموازين الاقتصاد ومعايير الأرزاق حتى اصبح اقتناء الثروات ميسراً للمحتال والدجال الذي لا يعطي الناس بديلاً نافعاً يساوي الربح الغزير الذي يتدفق عليه. ولعلنا نتلطف في الأمر حين نقول إنه لا يعطي الناس بديلاً نافعاً وهو في الواقع يضرهم بمقدار ما يستفيد منهم، ويحرمهم بمقدار ما يغدقون الرزق عليه طائعين أو كارهين

ومثل من هذه الأمثال أولئك السماسرة الآثمون الذين يتواطئون على إشاعة الأراجيف، وإقلاق الاسواق، واللعب بأثمان الإسناد والأوراق ليسرقوا في ساعات ما تنقضي الأعمار دون الوصول إليه بالسعي الحلال أو بالسرقة على طريقة اللصوص الأقدمين

ومثل آخر من هذه الأمثال تلك الصفقات التي تنعقد في الهواء بغير مبادلة صحيحة في البيع والشراء، وإنما هي استغلال لثقة الناس التي كسبها أولئك المستغلون بحكم مراكزهم الاجتماعية أو المالية لا بحكم الكفاءة والجهد وتثمير المال الحلال

وإذا ارتفعنا شيئاً فشيئاً من هذه الهوة الغائرة في قرارة الإجرام فقد نصل إلى الكفاءات القيمة التي تعطى الناس ما ينفعهم ويسرهم، ولكنها تتقاضاهم جزاءً لهم أضعاف حقهن وأضعاف ما يحتاجون إليه لموالاة النفع والسرور

فإخراج رواية على اللوحة البيضاء عمل قد ينفع العقول ويدخل السرور على القلوب، ولكن الدنيا تسرف جد الإسراف حين تشتري نفع الرواية وسرورها بمئات الألوف من الجنيهات وهي تضن بعشر معاشر هذا على المآثر الإنسانية التي يتصل بها نفع أقوام

وبمرور أجيال
واقبح من هذا أن تكون الألوف المؤلفة نصيب الرواية الماجنة العقيمة ولا تحضي ببعض هذا النصيب أجود الروايات وأحفلها بالمعارف والمتع والعظات، أو يكون الجزاء الوافر حظ الممثل الذي لا يستحي ان يعرض رجولته للفضوليات من المتفرجات، ولا يكتب هذا الحظ لنوابغ الفن وأفذاذ الرجال
هناك خلل في الميزات لا نكران له ولا مناص من إصلاحه، لأن الغبن فيه غبن الأمم، والبلاء فيه بلاء الهمم، وليس غبن فقير يشكو الفاقة، أو بلاء ضعيف يطلب الرحمة والإنصاف
ولا نطمع أن يجيء اليوم الذي يتساوى فيه العمل والجزاء كل المساواة، ويبطل فيه الخلل بطلاناً يمنع الحيف ويحقق العدل في كل تقدير؛ فهذا مستحيل، ولعله غير محمود في عقباه، لأن الدوافع الحيوية إذا استقامت هذه الاستقامة خيف عليها أن تفقد الاندفاع الذميم على السواء
لكننا إذا استبعدنا الكمال المطلق فالنقص المطبق أولى منه بالإبعاد، وبين المثل الأعلى والمثل الأدنى خطوات لا تعيا بها قدرة الإنسان ولا يجمل به أن يقعد عنها مكتوف اليدين مقيد الرجلين، وحاجة مصر إلى الجهد في هذا الباب اعظم من حاجة بلاد كثيرات يعلو فيها صراخ لا يسمع له صدى في هذه البلاد
وقوام الإصلاح في مسألة الفقر على أن ما نرى أن نذكر الحقائق كلها ولا نكتفي بجانب واحد منها دون سائر جوانبها
أو الخير في هذه المسألة أن نقرن كل حقيقة جامحة بحقيقة كابحة تساويها وتكف من غربها
فأول الحقائق في مسألة الفقر أن حياة الإنسان كائناً ما كان أنفس من القوت والكساء ومطالب المعيشة، وأنه ما من مخلوق آدمي يعجز عن تقديم خدمة تكافئ ثمن قوته وكسائه ومطالب عيشه. فإذا هلك إنسان جوعاً أو عرياً ففي تقسيم الأعمال نقص يستدركه المصلحون والمتكلفون بسياسة الاجتماع
وبإزاء هذه الحقيقة الظاهرة حقيقة أخرى لا تقل عنها ظهوراً وجدارة بطول العناية والتدبر، وهي أن الأمان كل الأمان، خطر على الهمم والأذهان. فإن كثيراً من الجهد النافع مبعثه طلب الأمان في المستقبل، وشعور النفس بالحاجة إليه في أخريات الحياة. فإذا اطمأن إليه كل حي من بداية حياته فترت حركته وغلب عليه حب الاستقرار، ومني العالم بخطر من جراء ذلك هو أخطر عليه من الإجحاف في تقسيم بعض الأعمال وتوزيع بعض الأرزاق
وهناك حقيقة لا مراء فيها وهي أن المغامرين المقتحمين ينالون أحياناً فوق ما يستحقون من جزاء، ويأخذون أحياناً بعض ما يستحقه المحرومون الذين لا وزر عليهم في هذا الحرمان
أما الحقيقة التي بازائها فهي أن المغامرين المقتحمين ينكبون أحياناً في الأرواح فضلاً عن نكبتهم في الأرزاق والأموال، وأنهم لا ينطلقون مع طبائعهم القوية في عالم تشتد قيوده وتتساوى نتائجه ولا تتسع فيه الهوة بين الأمل العظيم في نجاح كبير وبين الإقدام العظيم على خيبة قامة للظهور، وأن خسارة العنصر المسالم الوديع
وهناك حقيقة من هذه الحقائق فحواها أن الغنى ليس بجريمة، وأن الفقر ليس بفضيلة، فلن يقول أحد به مسكة عقل أن الأغنياء، وأن الفقراء يستحقون الغنى لأنهم فقراء، وأن جاز أن يقال أن الإفراط في الغنى والإفراط في الفقر ظلمان محققان أما الحقيقة التي بازائها فهي أن الأمر لا يرجع هنا إلى العدل والاستحقاق، ولكنه يرجع إلى صلاح المجتمع ولو نال فيه فريق فوق ما يكافئ عمله وجدواه. فكل عضو شاك يكلف الجسم بعض الأحيان فوق حقه وفوق نصيبه من العمل والجدوى؛ وبغير هذا العلاج لا تستقيم صحة الأجسام
وصحيح أن العالم مدين للعصاميين، وأن العصاميين لم يولدوا في الذروة العليا من طبقات الامة، ولكن ليس بصحيح أن طبقة الحضيض هي صاحبة الحصة الكبرى في إنجاب العصاميين؛ وإنما الصحيح أنهم ينشئون وسطاً بين الطبقة التي نهكتها رذائل الترف والغرور والطبقة التي نهكتها رذائل الهوان والمسكنة. ومعظم المصلحين الذين

نفعوا الفقراء لم يكونوا من ضحايا الفقر المدقع والمنبت المنحدر البالغ في الانحدار، مما يؤيد
رأي القائلين إن الفقر المدقع الذي يلازم أصحابه عقباً بعد عقب إنما هو قصور في الذهن والخلق يحلهم حيث يحل القاصرون المتخلفون أيا كان المجتمع الذي يعيشون فيه
وبعد هذه الحقائق جميعها تبقى لنا حقيقة لا يطول فيها جدل المنصفين، وهي أن الفقر آفة يجب أن تزول إذا استطعنا ان نزيلها، ويجب إلا يمنعنا عن أزالتها إلا مانع واحد لا نحفل بغيره: وهو عدم الاستطاعة، ولو كان الفقراء مستحقين لما هم فيه. فلن يبحث منصف عن المريض هل جلب المرض لنفسه بيده، أو سيق إلى المرض مكرهاً عليه، إذا كانت المسالة مسألة طب وشفاء مستطاع
عباس محمود العقاد
من أوهام العقل وأحلام القلب
!برج بابل؟
للدكتور زكي مبارك
لما زرت بابل في سنة 1937 بحثت عن البرج المشهور في التاريخ، ولكني لم أهتد إليه، برغم ما بذلت من العناء في التعرف إلى ما هناك من رسوم وأطلال
فكيف بخلت الأقدار بحرماني من الاهتداء إلى معالم ذلك الأثر النفيس، وكان أول رمز لما فطرت عليه الإنسانية من تنافر الآراء وتناحر الأهواء؟
كان برج بابل خليقاً بالخلود، لو عرف بنو آدم مغزاه الدقيق، فصانوه من عوادي الزمان. وهل كانت بلبلة الألسنة حول ذلك البرج إلا إيذاناً بأن الإنسانية شبت عن الطوق، ولم يبق إلا أن تنتفع بمزايا الشقاق والنزاع والخلاف، وهي معان ظاهرها قبيح، وباطنها جميل؟
لو عاش برج بابل لكان مزاراً من أقدس المزارات، فحول رحابه طارت أول شرارة من ضريم الصراع بين الأجناس والألوان، وبين حناياه ذاق الإنسان الأول مرارة الحيرة، وهي مرارة جزيلة النفع، وأن كانت كريهة المذاق
ولو عرفنا تاريخ برج بابل لعرفنا في أي عهد بدأ الصيال بين الألسنة والعقول؛ فما نطمئن إلى ما قالت الأساطير في تحديد ذلك التاريخ، وهي لا تبعد به غير عشرات من القرون، وأنا أكره أن تصدق تلك الأساطير، لأني أحب أن يكون عهد أسلافنا بالخلاف أبعد من تلك القرون بآماد طوال طوال طوال
لو عثرت على برج بابل، أو اهتديت إلى شيء من رسومه الهوامد، لأضيف أسمي إلى أسماء من خدموا الإنسانية بكشف بعض المجاهيل من حسبها العريق
ولكن الحظ أراد غير ما أريد، فلم أعرف من بابل غير ما يعرف سواد الناس، ولم أشهد غير بقايا الحدائق المرفوعة فوق قواعد من الجدران، وهي جدران لم يفكر في هدمها الزمان، فبقيت شاهداً على مطامح أهل بابل في السمو العلاء
لابد من برج بابل، لابد، لابد، ولن استريح أو أهتدي إلى مكان ذلك البرج، فهو المهد الأول، المهد الذي نشأت فيه شياطين الخلاف، والخلاف هو صاحب الفضل في تأريث جمرات العقول، ونزوات القلوب، وشهوات الأرواح، وبدوات الأحاسيس
الحمد لله! الحمد لله! لقد وجدت البرج المنشود، ولكن أين؟ لم أجده في بابل، وإنما وجدته في قلبي، وأين بابل من قلبي؟ القلب الذي أجهله أشد الجهل، وإن كنت سمعت أنه يقيم بين ضلوعي؛ والجيران قد يجهل بعضهم أسرارا بعض. وسنعرف يوماً أن العين ليست ترجمان القلب في جميع الأحيان؛ فلكل من القلب والعين وجود مستقل تمام الاستقلال، وإلا فكيف يقع في كل يوم أن تعد العيون بنعيم لا تسمح به القلوب؟
الجاهل هو الذي يتوهم أن العين ترجمان القلب
وقد جهلت يوماً فتوهمت أني اعرف سرائر قلبي، ثم عرفت أني واهم فيما توهمت، فما كان قلبي إلا غابة تعيش فيها ألوف الألوف من أنواع الشجر والنبات والطير والحيوان والأفاعي والصلال
وآية ذلك أني أعرف أسباب أفراحي وأتراحي إلا في أندر الأحايين؛ ثم يغم على الأمر فلا ادري مصدر سعادتي أو منبع شقائي، فافزع إلى ما يفزع إليه الصوفية عند البسط

والقبض بلا وعي ولا أدراك. ولو وعيت وأدركت لنفذ سهمي في جذب السعادة أو دفع الشقاء
وأنا مع ذلك اهتديت إلى ما لم يهتد إليه ديكارت؛ فديكارت فطن إلى أنه يفكر فعرف أنه يفكر فعرف أنه موجود، وأنا فطنت إلى أن برج بابل أقيمت صروحه فوق سواد قلبي، فاستشعرت الخوف من ظلمات قلبي، وهي ظلمات يعجز عن تبديدها نور القمر وضياء الشمس، لأنها ألفاف من الشر المدفون في أصول تلك الغابة الشجراء وما أشد خوفي من قلبي، وهو قلبي!
وآه ثم آه من الجبن عن مكاشفة العدو الذي يلبس ثوب الصديق!؟
كان يطيب للشعراء أن يقولوا إنهم يعيشون بلا قلوب ليبرروا عجزهم عن استبدال حبيب بحبيب.
وأقول: إني يئست من الأمل في العيش بلا قلب، وأين المفر من قلبي وهو قطار من أحابيل وعقابيل شد بعضها إلى بعض بسلاسل مصنوعة من أوهامي وظنوني وأنا رجل مخلوق من أوهام وظنون، وإن شهد خوفي من القلب بأني على شيء من العقل، والعقل أضعف حلية يتحلى بها الآدميون، فلو عاش بنو آدم بعقولهم في جميع الشؤون لكان مصيرهم مصير الأنعام، فلم يزينوا الوجود بروائع الآداب وغرائب الفنون
لم أستطع التخلص من أوزار القلب، ولن أستطيع التخلص من اثقال العقل، فما عيشي في صحبة هذين العدوين؟ وما قيمة وجودي وأنا محروم من نعمة الاستقلال؟
وهل أنسى بلائي بعدوان القلب والعقل وقد عانيت منهما في الليلة الماضية ما عانيت؟
وما الليلة الماضية؟ هي ليلة من ليال، فما رحمتني الأقدار من معاناة الصراع بين القلب والعقل منذ اليوم الذي عرفت فيه أن العيون لا يكون لها سحر حرام أو حلال إلا في نور القمر أو ظلال الرياض
إن واجهت العيون ضياء الشمس فعلى سحرها العفاء، لأن الشمس تحيل العيون إلى جوارح تعجز عن الحقل والفتك. وهل تصنع الغلالة المنسوجة من نور القمر أو ظل الروض حين تواجه الطرف الكحيل إلا كما تصنع الغلالة المنسوجة من الحرير حين تطوق الجسم اللطيف؟
الحرير يزيد الأجسام النورانية صفاء إلى صفاء، وهي تتخايل من تحته كما تخايل الكواكب من فوق السحاب الرقيق
وأنا لم أصاول سهام العيون ألا في نور القمر أو ظلال الرياض، فأين كنت في الليلة الماضية وقد كان (برج بابل) بعض ما تشقى يحمله ضلوعي؟
كنت في ضيافة قمرين: قمر الروض وقمر السماء، ويا ويل من يعيش في مصر الجديدة وهو يعاني مكاره الصراع بين القلب والعقل!
وفي لحظات أقصر من عمر الطيف تحولت دنيانا من صفاء إلى كدر ومن كدر إلى صفاء؛ ثم انتهينا إلى قطيعة قد تقصر وقد تطول، فما استطاع الدهر ولن يستطيع أن يفرق بيننا أكثر من أيام أو أسابيع
سمعت صوت العقل فأقسمت لأهجرن ذلك البدر إلى آخر الزمان وما هي إلا لحظة حتى تحركت الحيات والثعابين في برج بابل
فأصخت إلى ما تجود به أفواهها الفيح من فحيح، فكنت والله كمن يسمع نشيداً ترتله ملائكة السماء
أنا مشدودٌ مشدود إلى قطار الوجود، فأين من يرحمني من مصارعة العيون في نور القمر أو ضياء الرياض؟
الليلة الماضية، وما أدراك ما الليلة الماضية؟
هي ليلة من ليال، ومن لم يعش كما عشت فليس من حقه أن يقول بأنه اكتوى بنار الصيال بين الهدى والضلال
وما ليلتي الحاضرة بين الليالي؟
مصباح وقلم ومداد وقرطاس، وآمال بيض، وآلام سود، وقرار في دار تواجه الصحراء في ليلة قمراء، والقمر يشجع أفاعي الفيافي على الدبيب والوثوب
ليلتي الحاضرة ليلة كرب وبلاء، فبرج بابل تعتلج فيه خواطر اشد سواداً من قلب الغانية التي لطمت وجهها منذ سويعات في أعقاب موجة من موجات العتاب، وبرج

بابل يقول بأن الحوادث تنذر بالشر الوبيل في مدائن منها الإسكندرية وبور سعيد والسويس وبغداد، وتلك أول مرة صرح فيها برج بابل بأشياء وأشياء، فمتى أرجع إلى جهل ما في ذلك البرج من أحابيل وعقابيل؟!

أنا أملك أمري في الليلة الحاضرة، فليس بيني وبين دار هوى غير خطوات، ولكن بلائي صيغ من الليالي المواضي، فمن الليالي المواضي نسجت عواطفي وأحلامي وأوهامي وظنوني، وهل أنا إلا مجموعة آراء وأهواء كتبت صحائفها الأولى في القاهرة ودمشق والقدس وبغداد وقرطبة وتونس وباريس؟

لو فكرت في إحصاء المدائن التي تعلمت في مدارسها المعروفة والمجهولة، ولو فكرت في إحصاء من استفدت بمعارفهم من أهل الشرق وأهل الغرب، لوصلت إلى القول بأني شخصية دولية لا يستقل بها بلد عن بلد ولا جيل عن جيل، فكيف أملك الفرار من الجزع لآلام المكتويين بنيران الحرب ولو كانوا - رسمياً - من أعدائي؟

ولو فكرت في أن الغانية التي لطمت وجهها الجميل في أعقاب العتاب لم تخرج على الأدب في خطابي إلا وهي مثقلة بأوهام نشأ بعضها في الشرق وأخذ بعضها عن الغرب لنظرت إليها كما أنظر إلى الطفل الذي يجرم وهو غير مسئول

وهل تسأل صحراء مصر الجديدة عن الإمحال وقد هجرها الغيث؟

أن كان ذلك فستسال القلوب التي أذويتها بجفائي، وما كنت من الجافين، لولا الشواغل التي صيرتني أقسى من الجلمود في محاجر أسوان

القمر في ليلتي الحاضرة جميل جميل، ولكن ما قيمة جماله وأنا مصدود عن الاستصباح بنوره الوهاج؟

وما طيب النوم الأحلام لمن حرموا طيب نجواي؟

ألم أقل لهم: إن الذي ينام بمصر في المقمرات من ليالي الصيف ليس إلا قطعة ثلوج الشمال نقلت ظلماً إلى هذه البلاد؟

النوم ضرب من الموت، وهو الموت الأعظم لمن يجهل فضل الليالي المقمرة بمصر في أوقات الصيف

لو كنا معاً في هذه اللحظة لعرف البدر أن السعادة ليست مقصورة على أهل السماء؟

إن صح أن أهل السماء سعداء، وكيف يسعدون وما عرفوا ظلم العواطف ولا طغيان الأحباب، وإلا فكيف استطاع القمر أن يحتفظ بصباه على مر الدهور وكأنه فلان في البلادة والغباء؟

وسيصنع الدهر ما يصنع بالغصن الذي آذته نسائم الحب، وأن عاش وعشنا فسنقيم المناحات في حضرته العالية على الظل الذي زال عند (الزوال)

القطيعة باقية، ولن نسأل عن تلك السرحة ألا يوم تمسى وهي مهددة بأرواح الخريف، فلتصنع بمصيرها ما تشاء، فلن تكون أكرم على الدهر من تخلى حلوان في أشعار القدماء

ومن يرعى تلك النخلة وقد تخلى عنها الحارس الأمين؟

ترعاها الفواقر والقوارع والخطوب!

يرعاها الجهل بالسر المكنون في ضمائر الشعراء!

وإن استطال الجمال على الشاعر فبشره بالمحاق والأفول لغير وجهك الجميل يوجه هذا النذير، يا صاحبة الجيد الأغيد والمعصم الريان

وما الدنيا وما الوجود إذا أمسى جمالك الفتان وهو طل من الأطلال؟

سيصنع بك الدهر ما يصنع، لأنه موكل بإذلال الأقوياء، ولكنه سيعجز عن محو ما دار بيننا من أكواب العتاب في تلك الليلة القمراء

هي ليلة من ليال، وسأعرف كيف أنتقم لنفسي، إن طاب لك الاعتصام بالهجر والصدود

أما بعد فقد رجعت إلى قلبي لأشهد بعض العجائب من برج بابل، فماذا رأيت؟

رأيت وجودي مقدوداً من أحجار ذلك البرج، ورأيت عواطفي وأحلامي مشبوبة أو مقبوسة

من اللهب الذي يتأجج في أركان ذلك البرج، ورأيتني جديراً بما أتصف به أهله من الحيرة والقلق والانزعاج

رأيت ورأيت، وكأنني إنسان وقف يتلهى بصراع الأسود، وهو يجهل أن فيها أسداً قريب

العهد بالاستئناس، فهو يرجع إلى الشراسة حين تسمح الظروف
رأيتني واقفاً على حافة الهاوية بلا رفيق ولامعين
رأيتني أحمل القلم لأمزق به ما بيني وبين الناس من أواصر وصلات
رأيتني أساهر النجوم وهي لا تدرك من همي غير أطياف
رأيتني انفصلت عن (برج بابل) فلا أدري ما يثور فيه من مصاعب وأهوال
رأيت ورأيت
رأيت أني سأسأل بعد أيام عن مصاير أحباب كان لهم في حياتي تاريخ، فمن أولئك الأحباب؟
الدنيا التي ضنت بأن أحمل السيف في الدفاع عن وطني هي الدنيا التي ضنت بأن أحمل السيف في الدفاع عن وطن أحبابي
لله الأمر من قبل ومن بعد
وسيعرف أقوام مغازي هذا الزمن الدقيق
أنا أذن أعبر بالرموز؟؟
هو ذلك، لأني أكتب مقالي هذا في أيام السرار من شهر الوجود
اللهم عونك ولطفك وغفرانك، فما استعنت إلا بك، ولا توكلت إلا عليك، فأنت وحدك أمل اللائذ بحصنك الحصين
زكي مبارك
مؤتمر
للأستاذ عبد العزيز محمد عيسى
تسري الآن في نواحي الحياة المصرية حركة مباركة تبشرنا بعهد زاهر من عهود الإسلام التي يذكرها التاريخ بالفخار
هذه الحركة هي مطالبة بأن يكون التشريع الإسلامي أساساً لما نضع من قوانين وأحكام. وقد كان من بواكير ذلك مؤتمر رابطة الإصلاح الاجتماعي الذي هيأته للناس في الشهر الماضي، ودعتهم إلى شهود جلساته دعوة عامة ليسمعوا ما أعده خطباؤه من أبحاث قيمة تبين كيف وضع ديننا القواعد التي تنير سبيل الحياة وتوصل إلى الخير وقد عرف الناس من هؤلاء الباحثين على أي نحو يحارب الإسلام آفات المجتمع التي تشكو الأمم منها، ويعالجها بأدوية ناجعة في القضاء عليها. وكيف يدعو إلى الأخلاق الفاضلة حين يقررها ويجعلها غاية من غاياته. وعلى أي وجه يبني نظام الآسرة ويحوطه برعاية تجعله ثابتاً أمام الأعاصير، صالحاً لحياة دائمة مفيدة. وكيف يعامل الناس على أساس من الحرية والإخاء، وينظم علاقة الدولة بغيرها في السلم والحرب، على قاعدة العدالة والمساواة. . . الخ. واطمأن السامعون إلى أن الإسلام معين صالح للتشريع في العصر الحديث، وأن تشريعات البشر في أسمى صورة قد عجزت ن معالجة أدواء المجتمعات واضطربت. ولذا اعترف العقلاء من غير المسلمين بصلاحية الدين الإسلامي للنهوض بعبء التشريع وموافقته لأرقى النظم وتلبيته لحاجات المدينة والعمران
لست أكتب الآن لأجلي نظريات المؤتمر أمام القارئين وأبين لهم فائدة ما دعا إليه، ولا لأنظر في النتيجة التي وصل إليها المؤتمرون أسلبية هي أم إيجابية، ولا لأستحث لجانه التي يقال إنها تبحث لتصل إلى قرارات عملية حتى نسرع في ذلك؛ ولكنني وقد شهدت جلساته جميعاً أردت أن أسجل ملاحظات كانت حديث جمهور المستمعين وغيرهم، وحديث كثير من المثقفين في مجالسهم العامة والخاصة
1 - أن الظاهرة الواضحة استعداد الناس لقبول النظم الإسلامية في مظاهر حياتهم ومعاملاتهم، لأنهم رأوا العنت من النظم الوضعية وعجزت هذه النظم من تحقيق ما يبتغون. ومن ثم نادى كثير منهم بذلك ونشرت الصحف رغباتهم في وضوح وجلاء. وإن نواب الأمة وشيوخها لينادون بذلك الذي ينادي به الناس ويجهرون به على مسمع من رجال الحكم وتسجل آراؤهم في هذه الناحية بين التصفيق والإعجاب
ورجال الحكم أنفسهم لا يقفون في هذه الطريق ولا يعوقون عنها، فقد رأينا كثيراً من كبارهم يشتركون في المؤتمر ويحرصون على نجاح دعوته. وهذا وزير من وزراء الدولة يأتي بنفسه فيفتح جلساته وينوه فيه بتعاليم الإسلام السامية ونواحي إصلاحه التي لم يصل أحد إلى مثلها، ثم يقول: (أن هذه الثورة الاجتماعية العظيمة قد مكن لها

الإسلام في جميع العصور بما وضع من المبادئ العامة التي يجب أن تكون سنن الاجتماع في كل أمة وفي كل عصر. وبما ترك من التفاصيل والجزئيات التي يجب أن تكون موضع الاجتهاد لمن يتقيدون بأمر الله ونهيه، ويستمدون بحثهم من روح الإسلام ويلائمون بينه وبين الزمن والبيئة)

بل إن جلالة الملك حفظه الله ليحب ذلك ويرجو أن يكون، وقد تواتر الحديث عن جلالته بهذه الرغبة الكريمة. وكان آخر ما سمعناه من ذلك ما رواه عن جلالته شيخ الإسلام ليلة الاحتفال بعيد الجلوس الملكي في هذا الشهر حين قال فضيلته: (إن من أعز أماني جلالته أن يرى البلاد تسير على نظام اجتماعي يستند إلى دينها وتقاليدها) فالدواعي أذن متضافرة للعمل على هذا النوع من الإصلاح الاجتماعي ورسم الطريق المثلى أمام الناس بعدما أعدوا أنفسهم لتلقي هذه التعاليم المباركة. ولا نحسب بعد ذلك كله أن عقبة مهما كانت تقف في سبيل هذا الإصلاح الذي يتطلع إليه الشعب ويحرص عليه مليك البلاد

2 - مما يدعو إلى الأسف أن الأزهر الرسمي لم يشترك في هذا الفعل الجليل الذي يفرضه عليه واجبه وتحتمه طبيعة رسالته. وليس من شك أن الأزهر لم يوجد لتخريج العلماء وتدريس هذا اللون من الكتب المعقدة فحسب؛ ولكن عليه إلى جانب ذلك واجباً أسمى: هو إطلاع الناس عامة على مزايا الإسلام وصلاحيته للنهوض بأعباء الحياة الاجتماعية في شتى صورها، وتنقية الأذهان من هذه الشبه الباطلة التي ألصقت به زوراً وبهتاناً، وتأثر بها كثير ممن يلون مناصب الحكم والتشريع في البلاد؛ لأن الأزهر خصص لرعاية الدين ونشر تعاليمه وتوصيل قبسه إلى الناس. فإذا لم يقم بما خصص له ولم يؤد

هذا الواجب كان جسما لا روح فيه. وأكثر الأشياء عندنا، كما يقول فضيلة الأستاذ الأكبر: أجسام لا أرواح فيها. وما نحب للأزهر أن ينزل إلى ذلك

وإذا كان الناس فيما مضى يعللون ابتعاد العلماء الأزهريين عن مثل هذه المواطن بكبر السن وحب العزلة عن الناس وعدم المعرفة بطرق الاتصال وأساليبه، فأن هذا العذر لا يقبل الآن وعلى رأس الأزهر رجل مفكر يحمد له الناس نشاطه في نواحي المجتمع، وحسن صلاته بكثير من البيئات العلمية وغيرها، ويعقدون عليه آمالاً جساماً في إصلاح جرئ لا يعرف المجاملة ولا المداراة

3 - إذا كان التقصير عيباً، فان من أقبح ذلك وأفظعه التمادي في القصير. ولذلك يرى من لاحظوا على المؤتمر أن من واجب رجال الأزهر أن يتداركوا هذا التقصير، ويقبلوا على عمل يبين الناس وجودهم ومجهودهم وينصرفوا إلى ذلك مخلصين ليرضوا ضمائرهم أمام الله والتاريخ، وأمام الأبناء والأحفاد

وإن أشد ما يخشاه المخلصون أن تتجاوب الأصداء من حول الأزهر بالدعوة إلى الإصلاح الاجتماعي على أساس النظم الإسلامية ويقف رجال الأزهر موقف المتفرج أو المتحرج

ليس ذلك لأن هذه الدعوة ستموت كما ماتت دعوات، أو لأن الناس سيتركون التشريع الإسلامي في هذه المرة إلى غيره وتتكرر مأساة الفقهاء في عهد إسماعيل، فإن شيئاً من ذلك لن يكون إن شاء الله؛ ولكن لأن الناس حين يترك الأزهر معالجة هذه الشؤون، سيرونه شيئاً لا فائدة فيه، حتى في تنفيذ ما هو من رسالته. وهذا يؤدي بهم إلى محاولة التخلص منه والقضاء عليه. فان لم يستطيعوا ذلك لأمر ما نحوه عن الطريق وأغمضوا عنه العيون وتركوا أهله في عزلتهم يهيمون

لذلك يجب أن ينتبه الأزهر إلى مثل هذه الدعوات في المستقبل ويحرص على الاشتراك في هذه الأمور اشتراكاً عملياً نافعاً، ويغزيها برجاله وأفكاره وخبرته، ويعمل على إنجاحها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً

ولا ينبغي أن تقوم دعوة إلى مثل هذا العمل مرة أخرى ثم لا يكون الأزهر في مقدمة الدعاة إليها والمنفذين لها

وإذا كان لنا - بعد تسجيل هذه الملاحظات - أن ندلي برأي عملي في هذا المقام، فها هو

ذا اقتراحنا عسى أن ينظر إليه رجال الأزهر بما يستحق من عناية تليق بموضوعه، لينصرفوا بعد تعديله أو إقراره إلى ناحية العمل المنتج المثمر

نرى من أهم واجبات الأزهر الآن أن يؤلف هيئتين علميتين من نابهي رجاله لا ينظر في تكوينهما إلى ما يحب بعض شيوخه أن ينظر إليه من الشكليات. على أن تعنى واحدة منهما بمخلفات المسلمين في الناحية التشريعية فتخرجه إخراجاً جديداً وتلبسه ثوباً جديدا، وتعرضه على الناس في أساليب يألفونها ويجدون طريق الوصول إليها معبداً ميسوراً. ويقوم الأزهر بنشر هذا التراث في زيه الجديد على نحو ما تفعل الهيئات العلمية

وتعنى الثانية بدراسة القوانين الوضعية المعمول بها الآن في القضاء أو في الإدارة أو في نظام الشركات أو ما إلى ذلك، وتستخرج من الشريعة الإسلامية السمحة قوانين مسايرة لروح العصر تحل محل هذه القوانين وتؤدي مطالبها وترسم الخطة المحكمة التي ينبغي السير عليها في نواحي الإصلاح عامة

وعلى الأزهر بعد ذلك بمعونة أولئك الذين اعترفوا جميعاً بوجوب السير على مقتضى النظم الإسلامية وصلاحيتها دون سواها أن يعمل على تطبيق هذه القوانين الجديدة على الناس شيئاً فشيئاً حتى يكون الحكم بينهم بما أنزل الله

وإذا قيل كيف ينفق الأزهر على هاتين الهيئتين الآن والموارد قليلة، ذكرنا على سبيل المثال - وإن كان شرف المقصود كفيلا بتدبير المال الوافر - أن الأزهر يحبس من ميزانيته كل عام خمسة آلاف من الجنيهات باسم نشر الثقافة، ونحو هذا المبلغ الضخم لشيء لا يعرفه أحد من المثقفين يسمونه مجلة الأزهر، فأولى له أن يوجه هذه الآلاف الكثيرة ونحوها إلى هذه الناحية من الإصلاح منتهزاً هذه الفرص المواتية حتى تغزو التعاليم الإسلامية نظم الإدارة والسياسة ونظم التعليم والتشريع والقضاء

وبذلك يحقق الأزهر رسالته الكريمة، ويؤدي واجبه المقدس، ويحمل الناس على الاعتراف بوجوده ونفعه والاتجاه إليه، ويفهم فن فتنتهم المدينة الغربية بزخرفها وزينتها أن الإسلام هو الدستور الصحيح للحياة، وأن تعاليمه السامية هي الكفيلة بإسعاد الناس والترفيه عنهم

عبد العزيز محمد عيسى
المدرس بمعهد القاهرة

في الاجتماع اللغوي

اللهجات العامية الحديثة

عوامل تطورها وصفاتها المشتركة

للدكتور علي عبد الواحد وافي
أستاذ الاجتماع بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

- 2 -

درسنا في المقال السابق تسع طوائف من العوامل التي أدت إلى انشعاب هذه اللهجات عن العربية الفصحى وإلى تطورها المطرد في نواحي الأصوات والقواعد والدلالة والمفردات. وسنعالج في مقال اليوم بقية هذه العوامل. وتختمه بنظرة في الصفات التي تشترك فيها هذه اللهجات.

10 - تناوب الأصوات المتحدة النوع، القريبة المخرج، وحلول بعضها محل بعض. يتبين من ملاحظة ظواهر التطور في مختلف اللغات الإنسانية أن الأصوات المتحدة النوع، القريبة المخرج، تميل بطبعها إلى التناوب وحلول بعضها محل بعض. فكل صوت لين عرضه بطبعه لأن ينحرف إلى صوت لين آخر، وكل صوت ساكن عرضة بطبعة لأن ينحرف إلى صوت ساكن متحد معه في مخرجه أو قريب منه. وقد كان لهذا القانون آثار ذات بال في انشعاب اللهجات العامية عن العربية وفي تطورها من ناحية الأصوات وقواعد الصرف ووزن الكلمات.

(أ) فقد حدث في هذه اللهجات تناوب واسع النطاق بين أصوات المد القصيرة التي يرمز إليها في الرسم العربي بالفتحة والكسرة والضمة. ويمثل هذا التناوب انقلاباً من أهم الانقلابات التي اعتورت اللغة العربية، فقد كان من آثاره أن انحرفت أوزان الكلمات. وانقلبت أشكالها رأساً على عقب، حتى لا نكاد نجد في اللهجات العامية كلمة واحدة بانية على وزنها العربي القديم. فالفتحة قد استبدل بها الضمة أحياناً والكسرة في كثير من الأحوال (فبدلاً من: يَعوم، يَسجد، يَسمع، عَثَر، خَلَص، سَكَت،

عنِد، كَبير، أَلكتاب. . . الخ)؛ يقال في عامية المصريين: يُعُوم، يُسجد، يِسمع، عِتِر أو عُتُر، خِلِص أو خُلص،
(سِكت أو سُكت، عَند، كِبير، إِلكتاب. . . الخ
والكسرة قد استبدل بها الضمة أحياناً والفتحة في كثير من الأحوال (فبدلاً من: - يلطم، يضرب، يسرق. . . الخ؛ يقال في العامية المصريين: يلطُم، يضرَب، يسرأ. . . الخ). والضمة قد أستبدل بها الفتحة أحياناً والكسرة في معظم الحالات (فبدلاً من: محمد، ثُعبان، أنشى، عُثّة، يقتُل، يذُم، ظُفْر. . . الخ؛ يقال في عامية المصريين: محمد، تِعبان، إِنتابة عِتة، يئتِل، يزِم، ضِفر. . . الخ)
وحدث كذلك تناسخ في أصوات المد الطويلة نفسها، وخاصة في الآلف اللينة إذا أحيلت في لغات بعض القبائل العربية القديمة، وتحال الآن في كثير من لهجات المغرب ولهجات القبائل العربية النازحة إلى مصر وفي بعض اللهجات في بلاد الشرقية
وما حدث في اللغة العربية بهذا الصدد حدث مثله في اللغات الهندية، الأوربية
وكثير من الأصوات الساكنة المتحدة النوع أو القريبة المخرج قد تناسخت كذلك (ب) في اللهجات العامية وحل بعضها محل بعض. فالسين مثلاً قد تحولت إلى صاد في بعض المواطن ((ساخن) تحول إلى (صاخن) في عامية الشرقية وغيرها)؛ والصاد إلى سين في كثير من الألفاظ في عامية القاهرة وغيرها (فبدلاً من: يصدق، مصير،. . . الخ؛ يقال: يسدَّأ، مِسير. . . الخ)؛ والضاد إلى ضاء في عامية المغرب وخاصة طرابلس وفي لهجات القبائل العربية النازحة إلى مصر (فبدلاً من: وضوء، يضيع، يضرب، يضم. . . الخ)، يقال: وظوء، يظيع، يضرب، يظم. . . الخ) والعين إلى نون في بعض الكلمات في لهجة العراقيين (فيقال مثلاً (ينطي) بدلاً من (يعطي))؛ واللام إلى ميم في بعض الكلمات في عامية القاهرة ((امبارح) بدلاً من (البارحة))؛ والميم إلى نون أحياناً في عامية المصريين (فيقال (فاطنة) بدلاً من (فاطمة)) وهلم جراً. . .
وما حدث في اللغة العربية بهذا الصدد حدث مثله في اللغات الهندية الأوربية
11 - يتغير مدلول الكلمات تبعاً للحالات التي يكثر فيها استخدامها. فكثرة استخدام العام مثلاً في بلد ما أو في عصر ما في بعض ما يدل عليه تزيل مع تقادم العهد عموم معناه وتقصر مدلوله على الحالات التي شاع فيها استعماله؛ وكثرة استخدام الخاص في معان عامة عن طريق التوسع تزيل مع تقادم العهد خصوص معناه وتكسبه العموم. وكثرة
استخدام الكلمة في المعنى المجازي تؤدي غالباً إلى انقراض معناها الحقيقي وحلول هذا المعنى المجازي محله. واستخدام الكلمة في فن أو صناعة بمعنى خاص يجردها في هذا الفن أو في هذه الصناعة من معناها اللغوي ويقصرها على مدلولها الاصطلاحي. والتطورات التي حدثت في اللهجات العامية تحت تأثير هذا العامل تناولت آلافاً من المفردات العربية؛ حتى أنه ليندر أن يجد مفرداً عامياً مطابقاً في مدلوله كل المطابقة للمفرد العربي الذي انحدر منه
12 - يتغير مدلول الكلمة أحياناً تحت تأثير القواعد. فقد تذلل قواعد اللغة نفسها السبيل إلى انحراف معنى الكلمة وتساعد على توجيه وجهة خاصة. فتذكير كلمة (ولد) مثلاً في اللغة العربية (ولد صغير)، قد جعل معناها يرتبط في الذهن بالمذكر؛ ولذلك أخذ مدلولها يدنو شيئاً فشيئاً من هذا النوع، حتى أصبحت لا تطلق في كثير من اللهجات العامية إلا على الولد من نوع الذكور
13 - قد يتغير مدلول الكلمة في انتقالها من السلف إلى الخلف. فكثيراً ما ينجم عن هذا الانتقال تطور في معاني المفردات. وذلك أن الجيل اللاحق لا يفهم جميع الكلمات على الوجه الذي يفهمها عليه الجيل السابق. ويساعد على هذا الاختلاف كثرة استخدام بعض المفردات في غير ما وضعت له عن طريق التوسع والمجاز. فقد يكثر استخدام الكلمة في جيل ما في بعض ما تدل عليه، أو في معنى مجازي تربطه بمعناها الأصلي بعض العلاقات، فيعلق المعنى الخاص أو المجازي وحده بأذهان الصغار، ويتحول بذلك مدلولها إلى هذا المعنى الجديد
14 - وقد تغيرت في اللغات العامية مدلولات كثير من الكلمات، لأن الشيء نفسه الذي تدل عليه قد تغيرت طبيعته أو عناصره أو وظائفه أو الشئون الاجتماعية المتصلة

به وما إلى ذلك. فكلمة (الريشة) مثلاً كانت تطلق على آلة الكتابة أيام أن كانت تتخذ من ريش الطيور. ولكن تغير الآن مدلولها الأصلي تبعاً لتغير المادة المتخذة منها آلة الكتابة؛ فأصبحت تطلق على قطعة من الحديد مشكلة في صورة خاصة. (القطار) كان يطلق في الأصل على عدد من الإبل على نسق واحد تستخدم في السفر، ولكن تغير الآن مدلوله الأصلي تبعاً لتطور وسائل المواصلات، فأصبح يطلق على مجموعة عربات تقطرها
قاطرة بخارية. و (البريد) كان يطلق على الدابة التي تحمل عليها الرسائل، ثم تغير الآن مدلوله تبعاً لتطور الطرق المستخدمة في إيصال الرسائل، فأصبح يطلق على النظم والوسائل المتخذة لهذه الغاية في العصر الحاضر
15 - انتقال كلمات جديدة إلى بعض اللهجات العامية من اللغات الأجنبية التي احتكت بها. فقد انتقل إلى كل بلد عربي اللسان كثير من كلمات اللغات التي أتيح له الاتصال بأهلها اتصالاً ثقافياً أو سياسياً أو اقتصاديا. فأنتقل إلى لهجة العراق كثير من الكلمات التركية والفارسية والكردية والإنجليزية. وإلى لهجات الشام كثير من الكلمات التركية والفرنسية. والى لهجة مصر كثير من الكلمات التركية واليونانية والفرنسية والإيطالية. . . وهلم جراً
16 - انتقال أصوات جديدة إلى بعض اللهجات العامية من اللغات الأجنبية التي احتكت بها. فمن ذلك مثلاً صوت بين الشين والجيم المعطشة ينطق به في عامية العراق في مثل كلمة (عربنجي) (سائق العربة). فمن المحتمل أن يكون هذا الصوت قد انتقل إليها من التركية
17 - دخول قواعد جديدة في بعض اللهجات العامية للحاجة إليها في الكلام أو عن طريق احتكاكها باللغات الأخرى. فقد انتقل مثلاً إلى المصرية والعراقية طريقة النسب التركية (بزيادة جيم وياء) في بعض الكلمات وخاصة ما يدل منها على الحرفة: (عربجي. طرشجي. جزمجي. . .)، وطريقة الإضافة في بعض الكلمات بتقديم المضاف إليه على المضاف (كتبخانة، أنتيكخانة. . .). وانتقل إلى اللهجة العراقية طريقة النعت الفارسية التي يقدم فيها أحياناً النعت على المنعوت (. . . (خوش ولد) خوش كلمة فارسية معناها حسن. ومعنى الجملة ولد حسن أو ما أحسنه من ولد). وطريقة تنكير الاسم المفرد بذكر الاسم المفرد بذكر كلمة قبله تدل على الوحدة ((فرد رجل)؛ (فرد مخالفة). . . الخ) وانتقل إلى معظم اللهجات العامية المتشعبة عن العربية طريقة الإضافة بتوسط كلمة تدل على الملك بين المضاف والمضاف إليه: ففي مصر تتوسط غالباً كلمة بتاع المحرفة عن متاع؛ وفي تونس والجزائر كلمة (إنتاع) أو (تاع)؛ المحرفة كذلك عن متاع؛ وفي المغرب الأقصى كلمة (ديال)؛ وفي العراق كلمة (مال) للمذكر و (مالة) للمؤنث؛ (. . . (الكتاب مالي)؛ (الكراسة مالتي)، أي كتابي وكراستي). ودخل في معظم هذه اللهجات كذلك زمن جديد للمضارع للدلالة على الاستمرار. وقد اختلفت هذه اللهجات في الإشارة إلى هذا الزمن، فبعضها يشير إليه بباء في أول الفعل (بيكتب) في بعض اللهجات المصرية؛ وبعضها يشير إليه بميم في أول الفعل كذلك ((منكتب) في بعض اللهجات المصرية والسورية)؛ وبعضها يشير إليه بكاف قبل الفعل ((كيكتب) في لهجة المغرب)؛ وبعضها يشير إليه بكلمة (عم) قبل الفعل ((عم يكتب) في كثير من اللهجات المصرية والعراقية)؛ أو بكلمة (راه) ((راه يكتب) في لهجة المغرب. وتستخدم هذه الأداة كذلك في مصر ولكن للدلالة على الاستقبال وتقلب هاؤها حاء، فيقال (راح يكتب))
18 - انقراض بعض الكلمات لانقراض مدلولها أو قلة استخدامه. فقد انقرض في اللهجات العامية كثير من الأسماء العربية الدالة على أمور بطل استعمالها؛ ويصدق هذا على أسماء الملابس والأثاث وعدد الحرب ووسائل النقل وآلات الصناعة والمقاييس والنقود ومظاهر النشاط والنظم الاجتماعية. . . التي كانت سائدة عند العرب في عصورهم الأولى، ولكنها انقرضت أو لم يعد لها شأن في عصورنا الحديثة، فانقرضت معها الكلمات الدالة عليها
19 - انقراض بعض الكلمات لثقلها على اللسان أو عدم تلاؤمها مع الحالة التي انتهت إليها أعضاء النطق. . . وما إلى ذلك وإلى هذا العامل يرجع السبب في انقراض كثير من الكلمات العربية من لغات التخاطب العامية في العصر الحاضر

20 - انقراض الكلمة لدقة مدلولها، أو لعدم الاحتياج إليه في لهجات المحادثة العادية، أو قلة دورانة فيها، أو وجود لفظ آخر مرادف له. فلهجات المحادثة تقتصر في العادة على الضروري وتنفر من الكمالي وتنأى عن مظاهر الترف؛ وإلى هذا العامل يرجع السبب في انقراض آلاف من الكلمات العربية من لهجات المحادثة الحاضرة، وفي تجرد هذه اللهجات من أهم خاصة تمتاز بها العربية، وهي سعة الثروة في المفردات وكثرة المترادفات

هذا، وعلى الرغم من اختلاف هذه اللهجات في ظروفها، فقد تأثرت في بعض النواحي بعوامل متحدة، فاتفقت في طائفة من مظاهر التطور. وتبدو وجوه اتفاقها هذا في أمور كثيرة من أهمها يلي:

1 - تجردها من جميع الحركات التي تلحق آخر الكلمات في العربية الفصحى، سواء في ذلك ما كان منها علامة إعراب وما كان حركة بناء. فينطق في هذه اللهجات بجميع الكلمات مسكنة الأواخر، وتلتزم حالة واحدة في الكلمات المعربة بالحروف ويعتمد في فهم الأمور التي ترشد إليها في العربية الفصحى علامات الإعراب (وظيفة الكلمة، علاقة عناصر العبارة بعضها ببعض. . . الخ) على سياق الحديث أو على كلمات مستقلة تذكر في الجملة.

2 - استبدل في هذه اللهجات بالطرق المعقدة الدقيقة التي تسير عليها العربية الفصحى في تركيب الجملة وترتيب عناصرها، طرق بسيطة ساذجة وأساليب حرة طليقة

3 - لم تحتفظ هذه اللهجات إلا بجزء يسير من تراث أمها العربية وثروتها العظيمة في المفردات، ويتمثل هذا الجزء في الكلمات الضرورية للحديث العادي.

ومن هذه الخواص الثلاث يتبين أن أهم ما تمتاز به العربية الفصحى عن أخواتها السامية قد تجردت منه اللهجات العامية الحديثة، فمسافة الخلف بين لهجاتنا الحاضرة واللغات السامية الأخرى أضيق إذن من مسافة الخلف بين هذه اللغات والعربية الفصحى.

علي عبد الواحد وافي

ليسانسيه ودكتور في الآداب من جامعة السربون

. . .الليبيون

للأديب مصطفى بعيو الطرابلسي

من المتفق عليه بين علماء الجيولوجيا أن شمال أفريقيا لم يكن صحراوياً في العصور الغابرة، بل بالعكس كانت أمطاره غزيرة مما ساعد على جريان الأنهار فيه واخضرار أراضيه ونمو الغابات، وبالتالي على تكوين البحيرات الشاسعة التي كانت ملجأ للتماسيح والجاموس البحري، وعاملاً على وجود المستنقعات التي تحلق فوقها الطيور؛ وكانت هذه المستنقعات تشغل الأماكن المنخفضة وما زالت آثارها باقية إلى الآن تشهد بما كانت عليه الصحراء الكبرى في العصور القديمة؛ وكانت ترتع حول هذه البحيرات وبين أشجار الغابات أنواع من الحيوانات، بعضها من آكلة اللحوم وبعضها من آكلة العشب، ولكنها انقرضت بعض أجناسها واختفت نهائياً بمرور الزمن نتيجة لحدوث تحول في الأمطار أدى إلى نقصانها شيئاً فشيئاً في الصحراء وازديادها في أواسط أفريقيا مما نتج عنه جريان نهر النيل الحالي، فأضطر سكان شمال أفريقيا، ومنها (الليبيون) أن يهجروا أقاليمهم ويتجمعوا حول الأماكن الخصبة الجديدة التي كان من بينها نهر النيل وواديه. وإلى الآن لم يعرف بالضبط تاريخ صحيح لبدء هذا التجمع، وقيل أنه يرجع إلى ستة عشر ألف سنة مضت، ومن هنا نرى أن الليبيين كانوا عنصرا أساسيا في تكوين الشعب المصري القديم الذي ازدهرت المدنية على يديه، والذي سبق الشعوب الأخرى في مضمار الحضارة. أما من بقي من الليبيين في مكانه، فقد كان على اتصال بمصر أهلها

وبالأسف أن معلوماتنا عن الليبيين في تلك العصور القديمة قليلة جداً، وكل الذي نعرفه أنهم كانوا يعيشون على هيئة قبائل متفرقة مثل الآن، والقبائل الملاصقة لحدود مصر كانت تمتاز بشعرها الأسود وعيونها العسلية وهي قبائل التحنو، أما قبائل المشواش فهي إلى غرب القبائل الأولى، وقد سكنت الصحراء المجهولة الحد وقتئذ، وأهلها ذوو شعور شقراء وعيون زرقاء، وهناك أسماء أخرى كانت تطلق عليهم منها

رابو وقد ذكر هيرودوت أبو التاريخ هؤلاء القوم تحت أسم ماكسيز وهم بلا جدال أصل البربر الذين استعمروا شمال أفريقيا فيما بعد، والمشواش قوم متمدينون نوعاً ماهرون في الفنون الحربية مسلحون جيداً

وكان الليبيون ينظرون إلى مصر الممثلة في واديها الخصيب بعين الطمع خصوصاً وأنهم

قد أصبحوا في صحراء جرداء مما دفعهم إلى محاولة الاستيلاء على مصر للحصول على خيراتها العظيمة كلما حانت الفرص، فليس بغريب بعد ذلك أن يصفهم أحد ملوك مصر وهو منفتاح (بأنهم يمضون أوقاتهم محاربين ليملئوا بطونهم كل يوم، وقد أتوا إلى مصر ليحصلوا على ما تحتاج إليه أفواههم) وكان الوجه البحري دائماً عرضة لهجوم الليبيين القاطنين غربية وأنه لكثرة هجرة هؤلاء القوم إليه انصبغ الجزء الغربي منه بالصبغة الليبية التي بقيت ظاهرة فيه حتى زمن هيرودوت المؤرخ اليوناني. وتشير اقدم أخبار الوجه البحري إلى منازعات ومشاحنات مستمرة مع الليبيين. على أنه عندما تمكن الملك مينا من توحيد الوجهين وتثبيت عرشه وجه همه لتأمين البلاد من هجمات الليبيين فشن عليهم الغارات وأسر منهم حوالي مائة وعشرين ألف نسمة عدا مليون وأربعمائة وعشرين ألفاً من الأغنام، وأربعمائة ألف من البهائم كما جاء ذكره في الآثار المصرية. وكانت هذه الغارة بمثابة طرد عام لهم. على أن هذه الضربة القاسية التي حلت بهم لم تمنعهم من الإغارة على مصر بل كانوا ينتهزون فرصة حكم الملوك الضعاف للهجوم على الوادي وسلب ما يحتاجون إليه مما أقلق بال فراعنة مصر؛ ولهذا نراهم يتخذون سياسة حازمة نحو الليبيين ويقومون بالحملات عليهم تارة، وأحياناً يلجأون إلى سياسة سلمية لإيقاف هذه الغارات بأن يتزوجوا من الليبيات لعقد أواصر الألفة والسلام. ومن أنصار السياسة الأولى مينا كما تقدم، وسمورع أحد ملوك الأسرة الخامسة الذي ترك لنا نقشاً غائراً يمثل انتصاره على اللوبيون وفيه نرى جماعة المهزومين من قبيلتي (يافت) و (باش) ومعهم قطعانهم من البقر والماعز والحمير وهي تعد بالآلاف. أما أمنحعت الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة فقد أرسل نجله سيزوستريس الأول على رأس جيش ليعاقب الليبيين على أثر غارة شنوها على الدلتا فثأر منهم. وأهم عمل قام به أنصار هذه السياسة هو ما فعلته الملكة حتشبسوت حيث أجبرتهم على دفع الجزية. وأما الذين اتبعوا سياسة المصاهرة فهم قليلون وعلى رأسهم الملك خوفو العظيم باني الهرم الأكبر الذي تزوج من سيدة ليبية وحدث حوالي القرن الثاني قبل الميلاد أن استوطن بعض الليبيين الواحتين اللتين هما جنوبي وغربي الفيوم، وتقدم بعضهم حتى بلغوا الشاطئ الغربي لفرع النيل الكانوبي المعروف وقتئذ بالنهر الكبير. ولما زاد عدد الليبيين بالدلتا تجاسروا وتطاولوا على فرعون

مصر فجمعوا شملهم وكونوا قوة نظامية للاستيلاء على أرض مصر، وكانوا وقتئذ تحت قيادة ملكهم المدعو مريي وهذا أجبر بدوره التحنو أن ينظموا إليه، ثم استعان بقرصان البحر الأبيض المتوسط وأخذوا يزحفون على مصر للاستيلاء عليها والاستيطان بها. أما حلفاؤه من قرصان البحر المتوسط فكانوا مكونين من سردينيين وصقليين ومن باقي أهالي جزر البحر الأبيض المتوسط، وكان هؤلاء القوم قد عبروا البحر كثيراً فيما مضى وإليهم يعزى أصل الليبيين البيض البشرة (يرى هذا المرحوم جيمس والأستاذ هنري برستدت)، وبذلك أصبح الليبيون يهددون كيان الدولة المصرية. وكان على عرشها في ذلك الوقت منفتاح فرعون موسى عليه السلام - على ما يقال - فأستعد هذا الفرعون لخطرهم وأمر موظفيه بحشد الجيوش وتجهيزها. وكان الليبيون في ذلك الوقت قد أخذوا يتقدمون نحو مصر فلما أبصروا خيراتها العظيمة ازدادت همتهم واشرأبت أعناقهم إليها، فاخترقوا الحصون المصرية الغربية، وهناك عند مدينة بريرع التي نجهل موقعها الآن اشتبكت الجنود المصرية مع الأعداء وتمكنت من طردهم بعد أن كبدتهم خسائر فادحة وأجبر ملكهم مريي على الفرار إلى وطنه تاركاً جميع أسرته يائساً من النصر بعد أن قتل أولاده الستة؛ ثم خلعه قومه وملكوه عليهم غيره. ويستدل من القتلى والغنائم أن جيش الليبيين وحلفائهم كان لا يقل عن عشرين ألف مقاتل وهكذا نجت مصر من الغزو الليبي

توفي الملك ورمر خليفة الملك السابق المعزول فورث العرش ابنه تيمر وهذا صمم

على الانتقام لشرف الليبيين من فرعون مصر، وكان في ذلك الوقت رمسيس الثالث، ولتنفيذ غرضه نراه يتحالف مع قرصان البحر الأبيض المتوسط ثانياً ولكن سرعان ما هزمهم رمسيس الثالث بالقرب من مدينة (رمسيس الثالث معاقب أهل التمحو (لبا))
أمام هذا الفشل المتكرر لم ير الليبيون فائدة من القيام بحملات ضد مصر لكي يستوطنوها ولكنهم مع ذلك قاموا بهجرة عظيمة ثانية إلى غربي الدلتا على أثر غزو قبائل المشواش لبلادهم التي أتلفوها ثم أجبروهم أن يتحدوا معهم لمحاربة مصر، وتولي قيادة هذه الحملة الجديدة مششر بن ملك المشواشيين المدعو كبر ولكن الفشل في هذه المرة أيضاً كان حليفهم إذ هزمهم فرعون مصر فولوا هاربين بعد أن قتل قائدهم وأسر والده مع عدد عظيم منهم واعتبر رمسيس الثالث هذا النصر العظيم عيداً يحتفل به سنوياً وسماه (عيد قتل المشواشيين) ولقب جلالته نفسه بعد ذلك بالألقاب الآتية: (حامي مصر والمدافع عن الأقطار وغازي المشواشيين ومتلف أرض التمحو)
هذه هي المرة الثالثة التي صدت فيها القبائل الغربية عن الدلتا ونيلها. ولم يعد بعد ذلك عند رمسيس الثالث مجال للخوف من تلك الجهة بالرغم من أن قوة الاستعمار عند الليبيين لم تنعدم بالمرة. والمعروف أن هؤلاء القوم لم تتحد لهم كلمة بعد ذلك، لكنهم أخذوا يهاجرون مسالمين إلى القطر المصري كما فعلوا قبل حكم الأسر، وكان ذلك على فترات متقطعة وبنفر قليل لم يقاومهم فرعون مصر ولم يهتم بهم كثيراً لعلمه بضعفهم وعجزهم، ولكن بفضل هذه المهاجرة السلمية استطاعوا ان يبسطوا بعض نفوذهم على الوجه البحري. ومما ساعدهم على ذلك زيادة الجنود الليبية المأجورة بالجيش المصري باطراد. وكان فراعنة مصر قد لجئوا إلى استخدام الجنود المرتزقة في أواخر الدولة الحديثة من التاريخ المصري القديم، وأصبح الجيش المعسكر بالدلتا لحفظ النظام هناك تحت قيادة ضباط مشواشيين حتى إنه حدث في عهد الأسرة الحادية والعشرين أن قصرت بعض الوظائف الهامة عليهم
ثم ظهر من بينهم رجل قوي ثري يدعى شيشنق لقب نفسه (برئيس المشماس العظيم) استطاع أحد أحفاده أن يعلي من نفوذ آسرته الليبية ثم انتهز فرصة ضعف آخر الملوك الأسرة الحادية والعشرين أو انقراض ملوكها واستولى على عرش مصر وأتخذ له مدينة تل بسطة عاصمة لملكه وكان ذلك في عام 945 ق م وقد اعتبر مانيتون المؤرخ المصري القديم شيشنق هذا مؤسساً للأسرة الثانية والعشرين وبذلك استطاع الليبيون التربع على عرش مصر بلا تعب ولا حاجة إلى امتشاق الحسام بعد مضي مائتي سنة تقريباً من وفاة رمسيس الثالث الذي سحقهم سحقاً لما علم بنياتهم الخبيثة نحوه ولكي يوطد شيشنق عرش أسرته زوج ابنه بكريمة آخر الملوك الأسرة الحادية والعشرين لكي يمنح ابنه حقاً شرعياً لتولي عرش مصر بعد وفاته وذلك عن طريق زوجته
حاول شيشنق هذا إصلاح حال مصر وإرجاع أملاكها القديمة فنراه يبسط نفوذه على فلسطين تاركاً ولايتها لسليمان الحكيم كما استرجع النوبة. والخلاصة أن مصر تمتعت برخاء نسبي في أول عهد الحكم الليبي بعد أن ساء حالها. وقد كشفت آثار بعض ملوكهم في العام الماضي فوجد معظمها من الفضة وهي كما نعلم كانت في عهد الفراعنة أغلى من
الذهب مما يدل على حياتهم المترفة. ويجب علينا آلا ننسى أن الحكام الليبيين تطبعوا بالطباع المصرية وحاكموا أهلها في العادات وعبدوا المعبودات المصرية وقدموا إليها القرابين كأهل البلاد تماماً، ولكن كل هذا لم يمنع سقوط عرشهم في عام سنة 745ق م على أثر ازدياد نفوذ قواد الجيش المأجورين فقووا مركزهم في مدن الوجه البحري وعملوا على تقسيم القطر المصري إلى عدة إمارات حربية صغيرة وبذلك يكون طول مدة الحكم الليبي في مصر حوالي 200 سنة 945 ق م تقريباً
ويجب ألا ننسى أنه لولا المشاغبات التي كان يقوم بها الليبيون لما فكر فراعنة مصر في غزوا تلك البلاد لفقرها، اللهم إذا استثنينا الواحات حيث تزرع الكروم التي كانت لها شهرة خاصة وزيتها الذي يطلق عليه الزيت اللوبي، وكان يستعمل حسب التقاليد المصرية لذلك الأجسام.

مصطفى بعيو الطرابلسي
كلية الآداب - إسكندرية
ألقاب الشرف والتعظيم عند العرب
للأب أنستاس ماري الكرملي
- 3 -
القمس - 7
تقدم لنا ذكر القمس، وقد ذكره غير واحد من فقهاء اللغة وجاء في بيت شعر، لأحد شعراء حلب في سنة 544 للهجرة (في 1149 و1150 للميلاد)، ما هذا نصه (في كتاب الروضتين ص 64 من طبعة باريس):
(واستقودوا الخيل عُرْباً واستقدتَ لنا، ... قوامِصَ الكفر في ذلٍّ وفي صَغَرِ)
فيكون مفردها هنا: (قوْمَص)، ولاتينيتها بمعنى الفرنسية. وجاءت أنثاها (قوْمَصِيَّة). قال في الكتاب المذكور، (ص 199): (وأخو صاحب جُبَيل، وابن القومصية) - وفي ص 200: (وأما ابن القومصية فأنه استفكته أمةً)
وقال في ص 191: (ووصل في هذه السنة (573 هجرية 1177 و1178 م)، إلى الساحل من البحر، كند كبير يقال له اقلندس، (صوابه إفِلبُّس أكبر طواغيت الكفر) وفي ص 257و 258، ذكر القومص خمس مرات، والقومصية مرة واحدة، ثم تكرر ذكر القومس مراراً عدة وفي ص 271 ذكر (الملك وكفود) وهو جمع كند ثم تكررت هذه الألفاظ باختلاف وجوهها، لكنها لم تختلف عما ذكرناه هنا فلا حاجة لنا إلى الإكثار منها
ولم يذكر أرباب المعاجم هذه المفردات جميعها وبلغاتها في دواوينهم. فقد قيدوا أشياء منها وأهملوا شيئاً آخر. فأما ما قيدوه فالقموس. قال السيد مرتضى: القومس كجوهر الأمير بالنبطية. نقله الصاغاني عن ابن عباد؛ وقال الأزهري: الملك الشريف. . . وقيل: هو الأمير بالرومية
قلنا: وهذا هو الصحيح، لا من اللغة النبطية، وإن كانت هي السبب إلى نقلها إلى العربية، ومعناها الأصلي في الرومية الرفيق، لأنه كان في بادئ الأمر يرافق الملك في حروبه وتنقلاته ثم أطلق على الأمير؛ ثم قال الشارح: والقمَّس كسكَّر: الرجل الشريف. كذا نقله الصاغاني وهو قول ابن الأعرابي وأنشد:
وعلمت. . . (البيت)
فسره بالسيد والجمع قممامس وقمامسة. أدخلوا الهاء لتأنيث الجمع؛ والقمامسة: البطارقة نقله الصاغاني عن ابن عباد ولم يذكر واحدة وكأنه جمع قمس كسكر
قلنا أن البطارقة هنا بمعنى الأشراف من أكابر القوم. وكذلك قولهم القومس: الأمير؛ والقمس: الرجل الشريف. فكل هذه المعاني مرجعها واحد، وإنما الفروق هي من بعض الشراح. أما من جهة التحقيق، فالقومس أو القمس غير البطريق وهذا غير الرجل الشريف؛ والرجل الشريف غير كبير القوم أو أميرهم. أما التوسع في المعاني فأشهر من أن يذكر
والأقباط يسمون كبير قسوسهم بالقمص كالقُفل، أو القمُّص بضم الأول وتشديد الثاني المضموم، والجمع القمامصة. وسمي النويري القمامسة: قماصة بالصاد بمعنى الأشراف؛ وهذا يشعر بأنه اعتبر المفرد قمصا، وزان سكر، بصاد في الآخر. وهذا من لغات مضر، أي قلب السين صاداً للتفخيم. وكذا عل ابن الأثير المؤرخ؛ فأن الذي سماه بعض المؤرخين قومساً، سماه هو قومصاً: وسمي الأنثى قومصة - قومصية. قال في الكامل (247: 11 من طبعة الإفرنج): (وكان القمص (وفي بعض الروايات القومص) صاحب طرابلس، واسمه ديمند ابن ديمند الصنجيلي، قد تزوج بالقومصة، صاحبة طبرية)
وقد جرى على هذه التسمية كثير من المؤرخين الذين جاؤوا بعده. وقال في وقائع سنة 583: (فر القومص إليها (إلى صور) يوم كسرتهم (كسرة الصليبيين))
والذين جاءوا بعد هذه الطبقة من المؤرخين الكتاب قالوا: الكند بدال في الآخر، أو القند بقاف ونون ودال. فمن الأول قول أبي شامة (راجع كلامه الذي أوردناه في الدوفن)
ومنه أيضاً الكنداسطبل. وقد تحذف الهمزة. ومعناها أمير الإسطبل. وهو تعريب

اللاتينية قال صاحب مختصر الدول (ص 448 من طبعة بيروت):
وفي الكامل لابن الأثير (10: 211): - .(ومن الأرمن الكندسطبل، أخو التكفور حاتم) (وأسر مقدمهم المعروف بكنداصطبل، فاقتدى نفسه.)
وقد غلط المعلم بطرس البستاني غلطاً فظيعاً في معجمه، محيط المحيط، إذ قال في ترجمة (ك ن د): (الكند: الشرس الشديد. فارسي) اهـ. - وقد نقل الكلمة عن فريتغ وهو مأخذه
الأكبر ولم يصرح به. وفريتغ حاطب ليل لا يميز الحطب والجزل، وقد أولج في الضادية مفردات جمة لا حقيقة لها، سوى سوء فهمه لكلام بني عدنان، أو لسوء قراءة كلمهم. هذا فضلاً عن البستاني لم يفهم معنى كلمة فريتغ اللاتينية وهي فهي لا تفيد أبدا معنى (الشرس) كما نقلها إلى لغتنا، بل النشيط، الثقف، العامل، الفعال. فهذه أغلاط فوق أغلاط فوق أغلاط، فهي ظلمات من فوقها ظلمات ومن تحتها ظلمات. ومن الغريب أنه نقل هذه الكلمة اللاتينية نفسها في مادة (كُنْداكِر) بالمعنى غير المعنى المذكور. فقد قال: (الكنداكر: الشجاع الجسور) اهـ.
قلنا: وهذا يجوز لأنه من معاني الرومية المذكورة أي لكن كنداكر منقولة عن فريتغ أيضاً، وقد قال فيها أنها فارسية، وهي لا فارسية ولا عربية ولا هندية ولا صينية، بل ولا وقواقية، لأنها مركبة من كند أي أمير وأكر أي عكاء، ومحصل معناها: كند عكاء أو أمير عكاء، ويراد به هنا الكنت هنري دي شنباي وبالحروف الفرنسية: ' ,
وسعيد الشرتوني صاحب أقرب الموارد، نقل هذين الغلطين عن البستاني، ونسبتهما تواً إلى فريتغ كذباً وزوراً. مع أن الحقيقة أنه نقلهما رأساً عن محيط المحيط، فنكرانه لمجهود المعلم بطرس البستاني لا يشرفه ولا يبرر وهمه. فقد قال في مادة (ك ن د): (الكند بالضم الشرس الشديد (فارسي)، نقله فريتغ عن بعض كتب العرب) اهـ. فلو نقل الشرتوني الكلمة تواً عن فريتغ، لنقل منى لاتينية نقلاً صحيحاً غير ما نقله البستاني، لكن أراد الله أن يكشف سوء عمله، فقال ما قال كذباً وزوراً، فكان عليه أن يعترف بالصدق ويقول: (نقلته عن محيط المحيط وهو نقله عن فريتغ)؛ وهذا لم يحسن القراءة ولا فهم معنى اللفظة
وكذلك قال في كنداكر: الكنداكر (وضبطها ضبط قلم بضم الكاف وإسكان النون وفتح الدال يليها ألف فكاف مكسورة فراء في الآخر): الشجاع الجسور، فارسية، نقلها فريتغ عن بعض كتب العرب؛ وكان حقه أن يقول ما ذكرناه في كلمة الكند
أما صاحب البستاني فذكر الكند إذ قال: الكند بالضم الشديد الشرس (معرب). فأراد أن يبين أنه لا ينقل عبارته عن محيط المحيط ولا عن أقرب الموارد فقدم وأخر فقال: (الشديد الشرس معرب) عوض أن يقول: الشديد الشرس فارسي.
فيا للأسف! كيف أن أنباء العرب ينقلون لغتهم عن الدخلاء ولا يشعرون بالضرر الذي يلحقونه بلسانهم الفصيح، البديع، البليغ بعملهم هذا المليم! وكيف أنهم يسرقون أتعاب غيرهم ولا يقرون بفضلهم، وكيف أن الله يهتك أسرارهم وسرائرهم بصورة لا تعلى شرفهم
وخلاصة البحث في القند، أنه يقال: القُنْد، والكْند، والقُمْس، والقُمَّس، والقُمس، والقُمْص، والقُمَّص، والقُمَص، والقُمُّص، والقَوْمَسْ، والقوْمَص. وإذا زدنا عليها ما يقوله صحفيون في هذا العهد، أي الكنت والكونت، وما ذكرناه بادجر في معجمه الإنكليزي العربي، الذي صححه الشيخ أحمد فارس الشدياق، أي القونت، مَثُلَ بين يديك رجل عربي ينطق بأربع عشرة لغة، فلله دره من لغوي بارع!
8 - الهنباط
قال في تاج العروس: (الهنباط، بالفتح، صاحب الجيش بالرومية. وقد جاء في حديث حبيب بن مسلمة: إذ نزل الهنباط ثم قال: هنا (أي في مادة هـ ن ب ط) ذكره ابن الأثير (صاحب النهاية)، وذكره الصاغاني في مادة (هـ ب ط) وقلده المصنف أي (الفيروزابادي) والصواب أنه بالنون. وقال في تركيب هـ ب ط: (الهيباط، بالفتح: ملك الروم. نقله الصاغاني هنا. والصواب أنه الهنباط بالنون). اهـ. وفي النهاية لابن الأثير المطبوع في مصر، ضبط الهنباط بالضم، وهو خطأ، لأنه مخالف لنصوص جمهرة اللغويين
وكان فكرنا في أول الأمر أن الهنباط مقطوعة من الرومية (إنبراطور)، لكن نبهنا

الأستاذ الأجل إلياس قدسي إلى أن الكلمة من اليونانية (هُبَاطُس)، وأول معناها: الأعلى والأرفع، ثم أطلق عندهم على الرئيس الأعلى؛ أي ما يسميه الرومان (قنصلاً). وكان يرد بالهنباط يومئذ لقب أحد الحاكمين الأعظمين اللذين كانا بديوان رومه. وجاء الهيباط بعض الأحيان بمعنى قنصل الإقليم، وهذا كان يسمى باللاتينية برو قنصلاً. وكان الهيباط يلفظ في أول الأمر (هُبَاط) وزان غراب، ثم (هِباط) بكسر الأول ككتاب، ثم صحفه بعضهم فقال (هَيباط) بياء مثناة بعد الهاء. وآخرون قالوا (هنباط) بنون بعد الهاء. فالمادة الأصلية هي (هبط) وكان يجب على اللغويين أن يذكروها في هذا التركيب الثلاثي لا في سواه

وأصل اليونانية (هفاطس) (هُفامس)، أي أن اللفظة في أصل وضعها القديم كانت بالميم،

ثم قلبت تاء أو طاء. قلنا: فإذا جردنا الكلمة من زوائدها، يكون لنا (هفا) أو (عفا)، لأنه ليس في لغة اليونان حرف حلقي فخم، فعندهم الهاء والعين شئ واحد، والعرب تقول: عفا فلان على فلان في العلم وغيره زاد. واسم الفاعل عاف والجمع عُفاة. فالهباط أو العفاط هو العافي لا غير في أصل معناه، المشرف على غيره بالعلم أو بالرئاسة

وقلب الميم تاء أو طاء في العربية واقع وقوعه في اليونانية. فقد قال بنو عدنان: حات يحوت بمعنى حام يحوم، وقالوا: الغطس كالغمس، ورجل أطرط الحاجبين كأمرطهما، وجعل الهاء عيناً، وبالعكس أمر مشهور أيضاً لا يحتاج إلى تأييد، من ذلك قولهم: تربع السراب وترية، وعاث فيه وهاث، والهنشنش كالعنشنش، والهكوك كالعكوك والهجفة من النساء كالعجفة. فاتضح من هذه المقابلة أن اللفظين هما واحد في الأصل، وهذا عجيب غريب!

(له صلة)

الأب أنستاس ماري الكرملي

من أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية

من الأدب النسائي

من مذكرات مطلقة

للسيدة الفاضلة (ليلى)

(إذا قسا قلب الرجل ومات ضميره فلن تجد الرحمة سبيلاً إلى قلبه، وهيهات أن يرد إليه الشعور أنه سارق، وفي بعض الحالات قاتل. يعطي باليمنى ويسلب باليسرى، ويغتصب الروح الهانئة لتحل الشقوة ويدب التلف إلى القلب النابض فيخفت. أيها الإنسان العابث! أما عرفت أن هناك إلهاً بالمرصاد؟)

أذلك حلم أتخيله، أم هي الذكريات تطوف برأسي كما يطوف النحل بخلاياه لها أزيزه وطنينه، ولكنها لا تنتج العسل ولا فيها شفاء للنفس ولا للناس؟ لقد كادت صرخة الجوع تفلت من بين شفتي، ولكنها في سجن من الإباء وقيد من الكبرياء! لقد سمحت للدموع أن تطفئ أشجاني وتبرد نار أحزاني، ولقد هتفت بوحدتي أن أسبلي على ستارك، ولا تمتعي بآلامي مهجة الشامت، حتى تستقر نفسي، ويعاودني كسابق الأمر أنسى، وهيهات. . . فالقلب قبر صامت يحمل رفات الذكريات! لقد نسى الغادر كؤوس الهناءة التي سكبتها له بيدي، وألوان السعادة نعم بها في جواري، وجنة البيت تضفي عليه النعيم. . . نسى الصدر الرحب الذي وسع أنانيته، والروح التي خلقت فيه عبقريته. . . نسي الحنان يرتع في جنباته، والحب الخالص يرعاه في غداوته وروحته. . . كانت حياتنا معاً مثلاً عالياً للوفاء، فبرهنت الأيام على أن ليس لحال بقاء. . . نسى كل شئ، وبرم بعشرة السنين الطويلة. لم يرحم الإحساس المرهف يجرح بسكين الصد والهجران؛ ولا الآلام تخترم الجسم الرقيق كالنبال، ولا النفس العالية يسهمها الخسف والهوان؛ وطغى كالسيل الجارف يهد من جسر الآمال، ويذيب الأماني ويفرقها في صميم الأوحال! أستبدل بالمرحلة السعيدة التي قطعناها،

أخرى شيقة ما ألفناها، تبدل وتغير من ربيع زاهر ضاحك إلى خريف مجدب ماحل، ثارت النفس لهذا الاختلاف، ثم جاء وقت الحساب، فما أجدي تفاهم ولا عتاب. افترقنا،

هو سادر في غلوائه، وأنا قلبي تائه في بيدائه، وحملت نفسي أشلاء ممزقة وهي حائرة مبعثرة، وصرخت في وجه القدر: أنا صابرة صابرة، وعلى تحدي غدره قادرة! أشحت بوجهي حين تقدم إلى بالمساعدة، حتى حقوق رفضتها معاندة، وخرجت من بيته مرفوعة الرأس. وهناك في غرفة حقيرة الأثاث انطويت على نفسي بعيدة عن الناس، أبيع الحلية أسد بها الرمق، أغالب حالات الضيق والقلق، وأطارد شبح الذكرى حتى حقرت في نظري الحياة. وما هي ذي نفسي تستمرئ هذا العيش الجديد، بالرغم من بعده عن كل تغيير وتجديد. بقى فضول الناس، فهم بمعرفة حقيقتي مولعون؛ يعجبون لوحدتي وانفرادي، ويتساءلون عمن أحب وعمن أعادي. لم يبق غير الجبل أسارع إليه لأدفع عني شر الإنسان، ولا بد انه ملاحقي في كل زمان ومكان. إني أحسن جوارهم، ولكن لا أحب حوارهم. آنس بالوحدة وأرى فيها عالم من نور، وأوقن أن ما يصيبنا في كتاب مسطور. درأت عن نفسي فتنة الدنيا بهذا الاحتجاب، وكأني سائحة طال عليها الاغتراب. رأيت السلوان في مصحفي وكتابي، وناشدت الله أن يجزل ثوابي؛ حتى إذا اجتزت المحنة في ثبات. أخذت أفيق من غمرة ذهولي وأقول: حياة كالعدم، شئ غير معقول. . . لم لا آخذ من دهري بنصيب، وأستبدل حبيباً بحبيب؟ صحت وقد نفضت عني حياة العدم، فليس في صفحتي ما يوجب اليأس والندم: أشرقي يا نفسي في جوانب صدري. هأنذى لا زلت شابة فتية. . . لم تكونين يا نفس ضحية الأحزان ونعيم الوجود يبدو أمامك؟ انشطي وأفسحي المجال لروحك، وضمدي بالسرور شتى جروحك. . . ما ضرك لو تعرفت بهذا وذاك. . .؟ أليس لأسير الأسى من فكاك؟ أيقضي علي بالقسوة والحرمان، وسواي يلهو مع الصحب والخلان. . . إن ظهري لا يحتمل وقر السنين، ولا يرضى بشقاء العيش غير المجانين! لقد لقيت جزاء الإخلاص، وأفلست من حبه أيما إفلاس، ولكني سأتناول بيدي كؤوس النعيم، وأطرح همي الدائم المقيم. نحن بني آدم كالأعاصير نثور ونهدأ، وما نحن ألا قصة أو حديث في أساطير، ومهما طال بنا الأمد فسيجرفنا الفناء. وسنجد أن الحياة لم تكن تستحق العناء، فلنشرب من

وردها الصافي. إني احبها وعلى رأسي تاج من الشرف يلمسه من جهلني ومن عرفني. أحبها في أحضان السمعة الطيبة والكرامة، ولا ينقصها وخزة ضمير ولا ندامة. فاللهم اهدني السبيل، واكفني شر القال والقيل. كيف أناضل للعيش وحيدة، وأنا بمعرفة أساليب الناس بعيدة؟ وا خيبتاه أن وقعت في الحبالة، ولم يبقى في مصباح عقلي زبالة. اللهم خذ بيدي فلست أريد إلا أن أخرج عن جمودي وأشعر بكياني ووجودي. هأنذى أفتح النافذة وأتلقى نظرات جاري متحفزة. قال: عمي مساء! قلت: عم مساء! قال: يظهر أننا في الوحدة سواء. لم تنفرين من المجتمع، أما من أقارب أو أصدقاء لك في هذا البلد؟ قلت وجدت الخير في صحبة الكتاب، بعد أن تقطعت بيني وبين صاحبي الأسباب. أما البنون فالحمد لله الذي رفع عني عبئهم، ولم يشأ أن أتحمل ذنبهم. قال يا لك من مسكينة! لا بد أن تكون حياتك موحشة قاسية، وماذا يملأ فراغك؟ ما ضرك لو نكون صديقين؟ فكانت إجابتي بسمة ساخرة، وكنت في تحويل دفة الحديث ماهرة. ثم أقفلت النافذة بغير تحية، وأنا أقول: خاب فألك! لن أكون مرة أخرى ضحية

دخلت على جارتي ودعتني للزيارة، فلم أشأ أن أعارض، وجلست إليها أستمع هراء في هراء، ولا أدري أن كان حديثاً أو مواء. لقد حاولت الإفصاح، وأخذت تستدرجني لأقص عليها واقعة حالي، وأنبئها بآلامي وآمالي. فقصت عليها أمري باختصار، فأضهرت لي أنها من خيرة الأنصار، وأخذت تلين ملمسها كالحية الرقطاء، على صورة لم يخف ما بها من دهاء. وبرغم تظاهرها بالبذخ واليسار شعرت باحتقارها. ثم خرجت من لدنها وبيني وبينها هوة سحيقة. لقد تجرعت الساعة التي قضيتها معها ككأس مرة المذاق، وقد عزمت وأكدت العزم ألا يكون بعدها تلاق

خرجت اليوم في الطريق، من غير ما صاحب ولا رفيق، فآخذتني النظرات السافلة، ورحت أتعثر بين السابلة. أخذت سمتي إلى ملهى من الملاهي، وأنا أقول أسألك العصمة يا ألهي. رأيت نساء يرقصن شبه عرايا، ونفوسهن تشف كالمرايا، ليس لهن هدف غير الرجال، وسلب ما يقدرن عليه من مال. أما الحب الذي يتظاهرن به فما هو إلا خداع وإغراء، قد جاز على عقول هؤلاء التعساء. كانوا يلتهموهن بأنظارهم التهاما،

ويظهرون جوعاً وهياماً. والنساء يتدللن والرجال يتعللون، وكل بدوره يحيك الشباك، ويبحث عن
ضالته هنا وهناك. وبدلاً من أن أسر بالأنوار الساطعة والموسيقى الصاخبة، شعرت كأني أريق ماء وجهي، وأن الشيطان واقف وراء ظهري وأمامي ينفث من روحه في تلكم الأنغام؛ فأسرعت بالفرار من هذا المكان، أنشد في وحدتي الطمأنينة والأمان.
(ليلى)

سليمان فوزي

دمعة مكبوتة على فقيد عزيز

للأستاذ صالح علي عيسى السوداني

أي أستاذي وصديقي سليمان فوزي!

لقد كنت في حياتك بي مرحبا حفيا، وهاأنا قد أصبحت اليوم بموتك شقيا. . . لجأت إلى الدموع فلم تسعفني من شدة الحزن. . . وشر الدمع ما كان عصيا. . . واقتل الحزن ما كان مكتوبا دفينا

وما قَّصرت في جزع ولكن إذا غلب الأسى ذهب البكاء

أي سليمان! فما اعظم مصابي بك! وما اشد حزني عليك!

إلى الله أشكو لا إلى الناس أنني ... أرى الأرض تبقى والأخلاء تذهب

أخَلاي لو غير الحِمام أصابكم ... عتبت، ولكن ما على الموت معتب

اتصلت بالمغفور له سليمان فوزي منذ نيف وعشرين سنة فألفيته على جوانب عظيمة من المروءة والشهامة والنجدة والإخلاص لإخوانه، والاستخفاف بالشدائد والاعتداد بالرأي والاعتماد على النفس والاستهانة بالمال ينفقه في سبيل أداء الواجب نحو وطنه وأبناء وطنه وإخوانه وزملائه، إذ كان يؤثرهم على نفسه، ويا طالما كان يضيق على نفسه ليوسع على العافي المعوز من أصدقائه الذين اتصلوا به

ولقد لازمت الفقيد - رحمة الله - في كثير من أوقات الشدة والمحنة داخل السجن وخارجه، فكان القدوة ومضرب المثل في الشدائد مع الرضاء. . . كان يقابل النكبات بابتسامته الساخرة والتهكم المحبب إلى ذوي النفوس القوية، فإذا حاولت أن تسري عنه أو تهون عليه سرعان ما كان يقف منك موقف المسري المخفف لما حاولت أن تهونه عليه! مزدرداً البلوى النازلة مهما عظمت، والنكبة الطارئة مهما كبرت، بتلك الكلمة التي يتخذها شعاره وهي: (ربنا يستر). كان يقولها في المواقف الحرجة التي ترتعد فيها الفرائض، والمواطن الخطرة التي تنخلع لها القلوب وتذهب شعاعا. ولا عجب، فقد كانت تتجلى في الأستاذ سليمان فوزي جميع صفات الشجاعة بأجلى ما في كلمة الشجاعة من المعاني، إذ كان يمضى قدماً إلى الغاية التي كان يتوخاها بنقده، والهدف الذي كان يرمي إليه بحملته

الصحفية، لأنه كان يقدس عمله الصحفي، وكيف لا، وهو الذي كان يضحي في سبيل أداء الواجب الصحفي براحته ومكسبه وصحته! ولا جدال في أنه لم يستطع حاكم بسطوته وجبروته أن يرهبه أو يخفيه أو يحمله على العدول عما كان يعتقد محاربته لزاماً. ولم يستطع زعيم أو متزعم مهما بلغ من قوة نفوذه أن يثنيه عن المضي في عمله الصحفي ناقداً أو داعياً إلى الفكرة

وكان الأستاذ سليمان فوزي (أنموذجاً) ومثالاً وصورة ناطقة لجيل من رجالة الصحافة في مصر الذين احتواهم أعنف عهد من سني الحركة القومية والنهضة الفكرية. ولا مريه في أن فقيد الصحافة كان ن ابرز الشخصيات الذين قام على أكتافهم إعلاء شأن الصحافة في مصر، كما في طليعة أولئك الذين خلقوا للصحافة نفوذاً يخشى تجاهله ويعمل حسابه. . . ولكن سليمان انفرد بذلك الطابع الخاص في النقد السياسي اللاذع والتهكم المرير على سياسة وأنانية كثيرين من المتزعمين الذين اتخذوا الاشتغال بالسياسة حرفة ووسيلة لإشباع بطونهم الجائعة، وملء جيوبهم الخاوية. وبعبارة أخرى، كان سليمان في مقدمة أولئك الذين كشفوا للأمة - في شجاعة - خبايا نفوس بعض المتزعمين، وأبانوا للناس حقيقة وطنية المتجرين بالسياسة وعواطف الأمة

وكان من صفات الأستاذ سليمان فوزي المبادرة إلى معاونة كل صحفي إذا ألمت به ملمة حتى لو كان هذا الصحفي من خصومه في الرأي الذين قاومهم وقاوموه - على أني لم أر للراحل الكريم ضريباً في بذل الجهود لمعاونة إخوانه في أوقات شدتهم.

وأني لأكتفي بذكر القليل من المروءة التي كانت تتجلى في الأستاذ سليمان فوزي نحو خصومه من رجال الصحافة والسياسة
لما قبض على الأستاذ الكبير محمد توفيق دياب في قضية سياسية (كيدية) وكان قد أستشهد بي ضد الكاتب الكبير بعض الذين كانوا يأكلون لقمتهم مغمسة بدماء الناس. وبالرغم من أن الأستاذ سليمان فوزي كان يخاصم الأستاذ الكبير توفيق دياب ويقاوم السياسة التي كان يروج لها، فإذا به (أي الفقيد الكريم) يسرع في مقابلتي - بمجرد أن علم بإلقاء القبض - ليذكرني بواجب الرجولة نحو رجل من حملة الأقلام - ولم أك ناسياً - وقد طالبني أن أقف في صف الأستاذ الكبير توفيق دياب وأن أكون له لا عليه في وقت شدته، على أن نستأنف مقاومة رأيه السياسي بعد إطلاق سراحه. وقال: أما وهو رهين السجن فلنقم نحوه بما يفرضه الواجب على الرجال. قال ذلك، ثم أخذ يسعى لدى الدوائر الرسمية طالباً أن يعامل الأستاذ توفيق دياب في سجنه معاملة ليق بمكانته كأحد قادة الفكر في البلد
إذن لست مبالغاً إذا قلت أن المغفور له الأستاذ سليمان فوزي كان ينفرد في بيئته بالمروءة والشهامة والنجدة والشرف في الخصومة وتناسي الأحقاد وقت الشدائد. . . فهل قام إخوانه بالواجب نحو رجل كان يقوم بالواجب طوال حياته. . .! لعل الجواب لدى الأستاذ الهيهاوي والأستاذ محمود أبو الفتح وغيرهما
ولقد كان الأستاذ سليمان يقدم حيث يحجم غيره! كان قوياً في مواقفه الوطنية، كما كان يجامل أنداده ويلاطف من دونه، يشيع جائعهم ويكسو عاريهم. . . وقد كان رجلاً فوداعاً يا رجل!
صالح علي عيسى السوداني
ليلة قمراء
للأستاذ العوضي الوكيل
جلستُ أنَاجِي ضِيَاَء القَمَرْ ... وأنْهَلُ أحلامَهُ بالنَّظَرْ
وألمحه بِشِغَافِ الفؤاد ... واشهده بعميق الفِكَرْ
سَرَى في المشاعِرِ سَيرَ الخَيَال ... رَضِيَّ الهدوء، جَمِيلَ الأثرْ
يطارحني خلجَاتِ الشعور ... ويَشْدُو وإن لم يَكُنْ ذا وَتَرْ
فأسمعه ملءَّ هذا الوجودِ ... ما بَانَ أفقه واستَتَرْ
نديَّ الجبين، لدى الشعاعِ ... حَيٌّ تلقُّته، ذو خَفَرْ
ضَحَا الكون يا ليلتي وابتدَرْ ... ورقْت عشياته والسَّحَرْ
ألا فاقبسي من سَنيَ ما انتَهَيْتِ ... وصونيه في كَنزِكِ المدّخَرْ
تَمَلّىْ مسارحَ مَن الجمالِ ... منتظراً سحرُها من نَظَرْ
رياضٌ من النورِ نسي العيون ... فَأينَ الغصون وأينَ الزّهَرْ
جلست وفي جانبي من أحِبُّ ... يأمرني أن أجيلَ البَصَرْ
ويطلبُ مني رقيق النشيد ... يخَلّد حيناً علينا عَبَرْ
أما كان يعلمُ أن سناه ... مَعَانٍ لديوانِيَ المنتظَرْ
يدلَّ عَلَيّ وما ينثني ... ولكنه ما نأى أو هَجَرْ
قديمُ - لعمرك - دلَّ الحسان ... ألا ليته طاف مُبْتَكَرْ
ألا ما النشيد وما سحرُهُ ... لدى وجهكِ العبقريّ الأغَرّ
معانيه أخلدُ ما في الوجود ... إذا ما انطوى غيرها وانْدَثَرْ
نَمَتْ واستطالت أقانينُهَا ... ولم تبْقِ من روعةٍ أو تَذَرْ
فرحتُ أصلّى لدى سحرها ... وأحبِسُ للصلواتِ العُمُرْ
وأفنى حياتي. . . فناء البقاء ... وأنفى عن الروح هذا الضّجَرْ؟
سرى البدرُ في غفوة من منىً ... ففي أيّ حلمٍ وضئ نَضِرْ؟
تعالي لنوقظه من سُبَاتٍ ... ونترك آلامَنَا تُحْتَضَرْ
العوضي الوكيل
مختارات من مراثي الشعراء
في المرحوم فؤاد بليبل
من قصيدة الأديب محمود السيد شعبان:

إلى الشاطِئ المجهولِ قد سارَ زوْرَقٌ ... يَشُقُّ عُبَابَ الغْيبِ سهْماً مُسَدَّدَاً
عَلَى مَتْنِهِ مَلاَّحُهُ وَبْحَكَ اتَّئِدْ! ... فإنَّكَ مَا أدْرَكْتَ مِنْ عُمْرِكَ المَدَمي
تَعَوَّدْتُ أَنْ أَلْقَاكَ بِالبِشْرِ دَانِياً ... فهأنذَا ألقَاكَ بِالدَّمْعِ مُبْعَدَا
وَما كلُّ مَيْتٍ خَالِدٌ غَيْرَ أنَّني ... رَأَيْتُكَ فِي الأَمْوَاتِ حَيَّاً مُخَلَّداً
فُؤَادُ! لقَدْ آبَ الرَبِيعُ وَلَمْ تَعُدْ ... وَمَا ضَرَّ لوْ أَسْدَيْتَ بِالعَوْدِ لِي يَدَا؟
عَرَفتُكَ سَبَّاقاً إلى كلِّ غَايةٍ ... فَهَلْ كنْتَ تَهْوَى السَّبْقَ حَتَّى إلى الرَّدَى؟
مَشَوْا بِكَ فِي حَشْدٍ وَفِيٍّ مُوَدَّعٍ ... فأبْكَمْتَ مَنْ غَنَّى وَأَبْكَيْتَ مَنْ شَدَا!
شَقِيتَ زَمَاناً فاسْتَرِحْ، طِبْتَ مَرْجِعاً ... وَطَابَ لَكَ الفِرْدَوْسُ مَهدْاً وَمَرْقَدَاً!
رَجَعْتَ إلى الأرضِ اليَبَابِ فَقلْ لها: ... دَعِينِي أعِشْ لِلنّورِ وَالحُبِّ سَرْمَدَ
رَوُيْتُكِ مِنْ شَعِري فلم أبْقِ بَلْقَعاً ... عَلَى ظَمَأٍ يوماً وَلَمْ أبْقِ فَدْفَدَاً
وَنَصَّرْتُ بالأحْلاَمِ رَوْضَكِ مُنْشِئاً ... وَأطْرَبْتُ بِالألحانِ طَيْرَكِ مُنْشِداً
وَبَارَكْتُ فِيكِ الحُسْنَ وَالطُّهرَ وَالهوَى ... وَأبْدَعْتُ مِنكِ الحَقَّ والخَيْرَ وَالهُدَى!
وَصُغْتُ قَرِيضي مِنْ شُعُوري وَمِنْ دَمِي ... وَمَا كُنتُ في يَومٍ لِغَيرِي مُقَلِّداً
فما لَكِ قَدْ غَيَّبْتِ في التُّربِ هَيْكَلِي ... وَلَم تَحْفَظي عَهْداً وَلَمْ تَحْمَدِي يَداً؟
ومن قصيدة الأستاذ محمود غنيم:
استقبل الناس الربيع بموكب ... ومضى أحبائي فرحت أشيِّع
الزهر ينفح فيه إلا زهرةً ... منثورة الأوراق لا تتضوع
والطير يسجع فيه إلا بلبلاً ... تحت التراب موسَّداً لا يسجع
كمَّ الرَّدى فَمَهُ وكان إذا شدا ... في الأيك راح فم الزمان يرجِّع
لم يبق من نغماته إلا صدى ... كالنزع في أذني يرن فأفزع
يا أيها المرح الطروب تحيةً ... أتُراك تلهو في الضريح وترفع؟
قد كنتَ تبسِم للحياة: شقائها ... ونعيمها، بكليهما تتمتع
تتزلزل الدنيا وقلبُك فارغٌ ... مما يزلزلها وجامك مترع
ما كان يَنْقُصُك الشعور بوخزها ... بل كنت عن آلامها تترفع
أسرعت في قطع الحياة كأنما ... هي حَلْبَة فيها يفوز المسرع
يا ساكن الصحراء هلا خُطّ في ... ظل الخمائل والربا لك مضجع
أدمى فؤادي إن نجمك قد هوى ... إذ راح يأخذ في الظهور ويلمع
فاجأت أندية القريض بكوثر ... لم يعرفوا من أي عدن ينبع؟
ما كان لأسمك رنةٌ لكنهم ... وجدوا لشعرك رنةً فتتبعوا
شعر صريح في العروبة محكم ... لا معجم واهي النسيج مرقع
البريد الأدبي
إلى الأستاذ الكبير (1. ع)
السلام على سيدي العلامة الأستاذ الكبير الكريم ورحمة الله وبركاته. . . وبعد، فرأى الأستاذ - أدام الله نفع الناس بطول بقائه - في أمر (الإرسال) هو الأعلى؛ ولا ريب في أن إرسال الريح الصرصر والحاصب والصيحة والعذاب - تسليط وعقاب، وكذلك إرسال الكلب والصقر على الصيد (المسكين) عند أبي العلاء والبراهمة والمنصفين من الآدميين. . . غير أن هذا الضعيف لا يرى في الإرسال إلا معناه الظاهر أي ضد الإمساك (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسل له)؛ ويرى التوجيه مثل الإرسال (وجه إليه كذا أرسله)، كما في اللسان (وجهه في حاجته توجيهاً أرسله فتوجه جهة كذا) كما في التاج؛ وترسل النعم (يرسل السماء عليكم مدراراً) كما ترسل النقم (ويرسل عليها حساباً) قال الراغب في (المفردات): (الإرسال يقال في الإنسان وفي الأشياء المحبوبة والمكروهة)، فتختلف الإرسالات كما يختلف المرسلون والمرسلات. . . والإرسال حقيقة كما روى الأستاذ عن الأساس: (أرسل كلبه وصقره على الصيد) ومجاز كما روى - أيده الله - عن ذلك الكتاب (أرسل الله عليهم العذاب) والآية الكريمة التي استشهد بها التاج - ناقلاً من اللسان؛ والتسليط قول الزجاج - وأوردها الأستاذ فيما روى من كلامه وهي: (ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً) وقد تشعبت في معنى الإرسال فيها أقوال لغويين ومفسرين - والأستاذ أعلم مني بذلك - والإمام ابن جرير يقول في تفسيره: (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ألم تريا محمد أنا أرسلنا الشياطين على أهل الكفر بالله

تؤزهم، يقول: تحركهم بالإغواء والإضلال، فتزعجهم إلى معاصي الله وتغريهم بها حتى يواقعوها. أزا: إزعاجاً وإغواء)
ولو لم يوجه الله الشيطان إليهم أو يسلطهم عليهم أو يخل بينهم وبينهم لطاروا إليهم من تلقاء أنفسهم، لأن عملهم في هذا الدنيا - وهذا (قضاء من الله العزيز أراده) - إضلال الكافرين وغير الكافرين وإفساد جميع الأناسين (إلا عباد الله المخلصين)
وأرسل في ختام هذا الكلام إلى سيدي العلامة الأستاذ الكبير الكريم - مد الله في عمره - خير تحياتي
* * *
عثمان زناتي
تفضل الأستاذ الكبير (ا. ع) فصحح الخطأ الذي وقعت فيه حين تحدثت عن أحمد زناتي وأنا أريد عثمان زناتي
وأقول إن ذلك الخطأ كان نعمة عظيمة. فقد أوحي إلى هذا الأستاذ الكبير كلمة من أطيب الكلمات في التعريف بأخوين كان لهما في خدمة اللغة والأدب والتعليم مكان مرموق
ذلك خطأ وقعت فيه سهواً، فكان من آثاره أن ينتفع القراء بتلك الكلمة الطيبة، وإلا فأنا أعرف أن الشاعر هو عثمان زناتي، وكذلك ورد اسمه في كتابي (الأسمار والأحاديث) ص 298 عند الكلام عما انتهب شوقي من معانيه الجياد
ولو ضمنت أن يصحح الأستاذ (ا. ع) جميع أخطائي لأخطأت عن عمد لأظفر بتلك النفثات التي تصدر عن باحث من أعاظم الباحثين
هذا، ولم أفهم من القول بان الشيخ عثمان زناتي كان من الشعراء الذين نبغوا في أواخر القرن التاسع عشر
فهل يكون معنى ذلك أننا انتقلنا من تاريخ الهجرة إلى تاريخ الميلاد؟
أرجو أن يتفضل الأستاذ الكبير (ا. ع) بالإجابة عن هذا السؤال، فأن لم يفعل فهو وحده الذي عاد يطرق باب (التجديف) وهي تورية أتحفني بها منذ أسابيع، فهي منه وإليه أدام الله عليه نعمة العافية والتوفيق والسلام
زكي مبارك
في تأبين المرحوم فؤاد بليبل
وكان أيضاً في تأبين فقيد الشعر المرحوم فؤاد بليبل ينادي لبنان مساء الأحد 11 مايو ظاهرتان تلفتان النظر، وتستوقفان الفكر . . .
أما الأولى فكانت روح الشباب في إبانة، وثورة الصبا في عنفوانه، فالمرثي شاب والراثون شباب. فلا جرم أن يكون رثائهم من شباب الرثاء إن صح ان يكون للرثاء شباب
ومن ثم كانت القصائد التي سمعناها في هذا الحفل تفيض بالحرقة والأسى. . . والحياة. . .
وما عرفت الفقيد ولا رأيته إلا في شعره، ولكنني والله ما تمنيت أن أرى مرثياً لم يتح لي لقاؤه، كما تمنيت أن أرى فؤاد بعد أن شفني رثاؤه. وهيهات
ولقد يكون من حسن التقدير أن نشير إلى قصيدة كانت (بيت القصيد) فيما سمعنا من القصيد، وهي قصيدة الأديب محمود السيد شعبان الدالية. . . استمع إلى حسن المقابلة في قوله:
فيا لك من حلم جميل قد انتهى ... ويا لك من حزن طويل قد ابتدأ
أو إلى قوله:
عرفتك سباقاً إلى كل غاية ... فهل كنت تهوى السبق حتى إلى الردى
أما الأخرى - وإن أغضبت صراحتها الرسالة - فقد زادتني إيماناً بأن الناقد الحق ينبغي أن يسمع الشاعر أو الكاتب خطيباً فيستشف منه ما لم يستشفه من قلمه، ويستشرف من روحه وصوته ونبراته، وموقفه وإشاراته ونظراته، إلى ما ينير له الطريق فلا يزيغ حكمه، ولا يضل قلمه
أيقنت أن قلم التحرير والتصحيح في الرسالة يعاني الأمرين في ضبط ما يرد إليها من قصائد الشعراء، وإلا فكيف نعلل هذا اللحن الشائن الذي كان يغيم على ألسنتهم خطباء؟ . . .

لقد أتيح لنا في هذا الحفل أن نسمع من يقول في شعره (عرفت ورجعت ووقفت) فلعلها لهجة عامية غلبت على الألسنة. . . وأتيح لنا أن نسمع من يقول (تهرب منا القوافي) و (أمسك القلم)، وأن نسمع من يقول (كان فؤاد عبقري النفس عبقري الروح) و (كان ابن الرومي ثائراً) ويكررها مرات. . .

ومن البلية أن خطيباً استشهد بقول الفقيد (المصلحون وليس فيهم مصلح) بالرفع وهو ضبط صحيح كما ترى، ولكنه حسب أنه أخطأ فأعادها (مصلح) بالجر. . .

أفبعد هذا نستبعد أن يكون لقلم التصحيح في الرسالة فضل كبير فيما نراه من ضبط صحيح؟. . .

فشكراً لمواقف الخطابة. . . إنها تبصرك بالأدباء فلتعرفنهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول.

محمد محمد رضوان

ربيع وجمادى

شاع - خطأً - وصف هذا الشهرين بما لم يعرف في اللغة فأحببت أن أنقل عن كتب اللغة وصفهما تنبيهاً وتصويباً؛ ولفت نظر الكتاب والمؤرخين؛ والرسالة الغراء - ومكانها في اللغة والأدب عالي الذروة - أسبق المجلات إلى الصواب والهدى

قال صاحب القاموس وغيره: والربيع ربيعان: ربيع الشهور، وربيع الأزمنة؛ فربيع الشهور شهران بعد صفر، ولا يقال إلا شهر ربيع الأول وشهر ربيع الآخر (بوزن الفاعل). وإما ربيع الأزمنة فربيعان: الربيع الأول الذي يأتي فيه النَّوْس والكمأة؛ والربيع الثاني الذي تدرك فيه الثمار. . .

وجمادي من أسماء الشهور معرفة مؤنثة وجمعها جماديات، وجمادي خمسة الأولى وجمادي ستة الآخرة.

طه محمد الساكت

مدرس بمعهد القاهرة

مذهب الفرد ومذهب الجماعة

أثار الأستاذ الكبير الدكتور زكي مبارك مناقشة في مقاله (الفرد أساس الجماعة). ولا ينكر أحد أن الفرد أساس الجماعة بمعنى أن الجماعة أفراد. لكن الأمة ليست أفراداً فحسب، بل هي أفراد اقتضى اشتراكهم في فوائد المجتمع أن يضحي كل فرد بشيء قل أو كثر. والمعضلة هي إلى أي حد ينبغي أن يضحي الفرد من اجل الجماعة. . .

ففي بعض العصور راجت فكرة من يقول: إن الفرد ينبغي أن يضحي بكل شيء إذا اقتضت فائدة الجماعة ذلك، وفي عصور أخرى راجت فكرة من يقول: أن الدولة التي أنشأتها الجماعة ينبغي ألا يتعدى اختصاصها النظر في أمور الأمن العام، وأنها ينبغي أن تترك كل فرد حراً في آرائه وإحساسه وميوله وأفعاله، ما دام لا يتعدى على غيره اعتداء يحرمه القانون؛ أما فكرة من يقول: إن الفرد ينبغي أن يكون في كل أمر خاضعاً للجماعة، فإنها تضحي

بحريات كثيرة، وقد تؤدي إلى تضاؤل الإنسان في فكره وإحساسه وعمله، وهذا التضاؤل مصيره تأخر الإنسانية؛ كما أن فكرة من يقول بمذهب صيانة أعظم قدر من الحرية للفرد قد تؤدي إلى كثير من الاختلال في الأمور الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وإلى التخاذل والتفرق والتباغض، وقد تؤدي إلى أن يضر الفرد نفسه بإساءة استعمال حريته الكبيرة. وهذا أيضاً مصيره تأخر الإنسانية لو دام هذا الأمر ودامت عواقبه. وقد كانت الفكرة السائدة بعد تأسيس الديمقراطيات الحديثة فكرة صون قداسة حرية الفرد لأن المفكرين وجدوا أن تدخل الحكومات قبلها لم يكن رشيداً ولا منتجاً نتاجاً حسناً. لكن تاريخ الديمقراطيات الحديثة قد أثبتت أن الأخذ بمبدأ الفرد أخذاً عاماً أدى إلى فساد كثير، وقد اضطرت الحكومات إلى رفضه في أمور كثيرة حتى في العهد الذي بلغ فيه غايته؛ فقد رفضته الحكومة الإنجليزية في القرن التاسع عشر بالرغم من إنها تقدس مبدأ الفرد، رفضته عندما تدخلت لحماية الأولاد والنساء والرجال في المصانع، وقد أدى الغلو في الأخذ بمبدأ الفرد إلى ضياعه وإلى قلة الثقة بالديمقراطية في بعض الأمم الأوربية، وإلى سقوط تلك الديمقراطية فيها، وإلى اضطرار الدول التي لا تزال تعتنقه إلى التفكير في أن تحده بتنظيم أمور الجماعة تنظيما لا بد أن يحد حرية الفرد وحقوقه، ولا شك أن هذه الحاجة إلى التنظيم ستزاد

بعد الحرب القائمة الآن. فهذه المسألة التي أثارها الأستاذ لا تحل إلا بمحاولة التوفيق بين المذهبين وتجنب ما في كل منهما من أضرار لا شك فيها؛ والبحث في كل أمر يراد به إنقاص حرية الفرد وحقوقه وفحص نتائجه وألا يكون تدخل الحكومة في أمثال هذه الأمور نتيجة العاطفة وحدها أو الحيرة من وجود فساد لا تدري علاجه فتعالجه بالعاطفة أو القهر أو الوسائل التي لا تؤدي إلى إزالته وإن خيلت أنها تؤدي

رشيد العسقلاني

أصل الفقر

كتب الدكتور زكي مبارك في (المصور) وفي (الرسالة) كلاماً كثيراً عن الفقر والفقراء، خلاصته أن الفقر ظاهرة فردية ترجع إلى انحطاط أخلاق الفرد. فليسمح لي الدكتور الفاضل أن أقول له في صراحة نافعة له جداً، إنه لو كان قد درس شيئاً من الاجتماعيات والاقتصاديات قبل أن يكتب ما كتب، لعلم علم يقين أن العلماء الاجتماع والاقتصاد في العالم كله قد أجمعوا على أن الفقر ظاهرة اجتماعية وليست فردية. وأن علة الفقر هي النظام الاقتصادي لا الأخلاق. فنحن عندما نبحث مشكلة الفقر في مصر مثلاً، لا نقول إن فيها أفراداً أغنياء وأفراداً فقراء. ولكننا نقول إن في مصر طبقات غنية وطبقات فقيرة. وهذه الطبقات الفقيرة - وهي الأغلبية الساحقة - ليست فقيرة لأنها منحطة الأخلاق كما يتوهم الدكتور. ولكنها فقيرة لأن النظام الاقتصادي السائد قد فرض عليها الفقر فرضاً. أرجو أن يعلم الدكتور أن الأخلاق هي أيضاً ظاهرة اجتماعية. فأخلاق الطبقات تتكيف إلى حد كبير جداً بالمستوى الاقتصادي لتلك الطبقات، أي بالغنى والفقر. ولم تكن أخلاق الطبقات قط، ولن تكون أبداً، سبباً من أسباب فقر الطبقات أو غناها

وغنى عن البيان ان هذا كلام مجمل يحتاج إلى تفصيل وإلى شرح طويل. ولكنى لا أنوي الآن أن أتولى هذا الشرح فليلتمسه الدكتور - إذا شاء - في مظانه، أي عند علماء الاجتماع والاقتصاد. فلو قد فعل لفهم المسألة على وجهها الصحيح.

ولأراح نفسه وأراح القراء من هذا الكلام الكثير عن مشكلة لم يدرسها ولم تتصل بحياته الأدبية المعروفة عن قرب أو عن بعد

عزمي الدويرى

الأرجي

سيدي الأستاذ الزيات:

ورد في مقالكم القيم (ما خلفته أثينا ورومة) العبارة الآتية: فتدفقوا في اللهو و (الأرْجي)، فرجعت إلى القاموس فوجدته يقول: الأرج والأريج والأريجة توهج ريح الطيب، والتأريج الإغراء، كالأرج والأرَجَان المغري، والأراج الكذاب، والمؤرج كمحد الأسد، ولم أجد كلمة (الأرْجي). فهل لسيدي الأستاذ الكبير أن ينفحنا بنفثه من يراعه السيال في معنى هذه الكلمة، وله جزيل الشكر

حسن محمد عويس

روافد الأدب العراقي

طلعت علينا أميرة المجلات للعربية - كما سماها الزهاوي - في عددها (رقم 404) بمقالة للدكتور الأستاذ زكي مبارك، حول (الأدب العربي الحديث في العراق)، وقد أكبرنا له جرأته وتجشمه الصعائب، وكتابته عن أدبنا الحديث الذي لم يكتب له تاريخاً يقرأ، وقد ذكر - حياه الله - ثلاثة روافد للأدب العربي العراقي هي: الأدب التركي والفارسي، والأدب المصري؛ وقال عن الأدب المصري: ((ص 375). . . أما اتصال العراقيين بالأدب المصري فهو أقوى من اتصال المصرين بالأدب المصري وقال أيضاً: (ولن يمضي زمن قليل حتى يكون من الصعب أن نجد اختلافاً جوهرياً بين أساليب الشعراء والكتاب في مصر والعراق. . .). ويخيل إلي أن الدكتور نسى رافداً رابعاً وهو الأدب السوري الأمريكي، وإن أراد الدكتور أن أذكر له كتابنا الكثيرين الذين اقتفوا أثر (جبران خليل جبران) و (أمين الريحاني) و (ميخائيل نعيمة)؛ فأنا على قدم الاستعداد؛ وهم في السنين الأخيرة اتصلوا بالأدب المصري، اتصال محكماً - كما يقول الدكتور - ولكنهم لا يزالون متصلين اتصالهم القديم بأدب سورية في المهجر

محمود العبطة

تصويب
وقع تحريف مطبعي في بيتين من قصيدة الأستاذ محمد مصطفى الماحي في رثاء المغفور له محمد مسعود بك، وصحة الأول:
ما العلم مجد إذا لم يحمه خلق ... ولا الإخاء على حقد بمضمون
وصحة الثاني:
لم ينج في مسبح الأفلاك معتصم ... من البلاء ولا في مسبح النون
نداء الصخرة
هذا الاسم لمجموعة قصصية مصرية، أصدرها الأديب القصصي الأستاذ شعبان فهمي، وهو من نوابغ شبابنا القصصيين؛ وقد تجلت مقدرته القصصية في روايته الطويلة (وجيدة) التي أخرجها في مثل هذه الأيام من العام الماضي
وهذه المجموعة التي نحن بصدد عنها، تحوي ستة أقاصيص مصرية، ومسرحية واحدة عنوانها (من السما)
وهذه الأقاصيص كتبت بأسلوب عربي جيد ممتع، غير أنك تقع في أثناء الكتاب على بعض الهنات اللغوية وهي قليلة جداً. وأرى أنها من المطبعة أكثر منها راجعة إلى قلم الكاتب. وتجد واحدة من قصصه كتبت بالعامية الدارجة، كذلك كتب مسرحية باللغة العامية
والكاتب شديد الولع بالشقراوات من النساء، فبطلات أقاصيصه كلهن شقراوات، وفي هذا تكرار للصورة الواحدة، في قصص مختلفة، في مجموعة واحدة. والحق أن هذه الصورة المتكررة بعثت في نفسي شيئاً من الضيق؟ كذلك نرى الكاتب يغرم بمشرب واحد من المشارب العامة في الإسكندرية كلها. فكلما أراد أن ينقل شخوص أقاصيصه إلى مشرب عام نقلهم إلى (كارلتون)، كأن الإسكندرية خلت إلا من (كارلتون)
والأستاذ كتب قصة الأميرة الراقصة في شكل يوميات، وقد وفق في ذلك. وهو يبث في قصصه فكرات اجتماعية عميقة ويحلل بعض نواحي مجتمعنا المصري في الطبقات الوسطى والمترفة، كما أن له قدرة في الحبكة القصصية، ولم أطراف الموضوع، والتسيطر على قلمه، وفي قصصه وحدة فنية، فالفكرة الأساسية واضحة بارزة
ومسرحية (من السما) لم أستطع أن أسكت على بعض حوادثها، فهي عندي مفتعلة، وليست صادرة عن منطق الحياة. فهو يظهر فيفي وهي التي بلغت السادسة عشرة من عمرها في مظهر ساذج. وأرى بعض الوقائع تبعد عن الواقع، ولا سيما إذا لاحظنا أنها تقع في مصر، بل وفي صميم الريف
ولا يسعني ألا أن أهنئ الأستاذ شعبان فهمي بهذا التوفيق
(القاهرة)
إبراهيم أحمد أدهم
العدد 412 - بتاريخ: 26 - 05 - 1941
مثل الغني الصالح
أنا لا آلف بني قارون بحكم مَرْباي ومَحْياي وطبعي. لا آلفهم لأن فيهم شموخاً على الناس لا يدري أحد ما سببهُ، لا هم آلهة فيرزقوا، ولا هم أناس فيحسنوا؛ إنما هم صِنف من خلق الله إلههم الذهب، ومعابدهم البنوك، ورسالتهم أن يظلموا أنفسهم بالشح، ويظلموا غيرهم بالأثرة.
حبسوا مُشاع الرزق في خزائن من الحديد ومخازن من الاسمنت؛ ثم جعلوا عليها أقفالاً من صنع الشيطان لا تنفتح إلا لتأخذ؛ واستغلوا ما ركب الله في طباع الناس من تقديس المال وتمجيد أهله؛ فجعل لهم نفوذاً في الحكم، ورأياً في التشريع، وسلطاناً على العامة. وكان من وراء جشعهم وشحهم وأثرتهم وسلطتهم ودالّتهم أن اختلت موازين الخير، وتكدرت مجاري النعمة، واحتكرت منابت الرزق؛ ووجد الضعيف مجاله الحيوي ضيقاً فاضطرب فيه، وحظه المقسوم مغتصباً فسكت عنه؛ ومِن هنا نشأت مشكلة الفقر وما نجم عنها خلال القرون من نظم وأحكام وعظات ومقالات وثورات وحروب.
ما رأيت قارونياً إلا ملكني نوع من الشعور يحسه من يلقى سجَّان النعمة وحابس القوت وغاصب الحياة. وكان في مقدور كل غني أن يكون رسول سلام وملاك حب لو

أنه فقه معنى الدين، وفهم حقيقة الإنسان. وإن اللذة التي يجدها الغني البَرُّ حين يرى صنائعه يرتعون في معروفه ويستظلون بجاهه، لأصدق وأعمق من اللذة التي يدركها الغني الفاجر حين يرى ضحاياه يغمسون خبزهم في الدماء والدموع والعرق.

على أن التعبير باللذة عن ذلك الشعور الآثم الذي يجده الغني اللئيم في بؤس الناس فيه تجوَّزٌ لجهلنا اللفظ الذي يطلق على هذا الوجدان في هذا الحيوان. وبحسبي أن أضرب لك مثلين: رجلين أحدهما فاجر والآخر بَرٌّ، لتدرك بنفسك الفرق بين أثر الغني في قلب دجا فيه الكفر، وبينه في قلب أشرق فيه الإيمان.

عرفت من لئام الأغنياء رجلاً وصفته منذ عامين لقراء الرسالة فلا أسميه؛ وكان مما أملاه لسانه على قلمي قوله:

أفرط عليَّ الغنى حتى غطى على بصيرتي وبصري، فلم أعرف أن لي ديناً له حرمة، وزوجة لها حق، وأولاداً لهم رعاية. وعشت لنفسي، بل لمالي: أقضي النهار له وأسهر الليل عليه، حتى كرهتني أسرتي، وحقَرتني عشيرتي، وسئمتني حياتي. وأصبت بمرض عُقام برى عظام ساقي وفخذي فلم أستطيع المشي ولا النهوض. واستولى ولدي البكر على مفاتيح الكنوز وأضفى على نفسه وزوجه وأمه وأخواته الذهب والحرير والنعيم والأبهة، وتركوني سطيحة في حجرة منعزلة لا يدخلها علي إلا الخادم بالماء والثريد والقهوة. ولا أدري لماذا استعرت في نفسي اليوم شهوة الأكل ورغبة المتاع، فأنا أشتهي كل شئ، وأبتغي كل شئ، ثم أنظر في يدي الجمَّاعة الكسوب فإذا هي معروقة كيد المسلول، فارغة كراحة السائل؛ وأدور بعيني في الحجرة الموحشة فأرى أطياف اللذين فجعتهم في أموالهم وآمالهم تخفق على الجدران ساهمة حزينة، فأتذكر كم مدين أغرقت، وكم بيت أغلقت، وكم قلب سحقت، فتنهلَّ مدامعي انهلال القَطر على خدي الغائر الشاحب، وأتمنى لو تعود قدرتي على ثروتي فأمحص خطاياي بإنفاقها كلها في سبيل الله؛ ولكن هيهات هيهات لما أرجو! لم يبق لي منها إلا حريق القلب في الدنيا، وحريق الجسم في الآخرة. حتى الدواء لا أناله، وحتى الكفن لا أرجوه! وكأنما أمات الله نصفي الساعي، وأبقى على نصفي الشاعر، لأدرك بعيني وفكري وخيالي مض الألم الذي يحسه المظلوم يُغتصَب ولا يستطيع أن يدفع، والمحروم يتشهى ولا يستطيع أن يجد، والمهموم يتلظى ولا يملك أن يموت.

ذلك مثل، والمثل الآخر رجل يسرني أن أكشف قليلاً عن اسمه: هو الأستاذ (م. محمود جلال). عرفني هذا الرجل قبل أن أعرفه، وسعى إليَّ دون أن أسعى إليه؛ وتلك مخالفة لرسوم الكبرياء لم تقع من غيره. ثم حدثني وكتب إليَّ، وزرته ثم كشفت عنه، فعلمت أنه رَجلُ وحدِه في هذه الطبقة. لا يعتبر الغني غاية كما يعتبره الاشحة، وإنما يعتقده سبيلاً غايته السعادة. والسعادة في رأيه معنى منتشر لا يجتمع لنفسه إلا بسعادة أسرته وأمته وملته. فهو لا يحتكر ولا يدخر ولا يطمع. إنما ينفق غلة أرضيه الواسعة على عامه الحاضر فلا يبقى شيئاً منها إلى قابل. وعلى هذا المبدأ يتسنى لإيمانه الكامل أن يعمر نواحي المعروف بفعله. والإيمان الكامل هو الإيمان بالله؛ لأن الإيمان بالله يستلزم الإيمان بكل ما يدخل في مفهوم الحق والخير والجمال. يتجلى ذلك الإيمان في تدبيره لبيته، وتربيته لِبنيه، ومعاملته لفلاحيه، وإدارته لثروته، ونيابته عن أمته. فبيته المؤسس على الرضوان والتقوى متحف فن ومكان عبادة ودار ضيافة. وأولاده البنون والبنات قد أخذهم بأدب الإسلام، فهم يؤدون الصلوات، ويتنافسون في الخيرات، ويحفون من حول أبيهم

كالملائكة لا يتكلمون إلا في العلم أو في الدين أو في الأدب. وهو في مزارعه بين أجرائه، كالأب الشفيق بين أبنائه: لا يجهد الضعيف ولا يرهق الفقير ولا ينهك المدين. أقام لهم المساجد واستقدم إليها الوعاظ والحفاظ وأهل العلم؛ وأنشأ المدارس واستخدم فيها أولى الكفاية في التعليم والتربية؛ وأسس المستشفيات ودعا إليها الأطباء المختلفين بالتناوب، وصرف فيها الأدوية بالمجان؛ وهيأ لفلاحيه ومستأجريه وسائل الصحة والراحة، وقطع من بينهم أسباب الحقد والخصومة، حتى أغناهم عن الحكومة فلم يتقدموا إليها في دفع مظلمة أو أداء معونة.

وهو في البرلمان يمثل الدفاع عن الحق الكامل والرأي الثابت، لا يبتغي من ورائه الوصول إلى الحكم لأنه لا يوصِّل إليه، ولا الحصولَ على الجاه لأنه من قبل ذلك حاصل عليه.

وهو في كل مكان يبذل من يده ومن قلبه ما يكفكف الدمع ويخفف المصاب ويساعد على حدثان الدهر؛ فأخلصت النفوس في خدمته وأجمعت القلوب على حبه.
ذلك يا أخي الفقير مثل الغني الصالح الذي استطاع أن ينشئ عالماً مستقلاً يسود فيه السلام والحب، ويرضى عنه الله والوطن. فلو أن جميع الأغنياء اتبعوا سبيله لمنحتَهم حبك وإكبارك، وشاركت في الدفاع عنهم صديقنا الدكتور مبارك.
أحمد حسن الزيات
رأي الإمام المراغي
في إصلاح الأزهر
إذا كنت رأي فكن ذا عزيمة ... فإن فساد الرأي أن تترددا
في سنة 1928 وفي ولايته الأولى على الأزهر، قدم الأستاذ الأكبر المراغي إلى أولي الأمر في الحكومة هذه (المذكرة) الصريحة التي ضمنها زبدة رأيه في إصلاح الأزهر منهاجاً وغاية. وهذه المذكرة - كما تراها - هي موقع الصواب في هذا الباب؛ وما نضن أحداً ممن تحرى وجوه الصلاح لهذه الجامعة الإسلامية العظمى قد بلغ من ذلك بعض ما بلغ الإمام في هذه الكلمة. والأستاذ المراغي قد وضع هذه المذكرة لتكون برنامجه في سياسة الأزهر، ثم أقرتها الحكومة وارتضتها الأمة، فلم يبقى عليه إلا أن ينفذ ما وضع وطبق ما شرع.
ولكن أزهر (المراغي) لا يزال كأزهر (الظواهري) يغير في الشكل ولا يغير في الموضوع، ويستعير هيكل (الجامعة) الحديثة، ويحتفظ بروح (الجامع) القديم! فهل يستطيع كاتب من الكتاب، أن يبين الحوائل ويشرح الأسباب؟
(الزيات)
المذكرة
أوجب الدين الإسلامي على أهله أن تختص طائفة منهم بحمله وتبليغه إلى الناس (فلولا نفرَ من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون).
وأوجب على نبيه صلى الله عليه وسلم أن يدعوا الناس إلى السبيل الموصلة إليه (أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن).
وقواعد العلماء كلها متفقة على وجوب السعي إلى نشر الدين وإقناع العباد بصحته، وعلى وجوب حمايته من نزعات الإلحاد وشُبَه المضلين.
وفي الكتاب الكريم آيات كثيرة تحث النظر في الكون وعلى فهم ما فيه من جمال ودقة صنع. وقد لفت النظر إلى ما في العالم الشمسي من جمال باهر، وصنع محكم؛ ولفت النظر إلى ما في الحيوانات من غرائز تدفعها إلى الصنع الدقيق والأعمال التي لها غايات محدودة، وأشار إلى سِير الأولين، وحث على العلم وفاضل بين العلماء والجهال.
وأعمال السلف الصالح وسير العلماء لا تدع شبهة في أن الدين الإسلامي يطلب من أهله السعي إلى معرفة كل شيء في الحياة.
وقد تولى سلف علماء الأمة القيام بهذه المهمة على أحسن وجه وأكمله فخلفوا تلك الثروة العظيمة من المؤلفات في جميع فروع العلم، ودرسوا أصول المذاهب في العالم، ودرسوا الديانات. ودرسوا الفلسفة على ما كان معروفاً في زمنهم، وكتبوا المقالات في الرد على جميع الفرق، وكانت للعقل عندهم حرمته وله حريته التامة في البحث، وكان الاجتهاد غاية يسعى إليها كل مشتغل بالعلم متفرغ إليه.
ولكن العلماء في القرون الأخيرة استكانوا إلى الراحة، وظنوا أنه لا مطمع لهم في الاجتهاد، فأقفلوا أبوابه، ورضوا بالتقليد، وعكفوا على كتب لا يوجد فيها روح للعلم، وابتعدوا عن الناس، فجهلوا الحياة وجهلهم للناس، وجهلوا طرق التفكير الحديثة وطرق البحث الحديث، وجهلوا ما جد في الحياة من علم وما جد فيها من مذاهب وآراء؛ فأعرض الناس عنهم ونقموا هم على الناس، فلم يؤدوا الواجب الديني الذي خصصوا أنفسهم له، وأصبح الإسلام بلا حملة وبلا دعاة بالمعنى الذي يتطلبه الدين!

في الدين الإسلامي عبادات وعقائد وأخلاق، وفقه في نظام الأسرة، وفقه في المعاملات مثل
البيع والرهن، وفقه في الجنايات.

وقد عرض الدين الإسلامي لغيره من الأديان، وعرض لعقائد لم تكن لأهل الأديان، وأشار إلى بعض الأمور الكونية في النظام الشمسي والمواليد الثلاثة من: جماد ونبات وحيوان.

وقد هوجم الإسلام أكثر من غيره من الديانات السابقة: هوجم من أتباع الأديان السابقة، وهوجم من ناحية العلم، وهوجم من أهل القانون.

لهذا كانت مهمة العلماء شاقة جداً تتطلب معلومات كثيرة: تتطلب معرفة المذاهب قديمها وحديثها، ومعرفة ما في الأديان السابقة، ومعرفة ما يجد في الحياة من معارف وآراء، ومعرفة طرق البحث النظري وطرق الاقناع، وتتطلب فهم الإسلام نفسه من ينابيعه الأولى فهماً صحيحاً، وتتطلب معرفة اللغة وفقهها وآدابها، وتتطلب معرفة التاريخ العام، وتاريخ الأديان والمذاهب، وتاريخ التشريع وأطواره، وتتطلب العلم بقواعد الاجتماع.

والأمة المصرية أمة دينها الإسلام، فيجب عليها وهي تجاهر بذلك أن ترقى تعليمه، ليرقى حملته ويكونوا حفاظاً ومرشدين يدعون الناس إليه.

ولا يوجد دواء أنجع من الدين لإصلاح أخلاق الجماهير، فإن العامة تتلقى أحكام الدين والأخلاق الدينية بسهولة لا تحتاج إلى أكثر من واعظ هاد حسن الأسلوب جذاب إلى الفضيلة بعمله وبحسن بصره في تصريف القول في مواضعه، ولذلك كان الدعاة إلى الفضيلة قديماً وحديثاً يلجئون إلى الأديان يتخذونها وسائل للإصلاح؛ بل إن كل دعاة المذاهب السياسية وحملة السيوف لم يجدوا بداً من الرجوع إلى الأديان وصبغ دعواتهم بها، كل ذلك لأن حياة المجتمعات لا تدين لنوع من أنواع الإصلاح إلا إذا صبغ بصبغة دينية يكون قوامها الإيمان.

والأمة المصرية، بل والأمم الشرقية جمعاء، تدهورت أخلاقها فضعفت لديها ملكات الصدق والوفاء بالوعد والشجاعة والصبر والإقدام والحزم وضبط النفس عن الشهوات، وضعفت الروابط بين الجماعات، فلم يعد الفرد يشعر بآلام الآخرين ومصائبهم، وقد أثرت الحياة الفردية في حياة الجماعة أثرها الضار فانحطت منزلة الأمم ورضيت من المكانة بأصغر المنازل.

وقد أرى أن الأمة المصرية وهي تريد النهوض والمجد وتتطلع إلى حياة سياسية راقية؛ يجب عليها أن تذكر دينها، وتلتفت إلى حملة ذلك الدين فتصلح شأنهم، وترقي تعليمهم، وتضعهم في المكانة اللائقة بالمرشدين، والتي يجب أن يكون عليها حملة الدين. أما إهمال هذه الناحية والسعي إلى ترقية النواحي الأخرى من حياة الأمة، فلا أرى أنه يوصل إلى الغرض المنشود، فالخلق هو العمود الفقري للأمم لا يمكنها أن تنهض بغيره، وأسهل طريق لتكوينه هو طريق الدين إذا أصلح تعليمه وهذب دعاته.

وقد كان الأزهر مصدر أشعة نور العلوم الدينية والعربية وغيرها إلى البلاد الإسلامية. وقد أصابه ما أصاب غيره في الشرق من خمول وضعة. فيجب على الأمة المصرية وهي تحمل راية الأمم الإسلامية أن تنقي هذا المصباح (الأزهر) من الأكدار، وأن توجد له جهازاً قوياً يستمد نوره منه على طريقة تتناسب مع ما جد في العالم من أطوار في العلم وفي التفكير وفي الحوار والتخاطب وفي طرق الاستدلال والبحث. والدولة تنفق على الأزهر قدراً عظيماً من المال لا تستطيع أن تمنعه عنه، ولا تستطيع أيضاً أن تلغي الأزهر وما يتبعه من معاهد لتوجد بدلها معاهد أخرى؛ فالحاجة إلى إصلاح الأزهر واضحة لا تحتمل نزاعاً ولا جدالاً.

وإني أقرر مع الأسف أن كل الجهود التي بذلت لإصلاح المعاهد منذ عشرين سنة لم تعد بفائدة تذكر في إصلاح التعليم؛ وأقرر أن نتائج الأزهر والمعاهد تؤلم كل غيور على أمته وعلى دينه. وقد صار من الحتم لحماية الدين لا لحماية الأزهر، أن يغير التعليم في المعاهد، وأن تكون الخطوة إلى هذا جريئة يقصد بها وجه الله تعالى، فلا يبالي بما تحدثه من ضجة وصراخ فقد قرنت كل الإصلاحات العظيمة في العالم بمثل هذه الضجة.

يجب أن يدرس القرآن دراسة جيدة، وأن تدرس السنة دراسة جيدة، وأن يفهما على

وفق ما تتطلبه اللغة العربية فقهها وآدابها من المعاني، وعلى وفق قواعد العلم الصحيحة؛ وأن يبتعد في تفسيرها عن كل ما أظهر العلم بطلانه وعن كل ما لا يتفق وقواعد اللغة العربية.

يجب أن تهذب العقائد والعبادات وتنقى مما جد فيها وابتدع، وتهذب العادات الإسلامية بحيث تتفق والعقل وقواعد الإسلام الصحيحة.

يجب أن يدرس الفقه الإسلامي دراسة حرة خالية من التعصب لمذهب، وأن تدرس قواعده مرتبطة بأصولها من الأدلة. وأن تكون الغاية من هذه الدراسة عدم المساس بالأحكام

المنصوص عليها في الكتاب والسنة والأحكام المجمع عليها، والنظر في الأحكام الاجتهادية لجعلها ملائمة للعصور والأمكنة والعرف، وأمزجة الأمم المختلفة كما كان يفعل السلف من الفقهاء.

يجب أن تدرس الأديان ليقابل ما فيها من عقائد وعبادات وأحكام بما هو موجود في الدين الإسلامي، ليظهر للناس يسره وقدسه وامتيازه عن غيره في مواطن الاختلاف.

ويجب أن يدرس تاريخ الأديان وفرقها، وأسباب التفرق، وتاريخ الفرق الإسلامية على الخصوص وأسباب حدوثها.

يجب أن تدرس أصول المذاهب في العالم قديمها وحديثها وكل المسائل العلمية في النظام الشمسي، والمواليد الثلاثة، مما يتوقف عليه فهم القرآن في الآيات التي أشارت إلى ذلك.

يجب أن تدرس اللغة العربية دراسة جيدة كما درسها الاسلاف، وأن يضاف إلى هذه الدراسة دراسة أخرى على النحو الحديث في بحث اللغات وآدابها.

يجب أن توجد كتب قيمة في جميع فروع العلوم الدينية واللغوية على طريقة التأليف الحديثة، وأن تكون الدراسة جامعة بين الطرق القديمة (في عصر الإسلام الزاهرة) والطرق الحديثة المعروفة الآن عند علماء التربية. وعلى الجملة يجب أن يحافظ على جوهر الدين وكل ما هو قطعي فيه محافظة تامة، وأن تهذب الأساليب ويهذب كل ما حدث بالاجتهاد بحيث لا يبقى منه إلا ما هو صحيح من جهة الدليل وكل ما هو موافق لمصلحة العباد.

يجب أن يفعل هذا لإعداد رجال الدين، لأن رسالة النبي صلى الله عليه وسلم عامة ودينه عام، ويجب أن يطبق بحيث يلائم العصور المختلفة، والأمكنة المختلفة، وإن لم يفعل هذا فإنه يكون عرضة للنفور منه والابتعاد عنه كما فعلت بعض الأمم الإسلامية، وكما حصل في الأمة المصرية نفسها إذ تركت الفقه الإسلامي لأنها وجدته بحالته التي أوصله إليها العلماء غير ملائم. ولو أن الأمة المصرية وجدت من الفقهاء من جارى أحوال الزمن وتبدل العرف والعادة، وراعى الضرورات والحرج، لما تركته إلى غيره لأنه يرتكن إلى الدين الذي هو عزيز عليها.

ولست أنسى أن هذه الدراسة التي أسلفت بيانها دراسة شاقة تحتاج إلى مجهود عظيم،

وتحتاج إلى رجال قد لا نجدهم في طائفة العلماء، وتحتاج إلى مال يكافأ به العاملون؛ ولكن سمو المطلب يحملنا على تذليل كل عقبة تقف في طريقه، وتوجب علينا السخاء والبذل لأننا نريد إصلاح أعز شيء على نفوس الجماهير، ونريد بهذا الإصلاح تقويم هذه الأمة ونهوضها.

بعد أن ذكر الأستاذ الأكبر هذا البيان الشامل لما ينبغي أن يكون عليه الإصلاح، أتبعه بذكر الأسس الإجمالية للنظام الذي يبغي أن يكون عليه الأزهر والمعاهد الدينية؛ وهي أسس لا يكاد نظام الأزهر المعمول به الآن يخرج عنها. وقد جاء في أثناء ذلك فقرات هامة لابد من تسجيلها.

منها قوله:

(عندما فكرت الحكومة المصرية في إنشاء مدرسة دار العلوم لتخريج أساتذة اللغة العربية في المدارس الأميرية، كان العلماء في الأزهر لا يعنون إلا بدراسة القواعد وفلسفتها دراسة نظرية بعيدة عن التطبيق، وبدراسة الألفاظ وخدمة عبارات المؤلفين، ولا يعنون بالغاية من اللغة ولا بخدمة اللغة نفسها!

يشهد بذلك أن أسلوب الكتب المؤلفة في تلك الأيام بعيد كل البعد عن اللغة. ويشهد

بذلك أن بعض كبار العلماء ممن شاهدناهم لم يكونوا يحسنون التعبير عن أغراضهم، ولا تزال منهم بقية إلى اليوم. وكان العلماء لا يدرسون شيئاً من العلوم العامة كالتاريخ والحساب والهندسة وتقويم البلدان. وكانوا يحافظون على ما هم عليه أشد المحافظة، ولا يرون الخير إلا فيما هم فيه؛ فلم تكن معلوماتهم العامة ولا طرائق تعليمهم مؤهلة لتوليهم تعليم النشء في المدارس الأميرية على النحو الحديث.

وعندما فكرت الحكومة في إنشاء مدرسة القضاء الشرعي كان الأزهر على النحو الذي وصفته؛ وكان فيهم علماء يحرمون تقويم البلدان والتاريخ والحساب، ويكتبون مقالات في الجرائد ضد هذه العلوم. وكان ولاة الأمور يشكون من أن القضاة لا يعرفون الأرقام، ولا يعرفون طرق التوثيق، ولا يعرفون من العلوم العامة ما يجب أن يعرفه شخص يتولى الحكم بين الناس.

وقد بدل الله هذه الأحوال، وأصبح قانون الأزهر مشتملاً على ضعفي العلوم التي كانت تدرس من قبل، وأصبح يدرس فيه التاريخ الطبيعي، وتدرس فيه الطبيعة والكيمياء، ويدرس فيه الجبر والهندسة؛ وقبل الأزهر في قسم تخصص القضاء الشرعي دروساً في وظائف الأعضاء، ودروساً في التشريح قبل الأزهريون كل جديد، وأعدوا أنفسهم له، وزالت كل العقبات التي كانت من قبل، ولم يبق إلا إصلاح طرق التعليم وإيجاد المعلمين الأكفاء وتوزيع العلوم على الأقسام توزيعاً صحيحاً، وإذا كانت هناك بقية تعترض الجديد فلم يبق لها من الشأن ما تستطيع معه أن تكون عقبة في طريق الإصلاح.

في الدولة الآن مدارس متعددة بنوع واحد من التعليم: فيها دار العلوم لتعليم اللغة، وفيها الأزهر وكل المعاهد لعلوم اللغة، فيها مدرسة القضاء الشرعي للفقه ونظم القضاء، وفيها الأزهر للفقه ونظم القضاء، وفيها تجهيزية دار العلوم، وفي الأزهر أقسام تماثلها.

تنفق الدولة على هذه المدارس جميعها، ومن الممكن أن تقتصد في هذه النفقات، ومن الممكن أن تضم هذه النفقات بعضها إلى بعض وتوحد جهودها لتخرج أمثلة أحسن من هذه الأمثلة.

في الدولة أشكال مختلفة من العلماء تخرجوا في مدارس مختلفة، يحسد بعضهم بعضاً وينقم بعضهم على بعض، ولهذا أثره في إفساد الأخلاق.

(لم لا يحملنا هذا كله على التفكير في توحيد الجهود وتوحيد النفقات؟

ومنها في وصف الكتب القديمة قوله:

(هي كتب معقدة لها طريقة خاصة في التأليف لا يفهمها كل من يعرف اللغة العربية، وإنما يفهمها من مارسها ومرن على فهمها، وعرف اصطلاح مؤلفيها. . . وأرجو الله أن يمكننا من الاستغناء عنها بأحسن منها. فنحن في حاجة إلى رسل بين القديم والحديث. وأولئك الرسل يجب أن نعلمهم القديم والحديث ليخرجوا للناس حديثاً جيداً؛ فلابد لنا من علماء فيهم من القوة ما يستطيعون به فهم تلك الكتب القديمة ومعرفة تلك الطرائق القديمة، وفيهم من القوة ما يستطيعون معه تصوير ذلك في أسلوب حديث، ولذلك فإنه يجب أن يراعى في النظام الجديد للأزهر عدم إهمال طرقه الأصلية في البحث وفهم الكتب).

ومنها قوله:

(وهناك أمر لا يصح الإغضاء عنه: ذلك أن مدارس دار العلوم والقضاء وتجهيزية دار العلوم مؤثر في الأزهر والمعاهد من حيث الرغبة فيهما، لأن نتيجة الأزهر - إذا لم يخرج قضاة ومحامين وعلماء للغة العربية في مدارس الحكومة - تقتصر على إخراج علماء للمعاهد وخطباء للمساجد، وهي نتيجة غير مرغبة، ومن شأنها أن تجعل التعليم الديني في المعاهد مقصوراً على بعض الطبقات التي ليس لها في الحياة آمال سامية، وهذه الطبقات وحدها قد لا تؤمن على هذه الوديعة: وديعة الخلق الديني والثقافة الإسلامية. ومن الواجب ألا يغيب عنا ونحن نتقدم لتهذيب التعليم الديني وتقويم أخلاق الأمة، أن نشجع الطبقات الراقية على الدخول في هذه المعاهد لتقوم بما يطلب منها من العناية بالأخلاق.

وأمر آخر، وهو أن سلب الامتيازات القديمة التي كانت للأزهر من تخريج القضاة) والمحامين وعلماء اللغة العربية يؤثر أمام الرأي العام داخل الدولة المصرية وخارجها

في الأقطار الأخرى في سمعة الأزهر والمعاهد، ومن واجب الدولة المصرية أن تحافظ على كرامة هذا المعهد القديم، وأن ترد إليه مجده).

لوجه الله ولوجه الحق

معضلة المعضلات في مصر والشرق

للدكتور زكي مبارك

قبل أن أشرع في التعقيب على مقال الأستاذ عباس محمود العقاد ألتفت إلى بعض القراء فأقول: لا يستطيع الكاتب أن يظفر بثقة القارئ إلا إذا زهد في تلك الثقة كل الزهد، وليس معنى هذا أن يستهين الكاتب بعواطف القارئ، ولكن معناه أن يتحرر من رغبة الظفر بثقة القارئ، ليستوحي العقل والقلب والوجدان، وقد خلص من شوائب التودد إلى بعض الآراء والأهواء، فعندئذ يطمئن القارئ إلى أنه يقرأ كلاماً سلم منبعه من أقذاء التصنع والرياء.

أكتب هذا وقد تلقيت في الأسابيع الأخيرة رسائل يدعوني بها كاتبوها إلى الخروج من الميدان الأدبي، بحجة أني أبلبل أفكارهم وأدخلهم في محرجات من الحقد والبغضاء، وهم يعجبون من أن يصبر عليَّ قراء (الرسالة) على كثرة ما آذيتهم في تلك الأعوام الطوال (؟!).

وأجيب بأني أعجب مما يعجبون، وأشتهي الخروج من الميدان الأدبي، لأخلو إلى نفسي لا إلى قلمي، ولأتذوق الراحة من متاعب التفكير في نفع القراء.

ولكن خاطراً واحداً يصدني عما أريد ويريد بعض الثائرين: وهو الخوف من أن يخلو الميدان الأدبي من كاتب يثير في صدور القراء ثائرة الغيظ والحقد من حين إلى حين. فتلك الثائرة من أكرم الحظوظ الوجدانية، ولا تخلو الصدور من معاني البغض إلا حين تخلو من معاني الحب، ومن البغض والحب يقوم هيكل الوجود.

فالأديب الذي يثور ويهتاج كلما قرأ لي مقالاً لا يرضيه، هذا الأديب سيعض بنان الندم إن استجبت لرجائه فطويت عنه عدوان قلمي. وكيف يعيش هذا الأديب وهو لا يجد الكاتب الذي يبلبل أفكاره ويدخله في محرجات من الحقد والبغضاء؟

أخوف ما أخاف على اللغة العربية أن يصير جميع كتابها من المرضيِّ عنهم في جميع الشؤون، فالكاتب الذي يرضى عنه القراء في جميع الأحوال قد يتعرض للتفاهة والابتذال، وقد يمسي وهو حاك لا يجيد غير مضغ الحديث المعاد، إلا أن يرتفع جميع القراء فلا يرضيهم غير الذهن المبتكر والعقل الوثاب.

وما الذي يوجب أن نجعل رضا القراء غاية من الغايات؟

وكيف نهون على أنفسنا فنقبل ذلك الضرب من الاستعباد؟

وبأي حق ندعو إلى الحرية إذا أصخنا لدعوات بعض القراء فحرمنا أقلامنا نعمة الحرية؟

وما الذي يغضبكم، يا قراء هذا الزمان، ونحن لا نصوب سنان القلم إلى عيوب المجتمع إلا بتلطف وترفق؟

ما الذي يغضبكم وقد (راعينا خواطركم) فلم نؤدِّ من رسالة القلم غير كلمات ملفوفة لا ينحدر بها باطل ولا ينتصر بها حق؟

ما الذي يغضبكم وقد أطعنا بعض القلوب الخوامد، فعققنا روح العصر أبشع العقوق؟ كانت العصور الخوالي تسمى عصور الظلمات، ومع ذلك استطاع الأسلاف أن يواجهوا الجماهير بأفكار وآراء نعجز عن روايتها في هذا الجيل، فأين عصركم من تلك العصور؟ وأين أنتم من أولئك الرجال؟

قضت ظروف الحرب بإعلان الأحكام العرفية، وقضت الأحكام العرفية بمراقبة ما يُنشر في الجرائد والمجلات، فما الذي وقع؟

لم تتعرض الرقابة لمقالات الكتاب بالمحو والإثبات إلا بلطف ورفق، أما الجمهور فيرى أنه على شيء رقيب، وهو يعطل حركة الفكر بلا تهيب ولا استبقاء، وهو يدعى ما لا يملك من السيطرة على القلوب والعقول، وهو يؤذي من يخدمونه صادقين، وهو يحاول إخماد الجذوة الأدبية لتصبح آثار الأقلام وهي رسوم وأطلال.

ما نظرت في الرسائل التي (يتحفني) بها بعض الناس إلا أشفقت على مصير اللغة العربية، فهذه اللغة لا تحيا إلا إذا صارت أداة لتسجيل الحقائق والأباطيل. لن تحيا لغة العرب إلا إذا وجد فيها القارئ كل ما تشتهي العقول والقلوب والاهواء، على نحو ما يجد القارئ في لغة الفرنسيس والإنجليز والألمان. لن تحيا إلا إذا أصبح أدبها وهو أشبه

الأشياء بالحدائق التي تجمع الأطايب من شتى الافانين، وفيها مع ذلك أشواك وأدغال تؤوي الفواتك من الحشرات والثعابين.

وما نظرت في مصاير الكتاب الذين (أدبهم) قراؤهم إلا جزعتُ: فالدكتور فلان كان خليقاً بأن يقيم في مصر نهضة فلسفية؛ ثم (أدبه) قراؤه، فهو اليوم (رجل طيب) يرى الفلاسفة
زنادقة وملحدين والأستاذ فلان كان جديراً بأن يبعث في مصر وثبة اجتماعية؛ ثم (أدبه) قراؤه، فهو اليوم أكبر نصير لمأثور العادات والتقاليد؛ والشيخ فلان كان أهلاً لحمل راية السلف الصالح؛ ثم (أدبه) قراؤه، فهو اليوم رجل متحذلق يسره أن يتسم بوسم التجديد ليضاف إلى أبناء العصر الحديث!!!

فماذا يريد أن يصنع معي قرائي؟

هل يتوهمون أن في مقدورهم أن (يؤدبوني) فلا أقول بغير ما يسرهم أن أقول، ولا أكتب إلا بحدود ما يشتهون؟

هيهات، ثم هيهات!!

سأحرص على الصدق في جميع الأحوال، ولن يقرءوا لي حرفاً إلا وهو من صور ضميري؛ ولهم أن يجرِّبوا قدرتهم على الانصراف عن أدبي: فأنا أتحدث عن آرائهم وأهوائهم من حيث يشعرون أو لا يشعرون، وأنا أقرب إليهم من أنفسهم، وأعرف منهم بسرائرهم، وأقدر على التعبير عما يجول في ضمائرهم من نفثات الخوف وخطرات الأمان.

لو كنا نعيش في زمان سليم من الآفات لعرف قومٌ أن لا موجب لشتمي في خطابات مغرَّمة قد تزيد عن الآحاد في بعض الأسابيع.

وما الذي يوجب أن أُشتَم ولم أقترف غير إجادة التعبير عما في زماني من مشكلات ومعضلات؟؟

إن هذا البغي يزيدني حرصاً على الثبات في ميدان الجهاد، وستأتي إجازة الصيف بعد أيام فأفرُغ لمكافحة ما أراه من طغيان الأوهام وانحراف الآراء.

ومعاذ الحق أن يكون قرائي جميعاً من الجاحدين، فتحت يديَّ مئات من الرسائل تشهد بأن الرجل المخلص لا يضيع بين قومه الاكرمين، ولو نشرت رسالة الأديب (م. أ. ش)، والأديب (م. ع. ف)، والأديبة التي تكتب من الأرمان، لعرف بعض الناس أن في الدنيا قلوباً يستهويها الصدق، وبالصدق وصلنا إلى كرائم الطيبات، فلله الحمد وعليه الثناء!

أما بعد فما الذي جاء في مقال الأستاذ العقاد؟

كان مقال هذا الباحث المفكر مؤيداً لما قلت كل التأييد، فأنا قلت: (الفقر مرض ولكل مرض
أسباب، كما أن الغنى عافية ولكل عافية أسباب).

وهو قال: (عندنا نحن أن الفقر داء كسائر الأدواء، يصيب المريضَ به من إهماله كما يصيبه من ضعفه الموروث، ويصيبه من الحيطة إذا جرى مجرى الوباء الذي تنتشر عدواه، كما يصيبه مع ترك الحيطة في هذه الحال وفي غيرها من الأحوال).

والطريف في هذه الكلمة هو النص على أن مرض الفقر قد يصيب أهل السعي في طلب الرزق إذا جرى الفقر مجرى الوباء، وليس هذا مما نحن فيه، ولكنه ينفع حين يجب العطف على من سُدَّت في وجوههم المسالك لأسباب يعجز عن دفعها أهل الأمانة والاجتهاد.

وأنا قلت: (إن الغنى يشهد لأهله بقوة الأخلاق الاجتماعية والمعاشية، وإن الأغنياء عِماد المجتمع، وبفضل قدرتهم على تدبير المال يرجع الفضل في تجميل الوجود).

وهو قال: (لست أنا ممن ينكر فضل البراعة المالية، لأنها في الحقيقة براعة لازمة لتأسيس المرافق الاجتماعية والأخلاق القومية، وتنظيم العلاقات، واستثارة الهمم، وتوزيع الأعمال التي لا يستبحر بغيرها عمران).

وأنا قلت: (إن التغرير بالفقراء ودعوتهم إلى انتظار أنصبتهم في أموال الأغنياء قتلٌ للمواهب الإنسانية، وإن الحزم يوجب أن تذكرهم في كل وقت بأن الغنى لا يوهَب وإنما هو ثمرة الكدح الموصول في طلب الرزق الحلال).

أما الأستاذ العقاد فيقول: (إن الأمان كل الأمان، خطر على الهمم والأذهان، فإن كثيراً من الجهد النافع مبعثه طلب الأمان في المستقبل، وشعور النفس بالحاجة إليه في

أخريات الحياة. فإذا اطمأن إليه كل حي من بداية حياته فترت حركته وغلب عليه حب الاستقرار، ومُنِيَ العالم بخطرٍ من جراء ذلك هو أخطر عليه من الإجحاف في تقسيم بعض الأعمال وتوزيع بعض الأرزاق).

ومعنى هذه العبارة أن بعض منافع الدنيا مدين في وجوده إلى ما يستشعر الناس من الخوف، وأن انعدام الخوف قد يكون أخطر على العالم من الإجحاف في تقسيم بعض الأعمال وتوزيع بعض الأرزاق.

وكذلك قلت، فقد صرحت بأن استنامة الفقراء إلى ما قد يوزَّع عليهم من أموال الأغنياء ستخلق فيهم ضروباً من الطمأنينة تصرفهم عن الكفاح في التسبب والارتزاق.

ثم مضى ذلك الكاتب البليغ فسرد من غرائب الحظوظ أشياء وأشياء.

وأقول بصراحة إني لن ألتفت إلى تلك الغرائب، لأنها فوق الطب والعلاج، فستمضي أجيال وأجيال قبل أن يصح ذوق المجتمع فلا يستوي عنده الطيب والخبيث، ولا يصبح المخلوق التافه وهو آثر عنده من الرجل الحصيف.

وما الموجب لانتظار تلك العافية الاجتماعية، وهي العدل المطلَق، والعقاد نفسه يرى أن ذلك العدل قد يقضي على الدوافع الحيوية فينعدم الاندفاع الصالح والاندفاع الذميم على السواء؟

لن ألتفت إلى ما يقع في المجتمع من غرائب الحظوظ، ولن أجيب من يسألني عن أقوام تلطف معهم الدهر المخبول، ولن أقول كلمة في الوارثين، بحجة أنهم يرزقون بلا كد ولا اجتهاد، فلو عطل نظام الميراث لانعدم النشاط الإنساني بعض الانعدام، ولآثر الناس جميعاً أن تكون جهودهم مقصورة على كسب القوت من يوم إلى يوم.

ولو قلنا الحق كل الحق لصرحنا بأن الميراث هو أجمل نظام عرفته الإنسانية، فهو الشاهد على أن الجهاد في طلب الرزق لا يضيع، وأنه قد يصل إلى الأعقاب وأعقاب الأعقاب، وذلك أقوى حافز لتأريث عزائم الرجال.

لن ألتفت إلا إلى ظاهرة واحدة: هي شيوع الفقر في البيئة المصرية، مع كثرة وجوه الارتزاق.

الفقر في مصر كثير وفظيع، ودميم وشنيع، وملعون وقبيح، إلى آخر ما في اللغة من ذميم الأوصاف والنعوت. ومصر مع ذلك أخصب بقاع الأرض، وهي جديرة بأن تضفي على جميع أبنائها أثواب النعيم، لو عرفوا كيف يجاهدون الفقر جهاد الرجال.

قلت: إن أسباب الفقر كثيرة، ولكنها ترجع إلى ثلاثة أسباب أساسية، هي الكسل، وقلة الأمانة، والرضا بالدون من مطالب الوجود.

وهنا صرخ المتحذلقون فقالوا: إنك تجعل الفقر علة فردية مع أنه علة اجتماعية.

وقد أجبت بأن الفرد هو الحجر الأول في بناء المجتمع، فالمجتمع أفراد أضيف بعضهم إلى بعض، وبذلك يشهد من زوده الله بزاد العقل.

ثم صرخ جماعة آخرون فقالوا: أنت أديب، فما شأنك بالمعضلات الاجتماعية؟!

فمتى يفهم الغافلون أن الأدب صورة الحياة، وأن الأديب رجلٌ يعيش كما يعيش كما يعيش سائر الرجال، وأنه قد يحس بلايا الحياة بأقوى مما يحسها زعماء الاقتصاد؟

ألأني أديب يُحرَّم عليَّ أن أتعرض للمكاره التي يعانيها وطني في الميادين الاجتماعية والمعاشية؟

يقول فلان إنه قرأ ما لم أقرأ من الكتب التي تبحث في أسباب الفقر والغنى.

وأقول إني رأيت ما لم ير فلان من أخلاق الناس في ميدان المعاش، لأني رجل ممتحَن بطلب الرزق، وطلاب الرزق (يرون) أكثر مما (يقرأ) فلان وفلان.

أليس من العجب أن يتحدث جماعةٌ عن العمال والصناع والفلاحين في مصر بعد قراءة كتاب عن العمال والصناع والفلاحين في بلاد الإنجليز أو بلاد الألمان؟

أكثر هؤلاء المتحذلقين لا يعرفون شيئاً عن بلادهم، وأكثر المتوجعين لشقاء الفلاح المصري لا يرونه إلا بعيون من قرءوا لهم من الكتاب الأجانب.

ولست بحمد الله من أولئك ولا هؤلاء، فأنا لا أستوحي كتاباً قرأته، وإن كنت أحرص الناس على القراءة والاطلاع، وإنما أستوحي ما تراه عيناي، ولي مصالح معاشية تسوقني سوقاً إلى درس أحوال العمال والصناع والفلاحين: فلي معهم في كل يوم شأن وشؤون، وبفضل ما ساقتني إليه المقادير من الاهتمام بالحياة المعاشية، سأصل

إلى قرارة الضمير المصري، وسأعرف ما هو عليه من تحليق وإسفاف.
كنت دعوت الأستاذين الكبيرين الزيات والعقاد إلى إبداء رأيهما فيما قلت به من أن الفرد هو الحجر الأول في بناء المجتمع.
وقد أجاب الأستاذ العقاد بما رأى القراء، فما هو رأي الأستاذ الزيات؟
كتب هامشاً قال فيه: (إن رأي (الرسالة) في الفقر ولفقراء معروف).
وهو كذلك، ولكن ما رأيكم إذا سجلت على الأستاذ الزيات أنه صرح في إحدى افتتاحياته بأن (الرسالة) قضت عاماً كاملاً في استنهاض الأغنياء إلى البر بالفقراء، فلم يسمع سامع ولم يستجب مجيب؟
ألم أقل لكم: إن الاعتماد على الأغنياء يضر أكثر مما ينفع؟
الأغنياء يخافون من معاملة الفقراء لأسباب لا يجوز النص عليها بغير التلميح، فمتى نرجع لمحاسبة أنفسنا بصدق وإخلاص؟
أنا أرجع إلى نفسي من وقت إلى وقت، لأرى كيف تقدَّم زملائي وتخلَّفت، فأرى أني المسؤول الأول والأخير، لأن في شمائلي جفوة تجعل التهور من صور الشجاعة الأدبية، مع أن بين الشراسة والشجاعة أبعاداً يعجز عن طيِّها البرق اللماح.
وأنا أنصح قرائي بما لا أنصح به نفسي، لأني أومن بأن للكاتب شخصيتين مختلفتين بعض الاختلاف: شخصية من يمثل عقله، وشخصية من يمثل هواه؛ فأنا أخاطب قرائي بعقلي، وأخاطب نفسي بهواي، إلى أن يلطف الله فلا أصدُر في جميع أحكامي إلا عن وحي العقل.
ثم أما بعد فأنا أدعو إلى بناء المجتمع المصري من جديد.
أدعو إلى خلق الجاذبية بين الأغنياء والفقراء، ليشعر الغني بأن الفقير هو الذي حمل على كاهله أحجار القصور الشوامخ، وهو الذي عانى عرق الجبين في استنبات البقول، وليشعر الفقير بأن الغني هو الذي دبر المال لتصير مصر إلى ما صارت إليه من وفرة المصانع والمتاجر والمزارع والخيرات.
أدعو الغني إلى التألم لألم الفقير والتوجع لبلواه؛ وأدعو الفقير إلى الدعاء للغني في أعقاب الصلوات.
أدعو أولئك وهؤلاء إلى التعاون الصادق بأمانة وعطف، ونزاهة وصدق.
وأكره أن يتدخل الكتاب المراءون في إفساد ما بين الأغنياء والفقراء.
أكره أن يحاول كاتب منافق أن يتسم بوسم المصلح الاجتماعي وهو مأجور للشيطان الرجيم، وإن خدع نفسه فتخيل ثم خال أنه رسول الاشتراكية في هذه البلاد.
لقد شبعت مصر من الكتاب المرائين في الميادين الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، فمتى تعلن مصر شوقها المتوقد إلى كتاب لا ينافقون ولا يخادعون؟
إن صراحتي في الكلام عن الفقراء والأغنياء صنعت ما صنعت في تبصيري بدقائق من أحوال الناس وخلائق لمجتمع، وأشنعُ ما دلتني عليه هو أن في مصر كتاباً كسالى، وهم الذين يرون ما أرى، ثم يصدهم الكسل عن الاصطلاء بما اكتوت به يداي، وفيهم الباحث
الذي تحدث عن انقراض (الأجاج) فما الأجاج؟
أمِثْلي يُدْعى إلى الخروج من الميدان الأدبي ليتمتع الغافلون بنعمة الصفاء؟
لا، والله، فسأتعقب الغافلين في جميع الميادين، ولن أسكت عن كلمة الحق ولو آذيت بها أعز أصدقائي.
ارجعوا إلى أنفسكم، يا بني آدم من أهل هذه البلاد، ولا تحوجوني إلى ضرب الأمثال، فما أحب أن تشقوا بالحقائق المجردة من إفك التزيين والتهويل.
بداية البلاء هي الرضا عن النفس، والنفس أمارةٌ بالسوء، فكيف ترضون عن أنفسكم، مع دعوى التسامي إلى معرفة أسرار الوجود؟ من قرارة القلب أمتاح هذه المعاني، لأقتل فتنةً لا تزال في المهد، فمن اتهمني بسوء النية فإلى الله إيابه، وعلى الله حسابه، ومن الله وحده أنتظر حسن الجزاء.
زكي مبارك

الحياة الزوجية في نظر الإسلام

للأستاذ عبد اللطيف محمد السبكي

ينظر الإسلام إلى الحياة الزوجية نظر اهتمام ورعاية، ويعتبرها بحق الوضع الأساسي

لتكوين أسر طيبة تتألف منها أمة قوية تمثل روح الإسلام في أخلاقها وسمو آدابها، وفي عظمتها وسلطانها. ويعلمنا الإسلام أن الحياة الزوجية ليست فكاهة من متع الحياة فحسب، حتى يتعفف عنها بعض الناس، وليست مغنماً تجارياً، حتى يتخذها الرجل شبكة يصيد بها أموال النساء، أو تتخذها المرأة شركاً تصيد به أموال الرجال، وإنما هي وسيلة ضرورية يكمل الرجل بها نفسه، وتكمل المرأة بها نفسها؛ فكلاهما شطر ناقص لا يتم وجوده إلا بصاحبه، ولا تعمر الدنيا إلا بهما معاً. ومن أجل ذلك وضع لها الإسلام أسباباً قوية تقوم عليها، وحاطها بالكثير من تحفظاته، حتى تكون محببة إلى الزوجين، وليسد عنهما مداخل الشيطان بينهما.

فهو يدعو - أولاً - إلى الحياة الزوجية في تأكيد من النصح. . . وبعد أن تتركز الفكرة عند من يستجيب لدعوته يرسم لنا - ثانياً - طريق الخطبة، واختيار الزوجة والزوج، ليباعد بيننا وبين التورط في الوقوع وراء رغبة عارضة، أو طوعاً بمظهر خاطف. فإذا قامت الحياة الزوجية في وضعها الصحيح بين الناس - ثالثاً - أن لكل من الزوجين آداباً يجب أن يرعاها نحو صاحبه؛ ليتصل القلب بالقلب، وتركن النفس إلى النفس، فلا تتبدل الحال بينهما من خير إلى شر، ومن يسر إلى عسر، (وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون، إن الله بكل شيء عليم).

1 - الدعوة إلى الحياة الزوجية

يقول الله تعالى في شأن الزوجات والأزواج: (هن لباس لكم، وأنتم لباس لهن) فإذا كانت الزوجة في نظر القرآن كاللبس للرجل، وكان الرجل كالملبس للمرأة، فحاجة كل منهما إلى صاحبه كحاجته إلى الملبس، فإن يكن الملبس لستر معايب الجسم، ولحفظه من عاديات الأذى، وللتجمل والزينة، فكل من الزوجين لصاحبه كذلك. يحفظ عليه شرفه، ويصون عرضه من التهم، ويوفر له راحته وصحته. ومن يستغني عن هذا؟ إنما يستغني عنه من لا يبالي بشرف، ولا يعنيه أن يكون هدفاً للأنظار الساخرة، ولأقاويل السوء تنال من سيرته، ولا يتألم شعوره لتعطيل النمو في أسرته وفي أمته.

ويقول تعالى: (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة. . .) فهذه الآية تنبه الرجل والمرأة إلى أن من أعظم دلائل قدرته وآيات كرمه أن خلق للرجل زوجة من لحمه ودمه ليكون الإلف أتم، والجاذبية أقوى، ولتكون الزوجة مأوى له، يسكن إليها وقت فراغه، فيأتنس بحنوها، ويتفيأ بظل عطفها، ويستمد من جانبها هناءة العيش وروح التشجيع في حياته، فتهون عليه متاعب الاعمال، ويستهين بالكفاح في الدنيا، ويستقبل شأنه كل يوم بعزم قوي وأمل جديد؛ وهكذا دواليك؛ ليظل البناء في صعود، وعمارة الكون في ازدياد؛ وهذه سنة الله تعالى، فقد أقام دنيانا على البناء والتعمير ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

كذلك من دلائل كرمه التي حدثتنا بها الآية أنه جعل بين الزوجين مودة حب، ورحمة عطف، ثابتتين لا تبليان كما تبلى مودة غير الزوجين ممن جمعت بينهما الصدف، أو ألفت بينهما الشهوات.

فمن انقطع عن التزوج فقد فاتته سلوة الحياة وأسلم نفسه للوحشة البغيضة؛ وقد يصادفه يوم قريب أو بعيد يتمنى فيه لو تدارك ما فاته.

ويقول تعالى: (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) وفي اعتبار البنين زينة الدنيا ترغيب قوي في الزواج. فإن النفس مطبوعة على حب الدنيا وزينتها بأكمل ما يستطيع المرء تحصيله.

ويقول عز شأنه: (وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم). فهو يأمرنا بتزويج الأيامى: وهم أهل العزوبة ولو كانوا من العبيد المملوكين، ويطمئننا من جهة الرزق فيقول: (إن يكونوا فقراء يغنيهم الله من فضله، والله واسع عليم).

ويحدثنا المولى سبحانه عن الأنبياء وعن المؤمنين الصادقين بأنهم كانوا يتمنون الذرية الطيبة، والزوجة الموفقة الممتعة، فإبراهيم عليه السلام كان يقول: (رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي، ربنا وتقبل دعائي)؛ وزكريا عليه السلام كان يقول: (رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء).

فأنت ترى مقدار حرص النبيين على الذرية الطيبة، وليس للذرية سبيل غير الحياة

الزوجية؛ وهذا ما كان يدعو به المؤمنون فيقولون: (ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة
أعين، واجعلنا للمتقين إماماً). . فالأمل الذي تردد على ألسنة النبيين والمؤمنين في الزوجة والذرية، مظهر صادق لسلامة الطبع وصدق الايمان، حتى ليرويه عنهم القرآن ويمتدحهم به، ويشهد لهم بحسن المقصد وصواب التقدير لما في الحياة الزوجية من خير لهم وللناس. وهاهم المؤمنون يختتمون دعاءهم بإجمال الطلب في قولهم: (واجعلنا للمتقين إماماً)؛ وهذا هو القرآن يشيد بتلك الأماني، ويعدهم بالاستجابة: (أولئك يجزون الغرفة بما صبروا - الجنة - ويلقون فيها تحية وسلاماً. . .).
وفي هذا النبأ عن الأنبياء والمؤمنين توجيه للناس أن يأخذوا بأسباب التقليد لأولئك الصفوة، ومتابعة السير على هداهم: قضاء لحق الدين، وتلبية للطبيعة، ورعاية لحاجة الأمة في الإكثار من سوادها وتقوية جماعتها. . . وهذا هو ما أجمله النبي (ص) في قوله: (تناكحوا، تناسلوا، فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة).
فهذه دعوة ملحة جهر بها النبي (ص) في صراحة أكيدة ويرددها في وجه الشباب بنوع خاص، إذ هم مطمح الأمل، وهم القوة التي يشتد بها ساعد الأمة، وعلى أيديهم نهضتها ممثلة في كل أعمالهم، فيقول النبي (ص): (يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج. . .)، يعني من تيسرت له وسائل الحياة الزوجية، فعليه أن يفعل.
وإن النبي ليرثى لمن تخلف عن الحياة الزوجية، وينبه إلى أن شيئاً آخر لا يعدلها، وإن تهيأ لبعض الأذهان القاصرة، أو لبعض النفوس التي ألهتها مطامعها وشهواتها في غير هذه الناحية عن هذه الناحية.
فيقول (ص) في ذلك: (مسكين، مسكين رجل ليست له امرأة. قالوا: وإن كان كثير المال؟ قال: وإن كان كثير المال. مسكينة، مسكينة امرأة لا زوج لها. قالوا: وإن كانت كثيرة المال؟ قال: وإن كانت كثيرة المال). . . فأنت ترى من حِكم النبوة، بل من وحي الرسالة، أن متاع المال وأن كثر لا يعدل متاع الزوجة للرجل، ولا متاع الزوج للمرأة.
وإن يكن في الدنيا ضروب من المتاع وألوان أخرى للحياة فلعل الحياة الزوجية أول هذه الضروب وأصدق هذه الألوان. ولسنا نعني مطلق الزوجة ومجرد اقتناء الحليلة، بل الزوجة التي تكفل للزوج هناءة ووفاقاً، على ما يأتي - بعد - من أوصافها. وذلك ما أوحى به إلى النبي (ص) وجرى على لسانه في إيجاز عذب وكلمات أخاذة هي قوله: (الدنيا
متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة).
لا نجد من القول للترغيب في الدنيا وامتداح ما فيها خيراً من هذا ولا قريباً من هذا. وإنه لإحباط وتزييف لما يحاوله نفر من الناس في الترغيب عن متع الحياة وصرف النفوس عما خلق الله من الطيبات. فلم تكن الدنيا وما اشتملته من مظاهر القدرة وأنواع الخير إلا متاعاً للإنسان: يناله، ويشكر، ويمن به المولى - بعد - على عباده، ويثيب من شكر. ثم يترقى كلام النبي (ص) في المدح لمتاع الدنيا فيقول: (وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة). أفرأيت ما يجذب الرجل نحو الزوجة خيراً من هذا وأبلغ؟ أو رأيت أن الزوجة تعتبر خير متاع في الدنيا ثم ينظر إليها فريق منا نظرتهم إلى شيء مشؤوم، ويفرون منها فرارهم من أمر بغيض؟؟ هذه غاية الغايات في امتداح الحياة الزوجية. أفلا يكون التغاضي عنها إلا من مكابر استعذب المر واستمرأ الخبيث؟؟ إنه لكذلك.
ولقد اعتزم ثلاثة من أصحاب النبي (ص) أن يجتهدوا في العبادة، فاختار أحدهم أن يصوم دائماً، واختار الثاني أن يصلي ليله دائماً، ورغب الثالث أن يترك الزواج دائماً، فجاء إليهم النبي (ص) وقال لهم: (أنتم قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، ولكن أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنت فليس مني) فهو يأبى على أصحابه أن يهجروا الدنيا للدين، وأن ينقطعوا عن النساء ليتصلوا بالعبادة، ويعلمهم أنه لا رهبانية في الإسلام، وأن ما يحسبونه متاعاً محضاً إن هو إلا دين محض، وهو على ما فيه من ترضية النفس أكرم وسيلة لترضية الله، وخير سنة نأخذ بها عن رسول الله، فمن زهد في متابعته فليس من دينه في شيء، ولا من الصلة بالنبي على طرف.

وإذاً كان الانقطاع للعبادة أمراً مستهجناً، والتعفف عن الزواج لذلك نبواً عن الدين، وجهلاً بمزاياه. فما بالك بمن يعتاض عن الزيجة الحلال بمن لا يحل؟ وما ظنك بمن يعاف الطيب الشهب ويتكالب على القذر الكريه؟ رب: (إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء. . .).

ورضي الله عن عمر فقد قال يوماً لرجل أعزب يراه قادراً على الزواج: لا يمنعك من الزواج إلا عجز أو فجور.

وكذلك قال بعض الأئمة من سلف المسلمين: ليست العزوبة من الإسلام في شيء، ومن دعاك إلى ترك التزوج فقد دعاك إلى غير الإسلام. ولقد صدق الله ورسوله، وصدق الأئمة السابقون.

وبعد، فهذه طائفة من القول في دعوة الإسلام إلى التزوج ومفهوم طبعاً أن العاجز - لعذر قاهر - مطلوب إليه أن يتعفف عن الحرام حتى تتهيأ له الفرصة (وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله).

فماذا لقيت دعوة الله ورسوله عند أهل الجيل الذي نعيش فيه؟ لقيت رواجاً غير منظم في الطبقات الصغيرة، ولقيت إعراضاً غير منظم في الطبقات المستنيرة، حتى أصبحت الفوضى في محيط الجماعة الأولى، وبين الجماعة الأخيرة مثلاً سيئاً تتهم به الحياة الإسلامية، وأصبحتَ ترى الفتيات الصالحات للزواج يَتطلعنَ إلى الزوج فلا يجدنه، وتلتمس الفتيات المهذبات أملهن في الرجل فلا يصادفنه.

ووراء ذلك ما وراءه مما يحزن كثيراً ولا يسر قليلاً. ووراءه ما وراءه من كساد يطفئ لمعة الشباب في وجوه الحسان، ومما يساور الآباء والأمهات على بناتهم من هموم وأحزان.

فكم من آهات حزينة، وتنهدات موجعات تلتهب بها قلوب الآباء والأمهات!

فمتى يكون في مصر قانون يردع، ما دامت القلوب لا تخشع، والآذان لا تسمع؟

(لها بقية)

عبد اللطيف محمد السبكي
المدرس في كلية الشريعة

في (عين شمس)

للأستاذ شكري فيصل

- 1 -

لم أعرف (عين شمس) قبل هذا اليوم؛ ولم يقدر لي أن تصافح عيناي هذه الجنبات الفساح، وتلك الأرض المنطلقة. وما أدري أين كان مني هذا الهدوء السمح، وهذه الطبيعة الضاحكة، وذاك الجمال المنثور هنا وهناك. . . لقد قنعت بنفسي فانطويت عليها، وزهدت في الناس فانصرفت عنهم، وقضيت في القاهرة سنوات فإذا أنا أعيش في هياكل الوحدة، ومعابد العزلة، وكهوف لانقطاع البعيد. . . وإذا أنا أحيا بهذه الأجواء التي أنشرها، وهذه الدُّنى التي أنثرها، وتلك الرؤى التي أهيم بها. . . وإذا أنا أنتزع قبس الحياة من أعماقي، وأمد زيته من دمي، وأعيش في عالمي الرحب، أطوف فيه، وأسكن إلى ظلاله الوارفات.

- 2 -

وفي القطار إلى (عين شمس) كانت تمر بي كل هذه الضواحي الفينانة، القائمة على برزخ الحياة، المستلقية على قدمي الصحراء، السابحة في بحر النور. . . فأعجب كيف غبت عنها كل هذا الأمد الطويل، وهذا المدى المتباعد. ولكني أثيب إلى نفسي فأذكر أن لي قلباً وقفته على ملاعب الصبا، ومسارح الطفولة، وجنات الغوطة؛ وأن في أعماقي خلجات استأثر بها الحنين، واستبد بها الشوق؛ وأن في أضلعي روحاً تخفق للأسرة الناعمة والبيت النديِّ والوطن البعيد.

لشد ما ملكت عليَّ نفسي هذه الضاحية الضاحكة. . . لقد أحسست فيها الحياة، وشعرت معها بالانطلاق، وامتدت بي آفاق النظر هنا وهناك، لا تحدها عوائق، ولا تقف من دونها حواجز، ولا يمنع عنها النور جدران قائمة وأبنية متراصة.

- 3 -

إن الصحراء النائمة على ذراع الأفق، الممتدة على صفحة الدنيا لتبعث ألواناً من

الأحاسيس، وتثير أنغاماً من العواطف، وتبث المعاني الرائعة من السلام والهدوء. . . لا يملك معها الإنسان إلا أن يستجيب لها، ويتحد معها، ويفنى فيها.

لقد وقفت في ساعات الضحى أتأمل هذا الفضاء الواسع فاجتمع عليَّ الألق والشعاع والنسيم. . . كانت الأضواء الراقصة تداعب جفنيَّ، وتريدهما على الإغماضة الخفيفة في ظلال الرؤى والمباهج. . . وكانت النسمات الرخية تعبث بشعوري فتمر عليها باليد الناعمة واللمسة الخفيفة. . . وكان الألق الفضي ينسكب فوق كل شيء، فإذا الدنيا تموج في بريقه المتقد، وتتلألأ في سناه الوضاء.

- 4 -

لم يعد يشوقني إلا أن أنظر إلى بعيد. أشهد الصحراء العارية على شاطئ الأفق. لقد تجردت من كل شيء: من البناء المرتفع والعشب النامي، والشجر المخضل. . . وأوغلت في البعد. . . وذهبت تغتسل في خضم واسع من الزرقة الخفيفة. . . لقد غابت فيه فلم يعد يظهر منها إلا هذه الذيول التي ألقت بها على الشاطئ تتلقى الشعاعات المترهجة، وتكتسي السراب الخادع. . . ثم ظهرت من جديد. . . فإذا الشمس تفيض عليها حلة من نورها الخاطف وألقها الوضاء. . . وإذا هي تبدو صافية نقية ناعمة، طهرتها السماء، وكساها النور، وفاض منها الجلال.

يا لروعة الصحراء!. . . إن رمالها المتراصة لتغني على مسمع الزمن أنشودة رائعة من أناشيد القوة والمجد، وإنها لتوقع لحناً بارعاً من ألحان الكرامة والنبل، وإنها لتكتب صفحات بارزات (في كتاب) الصفاء والطهر. . . فمتى نخلص إلى هذه الصحراء لننجو من غدر المدنية؛ وأثقال الحضارة، وأوضار المجتمع. . .؟ ومتى نعيش على هذه الرمال نستمع إلى حدائها، ونصغي إلى غنائها، وننعم بصفائها الطهور؟؟

- 5 -

أخذت أطوف مع الظهيرة في أطراف الضاحية. . . لا أخشى لفحات الشمس، لأن النسائم اللطاف كانت تذهب بشدتها وتحيلها ضوءاً ناعماً، ولوناً زاهياً، ونوراً حلواً. . . ومضيت في جنباتها المتباعدة؛ ووقفت أمام هذه الدارات المنثورة على أكناف الطرق أشهد بساطتها المحببة. . . كان أروع ما فيها هذه الحدائق القائمة على كتف الصحراء، وهذا الياسمين المنتثر على الرمال الصفراء، وتلك الأزاهير الفواحة في الأرض الجدباء. . . لقد ضمت

عالمين متباعدين فألفت بينهما، فإذا الخضرة الزاهية تتموج على حفافي الصحراء الصامتة؛ وإذا الزهر الندِي يقبل الرمل الحالم، وإذا دنيا الحضارة والترف تتآخى مع دنيا الجلال والخشونة. في عالم رائع أخاذ.

- 6 -

كان كل شيء في (عين شمس) يسلمني إلى سلسلة بعيدة من مفاتن الجمال. . . لقد أحسست النشوة في كل نظرة، ووجدت الهدوء في كل مشهد، وأحببت الصحراء فوق ما كنت أحبها، وفنيت في أجوائها المتسعة، وفي فضائها الرهيب. . . ولم ألق الخشوع بمثل ما لقيته في فناء مسجدها الجامع. . . لقد صليت على الرمل الممتد. . . فإذا أنا أحلق في عوالم مُثلى وسموات عليا، وإذا أنا أنسى كل شيء وأغيب عن كل شيء، وأن هدفي كل ما حولي، وإذا أنا أنشد الحقيقة الحقة، والخير المحض، والجمال المطلق. . . وأتلمس إلى ذلك الهداية والنور، وأحس اليقين والاطمئنان؛ وأجد من اللذاذات ما لم أجده من قبل في مكان.

- 7 -

حين جلست في المساء أنتظر أن ينشق هذا الهدوء الضافي عن القطار الصاخب، كان كل ما حولي يرتل نغمة السكون على هدهدة الليل الهابط. . . لقد انتشرت على صفحة السماء قطع متناثرة من الغيم الوردي الزاهي، واستعارت الدنيا لحظات هذا اللون الجميل، فصبغت به كل ما حولها. . . ثم لم يلبث أن اضطرب واهتز كما يهتز الطير الذبيح. . . لقد طمس عليه الليل، فغابت آخر شعاعاته من الأفق حين كان عامل المحطة يبعث أول ألسنة النار الحمراء في كومة من الخشب المشتعل.

. . . لشد ما تمنيت أن أكون في (عين شمس) هذا العاملَ السعيد . . .!

(القاهرة)

شكري فيصل

من تسابيح القلق
نشيد المغرب الباكي. . .
(إلى فاتنتي بسحرها الشقي)
للأستاذ محمود حسن إسماعيل
إذَا مَا اللَّيلُ نَادَاكِ
وَغنَّى حَوْلَ دُنْيَاكِ
نَشِيدَ الْمَغرِبِ الْبَاكِي ... فَهُبِّي وَانْشُرِي فَجْرَا
عَلَى أَحْلامِهِ الْحَيرَى
لَعَلَّ جِرَاحها تَبْرَا. . .
وَكُوني في الدُّجى شِعْرَا
يَهُز الْغَيْبَ إنْشَادَا ... وَيُسْعِدُ عُمْرِيَ الشَّاكِي
أَنَا اللَّيْلُ الّذِي نَادَى ... وَمَا عَنَّيْتُ إلاَّكِ!!
وَإنْ طَارتْ لَكِ الرِّيحُ
يُرَتِّلُ فَوْقَهَا رُوحُ
غَرِيبُ اللَّحْنِ مَجْرُوحُ ... رَآكِ فَقَالَ: لَبَّيكِ
هَبِينِيَ سِحْرَ عَيْنَيْكِ
لأُلْقِيَ بَيْنَ كفَّيكِ
صَلاةَ الْعِطْرِ لِلأيكِ. . .
فَرُفِّي الْحُبَّ أَنْوَارَا ... وَأنْغاماً لِمُصْنَاكِ
أنَا الرَّوحُ الذّي طَارَا ... لِيُبْعَثَ حِينَ يَلْقاكِ
أَنَا اللَّيْلُ، أَنَا الرِّيحُ!
أنَا اللَّحْنُ، أنا الرُّوحُ!
فَهَاتي خَمرَ نَجْوَاكِ
محمود حسن إسماعيل
رد على مقال:
الرحلات العربية
للأستاذ محمد محمود رضوان
قرأت المقال الممتع الذي كتبه الأستاذ الشاعر محمد عبد الغني حسن بالعدد 410 من الرسالة وأتى فيه على تاريخ الرحلات العربية. ولعل الأستاذ يفسح لنا صدره فنأخذ عليه بعض مآخذ لا تغض من مقاله القيم.
حاول الأستاذ أن يستقصي في مقاله جميع أنواع الرحلات التي نعرفها للعرب فوُفق حيث ذكر الرحلات الاضطرارية كرحلة القحطانيين، والتجارية كرحلة الشتاء والصيف لقريش، والدينية كهجرة المسلمين إلى الحبشة والى المدينة، والسياسية كرحلات المسلمين إلى المدن المفتوحة، ورحلات الاستجداء كرحلة جرير وأبي نواس، وأخيراً (الرحلات لذاتها ولم تبدأ إلا في القرن الرابع الهجري) كرحلة المسعودي والبيروني والقدسي وابن جبير والمغربي وياقوت الخ.
وعجبي للأستاذ محمد عبد الغني أن ينسى ضرباً من الرحلات هو في نظري أهم ضروبها، وأجدرها بالدراسة لأنه أجملها أثراً وأجلها خطراً في العلم والأدب، وأعني به (الرحلة في طلب العلم).
وأعجب من هذا أن ينسى الأستاذ الكاتب نفسه وهو قد رحل في طلب العلم. وليته قرأ ابن خلدون يقول: (إن الرحلة في طلب العلم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم).
ولقد عرف العرب لرحلات العلم قيمتها فكانوا ينتقلون في مشارق الأرض ومغاربها للقاء الشيوخ، ويرحلون إلى البادية لتَضْرَى مقاولهم بالفصاحة، ويتحملون في سبيل العلم من بعد الشقة وقلة الزاد ووحشة الطريق ورهق السفر ما الله به عليم.
ذكر ابن خلكان أن الخطيب أبا زكريا التبريزي شارح ديوان الحماسة، والقصائد العشر (421 - 502) وقعتْ له نسخةٌ من كتاب التهذيب للأزهري في عدة مجلدات يُعوزُ بعض مسائلها شيء من التحرير، فسأل عمن يقوم بذلك فدلوه على أبي العلاء. . . فماذا يصنع الرجل والشقة بعيدة وهو فقير لا يملك أجرة دابة تحمله؟ لقد وضع الكتاب

في حقيبةٍ وحملها على ظهره وسافر من تبريز إلى المعرة مشياً على قدميه حتى بلغها وقد قطع نحو
سبعمائة ميل ثم أخرج الكتاب فوجد العرق قد نفذ إليه فأفسد منه ما أفسد.
والأندلس العربية، لقد كانت كعبة القاصدين من أهل المشرق كما كان نجمة الرائدين من أهلها طالبين للعلم، والعلامة المقري صاحب كتاب (نفح الطيب) يسهب في كتابه إسهاباً، ويُطنب إطناباً، حين يتعرض لذكر الذين رحلوا من الأندلس إلى المشرق يطلبون العلم وينافسون فيه المشارقة.
وكتب التراجم كوفيات الأعيان ومعجم الأدباء وطبقات الأطباء وتاريخ الحكماء تؤرخ لألوف من العرب رحلوا يطلبون العلم (ولو في الصين)، لا يعوقّهم الإملاق عن شهود محافِلِه، ولا تحلّئهم المشاق عن ورود مناهله.
ولقد كتبتُ فصلاً مسهباً عن (رحلات العرب في طلب العلم) من فصول كتاب أشتغلُ جاداً بوضعه عن (المسلمون والتربية)، عسى أن يكون الفراغ منه قريباً.
وللأستاذ شرف الدين خطاب المفتش بوزارة المعارف فصل موجز في هذا الموضوع في كتابه (التربية في العصور الوسطى) الذي يدرس في دار العلوم، فراجعه إن شئت.
نعود لناحية أخرى نعتقد أن الأستاذ عبد الغني تجنى فيها على شعراء العربية، وذلك حيث قال عنهم: (ولكن واحداً منهم لم يفكر في تدوين رحلة أو تسجيل مشاهدة)، وحيث قال: (وإذا كانت هذه الرحلات الفردية وكثير غيرها قد أضافت بعض الثروة إلى الأدب إلا أنها لم تكن منتجة بالنسبة للرحلات والاسفار، فهي عقيمٌ كل العقم من هذه الناحية).
فلقد عرفنا لكثير من شعراء العربية الرحالين شعراً رائعاً يصفون فيه رحلاتهم ليس هذا موضع الإفاضة فيه، ولكني أمثل بالبحتري وقصيدته في وصف إيوان كسرى التي ضمنها وصف رحلته ومشاهداته، وأمثّل بأبي الطيب المتنبي الذي تقلب ما بين دمشق وحلب ولبنان وفارس ومصر وشهد غزوات سيف الدولة فضمَّن شعره الكثير مما شاهده، فوصف بحيرة طبرية وشعب بوان وحِمص وتُفاح لبنان، ووصف نساء الروم في وقعة نهر (أَرْسَناس)، وليس في إغفاله وصف آثار مصر ونيلها دليل على قصوره أو تقصيره فإن لذلك أسباباً لا نتعرض لها في هذه العُجلة، بل لقد كان لرحلته إلى مصر آثار كثيرة في شعره. . . أقلها أنه هجا المصريين.
وابن هانئ الذي قال عنه الأستاذ (يخرج من الأندلس إلى شمال أفريقية فيمدح الخليفة
المعز ويرحل معه إلى مصر ويصف هذه الرحلة في بعض شعره) لقد ظلمه وتجنى عليه، فالرجل لم يرحل مع المعز إلى مصر ولكنه رحل من الأندلس إلى عدوة المغرب فلقى جوهرا القائد، ثم علم به المعز فقربه وأجرى عليه العطايا؛ ثم رحل المعز إلى مصر فشيعه ابن هانئ ورجع إلى المغرب لأخذ عياله، ثم مات قبل أن يلحق بالمعز. ولما بلغه خبر موته أسف وقال: (كنا نريد أن نفاخر به شعراء الشرق فبل يقدر لنا ذلك).
ومع هذا فقد كان لرحلة ابن هانئ إلى المغرب أثرها في شعره، وقد وصف أسطول المعز وصفاً رائعاً بقصيدته المشهورة:
أما والجواري المنشآت التي سَرَتْ ... لقد ظاهرتْها عدةٌ وعديدُ
وبعد ففي مقال الأستاذ محمد عبد الغني بعض هنات في التعبير واللغة نرى لزاماً علينا أن نشير إليها، ولاسيما أنه من المولعين بتعقب أمثالها.
فهو أولاً، يقول عن الرحالين من قريش إلى اليمن والشام: (وسنسميهم رحالين تجاوزاً)، مع أن الله تعالى يقول: (رحلة الشتاء والصيف) فهل سماهم القرآن رحالين تجاوزاً؟
وهو ثانياً يروي بيت الأعشى هكذا:
وشاهدنا الجُلّ والياسمين والمسمعات بأقصابها
وأظن الرواية الصحيحة للبيت (بقصابها) لا (بأقصابها)، وقد جاء في الأساس: (ونفخ في القصابة: في المزمار، ورأيت القُصاب ينفخون في القُصاب: أي الزمارين ينفخون في المزامير، جمع قاصب الخ). أما الأقصاب فهي الأمعاء.

وقد روي البيت كما ذكرت العالم التونسي الجليل الأستاذ الشيخ محمد الطاهر بن عاشور شيخ الإسلام المالكي في تونس، في بحثه النفيس (المترادف في اللغة العربية) المنشور بالجزء الرابع من مجلة المجمع اللغوي.

وهو ثالثاً. . . استعمل في مقاله (ساهم) بمعنى (شارك) أو (كان له نصيب)، والمساهمة هي المقارعة من (القرعة) كما في قوله تعالى في قصة يونس (فساهم فكان من المدحضين) وكان يصيب لو قال: (أسهم) أو (سَهّم).

وقد نبه على هذا الخطأ أستاذنا الجليل العوامري بك. ولا حجة للدكتور زكي مبارك في رده لأنه يستشهد بكلام المتأخرين، ويرضى بأن يخطئ مع الشريف الرضي.

وهو رابعاً يقول: (ويعد كتابه الثاني أوفى مرجع عن بلاد الهند، وأملأ كتب الأسفار تعريفاً بها).

والشذوذ كل الشذوذ في (أملأ)، لأن أفعل التفضيل - كفعل التعجب - لا يصاغ من الخماسي (امتلأ) على وزن أفعل. ولا يُقال إنه مصوغ من مَلأ، لأنه كان عليه حينئذ أن يقول: (ويُعَد المؤلف أملأ المؤلفين لكتابه تعريفاً بالأسفار) لا أن يسند الملء للكتاب.

نعم، إن الأشموني في شرحه على الألفية وابن هشام في أوضح المسالك ذكرا من الشذوذ قولهم: (ما أملأه للقربة) مصوغاً من امتلأ؛ وهذا وهمٌ منهما لأنه لا شذوذ حينئذ في العبارة، إذ هو مصوغ من ملأ. . . والمعنى جيد.

وقد اعتذر لهما الصبان بأن الشذوذ يكون حين يقال: (ما أملأ القربة)، كعبارة الأستاذ عبد الغني

فهل يقوم هذا اعتذاراً له؟

وهو خامساً يقول: (وإذا كانت هذه الرحلات الفردية وكثير غيرها قد أضافت بعض الثروة إلى الأدب، إلا أنها لم تكن منتجة. . . الخ).

وأنا لا أعلق على هذه العبارة إلا بأن أتحدى الأستاذ بأن يُعربها ويبين لنا جواب إذاً ويخرِّج هذا الاستثناء.

ومني إليه التحية.

(حدائق القبة)

محمد محمود رضوان

المدرس بالمدرسة النموذجية

من وراء المنظار

في الترام أيضاً. . .!

لعل هذه ثالث مرة أكتب فيها عما وقع عليه منظاري في الترام مما يصور أخلاق بعض الناس في مجتمعنا الواسع، والترام لا تنس أيها القارئ مجتمع له خطره. وإن عجبت لهذا التعبير فأخطر ببالك مبلغ ما تمتلئ به طيلة النهار وساعات من الليل تلك المركبة من أنماط الناس مرات كثيرة متتابعة.

وما اتخذت موضعاً لي يوماً بين هؤلاء الناس إلا وقع منظاري على ما لا أحب أن يقع عليه، ولو أني رحت أحدثك كل يوم بما أرى لجئتك كل يوم بالطريف، بل ولحملتك على أن تستزيدني إن سكت.

وماذا عسى أن أعرض عليك اليوم مما شاهدت والمجال لا يتسع له كله وليس فيه ما أحب أن أدعه، وما أعرض عليك ما أعرض محبة في نشر ما يعاب وإنما أشهر بما يعاب بغية القضاء عليه. . .

هذان يافعان من أبناء مدارسنا يكلم كلاهما صاحبه وكأنه يتعمد أن يسمع الراكبين جميعاً، وليت العيب قاصراً على ما يحدث كلاهما من ضجة مكروهة، بل إنهما ليتحدثان في غير تحفظ عن أمور أحسب أن الحديث فيها مما يوجب الخجل لو جرى بينهما على انفراد، دع عنك ما ينعت به كل منهما صاحبه من الألفاظ التي نستطيع صدورها من السوقة إذا عظمت بينهم جلبة المزاح، أو إذا استحرَّ بينهم بالأيدي والألسن القتال. . . وما أرى على وجه من هذين الوجهين أي شعور بأنهما تقع عليهما أعين الناس.

ودع هذين إلى ذلك الذي يتحدث إلى جيرانه عن إحدى القضايا فيذكر أسماء معروفة ويعقب على كل أسم بما يشاء له أدبه من قاذع السباب في غير تحرج ولا مبالاة.

ثم ما فصيلة هذا (الإنسان) الذي جعل يحملق في فتاة أمامه من بنات المدارس لا

يكاد يتحول نظره عنها وإنما يتحرك بصره إذ يتحرك صاعداً من طرفي قدميها إلى قمة رأسها فيستقر بعض الوقت في مواضع معينة، ثم يهبط إلى أسفل من جديد متوقفاً عند كواضع
الاستقرار حتى يعود إلى حيث بدأ ليصعد من جديد، وهكذا دواليك دون أن يفطن هذا الأفندي إلى ما يكاد يزهق روحها من ضيق وارتباك.
وما هذا الذي راح يقضم اللب ويلقي بقشره في سرعة فيقع على ملابس من هم حوله في غير وعي منه كأنما يفعل ذلك في حجرته الخاصة؛ فإذا فرغ ما في يده دسها في جيب سرواله فعادت ممتلئة، ودار فكاه فألقيا بالقشر تباعاً كأنهما تلك الآلة التي تفصل القمح حبه عن تبنه في الأجران.
وماذا يريد ذلك (البارد) الذي يطيل النظر إلى ملابس من هم أمامه، كأنما يتفرج على معروضات الأزياء في إحدى (الفترينات). يفحص ببصره أربطة الرقبة والقمصان والحلل ولا يتحول بعينيه عنك مهما أبديت له بنظراتك من دهش أو استنكار!!
على أن هؤلاء جميعاً أهون شراً وأقل خطورة من ذلك الذي جلس في طرف المقعد إلى اليسار وأخذ يبصق كل بضع ثوان بصقة لا يبالي على أنف من ولا على عين من وقع رشاشها العذب الذي ينثره الهواء على من خلفه، كأنما يتحتم على راكب الترام أن يلبس قناعاً من الأقنعة الواقية. . .
ومثل ذلك الظريف هذا الذي يتحرك لينزل فيطأ بنعله وجه نعلك، أو يفزع بيده طربوشك فما تدري إلا وقد طار عن رأسك، أو يتحاشى الانزلاق إذ يقرب من السلم فتستقر لطمة منه على عينيك أو خدك أو أنفك بحيث لو سددها إليك من يتعمد ذلك - لا قدر الله - ما جاءت محكمة كما تجيء من يد ذلك الذي يمر بك أثناء نزوله من الترام، وإنه ليقع منه ذلك فلا يلتفت إليك بكلمة اعتذار أو بنظرة أسف! وسبحان الذي سوى الجبلات.
ودع عنك غير من ذكر (المتشعبطين) على السلم والمتحاربين مع (الكمساري) من أجل مليم مشكوك في أمره، أو على الأكثر من أجل قرش زائف، دع عنك هؤلاء فالأمر محصور بينهم وبين (الكمساري) إلا إذا نفخ هذا في زمارته فأوقف الترام وأخذ الجميع بذنب صفيق أو صفيقين.
أقسم لك أن ذلك كله حدث في الترام في وقت معاً، فإن لم تصدقني بعد هذا القسم فليس لدي شك في أنك لم تركب هذه المركبة.
الخفيف
تدخل الدولة في الإصلاح
واجب لا مناص منه
للأستاذ علي توفيق حجاج
تناول الدكتور زكي مبارك في مقاله الطويل: (الفرد هو الحجر الأول في بناء المجتمع) المنشور بعدد (الرسالة) 408 مسائل متنوعة الألوان مختلفة المذاهب، وتصدى فيها للرد على بعض الكتاب؛ وقد لفت نظري ذلك الخلط القريب في وجهات النظر، وأدهشني أن أرى الدكتور زكي يدعو إلى الفوضى في الوقت الذي فيه يدعو إلى الإصلاح؛ وقد استخلصت من مقاله الطويل آراءه الآتية بنصها، حيث يقول:
أولاً: (وأنا أرى أن الفرد هو الحجر الأول في بناء المجتمع وأرى من الواجب أن توجه الجهود الصادقة إلى إصلاح الفرد، لأن المجتمع يتكون من الأفراد).
ثانياً: (المنحطون هم الذين ينتظرون من الحكومة كل شيء، فهي عندهم مسؤولة عن صيانة المرافق، وتدبير جميع المنافع، وإبعاد جميع المخاطر، وإصلاح جميع الأحوال).
ثالثاً: (عيب الفرد هو اعتماده على المجتمع واحتماؤه بالقوانين فقد شلت من الإنسان مواهب كثيرة منذ اليوم الذي اطمأن فيه إلى أنه له عصبية تنصره وحكومة تحميه. . . وأنا أدعو إلى اعتصام الفرد بنفسه، قبل اعتصامه بعدالة الحكومة وحصانة المجتمع).
هذه هي خلاصة ما يقرره الدكتور زكي مبارك في مقاله.
أنا أرى:
وأنا أرى أننا جميعاً متفقون مع الدكتور في أن (الفرد هو الحجر الأول في بناء المجتمع)؛ ولكن ما هي تلك الجهود الصادقة التي يجب أن توجه إلى إصلاح الفرد؟. . . أليست

هي المشروعات الاقتصادية والاجتماعية التي تقوم الحكومة بتنفيذها لرفع مستوى حياة الشعب ومعيشته؟ خذ لذلك (الدولة) مثلاً قيام الحكومة بإصلاح الأراضي البور - في شمال الدلتا وغيرها - وتوزيعها على صغار الملاك رغبة في التوسع في الملكيات الصغيرة والنهوض بمستوى صغار الزراع والعمال الزراعيين؛ وقد حدثتنا الإحصائيات الرسمية للدولة المصرية في سنة 1938 أن عدد ملاك الأراضي الزراعية في المملكة المصرية هو 2. 444. 181 مالكاً، منهم 1. 716. 707 يملك فداناً فأقل، و567. 806 يملك من فدان إلى خمسة أفدنة، ونسبة هؤلاء الملاك إلى مجموع الملاك في الدولة هو 593 % ومتوسط ما يملكه الواحد منهم 20 قيراطاً فقط، وأن الملاك الذين يملكون خمسة أفدنة فأكثر هم 159. 667 ونسبتهم إلى عدد الملاك 56 %، فهل يعقل يا دكتور أن مالكاً لفدان واحد، بملكته أن يقوم بتربية أبنائه وخلق جيل جديد يتفق مع نهضة البلاد؟ هذا هو شأن الملاك، فما بالك بمن لا يمتلكون شيئاً!؟

لقد اتخذت فرنسا وغيرها من دول أوربا إجراءات مختلفة للإنعاش الاقتصادي، خصوصاً ما كان متصلاً منها بالزراع وصغار الملاك، والعمال الزراعيين، والطبقات الفقيرة. ومما يذكر أن حكومة فرنسا وضعت في سنة 1938 نظاماً أطلقت عليه اسم: الإقطاعيات الزراعية للمعاش، وأصدرت به قانون 24 مايو سنة 1938، واستفاد من هذا النظام جميع العمال الزراعيين، بل جميع المشتغلين بالزراعة.

إن حصر الإجراءات والوسائل التي اتخذتها الدولة للعناية برفع مستوى الشعوب من الناحية الاقتصادية والاجتماعية يتطلب مجلات ضخمة، ولا يمكن لمجلة قيمة (كالرسالة)، أن تشغل وقت قرائها بسرد طويل - قد يمله بعضهم - ولكني على سبيل الإشارات، قد ضربت هذين المثالين:

الحكومات هي أم الشعب الذي يجب أن ترعاه، بل المسؤولة عن توجيهه، وتوجيه أفراده، وصيانة المرافق، وتدبير جميع المنافع، وإبعاد جميع المخاطر، وإصلاح جميع الأحوال).

والعيب كل العيب يا دكتور على الفرد الذي لا يعتمد على احتمائه بقوانين الدولة التي تصدرها لتنظيم العلاقات المختلفة بين الأفراد والجماعات، بين أصحاب الأعمال والعمال، بين الملاك والمستأجرين، بين التاجر وعملائه، بين الموظف ووظيفته إلى آخره.

بل (لقد شلت مواهب كثيرة) بسبب عدم تشجيع الدولة لها، وتقدمت وارتقت مواهب المفكرين والمخترعين الذين أولتهم الدولة عنايتها، وشجعتهم بمختلف الوسائل، كالتعيين في الوظائف العامة، ومنح المكافآت، والامتيازات وما إلى ذلك.

والواقع أن الأعمال التي اطمئن عمالها إلى مستقبلهم، قد ارتقت وتقدمت تقدماً باهراً، بسبب رعاية الدولة لعمالها ووضعها تشريعاً روعي فيه مصلحة الطرفين، أي مصلحة العامل وأصحاب الاعمال، وضماناً للعدالة التي يجب أن تحتل المكان الأول في المعاملة.

أما (احتماء الفرد بنفسه) وأن النفس لأمارة بالسوء، فهو الفوضى بعينها، ولو كان الأمر كذلك لما أرسل الله مبشراً ونذيراً، وسنت الشرائع السماوية، ولما فكر العلماء في وضع القوانين واللوائح التي تحد من طمع الإنسان وجشعه، وحب الذات، (كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى).

ولذلك أرجو أن يرجع الدكتور عن رأيه وأن يقرر معي، كما قررا العقل والناموس الطبيعي. أن يعتمد الفرد على (الدولة)، وأن يوجه عنايته دائماً للتعاون معها في سبيل الإصلاح خصوصاً بعد أن أصبح مبدأ تدخل الدولة من المبادئ المحتومة التطبيق، ما دام قائماً على أساس التضامن الاجتماعي والعدالة في توزيع الضرائب.

تدخل الدولة

إن تدخل الدولة في أحوال المجتمع والأفراد أصبح أمراً لازماً لا مناص منه منذ زمن بعيد،

ولقد اضطرت الدول لفرض مختلف أنواع الضرائب كي تتمكن من القيام بأعباء مسؤولية التدخل وتكاليفه، وقد قسم علماء الاقتصاد والقانون هذا التدخل إلى الأقسام الآتية:

أولاً - التدخل الوطني: ' وهو تدخل الدولة في التجارة الخارجية أو الدولية حماية للإنتاج الأهلي إذ لابد للدولة من العمل على تنظيم القوى الإنتاجية للجماعة، وتنشيط الإنتاج وتشجيعه في مختلف نواحيه حتى يتم بذلك تكوين المجتمع أو الأمة، وهذا لا يتأتى إلا عن طريق الحماية الجمركية مثلاً للواردات. وقد تدخلت حكومة مصر في هذه الناحية عندما رغبت رفع مستوى الصناعات المحلية وتشجيعها، والاستغناء جهد الطاقة عن الواردات الأجنبية. فقررت فرض رسوم جمركية مرتفعة على الواردات من المنسوجات الأجنبية وغيرها خصوصاً وأن الصناعات المصرية كانت في دور النشوء، ولا يمكنها أن تتحمل المنافسة الأجنبية، ولابد أن يتناول التدخل الوطني الحماية الجمركية وجميع نواحي الصناعة والزراعة والتجارة.

ثانياً - التدخل الاجتماعي: ' الغرض منه تدخل الدولة لتحسين حالة العمال ورفع مستوى معيشتهم، خصوصاً من ناحية محاربة نظام المنافسة الحرة الذي يدفع بالمنتجين إلى محاولة العمل على تخفيض نفقة الإنتاج بتخفيض أجور العمال واستعمال الأيدي الرخيصة، واستخدام النساء والأطفال.

ولما كان مركز العامل دائماً يكون ضعيفاً أمام صاحب العمل، والقوى المتنازعة غير متكافئة، فلابد من تدخل الدولة لحماية الضعيف، ولابد من سن تشريع صناعي، وتحديد ساعات العمل، ووضع نظام الأجور والإعانات والمكافآت في جميع الأحوال سواء في أحوال المرض والشيخوخة والبطالة، وتعميم نظم التأمين الاجتماعي.

وقد تدخلت الحكومات على اختلاف ألوانها: دكتاتورية كانت أو ديمقراطية في جميع نواحي النشاط.

وشرعت مصر في هذه النهضة فعمدت إلى سن تشريع إصابات (العمل)، وقانون عقد العمل، وتشغيل الأحداث، والتأمين الاجتماعي، والتأمين ضد البطالة وغير ذلك.

وفيما يتعلق بالإصلاح الاجتماعي لابد من العمل على إفساح المجال للعوامل الأخلاقية والدينية في الجماعة، بمعنى أنه لابد من إخضاع الفرد لقانون أخلاقي وسلطة عليا هي سلطة رئيس العائلة في المنزل، وصاحب العمل في المصنع، والدولة في مختلف الشؤون.

ثالثاً - التدخل الاقتصادي: ' وهو تدخل الدولة في الإنتاج، بأن تحل مكان الفرد في بعض فروع الإنتاج وبذا ينشأ الاحتكار العام، فتتولى الدولة أو البلديات أعمال السكك الحديدية والبريد والمناجم، وذلك دون تغيير في نظام الجماعة الحاضرة، فتنشأ بجانب الملكية الفردية ملكية الدولة لبعض الفروع.

وقد تطور تدخل الدولة الاقتصادي، فأصبحت الدولة تعتبر جميع نواحيها الاقتصادية وحدة اقتصادية مكونة من مجموع قوى إنتاجية تتعاون وتتضافر وتتضامن فيما بينها بحيث يستفيد الشعب من هذه القوى، ويحصل على كل ما يكون في استطاعته إنتاجه بنفسه لنفسه، ويقل اعتماده على غيره، أو بمعنى إيجاد سيطرة اقتصادية، مع الاعتراف بوجود روابط اقتصادية دولية، بشرط حماية الإنتاج المحلي الأهلي. وهذا التدخل يسمى أيضاً بنظام الاقتصاد وقد جرت عليه تقريباً جميع الحكومات على اختلافها، ويرجع تاريخ تطبيقه الحديث في مصر إلى عهد محمد علي باشا الكبير، وما زالت حكومة مصر تتخذ إجراءات من وقت لآخر في سبيل حماية الإنتاج المحلي، وبحث ودراسة وسائل تصريفه.

وقد ثبت أن تدخل الدولة غرضه الأول تنظيم جميع المرافق وإيجاد تناسق في جميع الدول.

وسائل تدخل الدولة

تتدخل الدولة لحماية الأفراد بسن القوانين - كما سبقت الإشارة إلى ذلك - ويكون فيما يتعلق بتدخلها في الإنتاج، أولاً: بصفتها مشرعاً لتنظيم وتشجيع المنشآت الخاصة، ويكون تدخلاً غير مباشر. ثانياً: بصفتها صاحب عمل ويكون تدخلاً مباشراً. ويكون ذلك

بوضع قواعد عامة وشروط معينة لابد للمنشآت من إتباعها.
هذه يا دكتور بعض المبادئ العامة لتدخل الدولة مع إشارة موجزة كل الإيجاز إلى بعض وسائل تطبيق التدخل. وقد شعرت بلادنا وحكومتها نفسها وبرلماننا بأننا أمة في حاجة ملحة للإصلاح، ولا يكون ذلك إلا عن طريق تدخل الحكومة. وإليك نص ما جاء في الصفحة الثالثة من تقرير لجنة المالية بمجلس النواب عن سنة 1940 - سنة 1941.
ولن تتحقق العدالة الاجتماعية ويرتفع مستوى الحياة العامة لطائفة كبيرة من أبناء) هذا
الوطن، تئن تحت أثقال الفقر والمرض والجهل، إلا باتجاه الجهود متكافئة، إلى علاج هذه الأدواء الثلاثة، والعمل على خلق طبقة من صغار الملاك، تحيا حياة إنسانية في المستوى الأدنى الذي تراه البلدان المتمدينة أقل ما يجب أن يبلغه واحد من أبنائها).
لابد وأن يكون الدكتور الفاضل زكي مبارك قد رجع عن رأيه بعد هذا البيان الموجز، وأن يقرر أنه لابد من اعتماد الفرد على الدولة واحتمائه بقوانينها.
علي توفيق حجاج
رسالة الشعر
. . .لو تكلم الفلاح
للأستاذ محمود الخفيف
شَبَّابَتِي جَفَّتْ عَلَيْهَا الشِّفاه ... وَلحْنُهَا مَا هَزَّ قَوْمِي بُكاهْ
بَكَيْتُ لا سَلْوَةَ غَيْرَ البُكا ... حَتَّى البُكا قدْ مَاتَ حَوْلِي صَدَاهْ
نَشأتُ فِي الشَّوكِ سَقِيمَ البَدَنْ ... وَالشَّوُكُ لي حَتَّى ارْتِدَائِي الكَفَنْ
يا وَيْلَتَا مَاذا جَنَتْهُ يَدِي ... يَدِي بَنَتْ فَوْقَ التُّرابِ الْحَيَاهْ
يَا لَيْتَ فَأسِي لَمْ تحِلْهَا يَدِي ... أو لَيْتَنِي يَا قَوْمُ لَمْ أُولدِ!
أَشْقَى لِيَبْنِي بِشَقائِي الْغِنَي ... والْجَاهَ، بانٍ، كَمْ رَمَتْنِي يَدَاهْ
أعيشُ من عَجْمَائهِ أَوْضَعَا ... يَا لَيْتَ لي مِنْ فِكْرِهِ مَوْضِعَا
لِلثَّورِ ضِعْفٌ إنْ ذَكَرتُ الذِي ... أُعْطَاهُ أجْراً سَاء شَرْعُ الطَّغاهْ!
حِمَارُهُ في سُرُجٍ من حَريرْ ... وَبَيْتَنَا في الرِزْقِ فَرْقٌ كَبيرْ
وَكلْبُهُ، لو أنَّ بَعْضَ الذِي ... يَحْظى بهِ حَظِّي جَهِلْتُ الشَّكاهْ
ضَنيتُ حتى مَا عَرَفْتُ الضَّنَى ... وَالْمَوْتُ طِبِّي بعدَ طولِ العَنَا
يا قَوْمُ إني جِئْتُ من آدَمٍ ... ما لِي بهذا الكَوْنِ جَدٌ سِوَاهْ
شَقِيتُ حَتى قدْ جَهِلْتُ الشقَاءْ ... وَبَغَّضَ اليَأسُ لِقلبِي الرَّجَاءْ
كَمْ لُذْتُ بالآمَالِ حَتَّى غَدَتْ ... بَعْضَ عَذَابي الْيَومَ وَا حَسْرتاهْ!
أَلِمْتُ حتَّى قدْ رَثيَ لي الألَمْ ... وَأشفَقَ السُّقمُ وَحَارَ العَدَمْ
لَمْ يُبْقِ مِنِّي غَيْرَ طَيْفِ البِلَى ... عَيْشي وَمَالِي حِيلَةٌ فِي سِوَاهْ
لا هُوَ مُحْيِينِي وَلا قَاتِلِي ... مَنْ ذا يُزِيحُ الْعَيْشَ عَنْ كاهِلي؟
مِنْ مَوْلِدِ الشَّمْسِ إلى مَوْتِها ... كَدحٌ وما غَيْرُ الرَّدى مُنْتهاهْ
وفي لَظَى الشَّمْسِ وَقُرِّ الشِّتاءْ ... ما كانَ لي غَيْرَ قَمِيصي وِقَاءْ
وَقُوتِيَ الخُبْزُ، يَمِيناً لَئِنْ ... يُلقَي لِكلبٍ مُترَفٍ لازْدَرَاهْ
لِغَيْرِيَ النِّيلُ جَرَى كَوْثَراً ... وَلِي جَرَى من عِيشَتي أكدَرَا
مِنْ طِينِهِ الذّائِبِ أرْوِى الظّماَ ... وَقدْ رَوَى مَاءُ جَبيني ثَرَاهْ!
آوِي إلى كُوخِي ذلِيلَ الخُطي ... وَلَيْسَ فِي كُوخِيَ غَيْرُ الأسَى
هَذا بَراهُ السُّقمُ حَتَّى بَدَا ... طَيفاً وَذا دَاءُ الكَلَى مَا دَهَاهْ
وَلَيْسَ لِي وَيْلاهُ مِنْ رَاحِمٍ ... وَهَلْ أُرَجِّي البِرَّ مِنْ ظالِمي؟
يَنْظُرُ لي إنْ مَرَّ بي نَظرةً ... كأنَّني في الحَقلِ بَعْضُ الشَّبَاهْ!
يَا بَانِياً هَذا الثَّرَاء العَمَمْ ... بَنَيْتَ بِالاشْلاءِ هَذا الهرَمْ
أَقُولُ إمَّا بِتُّ في مَضْجَعِي ... طاوِي الحَشَا: تَبَّتْ يَدَا مَنْ بَنَاهْ
يا سَامِراً أغْرَاهُ حُلْوَ السَّمَرْ ... يا لاَ عِباً بِالمالِ حتَّى السَّحَرْ
يا وَالِغاً في الكأسِ هَذا دَمِي، ... هَلاَّ ذَكَرْتَ الكأسَ كيْفَ احْتَوَاهْ
مَا قَلَّ مِنْ هَذا الّذي تُتْلِفُ ... يُسْعِدُني إن كُنْتَ لا تَعْرِفُ

حرَمْتَنِي مَا فَرَضَ اللهُ لِي ... إِصْلَ لظَاهُ يومَ تُكوَى الْجِباهْ
الخفيف
البريد الأدبي
السنوسيون والمذهب المالكي
كان لي حظ الاطلاع على ما كتب الأستاذان جعفر والعيساوي عن السنوسيين، ويظهر أن الأستاذ جعفر قد استند في تقديره بُعد السنوسيين عن المالكية بما قد حصل من ثورة بعض من حسبوا أنهم علماء على السنوسيين. فقد قرأت في مطالعاتي أخيراً في كتاب الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية للمرحوم الأستاذ الإمام الطبعة الثانية في (صفحة 112) تحت عنوان (الإسلام اليوم، أو الاحتجاج بالمسلمين على الإسلام) ما يلي: (. . . لكن أليس من العلماء المسلمين اليوم أعداء للعلوم العقلية. . .؟ ألم يسمع السامعون أن الشيخ السنوسي (والد السنوسي صاحب (الجغبوب) كتب كتاباً في أحوال الفقه زاد في بعض مسائل على أصول المالكية، وجاء في كتاب له ما يدل على دعواه أنه ممن يفهم الأحكام من الكتاب والسنة مباشرة، وقد يرى ما يخالف رأي مجتهد أو مجتهدين؛ فعلم بذلك أحد المشايخ المالكية رحمه الله تعالى، وكان المقدم في علماء الأزهر الشريف فحمل حربة وطلب الشيخ السنوسي ليطعنه، لأنه خرق حرمة الدين، واتبع سبيلاً غير سبيل المؤمنين. . . وإنما الذي نجى السنوسي من الطعنة ونجى الشيخ من سوء المغبة وارتكاب الجريمة باسم الشريعة، هو مفارقة السنوسي للقاهرة قبل أن يلاقيه الأستاذ المالكي.) آه
وأظن أن في كلام الأستاذ المرحوم الشيخ محمد عبده ما يحدد قرب السنوسيين لا بعدهم عن الإسلام.
محمد فخري مهنا
الخطة النازية في الحرب
إن الخطط التي اعتمدتها النازية في هذه الحرب قد عدلت كثيراً من الخطط الحربية القديمة، حتى أصبح من ذكريات الماضي الرأي القائل بأن على المدفعية أن تمهد السبيل للمشاة، وعلى قوافل المؤن والذخر أن ترافق الجيش.
فبناء على خطة الألمان الجديدة يجب على قاذفات القنابل أن تبتدئ أولاً بضرب الأهداف الحربية في بلاد العدو بدلاً من المدفعية البعيدة المرمى التي كانت تقوم بهذه المهمة في
الحرب الماضية. وبعد أن تلقي هذه الطائرات الجبارة محمولها من القذائف الكبيرة، تمطر برصاص مدافعها الرشاشة جنود العدو، وتتلوها أسراب من الطائرات الخفيفة تحمل قذائف صغيرة وقنابل محرقة وهي تمثل دور الفرسان قديماً؛ ثم يبتدئ هجوم الدبابات الضخمة من ذوات الستين طناً، وتسير إلى جانبها الفرق الآلية، ولا يتقدم المشاة إلا بعد تمهيد الطريق وتنظيف الساحة من العدو.
ولكل فئة من رجال الهوابط مهمة: فمهمة الفئة التي تتألف من خمس طائرات أن تهبط في مكان معين، حيث تنتظرها عصابة من الطابور الخامس؛ والتي تتألف من أربع طائرات أن تهبط لنسف الجسور أو لتخريب السكك الحديدية ونحو ذلك؛ والتي تتألف من ثلاث طائرات أن تستولي على مستودعات النفط والمؤن، والتي تتألف من طائرتين أن تعطل المطارات. أما التي تتألف من طائرة واحدة، فتحمل مهندسين وخبراء فنيين لدرس الطرقات وطبيعة الأنهار وأمثالها. وكل ذلك يتم بنظام دقيق يشبه نظام الساعة.
جنود الهوابط (الباراشوت)
منذ سنة 1935 ابتدأت ألمانيا بتأليف فرق الهوابط وتمرين رجالها على هذه الطريقة الحربية الجديدة التي تقتضي مهارة كبيرة وتمريناً طويلاً، لأن الخطر الذي يهدد الهابط ليس في الجوبل عند وصوله إلى الأرض، إذ تنكسر رجله، أو تصدع على الأقل فلا يعود يستطيع أن يقوم بمهمته، وكل هابط يحمل بندقية رشاشة خفيفة ودراجة وكمية من الذخيرة، وعليه أن يحسن جيداً لغة البلاد التي يهبط فيها.
كان الألمان في الحرب الماضية ينشئون وراء خطوطهم مثالاً تاماً من خنادق الحلفاء ويمرنون جنودهم على طريقة مهاجمتها، وهكذا فعلوا في الحرب الحاضرة، فصنعوا بدلاً من الخنادق نموذجاً من البلدان التي نووا اجتياحها تتراوح مساحته بين أربعة

وخمسة أمتار، وأثبتوا فيه الطرقات والأشجار والبيوت والأقنية والأنهار وغيرها، فيعكف جنود الهوابط على درسها حتى إذا حانت ساعة العمل قاموا بمهامهم بكل دقة.
ولا يبلغ جنود الهوابط أهدافهم بدون مساعدة رجال الطابور الخامس، وهذا ما دل عليه اجتياح نروج. وفي هولندا هاجم الهابطون الألمان مطاراً وهم متنكرون بالملابس الهولندية فلم يستطيع الهولنديون أن يميزوا بين الأصيل والدخيل. وفي بلجيكا سقط هابط ألماني
على سقف بيت في وسط المدينة واختفى فجأة فاحتشد الناس حول البيت وطوقت الشرطة الحي برمته، وطفقت تفتش كل المساكن دون أن تعثر على رسول هتلر.
ومر ساعتئذ بين الجمهور كاهن يدل مظهره على ورع، فقال أحدهم مازحاً: (من يدري؟ لعل هذا الكاهن هو نفسه ذلك الهابط الألماني!) وما كاد ينتهي من كلامه حتى رأوا عربة مسرعة تقف فجأة فيدخلها الكاهن ثم تتابع سيرها، فلحق بها رجال الشرطة وقبضوا على الكاهن وهو يصرخ: (إن في ألمانيا 20 ألف هابط، وكلهم مستعدون لبذل حياتهم من أجل زعيمنا هتلر!).
وقبض في هولندا على هابطين من الألمان كانوا متنكرين بأزياء مختلفة وشارات عسكرية منوعة من بلجيكية وهولندية وفرنسية وإنجليزية.

جبل طارق

يقع جبل طارق في طرف شبه جزيرة متصلة بالأرض الأسبانية ويدعى طرف أوربا، مساحة منطقته خمسة كيلو مترات يعيش فيها نحو 18 ألفاً.
ينسب اسمه إلى طارق بن زياد الذي فتح أسبانيا عام 711، وبقي في حوزة العرب حتى انتزعه منهم أولونسي دي أركوس عام 1462.
وفي عام 1704 احتلَّ البريطانيون جبل طارق وثبتوا فيه ضد هجمات الأسبان وحصارهم الطويل. ولما فتحت قناة السويس ازدادت أهميته الحربية، لأنه يشرف على المضيق الذي يصل المحيط الأطلسي بالبحر المتوسط.
وليس في منطقة الجبل ماء للشرب فيضطر سكانها إلى جمع ماء المطر وخزنه. وللإنجليز خزانات تسع أربعين مليون لتر.
ولا خوف على الحامية العسكرية والأهالي من الحملات الجوية، لأنهم يختبئون في الملاجئ الصخرية التي حفرت في الجبل في أثناء حصاره من 1779 إلى 1783.
قال الأسباني فلوريدا بانكا عام 1783: (إن جبل طارق شوكة في جنب أسبانيا، ولن تجمع الشعبين الأسباني والإنجليزي صداقة حقيقية ما لم تنزع هذه الشوكة).

هتلر واليهود

بعث المراسل الاسوجي سلفيج إلى (ذي داي) الأمريكية بالمعلومات التالية:
إن الألغام المغناطيسية التي علق عليها الألمان الآمال الكبيرة في بداءة الحرب قد اخترعها في أواخر الحرب الماضية بعض علماء الكيمياء من يهود ألمانيا وقدموا إلى أركان الحرب الألمانية يومئذ سر اختراعهم فاحتفظت به وضمته إلى الوثائق السرية في وزارة الحرب الألمانية. ولما سيطر النازيون على ألمانيا كشفوا ذلك السر في جملة ما كشفوه وابتدءوا قبل نشوب الحرب الحالية يصنعون مقادير كبيرة من تلك الألغام. ولكن مصيرها كان الإخفاق لأن مخترعيها وأمثالهم من اليهود كانوا قد طردوا من ألمانيا ولجئوا إلى إنكلترا حيث عكفوا على اختراع الوسائل للوقاية منها.
إن النازيين عرفوا - ولكن بعد فوات الوقت - أن البيض ينقطع بعد قتل الدجاجة؛ ولكنهم لم يقتلوا الدجاجة بل رموها في يد العدو. وقد أدركوا خطأهم بعد وقوع الحرب، وعندما شعروا بحاجتهم إليها. ولهذا أوفدوا بعض دهاتهم إلى كل الأنحاء الأوربية لاسترضاء رجال العلم والاختصاص من أولئك المطرودين لكي يعودوا إلى ألمانيا ولكنهم أخفقوا. وقد تمكنوا في البرتغال من إقناع 233 طريداً كلهم من العلماء والأطباء والاختصاصيين بعد ما أغروهم بالوعود وأكدوا لهم أن اضطهاد اليهود في ألمانيا قد بطل، وأنه في كل المعامل الألمانية قد ألصقت نشرات تنوه بنبالة العنصر اليهودي وبتحدره من أصل شريف، وأعدوا لهم مركباً أسبانياً ينقلهم إلى أسوج ومنها إلى ألمانيا؛ ولكن عمال إنكلترا السريين وزعماء الجالية الإسرائيلية في البرتغال أفسدوا هذه الخطة. وسافر المركب، إلا أنه اتجه إلى ناحية من نواحي الباسفيكي بدلاً من أن يتجه إلى أسوج!

كان في معامل كروب قبل أن يستولي هتلر على الحكم نحو عشرين ألف ميكانيكي يهودي؛ أما اليوم فلا يبلغ عددهم الخمسين؛ وقد جلب الألمان ثلاثين ألف عامل إيطالي ليحلوا محل أولئك المطرودين. غير أن مناخ ألمانيا الشمالية لم يلائم العمال الإيطاليين فعاد أكثرهم إلى وطنه.

إن مختبرات إنكلترا الفنية ملأى اليوم برجال الاختصاص من اليهود المطرودين؛ والذي أعلمه أن في مدينة واحدة بإنكلترا 165 شخصاً من يهود النمسا والتشيك وألمانيا وبينهم علماء مشهورون واختصاصيون من الطراز الأول يعرفون جيداً كل أسرار الصناعة الألمانية.

(العصبة)

ازدهار الفكر وبطش المسيطر

ربما كان من الأسباب التي جعلت بعض الأساتذة ينكرون ازدهار الفكر في عهد الأمان والاستقرار - أي عهد انتظام أمور الدولة وقوة حكومتها واتساع نطاق تجارتها - أن الحكومات القوية في تلك العهود كان يخشى بطشها بالفكر، لكنا إذا رجعنا إلى التاريخ، وجدنا أن الفكر في تلك العهود كان يستفحل ويستفرخ وينمو نمو النبات في المنطقة الخصبة الحارة، فلم يؤثر فيه ذلك البطش مهما اشتد بأس الحكومات، فكان نموه أشبه بنمو نبات البردي في مناقع النيل قرب منبعه، فإذا قطع بعضه، عوضت سرعة النمو وغزارته أكثر مما قطع. على أن تلك الحكومات القوية، كثيراً ما كانت ترعى المفكرين برعايتها، فإذا عادت مفكراً كانت المعاداة بسبت وشاية شخصية أو عداوة سياسية، أو تظاهر بإبراء الذمة أمام الجمهور المعادي له.

وهذه كانت حالات مفردة يعوض نمو الفكر الغزير في تلك العهود عما يكون فيها من فقد. على أن كثيراً من الحكام ذوي البأس والشدة كانوا يفاخر بعضهم بعضاً برعاية العلماء والمفكرين والفلاسفة، حتى صارت تلك الرعاية عدوى أشبه بعدوى أزياء الثياب، وقلما يستطيع أحد أن يتخلف عن الزي الشائع في الثياب إذا كان يريد الظهور، فكانت رعاية صاحب البطش وعنايته بالمفكرين إما لأنه كان حاكماً مثقفاً، وبعض هؤلاء الحكام كانوا على شيء كثير من الثقافة، وإما لأنه رأى الثقافة زياً يتباهى به فكان صنيع هذا كصنيع الأثرياء الجهال الذين أغنتهم الحرب الكبرى الماضية في أوربا، فقد كانوا يجمعون الكتب والصور والآثار العلمية والفنية، فينتفع بها غيرهم وإن لم ينتفعوا بها. وكل هذه الأسباب المختلفة توضح أسباب نمو الفكر في عهود الأمان والاستقرار والحكومات القوية الباطشة. وإذا تدبرنا حقائق التاريخ، وجدنا أن بطش الحكام بالفكر قلما كان ينجح إلا إذا كان هذا البطش بالفكر مبدأ وطنياً شعبياً، كما حدث في أسبانيا بعد سقوط دولة العرب فيها وقيام دولة الأسبان المسيحية، فلم يكن البطش بالفكر في عهد شارل الخامس وفيليب الثاني خطة الحاكم وحده، وإنما كان يريده الشعب كخطة وطنية دينية. وهذا كان سبب تدهور أسبانيا. أما عهود الفوضى، فكما أن الحكام فيه أضعف من أن يبطشوا بالفكر، فهم كانوا أيضاً أضعف من أن يحموه، وفي تلك العهود يكون كل ذي عصبية صغيرة صائلاً باطشاً فينشأ اضمحلال الفكر. أنظر إلى عهد النزاع بين الوالي العثماني وسناجق المماليك، وبين كل أمير وأمير؛ وانظر إلى عهد الفوضى في تاريخ مصر القديم بعد الأسرة السادسة وبعد الأسرة الثانية عشرة.

(ع. س)

مؤلف كتاب سحر العيون

قرأت في بعض أعداد (الثقافة) فصلاً دبجته براعة الأستاذ أحمد أمين بك يدور حول ما جاء في كتاب (سحر العيون) من بحوث وتقسيمات.

وقد ظن الأستاذ أن مؤلف هذا الكتاب مصري استناداً على ما ورد في الكتاب المذكور من أمثال عامية مصرية وغيرها.

وأنا أقول: إن مؤلف هذا الكتاب دمشقي لا مصري، وهو من أدباء القرن التاسع الهجري عاش حوالي سنة 842؛ والدليل على ذلك ما ورد في الكتاب المذكور:

قول المؤلف (ص 298): بلدينا العلاي العيثاني الدمشقي موالياً (الأبيات)

وقوله (ص 303): بلدينا الشيخ عبد الله الارموي الدمشقي

وقوله (ص 308): نقلت من خط القاضي زين الدين عبد الرحمن بن الخراط (وهذه الأسرة دمشقية مشهورة).
وقوله (ص 312): أنشدني المرحوم الجناب العالي سري الدين بن الذهبي من أعيان كتاب الإنشاء الشريف بدمشق في غلام نشابي (الأبيات).
وقوله (ص 316): الرشيد عبد الرحمن بن بدر النابلسي وفاته في سنة تسع عشرة وستمائة، ودفن بتربة باب الصغير، (وهذا المدفن مشهور في دمشق).
هذا، وقد ورد في الكتاب المذكور عدد غير قليل من الأسماء الدالة على أسر دمشقية شهيرة: كالعطار والسبكي والخراط والنابلسي وغيرها.
أرجو إثبات هذه الملاحظات ولكم الشكر.
(دمشق)
يحيى الشهابي
من الشعر المنسي لحافظ
بعث المرحوم حافظ بك إبراهيم إلى صديقه الشاعر الناثر مصطفى صادق الرافعي طيب الله ثراه بهذه الأبيات:
قد قرأنا نظيمكم فرأينا ... حكمةً كهلة وشعراً فتيّا
وتلونا نثيركم فشهدنا ... كاتباً بارع اليُراع سَريّا
خاطر يسبق العيون إلى القلب ... ويطوي منازل البرق طيّا
ومعانٍ كأنها الروح في الصيف ... تهزُّ النفوس هزَّ الحُميّا
من بنات المحار يصبو إليها ... تاج كسرى وتشتهيها الثُّريّا
إيه يا رافعيَّ أحسنت حتى ... لا أرى محسناً بجنبك شيّا
أنت والله شاعر حضريٌّ ... إن عددناك شاعراً بدويّا
عبد القادر محمود الدسوقي
دخول أل على غير
لم يوجد في معاجم اللغة العربية ولا في كتب النحو ما يؤخذ منه جواز دخول (أل) على كلمة غير. وقد قال الصبان في باب الإضافة صفحة 162 ج 2 ما نصه: (ونقل الشنواني عن السيد أنه صرح في حواشي الكشاف بأن غيراً لا تدخل عليها (أل) إلا في كلام المولدين). وتوضيح ذلك أن العلماء طراً نصوا على أن غيراً اسم ملازم للإضافة في المعنى، ولا يقطع عنها إلا إن فهم المعنى وتقدمت عليها ليس مثل قبضت عشرة ليس غير. ويجوز ليس غيراً وليس غير. فالأول على البناء، والثاني على أنها معربة؛ ويجوز ليس غيرها بالإضافة اللفظية. أنظر الصبان والتوضيح والمغني وقاموس المحيط. وهناك قول بأن غيراً يقل إبهامها إذا وقعت بين ضدين مثل قوله تعالى: (أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم). ويقال: رأيت الصعب غير الهين. ومررت بالكريم غير البخيل. والشائع الذائع في كلام العرب أن غير حين تستعمل تكون متوغلة في الإبهام. والشأن في مثلها ألا يتعرف بأي معرف؛ غير أن بعض أمثلة من كلام العرب ورد فيها دخول (أل) على كلمة غير حيث يريدون بذلك غيراً معيناً، فهي بهذا قد خرجت من أصلها فبقي قولنا بأن (أل) لا تدخل على غير سليماً حيث تكون متوغلة في الإبهام، وذلك مثل: جاء اليوم غيرك، هذا الغير تناول معي طعام الغداء.
أحمد حلمي الغداء
بجريدة الوفد المصري
الكتب
كتب قيمة
في تاريخ الأخلاق، الرسالة للإمام الشافعي، إمتاع الأسماع
للأستاذ محمد عبد الغني حسن
في تاريخ الأخلاق
يعجبني من الأستاذ الشيخ محمد يوسف موسى المدرس بكلية أصول الدين توفره على العلم وإكبابه على الدرس وشغفه بالمطالعة، وهو يجمع إلى ذلك حركة المصلح المجدد وحظوة العاقل المتزن. وقد ذكره أستاذنا الجليل الزيات مع جماعة من شباب الأزهر العلماء الذين يرجى الخير فيهم وتعلق الآمال عليهم. وفي السيد الزيات فراسة

لا تخطيء واستكناه لا يكذب.
وقد أخرج الأستاذ كتاباً (في تاريخ الأخلاق) لم يمل فيه إلى أن يكون جمعاً صرفاً، وإنما هو دراسات صغيرة مختصرة لتطور مسائل هذا العلم وتعدد مذاهبه والموازنة بين مذهب ومذهب، وفكرة وفكرة.
وليس عجيباً أن يقف اليوم شيخ من شيوخ الأزهر، يعرض المسائل الأخلاقية المتصلة بالفلسفة في القديم والحديث، وفي الشرق والغرب، فيبسطها بسطاً ويصورها تصويراً يدلان على الفهم والهضم، لا على الحفظ (والصم).
ليس عجيباً ذلك، فقد تغيرت اليوم طريقة الأزهر في العلم وتغيرت نظرته إلى الحياة، وسبيله إلى المعرفة؛ وأصبحنا نقرأ لفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمود شلتوت وكيل كلية الشريعة بحثاً في (القرآن والمسلمين) يحمل مع خلوص النية، وصدق الطوية جرأة في الدعوة، ومرارة في النقد، واستقامة في القصد. وصرنا نقرأ للأستاذ العالم الشيخ محمد محمد المدني مقالاً (في الإسلام بين السلف والخلف) فنرى فيه الغيرة على الدين، والوضاحة في العقيدة، والشجاعة في قوله الحق، من غير خوف من تأويل مؤول.
الحق أن في الأزهر نهضة تستمد عناصرها من حُرية شيوخه ويقظة علمائه، يقظة يودعون بها إغفاءة العهد القديم.
الرسالة للإمام الشافعي
الرسالة للإمام المطلبي محمد بن إدريس الشافعي كتاب يقع في 670 صفحة من القطع الكبير، قام بتحقيقه وشرحه الأستاذ الفاضل الشيخ أحمد محمد شاكر القاضي الشرعي. وجرى في ذلك مجرى لم يقف عند الشرح والتحقيق، بل اقتضى إخراج ذلك الكتاب على الصورة الكاملة التي خرج عليها جهداً متصلاً، وصبراً طويلاً، وبصيرة في الفقه الإسلامي، وإحاطة بالتشريع، وذوقاً في الأدب، وأصالة في اللغة، وتمكناً في التاريخ.
والحق أني ما قلبت صفحة من ذلك الكتاب إلا عجبت من صبر الأستاذ على البحث، وسرعة تقصيه للمسائل، وتتبعه للأصول، وكثرة رجوعه للمظان وغير المظان، مما دل على اطلاع واسع وإلمام تام.
وقد يكون إخراج كتاب قديم عملاً هيناً، وأمراً غير إدٍّ عند من لا يرقبون أمانة العلم، ولا يخشون حرمة الحق. وغرضهم من ذلك أن يطاعوا على السوق بعمل عملوه، ولو كان ناقصاً غير كامل، ومعيباً غير سالم.
أما الأستاذ الشيخ أحمد شاكر فبعيد من ذلك كله؛ فإذا عمل فلله، وإذا حقق فللعلم، وإذا أكب فهو موف على الغاية ومشرف على النهاية، لا يثنيه عن ذلك صعوبة بحث أو إعنات درس.
ويظهر في الكتاب مزية الإخراج العلمي الحديث. ففي الأول: مقدمة وافية عن الرسالة وقيمتها وقيمة الشافعي، ونسخ الكتاب المخطوطة والمطبوعة، وأصل الربيع صاحب الشافعي وكاتب رسالته، ووصف النسخة التي رجع إليها الشارح وذكر أصحابها، ووصف نسخة ابن جماعة. ويلي المقدمة باب السماعات التي رتبها الشارح وحذف المكرر منها، ووضع لها فهرساً مرتباً على حروف المعجم.
ويلي ذلك الرسالة وقد زينت بحواش مفيدة وتعليقات طيبة؛ ويلي ذلك جريدة المراجع التي استعان بها الشارح ورجع إليها، وتمتاز عن كل ما رأينا من جرائد المراجع بحسن تنسيقها وذكر أجزاء الكتاب، واسم المؤلف ووفاته، وتاريخ طبع الكتاب ومكان طبعه.
ويمتاز هذا الكتاب بكثرة مفاتيحه التي تسهل على القارئ الرجوع إليه في أوجز وقت، كما أن فيه فهرساً للفوائد اللغوية التي استنبطت من استعمالات الشافعي؛ وإن كنت لا أذهب مع
فضيلة الشارح فيما رأى من وجوه لا أردها إلى علم الشافعي وجنحه إلى الضعيف من الأقوال والرديء من اللغات، ولكني أردها إلى خطأ في النسخ، ولو حاول فضيلته أن يبريء الكتاب من الخطأ.
إمتاع الأسماع
إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأموال والحفدة والمتاع:
المقريزي هو مؤلف هذا الكتاب، والأستاذ محمود محمد شاكر هو مصححه وشارحه،

والسيدة قوت القلوب الدمرداشية هي القائمة بنفقات طبعه، ولجنة التأليف والترجمة والنشر هي المشرفة على إخراجه. فالكتاب مجدود من كل ناحية، ومحظوظ من كل وجه.

وقد تفضل الأستاذ أحمد أمين بك عميد كلية الآداب بتقديم الكتاب في بضعة أسطر لم تخرج عن أن تكون شكراً للسيدة المتبرعة، ولم يعودنا الأستاذ الكبير هذا الاختصار في التقديم، والإيجاز في التصدير.

وحبذا لو كان حدثنا عن الكتاب وقيمته بين كتب السيرة للمتأخرين وطريقة المقريزي فيه؛ والنسخ المخطوطة والمطبوعة لهذا الكتاب، والأصل الذي رجع إليه شارحه، كما عودنا حضرته ذلك في الكتب التي تولى القيام عليها وأحسن التعهد لها.

وللأستاذ محمود محمد شاكر فضل تصحيح هذا الكتاب القيم ومراجعته على الأصل تارة، وعلى أصول الحديث والتاريخ تارة أخرى، وهو فضل يتجلى في الهوامش الكثيرة التي لا تكاد تخلو منها صفحة واحدة، والتي تدل على موفور اطلاع وواسع قراءة ومصفى ذوق عرف عن شاكر الأديب اللبيب.

وليأذن لي الأخ الفاضل مصحح إمتاع الأسماع وشارحه بإبداء الملحوظات الآتية:

1 - في صفحة 222 كلام على هيئة الرجز لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يعمل في الخندق يوم الوقعة ونصه كما ورد في الإمتاع:

اللهم لولا أنت ما اهتدَينا ... ولا تصَدَّقنا ولا صلينا

فأنزلنْ سكينةً علينا ... وثبِّت الأقدام إن لاقَينا

وزاد صديقنا الشارح البيت الآتي عن البخاري ج 5 ص 110

إن الألى قد بغوا علينا ... وإن أرادوا فتنة أبَيْنا

والأستاذ شاكر وعروضي؛ فكيف فاته أن صواب البيت الأول:

(لا هُمَّ لولا أنت ما اهتدينا) وكيف فاته أن البيت الثالث صوابه هكذا:

(إن الألى لقد بغوا علينا) أو (إن الذين قد بغوا علينا) ليستقيم الوزن الرجزي الذي كثيراً ما سمع عن رسول الله في الغزوات كقوله:

هل أنتِ ألا أصبع دميت ... وفي سبيل الله ما لقيتِ

2 - في صفحة 224 (وما منهم ألا ابن خمس عشرة سنة) بكسرة على السين في خمس وهو خطأ مطبعي.

3 - وفي الصفحة نفسها (وكان المسلمون يومئذ ثلاثة آلاف) برفع ثلاثة والصحيح نصبها.

4 - في صفحة 248 (رفاعة بن سموأل) وقد حذف ألف ابن مع وقوعها في أول السطر، والصحيح إثباتها جرياً على المشهور من قواعد الإملاء. وقد كرر هذا الوهم نفسه في صفحة 250 - إلا أنه تجُنِّب في بقية الصفحات.

5 - في صفحة 297 (فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخُفضهم). والضمة على الخاء لا محل لها هنا والصواب جعلها فتحة.

6 - في الصفحة 329 (واستشهد بخيبر خمسةُ عشر رجلاً) بضمة على التاء المربوطة من خمسة والصواب فتحها لبناء هذا العدد على فتح الجزأين.

7 - في صفحة 401 (من هو زان) وقد زادها الشارح للبيان. ولعلها (هوزان).

وبعد: فهذه هنوات لا تقلل من قيمة المجهود الذي بذله الأخ الكريم الأستاذ محمود شاكر في إمتاع الأسماع. ولعلها وردت ليصح قول القائل:

ما كان أحوج ذا الكمال إلى ... عيب يوقِّيه من العين

محمد عبد الغني حسن

العدد 413 - بتاريخ: 02 - 06 - 1941

المال

للأستاذ عباس محمود العقاد

قال الدكتور زكي مبارك في حديثه عن الفقر والغنى، ولا نهاية لحديث الفقر والغنى، ولا الفقر والغنى ينتهيان من الدنيا:

(. . . لن أقول كلمة في الوارثين بحجة أنهم يرزقون بلا كد ولا اجتهاد، فلو عطل نظام الميراث لإنعدم النشاط الإنساني بعض الانعدام، ولآثر الناس جميعاً أن تكون جهودهم

مقصورة على كسب القوت من يوم إلى يوم. ولو قلنا الحق كل الحق لصرحنا بأن الميراث هو أجمل نظام عرفته الإنسانية، فهو الشاهد على أن الجهاد في طلب الرزق لا يضيع، وأنه قد يصل إلى الأعقاب وأعقاب الأعقاب، وذلك أقوى حافز لتأريث عزائم الرجال)

ورأيي في الميراث أنه حق وعدل، وأن المذاهب الاجتماعية، التي تحرمه تجور على الآباء والأبناء، ولا تتحرى سنن الطبيعة فيما جرت عليه بين جميع الأحياء، لأن المجتمع لا يستطيع أن يحول بين الأب وبين توريث أبنائه ما اشتمل عليه من عيوب الخلق والفكر ومن دمامة الوجه وشوه الجسم وضعف التركيب؛ فليس من العدل أن يحول بينه وبين توريثهم الخير أو نصيباً من الخير، وإن كان عدلاً أن تفرض للمجتمع حصة وافية من ذلك النصيب

كذلك تجري الطبيعة على سنة الوراثة في جميع السلالات، وهي سنة أعرق من المجتمعات الإنسانية وغير الإنسانية، ولم تنشأ عبثاً ليلغيها الإنسان كل الإلغاء بقانون أو نظام

لكنني أخالف الدكتور في قوله إن الميراث لو عطل (لآثر الناس جميعاً أن تكون مقصورة على كسب القوت من يوم إلى يوم. . .)

فإن طلب المال كطلب العلم فطرة لا تتوقف على التوريث ولا على ما يعقبه الآباء للأبناء، وقد يهمل الإنسان رزقه ورزق أبنائه ليتابع الدرس ويتقصى مسألة من مسائل العلم والمعرفة، وهو على يقين أنه لن يخلف لأبنائه زاداً من علومه ودروسه إلا ما يخلف المعلمون للمتعلمين، وقد يفوتهم منه حتى هذا النصيب

وبين طلاب المال من بلغ أرذل العمر وليس له عقب ولا هو ممن يبسطون الكف بالإنفاق

فيخشى نفاد ماله الكثير، ومنهم من لو بسط يده بالإنفاق عشرات السنين لما خشي على ماله النفاد

أعرف رجلاً له نظراء كثيرون كان يملك القصور ويدخر الأموال في المصارف، وله معاش لا ينقطع من خزانة الحكومة، وهو مع هذا يبخل على نفسه بالقليل ويعيش معيشة الفقراء، ويراه الحوذية في الطريق فيهربون منه لأنه يأبى أن ينقدهم الأجر إلا على حساب ما تعود قبل أربعين أو خمسين سنة يوم كان للمليم سعر القرش في هذه الأيام. وأعجب العجب أن هذا الرجل الشحيح كان مجدوداً في أوراق المصارف التي يناط بها النصيب فكان يربح جوائزها الأولى من حين إلى حين. وحدث مرة أن وكيله تسلم جائزة من هذه الجوائز وأخر إيداعها المصرف الذي يعاملونه بضعة أيام، فلما راجع الغني الشحيح حسابه قطع أرباح الجائزة في هذه الأيام القليلة من مرتب الوكيل المسكين، وهو شيء يبذله من يربح مثل هذه الجائزة هبة لمن يحمل إليه بشارتها ولا يندم عليه

ولم يكن لهذا الرجل عقب ولا كان له مطمع في العيش الطويل بعد السن التي ارتفع اليها، ولكنه يطلب المال لأن طلب المال شهوة لا يشترط أن تتعلق بالإنفاق والتوريث

ولو نظر الناس إلى الواقع في أمر الورثة لما حرصوا على ترك المال بعدهم للأبناء والأحفاد؛ فإن أبناء الفقراء الذين عاشوا في الدنيا عيشة راضية بغير ميراث يبلغون أضعاف الوارثين عدة سواء ورثوا الكثير أو القليل، وأن الذين أشقاهم الميراث لا يقلون عن الذين سعدوا به وحفظوه أو زادوا عليه، وأن الذين يموتون وهم خائفون من تبديد أبنائهم لثروتهم أكثر جداً من الذين يموتون وهم مطمئنون إلى حسن التصرف ودوام الحال

كان العلامة يعقوب صروف طيب الله ثراه يوصيني كلما لقيته أن أدخر وأن أحسب حساب المال والثراء، وكأنه أنس مني التواني في الإصغاء إلى هذه النصيحة فروي لي حديثاً جرى بينه وبين تاجر من كبار التجار السوريين العصاميين رآه مشغول البال معنى بما يخشاه على ثروته وأبنائه بعد موته من تقسيم وبوار. قال: وهكذا الدنيا دواليك بين جيل عصامي يجمع، وجيل عظامي يضيع ما جمعه الآباء، ويأتي بالمعذرة لمن يتركون الأبناء فقراء ناشطين في طلب الجاه والثراء

قال العلامة صروف: ومنذ أيام طرق علينا الباب أبناء صاحب من أصحابنا مات فجأة

وليس في الدار ما يشيعونه به إلى لحده؛ وكان هذا الصاحب مفراحاً، يأكل ما يشتهي، ويلبس الفاخر من الثياب، ويطعم أبنائه أحسن مطعم، ويكسوهم أجل كسوة، ويقضي سهراته بينهم ضاحكاً متهللاً على صينية من الحلوى أو الفاكهة، وهو لا يشغل باله لحظة بما يكون، ولا يبالي بعد موته ما يأكلون ويشربون. فأي الأبوين أسعد؟ وأي الأبناء أحظى بحسن المصير؟

وهذا السؤال الذي سأله الدكتور صروف سيظل أبد الزمان مسؤولاً يجيبه من يشاء كما يشاء؛ ولكنه جواب لن يجعل المفراح مشغولاً بتوريث أبنائه، ولا المشغول بتوريث الأبناء مفراحاً ينعم بالحاضر ولا يعني نفسه بالغيب المجهول.

فخديعةٌ من خدائع النفس أن تعلل حرصها على المال بحب الأبناء، ولو كان حبٌ مانعاً أن ينفق الإنسان كل ما عنده لكان حبه لنفسه وخوفه على غده أحرى أن يمنعه ويقبض يديه، ولكنها خديعة النفس كما نقول تتراءى لها في مختلف الذرائع والتعلات.

إنما تفسِّر أعمال الإنسان بالبواعث والدوافع قبل أن تفسر بالنتائج والغايات. وإذا قيل لنا إن فلاناً يجمع المال لأنه يخاف عاقبة الفقر، قلنا: ولماذا يخاف هذه العاقبة التي لا يخافها غيره!! إنه لا يخالف غيره إلا لاختلاف البواعث النفسية دون الاختلاف في الغايات التي قد يتفقون عليها من جانب التأمل والتفكير.

المال يطلبه الإنسان لباعث قبل أن يطلبه لغاية، ومن بواعث طلبه الخوف والمنافسة والطموح وحب الكسب للكسب كما يفرح اللاعب بالرهان الذي ليس من ورائه طائل، وهنا موضع التحذير للمصلحين الذين يعالجون مسألة الغنى والفقر على أساس الأرقام والقواعد الاقتصادية ويغفلون علاجها على أساس الشعور والبواعث النفسية. فأنت إذا أعطيت الفارس قصبة السبق قبل دخوله الميدان لم ترحه ولم تعطه ما يريد؛ وإذا منعت المتنافسين أن يتنافسوا لأنك ضمنت الرزق لأبنائهم أو ضمنت الأمان لهم في عقباهم لم تستأصل أسباب التنافس ولم تعطهم الحياة التي جعلتهم يتنافسون.

إنما الواجب أن ندع الناس يطلبون المال كما يطلبون العلم أو يطلبون الجاه أو يطلبون السرور أو يطلبون الفرص النادرة والمقاحم المجهولة، وليس علينا أن نسألهم لماذا يطلبونه، وإنما علينا أن نمنعهم إنفاقه فيما يضير الآخرين، فغاية ما يحق للمجتمع في هذا الصدد أن يحرم الغش والجور وتخويل أناس بغير حق ما يحرمه غيرهم من العاملين.

كان أوليفر لودج عالماً رياضياً من الطراز الأول، وكانت له بحوث مشهورة في مخاطبة الأرواح وما وراء المادة، وربما انصرف أحياناً من الرياضيات والروحيات إلى المباحث الاجتماعية وشؤون الثروة والسياسة، ولكنه كان يأتي فيها إذا انصرف إليها بمقطع الرأي وفصل الخطاب، لأنه بعيد من الهوى والتشيع لهذا المذهب أو ذاك. . . فمن نصائحه في هذا الباب أن تتولى الدولة مراقبة المال كما تتولى مراقبة السلاح، لأن الخطر من سوء استخدام المال لا يقل عن الخطر من سوء استخدام السلاح، وربما ظهرت جريمة السلاح بعد اقترافها بقليل ولقي صاحبها من الجزاء ما فيه عبرة لغيره؛ أما جريمة المال فقد ينقضي العمر وهي خافية؛ وقد يقترفها أناس بعيدون من الشبهات لأنهم ليسوا من حثالة الخلق الذين يعتدون بالخناجر والمسدسات.

فإذا وجبت مراقبة المال في أيدي المسيطرين به على سواد الناس، فمن الواجب أن تكون الرقابة على النحو الذي قصد إليه الرياضي الكبير، ولا سيما في العصر الذي أصبح المال فيه مرادفاً لمعنى الثقة والائتمان. فلا يجوز في هذا العصر أن توضع الثقة الاجتماعية في أيدي أناس يعيشون بها جهرة أو خفية، ولا يجوز إذا هي وضعت في بعض الأيدي أن تترك هملاً بغير رقابة أو حيطة أو بغير علم بما تتجه إليه وتجري فيه.

وهنا نسأل: ما هي حدود الرقابة الاجتماعية على سيطرة الأموال في أيدي الأفراد أو الجماعات التي تسوس أموال الأفراد؟

وجواب هذا السؤال أن الرقابة الوحيدة الممنوعة هي الرقابة التي تشل الدوافع النفسية والبواعث الحيوية وتخرجها في نظامها مخرج الجهود الآلية والأرقام الحسابية، فإن المجتمع الإنساني لن يكسب شيئاً من تنظيمه النفوس تنظيم الآلات التي تتحرك بأمر وتسكن بأمر ولا تتخطى ما يرسم لها من الخطوط والغايات.

فللمجتمع أن يراقب المال وأن يأخذ نصيبه منه للمصلحة الاجتماعية التي يشترك فيها الأغنياء والفقراء، ولكن ليس للمجتمع أن يمسخ الطبيعة ويجور على حركات النفوس

وبواعث الحياة، لأنه يتعرض بالقوانين لأمر لم تخلقه القوانين، ويأخذ ما ليس في وسعه أن يرده أو يعوضه بمثله.

عباس محمود العقاد

أشعار ابن النحاس

للدكتور زكي مبارك

حياة أبن النحاس - الحياة بلا عمل تحجب الأديب عن فهم الجوانب الجدية من الحياة - تأثير الأفيون في هدم أبن النحاس، وكان في صباه أجمل ما رأت العيون - أشعاره في البكاء على جماله الذاهب - أيامه في دمشق والقاهرة والمدينة - قصائده الباقيات - أشعاره في (شرب الدخان) - شعوره بالمعاني المنقولة عن القدماء

1 - فَتحُ الله بن النحاس شاعرٌ نشأ في حلب في أواخر القرن العاشر أو أوائل القرن الحادي عشر، فقد سكتت المصادر عن العام الذي وُلد فيه، واكتفت بالنص على أنه مات بالمدينة ليلة الخميس ثاني عشر صَفر من شهور سنة اثنتين وخمسين ألف.

2 - وسكتت المصادر أيضاً عن حياته العملية، فلم نعرف كيف كان يعيش، ولكنا فهمنا من سياق القول أنه أقام مدة في حلب، ومدة في دمشق، ومدة في القاهر، ومدة في المدينة؛ فعرفنا أنه شاعر لم تكن تربطه ببلده أو غير بلده رابطة معاشية، ولذلك تأثيرٌ في صبغ وجوده بصبغة الرجل الهائم في بيداء الوجود.

3 - والواقع أن هذه الحال كانت مألوفة في حيوات الشعراء، ولكن ابن النحاس فيما يظهر أسرف في اعتزال الناس والبعد عن طلب المعاش، لينجو بنفسه من آثام الخلق، وليعفي كاهله من حمل أثقال العيش المنظم، وهي أثقال لا يتصدى لحملها غير أقوياء الرجال، ولهذا رأيناه يتزيا بزيِّ الزهاد ويعيش عيش الدراويش من الفقراء مع الترفع عن قبول الإحسان؛ فقد كانت لهذا الرجل فِطرة سليمة تصده صداً عن المكسب الرخيص، وتسوقه إلى صف المتعففين من أتباع التصوف الصحيح.

4 - فكيف كانت البداية وكيف كانت النهاية لهذا الشاعر الرقيق؟

كان ابن النحاس في صباه غاية في روعة الجمال، وكانت صباحة وجهه أعجوبة الأعاجيب؛ فكان معاصروه يتوهمون أنه لم يُخلق إلا ليكون دُمية في قصر، أو زهرة في بستان، ولكنه صان نفسه عن مواطن الشبهات، فاعتزل الناس ليسلم شبابه وجماله من إفك القال والقيل في زمن لا يسلم فيه أهل الجمال من بغي الأقاويل والأراجيف.

نجا ابن النحاس من شر معاصريه فصار مثالاً للجمال المصون، ولكنه لم ينج من شر نفسه، والنفس في بعض الأحيان أعدى الأعداء!

فماذا صنع بنفسه، أو ماذا صنعت به نفسه، حتى نزل من الشرف إلى الحضيض؟

أقبل ابن النحاس على تعاطي (الكيف)، والكيف الذي كان يتعاطاه هو (الأفيون)، وقد هده الأفيون في شهور أو أعوام، فأمسى جماله طللاً من الأطلال، ولم يكن يحسب لجهله وغفلته أن الجمال دولةٌ تدول.

فإن رأيتم شاعراً يبكي شبابه الذي ضاع، فاعرفوا أن ابن النحاس كاد يتفرد بالبكاء على الجمال الذي ضاع، وما أضاع جمال هذا الشاعر غير الابتلاء بكيف الافيون، وهو كيف أتى على بناء هذا الشاب الجميل من الأساس، ولننظر كيف يقول:

من يدخل الأفيون بيت لهاتهِ ... فليلق بين يديه نقد حياته
وإذا سمعتم بامرئ شرب الردى ... عزّوه بعد حياته بمماته
ما شأنه وحشاه يؤوى أرقماً ... لا يستفيق الدهرَ من وثباته

وهذا الشاعر الذي يرى الأفيون ثعباناً لا تنقطع وثباته الفواتك على الأحشاء هو الشاعر الذي رثي صباه فقال في تصوير ماضيه لعهد الجمال، يوم كان في مثل عمر البدر، ويوم كانت لفتاته لفتات الظبي بين أزهار الرياض:

ونراه إن عبث النسيم بقدِّه ... ينقدَّ شروى الغصن في حركاته
وإذا مشى تيهاً على عشاقه ... تتفطر الآجال من خطراته
يرنو فيفعل ما يشاء كأنما ... مَلكُ المنية صال من لحظاته
حُسْنٌ ولا كيفٌ يخالط ذاته ... والآن صار الكيف بعض صفاته
والكيف حقدٌ إن تشبث بامرئ ... لم يَبْق للرائين غير سِماته

وهو الشاعر الذي أرخ جماله الذاهب فقال:

سقى المزنُ أقواماً بوعساء رامةٍ ... لقد قُطِّعتْ بيني وبينهم السُّبْلُ

وحيا زماناً كلما جئت طارقاً ... سليمي أجابتني إلى وصلها جُمل
تودّ ولا أصبو وتوفى ولا أفى ... وأنأى ولا تنأى وأسلو ولا تسلو
إذِ الغُصنُ غصٌ والشباب بمائه ... وجيد الرضا من كل نائبةٍ عطل
ومن خشية النار التي فوق وجنتي ... تقاصرَ أن يدنو بعارضيَ النمل
فهل يرى أن نار وجنته أخافت نمال الشعر حيناً من الزمان فظل أمرد، أسيل الخدين، إلى أن ابتلته المقادير بالأفيون فأمسى جماله تاريخاً من التواريخ
والجمال حلة نفيسة يرفعها الله عمن يجهل قدرها الرفيع، وكذلك كان حظ الشاعر الذي أضاعه الجهل بنعمة الله عليه فلم يؤد زكاة الجمال، وهي الابتعاد عما يوهن الجسم ويشل الروح.
ثم ماذا؟ ثم رحل الشاعر عن الوطن الذي نشأ فيه وهو حلب، بعد أن فضحه الافيون، الافيون الذي أصار جماله رسماً من الرسوم وطللاً من الأطلال.
5 - وإلى أين؟ إلى دمشق، وهي مدينة سمعت باسمه قبل أن يحل ساحتها الفيحاء، فأقام بها ما أقام بين أيام بيض وأيام سود؛ فقد كان فقيراً لا يتبلغ بغير ما يجود به أهل الأدب، وكانوا في أغلب أحوالهم فقراء.
ومن دمشق انتقل إلى القاهرة فاتصل بالسادة البكرية، وكانوا كراماً أجاويد، لا يشعر بينهم بالغربة رجلٌ أديب، وكانت حفاوتهم بالأدباء الوافدين من الشام مضرب الأمثال.
ويظهر أن أيام ابن النحاس بالقاهرة لم تخل من رخاء، فقد اتصل بالقضاة والأعيان، واتصل به الأمل المعسول فمدح سنجق منفلوط، ومعنى ذلك أنه عرف كيف ينتفع بوداد المصريين، وكانوا في ذلك العهد يرعون حقوق الغرباء من أهل الأدب والبيان.
ثم امتدت السن بالشاعر الذي كان له ماض في الجمال فرأى أن ينتقل إلى المدينة ليعيش عيش المجاورين، وهو عيش يليق بمن يلبس ثوب الحداد على جماله الذاهب ذهاب البرق اللامع في أجواز السماء.
وفي المدينة مات، وقد دفن في بقيع الفرقد، بجوار الأكابر من رجال الأدب والدين، فعليه رحمة الله، وألف سلام على روحه الجميل!!
6 - ولكن أين مكان ابن النحاس بين الشعراء؟
لا تظنوه شاعراً من طبقة أبي تمام أو البحتري أو المتنبي أو الشريف الرضي، فبينه وبين أمثال هؤلاء مسافات أعرض من الصحراء.
ولكنه شاعر من طبقة ابن زريق، وما عاش ابن زريق إلا بقصيدة واحدة هي العينية التي سارت مسير الأمثال.
وكذلك عاش ابن النحاس بقصيدة أو قصيدتين، ومن لم يعرف ابن النحاس في معانيه القلائل وهي نوادر فليس بأهل للانتساب إلى دوحة الأدب الرفيع.
والذي يجهل ابن زريق وابن النحاس لا يقل حمقاً عن الذي يجهل ابن النبيه صاحب هذا البيت
إذا نشرتْ ذوائبه عليه ... حسبتَ الماء رفَّ عليه ظِلُّ
فما فرائد ابن النحاس؟
الفريدة الأولى هي الحائية
بات ساجي الطرف والشوق يُلحُّ ... والدجا إن يَمض جُنحٌ يأت جُنحُ
يقدح النجم لعيني شرراً ... ولزند الشوق في الأحشاء قدح
لست أشكو حرب جفني والكرى ... لم يكن بيني وبين الدمع صلح
إنما حال المحبين البكا ... أيُّ فضل لسحاب لا يسُّح
يا نداماي وأيام الصبا ... هل لنا رجع وهل للعمر فسْح
صبَّحتك المزن يا دار اللوى ... كان لي فيك خلاعات وشطح
حيث لي شغلٌ بأجفان الظبا ... ولقلبي مرهمٌ منها وجرح
كل عيش ينقضي ما لم يكن ... مع مليح ما لذاك العيش مِلح
وبذات الطلح لي من عالج ... وقفة أذكرها ما اخضل طلح
يوم منا الركب بالركب التقى ... وقضى حاجته الشوق الملح
لا أذمُّ العِيسَ، للعيس يدٌ ... فلا تلاقينا وللأسفار نجح
قرَّبتْ مِنا فماً نحو فمٍ ... واعتنقنا فالتقى كشحٌ وكشح
وتزودتْ الشذى من مرشفٍ ... بفمي منه إلى ذا اليوم نفح

وتعاهدنا على كأس اللمى ... إنني ما دمت حياً لست أصحو
يا ترى هل عند من قد ظعنوا ... إن عيشي بعدهم كدٌ وكدح؟
كنت في قرْح النوى فانتدبت ... من مشيبي كربة أخرى وقرح
كم أداوي! القلب قلت حيلتي ... كلما داويت جرحاً سال جرح
ولكَمْ أدعو وما لي سامعٌ ... فكأني عندما أدعو أبَحُّ
وأنفاسه في هذه الحائية تذكر بأنفاسه في الحائية الثانية
تذكر السفح فانهلت سوافحه ... وليس يخفاك ما تخفى جوانحه
صدع الهوى يا عذولي غير ملتئم ... يدريه بالبان من أشجاه صادحه
فهذه القصيدة من ذخائر الأدب العربي ولا ينكر قيمتها إلا غافل أو جهول، وهي مقدودة من روح الشاعر، وليس فيها بيت إلا وهو صورة من أقباس وجده المشبوب.
وهل في الدنيا أديب عربي لا يحفظ هذا البيت:
كم أداوي القلب قلَّتْ حيلتي ... كلما داويت جرحاً سال جرح
أما الفريدة الثانية فهي العينية
رأى اللوم من كل الجهات فراعه ... فلا تنكروا إعراضهُ وامتناعهُ
ولا تسألوني عن فؤادي فإنني ... علمتُ يقيناً أنه قد أضاعه
له الله ظبياً كل شيء يَرُوعهُ ... ويا ليت عندي ما يزيل ارتياعه
ويا ليته لو كان من أول الهوى ... أطاع عذولي واكتفينا نزاعه
فما راشنا بالسوء إلا لسانُهُ ... وما خرب الدنيا سوى ما أشاعه
فأصبح من أهوى على فيه قُفلة ... يُكتم خوف الشامتين انفجاعه
وآلى على أن لا أقيم بأرضه ... واحرمني يومَ الفراق وداعه
فرحت وسيري خطوة والتفاتة ... إلى فائت منه أُرجى ارتجاعه
ذرعت الفلا شرقاً وغرباً لأجله ... وصيرت أخفاف المطيِّ ذراعه
فلم يبق بَرٌ ما طويت بساطه ... ولم يبق بحرٌ ما رفعت شراعه
كأني ضميرٌ كنت في خاطر النوى ... أحس به واشي السُّرى فأذاعه
أخلاي من دار الهوى زارها الحيا ... ومد إليها صالح الغيث باعه
يعيشكم عوجوا على من أضاعني ... وحيوه عني ثم حيوا رباعه
وقولوا فلان أوحشتنا نِكاتهُ ... وما كان أحلى شعره وابتداعه
فتىً كان كالبنيان حولك واقفاً ... فليتك بالحسنى طلبت اندفاعه
أبحت العدا سمعاً فلا كانت العدا ... متى وجدوا خرقاً أحبوا اتساعه
فكنت كذي عبدٍ هو الرجل والعصا ... تجنَّى بلا ذنب عليه فباعه
لكل هوىً واشٍ فإن ضُعضع الهوى ... فلا تلم الواشي ولم من أطاعه
وقولوا رأينا من حمدتَ افتراقه ... ولم ترنا من لم تذم اجتماعه
وما كنتما إلا يراعاً وكاتباً ... فملَّ وألقى في التراب يراعه
فإن أطرق الغضبان أو خط في الثرى ... فقولوا فقد ألقى إليكم سماعه
وبالله كفوا إن تمادى فإنه ... رقيق حواشي الطبع أخشى انصداعه
وإن نصب الشكوى عليَّ فسابقوا ... وقولوا: نعم، نشكو إليك طباعه
وإن رام سبي فاحدثوا لي معايباً ... وسباً بليغاً تحسنون اختراعه
وهنوا رقيبي بالرقاد فطالما ... جعلت على جمر السهاد اضطجاعه
ولا تحسدوا وداين يومين عنده ... فإن حبيبي تعلمون خداعه
ودوروا على حكم الغرام فإنه ... قضى لظاه أن تهين سباعه
ضعيف الهوى من بات يشكو زمانه ... وأضعف منه من يرجِّى اصطناعه
ولو علم المشتاق عقبى اتصاله ... لآثر بين العاشقين انقطاعه
ومن طلب الأحباب حرصاً على البقا ... فما رام بين الناس إلا ضياعه
فهذه القصيدة من آيات الشعر العربي. ومن غرائبها هذا البيت:
لكل هوى واشٍ فإن ضُعضِع الهوى ... فلا تلم الواشي ولُمْ من أطاعه
وهذا البيت:
ولو علم المشتاق عقبى اتصاله ... لآثر بين العاشقين انقطاعهُ
والقصيدة في جملتها روحٌ مضرَّج بالدم، وإن بدت للغافل في صورة الحديث المعاد
وتجيء بعد ذلك مقتطفات من شعره الرقيق؛ ولكن أين تلك المقتطفات؟ - 7

كنت أرجو أن أجد شواهد كثيرة على شاعرية ابن النحاس مما انتثر في أثناء قصائده من الأبيات الفرائد؛ ثم صَعُب عليَّ تحقيق ما رجوت؛ فقد راجعتُ الديوان مرات ومرات ولم أظفر بما أريد.

فهل يكون من الخير أن أشير إلى أن له بيتين في (الدُّخان) لا يزال معناهما على ألسنة الناس في مصر إلى هذا العهد؟ ابن النحاس يقول:

وأرى التولع بالدخان وشربه ... عوناً لكامن لوعة الأحشاء
فأديم ذلك خوف إظهار الجوى ... وأشوبه بتنفس الصُّعَداء

وهو معنى لطيف، فهو يستر بدخان التبغ دخان القلب، حتى لا يفتضح بين الرقباء.

وقد يداوي ناراً بنار، كأن يقول:

عكفت على شرب الخان وفي الحشا ... لهيب جوىً فازددت جمراً على جمر
وقلت أداوي نار قلبي بمثلها ... (كما يتداوى شارب الخمر بالخمر)

وكان التدخين في تلك الأيام مما يعاب؛ فقد كان مفهوماً عند أهل مصر أنه من أهواء العبيد. ولهذا شواهد قد نرجع إلى سردها بعد حين!

8 - أين شاعرية ابن النحاس بعد الحائية والعينية؟ أين؟ أين؟

لم يرضني شعر ابن النحاس من الوجهة الفنية، ولكني مع ذلك أجده شاعراً في جميع معانيه، وإن كان أكثرها منقولاً عن الشعراء القدماء؛ فهو في رأيي يعني ما يقول، وإن ضعُف عن مقارعة الفحول.

تلك ومضة من الشاعرية تألقت حيناً ثم خَبَتْ، كما تألق جمال صاحبها لحظة ثم خبا، وقد حقت في هذا الشاعر كلمته في مصيره فأصبح تاريخاً من التواريخ، وهل من القليل أن يمسي الرجل وله تاريخ؟!

9 - على أن من الظلم أن نحكم بأن ابن النحاس لم يجد في غير الحائية والعينية، وكيف وهو صاحب هذا القصيد:

عطف الغصنُ الرطيبُ ... وتلافانا الحبيب
أضمر الدهر لنا الصُّل ... ح فلم يبق غُضوب
زار والعرَف له من ... نفسَ الصبح هبوب
يظهِر البث وأولى ... منه بالبث الكئيبُ
كل عضو منه في الحس ... ن عن الوجه ينوب
أيَّ عضو تسرح الألحا ... ظ فيه وتؤوب
أنا والقلبُ إذا لا ... حَ سليبٌ وكسيبُ
بأبي جَنة وصلٍ ... منه ما فيها لغوب
بات يدعوني بها طو ... راً وطوراً يستجيب
والمنى نقلٌ ومن ند ... ماننا كأسٌ وكوب
أيها العشاق محزو ... نُ الهوى مني طرُوبُ
أيَّ وقتٍ ليس تنشقُّ ... قلوبٌ وجيوبُ
إنما يمرح بي في ... لجة العشق لعوبُ
والذي يهجر في الحبِّ ... للاحيه نسيب
ما على مَن سرهُ الوص ... لُ إذا غِيظَ الرقيب
رنة القوس لرامي ... ها وللغير النُّدوب
حسراتي هي دمعي ... ولها قلبي قليبُ
ليس لي مالٌ ولكن ... ذَهبٌ قولي صبيبُ
من بني جنسي ولكني ... مع الغزلان ذيبُ
كلَّ يومٍ لي صلاحٌ ... بخلاعاتٍ مشوبُ
ومتى أمكنت الفر ... صة أجني وأتوب
في الهوى صح اجتهادي ... فأنا المحظي المصيب
هذه حالي وأحوا ... لُ بني العشق ضروب

وقد نجد لابن النحاس أطايب كثيرة إذا سايرناه بتلطف وترفق، فليكتف القارئ بهذه اللمحات، فإن المقام لا يسمح بالإطناب.

زكي مبارك

في الاجتماع اللغوي
اللهجات العامية الحديثة
تجردها من الإعراب
للدكتور علي عبد الواحد وافي
أستاذ الاجتماع بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول
- 3 -
تمتاز اللغة العربية بأنها أوسع أخواتها السامية جميعاً وأدقها في قواعد الصرف والنحو.
فمن مميزاتها الصرفية أن الأصل الواحد يتوارد عليه مئات من المعاني بدون أن يقتضي ذلك أكثر من تغيير في حركات أصواته الأصلية نفسها مع زيادة بعض أصوات عليها أو بدون زيادة، وأن كل ذلك يجري وفق قواعد مضبوطة دقيقة نادرة الشذوذ (عَلم، علِمنا. . . يَعلم، نعلم. . . إعْلم، إعلمي. . . أعلم، نعلَم. . . عَلّم، نُعلّم. . . تَعلّم. . . تَعالَم. . . عُلم، يُعلَم. . . عِلمٌ، علم، علامة، علوم، أعلام، علامات، عالم، عليم، علامة، علماء، عالِمون. . . متعلِّم، متعلَّم، معلَم، معلّم، معلِّم، معلوم، عالَم، عالَمون. . . الخ).
ولم تصل أية لغة سامية أخرى في هذه الناحية إلى هذا الشأو. . . ومن ذلك أيضاً نظام جمع التكسير الذي لا تشاركها فيه إلا أختها الجنوبيتان (اليمنية القديمة والحبشية)؛ فقد توسعت هي في استخدامه توسعاً كبيراً، حتى أصبح للمفرد الواحد فيها عدة جموع من هذا النوع
ومن مميزاتها النحوية تلك القواعد الدقيقة التي اشتهرت باسم قواعد الإعراب، والتي يتمثل معظمها في أصوات مد قصيرة تلحق أواخر الكلمات لتدل على وظيفة الكلمة في العبارة وعلاقتها بما عداها من عناصر الجملة. وهذا النظام لا يوجد له نظير في أية أخت من أخواتها السامية، اللهم إلا بعض آثار ضئيلة بدائية في العبرية والآرامية والحبشية.
وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن هذه القواعد المتشعبة الدقيقة، وخاصة قواعد الإعراب، لم تكن مراعاة إلا في لغة الآداب شعرها وخطابتها ونثرها؛ أما لهجات الحديث فكانت من أقدم عصورها غير معربة، أو على الأقل لم يكن لقواعد الإعراب فيها ما كان لها في لغة الآداب من شأن، واستدل على رأيه هذا بأدلة كثيرة أهمها دليلان:
أحدهما دليل لغوي يتعلق بالموضوع الذي نحن بصدد دراسته، وهو أن جميع اللهجات العامية المتشعبة عن العربية والتي تستخدم الآن في الحجاز ومصر والعراق والشام وبلاد المغرب مجردة من الإعراب كما ذكرنا ذلك في المقال الأخير. فلو كانت لهجات المحادثة العربية القديمة معربة لا تنقل شيء من نظامها هذا إلى جميع اللهجات أو إلى بعضها.
وثانيهما دليل منطقي عقلي وهو أن قواعد هذا شأنها في التشعب والدقة وصعوبة التطبيق وما تتطلبه من الانتباه وملاحظة عناصر الجملة وعلاقتها بعضها ببعض، لا يعقل أنها كانت مراعاة في لهجات الحديث؛ لأن لهجات الحديث تتوخى في العادة السهولة واليسر وتلجأ إلى أقرب الطرق للتعبير.
بل ذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك فزعم أن هذه القواعد لم تكن مراعاة في لهجات الحديث ولا في لغة الكتابة، وإنما خلقها النحاة خلقاً قاصدين بذلك تزويد اللغة العربية بنظم شبيه بنظم اللغة الإغريقية حتى يكمل نقصها في نظرهم وتسمو إلى مصاف اللغات الراقية، ويعتمد هؤلاء في تأييد هذا المذهب على نفس الدليلين اللذين اعتمد عليهما الفريق الأول مع توجيههما وجهة تتفق مع ما يذهبون إليه. وعلى دليل ثالث خلاصته أن قواعد هذا شأنها تشعباً ودقة لا يعقل أن تكون قد نشأت من تلقاء نفسها؛ ولا يمكن لعقليات ساذجة كعقليات العرب في عصورهم الأولى أن تقوى على خلقها. فهي تحمل آثار الصنعة الدقيقة المحكمة، ويبدو عليها طابع من عقلية المدارس النحوية التي ظهرت في العهود الإسلامية بالبصرة والكوفة وما إليهما.
وقد تبين فساد هذين المذهبين لجميع المحققين من الباحثين؛ حتى لأكثرهم تحاملاً على الساميين، وأشدهم ولوعاً بالانتقاص من حضارتهم ولغاتهم كالأستاذ رينان الفرنسي. واليك طرفاً من الأدلة التي لا تدع مجالاً للشك في فسادهما:
1 - إن عدم وجود هذه القواعد في اللهجات العامية الحاضرة، لا ينهض دليلاً على أنها

لم تكن موجودة في العربية الأولى، فقد انتاب أصوات اللغة العربية وقواعدها في هذه اللهجات كثير من صنوف التغيير والانحراف، وخضعت لقوانين التطور في مفرداتها وأوزانها ودلالاتها، فبعدت بعداً كبيراً عن أصلها، كما تقدم بيان ذلك بتفصيل في المقالين السابقين.

2 - وليس بغريب أن تتفق اللهجات العامية جميعاً في التجرد من علامات الإعراب، فقد خضعت لقانون من قوانين التطور الصوتي، وهو (ضعف الأصوات الأخيرة في الكلمة وانقراضها)، وهو قانون عام قد خضعت له جميع اللغات الإنسانية في تطورها؛ فما كان يمكن أن تفلت منه لهجة من اللهجات العامية المتشعبة عن العربية، كما تقدم الكلام عن ذلك في المقالين السابقين.

3 - على أنه قد بقي في اللهجات العامية الحاضرة كثير من آثار الإعراب وخاصة الإعراب بالحروف، فيقال مثلاً في عامية المصريين وغيرهم (أبوك وَّأخوك)، لا (أبك) و (أخك)؛ وينطق بجمع المذكر السالم مع الياء والنون (الطيبين، المؤمنين الخ. . .)؛ وفي معظم لهجات العراق في العصر الحاضر ينطق بالأفعال الخمسة مثبتة فيها نون الإعراب: (يمشون، تمشين، تمشون. . .)؛ وروى كثير من الباحثين أن آثار الإعراب بالحركات لا تزال باقية في لهجات بعض القبائل الحجازية في العصر الحاضر.

4 - يستفاد من كثير من كتب التاريخ، وخاصة كتب أبي الفداء أن بعض علامات الإعراب ظلت باقية في بعض لهجات المحادثة المتشعبة عن العربية حتى أواخر العصور الوسطى.

5 - إن دقة القواعد وتشعبها لا يدل مطلقاً على أنها مخترعة اختراعاً. فاليونانية واللاتينية مثلاً في العصور القديمة والألمانية في العصر الحاضر، يشتمل كل منها على قواعد لا تقل في دقتها وتشعبها عن قواعد اللغة العربية، ولم يؤثر هذا في انتقالها من جيل إلى جيل عن طريق التقليد، ولا في مراعاتها في الحديث، ولم يقل أحد أنها من خلق علماء القواعد.

6 - أن خلق القواعد خلقاً محاولة لا يتصورها العقل، ولم يحدث لها نظير في التاريخ، ولا يمكن أن يفكر فيها عاقل أو يتصور نجاحها؛ فمن الواضح أن قواعد اللغة ليست من الأمور التي تخترع أو تفرض على الناس، بل تنشأ من تلقاء نفسها وتتكون بالتدريج.

7 - إن علماء القواعد العربية لم يكونوا على علم باللغة اليونانية وقواعدها، ولم تكن لهم صلة ما بعلماء القواعد من الإغريق. هذا إلى أن قواعد اللغة العربية تختلف في طبيعتها ومناهجها اختلافاً جوهرياً عن قواعد اللغة اليونانية. فلو كانت قواعد العربية قد اخترعت على غرار القواعد اليونانية كما يزعمون لجاءت متفقة معها، أو على الأقل مشبهة لها في
أصولها ومناهجها.

8 - يدلنا التاريخ أن علماء البصرة والكوفة كانوا يلاحظون المحادثة العربية في أصح مظاهرها ويستنبطون قواعدهم من هذه الملاحظة؛ وأنهم كانوا لا يدخرون وسعاً في دقة الملاحظة واتخاذ وسائل الحيطة؛ حتى أنهم ما كانوا يثقون بأهل الحضر لفساد لغتهم، ولا بالقبائل التي احتكت ألسنتها بلغات أجنبية كلخم وجذام وقضاعة وغسان وأياد وبكر وأزدعمان وأهل اليمن؛ وأنهم كانوا يبذلون في سبيل ذلك من وقتهم وجهودهم شيئاً كثيراً، فكانوا يرحلون إلى الأعراب في باديتهم ويقضون عندهم الشهور بل السنين؛ وعلماء هذا شأنهم دقة واحتياطاً وإخلاصاً للعلم لا يعقل أن يتواطئوا جميعاً على مثل هذا الإفك المبين.

9 - وإذا أمكن أن نتصور أن علماء القواعد تواطئوا جميعاً على ذلك، فإنه لا يمكن أن نتصور أنه تواطأ معهم عليه جميع العلماء من معاصريهم، فأجمعوا كلمتهم ألا يذكر أحد منهم شيئاً ما عن هذا الاختراع الغريب. ولا يعقل أن يقبل معاصروهم هذه القواعد على أنها ممثلة لقواعد اللغة ويحتذونها في كتاباتهم؛ اللهم إلا إذا كان علماء البصرة والكوفة قد سحروا عقول الناس واسترهبوهم وأنسوهم معارفهم عن لغتهم وتاريخها، فجعلوهم يعتقدون أن ما جاءوا به من الإفك ممثل لفصيح هذه اللغة.

10 - إن النقوش التي كشفت حديثاً في شمال الحجاز بمنطقة تيماء والحجر والعلا لتدلنا أقطع دلالة على أن الإعراب كان مستخدماً في (العربية البائدة) نفسها، فبعض العلامات الإعرابية قد رمز إليه في هذه النقوش بحروف ملحقة في آخر الكلمة

((صنعه كعبو) (وهرب مزحجو). . . الخ)
11 - لم تنفرد اللغة العربية من بين أخواتها السامية انفراداً كاملاً بنظام الإعراب، فلهذا النظام آثار في اللغات الحبشية السامية، وخاصة في الجفرية والأمهرية. صحيح أن هذه الآثار محدودة ضئيلة، وأنها تختلف اختلافاً غير يسير عن نظام الإعراب في اللغة العربية؛ ولكن وجود أثر لهذا النظام في لغة سامية لا تزال لغة حديث إلى الوقت الحاضر، كاللغة الأمهرية مهما كان هذا الأثر ضئيلاً - وعلى أي صورة كانت أوضاعه - لدليل قاطع على أنه منحدر من الأصل السامي الأول وليس من خلق النحاة
12 - تقوم أوزان الشعر العربي وقواعده الموسيقية على ملاحظة نظام الإعراب في المفردات، فبدون إعراب الكلمات تختل أوزان هذا الشعر وتضطرب موسيقاه. ومما لاشك فيه أن هذه الأوزان سابقة لعلماء البصرة والكوفة، وأن شعراً عربياً كثيراً قد قيل على غرارها من قبل الإسلام ومن بعده قبل أن يُخلق هؤلاء العلماء. فإنكار هذا الشعر لا سبيل إليه. ولا يمكن أن يكون قد أُلِّف غير معرب الكلمات؛ لأن عدم إعرابها يترتب عليه اضطراب أوزانه واختلال موسيقاه
13 - وأقوى من هذا كله في الدلالة على فساد هذا المذهب تواتر القرآن الكريم ووصوله إلينا معرب الكلمات
14 - وإن في رسم المصحف العثماني نفسه، مع تجرده من الأعجام والشكل، لدليلاً على فساد هذا المذهب. وذلك أن المصحف العثماني يرمز إلى كثير من علامات الإعراب بالحروف (المؤمنون، المؤمنين. . .)، وعلامة إعراب المنصوب المنون (رسولاً، شهيداً، حسيباً، بصيراً. . .) وهلم جراً. ولا شك أن المصحف العثماني قد دُوِّن في عصر سابق بأمد غير قصير لعهد علماء البصرة والكوفة الذي تنسب إليهم هذه المذاهب الفاسدة اختراع قواعد الإعراب.
فنظام الإعراب عنصر أساسي من عناصر اللغة العربية؛ وقد اشتملت عليه منذ أقدم عهودها. وكل ما عمله علماء القواعد حياله هو أنهم استخلصوا مناهجه استخلاصاً من القرآن والحديث وكلام الفصحاء من العرب ورتبوها، وصاغوها في صورة قواعد وقوانين. ثم أخذ هذا النظام ينقرض شيئاً فشيئاً من اللهجات العامية تحت تأثير العوامل السابق ذكرها في المقالين السابقين، حتى لم يبق له في هذه اللهجات إلا آثار ضئيلة.
غير أنه لا يسعنا أن ننكر أن قواعد الإعراب لم يكن لها قديماً في لهجات الحديث ما كان لها في لغة الأدب من شأن. وذلك أن طائفة كبيرة من هذه القواعد لا تظهر وظائفها وتمس الحاجة إليها إلا في مسائل التفكير المنظم المسلسل، والمعاني المرتبة الدقيقة التي يندر أن تعالج في لغات التخاطب العادي. وهكذا الشأن في جميع لغات العالم؛ فكثير من قواعد الفرنسية مثلاً يندر أن يحتاج إليها في المحادثات العادية. وفضلاً عن ذلك فقد نقل إلينا المؤرخون الثقات أن ألسنة العرب كانت عرضة للزلل في هذه القواعد منذ العصر الإسلامي، بل قبل ذلك العصر وأن هذا اللحن لم يكن مقصوراً على عامتهم، بل كان يقع
من الخاصة والخلفاء والمحدثين، وأئمة الفقهاء أنفسهم. ويظهر أن هذا اللحن كان يقع منهم حتى في تلاوة كتاب الله؛ فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (أعربوا القرآن). وهذا يدل على أنه سمع بعض الناس في عصره يقرؤه ملحوناً.
علي عبد الواحد وافي
ليسانسيه ودكتور الآداب من جامعة السربون
في اختلاط الجنسين
للأستاذ محمود محمود بسيوني
ألقى أستاذنا صاحب العزة الدكتور منصور بك فهمي قنبلة جديدة في الميدان الاجتماعي تنبه على صوتها الكتاب والمفكرون والمهتمون بالشؤون الاجتماعية في مصر. تحدث عن اختلاط الجنسين في مصر وكان سريعاً حازماً جريئاً في إبداء رأيه، وفي إنكار الاختلاط بصورته الحاضرة، وقد ألقى شعاعاً مضيئاً أنار به السبيل إلى ذلك الهدف الاجتماعي الخطير. وهكذا حفزني وشجعني على أن أرفع صوتي أنا الآخر معلناً انضمام صوت الشباب إلى صوت الشيوخ. وقد يبدو هذا غريباً، فالشباب معروف بميله للفرح والسرور واللهو والعبث ولكني لا أكتمكم أني استمتعت بأنواع كثيرة من لهو

الشباب وقد كان ذلك درساً طيباً اغتنمت فرصة اليوم لأن أعيده على مسامع إخواني الشباب ولكني أنبه الغافلين من الجيل الذي تقدمني إلى سوء نتيجة إهمالهم بعض الأمور الاجتماعية.

حينما نحارب الاختلاط اليوم إنما نحارب الرذيلة والفساد محافظة على كيان أمتنا العزيزة ودينها الإسلامي القويم، وفقنا الله جميعاً إلى ما فيه خير وطننا وإعلاء شأن ديننا.

ولنحاول أول كل شيء أن نفهم العلاقة الطبيعية بين المرأة والرجل، فهما يكونان معاً الأسرة، والأسرة هي الوحدة التي يتكون من كثيرها المجتمع؛ إذن فالرجل والمرأة لازمان معاً لحفظ كيان المجتمع، ولا غنى لأحدهما عن الآخر لاستمرار الحياة الاجتماعية، وما دامت المسألة تقوم على التعاون بين الرجل والمرأة فلا بد من انسجام وظائفهما من الوجهة العامة أي من حيث أن الرجل رجل وأن المرأة امرأة. فقد زودت الطبيعة كلا منهما بفضائل وميزات خاصة يكمل بعضها بعضاً، وهكذا كان لكل منهما عمل خاص وأسلوب خاص في تأدية وظيفته في الحياة، ولكن هذه الوظائف كما قلنا يكمل بعضها الآخر. وهكذا كان الرجل في حاجة طبيعية إلى المرأة لكي تبادله التشجيع والمساعدة على القيام بأعمالهما على خير الوجوه، وينقسم اتصال المرأة بالرجل إلى نوعين: اتصال فردي خاص، وهو اتصال الرجل بزوجة فقط وذلك لحفظ النوع؛ ثم اتصال اجتماعي، وهو اتصال الرجال في مجموعهم بالنساء في مجموعهن وهو ما يعبر عنه بالاختلاط وهو موضوع حديثنا الليلة.

وقبل أن نبدأ في علاج الموضوع نحب أن نذكر أن المرأة عنصر له خطره العظيم؛ فإذا أسئ استخدام هذا العنصر في الحياة الاجتماعية فقد تكون النتائج قتالة فتاكة. وهذا الاعتبار يجب أن يراعى حين يصدر الإنسان حكمه على فائدة الاختلاط أو ضرره فإن ذلك يلقي على المسألة ضوءاً جديداً ويكشف عن معانيها إلى حد كبير، والسبب في خطورة المرأة هو تكوينها الطبيعي خلقاً وخلقاً. فهي بما فيها من جمال وفتنة وإغراء وبما لروحها من دلال ورقة وعذوبة تؤثر في قلوب الرجال تأثيراً شديداً كثيراً ما يحول دفة حياتهم خاصة كانت أو عامة. وقد عرف الفرنسيون أثر المرأة فكلما صادفتهم مشكلة غامضة قالوا قبل كل شيء (فتش عن المرأة) ولما كان عمل الرجل في الحياة بحسب تقاليدنا المصرية أبعد أثراً وأعظم شأناً. فعمله دائماً يتصل بالمجتمع كله؛ بينما المرأة وفاق هذه التقاليد اتصالها بفرد واحد أو أفراد قليلين. على أن ترك هذه التقاليد وتوسيع الاختلاط للمرأة بعامة الرجال لابد أن يحدث أثره في المجتمع لأنه لم يعد لهذا الاختلاط وفقاً لماضينا المعروف.

يظن بعض الناس أن الاختلاط مظهر من مظاهر المدنية والتقدم الإنساني في الوقت الحاضر، وأنه يعود على المرأة وعلى الرجل أيضاً بفوائد لا يستطيعان أن يجنيانها إذا كان كل منهما بمعزل عن الآخر. فهم يتوهمون أن هذا الاختلاط يسير بهما في طريق التقدم من حيث الثقافة ومن حيث الإحساس ومن حيث أشياء أخرى يزعمون أنهم يفهمونها! ثم هم يبنون هذا الزعم على أن الاختلاط حق من حقوق المرأة يجب أن تستعمله وتفيد منه، وأن المرأة باشتراكها مع الرجل في حياته العامة إنما هو تنفيذ لحق الحرية الذي أوجدته النظم الاجتماعية الحديثة، ولكنهم أسرفوا في استغلال هذا الحق واستعمال هذه الحرية. فانقلبت الآية وأصبح تقدمهم تأخراً ومدنيتهم همجية.

بدأت المرأة بفكرة السفور ونزع الحجاب. وكأنها كانت في معقل وانطلقت بعد أن كانت لا تحلم بالخروج؛ فأسرفت في نزع الحجاب إسرافاً شديداً إذ أصبحت سافرة الوجه أولاً، ثم سافرة الوجه والرأس، وأضافت بعد ذلك قليلاً قليلاً سفور الذراعين والساقين والصدر؛ ثم تلفتت مع ذلك إلى تغيير الزي وتكييفه بما يتناسب مع ما تريد أن تبرزه من محاسن جسمها. ثم أتقنت ألوان التزين والتجمل واندفعت في كل هذا اندفاعاً كبيراً، ودفعت في سبيل ذلك كل ما تملك من مال وذكاء؛ واحتملت مشقة وعذاباً؛ ثم شاءت أن تعرض جمالها وتجملها فخرجت إلى الأماكن العامة من شوارع ومقاه وأندية. وراحت تتسابق مع مثيلاتها

في هذا المضمار، فأصبحت تلك الأماكن معارض يتبارين فيه لإظهار مقدرتهم على الفتنة والإغراء. وخرج الرجال بطبيعة الحال يستمتعون بهذه المظاهر الجديدة الخلابة، فكانوا يلقون كلمات الإعجاب في آذان النساء سواء أكانوا في ذلك مخلصين أم

منافقين؛ ولكنها كلمات تروق النساء وتأخذ بمجامع قلوبهن على كل حال.
فكرت المرأة في أنه من العبث أن تتجمل هكذا للشوارع فقط، وفكر الرجل في أن يستمتع هو الآخر بهذه الفتنة، فأخذ كل منهما يسعى إلى الاستمتاع: المرأة بتجملها وتدللها، والرجل بما ينجذب إليه من هذا التجمل وهذا الدلال. وأخذت النشوة كل من الفريقين، وأعمتهم الشهوة فاستحلوا ما حرم، واستباحوا كل ممنوع، فانتحلوا أسباباً وخلقوا أساليب. وتستروا باسم المدنية والتقدم لتنفيذ أغراضهم، واندفعوا في تيار حياة الاختلاط البراقة فشربوا السم في برشامة.
وهكذا أصبحت ترى المرأة بشكلها الجديد ترتاد دور الخيالة وأندية السباق والمراهنات، وحدها تارة أو مصحوبة أخرى بأصدقاء من الجنس الآخر اتخذتهم دون اعتبار لما بين الجنسين من فوارق. تراها تحتضن رجالها واحداً بعد واحد، وتراقصهم وتحتسي معهم الخمر. فالفتاة الصغيرة لا يقوى أبوها على ردها، لأن المدنية تتطلب منه ذلك؛ والزوجة الصغيرة لا يقوى زوجها على منعها، لأنه هو الآخر يفعل ذلك؛ فالمدنية تتطلب هذا، والأم القديمة تعلمت هي الأخرى، فخلبتها المدنية الحديثة، فاشتركت في هذا. فعلت المرأة كل ذلك وأكثر من ذلك غير عابئة بدين ولا خلق، وهي تظن أن هذه هي الحياة كما يجب أن تكون، وزكاها في ذلك جماعة من المخبولين العابثين الذين يسوقونها ويسخرونها لشهواتهم ولذاتهم ويتركونها بعد ذلك محتقرة مزدراة. اندفعت إذن المرأة في مدنيتها المزعومة وحريتها الموهوبة، فعم الفساد والشر.
وخلاصة القول أن المرأة بما اتبعته من ضروب التبذل غيرت معالم أنوثتها فبدلت جمالها الطبيعي الذي وهبها الله إياه وأحلت محله بعض النقوش والأصباغ، ففسد ذوقها في فهم الجمال وأفسدت ذوق الرجال أيضاً، فضاع جزء كبير من قيمة أنوثتها الطبيعية، وفقدت الرقة والسحر الحقيقيين. فبإسرافها في إبراز محاسنها أضعفت إلى حد كبير سطوتها على قلوب الرجال وعواطفهم. والأمر في الواقع يخضع كذلك لقانون العرض والطلب. فلكثرة
المرأة في ميادين الرجال، ولكثرة ما تبديه من محاسنها وزينتها انخفض سعرها وقل طلبها.
والذي لاشك فيه أن الاحتجاب أو نصف الاحتجاب يثير في النفس - وهي فضيلة بطبعها - الرغبة القوية وحب الاستطلاع؛ فبعد أن كان الرجل يطلب المرأة - وهي بعيدة عنه - ليستمتع بأنوثتها المستترة في خجلها وحيائها ووقارها، أصبح يكره تبذلها ويمقت جرأتها، فهو لا يفكر فيها إلا كأداة لسروره وعبثه.
كذلك نجم عن الاختلاط السيئ أن فقدت المرأة كثيراً من المعاني السامية: كالأمانة والشرف والعفة والقناعة، فانحطت وهبطت بالرجل إلى منزلة الحيوان.
وإننا إذا نظرنا إلى حياة الأسرة بعد الاختلاط فأول ما يبدو لنا هو تلك المسألة العويصة التي أصبحت مشكلة المشاكل الاجتماعية وهي مسألة الزواج. فإن الرجل بعد الذي رآه في المرأة من استهتار وتهتك أصبح يعتقد أنها لم تعد صالحة للحياة الزوجية؛ فأعرض عن الزواج وجعل يستعيض عنه بالمتعة الوقتية التي سهلتها له المرأة ووفرتها له كل التوفير.
على أن الذين يقبلون على الزواج ينقسمون إلى فريقين؛ فمنهم من هو محافظ غيور على شرفه وكرامته، وهذا الصنف تصبح حياته كالآتي: المرأة تريد التبذل والاختلاط، وتريد التحرر من القيود والأغلال على حد تعبيرها؛ والرجل يغار عليها ويشعل الشك فؤاده وجوانحه فلا يطيق صبراً على هذه الحياة فيثور ويفور ويهدد ويتوعد وتصبح حياته جحيماً لا يطاق. فإما أن ينتهي الأمر إلى الطلاق وهو ويل لو تعلمون عظيم؛ وإما أن ينتهي والعياذ بالله إلى مأساة محزنة لا استدراك لها فتنهدم أركان الأسرة الجديدة.
أما الفريق الآخر من الأزواج فهم الذين يتركون الأمور كما تسيرها الظروف والأهواء، فيلقون الحبل على الغارب متكلفين الهدوء والبرود، لا يسألون زوجاتهم أينهن وماذا يفعلن. وذلك إما لضعفهن الاخلاقي، وإما ليأسهم من وجود ما هو خير من حالهم. والنتيجة دمار وخراب. فإن المرأة حينئذ تتمادى في عبثها وفي فسادها، وينخرط هو في سبيل الرذيلة والشر إلى أن يحدث أحد الأمرين: إما ألا يطيق أحد الزوجين صبراً فينفجر مرة واحدة، فإذا بالزواج رماد تذروه الرياح؛ وإما أن يدب العطب في الحياة الزوجية لخلوها من العناصر الشريفة الظاهرة التي تصونها من العفن فتصير نوعاً من

الهمجية الإباحية التي لا نستطيع أن نسميها حياة بالمعنى الذي تقبله الحضارة الحقة والإنسانية الرفيعة.

وإذا ألقينا نظرة عامة على بيت الزوجية في وقتنا هذا نستطيع أن نطمس آثار الاختلاط هكذا: تنقطع المرأة عن تأدية وظيفتها كسيدة وهي التي جعلت لتلزم بيتها كي تنفث فيه من روحها وأنوثتها فتدعو ملائكة السعادة لترفرف بأجنحتها على تلك الجنة. جعلت الآن تكثر من التغيب في الخارج. فحالات الاختلاط الجديدة ومقتضياته تشغلها بعيداً عن بيتها؛ فهي دائماً في زيارة صديقاتها وأصدقائها والاجتماع بهم في كل وقت وفي كل مكان؛ فإذا بها لا تعرف شيئاً عن نظافة بيتها ونظامه وترتيبه، ولا تعرف شيئاً عن مأكلها ومشربها، ولا تعرف شيئاً عما يتطلبه البيت من إصلاح خلل أو إكمال نقص، ولا تعرف شيئاً عما هو أهم من ذلك كله وهو تربية أطفالها. أما زوجها فهو آخر من تفكر في أن تعنى بهم، وهي التي جاءت من أجله ومن أجله فقط: تؤنسه في وحدته، وتشاركه الحياة وتمتعه بما لديها من صفات منحها الله إياها.

كل ذلك لأنها خرجت عن الحياة التي خلقت لها، فخرجت بذلك هي وزوجها من الجنة؛ وأخرجها تجنيها عن البيت واندفاعها في الاختلاط وفي حياة الشوارع. فهل هذه إذن حياة المدنية وهل هذا هو الرقي، وهل هذه هي نتيجة العلم والثقافة؟ المضحك أن تسمى ثقافة وهي أبعد ما تكون عما يطابق العقل والمنطق. ليست الثقافة والحضارة والتقدم أن تتقن المرأة الكلام بالفرنسية والإنجليزية لا لشيء إلا للفرنجة وتكلف الأرستقراطية واتخاذها وسيلة للرقاعة والتهتك. ليست الثقافة والحضارة والتقدم أن تغشى المرأة المنتديات والمجتمعات، وأن تتقن فن المقابلات والتشريفات بعد إتقانها لفن البهرجة والزينات. الثقافة الحقة والحضارة الحقة والتقدم الحق هو أن تعرف المرأة واجبها نحو بيتها ونحو الحياة النافعة، وأن تتقن فنونها التي خلقت لها لتعيش مطمئنة سعيدة ولتشيد أسس حياة هادئة هي عنوان التقدم والرقي المستمر.

ورحم الله قاسم أمين! فلو كان حياً لاستنكر أسلوب المرأة في تنفيذ تعاليمه، فما كان قصد قاسم أمين إلا أن يحرر المرأة من العبودية القديمة حين كان الرجل يجعل المرأة عبداً يشترى ويسخر في تنفيذ رغباته وإشباع شهواته. لقد أراد قاسم أمين أن يخلص المرأة من ظلم خاطئ، فأساءت المرأة فهم الغرض الذي قصد إليه وتعثرت في الطريق الذي أشار به فضلت السبيل وتمادت في ضلالها. فنحن إذ نرفع صوتنا اليوم إنما نحسن إليه ذكرى قاسم

أمين ونخلص للمرأة نفسها فنظرها على طريق الحق ونهديها إلى السبيل القويم.

(البقية في العدد القادم)

محمود محمود بسيوني

الطابور الخامس الألماني

الطابور الخامس! لفظتان تنطويان على كل معاني الإرهاب والقسوة والفظاظة والغدر والخيانة، وتعيد إلى الأذهان تلك المآسي التي كان يمثلها ديوان التفتيش في القرون المتوسطة.

الطابور الخامس هو الخطر العصري الذي يهدد المدنية الحاضرة والأمم الديمقراطية والشرائع الحرة التي كتبت بدماء الألوف من أحرار البشر، بل هي عصابة هائلة تبثها الحكومة النازية في كل أنحاء العالم لتلقي الفساد وتذرع الفتن، وتنخر كيان الأمم بأساليب شريرة لم يعهدها العالم المتمدن؛ فالنازية والطابور الخامس اسمان مترادفان لمسمى واحد.

كان هدف هتلر في أول أمره أن يستولي على الحكم في ألمانيا ويعدم كل الأحزاب السياسية الألمانية (وكان عددها يومئذ 36 حزباً) التي لا تعتنق المبادئ النازية. وكانت النازية قبل أن يسيطر هتلر على ألمانيا حزباً سياسياً عادياً اعتمدت لبلوغ مأربها خطتين: القوة والدعاية، فطفقت تنفيذاً للخطة الأولى تتسلح سراً وتعدُّ عُدتها لليوم المنتظر، وأنشأت تنفيذاً للخطة الأولى (معهداً) كبيراً للدعاية والتمويه والتضليل، ثم لتخريج طلاب الغدر والخيانة والفتك، وهم المعروفون اليوم بأعضاء الطابور الخامس.

قسم هتلر بعد ما استتب له الأمر أنصاره ورجال حزبه إلى فئات ثلاث: الأولى مؤلفة من أنصاره وأصدقائه الخلص الذين يعرفون أفكاره وغاياته الخفية، وهم: هيس، جورينج، جوبلز، هملر، ستريشر، بُهل، فون ريبنتروب، داره، روزنبرج. والثانية مؤلفة

من أشخاص لا يعرفون إلا شيئاً من أفكاره وخططه، ولكنهم مرشحون للانضمام إلى الفئة الأولى. والثالثة مؤلفة من رجال مصلحة التقصي الألمانية، ومن عصابة (الجستابو) التي يديرها (هملر). وليس في الفئات الثلاث إلا عدد ضئيل من ذوي المراتب العالية في الجيش.

ولكل من هذه الفئات مهمة خاصة؛ فمهمة الفئة الأولى إنشاء مذهب جنسي أساسه تفوق الجنس الجرماني الآري على سائر الأجناس البشرية لنبل أصله وشرف محتده، وتأليف ألمانيا الكبيرة التي يجب أن تسود العالم. ومهمة الفئة الثانية تنفيذ خطط الأولى في ألمانيا وخارجها بالدعاية والجاسوسية وغيرهما من الأساليب التي يكل عنها الوصف، كأن توهم أحياناً أنها ناقمة على النازية لكي تقف على الرأي العام فيها وتعرف البيئات التي تناهضها. ومهمة الفئة الثالثة الاستكشاف وتمهيد السبيل للفئة الثانية، فهي أشبه شيء بفرق الكشافة في الجيش

أما الجستابو فهي العصابة السرية الهائلة التي يديرها (انريك هملر) وتضم ستين ألف رجل وعشرة آلاف امرأة في ألمانيا، وخمسة آلاف رجل وأربعة آلاف امرأة في البلدان الأجنبية. وفي الجستابو دائرة خاصة مهمتها تزوير الوثائق والجوازات والمراسلات الدولية والأوراق المالية الأجنبية وغيرها. ومن الوثائق المزورة تلك التي أعلنها فون ريبنتروب واتخذها حجة لكي يبرئ اجتياح دولته للبلدان الصغيرة، وما هي في الحقيقة إلا وثائق مزورة مصنوعة في تلك الدائرة.

مكتب ريبنتروب

هو دائرة مستقلة تعمل تحت إشراف فون ريبنتروب أولاً وهتلر ثانياً. تجمع كل المعلومات غير الحربية عن البلدان الأجنبية ورؤسائها وساستها وأصحاب النفوذ فيها، وتُعنى بمعتقدات تلك البلدان الدينية وأحزابها وطرق معيشتها حتى بمسائلها العائلية. ومن هذه المعلومات تستقى مصلحة التقصي الألمانية وتستهدى بها. وعمال مكتب ريبنتروب هم في معظمهم من الأشخاص الذين تقلبوا في المناصب العالية وشغلوا مراكز سياسية هامة في السفارات ونحوها، وبينهم عدد من النساء اللواتي يعملن أيضاً في دائرة الجستابو.

وزارة الدعاية

يرأس هذه الوزارة الدكتور (جوزف جوبلز) ومن مهامها التسلط على الرأي العام الألماني، وحمل الدول على اقتباس المبادئ النازية وإخضاعها لنفوذ ألمانيا الاقتصادي. وفي هذه الوزارة الدوائر الآتية: الدعاية الداخلية، الدعاية الخارجية، الراديو، الصحافة، السينما، المسرح، الآداب والفنون. وفيها قوائم بأسماء كل المؤسسات في العالم، وقد قسمت إلى مراتب وعرفت بالأوصاف الآتية: (حلفاء)، (ميالون)، (قابلون للاستمالة)، (أعداء). وقائمة الأعداء ترسل رأساً إلى دائرة الجستابو.

مدرسة الطابور الخامس

في سنة 1908 أنشأت في ألمانيا مؤسسة غايتها بث الروح الألمانية في أبناء الألمان المولودين في البلدان الأجنبية لكي يحافظوا على جرمانيتهم. وفي سنة 1921 استعانت الحكومة الألمانية بهذه المؤسسة لكي تجدد عزيمة رعاياها، وقد وهنت بعد نكبة ألمانيا في الحرب الماضية، وتثير في الأحياء منهم خارج وطنهم العصبية الجرمانية، وتحول دون إدغامهم في البيئات الأجنبية. ولما قبض النازيون على زمام الحكم في ألمانيا وجدوا في سجل هذه المؤسسة أن 803 , 000 ألماني يعيشون خارج الحدود الألمانية، منهم 75 في المائة تربطهم العاطفة العصبية ارتباطاً متيناً بأمهم ألمانيا، والفضل في ذلك عائد إلى مساعي المؤسسة المذكورة التي تعرف اليوم باسم الطابور الخامس الألماني.

وينتخب أعضاء الطابور الخامس من رجال ونساء ذوي جدارة وثقافة ودهاء وحيلة، وكثيرون منهم يحسنون كتابة وتكلماً عدة لغات أجنبية، ومنهم سياسيون ومهندسون وكيميائيون وعسكريون واختصاصيون بفروع العلم. وتختلف مهامهم وطرق أعمالهم باختلاف البلدان التي يوفدون إليها. أما الهدف فواحد، وهو خدمة المصلحة الألمانية بأي الوسائل، لأن الغاية في شريعتهم تبرر الواسطة. وكانت دعايتهم في البلدان الأجنبية قبل الحرب تضرب خاصة على وترين: خطر الشيوعية ومكافحتها، ومصادرة

اليهود المرابين الدساسين؛ فاستهووا بالدعاية الأولى كل خصوم الشيوعية ومقبحي مبادئها، واستمالوا بالثانية كل العمال الذين يرون في اليهود صورة الرأسمالية عدوتهم الكبرى.

ونشط في هذه الحرب رجال الطابور الخامس المنبثون في كل العالم، وعلى الأخص في البلدان الديمقراطية، فقاموا بمهامهم الشاقة، غير عابئين بالأخطار التي تهددهم في كل لحظة، فكانوا من العوامل الأولية التي مكنت الألمان من اكتساح عدة بلدان بتلك السهول الغريبة؛ وقد تحقق العالم اليوم أن أولئك الألمان الذين (نفتهم) الحكومة النازية لنقمتهم على الوضع النازي، أو لكونهم يهوداً، أو لتزوجهم يهوديات، ما كانوا في الحقيقة إلا من أعضاء الطابور الخامس، وقد خرجوا من ألمانيا بجوازات مزورة مصنوعة في دائرة التزوير بالجستابو. وقد حصنتهم الدول الديمقراطية وعطفت عليهم حتى كشف لها الواقع أنها ما حصنت إلا ثعابين قتالة كانت تنفث السم في جسمها وهي غافلة عنها بعامل الشفقة والإحسان.

وكان أولئك (المضطهدون) يتسربون في كل مكان ومجتمع ويخالطون الجماعات الناقمة

على النازية، لكي يطلعوا على أفكارها وحركاتها ونياتها، ويرسلون بها تقارير إلى الحكومة النازية (مضطهدتهم).

أما مهام الطابور الخامس العام فتنقسم إلى أربعة أهداف: الأول دعاية سياسية وثقافية. الثاني تمرين عسكري. الثالث تجسس اقتصادي. الرابع تجسس صناعي، كحمل العمال في البلدان الأجنبية على الإضراب أو تدمير المصانع. والدعاية الفكرية يقوم مبدأها على إظهار تفوق الجنس الآري، وهذا مثال منها نشر في الولايات المتحدة: (إن الولايات المتحدة ما بلغت درجتها الحاضرة من الثقافة والعمران لولا امتزاج العنصر الجرماني في مستوطنيها الأولين). فالطابور الخامس إن هو إلا شكل جديد للجاسوسية، ولكنها تفوق كل أنواع الجاسوسية المعروفة بجرائمها الهائلة وغدرها الشنيع وأساليبها الفظيعة.

إن أمضى سلاح استخدمته ألمانيا لاكتساح نروج هو الطابور الخامس، وقد ذكرت الكاتبة النروجية الشهيرة (سيجريداوندست) في ما روته عن مأساة وطنها ما يأتي: (كان علينا ألا نتكل على حيادنا وأن نتسلح استعداداً للطوارئ. إننا قلما اكترثنا للطابور الخامس الألماني، فجر علينا إهمالنا محنتنا الحاضرة، إذ في ظلال السنوات الأخيرة كان كثيرون من شبان الألمان يأتوننا زائرين ويتوغلون في بلادنا دارسين طبيعة أرضنا، راسمين مواقعها الحربية وطرقها ومعابرها وكل ما يهمهم منها. وعلى الجملة كانوا يعرفون نروج أكثر من سكانها الأصليين).

وفي رأي النازيين أنهم ذوو حق شرعي في كل بلاد يقيمون فيها. يدل على ذلك ما وجد في ولايات البرازيل الجنوبية، وفي شمال الأرجنتين من الألواح التي تحمل الكلمات التالية: (هذه الأرض جزء من ألمانيا)

(العصبة)

!!وا شقيقاه

للآنسة الفاضلة فدوى طوقان

(في الساعة التاسعة من مساء الجمعة الثالث من شهر مايو 1941.

خبا السراج الذي كان يسكب النور في جوانب نفسي

ويهديني إلى سبل الحق والخير والجمال لقد ذهب شقيقي

إبراهيم وخلف لي حسرة الأبد.)

(فدوى طوقان)

و (الرسالة) تقدم إلى الآنسة الفاضلة أجمل العزاء، وتشاطرها ما أظهرت من العواطف الصادقة في هذا الرثاء.

وا شقيقاه، ما أجلَّ مصابي ... كيف أوْدَى الرَّدى بزين الشبابِ

كيف جفَّ الغصن الرطيب وأضحى ... يا لقلبي موسداً في الترابِ

وا شقيقاه، مالَ في عمر الورد ... غضيرَ الصِّبَى نضيرَ الإهابِ

أين مني أخي؟ ليَ الله! ما خلاّ ... هـ عني؟ ما عاقه عن جوابي؟

سلبتني الأيام بهجة عيشي ... يوم ولَّى وحطَّمتْ أعصابي

وأعاضتْ قلبي من النور ناراً ... ليس تخبو على مدى الأحقابِ
ليت شعري أخي لفقدك أشجَى ... أم لطفليك أم لحظي الكابي
أمْ لأمْ الطفلين لوّعها الثكلُ ... فباتت في حسرة واكتئابِ
دمعها من عصارة القلب، والهْفى ... على قلبها الجريح المذابِ
ودَّعتْ بعدك المباهج والآلاف ... راح واستقبلتْ مقيم العذابِ
لهفَ نفسي على نضير صباها ... ينزوي في الأسى وسود الثيابِ
حرَّ قلبي لجعفرٍ وعريبٍ ... إذ هما يرقبان يوم الإيابِ
كلما استشعروا إليكَ حنيناً ... هاجَ في الصدر من طويل الغيابِ
هتفا باسمكَ الحبيبِ وباتا ... رهن همٍ ووحشة وارتقابِ
أوحشتْ بعدك المجالس والأسما ... ر وارفضَّ مجمع الأحبابِ
وانطوى الأنس إذ طوتكَ الليالي ... عن نفوس الأتراب والأصحابِ
كنت ريْحانها فغُيِّبْتَ عنها ... في صعيد قفر الجناب ببابِ
حسرتا للخلائق الزُّهْر تُطوى، ... للمزايا وللسجايا العِذابِ
ليت شعري ما عالمٌ صِرتَ فيه ... عن عيون الأحياء خلف حجابِ؟
أهوَ شط الأمان للنفس بعد ال ... خوض في مزبدات طامي العُبابِ
أترى فيه راحة من عناءٍ ... وقراراً من حيرة واضطرابِ
يا شقيقي حدّث، أتنضبُ في ... هـ النفس من كل رغبة وطِلابِ
هل نفضتَ اليدين من نشوة الأح ... لام والشعر والمنى والرغابِ
هل طرحتَ الآلام عنك وكم ... عانيتَ منها مَضاً وطول اصطحابِ
قد سقتك الحياة في العسر واليسر=بكأسين من شهادٍ وصابِ
وبلوْتَ الصحاب في السر والجهر ... فمن بين خالص ومحابي
أقصر اليوم صاحب وعدوٌ ... وَوَهَتْ بينكم عرى الأسبابِ
حسراتي عليكَ ما تنقضي ... لا، ولن ينتهي عليك انتحابي
ويعزّون فيك يا صِنْوَ نفسي ... أيَّ شيء فيه العزا عن مصابي
ما عزائي أخي وقد كنتَ حظاً ... من حظوظي وكنت من آرابي
كنتَ أَزْرِي، إنْ ضِقْتُ بالهم والكر ... ب جَلوْتَ الأسى وفرَّجْتَ ما بي
فإلى من أشكو إذا حزَبتْني ... طارقات الهموم والأوصابِ
يا شقيقي مهِّدْ لجنبي مكاناً ... وارتقبني فإنني في الرِّكابِ
(نابلس)
فدوى عبد الفتاح طوقان
ألقاب الشرف والتعظيم
عند العرب
للأب أنستاس ماري الكرملي
- 4 -
القيصر - 9
هذه الكلمة واضحة الأصل اللاتيني وهو وكثيراً ما ينقل الحرف إلى القاف العربية أو الكاف، والحرف إلى السين أو الصاد العربيتين. وأما قول القلقشندي في صبح الأعشى (5: 482): (وأصل هذه اللفظة في اللغة الرومية (جاشر) بجيم وشين معجمة فعربتها العرب (قيصر)) فغير صحيح البتة؛ لأن (القيصر) بهذا التعريب أقدم من تعريبها بصورة (جاشر) فهذه بالنسبة إلى تلك محدثة، وقد قيل أو يقال اليوم (جُيْزر) وتلفظ بالأحرف الإفرنجية العصرية. وأما الرومان الأقدمون فكانوا يقولون والسين تلفظ سيناً صريحة لا زاياً كما يلفظونها اليوم، إذا وقعت بين حرفين مليلين. وكذلك كان الرومان يقولون في أول الأمر (بيسو) لا (بيزو) ولا (بيشو). وكانوا يقولون (ألياقيم) لا (الياجيم) ولا (الياشيم) ولا (الياسيم). وأما قولهم اليوم (ألياجيم) بالجيم المعقودة، فمحدث بالنسبة إلى قولهم القديم (ألياقيم) أو (ألياكيم).
وأما متى أبدلوا اللفظ الواحد من اللفظ الآخر، فحدث رويداً رويداً، ومن شخص نافذ الكلمة إلى شخص دونه، ومن بلدٍ إلى بلد حتى عم اليوم البلاد الإيطالية كلها. وأما علماء ألمانيا فيعودون إلى لفظ كافاً حينما وقعت بدون أدنى تغيير، فيقولون (كيكرو) ولا يقولون (شيشرو) ولا (جيجرو) ولا (سيسرو)

ومن الغريب أن العرب تَبعتْ لفظ الرومان في عصرهم، فكان اللفظ القديم (قيصر) ثم صار (شيزر)، فقالوا: (قلعة شيزر) ولم يقولوا: (قلعة قيصر) وهي والآن صاروا يقولون (جيزر) ولفظها القلقشندي (جاشر) وهو لفظ لا ينطق به أحد، لأنه كثيراً ما يصحف الألفاظ الأعجمية فيجعل سينهم شيناً معجمة، ويجعل الجيم المثلثة المعقودة جيماً عربية أو جيماً مصرية. وكل ذلك خطأ.

وقال القلقشندي بعد ذلك: (ولها (أي لكلمة قيصر) في لغتهم معنيان: أحدهما الشعر، والثاني الشيء المشقوق) اهـ

قلنا: اللفظة التي تدل على شعر الرأس عند الرومان هي (قيْصر يَسْ) (قَيْصر) كما توهمه القلقشندي. فيحتمل أن يكون السبب لتسمية (قيصر) هو ما يقوله، نقلاً عمن سمع عنه

وقال القلقشندي بعد ذلك: (واختلف في أول من تلقب بهذا اللقب منهم: فقيل أغانيوش أول ملوك الطبقة الثانية منهم. سمي بذلك لأن أمه ماتت وهو حمل في بطنها فشق جوفها وأخرج فأطلق عليه هذا اللفظ، أخذاً من معنى الشق؛ ثم صار علماً على كل من ملكهم بعده. وقيل أول من لقِّب بذلك يوليوش الذي ملك بعد أغانيوش المذكور. وقيل أول من لقب به أغشطش. واختلف في سبب تسميته بذلك، فقيل: لأن أمه ماتت وهو في جوفها فشق عنه وأخرج، كما تقدم القول في أغانيوش. وقيل لأنه ولد وله شعر تام فلقب بذلك، أخذاً من معنى الشعر كما تقدم. ولم يزل هذا اللقب جارياً على ملوكهم إلى أن كان منهم هرقل الذي كتب إليه النبي صلى الله علي وسلم)

قلنا: إن الذي عندنا أن قيصراً سمي كذلك من معنى الشعر لا من معنى البقر (أي شق البطن)، لأن أول من سمي بقيصر لم يكن خشعة (أي مُخرجاً من بطن أمه ببقره). بل كان مولوداً وعلى رأسه شعر، وهو أكتافيوس أو أكتابيوس. هذا فضلاً عن أنه كان خشعة لسماه السلف (خشعة) لأن هذه الكلمة معروفة عندهم، وما كانوا سموه (قيصراً)

الأطربون - 10

قال في تاج العروس في مادة (طرب): والأطربون: البطريق. كذا في شرح أمالي القالي. وحكي عن ابن قتيبة: أنه رجل رومي. وذكر الجواليقي. وقال ابن سيدة: هو الرئيس من الروم. وقال ابن جني في حاشيته: هي خماسية كعضرفوط فعلى هذا وضعه النون والهمزة، والصواب: أن وزنه أفعلون من الطرب. وهذا موضع ذكره استدركه شيخنا) انتهى

قلنا: الاطربون غير البطريق، وكان في أول أمره: حاكم القبيلة، ثم جعل حاكماً على الجند فحاكماً عليهم مع سلطة هيباط. ولو اتخذ عبارة اللسان لكان أحسن. فقد قال ابن مكرم:

الاطربون: من رؤساء الروم وقيل: المقدم في الحرب، وقال عبد الله بن سبره) الحرشي:

فإن يكن أطربون الروم قطَّعها، ... فإن فيها بحمد الله منتفعا

قال ابن جني: هي خماسية كعضرفوط) اهـ

قلنا: وأما ما حكي عن ابن قتيبة أنه رجل رومي، فليس من الموضوعات، فقد كان رجل اسمه (اطربونو) وكان الدوج السابع عشر للبندقية توفي سنة 912

وأما قولهم هو الرئيس من الروم؛ فكلام لا يحصل منه شيء. فالرؤساء طبقات. وهناك رؤساء مدنيون وعسكريون وروحانيون وأصحاب مهن إلى ما شابهها. فقولهم هو الرئيس من الروم كلام مبهم؛ والأحسن ألا يذكر مثل هذا التعريف الخالي من حلية تحليه

وقول ابن جني أنه خماسي هو القول الحق الذي لا ريب فيه

وأما قول الشارح: أن وزنه أفعلون من الطرب، فالقسم الأول من عبارته صحيح، أي أن وزنه أفعلون. وأما القسم الثاني أنه من الطرب، فهو الخطأ بعينه، لأن الكلمة ليست عربية بل هي رومية (لاتينية) ومعناها في الأصل: حاكم القبيلة كما قلنا. وهل يعقل أن الرومان يسمون رئيساً من رؤسائهم المدنيين باسم عربي؟ فهذا لا يعقل. فموضع ذكره إذن في (أط ر ب ون)، لأن جميع أحرف الكلمة الدخيلة أصول كما اتفق

عليه جمهرة اللغويين بلا شاذ واحد
الفرناس - 11
البرنس - 12
وهو البدء عند العرب؛ والفرسان تعريب فرن (س) ا (ب) س ونقل الحرف الإفرنجي إلى الفاء أو الباء، أشهر من أن يذكر. وكان حق السلف أن يقولوا فيها (فرنكابس) لكنها ثقيلة وليس لها وزن عربي فخففوها وحملوها على مركب عربي ليرحب بها أهل الذوق السليم. ولم يذكر أحد أنها معربة. وهي في لغة الرومان تفيد (الأول في قومه) والظاهر أن بني عدنان لم يعرفوا معناها حق المعرفة لأسباب، منها:
أنهم ذكروها في مادة (ف ر س) اعتقاداً منهم أنها عربية النجار
أنهم ذكروا لها معاني قاربوا فيها الحقيقة لكنهم لم يصيبوها، فقد شرحوها بقولهم: (الفرناس
كفرصاد: رئيس الدهاقين أو الفري. عن ابن خالويه. . . والأسد الضاري، وقيل الغليظ الرقبة.
وقال ابن خالويه: سمي الأسد فرناساً، لأنه رئيس السباع، ونونه زائدة عند سيبويه، كالفُرَانس بالضم. والفرناس أيضاً: الشديد الشجاع من الرجال، شبه الأسد. قال النضر في كتاب الجود والكرم: والفِرْنَوس كفِرْدَوْس من أسماء الأسد. حكاه ابن جني وهو بناء لم يحكه سيبويه، وأسد فرانس كفرناس فُعائل، وهو مما شذ من أبنية الكتاب) أهـ فالكلمة إذن عرِّبت على صور مختلفة، واختلاف اللغات آت من عجمة اللفظة، وسمى العرب الأسد (فرانس) و (فرناس) و (فرنوس) لأنه الأول بين السباع كما قال ابن خالويه، وكما يقول الفرنسيون:
وكتاب العرب نسوا ما عربه السلف فنقلوا اللفظة الإفرنجية بلا أدنى تغيير في عهد العباسيين، فسموا الفرناس (برنس) نقلاً عن الفرنسية والذين نقلوا هذا اللفظ بهذه الصورة هم جميع المؤرخين الذين دونوا الوقائع في القرون الوسطى. وإذا عذرنا الجميع من هذا التعريب الحديث فلا نعذر ابن شداد قاضي حلب صاحب كتاب النوادر السلطانية، في المحاسن اليوسفية، فقد قال في حوادث سنة 586 هـ (1190 م): (إن البرنس صاحب إنطاكية، خرج بعسكره نحو القرايا الإسلامية) أهـ
فنستنتج من هذا: أن العرب كانوا يتصرفون في اللفظة الواحدة على مناح شتى، اعتماداً على ما يسمعونه في عصرهم وبلادهم لا على ما نقله أجدادهم، ولا على ما يرونه مدوناً في دواوين من تقدمهم من السلف، بل يعتمدون على لغة الأقوام الذين يطوون بساط أيامهم بين ظهرانيهم. فإذا سلمنا بهذا، عذرنا ابن شداد نفسه لجريه على هذا المنحى من صنع الناطقين بالضاد.
وهل تعلم ما كان اسم البرنس عند بني مُضر في أقدم الزمان؟ كانوا يسمونه (البدء) أي الأول وهو معنى البرنس الأجنبية. والدليل على ذلك ما ذكره ابن خلدون في كتابه العبر، وديوان المبتدأ والخبر (2: 263 من طبعة بولاق): (ولما هلك عمرو ابن عدي، ولي بعده على العرب، وسائر مَنْ ببادية العراق، والحجاز، والجزيرة، امرؤ القيس بن عمرو بن عدي، ويقال له (البدء)، وهو أول من تنصَّر من ملوك آل نصر، وعمال الفرس) اهـ،
وكانت وفاته في نحو سنة 338 للميلاد. فالبدء إذن قديمة بمعنى البرنس
وكلام ابن خلدون هذا مقتبس من تاريخ الطبري (1: 833 وما يليها): (وكان من عمال سابور بن أردشير، وهرمز بن سابور، وبهرام بن سابور، بعد مهلك عمرو بن عدي بن نصر بن ربيعة على فُرَجِ العرب من ربيعة، ومُضَر، وسائر من ببادية العراق، والحجاز، والجزيرة يومئذ، ابنٌ لعمرو بن عدي، يقال له (امرؤ القيس البدءُ)، وهو أول من تنصَّر من ملوك آل نصر بن ربيعه، وعمال ملوك الفرس. وعاش فيما ذكر هشام بن محمد، مملكا في عمله، مائة سنة وأربع عشرة سنة) اهـ.
وفي التاج: (البَدءُ: السيد الأول في السيادة. والثُنيان الذي يليه في السُؤدْدَ. قال أوس بن معري السعدي:
اهـ (ثنياننا إن أتاهم كان (بدئهم) ... و (بدئهم) أن أتانا كان ثُنْيانا)
فلم يبق شك في أن (البدء) يقابل البرنس عند الإفرنج والثنيان يقابل الدُوق عندهم.
(له صلة)

الأب أنستاس ماري الكرملي
من أعضاء مجمع فؤاد للغة العربية
من أشجان الربيع
حبي. . .!
للأديب إبراهيم محمد نجا
ذاك حبي أيها القلب على المَرج البديعِ
سدَّد الدهر إليه، ورماه في الضلوعِ
بينما كان يغني فوق هاتيك الربوع
فجثت من حوله الغربان تبكي في خشوع
ونسيم الفجر غشَّاه بأكفان الدموع
عجباً! كيف يموت الحب في فصل الربيع؟
فابك يا قلبي فما الدمع سوى ... سلوة المحزون أضناه النوى!
رُب صادٍ شرب الدمع ارتوى ... ودموعٍ أطفأت نار الجوى!
يمرح الناس كما شاءوا على العشب الرفيفِ
ويغنون مع الطير على نقر الدفوف
الصِّبا الباسم، للحب، وللنور اللطيف
للربيع الطلق، للأحلام، للزهر المَشُوف
وأنا وحديَ - يا ويلاه! - ذو قلب لهيف
كل أيامي تفشتها كآبات الخريف
فابك يا قلبي فما الدمع سوى ... سلوة المحزون أضناه النوى!
رُب صادٍ شرب الدمع ارتوى ... ودموعٍ أطفأت نار الجوى!
هاهمُ العشاق يمشون إلى وادي الغرامِ
مثلما تمشي إلى الجدول أسراب الحمامِ
نشوة الحب سرت في دمهم مثل الضرام
والأماني البيض غنَّت لهُم فوق الغمام
وأنا من يأسيَ المُرِّدفين في الرجام
حائر لا أعرف الصفو ولا طيب المقام
فابك يا قلبي فما الدمع سوى ... سلوة المحزون أضناه النوى!
رُب صادٍ شرب الدمع ارتوى ... ودموعٍ أطفأت نار الجوى!
يا ربيع الحب! أين الحب؟ يا نبع الرجاءِ
أنا ظمآنُ!. . . وفي نبعك ريٌ للظماء
أنا حيرانُ!. . . وفي فجرك أطياف الضياء
أنا سأمانُ!. . . وفي نايك أفراح السماء
لست أدري أربيعي أنت، أم أنت شتائي؟
لم أجد فيك لقلبي غير هّمٍ وشقاء
فابك يا قلبي فما الدمع سوى ... سلوة المحزون أضناه النوى!
رُب صادٍ شرب الدمع ارتوى ... ودموعٍ أطفأت نار الجوى!
ليتني كالطائر الغرِّيد في تلك النواحي
ليتني كالزهرة البيضاء في نور الصباح
ليتني كالجدول الرقراق في تلك البطاح
ليتني كاللحن، كالطَّل على ثغر الأقاحي
ليتني! أوَّاهُ مما في فؤادي من جراح
فُجِّرت منها دموعي، وأغانيُّ نُواحي
فابك يا قلبي فما الدمع سوى ... سلوة المحزون أضناه النوى!
رُب صادٍ شرب الدمع ارتوى ... ودموعٍ أطفأت نار الجوى!
أيها الوردُ، جميلٌ أنت، لكني حزينُ
أيها الأفق، رحيبٌ أنت، لكني سجين
أيها النورُ، رطيبٌ أنت، لكني دفين
حطم الدهر جناحي، وبرت جسمي السنون

ومشى اليأس على قلبي، وغشَّتني الشجون
فحياتي كلها بلوى، وشكوى، وأنين
فابك يا قلبي فما الدمع سوى ... سلوة المحزون أضناه النوى!
رُب صادٍ شرب الدمع ارتوى ... ودموعٍ أطفأت نار الجوى!

إبراهيم محمد نجا

رسالة العلم

حول أبعاد الحيز

آلة الوقت

(إلى أستاذي الفاضل جردان أهدي هذه الفصول)

للأستاذ خليل السالم

لا أريد بتلخيص هذا الكتاب تعريف القراء بالكاتب العبقري ويلز، فويلز ليس غريباً عنهم. لقد سمعوا المحاضرين يتحدثون عنه بكل تجلة واحترام، وقرءوا الكتاب يستقون من نبعه الصافي آراء ثاقبة في علم الاجتماع وفي علم التاريخ وحول مستقبل الإنسانية، وترجم له كثير من الروايات البديعة التي كان فيها نسيج وحده. ولو أنني قصدت ذلك لأصاب مقالي الفشل، لأن عبقرية ويلز المحيطة لا تبدو جلية واضحة في مقال قصير، ولا يعبر عنها تلخيص كتاب أصدق تعبير.

أريد بهذا العرض الموجز أن يكون مقدمة مناسبة للبحث (حول أبعاد الحيز) وهو بحث قيم في فلسفة الرياضيات يجدر بكل مثقف أن يطلع عليه، وبودي أن أطلع عليه قراء العربية بواسطة الرسالة الغراء إن اتسع صدرها لمثل هذه الأبحاث.

ولسنا في حاجة للقول أن ظهور هذا الكتاب منذ زمن بعيد أي نحو سنة 1888 لا يغض من قيمته، فالآثار الخالدة لا تعرف الزمن ولا تقف روعتها عند ما تهرم أو يبلغ عمرها سناً بعينها، وآلة الوقت طليعة موفقة لروايات أتحف بها ويلز قراء العالم أجمع، وهذه الروايات تتميز أول ما تتميز بالفكرة العلمية في بوتقة الأدب الحي والخيال الرائع والتصوير الصادق. ولا أكتم أن تبيين هذه الفكرة العلمية في آلة الوقت هو رائدي أولاً وآخراً.

نحن في أمسية صاحية، وقد جلس مخترع (آلة الوقت) بين نفر من صحبه ينعمون بدفء الغرفة وإشعاع الخمر في كاساتها ويتناوبون الحديث فنسمع أول ما نسمع مخترع (آلة

الوقت) ينعى على العالم قبوله بعض الآراء الخاطئة دون تحقيق أو تمحيص، ويذكر على سبيل المثال الهندسة الإقليدسية؛ فهي لا تدرس في المدارس بالطريقة المثلى ولا تفهم على الوجه الصحيح، وإلا فكيف نؤمن بوجود مكتب أو أي جسم إذا كان له طول وعرض وسمك فقط؟ أنستطيع القول أن هذا المكتب موجود إذا لم يشغل حيزاً ولو لحظة قصيرة من الزمان؟

ويستمر في حديثه قائلاً: من الواضح أن لكل جسم امتداداً في أربعة أبعاد: الطول والعرض والعلو (السماكة أو العمق) والاستدامة الزمنية وهذا البعد الرابع (الزمن) لا يختلف عن الأبعاد الثلاثة في شيء سوى أن وعينا يتحرك معه فلا نشعر به كبعد رابع يمكن أن نتحرك فيه. وإني لأعجب كيف يجد بعضهم في فكرة البعد الرابع الهجنة والغرابة. لا أكتمكم أنني كنت من المشتغلين إلى أجل غير قصير بهندسة الأبعاد الأربعة وتوصلت إلى نتائج غريبة: هذه صورة رجل في الثالثة ثم في الثامنة ثم في الخامسة عشرة ثم في السابعة عشرة ثم في الثالثة والعشرين وهكذا. وهذه الصور تمثل في ثلاثة أبعاد كيانه الرباعي الأبعاد الذي لا يتغير ولا يتبدل. انظروا أيضاً هذا الخط البياني، إنه يرمز إلى قراءات البارومتر في فترات متقطعة من الزمان. لقد كان البارومتر مرتفعاً في الصباح ثم انخفض قليلاً عند الظهر ثم عاد إلى الصعود ثم عاد إلى الهبوط وهو في كل هذا يرسم خطاً بيانياً الزمن بعد فيه.

وقد ابتدأ رجال العلم يلمسون هذه الحقائق، فمنذ أجل قصير سمعت أحدهم يتحدث عن الزمن كبعد رابع بمثل هذا التأكيد.

وهنا يعترض أحد الجلوس وهو طبيب: (إذا كان الزمن بعداً كأي أبعاد الفضاء فلم لا نستطيع أن نتحرك فيه كما نتحرك في الفضاء وننتقل فيه كما ننتقل من مكان إلى آخر؟).

وهنا نرى صاحبنا تلتمع عيناه ونسمعه يجيبه تعلو الابتسامة شفتيه: (سؤال وجيه. ولكن قبل أن نحاول الإجابة عليه نريد أن نتحقق من الحقيقة التي يتضمنها كأنها حقيقة مفهومة بداهة. هل حقيقة نستطيع أن نتحرك في الفضاء بسهولة؟ أنا متأكد أن هذا صحيح في بعدين فقط؛ أما البعد الثالث (العلو) فيشذ عن هذا الحكم. وأنى لنا أن نفلت من سنة الجاذبية؟ إننا محصورون ضمن جدران المكان لا نتمتع فيه إلا بقدر ضئيل من الحرية
والانطلاق، وحريتنا هذه تعتمد على ما تسنى لنا المرتفعات والجبال في الأرض، أو قوتنا في القفز العالي، أو آلات الطيران كالمناطيد مثلاً).
ويقاطعه الطبيب أيضاً: (إذا كنا كما تقول محصورون حقيقة ضمن نطاق المكان فلا شك أن سجننا في الزمان أضيق حدوداً وأكثر قيوداً، فأنت لا تستطيع بأي جهد مهما كان عظيماً أن تتخلص من اللحظة الحاضرة).
ويجيب صاحب الاختراع مسرعاً: لا. هذا هو الخطأ بعينه؛ وهو خطأ درجت عليه الإنسانية من قديم الأزمان منذ عرفت معنى الأبعاد. فنحن نستطيع أن نفك قيود الزمان، أو وجودنا العقلي الذي لا يتأثر بالأبعاد المكانية يتحرك في البعد الزماني بسرعة متناسقة من المهد إلى اللحد كما يسقط في البعد الثالث جسم على بعد عدة أميال من الأرض. ثم نحن نستطيع أن نستعيد من الذكريات ما نشاء فنسترجع الماضي ونتحرك في الزمان. وإذا كانت الآلات الطائرة قد سهلت مهمة الانطلاق في البعد الثالث فلماذا لا يتسنى هذا في البعد الرابع؟ أرجو ألا تعجبوا كثيراً أو تستهجنوا أن تكون هذه الفكرة الأخيرة قد شغلت دماغي مدة طويلة. إن هدفاً غامضاً كان يسير أبحاثي ويتجه بها نحو وضع تصميم آلة تتحرك في الوقت.
وبالرغم من رجاء صاحبنا يقاطعه صحبه بعلامات التعجب والدهشة والاستنكار والسخرية، ولكنه لا يلبث أن يخفف من حدتهم عندما يخبرهم بكل ثقة واطمئنان أن أبحاثه قد أثمرت، وأن جهود عامين متتاليين قد وصلت بالآلة إلى درجة الكمال. وليتحققوا من ذلك بأنفسهم يصمم أن يجرب التجربة الأولى تحت سمعهم وبصرهم.
ويذهب إلى مختبره ليعود بعد دقائق معدودة يحمل في يده آلة صغيرة دقيقة الصنع تشبه ساعة الجيب كثيراً، ويضعها على المنضدة أمامه، ثم يشير إلى زرين إذا ضغط أحدهما تندفع الآلة في الزمن، وإذا ضغط الثاني انعكست الحركة. ويطلب من أحدهم - وهو عالم نفساني - أن يضغط الزر بنفسه. ولا تستطيع أن تتصور مقدار العجب الذي تملكهم عندما حامت الآلة قليلاً كنسمة عاصفة فوق رؤوسهم، ثم اختفت ولم تترك خلفها أثراً.
لم يكن للآلة من سبيل لأن تغادر الغرفة، وهي لم تبق فيها، فلا شك إذاً أنها سافرت عن طريق البعد الرابع، وهو بعد عمودي على المتعامدات الثلاثة المألوفة، ولابد أن يكون
الزمان هذا البعد الرابع كما فهمنا سابقاً.
إذا كانت الآلة قد تحركت بسرعة تساوي سرعة الزمن، فهي تبقى دائماً في الحاضر. أما إذا كانت قد تحركت بسرعة تفوق سرعة الزمن، فتكون قد اندفعت في المستقبل. أما إذا كانت سرعتها أقل من سرعة الزمن، فإنها قد عادت إلى الماضي. هذه ثلاثة احتمالات نفي أحدها وهو الأول، لأن الآلة لم تبق في الحاضر، ولم يكن لدى صاحب الاقتراح طريقة يفصل بها بين الاحتمالين الآخرين، إلا أنه يقول لصاحبه: إن راكب الآلة يستطيع أن يتحقق من ذلك بنفسه. وإذا ما سألوا كيف ذلك أجابهم أن تلك الآلة الصغيرة لم تكن إلا أنموذجاً للآلة التي سيمتطيها عند رحلته في آفاق الزمان. وينتقل بهم إلى مختبره يريهم تلك الآلة، ثم ينفض الاجتماع على أن يعودوا في الأسبوع القادم لإجراء التجربة على الآلة الكبرى.
نحن في مساء الخميس التالي، وقد جلس الرفاق ينتظرون على أحر من الجمر مخترع (آلة الوقت) الذي تأخر على غير عادة ويقررون أن يقضوا الوقت في تناول طعام العشاء، ويتناقلون في هذه الأثناء حديثاً متقطعاً قلقاً، ينبئ عما في نفوسهم من الشوق الملح لمجيء صاحب الاختراع.
لا تسل عن مقدار فرحهم ودهشتهم في آن واحد عندما فتح الباب بكل هدوء وسكون ودخل صاحب الاختراع شاحب الوجه مغبر الثياب، دامي الأقدام، كأنه عاد من سفر

بعيد عانى فيه ما عانى (السندباد) من ألوان العذاب والشقاء في جميع رحلاته. وتحار الأسئلة على وجوههم فلا يعبأ بها، ويعمد إلى كأس مما بين أيديهم من الشراب فيكرعها حتى آخر قطرة، وكأنه استعاد بعض حيويته ونشاطه، يخبرهم أنه ذاهب إلى الحمام، ويرجوهم أن يتركوا له قطعة لحم، فهو يخشى على معدته أن تهضم نفسها لفرط ما بلغ منه الجوع. . . ويعود بعد هنيهة موفور النشاط يقص عليهم خبره مشترطاً ألا يقاطعه أحدهم أو أن يضطره للجدل والنقاش اللذين لا يحتملهما جسمه المجهد المضني. قال صاحبنا:

لقد قدر لبعضكم أن يروا يوم الخميس الفائت (آلة الوقت) وهي في طور العداد) والتركيب، وفي صباح اليوم فقط قدر لآلة الوقت الأولى أن تتنسم أولى نسمة من نسمات الحياة وأن تدخل في العمل؛ فقد ألقيت عليها نظرة فاحصة أخيرة، وسكبت بعض نقاط الزيت بين أجزائها وامتطيت صهوتها. وضعت يدي اليمنى على الزر الأول ويدي اليسرى على الزر الثاني، وكان في نيتي أن أقوم بالتجربة بنفسي وأتحقق من عمل اختراعي. بقيت غير قليل بين إقدام وإحجام حتى جمعت كل ما في نفسي من عزم، فضغطت الزر الأول، وما راعني إلا أن أرى الساعة تتقدم، كأن عقرب الساعات فيها هو عقرب الثواني، ورأيت أحدهم يتحرك كأنه عقاب الجو ينقض على فريسته. وعندما ضغطت الزر إلى نهايته، رأيت الشمس تسبح في الفضاء بسرعة غريبة. . . والليل والنهار يذهبان ويجيئان في لمحة خاطفة، وكان تتابعهما مما يؤذي عيني. . . ورأيت القمر يتحول بين عشية وضحاها من هلال إلى بدر إلى هلال. . . وهكذا وجدت أنني قد قذفت نفسي في أعماق المستقبل، ولم يخطر ببالي أن أضغط الزر الثاني لأعكس الحركة، فقد شغل استكناه المجهول وكشف حجبه وهتك ستائره كل خاطري، ووددت أن أعرف التطورات الجديدة التي طرأت على الإنسانية، وأين وصلت هذه في تقدمها العجيب. إلا أنه في الوقت نفسه كان خاطر يزعجني، فربما أحاول إيقاف آلتي فلا تعنو لإرادتي وتستمر في سرعتها، أو أن تصطدم بمادة في الفضاء تتحطم عليها، وعندئذ نفلت أنا وهي من حدود الأبعاد ونلقى بكل عنف في أعماق المجهول، لذا قررت أن أقف في هذه المخاطرة عند حد، فأوقفت آلتي ونزلت أرضاً غريبة لم أتصورها يوماً حتى في أحلامي وأوهامي، ويخيل لي إلي أن التقاويم كانت لسنة (802701) واخترت مكاناً هادئاً وضعت فيه آلتي وأخذت معي مفتاح الحركة وذهبت أتجول لأتعرف مناطق الحياة في هذا العالم الجديد).

يحدثنا ويلز بعدئذ على لسان بطله عن العالم في المستقبل فيرى أن الإنسانية لن تنتصر في التربية الخلقية والتعاون العلمي، وإنما تنتصر بعلم ناضج لا على الطبيعة فقط، بل على أخيها الإنسان أيضاً. في ذلك العالم الجديد تفرقة وتباين واسعان بين العامل وصاحب المال، فالمجتمع منقسم إلى فريقين: فريق يعيش فوق الأرض يمثل أرستقراطية متعجرفة وهو قد آثر الدعة واللين وعمت بين أفراده الاشتراكية فأمحت الفروق حتى بين الجنسين وأصبحت الأرض له حديقة غناء ملأى بالأزهار والرياحين، فليس ما يشغل باله سوى تبادل الحب والتنعم بطيبات المأكل واللعب الهادئ والاستحمام في الأنهار والتمتع بالنوم المريح؛ وفريق ثان يعيش تحت الأرض يدير أعمال الصناعة ويمد الإنسان الأعلى بضرورياته وكمالياته، ولا يخرج هذا الفريق من كهوفه إلا ليلاً، فأصبح النور يؤذي عينه؛ ولذا كان سلاح البطل الوحيد الذي يتقي به شر تلك المملكة المظلمة هو عود الثقاب يشعله فتهرب منه تلك المخلوقات الحقيرة كما تهرب الخفافيش من وهج الشمس الساطعة.

وقد ارتقى الطب في العالم الجديد ارتقاء مثالياً فلم يعد يخشى شر الأوبئة بعد، وعم الأمن سائر أرجائه مما بعث في النفوس الضعف والارتخاء والكسل.

ويشعر المسافر أن الشقة بينه وبين عالم ذلك العصر الذهبي أكثر اتساعاً من الشقة التي تفصل أبناء لندن عن زنوج أفريقيا. ولذا يجد من الصعب جداً أن يشرح لرفاقه مظاهر التقدم والحضارة شرحاً وافياً. ترى ماذا يستطيع زنجي نزل لندن وشاهد ابتكارات العلم فيها أن يصف لقومه إذا ما رغب التحدث عنها؟

ولا أحب أنا أن أطيل في الوصف الذي حدث به المسافر، فالإيجاز هنا يقلل من روعة

الخيال وسموه؛ وأفضل أن يعود القارئ إلى الكتاب فيتمتع بالجو الذي يخلقه ويلز ويطلع على آرائه المبنية على الفكرة العميقة والنظر الثاقب؛ وتقدر هذه الآراء حق قدرها إذا علمنا أنه قدم اقتراح لأن يصبح ويلز (نبي العرش) كما أن هناك (شاعر العرش). وذلك لكثرة ما حدث ويلز عن مستقبل العوالم القادمة، ولكثرة ما أصاب في كثير من تنبؤاته.

وقبل أن ينتهي المسافر من قصته الشائقة التي تذكر برحلة (جعفر) في بلاد (ليليبت) يخاطب رفاقه بصوت هادئ رزين: (لا أتوقع أن تصدقوا كل أقوالي، غير أني أترك لكم أن تظنوا بي ما شئتم من الظنون. اعتبروها كذبة أو نبوءة، قولوا إنها حلم أو تأمل لمصير الإنسانية، وإنني عندما أحاول تأكيد صحتها إنما أفعل ذلك لأزيد في لذة القصة وجمالها؛ ولنفرض أنها رواية فماذا ترون فيها؟).

هذا ملخص موجز لكتاب آلة الوقت، وبودي أن أنبه إلى أن هذه الفكرة العلمية - الزمان بعد رابع - التي زين بها ويلز جيد روايته كانت قبساً مشعاً استنار به ناموس النسبية، ذلك الناموس الذي يعد بجدارة أقصى ما توصل إليه العقل البشري من الكمال في التحليل الرياضي الطبيعي. هل الزمن حقيقة بعد رابع؟ هذا ما سنحاول الإجابة عليه في البحث القادم.

(الجامعة الأمريكية - بيروت)

خليل السالم

البريد الأدبي

كيف يرى الأستاذ المراغي الإصلاح ولا ينفذه

نشكر للأستاذ الجليل صاحب مجلة الرسالة عنايته بإصلاح الأزهر، لأنا نعتقد أن عنايته بهذا الإصلاح ستكون من أكبر العوامل في تحقيقه، لما للرسالة من المكانة بين الناس عموماً، وبين الأزهريين خصوصاً.

وقد طلب الأستاذ الجليل من الكتاب أن يشرحوا الحوائل التي تعترض هذا الإصلاح، وتمنع الأستاذ المراغي من تنفيذ ما وضعه في ولايته الأولى على الأزهر، وهاأنذا أبين في إيجاز تلك الحوائل.

فإصلاح الأزهر على الوجه الذي يريده الأستاذ المراغي وغيره من المصلحين، يقتضي أن نفتح باب الاجتهاد في علومنا كلها، وفتح باب الاجتهاد في تلك العلوم يقضي على الكتب التي تدرس فيها من مئات السنين، والقضاء على تلك الكتب يقتضي خلق أزهر جديد، ويقضي على الأزهر القائم الآن، وهنا تعمل غريزة حب البقاء عملها، وتقف المصالح في سبيل الإصلاح، وهي مصالح الكثرة الغالبة في الأزهر، لأن أنصار الإصلاح بيننا قلة لا تذكر. وقد أراد الأستاذ المراغي أن ينفذ ذلك الإصلاح في ولايته الاولى، فوقفت تلك الكثرة في سبيله، وألجأته إلى ترك منصبه، فلم يشأ في هذه المرة إلا أن يلاين تلك الكثرة، ويتغاضى عن تنفيذ الإصلاح الذي يراه، حتى تتهيأ له الأسباب، فانصرفت النفوس عن الإصلاح تبعاً لانصرافه عنه، وصارت تعنى بأمور أخرى من الوظائف وما إليها، حتى استفحل الداء، وأعضل أمر الدواء.

ورأيي أن هذا الإصلاح لا يمكن تنفيذه بدون معونة الحكومة، فهي التي نفذت بالقوة أولى الخطوات فيه، وهي التي تستطيع بقوتها أن تنفذ هذه الخطوة الأخيرة منه.

(عالم)

تيسير الكتابة العربية

درست لجنة الأصول في مجمع فؤاد الأول للغة العربية مختلف المقترحات التي قدمت إليها في شأن تيسير الكتابة العربية وإدخال الشكل في صلب الحروف تخلصاً من الخطأ في الضبط وتسهيلاً للكتابة المشكولة في المطابع. وفي مقدمة المقترحات التي عنيت بها اللجنة مقترح للأستاذ علي الجارم بك، وقد نظرته في جلسات متعددة، وأدخلت عليه بعض التعديلات، وينتظر أن يعرض قريباً في صورته النهائية مذكرة لتطبيقه مكتوبة بالقواعد المرسومة فيه، فإذا أقرته اللجنة أدرج في برنامج الاجتماع المقبل لمجلس المجمع.

مأساة الفقهاء في عهد إسماعيل

أشار أحد الكتاب الأفاضل في مقال له بالعدد (411) إلى هذه الواقعة إشارة عابرة.

وأحسب أن كثيراً من ناشئة هذا الجيل - وأنا منهم - يجهلون كل الجهل وقائع هذه المأساة على قرب عهدها في تاريخنا المديد شأن كثير من حادثات هذا الوطن جهلتها أو تجاهلتها كتب التاريخ الحديثة التي بين أيدينا.
فهلا تفضل أحد علماء الأزهر الأفاضل الذين يكتبون في (الرسالة) فحدثنا حديث هذه المأساة. . . وإنا له لشاكرون. . .
(المنصورة)
عبد الفتاح حسين عطية
دخول أل على غير
ذكرتني الكلمة التي كتبها الأديب أحمد حلمي العباسي في العدد 412 من الرسالة عن دخول أل على غير، ببحث كنت نشرته في جريدة الأهرام منذ عامين في هذا الموضوع، خرجت منه يومئذ - مؤيداً بمعاجم اللغة وكتب النحو - بعدم جواز دخول أل عليها لأنها متوغلة في الإبهام لا تتعرف.
ثم نشب على صفحات الأهرام جدال عنيف حول هذا البحث ولكنه لم ينته إلى رأي حاسم؛ وكانت شواغل الامتحان وشواغل العيش.
ولقد تبين لي في أثناء مطالعاتي طَوال تلك المدة أن ذلك الرأي لا يخلو من تعسف، ذلك أني وجدت أكثر المؤلفين القدامى في اللغة والأدب ينصون في كتبهم على أنها كلمة مبهمة لا تدخل عليها أل؛ ثم أراهم يقعون فيما منعوه وهذا غريب. فالأشموني والصبان وابن هشام والأمير وأصحاب شروح التلخيص وغيرهم يذكرون (الغير) عشرات المرات مع أن منهم من نصَّ على تخطئتها.
وليست (غير) وحدها التي حرمت أل؛ بل كذلك (كل) و (بعض)؛ والمؤلفون يعرِّفونهما في كتبهم.
ثم رأيت ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ينص على أن ذلك لا يجوز؛ ولكنه يبيح لنفسه استعماله في مواطن خاصة فيقول: (وقد استعملتُ في كثير مما يتعلق بكلام المتكلمين والحكماء خاصة ألفاظ القوم مع علمي بأن العربية لا تجيزها نحو قولهم الكل والبعض والصفات الذاتية والجسمانيات ونحو ذلك مما لا يخفى على من له أدنى أنس بالأدب، ولكنا استهجنَّا تبديل ألفاظهم، فمن كلم قوماً كلمهم باصطلاحهم) اهـ.
وتلك حجة تؤيد الدكتور زكي مبارك في بعض ما يذهب إليه من آراء في اللغة. . .
ثم أراد الله أن أهتدي - في كتاب من كتب الفقه - إلى تعليل لإدخال (أل) على هذه الكلمات، والحق أنه تعليل طريف اطمأنت له نفسي، وقرت به عيني.
كنت أقرأ في (باب الحج عن الغير) في حاشية ابن عابدين فوجدت طَلِبتي عفواً. وهاأنذا أنقل ما وجدت إلى القراء. قال ج 2 ص 242: (اعترض في الفتح بأن إدخال أل على غير غير واقع على وجه الصحة، بل هو ملزوم الإضافة لكن قال بعض أئمة النحاة: منع قول دخول الألف واللام على غير وكل وبعض وقالوا: هذه كما لا تتعرف بالإضافة لا تتعرف بالألف واللام. وعندي أنها تدخل عليها فيقال (فعل الغير كذا) (والكل خير من البعض). وهذا لأن الألف واللام هنا ليست للتعريف ولكنها المعاقبة للإضافة، لأنه قد نص أن غيراً تتعرف بالإضافة في بعض المواقع، ثم إن الغير قد يحمل على الضد، والكل على الجملة، والبعض على الجزء، فيصلح دخول الألف واللام عليه أيضاً من هذا الوجه؛ يعني أنها تتعرف على طريقة حمل النظير على النظير، فإن الغير نظير الضد والكل نظير الجملة والبعض نظير الجزء، وحمل النظير على النظير سائغ شائع في لسان العرب كحمل الضد على الضد كما لا يخفى على من تتبع كلامهم. وقد نص العلامة الزمخشري على وقوع هذين الجملتين وشيوعهما في لسانهم في الكشاف. أفاده ابن كمال) اهـ
قلت: في هذا مقنع وغناء، فقل (الغير) حيث تشاء.
محمد محمود رضوان
المدرس بالمدرسة النموذجية
إمتاع الأسماع
قرأت - في الرسالة عدد 412 - كلمة الأخ الصديق الأستاذ محمد عبد الغني حسن عن كتاب (إمتاع الأسماع) الذي ألفه المقريزي، وكان له شرف تصحيحه وشرحه، وإني

لأشكر للأخ الكريم ثناءه وحسن ظنه بأخيه. جزاه الله عني أفضل الجزاء.
وقد استدرك الأخ الأستاذ بعض ما فاتني من الخطأ، فله الشكر على اهتمامه وحسن تهَدِّيه ويقظة عينيه، وإن صحَّ لي أن أقول شيئاً تعقيباً على استدراك الأستاذ، فلست أزيد على أن التصحيح المطبعي صناعة وفن قبل أن يكون علماً ودراية، وكل ما استدركه - إلا الفقرة الأولى يدخل في باب تصحيح الأخطاء المطبعية، فالأخيرة منها مثلاً، وهي: (من هوزان) ص 401 مذكورة في هذا الوجه نفسه مرات كثيرة على الصواب (هوازن) بتقديم الألف على الزاي - لا كما جاءت في تصحيح الأستاذ نفسه (هوزان) كما في الإمتاع!! -، ولكن تنبُّه الأستاذ إلى مثل هذه الأخطاء يدل على دقة وبصر، وأنه يحسن التصحيح المطبعي وذلك لما جُبِل عليه من الهدوء والوداعة.
وأما الفقرة الأولى من استدراكه، وهي التي جاء فيها تعقيبه على هذا الرجز: ص 222
اللهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا)
. . . . إن الألي قد بغوْا علينا
وقوله: إن صواب الأول: (لا هُمِّ لولا أنت ما اهتدينا) وإن صواب الأخير: (إن الألَيَ لقد بغوا علينا)، ثم تعجبه من أن يفوتني ذلك الاختلال في وزن الرجز، وأنا شاعر وعروضيٌ!! فإني أبرأ إليه من نسبة العروض، فطالما أفسد العروض ما بيني وبين أصحابي من الشعراء، وليس الأمس ببعيد.
ورواية الأول: (اللهم لولا أنت ما اهتدينا)، هي الواردة في الأصل، وفي البخاري وفي مسلم (شرح النووي ج 12 ص 166)، وفي أكثر كتب التاريخ والسير والحديث. وقد جاءت الرواية التي ذكرها الأستاذ في كتاب الطبقات الكبير لابن سعد ج 2 ص 51، وجاءت رواية أخرى: (والله لولا أنت ما اهتدينا) في مسلم (شرح النووي) ج 12 ص 170 و171، وقال النووي في ذكر الرواية الأولى ج 12 ص 166 ما نصه: (كذا الرواية) قالوا: وصوابه في الوزن (لا هم)، أو (تا لله)، أو (والله لولا أنت) كما في الحديث الآخر: (فوالله لولا الله. . .).
ورواية الأخير: (إن الألي قد بغوا علينا) هي الواردة في الأصل أيضاً، وفي البخاري في مواضع، وفي مسلم ج 12 ص 171، وفي أكثر كتب السيرة والتاريخ والحديث. وجاء في مسلم ج 12 ص 170: (والمشركون قد بغوا علينا)، وفي ص 171 منه ما نصه: (وربما قال (يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم): إن الملا قد بَغَوْا علينا)، وهي في اختلال الوزن كالرواية الأولى التي أثبتناها. ومثلها في ذلك أيضاً رواية من روى: (إن الأعادي بغوا علينا).
وقد نص شراح كتب السير، وشراح البخاري، على أن هذا الرجز ليس يَتَّزن (أنظر العينى ج 14 ص 132، وابن حجر ج 7 ص 308)، ولم يصححوه أو يبدلوه إلى ما يتزنُ، مما جاء في الروايات الأخر، كالذي ذكر الأستاذ (إن الألي قد بغوا علينا)، وهي رواية ابن سعد ج 2 ص 51.
فإذا كان أصحاب العلم والدراية والبصر بالرواية لم يفعلوا ما أرادني الأستاذ على أن أفعله - من حيث أني عَرُوضي كما يقول! - فلي العذر تابعاً لهم، مقتدياً بهم، حريصاً على ألا أبدِّل أو أحرف ما اتفق عليه الأصل الذي أطبع عنه، والروايات المتعددة التي جاءت في أصح الكتب إسناداً أو رواية وتحريراً بعد كتاب الله.
هذا، والكلام عن مثل هذا الرَّجَز - وما يقع في بعض أوزانه من الاختلال والاضطراب - يفضي إلى القول في المواضع التي كان يُنشَدُ فيها، وكيف يكون إنشادُه؟ ولِمَ يُتجاوز فيه عن الوزن؟ ولو نظر الأستاذ الشاعر إلى صلة هذا الرَّجَز بما كان من الصحابة في حفر الخندق، وحملهم التراب في المكاتل، وسيرهم مصعِّدين ومصوِّبين. متوافقين في الإنشاد يمدُّون به أصواتهم مختلطة مرتفعةً، لعَلِم عِلْمَ ذلك، ولكفانا مؤونة الجري وراء العروض، أهو يتزن أو لا يتزن؟ حتى يبلغ بنا ذلك إلى تبديل الروايات وتحريفها، وقد جاءت عمن كان أعلم منا بالشعر والعروض.
وأخيراً، أشكر للأستاذ هذه الهمة التي دفعته إلى النظر والتنقيب، والبحث والتنقير؛ وأثني عليه بما هو له أهل، وأسأله أن يتغمَّد خطأ أخيه بما أعرفه من نبله وعلمه وفضله والسلام

محمود محمد شاكر

ابرهيم طوقان!

ألقى إليَّ بريد فلسطين صباح الثلاثاء الماضي رسالة من نابلس، وجَّهتها (لجنة تأبين الشاعر الأديب المرحوم إبرهيم طوقان) . . .
وإنه لمما يضاعف الحزن على الفقيد الشاب والإحساس بشدة المصاب فيه، ألا يَذيع نعيُه إلا مع الدعوة لتأبينه، وقد كان من المنزلة بين شعراء العربية وأدبائها بحيث يحس فقدَه كل من تربطه به صلةٌ من الود أو صلةٌ من الأدب في مختلف أقطار العربية.
وما أريد أن يُذهلني مصابي فيه عن توجيه العتب إلى أصدقائه وخاصته في فلسطين: كيف فاتهم أن يَنعوه يوم نعوه إلى أدباء مصر، وهو كان أقرب صلة وأدنى منزلة، وله فيهم عشرات من الأصدقاء الأوفياء يعرفون فضله ويُعجبون بأدبه؟
ألا إن الخطب في إبرهيم ليس خطب أسرته وأهله ولا خطب أصدقائه في نابلس وفلسطين، ولكنه خطبُ كل أديب عربي تذوق من شعره، أو اطلع على نتائج رويته وبحثه، أو استمع إلى صوته في المذياع من محطة القدس العربية . . .
ولكنه قد مات، واخترمته المنون في نضرة الصبا وعنفوان الشباب، وهذا ناعيه ينعاه. . فماذا على أصدقائه بعد؟ .
لقد عاش إبراهيم حياته عزوفاً عن الشهرة، بعيداً عن الفخر والادعاء؛ فما عرفه حق العرفان إلا طائفة قليلة من قراء العربية وإن كان في حقيقته بالمنزلة التي لا يتسامى فلانٌ وفلان من ذوي الألقاب الأدبية. وإن له على أصدقائه اليوم لحقاً يقتضيه الأدب ويقتضيه الوفاء: أن يذيعوا ما يعرفون من فضله وينشروا ما طواه من أدبه؛ وإنه لجدير بأطيب الذكرى وأحسن الثناء!
وهاأنذا أعتمد على كرم صديقي الأستاذ الزيات، فأدعو من يشاء من خاصة الفقيد وأهله وذوي ودِّه، أن يبعثوا إلى الرسالة بما يريدون أن يعرف الأدباء عن طوقان الشاعر المحقق
الأديب، وإن في صدر الرسالة لسعة لمن يشاء أن يسجل آية من آيات الوفاء للشاعر الشاب الذي وهب حياته للعربية ومات في ميدان الجهاد!
أما الدعوة لتأبينه وضجة الحرب تبتلع الأصوات، وترد الألسنة في الأفواه، فدعوة إلى غير نتيجة وعمل ليس فيه غناء!
وعزاءً إلى أسرة الفقيد وأصدقائه، والى فلسطين الصابرة المأجورة
محمد سعيد العريان

إلى علماء الإسلام

يا أحق الناس بالحلم وأولاهم بسعة الصدر، هبوا لي بعض وقتكم وانزلوا لأتفاهم معكم، فإن كنتم على صواب تعلمت منكم واعتذرت لكم، وإن كنت محقاً فارجعوا إلى الصواب مأجورين مشكورين!
أرى الإقبال على الأزهر الشريف والمعاهد الدينية في ازدياد مستمر، وأجد المتخرجين منها كثيرين كثرة ملحوظة؛ فأسأل النفس لم يفني كل هؤلاء الطلبة ربيع حياتهم في الجلوس إلى المعلمين واستذكار الدروس، لينالوا شهادة لا يوظف بها إلا القليلون، أم ليظهروا على الناس بعلمهم ويفرضوا عليهم احترامهم، أم ليلزم كل منهم صومعة ويعبد الله بعيداً عن الدنيا ومن فيها.
إن كانت هذه هي الغاية فما لهذا يعمل ذو عقل، وما لهذا يصح لإنسان أن يعيش عالة على أهله نصف عمره أو يزيد؛ وقد كان الأفضل أن يستثمر شبابه في زراعة أو صناعة أو أي عمل فيفيد ويستفيد.
لم تتعلموا إذن لشيء من هذا ولكن لقصد أشرف وغرض أنبل؛ تتعلمون لتعملوا، ولتعلموا الناس فيعملوا
إن كان ذلك كذلك فالواقع لا يقره، والمشاهد ينكره ولا يؤيده؛ فليس هناك منكم إلا فئة أقل من الضئيلة تحاول ذلك بطريقة عتيقة تكاد لا تتغير، وما أثمرت ولن تثمر أبداً.
انظروا إلى عددكم تخفكم كثرتكم، وفتشوا عما أفادت الأمة منكم، ثم أجيبوني: هل نحن في بلد إسلامي به مثل هذا الجيش من العلماء.
ألا فاعلموا أن بعد الموت حساباً، وأنكم ستسألون يومئذ عما فعلتم بعلمكم.
الدين صحيح مدعم بالحجج القاهرة والبراهين القاطعة، وعقول الناس مهيأة لتلقيه متى حسنت طريقة تلقينه. فهلا قمتم من رقادكم، وأفقتم من غفوتكم، وجمعتم صفوفكم، وتدارستم أمركم بينكم، ثم استنبطتم وسائل جديدة للدعاية لدينكم، ثم

ألفتم لجاناً وجمعيات وعلمتموه للناس وحببتموه إليهم.
لا تحصروا نشاطكم في وعظ من بالمساجد، فلا يؤمها إلا الصالحون أو المتشبهون بالصالحين.
علموا الناس حيث وجدتموهم. علموهم في دور الملاهي والصور المتحركة والمقاهي والحانات والمنتديات والمتنزهات. عظوهم في الشوارع والأزقة والمآتم والأفراح. عظوهم في الصحف والكتب والمجلات والمذياع وعلى الشاشة البيضاء.
لا تقولوا لهم إن الله أمر بقطع يد السارق، وقتل القاتل، ورجم الزاني، ولا تقولوا لهم أدوا الصلاة في أوقاتها، وأخرجوا زكاة أموالكم، وصوموا وحجوا؛ ولكن بينوا لهم الحكمة في كل شيء، واشرحوا لهم الضرر في إتيان ما نهوا عنه والفائدة في اتباع ما أمروا به، وعرفوهم ما يلاقيه المتدين من انشراح صدر وجميل عزاء ونعومة بال.
صفوا لهم الرجل الكامل (الأسبور والجنتلمان)، وقارنوا بينهما وبين متخلق بأخلاق القرآن، وأروهم الفروق بينهم، واشرحوا لهم أن الدين لا يتنافى مع المدنية الحقة إن لم يكن أصلها ومبدعها.

جزيرة ميت عقبة - إمبابه

مصطفى جوهر

العدد 414 - بتاريخ: 09 - 06 - 1941

حول مشكلة الزواج

إلى السيدة (ليلى)

لم تَعْدِي الصواب يا سيدتي حين قلت في كتابك الرقيق المدْرَج في مقالك البليغ: إن لكل من الشباب والشواب معايب ومطالب قد تعاونت على خلق مشكلة الزواج؛ ولكن السبب المباشر والمصدر الأول هو المادة

وتصديقاً لقولك أسوق إليك قصة سمعتها من بطلها الدكتور (م. ش). والدكتور (م. ش) يا سيدتي فتى سَوِيَّ الخَلق كامل الثقافة، يملك البصر والسمع بروعة منظره وبراعة حديثه. نشأ في بيت من أوساط البيوت، ولكنه تعلم في أوربا، وتقدم في الوظيفة، فنحا منحى الأوربيين في العيش، وسَمتَ سمْت الأرستقراطيين في المظهر؛ فهو يلبس كما يلبسون، ويجلس حيث يجلسون، ويلح بالسرف على مرتبه الكافي حتى يضيق بشهواته فيتمزق عند منتصف الشهر، ثم يكون في النصف الآخر حميلة على والديه

حسبك يا سيدتي من وصفه هذا، فإني لأخشى أن يُكشَف فيُعرف؛ ومعرفته تجر إلى معرفة الفتاتين اللتين ضحى بهما لهواه؛ وإذا علمت أسرتاهما أنهما ذُكرتا في موضع العبرة، كان ذلك أشد على نفوسهما من ألم المصيبة:

قال الدكتور ذات مساء بلهجة المقترف المعترف النادم ونحن نتناقل الحديث عن جنسك الذي لا يفتُر عنه الحديث ولا يُمل: كنت مصروفاً عن الزواج لأني لم أجد في نفسي حاجة إليه ولا في رأيي فائدة منه. إن كان يطلب للمتعة الطبيعية فقد يسرتها المرأة الطليقة؛ وإن كان يطلب للراحة المنزلية فقد هيأتها الأسرة الشفيقة؛ وما دام الأنس بالمرأة والأسرة موفوراً، فعلام يُحتمل عنت الزوجة وهم الولد وتكاليف البيت؟ ولكن سَرفي وترفي وقلة مرتبي وضيق ثروة أبي، نبهتني إلى أن الزواج يطلب لأمر ثالث: هو الثروة. فرغبت إلى أمي أن تستعين بالأقارب والصواحب والخواطب على أن تجد لي (بغلة العشر)، فقلّبن على عيني أشتاتاً من العبقريات الحسان يملكن كل شيء إلا ما أريده، حتى وصلتني إحدى الخاطبات بفتاة قالت إنها أكثر مما أطلب. ثم خلى أهلها بينها وبيني، فتلاقت عينانا، ثم

فكرانا، ثم قلبانا، فما أنكرت منها خلقاً، ولا ذممت لها صحبة: ملاحة شرقية تغترق البصر، وثقافة عصرية ترضي العقل، ورشاقة رياضية تملك النفس، وشهوة جامحة لعيش المترفين تصور لها بالألوان السحرية أي قصر ستسكن، وأي حلة ستلبس، وأي سيارة ستركب، وأي حفلة ستقيم، وأي أسرة ستدير؛ فرأيت في رغباتها وحياتها صورة رغباتي ونمط حياتي، كأنما خلقها الله رضاً لهواي وتحقيقاً لمناي وتماماً لنفسي. ثم توثقت بيننا على جلوات الربيع وخلواته عرى المحبة، فتساقينا كؤوس الهوى في كل حديقة وعلى كل نهر، وأخذنا نهدهد حبنا الوليد على أناشيد الأمل انتظاراً ليومنا

الموعود وعيشنا المرتقب!
على أن وحدة الخلق وجُمعة الأمل وألفة الهوى لم تُنسني السؤال عن المحبوب الأول والمطلوب الأول وهو المال. ولشد ما كانت خيبتي حين تكشَّف لي غناها عن دَين فادح لا ضمان له، ورياء فاضح لا حيلة فيه. حينئذ تغير النظر وتبدل الرأي واختلف الغرض، وأصبحت الخطيبة الحبيبة كعشرات الأوانس اللائى عقدتُ بهن أسبابي، وأذقتهن ضلال نفسي وعبث شبابي. إذن فما معنى أن أجمع بين طمعي وطموحها، ثم لا أملك لي ولا لها تحقيق أمل ولا قضاء نَهْمة؟
مشيت معها مشي الشباب المعروف أعدُها وأمنّيها، والخواطب الموعودات يغشين الدور ويقتحمن الخدور باحثات عن الثراء الضخم في أي فتاة كانت؛ حتى اهتدين إلى ابنة المرحوم (م. باشا) وكان من الأغنياء المذكورين، فلا مساغ للشك في ثروته، ولا وجه للسؤال عن ملكه. وكان العجب أن تظل ابنته مغمورة حتى تكشف عنها الخاطبة، ولكن أعجب العجب أن يشترط أهلها عقد الزواج من غير رؤية، وتعجيل يوم الزفاف من غير مهلة. وكان لا يعنيني أن أسأل الخاطبة عن حِلية الخطيبة، فإنها إن تكن جميلة ظفرت بالحسْنيين، وإن تكن دميمة كان لها معي بحكم زواجها بيت، ولي مع غيرها بفضل ثروتها ألف بيت!
وفي الحق أني تمثلتها حين دخلت بها كومة عالية من اللحم والشحم أضفوا عليها أفواف الوشي وشفوف الحرير، وفي ذروة الكومة نتأ رأس كرأس أبي الهول طوقوا أسفله بالذهب، وتوجوا أعلاه باللؤلؤ. ولا تسل عن الذراعين والساقين فإنهن قوائم فيل أو أساطين هيكل! ولكنها على بدانتها - شهد الله - خفيفة الظل عذبة الروح. وحسبي منها ألا
تكون هُولةً تُقذي العين وتؤذي النفس في الساعات القليلة التي ألمُّ بالبيت فيها أطلقتْ يدي في ثروتها، على الرغم من معارضة أسرتها، فعشت عيش الأمراء السفهاء أنفق باليدين على خليلاتي ونداماي وهي تنظر وتغضي، وتسمع وتسكت، كأنما وازنت بين جمالهن وجمالها، وقارنت بين حالي وحالها، فلم يسعها غير الرضا بهذا النصيب. وكنت قد خدعت خطيبتي الأولى عن نفسها بقوة النقود والوعود فخضعت لي خضوع المنومَّة. ثم ركض بي في طريق الغواية فرس الهوى الجموح، وخلفت في غبار النسيان حليلة يذيبها فقدُ زوجها ومالها فتموت، وخليلةً يدلهها ضياع أملها وشرفها فتُجن!. . .
لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الأبصار. ما كان حديثاً يُفترى؛ ولكنه الواقع يا سيدتي يثبت لك أن المال إذا جُعل غاية الزواج كان شقاء لمن وجدته ولمن فقدته على السواء. فهل سمعت حديثاً كهذا الحديث، أو رأيت خبيثاً كهذا الخبيث؟؟
احمد حسن الزيات
الإسلام والعلاقات الدولية
للأستاذ الشيخ محمود شلتوت
وكيل كلية الشريعة
عقدت رابطة الإصلاح الاجتماعي مؤتمراً في شهر أبريل الماضي عالج فيه الخطباء) مسائل شتى عن الإسلام والإصلاح الاجتماعي، وكان من بحوثه القيمة هذا البحث الممتع للفقيه الكبير الأستاذ محمود شلتوت وكيل كلية الشريعة، وهو نوع جديد من البحث الفقهي يسهل على الناس تناوله، ويبين لهم بعض كنوز الفقه الإسلامي وما فيه من قواعد يظن كثير من الناس أنه لم يعرض لها)
مقدمة
كان العالم - قبيل الدعوة الإسلامية - يتخبط في ظلمات داجية من الشرك والوثنية، والجهل والعصبية، والظلم والاستبداد كانت الظاهرة العامة التي تنتظم الوجود إذ ذاك هي الفساد في كل شيء: فساد في العقائد، فساد في الأخلاق، فساد في العلائق الاجتماعية، فساد في نظم الحكم والسياسة
كان الناس يعيشون في أسْر الأوهام والأباطيل والشبهات والعقائد الفاسدة. كانت الغرائز الحيوانية والطباع الوحشية مسيطرة على أخلاقهم وتصرفاتهم، بينما الصفات الإنسانية في غفلة وذهول
كانت علاقة الفرد بالفرد والأمة بالأمة تقوم على أساس الموازنة بين الضعف والقوة:

يفتك الأقوياء بالمستضعفين، ويستلب القادرون حقوق العاجزين، ويستنزف الغالبون دماء المغلوبين.

كانت قاعدة السياسة بين الحاكمين والمحكومين هي شهوات الرؤساء ورغبات المسلطين: يتحكمون في الرقاب والأموال والأرواح والأعراض ما شاء لهم الهوى والغرض، وما أسعفتهم عوامل القوة والبطش والجبروت

من أجل ذلك قضت حكمة الله أن ينتشل العالم من حمأة هذا الفساد، وأن ينقذه من براثن هذه الفوضى، وأن يداويه من تلك الأمراض الفتاكة التي تفشت تفشي الوباء في جميع الأرجاء

وهكذا بزغت شمس الإسلام، فبددت ذلك الظلام

(قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم)

عناصر الدعوة الإسلامية

تتلخص الدعوة الإسلامية مهما تشعبت فروعها في مبدأ واحد هو (دعوة العالم إلى الخير). فإذا أردنا أن نفصل في هذا المبدأ بعض التفصيل قسمناه إلى نواح ثلاث هي: التوحيد، والمساواة، والعدل

1 - أصلح الإسلام بالتوحيد فساد العقيدة. فدعا الناس إلى احترام عقولهم بهجر ما كانوا عليه من الأوثان، معلناً أن للكون رباً عظيما، وإلهاً مدبراً حكيما، هو الجدير وحده بأن يعبد.

(لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير)

ولم يخرج بهذه الدعوة على أصل الفطرة وطبيعة الإنسانية، ولم يخالف بها ديناً من الأديان قبله

(فطرة الله التي فطر الناس عليها)

(شرع لكم من الدين ما وصي به نوحا والذين أوحينا إليك، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى: أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه)

2 - وقرر بالمساواة مبدأ الوحدة الإنسانية التي لا تعرف التفريق بين جنس وجنس، ولا بين لون ولون، ولا بين عنصر وعنصر

(يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا: إن أكرمكم عند الله أتقاكم)

(يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء. واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام)

3 - وقضى بمبدأ العدل على الظلم والتحكم والاستبداد، وأقربه الأمن والطمأنينة والرضا، ولم يفرق فيه بين قريب وبعيد، ولا بين عدو وصديق، ولا بين مؤمن وكافر:

(لقد أرسلنا رسلنا بالبينات، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط)

(يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا)

على هذه الأسس بنى الإسلام سياسته الإصلاحية فيما بين المسلمين والمسلمين، وفيما بين المسلمين وغيرهم من الأمم المختلفة. والذي يهمنا في هذا البحث هو استخلاص القواعد التي وضعها الإسلام تنظيما للعلاقات الدولية: وذلك ينتظم:

1 - القواعد التي ينظم بها علاقته بالدول الأخرى

2 - القواعد التي ينظم بها علاقته بمن يعيشون في بلاده من غير المسلمين

العلاقة بالدول الأخرى

إن العلاقة بين المسلمين وغيرهم لا تخرج عن إحدى حالتين: إما حالة سلام ووئام، وإما حالة حرب وخصام. وفي ضوء ما تقدم نرى الإسلام ينظر إلى الحالة الأولى على أنها الحالة الطبيعية الأصلية، ولا يطلب من غير المسلمين فيها إلا أن يخلّوا بينه وبين ما يريد من الدعوة إلى مبادئه دون أن يضعوا في طريقه العقبات، أو يثيروا أمامه الفتن والمشكلات. ذلك بأن دعوته هي دعوة الحق والعقل والصلاح الرشاد؛ وأن العقول إذا خليت وشأنها ارتاحت إليها وآمنت بها عن طريق الاقتناع والرضا، لا عن طريق الإلجاء والقهر

ولا) (أُدْعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن) (لا إكراه في الدين. قد تبين الرشد من الغي) (تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن (!أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين)

وهكذا يقرر القرآن أن الدعوة إلى الله لا يكون طريقها الإلجاء والقهر؛ وإنما يكون طريقها الحجة والبرهان. ولو تركه الناس يسري بحجته وبرهانه، وخلوا بينه وبين العقول، ولم يضعوا في طريقه العراقيل، لما سفكت قطرة واحدة من الدم في سبيل الله، ولغزت دعوته العقول، ونفذت إلى القلوب

والإسلام يسلك في هذه الدعوة السلمية الاقناعية كل طريق تواضع عليه الناس في دعوتهم إلى المبادئ ودفاعهم عنها، وبيانهم لمزاياها: من خطب في المجتمعات، ومن كتب يرسلها إلى الملوك والرؤساء، ومن وفود يتلقاهم ويحسن وفادتهم، ويبين لهم ما يدعو إليه

وفي ظل هذه السلم يترك الناس في شتى معاملاتهم إلى طبيعتهم وما يرون أن يسيروا عليه من نظم: يتركهم يتعاملون ويتبادلون المنافع ويتعاونون ويختلطون، لا يقيدهم في ذلك بقيد إلا ما تقتضيه طبيعة الشريعة بالنسبة للمسلمين من حظر أنواع من التعامل والعلاقات كالربا وزواج الكتابي من المسلمة، وزواج المسلم ممن لا تدين بدين سماوي ونحو ذلك

ولا يحظر الإسلام على المسلمين أن ينشئوا بينهم وبين غيرهم من العلاقات ما يرونه مصلحة لهم وعوناً على حياتهم في شئون التجارة والصناعة والسياسة والعلم والثقافة: ينظمون ذلك على الوجه الذي يتبين صلاحه، والذي تقضي به سنن الاجتماع الفطرية، والذي لا يتعارض مع دستورهم الخاص

وقد وضع القرآن الكريم أساس الدستور لهذه العلاقة السلمية إذ يقول:

لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم) (وتقسطوا إليهم. إن الله يحب المقسطين

فهذه الآية تبيح للمسلمين أن ينشئوا ما شاءوا من العلاقات بينهم وبين الذين لم يعتدوا عليهم في الدين أو الوطن، بل تجيز أن تصل هذه العلاقات إلى حد البر بهم والإحسان إليهم

هذه هي الحالة الأولى: حالة السلم والوئام؛ أما الحالة الثانية: حالة الحرب والخصام، فقد نظر الإسلام إليها من نواح متعددة:

1 - نظر إلى الحرب في ذاتها كأمر تدعو إليه طبيعة الاجتماع البشري، فلم يحاول أن ينكرها، ولا أن يعارض مقتضيات الفطر فيها، ولكنه اعترف بها كوسيلة لا بد منها لدفع العدوان، وتقليم أظافر الطغيان، وكبح جماح المفسدين:

اعترف بها لأنه يعلم أن طبيعة البشر وسنة الاجتماع كثيراً ما تفضيان إلى التنازع، والبغي، والتنكر للحق، والاعتداء على الحريات، والفتنة في الدين. والإسلام شريعة عملية إصلاحية لا تغمض عن الواقع، ولا تسترسل وراء الخيال. ولو لم يقرر الإسلام الحرب ويعترف بها لتكون وسيلة من وسائل المقاومة ودفع العدوان، وإزالة العقبات من طريقة دعوته إلى الخير العام، لقضت عوامل الشر والفساد التي تؤازرها دائماً قوى الطغيان والعناد على هذه الدعوة وهي في مهدها، ولحرمت الإنسانية أن تجتني ثمراتها الطيبة في معاشها ومعادها

وإن القرآن ليرشد إلى هذا المعنى واضحاً إذ يقول:

ولولا دفع الله الناس بعضهم لبعض لفسدت الأرض، ولكن الله ذو فضل على) ولولا دفع الله الناس بعضهم لبعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد) (العالمين (يذكر فيها اسم الله كثيراً

تلك هي نظرة الإسلام إلى الحرب من حيث تقريرها والحكم بمشروعيتها

2 - وقد نظر الإسلام كذلك إلى أسبابها الداعية إليها نظرة تتفق وغايته من الصلاح العام والمساواة بين الناس والسير فيهم على سنن العدل والرحمة، فلم يبح امتشاق الحسام بدافع الرغبة في الفتح والاستعمار؛ ولم يرض عن حروب العسف والظلم والاضطهاد التي كانت وما زالت تثيرها عوامل الجشع والطمع والاستغلال، ورغبة التسلط على الضعفاء، واستنزاف الموارد، والتضييق على عباد الله. واعتبر كل حرب في هذه الدائرة حرب ظلم واعتداء لا يليق صدورها من أمة تحترم الإنسانية وتعرف

لها حقها، وبذلك حصر الحرب في أسبابها المعقولة، وضيق في دائرتها تضييقاً يتناسب مع كونها ضرورة من الضرورات!
وهذه الأسباب هي:
(ا) دفع الظلم والعدوان
(ب) إقرار حرية التدين
(ج) الدفاع عن الأوطان
وإن القرآن ليرشد إلى ذلك في عدة مواضع إذ يقول:
(وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين) (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا، وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله)
وأساس الدستور العام في ذلك قوله تعالى:
(إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوْهم. ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون)
3 - وقد وضع الإسلام بعد ذلك للحرب نفسها نظاماً تشريعياً مفصلاً قوامه العدل والرحمة واحترام الحقوق الغيرة على الإنسانية وهذا النظام منه ما يسبق الحرب، ومنه ما يكون في أثنائها، ومنه ما يكون في نهايتها
(البقية في العدد الآتي)
محمود شلتوت
الحديث ذو شجون
للدكتور زكي مبارك
حرية الرأي في القديم والحديث - التضامن الأدبي - المال والبنون - الباقيات الصالحات من الشمائل الإنسانية - لا تنزعجوا - تهديد طريف!
حرية الرأي
كنت قلت: إن الناس في عصر الظلمات كانوا يجهرون بآراء لا نستطيع روايتها في هذا الجيل، فهل يكون معنى ذلك أن القدماء كانوا أشجع؟ وهل يكون معناه أنهم كانوا أبصر بمذاهب النفوس، وأقدر على تصريف الآراء؟
الواقع أن أرباب الفكر في هذا العصر أكثر نفاذاً إلى الدقائق، وأعرف بشؤون المجتمع، وأهدى إلى أسرار المشكلات والمعضلات، بفضل ما أتيح لهم من وسائل الفهم والإدراك
فكيف يتفق أن يكون المحصول الفكري في هذا الجيل أقل من أمثاله فيما سلف من الأجيال؟ أو كيف جاز أن يمرّ محصولنا الفكري بدون ضجيج يوقظ غافيات العقول؟
يرجع السبب فيما أرجِّح إلى ظاهرتين تتصل أولاهما بالقارئ وتتصل الثانية بالكاتب، وفي تفصيل ذلك أقول:
كان القراء قديماً من الخواصّ، أو خواصّ الخواصّ، بسبب شيوع الأمية، وبسبب غلاء المؤلفات، أو ندرتها في بعض الأحايين، فقد قضى ابن خلدون عمره وهو يتشوف إلى الاطلاع على جزء من كتاب الأغاني، ولعله مات قبل أن يظفر بما يريد. وحدثنا صاحب (الطراز) أنه عجز كل العجز عن الوصول إلى مؤلفات عبد القاهر الجرجاني في البلاغة، مع أنه كان على جانب من الغنى والجاه، وعلى اتصال بجماعة من الأمراء في مختلف الحواضر الإسلامية وعرفنا فيما قرأنا أن بعض الباحثين كان يقصد مناسك الحج لينادي علناً في عرفات عن رغبته في اقتناء كتاب لم يستطع الوصول إليه برغم ما بذل في سبيله من عناء
هذا يؤكد أن القراء قديماً كانوا من الخواص، أو خواص الخواص، وذلك هو السر في عدم تهيُّب المفكرين من إعلان ما يجول بصدورهم من آراء وأهواء، فقد كان المفكر يحادث قراءه كما يحادث أصفياءه، لثقته بأنهم فئة ممتازة تفهم عنه ما يريد بلا تزيد ولا تحريف،
وذلك أيضاً هو السر في أن تعابير القدماء تغلب عليها الصراحة، ويَسود فيها الصدق، وقد تُوصَم بالعُرْي في بعض الأحيان
ولا كذلك القراء في هذا العصر، فهم يُعدّون بالألوف وألوف الألوف، فمن العسير أن

يكونوا جميعاً من الخواص، وربما جاز القول بأن جمهرتهم من العوامّ، أو عوامّ الخواصْ، وهذه الحال تفرض على المفكر أن يحتاط في عرض ما يجول بصدره من آراء وأهواء، وذلك هو السبب في تعابير أهل العصر تعوزها الصراحة، ويقل فيها الصدق، ولا تخرج سافرة أو عارية، كبعض تعابير القدماء، وإنما تخرج ملفوفة في أثواب من الرمز والإيماء والتلميح، إن لم يحملها الإسراف في حب السلامة على التدثر بأثواب من المداهنة والمصانعة والرياء

فإن رأيتم جماعة من المفكرين يدورون حول أغراضهم في تردد وتهيب وإشفاق فاعرفوا أنهم يصانعون قراءهم (الألباء) واذكروا أنهم لا يملكون من حرية التعبير غير أطياف، وإن قيل وقيل بأنهم يعيشون في القرن العشرين!

وهل كان التفاوت بين طبقات القراء هو كل ما يعوق الفكر في هذا الجيل؟

هنا يجئ القول بالفرق بين حال الكاتب في هذا العصر وحال الكاتب في العصور الماضية

فالكاتب قديماً كان في أغلب أحواله رجلاً قليل التأثر بضجيج المجتمع، لأن آراءه لم تكن تصل إلا إلى جمهور ضئيل يُعد أفراده بالعشرات أو بالمئات، ولأنه لم يكن يفكر إلا قليلاً في التطلع إلى المناصب التي تفتقر إلى ثقة المجتمع؛ فأكثر المفكرين القدماء لم يكونوا رجال سياسة ولا رجال أعمال، فقد كان فيهم جماعات يعيشون في عزلة رهبانية ولا يهمهم غير التعبير عن أغراضهم بحرية وصراحة وجلاء، ولم يتعرض منهم للأذى والقتل غير من طاب لهم أن يواجهوا مشكلات السياسة أو معضلات الدين

أما الكاتب هذه الأيام فله حال وأحوال

هو أولاً رجل يخاطب الألوف وألوف الألوف، وفيهم أذكياء وأغبياء وأعداء وأصدقاء، وهو عن مراعاة أهوائهم مسئول وهو ثانياً رجل يهمه أن يتمتع بحقوقه المدنية، وقد يتسامى إلى كبار المناصب، وذلك يوجب الحرص على مسالمة المجتمع في أكثر الشؤون

الكاتب في هذه الأيام يعرف جيداً أنه يعيش تحت رقابة عنيفة من الدولة ومن المجتمع،

وهو مقهور على مراعاة تلك الرقابة ما دام يتطلع إلى بعض المناصب العالية، وهي مناصب لا تمنحها الدولة إلا لمن يرضى عنهم المجتمع، وهنا يكون الخطر على حرية الفكر والرأي، ويكون الجحود لما وهب الله الناس من قلوب وعقول

التضامن الأدبي

وبعد عرض هذه الصورة التي تمثل ما صرنا إليه نوجِّه الأسئلة الآتية:

هل من مصلحة مصر - ولها الزعامة الأدبية في الشرق العربي والإسلامي - أن يشعر المفكرون من أبنائها بأنْ لا سبيل إلى الظفر بما تؤهلهم له مواهبهم من كبار المناصب إلا بمصانعة الدولة ومصانعة المجتمع؟

وهل من الخير لمصر أن تكون مناصبها العلمية والأدبية وقفاً على من يملكون أكبر نصيب من القدرة على إخفاء ما يثور في صدورهم من آراء وأهواء؟

وهل من الممكن أن يزدهر الأدب العربي وهو مصدودٌ عن الترجمة الصحيحة للأزمات التي تضطرم في صدور أهل هذا الجيل؟

وكيف تقوى لغتنا على منافسة اللغات الحية وهي أداة ضعيفة بسبب الكَبْت المفروض على قادة الفكر وحَمَلة الأقلام؟

نترك الدولة ونترك المجتمع إلى أن تفهم الدولة ويفهم المجتمع أن حرية الفكر والرأي هي المزية التي يُفضَّل بها الشعوب على بعض، ونسأل رجال الفكر والرأي عن واجبهم في حماية الأقلام والعقول، وما سألناهم هذا السؤال إلا ونحن نعرف أنهم آخر من يتقدمون لحماية الفكر والرأي من عدوان المخادعين والمرائين

ومعاذ الأدب أن أُنكر أن الأدباء يتعاونون ويتساندون من وقت إلى وقت، ولكني مع ذلك أشعر بأن التضامن الأدبي غير موجود بمعناه الصحيح

وكيف أطمئن إلى وجود التضامن الأدبي وأنا أعرف أن الأديب لا يجد من ينصره إذا تنكرت له الدولة أو تنكر له المجتمع؟

الأديب لا يعيش عيشاً مقبولاً في مصر إلا إذا راض نفسه على شمائل ينفر منها الذوق

في أكثر الأحيان، كأن يعلن أنه راضٍ عن كل ما اتفق عليه العُرف من عادات وتقاليد، وكأن يتبرأ من كل من يتعرض لنقد الشرائع والقوانين
لا يعيش الأديب في مصر إلا إذا تخلق بأخلاق فلان. وفلان هذا رجل عاقل إلى أبعد حدود العقل. هو رجل يواجه قومه بما يحبون، فيدعوهم إلى السلم إن جنحوا للسلم، ويدعوهم إلى الحرب إن مالوا إلى الحرب؛ وهو يساير أهواءهم بخضوع لا نظير له ولا مثيل، وكأنه حمل مشدود إلى ظواعن القطيع!
ولفلان هذا زملاء يشاطرونه التمتع بنعمة (العقل) ولن يتقدم الأدب على أيديهم خطوة واحدة، لأن الأدب لا يحيا إلا في جو الحرية الفكرية والوجدانية؛ ولأن الأدب لا يعترف بوجود المرائين، ولو جُنّ الدهر فخلع عليهم أثواب الغنى والأمان.
الأدب ينتظر ثورة وجدانية وروحية وعقلية ليعلن حقه في الوجود
الأدب يطمع في أن يكون أداة التعبير عما في هذا العصر من أوهام وأحلام وحقائق وأباطيل، فيرج الأذهان والعقول بأقوى وأعنف مما يصنع الزلزال
الأدب يريد أن يكون صوراً صوادق لما عند أهل العصر من فجور وعفاف وإلحاد وإيمان، ليشعر الناس بأن الأدب ليس زخرفاً من القول، وإنما هو بعث وإحياء
ولكن الأدب سيظل مقيداً مغلولاً إلى أن يعرف أهله قيمة التضامن الأدبي، فمتى يعرفون؟ ومتى نطمئن إلى أن حرية الرأي لها أنصار بين أعلام الفكر وأقطاب البيان؟
لو ضمنا عطف الأدباء بعضهم على بعض لزهدنا في رفق الدولة وعطف المجتمع، فنحن ننتظر أن تقوم للأدب دولة تعصم أبناءها من التعرض لأذى الجاهلين، وتغنيهم عن انتظار الرزق الحرام، وهو الرزق المجلوب بمصانعة أهل الغفلة والجمود
المال والبنون
كنت أنكر على علماء النحو أن يقولوا إن واو العطف لا تفيد الترتيب، وكانت حجتي أن البليغ يقدم الأهم على المهم حين يعطف بالواو، بدليل قول القرآن: (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) فما قدَّم المال إلا لأنه آثر في زينة الحياة من البنين
ثم تذكرت هذه الحقيقة النحوية حين قرأت كلمة الأستاذ عباس العقاد في التعقيب على الكلمة التي نصصت فيها على حقوق الوارثين؛ فقد كنت قررت أن انعدام الميراث يشل العزائم الإنسانية، ويروض الناس على الاكتفاء بجمع ما يغنيهم يوماً بيوم ويرى الأستاذ العقاد أن طلب المال كطلب العلم، فهو فطرة لا تتوقف على التوريث ولا
على ما يعقبه الأدباء للأبناء وهذا الرأي حق، وقد تذكرت به الكلمة المنسوبة إلى الرسول (جائعان لا يشبعان: طالب علم وطالب مال)، أو لعله قال: (منهومان)، فما أذكر بالضبط نص هذا الأثر النفيس
وصدَق الأستاذ العقاد فيما رواه من أحوال ناس ليس لهم أعقاب ولا يُخشى على أموالهم النفاذ لو بسطوا فيها الأكف بالإنفاق عشرات السنين
وأنا لم أبعد من الصدق حين قررت أن انعدام الميراث يشل العزائم الإنسانية، فأمامي أحوال كثيرة تشهد بأن الرجل تفتُر عزيمته في جمع المال حين يشعر بأن أملاكه قد تصير إلى غير من يحب من الأقربين، أو حين يرى أن أبناءه ليسوا من النجباء، وأن أملاكه قد تبدَّد بعد موته بقليل. وتلك أحوال يعرف منها الأستاذ العقاد مثل الذي أعرف، وهو نفسه قد نصّ على لون من لوعة الآباء حكاه له الدكتور يعقوب صرّوف الذي يهمني هو رأي الأستاذ العقاد فيمن يجمعون المال ويحرصون عليه مع يقينهم بأنه لا وارث لهم غير من يتمنون لهم الموت من لئام الأسباط أو لئام الأقرباء
ما رأي الأستاذ العقاد في هؤلاء من الوجهة الأخلاقية؟
الجمهور يرى هؤلاء من الغافلين، وقد نُظمِت فيهم أشعار، وقيلت فيهم أمثال، وتعقَّبهم الناس بالغمز واللمز في جميع العصور وفي جميع البلاد
أما أنا، فأرى هؤلاء على جانب عظيم من قوة الإحساس بالوجود، وأراهم نماذج حسنة من الوجهة الخلُقية. . . ولكن كيف؟ وهل من السهل أن تنقض نظرية رحب بها الناس منذ مئات الأجيال؟
أخاطر مرة جديدة فأقول: إن حب المال دليلٌ على العافية الروحية، فما يحب المال غير الأصحاء، ولا يزهد في المال غير الأموات أو أشباه الأحياء
والمال يفرض على محبيه أن يكونوا من أهل النشاط والنظام والتدقيق، وتلك شمائل

لا يتصف بها غير أهل العافية الروحية وإن أعوزَتهم العافية البدنية. أما الزاهدون في المال، فهم خلائق ضعاف لا يصلحون لدنيا ولا دين
والشخص الميت هو الذي لا يعرف قيمة المال، ولا يفهم - لأنه ميت - أن المال سناد الأحياء، وأنه شاهدٌ على أن أصحابه أدَّوا واجبهم في مصارعة أمواج الوجود
وأنا أؤكد هذا القول بعنفٍ يصل إلى الإلحاح البغيض، لأني أرى أهل مصر في احتياج إلى من يدق ناقوس الخطر ليذكرهم بوجوب التأمل في هذه المعاني
أنا أكثرت من القول في هذه الشئون، حتى صح للدكتور إبراهيم ناجي أن يقول في إحدى المحاضرات بأن أدب زكي مبارك مستوحًى من غريزته في حب الحيازة والامتلاك
ولو كان هذا القول صدقاً في صدق، لبحثت عن أسلوب غير الأسلوب الذي ارتضيته في حياتي، وهو احتراف التعليم والتأليف، فمن المؤكد أن الأوقات التي أبذلها في خدمة الحياة الأدبية، كانت تجعلني أغنى الناس لو بذلتها في الاتجار بالتراب
الحياة خدعتْنا فزينت لنا احتراف التعليم والتأليف، فما الذي يوجب أن نطوي عن قومنا ما فطنّا إليه بعد فوات الوقت؟ نحن نرى أن جمع المال ليس بعيب، ونحن ندعو مواطنينا إلى الاعتصام بالمال، فقد قدمه الله على الاعتصام بالبنين
المفتونون بجمع المال هم في نظري أعرف الناس بقواعد الأخلاق!
وهل أخطأ أسلافنا حين قرّروا أن الغنيّ الشاكر أفضل من الفقير الصابر؟
الفقر كريه الطعم، قبيح اللون، فاقتلوه حيث ثَقِفتموه
الفقر فضيحة علنية. الفقر أكبر الذنوب، وأشنع العيوب
حاربوا الفقر، حاربوه، حاربوه، فهو أقدر البلايا على إذلال الرجال!
يقول المثل الفرنسي: (قل لي مَن تصاحب، أقل لك من أنت)
وأنا أقول: (قل لي ماذا تملك، أقل لك من أنت)
أقبح عيب يوصَم به الغني هو البخل، وأقبح عيب يوصَم به الفقير هو السؤال، وما أبعد الفرقَ بين البخل والسؤال!
هل يعرف الغافلون من الذين يشتموننا ظالمين أننا لم نَدْعُهم إلا إلى إكرام أنفسهم بالحرص على طلب الرزق الحلال؟
الذي لا ينفق عشر ساعات من كل يوم في طلب الرزق ليس بأهل للعيش
والذي لا يجعل من همه أن يعيش مستوراً ويموت مستوراً ليس بأهل للظفر بنعمة الكرامة الذاتية
والذي يعجز لفقره عن إنجاد إخوانه من وقت إلى وقت لا يجوز له التوهم بأنه من أحرار
الرجال
الغِنَى أجمل مظهر من مظاهر الأخلاق، جعلنا الله جميعاً من الأغنياء!
الباقيات الصالحات من الشمائل الإنسانية
يذكر أخونا الزيات - حفظه الله ورعاه - أني أرسلت إليه كلمة سايرني خيالها في تجوالي بين الإسكندرية وأسوان، وأنه طوى تلك الكلمة لأسباب لا يجهلها القراء؛ فهل أستطيع أن أسجل أن الإنسانية لا تزال فيها شمائل من الباقيات الصالحات؟
من شمائل الإنسانية في هذا العصر أن من الممكن أن تُعفَى بعض المدائن من أهوال الحرب، إذا شاء أهلوها أن يجعلوها في أمان من البلاء
ومن شمائل الإنسانية في هذا العصر أن يُعفَى (اتحاد البريد) من التعطيل، ولو وُجِّهتْ رسائله إلى ميادين الحروب
وبفضل هذه الشمائل الإنسانية حمل إلى البريدُ كتاباً من حضرة الأستاذ غالب المؤيد العظم، وهو يعلن رضاه عن مجلة الرسالة، وعن المقال الذي نشرته بعنوان: (الفرد هو الحجَر الأول في بناء المجتمع)
فإلى ذلك الأستاذ الفاضل أقدِّم أصدق التحيات، وأرجوه أن يعفيني من نشر قصيدته في الثناء على صاحب ذلك المقال وإن عاد السلام فسيكون لنا مع أصدقائنا في جميع البلاد العربية أحاديث وأحاديث
لا تنزعجوا
ظن القراء أني قد أطيع جماعة الثائرين فأنسحب من الميدان الأدبي، فكتب فريق

منهم رسائل طريفة يدعونني فيها إلى الثبات في الميدان
وأجيب بأن أعز أصدقائي هم أولئك الثائرون، وأنا بثورتهم مزهوٌّ مختال، لأنها تشهد بأنهم يسايرونني بيقظة والتفات، فثورتهم ليست إلا فنًّا من فنون الإعجاب والحق كل الحق أني لا أفكر أبداً في إيذاء قرائي بعرض ما قد ينكرون من المذاهب والآراء، وإنما أنا مسئول أمامهم عن التزام الصدق في جميع الأحوال ولو تعرضت لغضبهم المهتاج؛ وثورتهم عليَّ بسبب الصدق أخف وأهون من ثورتهم على بعض الناس
بسبب الرياء
إن الكاتب الذي يرائي القراء ليس بأهل للحياة الأدبية، ومن الواجب أن نقول للقراء بصراحة إننا لا نستوحيهم ولا نستهديهم، حتى ننتظر ما يتفضلون به من حمد وثناء، وإن كان الحرص على منافعهم أول ما يشغلنا حين نمتشق القلم في سبيل الحق، وهل كان هوانا إلا فيضاً من هواهم، وإن غفل بعضهم عن حقائق ما نريد؟
وإذن فمن حق السيد ناصر الدين النشاشيبي أن يطمئن إلى أننا لن نخرج أبداً من الميدان الأدبي، ولن نأتمر أبداً بأوامر أهل الحقد والبغضاء
تهديد طريف
وبهذه المناسبة أذكر أن قارئاً لا أسميه هدد بالكتابة إلى الأستاذ الزيات ليبلغه آراء القراء في صاحب هذا الحديث!
وأقول إني تطوعت بتبليغ هذه الآراء إلى الأستاذ الزيات وإلى جميع القراء، فما الذي يراد من أمانتي أكثر من ذلك؟
أنا أشتهي أن أرى في الدنيا أقواماً يغضبون ويحقدون، فما تأخر الشرق إلا لعجزه عن الغضب والحقد، وهما من شواهد الحيوية في الغرائز والطباع
أغضبوا واحقدوا، ثم اغضبوا واحقدوا، غير باغين ولا عادين، وكونوا رجالاً يؤذيهم ما يكرهون فيثورون عليه ثورة الحليم العاقل الحصيف
اغضبوا واحقدوا، يا بني آدم من أهل مصر والشرق، ولا تنسوا أن الذي أملى عليكم دروس البغض والحقد هو الكاتب الذي يحبكم أصدق الحب:
زكي مبارك
الحياة الزوجية في نظر الإسلام
للأستاذ عبد اللطيف محمد السبكي
- 2 -
خطبة الزواج
تحدثنا عن دعوة الإسلام إلى الزواج؛ لأنه الرباط الوثيق - أولاً - بين الأفراد في محيط الجماعات الصغيرة، ولأنه - ثانياً - الدعامة التي يرتكز عليها البِنَاء القومي في تكوين شعوب، وقبائل يعمر بها الكون، وتؤدي رسالة البشرية بما يجري على يدها من الإنشاء والإبداع والتعمير، وإبراز ما أودع الله في الكائنات من إمارات وجوده. وذلك هو مظهر الحياة الذي كان من أجله آدم خليفة في الأرض عن ربه، وكانت خلافته على هذا النحو إرثاً بين أعقابه إلى ما شاء الله
فإن يكن تكوين الجماعة القوية المنظمة هو الهدف الأهم الذي يرمي إليه الإسلام من وراء الحياة الزوجية، فمن شأن الإسلام أن يرشدنا إلى طريق الدخول في حوزة هذه الحياة، ومن شأنه أن يقيم لنا على جوانب هذه الطريق معالم لا يضل معها من استجاب للدعوة
ومن الحصافة - وقد فعل الإسلام - أن يأخذ المرء نفسه بالتبصر، والأناة، وتقدير الغاية، حتى إذا أقدم أقدم عن بينة لا يشوبها تردد، ولا يلاحقها ندم
وقد حدثنا الرواة أن الاتصال الزوجي على عهد الجاهلية كان على ضروب شتى، وكانت نظمهم في ذلك وليدة عرف قاصر مشوه، وأخلاطاً من عادات موروثة ملفقة؛ لذلك لم تخل وسائلهم في الحياة الزوجية من أنواع معيبة لا تكفل سلامة النسل من الدخالة، ولا تأتي بنظام للجماعة على النحو ولا قريباً من النحو الذي يتوخاه الإسلام جاء الإسلام فعزف عما كان لدى الأعراب من الوسائل، وعفي عليها، إلا وسيلة واحدة فيها سمو بالمرأة عن الريبة، وسمو بالرجل عن الطيش والرعونة، وفيها صيانة للأسباب أي صيانة

تلك وسيلة الخطبة التي تدور حولها آي القرآن وأحاديث الرسول، وعليها جرى العمل بين سلف المسلمين، وبين الخلف الذين لم يمسسهم أفن الرأي وانحلال العقيدة، ولم ينزعوا إلى
فوضى الجاهلية الأولى، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا
يقول الله تعالى: (الخبيثات للخبيثين، والخبيثون للخبيثات. . .) فهذا شق من آية كريمة، يحدثنا - على أنسب الوجوه في تفسيرها - بأن الخبيثات من النساء لا يستأهلن من الأزواج إلا الخبيثين، فمن كرمت نفسه من الرجال، وضن بمروءته عن مواطن الذلة والهوان فبعيد عليه أن يجنح إلى خبيثة ساقطة يتخذها زوجة له. وكذلك الخبيثون من الرجال لا يستحقون إلا خبائث النساء، فمن ربأت بها العزة، وامتزج بها الشمم، تحاشت أن تجعل نفسها فراشاً لرجل ساقط المروءة، وضيع النفس، هين الكرامة فإذا ما بخل كل ذي كرامة من الجانبين بنفسه عن لوثة الاتصال بالخبيث - تهيأ له أن يكون مع من يدانيه شرفاً وطهراً، ويناسبه أدباً وخلقاً؛ وهذا ما تهتف به الآية في شقها الثاني، إذ يقول تعالى: (. . . والطيبات للطيبين، والطيبون للطيبات) ففي هذا الشق إشادة بالنساء الطيبات، وإغراء للرجال باختيارهن، وكذلك إشادة بالطيبين، وإغراء للنساء الطيبات باختيارهم أزواجا
فنحن نرى من هذا السياق حثاً قوياً (لكل من الرجل والمرأة على التنزه عن اختيار الوضيع قريناً له، ونرى فيه حثاً قوياً على اختيار الطيب للزيجة، فكلا الزوجين مرآة تتمثل فيها صورة صاحبه) فلينظر المرء: على أي شكل يحب أن يراه الناس؟
ويقول تعالى: (الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة. . .) فهذا شق آخر من آية ثانية، فيها تجريح مقذع للزاني، حتى أنه في الغالب لا يرغب أن يتزوج إلا من كانت على شاكلته، أو كانت أفحش منه، وأبعد عن الإسلام إلى الشرك؛ فهو لا يألف من النساء كرائمهن العفيفات، إذ هو لا يبالي المعرة، ولا يراعي لنفسه ولا لذريته حرمة، مادام يتخذ الزواج وسيلة إلى قضاء لبانته الجنسية. . . وفي هذا تنفير لذات العفاف أن ترضى عمن عرف بالدعارة زوجاً لها، وإنما تتركه لزوجة من فصيلته الزواني أو المشركات إن استطاع، وتنتظر من الرجال من تشرف بشرفه وتحظى بالحياة معه معافاة في دينها وسمعتها. وكذلك الشأن في المرأة الزانية (. . . والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك) فهي مُجرحَة مسخوطة، ومبتذلة مستهجنة؛ فما ينبغي لرجل عزيز على نفسه أن يرضاها، وإنما لها من يشاكلها نزعة وخلقاً، (وحرم ذلك على المؤمنين). الكاملين فلم يبق من سبيل إلا أن يتجه
الرجل في خطبته إلى من تكون حرثاً نقياً له، وتربة طيبة لبذور نسله، وأن تتجه المرأة في خطيبها إلى النبل، أو كرم الطبع، ومحاسن الرجولة؛ ليكون البناء بهما قوياً متماسكا، فيسدا فراغاً في بناء الجماعة الكبرى - الأمة - ويكون لهما - بجانب ما يتوفر من هناءة وطيب حياة - فضل الاشتراك في تكملة الصفوف، وتكثير السواد بما ينجبان من ذرية كريمة المنبت
وهكذا ينصح النبي (ص) إلى الخاطب أن يأخذ بالحزم، ويتفرس في المخطوبة ما يفي برغباته: من شكلها ودينها وأصلها، وما إلى ذلك مما جبلت النفوس على التطلع إليه، ليتوفر الرضا، ويكون المرء بنجوة من نزعات الطمع وخوالج النفس التي تحقَّر ما لدية فيمد عينيه إلى غير ما يملك، ثم لا يكون من وراء ذلك إلا استعاضة لما في حوزته، واكتئابه لما حرم منه، وهو مخدوع بالأماني؛ والأمانيّ والأحلام تضليل
يقول النبي (ص): (إذا خطب أحدكم المرأة، فإن استطاع أن ينظر منها ما يدعوه إلى نكاحها - زواجها - فليفعل)
وقال (ص) لرجل من أصحابه كان يخطب امرأة: (أنظرت إليها؟ قال: لا، قال (ص): أذهب فانظر إليها)
وقال (ص) لرجل آخر في شأن كهذا: (أذهب فانظر إليها؛ فإنه أحرى أن يوائم بينكما) يعني - إذا رأيتها وأعجبتك كان ذلك أدعى لدوام الألفة بينكما. . . فإذا لم يستطع المرء أن ينظر، لمانع قام في سبيله، فمن السنة أن يبعث من النساء من تستوضح له شأن المخطوبة، وتتعرف له ما يعنيه من أمرها. وقد فعل النبي (ص) ذلك، إذ رغب في خطبة امرأة، وأحب أن يعلم عنها ما يرغبه فيها، أو يرغبه عنها؛ فأرسل إليها امرأة ثقة، وأمرها أن تنظر إلى قدميها، وتشم رائحتها. . . وإن يكن هذا حق الرجل في خطبة

المرأة، فهو كذلك حق المرأة في اختيار الرجل زوجاً لها؛ لها أن تراه وتتفرس فيه ما يعجبها، ولهما أن يتحدثا ليقف كل منهما على ما يصاحبه من لباقة أو لكنة، ومن نشاط الذهن أو خموده. . . ولكن على أن يكون هذا الاختبار في غير خلوة، بل مع وجود محرم للمرأة. وإن تكرر هذا فليس فيه من حرج إلى أن تطمئن نفس كليهما، وللعرف شأنه في تحديد هذا الاختبار بالقدر الكافي

وليس يدخل في ذلك أن يجتمع الرجل بالمرأة في جماعة من الرجل الأجانب، فإن الحراسة المقصودة من وجود المحرم معدومة؛ بل هذه من أشد أنواع الخلوة خطراً على حياة المرأة وعفتها؛ فضلاً عما يجره إليها من الريبة وسوء الأحدوثة

كما أنه لا يدخل في حدود الاختبار المباح أن يجتمع بالمرأة في حضرة عدد من النساء. فإن انفراد النساء برجل واحد يعد في الشرع من الخلوة المحظورة. ووجهة الإسلام واضحة في ذلك؛ فإن الأثر السيئ الذي ينشأ عن هذا الاجتماع لا يقف عند سمعة امرأة واحدة؛ بل يتطاير شرره إلى هذا العدد من النساء جميعاً.

والإسلام يدرأ الشر من أبعد طرقه، ويحتاط له في كثير من المبالغة، حفاظاً على السمعة، واستبقاء للشرف والكرامة، وخاصة فيما يتصل بالأعراض. ولما كانت أسباب الرغبة في المرأة كثيرة، وتختلف باختلاف نزعات الرجال وميولهم، بينها النبي (ص) أو بين أهمها وأولاها بالاعتبار فقال:

تنكح المرأة - والنكاح في كل ما نذكره معناه الزواج - لمالها، وحسبها، وجمالها،) (ودينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك

فهذه أهم الأسباب التي ينبغي أن تدور حولها الرغبة في الزواج، وهي الأسباب التي ترى الناس يلتمسونها في الخطوبة؛ والنبي (ص) يُقرنا على اعتبار تلك المزايا. غير أنه لما كان الدين عند الناس في الموضع الأخير من تقديرهم، مع أنه خير ما يُرجى في الزوجة - أكد علينا النبي (ص) أن نفضل ذات الدين على غيرها، وأن نلتفت إلى الدين قبل سواه فيمن نريدها زوجة أمينة على الشرف، وعلى طهارة النسل، وأن نبني منها نسباً، ونتخذ منها صهراً

أكد علينا النبي (ص) أن نؤثر ذات الدين، ولو لم تكن ذات مال، ولا جمال بارع، ولا حسب، والحسب هم الأهل الطيبون، وقد بالغ في تأكيده حتى قال: تربت يداك، وهذا دعاء بالفقر في أصل معناه، ولكنه غير مقصود وإنما يجري على لسان العرب في مقام التنبيه على أمر ذي بال، وهكذا أراد منه سيد العرب وأفصحهم (ص)؛ فإن اجتمعت هذه المزايا لزوج محظوظ فذلك فضل من الله يشكر، وإن اجتمع مع الدين بعضها فتلك نعمة لا تكفر. أما إذا ضاع الدين في المرأة فلا خير في مالها، ولا حسنها، ولا أهلها، وفي هذا ينطق الوحي على لسان الرسول (ص) فيقول: (لا تنكحوا النساء لحسنهن فلعله يرديهن، ولا

(لمالهن فلعله يطغيهن، وأنكحوهن للدين. ولأَمة سوداء خرقاء ذات دين أفضل

يريد النبي (ص) أن حسن المرأة - من غير دين يكون سياجاً لها - يدفع بها إلى مهابط الرذيلة. ويريد أن مالها - من غير دين تتوقر به - يحملها على الطغيان وسوء العشرة.

ويريد النبي (ص) أن امرأة سوداء خرقاء - يعني مخزومة الأذن على نحو ما كان معهوداً في الإماء المملوكات - أو خرقاء ناقصة العقل مع احتفاظها بالدين: أفضل ممن خسرت دينها وإن بلغت من المال والجمال والحسب فوق ما يشتهي الرجال من المطامع

وليس القصد من الدين أن تصلي المرأة وتصوم - مثلاً - وكفى ولو كانت سيئة الطباع؟ - لا - بل التي هذب الدين أخلاقها، وحفظ عليها حياءها، واستمدت من روحه وآدابه تربيتها، وإن ورثت هذا عن بيئتها وأهليها؛ حتى لا تكون مبتذلة جارحة لسمعته، ولا حمقاء متعبة في عشرته، ولا جشعة مستقلة لخيره، متلفتة إلى غيره

وفي حديث آخر ينصح النبي (ص) باجتناب خصال ثلاث وباجتناب من عرفت بها أو ببعضها من النساء فيقول: (لا تتزوج حنّانة، ولا أنانة ولا منانة)؛ والحنانة: التي عرف عنها أنها تسخط حياة زوجها، وتحن إلى عهدها قبل التزوج منه؛ والأنانة: التي عرفت بالأنين والشكوى مما بيدها أو من حظها، أو من صحتها؛ والمنانة: التي ترى لنفسها فضلاً تعتد به على الزوج. فواحدة من هذه النقائص تغض من راحة الزوج في عشرتها، وتخرج بها عن الإلف والامتزاج إلى الضغينة والشحناء واتساع الخلاف؛ وما لشيء من هذا يراد الزواج

وهكذا يطلب من الرجل أن يكون ذا دين، ويحث النبي على تفضيل المتدين على سواه، مع مراعاة الوسائل الأخرى التي ينشدها الإسلام في الزوج من خَلق وخلُق، ومن قدرة على الحياة الزوجية، ولياقة في الحسب

فيقول (ص): (إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخُلقه فزوجوه. إلاّ تفصلوه تكن فتنة في الأرض وفساد عريض). يقصد النبي (ص) رعاية الدين والخلق، والتنفير من الأحمق والفاسق وإن اجتمعت فيهما أسباب القبول بعد هذين. وإلا كانت حياة نكدة بين الزوجين، وكان فساداً في نظام الأسر، وهدماً في بناء المجتمع، وشراً لا يقف عند حد، والدين - كما نوهنا من قبل - حريص على استئصال الشر من جذوره

لم يكتف الإسلام بأن يطلب في الرجل دينه وخلقه، ولا بأن جعل للمرأة حق الرؤية كما جعله للرجل، بل أعطى للمخطوبة حرية أوسع من ذلك، ومكن لها أن تقبل في صراحة أو ترفض في شمم وإباء. فأمر النبي (ص) أن يؤخذ إذنها في الزوج قبل العقد له عليها، ومنع وليها أن يكرهها على من لم ترضه زوجاً لها إذا لم يكن كفئاً لها، وعلى ذلك جرى الفقه الإسلامي. . . ولقد جاءت فتاة إلى النبي (ص) فأخبرته أن أباها زوجها وهي كارهة لمن رضيه أبوها، فأحضر النبي (ص) أباها، وتبين منه صحة ما شكت منه الفتاة، فخيرها النبي (ص) في بقاء العقد أو بفسخه لها؟ فرضيت - بعد - بمن رضى أبوها

(لها بقية)

عبد اللطيف محمد السبكي
المدرس بكلية الشريعة

من الأدب الفرنسي

صديقي موبَسَّان

للأستاذ محمد عبد الغني العطري

مما لا جدال فيه أن الصداقة ضرب من لوازم الحياة الضرورية التي يندر أن يستغني عنها إنسان. فهي كالغذاء للجسد أو العلاج للمريض. ولكل امرئ في هذا المجتمع صديق يأوي إليه في وقت الضيق، أو في ساعة السرور، فيقتسمان الفرح والترح، ويشتركان في السراء والضراء. والحياة دون صديق تبدو جافة قاتمة، لا أثر فيها للعواطف الروحية السامية التي تربط القلب بالقلب وتصل الروح بالروح.

هذا الضرب من الصداقة نجده بين عامة الناس، إذ لا بد لكل فرد من صديق. ولكن فريقاً من الناس في كل بلد وقطر، يصاحب الكتب ويصادق الأدباء، سواء منهم من كان في عالم الفناء الآجل، أو في عالم البقاء الأبدي. هذا الفريق يتألف من طبقة المتأدبين والأدباء، والكتاب والشعراء، ويضاف إلى هؤلاء طبقة القراء المولعين.

منذ سنوات عدة بدأت أشعر بميل شديد إلى أدب القصة، وأخذت أهيم بهذا الفن الجميل هُياماً عظيماً، فصرت ألتهم ما يقع بين يدي من روايات وأقاصيص، وأبحث عما في الصحف والمجلات الكبيرة من رائع القصص. وبينما كنت ذات يوم أقلّب بصري في إحدى المجلات عثرت بقصة مترجمة عن كاتب لم أقرأ له شيئاً من قبل. فجلست أقرأ وأقرأ. . . فلما انتهيت وجدتُني في عالَم جديد من أدب القصة لم أعرفه قبل ذلك اليوم، عالم كله سحر وعطر، وفن وجمال. وكنت أشعر وأنا أقرأ تلك القصة بأنها تتدفق بالذوق الفني الرائع، وأنها قطعة تفيض بألوان بارعة التنسيق من الحياة.

ومكثت بعد ذلك برهة أستعيد حوادث القصة، وأسلوب عَرضها الأنيق، وحوارها الطريف؛ فما نهضت من مجلسي يومذاك إلا لأذهب إلى إحدى المكتبات وأقتني بعض أقاصيص هذا الكاتب، الذي لم يكن سوى (جي دي موبَسَّان)

منذ ذلك اليوم أصبح موباسان صديقاً لي حميماً، لا أجد له مؤلفاً إلا اشتريته، ولا يُكتب عنه شيء إلا قرأته، وهو يجزيني عن هذا الإخلاص خير الجزاء؛ ففي كل مرة أجلس إلى قصة من قصصه أو رواية من رواياته، يكشف لي عن نواح من فنه وعبقريته تزيد في حبي له وتضاعف من إعجابي به.

وإذا نحن حاولنا أن نكشف القناع عن سر عبقرية موبسان وفنه، لم نستطع أن نُرجع السبب إلا إلى أمرين اثنين: الأول نبوغ فطري واستعداد طبيعي. والثاني تتلمذه على الروائي العظيم (غوستاف فلوبير) مدة سبع سنوات، لقّنه في خلالها أصول الفن

الحديث وقواعده العلمية الصحيحة، حتى أن موبسان كتب بعد ذلك يقول: (لقد اشتغلت مع فلوبير سبع سنوات لم أنشر خلالها سطراً. وفي هذه السنوات السبع أعطاني معلومات أدبية لم أحصل عليها بعد أربعين عاماً من التجارب)

والحق أن تتلمذ موبسان على فلوبير طوال هذه الأعوام صقل مواهبه وسدد خطاه، وراضه على التأمل الطويل والتفكير الكثير في سبيل الفن وحده. وكان فلوبير خلال ذلك يأخذ بيد تلميذه في طريق السمو والإبداع، ويقدم له خالص النصح، وكان يقول له: (ليست الموهبة إلا صبراً طويلاً. إنها تقتضي تأملاً كافياً لكل ما يراد التعبير عنه، مع كثير من الانتباه، كي نصل إلى وصف منظر لم يره أحد ولم يصفه. لا يزال في كل مكان أشياء لم تُكشف بعد؛ والسبب في ذلك أننا معتادون عدم استعمال نظرنا الخاص في التفكير والتأمل، إلا ممزوجاً بما قاله الأقدمون. إن في أصغر شيء وأقله قيمة قليلاً من المجهول، فلنبحث عنه. ولكي نصف مثلاً ناراً تتأجج أو شجرة في سهل، يجب علينا أن نطيل الوقوف أمام تلك النار أو هذه الشجرة حتى نستطيع أن نخرج إلى الناس بوصف لا يشبه أي وصف لأية شجرة أو أية نار، بهذا يستطيع الكاتب أن يكون مبتكراً مجدداً)

ويقول موبسان معلقاً على ذلك:

وعند ما بسط فلوبير أمامي هذه الحقيقة التي تقول إنه لا يوجد في الكون كله ذرتان من الرمل، أو ذبابتان أو يدان أو أنفان متشابهين كل التشابه. أخذ يجبرني على التعبير في بضع جمل عن كائن أو شيء يميزه بوضوح من كل كائن وكل شيء من النوع ذاته والجنس نفسه)

ولقد قسا صاحب (مدام بوفاري) على تلميذه قسوة شديدة فكان موبسان يكتب خلال تلمذته عليه كثيراً من الأقاصيص والروايات، وينظم كثيراً من الأشعار، ثم يعرضها على أستاذه فكان هذا يظهر له أغلاطه ويبسط له نقده ثم يُقدِّم له النصح ويتلف ما كتبه التلميذ، وكانت هذه القسوة من أكبر العوامل في خلق عبقرية موبسان. إذ أنها كانت تدفعه إلى الإبداع والتجويد، ولو كانت على غيره لقتلت مواهبه وقضت عليه القضاء الأخير، ولكن النبوغ يقحم كل عقبة، والعبقرية تجتاز كل الصعاب. وظهر بعد ذلك موبسان في عالم الأدب متسلحاً بكل ما يتطلبه فن القصة الرفيع من خيال واسع، وموهبة فذة، وعبقرية لا تبارى، وكانت أولى ثماره في الأدب قصة دعاها (كرة الشحم) كتبها بمناسبة حرب السبعين وفيها ينتصر للعنصر الفرنسي على العنصر الجرماني ويظهر تفوقه عليه. وقد فازت قصة موبسان هذه على خمس من القصص كتبها في الموضوع نفسه: أميل زولا وكّيار وهويسمن وآلكسي وهانّيك. حتى أن فلوبير الذي لم يكن يرضى في بادئ الأمر عن نتاج موبسان الأدبي كتب يقول عنها: (إنها تحفة رائعة جداً في إنشائها وتهكمها ودقة ملاحظاتها)

ثم أخذ موبسَّان يطل على الناس بنتاجه القصصي الرفيع الذي جمع كل ما في الحياة من مشاهد وصور يمر بها الإنسان العادي فلا يجد بها ما يهزه أو يثير مشاعره، ولكن القصصي المبدع يرى فيها خير مادة يغذي بها فنه ويستمد منها قصصه، وما هي إلا أعوام خمسة عشر حتى استطاع موبسان أن يقدم للناس ثماني عشرة مجموعة من الأقاصيص في كل مجموعة منها نحو من خمس عشرة قصة. كل ذلك عدا سبع روايات كبيرة وثلاث مسرحيات وثلاثة كتب في السياحة ومجموعة من الشعر

ولسنا نعجب لغزارة هذا النتاج الأدبي وكثرته، ولكننا نعجب للسرعة والبراعة والقوة التي أبداها موبسان في مؤلفاته عامة وأقاصيصه خاصة حتى لقد سُمي بحق (زعيم الأقصوصة الأكبر)

أما ترى معي أيها القارئ أن موبسان كتب ما يقارب الثلاثمائة أقصوصة وقلما نجد بينها واحدة تمت بصلة إلى غيرها من أقاصيصه؟ أما ترى أن أقاصيصه مختلفة الأشكال متباينة الألوان لا تربطها إلى بعضها سوى رابطة واحدة هي رابطة الفن؟

لقد توفرت لموبسان جميع العناصر الفنية والأدبية التي تؤهله لأن يكون الزعيم الأقصوصي الأول، فزخرت مواهبه بالصور الفنية والقطع الساحرة، فأخرجها ألواحاً رائعة

التلوين بارعة التنسيق يتمشى خلال سطورها الفن وينسجم، وتلتمع بين ثناياها العبقرية وتضيء. ليس من العجيب بعد ذلك إذا علمنا أن الروائي الفرنسي الكبير ألكسندر دوماس كتب إلى موبسان يقول، دون تملق أو مصانعة: (إنك أنت الكاتب الوحيد الذي أنتظر كتبه برغبة ملحة وصبر نافد)

كان موبسان فناناً بكل ما في هذه الكلمة من معنى، وفيلسوفاً في نظر كثير من الكتاب. أما أنه فنان فهذا أمر ما اختلف ولن يختلف فيه اثنان، لأن فنه يتجلى بأوضح معانيه في جميع أقاصيصه دون استثناء. ولنأخذ أية قصة شئنا من قصصه ولننظر فيها نظرة نافذة فاحصة فماذا نجد يا ترى؟

إننا نراه يقدم لنا صوراً ومشاهد من الحياة الواقعية، كثيراً ما نراها في عصرنا هذا في الحياة العملية. نراه يقدمها لنا في كثير من السهولة والبساطة والوضوح؛ ويظهر لنا أبطاله في صور وألواح هي غاية في الدقة والروعة والإبداع، صور تميزهم من كل أبطال آخرين، في أية قصة أخرى، لأي كاتب كان، وذلك تطبيقاً لوصية أستاذه فلوبير؛ كل ذلك دون أن ينسى أن ينطقهم بلغة الوسط الذي يعيشون فيه، والمهنة التي يزاولونها. وحينئذ تنسى أنك تقرأ قصة لموبسان، وتحسب نفسك أمام مشهد حقيقي تراه بناظريك، وتسمعه بأذنيك. فإذا ما بلغت القصة نهايتَها، وصحوْتَ من الحُلم الجميل الذي هيأه لك الكاتب، عجبت لاقتداره ودقة ملاحظته وعلو كعبه في التصور والتحليل. وهو منذ السطر الأول الذي يخطه في قصته، حتى السطر الأخير منها، يحاول بنجاح أن تكون رشيقة أنيقة، متسلسلة الحوادث دون تكرار، رائعة المفاجأة دون مغالاة أو ابتعاد عن الواقع

وموبسان يحب الحقيقة والواقع كل الحب، والدليل على ذلك أنه نسج أقاصيصه ورواياته متبعاً في ذلك المذهب الواقعي ولم يحد عنه إلا في أواخر حياته الأدبية. والمذهب الواقعي في نظر أكثر الكتّاب العالميين هو أقصى غاية الفن، لذلك نرى (أميل فاجيه) يقول في دراسته عن (بلزاك): (من الجدير بالملاحظة حقاً أنه إذا كان المذهب الواقعي هو أقصى غاية الفن، فليس أصعب من أن يكون المرء واقعياً). وبالرغم من ذلك، فقد كان (موبسان) في الطبقة الأولى من الكتاب الواقعيين. وكان يصور المجتمع الفرنسي - ولا سيما الباريسي منه - بأمانة وإخلاص؛ وكان يرتاد البيوت المشبوهة وينغمس فيها حتى النهاية،

ثم يصورها لنا بما لا يكاد يختلف عن الحقيقة في شيء، بعد أن يكسوها حُللاً من فنه، وأثواباً من عبقريته. وكثيراً ما يُطوّف في الأحياء والأمكنة البعيدة، ويستلهم من غريب مشاهداته وعجيب مصادفاته مادة غزيرة لقصصه

وقد يصور في قصصه البائسين والفقراء، والتاعسين والأشقياء، وغيرهم ممن طحنتهم الحياة بالهموم وغمرتهم بالآلام. ولكنه في هذه الصور يُخفي الشفقة والرحمة ويبدو قاسيَ القلب متحجر الفؤاد، لا يحاول أن يستدر الدمع بمناظر البؤس، ولا يستنزل الرحمة بصور الشقاء، ولا يصغي إلا إلى صوتٍ واحد هو صوت الفن. ومن هنا قال الناقدون بانعدام الطابع الإنساني في قصصه، وهو في ذلك على نقيض تام مع (ألفونس دوديه)، فهذا يحاول أن يُشعر القارئ بالألم والحزن في جميع أقاصيصه ورواياته. فنراه يبكي ويستبكي حزناً على الأشقياء والمتألمين. بينما نرى ذاك كصانع التماثيل الفنان، لا يهمه وهو ينحت تمثاله سوى الفن والإبداع، لذا يضرب بأوائله أينما شاء وحيثما قضى الفن، لا يدري أآلم بضربه أم لم يؤلم، ولكنه يعرف حق المعرفة أأصاب في نحته أم أخطأ

وفي رأينا أن الحق هنا في جانب (موبسان)، لأنه يَعرِض قصصه دون أي تعليق، فهو يرينا صورة البائس دون أن يقول: (هاكم هذا البائس! ارحموه أيها الناس وأشفقوا عليه)؛ بل نراه يقول من طرف خفي: (هاكم قصة هذا البائس! فأشفقوا أو لا تشفقوا). وعلى القارئ وحده أن يكون ذا حس مرهف وشعور دقيق، فيرحم من يستحق الرحمة ويقسو على من لا يستحقها. ولنأخذ مثالاً بسيطاً على ذلك: في إحدى أقاصيصه المسماة (والد سيمون)، يصور لنا فتاة خطبها رجل فاستسلمت له قبل الزفاف. . . ثم هجرها الخطيب، ووضعت منه بعد مدة طفلها غير الشرعي، ونشأ الطفل بعد ذلك يحف به العار دون أن يكون له في ذلك ذنب أو إثم. وهنا يظهر موبسان في قسوته المزعومة على الأشقياء والبائسين، إذ أنه لا يكتب في قصته كلها

كلمة واحدة تبعث في نفسك الشفقة على هذا الطفل البريء، أو تثير في كوامنك الرحمة لتلك الفتاة المظلومة؛ بل يشير إلى خجل المرأة من الناس واعتزالها إياهم، ويصور لك ذلّ الطفل وعذابه واضطهاد رفاقه له، لأنه على حد زعمهم (ليس له أب).
ثم يصفه لنا وهو على وشك الانتحار بعد أن شبع رفاقه من السخرية به وإسماعه لواذع الكلام. . . ولا يُخلّص الفتاة وطفلها من العار والموت سوى رجل شهم يتزوج من الأم ويتبنى الطفل
هذه قسوة موبسان المزعومة على الإنسانية، وهي قسوة - إن صحت عليها هذه التسمية - في موضعها؛ لأن الفن الصحيح الخالص البعيد عن الضعف الإنساني كثيراً ما يقضي بذلك
قلت: إن موبسان فيلسوف، وفلسفته لا تخلو من آراء طريفة فيما يتعلق بالمرأة، والحياة خاصة. أما رأيه في المرأة فهو قاس شديد القسوة؛ وهو يمت بأوثق صلة إلى رأي أبي العلاء المعري في العربية، ورأي (مارسيل بريفو) بالفرنسية. فكلاهما يقول مع موبسان بأن المرأة مخلوق غادر قلما يخلص أو يعف، وهي في نظرهم أداة فتنة وفساد. وليس للمرأة من شاغل - في نظر موبسان وبريفو - إلا إشباع رغباتها وميولها التي ليست سوى نار تتأجج ولهيب يستعر
المرأة. . . إن موبسان يحبها من كل قلبه، ولكنه لا يحبها زوجة وإنما يريدها خليلة؛ لأنه يندر وجود المرأة المخلصة في العالم؛ وما دامت كذلك فهي لا تصلح إلا لإشباع الشهوات
وأما الحياة فله فيها فلسفة خاصة. فهو يرى (أنها سخافة ومعاناة وآلام فقط، وليس فيها ما يشوق ويبهج)
ويغلب على ظننا أن هذا الرأي لم يأخذ به موبسان إلا في أواخر حياته، أي عندما تناوشته الأدواء وتكاثرت على جسمه العلل؛ فداخله اليأس والقنوط. لأنه كان قبل ذلك زير غوانٍ لا يرتوي، وكان مدمناً على الشراب والمخدرات، مقبلاً على الحياة، متمتعاً بكل لذائذها، غارقاً في مفاسدها. وهذه كلها أشياء (تشوق وتبهج) لا يأتيها من كان يائساً من الحياة محتقراً لها معرضاً عنها. ويلتقي موبسان ثانية مع المعري في رأيه في الحياة ولكن الأول يطعن فيها وهو مقبل عليها يتمتع بلذائذها، بينما الآخر يكره الحياة ويعيش بعيداً عنها وعن جميع لذائذها
وعلى أي حال فقد اشتد يأس كاتبنا من الحياة وزاد كرهه لها عندما تقلبت عليه الأمراض، وانتهت به إلى أسوأ عاقبة، وأعني بذلك الجنون. . . نعم، لقد جُنَّ في أواخر حياته وكان السبب في ذلك شدة إخلاصه لأدبه وفنه، واعتقاده بأنه ميت لا محالة، بينما كانت نفسه لا تزال تزخر بشتى الصور الفنية التي يود أن ينسجها أقاصيص رائعة الحسن موفورة الجمال. فكان لتنفيذ هذه الرغبة يعمل في يومه مدة ثماني عشرة ساعة - كما يقول روبير
مونتيه في كتابه عن أسباب جنون موبسان - واضطر الرجل إلى إجهاد ذهنه إجهاداً متواصلاً في سبيل تنفيذ مشروعه ونسج أقاصيصه التي خشي أن يأتي عليها الموت فتدفن معه في اللحد وهي أجِنَّة لم تولد. ولما أدركه الجنون المطبق صار يرى الناس أبطال قصصه الذين صنعهم خياله وصورهم يراعه. وأخذ يسيء إلى من رسمه بقلمه شريراً منهم، فاضطر ذووه إلى نقله إلى مصح للأمراض العقلية، ولكنه أعيد بعد مدة إلى باريس حيث قضى وهو في قمة المجد وأوج الصبا وأبعد الصيت. مات موبسان فأنكره قومه في مماته كما أنكروه في حياته، ولم ينتبهوا إلى فنه الرائع وعبقريته الفذة إلا في الأعوام الأخيرة حيث احتفلت فرنسة بتخليد ذكراه عام 1925، وأقامت له في مسقط رأسه تمثالاً يليق بعبقريته ونبوغه
هذه صفحة موجزة من أدب الرجل الذي عاش ومات من أجل أدبه وفنه، والذي جعلت منه صديقاً لي وفياً. فهل ثمة من يلوم على إكباري لهذا الصديق الذي عانقته إلهة الفن وهدهدته، ثم سقته من كأس الخلود والبقاء، وجعلت منه كاتباً عبقرياً تباهي به القرون وتفخر به الأجيال
(دمشق)
عبد الغني العطري

أمل يضيع
للسيدة الفاضلة (ليلى)
إلى العذراء التي طال عليها الانتظار، وظلت مجهولة كزهرة الصحارى والقفار. إلى الحزينة الصامتة تسائل نفسها: متى وأيان، أهدي كلمتي وأقدم تعزيتي
(ليلى)
يا لؤلؤتي اللامعة، يا درتي الغالية، يا زنبقتي الناضرة الناصعة، مضت الشهور والأعوام، وأنت قابعة في انتظار. ما الذنب ذنبك، ولكنه أبوك الفقير، لا هو موظف كبير، ولا صاحب جاه خطير، لقد طغت المادة على الرجولة فأضعفتها، وعلى الأخلاق فأفسدتها، فتعامت العيون عن الجوهر المكنون، وتهافت الشباب المتسكع على أبواب الغنى واليسار يطلبون يد الفتاة التي يعيشون على هامش حياة أبيها متفاخرين، وعلى صبابة من ماله متهالكين. يحز في قلبي وتملأه الحسرة أن ينطفئ في نفسك نور الأمل، وينهار صرح الأماني، وأن تخبو نظرتك المتألقة، وتفيض ابتسامتك المشرقة، ويختفي الفرح الذي يملأ قلبك، والمرح الذي يشع في نفسك، والروح الهانئة الحالمة تصبح حيرى متألمة. هاهن أخوات لك أخريات ينمو بهن الشباب كما تنمو الأزهار في المنبت الطيب والتربة الجيدة يشتد، عودهن ويقوى ينتظرن انتظارك ويحلمن أحلامك، والمستقبل أما مكن مظلم غامض، وعجلة الحياة تدور بغير ما هوادة ولا رحمة، والقلوب الحزينة مطوية على الأمل الضائع كما يطوى القبر على عزيز غال، والعبرة محبوسة لا تفيض، والشفاه لا تنبس بأنة ولا شكوى، والعاطفة مكبوتة في سجن التقاليد. إنه ليؤلمك أن تكوني عالة على ذويك، وعبئاً على أمك وأبيك. ما توقعنا لك خيبة الأمل، وإلا أعددناك لحياة الشقاء والعمل
يا بنيتي الحبيبة، لم يكن ينقصك عقل ولا ذكاء موفور، لك الحسن والرواء، ثقفناك على قدر ما وسع جهدنا، وحبوناك بعطفنا وحناننا، ورعيناك بالأعين والقلوب، وأتحفناك بكل ما تسمح الجيوب، ولم نترك فيك خلقاً إلا قومناه، ولا اعوجاجاً إلا أصلحناه، حتى ملأت البيت علينا بالبهجة والسرور، وغدوت زينة المجتمع والخدور. والآن يعتورك الملل تضيقين بنا ونضيق بك، وما هو ذنبنا أو ذنبك، إنها المادة التي طغت على الرجولة فأضعفتها، ولا على الأخلاق فأفسدتها. وأبوك موظف صغير، لا هو بالغني ولا بالكبير.
لقد تغير العصر
والجيل، وضاعت وصايا القرآن والإنجيل. كان جدودك السابقون يبحثون لأولادهم عن المنبت الطيب والأساس المتين، وتتصاهر العائلات وسداها السمعة الطيبة ولحمتها البيت الكريم. والآن يا فتاتي لا الخلق الجميل، ولا العقل الرصين، ولا كفايتك في إدارة البيت، ولا ثقافتك لتكوني من خيرة الأمهات، وأمانتك لتكوني أطهر الزوجات، ولا سمو روحك وجمال نفسك، بمزكيتك لدى الرجل ما دمت لست غنية، ولا أبوك صاحب ضيعة (وأبعدية)، وعلى هذا يظل الشبان متقاعدين، عابثين أو منتظرين، وعلى مقربة منهم وفي متناول أيديهم السعادة والنعيم، وما هي بمضمونة في زيف الجاه الباطل، أو موجودة في استجداء العرض الزائل، وليس في ارتواء الحب الآثم غير الخسران، والجري وراء المعصية غير إطاعة الشيطان. أعجب للرجل يهرب من التبعة كالسائحة الضالة؛ لا تعرف لها راع من رعية، ينتظر حتى يفوته الشباب ويجدب أيما إجداب، وهكذا يظل ينغمس في أحضان الفسق والدعارة الشيوعية. ما دامت لا توجد الزوجة الغنية. حقاً لقد طغت المادة أي طغيان، وتُنوسي الواجب أي نسيان، فعزاءٌ للعذارى في خدورهن، ونصيحتي أن تعملن ولا تنتظرن، وربما تجدن من يتزوجكن من شباب الجيل الحاضر لتقمن بالنفقة عليه؛ ورحم الله. ماضي الرجولة وأيام أمهاتكم وجداتكم ولا فخر بعد ذلك للرجال
(ليلى)
في اختلاط الجنسين
للأستاذ محمود محمد بسيوني
(بقية ما نشر في العدد الماضي)
ولما كان ما نراه اليوم من فساد ناتجاً عن سوء فهم الناس لمعنى الاختلاط فلندرس إذن الاختلاط ولنفهمه بمعناه الحقيقي. الإنسان مدني بطبعه، أي أنه لا يمكن أن يعيش منعزلاً، فلا بد من التعاون الحقيقي بين أفراد الإنسان بوجه عام. فإن اختلاف القوى

البدنية والعقلية يحتم احتياج كل إنسان إلى الآخر لإكمال ما به من نقص، ولكي يتعاون الجميع على الحياة في أمن وهدوء. والحياة كثيرة الشعب متعددة الفروع بحيث أن كل فرد لا بد أن يقوم بعمله كاملاً من ناحية اختصاصه. ومن هذا نرى أن الرجل لازم للمرأة، وأن المرأة لازمة للرجل، أي أن الاتصال بين الرجل والمرأة لازم لا لحفظ النوع فقط؛ وإنما كذلك للتعاون على شؤون الحياة، أو بمعنى آخر نستطيع أن نقوله أن الاختلاط أمر لا بد منه، ولكن متى يكون هذا الاختلاط وما حدوده؟

الاختلاط ممكن في الحدود الطبيعية أي حيث تتطلبه شؤون الحياة. وهو لا يكون حينئذ خطراً لانصراف الفكر إلى المهام الجدية التي تطلبها الاختلاط، ولانعدام الجو الذي يولد التفكير السيئ. فالرجل الذي يذهب ليشتري شيئاً تحسن المرأة صنعته أو تجارته، لا يتوفر لديه ما يبعث على التفكير السيء؛ والمريض في المستشفى محتاج إلى رقة المرأة وحنانها، فلا ضرر من اتصال الرجل بالمرأة في مثل هذه الحالة، حيث لا مجال للتفكير السيئ. والرجل الذي يتلقى فناً خاصاً تحذقه امرأة لا بأس عليه من اختلاطه بها كذلك. وكل هذا هو ما نقصده به الاختلاط الطبيعي الذي تتطلبه شؤون الحياة وتوزيع العمل بين الرجل والمرأة كما فهمته تلك المرأة القروية على حقيقته. فهي تخالط الرجل في الحقل إذا دعت إلى ذلك الشؤون الزراعية، كما تخالطه في السوق إذا دعت إلى ذلك حاجة البيع والشراء. ولكن هؤلاء الذين تختلط بهم في الحقل وفي السوق تحتجب عنهم في المنزل لأنها في هذه الحالة لا تجد مبرراً طبيعياً لاختلاطها بالرجال، وعلى ذلك نستطيع أن نقرر في غير تحرج أن تلك القروية قد أدركت بفطرتها السليمة وظيفتها الحقيقية أكثر مما فهمتها تلك الفتاة الحضرية التي تدعي العلم والفلسفة

على أن هناك مجالات أخرى قد يبدو فيها الاختلاط أمراً ضرورياً كالحفلات الخاصة وما شابهها. وخير الأمور في مثل هذه الأحوال هو أن يقتصر الاختلاط على الأهل والأقارب والأصهار ومن إليهم ممن توجد بينهم صلة قوية وثقة تامة؛ فحينئذ أظن أن خطر الاختلاط يبتعد كثيراً ويكاد ينعدم، وبخاصة إذا روعي الواجب حيال هذا الاختلاط من احتشام المرأة ومراعاتها له في حدود الوقار والحياء. وإني لا أفهم مطلقاً أي معنى لأن يدعو إنسان في بيته رجالاً ونساءً لا يعرف بعضهم بعضاً ويزعم لنفسه بأنه يقدم التعارف بينهم. فهذا النوع من الاختلاط هو الذي لا نقره مطلقاً. فمنه تقع الحوادث والكوارث. فإن المرأة بطبيعتها ضعيفة سريعة الانقياد؛ ثم إنه من الممكن أن يندس بين الرجال من ليس منهم من الجهة الخلقية الجديرة بالرجولة. فكثيراً ما تلقى وحوشاً إنسانية في زي الرجال. وفي وجود هؤلاء خطر شديد. فقد تلتقي المرأة برجل تتوسم فيه محاسن خاصة وفضائل ظاهرية قد تميزه على زوجها إن كانت متزوجة، أو توهمها بأن فيه المثل الذي تنشده إن لم تكن متزوجة، فإذا بها تنقاد له وتقع في شركه وتتمادى في علاقتها به؛ ثم تنكشف الحقيقة فجأة وتقع الكارثة كما هو معروف.

لقد قلنا إن الاختلاط ممكن في الحدود التي تستلزمها الطبيعة ولا تتنافى في شيء مع الدين والأخلاق، وهي حدود لا تعوق الحرية ولا تؤثر على التقدم والرقي؛ إنما هي حدود تكفي لأن يعيش الإنسان هادئاً مطمئناً سالكاً الطريق الذي خلق له. أما الاختلاط على الصورة الحاضرة فهو خطأ كل الخطأ، وإنما هو تقليد أعمى لا يجوز الأخذ به بتاتاً. وقد قال الفيلسوف إن لكل بلاد جوها وعاداتها وتقاليدها وموقعها الجغرافي مما يخلق لها ظروفاً خاصة قد لا تتناسب مع ظروف البلد الآخر. وهذه النظرية الصحيحة إذا طبقت في موضوعنا هذا نستطيع أن نصل بوساطتها إلى أن الاختلاط وإن أمكن توسيع نطاقه في أوربا (على أن أوربا هي الأخرى قد نالها منه ما نالها من شر وضر) قد يكون مقبولا إلى حد ما، لأن جو البلاد وطبيعة أهلها الباردة؛ ثم عاداتها وتقاليدها قد تجيز الاختلاط دون ضرر كبير. أما في الشرق حيث الجو حار وطبيعة السكان حارة أيضاً، سريعة التأثر والثوران، وحيث تقاليد الناس المتوارثة لا تجيز هذا الاختلاط؛ فإنه من الخطر حقاً أن ننقل اختلاط أوربا إلى مصر، فسيبقى الغرب غرباً وسيبقى الشرق شرقاً إلى نهاية الحياة

أما ما يقول به البعض من أن المرأة إذا كانت شريفة بطبعها واثقة بنفسها، موثوقاً بها، فهي تستطيع أن تبقى طاهرة مطهرة، حصينة محصنة، تحت أي ظرف أو ضد أي ظرف من ظروف الإغراء والسقوط، فهذا شيء من الصعب التسليم به، فمن الخطأ

أن توفر لإنسان أسباب الشر وتغريه بها وتحببه إليها مع علمك بأنه ضعيف أمام سطوة الشيطان، ثم تزعم أنه يستطيع التغلب عليها؛ وقد قالت حكمة القدماء أن الوقاية خير من العلاج

وقد قال البعض أيضاً أن العلم والثقافة يقيان المرأة شر السقوط. ولكنا لا نستطيع أيضاً أن نسلم بهذا؛ فإننا قد رأينا المتعلمين والمتعلمات هم الذين يبدءون بفكرة الاختلاط ويسرفون في الحرية التي يهيئها لهم علمهم وثقافتهم فيغرون بذلك طائفة أخرى أكثر منهم عدداً وأقوى منهم أثراً، ولكنها أقل علماً وفهماً. هؤلاء هم أنصار المتعلمين والمتعلمات الذين لا يقدرون الأمور كما يجب أن تقدر، ولا يفهمون الحرية كما يجب أن تفهم، فيعتقدون أن الأمر عبث ولهو لا أكثر ولا أقل، فيندفعون وراء عقولهم الضعيفة وقلوبهم المستسلمة ويصبحون الخطر الأعظم. أما المتعلمون الذين ينفعهم علمهم ويقيهم شر السوء فهم الذين بلغوا من العلم شأواً بعيداً. أما الذين لم يصيبوا منه مثل هذا القدر فإنه يتسرب إلى اعتقادهم أن العلم يعطيهم شيئاً من الحرية وشيئاً من التفكير في الأمور من نواحيها السهلة الضعيفة فيتناسون ما فيها من قيود شديدة، وبهذا يصبحون مستهترين إلى حد ما. فخير إذا أن نترك الأفكار الصالحة تسيطر على العقول والنفوس على شكل تقاليد وعادات تتوارثها الأجيال، فلا تجرؤ على مهاجمتها. وخير للمرأة إذن ألا تسرف في الاستنتاجات من الفلسفة والعلم، وإنما يجب أن يكون علمها في الشؤون التي خلقت لها وهي فنون البيت وشؤون الأسرة، وأن تكتفي فيما عدا ذلك بما تشير به تعاليم الدين وتقاليد البلاد. فليتجنب الجميع منابع الشر، وليبتعدوا عن مسبباته درءاً للخطر، وبخاصة أنه ليس هناك ما يستوجب الاقتراب منه

وإنما نحمل المرأة أكثر التبعة نظراً لأنها تعلم حق العلم أن مسعاها غير مسعى الرجل فهي سريعة التأثر كالزهرة اليانعة إذ لمستها الأيدي الكثيرة ذبلت وتناثرت أوراقها وديست بالأقدام، بينما حال الرجل ومسعاه قليل التأثر. فلو أن المرأة لم تقدم نفسها إلى الرجل ولم تسهل له سبيل الاتصال بها ولم تستمع إلى إغرائه وغوايته لما جرأ هو على الاستخفاف

بها واستغلال مخالطتها بالسوء. على أن ذلك لا يبرئ الرجل من التبعة واللوم، فإن صفات الرجولة توجب عليه أن يكون قوياً شهماً مترفعاً عن أساليب الخداع والغش التي يتبعها لإيقاع المرأة في الشرك وهي الضعيفة أمام سلطانه. فكان الواجب أن يرد المرأة إلى سبيل الجد والهداية. فلو أنه استغل رجولته وشهامته في عدم الاندفاع في الاختلاط وفي عدم تشجيعه له، لانعدمت الأسباب التي نتج عنها الاختلاط السيئ ولما شكونا مما نشكو منه الآن

وكل ما نريده اليوم هو أن نستجيب إلى النداء العظيم الذي وجهه صاحب العزة الدكتور منصور فهمي بك حيث حثنا على أن نتعاون جميعاً على تنظيم حياتنا الاجتماعية تنظيما جديداً يتناسب مع تقدمنا ومدنيتنا الحقيقية لا المزعومة. وأن نطهر تلك الحياة مما فيها من آثام وشرور قبل أن يستفحل أمرها ويستعصي استئصالها، فواجب كل فرد أن يضع في رأسه أنه مكلف أخلاقياً بأن يساهم في مكافحته للفساد والشر وفي هداية الناس إلى الطريق المستقيم وفي اظهارهم على ما في ذمتهم وما في تقاليدهم من معان سامية ومن تعاليم رفيعة تضمن لهم أمنهم وسعادتهم. فليقم كل منا بأكبر قسط يمكنه أداؤه في دائرته: في منزله أولاً وفي البيئة المحيطة به ثانياً. كذلك نستجيب إلى نداء الأستاذ الدكتور فندعو إلى تأليف جماعات تعمل متضامنة على مكافحة الأمراض الاجتماعية الناتجة عن الاختلاط. ونحن نتمنى أن تتسع هذه الخطوة بأن تساهم الصحافة بقسط أوفر، بأن تكتم أخبار الاجتماعات المختلطة الخاوية، وأخبار الحفلات التي تخلو من كل ما يهم المصلحة العامة وأن تمتنع عن ذكر كل ما يتنافى مع تعاليم الدين وتقاليد البلاد. لعل هذه العقوبة الأدبية ترد الغاوين عن غيهم والمستهترين عن استهتارهم، فلا يلقى مقلدوهم وأنصارهم أي تشجيع إلى أن تموت بالتدريج كل فكرة فاسدة حتى ينصلح حال المرأة ويحسن ظنها وفهمها لمبادئ قاسم أمين فتنفذ آراءه وتعاليمه كما كان يريدها وكما يريدها المصلحون والله أسأل أن يلهمنا التوفيق والسداد.

محمود محمود بسيوني

بين الأدب والتاريخ
مدن الحضارات في القديم والحديث
للأستاذ محمد عبد الغني حسن
لكل حضارة قديمة أو حديثة مدنية كبيرة يستقر فيها السلطان، وتتمثل فيها الإدارة والسياسة، والصدارة والرياسة؛ وتتجه إليها الأنظار، ترى فيها المثل، وتجد فيها القدوة، وتأخذ عنها الأساليب. ولقد كتبتُ في إحدى المجلات الأسبوعية بحثاً عن بعض هذه المدن القديمة، واليوم أنقل المجال إلى (الرسالة) الغراء، جاعلاً حديث اليوم عن بيزنطة عاصمة المسيحية الأولى؛ ودمشق وبغداد العاصمتين الكبيرتين للإسلام
ولقد سميت بيزنطة بعد إنشائها بزمن بالقسطنطينية وخفقت عليها في عصور متعاقبة: أعلام الوثنية وألوية المسيحية وراية الإسلام. وبقية إلى اليوم تحت الراية الأخيرة منذ أن فتحها السلطان محمد الفاتح في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي.
أسس هذه المدينة المستعمرون الأولون من الإغريق في سنة 667 قبل الميلاد، وقد ظلت قرابة ستة قرون ونصف قرن وهي حاضرة كبرى للوثنية. وفي عصر قسطنطين الأول إمبراطور الرومان، انتقلت عاصمة الإمبراطوريات إلى بيزنطة، التي أسميت من ذلك الحين بالقسطنطينية نسبة إليه. وكان ذلك في الثلث الأول من القرن الرابع الميلادي.
ولقد أخذ نجمها منذ ذلك اليوم يصعد ويزداد ألقاً في سماء التاريخ. فأقام فيها قسطنطين كثيراً من المنشآت العامة والمباني الضخمة، وشيد (تيودور) حولها سوراً منيعاً جعلها عزيزة المنال بعيدة المطلب؛ وأصبحت عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية، وزخرت بالعلماء والحكماء والفلاسفة، وامتلأت بالمدارس ودور الكتب، واتسعت رقعتها من يوم إلى يوم بضاحية تمدّ، أو دسكرة تبنى، أو طريق يعبّد.
وظلت القسطنطينية بعد ذلك قرابة عشرة قرون، توالت عليها خلالها سعود الأيام ونحوسها، وتتابعت عليها الحظوظ شقيها وسعيدها، وهي في ذلك ما بين خفض ورفع وجزر ومد، إلى أن سقطت في أيدي الأتراك سنة 1453م، وأصبحت بانتقال الخلافة الإسلامية من مصر إليها عاصمة الممالك الإسلامية وقبلة الأمم المحمدية تتجه إليها في الشدة والرخاء. وكان للباب العالي في تلك الأزمان مقام لا يدانيه مقام، وسلطان ما بعده
سلطان
وتمتاز تلك المدينة بموقعها الفريد على البوسفور، وامتدادها في شبه جزيرة على بحر مرمرة، وإشراف خليج القرن الذهبي عليها من الشمال. كما تمتاز بأسواقها التجارية التي تعد من أبدع أسواق العالم، وبمجموعة من المساجد الجميلة المبنية على طراز تركي أخذت عنه طائفة من مساجد القاهرة التركية كمسجد محمد على باشا وأشهر تلك المساجد جامع (أبا صوفيا)، وقد كان كنيسة قبل الفتح العثماني، ولكن قرع النواقيس فيه انقلب إلى تسبيحات المؤذن، وتهليلات المكبر، معلنة اسم الله العظيم، يتجاوب في آفاق المدينة الساحرة التي طالما فتنت السلطان الفاتح وأخذت عليه تفكيره وخالطت أحلامه وخواطره؛ حتى تمت له الأمنية وتحققت الأحلام. ودخلها يوم الفتح - كما تقول الروايات التاريخية - حافي القدمين بادي الخشوع، شاكراً لله على ما وهب، مصلياً فيها أول صلاة للمغرب
وشاء الله بهذا الفتح أن تصبح المدينة عاصمة الإسلام، وإذا بالأباطرة العظام يستبدلون بخلفاء أعظم وسلاطين أمنع دولة وأعز صولة. ثم يخاف العلماء والحكماء فيها على مصائرهم ويشفقون على أنفسهم، ولا يؤمنون المقام تحت ظل الأتراك وفي كنف الحكم الجديد، فيفرون ويهجرون المدينة المسلمة والعاصمة المسلمة ويحملون معهم تعاليم اليونان وثقافة الرومان وينشرونها في أوربا فتكون طلائع النهضة المباركة والحركة الجديدة التي تعرف في التاريخ باسم
وفي القرن الثامن الميلادي ظهرت في الشرق العربي المسلم مدينة جديدة ليست في مضارب الصحراء ومجاهل البيداء كمكة والمدينة ولكنها في الشام حيث كانت حضارة الفينيقيين تزدحم وتتكاثر على الشاطئ الشرقي لبحر الروم (البحر الأبيض المتوسط). تلك المدينة هي (دمشق) حاضرة الدولة الأموية، ومقر الخلافة الإسلامية،

ومركز القيادة التي تفرعت منه الحملات وانسابت منه المغازي إلى أقطار بعيدة، وجهات سحيقة لتوسيع رقعة المملكة الإسلامية
ودمشق قبل الإسلام قديمة قدم الدهر، ترجع إلى أيام إبراهيم عليه السلام. فلما دخلها الإسلام غير من حالها وبدل من أمورها. ولما انتقلت إليها الخلافة الأموية، أصبح لها
الشأن والمركز والمحل والموضع يفد إليها الشعراء على الخلفاء طلباً للعطاء فيقول جرير
فإني قد رأيت عليّ فرضاً ... زيارتي الخليفة وامتداحي
ويعلل زوجته (أم حزرة) بالغنى بعد رحلته إلى دمشق ووفوده على الخليفة بقوله:
سأمتاح البحور فجنبيني ... أداة اللوم وانتظري امتياحي
وكان معاوية أول خلفاء بني أمية يسكن غوطة دمشق، وهي - كما يقول جغرافيو العرب - إحدى نزه الدنيا ومعاوية - على ما زعم الرحالة اليعقوبي - أول من بنى وشيد البناء، وسخر الناس في بناءه
وكانت أغلب بيوت دمشق في أول الفتح تبنى من المدر: أي اللبن والطين؛ ولكنهم عادوا فبنوها بالحجر لما روى أن عمر أبن الخطاب نهى أصحابه بدمشق عن استعمال اللبن في البناء. وكان للسابقين من الصحابة في دمشق قصور كثيرة، أو دور عامرة منتشرة في أنحائها كدار خالد بن الوليد، ودار أبي عبيدة عامر بن الجراح، ودار العباس بن مرداس. ودار عمرو بن العاص وغيرهم؛ وبنيت كذلك مساجد ملحقة بالبيوت يتجاوب فوق مآذنها التكبير باسم الله الكبير
وأنا لندرك من الأبيات التي قالتها ميسون زوج معاوية الفرق بين بيوت البادية ودور الحضر. فقد أبت هذه السيدة أن تعيش في قصر معاوية العظيم أو (المنيف) على حد تعبيرها، ورضيت أن تسكن في كوخ صغير أو بيت من الشعر في البادية. وقالت في ذلك أبياتاً معروفة منها:
لبيت تخفق الأرياح فيه ... أحب إلي من قصر منيف
وكانت دار معاوية بدمشق تسمى الخضراء لقبّة خضراء نصبت عليها. بناها بالمدر أولاً فسخر منها جماعة من الروم فأعاد بناءها بالحجر. ومن عجائب الأقدار أن تصبح هذه الدار اليوم في حي من أحقر أحياء المدينة، وهو حي مصيفة الخضراء
وللأستاذ العالم الجليل عيسى اسكندر المعلوف كتاب كبير مخطوط أسمه (حضارة دمشق وآثارها) ذكر فيه فصلاً عن دور الخلفاء الأمويين في دمشق، ونشرت خلاصة هذا الفصل في مجلة (دمشق) الأدبية العلمية التي يحررها جماعة من أهل الفضل والعلم في القطر الشقيق (جزء خامس. سنة ثانية. عدد شهر أيار سنة 1941
وكان الوليد بن عبد الملك يحب البناء ويعشق العمارة - والناس على دين ملوكهم - فبنيت في عهده القصور وشيدت الدور وزيدت في المساجد زيادات، وأضيفت إليها ملحقات. وسهلت الطرق، وحفرت الترع، ويذكر السيد العلامة الكبير محمد كرد علي الدمشقي في كتابه (خطط الشام) أن الوليد أول من أمر بعمل (بيمارستانات) تعالج فيها المرضى
وإلى الوليد يرجع الفضل في بناء الجامع الأموي والمسجد الأقصى، ولقد أنفق على بنائه خراج الشام لمدة عامين على إحدى الروايات التاريخية، وأنفق في سبيل تشييده وزخرفته وتذهيبه ومرمرته (صبغه بالمرمر) وتفصيصه ورفع قبته، وإقامة عمده الكثير من المال، والوافر من الجهد، وفن ريازته (عمارته) ليس إسلامياً محضاً، ولا يونانياً صرفاً ولكنه خليط من هذا وذاك
(الحديث موصول)
محمد عبد الغني حسن
رسالة الشعر
من ظلال البعث!
راهبتي الشقَّية. . .
(إلى التي أعبد فيها عذاب الزمن وقداسة الروح)
للأستاذ محمود حسن إسماعيل
رَمَى بِناَ المَقْدُورْ ... فيِ عَالَمٍ مَهْجُورْ

إلاّ مِنَ العُشْبِ
وَأَنْتِ. . . وَالْحُبُّ!
وَاللَّيْلُ في الشُّطْآنْ ... كَرَاهِبٍ نَعْسَانْ
غَنّتْ عَلَيْهِ الجانْ ... تَمِيمَةَ النِّسْيَانْ
فَذَابَتِ الأَكْوَانْ ... وَالنَّاسُ، وَالأَزْمَانْ
فِي خَاطِرٍ نَشْوَانْ ... لَمْ يَسْرِ في وِجْدَانْ
وَلاَ سَقَى إنسان ... مِمَّا سَقَى قَلْبي. . .
مِنْ خَمْرَةِ الْعُشْبِ
وَأَنْتِ. . . وَالْحُبُّ!
جَاءَتْ بِكِ الأَقْدَارْ ... مَذْعُورَةَ الأَسْرَارْ!
دَهْرِيَّةَ الأَسْتَارْ ... خَمْرِيَّةَ الأَنْوَارْ. . .
شُقَّي حِجَابَ النَّارْ ... لَخَافِقٍ جَبَّارْ
مِنْ سِحْرِكِ الْقَهَّارْ ... أَبْكِيَ رُؤَى الأَسْحَارْ
بِالسُّهْدِ وَالأَفْكارْ ... وَذَابَ كالغَيْبِ
في خاطر الْعُشْبِ
وَأَنْتِ. . . وَالحُبُّ!
رَمَى بِنَا الْمَقْدُورْ ... في عَالَمٍ مَهْجُورْ
سَاقَ الْهَوَى الْمَفْطُورْ ... في زَوْرَقٍ مَذْعُورْ
يَجْرِي بِهِ الدَّيْجُورْ ... لِمَعْبَدٍ مَسْحُورْ
فَّجَرْتِ فِيهِ النُّورْ ... لِهالِكٍ مَقْبُورْ
أَوْدَى بِهِ التَّفْكِيرْ ... فَجاءَ يَا رَبَّي. . .
يَحْيَا مِنَ الْعُشْبِ
وَمِنْكِ. . . وَالُحبُّ!
رَبَّاه! ما ذَنْبي؟!
محمود حسن إسماعيل
أكذوبة السلوان
للأستاذ سيد قطب
(بعد عام أحس في نفسه بالسلوان، وأحس بمغاليق نفسه تتفتح للجمال. ولكنه تنبه إلى أن كل نموذج جميل يتفتح له قلبه فيه شبه أوسمة من الجمال الذي حسب نفسه قد سلاه؛ وإذا هو يهفو إلى الماضي والماضي وحده دون سواه!)
الآن أعلمُ أنّ كلَّ خواطري ... تهفو إليك كرفرفاتِ الطائرِ
ما كان سُلواني سوى أكذوبةٍ ... خُدِعَتْ بها نفسي خديعةَ شاعرِ
بينَ الشغَّافِ وفي مُنايَ وفي دمي ... ألقاكِ هاجسةً وبين سرائري
أنساكِ؟ كيف وأنتِ بين جوانحي ... شِطْرِي الجميلُ وأنت وحيُ خواطري؟
أنساكِ والآمالُ والذكرى معاً ... موصولةٌ بكِ في صميمِ مشاعري؟
وإذا هفوتُ إلى الجمالِ فإنما ... أَهْوَى مِثالَكِ في الجَمالِ العابرِ
أنْسَاكِ إذ أنْسَى حياتيَ كلها ... فإذا حييتُ فأنتِ أوّلُ خاطرِ
نبضَ الربيعُ فكنتِ أول نابض ... في خاطري يهفو وأوّلَ زائرِ
وهفوتُ للماضي الذي قد أودَعَتْ ... نفسي لديه رغائبي وذخائري
أنا ذلك الماضي الذي لا ينقضي ... أنا ذلك الماضي يعيشُ بحاضري!
(حلوان)
سيد قطب
رسالة العلم
حول أبعاد الحيز
هل الزمن بعد رابع؟
(إلى أستاذي جردان أهدي هذه الفصول)
للأستاذ خليل السالم
- 2 -
قال أرسطو طاليس في أحد كتبه للخط الهندسي مقدار في بعد واحد وللمستوي في

بعدين وللحجم في ثلاثة أبعاد، وبعد هذه لا نجد تحويلاً كما نجد تحويلاً من الخط إلى المستوي أو من المستوي إلى الحجم. وبنى إقليدس هندسته التي اعتمدت عليها أكثر العلوم التي تمت إلى الرياضيات بصلة على هذه الفكرة، وهي أن أبعاد أي جسم أو أبعاد المكان ثلاثة ولا يمكن أن تزيد، ولذا كان من العجيب حقاً أن يقول العلماء - بعد قرون طويلة أخص ما يميزها إيمان بالأبعاد الثلاثة فقط - بالبعد الرابع الذي لا يقبله حس أو تصور. ونحاول في هذه العجالة التعقيب على هذا الرأي الذي قال به أول من قال الكاتب الفيلسوف ويلز في كتابه (آلة الوقت)، الذي أتينا على تلخيصه في المقال السابق

لا تزال مشكلة البعد الرابع، مثار البحث والجدل بين أقطاب العلم والفلسفة. فبينا نرى الأستاذ بيران من الجمعية الملكية يسخر من بدعة البعد الرابع سواء كان هذا الزمان أو غيره من أبعاد المكان، وينعى على تلك المقالات التي تؤيد هذه الفكرة خلوها من الدقة العلمية والتمحيص الواعي، نرى (أنشتين) وأتباعه يتبنون الفكرة ويجعلونها أساساً قوياً في بناء ناموس النسبية، واستطاعوا بذلك أن يفسروا كثيراً من الظواهر الطبيعية التي وقف أمامها مبدأ (نيوتون) في الجاذبية حائراً عاجزاً. ونرى كذلك فريقاً من فلاسفة الرياضيات لهم قيمتهم وشهرتهم العلميتان، يؤمنون بالبعد الرابع والخامس والسادس إلى ما لا نهاية، ويرفضون أن يكون المكان ثلاثي الأبعاد فقط كما عرفت الأجيال السابقة في قرون طويلة وكما نتعلم نحن الآن. (لعل لنا عودة لشرح هذا الرأي الأخير)

عرف (لاجرانج) الرياضي الفرنسي المشهور علم الحيل (الميكانيكا) بأنه هندسة رباعية الأبعاد - الزمن بعدها الرابع - فإن أي جسم متحرك يتحدد موقعه في الكون بأربعة متغيرات على أن هذا التعريف لم يلفت أنظار العلماء كما فعلت رواية (آلة الزمن) وما أخال القارئ إلا ذاكراً جملة صاحب الاختراع إذ يقول: (واضح أن لكل جسم امتداداً في أربعة أبعاد: الطول والعرض والسمك والاستدامة الزمانية). فوجود جسم يحتم أن يستمر لحظة من الزمان مهما كانت قصيرة. أما إذا لم يستغرق وجوده جزءاً من الزمان فهو غير موجود حتما، ولكن هل يعني شرط وجود الجسم في الزمان أن الزمان بعد رابع كأبعاد المكان؟ نجد الجواب عند بعض العلماء، أو بالأحرى عند أكثرهم إيجاباً. يقول (برجسون) الفيلسوف الفرنسي المتوفى حديثاً في كتابه (الزمن والإرادة الحرة): (وهكذا فإن الزمن يكتسب شكلا وهمياً لوسط متجانس يربطه مع المكان رابطة التواقت، وهذه يمكن تعريفها بأنها تقاطع الزمان والمكان (مهما كان معنى هذا))

ومنذ سنة 1909 ادعى منفوسكي الرياضي الألماني - وهو من أعلام هذا البحث - أنه محا الفاصل بين الزمان والمكان، وأن الزمان والمكان منفصلين عدم، ليس لكل منهما أي حظ من الحقيقة؛ أما حقيقتهما فهي الاندماج في وحدة (الزمان) كاندماج الماء في الماء الملح، وهذا الاندماج يعتمد في النسبية على معادلات رياضية قد لا تلذ إلا نفراً قليلاً من القراء، ولذا نغفلها عارضين للمشكلة من وجهتها البسيطة السهلة. ولكنا سنتساءل هل هذا الاندماج صحيح؟ هل يرمز إلى شيء واقعي في العالم الخارجي أو أنه مجرد خيال رياضي له ميزة جديرة بالاعتبار هي أنه يفسر بعض الظواهر التي أعجزت العلماء منذ طويل؟ وإذا كان الزمان واقعياً فهل نستطيع أن نفصل الزمن عنه كبعد رابع له خصائص الأبعاد الثلاثة ننتقل فيه في الواقع كما انتقل بطل ويلز في الخيال؟

يحسن قبل أن نحاول الإجابة على هذه الأسئلة أن نشرح نظرتنا إلى المكان والزمان. لنفرض أننا نتصور جسما في الفضاء فأول ما يتميز به تصورنا هذا الجسم هو وجوده في مكان ثلاثي الأبعاد. ولعلنا لا نحتاج إلى القول إن هذا المكان موجود ما وجد فيه ذلك الجسم. ففضاء لا تشغله مادة عدم. والعدم لا يتناوله تفكيرنا في شيء قليل أو كثير. إذا وجود المكان مكتسب من وجود المادة، ووجود المادة لا يقبله العقل إلا في ثلاثة أبعاد. ولقد

يظن بعضهم أنه يمكن تصور شيء على بعدين فقط كرسم على ورقة مثلاً، والواقع ينفي هذا الظن لأن الفضاء يحيط بالرسم من الأعلى والأسفل ومن اليمين والشمال ومن جميع الجهات. إذاً نحن لم نتصور المادة إلا في ثلاثة أبعاد. وإذا تساءلنا لماذا نجد

هذه الخاصة في تصورنا، وجدنا عند المنطق المحض جوابين:
الأول أن تكون هذه الخاصة نفسها صفة لازمة للعالم الخارجي حولنا: أي أنه ثلاثي الأبعاد؛ وهذا التعليل لا يتعدى قولنا: إن المكان ثلاثي الأبعاد لأنه ثلاثي الأبعاد. والجواب الثاني وهو أكثر إقناعاً: أن العقل البشري اكتسب هذه الخاصة في تطوره منذ القدم. على أن هذا الاكتساب لا يعني أن فكرتنا عن المكان هي قسطاس الحق، فربما نكون قد اكتسبنا وجهة نظر ضيقة محدودة، وكان يمكن أن نتصور الكون في أربعة أو خمسة أبعاد، وبذلك نكون ككثير من الناس عاشوا في سفح جبل ولم يتسلقوه في يوم من الأيام فبقي الجبل بالنسبة إليهم كلوحة ساكنة
وقبولنا نظرية الاكتساب يعني أننا نؤمن بأن حالة الإنسان الفسيولوجية والسيكلوجية كانت العامل الفعال في اكتساب هذه الخاصة؛ ولذا ذهب بعضهم إلى أن في جسم الإنسان جهازاً يعد الزمن يحسب علينا كل ثانية تمر بنا، حتى إذا ما اكتشف في جسم الإنسان تيار كهربائي يسري بانتظام طول الحياة، قالوا إن هذا التيار هو ذلك الجهاز. على أن هذه الفكرة لم تثبت علمياً لأن الإنسان يفقد الإحساس بالزمن وهو تحت تأثير المخدر. إن فكرة الزمن هي فكرة توالي الحوادث حادثة تتلو أخرى، وكل حادثة تترك في النفس أثراً؛ وتتوالى الحوادث وتتوالى الانفعالات النفسية تبعاً لهذه الحوادث. ولما كانت هذه الانفعالات النفسية غير عكسية دائماً كان الرجوع إلى الماضي عسيراً. وترى السبب النسبي أن وجود الزمان مشتق من وجود الحركة، كما أن وجود المكان مشتق من وجود المادة؛ والحركة تعبير منفصل عن الحوادث؛ فليست ساعاتنا التي تقيس الزمن إلا حركة مستمرة، والأرض التي تعد أكبر الساعات بالنسبة لعالمنا إنما تقيس الزمن بحركتها المستمرة المنتظمة حول الشمس. وعلى هذا فحيث لا حركة لا يوجد زمن. والبعد الرابع في النسبية ليس هو الوقت مستقلاً عن أي شيء آخر، وإنما هو الوقت الذي يدخل في المعادلة السهلة: المسافة، السرعة، الزمن، الجذر التربيعي لمجموع مربعات الأبعاد الثلاثة
وإليك بعض الأدلة التي نتأكد فيها من اندماج الزمان بالمكان.
فنحن عندما ننظر - على طول بعد واحد - أحد النجوم فليس ما نراه هو صورة النجم في وقت الرصد، وإنما نراه كما كانت قبل وقت الرصد بزمن هو الوقت الذي استغرقه الشعاع الضوئي حتى يقطع المسافة بين مصدر النور وآلات الرصد. وإذا علمنا أن شعاعة النور (من السدم اللولبية مثلاً) تحتاج حتى تصل إلى نظامنا الشمسي مليوناً من السنين، أدركنا مقدار تدخل الزمن في البعد المكاني، وعرفنا أيضاً قدر المسافة التي نستطيع أن نرى فيها من الماضي؛ وربما بتحسن الآلات وبناء مراقب أكبر حجما نستطيع أن نرى نجوماً أبعد من هذه بكثير؛ وعندها يزيد مقدار ما نستطيع أن نراه من الماضي. من هذا يتبين أننا نستطيع أن نتحرك في البعد الرابع الزمني كما نتحرك في البعد المكاني، ويخيل إلي أن العلم لا ينكر إمكانية رؤية المستقبل، فلو تصورنا أن لدينا طائرة مسرعة تفوق سرعة الزمن فعندئذ نفلت من قيود الزمن ونرى المستقبل. أما أن يتسنى لنا التعرف إلى الإنسان في المستقبل فهذا محال، لأن وجود إنسان المستقبل يعتمد على وجود إنسان الحاضر الذي لا يدوم إلا إلى أجل قصير، ولأن رؤيتنا الأشياء تتطلب أن نكون أحياء نحس ونفكر
إذا تحركنا بسرعة النور فإننا نرى صورة واحدة للعالم لا تتغير ولا تلين؛ ذلك لأن الزمن يمر بنا بسرعة النور، ولذلك لا نستطيع أن نتحقق ما يحدث لأجسامنا إذا قدر لنا أن نطير بسرعة النور النسبية تقول إن أي جسم تبلغ سرعته سرعة النور يصير إلى العدم طبقاً لناموس انكماش فتز جيرلد
نعتبر الزمن بعداً رابعاً لأننا نستطيع أن نقيسه بوحدات تماثل الوحدات التي نقيس بها الأبعاد المكانية، فالثانية تعادل (186000) ميل وهذا الرقم هو سرعة النور في الثانية. ونعتبره بعداً رابعاً، لأنه متعامد مع المتعامدات الديكارتية الثلاثة، وقد أثبتت التجارب هذه الحقيقة؛ فتجربة ميكلصن - مورلي - التي كانت أساس النسبية والتي قصد بها أن يعرف الفرق بين سرعة النور في اتجاهين متضادين: الأول اتجاه سرعة الأرض والآخر عكس هذا الاتجاه، ولما لم نجد أي فرق كما أثبتت التجارب المتوالية، فيجب أن نحكم أن سرعة النور وهي وحدة الزمن كما قلنا سابقاً يجب أن تكون في اتجاه عامودي لسرعة الأرض التي هي بالنسبة لنا تعبير عن المتعامدات الثلاثة الديكارتية

ويزيد في إيمان العلماء بالزمن كبعد رابع تفسير الظواهر الطبيعية تفسيراً سهلاً وبسيطاً. ولما كانت غاية العلم في شتى مراحله وأطواره السهولة والبساطة، فيجب علينا أن نقبل النظرية. ويرى بعضهم أن الإنسانية في مجرى تطورها ستستطيع مع تقدم العلم واتساع الخيال وأثر التطور في التصور أن تحس وتعي هذا الاندماج بين الزمان والمكان في وحدة الزمان؛ إلا أن هذا لا يبدو قريب الحدوث أو ممكن الحدوث على الإطلاق

جواب سؤالنا الذي صدرنا به هذا المقال يعتمد إذا على معنى البعد في ذهن السائل، فإذا كان يعني هل يشبه الزمان المكان من كل وجهات النظر، وهل نستطيع أن نتحرك فيه بكل حرية كما نتحرك في الأبعاد الأخرى فسيكون الجواب نفياً، وسيبقى نفياً ما دام الإنسان إنساناً يحس بأنامله ويرى بعينيه ويشعر بالفرق بين الماضي والمستقبل. وفي نظرية النسبية نفسها لا يزال هناك بعض الفروق بين الزمان وأبعاد المكان كاعتبار الزمان خيالياً لانضوائه على الجذر التربيعي للوحدة السالبة. أما إذا عنى السائل هل في الإمكان خلع الزمان والمكان على الأجسام والحوادث واستخدامها كوسائل لربط هذه الحوادث والأجسام الطبيعية بعضها ببعض فيكون الجواب إيجاباً، لأننا نستطيع أن نختار هياكل الإسناد كما نشاء خصوصاً التي تعود علينا بأكبر قسط من السهولة والوضوح

وسنشرح في مقال تال خصائص كونٍ رباعي الأبعاد سواء كان هذا البعد الرابع زماناً أو مكاناً، ففي هذى الخصائص طرافة يجدر بالقراء أن يطلعوا عليها.

(بيروت - الجامعة الأمريكية)

خليل السالم

البريد الأدبي

نصوص من الشرائع المصرية القديمة

في شتاء عام 1938، كانت بعثة الكشف عن الآثار المصرية القديمة بجامعة فؤاد الأول، تقوم بأعمال الحفر والتنقيب في تونة الجبل (هرموبوليس غرب) فعثرت على ملف من ورق البردي طوله متران وعرضه 25 سنتيمتراً داخل (قادوس) من الفخار كسر جزؤه الأعلى، وكان من المحتمل أن هذا الملف يؤلف قسما من مجموعة قوانين مدنية وجنائية، كانت محفوظة في عدة قواديس أقفلت قفلاً محكما

ومنذ حوالي عام ونصف عام عهد إلى الدكتور جرجس متى من جامعة فؤاد الأول بترجمة هذا الملف الذي كان مكتوباً بالخط الديموطيقي، فتبين من ترجمته أن للملف أهمية كبرى في تاريخ القوانين والتشريع، إذ أنه يحوي مجموعة عظيمة من القوانين المدنية، وخاصة ما يتعلق بالمالك والمؤجر وشؤون الهبة والميراث، وحقوق الانتفاع والتسجيل. وربما كانت هذه هي المرة الأولى التي يكشف الحفر عن نصوص تتعلق بالتشريع المصري الذي كثيراً ما ورد ذكره في نصوص الآثار المصرية، وشاد بعدالته كتاب اليونان والمؤرخون القدماء

ومما يجدر بالذكر لهذه المناسبة أن القواديس التي كانت فيها مجموعة القوانين المدنية والجنائية توجد في مبنى صغير شيد باللبن (الطوب الأخضر)، وهو يقوم الآن تجاه معبد توت والدهليز الثالث؛ وكانت هذه المجموعة تحت رعاية كهنة توت يرجعون إليها كلما دعت الحاجة. ثم حدث أن احتل هذه الأمكنة في العصر الأول قبل ميلاد المسيح طوائف من النساك الذين سئموا الحياة فهربوا من المدن إلى أماكن منعزلة، وألقوا بما عثروا عليه فيها من الآثار جانباً، ولهذا وجد الملف الثمين المتقدم ذكره ملقى على الأرض قريباً من الجدار الغربي للمبنى

وقد كان هذا الملف مثار المناقشة بين أعضاء المجمع العلمي المصري في الاجتماع الذي عقد بداره في الأسبوع الماضي

حول الرحلات العربية

أشكر لحضرة الفاضل الأديب الأستاذ محمد محمود رضوان مقاله رداً على مقالي (الرحلات العربية)، فقد أتى فيه بما يكمل ما فاتني، وتفضل فدلني على نوع من الرحلات

في طلب العلم أرجو أن تتم لنا قراءته وتحصل لنا معه الفائدة في كتابه الذي يشتغل الآن بتأليفه عن المسلمين والتربية

ولقد اعترض الأستاذ الفاضل على روايتي لبيت الأعشى:
وشاهدنا الجل والياسمين والمسمعات بأقصابها وذكر أن الرواية الصحيحة (بُقصابها) لا (بأقصابها)، والحق أن كلتا الروايتين صحيحة؛ فالأقصاب جمع قصب بفتحتين وهي جمع قصبة الغناء كما جاء في المخصص لابن سيده. وأظن - إذا لم تخني الذاكرة - أنني أخذت روايتي عن كتاب (شعراء النصرانية) للأب لويس شيخو اليسوعي، ولا أدري عمن أخذها هذا. أما الأقصاب بمعنى الأمعاء، فهو معنى آخر للكلمة ليس هذا موضعه ولقد سميت الراحلين من قريش إلى اليمن والشام (رحّالين تجاوزاً)، لأنهم ليسوا رحّالين بالمعنى العلمي الذي نعرفه الآن ولم يكونوا كابن جبير وابن خرداذبة والمسعودي والمقدسي وابن بطوطة. والقرآن لم يسمّهم رحالين كما يذكر الأستاذ رضوان؟ ولكن سمي عملهم رحلة أي نقلة
أما استعمالي لأفعل التفضيل (أملأ) من الفعل الخماسي (امتلأ)، فهو استعمال صحيح لا غبار عليه؛ وقد وجدت له نظيراً في اللغة؛ فالعرب يقولون؛ (هذا الكتاب أخصر من ذاك)؛ وكان الأولى - قياساً - أن يقولوا: (هذا الكتاب أكثر اختصاراً من ذاك). فهذا الاستعمالان شاذان حقاً في نظر النحويين - والأستاذ جد عليم بسخافاتهم في كثير من المواضع - ولكنهما صحيحان لورود الاستعمال عليهما من قديم
أما العبارة التي يتحداني الأستاذ أن أعربها وأبين له جواب شرطها، فإني أسأله أن يقدرّ الجواب بما يشاء، ليتضح له صحة الاستثناء، وعليه التحية والسلام
محمد عبد الغني حسن
إلى الأديب إبراهيم نجا
ورد في قصيدة الأديب إبراهيم نجا المنشورة بالعدد 413 من الرسالة هذه الأبيات:
أيها الورد جميل أنت ... لكني حَزينُ
أيها الأفق رحيب أنت ... لكني سَجين
أيها النورْ رطيب أنت ... لكني دَفين
حطم الدهر جناحي ... وبرتْ جسمي السنون
وقد ضبط الشاعر القافية (حزين) بالرفع كما ترى
قلت: إن الصواب واحد من إثنين:
1 - إما أن تضبط القوافي كلها بالسكون
2 - وإما أن يقول (السنينُ) بدلاً من (السنونُ)
وقد يبدو هذا غريباً بادي الرأي، ولكنك حين تمعن الفكر يتبين لك صحة ما أقول. . . حقيقة أن الرفع مطّرد في قوافي الأبيات الثلاثة الأولى ولا غبار عليه، ولكنه شذّ في البيت الأخير لأن رفع (السنون) الملحقة بجمع المذكر السالم بالواو يدل على أن الشاعر أعربها إعراب جمع المذكر السالم وهو المشهور، وإذن فقد وجب عليه ضبط النون بالفتحة كما تقول (المسلمونَ)، وكما يقول الله تعالى: (كم لبثتم في الأرض عدد سنينَ) (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنينَ) (قال تزرعون سبع سنينَ)
أما إن أراد الشاعر ضبط النون بالضم فعليه فعليه أن يعرب الكلمة الظاهرة على النون مع لزوم الياء كقول الشاعر:
دعاني من نجدٍ فإن سنينه ... لعبْن بنا شيباً وشيّبننا مردا
وفي الحديث: (اللهم اجعلها عليهم سنيناً كسنين يوسف) في إحدى الروايتين
وبعد. فإنه يحق للدكتور زكي مبارك أن يقول للأديب نجا:
(كما يدين الفتى يدان)
وإلى الأب أنستاس
في مقالك القيم الأخير (ألقاب الشرف والتعظيم عند العرب)
قلت: (وفي التاج، البدء: السيد الأول في السيادة، والثّنيان الذي يليه في السؤدَد)
وأقول: ليس بين يديّ الآن (التاج) لأرى ضبط (السؤدد) أهو كما نقلت أم لا؛ ولكني أعرف عن أساتذتي في دار العلوم أن هذه الكلمة إذا هُمِزتْ ضمَّت الدال الأولى فتقول: (السؤددُ)، وإذا لم تهمَز فتحت هذه الدال فتقول: (السُؤَدد). أما (السؤدَد) بالهمز وفتح الدال فلا
وعلى ذكر أن البدء معناه السيد أذكر بيتاً يستشهد به النحاة في باب الجوازم وهو:
فجئت قبورهم بدءاً ولمَّا ... فناديت القبور فلم يجِبْنَه

أي ولما أكن بدءاً قبل ذلك أي سيداً
محمد محمود رضوان
المدرس بالمدرسة النموذجية
المرحوم إبراهيم طوقان في العراق
حظيت بزمالة الراحل الكريم في دار المعلمين الريفية بالرستمية من ضواحي بغداد - وقد كان قبل هذا العام في إذاعة القدس، ولكن نفسه الكبيرة ضاقت بها فمكث معنا قرابة نهاية العام الدراسي الحالي، بعد جهد حميد بذله لطلابه؛ ولكن جسمه النحيل الذي يحمل هذه النفس العالية والروح الشاعرية لم يحتمل عناء الدرس، فانقطع عن المدرسة وعاد، ثم انقطع وعاد، ولكن المرض غالبه، ففضل الاستقالة والعودة إلى (نابلس)
عاش معنا سبعة أشهر كان فيها مثال الأخ الكامل والصديق الوفي. كان حلو الحديث جميل المعاشرة عذب السمر، تجلس معه فلا تحب ترك مجلسه؛ يغمرك بما تطلب منه من شعر جذاب يملك على النفس مشاعرها، من شعره وشعر شوقي وحافظ والجارم وعلي محمود طه وكان معجباً به لأن شعر طه كان يفيض على البلاد العربية، وقد كان الفقيد حدباً على العرب والعربية، وكثيراً ما كان يحدثني عن شعراء مصر وأن كثيراً منهم لا يهتم بغير ذكر مصر ورجال مصر وآلام مصر وآمالها، فحملني رجاءه إلى شعراء مصر الإجلاء أن يعنوا بالشرق العربي حتى يكون الشعر المصري النفيس الغالي ترنيمة المواطن العربية جميعها. لأن الجميع ينظر إلى مصر وشعرائها وكتابها نظرة الإمامة والتبجيل والقداسة وما كنت أعتقد هذا الرجاء سيصبح يوماً ما وصية الراحل الكريم لشعراء مصر الأكرمين. ولقد كان كثير الاهتمام بمصر وأخبارها السياسية والأدبية، ولا غرابة في ذلك، فقد حدثني بأنه تربطه بمصر رابطة الأصل والنسب
مات طوقان؛ وهو عزيز على دولة الأدب، عزيز على زملائه وطلابه.
وإن الكلام في نواحي عظمة طوقان، وكرم نفسه وعلو همته، وعراقة محتده، لا تسعه هذه
العجالة. فأكِلْ إلى الزملاء العارفين قدره توفيته، وعند الله حسن جزائه في جنات الخلد جزاء الصديقين والشهداء والصالحين
السيد إبراهيم سالم
بطن الشاعر. . .
هذه كلمة أشبه بالألغاز والأحاجي، ظلت أستوضحها - بيني وبين نفسي (بطن الشاعر) - وأستلهم الله تفسيرها، فلم أجد ما يشفي الغلة، اللهم إلا ما يتخبط فيه الفكر ويتعثر معه الخيال. . .
وربما قلت - في بعض الأحايين - إذا أردت التاريخ لها أنها ظهرت يوم كانت الفلسفة مبغضة محاربة. فلما خاف الفتى من الفلاسفة أن يموت من عثرة لسانه، أغمض وأغرب، وعمَّى وألغز، وأغلق وأبهم، لِيَنْجُوَ بجلده، ويخلصَ نفسه إن اشتد عليه النكير، أو تجهّمت له أعين الجلاّد. وأغلب الظن أن هذه الكلمة يوم (ماتت) لم تشأ إلا أن تترك لها ذَنباً يلعب فيما يسمى بغرابة اللفظ وغموض المعنى. وقد كان المتنبي يلذ له أن ينام ملء جفونه عن أوابد شعره، في الوقت الذي يسهر معاصروه في شرحه، ويختصمون في بيان منزلته.
وهكذا يحكي عن بعض المؤلفين القدامى، أصحاب الشروح والحواشي والتقارير. . .
فقد كان الواحد منهم يروقه أن يتخبط الناس في كلامه، ويقبلوه على وجوهه المختلفة، ويزيدوا على عبارته، أو ينقصوا منها، ليستقيم المعنى ويظهر المراد، فإن لم تتطاحن فيه الأفهام، وتختلف العقول، وتتضارب الآراء، فهو كتاب ميت، أو مؤلف لا قيمة له. . .
وكان أخوف ما يخافه الإمام الشيخ (محمد عبده) أن يتصَّدى أحد بالكتابة على مؤلفاته، نراه يستعيذ بالله من هذا ويتبرأ منه، وقد حدا به إلى ذلك أنه رأى الكتب - في عهده - لا ترمي إلى المعنى الخالص، والبيان الصراح، ولكنها تتلوى وتتخبط، وترمي إلى التعقيد والإبهام. . . وربما كان فينا من أدرك هذا - في الأزهر - حين كان الأستاذ أو التلميذ في الدرس، يمر بالعبارة من العلم، أو الجملة من الكتاب، فإذا رأى أنه مر بها

مرور الكرام، وعبرها عبوراً سهلاً، اتهم فهمه، وأساء الظن بعقله، واستكبر على نفسه أن يعلق المعنى بخاطره - عفواً - دون تكلف أو معاناة، فعاد يرجع الضمير إلى مرجع آخر، أو يورد
الشبه والاعتراضات، ليرى هل يسلم له الفهم، ويخلص المعنى، أم تحيط به الأشواك والعقابيل. . . لأنه يعلم - حق العلم - أن صاحب الكتاب كدح فيه ذهنه، وأتعب نفسه، وأضاع من وقته الجم الكثير وأن تأليفاً كهذا لا يمر به قارئ إلا على جسر من التعب، وطريق أدق من الصراط. . . وبعض الناس يحيط الإغلاق ببيانه ولسانه. . . فهو كاتباً أشبه به محدثاً، بطنه كظهره، وظهره كبطنه. . . لا يضيرك أن تقول المعنى في بطنه أو ظهره. . . كأنما هم عالة على البيان، أو زائدة في بني الإنسان!!!
إبراهيم علي أبو الخشب
العدد 415 - بتاريخ: 16 - 06 - 1941
الزوجة المثلى
للأستاذ عباس محمود العقاد
وصلت إليَّ محاضرة العالم الفاضل الدكتور عبد المعطي خيال عميد كلية الحقوق بالإسكندرية في موضوع (الزوجة المثلى)، وهي المحاضرة التي اقترحتها عليه وزارة الشئون الاجتماعية، وأذاعها الأستاذ في منتصف الشهر الماضي، وفيها يقول ما فحواه أن الآفة كلها هي: (حرص الشباب على المادة، وجريه وراء الكسب، وحطه من القيم التي خلفها السلف الصالح ومن قواعد الأخلاق التي كانت مقررة عندهم، واكتفاؤه بالعجل من اللذات)
وظهر العدد الماضي من (الرسالة) وفيه مقال صديقنا الأستاذ الزيات الذي يعقب به على خطاب السيدة (ليلى)، وما رأته من أن السبب المباشر والمصدر الأول لمشكلة الزواج هو المادة، وكان ختام مقالة: (إن المال إذا جعل غاية للزواج كان شقاء لمن وجدته ولمن فقدته على السواء. . .)
وعندي أن المادة هي آفة العصر الحديث كله، وفي عداد مشاكله للكبرى مشكلة الزواج. فالناس لا يتهالكون على المادة ولا على اللذة العاجلة إلا إذا قل إيمانهم بالحياة. ومن ثم يغلب الشح على الشيخ والضعفاء، كما يغلب على الشعوب التي ضاعت من أيديها السيادة وقيم الحياة العليا. فكل تهالك على المادة إنما هو بديل من الحياة الصحيحة، أومن الثقة بنفاسة الحياة، وكأنما يقول الإنسان لنفسه: علام الصبر والانتظار والإرجاء وأي ضمان لك من الأخلاق والعواطف وهى هباء؟ إنما ضمانك الوحيد المادة التي في يديك، والمنفعة التي تسوق غيرك إليك، وكل ما عدا ذلك لا يجدي شيئاً عليك
لكن الزواج مشكلة كبرى، ولو خلص الناس من آفات العصر ومشكلاته، ومن ولع الشباب بمآربه ولذاته
الزواج مشكلة لأنه يحاول التفوق بين نقائض كثيرة في الطبيعة الإنسانية، ولا يقتصر أمره على التوفيق بين فردين فمن الناس من يضن أن الزوجة المثلى هي المرأة المثلى؛ وهذا في اعتقادنا خطأ ظاهر يكتشف بقليل من الروية
لأن المرأة المثلى من شأن الطبيعة
أما الزوجة المثلى فمن شأن المجتمع والآداب الإنسانية حسبما تتعاقب بها الأزمان وقد تكون المرأة أنثى طبيعية من الطراز الأول في تكوين الأنوثة؛ وليس من الملازم بعد هذا أن تكون زوجة من الطراز الأول في معاشرتها لزوجها وفي أمومتها أو في رعايتها للآداب وقيودها
وقد تكون المرأة زوجة مثلى في البيت والأمة، ومع الزوج والولد، ولا يلزم من ذلك أن تبلغ فيها الأنوثة الطبيعية تمامها
وتنجلي هذه الحقيقة بعض الجلاء إذا تذكرنا أن الحيوان فيه إناث مثليات في عرف الطبيعة، وليس فيه زوجات مثليات على النحو الذي يتطلبه الإنسان
وهنا مشكلة ليست بالهينة من مشكلات الزوج، لأنها مشكلة التفوق بين ما توحيه طبيعة الأنثى، وبين ما تمليه آداب
المجتمعات، وهما شيئان لا يتفقان كل الاتفاق
ويفهم بعض الناس أن الزوجة المثلى هي التي ترضي الرجل، وان الزوج الأمثل هو

الذي يرضي المرأة
وهذا خطأ آخر من أخطاء الآراء في هذا الموضوع، ويكفي أن نسأل: ما هو غرض الزواج، ليكون الجواب تصحيحاً سريعاً لهذا الخطاء المشهور
الزواج مقصود لأنه وظيفة اجتماعية ونزعة إنسانية، ويصح أن يتم أداء هذه الوظيفة بمضايقة الزوجين معاً أو بمضايقة
زوج واحد منهما، كما يصح أن يتم أداؤها بما يرضي أحدهما أو كليهما، فلا غرابة من أجل هذا أن تبر الزوجة المثلى بعهد الزواج وهى لا ترضي الرجل كل الإرضاء في كل حين، وأن يبر الزوج الأمثل بذلك العهد وهو مكره على إغضاب حليلته التي يتوخى لها الإرضاء والإيناس
وهنا مشكلة ليست بالهينة كذلك من مشكلات الزواج، لأنها مشكلة التوفيق بين الهوى والواجب، أو بين النظر القريب والنظر البعيد، وهي المشكلة الخالدة في حياة الإنسان
ومن المشكلات في هذا الباب أن الزوج الأمثل لامرأة لا يلزم أن يصبح زوجاً أمثل لامرأة أخرى. فالرجل في الأربعين زوج أمثل لامرأة في حدود الثلاثين، والرجل الذي فيه صلابة
زوج أمثل للمرأة التي فيها شكاسة، والرجل الحليم المئتد زوج أمثل للمرأة المتعجلة الرعناء، ولكنهم يختلفون ولا يتوافقون هذا التوافق، فإذا هم أسوأ الأمثلة للأزواج وأقلهم أملاً في الرفاء والوفاء
والبيت مشكلة المشاكل في العصر الحديث
ففي العصور الماضية كانت المسافة قريبة جداً بين العالم البيتي والعالم الخارجي، وكانت الملاهي الخارجية أشبه شيء بملاهي المنادر في البيوت مع قليل من التوسع والتعميم. فلم يكن من العسير أن تتفق معيشة الأسرة ومعيشة المحافل الساهرة، ولو كانت محافل لهو وانطلاق
أما اليوم، فالمسافة بعيدة جداً بين عالم البيت والعالم الخارج، لان المناظر التي يراها الساهر في العالم الخارج لا يراها في
بيته ولو كان من أهل السعة واليسار، وإنما نشأ هذا عن اختراع الآلات التي تعمل للألوف وألوف الألوف ولا تقصر
عملها على جماعات من الناس يعدون بالعشرات كما كانت محافل اللهو في العصر القديم. وليس من المعقول أن تنفق الشركات مليون ريال على منظر سينما يدار في مندرة أو بهو أو قصر كبير بضع ساعات؛ ولا نعرف اختراعاً من هذه الاختراعات يوافق الحياة البيتية غير المذياع الذي يسهل اقتناؤه في الصغير والكبير في البيوت، وهو وحده لا يغني عن سائر ألا فانين التي تتنوع في محافل السهرات
فالبيت في العصر الحديث مهدد الأساس، ولا وقاية له من هذا التهديد إلا الإقلال من العواصم الكبرى وتشجيع الإقامة في الريف، وإلا تربية الذوق المستقل الذي يصعب انغماسه في غمرة الجماهير، وتربية الإرادة الفردية التي يهمها أن تنطوي على نفسها حيناً بعد حين، ويعجبها أن تنعم بالعشرة الأخوية بين الصحب المتفاهمين والأقارب المتعاونين، فوق إعجابها بضجة السواد وزحام القطيع
وليس ما نذكره هنا حلولاً لمشكلة الزواج ولا علاجاً حاسماً لآفات العصر الحديث، ولكنه محاولة لفهم المشاكل على حقيقتها لاغني عنها وعن أمثالها قبل الرجاء في علاج ناجح؛ إذ كل علاج لا يسبقه الفهم الصحيح يقع على غير الداء، وقد يضاعف الأذى من الشفاء
إلا أننا نعتقد أن الحلول جميعاً لن تخلي الزواج من عقدة مؤرِّبة باقية على الزمن كله، لأنها قائمة على طبيعة في النفس الإنسانية لا يرجى لها تبديل كبير
تلك العقدة هي غرابة الأسرار الجنسية التي تدفع بالرجل إلى اختيار المرأة، وتدفع بالمرأة إلى اختيار الرجل. فليس لزماً أن يحب الرجل امرأة تستحق حبه، أو تصلحه وتصلح أبناءه، أو تجد فيه مزية كالمزية التي يجدها فيها؛ بل يتفق كثيراً أن يترك المرأة التي تسعده ويتعلق بالمرأة التي تشقيه، ويتفق كثيراً أن يهواها للأسباب التي توجب عليه احتواءها والإعراض عنها. وشأن المرأة في هذه الخليقة أعجب من شأن الرجل وأنأى عن الرشد ودواعي الاختيار المميز البصير؛ فإن إخلاصها لمن يستحق منها الإخلاص اندر من إخلاصها لمن يفسدونها ويسيئون إليها، وهي خليقة لها أسرار اعمق

من عرف المجتمع وآداب الزواج وأواصر الأهل والأسر، وليس بالميسور مع بقائها في الطباع خلو الزواج من المشكلات
ولكن الطبيعة تهدينا إلى بعض الأسرار كما تخفى عنا كثيراً من الأسرار، وحسبنا أن نقتدي بها في أساليبها لننتهي إلى شيء في هذا الباب خير من لاشيء. فإن أساليبها في علاقة الجنسين تجري في نهجين مطردين لا يختلفان بين الإنسان وسائر الحيوان وإن اختلفت في الحيوان بعض المظاهر والغايات
أول هذين النهجين هو مزج الواجب بالسرور، فلا يخدم الإنسان النوع بإدامة النسل أو بالإصلاح والإرشاد إلا وفي خدمته سرور له يقويه على واجبه ويغريه باحتماله
وثاني هذين النهجين (التوريط) الذي يقيد الإنسان حين يريد الإفلات فلا يقدر على الإفلات، لأن مصاعب النجاة من الحالة التي يعانيها أكبر من مصاعب الصبر عليها بعد وقوعه فيها. وخير الأمثلة على ذلك كفالة الأبناء ومتابعة السعي في سبيل المجد من مرحلة إلى مرحلة، وقد كان الساعي فيه يحسب أنه مستريح بعد المرحلة الأولى
وتلك هداية لا يعدم الفائدة من يتوخاها في علاج جميع المشكلات
عباس محمود العقاد
الإسلام والعلاقات الدولية
للأستاذ الشيخ محمود شلتوت
وكيل كلية الشريعة
- 2 -
النظام الذي يسبق الحرب (1)
يقرر الإسلام أنه لا يصح بدء الحرب إلا بعد أن تتحقق روح العداء للمسلمين، وأنه يجب على المسلمين إذا تحققوا من ذلك أن يبلغوهم الدعوة
وشبيه بهذا ما يسمى في العرف الدولي الحاضر بالإنذار النهائي.
وفي ذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم لأحد قواده: (إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث)
وقد قال الفقهاء: (إننا بهذه الدعوة نعلمهم أننا لا نقاتلهم على اخذ أموالهم وسبي عيالهم، فربما يجيبون إلى المقصود من غير قتال، وقتالهم قبل الدعوة إثم يستوجب غضب الله
النظام الذي يكون في أثناء الحرب (ب)
لا يريد الإسلام من الحرب تنكيلاً ولا تخريباً، ولا يرضى للناس أن ينسوا فيها واجب الإنسانية من الرفق والرحمة ورعاية العدل والخوف من الله
وإنه ليأخذ المسلمين في أثناء الحرب بآداب لو رعتها الأمم لخففت من ويلات البشرية وضمدت من جراحها
وقد يكون من الملائم لنا في هذه الظروف التي جنّ فيها جنون العالم، وانفتحت فيها على الناس أبواب من الجحيم الذي صنعه الناس لأنفسهم، وأنفقوا فيه جهودهم وأموالهم وأفلاذ أكبادهم؛ قد يكون من الملائم أن نذكر شيئاً من تلك الآداب الإسلامية للحرب، ليعلم الناس أن هذا الدين دين الرحمة والرفق والعدل والصلاح:
1 - فالإسلام لا يجيز قتل المرأة ولا الصبي ولا الشيخ الفاني ولا المقعد ولا الأعمى ولا المعتوه؛ ولا يجيز قتل أصحاب الصوامع ولا الزراع ولا الصناع الذين لا يقاتلون
2 - ولا يجيز المثلة ولا التحريق ولا قطع الأشجار ولا هدم البنيان إلا إذا بدأ بذلك العدو نزولاً على مبدأ المعاملة بالمثل (وجزاء سيئة سيئة مثلها)
3 - ولا يجوز الإجهاز على الجرحى ولا التحريق بالنار
وفي وصايا صلى الله عليه وسلم لأحد قواده: (لا تقتل امرأة ولا صبيا ولا كبيراً هرماً، ولا تقطع شجراً مثمراً، ولا تخرب عامراً، ولا تعقرن شاة إلا لمأكله، ولا تفرقن نخلاً ولا تحرقه (وإن النار لا يعذب بها إلا الله)
ومن المأثور عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لا تقتلوا الذرية في الحرب. فقالوا: يا رسول الله: أليسوا أولاد المشركين؟ فقال: أو ليس خياركم أولاد المشركين؟)
4 - ويقرر الإسلام - تمشياً مع مبدئه من محاربة غير المحاربين من النساء والأطفال والشيوخ والعجزة والمدنيين - أنه لا يجوز تجويع الأمة المحاربة ولا منع المواد الضرورية للحياة عنها، وإن كان يبيح ذلك بالنسبة للجيش المحارب

5 - ومن نظم الإسلام في أثناء الحرب الدالة على السماحة انه يبيح لأفراد وجماعات من الدولة أن تتصل بالمسلمين وتدخل في ديارهم، وتقيم فيها بعض الزمن وتزاول بها أنواعاً من المعاملات التجارية وغيرها في عصمة شيء يعرف في التشريع الإسلامي باسم الأمان

ويقرر به عصمة المستأمنين، ويوجب على المسلمين حمايتهم في أنفسهم وفي أموالهم ما داموا في ديار الإسلام. بل يذهب في التسهيل عليهم إلى حد بعيد: ذلك أنه يمنحهم أنواعاً من الامتيازات، ويعفيهم من بعض ما ينفذه على المسلمين من أحكام، ولا يؤاخذهم إلا على الجرائم التي تهدد أمن الدولة وسلامتها، أو يكون فيها اعتداء على المسلمين ومن في حكمهم

وقد توسع الإسلام في هذا الباب توسعاً عظيما: فجعل لأفراد المسلمين حق إعطاء ذلك الأمان يسعى بذمتهم أدناهم، ولم يشترط في ذلك إلا ما يضمن على المسلمين سلامتهم كالتأكد من أنه ليس للمستأمنين قوة ولا متعة، ولا يبدو عليهم مظاهر الركون إلى الفتنة أو التجسس على المسلمين. وليس معنى هذا أن الإسلام ينسى حق الإمام المهيمن على شئون المسلمين، بل جعل له بمقتضى هيمنته العامة وتقديره لوجود المصلحة إبطال أي آمان لم يصادف محله، أو لم يستوف شروطه، كما له أن يقيد آمان الأفراد ويمنع إقدامهم عليه

والأصل في هذا المبدأ الذي فيه روح السماحة على نحو لا يعرف له مثال حتى في الأمم المتحضرة الآن قوله تعالى:

(وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم ابلغه مأمنه)

والإسلام يبيح بهذا الأمان تبادل التجارة بين المسلمين والمحاربين، وتبادل المنافع الأخرى والثقافة وسائر الأعمال

وهو لا يقيد المسلمين في ذلك إلا بان يحتاطوا لأنفسهم ودينهم ودولتهم، ولذلك يحرم عليهم أن يبيعوا السلاح والذخيرة والخيل والعتاد الحربي إلى أعدائهم

وهو في الوقت نفسه يهيئ بهذا الأمان فرصة للمستأمنين تمكنهم من تفهم حقيقة الإسلام وإدراك أغراضه عن كثب. ولقد كان للإسلام من ذلك وسيلة قوية لنشر دعوته وإيصال كلمة الله إلى كثير من الأقاليم النائية من غير حرب ولا قتال

ويقرر الفقهاء (انه يجيب على الإمام - إذا وقت للمستأمن مدة - إلا يجعل المدة قليلة كالشهر والشهرين، فإن في ذلك إلحاق العسر به خصوصاً إذا كان له معاملات يحتاج في اقتضائها إلى زمان طويل)

6 - ومن تقاليد الإسلام في أثناء الحرب رعاية الرسل الذين يقومون بالسفارة بينه وبين المحاربين وشدة الحرص على سلامتهم وتكريمهم والمحافظة عليهم حتى يعودوا إلى مأمنهم، ورفض الاحتفاظ بهم ولو خلعوا أنفسهم من قومهم، وفي سيرة النبي صلى الله عليه وسلم شواهد كثيرة على ذلك من أروعها ما يرويه أبو رافع إذ يقول: بعثتني قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأتيته فوقع الإسلام في قلبي فرأيت إلا أعود إليهم. فقلت يا رسول الله: لا أرجع إليهم. فقال: إنني لا أخيس بالعهد ولا أحتبس البرد. ارجع إليهم، فأن كان في قلبك الذي فيه الآن فارجع إلينا

7 - ومن تشريع الإسلام في أثناء الحرب قاعدة معاملة الأسرى. أمر بالإحسان إليهم، وعدم مسهم بأذى، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأسير: احسنوا إساره. وقال اجمعوا ما عندكم من طعام فابعثوا به إليه

وقد حث القرآن الكريم على تكريم الأسرى عامة، وجعل ذلك من البر الذي هو علامة الإيمان فقال جل شأنه في التمدح بصفات المؤمنين:

(ويطعمون الطعام عل حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً)

وخير الإمام بين إطلاقهم من غير مقابل، وفدائهم على حسب ما يرى من المصلحة. وقد من النبي صلى الله عليه وسلم وفادى بالمال وبتعليم الأسارى أبناء المسلمين الكتابة. أما استرقاقه صلى الله عليه وسلم أو إباحته للاسترقاق فقد كان مجاراة لحالة اجتماعية سائدة في الأمم إذ ذاك. ولم يكن على وجه التشريع العام. وإنما التشريع العام في ذلك هو قوله تعالى: (فإما مَنًّا بعدُ وإما فداء)

وأن في التشريع القرآني للأسرى على هذا النحو مع تصرف النبي صلى الله عليه

وسلم ما يرشد إلى أن الإسلام يمنح الحاكم من الحقوق في ظروف خاصة ما يستطيع به علاج المشكلات الواقعة من غير أن يكون ذلك تشريعاً عاماً يسري حكمه على جميع الأزمان

8 - وكما شرع الإسلام معاملة الأسرى على أساس من الرأفة والرحمة شرّع للغنائم على أساس من العدل والمساواة فقرر حق تملكها لمن حازها من المتحاربين المسلمين وغيرهم في ذلك سواء

(البقية في العدد القادم)

محمود شلتوت

عبد القادر حمزة باشا

للدكتور زكي مبارك

منذ عامين مات الشاعر محمد الهراوي فغلبني الدمع بقوة وعنف، على قلة ما تدمع العين لفراق الراحلين من المعارف والأصحاب، وإنما كان ذلك لإيماني بأن الهراوي صديق لا تغيره الأيام ولا الليالي، فهو ثروة ضاعت من يدي إلى آخر الزمان

وفي هذه الأيام مات الكاتب عبد القادر حمزة فعرفت من جديد كيف تكون غزارة الدمع حين يموت الصديق، وكان عبد القادر صديقاً لا نظير له ولا مثيل، كان أخًّا نقي القلب، عذب الروح؛ وكان مثالاً نادراً في حفظ الوداد بالمحضر والمغيب. كان دنيا باسمة من الاخوَّة الروحية. كان كنزاً نزعتْه الأقدار من يدي، فأنا لفراقه مخزون إلى آخر الزمان

لم أفكر مرة واحدة في الانتفاع بجاه عبد القادر حمزة باشا، وكان رجلاً مسموع الكلمة عند من يملكون تصريف الأمور، وإنما زهدت في الانتفاع بجاهه لأصون ما بيني وبينه من الوداد عن شوائب المنافع الدنيوية، وإن كان انتفاع الصديق بجاه الصديق أمراً لا يغض من أقدار الرجال

كانت صداقة عبد القادر حمزة جوهراً من أكرم الجواهر. كانت ذخيرة يدّخرها الحر لزمانه، فما يبالي أين تقع الحوادث، ما دام عبد القادر بخير وعافية. وهل أنسى أنى لم أكن أبالي حوادث الأيام لأني كنت أعرف محفوظ في جريدة البلاغ لأرجع إليه حين أشاء؟

هل أنسى أنى أملك نحو عشرين خطاباً دَّبجها بيده صديقُ كريم يعزُّ القلم والبيان؟ هل أنسى أن الصداقة التي جمعت بيني وبينه لم تكن إلا نتيجة لعداوة أثرتها في وجهه بصدق وإخلاص، وكان رحمه الله من أهل الصدق والإخلاص؟

لاحظتُ مرة انه لا يستريح لبعض ما أكتب في جريدة البلاغ وكانت تناصر الوفد المصري وأنا أناصر الحزب الوطني، فكتبت إليه أستعفيه من الاشتراك في تحرير البلاغ، بحجة أنى لا استبيح الانتفاع بخزينة ليس مبدؤها من مبدئي ولا هواها من هواي، فكتب إليّ رحمة الله يقول:

(أكتب ما تشاء، وخزينة البلاغ تحت تصرفك)

فإن راجعتم (البلاغ) لذلك العهد ورأيتم فيه أشياء لا تنسجم مع سياسة (البلاغ) فاعرفوا أنها

من قلمي، القلم الذي تمرد على صاحب (البلاغ) ليظفر بمودة صاحب (البلاغ) وكان الصدق أعظم وسيلة لغزو ذلك القلب الأمين

لن ينقضي خزني لفراق عبد القادر، ولن أنسى جميلة أبداً

ولو أن قلمي استطاع الاستشهاد بجميع ما قال الشعراء في الرثاء، لما كان في ذلك ما يصور فجيعتي في (الصديق الذي وصل جناحي، وراش سهى) على حد التعبير الذي قدمت به إليه كتاب (ذكريات باريس)

صحبت عبد القادر نحو خمسة عشر عاماً، فلم أره إلا جذوةً من الأقباس الروحية. ولو أني قضيت هذه المدة مع عدو لتحول إلى صديق، فكيف ترونا صرنا - وقد قضينا هذه المدة في إخاء وصفاء؟ كيف ترونا صرنا وقد كان التعاون الصادق أساساً لما بيني من وداد؟

كان عبد القادر في أعوامه الخيرة يعتب على أشد العتب، لأني لا أمر بداره للسؤال عنه وهو مريض، وكنت اعرف كيف أعتِبُه فأقول: سألت عنك في (البلاغ)، وأنا لا اعرف لك داراً غير دار (البلاغ)

فمن يعزّ بني وقد ضاع حظي في عيادة ذلك العليل النبيل؟
من يعزيني ولم اسمع بموت عبد القادر إلا بعد أن فضَّ مأتمه فلم اشترك في حمل نعشه ولم أقبّل أن يوارَى التراب؟
من يعزيني في أخ كان لي وكنت له عوناً على الشدائد والخطوب؟
التفتُّ مرة، فلم أر غيره في سنة 1928؛ والتفتَ مرة، فلم ير غيري في سنة 1931، فإلي من التفتُ إذا دجت الخطوب وبيني وبين عبد القادرُ بعدُ ما بين الأحياء والأموات؟!
مات عبد القادر، مات أخي، فمن يعزيني؟
مات الرجل الذي لا يكذب ولا يغدر ولا يخون
مات الرجل الذي شهد خصومه بأن موته كان نكبة وطنية مات عبد القادر، مات أخي، فمن يعزيني؟
لو كان شق الجيوب من شمائل هذا العصر لشققت جيوبي، فلم يبق إلا أن اشق قلبي حزناً على عبد القادر، وإنه بذلك لخليق. وهل من الكثير أن يصر عني الحزن وقد فقدت صديقاً كان أعظم الذخائر في دنياي؟
وهل فقد الناس مثل من فقدت في قديم أو حديث؟
دلوني على صديق في مثل أخلاق عبد القادر، ليخلفّ عتبي على الأقدار التي أطفأت نوره الوهاج ولم يعد الثالثة والستين؟
دلوني على صديق لا يثور عليَّ ولا أثور عليه، وأن أسرفت الحوادث في إفساد ما بين الأصفياء
أمِثلك يموت، يا عبد القادر، وكان روحك بشير الخلود؟
نعاك الناعون وبكاك الباكون، يا عبد القادر، وأنا وحدي أحمل من رزئك الأثقال، لأني أول وآخر من ظفر بثقتك الغالية ولأنك أول وآخر من وثقت بهم بلا تحفظ ولا احتراس
ما أحرّ وجدي لفراقك، يا أخي وصديقي
وما أشقاني لبُعدك، يا أصدق من عرفت بين أحرار الرجال
أخي وصديقي:
أظلم نفسي وأظلم الحق إذا قلت بأن الدنيا لم تعرف رجلاً في مثل شمائلك، ولكني أظلم نفسي وأظلم الحق إذا قلت بأني عرفت في حياتي صديقاً أنفع منك، وكنت وحدك الرجل الذي أقنعني بأن للصداقة مكاناً بين أطايب الوجود
أنا حزين لفراقك، يا عبد القادر، حزين، حزين،
وإن امتد الأجل، فسوف أجزيك وفاءً بوفاء، وإخلاصاً بإخلاص.
أما بعد فما أحب أن يشغلني بكاء هذا الصديق عن شرح بعض الشمائل التي صار بها رجلاً يضر وينفع، ففي ذلك توجيه يستفيد به الناشئون من أبناء هذا الجيل
عرفت عبد القادر أول مرة - معرفة أدبية لا شخصية - عن طريق ما كان يكتب في (الأهالي) سنة 1919 وكانت جريدة صغيرة الحجم، ولكن أسلوبه في تحريرها كان يجعل منها جريدة قوية لا يستغني عنها من يحص على غذاء العقل والوجدان
ثم كانت (الأهالي) سميري وأنيسي في وحشة الاعتقال، لأنها كانت تساير جريدة (الأمة) لسان الحزب الوطني في ذلك الوقت، ومن لم ير كفاح (الأهالي) و (الأمة) في محاربة (مشروع ملنر) فليس من حقه أن يتوهم أنه شهد صيال الأقلام في خدمة القضية المصرية
كانت هاتان الجريدتان تصدران في الإسكندرية، وكان المعتقل الذي صرنا إليه بعد معتقل
قصر النيل يقع بضاحية (سيدي بشر) وكان قبل وصولنا إليه معموراً بجماعة من أسرى الألمان في الحرب الماضية
في تلك المدة فُتِنْتُ فتنة شديدة بالمحصول الذي يصدُر عن (الأمة) و (الأهالي)؛ فكان الجدل لا ينقطع بيني وبين إخواني من المعتقلين حول ذلك المحصول الجزيل، لأن المعتقلين كانوا ينقسمون إلى معسكرين: معسكر الحزب الوطني ومعسكر الوفد المصري
فلما قضى الله بانتهاء كرب الاعتقال كان أول همي أن ازور الأستاذ محمد الههياوي رئيس تحرير (الأمة) والأستاذ عبد القادر حمزة رئيس تحرير (الأهالي)

وفي جريدة الأمة لقيت فقيد الوطنية عبد اللطيف الصوفاني بك فحّياني والدمع في عينيه، وقدّم إليّ خمسة جنيهات لأقضي بها في الإسكندرية أياماً أنسى بها متاعب الاعتقال، فما دخلت الإسكندرية أول مرة إلا في سيارة مقفلة من سيارات الجيش الإنجليزي وفي ظلمات الليل

ومضت إلى جريدة الأهالي فرأيت فيها الأستاذ عبد القادر حمزة، ورأيت في صحبته رجلاً بساماً هو الأستاذ محمد أبو العزّ، وفتّىً عبوساً هو الأستاذ أحمد سعيد

وفي أوائل سنة 1921 دعاني الصوفاني بك لرياسة تحرير جريدة (الأفكار) وكنت من محرريها قبل الاعتقال، فبذلت ما بذلت من الجهود في تأييد الحزب الوطني ومقاومة الوفد المصري؛ ولكن الأقدار لم تمهلني في رياسة تحرير الأفكار

غير عام وبعض عام. فقد اتفق الصوفاني بك مع الأستاذ عبد القادر حمزة اتفاقاً بأن تصبح الجريدة (وطنية وفدية) واشترط الأستاذ عبد القادر شروطاً كان أهمها أن يكون حرّ التصرف في اختيار المحررين. واشترط الصوفاني بك أن يكون للحزب الوطني محرر يعتمد في رعاية ما يهم الحزب من دقائق الشؤون، وكان ذلك المحرر هو زكي مبارك. وَقبِل عبد القادر هذا الشرط وفي نفسه أشياء، ومن اجل هذا لم يسمح بأن أنشر في الأفكار غير مباحث أدبية لا تقدِّم ولا تؤخر في السياسة الحزبية!!

ثم فوجئ عبد القادر بأن لي نشاطاً صحفياً يغيب عن عينه الواعية، وهو مقالات كنت أرسلها إلى جريدة (الأمة) بإمضاءات مختلفات؛ فأدرك أن لا أمل في أن أسير كما يسير، وأني لو وجدت مسدساً لصوبته بلا ترفق إلى سعد زغلول!

عندئذٍ بدا لعبد القادر أنه يصاحب شاباً له أهداف، فوثق بي، وأخذ يحاول تبديد ما بيني وبين الوفد من بغضاء، وتلطف فدعاني إلى الاشتراك في تحرير البلاغ عند ظهوره في أوائل سنة 1923. ولكن رفضت بحجة أن هواي لن يزال مع الحزب الوطني

ولكن عبد القادر لم ينسى؛ فكان يدعوني من وقت إلى وقت لتحرير بعض المباحث الأدبية والاجتماعية. ثم دعاني إلى الاشتراك في تحرير (البلاغ الأسبوعي)؛ ثم رأى أن أكون مراسل البلاغ في باريس حين مضيت لطلب العلم في السوربون، ثم وصلت به الثقة إلى أبعد الحدود، فدعاني لرياسة تحرير البلاغ في سنة 1931

فمن أراد أن يعرف بعض الشمائل التي رفعت عبد القادر حمزة فليذكر أنه كان يحترم أصحاب المبادئ ولو كانوا من خصومه الألداء، فالعنف الذي وقع بيني وبينه كان سبب تآخينا وتصافينا، ومن أجل هذا كان ينشر مقالاتي بلا مراجعة ولو عارضت سياسة (البلاغ)

وهنا نادرة تستحق التسجيل، لما فيها من الدلالة على قوته الخلقية!

في سنة 1937 تعرّض البلاغ لأزمة مالية قضت بتخفيض مرتبات المحررين وإعفاء من يجوز عنهم الاستغناء، ونظرت فرأيت أن مرتبي لم يخصم منه شيء، فكنت أتغافل عن طلبه، ولكن إدارة البلاغ كانت تلاحقني فترسله إليّ بدون تسويف

وقدّرتُ في نفسي أن عبد القادر يستبقيني بالرغم من تلك الأزمة المالية، فأطعت أصدقائي من الوفديين ونقلت صحيفتي الأدبية إلى جريدة (المصري) وكان بينها وبين (البلاغ) ضغائن وحُقود. ولما سألني عبد القادر عن السبب أجبت بأني لا أرى رأيه في نشر ما كان ينشر من (فضائح الوثائق) ولم أذكر السبب الصحيح وهو رغبتي في إعفاء البلاغ من مرتبي فقد كنت أخشى أن أجرح عزة نفسي لو اقترحت العمل بالمجان، وكذلك ظلمت نفسي لأكرم صديقي بدون أن ادله على حقيقة ما أريد

وتحدث الناس بأن زكي مبارك عق صاحب البلاغ. فهل التفت صاحب البلاغ إلى أحاديث الناس؟

هيهات. فما تغيّر عبد القادر ولا تبدَّل، وإنما ظل أخاً وفياً إلى أبعد حدود الأخوة والوفاء

من يعزيني فيك يا عبد القادر، ومن يواسيني وقد غاب عني وجهك الجميل؟

ثم ماذا؟

ثم كان عبد القادر رجلاً يستعد للدهر والأيام اكمل استعداد. كان يدرك أن الرجل لا ينجح إلا إذا تسلح بقوة العزيمة وقوة النفس. فكان يقضى ليله ونهاره في تدبير وسائل الحياة لجريدة البلاغ. وقد حدثني مرة انه يحب أن يعيش صحفياً ويموت صحفياً، وأنه يشتهي أن ينقل لأبنائه هذا الميراث، ولم يحس أحد مدلول كلمة (المستقبل) بقدر إحساس هذا الفقيد النبيل.

عاش عبد القادر في متاعب جسام ثقال. فقد كان يعادي بعنف، ويصادق بعنف، ومن أجل هذا كانت حياته سلسلة من الآلام والآمال، والعواطف العنيفة تزلزل بنيان الجسد فتسوق إليه الموت قبل أوان الموت

وكان عبد القادر على قوته الصحفية يحترم حياة التأليف، لأنه أبقى على الزمان، فكان يقضي أوقات فراغه وهي قليلة في استقصاء حوادث التاريخ، ولو قال قائل بان عبد القادر هو أصدق مؤرخي مصر في القديم والحديث لما اتهمه أحد بالمبالغة والإغراق

وكان عبد القادر يحب أن تكون جريدته مَعرِضاً لجميع الآراء، فعلى صفحات البلاغ أثيرت مشكلات ومعضلات هي أقوى وأصدق ما صدر عن العقول والقلوب، وفي ميدان البلاغ تصاول المئات من أقطاب الفكر والبيان

وكان عبد القادر حر العقل، فلم يتذوق في حياته طعم البهلوانات لشعبية، ولم يفهم إلا أنه مسؤول أمام العقل، ومن هنا كانت جريدته أصدق صحيفة صانت النضال السياسي من أوضار التبذل والإسفاف

قالت جريدة المصري وهي خصم شريف:

(فقدنا زميلاً نصاوله إذا اختلفنا، ونناضله إذا احتدم النزاع)

وأقول إن النضال العف النزيه سوف يستوحش لغياب عبد القادر، وسوف يذكر خصومه أنهم فقدوا رجلاً كانت خصومته من علائم التشريف

أن جريدة المصري تكافح كفاح الأبطال في إعزاز الصحافة المصرية، فهل يدري صاحبها ومحرروها أن صاحب البلاغ كان السابق إلى رفع قواعد هذا البناء؟

ذهبت جريدة المؤيد، وبقى (بار المؤيد)

وذهبت جريدة اللواء، وبقى (بار اللواء)

فهل نضمن بعد اليوم أن يبقى (المصري) و (البلاغ) شاهديْن على قوة العقلية المصرية في البلاد المفطورة على حب الخلود؟

ثم أما بعد فأنا اشعر بأني لم أوفْ عبد القادر بعض ما يستحق من صادق الرثاء، لأني واجهت الموضوع وأنا في حزن يبلبل الروح، ويقلقل البيان

ولن يكون هذا آخر العهد يا عبد القادر، فسوف أشغل نفسي بتأريخ مواهبك السامية. بعد أن تذهب كروب الحرب ويلتفت الناس عن أكابر الرجال

زكي مبارك

عهد. . . وعهد

مقارنة وتعليل

للأستاذ محمد محمد المدني

لا أقارن بين عهد الأستاذ الأكبر المراغي، وعهد الأستاذ الأكبر الظواهري، فإني امرؤ مراغي بروحه وقلبه وقلمه، أخشى أن يؤثر ذلك في حكمي فأحيد عن الإنصاف!

ولكني أقارن بين عهد وعهد كلاهما للأستاذ الأكبر المراغي، وتلك مقارنة مأمونة النتيجة على كل حال، فسيرجع إليه فضل أحد العهدين مهما اخذ على الآخر

العهد الأول

إني أعود بذاكرتي إلى العهد الأول للأستاذ الأكبر المراغي فأرى روحاً طيبة ترفرف في أجواء الأزهر: هي روح المصلح الأمين الذي وضعت فيه الأمة ثقتها، وعلق عليه المفكرون آمالهم. هي روح المصلح الجريء الذي لا تأخذه في الحق لومة لائم، ولا يصرفه عما يرى من الإصلاح اعتبار من الاعتبارات، هي روح المصلح الغيور على دعوته، المدافع عنها دفاع الأسد الهصور يكتسح العقبات، ويقتلع العراقيل، ولا يفري فرية أحد! هي روح قوية غلابة متوثبة إلى الإصلاح، غيورة عليه، صريحة في أمره؛ تقهر العقبات ولا تقهرها العقبات، وتتحكم في العيوب ولا تتحكم فها العيوب!

هي روح جريئة تثير في الأزهر معركة إصلاحية جامعة حامية الوطيس هي أشبه بثورة عنيفة على الفساد في أي لون من ألوانه: على الجمود والكسل، على الجهل والتقليد، على الجحود والكفران، على الرجعية البالية العتيقة التي تتعصب على الحق، وتنفر من حكم العقل، وتعيش في ظل الأوهام

تولى الأستاذ الأكبر المراغي مشيخة الأزهر للمرة الأولى ولم قد داخل الأزهرين، ولا عاش في جوهم، ولا ابتلى بأساليبهم؛ ولكنه كان مع ذلك بصيراً بعيوب الأزهر وطرق إصلاحه كالطبيب الحاذق يعرف الداء ويصف الدواء

فما هو إلا أن ألقيت إليه مقاليده حتى مضى قدماً في طريق الإصلاح، لا يلوي على أحد، ولا يبطئ به شيء، بل كان له في ذلك نشاط عظيم، جعله يسبق القوانين أحياناً فينفذ
مشروعاته قبل أن تصدر
ولقد رج الأزهر يومئذ رجة عنيفة هي الرجة التي تصاحب دائماً عهود الثورة، وتغري المصلحين بالمضي في طريقها غير ناكصين، ومن يتتبع خطواته في الإصلاح يجدها خطوات واسعة وموفقة يرجع إليها الفضل من غير شك في كثير مما يتمتع به الأزهر الآن من خير؛ فقد أعد قانون الأزهر الذي يسير عليه الآن، وأعد مشروع بناء كلياته ومعاهده ومكتبته ومساكن طلابه على نمط سيكون به للأزهر أن شاء الله مدينة جامعية محترمة، وأنشأ قسم الوعظ والإرشاد ففتح بذلك للأزهر وللأمة وللدين ألواناً من الخير والصلاح ليس ينكرها أحد، ووضع أساساً جيداً لمجلة راقية - فيما كان يرجو - تصدر باسم الأزهر، فتنشر بين الناس ثقافته، وتعلن في مشكلات الحياة رأيه، وتهدي الأمة إلى أقوم السبل في دينها ودنياها، وأدخل في مناهج التعليم في الأزهر علوماً وكتباً ما كان الأزهريون من قبل يعرفونها، ورسم في كل ناحية من نواحي الإصلاح خطة جامعة جريئة؛ ونجح إلى حد ما في إصلاح نفوس الأزهريين، وفي كبح جماح العناصر الفاسدة المقاومة لفكرة الإصلاح، وفي توجيه المستعدين إلى العمل نحو النشاط والإنتاج!
وابتدأ الحظ السعيد يبسم للأزهر، وشهد التاريخ كيف أخذت هذه الجامعة الكبرى بأسباب النهوض والتقدم، ودلفت إلى طريق المجد والعظمة وآمن الناس بان للأزهر وجوداً، وبأن في الأزهر حياة!
ولكن الزمان لم يلبث أن استدار وتجهم، كأنما نَفِس هذه السعادةَ أن ترف على الأزهر ضلالها، فإذا الشيخ الأكبر يترك منصبه ولما يزل غرسه محتاجاً إلى التعهد والرعاية: خرج يومئذ من الأزهر خروجاً مفاجئاً لم يكن الناس يتوقعونه ولكنهم عرفوا فيما بعد أسبابه. وليس صحيحاً ما ذكره (عالم) في الرسالة من أن كثرة الأزهريين هي التي وقفت في سبيله وألجأته إلى ترك منصبه؛ فكلنا يعرف الأسباب الحقيقية التي من اجلها ترك الأستاذ الأكبر منصبه العظيم؛ وكلنا يعرف أن الأزهريين كبارهم وصغارهم ضلت أعناقهم له خاضعين ما دام في الأزهر، حتى إذا اعتزل منصبه نعب عليه قوم وتصايحوا، وأفحشوا من بعد في القول وجاءوا بإفك عظيم!
العهد الثاني
عاد الأستاذ الأكبر المراغي إلى منصبه بعد الثورة الأزهرية المعروفة، وترقب الناس جميعاً أن يتم من آيات الإصلاح ما بدأ، وان تعود إلى الأزهر روح (المراغية) القوية التي كانوا يعهدونها من قبل، وان تتلاحق في كتاب الأزهر الخالد - بعد مقدمته التي كتبها في عهده الأول - فصول مشرقة الصفحات، واضحة الأغراض، سليمة الأساليب والمعاني، ولكن الأيام توالت، والشهور تتابعت، والأعوام تلاحقت، ولو شئت لقلت أن حالة من الانتكاس قد أصابت الأزهر، وأن ريحاً من رياح الفناء توشك أن تهب عليه فتعصف به، ولكني لا أحب أن أقول ذلك، وإنما احب أن التزم القصد في التعبير فأقول: أن الناس لم يروا من الإمام ما كانوا يرقبون
هذه هي الحركة الفكرية في الأزهر قد سكنت ريحها، وخبت جذوتها، وما زال الأزهر عاكفاً على كتبه يدور بها حول نفسه، ويفني فيها زهرة شبابه، وينقطع بها عن الناس، فليس له اشتراك ذو قيمة في التشريع العملي للبلاد، وليس له صلة محترمة بأوساط العلم والثقافة، وليس له نشاط في إخراج كتب علمية أو أدبية كما يخرج الناس، وليس لمجلته أي اثر في توجيه العقول والأفكار، وإن كان لها في تشجيع الخرافات والأوهام!
وهذه هي الحركة الدراسية في الأزهر، تشكو من تهاون الرؤساء وطغيان الطلاب، وعدم قراءة المقررات، وضعف المستوى العلمي ضعفاً يشغل البال، ويغلق الأفكار
فما هو السر في ذلك كله؟
إن الذي يلي شئون الأزهر رجل مؤمن بفكرته إيماناً يداخل قلبه ويخالط نفسه، ويملك عليه جميع مشاعره: فهو حين يخطب يدعو إلى الإصلاح، وحين يكتب يدعو إلى الإصلاح، وحين يدرس يدعو إلى الإصلاح، وحين يجلس إلى الناس يدعو إلى الإصلاح، أليس في كل هذا دليل على أن فكرة الإصلاح قد تغلغلت في نفسه وأثرت في

تفكيره، ونطقت لسانه، وجرت قلمه، وانه حينما يدعو لها، ويحض عليها، إنما يلبي هُتافاً من نفسه، ووحياً من قلبه
ثم هو رجل لا يوزن وزانه في العلم والفقه وجودة النظر، له في ذلك بحث ومذكرات وآراء وقوانين وتوجيهات حقيق على تاريخ اعلم أن يخلدها، فليس كهؤلاء الدعاة الخلاة، أفئدتهم هواء وصيحاتهم أصوات طبول جوفاء!
ثم هو رجل في يده سلطان الأزهر، وتحت أمرته كل شيء فيه، وللأزهر استقلال يغبط عليه لم تصل إلى مثله جامعة حديثة. وليس في الأزهريين بحمد الله من يستطيع إذا جد الجد أن يقف على قدميه ليناوئ حركة الإصلاح!
وهو بعد هذا كله رجل ذو جاه ومنزلة بين الناس، يتمتع بين أولي الأمر وأصحاب السلطان بما لن يتمتع به أحد سواء من رجال الإصلاح: فالحكومة تحترمه، والشعب يقدره، ورجال العلم والفكر يحبونه، وولى الأمر - حفظه الله - يتوج هذا كله بعطفه ورعايته وتكريمه، ويفد إليه في دروسه يحيط به رجال دولته وأفذاذ أمته!
فماذا بقى بعد ذلك ليعطل الإصلاح، ويحول بين هذا الرجل العظيم وبين مُتَبوَّ إفي التاريخ عظيم؟!
ترجع العوامل التي تحول بين الأستاذ الأكبر وبين تنفيذُ برنامج الإصلاح الذي وضعه إلى نواح ثلاث:
1 - طبيعة الأزهر
2 - أحوال الطلاب
3 - السياسة العامة في الإدارة
وليس من الخير أن نفصل كل هذه العوامل عل هذا المنبر العام، ولكننا نكتفي بالإجمال رعاية لمقتضيات الأحوال
1 - طبيعة الأزهر
هناك نوع من الأعمال يكفي لكي ينجح المراء فيه أن يرجع إلى نفسه، ويعتمد على ما يبذله شخصياً من جهود، فالمؤلف
يستطيع أن يعكف على مراجعه، وينقطع إلى بحوثه وتأملاته، ويبذل من فكره وعقله ما يستطيع أن يبذل، فينتهي به الأمر إلى أن ينتج، أو يسير في طريق الإنتاج شوطاً يتناسب مع عمله وجهوده.
وهناك من الأعمال ما لابد فيه من تعاون، ولا تكفي فيه عبقرية العبقري، ولا جهد المجتهد، فالمعلم لا يستطيع أن يفيد بعلمه كل تلميذ، وإنما يفيد التلميذ القابل للتعلم، المستعد للفهم، الآخذ بالأسباب!
ومهمة المصلح كمهمة القائد من النوع الثاني، فكما أن القائد مهما كان شجاعاً عبقرياً محنكا، لا ينجح في خططه إلا إذا أسعفه جيش له صفات ممتازة واستعداد حسن يكفلان تنفيذ خطته على الوجه الأكمل. كذلك لا ينجح المصلح في إصلاحه إلا إذا كانت البيئة التي يعمل في دائرتها مستعدة لتلقي تعاليمه، غير متأبية بطبعها عليها.
والأستاذ الأكبر المراغي مصلح قد وضع خطط الإصلاح فأحسن وضعها، ولكن طبيعة الأزهر تحتاج في علاجها إلى الصبر ومثابرة وحسن تأت وسعة حيلة، كما تحتاج إلى انتهاز الفرص، وبث الدعاوة للأفكار الصالحة، وخلق القدوة وضرب المثل وتشجيع العاملين ومكافئة المنتجين. وكل ذلك يفعله الأستاذ الأكبر إلا تشجيع العاملين ومكافئة المنتجين: فهو حين يدرس يضرب للأزهريين بدراسته أحسن الامثال، ويعلمهم كيف يكون الإخلاص للعلم والاعتماد على الدليل والبرهان، ووزن النظريات العلمية بقيمتها الذاتية، لا بمنزلة أصحابها والقائلين بها؛ وهو يحسن الدعوة إلى مبادئ الإصلاح وينتهز لها الفرص؛ وهو يصابر الأزهريين ويحتال لهم، ولكنه لا يعمل شيئاً يشعر به العامل أنه راض عنه، يشعر به المهمل أنه راض عنه، ويشعر به أنه غاضب عليه. فالأزهري الذي يعمل ليله ونهاره ويقوم بواجبه خير قيام، كالأزهري النائم الغافل الذي يعمل لإرضاء الرسميات وحفظ المظاهر فقط، بل ربما كان للثاني من سنه أو من وسائله الخاصة ما يدفعه إلى الأمام دفعاً يسبق به العاملين. وقد كان من نتائج ذلك أن خيم الكسل في كثير من النواحي وقتل النشاط، وفترت حياة الأزهر العملية فتوراً صار مضرب الأمثال!
2 - أحوال الطلاب

عاد الأستاذ الأكبر إلى منصبه في ظروف يعرفها الذين يتابعون حركة الأزهر؛ وقد أوحت هذه الظروف إلى طلاب الأزهر والمعاهد الدينية أن لهم يداً في عودة الأستاذ الأكبر إلى منصبه، لأنهم نادوا به، وأضربوا من أجله، وشردوا في سبيل ذلك وأوذوا، فهم إذن جديرون بأن يصيبوا حظهم من المكافأة، وجديرون بأن تغمض العين عنهم إذ يتخففون من وطأة النظام ويحاولون الإفلات من هيمنة الرؤساء والأساتذة؛ وقد سارت سياسة الأزهر بالنسبة إليهم فعلاً في طريق من شأنها أن تشجعهم على هذا الفهم وتؤكدهُ لهم، فقد ألغوا أن يطلبوا فيجابوا إلى ما يطلبون، وأن يذنبوا فيغفر لهم ما يذنبون، وأن يعاقبوا ثمَ تقبل فيهم شفاعةُ الشافعينَ، واستباحوا أن يذهبوا إلى الإدارة العامة في كل صغيرةٍ وكبيرةٍ متخطينَ رؤسائهم المباشرينَ، فتراهم يقتحمونَ مكاتبها، ويشغلونَ موظفيها، ويدخلونَ عليهم من أقطارها، ويتنادون في أبهائها صاخبين لهم ضجيجٌ وعجيجٌ!

ومن الأنصاف أن نذكر أن هذه الحالة ليست خاصة بالأزهر وحده، وإنما هيَ حالة تصطلي بنيرانها المدارس المصرية جميعاً. فكلنا يعرف كيفَ تدخلت السياسة الحزبيةَ في نظمِ التربيةِ والتعليمِ والامتحانات تدخلاً يراد به التقرب إلى الطلاب وكسب تأييدهم، وكيفَ انبثت الفوضى في كلِ شيءٍ، وطغت على كلِ شيءٍ، فليسَ الأزهر وحدهُ هوِ المسؤول عن هذا العامل، ولا ينبغي أن يحمل عبؤه عليه من دون معاهد التعليم جميعاً، ولكننا فيما يظهر قد سبقنا غيرنا في هذهِ الناحيةِ وبرزنا فيها تبريزاً حتى أصبنا منها بطعنات في الصميمِ أساءت إلى النظام، والإدارةِ والعلمِ والكتبِ والمقرراتِ والامتحانات، وإلى المستوى العلمي والخلقي إساءة فظيعة، تحتاجُ إلى العمل السريع، وإلى الحزم الصادق، والعزائم المتكاتفة، إن كان لنا في بقاء الأزهر حاجةً!

السياسة العامة - 3

أرجو أن يسمح لي فضيلة الأستاذ الأكبر بأن أتوجه إليه في هذهِ الناحيةِ بشيءٍ منَ الصراحةِ، فأن فضيلتهُ يريدُ أن يسوسَ الأزهر سياسة قوامها إرضاء العناصر المختلفةِ فيهِ، وإرضاء العناصر المختلفة في الأزهر أمرٌ بعيد المنال أن لم يكن مستحيلاً، فإن المرء لا يجد بيئةً منَ البيئاتِ قد تفاوتت في التفكير حظاً ولوناً وطابعاً كالبيئةِ الأزهريةِ، والمصلح لا بد أن يكون جريئاً في إصلاحه، صريحاً في مداواةِ العللِ والأمراض، وكلنا يعرف أن في الأزهر قوماً مؤمنينَ بالإصلاح، وقوماً به كافرين، وعنهُ معوقينَ، كما أن فيه قوماً لم يتعودوا أن يأمنوا بشيءٍ أو يكفروا بشيء، فإذا كانَ من سياسة المصلح أن يستعين بخصومِ الإصلاحِ، أو بالذينَ لا يدركونَ أغراضهُ، ولا ينبعثونَ بطبيعةِ نفوسهم في طريقه، أو لا تمكنهم أحوالهم وسنهم وتربيتهم من تطبيقهِ، فإن الإصلاح من غير شكٍ فاشل، وأن الجهود التي تبذل في سبيله، والأموال التي تنفق عليه، ضائعة!

لا ينبغي أن تسيطر ظروف السن والأقدمية والأمر الواقع على كلِ شيء في الأزهر، فيظل التعيين في المناصبِ الكبرى وقفاً على الذين كلوا من شدةِ الإعياءِ، عن حملِ الأعباءِ

لا ينبغي أن يغفل عند تعيينِ جماعةِ كبارِ العلماء ما بقى مغفلاً حتى الآن من رعايةِ النشاطِ العلمي والقدرة على الإنتاجِ والعملِ وإقناعِ الناسِ بوجودِ الأزهر؛ فقد كانَ، الناس يعتقدونَ، وحق لهم أن يعتقدوا، أن عضوية هذهِ الجماعةِ مكافأةً على طول العمر، وتعويض للقعدة والضعفاءِ، لا على الإنتاج والتأثير في حياة الأمة

لا ينبغي أن نستعين بالذين لا يؤمنون بإصلاح ولا يبدون بمبادئ ولا يحفلون بمثل عليا، وليس لهم في الأزهر رسالة إلا التخزيل عن النهوض، والتعويق عن التقدم، بينما المتشبعون بالأفكار الإصلاحية القادرون على تحقيق مبادئها مبعدون عن تولي الأعمال الهامة لاعتبارات لا يصح أن يقام لها وزن في نظر المصلح.

لا ينبغي أن يدخل في توزيع الأعمال أن يندب فلان من اجل فلان، وأن يقصى فلان من اجل فلان، وأن يجتهد في تمثيل البلاد والأقاليم في كل عمل من الأعمال كأنها لجان عصبة الأمم!

لا ينبغي أن نرضى في الواقع المخجل في مجلة كمجلة الأزهر اجمع الناس على فساد إدارتها، وضعف مستواها، وانحرافها عن الطريق القويم الذي تقتضيه طبيعة رسالتها،

وأنها أصبحت طريقاً من طرق التكسب والتعيش وفتح البيوت، وهي مع ذلك محمية من أن تقع على عيوبها عين فضيلة الأستاذ الأكبر، ومن أن تصل الشكوى منها إلى مسامعه بوسائل يعتقد الناس أنها لا ترضيه!

لا ينبغي أن يكون في الأزهر أمرؤ يضع الأستاذ الأكبر فيه ثقته، ثم يعبث معتمداً على هذه الثقه بأمانة العلم أو العمل أو الإدارة أو النظام؛ فإنه لا يسيء بذلك إلى نفسه فقط ولكنه يسيء أيضاً إلى من ائتمنه ووضع فيه ثقته!

سيدي الأستاذ الأكبر:

معذرة فقد استرسل القلم، يملي عليه قلب لك مخلص وعلى عهدك غيور. فغض الطرف عما عسى أن يكون من الإسراف، لما تنطوي عليه النفس من الإخلاص، ولا تسمع فيّ وشاية الواشين ولا كيد الكائدين!

وفقك الله إلى ما يحبه لك اخلص محبيك

محمد محمد المدني

المدرس بكلية الشريعة

ألقاب الشرف والتعظيم عند العرب

للأب أنستاس ماري الكرملي

- 5 -

الدقس وهو الدِحْيَة - 13

الدقس وهو أيضاً: الدقوس والقدوس والعطوس والدعوس والدوقس. وكلها تعريب ,

قال الصاغاني: الدقس: الملك؛ وقال الأزهري: الدقوس، كصبور: الذي يستقدم في الحروب والغمرات كالقدوس (التاج)

وعندنا أن العرب كتبوها في أول الأمر: دقس كقفل ودُوقس بضم فواو وقاف ساكنتين فسين لتحقيق اللفظ الرومي أو الروماني الأصل. ثم وقع فيها القلب والإبدال، كما وقعا في كثير من الألفاظ المعربة، بل في العربية نفسها، فصارت: دقوس وقدوس. ولما كان بعضهم يقلب القاف عيناً، صيّروا قاف دقوس عيناً، فقالوا: دعوس كما قالوا القرناس والعرناس والقسوس والعسوس والنقل والنمل، وفرق بين القوم وفرَّع، أي حجز إلى نظائرها

وإما عطوس، فهو مقلوب دعوس، بجعل الدال طاءً من باب تفخيم الحروف كما قالوا: مد الحرف ومطه، ترياق ودرياق وطرياق (عن الجمهرة لابن دريد). اختدفة واختطفه (التاج) والدقس باللاتينية دليل القوم ورئيس الجيش وقائده ومقدم القوم والأمير والملك على حد ما قاله العرب. وكل ذلك من باب التوسع

وجاء في التاج في مادة (د ع س): (في النواد: رجل دعوس، عطوس، قدوس، دقوس: أي مقدام في الغمرات والحروب؛ وحرفه الصاغاني فقال: (في العمل) بدل (في الغمرات) آه

قلنا: لا تخريف عند الصاغاني، لأن الدقوس على ما نقلناه لك عن كلام الرومان هو دليل القوم في أي شيء كان في الغمرات والحروب، كما في الإهمال والمبرات. فاحفظه

والظاهر أن كتبة عهد الخلفاء لم يعرفوا أن سلفهم عربوا الكلمة بالأوجه التي ذكرناها، كما جهلها حملة الأقلام في عصرنا هذا. إما سَفَرة عهدنا فانهم سموه (دوق) أي بقاف في الآخر. وأما العرب الخلص فقد سموه (الثنيان)، كما مر الكلام عليه في (البدء) وأما أرباب اليراع في عصر الخلفاء، فعرفوه بالدوك بكاف في الآخر. قال أبو شامة في

كتاب الروضتين، في صفحة 183 من طبعة باريس: (وكان فيهم مائة كند، وثمانمائة من الخيالة المعروفين وملك عكاء، والدوك، (وهو يريد به يومئذ دوك النمسة)، واللوكات، نائب الباب، ومن الرّجالة ما لا يحصى) آه. أما دوك البندقية، المسمى عند الإفرنج دوج فسماه العرب (دوك) أو (دوج)؛ كما فرق الإفرنج بين الواحد والاخر، مخصصين (الدوج)، بمن يكون للبندقية، إلا أن القلقشندي كتب الدوج بالكاف وصرح بأنها بالجيم كجيم الفرنسية المعروفة بالكاف المشوبة بالجيم، أو الكاف المعقودة، أو الجيم المعقودة. وهذه عبارته (صبح الأعشى 5: 485): (كل ملك منهم (من ملوك البندقية) يسمونه دوك، بالكاف المشوبة بالجيم، فيقال (دوك البندقية)، وهذا اللقب

جارٍ على ملوكهم إلى آخر الوقت) آه.
فانظر - حرسك الله - إلى كم صورة من الصور انتقلت كلمة اللاتينية، فإنها بَدَتْ لك بأثواب مختلفة؛ منها: دُقس، ودَوْقس. ودُقوس. وقَدُوس. ودَعُوس. وعَطُوس. ودوق. ودوك. ودوج. ولعل ثم غيرها ونحن نجهلها إذ رأينا بعض المعربين عن الإنكليزية في عهدنا هذا يقولون (ديوك)، و (ديوق) لأن الإنكليز ينطقون بها كذلك. فهذه إذاً إحدى عشرة لغة، فتدبر!
على أن أبناء مُضر، لو كانوا واقفين على كلام من تقدمهم من اللغويين البصراء، لما احتاجوا إلى كل ذلك، لأن عربيتها الصحيحة والقديمة هي - ما عدى (الثنيان) - (الدِّحيَة) بكسر الأول وأصلها (دحي)، فعل بمعنى فاعل وفي الآخر تاء المبالغة وهو من دحي الإبل وغيرها أي ساقها. وهب تشبه في نجارها الكلمة المشتقة من بمعنى ساق، فالحرف والحرف وإن كان في مواطن أخر= (ق) أو (ك)؛ إنما هنا=ح. كما قالوا في حْيفا وفي حران أو وفي حرْتك (أي صغير) وفي حليم إلى نظائرها. ولا يعلم هل (دحي) أو (دحا) سبقت اللاتينية، أم الرومية سبقت الضادية. وفعل هنا بمعنى فاعل: كندّ وتبْع؛ وخلف بمعنى نادّ وتابع وخالف.
إما أن الداحية هو بمعنى الدوق اللاتينية فواضح من كلام الشارح. قال في تركيب (د. ح. ي): الدحية بالكسر: رئيس الجند ومقدمهم، أو الرئيس مطلقاً في لغة اليمن (كذا) كما في الروض للسهيلي. وقال أبو عمرو: اصل هذه الكلمة السيد بالفارسية (كذا)، وكأنه من دحا يدحوه: إذا بسطه ومهده لأن الرئيس له البسط والتمهيد. وقلب الواو فيه ياءً نضير قلبها في
فتية وصبية. قلت (أي الشارح): فإذاً صواب ذكره في دحا دحواً. وفي الحديث يدخل البيت المعمور كل يوم سبعون ألف دحية، مع كل دحية سبعون ألف ملك) آه كلام الشارح
قلنا: وكل ذلك موافق لما ذكره اللغويون اللاتين للكلمة فليست الدِحْيَة إذن من لغة اليمن، ولا من الفارسية فهي عربية محضة، وهي تشبه مقلوبها (حدا يَحدو) يقال: حدا الإبل ساقها، وحدت الريح السحاب: ساقته. ولاشك في أن (حدا) مقلوب (دحا) أو (دحي). لأن (دحا) موجودة في العبرية والإرَمية، بخلاف (حَدا). ووجود (دحا) في اللغات الثلاث الساميات القديمات: العبرية، والعربية، والإرمية. أدل دليل على أن اللاتين هم الذين اخذوا لفضتهم من الساميين، منذ اقدم الأزمنة، لو جاز لنا هذا القول

المركيس - 14

المَرْزُبَان - 15

لم تعرب المركيس في قديم الزمن، إنما عربت في عهد العباسيين، لأنها نشأت في عهدهم؛ وكثيراً ما وردت في كتب المؤرخين، كقول ابن الأثير في سنة 83 هـ: (واتفق أن إنساناً من الفرنج الذين داخل البحرية يقال له (المركيس) آه.
وفي أغلب النسخ ورد: المركيش بالشين المعجمة. وقد كثر ورود هذا اللقب في جميع كتب التاريخ في عهد الصليبيين؛ حتى أننا لا نرى حاجة إلى الاستشهاد بها. على أن بعض المعربين النقلة في عصرنا هذا يذكرونها بصورة مركيز، وماركيز، وماركيس (راجع المعاجم الفرنسية العربية). وفي معجم نجاري بك الفرنسي العربي: (ماركي) وهو لفظها الفرنسي: وسمى مؤنثها (ماركيزة)؛ وكان عليه أن يقول: (ماركيز) جرياً على لفظها الفرنسي أيضاً. أو كان يحسن به أن يقول في المذكر: (ماركيز) ليصح له أن يقول في المؤنث (ما ركيزة). والذين نقلوا الكلمة عن الإنكليزية قالوا: ماركويس ومركيز (راجع معجم بادجر الإنكليزي العربي). فهذه سبع لغات لحف واحد أعجمي.
وأحسنها مركيس بسين مهملة في الآخر، لقدمها وقربها من اصلها وخفة لفظها والمركيس مشتقة من ومعناها التخم، والحط، والثغر، والفرجة. فكان لمركيس رجلاً عسكرياً قائماً على حفظ الثغر، ثم نقل إلى لقب شرف. وهذا اللقب الإفرنجي، يقابل اللقب
الفارسي (مَرْزُبان)، بفتح الميم، وإسكان الراء وضم الزاي وفتح الباء الموحدة التحتية، يليها ألف فنون.
والكلمة مركبة من (مرْزَ) وهو حد المملكة وثغرها. ومن (بان) أي حافظ. ومحصلها (حافظ الثغر) كالمركيس سواء بسواء

ومن الغريب أن القاموس والتاج يذكرانها في (رزب)، وكان الأفضل أن تذكر فيه (مرز) أو في (م رزب أن) لأنها تعتبر مركبة من صدر وعجز، أي من (مرز) و (بان) أو تعتبر كلمة واحدة وجميع أحرفها أصولاً، لأنها أعجمية، وقد صرحوا مراراً لا تحصى أن أحرف الأعجمي كلها أصول. قال القاموس والتاج في (رزب):

تقول: فلان على مرزبة كذا. وله مرزبة كذا كما .(المرزبة كمرحلة رياسة الفرس) تقول: له دهقنة كذا. (وهو مرزبانهم بضم الزاي): رئيسهم، تكلموا به قديماً. كذا في شفاء الغليل. وفي الحديث: أتيت الحيرة فرايتهم يسجدون لمرزبان لهم. هو بضم الزاي وهو الفرس الشجاع المقدم على القوم دون الملك، وهو معرَّب (ج مرازبة) وفي لسان العرب: وأما المرازب من الفرس، فمعرب. وقال ابن بري: حُكى عن الأصمعي أنه يقال: الرئيس من العجم: مَرْزُبان ومَرْزُبان بالراء والزاي وانشد في المعجم لبعض الشعراء:

الدارُ دَارَانِ: إيوان وغمدان ... والملكُ ملكان: ساسان وقحطان
والأرض فارس والإقليم بابل والْ ... إسلام مكة والدنيا خراسان

إلى أن قال:

قد رتب الناس جمٌّ في مراتبهم ... فمرزبانٌ وبطريق وظرخانُ

وقال المسعودي في التنبيه والإشراف (ص 103 من طبعة الإفرنج): (فإما المرزبان، فهو صاحب الثغر، لان (المرْز) هو الثغر بلغتهم، و (بان): القيم. وكانت المرازبة أربعة: للمشرق والمغرب والشمال والجنوب كل واحد على ربع المملكة)

وأما اللغويون المحدثون، فذكروا المرزبان في (مرز) أيضاً فهم كالشاء، وقد قيل في المثل يا شاة أين تذهبين؟ قالت: أَجَزْ مع المجزوزين؛ أو كالقرار وقد قيل فيها: نزْو الفرار استجهل الفُرار

(له صلة)

الأب أنستاس ماري الكرملي
من أعضاء مجمع الأول للغة العربية

ذكريات السنين الخمس
عبد القادر حمزة باشا

للأستاذ محمود الشرقاوي

في قرب الساعة الحادية عشر من صباح يوم الاثنين 4 يونيو لسنة 1934 قدم إلى حيث كنا نشتغل بتحرير صحيفة أدبية أحد السعاة في جريدة (البلاغ) وطلب إلي أن أتوجه لملاقاة الأستاذ عبد القادر حمزة؛ وفي مساء ذلك اليوم لقيت لأول مرة ذلك الرجل الذي أحببته وأكبرته. وبدأت عملي محرراً في (البلاغ) خمس سنين

كنت قبل هذا التاريخ لا يفوتني شيء مما يكتبة عبد القادر حمزة. وكنت أجد في قرأته مثل ما يجد الشارب الذوَّاق من كأس خمر معتق؛ فلما اتصلت بيني وبينه الأسباب وخالطته بالعمل والعشرة زاد حبي له وزدت إعجاباً بشخصه

إما عبد القادر حمزة الكاتب والسياسي والمؤرخ، وعبد القادر حمزة المجاهد الصادق الجهاد في سبيل مصر والحركة الوطنية والدستور، وعبد القادر حمزة الخصم السياسي، فذلك كله ليس من شأني أن اكتب عنه اليوم لقراء (الرسالة)؛ فقد كتب فيه وسيكتب كثيرون غيري. وسيكب التاريخ عن هذا كله كلمة الحق

إما أنا فساكتب شيئاً من ذكريات تلك السنين الخمس التي قضيتها في صحبة عبد القادر حمزة باشا صاحب (البلاغ)

كان أستاذنا عبد القادر رجلاً أمْيز ما ينفرد به من الخلق: الطيبة والتواضع وبساطة النفس والعناد ثم الانكفاف عن الناس وعفة القلم واللسان

في صبّاح يوم من صيف إحدى السنوات القريبة أراد المرحوم عبد القادر باشا أن يزور رجلاً من كبار رجال الدولة في ذلك العهد. وكان عملي في (البلاغ) يجعلني من ألصق الناس بذلك الرجل، فناداني الأستاذ عبد القادر وطلب أن أرافقه في زيارة ذلك العظيم ليشكره على أمر ما

فلما أخذنا أماكن جلوسنا في سيارة الأستاذ بدأت أحدثه عن ذلك العظيم، فقال إنه لا يعرفه إلا أقل المعرفة، وأنه لم يجتمع به سوى مرات قليلة في مناسبات مكتفياً

بالتحية من بعيد، فتعجبت مما قال! كيف لا يعرف الأستاذ عبد القادر حمزة وهو من ابرز رجال المجتمع
المصري ذلك الرجل الكبير من رجال الدولة. . .!؟ وكان له في ذلك الحين شأن عظيم حتى في الأمور السياسية التي يشتغل بها صاحب البلاغ؛ ولكن هكذا كان عبد القادر حمزة قليل الأصدقاء قليل الخلطة بالناس منكفاً عنهم بما يستطيع
وفي ذلك الوقت نفسه كانت الخصومة السياسية عل اشد عنفوانها بين البلاغ وبين حكومة يؤيدها صاحب المقام الرفيع النحاس باشا. وكانت صحف الوفد في ذلك الحين تذكر اسم عبد القادر حمزة مقترناً باسم ذلك العظيم الذي كنا نقصد زيارته، وأنهما يجتمعان في قصر عظيم آخر كان اسمه في ذلك الوقت ابرز الأسماء في ميدان السياسة المصرية المعارضة للنحاس باشا، وكان من كبار رجال القصر. فقلت للأستاذ عبد القادر: ولكن صحف الوفد تقول انك تجتمع مع هلك العظيم في قصر فلان لتدبير المؤامرات لحكومة النحاس باشا. فأجاب الأستاذ بهدوئه العظيم: دعهم يقولون ثم عرفت بعد ذلك أنه كان صادقاً حين قال إنه لا يعرف ذلك العظيم ولم يجلس إليه قبل تلك الزيارة
وكان الأستاذ عبد القادر حمزة رجل كفاح وجلد، عظيم الثقة بنفسه إلى حد عجيب بعد هذا التاريخ بسنتين كان ذلك الصراع الهائل الجبار الذي سيبقى خالداً في تاريخ الصحافة المصرية، وخالداً في تاريخ السياسة المصرية كلها، ذلك الصراع الذي قام به عبد القادر حمزة وحده مواجهاً به ومتحدياً أقوى حكومة استندت إلى قوة الرأي العام المصري والى قوة البرلمان وإلى عزة النجاح في مفاوضة الإنكليز وتوقيع معاهدة معهم، والى إلغاء الامتيازات الأجنبية وأنها سيطرتها. وكان عبد القادر حمزة يبدو لنا في ذلك الحين - وأنا أحد الذين عملوا معه في ذلك الصراع - كان يبدو لنا كمن يريد أن يمسك بأصابعه الخمس جبلاً شامخاً راسخاً صلداً فيفتته ويجعل منه تراباً منهلاً ولكن عبد القادر حمزة ظل يكافح في كل يوم وحدهُ حتى نخر الجبل الشامخ الراسخ، ولم تهنْ عزيمتهُ يوماً، ولم يفقد ثقتهُ بنفسه على الرغم ما لقي في ذلك من موئسات كانت تهد عزمُ الجليد في أيام ذلك الصراع العجيب، كان يهيئ حملاتهُ الصحفية ويرقبها بفكر منظمْ لا يستطيع أن يهيئهُ سواه
وكانت إحدى حملاته تلك تقوم على وثائق تثبت سوء اختيار الوزارة القائمة إذ ذاك لتوزيع
الرتب والألقاب الملكية؛ وكلفني الحصول الحصول على وثيقة تثبت أن واحداً من الذين نالوا رتب التشريف إذ ذاك من أصحاب السلوك السيئ. واستطعت أن أنقل إليه الصيغة الرسمية لتلك الوثيقة من حفظي وقدمتها إليه وهو لا يكاد يصدقْ. ومرت الأيام والأسابيع ولمْ يبدأ حملته تلكْ ولم ينشر وثيقتي أو يشر إليها، حتى ظننتُ أنهُ لمْ يعتمد على ثقتي
ولكنهُ بعد وقت طويل بدأ بنشر وثائق تلكَ الحملة بعدَ أن هيأها فكرة المنظم العجيب؛ وكانت وثيقتي واحدة من نظريات كثيرات جعل منها عبد القادر حمزة من أعظم ما قام به صحفي في مصر: براعة وقوة وتوفيقاً
وهو في كل هذا الصراع القاتل لمْ ينس مرة واحدة عفة قلمه ولسانه في الخصومة. لا أذكر أني سمعتُ منه في ألد خصومه أعنف من هذهِ الكمة: (هؤلاءِ ناس مضللون!) كان محرر (السينما والمسرح) في (البلاغ) في إحدى تلك السنين شاباً قليل الخبرة، ولو أنهُ طاهر النفس. فكتب عن إحدى الممثلات المصريات كلمة ذات وجهين أحدهما قبيح؛ وتحدثت هي في ذلك بالتلفون إلى عبد القادر باشا، وبعد لحظة دعا ذلكَ المحرر عندهُ، وعنفهُ أشد التعنيف، وأمر بفصله من (البلاغ) وكان كثيراً ما يفعل ذلك معهُ ومع غيره ثمْ يعفو، ولكنهُ في هذهِ المرة لم يقبل فيه شفاعة شافع. ولم ير العاملون مع عبد القادر حمزة أنه غضب من شئ بمثل ما غضب في ذاك.
وكان من صفات عبد القادر حمزة أنهُ عنيف في حبه عنيف في بغضه، وذلك شأن صاحب القلب العظيم
ذلك الصراع الذي أشرت إليه بينه وبين خصومه في السياسة والحكم دام سنتين لقي فيها عبد القادر حمزة من العنت والجبروت ما يوهن عزائمْ جيش من الرجال الصامدين؛ وكان هو من بين تلك الزعازع كالأشم الراسخ، لا تنال منهُ الرياح ولا

الأعاصير، ولا يزيده العنت إلا عناداً. كنا نراه في (البلاغ) يزلزلُ أقدامَ خصومه في كلِ يوم. ثم هو يسير إلى حجرته صامتاً ويجلس إلى مكتبه صامتاً، ويكتب ويراجع ويصحح صامتاً، ويعود للعمل في المساء معنا صامتاً، كأن هذهِ القيامة القائمة في مصر ليست منه ولا بسببه؛ وكان في أشد الأيام حلوكة وسواداً لا بني يقول: نحن قريبون من النصر. ولست أنسى ضحى ذلك اليوم وقد انتهى فيه صراع عبد القادر حمزة إلى نجاح فريد، وقد صعد ذلك الرجل الوقور

على درج (البلاغ) متهلل الوجه غير صامت. بل كان يعلن إلى كل من يلاقيه في صوت قوى: لقد اقبل (. . . .). . .!

ولا يزال في وعي صوت عبد القادر حمزة إذ ذاك أحس فيهِ قوى الغلب والنصر بعد كفاح طويل وبعد صبر طويل. ذلك قلب الرجل الذي قوي في بغضه قوي في حبه، وذلك هو كان في بغضه!

أما عبد القادر حمزة في حبه، فذلك شئ عجيب

في صيف سنة 1938 وكانَ المرحوم عبد القادر باشا مسافراً إلى أوربا، وكنتُ إذ ذاك في الإسكندرية؛ فذهبت لوداعه على الباخرة محمد علي الكبير. وبقيت معهُ على ظهرها حتى أوشكت على الرحيل. ونظرت إلى وجه أستاذنا العظيم في تلك اللحظة القاسية - لحظة الوداع - وكان إلى جانبه أحد أولاده وقد وقف ينظر وكأنه يبكي، إلى أولاده الآخَر ومودعيه على الميناء. فلما أوشكت الباخرة أن تسير، سمعته يميل على ولده يقول: (انزل يا محمود وروَّح مع اخوتك من الشمس)

وبعد قليل نزل ولده ونزلت. وقد أحسست في ذلك الوقت أنهُ ما كان مشفقاً على ولده من حرقة الشمس وحدها؛ بل كان مشفقاً عليهم وعلى نفسه حرقة تلك اللحظة القاسية - لحظة الوداع - فقد كان عبد القادر حمزة حين تحركت محمد علي الكبير منحرفة إلى البحر وقد أخرج الركب أيديهم ومناديلهم يشيرون بها إلى مودعيهم وأحبائهم. كان عبد القادر حمزة أسرعهم جميعاً إلى التواري وأقلهم إشارة وحركة لقد كان يشفق على نفسه أن يطيل ساعة الوداع، وقد كان قبل ذلك بقليل يسلّم على ولده ويدهُ ترتعش ولا يكاد يبين من لفظه صوت

أما ذلك اليوم الذي ماتتْ فيه ابنته سعاد؛ وأما تلك الساعة التي ذهبنا فيها معه فيها نواريها التراب، حين نزل معها إلى فجوة القبر وانحاز إلى ركن منه مظلم رطيب، وأما حينَ هو يبكي كطفل ورأسهُ بين يديه لا يريد أن يترك ابنتهُ، على رغم أنه يغالب حزنه العظيم ونحن معهُ فلا يستطيع. أما ذلك اليوم وهذهِ الساعة من حزن عبد القادر حمزة وعصيانهُ أن يصعد من قبر فتاته وقد وسدت في الترابْ.

أما هذا وذاك فشئ لا أنساه ولا أستطيع أن أكتب فيه

وفي شتاء سنة 1938 - 1939 - انسللت من تحرير البلاغ مخاصماً وفارقت أستاذي عبد القادر لأسباب ليست من العمل ولا من المال، ولكنها أجلَّ عندي من العمل والمال.

وقد ظللت وسأظل أذكر عبد القادر حمزة فقد أحببته على الغيب والشهادة

رحمه الله وأجمل أعزاءنا فيه وصبر جميل

محمود الشرقاوي

الفقيد العزيز

للأستاذ علي شوقي

خلعتُ ردآء الشباب الْجَديدْ ... وأُلبِستُ تاجَ المشيب النضيدْ
وأصبحتُ نضواً مهيض الجناح ... وقد كنت آوى لركن شديد
وما شاب رأسي ولكنه ... ضَحَى ظلُّ الشباب المديد
فقل لعذولي مضت وانقضت ... ليالي التصابي وتلك العهود
وإني فقدت الشباب العزيز ... ألا رحم الله ذاك الفقيد
وعدتُ من الحب خلو الفؤاد ... ما كنت أحسب إني أعود
وحطمتّ كأسي وأنسِيت أُنسي ... فلا اللهو لهو ولا الغيد غيد
وقطّعتُ باليأس حبل الرجاء ... وألقيت عنيَ تلك القيود
فما يستبينيَ سحرُ العيون ... ولا يطّبينيَ وردُ الخدود
وقلت لجفني هَناك المنامُ ... فيا طالما كنت تشكو الهجود

وقلت لقلبي اغتبط بالسلوِّ ... فهذا الذي كنت منه تحيد
وجنَّبت نفسي خداع المنى ... وتغرير شيطانهن الْمَريد
وكنتُ امرأ مولعاً بالجمال ... إذا ما انقضت صبوة أستعيد
على أنني كنت ذاك الوفيَّ ... الشريفَ الأبيَّ الأليفِ الودود
ولم آت بائقةً في الغرام ... تسلُّ عليَّ لسان الحسود
وذلك أني صحبت الليالي ... فأوحين لي سر هذا الوجود
وعلمنَني كل ما ينبغي ... لمن يبتغي طول عيش رغيد
كما أنني قد خبرت الأنام ... وما رست إيعادهم والوعود
فما راقني العهد من صاحب ... ولا راعني من عدّو وعيد
وبتُّ من الناس في راحة ... سواء قريبهم والبعيد
أعيشُ كما عاش ليثُ الشَّري ... وحيداً وهل ذلّ ليثٌ وحيد
يروح ويغدو على قُوته ... ويكفيه من قوته ما يصيد
أسيرَ الحياة طريدَ الممات ... ألا فأعجبوا للأسير الطريد
وما لامرئ لذة في حياة ... إذا آذنت ناره بالخمود
فلا يستخفن عبَء الحياة ... فعبء الحياة ثقيل يؤود
وإن قد زيد في عمره ... فآية نقصانه أن يزيد
ولولا تكاليف هذى الحياة ... لما سئم العيشَ فيها لبيد

علي شوقي

نيابة بعض حروف الجر عن بعض

للأستاذ الكبير (ا. ع)

كان لكلمة الشاعر الكبير الأستاذ محمد محمد عبد الغني حسن (بالعدد 409 من الرسالة) أثر بالغ في نفسي، لأدبها الجم، وإنصافها للحق

ولقد حمدت هذه الكلمة التعقيبية على أن أتاحت لي موضوعاً تمنيت أن أكتب فيه، موضوعاً كثرت فيه وقفاتي في مجالس التعليم، لما كنت أرى من إهماله وسوء فهمه وتشويه الغرض منه

هذا الموضوع هو (نيابة بعض حروف الجر عن بعض).

قال الأستاذ:

أما قول الأستاذ الفاضل: أن الفعل (تفيأ) يتعدّى بالباء، أو بنفسه كما صنع أبو تمام،) ولا يتعدّى باللام، كما جاء في قصيدة (ميلاد نبيَّ)، فهو قول نقبله على العين والرأس ولكني أضيف إليه أن تعدية هذا الفعل باللام ليست خطأ؛ فحروف الجر ينوب بعضها عن البعض).

هكذا أطلق الأستاذ هذا الحكم من كل قيد، فيتوهم من هذا الإطلاق أن كل حرف من حروف الجر يجوز أن ينوب عن أي حرف آخر منها. وهو ما لم يقل به أحد من النحويين القدماء أو المحدثين. ولا يمكن أن يعتقده الأستاذ أو يقول به. وإنما هي عبارة شاعت على الألسنة، وتناقلها الناس منذ بعيد من غير تأمل أو بحث

فلهذا أردت أن أوضح المقام بعض التوضيح، وأن أكشف عن أسسه العامة وقواعده. ولستُ أدعي أني أضيف إليه جديداً؛ فقد بسطه العلماء بسطاً، وأفاضوا فيه إفاضة ليس وراءها من مزيد، وإن كانوا قد أثاروا في خلافهم ومناقشاتهم عجاجاً استبهم وراءه بعض الحقائق أو أشكل

لما تدارس العلماء كتاب الله والشعر القديم، منذ فجر النهضة العلمية الإسلامية، فطنوا لأن بعض الأفعال والمشتقات التي تتعدى ببعض حروف الجر، تؤدي معنى غير معناها الوضعي فعكفوا على تعليل ذلك، انقسموا جماعات وأشهرهم البصريون والكوفيون فالبصريون يقولونَ: (1) إما يتضمن العامل معنى عامل آخر يتعدى بذلك الحرف، كما في

قوله تعالى: (وأحسن بي إذ أخرجني من السجن). فالفعل (أحسن) لا يتعدى بالباء، فضَّمن معنى (لطف)؛ (2) وإما بأن الحرف الذي تعّدى به العامل قد استعير لمعنى الحرف الذي كان ينبغي أن يتعدى به - استعارة تبعية - وذلك كقول طرفة:

وإن يلتق الحي الجميع تُلاقني ... إلى ذروة البيت الكريم المصَّمد

فقد استعيرت (إلى) لمعنى (في)، إذ أن (تلاقني) لا يتعدى بالي؛ (3) وإما بالشذوذ، إن

لم يأت التضمين في العامل بشروطه أو الاستعارة في الحرف بشروطها. فليرجع القارئ إلى هذه الشروط في كتب البلاغة إن شاء
فأنت قد رأيت أنه لا نيابة لحرف أنه عن حرف عند البصريين، فليس للحرف معنى وضعي عندهم إلا معنى واحد
وللتضمين قياسي على المختار من أقوال العلماء وعلى ما قرره (مجمع فؤاد الأول للغة العربية) - وكذا الاستعارة في الحرف. فلنا إذا أن نترخص فيهما، وأن نراعي منهما في كلامنا من نظم أو نثر ما نشاء
وأما الكوفيون فيقولون: إن بعض حروف الجر ينوب عن بعض بطريق الوضع: أي إن الحرف موضوع لأكثر من معنى واحد، فهو مشترك وضعاً بين جميع ما ورد له من المعاني؛ فبعضها يكثر استعماله، وبعضها يقل. . فيوهم وضع ذي المعنى القليل الاستعمال موضع الكثير أن هناك معنيين اشتمل عليهما العامل: فلا تجوز عندهم في الحرف. وإنما هي نيابة محضة
وهاك مثالاً موضحاً: فقد عدّ ابن هشام للباء أربعة عشر معنى، منها الاستعلاء، قال: (نحو: (منْ إن تأمَنْه بِقنطار)، بدليل: (هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل.))
فالعرب - على رأي الكوفيين - قد وضعوا (على) والباء لمعنى الاستعلاء. غير أنه في (على) أكثر دوراناً منه في الباء.
فاعتبرت (على) أصلاً في هذا المعنى، واعتبرت الباء نائبة عنها، وإن كانت أصيلة فيه. فتأمنه بقنطار، أي عليه.
ولكن من يتتبع الكتب التي توسعت في الكلام على (نيابة بعض حروف الجر عن بعض)، - ولا سيما المغني - يجد فيها عراكاً عنيفاً حول الشواهد التي جئ بها لذلك؛ فهو بين آخذ
ورد، وجذب ودفع. فهذا يسلم بنيابة الحرف في مثال، وهذا يتأوله فيخرجه عنها بضروب من الحجاج والفلسفة النحوية. فسقطت بذلك في هذا المعترك طائفة ليست بالقليلة من الشواهد، كانت - لو أنها ظلت سالمة - تكون قوة لقياسية هذا الباب.
ولو أني أنشأت أضرب الأمثلة لذلك من هذه الكتب، لخرجت عما أنا بسبيله. ومن طريف مما يقال هنا أن سيبويه لم يعترف للباء إلا بمعنى واحد هو الإلصاق، وخرَّج عليه كل ما عدَّدوه من المعاني. وقال ابن عصفور: لو صحْ مجيء (إلى) بمعنى (في) لجاز: زيد إلى الكوفة
فأنت ترى كيف ضاقت بذلك دائرة النيابة في حروف الجر حتى كانت من النوادر. وقد عبر ابن هشام عن هذا المعنى في (مغني اللبيب)، في باب (التحذير من أمور اشتهرت بين المعربين، والصواب خلافها). قال: (منها) قولهم: ينوب بعض حروف الجر عن بعض؛ وهذا أيضاً مما يتداولونه ويستدلون به. وتصحيحه بإدخال (قد) على قولهم: (ينوب). وحينئذ فيتعذر استدلالهم به؛ إذ كل موضع ادعوا فيه ذلك، يقال لهم فيه: لا نسلم أن هذا مما وقعت فيه النيابة. ولو صح قولهم لجاز أن يقال: مررت في زيد، ودخلت من عمرو، وكتبت إلى القلم
فنيابة حرف من حروف الجر عن آخر عند الكوفيين ليست معبدة السبل، كما قد يُظَنَّ بادئ الرأي فإنه؛ يجب لقياسيتها ألا تَنْبو عن الذوق العربي وأساليبه في التعبير، وأن يكون الحرف النائب قد جاء بمعنى الحرف المنوب عنه وضعاً كما قد فهمت مما مر بك.
والآن فلنعد إلى بيت الأستاذ الذي كان مبعث هذا النقاش وقد رأيت أنه أجاب عن اعتراض على تعدية (يتفيئوا) باللام بأنه ليس خطأ. . . الخ. ويظهر انه اعتبر اللام نائبة عن الباء ولم أر فيما لديَّ من المراجع أن اللام تنوب عن الباء ولكنهم قالوا بنيابتها عن (في) كما في قوله تعالى: (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة)، وكقوله: (لا يجلبها لوقتها إلا هو) وكما في قولهم: (مضى لسبيله)
فعلى اعتبار أن اللام في البيت نائب عن (في) لم يخطئ الأستاذ في تعبيره مهتدياً بسليقته السليمة، وإن لم يَقصد هذه النيابة عند إنشاء البيت
هذا ما أمكن إيجازه من هذا الموضوع الذي ارجوا أن أكون قد وفقت للكشف عن وجه

الصواب فيه
(ا. ع)
رسَالَة الشِّعر
مُوسيقَى تائهة. . .!
(نانا. . .)
مهداة إلى الروح المتمرد الحزين الذي حملت أليَّ الريح
نجواه منذ ليال،. . . ولا ادري متى يعود!)
للأستاذ محمود حسن إسماعيل
الَّليلُ يَا (نَانَا) ... وَالرِّيحُ يا (نَانَا)
سِرَّانِ مِن قَلبِي. . .
أَقْبَلْتُ حَيْرَانَا ... وَعُدْتُ حَيْرَانَا
مِنْ شَاطِئِ الْغَيْبِ
الَّلْيلُ نَادَانِي ... مِنْ عَالَمٍ ثَانِ
وَقَال: يَا فَاني ... هَيَّجْتَ أَحْزَاني. . .
إِن كُنْتَ ظَمْآنَا
أَقبِلْ لِدُنْيَانَا
وَاتْبَعْ خُطا (نَانَا)
وَاسْمَعْ صَدَى (نَانَا)
فَاللهُ سَوَّانَا ... لِلشِّعرِ وَالْحبِّ. . .
واللهُ غَنَّانَا ... أُنْشُودَةَ الْحبِّ. . .
الَّلَيْلُ يا (نانَا) ... وَالرَّيحُ يا (نَانَا) . . .
سِرَّانِ مِنْ قَلْبي. . .
وَالرَّيحُ فِي السَّفْحِ ... هَبَّتْ عَلَى جُرْحِي. . .
وَرَفْرَفَتْ نَوحِي ... شِعْراً عَلَى الدَّوْحِ. . .
كالرُّوحِ وَلْهانَا
كَالْخمْرِ سَكْرَانَا
كالطَّيْرِ غَنَّانَا
وَقَالَ: يا (نَانَا)
إِنْي مِنَ الْغَيْبِ ... حُمِّلْتُ مِنْ رَبِّي
لِلُمدْنِفِ الصَّبِّ=أُنْشُودَةَ الحبِّ
الَّلَيْلُ يَا (نَانَا) ... وَالرِّيحُ يا (نَانَا)
سِرَّانِ من قَلبِي
أَقْبَلْتُ حَيْرَانا كَالْجُرحِ أسْيَانَا
كالَّليلِ دَجْوَانا ... كالرِّيحِ إرْنانَا
وَعُدْتُ يَا (نانا)
هَيْمانَ. . . حَيْرَانا
لِشَاطِئِ الحُبِّ!!
محمود حسن إسماعيل
رسالة العلم
حول أبعاد الحيز
كون رباعي الأبعاد
(إلى أستاذي جوداق أهدي هذهِ الفصول)
للأستاذ خليل سالم
- 3 -
أبَّنا في المقال السابق بعض الخصائص التي يلتقي عندها الزمان والمكان، والتي سمحت لنا أن نعتبر الأول بعداً رابعاً، وسنحاول هنا أن نذكر أهم خصائص كون ذي أربعة أبعاد، سواء كان هذا البعد الرابع زماناً أو مكاناً. ورب من يستغرب كيف يمكن أن يكون المكان ذا أربعة أو خمسة أبعاد إلى ما لا نهاية من الأبعاد. فنحن لا ننتهي من بدعة الزمان كبعد رابع، تلك البدعة التي لا يقبلها الحس والتصور، حتى تأتينا بدعة أكبر

هجنة وغرابة، هي أن يكون المكان كثير الأبعاد. على أنني لا أقصد أن أتحول عن خطتي لأشرح هذه الفكرة الجديدة، فربما نحاول في فرصة قريبة تبسيطها وعرضها على القراء إلا أنني أعطي المثال البسيط التالي لأزيل قليلاً من حيرة القارئ. فهو يتعلم مهما بلغ ضآلة ثقافته الرياضية أن النقطة الهندسية إذا تحركت رسمت خطاً هندسياً طوله المسافة التي تحركتها تلك النقطة، وهذا الخط المستقيم ذو بعدٍ واحد، لأن للنقطة مجال حرية الحركة في اتجاهٍ واحد فقط، وإذا تحرك هذا الخط الهندسي في اتجاه علوي على طوله بعداً يساوي طوله نتج المربع، وهو مستواً ذو بعدين، لأن النقطة تجد مجال الحركة واسعاً أمامها في اتجاهين، أو لأن مكان النقطة يتعين ببعدين اثنين عن أضلاع مربع، وإذا تحرك المربع في اتجاه علوي لمستوى مسافة تعادل طول ضلعه نتج المكعب، وهو حجم ذو ثلاثة أبعاد. يقف تصورنا عند هذا الحد. أما التحليل الرياضي، فلا يقف هنا، فبنفس الطريقة المنطقية السالفة، نتصور المكعب متحركاً في اتجاه عمودي على متعامداته الثلاثة مسافة تساوي ضلعه فينتج فوق المكعب ذو أربعة أبعاد، وإذا تحرك هذا نتج فوق المكعب ذو خمسة
أبعاد، والعملية تتسع لعدد لا متناه من التكرار
ولعل القارئ يذكر إننا نحول القوة الأولى (س) إلى خط مستقيم، والقوة الثانية (س 2) إلى مربع، والقوة الثالثة (س 3) إلى مكعب، فيجب أن يستمر القياس إلى (س 4) فنحولها إلى جسم في أربعة أبعاد وإلى (س ن) فنحولها إلى جسم عدد أبعاده (ن). ولا أرى من الضروري أن أعيد ما ذكرت في البحث السابق من أن تصور مثل هذه الأجسام مستحيل.
على أن الدكتور كايزر وهو علم من أعلام فلسفة الرياضيات يقول: إذا لم يكن لهذه الأجسام وجود في البصيرة فلها وجود في التفكير، وإذا لم يكن في الحس فهو قي العقل، وإذا لم يكن في المادة فهو في الفكر، وهو لا يكتفي بهذا فيقول في كتابه لقد أقنعني التأمل بأن حيزاً أبعاده أربعة أو أكثر له من خصائص الوجود مثل ما للفضاء الهندسي العادي
وقبل أن نعرض لتلك الخصائص نود ذكر بعض الظواهر الطبيعية التي أستخدم في تفسيرها البعد الرابع وكان أسهل مما تبناه العلماء من تعاليل وفرضوه من فروض. ولا أراني في حاجة للقول بأن نظرية النسبية التي فسرت أكثر الظواهر الطبيعية المعقدة العويصة لا تدخل ضمن نطاق هذا الشرح
هناك نوعان من حامض الطرطريك (ك 14 يد 10 أ9) يشبه أحدهما الآخر كأنه صورته في المرآة ويتحول أحد هذين النوعين إلى نوع الآخر دون حدوث تفاعل كيماوي يفسر هذا التحول بأنه تحرك نوع واحد في البعد الرابع في اتجاهين متضادين
ونجد نفس الظاهرة في سكر العنب (دكسترو ك6 يد 12 أ6) وسكر الفواكه (ليفيلوز ك6 يد 12 أ6) وهما نوعان من السكر موجودان في العسل متشابهان في التركيب الكيماوي ولكن أحدهما معكوس الآخر إذا ما فحص تحت الضوء المستقطب وإذا تصورنا تحرك ذراتهما في البعد الرابع أمكننا أن نعلل سبب اختلافهما
ومن العجب حقاً أن نجد نفس الظاهرة في نوع من الحلازين فبضعها ملتو إلى اليمين والبعض الآخر ملتو إلى اليسار كأن أحد النوعين صورة في المرآة للنوع الآخر. ليس هذا فحسب وإنما تبدي عصارة كل منها ما يبديه نوعاً من السكر من أن أحد العصارتين تظهر تحت الضوء المستقطب عكس الصورة الأخرى وقد أشار هنتون وهو من المشتغلين بمثل
هذه الأبحاث أن التيار الكهربائي يمكن شرحه كتموجات في البعد الرابع
والآن ما هي أهم خصائص كون ذي أربعة أبعاد؟
هناك ثلاث خصائص رئيسية:
1 - إذا تحرك جسم ذو أربعة أبعاد فإن قطعه الذي يبدو لعالم ثلاثي الأبعاد يتغير في الجسم والشكل وهذه ظاهرة (انكماش فتزجيرلد)، وقد عمد العلماء إلى تعليل هذه الظاهرة بأنها كهارب المادة إذا تحركت بسرعة كبيرة في الفضاء تتمغنط فيجذب بعض بعضاً، وينتج عن هذا الجذب التقلص والانكماش طبقاً لقانون فتزجيرلد الذي ذكرناه في البحث الماضي
2 - يجب أن يتسنى لجسم أن يدخل مكاناً مغلقاً عن طريق البعد الرابع دون أن يمس

أضلاعه المكان الثلاثة كما يتسنى أن تضع نقطة في مربع دون أن تمس أضلاعه. ومن هذا يتبين أنه لو استطاع اللصوص مثلاً أن يتحركوا في البعد الرابع لما غنت الصناديق الحديدية فتيلاً، لأنه يمكن سحب الأموال والجواهر المخزونة دون فتح الصناديق. وكذلك يستطيع شرب زجاجة الكازوزة دون فتحها، وتأكل البيضة دون كسر قشرتها، ويمكن لنقطة في مركز الكرة أن تتركها دون أن تمس سطح الكرة. ولا تزيد العقد في البعد الرابع عن نشطات. وتسقط حلقات سلسلة فولاذية منفصلة عن بعضها من تلقاء نفسها. والأحجام المتشابهة يمكن توجيهها بحيث ينطبق بعضها على بعض تمام الانطباق في البعد الرابع: فالجانب الأيمن يصبح الجانب الأيسر، كأنه صورة في المرآة، نستطيع في البعد الرابع أن نجد خمس نقاط متساوية الأبعاد عن بعضها. الدوران في مستوى حول نقطة، وفي الفضاء حول خط، وفي كون رباعي الأبعاد حول مستوى كما يمكن أن يحصل هذا في عالمنا لولا قانون حفظ الطاقة والكتلة؛ على أننا نستطيع أن نقول أن هذا يمكن أن يحدث في عالمنا ولكنه لا يحدث

3 - يجب أن نستطيع رؤية داخل الأشياء مهما بلغت سماكتها وكثافتها عن طريق البعد الرابع، كما نستطيع رؤية داخل مربع بالأشراف عليه من أعلى، على أن هذا لا يحدث في عالمنا، ويقدم أدنغتون تعليلاً بسيطاً لعدم الحدوث. لما كان عالمنا رباعي الأبعاد - لا حاجة بي إلى القول أن أدنغتون من أنصار ناموس النسبية - فلكي يصح القياس يجب أن نشرف على الجسم الجامد من كون خماسي الأبعاد حتى نستطيع أن نراه؛ لأن أبعاد الجسم المرئي يجب أن تكون أقل ببعد واحد من أبعاد الكون الذي نراه فيه

لا أُحب أن أترك البحث دون أن أشير إلى ناحية طريفة في الموضوع تتعلق بإيمان بعضهم بالخلود والأبدية كانغماس في البعد الرابع، فنحن نسير مع الزمن حتى إذا ألم بنا عارض وقف سيرنا هذا وتأخرنا في الماضي؛ وتأخرنا هذا هو الموت؛ ولا يعني هذا الموت أننا نسير إلى العدم وإنما نبقى في البعد الرابع أحياء أحراراً، ولذا كان البعد الرابع الطريق الذي تظهر به الأرواح لعالمنا، وكان البعد الرابع التفسير الذي تمسك فيه المشتغلون بالروحانيات وانتقال الأفكار وعلم الغيب والتصوف. وإذا كان هناك رجل يجب أن يلام على انتشار مثل هذه الأفكار فهو زولنر وكان أستاذ علم الفلك الطبيعي في ليبنرج. ففي السنتين 1877، 1878 نزل الوسيط الأمريكي سيلد إنكلترا وتنقل في أنحاء القارة الأوربية يعرض أعماله السحرية العجيبة، يدخل الأجسام بعضها ببعض ويعقد ويحل عقداً في سلسلة ليس لها من نهاية. والخلاصة أنه كان يسحر الجمهور ويدهشه بألاعيبه. وقد قدر لزولنر هذا أن يجلس مع ستيد نحو ثلاثين جلسة خرج منها معتقداً أقوى الاعتقاد أننا نعيش في عالم مغمور في كون رباعي الأبعاد، وأن البعد الرابع مسكن الأرواح التي تظهر بين حين وآخر وتؤثر في حياة سكان الأرض وقد بلغ من زولنر الوهم حتى صرح أنه في إحدى الجلسات (صافح صديقاً من ذلك العالم الآخر)

على أن السلطات لم تترك ستيد حراً فقد أُلقي عليه القبض في إنكلترا وحكم عليه بالإعدام، إلا أن زولنر أبى إلا أن يرى ستيد بريئاً (وقد قضى ضحية جهل القضاة والمتهمين) ولقد كان زولنر كاتباً بليغاً، فلا عجب أن وجدت آراؤه انتشاراً واسعاً، ولا عجب أن آمن به الكثيرون.

(الجامعة الأمريكية - بيروت)

خليل السالم

البريد الأدبي

عبد القادر حمزة باشا في ذمة الله

في الساعة السادسة من يوم الجمعة السادس من شهر يونيه سنة 1941 خلا مكان عميد الصحافة وفقيد الأدب الأستاذ عبد القادر حمزة باشا وهو في الثالثة والستين من عمره الحافل الخصب. (وخلا مكانه) تعبير صادق عن وفاة صاحب البلاغ؛ فأن الأخلاق والمواهب التي كونته قلما تجتمع إلا للأحد بن الذين يتعاقبون في الحياة على فترات بعيدة. ولقد بلغ ما بلغ من رفيع المنزلة وبُعد الصوت بحسن استعداده وطول اجتهاده فلم يتكئ في جهاده المادي أو الأدبي على سند من أسرة أو ثروة أو وظيفة؛ وهو في ذلك أحد الأفذاذ الذين شقوا طريقهم الوعر بسن القلم؛ وقلمه في يده كان كالمبضع

في يد الجراح الماهر: لا يشق إلا بتقدير، ولا يقطع إلا بقدر. ولم يتميز من الأساليب الصحفية غير أسلوبه وأسلوب لطفي السيد باشا من قبل: تميزا بالإيجاز والإشراق والطلاوة والمنطق، وبرئاً مما تجره الصحافة على كاتبها من ضرورة الثرثرة واللغو عالج المرحوم عبد القادر باشا المحاماة في مقتبل عمره، ثم دفعته الظروف بطبيعة ميله الفطري إلى الصحافة فبرز فيها، تبريزاً لا يتهيأ إلا لأصحاب الملكات القوية؛ وكان مما ساعد على هذا التبريز طريقته الواضحة في الجدل، ومذهبه العفيف في النقد، ونظرته الثاقبة في الأدب، ورجولته العنيدة في الخصومة. وكان للفقيد الكريم مشاركة في أنواع الأدب ولا سيما في التاريخ والترجمة. ولسنا اليوم بصدد الكلام عن مكانته في الأدب وأثره في السياسة؛ إنما هي إشارة تدل على عظم المصاب فيه وصعوبة العزاء عنه. برد الله أثره بالرحمة، وعوض منه أسرته وأمته خير العوض

لقد نفذ الأستاذ المراغي الإصلاح

تعرض (عالم) في (الرسالة) الغراء لما حسب أنه (الحوائل) التي اعترضت سبيل الإصلاح الأزهري على النحو الذي وضحه الأستاذ الإمام المراغي في مذكرته القيمة الجليلة القدر التي أنتجها في عهد ولايته الأولى على الأزهر

وما من شك في أن (الحوائل) التي سجلها صاحب الفضيلة (العالم) في كلمته حقيقة أن تثير الدهش والعجب، لأنه فهم من منهاج الأستاذ الأكبر في الإصلاح أنه قضاء مبرم على كتب

الأزهر وتراثه الثقافي جميعاً، على حين يفهم كل أحد أن فكرة (الاجتهاد) التي يدعوا إليها الأكبر ليست هي القضاء على (جميع) ما تضمه كتب الأزهر بين دفتيها، وإنما هي ترمى إلى (تنقية) هذه الكتب وتصفيتها وتجويد عرضها من ناحية الأسلوب ومن نواح أخرى لا ينكرها المتدين المتعمق متى أخذها بالتفكير الدقيق. ولقد فعل الأستاذ الأمام المراغي في ذلك كثيراً فلم ينكر عليه أحد ما فعل، وإنما أيده الأزهريون القدامى والمحدثون فيما اضطلع به من التجديد الذي استمد مادته من كتاب الله وسنة نبيه الكريم، في موضوع الطلاق، وفي موضوع الهبة والتوريث؛ وإنما أيده أولئك وأولئك في منهاجه الحكيم المحكم الدقيق الذي عرفه له العالم الإسلامي في تفسيره لطائفة من سور القرآن الكريم

والأستاذ الأكبر حين ظفر بكل هذا التأييد في إنتاجه الذي هو إصلاح بالغ، إنما وضع الأساس لأمثال صاحب الفضيلة (العالم) الكاتب حتى ينهجوا نهجه، وحتى ينفقوا أوقاتهم كلها في السير على منواله، فإصلاحه من هذه الناحية حقيقة لقيت وجودها تحت الشمس وهو في عهده الآن في الأزهر لم يلان كثرة الأزهريون ولا قلتهم، لسبب بسيط، هو أن إصلاحه ماض في طريقة بالخطوة الوئيدة، ماض إلى هدفه بالرمية السديدة، أما العناية الأزهرية بالوظائف وما إليها، فهذه حكاية أقحمها العالم الجليل على موضوع لا صلة له بالبحث الذي نحن بصدده، لا من قريب ولا من بعيد، ونحسب أن الرد يكون طريفاً حقاً لو تفضل العالم الكاتب وقال لنا من يكون؟

(القاهرة)

كمال عبد الآخر

رسالة الأزهر

للأزهر رسالة واضحة كل الوضوح، كما أنها ثقيلة لا ينهض بها إلا رجال أكفاء قد وهبوا أنفسهم لله ووقفوا حياتهم على أمتهم.

وحسبنا لنعرف هذه الرسالة أن ننظر إلى رجال الدين المسيحي وتوازن بينما يعملون وما يعمله رجال الدين الإسلامي لنرجع من هذه الموازنة والكرب يكاد يقتلنا على تقصير رجال الدين الإسلامي وإهمالهم وضعفهم ونقصهم

إعداد رجال الدين المسيحي

لأجل أن يصير الشاب المسيحي قسيساً لابد له أن يدرس دراسة طويلة شاقة، وان يزود بألوان من المعارف لا يضفر بها غيره ممن يعدون أنفسهم لأي نوع من الحرف الدقيقة الخطيرة، كالطب والقضاء والهندسة وغير ذلك - ويؤخذ بضروب من الرياضة البدنية والروحية، ويصقل صقلاً يجعله بعد ذلك متميزاً عن غيره صالحاً لأداء مهمته الشاقة احسن أداء. تقضي مدة دراسته تحت حراسة يقظة ورقابة دقيقة ورعاية كريمة وإرشاد متواصل وتوجيه سامي وتدريب شاق ورياضة طويلة، حتى يصير رجلاً

نموذجياً في جسمه وعقله وخلقه وذوقه وعاداته وأكله وشربه ونومه وغير ذلك من كل ما يدخل تحت النقد والتكوين فأين هذا مما يلقى طلاب الأزهر من الإهمال والتضييع
1 - مناهج قد ازدحمت بكل معاد ثقيل لا فائدة منه
2 - سنة دراسية يضيع اكثر من نصفها في العطلات
3 - يترك الطلبة يسكنون في مساكن غير صحية وفي أحياء قذرة ويتعرضون إلى أفأت خلقية وجسمية ومتاعب معاشية وأضرار لا يجهلها أحد ممن عرف الأزهر والأزهريين
4 - نقص كبير في المناهج

رسالة المتخرجين في الأزهر

والآن فلنوازن بين ما يعمله رجال الدين المسيحي وبينما يعمله التخرج في الأزهر: رجل الدين المسيحي يتخرج فيجد أمامه عملاً جليلاً ثقيلاً يحتاج إلى مثل أعمار النسور وهمة الجن ودأب النمل: يشتغل راعياً في الكنيسة، فيدرس الحي الذي يعمل فيه دراسة دقيقة شاملة، ويتصل بكل ما فيه من أبناء ملته، ويكون وسيلة التعارف والتأليف بينهم، وهو في كل ذلك محتفظ بكرامته مكانته، وذلك لما توفر عنده من اللباقة والإخلاص، ويعمل على تأسيس جمعيات عملية لا قولية تقوم بجمع الصدقات وتأسيس المدارس وإقامة المشافي والصلح بين المتخاصمين والتأليف بين الزوجين، وهو في كل ذلك الرأس المدبر واليد العاملة والقلب الخافق الحي، ولن يفشل في أي مشروع يحاوله أبداً لان الإخلاص سائقه والعزم حليفه والله رائده؛ فنجد الكنيسة إذا ما استقرت في مكان ما صارت مركز هداية وإرشاد وعمران ووفاق ويسر لأبنائها الملتفين حولها جميعاً، والفضل في كل ذلك لرجل الدين الذي اعد لهذا العمل إعداداً حسناً، تجده حركة دائبة لا يستقر ولا يهدأ؛ إذا رأيته أشفقت عليه من كثرة العمل وطول الإجهاد فهو آناً عند مريض يعوده، أو عند فقير يحمل له صدقة أخذها في السر من غنى، أو عند غنى يعظه برفق ويغريه على نفع أبناء ملته، أو عند أسرة يوفق بين أفرادها. يؤسسون المدارس الكبرى والمعاهد العليا والكليات العظمى، ويجمعون لها التبرعات غير يائسين ولا متضجرين، ويقيمونها صروحاً شاهقة، ويعدون أبناء ملتهم لحياة ناجحة، فيزودونهم بالثقافات المختلفة الدينية والعمرانية التي تؤهلهم للنجاح في الحياة؛ وطف بمصر لترى معاهدهم لم تجذب إليها أبناء المسيحيين فقط، بل جذبت أيضاً أبناء المسلمين، لما شوهد على متخرجيها من دلائل النجح والتهذيب والتميُّز، وهذه معاهد الآباء اليسوعيين (الجزويت) والاخوة المسيحيين (الفرير)، والراهبات وغيرها مما لا تخلو منه مدينة في مصر والشرق فأين هذا من مسجدنا وعالمنا وإمامنا. لا داعي للموازنة بعد ذلك فسنخرج بنتيجة محزنة لقد قضى أستاذنا الزيات صدر شبابه أستاذاً بالمدارس الدينية المسيحية، وحبذا لو تناول وصفها بقلمه الساحر وناشد الأزهريين أن يتعلموا من هؤلاء الرجال المخلصين خدمة دينهم ومعرفة رسالتهم في الحياة؛ وعلى ضوء هذه الرسالة توضع المناهج ويؤسس الأزهر من جديد

زكي غانم

ليس هذا هو الطريق إلى الإصلاح

أضنانا السير والسرى ولم نقطع أرضاً ولم نقض مأربا. أردنا أن نصل إلى نقطة ما فجعلناها مركز الدائرة ودرنا حولها في محيط ثابت. لنا الله فقد جاهدنا فأجهدنا أنفسنا ولم نتقدم من غايتنا باعاً أو ذراعاً، وأغلب الضن أننا سنعاود الكرة مرات إن طوعاً وإن كرهاً. سنمشي على أرجلنا أو على أيدينا أو على أربع، وسنزحف على بطوننا، وسنطير في الهواء أو نغوص في الماء؛ ولكننا لن ننحرف عن محيط الدائرة، ولن تتغير النتيجة أبداً

تعبنا وأضعنا الجهد هباء، لأن هذا ليس هو الطريق، ولأن هذه ليست هي الوسيلة أردتم فيما أردتم تعليم الفلاح وتحسين صحته وتنظيم حياته ورفع مستواه، ووددتم منع البطالة والقضاء على الجرائم والاستجداء والخمر والميسر والإعراض عن الزواج والطلاق وتخنث الشبان وتهتك النساء وتبرجهن، وحاولتم مكافحة الأمراض السرية والعلنية، وبنيتم مطاعم وحمامات ومغاسل للشعب؛ ثم شرعتم في كسوة أقدام الفقراء بالأحذية، وستشرعون في إقامة منشأة لهم

أردتم ما لا حصر له من الإصلاح ولم توفقوا التوفيق المرتجى في أحدها، وذا أنكرتم ذلك فهاتوا برهانكم وإذا كنتم تقرون قولي فتعالوا نبحث العلة ونفهم المسببات.
إنكم مسلمون لأن دين الدولة الرسمي هو الإسلام. وإنكم تعلمون أن القران من عند الله ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وإنه لم يحرف، وإنه صالح لكل الأزمنة ولم ينزل كتاب بعده.
ثم إنكم تسلمون أنه مهما سمى تفكير الإنسان وتدبيره، ومهما صح حكمه على الأشياء فلن يصل إلى درجة خالقه ولم يرقى لمرتبته في العلم
إذاً فالقوانين التي نسنها لا يمكن بأية حال أن تكون اصلح من تلك التي وضعها لنا الله، فإذا أسلمتم بهذا أيضاً ولا أخالكم إلا مسلمين، أفليس من حسن التميز أن نجرب السير على قوانين الله ولو لمدة محدودة كما سرنا على غيرها أعواماً من غير طائل؟
أن هذا لا يكلفنا كثيراً، ولا يتطلب إلا أن تجند وزارة الشؤون الاجتماعية ذلك الجيش من علماء الأزهر الشريف والمعاهد الدينية ليقوموا بما فرض الله عليهم. ليعلموا الناس دينهم وليفهموهم مثلاً أن الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر وأنها افضل أنواع الرياضة البدنية، وليبينوا لهم الحكمة في نظامها وكيفية أدائها وعدد ركعاتها وتحديد أوقاتها ليعرفوهم أخلاق الرسول صلوات الله عليه وأخلاق الصحابة والتابعين، وليفهموهم حقوق الرجل على زوجه والمرأة على بعلها، وأن اكره الحلال عند الله الطلاق، وليشرحوا لهم أن بعض الذنوب لا يكفرها إلا السعي على الرزق، وجزاء المستجدي في الدنيا والآخرة، وما يلاقيه السكران في يومه وغده.
ثم نفذوا فيهم أحكام الدين بعد ذلك ولا تأخذكم بهم رحمة. ولا تعتقدوا أن أحكام الله قاسية فهو ارحم بكم منكم، فقطع يد السارق في حقيقتها أخف بكثير من سرقة يعقبها سجن،
فسرقة يتبعها سجن، فسرقة يتلوها سجن، فسرقة في أثرها سجن؛ وهكذا دواليك.
إنكم بعد ذلك لن تجدوا مجرماً ولا شارب خمر ولا لاعب ميسر ولا داعياً لفجور، ثم إنكم لن تلقوا مستجدياً ولا عاطلاً ثم إنكم بعد ذلك ستجدون الجميع في صحة تامة وهناء متصل وتآخ أكيد.
(جزيرة ميت عتبة - امبابة)
مصطفى إسماعيل جوهر
مكتبة الحرم الشريف النبوي العامة
أسست حكومة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز الأول مكتبة عظيمة في الحرم الشريف أسمتها (مكتبة الحرم الشريف النبوي العامة بالمدينة المنورة): جمعت فيها شتات الكتب المفرقة في مستودعات الحرم النبوي والمحكمة الشرعية الكبرى وكتب طوسون احمد باشا وغيرها. وقدم لها جلالة الملك عبد العزيز الأول جميع مطبوعاته النفيسة، كما تفضل فأمر بصنع عشر خزائن للكتب. وقدم لها الشيخ عبد الكريم المصري الأزهري ستة صناديق تحتوي على ثمان مائة مجلد. وساهم في تأسيسها بإهداء الكتب إليها سعادة السيد محمد بدوي بك المنصوري الأزهري وسعادة الشيخ محمد سرور صبان وغيرهم.
وأعفت الحكومة السنية بريد المكتبة من الرسوم في جميع أنحاء المملكة العربية السعودية كلها. وفي المكتبة الآن كتب في التفسير والحديث والتوحيد والتجويد والقراءات العشر والفقه الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي والنحو والصرف والمعاني والبيان والبديع والأدب والتاريخ والشعر وعلم الأصول والمصطلح وغير ذلك باللغات العربية والفارسية والهندية والتركية
وقد بلغ عدد المجلدات الموجودة الآن زهاء ثلاثة آلاف مجلد. وفي المكتبة قسم الصحافة للمجلات والجرائد العامة التي تهدي إليها
وفي المكتبة قسم مكتبة التلميذ لإعارة بعض الكتب العلمية للتلاميذ الفقراء على نظام مكتبة الأزهر الشريف في مصر وقد وردت لهذا القسم بعض المؤلفات المدرسية من مؤلفيها
وغيرهم. وقد سر من هذا القسم الدكتور محمد عبد الغني عزام مفتش صحة مركز المنصورة بالديار المصرية فقدم لإدارة المكتبة مقداراً من النقود لشراء بعض الكتب العلمية النافعة المفيدة لهذا القسم. وفي المكتبة ورشة تجليد فنية لتجليد كتبها

المحتاجة للتجليد. وقد أهدى بعض أهل الخير لهذه الورشة بعض الآلات والأدوات
وقد عينت الحكومة السنية العربية السعودية الأستاذ أحمد يس الخياري الأزهري من
علماء الحرم الشريف النبوي وقراءه ومدير مدرسة التجويد والقراءات بالمدينة
المنورة مديراً لهذه المكتبة العلمية العامة مستقلاً في جميع أعمالها الداخلية
والخارجية
والمكتبة الآن في حاجة إلى التشجيع مادياً بالنقود وأدبياً بالكتب والرسائل والمجلات
والجرائد والخزائن والآلات والأدوات والأثاث من أفراد العالم الإسلامي. لأنها في داخل
الحرم النبوي ومنسوبة إليه وعائدة أليه. والمخابرة في كل ما يخصها تكون باسم
مديرها. والله يتولى التوفيق
مدير مكتبة الحرم النبوي الشريف العامة
تحذير ورجاء
يعلن كمال مصطفى مؤلف كتاب (الصحافة والأدب في مائة يوم)، أن بعض الأشخاص
قد اختلسوا كثيراً من نسخ الكتاب وبددوها وعمد أحدهم إلى تغيير الاسم ووضع بدله
اسم (علي ماهر باشا المثل الأعلى للوطنية والصحافة والأدب) واتخذ هذا سبيلاً
للنصب والاحتيال، وتتولى النيابة التحقيق الآن
فيرجو المؤلف كل من يقدم إليه الكتاب بالاسم المنتحل (علي ماهر باشا المثل
الأعلى. . .) أو بأي اسم آخر، أو بالاسم الأصلي: (الصحافة والأدب في مائة يوم)، وغير
مختوم بخاتم المؤلف أن يتفضل بالاتصال به في وزارة الداخلية وأن يمتنع عن دفع
الثمن وله عظيم الشكر
ï» ؟ Error
©ظپططµظٹظ^طط¯ ط®ط·ط ظپظ‰ ط¹ط±ط¶ ظ‡ط°ظ‡ طظ„ط
ï» ؟ Error
©ظپططµظٹظ^طط¯ ط®ط·ط ظپظ‰ ط¹ط±ط¶ ظ‡ط°ظ‡ طظ„ط
ï» ؟ Error
©ظپططµظٹظ^طط¯ ط®ط·ط ظپظ‰ ط¹ط±ط¶ ظ‡ط°ظ‡ طظ„ط
ï» ؟ Error
©ظپططµظٹظ^طط¯ ط®ط·ط ظپظ‰ ط¹ط±ط¶ ظ‡ط°ظ‡ طظ„ط
ï» ؟ Error
©ظپططµظٹظ^طط¯ ط®ط·ط ظپظ‰ ط¹ط±ط¶ ظ‡ط°ظ‡ طظ„ط
العدد 416 - بتاريخ: 23 - 06 - 1941
بمناسبة المهاجرين من منكوبي الغارات
الفقراء
قصيدة لفكتور هوجو
(مهداة إلى السادة: يوسف كمال والبدراوي وقوت القلوب)
- 1 -
الليل مُرخي السدول؛ والكوخ ظاهر الإملاق، ولكنه محكم الإغلاق.
كان المسكن يغشاه الظلام، ولكنك تحس شيئاً فيه يضيء خلال هذه العتمة
على حائطه علق الصياد شباكه؛ وفي أحد ركنيه من الداخل تلمع بعض المواعين
الحقيرة على صندوق الخبز؛ وفي الركن الآخر يقوم سرير كبير قد انسدلت عليه
أستاره الطويلة
وعلى مقربة منه حشية مفروشة على د كتين باليتين، وخمسة أطفال صغار كعش من
أعشاش الأرواح قد رقدوا عليها
وكان في الموقد العالي بقية من الضرم تلقي ضوءها الأحمر على السقف القاتم،
وبجانب السرير امرأة وضعت جبينها على حافته وهي جاثية تصلي وفي صدرها نجيّة
وعلى وجهها شحوب
تلك كانت الأم، وهي وحدها في الكوخ؛ ومن وراء هذا الكوخ المظلم المحروم، زفرات
البحر المزبد المشئوم، يرسلها سوداء في السماء والهواء، وفي الضباب والصخور
- 2 -
كان الزوج يعمل في البحر؛ وكان منذ طفولته بحاراً كُتب عليه أن يلقى الحظوظ

السود في أهول المعارك. فهو في المطر الواكف، وفي الهواء العاصف، محتوم عليه أن يخرج إلى الصيد لأن أطفاله يتضاغون من الجوع. . .!
يخرج في المساء إذا مد الماء وغمر سلالم الجسر، ثم يقود وحده سفينته ذات الشرع الأربعة، وتبقى الزوجة في البيت تخيط شراعاً، أو ترتق شبكة، أو تهيئ شصاً؛ وتراقب في غضون ذلك القدر وهي تغلي على الكانون بحساء السمك. حتى إذا طاف الكرى بأطفالها الخمسة اتجهت هي إلى الله تصلي وتضرع!
غاب الرجل وحده في ظلمات الليل، وفي لجج المحيط، والأمواج المتجددة تغالبه وتصرعه، والخطوب المترصدة تجذبه وتدفعه
أيهذا العمل الكادح ما أقساك! الظلام شديد الحلك، والجو قارس البرد، والمكان الصالح للصيد لا يكون إلا في مصادم البحر بين الأمواج الرّعن والهوى السحيقة، فترى على مجاهل المحيط الواسع هذا المكان المتنقل المتدلل على هوى السمك ذي الزعانف الفضية، يضيق فيكون بمقدار النقطة، ثم يتسع فيكون في ضعف الغرفة؛ والصياد مقضي عليه أن يجهد جهده، فيحسب حساب المد والهواء، ويوفق بين أفاعيل السماء والماء، ليهتدي في ظلام الليل وفي ضباب ديسمبر إلى هذه النقطة المتنقلة في هذه الصحراء المتحركة!
الأمواج على طول الشاطئ تنساب انسياب الأفاعي الخضر، والهاوية تدور وتدوّم وتدّوي فتصطك أعضاء السفينة من الرعب، وتئن أدواتها من الهلع، والصياد في أحضان البحر المجنون يفكر في زوجه جاني، وزوجه جاني على البعد تناديه وتناجيه وهي تبكي، فتتلاقى أفكارهما في الظلام، وأفكار العشاق طيور قدسية أبراجها القلوب
- 3 -
كانت جاني تصلي وطير النّورس بصوته الأصحل الساخر يزعجها، وموج البحر بهديره المتكسر الصاخب يرعبها، وأشتات الأطياف تمر بخاطرها فتقلقها. كانت تتمثل ذلك المحيط العجاج والملاح المحمول على ثبجه الغاضب، وترى هذه الساعة الحائطية الباردة تنبض في علبتها كما ينبض الدم في عروقه، فتُساقطُ الأيام والفصول والأعوام في خفاء الغيب قطرة فقطرة؛ وكل نبضة من نبضاتها تفتح لأسراب النفوس: صقورها وحمائمها المهود من جهة، واللحود من جهة أخرى
كانت تفكر في هذا الفقر المدقع الذي قضى على أطفالها أن يمشوا حفاة في القيظ والزمهرير، وأن يعوزهم خبز القمح فيتبلغوا بخبز الشعير!
رباه! إن الهواء يفهق كالكير، والشاطئ يصوت كالسندان، وكأني أرى صور السماء، تتطاير في الزوبعة السوداء، كما تتطاير زوابع الشرر في دخان الموقد
هذا هو الوقت الذي ينتصف فيه الليل على الراقص المرح وهو يقصف هيمان بين ضحكات القلوب ومتع الأعين
وهذا هو الوقت الذي ينتصف فيه الليل على قاطع من قطاع الطرق عجيب، ينتقب بالظلام والمطر، ويتصدى لملاح مسكين يرتعد من البرد فيحطمه على الصخرة الهائلة التي تظهر فجأة؛ فيشعر المسكين - والموت يقطع َزويله وعويله - أن السفينة تنشق لتغوص، وأن اللجة تنفتح لتبلع؛ ثم يلمح في خاطره وهو يهوي في غيابة الفناء ولجة الماء ذكرى الحلقة الحديدية في رصيف المرفأ المشمس!
فزّعت هذه الرؤى العابسة قلب جاني فاضطربت اضطراب ليلها، واستكانت لجزعها وويلها، فلم ينفس عنها غير البكاء
- 4 -
لله ما أشقاكن يا نساء الصيادين! إن مما يروع النفس ويلوع الفؤاد أن تقول كل منكن لنفسها: (إن أبي وحبيبي وأخي وولدي وكل عزيز عليّ هم جميعاً في ذمة هذا المضطرب العظيم؛ وإن القدر قد أباح للبحر الأهوج أن يعبث بهذه الرؤوس منذ كان المرء صبياً يتعلم، إلى أن يصير زوجاً يتزعم؛ وإنهم في هذه الساعة قد يحزبهم الأمر، ويكربهم الهم، فلا يدرون أين يسيرون، وهم لا يملكون لمقارعة هذه البحار اللجية التي لا قاع لها، وهذه اللجج المظلمة التي لا نجم فوقها، إلا قطعة من الخشب ومزقة من النسيج! فإذا ما اعتلج في صدرها الهم، هبت مذعورة تجري خلال الصخور وهي تسأل الأمواج ضارعة: (رديهم عليّ!!. . .)
ولكن وا أسفاه! ماذا عسى أن يرد البحر الذي لا يبرح في تقلب واضطراب، على

الفكر الذي لا ينفك في تشتت واكتئاب؟
كانت (جاني) أشد هماً وغماً من ترائبها جميعاً؛ لأن زوجها وحيد في جوف هذا الليل الشديد وتحت هذا الكفن الأسود؛ وأطفاله لا يزالون صغاراً فلا وزر له فيهم ولا عون! أيتها الأم! إنك تقولين اليوم وأنت ترين أباهم وحيداً: ليتهم كانوا كباراً! ولكنك ستقولين غداً عندما ترينهم يذهبون مع الأب: ليتهم كانوا صغاراً!)
- 5 -
أخذت (جاني) مصباحها ورداءها وذهبت ترى: هل عاد الزوج، وهل سكن البحر، وهل أشرق الصبح، وهل ومض النور في سارية الإشارة؟
هاهي ذي تسرع الخطى في الطريق، ولكن هواء الصبح لم يهب، وضياء الفجر لم يلح. وكانت السماء تمطر؛ ولا تجد أشد ظلاماً من مطر الصباح! كأنما كان النهار يضطرب مخافة أن يوجد، وكأنما كان الفجر يبكي كالطفل ساعة يولد!
وعلى حين فجأة لاح لعينيها وهما تتحسسان الطريق كوخ واهي الدعائم قاتم الأعماق فلا نور ولا نار. له باب لا يستقر من الريح، وعليه سقف لا يسكن من القلق، ومن فوقه تعبث الريح الصرصر بهشيم من القش الأصفر الكريه المنظر؛ فقالت (جاني): (عجيب! ما لي لم أفكر في هذه الأرملة الفقيرة التي عثر عليها زوجي ذات يوم وهي وحدها تكابد غصص المرض؟! لا بد أن أعود لأنظر ما حالها!)
قرعت جاني الباب وتسمعت فلم يجبها أحد. فقالت لنفسها وهي تنتفض من البرد: (لا تزال مريضة؛ وأولادها، لا ريب، يقاسون سوء التغذية! لم يبق للمسكينة غير طفلين!) ثم طرقت الباب ثانية ونادت: يا جارتي! يا جارتي! فلم يرد عليها أحد.
فقالت جاني: لقد أثقلها النوم فلا لابد من تكرار الطرق ومعاودة النداء. ولكن الباب في هذه اللحظة أدركته نفحة من عناية الله فانفتح من ذات نفسه!
- 6 -
دخلت جاني الكوخ المظلم الصامت ونور مصباحها يسعى بين يديها، فوجدت سقفه كالغربال لا يمسك المطر، ورأت في صدره امرأة هامدة لا نبض بها ولا حس! قدماها عاريتان، وعيناها مظلمتان، وهيئتها فظيعة. كانت هذه هي الأم المرحة التي قضت حياتها الأولى في بهجة وقوة، فلم تزل الأيام والآلام تعُركها وتريحها وتيريها حتى لم يبق منها غير هذا الهيكل. كانت إحدى ذراعيها قد تدلت على جانب الفراش الخشن، وكان فمها المغفور ينبعث منه الرعب بعد أن لفظ الروح وهي تصيح صيحة الموت إذا سمع نداء الأبد
وعلى مقربة من سرير الميتة كان طفلان ذكر وأنثى ينامان باسمين في مهد واحد. وكانت
الأم حين أحست دبيب المنية قد وضعت معطفها على قدميهما، وثوبها على جسميهما، حتى يحسا الدفء في الساعة التي تسري في جثمانها برودة الموت!
- 7 -
كان الطفلان ينامان ملء الجفون في مهدهما النابي القلق؛ وكان المطر يهدر خارج الكوخ هدير السيل، والسقف العتيق يُساقط الحين بعد الحين على جبين الميتة قطرة، فتسيل على خدها الشاحب فتكون عَبرة؛ وكان الموج يصلصل كناقوس الخطر، والميتة تتسمع في الظلام والسكون في هيئة الأبله؛ لأن الجسم متى فارقته الروح بدت عليه حال الباحث عنها. وكأنك تسمع هذا الحوار بين الفم الذابل والعين الحزينة:
تقول العين للفم: ماذا صنعت بزفراتك؟
ويقول الفم للعين: وماذا صنعتِ أنتِ بنظراتك؟
وا أسفاه! عيشوا أيها الناس وأحبوا، وارقصوا، واضحكوا، واقطفوا الزهور، وارشفوا الغور، واحرقوا القلوب، وأفرغوا الكؤوس، فإن الله قد جعل مآل كل لذة إلى القبر، كما جعل مآل كل نهر إلى البحر!
- 8 -
ماذا صنعت جاني عند الأرملة الميتة؟ ماذا تحمل تحت ردائها الضافي وهي تمشي؟ لماذا يخفق قلبها وتسرع خطاها؟ لماذا تعدو في الطريق ولا تجرؤ أن تلتفت؟ أي شيء في الظلام خفية على السرير؟ ليت شعري ماذا سرقت جاني؟
- 9 -

عادت جاني بما تحمل إلى بيتها، ثم وضعت كرسياً بجانب السرير وجلست عليه ساهمة الوجه كأنما تعاني وخز الضمير. ثم ضاق ذرعها بما تجد فألقت جبينها على حافة السرير وأخذت تغمغم بهذه الكلمات المتقطعة:

وا حسرتاه عليك يا زوجي المسكين! رباه! ماذا عسى أن يقول؟ ألا يكفيه ما يحمل من الهم؟ وهل فضل كدحه المرهق عن قوت أطفاله الصغار حتى أثقل كاهله بهذا العبء الجديد؟ أهو هذا؟ كلا! لا شيء. لئن ضربني زوجي لأقولن له: حسناً فعلت أهو هذا؟ كلا! حسن! إن الباب يتحرك كأن إنساناً دخل، ولكن لا

رباه! مالي أصبحت الآن أخشى عودة زوجي؟

ثم اعتراها الوجوم فظلت ساهمة تغوص في الهم كما يغوص الغريق في اللجة؛ ثم فقدت الشعور بالدنيا فلم تسمع في الخارج حركة ولا ضجة

انفتح الباب فجأة فانسكب في الكوخ شعاع أبيض، ثم لاح الصياد على العتبة يجر شبكته وهي تقطر من البلل ويقول بلهجة المبتهج: تلك مهنة البحر!

- 10 -

رأت جاني زوجها فهتفت به وعانقته عناق الحبيب. وكان الزوج في أثناء ذلك جذلان يقول: هأنذا يا امرأتي! ثم ينعكس على جبينه الذي يضيئه نور الكانون، قلبه المسرور الطيب الذي يضيئه حب جاني

- كيف كان الجو؟ كان قاسياً. وكيف كان الصيد؟

- كان سيئاً! ومع ذلك أجدني قد وجدت السرور والراحة حين قبلتك!

لقد خرقت شباكي ولم أصد شيئاً! ما كان أهول ذلك الجو! لقد كان يخيل إليّ أن الشيطان ينفخ في الهواء، وأن السفينة المضطربة توشك أن ترقد في الماء!

- وأنت ماذا صنعت في هذا الجو القاسي؟

فاستقلت الرعدة جاني وقالت:

- أنا؟ لا شيء. لقد كنت أخيط كالعادة؛ وكنت أسمع البحر يزمجر كالرعد فتدركني روعة شديدة

- أجل إن الشتاء شديد؛ ولكن الزمن كله في حياتنا سواء! ثم قالت جاني وهي تضطرب اضطراب من فعل شرا:

- إن جارتنا الأرملة قد ماتت. ولعل موتها كان في عشية الأمس بعد أن خرجت أنت. لقد تركت طفلين صغيرين: غليوم ومادلين. ذاك يحبو ولا يمشي، وتلك تغمغم ولا تبين. لشد ما كابدت هذه المرأة الصالحة برحاء الهم والفقر!

فلما سمع الرجل هذا الخبر اتخذ هيئة الجد ورمى بقبعته المبللة في كسر الكوخ ثم قال وهو يحك بأظفاره جلدة رأسه:

- يا للشيطان! إن لنا خمسة أطفال فهل يصبحون سبعة؟ إننا في هذا الفصل الشديد نقضي بعض أيامنا على الحساء فماذا نصنع؟ ليس الذنب ذنبي؛ إنما هي مشيئة الله. إن من الحوادث ما يحار في تعليله الفكر. لماذا حرم الله هذين الطفلين أمهما وهما في هذه السن وهذه الحاجة؟ لا جَرَم أن أعمال الله لحكمة، ولكنها كثيراً ما تخفى على غير البصير

اذهبي يا جاني فأتي بهما. إني لأخشى أن يستيقظا فيستشعرا الخوف من وجودهما وحيدين مع الميتة

أبقي بهما يا جاني نخلطهما بأبنائنا، ونشركهما في سرائنا، وأنا واثق أن الله سبحانه وتعالى سيرزقنا من حيث لا نحتسب، ويبارك صيدنا فنكتسب أكثر مما كنا نكتسب

ماذا بك يا جاني! أهذا يغضبك؟ ما لك لا تسرعين إلى تنفيذ رغبتي كالعادة!

فلم يكن جواب جاني إلا أن كشفت الستار وقالت متهللة:

(هاهما ذان!!)

أحمد حسن الزيات
الإسلام والعلاقات الدولية
للأستاذ الشيخ محمود شلتوت
وكيل كلية الشريعة

(تتمة)

وسائل إنهاء الحرب - (جـ)

إن الإسلام شديد الحرص على تحقيق السلم والطمأنينة للعالم فهو يطلب إلى المسلمين أن يدخلوا في السلم كافة ولا يتبعوا خطوات الشيطان؛ ويقول لرسوله الكريم: (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله)

(ا) وهو يصل إلى ذلك من طريق المفاوضات كما هي العادة الطبيعية فيتقبل فيه وساطة الرسل وسفارة السفراء من غير أن يتكلف لذلك رسوماً خاصة تؤدي إلى التعقيد أو تثير الإشكال.

(ب) ولا تختص المعاهدات في نظر الإسلام بإنهاء حالة الحرب. ولكنه يقرر أنواعاً من المعاهدات على حسب ما تقضي به الظروف التي يترك للمسلمين تقديرها والعمل بما توحي به في حالتي السلم والحرب

1 - فهو ينشئ المعاهدات إبقاء على حالة السلم الأصلي وحفظاً له من أن يخدش ومن ذلك ما عاهد عليه النبي صلى الله عليه وسلم أهل الكتاب لأول عهده بالمدينة وقد كانت هذه المعاهدة أول حجر في بناء الدولة الإسلامية، كما كانت أول علاقة سياسية ينشئها الإسلام ويعترف فيها بحرية العقيدة وحرية الرأي، ويحفظ بها على المسلمين أمنهم وسلامتهم وحرمة حياتهم ومدينتهم

2 - وينشئ المعاهدات للتحالف الحربي بينه وبين غير المسلمين، ويرشد إلى هذا النوع من المعاهدات قول النبي صلى الله عليه وسلم: (ستصالحون الروم صلحاً تغزون أنتم وهم عدواً من ورائكم). وقد وقع للمسلمين كثير من هذا النوع من المعاهدات في ذكرياتهم الماضية، وقد حارب النبي صلى الله عليه وسلم قريشاً وفاء بعهد خزاعة الذي حصل يوم الحديبية.

3 - وينشئ المعاهدات لإنهاء الحرب إنهاء مؤقتاً، وهي المعروفة باسم الهدنة أو الموادعة، وذلك كما حصل في معاهدة الحديبية ولإنهائها إنهاء دائماً، وذلك كما حصل مع أهل نجران على أن يكونوا تحت حماية المسلمين في مقابلة ارتضوها

4 - وهناك نوع آخر من المعاهدات يترك فيه للدولة المعاهدة استقلالها الداخلي تحت ظل من السيادة كما فعل معاوية رضي الله عنه في عهده للأرمن. فقد ترك لهم حريتهم في بلادهم وأن يعينوا أمراءهم وقضاتهم ورؤساءهم، ويحتفظوا بتقاليدهم الدينية والعسكرية

(جـ) والإسلام يترك للمسلمين تقدير المصلحة في كل نوع من هذه المعاهدات ولا يقيدهم في ذلك بشيء إلا بشرط واحد: هو ألا تمس المعاهدة قانونه الأساسي ولا تتعارض مع شريعته العامة.

والأصل في ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: (كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل)، وشبيه بهذا ما تقوله الدول من أن المعاهدات التي لا تتفق مع الدستور باطله ولا يستخدم الإسلام ذلك الشرط لمصلحة المسلمين فقط. وإنما يطبقه لمصلحة أهل العهد أنفسهم، ومن هنا يقول الفقهاء: (لو طلب ملك عهد الذمة على أن يترك وما يحكم به أهل مملكته من القتل والظلم والفساد، فلا يصح في الإسلام أن يجاب إلى ذلك، لأن التقرير على الظلم مع قدرة المنع منه حرام)

(د) والإسلام يبيح للمسلمين عند الضرورة أن ينزلوا عن بعض حقوقهم، أو يصالحوا غيرهم على أن يبذلوا له مالاً طلباً لخير يرونه فيما بعد، واتقاء لشر يخافونه على أنفسهم. ولنا في صلح الحديبية أوضح مثال على سماحة الإسلام ومرونته في سبيل الحصول على السلام

(هـ) ومما يتصل بمعاهدات الصلح تقرير الإسلام لمبدأ الجزية وليست الجزية - كما يتصورها بعض الناس - بدلاً عن إسلامهم أو عن دمائهم، وإنما هي علامة على خضوعهم، وكفهم عن الفتنة واعتراض سبيل الدعوة، ومعونة تهيئ لهم الاشتراك في مصالح الدولة، والارتفاق بما يرتفق به المسلمون. يقابلها من جانب المسلمين فوق ذلك حمايتهم من الاعتداء عليهم في أنفسهم وأهليهم وأموالهم

وقد جاء في كتاب الخراج للإمام أبي يوسف أن أبا عبيدة بعدما صالح أهل الشام وجبى منهم الجزية والخراج بلغه أن الروم قد جمعوا للمسلمين جموعاً لا قبل لهم بها. فكتب إلى أمراء المدن المصالحة: (أن ردوا على أهل الذمة ما جبيتم منهم من جزية وقولوا لهم إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع، وأنكم قد شرطتم

علينا أن نمنعكم؛ إنا لا نقدر على ذلك وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم، ونحن على الشرط وما كتب بيننا وبينكم إن نصرنا الله)

ولهذا لم ينس الإسلام فيها واجب المروءة والرحمة. فهو لا يجيز أن توضع على امرأة ولا صبي ولا ضعيف عاجز عن الكسب، ولا على الرهبان الذين لا يخالطون الناس

هذا والإسلام يحتم على المسلمين أن تكون سياستهم في العهود على وجه عام (و) مبنية على التراضي وحب السلام وإقرار الأمن والعدالة. وهو يمقت العهود التي يكون أساسها القهر والغلبة وتحكيم القوة ويمقت الخداع والخيانة في العهود. ويصف الناقضين للعهد بأنهم شر الدواب عند الله. ويأمر بالاشتداد على الخائنين الذين لا يرقبون إلاً ولا ذمة. ويوجب أن يكون نبذ العهد إذا جد ما يقتضيه على سواء بينه وبين الخصوم. بل يوجب تمكين العدو من إيصال خبر النبذ إلى أطراف بلده وأنحاء مملكته وفي ذلك يقول الكمال بن الهمام، وهو بصدد قوله تعالى: (وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين)

إنه لا يكفي مجرد إعلانهم بل لابد من مضي مدة يتمكن فيها ملكهم بعد علمه بالنبذ) من إنفاذ الخبر إلى أطراف مملكته. ولا يجوز للمسلمين أن يغيروا على شيء من أطرافهم قبل مضي تلك المدة)

ويجمل بنا في هذا المقام أن نسوق آية من الكتاب الكريم هي بحق دستور الإسلام في الوفاء بالعهود. قال تعالى:

وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون، ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة)

ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن) سبيل الله ولكم عذاب عظيم)

وقد بلغ من حرص الإسلام على الوفاء بالعهود أنه لم يبح للمسلمين أن ينصروا إخوانهم المقيمين في بلاد أعدائهم. الذين لم يهاجروا منها - على المعاهدين وفي ذلك يقول القرآن الكريم في سورة الأنفال

والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق)

هذه صورة مصغرة لأهم القواعد التي نظم بها الإسلام علاقة المسلمين بغيرهم من الدول

معاملة الدولة الإسلامية لمن يعيش في بلادها من غير المسلمين

كما نظم الإسلام العلاقات الدولية العامة على الأسس التي أوضحنا. وضع أساساً صالحاً لتنظيم معاملة غير المسلمين الذين يقيمون في بلاد الإسلام

يقوم ذلك الأساس على ما يأتي:

1 - اشتراكهم مع المسلمين في الحقوق والواجبات العامة

2 - تركهم وما يدينون من غير تحكم في عقائدهم ولا في كنائسهم ولا في رسومهم وطقوس عباداتهم ما دامت على وجه لا يفتن المسلمين في دينهم

3 - جواز الرجوع بهم في مسائلهم الخاصة إلى حاكم منهم، وأن يحكم الحاكم المسلم بينهم بمقتضى ما يدينون به

4 - الإحسان إليهم في الروابط الاجتماعية العامة على حدود ما بين المسلمين بعضهم مع بعض

وقد جاءت عن النبي صلى الله عليه وسلم وصايا كثيرة في حسن معاملتهم والتوصية بهم

موازنة

هذه هي القواعد التي ينظم بها الإسلام العلاقات الدولية عامة كانت أم خاصة وضع أساسها القرآن وبينتها السنة. وشرحها عمل الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من بعده. ثم تناولها التابعون وفقهاء المسلمين فأعملوا فيها الرأي والتخريج شأنهم في الشريعة كلها حتى اتسع نطاقها لتنظيم كل ما يجد من مظاهر العلاقات على وجه يحقق

النفع العام والسلام الشامل
وضع الإسلام هذه القواعد وعرفها علماؤه وفقهاؤه في وقت كانت فيه دول الحضارة الغابرة تتعثر في عادات جافة لا تعرف للإنسانية حقاً ولا تقيم للعدالة والسلام وزناً. ثم تلتها دول الحضارة الناشئة فأخذت تخطو في آثار الحضارة الغابرة حتى أسس فقيه هولندي في القرن السابع عشر ما سماه القانون الدولي الحديث ووضعه على مبادئ القانون الطبيعي الذي يرفض القانونيون الآن الاعتماد عليه كقانون له احترام القوانين.
ولقد حاول العالم أن يضمن السلام في عصرنا الحاضر بالرجوع إلى هيئات دولية محكمة ولكن المجازر البشرية الدائرة الآن في أقاليم الأرض تنطق بالفشل الذريع الذي أصاب العالم في الوصول إلى غايته
فأين هذا من قواعد الإسلام الصريحة العادلة. وأين لهم ضمان كضمان الإسلام إذ يجعل هذه القوانين أحكاماً تكليفية دينية لا يسع المسلمين بمقتضى تدينهم إلا أن يرعوها حق رعايتها ويعملوا على تنفيذها وتحقيقها سواء فيما يختص بهم أم بغيرهم. فهذا وذاك شرع الله الذي لا مناص من النزول عليه والعمل بمقتضاه من غير تفرقة بين مسلم وغير مسلم. ويقول فيه (ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم) (أن لا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير) (وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهوائهم وأحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم إنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وأن كثيراً من الناس لفاسقون أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون)
اقتراح
يذكرني مؤتمر رابطة الإصلاح الاجتماعي في عرضه هذه الموضوعات على بساط البحث - بمؤتمر القانون الدولي المقارن الذي عقد في سنة 1937 بمدينة لاهاي وقد مثلت فيه الشريعة الإسلامية بموضوعين عظيمين: علاقة الشريعة الإسلامية بالقانون الروماني. والمسئولية المدنية والجنائية في الشريعة الإسلامية
وقد ظفرت الشريعة في هذا المؤتمر الأوربي بقرارات أهمها: أن الشريعة الإسلامية شريعة مستقلة وأنها صالحة لمجاراة التطور الحديث. وقد أوصى المؤتمرون هيئة المؤتمر بأن تعني في أدواره المقبلة أشد العناية بمسائل التشريع الإسلامي. وأن تدعو إلى الاشتراك
في أعماله ودراساته أكبر عدد ممكن من أقطار المسلمين
وأني لأنتهز هذه الفرصة فأقترح على مؤتمر رابطة الإصلاح الاجتماعي المصري المسلم أن يعمل منذ الآن على إعداد العدة لإقامة مؤتمر عالمي تكون مهمته استخراج القواعد الشرعية التي تتخذ أساساً لتقنين شرعي - يظهر به جلال هذه الشريعة وحسن ضمانها لمصالح الناس مهما تقدمت حياتهم وتطورت حضارتهم.
هذا هو اقتراحي أتوجه به من هذا المنبر إلى جميع رجال الفكر في مصر والشرق - أتوجه به إلى ملوك الإسلام وفي مقدمتهم حضرة صاحب الجلالة ملك مصر المعظم الغيور على دينه الحريص على شريعته.
أتوجه به إلى علماء الشريعة وعلى رأسهم عالمان عظيمان من أفذاذ علماء الإسلام لهما تاريخ مشهود في التخريج الفقهي والتطور التشريعي الإسلامي: الأستاذ الأكبر والمفتي الأكبر
أتوجه به إلى رجال الحقوق ومن خرجت من رجال القانون الحريصين على خدمة شريعتهم وإعلاء شأنها بين القوانين الحديثة أتوجه به إلى هؤلاء جميعاً واحملهم إياه أمانة يسألون عنها أمام الأبناء والأحفاد ويسألون عنها أمام الله والرسول (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون. . .)
محمود شلتوت
الحديث ذو شجون
للدكتور زكي مبارك
امتحان جديد - فلان وفلان - محصول (الرسالة) - أقسمت - بالخمر والنساء - الإفراج عن ديوان (سبط ابن التعاويذي
الصلات الأدبية بين مصر والسودان - الأستاذ محمد فريد أبو

حديد - لا تنسوا أندية السودان
امتحان جديد
ومن المحنة جاء الامتحان، كما جاء الابتلاء من البلاء!
وقد امتُحِنت مصر في هذه الأيام بضروب من الخوف والجوع بسبب الغارات الجوية، فما الذي أعددناه لنخرج من هذه المحنة بسلام؟
السياسة الرسمية للسياسيين الرسميين، أما السياسة القومية فمُلقاة على عواتقنا، إن كنا أهلاً للظفر بثقة الوطن الغالي، فما واجبنا اليوم وقد وجدت شؤون لا يباح معها لعب ولا مزاح؟
قيل إن الذين هاجروا من الإسكندرية سبعون ألفاً أو يزيدون، فإلى أين تتوجه تلك الألوف؟
ندع الحكومة تدبر من هذه الشؤون ما تستطيع، ثم نلتفت إلى أغنيائنا فنقول:
هذه فرصة سنحت لشكر الله على نعمة الغنى والعافية، والأمان، فماذا عندكم من فنون الشكر والحمد والثناء على واهب الغنى والعافية والأمان؟
إن كان الله ابتلى فريقاً من الفقراء بتعريضهم للخوف والجوع فقد ابتلى جماعات الأغنياء بتعريضهم للشح والبخل في أوقات لا يبخل فيها غنيُ بماله إلا وقد عرض نفسه لغضب صاحب العزة والجبروت
قلت خمسين مرة: (إن الأمم بأغنيائها) ولمثل هذه الأيام الفواجع أعددنا أغنيائنا، ليزدادوا قوة إلى قوة، فما ينمي الخيرات والثمرات غير الجود بها في أوقات البلاء
هذا يوم الامتحان، وهو امتحان يؤديه أغنياؤنا طائعين لا كارهين، فما نحب أن يكون عليهم رقيب غير ضمائرهم، ولا نقبل أن تتدخل الحكومة لحملهم على البر والإفضال
فيضيع المعنى الشعري الجميل، الذي يمثل رفق الأغنياء بالمهاجرين الفقراء، عن طيب نفس وبلا انتظار لأمر يصدر من هنا أو هناك!
أغنياؤنا اليوم مدعوّون لوليمة روحية لا تتاح في كل يوم، فأمامهم فرصة للشعور بمعاني جديدة لم يشعروا بمثلها من قبلُ، الشعور بمعاني الكرم والإيثار والإفضال، وهي معانٍ أشهى وأطيب من الأنس بالمال المكنوز في أوثق الحصون
فالبائس الذي يكرمونه اليوم، ليس صُعلوكاً يتسول حتى يملكوا كف أيديهم عن الإحسان إليه، وإنما هو أخُ مواطن صدته الظروف القواهر عم مواصلة عمله في مدينة معرضة لعدوان الباغين على الحق وعلى الإنسانية
وهذا المواطن المصدود عن طلب الرزق يستطيع أن يؤدي خدمة تنفعه وتنفعكم إذا أردتم أن يدفع ثمن القوت والإيواء.
نحن لا ندعوكم إلى تدليل المهاجرين حتى ينسوا أن الدنيا دار كفاح ونضال، وإنما ندعوكم إلى تيسير وسائل الرزق الحلال لمن يستطيعون أن يعملوا بلا إجهاد ولا إرهاق
أما الذين لا يصلحون للعمل من الأطفال والعجائز، فهم غيوث تساق إليكم، وما أسعد من تواتيه الظروف على تربية طفل يتيم، أو إسعاد عجوز فقد من يعوله من أهل وأبناء!
جربوا هذه الألوان من طعوم الحياة، يا أبناء هذه البلاد جربوها ثم حدثوني عما وجدتم من شهي المذاق
سبعون ألفاً يبدَّدون كما يبدَّد العِقد المنظوم؛ ثم لا يلتفت إليهم أحد من الأغنياء التفاتة الرفق والعطف والإشفاق؟
فلأي يوم ادخرنا أغنياءنا، إن لم نكن ادخرناهم لمثل هذا اليوم؟
الرفق باليتامى لا يمر بلا جزاء، والإشفاق على المنكوبين لا يفوت بلا ثواب، وإن الله لينظر إلى ما تعاملون به أولئك وهؤلاء، فما أنتم صانعون؟
سيخرج المحاربون بمغانم جديدة أقلُّها القدرة على تعديل صحائف التاريخ
فما غنائمنا في هذه الحرب؟
ما غنائمنا إن لم نفز بفتح جديد هو تفجير ينابيع العطف والتآخي في الصدور المصرية؟
وما قيمة الحياة إن لم نذق فيها من طعوم الرغد غير الشبع والريّ في عزلة عن بلايا المجتمع؟
ما قيمة الحياة إن لم نثق بأننا أهل لإغاثة الملهوفين حين يعتسف البلاء؟
رحمة الله على أيامنا السوالف، ثم رحمة الله على ليالينا الخوالي!!

كنا أجود من الغيث حين نسمع بنكبة حلت بشعب من الشعوب، ولو ضَعُفت بيننا وبينه الأواصر والصلات، ألم يتوجع شعراؤنا الكبار للزلازل التي وقعت في بلاد الطليان وبلاد اليابان؟
ألم نؤلف اللجان لمنكوبي الحرب الفلندية؟
فما سكوتنا اليوم والنكبة حلت بسكان الإسكندرية وطن الفتوة والجمال؟
كان مصطفى كامل يقول: الإسكندرية معقل الحزب الوطني
وكان سعد زغلول يقول: الإسكندرية معقل الوفد المصري.
وكذلك كانت الإسكندرية مدينة مدّللة يتودد إليها جميع الأحزاب، فما حالها اليوم في أنفس الزعماء؟
الإسكندرية - مدينتنا البحرية الجميلة - تعاني عذاب التشريد ونحن صامتون صمت الأموات!
الإسكندرية - عروس الماء - التي دانت جميع شعرائنا وكتابنا تنظر اليوم إلى من يواسيها بكلمة رثاء، وإلى من ينظر إلى أبنائها نظرة إشفاق
وإلى من يتوجه أبناؤها المشرَّدون؟ إلى أين؟
أيتوجهون إلى الريف وأهل الريف في أغلب أحوالهم فقراء؟
دعوا هذا الحل، فهو لا ينفع بشيء، واسمعوا كلمة الحق:
يجب أن يكتتب القادرون من الأمة بمبالغ تتفاوت بتفاوت القدرة المالية، ثم يكون ما يُجمع من الاكتتاب ذخيرة تُدبر بها وسائل العيش المقبول لأولئك المنكوبين، على شرط أن يعيشوا من كسب أيديهم في الحدود التي تسمح لهم بالتسبب والارتزاق، وليس ذلك بالأمر المستحيل
وما سبعون ألفاً حين توزّع همومهم على ستة عشر مليوناً؟
أتريدون أن أقول مرة ثانية إنه عدد بلا محصول؟
أغنياءنا، أغنياءنا، أين انتم، أين أنتم؟
إنكم تهربون من منازل التكريم والتشريف، وإلا فكيف جاز ألا يزيد بركم بمنكوبي الغارات عن بضعة آلاف؟
أخرجوا من دنياكم في سبيل المنكوبين من مواطنيكم، لتظفروا بزاد نفيس من رضا الله الذي تفضل فأسبغ عليكم أثواب الغنى والعافية والأمان
أخرجوا من دنياكم، لتعودوا إليها أعزاء، فالله لا ينسى ولن ينسى من يخرج من دنياه لمواساة المكروبين
الله عز شأنه يقول: (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها)
فهل علمتم أن هنالك وعداً أرحب من هذا الوعد؟
هو قول الله عز شأنه: (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء)
وما عسى أن يكون الإنفاق في سبيل الله إن لم يكن في مواساة من دعوناهم لحفظ الحياة في أجمل المدائن، ثم نكبهم الدهر اللئيم بما أراد؟
أليس من الكرب الماحق أن تدعونا الكوارث إلى استدرار العطف على المنكوبين من أهل الإسكندرية وكانوا أشجع الناس وأسعد الناس؟
لو كنا نملك من أمورنا ما نريد لأقمنا قبوراً من الياقوت لمن عدا عليهم الموت من أهل الإسكندرية، فما كانوا إلا ذخيرة من أكرم ذخائر الوطن الغالي، فكيف نضن بالعطف على أحيائهم المنكوبين بالغارات، وكان آباؤهم وأجدادهم أمل الوطن في حماية ذلك الثغر الجميل؟
إسكندرية!! إسكندرية!!
إليك أقدم تحيتي وعزائي!
فلان وفلان
من عادتي أن أنوه بما يقوله فيَّ أعدائي، وأن أسكت عما يقوله في أصدقائي، رغبة في السلامة من آصار التكبر والازدهاء
ولو أني أطعت الأستاذ الزيات لكان لي مع أصدقائي حال غير هذه الحال، فهو يدعوني من

وقت إلى وقت لتلخيص رسائل قرائي، ولكن أعتذر لتحقيق المعنى الذي أشرت أليه، وهو السلامة من التكبر والازدهاء
فهل أستطيع اليوم أن أقول إني شعرت بالرهبة حين قرأت خطاب الأديب (رضوان العوادلي)؟ وهل أملك التصريح بأن خطاب الأديب (أحمد العجمي) أوقعني في زلزال، وكأنه خطاب الأديب (شلتوت) أو خطاب الأديب (أنور الحلبي)؟
إن لقرائي فضلاً لن أنساه، فهم يحببون إلي الدنيا والوجود، وهم يسوقونني سوقاً إلى الاعتزاز بسنان القلم وسلطان البيان
ولكن لي عليهم حقاً يفوق حقوقهم عليّ، وهو دعوتهم إلى أن تكون لهم غاية وطنية وروحية فإني أرى لهم قدرة على التعبير الجميل، وتلك موهبة يعز علينا أن تضيع
هل يذكرون أني حدثتهم مرة بأني لم أشرب فنجان قهوة في غير داري قبل أن أظفر بإجازة الدكتوراه وقبل أن أبلغ الثلاثين؟
شبابكم، شبابكم، يا قرائي، من أبناء الجيل الجديد
إحذروا، ثم إحذروا، أن تضيع من دمائكم قطرة في غير الواجب
وتذكروا، ثم تذكروا، أنكم خلفاؤنا في الحياة الأدبية والفلسفية
واعرفوا، ثم اعرفوا، أن المجد الأدبي لا يُنال بالأماني، وإنما يُنال بالجهاد الشاقّ، فكونوا عندما نريد لكم من كرائم الآمال، ثم تيقنوا أن الدنيا لكم إذا واجهتموها بعزائم المجاهدين الصادقين
كتب الله لكم عافية البدن، وطهارة القلب، وسلامة الروح
محصول (الرسالة)
بين الموظفين برياسة مجلس الوزراء أديب يتخير الأطايب من محصول (الرسالة) ثم يدونه في دفتر خاص، وقد لاحظت أنه لا يتخير إلا الفقرات الموسومة بالرصانة والرنين، وفي هذه الكلمة أوجه نظره إلى أن الكلام قد يصل إلى أوج القوة وإن لم يظهر أن صاحبه قد احتفل بالأسلوب
ومن أمثلة ذلك قول الأستاذ محمود الشرقاوي في وصف شمائل صاحب البلاغ:
كان محرر السينما والمسرح بالبلاغ في إحدى السنين شاباً قليل الخبرة، ولو أنه) طاهر النفس، فكتب عن إحدى الممثلات المصريات كلمة ذات وجهين أحدهما قبيح، وتحدثت هي في ذلك بالتليفون إلى عبد القادر باشا، وبعد لحظة دعا ذلك المحرر عنده وعنّفه أشد التعنيف، وأمر بفصله من (البلاغ) وكان كثيراً ما يفعل ذلك معه ومع غيره ثم يعفو، ولكنه في هذه المرة لم يقبل فيه شفاعة شافع، ولم يرى العاملون مع عبد القادر حمزة أنه غضب من شيء بمثل ما غضب في ذاك)
فهذه الفقرة بسيطة جدا، ولكنها قوية جداً، بفضل قوة المعنى الذي انطوت عليه إظهار الغضب على من يستبيحون غمز الأعراض
ولم يتسع وقت الأستاذ الزيات لرثاء عبد القادر حمزة في إحدى افتتاحياته التي يحتفل بتجويدها كل الاحتفال، فكتب في البريد الأدبي كلمة قصيرة، ولكن تلك الكلمة على قِصرها أدت الواجب في توديع صاحب البلاغ أجمل أداء، وأكاد أحسبها لخصت تاريخ صاحب البلاغ أبرع تلخيص
والمهم هو تذكير أصدقاء الرسالة بواجب فكرت فيه مرات كثيرة ثم صرفتني عنه الشواغل، وهو تعقّب كل عدد بالنص على ما فيه من دقائق تفوت بعض القراء
لو قام بهذا الواجب أحد أصدقاء الرسالة لنص على العذوبة في قول الشاعر محمود حسن إسماعيل
الليلُ ناداني ... من عالمٍ ثانِ
وقال: يا فاني ... هيّجت أحزاني
فهذا والله من نفيس الكلام، كما كان يعبّر محمد بن داوود طيّب الله ثرَاه!
أقسمت بالخمر والنساء
كان الأستاذ (محمد لطفي جمعة) قال في كلمة نشرها بجريدة الدستور: إن الشاعر علي محمود طه أول من أقسم بالخمر والنساء حين يقول:
أقسمت بالخمر والنساءِ ... ومجلس الشعر والغناءِ
وهذا حق، ولكن فات الأستاذ لطفي جمعة أن ينص على أسماء بعض الشعراء الذين

سرقوا هذا المعنى من شاعرنا المهندس ليبيّن فضله في إذاعة المبتكرات من المعاني الشعرية
ولو أنه وفىّ هذا البحث بعض حقه لأشار إلى أن سبط ابن التعاويذي المتوفى سنة 584
في بغداد كان من بين الذين سرقوا معنى الشاعر علي محمود طه، فقد رأيته يقول:
أما وحقِّ المُدام صِرفاً ... يخجلُ من لونها الشقيقُ
وكلِّ هيفاء ذاتِ دَلٍ ... يقتُلني قدُّها الرَّشيقُ
يشكو إلى رِدفها المعبَّا ... من جورِه خصرُها الدقيق
للصبِّ من وردِ وجنتيها ... وِرْدٌ ومن ثغرها رحيق
إلى آخر ذلك القسم الطريف
وهذه خدمة أكرِم بها صديقي شاعر (الجندول) أعزَّه الحبُّ ورعاه!
الإفراج عن ديوان السبط
وبهذه المناسبة أقول: إن الظروف سمحت بالإفراج عن ديوان (سبط ابن التعاويذي)، فقد كان معتقلاً في (مكتبة هندية) ثم اشترته (المكتبة التجارية) فهو اليوم في متناول من يشتاق إليه من عشاق الشعر البليغ
ولكن كيف وقع ذلك الاعتقال؟
كان الديوان قد نشر بعناية المستشرق مَرجُليوث؛ ثم مرَّت عليه أعوام وهو محبوس، لأسباب لا نعرف سرها الصحيح!
فإلى مرجليوث في قبره نوجِّه صادق الثناء على ذلك الجهد المحمود.
الصلات الأدبية بين مصر والسودان
أنست القاهرة بوجوه الأساتذة الاماجد حسن مأمون، وعبد العزيز عبد المجيد ومحي الدين عبد الحميد، وهم يلهجون بالثناء على ما رأوا عند عرب السودان من أريحية ومروءة وإخلاص. وقد عرفنا أن إقامتهم هناك من أطيب الفرص في حياتهم العلمية والأدبية؛ فأهل السودان أهل جِد، ولا يلقى بينهم أهل العلم إلا أكرم الرعاية والترحيب. وقد شعرتُ بالسرور يغمر قلبي حين حدثوني أن الحياة الأدبية هناك تفوق ما نتصوره بمراحل طوال، ولا غرابة في ذلك: فالصلات الأدبية بين شطرَي الوادي تعين على تحقيق ما نرجوه لأهل السودان من التفوق في الأدب والبيان
وقد انتفعت بمعارف الأستاذ عبد العزيز عبد المجيد عن الحياة في السودان، وهي معارف
صدرت عن قلبٍ يحب أولئك الرجال حب الشقيق للشقيق
محمد فريد أبو حديد
وفي هذه الأيام ترد الأخبار بأن الأستاذ محمد فريد أبو حديد استُقبِلَ بحفاوةٍ عظيمة في الأندية الأدبية بالخرطوم، وأنه دُعِي لإلقاء طائفة من المحاضرات، ومن المؤكد أنه ظفر من إخواننا هنالك بالإعجاب، بفضل ما يملك من صفاء الفكر وجمال الأداء، وإنه لأهل لما لَقِيَ من جميل الترحيب
ومن طريف ما وفق إليه أنه حمل خمس مجموعات من مطبوعات لجنة التأليف والترجمة والنشر وأهداها إلى الأندية الأدبية في الخرطوم. والذي يعرف مطبوعات هذه اللجنة يدرك قيمة الفرح الذي قوبلت به تلك النفائس
فهل أستطيع أن أرجو أستاذنا مدير دار الكتب المصرية أن يتذكر أندية السودان حين يُهدي مطبوعات دار الكتب إلى الأندية الأدبية والعلمية؟
وهل يتفضل معالي وزير المعارف فيشير بإهداء أندية السودان طائفة من مطبوعات المجمع اللغوي ومطبوعات كلية الآداب؟
زكي مبارك
في الاجتماع اللغوي
اللهجات العامية الحديثة
ضيق متنها وقلة مترادفاتها
للدكتور علي عبد الواحد وافي
أستاذ الاجتماع بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

من أهم ما تمتاز به العربية أنها أوسع أخواتها السامية ثروة في أصول الكلمات والمفردات. فهي تشتمل على جميع الأصول التي تشتمل عليها أخواتها السامية أو على معظمها، وتزيد عنها بأصول كثيرة احتفظت بها من اللسان السامي الأول، ولا يوجد لها نظير في أية أخت من أخواتها. هذا إلى أنه قد تجمع فيها من المفردات في مختلف أنواع الكلمة اسمها وفعلها وحرفها، ومن المترادفات في الأسماء والصفات والأفعال. . . ما لم يتجمع مثله للغة سامية أخرى، بل ما يندر وجود مثله في لغة من لغات العام. فقد جمع للأسد خمسمائة اسم، وللثعبان مائتا اسم؛ وكتب الفيروزابادي صاحب القاموس المحيط كتاب في أسماء العسل؛ فذكر له أكثر من ثمانين اسماً، وقرر مع ذلك أنه لم يستوعبها جميعاً. ويرى الفيروزابادي أنه يوجد للسيف في العربية ألف اسم على الأقل؛ ويقرر آخرون أنه يوجد أكثر من أربعمائة اسم للداهية؛ ويوجد لكل من المطر والريح والنور والظلام والناقة والحجر والماء والبئر أسماء كثيرة تبلغ عشرين في بعضها وتصل إلى ثلثمائة في بعضها الآخر. وقد جمع الأستاذ دو هامر المفردات العربية المتصلة بالجمل وشئونه، فوصلت إلى أكثر من خمسة آلاف وستمائة وأربعة وأربعين. وكذلك الشأن في الأوصاف: فلكل من الطويل والقصير والكريم والبخيل والشجاع والجبان. . . في اللغة العربية عشرات من الألفاظ وفي ذلك تختلف العربية الفصحى اختلافاً كبيراً عن اللهجات العامية الحديثة المتشعبة عنها. فمتون هذه اللهجات ضيقة كل الضيق لا تكاد تشتمل على أكثر من الكلمات الضرورية للحديث العادي، وتكاد تكون مجردة من المترادفات، كما سبقت الإشارة إلى ذلك في إحدى مقالاتنا السابقة

وقد كان هذا أحد الأسباب التي حملت بعض الباحثين على أن يقف حيال مفردات اللغة العربية موقف الشك الذي وقفه آخرون حيال قواعدها. فزعم أنه لا يبعد أن يكون جامعو المعاجم قد خلقوا كثيراً من هذه المفردات خلقاً لحاجات في نفوسهم وفساد هذا الرأي لا يكاد يحتاج إلى بيان

فلهجات المحادثة في جميع الأمم تقتصر في العادة على الضروري وتنفر من الكمالي، وتنأى عن مظاهر الترف في المترادفات وما إلى ذلك. ولذلك تتسع دائماً هوة الخلاف بينها وبين اللغة الفصحى في هذه الناحية فليست العربية فذة في هذا الباب، بل تشترك معها فيه جميع (لغات الآداب) أو (اللغات الفصحى) وإليك مثلاً اللغة الفرنسية الفصحى، أو لغة الكتابة، واللغة الفرنسية المستحدثة في التخاطب العادي، فالفرق بينهما في المفردات لا يكاد يقل عن الفرق بين العربية الفصحى واللهجات العامية الحديثة المتفرعة منها

أما جامعو المعاجم فيدلنا التاريخ وتدلنا آثارهم على شدة حرصهم على تحري الحق. فقد استخلصوا معظم ما اشتملت عليه معاجمهم من كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومن أحاديث الرسول عليه السلام، والآثار العربية في العصر الجاهلي والعصور الإسلامية الأولى، واستخلصوا بعضه من العرب المعاصرين لهم. وكانوا شديدي الحيطة في هذه الناحية إلى حد الإفراط. فكانوا يتحاشون الأخذ عمن تشوب عربيته أية شائبة. ولذلك كانوا لا يكادون يأخذون إلا عن عرب البادية لفصاحة ألسنتهم، وبعد لهجاتهم عن التأثر باللغات الأعجمية، وعزلتهم وقلة احتكاكهم بغيرهم. فكانوا يترقبون مجيء أعراب البادية إلى المدن في التجارة أو غيرها. . . فيستمعون إلى حديثهم ويناقشونهم في مختلف شئون اللغة، ويدونون من فورهم كل ما يهديهم إليه هذا الحديث وترشدهم إليه هذه المناقشة بصدد مفردات اللغة ودلالتها ووجوه استخدامها. وكانوا يتبعون أحياناً ما يسميه علماء اللغة بطريقة (الملاحظة السلبية) فيرحلون إلى البادية ويقضون فيها بين ظهراني الأعراب الأشهر بل السنين، يعاشرونهم ويستمعون إليهم في أحاديثهم الطبيعية، ويدونون ما يقفون عليه في هذا السبيل، وفي ذلك يقول أبو نصر الفارابي في كتابه: (الألفاظ والحروف): والذين عنهم نقلت اللغة العربية من بين قبائل العرب هم قيس وتميم وأسد، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم. وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضري قط، ولا من لخم وجذام لمجاورتهم أهل مصر والقبط، ولا من قضاعة وغسان وإياد لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرءون العبرية، ولا من تغلب لمجاورتهم للروم، ولا من بكر لمجاورتهم للقبط والفرس، ولا من عبد القيس

وأزدعمان لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين لأهل فارس والهند، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم لأهل الحبشة والهند، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة وثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن من المعنيين وغيرهم وقربهم من الجاليات اليمنية، ولا من حواضر الحجاز لأن ألسنة أهلها كانت قد فسدت حينئذ لإمتزاجهم بأمم كثيرة، ويقول ابن خلدون (وكانت لغة قريش أفصح اللغات وأحرصها لبعدها عن بلاد العجم من جميع جهاتها، ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزامة وبني كناية وغطفان وبني أسد وبني تميم. فأما من بعد عنهم من ربيعة ولخم وجذام وغسان وإياد وقضاعة وعرب اليمن المجاورين لأمم الفرس والروم والحبشة فلم تكن لغتهم تامة الملكة لمخالطة الأعاجم. وعلى نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية)

وما اتخذوه من وسائل الحيطة حيال القبائل والأمكنة اتخذوه حيال الأزمنة والعصور. فلم يأخذوا إلا عن العصور التي كان فيها اللسان العربي سليماً لم يصبه بعد تبلبل أعجمي ولا انحراف عن أوضاع اللغة الفصحى. ولذلك لم يأخذوا إلا عن عرب الجاهلية والإسلام إلى أواسط القرن الثاني الهجري بالنسبة إلى فصحاء الإحضار، وإلى أوائل الرابع بالنسبة إلى فصحاء البادية؛ وسموا هذه العصور (عصور الاحتجاج). وأهملوا ما عداها مبالغة في الدقة وحرصاً على تحري وجوه الصدق واليقين.

أما الأسباب الحقيقية لكثرة المفردات والمترادفات إلى الحد الذي وصفناه فيرجع أهمها إلى الأمور الآتية:

1 - أن طول احتكاك لغة قريش باللهجات العربية الأخرى قد نقل إليها طائفة كبيرة من مفردات هذه اللهجات. ولم تقف لغة قريش في اقتباسها هذا عند الأمور التي كانت تعوزها، بل انتقل إليها كذلك من هذه اللهجات كثير من المفردات والصيغ التي لم تكن في حاجة إليها لوجود نظائرها في متنها الأصلي؛ فغزرت من جراء ذلك مفرداتها وكثرت فيها المترادفات في الأسماء والأوصاف والصيغ، وأصبحت الحالة التي انتهت إليها أشبه شيء ببحيرة امتزج بمياهها الأصلية مياه أخرى انحدرت إليها من جداول كثيرة. وإلى هذا يشير ابن جني في كتابه الخصائص إذ يقول: (وكما كثرت الألفاظ على المعنى الواحد كان ذلك أولى بأن يكون لغات لجماعات اجتمعت لإنسان واحد من هنا وهناك)، ويشير إليه كذلك ابن فارس في كتابه الصاحبي إذ يقول: (فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج ويتحاكمون إلى قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها؛ فإذا أتتهم الوفود من العرب يتخيرون من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى سلائفهم التي طبعوا عليها).

2 - إن جامعي المعاجم لم يأخذوا عن قريش وحدها، بل أخذوا كذلك عن قبائل أخرى كثيرة؛ ومن المقرر أن لهجات المحادثة كانت تختلف في بعض مظاهر المفردات باختلاف القبائل حتى بعد تغلب لغة قريش على سائر ألسنة العرب. وكان من جراء ذلك أن اشتملت المعاجم على مفردات لم تكن مستخدمة في لغة قريش ويوجد لمعظمها مترادفات في متن هذه اللغة الأصلي وفيما انتقل إليها من غيرها، فزاد هذا من نطاق المفردات والمترادفات في المعاجم سعة على سعة

3 - إن جامعي المعاجم، لشدة حرصهم على تقييد كل شيء دونوا كلمات كثيرة كانت مهجورة في الاستعمال ومستبدلاً بها مفردات أخرى. فكثرت من جراء ذلك في المعاجم مفردات اللغة ومترادفاتها

4 - إن كثيراً من الكلمات التي تذكرها المعاجم على أنها مرادفة في معانيها لكلمات أخرى غير موضوعة في الأصل لهذه المعاني، بل مستخدمة فيها استخداماً مجازياً

5 - إن الأسماء الكثيرة التي يذكرونها للشيء الواحد ليست جميعها في الواقع أسماء، بل معظمها صفات مستخدمة استخدام الأسماء. فكثير من الأسماء المترادفة كانت في الأصل نعوتاً لأحوال المسمى الواحد، ثم تنوسيت هذه الأحوال بالتدريج وتجردت مدلولات هذه النعوت مما كان بينها من فوارق وغلبت عليها الاسمية. فالخطار والحطام والباسل والأصيد. . . من أسماء الأسد يدل كل منها في الأصل على وصف خاص مغاير لما يدل عليه الآخر، وكذلك ما يعد من أسماء السيف: كالمصمم والهندي والحسام والعضب والقاطع. . . وهلم جرا

6 - إن كثيراً من الألفاظ التي تبدو مترادفة هي في الواقع غير مترادفة، بل يدل كل منها على حالة خاصة تختلف بعض الاختلاف عن الحالة التي يدل عليها غيره؛ وإليك مثلاً: رمق ولحظ ولمح وحدج وشفن ورنا. . . وما إلى ذلك من الألفاظ التي تدل على النظر؛ فإن كل منها يعبر عن حالة خاصة للنظر تختلف عن الحالات التي تدل عليها الألفاظ الأخرى. فرمق يدل على النظر بمجامع العين؛ ولحظ عن النظر من جانب الأذن؛ وحدجه معناه رماه ببصره مع حدة؛ وشفن يدل على نظر المتعجب أو الكاره؛ ورنا يفيد إدامة النظر في سكون. . . وهلم جرا

هذا، ومع ما كان يتخذه جامعوا المعاجم من وسائل الحيطة والحرص على تحري الصواب، فقد اندس في معاجمهم كثير من المفردات المولدة والمشكوك في عربيتها، وحرفت فيها كلمات كثيرة عن أوضاعها الصحيحة. ويرجع ذلك إلى أسباب كثيرة أهمها سببان:

(أحدهما) أن بعض الأشعار التي أخذوا عنها قد ثبت فيما بعد أنها موضوعة. فلا يبعد أن يكون بعض مفرداتها من اختراع الواضعين

(وثانيهما) أنهم كانوا أحياناً يأخذون عن الكتب والصحف. فحدث من جراء ذلك تحريف في كثير من الكلمات التي نقلوها. لأن الرسم في عصورهم كان مجرداً من الإعجام والشكل. فكان من الممكن أحياناً قراءة الكلمة الواحدة على عدة وجوه

علي عبد الواحد وافي

ليسانسيه ودكتور في الآداب من جامعة السربون

. . .رسالة

(للناقد الأزهري)

في أوائل القرن الهجري الحاضر كان يقيم في باريس جماعة من التلاميذ المسلمين الذين نزحوا من بلادهم لأجل العلم والتثقف، وكان يقيم بها أيضاً عالم مسلم من أهل الجزائر اسمه (سليمان بن علي)

توجه هؤلاء التلاميذ المسلمون إلى هذا العالم الجزائري المسلم يسألونه عن حكم لبس قلنسوة النصارى (البرنيطة)، ويذكرون أن أحوال باريس تضطرهم إلى لبسها، لأنهم كلما مروا في شوارع باريس بلباسهم، توقف الناس عن يمين وشمال، وصاروا ينظرون إليهم متعجبين، ولأنهم يريدون أن يمنعوا عيونهم من ضرر البرد القارس في هذه البلاد. . . الخ

درس الشيخ هذا السؤال، ووضع في الجواب عنه رسالة مفصلة سماها (أجوبة الحيارى، عن حكم قلنسوة النصارى) أباح فيها لبس البرنيطة وأيد بما وسعه أن يؤيده به على طريقة فقهية سائغة

أفزع ذلك عالماً كبيراً من علماء الأزهر في ذلك الحين هو المرحوم الشيخ محمد عليش مفتي السادة المالكية فكتب رسالة في الرد على هذا العالم الجزائري تناوله فيها بألوان من الإقذاع والتسفيه، ووصمه بالجهل، والقصور، والتهجم على الشريعة، والخروج على إجماع المسلمين. . . الخ

وهذه نصوص من الرسالة (العليشية) نضعها أمام القراء،

قال الشيخ بعد الديباجة:

1 -) أقول: يأهل الذكاء تعجبوا ممن كان عيبه مستوراً، ففضح نفسه، ونادى به عليها بين الناس وصير عيبه مشهوراً، وبيان ذلك أنه تقرر في شريعة الإسلام أن السفر لأرض العدو للتجارة جرُحة في الشهادة، ومخل بالعدالة، فضلاً عن توطنها وطول الإقامة بها، وهذا الرجل (يقصد الشيخ الجزائري) كان مجهولاً مستوراً فعرف بنفسه بأنه من علماء المسلمين خرج عن حد الشريعة وتهتك، ولم يبال بالجرحة في شهادته، ولا باختلال عدالته، واختر مساكنة الكافرين في ديارهم، وزهد في مساكنة المسلمين وفسيح بلادهم. فيالها من فضيحة، وما أفظعها من وقيحة! ولم يشعر بها من شدة حماقته وكثافة جهله، وشدة غباوته. . .)

2 -) يأهل الذكاء تعجبوا ممن كان عيبه مستوراً فأبى إلا إشاعته وصيرورته مشهوراً، وبيان ذلك أن قوله (أتوا من بلادهم لأجل التعلم) فيه اعتراف بالجهل بما يطلب تعلمه وما لا يطلب، وذلك أنه قد تقرر في شريعة المسلمين أن المطلوب تعلمه من أقسام العلم العلوم الشرعية وآلاتها وهي علوم العربية، وما زاد على ذلك لا يطلب تعلمه، بل

ينهى عنه. ومن المعلوم أن النصارى لا يعلمون شيئاً من العلوم الشرعية، ولا من آلاتها بالكلية، وأن غالب علومهم راجع إلى الحياكة والقبانة والحجامة وهي من أخس الحرف بين المسلمين. وقد تقرر في شريعتهم أنها تخل بالعدالة. وهل كذب الرب جل جلاله في قوله: (ولكن أكثر الناس لا يعلمون. يعلمون ظاهراً من الحياة وهم عن الآخرة هم غافلون) وصدقت أنت في زعمك يا مفتون؟ فما أقبح حالك! وما أفظع مقالك

3 - (إن قوله: امتداد القلنسوة يمنع عيونهم من ضرر البرد فيه فضيحة عظيمة، ومثقبة وخيمة، إذ لم يلتفت لمنع الامتداد المذكور من السجود للملك المعبود!)

4 - (وقد بقيت عليك وعليهم ورطة الإقامة في بلاد الكفار بالاختيار حيث لا جمعة ولا جماعة ولا أذان ولا إقامة ولا شعيرة من شعائر الإسلام، ومحل عبادة الأصنام والأوثان والصلبان؛ كيف يرضي بذلك من في قلبه إيمان؟ لا سيما وهو معرض للموت في كل نَفَس وأوان، وقبورهم حفر من النار، فكيف يختار المؤمن دفنه بها؟ فاخلعوا فوراً زي الكافرين، وهاجروا لبلاد المسلمين إن كنتم مؤمنين)

5 - (وقوله لم يرد تحريمها لا في كتاب ولا في السنة ولا في أقوال الأئمة فيه نداء على نفسه بالجهل والقصور، إذ قد دل الكتاب على تحريمها بقوله: (واسجدوا)، وبقوله: (خذوا زينتكم عند كل مسجد) وبغير ذلك من الآيات؛ ومعلوم أنها مانعة من السجود، ودلت السنة على ذلك في قوله: (أمرت أن أسجد على سبعة أعضاء. الحديث؛ وانعقد الإجماع على تحريمها ولا بد من استناده لكتاب أو سنة، وهو معصوم عن الخطأ كما هو معلوم؟ كيف يجوّز أحد من المسلمين لبسها وهو كفر إجماعاً أو على قول؟!)

6 - وقوله: إن النبي صلى الله عليه وسلم لبس جبة رومية ضيقة الكمين، فضيحة فاضحة، لأن الجبة الذكورة لم يختص بها الكفار ولم تصر شعاراً لهم. . . وكيف تتجاسر يا أحمق يا مفتون يا غبي على نسبة لبس ملبوس النصارى الذي صار زياً لهم وعلامة على ذلهم وإهانتهم وكفرهم، إلا أشرف الخلق ومنبع الدين الحق، فأي فضيحة أفضح من هذه الفضيحة، وأي شنيعة أشنع من هذه الشنيعة، يا أعمى البصيرة، ويا خبيث السريرة؟ شقيت شقاوة لا تسعد بعدها أبداً، وصار دمك مهدوراً، والسعي في سفكه واجباً مشكوراً)

7 - وختم الشيخ رده بهذه النتيجة بعد كلام طويل:

(إنه تقرر في شريعة المسلمين أن حكم هؤلاء أمرهم بالتوبة والرجوع إلى دينهم، والتزيي بزي المسلمين. وإمهالهم لذلك ثلاثة أيام، فإن فعلوا ذلك قبلت توبتهم، وخلى سبيلهم؛ وإن تمت الأيام الثلاثة ولم يتوبوا قطعت رقابهم بالسيف، ولا يغسلون، ولا يصلى عليهم لموتهم على الكفر. . . والسلام على من اتبع الهدى حامداً لمن نور قلب المؤمنين بالإيمان. . .)

هذه هي الرسالة العليشية، ولكل قارئ أن يحكم عليها بما يشاء، وأن ينقد أسلوبها في البحث، ولغتها في الحوار، وأدبها في المناظرة، على أن يقدر ظروف العصر الذي كتبت فيه، ونوع الثقافة التي كانت تسيطر على أهل العلم يومئذ؛ فإن كثيراً من تلك الأحوال، قد هذبه الزمان، وأصلحته الأيام

وأهم ما في الرسالة في نظري مما ينبغي أن تستخلص منه العبرة، هو محاولة المؤلف في جد واهتمام تكفير بعض المؤمنين أو تفسيقهم لأنهم أخذوا برأي لا يوافق رأيه، ولا يتمشى فيما يحسب مع رأي جمهور المسلمين!

وهذه النزعة إلى التكفير أو التفسيق بما لا كفر فيه ولا فسوق ما تزال سائدة في جو الأزهر، وقد انبثت عدواها على يديه في كثير من أنحاء مصر والشرق، فمنكر الوسيلة والتوسل كافر عند فلان، ومنكر سحر النبي صلى الله عليه وسلم كافر عند فلان، والذي لا يتلقى بالقبول كل ما يروون من المعجزات والكرامات شاك مكذب، والذي يدعو إلى تهذيب العقائد مما ألم بها من خرافات وأوهام لا يعرفها الإسلام ضال مضل، والذي ينهى عن الإحداث في الدين والابتداع في العبادات متهجم على الشريعة، منكر لما تلقته الأمة بالقبول!

تجد هذا كله إلى الآن، وتجد العامة في أقاليم مصر وأقطار الشرق يتعاركون فيه ويختصمون عليه، ثم يتجهون إلى علماء الأزهر بأسئلتهم: ما قولكم دام فضلكم في رجل

أنكر كذا أو حكم بكذا؟ أهو مؤمن أم كافر، أتطلق عليه امرأته أم تبقى في عصمته؟
فإذا جاءهم ما أرادوا من فتوى شهروه في أيديهم سلاحاً ماضياً فتاكا في وجوه خصومهم ومجادليهم، وأثاروا به حولهم من أسباب الشغب والفتنة ما الله به عليم وليس هذا فقط! بل إن العلماء الكبار ليتجهون أحياناً إلى جماعتهم الموقرة، فيسألونها في عناية واهتمام: ما قول سادتنا أعلام الأمة جماعة كبار العلماء فيمن قال. . . كذا وكذا أو ناصر كتاباً فيه كذا وكذا من الأحاديث الموهمة خلاف ما يرى جمهور المسلمين بأن أشرف على طبعه وقدم له: هل يكفر أو يغسق أو لا ولا؟
يرد مثل هذا السؤال على (الجماعة) من أحد أعضائها، فتهتم به، وتجتمع له، وتؤلف له اللجان، وتبحثه المرة بعد المرة، وتعكف عليه كثر من عام: كل ذلك من أجل كتاب قديم نشره رجل من العلماء مع اعتراف الجميع بأن ما ورد فيه من الروايات والأحاديث قد ورد في غيره من كتب التفسير والحديث!
ففيم كل هذا؟ وأي مصلحة للإسلام والمسلمين ترجى من ورائه؟ ولماذا؟ ولماذا لم يُحكم فيما مضى، ولم تحكموا أنتم، بكفر المؤلف أو فسقه، حتى تأتوا اليوم فتتساءلوا: هل كفر الناشر أو فسق؟ تعقدون لذلك الجلسات، وترجعون فيه إلى المراجع، وتؤلفون من أجله اللجان!
اللهم إن هذه نزعة لا يسرنا أن تسود الأزهر، ولا أن تشجعها جماعة كبار علمائه. فإذا كان القديم في زمن (عليش) قد احتمل ذلك أو شرح به صدراً، فإن الجديد في زمن (المراغي) قد مله واجتواه وضاق به ذرعاً!
(الناقد الأزهري)

الحياة الزوجية
في نظر الإسلام
للأستاذ عبد اللطيف محمد السبكي
- 3 -

خطبة الزواج

إذا كان الزوج كفئاً لائقاً ورضيته الفتاة، فليس للولي أن يعضُلها (يمنعها من التزوج به)، وإن فعل ذلك سقط حقه في الولاية عليها، وانتقل الحق إلى من يليه من عَصَبتِها، (ولا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن) أي لا تمنعوهن ذلك؟ فهاتان حالتان لا يملك الولي أن يقهر المخطوبة فيهما على غير ما تريد:
1 - غير كفء يخطبها وهي ترفضه
2 - كفء يخطبها وهي فيه راغبة
وهناك حالة ثالثة، للاجتهاد فيها مجال، وللعلماء فيها مقال ومقال؛ هي: خاطب كفء لائق، ولكن المخطوبة ترفضه وتأباه؛ ففريق يرى قولها مسموعاً، وحقها ناهضاً، ما دامت رشيدة تعرف ما يطيب ويخبث من شئونها، وتدرك خيرها من شرها؛ وفريق يذهب إلى هذا الرأي كذلك إن كانت المخطوبة ثَيباً، أما إن كانت بكراً فليس لها أن ترفض من يراه الأب صالحاً وكفئاً، وإنما تستأذن فيه، عملاً بظاهر حديث الرسول: (تستأذن البكر، وتستأمر الشيب)، ويرون أن أباها أعرف منها بصالحها، فمن حقه إجبارها
وعلى الإجمال الذي يعفينا من التطويل، فإن الإسلام ينشد لكل من الزوجين رفيقاً ساراً، ويبتغي لكل منهما حياة مأمونة المكاره، ويلتمس من وراء ذلك نسلاً كريماً، وأمة ماجدة عريقة في الطهر والعفاف ومكارم الأخلاق
ويجمع هذه الأغراض كلها قول النبي (ص): (إياكم وخضراء الدِّمن): يحذرنا من المرأة الجميلة الشكل، القبيحة الأصل والأخلاق، ويشبهها بالدوحة الخضراء الندية تنبت في الدِّمن - وهي القاذورات ومطارح الزبالة - فإن يكن لها نصيب من حسن الرواء، وفرط البهاء، فبئس ما وراء هذا المنظر من شناعة المخبر
ويجمعها كذلك قول النبي (ص): (تخيروا لنُطفكم فإن العِرق دساس) فهذه حكمته البالغة في نصيحة الزوجين والأولياء في حسن الاختيار قبل التوثيق والارتباط - وعلى المرء أن يسعى إلى الخير جهده - غير أن الناس في شأن الخطبة على أمور متناقضة؛ أكثرهم بأهل الجاهلية أشبه، وقليل منهم الراشدون؛ ففريق يتوسعون إلى الاختلاط، والخلوة، وما يدنو من هذين أو يعظم، ثم قد تكون النتيجة إفلات الأمل من أيديهم من

حيث بالغوا في الحرص عليه، فلا يبقى لهم سوى الندم على ما فرطوا والخزي اللاصق بهم مما جنوا ما عاشوا.

وفريق يتحجر رأيهم وتجمد عقولهم فلا يمكنون الخاطب والمخطوبة من حقهما المشروع، وقد يتم الأمر ويكون أحد العشيرين على غير ما يرضي صاحبه، فتكون الحياة بينهما شقاء لا نعرف له نهاية، وسجناً لا يدريان له غاية

وفريق ثالث يسوقون الفتاة سوقاً إلى شخص ماجن أو رجل متهدم البنية يخطو إلى مقره الأخير، فيبدون لها من المحاسن ما ترجو هي بعضه، ولا يكون الأمر كذلك، وإنما هي رغبتهم في ماله، أو طمعهم في جاهه؛ وهذا نوع فاحش من التضليل، وشر لون من ألوان الغش؛ والنبي (ص) يقول: (من غشنا فليس منا)

فحسب هؤلاء أن النبي أبعدهم عن الإسلام، وإن الإسلام منهم بريء

أدب العشرة بين الزوجين

ما كان الإسلام ليُغفل علاقة الزوجين أن يدعمها ويدرأ عنها عوادي الخلف والجفوة، بعد أن دعاهما إلى الانضمام وهيأ لكل منهما سبيل اختيار صاحبه للمرافقة الدائمة في اجتياز هذه الحياة

بل وضع الإسلام منهاجاً مزدوجاً من أدب العشرة، وحتم على كل منهما أن يأخذ بالجانب الذي يتصل به من هذا المنهاج نحو صاحبه

وبعد أن حمّلهما الإسلام تلك الأمانة، أهاب بهما - مع مَن أهاب به من كل طرفين بينهما صلة - أن يرعاياها حق رعايتها؛ فهو يقف بهما أمام الحديث المقدس: (أنا ثالث الشريكين إذا لم يخن أحدهما صاحبه، فإن خان أحدهما صاحبه نزعت البركة من بينهما)

وعلى ضوء هذا الحديث تكون الحياة الزوجية لكل منهما طيبة مريئة، وتكون الشركة بينهما مثمرة مباركة، وإلا كانت صلتهما في الدنيا هماً ناصباً، وشقاء متعباً؛ ثم هي في الآخرة مأثم مأخوذ به من يقترفه، وعهد مسؤول عنه من خان فيه

أدب الزوج (ا)

يقول الله سبحانه للأزواج في شأن زوجاتهم: (وعاشروهن بمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً)، فالقرآن يعطف قلب الرجل على زوجه، ويعلمه أن العشرة بالمعروف أمر يحتمه الدين إن لم تنهض به مروءة ولم تدفع إليه عاطفة

حتى إذا ما فترت جذوة الحب، وهدأت وقدة الاشتياق، وبدأ يلتوي عنها زهادة فيها أو طموحاً إلى سواها؛ فمن الحزم ألا يغلو في الصدود عنها، وألا يسرف في متابعة هواه، وأن يلتمس الخير من جانبها، فربما كانت - على سلوته عنها - مصدر نعمائه، وملتقى أمله ورجائه، وكثيراً ما تعزف النفس عن شيء ويجعل الله فيه خيراً كثيراً

كذلك يأمر الله أن يبسط الزوج كفه بالإنفاق على الزوجة غير مسرف ولا مجهود، بل على الموسع قدره وعلى المقتر قدره، (لينفق ذو سعة من سعته، ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله)، فليس جائزاً للواجد أن يبخل، ولا مطلوباً من المعسر أن يتكلف، وإلا تصدع البناء بجموح المرأة إذا استفزها الزوج بشحه وتقتيره؛ وكم ترامي إلى الأسماع من سوء القالة بسبب شح الزوج، وعدم قيامه على رعاية الزوجة فيما تقتضيه العشرة. . .

فلإسلام حينما يطلب إلى الأزواج أن تسخو أيديهم على الزوجات، لا يرمي إلى شهوة الطعام والشراب وحدها، وإنما يتجه إلى شيء لا يعدله شيء، وإلى الاحتفاظ بنفيس دونه كل نفيس؛ ذلك هو العفاف مصوناً مما يشوبه، مضنوناً به أن تنال منه المساومات وتستغل فيه الحاجة

وفوق هذا الحض على كفاية الزوجة، يحظر علينا الإسلام أن يطمع الرجل في مال زوجته، أو يحتال في استرداد ما أعطاها من صداق؛ ويقول القرآن في ذلك: (يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً، ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن) ويقول: (وآتوا النساء صدقاتهن نحلة) ففي هاتين الآيتين يمنع الإسلام أن يقتنص الرجل مال المرأة كرهاً، على نحو ما كان شائعاً في الجاهلية، ويمنع أن يعضلها الرجل - يضايقها بنوع من أنواع الإساءة - ليستدرجها إلى ترضيته بشيء من مالها، أو لترد إليه

بعض ما أعطاها. ويأمر الإسلام أن يدفع الزوج إلى الزوجة ما تستحقه من الصداقة نحلة:

- خالصاً من شوائب النقص والتلكؤ في الوفاء - وليس يحل للرجل إلا ما رضيت به نفسها طائعة سمحة، فقد يطيب لها أن تجامله أو ترغب في معونته (فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً). ونحن إذ نرى الإسلام يتحرى الاحتفاظ بحقوق الزوجة في مثل هذه الآيات، لا يعزب عن خواطرنا أنه كذلك يستبقي للرجل كرامته، ويؤيد ماله على الزوجة من الهيمنة، وأن زوجاً يتَناسى مكانة الرجولة، ويبتاع بها شيئاً من حطام الزوجة، لهادم بيده بناء الأسرة، وواضع نفسه حيث لا ترضى طبيعة الرجولة ولا تطمئن الكرامة إلى حراسته لأنوثة الزوجة

وإلى جانب ما ذكر القرآن من أدب الزوج، جاءت سنة النبي (ص) بالكثير من وصايا الأزواج، فيقول (ص): (استوصوا بالنساء خيراً، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتموهن بكلمة الله). ويقول: (خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي). ويقول: (أن المرأة خلقت من ضلع أعوج، فإن استمتعت بها استمتعت بها وبها عوج، وإن ذهبت تقيمها كسرتها، وكسرها طلاقها)

فالزوجة في اعتبار الإسلام أمانة عند الرجل، وهو مسئول عن الأمانة في غير هوادة أمام الله، والمرأة مخلوقة من ضلع، وهو أعوج بطبعه، فلا بد أن يكون بالزوجة بعض القصور، فمن شاءها تامة المواهب، وطمع في كمال النضج منها، فإنما يطمع في محال لم تتهيأ له طبيعة المرأة

وإن حاول الرجل تقويم المعوج منها كسَرها، وكسرها هو الطلاق، فليرتفق بها ما استطاع، لئلا يذهب تعديلها إلى كسرها بالطلاق، والطلاق مكروه عند الله، وإن كان جائزاً شرعاً

والنبي (ص) يصرفنا عن التعرض لذلك بقوله: (أبغض الحلال إلى الله الطلاق)

فالمرأة على أي حال بحاجة إلى الصبر على ما يمكن احتماله منها؛ ومن شرف الرجولة أن يكون الزوج سمحاً لا غضوباً، وبساماً لا قطوباً، وأن يكون محسناً معها في كل آن، وصاحب اليد عليها في كل شيء؛ واليد العليا خير من اليد السفلى كما يقول الرسول

أدب الزوجة (ب)

أما أدب الزوجة مع الزوج فيتمثل واضحاً في قول النبي (ص): (لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها). . . فانظر إلى هذا البيان الجامع الحق، تر

أن فضل الرجل على زوجته يقتضيها في نظر الإسلام أن تتأدب معه إلى غاية من الأدب هي أقرب منزلة إلى العبادة؛ ولو كان السجود مشروعاً لغير الله سبحانه لكان لزاماً على الزوجة لزوجها، فإن لم يكن هذا فليكن ما يدنو منه من الأدب المشروع، حتى ليخبرنا النبي (ص) بأن من لم تتسم بهذه السمة لا حظ لها فيما تأتي به من القربى إلى الله، وإن كدّت في العمل وضاعفت في المسعى والجهود، فيقول (ص): (ثلاثة لا تقبل لهم صلاة، ولا تصعد لهم إلى السماء حسنة: العبد الآبق حتى يرجع، والسكران حتى يصحو، والمرأة الساخط عليها زوجها حتى يرضى) فليس لمن سخطها الزوج سبيل إلى الله سوى عدولها عن مغاضبة زوجها والتماسها مرضاته، وإلا فعذاب الآخرة يترصدها، ونعيمها غير ممدود إليها إلا بعد لأي وهوان

وفي هذا يقول الرسول (ص) (. . . ورأيت النار، فلم أر منظراً - يعني لم ير ما يسر - ورأيت أكثر أهلها النساء. قال الصحابة: ولمَ يا رسول الله؟ قال (ص): بكفرهن! قالوا: أيكفرن بالله؟ قال (ص): بكفرهن العشير - الزوج - وبكفرهن الإحسان: لو أحسنت إلى إحداهن الهدر ثم رأت منك شيئاً قالت: ما رأيت منك خيراً قط!)

وفي هذا تنبيه للنساء إلى عيب شائع في الكثرة منهن، هو عدم اعترافها بفضل الزوج، حتى لو أنه غمرها بفضله، ومكن لها من عطائه وبره، ثم صادفت منه أمراً هيناً لا يعجبها، أنكرت ماله من حسنات سابقات؛ وإن القرآن ليعطف قلوب النساء على الرجال كما عطف قلوب الرجال عليهن، فهو يرجع بالمرأة إلى القناعة والرضا عما يستطيعه الزوج من النفقة، ويعدها بتفريج ما قد تحس به من ضيق، فيقول تعالى: (. . ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله، لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها، سيجعل الله

بعد عسر يسراً)، ففي هذا مواساة لمن قدر عليه رزقه كما أسلفنا، وفيه توجيه للمرأة: ألا ترهق الرجل بما لا يطيقه، مخافة أن يثقله العبء، وتعجزه الحيلة، فضيق بالحياة الزوجية، ويتصدع البناء

والقرآن يصارح الزوجة أكثر من ذلك بما للرجل من فضل، وبالسبب الذي كان من أجله ذلك الفضل عليها، فيقول: (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم)

فالرجل هو القوام - المهيمن - على زوجته، وصاحب الأمر معها في حدود ما شرع الله،

لما امتاز به غالباً من حصافة ونضج، ولما ينفق من ماله ويلتزم لها من الحاجيات والمصالح، وكذلك يقول القرآن: (وللرجال عليهن درجة)، يعني للأزواج سلطة ورياسة، ولهم الأمر والنهي بمقتضى ذلك، فما ينبغي أن تأبى الخضوع له، وتتخطى حدودها معه، وعليها أن تمد إليه يد الطاعة، وتستمد الرأي من جانبه، ما دام غير متحيف ولا متجانف، لئلا تُعرّض الحياة بينهما لطوارئ الفساد والانحلال

وخلاصة ما يرجى من الزوجة تحدث بها النبي في إيجاز، إذ قال له سائل: أي النساء خير يا رسول الله؟ فأجابه: (التي تسره إن نظر، وتطيعه إن أمر، ولا تخالفه في نفسها ومالها - أو وماله - بما يكره)

ومن هذا الذي تحدثنا به ورويناه، يتبين للناس ما ينبغي أن يراعوه من نظام الحياة الزوجية، من آداب العشرة بين الزوجين، ولو أن الأمر هنا على ما يقتضيه النظام الإسلامي، لما سمعنا تلك الشكايات الصارخة تتردد على ألسنة الرجال من بعض النساء، وتنحدر بها مدامع النساء من قسوة بعض الرجال، والله يعلم المفسد من المصلح، ويعلم المنصف وغير المنصف

وسيجزي الله الذين أساءوا بما عملوا، وسيجزي الذين أحسنوا بالحسنى

(لها بقية)

عبد اللطيف محمد السبكي

المدرس بكلية الشريعة

للحق والتاريخ

عبد القادر حمزة باشا

وقفة قصيرة بهامش أدبه الحي

كيف كان ينقل كنوز اللغات المختلفة إلى العربية

للأستاذ محمد السوادي

تحدثت إلى قرائي في جريدة (البلاغ) بعددها الصادر في اليوم الثامن من يونية الحالي عن بعض ما عرفت في (عبد القادر حمزة بين محرريه، وعبد القادر حمزة بين ذويه، وعبد القادر حمزة بين الجلال والحنان والدمع الغزير)

وأوثر أن يكون حديثي إلى قراء (الرسالة) حديثاً أدبياً يلائم أمزجتهم، ويوائم بينها وبين شعوري بالرغبة في حديث لا نهاية له في سيرة الرجل الذي تعلمت منه قارئاً ناشئاً، وأخذت عنه كاتباً شاباً، وقويت صلتي به في أثناء اشتغاله بطبع كتابه التاريخي الأخير، وعلى حين غفلة استرد هذه اليد مني ليتوارى عني، صاعداً بالروح إلى السماوات العلا حيث الحقيقة الكبرى التي ظل يبحث عنها طوال نصف قرن قضاه ضيفاً على الأرض.

وليس في نيتي أن أرسم لك صورة من أدبه - وإن كنت لا أنكر أن في نيتي العودة إلى رسم هذه الصورة على صفحات (الرسالة) نفسها - وإنما أريد اليوم أن أقف على (هامش أدب عبد القادر حمزة)، كما وقف هو على (هامش تاريخ مصر القديم)، فأسوق إليك لوناً من الروح الذي كان يحدوه وهو يفكر تفكيراً أدبياً، ثم يهديه وهو يسجل ثمار هذا التفكير:

على هامش ترجمته

ولكي تعرف كيف كان عبد القادر حمزة يترجم إلى العربية بعض كنوز اللغات المختلفة، فيبدع إبداعاً وفق فيه بين الأمانة الممكنة والسلاسة التي عرف بها، ثم ينفرد أخيراً بخاصة إخضاع الكلمات للمعاني التي يريدها، وخاصة صوغ العبارات التي تؤدي بقوة تماسكها وبساطة مفرداتها نفس المعاني. . . لكي تعرف بعض سر هذه

الحقيقة، ينبغي أن تعرف رأي الفقيد في الترجمة، فإذا عرفت مدى تهيبه ضخامة المهمة الملقاة على عاتق المترجم،
فإنك قادر مدى الجهود التي كان يحرص على بذلها وهو يترجم، وكاشف سر القوة التي جعلت منه مترجماً لا يجارَى ولا يقلد!
وهذا الرأي - رأيه في الترجمة - مثبت في أحد فصول المجلد الثاني الذي كان يشتغل بطبعه في الشهور الأخيرة وقضى قبل أن يفرغ منه، وشفيعي في إثبات هذا الرأي أو استعارته من كتاب تحت الطبع بغير إذن من أبناء الفقيد، ثقتي بأن هؤلاء الأبناء لا يغلَبون (شكلية) كهذه على وفاء أريد أداءه لتاريخ الفقيد الأديب، ولتاريخ الأدب في ذاته، وشعوري بأن روح الفقيد راضية في عليائها عن صنيعي هذا
رأيه في الترجمة
عرض الفقيد في أحد فصول كتابه للأدب في مصر القديمة فأثبت وجوده وأثبت له الجودة، ثم أسف على (أن المثقفين منا يعرفون إلى جانب الأدب العربي: الأدب الإنجليزي، والأدب الفرنسي، والأدب الألماني، والأدب الإيطالي، ومنا من يعرفون حتى الأدب الفارسي، وحتى الأدب اليوناني القديم؛ ولكننا لم نُعن إلى الآن بمعرفة أدبنا المصري القديم)
وبعد أن دلل على ضرورة هذا الأدب لنا قال:
(ولا يطمع القراء في أن أنقل إليهم ما أنقله من هذا الأدب في بلاغته الأصلية، فإن المترجمين يعرفون أن شعر شكسبير الإنجليزي، أو راسين الفرنسي، أو جيته الألماني، تُفقدَه الترجمة كثيراً من بلاغته؛ ومثل ذلك شعر امرئ القيس أو أي شعر عربي آخر إذا نقل إلى لغة أوروبية؛ وهذا لأن الشعر أو النثر الفني الذي يسمى أدباً يتكونان من عنصرين: أحدهما الفكرة، والثاني الصياغة؛ واجتماع هذين العنصرين هو الذي يبعث في النفس أثراً خاصاً وموسيقى خاصة، والترجمة تنقل الفكرة ولا تنقل الصياغة، فكأنها تنقل الهيكل العظمي دون اللحم والدم. وهذا يقال في أدب عصري، أو في أدب لم يمض عليه غير بضع مئات من السنين؛ أما الأدب الذي مضت عليه خمسة آلاف سنة، أو ثلاثة آلاف على الأقل، فيجب أن يقال فيه إلى جانب ذلك إنه ابن بيئة تختلف عن البيئات التي يعرفها العالم الآن، وقد وجد في ظل عقلية واعتقادات وتقاليد وعادات لم يبق لها وجود وقل من يعرفها ومن المسلم به أن الأدب يكتسب كثيراً من العقلية والاعتقادات والتقاليد والعادات التي يعيش فيها، بل هو لا يكون أدباً حياً إلا إذا امتزج بها وكان وحياً منها؛ ولهذا السبب يكون نقل الأدب المصري القديم الآن الى اللغة العربية تجريداً له من هذه العناصر كلها فوق تجريده من الصياغة وموسيقاها؛ ولهذا السبب نفسه سترانا محتاجين في كثير من الأحيان الى إعطاء بيانات وتعليقات ننقل بها القارئ - على قدر استطاعتنا - الى العصور التي قيل فيها ما نعربه لهم من القطع الأدبية)
جلال المهمة
هذا هو رأي عبد القادر حمزة في الترجمة؛ فما الذي نخرج به من هذا الرأي لنلتقي بعبد القادر حمزة المترجم؟
نخرج من هذا الرأي بالنتائج الآتية:
أولاً - يرى الفقيد أن الترجمة تنقل الفكرة ولا تنقل الصياغة
ثانياً - إن الفكرة أشبه بالهيكل العظمي، وإن الصياغة أشبه باللحم والدم؛ فالترجمة ليست إلا تجريداً للنتاج من اللحم والدم
ثالثاً - إن الترجمة تتطلب فهماً للنتاج المنقول، والفهم يتطلب دراسة الزمن الذي قيل فيه هذا النتاج، والبيئة التي وجد فيها القائل، والعقلية التي أصدر عنها، والتقاليد والعادات والاعتقادات التي أثرت فيه فتأثر بها
رابعاً - إن الأدب لا يكون حياً إلا إذا امتزج بهذه العوامل وكان وحياً منها
وضع الفقيد هذه القوانين الأربعة أمامه حين هم بالنقل عن الأدب المصري القديم، ثم رأى فيها سبباً يجعل هذا النقل بمثابة تجريد للمنقول من هذه العناصر، أو من اللحم والدم. . . فلماذا إذاً أقدم على النقل، وهل نقل إلينا هياكل عظيمة تحقق النذير الذي أنذرنا به وخوفنا منه؟
كلا. . . وإنما أعطانا (بيانات وتعليقات) نقلنا بها إلى العصور التي قيل فيها ما عربه لنا؛

وتواضع فقال إن هذه البيانات والتعليقات هي على قدر ما في استطاعته وفي حدود دراسته
وشيء أجل قدراً قام به ولم يشر إليه، هو توفره قبل النقل على دراسة العقلية والعادات والتقاليد والاعتقادات التي كانت سائدة في تلك العصور، والتي سبق أن أشار إليها، ثم لم يدر مدى التوفيق الذي أحرزه، وخشي أن يكون هذا التوفر غير كاف، وهذا التعمق غير
بالغ به الأعماق، فقال إنه محتاج الى إعطائنا بيانات وتعليقات، في حين أن هذه البيانات والتعليقات إنما أفادت في تهيئتنا لاستقبال نتاج هذه الآباد، وأطلقت حولنا من بخور القدم ما خالط أنفاسنا، فعشنا في الجو الفرعوني ونحن نطالع نتاج تلك العصور؛ أما الترجمة - ترجمة النصوص أو الأصول - فقد جرى في هيكلها كثير من الدم القديم، ورأينا بعين المخيلة لحمها مقروناً بهذا الدم الغزير، وشعرنا بالحياة تدب في الهيكل، وبالمنقول أدباً حياً نقله الفقيد فأحسن نقله. وهذه النتيجة التي تكاد تكون لوناً من الإعجاز لم تكن بسبب البيانات والتعليقات وحدها، بل كانت وحياً من فهم الفقيد عقلية تلك العصور، وإدراكه الكثير من عقائدهم وعاداتهم وتقاليدهم
نماذج وأمثلة وأسانيد
ولكي ترسخ هذه الحقائق في أذهان القراء الذين يبحثون وراء الأسانيد لكل حقيقة يتصدون لها، أرى لزاماً علي أن أقدم إليهم أمثلة للبيانات والتعليقات، ونماذج من القطع الأدبية التي ترجمها الفقيد في مجلده الثاني الذي أرقب صدوره في القريب بكثير من التشوق والمصابرة
أراد الفقيد أن يترجم بعض القصائد والأغاني، فعرضت له كلمة (أخت) وكلمة (أخ)، فرأى أن يقدم بياناً لهذه التسمية، فلما قدم البيان وجده منطوياً على ما يتصل بالفكرة الخاطئة التي أرساها المؤرخون في الأذهان، فنمت واستقرت بفعل التكرار وعلى الأزمان، فكرة أن الأخت كانت تتزوج من أخيها، فرأى الفقيد أن يكون له تعليق على البيان يجلو غامض الفكرة الخاطئة؛ ومن هنا جاءت عنايته بالبيانات والتعليقات، وجاء دور التعليق على الفكرة الشائعة؛ فقال رحمه الله:
وهنا استطرد قليلاً فأقول: إن إباحة زواج الأخت بأخيها كانت معروفة في الأسر) المالكة لسببين: أولهما الحرص على الدم الشمسي، أي الدم الملكي، والثاني: أن حق البنت المولودة من أب هو ملك وأم هي ملكة في وراثة العرش، كان أقوى من حق الابن المولود من أب هو ملك وأم ليست ملكة، بحيث كانت الأخت في حالة كهذه هي التي تعتبر وريثة شرعية للعرش دون أخيها، ولهذا كان يقترن بها ليكون حقه في العرش شرعياً
كان هذا هو المعروف في الأسر المالكة، أما في غيرها من عامة الشعب فلم تكن) الحاجة
ماسة الى الحرص على دم شمسي، ولا إلى وراثة عرش، ولذلك يرى بعض العلماء أن القول بإباحة زواج الأخت من أخيها بين أفراد الشعب يجب أن يبقى محل تحفظ إلى أن تقوم عليه أدلة كافية، لأن جميع الحالات التي عرف إلى الآن أن أختاً تزوجت فيها (بأخيها، هي حالات خاصة بالأسر المالكة
أما وقد عرفت الآن مبعث تسمية (الحبيبة) و (الحبيب) بكلمتي (الأخت) و (الأخ) فالفقيد يقدم إليك صورة من غزل أحد الشعراء يشكوا إعراض أخته عنه وصدها له، ثم يفكر في ألوان من الحيل عسى أن يظفر برؤيتها، فيقول:
(سأرقد في سريري متمارضاً
(فيعودني جيراني
(وتعودني أختي معهم
(وتضحك أختي من أطبائي
(!لأنها تعرف دخيلة مرضي)
ويطيب للفقيد أن يقف بعد كل بضعة سطور ليقارن أو ليفاضل بين الأدب فيما قبل خمسة آلاف سنة والأدب الحديث في مختلف اللغات، بل الأدب العربي الذي درسناه، فليفتك إلى أن تمني الحبيب أن تزوره حبيبته إذا رقد في سريره مريضاً أو متمارضاً شائع في عز الشعر العربي، كقول الشاعر:

ماذا عليكِ إذا خُبِّرْتِني دِنفا ... رهن المنية يوماً أن تزوريني
وإلى أن جهل الأطباء بمرض الحب شائع أيضاً كقول . . .
قيس بن ذريح:
عيدَ قيس من حب لبنى ولبنى ... داء قيس والحب داء شديد
وإذا عادني العوائد يوماً ... قالت العين: لا أرى من أريد!
ليت لبنى تعودني ثم أقضي ... إنها لا تعود فيمن يعود
ويمضي فقيدنا بشاعرنا المصري وتمنياته أن يكون الخاتم الذي تلبسه الحبيبة (الأخت) في إصبعها، أو إكليل الزهر الذي يطوق عنقها ويداعب صدرها، وهو لا يتردد في أن يسقيها - لو استطاع - شراب الحب ليحملها على أن تفتح بابها قليلاً وتسمح له برؤيتها، وحين لا
يجد فائدة من كل هذا يتجه وجهة أخرى ليركب النيل إلى حيث الإله بتاح صاحب (الوجه الجميل) في ممفيس، ليتضرع إليه أن يهيئ له رؤية أخته. وقبل أن يشرع الفقيد في الترجمة يهيئ لك جوها ويعقد الصلة بينك وبين هذا المحب، ويعرفك أنه من أهل طيبة؛ فهو إذاً ركب النيل إلى ممفيس يكون (نازلاً) من مصر العليا، ويكون في نزوله سائراً مع التيار، وهذا أدعى إلى الإسراع، لأن السفن لم تكن تعتمد في ذلك الوقت إلا على الشراع أو المجذاف
وبعد أن يضنى الفقيد نفسه فيعقد أواصر هذه الصداقة بينك وبين ذلك الجو القديم، يمضي بك إلى سطور أخرى ينقلها إليك على هذا كله، لتقرأ منها قول الشاعر:
(سأركب النيل نازلاً مع التيار
(وسأمضي مسرعاً
(وباقة من الريحان على كتفي
(وسأصل إلى مدينة عنخ تاوى (أي ممفيس))
(وهناك أقول للإله بتاح رب العدل:
(هيئ لي أن أرى الليلة أختي!
(أن النهر لخمر
(وأن بتاح لَتَابه
(وأن سخمت (هي آلهة الانتقام أو الحرب) لبرديه
(وأن إنريت (معبود كان في سمنود الحالية) لبرعومه
(وأن نفرتوم (ابن الإله بتاح) لأزهاره
(وفتحت ذراعيها لي
(شعرت كأن أزكى روائح بلاد العرب تغمرني
(ثم إذا افترت شفتا أختي
(وأدنتهما مني وقبلتني
(فذلك لي هو السكر من غير مسكر
هذا نموذج من أدق النماذج، لأن العقائد فيه خالطت العرف وتصاعدت روائحها إلى أنف
القارئ المعاصر.
وإلى هنا أقف راجياً أن أواصل هذا الحديث في القريب، بل راجياً أن أصل بينه وبين مواجهة (عبد القادر حمزة الأديب) في بضع حلقات تتألف منها سلسلة دراسات (مركزة)، فما أردت بهذا المقال (تركيزاً)، وإنما أردت أن أثير اهتمام الأدباء برجل مجده الناس كاتباً سياسياً لا ند له في مصر ولا نظير، وجلوه أديباً من طراز معين، أديباً مثرياً طائل الثراء في طرائقه الخاصة، في التفكير وفي الأسلوب، وفي الترجمة وفي الإنشاء
نعم، هي وقفة بهامش أدبه، فإلى اللقاء عند هذا الأدب
وليرحم الله عبد القادر حمزة، فلسوف يسمو ويزداد سمواً كلما تقادم العهد ومضت الأيام على وفاته
لقد كان تاريخاً، فمن حق الجيل دراسة هذا التاريخ
محمد السوادي

الإسكندرية بعد الفاجعة
للأستاذ عبد اللطيف النشار
يا كُنتَ مصطاف ريفي ومربعه ... يا ثغرُ في جنبات الريف تصطاف؟!
مهاجرون على الأنصار قد نزلوا ... كِلاَ الفريقين رحبُ الساح مِضْياف
يا ضاحك السن ما للعين دامعة ... في الصبر أجرٍ وللرحمن ألطاف
أم القرى حمدت من قَبلُ هجرتَها ... واستنَّ للخَلَفِ الباقين أسلاف
لعلَّ في تاركي دور محطمة ... ملاذ أمن لمن ضلوا ومن خافوا
لعل في الصبية الباكين أهْلَهمُ ... نصلاً له من خطوب اليُتم إرهاف
لعل في دَمِنا الزاكي زكاة مُنىً ... عِرقُ الأمانيِّ في الأوداج نزَّاف
ما حزَّ في مهجتي خطب ألم بها ... كالعجز عن صد من ضلوا ومن حافوا
كأنني مفرد في الثغر مرتهن ... بنُربِه ولصوت الموت إرجاف
ما راعني فيه ما انقضَّتْ صواعقه ... بل راعني أن خلا في الصيف مصطاف
هذى الديار فأين الواعدون بها ... لم يبق إلا سَمادِيرٌ وأطياف
قف يا لساني فبعض القول إسفاف ... (أضحت خلاء وأضحي أهلها احتملوا)
لم يُخنِ دهر عليها - لا ولا أبداً ... ما مثل اكنافها في الدهر اكناف
ألْفان تُملى على الدنيا محاسنها ... وسوف تشهد آلافٌ وآلاف
عبد اللطيف النشار
أغنية البلبل. . .
للأديب محمود السيد شعبان
طاَفَ في قَلْبي نَشِيدٌ ... بالمُنَى يَمْلأُ نَفْسِي!
وَأَنَا اليَائِسُ يَا بُلبُلُ ... مَا يَهدَأُ يَأسِي
هَذِهِ كأسِي!. . . فَهَلْ=يُرْضِيكَ أنْ تَفْرَغَ كأسِي؟
لاَ غَدي يَضْحَكُ لي فِيهَا ... وَلاَ يَرْجِعُ أَمْسِي!
أَيُّهَا البُلبُلُ!. . . إنّي ... ظامئٌ فَارْوِ لهاتِي
هَاتِ لِي مَا شِئْتَ ... يَا سَاحِرُ مِنْ لَحنِكَ هَاتِ
وَأدِرْ كأسَكَ بالحُبِّ ... لِتَحيَا فِيهِ ذَاتي
سَوفَ يَفَني الجَسَدُ ... البَالِي وَتبَقَى صَبَوَاتي!
أَيُّها البُلبُلُ. . . خُذْ أُعْ ... رُودَةَ العُشَّاقِ عَنِّي!
وَتَعَلَّم كَيفَ تَحيَا ... لِلهَوَى العُذْرِيِّ مِنِّي
عُشهَا في القَلبِ مَهجور ... رٌ. . . وَلَكِنِّي أُغَنِّي!
وَأَنَا الشاعِرُ يَا ... بُلبُل دُنْيَاه النَّمَنِّي!
في مَغَانِي الحُسْنِ يَا ... بُلبُلُ هاتَحْنُ التَقَيْنَا!
مَا عَلَيْنَا إِنْ مَلأنَا ... الكَوْنَ سِحْراً مَا عَلَيْنَا؟
الهَوَى مِلكُ صِبَانَا ... والصِّبَى مِلءُ يَدَيْنَا!
فَدَعِ الألْحَانَ يَا ... بُلبُلُ تَرْوِى شَفَتَيْنَا!
الهَوي يَا عَابِدَ الالْ ... حَانِ كأسِي وَشَرَابي!
وَالمُنَي يَا عَاشِقَ الأوْ ... هَامِ هَمِّي وَعَذَابي!
وَأنَا. . . في مَوْكِبِ الحِرْ ... مَانِ وَدَّعْتُ رِغَابي!
المُنَى حُلمُ فُؤَادِي ... وَالأسَى لَحنُ شَبَابي!
كُلُّ صَدَّاحٍ عَلَى الأيْ ... كِ يُحَيِّيهِ حَبِيبُ!
وَأنَا بَينَ الوَرَى في ... هَذِهِ الدُّنيَا غَرِيبُ
لَيْتَهَا يَا بُلبُلي يَوْ ... ماً لِنَجْوَايَ تُجِيبُ!
ذَهَبَ العُمرُ. . . وَمَالِي ... مِنْ لَيَالِيها نَصِيبُ!
أَنَا يا بُلبُلُ في دُنْـ ... ـيايَ أحْلاَمُ شَرِيدِ
أَنَا لَحنٌ حَائرٌ بَيْ ... نَ سَمَاواتٍ وَبِيدِ!
أَنَا مِعْنيً مِنْ شَقَا ... ءِ الرُّوحِ فِي قَلْبٍ سعِيدِ!
اللَّظَي مَهدُ فُؤَادِي ... وَالصَّدَى وَحيُ نَشِيدِي!
غُرْبَتي طالَتْ عَنِ الرُّو ... حِ. . . فَرُدِّيني لِنَفسِي!
لَمْ يَعُدْ يُنْشِدُ قِينَا ... رِي وَلاَ تَضْحَكُ كأسي

أَنَا مِنْ بَعْدكَ ضَيَّعـ ... تُ سُدَى يَوْمِي وَأَمْسِي
وَغَدِى؟. . . صَلَّتْ إِليْ ... هِ النَّفسُ في ظُلمَةِ يَأسي
قُبلَةٌ حَيْرَى عَلَى ثَغْ ... رِي تُنَادي شَفَتَيْهَا!
مِلؤُهَا شَوقٌ وَلكنْ ... أَيْنَ مَنْ يَحْنُو عَلَيَها؟؟
وَيَدٌ كلُّ مُنَاهَا ... رَقدَةٌ بَينَ يَدَيهَا!
أَنَا يَا بُلبُلُ مِنها ... قَبَسٌ حَنَّ إِليها!
نَحنُ يَا بُلبُلُ كأسَا ... نِ مِنَ الحُبِّ مُلِئنَا!
نَحنُ سِرَّانِ جَرِيحاَ ... نِ التقَيْنَا فَهَنِئْنَا!
نَحنُ لحناَنِ حَبِيباَ ... نِ إِلَى مَهدِكَ جئْنَا!
الغَرَامُ العَفُّ مَا ... شِئْتَ مِنَ الدُّنيا وَشِئنَا!
يَارِكِي وَحْدَةَ صَدَّاحٍ ... أَمَانِيهِ شَقَاءُ!
كلّما أَضْنَاهُ يَأسٌ ... عَادَهُ مِنكِ رَجَاءُ!
وَخُذِيهِ مِلَء دُنياكِ ... نَشِيداً يَا سَمَاءُ!
هُوَ في الحبِّ فَنَاءٌ ... وَمِنَ الحبِّ بَقَاءُ!
هَاهُنَا مَعبَدُ حُسْن ... لَمْ يُفَارِقَهُ سَنَاهُ
التَقَتْ فِيهِ صُدُورٌ ... وَارْتَوَتْ فِيهِ شِفَاهُ!
وَتَلاَقَى عِندَهُ العُشَّا ... قُ. . . كلٌّ وَهَوَهُ!
فَتَعَالَىْ يَا هُدَى رُو ... حِي نَكُنْ نَحنُ حُلاَهُ!
هَاهُنَا أَيْكُ أَغَا ... رِيدٍ وَأَعْشَاشُ قُلُوبِ!
ما أَرَى فِيها سِوَى إِل ... فَينِ كاَللَّحنِ الطَّرُوبِ
هَاتِ لِي زاَدِي مِنَ ... الحُسنِ وَقيثاَرِي وَكُوبي
إِنْ يَكُنْ حُبُّكِ ذَنْباً ... فأَنَا أَهْوَى ذُنُوبي!
هَاهُنَا هَيكَلُ حَبٍ ... لِلمُصَلِّينَ مُبَاحُ!
سَجَدَتْ فِيهِ جِبَاهٌ ... وَالتَقَتْ فِيهِ جِرَاحُ!
إِن أَلحاَنَكَ يَا بُلبُلُ ... لِلعُشَّاقِ رَاحُ!
فَعَلى رِسْلِكَ. . . قَدْ طَا ... شَ بِهِمْ مِنكَ مِرَاحُ
هَاهُنَا. . . كم نَعِمَ القل ... بُ بأَحْلاَمِ اللِّقَاءِ!
يَا لَيالِيهاَ!. . . لَقَد طَا ... لَ عَلَى الدُّنْيَا شَقَائي!
أَنَا مَنْ خَلَّفْتُ لِلْحِرْ ... مَانِ أَوهَامِي وَرائي
وَذَوَتْ في نَفْسِيَ ... الحيْرى أَغارِيدُ هَنَائي!
يَا فَتَاتي!. . . كَيفَ يُرْض ... يكِ شَقَائي يَا فَتَاتي؟
في دَمِي شَوقٌ يُنَادِ ... يكِ: تَعاَلَيْ يا حَياتي
أناَ فِي مِحْرَابِكِ الطاّ ... هِرِ طَالِتْ بي صَلاَتي
فَدَعِيني سَاعَةً فِيهِ ... أُبَارِك صَبَوَاتي!
هَذِهِ قيثَارَةُ الحُبِّ ... تُغنِّي في يَمِيني!
فَدَعِيني أُطرِبْ الدُّن ... يَا بِنَجْواكِ. . . دَعيني
وَأَنا النَّاسكُ يَا رُو ... حِي وَنُسكِي فِيكِ دِيني
صَلَوَاتِي بَعضُ أَشْوَا ... قي وَأَوْرَادِي حَنِينِي
أنا أُغرودَةُ أَيَّا ... مِي وَقيثارَةُ عَصرِي
أَنا وَحْدِي شَاعرُ الحبِّ ... وَمَنْ لِلحُبِّ غَيرِي؟
تَنفِدُ الدُّنيا وَلا يَنْ ... فَدُ يَا حَسْناءُ شِعْرِي
وَيَجفُّ الزّهرُ إنْ عَا ... شَ وَلا يَذْبلُ زَهْرِي
أَناَ لِلأَشوَاقِ يا ... أُنشُودَةَ الرُّوحِ وَقُودُ!
شاعِرٌ أَحْيَتْهُ في ... دُنيَا الأمَانيِّ وُعُودُ!
أَبَداً نَحْوَاهُ أَلحانٌ ... وَدَعْوَاهُ سُجُودُ
هُوَ إنْ غِبتِ فَنَاءٌ ... وَإِذَا عُدتِ وُجُودُ!
يَا حَيَاةَ القَلْبِ!. . . قَدْ طاَ ... لَ إلى سَعْدِي حَنِينِي
وَأَناَ وَحْدِي!. . . فَإِنْ شِئْ ... تِ إلى حُبِّي خُذِيني
هَذِهِ دُنْيايَ! مَالي ... في الأسَى ضَاعَتْ سِنِيني؟

سَئِمَتْ رُوحِي مُنَاهَا ... فَإذا مِتُّ اذكُرِيني!
(القاهرة)
محمود السيد شعبان
البريد الأدبي
حول إصلاح الأزهر
ظهر في العدد (415) من مجلة (الرسالة) الغراء كلمتان في إصلاح الأزهر: إحداهما لفضيلة الأستاذ المدني، والثانية لفضيلة الأستاذ عبد الآخر. فأما الكلمة الثانية، فيرى كاتبها أن فضيلة الأستاذ المراغي نفذ الإصلاح الذي وضعه، وذلك بتنقية الكتب الأزهرية وتهذيبها وتحسين طريقة عرضها والكتب الأزهرية لا تزال على حالها، وكلنا يعرف أن الفساد متغلغل فيها بحيث لا يفيد في علاجه تنقية ولا تحسين عرض. وأما مسألة انصرافنا إلى الوظائف وما إليها، ففضيلة الأستاذ عبد الآخر أدرى الناس بها، وفضيلته يعرف (مسألة العرائض) التي كادت تقضي على عهد الإصلاح لولا لطف الله تعالى وأما كلمة الأستاذ المدني، فهي متفقة مع كلمتي الأولى كل الاتفاق، وإن حاول الأستاذ المدني أن يهون من أمر الرجعيين المعارضين للإصلاح. وعجيب أن يهون من أمرهم ولهم في كل وقت ثورات عنيفة على كل من يحاول تجديداً في بعض الأحكام، أو يريد فتح ذلك الباب المغلق على الاجتهاد من قريب أو بعيد، وهم إذا قاموا بتلك الثورات يقوم وراءهم جنود مجندة من العامة وأشباه العامة، ويقف طالب الإصلاح وحده لا معين ولا نصير. ولو كان أولئك الرجعيون يعتمدون في ثورتهم على الدليل لهان الأمر، ولكنهم لا يعتمدون في ذلك إلا على التكفير ولا يفكرون إلا في محاربة ما يعتمد عليه طالب الإصلاح من وسائل العيش، وقد رأى الأستاذ المدني كل هذا ببصره، وسمعه بأذنه، ولمسه بيده، فكيف يهون بعد هذا من أمره؟
(عالم)
بين عبد القادر حمزة والعقاد
قرأت في العدد الفائت من (الرسالة) كلمة للأستاذ محمود الشرقاوي عن المغفور له الأستاذ عبد القادر حمزة باشا
وأنا موافقة على كل ما ذكر للفقيد الكبير من خلال طيبات لمستها كما لمسها في أثناء اشتغالي معه في البلاغ من سنة 1928 إلى سنة 1931؛ وفي خلال السنوات السابقة
واللاحقة لهذا العهد وكنت فيها جميعاً على صلة طيبة بالراحل الكريم. . .
وقد بعثتني هذه الصلة العزيزة إلى رثائه شعراً على صفحات البلاغ وأنا في سرير المريض ممنوع من الجهد والتفكير؛ إلا أن ذكر حقوق الراحلين لا يجوز أن يحملها على غمط حقوق الأحياء وطمسها أمام التاريخ، فالظلم ظلم للموتى وللأحياء سواء. . .
يقول الأستاذ الشرقاوي في موضع من كلمته القيمة: (ذلك الصراع الذي قام به عبد القادر حمزة وحده مواجهاً به ومتحدياً أقوى حكومة. . .). ثم يقول في موضع آخر: (ولكن عبد القادر حمزة ظل يكافح في كل يوم وحده حتى نخر الجبل الشامخ الراسخ. . .)
وكلمة (وحده) هي الكلمة التي تجاوزت حد الحق، فالراحل الكريم قد صنع في هذا الكفاح الذي يشير إليه الأستاذ ما يصنع أصحاب الرأي الأبطال، وقد كلل جهاده بنجاح سيخلده تاريخ مصر السياسي وتاريخ الرأي والعقيدة؛ ولكن يجب أن نذكر أن هناك قلماً آخر صنع الأعاجيب في هذا النضال وعلى صفحات البلاغ أيضاً وفي نفس هذه الأيام ذلك هو قلم العقاد الجبار
بل لقد كان ذلك القلم هو أول قلم حمله صاحبه في وجه (ديكتاتورية الرأي) قبل أن يأخذ البلاغ موقفه في جانب المعارضة الصريحة أيام وزارة نسيم باشا، وفي وقت لم يكن أحد - غير العقاد - يجرؤ على اتخاذ هذا الموقف المخيف في جريدة روز اليوسف اليومية.
أما اجتماع القلمين على صفحات البلاغ بعد هذا بعام فقد وضع النهاية التي انتهت إليها المأساة. ولست أدري: أن كنت اليوم بعد انقضاء هذه الأيام بخيرها وشرها في حل من نشر شيء من أسباب التمهيد لاجتماعهما لم يعلم به كلاهما
كان العقاد قد ترك البلاغ وفي نفسه شيء زادته حوادث وقعت بعد خروجه، كما جعلت

شيئاً في نفس صاحب البلاغ.
وكنت أرى أن المعارضة لا تجتمع لها قوتها كاملة حتى يجتمع هذان القلمان في ميدان:
هذا قلم يحطم ويزلزل كالصواعق والأعاصير، وذلك يجادل ويحاور ويجمع الحجج
الدامغة والأسانيد المفحمة ويسدد الضربة في الصميم.
وفي يوم كنت عند العقاد فقلت:. . . (ولم لا ترجع الآن إلى البلاغ؟) قال بكبريائه
الشامخة المعهودة: (وهل أنا الذي تُطلب مني العودة؟) قلت: (إن صلتي بصاحب
البلاغ تسمح لي
أن أصنع شيئاً) فقال بحدة وكان قد لان عند السؤال الأول: لا. لا تصنع. فمهما كانت
صلتك بصاحب البلاغ فإن صلتك بي أقوى. وسيقال: إن العَرض جاء من جانب أحد
(أصدقائه!
وانصرفت وفي نفسي أن الموقف يحتم اجتماع القلمين وأن لا بد لهما من الاجتماع؛
وبقى أن أتفادى غضب العقاد
فتركت أياماً قليلة تنقضي وزرت الراحل الكبير في جريدة البلاغ في المساء حيث
تكون في مأمن من مشاغل العمل
ودار الحديث عن المعارضة ووجوب تنظيمها وتوجيهها، وانسللت من هذا إلى أن أقول:
(ولكن هناك قوة معطلة عن العمل وهذا وقتها) فقال: (تعني الأستاذ العقاد؟) قلت:
(نعم) قال: (ولماذا لا يعود؟ أن البلاغ وكره القديم!) قلت: ولكنك يا سيدي تعرف
العقاد وتعرف أنه مغضب من البلاغ ولا بد من شيء من جانب البلاغ) قال - رحمه الله
- (إنك صديقه وأنت واحد كذلك من أسرة البلاغ وأنت مفوض مني في قول ما تقول
للأستاذ وفي صنع ما تراه باسمي).
وتذكرت - حينئذ ما سيلقاني به العقاد وما سيظنه بي من الظنون، وخفت أن تفسد
الحيلة وأبديت هذه المخاوف للرجل العظيم، فابتسم وقال: (وهو كذلك، دعني
أتصرف) وتصرف بالفعل، واجتمع القلم الجبار والقلم الرصين على صفحات البلاغ.
ذلك طرف من التاريخ أذكره، وصورة ذلك العهد حية ماثلة في نفسي وفي نفس كل
من تتبعوا ذلك الصراع العجيب في تلك الأيام

سيد قطب

نيابة بعض الحروف عن بعض

جاء في ختام الكلمة القيمة الموجزة للباحث المتمكن الأستاذ (أ. ع) ما يأتي:
ولم أر فيما لدي من المراجع أن اللام تنوب عن الباء، ولكنهم قالوا بنيابتها عن)
(في) .. .(
وأقول: إنها جاءت نائبة عن الباء في قول أبي تمام من قصيدته السينية المشهورة
بمدح
أحمد بن المعتصم:
إن الذي خلق الخلائق قاتها ... أقواتها لتصرف الأحراس
قال الشراح: اللام بمعنى الباء، والأحراس جمع حرس كدهر وزناً ومعنى
نعم إن أبا تمام من الشعراء المحدثين الذين لا يحتج بشعرهم، ولكنه كان عالماً ضليعاً،
وراوية غزير المحفوظ؛ فلا أقل من أن نستأنس بقوله كما استأنس به الأستاذ الكبير
(ا. ع) في تعدية الفعل (تفيأ) بنفسه. وأبو تمام أهل لهذه الثقة.

علي الجندي

خطأ فقهي في مجلة الأزهر

في الجزء الأخير من مجلة الأزهر مقال بتوقيع مديرها الأستاذ محمد فريد وجدي، يقول
في السطر الأول منه ما نصه:
في السنة السادسة من الهجرة أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بأنه يريد)
(العمرة، والعمرة هي الطواف بالبيت في غير وقت الحج. . . الخ
والخطأ في الجملة الأخيرة ظاهر، فإن العمرة ليست هي الطواف بالبيت فقط.
وليست في غير وقت الحج فقط، والأستاذ المدير وإن يكن غير أزهري أجل من أن يقع
في مثل هذا الخطأ، ولعل مجلة الأزهر تعني في عددها المقبل بتصحيحه
(م. . .)

حول مكتبة الحرم النبوي الشريف

بالعدد 415 نشرتم كلمة شاملة عن مكتبة الحرم النبوي الشريف بقلم مديرها الأستاذ أحمد يس الخياري. وقد ذكرتني كلمته برسالة بُلغتها وأمانة حملتها ولما أؤدها فألفيت في تفضلكم بالنشر أنسب فرصة لتبليغ الرسالة وأداء الأمانة. وأكبر الظن أنكم مشاطريّ فضل الأداء. والمساعد في الخير شريك فيه.

كنت في هذا العام 1359هـ مشرفاً على البعثة الأزهرية للحج والزيارة، وكانت لي عناية خاصة بالبحث عن مدى الثقافة العامة في الحجاز ممثلة في مكتباته ولا سيما الحرمين الشريفين، فلم يرعني إلا أنها مكتبات ينقصها كثير من الكتب المختلفة، وكثير من النظم المتنوعة في حسن العرض وتيسير النفع وجمال الموقع؛ ولذا لا يعرفها إلا قليل من الخاصة ولا ينتفع بها إلا أقل من القليل.

هذه مكتبة الحرم المكي لا تزيد فيما أظن على ألف مجلد في علوم محدودة. وهذه مكتبة الحرم النبوي لا تزيد على ثلاثة آلاف مجلد، وهي على قلتها خير مكتبات الحجاز نظاماً وأكثرها نفعاً وذلك بفضل جلالة ملك الحجاز وحكومته وبهمة مديرها العامل النشيط. وقد كلفني أن أناشد أهل الغيرة على الحرمين وبخاصة فضيلة الأستاذ الأكبر، وحضرة صاحب العزة مدير (دار الكتب الملكية) أن يساعدوا في تكوينها وتغذيتها بمختلف العلوم والمعارف ولا سيما كتب التاريخ والأدب والعلوم الحديثة والمجلات الدينية والأدبية والفهارس المتنوعة.

وعلى مقربة من الحرم النبوي الشريف مكتبة هادئة؛ ظريفة في بنائها ونظامها أسسها شيخ الإسلام عارف حكمت سنة 1270هـ في عهد السلطان عبد المجيد وتحتوي على عشرة آلاف مجلد تقريباً أكثرها مخطوط وكثير منها نادر؛ وقد رأيت فيها كتاب الأوائل للعسكري وقد نسخ سنة 395هـ وكتاب المسافات وصور الأقاليم لابن سهل البلخي ونسخ سنة 309هـ وهو من خزانة العباسيين

وفي الحجاز مكتبات مدرسية وفردية لا بأس بها نذكر منها مكتبة دار العلوم الشرعية بالمدينة المنورة وهي مدرسة ناهضة تقوم على تبرعات الهند وتدرس القرآن الكريم وقسطاً من العلوم العربية والشرعية وتجمع إلى دراسة العلوم تعليم الصناعات المختلفة، ومكتبة دار الحديث لمديرها شيخ الحرم المكي، ومكتبة يشرف عليها قاضي القضاة وكلتاهما بالحرم المكي الشريف، ومكتبة السيد نصيف بجُدّة ومنزله مثابة العلماء والباحثين. وقد تفضل أصحابها فأهدوا إليّ طائفة من الكتب القيمة ومجمل القول أن مكتبات الحجاز العامة في أشد الحاجة الى معونة الغير والمخلصين. وفي هذا بلاغ.

طه محمد الساكت

المدرس بمعهد القاهرة

العدد 417 - بتاريخ: 30 - 06 - 1941

في الزواج

للأستاذ عباس محمود العقاد

بعد القصص الغرامي أو قصص الحوادث الأخاذة، لا أحسب أن الجمهرة الغالبة من القراء يهتمون بموضوع عام كاهتمامهم بالموضوعات الاجتماعية التي لها مساس بالرزق أو مساس بالعلاقات بين الجنسين، وعلى رأس هذه الموضوعات الحب والزواج؛ لأن الأمر في هذه الموضوعات وما إليها لا يقتصر على الأفكار المجردة أو البحوث الأفلاطونية التي يشتغل بها الدارسون وأصحاب النظر والتأمل دون غيرهم، ولكنه يشمل المسائل اليومية التي تعرض لكل إنسان في حياته الخاصة، وينتقل إلى المحسوسات التي لا محيد عنها لمفكر ولا غير مفكر، والتي يعيش المرء مائة سنة وهو خلو من التفكير في شأن من الشؤون المجردة، ولكنه لن يخلو من معاناتها والانغماس فيها بحال

لهذا عرضتني الكتابة في موضوع الزواج لكثير من الطرائف التي تصلح للفكاهة كما تصلح للدرس والعناية. ومنها أنني سئلت لماذا لم أتزوج؟ وسئلت هل من حرج على المصرية المسلمة أن ترضى الزواج بالأجنبي الذي يحبها ويدين بالإسلام لأجلها؟ وسئلت: ما هو الفرق بين المرأة التي يرتضيها الرجل حليلة والمرأة التي يرتضيها خليلة؟ وهل معنى هذا الفرق أن الحليلات مفضلات على الخليلات، أو أن الخليلات

مفضلات على الحليلات؟ وأيهما أصعب وأندر: شروط الحليلة أو شروط الخليلة؟ إلى أمثال ذلك من الأسئلة التي خيل إلي وأنا أتلقاها بالتليفون أو بالبريد، أنني أثرت خلية من النحل على غير عمد، وأنني أنا الجاني على نفسي بما أثرت!

أما من سألني لماذا لم أتزوج فكان جوابي له أن الزواج قيد، وأنني عشت حياتي كلها في مخاطرة لا غنى لصاحبها عن الطلاقة والحرية، وأنني بعد هذا وذاك أقول ما قاله الخليل بن أحمد حين سئل في قرض الشعر، فأجاب: إن الذي يرضاه من الشعر لا يجيئه، وأن الذي يجيئه منه لا يرضاه!

وأما المصرية المسلمة التي يبني بها الأجنبي المسلم فلا حرج عليها فيما أعلم. ولست أنا من المتشددين في منع السلالات الإنسانية أن تمتزج على السنة المرضية. بل قد مضى لي زمان كنت أصف فيه لقاح الجنس المصري والأجناس القوية علاجاً من داء الركود والضوىَ

وأما الفرق بين شروط الحليلة وشروط الخليلة فالتمثيل هنا أجدى من الإفاضة في التحليل: الفرق بينهما كالفرق بين شروط البيت وشروط الفندق، أو كالفرق بين مطالب الإقامة ومطالب السياحة، أو كالفرق بين دوافع الطبيعة وروابط الهيئة الاجتماعية، أو كالفرق بين الواجب والهوى وبين الدرس والقصيدة. . . ومن لم يفهم الفرق بينهما من هذا التمثيل، فما هو بفاهمه من الإفاضة في التحليل

على أنني تلقيت من الأسئلة في موضوع الزواج ما هو أقرب إلى الجديات والشؤون الجوهرية، ومنها السؤال عما يزعمه الزاعمون قسوة من الشريعة أو العرف على المرأة الخائنة، وإجحافاً منها في التمييز بين حقوق الرجال وحقوق النساء

ورأيي أنا أن المرأة أسعد حظاً في مسألة الخيانة من الرجل بحكم الطبيعة التي لا حيلة لأحد فيها. فمن الإنصاف أن يكون الرجل أسعد حظاً في مسألة الخيانة بحكم العرف والشريعة

فالرجل يخون المرأة التي يحبها، ولكنه لا ينسب إليها ولداً من غيرها، ولا يستطيع أن يخدعها في صدق أمومتها لأبنائها، وهذا ضمان عظيم لا يظفر الرجل بنصيب منه بالغاً ما بلغ حرصه واطمئنانه. ولكن المرأة تسلط على الرجل عذاباً لا عذاب مثله، أو غفلة لا غفلة مثلها، كلما خانته وجاءته بولد من غيره وهو منسوب إليه، وكل جور من العرف أو القانون في التمييز بين الجنسين، فإنه لرحمة الرحمات بالقياس إلى هذه المزية التي ضمنتها المرأة ضماناً لا يتطاول إليه عرف ولا قانون

كذلك يحق للمرأة أن تلوم الطبيعة قبل أن تلوم الشريعة في التمييز بين حقوق الرجال والنساء، أو بين حقوق الذكور والإناث.

فالمرأة إذا حملت لم تحمل مرة أخرى في بطن واحد، ولكن الرجل ينسل مئات المرات وهي ولا تنسل إلا هذه المرة الواحدة. فليس من الطبيعي إذن أن يطالب الرجل بالوفاء الجسدي الذي تطالب به المرأة، وليس هذا من مقتضيات حفظ النوع ولا من مقتضيات تركيب البنية الجسدية

ويحق للمرأة أن تلوم الطبيعة قبل أن تلوم الشريعة في ناحية أخرى من نواحي التفرقة بين

الجنسين، وهي شيخوختها وفقدانها المزية الجنسية قبل أن يفقدها الرجل بعشرات السنين، لأن الولادة تجهدها وتضنيها وتجور على محاسنها وقواها

على أن الطبيعة قد عوضتها عن هذا أنها تستغرق في الجنس وتستغرق في الحب وتستغرق في الأمومة، فهي تأخذ في أربعين سنة من نصيب الشواغل الجنسية وشواغل النسل ما ليس يأخذ رجل في ثمانين، لانصرافه إلى ما عدا ذلك من فروض الحياة.

وبحث آخر قد حركته الأسئلة التي أثارتها كتابتي عن موضوع الزواج، وهو تشجيع الزواج بالقوانين أو بفرض الضرائب على العزاب

وعندي أنه رأى خاطئ من شتى الوجوه، لأنه يستبقي عيوب الزواج التي ينبغي أن تزول، ولعلها لا تزول إلا بالإعراض عن الزواج في بعض الأحوال

مثال ذلك عيب المغالاة بالمهور، فلو أن القوانين أكرهت الناس على الزواج لبقى هذا العيب ولم يشعر أحد بضرورة العدول عنه كما شعر الأكثرون في مصر من جراء

الإعراض عن مرهقات الزواج وفي مقدمتها المهور. ولقد بلغ من شعورهم به أن بعض الموسرين جعلوا من أنفسهم قدوة للفقراء بالإقلال من قيمة المهر حتى نزلوا به إلى دراهم لا تتم الدينار

ومثال ذلك عيب الإغراق في الحجاب والتهاون في تزويد الشابات بمحاسن التعليم والتجميل التي ترّغب فيهن الشبان. فلولا الإعراض عن الزواج حيناً لما التفت أحد إلى هذا العيب، ولوجب على الشاب أن يتزوج بحكم القانون لا بحكم التفضيل والاستحسان. وهل يجيء التفضيل والاستحسان إلا من التنافس في الفضائل والحسنات؟ وهل يجيء التنافس في الفضائل والحسنات إذا أكره الناس على الزواج وكان الباعث لهم إليه أنهم يفرون من وطأة الضرائب وفرائض الإلزام؟

ومثال العيوب التي يبقيها التشجيع على الزواج بالدوافع المصطنعة والزواجر القانونية عيب العرف الذي تتبعه الفتيات في تفضيل شاب على شاب وصناعة على صناعة فالقانون يفرض الضريبة على الشاب الذي لم يتزوج ولا يفرض مثلها على الفتاة التي ترفض هذا الفتى لأنه تاجر وليس بموظف، أو ترفض فتى غيره لأنه موظف وليس بضابط، أو ترفض فتى آخر لأنه سيقيم في الأقاليم ولا ينوي الإقامة في العواصم، وليس

هذا من العدل في التشريع، ولا هو من مصلحة الفتيات أو مصلحة الزواج.

والأولى بالشرائع أن تعني بأمرين هما خير من العناية بالإكراه على الزواج، إذا كان الغرض من الإكراه على الزواج زيادة النسل وقلة الفساد:

الأولى بالشرائع أن تعني (أولاً) بتصحيح أجسام المولودين وتصحيح أجسام الآباء والأمهات قبل الزواج

فلو أن ألفاً من المرضى والعجزة والفاشلين تزوجوا ورزقوا البنين والبنات لما كان هذا مانعاً أن يموت معظم المولودين في سن الطفولة، وأن يعيش من يعيش بعد ذلك أفشل مما عاش الآباء والأمهات

وخير من هذا أن تُتَحرى الصحة في طلاب الزواج، وأن تتحرى التربية التي تصون حياة الأطفال من عبث الجهل والإهمال والأولى بالشرائع أن تعنى (ثانياً) بتبغيض الناس في الفساد لا بمجرد الحجر عليهم وهم يشتهونه ويقبلون عليه

وإنما يصبح الفساد بغيضاً إذا كانت الاستقامة أطيب منه وأمتع وأدنى إلى الأنفس والأيدي، ولن يكون الأمر على هذه الصفة إذا كانت الأخلاق المفروضة على الناس أخلاقاً غير معقولة ولا مستندة إلى سند غير التقليد والاستمرار، ولن يكون الأمر على هذه الصفة إذا كانت بطالة الأغنياء وعوز الفقراء دافعين ملحين إلى الترف وبيع الأعراض، ولن يكون الأمر على هذه الصفة إذا كان فساد الأزواج كفساد العزاب، ولم يكن الزواج وحده عصمة لذويه على اختيار أو على اضطرار

وبعد فقد كتبنا عن الزواج مقالاً بعد مقال؛ فهل نستطيع أن نكتب في هذه المسألة الاجتماعية الإنسانية على الأسلوب الذي كتب به برتراند رسل الإنجليزي، وليون بلوم الفرنسي، وغيرهما من كتاب أوربا الوسطى؟

أما أنا فأستطيع!

وأما الشك كل الشك فهو في استطاعة كثير من القراء الشرقيين أن يستمعوا لآراء كتلك الآراء، ولو ليخالفوها أو يتبينوا ما فيها من الأخطاء!

عباس محمود العقاد

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

كلام ينفع! - فائدة تاريخية - أساطير الأولين - اختراع الأحاديث - محاربة الوثنية - الحصار الفني في الإسلام - إلى معالي وزير الأوقاف - أجيبوا، يا أصدقاء الرسالة الأجاج - بلد الأستاذ أحمد أمين - بين الرسالة والثقافة - أيام وأيام - يوم البعث

كلام ينفع!

لقيني بعض الأصدقاء وهو منزعج أشد الانزعاج، فقلت: ماذا بك؟ فأجاب: صديقي فلان كان يلقاني في كل يوم؛ ثم انقطعت عني أخباره منذ أيام، وأنا أخشى عليه كوارث

هذه الأوقات السود
فقلت: هل كان يحاول الانتفاع بجاهك في شأن من الشؤون؟
فقال: وما الموجب لهذا السؤال؟
فقلت: إن كان ذلك فلا تضجر ولا تنزعج، ولا تتوهم أن سيارة داسته، أو أن قنبلة سقطت عليه، وإنما يجب أن تسر وتفرح، لأن انقطاعه عنك ليس إلا أمارة على أن تعبك في خدمته قد وصل به إلى ما يريد، فاستغنى عن التودد إليك!
فقال: أكذلك يكون إخوان هذا الزمان؟
فقلت: كذلك كان الإخوان من قديم الزمان، وسيكونون كذلك إلى آخر الزمان!
فقال: ولكني مع ذلك مشتاق إليه أشد الاشتياق
فقلت: صبراً ثم صبراً، فستشبع من رؤيته يوم يحتاج إليك، وسيحتاج ثم يحتاج، لأن الله كتب الفقر على من ينكرون الجميل
فائدة تاريخية
كان العرب يؤرخون بواقعة الفيل، قبل أن يؤرَخوا بهجرة الرسول، فكيف كانوا يؤرخون قبل هلاك أصحاب الفيل؟
أرَّخ الدميري هجوم أبرهة على الكعبة بأنه كان في أول المحرم سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة من تاريخ ذي القرنين
فهل يتفضل أحد كتاب (الرسالة) بتحقيق هذا التاريخ؟
المعروف جيداً أن العرب قبل الإسلام قد اختلفوا في التوقيت، وذلك يشهد بتأثرهم للحركة العلمية عند المصريين والكلدانيين، فهل يمكن الوصول إلى معرفة ما كانوا عليه في التأريخ قبل أن ترج أذهانهم واقعة الفيل؟
والمعروف أيضاً أن العرب قبل الإسلام كانت لهم صلات قوية أو ضعيفة بأمم ذلك العهد، وجرتهم تلك الصلات إلى وقائع لا تمر بدون ضجيج تتناقله الأجيال، وإن مرت بدون تدوين يحدد مواقعها من التأريخ
على أنه ليس من المستغرب أن يكون العرب أرَّخوا بموت ذي القرنين، فقد كان له في أذهانهم صورة صخَّابة ضجَّاجة، ولولا ذلك لسكت عنه القرآن، لأن القرآن لم يذكر من حوادث التاريخ إلا ما كان له في أذهان العرب وجود برَّاق، ليتم الغرض من الاعتبار المنشود.
أساطير الأولين
و (أساطير الأولين) كلمة قرآنية يحكمها القرآن عن العرب الذين يطيب لهم أن يشككوا فيما رواه من أخبار القدماء
وهذه الكلمة تشهد بأن جمهور العرب في تلك الأيام كان يملك ملامح من صور النقد الأدبي، فقد كانوا بشهادة القرآن يقسمون الأخبار إلى قسمين: صحيح ومدخول، وكان من سياستهم في مقاومة الدعوة الإسلامية أن يضيفوا أخبار القرآن إلى القسم المدخول فيجعلوها من أساطير الأولين. وما صدَق من عاندوا القرآن، ولكن إصرارهم على مقاومته بهذا الأسلوب يشهد بما كانوا عليه من مكر ودهاء، وهما من صور الذكاء
اختراع الأحاديث
والذي يراجع كتب التفسير وكتب الأخبار يعجب للثروة الأدبية التي سايرت قَصَص القرآن، وهي ثروة لم تورث كلها عن عرب الجاهلية، وإنما ابتدعها فريق من الجاهليين وفريق من الإسلاميين، وهي في جملتها شاهد على براعة العرب في ابتداع الأسمار والأحاديث
ولو اهتمّ كاتب بتلفيق ما اخترع العرب من الأقاصيص المتصلة بالسور القرآنية لكان لنا من ذلك (إلياذة) عربية تفوق الإلياذة اليونانية، وتشهد بأن العرب لا يقلون عن اليونان في سعة التصور وقوة الخيال
فمتى يوجد ذلك الكتاب، ومتى نرجع لماضينا فنعرف ما كان فيه من تصاوير وتهاويل، ليضعف الوهم القائل بأن نصيب العرب من التخيّل قليل؟
محاربة الوثنية
ولكن ما الذي دعا العرب إلى وقف تلك الحركة الفنية، بحيث يُظَنَّ أنهم أقل الأمم عنايةً بزخرفة الأخبار المتصلة بالدين؟
يرجع ذلك إلى تأثرهم بالقرآن في محاربة الوثنية، وهذه الدعوة السليمة في جوهرها

كانت السبب في صرف كثير من الأمم الإسلامية عن الزخارف الأدبية والفنية، لأن الزخرف الأدبي والفني لا يقوم إلا على التلوين والتزيين، وذلك ممنوع في نظر رجال الدين، لأنهم يرون الافتنان في زخرفة الأخبار الدينية أمراً لا يليق، فقد يسوق الناس إلى الوثنية من حيث لا يشعرون

الحصار الفني في الإسلام

ما معنى هذا التعبير الغريب؟

أنا مُقبل على عرض مسألة فنية كان لها تأثير في تضييق نطاق الدعوة الإسلامية، وما أحب أن يتهمني أحد بسوء النية، فلي غرض شريف أرجو به من الله الثواب

ماذا أريد أن أقول؟

أقول بصراحة إن الإصرار على تجريد المبادئ الإسلامية من الزخارف الفنية كان له تأثير في عرقلة الدعوة الإسلامية، لأن الذين حَّرموا التصوير وقاوموا الأساطير نسوا أن في الدنيا ملايين لا تقاد لأية فكرة دينية إلا إن كانت موشَّاة بالزخرف والخيال!

ولهذا السبب ضاعت الفرصة في إسلام الأمة الروسية، حين فكرت في اعتناق إحدى الديانات السماوية، منذ بضع مئات السنين

ظلت روسيا على عقائدها الوثنية إلى ما بعد ظهور الإسلام بأزمان طوال، ثم بدا لها أن توازن بين المسجد والكنيسة، فها لها أن ترى المسجد محروما من البريق والرّواء، وراعها أن ترى الكنيسة تحفة من الفن المرصّع بغرائب الخيال

وسألت روسيا بعض علماء المسلمين عن قواعد الإسلام فكان أول ما سمعت هو القول بتحريم الخمر، مع أن نبيّ الإسلام لم يحرم الخمر إلا بتلطف واستدراج

وكذلك كانت غفلة الدعاة عن سياسة القول سبباً في منع الإسلام من دخول البلاد الروسية، كما كانت خشونة المساجد من أسباب الانصراف عن هذا الدين الحنيف

وأقول أيضاً: إن الحكمة في تجريد المساجد من الزخرف كان لها مكان في بداية الدعوة الإسلامية، فما مكانها اليوم ولم يبق أثر للخوف من رجعة الوثنية؟

يجب أن يكون لمساجدنا نصيب وافٍ من الزخارف الفنية، ويجب أن تكون على جانب عظيم من الرونق والبهاء، ويجب أن نشعر بأن جمالها يذكّر بجمال الفردوس، لتكون الواحة التي نأنس إليها عند الفرار من هجير الشقاء في طلب المعاش

ما هذا الأزهر القفر الموحش؟

ألا تمتد إليه يد فتنقله من حال إلى أحوال؟

وما جامع عمرو في بلائه بالدنيا والزمان، وهو أول مسجد أقيم في هذه البلاد؟

وما هذه الخرائب المنثورة في الحواضر والدساكر على أنها مساجد؟

أفيقوا من غفلتكم، يا دعاة التقشف المدسوس على الدين، وتذكروا مرة واحدة أن تجميل المساجد من أبواب الاقتصاد، لأنه يغني الناس عن تبديد أموالهم في المشارب والقهوات، وبأي حق تكون بيوتكم أجمل من بيوت الله، إلا أن تكون نياتكم أقيمت فوق خرائب وأطلال؟

إلى معالي وزير الأوقاف

وهو اليوم رجل بارع الأدب، وافر الذوق، متين الدين، وكأنه صورة من محمد عبده أو عبد العزيز جاويش، إلى الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا أوجه القول:

في هذه الأيام - ولعل هذا من وحي خاطرك - أخذت وزارة الأوقاف تتأنق في بناية العمارات المرصدة للاستغلال، فلم يَعُد (بيت الوقف) كالذي كان في ذهن حافظ إبراهيم وهو يداعب صديقه حفني ناصف، وإنما صار (بيت الوقف) بِنيَّة تنافس بِنيّة (الجراند أوتيل) في باريس، وصار طلاب المنافع عن طريق العمارات الشواهق يخشون منافسة وزارة الأوقاف

فهل ترى من الخروج على عنجهية بعض المشايخ أن يكون في كل حاضرة مسجد أو مسجدان أو مساجد على أحدث طراز من التأنق في الزخارف الفنية؟

أنت فرصة من فرص السوانح، يا مصطفى باشا، فلن تكون وزارة الأوقاف إلى رجل مثلك في كل وقت، فبادر إلى تجميل بيوت الله، ليزيدك الله جمالاً إلى جمال، وكمالاً إلى كمال، وليكون أسلوبك في الإصلاح، شبيهاً بأسلوبك في الإفصاح

أجيبوا، يا أصدقاء الرسالة

لنا صديق من رجال الأدب يحاول أن يحتكم الى العقل في جميع المشكلات، فما مشكلة اليوم عند هذا الصديق؟
هو يوازن بين الاحتلال والاستقلال، ومن رأيه أن الاستقلال وسيلة لا غاية، فإذا تمت نعمة الرخاء مع الاحتلال فلا موجب لوجع الدماغ في طلب الاستقلال
وأنا أنتظر آراء أصدقاء الرسالة في هذا الرأي الطريف لأنه بالتأكيد من الآراء التي تساور مَنْ مناهم الألمان بنعمة العافية في ظلال الاحتلال!

الأجاج

أشرت في أحد الأحاديث إلى الأجاج، فما الأجاج؟
هو نوع من السمك الجيد، وكان يوجد بالبحيرات المصرية ثم انقرض، ولكن كيف انقرض؟
كان الصيادون لجشعهم، لا لجهلهم، يضيقون عيون الشباك ليجترفوه بالمئات، فكان من أثر هذا الجشع أن انقرض ذلك النوع من السمك النفيس
حدثني بهذا الأستاذ عبده حسن الزيات تأييداً لما كنت أقول من أن الفقر سبَبَهُ الخيانة لا الجهل. وهل يجهل أحد أوجه الضر والنفع حتى نقول إن الفقراء يُعذَرون لأنهم جهلاء؟ وهل كان جميع الأغنياء من المزوِّدين بعلم الاقتصاد وعلم تدبير المعاش؟
مازلت أذكر ضحكة الشيخ عبد الباقي سرور، رحمه الله، وقد تلقينا في جريدة الأفكار سنة 1919 شكاية للصيادين من إصرار الحكومة على تضييق عيون شباك الصيد!
كنا نظن عمل الحكومة تعسفاً في تعسف، ولم نكن ندري أن الثروة المصرية تحتاج إلى حرّاس أمناء، ولو كانت مصادر تلك الثروة في أعماق البحيرات
واستطرد الأستاذ عبده حسن الزيات فقال: حضر أحد النواب المقربين إلى سعادة الأستاذ الجليل محمود فهمي النقراشي باشا ومعه وفد من الصيادين المطالبين بتضييق عيون الشباك، وكان النقراشي باشا يومئذ وزير الداخلية، فغضب وقال: (ألا يعرف حضرة النائب المحترم أن هؤلاء الصيادين يريدون أن نعينهم على قطع ما منّ الله به عليهم من مصادر الرزق؟ إن منفعة الصياد في أن تكبر الأسماك، ليبيع بالواحدة لا بالقُفة، وليصبح الصيد من أنواع الفروسية، فما موجب الجشع في تضييق عيون الشباك)
مصر أمة بحرية، ومع ذلك لا توجد عند أهلها النزعة البحرية في الأدب والبيان، إذا استثنينا القصائد والرسائل التي أوحتها الشواطئ منذ أعوام قِلال
أفلا يكون من أسباب انعدام الأدب البحري عند أهل مصر حرمانهم من السمك الجيد في النيل والبحرين والبحيرات؟
بأي حق يجوز أن يقضي المصري سنة بدون أن يرى وفرة الأسماك في الأسواق؟
أليس ذلك برهاناً على أننا لا نجيد الصيانة لثروتنا الأهلية؟
كانت أسماك مصر حديث القدماء من المؤرخين فأين هي اليوم؟
إن أبناء مصر أبادوا التماسيح من مياه النيل، فكيف يبقون على الأسماك؟!

بلد أحمد أمين

جاء في (المنصورة) - وهي المجلة التي تصدرها مدرسة المنصورة الثانوية - أن الأستاذ أحمد أمين منصوريُّ المنبت، وأقول إن الأستاذ أحمد أمين نفسه حدثني أن آباءه من المنوفية، وإن تحلى بالتواضع فلم يدّع أنه من سنتريس
ولم يكن يهمني أن يُزيف نسب أحمد أمين إلى المنوفية، ولكن مقاله عن (غاية العالم) أقنعني بأنه موهوب، ولا بأس بإضافته إلى المنوفية، وإن كان في مقاله عبارات سمعت مثلها في تمهيد الدكتور إبراهيم ناجي لبحثه عن (نفسية المرأة) مع فارق بسيط: هو أن الدكتور ناجي أشار إلى المصدر الذي نقل عنه وأن الأستاذ أحمد أمين لم ير موجباً لذلك، فدلنا من جديد على حسن هضمه لما يقرأ من آراء الباحثين، بحيث ينسى أنه ينقل عن هذا المفكر أو ذاك

بين الرسالة والثقافة

تلطف الأستاذ محمد فريد أبو حديد فنقل تحية أدباء السودان إلى مبارك والزيات، وحدثنا أن الخطباء الذين أثنوا على جهوده الأدبية كانوا يقولون إنه من كتَّاب (الرسالة) وأن ذلك وقع من نفسه موقع الارتياح، فقد سره أن تكون (الرسالة) على ألسنة جميع الناس في ذلك القطر الشقيق

وأقول إن مجلة الثقافة أخلفت الظن الجميل بعض الإخلاف، فقد كنا نرجو أن تكون أقوى من مجلة الرسالة، وأن تفتح باباً من المنافسة تنتعش به الحياة الأدبية، ويتسع به المجال أمام الشادين من أبناء الجيل الجديد

والحق أن طغيان (الرسالة) على (الثقافة) يسر المتطلعين إلى تقدم العلوم والآداب والفنون، لأنه يشهد بأن القراء في البلاد العربية قد وصلوا إلى غاية من النضج يصعب معها الأمل في إرضائهم بالجهد القليل، و (الرسالة) تبذل جهداً لا تبذله (الثقافة) وإن استندت (الثقافة) إلى علماء من (كل صنف) كما نوه بذلك الأستاذ أحمد أمين

أنا أرجو أن تهتم (الثقافة) اهتماماً جدياً بتخيّر موضوعاتها، وأن تعنَى عناية خاصة بتخير الشعر الذي تنشره؛ فقد يتوهم الناس في بعض الأقطار العربية أن الشعر في مصر لم تبق له موازين يُعرف بها الراجح من المرجوح

والحرص على منفعة (الثقافة) هو الذي أباح أن نوجه إليها هذا النقد الرفيق، مع الاعتراف بما تقدم من الوَقود الجزل لنار الأفكار والعقول

متى يجيء اليوم الذي نرى فيه خمسين مجلة من أمثال (الرسالة) و (الثقافة) بالخصائص التي عُرفت عن هاتين المجلتين، في التسامي إلى أدب القول وإعزاز البيان؟

الله عز شأنه هو المرجو لتحقيق هذا الأمل الجميل

أيام وأيام

وقعت غارتان على الإسكندرية في ليلة واحدة، ومع ذلك لم يُصب غير بضعة أشخاص، فكيف وقعت هذه المعجزة بعد انقضاء عهد المعجزات؟

يرجع السبب إلى أن الغارتين وقعتا في أحياء هجرها أهلوها فراراً من شراسة الخطوب، فما أقسى الدهر الذي يحكم بأن يرى أهل الإسكندرية أن الحياة أفضل من الموت؟

لو كان بيننا وبين الألمان حرب، لكان من المستحيل أن يترك أهل الإسكندرية بلدهم الجميل قبل أن يجعلوه مقابر للباغين والمعتدين، ولكن الظروف الدميمة قضت بأن يعيش الإسكندريون مجردين من السلاح، وما أشقى من يعيش بلا سلاح في أيام لا يأتمر أهلها بغير البغي والعدوان!

هل تنتفع مصر بهذا الدرس؟ ومتى؟ وكيف؟

إن بلاء مصر بزعمائها سيطول، ويطول، ويطول، فمتى يَعقِلون؟

يوم البعث

وأنا مع هذا لا أيأس، ولن أيأس ما دام دم الفتوّة المصرية والفتوة العربية والفتوة الإسلامية، يجري في عروق الفتيان من أهل مصر والشرق

يجب أن نفهم جيداً أن القوات الأوربية صائرة إلى الفناء، لأنها تجاوزت حدود الله، ولأنها تستبيح قتل الأبرياء، ليتم لها ما تريد من إعزاز شرائع الشياطين

(ألمانيا فوق الجميع)!

ذلك مطلع النشيد الألماني، وهو نذير بما سيصير إليه الألمان، فما تغطرست أمة إلا ابتلاها الله بالذل وسلّط عليها الضعفاء

اعتقد فراعين مصر أنهم سلالة الشمس وأبناء السماء، فأدال الله منهم وعرَّض أحفادهم وأسباطهم لعوادي الاستعمار والاحتلال.

واعتقد الرومان أنهم سادة الناس، فأباد ملكهم بلا إمهال.

واعتقد العرب أن أُرومتهم أشرف من جميع الأرومات، فكتب الله عليهم التخلف، وجعل

نصر الإسلام بأيد غير أيديهم لأنهم خانوا عهد زعيمهم الأكبر، ولم يفهموا أن الإسلام دين مبادئ لا دين أجناس

فما مصير ألمانيا وهي تعتقد أنها فوق الجميع؟

إن هذه العقيدة ستأتى على بنيان ألمانيا من الأساس، فستؤلب عليها الشعوب، وستخلق لها أعداءً لا يعرف عددهم غير من تفرد بالعزة والجبروت

(ألمانيا فوق الجميع) ثم (ألمانيا فوق الجميع) (ألمانيا فوق الجميع) و!

ولهذا المعنى وحده ستصير (ألمانيا تحت الجميع)؛ وإن عشنا فسنرى، وإن عشتم فسترون، فما أذل الأفراد والشعوب غير الاعتصام بالسيطرة والاستعلاء

لو كان (لهتلر) مستشار أمين لدله على أن الرجولة ليست في البطش الأحمق، وإنما الرجولة أن تحارب من تسلّح بمثل سلاحك، أما إيذاء مدينة مجردة من السلاح، فهو عمل لا يقوم به رجل يتوهم أن أمته فوق الجميع

أما بعد، فهذا يوم البعث، وسأعيش بإذن الله إلى أن أرى الأنوار تنتصف من الظلمات، (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب سينقلبون)، وعند الله جزاء المخلصين الأمناء

زكي مبارك

جيل وجيل

للأستاذ محمود البشبيشي

- 2 -

كان هذا المقال قد فقد بيننا وبين البريد فنشرنا الثالث قبله؛)

(فلما وجدناه نشرناه وسننشر المقال الرابع بعده

التأمل فن الفنون - فلسفة التأمل - هل يكون الحب رائد

ضلال؟ - صلة الروح بين سائر الأشياء - الرذائل تضعف

التأمل، والمغالاة في الفضائل تفسده - مسلك الشكوى وبكاء

الآمال في أدب الشباب - غلبة الغزل في شعرهم وهل من

المستطاع توازنها مع سائر الأغراض؟.

ومن الأفكار أفكار تنفخ في الألفاظ أرواحاً، فتخلقها آراء حية، لا تعترف بقيود . . . الفناء، لأنها من جوهر الروح، ولا يعتريها الضعف في التعبير عن وجودها، لأن كل كلمة فيها قوة روحية، ومن هذه الأفكار والآراء ما دار بيني وبين ولدنا الأديب (حسين) في المقال السابق، حيث انتهينا إلى أن التأمل أساس الحياة تصلح بصلاحه وتفسد بفساده، وإن قوة الأجيال بقوة الروح والفكر فيها، وقادنا الحديث إلى أدب الآباء وأدب الأبناء بدأنا بشيء من الفلسفة، وخلصنا من أوعارها وأوعاثها إلى رياض الأدب، وسنبدأ اليوم كما بدأنا، وسننتهي كما انتهينا. . .!

- أنا معك يا بني في أن التأمل أساس الحياة، ولا يسعني إلا أن أدعو القوم إلى سبيله الصحيح، وأهيب بهم أن تأملوا في الحياة وأحوالها، تبسم لكم زهورها، وتتساقط تحت أقدامكم ثمراتها، وتسمعوا أنشودة السعادة والنصر في بسمة الصبح وجلوة المساء! ويحس كل فرد نعمتها فيعمل على زيادتها وتعمل هي أيضاً، لأن الحياة ككل شيء تعطي بمقدار ما تأخذ! وحقيق بالعاقل أن يتأمل مشكلاته ويقلبها على رأى يعقد عليه القلب، ويسن عليه

الأمر، فلا يرمي إلا عن قوس عقيدة راسخة، والرجل الصادق في تأمله من كان الإيمان أعلق بقلبه من الشك، والطفرة آثر عنده من التردد، والحقيقة أشهى إليه من الظواهر الكواذب، والمغالبة في سبيل الحق آنس له من الاستكانة في أرض الهجود!

- هذا حق يا ولدي، فإن التأمل فن للفنون، تترعرع في ظلاله كل فنون الحياة من سرور وحزن وحب وتقدير، وهل يجيء السرور إلا بعد الشعور باللذة والنشوة التي يكتشفها الإحساس بعد قليل من التأمل في نتائج العمل الذي نشعر نحوه بالسرور؟ وفن الحزن أيضاً. فنحن لا نشعر بالحزن والألم من شيء إلا بعد التأمل في مداه وسبر غوره وما يخلفه من أثر، ثم ما هو أكثر من ذلك. فنحن قد نستمر في الحزن ونسايره ولو ذهب المؤثر، لأننا نتأمل ونطيل التأمل؛ وفن التقدير والاعتراف بالفضل، لا شك أن التأمل أساسهما إذ كيف نحكم على شيء بالجودة إذا لم نتأمله! وفن الحب، وهل هناك حب لم يلهبه التأمل؟ إن الإنسان في حبه يتأمل بكل حواسه، بعينه وشعوره وقلبه

- قد بينت يا بني خطر التأمل، فهل نسيت أن التأمل كأساس للحياة بتأثر بالميول والعواطف كالحب والكراهية والطمع والغيرة، تلك العواطف العمياء الضاربة في الضلال

- ماذا أسمع؟ كيف يكون الحب رائد ضلال؟ كيف يكون أيها الوالد الكريم، وهو العاطفة الروحية السماوية التي تربط الإنسان بخالقه، والتي تولد مع الوليد فيميل إلى والده وأقاربه بطبيعة الحب الروحي فيه، والتي نلمسها في الحيوان قوية واضحة، وهو الذي لا يدرك ولا يفكر تفكيراً يصح أن ينطبق عليه حقيقة التفكير بكل معانيه. وكيف تكون الروح عمياء! إننا إذا نظرنا إلى حيوانين من فصيلتين مختلفتين، ورأينا

كان على يوسف يدعو لرأي سياسي؛ وكذلك كان عبد القادر حمزة، فعمدا كلاهما إلى أن يصلا إلى قلوب الجماهير في يُسر لا تكلف فيه، فتوخيا سهولة العبارة، وجانبا النابي من الألفاظ، والمستصعب من التراكيب، كما جانبا الزخرف والتعمل والتفصح، فجاء الأسلوبان من السهل الممتنع حقاً.

على أن الرجلين نبتا في عصرين مختلفين كل الاختلاف: فلم تكن الكتابة - كما أشرنا آنفاً - قد نهضت بعد في عصر علي يوسف، بل كانت تحبو إلى النهوض. فليس غريباً إذاً ألا تخلو مقالاته - على ما فيها من حياة وقوة - من زلات لغوية وتركيبية، وأن يتداخلها أحياناً شيء من ضعف التأليف، نلحظه دائماً في كتابات ذلك العصر.

ولا كذلك عبد القادر حمزة: فقد نشأ في بيئة غير تلك، وعصر نُبهت فيه العربية، ونضجت الأقلام، حتى إن مصر لتُباهي فيه بكتاب هم بلا شك من مفاخر العربية.

هذه إلمامة عامة مجملة، وتفصيلها يقتضي بحثاً طويلاً، ودراسة مسهبة لهؤلاء الرجال وأزمانهم وثقافتهم، ثم كتاباتهم، وكيف كانت أولاً، وكيف تطورت، وعوامل كل أولئك ونتاجه. ولا شك أن تاريخ الأدب الحديث سيقول في ذلك كله قوله الفصل.

(ا. ع)

إلى الأستاذ محمود شلتوت

ورد في مقالكم القيم (الإسلام والعلاقات الدولية) العدد 415 من الرسالة الغراء عن أسرى الحرب في الإسلام ما يلي: وخير الإمام بين إطلاقهم من غير مقابل وفدائهم على حسب ما يرى من المصلحة. وقد منَّ صلى الله عليه وسلم وفادى بالمال وبتعليم الأسارى أبناء المسلمين الكتابة. أما استرقاقه صلى الله عليه وسلم أو إباحته للاسترقاق فقد كان مجاراة لحالة اجتماعية سائدة في الأمم إذ ذاك ولم يكن على وجه التشريع العام، وإنما التشريع العام في ذلك قوله تعالى: (فإما مَنًّا بعد وإما فداء)

فهل لنا يا سيدي الأستاذ أن نفهم من ذلك أن الرق في الإسلام من قبيل الأحكام التي تزول بزوال أسبابها ومقتضياتها كتركه صلى الله عليه وسلم صلاة التراويح بالناس معللاً هذا الترك بقوله: إني خشيت أن تفرض عليكم. حتى إذا ما أكملت الشريعة وفصلت الأحكام وانتقل النبي الكريم إلى الرفيق الأعلى وزالت خشية فرضيتها جمع عمر بن الخطاب الناس عليها وقال: نعم البدعة هذه؟

وكذلك ما ذهب إليه كثير من فقهاء السلف والخلف من إسقاط المؤلفة قلوبهم من سهم الزكاة مع أن الآية بظاهرها قد جعلت لهم نصيباً مفروضاً منها؛ قال تعالى (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم) الآية 60 من سورة التوبة، وقالوا إن إعطاءهم هذا السهم إنما كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والإسلام إذ ذاك في قلة وضعف. وقد زال ذلك بظهور الإسلام وإعزازه واستغنائه عن تأليف القلوب لدخولها فيه

أو كف أذيتها عنه. ولهذا فإن الخلفاء الراشدين لم يعطوهم شيئاً. وقال عمر إنا لا نعطي على الإسلام شيئاً فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. وقد اشتد في رده للأقرع ابن حابس المجاشي وعيينة بن حصن الفزازي في خلافة الصديق رضي الله عنه وقال لهما: اذهبا واجهدا جهدكما، لأرعى الله لكما إن رعيتما. لقد تألفكما رسول الله والإسلام قليل

وقد تغيرت اليوم الأوضاع الاجتماعية للأمم وأصبح الرق السائد في الأمس يكاد أن يتواضع الناس اليوم على أنه إضرار وجريرة كبرى. فهل لنا يا سيدي الأستاذ في مجاراة هذه الحالة السائدة اليوم أن نمنع الرق في الشريعة الإسلامية كما منعنا سهم المؤلفة لزوال المقتضيات والأسباب؟

وتقبلوا فائق التحية والاحترام

محمد كامل الحمامي

نزيل القاهرة

تصحيح مثل

قرأ البلاغيون في بعض الكتب من ضمن الأمثال قول القائل: (النحو في الكلام كالملح في الطعام) وهو قول كما ترى فاسد خاطىء، فأتعبوا أنفسكم في نقده وتشريحه، وإيراد التأويلات المختلفة لتصحيحه وتسويغه؛ فقال الخطيب القزويني في كتابه

(الإيضاح) ما نصه: (وإذا علم أن وجه الشبه هو ما يشترك فيه الطرفان - يعني المشبه والمشبه به - علم فساد جعله في القول القائل: (النحو في الكلام كالملح في الطعام) كون القليل مصلحاً والكثير مفسداً، لأن القلة والكثرة إنما يتصور جريانهما في الملح، وذلك بأن يجعل منه في الطعام القدر المصلح أو أكثر منه دون النحو، فإنه إذا كان من حكمه رفع الفاعل ونصب المفعول مثلاً، فإن وجد ذلك في الكلام فقد حصل النحو فيه، وانتفى الفساد عنه، وصار منتفعاً به في فهم المراد منه، وإلا لم يحصل وكان فاسداً لا ينتفع به. فالوجه فيه هو كون الاستعمال مصلحاً والإهمال مفسداً لاشتراكهما في ذلك. . .)

والحق أنني لم أسترح إلى قبول هذا التوجيه الذي ذكره الخطيب لتصحيح المثل، وبقيت منه على علة؛ وبينما كنت أقرأ في كتاب (نفائس المجالس السلطانية) الذي نشره الدكتور

عبد الوهاب عزام ضمن كتابه الأخير (مجالس السلطان الغوري)؛ إذا بي أقف على تحريف في المثل السابق، وأعلم أن صحته كما جاء في الصفحة الثامنة والستين من كتاب النفائس المذكور إذ وردت فيه هذه العبارة:

!قال بعض الحكماء: الهزل في الكلام كالملح في الطعام

ومن اليسير على القارئ أن يدرك جمال المعنى في قول ذلك الحكيم: (الهزل في الكلام كالملح في الطعام) فإن الكلام إذا خلا من الهزل المباح المحمول كان جافاً ثقيلاً، وكانت النفوس أسرع إلى النفور منه والعزوف عنه، وقد كان النبي صلوات الله عليه يمزح أحياناً؛ وإن كان لبلاغته وتمكنه وعصمته لا يقول في مزاحه إلا حقاً. وإذا زاد الهزل في الكلام كان ذلك أدعى إلى الإفحاش فيه، والخروج به إلى المجانة والهذر. ولعل مما يستأنس به لذلك قول الرسول الكريم: (كثرة الضحك تميت القلوب) وقوله ما معناه: (كثرة المزاح تسقط الهيبة). وبذلك يتضح أن التشبيه - بعد التصحيح السابق - قد استكمل شرائطه، وصار له من الجمال والدقة ما له.

فليُرح البلاغيون أنفسهم، وليستبدلوا كلمة (النحو) بكلمة (الهزل) فيستقيم لهم المثل، وفوق كل ذي علم عليم.

(البجلات)

أحمد الشرباصي

القصص

سمبرايدم

عن الإنجليزية

للأستاذ فوزي الشتوي

كان الجراح (بكتل) رحيماً على غير عادته، برغم حادثة بسيطة، أو بعبارة أدق برغم إهمال بسيط حدث في الليلة الماضية، فأدى إلى وفاة رجل كان ينتظر له الشفاء. وكان الرجل من أولئك البحارة الكثيرين، إلا أن وفاته أقلقت كبير الممرضين منذ الصباح. ولم يكن سبب قلقه وفاة الرجل، فهو يعرف الجراح (بكتل) في مثل هذه المسائل، ولكن جزعه كان يرجع إلى نجاح العملية الجراحية برغم دقتها وخطورتها، وبهذا انتقل أمر شفاء المريض من يد الجراح إلى يد الممرض وإلى العناية بأمر العلاج؛ ولكن الرجل مات، بدون سبب سوى إهمال بسيط، ولكنه سبب كاف لإثارة سخط الجراح (بكتل) وسبب كاف لإسماع كبير الممرضين قوارص الكلام، ثم إرسال موجة من الاضطراب بين صفوف جميع الممرضين والممرضات لمدة 24 ساعة كاملة وعلى رغم هذا كله كان الجراح (بكتل) رحيماً على غير عادته، فعند ما أخطره كبير الممرضين وهو يرتجف رعباً بوفاة الرجل الفجائية لم تنفرج شفتاه عن كلمة تقريع أو لوم، وظلتا مضمومتين فانسابت منهما علامات الغضب بسكون لم يقطعه إلا سؤاله المستبشر عن صحة الرجل الآخر. ولم يصدق الممرض ما سمع فمن المستحيل أن يكون الدكتور سمع الموضوع فأعاد شرحه

ففقد الدكتور (بكتل) صبره وقال: فهمت. فهمت، وماذا جرى لسمبرايدم، هل هو مستعد لمغادرة المستشفى؟

- نعم يا سيدي وهم يساعدونه الآن على ارتداء ملابسه. قال كبير الممرضين مكملاً تقريره مسروراً لأن السلام يستقر بين جدران المستشفى:

فلم يكن للأرواح عند الدكتور (بكتل) من قيمة، وكان فقدها أحد حوادث المهنة التي لا مفر منها؛ أما الحالات وخصوصاً الحالات الغريبة، فقد كانت كل شيء لديه. ولهذا عوضه شفاء
سمبر ايدم عن وفاة البحار
أطلق الناس على الدكتور (بكتل) اسم الجزار. أما زملاءه فكانوا يعتقدون أنه لم يقبض على مبضع الجراح رجل أجرأ ولا أكفأ منه. لم يكن رجلاً خيالياً ولا عاطفياً، بل كانت طبيعته علمية مضبوطة وصادقة. لم يكن الرجال في عرفه سوى ودائع لا شخصية لها ولا قيمة، إلا أن أمره كان يختلف في الحالات الغريبة، فكلما كان الرجل محطماً، وكلما قل الأمل في شفائه زادت أهميته في عيني الدكتور بكتل، فهو يتخلى عن شاعر الملك إذا كانت حادثته عادية ليعني بأمر متشرد تحدى جميع قوانين الحياة ورفض أن يموت
وهكذا كانت الحال في حالة سمبر ايدم. لم تجذب الدكتور بكتل غرابة أطوار سمبر ايدم ولا صمته، ولم يحاول إزاحة الستار عن مأساة غرابه كما حاول الصحافيون إثارة الناس دون جدوى في صحف الأحد. لم يثر شيء من هذا اهتمام الدكتور بكتل، وإنما أثار اهتمامه أن رقبة سمبر ايدم قطعت، وفي هذه النقطة وحدها تركزت كل لذته، فقد قطعت من الأذن إلى الأذن، وما كان جراح واحد من ألف ليرى بارقة أمل في شفائه، ولكنه بفضل عربات الإسعاف السريعة وبفضل الدكتور بكتل عاد مرة أخرى إلى الحياة التي حاول أن يتركها
وعندما عرضت الحالة على مساعدي الجراح بكتل هزوا رؤوسهم وقالوا محال، فقد أصيبت الحنجرة والقصبة الهوائية والعنق بأضرار بالغة فضلاً عن كمية الدماء الكبيرة التي نزفت. وبناء على هذه النتيجة جرب الجراح بكتل عدة وسائل، وأجرى عدة عمليات جعلت زملاءه برغم تضلعهم في الفن يقفون مشدوهين وأكثر من هذا أن الرجل شفى
وهكذا مر اليوم في المستشفى بسلام دون أن يسوده الاضطراب والذعر نتيجة لتقرير كبير الممرضين. فقد كان من الأمور السارة أن يغادره في ذلك اليوم سمبر ايدم صحيحاً معافى، بل إن جثة الطفل الذي صدمه الترام فعجنتها لم تؤثر على المرح السائد ولم ترسل موجه الأسف العادية
وأثارت قضية سمبر ايدم إعجاب كثيرين، وأثارت كثيراً من اللغط؛ فقد وجد في أحد منازل الإحسان مقطوع الرقبة والدم ينزف منها فتساقطت نقطة على الغرفة السفلي فدب الذعر في صفوف سكانها؛ وكان من الواضح أنه فعل فعلته وهو واقف ورأسه منحنٍ إلى الأمام
حتى يظل نظره موجهاً إلى صورة موضوعة على طاولة، ومسندة إلى شمعدان، فأتاح هذا الوضع للجراح بكتل أن يتم معجزته. فلو تغير الوضع وكان انحناء الرأس إلى الخلف، لتمددت الأوعية العنقية وتم الانتحار على خير ما يرام، ولفقد الجراح بكتل لذة تنفيذ أعجوبته
ومضى سمبر ايدم طول مدة عودته إلى الحياة في المستشفى دون أن ينبس بكلمة؛ حتى ضابط البوليس لم يظفر من شفتيه بأية معلومات أو تفاصيل. ولم يعثر على إنسان واحد عرفه أو تحدث إليه؛ فقد كان ظاهرة غريبة شاذة. دلت ملابسه على أنه من أحط طبقات العمال، ولكن يديه دلتا على يدي رجل مهذب. وفحصت ملابسه قطعة قطعة فلم يعثروا فيها على ورقة واحدة أو دليل واحد يدل على ماضيه أو مركزه الاجتماعي، فلم يكن لديهم إلا الصورة الفوتغرافية
أما المرأة التي كانت تنظر من خلال الصورة فكانت بديعة صافية الجمال تلتقي عيناها بعيني المحدق فيها. وعبثاً بحث المخبرون السريون عن اسم مصورها؛ فقد كانت من تصوير أحد الهواة. وفي أحد الزوايا ظهر خط نسائي دقيق كتب (سمبر ايدم، سمبر الأمين) باللاتينية؛ وكما يذكر كثيرون كان وجهها من الوجوه التي لا ينساها الإنسان أبداً. نشرت صورتها في عدة جرائد رئيسية؛ ولكن مثل هذا الإجراء لم يظهر دليلاً جديداً وإن أثار فضول الجمهور ووفر المجال أمام الصحفيين للفروض والتخمينات
واشتهر المنتحر المنقَذ باسم سمبر ايدم لزوار المستشفى وفي العالم أجمع؛ فهو لم يحاول تغيير هذا الاسم. وتعب الصحفيون ورجال البوليس والممرضون في استطلاع

أمره، ولكن شفتاه لم تنفرجا عن كلمة واحدة رغم بريق عينيه الذي كان يدل على أن أذنيه سمعتا وأن عقله أدرك ما وجه إليه من أسئلة. وأخيراً أهملوه وبقى له اسم سمبر ايدم

إلا أن الغموض الهائل والغرام العنيف لم يكن له معنى عند الجراح بكتل عندما استدعى مريضه إلى مكتبه، فهذا الرجل في عرفه هو الأعجوبة التي تمت على يديه فعمل فيه ما اعتبره فن الجراحة مستحيلاً، دون أن يهتم باسم الرجل أو ماضيه، بل كان من المحتمل ألا يطلب رؤيته مرة ثانية، ولكنه في هذه اللحظة كان كفنان يحدق في المخلوق الذي أوجده. فقد أراد أن يرى صنع يديه وعقله للمرة الأخيرة

واحتفظ سمبر ايدم بصمته؛ وكان يبدو عليه السرور لمبارحته المستشفى دون أن يفوز منه الجراح بكلمة، وإن كان في الواقع لم يهتم بصمته أو بكلامه، وكل ما عمل أن اختبر رقبة المريض بدقة، فتحسس أثر التحام الجرح البشع الطويل متمهلاً كأنه أب يحنو على ولده. ولم يكن المنظر مريحاً، إذ كان يمثل خطاً يلف حول الرقبة ويختفي تحت الأذنين كما لو كان صاحب هذه الرقبة خارجاً من تحت حبل المشنقة

وصبر سمبر ايدم على هذا الاختبار كأنه أسد سجين، فكل رغبته أن يختفي عن أعين الناس. وأخيراً قال الجراح بكتل وهو يضع يده على كتف الرجل ويختلس نظرة أخيرة إلى صنع يديه:

- حسن! لن أحجزك. ولكن دعني أقدم إليك نصيحة صغيرة: عندما تحاول قطع رقبتك مرة ثانية ارفع ذقنك ولا تلقها إلى الأمام ثم اذبح نفسك كبقرة

ولمعت عينا سمبر ايدم علامة على أنه سمع وفهم؛ وبعد لحظة كان باب المستشفى يغلق خلفه

كان ذلك اليوم أحد أيام الجراح بكتل المليئة بالعمل، فلم يتح له أن يشعل سيجاره الكبير إلا بعد أن أوشك العصر أن ينتهي. وكان آخر حادث عرض عليه حادث رجل يجمع الخرق كسرت إحدى عظام كتفه. تخلص منه بسرعة وجذب نفساً طويلاً من سيجاره وأوشك أن يغادر طاولته، وما كادت رائحة الدخان وأشكاله البيضاء تنتشر في جو الغرفة حتى سمع صوت جرس إحدى سيارات الإسعاف السريعة يطن في أذنيه منبعثاً من نافذة الغرفة المطلة على الشارع، وتبعها دخول نقالة تحمل إنساناً جديداً ووضع الجراح بكتل سيجاره في مكان أمين وقال: (ضعه على المشرحة. ماذا حدث؟)

فقال أحد حاملي النقالة: (حادث انتحار بقطع الرقبة في زقاق مورجان، وأعتقد أن الأمل ضعيف وأنه مات تقريباً)

(حسن سأراه على أية حال)

ومال الطبيب الجراح على الرجل في اللحظة التي اهتز فيها جسمه هزته الأخيرة وأسلم الروح. وما كاد كبير الممرضين يراه حتى قال: (إنه سمبر ايدم! عاد مرة ثانية)

فقال الجراح: (نعم ولكنه رحل. ولا فائدة هذه المرة فقد أتقن التنفيذ. نفذ نصيحتي حرفياً.

(خذه إلى معرض الموتى

ووضع سيجاره بين شفتيه ثم أعاد إشعاله وقال لكبير الممرضين من ثنايا الدخان المتصاعد: (هذا يعادل الرجل الذي فقدته أنت في الليلة الماضية، فنحن متساويان الآن

فوزي الشتوي

العدد 418 - بتاريخ: 07 - 07 - 1941

من طرائف الأزهر القديم

من البكاء إلى الضحك!

لا تزال طوائر المنون تحلق في سماء الإسكندرية فترسل الصواعق والشهب على أهلها الغافين في أكناف الأمان، فتدك المنازل، وتطحن الأجساد، وتخسف الطرق، وتقذف الرعب في قلوب الناجين فيخرجون من دورهم هائمين على وجوههم، في مدارج السهول ومسالك الحقول وأزقة القرى، حتى إذا ارفض عنهم الهلع واستقر بهم الفرار، نظروا في أنفسهم، فإذا هم على أرصفة المحطات، أو على حواشي الطرقات، أو تحت أفياء الجدُر، في ملابس النوم، أو في مباذل البيت، لا يملكون ما يمسك الرمق ولا ما يستر الجسم، ثم نظروا إلى من معهم، فإذا

زوجة تصحب غريباً وهي تظنه بعلها، وأم تحمل مخدة وهي تحسبها طفلها، وولد ينادي أمه فلا يجاب، ووالد ينشد أسرته فلا يجد. وحينئذ ينجلي الذهول، ويتضح الخطب، وتعيد الذاكرة إلى المشاعر تهاويل المنايا السود في هوادي الليل المقمر، فيذكرون انقضاض القنابل على المدينة، وانهيار المنازل على الناس، فيعاودهم الفرق فيذهلون، ثم يساورهم القلق فيرحلون، وهم لا يدرون أين ينزلون، ولا من أين يأكلون، والناعمون على سرر الذهب وحشايا الديباج ينظرون إليهم كما ينظرون إلى أسرى الطليان في طريقهم إلى المعتقل، أو يسمعون بهم كما يسمعون بجرحى الألمان في طريقهم إلى الموت!

أربعمائة ألف أو يزيدون أخرجهم القدر القاهر من ديارهم وأموالهم، ثم تركهم عاجزين في ذمة الوطنية والإنسانية. وإذا علمت أن الوطنية في عرفنا لفظ لا يذكر إلا في دعاية لحزب

يريد أن يحكم أو لنائب يريد أن يُنتخب، وأن الإنسانية في رأينا معنى لا يفهم إلا في عمل تحته شهرة أو وراءه لقب، أدركت السبب في وقوف بني قارون من المنكوبين موقف تماثيل المسرح من المأساة!

إذن لم يبق للمهاجرين إلا أكواخ الفقراء، وعتبات الأولياء، وهبات الحكومة. فأما مواساة الفقراء لهم فحق وأما معونة الحكومة إياهم فيقين، وأما ضيافة الأولياء فبقيت كضيافة الأغنياء موضع الشك!

كتب إلينا مهاجر أديب بطنطا يقول: (أيأسني الأمراء والأغنياء من رزق الله، فلجأت بعيالي إلى مقام سيدي أحمد البدوي في الغربية، فلم ألق منه ما لقي اللاجئون إلى مزارع جناكليس في البحيرة، فهل التوسل بالأولياء عبث، والالتجاء إليهم في الخطوب باطل؟. . .)

أنا يا سيدي المهاجر أعلم الدين، والحمد لله، علم الفقيه المجتهد، ولكني لا أزعم لنفسي درجة الإفتاء، على أن بين يدي الآن شيئاً يشبه الفتوى صدر عن أحد مفتي الديار المصرية في عهد مضى، أقدمه إليك لعل فيه بعض الغناء، في موضوع هذا الاستفتاء!

وقع في نفس المفتي أن شيخ الأزهر إذ ذاك سمى هو وحزبه بين الخديو وبينه حتى أفسدوا حاله عنده، فاستعدى عليهم سيدي أحمد البدوي بقصيدة رفعها إلى مقصورته الشريفة، بعد أن قدم لها هذه المقدمة الطريفة. ودونك المقدمة والقصيدة: (التجاء واستنجاد، برجل الفتوة طويل النجاد، وإمام الأولياء، وسراج الأصفياء، الغوث الأوحد، سيدي وولي نعمتي البدوي أحمد، دامت إمداداته، وعمت في الدارين بركاته

(آمين آمين لا أرضي بواحدةٍ ... حتى أضم إليها ألف آمينا

أيرضيك يا غَوث الورى وإمامهم ... غَبينة أهل الحق والحق ظاهر
تعدى لئيم القوم واشتد بغيه ... وجاء بكل الحقد وهو يجاهر
أتى بالمعاصي مُعْلناً وهو يدعي ... مكانة دين قيم، وهو فاجر
وساعده حزب على شكله سعوا ... بكل فساد أوضحته الكبائر
فَضّلوا جميعاً عن طريق رشادنا ... وأزهرنا منهم غَدا وهو صاغر
فجئنا حماكم نرفع الأمر سيدي ... ونطلب دينَ الله والله ناصِر
وأنتم إمام الأولياء ولا مِرَا ... وأنت غياث الملتجى وهو حائر
إذا كان يا مولاي أزهر ديننا ... تدور عليه في الضلال الدوائر
فأين يكون الدين يا سيد الورى ... وأين يكون العدل والعدل عاطر
فها قد بسطنا بعض شأن يزيده ... وثم أمور قد حوتها الضمائر
فمنها دخول في البقا وهداية ... لأقوم طرق الله وهي المفاخر
وصحة جسم للذين أحبهم ... كذلك لي في العز والعمر وافر
ونصر على الأعدا وجاه مؤبد ... وفوز مبين دائماً يتقاطر
وتيسير ما أرجوه من كل مطلب ... وسُكنى جنانِ الخلد حيث الأكابر
ورؤية خير الخلق جهراً بسرعة ... فها قد مضى عمري وقل التناصر
فقل يا طويل الباع هاقد أجبتكم ... لكل الذي ترجون والله جابر
وصلَّ على المختار ربي مسلماً ... كذا آله ما قام بالذكر ذاكر

كتبه عبد الإحسان الواقف بالباب،
الراجي سرعة الجواب:
. . . . . .
مفتي الديار المصرية
فأنت ترى أن فضيلة المفتي غفر الله له لم يقنع باستعداء السيد البدوي (سيد الورى) على خصومة، وإنما دفعه الطمع في فضله إلى أن يسأله الهداية، وطول العمر، وصحة الجسم له ولمن يحب، والنصر على الأعداء، والجاه المؤبد، وتيسير كل مطلب، ودخول الجنة، ورؤية النبي جهرة. . . فإذا كان سيدي أحمد البدوي قد استطاع أن يستجيب هذه الرّغاب، فليس أسهل عليه من أن يمن عليك برغيف وجلباب. ولكني أفهم من أسلوب استفتائك أنك ستقول: سبحانك ربي! هذا شرك عظيم. ولعلك تمعن في إنكارك فتزعم أن ما أصاب الإسلام من قبح القالة، وما حل بالمسلمين من سوء الحالة، إنما يرجع إلى ما ران على القلوب والعقول من أمثال الرسالة العليشية، والقصيدة الصدفية. ولكني أعيذك بالله أن تسرع في الحكم فتخطيء الصواب. والخير لي ولك أن تعلن سؤالك إلى العلماء وتنتظر
الجواب
أحمد حسن الزيات
أبو المظفر الأبيوردي
شاعر العرب
للدكتور عبد الوهاب عزام
- 1 -
ذكرت من قبل كاتباً من كتّاب اللغتين العربية والفارسية اسمه رشيد الدين الوطواط، وبينت أنه عربي قرشي من ذرية عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وجعلته مثلاً لاختلاط الأمم الإسلامية بعضها ببعض، كما جعلته مثلاً لامتزاج الأدبين العربي والفارسي في نفوس كثير من الفرس والعرب الذين استوطنوا بلاد فارس
وهذا موضوع واسع؛ فما زالت بلاد الفرس تعد من مواطن الأدب العربي منذ جمعت أخوة الإسلام العرب والفرس وإن اختلفت الأحوال على مر الزمان
ومن الشعراء الذين نبغوا بتلك الديار وهم ينتمون إلى بيوت الخلافة، الشاعران: المأموني والواثقي، وهما من ذرية المأمون بن الرشيد والواثق بالله بن المعتصم.
ومنهم أبو المظفر محمد بن أبي العباس الأبيوردي
فأما نسبته فإلى أبيورد، وهي بلدة بخراسان في شماليّها الشرقي، وتعد اليوم في التركستان الروسية. وهو من قرية من قرى أبيورد اسمها كوقن على ستة فراسخ منها، بناها عبد الله ابن طاهر في خلافة المأمون؛ وقد ذكرها في شعره فهو يقول عن الشام:
وتلك دار ورثناها معاويةٌ ... لكن كوقن ألقانا بها الزمن
وأما نسبه فينتهي إلى أبي سفيان بن حرب، بينهما ستة عشر أباً. وكان يتلقب المعاويّ انتساباً إلى معاوية الأصغر وهو الجد التاسع من أجداده. وقد تلقب في شعره بالأمويّ والمعاويّ، وأكثر من الافتخار بهذه النسبة في شعره كقوله:
خذي قصبات السبق عني فما لها ... من الحيّ غيرَ ابن المعاويّ حائز
وروى ابن خلكان أن الأبيوردي كتب رقعة إلى الخليفة المستظهر بالله وعلى رأسها (الخادم المعاوي) فكره الخليفة مكاتبته بذلك فكشط الميم من المعاوي فصار (الخادم العاوي)
- 2 -
والأبيوردي من شعراء القرن الخامس الهجري توفي سنة 507 ولكن ابن خلكان يقول: وكانت وفاة الأبيوردي المذكور بين الظهر والعصر يوم الخميس لعشرين من ربيع الأول سنة سبع وخمسين وخمسمائة بأصبهان مسموماً وصُلى عليه في الجامع العتيق بها رحمه الله تعالى
وهذا التاريخ الذي ذكره ابن خلكان والذي يظهر فيه التدقيق بذكر اليوم والساعة أدى إلى تضليل كثير من الناس في تاريخ الأبيودري. وقد وقع الغلط في كلمة خمسين. فوفاته كانت سنة سبع وخمسمائة لا سبع وخمسين وخمسمائة

وفي حوادث سنة 507 ذكر ابن الأثير وأبو الفداء وفاته. وكذلك أرخها بهذه السنة ياقوت الحموي في معجم البلدان
ثم له مدائح كثيرة في الخليفة المقتدي بالله المتوفى سنة 487 وما أحسبه مدح المقتدي إلا بعد أن أمضى شطراً من شبابه في خراسان ثم رحل إلى العراق. فبعيد جداً أن يعيش بعد المقتدي أكثر من سبعين سنة. وقد مدح أيضاً الوزير نظام الملك المتوفى سنة 486
- 3 -
لم يقتصر فضل الأبيوردي على إجادة الشعر؛ فقد كان واسع العلم بفنون كثيرة. روى ابن خلكان عن أبي زكريا بن قغده صاحب تاريخ أصبهان قوله في الأبيوردي:
(فخر الرؤساء، أفضل الدولة، حسن الاعتقاد، جميل الطريقة، يتصرف في فنون جمة من العلوم، عارف بأنساب العرب، فصيح الكلام، حاذق في تصنيف الكتب، وافر العقل، كامل الفضل، فريد دهره، وحيد عصره)
وروى ابن خلكان كذلك أن المقدس صاحب كتاب الأنساب ذكره في ترجمة المعاويّ وقال: (إنه كان أوحد زمانه في علوم عديدة؛ وقد أوردنا عنه في غير موضع من هذا الكتاب أشياء)
وقد نبه إلى هذا الغلط من قبل الصديق الأديب عباس إقبال في كلمة أرسلها إليّ حينما دعا الأستاذ علي الطنطاوي إلى الاحتفال بمرور ثمانمائة عام على وفاة الشاعر ونشرتها في الرسالة
وكان يكتب في نسبة المعاويّ. وأليق ما وصف به بيت أبي العلاء المعري:
وإني وإن كنت الأخير زمانه ... لآت بما لم تستطعه الأوائل
وقال ابن خلكان: (وكان من أخبر الناس بعلم الأنساب نقل عنه الحفّاظ الإثبات الثقات) ثم قال في آخر ترجمته:
(وله تصانيف كثيرة مفيدة منها تاريخ أبيورد، وكتاب المختلف والمؤتلف، وطبقات كل فن، وما اختلف وائتلف في أنساب العرب. وله في اللغة مصنفات كثيرة لم يسبق إلى مثلها. وكان حسن السيرة جميل الأثر له معاملة صحيحة)
هذا ما ذكره ابن خلكان وليس بين أيدينا اليوم مؤلف من هذه المؤلفات
- 4 -
ولسنا نعرف من أخبار الشاعر وأسرته إلا نبذاً متفرقة في الديوان. نجد في الديوان مِدَحاً في أبيه تدل على أنه من الكتاب وأنه ذو مكانة وجاه. ومدحة في عمه تدل على أنه من الخطباء. ولعله كان خطيب الجمعة في بعض البلاد، وهو منصب له مكانة في التاريخ الإسلامي. ونجده يمدح بعض الوزراء من أسرته ويمدح بعض بني عمه وهكذا. ونجد في الديوان قصائد في مدح بعض أخواله من سروات العجم. ويدل الديوان على رحلات الأبيوردي في أرجاء فارس وفي العراق والبلاد العربية. وكان الرجل طموحاً عيوفاً فلم يسكن إلى جانب من الأرض، وهو يقول في قصيدته التي هجا فيها فريبرز ملك شروان:
فقلت أين المحصلون ومن ... ينشر قوماً طوتهم الحقب؟
وقد أخلق الفضل بالعراق وفي ... فارس لما اضمحلت الرتب
والشام أقوى وطالما عهدت ... لفارس النظم حلبةً حلبُ
فكيف يشتد صلب قاصدها ... مادام للكفر حولها صُلب
وأي سوق تسوق فائدة ... قيامها يوم تعرض الخطب
وقد عرض عليه بعض الوزراء الكتابة فأبى وقال:
خليلي إن العمر ودعت شرخه ... وما في مشيبي تلاف لفارط
ألم تعلما أني أنست لعطلة ... مخافة أن أبلى بخدمة ساقط
فلا تدعواني للكتابة إنها ... طماعة راج في مخيلة قانط
ينافسني فيها رعاع تهادنوا ... على دَخن ما بين راض وساخط
وأنكرت الأقلام منهم أناملاً ... مهيأة أطرافها للمشارط
لئن قدمتهم عصبة خانها النهي ... فهل ساقط لم يحظ يوماً بلاقط؟
وأي فتى ما بين بُرْدى قابض ... عن الشر كفيه وللخير باسط
وينبئنا الديوان بما كان بينه وبين الخلفاء العباسيين من مودة، فله مدائح كثيرة في

الخليفتين المقتدي والمستظهر يشيد فيها بمجد العباسيين، ويبالغ في مدحهم، ويذكر قرابته إليهم، يقول في مدح المقتدي:

أسير وأسرى للمعالي وما بها ... لطالبها إلا لديك لحوق
وقد ولدتني عصبة ضم جدهم ... وجد بي ساقي الحجيج عروق

ونجده في قصيدة يطلب من المستظهر داراً تقيه برد الشتاء يقول:

فهذه شتوة ألقت كلاكلها ... حتى استبد بصفو العيشة الكدر
ومنزلي أبلت الأيام جدَّته ... فشفني المبليان الهم والسهر
وللفؤاد وجيب في جوانبه ... كما يهز الجناح الطائر الحذِر
تحكي عناق محب من يَهيم به ... إذا تعانقن في أرجائه الجدُر
ولن تقيم به نفس فتألفه ... إذ ليس للعين في أقطاره سفر
والسقف يبكي بأجفان المشوق إذا ... أرسي به هَزِمُ الأطباء منهمر
وما سرى البرق والظلماء عاكفة ... إلا وفي القلب من نيرانه شرر
وابن المعاويّ يهوى أن يكون له ... مغنى ببغداد لا تخشى به الغِيِر
مثوى يدافع عن كتبي - وأكثرها ... فيه مديحك - أن يغتالها المطَر

كذلك نعرف من الديوان أنه فارق العراق كارهاً، وأن جماعة هنالك منهم وزير للخليفة قد أساءوا إليه. فلما أرسل إليه الخليفة يعاتبه على مفارقة بغداد أجاب بقصيدة فيها هذه الأبيات:

بغداد أيتها المطى فواصلي ... عَنَقاً تئن له القلاص الضمّر
إني وحق المستجَن بطَيبة ... كلف بها، وإلى ذَراها أصوَر
وكأنني مما تسوّله المنى، ... والدار نازحة، إليها أنظر

إلى أن يقول:

فصددت عنها إذنبابي معشري ... وبغى علي من الأراذل معشر
من كل ملتحف بما يصم الفتى ... يؤذي فيظلم أو يخون ويغدر
فنفضت منه يدي مخافة كيده ... إن الكريم على الأذى لا يصبر

ثم يكتب من أصبهان إلى بعض أصدقائه بمدينة السلام يعرب عن حنينه إليها:

تحن إلى ماء الصراة ركائبي ... وصحبي بشطي زنَّروذ حلول
أشواقا وأجوازُ المهامه بيننا ... يطيح وجيف دونها وذميل
ألا ليت شعري هل أراني بغبطة ... أبيت على أرجائها وأقيل
هواء كأيام الهوى لا يغبَّه ... نسيم كلحظ الغانيات عليل

إلى أن يقول:

فقل لأخلائي ببغداد هل بكم ... سُلوّ فعندي رنة وعويل
يرنحني ذكراكم فكأنما ... تميل بي الصهباء حيث أميل
لئن قصُرت أيام أنسى بقربكم ... فلَيلى على نأي المزار طويل

ويبين في شعر الأبيوردي اعتداده بنفسه واعتزازه بنسبه، وإباؤه وكبرياؤه وعفته، مع طموحه وبعد آماله. وقد قال عنه ابن منده الذي ذكرناه آنفاً: (وكان فيه تيه وكبر وعزة نفس. وكان إذا صلى يقول: اللهم ملكني مشارق الأرض ومغاربها) أقول وهي دعوة عجيبة لا أحسب صاحبها يقنع بملك بني أمية الذي امتد من السند إلى المحيط وجبال البرانس

وفخر الأبيوردي بعربيته وأمويته يلقاه قارئ الديوان تصريحاً وكناية في مواضع كثيرة يقول:

أنا ابن الأكرمين أباً وأماً ... وهم خير الورى عماً وخالاً

إلى أن يقول:

وهم فتحوا البلاد بباترات ... كأن على أغرتَّها نمالا
ولولاهم لما درت بفَيء ... ولا أرعى بها العرب الفصالا
وقد علم القبائل أن قومي ... أعزهم وأكرمهم فعالا
وأصرحهم إذا انتسبوا أصولاً ... وأعظمهم إذا وهبوا سجالا
مضوا وأزال ملكهم الليالي ... وأيَّةُ دولة أمِنت زوالا؟

وقال أيضا:

وقالت سليمى إذ رأتني لتربها ... وراقهما وجه أغر مهيب:
أظن الفتى من عبد شمس فإن يكن ... أبوه أبا سفيان فهو نجيب
أرى وجهه طلقاً يضيء جبينه ... وأحسب أن الصدر منه رحيب
سليه يكلّمنا فإن اختياله ... على ما به من خَلةٍّ لعجيب
فقلت: غلام من أمية شاحب ... بأرضكما نائي المزار غريب
وقال في شعر الصبى:
قالت لصحبي سراً إذرأت فرسي ... من الذي يتعدي مهره خببا؟
فقال أعلَمهم بي: إن والده ... من كان يجهد أخلاف العلى حلبا
وذا غلام بعيد صيته وله ... فصاحة وفَعال زيَّن الحسبا
وظل ينشدها شعري ويطربها ... حتى رأته بذيل الليل منتقبا
فودعته وقالت يا أخا مضر ... هذا لعمري غلام يعجب العربا
(البقية في العدد القادم)
عبد الوهاب عزام
الحديث ذو شجون
للدكتور زكي مبارك
أثواب الخطباء - لفتة أندلسية - تأثير البيئة - الوزراء الأدباء - الدكتور طه حسين - النزعة الكلبية - صديقي فلان - كيف نحب الريف - برج بابل - بريد العراق - العقد الفريد - هل تصلح هذه الأيام لأغاريد الوجد والحنين؟
أثواب الخطباء
صح عندي بعد الاستئناس بمصادر كثيرة أن مسوح الرهبان كان لها تأثير في الوضع الذي صارت إليه أثواب الصوفية، لأن الترهب والتصوف قريبان جداً من الناحية الروحية، بغض النظر عن اختلاف الدين
ثم بقي النظر في اللون المختار لأثواب الرهبان وهو السواد، فهل تأثر به أحد من المسلمين؟ وهل كان السواد من علائم الرزانة في أوقات الاهتمام بعظائم الشؤون؟ وجدت شاهداً صريحاً في إيثار الخطباء للثياب السود، وهو ما أنشد المقدسي على لسان غراب البين، أبعده الله:
أنوح على ذهاب العمر مني ... وحقٌ أن أنوح وأن أنادي
وأندب كلما عاينت راكباً ... حدا بهمُ لوشْك البين حادي
يعنفني الجهول إذا رآني ... وقد ألبست أثواب الحداد
فقلت له اتعظ بلسان حالي ... فإني قد نصحتك باجتهاد
وهاأنا كالخطيب وليس بدعاً ... على الخطباء أثواب السواد
ومعنى هذا أن الغراب لبس السواد لأنه وقف وقفة الخطيب، فهل يكون هذا التقليد رجعة إلى الأثواب الرهبانية، وكانت تحاك من الشعر الأسود؟
وعمن أخذ الرهبان لون السواد؟
أخذوه من رهبة الليل، فسواد الظلام يشيع في النفس معاني الانقباض والاستيحاش. ومن
أجل ذلك كان السواد شعار المحزونين
لفتة أندلسية
وبهذه المناسبة أذكر بيتين يشهدان بأن أهل الأندلس كانوا في الحداد يلبسون البياض لا السواد، فقد قال أحد الشعراء:
يقولون البياضُ لباسُ حزنٍ ... بأندلسٍ وذاك من الصواب
ألم ترني لبست بياض شيبي ... لأني قد حزنت على شبابي
تأثير البيئة
وأذكر بهذه المناسبة أيضاً أن الذين زاروا الأندلس من أهل المشرق كان فيهم من دهش حين رأى بعض القضاة يجلسون للحكم بين الناس ورءوسهم عارية، ولم يفهم أن هذا من تأثير البيئة، فأهل أوربا ينزعون أغطية الرءوس في المواقف الجدية، وبهم تأثر العرب في الأندلس، فكان من قضاتهم من ينزع عمامته عند الجلوس للحكم بين الناس

ولكن عمن أخذ الشيخ (فلان) خلع العمامة والاكتفاء بالطاقية في إحدى المحاكم الشرعية؟
أبق عمامتك على رأسك، يا شيخ فلان، فقد حدثني من أثق بروايته أن المحتكمات إليك من الملاح لا يرين ما تراه من ذلك التظرف (المقبول) وفيهن من ترى أن الطاقية لا تصلح غطاء لرءوس رجال الشرع الشريف!
وغفل المقَّري صاحب نفح الطيب عن تأثير البيئة حين نص على أن أهل الأندلس تفردوا بشرب الخمر على قارعة الطريق، وأقول إن هذا من تأثير البيئة الأوربية، وليس شاهداً على استخفاف أهل الأندلس بواجب التستر عند اقتراف المحرَّمات الوزراء الأدباء
يظهر أني رجلٌ متعب، كما يقول الدكتور طه حسين، فلي في كل يوم مشكلات مع أصحاب الرأي والبيان، ولن يكون للمتاعب التي أسوقها إليهم وإلى نفسي حدود وكلمة اليوم أوحاها تعيين معالي الأستاذ دسوقي أباظة وزيراً للشئون الاجتماعية، وهو أديب كبير كانت له صولات في جرائد الحزب الوطني، فما الذي ينتظر الأدب من معاليه وقد صار قوة تنفيذية تقدم وتؤخر في شؤون الدولة والمجتمع؟ تولّى المناصب الوزارية في
الأعوام الأخيرة رجال من كبار الأدباء، من أمثال مصطفى عبد الرزاق ومحمد حسين هيكل ومحمد علي علوبة وأحمد نجيب الهلالي وإبراهيم عبد الهادي وعبد القوي أحمد ومحمود فهمي النقراشي، فماذا استفاد الأدب من هؤلاء الوزراء الأدباء؟
سيجيبون بأنهم لم يقدموا إساءة لأي أديب
وأجيب بأن سكوتهم عن تشجيع الأدب ليس إلا صورة من صور الإيذاء
هل تصدّقون أن بعض هؤلاء الوزراء لم يكن يلقى أحداً من الأدباء إلا وعلى جبينه عبارة تقول: ابعدوا عني!!
وهل تصدقون أن معالي لأديب العظيم هيكل باشا لم يتلقّ كتاب التصوف الإسلامي يوم أهديته إليه إلا بعبارة: كل كتاب وأنت طيب!
كل كتاب وأنا طيب، يا معالي الوزير المؤلف؟
ومتى يتسع العُمر ويسمح الزمان بأن أؤلف كتاباً مثل كتاب التصوف الإسلامي؟
وإذا لم يظفر المؤلفون بتشجيع الوزراء الذين يعرفون متاعب التأليف، ففي أيّ عهد تنتظر كلمة اللطف وقد أقذينا عيوننا تحت أضواء المصابيح؟
لقد بُحَّ صوتي في الدعوة إلى اعتراف الدولة بالقيم الأدبية فلم يسمع سامع ولم يستجب مجيب، وظل الأدباء مشرَّدين لا يعرفهم غير الحظ الضائع في بلاد لم يرها شاعرنا حافظ (دار الأديب) مع أنها فيما نحب أن يقال أول مهد للعلوم والآداب والفنون.
إن هؤلاء الوزراء نفعهم الأدب أجزل النفع، فمتى ينتفع بهم الأدب؟ ومتى يظهر أنهم لم ينسوا التفكير في أن يدنوه كما دانهم؟ ومتى نسمع أن الحياة الأدبية تنتعش وتزدهر بفضل الوزراء الأدباء كما كانت الحال في عهود أسلافنا الاماجد بالمشرق والمغرب؟
الدكتور طه حسين
في أخبار الجرائد أن الدكتور طه حسين بك لم يذهب إلى مكتبة بوزارة المعارف منذ أيام. ويظهر من الخطاب الذي نشره في جريدة البلاغ أن ناساً كانوا يحبون أن يواجه الأمور بمداورة وتلبيس!
وأقول إن كفاية الدكتور طه لا تحتاج إلى برهان، ولكنه سيندم طويلاً (وطويلاً جداً) على الفرصة التي أضاعها على نفسه قبل أن تستفحل أزمة الورق، فقد نبهته مرات كثيرة إلى
أن مراقبة الثقافة العامة لن يكون لها وجود ملحوظ إلا إذا أُسندت بطائفة من المطبوعات الجياد، وأشرت عليه بأن يسارع فيقتني لمراقبة الثقافة ذخيرة من ورق الطبع قبل أن يرتفع ثمنه وقبل أن ينفد من الأسواق
وهو اليوم يترك مراقبة الثقافة العامة بلا أثر ظاهر يذكره الناس، فإن رجع إليها فليغير من مسلكه في تناول الأشياء، فقد كان يفهم أن الاقتراحات والفروض هي كل شيء في الدلالة على مواهب الرجال

والأمل كبير في أن يرجع الدكتور طه لعمله بوزارة المعارف وأن يتدارك ما فاته من تحقيق المشروعات الجدية في الترجمة والتأليف، فظهور كتاب أو كتابين أنفع من ألف اقتراح واقتراح؟

النزعة الكلبية

يلقاك بعض المعارف في الطريق فيسألك عن وجهتك، ولا يستريح إلا حين يعرف أين تريد وماذا تريد، كأنه من الأوصياء عليك!

ويدخل أحد الأصدقاء بيتك فيبالغ في التعرف إلى ما فيه من حجرات وغرفات، ولا يهدأ إلا بعد أن يعرف من دخائل بيتك كل شيء، كأنه مسئول أمام بعض الجهات عن تقديم تقرير مفصَّل عن حياتك المنزلية!!

ويرى بعض الناس أن من حقه أن يعرف مرتبك بالقرش والمليم، وأن يعرف كيف تنفق ذلك المرتب، وماذا تدّخر من بواقيه الطفيفة، ولأي غرض تدّخر ما ادخرت!!

ومن الأصدقاء من يسأل عن أثاث بيتك ليعرف الأثمان، ثم يناقشك في الجزئيات كأنه ابن نجّار أو حدّاد أو سمسار، والعياذ بالأدب والذوق!

ومنهم من يسألك عن أملاكك في الريف ليعرف ما تملك من قراريط أو فدادين، وكأنه ستجلب (خاطبة) خاطباً لأختك أو ابنتك!

وفي هؤلاء من يسألك عن الربح الذي تجنيه من مقالاتك ومؤلفاتك. وفيهم من يسألك عن أثمان أثوابك ونعالك، كأنه ابن بزاز أو حذَّاء!!

فكيف تقع هذه المزعجات من بعض الناس وأكثرهم على شيء من الذكاء؟

الجواب سهل، وهو أن في بعض الناس نزعة كلبية، والكلب حين يدخل بيتاً لا يترك فيه بقعة بدون أن يشمها بشرهٍ فظيع ممقوت!

فيا بني آدم، إياكم ثم إياكم من التخلق بأخلاق الكلاب!

صديقي فلان

أما صديقي فلان فهو غاية في الأدب والذوق: يدخل بيتك فيجلس حيث تحب أن يجلس، ولا يمتد بصره إلى اختبار ما في البيت من أثاث ورياش، ولا يسأل أبداً عن ربة البيت إلا أن يتلطف زوجها فيدعوها للتسليم عليه، مع أنها قد تكون من بنات الأعمام أو الأخوال؛ وإذا قُدِّم إليه طعام أقبل عليه بشهية، كأنه أطيب ما رأى من ألوان الطعام، ولو كان ممعوداً لا يأكل إلا بمقدار وفي وقت محدود، وإذا حضر الأطفال لتحيته تلقّاهم بما تحبّون، ولا يسألهم عن دروسهم إلا بأسلوب يمكّنهم دائماً من الجواب، ليأنسوا به وليُدخل على قلوبهم قبساً من نور التشجيع. وإذا عُرِض عليه خلاف سوَّاه بلطف ورفق، لتكون زيارته مرحلة من مراحل التاريخ السعيد. وإذا دخلت عليه صبية دعا لها بالخير وتحدّث عن صاحبتها بأدب ولطف. وإذا رأى أن الذرية أكثرها بنات كان من واجبه أن يصرّح بأن لله حكمة في ذلك، فمن الخير للإنسانية أن تكثر البنات في المغرس الشريف. وإذا رأى عجوزاً واساه وأعلن أن الرجل لا يصل إلى الشيخوخة إلا وهو بذرة قوية لا تهددها عواصف المشيب. وإذا رأى مريضاً بشّره بقرب العافية، وأعلن أن مرضه من العوارض الوقتية، وأنه يعرف مئات كانوا في مثل حاله ثم صاروا في مثل عافية الفرس الجموح. وإذا اعتذر أهل البيت عن مظاهر البساطة في تكوين الأثاث كان عليه أن يقول إن هذا من أدب المعاش، وإن الإفراط في الزخرف ليس من أدب العقلاء. وإذا رأى البيت على جانب من الزينة والبهجة والنضرة كان عليه أن يعلن إعجابه بما ترى عيناه، وأن يصرح بأن أهل البيت لم يريدوا إلا إعلان الحمد والثناء على المنعم الوهاب

فما رأيكم في أخلاق هذا الصديق؟؟

لقد عرفت أنه ما دخل بيتاً ورأى فيه شيئاً غير جميل، ولا صحب صديقاً وسأل عن أخباره المطوية، ولا سمع في صديق كلمة سوء، ولا استباح التعقب لمسالك المعارف والأصحاب، ولا كان من همه أن يتخذ الأصدقاء دريئة يدفع بها عاديات الكوارث والخطوب

صديقي هذا يرى للصداقة قدسية منزهة عن شوائب المنافع، وإن كان لا يضيع فرصة يملك فيها القدرة على نفع الصديق!!

ما رأيكم في أخلاق هذا الصديق؟؟

أنا أرى هذه الشمائل غاية في الكمال والجمال، وأرى التحلي بها واجباً على من يهمه

الظفر بثقة المجتمع. ولو شئت لقلت إن الإكثار من الصلاة والصيام لا يغني عن التحلي بهذه الصفات، لأنها أصدق في الدلالة على صفاء القلب وطهارة الروح، ولأن التحلي بها لا يكون إلا بعد رياضات عنيفة تُقهر فيها نزعات النفوس والأهواء

كيف نحب الريف

تفضل الدكتور عبد الرحمن عمر فدعاني لتناول الغداء في داره بالريف، فعرفت كيف يطيب له أن يهجر مصر الجديدة أياماً وأسابيع، وعرفت كيف استطاع الأستاذ الجليل عبد العزيز فهمي باشا أن يجعل مقامه المختار في الريف

الدار الجميلة هي التي تجعل القرية أحب إلينا من المدينة، فجمّلوا بيوتكم في الريف لتشتاقوا إليه، ولتذيعوا بين أهليكم ذوق الأناقة في بناء البيوت، فأكبر عيوب مصر هو حرمان ريفها الجميل من التأنق في بناء البيوت

وبعض الناس يتوهمون أنه لا يجوز للرجل أن يقيم داراً جميلة في الريف إلا إذا كان له أملاك واسعة في الريف، وأقول إن الدار الجميلة هي في ذاتها ملك نفيس، فلا تنسوا هذا المعنى، ولا يفتكم أن تكونوا من أصحاب المنازل في الريف وإن لم تكن لكم فيع أملاك

برج بابل

كان في مقال (برج بابل) الذي نشرته (الرسالة) منذ أسابيع إشارات إلى ما قد يحلّ بالإسكندرية، فهتف الأستاذ عبد اللطيف النشار يقول:

كذَبتْ (بابل) فيما زعمتْ ... لن يصيبَ (الثغر) شُّر أبداً

ثم عاد فأبدى أسفه لتحقق النبوءة البابلية

وأقول: ليت تلك النبوءة كانت من كواذب الأوهام والظنون، فما رأينا من تحققها غير الكرب والويل!

ثم يخاطبني النشار فيقول:

عهدتُك لا يخيفك ما يُخيفُ ... فهل يحظَى برؤيتك المصيفُ

وأقول: إني لا أملك الصدوف عن هوى الإسكندرية، وسألقاكم بها في هذا الصيف، ولو بَغَى العدو واستطال، فأنا لم أشبع من الإسكندرية أيام الأمن، وهي أقل طيباً من أيام الخوف

ثم يقول النشار: علمت أنك نقلت كتبك إلى سنتريس، فأنت الجدير إذن برثاء مكتبة الإسكندرية الثالثة، فهل تجيز:

لا تذكر اليوم (يوليوساً) ولا (عُمَرا) ... عِلمُ القرون الخوالي مر واندثرا

وانظر لمكتبة الثغر التي صُعقت ... فلا كتاباً ترى فيها ولا حجرا

وأقول: إني لم أكن أعرف أن مكتبة الإسكندرية أصابتها الغارات الأخيرة، فإن كان ذلك فمن حقي أن أسجل أن أعداء الإسكندرية يعرفون في كل عصر أن ثروتها الصحيحة في تراث الأفكار والعقول، فهم يجعلون (المكتبة) أعظم الأهداف. وما شأن (عمر) في هذه القضية، وقد قامت البراهين على أن اتهامه بإحراق مكتبة الإسكندرية لم يكن إلا إشاعة روجها أعداء العرب والمسلمين؟

بريد العراق

تلقيت اليوم رسالة من العراق، ونظرت في التاريخ فرأيتها قطعت الطريق في شهرين وثلاثة أيام، فمتى يرجع العهد الذي كان يسمح بأن يصل بريد العراق في أقل من يومين؟

كان بريد العراق كله جوياً وبخمسة عشر مليما، فمتى يعود ذلك العهد؟ متى يعود؟ وكان محصول المجلات المصرية حديث الناس في جميع الأندية العراقية، فأين حديثهم اليوم وقد جدت خطوب تبلبل الأرواح والقلوب؟

ليتني أعرف ما صار إليه أصدقائي في تلك البلاد. فما أظلمَ ليلٌ ولا أشرق صباح إلا وأنا بأخبارهم مشغول. وهل كانت لوعة الشريف الرضي أقسى من لوعتي حيث قال:

ومن حَذَرٍ لا أسأل الركب عنكمُ ... وأعلاقُ وجدي باقياتٌ كما هيا

ومن يسألَ الركبان عن كل غائبٍ ... فلا بدّ أن يَلقَى بشيراً وناعيا

فهل يتفضل أصدقائي هناك فيعفوني من كرب هذا السؤال؟

أجيبوا، يا أصدقائي، أجيبوا، فلي عليكم لهفة لا يطفئها غير اليقين بأنكم في سلام وأمان

العقد الفريد
ظهرت الطبعة الجديدة من (العقد الفريد) بتحقيق الأستاذ محمد سعيد العريان، وفي الرونق لطيف تُهنَّأ عليه (المكتبة التجارية) التي لم يَعُقها غلاء الورق عن الإنفاق على طبعه بسخاء
ومن القليل جداً أن ننوّه بمجهود الأستاذ العريان في تحقيق هذا الكتاب، فله مجهودات كثيرة لم تأخذ حقها من الثناء، فنوجّه إلى هذه الطبعة نظر (الأستاذ الليل) والأستاذ (ا. ع) فعندهما من الوقت ما يسمح بالنظر في نصوص هذا الكتاب بأسلوبهما الجيد في التحقيق
كنت نسيت
في الحِوار الذي دار بين الأستاذ محمود البشبيشي وابنه النجيب حسين إشارة إلى أني كنت أكتب في الوجدانيات، فمتى كان ذلك؟ ذكّروني فقد نسيت!
أنا أكتب في الوجدانيات؟ أنا؟
لعل ذلك كان قبل أن تصير الدنيا إلى ما صارت إليه من الرعب والخوف والانزعاج إن البشبيشي وابنه يقيمان في بلدٍ أمين هو المنصورة العصماء، وأنا أقيم في بلدٍ مهدَّد بالغارات الجوية، إلا أن يلطُف الله بما فيه من كنوز السحر والفتون
والحق أني لم انس واجبي في التشوف إلى مطالع الأقمار ومشاوق الشموس، ولكن أين من يسمع في هذه الأيام أغاريد الوجد والحنين؟!
زكي مبارك
أنّة وزفير
للسيدة الفاضلة (ليلى)
(إلى أرواح الشهداء والضحايا، وإلى المنكوبين، وإلى أولي الرحمة من أغنيائنا الموسرين، كلمة من قلب حزين، بل إني أخاطب الشعب كله، لنساهم في الأجر العظيم. لنمسح على رؤوس اليتامى، ولنضمد جروح الثكالى والأيامي، ولنساعد المهاجرين المشردين، والله من ورائنا رزاق معين)
(ليلى)
إن كارثة الإسكندرية من الحوادث الدامية التي تمس شغاف القلب وتغلغل آلامها في النفس. هي فاجعة الجميع وحسرة الوطن وصرخة الإنسانية. هي العذاب المر والظلم المبين والصاعقة بغير موعد ولا إنذار. هي الخوف والفزع، والرعب والهلع. هي النار تندلع والهوة تبتلع. هي النحيب والعويل، ودماء الأبرياء تسيل. هي الهول والوحشية. هي أنات وجراح، وبكاء ونواح. هي ثكل ويتم وفقر وعُدم. هي ذل وتشتيت وضياع وتبديد. هي قسوة ما فوقها قسوة، ونكبة ما بعدها نكبة. ولئن بكينا فما جدوى البكاء؟ ولئن أشفقنا فما ثمرة الإشفاق؟ من ذا الذي لم يشفق ولم يتألم؟ كلنا واله متحسر؛ ولكن ليست المساهمة في الرثاء والبكاء، وإنما هي مساعدة فعلية لهؤلاء الضحايا الأبرياء. أشعروهم بالرحمة، وليعاونهم كل امرئ بما يستطيع. كم من بيوت كبيرة تسع العشرات! وكم نساء شريدات حائرات! أطفال في نعيم، وأطفال في جحيم. بطون مكتظة بألوان الطعام، وأخرى خاوية من الجوع لا تنام. ذل فوق ذل وحسرات تتبعها حسرات. . . آه لليتيم: فقد الأب الحاني الرحيم. وا حسرتاه للأرملة تنوح من قلب حزين: فقدت الموئل والعائل، واستقبلت الشقاء والهوان، في كنفها أطفال يطالبونها بالقوت والحنان، ستواجه حاجة العيش الملحة. ستريق ماء الوجه وتستنفد كل إحساسها في سبيلهم. وا رحمة للعجوز الثكلى، ادخرت ولدها للأيام وكان كل أملها وسند شيخوختها، فذهب من يدها وغدا حلماً من الأحلامً! ولو كان هماً واحداً لاحتُمل، ولكن الكارثة عامة، والفاجعة طامة: أنه ولد وأولاد وآباء وأمهات، بيوت وأموال طغى عليها الدمار، فهرع أهلها فزِعين لاجئين يطلبون رحمة المحسنين المتصدقين
أيها السادة الأغنياء، رحمة بالتعساء الأشقياء! إنهم إخوانكم في الدين والوطن. حمّ القضاء، فما استطاعوا له رداً. فوجئوا بالدويّ والزئير، فإذا هم أشلاء تطير. صرخوا يسترحمون القضاء، فنفذ فيمن نفذ فيهم القضاء، وهوت الدور بساكنيها وهم في غمرة الذعر والذهول، وتطايرت الشظايا تهرأ اللحم وتنزف الدم، والآلام القاسية تتجاوب

أصداؤها من حنايا الأجسام. ومن قدر له النجاة انطوى على نفسه لوعة وحسرة: فقد فقدَ العزيز والنفيس والتالد والطريف، هي في الحق كارثة يعجز القلم عن وصفها فهل تقر أعيننا وتهدأ مضاجعنا؟ وهل نشعر بالطمأنينة والسعادة، وتتوفر لنا الغبطة والهناءة، وصراخ المنكوبين واصلٌ آذاننا، وبكاء الحيارى المشردين ماثل أمامنا؟! كيف نرقد على وثير الفراش ومِن إخواننا من يفترش الأرض؟ كيف ننعم بأطايب الأكل والشراب، وغيرنا يشقى بالجوع والخراب!

أيتها القلوب تفجري بالرحمة، أيتها الأيادي الكريمة فيضي بالإحسان!

لقد تمنوا الموت على حياة رخيصة عليهم بعد الأحباء، لقد تمنوه خشية البؤس والإملاق. مَن أحق بالرحمة من مجروح الجسم والفؤاد لا يجد آسيا لجسمه ولا مواسيا لقلبه؟ ما احرنا وقد وقانا الله شر ما ناله بألا نتوانى في مساعدته ولا نجحم عن إعانته! أنه القرض الحسن يضاعفه لنا الله ويدرأ عنا به الشرور.

إن البر هو الطائر الميمون إلى الجنة، به تغفر الذنوب وتمحى السيئات. رب لماذا قدرت على هذا البلد الآمن أن يحل به هذا الشقاء؟ إن شعبه قانع يملك هذه القطعة الصغيرة من أرضك. إنه بلد مضياف تنزله كافة الشعوب على الرحب والسعة يقاسمون أهله أرزاقه، ويستحلون نطاقه، بل يقاسمونه قسمة ضيزى: لهم الغنم وعليه الغرم

رباه! إلى متى يحلم الخالق ويطغى المخلوق؟

ألست أنت سبحانك جبار الأرض والسماء؟ أتترك من يعبث في الأرض فساداً، ويقول تكبراً وعناداً: أنا القهار الأعلى. رب رحمة بالبلاد والعباد، فأنت مالك الملك، تؤتي الملك من تشاء. لتكن رحمتك أو يحل الميعاد، فقد ذهب السلام من الأرض وتناحرت وحوش

الإنسانية وتكالبت على المال والعتاد. وهذا جبار طاغية وآخرون طغاة يريدون أن يرثوا الأرض ومن عليها، وللأرض وارث واحد بالمرصاد. اللهم ارحم الفقير والأجير واليتيم والأسير، وادفع عنا شر هذه الحرب الضروس. اللهم اهد الخلق لما فيه الخير والسلام. اللهم خفف عن الحزانى حزنهم، وعن المهاجرين بؤسهم، وعوضهم خيراً عن يتمهم وثكلهم وبيوتهم ومالهم، إنك أنت الرحمن الرحيم، كتبت على نفسك الرحمة، ووعدت بالخير عبادك المتصدقين، والله ولي الجميع

(ليلى)

في الاجتماع اللغوي

اللهجات العامية الحديثة

طوائفها ومبلغ بعد كل منها عن الفصحى

للدكتور علي عبد الواحد وافي

أستاذ الاجتماع بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

- 5 -

لم يصل إلينا عن هذه اللهجات قبل القرن التاسع عشر إلا معلومات ضئيلة، بعضها مستقى من إشارات جاءت في ثنايا كتب القواعد والأدب، وبعضها من أغانيّ شعبية وردت في مقدمة ابن خلدون وتاريخه، وبعضها من كتب ألفت بلغة بين العامية والعربية الفصحى، ككتاب (ألف ليلة وليلة)

ولم يعن العلماء بدراسة هذه اللهجات دراسة جدية إلا منذ القرن التاسع عشر. وقد قسموها إلى خمس مجموعات تشتمل كل مجموعة منها على لهجات متقاربة في أصواتها ومفرداتها وأساليبها وقواعدها، ومتفقة في المؤثرات التي خضعت لها في تطورها: إحداها مجموعة اللهجات الحجازية - النجدية (وتشمل لهجات الحجاز ونجد واليمن)؛ وثانيتها مجموعة اللهجات السورية (وتشمل جميع اللهجات العربية المستخدمة في سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن)؛ وثالثتها مجموعة اللهجات العراقية (وتشمل جميع اللهجات العربية المستخدمة في بلاد العراق)؛ ورابعتها مجموعة اللهجات المصرية؛ وخامسها مجموعة اللهجات المغربية (وتشمل جميع اللهجات العربية المستخدمة في شمال أفريقيا)

وتشتمل كل مجموعة من هذه المجوعات على طائفة كبيرة من اللهجات؛ وتنقسم كل لهجة إلى عدة فروع؛ وينشعب كل فرع إلى شعب كثيرة تختلف باختلاف البلاد التي

تستخدمه. وإليك مثلاً مجموعة اللهجات المصرية: فهي تنقسم إلى مئات من اللهجات، وكل لهجة من هذه اللهجات تنقسم إلى عدة فروع وشعب، تختلف باختلاف البلاد الناطقة بها؛ حتى أنك لتجد بين القريتين المتجاورتين المنتميتين إلى لهجة واحدة خلافًا واضحاً في كثير من مظاهر الصوت والمفردات والتراكيب والأساليب

ومع كثرة وجوه الخلاف بين هذه المجموعات الخمس، فإن المتكلمين بإحداها يستطيعون، مع شيء من الانتباه، أن يفهموا كثيراً من حديث أهل المجموعات الأخرى، لاتفاقها في معظم أصول المفردات وفي القواعد الأساسية ومنحي الأساليب.

وأدنى هذه المجموعات إلى العربية الفصحى مجموعتا اللهجات الحجازية والمصرية. أما اللهجات فلنشأتها في المواطن الأصلية للعربية الفصحى، ولأن معظم أهل الحجاز ونجد ينتمون إلى عناصر عربية خالصة. وأما اللهجات المصرية فلأن صراع العربية مع اللسان القطبي الذي كان يتكلم به أهل مصر قبل الفتح العربي لم يكن عنيفاً ولم تلق في أثنائه اللغة العربية مقاومة ذات بال؛ ومن المقرر أن اللغة التي يتم لها الغلب بدون كبير مقاومة تخرج من صراعها أقرب ما يكون إلى حالتها التي كانت عليها من قبل. هذا إلى أن معظم أهل مصر منحدر من عشائر عربية الأصل.

وأبعد هذه المجموعات عن العربية الفصحى المجموعتان العراقية المغربية. أما العراقية فلشدة تأثرها بالآرامية والفارسية والتركية والكردية، حتى إن قسما كبيراً من مفرداتها وبعض قواعدها غير عربي الأصل؛ ولذلك يجد المصري مثلاً صعوبة كبيرة في فهم حديث العراقي. وأما المغربية فهي أبعد اللهجات العامية جميعاً عن العربية الفصحى. ويرجع السبب في ذلك إلى شدة تأثرها باللهجات البربرية التي كان يتكلم بها معظم السكان قبل الفتح العربي. فقد انحرفت من جرَّاء ذلك انحرافاً كبيراً عن أصولها الأولى في الأصوات والمفردات وأساليب النطق وفي قواعد نفسها

ولهجات البدو في جميع هذه البلاد أفصح كثيراً من لهجات الحضر، وأقل منها في الكلمات الدخيلة، وأدنى منها إلى العربية الفصحى. ولذلك نرى أن لهجات القبائل العربية النازحة إلى مصر وخاصة العشائر التي لم تبعد كثيراً عن حالتها البدوية القديمة، أفصح كثيراً من لهجات المصريين، وأكثر منها احتفاظاً بالأصوات العربية، وأدق منها في إخراج الحروف من مخارجها. فهي لا تزال محتفظة بأصوات الذال والثاء والظاء التي انقرضت من اللهجات المصرية؛ وأوزان كلماتها أقرب ما يكون إلى الأوزان العربية الصحيحة. ويندر أن نعثر فيها على مفرد غير عربي الأصل

ولهجات القرى في جميع هذه المناطق أفصح من لهجات المدن وأقل منها في الكلمات

الدخيلة، وأدنى منها إلى العربية الفصحى. ويرجع السبب في ذلك إلى ميل سكان القرى إلى المحافظة وقلة احتكاكهم بالأجانب

وعلى الرغم من تعدد لهجات المحادثة في هذه الأمم على الصورة التي وصفناها، فإن لغة الآداب والكتابة فيها واحدة؛ وهي تمثل في جملتها اللغة القرشية التي نزل بها القرآن. ولكنها قد تطورت في تفاصيلها تطوراً كبيراً تحت تأثير عوامل كثيرة من أهمها ما يلي:

1 - اقتباس مفردات إفرنجية بعد تعريبها للتعبير عن مخترعات أو آلات حديثة، أو مصطلحات علمية، أو نظريات، أو مبادئ اجتماعية، أو أحزاب سياسية. . . وهلم جرا

2 - ترجمة كثير من المفردات الإفرنجية الدالة على معان خاصة تتصل بمصطلحات العلوم والفلسفة والآداب. . . وما إلى ذلك؛ إلى مفردات عربية كانت تستعمل من قبل في معان عامة. فتجردت هذه المفردات من معانيها العامة القديمة وأصبحت مقصورة على هذه المدلولات الاصطلاحية

3 - التأثر بأساليب اللغات الإفرنجية ومناهج تعبيرها وطرق استدلالها في المؤلفات العلمية والقصصية والأدبية وفي الصحف والمجلات. . .

4 - اقتباس كثير من أخيلة هذه اللغات وتشبيهاتها وحكمها وأمثالها. . . وما إلى ذلك

5 - إحياء الأدباء والعلماء لبعض المفردات القديمة المهجورة. فكثيراً ما لجأ الكتاب في البلاد العربية إلى هذه الوسيلة للتعبير عن معان لا يجدون في المفردات المستعملة ما يعبر عنها تعبيراً دقيقاً، أو لمجرد الرغبة في الإغراب أوفي الترفع عن المفردات التي لاكتها الألسنة كثيراً. وبكثرة الاستعمال بعثت هذه المفردات خلقاً جديداً، وزال ما كان

فيها من غرابة، واندمجت في المتداول المألوف
اللهجة المالطية
تكلمت مالطة في العصور القديمة وفاتحة العصور الوسطى لغات كثيرة من أشهرها الفينيقية والبونية (القرطاجية). وهكذا شأن جميع البلاد الصغيرة المستضعفة التي ينتمي أهلها إلى عدة شعوب وتقع أرضها في طريق الغزاة والفاتحين، فتصبح دولة بينهم، ويحول ذلك كله دون أن يكون لها كيان وطني مستقر، أو قومية واضحة. فجميع البلاد التي من هذا القبيل لا تستقر على لغة واحدة، بل تتغير في الغالب لهجتها مع تغير الدولة المسيطرة
عليها، وينال ألسنتها كثير من مظاهر التبلبل لكثرة ما ينتقل إليها من لهجات، وما يعتور نطقها من أساليب
وآخر لغة انتقلت إلى مالطة كانت اللغة العربية متمثلة في لهجة من اللهجات العامية المغربية السائدة في شمال أفريقيا. غير أن هذه اللهجة قد أحيطت بظروف تختلف كل الاختلاف عن الظروف التي أحاطت بسائر اللهجات العربية الأخرى؛ فسلكت في تطورها منهجاً يختلف كذلك كل الاختلاف عن منهج أخواتها، وذلك أن انعزالها عن العالم العربي وانتشارها في بلد مسيحي، وكثرة احتكاكها باللغة الإيطالية المجاورة لها، وخضوع مالطة لحكم الإنجليز، وكثرة من يفد إليها ويمّر بها من الأجانب، وانتماء هؤلاء الأجانب إلى شعوب مختلفة وتكلمهم شتى اللغات. . . كل ذلك قد وسّع من هوة الخلاف بينها وبين اللهجات العربية الأخرى، فبعدت عنها بعداً كبيراً، وفقدت كثيراً من مقوماتها، وتأثرت بطائفة كبيرة من اللغات الأوربية وخاصة الإيطالية والفرنسية والألمانية والإنجليزية، وانتقلت إليها مجموعة كبيرة من مفردات هذه اللغات، وامتزجت هذه العناصر الدخيلة بالعناصر الأصيلة كل الامتزاج، فتألف من مجموع ذلك كله مخلوق عجيب في عالم اللغات، حتى أن الكلمة الواحدة فيها لتتألف أحياناً من أصلين أحدهما عربي والآخر أعجمي ((ليبيرانا) أي نجّنا أو خلصنا، فهي مؤلفة من الفعل الفرنسي بمعنى حرر أو خلص، والضمير العربي لجماعة المتكلمين)؛ ويندر أن تعثر على مثل هذا الخلط في أية لغة أخرى من لغات العالم
ولا يزال اللسان المالطي، على الرغم من هذا كله، محتفظاً بكثير من خصائص اللهجات المغربية التي انشعبت عنها. ومن أظهر ما بقي فيه من هذه الخصائص طريقة إمالة الألف المتوسطة في معظم الكلمات (فكلمة (باب) مثلاً ينطق بها في مالطة بإمالة الألف على طريقة اللهجات المغربية
واللهجة المالطية هي اللهجة العربية الفذة التي ارتقت إلى مصاف لغات الكتابة. وقد تم لها ذلك في القرن التاسع عشر. فمنذ ذلك العهد تطبع بها الكتب والصحف والمجلات وتدون بها الرسائل، وبالجملة تستخدم في جميع الأغراض التي تستخدم فيها لغات الكتابة وهي كذلك اللهجة العربية الفذة التي تدون بحروف لاتينية.
ولا تكاد تستخدم هذه اللهجة إلا في القرى؛ أما المدن المالطية فمعظم الحديث يجري فيها بالإيطالية أو الإنجليزية
علي عبد الواحد وافي
ليسانسيه ودكتور في الآداب من جامعة السربون
من وحي الحرب
جيل وجيل
للأستاذ محمود البشبيشي
- 4 -
فساد منطق الحياة اليوم - في الاستقرار يقظة للقلم - دوافع الحرب وأسرارها - الغرائز والحرب - جهل الإنسان الأول بحقيقة الغرائز - فساد الغرائز اليوم - أثر الطمع والحقد والأثرة في فسادها
اللهم إن الإنسانية قد ضلت وهي لضلالها تخبط في تيهاء، وتخفق اكثر ما تفوز، . . . وكأنما فاضت حيوانيتها الكامنة فجفأت ما فيها من صفات كلها ضلال وكلها شرور!!
اللهم إن حقيقة الأشياء تقاس اليوم بالكمية لا بالكيفية؛ وقد انعكس منطق الحياة فأصبح مسيخاً قائماً على أسس من الشهوات والأغراض

اللهم إن الأطماع قدغلبت، والجحدود قد طغى، والظلم قد أسفر، والضلال قد اختال واضطربت موازين الحياة!!
لعمري لو أمكن أن تمسخ صورة مشوهة بطبيعتها لما أمكن أن تكون أقبح مما صارت إليه صور الإنسانية في هذه الأيام العجاف!!
متى يتجلى على الإنسانية بدر الإخاء، ويسطع في كل قلب شعاع الصفاء، ويعم الشرقي والغربي جوّ من الرحمة يصل القوي بالضعيف، والضعيف بالقوي، صلةً لا تُشعر هذا بقوته ولا ذاك بضعفه!!
فما يُطرب الكاتب الإنساني شيء ما يُطربه انتشار مبادئ السلام الروحي، لا السلام المقيد برموز وألفاظ، السلام المسطور في القلوب، لا السلام المحفوظ في أوراق! وكما يُحب أن يصول ويجول في ميادين الاضطراب الاجتماعي ليستشعر لذة واجب المصلح السديد الرأي، يُحب أن يخبر الناس عن كثب ومخالطة في ظل السلام والاستقرار لتغزر تجاريبه
. . .وتصدق أغراضه
أما بعد فحديثنا يتصل كل الاتصال بالحرب وجو الحرب، ويساير أحوالها ويلابسها أصدق ملابسة، وواجب الكاتب الحق أن يكون لسان الحياة الناطق بما يضطرب فيها. وخير الأفكار ما كان في جوهره وليد الحوادث. وحقيق بمن يحمل القلم وهو أشرف سلاح أن يشرعه في وجه المدلهمات يحللها، وينشر لقومه ما يبصرهم بما في الاتجاهات المختلفة من الضّر والشّين، ويقفهم على ما فيها من النفع والزّين
كنت قلت في أول نقاشي مع ولدنا الأديب (حسين) إن الناس لم يفرطوا في . . . أمور دنياهم والإنسانية والروابط الدينية، إلا منذ أن فرطوا في شخصيتهم وأخلاقهم، فأصبحوا لا يحكمهم شعور حي، ولا يقيد شرورهم رحمة. . . ورأي هو أن السبب فساد التأمل واختلاطه بحب الذات، فأصبح الإنسان لا يرى الشيء حسناً إلا إذا كان له نصيب من حسنة!
وقادنا الحديث إلى ذكر الحرب ولكنا لم نتناول يومئذ منبهم أسرارها بالتشريح، وكأنما تركنا الأمر إلى عودة، وقد عدنا له فما حديث الحرب بيني وبينه؟
قلت: ما السر في الحرب وما الدافع إليها؟ وكيف تظل قيودها تطوق الإنسان إلى اليوم، وقد سار به الزمن وسار معه من طفرة إلى طفرات في الرقي العملي والنظري؟ وكيف يعجز اليوم عن حل مشكلاته فلا يجد سبيلاً غير التدمير والتخريب؟ لقد قيل إن المعرفة تكفل السلام بسمو الفكر، والترفع عن الدنيا، والتطهر من أدناس الوحشية والهمجية، وانتشار مبدأ الإنسانية. . . فهل تحقق كل هذا؟ وما ينفض العالم يده من غبار حرب ضروس، إلا ليخوض في أوعاث وأوعار حرب عاصفة، تغمر السماء بالموت الطائر، وتكتسح الأرض بالموت الزاحف!!
لقد قيل إن المدينة تصلح فساد الحياة، وتثقف أودها، وتصل أطراف الإنسانية فتقوم! فهل عرفنا سوى أن المدنية تقدم في تقويض البناء، وتقطيع الأواصر؟ فما السر في هذا الاضطراب؟ وما مدى أثر المدنية والتقدم فيه؟
قال: لعل السر من قديم هو طبيعة المغالبة في سبيل البقاء، فالإنسان بما اجتمع فيه من غرائز تقربه من الحيوان مسوق إلى استغلالها فيما جُعلت له، وخاصة حين تفرض عليه
قيود الحياة استعمالها، وعندما تتهيأ له أسباب يقظتها؛ فهناك غريزة المقاتلة قد تغلغلت في نفسه كما تغلغلت في الحيوان، وهو في حاجة إليها لمدافعة الشرور والخوض في مَرابط الهَلَكَة والسعي وراء ما يحفظ نوعه، وهو في كل ذلك مدفوع بدافع حب البقاء، والكفاح في سبيله، تُسيره غريزة فيطيعها - إذن هو يحارب يا بني، أو يميل إلى الحرب بدافع (غريزة المقاتلة) حباً في البقاء والذود عن حقوقه، ورغبة في الاعتزاز بوجوده في الحياة وشعوره بهذا الوجود، فهل يكون ذلك مبرراً للحروب وأهوالها؟ نقف أمامه موقف الاقتناع بأنه أمر غريزي فطرت عليه النفوس، فلا سبيل للخلاص من قيوده! وهل إذا وضح أنها لون من ألوان البقاء يجوز أن نتغاضى عن أهوالها وشرورها، ولا نحاول تشريح أسبابها والنظر إليها كمرض اجتماعي له علل ونتائج؟
- ذلك أمر آخر، فهي كغريزة جدير بنا أن نتأمل حقيقتها بين سائر الغرائز التي تتصل

بها، فليس من شك عندي أن غريزة المقاتلة وجدت لحكمة جديرة بالاعتبار، وليس من شك في أن الحياة وما بها من هلكات وما يحف بها من مخوفات جديرة بان تتحصن لها الأحياء بمثل هذه الغريزة. . . وإنما يكون ذلك بقدر محدود يجيء من بعده الخير المنتظر، الخير الذي يصيب المجموع ولا يقتصر على الفرد، الخير الذي تطهر من أدناس الأنانية والأغراض، وخلص منها خلوص الحقيقة من شباك الباطل. وقياساً على هذه الصورة الكاملة لها، أرى أن حرب اليوم قد خرجت عن النطاق المعقول لغريزة المقاتلة، وأصبحت فناً فريداً من فنون الفساد الذي لحق أسس الحياة باضطراب العقل وضلال التأمل، وما تولد منهما من نظم تقود إلى الدمار وتدفع إلى الأثرة القبيحة

إذن وضح أن الحرب في صورتها الفطرية التي تدفع إلى حب البقاء وحفظ النوع من غير اعتداء على الحقوق وليدة غريزة المقاتلة. . . ولكن حرب اليوم صورة لفساد تلك الغريزة

وقد يكون من أسباب الحرب ودوافعها غريزة (حب الاقتناء)، وليس بعجيب أن تكون سبباً من أسبابها، فمن الواضح الجلي أن الإنسان قد درج منذ نشأته على السعي وراء الرغبة الجامحة في اقتناء كل ما يرى؛ يدفعه إلى ذلك حبه لنفسه وطمعه في الانفراد بالمنفعة. ويظهر أثر تلك الغريزة قوياً عنيفاً في عهود الطفولة أيضاً كما كان في عهود الإنسان المظلمة، وكما هو في بعض المجتمعات التي بقيت على فطرتها وظلام غرائزها؛ ولكن أثر

الغريزة يكون أكثر وضوحاً في عهد الطفولة حيث ينظر الطفل إلى كل شيء نظرة الطامع فيه. ولعل ذلك يرجع إلى ضيق مدى تأمله وبصره بالأمور، أو تجرده من معنى الخير العام الذي لا يشتد أثره إلا بعد طول رياضة وعظيم دراية وبلوغ لتمام العقلية العامة!. . .

- ومن عجب يا ولدي أن الإنسان مع معرفته اليوم للخير العام وتشدقه بجليل منافعه، تراه منساقاً إلى طاعة هذه الغريزة بل الخضوع لها خضوعاً غلب على قلبه وعقله فأفسد معنى الخير فيها كما أفسد معنى الخير في غريزة المقاتلة، فما السر في ذلك؟ وكيف يصبح حاله وقد أدرك سرها؟

السر عندي. . . أن هناك بعض صفات كامنة في النفس، تغلف هذه الغريزة بغلاف يفسدها، فهناك الطمع والحسد والحقد والغيرة العمياء، تجعل من هذه الغريزة قوة قاهرة، وتفرض سلطانها على كل تصرفات الإنسان، فيندفع في سبيل رغباتها، وقد يخرج عن حدود الخلق ويتخطى الخير العام، ولكنه لا يستطيع سوى إرضاء تلك الغريزة الجامحة. . .

ومن هنا يكون الاعتداء على حقوق غيره، وابتزاز ما ليس من حقه، واختراع الأسباب والعلل لهذا الاعتداء وذلك الابتزاز!

- وثمة غريزة أخرى يا بني قد يكون لها الأثر الكبير في الحروب والميل إليها؛ وهي غريزة الهدم والتدمير، فإن الإنسان مشدود إلى مظاهر هذه الغريزة من يوم ميلاده، ولكنها أكثر وضوحاً عن الطفل لأنه لا يميز بين العمل ونتائجه. فهو فاقد للقياس السليم، لأن الحقائق لا توزن عنده إلا بميزان عاطفة الطفولة التي لا يهمها سوى إرضاء صاحبها على أية صورة كانت بالهدم أو البناء!!

وهي أيضاً موجودة في المجتمعات التي ظلت على فطرتها العمياء، وقد كانت من قبل في العهود المظلمة؛ ولكن إذا جاز أن يتصف بها الطفل لضيق تأمله أو انعدامه، فما يجوز أن تعلق بالرجل الكامل، فما السر في سيطرتها اليوم على العقل البشري؟

السر هو أن بجوار هذه الغريزة غريزة أخرى تشعلها كلما أصابها خمود، هي غريزة السيطرة، فصاحب هذه الغريزة يميل إلى فرض سلطانه على غيره، بل إلى فرض ميوله ومعتقداته. ولعل تضارب المذاهب المختلفة من ديمقراطية ونازية وفاشية وشيوعية

وصورة صادقة لهذه الغريزة؛ وصاحب غريزة السيطرة يفعل كل شيء في سبيلها؛ فإذا وجد من يعترضه تنمر وظهرت فيه غريزة الهدم والتدمير في أشد صورها، رغبة في قهر هذا المعترض! وإذا وجد من استكان له وخضع، لم يقنع بذلك بل دفعه هذا إلى التمادي في بسط سيطرته. . . وإن الحرب لمشتعلة حتما حيثما ظهرت هذه

الغريزة وما يلابسها
ظهر إذن أن الحرب قد تكون وليدة غريزة المقاتلة كما بينا ووليدة غريزة الاقتناء والامتلاك كما أسلفنا، وأن من أسبابها غريزة الهدم والتدمير كما وضح أن حقيقة المقاتلة والاقتناء حقيقة تقتضيها أسباب الحياة ولكن في حدود الخير العام، كما ظهر أن فسادها واختلاطهما بالأثرة والحسد والطمع والغيرة جعلهما صورة فاسدة من صور الحرب اليوم!
- بقي شيء واحد يا والدي وهو كيف نفسر أسباب الحرب في العهود المظلمة وفي عهدنا الحاضر؟ وهل هناك اختلاف كبير بينهما؟
أما السبب فهو يرجع كما بينا إلى الغرائز السابقة في العهدين، ولكني أعتقد أن الحرب كانت في العهود المظلمة وليدة جهل العقول بحقيقة الخير في الغرائز الفطرية، وأنها اليوم وليدة فساد هذه الغرائز!!
وجماع القول في ذلك أن تصرفات الإنسان في عهوده المظلمة بقيت كما هي في بعض المجتمعات التي تعيش على الفطرة
ثم إن جهله بغرائزه في تلك الأحوال يشبه كثيراً ضلالة الغريب في فهمها أيام الطفولة! فقد أعشت الأبصار في العهود الأولى ظلمة الغريزة، حيث لم يكن في وسع الإنسان الانتفاع باللمح البَاصِر من التجاريب، وكذلك الأمر في عهد الطفولة والمجتمعات المتأخرة! ولم يك همه في أيامه المظلمة غير ابتزاز ما اختزن دونه، والنظر إلى الأشياء بعين الفرد، وعين الطمع، فقد كان يومئذ أغلَف القلب لا تنفذ إليه أسرار معاني الخير من غريزة المقاتلة، وحب الاقتناء، وكذلك الأمر في الطفولة والمجتمعات المتأخرة. . .
هذا مكانه من غرائزه أيام جهالته وتأخره وطفولته! فأين هو منها اليوم؟ وقد رقى سلماً أطلعه مطالع النور والمعرفة، وذهب في التقدم مذاهب الجن. . .! لا يبالي ولا يستوحش، يزعم أنه على بصيرة من نفسه، ويقين من أمره، وإنه إلى بلوغ أعظم المثل العليا لمنتظر راج. . .
أين هو اليوم من غرائزه؟ هل أدرك مُنبهمها؟ أم ظل على حيرته الأولى؟!
إنه اليوم عليم بأسرارها خبير! ولكن علمه قد أضله، وخبرته قد أعمته! لأنه جعل الأطماع مقصداً، والأغراض هدفاً، ووزن الأمور بميزان الفرد فضل السبيل، وهو من ضلاله يضرب في تيهاء مظلمة
أجل، لقد صاول وداور وناوص حتى فك قيود استغلاق غرائزه، ولكنه قد بذل ويبذل وسعه في إفسادها!. وهكذا انقلب الأمر من جهل إلى معرفة أفسدتها الأطماع والأغراض الشخصية. . .
وهكذا أستطيع الآن أن أقرر أن الحرب كانت قديماً وليدة الجهل بأسرار الخير الكامنة في الغرائز، وأنها اليوم قد أصبحت وليدة فساد هذه الغرائز!
أما بعد فهذا حديث الحرب صُب في قوالب من فنون الحديث بيني وبين ولدنا الأديب (حسين) أول ما يبْدَهك منه أقباس الفكر الفلسفي القائم على قوة التصوير والحِجاج، وأشهد أني، وإن كنت لا أميل دائماً إلى خوض أوعار الفلسفة وأوعاثها إلا في خلواتي الفكرية الخاصة، قد اضطررت اضطراراً إلى مكابدة صعابها على صفحات الرسالة إرضاء لميول ولدي الفلسفية، ونزعاته الفكرية العميقة الطيبة الغراس، المأمونة الغاية.
محمود البشبيشي
مدن الحضارات في القديم والحديث
للأستاذ محمد عبد الغني حسن
- 3 -
ولقد زار بغداد في القرن الثامن الهجري الرحالة ابن بطوطة ووصف ما كانت عليه في وقته فذكر الجسرين ومرور الناس عليهما في نزهة متصلة، وذكر عدة مساجدها التي يخطب فيها وتقام فيها الجمعة، وعدتها أحد عشر مسجداً. أما المساجد الأخرى فكانت كثيرة. ووصف حماماتها المطلوة بالقار فيخيل إلى الناظر أنها مرصوفة بالرخام الأسود. وذكر جانبي بغداد الشرقي والغربي، وقبور الخلفاء العباسيين بالرصافة وعلى كل قبر منها اسم صاحبه

وزارها قبل سقوطها في يد التتار الرحالة المشهور ابن جبير الأندلسي، إلا أنه رآها على أسوأ حال وأقبح مصير، وكانت لا تزال كما يقول بنص عبارته: (حضرة الخلافة العباسية، ومثابة الدعوة الأمامية القرشية). فرآها (كالطلل الدارس، أو تمثال الخيال الشاخص، فلا حسن فيها يستوقف البصر، إلا دجلتها التي هي بين شرقيها وغربيها كالمرآة المجلوة بين صفحتين، أو العقد المنتظم بين لبتين)

وفي القوت الذي كانت تزدهر فيه بغداد بحضارة عربية واسعة، وثقافة إسلامية كبيرة، كانت تزدهر حاضرة إسلامية أخرى بألوان من الحضارات، وتتجه إليها الأنظار من كل صوب، ويفد إليها الشعراء والأدباء والعلماء حتى لتكاد تنافس بغداد في المحل، وتزاحمها في الموضع والقدر. . . تلك الحاضرة هي (القاهرة)

والقاهرة مدينة الفواطم، وضع أساسها جوهر الصقلي قائد المعز لدين الله في 17 شعبان سنة 358 هـ. بعد أن تم استيلاؤه على الفسطاط. وكان في القاهرة في ذلك الحين طريق عام يختط وسطها من باب زويلة جنوباً. وبنى حولها السور المشهور. وكانت تقع المقس إلى الغرب وتمتد إلى النيل، وظلت ميناء القاهرة إلى أن تحول مجرى النهر في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، فانتقلت إلى بولاق

ومن القاهرة أخذت الدعوة الفاطمية تزداد وتكثر وتتخذ مدى واسعاً. وسُكت النقود باسم الخليفة الفاطمي، ونقش عليها (باسم مولاي المعز). وفي مسجد عمرو دعي للمذهب الفاطمي من على منبر الجامع. وخطب في يوم 19 شعبان سنة 358 هـ هبة الله بن أحمد خليفة إمام مسجد عمرو. ودعي أيضاً في جامع ابن طولون للخليفة الفاطمي في يوم جمعة من ربيع الآخر سنة 359 هـ؛ ثم دعي في الجامع الأزهر بعد بنائه، وكان الدعاء فيه في السابع من رمضان سنة 361 هـ، وبعد ذلك دعي في مسجد الحاكم

وكان في القاهرة (مكتبة القصر) التي ذكرها المقريزي وأبو شامة وغيرهما. وقد قال فيها أبو شامة (يقال إنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من التي كانت في القاهرة في القصر). وكانت هذه المكتبة تحوي النادر من الكتب. وذكر المقريزي صاحب الخطط أنها كانت في المارستان العتيق وفيها أكثر من مائتي ألف مجلد

ولم تكن تلك هي المكتبة الوحيدة في القاهرة، فقد عرف عن الفاطميين حبهم للعلم وتشجيعهم للأدب وإكثارهم من إنشاء المكتبات. ولقد أنشأ الحاكم بأمر الله (دار الحكمة) وهي أشبه بجماعة علمية، وألحق بها مكتبة تسمى (دار العلم)

وكان هناك مكتبات خاصة للأفراد، تتسع وتعظم تبعاً لمقدرتهم؛ ومكتبة ابن كلس الوزير المشهور أحق ما يذكر في هذا المقام. وكان ابن كلس هذا مجدوداً في النعمة، واسعاً في الثروة، وكان له دار يجتمع فيها عنده القراء والأئمة، والغلمان والحاشية، وفيها ميضأة منظمة وثماني غرف للنوم، وديوانه الخاص الذي أسماه (العزيزية) تيمنا باسم العزيز الفاطمي. ولما كان ابن كلس يهودياً وأسلم، كان لليهود دالةٌ في عهده، بل كان لهم شأن كما يذكر المؤرخون. ولقد أثارت محاباتهم شعور الاستياء عند المسلمين؛ فقد رأوا لهم الكلمة والنفوذ، والمنزلة والجاه، والقربى والشفاعة (لأسباب صهرية) ورأوا المسلمين بعيدين من كل خير، مُنأيْن عن كل منزلة، فحرك هذا بعض الشعراء بالكلام؛ فقال الرضى بن البواب:

يهود هذا الزمان قد بلغوا ... غاية آمالهم وقد ملكوا
العز فيهم والمال عندهُم ... ومنهم المستشار والملك
يأهل مصر إني نصحت لكم ... تهودَّوا، قد تهود الفلك!!

وكان الغنى في أيام الفاطميين شاملاً، والثروة واسعة، وأغلب هذه الثروة بالطبع في أيدي الخلفاء وأبنائهم. وكان للمعز لدين الله وبنتيه ثروة تحتاج إلى أربعين رطلاً من الشمع لختمها

ولقد زار مصر في عهد المستنصر الفاطمي سائح فارسي مشهور هو ناصر خسرو، وكان ذلك في عام سنة 439 هـ. فوصف ما شاهده ورآه في كتابه (سفرنامه)، وقد أضفى على مشاهده ألواناً من الخيال الذي أوتي منه حظاً كبيراً فقد كان الرجل شاعراً وأديباً، وهو يذكر أن القصر الفاطمي كان فيه ثلاثون ألف جارية، واثنا عشر بهواً، وعشرة أبواب، وألف حارس. ويصف دور القاهرة في ذلك الزمان بأنها (محكمة

البناء مبنية بالحجر لا باللبن، يفصل بعضها عن بعض حدائق بهيجة)
كانت القاهرة طيلة حكم الفاطميين مصونة محفوظة لهم ولأولادهم وحرمهم وخواصهم والمقدمين من جنودهم؛ ولكنها في عهد الأيوبيين تغيرت حالها من الصيانة إلى الابتذال، وتدلت أمورها من الخواص إلى العوام، يسكنها الجمهور، وأصبحت دور الفواطم ذوات الحدائق الغُنّ حارات وشوارع ومسالك وأزقة؛ وعمر حَّي القلعة، وحافتا الخليج الكبير، وما دار على الحسينية. وظلت مصر والقاهرة تتسعان حتى صارتا بلداً واحداً يشتمل على: (البساتين، المناظر، القصور، الدور، الرباع، القياسر، الأسواق، الفنادق، الخانات، الحمامات، الشوارع، الأزقة، الدروب، الخطط، الحارات، الأحكار، المساجد، الجوامع، الزوايا، الربط، المشاهد، المدارس، الترب، الحوانيت، المطابخ، الشون، البرك، الخلجان، الجزائر، الرياض، المتنزهات). المقريزي ج2
وظلت القاهرة كذلك إلى أن حدث الفناء الكبير في سنة تسع وأربعين وسبعمائة فخرب كثير من هذه المواضع، وتبع ذلك خراب صعيد مصر وجلاء أهله عنه. وقد أدرك هذه الخرائب والأطلال المقريزي وأشار إليها في خططه
ويظهر أن بعضاً من المؤرخين كانوا يتحاملون على القاهرة لحاجة في نفوسهم، فلا ينصفونها إذا وصفوا، ولا يقدرونها إذا تكلموا. وقد يجسَّمون في المعايب، ويهوَّلون فيها المثالب. ومن هؤلاء أبو الحسن علي بن رضوان الطبيب، فقد نقدها نقداً مراً؛ وذكر كثرة الأوساخ والأقذار فيها، وكثرة العفونة في مياهها؛ ثم ذكر نظام (المجاري العامة) فيها وما يجره على السكان من عفونة ووباء. والحق أن ابن رضوان نظر إلى القاهرة نظرة الطبيب الصحي أو (مفتش الصحة)، فغلا في نقدها وأسرف في ذمها.
ومن الذين لم تعجبهم القاهرة ابن سعيد صاحب كتاب: (المعرب في حلى المغرب)، فقد سمع عنها كثيراً، فلما رآها استكثر الأخبار عنها وقال بنص عبارته: (هذه المدينة اسمها أعظم منها. وكان ينبغي أن تكون في ترتيبها ومبانيها على خلاف ما عاينته لأنها مدينة بناها المعز أعظم خلفاء العبيديين)
وما أشبه هؤلاء المتحاملين من العرب المتجنين على مصر بالمتحاملين اليوم من الفرنجة عليها! فهم ينكرون منها كل منظر حسن ومشهد جميل، ويسجلون عليها غير ذلك
استمع إلى ابن سعيد هذا وهو يصف القاهرة في تحامله وتجنيه: (ولقد عاينت يوماً وزير الدولة وبين يديه أمراء الدولة وهو في موكب جليل، وقد لقي في طريقه عجلة بقر تحمل حجارة وقد سدت جميع الطرق بين يدي الدكاكين، ووقف الوزير، وعظم الازدحام، وكان في موضع طباخين، والدخان في وجه الوزير وعلى ثيابه، وقد كاد يهلك المشاة وكدت أهلك في جملتهم. وأكثر دروب القاهرة ضيقة مظلمة كثيرة التراب والأزبال، والمباني عليها من قصب وطين) انتهى. على أن شيئاً واحداً لا تنساه القاهرة للفاطميين، وهو الحفلات الكثيرة المختلفة التي كانوا يقيمونها في الجمعة والأعياد والولائم والمناظر وليالي الوقود التي تسبق أول ومنتصف رجب وشعبان وحفلات توديع الحملات الحربية التي سجلها كثير من شعراء ذلك العصر وخاصة عمارة اليمنى شاعر الفواطم المشهور.
(الحديث موصول)
محمد عبد الغني حسن
الوضع الصحيح للإصلاح الاجتماعي في مصر
للأستاذ محمد عبد الرحيم عنبر
اطلعت باهتمام على المناقشات المختلفة العنيفة التي دارت رحاها في الصحف، وبخاصة مجلة (الرسالة) الغراء، حول الإصلاح الاجتماعي في مصر والوضع الصحيح له.
ولست أبالغ إذا قلت إن معظم الكتاب النابهين الذين أداروا تلك المناقشات - مع احترامي الشديد لهم، وتقديري العميق لنبل مشاعرهم وسمو أهدافهم - كانوا ينظرون إلى مشاكلنا الاجتماعية من زواياها الأدبية والوجدانية والمثالية الحالمة، مما يجعل كلامهم وأفكارهم أدنى إلى الفلسفة والأدب منه إلى الاجتماع أو (الطب الاجتماعي).
وفي اعتقادي أن تناول المشاكل الاجتماعية بهذه الطريقة غير موصل حتماً إلى الغرض المطلوب، وهو تبرئة المجتمع المريض من علله وأسقامه. بل لست أبالغ - أيضا - إذا قررت أن تلك الطريقة تبلبل أفكار الشعب، وتشوش أمانيه، وتهيج خواطره،

لأنها لا تضع إصبعها على مكمن الداء الحقيقي ولا تصف الدواء. وما سمعنا يوماً، ولا أظننا سنسمع أن مريضاً - والمعضلات الاجتماعية أمراض نفسية حقيقية - شفي بقصيدة عصماء، أو بمقال بليغ!

وبهذه المناسبة أذكر أن (الطب الاجتماعي) فن حديث له أصول وقواعد ودراسات فنية منظمة كسائر الفنون

ومشاكلنا الاجتماعية قديمة ومعقدة إلى حد محزن. ويخطئ الذين يظنون أن (الفقر) وحده هو أساس كل هذه المشاكل فيخصّونه بالمقالات الطويلة المسهبة، والأبحاث المستفيضة الدسمة؛ فالفقر نتيجة لعلل اجتماعية أخرى وليس سبباً. وعليه يجب أن نوجّه أنظارنا وجهودنا إلى جذور هذه المعضلة الاجتماعية لا أن نكتفي بقصقصة أطرافها، وتشذيب حوافها المدببة. وقيل إن مشاكلنا الاجتماعية الكبيرة تكوَّن مثلثاً متساوي الاضلاع، مؤلفاً من الفقر، والجهل، والمرض. وتفاعل هذه المشاكل الثلاث الحية ينتج عصير الشقاء الذي تتجرعه الأغلبية الساحقة من سكان هذه البلاد. وفي يقيني أن مشاكلنا الحقيقة أربع وليست ثلاثاً، إذ يجب أن تضاف إليها مشكلة الانحلال الخلقي المتفاقمة يوماً بعد يوم. فإذا نظرنا إلى هذه المشاكل الاجتماعية الأربع مجتمعة كنا أقرب إلى الصواب

وإذا كنت قد ذكرت أن الفقر نتيجة لا سبباً فهو ليس كذلك في كل الأحوال؛ فكما أن الجهل

يورث الفقر والمرض، فإن الفقر يمنع التعلم والصحة. ولهذا يجمل بنا أن نقول إن تلك المشاكل متفاعلة تفاعلاً مستمراً كالمواد الكيميائية، وليست قريبة من بعضها فحسب ولنتحدث الآن بإيجاز عن صلة بعض هذه المشاكل ببعض، ونبين مدى تفاعلها المستمر الفوار

الفقر

جاء في الإحصائيات الرسمية لسنة 1938 أن عدد ملاك الأراضي الزراعية من المصريين هو 2. 438. 3. 3 شخصاً يملكون 5. 403. 534 فداناً بالتفصيل الآتي:

1 - 1. 673. 576 شخصاً يملك كل منهم فداناً فأقل. ويبلغ مجموع المساحات التي يملكونها 688. 600 فداناً

2 - 564. 700 شخصاً يملك الواحد منهم من فدان إلى خمسة. ويبلغ مجموع المساحات التي يملكونها 1. 148. 019 فداناً

3 - 84. 617 شخصاً يملك كل منهم خمسة فدانين إلى عشرة أفدنة. ويملكون جميعاً 561. 348 فداناً

4 - 61. 442 شخصاً يملك الواحد منهم من عشرة فدادين إلى خمسين. ويملكون جميعاً 1. 185. 362 فداناً

5 - 420 وكبار الملاك، وهم من يملكون أكثر من خمسين فداناً وعددهم لا يتجاوز 12. شخصاً يبلغ مجموع المساحات التي يملكونها 2. 253. 853 فداناً!!

وإذا تدبرنا هذه الأرقام وجدنا:

أولاً: أن صغار الملاك ونسبتهم العددية 93. 5 % يملكون 18 % فقط من الأراضي المزروعة في مصر

ثانياً: إن كبار الملاك ونسبتهم العددية 12 % يملكون حوالي 45 % منها

ولا نظن أن بلداً من بلاد العالم المتمدين اختل فيه توازن الملكية إلى هذا الحد! ولو أردنا معرفة نوع الأعمال والحرف التي يزاولها مواطنونا المساكين المحرومون من نعمة (الطين)، وعددهم حوالي ال 13 مليوناً من الأنفس فلنعلم أن 3 يشتغلون أجراء في أراضي كبار الملاك (أي عبيداً وأرقاء!). وهناك 569000 شخص في حرف غير منتجة

ومن المعلوم أن العامل الزراعي الذي لا يتجاوز متوسط أجره اليومي الثلاثة قروش، له أسرة تتألف من زوج وأولاد. وقد تضم عدا هؤلاء زوجة أخرى، أو أباً، أو أماً، أو أختاً صغيرة، أو أرملاً. . . أو أولئك جميعا!!

ويخطئ من يعتقدون أن أغنياءنا الذين نشكو مّر الشكوى من تضخم ثرواتهم على

حساب الفلاح المسكين. . . ينتجون في البلاد من الرخاء ما يساوي هذا الاختلال الاقتصادي، والجرم الاجتماعي، فإن هؤلاء الأثرياء قد كفر معظمهم بنعمة الله فغرقوا في بحر من الترف والميوعة والتبذل والسفه ليس له من قرار، حتى أوسعوا أملاكهم ديوناً ورهوناً، وسلّطوا عليها بنوكاً أجنبية لا ترحم

ومصر لم تستفد كثيراً من النهضة الصناعية التي قامت بين ربوعها. فهذه الشركات الأجنبية المنبثة في طول البلاد وعرضها تحتكر مرافقنا العامة التي هي شرايين الحياة، احتكارا قانونياً أو فعلياً. فقد بلغت رؤوس أموال الشركات الموجودة في مصر حوالي 88!! مليوناً من الجنيهات ليس فيها أكثر من خمسة ملايين لمصريين حقيقيين

وليس من المنتظر أن تتحسن هذه الحالة المحزنة كثيراً ما دام الشعب المصري شعباً غير صناعي، وتظل الثروة العقارية الزراعية - وهي حجر الزاوية في ثروتنا القومية - لا تنمو بنسبة نمو عدد السكان، فإن هذه النسبة كانت في القرن الماضي 45: 5 %

ولعل هذه العجالة تعطي صورة واضحة لما عليه الشعب المصري من فقر تجري به الأمثال

والفقر بوجه عام هو نقص الكفاية الضرورية من الطعام والملبس والمسكن وما إلى ذلك من حاجات معيشية لا يمكن أن تستقيم الحياة بدونها: أي الهبوط عن الحد الأدنى لهذه الضرورات. وكلما أمعن الشعب في الحضارة ارتفع مستوى المعيشة فيه، وزادت تلك المطالب والضرورات الحيوية. ومعنى ذلك أن للفقر - ككل شيء معلوم بالتجربة والبديهية - حداً يجب ألا يجاوزه حتى لا تجني الدولة على نفسها، وتتفكك عرى شعبها.

فالفقر غير المألوف إذن هو مظهر من مظاهر سوء التنظيم الاجتماعي. والتنظيم الاجتماعي من شأن

الدولة وحدها. فهي التي تكفل سريان نواميس العمران، وتضمن تنسيق نشاط الأفراد بحيث لا يعتدي نشاط أحدهم أو رزقه على نشاط الآخر أو رزقه. ويمكن أن نشبّه مهمة الدولة في هذا الصدد بمهمة (البوليس الاجتماعي)!! وتقصير الدولة في تأدية هذه المهمة جريمة لا تغتفر؛ جريمة خالدة لا ينساها الجيل الحاضر ولا الأجيال القادمة التي نترك لها تركة مثقلة بأكثر من نصيبها من عبء العمران والحضارة!

وسوء التنظيم الاجتماعي الذي يتمخض عنه الفقر له صور متعددة؛ فللفقر أسباب علمية أدلى بها علماء الاجتماع على مر العصور

فإلى ما قُبل القرن التاسع عشر أيام كانت الأمم تعتمد في معاشها على الزراعة وحدها جهر (مالتوس) بنظريته المشهورة في السكان، منذراً بقرب وقوع مجاعة عالمية، لأن زيادة السكان أسرع من زيادة الثروة الزراعية. أي أن الأرض سوف لا تكفي غلتها جميع سكانها

وقد فقدت هذه النظرية قيمتها في القرن التاسع عشر عند ما تقدمت الصناعة، وتغلب الإنسان على كثير من عقبات الطبيعة مما أدى إلى استنباط موارد جمة للرزق

على أن الفقر ظل مع ذلك طابع الحياة الاجتماعية الرئيسي في معظم الأمم - ولو إلى حد ما - مما أدى إلى ثورات فكرية لا نهاية لها. وقد وضع له علماء الاجتماع نوعين رئيسيين من الأسباب:

أولاً: الأسباب الشخصية:

أي الأسباب التي تتعلق بشخص بعينه، وسواء أكان في مكنته التغلب عليها أم لم يكن، وهي:

(المرض، الشيخوخة، الترمل، الحداثة، الطيش وضعف العقلية، قلة الحيلة، الكسل، الإسراف، الجهل، البطالة، موت العائل. . . الخ)

وقيل: إن هذه الأسباب تعادل 30 % من جملة أسباب الفقر

ثانياً: الأسباب الخارجية:

أي الأسباب العامة التي تخرج عن طوق الشخص وإرادته المحدودة، وهي:

(زيادة السكان بنسبة أكبر من زيادة الثروة الرئيسية في البلاد، البطالة العامة بسبب زيادة الإنتاج على الاستهلاك، عدم استغلال الموارد الطبيعية، انحطاط المستوى الفكري للشعب،

تدهور المستوى الصحي، فساد الأخلاق الشعبية، الاستهتار العام، عدم تنظيم وسائل الإحسان، اختلال توازن الملكية الزراعية العقارية. اتساع هوة التفاوت بين الثروات.

ولعله يبدو من ذلك كله للأستاذ الكبير الدكتور زكي مبارك أن (الفقر المصري) علة اجتماعية لا فردية ولا أخلاقية فطرية في الشعب المصري، كما أراد حضرته أن يصورها

وفي مقال قادم سنتناول إن شاء الله علاقة الفقر بالجهل والمرض والانحلال الخلقي العام

محمد عبد الرحيم عنبر

بوزارة الشئون الاجتماعية

أغنية روسية

للأستاذ علي محمود طه

لا نجمَ، لا مصباحْ ... يلمعُ في السهلِ
قد نامتْ الأرواحْ ... مقرورةَ الظلِّ
مطمورةَ الأشباحْ ... في مهدِها الثلجي
إلا شعاعاً لاحْ ... يخفُق في وهْجِ
الحارسُ السهرانْ ... قد فتَّح البُرجا
سيُنشدُ النّيرانْ ... أغنية الفلجا
واللهبُ السكرانْ ... يرقصُ في نارِهْ
والنغمُ الفرحانْ ... يلهو بقيثارِهْ
أطلقتَ إنشادي ... يا من تغنّيني
قيثارُك الشادي ... حُلو الأرانين
يدعو لميعادي ... الليلَ والأحلامْ
يا حارسَ الوادي ... قد باحت الأنغامْ
. . . .
إنّ الفتى المِمراحْ ... قد أغلقَ البابا
واللهبُ الوَضّاحْ ... من خلفِهِ غابا
لا نجمَ، لا مصباحَ ... يلمعُ من بُعدِ
لا صوت، لا أشباح ... إني هنا وحدي
يا أملَ العُمرِ
يا حُلُمَ العذراءْ
يا توأم الفجرِ
يا ابن الصبا الوضّاءْ
يا مَلكَ الحُلْبّ
إني لكَ الليلةْ
فاطبع على قلبي
أو شَفتيِ قُبلةْ

علي محمود طه

دوحة الحب . . .

للأديب مصطفى علي عبد الرحمن

يا حبيبي! هلّل البلبلُ للنورِ وغنَّى
أي معنى من معاني الحسن غنى، أي معنى
أيقظَ الأزهارَ في الروضِ فراحت تتثنى
تنهلُ الأقداحَ من خمرِ الندى ... في ظلالٍ مَن صفاءٍ ونعيم
وترى الدنيا ضلالاً وهُدى ... يُسكر الألباب مرآها الوسيمْ
هاهي الشمسُ رنت للكونِ من عرش السماءِ
فبدا الكون كما نهوى غريقاً في الضياءِ
فاض بالفتنةِ والسحر وأنوار الرجاء
ردَّد الجدولُ أنغامَ الهوى ... لغناءِ الطير في هام الغصون
آه يا هاجرُ لو ذقت الجوى ... شدَّ ما ألقاهُ من نارِ الحنين!
ذلك الروض وهذا الجدولُ الحالم يدري
يا أخا الروحِ ويا دنيايَ مَن أعنى بشعري

ناءَ بالهم الذي يلقاه لو تعلم صدري
ما ابتسامُ الكونِ إلا لمحةٌ ... من سنا عينيك فاضت بالحياةْ
فتنة أنت لعمري فتنة ... فُتِنَ العقلُ بدنياها وتاه
دوحةُ الحب تنادينا لقد حنتْ إلينا
ما علينا لو جنينا الصفو فيها؟ وما علينا
في يدينا فرحة العمر فعجلْ في يدينا
كل ما يرجوه قلبٌ آمل ... في نعيم العيش من صفو حبيب
إنما دنياك ظلٌّ زائل ... سوف يَذوَي ثم يمضي عن قريب
(الإسكندرية)
مصطفى علي عبد الرحمن
أحياء الإسكندرية
للأستاذ عبد اللطيف النشار
شوارعَ الثغر ما الزحامُ ... طيفٌ تولّى به منامُ
أو أملٌ الغيوب يُرْجى ... إذا يرجع الأمن والسلام
لا شيء لا شيء في ذُراها ... ِللهِ سبحانَهُ الدوام
يا قلبُ كم فيك من معانٍ ... ترُوعُ لو أمكن الكلام
عبد اللطيف النشار
حلم. . .!
للأديب عمر أبو قوس
الشهب من قدم ... ترنو إلى البحر
تسبح عن بعدٍ ... في مائه الغَمر
والبحر إذ يصبو ... يصبو إلى البدر
أمواجه تُرغى ... من لوعة الهجر
حتى إذا أعيت ... نامت على الصخر
والريح كم راحت ... تبحث عن وكر
أنفاسها الحرَّى ... يلهثنَ في القفر
والفجر إذا يصحو ... من سِنة الغمض
لا يفتح العين ... إلاّ على روض
يملؤه شوقاً ... بالطول والعرض
من أحمر يبدو ... في أثر مُبْيض
ووردة هامت ... بالزنبق الغض
أبعدها منه ... رفض على رفض
ما ضرَّ لو يدنو ... بعضيَ من بعضي
(حلب)
عمر أبو قوس
البريد الأدبي
تعقيب على خبر
لفت أحد الأصدقاء نظري إلى أن الدكتور زكي مبارك قد ذكر اسمي في فقرة من تلك الفقرات التي يكتبها كل أسبوع مما يسميه (الحديث ذو شجون)، فقرأت ما كتب الدكتور فإذا به قد أقحم في مقاله ذكر الثقافة والرسالة كأنه يغري بينهما، أو كأنه يريد أن يفهم قراءه أن هاتين الصحيفتين الأدبيتين تتنازعان وتتخاصمان. ولقد كنت من قبل أكتب في الرسالة، وأنا اليوم أكتب في الثقافة، ولا أعرف بينهما غير ما يكون بين صحيفتين تحاول كل منهما أن تؤدي واجبها نحو الأدب على طريقتها
وعجبت أن يكون للدكتور زكي مبارك مثل هذه القدرة على الابتكار في مثل حديثه هذه المرة؛ فإن الأمر لم يزد على أني سمعت من بعض الأصدقاء في السودان أن الأستاذ الزيات قد اعتزم زيارة ذلك القطر الشقيق وأنهم يرحبون بزيارته، فأثنيت على الأستاذ بما علمت، وأردت أن أحمل إليه هذه التحية فلم أجده بالقاهرة، ولقيني

الدكتور زكي مبارك عفواً فحملته هذه التحية إليه فإذا به ينسج من هذه القصة القصيرة حديثه العجيب.
رد الدكتور تحيتي بما تهيأ له من القول في أسلوبه الصاخب فكان أسوأ رد على التحية وأما الموازنة بين الثقافة والرسالة فما ينبغي لنا معشر الكتاب فيهما أن نتحدث عنها، والحكم فيما يكتب الكتاب إنما يرجع إلى القراء في أقطار الأرض. وإذا كان الدكتور يريد أن يسدي نصحا فليجعل كل همه في خدمة الرسالة الغراء، فهذا دين في عنقه للصحيفة التي توسع صدرها لما يكتب دون غيرها ممن لا يوليه مثل هذه الثقة. وإذا كان لنا أن نبيح لنفسنا ما أباح لنفسه من حق إسداء النصيحة فإنا نرجو أن يعني بأسلوبه في الكتابة، وأن يتخير الموضوعات الجديرة بوقت قرائه، وأن يرفع مستوى كتابته إلى ما يتطلبه العصر الحاضر من أدب القول وجمال الأسلوب والبناء الإنشائي والتعمق في التفكير، وأن يحاول
أن يخفض من صوته ويقصد إلى معناه
ونحن إذ نسدي إليه هذه النصيحة لا تقصد إلا خيره وخير الأدب إذا كان يعني حقاً برأي العالم العربي في أدب مصر
مصر
محمود فريد أبو حديد
محصول (الرسالة)
إلى صديقي الدكتور مبارك:
من النافع للمتأدب أن يتخير الأطايب في محصول (الرسالة) ويدونه في دفتر خاص، كما يفعل صاحبك الموظف برياسة مجلس الوزراء.
ونافعة أيضاً إهابتك بأصدقاء (الرسالة) أن يتعقبوا كل عدد بالنص على ما فيه من دقائق تفوت بعض القراء
والأنفع من هذا وذاك - في رأيي - أن يتناول الناقد مواضيع (الرسالة) كلها فيميز بين الغث والسمين، ويشير إلى الفج والناضج، ويدل على النافع والحسن، كما تفعل المجلات الأوربية الراقية، ولأن القارئ في حاجة ماسة إلى من يدله ويهديه ويجرعه أطايب (المحصول) الأدبي تجريعاً
وأزعم أن لا كبير فرق بين صحيفة دورية يشترك في تحريرها طائفة من الكتاب، وبين كتاب ينفرد في تأليفه وتصنيفه كاتب واحد، وقد جرت العادة عند النقاد أن يتناولوا الكتاب ومؤلفه ويسكتوا عن الصحيفة الدورية
فطنت لهذا التقصير من جانبنا، فاقترحت على صديقنا الزيات أن أتناول بالنقد مجلاتنا المحترمة: المقتطف والهلال، والثقافة (والرسالة)، لأنها أخلق بالنقد من كثير من مؤلفات ما نكاد نقرأ بضع صفحات منها حتى نطرحها جانباً
أتعرف يا مبارك بماذا أجاب صديقنا الزيات وقد استحسن الفكرة ورحب بها؟
قال: كاتبان لا يصلحان لهذا الضرب من النقد: أنت والدكتور مبارك، لأنكما لا ترفقان في النقد ولا ترحمان. وهل من دليل أسطع من أنكما غير محبوبين من المؤلفين؟؟!!
ولست بناقل إليك تتمة حديث صديقنا الزيات عن النقد والنقاد، لأني اعرف أنك لا ترضى مثلي عن الليونة وما تحتها من معان تشل الروح الأدبي ولا تسمو به إلى الأوج ولا أخالك إلا معتقداً مثلي بأن مجابهة التيارات الأدبية واقتحامها خير من مجاراتها والتحايل عليها، ولكن. . .
أجل، ولكن العبرة بالنشر والناشر، لا بالتمرد والثورة!
حبيب الزحلاوي
من جديد
من التعبيرات التي ترسبت حديثاً إلى لغتنا، فتداولها الكتاب من غير تمحيص، ولا وزْن لصحتها اللغوية، ولا لصلاحيتها لأن تندمج في الأساليب الفصيحة وتغدو جزءاً منها
ولم تكن هذه العبارة شائعة بيننا قبل نحو عشر سنين، على ما اذكر؛ وكنت أراها أولاً في بعض القصص والمجلات والجرائد. ثم سرت في أحاديث الناس واستظرفوها وتملحوا بها
وما كنت قط أتوهم أن تصل يوماً إلى أقلام البلغاء، حتى رأيتها في قصيدة لشاعر معاصر من شعرائنا البارزين الذين يحتفلون في جزالة الأسلوب أيما احتفال، وحتى

استعملها العلامة الدكتور زكي مبارك في مقاله في العدد 417 من (الرسالة)، حيث قال: (. . . مع فارق بسيط هو أن الدكتور أشار إلى المصدر الذي نقل عنه، وأن الأستاذ. . . لم ير موجباً لذلك، فدلنا (من جديد) على حسن هضمه لما يقرأ من آراء الباحثين)

ولقد جهدت في أن أخرِّج هذا التركيب - في مختلف أوضاعه - تخريجاً سائغاً، فلم أوفق. ذلك أن (جديد) ملحوظ فيها أن تكون صفة موصوف محذوف. فما هو هذا الموصوف؟ قد يكون التقدير - في عبارة الدكتور -: (من وقت جديد)، أو (من شيء جديد)، أو (من أمر جديد) مثلاً. ولكن كيفما قدرنا هذا الموصوف ألفينا الكلام - كما ترى - غثاً لا معنى له

والواقع أن هذا التعبير ترجمة الكلمة الإنجليزية أو - على ما أعلم - ترجمها من لا يتحرون الصحة، أو من ليس لهم من علمهم ما به يتحرونها. فاقتبسه الناس وأغرموا به - كغيره من التراكيب الإفرنجية الكثيرة التي شوهتها الترجمة السقيمة - على غير رؤية أو إنعام نظر

أفلا يرى معي حضرة الدكتور أنه يجدر بنا أن نحارب هذه الطفيليات في لغتنا وأن نقضي عليها قبل أن يستشري فيها شرها؟

(ا. ع)

فتوى واستفتاء

1 - في حاشية فجر الإسلام ما نصه (وجرينا هنا على ما قاله ابن القيم الجوزية) وهذا خطأ بين يقع فيه كثير من المؤلفين والناشرين، وبخاصة ناشرو كتب شمس الدين محمد أبي بكر. وإنما هو ابن القيِّم أو ابن قيِّم الجوزية؛ وشتان ما بين الوصف والإضافة. والجوزية مدرسة للحنابلة بدمشق أنشأها محي الدين ابن جمال الدين بن الجوزي وإليه نسبت. وذكر الأستاذ محمد كرد علي في كتابه خطط الشام أن الجوزية كانت إحدى مدارس عشر للحنابلة، وأنها كانت في عهده محكمة شرعية، ثم جعلتها جمعية الإسعاف الخيري مدرسة للأيتام، ثم حرقت في الثورة

وابن قيم الجوزية هذا - قد توفي سنة 751 هـ - غير شيخ الوعاظ غير مدافع، جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي المتوفى سنة 597 هـ. قيل أن شجرة جوز كانت في بيت جده جعفر فنسب إليها. وقيل إنه منسوب إلى محلَّة بالبصرة تسمي محلة الجوز

2 - وقريب من هذا الخطأ - وإن تكلف بعض الكتاب تصحيحه - قولهم: (القصر العيني) وإنما هو قصر العيني بالإضافة إلى الأمير الشهابي أحمد بن عبد الرحيم بن البدر العيني نسبة إلى (عين تاب) على ثلاثة مراحل من (حلب)

3 - جاء في الوسيط في ترجمة ابن خِلِّكان - ما نصه: (وتوفي والده وهو ابن سنتين) الخ وجاء في ترجمته في المفصل ما نصه: (وكان أبوه مدرساً بالمدرسة المظفرية بإربل، فأخذ عليه مبادئ العلم) الخ وبدهي ما بين الروايتين من التناقض. اللهم إلا أن يكون صاحب الترجمة من أرباب الخوارق!

ولا يفوتنا - مقرين الحق في نصابه - أن نذكر أن الذي نبهنا إلى هذا الخلاف هو تلميذنا الأديب محمد حرب، وأننا لم نجد جواباً إلا أن نرجح رواية المفصل ريثما نستفتي الرسالة.

4 - تقرر في كتب النحو أنه لا يجمع من الصفات جمع مذكر سالماً ما استوى فيه المذكر والمؤنث كوقور، وصبور، وجريح. فمن الخطأ البين إذاً ما ذاع وشاع من جمع الخاصة فضلاً عن العامة - غيوراً على غيورين. وإلى القراء فتوى المصباح والقاموس في جمع هذا الوصف، لكثرة دورانه على الألسنة

غار يغار غيراً وغَيْرة وغاراً فهو غيور وغيران والمرأة غيور أيضاً وغيرى، وجمع غيور غير كرسول ورسل، وجمع غيران وغيري وغيارى بالضم والفتح وأجدر بنا أن نكون غيرا على لغة القرآن الكريم

5 - النحويون قاطبة - عدا الفراء وابن مالك - على أنه إذا اجتمع شرط وقسم ولم يتقدمها ما يحتاج إلى خبر - كان الجواب للسابق منهما، وأجابوا عن قول الشاعر:

لئن كان ما حدثته اليوم صادقاً ... أصمْ في نهار القيظ للشمس بادياً

بأنه ضرورة أو اللام زائدة لا موطئة للقسم. وقد اجتمع الرأي على أنه يسوغ للشاعر

ما لا يجوز للناثر
ولقد بحثت جاهداً عن شاهد واحد من لا نثر فأعياني البحث. أفليس من أخطاء الخاصة إذاً - بله العامة - ما نقرؤه وما نسمعه من قولهم: لئن كان كذا فإن الأمر كذا وكذا؟ وإن تعجب فعجب أن يخطئوا الصواب ويذيعوا الخطأ. وبعد فهل يتفضل الباحثون باستنباط مثال واحد من منثور العرب نعتمد عليه في تصحيح مثل هذا التركيب الذائع
لئن فعلوا إني لهم شاكر
طه محمد الساكت
المدرس بمعهد القاهرة
عجوز وعجوزة
قال الأستاذ وحيد في (أهرام) 16641 يقال للشيخ عجوز
وللشيخة عجوز وعجوزة.
وفي القرآن الكريم قال الله تعالى: (قالت يا وَيْلَتي أألد وأنا عجوز، وهذا بعلي شيخاً)
سورة
هود
وقال أيضاً: (فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم) سورة الذاريات. وفي القاموس:
(والعجوز الشيخ والشيخة، ولا تقل عجوزة أو هي لُغيةٌ رديئة)
وفي مختار الصحاح: (والعجوز المرأة الكبيرة، ولا تقل عجوزة، والعامة تقوله اهـ.
محمد حنفي الآقدمي
جماعة الأدب الحر
تألفت بالمنصورة جمعية أدبية باسم (جماعة الأدب الحر) من أهم أغراضها خدمة الأدب ورفع مستوى الإقليم الثقافي، وإبراز الشخصية المصرية واضحة في الأدب، وذلك بإقامة المحاضرات والمناظرات ونشر الأبحاث، والعناية بنواحي النشاط الفني والأدبي. وهي تدعو كل المشتغلين بنواحي الأدب من أبناء هذا الإقليم إلى المساهمة معها في أداء رسالتها هذه
تصويب:
جاء في ص (852) من العدد (417) من (الرسالة): والصواب
وجاء في الصفحة نفسها: فإنما ذلك لإجازتها. والصواب: فإنما ذلك لو جازتها
(ا. ع)
القصص
القيء. . .
للأستاذ نجيب محفوظ
كان سعادة سعيد باشا كامل يقول كثيراً لخاصته إن رجلاً مثله ألفت نفسه العمل والنشاط، لأحرى أن تقعده حياة المعاش مقاعد المرضى المنهوكين. وصدقت نبوءته، فما كاد يحال على المعاش حتى سارع إليه ذبول الشيخوخة واعتوره الإعياء والخمول، ولذلك فإنه حين أصيب بالأنفلونزا لم يعمد كعادته إلى قهرها بالعناد والإيحاء الطيب والمثابرة، ولكنه رقد على فراش المرض عشرين يوماً قانعاً من لذيذ المأكل والمشرب بعصير البرتقال وماء الليمون. على أنه في فترة النقه اعتاض عن تصبره لذة لم يكن له عهد بها؛ كان الصيام قد صفى بطنه وطهر قلبه وأسكت نوازع جسده الصارخة، وطرد أشباح نفسه المفزعة، فأضاء عقله بسنا نور بهيج، واستنارت بصيرته بالصفاء والتجلي، وتبدت له الأمور على غير ما كان يرى، تراءت له الدنيا كومة من تراب، وكأنه يعتلي قمة السماء التي تظلها، وانكشفت له الحقيقة بغير قناع، فكأنما انجلت غشاوة الغرور عن ناظريه، فأحس أن بنفسه كنزاً يغنيه عن الدنيا وما فيها، وشعر بالسلام والطمأنينة يتدفقان من ينابيع صدره فذاق سعادة الجنان، وما كان ليفيق منهما لولا أن كرّ به الخيال إلى الوراء يتيه في غياهب الماضي وينبش قبور المنطوي من الزمان وينشر الرمم والعظام من الذكريات. . . كيف اختار أن يدعو الماضي ليتطفل على سعادته الراهنة؟ كيف رضي أن يغفل عن لذة الصفاء ليعاني ضراوة الأفكار؟ في الحق أنه لم يرغب في ذلك مختاراً، ولا راضياً ولكنه وجد الذكريات تطرق باب قلبه بإلحاح وعناد وعنف فلم يملك إلا أن يفتح لها كارهاً وأن يستقبلها ساخطاً متبرماً وأن يجترها بتقزز ونفور. ولم تكن المرة الأولى التي تزوره

فيها ولكنها لم تكن تبدو له مخيفة ولا محزنة، أما في ساعة الصفو والتجلي فقد آلمته وأحزنته لأنه استقبلها بقلبه الجديد

رجع به الخيال إلى عهد كان سعيد أفندي كامل كاتباً بالأرشيف في الدرجة الثامنة المخفضة؛ وكان يقيم في منزل قديم بعطفة الجلاد بباب الشعرية، يعاني الأمرين من بساطة حاله وكثرة تبعاته وطموح قلبه وتعالي همته. وكان يقول لنفسه دائماً إن الله وهبه ذكاء

عالياً ولكن حظه السيئ ران عليه فصد أو خبا؛ ولكنه كان معروفاً بين الجيران لجمال زوجته الحسناء، وكانت أمينة من أصل تركي عاجية البشرة سوداء الشعر والعينين فاتنة القسمات فكان يدعوها أهل الحي بالأميرة وكانوا يضربون بجمالها المثل

وفي يوم من الأيام صدر قرار وزاري بنقله إلى أسيوط؛ فأسقط في يده، لأنه كان يعول والديه وأخوة صغاراً ولا يقوم مرتبه بالإنفاق على بيتين؛ وبدا له - في يأسه - أن يوجه زوجه إلى قصر (سليمان باشا سليمان) السكرتير العام لوزارته لتستعطف أمه أو زوجه لكي يبقيه الباشا في الإدارة العامة بالقاهرة؛ وراقت الفكرة لأميرة عطفة الجلاد بباب الشعرية فذهبت إلى قصر الباشا وسألت عن أم الباشا فقيل لها إنها ماتت من عهد طويل معه، فسألت عن زوجه فقيل لها إن الباشا أعزب، فأوشك أن يلحقها القنوط وأن تهم بالعودة من حيث أتت، ولكن صادف ذلك خروج الباشا من قصره، فاستوقف بصره منظر السيدة الجميلة التي تحادث البواب، فسأله عنها، فاستجمعت الشابة شجاعتها الموزعة وحدثت الباشا عما جاءت من اجله؛ ورق الباشا لجمالها فدعاها إلى صالون الاستقبال واستمع إلى شكاتها باهتمام وشغف. كانت تنظر عيناه أكثر مما تسمع أذناه، وكان كلفاً بالحسان ينسى في مجلسهن دينه ودنياه، فتحلب ريقه واحترق صدره، وابتسم لها ابتسامة حلوة وربت على منكبها بحنو وقال لها

- سأنظر في طلبك بعين العطف يا حسناء

وكانت أمينة قادرة على قراءة العيون فتولتها الدهشة ونظرت للباشا نظرة ملؤها الشك والارتياب ففتنته النظرة؛ فمد يده - كما تعود وكما ألف - فعبث بذقنها الصغيرة فقطبت جبينها وجفلت منه. فلم يدركه اليأس وما كان يدركه اليأس أبداً وقال لها برقة

- كلانا له رجاء عند صاحبه فاقضي رجائي أقض رجاءك

وعادت المرأة إلى زوجها وقصت عليه ما لقيت من الباشا فانزعج الشاب انزعاجاً كبيراً، وأرادت أمينة أن تشاركه عواطفه فبكت وإن لم تخل من زهو وفخار، وأزمع الشاب يأساً وقال لنفسه: (ليكن سفر، والأمر لله). ولكن في صباح اليوم الثاني استدعاه مدير الأرشيف فذهب إليه مبلبل النفس مضطرب القلب يظن أنه مبلغه أمر النقل لينفذه، ولكن الرجل قال له: (مبارك يا سعيد أفندي لقد ألغي أمر نقلك). فشكره الرجل متحيراً وهم بالرجوع، ولكن

المدير قال له: (ومبارك أيضاً فقد رشحت لوظيفة من الدرجة السابعة بمكتب السكرتير العام)

آه كم رنت الدرجة السابعة في أذنيه رنيناً بديعاً. . . لقد اضطرب وغضب وسخط وتحير وتردد وقارن ووازن، ولكن رنين الدرجة ابتلع كل صوت حتى صوت ضميره وعفته، وتيقظت أطماعه وجمح طموحه فاستسلم. وكانت أمينة التركية الجميلة ذات غرور وطموح أيضاً فاتفقا على أن السوأة شيء يدارى، أما الفرصة المؤتية فشيء لا يعوض. . . وهويا معاً . . .

وعزم على ألا تكون تضحيته عبثاً، فدرس في بيته حتى حصل على ليسانس الحقوق ورقى سكرتيراً للسكرتير العام؛ وما زال يصعد مدارج الرقي مستعيناً بهمته وذكائه وجمال زوجه. فلما اختير سليمان باشا سليمان وزيراً جعله مدير مكتبه، وقامت زوجه بنشر الدعوة له في الأوساط العالية وقدمته إلى كبار الرجال، فتبوأ بفضلها مركز السكرتير العام، وصار سعيد باشا كامل، وصارت هي حرم الباشا المصون. . . وكان قد تعود المهانة كما يتعود الأنف الرائحة النتنة. . . وفي يوم من الأيام أعلن الباشا أنه مسافر إلى بور سعيد في رحلة تفتيشية تستغرق عشرة أيام. وبلغ المدينة وشرع في العمل بما عرف عنه من النشاط وعلو الهمة ولكن اعتوره تعب فجائي اضطر معه إلى قطع رحلته والعودة إلى القاهرة، وانتهى إلى قصره مع المساء، وكانت عودة غير متوقعة، فاستقبله البواب بدهشة لم تخف عن عينيه على ندرة اندهاش النوبيين،

والتقى الباشا بالسفرجي في الردهة التحتانية، فتولى الرجل الانزعاج ولم يستطع أن يخفي تأثره، فغضب الباشا وسأله: (أين الهانم؟) ولم يجب الرجل كأنه لم يسمع، فقال له بحدة: (أين الهانم يا أحمق؟)، فارتعب الخادم وقال بتلعثم: (فوق يا سعادة الباشا. . . فوق)، فصعد السلم الخشبي المفروش بالبساط الأحمر المخملي وهو يتساءل: ماذا هنالك!؟ وبلغ الصالة في ثوان، فرأى وصيفة زوجه تنسق باقة زهر ناضرة. . . فلما رأته حملقت في وجهه بذهول وجمدت عن الحركة لحظة كأنها فارة جذبت عيناها إلى عينيي هرْ. . . ثم هرعت إلى حجرة النوم ونقرت على بابها المغلق وهي تقول: سيدتي. . . الباشا هنا. . . فساوره القلق والاضطراب ودنا من الباب ووضع يده على الأكرة وهو يعجب كيف لم تسارع الهانم إلى فتح الباب واستقباله، ثم أدارها فلم ينفتح الباب، فالتفت ناحية الوصيفة فلم ير لها أثراً، فنقر الباب وهو يقول بصوت متهدج:

- يا هانم. . . لماذا تغلقين الباب؟

فلم ترد جواباً، فأدنى رأسه من الباب فسمع حركة وصوت اصطدام شيء صلب بالأرض. . . فاهتاجه الغضب. . . فضرب الباب بعصاه وصاح بحدة قائلاً:

- يا هانم. . . ألا تسمعينني. . . أمينة هانم. . .

ثم مضى يدفع الباب بعنف، فسمع صوت الهانم تقول:

- انتظر من فضلك في المكتبة حتى ألحق بك!

فقال بحدة: افتحي الباب

فردت عليه بهدوء وإصرار: انتظرني في المكتبة من فضلك

- هذا سلوك غريب. . . ما هذه الحركة بداخل الحجرة؟

- اذهب إلى المكتبة من فضلك

- لن أتنحى عن الباب حتى يفتح لي

فسكتت المرأة هنيهة ثم قالت بحدة وغضب:

- معي شخص ينبغي أن يخرج بسلام

وخذلته أعضاؤه المنهوكة فأحس خوراً، وذهولاً، وجموداً ثقيلاً ران على قلبه وتنفسه، ولبث دقائق لا يبدي حراكاً، ثم مضى بخطى ثقيلة إلى المكتبة وارتمى على مقعد ترتعش يداه من الانفعال والحنق، وقال بصوت كالمختنق: (يا عجبا. . . إنها لا تكلف نفسها مؤونة التستر على فضيحتها فالخدم يعلمون بغير ريب. . .)، واهتاجه الغضب ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً، وما كانت إرادته تقدر على أن تصطدم بإرادتها بحال، فتصاعد غضبه دخاناً كتم على أنفاسه وسد مسالك صدره. . . وقال بلهجة هسترية: (هل يكون هذا المنتهك حرمة فراشي إلا تلميذاً شريراً أو متعطلاً متسكعاً؟!) وانتظر أن تلحق به فلم تفعل؛ فقام مرة أخرى وقصد إلى حجرة النوم يسير بخطى مضطربة فوجدها جالسة على الشيزلنج منكسة الرأس، فلما أحست به بادرته قائلة:

- إني أغادر البيت في الحال إذا كان هذا يروقك

فلوح بعصاه غاضباً وقال بحنق:

- ما هذه الفضائح. . . ما هذه القذارة؟

وأصابت العصا ساقها دون قصد منه. فرفعت إليه بصرها وحدجته بنظرة باردة قاسية كان لها في نفسه وقع شديد وقالت له:

- أتضرب الساق التي رفعتك إلى أعلى المناصب؟!

لقد كانت تلك الكلمة أليمة موجعة، ولكن ذكراها التي تعاوده الآن أنكى وأمرّ وشعر عند ذلك بغمز موجع في صدره، فاتكأ على يديه الضعيفتين وهمَّ جالساً في الفراش وكسر مخدة واستند عليها متنهداً من الأعماق، وبدأ كالمستغيث من أفكاره، ولكن ذاكرته لم ترحمه ولم ترق لحاله فاستحضرت أمام ناظريه حادثة أخرى ليست دون سابقتها بشاعة وقبحاً. . . وكان ذلك وهو في أوج مجده الحكومي وكان يترأس حفلة بمدرسة الجيزة الثانوية فألقى كلمة استقبلت بالتصفيق والتقدير ووزع الجوائز على المتفوقين وغادر المنصة مودعاً من كبار الموظفين إلى سيارته وانطلقت به السيارة، وقد أخذ الظلام يغشى الطرق والحقول؛ وعند منعطف الطريق انبرى له شاب - ولعله كان تلميذاً - وصاح بأعلى صوته: (كيف تضرب الساق التي رفعتك إلى أعلى المناصب) وعرته رجفة شديدة، وتشنج جسمه فلم يلتفت نحو القاذف الخبيث

وشعر بانهيار وتفكك، فتفصد جبينه عرقاً بارداً ثم إلى دمه، وعجب كيف ذاعت هذه الجملة الآثمة حتى بلغت هذا الشاب. لقد غدا قصره مورداً لفضائح غير مستورة ينهل منها المتطوعون لإذاعة المخازي. على أنه كان في تلك الأيام قوياً مستهتراً يهضم ضميره القتيل الفضائح بغير مبالاة فهدأ روعه وقال باستهانة وحنق: (قولوا ما يحلو لكم قوله - فسأظل - وأنوفكم في الرغام، السيد المطاع والرئيس المرتجى. أما الآن . . .في ظل النقه والطهارة فقد امتعض وحزن وشعر بالذكريات تصليه لهباً جهنمياً ودخلت عند ذاك أمينة فسألته برقة: (كيف حالك يا باشا)؛ ثم جلست على مقعد وثير، فنظر إليها بعينيه الذابلتين نظرة غريبة لم تفهم معناها الحقيقي؛ وعجب الرجل كيف تحافظ على حسنها وشبابها حتى ليخال الناظر إليها أنها في منتصف عمرها، مع أنه لا يكبرها بأكثر من ثمانية أعوام. . . ثم قال لنفسه دهشاً: (رباه. . . كأني كلما زدت عاماً نقصت عاماً. . . فمتى تذبل وتذوي وتجفل من النظر إلى المرآة؟؟)

نجيب محفوظ

العدد 419 - بتاريخ: 14 - 07 - 1941

عبر من سيرة

للأستاذ عباس محمود العقاد

موسيقي عظيم وإنسان عظيم، وليس الموسيقى ببالغ أوج العظمة في (بدرفسكي) فنه حتى أوج العظمة الإنسانية في أفق من آفاقها العليا، وإن خيل إلى الأكثرين منا أن الموسيقى طرب، وأن الطرب لهو، وأن اللهو والعظمة لا يتفقان

كان (بدرفسكي) عظيماً لأنه كان أكبر من جميع تلك الأشياء التي يتصاغر لها الناس: كان أكبر من المال ومن المنصب ومن الأثرة ومن المتعة الرخيصة، وكاد أن يكبر على غواية الفن لولا أنه من الفن قد استمد الكبرياء والعظمة، فلا يهجره فترة يسيرة إلا بقوة منه، كما يهجر المرء حياته أحياناً بقوة من دوافع تلك الحياة

وللعظمة مقاييس شتى

وبدرفسكي عظيم بأكثر من مقياس واحد: عظيم بهذا الذي ذكرناه، وعظيم بإعطائه كل شيء حقه على قدر لا يستطيعه أوساط الناس، وعظيم لأنه قادر على العمل العظيم في غير ناحية واحدة. فلم ينحصر في موسيقاه ولا في دعوته الوطنية ولا في غزواته السياسية، ولم يجاوز في كل عمل من هذه الأعمال الكبار حده المقدور أبلغ العالم شكاة أمته بصوت الموسيقى، فكان داعية فن وداعية وطن. ثم ترك المناصب ليثوب إلى فنه بعد أن صنع ما كان في وسعه أن يصنع، ولم يبق من سب لبقائه في مناصب الدولة إلا التعلق بها والاستخذاء لغوايتها، وليس هو بالذي يتعلق بهذه الفتنة أو يستخذى لهذه الغواية

وجمع الذهب: أكداس الذهب، ثم فرق في خدمة القضية البولونية ما لو احتفظ به لكان أغنى من ملوك المال وأقدر من حكام الأمم

واشتدت به العصبية الوطنية غاية اشتدادها، ولكنه حين وهي الجوائز للنابغين في ضروب الموسيقى وهبها عالمية لكل مجيد وكل مأمول من أبناء القارة الجديدة ففيه لكل من الوطن والعالم والغنى نصيب بمقدار، وبين يديه هو ميزان ذلك المقدار

ومقياس آخر من مقاييس العظمة فيه أنه جند جيشاً وساس دولة ووجه الدول الأخريات توجيهاً لم يحلم به حالم من أبناء وطنه، ولكنه لم يكن من الحالمين وهو أجدر أبناء بولونيا

بالإمامة في عالم الأحلام

ومن يدري ماذا كان يجري في القارة الأوربية لو استمع أبناء قومه لنصحه واتبعوا هداه في العلاقة بينهم وبين جيرتهم من الروس. . . فلعل الذي كان يجري يومئذ غير الذي جرى الآن، وخير مما جرى أو سيجري بعد الآن!

بدرفسكي رجل عظيم لأنه موسيقي عظيم

وهذا شيء ينبغي أن نفهمه نحن الشرقيين خاصة لأننا أحوج إلى فهمه من جملة العالمين

نحن الشرقيين لا نفهم ما الدنيا وما الحياة في الدنيا حتى نفهم ما التعبير عن الحياة، ونفهم أن الفنون أرفع وأجمل ما وهب الإنسان من وسائل التعبير عن حياته بل عن حياتيه: الحياة الظاهرة التي لا خفاء بها، والحياة الباطنة التي ما خلت قط ولن تخلو

يوماً من خفاء
فليست الأصداء الموسيقية لغواً من لغو البطالة، ولا هي بذيل من ذيول الفراش أو ذيول السرير، ولا هي بتسلية للأذن تستطيبها كما يستطاب السجع الموزون والرنين المنغوم
كلا. ليست الأصداء الموسيقية كذلك، وليست الحياة شيئاً إن كانت الأصداء الموسيقية كذلك
نعم ليست الحياة شيئاً إن لم يكن لها تعبير، وليست هي شيئاً إن كان كل التعبير عنها لغواً أو تسلية أو متعة فراش
ومن السهل أن تزدري الرجل الذي يبتذل فنه لشهوة غيره، وليس من السهل أن تزدري الرجل الذي يعبر لك عن حياتك ويفتح لك من مغالقها ما عسى أن يحتجب عنك؛ فإنما هو واهب حياة وليس بواهب شهوة أو تسلية أو فضول
لهذا يلتقي الموسيقي العظيم والرجل العظيم في إنسان واحد. ولهذا نحسب بدرفسكي آية من آيات عصره، لأنه استرعى النظرة الجدية منهم حين أسندوا إليه رياسة الوزارة في قومه. وما كانت رياسة الوزارة علواً يرتفع إليه بعد أن رفعته العبقرية، ولا صوتاً مسموعاً في جانب من جوانب الأرض بعد أن سمع صوته في كل جانب منها، وإنما كانت ولاية الموسيقى لرياسة الوزارة دليلاً على النظرة الجدية التي ينظرون بها إلى فنه، أو ينظرون بها إلى الحياة والتعبير عن الحياة
ولو سئل أحد لم يكن بدرفسكي رجلاً عظيماً لما خطر له أن يقول: إنه كان عظيما لأنه تولى رياسة الوزارة البولونية في عهد من العهود، ولكنه يقول إنه كان عظيما لأنه كان أهلاً للجد وأهلاً للاضطلاع بالأمانة. ولا تناقض بين هذا وبين عزفه على البيان، واختراعه الجديد من الألحان، بل هذا حجة له على صدق العظمة فيه، واقتداره على كل ما يقتدر عليه العظيم
الحياة تأثير وتعبير. وماذا بعد هذين؟ بل ماذا في التأثير نفسه إن لم يتممه التعبير؟ فالعبقرية التي تتمم الحياة وتعطيها معناها ليست بالمنزلة الهينة بين منازل الإنسانية، وليست بالنافلة بين النوافل ولا باللغو الذي يكون أو لا يكون على حد سواء
قلت في ذكرى من ذكريات الموسيقار المصري النابغة سيد درويش إن (الأمة الكاملة عجزت مع هذا عن قضاء حق الرجل الفرد فمات بينها وهي تتعلم أنها أصيبت من فقده بمصيبة قومية، ولم تبال حكومتها أن تشترك في تشييع جنازته وإحياء ذكره كما تبالي بتشييع جنازات الموتى الذين ماتوا يوم ولدوا والمشيعين الذين شيعتهم بطون أمهاتهم إلى قبر واسع من هذه الدنيا يفسدون من أجوائها ما ليست تفسده العظام النخرات والجثث الباليات. . . أنقول مع هذا؟ بل ما لنا لا نقول إن الرجل قد أهمل في حياته وبعد مماته ذلك الإهمال القبيح لأجل هذا؟ أو ليست آدابنا هي تلك آداب هذا الشرق الجامد الذليل الذي تعاورته الرزايا وران عليه الطغيان؟ أو ليست آداب هذا الشرق المسكين تعلمنا أن العزيز العظيم من يسيء إلى الناس، وأن المهين الحقير من يتوخى لهم الرضى ويوطئ لهم أسباب السرور؟ أو ليس من شرع الاستبداد وسنن آدابه أن يكون الرجل عظيما لأنه يطغى ويكسر النفوس ويحنى الظهور ويعفر الوجوه؟ أو ليس هذا أعظم ما رأينا من العظمة في هذا الشرق الآفل منذ علم أبناؤه أنهم صغراء حقراء، فلن يكون الذي يتقدم إليهم بالرضى والسرور إلا أصغر منهم صغراً وأحقر منهم حقارة؟ بلى، وا أسفاه! إن دغائن الاستبداد ما برحت عالقة فينا بدخيلة السرائر، ننفضها فلا تنتفض إلا ذرة بعد ذرة، ونزن المنفوض منها فإذا هو لا يزيد في الهباء ولا ينقص راكد ذلك التراث. . .)
وقد مضت قرابة عشرين سنة بعد وفاة سيد درويش ونحن لم نتقدم خطوة في هذا المضمار. فلا تزال الأصداء الموسيقية ذيلاً من ذيول الفراش عند جمهرة السامعين. . . أتشك في ذلك؟ استمع إليهم وهم يصرخون ويزعقون بين لمحة وأخرى، ثم حاول أن توفق بين هذا النشوز الصادع وبين شعور السامع بانسجام الأنغام وائتلاف المعاني والأوزان. إن
التوفيق بينهما لمستحيل، ولكن لا صعوبة في التوفيق بين هياج الحس المستثار بتصور الشهرة وبين هذه الثورة الناشزة في الحناجر والأيدي والأقدام. فهم على مقربة من الفراش في صورته الحيوانية المريضة؛ ثم هم لا يستمعون ما يبعدهم عنه أو يحولهم

إلى فكرة غير التفكير فيه. وعليهم بعض الوزر على الموسيقيين والمطربين وعلى الماضي الذي خلف لهم ذلك التراث بقية الوزر التي لا ندري متى يدركها النفاد!
وبيننا وبين الخلاص من هذه البلية عقبتان: أولاهما أننا نحسب الفنون لهو بطالة. وثانيتهما أن اللهو في عرفنا إسفاف وضيع يعيره الإنسان فضول وقته، ولعل وقته كله فضول
من يصدقني من هؤلاء إذ أقول له إن الموسيقى جد رفيع وشاغل مقدس وليس به ظل ولا مجانة؟
لا أحد
فلنقل لهم إذن أن بدرفسكي الموسيقي تولى رياسة الوزارة في وطنه وتولى قبل ذلك زعامة قومه باعترافهم واعتراف الغرب كله، فإنهم ليصدقون إذن وهم حائرون أن الموسيقى جد والأمر لله!
ثم إنهم ليصرخون بعد ذلك ويزعقون كلما رجعوا إلى (التخت) الذي هو عندهم دهليز الفراش، ولا فضل له عليه!
عباس محمود العقاد
أبو المظفر الأبيوردي
شاعر العرب في القرن الخامس
للدكتور عبد الوهاب عزام
(تتمة)
- 6 -
فخر الأبيوردي بأمويته واعتز بها، ولكن عصبيته لبني أمية لم تورطه في العداوة التي أثارتها الفتن بين الأمويين والهاشميين، فهو يفخر ببني عبد مناف جميعاً لا يفرق بين هاشم وأمية كما يفخر بقرشيته وعربيته ويمدح العباسيين وبذكر مآثرهم، وإذا تحدث عن الصحابة وفى الخلفاء حقهم من الثناء والإجلال كما يتحدث المسلم الذي لم تخالط نفسه أهواء العصبية
يقول في مدح المستظهر بالله:
يا خير من بشرت بعد النبي به ... عدنانُ وادَّرعت عِزًّا به مضر
أحيا بك بالله ما كانت تُدلُّ به ... عُلى قريش ومنها السادة الغرر
لك الوقار من الصدِّيق تكنفه ... مهابةٌ كان محبَّوا بها عمر
وجود عثمان والآفاق شاحبة ... ونجدة من عليَّ والقنا كِسر
وعِلمُ جدك عبد الله شِيب به ... دهاؤه أعيا الوارد الصدر
ثم يذكر الخلفاء العباسيين إلى المعتصم
ويقول في قصيدة يمدح فيها الرسول والخلفاء الراشدين:
وكلّ صحبك أهوى فالهدى معهم ... وغَرب من أبغض الأخيار مفلول
وأقتدى بضجيعيك اقتداء أبي ... كلاهما دَمُ مَن عاداه مطلول
ومن كعثمان جوداً والسماح له ... عبء على كاهل العلياء محمول
وأين مثل عليّ في بسالته ... بمأزق من يّردْه فهو مقتول
إني لأعذل من لم يُصِفهم مِقة ... والناس صنفان: معذور ومعذول
ونجده في قصيدة أخرى يفخر بالأمويين والعباسيين والعرب كلهم
- 7 -
كان الأبيوردي شاعر العرب في القرن الخامس كما كان المتنبي شاعرهم في القرن الرابع؛ فشعره ينطق بإباء العرب وعزتهم، ويعرب عن طباعهم وأخلاقهم، ويتحدث بمآثرهم ومفاخرهم، ويمدح كثيراً من رؤسائهم، ويرثى لحالهم في عصره ويأنف ألاّ ينالوا حقهم. وهو كثير الحنين إلى بلاد العرب، نزاع إلى البداوة تشبها بهم
والفرق بين أبي الطيب المتنبي وأبي المظفر الأبيوردي أن الأبيوردي أكثر قصداً في فخره وثورته وتحدثه عن مطامعه؛ على أن له أصلاً في الملك يجعل كلامه أقرب إلى القبول وأدنى إلى التصديق
وكذلك يتشابه الشاعران العظيمان في العزوف عن الدنايا، والترفع عما فخر به الشعراء من معاقرة الخمر والاسترسال في الشهوات
ولا يعوز قارئ ديوان الأبيوردي الدليل على هذه الأخلاق والنزعات؛ يقول في اعتداده

بنفسه:
وإني إذا أنكرتني البلاد ... وشِيبَ رضا أهلها بالغضب
لكالضيغم الورد كاد الهوان ... يَدبّ إلى غابه فاغْتَرَبَ
فشيدتُ مجداً رسا أصله ... أمتَّ إليه بأمْ وأب
ولم أنظم الشِّعر عجباً به ... ولم أمتدح أحداً عن أرب
ولا هزني طمعٌ للقريض ... ولكنه ترجمان الأدب
ويقول:
وما أنا ممنْ يملأ الهول صدرَه ... وإن عضه ريب الزمان فأوجعا
إذا غسلت العار عني لم أُبَل ... نداء زعيم الحي أو نعى
والأبيوردي لا يرضى بعيشته، ولا يسكن إلى حاله، ولكنه يأنف أن يسف إلى المطمع الدون، ويستكبر أن تضرعه الحاجة إلى الذل، بل يرى الدنيا كلها أصغر من أن تذل لها نفوس الأحرار. يقول:
قضت وطراً مّني الليالي فلم أبح ... بشكوى ولم يدنس عليّ قميص
أغالي بعرضي والنوائب تعتري ... وغيري يبيع العرض وهو رخيص
وقد علمتْ عليا كنانة أنني ... على ما يزين الأكرمين حريص
فظهري بأعباء الخصاصة مثقل ... وبطني من زاد اللئام خميص
ويقول:
وإني لأقري النائبات عزائماً ... تروض بالدهر شامس
وأحقر دنيا تستروقُّ لها الطلى ... مطامع لحظي دونها متشاوس
تجافيت عنها وهي خود غريرة ... فهل أبتغيها وهي شمطاء عانس؟
أغالي بعرضي في الخصاصة، والمنى ... تراودني عن بيعه، وأماكس
وأصدى إذا ما أعقب الريَّ ذلة ... وأزجر عيسى وهي هِيم خوامس
ولي مقلة وحشية لا تروقها ... نفائس تحويها خسائس
ويمثل في أبيات أخرى ما يتنازع نفس الأبي الذي بدلت أحواله غير الزمان:
ولما انتهت أيامنا علقت بنا ... شدائد أيام قليل رخاؤها
وكان إلينا في السرور ابتسامها ... فصار في الهموم بكاؤها
أصيبت بنا فاستعبرت وضلوعها ... على مثل وخز السمهري انطواؤها
ولو علمت ماذا تعانيه بعدنا ... لما شمنت جهلاً بنا سفهاؤها
إلى أن يقول:
ملكنا أقاليم البلاد فأذعنت ... لنا رغبة أو رهبة عظماؤها
وجاست بنا الجرد العتاق خلالها ... سواكبَ من لباتهن دماؤها
فصرنا نلاقي النائبات بأوجه ... رقاق الحواشي كاد يقطر ماؤها
إذا ما أردنا نبوح بما جنت ... علينا الليالي لم يدعنا حياؤها
وأنفة الأبيوردي وعفته لا ترضيانه بأدنى العيش، فهو طماح إلى العلى، ساع لها، مغامر من أجلها:
رأت أميمة أطماري وناظرُها ... يعوم في الدمع منهلاً بوادره
وما درت أن في أثنائها رجلاً ... ترخى على الأسد الضاري غدائره
أغرَّ في ملتقى أوداجه صيَد ... حمر مناصله، بيض عشائره
إن رث بردي فليس السيف محتفلا ... بالغمد وهو وميض الغرب باتره
وهو يرى نفسه كفء المعالي التي يطمح إليها، وأهلاً لها بنسبه وهمته:
الله درى فكم أسمو إلى أمد ... والدهر في ناظريه دونه شَوَس
أبغي عُلًى رامها جدي فأدركها ... وكان في غمرة الهيجاء ينغمس
فأي أروعَ مني نبهت هممي ... وأي شأو من العلياء ألتمس
ويقول:
سأحمل أعباء الخطوب فطالما ... تماشت على ألاين الجمال القناعس
وأنتظر العقبى وإن بعُد المدى ... وأرقب ضوء الفجر والليل دامس
فلله دري حين توقظ همتي ... مساورة الأشجان والنجم ناعس
هذه الأنفة وهذا الإباء وهذا الطموح وهذه الكبرياء التي أوحت إليه أنه دون مكانته، وأن عليه أن يطلب مكانة تليق به وبآبائه، أكثرت حديثه عن مباشرة الخطوب وركوب

الأهوال في سبيلها والمحاربة من أجلها، يقول:
تقول ابنة السعدي وهي تلومني ... أمالك عن الدار الهوان رحيل؟
فإن عناء المستنيم إلى الأذى ... بحيث يذل الأكرمون طويل
وعندك محبوك السراة مطهم ... وفي الكف مطرور الشباة صقيل
فثب وثبة فيها المنايا أو المنى ... فكل محب للحياة ذليل
وقال:
سواي يجرَّ هفوته التظَّني ... ويرخى عَقد حبْوته التمني
ويُلبس جيدَه أطواقَ نعمى ... تشف وراءها أغلال مَنّ
إذا ما سامه اللؤماء ضيماً ... تمرَّغ في الأذى ظهراً لبطن
وظل نديم عاطية وروض ... وبات صريع باطية ودن
وأشعر قلبه فَرَق المنايا ... وأودع سمعه نغم المغنى
وصلصلةُ اللجام لديّ أحرى ... بعز في مباءته مُبِنْ
إلى أن يقول:
وهاأنا أوسع الثقلين صدراً ... ولكن الزمان يضيق عنَّي
ويقول:
يا صاحبي خذا للسير أهبته ... فغيرنا بمناخ السوء يحتبِس
أترقدان وفرع الصبح منتشر ... عليكما ودَماء الليل مختلَس
إن تجهلا ما يناجيني الحِفاظ به ... فالرمح يعلم ما أبغيه والفرس
سخط البيوردي وتحدثه بالثورة كانا نتيجة إبائه وطموحه وإنكاره المنزلة التي نشأ فيها كما كانا من سخطه للعرب واستنكافه أن تنزع المقاليد من أيديهم، وتوكل الأمور إلى غيرهم. فالنعرة العربية بينه في شعره، والأنفة للعرب مكررة في قصائده. قال في قصيدة يمدح فيها أبا الغمر المرواني أحد أقاربه:
دهر تذَأبّ من أبنائه نقَد ... وأوطئت عربٌ أعقاب أعلاج
وأينع الهام لكن نام قاطفها ... فمن لها بزياد أو بحجاج؟
وكم أهبنا إليها بالملوك فلم ... نظفر بأروع للغماء فراج
وأنت يا ابن أبي الغمر الأغر لها ... فقل لذود أضاعوا رعيها: عاج
وألقح الرأي ينتج حادثاً جللاً ... إن الحوامل قد همت بإخداج
وإن كويت فأنضج غير متئد ... لا نفع للكي إلا بعد إنضاج
إلى أن يقول:
متى أراها تثير النقع عابسة ... تردِى بكل طليق الوجه مبلاج
ولاَّج بابٍ أناخ الخطب كلكله ... به ومن غمرات الموت خرَّاج
في غلمة كضواريّ الأسد أحنقها ... زأر العدى دون غابات وأحراج. الخ
وله قصيدة يمدح بها بعض الوزراء من أسرته أولها:
من رام عزا بغير السيف لم ينل ... فاركب شبا الهندوانيات والأسل
ويقول فيها:
وخالفت هاشماً في ملكها عُصَب ... صاروا ملوكا وكانوا أرذل الخول
حنِّت إليهم ظبي الأسياف ظامئة ... حتى أبت صحبةَ الأجفان والخلل. . . الخ
ويقول في مدح أبي الشداد العقيلي يشكو حال العرب ويحرضه على أن يطلب لهم المكانة الجديرة بهم:
فإيه أبا الشداد إن وراءنا ... أحاديث تروى بعدنا في المعاشر
فمن بخِرْق ثائر فوق سابح ... تردَّى بإعصار من النقع ثائر
إذا حفزته هزة الروع خلته ... على الطَّرف صقراً فوق فتخاء كاسر
أترضى وما للعُرب غيرَك ملجأ ... توسدّهم رمليّ زرود وحاجر؟
بهم ظمأ أدمى الجوانح بَرحُه ... وذموا إلى الشعري احتدام الهواجر
وأما إعجابه بأخرق العرب وحنينه إلى ديارهم في مدحه وغزله فيذكران بأبي الطيب المتنبي. فهو يحن إلى البداوة ويتغزل بالبدويات، وإذا تحدث عن أمانيه وأعوانه فالمثل الأعلى عنده فتيان العرب
يقول في قصيدة يمدح بها المستظهر بالله:
معي كل فضاض الرداء سَمَيْدع ... أصاحب منه في الوقائع أروعا

غذته رُبَى نجد فشبَّ كأنه ... شبَا مشرفيّ يقطر السم منقعا
يُريح، إذا ارتج الندىّ بمنطق، ... كلاماً كأن الشيح منه تضوعا
ويُروى أنابيب الرماح بمأزق ... يظل غداةَ الروع بالدمُ مترَعا. . . الخ
ويقول في قصيدة يمدح بها أحد رؤساء العرب:
وترويك في قبس حياض تُظلها ... ذوابل في أيدي ليوث خوادر
بنو عربيات تحوط ذمارها ... كماة كأنضاء السيوف البواتر
ويقول في مدح سيف الدولة صدقة دبيس:
له عمة لوثاء تفتر عن نهى ... علمنا بها أن العمائم تيجان
وحنينه إلى البداوة وعاداتها يتبين في مثل قوله:
وأسرى بعيس كالأهلة فوقها ... وجوه من الأقمار أبهى وأبهر
ويعجبني نفح العَرار ورّبما ... شمخت بعريني وقد فاح عنبر
ويخدش غمدي بالحمى صفحة الثرى ... إذا جرَّ من أذياله المتحضر
فما العيش إلا الضب يحرشه الفتى ... وورد بمستن اليرابيع أكدر
بحيث يلف المرءُ أطنابَ بيته ... على العز والكومُ المراسيل تنحر
ويغشى ذراه حين يعتم للقرى ... ويسمو إليه الطارق المتنوّر
هذا طرف من أخبار هذا الشاعر العربي الأموي العظيم. ولعل المتأدبين من شباب العرب
يجدون في شعره متعة النفوس الكريمة، وشحذ الهمم الطامحة، ونمطاً من الكلم البليغ، اتفق على تجويده اللفظ والمعنى. ولعل الفرصة تتاح لبحث مفصل جامع في أدب هذا الشاعر
عبد الوهاب عزام
الحديث ذو شجون
للدكتور زكي مبارك
أحزان الإسكندريين توجه الفكر إلى نظرة فلسفية - بين الاحتلال والاستقلال - الاحتقلال - الألعبان - عمود ونصف غرائب التعابير - الكاتب العمومي - شيطنة أدبية - هل - في الأدب ديكتاتورية؟ - بعض ما يجهل الشبان - صيد الحوت في بحر الشمال! - كلمة صريحة - إلى الأستاذ (فريد أبو حديد).
أحزان الإسكندريين
وهذا خطاب جديد من الأستاذ عبد الطيف النشار، وهو يدعوني إلى أداء دين الإسكندرية شعراً، كما أديته نثراً؛ ثم يهتف:
نبكي لغِرناطةٍ حزناً ولم نرها ... فكيف بالثغر يذوي تحت أعيننا
يزول يوماً فيوماً من محاسنه ... ما كان ملء الليالي بهجة وسنا
وأجيب بأن من العسير علي أن أوجه خيالي إلى فواجع الإسكندرية، فما أدمت التفكير في نكبتها لحظات إلا شعرت بدوار عنيف يزلزل إحساسي بالوجود
والأستاذ النشار يروي في خطابه حديث اليوناني الذي رأى بعيني رأسه رجلاً في جبة خضراء يخرج من قبر (أبي الدرداء) ويعتنق الطوربيد؛ ثم يضعه في فناء المحافظة، ويأمره بان لا ينفجر. (وهو الطوربيد الذي لم ينفجر في دار المحافظة على بعد ثلاثة أمتار من قبر أبي الدرداء، وقد وجد الطوربيد ملفوفاً في باراشوت أخضر اللون)
ثم يقول الأستاذ النشار في هامش الخطاب:
فاتني أن أؤكد لك أن شعور العامة أنه يوم ديني من كبار المواسم لظهور كرامة فيه) (لأبي الدرداء الذي قتله البرد كراهية منه للنار، هو يحمي الإسكندرية من الاحتراق
وأقول: إني
لا أعرف بالضبط أين دُفن أبو الدرداء، ولا أعرف المكان الذي تحتله هذه (الرواية) بين الجد والمزاح، ولكني مع هذا لا أستبعد أن يكون للأموات أياد في مصاير الأحياء؛ فقد حبرت أكثر من سبعين صفحة من صفحات (التصوف الإسلامي) في تأييد نظرية (وحدة الوجود). ولم يبق عندي شك في أن الوجود كله مربوط برباط وثيق من الكهرباء، بحيث لا تنتقل ورقة من الخضرة إلى الذبول، ولا يتحول جسد من الحياة إلى

الموت، بدون أثير في الوحدة الوجودية، وإن غفل عن ذلك من يكتفون بما تقع عليه الحواس
وإذن فمن حق الإسكندرية أن تستنجد بأرواح أبنائها البررة والفجرة من أقدم عهودها إلى اليوم. ومن حقها أن تثق بأن كريها لن يطول، لأنه ليس إلا مرحلة قصيرة من مراحل الوحدة الوجودية وهي تنتقل باستمرار من وضع إلى وضع بدون أن يظهر أنها تفرق بين السعود والنحوس
ثم ماذا؟ ثم أقول لا موت في هذا الوجود، فليس فيه موجود غير حي، ولو كان هباء تذروه الرياح، فما كانت الحياة إلا عرضاً من أعراض الوجود، لنه في ذاته آصل من الحياة ومن الموت
ولهذه الفكرة الفلسفية تفاصيل لا يتسع لها هذا الحديث
بين الاحتلال والاستقلال
دعونا أصدقاء الرسالة إلى الموازنة بين حالتين من أحوال الشعوب: هما حال الاحتلال وحال الاستقلال، فكيف أجابوا؟ كان جواب الأديب (م. ف. م) أن عهد الاحتلال في مصر كان أفضل من عهد الاستقلال، ولكن كيف؟
كانت جداول (المناوبات) تنفذ بدقة في عهد الاحتلال، وكان التلاميذ أكثر التفاتاً إلى الدروس، وكان الزعماء أقوى وأقدر على النضال الشريف
وأقول إن هذه الشواهد لم تقنعني بأن الاحتلال أفضل من الاستقلال؛ فجداول المناوبات لا تحتاج في مراعاتها إلى عناء، وأنا مستعد لنقل جميع شكاياته إلى وزير الأشغال
أما انصراف بعض التلاميذ عن الدروس فله أسباب غير الاستقلال. وأما قوة الزعماء في عهد الاحتلال فلا ترجع لمزية أساسية من مزايا الاحتلال، وإنما هي فورة طبيعية يؤرثها الشوق إلى الاستقلال
ويقول هذا الأديب: (الاستقلال حلو ولذيذ، ولكن. . .)
وأقول إن الاستقلال لا يوصف بأنه حلو ولذيذ أيها الفلاح الأديب، وإنما يوصف الاستقلال بأنه متعب وشاق، لأنه يفرض على جميع أبناء الأمة أن يكونوا رجالاً أقوياء، وأمناء، والتسلح بالقوة والأمانة لا ينال بغير جهاد عنيف
أما الأديب أحمد فيقول: إن صورة العبد الآمن في حمى سيده هي صورة الشعب الذي ينعم بالرغد تحت ظل الاحتلال، ثم يقول إن الاستقلال ليس وسيلة وإنما هو غاية من أبعد الغايات في الحياة
وأنا أنتظر آراء أصدقاء (الرسالة) في هذا الموضوع الدقيق على شرط أن يتركوا العبارات الخطابية، لأني أحب أن يتضح هذا الأمر بأساليب تغرس الإيمان الوثيق، مع الترحيب بالآراء التي أيدها (فلاح التوفيقية) لأن أمثال هذه الآراء تتيح فرصاً كثيرة لتبديد الشبهات التي توجه إلى عهد الاستقلال
الاحتقلال
ليست هذه كلمة الأستاذ إسعاف النشاشيبي ولا كلمة المرحوم أحمد زكي باشا، وإنما هي كلمة اللغوي المحقق الأستاذ محمد وحيد الأيوبي
الألعبان
وما دام الحديث ذو شجون فأنا أذكر نادرة تمثل أخطار الأقلام في هذه البلاد، وتبين أن عداوة الشعراء في العصر القديم ليست أخطر من عداوة الكتاب في العصر الحديث. . . والكاتب في زماننا أقدر من الشاعر على الإيذاء: لأن حرية التعبير تخلق له آفاقاً لا يصل إليها الشاعر المحبوس في قفص القوافي والأوزان، ولأن للكاتب مجالات لا يجري فيها الشاعر، وإن بالغ في التلطف والاحتيال
وكان الأستاذ وحيد الأيوبي يعادي الزعيم سعد زغلول، وكان يكتب في قدحه عبارات لذاعة تحت عنوان (الألعبان) أشهرها العبارة الآتية:
وقد رأت (دار الهلال) أن (!!!ألآن، وبعد فوات الأوان، يتكلم عن السودان؟ أما ألعبان) تصدر مجلة فكاهية باسم (الألعبان) فرفضت وزارة الداخلية بحجة أن في هذا الاسم تعريضاً بالزعيم سعد زغلول، وسمحت بأن يحول الاسم من وضع إلى وضع فيصير (الفكاهة) لا (الألعبان)
أليس هذا دليلاً على أن الكاتب خلف الشاعر في إيذاء الرجال؟

اتقوا شر الكتاب ولا تخاطبوهم إلا باحتراس، فهم شعراء هذا الزمان!

عمود ونصف!

كانت أطول مقالة للأستاذ عبد القادر حمزة لا تزيد عن عمود ونصف، إلا أن ظرف قاهر يوجب الترسل الفياض

أكتب هذا بمناسبة خطاب أرسله إلى الأستاذ حافظ محمود سكرتير لجنة الاحتفال بتأبين صاحب البلاغ؛ ومنه علمت أن الوقت لا يتسع لكلمتي في رثاء ذلك الصديق الغالي

ولو كانت لجنة الاحتفال تعلم الغيب لعرفت أن كلمتي في رثاء عبد القادر حمزة لم تكن تزيد عن عمود ونصف، اقتداء بصاحب البلاغ في اكتفائه بعمود ونصف، وتوجيهاً لمن يفوتهم أن بعض المقامات تجعل الإيجاز أبلغ من الإطناب انظروا، ثم انظروا، أن عواقب المخلصين؟

كنت وحدي الصديق لصاحب البلاغ في كثير من العهود، وأنا اليوم لا أجد فرصة أتحدث فيها عنه بما أشاء، لأن الموت صرف عنه العداوات الوقتية؛ فأصبح أصدقاؤه يعدون بالألوف وألوف الألوف، بحيث يتعذر علي أصدق محبيه أن يودعه بكلمة رثاء في حفل مشهود

ما أسعدني بما صرت إليه يا أخي وصديقي!

لقد كنت أخشى أن تلاحقك العداوات فلا يقوم بتأبينك رجل غيري

ولكن نحن في مصر، يا أخي وصديقي، مصر التي تحفظ الجميل لأبنائها الأوفياء وإن تظاهرت حيناً بالتنكر لمجدهم الأصيل

غرائب التعابير

إن قلت: (كان المرحوم مصطفى يطالب بالجلاء، كانت (المرحوم) كلمة خفيفة في الترحم على رجل من نوادر الزعماء، وإنما ينبغي أن تقول: (كان المغفور له مصطفى كامل. . .)

وإن قلت: (كان مصطفى رحمه الله يرى. . .) كانت عبارة (رحمه الله) عبارة جميلة.

وإن قلت: (كان مصطفى كامل غفر الله له يرى. . .) كان في عبارة (غفر الله له) تعريض! فالوصف يخالف العبارة المأخوذ عنها في القيمة الأدبية، بلا موجب معقول، وإنما كان ذلك لأن التعابير لا تأخذ قوتها من المنطق في جميع الأحيان، وإنما تخضع للعرف وهو الذي يكون الإحساس

الكاتب العمومي

وحين دعي السنيور ميكلانج جويدي للتدريس في الجامعة المصرية سنة 1927 كان عليه ذوقياً أن يقول في المحاضرة الافتتاحية كلمة ثناء على مدير الجامعة والسكرتير العام، ولم يلتفت إلى اللقب الأخير من الوجهة الاصطلاحية، وإنما ترجمه عن الفرنسية فجعله (الكاتب العمومي) فضحك الجمهور، وخرج علي بك عمر رحمه الله، وهو ساخط على (ذوق) المستشرقين!

وكان علي بك عمر هو السكرتير العام للجامعة المصرية في ذلك الحين

شيطنة أدبية!

كنت قلت: إن مجلة الثقافة لا تدقق في اختيار ما تنشر من الأشعار؛ فاعترض أديب لا أسميه بأن مجلة الرسالة تقع في مثل هذا الخطأ بنشر أشعار محمود حسن إسماعيل!! والاعتراض غير مقبول، مع الاعتراف بما فيه من طرافة الشيطنة الأدبية

هل في الأدب ديكتاتورية؟

يصر الأديب عزت حماد منصور على القول بأن في مصر ديكتاتورية أدبية، وبأن الأدباء الشباب يعانون عداء من الأدباء الكهول، ثم يعجب من أن تتاح الفرصة لظهور بعض الشبان دون بعض، كالذي تصنع (الرسالة) في نشر مقالات هذا الأديب، وإغفال مقالات ذلك الأديب، بلا حدود واضحة تبين سبب النشر وسبب الإغفال

وأجيب بأن من الصعب أن أصدق أن لمجلة الرسالة نية في تقديم فريق على فريق، وإنما يرجع الأمر كله إلى (سياسة القول) فالأديب الشاب قد يتوهم أن له أن يقول ما شاء، متى شاء، بدون أن يلاحظ أن للكلام مقامات لا يدركها غير كبار العقول، وهذا هو السر في

إغفال أكثر مقالات الشبان
وأنا أعرض الموضوعات الآتية:
1 - النص على غلطة جوهرية فيما تنشر (الرسالة) لكتابها المعروفين
2 - قديم اقتراح مبتكر لم نشره الجرائد فيما يجب لإغاثة المهاجرين
3 - إعداد بحث في تاريخ المدائن التي تعاني أهوال الحرب
4 - كلمة وجيزة عن الألفاظ التي حرفتها الجرائد أيام الثورة العراقية، مثل (باكوبا) و (فالوجا) في مكان: (بعقوبة) و (الفلوجة)
5 - كلمة في نقد أسئلة امتحان المسابقة لترقية التعليم الثانوي
6 - كلمة في التعقيب على أحاديث رئيس الوزراء بأسلوب بريء من التحامل والإسفاف
7 - مقال موجز (عن خط ستالين)
8 - كلمة عن الأماكن التي سميت باسم (ماجينو) في القاهرة قبل أن يستولي عليه الألمان
9 - قصيدة في الترحم على (قطار البحر) وأيامه البيض
10 - قصيدة في التوجع للمكاره التي تعانيها سورية ولبنان وقد أصبحتا ميادين حروب لثلاثة جيوش
11 - خبر أدبي لا تعرفه اللجنة التي ألفت لتأبين صاحب (البلاغ)
12 - أقصوصة تصور سخرية الإسكندرية من غرور المعتدين
13 - كلمة عن نوادر المخطوطات في مكتبة الإسكندرية لنسارع بنقلها إلى مكان أمين
14 - مقال وجيز تحدد به الأغراض الصحيحة لوزارة الشؤون الاجتماعية
15 - كلمة صريحة في الأسباب التي دعت إلى انصراف فريق من الشبان عن الزواج
16 - دعوة الجامعة إلى إنشاء قاعة للمحاضرات فيقلب مدينة القاهرة

أما بعد فأنا أقرر للمرة الأولى بعد الألف أن الأدب من صور الحياة، فافهموا عصركم وتأثروه، يا أبناء هذا الجيل، ليكون في أدبكم قوة وروح، ولا تصنعوا ما صنع الأديب الذي سخر منه صاحب مجلة (منبر الشرق) وقد توهم ذلك الأديب أن الكلام في اليأس والترحيب بالموت يقبل من جميع الناس وفي جميع الأحايين

بعض ما يجهل الشبان

والشبان يتوهمون أن الكتاب المشاهير لا يرد لهم قول، وهذا خطأ فظيع، فلأولئك المشاهير مقالات يطوونها آسفين، إلى أن تسمح بنشرها الظروف

قضيت عامين كاملين في تعقب (إسكندرية أبي الفتح) ولم أر فرصة لنشر هذا البحث، لأن الأستاذ إسعاف النشاشيبي سكت عنه بعد أن تعرض له في مجلة (الرسالة) منذ ثلاث سنين

الشبان وصيد الحوت

حدثنا الأستاذ أنطون بك الجميل قال:

كان لأحد الأدباء مقال مؤجل في جريدة الأهرام، واشتط هذا الأديب في السؤال عن مصير ذلك المقال، فقلت إن الجريدة مشغولة بقضية المؤامرات، فقال: إن موضوع مقالة أهم من تلك القضية، فقلت وما الموضوع؟ فأجاب: صيد الحوت في بحر الشمال!)

ومن المؤكد ن هذه قصة خيالية من مبتكرات رئيس تحرير الأهرام، وإن أقسم على صحتها بأغلظ الإيمان

ولكن لهذه القصة أشباه ونظائر تقع في كل يوم، فأكثر أدباء الشباب يصيدون الحوت في بحر الشمال، ولو صادوه في أيام الهجوم على النرويج لكان كلامهم فيه من ألطف ما تنشر الجرائد والمجلات

ولكنهم مع الأسف يصيدون في غير أوقات الصيد

إلى الأستاذ فريد أبو حديد

صديقي العزيز

قراء (الرسالة) يذكرون - إن كنت نسيت - أني وجهت إليك تحية خالصة بمناسبة سفرك إلى السودان، وهي تحية لم أرد بها التودد إليك، وإنما أردت بها إكرامك وإعزازك، على نحو ما أصنع في التنويه بمواطني الفضلاء حين يمضون لأداء بعض

الواجبات في أحد البلاد العربية أو الإسلامية
فما الواجب للكلمة الجافية التي ندت عن قلمك في مخاطبتي؟ وكيف تصنع بنفسك هذا الصنيع فتنفر أحد محبيك بدون أن تفكر في عواقب ذلك، وقد أصلحت الأيام ما كان بيني وبينك؟ هل يؤذيك أن أثير المنافسة بين (الرسالة) والثقافة، وأنت تعرف أن المنافسة من
أقوى الأسباب في إذكاء العزائم والعقول؟ وهل تنسى أن المنافسة بي هاتين المجلتين واقعة بالفعل وأن زملاءك في مجلة الثقافة يحسبون لها ألف حساب، ويتقون نارها بالصبر الجميل؟ وهل تنكر فضل هذه المنافسة عليك وقد أخرجتك من وقارك فقلت ما قلت في صديق لك يكن يسرك أن يثور بينك وبينه خلاف؟
ثم تنكر علي أن أوجه نصيحة إلى كتاب (الثقافة) مع أنكم استفتيتم قراءكم سنة كاملة ليدلوكم على سنن الصواب في الترجمة والإنشاء!
وشاء لك الذوق أن تدعوني إلى الحرص على جمال الأسلوب فكانت هذه الدعوة دليل الوهم بأنك صرت كاتباً له أسلوب؛ والوهم يصنع بأصحابه ما يشاء
وتلطفت فقلت: (لفت نظري أحد الأصدقاء إلى أن الدكتور زكي مبارك ذكر اسمي في شجون حديثه) فهل يكون معنى ذلك أنك لا تقرأ بنفسك، وإنما ترفع الأخبار إليك في جذاذات، كما ترفع إلى بعض المقامات؟ تواضع قليلاً، يا أستاذ فريد، ليفتح الله عليك!
وتقول إني لقيتك عفواً فحملتني تحية أهل السودان إلى الأستاذ الزيات، وأقول إني لقيتك عمداً لا عفواً لأهنئك بسلامة العودة، ولأقبس بعض ما طبعت تلك الزيارة على وجهك من نور وصفاء!
أما بعد فأنا غير نادم على التحية التي وجهتها إليك، لأني لم أكن أنتظر منك أي جزاء، ولأني أرجو أن أتحفك بمثلها في مناسبة ثانية، إن أراد الله أن يجعلك أهلاً لكرائم التحيات، ولعله يريد!
زكي مبارك
. . .دمشق
لأستاذ علي الطنطاوي
وهل توصف دمشق؟ هل تصور الجنة لمن لم يرها؟ من يصفها وهي دنيا . . .(!دمشق) من أحلام الحب وأمجاد البطولة وروائع الخلود؟ من يكتب عنها (وهي من جنات الخلد الباقية) بقلم من أقلام الأرض فان؟
دمشق: التي يحضنها الجبل الأشم الرابض بين الصخر والشجر، المترفع عن الأرض ترفع البطولة العبقرية، الخاضع أمام السماء خضوع الإيمان الصادق. . . دمشق التي تعانقها الغوطة، الأم الرؤوم الساهرة أبداً، تصغي إلى مناجاة السواقي الهائمة في مرابع الفتنة، وقهقهة الجداول المنتشية من رحيق بردى، الراكضة دائماً نحو مطلع الشمس، تخوض الليل إليها لتسبقها في طلوعها؛ وهمس الزيتون الشيخ الذي شيبته أحداث الدهر فطفق يفكر فيما رأى في حياته الطويلة وما سمع، ويتلو على نفسه آيات حكمته؛ وأغاني الحور الطروب الذي ألهاه عبث الشباب ولهو الفتوة عن التأمل والتبصر، فقضى العمر ساحباً ذيل المجون مائساً عجبا وتيها، خاطراً على أكتاف السواقي وعلى جنبات المسارب ليغازل الغيد الحسان من نبات المشمش والرمان، ويميل عليها ليقطف في الربيع وردة من خدها، أو ثمرة من قلائد نحرها، ثم يرتد عنها يخاف أن تلمحه عيون الجوز الشواخص، والجوز ملك الغوطة جالس هناك بجلاله وكبريائه، ولا جلال ملك تحت تاجه، وعاهل فوق عرشه
دمشق: التي تحرسها (الربوة) ذات (الشاذروان)، وهي خاشعة في محرابها الصخري تسبح الله وتحمده على أن أعطاها نصف الجمال حين قسم في بقاع الأرض كلها النصف الثاني. . . وما الربوة إلا حلم ممتع غامض يغمر قلب رائيه بأجمل العواطف التي عرفها قلب بشري فيذكر كل إنسان بليالي حبه وساعات سعادته، ثم يتصرم الحلم ويستحيل إلى ذكرى حلوة لا تمحوها الأحداث ولا تطغى عليها سيول الذكريات. .
. الربوة: لحن من ألحان السماء ألقته مرة واحدة في أذن الأرض. . . الربوة هي الربوة لمن يعرفها وكفى! دمشق من أقدم مدن الأرض وأكبرها سناً وأرسخها في الحضارة قدماً. كانت مدينة عامرة قبل أن تولد بغداد والقاهرة وباريس ولندن، وقبل أن تنشأ الأهرام وينحت من الصخر وجه أبي

الهول، وبقيت مدينة عامرة بعد ما مات أترابها واندثرت منهن الآثار، وفيها تراكم تراث الأعصار، وإلى أهلها اليوم انتقلت مزايا كل من سكنها في سالف الدهر، ففي نفوسهم من السجايا مثل ما في أرضها من آثار التمدن وبقايا الماضي طبقات بعضها فوق بعض. . . فالحضارة تجري في عروقهم مع الدماء، وهم ورثتها وحاملو رايتها، وهي فيهم طبع وسجية؛ ولقد تكون في غيرهم تطبعاً وتكلفاً، فأي مدينة جمع الله لها من جمال الفتوة وجلال الشيخوخة كالذي جمع لدمشق؟

وأصعد جبل دمشق حتى تبلغ قبة النصر (التي بناها برقوق سنة 877 للهجرة ذكرى انتصاره على سوار بك). ثم انظر وخبرني هل تعرف مدينة يجتمع منها في منظر واحد مثل ما يجتمع من دمشق للواقف عند قبة النصر؟ أنظر تر البلد كله ما يغيب عنك منه شيء: هاهنا قلب المدينة وفيه الجامع الذي لا نظير له على وجه الأرض - لا أستثني ولا أبالغ - وقبة النسر تعلو هامته كتاج الملك، بل كعمامة الشيخ، وهاهي ذي مناراتها التي تعد مائة وسبعين منارة، منها عشرون من أعظم منارات العالم الإسلامي، قد افتن بناتها في هندستها ونقشها، فاختلفت منها الأشكال واتفقت في العظمة والجلال، لا كمآذن بغداد التي لا يختلف شيء منها عن شيء، فإذا أبصرت منها واحدة، فكأنما أبصرتها جميعاً. . . يحف بذلك كله الغوطة الواسعة التي تبدو للناظر كأنها بحر من الخضرة قد نثرت فيها القرى التي تنيف على الأربعين عدا، أكبرها (دوما) ذات الكروم، (وداريا) التي تفاخر بعينها كل أرض فيها عنب، (وحرستا) بلد الزيتون ومنبت الإمام محمد صاحب أبي حنيفة، (وجرمانا) وهي حديقة ورد، وكفرسوسية، وكفربطنا، والأشرفية، وصحنايا، والمآذن وهي ماثلة خلال الأشجار، ووراء الغوطة سهول المزة عن اليمين، وسهل القابون عن الشمال، وبطاح من الأمام، وسهول تمتد إلى الأفق، حيث تغيب الجبال البعيدة في ضباب الصباح، ووهج الظهيرة، وصفرة الطفل، وسواد الليل. . .

إنك تشمل هذا كله بنظرة منك واحدة وأنت قائم مكانك، فأين يا صديقي القارئ ترى مثل هذا؟

وبردى؟ لما قدم شاعر العرب عاصمة العرب ومر على بردى وهو يمشي بين قصر أمية ودار البلدية مشية العاجز الهرم، قال له صاحبه مستقلاً بردى مستخفاً به: أهذا الذي ملأت الدنيا مدحاً له؟ يظن صاحب شوقي أن النهر بكثرة مائة وبعد ضفتيه. ما درى أن بردى هو الذي يجري في الوادي زاخراً متوثباً نشيطاً لا الذي يجري في (المرجة) متهافتاً كليلاً، وأنه هو الذي أطعم دمشق الخبز، وهو الذي زرع بساتين الغوطة، وهو الذي أنار دمشق بالكهرباء وسير فيها وفي غوطتها (الترام)، وهو الذي لا تضيع قطرة منه واحدة على حين تمر دجلة على بغداد مر الكرام، تقرأ عليها السلام. . . ثم تحمل خيرها كله لتلقيه في البحر، لا تمنح بغداد منه إلا ما تأخذه بالمضخات والنواعير التي لا تسير إلا بمال. فمن رأى مثل بردى (في بره بأرضه وكثرة خيراته) نهراً؟ من ذاق أطيب من مائه؟ من أبصر أجمل من واديه؟ . . .

لقد علم أبناءه الولع بالخضرة والظلال، وحبب إليهم أفانين الجمال، فصارت (السيران) من مقومات الحياة في دمشق لا تحيى أسرة إلا بها، ولا تستغني عنها، فهي لهم كالغذاء، فهل يستغنى عن الغذاء؟ هل يمكن أن يجيء يوم صائف من أيام الشتاء فتبقى دمشقية أو يبقى دمشقي في بيته لا يؤم (المهاجرين)، حيث يجتمع الشعاف والصخور وفي ظلال الآس الرجال والنساء على طهر وعفاف، وتدور أكواب الشاي (الأخضر) خمر المسلمين، وتنطلق بالغناء الساحر أوتار الحناجر وتجري خيول السبق في ساحة الجريد؛ ثم جاء وقت الصلاة قاموا إليها فلا ترى إلا جماعات وأئمة، ثم ينفض اجتماعهم عن طرب وفروسية وعبادة، وتلك هي المثل العليا لأهل الشام

وهل تمر أمسية من أمسيات الصيف على دمشقي قاعد في دكانه أو قابع في بيته؟ تعال انظر جماعاتهم في قهوات (شارع بغداد) وفي كل قهوة مؤذنها (إي والله) وإمامها. وعلى ضفاف بردى عند (صدر الباز) وفي (الميزان)، أجمل موضع في دمشق، وأمامهم سماورات الشاي الصفر الرشيقة، وفي كل حلقة مغنيها، وليس مثل الشاميين في الولع بالغناء، فلا ينفرد الرجل بنفسه إلا غنى لها؛ فالفلاح وهو نازل من قريته مع الفجر يغني، والحوذي وهو يسوق عربته إلى (جسر تورا) أو إلى (كيوان)

. .يغني، وأجير الخباز وهو يحمل المعجن على رأسه يغني، ونداء الباعة كله غناء وشعر .
قف ساعة على ظهر الطريق واسمع ما ينادي به الباعة تر عجباً لا شبيه له في البلاد؛ قصائد من الشعر غير أنها مرسلة القوافي، وطرائف من الغناء غير أنها محلولة القيود، تمشي إلى القلوب طليقة حرة لا تسمى شيئاً باسمه؛ وإنما هي مجازات وكنايات، عجب منها بعض من كتب عن دمشق من سياح الإفرنج فتساءل في كتاب له عما نظم للباعة هذه الأشعار الرقاق! وتعال استمع هذا البائع وهو يتغنى بصوت يقطر عذوبة وحناناً (يا غزل البنات، يا ما غزلوك في الليالي، يا غزل البنات) ويضغط على (الليالي) ويمد (البنات)، هل يستطيع قارئ أن يؤشر يحرز ماذا يبيع هذا المنادي! لا لن أقول فتعالوا إلى دمشق لتأكلوا غزل البنات. . . وهذا بائع يهتف بكلمة واحدة لا يزيد عليها (الله الدايم) هل يقنع في حسابك أنه يبيع (الخس)، وأن (يا مهون يا كريم) نداء بائع (الكعك) عند الصباح، وأن من الباعة من ينادي بالحكم الغوالي كهذا الذي ينادي: (ويل لك يا ابن الزنا يا خاين) فيفهم الناس أنه بائع (الترخون)
أولا يشجيك ويثير سواكن أشجانك بائع العنب حين تدنو أواخره فينادي بصوت حزين (هدوا خيامك وراحت أيامك. ما بقى في الكرم غير الحطب يا عنب، ودع والوداع لسنة يا عنب) ألا تحس كأنه يودع حبيباً له عزيزاً عليه؟ وبائع العسل (أي الشمندر) وقد أوقد ناره في الصباح البارد، ووضع (حلته) وصفف رؤوس الشمندار الأحمر ونادى في أيام الشتاء (بردان! تعال صوبي بردان. . . أنا بياع العسل) ألا يجيب إليك أكل العسل؛ واسمع العجائب في نداء بائع الملفوف (اليخنا): (يخنا واطبخ، والجارية بتنفخ، والعبد عَ الباب، بِقلْع الكلاب) وبائع الحمص المسلوق (البليلة): (بليلة بلبلوك، وسبع جوار خدموك، يا بليلة)، وبائع الزعرور (أبيض أحمر يا زعبوب؛ تمر محنى يا زعبوب، البزر يا زعبوب)، واستمع إلى الشعر والخيال في نداء بائع الجرادق (يا ما رماك الهوا، وقلبي انكوى، يا ناعم). وبائع التين (دابل وعلى دبالك يا عيون الحبيب، ومن دباله يمشي لحله)؛ وبائع الباذنجان (أسود ومن سواده هرب الناطور) ألا تعجبك صورة الناطورة وقد هرب من سواد الباذنجان؟
وهذا كله كان من ولع الشاميين بالغناء وإقبالهم عليه حتى انعقد إجماع فقهاء الذوق فيهم على أنه يصيح اجتماع أو سمر إلا بالغناء؛ وإذا سها عنه ساه، فكفارته إطعام عشرة أصدقاء صدر كنافة شامية، أو صدر (كل واشكر) أو غير ذلك من الحلويات التي لا يخالف أحد في أن دمشق أبرع مدينة في صنعها. واسألوا محل (أسدية) في القاهرة، ومطعم
الفردوس في بغداد، واذكروني بالخير، فإن الدال على الخير كفاعله
والدمشقيون أكرم الناس، وأشدهم عطفاً على الغريب، وحباً له، فهم يؤثرونه على الأهل والولد؛ ومدينتهم من أنظف المدن لتدفق مائها وكثرة أنهارها، ووصولها إلى الأحياء كلها ودخولها البرك في الدور، حتى لا يخلو حي من نهر. فنهر (يزيد) يسقى الصالحية، و (تورا) يسقى العقيبة وسوق صاروجا، و (باناس) يسقى، القيمرية، و (قنوات) يسقى حي القنوات، وقد أخذت مياه عين الفيجة (وهي أصفى العيون وأعذبها تنبع من جبل على عشرين كيلاً من دمشق) فسيرت مياهها في بطون حتى أبلغت دمشق فأدخلت دورها، فشرب منها الناس أعذب ماء وأبرده. والشاميون مولعون بالنظافة والطهارة، حتى أنه ليعد من أكبر عيوب المرأة ألا تغسل أرض دارها كل يوم مرة أو مرتين بالماء غسلاً وتمسح جدرانه وزجاجه، على رحب الدور الشامية، واتساع صحونها، وكثرة مرمرها ورخامها. وادخل المساجد تر بلاطها يلمع كالمريا، ويحبب الصلاة إلى من ليس من أهلها. وعرج على المطاعم تبصر الأطعمة مصفوفة أمامك في القدور الصغار النظاف بأناقة تجيع الشبعان، ونظافة تطمئن إليها نفس الموسوس. أما ألوان الطعام في الشام فلا يضاهيها شيء في غيرها، وما أكل الغريب في دمشق حلواً ولا حامضاً ولا حاراً ولا بارداً إلا استطابة على طعام بلده، وما استطاب الشامي في غير بلده طعاماً قط. ومن خير مطاعم مصر والعراق، وألذها طعاماً وأحسنها نظاماً، ما كان صاحبه شامياً أو كان على مذهب أهل الشام. ثم إن خدم المطاعم والقائمين عليها طيعون أذكياء، وهم يدركون باللمحة السريعة، ويفهم بالإشارة الخفية.

ودمشق أرخص بلاد الله وفيها النعيم المقيم ولا تخلو من ثمر قط لا في الصيف ولا في الشتاء. أما جودة ثمارها فأشهر من أن تذكر؛ وفيها من العنب ما يزيد على خمسين نوعاً، ومن المشمش تسعة أنواع، ومن التين قريب من ذلك، ومن الدراق والكمثرى والتوت الشامي والجوز واللوز ما لا يوجد مثله في غيرها والدمشقيون أهل براعة في الصناعة وعندهم من المعامل الكبيرة معمل للإسمنت عظيم (في دمر ظاهر دمشق) ومعمل للأقمار (الكونسروه) لا نظير لما يصنعه. ومعمل للدباغة كبير، ومعمل للجوخ، ومعامل كثيرة لا تحصى للمنسوجات القطنية والصوفية والحريرية والجوارب (والكرافات)، ومعمل للزجاج، ومعامل صنعت أكثر من أنواع الأدوية وحكم الأطباء بجودة ما تصنعه، ومعامل لأنواع السكاكر والمربيات (والشوكولاته). وفي دمشق مدرستان للعلم الديني فيهما أكثر من خمسمائة طالب متعمم فضلاً عن الصغار، ومدرسة للطب تدرس العلوم كلها بالعربية؛ ولأساتذتها فضل كبير على ما وضع من المصطلحات العلمية في لغة العرب. وفيها مدرسة للحقوق العربية. وفيها أنشئ أول مجمع علمي عربي صحيح. وفي الشام كثير من الآثار الباقية من القرون الخالية: كالقلعة والسور، والمدارس، والمارستانات، والمساجد القديمة، والربط والخانات، ولكل من ذلك حديث طويل وتاريخ حافل، ولكن الإدلاء الجاهلين لا يعرفونها ولا يدلون السياح عليها. وفيها مدافن كثيرين من أعلام الإسلام في السياسة والعلم والأدب والتصوف. وفي مكتبتها الظاهرية نوادر المخطوطات، حتى أنها لتعد أغنى الخزائن الإسلامية فريدة. ودمشق ذاخرة بالعلماء في كل فن وعلم وليس للعروبة مثل دمشق موئلاً وملاذاً، وليس في المسلمين مثل أهلها تمسكاً بالدين وإقامة لشعائره، فمساجدها ممتلئة أبداً؛ فيها كل شاب متأنق تراه فتحسبه من شراب مياه التايمس أو السين، وهو مسلم حقاً، مؤمن صدقاً، ناشئ في طاعة الله؛ ومساجد بلاد العرب إن امتلأت فبالشيوخ والشيب!

والمنكرات في دمشق مقموعة وأهلها الأذلاء. وللعلماء العقلاء المخلصين منزلة عند أهل دمشق ليس لأحد من أبناء الدنيا مثلها. والسفور في نساء الشام قليل نادر، والاحتشام والستر عام شامل. وأهل الشام كالماء لهم في الرضا رقته وسيلانه، وفي الغضب شدته وطغيانه، بل كان لهم من البركان فوراته وثوراته

وبعد فأي مزاياك يا دمشق أذكر، وإلى أي معاهدك أشتاق، وأيها أحن إلى حسنه وأهيم بجماله، وفيك الدين وأنت الدنيا، وعندك الجمال وعندك الجلال، وأنت ديار المجد وأنت ديار الوجد، جمعت عظمة الماضي وروعة الحاضر، وسيكون لك المستقبل. . . المستقبل لك يا دمشق، عشت وعاش بنوك والسلام عليك ممن غربته عنك وأنكرته، وأشقيته بالوفاء حين أسعدت بالغدر الغادرين

علي الطنطاوي

من دموع عذراء

العبير النائح

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

إِنَّي أَرَاكِ كَزَهْرَةٍ ... في الْغابِ نَائحَةِ الْعَبِيرْ
مَذْعُورَةِ الأَكمامِ بَيْ ... نَ خُطَا السَّمائِمِ والهجِيرْ
عَذراءُ يَتَّمَهَا الْخَري ... فُ فلا ظِلالَ ولا غَديرْ
سَكَنَتْ كَطَيْفَ مُعَذَّبٍ ... وَهَفَتْ كَآهَةِ مُسْتَجِيرْ
وَدَنَا الظَّلاَمُ فَلَفَّهَا ... في ثَوْبِ مَحْزُونٍ كَسِيرْ
فَكأَنَّهَا في لَيْلِهِ ... سِرٌّ يُغَلِّفُهُ الضمِيرْ
وَكَأَنَّهَا في فَجْرِهِ ... حُلمٌ يَطِيرُ وَلا يَطِيرْ. . .
يَا لَيْتَني كُنْتُ الظَّلاَلْ
أَوْ كُنْتُ يَنْبُوعَ التِّلاَلْ
لَسَكَبْتُ عُمْرِيَ في الرِّمالْ
رُوحًا يُرَفْرِفُ كالْخَيَالْ
يَسْقيكِ مِنْ شَفَةِ الرَّبي ... ع رَحِيقَ فِتْنَتِكِ النضِيرْ
وَيُحِيلُ مَهْدَكِ جَنَّةً ... لِلْحُبِّ وَالهة الأَثِيرْ

أَنَا فِي رُباَهَا نَسْمَةٌ ... بِسِوَى ضِفَافِكِ لا تَسِيرْ!
أَنَا في ثَرَاَها جَدْوَلٌ ... لِصِبَاكِ رَقْرَاقٌ نَميرْ!
أَنَا في شَذَاهَا نَفْحَةٌ ... عِطْرُ الْخُلودِ بها أَسِيرْ!
أَنَا فِي سَماها كَوْكَبٌ ... في بُرْجِهِ بِكِ يَسْتَنِيرْ!
أَنَا في هَوَاهَا قُبْلَةٌ ... حَرَّى مُخَلَّدَةُ السَّعيرْ
سَتَظَلُّ في شَفَتَيْكِ لا ... تَرْوَي إلى اليَوْم الأخيرْ
محمود حسن إسماعيل
من حديث الثغر الحزين
للأستاذ عماد الدين عبد الحميد
في مثل هذه الأيام من كل صيف مضى، كان الناس - أو قل كان من الناس من تسمح لهم مقدرتهم وأوقاتهم بقضاء اشهر أو أسابيع أو أيام مع عروس البحر الأبيض كما يدعونه - يرون الإسكندرية، وقد بدت عروسا سعيدة في اكمل زينة أبهى منظر كان هؤلاء يلجئون أليها، هاربين من حرارة الصيف لا يطيقونها، يرجون عندها معاني الراحة والاطمئنان، وينشدون فيها الهناءة والسعادة. فتتلقاهم الإسكندرية مرحبة بهم، مكرمة لهم، باذلة كل جهد لتكون عند حسن ظنهم بها، غير مترددة في أن تظهر أمامهم - أو بهم - في صورة من الحرية المرحة أو السرور المطلق، نازعة عنها قيود التقاليد الموروثة، متحملة كثيرا من أنواع النقد اللاذع، يتقاذفها كخظم هائج لا كموجها الهادئ. . . حين تسرف في إكرامهم، ولكن في ألوان المتعة الساخرة الساحرة!
كانوا يلجئون إليها في مثل هذه الأيام من كل صيف، يقاسمونها ما وهبها الله من نعمة الطبيعة، ويشاركونها فيما منحتها الطبيعة من سحر، ولا أنكر انهم كانوا يعطونها شيئا ما مما أعطتهم الأيام، ولكنهم كانوا أخيرا يتركونها إلى حيث يعودون جميعا، وقد بقيت وحدها حتى الصيف التالي رمزا للعبث كما يراها بعض من الناس، أو صورة لأمنية سعيدة في خيال بعض آخر لم تحقق له الأيام رجاءه من القدرة على أن يكون من روادها السعداء
يعودون، لتستقبل جماعة منهم العمل، ولتستقبل جماعة أخرى أنواعا جديدة من لذة الشتاء، وتبقى أذهان هؤلاء وأولئك ثملة برحلة الصيف، سكرى بذكرياتها، تستمد من تلك الذكريات الجميلة عونا على قضاء الأيام حتى تستقبلهم الإسكندرية مرة أخرى، طروبا ساخرة
اشهدوا الإسكندرية كرقصة مرحة صاخبة يأخذ كل قادر منها بنصيب، ثم لا يهدأ إلا ليأخذ منها بنصيب جديد. . . واسمعوها كأغنية عذبة طويلة من مطرب موهوب محبوب، لا تكاد تنتهي حتى يرجو السامعون لو أعيدت من جديد. . . وحتى بعد أن قضى على أنوارها الباهرة بان تلبث ثوبا من الزرقة القاتمة منذ سنين. اسمعوها في الليل كقطعة موسيقية صامتة تلعبها أنامل عازف ماهر على أوتار القلوب!
اشهدوها واسمعوها كذلك، ثم انظروها وقد لبست في هذا الصيف ثوب الحداد على شهداء أعزاء. . . واسمعوها، اسمعوا منها تلك الأغنية العذبة، وقد تبدلت فجأة، فإذا هي عويل وبكاء. . . وأنصتوا لموسيقاها الصاخبة، وقد أضحت لحنا حزينا خافتا بين الأطلال. . .
اسألوا هؤلاء الذين كانوا بالأمس يسعون إليها هربا من حرارة الجو. . . ماذا قدم لها اليوم حين سعت إليهم هربا من جحيم الشيطان!
اسألوا هؤلاء ماذا قدموا من خير - وهم قادرون - للأمهات الحزينات فقدن العائل وفقدن الأبناء!
اسألوهم ماذا قدموا من عون لليتامى، وقد هاموا على وجوههم حائرين، ضلوا سبيل الحياة!
اسألوهم ماذا قدموا من مالهم لمن صار محروما!
اسألوهم ماذا قدموا من مقدرتهم لمن اصبح عاجزا!
اسألوهم ماذا قدموا من قوتهم وصحتهم لمن صار ضعيفا عليلا!
اسألوهم ماذا قدموا من خبزهم للجياع، وماذا قدموا من كسائهم للعرايا. . . وماذا قدموا من دورهم للمشردين!
بل سلوهم ماذا قدموا من كلمة مواساة لهؤلاء، علها أن تخفف شيئا من وقع المصاب!

ترى هل يجيبون. . .؟ يقينا انهم لا يجدون الجواب!
فكم منهم ذكر الإسكندرية في محنتها بشيء؟ بأي شيء ذكروها هذا البعض القليل الذي ذكر. . .؟!
أيتها الدنيا: انك لغادرة خادعة!
فليست هذه مقدرتهم التي عرفناها في ميادين اللهو واللذة والمتعة الفاجرة. . .
وليست هذه وجاهتهم التي عرفناها في قصورهم وحيث يحيون!
وأنت أيتها الإسكندرية: انهم لم يحبوك في يوم من الأيام. . . ولكنهم احبوا لذتهم ولهوهم، واحبوا عندك الظهور والكبرياء!
انهم لم يعطوك، حين كانوا يعطونك كل صيف مما وهبتهم الأيام، لرغبتهم في أن ينالك شيء من خيرهم، ولكنهم لو استطاعوا لأخذوا كل ما لديك لأنفسهم. واذهبي أنت مع الريح!
أيتها الإسكندرية. اغضبي من اليوم عليهم. اغضبي غضبة لا تعرف الهوادة ولا تعرف اللين، فليسوا جديرين بعطف منك ولا وفاء! ولتغضب مصر جميعا لغضبة الإسكندرية، لتغضب. . . فأنا نحب الخير ونحترم مثلهم، ولسنا عبيد الألقاب، ولسنا قطيعا في مزرعة الوجهاء.
إن للفقراء حقا مشروعا في رقاب الأغنياء. طلبوه اليوم منهم فأنكره هؤلاء. . .
فليذهب كل ما كان لهم في نفوسنا من حب، وليذهب كل ما كان لهم فيها من تقدير. . .
ولتبق نكبة الإسكندرية ماثلة في أذهاننا دائما، لتذكرنا بأن للإنسان حقوقا طبيعية في المجموع الذي يعيش فيه.
تتمثل هذه الحقوق - أول ما تتمثل - في أننا يجب أن نسعى إلى حياة معتدلة، فيها رخاء لنا جميعا، وتحصين لنا جميعا. فلا تعيش طائفة جاحدة منا عيشة فائقة الثراء. . . وتحيا أخرى حياة الأغنام!
أيها العاجزون المحتاجون المنكوبون، لا تفكر طويلاً في عطف القادرين. . . أيها الفقراء، لا تثقوا كثيرا في قلوب الأغنياء. . . فلا يعرف الألم إلا من قاساه في يوم من الأيام. . .
(حلوان)
عماد الدين عبد الحميد
الله!. . .
لشاعر الحب والجمال لامرتين
بقلم الأستاذ محمد أسعد ولاية
(لما وجه لامرتين هذه الأبيات إلى (لامنيه) كان يومذاك على اتصال به منذ أمد قريب حيث استهواه الباب الأول من بحث ديني في (النكران) عام (1817)، فأنشأها خلال رحلة قام بها علي جواد بين باريس وديجون في الأيام الأولى من مايو عام (1819). وهذه القصيدة التي ترتبط بنوع تعليمي تكاد تشتمل على أروع أبيات تحدد وتصف القدرة الإلهية، وينذر أن يستند الشعر الفلسفي إلى إلهام متقد إلى هذا الحد)
(إلى الراهب ف. د. لامنيه)
نعم، إن روحي لتبتهج بالتحلل من قيودها:
طارحة عِبْء البؤس البشري،
تاركةً حواسي تهيم في هذا العالم، عالم الأشباح،
حيث أصعد إلى عالم الأرواح بدون عناء.
هنالك أطأ تحت أقدامي هذا العالم المنظور،
وأرتع حراً في ساحات الخفاء.
إنَّ روحي لتضيق في سجنها الرحب،
إنني في حاجة إلى مقر لا أُفُقَ له
كقطرة ماءُ صُبَّتْ في المحيط،
يستغرق الخُلدُ في كنفه تفكيري،
هنالك ملكة الفضاء والخلود
وهي تجرؤ على استكناه الزمن والعام اللانهائي

تقترب من العدم، وتطوف في الوجود
وتعرف من الله الجوهر الغامض.
بيد أنني حينما أريد تصوير ما أشهر به
تتلاشى جميع العبارات كمجهودات فاشلة،
تعتقد روحي أنها تتحدث ولساني متلعثم،
يصفع الهواء عشرين صفعة خيال تفكيري.
لقد خلق الله للأرواح لغتين مختلفتين:
في نبرتين تاريخيتين إحداهما في الهواء،
وهذه اللغة المحدودة معروفة للناس
وهي تفي باحتياجات المنفي الذي نحن فيه
وتتكيف طبقاً للضربات القاتلة من تقلبات القدر،
فتبدل مع الأجواء أو تذهب مع الزمن.
أما اللغة الخالدة الأخرى النبيلة الجامعة اللانهائية؟
فهي اللغة الموهوبة بجماع الذكاء:
ولم تكن قط نبرة مائتة تذهب هباءً مع الهواء
إنها تعبير حي يُسمعُ في القلب:
فهي تُسمعُ وتُشرحُ وُيتحدثُ بها مع النفس،
وهذه اللغة الشعورية تخلب وتضيء وتلهب
وليس للنفس لكي تُعبِّر عن خَطَراتها الملتهبة
سوى تنفس الصعداء والحماس والوثوب.
هذه هي لغة السماء التي تنطق به الصلاة،
ولغة المحبة المفعمة بالحنان في الحياة الدنيا
في المناطق الطاهرة حيث أحب أن أطير،
يبعثني الحماس أيضاً على كشف أسرارها.
هو وحده سراجي في هذه الليلة الظلماء،
وهو الذي يفسر لي العالم أحسن ما يفسره العقل.
تعال إذن! إنه دليلي، وأريد أن أخدمك.
على أجنحتها النارية تعال واختطف!
هاهو ظل العالم قد أمحى عن أعيننا.
إننا نهجر الزمن ونجول في الفضاء:
وفي نظام الحقيقة الأبدي، هانحن أولاء وجهاً لوجه أمام الحقيقة!
وهذا الكوكب الفرد، الذي لا زوال له ولا فجر،
إنه الله، هو رب كل شئ، الذي يقدس نفسه!
كل شيء من فضله: الكون والزمن،
ومن وجوده الخالد، جميع العناصر الصافية.
اللانهاية مداه، والأبدية عمره،
النهار نظرته، والعالم ظله.
جميع الوجود يبقى تحت ظل يده
فالكائنات الطافية على أمواج الأبدية التي تجري من فيضه،
كنهر يتغذى من هذا المنبع الذي لا ينضب له معين،
يختفي في ويؤول إلى الفناء، بينما كل شيء يبتدئ.
إن صنعه الكامل إلي لا حد له مثله،
يمجد حين يوجد، اليد التي صنعته:
يحشد الخلق في الخلد بين زفرة وأخرى،
فهو إذا شاء قال: كن فيكون.
كل شيء منه وإليه
إرادته المقدسة هي شريعته الإلهية
ولكن هذه الإرادة التي لا ظلَّ لها ولا خوَر،
هي في وقت واحد: القدرة والإرادة والعدل والحكمة.

كل ما عساه أن يكون يجري فق إرادته
وكذلك العدم ينهض بمقدار:
الذكاء والحب والقوة والجمال والشباب،
هو قادر على منحها بلا انقطاع دون أن ينضب له معين.
وهو يغمر العدم بنعمة القيمة
وأقرب علامات وجوده أنه يستطيع أن يخلق آلهة!
ولكن هؤلاء الآلهة من صنع يده، والأبناء من قدرته،
من شأنهم أن يبرهنوا على وجوده الخالد،
وهم يميلون بطبعهم إلى الإقرار بوجود خالقهم.
إليه مرجعهم جميعاً وهو وحده الكافي!
هذا هو الله الذي تعبده جميع النفوس،
والذي دان له (إبراهيم)، واهتدت إليه بصيرة (فيثاغورس)
وأشاد بذكره (سقراط)، ولمس وجوده (أفلاطون).
هذا الإله الذي أظهر الكون للعقل حقيقة،
والذي تنتظره العدالة، ويرجو لطفه الشقاء،
والذي دعا إليه عيسى فوق الأرض!
ولم يعد من أثر للإله الذي تصنعه يد الإنسان،
ذلك الإله الذي عبر عنه النفاق الخاطئ،
ذلك الإله الذي شوهت حقيقته يد الكهنة الزائفين،
والذي كان يعبده أسلافنا السذَّج وهم يرتعدون
إنه وحيد. إنه واحد، إنه عادل، إنه حميد
ترى الأرض صنعه، وتعرف السماء اسمه!
سعيد من يعرفه، وأسعد منه من يعبده!
هو الذي، بينما الناس في جحود أو إنكار،
يظل وحده في مصاف مصابيح الليل القانتة،
ينهض في المحراب حيث يجتذبه الإيمان؛
ويلهج بالمحبة والشكران،
ويحرق روحه كالبخور في حضرته!
ولكن لكي تصعد إليه أنفسنا المحطمة
يجب أن تمنح أعلى قوتها وفضيلتها.
ينبغي أن نطير إلى السماء على أجنحة من اللهب،
فالرغبة والحب هما جناح الروح
آه لِمَ لَمْ أولد في مستهل الخليقة البشرية؟
حين لم تكد تنتشر من بين يديه،
قريباً من الله قرباً زمنياً، وأكثر قرباً بالطهر،
حيث تناجيه الخلائق، وتسير في حضرته!
لِمَ لمْ أر العالَم منذ بزوغ شمسه الأولى!
لقد كان كل شيء يحدثه عنك، وكنت أنت نفسك تناجيه،
وقد كان الوجود يلهج بجلالك المقدس،
وكانت الطبيعة الخارجة من أيدي الخالق،
تنشر بكل المعاني اسم منشئها:
هذا الاسم الذي حجب منذ أجيال سحيقة،
فإذا به يتلألأ في روعة أكثر بريقاً فوق مبتدعاتك:
ولم يَتَطَّلعْ الإنسان فيما مضى إلا إليك،
فكان يدعو ربه، وكنت تقول: (أنا هو)
لقد تفضلت فتعهدت بمناجاتك تعليمه زمناً طويلاً كما يتعبَّد الطفل،
وبعد زمن طويل اقتضت مشيئتك أن تهديه سواء السبيل
وقد تجّلت له عظمتك مرة،
في أودية سِنّار،

في حرج عُرَيْب بصحراء سينا،
أو على قمة الجبل المقدس
حيث أملي موسى على العبريين شرعيته الجليلة!
وهؤلاء أبناء يعقوب أول مواليد البشر،
ظلوا يتلقون المن من يديك أربعين عاماً،
وكنت توقظ نفوسهم بآيتك الحية،
وكنت توحي أمام أعينهم بلغة المعجزات،
وعندما نسوك، تنزلت ملائكتك
وأعادت إلى قلوبهم الحائرة ذكراك.
ولكن أخيراً، كنهر بُعد عن منبعه،
ذهبت هذه الذكرى الصافية في سبيلها،
ومن هذا الكوكب القديم أخبا ليل الزمان المظلم المناطقَ المضيئة تدريجياً.
لقد أمسكت عن المناجاة، فالنسيان ويد الأجيال
غفلا عن هذا الاسم العظيم الذي تتسم به بدائعك،
ولقد أضعف مرور الأجيال الإيمان،
ووضع الإنسان الشك بين العام وبينك.
نعم، هذا العالم يا مولاي قد أصابه الهرم بالنسبة لعظمتك،
لقد نسىَ اسمك وأثرك وذكراك
ولكي نستعيدها يجب علينا أن نمتطي من جديد نهر الأيام موجة فموجة.
أيتها الطبيعة، أيها الفلك! عبثاً تراكما العين.
وا أسفاه بدون أن يرى الإنسان الله يمجد المعبد،
إنه يرى وعبثاً يتتبع آلاف الشموس،
التي تجري في صحاري السماوات جرياناً عجيباً،
إنه لم بعد يعترف باليد التي تحركها.
معجزة أبدية لم تعد معجزة.
إنها تسطع في الغد كما كانت تسطع بالأمس!
من يدري أين تبتدئ طريقها الجليل؟
من يدري إذا كان هذا السراج (الإيمان) الذي يتلألأ ويثمر قام للمرة الأولى في العالم؟
إن آباءنا لم يشهدوا قط سطوع دورته الأولى،
والأيام الخالية لا يعرف لها أول قط.
عبثاً توحي عنايتك الإلهية
تجليك في هذه التطورات العظيمة على العالم المعنوي،
إن من تدابيرك أن ينتقل صولجان الملك عبثاً
بين البشر من يد إلى أخرى،
إن أعيننا التي ألفت تقلبها،
قد جعلت من العظمة عادة فاترة،
وكم شهدت الأجيال
كثيراً من تقلبات القدر الذكرى!
لقد قَدُمَ الدورُ، والإنسان الجامد في غفلة
أيقظنا أيها الإله العظيم، أوْح وبدَّل العالم،
أسمع العدَم كلمتك المثمرة
لقد آن الأوان، فانهض وتجاوز هذا الهدوء الطويل
اخلق عالماً آخر من هذا الفضاء الآخر.
إن أعيننا الغافلة لتفتقر إلى مشاهد أخرى
وإنَّ نفوسنا الشاردة لتحتاج إلى معجزات أخرى
بدل نظام السماوات التي لم تعد تحدثنا!
واقذف بشمس أخرى لأعيننا الحائرة
حطم هذا القصر القديم غير الجدير بعظمتك،
أقبل، وتجل أنت - أنت سبحانك - واحملنا على أن نؤمن

ولكن ربما قبل الأوان حيث في صحاري السماوات
ستكف الشمس عن إنارة الوجود
ومن هذه الشمس المعنوية (الأيمان) قد انكسف الضوء.
وسيكف رويداً رويداً عن إنارة التفكير،
واليوم الذي سيغدو فيه هذا الصباح محطما
سيُغمس العالم في ليل أبدي!
إذن أنت ستحطم ما خلقت.
وهذا الحطام المنهار سيردد عنك جيلا بعد جيل:
إنني الوحيد! وكل ما عداني لا يستطيع الدوام! فالإنسان الذي ينقطع عن الإيمان،) ينقطع
(!عن البقاء
(الإسكندرية)
محمد أسعد ولاية
للحق والتاريخ
عبد القادر حمزة باشا - 2
وما ذكره عنه الذاكرون في حفلة التأبين
(. .بحثه وراء (الحقيقة) في التاريخ المصري القديم (قومية))
للأستاذ محمد السوادي
احتفل أهل الرأي وذوو المكانة وأبناء الفكر في عاصمة مصر بتأبين الفقيد من أيام، فرددت جنبات القاعة الثقافية التذكارية في الجامعة الأمريكية مواهب الراحل ومناقبه، جرت نثراً على ألسنة هيكل ومنصور فهمي وأباظة وآخرين، وجرت شعراً على ألسنة العقاد ومطران ومحرم وآخرين
ومن الرابع عشر من هذا الشهر تحتفل أسرة الفقيد بإحياء ليلة الأربعين، فيذكر الذاكرون أن أربعين يوماً مرت على آخر عهد لمصر بابنها (الممتاز) الذي وقف عليها ما أوتي من جهود، وسخر في سبيلها ما آتاه الله من فضل وفن ومميزات رقت به إلى مستوى فريد ومقام ملحوظ وأحب بدوري أن أختار هاتين الملائمتين - التأبين والأربعين - لأثير ناحية من أدب الفقيد تمشي وما ذكره الذاكرون من الشعراء والناثرين، فقد ذكروا الخدمات التي أداها عبد القادر حمزة التي أحبها فعاش لها، مصر الحديثة في جهاده السياسي والصحفي والأدبي، ومصر القديمة التي بعثها بعثاً رائعاً في كتابه (على هامش التاريخ المصري القديم). هذه الناحية التي احب اليوم أن أغزوها أو أجلوها هي (قومية البحث عند عبد القادر حمزة وراء الحقيقة في التاريخ المصري القديم)
وأحب أيضاً أن أسجل أسفي على فقر مصر الحديثة من ناحية المؤسسات العلمية التي تفزع إليها الأمم النهضة لقدر القيم العلمية لجهود الأفراد قدرها الحق؛ ولو أن مصر كانت مثرية في هذه الناحية ثراء الأمريكيين والأوربيين، لهبت هذه المؤسسات إثر وفاة العظيم تتناول مخلفاته بالبحث ولرأينا الجمعيات التاريخية تتوفر على الجانب التاريخي منها فتجلوه. المحاضرون من أعضاء المؤسسة بمحاضراتهم، والباحثون بالكتب التي يصدرونها بسطاً لهذه الجهود وتأييداً أو تفنيداً، أما وقصارى جهدنا أن يجتمع بعض الناهضين -
واجتماعهم مشكور لهم ومحمود - لتأبين العظيم الراحل، فقصور من ناحية النهضة العلمية خاصة والفكرية عامة يثير الأسف، ويبيح للناقد أن يلقي المسؤولية على الدولة ورجال الفكر أنفسهم
وهذه الناحية التي وقع عليها اختياري لتكون موضوع مقالي، هي الناحية التي كنت أود لو كانت من نصيب أساتذة النقد والتاريخ في إحدى المؤسسات العلمية، لأنها ناحية لها من الجلال والقيم ما ينوء به كاهلي وتنوء به جهودي
ولكني سأحاول:
و (القومية) في البحث، نقص من ناحية وكمال من ناحية: نقص من ناحية (الحقيقة) العلمية والتاريخية، لأنها - أي القومية - لون من ألوان التعصب يجافي أهداف الباحث وراء (الحقيقة) في ذاتها ولذاتها، وكمال من ناحية (الوطنية) التي تطالبنا بتغليب

الصالح الوطني في الغاية والشعور العاطفي في التحليل على إدراك هذه الغاية
وإذن (القومية) ليست لها قيمة ثابتة، وإنما تختلف قيمتها باختلاف وجهة النظر إليها
و (الحقيقة) نفسها لها ميزاتها ولها مساوئها، أما الميزات تنحصر في القداسة التي
تحوط الباحث، وفي الجمال الذي يحيط اللثام عنه يوم يدرك هذه (الحقيقة)، وفي
الجلال الذي يشعر به يوم يرى نفسه وقد تجرد من كل تأثر شخصي أو عائلي أو قومي
فأخذ مكانه فوق المستوى العادي وتطلعت الإنسانية المشوقة إلى الحقائق إلى حيث
يقيم هذا الباحث داخل برجه العاجي. وأما مساوئ هذه الحقيقة فتنحصر في مرارتها
وأثر هذه المرارة في الجماعة التي ينتمي إليها الباحث، وضرر هذه المرارة بالوطن أو
بالأفراد أو الباحث نفسه. وحسبك أن تتصور نفسك الآن وقد جابهت أمتك حكومة
وشعباً بالحقائق العارية فنشرت كتاباً ضمنته نقائصهم أفراداً وجماعة كما تعرفها أنت
وكما أعرفها أنا، ثم تتصور نفسك وقد استاقك الجند إلى المحقق وزج بك المحقق في
السجن، واستنكر تصرفك الرأي العام، واتهمك بالمروق من دين الوطنية كل وطني
من هذا ترى أن (القومية) نقص من بعض النواحي، و (الحقيقة) نفسها مريرة ولا أقول
(نقص) من بعض النواحي، فإذا وجد الرجل إلي يجد في البحث وراء (الحقيقة) خالصة
ليربح جلالها وليبرز جمالها وليساهم بهذا الجهد في الترقي الإنساني، ثم استطاع هذا
الرجل أن يخرج بنتيجة (نظيفة سليمة) من الناحية العلمية ومؤدية إلى خدمة بلاده، ثم
تبين أن (القومية) هي التي دفعت به من البداية إلى هذا ابحث الذي التزم فيه جادة
الحق وصادق النهج، فمن حقه على بلاده أولاً وعلى الإنسانية ثانياً أن يأخذ مكانه بين
الخالدين

وأنا مؤمن بأن عبد القادر حمزة كان (هذا الرجل). . . في كتابه الأخير
ويحضرني الآن لإيضاح الفكرة مثل أضربه لها من (القومية) في (الفلسفة الوطنية
الاشتراكية) في (ألمانيا النازية) فقد وضع (روزنبرج) وغيره من فلاسفة العنصرية
الآرية مجلدات ضخمة سخروا فيها العلم لإثبات أن الجنس الآري سيد هذه الدنيا،
وأعداد (الرسالة) الفائتة تتضمن بحوثاً طلية في فلسفة هذه (الوطنية الاشتراكية)
وكلها توهم بأن أصحابها إنما يبحثون وراء (الحقيقة) فهل يمكن القول بأن هذه البحوث
من النوع الذي نعنيه بـ (قومية البحث وراء الحقيقة)؟

كلا. . . إنما حشد هؤلاء الفلاسفة (معلوماتهم) وجندوا (مواهبهم) لإخفاء وجه (الحقيقة)
لا لاجتلائه، ولتسخير هذه (المواهب والمعلومات) في إلباس الباطل ثوب الحق، وفي
استخدام الحد الثاني من سلاح المنطق، وفي ارتداء أزياء الفلاسفة وهم في حقيقتهم
دعاة سياسيون، ولتضليل (الفكر) بإقناع (المفكرين) بصواب ما تذهب إليه (العنصرية
الآرية)

هؤلاء هم أعداء (الحقيقة) وأعداء المعنى الذي نعنيه ونحن نقصد إلى أصدقاء
(الحقيقة) ونرمي إلى التدليل على أن (عبد القادر حمزة) المصري أحد هؤلاء الأصدقاء
نريد أن ندلل الآن على ثلاثة أمور:

أولها: أن عبد القادر حمزة إنما أتجه إلى دراسة (التاريخ المصري القديم) بحثاً وراء
(الحقيقة) في ذاتها ولذاتها كما اتجه (أبناء هذه الحقيقة) في مختلف العصور

ثانيهما: إن هذه الدراسة ملأنه - كمصري - زهوا بمصريته فكان هذا الشعور منه إيذاناً
بالقومية التي حالفته في بحثه

ثالثها: أن عبد القادر حمزة (مؤلف كتاب على هامش التاريخ المصري القديم) قرن
بين الحقيقة والقومية فجمع بينهما جمعاً عادلاً ولم يغلب القومية على الحقيقة وإنما
وجد في إبراز هذه الحقيقة إثباتاً لهذه القومية ففعل

هذه هي الأمور الثلاثة التي أريد أن ادلل على صحتها لأخرج منها بنتيجة تعزز موضوع
هذا البحث

ولأعد بالقاري إلى الكلمة التي قدم بها الفقيد للجزء الأول من كتابه لنستمع إليه وهو
يقص علينا بداية شغفه بدراسة التاريخ المصري القديم فنرى أنه زار الأقصر في سنة
1924 ليشاهد قبر الملك (توت عنخ آمون) فزار قبور وادي الملوك والملكات والدير
البحري ومعبد الكرنك ووقع في يده كتاب (طيبه للأستاذ كابار مدير معهد الآثار
المصرية في بروكسل فقرأه فخيل إليه أن الآثار التي مر بها مرور الطير أخذت
تتجسم وأن الحياة أخذت تدب فيها فحفزها إلى زيارة الأقصر مرة أخرى زيارة مشوق

إلى الحقيقة وأصبح (يهمه أن يدرس ما فيها من الآثار وعدت من هذه الزيارة وقد ازددت شغفاً بمصر القديمة فأحسست رغبة قوية في زيارة المتحف المصري، مع أنني كنت قد زرته من قبل مرتين فجعلت أزوره من جديد زيارات كان لها في نفسي معنى جديد)

هكذا كانت البداية، بداية رجل شغفته آثار مصر القديمة حباً فرغب في دراستها، والبحث عن وجه (الحقيقة) فيها فمتى إذن انتقل به البحث إلى (القومية)، أو متى تسلطت على دراساته (قومية البحث)؟

يجيبك هو على هذا السؤال فيقول:

(وتكررت زيارتي للآثار وانكببت على المؤلفات التي وصفها علماء المصرولوجيا، فكنت كلما أوغلت فيها شعرت كأن مصر تكبر في عيني وكأني بذلك زهواً)

من هنا بدأت بذور القومية تنمو في نفس الرجل، ولكن هذا النمو في (البذور) يحتاج إلى كثير من (الماء) و (السماد) ليستقيم العمود ويبسق فارعاً في الفضاء. . . فما كان ماؤه وما كان سماده؟ كان لابد للرجل من (الغضب) ليكون (تعصب) ولتكون (حماسة) وليكون (إصرار) على إبراز فضائل مصر. . . وقد (غضب) الرجل الذي لا يغضب غضباً ظاهراً، واستبنا منه هذا الغضب من خلال قوله:

(وأخذتني الدهشة من أننا ونحن أبناء مصر هذه لا نعرف عنها هذا الذي يعرفه الأجانب، ولا نعجب بها هذا الإعجاب الذي يبذله لها الأجانب، ولا نغرم بمجدها وتقصى خفاياه هذا الإغرام الذي يقبل عليه ويرتاح له الأجانب)

من العبارات السابقة وضحت القومية؛ ولكن العبارة الأخيرة توضح حالة الاقتران بين (القومية) و (الحقيقة) أو مطالع هذا الاقتران، لأنه لم يقل أنه عجب - أو غضب - فحسب، ولكنه اعتزم البحث وراء هذا المجد و (تقصى خفاياه) والتقصي - علمياً - هو لباب البحث وراء (الحقيقة)

وبدأ الرجال يقرأ مختلف المؤلفات مرات ومرات، فكان يفهم في المرة الثانية ما يبهم عليه في الأولى، وينفذ في الثالثة إلى ما يغيب عنه في الثانية. وانقضت سنوات حتى اختمرت الدراسات في ذهن هذا (الباحث المنطقي المرتب)، وبدأت (النتائج) تطل من (المقدمات) على الصور التي انحاز بها ذهنه في استخلاص الحقائق. . . هذه الصور التي رددتها إلى عناصرها في بحث لي نشرته (الثقافة) الغراء

وبدأ الرجل تجربته الأولى بنشر فصول في (البلاغ) في سنة 1934، وتجربته الثانية بنشر فصول أخرى في سنة 1938 وأخيراً رأى أن يخرج كتابه الأخير

وهو لم يقل أنه أدى لتاريخ مصر القديم كل حقه، بل اعترف بأن هذا التاريخ بحر خضم ولم يسعه هذا الوصف إنشاء أو إسرافاً في الإنشاء كم ألفنا نحن الكتاب، بل عقب على الوصف بما يثبته فقال: (لأنه تاريخ أربعة آلاف سنة أو أكثر فليس يوفي حقه في كتاب ولا في كتب، وقد كتب فيه العلماء الأجانب بعد كشف اللغة المصرية في سنة 1822 م مئات من الكتب، وهم إلى اليوم كلما كتب واحد منهم وجد جديداً، وكلما ضربت فأسه في أديم مصر خرجت بجديد، فلا مناص من أن أكتفي في كتابي هذا بأطراف، وإذا أراد الله فسأتبع هذه الأطراف بأطراف وأطراف). ولكن الله لم يرد، فلا حول ولا قوة إلا بالله

وأدع الآن مهمة (التطبيق) إلى المقال الآتي إن شاء الله وأختم مقال اليوم بكلمة تثبت لك دافع الفقيد إلى الأخذ بالقومية في البحث بعد أن دفعته الآثار عن الحقيقة فيها لاحظ الفقيد حقائق مريرة حفزته إلى البحث وراء الحقيقة أولاً وحملته على أن يقرن بينها وبين القومية أخيراً. . . ومن هذه الحقائق ما يأتي:

أولاً: لاحظ أن جميع المصريين يجهلون تاريخهم مع الأسف

ثانياً: أنهم لم يقرءوا منه وقت تحصيلهم العلم غير أشياء ضئيلة مبهمة

ثالثاً: أنهم لا يجدون بعد وقت التحصيل مؤلفات عربية في هذا التاريخ تجذبهم إليه

رابعاً: إنهم يعرفون عن اليابان في آسيا وكندا في أمريكا وعن إنجلترا أو عن فرنسا في ماضيها وحاضرها أكثر ما يعرفونه عن مصر (وبهذا تنقطع الصلة بين مصر القديمة ومصر الحديثة ويمتنع علينا أن نأخذ من أمسنا ليومنا وغدنا والإنسان الذي يعيش مقطوع الصلة بأمسه كالنبات ينمو ثم يموت، وكأنه لم يوجد)

خامساً: إن الناشئ في إنجلترا أو فرنسا أو في ألمانيا (ينشأ وتاريخ بلاده يسايره في كل سنة من سني تعليمه فلا يكاد يغادر مقاعد الدرس حتى تكون نفسه انطبعت بطابع ما في هذا التاريخ من عظمة وجمال. ومن هذا الانطباع يتولد حب خاص للوطن وتتولد رغبة في محاكاة أبطاله وينمو تبعاً لذلك الشعور بالقومية. . . الخ)

سادساً: إن الكتاب اليونانيين والرومانيين الذين زاروا مصر وكتبوا عنها في ما بين القرن الرابع قبل الميلاد والقرن الثاني بعد الميلاد شحنوا كتاباتهم بأشياء لم يفهموها فألبسوها لباس الغرابة والخرافة. مثلهم في ذلك كمثل الذين يزورون مصر الآن من الأجانب فيدعون عليها دعاوي لا وجود لها، وإن هذه الكتابات التي كتبها أمثال هيكاتي دي ميل وهيرودوت وسترابون وديودور الصقلي وكليمان الإسكندري وبلوتارك، كانت المرجع الوحيد لمعرفة مصر القديمة منذ ضاع سر اللغة المصرية إلى أن كشفه شامبوليون الشاب

وضع الفقيد أمامه هذه الملحوظات الست وخرج منها بأن (الحقيقة) ضائعة فيجب إيجادها، و (القومية) ضعيفة فيجب إنماؤها، أما (الحقيقة) فهي أن مدينة مصر لم تقم كما اعتقد المؤرخون الأجانب (على أساس من الخرافات والعقائد الفاسدة) بل قامت كما دلل هو (على أساس علمي وخلقي صحيح).

وإلى اللقاء حيث ندرس معاً (بالتطبيق) الطريق التي سلكها في البحث والنتائج التي خرج بها و (النظافة) العلمية التي حالفته في أثناء هذا البحث.

محمد السوادي

على شاطئ الحياة

شاعر غريب. . .

للأستاذ طاهر محمد أبو فاشا

رَائِدُ الليل خلْفَ وَهْم بَعيدٍ ... وخيالٍ من الأماني عنيدٍ
وغريبٌ يرى الصباحَ غريباً ... في حياةٍ كلْيلهِ المعقودِ
وَلْوَلَ القيْدُ في يديه وصاحتْ ... في شَرَايينِهِ دِماءُ الشهيدِ
قلمٌ كان بسمةً في فمِ الدُّن ... ياَ فماتت على فمِ الغِرِّيدِ
أقفرتْ روحُه وغاصتْ معاني ... هِ وأمسى على الثَّرى فضَلَ عُودِ
وبقايا حشاشةٍ تتلوَّى ... تحتَ حَرِّ الجوى وَبَرْدِ الوعودِ
جَفَّ حتى أنكرتُهُ وهو مِنِّي ... شَبَحُ الأمِّ من خيالِ الوليدِ
جَفَّ حتى أنكرتُهُ وهو مني ... صورةُ القُرب من فؤادِ العَميدِ
آهِ من آهةٍ بقلب شريدٍ ... ضلَّ في ذلك المَتَاهِ الشريدِ
نحن في عالَمٍ حُماداه أنا ... قد نسينا به معاني الوجودِ
أتكون القبور أضيق أم تِلْ ... كَ الفيافي لساهدٍ يَرْقُودِ؟
وارتقابُ الجحيم أم ذلك الرُّعْ ... بُ بحرٍ مُسَمَّمٍ محدودِ؟
وعواءٌ الضِّباع بالليل أم جَرْ ... سُ الأفاعي مُصَلْصِلاً من بعيد
وجماهير من عقاربَ رُعْنٍ ... شائلاتٍ أذنابها كالبُنُودِ؟
تَلسبُ الحيَّ والجمادَ كما اسْتَل ... هَمَ أعمى عصاه فوق الصَّعِيدِ
كل يومٍ لنا فنونُ دفاعٍ ... في نزاعٍ على البقاءِ الكسيدِ
تتبارى مع الطبيعة والأو ... هامِ والخوفِ والدجى والبيد
ظلماتٌ يَجْثُمْنَ خلفَ دَياج ... ورعودٌ يَجْأرْنَ إثْرَ رُعُودِ
أين حربُ الأعصابِ من هذه الحر ... بِ تلظَّتْ في ليلها الموعود
أعُواء المدافِع الشُّكْسِ أم زَأ ... رُ غَضُوبٍ على الرُّبى شُحْدُودِ؟
يوقظُ الليلَ كله ويكاد الْ ... فَجْرُ يَنْشَقُّ في النُّجُودِ
وَسِمَامُ الغازات أم ذلك الصِّ ... لُّ بِقَرْنَيْهِ لابداً في الْحَريدِ
آهِ من آهةٍ بقلب شريدٍ ... ضلَّ في ذلك المتاهِ الشريد
من أباح الشذا وكان حراماً ... وحشة الرَّوض أم بكاءُ الورودِ
والذي أَسْلَم العنادلَ للذلِّ ... هواها. . . أم كبرياءُ النشيد
لهف نفسي على ورود القوافي ... يذبل الوردُ في القِفار ويودى
خطراتٌ يَلمعْنَ في ذلك القَفْ ... رِ كماءٍ في الصَّخرةِ الصَّيْخُودِ
حرَّ قلبي عليك يا مصر يا مَه ... بِطَ وَحْيٍ ويا مَرادَ قصيدي

يا لياليَّ (بالْحُسَينِ) أعيدي ... بسمة الدهرِ واخطري من جديد
قد بكى النايُ في يد العازف النَّا ... ئي، وَأَنَّتْ أوتاره من بعيد
نحن في شاطئ الحياة حيارى ... قد أقمنا على ضِفافِ الوجودِ!
عنيبة (الدر)
طاهر محمد أبو فاشا
حينما تغمضين عينيك
للأستاذ العوضي الوكيل
حينما تغمضين عينيك هاتي ... نِ على فتنةٍ وروعةِ سحرِ
ما الذي تشهدينَ في صفحةِ الآ ... فاقِ مما أدري وما لستُ أدري؟
هل تشيمين في الخيال فرادي ... س نشيدٍ معطَّرٍ بكِ نَضْرِ
هل تشيمين مهجتي تَتلقَّا ... كِ وتهفو إلى سناكِ وتَسْري
أنا وحدي الذي يراك من الغي ... ب بِفكْرٍ يدقُّ عن كل فِكر
فاشهدي هناك أنتهل الح ... ب وأوي مع المساء لوكْرِي
حينما تغمضين عينيك هاتي ... ن على فتنة وروعة سحر
تستجيبُ الشفاهُ جفنيك لثماً ... فكأني لثمتُ روحاً بِثغري
وأرى الحسنَ كيف يأسر نفسي ... ثم يُلْقِى الفَنَّ الجميلَ بِشِعْرِي
يا فتاةَ الأحلام لو لم أعاصِرْ ... كِ لأَحسست بالياب بعَصْري
ولآنستُ في خيالي وجوداً ... لك يا بهجة الخيال لعمري!
ولأغمضت مقلتيَّ وشاهد ... تُ بعينيَّ ما يجنُّ ويُغْرى
العوضي الوكيل
البريد الأدبي
جواب
يا سيدي الفاضل، قلتُ يقال للشيخ عجوز وللشيخة عجوز وعجوزة
يا سيدي قال الإمام ابن الأنباري: يقال عجوزة بالهاء لتحقيق التأنيث، وروى عن يونس أنه قال سمعت قول العرب عجوزة بالهاء.
(وحيد)
تعليم القراءة والكتابة
كان معالي وزير المعارف قد أصدر قراراً بتأليف لجنة لبحث كتب التهجي والمطالعة التي بأيدي المبتدئين في المعاهد المختلفة لمعرفة مدى فائدتها في تعليمهم مبادئ القراءة والكتابة، ونقدها من جميع نواحيها، ووضع طريقة لتعليم التهجي والمطالعة تكون سهلة جذابة خالية من العيوب التي قد تنطوي عليها الطرق المتبعة الآن، ووضع كتب للتهجي والمطالعة العربية تفي بالغرض المقصود
وقد انتهت هذه اللجنة من وضع تقريرها، ورفعته إلى معالي وزير المعارف. وكان مما جاء في هذا التقرير أن كتب التهجي والمطالعة المستعملة الآن فيها بعض العيوب التي قد تعوق الطفل عن التقدم في القراءة والكتابة، وتحول بينه وبين الوصول إلى النتيجة المرغوبة في زمن وجيز
وقد اقترحت اللجنة اعتماد الأسس الآتية:
أولاً: تربية الحواس عند التلميذ وتقوية ملاحظته اللغوية، وذلك بالبدء بدروس المحادثة الشفوية على أن تدور حول ما يقع تحت حسه، مع ملاحظة أن يكون المنطق سليما قدر المستطاع
ثانياً: متى مرن الأطفال على نطق الكلمات وأصوات الحروف انتقل المعلم بهم إلى تعليم التهجي والكتابة والمطالعة بواسطة الطريقة الصوتية فيبدأ بأصوات الحروف التي تقسم إلى طوائف ومجموعات متشابهة، ولا تعطى دفعة واحدة، ويبدأ بالحروف التي لا تتصل بما بعدها، أو بالحروف المتجانسة في كتابتها
ثالثاً: بعد تعليم الأطفال مجموعة من هذه الحروف تؤلف لهم منها كلمات سهلة واضحة، ثم جمل قصيرة
واقترحت اللجنة أيضاً تجريب الطريقة (الكلية) التي أجمع على استحسانها علماء النفس في الوقت الحاضر وأساسها أن العقل يدرك الأشياء على هيئة وحدات كلية ذات معنى، وأما إدراك تفاصيل هذه الوحدات فإنه يأتي متأخراً. وأوصت بأن يكون

تجريب هذه الطريقة مبدئياً في روضة واحدة من رياض الأطفال
التأريخ عند العرب
طُلب الدكتور زكي مبارك أن يحقق أحد كتاب (الرسالة) تأريخ العرب قبل هلاك أصحاب الفيل، وقال: هل يمكن الوصول إلى معرفة ما كانوا عليه (أي العرب) في التأريخ قبل أن ترج أذهانهم واقعة الفيل؟
وقد بسط القول فيها المبحث العلامة المؤرخ شمس الدين السخاوي في كتابه (الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ) المطبوع بدمشق الشام سنة 1349 فنجتزئ بما يأتي منه:
أما التأريخ الجاهلي فقد روى ابن الجوزي من طريق عامر الشعبي قال لما كثر بنو آدم في الأرض وانتشروا وأرخوا من هبوط آدم فكان التاريخ إلى الطوفان، ثم إلى نار الخليل، ثم إلى زمان يوسف، ثم إلى خروج موسى من مصر ببني إسرائيل، ثم إلى زمان داود، ثم إلى زمان سليمان، ثم إلى زمان عيسى عليهم السلام وقد رواه محمد بن إسحاق ابن عباس
وفيه أقوال أخر: منها أنه كان من آدم إلى الطوفان، ثم إلى زمان نار الخليل، ثم أرخ بنو إسماعيل من بناء البيت، ثم إلى معد بن عدنان، ثم إلى كعب بن لؤي، ثم من كعب إلى عام الفيل. قال الواقدي
وعن بعضهم: كان بنو إبراهيم يؤرخون من نار إبراهيم إلى بنيان البيت حين بناه إبراهيم وإسماعيل، ثم أرخ بنو إسماعيل من بنيان البيت حتى تفرقوا فكان كلما خرج قوم من تهامة أرخوا بمخرجهم، ومن بقي بتهامة من بني إسماعيل يؤرخون من خروج سعد وفهد وجهينة بني زيد من تهامة، حتى مات كعب بن لؤي فأرخوا من موته إلى الفيل، ثم كان التأريخ من الفيل حتى أرخ عمر من الهجرة، وذلك في سنة ست عشرة أو سبع عشرة أو ثمان عشرة
ومنها: أن حمير كانت تؤرخ بالتبابعة وغسان بالسند، وأهل صنعاء بظهور الحبشة على اليمن، ثم بغلبة الفرس. ثم أرخت بالأيام المشهورة: كحرب البسوس وداحس والغبراء وبيوم ذي قار والفجار ونحوه، وبين حرب البسوس ومبعث محمد صلى الله عليه وسلم ستون سنة
أحمد صفوان
1 - لابن المقفع لا للخليل
ورد في مقال الزواج للأستاذ الكبير العقاد أن الخليل ابن أحمد أجاب وقد سئل في قرض الشعر: أن الذي يرضاه لا يجيئه، وأن الذي يجيئه منه لا يرضاه!
وقد قال الجاحظ في كتابه البيان والتبيين (الجزء الأول ص 151) في سياق الحديث عن السر في تبريز الأديب في فن من فنون الأدب وتأخره في فن آخر: وكان عبد الحميد الأكبر وابن المقفع مع بلاغة أقلامهما وألسنتهما لا يستطيعان من الشعر إلا ما لا يذكر مثله. وقيل لابن المقفع في ذلك فقال: (الذي أرضاه لا يجيئني، والذي يجيئني لا أرضاه). وإني لأحس أن أستاذنا العقاد تطمئن نفسه إلى موافقة الجاحظ، ولأن يصدر هذا الكلام من أديب كبير وكاتب عظيم كابن المقفع أقرب إلى الذوق الأدبي من أن يصدر من إمام لغوي نحوي كالخليل
2 - شاعر وناقد
فيما دار بين الأستاذين الشاعرين من نقاش حول موضوع الرحلات العربية مسألتان نحويتان أرى الحق في جانب الأستاذ رضوان في الأولى، كما أراه في جانب الأستاذ عبد الغني في الأخرى، وإلى القارئ البيان:
1 - قال الأستاذ عبد الغني في مقاله الرحلات عن البيروتي (. . . وبعد كتابه الثاني - تاريخ الهند - أوفى مرجع عن بلاد الهند وأملأ كتب الأسفار تعريفاً بها)
وهذا تعبير شاذ لأن أفعل التفضيل بعض ما يضاف إليه ولا تصح العبارة إذ صيغت (أملأ) إما من الخماسي، وإما من الثلاثي المبني للمجهول، لأن الكتاب مملوء لا مالىء، والمصوغ منهما شاذ كما هو معلوم من القواعد النحوية التي يجب العمل بها لأنها تستقر إلا بعد
البحث واستقراء الكلام الصحيح. فالصواب ما قاله الأخ رضوان وهو: وبعد المؤلف أملا المؤلفين لكتابه تعريفاً بالأسفار. . .

2 - قال الأستاذ عبد الغني أيضاً: (وإذا كانت هذه الرحلات الفردية وكثير غيرها قد أضافت بعض الثروة إلى الأدب إلا أنها لم تكن منتجة بالنسبة للرحلات والأسفار). وقد طالبه زميله بإعرابها وبيان جواب إذا وتخريج الاستثناء. وإني أقول للزميل الفاضل: إن هذا التعبير صحيح وارد في كلام العرب، فجواب إذا الذي يبحث عنه ويشتاق إليه محذوف أغنت عنه جملة الاستثناء، وجملة أضافت. . . خبر كان، وأما جملة الاستثناء ففي محل نصب كما وضح ذلك ابن هشام في المغنى. ثم اسمع ما قال الخضري على ابن عقيل عند الكلام على قول ابن مالك (ومفرداً يأتي ويأتي جملة) - ص 93 - وتأمله يطمئن قلبك: (استشكل وقوع الاستدراك خبراً نحو: زيد وإن كثر ماله، لكنه بخيل، مع وروده في كلامهم، خرجه بعضهم على أنه خبر عن المبتدأ مقيداً بالغاية، وبعضهم قال الخبر محذوف والاستدراك منه).

وإلى الأستاذين الفاضلين تحيتي وتقديري.

3 - النحو في الكلام كالملح في الطعام

غمض على حضرة الأديب احمد الشرباصي هذا المثل المشهور رغم وجه الشبه واشكل عليه ما كتبه الخطيب القزويني في كتابه الإيضاح، فنسب الأديب المثل الى الخطأ والفساد ولم يرى المخرج من الحيرة إلا تحريفه عن الحكمة القائلة: الهزل في الكلام كالملح في الطعام. وأقول إن هذا المثل صحيح لا غبار على صحته لأن مراعاة قواعد النحو مصلحة للكلام لاشك في هذا، كما ان وضع الملح في الطعام مصلح له. فوجه الشبه - وهو الإصلاح بغض النظر عن القلة والكثرة - جلي واضح، وهذا هو نفسه قول الخطيب (فالوجه كون الاستعمال مصلحا والإهمال مفسدا) وهو وجه الشبه إلا المعنى الذي قصد اشتراك الطرفين فيه.

وأما الحكمة القائلة: الهزل في الكلام. . . فالوجه فيها هو التحسين والتمليح ولا يراد فيها الإصلاح (وإن كان ذلك من ضرورات التحسين) لأنه لا يشترط التشبيه ان يشترك طرفاه في كل أمر من أمورهما، فإذا شبهنا شخصا بالأسد لا نريد إلا الجراءة بصرف النظر عن

غيرها من الصفات، وقس على ذلك مثلنا الذائع الصيت بين علماء البلاغ القدامى

والسلام على سيدي الأخ ورحمه الله.

بداري علي بداري

مدرس اللغة العربية باسيوط الصناعية

تصويب:

ختم الدكتور زكي مبارك مقاله المنشور بالعدد (417) من (الرسالة) بقول الله تعالى: (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب سينقلبون). والصواب: (ينقلبون) من غير سين

حول إبعاد الحيز:

تضمنت الفصول التي نشرتها لي (الرسالة) الغراء بعض الأخطاء التي لا يحسن السكوت عليها، ولذا نصلحها دفعا للبس ومحافظة على دقة العلم وأمانته:

أهديت الفصول إلى الأستاذ الفاضل منصور جرداق: (لا جردان ولا جوداق كما وردت خطا)

سقطت كلمة (مصهورة من العبارة: وهذه الروايات تتميز اول (ص 737 ع 1 س 18) ما تتميز بالفكرة العلمية (مصهورة) في بوتقة الأدب الحي. . .

وردت كلمة (جعفر) وصوابها (جلفر) إشارة إلى (ص 741 ع 2 س 6) ' :

تصلح العبارة هكذا: أما حقيقتها فهي الاندماج في وحدة (ص767 ع 2 س 25) (الزمكان) كاندماج الماء والملح في الماء الملح

وردت كلمتا السبب النسبي والصواب (النسبية) الناموس (ص 768 ع 2 س 2) المشهور.

سقطت إشارات تفقد العبارة التالية معناها: المسافة=الزمن (ص 768 ع2 س 9) السرعة=الجذر التربيعي لمجموع مربعات الأبعاد الثلاثة.

مسرعة خطأ وصوابها سرعتها (ص 768 ع2 س25)

تبدل علامة السلب (-) في قانون فتزجيرلد بعلامة المساواة (ص 769 ع 1 س 3) (=)

وحدة (الزمكان) وليس الزمان (ص 769 ع 2 س2)
وردت كلمة علوي وصوابها عمودي (ص795 ع1 س 17)
اسم الكتاب هو (ص 795 ع 2 س 16):
الصواب (دكستروز (ص 795 ع 2 س 29)
ترجمة الضوء المستقطب هي (ص796 ع 1 س 2):
وردت كلمة ستيد مرتين ولا حاجة بي للقول إن صوابها (سليد) كما (ص 797 ع 1) جاءت في مرة سابقة
هذا عدا بعض أخطاء بسيطة نغلفها لأنها ليست في صلب الموضوع والسلام.
خليل السالم
القصص
الشارب
للقصصي الفرنسي جي دي موبسان
عزيزتي لوسيا:
لا جديد عندنا. نحن نقضي أوقاتنا في غرفة الاستقبال، نتلهى بالنظر إلى المطر وهو يتساقط، وحيث أنه يتعذر الخروج في هذه الأيام العابسة، فإننا نتسلى بتمثيل رواية هزلية، ولكن. . . ما أسخف الروايات التي أعدت لتمثل في الدور، كما وردت في القائمة الحالية!؟
إن كل ما فيها سمج، متكلف، غليظ!. . . ولا يقل فعل النكات التي تشتمل عليها عن فعل القنابل. إنها تحطم كل شيء مع إنه ليس فيها أدنى أثر لا للذكاء ولا للدعابة ولا للباقة!
حقاً إن رجال الأدب لا يعرفون شيئاً عن العالم! إنهم ليجهلون كل الجهل كيف نفكر وكيف نتكلم! فإذا أجزنا لهم أن يمقتوا عاداتنا ومواضعاتنا فلا يسعنا أن نجيز لهم أن يجهلوها. وهم إذا أرادوا التدليل على براعتهم وحذقهم لعبوا بالكلمات لعباً غريباً من شأنه أن يزيل غضون ثكنة بأسرها! وإذا أرادوا بعث السرور لجئوا إلى طائفة من النكات. . . لا أشك لحظة أنهم إنما جمعوها من الشارع. . . من تلك الحانات التي يدعونها (حانات الفنانين)، حيث تتكرر منذ خمسين عاماً ذات النكات، فتناقلها الطلاب ويتوارثونها. . .
اذن نحن نتسلى بتمثيل رواية هزلية، ولما كان تمثيلها يقتضي وجود سيدتين، فقد قبل زوجي أن يقوم بدور الخادم، ولذلك اضطر أن يحلق شاربه. وليس في استطاعتك يا عزيزتي (لوسيا) أن تتصوري مقدار التغير الذي طرأ على زوجي بعد حلق شاربه. . . إنني لا أكاد أعرف. . . لا ليلاً ولا نهاراً!
وإذا لم يترك شاربه ينمو من جديد، فالمرجح أنني لا أتردد في خيانته لشدة ما يبدو لي دميما بدون شارب!
والحقيقة أن الرجل لا يعد رجلاً بدون شارب! أنا لا أحب اللحية كثيراً لأنها تكاد تدل على الإهمال دائماً، أما الشارب. . . أوه الشارب! فإن وجه الرجل لا يستطيع الاستغناء عنه أبداً!
كلا! لا يمكنك أن تتصوري قط إلى أي درجة تبدو هذه الفرشاة الصغيرة من الشعر ضرورية للنظر. . . ولاسيما للعلاقات الزوجية!
ولقد عرضت لي في هذا الموضوع طائفة من الخواطر لا أجرؤ على التعبير عنها كتابة، برغم استعدادي التام لاطلاعك عليه شفاهياً بصوت خافض وبسرور وافر
إلا أنه قد يتعذر أحياناً العثور على كلمات تصلح للتعبير عن بعض الأشياء؛ وأكثر هذه الكلمات التي لا يمكن الاستعاضة عنها بغيرها تتخذ على القرطاس صوراً فضيةً لا أقوى معها على أن أخط شيئاً منها. . . ثم إن الموضوع نفسه من الدقة والصعوبة بحيث يتطلب لباقة شديدة لمعالجته بدون التعرض لخطر
وأخيراً ماذا يمكنني أن أفعل إذا كنت لا أقدر أن أجعلك تفهمينني جيداً؟
ولكن اجتهدي يا عزيزتي أن تقرئي السطور!
أجل. عندما أبصرت زوجي بدون شارب أيقنت للحال أنه يتعذر علي أن أحب ممثلاً أو مبشراً. . . حتى وإن كان الأب (ديدون) نفسه أوفر المبشرين جمالاً وأشدهم إغراء إذا كان حليق الشارب!

وعندما خلوت بزوجي كانت المصيبة أعظم!. . . أوه يا عزيزتي لوسيا لا تسمحي قط لرجل حليق الشارب أن يقبلك إذ لا يكون لقبلاته أدنى طعم!. . . مطلقاً!. . . مطلقاً!. . . فليس في قبلاته ذلك الفلفل. . . نعم إن الشارب هو فلفل القبلات وبهارها!

تخيلي رقاً جافاً أو رطباً يلامس خدك: هذه هي قبلة الرجل الذي يحلق شاربه. . . إنها بدون شك لا تساوي شيئاً!

وقد يخطر لك أن تسألينني: من أين يستمد الشارب إغراءه إذن؟ وهل تحسبينني أعرف ذلك؟

أول كل شيء الشارب دغدغة لذيذة جداً. . . تحسينه قبل الثغر، فيبعث في جسمك كله من قمة رأسك إلى أخمص قدميك رعشات سحرية تجتاحك كالتيار الكهربائي. . . فالشارب هو الذي يداعب البشرة، وهو الذي يجعلها ترتعش وتختلج، وهو الذي يبعث في الأعصاب ذلك التنميل العذب الذي يجعلك تتنهدين (آه)، كما تفعلين حين يهز جسمك برد قارس!

وعلى النحر! هل اتفق لك أن أحسست بالشارب يدغدغ نحرك؟ إن دغدغته هذه لتسكرك وتشنج أعصابك، وإنما لتنساب في ظهرك إلى أن تبلغ أطرافك، فتتلوين وتحركين أكتافك

حركة خاصة، وتلقين رأسك إلقاءة خاصة أيضاً، وترغبين رغبة قوية في الفرار والبقاء معاً. . . إن قبلة كهذه لتستحق العبادة لشدة ما تبعثه من اللذة وما تحدثه من إثارة وتهيج

وعدا ذلك. . . حقاً إني لا أجرؤ على. . . إن الرجل الذي يحب زوجه يعرف كيف وأين يجد مواضع مختبئة ليدفن فيها قبلاته، مواضع لا تخطر للمرأة حتى عندما تخلو بنفسها. . . وهذه القبلات إذا لم يتقدمها شارب لا يبقى لها طعم، بل أنها لتغدو مخالفة للذوق والأدب!

ولك أن تفسري ذلك بما تشائين؛ أما أنا فأفسره هكذا: الثغر بدون شارب كالجسم بدون ثياب!. . . نعم، لا بد من الثياب، القليل منها إذا شئت، ولكن لا بد من بعضها والخالق قد ستر بالشعر جميع مواضع الجسد التي يدفن الحب فيها؛ فالثغر الحليق إنما يبدو كينبوع عذب وسط غابة اقتلعت أشجارها

وهذا يذكرني بجملة لأحد رجال السياسة ما زالت تتردد في ذاكرتي منذ ثلاثة أشهر؛ فقد قرأ على زوجي ذات مساء في إحدى الجرائد خطبة غريبة لوزير الزراعة السيد (ميلين)؛ ولست أدري إذا كان لا يزال إلى الآن في وظيفته أم حل غيره محله لم أكن أستمع لزوجي، ولكن هذا الاسم (ميلين) لفت انتباهي؛ قد ذكرني - ولست أدري لماذا - بالحياة في يوهيميا، وخيل إلي أن الحديث يدور على إحدى العاملات المتأنقات؛ فأصخت بسمعي، وهكذا استطاعت بعض الكلمات أن تجد سبيلاً إلى رأسي والسيد (ميلين) أدلى إلى أهالي إميان - فيما أظن - بالتصريح التالي الذي ما فتئت أبحث عن معناه: لا وطنية بدون زراعة! ولم أهتد إلى معنى هذه الجملة إلا في هذه اللحظة. . . وأنا كذلك أصرح بدوري: لا حب بدون شارب!

وقد يبدو ذلك مضحكا، حين يقال على هذه الصورة، أليس كذلك؟ لا حب بدون شارب!. . . لا وطنية بدون زراعة. . .! لقد كان السيد (ميلين) مصيباً في قوله هذا الذي لم أدرك معناه قبل هذه اللحظة. . .

والشارب ضروري من جهة أخرى، فهو الذي يحدد صورة الوجه فيجعله لطيفاً أو رقيقاً أو قاسياً أو مضحكا أو جريئاً

إن الرجل الذي يرخي لحيته إرخاءً تاماً، ويترك جميع شعره (يا لها من كلمة قبيحة!) على خديه، لا يمكن أن يكون في وجهه شيء من الرقة، لأن الشعر يخفي الملامح، وشكل الذقن

والفكين يدل على أشياء كثيرة، ولكن قل من يفهمها

أما الرجل الذي يترك شاربه، فإنه يحتفظ بهيئته الحقيقية وبرقته في وقت واحد، وللشوارب أشكال متعددة تختلف عن بعضها اختلافاً عظيما، فهي تارة: معقصة، معقوفة، أنيقة. وهذا يبدو عليها أنها تحب النساء فوق وقبل كل شيء آخر!

وهي طوراً: مسننة، مهددة، حادة كالإبر. . . وهذه تميل للخمر والخيل والحرب!

وأخرى هي: غليظة، مترهلة، مفزعة. . . وهذه تخفي عادة طبعاً حسناً وطيبة عظيمة إلى درجة الضعف، ولطفاً لا يكاد يفرق عن الحياء والخجل
ثم أن ما أحبه أكثر من كل شيء في الشارب، إنه فرنسي وفرنسي بحت، فقد تحدر إلينا من أسلافنا الغالين وما انفك يتوارث حتى غدا سمة فارقة من سماتنا الوطنية والشارب مهذار، شجاع، أنيق. . . فهو يرقص برشاقة في كأس النبيذ، ويعرف كيف يبتسم بظرف، بينا الفك الذي تستطيل لحيته، يبدو فظاً سمجاً في كل ما يأتيه من حركات!
وإليك حادثاً استنفذ جميع دموعي وجعلني أفتن بالشوارب على ثغور الرجال: حدث ذلك خلال الحرب الماضية، وكنت إذ ذاك فتاة صغيرة، واتفق ذات يوم أن جرت معركة شديدة على مقربة من قصر والدي، فأز الرصاص، وقصفت المدافع منذ الصباح، فلما هبط المساء دخل علينا قائد ألماني وأتخذ له مجلساً بيننا، ولم يلبث في اليوم التالي أن غادرنا. . . ثم جاء من أخبر والدي أن في الحقول كثيراً من القتلى، فأمر بجمعهم وجلبهم للقيام بدفنهم
فجمعوهم ومددوهم على طرفي شارع الصنوبر من أوله لآخره، ولما بدأت تنبعث منها روائح كريهة أخذ الجنود يهيلون عليهم التراب في انتظار الانتهاء من تهيئة الحفرة الكبرى التي تتسع لهم جميعاً، وهكذا لم يعد في الإمكان رؤية شيء من جثثهم، ما عدى رؤوسهم التي كانت تبدو للناظر كأنها تنبت من الأرض صفراء مثلها بعيونها المقفلة و. . . .
فقد تملكتني رغبة قوية في أن أراهم، ولكني عندما أبصرت هذين الخطين الطويلين من الوجوه الفظيعة، شعرت كأنما أغمى علي. . . ثم رحت استعرض هذه الوجوه وأنا أحاول معرفة أصحابها
كانت بذلاتهم الرسمية مطمورة تحت أطباق الثرى، ومع ذلك فقد استطعت فجأة يا عزيزتي أن أعرف الفرنسيين من شواربهم!
كان كثير منهم قد حلقوا لحاهم يوم المعركة كأنما أرادوا أن يكونوا أنيقين لآخر لحظة من حياتهم. . .! ولكن لحاهم قد عادت فنمت قليلاً، لأن اللحى تنمو - كما تعلمين - بعد الموت أيضاً. . . وكان يلوح على الآخرين إنهم لم يحلقوها منذ ثمانية أيام. . . ولكن كلهم كانوا يتميزون بوضوح تام بالشوارب الفرنسية الفخورة التي خيل إلي أنها تقول لي: أيتها الفتاة! احذري أن تخلطي بيني وبين صديقي: إني من مواطنيك!
وقد بكيت يا عزيزتي، أوه بكيت كثيراً، أكثر بكثير مما لو لم أعرف هؤلاء القتلى بهذه الطريقة. . .
لماذا قصصت عليك ذلك. . . لا شك أنني مخطئة. . . فقد بعثت هذه الذكرى في نفسي كآبة شديدة، جعلتني عاجزة عن الثرثرة أكثر مما فعلت؛ فإلى اللقاء يا عزيزتي لوسيا، إني أقبلك قبلات حارة، وليحيى الشارب!!!
(القدس)
إيزاك شموس
العدد 420 - بتاريخ: 21 - 07 - 1941
الشيخ محمد عبده
بمناسبة ذكراه السادسة والثلاثين
للأمام الأكبر الأستاذ محمد مصطفى المراغي
عبد من عباد الله الذين اختصهم بمزيد فضله، ومنحهم من صفات الإنسانية الفاضلة ما امتازوا به عن أقرانهم في عصرهم وأمثالهم في عصور أخرى، واشرفوا على الناس يألمون لما عليه الناس من انحطاط علمي وخلقي وأدبي، ويحاولون استبدال أمم أخرى بهم؛ ورجل ممن رزقوا لذة المعرفة، وأفيض عليهم نور العلم الإلهي ففهموا أسرار الدين، وعرفوا السعادة الحق على وجهها، منحه الله قوة في الجسم والحواس، وبسطة في العلم، وعقلاً قوياً نفاذاً، وفطرة سليمة، وإلهاماً صادقاً، وشجاعة في الحق، وزراية على الباطل، وقلباً رحيما بالضعفاء والفقراء، وحباً للبذل والإحسان نشأ الشيخ في عصر من العصور القاتمة، كل شيء فيه ممض مؤلم للنفس الحرة والفطرة الصادقة. فالأمم الإسلامية تنحدر علمياً وسياسياً واجتماعياً إلى أحط الدركات، وليس لطالب الحرية العقلية بينها متنفس، والدين يفهمه الناس على غير

وجهه، واللغة العربية اختلطت بغيرها من لغات العجم، والزلفى إلى الله لها طرق لم يشرعها الله، والزلفى إلى الحكام لها طرق لا يرضاها ذو مروءة ذهب ريح المسلمين، وتفلّت من أيديهم زمام الحياة العامة، وتداعت عليهم الأمم كما تتداعى الأكلة على القصاع، وليسوا قلة بين الأمم، ولكنهم كغثاء السيل

ذهب يتعلم فتعلم كما يتعلم غيره: قواعد جافة ليس لها حياة تصلها بمنابعها من الكتاب الكريم والسنة المطهرة، ولا بأصولها من لغة العرب وأساليبهم وأدبهم. وتعلم القواعد في مختصرات رضيها ذلك العصر المظلم لا تفهم إلا بشروح وحواش وصناعة خاصة، فلا اللغة العربية بمسعدة على إجادة النظم والنثر والكتابة والخطابة، ولا على فهم القرآن الكريم وفق الأساليب العربية؛ ولا الفقه بساد حاجة المجتمع وحاجة الحكومات والدول في التشريع والتنظيم؛ ولا دراسة الكلام والمنطق بموصلة إلى الاستدلال الصحيح الذي يطمئن إليه العقل ويقنع الخصم. المتحدث في الاجتهاد وتخير الأحكام لتطابق الأحكام حاجة العصر، ولتلائم أحوال الأمم وأحوال الأزمنة، مبتدع مخالف لما أجمع عليه المحققون. والداعي إلى

سيرة السلف الصالح داع إلى مخالفة سيرة العلماء المبرزين. والداعي إلى كتب الأولين مقصر عن فهم كتب المحققين من المتأخرين. والمنادي بأن كتب الفقه وكتب التفسير وكتب الحديث ملئت بمعلومات خاطئة وبأوهام وقصص لفّقها من قبل علماءُ الإسرائيليات مخالف لما درج عليه صالحوا هذه الأمة وجهابذتها

عاش الشيخ في هذه البيئة العلمية ضيق الصدر مرير العيش. فمن من أصحاب الفطر الصادقة والنظر السليم يؤمن بالقرآن ويعتقد أن فيه هدياً وفيه شفاء، وأن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم عامة للأمم كلها وللعصور كلها، يؤمن بأن هذه الدراسة الدينية والعربية تخرج للناس إماماً يهتدون بهديه، ويشفي أمراض المجتمع في علمه وخلقه ونظامه، ويضع له القوانين الصالحة والنظم اللائقة

عاش الشيخ في هذه البيئة يلتمس الوسيلة، وتطلب نفسه مخرجاً منه، وتتطلع إلى رجل يشفي صدره ويزيل قلق نفسه، ويشد أزره، ويبصره بالدين وبالحياة، وينضم رأيه إلى رأيه في أن هذا الذي يراه ليس هو الدين؛ وهذا الذي يعيش فيه الناس ليس هو الحياة؛ وهذا الذي يدرسه من الكتب ليس موصلاً إلى العلم الصحيح بل مبعداً عنه؛ وهذا الذي يتعارفه الناس في طرق الدراسة هو غير طرق الدراسة الصحيحة النافعة مر بهذا الطور ثم أعطاه الله ما كانت تصبو إليه نفسه، فهبط إلى مصر جمال الدين الأفغاني، وهو رجل ثائر على النظم الموجودة جميعها: نظم الدراسة ونظم الحكومات؛ خبير بأحوال الدنيا وأحوال الأمم، عليم بأدوار التاريخ وما تقلبت عليه الأمم الإسلامية من أطوار، خبير بالتاريخ العلمي الإسلامي وبغيره من التواريخ، عالم بمذاهب الأمم ونحلها، عالم بالاستدلال وطرقه، بصير بالدعوة إلى الله سبحانه وبالدعوة إلى ما يريده من الآراء والمذاهب؛ يفقه أغراض الدين العامة، ويحترم العقل ويعرف له قدره، ويضع الرجال مواضعهم لا يعطيهم أكثر مما يستحقون

رجل يمت بصلة نسبية إلى صاحب الرسالة ويرى أن عليه ديناً لجده لا بد أن يؤديه. ذلك الدين هو وقف مواهبه جميعها على تبيين هذا الدين وإصلاح حال المسلمين. وجد الشيخ في السيد جمال الدين بغيته، ووجد ما يشبع نهمه ويشفي صدره ويزيل صدأ عقله ويشحذه، ويرد ذلك الجوهر صافياً نقياً لامعاً كما فطره الله، ثم يملؤه علماً ويقيناً وإيماناً ومعرفة

ويعدّه للإصلاح

أتم الشيخ دراسته، ولأمر ما أراد الله به كماله، هجر مصر لأسباب سياسية وطوّف في بعض بلاد الإسلام وبعض البلاد الغربية فأكتمل نضجه. ثم عاد واشتغل بالقضاء الأهلي وعرف أساليب القضاء الحديثة من منابعها فصار قديراً على الإصلاح في القضاء الشرعي كما هو قدير على الإصلاح العلمي وإصلاح نظم الدراسة

هيأت له الأسباب جميعها تولي إفتاء الديار المصرية وصار له شأن في إصلاح الأزهر بعضوية الإدارة فيه، وكانت مواهبه وجاهه وخبرته بالدولة ورجال الدولة مما جعله المسيطر على الإصلاح في الأزهر وصاحب النفوذ به

عرف الشيخ أن النفوذ والجاه ووضع النظم وما إلى ذلك لا يكوّن الرجال العاملين ولا العلماء المجددين، وأنه لا بد لهذا كله من أن يضاف إليه التعليم الصحيح وأن يتولاه

بنفسه، فقرأ في الأزهر كتاباً قيما من كتب المنطق، وقرأ رسالة في التوحيد، وقرأ كتب الشيخ عبد القاهر في البلاغة وشرع يفسر كتاب الله.

كانت دروس الشيخ كالغيث. أما البلد الطيب فقد خرج نباته بإذن ربه؛ وأما البلد الخبيث فقد خرج نباته نكداً. وكانت دروسه مثلاً عالياً في طريقة الإلقاء والتفهيم وفي العبارات الفصيحة المتخيرة النافذة إلى القلوب. وكانت دائرة معارف يجد اللغوي فيها حاجته والفقيه رغبته والمتكلم بغيته. ويجد علماء الاجتماع فيها تطبيق آي القرآن على معارفهم، وكانت صرخاته المدوية منبهة للغافل ومحركة للجامد. وكانت عاصفة قوية هزت الأشجار الباسقة القوية فسقطت أوراقها الذابلة ثم أورقت. أما الشجيرات الضعيفة والحشائش الدنيئة فأفلتت منها ولم تنتفع بها

عاملان من أقوى العوامل وقفا في طريق الشيخ. عامل الحسد، وعامل البيئة. ومن المحال أن يوجد رجل كالشيخ في صفاته وعلمه لا يحسد. ولو أنه لم يحسد ولو أنه لم يرم بالكفر والضلال ولو أنه لم يشتد حسده ولم يقاوم أشد المقاومة بسبب الحسد لما كان شيئاً يتحدث عنه ولما كان رجلاً من رجال التاريخ وقديماً قال الإمام الغزالي: (استصغر من علماء الدين كل من بالكفر لا يعرف، وكل من بالضلال لا يوصف). والسلاح القاتل الذي يرمي به علماء الدين هو الكفر والزندقة، والمقتل الوحيد الذي يقصد بالسهام في علماء الدين هو العقيدة.

وأما البيئة فقد أشرت إليها من قبل ولا أبيح لنفسي أن أضرب الأمثال وأقيم الأدلة على أنها بيئة لم يكن من العدل أن ينتظر منها مناصرة الشيخ وقبول آرائه وطرائقه في الإصلاح الديني واللغوي وغير ذلك. ولم يكن من الحق أن يطمع الشيخ في مناصرتها إياه. وبخاصة أنه هاجمها هجوماً عنيفاً لا هوادة فيه وسفّه آراءها في أعز شيء لديها وهو العقيدة. وسبب ثالث له خطره وهو أن جهة ذات نفوذ أظهرت عدم الرضا عن الشيخ وساعدت خصومه. وان جهة ذات نفوذ آخر ساعدته وشدت أزره فظن القوم أنه رجل يريد إفساد الدين وإفساد العلم وإفساد الأزهر. ومن أشد مظاهر الحسد إذ ذاك أن عالماً من كبار العلماء كتب سلسلة مقالات في جريدة المؤيد يحرم فيها تعليم الحساب والجبر والهندسة والتاريخ في الأزهر لأن الشيخ كان أول المشيرين بتعليم هذه العلوم في الأزهر وكاد العناد يكون كفراً.

ذهب الشيخ إلى جوار ربه منذ ست وثلاثين سنة، وكان فضله مجحوداً، وكان يرمي بالكفر والزندقة. لكنه كلما ابتعد الناس عنه بالزمان اقتربوا من معرفته، وزاد المقرون له بالعلم والتقوى والإيمان والغيرة على الدين. والمقرون له بالإصلاح وبالذود عن الإسلام والمسلمين

مات الشيخ وبقيت طريقته في الإصلاح لم تمت، وبقيت آراؤه مدونة في الكتب ومرسومة في صدور تلاميذه المخلصين يورثونها الأبناء والأحفاد. إن ذلك المصباح لا يزال يسطع نوره ولا يزل نوره يمتد في آفاق البلاد الإسلامية وغيرها وسيتجلى للناس جميعهم عندما ينصفه التاريخ ويتقادم العهد أنه علم من أعلام الأمة ومجدد من مجددي الإسلام؛ وأنه أحد رجال السلف الصالح. تأخر ميلاده عن خير القرون لحكمة أرادها الله، فولد في القرن الثالث الهجري

ترك بذور الإصلاح للتعليم الديني وتعليم علوم العربية وبذور إصلاح القضاء الشرعي، وبذور إصلاح المجتمع الإسلامي والأمم الإسلامية. وليس في رجال تفسير كتاب الله من يضارع الشيخ أو يقاربه في تطبيق آي القرآن على سنن الاجتماع، وفي تصوير هدى القرآن، وفي فهم أغراض الدين العامة

ودعته ليلة سفري إلى السودان لتولي قضاء مديرية دنقلة في نوفمبر سنة 1904، فسألني: هل معك رفقاء السفر؟ فقلت: نعم، بعض كتب آنس إليها وأستديم بها اتصالي بالعلم؛ فقال: أو معك كتاب الأحياء؟ فقلت: نعم؛ قال: الحمد لله، هذا كتاب لا يجوز لمسلم أن يسافر سفراً طويلاً دون أن يكون رفيقه؛ ثم قال لي: أنصحك أن تكون للناس مرشداً أكثر من أن تكون قاضياً، وإذا استطعت أن تحسم النزاع بين الناس بصلح فلا تعدل عنه إلى الحكم، فإن الأحكام سلاح يقطع العلاقات بين الأسر، والصلح دواء تلتئم به النفوس وتداوي به الجراح.

وداعبني مرة إثر خروجي من امتحان شهادة العالمية هل تعرف تعريف العلم؟ فقلت

له نعم وكنت أحفظ إذ ذاك أكثر تعاريف العلم فسردت بعضها. فقال اسمع مني تعريفاً مفيداً العلم هو ما ينفعك وينفع الناس. ثم سأل: هل انتفع الناس بعلمك؟ قلت له لا.
قال: إذاً أنت لست بعالم. فانفع الناس بعلمك لتكون عالماً
ولم يكن يفوته أن يذكر بالقرآن وأن يعتبر بالقرآن كلما ذكرت الحوادث وكلما جدت العبر، ولم يكن يفوته أن يشهر بالظالمين، وأن يثني على المخلصين العادلين. فقد كان يحب الحق أكثر مما يحب نفسه. عاش للعلم وعاش للدين وعاش للإسلام والمسلمين
رحمة الله ورضوانه عليه وعلى إخوانه الأئمة المهتدين
محمد مصطفى المراغي
استقلال مصر
من الجهة التاريخية
للأستاذ محمد توحيد السلحدار بك
روى مصريون أن زعيمين من ساستنا باحثا اللورد اللنبي وتدهيا له حتى ألان لمصر جناحه وتطوع لنصرة قضيتها. وزعم آخرون أن مصرياً غيرهما هو الذي حج اللورد حتى سلم بحق المصريين في الاستقلال، ووعد بان يقدم إلى حكومته اقتراحات إذا هي رفضتها استقال، وقد وفى بوعده الذي كان أشبه بحلم منه بالحقيقة الواقعة
وإذا كان في معرفة الحقيقة التاريخية فائدة فإنه يحسن بكل مصري وقف على شيء يتعلق باستقلال بلاده أن ينشر ما عرف، لكي تتضح تلك الحقيقة بأجمعها. ومن هذه القبيل ما يلي ذكره في سبيل المصلحة العامة
في أذيال الحرب الكبيرة الماضية - التي أتلفت الملايين من الأنفس والأموال وانتصر فيها الإنجليز وحلفاؤهم - اضطرت الجيوش البريطانية إلى الجلاء عن تفليس، وباطوم، وعشق آباد، وبخاري، وشمال إيران. ولما حلت الجنود الفرنسية في سورية محل القوات البريطانية لن تفي هذه القوات بحاجة الجيوش التي كان حشدها ضرورياً لقمع الثورات في تركيا،
وإيران، وكردستان والعراق، ولحماية المصالح البريطانية المتعلقة بمناطق البترول القوقازية والعراقية والإيرانية. وكان اللورد كتشنر يصرح بأنه لا يستطيع في أية حال أن يحمي بجيش الهند وحده منطقة في إيران أكبر من منطقة النفوذ التي عينها لإنجلترا الاتفاق الإنجليزي الروسي المعقود سنة 1907. أما المستر لويد جورج، رئيس الوزارة، فقد رأى أن اليونان تستطيع حراسة المصالح البريطانية في آسيا الصغرى، وأراد أن يكلف جيش الهند حفظ المصالح البريطانية الجديدة في الشرق. لذلك شكلت لجنة خاصة تحت رياسة اللورد اشر مهمتها أن تحل مسألة تعديل نظام الجيش الهندي وتكبيره، فأهملت هذه اللجنة قانوناً صدر سنة 1858 وفيه نص صريح على أن الجيش الهندي يجب أن يبقي في الهند، إذ ختمت أعمالها بقرار مضمونه أن هذا الجيش لم يبق في الإمكان اعتباره قوة محلية دائرة أعمالها محصورة داخل حدود الهند، بل يجب عده قسماً من جنود
الإمبراطورية، مستعداً للخدمة في أية جهة من العالم
كانت الحرب العالمية قد وسعت دائرة أعمال ذلك الجيش فأكسبت سكان الهند - ولا سيما المسلمين الذين منهم صفوة الجنود الأهلية - حق إبداء رأيهم في تسوية السلم في الشرق. فلما نشر تقرير اللورد أشر، بعد أن أمضيت معاهدة سيفر، قامت في الهند ضجة غضب؛ ونشرت التيمس يومئذ في عددي 5 و6 من نوفمبر سنة 1920 كتاباً مطولاً من أغا خان نبه فيه أصدقاءه من البريطانيين إلى أن هذه السياسة لا تلائم العلاقات بين بريطانيا العظمى والهند، ونصح بالعدول عن احتلال مناطق البترول وبمساعدة القبائل العربية، مساعدة مالية، لتقوم هي في مقابل هذه المساعدة بحماية معامل البترول وأنابيبه. وقد وقع هذا الكتاب أحسن وقع لدى الرأي العام البريطاني، إذ كان في قلق من كثرة الخسارة في الرجال والمال للجيش القائم باحتلال كردستان والعراق وإيران، البالغ قرابة ألف جندي
هذا، وقد كانت المسألة العربية من جهة أخرى تستوقف نظر البريطانيين لأسباب منها: خلع الفرنسيين للملك فيصل، والحركة الوطنية في مصر، واستئناف المنافسة بين الحجاز ونجد. وقد تبين من تقريري اللجنة التي أرسلت إلى الهند ولجنة ملنر أنه يصعب تكبير الجيش الهندي بعيد الحرب، وأن من الحكمة أن تعدل حكومة لندن

سياستها الشرقية. ثم لوحظ أن لكل من بريطانيا وأمريكا مصلحة في مسألة البترول، وأن الدولتين متجهتان إلى زيادة التسلح البحري - الذي يستلزم زيادة الإنفاق - وأن الحكومة البريطانية كانت قد وعدت العرب بمساعدتهم في طلب الاستقلال وصرَحت بموافقتها على مبادئ ولسن المشترطة للصلح

من أجل ذلك كله عقد بالقاهرة في آخر مارس سنة 1921 مؤتمر كبير تحت رياسة المستر ونستن تشرشل وزير المستعمرات يومئذ، حضره الكولونيل لورنس (وكان المستر تشرشل قد جعله وكيل وزارته لشؤون الشرق) وجميع البارزين في السياسة الشرقية الإنجليزية: المس جرترود بل، والمارشال اللنبي، والسير برسي كوكس، والسير هربرت صمويل، والسير جلبرت كلايتون، والكولونيل كورنواليس، وغيرهم، وكان الغرض من عقد هذا المؤتمر أن يحل مسألة إنقاص قوات الاحتلال في إيران، وكردستان، والعراق، ويحل مسألة مصر وبلاد العرب؛ وقد ختم أعماله بالقرارات التالي بيانها:

1 - التسليم بضرورة تعديل تام للسياسة الإمبراطورية في البلاد العربية والشرق الأوسط.

2 - إهمال مبدأ الضم والحمايات.

3 - الاعتراف باستقلال الشعوب الشرقية، ومعاقدتها بمعاهدات تحالف.

4 - أن يجلس على عرش مصر ملك

5 - وضع دستور الهند.

6 - إجلاس الأمير فيصل على عرش العراق، وتولية الأمير عبد الله إمارة شرق الأردن.

7 - إيجاد طريق إمبراطوري جديد يعبر الصحراء بين فلسطين والعراق ويصل بور سعيد وحيفا ببغداد والبصرة؛ وتنشأ في مواضع مختارة منه محطات للطيارات والسيارات المصفحة تضمن حماية جميع المصالح

أفكانت حجج أولئك الساسة المصرين - التي سلَم اللورد اللنبي بصحتها - هي سبب مؤتمر القاهرة أم سبقت قرارات المؤتمر تلك الحجج فهيأت البريطانيين لذلك التسليم الذي أشبه الأحلام عندنا؟ وهل كفى تصريح 28 فبراير سنة 1922 ومعاهدة سنة 1936 لتحقيق استقلالنا، ولضمان المصالح البريطانية كلها، أم ضحت بريطانيا بشيء لتوثيق الصداقة بينها وبيننا؟

لست أدري، بل لعلي زدت المسألة غموضاً من حيث حاولت المشاركة في إيضاحها فذكرت بعض ما أعرف، وقد يوفق غيري لبيان أدق وأكمل

وحسبنا الآن ما ظهر من أننا حقاً مستقلون للأسباب التي حملت الإنجليز على تعديل سياستهم الإمبراطورية، وعلى الاعتراف باستقلال الشعوب الشرقية، في مؤتمرهم الذي عقدوه في عاصمتنا وما زال أمره خافياً - فيما أظن - على الأكثرين منا، والله أعلم

محمد توحيد السلحدار

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

خطر السياسة على مصاير العلماء - الحياد الأدبي - آداب بعض الوعاظ - إلى فضيلة الشيخ المراغي - الشيخ عبد ربه مفتاح - فجيعة لم يستعد لحملها القلب - لا ذنب لي قد قلت للقوم استقوا - إلى فلان - إلى العلامة وحيد

خطر السياسة على مصاير العلماء

كان ابن خلدون يرى أن الاشتغال بالسياسة لا يليق بالعلماء، وأثر عن الشيخ محمد عبده أنه قال: لعن الله السياسة ومادة ساس يسوس!

فهل تكون السياسة عملاً تنكره الأخلاق أو يأباه الدين؟ وكيف والسياسي الرشيد يؤدي واجباً هو في بعض صوره من أشرف ما يدعو إليه الدين والأخلاق؟

إنما يكره اشتغال العلماء بالسياسة لأنها قد تصرف عنهم بعض القلوب، فلا يملكون الأبوة الروحية لجميع من يصلحون للانتفاع بما عندهم من ذخائر الحكم والآداب، والرجل العالم، هو بطبيعته مركزه أخو الجميع وأبو الجميع، والسياسة قد تجره إلى التحيز لفريق دون فريق، وإن بالغ في التحرز من شوائب الأهواء.

أكتب هذا وقد قرأت في جريدة (الكرخ) أن الجنسية العراقية نزعت من الأستاذ ساطع الحصري وأنه أمسى خارج الحدود!! وهو خبر جزعت له أشد الجزع، وإن لم يكن بيني وبين هذا الرجل من الصلات ما يوجب الانزعاج لما صار إليه من نفي وتشريد، إذا صح أن أهل العلماء يتعافون إلا إذا قامت بينهم روابط من الصداقة والوداد. . . ومن سياق ذلك الخبر عرفت كيف صار الأستاذ ساطع الحصري إلى هذا المصير المزعج فقد عد من المنحرفين عن الصواب في أيام الانقلاب. ومعنى ذلك أنه اشتغل بالسياسة فتعرض لما يتعرض له العلماء السياسيون في بعض الأحيان

إن أهل العراق قد يرون في الأستاذ ساطع الحصري غير ما أراه، وهم أدرى بما تتعرض

له ديارهم من عواصف الخلاف، ولكن الأخوة الأدبية توجب أن نواسي هذا الباحث المتعمق بكلمة عطف، وهي أقل ما نملك في التوجع لمصيره الحزين

لو كان الغيب مما يطلع عليه الناس لرأى قوم أن يسجن الأستاذ ساطع الحصري في مكتبته فلا يشترك في السياسة من قرب أو من بعد، لينقطع لأداء رسالته السامية في التربية والأدب والتاريخ، فله في هذه النواحي أبحاث تضعه في الصف الأول بين كبار المفكرين في هذا الجيل

ولكن الانقلابات العنيفة قد تخرج العلماء من وقارهم المنشود، وتسوقهم إلى معاطب لا يسلم معها أديم، ولا ينفع في دفعها علاج

هذه عبرة جديدة تسوقها الأيام لمن ألقى السمع وهو شهيد

وإن رأسي ليدور كلما فكرت في مصاير العلماء الذين تبلبلهم الحوادث فلا يعرفون إلى أين يتوجهون، وقد أحاطت بهم القواصف والأنواء

كان أسلافنا يدعون إلى الاعتكاف عند هبوب الفتنة، وما كان أسلافنا جبناء، ولكنهم كانوا يعرفون أن الفتنة تخبط خبط العشواء فلا تفرق بين العاصي والمطيع، ولا تدري أين تقع أخفافها الهوج الثقال

وأنا مع هذا قوي الأمل في رجعة الحياة الطبيعية إلى ربوع العراق، ويومئذ يكون من السهل على الحكومة العراقية أن تسمح للأستاذ ساطع الحصري بالعودة إلى البلد الذي خدمه بصدق وأمانة وإخلاص، فلن تكون جنايته السياسية أعظم من كفايته العلمية، ولن يكون في أشنع أحواله مجتهداً أخطأه الصواب

الحياد الأدبي

كانت الجرائد الإنجليزية شغلت بالتنفير من الحياد، فكانت تدعو جميع الأمم إلى إعلان الحرب على الألمان، وكانت هذه الدعوة تقع من بعض الناس موقع الاستخفاف، لأنها في نظرهم لم تكن إلا وسيلة من وسائل التحريض على الأمة الألمانية، والتحريض لا يقبل في كل حين

ثم دارت الأيام بالنحس على المحايدين، فهم كل يوم في بلاء جديد، ولو أنهم خرجوا على الحياد منذ اليوم الذي سمعوا فيه النذير الأول، لقهروا الألمان على الانسحاب من أكثر

الميادين وأذاقوهم الاستهانة بأقدار الشعوب

وفي دنيا المعارك القلمية مذهب دميم هو مذهب (الحياد الأدبي)، ولهذا الحياد عواقب سود، لأنه قد ينتهي بأهل الفكر والرأي إلى إيثار السلامة من أراجيف العوام وأشباه الخواص، وإذا آثر المصلح السلامة فعلى الإصلاح العفاء

أقول هذا مناسبة خطاب وصل من أعالي النيل بقلم الأديب إبراهيم محمد إبراهيم، وهو يراني أحجمت عن المضي في شرح أسباب الفقر، مع أن الفقر علة تستحق الدرس والتشريح، وتستوجب التفاف جميع الأطباء

وأجيب بأن الذي يصدني هو (الحياد الأدبي) حياد الأدباء الذين يرون ما أراه في مشكلة الفقر والفقراء، ثم يعتصمون بالسكوت، طلباً للسلامة من أوضار التزيد والافتراء

أستطيع أن أسمي عشرين رجلاً من أصحاب المواهب، وقد هنئوني على القول بالمسئولية الفردية قبل المسئولية الاجتماعية، ومع ذلك لم يتقدم منهم رجل واحد بمقال يشعر الجمهور بأن الرأي الذي أعلنته يصلح للأخذ والرد، ويستحق عناية أهل الرأي والبيان

وفي مقابل ذلك وقف أنصار (الرياء الاجتماعي) متعاونين متساندين ليقولوا فيَّ ما

يشاءون على صفحات بعض الجرائد والمجلات، حتى صح للأستاذ صالح جودت أن يتوجع لمصاير أهل الرأي في هذه البلاد

أنا أنظر فأرى أعدائي يزدادون من يوم إلى يوم، الأعداء المجاهرين، أما العداء المكاتمون، فهم أهل للصفح والغفران ولكن أين أنصاري؟

أنصاري هم قرائي، لا زملائي، وآه ثم آه من تخاذل الزملاء!

وأولئك القراء هم الجيش الذي نعتمد عليه بعد الله في نصر قضية الرأي الحر والقول الصريح، ولن يستطيع أحد أن يفسد ما بيني وبين قرائي، لأني اللسان الناطق بما يشتجر في صدورهم من أراء وأهواء، ولأنهم يؤمنون بأن الأدب لن يرتفع إلا إذا تحرر أهله من أغلال الأوهام والأضاليل

وما الموجب للرياء، وما ظفر المراءون بغير الخيبة والإخفاق؟

وما قيمة الدنيا حتى نطلب نعيمها بالتزلف إلى أبنائها الفانين؟

آداب بعض الوعاظ

يجب أن يعرف من لا يعرف أن مجلة (الرسالة) مقررة لمكتبات المدارس الأميرية ومكتبات المعاهد الدينية، ومعنى ذلك أن الأستاذ الزيات ليس له مصلحة أدبية أو مادية في نشر شيء يخالف مبادئ الدين الحنيف، بغض النظر عن مكانته من الوجهة الدينية، فهو موضع الثقة من أكابر رجال الدين، وله أبحاث كريمة في لغة القرآن المجيد

إذا صح هذا - وهو صحيح صحيح - فكيف يستبيح جماعة من الوعاظ أن يسيئوا الظن بكل ما أكتب في مجلة الرسالة عن الدين الإسلامي؟ ومن أين يعرف هؤلاء الناس أن إيمانهم أقوى من إيماني، وتلك علاقة روحية لا يعلم سرها غير علام الغيوب؟

مجلة (الرسالة) تصدر في كل عام عدداً ممتازاً عن الهجرة النبوية، ويشاء الحظ (السيئ) أن أحرص - حين أكتب مقالة لأحد تلك الأعداد - على البعد من الأبحاث التي ابتذلتها الأقلام منذ أجيال وأجيال، لأن روح الإسلام نفسه تنهانا عن الأنس بالحديث المعاد، ثم تكون النتيجة أن تشغل المجلات الدينية بشتمي وتجريحي سنة كاملة بلا ترفق ولا استبقاء

ساقني إلى هذه الزفرة الأليمة ما كتبه أحد الوعاظ في مجلة دينية لا أسميها ولا أسميه، لئلا يغضب عليها وعليه أهل الفكر والرأي والوجدان

وما ذنبي عند هذا الواعظ حتى يشتمني بألفاظ لا يصح صدورها عن رجل يتصدر للدعوة إلى الدين؟.

أيراني كفرت حين أشرت بزخرفة المساجد لنرتاح إليها بعد قضاء النهار في طلب المعاش؟

أيراني كفرت حين قلت بأن الخوف من الوثنية لم يبق له مكان في هذا الزمان، حتى نراعي بعض ما راعاه الأسلاف القدماء؟

وبأي حق يصد رجل مسلم عن إعلان ما يراه في شئون الإسلام؟

ومتى جاز أن يكون في الإسلام صور جديدة لحيوات الأحبار والرهبان؟ سوف ترون مصايركم، يا جماعة الجانين على العقل باسم الدين

إلى فضيلة الشيخ المراغي

إليك - أيها الأستاذ الأكبر - أوجه الحديث فأقول:

ما رأيك في الوعظ والواعظين؟

ما رأيك في جماعة لا يحدثون الناس إلا بغطرسة واستعلاء كأنهم ملكوا مفاتيح الجنة، وكأن رحمة الله لا تساق إلى مؤمن إلا بوحي من هواهم المطاع؟

ما رأيك في بعض هؤلاء وهم يعجزون عن كسب القوت إن رفعت عنهم رعاية الأزهر الشريف؟

إن الدين المسيحي يروض أبناءه على الإيمان بأن في القسيسين نفحة ربانية، ومع ذلك يتأدب القسيسون فيخاطبون أتباعهم خطاب الصديق للصديق، فما عجرفة الواعظ المسلم، والإسلام يدعو جميع أبنائه إلى مناجاة الله بلا وسيط؟

ومن هؤلاء الذين يوهمون الأمة بأن فيها طبقة من الملحدين مع أن محصول الفكر في مصر من الوجه الدينية لهذا العهد، لا يقاس إلى ما وصلت إليه أصغر الممالك في عهد ازدهار الحضارة الإسلامية؟

ومن المسلم الملحد في هذه الأيام حتى يجوز الإغضاء عن إفك بعض المعتدين؟

أنت المسئول - أيها الأستاذ الأكبر - عن تأديب هؤلاء فجرب فيهم سيفك أو عصاك، لينزجروا عن التحرش بالمفكرين من أهل الإيمان
كان يجوز في عهد غير عهدك أن تكون البهلوانية من شمائل بعض المنتسبين إلى الدين، فما عذرهم في التسلح بالبهلوانية وأنت هناك، وفيك من القوة الذاتية والدينية ما يقلم أظافر المرائين والمداجين؟
لا تبق على هؤلاء - أيها الأستاذ الأكبر - فهم حجة الأعداء على أن شمس الإسلام في كسوف. وسيبقى الإسلام على ضيائه برغم أولئك وهؤلاء
إن المخابيل من أعداء الحرية الفكرية هم الذين آذوا سلفك الشيخ محمد عبده، فلا تسمح لقرونهم بالنجوم، ولا تدعهم يحكمون على المؤمنين بالزور والبهتان
الإسلام ديننا نحن، لا دين هؤلاء، فنحن دعاته الأمناء في الشرق والغرب، وعنا يأخذ من يريدون الوصول إلى فهم أغراضه الصحاح، فمن طاب له أن يزعم أن الإسلام في مصر أصبح نزعة طائفية ينتسب إليها فريق ويصد عنها فريق، فهو مارق من القومية المصرية، وخليق بأن ينظر إليه الأستاذ الأكبر نظرة تأديب، لأن أمثال هؤلاء يستمدون قوتهم
المعنوية من الأزهر، وهو من انحرافهم في عناء
الشيخ عبد ربه مفتاح
فجعت مصر منذ أعوام بوفاة رجل من أصحاب المروءات، هو الشيخ عبد ربه مفتاح، وكان شيخ الوعاظ، وإليه يرجع الفضل في تنظيم الوعظ الديني بالأقاليم، وكان له في ثورة سنة 1919 مجال
فماذا خلف هذا الرجل من الآراء؟
الجواب عند الذين دربهم على الوعظ والإرشاد، ولكني أذكر رأيا واحداً يصور حصافته العقلية، فقد كان يرى أن ينتفع الأزهر بمواهب المثقفين المتهمين برقة الدين، لأنه كان يعرف أن التهمة بالإلحاد لا تقوم في أغلب الأحوال على أساس، وإنما تكون فرية يذيعها أصحاب الأغراض، أو تأويلاً خاطئاً لكلام يحتمل التأويل، وكان من حججه أن الأزهر حين ينتفع بمواهب أولئك المثقفين قد يغرس فيهم الجاذبية الدينية، على فرض انهم ينفرون من الدين، أو يحولهم إلى أصدقاء يصعب عليهم التحامل على الأزهر الشريف
والحق أن الأزهريين الشبان يتمنون أن يرفع الحجاب المسدول بينهم وبين أقطاب الفكر الحديث، ليروا دنيا العقل في ثوبها الجديد، وليصح القول بأنهم عرفوا ما عند أشهر المثقفين من مذاهب وآراء
وهنا فكاهة مؤذية ولكنها طريفة: فقد اقترح فريق من طلبة كلية اللغة على فضيلة الأستاذ الشيخ المراغي أن يقوي كليتهم بأصحاب المواهب، ولو كانوا في جموح زكي مبارك وشطط طه حسين!!
أنا والدكتور طه من أصحاب المواهب، بشهادة كلية اللغة العربية؟
هو ذلك، فما يرفض الكرامة إلا لئيم!
أما القول بأننا من أهل الشطط والجموح فهو قول مردود فما عرفوا عنا فيما قرءوا وما سمعوا غير القول بحرية العقل وقدسية الدين
فجيعة لم يستعد لحملها القلب
هي فجيعتي في الشيخ (عبد الوهاب النجار)، أستاذي وصاحب الفضل علي في كثير من
المواقف، والصديق الذي لم أر منه ما يسوء على كثرة ما عانيت من تغير الأصدقاء
كان الشيخ النجار يتأدب بالأثر الذي يقول: (أطلب العلم من المهد إلى اللحد) فلما دعي لتدريس التاريخ الإسلامي بالجامعة المصرية سنة 1918 أخذ يواظب مع الطلبة على دروس اللغة العبرية، وقد عرف منها اكثر مما عرفت، مع أنه لن يُسأل معي أمام لجنة الامتحان!
وحين شبت الثورة المصرية في سنة 1919 تفضل فدعاني ليحدثني أنه يريد أن يؤرخ أيام الثورة على طريقة (الجبرتي) بكتاب يسميه (الأيام الحمراء). ورجاني أن أقدم إليه أخبار الأزهر يوماً بيوم، وكان الأزهر ملتقى الوفود في تلك الأيام والذين نعوا الشيخ النجار في الجرائد اليومية وتحدثوا عن مؤلفاته نسوا الحديث عنها الكتاب، لأنه

غير مطبوع، فليعرفوا أني أشرت إليه مرة في جريدة البلاغ، فاهتم الأستاذ عبد القادر حمزة بأمره وطلبه من الشيخ لنشره مسلسلاً على صفحات البلاغ. وقد نشر بالفعل منذ بضع سنين، فأكبر خدمة يؤديها أصدقاء الشيخ النجار لذكراه هي جمع تلك الصفحات في كتاب، لأنها أعظم وثيقة كتبها مؤرخ شاهد الحوادث في سنة 1919 . . .لا ذنب لي

لم تصلح الأيام ما في ذاكرتي من الشذوذ الفظيع: فهي ضعيفة كل الضعف فيما يتصل بالأرقام والأعلام، وهي قوية كل القوة فيما يتصل بالحوادث والمعاني؛ فأنا قد أتمثل حادثة بظروفها وأحوالها في غاية من التدقيق، كأني شهدتها بالأمس، ولكني أنسى اليوم الذي وقعت فيه، وقد أنسي العام والعهد؛ ففي أي يوم أو أي عام أو أي عهد وقع الحادث الذي أروى خبره في العبارات الآتية:

أنكر وزير المعارف في عهد سلف - وذاكرتي تزعم أنه مصطفى ماهر باشا - أنكر ذلك الوزير أن تكون (دار العلوم) مدرسة عالية، لأن طلابها لا يدرسون إحدى اللغات الأجنبية ولأنهم لا يجيدون غير تصريف افعوعل وافعنلل؛ وأنبني على ذلك أن ينكر حقوقهم في (تعديل الدرجات)

فماذا صنع الشيخ النجار في دفع ذلك التحامل البغيض؟

كتب سلسلة من المقالات في جريدة الأهرام تحت عنوان:

(لا ذنب لي قد قلت للقوم استقوا) كتبها بإمضاء مستعار ليسلم من بطش الوزير، في أوقات لم يكن يجوز فيها لأحد الموظفين أن ينشر مقالاً في معارضة أحد الوزراء وتحققت الغاية المنشودة من تلك المقالات، فتساوى أبناء (دار العلوم) مع أبناء (المعلمين العليا) في (تعديل الدرجات) بعد أن طال العهد بالتفريق بين هاتين الطبقتين من رجال التعليم

فأين من يذكر وفاء الشيخ النجار للمعهد الذي تخرج فيه، يوم تخلى عن نصرته أبناؤه الأوفياء؟

إلى فلان

قرأت خطابك فاستروحت نسائم الحرية حين شهدت غيرتك على الاستقلال، أنت تراه غاية معنوية، لا غاية نفعية، كما يتوهم بعض الناس

وليس المهم أن تستريح الأمم من الكفاح، لأن الكفاح هو أيضاً من الغايات، فما كانت الراحة إلا نذير الموت والفناء

إلى العلامة وحيد الأيوبي

قرأت جوابك، أيها السيد في مجلة الرسالة، وأنت ترى انه يقال للشيخ عجوز وللشيخة عجوز وعجوزة. وأقول إن الشيخة عجوزة فقط، ولا يجوز وصفها بعجوز في لغة هذا العهد، لأن اللغة صائرة إلى التقعيد وهو استنادها إلى قواعد وأصول في جميع الشؤون، بحيث ينقرض الشذوذ الذي يأخذ قوته من السماع

فأنا أقول: زوج وزوجة، وخادم وخادمة، وصبور وصبورة، وقتيل وقتيلة، وجريح وجريحة، وعجوز وعجوزة، لتوكيد التفريق بين المذكر والمؤنث، وهو غرض يقصده البلغاء

فإن احتججت بلغة القرآن فسألقاك بأدلة جديدة توهن ذلك الاحتجاج، بدون أن أخرج عن الأدب في الحديث عن لغة القرآن. وإن آزرك الأستاذ الكبير (ا. ع) فسيكون للأقلام مجال في تحرير مشكلة طال عليها الخلاف، وسنمد لغة العرب بزاد هي إليه في اشتياق، لأنه باب من الحرية في الأداء، ولأنه عون على التحديد والتعيين حين تختلف المعاني

والأغراض، والسلام.

زكي مبارك

في الاجتماع اللغوي

اللهجات العامية الحديثة

الرسم العربي: أثر اللهجات العامية في صعوبته

مظاهر نقصه ووسائل إصلاحه

للدكتور علي عبد الواحد وافي

أستاذ الاجتماع بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

لا ترمز حروف الهجاء في الرسم العربي إلا إلى الأصوات الساكنة (ونعني بها ما يقابل أصوات المد) وأصوات المد الطويلة (الألف والياء والواو). أما أصوات المد القصيرة فيرمز إليها بحركات يوضع بعضها فوق الحرف وبعضها تحته (كُتِبَ كَتَبَ. . .)
ولا تكاد تدون هذه الحركات في عصرنا الحاضر إلا في الكتب الأولية التي تستخدم في تعليم النشء مبادئ القراءة والكتابة. أما فيما عدا ذلك فقد جرت العادة غالباً أن تدون الكلمات في الكتابة والطبع عارية عن الشكل. ومن أجل ذلك أخذ بعض الباحثين على الرسم العربي بعض مآخذ من أهمها ما يلي:
1 - أنه لا يستطيع أحد أن يقرأ نصاً عربياً قراءة صحيحة ويشكل جميع حروفه شكلا صحيحاً إلا إذا كان ملماً بقواعد اللغة العربية وأوزان مفرداتها إلماماً تاماً، وفاهماً معنى ما يقرؤه. ويردد من يأخذ هذا المأخذ على الرسم العربي ما قاله قاسم أمين من أنه في معظم اللغات الأوربية يقرأ الناس قراءة صحيحة ما تقع عليه أبصارهم وتتخذ القراءة وسيلة للفهم: أما نحن فلا نستطيع أن نقرأ قراءة صحيحة إلا إذا فهمنا أولا ما نريد قراءته
2 - أن النص العربي الواحد عرضة لأن يقرأ قراءات متعددة بعيدة عن اللغة الفصحى. وذلك أنه قد حدث تناوب واسع النطاق في أصوات المد القصيرة (التي يرمز إليها بالفتحة والكسرة والضمة) في اللهجات العامية كما تقدم بيان ذلك في إحدى مقالاتنا السابقة؛ حتى أنا لا نكاد نجد كلمة باقية في هذه اللهجات على وزنها العربي الصحيح. وتختلف هذه
الأوزان باختلاف اللهجات (خِسِر، خُسُر، يِعمِل، يِعمَل. . . الخ). فالنص العربي المجرد من الشكل عرضة لأن يقرأه أهل كل لهجة حسب منهج لهجتهم في وزن الكلمات
3 - أنه من المتعذر مع هذا الرسم قراءة أسماء الأعلام (أسماء الأمكنة والبلاد والبحار والجبال والأناس. . . الخ) قراءة صحيحة. ولذلك تضطر بعض المعاجم والمؤلفات إلى تهجي حروف الكلمات التي من هذا القبيل، والنص على حركة كل حرف منها؛ فتقول مثلاً (صفين بكسر وتشديد الفاء المكسور)، (الغفاري بكسر الغين وتخفيف الفاء) وهلم جرا
وقد قدمت عدة اقتراحات لسد مواطن النقص السابق ذكرها فتقدم بعضهم باقتراحات ساذجة هدامة لا تكاد تستحق عناء المناقشة. فمن ذلك استبدال الحروف اللاتينية ومنهج الرسم اللاتيني بالحروف العربية ومنهج الرسم العربي. ولا يقوم هذا الاقتراح إلا على مجرد الرغبة الآثمة في تقليد الغربيين؛ إذ ليس ثمة ما يدعو إلى اصطناع الحروف اللاتينية. وإن كان لا بد من السير على طريقة الرسم اللاتيني بصدد أصوات المد القصيرة، فلا يقتضينا ذلك أكثر من اختراع ثلاثة أحرف ترسم في صلب الكلمة بدل الفتحة والكسرة والضمة كما سنذكر ذلك في بعض الاقتراحات الآتية. وأكثر من هذا هدماً لكيان اللغة العربية ما ذهبت إليه طائفة في علاج الرسم، إذ اقترحت إلغاء الإعراب وإلزام السكون أواخر الكلمات، حتى تضيق مسافة الخلف بين رسم الكلمة ونطقها في اللهجات العامية المستخدمة في المحادثة، فتسهل على الناس القراءة، ويتخلص الرسم العربي من بعض عيوبه. وقد كفانا أستاذنا الجليل أحمد لطفي السيد باشا مئونة الرد على هذا الاقتراح بما عقب عليه في الشئون الاجتماعية إذ يقول: (وهذا الرأي مطعون فيه من وجهين: أما الأول فإنه لا يحل من المسألة إلا بعضها دون البعض الآخر؛ لأن ضبط حركات الحروف ليس ضرورياً في الإعراب فحسب، بل هو أشد ضرورة في بنية الكلمة. وهذا الضبط من جواهر اللغة؛ فإذا أهملنا الإعراب وأهملنا الشكل ولم نأت بطريقة تقوم مقامه ظل الناس يلفظون الكلمات على غير وجهها الصحيح كما هم الآن يفعلون. وأما الوجه الثاني فإن هذا في الرأي إهدار لصورة اللغة العربية وقضاء على أهم مميزاتها. وذلك مالا نظن أحداً يرضاه، خصوصاً متى أمكن تسهيل تعليم اللغة وشيوعها من غير الالتجاء إلى العبث بسلامتها ومميزاتها)
واقترح بعضهم إدخال الشكل في بنية الكلمة حتى لا يتخطاه نظر القارئ؛ وذلك بان تخترع حروف للرمز إلى أصوات المد القصيرة (التي يرمز إليها الآن بالفتحة والكسرة والضمة)، وتدون هذه الحروف في صلب الكلمة في مواضعها. فلتدوين كلمة (كتب)

مثلاً يرسم بعد كل من الكاف والتاء والباء الحرف الذي سيخترع للإشارة إلى ما تشير إليه الفتحة في رسمنا الحاضر. وهذا هو المنهج الذي يسير عليه الرسم الأوربي وينتصر لهذا الاقتراح عدد كبير من الباحثين على رأسهم أستاذنا الجليل أحمد لطفي السيد باشا.

واقترح آخرون أن يكون لكل حرف من حروف الهجاء العربي أربع صور مختلفة: صورة في حالة تحركه بالفتح؛ وأخرى في حالة تحركه بالكسر؛ وثالثة في حالة تحركه بالضم؛ ورابعة في حالة تسكينه. وهذا في مجمله هو المنهج الذي يسير عليه الرسم الحبشي.

وترى جماعة بالاكتفاء بالتزام الشكل في المطبوع والمكتوب حتى يستطيع كل فرد أن يقرأ ما يقع عليه نظره قراءة صحيحة

والذي أراه أن الصعوبة التي يشتمل عليها الرسم العربي لا يكاد يخلو من مثلها، بل مما هو أشد منها، أي نوع من أنواع الرسم. فاللبس الذي يحدثه أحياناً الرسم العربي ليس شيئاً مذكوراً بجانب اللبس الذي يحدثه الرسم الإنجليزي مثلاً، وخاصة في النطق بأصوات المد , , , , , , , , , , . . فكثيراً ما يختلف النطق بالصوت الواحد من هذا النوع وغيره تبعاً لاختلاف الكلمات التي يرد فيها؛ حتى أنه يستطيع قراءة معظم الكلمات الإنجليزية قراءة صحيحة بمجرد النظر إلى حروفها؛ بل لا بد في ذلك أن يكون القارئ قد عرف نطق الكلمة من قبل عن طريق سماعها من إنجليزي. كما أنه لا يستطيع كتابتها كتابة صحيحة بمجرد سماعها؛ بل لا بد في ذلك أن يكون قد حفظ حروفها - من قبل عن ظهر قلب -. وفي الحق أن الرسم العربي ليعد من أكثر أنواع الرسم سهولة ودقة وضبطاً في القواعد ومطابقة للنطق

أما وجوه الإصلاح التي أشرنا إلي بعضها فيما تقدم فيظهر لنا أن ضررها أكبر من نفعها، فمعظمها يطيل رسم الكلمة أو يزيد من حروفها، وفي هذا إسراف في الوقت والمجهود والنفقات المادية وشؤون الطبع. . . وما إلي ذلك. هذا إلى أن كل تغيير جوهري يدخل على الرسم من شأنه أن يحول - عاجلاً أو آجلاً - بين الأجيال القادمة والانتفاع بالتراث

العربي. حقاً إنه يمكن اتقاء ذلك بالالتجاء إلي إحدى محاولتين؛ ولكن كلتيهما توقع في صعوبة تزيد كثيراً عن الصعوبة التي تعمل على إزالتها. أما إحداهما فأن يتعلم كل فرد نوعين من الرسم العربي: الرسم القديم الذي يتيح له الانتفاع بنتاج الفكر العربي من النشأة إلى العصر الحاضر؛ والرسم الحديث الذي يقرأ به ما يدون بعد هذا الإصلاح ويستخدمه في كتابته، ولا يخفي ما يترتب على ذلك من الارتباك، وإطالة الزمن الذي تعلم فيه القراءة والكتابة، وانفرادنا من بين سائر الأمم بأعجوبة في ميادين الرسم والتعليم. وأما الأخرى فأن يعمد إلى جميع ما كتب أو طبع بالرسم العربي القديم فيعاد تدوينه وفق هذا الرسم الحديث، ولا يخفى أن مشروعاً هذا شأنه تنوء به الجهود الإنسانية وتعجز الخزائن عن تموينه على أن من اليسير اتقاء وجوه اللبس التي أشرنا إليها بدون الالتجاء إلى أي إصلاح من الإصلاحات الآنفة الذكر. فمن الممكن التغلب على هذه الصعوبة بالتزام شكل الكلمة التي من شأنها أن تثير اللبس عند أواسط المتعلمين إذا نزلت من غير شكل، أما الكلمات التي يدل السياق على شكلها، أو يكفي إلمام بمبادئ القواعد العربية للنطق بها على وجهها الصحيح، أو لا يمكن أن ينطق بها في صورة أخرى، فمن العبث الالتجاء فيها إلى الشكل

علي عبد الواحد وافي

ليسانسيه ودكتور في الآداب من جامعة باريس

القيم الأخلاقية في الآداب الإنجليزية المعاصرة

للدكتور توماس جرينوود

أستاذ الفلسفة بجامعة لندن

لأجل أن نقف على وجهة النظر الأخلاقية في كتاب الإنجليز الحديثين يجب أن نعرف تلك الميول العامة التي دفعتهم إلى تلك الاتجاهات الجديدة وجعلتهم يثورون على نظم وتقاليد العصر الفكتوري. فإن عظمة الحكم الفكتوري قد انعكست في ذلك الإلهام الذي ألهم كتاب العصر ما كتبوا عن الفكرة العامة عن النظام والوجهة المنظمة للعالم، واحترام التقاليد، والخضوع للقانون الأخلاقي، واحترام الفضيلة والتسامي بها،

وعدم ذكر الرذيلة إلا للتشهير بها، اللهم إلا بعض الكتاب الثائرين (كسوينبرن) الذي كان أوسع حرية في الأخذ بتلك الآراء. إن رسوخ الأخلاق في الآداب الفكتورية قد اختفى تماماً في الكتاب المعاصرين لأسباب منها الحرب العظمى، والنزعات العلمية والاجتماعية والاقتصادية الحديثة، وتدهور القيم الأخلاقية العامة، واتخاذ كل شيء شكلاً جديداً

فكان (شو) و (ولز) كبار الرواد الذين سخروا من العصر الفكتوري وهدموا أسسه الأخلاقية. أن الضرر الذي لحق ذلك العصر من جراء هذين الكاتبين لا يوازن بتلك الأفكار الخيالية المثالية التي جاء بها ولز. وكان من آثار هذا الهدم العنيف أن ترك الجيل الجديد بدون مرشد، وأصبح يتعثر في سيره ويتخبط في عمائه واضطرابه. وهذا أوضح ما يكون في القصة. فعندنا نماذج خمسة من القصة: المخاطرات، ثم المواقف الغريبة الشاذة (مع التناقض القوي بين الحوادث الحقيقية والمتخيلة)، ثم الاجتماعية والنفسية، ثم السير (وهنا يذكر الكاتب مثالاً لكل منها ليظهر كيف أن المؤلفين قد تأثروا بتلك الأسباب التي ذكرناها، وكيف أن القيم الأخلاقية قد أصبحت في عماء وفوضى). وهذا يظهر جلياً في قصص أولئك المؤلفين الذين كانوا أشد تأثراً بالنظريات النفسية الحديثة

وعندما يشير الكاتب باختصار إلى كتابات باري وولبول وبيريسفورد وبلا كوود وسنكلير وفيرجينا وولف وغيرهم يعرض لثلاثة من أشهر كتاب القصص وأبعدهم أثراً في الأدب الحديث وهم: جيمس جويس ولورنس وألدس هكسلي

ففي جويس نجد المسائل النفسية مشروحة على الطرق الحديثة، فهو يصف لنا بدقة فائقة

التطورات النفسية لأبطاله. وهو لا يقيم وزناً كبيراً للحوادث فهي متساوية الأثر لديه. فالحياة في نظره ليست أكثر أهمية في مكان منها في مكان آخر؛ وهو يكشف لنا في قصته (أهالي دبلن) و (صورة الفنان كشاب) عن مقدرة فائقة واستعداد أدبي ممتاز. ولكن (يوليسيس) أعظم قصصه التي تظهر لنا بوضوح فوضى أخلاق أبطاله. ومع أنه يدعى أن حوادث قصته تصل بأبطاله الذين أوجدهم في هذه القصة، إلا أن الناس أميل إلى الاعتقاد أن مستر بلوم مثلاً شخصية مألوفة في الحياة الإنجليزية. وليس هناك فن أوضح لوصف كل الأفكار المريضة للرجل العربيد من أن يصف حوادث حدثت في حجرة الاستقبال أو على مائدة العمل. فالإنسان في نظره ليس فاضلاً، وهو من أجل هذا يجب أن يكبح أهواءه الدنيئة مستعيناً بذكائه وعقله

وجويس مع ذلك لا يدافع عن أخلاق أبطاله، فإن معالجته لفن القصة وأسلوبه القوي النشيط ومادته الغريزة، كل أولئك يساعد على إظهار أبطاله كما يريد أن يبرزهم لا أن تخفيهم أو تستر بعض عيوبهم. وهذا ما عمله لورنس، فإن كل كتاباته لا تدور حول الجنس فحسب (مع استثناء بعض قصصه الوصفية الجميلة) ولكنه يدافع عن آرائه في حرية الحب وغياب الروحية وازدراء القيم الأخلاقية والثورة على النظم الثابتة والتقاليد القديمة في العلاقات الجنسية والاجتماعية

وهنا ذكر الكاتب بعض مقتطفات من قصته (قوس قزح) مدللاً على صحة هذه الآراء أما هكسلي فإن دفاعه عن آراء لورنس في حرية الأخلاق قد اتخذ شكلاً فلسفياً، فهو يحاول (قصداً) أن يظهر أن هذه الفوضى الأخلاقية هي النتيجة العقلية لتحليل النفس الحقيقية.

لقد تعرضنا في هذه الإلمامة النقدية للقيمة الدبية لكتابات أولئك المؤلفين؛ وهذه القيمة نفسها تعرض أخلاقهم إلى خطر عظيم، فقد وقع الكتاب الثلاثة في أزمات نفسية خاصة وليست شائعة عامة بين الناس. وعلى هذا فمن الخطأ أن نعتقد أن هؤلاء الكتاب على أي حال أو في أي صورة المظهر الأخلاقي الحقيقي للعقل الإنجليزي

وأخيراً أظهر الكاتب أنه بالرغم من تأثير أولئك الثائرين فإن الأدب الإنجليزي المعاصر لديه مؤلفون عديدون يدينون بالآراء القديمة؛ فهم محافظون على تقاليدهم الموروثة؛ أمثال: ميروث وجولزورث وبنت وكونراد وجيروم وتشسترتن؛ حتى هاردي يمكن أن يعتبر أنه

أميل، أو أكثر إخلاصاً وأمانة إلى الأخلاق والتقاليد القديمة، التي هي من الأسباب الجوهرية في عظمة الشعب الإنجليزي.

نظمي خليل

جيل وجيل

إلى أين يسير الإنسان!

للأستاذ محمود البشبيشي

- 5 -

التعليل الروحي قيد الشخصية - التعليل العملي مطلق للمجموع - الميول والعواطف العامة تعمم التعليل الروحي - والتأمل الخاص يخصصه - الحيوان والتجربة! - التعليل الروحي والعملي والفكر الأدبي

نصل نقاشنا اليوم بصورة من اتجاهات ولدنا الأديب (حسين) الفلسفية، فلا سبيل . . . إلى إرضاء هذه الفورة الفكرية إلا بتشريح خواطرها المتدفقة، تشريحاً لا تنزل صوره إلا بمنزلة اليقظات الحسية، والأقباس الفكرية اللماحة

وحديث اليوم نسيج وحده، وجدت في مسايرته نشوة الفكر الحر إذا انكشفت أمامه مخبآت الفكر الإنسانية. . . ورأيت من الخير أن أتابعه إلى أقصى حدود المتابعة، وأتنقل معه من شاطئ فكر إلى شاطئ فكر، لأسبر غور اليقظة الحسية والفكرية في عقل متوثب من عقول الجيل الجديد، ولأرى كيف يمكن عقد صلة بين حياتنا الفكرية وبيننا

ولقد رأيت الكثير وعلمت الكثير ودفعني هذا العلم والتأمل إلى مواصلة النقاش، ففيه نشوة روحية ولذة فكرية ونوع من التعبير جديد عامر بنفائس المعاني وكرائم الاتجاهات، لا يمله القارئ الراغب في التسلية، وتجد فيه العقول الراجحة الوزينة أطايب وأطايب

- لاشك يا بني أن الإنسان بما ركب فيه من أحاسيس ومشاعر، وما اختص به من عقل متأمل له القدرة على تفهم ما يدور حوله وما يضطرب في أيامه من تغيرات معنوية ومادية. . . ولا شك أن قدرته على تفهم دقائق الأسرار تختلف كل الاختلاف وتتفاوت كل التفاوت تبعاً لقدرة الفرد على التغلغل في ظلمات الفكر، والتأمل في بدياتها ونهايتها، وإدراك الصلة بين هذه البداية وتلك النهاية. . . ثم تبعاً للقدرة على التعليل والوصول إلى النتائج

وكما اختلف الإنسان في جوهر العقل كان اختلافه في كل ما يصدر عن العقل وما يترتب على نتائجه

- جميل هذا، ولكني أعتقد أن مظهر التعليل أهم مظاهر الفكر التي يقع بينها التفاوت، بل إني لأعتقد كل الاعتقاد أن للتعليل الخطر الأكبر في كل ما تقوم عليه الحياة الفكرية والعلمية، يظهر أثره في الشروع في العمل وفي حالة القيام به، ويبدو واضحاً فيما تتكشف عنه النتيجة. . .

ففي استطاعة كل إنسان أن يشعر بوجود ما يثير التفكير من موضوعات معنوية أو مادية، خاصة أو عامة، طبيعية أو غير طبيعية، ذلك لأن جوهر العقل المدرك مشترك في المجموع.

ولكن التفاوت قد يقع، بل لا بد أن يقع فيما وراء مرحلة الإدراك من تصرفات فكرية، كشعور الإنسان بإحساس خاص نحو موضوع اعتراضه، أو رغبته القائمة على هذا الشعور في سلوك مسلك خاص نحو هذا الموضوع؛ وكما وقع الاختلاف في مرحلة الإحساس الخاص والسلوك الخاص يحدث في القدرة على التعليل لأن هذه المرحلة تصل معاني الإحساس الخاص والسلوك الخاص يحدث في القدرة على التعليل لأن هذه المرحلة تصل معاني الإحساس بمعاني ووسائل السلوك

- حسن هذا يا بني، وجميل أن نتأمل (التعليل) تأملا أوسع نطاقاً، ونحاول أن نستشف أسراره. . . عرفنا سر اختلافه فما هي صوره؟ وإلى أي مدى تتأثر الحياة بتلك الصور؟ ورأى مظهر من مظاهره أجدى على المجتمع؟

التعليل نوعان: تعليل روحي وتعليل عملي. أما الروحي، فهو وليد الفكر، يسير على ضوء أقباسه وتكون نتائجه صوراً فكرية أساسها التصور والتخيل؛ والعملي وهو في

حقيقته صورة لتعليل روحي انطلقت من قيود التخيل والتصور ووجدت الوسيلة القادرة لتتجسد بالعمل أو بالقياس، ووسيلة الإتقان في العمل والصدق في القياس هي التجربة

- وعندي يا والدي أن التعليل الروحي قيد من قيود الشخصية! لأنه مختلف متفاوت، ومن اختلافه وتفاوته تتميز الشخصيات

فهذا رجل قاتم الروح، تخرج نظراته إلى الأشياء من ألوانها القاتمة، فما من فكرة له وعمل إلا وفيه صورة من صورها، وإنه لسالك السبيل حتى يصبح سمة يعرف بها ولون تتكون منه شخصيته، وباختلاف ألوان الروح تختلف الشخصية

ولما كان التعليل صورة من صور الروح والعقل، ومظهراً من مظاهر الشخصية، كان طبيعياً انه إذا اشتد وتمت له الغلبة على الشخصية نفسها، وعلى سائر مكوناتها، أو تخطى حدود التوازن بينه وبينها. . . انتقل بالإنسان من قيد الشخصية الفردية إلى أفق الإنسانية العامة. . . فإذا به قد صب في قوالب من صور المجتمع، واستطاع أن يغالب نوازع النفس الفردية بعد أن كان الحكم والغاية فيه للتصور والتخيل والذوق الخاص، لا للميول الاجتماعية والخير العام

- رأيتَ يا بني أن التعليل الروحي من مكونات الشخصية، وإنه في أول أمره يكون من سمات الفردية، فإذا تمت لها الغلبة على سائر مكونات الشخصية، انتقل بها من نطاق الفرد ومنافعه الخاصة إلى أفق المجموع ومنافعه العامة، هذا حق ولكن يحسن أن نجلي عنه قليلاً فنقول: إن التعليل الروحي إذا غلب عليه التأمل الخاص أصبح صاحبه محباً للأثرة؛ أما إذا مسه شعاع من أقباس الميول العامة والعواطف، كان طريقاً ممهداً إلى مسايرة منافع المجتمع الإنساني وملابسة تقلباته وتطوراته، أو كان سبيلاً إلى معارضة تلك المنافع ومحاربتها. . .!

فهذا رجل نبيل الروح تظهر روحه النبيلة في مظاهر تعليله، ويقف تأثيرها في أول الأمر أو في حالة التوازن بينها وبين شخصيته عند منفعته الخاصة. إما إذا قهر هذا التعليل الروحي النبيل سائر مكونات شخصيته جعل منه صحاب ميول اجتماعية إنسانية سامية؛ فهو بما فطر عليه من نبل يعمل على إسعاد المجتمع وتقويم أوده. . .

وذاك رجل غلفت روحه بالأثرة والطمع، وطغى ذلك على مذاهب تعليله؛ فهو يتخبط في ظلمات أثرة محدودة بأطماع مقيدة في أول أمره؛ ثم إذا تمت الغلبة لتعليله الروحي وقهرت شخصيته، انطلق انطلاق الطائر الحبيس تفتحت أمامه آفاق السماء، فراح ينتهب من هنا وهناك، ويحلق هنا وهناك، وكان في جميع أموره مقدماً منفعته، معارضاً الخير العام

- وأرى يا والدي أن التعليل العملي سبيل من سبل إسعاد المجتمع. فما كانت الآلات ووسائل العلاج المختلفة إلا وليدة تعليل عملي، تأمل في أحوال الكون، وقارن بين ما فات وما هو آت، وربط التجاريب القديمة بالنظرات الحديثة، ووقف عند كل ظاهرة من ظواهر الحياة وقفة الفكر العملي الذي لا يقنع بزاد التخيل، ولا يرضى بعتاد التصور!

ولقد كان الإنسان في فجر أيامه تيهان هائماً، وكان موقفه من مشكلات الأمور موقف العجز المطبق أو القدرة المقيدة تغيم الدهشة في رأسه إذا طوقته الحادثات، وتضطرب الحيرة في فكره إذا بدهته الملمات!

كل أعماله تنم عن نقص في التدبير، وكل تصرفاته تدل على قصور في التفكير، وما من طريق سلكه إلا هتك عن جهل بمغالبة الأمور

ولقد ظلت أموره إلى عهد غير بعيد مشدودة إلى ماضيه بقيود من المنافع الخاصة والنظرات الروحية! أما اليوم فقد تحول تحولاً كبيراً، وانقلب انقلاباً خطيراً. . .

أفلم يساير الزمن في تقلباته، ويلابس التقدم العقلي في تصرفاته؟ أو لم يناوص ويصاول حتى أدرك أسراراً لم يكن ليستشفها إلا الفطن الذي تحفزه فكرة وعقيدة؟!

ولقد ملك اليوم ناصية فكرة وعقيدة مهما يكن مكانها من الخير أو الشر فهي من علائم اليقظات الحسية! وجماع القول في تدرج الإنسان، ومسايرته للزمن، وملابسته للتقدم العقلي، إنه كان روحي التعليل فاصبح عملي التعليل، وانتقل من لا نهاية التخيل والتصور إلى حدود التجربة والعمل

وكان في انتقاله هذا إدراك لما لا يناله غوص التخيل وتحقيق لما لا يسبر غوره تغلغل التصور، ولم يعد الإنسان ذلك المكدود المجهد اللاغب المدلج الحائر
ولكن هذا التطور جلب شراً خطيراً كما حقق خيراً كثيراً
وأكبر الظن أن الإنسان سيظل مندفعاً في سبيل التعليل العملي وحده والتجربة خاصة، حتى يصل إلى غاية تنقلب فيها الأمور إلى أضدادها! وما ذلك ببعيد. وهل كانت هذه الحرب الضروس إلا صورة لفساد المذهب التجريبي العملي التعليل؟
تلك صور الإنسان، فما صور الحيوان؟ عندي أن الحيوان عملي التعليل يسير على ضوء التجربة وينهج نهج الخبرة السابقة، فكل أعماله غير الغريزية لا تكمل صورها إلا بالتكرار والتجربة ولذلك الاعتقاد عندي علل وأسباب
فهو محروم من التعليل الروحي الكامل المعاني، لحرمانه من صور العقل الكامل وهذا أمر
لا يحتمل الجدل؛ ثم هو عاجز كل العجز عن ملائمة نفسه بالبيئة التي تحيط به، والقدرة على الملائمة من قواعد الحياة الثابتة، التي تقوم على ضوء أقباس العقل الكامل، وإشعاع التعليل الروحي!
ثم إني لألمس هذا القصور عن بلوغ مواطن التعليل الروحي عند الحيوان، حتى فيما يرتكز على غرائزه الثابتة؛ فهذا حيوان يأكل العشب الأخضر، تراه يلتهم ما أمامه بغير تأمل، فهو لا يميز بين الضار وغير الضار، لحرمانه من التعليل الروحي؛ ولكنه بالتكرار والتجربة يستطيع أن يدرك أن هذا النوع الذي أصابه منه ضرر جدير أن يبتعد عنه، وهو حتى في هذه الحال بطيء الإدراك، بطيء الفهم لوسائل التكرار والتجربة، فلو غيرت ظروف البيئة الأولى لوقع فيما وقع فيه أولاً!
أما أثر التعليل الروحي في الأدب فيبدو واضحاً جلياً في خطرات النفوس الشاعرة، ونظرات القلوب الفنانة الساحرة، وإنه ليكون اكثر وضوحاً في نفاث الشعراء الغزليين، ونغمات الكتاب الوجدانيين، وفي كل أثر من أثار الفكر السابحة في سماء من الخيال المجنح الذي لا يعرف القيود، ولا يعترف بالحدود! ومثل هذا التعليل لا يقوم إلا على التصور والتخيل، فهو من شواهد اليقظة الروحية، ولكن أثره لا يمتد إلى آفاق التعليل العملي، القائم على التجربة والقياس، وإن كان أصحابه من الشعراء والكتاب يحلقون في سماء الخلود الفكري. فغاية التعليل الروحي تغلب عليه الشخصية وتكسوها الفردية. فالشاعر الوجداني إنما يُشرح خواطر قد انبعثت من تقلبه في غمرات من الآلام الخاصة، واضطرابه في طوارق من الأوجاع والأسقام، فأثاره مقيدة بقوة تأثير ما يضطرب في حياته
والشعراء والكتاب الذين ينهجون نهجاً وسطاً بين الروحي والعملي هم بناة صروح الحياة، فما كانت الإنسانية في حاجة إلا للثبت الذي يستطيع المجانسة بين قوة التعليل الروحي وانطلاقه وقوة التعليل العملي وقدرته، وخير المصلحين من جمع بين فلسفة الفكر وفلسفة العمل والتجربة
- رائع هذا يا ولدي ولكني أميل إلى جعل التعليل الروحي شديد الصلة بالشعر وسائر أنواع الفنون كالرسم والنحت والموسيقى، فما سمعت مرة قطعة موسيقية روحية إلا وأحسست بأنغام سماوية تكاد ترتفع بي من عالم الأرض إلى عالم السماء، وتطهرني من معاني التراب الحقيرة، وتكسوني معاني الروح التي لا تعرف الحدود. . .
ويا سحر الشعر الروحي الوجداني. . . يا سحره!
استمع إلى المعاني كيف تنطق وكيف تتراقص من سحر الفن ونور الروح وشفافية الوجدان! تأمل الألوان النفسية الساحرة تسطع من أزاهير قول الشريف الرضي:
أينعت بيننا المودة حتى ... جللتنا والزهر بالأوراق
نحن غصنان ضمنا عاطف الوج ... د جميعاً في الحب ضم النطاق
في جبين الزمان منك ومني ... غمرة كوكبية الائتلاق!
وتأمل قول القائل وقد فاض به الوجد:
أيامنا جدول والحب زورقنا ... هيهات يحفل بالأمواج ترتطم!
لا يدرك القلب ماضينا وحاضرنا ... وفي نعيم الهوى أيامنا عدم
نعيش في عالم ألوانه حُلُم ... في شارد من خيال الفن ترتسم
قد كان صفو الهوى دنيا منمقة ... وكان في بهجتينا الحب يبتسم

ولّى فيا لوعة ألقت بعاصفة ... على فؤاد ترامت حوله الظلم!
وانظر قول الشاعر:
حدثتني الرياض عن لفتاتك ... وحكت لي النجوم عن لمحاتك
وطيور الغدير بحت من الشدو (م) ... بلحن الجمال من صدحاتك
وسمعت الأمواج تهمس للشط (م) ... حديث المجنون عن قسماتك
وضمير الجمال جن من الوجد (م) ... وذاب الهوى على زهراتك
اذكريني يَعُدْ ضميري للنور (م) ... ويحيى الفؤاد في ذكرياتك!
ويا سحر قول الشاعر محمد عبد الخالق الجبار يصف الشباب:
أنغامه الأيام وقعها الهوى ... والصمت من أصدائها تغريد!
ملك على عرش المعاني جالس ... من حوله للساريات عبيد!
إطراقة التاريخ حول جبينه ... تكبيرة يجثوا لها داود!!
محمود البشبيشي
النجوم تقرر مصير الحرب. . .!
وقع في يدنا تقويم قمري أخرجه السيد أمين الحسيني الفلكي في بدء العام الهجري الحاضر، وقد وردت به نبوءات عن الحرب، ويلاحظ القارئ أن كثيراً من هذه النبوءات قد صح
قال عن ألمانيا: أنه أمد حربها مع الديمقراطية سيطول وستزداد المعارك شدة، ولكن الأفلاك تقول إن قوتها بدأت في الانحطاط وأن هتلر لن يتمكن من تحقيق أمانيه في حكم العالم وانه سيسقط في مستقبل الأيام هو وشعبه، وإن بدا أنه سيظفر. فهناك شراك خطة ستكون السبب في سقوطه وستحدث ثورات في البلاد المحتلة. أما هتلر فسينقلب عليه أعضاء حزب النازي ويخونونه. وسيحاول في الصيف أن يغزو الجزر البريطانية ولكنه سيفشل لأن خطوط موصلاته ستقطع من البحر ولن يجد سبيلا للعودة وسيثور عليه أعداؤه من خلفه حتى يسقط وسيقتل في حادثة وبقتله تخضع ألمانيا وتنهزم
وقال عن إيطاليا: أن زعيمها سيفقد إمبراطوريته الأفريقية باستيلاء جيوش الحلفاء عليها وسيطلب مساعدة هتلر وقد يمده ببعض المساعدة ولكنها لن تؤدي إلى إنقاذ إمبراطوريته، وستضعف إيطاليا نفسها ويغرق أسطولها في معركة بحرية عظمى في البحر الأبيض بعيداً من السواحل وينتج عنها انهيار إيطاليا التام، وسيرسل هتلر إلى إيطاليا جنوداً ومهمات حربية ويسيطر على إيطاليا، ولكن لا يمر زمن طويل حتى تطرد ألمانيا من إيطاليا
وقال عن بريطانيا العظمى: إنها ستقضي على القوات الإيطالية في أفريقية وتحتل المستعمرات الإيطالية كما تدل الأحوال الفلكية على أن القوات البريطانية ستحرز انتصارات أخرى في الشرق الأوسط في هذه السنة. وسيكون هناك انتصار بحري عظيم في البحر الأبيض. أما في برقة فأن القوات الألمانية ستقع في شرك نصب لها بمهارة وستهزم شر هزيمة في الصحراء. أما في ألمانيا نفسها بعد فشل الغزو فسيحطم سلاح الطيران الملكي البريطاني المصانع الألمانية ويشل حركة الإنتاج الحربي ويقطع خطوط الموصلات
وقال عن الولايات المتحدة: أنها ستدخل الحرب ضد ألمانيا سنة 1942 وسيزداد العمل فيها هذا العام ويخصص جانب عظيم من إنتاجها الحربي والغذائي للدفاع عن الحرية الإنسانية وستمد الدول الديمقراطية بالمال مساعدة لها في نضالها وقال عن تركيا: إنها
ستطمئن في هذه السنة لأن خوفها من روسيا سيزول وسيحاول هتلر أن يفسد التفاهم بين تركيا وبريطانيا، وسيحاول أن يرغمها على الانضمام إلى المحور ولكنه سيفشل.
فما رأي القارئ في مقدرة النجوم على التنبؤ؟ وهل يكون ما قررته النجوم هو فعلا مصير الحرب؟
مدن الحضارات في القديم والحديث
للأستاذ محمد عبد الغني حسن

كانت حفلات الفاطميين في القاهرة موصولة لا تنقطع العام كله. ولقد صورها المؤرخون المعاصرون صوراً تنقل إلينا حقائق كثيرة عنها، ومن هؤلاء المؤرخين أبو محمد الحسن ابن زولاق مؤرخ المعز لدين الله وصاحب سيرته، وابن الطوير الذي يأخذ المقريزي عنه كثيراً في خططه، والمسبحي صاحب التاريخ الكبير، وابن عبد الظاهر وغيرهم.

وكانت القاهرة في عهد الفواطم تزخر بالقصور الكثيرة والدور المختلفة. ومن القصور التي ورد ذكرها في كتب الخطط: القصران الكبير والصغير، والقصر اليافعي، وقصر الذهب، وقصر الأقيال، وقصر الظفر، وقصر الشجرة، وقصر الشوك، وقصر الزمرد، وقصر النسيم، وقصر الحريم، وقصر البحر

ومن الدور المشهورة عندهم دار الضيافة ودار الوزارة ودار الضرب ودار الذهب ودار الملك

ومن المناظر التي كثرت في عهدهم منظرة اللؤلؤة وكانت تقع على الخليج، ومنظرة الغزالة، ومنظرة المقس، ومنظرة الدكة، ومنظرة السكرة.

والقصر الكبير يسمى المعزي نسبة إلى المعز لأنه هو الذي أمر جوهراً ببنائه حينما زايل مع عسكره شمالي أفريقية إلى مصر. ويقول المقريزي إن هذا القصر من ترتيب المعز ورسمه، وإن جوهراً لم يكن في البناء والتعمير إلا منفذاً لتصميم مولاه. ويجد القارئ وصف هذا القصر وصفاً تفصيلياً في الخطط مما ليس هذا موضع الإفاضة فيه.

إلا أن شيئاً واحداً يطيب ذكره في هذا الموضع، وهو مد السماط في شهر رمضان، وكيف كان يجتمع فيه قاضي القضاة والوزير والأمراء يأكلون الطعام الهنيء ويشربون الشراب المريء ويقدم إليهم الماء المبخر في كيزان الخزف.

وكان لعيد الفطر مثل هذا السماط ومثله في عيد النحر، وكانت القاهرة المعزية تشهد هذه الحفلات في فرح عظيم

ولا نجد أحلى في هذا المقام من تدوين أبيات من القصيدة التي رثى بها عُمارة اليمني الدولة الفاطمية، وودع مكارمها وأيامها وحفلاتها وعاداتها، وشيَّع فيها السن الجميلة التي استنوها لإحياء عيد أو إقامة شعيرة أو توديع جيش أو فتح خليج، فقال:

دار الضيافة كانت أنُس وافدكم ... واليوم أوحش من رسم على طلل
وفطرة الصوم إن أصفت مكارمكم ... تشكو من الدهر حيفا غير محتمل
وكسوة الناس في الفصلين قد درست ... ورث منها جديد عنهم وبلى
وموسم كان في كسر الخليج لكم ... يأتي تجملكم فيه على الجمل
وأول العام والعيدان كان لكم ... فيهم من وبل جود ليس بالوشل
والأرض تهتز في عيد الغدير بما ... يهتز ما بين قصريكم من الأسل
والخيل تعرض في وشى وفي شية ... مثل العرائس في حلى وفي حلل
ولا حملتم قوي الأضياف من سعة الْ ... أطباق إلا على الأعناق والعجل
وما خصصتم ببر أهل ملتكم ... حتى عممتم به الأمضى من الملل
وللجوامع من أحباسكم نعم ... لمن تصدر في علم وفي عمل

والقصيدة تجري كلها على هذا النسق من حسن السبك وجودة التصوير وصدق العاطفة وأثر الفجيعة والإحساس الأليم ويذكر المقزيزي أنه سبب هذه القصيدة قتل عمارة وتمحلت عليه الذنوب

لم يكن التصوير الفوتوغرافي قد ظهر في ذلك العهد ولو كان ذلك لبقيت لنا لوحات ومناظر تغني عن وصف القلم الذي كثيراً ما يوجز فيجنح إلى الإخلال أو يطيل فيميل إلى المبالغة والإغراق ولو كان الرسم متقدماً في ذلك العهد، لسلمت لنا لوحات مصرية صادقة كتلك التي يصنعها الرسامون أمثال: محمود بك سعيد، واحمد بك راسم، وصبري، وعياد، وصباغ، وهلبرت التشيكوسلوفاكي المتمصر وغيرهم ممن يسجلون الحياة المصرية المعاصرة في لوحات ستبقى خالدة تمثل الفن من ناحية وتسجل تاريخ الخطط المصرية من ناحية أخرى

ولقد زار القاهرة في القرن الثامن الهجري الرحالة ابن بطوطة صاحب الرحلة المشهورة، وكان سلطان مصر على عهد دخوله إليها الملك الناصر أبو الفتح محمد بن الملك المنصور قلاوون الصالحي. وقد أثنى ابن بطوطة على الملك الناصر في خلال كتابه ثناء عظيما

ووصفه بأنه: (صاحب السيرة الكريمة والفضائل العظيمة).
ولقي ابن بطوطة في القاهرة جماعة من الأمراء والفضلاء ذكرهم في رحلته، ووصف في خلال ذلك مجلس القاضي فخر الدين (وكان قبطياً ثم اسلم)، وكيف كانت تقضي عنده الحوائج، وتدرك لديه المطالب
وقد ترك لنا ابن بطوطة في رحلته وصفاً مختصراً ممتعاً ليوم المحمل في القاهرة، وهو يرينا صورة لما كان يجري في هذه العاصمة القديمة في عصر المماليك الذي جاء بعد عصر الفواطم.
وكان هذا اليوم يوماً مشهوداً، يركب فيه القضاة الأربعة ووكيل بيت المال والمحتسب، ومعهم الفقهاء، والرؤساء وأصحاب السلطان وأرباب الدولة وأهل الوجاهة، ويقصدون باب القلعة دار الملك الناصر (سلطان مصر في عهد المؤرخ)، فيخرج إليهم المحمل على جمل وأمامه أمير الحج المعين لمرافقة المحمل في تلك السنة ومع الأمير عسكره وأتباعه والسقاءون على جمالهم، ويجتمع لذلك أصناف الناس من رجال ونساء، ثم يطوفون بالمحمل في أنحاء القاهرة ومصر وأمامهم المنشدون ينشدون والحداة يحدون. . . وعندئذ ينبعث في قلوب الناظرين شوق إلى الحج وتهيج عزماتهم وتتحرك بواعثهم لقضاء الفريضة الموقوتة والعبادة المكتوبة.
ومن دواعي الأسف أن ابن بطوطة لم يترك لقلمه العنان في وصف القاهرة وما كانت عليه يوم وفوده عليها، وإنما اكتفى من ذلك بالنظرة العابرة، واللحظة الخاطفة، ولو قد فعل لترك لنا وصفاً طويلاً وصورة جميلة لنواح كثيرة من القاهرة كأسواقها ودورها وقصورها ومجامعها ومحافلها، ومساجدها ومدارسها، وشوارعها وحواريها، وقناطرها وجسورها، ولعل الناحية التخطيطية لم تكن تعنيه كما عنت المقريزي وعلي باشا مبارك من بعده.
أما ابن إياس صاحب التاريخ المشهور ومؤرخ مصر الإسلامية في آخر عصر المماليك وأول العصر التركي فقد وصف القاهرة في عصره وصفاً لا يخلو من فائدة
ومن الحفلات التي وصفها ابن إياس في كتابه المشهور حفلة المولد النبوي الشريف فهو يذكر أن السلطان الغوري أقام الخيمة العظيمة التي صنعها الأشرف قايتباي - وبلغت تكاليفها ستة وثلاثين ألف دينار - وقد صنعت من قماش مختلف الألوان واشترك في
نصبها بالحوش ثلاثمائة رجل من النواتية، ونصبت خارج الخيمة أحواض من الجلد قد ملئت ماء مسكراً، وجلس السلطان في الخيمة وحوله الأتابكي (رئيس الجند) والأمراء المقدمون والقضاة الأربعة والوجهاء من أهل القاهرة والقراء والعلماء ومد السماط الحافل بكل هنيء مريء
وفي أيام نيابة طومان باي عن الغوري، احتفل بوفاء النيل وكسر السد. فنزل الأمير لهذه الغاية في سفينة كبيرة، وتوجه إلى المقياس وعاين زيادة النيل وقدرها، وتم الاحتفال في سرور عاد بعده الأمير إلى مقره في موكب حافل عظيم
وتذكرنا حوادث إخلاء المناطق الخطرة في الإسكندرية اليوم بسبب الغارات الطائشة عليها، بحادث إخلاء حيّ (بركة الرطلي) من سكانه، والفرق بين الحادثين كبير، إلا أن النتيجة كانت واحدة وهي وحشة كل من الحيين وفرار الناس عنهما. ولم يذكر ابن أياس السبب الذي حدا بالأمير (طومان باي) إلى تحريم السكن في بركة الرطلي والمسطاحي، ولا لماذا تشدد الأمير في إخلاء هذين الحيين حتى صارا موحشين، وغَدَوا بلقعين لا يسكن إليهما ساكن، ولا يطمئن إليها ناظر، ولا تتحرك فيها من الأنس نسائم. ولقد خسر بذلك أصحاب الدور أموالاً كثيرة، وأصبحت بيوتهم خاوية خالية. ولقد صَّور الشيخ بدر الزيتوني هذه الصورة الموحشة في شعر يقول فيه:
وأضحت بيوت الجسر خالية فلا ... لصاحبها سكنى ولا واحد يكرى
وقد أصبحت تلك القصور خوالياً ... فيا وحشة السكان من كل ذي قصر
على بركة الرطلي نوحوا وعددوا ... لما حل فيها من نكال ومن خسر
رعى الله أياماً نقضت يطيبها ... ونحن بمصر في أمان وفي بشر
وكان الدوادار الكبير هو الذي ... أشار بهذا المنع بالنهي والأمر
وغفر الله لهذا الشاعر فشعره أصدق صورة لما وصل إليه الشعر العربي في عصر المماليك من ركة وسخف وضعف

على أنه يؤخذ على أياس أيضاً - كما أخذ على غيره من المؤرخين - أنه لم يتعرض لوصف القاهرة في عهده في تفصيل. ولعله كان مثل الكثيرين من المؤرخين لا يهتم إلا بالناحية السياسية أو العسكرية من تاريخه. أما ناحية الوصف والتخطيط فقد تركها لغيره
ممن يهتمون بأمثال هذه المباحث. ولكن لسوء الحظ لا نعلم فيما بين أيدينا من مراجع وصفاً للقاهرة في عهد ابن أياس. ولو قد تأخر الزمن بالمقريزي حتى شاهد مصر العثمانية لكان لنا من مادته في الخطط فيض غزير وتدخل القاهرة بعد ذلك في دور جديد، وتودع عهد المماليك لتستقبل عهد الأتراك. ويظهر أن هؤلاء خربوا كثيراً من معالمهما، وليس لدي الآن وأنا أكتب هذه الكلمة نص تاريخي قاطع للتدليل على ما أقول؛ ولكن بيتين للشاعر بدر الدين الزيتوني المعاصر للفتح العثماني يشتم القارئ منهما رائحة التخريب والذبول فيما كان قائماً فيها من آثار
وقد يكون الشاعر بدر الدين الزيتوني جنح إلى المبالغة في بيتيه كما يصنع الشعراء غالباً في اكثر ما يصفون. إلا أنه كلام يلقى ظلاً من الحق على ما ذهب إليه فيقول:
نبكي على مصر وسكانها ... قد خربت أركانها العامرة
وأصبحت بالذل مقهورة ... من بعدما كانت هي القاهرة
فقوله خربت أركانها العامرة لم يكن ضرورة من ضرورات القافية التجأ إليها، ولكن يلوح لنا أنه كلام فيه من الحق كثير وإذا كان العصر التركي قد اتسم بالغموض في كثير من حوادثه، إلا أن بعض المؤرخين من المصريين وبعض الرحالين من الأجانب قد وصفوا مصر في هذه الفترة الطويلة المظلمة. وابن أياس والجبرتي مرجعان مهمان لذلك العصر
وممن زار القاهرة في ذلك العصر القس (ريتشارد بوكوك) في سنة 1737م وترك كتابه الضخم (وصف الشرق وبلاد أخرى). وكتب قبله (دي ما بيه) قنصل فرنسا في مصر كتاباً عن أحوال مصر في أواخر القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر الميلادي
أما القاهرة في عهد محمد علي فقد وصفها المستشرق (لاين) في أحد كتابيه المشهورين، ووصف آداب أهلها وعاداتهم ولباسهم وطعامهم وشرابهم وبعض أغانيهم التي كان يقرؤها علينا تحت ظلال شجرة الكافور على نيل المنصورة قارئ أديب فيستمع إليها الأستاذان الجليلان: أحمد حسن الزيات والشيخ محمود زناتي وكاتب هذه الكلمات في لذة ومتاع عظيم
(الحديث موصول)
محمد عبد الغني حسن
ذكرى قاص عراقي
للسيدة الفاضلة وداد سكاكيني
في الأدب الآم وفيه هموم وأشجان، ولقد تكون صفحاته السود مطوية منسية، حتى تنشرها الذكرى ويبعثها الحنين. من هذه الذكريات ما يهيج في نفسي كلما اطلعت على مقال يصور أدب العراق واتجاهه الحديث؛ ففي تلك الصفحات التي طواها الزمان ولفها النسيان، ذكرى قاص عراقي كان له أثر محمود في تجديد الأدب وبعث القصة على ضفاف دجلة حيث فتحت عينيها (ألف ليلة وليلة) أسطورة الشرق وسحر بغداد منذ أعوام قريبة أخذت طلائع البعث والتحرر في العراق الجديد تنبثق من أرجائه الراقية وأجوائه الطافحة؛ هنالك ازدهرت معاهد الثقافة، وراجت أسواق الأدب؛ فرأينا بين الرافدين وفي بلد الرشيد والمأمون، كتاباً يعالجون فن القصة أسوة بأدباء العرب المحدثين الذين توفروا أيامنا على هذا اللون الطريف في آدابنا، وكأن النهضة العلمية التي تجددت في ذلك القطر الشقيق، وتمازج الثقافات في آفاته التليدة، ووقوف أولئك الكتاب على عناية أدباء الغرب بالفن القصصي دون غيره من فنون الأدب؛ كل ذلك حفز الشباب العراقي المثقف وحملة الأقلام الموهوبين منهم إلى إنشاء القصص والاستمتاع بما اشتملت عليه من دقة وصف وعمق تحليل وصدق تصوير؛ وكان ممن أدلى دلوه يومئذ في هذه الينابيع الثرارة أديب مطبوع هو المرحوم محمود أحمد السيد الذي يعرفه قراء الرسالة بما نشر فيها من آثاره، فقد كتب قصصاً عراقية الميسم، منوعة الألوان كانت مرآة لبلاده في عهد أحداثها الجسام، وكان كتابه (في ساع من الزمن) آخر أثر جاء به هذا القاص قبل أن يجود بنفسه الأخير؛ فلما نشر هذا الكتاب

طلب إلي أن أنقده على صفحات (الحديث) الحلبية، فأقدمت على تلبيته خالصة النية للأدب، مظهرة محاسن الكتاب مشيرة إلى ما فيه من هنات؛ ولكني لم ألبث أن دعوت على قلمي الذي كان عفاً عنيفاً بنقده، إذ علمت أن ذلك القاص البغدادي عز عليه ما كتبت وآذته صراحتي فصد عنها، ورد علي بما لمست منه أنه تحمل نقدي لقصصه على مضض، فخسرت رضاه وأدى الأمر بيننا لي مناقرة فاشلة وجدل عقيم. وليس ما وقع بيننا بعجيب، فنحن قوم لم نتعود أن نتقبل النقد النزيه بقبول حسن، وأن نعبأ بمقالاته وفائدته وما يؤول إليه الأثر المنقود. وحسبك برهاناً أن ترى الناس في شرقنا اصطلحوا في شئون النقد على المصانعة والرياء، وأمعنوا في التحيز والمداراة، فلا نقد عندنا يمحص الحقائق، ولا مساجلات تؤرث الأفكار والآراء من أجل ذلك غاب عنا النقد الحر الصريح، ولم يتزحزح أدبنا عن التقليد والترديد إلا قليلاً. وأحسب أن نقادنا الأكفاء الذين كفوا أقلامهم عن الخوض في هذا السبيل إيثاراً للمودة والسلامة قد أساءوا شر مساءة، فلولا صمتهم وزهادتهم في النقد لما تجرأ الأدعياء والطفيليون على كبار الأدباء لينهشوا الأشخاص دون الآثار وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، وأن إسفافهم هذا من أصول النقد الحديث

إننا قوم لم نتعود أن نحق الحق ونزهق الباطل، وإنما درجنا على أن نماري مراءً ظاهراً. وكثيراً ما جَّر نقد الأدب في كل بلاد العرب إلى خصومة وتنابذ فرَّقا بين الأصحاب وأوغرا الصدور بالأحقاد. ولقد كان بيني وبين شاعرة مصرية معاصرة آصرة أدب وولاء، فلما نقدت ديوانها إجابة لسؤلها، قطعت عني رسائلها اللطاف، فأسفت لما وقع، ولكن قلمي يؤوب ولا يتوب

ما لي ولهذا الاسترسال في قول كاد يلهبني عن (ذكرى قاص عراقي) كانت له مشاركة في توجيه الأدب الحديث في العراق. وأنا بعد أن كادت ترم تجاليد هذا القاص في ثراها، ووالله ما ادري، أعلى ضفاف النيل حيث ذهب يستطب ويستشفى، أم على ضفاف دجلة وفي ظلال النخيل حيث رأى النور، أبعث ذكراه وادعوا أهله وقومه إلى تمجيده وتخليده، والكشف عما في آثاره من جوهر دفين؟

كان يرحمه الله يرى كتابيه: (الطلائع)، (جلال خالد) تجربة ضئيلة في مضمار الأدب الجديد في بلاده، بل محاولات أولى في فن القصة الذي كان يتمنى على الزمان أن يقيض له التفرغ لأصوله والبراعة فيه. وقد أهدى مؤلفيه إلى فتية في العراق، إلى أشباله الأباة الذين كان يرى في وثباتهم تحقيق الآمال.

أما رواياته وأقاصيصه فقد لقيت الثناء والتقدير من أدباء العرب كالأستاذة: أحمد حسن الزيات وأحمد أمين ومحمود تيمور وسامي الكيالي، وغيرهم؛ ومن بعض المستشرقين أمثال: كراتشكوفسكي وب. جوزي وهـ. ركب ور. ك طومسن صاحب مجلة العراق في أكسفورد، وكنت من أصدق قرائه وأصحابه إعجاباً بها وتنويهاً بطرافتها وروعتها وكانت مقالاته وبحوثه تتسم بالرأي السديد والأسلوب المبين ويفيض على جنباتها شعور صادق ولمحات شتى تشير إلى مثل الحياة العليا التي يريدها لقومه وبلاده. ولو لم يدركه الموت في عنفوان شبابه لترك للأدب ميراثاً خصيباً لا تبلى جدته. وحسبه فضلاً أنه ساهم في فن القصة العراقية قبل أن يشيع هذا الفن في سورية ولبنان، وسعى مع أنداده أنصار المدرسة الحديثة إلى تعزيز الحياة الأدبية في بغداد، وكتب خواطر وفصولاً في النقد والاجتماع، وترجم عن التركية التي أتقنها قصصاً نشر بعضها ورجا أن يجمعها في سفر مطبوع. على أن أكثر ما كتب هذا القاص مبعثر في تضاعيف الصحف والمجلات العربية في مصر والشام والعراق فحبذا لو يتسنى جمع شواردها في كتاب

ما أشقى حظ الأديب من أهل دنياه! ففي غابر العصور كان يقول ابن الرومي: لهفي على الدنيا. . . ورهن المحبسين كان يولول من أم دفر، وهكذا في جديد الدهر يموت الأديب فيتحسس الناس مجاثم نبوغه بعد مماته ويهبون لتمجيد ذكراه. وما أحراهم لو فعلوا ذلك في حياته فقدروه قدره وكرَّموه بما كان يزيده بسطة في أدبه وتحليقاً بفنه. وقد يكون بين عاثري الجدود من الأدباء من لا يأبه لفقده عارفوه، كالذي وقع للأديب العراقي محمود السيد، إذ لم أعرف صحيفة أدبية في بلادنا عددت مأثره إلا مجلة (الرسالة) في مصر، فقد نعته لقرائها ورثته بكلمة وجيزة. وكان المرتجى من صاحب (الحديث) في حلب وهو الوفي لإخوانه الأدباء أن يختصه بمقالة على الأقل في مجلته

التي سكب الفقيد كثيراً من المداد على بحوثه وقصصه فيها
فيا أسف الآداب والشباب لفقدهما هذا العصامي الذي حمل باكورة القصة في مرابع الرشيد! ويا فتية العراق المناجيد، ويا صحبه الأكرمين، من أولى منكم بإثارة ذكراه، وأنتم الذين أحبكم وأهدى إليكم ما خطت براعته قبل أن تغتمض عيناه؟
لم يكن محمود أحمد السيد مغمور الصيت ولا مجهولاً لدى قراء العرب، وإنما عاش كأزاهير الليمون في الربيع تتشقق أكمامها عن الحياة ويفوح منها الأريج، ثم لا تلبث أن تذوي وتتساقط تاركة في الأفانين ثمراً مختلفاً ألوانه طيباً مذاقه
هكذا أفل شباب هذا القاص البغدادي الذي حرم دنيا تضيّفها تاركاً آثاره التي تشف عن أدب نضير مطبوع بمياسم العراق
(دمشق)
وداد سكاكيني
الزاد الأخير
للأستاذ سيد قطب
زوّديني من الرجاء الأصيلِ ... مُشرِقاً فيكِ في المحّيا الجميلِ
أنت كنزٌ من الطّلاقةِ والبش ... رِ ودنيا من السَّنىَ المعسول
خِفّةُ الطير وانطلاقُ الأماني ... بعضُ ما فيك واندفاقُ السّيول
وهجٌ يبهر النفوسَ ويُذِكي ... خفقاتِ القلوب عند المثول
ذَخَرَتْكِ الحياةُ كنزَ حياةٍ ... ورصيداً لما لها المبذول!
زوّديني لَكَادَ ينفدُ زادي ... في صراعٍ مع الحياة طويلِ
كاد يخبو المصباحُ إلا بصيصاً ... فاسكبي الزيتَ في بقايا الفَتِيلِ
كنتُ كالجذوةِ المشعّة نوراً ... وهي اليوم في طريقِ الأفول
فيكِ زاد يقُوتنُا ويَقِينَا ... عثراتِ الطريق بين التّلول
أنتِ لا غيرُكِ القديرة أن تُدْ ... كِي حياة بخاطري وميولي
حين ألقاكِ يغمرُ البشْرُ نفسي ... برجاءٍ مُشَعْشَعٍ موصلِ
وأرى عبئِ الثقيلَ خفيفاً ... وأرى ناهضاً بعبئ الثقيل
وكأني استشعرتُ رَوْحَ شبابي ... وَرَجَعْتُ الزمانَ صعبَ القفول
فأعيدي إلىَّ ماضِيَ عمري ... واغمريه بالبشر والتَّأميل
واطلعي في قفار نفسي حياةً ... وإذا مَا دَجَا عَالَمي أَوْ مِضِى لِي
(حلوان)
سيد قطب
. . .مدينة بلا نساء
الإسكندرية والهجرة
للأستاذ عبد اللطيف النشار
يا بلدة أمست بلا نساء ... منبوذة من رحمة السماء
أين التفات الأم للأبناء ... أندى على القلب من الأنداء
حنوّ حان بيَّن الوفاء ... ورقة في غير ما رياء؟
أين ابتسامات على استحياء ... وأخريات جمة السخاء
والواعدات دونَ ما وفاء ... يخلطن مُرَّ اليأس بالرجاء
مختلفات الخلق والأزياء ... لكل مرئيّ فتون راء
ودانيات ودهنَّ ناء ... أبعد في القرب من السماء
بواعث الحسرة والعزاء ... وخالقات الهمة الشماء
وجالبات الشَّر والشحناء ... خلوت يا ثغر من النساء
فما الذي فيك من السراء ... وما الذي فيك من الضراء
لا صوت يغري السمع بالإصغاء ... ما صبر أيوب على البلاء
كصبر أهل البلدة البيضاء ... يا لكِ من تسمية هوجاء
لون ثياب الحزن للآباء ... نحن بني الأندلس الفيحاء
تشهد ما قدَّر للأبناء ... وراثة عن سالف الآباء
صدقت يا سخرية القضاء ... قد صُبّحت بغارة شعواء
وغارة تأتي مع المساء ... وفي أذى الهجرة من أرزاء

فوق الذي نشهد من بأساء ... هل عودة لعهدها الوضّاء
يوم ينار النور في الأجواء ... يوم يشيع الأنس في الأرجاء
يا بلدة المنارة الزهراء ... ومضرب الأمثال بالآلاء
حتام إسراؤك في الظلماء؟ ... رحماك بي يا خالق السماء!
عبد اللطيف النشار
البريد الأدبي
لابن المقفع لا للخليل - 1
صوب الأستاذ بداري اعتماداً على رواية الجاحظ نسبة هذه الجملة إلى ابن المقفع: (الذي أرضاه لا يجيئني، والذي يجيئني لا أرضاه) يعني الشعر. وكان الأستاذ الكبير العقاد نسبها إلى الخليل في بعض مقالاته
وأقول: إن ذلك لا يمنع من صحة نسبتها للخليل مع تغاير في الألفاظ. جاء في الجزء الثالث من العقد: قيل للخليل: مالك لا تقول الشعر؟ قال: (الذي أريده لا أجده، والذي أجده منه لا أريده) فالمعنى والصياغة متحدان في الجملتين، ولعل الاختلاف في اللفظ راجع إلى تصرف النقلة: وأروِى للأصمعي قوله في هذا المعنى: (يأباني جيدهُ وآبي رديئه)
وقد رأى الأستاذ بداري أن الذوق الأدبي يرجح صدور هذه الجملة عن ابن المقفع لا عن الخليل، لأن أول أديب كبير وكاتب عظيم، والثاني إمام لغوي نحوي. وعندي أن هذه العلة التي ساقها الأستاذ حجة عليه لا له
ذلك أن هذه الجملة وما شابهها وردت للتدليل على شيئين:
أولهما: أن ترديد النظر في الشعر والرواية له والإكثار من حفظه، لا تكفي وحدها لخلق الشاعر، بل لا بد له قبل ذلك من الملكة الموهوبة والطبيعة المواتية. قال ابن عبد ربه: كان الخليل ابن أحمد أروى الناس للشعر ولا يقول بيتاً، وكذلك الأصمعي
وثانيهما: أن قرض الشعر والنفوذ إلى أسراره والتفطن لمواضع الجمال فيه، لا يُنال بحفظ متن اللغة ودراسة العروض والقوافي وعلوم البلاغة. قال ابن رشيق في العمدة: أن أهل صناعة الشعر أبصر من العلماء بآلته: من نحو وغريب ومثل وخبر وما أشبه ذلك، ولو كانوا دونهم درجات فكيف إذا قاربوهم أو كانوا منهم بسبب. قيل للمفضل الضبي: لم لا تقول الشعر وأنت أعلم به؟ قال: علمي به هو الذي يمنعني من قوله؛
وأنشد:
وقد يقرض الشعر البكئ لسانه ... وتعي القوافي المرَء وهو أديب
وقال الأصمعي:
أبي الشعر إلا أن يفيء رديئه ... علي، ويأبى منه ما كان محكما
فيا ليتني إذ لم أجد حوك وشيه ... ولم أك من فرسانه كنت مفحما
وفي ديوان الصبابة: أن ابن دقيق العيد قال لابن سيد الناس: قل لعلماء المعاني والبيان والبديع: أتحسنون أن تقولوا مثل قول المتنبي:
أزورهم وسواد الليل يشفه لي ... وأنثني وبياض الصبح يغري بي
فإن قالوا لك: لا. فقل إي فائدة فيما تصنعون. (يريد: أن العمل غير العلم)
فواضح أن الغرض من الجملة السابقة المنسوبة للخليل وابن المقفع: بيان أن الشعر لا يملك بالرواية ودراسة العلوم وجمع اللغة، وإلا لكان الأصمعي والمفضل وإضرابهما أشعر خلق الله! بل لما كان أحد أولى من الخليل بالشعر وهو واضع العروض نظام الشعر وسلك القافية! ونسبتها إلى الخليل أولى من نسبتها إلى ابن المقفع حتى تقوم الحجة على أن اللغة والنحو والصرف والعروض وسائر العلوم اللسانية وما يتصل بها - وهي من سمات الخليل البارزة - لا تجعل غير الشاعر شاعراً. وأما ابن المقفع فكان أديباً كاتباً كما قال الأستاذ، لا راوية ولا عالماً بالمعنى الاصطلاحي، فالتمثيل به في هذا السبيل لا يكون ظاهراً ظهوره في الخليل، لأن الكتابة والشعر يفيضان من نبع واحد، والعلم شيء وراء ذلك
وإذا صح ورود هذه الكلمة عن ابن المقفع فلا يفهم منها أنه لا يحسن قول الشعر، فالحق أن له شعراً جيداً - وإن كان قليلاً - ومعروف أن مقطعات الكتاب أرق وأعذب من شعر الشعراء الخلص، ولكن المراد أن الشعر لا يواتيه كما يواتيه النثر، فقصر همه

على ما هو أجدى عليه
2 - النحو في الكلام كالملح في الطعام
وردت هذه الحكمة بلفظها في كتب كثيرة، والغرض منها مشابهة النحو للملح في الإصلاح، وهو معنى ناصع لا غبار عليه، وقد تعالمه الناس وتلقوه بالتسليم والقبول خلفاً عن سلف، حتى لقد بلغ من ذيوعه أن العامة في الصعيد يسمون الملح: (المصلح) فلا داعي لأن ينكره الأديب الشرباصي أو يخطئه.
وأما الرواية الأخرى: الهزل في الكلام كالملح في الطعام فلا بأس بها، ووروده لا يفيد عدم ورود الأولى، ويكون وجّه الشبه هنا القلة لا التحسين والتلميح كما ذهب إليه الأستاذ
البداري
وقد نظم أحد الشعراء هذه الحكمة على الرواية الثانية مع وضع المزح موضع الهزل، فجاء اللفظ أرق وأعفّ. قال:
أفد طبعَك المكدودَ بالجِدّ راحةً ... يجمّ، وعلّله بشيء من المزح
ولكن إذا أعطيته المزح فليكن ... بمقدار ما يُعطَى الطّعامُ من الملح
علي الجندي
نظرات بين المجلات
1 - روى الأستاذ الكريم الدكتور عبد الوهاب عزام في العدد 418 من الرسالة في أثناء دراسته الحافلة بجليل الفوائد عن الشاعر الأبيوردي - روى البيت التالي هكذا:
وقد أخلق الفضل بالعراق وفي ... فارسَ لما اضمحلت الرتب
والبيت على هذه الرواية غير موزون ولا يستقيم إلا بإحدى اثنتين: إما أن تحذف الواو التي في أوله فيصير هكذا:
قد أخلق الفضل. . . الخ وإما أن تحذف كلمة (قد) وتبقى الواو التي قبلها ويصبح البيت هكذا:
وأخْلق الفضل بالعراق وفي ... فارس لما اضمحلت الرتب
2 - يقول الدكتور الفاضل زكي مبارك في العدد 418 من الرسالة (لقد بُحَّ صوتي في الدعوة إلى اعتراف الدولة بالقيم الأدبية) ويضبط الفعل بُح بضمة على الباء، والذي أعرفه عن هذا الفعل أن الواجب لغة أن يقال بَحَّ صوتُه بفتح الباء كما نصّ على ذلك الفيروزابادي والجوهري وأبو بكر الرازي في مختاره، وقد يستذر الدكتور كعادته بالذوق في المسائل اللغوية، وهو عذر لو أخذنا به على علاّته في اللغة باب الفوضى. على أن في الفعل بَح بفتح الباء لطفاً ورقة لا يوجدان في حالة الضم التي لا نعرف - على قدر ما نعلم - ما يؤيدها في اللغة
3 - في العدد 130 من الثقافة الغراء دراسة أدبية طيبة، والدارس الأستاذ جمال الدين الشيال والمدروس الشاعر الشاب تاج الملوك بوري بن الملك الصالح نجم الدين الأيوبي
والشعر الذي جاء في خلال هذه الدراسة كله كريم صحيح، إلا بيتاً واحداً ذكره الأستاذ هكذا:
هذه المعجزات ليست لظبي ... إنما هذه فعال (عيسى) المسيح
وكلمة عيسى زائدة في البيت
4 - مقالات العالم الفاضل الدكتور علي عبد الواحد وافي (في الاجتماع اللغوي): تدل على تمكن في البحث وتوفر على الدرس، وفيها غذاء علمي كبير، وهي فوق ذلك لا ترهق القارئ ولا تملّه. . . وحبذا لو أطال الكلام على اللهجات التي تفرعت من العربية، وذكر المستشرقين الذين ألفوا كتباً في قواعد العامية، فذلك موضوع على اتساعه لا يضيق به علم الأستاذ الكبير.
محمد عبد الغني حسن
عبد القادر حمزة وقومية بحثه وراء الحقيقة
أرجو - بعد التحية - أن تأذنوا لي في تصويب واقعة أخطأت في تحديد زمنها؛ إذ قلت في مقالي الذي تفضلت (الرسالة) الغراء بنشره بعددها الفائت: (إن أهل الرأي في مصر احتفلوا (بتأبين الفقيد من أيام)، وأن أسرة الفقيد تحتفل في الرابع عشر من هذا الشهر بإحياء ليلة الأربعين، وإني (أحب بدوري أن اختار هاتين الملائمتين - التأبين

والأربعين - لأثير ناحية من أدب الفقيد))
ووجه الخطأ واضح في قولي إن أهل الرأي (احتفلوا بتأبين الفقيد من أيام)، ومرد هذا الخطأ إلى أن لجنة الاحتفال كانت قد أزمعت إقامته في يوم الخميس (10 يوليه)؛ ثم عادت فحددت له يوم الخميس (17 يوليه)، ولما كنت قد كتبت مقالي قبل يوم الخميس الأسبق وكان عدد (الرسالة) يصدره بعده، قد وقعت في هذا الخطأ الذي لا بد أن يكون قراء (الرسالة) قد فطنوا إليه من تلقاء أنفسهم
وإلى أن أكتب مقالي التالي الذي وعدت بكتابته أرجو - مرة أخرى - أن تأذنوا في تصويب أخطاء (مطبعية) وقعت في مقال الأسبوع الفائت نفسه
ففي السطر السادس من المقال جاء: (ومن الرابع عشر من هذا الشهر) والصواب: (وفي
الرابع عشر. . .). وفي السطر السابع عشر من النهر الأول من صفحة 904 جاء: (وفي الجمال الذي يحيط اللثام عنه. . .). والصواب: (وفي الجمال الذي يميط. . .).
وفي السطر العشرين من النهر الثاني صفحة 905 جاء: (على الصور التي انحاز بها ذهنه. . .) والصواب: (على الصور التي انماز. . .)
محمد السوادي
القصص
ثمن السعادة
للأستاذ نجيب محفوظ
دخل الأستاذ الحجرة التي قاده إليها الخادم فلم يلق تلميذه الصغير في انتظاره كمألوف عادته، فجلس على كرسيه يقلب عينيه في الصور المعلقة على حيطان الحجرة، وكانت المرة الأولى التي ينتظر فيها تلميذه منذ جيء به ليدرس له لعشرة أيام خلت، وأوشك أن يدعو الخادم حين سمع وقع أقدام خفيفة ورأى الغلام مقبلاً عليه يتأبط كتبه وكراسته، فحدجه بنظرة تعنيف ولكن راعه أن يرى عينيه محمرتين من البكاء وذقته الصغير يرتعش من التأثر فسأله باهتمام: (مالك؟)
وكان السؤال أثار مكظوم شجون الغلام فاندفعت الدموع إلى مآقيه وهو ينتحب: تيزة. . . ضربتني. وتشاجرت مع بابا وما زالا يتشاجران فسأله باقتضاب (من تيزة - هذه؟)
(امرأة بابا)
فدلته هاتان الكلمتان على معان كثيرة بغير حاجة إلى مزيد من السؤال. على أن الغلام تطوع من نفسه فسرد قصته الصغيرة الحزينة على مدرسه. قال: إن والدته ماتت لعهد ولادته وأن أباه تزوج من تيزة بعد ذلك بعام أو عامين، وأنه يعيش بمفرده تحت رعايتها بعد أن تزوج أخواته الأربع في الأعوام الثمانية التي أعقبت وفاة الأم، وأن أسباب الخلاف لا تنتهي بين تيزة وأبيه، فلن يزالا يصطدمان ويشتجران، وأقسم أن الحق دائماً مع أبيه، وأنه لا يشتبك معها حتى يضطر إلى ذلك اضطراراً، ثم لا يبث أن يكف عنها يائساً قانطاً، فلا تسكت هي عن الغضب والحنق والسباب. وأصغى المدرس إلى تلميذه بغير اهتمام ظاهر، وواساه بكلمة تافهة، ثم تناول الكراسة وبدأ عمله، ولم يطرقا الحديث مرة أخرى ولا عادا إليه فيما أعقب ذلك من الأيام، حتى كانت ساعة درس فاقتحمت عليهما الغرفة بغير استئذان شابة حسناء في ريعان الشباب، فوضع الأستاذ الكتاب على المكتب وقام واقفاً في تأدب واحترام وألقى على الزائرة نظرة حيية، فراعه ما رأى - لا من حسنها وشبابها فحسب - ولكن من انطلاقها على سجينها وعدم تكلفها، الأمر الذي أخرجها - بغير قصد
طبعاً - عن الاحتشام، فكانت ترتدي (روب دي شامبر) من نسج رقيق يكشف عن ذراعيها ونصفي ساقيها وأعلى الصدر، وكان الأستاذ يظن أنه لا يجوز لشابة أن تبدو هكذا لعيني رجل غريب، ولذلك غلبه الارتباك والاستحياء، وحدس أنها إحدى أخوات تلميذه المتزوجات، وتأكد حدسه حين رآها تمد يدها في رفق إلى ذقن توتو تداعبه، ثم جلست باطمئنان تجاه المدرس وهي تخاطبه قائلة: تفضل بالجلوس. . . هل يعجبك عمل توتو! فجلس أنيس وهو يقول: (توتو مجتهد، وقد تقدم في هذين الأسبوعين في الأجرومية والمطالعة، ولا ينقصه إلا المثابرة على حفظ الكلمات)
فابتسمت ابتسامة حلوة وطلبت إليه أن يستمر في عمله، فعلم أنها ترغب في أن

تشهد درسه، فلم ير بداً من متابعة الدرس متلعثماً برماً، واختلس منها نظرة فوجدها تنظر إليه بإمعان، فاعتقد أنها تتابع كلامه، فوجه انتباهه إلى ما يقول ليخرج صحيحاً عذباً. وفي مرة أخرى وقع نظره على جيب الروب وقد انفرج عن أعلى الصدر فزاغ بصره وارتد في اضطراب وذعر ولم تمكث الشابة طويلاً فحيته وانصرفت، فشيعها بنظرة غريبة وقال لتوتو مستفهماً: أهي أختك؟

فهز الغلام رأسه سلباً وقال بجفاء: (تيزة) فتملكت الشاب الدهشة وتساءل متعجباً (تيزة؟!) فنظر الغلام إليه بإنكار وقال: (نعم). فتمالك أعصابه ولم ينبس بكلمة، ولكنه لبث مشغولاً دائم التفكير، وفي أثناء عودته إلى مسكنه بشارع ماهر بالجيزة استدعى صورة والد توتو - كما رآه يوم قدم إليه - ببدنه المترهل وكرشه الكبير ورأسه الصغير المستدير الأصلع، قد علا المشيب قذاله وقلق المنظار على أنفه الغليظ المجدور، ثم تمتم قائلاً: (الآن فهمت كل شيء. . . فرضوان بك حكمدار في المعاش جاوز الستين، وزوجه لا تعدو الرابعة والعشرين، وتوتو غلام بائس تضافرت عليه أسباب التنغيص الظاهرة والخفية. . . ولكن لماذا تلطفت بالغلام أمامي؟!). ولم يعتور أفكاره سوء، لأن أنيس كان طالباً ريفياً - كان طالباً وإن كان أستاذاً لتوتو - طاهر النفس، على أنه تأثر بحسنها وشبابها وخلاعتها غاية التأثر

وفي الدرس التالي لم يكد يطمئن إلى مقعده أمام تلميذه حتى كانت (تيزة) ثالثتهما؛ وكانت كما رآها أول مرة، جميلة خليعة متبذلة في ثوبها، ولم تلازم مكانها طوال الوقت، فكانت

تخرج لبعض الشؤون ثم تعود إلى جلستها. وفي مرة عادت فجلست إلى جانبه دون أن يبدو عليها أنها تعمدت ذلك، فخال أنيس أن ساقها - لدنوها - تلامس ساقه. وعند انصرافه سلمت عليه باليد، فراح يضوع من كفه أريج معطر، ومضى مبلبل لفكر تضطرم في وجدانه يقظة عاطفية حارة، وما زال مشغول البال يحاول أن يتفهم محاضراته عبثاً حتى ضرب مكتبه بقبضة يده وصاح جزعاً مكروباً: (لا احسبني إلا مجنوناً أو مسحوراً)

وفيما أعقب ذلك من أيام كان يذهب إلى بيت رضوان بك شغفاً بها قبل كل شيء، وأحس أن تفضلها بحضور درسه هو السعادة الحقيقية التي تبذلها له الدنيا جميعاً، فاستلذها واستطابها وجن بها جنوناً. وجعلت الشابة الفاتنة تودد إليه، وتعرض لعينيه المشغوفتين محاسنها العارية، وتداعبه بنظرات من عينيها حلوة فاتنة، أو لفتات من لحظها فاتكة. والشاب يذهل عما حوله بسرعة جنونية. وذهب يوماً إلى بيت الحكمدار فوجد الشابة في الحجرة دون الغلام، فسأل عنه وهو لا يحفل به في باطنه. فقالت له المرأة: (ذهب مع والده إلى شقيقته في الزمالك لأنها مريضة). فأحس خيبة وحنقاً لأنه سيضطر إلى مغادرة البيت، وقام واقفاً كئيباً، فسألته: (إلى أين؟). فأشار إلى الباب وقال (سأعود من حيث أتيت). فصوبت إلى عينيه نظرة ملتهبة وتمتمت بجرأة وهي تهز رأسها الصغير (كلا. . .) فخفق قلبه وتدافعت أنفاسه ووقف حيالها كالمسحور المذهول. . . ثم تبعها على الأثر لا يلوي على شيء

وتخلفت بعد ذلك عن حضور درسه، ولكنها سمَّت له الأيام التي يستطيع أن يلقاها فيا في أمن من الرقباء. فاندفع في سبيله كمياه الشلال الجارفة في فورة عاطفة مشبوبة تصم الآذان وتعمى البصر وتغرق هواجس انفس، مستكيناً لنوازع شهوته وجنونه. وإنه ليغادر بيتها ذات أصيل من أصائل الحب إذ لاحت منه التفاتة بغير قصد إلى شرفة البيت المطلة على الطريق، فرأى مشهداً تجمد له الدم في عروقه، وتصلب شعر رأسه من الهول، فتعثر وأوشك أن يقع على وجهه، وهرع إلى الإفريز تحت الشرفة كأنما يداري نفسه؛ وتقدم في خطى مضطربة لاهثاً حتى بلغ منعطف الطريق، وأراد أن يستوثق مما رأى فصوب بصره في خوف وإشفاق نحو الشرفة، فرأى عند مدخلها رضوان بك برأسه الأصلع المستدير يجلس مطمئناً إلى كرسيه في جلباب فضفاض يطالع جريدة ويهش الذباب عن

وجهه بمذبة. . فأيس من تكذيب عينيه، ولهث قائلاً بفزع لا يوصف: (رباه إنه هو هو. . . نعم هو في جلباب البيت فكيف كان ذلك. . .؟ هل عاد إلى البيت أثناء وجوده مع زوجه. . .؟ فكيف لم يشعرا به؟ ولماذا لم يقصد إلى حجرة نومه ليبدل ثيابه؟ أم أنه كان في البيت قبل ذهابه هو إليه؟ فكيف استقبلته المرأة باطمئنان؟ أو كيف لا تعلم

بوجود زوجها في البيت؟ بل كيف لم يشعر به رب البيت مع أنه غادر المخدع في خطى مطمئنة غير محاذرة؟. . . رباه. . .! لقد نجا من شر فادح. . . وداخله إحساس الذي يستيقظ بغتة فيجد أنه قد اجتاز سوراً شاهق العلو في نومه. . . وتخايلت لعينيه أشباح الإثم والجريمة والسجن، فعزم على أن يضرب بغرامه عرض الحائط متعظاً بالهاوية التي أوشك أن يتردى فيها. ولكنه لبث يذهب لإعطاء دروسه للغلام توتو، وكان يعاني الآم قلبه وجموح عواطفه، ولكن المرأة لم تمهله حتى يتناسى ويتعزى، فعادت إلى اقتحام حجرة الدرس عليه وسألته بعينيها في عتاب وكدر. . . وحين انتهاء الدرس تبعته إلى الباب الخارجي وسألته بحدة: (لماذا لا تأتي؟). . . فقص عليها همساً ما رأته عيناه آخر مرة، ونظر في وجهها ليمتحن أثر كلامه، فها له ألا يرى الانزعاج الذي كان يتوقع، وسمعها تقول بلهجتها الغاضبة: (كذبتك عيناك. . .)، فأكد لها أن ما رآه حق بغير ريب، فاستهانت بتأكيده وقالت له: إنها ستنتظره وترى ما هو فاعل. . . فأبدى لها مخاوفه. . . فقالت وقد نفد صبرها: (أنت مخطئ واهم، فتعال ولا تتعب نفسك بالنظر إلى الشرفة. . . تعال ولا تخف. . .)، فوعدها بالعودة لكي يتخلص من إلحاحها ثم انطلق على نية ألا يعاود ذلك البيت إلى الأبد. . .

ولبث على ذلك أسبوعاً كاملاً. وفي مساء يوم الجمعة، وكان في الشقة - التي يشاركه فيها بعض الأقران - بمفرده، سمع طرقاً على الباب، فمضى إليه وفتحه، فرأى أمامه رضوان بك بجسمه المترهل متوكئاً على عصاه ذات المقبض العاجي. فسرت في جسده رعدة شديدة زلزلت قلبه زلزالاً عنيفاً، ووثب إلى ذهنه خاطر سريع: أن امرأة ربما وشت به كذباً عند زوجها لتكيد له، وأنه جاء للتأديب والانتقام. . . فاستولى عليه اليأس والقنوط، وصعد في وجه الرجل نظرة ارتياع ليقرأ ما تدل عليه إمارات وجهه وما ينذر به حضوره، فرآه هادئاً مبتسماً كأنما جاء لسلام لا لقتال. ومد يده بالسلام، فمد الشاب يده، ولما يفق من دهشته. . .

ثم تنحى عن الباب وهو يقول مزدرداً ريقه: تفضل بالدخول يا سيدي. . . فدخل البك وهو يتحدث قائلاً: إنه لا داعي للجلوس لأنه على عجل، وأنه جاء ليسأل عن صحته وعما إعتاقه عن متابعة دروسه. . . فاعتذر أنيس بأن موعد امتحانه اقترب وأنه في حاجة إلى كل دقيقة من وقته. . . ولكن البك لم يقتنع بحجته ورفض أن يقبل عذره، وطلب إليه برقة ألا يحرم توتو من دروسه. فعاود الشاب الاعتذار، وكر الرجل إلى الإلحاح، ثم أدنى رأسه من أنيس وقال له: لابد من حضورك. . . فهذا ضروري جداً لتوتو. . . تعال حينما تشاء وكيفما تشاء. . . لابد من حضورك، فهذا ضروري جداً. . . وكان لا يحول بصره عن الشاب، فوجد في نظرته ونبرات صوته ما أثار فضوله ودهشته. . . أما الشيخ، فصمت لحظة متردداً، ثم استدرك قائلاً: (هذا ضروري لتوتو ولسعادتي ولسعادة الأسرة. . . بل لسعادتنا جميعاً. . . فأصغ لي، لابد من حضورك. . .)

واحتقن وجهه بالدم، وارتعشت شفته السفلى وذقنه كالطفل إذا أوشك أن يفحم في البكاء ثم تحول عنه. . . ومضى دون أن ينتظر موافقة الشاب، ولبث هذا في مكانه متفكراً مذهولاً تتجاذبه شتى العواطف. . .

وكان الأسبوع الذي أعقب هذه الزيارة معترك أزمة نفسية عميقة أخذت بتلابيب أنيس، فتقاذفته الغرائز والشهوات، وتجاذبته نوازع اللذة ومغريات السلامة والطمأنينة، وكان ذا عزيمة قوية وسريرة طاهرة وقلب تقي، فآثر السلامة. فلما أن استدار الأسبوع أحس قواه تتماسك وتشتد، فأطرى إرادته وجعل يتناسى بين رضوان بك السيئ الحظ وزوجه الحسناء القلقة الغضوب ويودع ذاك العهد زاوية من زوايا الذكريات الغريبة المنسية. . .

وانتصف مايو، فقصد أنيس يوماً إلى الكلية ليسأل عن موعد ظهور نتيجة الامتحان. ولما بلغت به قدماه باب مقهى المثلث، شعر بإنسان يعترض سبيله بعصاه كالمداعب، فرفع رأسه إليه فرأى رضوان بك يغادر المقهى يسبقه أحد أصدقائه إلى سيارة تنتظر على كثب، فارتبك ورفع يده بالتحية، فالتقت يداهما، وابتسم البك ثم سأله عن حاله، وتحدث معه قليلاً دون أن يعرج إلى الذكريات القديمة. وحين هم بمفارقته غير لهجته وقال بصوت دل على الضراعة والمضض: (أيها الشاب. . . إياك والسخرية من الناس

أو الهزء بالبؤساء، فأنت تجهل الدور الذي تعده لك الأقدار غداً. واذكر أن أغرب تصرفات الإنسان لا تعوزها
أسباب تبررها؛ فصن لسانك عن الأذى وحاول ما استطعت أن تتعظ بما يصادفك من العبر - كتب الله حظاً سعيداً. . .) ورفع يده بالسلام وسار في طريقه منتصب القامة يدل مظهره على أنه رجل عسكري بغير جدال.
نجيب محفوظ
العدد 421 - بتاريخ: 28 - 07 - 1941
قديس الوطنية المصرية
للأستاذ عباس محمود العقاد
عرفت الوطنية المصرية زعماء مختلفين منذ الثورة العرابية، ولكنها لم تعرف منهم أحداً أحق من (محمد فريد) صاحب هذه السيرة بلقب القديس الوطني، لان العقيدة الوطنية لها قديسوها كالعقيدة الدينية على ما نعلم؛ وأخص ما للقداسة من صفات هي الأيمان والمفاداة والسماحة وخلوص الضمير.
وقد اجتمعت هذه الصفات لمحمد فريد اجتماعاً لا يمارى فيه أحد، فهو في محراب الوطنية المصرية من الزعماء القديسين لا مراء.
كان فداؤه رحمه الله فداء لا غبار عليه ولا شبهة فيه: ترك الوظيفة في العهد الذي كان الناس فيه يعجبون لتارك الوظيفة ولا يعجبون للمنتحر تارك الحياة. ولم يتركها طمعاً فيما هو أكبر منها، لأنه كان يقود حركة بينها وبين اقرب مراحل النجاح سنون وسنون، ولم يكن يجهل بُعد الشقة ولا بعد الرجاء الذي كان يرتجيه.
ولم يطلب المال وهو ينزل إلى معترك السياسة، فقد كان المال موفوراً بين يديه، وقد أضاعه كله غير نادم عليه وهو في منتصف الطريق.
ولم يطلب الألقاب والمظاهر، فقد اغضب الذين يمنحونها في مصر والأستانة: اغضب الخديو بحملته على سياسة الوفاق وإصراره على الدستور، وأغضب السلطان العثماني بإصراره على استقلال مصر والمناداة (بمصر للمصريين)
وحرم نفسه الراحة وهو في وطنه، كما حرم نفسه الراحة وهو غريب عنه، فكان جماعة (تركيا الفتاة) يناوئونه ويضايقونه لأنه أبى في الحرب العظمى أن سيتبدل احتلالاً باحتلال، وصارحهم إن مصر لا ترضى لنفسها مكان الولاية العثمانية على أي نحو من الأنحاء
وبلغ الذروة العليا من المفاداة حين واجه الموت البطيء أنفة منه أن يواجه التسليم ولو مع السكوت؛ فقد ثقل عليه الداء في أوربا وعلم إن الجو المصري انفع الأجواء له والشتاء مقبلة، وضائقة العالم بعد الحرب محكمة، وليس اثقل من مرض وغربة وفاقة وشتاء بعد صحة ودعة ويسار وقدرة على التنقل بين الأجواء، فآثر التلف البطيء الذي لا تخفى غائلته ولا تخفى عقباه، على أن يشتري السلامة بعودة فيها خضوع وتسليم.
قال الأستاذ الرافعي في مقدمة كتابه عن محمد فريد إن الأمة (لم تقدره حق قدره ولا عرفت له عظيم منزلته).
وهذا ويا للأسف صحيح؛ لأن الصفة الكبرى التي امتاز بها هذا القديس الوطني هي الصفة الكبرى التي نجهلها نحن المصريين أو نحن الشرقيين على التعميم، وهي الصفة الكبرى التي لا نصدقها إن لمسناها ولمسنا آثارها، لأنها أشبه عندنا بغرائب الأساطير وخوارق الطبيعة: وهي المفاداة الخالصة مع الإيمان الثابت. فقد يلام الرجل على هذه الصفة العلوية لأنها تلتبس علينا بالتفريط؛ وقد يحمد على الحرص واقتناء المنافع، ولا يحمد على تضييع منفعة أو نسيان أثره حريصة، لان المفاداة شذوذ لم نألفه طويلاً في عادات المجتمع ولا في عادات الأفراد.
وما من شيء في اعتقادنا هو أجدى على المصريين والشرقيين من كتاب يؤكد صفة المفاداة ويثبت وجودها في رجل معروف السيرة معروف الأعمال مستقيم الخلق كمحمد فريد لم يشتهر بنزوات أهل الشذوذ ولا ببدوات التفرد والاستثناء
فإن الشك في وجود المفاداة يغلق المسالك بين السنة المصلحين الغيورين وأسماع السواد والناشئين: انهم لا يصدقون غيرة المصلح الذي يعمل لفكرة يحققها أو مثل عال يجرى وراءه، وان صدقوا منه هذه الغيرة نظروا إليها نظرتهم إلى طبيعة غريبة ليست منهم وليسوا هم منها، فلا وجه لإقتدائهم بها ومجاراتهم لأصحابها؛ إذ ليس من

عادة الإنسان أن يصغي إلى من يحلهم منه محل الغرباء المخالفين لسنته في حياته، وإنما يصغي إلى من يمشون معه على سنة واحدة، وينتفي بينهم وبينه شعور الاستغراب والاستبعاد!

وهذه ولا ريب إحدى فوائد الكتاب الذي كتبه الأستاذ الرافعي في سيرة هذا الرجل الكبير.

على إننا نحب أن نستدرك هنا استدراكا له موضعه وله موجبة فيما يكتب بيننا عن القداسة والقديسين

فقد تعودنا أن تجور صفات القداسة على الصفات الدنيوية حتى خيل إلى أناس منا أن وصف القداسة يجرد الإنسان من وصف العمل الدنيوي أو المدارك الواقعية التي يحتاج إليها الساسة وزعماء النهضات القومية.

فان فهم أحد من وصفنا فريداً بالقداسة أنه لم يكن يدرك السياسة العملية إدراكها الصحيح

فهو مخطئ أيما خطأ، وجاهل بحق الرجل أيما جهالة.

فقد كان فريد على نقيض ذلك أوسع أقرانه علماً بالسياسة العالمية وأوسعهم نظرة إلى العلاقة بين شؤون الوطنية وشؤون الدول والحكومات في العصر الحاضر.

فلم يكن من أصحاب النخوة المحصورة أو الحماسة الضيقة التي تحسبها العصبية بين حيطان بلادها فلا تعدوها إلى غيرها، ولكنه كان يضرب بنظره شرقاً وغرباً ليتابع الأحوال قديما وحديثا متابعة العليم بما بين أطوار العالم ومصير أمته، وبما بين الحركات الإنسانية والحركات القومية من اتصال وتبادل في التأثير. ومن مقالاته قبل خمسين سنة مقالة عن المواصلات البرقية في العالم، وسياحة الرحالة (سفن هدين) في أواسط أسيا، وإنجلترا واسيا بأفريقيا، والإنجليز في غرب أفريقيا، والروسيا في مملكة كوريا، ومطامع أوربا في الصين، ورئاسة جمهورية الولايات المتحدة؛ وأشباه هذه الموضوعات التي لم تكن بينها وبين الحركة الوطنية المصرية صلة قريبة في رأي الأكثرين من كتاب ذلك الجيل والذي اذكره أنا من ذكرياتي الخاصة أنني أفدت من فريد المؤرخ قبل أن أفيد من فريد الزعيم، وأنني قرأت تأريخه للدولة العثمانية قبل أن اقرأ له مقالة سياسية، وقلب أن يتفرغ للدعوة الوطنية ويشتغل بها ذلك الاشتغال الذي صرفه عن التأليف.

وسمعت بعض الأدباء يقول وقد وقع في أيدينا كتاب من كتبه التاريخية: ألم يكن انفع لمصر أن يمضي هذا الباحث المنقب في الشوط الذي بدأه بتاريخ محمد علي، وتاريخ الدولة العثمانية، وتاريخ الرومان، وما إلى هذه المباحث التي لا يزال فراغها محسوساً في المكتبة العربية؟

فوافق الأديب أناس وخالفه أناس، وكان كاتب هذه السطور من مخالفيه ولا أزال من مخالفيه، لان فريداً قد اخرج لنا في القداسة الوطنية طرازاً منقطع النظير، ولم نخسر مع هذا طرازه في عالم البحث والتأليف، وربما كان اصدق ما يقال في سير العظماء (أن الخيرة في الواقع)، خلافاً لما يتمنون لانفسهم، وخلافاً لما تمناه لهم الأصدقاء، وهي قولة مأثورة تنطبق على سير الحاملين فيما نرى، كما تنطبق على سير النابهين.

ولقد كتب فريد صفحات طوالاً في تاريخ القسطنطينية لم يكن عسيراً على من دونه علماً وخلقاً أن يكتبوها أو يكتبوا أمثالها، أما الصفحة التي كتبها لنفسه في القسطنطينية أيام

الحرب العظمى فإحدى صفحات قلائل في سجل البطولة لا يكتبها ألا فريد ومن وهبوا ما وهبه فريد من فضيلة الصدق والمفاداة، وهم قليلون

ومثل لنفسك رجلاً منقطعاً عن بلده، منقطعاً عن موارده، ليس له جند ولا مال، وليس له ملجأ يحميه من أصحاب الجند والمال هناك، وأينما دار ببصره لم يجد حوله ما يثبته ويملي له في رأيه، بل وجد العوائق والمحظورات شتى تفت في عضده وتثنيه، وتؤيسه من عاقبة جهوده وأمانيه. . . والدنيا حرب والقول ما قال العسكريون والدولة مشغولة كلها بالحملة على مصر أو على الولاية التي ستعود إلى مكانها القديم من الدولة العثمانية، وهذا الرجل في عزلته وبين ثلاثة أو أربعة ممن يسيرون على نهجه يقفون في وجه هذا السيل الجارف ليصدوه بكلمة هي أقسى ما يسمع من قائل في تلك الأيام، وهي أن مصر للمصريين وليست للعثمانيين ولا لغيرهم من الفاتحين. . .

هذه صفحة فريد في القسطنطينية
وليس في تاريخ بني عثمان ولا تاريخ دولة من الدولات ما هو أولى بالتسجيل والتمجيد من هذه الصفحة التي كتبها بوحي لا يستوحيه مؤرخو الأبطال، بل يستوحيه دونهم أبطال المؤرخين
وشاء القدر أن يبوء هو بفخارها وألا يبوء خصومه إلا بصغارها وعارها. فأولئك الذين عارضوه وعاندوه وأكرهوه على اللياذ منهم بآفاق أوربا وهي أضيق عليه من سم الخياط. . . أولئك المعارضون والمعاندون هل عارضوه وعاندوه إيثاراً لتركيا أو إيثاراً لمصر أو إيثاراً للحرية والحضارة الإنسانية؟
كلا. بل كان هذا وزيراً منافساً لأمير مصر فهو يغتنم الفرصة السانحة لشفاء . . . الضغن وإحياء التراث، وكان هذا قائداً طموحاً فهو يتخذ من دولته ومن مصر معها مطية لطموحه؛ وكان هذا وذاك وغيرهما مصريين يقسمون بينهم مناصب الحكم في الولاية العثمانية المنظورة!! وكان فريد وحده أو فريد ومعه تلميذان أو ثلاثة من مريديه يعملون للحق ويخلصون للدولة العثمانية إخلاصهم للامة المصرية
وهذه إحدى الصفحات التي كانت تفوتنا لو قضى فريد حياته في تاريخ الأبطال، ولم يقضها بطلاً يرتجل هذه العظات والأمثال
وستنصف مصر فريداً يوم تنصف نفسها وتستحق الإنصاف من أقدارها. أما اليوم فكل ميدان فيها يتسع لتمثال فريد فهو ميدان يتسع للتنبيه والمؤاخذة، ويتسع لكلام كثير.
عباس محمود العقاد
المأموني الشاعر
للدكتور عبد الوهاب عزام
- 1 -
ذكرت من قبل طرفاً من أخبار أبي المظفر الأبيوردي الشاعر القرشي الأموي وسميته (شاعر العرب في القرن الخامس) إذ كان يعرب عن أخلاق العرب وعاداتهم، ويبين عن آمالهم وآلامهم.
واذكر في هذا المقال شاعراً آخر من بني الخلفاء عرف باسم المأموني، ينتهي نسبه إلى الخليفة المأمون بن الرشيد رضي الله عنهما.
وأقدم قبل الحديث عن هذا الشاعر أن ما نعرفه عن أخباره مأخوذ عن الثعالبي صاحب يتيمة الدهر. وإنما يروي الثعالبي أخبار هذا المأموني في الري ونيسابور وبخارى، اي في خراسان وما وراء النهر. ويحدثنا هذا المؤلف الكبير عن شاعر آخر من بني الخلفاء يسمى الواثقي، من بني الواثق بن المعتصم ابن الرشيد، ويروى من أنبائه في تلك الأقطار أيضاً. ويخبرنا انه كان ببخارى إذ ذاك جماعة من بني الخلفاء العباسيين تجري عليهم الأرزاق، منهم: ابن المهدي وابن المستكفي. وإن قارئ هذه الأخبار ليعجب ويتساءل لماذا يذهب بنو الخلفاء إلى خراسان وما وراء النهر في طلب الرزق؟ وأن جاز أن يضطر إلى هذه الرحلة أبناء الخلفاء الذين بعد الزمن بينهم وبين الخلفاء من آبائهم كأبناء المهدي والمأمون والواثق، فكيف أدركت الضرورة ابن المستكفي وقد لبث المستكفي في الخلافة إلى سنة 334، فما مضى نصف قرن من خلافته إلى الزمن الذي يحدثنا بأخباره الثعالبي؟
ومرد هذا في رأيي إلى أمرين: الأول أن إستيلاء البوبهيين على العراق عام 334 - وهي السنة التي خلع فيها المستكفي، وبأيديهم خلع - ذهب بهيبة الخلفاء وثروتهم، وأورث أبنائهم الفقر العاجل، وكان بنو بويه يتشيعون ولا يؤمنون بخلافة العباسيين والثاني أن بني الخلفاء كانوا يلقون حفاوة وإكراماً في تلك البلاد، وان أمراء السامانيين ووزرائهم كانوا يمنحونهم من التعظيم والبر ما يحبب إليهم ركوب الأسفار البعيدة إلى تلك الديار النائية؛ والسامانيون كانوا يدينون بالطاعة لبني العباس ويؤمنون بخلافتهم
- 2 -
وأما المأموني فيحدثنا عنه الثعالبي أنه فارق وطنه بغداد وهو حدث إلى مدينة الري، فامتدح الصاحب بن عباد بقصائد أعجبته فأكرم مثواه وقربه. يقول الثعالبي: (فدبت عقارب الحسد بين ندماء الصاحب وشعرائه، وطفقوا يركبون الصعب والذلول في رميه بالأباطيل، ويتقولون عليه اقبح الأقاويل، فطوراً ينسبونه إلى الدعوة في بني

العباس، ومرة يصفونه بالغلو في النصب واعتقاده تكفير الشيعة والمعتزلة، وتارة ينحلونه هجاء في الصاحب يعرب عن فحش القدح، ويحلفون على انتحال ما اصدر من شعر في المدح، حتى تكامل لديهم إسقاط منزلته لديه، وتكدر ماؤه عنده عليه. وفي ذلك يقول قصيدة يستأذنه فيها للرحيل:

فكنت يوسفَ، والأسباط هم وأبا ... الأسباط أنت ودعواهم دماً كذبا
وعصبة بات فيها الغيظ متقداً ... إذ شدت لي فوق أعناق العدا رتُبا
أرى مآربكم في نظم قافية ... وما أرى لي في غير العلى أرباً

فارق المأموني الري إلى نيسابور، وفيها حينئذ أبو بكر الخوارزمي الكاتب المعروف، فأشار عليه الخوارزمي بإنشاء قصيدة في الشيخ أبي منصور كثير بن احمد يسأله فيها تقرير حاله عند صاحب الجيش أبي الحسن بن سيمجور - وبنو سيمجور من ولاة الدولة السامانية وقوادها - فأنشأ المأموني القصيدة وابلغها الخوارزمي الشيخ كثيراً، وحسنها لديه وأثنى على هذا الشاعر الشاب. فوقعت القصيدة ممن أهديت إليه موقعاً حسناً، وفي هذه القصيدة يقول:

إلى الله أشكو مُنًى في الحشي ... تضُمن جنبايَ منها سعيراً
تُفارق بي كل يوم خليلاً ... وتفجع بي كل يوم عشيرا
فإن تسألانِيَ يا صاح ... بي نص السُرى تجداني خبيرا
ففي كل يوم تراني الركا ... بُ أفارق ربعاً واحتل كورا
إذا سرت عن صاحبي قلتُ عُ ... دَّ لعَودي السنين وخل الشهورا
أراني ابن عشرين أو دونها ... وقد طبّق الأرض شعري مسيرا
إذا قلت قافية لم تزل ... تجوب السهول وتطوى الوعورا
ولو كان يفخر ميت بحي ... لكان أبي هاشمٌ بي فخورا
ولو كنت أخطب ما استحق ... لما كنت أخطب ألا السريرا
ولو سرتُ صاحت ملوك البلا ... د بين يدَيَّ النفير النفيرا
ولكنني مكتف باليسير ... إذا سهّل الله ذاك اليسيرا

ويتبين في هذه القصيدة نشوة الشباب، وفخر الشاعر بآبائه واستحقاقه الملك كما تتبين قناعته ورضاه باليسير، وما طموحه وقناعته ألا من التناقض بين الانتساب إلى المأمون والمدح والعطاء.

أنهى الشيخ كثير أمر هذا الشاب العباسي الشاعر إلى صاحب الجيش.

يقول الثعالبي: (فلما وقف على صورة حاله أنهاها إلى صاحب الجيش فاستدعاه. وحين وصل إليه، استقبله بخطوات مشاها اليه، وبالغ في إعظامه وابلغ في إكرامه. ثم خيره بين المقام بنيسابور وبين الانحدار إلى الحضرة ببخارى - يعني عاصمة الدولة السامانية - فاختار الخروج فوصله وزوده من الكتب إلى وزير الوقت وغيره من الأركان)

رحل الشاعر الشاب عن نيسابور ميمما بخارى فابلغه إليها سفر طويل شاق؛ وكأنه يصف هذا السفر في أول قصيدة أنشأها في بخارى مادحاً أحد رؤسائها أبا الحسين عبد الله بن احمد:

وليل كأني فيه إنسان ناظر ... يقلب في الأفاق جفنيه داميا
إذا ما أمالتني به نشوة الكرى ... تمايل في كفي المثقف صاحيا
وأمّا طما لُجّ المنى بين أضلعي ... تعسَّفت لجا من دجى الليل طاميا
فأمسى شجا في ظلمة الليل دالجا ... وأضحى قذى في مقلة الصبح غاديا

أحسن أبو الحسين وفاده ابن المأمون، وبلغ الغاية في إكرامه. يقول الثعالبي: (فتقبله بكلتا اليدين واعجب منه بفتى من أولاد الخلافة يملأ العين جمالاً والقلب كمالاً) وواصل صلاته، وخلع عليه، وألحقه في الرزق السلطاني بمن كان هناك من أولاد الخلفاء: كابن المهدي وابن المستكفي وغيرهما. وتتابع الوزراء على إكرامه، فكان كلما دالت الدولة لوزير نافس من تقدمه في الحفاوة والبر به

يقول الثعالبي: (وجعل كل منهم يربى على من تقدمه في الإحسان إليه، وإدرار الرزق عليه، وإخراج الخلع السلطانية والحملانات بمراكب الذهب، حتى حسن حاله، وتلاحق ماله، وظهرت مروءته). وكان هو لا يألو في شكر أياديهم بقصائد يكافئ فيها نعمهم، فلبث في بخارى حقبة مغتبطاً راضياً

ومن قصيدة له في مدح ابن عزيز أحد وزراء بخارى:
أعبدَ الله لا خُيرتُ بيتاً ... مدى الأيام ألا في علاكا
فكم لك من يد قلدتنيها ... فلست أرى لها عني فكاكا
ولو حَمّلتَ ما حَملتَنيه ... شَمام لما استطاع به حراكا
وقد ألبستني أثواب عزَّ ... وقد أوطأتَ أخمصىَ السَّماكا
فحسبك من عُليً أعليت كعبي ... برفعكه، فقد بلغ السَكاكا
قال أبو منصور الثعالبي: (رأيت المأموني ببخارى سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة، وعاشرت منه فاضلاً ملء ثوبه، وذاكرت أديباً شاعراً بحقه وصدقه، وسمعت منه قطعة من شعره، ونقلت أكثره من خطه: وكان يسمو بهمته إلى الخلافة، ويمني نفسه قصد بغداد في جيوش تنظم إليه من خراسان لفتحها، فاقتطعته المنية دون الأمنية. ولما فارقته لم تطل به الأيام بعدي حتى اعتل علة الاستسقاء، وانتقل إلى جوار ربه، ولم يكن بلغ الأربعين. وذلك في سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة).
ويصدق الثعالبي فيما حدث عن همة هذا الفتى وبُعد أمله وطمعه في الخلافة، شعر له ينطق عن هذه الهمة وهذا الأمل، ويعرب عن ثقة الرجل بنفسه واعتداده بها. يقول في قصيدة أنشأها في بخارى:
أنا بين أحشاء الليالي نار ... هي لي دخان والنجوم شرار
فمتى جلا فجر القضاء ظلامها ... صليتْ بي الأقطار والأمصار
بي تحلم الدنيا وبالخبر الذي ... لي منه بين ضلوعها أسرار
فبكل مملكة عليَّ تلهُّف ... وبكل معركة إلي أوار
يا أهلُ ما شَّطت برحلي رحلة ... ألا لتسفر عني الأسفار
لي في ضمير الدهر سر كامن ... لا بد أن تستله الأقدار

وأما شعر المأموني فوسط لا يسمو إلى الذروة ألا قليلاً. وقد اثبت صاحب اليتيمة له قصائد
قليلة وقطعاً كثيرة أكثرها في وصف الأزهار والفواكه والأواني والأطعمة. وقد صدرها المؤلف بقوله: (وهذا ما اخترته من شعره في الأوصاف والتشبيهات التي لم يسبق إلى أكثرها).
فأما قصائده فمنها قصيدة في مدح الصاحب إسماعيل بن عباد مطلعها:
يا ربع لو كنت دمعاً فيك منسكباً ... قضيت نحبي، ولم اقض الذي وجبا
لا ينكرون ربعك البالي بلى جسدي ... فقد شربت بكأس الحب ما شربا
ولو أفضت دموعي حسب واجبها ... أفضت من كل عضو مَدْمعاً سرَبا
عهدي بعهدك للذات مرتبعاً ... فقد غدا لفؤادي السحب منتحبا
وهذه أبيات تذكر بقصيدة المتنبي التي أولها:
دمع جرى فقضى في الربع ما وجبا ... من حقه وشفى أنَّي ولا كربا؟
وكأنه أراد بمطلعه مناقضة مطلع المتنبي. ومحاكاة المتنبي في الوزن والقافية تظهر في قصائد أخرى. وكان المتنبي شاعر القرن الرابع، وقد ولد المأموني في أواخر حياة أبي الطيب، والزمان يدوي بذكره ويصدق قوله:
وما الدهر إلا من رواة قصائدي ... إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا
وللمأموني قصيدة أخرى يمدح بها أحد وزراء بخارى أولها:
سيخلُف جفني مخلفات الغمائم ... على ما مضى من عمري المتقادم
بأرض رواق العز فيها مطنَّب ... على هاشم بين السُّهى والنعائم
يدين لمن فيها بنو الأرض كلهم ... وتعنو لهم صيدُ الملوك الأعاظم
ويهماَء لا يخطو بها الوهم خطوة ... تعسَّفتها بالمرقلات الرواسم
وقد نشرت أيدي الدجى من سمائها ... رداء عروس نّقطت بالدراهم
فخلنا نجوماً في السماء أسِنَّة ... مذّهبة ما بين بيض صوارم
وأظنه حاول فيها محاكاة أبي الطيب في قصيدته التي مدح بها ابن طغج:
أنا لائمي إن كنت وقت اللوائم ... علمت بما بي بين تلك المعالم
وأخرى من قصائده في مدح أبي نصر أحد وزراء بخارى ووصف دار بناها، أولها:
قد وجدنا خُطى الكلام فِساحاً ... فجعلنا النسيب فيك امتداحا

وهو مطلع يذكر بقول أبي الطيب:
وقد وجدت مجال القول ذا سعة ... فإن وجدت لساناً قائلاً فقل
ومما وصف به الدار:
بَهوها يملأ العيون بهاء ... صَحنها يملأ الصدور انشراحا
شِيدُها فضة، وقرمدها تِبْ ... ر قد امتيح من نداك امتياحا
وثراها من عنبر شيب بالمس ... ك فإن هبَّت الصِّبا فيه فاحا
كل ناد منها قد اتشح الفر ... شُ بثوب الربيع فيه اتشاحا
صبغة من دم القلوب فمن أب ... صره اهتز صبوة وارتياحا
ما بكاء الرياض بالطل إلا ... خجلاً من رياضها وافتضاحا
شابه النقشُ فرشها مثل ما ... شابه ولدانها دُماها الصباحا
وكأن الستور قد نشر الطا ... وس منها في كل باب جناحا
وكأن الجامات فيها شموس ... أطلعتها ذُرى القباب صباحا
هذا حديث فتى من بني الخلافة بعيد الهمة طماح، وشاعر من الشعراء الأمراء الذين تشرق أقوالهم في جوانب الأدب العربي ذكراً للهمم العربية والأدب والبلاغة، أدب النفس واللفظ، وبلاغة الأفعال والأقوال.
عبد الوهاب عزام
الحديث ذو شجون
للدكتور زكي مبارك
ليسمع مدير الجامعة ووزير المعارف - فرنسي يستمصر
فيستغرب - الشيخ حسين علي - إلى بعض النواب
والصحفيين - منارة أبي العباس
ليسمع مدير الجامعة ووزير المعارف
كنت شغلت نفسي عدداً من السنين بالدعوة إلى جعل اللغة العربية لغة التدريس في جميع كليات الجامعة المصرية، وانتهزت فرصة اشتراكي في المؤتمرات التي تعقدها (الجمعية الطبية)، فجعلتها مواسم لبث هذه الدعوة بين المشتغلين بالعلوم من أبناء الأمم العربية، وما زالت ألح حتى مللت وأمللت، فانصرفت عن نشر تلك الدعوة وأنا آسف حزين
واليوم أطلع على عبارة تستحق التفات مدير الجامعة ووزير المعارف، فقد جاء في النشرة التي أصدرتها الجامعة العبرية بالقدس أن جميع الدروس في تلك الجامعة تلقى باللغة العبرية ما عدا بعض دروس اللغات
فما معنى ذلك؟
معناه أن اليهود يرون لغتهم قديرة على التعبير عن جميع المعاني في مختلف الأغراض، وإنهم يرون من القومية أن يدرسوا آداب اللغات الأجنبية باللغة العبرية، مع استثناء طفيف يوجبه الحرص على التعمق في بعض اللغات
فكيف تعجز لغة العرب عما قدرت عليه لغة اليهود؟
إن اللغة العبرية لم تكن يوماً لغة علم ومدنية على نحو ما كانت اللغة العربية، فكيف استطاع اليهود أن يخلقوا من لغتهم أداة صالحة لدرس مقومات التمدن الحديث، بعد أن ظلت في غيابات السجن عشرات الأجيال؟
الجواب حاضر، ولكن أين من يسمع؟
والجواب أن اللغات لا تقوم بنفسها، وإنما يقوم بها أهلوها الجواب أن اللغات من صنع الناس، وإن كانت في بعض صورها من مواريث التاريخ، فما كان يجب على العرب في العصور الخوالي أن يبتكروا أدوات التعبير عن شؤون لم يشهدوها ولم يعرفوها، وإنما يجب علينا أن نعبر عما شهدنا وعرفنا، كما عبروا عما شهدوا وعرفوا، لنستطيع القول بأننا أهل للإنشاء والإبداع، وكان أسلافنا من أكابر المنشئين والمبدعين
كان يجب على لغة العرب - كما يتوهم أهل الغفلة - أن تحيط بكل شيء، وإلا فهي جديرة بما يصبون عليها من عذابا العقوق!
فهل كان الأمر كذلك في لغات الإنجليز والفرنسيين والألمان، حتى نطالب لغة العرب بخلق المستحيل؟
لغات العالم والمدنية في هذا العصر كانت فقيرة ثم أغناها أهلوها بالنحت والاشتقاق

والاقتباس، فمتى نصنع كما صنع الأحياء من أبناء هذا الزمان؟
أكبر هموم علمائنا اللغويين أن يعترضوا على نيابة حرف عن حرف، وأن يقول قائلهم:
إن للعرب كيت ولا تعرف زيت، وأن يثوروا على أي تعبير لا يجدون له شواهد في لأقوال القدماء، كأن من الحرام أن يكون لنا في اللغة حق الاجتهاد، وهو حق لم يحرم على أبناء البوادي، ولو كانوا من أكلة الضباب واليرابيع!
اليهود لهم لغة يدرسون بها جميع العلوم؟؟؟
هو ذلك، لأن اليهود يريدون أن يقيموا الدليل على أنهم أحياء
ولو جاز أن يفتن قوم بأوربا ولغاتها، لكان اليهود أولى بذلك الفتون، لأن لهم طلائع في جميع البلاد الأوربية، فممن أخذنا نحن فتنة الخضوع الأحمق للغات الأجنبية، ولنا وجود أدبي واجتماعي لم تفلح في زعزعته الكوارث والخطوب؟
نستطيع بدون صعوبة ولا عناء أن نجعل لغة العرب لسان العلم والمدنية في الشرق، فنزاحم بها ألسنة الأجانب، ونستبقي أعمار أبنائنا فلا نضيع في (رطانات) لا ينتفع بها منهم غير آحاد
وأنا لم أبتكر القول بجناية اللغات الأجنبية في تعويق مواهب الشبان المصريين، فقد أعلن الأستاذ محمد بك حسين هذا الرأي في خطبة ألقاها بالمنصورة في السنة الماضية، وكانت حجته أن الشبان يقضون أطيب أعمارهم في دراسة اللغات، وهي دراسة لم تنتقل من الحفظ إلى الفهم، حتى تعود أذهانهم بالصقل والتهذيب
ولكن ما الذي نصنع ونحن في احتياج إلى معرفة اللغات الأجنبية، لنتصل بالتيارات العلمية في العصر الحديث
نكون طائفة خاصة تكون مهمتها الاشتغال بالترجمة لنغني اللغة العربية بإمداد جديدة في ميادين العلم والطب والاقتصاد والتشريع، وعندئذ تنفعل اللغة العربية بتلك الإمداد، وتصبح مورداً غنياً بآثار الأفكار والعقول، فيمكن الاجتهاد في ميادين كثيرة عن طريق اللغة العربية، كما اتفق المرحوم الشيخ أحمد الإسكندري أن ينتفع بالمترجمات، فصار يفكر على الأساليب الحديثة في التفكير بدون أن يتصل بإحدى اللغات الأجنبية، وبدون أن يتتلمذ لأحد من الأجانب، وله أبحاث تؤيد ما نقول منها بحثه المشهور في اصطلاحات الكيمياء.
فرنسي يستمصر فيستغرب
في هذه الفقرة أسوق حديثاً يشهد بما تصنع العزائم الصوادق في تذليل الصعاب:
كانت البعثة المدنية الفرنسية رأت أن تقصر مهمة مدارسها في مصر على إعداد تلاميذها للبكالوريا الفرنسية، إلا مدرسة واحدة هي الكلية الفرنسية بالظاهر، فقد رأت البعثة أن يعد تلاميذها للبكالوريا المصرية من القسم الفرنسي
ومدير هذه المدرسة هو المسيو مارسيل بونان، وقد أقام في مصر أكثر من عشرين سنة فلم يعرف من اللغة العربية غير ألفاظ معدودات، مثل مدرسة وقهوة وفراش!!
وكان المنطق يوجب أن يجعل أبنه من تلاميذ الليسيه ليفوز بالبكالوريا الفرنسية بدون عناء، ولكن الرجل أصر على أن يجعل ابنه تلميذاً في مدرسته ليفوز بالبكالوريا المصرية مع صعوبة اللغة العربية على شاب لغته الفرنسية ودروسه بالفرنسية وحديثه في البيت بالفرنسية
وظل الشاب يتعثر من عام إلى عام في امتحان البكالوريا المصرية، وكان مفروضاً على من كان في مثل حاله بحكم النظام الجديد أن يؤدي امتحان اللغة العربية في مقررات أربع سنين، وذلك عبء ثقيل!
ونصحت للمسيو بونان مرات كثيرة أن يعدل منهج أبنه في الدراسة فلم يقبل، وكان جوابه أنه يريد أن يمحو الخرافة التي تقول بأن التفوق في اللغة العربية مستحيل على الأجانب!
وأخيراً، وبعد جهاد عنيف، نجح الشاب جاك بونان في امتحان الثقافة العامة بتفوق، فهو أول فرنسي يزاحم الطلبة المصريين في الامتحانات العمومية
بقيت خطوة واحدة، هي أن يعرف هذا الشاب أن حي الظاهر في رعاية سيدي عبد الوهاب الشعراني، فمتى يصلي معي الجمعة في مسجد الشعراني؟
أسلم تسلم، يا جاك؟!
الشيخ حسين علي

ما فجع رجل بأبيه إلا تجدد جزعي لفجيعتي بأبي، فما استطعت دخول البيت الذي مات فيه إلى اليوم، ولا تمثلت وجهه الأصبح إلا غلبني البكاء
من أجل هذا رأيت الحزن يعصر قلبي حين قرأت في الجرائد أن الدكتور طه حسين فقد أباه، ورثه الله عمر أبيه، ومنّ عليه بالصبر الجميل!
أبو الدكتور طه هو الشيخ حسين علي، وكان رجلاً في غاية من اللوذعية والأريحية، وإن لم يظفر من الألقاب بما يحفظ له مكانة بين رجال التاريخ
وقد أكد عندي فكرة الوراثة العقلية والروحية؛ فقد كان عقله على جانب من الرجاحة، وكان روحه على جانب من الصفاء.
قضى الشيخ حسين حياته في عملٍ بسيط بإحدى قرى الصعيد، ولكن بعده عن الحياة الفكرية في العاصمة لم يحلٍ بينه وبين الاتصال بما كان يجد من تطورات الآداب والفنون، فكان يحدثك عن المدنية الحديثة بأسلوب يقنعك بأنه من أبناء الجيل الجديد، على بُعد بلده من التأثر بأفكار الجيل الجديد.
كان الشافعي يقول: (الحر من راعى وداد لحظة)، وقد واددت هذا الرجل لحظتين، فمن واجبي إن اذرف عليه دمعتين
والى الدكتور طه وأخوته أقدم أصدق العزاء.
إلى بعض النواب والصحفيين
يطيب لجماعة من النواب والصحفيين أن يتحدثوا عن مصر بعبارات لا تخلوا من ازدراء واستخفاف، وقد تصل إلى الطعن والتجريح في بعض الأحيان، وأنا انظر إلى هؤلاء نظر الإشفاق، لأن أقوالهم تشهد بأن فهمهم للمجتمع المصري فهم ضعيف، ولأنهم نشئوا في أوقات لم تخرج فيها طرائق الوعظ عن البكاء والأستبكاء.
وأضرب المثل بقول الأستاذ الشيخ محمد دراز وهو يهدد في مجلس النواب:
أصبحت هذه البلاد لا هي بالبلاد الدينية، ولا هي بالبلاد اللادينية، ولا هي بالبلد الشرقي، ولا هي بالبلد الغربي، وذلك ظاهر في كل مظاهرها، ليس في الزي فقط، ولكن في الثقافة والخلق وكل ما يتصل بحياتنا الخلقية والاجتماعية)
وهذا النائب هو أيضاً مفتش الوعظ والإرشاد بالديار المصرية، فان كان صادقاً فالأمة في بلاء، وألا فهو نفسه بلاء، والله الحفيظ!
كان الظن برجل مستنير مثل الشيخ محمد عبد اللطيف دراز أن يدرك أنه لا يجوز الجهر بمثل هذا الكلام في مجلس النواب، لأنه طعن صريح في الأمة المصرية، ولأنه كلام أجوف لا طائل تحته ولا غناء
ولكن ما ذنبه وهو يتوهم أن رجال الدين يجب عليهم أن يصرخوا في كل وقت، وأن يشهدوا بأن أبناء اليوم ليسوا إلا شر خلف لخير سلف، وأن سعادة الدارين لن تكون إلا من نصيب من يعيشون بقلوب لا تحس روح المدنية في القرن العشرين؟
هذا الواعظ مسئول عن تغيير منهجه في الوعظ، وألا كانت عظاته أقاويل مشئومة لا تُدخل البشاشة الدينية إلى صدور المؤمنين
وقد استراح الأستاذ علي الغاياتي إلى صرخات الأستاذ محمد دراز فعلق عليها في مجلته منبر (الشرق) بعبارات هي غاية في الإيذاء، فقد قرر أن أكثرنا مسلمون جغرافيا فقط، وأن الواقع لا يقر لكثير منا بوطنية ولا بمصرية!
وماضي الأستاذ علي الغاياتي يصدنا صداً عن محاسبته على هذا الجور البغيض، فلم يبق إلا أن نرجوه أن يترفق في الحكم على أمته وأن ينظر إليها بمنظار لا يحجب عنه ما فيها من نضارة وإشراق.
وإن أراد المنطق فليسمع:
لقد أراد السخرية من زعامة مصر الأدبية والدينية، وكانت حجته إننا عجزنا عن توحيد كلمتنا والذود عن حمانا
أما توحيد الكلمة فهو مطلب براق ولكن انعدامه لا يؤذينا في شيء، لأن الخلاف من أقوى مظاهر الحيوية في الشعوب، ونحن نختلف أقل مما يجب، ويا ويلنا إذا لم نختلف!
وأما عجزنا عن الذود عن حمانا، فلا يرجع إلى جبن أو استخذاء، وإنما يرجع إلى ظروف يعرف الأستاذ منها أضعاف ما أعرف، وما مر يوم بدون أن يجاهد المصريون ليكون لهم جيش قادر على دفع العدوان بالعدوان

وأذن فسخريتك ضرب من الشماتة وأنت تجهل!
وما أظلم من يشمت بأمة لم يكن نكولها عن الحرب إلا إشفاقا على بنيها من الفناء، وذلك مصير من يواجه الحرب بلا استعداد.
أليس من الإثم الموبق أن تقول: إن الشعب قد فقد شخصيته وبات عالة على الأمم والشعوب؟
الشعب المصري لن يفقد شخصيته أبداً، ولن يبيت عالةً على أحد، فاتق الله في أمتك، أيها الرجل المفضال، وأحذر من العودة إلى مثل هذا التجني المقيت، فقد نستطيع القول بأن القلوب الصحاح ليست من المرض في أمان
ولفضيلة الشيخ دراز أن يسمع هذا النذير، إن أراد!
منارة أبي العباس
من أعظم الأعمال التي قامت بها وزارة الأوقاف تجميل مسجد أبي العباس المرسي بالإسكندرية، فله منارة ستصير علم الهداية للسفن الضوال بعد انتهاء الحرب، وستكون بشيراً لكل قادم بأنه يفد على مدينة إسلامية.
وإذا تذكرنا أن أبا العباس كان من أعلام الصوفية، وأن لقبه (المرسي) سُمي به ألوف وألوف من أبناء الأمة المصرية كان من السهل أن ندرك كيف خصته وزارة الأوقاف بذلك الالتفاف!
ولكن بعض الوعاظ الذين آذاهم أن نقول بوجوب زخرفة المساجد ردوا علينا في إحدى مجلاتهم بان مسجد أبي العباس بلغت تكاليفه نحو المئتين من ألوف الجنيهات، ولو انفق ذلك المبلغ في إعداد طائرات لوقى الإسكندرية من أخطار الغارات الجوية!
وهذا كلام معقول، ولكنه كلام العوام الذين يرتدون ثياب الخواص.
وكيف تكون الحال لو عم هذا المنطق (المعقول) فدعونا الحكومة إلى إلغاء ميزانية المعاهد الدينية لنشتري بها طيارات ودبابات؟
وكيف تكون الحال لو عم هذا المنطق (المعقول جداً) فقلنا أن الأمة لا تحتاج إلى وعاظ بقدر ما تحتاج إلى جنود، وإن من الواجب أن نأخذ مرتبات الوعاظ لننفقها في إعداد الجنود؟
وإذا تم هذا، أو بعض هذا، فما مصير من يأكلون العيش باسم الدين، وهتلر - رضي الله عنه أو غضب عليه - يقول: هذا عصر دبابات لا عصر ديانات؟ حدثوني كيف تصنعون، إذا عم هذا المنطق (المعقول) فأنا أعرف مصايركم إذا احتكمت الدنيا إلى هذا الميزان المخلول؟
كان يكفي أن تقولوا إن زخرفة المساجد ليست من تقاليد الدين الإسلامي، أما دخولكم في شعاب تحتاج إلى دليل من الفكر والمنطق فهو المأزق الذي أرجو أن تخرجوا منه سالمين، إن كانت السلامة من نصيب من يواجه الشمس بعين رمداء
زكي مبارك
للتاريخ لا للأدب
كارثة دمشق
للأستاذ علي الطنطاوي
يا أيها العرب: إن أجبتم دمشق، فافهموا هذا الفصل بعقول جيوبكم، بعد أن تفهموه) بعقول رؤسكم، واعلموا أن القليل إلى القليل كثير، والله يجزي والناس تشكر، والساعي في الخير كفاعل الخير، والصديق عند الضيق.)
- 1 -
عادت إلينا الرسالة بعد طول الغياب فيا أهلاً بها نجية النفس وسميرة الفؤاد، ويا مرحباً بمعادها - ويا ليتها تعود معها تلك العهود، حين كانت أقلامنا تجري طليقة من القيود - لم تصبغ بالدم ولم تجعل مدادها من سواد البارود. . . ويا ليت أني حين أكتب اليوم أقدر على اجتناب أحاديث الكوارث والهموم، فلا أقص على القراء أخبارها، وأصف آثارها، فأزيدهم كرباً على كربهم. وحسب الرجل اليوم همه، وما بلد إلا وفيه ما يغمه. . . وما تجمل بنا الشكوى، لولا أنها إلى أخ حبيب. ومن للأخ في الضيق غير أخيه؟ ومن للشام إلا مصر والعراق؟ ومن لمصر إلا العراق والشام، ومن تجمعه بها أخوة الجذم واللسان والإسلام؟ وكيف السكوت وما حل بدمشق ينطق بوصف هوله الجماد لو كان ينطق الجماد، وتفيض له أعين الصخر، لو بكى الصخر لذي مصاب. . .

- 2 -

كنا نذكر الحرب التي مضت وما حملت إلينا من الجوع والخوف والنقص في الأموال والأنفس والثمرات، وكيف كان الشعب يموت جوعاً لأن التجار الفجار قد احتكروا خبزه، فذهب من الناس من ذهب، لتمتلئ صناديق المحتكرين بالذهب، ثم لا يجد الأموات قبراً لأن الحرب لم تبق من الرجال من يقدر على حفر قبر. نذكر هذا كله ثم ننظر إلى هذه الحرب فنراها سلاماً علينا وأمناً لم نجع فيها ولم نعر، ولم تنل منا منالاً اللهم إلا ما نالت بأظافر التجار وأنيابهم، إذ جعلوا الواحد من ثمن الأشياء عشراً، وربما بلغوا ببعض الأثمان مائة ضعف. وما قلت السلع ولا تبدلت، ولكنه الطمع والجشع ورقة الدين وضعف الخلق!

واستمر مرير الحرب، وانتشرت نارها ونحن لا نعرف مكانها إلا على السماع، وجعلت تطيف بلهبها بنا، وتدنو منا، فأمتد لسانها إلى مصر فجزعنا وأشفقنا وكنا مع المصريين بقلوبنا وألسنتنا، وما نملك لعمري إلا الألسنة والقلوب، ثم دنت منا فبلغ لهيبها العراق، فأقبلنا على العراق بقلوبنا وما جانبت مصر ولا تولت عنها تلك القلوب، ثم أصبحنا ذات يوم على صوت الراد (الراديو) يقول إن الحرب في (الكسوة) على أبواب دمشق، فنظرنا شطر القبلة فلم نجد على جبل (المائع) أثراً لحرب، فكذبنا وأنكرنا، فقال العارفون إن المعركة وراء هذا الجبال. وأكدوا ذلك ولكنا لبثنا مكذبين، فلم تكن إلا ليال حتى بدت في الأفق القبلي من دمشق ومضات المدافع وسمعنا أصواتها فصدقنا ما قال الراد، وأيقنا أن قد بلغتنا الحرب، ولكنا لم نكبرها ولم يصبنا الذعر منها، إذ لم تمسسنا نارها، ولا أحسسنا أوارها، ثم دنت منا النار، وانطلقت المدافع الثقال من قلاع (المزة) و (قاسيون)، فاهتزت لها دمشق ولكن أفئدة أهلها لم تهتز، فانطلقوا يؤمون (المهاجرين) يشرفون منها على المعركة وهي دانية منهم وأصواتها في آذانهم، وشظاياها عن أيمانهم وشمائلهم. وانهم لفي إشرافهم هذا، واجتماعهم في المهاجرين، عشية يوم الجمعة 20 يونية، يتحدثون في عرض الجيش المهاجم على المقاتلين في دمشق كف أذاهم عنها، وتركها (مكشوفة) كيلا تعبث بمحاسنها أيدي الحرب، فتجعل عامرها يبابا، وقصورها تلالا، وكيف أبى المقاتلون فعرضوا دمشق بإبائهم للأذى، وما يعنيهم أذاها، ولا تهدم لهم (إذا هي تخربت) دار يفجعون في زوج ولا ولد! وكانت المعركة مشتدة هذه العشية، وكان الناس مزدحمين ينظرون بجهنم قد فتحت أبوابها وإذا القنابل قد ضلت طريقها فإذا هي تساقط على (المهاجرين) أجمل أحياء دمشق وأبهاها، فطار الفزع بألباب الناس، وكانت ساعة الهول التي يستعاذ بالله منها، وصار الناس كحالهم يوم القيامة، حين يجد المرء ما يشغله عن أخيه وزوجه وبنيه؛ فخلفوا الدور مفتحة الأبواب، واستلموا منافذ الطرق، مهاجرين إلى (الشام) يعتصمون بالاموي، ويقيمون في جواره بعيدين عن مواقع القنابل التي تحمل الموت والدمار. فلا ترى على الطرق إلا الناس مسرعين بوجوه شاحبة، وأعضاء من الخوف مضطربة. وربما خرجت المسلمة المخدرة مكشوفة الوجه، والمدافع تنطلق، والقنابل تتتالى وتتعاقب، كالغيث إذا انهمر. . . وكان أمر لا يوصف!

- 3 -

ثم انسحب جيش، ودخل دمشق جيش، وأعلن استقلال سورية، وانتهت الحرب، فتنفس الناس الصعداء، وتذوقوا لذة الأمن بعد الخوف، ومن كان لجأ من الخوف إلى دمشق من سكان القرى المرزأة المروعة الذين أكلت الحرب دورهم وغلاتهم سكان: (الكسوة، والباردة، والأشرفية، وصحنايا، وسبنية، وسبينات، والقدم، وغيرها) من قرى الغوطة التي كانت تنعم بالأنس والدعة في ظلال الأشجار، فصارت صحراء قاحلة، لا شجرة فيها ولا دار. وديرا يا قرية العنب الديراني الذي تباهي دمشق المدن بلونه وطعمه ونبل حبته وجلال عناقيده واتساع كرومه؛ وجارتها المزة (جيزة دمشق) وأجمل ضواحيها، استعدوا للرحيل إلى دورهم ومساكنهم. . . يحسب المساكين أنها لا تزال لهم مساكن، ما دروا أن من هذه القرى ما لم يبق منه إلا أطلال ورسوم. . . وانطلق الدمشقيون الذين واسوهم في مصيبتهم، وآووهم في منازلهم يودعونهم بالحفلات والولائم. . . فاشتعلت الأحياء التي تحف بالأموي نوراً، وابتسمت سروراً: (القيمرية الكلاسة، وباب السلام، وباب البريد، وسيدي عامود)، حتى ليحسبها الرائي ترقص طرباً، وما بها لو حققت من طرب. وفيم الطرب؟ ولكن مواساة للمنكوبين، وتطييباً

لقلوبهم، وإظهاراً للرضا بانطفاء نار الحرب، وحمداً لله على ما لطف وسلم، فكانت ليلة الأربعاء (25 يونية)، كأنها من ليالي الأعياد. . .

وكان أسبق الأحياء في هذا المضمار (الكلاسة)، هذا الحي الرابض بين الحرمين الأقدسين: مسجد بني أمية الجامع، ومدفن البطل صلاح الدين (آخذ الدنيا ومعطيها)، كأنما سرى في أهله روح من روح صلاح الدين، فظهرت على أيدي أهله مدهشات الشهامة والكرم، حتى لقد آوى رجل منهم واحد سبع أسر في داره، وأولاهم من بشاشة وجهه وفضل ماله ومسكنه ما لا يمتد إلى اكثر منه جهد مثله. . .

- 4 -

نام الناس هذه الليلة التي حسبوها من ليالي الأعياد آمنين لا يخافون الحرب وقد انطفأت نارها، ينتظرون بآمالهم الغد القريب ليحمل إليهم السلام والرخاء. فلما كانت الساعة الرابعة

ومآذن دمشق المائة والسبعون تصدح (بالتراحيم) الأخيرة، ولم يبق دون (إلا ربعاً)، الفجر إلا قليل، والليل ساكن سكون السحر الفاتن العميق. . . وإذا برجة لا توصف قلقت البيوت فذهبت بها وجاءت كأنها الزلزال العظيم، لولا أنها اقترنت بصوت أفاق منه الناس، وإن أجلدهم ليضطرب في فراشه اضطراب السمكة خرجت من الماء، ثم أعقبتها رجتان، ثم جاءت رجة أنست الناس الأوليات فحاروا وذهبت المفاجأة بألباب ذوي اللب منهم وخرجوا من بيوتهم يتراكضون، وما لأحدهم وجهة ولا مقصد. . . ثم انجلت الحال، فإذا هي طيارة لا يدري أحد موردها ولا مصدرها. . . ألقت قنبلتها الأولى على أكواخ في مزرعة عند (جسرتورا) فيها ثلاث أسر في كل أسرة منها أكثر من عشرة أشخاص، فأبادت الجميع، وما ثمة مطار ولا ثكنة ولا شيء مما يصح ان يكون لقنابل الطائرات هدفاً، وألقت الثانية على (باب السلام) من أسفل (الجزيرة) فهدمت أربع عشرة داراً (لا شقة)، والثالثة وقعت على الكلاسة فأبادت الحي كله؛ ولو زاحت عن موقعها عشرة أمتار من هنا أو هناك، لطارت بمأذنة العروس أو بقبر صلاح الدين، ورمت الأخيرة في الحي الجديد في (سيدي عامود)، الذي لم يكد يبنى بعد خرابه، حتى حمل إليه الدمار في الثانية من حمله في الأولى، وما في كل ما دمرت الطائرة ولا في جواره ولا قريباً منه شيء من المصانع والمواقع العسكرية البتة

وقع ذلك كله في أقل من خمسين ثانية، لم يمتد إلا ريثما اجتازت الطيارة من أول المدينة القديمة إلى آخرها، ثم توارت في الظلام كما خرجت من الظلام. . .

- 5 -

أسرعت مع من أسرع إلى مطرح القنابل وبدأت من (سيدي عامود) فإذا القنبلة قد سقطت في وسط الطريق في ميدان صغير يتقاطع فيه شارعان، فاحتفرت حفرة هائلة، وتطايرت قطعها وشظاياها، فأصابت أربع عمارات جديدة مترعة بالسلع التجارية القيمة فضعضعتها وهدت أركانها وأدخلت بعضها في بعض، وأبادت كل ما كان من سلعة ومتاع، وأفقرت أسراً الله اعلم بعددها، وحطمت القنبلة كل زجاج الحي، وقتلت رجلاً وامرأتين - وذهبت من بعد إلى (الكلاسة) فإذا هذا الحي الآمن بأمان المسجد، القائم في حمى صلاح الدين، قد غدا تلاً واحداً كالقبر العظيم كأنه لم يكن منذ ساعات يبسم للحياة ويبسم له المجد، وكأنه لم يكن منزل الكرام الصيد المحسنين. . . وكان الناس مزدحمين يعملون مساحيهم في هذه الأنقاض فيكشفون عما تتفطر لهوله القلوب، ويلقون من غرائب الحياة ومآسيها ما يخجل أكبر القصاص ويدفعه إلى حطم القلب، والنساء يولولن يسألن عن زوج ضائع أو ولد مفقود ويقعن على أرجل الكشافة والفعلة وأصحاب المساحي يسألنهم الإسراع بالكشف عمن افتقدن من أقربائهن، ومنهن من تقبل على التراب تنبش بيديها وهي تعد الدقائق والثواني تتصور الموت جاثماً على صدر من تحب، فإذا رأت أنها لم تصل إلى شيء وهالها الأمر، جن جنونها فأقبلت تلطم وجهها وتشد شعرها. والرجال. . . لم يكن الرجال بأجلد من النساء

وكيف يتجلد الرجل ويصبر وحبيبه تحت الأنقاض وكلما مرت لحظة دنا من الموت باعاً، كيف يصبر وهو يظن أن في يده حياته، وكيف يعيش من بعده إذا توهم أنه هو الذي قتله بتقاعسه عن إسعاده؟

إن الذي رأيت في الكلاسة من الفواجع والمآسي لا يقدر على وصفه لسان ولا قلم،

والحفارون خلال ذلك يخرجون جثة من هنا وجثة من هناك، فينادون عليها ليعرفها من يعرفها. ولقد وجدوا جثثاً مشوهة لم يعرف أصحابها، ووجدوا ساعداً مبتوراً لم يدر من صاحبه. . . وهذه امرأة حديثها عجب من العجب؛ فقد كانت تنام بين ولديها فلما سمعت الرجفة نهضت وكل عرق منها يرتجف كأنه ريشة في مهب الريح فوجدت الظلام من حولها دامساً طامساً، فمدت يديها تتلمس ولديها فوقعت على الرضيع ولم تقع على الأخر، فتحسست مكانه فإذا يدها على جذع من الخشب وسط تراب منها، فنهضت كالمجنونة فاصطدم رأسها بشيء قريب حسبته السقف فازداد جنونها ولم تدر أهي في يقظة أم في حلم، فأخذت بيد ابنتها التي ما ينقطع بكاؤها وقبعت في فراغ وجدته. وكان ينتهي إلى سمعها صدى طرقات بعيدة كأنها آتية من قرار سبع آبار، ثم رأت حين ألفت عيناها الظلمة، كأنما هي في مغارة من مغارات الجن لا باب لها ولا كوة، ثم أنها من ضيقها كالقفص، فأقبلت تضرب بيديها ورأسها، والتراب يتساقط عليها حتى وجدت بصيصاً من النور، وازداد صوت الطرق وضوحاً في أذنيها، وتسرب إليها الهواء بعد أن كادت تختنق، فأغمي عليها ولم تفق إلا في المستشفى ورضيعها إلى جنبها، وولدها الآخر وزوجها تحت الأنقاض.

وهذا هو الأستاذ المصور (أ. . .) يفتش عن ولده الحبيب، وقد جحظت عيناه من الذعر، وتبدلت حاله، وصار لون خديه كقشرة الليمون، وهو يستحث الحفارين، ويضرب بيديه التراب. . . هنا ابنه، ولده الحبيب! يا أيها الآباء! جاء به من المهاجرين يوم الروع ليودعه المكان الآمن عند جدار المسجد، عند قبر صلاح الدين. ومرت ثلاث ساعات كانت عليه وعلى المشاهدين كأنها ثلاثة عصور؛ ثم انكشف الردم عن نصف غرفة وإذا الولد فيها وهو حي، لكن ذراعه تحت الردم، وهو يصرخ: أبي، ارفعني، ارفعني يا أبي. فلما سمع الأب صوته وثب إليه يعانقه وهو يبكي، وكل عين ثمة تبكي. . . ولكن كيف يرفعه وفوق ذراعه كل تراب؟ وأقبلوا ينقلون التراب والولد يصيح صياحاً جعل أباه يفكر بإنقاذه ولو بقطع يده، أسمعتم؟ وانهم لفي ذلك وإذا بجذع يهوي على رأس الصبي فيقتله حالاً.

وهاهنا طفل رضيع يجدونه حياً يمتص من ثدي أمه الميتة. حقائق لو كانت خيالاً لكانت من أغرب الخيال

ولما انصرفت من (الكلاسة) أخذ بيدي صديق لي وأنا لا ابصر من الأسى والحزن طريقي فقال: إن ما رأيت ليس بشيء. إن أحببت أن تنظر إلى أفظع عدوان وأشقى ضحية وأروع مشهد، فتعال معي إلى باب السلام، فلقد أخرج منه إلى الآن (الضحى) سبعة وعشرون قتيلاً، فنترت يدي منه ولم أجب!

وانجلت الغارة عن ثمانية وعشرين منزلاً أضحت خرائب وتلالاً وواحد وسبعين قتيلاً. ثلاثة أرباعهم من النساء والأطفال، ونحو خمسين جريحاً لا يكاد يعيش منهم أحد، ما قتل هؤلاء في المعركة الحمراء ولا سالت نفوسهم على ظُبي الأسنة، وشفرات السيوف. . . ولو واجههم العدو في حومة الوغى لوجدهم فرسانها وسادتها، ولكنه أخذهم غدراً وعدا عليهم وهم آمنون في فرشهم فأخذ الرجل من جنب زوجته وولده، أو قتلهم جميعاً لم يتورع عن قتل النساء، ولا عن ذبح الذراري، ولم يكسر عليهم الأبواب ويدخل دخول الغاصب القوي، ولكنه مر في السدفة الحالكة مرور اللص الجبان، فراغ عن مواطن الجندية ومنازل الكماة لأنه ليس من أكفائهم، وتخير هذه البقع الآمنة حول بيت الله فصب عليها كل ما في النفوس الشريرة من خسة ودناءة، ولعله أراد بنيرانه بيت الله، أو لعله أراد بها قبر السيد الذي علم قومه كيف يكون النبل

فيا رحمة الله على النبل وأهله، وسلام على هذه الأرواح الطاهرة، وعلى الظالمين لعنة الله

علي الطنطاوي

صفحة من كتاب

(مرارة اليُتم)

(مهداة إلى الصديق المفجوع بوالده)

للأستاذ شكري فيصل

- 1 -

حين مددت يدي أمس إلى ساعي البريد لم أدر سر هذه الخفقة العنيفة التي اضطرمت بها جوانحي فانتفضت معها انتفاضة المذعور، ووجدت في نفسي ألواناً من الأحاسيس لم أتمالك أن أسكن إليها، أو أطمئن معها، أو أدرك سر التأثير فيها. . . فلقد فاضت بين جنبي لاهبة مستعرة، فإذا أنا أصلى بلهبها، وأكوى بلفحها، وإذا كياني كله جمرة متقدة في أتون من اللظى والنار

ولم يكن ذلك من عادتي في شيء. . . لشد ما كنت أضحك للساعي وأطرب له. . . ولشد ما كنت ألقاه أقبل عليه وأدنو منه. . . لقد كنت ألقاه بالأمل الطروب الذي ينساب ابتسامة عريضة، وتحية مرحة، ولقاء حلواً. . . وكنت أرقب موعده، وانتظر مقدمه، وأعد له الساعات؛ فليس احب ألي من الساعة التي تصافح فيها يداي هذه (الرسائل)، أنسم فيها عبير الوطن، وأنعم بدنيا الاهل، وتتسق لي الذكريات اللطاف، وأعيش في هذا العالم الندي: نشوان بالرؤى الحالمة، ثملاً بالأماني الناعمات.

ولكن كان لي في أمس شأن آخر. . . لم تتفتح شفتاي عن التحية الحلوة، ولم تنطلق في دنياي البسمة الطروب، ولم تشع في وجهي قسمات الأمل. كان كل شيء في نفسي يهتز ويضطرب كأنما كان ينشر في السماء الصافية أمواه السحاب وأمواج الضباب، وكأنما يبعث في العالم الهادئ الآهات الصاخبة والنفثات الغاضبة. وكانت تطيف بي طوائف كابية معتمة لا أتبين معها وجه النور، ولا ظلمة الغسق؛ ولا أدري لها عبق الأمل أو مرارة الواقعات، ولا أحس أهي نذر الشر أو بشارات الخير!

وحين أخذت أنزع هذا الغلاف الرقيق لم أدر أين أبتدأ منه. كنت كلما أمسكت بطرف منه توليت عنه إلى طرف آخر؛ فإذا الكتاب يضطرب بين يدي، وإذا أنا أدور معه كالخابط في

الليلة الظلماء لا يدري أين يضع قدمه لأنه يخشى أن تزل به

لكأني كنت أخادع نفسي فلا أفجؤها بالآهة الحرى والدمع الهتون . . .

- 2 -

وأخذت اقرأ من هنا وهناك لم أبتدئ مع الكلمات الأولى كما يفعل الناس، لأني لم أك أملك الإرادة الهادئة والطبع المتزن. ولكنما كنت أعدو وراء الكلمات وأمضي في ثنايا الأسطر، لألقى الشر وأجد خبر المصيبة

إن الفراشة الوادعة ليست هي وحدها التي تسعى إلى النور لتلقي حتفها فيه، ولكننا في ساعات المصيبة أشبه بهذه الفراشات؛ غير أننا نتداعى في قبور الظلمة ومسارب الكهوف لتلتهمنا الآلام الفواجع

- 3 -

لقد عرفت في كتب صاحبي أناقة الصورة وجمال المظهر؛ وكنت أجد فيها مرح الطفولة وعبث الصبا؛ وكانت تنشر لعيني ذكريات الماضي وأصداء السنين. لطالما هدأت إلى ظلالها الوارفات بعد الطواف البعيد! كانت أشبه بالزهرة الفواحة التي تتفتح عنها نفس يهزها الأمل، ويحدوها الرجاء، وتزدهر من أمامها مسالك الحياة. . . ولكنها اليوم شيء آخر، لقد عصفت بها العاتيات فعرتها من الجمال الضافي، وسطت عليها لفحات النار فذهبت بروائها الزاهي. . . لم يعد كتاب صاحبي إلا الهشيم الذي تذروه الرياح الهائجة: تلطمه بالمصيبة، وتصدمه بالفجيعة، وتنال منه بالحزن

وفي طرف منه جمدت عيناي ويبست أطرافي. كان يهتز في يدي كما تهتز الأوراق البالية في أعقاب الشجرة الضخمة، فتسمع لها حشرجة الروح، وانين الاحتضار. . . لكأن كلمة الموت التي طرقت مسمعي فيه، قد ملأت كل كياني، فإذا أنا وهذه الدنيا من حولي هامد همود الجثة. . . صامت صمت الموت. . . موحش أيحاش القبر.

- 4 -

يا للمساكين الذين تنالهم الدنيا بأحزانها السود، وتنشب مخالبها الحادة في أجسادهم الطرية الرخوة. . . إنهم لم يستكملوا بعدُ ريعان الفتوة وزهرة العمر وربيع الشباب، ولكن الحياة

تريدهم على أن يجدوا الربيع القاحل، والزهر الآفل، والريعان الماحل. . . إنها لتريدهم على الحزن، ولتضطرهم إلى البكاء حين تضحك السماء وتبتسم الأرض. . . لا تبالي

هذه القلوب الساذجة الضاحكة، ولا تأبه لهذه النفوس الخيرة النبيلة، ولا يعنيها أن تلطم باليتم فتياناً عرفوا الحياة نعيماً وأملاً وجنة

يا ويح اليتيم. . . كان بالأمس ينشأ في أيام من الورد والسوسن، وفي أجواء من العطر والزهر، وفي دُنى من النعيم والسحر؛ ولكنه اليوم يغمض لهول المصيبة عينيه، ويصم أذنيه، ويطرق برأسه. فإذا أفاق وأصغى ونظر فلن يجد إلا الصحراء والظلماء والبأساء؛ لأن الدنيا عدت على عالمه الهانئ فذهبت بعطره وسحره، وعقت على جناته الناعمة فذهبت بورده وزهره، ودفنت عرائسه المائسات في قتام العاصفة، وتركت له أغصان الأسى ينثرها بيده على الهيكل الحبيب والقبر الخصيب

- 5 -

لم أعد أستطيع أن اقرأ، لأن الدموع التي كانت تتقرح عنها جفوني غشت عيني، فإذا أنا أهيم في أودية مرعبة من الحسرة الممضة والألم العميق

وإني لألمح صديقي فما أملك أن أطيل النظر إليه والتأمل فيه. لقد عرته الدنيا من نعمة الأبوة، كما تعرى الزهرة الناشئة من أوراقها الخضر؛ فما يملك أن يرد عن نفسه المكاره العاديات.

لشد ما يبعث الأسى هذا اليتم المفاجئ في الليالي السود، ينتزع النعمة الرافلة، ويتعقب الهناء الوارف، ويبدد الحلم السعيد، ويسوق هؤلاء المساكين الفتيان وهم في غضارة الصبا وطراوة الشباب، إلى دنيا من الهموم والكآبات

ولكن لا عليكم أيها الشباب الذين يفقدون آبائهم في أحلى ساعات العمر وأجمل أوقات الحياة، ويتطلعون حولهم فلا يجدون القلب الذي ينهلون منه، والساعد الذين يتكئون عليه، والصدر الذي يدفنون وجوههم فيه، لأن الآلام المبكرة ليست إلا السحاب الجون يفيض أمطاراً ومياهاً ليغسل الأدران، ويطهر الأجواء، ويصفي النفوس

(القاهرة)

شكري فيصل

الوحدة العربية ووحدة اللغة

للأستاذ يوسف كمال حتاتة

استمر حكم العرب في الأندلس ثمانية قرون من عام الفتح (سنة 91هـ) إلى العام (الذي سقطت فيه غرناطة سنة 897 هـ

وكانت في الأندلس سبعمائة مكتبة عامة يرتادها الناس لدراسة أنواع العلوم وبينها مكتبة قرطبة التي كانت تحوي نصف مليون كتاب.

فلما دالت الأيام وأُخرج العرب من ديارهم أحرق أعداؤهم الكتب التي ألفوها وبقيت البلاد ترسف في قيود الجهل وأصبحت كلمة كتاب إحدى الجرائم التي ينبغي الحذر منها، وظلت مدريد - عاصمة الحكم الذي خلف حكم العرب - لا تضم مكتبة عامة واحدة إلى القرن الثامن عشر الميلادي

في هذه الفترة كان المتحدث عن نظريات نيوتن وأبن رشد يساق إلى محكمة التفتيش فتحكم عليه بالموت بعد التعذيب، والتعذيب هو قطع الأرجل والأذرع في شريعة القساوسة؛ أما الموت فهو إلقاء المحكوم عليهم في التنانير المسجورة

في زمن عبد الرحمن الناصر لدين الله كان المبشرون يقفون أمام جامع قرطبة الكبير ويخطبون داعين الناس إلى اعتناق الدين المسيحي في أثناء اجتماع المسلمين لصلاة الجمعة، وكان الخليفة يسمعهم فلا يقول لهم كلمة ولا يأمر رجال شرطته باعتراضهم أو الوقوف في طريقهم

هذا في الأندلس؛ أما في بغداد فقد وضع الرشيد جميع المدارس في مملكته تحت رقابة يوحنا بن ماسويه الشهير، وكان الإشراف على أمور التعليم في الدولة العباسية يفوض تارة إلى النسطوريين وطوراً إلى اليهود

وكان جيورجيس الجنديسابوري طبيباً للمنصور، وقد علت منزلته عنده، وسبب ذلك أنه كانت له زوجة عجوز لا تشتهى فأشفق عليه المنصور وأرسل إليه ثلاث جوار حسان

فردهن وقال: (إن ديني لا يسمح لي أن أتزوج غير زوجتي ما دامت حية) فأعلى المنصور مكانته وقدمه حتى على وزرائه. ولما مرض أمر المنصور بنقله إلى دار العامة وخرج إليه ماشياً يسأل عن صحته فأستأذنه الطبيب في الرجوع إلى بلده ليدفن مع آبائه

فعرض عليه الإسلام ليدخل الجنة فقال له:
رضيت أن أكون مع آبائي في الجنة أو في النار
فهش له المنصور وبش وأمر بتجهيزه ووصله بعشرة آلاف دينار، وهو المنصور المشهور بالإمساك وكزازة اليد
على أن هلا كوخان الوثني قد أمر بإلقاء الكتب العربية في نهر دجلة، فقضى على مدينة بني العباس بعد تقويض عرش خلافتهم التي استمرت من سنة 132هـ إلى سنة 656 هـ
فأنت ترى أن هلا كوخان التتري الوثني لم يعمد لتقويض بنيان الدين الإسلامي، ولكنه أراد القضاء على لغة العرب ومدينتهم في العراق، وحذا حذوه قساوسة الأسبان في الأندلس الشهيدة، لان الأمة تحيا وتموت بحياة لغتها وموتها. أما كتاب الله وسنة نبيه، فإن هلا كوخان التتري الوثني وقساوسة الأسبان الذين هدوا هديه في الأندلس كانوا يعلمون أن المصاحف وكتب الحديث قد انتشرت في جميع المشارق والمغارب في بلاد فارس وفي الهند وبلاد الجزيرة العربية وجاوة وبخارى وما إليها.
عندما ضمت ولاية الألزاس إلى ألمانيا بعد حرب السبعين الأخيرة، قام أحد المدرسين الفرنسيين في تلك المنطقة الشهيدة إذ ذاك بين تلاميذه وقال لهم: إن درسي هذا هو آخر الدروس التي ألقيها عليكم. فإذا أردتم أن تحتفظوا بفرنسا في قلوبكم، فلا تفرطوا في لغتها
والوحدة العربية التي استشهد الحسين بن علي رافع علمها في سبيل الذود عنها وأضاع ماله وتاجه، هذه الوحدة التي يسعى لها العرب وعلى رأسهم صاحب السمو الأمير عبد الإله حفيد الحسين، لا يقدر العرب على الوصول إليها - على الرغم من الجهود المبعثرة التي يبذلها أصحاب الزعامات الزائفة الذين يشبهون الذباب الملوث في الإناء الطاهر - إلا إذا وحدنا لغة الجرائد والمجلات، ليفهم ابن العراق وابن اليمن والحجاز ونجد وفلسطين ودمشق ما يكتبه ابن مصر.
لو عرف الرجل الذي ناطوا به قتل اللغة العربية في مصر وحكموه في وزارة المعارف المصرية من عام 1891 إلى عام 1919 أن جماعة من تجار الأدب الزائف والثقافة العرجاء، سيصدرون هذه المجلات التي يكتبونها بلغة طمطمانية، لا تمت إلى العربية
الصحيحة بصلة ويحشونها بمقالات لا صلة لها بالأدب ولا بالتاريخ ولا يعلم من العلوم الحديثة ولا القديمة، لبرأ ذمته من جناية قتل اللغة العربية في مصر وتخلص من لعنة التاريخ الأبدية، لأن هذه المجلات قد قضت على اللغة العربية وهبطت بها إلى أقصى دركات الحضيض فخدمت الاستعمار وقضت على الوحدة وعلى الأخلاق
وهذه الكتب التي تدرس في المدارس التابعة لوزارة المعارف ما قول صاحب المعالي الدكتور محمد حسين هيكل باشا فيما حوته من الأغلاط اللغوية والتاريخية، فقد أحصيت في أحدها ثلاثمائة غلطة لغوية وتاريخية تكاد تخرج الكتاب من حظيرة الكتب التي يشرف على انتخابها عدد من العلماء، وعلى رأسهم هيكل باشا المشهور بغيرته على لغة الضاد ومحاولته إحيائها بعد موتها
وأني لا أتحدى أحداً إذا طلبت إلى معاليه الرجوع إلى سجلات مخزن كتب وزارة المعارف في زمن إدارة (المستر دجلاس دنلوب) ورؤية أسماء الكتب التي أمر ببيعها بالقنطار فبيعت بأبخس من ثمن الورق قبل الطبع؛ إنه إذا فعل فسيرى بين هذه المجلدات التي بيعت بالقناطير عدداً كبيراً من الكتب اللغوية القيمة مثل: القاموس ولسان العرب وصحاح الجوهري، ومن الكتب النحوية التي لا يوجد نظيرها من المؤلفات الحديثة في مكاتب مصر ولا بين كتب التدريس
وهذا معناه أن يد هلا كوخان أو يد عضو محاكم التفتيش قد حاربت ثقافة مصر من سنة 1891 إلى سنة 1919، فإذا كان العرب يريدون الاحتفاظ بمجدهم، فإن الواجب يحتم عليهم حفظ لغتهم، وهذا لا يتم إلا بنبذ المجلات الموبوءة، والاعتناء بتصحيح لغة كتب التدريس
كان صاحب الجلالة المغفور له علي الأول ملك الحجاز السابق ووالد صاحب السمو الأمير عبد الإله الوصي على عرش العراق اليوم يقيم في حي الكرادة على ضفة نهر دجلة في مدينة دار السلام، وكنت أيمم قصره في كل يوم فأرفع إلى جلالته خلاصة

الجرائد العربية والتركية وأحمل بعضها معي لإعادة قراءتها عند عودتي في المساء. وفي أحد الأيام قرأ أحد أصدقائي جريدة هزلية تصدر في مصر ودسها في الجرائد التي تأبطتها ودخلت على الملك الوديع فوجدته منفرداً في بهو الاستقبال.

وبعد حديث قصير أمرني بقراءة مقال لي قد نشرته جريدة العراق في ذلك اليوم فقرأته. وفي هذه الأثناء انتثرت الجرائد التي أحضرتها بسبب الهواء المتسرب في النافذة المفتوحة وسقطت على الارض، وكنت قد وضعتها على مقعد بالقرب من جلالته، فرأى الجريدة الهزلية وسألني عن مصدرها وخطتها، وأخذت في قراءة أحد فصولها، فأتممت قراءته وشرعت في قراءة فصل آخر، وتراءى لنا صاحب السمو الأمير عبد الإله فأومأ إليَّ جلالته بطرفه فأخفيت الجريدة وغيرنا مجرى الحديث. وعرف الأمير الفتى أنه قد فَجَأنا في خلوتنا فسلم وودع ولم يزد على قوله لكاتب هذه المقال: جئت للسلام عليك وقد قرأت مقالتك اليوم في جريدة العراق فاسمح لي بالانصراف لأني ذاهب إلى المدرسة.

وبقيت مع جلالة والده فقال لي بعد انصراف ولده وهو يشيع سيارته بنظراته من نافذة القصر:

- لقد فطنت لما أشرت به إليك، لأني لا اقرأ ولا أريد أن يقرأ عبد الإله الجرائد والمجلات التي تنهش الأعراض؛ وهذه هي المرة الأولى التي منيت فيها برؤية جريدة من هذا النوع

فقلت لجلالته: إن هذه الجريدة قد دست في جرائدي ولم أرها إلا بعد شروعي في القراءة، ولو عثرت عليها قبل دخولي من باب القصر لحرقتها وذريت رمادها في الهواء، لان هذا النوع من الجرائد لا فرق بينه وبين جراثيم الأمراض الوبائية.

ومضى جلالته في حديثه فقال:

- يقول لك عبد الإله إنه قد قرأ مقالتك في جريدة العراق وقد رمى بقوله عصفورين بحجر، فقد أذنت له في قراءة الجرائد التي تنشر مقالاتك لا غيرها، لأنك لا تتعثر في الأغلاط اللغوية ولا تدنس قلمك بالهجر من الألفاظ التي تجرح العواطف ولا تغلظ لمناظرك في القول، وهذا ما حدا بي إلى النصح لعبد الإله بقراءة ما تكتبه في الصحف وما تختاره له من الكتب.

فقلت لجلالته: أن المتنبي حكيم العرب وشاعر الأجيال يقول يا صاحب الجلالة:

وكل يرى طرق الشجاعة والندى ... ولكن طبع النفس للنفس قائد

ويقول أرسطا طاليس إن الفضائل ليست طبيعية فينا، وإلا عجزنا عن تغيير طبائعنا؛ فالعادة لا تستطيع أن تغير ما هو فطري، مثلُ ذلك مَثلُ الحجر الذي يهوى بطبيعته إلى اسفل فإنه لا يمكن أن يتعود الصعود ولو حاول به المرء ذلك ألف مرة؛ وكذلك النار فطرتها الصعود بلهبها ولا يمكن أن تتجه إلى أسفل؛ وليس في الوجود جسم واحد يمكن أن يفقد خاصته التي تلقاها من الفطرة ليستبدل بها عادة غيرها.

والأمير عبد الإله كريم الطرفين هاشمي الأبوين لم أره مرة مازحاً ولا عابثاً. ولقد تقدم إليَّ يوماً في طلب كتاب قراءة ليتفكه به في أوقات فراغه فبحثت في خاطري وتخيرت لسموه كتاب كليلة ودمنة وأحضرت له نسخة من الطبعة التي صححها الشيخ خليل اليازجي لخلوها من الأغلاط اللغوية. وبعد قراءة بعض فصولها قال لي: إنه يميل إلى مطالعة الكتب الأدبية واللغوية والتاريخية فأحضرت لسموه شرح ديوان أبي الطيب وفقه اللغة وسر العربية للثعالبي وحاولت أن أردمهما بكتاب أدب الكاتب لمؤلفه أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة.

بيد أني أردت تمحيص أدب الكاتب لأعرف هل هو من سقط المتاع، أو من البضاعة التي تساوي ما سيبذله الأمير من وقته الثمين فرأيت صاحب أدب الكاتب يقول: (ومن ذلك القافلة يذهب الناس إلى أنها الرفقة في السفر ذاهبة كانت أو راجعة، وليس كذلك إنما القافلة الراجعة يقال قفلت فهي قافلة، وقفل الجند من مبعثهم أي رجعوا، ولا يقال لمن خرج إلى مكة من العراق قافلة حتى يصدروا)

والقاموس يقول: (والقافلة الرفقة القفال والمبتدئة في السفر تفاؤلاً بالرجوع) ويقول في (باب ما لا ينصرف) وما كان منها على ثلاثة أحرف (يريد ما كان من الأسماء) وأوسطه ساكن فإن شئت صرفته وأن شئت لا تصرفه. قال الله عز وجل: (أدخلوا مصر إن شاء الله آمنين) وقال تعالى: (اهبطوا مصراً) انتهى قول ابن قتيبة.

وهذان المثلان يثبتان أن ابن قتيبة يجهل أسرار اللغة العربية، فالقاموس يقول المصر الكورة، والكورة هي المدينة، فقوله في الآية لبني إسرائيل الخارجين من مصر في طريقهم إلى بيت المقدس (أدخلوا مصراً) معناه أدخلوا إحدى المدن؛ وقوله تعالى في الآية (99) من سورة يوسف عليه السلام (فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) يريد به مدينة مصر عاصمة وادي النيل واسمها هنا ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة؛ أما في الآية الأولى فإن العلتين قد زالتا فلا علمية ولا عجمة والاسم في قوله تعالى:

عربي نكرة ولكنه علم أعجمي في سورة يوسف؛ وعليه فإن ابن قتيبة (اهبطوا مصراً) قد اخطأ في التمثيل ولو تمثل باسم غير هذه الاسم مثل (هند) و (دعد) لأصاب لأن العلم الثلاثي الساكن الوسط يجوز فيه المنع والصرف إذا كان غير أعجمي ولا منقول؛ أما مصر في الآية الواردة في سورة يوسف فإن فيها العجمة والعلمية.

ويقول ابن قتيبة ويقال: (شتان) ما هما بنصب النون، ولا يقال شتان ما بينهما!

والقاموس يقول: (وشتان بينهما بفتح النون وما هما وما بينهما وما عمرو وأخوه أي بعد ما بينهما) ويقول ابن قتيبة في أدب الكاتب: (ورجل منهوم من الطعام ولا يقال نهم) والقاموس يقول: (نهم ونهيم ومنهوم)، وفي أدب الكاتب أغلاط لا أضيع الوقت بذكرها

ويسرني أن سمو الأمير قد ذكر لي سبب رغبته عن قراءة كتاب كليلة ودمنة فقال:

لقد برمت بما فيه من القصص المتشابكة والإطالة المملة على الرغم من جزالة ألفاظه وسلامة عباراته ورقة أسلوب كاتبه وبلاغة إنشائه الذي هو من نوع السهل الممتنع.

وآن وقت الغداء فتغدينا وودعت جلالته وانصرفت.

يوسف كمال حتاتة

عضو المجمع العلمي بوزارة المعارف في الآستانة سابقاً

فن تيمور

للسيدة الفاضلة وداد سكاكيني

كان الفن القصصي في نهضة أدبنا الجديد أطيب ما أثمر وأينع في إنتاج الأدباء المحدثين؛ ولا ريب في أن القاص المصري المشهور محمود تيمور كان سباقاً لمغارس القصة ومجانيها، ولا يزال في طليعة أدبائها الذين توفروا على إنشائها وممارستها على ضوء القواعد التي اجمع على مراعاتها قادة الأدب وأهل الفن.

إن في قصص تيمور دنيا العالم الذي يعيش فيه، فقد سبر هذا الأديب أغوار الحياة ومعايش الصعاليك والشذاذ، وارتفع إلى قمة الحياة فعرف أهل السرف والترف وما يدور في دنياهم الطافرة من سعادة وشقاء. وإنك لترى في صنعه المتقن مدينة من القصص، فيها صور الصروح شامخة الهامات متلألئة الثريات، وفيها تماثيل الأكواخ مفروشة بهلاهل الحصير تترجح في ظلماتها سرج مختنقة الأضواء

ومن يقرأ تيمور في قصصه الحديثة يجدها متنوعة الألوان، محيطة بمعالم الإنسانية التي تحمل مياسم الشرقيين العرب، فلم تبق إقليمية محلية مقتصرة على طابع واحد، وإنما أخذ فن مؤلفها ينمو ويتطور ويتجه صوب النفس الإنسانية، غائصاً على أسرارها مستجلياً خفاياها. وإنك لتراه أيضاً يلقي النور في بعض أقاصيصه على كثير من مشاكل العصر ومعضلات المجتمع، وكأن آثاره المنوعة عاصمة من عواصم الفن، شيدها تيمور بك على ضفاف النيل، لم يسمع بها خوفو ولا حوتها طيبة. وإن من الكتب ما يبقى على وجه الزمان أكثر من المدن المشيدة بالحجارة والحديد. فليكن كلامي على آخر إنتاجه (مكتوب على الجبين)، ففي هذا الكتاب اكتمل الفن واستقام الأسلوب

بدأ القاص كتابه بمقال حافل عن فن كتابة القصة أو كيف يعالج القاص كتابة قصة فنية؛ فبين في فاتحة كلمته أن الموهبة والقواعد أمران لا بد منهما للقصصي كالشاعرية وصحة النظم للشاعر. وهنا طفق يفيض في أصول القصة ومميزاتها التي تبصر القصصي وترشده إلى أسرار الإبداع، ثم عرض لأنواع هذا الفن وأسمائه من ناحية الأسلوب والموضوع، وما يدلان عليه في أدب الفرنجة، وانتهى إلى بسط العناصر التي إذا جرى عليها القاص برزت قصته ناطقة بالحياة منطبقة على أوضاعها وأطوارها، فجاءت هذه

المقدمة درساً قيماً في فن القصة يجدر أن يلم به كل من أوتي الموهبة التي تعده لمعالجة هذا الفن.

لا تثريب على (الشيخ غيث) فلقد مهدت له أم حسن سبيل الغواية والمعصية، وكأني أشهده الساعة وهو يداعب بأصابعه لحيته المستديرة، ويستمع للحوار الذي دار بينه وبين زوجه السليطة اللسان المتشاجرة مع الجيران؛ حتى إذا سافرت هذه للريف وقف الشيطان بينه وبين خادمته جليلة التي أخذته بنظرتها الغاوية، فاحتلت منطق تفكيره، وجعلته يفسر آي القرآن كما شاء هواه؛ ففي هذه الأقصوصة ترى رجل الدين الذي يتصنع الوقار والتقوى، ولا يلبث أن يهوى في قرار سحيق من الخطيئات.

وإني لأتساءل: ما حال (بسمة اللبنانية) بعد أن هامت على وجهها، فهي مذ حلت في فندق الشمال من لبنان خفت إليه مواكب الطرب، ولمعت فيه الأعين بالجذل، وفاضت الوجوه بالمرح. لكن ذلك الفتى الفنان الذي حل بالفندق على حين غفلة سلب بغنائه لبها وصهر بحبه نفسها، فأحال خفتها رزانة وضحكها بكاء حتى كان مآلها الاختفاء

هكذا تتعاقب في ذهني صور هذه المجموعة التي اشتملت على أربع عشرة قصة، فأحدث عنها كأنني رأيت أبطالها وعرفتهم، لأن المؤلف قد استمد حوادثهم من الواقع الذي هو ملء سمعه وبصره، وأفاض على تلك الحوادث من تهاويل الخيال دون كلفة ولا ابتذال، فلم تصطدم بما يخالف العرف والذوق، ولا ندت عن العادات والشرائع، وإنما كانت المثال الحق للقصة الحديثة. على أن ما يلفت النظر ويسترعي الإعجاب في هذه المجموعة ظاهرة فيها جديدة لم أكن لأراها فيما سبق من آثار الأستاذ تيمور بك؛ تلك هي صقال الإنشاء، وبراعة السبك في الأسلوب، والطرافة في الأداء والحوار، وهذا يفسر استماع القاص الموهوب صاحب المجموعة لبعض الناقدين، إذ كانوا يرون في أسلوبه وهناً يعدونه غضاضة في فنه، فصح عنده أن سمو الآثار الأدبية والفنية لا يقوم على المعاني وحدها، وإنما يعوزه المباني المرصوصة الجميلة؛ فما خلد الكتاب إلا أساليبهم، ولا جرم أن الأديب الذي لا يتقدم ولا يتجدد يكون غير مبدع، لان من سنة الإبداع التطور والتحرر من كل ما يعوق الفن عن التحليق، ويطرف الأدب بجدة القرائح ورصانة التعبير

إن أدبنا الجديد مدين للقاص المطبوع محمود تيمور ولأنداده أعلام القصة في بلاد العرب

بهذه النهضة الأدبية التي ما زالت مشرقة الأسارير، وضاحة المعالم على الرغم من توالي الخطوب وجهامة الزمان

وداد سكاكيني

كبرياء!. . .

للأستاذ صالح جودت

أجَلْ أنتِ فاتنة، إنما ... أرى عزة النفس لي أفتنا
وإنْ كان عندكِ سحر الجمال ... فسحر الرجولة عندي أنا
وإنْ كثرتْ في هواكِ القلوبُ ... فذلك من بعض ما عندَنا
وإن غرّوركِ بحلو الشباب ... فإنّ الشباب قريب الفنا
وعينيكِ، والخصَلِ الحالكات ... كأني بها خُلقتْ مَوْهنا
وحمرةِ خدّيكِ في سُمرةٍ ... كحلو النبيذ رقيق الجنَى
يحبكِ قلبي، ولكنه ... يخاف العواقبَ إن أعلنا
فيكتم عنكِ شؤونَ الهوى ... ويُظهر غير الذي أبْطنا
وأنتِ المنى، غير أني امرؤٌ ... يذلل للكبرياء المنى
ويكره في الحب بذلَ الدموع ... وبسط الخضوع وفرطَ الضنى
إذا المرءُ هان على نفسه ... يكون على غيرها أهْوَنا
وذلُّ الرجال لوجه الجمال ... كذلّ الضمير لوجه الغني
وأني امرؤٌ حررته الحياة ... فكيف ترومين أن يُسْجَنا
وهذا الدلال وهذا الضلال ... حبيبا الشقاء عَدُوَّا ألهنا
فلا تجعلي من غرور الأنو ... ثة باباً يسدُّ الهوى بيننا

صالح جودت

ليالي القاهرة
الميعاد الضائع
للدكتور إبراهيم ناجي

يَا مَنْ طَوَاها اللَّيْلُ في ظَلْمائِهِ ... رُوحاً مُفَرَّعَةً عَلَى بَيْدَائِهِ
تَتَلَفَّتِينَ إِلَيَّ في أَنْحَائِهِ ... لَهَفَ الفُؤَادِ عَلَى الْغَرِيبِ النَّائِهِ!
إِنْ تَظْمَئِ لِيَ كَمْ ظَمِئْتُ إِلَيْكِ ... جَمَعَ الوَفاءُ شَقِيَّةً وَشَقِيّا
يَا مُنْيَتِي قَسَتِ الْحَيَاةُ عَلَيْكِ ... وَجَرَتْ مَقادِرُها الْجِسَامُ عَلَيّا!
إِنِّي الْتَفَتُّ إلى مَكانِكِ وَالْمُنَى ... شُلَّتْ وَقلبي لاَ يَطِيقُ حَرَاكا
فَصَرَخْتُ يا أَسَفا لَقَدْ كانَتْ هُنا ... لمَ عَاقَنِي الْقَدَرُ الْخَئُونُ هُنَاكا!
عَبَسَتْ وَسَوَّدتِ السَّماءُ ظِلالَها ... فَكَأَنَّ عُقْبانَاً تَحُطُّ رِحالَها
وَكَأَنَّ أَطْوادَ السَّحابِ حِيالَها ... أَرسَتْ عَلَى الكَتِفِ الصَّغِيرِ ثِقالَها
تَسْتَصْرِخِينَ لَكِ السَّماءَ وقَدْ خَبَتْ ... وَطَوتْ بَشاشَةَ كُلِّ نَجْمٍ مُشْرِق
إِنْ خْلتها اسْتَمَعتْ إِلَيْكِ وَقَارَبَتْ ... أَلفَيْتها صَارَتْ كَلَحْدٍ ضَيَّقَ
يَا مَنْ هَرَبْتِ مِنَ الْقَضَاءِ وصَرفِهِ ... عَجَباً لِهارِبةٍ تَلُوذُ بِهارِبِ
إِمَّا هَوَى نَجْمٌ وَمَالَ لِضَعْفِهِ ... أَبْصَرتِ حَظَّكِ في الشُّعَاعِ الْغَارِبِ
أَسَفاً عَلَيْكِ وَأَنْتِ روحٌ حائرُ ... وَالكَونُ أَسْرارٌ يَضيقُ بها الحِجى
تَجْتَازُ عَابِرَةٌ وَيُسْرِعُ عَابِرُ ... وَتمُرُّ أَشْبَاحٌ يُوَارِيها الدُّجَى
في وَجْنَتَيْكِ تَوَهُّجٌ وَضِرَامُ ... وَبِمُقْلتيْكِ مَدَامِعٌ وَذُهُولُ
وَكَذَا نمُرُّ بِمِثْلِكِ الأيامُ ... مَجْهُولةً وَعَذَابُهَا مَجْهُولُ
وَلِيْتِ قبْلَ لِقَائِنا يَا جَنَّتِي ... لَمْ تَظْفَرِي مِنِّي بِقَوْلٍ مُسْعِدِ
وَكَعَادةِ الْحَظِّ الشَّقِّي وَعَادَتي ... أَقبَلْتُ بَعْدَ ذَهَابِ نَجْمِي الأوحَد
تَتَعَاقَبُ الأَقْدَارُ وَهْيَ مُسِيئَةٌ ... كَمْ عَقَّنَا لَيْلٌ وَخَانَ نَهَارُ!
وَكأَنما هَذَا الْقَضَاءُ خَطِيئَةٌ! ... وَكأَنَّ هَمْسَ نَسِيمِهِ اسْتِغْفَارُ
وَكأنهُ أَحْزَانُ قَوْمٍ ساروا ... هَذِى مآتِمُهُمْ وَثَمَّ ظِلالُها
عَفَتِ الْقُصُورُ وَظَلَتِ الأَسْوَارُ ... كَمَناحَةٍ جَمُدَتْ وَذَا تِمْثالُها!
غامَ السَّوَادُ عَلَى وُجُوهِ الدُّورِ ... وَسَرَى إِلَيَّ نَحِيبُهَا وَالأَدْمُعُ
وَكأَنّني فِي شاطِئٍ مَهْجُورٍ ... قَدْ فَارَقَتْه سَفِينَةٌ لا تَرْجِعُ
حَملَتْ لنا أَمَلاً فلَمَّا وَدَّعَتْ ... لَمْ يَبْقَ بَعدَ رَحِيلِها لِلنَّاظِرِ
إلاّ خَيَالُ سَعَادَةٍ قَدْ أَقْلَعَتْ ... وَوَدَاعُ أَحْبَابٍ وَدَمْعُ مُسَافِرِ

إبراهيم ناجي
إلى روح شقيقي إبراهيم
يا قبره!. . .
للآنسة الفاضلة فدوى طوقان

يا قبرَه، قُدَّستَ من قبرِ ... باهَيْتُ فيه منازلَ البدرِ
يا قبرَه، بالله ما فعلتْ ... أيدي البِلى بشبابه النضرِ
تلك البشاشة يا لرونقها ... هل غَيَّضَتْ في الترب والعَفْرِ
تلك الخلال ولستُ احصرها ... تالله قد جَلَّتْ عن الحصْرِ
لهفي، أباتتْ في التراب لَقًى ... يَفْنَى؟ معاذ خلاله العُزَّرِ
أني لأسْتَنْشِي لها عَبَقاً ... في الخافقيْنِ معطّرَ النَّشْرِ
أوَّاه لو تدري بمن ظفِرتْ ... أيدي البِلى! أوَّاه لو تدري!
ما بهجةُ الدنيا وزينتُها ... وأخي رهينُ صفائح القبرِ؟
وأطولَ أحزاني على سندٍ ... أعْدَدْتُهُ لنوائب الدَّهر
الموتُ مال به وخلَّفني ... لتفجُّع أشْقَى به عُمْري
كمدي أراه قاتلي، وإذا ... أنا لم أمُتْ كمداً فما عذري
ما بالُ ذكركَ بات لي شجناً ... يهتاجُني يا طيِّبَ الذكر
عهدي به بَرْداً على كَبِدي، ... اسفي، أيغدو لَذْعَةَ الجمر
ولقد أرومُ القولَ فيكَ ولي ... بحرٌ يمدُّ - أخي - بلا جزر
لكنني، والحزنُ معترضٌ ... سُدَّتْ عليَّ مسارح الفكر
الشعر صوَّحَ روضُه أسفاً ... وبكتْ عليكَ عرائسُ الشعر

يا طالما حَلِيَتْ ترائبُهَا ... بالدُّرِّ منك ومونق الزهر
واليوم، لا حَلْيٌ يزِّينها ... إلا لآلي الدمع إذْ يجري
مالي بدار الأنس - يا سَكني - ... انْسٌ وأنتَ بموحشٍ قَفْرِ
خلفتها دنيا تضيقُ على ... غرض الأبيِّ وغاية الحرِّ
تُسدى إلى غير الكرام يداً ... وعلى الكرام تعود بالخسر
سأظلُّ طول العمر رهن جوًى ... يغدو - أخي - ويروح في صدري
ولقد يعزِّيني على حَزَني ... أني، وان أَجِّلْتُ، في الإثرِ
(نابلس)
فدوى عبد الفتاح طوقان
رسالة العلم
السيجارة. . .
للأستاذ أحمد علي الشحات
في ظل الدخان المتصاعد من السيجارة كم من أفكار قد سبحت وأعصاب قد هدأت وأحلام قد صورت وأماني قد بعثت: هذه الدخينة وما حوت كانت في مبدأ الأمر ورقة من نبات اسمه نيكوتيانه وسمي بذلك نسبة لاسم السفير الفرنسي في أسبانيا جان نيكوت الذي أدخل التبغ إلى فرنسا لأول مرة كهدية للملكة كاترين دي مديشي، والتبغ يتبع من وجهة التقسيم النباتي العائلة الباذنجانية التي تحوي نباتات أخرى ذات أهمية مثل الطماطم والبطاطس والداتورة والسكران، وللأخيرين أهمية طبية في علاج الأمراض الصدرية التشنجية. وبهذه المناسبة نذكر أن السكران المصري أجود أنواعه في العالم، ولذلك يصدر إلى أوربا، كما أن نبات البلادونا الذي يستخرج منه الأتروبين المستعمل طبياً لتوسيع حدقة العيون من أقارب التبغ إذ يتبع نفس العائلة المذكورة وقد كانت الأرض الأولى التي نبت عليها التبغ واستعمل في التدخين هي أمريكا إذ وجدت غلايين في قبور أمريكية ترجع إلى ما قبل التاريخ، ومن أمريكا نقله إلى أسبانيا فرنسسكو فرناند مبعوث فيليب الثاني لدراسة حاصلات المكسيك عام 1558.
وكلمة التبغ يرادفها بالأجنبية والأصل الذي أخذت عنه هذه الكلمة غير معروف تماماً؛ فقد تكون قد أخذت عن اسم جزيرة توباجو إحدى جزر الهند الغربية، أو عن توباسكو في خليج المكسيك، أو عن اسم أداة وجد الأسبان أن الأمريكيين يستعملونها في التدخين، وهي عبارة عن أنبوبة تنتهي إلى فرعين تشبه حرف اسمها وكانوا يضعون الفرعين على فتحتي الأنف ويستنشقون منهما الدخان، وهذا هو المصدر المرجح. ومما يؤسف له أن تكون مصر من اكثر الدول استعمالاً للدخان؛ فلقد جاء في إحدى الإحصائيات أن متوسط نصيب الفرد في الدولة من الدخان بالأرطال كما يأتي:
الولايات المتحدة 5. 92
بريطانيا العظمى وايرلندا 2. 95
بلجيكا 4. 9
فرنسا 2. 9
مصر 4. 06
إيطاليا 2. 35
وقد يطرأ على ذهن القارئ أنه علاجاً، لهذه الحالة، تباح زراعة الدخان في مصر خصوصاً، وقد سبق أن كان يزرع إلى أن حرمت زراعته عام 1890، ولقد فكرت الهيئات المختلفة في ذلك وقامت وزارة الزراعة بتجربة زراعته في مناطق مختلفة، ولكن كان الناتج دائماً رديء النوع، فإذا قيل انه سيكون رخيص الثمن ويقبل الجمهور عليه، فمعنى ذلك أن الحكومة ستحرم من دخل كبير في الجمرك. فإذا قيل فلتفرض الحكومة على زراعته ضريبة عالية تعوض بها ما تفقده من الجمرك، كان الجواب انه بذلك سيرتفع ثمنه إلى أن يقارب الأصناف المستوردة من الخارج - وهي أجود منه نوعاً - فسيفضلها المستهلك، فإلى أن نستطيع استنبات أنواع جيدة ستظل الحال على ما هي عليه
ويتراوح طول نبات التبغ ما بين ست أو تسع أقدام، والأوراق منظمة على الساق بالتبادل، وليست لها أعناق فيما عدا الأوراق السفلى، فقد تكون لها أعناق قصيرة، وتغطي الساق والأوراق شعيرات ناعمة ذات غدد، وسطح النبات لزج لخروج إفرازات

سائلة، وينتهي الساق إلى أزهار لونها قرنفلي أو وردي وحبوب الثمار لونها بني وصغيرة جداً، حتى أن النبات الواحد قد ينتج منه مليون؛ وللأرض التي يزرع فيها الدخان تأثير كبير على لونه. فالأرض الطفلية الرطبة تنتج دخاناً لونه قاتماً: أحمر أو بني، والأرض الرملية تنتج دخاناً أصفر اللون، أو أحمر زاهياً ذا أوراق رقيقة، وكما حرم الدخان في أراضينا حرمت زراعته كذلك في أسبانيا، مع أنها أول بلد - كما ذكرنا - نقلت زراعته إليه من موطنه الأصلي (أمريكا)، ومن أسبانيا ادخل إلى فرنسا وإيطاليا عام 1560، وادخل في ظن الناس آنئذ أن له فوائد طبية هائلة، حتى كانوا يسمونه أي العشب الصحي، وسموه أيضاً أي التبغ الإلهي، كما سموه أيضاً أي عشب نيكوتيانا المقدس. ويفهم مما سبق شدة ولع الناس بالتبغ، حتى انتشر التدخين انتشاراً عظيماً هال من بيدهم الأمر من ملوك وباباوات وسلاطين وحكومات. فأصدرت نشرات تبين مدى الضرر من التدخين، وفرضت ضرائب باهظة، حتى أن إنجلترا رفعت الضريبة من بنسين على الرطل إلى ستة شلنات وعشرة بنسات، وقصرت زراعته على مساحة ضئيلة، ولكن الناس لم يكفوا عن التدخين، فلم تجد الحكومة الإنجليزية مناصاً من إصدار منشور يحرم زراعته تحريماً باتاً في إنجلترا وايرلندا؛ وبعد بضعة أعوام رفع الحظر على الأخيرة، ولكن سرعان ما أعيد ثانية، وكان ذلك عام 1831، إلى أن رفع الحظر عن إنجلترا وايرلندا عام 1910.

وهو يزرع الآن في الولايات المتحدة، وكوبا، والمكسيك، والبرازيل، وبارجواي، وجزر الهند الهولاندية، وبورنيو الشمالية، واستراليا، والهند، والصين، وبورما، والفيليبين، وإيران، والترنسفال، وروديسيا، واليونان، وتركيا، وهنغاريا، وألمانيا، وروسيا، وفرنسا، وهولاندة.

وتبذر بذوره في فبراير ومارس وأبريل في مشتل، على أن تكون التربة قد طهرت من آثار الحشرات بان تحرق عليها بعض المواد، فإذا ظهرت البادرة أحيطت بغلالات رقيقة، ويحافظ عليها من الريح، حتى إذا ما اكتمل طول النبات ست بوصات نقل إلى الحقل، وذلك في الفترة ما بين أبريل ويونية، ويكون بعد كل نبات عما يجاوره قدم ونصف إلى ثلاثة أقدام في صفوف بين كل صف وتاليه ثلاثة أو أربعة أقدام، ويتم نضج النبات حين يعلو الورقة اصفرار في اللون بعد أن كانت خضراء زاهية، كما تصبح هشة سهلة التكسر إذا أحنيت، ثم تجفف الأوراق صناعياً، وعملية التجفيف هذه تحتاج إلى دقة ملاحظة في درجات الحرارة المختلفة التي تتعرض لها الأوراق فيحوطها أولا جو تضبط حرارته فيما بين 80 و90 درجة بالمقياس الفهرنهيتي، أي بما يعادل 26. 6 - 33. 3 تقريباً بالمقياس المئوي، وذلك لمدة تتراوح ما بين 18 - 36 ساعة، ثم تزداد درجة الحرارة بفرق 5 - 10 درجات فهرنهيتية كل ساعتين إلى أن تصل إلى درجة 120ف ثم تثبت. أما السيقان فترفع حرارتها بعد ذلك إلى 160 - 175ف بفرق قدره 5 - 10 درجات كل ساعة، وتستغرق مثل هذه العملية ثلاثة أيام. وأما في الأقطار الشرقية كالهند وسيلان حيث الجو دافئ فيكتفي في التجفيف بحرارة الشمس الطبيعية، وفي التجفيف الصناعي لا بد من رفع درجات الحرارة بانتظام وهدوء حتى يحتفظ النبات باللون والنكهة المطلوبة؛ ثم تكبس الأوراق في صناديق أو تكوم في حفر دافئة رطبة، ويضغط عليها يومياً لمدة عشرة أيام، ويوالى الضغط بعد ذلك في فترات أطول لمدة ثلاثة شهور. فتحدث في هذه الفترة عملية اختمار، وتتخذ الأوراق شكل التبغ المعروف، ويكون في الأوراق في هذه المدة رائحة الكحول ويصبح لونها داكناً لامعاً

وللسماد المستعمل في زراعة الدخان تأثير هام في شكل الأوراق، فالسماد الذي يحوي نسبة عالية من الأزوت أو الفوسفات ينتج أوراقاً سميكة؛ بينما السماد الذي يحوي البوتاسيوم ينتج أوراقا ناعمة ذات نكهة طيبة، إلا أن نمو النبات يكون بطيئاً، والأوراق الخضراء في النبات تحوي نسبة عالية من الماء من 80 - 90 ? بينما الورقة حين تصبح معروضة للبيع في السوق تحوي 12 - 14 ?.

والمادة الكيميائية التي يمتاز بها التبغ هي مادة النكوتين وهي مادة شبه قلوية سامة، تختلف نسبتها باختلاف أصناف النبات، في نبات المساس أو شجرة الجرش أقل من 1 ? بينما في التبغ الناتج من جنوب أفريقية تتراوح بين 3 - 5 ? بينما في نبات الدخان البلدي تكون أعلى من ذلك. كذلك تختلف هذه النسبة باختلاف سمك الورقة، فكلما

غلظت كانت النسبة أعلى.
كذلك كلما دكن اللون وكلما ارتفع موقع الورقة على الساق، أو كلما كثر الأزوت في السماد، ووجد أنه كلما زادت نسبة النيكوتين ضعفت قوة الرائحة الملموسة في التبغ، وفي الدخان المتصاعد من التبغ وجدت كذلك النوشادر، وأول أكسيد الكربون، وسينور الأيدروجين، والأخيران من الغازات السامة، وكبريتور الإيدروجين، وحامض البوتريك، ومواد كيميائية أخرى لا ضرورة للاستطراد في ذكرها، وأما غاز أول أكسيد الكربون السام فتختلف نسبته باختلاف سرعة الاحتراق، ففي الدخان المتصاعد من السيجارة تتراوح نسبته بين 6 - 8 ? بينما في دخان الغليون ما بين 7 و - 14 و1 ?، وفي السيجار من 6 - 8 ?، كما تختلف نسبة الرماد المتخلف فهي اقلها في تبغ السجائر بينما هي أعلاها في الرماد المتخلف من السيجار والرماد يحتوي على عناصر مختلفة منها: البوتاسيوم، والكالسيوم، والمنجنيز، والحديد، والألومنيوم، والصوديوم ومواد كبريتية وفوسفورية، وهذه العناصر مرتبة ترتيباً تنازلياً حسب نسبتها، وقد يضاف إلى التبغ مواد تكسبه طعماً مقبولاً مثل السكر والعسل والجليسرين والصمغ ونبات السوس أو ربه.
أحمد علي الشحات
البريد الأدبي
جواب
جوابي عن قول الأديب الأمثل الأستاذ زكي مبارك هاهو ذا:
يا سيدي الصديق، قال تعالى: (أنا أنزلناه قرآناً عربياً)، وجاءت الكلمة (عجوز) للشيخة في التنزيل العزيز، كما تعلم.
وإن في علمك يا سيدي الأستاذ الكبير قول الشاعر:
عجوز علتْها كبْرة في ملاحةٍ ... أقاتلتي يا للرجال عجوز
ونحن نتبع (اللسان العربي) يا صديقي لا نبدع لغة
زادك الله بسطة وأزكى لك الخير
(وحيد)
إلى فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي
قرأت مقالك العظيم بالعدد (420) من مجلة الرسالة الغراء؛ فكان آية من آيات تلك المجلة الكريمة علينا، العاملة على إصلاح الأزهر وإعادة مجده السالف. وقد ملأني ذلك المقال أملاً في الإصلاح بعد يأس، وأفعمني رجاء فيه بعد قنوط؛ ولكني رجعت إلى نفسي بعد ذلك الأمل فقلت: أي ربي، هذا القائد فأين الجنود؟ وهذا رسول الإصلاح فأين الأصحاب والحواريون؟ وهذا الداعي إلى النهوض فأين المجيبون؟
بني المعاهد هبوا طال نومكم ... قد هيْأ الله هذا المصلح البطلا
ولقد وقفت يا سيدي كثيراً عند قولك عن الأستاذ الإمام: وتعلم القواعد في مختصرات رضيها ذلك العصر المظلم، لا تفهم إلا بشروح وحواش وصناعة خاصة. فقلت في نفسي: كيف ينظر أستاذنا المراغي إلى تلك المختصرات وشروحها وحواشيها تلك النظرة؟ وكيف يذكر العصر الذي رضيها باسم العصر المظلم؟ ثم يرضى بعد هذا أن تبقى في عهده الكريم كما كانت في ذلك العصر، إذ لا تزال لها المكانة الأولى في الأزهر، ولا تزال علومنا لا تدرس إلا فيها، ولا تزال قواعدها لا تؤخذ إلا منها
يا سيدي الأستاذ الأكبر إن تلك المختصرات وحواشيها وشروحها هي علة العلل في فساد
التعليم بالأزهر، وهي مصدر ذلك الجمود الذي حارب الأستاذ الإمام، وحال بينه وبين الوصول بالأزهر إلى الإصلاح المنشود، ثم يحول الآن بينك وبين الوصول إلى ذلك الإصلاح، وإن الفرصة سانحة بوجودك على رأس الأزهر للقضاء على تلك المختصرات وشروحها وحواشيها، وبين يديك طائفة صالحة من العلماء، تنتظر منك أن تدعو فتجيب، وأن تقول: حي على العمل فنعمل؛ ولا يمضي عليها إلا زمن قليل حتى تظهر لك بدل تلك المختصرات الميتة المظلمة كتباً حية مشرقة، تسري فيها روح الاجتهاد، وتظهر عليها آثار التجديد، وتخرج لك من الأزهر العلماء المجددين، والأئمة المجتهدين.
فهل لك يا سيدي الأستاذ الأكبر أن تبدأ بتلك الدعوة، وهل لك أن تصل بين تلك الطائفة وأمنيتها في العمل؟

عبد المتعال الصعيدي
في اللغة:
كان العلامة الدكتور زكي مبارك قد عدّى (حرم) بمن في بعض قصائده. فاعترض عليه بعض أدباء الشرق. فدافع عن هذه التعدية (بأنه قد يرى المعنى في بعض الأحايين لا يؤدي تأدية صحيحة إلا إذا عبر عنه بتلك الصورة)
وهو دفاع غير مقنع كما ترى
فكتبت في العدد 405 من (الرسالة) أقول: (إن الفعل (حرم) يتعدى بمن أيضاً، وعندي شاهد لذلك عثرت عليه في بعض مطالعاتي للاغاني)
وبينما كنت أجيل الطرف أمس في كناشتي، إذ أنا أمام هذا الشاهد، وهو للعباس بن الأحنف، قال:
أُحرم منكم بما أقول وقد ... نال به العاشقون مَنْ عشقوا
صِرت كأني ذُبالة نُصبتْ ... تضئ للناس وهي تحترق
ثم قلبت صفحات الكناشة، فلمحت مما كنت اختزنته فيها من (الأغاني)، تعبيرين يستوقفان النظر، لما أنهما كانا يظنان من توليد العامة في مصر أو في غيرهما من الشرق العربي.
وقد آثرت أن اعرضهما، كلاً في نصه الذي ورد فيه، ليستبين المعنى، ويتضح المقام:
1 - اخبرني عمي، قال: حدثنا الكراني. . . قال: انشد جرير قول عمر بن أبي ربيعة: سائلاً الربع. . . الأبيات
فقال جرير: (إن هذا الذي (ندور عليه) فأخطأناه وأصابه هذا القرشي)
فتدور عليه: نبحث عنه لنصل اليه، وهو نفس تعبير الناس عن هذا المعنى الآن، غير أنهم يضعفون عين الفعل.
2 - غنى إبراهيم الموصلي الرشيد صوتاً، فأمر له بألف دينار. فلما كان بعد سنين، خطر ببال اسحق ذلك الصوت، وذكر قصته، فغناه إياه؛ فقال الرشيد: (قد أخذ ثمنه أبوك مرة، فلا تطمع)؛ فقال اسحق: (فعجبت من قوله، ثم قلت له: يا سيدي، قد أخذ أبي منك مائتي ألف درهم، ما رأيتك ذكرت منها غير هذا الألف، (على بختي أنا. . .)
فهل كنت تظن أن هذه العبارة - على ابتذالها الآن - مما كان يتكلم به إسحاق ابن إبراهيم الموصلي الجليل القدر في حضرة الرشيد؟
(أ. ع)
1 - حول السواد
سأل الدكتور زكي مبارك في العدد الثامن عشر بعد المائة الرابعة من الرسالة: (هل كان السواد من علائم الرزانة في أوقات الاهتمام بعظائم الأمور. . .؟)
وأقول: إن الثياب السود كان لها شأن في الدهر الغابر أيام بني العباس (أنظر أول من لبس السواد: محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر)، وكان الناس يلبسونها إذا دخلوا على الخلفاء وكانوا في موكب واحتفال: شأنهم اليوم فيما يشاكل تلك الرسوم.
قال التنوخي في (نشوار المحاضرة): (حدث أبا الحسن ابن الفرات قال: فدخلنا في الليلة التي ولي فيها العباس بن الحسن الوزارة بعد موت القاسم بن عبيد الله.
فتشاغل الحسن بتقليب ثياب السواد وقد جاءوه بها ليختار منها ما يقطع له فيلبسه من غد في دخوله إلى الخليفة، وكان الرسم إذ ذاك ألا يصل أحد إلى الخليفة في يوم موكب إلا بسواد. . .) 8 - 91
وقال أيضاً: (. . . فإذا كان يوم موكب كانت الأقبية كلها سواداً، وإذا كان غير موكب فربما كانت بياضاً، وفي الأكثر من السواد) 8 - 12 (نشوار المحاضرة. مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق)
وكانت الخلفاء والشعراء تلبس السواد، والشواهد كثيرة منها ما قاله التنوخي في كتابه (الفرج بعد الشدة): (حدث عبيد الله بن عبد الله قال: كنت مع الرشيد بطوس لما ثقلت علته فجلس يوماً وعليه جبة خز سوداء، وفوقها دراعة خز اسود. . . وقلنسوة طويلة وعمامة خز سوداء) 2 - 53
وقال الجاحظ في (البيان والتبيين): (وكانت الشعراء تلبس الوشي والمقطعات والإرادية السود) 3 - 78
وكانوا يتخذون العمامة من خز اسود. ذكر الجاحظ في (أخلاق الملوك) أن إبراهيم بن

المهدي دخل على احمد بن أبي دؤاد وعليه مبطنة ملونة من احسن ثوب في الأرض وقد أعتم على رأسه رصافية بعمامة خز سوداء. لها طرفان يتدليان خلفه وأمامه، وفي يده عكازة آبنوس ملوح بذهب وفي إصبعه فص ياقوت. . .) 48

قال (أحمد زكي باشا): (والرصافية هيئة عمة على قلنسوة خاصة بالخليفة أو ولي عهده وذكر (بن خلكان) في (وفيات الأعيان) عند ترجمة (جعفر البرمكي) أن أكابر بني العباس كان لهم الحق باتخاذها أيضاً)

ويقول الدكتور مبارك: إن السواد اتخذ شعاراً للحزن لما يشيع في النفس من انقباض واستيحاش فِلمَ اتخذ أهل الأندلس البياض شعاراً، وهو يشيع في النفس الانشراح والصفاء؟

أوهام لغوية - 2

جاء في مقال الأستاذ محمد عبد الغني حسن.

أ - (كانت القاهرة طيلة حكم الفاطميين. . .) استعمل (طيلة) بمعنى (طول). وهي من أوهام الكتاب وليست بشيء. في (اللسان) (أطال الله طيلته أي عمره)، والصواب (طول وطوال) فتقول (كانت القاهرة طول حكم الفاطميين وطواله) وفي (الصحاح) و (الأساس) (والطوال بالفتح من قولك لا أكلمه طوال الدهر وطول الدهر بمعنى. . . هـ.

ب - وقال صاحب (الوضع الصحيح للإصلاح الاجتماعي) (تشوش أمانيه) ولم يسمع هذا الحرف في كلام فصيح صحيح. قال صاحب القاموس: (والتشويش والمشوش والتشوش كلها لحن. ووهم الجوهري. والصواب: التهويش والمهوش والتهوش. . .) وانظر الزمخشري أيضاً.

ووقال (سوف لا تكفي غلتها. . .) وهذا خطأ شائع عند المبتدئين والمتأدبين يستعملون (سوف لا) للنفي في المستقبل ولم يسمع هذا عن العرب. ولكنهم قالوا (لن) بدلاً عنها. فتقول (لن تكفي غلتها) (ولن افعل كذا. . .)

(دمشق)

صلاح الدين المنجد

بين العزوبة والزواج

قرأنا المقال الذي دبجته براعة الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد في الزواج، فوقع من أنفسنا موقعاً حسناً. ولما كان الشيء بالشيء يذكر فنرجو الأستاذ النابغة أن يسمح لنا أن نضيف إلى مقاله القيم رأياً نذكر إننا مررنا به في إحدى مطالعاتنا إلى عهد قريب.

يقول صاحب الرأي - واعتقادي انه طبيب مشهور - بأن الإحصائيات بسنين متوالية قد أثبتت إثباتاً حاسماً بأن نسبة عدد الوفيات بين المتزوجين أقل بكثير من نسبة عدد الوفيات بين العزاب في العام الواحد. ويستنتج - بعد أن يعرض جدولاً بإحصائياته - أن العزوبة متلفة للحياة اكثر مما تتلفها مهنة مجهدة مضنية. أو أكثر من مسكن قدر له أن يلقي بكل عنف في أقل الأماكن محافظة على الشروط الصحية. وبالرغم من أن للإحصائيات بعض الأخطاء، فإننا نستطيع أن نقول بكل اطمئنان (إن الحياة تكون أسعد جداً برفيق). وأن ما يمكن أن تتضمنه هذه الإحصائيات من الصحة يجب أن يكون حافزاً قوياً على الزواج. فإنه لمن السهل جداً أن يجد الباحث في حياة المتزوج أسباباً كثيرة تبعده عن المفاسد والأمراض وكل ما ينهك قواه وبالنتيجة يطيل في عمره ويمد أجل سعادته. فهلا يشعر العزاب بيننا بأن الحياة جديرة بأن نحياها بسرور فيقبلوا على الزواج مسرعين؟

هذا ما نرجوه مخلصين والسلام.

(الحصن - شرق الأردن)

خليل السالم

حول اللهجات العامية

أشكر للكاتب الألمعي الأستاذ محمد عبد الغني حسن ما وجهه إلي وإلى مقالاتي (في الاجتماع اللغوي) من عبارات الحمد والثناء؛ وقد وددت لو ألبي رغبته الكريمة، فأطيل الكلام على اللهجات العامية التي تفرعت من العربية، وأذكر ما كتبه المستشرقون في قواعد كل منها، لولا خشيتي أن بحوثاً دقيقة كهذه قد تجرد مقالاتي مما وصفها به من

أنها (لا ترهق القارئ ولا تمله)
وسأعرض لهذه البحوث وما إليها في كتاب لي في (فقه اللغة)، وهو الآن تحت الطبع، وآمل أن أفرغ منه قريباً إن شاء الله
علي عبد الواحد وافي
(الزاد الأخير)
قرأت في العدد الفائت (420) من (الرسالة) الغراء قصيدة بالعنوان المتقدم للأستاذ سيد قطب جاء في نهايتها:
واطلعي في قفار نفسي حياةً ... وإِذا ما دجا عالَمي أو مِضى لي
والشطر الثاني من البيت مكسور، ويكون صحيحاً لو أنه قال:
واطلعي في قفار نفسي حياةً ... وإِذا اسوَدَّ عالَمي أوْ مِضى لي
(القاهرة)
عبد الرحمن الخميسي
القصص
في وزارة الخارجية
عن الإنجليزية
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار
أكثر من بقي إلى اليوم من أصدقاء (ألفونس لاكور) لم يروه إلا في أخريات أيامه. وقد كان ألفونس منذ ثورة 1748 إلى أن قتل في حرب القرم في العام التالي يقضي كل أيامه في مشرب (كافيه دي بروفنس) في شارع (ريوسان هورنيه) حيث لا يجالسه ولا يحادثه أحد، لأن القصص التي كان يرويها هذا السياسي القديم مما لا يستطيع تصديقه إنسان. فإذا ما جلست إليه وسمعته يبعد ويشتط عن مدى ما تتصور أنه الحقيقة . . .
انتهزت أول فرصة لتحتج بها وتترك مجلسه، لكنني قد قرأت مذكرات خاصة لبعض السياسيين، فلم أستغرب ما نقلوه ألي من أخبار هذا السياسي القديم، فذهبت إليه وسمعته يتحدث عن مدة وجوده في مصر تحت قيادة كليبر، وكان مما قاله:
لقد تركت مصر على أثر قتل هذا القائد. ولست اكتم عنك أني كنت أوثر البقاء فيها،) وكنت أريد اعتناق الإسلام؛ وكان أول ما لفتني إليه وحببني فيه إباحته تعدد الزوجات، ولولا تحريمه الخمر ومجادلتي مع المفتي في شأنها مجادلة أقنعته بأنني لن اترك شربها لو أسلمت لأعلن المفتي إسلامي من زمن بعيد. فلما توفي الجنرال (كليبر) وجعلوا المسيو (منو) رئيساً لي، عولت على الاستقالة والإقامة في لندن حيث لا اشتغل بشيء غير ترجمة ما وقع عليه اختياري من الكتب الإسلامية، وفي مقدمتها القرآن. وكان المسيو أوتو سفير فرنسا في لندن يمهد للصلح بين إنكلترا وفرنسا بعد حرب استمرت عشرة اعوام، ولست احب التحدث عن كفايتي، ولكني أؤكد لك أن هذا السفير استعان بي، فأديت له خدمات جليلة: ذهبت معه إلى لندن مستقيلاً من الجيش، فكانت اسعد أيامي تلك التي قضيتها في لندن أترجم كتب الإسلام وأسعى في توطيد السلم بين الدولتين.
ولقد كادت تقضي على السفير وعلى أعوانه كثرة أعمالهم، لان الرجل الذي كنا نفاوضه من اصلب الرجال وهو وليم بت، وليس من السهل على ست دول مجتمعة أن تعامل رجلاً
كهذا، فكيف ونحن نفاوضه في صلح بعد حرب استمرت أعواماً عشرة؟
وكانت أعمالنا مساومة على أخذ أرض مقابل أرض والتنازل عن جزيرة في مقابل شبه جزيرة. وهل إذا فعلنا ذلك في فينيس تفعلون ذلك في سيراليونا؟ وهل إذا أعطينا مصر للسلطان، تعطوننا مدينة الكاب التي أخذتموها من حلفائنا الهولانديين؟
وفي يوم من الأيام عاد إلينا السفير متعباً منهوك القوى فأجلسناه واجتمعنا حوله وبعد أن تمالك قواه قال: (لقد كان أهم لعبة يريد أن يلعبها ضدنا الإنكليز خاصة بمركز مصر، وقد وجدت انه لا يزعجهم شيء كما يزعجهم وجودنا فيها لأنهم يخشون أن يجعلها نابليون قاعدة للهجوم على الهند، ولذلك كنا كلما توقف وليم بت في أمر من الأمور قلنا له: (إذا كان الأمر كذلك فنحن لا نستطيع أن نخلي مصر) فنراه في الحال قد رجع إلى صوابه، وبسبب مصر نلنا شروطاً باهرة في الصلح مع الإنكليز والحق إننا لم نخش الأساطيل والجيوش الإنكليزية وإنما نخشى دهاءهم السياسي، ويختلف

الإنكليز عنا في نقطة هامة هي أننا إذا حصلنا على جزء من الممتلكات فيما وراء البحار جلسنا مطمئنين في باريس ودبرنا التسهيلات التي نستطيع بها إخضاع ذلك الجزء لنا ونحن في أماكننا جاثمون. أما الإنكليزي فيحمل زوجته وأبناءه ويذهب إلى ذلك الجزء كائناً ما كان وصفه محاولاً جعله كأية بقعة من بلاد الإنكليز.

وأخيراً تم التفاهم على شروط المعاهدة وهنأت المسيو أوتو على نجاحه وكان شديد الفرح بذلك النجاح فلم يجلس مطمئناً إلينا بل أخذ يجري من غرفة إلى غرفة وهو يضحك ضحكاً عالياً وأنا جالس في ركن من غرفة الاستقبال انظر إليه كلما مر من أمامي. وفي وسط السهرة جاءت رسالة على يد رسول من باريس فنظر إليها السفير ولم يفتح فمه بحرف، بل خانته قوته ووقع على الأرض فجريت نحوه فاجتمعنا حوله وحملناه فنام على النمرقة وكان شكله يدل على أنه قد مات لولا أن نبضه كان لا يزال يدل على حياته.

والواقع أني اكره الفضول ولكن لما رأيت الإغماء على السفير لم استطع منع نفسي من النظر إلى الرسالة التي سببت ذلك فكدت اصعق أنا أيضاً عندما قرأتها. لكنه لم يغم علي، بل جلست في ركن من القاعة وأخذت ابكي. وهذه الرسالة تدل على أن جيوشنا أخلت مصر. وكانت المعاهدة لم توقع بعد ولا بد إذن من فسخها لأن الإنكليز ما عادوا في حاجة

إلى إخراجنا منها. لكننا فرنسيون فلا نهزم بسهولة. والإنكليز يظلموننا حين يرون أن إظهارنا للعواطف التي يستطيعون كتمانها يدل على إننا ضعفاء.

بعد قليل أفاق المسيو أوتو وقال: (ترى يا مسيو ألفونس أن هذا الإنكليزي وليم بت سيضحك مني عندما أطلب إليه توقيع المعاهدة). فخطر ببالي خاطر فجأني وقلت: (تشجع! كيف نجزم بان الإنكليز وصل إليهم هذا الخبر؟ ربما استطعنا الحصول على توقيعهم على المعاهدة قبل أن يعلموا بهذا الخبر)

فقفز المسيو أوتو من مكانه ومد نحوي ذراعيه وعانقني وقال: (لقد أنقذتني يا مسيو ألفونس! إن الخبر وصل إلى باريس عن طريق طولون، وسيصل متأخراً إلى إنكلترا عن طريق جبل طارق؛ فإذا نحن احتفظنا بالسر أمكننا الحصول على توقيعهم على المعاهدة

ولست أستطيع أن اصف حالتنا في اليوم التالي؛ فقد كانت ساعاته تمر بطيئة، حتى لقد انتقل المسيو أوتو من الشباب إلى الشيخوخة في ذلك اليوم. ولم أطق الصبر على الانتظار، فخرجت من المنزل مرتاداً كل طريق مقتحماً كل مكان. ولكنني لم اسمع أي خبر. ولما جاءت الساعة الثامنة وهي موعد توقيع المعاهدة اقترحت على المسيو أوتو أن يشرب زجاجة من الخمر قبل أن يذهب، لأني خشيت أن يستدل الإنكليز على الحقيقة من اصفرار وجهه واضطراب يده. ثم ركبت معه عربة من عربات السفارة، وكانت الخمر قد أنعشت قواه، فلما وصلنا إلى باب وزارة الخارجية بقيت في العربة ونزل وقلت له: (إذا تم التوقيع فاعطني إشارة. والى ذلك الحين سأمنع وصول أية رسالة إلى الوزير الإنكليزي)، فصافحني ووعدني بأن يدني شمعة من النافذة حتى أراها من الطريق، ثم تركت العربة تعود ووقفت قرب الوزارة فرأيت العربات مقبلة، وقلت في نفسي: لو جاء رسول من رئيس الوزارة إلى وزير الخارجية فإني أمنعه ولو بقتله، فان آلافاً من الجنود قد ماتت لتكسب مجد الحرب. وماذا إن شنقت وانتصرت بلادي. . .؟

ثم خطر ببالي خاطر فدعوت حوذياً وأعطيته جنيهاً وقلت له: (إذا ركبت عربتك مع أي إنسان فلا تتلق الأوامر منه بل مني، وأنزلني في شارع هاري ولا تترك الذي معي إلا في نادي ويتر في بروتون، وسأعطيك جنيهاً أخر)

فوافق الحوذي. وبعد دقائق جاء رسول وهم بدخول الوزارة فأمسكت بذراعه وقلت: (هل

أنت رسول إلى وزير الخارجية؟)

قال: (نعم). فقلت: (تعال معي فهو الآن عند السفير الفرنسي)

وكان كلامي بلهجة تأكيد لم يتردد الرسول في تصديقها. وركب معي في عربة الحوذي الذي اتفقت معه. ولكن السائق جرى بنا في الطريق الذي أرشدته إليه وهو يختلف عن الطريق المؤدي إلى السفارة. فصاح الراكب معي بالحوذي أن يقف وقال إن في

الأمر حيلة. ومنعته فاستغاث فكتمت أنفاسه فجلس هادئاً وأردت أن أطمئنه فقلت: (أني رجل شريف مثله، وان الأمر مراهنة فقط).
قال: (مراهنة! ألا تعلم أني أؤدي عمل الحكومة؟ أن عملك يستوجب العقاب)
فقلت: (هذا هو موضوع المراهنة)
قال: (إذاً فأنت مجنون)
عند ذلك نظرت إلى ساعتي فوجدت موعد التوقيع قد فات ولم أجد ضرورة للاستمرار في الخطة، فأوقفت العربة ونزلت راكضاً تاركاً من فيها تحت رحمة الحوذي. وركبت عربة أخرى إلى دار السفارة. ومن منعطف في الطريق راقبت ذلك الرسول يقبل نحوها. وبعد دقائق نزل المسيو أوتو فرحاً مستبشراً وقال لي أنه تم توقيع المعاهدة. ولكن بعد التوقيع وصلت رسالة إلى الوزير الإنكليزي بأن الفرنسيين أخلوا مصر. فقال ذلك الوزير أنه لو تقدمت الرسالة دقيقة لما أمكن توقيع المعاهدة، ولكن أمرها خرج من يده.
فهنأت السفير بانتصاره، وعدت وفكرت في أن مصادفات صغيرة كتأخير الخبر لحظة أو تقديمه لحظة يكون لها تأثير في مصائر الدول وأحوال السياسة العالمية. فآمنت بالقضاء والقدر ولم أعد أسخر من اعتقاد الشرقيين بهما. وعكفت بعد ذلك بأيمان صادق على استئناف ترجمة القران وسائر الكتب الإسلامية.
عبد اللطيف النشار
العدد 422 - بتاريخ: 04 - 08 - 1941
حول التعليم الالزامي
جنود مجهولون. . .
في ميدان الجهاد الثقافي مجهولون لا يشكرهم شاكر، ولا يكاد يذكرهم ذاكر: أولئك هم فرق الأساس الذين يمهدون الأرض للدفاع، ويُعدون الجيش للعمل، ويهيئون الشعب للنهوض. وهم الذين يعيشون على عشرات القروش وينفقون من ومضات أرواحهم ونبضات قلوبهم وذخائر قواهم، مايضمن للقادة يوم النصر أكاليل الغار وألقاب الفخار وأكياس الذهب. فإذا فشلت الخطط وطاشت المعارك ربأ الناس بالقادة عن التهم، ورموا هؤلاء المجهودين المجحودين بنقص الكفاية وسوء الدُّربة.
هؤلاء الجنود المجهولون هم المعلمون الإلزاميون! كتب الله عليهم جهاد الأمية ونشر المعرفة بين الطبقات الفقيرة بالقدر الذي يساعد الإنسان على استكمال حظه من العلم الضروري، فأبلى هؤلاء الجنود الصابرون أحسن البلاء في معركة الأمية خمسة عشر عاماً؛ ثم أسفر هذا العراك الطويل الثقيل عن بقاء هذه الأمية منيعة الحصون شديدة البأس؛ كأنما كانت رحا هذه الحرب تدور على فراغ!.
دهش الكتاب والنواب لهذه النتيجة الموئسة، وراحوا كدأبهم يلتمسون العلل في إداد المعلم الإلزامي وكفايته وخبرته، ولو هداهم النظر الصادق لالتمسوها في فساد الخطط وسوء التوجيه واضطراب النظام وانبهام الغرض.
ما ذنب المعلم إذا أخفق نظام لم يضعه، ومنهاج لم يَشْرَعه، وكتاب لم يؤلفه؟ هل هو إلا جندي كسائر الجنود يكون أداة للنصر أو للهزيمة على حسب ما يصدر عن القيادة من حكمة أو أفن؟.
لقد فشل التعليم الثانوي فشلاً تضرب به الأمثال للعبرة؛ فهل يجوز في منطق العقل أن تخرج من حسابه الخبراء والمراقبين والمفتشين واللجان والتقارير والتجارب؛ ثم نحصر علته في المعلمين وهم من حيث الخبرة والمران بنجوة عن الشك؟.
نحن لا نزعم أن المعلمين منزهون عن صفة النقص، ولا مبرأون من تبعة الفشل، فإنهم ناس كسائر الناس، فيهم الضعيف بفطرته والقاصر في أداته؛ ولكنا نزعم أن نصيبهم من إخفاق التعليم أقل الأنصبة، وأن حظ الإلزاميين من هذا النصيب أضعف الحظوظ. ولو
جاز لنا أن نوازن بين طوائف المعلمين في الاستعداد والاجتهاد لجاء الإلزاميون في أصحاب الكفة الراجحة؛ ذلك لأنهم بحكم تنشئتهم وإعدادهم يشعرون بالضعف والتخلف، فهم لا ينفكون يستفيدون ويستزيدون ما أمكنتهم الوسيلة والقدرة. ومن النادر أن تجد معلماً إلزامياً لا يقتني الكتاب المفيد ولا يشترك في المجلة النافعة. وأشهد أن ثمانين في المائة منهم مشتركون في ((الرسالة))، وإنهم ليقتطعون بدل

اشتراكها من قوتهم النزرْ؛ ولكنك تجد الكثرة الكاثرة من حملة الشهادات والمذبات من المعلمين الثانويين والجامعيين لا يقرأون غير الكتب المقررة وما يتصل بها من قريب، ثم لا يجدون في أنفسهم حاجة إلى مطالعة كتاب أو قراءة مجلة.

المعلم الإلزامي والطالب الأزهري هما الشعاع المنبعث من نور الدين والعلم إلى القرية، ولولاهما لتدجى على القرى ظلام من الضلال والجهل لا يمتد فيه بصر ولا بصيرة. ذلك لأنهما يمايشان سواد الشعب وعامته من الزراع والصناع، فيوقظان فيهم العقل، ويحييان الضمير، ويعقدان الصلة الاجتماعية بين حياة المدينة وحياة القرية. ولو كان للتوفيق كرسي في الحكومة لاتخذوا من التعليم الإلزامي وحدة ثقافية تبرئ الفلاحين أطفالاً ورجالاً من الجهالة والمرض. كان من الممكن أن تعتمد وزارة المعارف على المعلمين الإلزاميين في تعليم الأطفال بالنهار، وأن تعتمد وزارة الشؤون الاجتماعية عليهم في تعليم الرجال بالليل؛ وإذن لا تنقضي بضعة أعوام حتى لاتجد في بلد الأميين والحفاة مَنْ ليس في يده كتاب ولا في رجله نعل. ولكن وزارة المعارف وضعت المعلم الإلزامي تحت الدرجة الأولى من السلم ثم نظرت إلى أعلى وتركته يكابد العمل الكثير بالأجر القليل: فهو يعطي ثمانية وأربعين درساً في الأسبوع، ويأخذ أربعة جنيهات أو خمسة في الشهر؛ وهو مع ذلك موضع البركة في تبكير الزواج وتكثير النسل، وعبدُ الثقافة بنشدان المعرفة وإدمان القراءة. فبالله ربك كيف يحسن عمله هذا البائس ونهاره مكدودٌ بعمل المدرسة وليله مجهودٌ بهم البيت؟ وكيف يقضي حياته هذا المسكين ومظهره مظهر الأمير وعمله عمل الأسير وأجره أجر الخادم؟ على أن أعجب ما في الأمر أن يؤدي عمله كاملاً على الوجه الذي رسم له، ويقضي حياته كريمة على النحو الذي يليق به، ويكمل نفسه بالاطلاع والدرس حتى نبه من أفراده كثيرون في التعليم والصحافة والآداب!.

ذلك ما صنعت به وزارة المعارف أو وزارة الداخلية لا أدري؛ أما وزارة الشؤون الاجتماعية فلا تزال في ظلام الحيرة تتحسس بيديها المعوقتين طريق الإصلاح. ولقد دللناها في بضع مقالات كتبناها، على طريق الاستفادة من المعلم الإلزامي في محاربة الجهالة، فأبت إلا أن تحارب الأمية بنفسها فأصدرت مجل، وأن تصلح فساد المجتمع برأيها فحشدت الأطفال المتشردين في مزارع (السرو) الأميرية، ثم سلطت عليهم قسوة الجند وشدة النظام فاستفحل في نفوسهم الشر، وعصف في رؤوسهم التمرد، وتسللوا لواذاً في البلاد، حتى لم يبق من الأطفال الأربعمائة إلا أربعون يكلفون الحكومة من الجهد والنفقة مالا رادّة فيه ولا عوض منه.

كنا نود أن نجيل رأي في مشكلة التعليم الإلزامي ليستضيء أولو الأمر بخبرة المحنكين من الكتاب، ولكنا نعتقد أن الرأي في هذا الموضوع لا يصيب إلا إذا كان التعليم في مختلف درجاته وغاياته سياسة واضحة تنفذ، ونظام مستقر يتَّبع. فبحسبنا اليوم أن تعطف وزارة المعارف على هؤلاء الجنود المجهولين الذين عملوا وأحسنوا؛ وإنهم ليستطيعون أن يزيدونا عملاً وإحساناً، إذا أولاهم معالي الوزير جزاء وشكراناً.

((المنصورة))

احمد حسن الزيات

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

بعض ما علمتني الأيام - الشيخ عباس الجمل - فكاهة سياسية - كاريكاتور طريف - جناية الكتابة على الشعر والخطابة - كيف نعامل رجال الوعظ والارشاد.

بعض ما علمتني الأيام

تلقيت عن الأيام دروساً تفوق العدّ والإحصاء، وإن كنت قليل الانتفاع بتلك الدروس. . . وهل ينتفع جميع الناس بما يتعلمون؟ لو كان ذلك لصرتُ أحكم الحكماء، فلي من الدهر في كل يوم درسٌ جديد، مع الوعي الصحيح لما أسمع من دروس الزمان. ولكني مع ذلك انتفعت بدرسٍ واحد، وأحب أن ينتفع به قرائي، فما هذا الدرس؟.

هو الخوف الشديد من أحاديث المجالس، فأنا لا أتكلم أبداً في الشؤون الدينية أو السياسية أو الاجتماعية حين أقابل الناس أو حين أزور الأندية في بعض الأحايين، لأني أعرف أن التزيد والتحريف صارا من عيوب بني آدم في هذه الأيام، ولا يجوز ائتمان مخلوقات هذا العصر على مكنون الأفكار والآراء، لأن حظهم من صدق الرواية صار

غاية في الغثائة والهزال.
وذلك هو السر في إقلالي من غشيان الأندية والاتصال بالناس، حتى جاز اتهامي بالنقرة من بني آدم وإيثار العزلة والانفراد، مع أني في حقيقة الأمر رجلٌ ألوف، ولا أختار العزلة إلا طلباً للسلامة مع التزايد والافتراء.
فما العبرة من هذا الدرس؟ وما الذي أنصح به قرائي؟
أنا أرى أن نخاطب الناس عن طريق الجرائد والمجلات، أو عن طريق المؤلفات، فلا نعلن رأياً إلا وهو نص مكتوب بعجز عن تحريفه المفترون، وإلا فمن حق كل مخلوق أن يتزيد علينا كيف شاء.
إن النصوص المكتوبة لا تسلم من تحريف المغرضين، فكيف يسلم الكلام المرسل في أحد المجالس وفيها أوشاب لا تعيش إلا من الإفك والإرجاف؟.
إن التحريف الذي ابتُليتْ به آرائي المدوَّنة في مقالاتي ومؤلفاتي قد آذاني، فكيف يكون حالي لو أرسلت نفسي على سجيتها وحدثت الناس بما أراه في الأدب والحياة؟.
من الجريمة أن نحدّث الناس في شؤون يُخاف عليها من التحريف، ومن الجريمة أن يكون اللسان وحده أداة التعبير وهو لا يرسل غير لفظٍ وصفة القدماء بأنه عَرَضٌ سيَّال؟.
يجب أن يكون القلم أداة التعبير في دقائق الشؤون، لأنه يحدد أغراضنا تحديداً يمكن الاحتكام إليه عند اشتجار الخلاف.
أَقِلّوا من أحاديث المجالس، يا قرائي، لتسلموا من أكاذيب المفترين، فما وثق أحد بالناس في غير حذر ولا احتراس إلا سقوه الصاب والعلقم، وأكرهوه على الوقوع في الخطيئة الدميمة وهي اليأس من الثقة بإخوان الزمان.
ما الموجب للثرثرة في الأندية والمجالس وعندنا من الجرائد والمجلات ما يتسع لنشر ما نريد من الأفكار والآراء؟.
إرحموا أنفسكم من أوزار التحريف لما يصدُر عنكم، واعرفوا جيداً أن المبادئ لا تخدَم بالقيل والقال بين أجواف الجُدران، وإنما تخدَم المبادئ بالقول الصريح الذي يعجز عن تحريفه أصحاب الأغراض المِراض.
ثم ماذا؟.
ثم أوصيكم بأن تكونوا رقباء على أنفسكم، فلا تقولوا في السر ما تعجزون عن نشره في العلانية، وما أوصيكم إلا بما أوصي به نفسي، فأنا لا أقول كلمة في مجلسٍ خاصْ إلا إذا عرفت أني أملك نشرها على الجمهور بلا تهيب ولا إشفاق، ولو شئتُ لقلت بدون أن يكذّبني أحد المكابرين. إن لساني في غاية من التلطف والترافق، وإن اشتهر قلمي بالشطط والجموح، وما كان ذلك كذلك إلا لأني أكره المواربة وأبغض الاستخفاء، وما حقد عليَّ حاقدٌ إلا بما قلت فيه بكلام منشور في الجرائد والمجلات يملك الرد عليه حين يشاء. أما إيذاء الناس في السر فلا أستطيعه أبداً لأن الله تباركت أسماؤه عصمني من رذيلة الاغتياب، فله الحمد وعليه الثناء.
الشيخ عباس الجمل
من أفظع الشواهد على أن أدباء مصر لا يعطف بعضهم على بعض، ولا يبكي أحدهم لكربة أخيه، ولا يسأل عنه حين يغيب، ولا يلتفت إليه إلا حين يسمع عَرَضاً أنه صار إلى بؤس أو نعيم. . . من افظع الشواهد على انعدام خلة الوفاء بين الأدباء المصريين أنهم لم
يسمعوا أن الأستاذ عباس الجمل يعاني علة دامية - سينجو منها بإذن الله - وأنه كان يجب عليهم أن يواسوه في جميع الجرائد والمجلات بما يدفع عنه العلة والعناء؛ فقد يكون في الكلمة الطيبة ما يزوِّد الجسم بقوة المناعة ويقلّم أظفار الداء. ولكن أين من يفهم هذه المعاني؟!.
فجعُ الشيخ بغَرَق ابنه (طاهر) وهو يقارع أمواج البحرين في دمياط فما تحركت يراعة أديب لمواساته في ذلك الرزء الجليل!.
وبُتِرتْ ساق الشيخ عباس منذ أسابيع، فما بكى شاعر، لا تأثر كاتب لمصيبة الأديب الذي كانت مشيته في شوارع القاهرة أرشق من مشية الأسد المختال!.
عباس الجمل في أحزان وكروب منذ خمس سنين، فأين الكاتب الذي واساه؟ وأين الشاعر الذي جعل بلاءه بالزمان موضوعاً لنشيدٍ جميل يصوِّر بلاء الرجال بالزمان!!.

شفاك الله يا صديقي، وشفي من أجلك كل عليل!!.
فكاهة سياسية
كان الحزب السعدي دعا إلى إعلان الحرب على الطليان والألمان، وهي الدعوة التي استوجبت إلقاء أطول خطبة سياسية في العهد الجديد، وهي خطبة الدكتور أحمد ماهر باشا في مجلس النواب، فقد استغرقت ست ساعات، على نحو ما كانت تستغرق خطب سُبحان وهو يَهْدر بين السِّماطين!.
ولكن أنصار الحزب السعدي ليسوا جميعاً أعضاء في مجلس النواب، فكان الخطيب يشرح لسائر الأنصار وجاهة القول بإعلان الحرب، فكان الخطيب المختار هو الشيخ عباس الجمل. . . وما كاد الشيخ يعتلي الخطابة، حتى عوَت صَفارة الإنذار فأجَّل خطبته إلى أسبوع مُقبل، ودار الأسبوع وجاء الشيخ يُلقي خطبته، فعوَت صَفارة الإنذار من جديد!.
وهنا قالت جريدة المصري: سترى كيف تُلاحقك الغارات يا شيخ عباس!.
فأجابت جريدة الدستور: إن صحّ هذا النذير، ففي مصر طابور خامس!.
كاريكاتور ظريف
نبغت الصحف المصرية في إبداع الصور الكاريكاتورية برغم ما يقع فيها أحياناً من سخافات؛ ومن أبدع ما رأيت صورة نشرتها مجلة (الشعلة) لميزان يحمله رجل معصوب العينين باسم (الرأي العام)، وقد رجحت كفة الوفديين على السعديين، فابتهج النحاس باشا وقال: مارأيك يا ماهر باشا؟.
فأجاب الدكتور ماهر: وما قيمة هذا الميزان وحامله رجلٌ من حزبك؟!.
وإذا كان الرأي العام من حزب الوفد فقد انحل الإشكال!.
في مصر اليوم أدبٌ سياسيّ، فأين من يقيِّد الأوابد من ذلك الأدب الطريف؟.
جناية الكتابة على الشعر والخطابة
هي سجعة ذكرتني بالحوار المعروف:
- أجمل السجع، ما خف على السمع.
- مثل ماذا؟.
- مثل هذا!.
ولكن كيف تجني الكتابة، على الشعر والخطابة؟.
تأمل هذا التمهيد:
إذا كان عند أحد جيرانك طفل أخرس فلا تسمح لأطفالك بأن يلعبوا مع ذلك الطفل، لأن طريقته في التفاهم ستروضهم على التعبير بالإشارات، وعندئذ يقل فيهم الشوق إلى التعبير بالكلام، فيحرمون أفضل النطق وهو أظهر الخصائص الإنسانية.
وإذا رأيت الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني يطيل القول في انصرافه عن قرض الشعر فلا تصدق أنه حرم الشاعرية، وإنما يرجع زهده في الشعر إلى أنه أكثر من التعبير عن أغراضه بالإشارة، ففترت رغبته في التعبير بالقصيد، والمواهب يجني بعضها على بعض.
وأقوى البراهين عندي على أن الشريف الرضي ليس المنشئ لكتاب (نهج البلاغة) هو إمعان الشريف في التعبير عن أغراضه بالشعر، فديوانه من حيث الكم يزيد عن ديوان المتنبي بألوف من الأبيات الجياد، وما أثر من الرسائل النثرية للشريف لا يشهد بأنه كان يشتهي التعبير عن ذات نفسه بالإنشاء.
وكما تجني الكتابة على الشاعر تجني على الخطيب: لأن أعظم أسباب الإجادة في احد هذه
الفنون هو الشوق إلى التعبير بإحدى أدوات هذه الفنون، ومتى عبّر المفكر عن نفسه بالكتابة فقدَ الرغبة في التعبير بطريقة ثانية وثالثة فصار أزهد الناس في مقامات الخطباء والشعراء.
ماذا أريد أن أقول؟
أنا أريد الاعتذار عن نفسي، فقد عاب على قوم أن أنصرف عن الشعر والخطابة، وعدوني في هذين الفنين من المتخلفين، ولم أكن كذلك فيما سلف من الأيام، فلي ديوان شعر، وكنت في الثورة المصرية من أعلام الخطباء، ولم أزهد في هذين الفنين إلا بعد اشتغالي بالتدريس والكتابة والتأليف، فألِفْتُ التعبير بأسلوب يغاير أسلوب

الشاعر وأسلوب الخطيب.
وإذن فما هذا التحدي الذي يواجهني به جماعة من أدباء الإسكندرية؟.
قال قائل منهم: إن الرجل الذي ودع بغداد بقصيدة بلغت 111 بيت هو الرجل الذي بخل على الإسكندرية الجريحة ببيت من الشعر أو بيتين!؟.
هو ذلك يا نَدامي (الثغر الجميل).
ولو أني فكرتُ في مواساة الإسكندرية بالشعر قبل أن أواسيها بالنثر لأطلت فيها القصيد، ولكني عبرت عن أحزاني بالإنشاء، فلم يبق لقرض الشعر محال. . . ألم أقل لكم: إن المواهب يجني بعضها على بعض؟.
وهل كان النثر الفني إلا شعراً تحرر من القوافي والأوزان؟.
قولوا ما شئتم، فلن تهمني الألقاب الأدبية، وإنما يهمني أن أصدق فيما يصدر عن قلمي، بغض النظر عن نوع الأداء.
كيف نعامل رجال الوعظ والارشاد
إلى الباحث المفضال (ا. ا) أوجه القول:
جاء في خطابك أن واعظ مركز. . . . آنذاك بغير حق أمام أهل قريتك، وفي بيت الله بعد صلاة الجمعة، بألفاظ لا يليق صدورها عن الوعاظ.
وفهمت من خطابك أن النزاع نشأ من الخلاف حول مسألة لم تتفق فيها أقوال الفقهاء.
ومن حقي أن أوجه إليك هذه الأسئلة:
هل ترى من الخير أن نطالب الوعاظ بالخوض في الدقائق الفقيهة أمام جماهير لا يصح تعريضها لمشكلات تلك الدقائق؟.
وهل ترى أن الوعاظ يعيَّنون لإرشاد من يكون في مثل علمك واطلاعك؟.
انظر في هذه الأسئلة جيداً لتعفيني من نشر الكلمة التي تريد أن أوجهها باسمك إلى علماء الأزهر الشريف، فما أحب أن أشجعك على مجادلة الوعاظ، وهم قومٌ لا تباح لهم مجادلة الناس، وإلا كثرت الشُّبه وانعدام الصفاء بين أهالي البلاد.
وأنا بعد هذا أوصي نفسي وأوصيك بالنظر في باب الرياء من كتاب الإحياء، فإني أخشى أن نقع في مهلكات، باسم الغيرة على الدين، وهوَى النفس له مسالك لا يفطن لها الرجال إلا في أندر الأحيان.
لَطَفَ الله بي وبك، وهداني وهداك.
زكي مبارك
من أدب المدرسة
أستاذ
للأستاذ علي الطنطاوي
لما بلغنا قرية (صاربتا) كان الصبح يتنفس، فطرقنا أول باب لقيناه، فلما فتح لنا واحتوانا (المنزل) المعد للضيفان، سقطنا من الكلال والإعياء كالقتلى، فلم نلبث أن غرقنا في لجة الكرى. ولا عجب أنيبلغ منا التعب هذا المبلغ وقد سرنا الليل كله على الأقدام نصعد جبلاً ثم نهبط وادياً ثم نتسلق الصخر. حتى أدركنا هذه القرية التي فرت من العمران، وتغلغلت في الأودية المقفرة من لبنان الشرقي حتى وجدت هذه الذروة التي لا يضارعها شيء في عزلتها وعلوها وضياعها بين الأرض والسماء فاستقرت عليها.
ولما أفقنا ورأينا احتفاء القوم بنا، وعجبهم من سُرانا إليهم وقدومنا عليهم، سألناهم وضربنا معهم في شعاب الأحاديث، فعلمنا أنه لم ينزل بلدهم (أعني أنه لم يصعد إليها. . .) غريب عنها قبلنا، وكانوا يكلموننا على تخوف وحذر، فلما انتسبنا إليهم، وعرفناهم بنفوسنا داخلهم شيء من الاطمئنان. غير أنهم لم يكونوا يجيبون عن أسئلتنا وإنما يحيلونها على الأستاذ. . .) ورأيتهم يذكرون الأستاذ كما تذكر الرعية الملك المحبوب، تبرق عيونهم حباً، وتخشع أصواتهم احتراماً، فكنت أعجب أن يكون لمعلم القرية، وهو لعمري أستاذهم مثل هذه المنزلة، وعهدنا بمعلمي القرى أن الجندي أكبر في عيون الفلاحين منهم. وقلت: ألا تدعون لنا هذه الأستاذ المحترم حتى نراه؟ فلما سمعوا هذه الكلمة اضطربوا وتلفتوا يتبادلون النظرات، وعراهم مثل ما يعرو المؤمنين سمعوا كلمة الكفر. وكانت سكتة طالت، فأعدت السؤال، فقال صاحب المنزل وهو يبذل أكبر

الجهد حتى يمسك غضبه فلا يؤذي ضيفه: إن الأستاذ يزار ولا يزور. فلما سمعت ذلك اطمأننت وقلت: لا بأس، إنا نتشرف بزيارته، ولو علمت عادته ما سألتكم دعوته، فقوموا بنا إليه. فقاموا وقد سرى عنهم بعض الذي وجدوا، ومشينا نصعد في طرقات القرية الضيقة الملتوية، وأنا أتصور هذا (الأستاذ) بعين الوهم فلا أراه إلا مثل من عرفت من معلمي الصبيان، غير أن له فيما يبدو دهاء ومكراً، مَخرَق بهما على الفلاحين وموه عليهم حتى حسبوه شيئاً وما هو بشيء.

حتى إذا بلغنا ذروة الجبل وجدنا عليها بيتاً هو أعلى بيت في القرية و (العين) أسفل منه،

وحوله حديقة لطيفة، فدخلنا البيت فإذا فيه فرش نظيف، وأثاث من أثاث المدن، وخزانة كتب بالقرب منها مكتب صغير عليه أوراق وأقلام، وكتاب مفتوح عرفت من نظرة واحدة أ، هـ (الإحياء) للغزالي، ف والله ما أظن أني عجبت من شيء عجبي منه. ولبثنا هنية؛ ثم دخل علينا شيخ أبيض الحية، قد وضع على كتفيه عباءة ستر بها ثوباً من ثياب التفضل أبيض نظيفاً، فرحب بنا بلهجة فصيحة وانطلق يحدثنا. أما الفلاحون فقد جلسوا عند الباب لم يقتربوا من الشيخ إجلالاً له، وسكنوا كأن على رؤوسهم الطير.

كان الشيخ يتكلم وكنت أحدّ النظر إليه وأكدّ ذهني لأذكر أي رأيت هذا الوجه. فلما طال ذلك مني ولحظة قال: مالك يا بني؟ قلت: أظن أني أعرفك يا سيدي. فضحك وقال: وأنا أعرفك يا بني، أما كنت في المدرسة التجارية سنة 1918؟ فتأملته ورأيت كأني رجعت طفلاً أنظر من وراء ثلاث وعشرين سنة إلى أستاذي الجليل الشيخ (عبد الواسع)، فلم أملك أن صحت: أستاذي! ووقعت على يديه أقبلهما، وأقبل يمسح على ظهري ويقبل جبيني، وقد استعبر كل من حضر.

أستاذي الذي ترك المدرسة وأحيل إلى المعاش منذ عشرين عاما، وانقطعت أخباره عنا وحسبناه مات، لا يزال حياً؟ ويقيم في قرية (صاربتا) الضائعة بين السماء والأرض! إن هذا لعجب.

قلت وقد سكن المجلس بعد أن حركته هذه المفاجأة الغريبة: وكيف عرفتني ياسيدي الأستاذ، وقد غيرتني الأيام؟ قال: ما تغيرت عليّ، ولقد ذكرتك من أول نظرة. ألم تكن في الصف الخامس حينما انتهت الحرب، وخرج الأتراك من الشام ليدخلها الشريف؟ ألم تكن في المقعد الأول حيال الشباك، وإلى جانبك (سرِّى) أين هو (سري) الآن؟ قلت: لا أدري ياسيدي، ولم ألقه أبداً بعد تلك السنة. قال الشيخ مترفقاً ناصحاً بلهجته التي كان يخاطبني بها وأنا صغير (لم أنسها) قال: ولم يا بنيّ؟ لماذا لا تصل إخوان المدرسة؟ أما علمتك الحياة أن صداقة المدرسة خير صداقة وأمتنها؟ أصلحك الله يا ولدي.

وأطرق الشيخ يفكر، ثم قال: هل علمت يا ولدي أن المعلم يتمنى ألا يكبر تلاميذه أبداً، وأنه لا يتصورهم إلا كما عرفهم أول مرة ولو صاروا رجالاً؟ أنا لا أرى فيك الآن إلاَّ ذلك الصبي الذي كان في المقهد الأول حيال الشباك. فقدر المحنة التي يصاب بها المعلم حين يرأسه أحد تلاميذه. أتعرف عدنان؟.

قلت: ومن عدنان؟ قال: لا. لم يكن معكم، هو أصغر منكم. عدنان هذا كان من أصغر تلاميذي وأحبهم إليّ. لقد جعلته الأيام ناظر المدرسة التي كنت فيها، فتصوره وهو يدعوني إليه ويستقبلني قاعداً، ويأمرني بأمره. ولقد نالني مرة بسوء لأني لم أوفه ما يراه حقه من الاحترام. وكيف أحترمه يا ولدي وأنا لا أقدر أن أرى على كرسيه إلا عدنان الطفل ذا الشعر الذهبي؟ كيف أحترمه؟ أأحترم ولدي! سامحه الله. سامحه الله لقد آلمني. وآذاني.

إن المعلم يحس بوخزة في كبده إذا أعرض عنه تلاميذه أو أنكروا أو ترفعوا عليه. كأن أولئك الأطفال هم الذين ترفعوا عليه. لا يعلم المسكين أن الطفل لا يبقى أبد الدهر طفلاً. . . لا. لا يتخيل ذلك أبداً. . .

وسكت الشيخ قليلاً ثم رجع يقول: وكنت ترفع أصبعك دائماً، أرأيت؟ أني لم أنسك. وكيف ينسى المعلم تلاميذه وهم بعض ذكرياته، والذكريات هي الحياة.

ثم سألني: وماذا تشتغل أنت الآن؟ فضحكت وقلت: معلم.

قال: آه. . . مسكين. . . لماذا اخترت هذه المهنة يا ولدي؟ قلت: أني سأتركها يا

سيدي؛ قال: وتظن أنك تستطيع؟ إن تلاميذي الذي أحببتهم ومنحتهم قلبي، قد أنكروني. . . لم أعد أخطر لهم على بال. لم يزرني منهم أحد. . . لقد رأيت منهم ألوان الجحود، ولكني لا أزال أحبهم، وأتمنى لو أستطيع أن أضمهم إلى صدري. . . آه. . . كم يتألم الأب إذا رأى ولده يعرض عنه وينكره ويمر كأنه لا يعرفه؟ لم ألق منهم خيراً ومع ذلك فأنا أحب أن أنشئ غيرهم، وأن أصب البقية الباقية من روحي وحياتي في نفوس أطفال جدد، أعلم أنهم لن يكونوا خيراً من أولئك، ولكن هذه هي آفة المهنة. . . إنها مهنة ليس فيها إلا الألم. . . ولكن صاحبه يستمرئه ويجزع لفقده كصاحب (الكوكائين) يأخذه وهو يأخذ حياته، فإذا افتقده حنّ إليه. . . أليس هذا من الغرائب؟.

إني أمر على مدرسة القرية، فأسمع الطلاب يرددون درساً، أو يرتلون أنشودة، فيخفق قلبي في صدري، وأحسد هذا المعلم الذي أخذ مني أولادي. . . لا تعجب يا ولدي. . . سل الفلاح الذي يشق الأرض ويغرس فيها البذر وينتظر النبتة الضعيفة. . . فإذا ظهرت تعهدها بالسقي والعناية، وقاس طولها يوماً بعد يوم، فلا تنمو أنملة إلا وضع في هذه الأنملة

أمله ورجاءه وخوفه وإشفاقه وأحاطها بعواطفه، وصب فيها من ماء حياته. . . حتى إذا نما النبت واستطال، وظلته غصونه، وتدلى من حوله زهرة، وأينع ثمره، اضطر إلى بيعه. . . فما هي إلا عشية أو ضحاها حتى يراه في يد غير يده. . . سَلْهُ كم يتألم ويشقى، ويتقطع القلب منه حسرات كلما تنظر إلى هذه الأشجار، وذكر ماله فيها من ذِكر وما أنفق عليها من أصباحة وأماسيه، ومن حبه وأماني نفسه. . . وإنها لأشجار. . . جمادات لا تعقل. . . فكيف بي وقد ربيت بشراً ثم أعرضوا عني ونسوا عواطفي وحبي. . . وما نسيتهم ولا أقلعت عن حبهم؟.

وما كان لي يا ولدي أن أزعجك بحديثي لولا أني أنفّس به عن نفسي. إنني أعيش وحيداً في هذه القرية المعتزلة لا أدري كيف أزجي الباقي من أيام حياتي. إني أشكو الملل، ولا أطيق النوم، فلا أجد إلا النجم أراقبه وذكرياتي أناجيها. وكثيراً ما تثقل عليَّ هذه الذكريات، حتى لأضلَّ قلبي بين حاضر لا متعة فيه وماض لا رجعة له. . .

لا، يا ولدي، لا تحرص على هذه المهنة. اتركها إن استطعت فهي محنة لا مهنة. هي ممات بطيء لا حياة. إن المعلم هو الشهيد المجهول الذي يعيش ويموت ولا يدري به أحد، ولا يذكره الناس إلا ليضحكوا من نوادره وحماقاته.

وعدنا من المشية نسلك تلك الأودية، ونتسلق تلك الصخور عائدين من (صاربتا) ولا يزال حديث أستاذي يدوي في أذني، فأحس به في هذه البرية الساكنة قوياً مجلجلاً، ولكن الناس لا يسمعونه، وإن هم سمعوه لم يحبوا أن يفهموه!

علي الطنطاوي

بين إنكارين

في قسمة غنائم حنين

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

راق بعض إخواننا من أفاضل العلماء ما ذكرته في إنمار ذي الخويصرة التميمي على النبي صلى الله عليه وسلم في قسمة غنائم حنين وأعجبه إرجاعي ذلك الإنكار إلى جمود ذي الخويصرة، وأنه يرى الوقوف في الدين عند حدود القواعد، ولا يرى الأخذ في ذلك بشيء من التساهل، وقد أداه هذا التنطع في الدين إلى ذلك الإنكار الفاضح، وكان من النبي صلى الله عليه وسلم أ، أعرض عنه في ازدراء، وتركه في ذلك الجهل الفاضح الذي لا يقبل الدواء، لأنه من الجهل المركب وهو شر أنواع الجهل، وصاحبه لا يفيد فيه العلاج أصلاً.

وقد كان هناك إنكار آخر من الأنصار على قسمة غنائم حنين، وهو أدل على ما راق ذلك العالم الفاضل من أن الجمود على القواعد ليس من الدين في شيء، وأنه لا قيمة لمنطق الألفاظ إذا اعترضه منطق الحوادث، لأن منطق الألفاظ يسهل تذليله لمنطق الحوادث بشيء من التصرف في دلالتها، أما منطق الحوادث فصريح لا يقبل تأويلاً، ويأبى إلا أن يخضع له منطق الألفاظ.

وكان إنكار الأنصار على النبي صلى الله عليه وسلم أنه أعطى قومه من غنائم حنين ما أعطى ولم يعطهم، فوجدوا في أنفسهم حتى كثرت منهم القالة - وهي القول الردئ - وقال بعضهم: إن هذا لهو العجب: يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من

دمائهم! وفي رواية أخرى: إن هذا لعجب، إن سيوفنا تقطر من دماء قريش، وإن غنائمنا ترد عليهم. وقال آخرون منهم: إذا كانت شديدة ندعي إليها، ويعطي الغنيمة غيرنا!.

وقال حسان بن ثابت في ذلك:

دع عنك شماَء إذ كانت مودتها ... نزراً وشرُّ وصال الواصل النزرُ
وائت الرسول فقل يا خير مُؤتمنٍ ... للمؤمنين إذا ما عُدّدَ البشرُ
علام تدعي سُلمٌ وهي نازحةٌ ... قدَّامَ قوم هم آووا وهم نصروا
سماهمُ الله أنصاراً بنصرهمُ ... دين الهدى وعوان الحرب تستعر
نجالد الناس لا نُبقي على أحد ... ولا نضيِّع ما توحي به السوَر
كما رددنا ببدر دون ما طلبوا ... أهلَ النفاق وفينا ينزل الظفرُ
ونحن جندك يوم النَّعف من أُحُد ... إذ حزَّبت بَطرلاً أحزابها مُضرُ
فما ونيْنا وما خمْنا وما خبروا ... منا عثاراً وكل الناس قد عثروا

وقد بلغ النبي صلى الله عليه وسلم هذا الإنكار من أصحابه الأنصار، فلم يهمه أمر الألفاظ التي بلغته، ولم يبحث عن دلالتها على الشك في رسالته أو عدم دلالتها عليه، ولم ينظر إلى ما تقضي به قاعدة الإنكار عليه من كفر أو نفاق، بل نسي ذلك كله ولم يعبأ به ولم ينظر إلا إلى ماضي الأنصار الحافل بالجهاد في نصر الدين، ولم يذكر إلا أنهم آووه وآثروه وأصحابه على أنفسهم حين هاجروا إليهم، وبذلوا دماءهم وأموالهم حتى تم له ما تم من النصر على قومه وغيرهم، وليس من حسن السياسة أن يؤخذ الصاحب بزلة لا تذكر بجانب حسناته، وليس من الإنصاف أن يحاسب على الألفاظ إذا كانت أفعاله توجب الإغضاء عنها، وتدل على أنه لا يقصد ما فيها من دلالة على كفر أو نفاق. ولا شك أن من لا يراعي مثل هذا في سياسة أصحاه تختل عليه أموره، وتضطرب أحواله، وينظر فلا يجد له صاحباً ولا نصيراً.

وهكذا آثر النبي صلى الله عليه وسلم ما يقضي به حسن السياسة من أخذ أنصاره باللين، والتغافل عما صدر عنهم من تلك القالة. وقد دخل عليه سعد بن عبادة الأنصاري يبلغه شكوى قومه، فقال له: يا رسول الله، إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم، لماَ صنعت في هذا القَيءْ الذي أصبت: قسَّمْتَ في قومك وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء. فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: فأين أنت من ذلك يا سعد؟ قال: يا رسول الله، ما أنا إلا من قومي. فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة. فخرج سعد فجمع الأنصار له، فلما حضروا قام فيهم فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا معشر الأنصار، ما قالةٌ بلغتني عنكم، وجدةٌ وجدتموها عليَّ في أنفسكم؟ ألم آتكم ضُلاَّلاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟ قالوا: بلى، الله ورسوله أمَنُّ وأفضل. ثم قال: ألا تجيبونني يا معشر الأنصار؟ قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ورسوله المنُّ والفضل. قال: أما والله لو شئتم لقلتم فلصَدَقتم ولصُدِّقتم: أتينا مكذَّبا فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك. أوجِدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعةٍ من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار. ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار. أللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار. فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا: رضينا برسول الله سماً وحظّاً.

فلله هذه السياسة البارعة التي يتواضع فيها النبي صلى الله عليه وسلم للأنصار هذا التواضع، ويقوم فيهم كأنهم فرد منهم، فيوازن بين ما قدمه لهم من حسنات، وما قدموه له من حسنات، ويجعل ما قدموه له مثل ما قدمه لهم أو أرجح منه، ثم يذكر لهم عظيم حظهم إذا عادوا به في رحالهم، وعاد الناس بما أخذوه من تلك الغنائم، فيقتلع من نفوسهم كل أثر لتلك الموجدة، ويجعلهم يبكون ندماً عليها أو فرحاً بعظيم حظهم.

ولو أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجمد على قواعد الدين ورسومه كما نجمد اليوم، لم يأخذ الأنصار بتلك السياسة البارعة بل وقف يؤنبهم على تلك القالة، ويذكر

أن الإصرار عليها كفر ونفاق في الدين، وأنهم إن لم يتوبوا منها حل عليهم عذاب الله وحبط ما قدموه من حسنات في الإسلام.

ولكن مثل هذا لا يشقى النفوس العاتبة، ولا ينال به رضا الأصحاب عند عتابهم، وإنما يكسب رضاهم بافغضاء عن زلاتهم، وأخذهم بالرغبة واللين، لا بالرهبة والوعيد. وها نحن أولاد اليوم نأخذ الناس في ديننا بالتشديد والوعيد، ولا نأخذهم بالرغبة وحسن السياسة، ونقف جامدين أمام النصوص وألفاظها، ونغالي في الأخذ بالقواعد غير متأثرين بالظروف التي تحيط بها. ولا شك أن هذه مغالاة في الغيرة على الدين تضر ولا تنفع، وتنفر الناس منه ولا تجذبهم إليه، وققد خسرنا بها كثيراً ممن كان يمكن أخذهم بالرغبة وحسن السياسة. ومن الواجب أن نقلع عن هذا الجمود، وأن نأخذ الناس إذا زلوا بتلك السياسة التي سنها النبي صلى الله عليه وسلم.

عبد المتعال الصعيدي

مدن الحضارات في القديم والحديث - 5

للأستاذ محمد عبد الغني حسن

يعتبر عصر الأسرة العلوية فاتحة عصر جديد في تاريخ القاهرة التي دارت عليها من الزمان أحوال من النحس والسعد، كما هو الشأن دائماً في كل بلد تنوشه الخطوط وتتقاذفه الأقدار.

ولقد طبعت القاهرة في عهد هذه الأسرة بطابع خاص مع احتفاظها بجلال القدم وروعة الماضي، وأفاضت عليها مآثر هذا البيت حللاً رائعة التقى في أثنائها الماضي بالحاضر والقديم بالحديث والشرق بالغرب، فبدت القاهرة بلداً شرقياً جميلاً يخلب اللب ويلفت النظر. وتهاوي إليها العلماء وأهل الفنون والرحالون يمتعون النظر بمحاسن جمالها، أو يسرحون الطرف في رباعها المملوءة بروعة التاريخ وقدسية الماضي، ويجدون في آثارها القائمة وأعلامها الباقية ومعابدها وهيا كلها مجالاً للدرس وميداناً للبحث ومراداً للهو. فوصل إليها في شهر أكتوبر سنة 1806 - أي في أوائل حكم محمد علي باشا - الأديب الفرنسي المشهور (شاتوبريان) صاحب القصص الرائع والأسلوب المحكم.

قضى هذا الكاتب العظيم أياماً في مدينة رشيد، ثم وفد إلى القاهرة، فاستقبله نجل الوالي الكبير، ولقي في رحاب مصر وظلال الأهرام وعَبْرى النيل، ما جعله يتغنى دائماً بهذه الرحلة السعيدة.

وزار القاهرة في ذلك الحين ايضاً الكونت (دي فوربان) والكونت ماركيلوس؛ وسجل أولهما في كتابه وصفاً ممتعاً لمصر عامة والقاهرة خاصة، وحظي الاثنان بعطف الوالي عليهما وميله إليهما وإهدائهما بالهدايا الثمينة والعطايا الكريمة. وممن زار القاهرة في ذلك الحين الضابط الفرنسي الكبير مارمون وشامبوليون المؤرخ الكبير وصاحب اليد الطولي في حل طلاسم الكتابة الهير غليفية، وجوزيف ميشو المؤرخ، ودوزا الرسام الصناع المصور الحاذق.

وليس عجيباً أن تزخر القاهرة في ذلك الحين بطائفة من أكابر العلماء وأعلامهم، فقد كان الوالي يحسن ضيافتهم ويرحب بهم ويستعين بعلمهم، وبحثهم على فتح آفاق جديدة في النهضة المصرية التي حمل لواءها، ورفع بناءها.

ودبت الحيات في القاهرة من جديد، وودعت عهد الفتن التي سادتها حيناً من الدهر، واستقر فيها الأمر واستقام الحكم، وبدأت عناية الوالي تنصرف إلى البناء والتعمير، والإصلاح والتجديد، فبنى مسجد محمد علي بالقلعة على نسق تركي بديع، وأصلح مسجد عمرو بن العاص بمصر العتيقة، وجدد مسجد السيدة زينب وأصلحت أجزاؤه المتهدمة وزخرفت جدرانه وزينت أركانها بالنقوش البديعة، وصلى فيه الوالي صلاة الجمعة يوم 14 ربيع الآخر سنة 1217هـ.

وشهدت القاهرة في عهد تلك الأسرة أفراحاً ومعالم تذكر بأفراح الفواطم ولياليهم الخوالد، وكانت أضواء الثريات تنعكس ليلاً على بركة الأزبكية، وتتراءى النجوم في جوانبها فيخال الرائي أن سماء ركبت فيها. وأقيمت السواري وركبت القناديل، ونصبت المصابيح، وأديرت المطابخ، واستمر اللهو في القاهرة أياماً. واجتمع اللاعبون والراقصون والمغنون وأصحاب الفردة والمضحكون يبعثون إلى النفوس ألواناً من السرور.

وكان مهرجان الزفاف - كما تذكر كتب التاريخ - شيئاً عجيباً، وازدحمت قنطرة الموسكي وباب الخلق ودرب الجماميز، والصليبة والسروجية والجمالية والأزبكية بآلاف من الناس ومئات من العربات.

حدث ذلك في عهد محمد علي باشا، وحدث بصورة أروع في عهد اسماعيل حينما تزوج أبناؤه الثلاثة. ولقد ظلت القاهرة في فرح كامل مدة أربعين يوماً لما تهدأ لها عين، ولم يسكن لها طرف، ولم يخبُ فيها ضوء. . . وكانت الموائد موصولة غير مقطوعة؛ وأصناف الطعام تروح وتغدو على المدعوين فيجدون تنوعاً ولذة، وغصت الساحات الرحاب والعرصات الفساح بالفرق الغنائية، فهذا (الحمولي وتخته)، وذلك (الدمياطي وجوقته). واشترك في هذه الحفلات الغني والفقير، والصغير والكبير، والأمير غير الأمير. ففي داخل القصر لهو ولعب، وفي خارج القصر فرح وطرب، وفي الشوارع زحام بالمناكب، وفي شرفات المنازل أجسام مشرفة ورؤوس مطلة، وفي النيل قوراب ومراكب غصت بالراكبين.

ولا شك أن هذه الصورة الجملية التي لم نراها رأي العين تذكرنا بأفراح القاهرة في قرن الفاروق، فقد رأيناها وقد لبست أبهى حلة وأكمل زينة، وزيَّنتها ثريات الكهرباء، وسطعت

فوق دورها الأنوار الساطعة والأضواء اللامعة، وبدا قصر عابدين وكأنه قبس من نور، أو قطعة هائلة من البلور؛ وامتدت أقواس النصر هنا وهناك وقد جللتها الأنوار، وكللتها الأزهار، وازدحمت القاهرة بالوافدين إليها على قُطُر تنهب الأرض وتطوي الفضاء، وكان في كل بقعة فرح، وفي كل رقعة سور.

وفي عهد هذه الأسرة اختطت في القاهرة شوارع جديدة، وأنشئت أحياء حديثة. ففتح شارع السكة الجديدة، وشارع الموسكي، ومُهِّد الطريق بين القاهرة وبولاق، وفتح شارع محمد علي فتحاً جديداً أزيلت بسببه بيوت قذرة، وحارات ضيقة، ومنعطفات مظلمة. وكذلك كان حال شارعي الفجالة وشبرا. وأقيمت على حفاف هذه الشوارع بيوت عالية وقصور كبيرة لا تزال بعض بقاياها إلى اليوم. وبهذه الحركة الإنشائية خلقت القاهرة خلقاً جديداً، وقضى على كثير من مبانيها الخربة، وخرائبها القذرة، وبركها المنبثة في داخلها، وأقيم على أنقاض ذلك كله شوارع واسعة طويلة، وبيوت أخذت تجاري التقدم العلمي وتماشي التطور الهندسي حتى وصلت إلى ما نشاهده اليوم من قصور عالية رفعت لمخترق السماء سموكها، وكادت تلامس الجوزاء قممها، حتى كأن البحتري كان يعني كل قصر منها بقوله:

ذُعر الحَمام وقد ترنم فوقه ... من منظر خطر المزلة هائل

وأخذت مكانة القاهرة تعظم وشهرتها تتسع، حتى زاد إقبال الملوك والأمراء عليها، وكثرت رحلة العلماء والأدباء إليها. فزارها في عهد إسماعيل - غيرَ من شهدوا حفلة افتتاح قناة السويس - السلطان عبد العزيز الخليفة العثماني سنة 1863 وتجد وصفاً ممتعاً لزيارته في كتاب نفحات تاريخية لعزيز بك خانكي؛ كما زارها: (فلوبير)، و (تيوفيل جوتييه)، و (رينان)، و (شارل إدمون)، و (سولسي)، و (إدمون أبوت) صاحب كتاب (أحمد الفلاح) وكثير غيرهم.

وجمِّات ميادين القاهرة في عهد تلك الأسرة بالتماثيل المقامة تخليداً لذكرى الأبطال والعظماء؛ فأقيم في الميدان المعروف اليوم بميدان الملكة فريدة تمثال البطل الفاتح إبراهيم باشا، الذي نقل بعد الثورة العرابية إلى موضعه الحالي بميدان الأوبرا. وأخذت فكرة إقامة هذه التماثيل تزداد وتتسعكل يوم، حتى رأينا منها إلى اليوم تمثال لاظ أو إلى في الميدان المنسوب إليه، وتمثال سليمان باشا الفرنساوي، وتمثال سعد زغلول عند نهاية جسر الخديو

إسماعيل (قصر النيل سابقاً)، وتمثال مصطفى باشا كامل الزعيم الوطني في الميدان الذي ينسب إليه اليوم، والذي كان يعرف قبلاً بميدان (سوارس).

وشهدت القاهرة منذ ذلك العهد روحاً علمية لم تشهدها حتى في أيام الفاطميين. فأنشئت الجمعيات العلمية المتعددة كالجمعية الجغرافية التي رأسها الدكتور (شوينفرت) الألماني، وجمعية المعارف التي وضعت تحت رعايتها الأمير توفيق باشا ورياسة عارف باشا لنشر الكتب والقيام على طبعها ترويجاً للثقافة ونشراً للعلم والأدب.

وتبع ذلك سيل فياض من الجمعيات العلمية ذوات النشاط الملحوظ في عهد الملك فؤاد، وهي جمعيات كان جلالته يتولاها بكثير من رعايته وتشجيعه حتى اتخذت طابعاً علمياً، وكان لها مكان وقدم راسخة بين الجمعيات الأوربية المختلفة.

وأنشئت الجامعة المصرية وأخذت تحتضن رويداً رويداً المداوس العالية التي كانت في القاهرة حينئذ حتى ضمت إليها واصبحت كليات تابعة لها ومتفرعة منها إلا بعض معاهد ظلت - لعوامل خاصة - محتفظة باستقلالها أو تبعيتها لوزارة المعارف كدار العلوم وكلية البوليس.

واصبحت الجامعة المصرية قبلة أنظار كثير من أبناء الشرق يولون وجوههم شطرها استغناء بها عن جامعات أوربا. وحفلت تلك الجامعة الفتية بكثير من العلماء الأجانب الذين نشروا فيها علمهم ووسعوا فيها دوائر بحثهم حتى خرج جبل جديد يختلف في مناحي بحثه ودرسه عن الأجيال القديمة.

واصبحت القاهرة اليوم حاضرة إسلامية كبيرة لا تقل عن كثير من حواضر اليوم في تخطيطها وآثارها ومبانيها الشاهقة وشوارعها وجسورها ورياضها وملاهيها.

(الحديث موصول)

محمد عبد الغني حسن

للحق والتاريخ

عبد القادر حمزة باشا

كلمة أخيرة عنه

وعن (قومة) بحثه وراء (الحقيقة) في التاريخ المصري

(القديم)

للأستاذ محمد السوادي

كلمة!!

دللت في مقالي الذي تفضلت (الرسالة) الغراء بنشره في (العدد 419) على أن عبد القادر حمزة إنما اتجه إلى دراسة (التاريخ المصري القديم) بحثاً وراء (الحقيقة) في ذاتها ولذاتها، وأن هذه الدراسة ملأنه - كمصري - زهواً بمصريته فكان هذا الشعور منه إيذاناً (بالقومية) التي حالفته في بحثه، وأن عبد القادر حمزة مؤلف كتاب (على هامش التاريخ المصري القديم) قرن بين (الحقيقة) إثباتاً (للقومية) ففعل.

وأثبت في مقالي الملحوظات الست - أو الحقائق المريرة - التي وضعها الرجل أمامه وخرجمنها بأن (الحقيقة) ضائعة فيجب إيجادها، و (القومية) ضعيفة فيجب إنماؤها. أما (الحقيقة) فهي أن مدينة مصر لم تقم كما اعتقد المؤرخون الأجانب (على أساس من الخرافات والعقائد الفاسدة)، بل قامت كما دلل هو (على أساس علمي وخلقي صحيح).

هذه هي خلاصة المقال الذي اختتمته بوعد مني لك أن ألتقي بك لندرس معاً (بالتطبيق) الطريق التي سلكها في البحث، والنتائج التي خرج بها، و (النظافة) العلمية التي حالفته في هذا البحث.

وأحب أن أضيف إلى ذلك الوعد (كلمة) لا بد منها كما يقولون، أحب أن أقول إن هذا (التطبيق) بالمعنى الذي أفهمه من هذه الكلمة يسوقنا إلى دراسة مستفيضة بدا لي أن أرحبُها إلى وقت يحفظ على (كرامتي) و (براءتي) بعد إذ ترامي إلى أن بعض خصوم البراءة، يزعمون أني إنما أنشر هذه الفصول ابتغاء مرضاة جريدة (البلاغ) التي أعمل فيها. وليس

يسوءني أن تنشط الشياطين السود في أشباه الرجال لتسرد على مسمعي قائمة طويلة من الإفك، ما دمت مطمئناً إلى قدرة القراء على التفريق بين الصدق والكذب في أي اتهام يوجه إلى؛ ولكني إزاء اتهام كهذا لا أملك له دفعاً، وفي مجتمع تقوم الصلات بين جمرة بنية على النفاق، ويجد مثل هئذا الاتهام سبيله إلى بعض الأذهان، لايسعني إلا أن أجعل من هذا المقال خاتمة للبحث. ويعزز هذا العزم مني سبب آخر بل أسباب أخر. . . ليس من اللياقة أن أميط اللثام عنها اليوم؛ فإلى غد. . . إلى الغد المجهول الذي لا أدري متى يعلم!! وفيه - إن علم - أقوم ببعض ما يجب علي لهذا العظيم الراحل.

تاريخ ولكن

ولأعد الآن إلى (تطبيق) متواضع محدود لناحية واحدة يصح الوقوف عندها.
أدرك الرجل أنه مقدم على (تاريخ)، وهو لم يكن يوماً (مؤرخاً) ولكن الدراسات التي قام بها أهلته لهذا الإقدام، بل أنارت له السبيل إلى تصويب أخطاء المؤرخين العالميين، وإلى تفنيد الأباطيل التي أذاعها المغرضون منهم؛ فماذا يصنع؟.
رأي - كما يرى كل عالم زاد علمه فزاد تواضعه - أن يسمى جهوده (على هامش التاريخ المصري القديم)، فلما تمت له التسمية واطمأن إليها وأنس بها، وصارح الأخصاء من الأصدقاء بهذا الشعور، ونشر فصولاً ضمن هذا (النطاق الحر)، كف فجأة عن مواصلة النسر، وعاد يواصل الدراسة في صمت، لأن (فكرة جديدة) نبتت في ذهنه وحددت له (اتجاهاً جديداً) في بحثه. فما هو هذا الاتجاه؟.
هو أن يجمع بين (الحقيقة) كمؤرخ و (القومية في البحث) كمصري، ما دام المجال قد انفسح أمامه، ولم يعد مقيداً بالتاريخ في صميمه، بعد إذ أذاع أن كل جهوده ستكون وقفات (على هامش هذا التاريخ)، فضلاً عن أن هذا اللون من البحث يحمل طابع الأخذ والرد، وبحكم المنطق في رقاب الوقائع، ويخرج من المقدمات بنتائج، فيجيء البحث أدنى إلى العراك العميق الهادئ. . . عليه من طلاوة المنطق طابع، وله من ذات الحقيقة جمال. . . فيدرسه رجال (الحقيقة) على أنه (تاريخ)، ويدرسه أبناء الجيل بنفس الروح الذي يطالعون به جدلاً بديعاً أو قصة رائعة. . . فتنساب إلى أذهانهم حقائق مجلوة من تاريخ بلادهم، ويتغلغل إلى أعماقهم حب لهذا التاريخ يغدو على الأيام إعزازاً لهذا البلد، فتزكوا الوطنية
فيهم، وينمو الشعور بحق بلادهم عليهم، فيصبح هذا النتاج (إنسانياً) من حيث (الحقيقة) و (وطنياً) من حيث (قومية البحث) وراء هذه (الحقيقة).
كانت هذه هي (الفكرة) التي حددت له (الاتجاه)، فاطمأن إلى أن للبحث هدفاً يهون دونه كل شقاء، وكانت هذه هي (الفكرة) التي استطعت أن أخرج بها من أحاديثي الكثيرة معه، وإن كنت - لوجه الحق - أقرر أنه لم يحددها بهذا الوضوح، لأنه كان يأنف أن يشعرك بأنه يقصد إلى مدح نفسه أو الثناء على جهده.
الجوهر
اختمرت (الفكرة) إذن وتحد (الهدف)، فكيف يدرك المؤلف هدفه، أو ماهي الوسائل التي تمكن له من إدراكه؟.
لم يصارحني بها، ولكني كتابه في جزأيه - ما طبع منها وما هو تحت الطبع - ناطق بهذه الوسائل التي أستطيع أن ألخصها لك فيما يأتي:
أولاً: حدد مدار البحث كما قلت لك بالتدليل على أن المدينة المصرية قامت على أساس علمي وخلقي صحيح، وحدد الحقيقة التي يحب أن يثبتها التدليل على أن المدينة الحديثة وما سبقها من مختلف المدنيات، وفي طليعتها المدنية اليونانية، إنما هي (سير مطرد) لمدينة مصر وأقباس مستمدة من نهضة المصريين؛ ثم حدد النتيجة التي يحب أن يبلغها التدليل على أن هذا العالم القائم الذي يتطاحن بسلاح التضليل، ونتيه فيه العنصرية الآرية من ناحية، والديمقراطية السياسية من ناحية أخرى، إنما يغفل عمداً الحقيقة الكبرى، وهي أن لا آرية هنا ولا ديمقراطية، وإنما هناك (مصرية) أمدتهم جميعاً بالفضل الذي يتنازعونه، وإذا صح أن للأصيل فضل المباهاة، فمن حقنا وحدنا أن نباهي بمصريتنا.
ثالثاً: آثر عبد القادر حمزة أن يختار من بين موضوعات هذا التاريخ القديم موضوعات بالذات، يركز فيها الجهود ويستخلص منها النتائج كما سيجيء في التطبيق.
رابعاً: رأى أن يكون نهجه علمياً إزاء المؤرخين، ومنطقياً إزاء القراء، ففي النهج يذكر الرواية التي ساقها المؤرخون الأجانب بأسانيدها، ثم يذكر المراجع ويحدد الكتاب ويعين الصفحات، ثم يعود إلى التفنيد ويضيف إلى الأسانيد كل سند جديد وفقت إليه الكشوف، ثم يخرج بالنتيجة وضاحة الجبين لا سبيل معها إلى دعاة الشك بعد أن انبلج منها صبح
اليقين. . .
أمثلة للتطبيق
وإليك الآن بعض الأمثلة التي تحقق لك (التطبيق المتواضع) الذي وعدت به:
أراد أن يخلص ذهن قرائه مما علق بها أيام الدراسة من خرافات اختلقها المؤرخون

الأجانب فاعترفنا بها كحقائق وحشونا بها البرامج فذكر قارئه بادئ ذي بدء بأن الكتابات التي تركها لنا الكتاب اليونانيون والرومانيون كانت الرجع الوحيد لمعرفة مصر القديمة منذ ضاع سر اللغة المصرية إلى أن كشفه شامبوليون الشاب أي مدى أربعة عشر قرناً؛ وهؤلاء الكتاب الذين زاروا مصر وكتبوا عنها في ما بين القرن الرابع قبل الميلاد والقرن الثاني بعد الميلاد شحنوا كتاباتهم بأشياء لم يفهموها فألبسوها لباس الغرابة والخرافة، مثلهم في ذلك كمثل الذين يزورون مصر الآن من الأجانب فيدعون عليها دعاوي لا وجود لها لأنهم لم يفهموا ما شاهدوه، أو لأنهم يريدون أن يثيروا دهشة قرائهم بما يقعونه من المبالغات.

وهذا كلام يفهمه القارئ الحديث الذي كان يرى الشركات الأمريكية والأوربية تجيء إلى مصر قبل الحرب فلا تلتقط لأفلامها غير صور الطبقات في حي (زينهم) و (عشش الترجمان) بل تستأجر من الدهماء فقراء يطلب إليهم التزني بالطراطير وما إليها لتوهم الشركات شعوب الغرب بأن مصر لاتزال تتخبط في مثل هذه الأزياء.

يفهم القارئ الحديث هذا النحو من المنطق فهل قنع عبد القادر حمزة بهذا التدليل وترك المؤرخ أو المحقق يطالبه بالدليل؟ كلا. وإنما تناول أقوال شيخ أولئك الكتاب والمؤرخين - هيرودوت - ونقلها بأمانة، ثم دلل على فسادها. وحسبك منها أن أذكر لك بعضها في سطور:

أبان لك المؤلف أن هيرودوت نقل عن موظف مصري في معبد (المعبودة نيت) في ما الحجز أن النيل يولد بين (سيين) و (ابلفنتين) - وهذه كانت تجاور أسوان - وأن شطراً من مائه يجري إلى مصر والشطر الآخر إلى النوبة، وأن هذا الزعم كان يعقده المصريون، ثم دلل عبد القادر على أن هذا القول ليس سوى خرافة ما كانت تستحق أن يثبتها هيرودوت في كتابه بعد أن قال هو نفسه: (إنه يميل إلى الظن بأن ذلك الموظف الذي نقل

عنه هذا القول كان يمزح. (وقال المؤلف إن المصرين (الذين كانت سيين وابلفنتين من مدنهم كانوا يوقنون من غير شك أن النيل لا يجري شطر منه إلى مصر وشطر منه إلى النوبة، بل يأتي من النوبة جارياً إلى مصر. وقد أرسل المصريون قوافلهم التجارية وحملاتهم العسكرية وسفنهم التجارية والحربية إلى النوبة وإلى ما وراء النوبة منذ الدولة القديمة. . . فهم إذن ركبوا النيل إلى ما وراء الشلال الرابع. . . فالادعاء عليهم بأنهم كانوا يعتقدون أنه يولد عند أسوان هو ادعاء زور، والاعتماد فيه على حديث قال هيرودوت إنه سمعه من موظف مصري هو اعتماد على سند ساقط)).

ثم لم يشأ المؤلف أن يقول له قائل: (ولماذا تتجاهل أن بعض المؤرخين تأولوا هذه الرواية، فقالوا إنها كانت اعتقاداً للمصريين قبل أن يفتحوا النوبة، ويركبوا النيل إلى ما وراء الشلال الرابع). بل أثبت عبد القادر هذا التأويل، ورد عليه بأن هيرودوت لم يقدم إلى مصر إلا في مختتم الحضارة المصرية. أي بعد أن كان المصريون قد فتحوا النوبة في عصر الدولة القدية فالموظف الذي نقل عنه لا يمكن أن يكون إلا جاهلاً أو مخرفاً، وهيرودوت لا يدل بنقله هذا التخريف إلا على أنه كان يلتقط ما يقال له بغير احتياط ولا تمحيص.

ثم نقل المؤلف عن هيرودوت قوله إنه وصل في تجواله إلى بلفنتين وقوله: (فما أكتبه وصفاً لمصر إلى هذه المدينة رأيته بعيني) ثم قطع عبد القادر بأن هيرودوت كاذب) لأنه لو كان قد وصل إليها وشاهد مجرى النيل عندها لعلم أنه ليس له مجريان (متعارضان أحدهما يتجه إلى صمر والثاني إلى النوبة).

ولم يشأ المؤلف أن يدع هيرودوت (الكذب) في هذه الرواية كذاباً على طول الخط وبسوء نية، بل راح يلتمس له المعاذير ويقلب الأمر على مختلف وجوهه، حتى اهتدى - أي المؤلف - إلى الأناشيد التي وجدت منقوشة على الأهرام موجهة إلى النيل وفيها: لقد انتفحت الصخرتان وظهر المعبود. إن المعبود يضع يده على جسمه (يريد أنه يضع يده على أرض مصر). ورجح عبد القادر أن تكون هذه الخرافة قد انبعثت من هذا النشيد، لأن الصخرتين قائمتان عند ابلفنتين. ورجح أن يكون غرض الشاعر أن النيل يدخل حدود مصر عند هاتين الصخرتين؛ فكأنه يولد عندهما بالنسبة لها وهو تعبير شعري جائز،

والمصريون كانوا مشغوفين بالمجاز، أما إذا قلنا إن الشاعر لم يرد معنى مجازياً فهو على كل حال قال بأن النيل يظهر من بين صخرتين، ولم يقل إن شطراً منه يجري إلى مصر وشطراً إلى النوبة. والعلماء اتفقوا على أن نقوش الأهرام تسجل أساطير كانت عامة المصريين تعتقدها فيما قبل التاريخ يوم كانت المدينة المصرية تحبو كالطفل.

ملحوظات

هذه خلاصة متواضعة لنقطة تافهة وردت عرضاً ضمن كتاب هيرودوت، فما بالك إذا عدت إليها في الكتاب وقرأت أسانيدها ولمست مدى الاهتمام الذي أخذها به المؤلف ليقضي عليها؟ ثم ما بالك حين تتبعه في تناوله الحقائق الكبرى. ألم تلاحظ معي أن للمؤلف (ضمير المؤرخ) يمشي جنباً إلى جنب مع (حماسة القومية) في الذود عن المصرية، حتى لقد راح يلتمس العذر للمؤرخ اليوناني إرضاء للضمير العلمي، فإذا وجد له سنداً خيل إليه أنه راجح أثبته؛ فإذا أثبت التفنيد أنه مرجوح قضى عليه ثم ترك لقارئه الحكم على رواية هيرودوت.

ثم ماقيمة مسألة تافهة كهذه يعني بها هذه العناية؟

القيمة أنك - بها وبأخواتها التي تلتها - تعرف أقوال هؤلاء المؤرخين وقيمتها، فتظهر ذهنك من الإيمان الخاطئ بالتاريخ الذي درسته تلميذاً وشاباً وكهلاً وشيخاً لتستقل معه بحوثه الكبرى وراء الحقيقة الخاصة بالتاريخ المصري القديم.

ومن هذا (التطبيق المتواضع) ترى أن الرجل لم يكن يثبت حرفاً - بله البحث - من غير أن يرمي به إلى نتيجة. وقد ترى الكلمة مثبتة في مقدمة الكتاب للعودة إليها في خاتمته.

ميزة

وكان للمؤلف ضمن الميزات ميزة لا يسعني إغفالها على الرغم من ضيق النطاق واعتزامي اختتام البحوث، ميزة العودة إلى الحق شأن العالم الثبت، وميزة مسايرة أحدث البحوث وآخر الكشوف بحيث إذا عثر على كشف يصوب نتيجة بلغها قبلاً عاد فصارحك بخطأه وأرشدك إلى الكشف الذي هداه إلى الصواب.

وفي الجزء الأول مجالان للتطبيق أرجو أن تعود إليهما: أحدهما في صفحة 223 تحت عنوان (ملحق للتقويم المصري) ضمنه نصوصاً اهتدى بعد أن فرغ من طبع الكتاب إلى أنها عثر عليها أخيراً ودلت على أن الكهنة ورجال الحكومة كانوا يدونون أيام المواسم الزراعية طبقاً للتقويم وأمام كل واحد منها اليوم المعادل له طبقاً لدورة الشعرى اليمانية: (الامر الكانوبي) الذي أصدره بطليموس الثالث بتعديل التقويم على أساس إضافة يوم كل أربع سنوات إلى الخمسة الأيام الإضافية.

والآخر في ص227 وهو تصحيح خطأ وقع فيه في قوله: إن من المباحث التي بحثها برستيد أنه حفر في مدخل الدلتا حتى وصل إلى عمق 20 متراً أو 30 فوجد أن الإنسان الذي عاش حيث وجدت تلك الجمجمة وتلك الأواني والقوالب يرجع إلى 16 ألف سنة مضت. فقال عبد القادر إن هنا أسماً سقط وكان يجب أنيذكر لأن صاحبه هو الذي حفر مدخل الدلتا وهو هو شوينفورت، وأما برستيد فقد درس نتائج هذا الحفر وحسب طبقات الطمى التي يكسو بها النيل أرض الدلتا كل سنة فوجد أن الإنسان الذي عاش حيث وجدت الجمجمة يرجع إلى 16 ألف سنة مضت.

كلمة أخيرة

ها هو ذا (التطبيق المتواضع) انصب على موضوع واحد ومنه رأيت أن (التطبيق الدراسي المشبع) يقتضي كتاباً ضخماً أو فصولاً يستغرق نشرها عامين، فاعذرني - إزاء القيل والقال الذي ألمعت إليه - إذا أنا أعفيت نفسي من هذه المهمة المضنية التي أخذت بها نفسي عن طواعية ولوجه الوفاء، وأرجأتها إلى وقت يحفظ على الكرامة ولا يدع سبيلاً للمطاعن الرخيصة في العمل المحمود.

وقد ألتقى بك بين الحين والحين؛ على صفحات (الرسالة) الغراء ولكن في أحاديث أدبية أخرى بعد أن أثارت بحوثي الأخيرة شهية التحدث إليك. فإلى لقاء قريب.

محمد السوادي

الضمير الفردي والضمير الاجتماعي

للأستاذ جريس القسوس

إذا جاز لنا العبث بعلوم الاجتماع والنفس والأخلاق استطعنا أن نقسم الضمير إلى

نوعين: (ضمير فردي وضمير اجتماعي)؛ ولا يتضح معنى ذلك إلا بكلمة سابقة في تعريف الفضيلة والرذيلة اللتين هما قسطاسا الضمير، بل مقررْتا وجوده. إذ كيف يجوز أن يقال بأن لزيد ضميراً حياً أو ضميراً ميتاً إذا لم يربط ذلك الضمير بفضائل أو برذائل؟.

لكل فئة أو جماعة أو طائفة من البشر قواعد وأنظمة وعادات جرت عليها وتمشت بموجبها عهوداً طويلة، لا تحيد عنها قيد شعرة إلا بقوة جبارة عاتية تفوق قوة تلك الطائفة؛ فإذا حادت جرت على الأنظمة الجديدة وتمسكت بها تمسك المستميت، ودعمتها ودافعت عنها دفاعها عن النظم التي تحولت عنها في بدء الأمر تحت تأثير القوة، كغاندي مثلاً، يحاول جهده أن يزحزح الطائفة الهندوسية عما جرت عليه من شعور سيء نحو جماعة الأنجاس. وسبب تمسك أي طائفة بنوع خاص من التقليد أو العرف والعادة، هو إدراكها بالتجربة والاختبار أن هذا النوع - دون غيره - يفيض على أكثرية مجموع أعضائها أجزل النعم وأتم البركات. . . نعمة وبركة يشترك فيها الفرد والجماعة معاً، إلا في حالات نادرة خاصة، حيث تنتفع الجماعة من أمر لا ينتفع منه الفرد إن لم يكن يخسر.

هذه التقاليد والعادات التي اختارتها الجماعة وأدركت نظرياً وعملياً أنها نافعة للأكثرية الساحقة من مجموع أفرادها نفعاً يغشى على أبصار أعضائها، لا أفرادها، فلا يرون فيها ضراً ولا شراً بل نفعاً وخيراً هي الفضيلة. أقول: أعضاؤها لا أفرادها، لأن العضو يفكر ويقوم في كثير من الأحيان بأمور لا تستند إلى العقل والمنطق تحت تأثير الجماعة التي لا تختلف في عقليتها الاجتماعية عن عقلية الطفل. ويتجلى ذلك في تصوير شكسبير للرعاع في يوليوس قيصر؛ فهم ينساقون ويندفعون كالصبيان اندفاعين متناقضين تارة تحت تأثير السحر البياني الذي يتدفق من لسان بروتس، وتارة مأخوذين ببيان أنطونيوس وعباراته العاطفية الشديدة. لكن الفرد يستقل في عقليته في كثير من الأحيان، فيقوم بأمور لا غبار عليها من حيث منطقها واستنادها إلى العقل.

أما خروج الجماعة عن القواعد والأحكام فهو الرذيلة والإثم، وعاقبته العذاب الأليم في الدنيا وفي الآخرة. ولهذا لا يستغرب أن ترى فضيلة عند فئة رذيلة عند أخرى والعكس بالعكس. كمذهب العري نعرفه رذيلة وعند أهله فضيلة.

لكن هناك قواعد وأحكاماً وعادات أجمع العالم على الجري عليها إجماعاً استقلالياً أو تقليداً، فهذه فضائل عالمية كونية عرفت منذ انبثاق الخليقة أنها فضائل كالصدق والعدل والتواضع والإحسان. هذه الفضائل كما شرحتها ترتسم في نفس الفرد وتنطبع في ذهنه بالتقليد والتلقين؛ ولا يورث منها إلا الميل لها، لأن ما يكتسب لا يورث. فيجد المرء نفسه في حظيرة الجماعة وتحت سلطتها وتأثيرها لا يستطيع أن يقوم بعمل مناف لما تمشت عليه، أو يفكر أو يقول مالا يروق في نظر الجماعة، ولا يشعر بالأثر إلى تجنب الرذيلة ويدفعه إلى عمل الفضيلة قبل إتيانها ويقرن العمل بالتشجيع على الإتمام ويلحقه بالطمأنينة واللذة النفسية - هذا الصوت هو ما نسميه بالضمير - الضمير الاجتماعي لأنه ليس إلا صدى لجلجلة القيود والأصفاد التي ترسف بها الجماعة. ويصح أن تسمى ما يقابل هذه القوة من قوة عنيفة مضادة سكبت في النفس البشرية مع القوة الأخرى ورافقتها في الحياة جنباً إلى جنب: هذه القوة يصح أن تسمى بالوسواس، وهو المذكور في قول الله تعالى: (قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس).

هذا هو الضمير الاجتماعي - بل هذا هو الضمير المطلق كما نعرفه عادة وتعرفه جمهرة العلماء؛ لكنني عرفته بالاجتماعي على اعتبار وجود ضمير آخر غير هذا الضمير؛ وهو الذي اصطلحت على تسميته بالضمير بالضمير الفردي المطلق، ذلك لأن الفرد قد لا يرتبط ارتباطاً عقلياً حراً مجرداً بما ترتبط به الجماعة من خير أو شر، فيستوي عنده خيرها وشرها، رذيلتها وفضيلتها، ويصبح طليقاً من هذه القيود الاجتماعية، لا يتأثر بما تتأثر به الجماعة من جميل أو قبيح تأثيراً تقليدياً غير منطقي. لأنه لم يتهيأ لبشر من الناس أن يميز الحدّ الفاصل بين الخير المطلق والشر المطلق غير الأنبياء. هذا الفرد - إن وُجد - عرفته الجماعة بميت الضمير - من حيث علاقته بها. وما كان في الحقيقة إلا حيّ الضمير - ذلك الضمير الروحي المستقل الذي قرّ في نفسه وركب في طبعه منذ

أن عرف الحياة. وهو لا يختلف عن الضمير الاجتماعي من حيث أنه قوة مؤنبة، خفية عميقة في النفس. إلا
أن إدراكاته تختلف في كثير من الأحيان عن إدراكات الضمير الاجتماعي في أنها أرهف وأبعد وأدق وآصل. ذاك يقاس بفضائل خارجة عن النفس فرضت عليها فرضاً، فأصبحت كأنها جزء منها؛ ولكن مدركات الضمير الفردي من جمال وبرّ وصلاح خلقت مع الإنسان منذ الأزل، إلا أنها مطموسة بالمادة. فبذرة هذا الضمير الفردي في كل نفس، فإذا زاولها الفرد بالرياضة العنيفة، وتعهدها بالصقل والتهذيب والتجريد، فجلى عنها الأصداء، وأزال كل ما علق بها من أقذار المادة، نمت وازدهرت وجاءت بثمار روحية سامية، واستطاعت إذ ذاك التحليق في غير جوّ المرئيات الهيوليات. وبذا يصبح هذا الضمير الفردي المطلق بمثابة ذوق مهذب راق، تقاس به الأعمال والأطوار، ويدرك بالفطرة السامية والضمير الإلهي ما هو خير وما هو شرْ. وصاحب هذا الضمير فوق أصحاب الضمير الاجتماعي أو الإحساس التقليدي المزيف، فهو يعرف الله مباشرة، ولكن أولئك لا يعرفونه إلا بالواسطة.

(شرق الأردن)

جريس القسوس

وحي الحرب

على مسيل الدماء. . .

للأستاذ محمد عبد الغني حسن

قَالَتْ سَكَتَّ وَمَا عَهِدْتُكَ ساكِتًا ... أَتَا ما عَرَفْتُكَ في الحوادِثِ صَامتًا
وَغَدَوْتَ صَوْناً في المسامعِ خافتا ... أَتُرَاكَ تَنْدُبُ من شَبابكَ فائِتًا؟
فَأَجبْتُهَا
وَالقلبُ مَحْطومُ الرَّجاءْ
كَيْفَ الْغِ ناء مَعَ الدِّماءْ؟
مَا بَيْنَ أَنَّاتِ الأَلَمْ
فَوْقَ الضَّحايا والرِّممْ؟!
قَالَتْ مَلأتَ الأرضَ شِعراً صَادِقًا ... وَسَكَبْتَ في الأَسمَاعِ لَحْناً دافِقاً
وَالآنَ. . . تُمْعِنُ في رُقَادِكَ غَارِقًا ... وَسَكَتَّ حتى لا لأَظنَّكَ نَاطِقاً. . .
فأَجبْتُهَا
وَالْقَلْبُ تَفْجَعُهُ الْكرُوبْ
وَالأرضُ يَحْرِقُهَا اللَّهِيبْ
وَالنَّاسُ تَحْصُدُهَا الْحُروبْ
كَيْفَ الْغِنَاءُ مَعَ الدِّماءْ
وَالأرضُ أَجْدَرُ بالبُكاءْ؟!
قَالتْ تَعَالَ معي إلى الشطِّ البعيدْ ... لا النَّارُ تُزْعِجُنَا وَلاَ جَرْسُ الْحَدِيدْ
فَهُنَاكَ ظِلُّ الأمْنِ مُنبَسِطٌ مَدِيدْ ... وَهُنَاكَ تُسْمِعُنِي أَنَاشِيدَ الْخُلودْ
فَأَجبْتُهَا
وَالنَّارُ تَلْمَعُ والسُّيوفْ
والصفُّ تَتْبَعُهُ الصُّفوفْ
كيف الفِرارُ من الْحُتوفْ
والبحرُ خُضِّبَ بالدِّماءْ
وَالأرْضُ تَصْرُخُ والسَّمَاءْ؟!
قَالَتْ مَتَى سُحُبُ الوَغَى تَتَقَشَّع ... وَمَتَى يَذُوبُ من الوُجودِ المِدْفَعُ؟
وَمَتَى حَمَامُ السِّلمِ يَوْماً يَسْجَعُ ... وَمَتَى القُلُوبُ عَلَى المحَبَّةِ تُجْمَعُ؟
فَأَجبْتُها
واللَّفْظُ يُمْسِكُهُ الحياءْ
والْقَلْبُ مُنْكَسِرُ الرَّجاءْ
هَيْهَاتَ لاَ يُرْجَى شِفَاءْ
ما بالنُّفُوسِ من الْعَِاءْ!
فالحربُ في الإِنْسَانِ دَاءْ

(وَالْحَرْبُ تَعْمَلُ لِلْفَنَاءْ ... كَالْحَرْبِ تَعْمَلُ لِلْبَقَاءْ)
محمد عبد الغني حسن
أصابع على معزف
للأستاذ العوضي الوكيل
كلما أرسلتْ أصابِعُك اللحـ ... ن رقيقاً كالشعرِ في روح شاعِرْ
خِلتُ أني سبحتُ في عالم القد ... س وجدْفت بالرُّؤى والخواطر
وتمنيْتُ أن تسيل على كفْـ ... يكِ روحي كاللحن ريَّانَ عاطرْ
العوضي الوكيل
هتاف من الماضي
أو في ظلال الأقصر
للأستاذ عماد الدين عبد الحميد
(هذه مقطوعة غنائية أطلعني عليها صاحبها الأديب في حياء وتردد واستطلاع!
فوجدتها - كأغنية - تستطيع أن تقف شامخة بين نظيراتها وأحببت أن أقدمها للرسالة.
وإذا قد لها أن تخرج ألحاناً وغناء فأرجو أن يكون حظها من التلحين والأداء خيراً من حظ مثيلاتها. وأن تخرج فيجو مصري لا في (سوق فارسية) ولا في (معبد صيني). وأن تسلم كذلك من روح الميوعة والتطريب التي يشقى بها الغناء وتفسد الأذواق)
سيد قطب
جَرت الفلكُ بركبِ الأملِ ... تسمع الدنيا نشيد القبلِ
كلما مرْت بنبعِ الأزلِ ... شدت الأطيارُ لحن الغزلِ
أيها السْاري إلى الفجر بنا ... تتهادى بشراعٍ من منى
هاك خمر النيل تجري فاسقنا ... واملأ غناء حَوْلنا
مرْ بنا كم مارٍ في هذا المكان ... موكبُ النيل رهيباً بالحسان
ومضىَ يختالُ في عرسِ الزمانِ ... بين عزفٍ وشرابٍ وأغانِ
كم جميلٍ قد طوى النيلُ وسارا ... ها هنا قبَّل النيلُ عذاري
كنَّ يَلْقَيْنك يا نيلُ حيارى ... ثملاتِ بين نشوى وسكارى
ملْ بنا نحو ظلالِ الأقصرِ ... في تهاد يا لسحر المنظر
ليتنا نقضي نصيب العمر ... ها هنا بين ظلال الأثر
حين تبدو سابحات كالجبالِ ... في محيطٍ من صخورٍ ورمالِ
لا ترى غير خيالٍ لجمالِ ... وخلودٍ لوجودٍ وزوالِ
قف بنا نتل كتاب الأقدمين ... سادة الأيام بين العالمينْ
ونحيّى في الثرى مجدَ السنينْ ... في جلالٍ وخشوعٍ وسكونْ
ها هنا قد عاش فرعونُ هنا ... ها هنا قد ساد خوفو ومِنا
ها هنا كل بعيدٍ قد دنا ... وجثا كلُّ عظيمٍ وانحنى!
هات ياهيكل وحيَ العبر ... شاخصاتٍ بين هذى الصُّور
ليتنا نقضي نصيب العمر ... ههنا بين ظلال الأثر
عماد الدين عبد الحميد
مدينة تدمر
للأديب مصطفى بعيو الطرابلسي
(في يوم 14 يوليو انتهت حملة الحلفاء في سورية بعد قتال استمر حوالي ستة أسابيع في تلك البلاد الشقيقة بين قوات الحلفاء من جهة وقوات قيشي من جهة أخرى، ولقد قام مطار تدمر في هذه الحملة بدور خطير، وتكرر ذكر هذه المدينة على صفحات الجرائد. فوفاء لتاريخ هذه المدينة وماضيها المجيد أكتب هذه السطور)
في وسط بادية الشام وجنوب خط عرض 35 شمالاً، وغرب خط طول 40 شرقاً، تقع مدينة تدمر ذات المطار الحربي في الوقت الحاضر والتاريخ المجيد في العصور الماضية، إذ كانت تسمى باليونانية بالميرا أي مدينة النخل، وباللغة العبرية (تمر) بإقحام الدال فيها، وهذا اللفظ يرادف كلمة (النخل). وقد ذكر المتنبي هذه المدينة في شعره، ولكنه اشتق اسمها من الدمار حيث نراه يقول في مدح سيف الدولة الذي تغلب على بعض قبائل العرب عبد مدينة تدمر:
وليس بغير تدمر مستغاثٌ ... وتدمر كاسمها لهمُ دمارُ

على أن الرخين لا يأخذون بهذا الرأي، ويرجحون أن قول المتنبي هذا من باب الاستقاق البديعي ذكره على طريقة الجناسَ، ويجمعون على أن سيدنا سليمان هو الذي قام بتأسيسها، ولهم في ذلك أدلة يذكرونها، ومنها شهادة الكتاب المقدس في سفر أخبار الأيام الثاني وسفر الملوك الثالث، إذ قال الكتاب عن سليمان: (فبنى سليمان جازر. . . وتدمر في أرض البرية).

ومنها أن ليهود يتناقلون أباً عن جد قصة بناء سيدنا سليمان لها، هذا فضلاً عن أن المؤرخ الشهير يوسف اليهودي قد روى هذا في كتاب العاديات اليهودية، وهو أحد مصادر التاريخ الإسرائيلي. ثم إن العرب اتفقوا على هذا الرأي ولا سيما سكان البادية، بل نراهم يزيدون على ذلك ويزعمون أن الجن هم الذين بنوا مدينة تدمر لسليمان، ومما يؤيد هذا الرأي قول النابغة الذبياني، نحن نعلم مكانته بين شعراء الجاهلية:

إلا سليمان إذ قال الإله لهُ ... قم في البرية فاحددها عن الفَنَدِ

وخبِّر الجن أني قد أمرتهمُ ... يبنون تدمر بالصُّفاح والعمدِ

وإذا كان المؤرخون قد اتفقوا على بناء سيدنا سلميان لها فقد اختلفوا في سبب بنائها، ولكن أغلبيتهم أجمعت على رغبة سيدنا سلميان في أن يجعل منها مربطاً لتجارة رعاياه، أو كما جاء في الكتاب المقدس إحدى (مدن الخزن).

هذه المدينة التي ازدهرت أيامها في عهد سليمان كعادة المدن الجديدة في أول إنشائها لم تلبث أن تدهورت بعد وفاة منشئها وأصبحت خاملة الذكر حق أوائل النصرانية، حتى أن هيرودوت أبا التاريخ القديم لميذكر في تاريخه، مع أنه قد زار معظم البلاد الشرقية الهامة في عصره والمحيط بالبحر الأبيض المتوسط. وكذلك لا نجد لها ذكراً في أخبار فتوح الإسكندرية فضلاً عن أن العالم الجغرافي (استرابون) لم يذكرها مع إلمامه بمعرفة الأنحاء الشرقية. كل هذه الشواهد تؤيد ما آلت إليه حالة تدمر من تدهور وخمول وهي التي كانت عامرة في أول عهدها لما اشتهرت به من غزارة مياهها، إذ كانت تجري فيها عدة أنهار لم يبق منها سوى جدول أو جدولين؛ أما عيونها المعدنية التي اشتهرت بها منذ القدم، فقد نضت.

وقد عثر الأثريون على كتابة نبطية قديمة في شمال جزيرة العرب ترجع إلى القرن السادس ق. م. تصف مدينة تدمر بأنها فندق متسع الأرجاء في بادية الشام، وهذا دليل على مركزها التجاري العظيم في سابق الأزمان وتأييد لما ذهب إليه بعض المؤرخين في تعليل سبب بنائها.

على تلك المدة التي اضمحلت فيها مدينة تدمر ما كانت إلا فترة استجمام سرعان ما عاد إليها نشاطها بعد ذلك، واستردت شهرتها من جديد، واسترجعت سلطانها القديم في التجارة على أثر انهيار الدولة السلوقية وكثرة الولايات المستقلة في شمال بلاد العرب والعراق التي اتخذت التجارة مهنة لها، فكانت القوافل تسير إلى بطرة وغزة وتدمر فأصبحت منذ ذلك العهد مدينة خطيرة وأخذت تتقدم عمرانياً، وأصبحت تجارة أوربا وآسيا في أوائل المسيحية في قبضة يدها. تمر بها تجارة بلاد العرب من ذهب وعطور ولآلئ البحرين وتوابل الهند وهي في طريقها إلى روما، فعرف الرومان قيمة مركزها التجاري فاستمالوها إليهم ثم ما لبثوا أن ضموها إلى أقاليمهم الشرقية وأحاطوها بالحميات العسكرية، كما حصنوا الطريق الذي يصلا بنهر الفرات لحماية تجارتهم وتأمينها من غارات القبائل.

ومن الآثار التي عثر عليها الأثريون والتي ترجع إلى سنة 137م مرسوم أصدره مجلس شيوخ المدينة لحسم الفتن التي قامت بين النجار ومأموري الخزانة من أجل المكوس وارتفاعها إذ كانت البضائع الصادرة أو الواردة تجبي عليها ضريبة ثابتة ثم ضريبة أخرى تختلف باختلاف قيمة البضائع ومقدارها، وقد عرفنا من هذه النقوش أيضاً نوع التجارة التي كانت تمر بمدينة تدمر وهي بالإضافة للأنواع السابقة عبارة عن دقيق وزيوت عطرية وغلال وأثمار يابسة وملح من ممالح تدمر الكثيرة في ذلك العهد مما جعل لأهلها شهرة خاصة في قيادة القوافل التجارية عبر الصحراء لحسن خبرتهم بالطرق ولاستعدادهم لمقاومة أعمال قطاع الطرق. فلا عجب بعد ذلك أن شابهت تدمر البندقية فيالعصور الوسطى من حيث المركز التجاري. وكانت تدمر تحتفظ لنفسها بنصيب من دخلها السنوي بعد أن تؤدي إلى روما الجزية المفروضة عليها.

هذا كل ما يمكن أن يقال باختصار عن تجارة تدمر في أزهي عصورها. وقد تكلم في

هذه الناحية بتوسع كل من الأستاذ (تولدكة)، (ساخَوْ)، (دي قوكويه). وعرفنا من النقوس السابقة الذكر أنه كان لتدمر مجلس وطني يسن القوانين ويتألف من رئيس وكانت وعدد من الأعضاء. وكانت السلطة التنفيذية في عهده شيخين وديوان يتكون من عشرة حكام. أما السلطة القضائية فكانت من اختصاص بعض الوكلاء.

أما لغتها الرسمية اللغة اليونانية كما هي العادة في جميع الممالك الرومانية الشرقيى؛ ولكن أهلها كانت لهم لهجة خاصة هي الهجة الآرامية وهي قريبة من السريانية. ويقال إن المسيح عليه السلام قد تكلم بها، ولكن هذا لم يثبت بعد. على أن الخط التدميري إلى الآن لا يعرف المؤرخون صورته حق المعرفة في القرون السابقة للمسيحية، لأن جميع الكتابات والرسوم التر عثر عليها حتى الآن ينحصر تاريخها فيما بين القرنين الأول والرابع المسيحيين، وأقدم هذه الكتابات لا تتعدى السنة التاسعة قبل المسيح. ويؤكد المؤرخون أن تدمر قد اقتبست صورة حروفها من الفينيقيين.

اختلف المؤرخون في تحديد السنة التي خضعت فيها تدمر لحكم الرومان ولكنهم أجمعوا على أنها لم تتبع روما قبل سنة 36م، وعلى الرغم من خضوعها لروما كانت تتمتع ببعض الحقوق المدنية، ومنحت امتيازاً خاصاً يخولها السيادة على جميع البلاد والمجاورة لها. ثم

تطورت العلاقة بين تدمر وروما إلى شبه محالفة لا سيما بعد أن أخذ أمر بني ساسان يستفحل وهم الأعداء الألداء لوما وبأطرتها.

ثم انتهى الأمر في تدمر بقيام رجل من أبنائها يتمنى إلى بني السميدع ويلقب بأذينة، تمكن من إلان سلطانه على تدمر وخضاع قومه، واتخذ له لقباً ملكياً في سنة 250م، ولكني سرعان ما أقلق هذا العمل بال الأمبراطور الروماني واستطاع أن يتخلص منه بقتله؛ ولكن سلالته استطاعت أن تحتفظ بعرشها وعملت على تحسين علاقتها مع روما، بل نرى أذينة الثاني يحارب الفرس إلى جانب الروم مما كان له أحسن الأثر في نفوس الرومانيين. ولكن أذينه الثاني لم يعمر طويلاً إذ اغتاله ابن أخيه لحقده عليه، وتولت إدارة شئون البلاد زوجته الزباء وصية على ابنها الكبير (وهبلات) ونجحت في إدارة شئون الدولة وقامت بأعمال جليلة وعملت على تعمير البلاد. وما زالت آثارها باقية تخلد اسمها؛ مع أن الاهالي يخلطون بينها وبين ما فعلته (زبيدة) زوجة هارون الرشيد ومن الصعب تعقب أخبار هذه الملكة في سطور لكثرتها وقد نشر الأستاذ فريد أبو حديد قصة تاريخها في مجلة الثقافة.

ومما يلفت النظر أنه على الرغم من شهرةهذه الملكة فإن الغموض يحيط بتاريخها، فنجد مثلاً مؤرخي العرب ينسبون إليها قصة مع أحد ملوك الحيرة، وقد أورد لها ملخصاً المسعودي في كتابه مروج الذهب ولكن بعض المستشرقين وعلى رأسهم الأب سبستيان رنزفال اليسوعي يشك في صحة هذه القصة.

توترت العلاقات السياسية بين زينب ملكة تدمر وروما وانتهى الأمر بأسرها بعد حرب شاقة وتدمير المدينة مما دفع أهلها للقيام لأخذ ثأرها؛ ولكن القائد الروماني (أورليانس) قابل هذه الحركة بتهديم المدينة. وهكذا تدهور حال المدينة وأخنى عليها الدهر إلى أن جاء بنو غسان فاتخذها بعضهم منزلاً له وبقيت على حالتها المتأخرة حتى فتحها المسلمون في سنة 634م عندما مر بها خالد بن الوليد في حملته إلى سوريا.

مصطفى بعيو الطرابلسي

كلية الآداب. اسكندرية

البريد الأدبي

واالد الملوك الأيوبيين

أنقل ميدان الكلام عن الملك ووالد الملوك نجم الدين بن أيوب إلى مجلة (الرسالة) الغراء، لأنني أصلحت على صفحاتها شعراً رواه الأستاذ جمال الدين الشيال عن الشاعر بوري أخي السلطان صلاح الدين الأيوبي.

ولقد ذكرت في كلمتي الأولى في (الرسالة) أن بوري هو (ابن الملك الصالح نجم الدين الأيوبي) فعد الأستاذ الشيال ذلك مني (خطأ رئيسياً هاماً)، ووهم - سامحه الله - أنني خلطت بين والد صلاح الدين وبين الملك الصالح نجم الدين حفيد العادل وأحد الذين حكموا مصر في العهد الأيوبي.

وليس في تلقيبي نجم الدين بن أيوب (بالملك الصالح) خطأ يدعو الأستاذ الشيال إلى

تصحيحه في مجلة (الثقافة) الغراء؛ ولمأكن في هذا التلقيب حائداً عما اعتاده مؤرخو العصر الأيوبي من تلقيب طائفة من أمراء هذا البيت بالملوك، مع أنهم لم يكونوا ملوكاً (ولم يحكموا مصر). فالعماد الأصبهاني مؤرخ صلاح الدين وصاحب كتاب (الفتح القسي في الفتح القدسي) يلقب الأمير أسد الدين شيركوه (بالملك المجاهد، الجواد الماجد) (ص235 طبعة الموسوعات)؛ ويلقب أيضاً سيف الدين أخا صلاح الدين الأيوبي (بالملك العادل) قبل أن يصير إليه ملك مصر: (أنظر ص227 من الفتح في الكلام على وقعة أرسوف).

ويلقب تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أخي صلاح الدين (بالملك المظفر)، مع أنه مات في حكم صلاح الدين ولم يكن له، ولا يمكن أن يكون له حكم مصر: (أنظر ص 290 من المصدر المذكور).

ومن هذا يتضح أن تلقيب نجم الدين بن أيوب بالملك الصالح صحيح لا غبار عليه وقد وصفه أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي صاحب النجوم الزاهرة بالأمير: (أنظر الجزء السادس) والسبب في تلقيبه بالصالح أنه كان محباً للصالحين، كما يذكر أبو المحاسن (ص67 ج6).

والحق أنني بعد ذلك كله لم أر وجهاً لاعتراض الأخ الأستاذ جمال الدين الشيال على هذا
اللقب الذي لقب به نجم الدين الملك وأبو الملوك، وهو اللقب الذي كان يخلع في ذلك العهد على أمراء البيت الأيوبي غير الملوك.

(المنصورة)

محمد عبد الغني حسن

آثار الحضارة المصرية في نيجيريا العليا

نشرت إحدى المجلات العلمية في لوزان نبأ جاء فيه أن بعض المكتشفين عثروا في منطقة نيجيريا العليا على مجموعة من الفيروز الأزرق الذي كان يحتفظ الصناع من قدماء المصريين بسره.

ومما قالته المجلة أن هذه المجموعة من لآلئ الزجاج الأزرق، لابد أ، تكون أتت من مصر، لأن قدماء المصريين كانوا رسل الحضارة، وأول من أنشأوا المراكز التجارية، وأدخلوا الحرف في المناطق التي تقع على ضفاف بحيرة تشاور والبلاد التي يرويها نهر النيجر وفي السنغال. بل إن أولئك المصريين القدماء كانوا أول من أدخلوا في هذه البلاد عن طريق دارفور و (واداي) الحيوانات الداجنة، ولاسيما الحمير كما أنهم مارسو فيها فن البناء الفرعوني.

في اللغة

1 - دعا الأستاذ طه محمد الساكت الباحثين إلى استنباط مثال واحد من منثور العرب - بعد أن بحث جاهداً عن شاهد واحد فأعياه البحث - تقدم فيه القسم على الشرط والجواب فيه للشرط، على خلاف القاعدة النحوية المشهورة أن يكون الجواب للمتقدم.

وأجيب دعوة الأستاذ فأقول: إن لدي شواهد كثيرة لما يريد وقعت لي في أثناء قراءتي وعنيت بتدوينها وإن لم تكن بين يدي أو في الطاقة الحصول عليها الآن؛ ولكني أذكر واحداً منها يحضرني، وقع لي في الجزء الأول من العقد الفريد من كلام لعمر بن الخطاب قاله لمعاوية بن أبي سفيان حين قدم عمر على معاوية بالشام. قال معاوية: (فإن أمرتني بذلك أقمت عليه وإن نهيتني عنه انتهيت). فقال عمر: (لئن كان الذي تقول حقاً فإنه رأي أريب، وإن كان باطلاً فانها خدعة أديب).

قلت: ورد الخبر هكذا في جميع طبعات العقد حتى الطبعة الحديثة التي أخرجتها لجنة التأليف والترجمة والنشر منذ شهور، (ج1 ص16).

وهكذا ورد أيضاً في طبعة المكتبة التجارية التي صدرت منذ شهرين وحققها الأستاذ محمد سعيد العريان.

فان لم يكن محرفاً - وما أكثر التحريف في العقد - فهو الشاهد المسكت للأستاذ الساكت.

2 - من القواعد أفعل التفضيل المشهورة أنه إذا كان محلي بأل امتنع أن يؤتى بعده بالمفضل عليه مجروراً بمن، فلا يصح أن يقال: (أنا الأكثر منك مالاً).

ولما رأيت أكثر أدبائنا وأشدهم تدقيقاً وتحرياً للصواب في اللغة يقعون في هذا الخطأ أو فزت إلى التنبيه عليه. ومن أمثلة الخطأ فيه ماجاء أخيراً في كلمة الأستاذ حبيب الزحلاوي (محصول الرسالة) المنشورة بالعدد 418 من الرسالة قال: (والأنفع من هذا وذاك الخ)، وما جاء من مقال الأستاذ العقاد (القدوة والإصلاح) بالعدد 377 قال: (دنيا صاخبة هي العوض الأنفس من كل ما يفوته من الأنس بالمجتمعات) إن كان يريد أن كل ما يفوته هو المفضل عليه. أما إن جعل الجار والمجرور متعلقاً بالعوض - ولست أظنه يريده - فلا خطأ. ومنه أيضاً ما جرى على لسان الشيخ البشري كثيراً في الجزء الثاني من كتابه (المختار) حيث قال: (الأقل من القليل). . . والسلام على من اتبع الهدى.

(بني سويف)

محمد محمود رضوان

المدرس بالمدرسة النموذجية

الحسبة في الاسلام

نشر الأستاذ محمود الشرقاوي في العدد 417 من (مجلة الرسالة) كلمة عن التسعيرة الجبرية في الأندلس تحت عنوان: (من حضارة الإسلام في الأندلس). ولعل في الكلمة الآتية زيادة فائدة في الموضوع.

علم الاحتساب علم باحث عن الأمور الجارية بين أهل البلد من معاملاتهم اللاتي لا يتم التمدن بدونها، حيث إجرؤها على القانون العدل بحيث يتم التراضي بين المعاملين، وعن سياسة العباد بتهي المنكر وأمر المعروف.

أما المحتسب فله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مما ليس من خصائص الولاة والقضاة وأهل الديوان ونحوهم. وكثير من الأمور الدينية هو مشترك بين ولاة الأمور، فمن أدى فيه الواجب وجبت طاعته فيه. فعلى المحتسب أن يأمر العاملة بالصلوات الخمس في مواقيتها ويعاقب من لم يصل بالضرب والحبس، ويتعاهد الأئمة والمؤذنين، فمن فرط منهم فيما يجب من حقوق الإمامة أو خرج عن الأذان المشروع ألزمه بذلك، واستعان فيما يعجز عنه بوالي الحرب والحكم وكل مطاع يعين على ذلك.

ويأمر المحتسب بصدق الحديث وبأداء الامانات وينهي عن المنكرات من الكذب والخيانة ما يدخل في ذلك من تطفيف الميزان والمكيال والغش في الصناعات والبياعات ونحو ذلك.

وله أن يكره الباعة على بيع ماعندهم بقيمة المثل عند ضرورة الناس إليه، ولا معنى للتسعير إلا إلزامهم بقيمة المثل. وله أن يجبر أهل الصناعات على ما يحتاج إليه الناس من صناعاتهم كالفلاحة والحياكة والبناية، ويقدر أجرة المثل فلا يمكن المستعمل من نقص أجرة الصانع عن ذلك، ولا يمكن الصائع من المطالبة بأكثر من ذلك حيث تعين عليه العامل. وهذا من التسعير الواجب.

وأما صفة ذلك (أي التسعير) فينبغي للامام أن يجمع وجوه أهل سوق ذلك الشيء ويحضر غيرهم استظهار على صدقهم فيسألهم كيف يشترون وكيف يبيعون فينازلهم إلى ما فيه لهم وللعامة سداد حتى يرضوا، وإذا امتنعوا عن بيع ما يجب عليهم بيعه عوقبوا.

أحمد صفوان

مصطلحات المجمع اللغوي

كان المجمع اللغوي ينشر في مجلته السنوية ما أقره من المصطلحات العلمية والفنية أثناء موسم الانعقاد؛ وقد رؤي أن تفرق هذه المصطلحات في مختلف أجزاء المجلة، واختلاطها بغيرها من الأبحاث والدراسات، لاييسر على الباحثين سبيل الرجوع إليها عند الحاجة، فتقرر أن تجرد جميع المصطلحات التي وضعها المجمع خلال أدوار انعقاده الماضية قبل النظام الجديد، وأن تطبع في كتاب مستقل يكون قريب التناول للمؤلفين والمدرسين

والراغبين في البحث والدراسةذ. وقد أعد هذا الكتاب للطبع في المطبعة الأميرية، وتبلغ مصطلحاته نحو ثلاثة آلاف في علوم الأحياءذ والطب والحرارة والكهربا واللاسلكي، وفورع الرياضة والعمارة والموسيقى والتاريخ، وأدوات الشؤون العامة،

إلى غير ذلك من ضروب العلوم والفنون والآداب. وينتظر أن يخرج هذا الكتاب من المطبعة في سبتمر المقبل.

إلى الدكتور علي عبد الواحد وافي من السودان

أتتبع باهتمام القيمة (في الاجتماع اللغوي) على صفحات (الرسالة) الزاخرة. . . وفي حديثك أخيراً عن الهجات العامية الحديثة استوقفتني عبارتك: (وأدنى هذه المجموعات إلى العربية الفصحى مجموعتا اللهجات الحجازية المصرية). . . استوقفني هذه العبارة، وكان بودي أن أكتب إليك هذا في حينها، ولكن الانهماك المتواصل في سبيل العيش لم يسمح لي بذلك.

فإن كنت تقصد بتلك العبارة أن اللهجة المصرية هي لهجة وادي النيل الذي يشمل مصر والسودان، وهذا ما أستبعده وأشك فيه، لأنها ليست هذه هي أولى المرات التي يُهمل فيها السودان ويسقط سهواً وعمداً من حساب الشرق والعرب. . . إن كنت تعني بها ما قدمت، فذاك، وإلا فلتعلم ياأستاذي الفاضل أن بالسودان - وخصوصاً أواسطه - لهجة هي من أدنى اللهجات إلى العربية الفصحى إن لم تكن أدناها جميعاً.

ولست في حاجة لسرد الأدلة والبراهين لإثبات هذه الحقيقة ولكن لك أن تبحث وراءها، ولك في الكثير من قادة الفكر المصري الذين زاروا السودان خلال السنوات الأخيرة أكبر مصدر ومرجع.

وبهذه المناسبة أتمنى أن تساعدني ظروفي السيئة لأتحف أستاذينا الكبيرين المبارك والزيات بمختارات من أدبنا القومي ليلمسا فيه الذوق العربي الصحيح مجسماً؛ وليستنشقا منه عبير العربية المتغلغلة في النفوس. أسأل الله أن يوفقني ويوفق معي الكثير من أبناء هذا القطر البررة هنا وهناك للقيام بهذه المهمة وإسداء هذا الجميل إليهما، حتى إذا ما زارا هذا القطر المظلوم تذوقاً بسهولة ما يقدمه إليهما من أدب قومي رفيع.

أحمد المبارك عيسى

تعقيب

جاء في ص (867) من العدد (418) من (الرسالة) في حديث للدكتور علي عبد الواحد وافي عن (اللهجات العامية الحديثة)، ومنه عن اللهجات غير العربية التي يتكلم بها بعض الطوائف في سوريا، وهي اللغة المتحدرة من الآرامية، وأن ثلاث قرى هي: معلولة، صدنايا، يبرود. وهي التي يتكلم أهلها هذه اللغة.

والمعروف أن القرى الثلاثة المقصودة في حديث الدكتور هي: معلولة - جَبْعِدين - بحْفَا، وهي واقعة في الشمال الشرقي عن دمشق.

فهل لحضرة الدكتور أينير معرفتنا عن سبب الخطأ الوارد في حديثه عن تسميته هذه القرى، وله منا خالص الشكر المشفوع بالاحترام.

جودة مرعشلي

استدراك

في العدد 417 من الرسالة الغراء مقال في غزوة حنين، جاء في آخره ما يفيد أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الخوارج: (أكفارٌ هم؟) فقال: (من الكفر فروا) قيل: (أمنافقون هم؟) فقال: (إن المنافقين لايذكرون الله إلا قليلاً وهؤلاء يذكرون الله كثيراً) قيل: (فما هم) قال: (فتنتة غشيتهم).

والصواب أن المسؤول الذي أجاب هذه الأجوبة عن الخوارج هو علي بن أبي طالب لا النبي صلى الله عليه وسلم. وفي أيام علي خرج الخوارج في العراق، وكانت سيرة على في مقاتليه من أصحاب الجمل وصفين والخوارج سيرة إنصاف وإغدار واعتراف بحق ولم بك رضي الله عنه يبخس أحداً شيئه صديقاً كان أم عدواً.

(دمشق)

سعيد الأفغاني

القصص

الرجل المكروه

عن الانجليزية

للأستاذ عبد اللطيف النشار

وقف على غير انتظار في وسط الجمع وكان صامتاً وكانوا صامتين، ويظهر أنهم

يشعروا ببدخوله، فابتسم ثم جرّ كرسياً وجلس على مقربة من صاحبة المنزل، فلما نظرت إليه قالت: (ما أغرب تصرفاتك! هل مشيت كل المسافة بين بروم هيل وبين المنزل في هذه الشمس؟).

فهز رأسه بالايجاب دون أن يتكلم، وقد كان غريب التصرفات كما وصفته مسز ألينورا بونيتون التي أمرت على أثر مجيئه بالشاي والتفتت إليه وقد كان مجيئه بغير دعوة وجلوسه بغير استئذان.

ودار الحديث بينهم متجاهلين جوده فشرب الشاي في صمت وهو شاعر بهذا التجاهل ولكنه لم ينسحب من المجلس ولم يهم بالانسحاب.

وقالت اللادي مارتين لصاحبة المنزل: (ما أغرب هذا الرجل ياعزيزتي ألينورا! أهو نموذج لأهل جيراتكم؟ لقد كنت أظن أهل هذا الوسط راقين!).

فهزت مسز ألينورا كتفها وقالت: (لا يعلم إلا الله من هو وماذا يريد، وليس فينا من يحبه غير زوجي، وأنت تعرفين أنه يسر من كل شيء غير عادي).

فقالت الزائرة: (ولكن من أين أتى؟ هل هو جار؟).

قالت: ألينورا: (اسمه ليندهام وهو يسكن في كوخ على بعد بضعة أميال، وليس لدي أي إنسان فكرة عن شخصيته ولا عن الجهة التي جاء منها، وهو يقضي معظم أوقاته في المشي في الطريق وفي غزو المنازل).

قالت اللادي مارتين: (يظهر من هيئته أنه راق وأنه غريب الأطوار).

فاختلست مسز بوينتون نظرة من المستر ليندهام وقد كان في ثياب شديدة القدم ولحية مقصوصة على غير نظام ورباط رقبته منحرف، ولكن في هويته علائم التهذيب وصوته الهادئ الرصين يفتن سامعيه.

وعادت الزائرة إلى الكلام فسألت صاحبة المنزل: (لماذا يأتي هذا الرجل هنا؟).

فأجابتها ألينورا: (لا أعرف سبب مجيئه خصوصاً مع غياب زوجي عن المنزل، ولا أحد يلاطفه هنا لا يكاد يكلم أحداً، وهو يكثر من المشي تحت الدار. وقد قابلته في إحدى الليالي فرأيته يكلم نفسه بصوت منخفض ولم تكن المسافة بيني وبينه أكثر من متر، ولكنه لم يلاحظني وقد خفت منه كما أخاف من الموت).

قالت الزائرة: (إن زوجك رجل طيب يالألينورا؛ وعلى ذكر زوجك أخبريني ماذا تم في القضية؟).

فقالت صاحبة المنزل: (إنه ذهب ليقابل المحامين، ويظهر أنهم لم يحصلوا على رد من السير جيرفاس؛ ويظهر أنهم لايعرفون مكانه).

فنظرت اللادي مرتين من خلال النافذة وقالت: (أرجو ألا تخسروا القضية فإن هذه الجهة من أحسن الأماكن في الإقليم) ونظرت ألينورا من خلال النافذة أيضاً إلى المنظر الذي أطلعت عليه اللادي وقالت: (إخال أنني أسمع صوت عربة مقبلة) ثم وقفت وخرجت من الغرفة. وبعد قليل عادت وأعلنت قدوم الأميرة فوقف جميع الضيوف إلا الزائر غير المرغوب فيه. ونظرت ألينورا إلى هذا الرجل الذي لايحبه إنسان نظرة مقت وانتظر الجميع أن يكون لدى الرجل من حسن الذوق ما يحمله على مغادرة المنزل قبل أن تأتي الأميرة.

على أنه لما أقبلت الأميرة وقف ودار بعينيه في الفضاء، وكان بادياً على الأميرة التعب ولكن تعبها لم يؤثر على جمالها الرائع. وفي فترة التعارف وجدت نفسها وجهاً لوجه أمام ليندهام الذي لم تعن مسز بوينتون بتقديمه إلى الأميرة فقدم هو نفسه إليها قال: (هل تسمحين يا صاحبة السمو بأن أذكرك بإسمي؟ أنا ريتشارد ليندهام وأرجو ألا تكوني نسيتني).

فمدت إليه يدها وقالت بصوت عذب: (إن الإنسان لا ينسى أقدم أصدقائه. وإني مسرورة جداً برؤيتك يا مستر ليندهام).

وجيء بالشاي، ثم دخلت الأميرة قاعة أخرى وطلبت من صاحبة المنزل أن تدعو إليها المستر ليندهام لأنها تريد محادثته.

قالت مسز بوينتون: (ليندهام ياصاحبة السمو؟!).

وكانت لهجتها شديدة الدلالة على الاستغراب، ولكن الأميرة كررت أنها تريد محادثته، فذهبت إليه صاحبة المنزل وقالت بغير ما اعتادته من لهجة في مخاطبته: (إن الأميرة تريد أن تراه؛ فقام متباطئاً ولم يبد عليه شيء من الاستغراب، ولا أظهر شيئاً من

الاهتمام وقال: (اسبقيني وسأتبعك).
أغلق الباب وكانت الأميرة في حالة غير عادية: فعيناها مغرورقتان بالدموع وقالت: (لقد ظفرت بك في النهاية ولن تستطيع أن تفلت مني. تعال الآن).
فتناول كفها ورفع يدها إلى شفته؛ وتغيرت هيئته ففارقه مظهر الخشونة المعتاد، وأصبحت نظراته وصوته كصوت الطفل ونظراته وقال: (ياعزيزتي جبربيل، هل لا تزالين مؤمنة؟ ألم تنفقدي ثقتك؟). فقالت: (كلا. كلا. ولا لحظة واحدة).
قال: (الحمد لله).
ثم انقضت لحظات في صمت، وبعد ذلك قالت: (ألا تزال باسمك المستعار؟) فقال: ليس لي اسم سواه.
قالت: ولكنك في انكلترا ولم تتركها إلى غيرها. فقال بلهجته التهكمية القديمة: ليس أغرب من ذلك.
قالت: (لقد تغير كل شيء فلم أتبين أين كنت)؛ فمشى نحو النافذة وقال: (لقد كان إطلاق الرصاصة من هذا المكان وكان أكثر من عشرة أشخاص مستعدين للشهادة بأنه لم يكن يقيم هنا أحد غيري).
قالت الأميرة: يظهر يا جيرفاس أنك هنا لغرض خاص، فقال: وأنت؟.
قالت: لغرض أيضاً. . . فقل لي: هل تسلمت خطاباً؟.
فقال: نعم، وهو السبب في مجيئ من النمسا. . . انظر وعرضت عليه خطاباً، فرمقه بنظرة ثم قال: هو كخطابي تماماً، ويعلم الله أن هذا في منتهى الغرابة. . . ولكن الذين على وشك الموت كثيراً ما يقولون الحقيقة!.
وكان في هذه الأثناء يفحص الحائط وفي يده سكين يضرب بها في مكان بعد مكان ويتسع الصوت. . . وكانت الأميرة تراقب حركته وهي واقفة وراء ظهره، وقال: ليس هنا أي
دليل يساعدنا.
قالت: لقد اختفى جزء مهم من أركان القضية. . . أين هو الرجل الذي أخفي مطلق الرصاص؟.
فهز رأسه وقال: لقد كان من الغباوة ألا أفكر في المكان من قبل، ولقد اختفى جزء من القضية كما تقولون، ولكن الجزء الآخر لا يزال باقياً. . .
وأشارت إلى شيء ملقي على الأرض، فتناوله وقال: هذا دفتر مذكرات. . . ففتحت الصحيفة الأخيرة منه وصاحت:
- ماهذا يا جيرفاس؟.
فهز كتفه وقال: هذا ما ليس يعلمه إلا الله.
وحاول أن يقرأ الأسطر التي أشارت إليها، ولكنه صاح بدوره: إقرائي أنت. . . فإنني لا أستطيع.
فاختطفت الدفتر من يده واقتربت من النور. . .
ظل الرجل الذي لا يحبه إنسان. . . الرجل الذي تعده صاحبة المنزل فضولياً. . . ظل مع الأميرة نحو ساعة، وكانت صاحبة المنزل ومن معها يتحدثن في هذه الأثناء. . .
وقد نالت الأميرة رتبتها بالزواج من أمير، وهي من أسرة قديمة، ولكنها قبل الزواج كانت فقيرة، ويشاع أنها كانت مربية في بعض البيوت. . .
وفي عهد هذه القصة كان الأمير متوفى منذ عام، تاركا لها ثروة كبيرة، وكان مركزها في المجتمع موطداً بالرغم من إشاعات السوء التي كان يشيعها عنها بعض الناس.
وقد سئمت مسز (بوينتون) من تكرار القول لزائريها أنها لا تعرف (ليندهام)، وأنه جاء من حيث لا يعرف إنسان، وأن زوجها المستر (آرثر) قد اهتم بشأنه، ولكنها كانت مرتابة منه منذ البداية. . . وبينما هي لا تزال كذلك تضرب على هذه النغمة، إذ دخلت الأميرة ومعها المستر (ليندهام) كما هو معروف بهذا الاسم بين الزائرين، أو السير (ليندهام) كما هو معروف بهذا الاسم بين الزائرين، أو السير (جيرفاس) هو اسمه الحقيقي، وقالت الأميرة: لقد رأيت الغرف التي أعددتها لضيافتي، ولكن يظهر أن إحداها لها تاريخ، فهل صحيح أن السير (نولز فلتون) قتل برصاصة أطلقت عليه من نافذة غرفة الجلوس؟!.

ظهر شيء من الاضطراب على وجه صاحبة المنزل وقالت:
- نعم، ولكن هذا من سنوات عديدة، وكنت أظن أن كل إنسان نسي ذلك، وأظنك يا صاحبة السمو لا تخافين من الأشباح. . .
فابتسمت الأميرة وقالت: لقد رأيت الآن واحداً من هذه الأشباح. . .
وكان السامعون يتحدثون فيما بينهم ويتساءلون عما تتحدث عنه الأميرة. وقد بدت علائم الاعتمام. وقالت الأميرة: نريد أن تحدثينا يامسز بوينتون عن تلك الجريمة. لقد قتل السير نوليس وهو يمشي على الشرفة. وكانت الإصابة من مجهول، فهل عرف شيء عن سرها؟.
فقالت مسز بوينتون: أما في المحاكم فلا، وأما بصفة قاطعة بين الناس فلا. ولكن القرائن ضده أنه بالرغم من أن التهمة لم توجه إليه فإنه غادر البلاد هارباً ولم يعرف له مكان.
قالت الأميرة: لم يكن بينهما خصومة معروفة، ولكن شاع بعد الحادث وبعد سفر جيرفاس أن بينهما سوء تفاهم، إلا أنه لحسن حظ جيرفاس لم تقل كلمة في هذا الصدد في التحقيق.
قالت الأميرة: ولكن هل عرف شيء من أسباب سوء التفاهم؟ فهزت مسز بوينتون كتفها وقالت: يقال إنه كانت هناك مربية لأولاد اللادي موري أخت الشقيقين، وكان كلاهما عاشقاً لها، وأن جيرفاس قتل أخاه مدفوعاً بدافع الغيرة. ويرجح أن الرصاصة خرجت من غرفة السير جيرفاس. وقد بقي السير جيرفاس في انكلترا بعد وقوع الجريمة ببضعة شهور، ثم سافر وأملي ألا يعود، لأنه إن عاد فسنضطر إلى إخلاء هذا المنزل له وهو خير مكان يوافقنا.
فابتسمت الأميرة وابتسم المستر ليندهام، وقالت الأولى: ولكن ما رأيك في أنالسير جيرفاس قد عاد وأنه جالس بجانبي الآن؟.
فقالت مسز بوينتون وقد بدت عليها علائم الدهشة والانزعاج: المستر ليندهام؟.
فأحنى الرجل رأسه وقال: إنني أعتذر على انتحالي اسماً مستعاراً، ولكن كان لدي أسباب هامة تضطرني إلى زيارة الأماكن المجاورة، وأنتم تدركون عذري إذا لم أستطع الظهور باسمي الحقيقي. وإن غياب ثمانية أعوام وإرسال اللحية لجديران بتغيير الهوية.
قالت مسز بوينتون: ولكن الأميرة عرفتك عند ما رأتك.
فقال: نعم.
وقالت الأميرة: ربما كنتم قد سمعتم بأنني قضيت عامين مربية قبل زواجي من الأمير برليتز، ولكن الذي لا تعرفونه على ما أظن هو أنني كنت مربية في نفس هذا المنزل. وربما أدهشكم أن السير جيرفاس الذي يتهم بأنه قتل أخاه قبل من أجلي لم يكلمني أية كلمة قبل الآن.
ساد الصمت وقد كانت القرائن كلها قوية ضد جيرفاس والأميرة. ولكن لم تظهر على واحد منهما أدلة الإجرام. واستأنفت الأميرة الكلام فقالت: (وقد استكشفنا أن في الغرفة التي كنت أقيم فيها مكاناً سرياً في الحائط بينها وبين الغرفة المجاورة؛ وهذا المكان هو المخبأ الذي أطلقت منه الرصاصة.
وقالت: إنه وصل إليها بالنمسا وإلى السير جيرفاس في الاسكا خطابات من مجهول فاضطرا إلى المجيء وإلى دخول المنزل للبحث عن هذا المكان السري. وقالت: إن استكشافهما كان خطيراً. ثم اطلعت صاحبة المنزل على دفتر المذكرات وقالت: إنه دفتر مذكرات السير جوليس لترانج وصيف السير نوليس فيلتون، وهو يعترف بأن كتمانه الحقيقة يكاد يصيبه بالجنون، ويظهر أنه كان قريباً جداً من الجنون لما كتب هذه المذكرة. وهذا نصها فاقرئيها!.
فقرأت مسز بوينيون:
(سبتمبر - لا أستطيع الاحتمال فوق ذلك. إنها كانت تغض النظر عني لأني وصيف ولا تعني بغير السيد، وقد قتلته وألصقت التهمة بالسير جيرفاس).
وقرأت مسز بوينتون بعد ذلك الخطاب الذي وصل إلى الأميرة والخطاب الذي وصل إلى السير جيرفاس فوجدتهما بخط واحد، وهو نفسه خط صاحب المذكرة. وقد روى في الخطابين أنه في المستشفى في حالة الاحتضار.

فقالت: (هذه أنباء غريبة، ولكن أخشى ألا أستطيع تجديد عقد الإيجار).
فابتسم السير وقال: (هذا يتوقف على رغبة الأميرة).
عبد اللطيف النشار
العدد 423 - بتاريخ: 11 - 08 - 1941
الرحمة قوة
للأستاذ عباس محمود العقاد
(وبعد فإنني أحد دارسيك، ومن طليعة المعجبين بغزارة علمك وقوة أدبك وسموه، ووفرة إنتاجك وتنوعه، لهذا لا احسبني متطفلاً إذا ما سألتك سؤالاً في موضوع طالما فكرت فيه، وهو: أصحيح ما يقال إن الرحمة من أخلاق الضعفاء، وإنها أبعد الصفات عن الأقوياء، وإن الإنسان كلما ازداد قوة ازداد قسوة؟. . . فهل تتفضل يا سيدي بالإجابة على سؤالي هذا على صفحات مجلة الرسالة الغراء لأنني من المدمنين قراءتها؟ ولك مني جزيل الشكر سلفاً. . .)
بغداد - شارع الرشيد
عبد الكريم جواد المحامي
وجوابي على سؤال الأستاذ الفاضل أن الرحمة قوة وليست بضعف، لأن الرحيم يعطي من فيض نفسه من يحتاجون إلى رحمة، ولا تملك النفس فيضاً تعطيه إلا وهي ممتلئة تستغني عن جزء من ذخيرتها لإسعاف غيرها. وليس هذا من شيمة الضعفاء.
والرحمة كلاءة ورعاية، ومن يكلأ غيره ويرعاه فليس هو بالضعيف.
وينبغي أن نرجع إلى الطبيعة، لنعلم ما هو طبيعي.
ينبغي أن نرجع إلى الطبيعة لنعلم الخلق الأصيل والخلق الذي هو عاهة طارئة أو نقص كمين.
والطبيعة تقول لنا إن الرحمة ركن من أركانها في أداء غرض من أهم أغراضها، بل هو أهم أغراضها على الإطلاق، وهو حفظ النوع وتجديده، وتعهد الأبناء الصغار إلى يوم استغنائهم عن معونة الأولياء الكبار.
فكل والد رحيم بغير اختياره: رحيم باختيار الخالق الذي خلقه وسخره لحفظ نوعه.
وكيف يقال إن الطبيعة تعتمد على الضعف في طلب البقاء؟ أو تعتمد على الضعف في غريزة أصيلة يوشك أن يتلاقى فيها الإنسان وسائر الأحياء، ممن صعد ولو قليلاً على سلم الارتقاء؟.
لو قلنا إن القسوة عجز وليست بقوة لما أخطأنا الدليل على ذلك من طبائع الأحياء التي عهدت فيها الضراوة وخلت طبائعها من الرحمة وما يماثلها.
فإن الوحوش المشهورة بالقسوة لا تعرف وسيلة غير البطش والضراوة لتحصيل العيش ومكافحة الأعداء، وكل بطش فهو إلى القوة الآلية أقرب منه إلى الخصال النفسية والملكات العقلية. فالفرق يسير بين صدمة الحجر وضربة الوحش من هياجه، فهي - أي القسوة - أدنى الوسائل التي لا وسيلة دونها، ثم تترقى وسائل الأحياء درجة بعد درجة حتى يكون استغناؤها عن القسوة بمقدار ارتقائها في تلك الدرجات.
ومن ثم يصح أن يقال إن القسوة عجز وفقدان وسيلة، وإنها من البدائيات التي يوشك أن تلحق بالآلة والجماد.
فالإنسان يقسو لأنه عاجز عن الرحمة، ولا يناقض قولنا هذا قول المتنبي:
والظلم من شيم النفوس فإن تجد ... ذا عفة فلعله لا يظلم
فإن بيت المتنبي معناه أن الظلم أيسر الوسائل وأقربها: أيسرها لمن لا يتيسر له ما هو أصعب منها. وهذا هو بعينه ما نذهب إليه حين نقول إن القادر على الصعب لا يهبط إلى ما دونه، وإن القادر على الرحمة مستغنٍ عن التقتيل والتخويف.
إن الماء لا يحتاج إلى تدبير وإتقان لينحدر من الأعلى إلى الأسفل.
ذلك هو أيسر الطرق أمامه وأقربها إليه؛ ولكنه محتاج إلى التدبير والإتقان ليصعد من الأسفل إلى الأعلى.
فالظلم كانحدار الماء قريب؛ والرحمة كارتفاع الماء صعب ولكنه أدل على الاقتدار.
ومن آيات الطبيعة التي نستفيدها منها في هذا المعنى أن الرحمة تزداد في الأحياء كلما ازداد الشبه بينها وبين الإنسان في الغريزة الاجتماعية.
فالرحمة معروفة بين الحيوانات الاجتماعية في العلاقة بين والدها ومولودها، وفي

العلاقات بين الفرد منها وسار أفرادها، وفي العلامات بينها وبين الآدميين.
ومؤدي هذا أن الرحمة وغريزة الاجتماع متلازمتان، فكيف تكون مرضاً وهي أصل من أصول الأخلاق الاجتماعية؟ وكيف يتركب في البنية ما هو مرض أو انحراف مناقض لأساس التكوين؟
على أننا خلقاء أن نميز بين الرحمة وبين الاضطراب الجسدي الذي يعجز صاحبه عن احتمال المؤلمات والمشقات، فيخور ويبكي حين يرى ما يؤلم أو يتعرض لما يشق عليه. وليس من الضروري مع هذا أن يرحم المتألم أو يعينه أو ينفعه بعطفه، وإنما هو عجز عن احتمال الآلام المشهودة كالعجز عن احتمال الهواء والاضطلاع بالمتاعب، وبين الرحمة وهذا النقص بون بعيد.
إن المرأة الهستيرية التي يغشى عليها حين ترى جريحاً يتألم، ليست بأرحم لذلك الجريح من الطبيب الذي يفتح جراحه ويزيده ألماً على ألمه
فالذين يزعمون أن الرحمة ضعف أو مرض، إنما يلتبس عليهم الأمر بين هذه الحالة الهستيرية التي هي ضعف، وبين الرحمة التي هي قوة، لأنها حماية لضعف الآخرين.
وإن الرجل الذي يبطش بالضعفاء لأقوى من الضعفاء؛ ولكن أقوى منه وأرجل منه وأرفع منه ذلك الرجل الذي يغلب الأقوياء لينقذ الضعفاء من أيديهم، ويريهم قوة أكبر من قوتهم، لأنها لا تكتفي بالقسوة على الضعيف، ولا تحجم عن زجر القوى، وزجره أحوج إلى القوة وأدل على الاستغناء.
وإنما رجل الدنيا وواحدها ... من لا يعوّل في الدنيا على رجل
نعم، وأرجل منه من يعول كل الرجال عليه، ومن يبسط جناحيه على كل من حواليه.
وآية أخرى من آيات الطبيعة في هذا المعنى أنك لا تجد مزدرياً بالرحمة إلا وهو محتاج إلى رحمة الرحماء.
رسول القسوة وأكبر الناعين على الرحمة في العصور الحديثة، قد :(فردريك نيتشه) عاش سنوات ولا سند له في الحياة غير رحمة امرأة عجوز، وهي أمه!
وروى عن الوزير ابن الزيات أنه كان يقول: إن الرحمة خور في الطبيعة. فلما نكب وعذب بالتنور الذي كان يعذب به الناس إذا به يرثي لنفسه ويستدعي الرثاء لها ويجري في ضعفه أمثولة لمن يسترحمون الأقوياء والضعفاء، و (لم يزل - كما جاء في الطبري - أياماً في حبسه مطلقاً، ثم أمر بتقييده فقيد وامتنع عن الطعام، وكان لا يذوق شيئاً. وكان شديد الجزع في حبسه كثير البكاء قليل الكلام كثير التفكير. . . وكان قبل موته بيومين أو ثلاثة يقول لنفسه: يا محمد يا أبن عبد الملك! لم تقنعك النعمة والدواب الفُرْهُ، والدار
النظيفة، والكسوة الفاخرة، وأنت في عافية، حتى طلبت الوزارة! ذق ما عملت بنفسك. . .)
ومن شوهد عليهم من القساة أنهم كانوا أصلب من ذلك عوداً وأخشن مساً وأقرب إلى التمرد والعتو والأنفة من الشكوى فكثيراً ما يكون تمردهم ضرباً من التخبط، أو عرضاً من أعراض التشنج، أو ثورة عصبية هي مرض لا شك فيه كمرض الخنوع والولع بالشكاية وإن اختلف مظهرهما كاختلاف النقيضين.
فالذي نراه من المشاهدات الطبيعة أن القسوة هي العجز والمرض والنقصان، وأن الرحمة هي القدرة والفضل والزيادة.
فالرحيم عنده ما يكفيه ويزيد على كفايته حتى يكفي غيره ويتناوله بالعناية والحماية!
والقاسي عنده من القوة ما يغلب به الضعيف، فهو في الدرجة التالية من الضعف ليس دونه في مراتب القوة إلا فاقد القوة والعاجز عن كبحها.
وهذا بلا ريب غير قسوة الرحمة التي يقول فيها حكيم الشعر العربي:
وقسا ليزدجروا ومن يك حازماً ... فليقس أحياناً على من يرحم
فالرحيم الذي يقسو هنا لينفع بقسوته من لا تنفعهم رحمته، إنما هو أرحم وأقدر على الرحمة، لأن رحمته لا تغلبه ولا تقوده غير واع ولا متدبر حتى يصنع باسم الرحمة ما هو نقيضها أو ما هو قسوة معيبة فيما تنتهي إليه من الإيذاء.
وكفى بالرحمة أنها فتح إنساني في عالم الحياة، ترقى إليها الإنسان وحده بين المخلوقات الحية، وشابهته فيها بمقدار ما صعدت بهم الطبيعة في مرتقاه.
عباس محمود العقاد

كيف يكتب التاريخ؟

للدكتور حسن عثمان
مدرس التاريخ الحديث بكلية الآداب

- 1 -

مقدمة

الشرق القريب - ومصر على وجه الخصوص - حديث العهد جداً بدراسة موضوع طريقة البحث التاريخي وكتابة التاريخ بالمعنى العلمي الحديث؛ وكلية الآداب بالقاهرة تكاد تبدأ هذا النوع من الدرس الذي أرجو أن يتسع ويطبق عملياً في المستقبل القريب. وفي صيف 1939 أصدر صديقي الدكتور أسد رستم كتاب (مصطلح التاريخ) نتيجة خبرته في تدريس طريقة البحث التاريخي سنوات عديدة في جامعة بيروت الأمريكية. وابتداءً من نوفمبر 1940، أخذ الدكتور محمد مصطفى زيادة الأستاذ المساعد لتاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب بالقاهرة ينشر سلسلة من المقالات بمجلة (الثقافة) عن صناعة التاريخ في مصر، فرأيت أن أساهم أيضاً - بعد أن فتحت لي (الرسالة) صدرها الرحيب - بنشر بعض مقالات عن هذا الموضوع، لاحتمال تقديمه بعض النفع للراغبين في دراسة وكتابة التاريخ. ولإعطاء القارئ فكرة عن طريقة كتابة المؤلفات التاريخية التي يتداولها؛ والتاريخ لا يدرس عفواً، ولا يكتب اعتباطاً؛ وإنما يدرس لأغراض وفوائد، ولا بد لكتابته من استعداد خاص ودراية وخبرة بطريقة البحث التاريخي.

ولماذا نحاول الوصول إلى الحقيقة التاريخية؟ وما الذي نستفيده من دراسة التاريخ؟ لكي نصل إلى نتيجة معقولة، فلنبحث أولاً فيما هو التاريخ؛ فكلمة تاريخ مستمدة من اليونانية بمعنى بحث واستقصاء حوادث الماضي، أي تسجيل حوادث الإنسان منذ ظهر في الوجود، ومنذ بدأ يترك آثاره ومخلفاته على الصخر وعلى الأرض، حتى الوقت الحاضر. ونحن إذا تصفحنا أي كتاب عام عن تاريخ العالم، نجد أنه يتناول أوجه النشاط الإنساني المتنوعة في الزمن الماضي، فيشرح حوادث الحروب ومشاكل السياسة ومسائل الدين والفن والاقتصاد. . . وهو يحاول بذلك أن يعطي صورة للمجتمع الإنساني في حالة حركة مستمرة؛ وهي حركة لا تتكرر ولا تعيد نفسها على نفس المنوال وفي نفس الظروف التي حدثت بها في فترة سابقة. نعم إنه قد تقع حوادث متشابهة، ولكن تشابهها لا يمكن أن يكون مطلقاً؛ والإنسان يجب أن يعرف تاريخه ككائن اجتماعي، فينبغي أن يعرف تاريخ تطوره وتاريخ آثاره في الزمن الماضي. وينبغي أن يدرس العوامل التي أدت إلى حدوث الغارات والحروب، وما لابس ذلك، وما خلفته من آثار؛ وأن يتبع مثلاً حركة الكشف الجغرافي في أواخر القرن الخامس عشر، وما ترتب عليها من تغيير طريق التجارة العالمي، وما ارتبط بذلك من هبوط سلطنة المماليك وجمهورية البندقية، وارتفاع شأن دول غرب أوربا كالبرتغال وهولندا وإنجلترا؛ وأن يدرس الأسباب التي أوجدت نوعاً جديداً من الأدب أو الفن وما إلى ذلك من أوجه النشاط الإنساني ومقومات الحضارة.

وحوادث التاريخ هي من صنع الإنسان في ظروف معينة؛ فينبغي أن يقرأ الإنسان وأن يدرس هذا التاريخ؛ فالعلاقة وطيدة بين حياة الإنسان وبين القرون والعصُر الماضية. ولا يمكن للإنسان أن يفهم نفسه وأن يفهم الحاضر بدون الماضي؛ ومعرفة الماضي تكسبه خبرة السنين الطويلة؛ والتأمل في الماضي يبعد الإنسان عن شخصه، فيرى مالا يراه في نفسه بسهولة من مزايا وأخطاء الغير؛ ويجعله ذلك أقدر على فهم نفسه وأقدر على حسن التصرف في الحاضر وفي المستقبل. ولكي ندرك أهمية معرفة الماضي ووجوب دراسة التاريخ، فلنفرض أننا استطعنا بوسيلة ما أن نقطع صلتنا بالماضي نهائياً، وأن نحرق دور الكتب وأن ندمر كل أثار العمران الراهنة، وأن ننسى أنفسنا؛ فماذا تكون عليه حال الإنسان وحال الحضارة؟ لا بد للإنسان في هذه الحالة من أن يعود ليبدأ من جديد ما كان قد بدأه منذ آلاف السنين من أوجه النشاط المختلفة لكي يصل إلى النقطة التي قطع فيها صلته بماضيه التاريخي، أو إلى ما يقاربها. فماضي الشعوب وماضي الإنسان حافل بشتى الصور، وهو عزيز عليه في كل أدواره، سواء عهود المجد والقوة، أو فترات المحن والكوارث؛ والأقوام الذين لا ماضي

لهم ليسوا من شعوب الأرض المتحضرة. ومتى اقتنعنا بوجوب معرفة التاريخ والاستفادة منه، فينبغي إذاً أن يكتب هذا التاريخ، ويجب أن يتخصص لكتابته بعض الناس من أصحاب الاستعداد.

وليس كل من يحاول أن يكتب التاريخ يصبح مؤرخاً. فالمؤرخ ينبغي أن تتحقق فيه الصفات اللازمة لكل من يشتغل بالعلم. ومن بين هذه الصفات أن يكون محباً للعمل جَلداً صبوراً فلا تمنعه وعورة البحث ولا المصاعب والعقبات مهما كان نوعها عن مواصلة البحث، ولا توقفه ندرة المصادر، ولا يصرفه عن عمله غموض الحقائق التاريخية واختلاطها، فيقضي الشهور والسنوات وهو يعمل ويرتحل من بلد إلى آخر بحثاً عن الحقيقة. ويلزم المؤرخ أن تكون له ملكة النقد، فلا يقبل أي كلام، ولا يصدق أية وثيقة إلا بعد الدرس والاستقراء، فيأخذ الصدق والحق ويطرح ما دون ذلك. والمؤرخ لابد أن يكون مخلصاً أميناً شجاعاً، فلا يكذب ولا ينتحل ولا ينافق، ولا يخفي الحقائق التي قد لا يعرفها غيره في بعض الأحيان، والتي قد لا ترضيه أو لا ترضي قومه؛ فإنه لا رقيب عليه غير ضميره. والمؤرخ ينبغي أن يكون بعيداً عن حب الشهرة، وألا يحفل بالكسب وبالألقاب وبالجاه؛ فإن الحقيقة التاريخية التي قد يكشف عنها تعدل كل ذلك أو تزيد. والمؤرخ ينبغي أن يكون قوي الشخصية، فيستطيع أن يكون آراءه بناء على الواقع التاريخي، ويعرضها علينا، فنلمس شخصيته خلال السطور. والمؤرخ ينبغي أن يكون صاحب إحساس وعاطفة وتسامح وخيال؛ فيدرك آراء الغير ونوازع الآخرين، ويحس ما جاش بصدور الناس من شتى العواطف، ويفهم الدوافع التي حركتهم في اتخاذ سلوك معين في الزمن الماضي، ويشارك رجال الأمس مواقفهم في ساعات التاريخ الفاصلة، في فترات الانقلاب، وفي عهود المقاومة العنيفة، وفي ظروف النجاح والفشل؛ لأن المؤرخ المجيد يجد في كل هذه الحوادث صدى نفسه، فتتجلى فيه روح العلم والفن، ويبعث التاريخ حياً، ويحيا في التاريخ، ويعيش للتاريخ.

وإذاً فما هو الطريق الذي نتبعه لكتابة التاريخ؟ وما هي طريقة البحث التاريخي؟ طريقة البحث التاريخي عبارة عن العملية والمراحل التي يصل خلالها الباحث إلى الحقيقة التاريخية، بجمع الأصول والمصادر، ودراستها ونقدها، واستخلاص الحقائق وتنظيمها وعرضها عرضاً تاريخياً معقولاً. إنما نلاحظ بأنه ليس المقصود بالحقيقة التاريخية إمكان الوصول إلى معلومات صحيحة على الإطلاق؛ فالحقيقة المطلقة غير مستطاع الوصول إليها فيما يتعلق بالوقت الحاضر فضلاً عن الماضي، لظروف مختلفة كالأغراض والمصالح، أو لضياع الأدلة وانطماس الآثار. فالحقيقة التي يصل إليها الباحث في التاريخ

صحيحة نسبياً، وكلما زادت نسبة الصدق وكبر عنصر الحقيقة أصبح التاريخ تاريخاً بالمعنى الصحيح.

وإن من يدرس العلوم الطبيعية يستطيع أن يشاهد بنفسه التغيرات والتحولات التي تصيب المادة في معمل التجارب. إنما دارس التاريخ لا يستطيع أن يضع الحوادث أمامه في بوتقة التجارب؛ ولابد له من وسائل أخرى تؤدي به إلى الغرض. فينبغي أن تتوفر لديه الأصول والمصادر التي يستخرج منها الحقائق التاريخية. وهذه المصادر عبارة عن آثار ومخلفات الإنسان، وهي على أنواع مختلفة؛ فمن ذلك بقايا جسم الإنسان نفسه، وملابسه وطعامه ومساكنه وأسلحته وأدواته التي كان يستخدمها أثناء حياته، ونقوشه على الأحجار وكتبه المخطوطة والمطبوعة، وصوره ورسومه وتماثيله ومبانيه، ولغته وآدابه وقوانينه وعاداته وتقاليده. وآثار الإنسان كلها تحمل بين طياتها أسرار الحوادث وخفايا التاريخ؛ وهي تظل أبداً صامتة لا تبوح بأسرارها، إلى أن يتمكن الإنسان بالدراسة الطويلة، وبالتأمل العميق من أن يحملها على النطق، وعلى التعبير عن أسرارها وخفاياها. وينبغي ألا يفوتنا أن بعض آثار الإنسان تشيد للمبالغة وللتعظيم، مثل أقواس النصر التي أقامها نابليون في بعض الولايات الألمانية، والتي لا تدل على أنه قد أصبح سيد أوربا على الدوام، أو المدالية التي ضربها تذكاراً لنزوله إنجلترا، مع أن ذلك لم يحدث تاريخاً؛ فهذه المدالية ستبقى كذكرى لأمل لم يتحقق. أو تمثال الرجل الذي يقتل الأسد، مع أن ذلك لم يحدث إلا نادراً، والعكس هو الشائع. ولو استطاع الأسد أن يصنع تمثالاً لفتكه بالإنسان لصحّ الوضع. وأحياناً قد يعثر الباحث في

التاريخ على وثائق مزيفة ومنتحلة، سواء بقصد الدعاية أو الدفاع عن فكرة معينة أو من أجل الشهرة أو للاتجار والكسب. وعلى ذلك ينبغي أن تدرس آثار الإنسان بروح النقد والحذر.

وتتحد قيمة التاريخ المكتوب بناء على بعض الأسس العامة. فأولاً نوع المادة التي استقى منها الباحث معلوماته، هل هي أصول أو هل هي نقوش قديمة معاصرة، وثبت صحة معلوماتها، أو هل هي وثائق ومراسلات سياسية مستخرجة من دور الأرشيف وثبت أنها غير مزيفة وأن معلوماتها صحيحة، أم أن المادة التي جمعها الباحث مستمدة من مجرد مراجع ثانوية ليست لها قيمة كبيرة. وثانياً قدرة الباحث على نقد ما تحت يده من الأصول والمصادر. ويختلف الباحثون في النقد وفي استخلاص الحقائق على حسب اختلافهم في الفهم والتفسير والاستنباط. وأحياناً يضع الباحثون في التاريخ افتراضات مختلفة لمحاولة فهم حركة تاريخية مهمة مثل حركة النهضة في إيطاليا أو الثورة الفرنسية. وأحياناً يختلف الباحثون في تقدير معنى الحوادث من ناحية السياسة أو الخلق. وأحياناً يكتبون متأثرين بروح العصر السائدة مثل حركة الانقلاب الصناعي أو نمو الديموقراطية في أوربا؛ إنما كل هذه الاختلافات ضرورية لأنها تقدم آراء ووجهات نظر مختلفة عن عصر معين؛ وهي تعطي للتاريخ الحركة والحياة، وتجعل البحث التاريخي مستمراً بنشاط. وعلى العكس، عدم الاختلاف بسبب الجمود والركود. وثالثاً مطابقة التاريخ للواقع، وبعده عن التمييز والأهواء والنوازع المختلفة؛ فلا تعتبر تاريخاً صحيحاً الكتابة التي يطعن فيها مسيحي على المسلمين في زمن الحروب الصليبية؛ أو العكس، فالكتابة التي تخدم غرضاً معيناً قد تعتبر تاريخاً لنوع من التفكير أو النوازع الإنسانية، وإنما لا يمكن أن يعتبر ما جاء بها معبراً عن الحقيقة التاريخية بالنسبة لما تناولته من الموضوعات.

وبمعنى آخر يمكننا أن نقول إن قيمة التاريخ المكتوب تتحدد بناء على ملكات الباحث في التاريخ واستعداده، وبناء على مدى ثقافته، وعلى درجة إلمامه بطريقة البحث التاريخي. وكثير من كتب التاريخ تعتبر من أمتع ثمرات العقول، لنضوج عقلية المؤرخ، وخبرته الوطيدة، ونجاحه في إعطاء وحدة جامعة واضحة، بعكس الكثير من كتب التاريخ أيضاً التي يكتبها من لا يفهم التاريخ، ومن لا يملك ملكة النقد؛ فلا تزيد عن مجرد معلومات موضوعة بين دفتي كتاب. ومثل هذه الكتب غير جديرة بأسمائها، وهي قد لا تساوي الورق الذي طبعت عليه.

(يتلى)

حسن عثمان

بمناسبة الغارات الجوية على الإسكندرية:

دار الوجد والمجد

للدكتور زكي مبارك

(شوقي) إلى أن شهد ما تعاني الإسكندرية من لو عاش كوارث وخطوب لواساها بأطايب الشعر البليغ. فإلى روحه في دار الخلود أهدي هذا القصيدة)

زكي مبارك

بأهلِ إسكندريةَ بعضُ ما بي ... من الأحزانِ للثغر المصاب
أدارَ هَوايَ ما قلبي بناسٍ ... هُيامي فوق أثباجِ العُباب
وهل يَنسى أخو كرمٍ وعهد ... رحيق الراحَ يُمزجُ بالرُّضاب؟
فإن تكن الكوارثُ آثماتٍ ... صببْن عليك أسواطَ العذاب
فلن ينسى لك التاريخُ عهداً ... ضحوكَ الوجه مرهوب الجناب
حَمَاكِ اللهُ يا دارَ التنادي ... إلى الهيجاءِ أو دارَ التصابي
ألم تمرح بساحتك الجوازي ... لِوَاعبَ في حمى الأُسْد الغِضاب
ألم تُلقىْ مع الأقدار يوماً ... كتائب من لحاظٍ أو حراب؟
وكيف يطيبُ للدنيا وُجودٌ ... إذا هُدّدتِ ظلماً بالخراب؟
وأين تجولُ أفراسُ المعالي؟ ... وأين تصول أحلامُ الشباب؟
عروسَ البحر، والدنيا سفينٌ ... تروَّع بالقواصف والضباب

أعندَك أن دارَ المجد تنجو ... على الأيام من كُرَب الصَّعاب؟
أعندَك أن في الدنيا رياضاً ... تصان من الأفاعي والذباب؟
عروسَ البحر، ما هذى الرزايا ... تصب على بنيك بلا حساب؟
أكنت جنيت، والدنيا مجالٌ ... لمفروض الثواب أو العقاب؟
جمالكِ فاتنٌ، والحسن ذنبٌ ... لأهل الحسن في شرع الذئاب
فما شكواكِ من ظلماَء طالت ... وتلك جناية المجد اللباب؟
عروسَ البحر، يا مهوى فتوني ... ويا مَغْنى أمانيَّ العِذَاب
عُقلتُ بأرضك العزَّاء عاماً ... فكان أعز عام في شبابي
دخلتُك عانياً في أسر ليل ... أصمِّ القلب زنجيِّ الإهاب
فأقبلَ نورك الروحيْ يسري ... إلى أرواحنا من كلِّ باب
رأى العقْالُ أن نحيا أساري ... حياةَ السيف في سُدَف القِراب
فلا ندري لوجه البحر لوناً ... سوى الموهومِ من لمع السراب
ولا نقْتات من زاد الأماني ... سوى المظنون من يوم المآب
فهل سمعَ الشقيّ بما أفاَءتْ ... علينا إسكندرية من ثواب؟
هَديرُ البحر كان يعجّ عمداً ... ليطربنا على بُعْد المثاب
وحَب الرمل صار لنا مهاداً ... مُطرَّزة بأزهارِ الروابي
فأمسى الاعتقال على اجتواه ... رخيَّ القيد مأنوس الرِّحاب
عروس البحر، حدَّتني شهودٌ ... بأن الشط صارَ إلى تباب
فلا غيْداءُ تخطرُ في حِماهُ ... كرقص البدر من خلف السحاب
ولا صَبٌّ خَتُورُ العهد يمشي ... على جَنباته مَشْىَ الحُباب
ولا صهبْاء يحْسُوها بنوهُ ... وقد قُبِستْ من الذهب المذاب
إذا طافتْ بهم هاموا فخفُّوا ... لَمِقبول المجانة والدِّعاب
وأمْسواْ والكواِكب في عُلاها ... لهم أسلابُ فتكٍ وانتهاب
سُلافٌ صانها (باكوسُ) عما ... يشوبُ الراحَ من إثمٍ وعاب
ألمْ يثقل على حُكماءِ قومي ... وقد عاقَرتها وِزْرُ اغتيابي؟
أمير الشطِّ كنتُ فأين عهدي ... يرْعى الحسن في الشطِّ العُجاب
وأينَ رِمَالهُ مني وكانتْ ... مناسِكَ صَبْوتي في كلِّ (آب)
إليها كان حَجِّي واعتماري ... وفيها كان خَتْلي واختِلابي
فكيف أذوقُ للصبَّوات طعماً ... وعن عَرَفاتها طال احتجابي؟
ندامَي البحرِ، سوف أعود يوماً ... لأطفئ ما بقلبي من لؤاب
نشيدي في التصوف كان لحناً ... نقلتُ صداه عن قصف العباب
سوايَ يرى الوجود إن اجتلاه ... سطوراً ثاوياتٍ في كتاب
ويجْلوه لوجْدَاني ورُوحِي ... إذا ما شئتُ إظلالُ السحاب
وهل كانت حياة الناس إلا ... قلائد صاغها رَبُّ الرَّباب
عشقتُ البحرَ والصحراَء عشقاً ... بهِ طال اندفاعي وانجذابي
أطِلْ على الفضاء فتزْدَهيني ... رِحابٌ غارقاتٌ في رِحاب
وأنظُر للوجودِ فلا أراهُ ... سوى خمر تعاقَر أو رُضاب
إخلائي هناك، حدِّثوني ... حديث (الثغر) وانتظروا إيابي
أفوقَ رُبوعه غامتْ سماءٌ ... مؤَججةٌ بأقباس اللهُّاب
وما القومُ الذين عَدَوْا عليه ... كعدوان الذباب على الشراب؟
أكانوا جِنَّة صُمَّا فعاثوا ... به عَيْثَ الأراقم بالوِطاب
أكان (النسر) في التحليق أدْنى ... إلى الإسفاف من ذاك (الغراب)؟
وما الألمانُ إلا قومُ بَغْيٍ ... أثيم الجِدْ مذمومِ القِطاب
نِطاحٌ كله سفهٌ ولؤْمٌ ... ولو كَرِه المصانِع والمحابي
أحقٌ أن نادى (الثغر) أقوى ... وأقفر من أحاديث الصحاب؟
فلا (النشارُ) يسأل غير صاحٍ ... ولا (شيبوب) يحلم بالجواب؟
أفاقَ، فَمن بَشيري ... برَجْعِ الأمْنِ للثغر المَهاب (وأبو شادي)
وكيف يَعيشُ روُحٌ كان أنسىَ ... وإنْ ألِفَ اللجاجةَ في الغِضاب؟
أكاتِمُ حبهُ قلبي وأمضي ... فأعلنُ بُغضه عند العتاب

هو الدنيا: وقد جُنتْ فصاغت ... رحيقَ هواه من شهد وصاب
بأهل إسكندرية بعضُ ما بي ... من الأحزان للثغر المُصاب
سمعتُ حديثَ نكبتهم فأمسى ... فؤادي في انصداعٍ وانشعاب
ملائك من أديم الخلد صيغوا ... لِيوْم الوْجِد أو يوم الغلاب
أعزّ البحرُ أنفسهم فعزوا ... فهم قوم اعتلاء واصطخاب
هُمُ الحراسُ للوطن المفدّى ... من العادينَ أشباه القُلاب
فكيف تبددوا وأدال منهمْ ... مديل البأس من وكر العُقاب
تُساق إليهم الأقوات، هلاّ ... تساق إليهم عُددُ الحراب
أغيثوهمْ بِسَيْفٍ لا بزاد ... فهم خلف القساوة الصلاب
أمِدوهم، إذا شئتم، بجيشٍ ... وَقاح الوجه منزوعِ النقاب
فما حَفظ الديارَ سوى حسامٍ ... به ظَمأ إلى يوم الضِّراب
أجب (عبد القوي) وأنت شهم ... صريحٌ لا يُداورُ في الجواب
أأنت ترى (المخابئ) واقيات ... وهُنْ أذل من غار الضّباب؟
وما شرفُ الفتى وقد استنامتْ ... جوانحهُ إلى مثوى الهوابي
لنا ماضٍ نَسيناهُ فِضعْنا ... ضَياعَ التبر في جوف التراب
لقدَ كنّا، وكنا، ثم كنا ... أداة الفتك من ظُفر وناب
ركزنا الرعبَ في مهج الضواري ... فكيف تروزنا مهجُ الذئاب؟
لوادينا القويّ عَنتْ وُجوهٌ ... عززن بالانتساب والاكتساب
ألمْ ندفِنْ بِوادينا قُرُوماً ... أرادوا الشرب من أمواه (حابي)
فكيف نكولنًا عن ردع قوم ... لئام البغي منكودي الإصاب
هُمُ ظنوا الكناية زاد يوم ... كظن النمل في نسف الهضاب
فإن فازوا فسوف نكون منهم ... مكان البحر من لهب الضوابي
وسوف نظل نحن - كما فُطرنا - ... أباةَ الضّيم أحرار الرقاب
عركنا الدهر جيلاً بعد جيل ... وكابَدْنا الألوفَ من الصعاب
فما هُنْا على الأقدار يوماً ... ولا أمستْ بوارقنا نوابي
ألم نشرقْ على الشرق المعنّى ... فندافع عنه آصار الضباب؟
بنا وثقتْ شُعوب لم تواجهْ ... بروق الغرب إلا في ارتياب
بنا استهدت بصائرُ لم نرُضها ... خداعاً بالمواعيد الكِذاب
كدَأبِكمُ وقد مرنَتْ نُهاكمْ ... على ستر الخيانةِ بالخلابِ
أكان العلمُ في عالي سناه ... ذريعةَ الاستراق والاستلاب
أروني. مِنَّه أسلفتُموها ... بلا نهبٍ يرادُ ولا اغتصاب
طلائعَ كان عْلمُكُم ليومٍ ... يهونُ بجنبهِ يومُ الحساب
ولم يكُ علمُنا إلا نظيراً ... لضَوءِ الشمس يزهد في الثواب
أأنتمْ تُفتَنون بما ملكتمْ ... من العدد النذيرةِ بالخراب
ولا نُزهي بآراء صِحاح ... هي المنشود من فصل الخطاب
فإن تخْلد مآثِرنا وتسلم ... على التاريخ من شُبَه المعَاب
فذاك لأنها آثار قومٍ ... كرام الروح أطهار الإهاب
لنا الخلدُ الذي لن ترزقوهُ ... ولو أوتِيتمُ ملك السحاب
فخبُّوا في المطامع كف شئتمْ ... وخوضوا القاتمات من العقاب
ورُودوا الأرض في شرقٍ وغربٍ ... بكبِرِ الليث أو زهوِ الغراب
وصولوا آثمين بنار حرْبٍ ... تحيلُ المزهرات إلى يَباب
فسوف تُروْنَ بعد مدىً قصيرٍ ... فرائسَ للمحاقِ وللذهاب
بأهل إسكندرية بعض ما بي ... من الأحزان للثغر المصاب
أَتِلكَ قيامةٌ قامتْ فدكّتْ ... حصون البأس من تلك الطوابي؟
فمن كهلٍ سديد الرأي يُمسي ... لوقعِ الهولِ مفقودَ الصواب
ومن رَشِأ تُصيِّرُهُ الرَّزايا ... وقِيدَ الشيب في شرخ الشباب
ومن عذراَء يلفظها حمِاها ... فنخرجُ للبلاءِ بلا نقاب
قوارع لم تقعْ إلا بأرضٍ ... يقارعُ أهلها وقدَ الحرابِ
فما آثامُ أهلِ (الثغر) حتى ... يُشنَّ عليهمُ ويلُ العذاب؟

مضت زُمرٌ إلى الأرياف منهم ... مُضى الأُسْد من غاب لغاب
فكيف استقبلوا - بعد ارتقاه - ... جشيبَ العيش في تلك الشعاب؟
أمِن بعد الحسايا ناعمات ... يكون بساطهم متن التراب؟
إلى جلواتهم في الصيف كانت ... تزفُّ أطايبُ الحسن اللُّباب
وفي داراتهم كان التنادي ... إلى الصبَّوات في الشط الرغاب
فكيف مضواْ حيارَى لم يثوبوا ... إلى زادٍ يعدُّ ولا ثياب؟
وكيف غدواْ بهذا الصيف صرعْى ... لمشئوم الشتاتِ والاغتراب؟
كذاك العيشُ بؤس بعد لين ... وشهدٌ يستقي من بعد صاب
ومن عشق السلافة في صفاها ... أحب لحبها رنق الصُّباب
عروسَ البحر، نسرف إن رأينا ... حياتك في المزاح وفي اللِّعاب
وكيف وفي معاهدك الخوالي ... تسابقت العقول إلى الوثاب؟
بكل محلة وبكل أرض ... مآثر منكِ طيبة النصاب
وما روما وأثينا إذا ما ... تبارى الفاخرون بالانتساب؟
منار العقل كنت بلا امتراء ... ونار القلب كنت بلا ارتياب
بكى التاريخ من عهد لعهد ... مصاب العلم في (دار الكتاب)
فهل كانت بدائعها لقوم ... أجانب عن مرابعك الرحاب؟
بَناكِ أسكندَرٌ فيما بَناهُ ... كذلك قِيلَ رَجماً بالمغاِب
ولو أَصغى أُلو الألباب يوماً ... لَهِمس الوحي في تلك الرَّوابي
لآمَنَ فِتيةٌ منهم برأي ... يَخالُك صادقاً (بِكر العُباب)
وهل (فِينوسُ) عندَ مُرِّبيها ... سوى (راقودَ) في أحلام (حابي)؟
لِ (كيمي) أنت يا دار التنادي ... إلى الهيجاءِ أو دارَ التصابي
لِ (كيمي) أنت من أيام نوح ... توارثك أينم عن خير آب
مَضى عهدُ القياصر في انزعاج ... بأرضِ إسكندرية وانقلاب
بلادٌ لم تكن إلا مُجالاً ... لِمشبُوبَ الصِّيال والاحتراب
بِجمّر الثورة الحمراءِ يُغذَى ... بَنوها لا بزاد أو شراب
وجاء الفتحُ فانقادوا لقومٍ ... مساكنهم بصهوات العراب
هوَ الإسلامُ طَهّرهم فأضحواْ ... كماءِ المزْن في شُعَب اللِّصاب
فهل يَدري المؤرخُ كيف صاروا ... طلائعَ للجهادِ وللغلاِب؟
عليهمْ عول الإسلامُ فيما ... أرادَ من المغاربة الصِّلاب
فأموا الغربَ يحرسهم تقاهم ... وقد مشت الملائك في الركاب
وحلوا عادلين به كراماً ... حلول الغيث بالبقع الجداب
فلما أنْ هوت شمس المعالي ... بأندلسٍ ولاذتْ بالحجاب
تقاطر أهلها يبغون حصناً ... يقيهم شر أيام التباب
إلى جفن الحمى بالثغر عادوا ... كما عاد الجراز إلى القراب
أتاريخاً يحبِّره قصيدي ... لماضي (الثغر) في عهد الشباب؟
وما الشمس المضيئة إن حكتها ... لرائيها خيوط من لعاب؟
عليك إسكندرية أجّ حزني ... فطار تجلدي وهوى صوابي
إذا فكرت فيك غلت دمائي ... وآذن جمر حقدي بالتهاب
ألا سيف أجرده وأمضي ... لأدفع عنك عادية الذئاب؟
ألا جيش قوي البطش ضار ... يضيق عداك أكواب العذاب؟
سأصمت كارهاً، والصمت حيناً ... يعدّ من البراعة في الجواب

زكي مبارك

من الأدب الحضرمي

ابن شهاب العلوي

للأستاذ علي عبود العلوي

السيد أبو بكر بن عبد الرحمن بن شهاب الدين العلوي شخصية بارزة في سماء الأدب الحضري تألق نجمها من أواخر القرن الثالث عشر الهجري إلى أوائل العقد الخامس من الرابع عشر.

وقد تزعم الحركة الأدبية بحضرموت وهو لم يتجاوز العقد الثاني من العمر ونهض

بحضرموت في عالم الأدب بعد أن كان حظها من النهوض فيه قليلاً.
ولئن تغلبت عليه الناحية العلمية فاستأثرت منه بالتفكير وقطعت من حياته جزءاً عظيماً في التأليف، وأرغمته أن يترك لنا ذخيرة في العلم وثروة كبيرة جليلة المقدار تقارب الثلاثين مؤلفاً، فأشهد أنه فوق هذا كان الأديب بالطبع، والأدب سلوته الوحيدة وثروته التي لا تنفذ، ورأس ماله العظيم.
ولو وجد في بيئة شاعرة لكان منه أديب كبير تفاخر به العالم.
قرأت ديوانه منذ ثلاث سنوات وعلقت عليه مذكرات يصح أن يستقل بها كتاب خاص وهذه الكلمة من إحدى فصوله.
زار ابن شهاب مصر والعالم العربي والإسلامي عام 1303هـ وألهمه جو مصر بست عشرة قصيدة.
ولد الشهاب العلوي بحضرموت سنة 1262 هـ وتوفي بحيدر آباد دكهن بالهند في 29121922 الموافق 1051341هـ.
البيئة المحافظة وحياة الشاعر:
قضي الأمر ولآت مفر أن ينشأ شاعرنا في البيئة المحافظة وهو شاعر. والشاعرية ثورة نفسية تطمح لتحطيم القيود، وتجنح إلى إرضاء النفس واتساع العاطفة، وتميل إلى التغني بمحاسن الجمال، وتخفق أجنحتها حينما ترى الوسامة والصباحة في القد السمهري تخطر في كوكبنا الأرضي، كالنجوم تتلألأ في السماء!
ولكن يحول دون ورود مناهل هذه الرياض ذات الأريج المنعش ما سنته أحلام الفلاسفة وفرضته الأديان وأقره العرف واصطلحت عليه الإنسانية منذ عصورها الأولى فورثته لنا أجيالها القديمة حتى صار من الأسس المقررة التي لا يمكن الخروج عليها دون أن تثور ثائرة الرأي العام وتقوم بصخبها العظيم تجاه النفوس الحساسة الرقيقة.
ولئن كانت في هذه الثورة نوازع إنسانية كثيرة جديرة بالإكبار والإعجاب، فإن فيها من الشطط والإجحاف بحقوق العالم الروحي شيئاً كثيراً، لا سيما وأن المجتمع الحضرمي كغيره من مجتمعات بني الدنيا، قد أضافوا إلى القيود التي يرتضيها العقل والدين والعلم قيوداً أخرى لا تمت إلى الإصلاح بشيء.
اللهم إلا إن كان جانب الإصلاح فيها ضئيلاً. وعلى كل فلن يقاس بالجانب العظيم الذي فقدناه من جراء كتم العواطف عند ذوي الإحساس المرهف، القادرين على التعبير عما تجيش به نفوسهم.
وإذا كانت هذه الأوبئة الطفيلية تتهادى بها الأمم، وتنتقل منها ولو إلى قطر بعيد كحضرموت قلْ من يقصده بالزيارة من بين الأقطار العربية والإسلامية بله الأقطار الأجنبية.
فإن حضرموت فوق ما سرى إليها من العدوى بيئة عربية إسلامية صوفية، بلغت المثل الأعلى في تطبيق القول بالعمل، حتى كأنها المعنية بقول الشاعر:
كأن ربك لم يخلق لخشيته ... سواهمُ من جميع الناس إنسانا
في هذه البيئة نشأ شاعرنا الشهاب العلوي، وجاشت نفسه بالشعر وهو في سن المراهقة، فتغنى وأغنى الشعب الحضرمي بالشعر الغنائي الوجداني، وذاعت شهرته في النوادي الحضرية، وفي المجتمع الحضرمي على اختلاف طبقاته، لأنه كان يقول الشعر وهو في هذه السن المبكرة بلغة حضرموت الدارجة، وبأوزانها الشعرية مما يدعونه بالشعر الحميني، أي غير الشعر المعرب ذي الأوزان العروضية الخليلية والشعر الحميني قد يكون مرسل القافية كما يكون رباعياً، وأحياناً ثنائياً بلا نغم مردد، وإما نائياً بالنغم المردد.
فاضت نفس شاعرنا بالشعر الحميني وملأت به الجو الحضرمي ولكنها بعد ذلك سمت إلى
أن تساهم في النصيب العربي الخالد، وأن ترد المنهل الكبير منه، وأن تشاطر في المثل السامي الذي اتخذته العروبة لها نبراساً تستضيء به معالمها الشعرية.
وليس من الصعب على نفس شاعرة بطبيعتها ألا تهتدي إلى ينابيعه العذبة، ولكن من الصعب علينا نحن أن نتبين تاريخ الدور الذي جنحت إليه نفس شاعرنا بالضبط، لأن ديوانه قد خلا من إثبات أشعاره وهو في دور العقد الثاني وأوائل العقد الثالث؛ وكل ما نعرفه عن مقدرته الشعرية في هذا الدور تلك الأرجوزة التي نظمها في علم الفرائض،

وضمنها كل ما يحتويه الفن إجابة لاقتراح أحد مشائخه عليه، والتي يقول في مطلعها:
لله حمدي وارث الأرض المتين ... ومن عليها وهو خير الوارثين
وفي ختامها يقول:
فاصفح وأصلح ما بها من الغلط ... فقد أتى: من ذا الذي ما ساء قط
وعذر من لم يبلغ العشرينا ... يقبل عند الناس اجمعينا
أو قصيدته التي امتدح بها شريف مكة الشريف عبد الله باشا ابن عون الحسيني وعمره إذ ذاك 24 سنة، قال:
حي الحيا حياً به حلت سُعا ... ومنازلاً خطرت بهن وأربعا
وهمت على الوادي الذي سكنت به ... ديم تغادره أنيقاً ممرءا
وسقى العهاد معاهداً بسفوحها ... تختال جارات الصفا والمدعى
ديم أو انس صيدهن محرم ... ليظلْن في تلك المحاجر ربَّعا
سود الذوائب والجلابب والعيون ... القاتلات متيما ومولعا
من كل غانية بلطف حديثها ... ودلالها تذر الفؤادْ مقطعا
يا ظبية البطحاء مهلاً إنني ... بهواك ذو كلف سقيما موجعا
هل تسعفين فداً لحسنك مهجتي ... بالوصل ذا شغف يفيض الأدمعا
واقضي لبانته لديك وزحزحي ... عن وجهك الحسن الصبيح البرقعا
حاشا لحسنك أن يكون محرماً ... ولمثل وصلك أن يكون ممنعا
تيهي فإنك في الحسان مليكة ... يأتين نحو حماك شعثاً خضعا
وتمايلي بحلي محاسنك التي ... لم تتركي لسواك فيها مطعما
وتبختري جذلاً فقد جاوزت من ... جمع المفاخر والمكارم أجمعا
قمر البطاح خليفة الحرمين مو ... لانا أبا شرف الشريف الأروعا
إلى آخر ما قال
ومن الظلم ألا أشير إشارة إجمالية إلى أن ابن شهاب في هذا العهد لا يزال يتوثب للصعود، ولكنه مكبل بقيود الصنعة الزائفة:
حي الحيا حياً به حلت سعا ... ومنازلاً خطرت بهن وأربعا
أو سود الذوائب. . . الذي مصدره التقليد المحض أو الإعجاب بما قال أبو الطيب:
من الجآذر في زي الأعاريب ... حمر الحلي والمطايا والجلابيب
والفتى الناهض لا بد أن يتحرر يوماً ما وأن يصبح حراً طليقاً ليتغنى بالشعر كما توحي به العاطفة، لا كما تريده الصناعة الزائفة. وفي الفصل الذي يتضمن الكلام على الأدوار التي اجتازت بها شاعرية شيخ حضرموت سترى ذلك.
وإذا كان الشيء بالشيء يذكر، فإن الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد ذكر عن أهل الجيل الماضي بأنهم كانوا لا يرون الشعر إلا مغالبة لسانية، ومساجلة كلامية، ولباقة منطق، وسرعة جواب وارتجال.
وكذلك قدر لأبن شهاب أن يدخل في شراك هذه الأحبولة الضيقة، فإن الشريف عبد الله ارتاب في أن تكون القصيدة لشاعر حضرموت، وظن أنها مقولة على لسانه؛ لا سيما وقد شايعه على هذا الرأي أحد ندمائه، إذ أسر إليه في المجلس بذلك فاقترح الشريف على شاعرنا أن يجيز البيت الآتي ليختبر بذلك قريحته:
صفي الوقت لا أبناء الزنا ... ولمن يحسن ضرباً وغنى
ولا مناص لابن شهاب من أن يقيم الدليل على شاعريته فيقول:
وبنو الدهر كما قد مال ما ... لوا إلى من كان منهم ذا غنى
قل أن يوجد منهم منصف ... أنا قد جبت القرى والمدنا
وبلوت الناس طراً فإذا ... أكثر الناس أرقاء الدنا
جانبوا الصدق الذي من قاله ... بان إبريزاً إذا ما أمتحنا
عزفت أنفسهم عن كل من ... كان من أهل المثاني والثنا
وغدوا لم يرفعوا رأساً بمن ... لهم الآداب كانت ديدنا
ذلك ذوق عصر نربأ بأنفسنا اليوم أن نقفو إثره أو نتبع خطواته. وما أدري مقدار صحة الرواية التي نصت على الحكاية المذكورة، وإن كنت أعرف أنها دليل على انحطاط الذوق الأدبي والاجتماعي.
يا ترى ماذا أريد أن أقول؟!

أظنني أريد أن أقول: إن للسيد ابن شهاب كثيراً من الشعر الوجداني الذي ماجت به عاطفة الشباب ودفعته به خصوبة النفس اليقظة الشاعرة التي يستهويها الجمال، والتغني بمشاعر القلب والوجدان، ولكن ظروف البيئة المثقفة بالروح الصوفية هي التي حرمتنا الاستفادة من شعر الغناء والوجدان.

ومن ناحية أخرى فإن العزلة التي استهوت حضرموت والتي لا تزال تستهويها إلى اليوم وصيرتها بمعزل بعيد عن الأخذ بوسائل النهوض وتنمية المعارف والثقافة، هي التي هيأت الفرصة. لأن ينكص ابن شهاب في آخر عمره عن نشر آثاره التي تحمل سورة الصبا ومطارح الفتون والفتوة.

ولو كانت لنا إذ ذاك مجلة أدبية أو صحفية سياسية أو اجتماعية لما أمكن شاعرنا أن يتنازل عن بنات أفكاره؛ ولأنه لو فعل لاستطعنا الوصول إلى أشعاره بلا أقل كلفة ولا عناء.

ولا تزال ترن في أذني سورة القصيدة التي أنشدني إياها حفيد الشاعر الأديب السيد حسن بن عمر الشاطري العلوي وذلك منذ سنوات وأنا بجاوة.

نعم لا أزال أذكرها لاستحساني إياها إذ ذاك وهي من الأشعار التي لم تثبت في ديوانه.

وإذا كنت على ذكري لإعجابي بالقصيدة فإني لا أعرف الأسباب التي حالت بيني وطلب نسخة منها من صديقي الأديب لاحتفظ بها مع المذكرات التي جمعتها في تاريخ حضرموت.

لا أريد أن أحجم عن أن أُبين الغرض المقصود من ذلك.

إْن السيد ابن شهاب كما ذكرت في جملة التعريف به أكبر شخصية تزعمت النهضة الأدبية في عصره الحضرمي. ومن كانت له هذه المكانة السامية جدير بأن تعطينا المعلومات

الكافية عنه من كل الجهات، وأن نتعرف إليه وهو في سن الصبا كما نتعرف إليه وهو يافع وفتى وكهل لأن التعرف به هو التعرف إلى الأدب الحضرمي في الصميم.

ودراسة الأدب الحضرمي هي دراسة البيئة الحضرمية بما لها من مكانة علمية وأدبية وما فيها من عادات وأخلاق وميول ومشارب واصطلاحات وروح فكرية وصوفية.

وهذه كلها قيم تاريخية جديرة باعتبارها في المكان الأول في تاريخ حضرموت الأدبي، والبيئة المحافظة تقيس الآداب والفنون بمعيار علم الأخلاق.

علي عبود العلوي

من تراثنا الأدبي

ما أُلّف عن النساء

للأستاذ صلاح الدين المنجد

سمرنا ليلة عند صاحب لنا أديب، فنقضنا الأحاديث نقضاً، ثم ملنا إلى ذكر النساء وأخبارهن، والعرب وآرائها فيهن؛ وكان في المجلس متأدب فجّ العلم، أخذ اللغة عن الأعاجم وتخرّج على طرائقهم ونهج مناهجهم، ونحا في تفكيره منحى لا استقامة فيه. فذهب إلى استخفاف العرب بالنساء، وادعى أنهم لم يحفلوهن ولم يخصوهن بالتآليف، أو يفردوا لهن التصانيف؛ ودعم زعمه هذا بأقوال باردة لبعض المستشرقين.

وقد أردت تتبع هذا الزعم بالرد. . . لتبيان طرافة جهل هذه الفئة، وضيق علمها، وأفَن رأيها، وسخف دعواها؛ واستقرأت تراث الإسلام والعرب الزاهر، فإذا فيه تآليف حسان وتصانيف ملاح خصّوها بالنساء، وجلْوا فيها عن أسرار خفيّات وأخبار مكنونات، ولم يدعوا أمراً أدركوا صلته بهن إلا تكلموا عليه وبحثوا فيه.

وليت أن هذا التراث العربي كان قد سلم. . . إذن لرأينا من أخبار النساء كل معجب مطرب. . . ولوجدنا فيه سيرهن وأحاديثهن وأسرارهن منذ الجاهلية حتى عصور الانحطاط:

1 - فقد ألف عنهن في الجاهلية كتب كثيرة، منها: كتاب (الموءودات) لهشام بن محمد. . . بن الكلبي النسابة الأخباري، وكتاب (المعروفات من نساء قريش) له أيضاً، وكتاب (المردفات من قريش) ألفه علي بن محمد المدائني المحدث المتكلم، وكتاب (بقايا قريش في الجاهلية) ألفه الهيثم بن عدي الراوية الأديب الأخباري. . . وغيرهما.

2 - ثم خصوا نساء النبي وأمهاته بالرضاع وبناته بعدد من الكتب لا يُحصى، منها: كتاب (أمهات النبي) للمدائني الذي مر ذكره، وكتاب (أزواج النبي) لمحمد بن عمر المعروف

بابن القوطية، وكان نحوياً لغوياً أديباً شاعراً، وكتاب (أزواج النبي) لابن الكلبي. . . وآخر مثله للواقدي محمد بن عمرو المؤرخ الإخباري، ثم كتاب (بنات النبي وأزواجه)، لأحمد الرقي الراوية الحفظة الثقة ذي التآليف الكثيرة.

3 - وتكلموا على نساء المسلمين ممن أوتي الشهرة والمُلك في كتب شتى. منها كتاب (أمهات السبعة من قريش) لمحمد بن حبيب، وكان من علماء بغداد ومهرة مؤدبيها وكتاب (أمهات الخلفاء) لابن الكلبي. وكتاب (من تزوج من نساء الخلفاء) للمدائني. . . وغيرها.

4 - ثم ألفوا في أخبار النساء كتباً كثيرة، تعرضوا فيها إلى أحوالهن ومعايشهن وطبائعهن وما يعجبن به أو يصدقن عنه وما قيل فيهن وروى عنهن. فقد ألف الجاحظ كتاباً أفرده على النساء وما يتصل بهن، وألف الهيثم بن عدي (كتاب النساء)، وصنّف هارون بن علي المنجم الأديب الشاعر الرواية النديم كتابه في (أخبار النساء)، وألف المدائني كتاباً في (أخبار النساء) أيضاً. وكان للرقي كتاب في النساء، ولإبراهيم ابن القاسم الكاتب القيرواني الشاعر الرقيق كتاب (النساء) قال عنه ياقوت (إنه كبير). ولابن قتيبة العالم المؤرخ الأديب كتاب (النساء)، وعمر بن خلف بن المرزبان كتاب (النساء والغزل).

5 - ثم ألفوا في الموضوعات الدقيقة الخاصة بهن، فأبانوا عن أحوالهن الدينية في كتب مختلفة منها كتاب (الحيض) للقاسم بن سلام (أمام أهل عصره في كل فن من العلم) كما ذكر ياقوت. وكتاب (العدّة) و (الرضاع) و (الطلاق) و (الشغار) لمحمد بن إدريس الشافعي.

6 - وقد أفردوا للتزيّن والتجمّل والتحلّي كتباً كثيرة، ذلك لأنها أمور ذات شأن عند النساء؛ فألف أحمد بن سعد أبو الحسين، الكاتب الشاعر كتاب (الثياب والحلي)، وصنف أحمد بن فارس اللغوي كتاباً مثله. وجمع الرقي أصول (الزينة) و (التزين) في كتابين. وألف إسحاق بن إبراهيم الموصلي وغيره كتباً في (الرقص والزفن). ولم يقنعوا بذلك بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك، فألف علي بن محمد الظاهري الميكالي الأديب المفاكه كتاب (فخر المشط على المرآة).

7 - ورأوا أن الظرف أحلى خصائص المرأة، فألف محمد بن أحمد أبو الطيب النحوي وكان من أهل الأدب، كتاب (المتطرفات). وألف أحمد بن أبي طاهر أحد البلغاء الشعراء الرواة كتاباً مثله؛ وصنف الرقي كتاب: (المحبوبات والمكروهات). وكان للمفجع الشاعر الشيعي كتاب: (عرائس المجالس). وكان هذا شاعراً حلواً. قال عنه الثعالبي: (شعره قليل ولكنه كثير الحلاوة). ثم ألفوا فيما يجب أن تكون عليه النساء، وشروط عشرتهن من الرفق والرحمة والقسوة والغلظة، ومن ذلك كتاب الشافعي في (عشرة النساء).

8 - ولم يغفلوا عن حياة النساء الخاصة في دورهن وصلتهن بأزواجهن، فألف الشافعي كتاب (أخلاق الزوجين)، والمدائني كتاب (من هجاها زوجها)، و (من شكت زوجها)، و (من مُيّل عنها زوجها)، و (من قتل عنها زوجها)، و (من نهيت عن تزويج رجل فتزوجته). وألف خالد بن طليق الرواية النسابة كتاب (المتزوجات).

9 - ثم تطرفوا فألفوا في علاقة الرجل الجنسية بزوجة. . . وهذه التآليف وافرة ولا جدوى في التنويه بها.

10 - ثم ذهبوا إلى أبعد من هذا فخصوا الشذوذ الجنسي عند المرأة بكتب وتآليف منها: كتاب (السحق)، وكتاب (البغاء)، وكتاب (برحان وحباحب)، وهو في أخبار النساء والباه. . . ألفها محمد بن حسان النملي أحد الكتاب الأدباء في عهد المعتصم. ومنها كتاب (السحاقات والبغائين) لمحمد بن اسحق الصميري أبو العنبس وكان أديباً مليحاً وهجاء لاذعاً.

ولقد خص ابن النديم مسرداً لأسماء الكتب التي ألفت في (الحبائب المتطرفات) ككتاب (ريحانة وقرنفل)، وكتاب (رقية وخديجة)، وكتاب (سكينة والرباب)، وكتاب (سلمى وسعاد). . . وغيرها.

11 - وكما ألفوا في أخبار السواقط وذوات الشذوذ، فقد ألفوا في الشواعر والنابهات والعواقل؛ فهناك كتاب (أشعار النساء) لمحمد بن عمران المرزباني الرواية الإخباري،

وكتاب (العواقل) لابن الكلبي. . . وغير ذلك.
12 - ولقد عنوا أيضاً بأخبار القينات والجواري والمغنيات والمسيمعات والنوائح وأمهات الأولاد، فكتب الجاحظ كتاباً عن (القيان)، وألف إسحاق بن إبراهيم الموصلي كتاباً مثله. وكان للمدائني كتاب في (القينات)، وآخر في (المغنيات) وثالث في (أخبار عزة الميلاء)، ورابع في (قيان الحجاز)، وخامس في (قيان مكة). وان لأبي الفرج الأصباهني صاحب الأغاني كتاب في (الإماء الشواعر)، وللمفجع الشاعر الشيعي كتاب في (أشعار الجواري) ولأحمد بن مطرف القاضي المصري كتاب في (النوائح).
وألف الطبري المحدث الفقيه كتاب أمهات الأولاد، وألف الشافعي كتاب (عتق أمهات الأولاد).
13 - ونضيف إلى ذلك فصولاً كثيرة مبعثرة في كتب الأدب خصت بالنساء وأخبارهن وصفاتهن وأحوالهن، كالعقد الفريد لابن عبد ربه، ونهاية الأرب للنويري، وربيع الأبرار للزمخشري، وعيون الأخبار لابن قتيبة، وغير ذلك. . .
تلك جريدة بأسماء الكتب التي ألفت عن النساء وأحاط بها علمي؛ ولعل هناك كتباً كثيرة غفلت عنها فلم أذكرها ولم أعلم بها.
أفبعد ذلك كله - وإن قلْ - تقولون إن العرب لم يحفلوا بالنساء ولم يؤلفوا في أخبارهن. . .؟
(دمشق)
صلاح الدين المنجد
زخرفة المساجد
للأستاذ الشيخ سيد رجب
كان الدكتور زكي مبارك قد كتب في بعض أعداد (الرسالة) القريبة كلمة من (شجون حديثه) يدعو بها إلى زخرفة المساجد وتنميقها، ذاهباً إلى أن هذا مما يرفه عن النفس بعد مشاغل العمل، ويهدئ الخاطر، ويلهم الروح، ويرغب في المساجد، ويعين على العبادة! وذاهلاً - وهو مؤلف (التصوف الإسلامي) وإن كنا لم نره - عن أن العبادة الحق إنما تنبعث من نبع الإيمان في القلب، ومن مثابة الهداية في النفس، وتستلهم الروح لا المادة، وتتجه بحقيقتها المعنوية إلى السماء لا إلى الأرض. وهذه حقائق لا ينفع لإيجادها، ولا يغني في التسبب لها، أن نملأ الأرض - لا المساجد وحدها - بما يقترحه الدكتور من دُمى وتماثيل وتهاويل وتصاوير! بل إن كل أولئك لن يكون - إن وجد - إلا مشغلة للحس والوجدان والعقل، وصارفاً للنفس، في موقفها الرهيب العظيم عما يجب أن تفرغ له من استغراق وتأمل ومناجاة. وهذا بعض ما من أجله صرحت النصوص الدينية بالنهي عن زخرفة المساجد وتنميقها.
ذهل الدكتور عن كل هذا، وأخذ - وهو الرجل الأزهري رغم صبغته الجديدة - بما لا ينبغي أن يؤخذ مثله به، ولا أن يغلط في حقيقته! فلما قام فقيه في المسألة يرجعه إلى الصواب، وإرشاده للحق، استنكف ذلك وكبر عليه، وأخذته العزة بنفسه، فلم يرض لها أن تخطئ، ولم يرض لها - إن هي أخطأت - أن يردها عن الخطأ ناصح من المسلمين! والكلمة التي كتبت في الرد عليه بغير توقيع، وفي مجلة لا شأن للوعظ والوعاظ بها؛ ولكن هذا لم يكن من مصلحة الدكتور أن يفكر فيه، وليس من شأنه أن يعرفه، فإنه عسى أن يفسد عليه ما قصد، وهو لا يقصد إلا الأزهر والأزهريين.
وعلى هذه النية وهذا الأساس هاجم الدكتور الأزهر في أشخاص الوعاظ، وأقحم ذكرى الرجل الفاضل والمؤمن البار المرحوم الشيخ عبد ربه مفتاح في حديثه، وعرض نفسه وعلمه وثقافته وفكره الحر الطليق على شباب الأزهر عامة، وكلية اللغة العربية خاصة، وسمي الدكتور ذلك كله (زخرف المساجد).
بيد أن الدكتور قد عرض في كلمته الأولى، في (الرسالة) الصادرة بتاريخ (26 من جمادى
الآخرة سنة 1360) لما تعود هو وأمثاله أن يلوذوا بحصنه كلما حز بهم الأمر في ميدان من ميادين الخلق والعلم والدين، وهو المناداة بحرية الفكر، واصطناع الصراخ والعويل على ما يحاول رجال الدين الرجعيون الجامدون من حجر على العقل، وتكبيل للرأي، ومناوأة لهذه الحرية!! وتلك ناحية لا نحب أن يخلو حديثنا من الكلام فيها، إحقاقاً للحق، وإرشاداً للصواب، وحرصاً على فائدة من تعوزه هذه الفائدة من القراء.

وفي (الرسالة) التالية، الصادرة بتاريخ (4 من رجب) عرض الدكتور لحضرة النائب المحترم مفتش الوعظ، فضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد اللطيف دراز من أجل كلمة ألقاها في مجلس النواب، وهذه أيضاً لا نحب أن نتركها حتى نحاسب الدكتور عليها.

حرية الفكر:

يظن بعض الناس أن الحرية هي التحلل من كل حرمة، والانطلاق من كل قيد، والخوض ما وسع المرء أن يخوض في كل ما يسنح لخاطره ويستهوي نفسه! فإن بصرهم ناصح بالصواب، أو ذاد عن حقه المعتدي عليه ذو حق، هب أولئك الناس في وجهه، يدقون طبول الحرب للدفاع عن الحرية المهضومة والفكر المقيد، جاهلين أن حرية الناس - إلا من العبودية لخالقهم جل جلاله - هي أول عقيدة دعا إليها الرسل والأنبياء، وأول مبدأ قام من أجله ذلك الصراع الطويل الهائل في تاريخ البشرية بين الحق والباطل والسماء والأرض. وهل قدس كتاب أو شريعة أو أمة، ما قدس القرآن الكريم، والسنة المطهرة، وسلف الإسلام الصالح، من هذه الحرية والدفاع عنها وتحقيقها في النفوس وتقريرها بين الناس؟ ومَن أولى بأن يعرف هذا للكتاب والسنة وسلف الإسلام من أعلام الملة وجنود الدعوة ورجال الدين؟؟

ولكنها الحرية بمعناها الحق، وفي هيئتها التي برأها الله على سنته من الوزن والتقدير والإحكام، ومراعاة العدل والحق في كل ما يبرأ وما يبدع، فلا يتجاوز خلق حده، ولا يخرج عن طوقه، ولا يطغى شيء على شيء في وجوده وكنهه، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا.

هذه الحرية الموزونة المقدرة التي لا تجهل ولا تظلم ولا تطغي، هي الحرية التي يقرها ناموس الوجود ويعرفها العقل ويدعو إليها الدين؛ وهي الحرية التي يطلبها الناس ويهيمون بها ويتفانون في الدفاع عنها، لأنهم يرون فيها قوام وجودهم وصلاح حياتهم، وهو بعض ما من أجله أعزها الله ومكن لها تمكيناً، فجعلها فطرة النفس وصبغة الخلق وحقيقة التوحيد.

فهل سمع بهذا أو عرفه من قبل أولئك الذين يكثرون من تصنع الغيرة على الحرية والدفاع عنها، ليبرروا بها كل مخزاة، ويدرعوا بها عند كل طغيان؟!

هل علم هؤلاء - وهم لا يقفون الحرية إلا حيث تناوئ الدين والخلق وتقاليد الإسلام - أنهم بهذا يسيئون إليها ولا يحسنون، ويهدمونها من حيث لا يشعرون؟!

إن علماء الدين - يا قوم - لا يمكن أن يكونوا أعداء الحرية، لأن الحرية من صميم الدين، ولكنهم أعداء الفوضى وأول هادميها، وهذا واجبهم الذي لن يتخلوا عنه مهما لاقوا في سبيله من أذى واعتداء.

الرياء الاجتماعي

طالما وصف الدكتور زكي مبارك مخالفيه في الرأي بهذا الوصف، وعلى الأخص أثناء مناقضتهم إياه في مسألة الأغنياء والفقراء، وأسباب الفقر وأسباب الغنى، مع أنهم كانوا يستمسكون بحق معروف لم نر لهم فيه مخالفاً من القراء، وكان هو يدافع عن شاذ من الرأي لم يوافقه عليه أحد؛ وقد ظل سادراً حتى أرسل إليه القراء يخيرونه بين اختفائه من الميدان الأدبي، أو سكوته عن هذا الباطل؟ فهل يسمح الدكتور أن نستعير منه هذا الوصف لنصف به تصنعه الدفاع عن مصر والإشفاق عليها من تلك النصيحة المخلصة التي أسداها فضيلة الأستاذ الشيخ دراز مفتش الوعظ إلى الأمة والحكومة في مجلس النواب؟! إننا لا نجد وصفاً أصدق منه لموقفك هذا يا دكتور.

أيكون الأستاذ دراز متحاملاً على مصر وطاعناً فيها، ومقرراً غير الحق حين يقول بلسان العالم المصلح والنائب الغيور، ناصحاً أمته داعياً إلى الإصلاح فيها: (أصبحت هذه البلاد لا هي بالبلاد الدينية، ولا هي بالبلاد اللادينية، ولا هي بالبلد الشرقي، ولا هي بالبلد الغربي؛ وذلك ظاهر في كل مظاهرها، ليس في الزي فقط، ولكن في الثقافة والخلق وكل ما يتصل بحياتنا الخلقية والاجتماعية) - ولا يكون الدكتور مرائياً في موقفه حين يرد هذا القول ويماري في الواقع الذي يشهد له ويؤيده، ويقر الباطل والفساد في الأمة، متظاهراً بالدفاع المريب عنها، والإشفاق المصطنع على سمعتها الدينية والأدبية؟

فهل نأخذ من هذا أن الدكتور يقر ذلك الاختلاف والتناقض في ثقافة الأمة وقوميتها وأصول اجتماعها وتعدد شرائعها وأزيائها، وغير هذا مما أجمع المتصدون للإصلاح الاجتماعي على أنه شر ما نكبت به البلاد من بلاء يجب دفعه والتخلص منه أم ماذا يريد؟

أما بعد، فإن من أبدَى صفحته للحق هلك، ولقد أراد الدكتور زكي مبارك أن يدفع عن نفسه ما حسبه من بعض الناس عدواناً عليه فلم يستطع هذا إلا بأن يتعدى هو على نفسه مرتين: مرة بمجافاته الحق، وأخرى بمحاولته النَّيل من جماعة كبيرة كريمة كعلماء الوعظ والإرشاد؛ وما منهم إلا يملك ما يملك الدكتور من قلم ولسان. فما أكثر في الناس من يسئ لنفسه حين يريد أن يحسن إليها، أكان ذلك دفاعاً عن نفسه، أم كان توريطاً لها في مأزق آخر تكون فيه أكثر ملامة وأثقل حملاً وأشد حاجة للدفاع؟ وهل صان الدكتور بذلك أنفه الذي قام حامياً له، أم حقق عليه المثل العربي الحكيم: (رب حام لأنفه وهو جادعة)؟

نسأل الله أن يجنبنا مزالق الأقلام، وفتنة اللسان والجنان، وأن يعصمنا من خطل الرأي وضلال الهوى، وأن يهدينا بفضله سواء السبيل.

السيد رجب

واعظ القاهرة

إلى الأستاذ الزيات

محنة التعليم الإلزامي

للأستاذ علي عبد الله

كانت كلمتك يا سيدي عن هؤلاء الجنود المجهولين، نفحة من نفحاتك المباركة، ونظرة من نظراتك الصادقة، أنصفت بها هؤلاء المظلومين المكدودين، وذكرتهم حين لم يذكرهم ذاكر، وقلت فيهم قالة الحق في وقت بخلت عليهم فيه الوزارة بما يسد الرمق، وحرمهم الناس حتى من كلمة طيبة ونظرة رحيمة!.

وأشهد لقد وجدوا في كلامك عنهم ورأيك فيهم أحسن العزاء؛ وإن لهم فيه لغنية إذا بخلت الوزارة بالجزاء. وقد يجد المظلوم برد الراحة في كلام من يرثي له أو يعطف عليه.

وأشد ما أدهشني من كلمتك أنها كانت على إيجازها أصدق وأوفى ما كتب في هذا الموضوع منذ عرفته البلاد إلى اليوم؛ فصورت العيوب والعلل، وفرقت بين الجوهر والعرض، ووازنت بين الماهية والكيفية، وحددت المسؤولية ووضعتها في موضعها؛ وعرفت من أمر هذا النوع من التعليم ما لم يعرفه القائمون بأمره، ولو عرفوا بعض ما عرفت لوجدوا إلى الصواب رسولاً، ولاتخذوا مع هذا الرسول سبيلاً. . .

ومن ألطف ما رأيته أني مررت بمعلم يقرأ على بعض إخوانه ما كتبته (الرسالة) عنهم؛ ولم يكن يقرأ من المجلة، وإنما كان يقرأ من ذاكرته، إذ كان قد حفظ المقال من شدة كلفه به؛ وما انتهى من القراءة حتى انصرف إلى إخوانه يقول لهم: والله لو لم أكن معلماً إلزامياً لوددت أن أكون ذلك المعلم اليوم! ولو لم أكن مظلوماً لتمنيت أن أكون مظلوماً، لأن ما كتبه صاحب الرسالة أشهى عندي وأحب إلي من أن تنصفني الوزارة أو ينصفني الناس. وإن من الخير لي أن أكون مع هؤلاء المجهولين الذين ذكرتهم الرسالة بالخير، من أن أكون مع المترفين المجدودين الذين غمرتهم الحكومة بالمال. . .

إنك يا سيدي لم تدع لأحد بعد مقالك أن يقول شيئاً؛ ولكني أحب أن أؤيد ما ذكرته عن هؤلاء الجنود المكافحين، بما يدل على أنك كنت ملهماً تستشف الحقائق من وراء أستار الغيب!!

فمن ذلك أن أولياء الأمر أسرفوا في غبن هؤلاء المعلمين فخفضوا من مرتبهم جنيهاً كاملاً،

وأصبح المعلم الجديد يتقاضى ثلاثة جنيهات بدلاً من أربعة؛ ثم جعلوا العلاوة الدورية نصف جنيه كل ثلاث سنوات. وزعمت الوزارة بهذا أنها استجابت لرغباتهم وحسَّنت حالهم ووضعت لهم نظاماً للعلاوات: مع أن الجنيه الذي استقطع من رواتبهم الضئيلة أصبح لا ينال إلا بعد قضاء ست سنوات في الكفاح والشقاء. . .

وأنا أعرف معلمين قضوا في خدمة هذا التعليم أكثر من خمسة عشر عاماً، ورافقوه

وهو طفل في مهده وما تزال مرتباتهم أقل من خمسة جنيهات. وكان هؤلاء لا يعولون إلا أنفسهم؛ ولكنهم أصبحوا بعد هذه المدة الطويلة في عائلات يزيد أفراد كل منها على العشرة

أقول هذا وأنا أعلم أن في رجال التعليم الأولي من يبلغ مرتبه عشرة جنيهات وخمسة عشرة وتسعة عشر، وعلة ذلك لا ترجع إلى تفاوت في الكفاية أو زيادة في العمل أو امتياز بالأقدمية؛ وإنما ترجع إلى ارتباك نظام التعليم الأولي وتعدد أنواعه ومدارسه وبرامجه ونظمه. فهناك مدارس أولية تابعة للوزارة، وأخرى تابعة لسكة الحديد، وثالثة تابعة لمجالس المديريات؛ ثم هناك شيء اسمه التعليم الأولي الراقي، والتعليم الأولي القديم، ومشروع التعليم الأولي، ثم التعليم الإلزامي، ومع أن الجميع يعلمون الأطفال ولا يزيد بعضهم على بعض شيئاً في العمل، فإن مرتباتهم تختلف كل الاختلاف حسب أسماء المدارس التي يعملون فيها. وقد أجازت الوزارة أخيراً أن ينتقل المعلمون من مدارسهم إلى المدارس الأخرى التي ليست من درجتها ولا من نوعها، واحتفظت لكل معلم بمرتبه ودرجته؛ وبذلك أصبح في المدرسة الواحدة من يتقاضى أربعة جنيهات ومن يتقاضى ثمانية. وقد يكون الأول أقدم من الثاني، كما قد يزيد مرتب المعلم على مرتب الرئيس.

ومن غريب الأمور أن الوزارة قد أسرفت في التجني على رجال التعليم الإلزامي، فأصدرت منشوراً عاماً استبدلت فيه اسم المكاتب بالمدارس، وحرمت فيه على كل معلم أن يزعم لنفسه أنه مدرس في مدرسة، وإنما يجب أن يكون معلماً في مكتب عام. والمفهوم من هذا أنها استكثرت على هؤلاء البؤساء حتى الأسماء وتعمدت تحقيرهم، بينما هي أسلمت إليهم فلذات أكباد الأمة لإعداد الجيل الجديد منها.

أما قبل تنفيذ قانون الإلزام، فقد شقي المعلمون بمحنة لم يسمع بمثلها الناس، وهي أن المعلمين الإلزاميين كانوا يكلفون بالمرور على بيوت الفلاحين وحقولهم في القرى، لمطاردة التلاميذ والقبض عليهم وإحضارهم إلى المدارس. . . فمن استطاع أن يملأ فصله فهو في أمن من العقوبة؛ أما الذي تنهاه كرامته عن التعرض لأذى الفلاحين وعدوانهم فهو مغضوب عليه، وقد يعرضه هذا للفصل من الخدمة

ومن بواعث الأسى أن أحد مديري الدقهلية الأسبقين دخل عليه معلم إلزامي في مظهر أنيق وسمات وسيمة، يرفع إليه ظلامة من الظلامات، فظنه الباشا واحداً من الكبراء في البلد، فأكرمه واحتفى به، ولكنه عرف آخر الأمر أنه من الإلزاميين فشتمه وطرده، وأقسم أن يجرد جميع المعلمين من هذه الملابس التي يظهرون فيها بمظهر أهل النعمة؛ وبر الباشا بقسمه وساعده مفتشو المعارف اتقاء بطشه!

وصدرت الأوامر إلى جميع قوات البوليس والمباحث والخفر والعمد في البلاد بالتفتيش على المعلمين في المدارس والتبليغ عمن يوجد منهم غير متلبس بعمامة أو لابس قفطاناً. . .

ولم يكن للمفتشين من عمل في تلك الأيام إلا التفتيش على الجبب والقفاطين، لا على التربية والتعليم؛ وأصبح لبس العمامة عند الباشا من مؤهلات الترقية وزيادة المرتب، فلم يكن يرد لمعمم حاجة!

أقول هذا وأنا مشفق من أن أذكر كل ما أعرف، ولو شفيت نفسي بذكر الحقيقة المؤلمة، لأبكيت الناس وأضحكتهم، وأظهرت لهم أن التعليم الإلزامي إنما شقي بقادته وسادته، أولئك الذين يعيشون فيه وهم عنه غرباء، ويلقون المسئولية على المعلمين وهم منها أبرياء

(المنصورة)

علي عبد الله

من رسائل الصيف

الدار المقدسة

(. .مهداة إلى الإنسان الشاعر)

للأستاذ عبد الحميد يونس

. . .أخي إبراهيم

قرأتُ فيما قرأت أن هُناك مرآة مسحورة لا ترى فيها نفسك في لحظة من لحظات حاضرك أو فترة من فترات مستقبلك، ولكنك تشاهد فيها شخصك في برهة واحدة

تختارها من ماضيك.
وأنا الآن أتمنى كالأطفال أن أحصل على هذه المرآة، وأن أركب في هذا السبيل ما يركب أبطال الأساطير من أهوال، فإن عبور البحر أهون من عبور الزمن إلى الوراء، وملاقاة المجهول آلم من ملاقاة المعلوم، واستعادة الذي كان معك ثم ضاع، أشهى من حصولك على مالا ترتقبه مما هو آت!. . .
ودعني أسائل نفسي وقد تحققت أمنية العثور على هذه المرآة (أي لحظة من لحظات ماضي أريد؟). . . هي هذه الومضة من ومضات صباي وقد ذهبت إلى بيتنا الجديد، فلم أنظر إليه إلا بعد أن تمليت من البناء المواجه له ذي النوافذ الشبيهة بنوافذ المساجد، وكنت أعلم أنه مقام صاحب النظرات والعبرات
هذه الدار أيها الصديق أنفقت ما يقرب من خُمس قرن خلعتُ فيها صباي وسلختُ شبابي؛ دخلتها تسابقني آمال عذاب، وخرجت منها بذكريات أعذب!
وما أظنك نسيت البرج الذي كان يشبه أبراج المنائر حيث كنت أبشر بالطريقة الإشراقية التي تعلو على الناس وإن لم تنفصل عنهم؛ وحيث خيَّلت إلي نفسي القدرة على مطاردة الأوهام والوساوس والكشف عن الترهات والأباطيل؛ وحيث ظننتني أستطيع هداية الضالين، ولو كانوا من القرصان والمهربين؛ وحيث رأيتني أحارب إله الظلام، فلا أكاد أصرعه حتى أراه يتسلل من الناحية الأخرى!
أو نسيت الغرفة الجرداء التي كنت أستقبل فيها وفود العكر زمراً تعقبها زمر، وأفراداً في
إثر أفراد، والتي كنت أمثل فيها خاشعاً بين يدي الأنبياء والأولياء والقديسين؟ وكيف تنساها وقد وسعت جمهورية أفلاطون وطوبى مور وجزيرة مكدوجال؟
أما المقصورة، فأنت لا تذكرها، لأنها كانت المكان الحرام الذي مارست فيه فن الحياة، ومهدت للقصائد التي هجت بها نفسي ولم تنفرج عنها شفتاي أو يسجلها قلمي. . .
وجمعت فيها بين الملائكة والشياطين، ولقيت فيها (ليليت) وبناتها، وتاييس في انطلاقها وفي توبتها، وأفروديت في خلابتها؛ وسمعت فيها أعذب اللثغات وأشهى الضحكات وأعمق الزفرات. . .! هنا، أيها الصديق، عجنت تجاربي، واختزنت ذكرياتي، وحبست أوهامي. . .! هنا أديت فرائض الشاعر وشعائر الحكيم!
والخزانة الصغيرة التي كانت وكأنها (باب جحا) لا تكاد تطلب منها شيئاً حتى تراه؟. . . الخزانة الصغيرة النفيسة التي لم يكن خادمها موكلا بغذاء البطون، وإنما كان مختصاً بغذاء العقول والقلوب؟. . . لقد أخذتها معي، فبطل السحر، وبقيت الصحائف والرفوف!
وأنت ألم تجلس معي تحت هذا المصباح؟ أنا موجود وأنت موجود، والمصباح كذلك موجود؛ ولكن (التغير) صيرني شخصاً آخر، وحولك إلى غيرك، ونور المصباح في عيوننا الآن ليس كما كان بالأمس!
واليوم أقتلع من هذه الدار المقدسة اقتلاعاً، فكم رددت جدرانها صلواتي، وسمعت ابتهالاتي، ووعت حكمتي، وحفظت قصائدي! وكم انشقت سقوفها عن طيف، وانفرجت نوافذها عن خيال، وانفتحت أبوابها حتى لعدو!
ألا قل لهذه الدار المقدسة ألا تبوح بأسرار وجداني إلا لصاحب وجدان، وألا تطلع أحداً على خزائن تجاربي إلا إذا كان من زمرة الإشراقيين، وألا تفتح كنوز ذكرياتي إلا لمن يصلح للقيام على البرج والمقصورة والمحراب!
ألا قل لهذه الدار المقدسة إنني ما غادرتها قالياً، ولا تركتها راضياً، وإنني مررت بها سأقف وأستوقف، وكلما ذكرتها سأبكي وأستبكي؛ وإنني - لولا التجمل - لفعلت ساعة الرحيل ما يفعل العجائز في الأضرحة، فقبلت المقابض والجدران!
وهكذا تراني أيها الأخ إذا حصلت على تلك المرآة لا أقنع من ماضي بلحظة واحدة، وإنما أريده كله لا أنقص منه حتى ساعات الألم!
بل وهكذا تراني إذا حصلت على هذه المرآة وتحققت رغبتي فرأيت ماضي كله لا أقنع بالمشاهد والنظر، فالفرق بينك وبين صورتك كبيرة، والفرق بين تذكرك لماضيك وبين أن تعيش ماضيك أكبر وأكبر. . .
(طبق الأصل)

(حمدي)
عبد الحميد يونس
البريد الأدبي
الشيخ عباس
أويت إلى مرقدي حين الظهيرة فلمحت العدد الأخير من مجلة الرسالة فأخذته آنس بمطالعة عناوينه إلى أن يُريح عليّ النوم راحتي وجمامي، ووقع بصري على حديث أخي الدكتور زكي ذي الشجون والأشجان فسارعت إلى الفصل الذي عنوانه: (الشيخ عباس الجمل) أرجو أن أطلع فيه على بشرى أو فكاهة أو دعابة فقرأت ما روّعني وعزب بسروري وراحتي وأقض مضجعي قرأت قول الدكتور وهو يعنى على أدباء مصر تجافيهم: (فجع الشيخ عباس الجمل بغرق ابنه طاهر وهو يقارع أمواج البحر في دمياط فما تحركت يراعة أديب لمواساته في ذلك الرزء الجليل)
(وبترت ساق الشيخ عباس منذ أسابيع فما بكى شاعر ولا تأثر كاتب لمصيبة الأديب) الخ
فأما المصيبة الأولى فقد عرفتها من قبل وراعني نبؤها وأنا في اسطنبول منذ أربع سنين؛ وأما المصيبة الأخيرة فما عرفت نبأها الفاجع إلا من كلام الدكتور زكي وقد وقعت من نفسي وقلبي موقعاً مفظعاً أليماً
وإذا بي أجلس واجماً تسير بي الذكَر في عالم من مصائب الماضي والحاضر، وتسرح بيَ الفكَر فيما أصاب الرجال الكبائر من أحداث وأرزاء، فذكرت فيما ذكرت عقبة بن أبي وقاص حينما قطعت رجله في الموقعة يوم صفين فلبث يقاتل مرتجزاً:
الفحل يحمي شوكه معقولاً
وتذكرت هذا الفارس العربي عبد الله بن شبرة الجُرَشي وكانت يده قطعت في موقعة فلطاس إحدى وقائع الروم فقال يرثيها في أبيات أولها:
ويل أم جار غداة الروع فارقني ... أهْونْ عليْ به إذ بان فانقطعا
يميني يديْ غدت مني مفارقة ... لم استطع يوم فلطاس لها تبعا
ثم إذا بي أسير إلى خزانة كتبي ألتمس عروة بن الزبير لأقرأ ما قال حين أصيب برجله، وأتأسى بما عزاه به أصحابه، وذكرت قول أحد المعزين له: (يا أبا محمد والله ما أعددناك للصراع ولا للسباق، ولقد أبقى الله لنا أكثرك: عقلك وعلمك) وطلبت بقية هذا الكلام في مظانه فلم أهتد إليه، ولكني وجدت في ابن خلكان خبر عروة حين صبر لقطع رجله لا
يتحرك ولا يتأوه ووجدت فيه هذه الكلمة:
وكان أحسن من عزاه إبراهيم بن محمد بن طلحة فقال له: (والله ما بك حاجة إلى المشي ولا أرب في السعي، وقد تقدمك عضو من أعضائك وابن من أبنائك إلى الجنة؛ وقد أبقى الله لنا منك ما كنا إليه فقراء، وعنه غير أغنياء، من علمك ورأيك نفعك الله وإيانا به. والله ولي ثوابك، والضمين بحسبك)
يا أخانا العباس! إن لك في أرزاء الرجال وخطوب الزمان أسوة وعبرة؛ وإن لك من دينك وعقلك وعلمك ما يغنيك أن تساق إليك الأسى والمواعظ. وإنا لنعرفك كبيراً أبياً عزيزاً، وإنا لنرجو أن نجدك اليوم أكبر وأبى وأعز من أن يضعضعك خطب، أو يبهظك رزء. وأنك لتعلم أن الحر الأبي يسير في هذه الحياة صابراً على لأوائها، مستكبراً على أرزائها مشى الجمل الثقال بالحمل الثقيل لا يرزح ولا يرزم ولا يعيا ولا يقف دون غايته
يا أخانا العباس! إن لك من دينك وعقلك وعلمك وأدبك ما يؤنسك بالصبر والرضا، ويوطن نفسك للحادثة وإن جلت، والخطب وإن فدح، وإن لك من إبائك وشممك ما يربأ بك أن تضيق بالرزء الشديد، وتطأطأ للنازلة الجليلة
والله يجعل هذا آخر محنك، ونهاية بلائك ويبقيك لآلك وإخوانك موفور العقل والعلم، معافى في نفسك وبدنك وأسرتك
وأما الأخ الدكتور زكي فقد صدق حين نعى على الإخوان تقاطعهم وغفلة بعضهم عن بعض. وإنَّا يا أخي زكي - ولا تؤاخذني بهذا التشبيه - لنسير من مشاغل هذه الحياة جليلها وسفسافها في مثل طريق الساقية أو مدار الساقية: حركة دائبة في مضطرَب متشابه ضيق، لو سارت فيه الدابة أبد الدهر ما خرجت منه وإن توهمت - وهي محجوبة العينين - أنها أبعدت المسير، وتناءى ما بين مبدئها ومنتهاها. ولست أدري إلام

تشغلنا الشواغل عما هو أعظم من التقاء أخ بأخ، وتفقد صديق صديقاً، ومذاكرة أديب مثله؛ وفي أولئك من قضاء الحق ومتعة النفس وربح العقل وفقه الأمور، مالا نجد وإن حرصنا في هذه الحركة العاجلة التي كادت تسلب الإنسان عقله وإرادته.

عبد الوهاب عزام

حول اللهجات العامية

يقصد علماء اللغة بكلمة (اللهجات المصرية) ما يشمل اللهجات العربية المستخدمة في السودان، فليس السودان جزءاً لا يتجزأ من مصر في نظر علماء الجغرافيا وأساطين القانون وعدول السياسة فحسب، بل هو كذلك أيضاً في نظر علماء اللغات ولذلك لم أر ضرورة لأن أخصه بالذكر في مقالي عن طوائف اللهجات العامية، بل رأيت أن عطفه على مصر، كما يفعل الغربيون، قد يسئ إلى الحقيقة فيشعر بأنه بلد آخر منفصل عنها.

فليفرح إذن روع الأستاذ أحمد المبارك عيسى. فما كان لمثلي، وأنا من مواليد السودان ومن أكثر الناس إيماناً بوحدة وادي النيل، أن أغفل أمر هذا البلد الأمين.

وإنا لنرتقب بذاهب الصبر أن تواتي الظروف حضرة الأستاذ المبارك فيتحفنا على صفحات (الرسالة) بما وعد به من مختارات في الأدب القومي للسوادن، ويزيدنا بذلك يقيناً أن اللهجات المصرية كافة من أقرب اللهجات العامية إلى العربية الفصحى.

أشكر للأستاذ جودة مرعشلي بدمشق تصحيحه لما ورد سهواً في مقالي بصدد أسماء بعض القرى السورية التي لا يزال أهلها يتكلمون بلهجة منحدرة من الآرامية الغربية.

علي عبد الواحد وافي

هل نستفيد مما نقرأ؟

المعروف في اللغة أن فعولاً لا بمعنى فاعل مما يستوي فيه المذكر والمؤنث، وأن ما يستوي فيه المذكر والمؤنث لا يجمع جمع مذكر سالماً مثل: صبور وفخور وغيور.

وأذكر أني قرأت مقالاً منذ شهور للكاتب الكبير الأستاذ العقاد بالرسالة جمع فيه غيوراً على غيورين، وهو خطأ كما ترى.

ثم حدث أن الأستاذ السباعي بيومي جمع فخوراً على فخورين في مقال له بالعدد 401 من الرسالة رداً على الدكتور زكي مبارك فتنبه أحد القراء لهذه الغلطة وأشار إليها في الرسالة بعد ذلك.

وحدث أيضاً أن الأديب طه الساكت كتب منذ أسابيع كلمة مسهبة في الرسالة عن هذه القاعدة، وذكر الشواهد لها، ودعا الكتاب إلى مراعاتها.

وأخيراً رأينا الأستاذ العقاد يقول في العدد 411 من الرسالة:

(فإن الشك في وجود المغاداة يغلق المسالك بين ألسنة المصلحين الغيورين).

ولا شك أن إصرار الأستاذ الكبير العقاد على هذا الجمع لهذا الكلمة - وهو عضو مجمعنا اللغوي - يدلنا على أن له رأياً فيها يخالف ما أجمع عليه نحاة البصرة.

فهل يتفضل الأستاذ ببيان رأيه على صفحات الرسالة فنكون من الشاكرين؟

(بني سويف)

محمد محمود رضوان

المدرس بالمدرسة النموذجية

فتوى واستفتاء

1 - تحت هذا العنوان في عدد (الرسالة) 318 أفتيت واستفتيت الأدباء والباحثين في بعض المباحث الأدبية، وعرضت لهم ما بين روايتي الوسيط والمفصل من التناقض في ترجمة ابن خلكان، ثم استبان لي صواب رواية الوسيط ومنشأ خطأ المفصل على الرغم من أني كنت أستبعد أن يقع مؤلفوه الأماثل في مثل هذا الخطأ؛ وإلى القراء البيان:

قال ابن خلكان نفسه: ومولدي يوم الخميس بعد صلاة العصر حادي عشر شهر ربيع الآخر سنة ثمان وستمائة بمدينة إربل بمدرسة سلطانها الملك المعظم مظفر الدين بن زين الدين رحمهما الله.

وقال هو نفسه في ترجمة أبي الفضل أحمد بن كمال الدين:

وتولى التدريس بمدرسة الملك المعظم بعد والدي رحمه الله تعالى، وكان وصوله إليها من الموصل في أوائل شوال سنة عشرة وستمائة؛ وكانت وفاة الوالد ليلة الاثنين

الثاني والعشرين من شعبان من السنة المذكورة، وكنت أحضر درسه وأنا صغير، وما سمعت أحداً يلقي الدروس مثله.

ومن هذا يظهر جلياً أنه أخذ مبادئ العلم عن شيخه أبي الفضل، لا عن والده كما قال أصحاب المفصل، ومنشأ الخطأ أنهم رجعوا ضمير (درسه) إلى الوالد وغفلوا عن المترجم له وحق لمن استفتى ثم أفتى بعد عمر أن يقول: بيدي لا بيد عمرو

2 - نقرأ في كتب السيرة أن للنبي صلى الله عليه وسلم خصائص؛ ونطالع في كتب الأدب كثيراً من خصائص اللغة العربية؛ ونسمع بكتاب الخصائص لابن جني - وإن لم يره إلا قليل - فما مفرد هذا لجمع؟ أمرضتني كتب اللغة، ولم تسعفني، ثم رأيت أقرب الموارد يقول: (والخاصة الذي تخصه لنفسك. . . والخاصيّة نسبة إلى الخاصة ج خاصيات وخصائص على غير القياس)، وفي أثناء مطالعتي في (المواهب اللدنية) ألقيته يقول: (وقد ذكر بعض العلماء أنه صلى الله عليه وسلم أوتي ثلاثة آلاف معجزة وخصيصية) فما قول السيد وحيد؛ والأستاذ الكبير (ا. ع)؟

3 - نبه كثير من الباحثين على خطأ الافتعال من قَطَف وعابوا (المقتطف) علماً على المجلة المعروفة؛ فما رأيهم في قصيدة النابغة الشيباني الفائيّة وفيها يقول:

تَسبي القلوب بوجه لا كِفاء له ... كالبدر تم جمالاً حين ينتصف

تحت الخمار لها جَثْل تُعكِّفه ... مثل العثاكيل سودا حين تقتطف

وبعد فكثير من مفردات اللغة العربية حائر بين المخطئين والمصوبين، فهل يضع المجمع اللغوي الملكي حدًّا لهذه الفوضى؟

طه محمد الساكت

المدرس بمعهد القاهرة

حول استدراك في غزوة حنين

ذكر الأستاذ الفاضل سعيد الأفغاني في العدد (422) من مجلة الرسالة الغراء استدراكاً على مقالي الأول في غزوة حنين؛ وقد جاء فيه أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه هو الذي سئل عن الخوارج (أكفار هم)؟ فقال: (من الكفر فروا) قيل: (أمنافقون هم)؟ فقال: (إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً، وهؤلاء يذكرون الله كثيراً). قيل (فما هم)؟ قال: (فتنة غشيتهم).

وكنت أحب أن يذكر الأستاذ سعيد الأفغاني المصدر الذي نسب فيه ذلك إلى علي بن أبي طالب، لأن هذا قد يفيد في تحقيق نسبة ذلك القول إلى النبي صلى الله عليه وسلم كما ذكرت، أو إلى علي بن أبي طالب كما ذكر هو؛ فأما المصدر الذي نقلت عنه نسبة ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ فهو كتاب إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون المعروف بالسيرة الحلبية، وهو تأليف نور الدين علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي القاهري الشافعي المتوفى سنة 1044هـ. وقد جاء ذلك في الجزء الثالث (ص140) من النسخة المطبوعة بمطبعة محمد علي صبيح بمصر

ولا شك أن صدور ذلك القول من النبي صلى الله عليه وسلم لا يمنع صدوره بعده من علي بن أبي طالب، والقطع بالصواب في مثل ذلك كما قطع الأستاذ سعيد الأفغاني لا ضرورة إليه، لأن صدوره محتمل من النبي صلى الله عليه وسلم؛ وليس هناك ما يمنع صحة نسبته إليه على سبيل القطع

عبد المتعال الصعيدي

القصر العيني

في العدد (418) من الرسالة الغراء ذكر الأستاذ طه الساكت خطأ الكثيرين في تسمية ابن قيم الجوزية ثم قال: (وقريب من هذا الخطأ - وإن تكلف بعض الكتاب تصحيحه - قولهم (القصر العيني)، وإنما هو قصر العيني بالإضافة إلى الأمير الشهابي أحمد بن عبد الرحيم بن البدر العيني نسبة إلى (عين تاب) على ثلاث مراحل من حلب) أ. هـ.

والواقع أنني كتبت في العام الماضي عن هذا التصحيح في مجلتي (منبر الشرق) و (الصباح) الغراوين، ولكني عدتُ فوجدت أن قولهم (القصر العيني) صحيح لا غبار عليه ولا تكلف فيه، وذلك لأن قولنا (قصر العيني) من باب الإضافة، وقولنا (القصر العيني) من باب النسب، والصلة وثيقة بين الإضافة والنسب، حتى لقد كتب الشيخ (الأشموني)

في كتابه عنوانَ (النسب) ثم قال: (هذا هو الأعرف في ترجمة هذا الباب، ويُسمى أيضاً باب الإضافة، وقد سمَّاه سيبويه بالتسميتين. .).
فقل (قصر العيني) وقل (القصر العيني) ولا تضيِّق على نفسك، فلغة الضاد أفسح مجالاً وأرحب صدراً، ولنا في لهجاتها ورواياتها وأقوال أهليها متسع ومستراد!
(البجلات)

أحمد الشرباصي

القصص

مفترق الطرق

للأستاذ نجيب محفوظ

زماننا عاثر الحظ أو نحن به عاثرو الحظ. فأينما تول وجهك تسمع تنهد شكوى أو ترجهم كدر. ولن تعدم قائلاً يقول إن هذا الزمان أضيق رزقاً وأنضب حياء وأفسد خلقاً وأقل سعادة وأنساً من الزمان الماضي، ويجوز أن نكون لزماننا ظالمين، وأننا نتحامل عليه لا لعيب اختص به دون غيره من الأزمنة، ولكن تبرماً بقساوة الحياة وفراراً من جفاف الواقع ولياذاً بظلام الماضي الذي يشبه ظلام المستقبل بعث أمل وطب آلام.
ومهما يكن من أمر هذا السخط فما من شك في أن جلال أفندي رغيب كان على حق في شكواه التي يرددها بغير انقطاع. كان مراجع حسابات في وزارة المعارف وفي السادسة والأربعين من عمره، قد وسع الله له في إحدى زينتي الحياة الدنيا وقتر عليه في الأخرى، فرزق ستة أبناء يسعون ما بين حجر الأم والسنة الرابعة الثانوية. وأما مرتبه فسبعة عشر جنيهاً، فناء بأثقال العيش ومتاعب الحياة، وقصمت ظهره المصاريف المدرسية. وكان كثيراً ما يقول متبرماً حانقاً كلما آن موعد قسط أو اقترب موسم من المواسم: (رجل مثلي - أب لستة ذكور، اثنين في المدرسة الثانوية، واثنين في المدرسة الابتدائية، وواحد في المدرسة الأولية، وواحد في البيت، غير زوجة وأم، ولا تراه الوزارة حقيقاً بإعفاء واحد من أبنائه من المصاريف. . . فمتى إذا تجوز المجانية!. . ولمن تجوز؟). وكان كغالبية أهل هذا البلد يائساً من العدالة قانطاً من الخير، يعتقد اعتقاداً كالإيمان الراسخ أنهما لا يصيبان إلا المجدودين من ذوي القربى والأصهار والأصدقاء، فرأى أن ليس أمامه سوى الكفاح الشاق، ومعاناة الشدة عاماً بعد عام، والتصبر على مرارة الحياة
ولبث على حاله لا يطمع في رجاء حتى تولى وزارة المعارف معالي حامد بك شامل، فطرق أذنيه اسم الوزير الجديد، وجذبت عينيه صورته المنشورة في الصحف، فومض في أفقه المظلم بارق أمل جديد، وانتعشت نفسه برجاء لا عهد له به، وقال لنفسه: (ينبغي أن أقابله. . . وأن أشكو إليه. . . هل يرفض رجائي؟. . . لا أظن)، وقصد يوماً إلى سكرتير الوزير وكتب حاجته على رقعة ليوصلها إليه، فمضى الشاب بها وتركه في حالة من القلق
والإشفاق لا توصف؛ وعاد مسرعاً يقول لجلال أفندي: (معالي الباشا مشغول جداً اليوم فلتتفضل بالمجيء ضحى الغد)، فعاد إلى حجرته مسرعاً واجداً متألماً، وكان ألف طوال مدة خدمته خيلاء الرؤساء وانتهار المديرين، ولكن انشغال الوزير آلمه أكثر من أي شيء، وجعل يتساءل: ترى هل يذكرني؟. . . ولم يكن شيء، ليصده عن هذا الباب، فذهب ضحى الغد كما قال له السكرتير وانتظر طويلاً حتى قال له الشاب: (تفضل)، فقام مسرعاً خافق الفؤاد، وفتح له الباب المحروس فاجتازه إلى الحجرة ذات السجاجيد والزخارف، ونظر إلى صدر المكان فرأى معالي الباشا كما يدعونه يطالع في شيء بين يديه، فلما أن شعر بوجوده رفع إليه عينيه ومد له يده وعلى فمه شبه ابتسامة وقال:
- أهو أنت!. . لقد اشتبه علي الاسم. . . أو ما تزال حياً؟
فسر جلال للمداعبة الأخيرة واطمأنت نفسه وقال بخضوع وإجلال:
- نعم يا صاحب المعالي ما أزال أكابد حظي في الدنيا
فنظر إليه نظرة استفهام، ومال إلى الوراء قليلاً وهو يتمتم: (أفندم)، فقال جلال:
- يا معالي الباشا قصدت إلى معاليك لأشكو إليك ما أشكوه من عنت الدهر وشقاء الأيام. لي أسرة كبيرة وأبناء كثيرون ومرتبي صغير، ولست طامعاً في علاوة أو درجة، ولكني أضرع إلى معاليكم أن تعفى ابنين لي في مدرسة شبرا الثانوية من

المصروفات
- الاثنين معاً؟!
- نعم يا معالي الوزير؛ إن آمالي مشرقة بمعاليكم، لقد جاوزت معاليكم عهداً طويلاً من سني الدراسة، وينبغي لمن حظي بذاك الجوار أن يربو حظه على حظوظ الناس جميعاً، خاصة إذا علمتم أن لي غيرهما أربعة آخرين، فقال له الوزير باقتضاب:
- قدم لي مذكرة
وكان الرجل محتاطاً لذلك، فأخرج من جيبه التماساً أعده لهذه الساعة وقدمه إلى الوزير، فجرت عليه عيناه بسرعة، ثم أمسك قلمه ووقع عليه بكلمة، وقال للرجل:
- اطمئن. . .
فانحنى جلال أفندي تحية، فتكرم الآخر بمد يده له، ثم غادر الحجرة مغتبطاً مثلج الصدر. ولكنه ما كاد يعود إلى مكتبه بالوزارة، حتى قال لنفسه متعجباً: لم يتغير (حامد شامل)
البتة، ولا تقدم به العمر، وكأنه في ريعان الشباب. . . هل يصدق إنسان أن كلينا ابن خمس وأربعين؟. . . تا لله إني لأبدو لعين الناظر في سن والده!. . . وقضى وقته يفكر في الوزير، في حاضره وماضيه، وفي صلته القديمة به. . . ثم اضطجع بعد تناول غدائه في بيته، وأشعل سيجارة، واستسلم إلى أحلام الذكريات. . . فألوت به إلى عهود الماضي المنطوي. . . إلى الوقت الذي كان يجلس فيه إلى يسار التلميذ (حامد شامل) على مقعد واحد، لا يكاد يفرق بينهما فارق جوهري. . . وكان التلميذ (حامد شامل) يلفت الأنظار إليه ببياض بشرته واحمرار شعره، وبملازمة عبد متهدم طويل يرتدي بدلة سوداء له في الطريق إلى المدرسة وفي طريق العودة، يتبعه كالظل إذا مشى، ويطمئن إلى مكانه إلى جانب حوذي العربة إذا ركب، ولذلك كان يحلو لرفاقه أن يداعبوه فدعوه (حامد اغا)، على أنه عجب غاية العجب كيف كانت المنافسة تحتد بينه وبين وزير اليوم وتلميذ الأمس كأنهما أخوا حظ واحد. . . والأعجب من هذا أنهما جريا معاً وراء تلك العاطفة - التي تهيج الجد والنشاط ولا تتسامى عن المرارة والألم - منذ أول عهد تجاورهما؛ وكانا في كفاحهما كأنهما يعيشان منفردين في فصل واحد، فكانت الغاية التي يهدف إليها كل منهما أن يتفوق على قرينه بغير مبالاة الآخرين. وعلى الرغم من استعانة حامد بالدروس الخصوصية يتلقاها على أنبه مدرسي المدرسة، فقد كانت الغلبة بينهما سجالاً، وكانت كفة جلال الراجحة. . . وكانا في ملعب كرة القدم مثلهما في الفصل لا يريحان ولا يستريحان. وكان كلاهما يزعم أنه أحق من صاحبه بقلب الدفاع. فكان مدرس الألعاب يعاقب بينهما فيه، حتى بدا تفوق جلال للجميع فاستأثر به، فكان آخر عهد الآخر بلعب الكرة. يا لله!. . . كانا يستبقان كأنما الدنيا تضيق عنهما معاً، وكأنما كان مستقبلهما ينذر بحرب مستعرة تشمل ميادينها الجد واللعب والإدارة والوزارة. فكيف شالت كفته بعد ذلك؟؟ كيف سقط من عيون الغربال وضاع في الحثالة؟. . . كيف صار رفيقا المقعد الواحد أحدهما وزيراً والآخر مراجعاً بالحسابات ينوء صدره بآلام الحاضر ووساوس المستقبل!
ثم تمتم قائلاً وهو يطفئ سيجارته ويرمي بالعقب إلى المنفضة: تا الله ما يستحق أن يكون وزيراً ولا وكيل وزارة ولا شيئاً من هذا، وخشي أن يكون متجنياً عليه أو مائلاً مع عواطفه القديمة فتساءل باهتمام وجد كأنما يزمع كتابة ترجمة له كيف اعتلى كرسي الوزارة؟. . . لقد انفصلا في نهاية الدراسة الثانوية فاضطر هو لأسباب إذا ذكرها جرت المرارة في فمه، إلى الانقطاع عن الدراسة والتحق صاحبه بمدرسة الحقوق، ثم حصل على الليسانس، وكان أبوه محمد باشا شامل وزيراً للحقانية فعينه سكرتيراً له في الدرجة الخامسة، فكانت القفزة الموفقة الأولى. وقرأ بعد ذلك في الصحف أنه اختير لبعثة في فرنسا لا يعلم كم أمضى بها ولا ما حصل عليه فيها من الإجازات، ولكن كثيرين يعلمون بزواجه بعد ذلك بسنوات من كريمة المرحوم حامد باشا حامد الذي تولى الوزارة مرات، فارتقى فجأة إلى الدرجة الثالثة مديراً لإدارة التشريع، وانقطعت عنه أخباره فترة وجيزة حتى علم بتوليته مديرية أسوان، ثم بترقيته محافظاً للقنال بعد ذلك بقليل، ثم باختياره وزيراً للمعارف، ومضى على توليته الوزارة أسابيع والمجلات لا تكف عن الإشادة بمواهبه القانونية ومقدرته الإدارية ومشروعاته عن إصلاح التعليم، وكاد جلال أفندي أن يصدق ما يقال لولا أنه قرأ مقالاً عن تفوق الوزير في عهد

الدراسة - في العلم والرياضة البدنية معاً - وكيف أن مفتشاً من مفتشي الوزارة تنبأ له على أثر مناقشته بأنه سيكون يوماً وزيراً، فأغرق الرجل في الضحك، وقال ساخراً: (الآن فهمت سر المواهب القانونية والإدارية!)

وتنهد جلال أفندي رغيب وتمتم قائلاً: (دنيا!)، وأراد أن يريح نفسه من أفكاره فتناول مجلة يقلب صفحاتها المصورة؛ والظاهر أن ذكريات الوزير كانت تأبى أن تفارقه، فرأى صفحة من المجلة مخصصة للوزير تتوسطها صورة كبيرة؛ ما إن بصر بها حتى صاح في دهشة وغرابة (رباه هذه صورة فصلنا القديم) وألقى عليها نظرة سريعة فثبت بصره على صورته وكان يقف في الصف الأول وراء المدرسين مباشرة إلى يمين الوزير ينظر إلى عدسة المصور في ابتسام وثقة؛ وكان الوزير كالعابس وعلى حاجبه الأيمن ذبابة، فضحك جلال طويلاً وذكر قصة الذبابة، وقد كانت في الأصل من نصيبه هو وتنبه لها والمصور يهم بالتقاط الصورة فهشها بسرعة فطارت عنه إلى حاجب قرينه وحطت عليه؛ وقد أحس أسفاً لذبة الذبابة فلعلها كانت ذبابة الحظ السعيد سكنت إلى وجه الوزير المدخر؛ ورنا إلى الصورة بعينين حالمتين فهامت روحه في آفاق الماضي حتى شعر بأن روح الطفولة تحل فيه مرة أخرى، وأن شعيرات قذاله البيضاء تسود، وتجاعيد جبينه وما حول فمه تلين،

ونظرة عينيه تصفو وترق، ويمسح على ما فيها من هم وبلبال. . . أحس قلبه يخفق مرة أخرى بالأمل والطمأنينة، وجرى بصره على الوجوه الصغيرة وهو يتساءل: ترى كيف صار هؤلاء جميعاً؟. . . وعاين أول صورة في الصف الأخير فعرف صاحبها بوضوح غريب، وذكر اسمه (عبد الملك حنا)، وذكر كيف كانت تنتابه نوبات الصرع في الفصل حتى انقطع عن المدرسة. . . أما بقية الصف فتذكر وجوههم وغابت عنه أسماؤهم ومصايرهم؛ وعرف في الصف الثاني وجهاً كأنما تركه بالأمس؛ كان ابناً لأحد كبار المستشارين فكان يتمتع لذلك بنفوذ وصوله فيحييه الناظر إذا بصر به، ويلاطفه المدرسون، وقد علم فيما بعد أنه عين وكيلاً للنيابة وترقى قاضياً، ولعله يتأثر الآن خطى أبيه الكبير. أما من يليه من الصغار فجلهم من المغمورين وبعضهم معه في المعارف وهو يعرفهم حق المعرفة، وأما آخر هذا الصف - الذي ينظر إلى المصور بتحد غريب ويشبك ذراعيه على صدره - فكان من أشقياء التلاميذ المولعين بالشجار والتصادم، وقد طرد من المدرسة لاعتدائه على أحد المدرسين. ومن العجيب أنه احترف فيما بعد (البلطجة)، وطاف بالسجن مرات. وألقى نظرة أخيرة على الوجوه الأخرى فلم يعرف عنها شيئاً إلا الدكتور المعروف (حنا عبد السيد)، وإلا هذا الذي يتوسط الصف الأول، كان أنبغ التلاميذ جميعاً، وكان أول الابتدائية ثم أول البكالوريا والتحق بمدرسة الحقوق كبير الهمة سخي المواهب، ولكنه أصيب أول عهده بها بداء اصدر فاضطر بعامين ترك المدرسة والكف عن التحصيل، واشتغل بعد ذلك بعامين كاتباً في الصحة. . . فلا يقل حظه شذوذاً عن حظ الوزير نفسه.

نال كل منهم نصيبه وخضع لحكم حظه وسعيه. كانت تجمع بينهم جدران واحدة، لا يكاد يتميز وراءها إنسان إلا بجده وخلقه، ففرقت بينهم الحياة، فرفعت وخفضت، وأحيت وأماتت، وأذاقت الفقر، ومتعت بكرسي الوزارة، وكل بما قسم له غير راض ولا قانع. .

.

ونظر جلال أفندي عند ذاك في الساعة فوجدها تدور في الرابعة، فعلم أن موعد الصغار آن واقترب، وإنهم عما قليل يملئون البيت حياة وقلبه نوراً، فرمى بالمجلة بعيداً وطرد من عقله الوسواس ليستقبلهم أجمل استقبال، وقال لنفسه متعزياً:

- من الخطأ أن يفكر الإنسان في شئون الناس ما دام هذا لا يورث إلا الضيق، وحسبي أن

معاليه قال لي: (اطمئن)

نجيب محفوظ

العدد 424 - بتاريخ: 18 - 08 - 1941

تحت ظلال الكافورة

من أحاديث القهوة

- 1 -

المنصورة بلد الطبيعة الساحرة والطبع الشاعر هي الآن مصيف ومهجر

هي مصيف، لأن موقعها على ملتقى النهر الصغير والنهر الكبير جعلها كرأس البر على ملتقى النيل والبحر؛ والفرق بينهما أن (رأس البر) رمله من رمال الصحراء، والمنصورة روضة من رياض الجنة. وهي مهجر، لأن بعدها عن الأهداف الحربية والثغور البحرية صرف عنها لحظات المغيرين والغِيَر

ومن جملة المصطافين بها والمهاجرين إليها تتألف في القهوات والندوات جماعات في الأدب والسياسة والتجارة واللهو والفضول ترتسم من مجموعها صورة مقاربة لمجتمعنا العام تصلح للتأمل والدرس. ومن جعل الله ديدنه وصف ما يبصر، وتسجيل ما يسمع، لا يملك أن يشاهد هذا العالم الصغير دون أن يعرض بعض أحاديثه للبحث، وبعض حوادثه للنظر

تتفيأ القهوة التي نجلس فيها الدوح الباسق والشجر الوريف بين شارع الكرنيش وشاطئ النيل. فهي تنظر عن اليمين فترى في الطريق أخلاطاً من الأجناس أكثرها الإغريق، وأنماطاً من اللباس أغربها القلانس، وصوراً من الحسن أبدعها الأوانس، وهُوَلاً من القبح أشنعها المتسولون والباعة. وتنظر عن الشمال فترى في النهر زوارق العبور تنساب حابسة في شُرُعها طلق الهواء، أو ضاربة بمجاديفها وجه الماء، وشباك الصيد يطرحها الصيادون في المكان الضحل فلا تصيب إلا صغار الحصى أو شَبار السمك، وخواطف الطير تحلق فوق الصائد فتخطف ما ثار أو تأخذ ما ترك

يندو إلى هذه القهوة طوائف من الناس ألفت بينهم وحدة الحرفة أو مصافقة المودة أو مبادلة المنفعة: فهنا المعلمون قد تكوفوا على بعض المناضد القاصية، يجادلون بالصوت الجهير في الحرب والأخبار، أو يخوضون في حديث المفتشين والنظار، ومذباتهم التقليدية تتحرك آلياً في أيديهم فتذود الغبار عن الثياب والذباب عن الأوجه. وهناك التجار يتعاقب على مناضدهم الوسطى شُكول من السماسرة والمنتجين فيقيمون في حدودهم الضيقة سوقاً

تصطرع فيها طباع المتسوقين من الإغراء والإباء، والصخب والغضب، والمشادة والملاينة، والمسارَّة والمسايرة، ثم ينجلي الأمر عن صفقة من الشعير أو الرز. وهنالك في أقصى الشرق مناضد بُسطت عليها أغطية من القماش المفوَّف وقد أحاط بها عقائل من حسان الروم يفسرهن شباب منهن، قد أنقذهم من نار الحرب سلام النيل، وأفرغ عليهم وضاءةَ النعيم خير مصر، وضمن لهم عيش الأمان سماحة المصريين؛ فهم يتساقون أقداح الزبيب، ويتناقلون أحاديث الأنس، ويتطارحون أضاحيك الحياة، كأن شعبهم لم يذل ووطنهم لم يحتل ومَلكهم لم يشرَّد!

وفي خلال هذه الزمر ترى شاعراً وسنان الحركة نشوان الحس يقرأ على صفحة النهر الوردية أشعار الطبيعة، أو طارئاً من ضخام القرويين لم يطق صبراً على عبث النسيم فنام على كرسيه أثقل النوم، وغط في نومه أقبح الغطيط. وعلى حفافي القهوة ومماشيها تتهافت أفناءٌ من ذباب البشر يقولون إنهم من رعايا وزارة الشؤون الاجتماعية، فيهم المعتوه المخيف، والمريض المعدي، والشيخ المتهدم، والشمطاء الخاوية، والناشئ الضرير، وكلهم يسأل بإلحاف، أو يبيع بسماجة، أو يحتال في سخف!

وتحت الدوحة الكبرى وفي مكان لا يكاد يتغير تجلس جماعتنا طرفي النهار وزلفاً من الليل. وهذه الجماعة من تأليف الحب وحده. تقارب في أفرادها الذوق والرأي والهوى فتمكنت بينهم الألفة، واستكمل بعضهم من بعض ما نقص من عوامل أنسه ومباهج نفسه. واحسبني لا أعدو الحق إذا قلت إنها كثيراً ما تشقق الحديث في شجون من الأدب والتاريخ، وفنون من السياسة والنقد، وشؤون من التجديد والإصلاح، إذا هي سجلت في الرسالة على إيحاء الخاطر وإملاء الطبع كانت نوعاً من الإنتاج الأدبي له قيمته وأثره. ولعلني أستطيع أن أنقل إليك الحين بعد الحين مقطعات من هذه الأحاديث تجد فيها لوناً طريفاً من ألوان المعرفة

واسطة عقد الجماعة رجلان كل منهما طراز وحده في مناقلة الحديث ومبادهة الرأي: أحدهما الأستاذ توحيد السلحدار، والآخر الأستاذ الزناتي. أما صديقنا السلحدار فكنز مدفون لم يشأ الله أن يعرف: نفس كريمة لا تخلق إلا في ملك، وحس مرهف لا يكون إلا لشاعر، وذوق سليم لا يوهب إلا لفنان، ورأي حصيف لا يختمر إلا في حكيم، وثقافة شاملة لا

تجتمع إلا لعالم، وخبرة واسعة لا تتهيأ إلا لأريب. درس الأستاذ توحيد وقرأ، ثم رحل وشاهد، ثم ذاق وجرب، ثم عايش النبلاء بحكم نشأته، ولابس الدهماء بحكم وظيفته، وأعانه على الإفادة من كل أولئك أسرة غنية ويد سخية ونفس طُلَعة. فأنت لا تكاد تبدأ الحديث أو تلقى السؤال في ناحية من نواحي الأدب أو الفن أو السياسة أو التاريخ أو الطب أو الطعام أو الشراب أو اللهو إلا بادرك بقول تظنه لصوابه تفكير يومه، أو بادهك بجواب تحسبه لسداده اطّلاع ساعته

وأما أخونا الزناتي فحديثٌ حسن المنطق عذب الأسلوب جامع لطائفة مختارة من أخبار العلماء والأدباء ورجال الحكم، شهدها بنفسه، أو سمعها من أبيه، أو قرأها في مخطوط من نوادره؛ ومن هذه الأخبار ما لا تجده في كتاب ولا تسمعه من أحد. وللزناتي تطلّع الجبرتي وملاحظته، فهو يستقصي أطراف الخبر، ويستوعب أحوال الأشخاص، ثم يخزن ذلك في حافظة واعية ليؤديه متى شاء لا يند منه حرف ولا وصف. ولقد أقترح أحد الأصدقاء على الأستاذ توحيد أن يُطرف قراء (الرسالة) بأحاديث (من جانب الذاكرة)، وعلى الأستاذ الزناتي أن يمتعهم بنوادر (من فيض الحافظة)؛ فعسى أن ينزل الأستاذان على مقترح الصديق، وان يعجلا إلى القراء الظمآء بهذا الرحيق!

(المنصورة)

احمد حسن الزيات

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

فرصة ذهبية لاختبار العزائم والأخلاق - قسم اللغة العربية بكلية الآداب - أدفع الثمن يا جاحد - الموت في الرؤيا حياة - تحية عراقية - إلى جيراني أوجه القول.

. . .فرصة

هي فرصة ذهبية لاختبار العزائم والأخلاق فاغتنموها قبل أن تفوت

وما تلك الفرصة؟ هي فرصة التنبه الشديد الذي يلازم النفوس والعقول عند اشتداد المكاره والمحرجات. ولا موجب للتذكير بما نعاني في هذه الأيام (البيض) وإنما الواجب هو التذكير بالقيمة الصحيحة لأمثال هذه الأيام في تأريث المشاعر والقلوب، فهي عندي أصلح الأيام للنضال في الميادين الأدبية والاجتماعية - بغض النظر عن الميادين السياسية - والرجل الذي يتبلد في هذه الأيام بحيث يقضي أوقاته في مضغ الحديث المعاد، هو رجل لا يصلح لشيء، وهو بمسلكه البليد يشهد على نفسه بفتور العزيمة وضعف الأخلاق

حين يأتي النذير بأن العالم معرض للدمار والهلاك - لا قدر الله ولا سمح! - ينقسم الناس إلى فريقين: فريق يسارع إلى انتهاب اللذات ليأخذ منها حظه قبل أن يموت، وفريق يستبق لي الأعمال الجدية ليواجه الموت وهو على أشرف حال، فإلى أي الفريقين تميلون، يا قرائي؟

كونوا كيف شئتم، ولكن المهم هو تذكيركم بأن الساعة من هذه الأيام قد تساوي سنوات بفضل ما فيها من التنبه والتيقظ، وبفضل ما تصنع في إرهاف عزائمنا وقلوبنا، وتلك فرص لا تسنح في كل يوم، فاغتنموها قبل أن تفوت، ثم اغتنموها قبل أن تفوت

لو كنا في حرب لدعوت نفسي ودعوتكم إلى الاستشهاد في سبيل الوطن الغالي، ولكن مصر لم تقرر إعلان الحرب، فلم يبق إلا أن ننتفع بالفرصة التي أتيحت بسبب تعرضنا لأخطار الحرب، بلا بغى منا ولا عدوان

والفرصة هي تلك اليقظة العقلية والروحية، اليقظة التي محت جميع الغفوات، وصيرت أعصابنا في وقدة الجمر الوهاج

لا يجوز أن تنقضي هذه الأيام بلا محصول نفيس يرفع رءوسنا بين كرام الشعوب، ولا يجوز أن نقف موقف المنتظرين لما تسفر عنه الأغداء الآتية، وهي أغداء مجهولة الألوان، ولا ينتظرها إلا أهل الغفلة والخمود

لا يجوز أن تقل أوقات العمل عن عشر ساعات من كل يوم، بالنسبة للضعفاء. أما الأقوياء فمن واجبهم أن ينتفعوا بجميع الأوقات ولو قهرتهم الغارات على اللجوء إلى ظلمات السراديب

هي فرصة للتخلص من الأمراض النفسية والروحية، فاغتنموها قبل أن تفوت
هل سمعتم بجهنم - أعاذكم الله من حر جهنم -؟
يقيم الآثم مدة في جهنم عقاباً على ما أجترح من السيئات، ولو أصغيت لوحي النزعة الصوفية لقلت: يقيم الآثم مدة في جهنم ليتطهر من الأوضار النفسية والروحية بحيث يصلح لمجاورة سكان الفردوس
ومكاره الحرب ليست عقاباً على أثام جناها المصريون - وهم نماذج في الرفق والتسامح - وإنما هي مِحن مطهِّرة سنقطف ثمارها بعد حين
والإقبال على الأعمال بشغف وشوق هو الذي يقصر أمد ذلك الامتحان، فأقيموا الدليل على الصلاحية لحياة البِر والمجد، ليرفع الله عنكم آصار الخوف، وليُذهب عنكم أوجال هذه الأيام
إن اللاهين واللاعبين لا يستحقون الحياة، فمن حق الأقدار أن تسلب منهم هذه النعمة حين تشاء
أما الذين يبذلون حياتهم في الأعمال الجدية صابرين مُصابرين، فلهم في الحياة شرف الكرامة، ولهم بعد الموت شرف الخلود
في كلية الآداب
قيل وقيل إن قسم اللغة العربية بكلية الآداب صائر إلى الزوال، مع أنه كان النواة لدوحة الجامعة المصرية؛ فما أغرب ما تصنع التقلبات بمصاير الشخصيات المعنوية في هذه البلاد!
ويقال إن فكرة توحيد المعاهد التي تصوغ مدرسي اللغة العربية هي السبب في إلغاء ذلك القسم، فما تستطيع الدولة أن تحتمل الإنفاق على ثلاثة معاهد توصل إلى غرض واحد!
هو ذلك، يا مَن أقمتم البرهان على تبحركم في علم الاقتصاد! ولكن هل يوجد في الدنيا كلية آداب ليس بها قسم خاص بآداب اللغة القومية؟
لكم أن تنشئوا معهداً يتخرج فيه مدرسو اللغة العربية على المنهاج الذي تنشدون. . .
أما اعتداؤكم على قسم اللغة العربية بكلية الآداب فهو جناية لا يُقدم على اقترافها رجل حصيف
وقد سمعت - وما أشنع هذا الذي سمعت - أن أساتذة كلية الآداب رحبوا بذلك الاقتراح اللطيف! (يشهد بذلك خطاب تلقيته من أحد المتخرجين في كلية الآداب، وإن كان بغير إمضاء، كأن صاحبه يخاف عواقب الجهر بالرأي الصحيح) أما بعد فهذه تجربة جديدة لأساتذة كلية الآداب، فإن أُلغي ذلك القسم وهم شهود فسيعرف القلم كيف يجزيهم أحسن الجزاء
كان يقال: إن من عيوب عهد الاحتلال أنه لم ير التعليم إلا وسيلة للتوظف، فكانت مكيدة لقتل المواهب المصرية
فأين أذناك، لأُسمعك صوت الحق، يا عهد الاستقلال؟!
وأين اليمين؟ أين اليمين؟ أي والله، فقد أقسمنا على الوفاء لكلية الآداب، وهي اليوم بلا ناصر ولا معين، فأين أبناؤها الأوفياء؟ كان الظن أن لا يلغى كرسي واحد من كراسي تلك الكلية، ولو كان خاصاً بدرس لغة الزنوج، فكيف يلغى قسم اللغة العربية؟ تلك أمور يحار فيها اللبيب
أدفع الثمن يا جاحد!
هذا مدرس (من شرق الأردن) كتب إليّ خطاباً بلغت كلماته 1500 بالتقريب، وإنما قدرت الكلمات لسبب سيعرفه بعد لحظات
وذنبي عند هذا المدرس أنني لم أف بما وعدت من بسط القول عن الحياة الأدبية في العراق، فقد سكتُّ بعد بضع مقالات. . . فهل غاب عنه أن الدنيا وقعت فيها أكدار صرفت القلم عما أعتزم المضي فيه، وأن من تلك الأكدار انقطاع البريد بين مصر والعراق؟؟ وما قيمة الكتابة عن الأدب العراقي وكان أهله في شغل بما عرف الناس، إلا ذلك المدرس
الأديب؟!
انتظر، فقد نصل ما أنقطع بعد أسابيع
ثم أرجع إلى بيت القصيد فأقول: أن هذا المدرس أتعب نفسه بمناوشتي وهو يعتقد

بأني لن أنشر خطابه في الرسالة ولن أرد عليه، فمن أين عرف أني أبخل عليه بالنشر والرد، إن اتسعت صفحات (الرسالة) لما يريد؟
لو فكر قليلاً لعرف أن من الخير للحياة الأدبية أن يكون فيها كاتب يثير بعض القراء إلى الحد الذي يسمح بأن ينفعل فيكتب مئات الكلمات باهتمام واحتفال: فكتابة 1500 كلمة في ساعة غضب توقظ العقل والذوق، وتروض الكاتب على الاصطلاء بنار الفكر والوجدان
وما قال أحد أنه يبغضني ويحقد على إلا اطمأننت إلى تبليغ رسالتي الأدبية، فأنا أخلق الفرص خلقاً لإذكاء نار الغضب والحقد في القلوب التي طال عهدها بالغفوة والخمود. . . وهذا الغاضب الحاقد لا يعرف كيف انشرح صدري لما صدر عن قلمه من غضب وحقد، فذلك شاهد جديد على أن جهودي الأدبية لن تضيع
إن هذا المدرس لا يعرف كيف خدمته حين أثرت عواطفه الغافية، وحين قهرته على الفزع إلى القلم والمداد والقرطاس، وحين فرضت عليه أن يقول ما يقول بألفاظ خفاف أو ثِقال!
ادفع الثمن، يا جاحد، ليرفع الله عنك أصر الجحود!
الموت في الرؤيا حياة
الأديب الفاضل السيد (كاشف) الذي كتب إلينا من (أعالي النيل) رأى في منامه حلماً أزعجه أشد الإزعاج، وكيف لا ينزعج وقد رأى أن أعظم أحبابه الروحيين قد مات؟
وأجيب بأن الموت في الرؤيا حياة، فله أن يطمئن كل الاطمئنان
والطريف في هذه الرؤيا أن الميت هو صاحب (النثر الفني) وأن السيدة التي كانت تبكي خلف نعشه اسمها (ليلى) وهذا الأديب يرجوني أن أفسر له هذا الحلم المزعج ليذهب خوفه وأساه. . .
ومن غريب المصادفات أن أقرأ في جريدة الدستور قبل أن أتسلم خطاب هذا الأديب بلحظة قصيرة كلمة مترجمة عن جندي ياباني، وهي:
(حلمت ليلة أمس أني فقدت أبي، وقد أخبرني أحد رفاقي أن هذا الحلم فأل حسن)
والقول بأن الموت في الرؤيا حياة هو قول ابن سيرين، فاتفاقه مع العقيدة اليابانية دليل على ارتباط الأمم الشرقية بعضها ببعض في كثير من المعاني والآراء
أما بكاء (ليلى) خلف نعشي فهو شاهد على اعتزازي بمودة أهل العراق فهم أنصاري الأوفياء. أعزني الله بودهم الوثيق
إلى جيراني أوجه القول
لا تظنوا أن أعماركم سيضيع منها شيء أن أقللتم من الجزع وقت النذير بغارة جوية، ولا تتوهموا أن الأعداء عندهم من الذخائر ما يكفي لتقويض جميع البيوت، ولا يخطر في بالكم أن جنود السوء ستقصدكم بالذات، فهم يجهلون مواقع أرواحكم بالنهار وبالليل، ولعلهم يجهلون مواقع أرواحهم من وثبات القضاء
تلك كروب ستنجلي وستنكشف بعد أمد قصير أو طويل، ثم تعود الحياة إلى ما كانت عليه من الرخاء والصفاء
العاقبة للصابرين، يا جيراني، فلا تزعجوني بما أسمع من إمارات القلق والخوف، وقد أويت إلى سرداب البيت لادون بعض الملاحظات في أمان من اعتراض البوليس لا من اعتراض الموت، فالأعمال بيد الله يتصرف فيها كيف شاء
أكتب هذا وأنتم هرج ومرج، كأن صفارة الإنذار هي النفخ في الصور، وكأن الدنيا على شفا الزوال!
يكفي أن تراعوا نصائح وزارة الوقاية، تأدباً مع النظام، لا تخوفاً من الموت، ولتصنع الأقدار بعد ذلك ما تريد
لن يترك أحد من عمره دقيقة واحدة، ولو عرض صدره لقواذف الموت، فما جزعكم من كوارث لن تصيب إلا من كتبت عليه في سريرة الوجود؟
ثقوا، يا جيراني بأنكم باقون، إلى أن تنتهي الحرب بسلام، وثقوا بأن الاستهانة بالخطوب تفل أنياب الخطوب، واعرفوا جيداً أن الحياة لا توهب إلا لمن تصغر في نفسه قيمة الموت
ما هذا؟ تلك قهقهة عنيفة يصل دويها إلى اذني، وهي الإمارة على أنكم أصحاء النفوس

والقلوب. جزاكم الوطن عن تلك القهقهة احسن الجزاء
تحية عراقية
في صدر جريدة (الأحوال) البغدادية تحية موجهة إلى مجلة (الرسالة) بإمضاء (رفيع)، وقد وضعت التحية في إطار جميل يصور بعض مواقع السحر في بغداد
فماذا نصنع في رد تلك التحية؟
نقدم إلى قرائنا الأخبار الآتية:
أولاً - لم ألاحظ فيما يصل من جرائد ومجلات أمثال (الأحوال، الأخبار، والكرخ، والحضارة، وصوت الحق) أن العراق كان وقع في كروب بسبب الحرب؛ فالعراق هو هو، وروحه المعنوية لا يزال قوياً سليماً، اهتمام هذه الصحف بشؤون التعليم والاقتصاد لم ينله أي ضعف، فهي لا تلتفت إلى الماضي لتجتر ما وقع فيه من لاواء، وإنما توجه جهودها إلى المستقبل بعزيمة ومضاء، وكذلك يفعل عقلاء الرجال
ثانياً - وزارة الدفاع الوطني هناك تنشر الإعلانات من وقت إلى وقت في دعوة الشبان إلى الإقبال على الجندية، وهي ترغبهم بشتى الوسائل كان تقول أن مرتباتهم في أيام الدراسة بمختلف المدارس العسكرية ستكون على هذا الوصف أو ذاك، وأن حالتهم بعد التخرج ستكون على هذه القاعدة أو تلك، وأعظم وسيلة في نظر وزارة الدفاع هي تذكير أولئك الشبان بأنهم سيكونون حماة البلاد، وهذا روح يدل على الشعور بقوة الذاتية، ويبشر بمستقبل مرموق، حقق الله الآمال!
ثالثاً - في جميع النشرات التي تصدرها وزارة الدفاع نجد العبارة الآتية:
(يجب أن يكون الطالب عراقياً، وليس متجنساً)
ومن هذه العبارة نفهم أن الاتجاه الجديد في العراق يوجب أن يكون الجنود والضباط والقواد من دم عراقي سليم، ولهذا الاتجاه الجديد أسباب لا تخفي على أولي الألباب
زكي مبارك
كيف يكتب التاريخ
للدكتور حسن عثمان
مدرس التاريخ الحديث بكلية الآداب
- 2 -
العلوم المساعدة
المقبل على دراسة التاريخ وكتابته ينبغي أن يعلم من أو الأمر أنه مقبل على عمل شاق يتطلب الجهد والتضحية والصبر الطويل، وأنه تلزمه دراسة عميقة وتحصيل جدي. وأنواع المعرفة الإنسانية متداخلة متشابكة فيما بينها؛ ولا يمكن أن يدرس علم معين مستقلاً بذاته عن باقي العلوم الأخرى. فمثلاً لا يستطيع الإنسان أن يفهم القرآن بدون أن يعرف اللغة العربية وعلم القراآت والفقه. . . وكذلك دراسة التاريخ متصلة بأنواع مختلفة من المعرفة الإنسانية. وكاتب التاريخ ينبغ أن يكون واسع الثقافة عارفاً بالعلوم المتصلة مباشرة بدراسة وكتابة التاريخ. ويمكن أن تسمى أنواع المعرفة اللازمة للمؤرخ بالعلوم المساعدة؛ وهي تختلف باختلاف العصر الذي يرغب الكتابة عنه؛ فالعلوم المساعدة اللازمة لمن يكتب في تاريخ اليونان القديم تختلف عن العلوم المساعدة الضرورية لمن يكتب في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية
ومعرفة اللغات من أهم العلوم المساعدة الضرورية للراغب في كتابة التاريخ. فلابد أولاً من معرفة اللغة الأصلية للعصر التاريخي المرغوب الكتابة عنه، لأن التراجم التي تكفي للثقافة العامة لا تكفي المؤرخ للتغلغل في تاريخ ذلك العصر، فالراغب في الكتابة عن تاريخ اليونان القديم لابد له من معرفة اللغة اليونانية القديمة. ومن يرغب الكتابة عن تاريخ العصور الوسطى في الغرب يلزمه معرفة اللغة اللاتينية التي كانت سائدة في تلك العصور. والراغب في الكتابة عن تاريخ إيطاليا من الضروري له أن يعرف اللغة الإيطالية. وأهمية اللغات لا تكون بدرجة واحدة بالنسبة للعصور التاريخية المختلفة. فمثلاً الراغب في الكتابة عن الثورة الفرنسية ليس من الضروري أن يعرف اللاتينية، ومن الأفضل أن يصرف جهده لتعلم لغة أوربية حديثة؛ ولكن اللاتينية ضرورية لمن يرغب في
دراسة تاريخ الكنيسة حتى في العصر الحديث. وعلى كل فإنه كلما تعددت اللغات القديمة أو الحديثة التي يلم بها الباحث في التاريخ اتسع أمامه أفق البحث

والاستقصاء. فأي باحث في التاريخ ينبغي أن يعرف اللغات الأصلية، قديمة أو حديثة، المتعلقة بالعصر الذي يدرسه كالهيرغليفية واليونانية واللاتينية والعبرية والعربية والفارسية والتركية لكي يستطيع أن يرجع بنفسه إلى الأصول التاريخية الأولى؛ وكذلك ينبغي أن يعرف اللغات الأوربية الحديثة الشائعة الاستعمال وهي الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية، وإن قصر في معرفة بعضها ينبغي أن يسد هذا النقص، وذلك لكي يقرأ المؤلفات التي تصدر بهذه اللغات عن العصر الذي يدرسه. وقد تبدو مسألة تعلم اللغات عسيرة، وقد تجعل أشجع الناس يتردد في الإقدام عليها؛ ولكنها دراسة لابد منها لمن يرغب جدياً في كتابة التاريخ، ويحسن أن يبدأ الراغب في كتابة التاريخ دراسة اللغات الضرورية أثناء وجوده بالمعاهد النظامية؛ ولكن لا داعي لأن يدرس عدة لغات في وقت واحد. وليس هناك ما يمنع الباحث من دراسة أية لغة جديدة في أي وقت من حياته؛ ودراسة سنتين في إحدى اللغات الجديدة على الباحث كافية كأساس مبدئي، يستمر بعدها في المزيد. ويا حبذا لو أمكنه قضاء بعض الزمن في بلد تلك اللغة الجديدة

ومن العلوم المساعدة الأساسية لكتابة التاريخ علم قراءة الخطوط وقراءة أنواع الخطوط تدرس بعناية في جامعات الغرب. وتوجد أنواع مختلفة من الخطوط الغربية والشرقية تبقي كالطلاسم حتى يتعلمها الباحث ويتدرب على قراءتها. ودراسة هذه الخطوط توفر عليه الوقت وتجنبه الوقوع في الخطأ فيما لو ترك المسألة لمجرد التعلم بالتمرين؛ وأحياناً توجد وثائق كتبها سفراء وقناصل الدول إلى حكوماتهم بالشفرة، وذلك لإخفاء معلوماتها عمن يحتمل أن تقع في يده من الاعداء؛ فينبغي تعلم فك هذه الشفرة بواسطة المفتاح الخاص بها إن وجد في دار الأرشيف التي يعمل فيها دارس التاريخ. ويوجد بالأرشيف الواحد أكثر من مفتاح واحد على حسب الحالة، ومفاتيح الأرشيف تختلف من بلد إلى آخر. فمفاتيح أرشيف الفاتيكان تخالف نظيرها في فلورنسا أو فينا أو باريس أو مدريد. وعلم قراءة الخطوط ضروري جداً لدراسة فروع مختلفة من التاريخ مثل تاريخ مصر القديم، وتاريخ اليونان والرومان، وتاريخ العصور الوسطى، والتاريخ الحديث، حتى أوائل القرن السابع عشر، بالنسبة لدور الأرشيف في أوربا، وبعد ذلك العهد تصبح الخطوط واضحة مقروءة. والخط العربي مثلاً كتب بأشكال مختلفة، فمنه: الطومار والنسخي والرقعة، وقراءتها تحتاج إلى تعلم وتمرين؛ ولقد وضع بعض القدماء والمحدثين في الشرق والغرب بحوثاً في قراءة الخطوط العربية. وفي الشرق الأدنى العثماني كتبت الوثائق التركية بعدة خطوط مثل الخط الديواني وخط القيرمة، وقراءتهما تحتاج إلى تعليم خاص. ومجموعات وثائق دار المحفوظات المصرية بالقلعة تحتوي آلاف الوثائق عن تاريخ مصر المالي والإداري في العهد العثماني وفي عهد محمد علي وخلفائه. وكلها مكتوب باللغة التركية وبخط القيرمة؛ وكذلك توجد مجموعات من الوثائق بهذا الخط في سورية وتركيا. وستظل معلوماتنا عن هذه القرون الطويلة قاصرة وناقصة وقابلة للتعديل حتى يتعلم الباحثون قراءة خط القيرمة، ويتمكنوا من دراسة هذه الكنوز التاريخية على مدى عدة أجيال

ويتصل بدراسة الخطوط علم الدبلومات فيتعلم الباحث لغة ومصطلحات وثائق العصر الذي يدرسه، وأنواع الورق والحبر الخاص بها، لكي يستطيع أن يعرف صحة الوثيقة أو بطلانها. ويلزم الباحث أن يعرف بعض نواحي علم الكيمياء لكي يستعين بذلك على فحص هذه الوثائق بنفسه إذا اقتضى الأمر؛ ثم يأتي علم النومات أي علم النقود والمسكوكات. فالعملة والأنواط التي تحمل صور الملوك أو ذكرى حوادث تاريخية معينة، عليها سنو ضربها تفيد في دراسة التاريخ، فنعرف منها حقائق عن حكم الملوك وعن مدى انتشار التجارة وعن تاريخ الفنون

والجغرافيا من العلوم المساعدة الضرورية لدراسة وكتابة التاريخ؛ والارتباط وثيق بين التاريخ والجغرافيا. فالأرض هي المسرح الذي حدثت عليه وقائع التاريخ، والظواهر الجغرافية المختلفة لها أكبر الأثر في الإنسان والتاريخ. فالسهول والجبال والصحاري والوديان والأنهار والبحار والمناخ وأنواع الرياح والثروة الطبيعية والموقع الجغرافي تؤثر كلها على تكوين الإنسان وعلى نوع حياته وعلى نوع الحضارة وعلى حوادث التاريخ. فلدرس تاريخ مصر مثلاً لابد من معرفة أثر ظروفها الجغرافية في التاريخ

المصري. فموقع مصر بين الشرق والغرب قد جعلها تجمع ثروة طائلة لمرور التجارة العالمية بأراضيها في العصور الوسطى؛ وموقعها الجغرافي جعلها تقف أمام أوربا أثناء الحروب
الصليبية. وظروف الجزر البريطانية الجغرافية قد منعت أوربا عن التدخل في شؤونها. وفي الوقت نفسه جعلتها تسيطر على البحار وتتدخل في الشؤون الأوربية في أوقات مختلفة. وأحيانا تتدخل العوامل الجغرافية تدخلاً حاسماً في تغيير مجرى التاريخ. فالعواصف والأنواء قد ساعدت الأسطول الإنجليزي على التغلب على الأرمادا الإسبانية في 1588. وشتاء الروسيا كان من العوامل التي أدت إلى فشل حملة نابليون في 1812. فلابد من الإحاطة بكل هذه الظروف لفهم التاريخ. والتاريخ والجغرافيا متلازمان ولا يمكن استغناء الواحد منهما عن الآخر

والأدب من العلوم المساعدة لفهم وكتابة التاريخ. فدراسة الأدب بصفة عامة توسع عقل الإنسان وتجعله أقدر على الفهم. ولابد للراغب في كتابة التاريخ من أن يتذوق الشعر لكي يفهم ملكة الخلق والابتكار. ويلزمه أن يقرأ القصص الأدبي لكي يتعلم فن عرض الموضوع وإبراز الحوادث المهمة وبحث الشخصيات، ووضع التفاصيل في المكان الملائم وإثارة انتباه القارئ، ويحسن أيضاً دراسة بعض كتب النقد الأدبي لأن هذا يساعد على نقد التاريخ. ودراسة الآثار العقلية لأمة ما أمر ضروري جداً لفهم تاريخ هذه الأمة. فمعرفة الأدب اليوناني ضرورية لكتابة تاريخ اليونان؛ والإلمام بالأدب الإيطالي لازم لكتابة تاريخ إيطاليا؛ ودرس الأدب الإنجليزي مهم لفهم تاريخ إنجلترا ويتصل بدراسة الأدب الفنون المرتبطة بالشعب أو بالعصر الذي يرغب الباحث الكتابة عنه، مثل فنون النحت والتصوير والعمارة والموسيقى. فمن يرغب في دراسة تاريخ اليونان القديم لابد له من أن يدرس تطور الفن اليوناني القديم. ومن يرغب الكتابة عن تاريخ النهضة في إيطاليا يلزمه أن يدرس تطور الفن الإيطالي في عصر النهضة. ويمكن جمع ثقافة فنية عامة بدراسة الصور والرسوم في بعض المؤلفات العامة. ويا حبذا لو أمكن الباحث أن يدرس أهم آثار الفن اليوناني أو الإيطالي في متاحف اليونان وإيطاليا، ويعيش بعض الزمن في ذلك الجو الفني الخالص بين روائع فنون التصوير والنحت والموسيقى. ولا ريب فان الفنون خلاصة العواطف الإنسانية، تعبر أصدق تعبير عن روح العصر، والتأثر بها يجعل الباحث أقدر على فهم التاريخ وكتابته

ومن المسائل الأساسية لمن يرغب في كتابة التاريخ أن يعلم ما عرفه العالم عن التاريخ
قبل أن يكتب التاريخ. فينبغي أن يقرأ بعض أثار كبار المؤرخين السابقين مثل: هيرودوت وتوسيديد وليفي وماكيافيللي وفيكو وجبون وفولتير. . . وأن يقرأ بعض المؤلفات الحديثة عن التاريخ عامة، وعن العصر الذي يرغب في الكتابة عنه خاصة. فيلم بثقافة تاريخية عامة، كما يعرف الطرق التي اتبعها الأقدمون والمحدثون في بحث وكتابة التاريخ

ومن المفيد أيضاً أن يلم الباحث في التاريخ بطائفة أخرى من العلوم المساعدة. فيلزمه أن يعرف شيئاً عن المنطق وتقسيم العلوم لكي يفهم موضع التاريخ من بقية العلوم الأخرى، كما ينبغي أن يدرس فلسفة التاريخ فيعرف أراء بعض الكتاب مثل: برجسون وكروتشي. وهو محتاج أيضاً لأن يعرف مسائل عامة عن علم النفس وعلم الاجتماع والاقتصاد والمالية والقانون والنظريات السياسية، والرياضة والفلك في بعض الأحيان، لأنه قد تعرض للباحث كل أو بعض هذه المسائل، فلابد من أن يكون ملماً بها، وإذا لم يكن يعرف بعض هذه النواحي، فيمكنه تحصيلها بسهولة

وأخيراً من الضروري جداً ألا يبقى الباحث في التاريخ في بلد واحد وفي دائرة محصورة؛ بل يلزمه السفر والارتحال إلى بلدان مختلفة، لا من أجل البحث التاريخي في ذاته فقط، بل لكي يرى آفاقاً جديدة، ويكسب خبرة بالناس وبالأوساط المختلفة. ومن الضروري أن يقضي زمناً في البلد الذي يدرس تاريخه. والأفضل أن يبدأ الباحث سفره بعد أن ينهي تعليمه الجامعي في بلده الأصلي، وبعد أن يقطع شوطاً في الدرس، وبعد أن يتعين له العصر الذي يرغب الكتابة عنه؛ فيسافر وقد تزود بأسلحة نافعة وبدأ طريق البحث العلمي، فيمضي في الدرس والكشف عن الحقائق التاريخية، ويزور الأماكن المختلفة، ويدرس ويتأمل؛ والنفس العالية لا تشعر بأنها غريبة في أي

مكان
وهذا كله ملخص عن العلوم المساعدة وعن الأعداد اللازم لمن يتصدى لكتابة التاريخ. وليس المقصود بذلك التوسع في كل هذه النواحي لذاتها؛ فان هذا غير مستطاع. وإنما يكفي المعرفة العامة بقراءة بعض الكتب. وقد تزيد المعرفة في نواحي معينة من هذه العلوم المساعدة، على حسب طبيعة العصر الذي يرغب الباحث في دراسته والكتابة عنه. وقد يبدو من العسير جمع هذه الثقافة العامة؛ ولكن تخصيص حوالي ست سنوات أو سبع، تفعل عجائب، وتكفي للوصول إلى مستوى مناسب، يزداد بالتدريج. وروح العلم الصحيح لا
تعرف العقبات؛ والإخلاص والصبر يصلان بالباحث إلى الغرض في أغلب الأحيان.
(يتلى)
حسن عثمان
الشِعْر
للأستاذ بنيامين خليل
كثيراً ما قامت موازنات بين الشعر والتصوير؛ فقد قال (سيمونيدس): (الشعر تصوير ناطق، والتصوير شعر صامت). وقال (كوزن): (الشعر أول فن من الفنون الجميلة، لأنه يمثل غير المحدود خير تمثيل). وقال أيضاً: (ولو أن الفنون - إلى حد ما - بعضها بمعزل عن البعض الآخَر، فإن فناً منها قد انتفع بموارد جميع الفنون، ألا وهو الشعر. فمن الكلمات يستطيع صاحب القريض أن يصوغ صورة، أو ينحت تمثالاً، أو يحاكي المهندس المعماري في تشييد المباني. وفي مقدور الشعر أن يجمع بين عذوبة اللفظ والموسيقى. ففي الشعر كما يقولون تتلاقى جميع الفنون).
إن قصيدة عصماء معرض من الصور. ومما لا جدال فيه أن التصوير والنحت يعطياننا - عن شيء لم نره من قبل - صورة أكثر وضوحاً من أي قول أو وصف؛ ولكن إذا ما وقع الشيء تحت أنظارنا - تنعكس الآية - فنرى ثمة أموراً كثيرة يبرزها الشاعر أمامنا، وقد كنا لا نراها قبلاً في الشيء ذاته من تلقاء أنفسنا؛ فالفني هو الذي يصنع الأشياء واضحة كل الوضوح، أما الشاعر فهو الذي يخلق الأحداث والمعاني.
الشاعر العبقري مهبط الوحي والإلهام، ولذا نرى له حاسة فائقة لإدراك الجمال، وله مشاعر أدق من مشاعر معظم الرجال، مشاعر مضبوطة ضبطاً محكماً. قد يكون المرء شاعراً ولو لم يدرس شيئاً عن علم العروض؛ أما من يكتب شعراً رديئاً، أو حقير، فهو ليس بشاعر. لا يحيا الشعر ويدوم طويلاً إلا إذا كان شعراً حياً، إذ أن ما يصدر عن العقل والعاطفة ينسكب في القلب.
إن الشعراء والكتاب الذين يعدون في الطبقة الثانية سرعان ما تنقرض ذكراهم، ويتقلص ذكرهم، ويتوارى في زوايا النسيان؛ أما العباقرة منهم فأثرهم خالد إلى الأبد. ألم يعمر شعر حوالي 2500 سنة دون أن يفقد حرفاً من حروفه، أو مقطعاً من مقاطعه، على حين نرى قصوراً شاهقة وقلاعاً حصينة قد دمرت واتى عليها العفاء؟ أجل لا يتسنى لنا أن نحصل على تماثيل كورش والإسكندر قيصر، أو على صورهم الحقيقية، لأن الصور الأصلية لا تدوم، وما ينقل عنها تنقصه الحياة وتعوزه الحقيقة. أما الصور الذهنية لعبقرية الرجال
وعلمهم، فتبقى في الكتب بعيدة عن عبث الزمن متجددة في كل حين، وليس من الصواب أن نسميها صوراً لأنها تتوالد وتلقي بذورها في عقول الناس فتثير في الأجيال المتعاقبة أحداثاً وآراء لا حد لها
إذا كان اختراع السفينة فكرة نبيلة. . . تلكم السفينة التي تنقل الثروة والمتاجر من مكان إلى أخر، وتصل البلاد المتنائية بعضها ببعض فتتبادل محصولاتها - فما أحرانا أن نعظم الآداب التي تحاكي السفن في كونها تمخر عباب البحار، ولكنها بحار الزمن المترامية الأطراف، فتربط العصور المتوغلة في القدم، فينتفع كل عصر بحكمة العصور الأخرى وثقافتها واختراعاتها!
يحتاج الشاعر إلى مؤهلات كثيرة. يقول (كوزن) (من الذي وضع تصميم هذه القصيدة الغفل؟ وما الذي البسها الحياة والبهاء؟ الحب. وما الذي ارشد العقل والحب؟ الإرادة). ومن المسلم به أن لكل من الرجال قسطاً من الخيال، أما المحب والشاعر فمن الخيال قد خلقا كلاهما

إن عين الشعر ترنو في سمو وجلال، وتسبح من السماء إلى الأرض ومن الأرض إلى السماء؛ بينما خيال الشاعر يتصور الأشياء غير المنظورة، نرى براعته تصوغها في قالب فني جميل، تعين للعدم مكاناً وتعطيه اسماً

يقول (شيشرون) الخطيب الروماني الشهير في خطبته عن (اركياس): (أليس هذا الرجل جديراً بحبي، جديراً باعجابي، جديراً بكل ما أستطيع من وسائل دفاعي عنه؟ أننا قد تعلمنا عن اكثر الناس حكمة أن التربية والتعليم والمران تكسب المرء تفوقاً في أي فرع من فروع العلم غير الشعر. أما الشاعر فقد صاغته الطبيعة وأيقظته القوى العقلية، وأوحى إليه بما نسميه روح الإله نفسه). يقول أفلاطون: (الشعراء أبناء الإلهة ومترجموهم)

يرفع الشعر الحجاب عن جمال العالم، ويبسط على الأشياء المألوفة فيضاً من النور وهالة من الخيال. أن من يحب الشعر حباً حقيقياً لا يعجز عن إحراز قسط وافر من السرور بمظاهر الطبيعة التي لا يرى فيها محبوها إلا جمالاً، ولا يسمعون منها إلا أنغاما موسيقية. على أن الطبيعة - مع ما فيها من أنهار عذبة، وأشجار مثمرة، وازاهير أرجة عطرة - لم تبرز الأرض في حلة أبهى واجمل مما وصفها به الشعراء

نرى الشاعر ينقلنا من المدينة التي تنعقد فوقها سحب الدخان بطريقة ساحرة - ينقلنا من جو ملبد بالدخان إلى الهواء الطلق، إلى الشمس الساطعة، إلى حفيف أشجار الغابات، إلى خرير المياه، إلى تلاطم الأمواج بالرمال - ويساعدنا الشاعر على نسيان هموم العيش ومتاعب الحياة كأننا مستغرقون في حلم من لذيذ الأحلام

يجب أن يكون الشاعر ذا معرفة لا بالطبيعة الإنسانية فحسب، بل بالطبيعة بأكملها اكثر مما يتصف به غيره من الرجال. اخبرنا (كراب روبنسون) أن رجلاً أستأذن في مشاهدة حجرة مكتب (وردسورث) فأجابته الخادم قائلة: (هذه حجرة مكتب سيدي، ولكنه يقوم بالدرس في الحقول)

ولنقدر الشعر حق قدره يجب ألا ننظر فيه نظرة سطحية، أو نقراه على عجل، أو نطالعه لكي نتكلم أو نكتب عنه، بل يجب أن يركز الإنسان عقله في وضعه الصحيح أن كنوز الشعر التي لا تحصى في متناول كل منا؛ فقد يكون خير الكتب ارخصها، إذ بثمن كوب من الجعة أو قليل من تبغ، نستطع أن نشتري أحد مؤلفات شكسبير أو ملتون، أو عدداً من الكتب يفيد الإنسان من مطالعتها طيلة العام

وفي تعرف فائدة الشعر، لا نقصر نظرنا على أثره في الماضي أو الحاضر فحسب، يقول مستر ولم يقم ثمة من هو أحق بالكلام عن الشعر منه: أن مستقبل الشعر عظيم، فالفكرة في نظمه هي كل شيء، وما عدا ذلك فهو ضرب من الغرور. ففي الفكرة تمتزج العاطفة والشاعرية، فتصبح الفكرة حقيقة. إن أقوى عنصر في الدين في أيامنا هذه هو الجانب الشعري غير المحس فيه

قد سمي الشعر بحق: سجل اسعد الأوقات وخيرها لخير العقول وأكثرها هناءة. . . الشعر ضوء الحياة، بل هو نفس صورة الحياة، معبراً عنها بصدق أبدي. . . الشعر يخلد كل ما هو خير، وكل ما كان أية في الإبداع والجمال. . . وانه يزيل عن بصيرتنا الداخلية غشاوة الابتذال التي تخفي عنا عجائب الكون! ما الشعراء إلا مرايا لتلك الظلال الكبيرة التي يلقيها المستقبل على حاضرنا

وفي الواقع أن الشعر يطيل الحياة: انه يخلق لنا الوقت إذا قيس الوقت بتتابع الأفكار لا بعدد الدقائق. . . والشعر هو روح المعرفة لا يحده زمان ولا مكان بل يعيش في روح الإنسان. . . فأي مديح خير من أن يقال: أن الحياة يجب ن تكون شعراً مصوغاً في قالب عملي فني جميل

ترجمة بنيامين خليل

مدرس الآداب

بالأقباط الثانوية بالمنيا

الحروب الصليبية

ماهيتها، تطورها، نتائجها

للأستاذ ر. التميمي

كان مركز البابوية ومقامها قد أنحط كثيراً في أثناء القرن العاشر واصبح موضوع نزاع الأحزاب في رومة؛ واعتلى عرشها أناس لا خلق لهم كانوا سبباً في تشويه سمعتها

الدينية فسقطت أهميتها في نظر المسيحيين. وحينما اعتلى عرش الإمبراطورية هنري الثالث اهتم بأمر البابوية وعزم على النهوض بها فعين لها رجالاً من ذوي الكفاءة والمقدرة؛ وهكذا بدأ الباباوات يستعيدون مكانتهم التي كانوا قد أضاعوها خلال القرن العاشر واخذوا يعملون على إصلاح المساوئ وإعادة المجد البابوي

وأشهر من قام بهذه المهمة الصعبة هو هيلد براند الذي ارتقى عرش البابوية باسم غريغوري السابع، فقد نظم شؤون الكنيسة تنظيماً محكماً وقضى على الفوضى فيها وجمع السلطة الدينية في يده وحكم على رجال الدين كبيرهم وصغيرهم أن يخضعوا له دون اخذ ورد. هكذا مهد السبيل لخليفته أربان الثاني الذي رأى بعين البصيرة أن الظروف أضحت مواتية ليقوم بأكبر عمل يعلى به مجد النصرانية وهو إشهار الحروب الصليبية على المسلمين وتخليص الأراضي المقدسة من أيدهم. ولقد اتفق أن هاجمت الجيوش السلجوقية الإمبراطورية البيزنطية وهددتها في عقر دارها فهرع الإمبراطور ألكس يطلب النجدة من البابا أربان الثاني؛ فلما تلقى هذا تلك الاستغاثة رآها فرصة سانحة لبسط سلطان الكنيسة الكاثوليكية على سائر أنحاء العالم النصراني في الشرق والغرب فلبى النداء وقرر السير في ترتيب حملة صليبية كبرى

لقد كان أربان الثاني في قراره هذا يستند على ما كان للكنيسة من قوة ونفوذ في الأوساط المسيحية، إذ أن النصارى يومئذ كانوا لشدة جهلهم يقترفون آثاماً كبيرة ويحملون أنفسهم أوزاراً كثيرة، ولم يكن أمامهم لرفع تلك الأوزار إلا القيام بالأعمال الصالحة كالحج والصوم وتعذيب الجسم والتقشف في الملبس والمأكل، وكان الحج أهم هذه الأعمال وأكثرها ثواباً. أما القتال في سبيل تخليص بلاد ذلك الحج فهو في نظرهم أهم عمل يقوم به إنسان لأنه يرضي به ضميره ويقدم أعظم تضحية للعالم النصراني الذي ينتمي إليه

لقد انتبه البابا أربان الثاني إلى هذه الحالة النفسية فتشجع في إشهار الحرب وزاد في نشاطه وجود طائفة من الأمراء، ولا سيما النرمنديين منهم سمعوا بكنوز الشرق وسلطان ملوكه وأمرائه العظيم فطمعوا فيهما، وتمنوا لو أتيحت لهم الظروف ليكونوا سادة في ذلك الشرق الساحر مثل أولئك الذين ينعمون بأموال وافرة وجاه عظيم وسلطان مطلق

وصادف أن قحطاً شديداً اجتاح القسم الغربي من قارة أوربا وسبب مجاعة وفقراً وموتاً ولا سيما في فرنسا حيث أهلك الحرث والنسل ومات مئات الألوف من الناس وخربت القرى وأقفرت المزارع فبات بسبب ذلك كله معظم سواد الشعب في أشد حالات البؤس والشقاء، فلما نادى منادى الحرب الصليبية أقبل أولئك الجياع إقبالاً هائلاً عليها أملاً في العثور على أقواتهم اليومية، وهم بعملهم هذا يمتثلون أوامر الكنيسة التي كانوا يخشون بأسها وعقابها من جهة، ويحاربون في سبيل تخليص الأرض المقدسة من أيدي المسلمين من جهة أخرى

والحقيقة إن هذه الحروب لم تكن إلا مظهراً من مظاهر التعصب الديني قامت به البابوية في القرون الوسطى ضد العالم الإسلامي. ولقد أثارها البابوات وقذفوا بفرسان الغرب وأمرائه إلى ساحات القتال في الشرق ليحققوا منافع مادية لصالح الكنيسة ولقد اشترك فيها الملك والأمير والفارس والراجل والنبيل والوضيع والناسك والسارق والراهب والقاتل والتقي والفاجر وكل منهم كان يرمي إلى غاية في نفسه؛ فهذا يريد ملكاً أو إمارة، وذاك يسعى لاكتساب مغنم، وذلك للاغتراف من كنوز الشرق الثمينة. أما السواد الأعظم فقد كان على جهله المطبق لا يريد من وراء تضحياته إلا رضا الكنيسة وتأمين حياة أخروية سعيدة

وهكذا تحركت تلك الجماهير الغفيرة من الغرب إلى الشرق، فكانت حينما تصل إلى البلاد الإسلامية تنقض عليها انقضاض الحيوانات المفترسة فتقتل الناس وتهدم القرى وتحرق ما تجده أمامها من أشجار وزرع ونباتات، وهي بعملها هذا تعتقد أنها تؤدي أقدس واجب تتحمله، وكان الرهبان يشجعون فيهم هذه العقيدة ويستزيدونهم قتلاً ونهباً وتنكيلاً بالمسلمين وزحفت الحملة الأولى بخيلها ورجلها وشبابها وصبيانها ونسائها وحيوانها قاصدة فلسطين مؤتمة بطيور الإوز ومواشي الماعز، وهي عادة حافظ عليها الجرمان من حياتهم الوثنية حين كانوا يقدسون كثيراً من الحيوانات بينها الإوز والماعز،

ويتبركون بها؛ فلما زحفوا نحو الشرق مشوا وراءها يلتمسون منها النجاح والظفر، وحينما اجتازت الحملة آسيا
الصغرى تعرضت لأشد أنواع المحنة والفاقة والعطش، وكان السلاجقة ينقضون عليهم ويحصدون منهم الألوف حتى لم يبق من تلك الجماهير الزاحفة إلا عدد صغير أمكنه الوصول إلى الديار السورية بعد أن كان عددهم يربو على نصف المليون
وحين وصلت الحملة الأولى كان سوء الحظ ملازماً لسوريا بسبب حكامها السلاجقة وهم من السذاجة بمكان، وكان يحارب بعضهم بعضاً فلم يلتفتوا إلى الخطر الصليبي الذي دهم البلاد. وقد أدت هذه الغفلة التي لا تفتقر إلى ضعف الجبهة الإسلامية ضعفاً لا يمكن وصفه إلا إذا تذكرنا تلك الهزيمة الشنعاء التي منى بها كربوغا صاحب الموصل أمام مدينة إنطاكية، فلقد كان يقود جيشاً عظيماً فيه أكثر من مائتي ألف محارب بعددهم وأقواتهم الكاملة، ومع ذلك فقد أنهزم أمام هياكل بشرية صليبية مزقتهم الفاقة وأهلكهم الجوع وحصدتهم الأمراض السارية، فسجل كربوغا بحماقته صفحة في التاريخ كلها خزي وعار
ولقد كان لهذه الهزيمة نتائج خطيرة جداً؛ فالصليبي الذي أنهكه التعب وأهلكه الجوع أخذ يتقوى بسرعة عجيبة ويستصغر من شأن المسلم الذي دبت فيه عوامل الضعف والخور فولى مدبراً ولم يعقب تاركاً البلاد لأشد أنواع الاعتساف والظلم
هكذا استصغر الصليبيون شأن المسلمين واحتقروا قوتهم المفككة وهزءوا بجبهتهم المتصدعة، فاخذوا المتصدعة، فاخذوا يتنقلون من مدينة إلى أخرى، ولا جيش يقف في وجههم، إلا صوتاً ضعيفاً أرتفع من الخليفة الفاطمي بمصر يكلفهم الكف عن اكتساح المدن السورية، ويعرض عليهم صلحاً شريفاً إلا أن هذا الصوت تبدد بين قعقعة السيوف وهدير الجماهير المسيحية المتحمسة. وهكذا وصلت حملة الأمراء الأولى إلى فلسطين وملكت بيت المقدس. وحين دخلوا المدينة أراقوا دماء المسلمين أنهارا، ولجأ اليهود إلى معبدهم فأحرقوه، فماتوا وسط اللهيب. وفي خلال ثلاثة أيام قتلوا سبعين ألف مسلم، ولم يرعوا للشيوخ وقار سنهم، ولا للأطفال حرمة صغرهم، ولا للنساء ضعفهن؛ وهكذا برهنوا على همجية مستنكرة وقلوب متحجرة، لا تجد لها مثيلاً إلا عند أجدادهم القبائل المتبربرة أيام اكتساحهم الإمبراطورية الرومانية
وبعد الحملة الثانية التي انتهت بفشل ليس بعده فشل، رأى منظمو الحملات الصليبية المتاعب والأخطار الجسمية التي لاقاها الصليبيون في أسفارهم البرية السابقة، فعدلوا عنها
واستبدلوا بها أسفاراً بحرية أفادت الموانئ الطليانية فوائد جمة، لأن بحارتها أخذوا ينقلون على مراكبهم الجماهير لقاء أجرة طيبة
لقد كانت وطأة الفرسان الصليبيين شديدة بسبب أسلحتهم ودروعهم وتروسهم وبسبب تمرنهم الطويل على أنواع القتال والمبارزة، فإذا ما خاض أولئك الفرسان حرباً أو موقعة فترت همتهم وضعفت شوكتهم واخذوا يشكون من حرارة الطقس ومن شدة بأس المحاربين المسلمين. وكانوا ينتهزون أول فرصة ليعودوا إلى بلادهم تاركين الفكرة الصليبية بين يدي أولئك الأمراء ذوي المطامع ورجال الدين الذين انتدبهم البابا لينفذوا أوامره ويشتركوا في وضع الخطط الصليبية والإقطاعية مختلفة
لقد ملك الصليبيون شواطئ سورية مع بيت المقدس والبلاد الفلسطينية ومقاطعة الكرك عبر الأردن وأنشئوا فيها مملكة بالقدس وإمارات ثلاثاً لاتينية إقطاعية في كل من طرابلس وإنطاكية والرها؛ ثم رحل معظم المحاربين إلى ديارهم ولم يبق منهم ألا آلاف قليلة مسلحة أخذت على عاتقها أمر الدفاع عن تلك الإمارات؛ وهؤلاء المدافعون هم أولئك الفرسان الذين ارتبطت منافعهم ومصالحهم بمستقبل البلاد الجديدة اللاتينية. وفي تلك الآونة ألف فريق من الرهبان الفرسان وهيئات دينية عسكرية وظيفتها خدمة الفرنج من الوجهة الصحية وتقديم المساعدات الحربية للدفاع عنهم وعن ممتلكاتهم وهذه الهيئات هي الهيكليون أو الداوية والاسبتاليون والتيوتونيون.
ومما تقدم يفهم أنه كان من السهل جداً على أي أمير مسلم يعرف واجباته ويقدر حرج موقف خصومه أن ينقض بجيش مدرب على أولئك الغرباء وأن يقذف بهم إلى لجج اليم ويخلص البلاد من أحكامهم الجائرة وقوانينهم القاسية؛ إلا أن شيئاً من هذا لم يحصل إلا بعد مضي نحو نصف قرن على امتلاك اللاتين للشطوط السورية.

وأول من تنبه إلى موقف الفرنج الضعيف هو عماد الدين زنكي صاحب الموصل حينئذ، فلقد شهر عليهم حرباً شعواء ظل لهيبها مستعراً نحو خمسين سنة، خاض غمارها هو نفسه مع جيشه المدرب بضع سنين، ثم مات مقتولاً، فخلفه في الجهاد ابنه نور الدين محمود ومن بعده صلاح الدين الأيوبي وانتهت هذه الحرب بظفر صلاح الدين الكبير وامتلاكه بيت المقدس.

لقد قام صلاح الدين بالمهمة التي تلقاها من سيده وأستاذه نور الدين محمود فأداها على أحسن وجه بعد أن انقض على الجيش الفرنجي في معركة حطين (صيف سنة 1187) وسحقه سحقاً، ثم استرد البلاد من أيديهم الواحدة تلو الأخرى، واسترد بيت المقدس، فدخلها صلحاً وعامل الفرنج بمنتهى التسامح والشفقة والرحمة، فكان مثالاً ممتازاً للحاكم العادل والقائد الظافر المتصف بالشهامة والمروءة؛ وكأنه بتسامحه ومروءته وشهامته يريد أن يلقي درساً في الأخلاق العالية والشفقة والرحمة على أولئك السفاكين والقتلة الذين ذبحوا سبعين ألف مسلم ذبح الخراف حين احتلوا المدينة المقدسة

ولقد كان في نيته وفي مكنته أن يطهر البلاد منهم نهائياً، لو لم تغتله المنية قبل الأوان، فترك مهمة التطهير النهائي إلى خلفائه من بعده

على أن الجهاد الذي أستأنفه خلفاء صلاح الدين ظل قائماً نحو عصر كامل آخر، وذلك لأن ذلك الجهاد لم يكن متصل الحلقات بل كانت تنتابه فترات يتقاتل ويتطاحن خلالها الأمراء والسلاطين المسلمون.

فقد تخاصم الملك العادل مع أولاد أخيه صلاح الدين وتقاتل سائر الأمراء الأيوبين، فكان لنزاعهم الأثر السيئ في نفوس المسلمين، إذ ضعفت همتهم وانحطت شوكتهم وقلّت قيمتهم، وهذا ما مكن الفرنج من إطالة الإقامة والحكم في إمارتهم اللاتينية الهزيلة. على أن التقاتل هذا لم يكن يقتصر على الحكام المسلمين، بل تناول أيضاً أمراء الفرنج في إمارتهم، فكان يشتد بين الفرنسيس والإنكليز والألمان، وبين البنادقة وتجار جنوة، وبين رهبان طائفتي الداوية والإسبتالية. وفي بعض الأحيان كان ينقلب ذلك الخلاف إلى حرب طاحنة تذهب فيها الأرواح الصليبية بلا حساب

والفرنج الذين كانوا يأتون حديثاً إلى الأرض المقدسة كانوا يختلفون مع إخوانهم القدماء من اللاتين المقيمين في هذه البلاد وذلك بسبب الفروق البارزة في عادات وتقاليد كل من الفريقين. فالمشارقة منهم مضى عليهم اكثر من عصر وهم يعيشون في ديار الشرق ويقلدون الشرقيين في مأكلهم ومشربهم ومسكنهم؛ وصاروا ينظرون إلى مسلمي سوريا نظرة الجار إلى جاره، فيتعاقدون معهم، ويبادلونهم السلع، ويراعون حقوقهم وعهودهم، وذلك بخلاف حملات الفرسان التي كانت تدهم البلاد بخيلها ورجلها وتعصبه الذميم وقوتها

المتناهية، فقد كان رجالها يجهلون الإسلام والمسلمين ولا يعرفون عنهم إلا أموراً وآراء خاطئة ومشوهة؛ فإذا ما دهموا بلداً لهم وقرية انقضوا عليها انقضاض الباشق على فريسته، وهكذا كان الخلاف يشتد بين فريقي اللاتين القدماء والجدد، وكان يرمي بعضهم بعضاً بأشنع التهم؛ فقد كان الغربيون يقولون مثلاً إن المشارقة خونة لا عهد لهم ولا ذمة، يصادقون المسلمين أعداء النصرانية ويتعاقدون معهم؛ أما المشارقة وهم الذين صقلت طباعهم وتهذبت أخلاقهم وهدأت ثورة تعصب الذميم عندهم بفضل مجاورتهم للشرقيين، فقد كانوا يرون في فرسان الحملات المتتابعة شراسة في الطبع وغلظة في الخلق مع قوة متزايدة وجشع في سفك الدماء وميل غريزي للنهب والسلب، فكانوا لذلك يحتقرونهم ويخشون بأسهم

ولقد بحث الفارس المسلم والأديب المعاصر أسامة بن منقذ الكناني الشيزري في مذكراته (كتاب الاعتبار) عن اختباراته الشخصية في عادات الإفرنج الصليبيين فقال ليس عند الإفرنج شيء من النخوة والغيرة، وهم يعالجون مرضاهم بطرق ابتدائية، ويحاكمون المذنبين منهم بأساليب غبية عجيبة، وكل من هو قريب العهد بالبلاد الإفرنج يكون أجفى أخلاقاً من الذين تبلدوا وعاشروا المسلمين. ثم يذكر أنه نفذ صاحباً له إلى إنطاكية في شغل، وكان بها الرئيس تادرس بن الصفي - وهو يقصد يئودوروس صوفيانوس - وكان بينهما صداقة، فقال هذا لصاحب أسامة الموفد إلى إنطاكية يوما: (قد دعاني صديق لي من الإفرنج: تجئ معي حتى ترى زيهم)، فمضى المسلم إلى دار

فارس من الفرسان العتق الذين خرجوا في أول خروج الإفرنج، وقد اعتفى من الديوان والخدمة، وله بانطاكية ملك يعيش منه، فأحضر مائدة حسنة وطعاماً في غاية النظافة والجودة ورأى المسلم موقفاً عن الأكل فقال له:
كل طيب النفس فأنا ما آكل من طعام الإفرنج ولي طباخات مصريات ما آكل إلا من) طبيخهن ولا يدخل داري لحم خنزير(
فأكل المسلم وهو محترز ثم انصرف
(فلسطين)
ر. التميمي
. . .سنة
للأستاذ الكبير عباس محمود العقاد
سَنةٌ مرَّت ولا كلَّ السنين
بين صيف من هوانا وشتاء
وربيع كلما غام أضاء
والضحى والليل حيناً بعد حين
سنةٌ كان لها نجم فريد
غمر الشمس وغطَّى القمرا
ومشى في حسنه منتصرا
كل برج تحته برج سعيد
إن يكن لي في سناء رقباء
فالذي أرصده لم يرصدوه
والذي أنشده لم يَنشدوه
والذي هاموا به عندي هباء
سنةٌ مرت على روض الغرام
أنبتت فيه فنون الشجر
من رياحينَ وغرسٍ مثمر
وسل الأرواح ما أزكى الطعام
يومها الأول وافى ودنا
فانس أيامك في ساعاته
واجمع الصافيَ من لذَّاته
جرعةً، واطرَب عليها زمنا
جرعة نجمع فيها سكرَ عامْ
إن شربناها فقد تشربُنا
أو سكبناها فقد تسكبنا
في الهوى روحين في كأس وئام
جدد الذكرى وقرِّب لي العِيان
فهما يا صاحبي بين يديَّ
حضرا الساعة يا صاح لديَّ
ربة الذكرى وذكراها قران
هات لي الذكرى أراها وتراني
غضةً ملموسة في راحتيْ
حلوة معسولة في شفتيْ
جنةً تنبت في كل أوان
جنتي لا حيَّةُ تخرجني
ابداً منها ولا أحياؤها
لا ولا إبليس أو حواؤها
أنا فيها خالد كالزمن
أنا منها وهي مني في الضمير
فإذا فارقتها بالنظر
لم يفارقها ضميري عُمُري

وله العصمة من مس السعير
سنةٌ كان لها نجم فريد
هات منها أيها النجم وهات
سنةٌ ثانيةً بل سنوات
ولنا منك مزيد المستزيد
أنت يا نجم معيدٌ ما تشاء
لا السموات ولا داراتها
غُنيةٌ عنك ولا أوقاتها
أنت ميقات وشمس وسماء
أنت تدنيها سماء زَلفا
تنسج الوقت لنا منفردين
لا مشاعا كنسيج النيِّرين
بل لنا طوع يدينا وكفى
عباس محمود العقاد
أخبار سلم الخاسر
للأستاذ حسن خطاب الوكيل

هو سلم بن عمرو مولى بني تيم بن مرة ثم مولى آبى بكر الصديق رضى الله عنه. وكان من سبب تسميته بالخاسر انه ورث عن أبيه مالاً كثيراً - مائة ألف درهم - أنفقها كلها في طلب الشعر والأدب والموسيقى. كما انه ورث مصحفا من أبيه كان لجده من قبل فباعه واشترى بثمنه طنبورا، لذلك لقبه بعض أهله وجيرانه بالخاسر وقالوا انفق ماله على ما لا ينفعه. فأسرها سلم في نفسه ولم يبدها لهم. ومضى في سبيله يجد في طلب الشعر وراويه، والأدب وذويه، حتى حاز قصب السبق وصار علما من أعلامه، وشاعراً مطبوعاً متصرفاً في فنون الشعر، ورواية لبشار ابن برد أستاذه. وعنه أخذ، ومن بحره اغترف. ومدح الملوك والأمراء، وتحدى الشعراء. ومن محاسن الصدف انه مدح المهدي العباسي بقصيدة فأعجب بها وأمر له بمائة ألف درهم، وكان المهدي على علم بسبب تسمية بالخاسر، فقال خذ هذا المال وكذب به جيرانك؛ فجاءهم سلم بالمال وقال لهم هذه المائة ألف درهم التي أنفقتها وربحت الأدب. فأنا إذاً سلم الرابح لا سلم الخاسر

وحدث أن أستاذه بشار بن برد بعثه إلى عمر بن العلاء بقصيدة مدحه بها التي يقول فيها:

إذا نبهتك صعاب الأمور ... فنبه لها عمراً ثم نم

فلما جاءه سلم بها وأنشده إياها أمر عمر بن العلاء بمائة ألف درهم لبشار بن برد؛ فلما رأى سلم المال الموهوب لأستاذه بشار تحركت نفسه وتلمظت شفتاه إلى نيل جائزة له أيضاً. فقال لعمر بن العلاء إن خادمك - يعني نفسه - قد قال في طريقه إليك قصيدة فيك. فقلل له عمر - فإنك لهناك - فأجابه سلم. تسمع ثم تحكم، فقال عمر هات فأنشد قوله:

قد عزني الداء فمالي دواء ... مما ألاقي من حسان النساء
قلب صحيح كنت أسطو به ... أصبح من سلمى بداء عَياء
أنفاسها مسك وفي طرفها ... سحر ومالي غيرها من دواء

إلى أن قال:

كم كربة قد مسني ضرها ... ناديت فيها عمر بن العلاء

فاعجب بها عمر وأمر له بعشرة آلاف درهم، فكانت عطية سنية لم تخطر له ببال وكان من خبره انه حدث بينه وبين أستاذه بشار فتور وانقطاع بسبب انه اخذ معنى لبيت من شعر بشار وصاغه في بيت له قضى به على بيت بشار وسارت بحديثة الركبان، واصل البيت من قصيدة لبشار:

لا خير في العيش أن دُمنا كذا أبدًا ... لا نلتقي وسبيل الملتقى نهج
قالوا حرام تلاقينا فقلت لهم ... ما في التلاقي ولا في غيره حرج
من راقب الناس لم يظفر بحاجته ... وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

فعمد سلم الخاسر إلى البيت الثالث وصاغه هكذا:

من راقب الناس مات غماً ... وفاز باللذة الجسور
فبينما بشار بن برد في منزله إذ دخل عليه أبو معاذ النميري فقال له: لقد قال سلم الخاسر بيتاً من الشعر هو أحسن وأخف على الألسن من بيتك، فقال له بشار وما هو؟ أنشدنيه. فأنشده قول سلم:
من راقب الناس مات غماً ... وفاز باللذة الجسور
فقال بشار: سار والله بقيت سلم وخمل بيتنا. وكان كذلك إذ لهج الناس بيت سلم وصار مثلاً من الأمثال السائرة؛ أما بيت بشار فلم يتمثل به احد؛ فغضب بشار من سلم وحلف ألا يدخل عنده ولا يفيده ولا ينفعه ما دام حياً. فلما علم سلم بذلك وطال عليه جفاء أستاذه شق عليه ذلك فاستشفع إليه بكل صديق له، وكل من يثقل عليه رده، فكلموه فيه؛ فبعد اللتيا والتي قال بشار: ادخلوه إلي، فاستدناه فلما كلمه قال: إيه يا سلم! من الذي يقول: من راقب الناس لم يظفر بحاجته. . . الخ. قال سلم: أنت يا أبا معاذ، جعلني الله فداك. فقال بشار: فمن الذي يقول:
من راقب الناس مات غماً ... وفاز باللذة الجسور
قال سلم تلميذك وخريجك وعبدك يا أبا معاذ
فاجتذبه بشار إليه وقنعه بمخصرة كانت بيده ثلاثاً وقال له:
يا فاسق!؟ أتجيء إلى معنى قد سهرت له عيني، وتعب فيه فكري، وسبقت الناس اليه، فتسرقه ثم تختصره لفظاً تقربه لتزري علي وتذهب ببيتي؟ فحلف له سلم ألا يعود لشيء مما يكرهه وينكره منه، فرق له ورضى عنه
ومن طريف ما حدث لسلم الخاسر أن أبا العتاهية حقد على سلم وحسده على ما يناله من الخطوة والجوائز عند الملوك والأمراء فأرسل إليه ببيتين من الشعر يرميه فيهما بالحرص وهما:
تعالى الله يا سلم بن عمرو ... أذل الحرص أعناق الرجال
هب الدنيا تصير إليك عفواً ... أليس مصير ذاك إلى الزوال
فلما قراهما سلم غضب من أبى العتاهية وقال: ويلي على الجرار ابن الفاعلة الزنديق! زعم أنى حريص وقد كنز البِدر وهو يطلب المزيد، وأنا في ثربي هذين لا املك غيرهما، ولما سرى عنه كتب إليه هذه الأبيات:
ما أقبح التزهيد من واعظ ... يزِّهد الناس ولا يزهد
لو كان في تزهيده صادقاً ... أضحى وأمسى بيته المسجد
ورفض الدنيا ولم يلقها ... ولم يكن يسعى ويسترفد
فخاف أن تنفد أرزاقه ... والرزق عند الله لا ينفد
الرزق مقسوم على من ترى ... يناله الأبيض والأسود
كل يوفي رزقه كاملا ... من كف عن جهد ومن يجهد
هذا فصل في الكلام قد ساق إليه البيان عن بعض أخبار سلم الخاسر تفكهه للقراء، ولنتخذ دليلاً ثانياً وحجة ناصعة في الآيات أن الجزء الحادي والعشرين من كتاب الأغاني هو من الأغاني، وسبق أن قدمنا في حجتنا بقصة إسحاق الموصلي وغلامه زياد، وإنها لم تذكر ألا في الجزء الحادي والعشرين منه واقرها ابن منظور في مختصر (الأخبار والتهاني)، فكذا هنا قصة مسلم الخاسر مع أهله وجيرانه، وسبب تسميته لم تذكر إلا في الجزء الحادي والعشرين من الكتاب، وهي بطبيعة الحال جاءت في مختصر الأغاني (حرف السين)، ولولا ذهاب المخطوطات إلى المخابئ لأتينا بالنص كما هو مدون في محله، والله يهدي السبيل
حسن خطاب الوكيل

المصريون المحدثون
شمائلهم وعاداتهم
تأليف المستشرق الإنجليزي ادوارد وليم لين
للأستاذ عدلي طاهر نور
مقدمة المؤلف - القاهرة سنة 1835
في زيارة سابقة للقاهرة قصدت بها - على الأخص - دراسة اللغة العربية في أشهر مدرسة، جعلت اكثر همي ملاحظة شمائل المصريين المسلمين وعاداتهم؛ وسرعان ما أدركت بعد معاشرة هذا الشعب سنتين ونصف سنة أن كل ما أمكنني الحصول عليه

سابقا من الأخبار المتعلقة بهم، لا يكفي ليكون ذا فائدة كبيرة لمن يدرس الأدب العربي، أو ليقضي حاجة القارئ العادي. لذلك رغبت في تدوين الملاحظات عن أشهر عاداتهم لاستزيد لنفسي من جهة، ولأستطيع أن أزيد في معرفة مواطني بالطبقات المتحضرة لامة من أهم أمم العالم من جهة أخرى، وذلك برسم صورة مفصلة عن سكان أكبر مدينة عربية. إلا أن زيارتي الأولى لم تكف لبلوغ هذا الغرض مع متابعة دروسي الأخرى، فصرفت النية عن نشر ما قيدته عن المصريين المحدثين. وبعد خمس سنوات من عودتي إلى إنجلترا عُرِضت هذه المذكرات على بعض أعضاء من لجنة جمعية نشر المعارف المفيدة استحسنوها وأوعزوا إلى اللجنة أن تعني بموضوعاتها، وطرافة بعض محتوياتها، فعهدت إلى تكملتها ثم طبعها. وقد كان ذلك حافزاً لي على قبول النصيحة ومتابعة العمل. وفي أقرب فرصة عدت ثانية إلى مصر. وبعد أن أقمت أكثر من سنة في عاصمة ذلك البلد، ورحلت نصف سنة في الوجه القبلي، أتممت - بقدر ما استطعت - العمل الذي تعهدت به

قد يقال إن القارئ الإنجليزي استفاد من كتاب الدكتور رَسِل عن أهل حلب وصفاً صادقاً لشمائل العرب وعاداتهم؛ ولا أحب أن أصم أمانتي الكتابية التي أدعيها بمحاولة التقليل من المزايا الحقيقية لهذا الكتاب القيم؛ ولكن يجب أن أؤكد أن الكتاب في مجموعه قد وصف العادات التركية أكثر مما وصف العادات العربية، وأن المؤلف الأصلي وأخاه الذي ندين له بالطبعة المزيدة المنقحة، لم يكونا يعرفان اللغة العربية معرفة كافية لإنعام النظر في بعض ما يقتضي وضع الكتاب معالجته من الموضوعات المهمة، ولم يكن منصبهما المعروف في حلب ولا شعورهما الوطني يسمحان لهما أن يتنكرا هذا التنكر الضروري الذي يمكنهما من إيلاف الكثير المهم من الحفلات الدينية، والأفكار الاجتماعية، والأساطير الشعبية، التي قاما بوصفها. فنقص الملاحظة هو الخطأ الوحيد الذي استطعت أن أكشف عنه في كتابهما العلمي الجليل

أما ظروفي فكانت غير ذلك. فقبل قدومي الأول إلى هذا البلد شدوت شيئاً من العلم بلغة العرب وآدابهم. وكنت أستطيع - بعد سنة من قدومي - أن أتحدث إلى الشعب الذي كنت أعيش بين أفراده في شيء من السهولة. وقد عايشت صفة خاصة مسلمين من جميع الطبقات؛ وأخذت أخذهم في الحياة العامة. وكنت أصرح دائماً أنني أوافقهم على آرائهم كلما سمح بذلك ضميري اكتساباً صداقتهم وإخلاصهم؛ وفي أحوال كثيرة أخرى أمسكت عن مخالفتهم في الرأي، بقدر ما امتنعت عن أي عمل ينفرون منه. فأمسكت عما يحرمه دينهم من الطعام والشراب، وتركت ما لا يألفونه من العادات والأساليب: كاستعمال الشوك والسكاكين. واستطعت بفضل ألفتي لحفلاتهم الدينية العامة أن أشاهد أعيادهم وطقوسهم، من غير أن أثير الشك في أنني أجنبي لا يحق له التدخل في شؤونهم. وبينما كان العامة يظنونني تركياً - من ملابسي التي وجدتها أكثر ملاءمة لي - كان أصدقائي يعرفون طبعاً أنني إنجليزي. ولكني ألزمتهم أن يعاملوني معاملة المسلم باعترافي مختاراً بأثر العناية الإلهية في ظهور الإسلام وانتشاره، وبإقراري، عندما أسأل، باعتقادي في المسيح طبقاً لما جاء في القرآن من أنه كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه. وهكذا حسُن رأيهم فيَّ وقويت ثقتهم بي، ولكن إلى حد لم يغنني على مجابهة بعض الصعاب. والمسلمون يكرهون أن يبوحوا بشيء يتعلق بدينهم أو بأساطيرهم للذين يشتبهون في أنهم يخالفونهم في العاطفة؛ لكنهم لا يأبون الكلام في هذه الموضوعات مع من يعتقدون أن بينه وبينهم معرفة وألفة. لذلك كنت اعمد إلى سؤال الذين هم اكثر تساهلا واقل علما لأحمل الذين هم أوسع معرفة وأضيق صدرا على الكلام في المسائل التي أريدها. وبهذه الطريقة نجحت في التغلب على ترددهم. وكان لي أستاذان للعربية وآدابها، وللدين الإسلامي وفقهه، يدرسان لي بانتظام وباجر. وكنت أسالهما عما اشك فيه لأحقق ما سمعته في أحاديثي مع أصدقائي، أو أصححه

أو أضيف أليه. وأحيانا كنت اتصل بالسلطات العليا، وكان من دواعي غبطتي أن اعد بين أصدقائي في هذه المدينة بعض رجال بلغوا شأواً بعيداً في المعارف الشرقية وربما يفيد القارئ أن اعرفه بأحد معلمي اللذين أشرت أليهما أنفا، وان أبين له في الوقت نفسه كيف كان كغيره من مواطنيه ينظر ألي: ذلك هو الشيخ احمد (أو السيد

احمد، لأنه من طبقة (الأشراف) الكثيرة العدد: أي من سلالة النبي) وكانت سنه تربى على الأربعين باعترافه، ولكن يبدو عليه أنه يناهز الخمسين. وكانت سحنته وخليقته تستحقان الذكر: كان ربعة إلى القصر، وكان أصهب اللحية قد وشعها لمشيب. ويظهر أن العور قد أصابه منذ سنوات عديدة. وهو يكحل عينيه في المناسبات الخاصة ولا سيما في عيدي الفطر والأضحى. والكحل قلما يستعمله غير النساء. وهو لا يفتخر بانتمائه إلى الرسول فحسب، بل يتمدح كذلك بانتسابه إلى الولي المشهور الشعراوي. وبشرته الصافية تؤيد ادعاءه أن أجداده عاشوا منذ أجيال في مناطق أفريقيا الشمالية الغربية. وكان يعيش على ميراث قليل مع اتجاره في الكتب. وكان يزورني كل ليلة تقريباً لينتفع من مهنته من ناحية، وليجتمع بي، أو ليتحدث ألي للتدخين وشرب القهوة من ناحية أخرى

وكان قبل احترافه تجارة الكتب وراثةً عن أبيه، قد قضى بضع سنوات لم يحترف فيها غير الذكر في الحفلات الصوفية. والذكر عبارة عن جماعة يقفون مترنحين يرددون اسم الله وصفاته الخ. وهو لا يزال إلى اليوم يقوم بهذا العمل. وكان حينئذ درويشاً في الطريقة السعدية، وأهل هذه الطريقة معروفون على الأخص بأكل الثعابين الحية. ويقال انه كان واحداً من آكلي الثعابين، ولكنه لم يقصر نفسه على أكل يهضم بمثل هذه السهولة. ففي ذات ليلة بينما كان فريق من أهل طريقته في حفل حضره شيخهم، اعترت صديقي جذبة، فخطف زجاجة طويلة كانت تحيط بقنديل موضوع على الأرض واكل جزءاً كبيرا منها. . . فدهش الشيخ والدراويش الآخرون، نعوا عليه خروجه على نظم الطريقة، لان أكل الزجاج لم يكن من الكرامات التي كان يسمح لهم بأظهرها. ثم طردوه في الحال، فدخل في الطريقة الأحمدية. ولما كان أهل هذه الطريقة هم أيضاً لا يأكلون الزجاج، فقد عزم على ألا يعود إلى فعلته مرة أخرى. . . غير انه بعد ذلك بقليل أخذته هذه الجذبة في اجتماع بعض الأخوان من أهل الطريقة وفي حضرة كثير من رجال الطريقة السعدية، فوثب على شمعدان وقبض على مصباح من مصابيحه الزجاجية الصغيرة، فابتلع نصفه وشرب ما فيه من الزيت والماء. فقادوه إلى شيخه ليعزره على هذا التعدي، ولكنه اقسم ألا يعود إلى أكل الزجاج أبداً، فعفا عنه وأبقاه في الطريقة. وعلى الرغم من حلفه اليمين لم يلبث أن عاد إلى ديدنه من أكل الزجاج. وقد حاول أحد الحاضرين من الأخوان أن يقلده فنشبت قطعة كبيرة من الزجاج بين لسانه وسقف حلقه، وقد شق على صديقي أحمد استخراجها. فأعيد ثانية إلى شيخه، ولما لامه على الحنث بقسمه والرجوع في توبته أجاب بهدوء: أتوب مرة أخرى. وما أحسن التوبة، لان الله قال في كتابه العزيز: (إن الله يحب التوابين) فصاح الشيخ مغتاظاً: أتجرؤ على هذا التصرف ثم تستشهد بالقرآن أمامي؟) ثم أمر بعد هذا التوبيخ أن يسجن عشرة أيام. ثم طلب منه القسم مرة أخرى على أن يمتنع عن أكل الزجاج وبهذا سمح له بالبقاء في الطريقة الاحمدية؛ وقد حرص على أن يبر بقسمه هذه المرة

وقد قص على هذه الوقائع من كان مكلفا بمراقبته من الأخوان ثم اعترف لي هو بعد ذلك بحقيقتها

وقد عرفت الشيخ أحمد قانعاً بزوجة واحدة من زمن طويل؛ إلا أنه سمح لنفسه الآن بزوجة أخرى استمرت تعيش في منزل أهلها. ومع ذلك فقد أهتم بأن يؤكد لي أنه ليس من الغنى بحيث يرفض الكسوة السنوية التي أهديها إليه. وفي زيارتي الثانية لمنزله أثناء إقامتي الحالية في هذا المكان حضرت أمه لدى باب الغرفة التي كنت جالساً فيها معه، تشكو إليّ سوء عمله باتخاذه زوجة جديدة. وكانت تشير بيديها من خلال الباب بالحركة اللائقة ليكون لكلامها تأثير؛ أو لعلها كانت تريد أن تظهر جمال راحة اليد وأطراف البنان المخضوبة بالحناء الرطبة. إلا أنها كانت تستر شخصها، فأخذت تناشد شعوري بقوة وتقول:

(يا أفندي! إني أضع نفسي تحت رحمتك! أقبل قدميك! لا أمل عندي إلا في الله وفيك) فقلت لها: (ما هذا الكلام يا سيدتي؟ أي مصيبة أصابتك؟ وماذا أستطيع أن أصنع لك؟ أخبريني)

فاستمرت تقول: ابني هذا، ابني احمد، شخص لا قيمة له. له زوجة طيبة، عاش معها سعيداً على بركة الله ستة عشر عاماً. وهاهو الآن يهملها ويهملني ويتخذ زوجة أخرى

صغيرة السن قليلة الحياء. . . وهو يبدد نقوده على هذه القردة وعلى غيرها من أمثالها، وينفق على أبيها وأمها وأعمامها وأخيها وأولاد أخيها، ولا اعلم من عداهم، ثم يقصر في حقنا - أنا وزوجته الأولى - ولا يوفر لنا الراحة التي تعودناها من قبل. . . والنبي! ورأسك الغالي! إنني أقول الحق. . اقبل قدميك أرجوك أن تلح في تطليق زوجته الجديدة. . .

وكان الرجل المسكين أثناء مخاطبة أمه لي من وراء الباب ينظر بغباء، وما كادت تذهب حتى وعد بتحقيق رغباتها. . . ثم قال: على أن المسالة صعبة، فقد كنت متعوداً أن أنام أحياناً في منزل شقيق البنت التي تزوجتها أخيراً، وهو يشتغل كاتباً عند عباس باشا. . . ومنذ اكثر من سنة، أرسل عباس باشا في طلبي وقال: سمعت انك تنام غالبا في منزل كاتبي محمد. . . لماذا تفعل هذا؟ إلا تعلم أن هذا غير لائق وفي المنزل نساء؟. . .

فقلت: سأتزوج من أخته. . .

فسألني الباشا: إذاً لماذا لم تتزوجها من قبل؟

- لان سنها تسع سنوات فقط!

- هل عقد العقد؟

- لا. . .

- ولم لا؟

- ليس في قدرتي الآن دفع المهر

- وما مقدار المهر؟

- تسعون قرشاً. فقال الباشا

- هاك إذاً النقود. . . وليعقد العقد حالاً

فهكذا تراني إنني اضطررت إلى التزوج من البنت، وأخشى أن يغضب الباشا إذا طلقتها؛ ولكني سأتصرف تصرفاً يجعل أخاها يشدد في طلب الطلاق، ويومئذ أعود ثانية إلى عيش السلام والهدوء. وهذا مثل طيب للراحة التي ينعم بها من يتزوج اثنتين! ومنذ وقت قريب عرض علي نسخة من القران لأشتريها، وظن من الضروري أن يلقي ألي بعض المعاذير. وقد لاحظ إنني من طول ما الفت طقوس المسلمين اقر ضمناً إنني واحد منهم، وان من الواجب عليه أن يعتبرني احسن اعتبار، وانه يفعل ذلك مطمئن النفس، ولأنه يعلم أن اعتقادي علانية بالإسلام يغضب علي مليكي، وانه لأجل ذلك لا يمكنني أن افعل هنا وقال لي: (انك تحييني بقولك: السلام عليك. لذلك أكون أثماً لو قلت انك كافر، لان الله عز اسمه قال: ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً). ثم أضاف إلى ذلك قوله: (وعلى هذا ليس حراماً أن أضع بين يديك القران الكريم. ولكن من مواطنيك من يأخذه بيده القذرة، بل ويجلس عليه وأنا استغفر الله من مثل هذا الكلام واستبعد أن نفعل هذا وأنت والحمد لله تعرف انه: (لا يمسه ألا المطهرون) وتراعيه. وفي مرة أخرى باع نسخة من القران بناء على طلبي لمواطن لي؛ وفي أثناء انعقاد الصفقة دخل الغرفة إنسان، فانزعج مواطني وأسرع فوضع الكتاب على المقعد وخبأه بجزء من ملابسه، فاخجل هذا العمل الكتبي، وظن أن صديقي جلس على الكتاب، وانه يفعل هذا احتقارا له؛ فلم يخف باعتقاده أن الله سيعاقبه اشد عقاب على هذا البيع الحرام؛ وكان هناك شيء واحد صعب علي أن أقنعه بعمله أثناء زيارتي السابقة لهذا البلد؛ وهو أن يذهب معي في وقت خاص إلى مسجد الحسين - وهو المدفن المشهور لراس الحسين - واقدس المساجد في العاصمة المصرية. وبعد ظهر يوم من أيام رمضان كنت امشي وإياه أمام أحد أبواب هذا الجامع، وكان ساعتئذ يغص بالأتراك وكثير من سكان المدينة العظماء بين الحشد. . فظننت أنها مناسبة طيبة لأشاهده من كثب، وطلبت من رفيقي الدخول معي فرفض بحزم خوفاً من أن يعرف إنني إنجليزي، وكان من الممكن أن يثير ذلك غضب المتعصبين من الأتراك الموجودين هناك فاعرض نفسي إلى بعض الأذى. فدخلت وحدي وبقى هو بالباب يتبعني بعينه الوحيدة متعجباً من جراتي؛ فلما راني عارفاً بالأساليب العادية: أطوف حول الستر البرنزي المحيط بالضريح، وأقوم بأوضاع الصلاة المنتظمة، دخل وأقام صلاته بجانبي

وأود بعد سرد هذه الحكايات أن اذكر أن أخلاق أصدقائي الآخرين لا يلاحظ عليها مثل هذا الشذوذ. وكان استقبالي لضيوفي لا يخرج عن عادات الضيافة الشرقية المألوفة. كنت اقدم إليهم الشبك والقهوة وأدعوهم إلى مشاركتي الغداء أو العشاء. وقد كتبت الكثير من أخبارهم بالعربية بإملائهم ثم ترجمتها إلى الإنجليزية ونشرتها في هذه الصفحات

والمقصد الأول من وضع هذا الكتاب هو تمحيص الأشياء وتحقيق الحوادث؛ فلم أضح بالحقيقة في سبيل تجميل القصة أما الصور التي نشرت فيه فقد رسمتها للشرح لا للزينة.

(يتبع)

عدلي طاهر نور

حول التعليم الإلزامي

هؤلاء الجنود المجهولون

للأستاذ محمد كامل حتة

إلى الأستاذ الجليل صاحب الرسالة

ليس عجيباً أن يجري قلمك في قضية المعلم الإلزامي بما جرى به من البيان الرائع والدفاع المحكم والحجة البالغة؛ فأن هذا القلم الذي وقفته على نصرة الحق في جميع صوره وقضاياه خليق بان يكون له في هذه القضية بلاء يزلزل جوانب البغي، ويفضح مسارب الهوى، ويسفر عن أوجه الحق وضيئة ساطعة!

أن قضية المعلم الإلزامي، هي في الواقع ومع النظر الدقيق، ليست ألا قضية الأجيال المقبلة التي تتكون على يديه وتنطبع على غراره. وليس من اليسير أن نتصور حياة هذه الأجيال ومظاهر وجودها شيئاً منفصلاً عن حياة هذا المعلم الإلزامي ومظاهر وجوده. ومن هنا كان الوضع الحاضر للمعلم الإلزامي جريمة في حق الشعب الذي تتصايح الدعوات في كل مكان بالحرص على مستقبله والرغبة في إنصافه وإسعاده. وكان المقياس الصادق للوطنية في مصر ما يبذل في سبيل المعلم الإلزامي من جهود مخلصة، تهيئ له النهوض بأعبائه الثقال في مكافحة الجهل والفقر والمرض والانحلال، وتنشئة الأجيال القادمة على الصورة التي تتحقق بها معاني الوجود ومقومات الحياة. . .

أما أن يضيق على المعلم الإلزامي في الرزق، حتى لا يكاد يقيم أوده ويستمر مظهره ويلحق بقافلته؛ ثم يحمل من الأعباء الثقال عملاً مرهقاً وحساباً عسيراً وتقديراً مجحفاً، ثم تتكأكأ عليه التهم الجائرة والدعايات النكراء، فتلك إساءات مؤذية، أهون مظاهرها أن تصيب أشخاص المعلمين الإلزاميين وأسرهم، وأخطر حقائقها أنها تصيب الشعب في آماله ومستقبل أجياله؛ لأن هذه الأجيال لن تكون إلا صورة مضطربة من هذه الحياة الشقية التي يحياها أولئك المعلمون، مهما حبرت وزارة الشئون الاجتماعية في مجلتها من الصحائف، ومهما افتنت في وضع البرامج الأخاذة والمشروعات الموشاة، ومهما تباكى أدعياء الإصلاح غيرة على مستقبل هذا الشعب البائس المحروم!

ولعل من الحقائق المؤلمة أن التراث الذي أورثتنا إياه القرون المتعاقبة على مصر قد وضع المعلم الإلزامي في مركز دقيق جعله هدفاً لكثير من الأفراد والجماعات، ترى في وجود هذا المعلم وفي طبيعة عمله خطراً تخشى مغبته على كثير من الأوضاع التي يرزح الشعب تحت أثقالها، ولا حياة لهؤلاء الأفراد والجماعات إلا في ظل هذه الأوضاع الجائرة؛ ومن هنا كانت الحملات على المعلم الإلزامي في كثير من الأحيان حملات مغرضة، تلبس ثوب الحق وهي من صميم الباطل، وتتظاهر بالإصلاح وهي ترمي إلى الهدم؛ وقد انساق في هذا التيار الجارف كثيرون عن حسن قصد وبراءة ضمير، من غير أن يفطنوا إلى هذه البواعث الخفية ومن غير أن يبذلوا في سبيل الإصلاح ما ينبغي من جهود. . .

ومن الأمور التي تستوقف النظر وتدعو إلى التفكير الطويل أن في وزارة المعارف ثلاثة رجال بأيديهم مقاليد الأمر في هذه الوزارة التي تتولى شؤون التعليم الإلزامي، وكلهم قد أبلى في بحث هذه المشكلة البلاء العظيم، واستطاع أن يلمس مواطن الداء ويقرر وسائل العلاج، وأن تكون له آراء جديرة بالتنفيذ لإصلاح حال المعلم الإلزامي الذي يتوقف على صلاح حاله صلاح المجتمع الذي يعيش فيه، ومع هذا فإن تلك الآراء

القيمة التي سجلها هيكل وطه والسنهوري في صحائف الكتب والمجلات، لم يكن حظها على أيدي أصحابها وقد مكنتهم الأقدار من العمل والتنفيذ، أكثر من حظ ما يسطره كاتب مثلي قد تعوزه القدرة على إعلان رأيه، قبل أن تعوزه القدرة على تحقيق الرأي الذي يريد!

إني لأشفق على مشكلة التعليم الإلزامي في وزارة المعارف إذا لم تحل في عهد هؤلاء الثلاثة الذين ارتبطوا بمناهج قويمة في الإصلاح، وإلا فهل من اليسير أن تجود الأيام بمجموعة كهذه، اجتمعت على الرأي المتحد والعبء المشترك والقدرة المتاحة لتحقيق الآمال؟

(القاهرة)

محمد كامل حتة

ليالي القاهرة

الكأس. . .

للدكتور إبراهيم ناجي

لاَ تَبْكِهَا ذَهّبَتْ وَمَاتَ هَواهَا ... في القَلْبِ مُتَّسَعٌ غَداً لِسِواهَا

أحْبَبْتَهَا وَطَوَيْتَ صَفْحَتَهَا وكم ... قَرَأَ اللَّبِيبُ صَحِيفَةَ وَطَواهَا

يَا شَاطِئَ الأَحْزَانِ كم مِنْ مَوجَةٍ ... هَبْهَا ارْتِطَامَةَ مَوْجَةٍ وَصَدَاها

تِلْكَ الوَليدَةُ لم تَطُلْ بُشْرَاهَا ... لَمَّا تَكَدْ تَطَأُ الثَّرَى قَدَمَاهَا

زَفَّ الصَّبَاحُ إلى الرِّمَالِ نِدَاءَهَا ... وَسَرَى النَّسِيمُ عَشِيَّةً فَنَعَاهَا

هَاتِ اسْقِنِي وَاشْرَبْ عَلَى سِرِّ الأَسَى ... وَعَلَى صُبَابَةِ مُهْجَةٍ وَجَوَاهَا!

مَهْلاً نَدِيمِي كَيْفَ يَنسَى حُبِّهَا ... مَنْ يَنْشُدُ السَّلوى عَلَى ذِكْرَاهَا

مَازِلْتَ تَسْقِينِي لِتُنْسِينِي الجَوى ... حَتَّى نَسِيتُ فَما إذَّكَرْتُ سواهَا

كانَتْ لَنَا كأْسٌ وكانَتْ قِصَّةٌ ... هَذا الحُبَابُ أَعَادَهَا وَرَوَاهَا

كأْسِي وَشَمْسُ هَوايَ، والسَّاقي الذي ... عَصَرَ الشُّعَاعَ لِمُهْجَتِي وَسَقَاهَا

الآنَ غَشَّاهَا الضَّبَابُ وَهَاأَنَا ... خَلْفَ المَدَامعِ وَالْهُمُومِ أَرَاهَا

غَالَ الْفَنَاءُ حُبَابَهَا وَضَبَابَهَا ... وَتَبَخَّرَتْ أَحْلاَمُهَا وَرُؤَاهَا!

إبراهيم ناجي

من الشعر الرمزي

في مفرق الطريق

للأستاذ سيد قطب

بين نفسين من النفوس الكثيرة التي تعيش في الإنسان الواحد متفرقة في بعض الأحيان. دار هذا الحوار. . . فأما إحداهما فتتعلق بماض عزيز لا رجعة له ولا أمل فيه، وأما الأخرى فتنزع إلى العزاء بالتطلع إلى جديد:

أَنتَ أوغلتَ في الظلام طويلا ... فمتى يا رفيقُ تبغي القُفولا؟

شدَّ ما أدَنَا التخبط في الليل ... وخِفْنا ظلامَه المدخولا!

ورأيْنا الأوهامَ تبدو شُخوصا ... ورأينا الشخوصَ تبدو هَيُولَى

وَخَبَرْنا فلم نُفِدْ باختبار ... وسخرنا مما خبرنا طويلا

يا رفيقي. إذا قَدِرْتَ فأَوِّبْ ... إن هذا الظلام يُضني العقولا

أنا أخشى الضياءَ أبصر فيه ... ذكرياتي تبدَّلت تبديلا

أنا أخشى النهارَ يكشف عني ... كلَّ وَهْمٍ أرودهُ تعليلا

أنا يا صاحبي أُشِيحُ بوجهي ... أن أرى عهدَنا تَرَدَّى قتيلا

أنا يا صاحبي أُدافِعُ عقلي ... أن يَرُودَ اليقينَ جهماً ثقيلا

الظلام الظلام أروحُ للقلب ... ولو كان لا يريح العقولا!

يا رفيقُ. الحياةُ أسمى وأغلى ... أن تُقَضَّى كذاك وَهْماً ضئيلا

يا رفيقُ. الحياة أقصرُ عهداً ... أن تُضَحَّي ساعاتها تَخْييلا

أُبْ من الظُّلْمَةِ الحبيبةِ واهجرْ ... كلَّ ما كان في الحياة الأولى

وَتَطَلَّعْ إلى جمالٍ جديدٍ ... أفلَمْ تَلْقَ في الحياةِ جميلا؟

عِشْ بما قد وُهِبْتَهُ من حياة ... مُسْتَنَارَ الإحساس نهماً عجولاً

آه يا صاحبي. أتجهلُ أني ... أفقدُ الدارَ إن فقدتُ الطلولا

ذاك عهدٌ أنفقتُ فيه رصيدي .. كلّهُ لم أُبَقِّ منه قليلا
أتراني أجدِّدُ الذّخرَ والعمرُ ... مُوَلٍّ والجهدُ أمسى هزيلا؟
أنا باقٍ هنا فإن شئتَ دعني ... ورُدِ الكونَ حافلا مأهولا
أنا باقٍ هنا أرودُ طُلولي ... لم أعُدْ بعدُ أستطيبُ القفولا!
(حلوان)
سيد قطب
البريد الأدبي
. . .من سوء الترجمة أيضاً
تكلمت في العدد 418 من الرسالة على قولهم (من جديد) وأوضحت أن هذا التركيب مما جناه جهلة المترجمين، وان كتابنا وبلغاءنا قبلوه من غير تفكير ولا بحث، فوشج بلغتنا، وعاد مما لا يستطاع استئصاله منها - كغيره من الطفيليات التي أغارت عليها - ألا بطويل جهاد وكبير عناء
ثم تذكرت بعد أن كتبت تلك الكلمة أني كنت قد قيدت في كناشتي طائفة مما فشا بيننا من أمثلة سوء الترجمة. فعدت أليها، وتخيرت منها ما ارجوا أن أوفق لنشره في هذه المجلة كلما ساعفت الفرصة
فمن ذلك استعمال (عَبْر) (مصدر عبر النهر وغيره: إذا قطعه إلى الجانب الأخر) ترجمة للكلمة الإنجليزية يجعلوها في نسج الكلام ظرفاً - كما يصنع الإنجليز بكلمتهم - فأخرجوها عن معناها ووضعها اللغوي بلا مسوغ مطلقاً
وكثير ما نراها هكذا في البرقيات والتعليقات الحربية، وفي وصف الغارات والحركات العسكرية، وفي الخطب السياسية وغير ذلك
وأني مورد لهذا الاستعمال الخاطئ ثلاثة أمثلة قبستها من الصحف، ليتضح بها المقام
1 - ومن زمن قريب ادعت اليابان لنفسها حق مرور قواتها (عبر) شمال الهند الصينية
2 - وسنواصل كل شهر قذف. . . بالقنابل الشديدة الانفجار كلما فرغت مصانعنا من إخراج طائراتنا الضخمة، أو جاءت إلى هنا (عبر) الأطلنطي
3 - لهذا وصلوا بين باكو وباطوم (عبر) القوقاز بأنابيب
المفتعلة واضحة في هذه المقتبسات، يدل عليها متعلق (الظرف) في (عبر) (فظرفية) كل
وقد يسبق إلى الوهم أن هذا العبث مما يمكن تخريجه على وجه صحيح: كأن يحمل مثلاً على حذف عامل المصدر
ولكن قليلاً من التأمل فيما أسلفت من الأمثلة وفي غيرها يذهب بهذا الوهم. على ان قواعد حذف عامل المصدر وأمثلته مبسوطة مفصلة في موضعها. وليس هذا مما يدخل منها في باب أو يمت له بصلة
(ا. ع)
أخبار تهم الأدباء
1 - مضت أسابيع وأسابيع ولم نقرا شيئاً من روائع الأستاذ إسعاف النشاشيبي، ونحن نرجو أن يكون بعافية، فهو من أعاظم الباحثين في هذا الجيل
2 - الفائزون من شعراء العراق في المسابقة الشعرية التي أقامتها محطة لندن للإذاعة العربية هم بالترتيب حضرات السادة: عبد الرحمن البناء، جميل احمد الكاظمي، ومصطفى كامل يأسين وقد وزعت عليهم الجوائز في حفلة أقامها السفير البريطاني في بغداد
3 - والفائزون من شعراء مصر ثلاثة، كان ثانيهم السيد حسن القاياتي، وقد تألم من هذه المنزلة (الثانوية) فان تفضل أحد الموظفين بمحطة الإذاعة المصرية وقدم ألينا أصول القصائد الثلاث فقد نقيم ميزاناً ينصف السيد القاياتي بعض الإنصاف وإن كان يؤذي لجنة التحكيم بعض الإيذاء!
4 - من بين الذين فازوا بعضوية (جماعة كبار العلماء) اثنان من أدباء اللغة العربية، وهما الشيخ محمود شلتوت والشيخ محمد عرفة، ومعنى ذلك أن الأدب يزاحم بمنكب ضخم في بيئات العلماء
5 - لم يفصل وزير المعارف في استقالة الدكتور طه حسين، ويقال انه سيعين في مجلس الشيوخ، فان صح هذا النبأ كان فوز للسلطة الأدبية، وذلك بان التعيين في

مجلس الشيوخ كانت تراعي فيه اعتبارات لم يكن للأدب فيها مكان
حان الوقت لتقييد أوابد الفصاحة البرلمانية، فقد وقعت في الأسبوع الماضي - 6
محاورات في مجلس الشيوخ ومجلس النواب تشهد بأن الفصاحة البرلمانية قد وصلت
إلى ابعد حدود التفوق، وسيأتي يوم تباع فيه مضابط البرلمان في المكاتب كما تباع
أطايب المؤلفات!
زكي مبارك
وفاة طاغور
توفي الدكتور رابندرانات طاغور شاعر الهند وحكيمها في اليوم السابع من شهر
أغسطس، وقد نعته إلى العالم شركة روتر بما يأتي:
كان السير رابندرانات طاغور الذي أعلنت الآن وفاته في مقدمة المحبوبين في العالم
وفي الهند وقد نال جائزة نوبل في الآداب وألقى محاضرات هبرت في جامعات
اكسفورد سنة 1930
ولد في 6 مايو سنة 1861 وتلقى تعليماً خاصاً في القرية التي ولد فيها قبل أن يقيم
في كلكتا. ولما بلغ الرابعة والعشرين ذهب إلى الريف ليتولى إدارة مزارع والده،
وهناك بدا الكتابة لأول مرة. ومن ذلك الوقت كتب نحو ستين ديواناً من الشعر وعدة
مؤلفات نثرية منها روايات وقصص صغيرة ومقالات فلسفية وروايات تمثيلية. وكان
السير رابندرانات فضلاً عن نظمه الشعر وكتابته النثر مؤلفاً موسيقياً، فقد نظم اكثر
من ثلاثة آلاف أغنية
وفي سنة 939 تلقى في عيد ميلاده الخامس والسبعين رسائل التهنئة من جميع أنحاء
العالم وكلها إشادة بفضله كشاعر وروائي وقصصي ومفكر سياسي ومصلح اجتماعي
وأستاذ ديني.
وفي سنة 1901 أسس مدرسة في سانتينكتان تحولت فيما بعد إلى معهد علمي دولي
يسمى - فسفا بهاراتي - وكان هذا عمله في حياته
وقد اشتهر أيضاً بأنه سائح عظيم، فانه زار إنجلترا في سنة 912 حيث نقل بعض
مؤلفاته البنغالية إلى اللغة الإنجليزية، وساح في أوربا مراراً، وكذلك في اليابان وروسيا
السوفيتية والصين والولايات المتحدة وأمريكا الجنوبية وإيران وكندا ومصر والعراق
ولما بلغ 63 عاماً شرع فجأة يشتغل بالتصوير بالألوان، وقد أقيم معرض لصوره بلندن
في ديسمبر سنة 1983 وكانت هذه الصور خيالية غريبة، أي ما يدور بعقل الشاعر
مرسوماً على الورق
وأقيمت لصوره معارض أخرى في برمنجهام وموسكو وبرلين ومونيخ وباريس
ونيويورك
وقد مرض السير طاغور فجأة مرضاً خطراً بالحمرة في صيف سنة 937 ولكنه شفي
منه. وبعد ذلك كان لغزو اليابان للصين أثر شديد في نفسه؛ وفي أكتوبر سنة 937
أذاع رسالة لاسلكية على مواطنيه الهنود - استنكر فيها وحشية الحربين اليابانيين في
معاملتهم للصين
وبعث إلى يوتي ناجوشي الشاعر الياباني تعنيفاً أدبياً مؤلماً بسبب ضرب اليابانيين
للصينيين غير المحاربين بالقنابل
ولما بلغ الثمانين من عمره منحته جامعة أكسفورد درجة دكتوراه في الآداب. وقد
منحه إياها السير موريس جوير كبير قضاة الهند في اجتماع خاص عقدته لهذا الغرض
. . .جامعة اكسفورد في قرية سانتينكتان بالبنغال
وكان لسير رابندرانات طاغور هيئة وقورة خارقة للعادة، فكان كبير الجسم عظيم
الرأس، فضي الشعر قد سال على جانبي رأسه في خصائل كثيفة. وكان جميل الوجه
ذا لحية بيضاء طويلة وكان يبدو في أرديته الطويلة الواسعة كأنه أحد الروحانيين
وكان ذا صوت جميل وقوة لا تقاوم في الكلام، وكان كلامه يشع الهدوء والسكينة
والخير
ولم ير في معظم الأحوال إلا مع الأطفال سواء أكانوا هنوداً أم بريطانيين أم صينيين
أم يابانيين؛ فقد كان الأطفال يخضعون في الحال لقوته الجذابة وحبه لهم.
قصص مسرحية للأطفال
القصص من أنفع الوسائل لتهذيب النفوس، وتلقين الناشئين اللغة الصحيحة، ورياضتهم

على البيان؛ ومن الممكن أن تكون عوناً للمدرسين على تدرس الحقائق التاريخية في غير عسر، وطريقاً لإتقان فنَّي الإلقاء والتمثيل، وداعية لتآلف التلاميذ وتقوية أواصر المودة بينهم لما تشتمل عليه من حوار مسرحي يصحبه شيء من الحرية التي تخرج بالتلاميذ عن نطاق التعليم الجاف.

ولقد تلوت مؤلف الأستاذ (محمد يوسف المحجوب) فوجدته مبعثاً لسرور القارئ، شاهداً بفضل المؤلف، ولا شك أنه فتح جديد في تدريس القصص المدرسية؛ فهو مصوغ في أسلوب شعري منسجم النغمات، سهل العبارة، متين النسج، برئ من الغرابة والتعقيد، سليم من المحاورات العنيفة التي تسوق الأطفال سوقاً إلى حب اللجاج والمهاترة.

والقصص مشتملة على أغراض نبيلة، فمنها ما يدعو إلى مكارم الأخلاق كقصة (على البحيرة)، وما يربي العاطفة الوطنية وينمي المعارف التاريخية كقصة (قناطر محمد علي) وقصة (فتح مصر). هذا إلى ما يزيد شوق القارئ ويبعث السرور في نفوس الناشئين من جمال الطبع، والعناية بضبط الحروف، وتجميل القصص بالصور المتقنة التي تربي الخيال والذوق السليم.

ولا غرابة في ذلك فالمؤلف معروف برقة العاطفة، ولطف الحس، وهو - كما قال الأستاذ الكبير محمد علي مصطفى في مقدمة الكتاب - (يمتاز بأنه معلم فيه مهارة وحذق، وبأنه خَبَر الأطفال وعرف ميلهم، وبأنه درس هذه القصص لتلاميذه فأحبوها وشغفوا بها، واستزادوه منها).

(المنصورة)

محمود البشبيشي

القصص

البيت الهادئ

كتبت في القطار النازح عن الإسكندرية

للأستاذ سعد محمود دوارة

هاهو ذا القطار تتسارع دقاته كأنها خفقات قلب كبير. . . وهاهي ذي أعمدة التلغراف تتلاحق كأن بينها سباقاً لا نهاية له. . . وهاهو الثغر الحبيب يختفي وراء الأفق البعيد القطار مزدحم بالكتل البشرية وكتل المتاع. الناس وجوههم مكفهرة مغبرة، نظراتهم حزينة قلقة. لقد هجروا ديارهم فارين من الموت الذي كان يحوم فوق رؤوسهم، لا حديث لهم إلا ما أصابهم من نقص في الأموال والأرزاق والأرواح.

أمامي سيدة تبكي بكاء صامتاً. . . تركت زوجها الذي لم يستطع اللحاق بالقطار؛ ولقد حاولت أن تعود إليه، ولكن أنى لها أن تتحرك بين هذه الجموع المحتشدة. إنها لا تعرف أين تذهب ولا كيف تعيش وهي لا تملك سوى الثوب الذي لا يكاد يستر جسدها

أما هذه الفتاة الهيفاء التي تجلس بجانبي شاحبة كأنها تمثال من الشمع، فهي خطيبتي وفتاة أحلامي (عايدة)

لقد كانت في يوم من الأيام زهرة نضرة تستقبل أشعة الشمس الذهبية وتميل مع النسيم الرخاء. . . ولكنها الآن بعد أن حطمت قلبها يد القدر القاسية، تبدو واجمة. . .

وقد نفرت مني كأن قلبها لم يخفق في يوم من الأيام بحبي. . . وإذا التقت عيناي بعينيها نظرت إلي نظرة عتاب شديدة ثم أخفت وجهها كي لا أرى دموعها المنهمرة

في تلك الليلة المشؤومة، كنت أنا وعايدة في إحدى دور السينما حين سمعنا زمارات الإنذار ترسل نعيبها الحزين؛ وتسابق المتفرجون إلى الخروج يلتجئون إلى أقرب مخبأ، وأخذ كل يتحسس طريقه في الظلام. . .

وأخيراً وجدنا مكاناً ضيقاً في أحد المخابئ. . . كان الجو خانقاً، والكآبة غاشية على . . . كل وجه، وكان السواد الأعظم من الناس بملابس النوم. . . وابتدأت المدافع تدوي متعاقبة. . . وتعالت أصوات الدعاء من كل جانب. . . ومن حين إلى آخر كنا نسمع صفير القنابل

وهي تشق طريقها في الهواء متجهة إلى الأرض، فتحبس الأنفاس ويخيم على المكان هدوء كهدوء القبور. . . ثم نحس بالأرض تهتز تحت أقدامنا، ونسمع صوت الانفجار مصحوباً بصوت تناثر الزجاج. . .

وتبرعت (عايدة) بزجاجة عطرها تمررها بين الناس. . . كانت تبدي شجاعة نادرة،

وكانت تواسي النساء قائلة: إن القنابل لا تقذف إلا على الأهداف الحربية، وإننا جميعاً في سلام!
وبعد ساعات - خيل إلينا أنها سنوات - سمعنا الزمارات تعلن انتهاء الغارة. . . فاندفع الناس خارج المخبأ لاستنشاق الهواء الطلق. . .
كانت الشوارع مضاءة بأشعة القمر الفضية، وكانت قطع الزجاج المتناثر تتلألأ ببريق غريب. . . وخرج الناس من كل جانب فامتلأت بهم الطرقات. . . كل يريد أن يطمئن على ذويه وأقاربه!
وشاهدنا ونحن نشق طريقنا بين الأكتاف بيوتاً تهدمت، وبيوتاً لا تزال تتهدم. . . كما شهدنا عربات صغيرة محملة بالمتاع وبالناس متجهة نحو محطة السكة الحديدية. . . كأن أصحابها لا يطيقون الإقامة في هذه المدينة لحظة أخرى بعد أن رأوا الموت بينهم. . . ومعهم!.
وأخيراً. . . وبعد مجهود عنيف، بلغنا الشارع الذي تقيم فيه (عايدة) مع أمها وأختها الطفلة. . . كان الزحام شديداً بدرجة غير عادية، وكان عمال الإنقاذ والإسعاف يحاولون صد تيار الجموع المحتشدة. . .!
ولم أشعر إلا و (عايدة) قد تركتني واندفعت بين الزحام حتى غابت عن ناظري، كما تغيب قطعة الحرير البيضاء بين عتمة الأمواج المتلاطمة. . .
أخذت أناديها. . . ولكن صوتي كان يختفي بين همهمة الجمهور، وبين الصراخ والنحيب. . .
وأشرفت على مكان أستطيع منه أن أرى بيت (عايدة). . . لم أكد أصدق عيني. . . ذلك البيت الذي كان يشق الفضاء قد صار أثراً بعد عين، وقد تصاعدت في مكانه سحب من الغبار الأبيض الكثيف. . .!
ورأيت (عايدة) تحاول أن تتملص عن أيدي رجال الإنقاذ الذين منعوها. . . من الاقتراب. . . من الأنقاض. . .
حاولت أن أصل إليها وأقنعها أن محاولتها هي الجنون بعينه، ولكن دون جدوى، فقد كان تيار الجمهور الجارف يدفعني إلى الوراء
وغابت عايدة عن ناظري لحظات، وعندما رأيتها ثانية كانت فوق الأنقاض، ولا أدري كيف وصلت إلى هناك. . . كانت ترفع قطع الحجارة المحطمة وبقايا الأثاث المتهالك. وكانت تفعل ذلك بقوة عجيبة لم أكن أعهدها في ساعدها البض ويديها النحيفتين الناعمتين. . . وقد انسدل شعرها الفاحم فوق وجهها حتى أخفاه
وحاولت أن أثنيها عن محاولتها الجنونية، فقد كانت هناك بضعة جدران تريد أن تنقض. ولكن أنى لها أن تسمع صوتي الضعيف. .؟
وفي هذه اللحظة سمعنا زمارة الإنذار ترسل نعيبها وكأنه نعيب غراب سوء،، وساد الهرج واندفع الناس كأنهم قطيع من البقر الوحشي نحو المخابئ
وبذلت جهود الجبابرة حتى وصلت إلى عايدة وكانت مكبة على عملها كأنها لم تسمع شيئاً. . . أفهمتها أن بقائها مستحيل، ولكنها لم تقتنع، بل أخذت تردد في صوت حزين: (دعني أنقذهم. . . دعني أنقذهم)
واضطررت إزاء إصرارها أن أقسو عليها بعض القسوة، فحملتها بين ساعدي كطفلة صغيرة، ولكنها قبل أن تغادر المكان كانت قد استخلصت من بين الأنقاض دمية صغيرة. كانت دمية أختها!
وقضينا ليلة مضنية. . . وعندما خرجنا من المخابئ كان الشفق الوردي ظاهراً في الأفق معلناً قدوم يوم جديد
وحملت عايدة مغمى عليها إلى منزلي
وهناك استطعت بمساعدة خادمتي العجوز - وهي الشخص الوحيد الذي يعيش معي - أن أسعف عايدة. وبعد مدة ليست قصيرة أفاقت
كان جفناها ذابلين وقد أحيطت عيناها بهالتين من الزرقة الداكنة. وكانت أصابعها لا زالت ممسكة بدمية أختها الطفلة
كانت تتكلم بهدوء غريب وهي تغالب دموعها التي حفرت لها مجرى فوق وجنتيها الشاحبتين. . . ولا زالت كلماتها ترن في أذني وتتكرر في سرعة متزايدة
قالت إنه كان في إمكانها أن تنتشل أختها وأمها من بين الأنقاض لولا حملي إياها عنوة

إلى المخبأ
حاولت جهدي أن أفهمها أن هذا كان مستحيلاً، وأنني خفت أن يسقط عليها جدار أو تنهار من تحتها الأنقاض فأفقد بموتها آمالي ولا يبقى لي سوى الاحزان، ولكنها كانت في حالة غير عادية. . . وكانت فكرة إمكان إنقاذ أهلها تتملكها وتلح عليها. وانتابتها بعد ذلك حالة ذهول هي أشبه بالإغماء، فلم تعارض حين شققنا طريقنا نحو محطة السكة الحديدية
لا زال القطار تتسارع دقاته، ومن حين إلى آخر يرسل أنيناً حاداً كأنه يشارك الناس أحزانهم وأنينهم
لقد صرنا في قلب الريف! الخضرة تلفنا من كل جانب. ما أروع اللون الأخضر؟!. . . إنه يهدئ الأعصاب ويحيي في النفس حب الحياة
الجو دافئ، وكأن ركاب القطار قد أنهكهم التعب فخيم السكون على المكان. أما عايدة فقد مال رأسها الرائع فوق كتفي، وهبت نسمات الأصيل الدافئة تطيح بخصلات من شعرها الثائر إلى وجهي فينقل ألي شذى عاطراً
لا زالت آيات الحزن مرتسمة على وجهك أيتها الحبيبة. . . وإني لأشاركك هذا الحزن؛ فقد كانت أمك تعوضني بعطفها وحنانها مما حُرمته منذ زمن طويل
أما أختك الصغيرة، فقد كانت عصفورة مرحة، ولا زالت صورتها مطبوعة فوق مخيلتي وهي تندفع نحوي وتدس يديها الصغيرتين في جيوبي باحثة عن الحلوى. . . ثم تأبى أن تفارقني حتى تنام فأحملها برفق إلى مخدعها. . .
. . .نحن ذاهبون إلى أختي التي تسكن الريف
!إن لها ابنة صغيرة تشبه أختك. . . وستجدين هناك عطفاً وحناناً وستغفرين لي ذنبي
سنبقى هناك حتى تنقشع تلك الغمامة التي تحجب سماء بلدتنا الحبيبة. . . ثم نعود إليها
وإني لأتخيل يوم عودتنا. . . سيكون القطار الذي نركبه مزدحماً. . . ولكن السعادة ستحل على وجوه المسافرين محل التعاسة التي نراها الآن مرتسمة على وجوههم. . . وإن
صورة البيت الذي سنقيم فيه في الإسكندرية لمطبوعة فوق مخيلتي حتى لأكاد أراها. . . . .. هو بيت هادئ تحيط به من كل جانب حديقة صغيرة خضراء
.أما هؤلاء الذين أحزننا فقدهم وأبكانا، فإني موقن أن لهم الآن بيتاً هادئاً
سعد دوارة
العدد 425 - بتاريخ: 25 - 08 - 1941
!شئ واحد
للأستاذ عباس محمود العقاد
كان الضابط المصري (أحمس) الذي ارتفع إلى عرش الفراعنة في القرن السادس قبل الميلاد معروفاً في صباه بالمزح والمجون، وكان عربيداً لا يسلم من دعاباته زملائه ولا رؤساؤه ولا أصحاب القداسة من أحبار زمانه. فلما استوى على عرش بلاده نسي أصحابه أنه فرعون مصر وذكروا أنه الضابط العربيد، ثم جروا في معاشرته على السنة التي ألفوها يوم كانوا أنداداً في الرتبة وإخواناً في اللهو والمجانة، فصبر قليلاً على هذه المعاشرة التي لا يصبر عليها الملوك، ثم ضاق ذرعاً بها وبأصحابه وأزمع أن ينهرهم بالعظة والتمثيل، قبل أن ينهرهم بالسطوة والتنكيل؛ وقيل فيما قيل من أساطيره الكثيرة أنه أتى بإناء من الفضة تغسل فيه الأيدي فأتخذ منه تمثالاً لرب من الأرباب المعبودة في زمانه. ثم نصب التمثال في مدخل القصر حيث يراه القوم أول ما يرون عند دخوله، فما عبروه حتى خروا له ساجدين
وظهر لهم أحمس وهم يسجدون للتمثال فقال لهم: أتعلمون مم صنع هذا التمثال الذي حييتموه بالسجود؟ إنه من ذلك الإناء الذي كنتم في الوليمة الماضية تغسلون فيه أيديكم وتبصقون فيه من مضمضة أفواهكم. فمن منكم يجرؤ اليوم أن يبصق عليه أو يصيبه غسالة الأيدي؟ من فعل ذلك فجزاؤه الموت والعار، وان كان معدنه اليوم كمعدنه أمس في سوق البيع والشراء وفطن الضباط لما أراد، وعلموا أن أحمس الفرعون غير أحمس الضابط العربيد، فسجدوا حيث كانوا بالأمس يلقون الرشاش من غسالة الأفواه!

والمقصود من عظة (أحمس) أن الشيء الواحد قد يختلف في قيمته اختلاف الصورة حتى يهان ويبتذل في صورة، ويصان ويعبد في صورة أخرى

ولكننا نتجاوز ما أراده أحمس في هذه العظة لنقول: أن الشيء الواحد في الصورة الواحدة يختلف اختلاف التقدير والنظر حتى يهان ويبتذل عند أناس ويصان ويعبد عند آخرون، بل حتى يكون له عند الإنسان الواحد شانان متفاوتان

وهذا تمثال أحمس نكتف به ولا تنتقل إلى غيره لنعرف كيف يختلف قدره باختلاف النظر إليه

فالصائغ الفنان يعطيه في تقويمه قيمة التحفة الجميلة التي لا تحسب بالدراهم والدنانير

والبخيل المتصيد للمال يغليه بمقدار ما يبذله فيه طلاب اقتنائه من عشاق الفن أو عباد هذه الأرباب

وعابد الوثن يتمرغ بين يديه

ومنكر الوثن يمرغه هو في التراب، وقد يعدو ذلك إلى تحطيمه وتحريم النظر إليه في صيغته المعبودة

وتاجر الفضة يحيله إلى الميزان، وصاحب الضرورة يبيعه بأبخس الأثمان، وحارسه يمنع الغبار أن يصل أليه لأنه يمنع رزقه وعقيدته وحماه

وهو مع هذا شئ واحد في صورة واحدة

فهل هو في الحق شئ واحد أو جملة أشياء؟

كنا على المائدة نخوض في حديث من هذا المعنى رهطاً من الأخوان الأدباء ورجال الفن والثقافة

فقال أحدنا: أن صديقنا فلاناً لتستهويه تلك الفتاة التي كانت تتهالك على من دونه فضلاً وعلماً ومكانة فلا تظفر منه بأكثر من اللهو بها أو الأعراض عنها؛ فما باله لا يرعوي؟ ألا يهديه أو يرده إلى صوابه ناصح أمين؟

قلت: وهل الفتاة التي استهوت صديقنا هي الفتاة التي استهواها من هو دونه في فضله ومقامه؟

قالوا: نعم. هي فلانة!

قلت: أعلم أنها هي فلانة، ولكني أحسب مع هذا أن تلك الفتاة هي غير هذه الفتاة

وكان أمامنا على المائدة صحفة من البط المطبوخ، فمضيت أقول: ألا أحدثكم بلغة الأماثيل فيما نتناوله الآن من الطعام ونحن مستطردون فيما بدأناه آنفاً من حديث العظات الرمزية؟

كان أربعة في جيرة واحدة من أحياء المدينة: متسول ولص ورجل كادح لرزقه وصائد من هواة الرياضة

فقال المتسول لزميل له وقد عبر به اللص في قيوده مسوقاً إلى سجنه: أنظر إلى ذلك الأحمق! . . سطا على حظيرة البط ليلة أمس فتيقظ له الحارس وأوشك أن يرديه برصاصة لأنه طمع في بطة أو بطتين! وهاهو ذا يساق إلى السجن حيث يصوم عن أمثال هذه الطعوم. أفما كان خيراً له أن يصنع كما صنعت أمس وقد شممت رائحة البط المطبوخ في منزل ذلك الصائد فما طرقت الباب حتى ناولوني صحفة أكلتها هانئاً بها غير جاهد في شرائها ولا سرقتها ولا صيدها ولا طبخها ولا اقتناء صحائفها؟ فأين غابت عنه حكمة القناعة وهي أقرب إليه من ذلك الخطار، ومما وراءه من الحبس والعار؟!

قال زميله: وما ظنك بالصائد الذي أكلت البط المطبوخ من بيته؟ أليس هو أحمق من اللص في طلب البط الذي يجود به مطبوخاً ولا ينال منه أكثر مما تنال؟ فعلام السفر من هنا إلى البحيرات النائية؟ وعلام شراء السلاح والعدو بين الماء والعراء؟ وعلام صيد الأسراب وبطة واحدة تكفيه، ولعله يجود بها على سائليه؟

وأصغى إليهما الرجل الكادح لرزقه فقال: الحمد لله على ما وفقني له من القصد والسداد: دريهمات معدودات تغنيني عن نفقة الصياد وعن ذل السؤال وعن غشيان السجون

فمن من هؤلاء الأربعة على صواب! ولو أخذنا بالظاهر لكان الصائد المتعب أحمق

الأربعة، ولو أخذنا بالحقيقة لكان دونهم جميعاً هو صاحب السهم الربيح والعقل الرجيح، لان البطة عنده ليست هي البطة التي يسرقها اللص، أو يستعطيها المتسول، أو يشتريها الشاري من السوق، ولكنها شئ يستحق أن يجهد له بالسفر والنصب وتعلم الرماية وبذل المال في السلاح، وهي كذلك شئ غير الذي ظفر به المتسول من بيته مطبوخاً بغير ثمن. فلا وجه للمبادلة ولا للمقابلة ين الشيئين

وهكذا يجوز أن تكون الفتاة التي استهوت صديقنا غير الفتاة التي تؤكل رخيصة على موائد منافسيه، فإنما العبرة ما يشعر به هو وما يشعر به هؤلاء، وليست العبرة بوحدة الأسماء والأجسام.

وليس الشيء الواحد بشيء واحد على هذا التقدير

تلك حقيقة ينساها معظم الناس وهي داخلة في كل عمل من أعمالهم اليومية، معترضة في كل خطوة من خطوات الحياة فالصنف الواحد من الخضر يشتريه اثنان في يوم واحد من سوق واحد بثمن واحد، فيؤكل على مائدة أحدهما كأنه من طعام أهل الجنة، ويؤكل على مائدة الأخر كأنه السم الزعاف

والكتاب الواحد يطالعه القارئان فيستفيد أحدهما منه ما لا يقدر بمال، ويخرج الآخر من قراءته ولم يأخذ منه ما يساوي ثمن ورقه

والمكان الواحد يقصده زائران فيرجع أحدهما بالصحة والمعرفة والثروة، ويرجع الآخر منه بالمرض والضلال والإفلاسوقد تفتحت عيناي على هذه الحقيقة منذ أيام الطفولة، فشهدت في بلدتي التي نشأت فيها التقاء الحضارات القديمة - والحديثة، والتقاء الأمم من غربية وشرقية؛ وكان يزور أسوان في الشتاء ألوف السائحين منهم الأمريكي والإنجليزي والفرنسي والألماني والنمسوي، وأبناء الأمم الأوربية كافة، فكانت أوروبا عندي على اجتماعها في كلمة واحدة صوراً مختلفات لا تتفق في مشارب ولا أطوار ولا عادات

وكنت أسمع العجب من اختلاف الآراء في سن يعجب فيها الإنسان من كل مشهود ومسموع، فلا أعجب ولا أحار أن عجبت، لكثرة ما تعودت من نقائض الأفهام والأحكام زار أسوان أمير إنجليزي كبير، فخرج في الظهيرة إلى حيث يلعب (التنس) مع فئة من صغار الموظفين والضباط، وشهدت مجلس والدي في المساء وأنا معجب بالأمير الحر الظريف، فما سمعت تأففاً من شيوخ المجلس كالتأفف الذي سمعته منهم تلك الليلة، وهم يعيبون على الأمير لعبه (أولاً) ونزوله في اللعب إلى مرتبة الصغار من الموظفين (ثانياً)، وخلعه ملابس الإمارة ليظهر في لباس العامة (ثالثاً)، وما شئت من مآخذ شتى: رابعاً وخامساً وسادساً إلى غير انتهاء

وكان (العقلاء) يضحكون من هؤلاء الأوربيين الذين يبلون أحذيتهم أو ينضون مطاياهم في الجبال ليرجعوا منها بكيس ملآن حجارة وحصيات تلقى في عرض الطريق، وكنت أرى هذه الحجارة في متحف المدرسة، فأحسبها كنزاً من الكنوز المكنونة، أو أحسبها على أقل تقدير لها موضوع درس ممتع مفيد

وكان المنقبون في الآثار القديمة من عامة الناس يهزءون بالعلماء الذين يعطونهم الذهب ويأخذون منهم خرقة بالية أو حلية مكسورة أو ورقة ممزقة، وكنت أسمع في دروس التاريخ كل أسبوع أن هؤلاء العلماء رابحون مفلحون، وأن الخاسر الحقيق بالاستهزاء هم أولئك الجهلاء المستهزئون

وازددت علماً بالدنيا وبنيها، فكأنما اجتمعت الزيادة كلها في توكيد هذه الحقيقة الجامعة وخلاصتها بلغة الحرب والتسعيرة والغلاء: أن ليس لعروض الدنيا تسعيرة واحدة، وأن ما يصدق من ذلك على العروض والأشياء، أحرى أن يصدق على الأحياء وعلى الرجال والنساء

عباس محمود العقاد

بمناسبة الذكرى الرابعة عشرة

قصائد الشعراء في تأبين سعد

للدكتور زكي مبارك

- 1 -

في مثل هذه الأيام من سنة 1927 فُجعت مصر وفاة الزعيم سعد زغلول، والتفتت الأمم العربية إلى هذه الفجيعة الدامية، فنُظِمت القصائد الجياد في الحزن لوفاة ذلك

الزعيم العظيم، نظمها شعراء فضلاء من الحجاز واليمن والمغرب والشام والعراق؛ وكان من أجود المراثي التي صدرت عن شعراء الأمم الشقيقة قول الأستاذ بشارة الخوري شاعر لبنان:

قالوا دهتْ مصرَ دهياءٌ فقلتُ لهم ... هل غُيّض النيل؟ أم هل زُلزل الهرم؟
قالوا أشدُّ وأدهى، قُلتُ ويحكمُ ... إذن فقد مات سعدٌ وانطوى العلمُ
لِمْ لا تقولون إن العُرْبَ قاطبةً ... تيتَّموا، كان زغلولٌ أباً لهمُ

وما نريد في هذه الدراسات الوجيزة أن تحدث عما تفضل به شعراء الأمم العربية من المواساة الكريمة لوادي النيل، فذلك يوجب أن نستعد لأبحاث طوال لا يسمح بها الزمن الضنين، فلم يبق إلا أن نتحدث عن القصائد التي نظمها أكابر شعراء مصر من أمثال: شوقي وحافظ والعقاد والجارم ومطران

حفلة التأبين

أقيمت تلك الحفلة التاريخية في اليوم السابع من أكتوبر سنة 1927 بعد انقضاء الأربعين لوفاة سعد زغلول، وكان الخطباء والشعراء على هذا الترتيب: مصطفى النحاس، عبد الخالق ثروت، محمد محمود، حسن نبيه المصري، حافظ إبراهيم، عبد الحميد سعيد، فكرية حسني، مكرم عبيد، احمد شوقي، نسيم اصيبعة، عباس محمود العقاد، حسين رشدي، بهي الدين بركات

جو الحفلة

ومن هذه الأسماء نلاحظ جو الحفلة روعيت فيه الصبغة القومية العربية، فقد تكلم محمد محمود عن حزب الأحرار الدستوريين، وتكلم محمد سعيد عن الحزب الوطني، وتكلمت فكرية حسني عن السيدات، وتكلم نسيم اصيبعة عن سورية.

دموع ثروت

وكانت الحوادث قضت بأن يصفو ما بين سعد وثروت بعد طول الخصام والعداء، فلما وقف عبد الخالق ثروت لرثاء سعد زغلول، نظر إلى صورة الصديق الفقيد، فغلبه الحزن وأجهش بالبكاء. . . فترك المنبر، وقدم خطبته للأستاذ محمد عبد الرحمن الجديلي، فأتمها بالنيابة عن ذلك الخطيب المحزون

برقية نسيم

وفي تلك الحفلة أُلقيت برقية نسيم باشا، رئيس الديوان الملكي حينذاك، وفيها يقول: (أشاطركم الأسى وأقاسمكم الشعور في تبين الفقيد العظيم، أسبغ الله عليه ثوب الرحمة والرضوان، وإني أستوهبكم عذراً: إذ ليس ميسوراً لي حضور الحفلة اليوم) وإنما نصصت على هذه البرقية لأن جريدة (البلاغ) أشارت إلى أنها لفتت أنظار الحاضرين، ولبيان هذه الإشارة شرح يطول

إن تاريخنا السياسي الحديث فيه أسرار وغرائب وأعاجيب، فأين الباحث الذي يميط اللثام عن العبقرية المصرية في ميادين الجدل السياسي؟

إن طلبة الدكتوراه بكلية الآداب يشغلون أنفسهم بإعداد الرسائل عن مشكلات العصور الخوالي في الأدب والسياسة والاجتماع، فمتى يتجهون إلى درس المشكلات الأدبية والسياسية والاجتماعية في العصر الحديث؟

سارعوا إلى درس هذا العصر قبل أن تضيع الوثائق، وقبل أن يموت الشهود، فقد يصعب عليكم درسه يوم يصبح ظنوناً في ظنون!

قصيدة شوقي

نشرت في صدر (الأهرام) مع تمهيد نظمه من قلم المرحوم صادق عنبر، وهو يقول في ذلك التمهيد:

(هذه هي القصيدة التي تنزلت من سماء العبقرية وحياً يسيل نور الحكمة على أبياته، ويتجلى الإعجاز في حالية آياته، وتتعرف فيه مواضع سجداته. . . أبدعها شاعر العصر في تأبين زعيم الشرق (سعد) وأودعها صورتين متقابلتين إحداهما صورة (شوقي) الحياة التي تعجز الموت، والأخرى صورة الموت الذي يعجز الحياة، منتزعاً من الحياة والموت معاً أصدق ما فيهما من العظات، وأجل ما فيهما من العبر والمثلات. وإنك لتجد فيما بين ذلك روحاً من الحكمة الكهلة ترف على بيت من أبياتها كما تدرج نسمة من الصبا في الخميلة النضرة الفيحاء. وقد تمثلت في هذا الشعر عاطفة شوقي

(المشبوبة وعظمة سعد الخالدة. وناهيك من خلدين تلاقيا، وسحرين تظاهرا
جو القصيدة
لم أكن في مصر يوم مات سعد، وإنما كنت في باريس، فلا أعرف أين كان شوقي يوم مات سعد، فهل كان بمصر؟ في القصيدة ما يشهد بذلك، كان يقول:
قلتُ والنعش بسعدٍ مائلُ ... فيه آمالْ بلادٍ ومُناها
وفيها مع ذلك أبيات تشهد بأنه كان يصطاف في البلاد السورية، كان يقول:
سائلوا (زحلة) عن أعراسها ... هل مشى الناعي عليها فمحاها
عطل المصطافَ من سُمّاره ... وجلا عن ضفة الوادي دُماها
فتَّح الأبوابَ ليلاً دَيرُها ... وإلى الناقوس قامت بيعتاها
صدَع البرقُ الدُّجا تنشرُه ... أرض سوريَّا وتطويه سماها
يحمل الأنباء تسري موهِناً ... كعوادي الثكل في حرِّ سراها
عرض الشك لها فاضطربت ... تطأ الآذان همساً والشفاها
قلت يا قوم اجمعوا أحلامكم ... كلُّ نفس في ورِيديْها رداها
فهذه الأبيات صريحة في أن الشاعر كان في سورية حين مات سعد؛ فكيف جاز له أن يخاطب النعش ولم يكن من المشيِّعين؟
إنما صنع ذلك ليتسق له هذا الحوار الجميل:
يا عدوّ القيد لم يلمح له ... شبحاً في خطةٍ إلا أباها
لا يَضقْ ذرعُك بالقيد الذي ... حزّ في سوق الأوالي وبَرَاها
يا رفاتاً مثل ريحان الضحى ... كللتْ عَدْنٌ به هام رباها
وبقايا هيكلٍ من كرمٍ ... وحياة أترع الأرض حَياها
ودّعَ العدلُ بها أعلامَهُ ... وبكت أنظمة الشورى صواها
حَضنَتْ نعشَك والتفت به ... راية كنت من الذل فِداها
ضمَّت الصدر الذي قد ضمها ... وتلقّى السهم عنها فوقاها
عَجبي منها ومن قائدها ... كيف يحمي الأعزل الشيخ حماها
وهنا يظهر روح القصيدة، فالشاعر يتحدث عن القيد وعدو القيد، ويذكر الراية التي احتضنت نعش سعد، بعبارة لطيفة تعد من أدق العبارات، إذ جعل الراية تحس نار الفجيعة، وتشعر بفقد القائد الذي كان يحمي حماها، وإن جردته الأقدار من السلاح
عيون القصيدة
وفي هذه القصيدة أبيات روائع، منها قوله في فجيعة مصر بدفن سعد:
ما دَرَت مصر بدفنٍ صبِّحت ... أم على البعث أفاقت من كَراها
صَرختْ تحسبها بنَت الشَّرى ... طلبت من مخلب الموت أباها
وقوله في جزع مصر لفقد الخطيب الذي أسكرها بسحر بيانه حيناً من الزمان:
طافت الكأس بساقي أمةٍ ... من رحيق الوطنيات سقاها
عطلّت آذانُها من وتَرٍ ... ساحرٍ رنّ مليَّا فشجاها
أرغُنٌ هام به وجدانها ... وأذانٌ عشقتْهُ أذناها
كلَّ يومٍ خطبةٌ روحيةٌ ... كالمزامير وأنغام لُغاها
دّلهتْ مصراً ولو أن بها ... فلواتٍ دلهَّت وحش فلاها
وقوله في مصاير الأحياء:
زورقٌ في الدمع يطفو أبداً ... عرف الضّفة إلا ما تلاها
تهلع الثكلى على آثاره ... فإذا خفْ بها يوماً شفاها
وقوله في فضل سعد على الثورة وجعلها خير ما ترك من الذرية:
ولدَ الثورة سعدٌ حُرةً ... بحياتي ماجدٌ حُرٌّ نماها
ما تمّنى غيرها نسلاً ومَن ... يلد الزهراء يزهد في سواها
رَقدَ الثائرُ إلا ثوْرةً ... في سبيل الحق لم تخمد جذاها
قد تولاها صبياً فكوتْ ... راحتَيْه وفتياً فرعاها
أعلمتم بعد موسى من يدٍ ... قذفت في وجه فرعون عصاها
وَطئتْ ناديَهُ صارخةً ... شاه وجهُ الرِّق يا قوم وشاها
وقوله في أخلاق سعد:
أين من عينيّ نفسٌ حرةٌ ... كنت بالأمس بعينيّ أراها

روعة النادي إذا جدَّت فإن ... مَزحتْ لم يذهب المزح بهاها
يظفر العذر بأقصى سخطها ... وينال الود غايات رضاها
ولها صبرٌ على حسَّادها ... يشبه الصفح وحلمٌ عن عِداها
لست أنسى صفحة ضاحكة ... تأخذ النفس وتجري في هواها
وحديثاً كروايات الهوى ... جدَّ للصبِّ حنينٌ فرواها
وقناة صَعْدَة لو وُهبتْ ... للسماك الأعزل اختال وتاها
تلك عيون هذه الشوقيات، وما زاد فهو معان يكررها شوقي في أكثر مراثيه، وإن كانت تجل عن الابتذال
قصيدة حافظ
ابتدأ حافظ قصيدته بما أَلِف الشعراء من الحديث عن تأثر الوجود لفقد العظماء، فسأل الليل: هل شهد المصاب ورأى كيف ينصبَّ في النفوس؟ ثم دعاه إلى تبليغ المشرقين غياب الرئيس، مع نعيه للنِّيرات لتلبس عليه ثوب الحداد؛ ثم توجع لغياب سعد عن الحفل فقال:
أين سعدٌ فذاك أول حفل ... غاب عن صدره وعاف الخطايا
لم يعوِّد جنودَهُ يوم خطب ... أن ينادَى فلا يردّ الجوابا
علّ أمراً قد عاقهُ، علّ سقما ... قد عراه، لقد أطال الغيابا
أيْ جنود الرئيس نادوا جهاراً ... فإذا لم يُجب فشقُّوا الثيابا
ثم وازن بين بلية فلسطين بالزلزال وبلية مصر بموت سعد. فقال:
قل لمن بات في فلسطين يبكي ... إن زلزالنا أجلَّ مصابا
قد دُهيتم في دوركم ودُهينا ... في نفوس أبين إلا احتسابا
ففقدتم على الحوادث جَفناً ... وفقدنا المهنَّد القرضابا
سلّهُ ربُّهُ زماناً فأبْلى ... ثم ناداه ربهُ فأجابا
قدرٌ شاء أن يزلزل مصراً ... فتغالى فزلزل الألبابا
وجعل حمل النعش على المدافع دليلاً على أنه أضخم من أن تحمله الرقاب:
خرجتْ أمةٌ تشيِّع نعشاً ... قد حوَى أمة وبحراً عُبابا
حملوه على المدافع لما ... أعجزَ الهامَ حمله والرقابا
وأتخذ تعزية (التَّيمس) شاهداً على عظمة سعد فقال:
ساقت التيمس العزاء إلينا ... وتوخّت في مدحك الإسهابا
لم يَنُح جازعٌ عليك كما نا ... حتْ ولا أطنب المحبُّ وحابَى
واعتراف (التايمز) يا سعد مقيا ... سٌ لما نال نِيلنا وأصابا
وغُرة هذه القصيدة هي الأبيات التي ينص فيها حافظ إبراهيم على أن روح الثورة لن يموت بموت سعد، وأن الأمة لن تُصَدْ عن الغاية بوعد أو وعيد:
ليت سعداً أقام حتى يرانا ... كيف نُعلي على الأساس القبابا
قد كشفنا بهَديْه كل خافٍ ... وحسبنا لكل شئ حسابا
حُجَجُ المبطلين تمضي سراعاً ... مثل ما تطلِع الكؤوس الحُبابا
حين قال (انتهيت) قلنا بدأنا ... نحمل العبء وحدنا والصعابا
فاحجبوا الشمس واحبسوا الروح عنا ... وامنعونا طعامنا والشرابا
واستشِفّوا يقيننا رغم ما نلقاه هل تلمحون فيه إرتيابا
قد ملكتم فَمَ السبيل علينا ... وفتحتمْ لكل شعواء بابا
وأَتيتم بالحائمات ترَامَى ... تحمل الموت جاثماً والخرابا
وملأتم جوانب النيل وعداً ... ووعيداً ورحمةً وعذابا
هل ظفرتم منا بقلبٍ أبّي ... أو رأيتم منا إليكم مَثابا
لا تقولوا (خلا العرين) ففيه ... ألف ليث إذا العرين أهابا
فاجمعوا كيدكم وروموا حِماهُ ... إن عند العرين أسداً غضابا
فهذه الأبيات هي خير ما في قصيدة حافظ، وقد خلت من معانيها قصيدة شوقي، وكان حافظ كثير الالتفات إلى المعاني التي ألف الزأر بها قبل عهد الاستقلال
ثم تحدث عن أخلاق سعد فقال:
تقتلُ الدسّ بالصراحة قتلاً ... وتُسِّقى منافق القوم صابا
وترى الصدق والصراحة دِيناً ... لا يراه المخالفون صوابا

تعشق الجوْ صافيَ اللون صحواً ... والمضّلون يعشقون الضبابا
أنت أوردتنا من الماء عذباً ... وأراهم قد أوردونا السرابا
وعطف على أيامه مع سعد في (بساتين بركات) فقال:
نمْ هنيئاً فقد سهرت طويلاً ... وسئمت السقام والأوصابا
كم شكوتَ السهاد لي يوم كنا ... في (البساتين) نستعيد الشبابا
ننهب اللهو غافلين وكنا ... نحسب الدهر قد أناب وتابا
فإذا الرزء كان منا بمرحىً ... وإذا حائم الردى كان قابا
أما بعد فهذه ملامح من قصيدة شوقي وقصيدة حافظ في تأبين سعد، وسنتكلم في المقال المقبل عن قصائد العقاد والجارم ومطران والله وليُّ التوفيق
زكي مبارك
نظرات في التربية
اللعب وأثره في حياة الطفل
للأستاذ رفعة الحنبلي
لكل إنسان في هذه الحياة أهداف يرمي إليها، لكنهم قلما يشتركون في هذه الأهداف؛ إلا أن هنالك غاية واحدة يشترك البشر كلهم فيها. هذه الغاية هي السعادة.
إن هذه الغاية التي عرفها علماء النفس (بعامل اللذة) تكيف أعمال الإنسان، وتتحكم في تصرفاته، وتدفعه إلى سلوك السبل التي توصله إليها فتمهد له حياة مرحة وعيشة رخية
وفي الواقع أن هذه اللذة قد تختلف باختلاف البيئة والوسط وقد تتباين بتباين الجنس والعمر، فاللذة التي تنساق إليها الفتاة أو المرأة هي غير اللذة التي يتجه إليها الفتى أو الرجل، كما أن لذة الأطفال هي غير لذة المراهق والشيخ
بيد أن البيئة والوسط لهما أثرهما في توجيه هذه اللذة وتكييفها حسب النظم الاجتماعية والقوانين الأخلاقية، والطرق التربوية التي يعيش الفرد في كنفها ويتفيأ ظلها؛ ولذة الطفل تتمركز في لعبه المختلفة الأنواع، فهي أولى رغائبه، وقبلة أنظاره، ومحط آماله، وهدف أحلامه
والتربية الحديثة تقوم على تهيئة الوليد للمستقبل، أي أنها تؤهله للحياة، والتأهل للحياة إنما يكون في الاهتمام بميوله، ومعرفة غريزته، وتعهد حاجاته في دور طفولته الذي هو وقت نموه وتقدمه، لذا كان من أقدس الواجبات على المرء أن يهتم بهذه المرحلة من حياة الوليد، وما تفتقر إليه من عناية
وما العناية إلا تهيئة أجواء من الحياة، تسمح للوليد بالنمو الطبيعي في الجسم والعقل والخلق، ولا يتوقف هذا النمو على ما يكتنفه من العوامل التربوية والاجتماعية، وما يحف به من العناصر التهذيبية والأخلاقية وحسب، بل يتوقف على ترك قوى الأطفال وغرائزهم وميولهم في جو حر طليق لا يقيده نظام ولا تحده إرادة؛ والطبيعة هي الجو الطليق للطفل، توجب عليه أن يعيش عيشة الأطفال، وتلزمه أن يحيا حياتهم، وتحمله على أن يلعب لعبهم، من تلقاء نفسه، وبكامل حريته، كما تتطلب مصلحته، وتقتضي غريزته
فالطفولة هي أهم الأدوار التي يمر بها الإنسان إذ تكون طبيعة الوليد سريعة الانفعال شديدة
التأثر بما يعرض في دائرة حسه، والتي يتأهب عقل الطفل فيها لقبول المؤثرات التي تمتزج في مزاجه الرخص، فتبعث فيه صفات تختلف قوة وضعفاً تبعاً لتلك المؤثرات
إن العوامل التي لها الأثر العميق في تربية الوليد وتهذيبه كثيرة، والعناصر التي لها النصيب الأوفر في تنشئته تنشئة تتلاءم مع غاية الحياة وفيرة؛ على أن اللعب هو أهم تلك العوامل والعناصر في حياته، فاللعب إنما هو استعداد للحياة كما يقول العلامة (كروس). وقد ذهب المربي الكبير (فرويل) - وهو أول من أبتكر روضات الأطفال - إلى أبعد مما ذهب إليه زميله فهو يقول: (من خطل الرأي وعقم الفكر، أن ننظر إلى اللعب كشيء لا وزن له ولا قيمة؛ ولكن من حسن الرأي وبعد النظر، أن ننظر إلى اللعب كعامل له حيويته ومؤثراته وغايته. إن لعب الأطفال لأشبه بالبراعم لحياة الإنسان، فإن كانت هادئة أو مضطربة، ونشيطة أو خاملة، خصبة أو مالحة، مفعمة بالسعادة أو مغمورة بالألم، وتحمل رمز السلام أو صدى الحرب، كل هذه تتصل اتصالاً

وثيقاً باللعب التي تغمر الطفل مدة طفولته)
ولابد لنا من أن نعرض نظريات اللعب المتعددة التي أختلف علماء النفس في أمرها وتفاوتت بحوثهم فيها، ليقف الإنسان على عواملها ودوافعها
ذهب بعضهم إلى أن اللعب ليس إلا ظاهرة من ظواهر الراحة، أو بعبارة أخرى ليس اللعب إلا فترة من الوقت يأخذ الجسم فيها قسطه من الراحة، والفكر حظه من الهدوء؛ ولا يسع المرء إلا أن يتساءل لماذا يطيب اللعب للإنسان، بعد أن يكون تعباً منهوك القوى، متوتر الأعصاب، اكثر مما تطيب له الراحة؟ ألا نشاهد الأطفال يرغبون في اللعب ويلتمسون فور نهوضهم من فراشهم؟ والحيوان ألا تراه يلعب من الصباح حتى المساء دون أن يقوم بعمل ما؟
وراح يزعم البعض وعلى رأسهم (شيلر) - وناصره بعد ذلك الفيلسوف الإنجليزي الكبير (سبنسر) - أن اللعب يمثل فيضان القوة الزائدة في الطفل؛ ويعلل ذلك أن القوى الحيوية تزداد عنده ازدياداً كبيراً في وقت لا يمكنه أن يصرفها إلى أي عمل ذي أهمية، فتتكتل هذه القوى، وتنساب إلى الشعب التي تكونت - فيما مضى من الأيام - في الجهاز العصبي، فتحدث في الطفل فيضاناً يدفعه إلى اللعب.
ولا ريب أن تكتل هذه القوى الفياضة بدفع الطفل إلى اللعب، ويساعده على التبسط به، ولكننا نجد أحياناً بعضاً من الأولاد - على الرغم من التعب الذي يستولي عليهم من جراء أعمالهم - لا يزالون يلعبون لعبهم حتى إلى وقت إغفائهم! وقد نشاهد أيضاً أن بعض المرضى من الأولاد، يفزعون إلى ألاعيبهم، يلعبن بها ويعبثون، قبل إبلالهم من مرضهم وحتى قبل استكمالهم قواهم ونشاطهم!
ويرد (ستانلي هول) أسباب اللعب إلى عوامل وراثية بعيدة خلفتها الأجيال الماضية. فيقول: إن اللعب ليس الأقوى بدائية للأنسال السالفة ورثها الطفل وأحتفظ بها. وهذا الرأي يطابق ما ذهب إليه (هيكل) من أن الطفل يمثل في لعبه ما مر على الإنسان من الأدوار في نشوئه
وما اللعب في نظر (هول) إلا عبارة عن ارتياض ضروري لإخفاء بعض الوظائف التي أصبحت عديمة الفائدة؛ فالهدف الذي أراده من نظريته هذه هو أن اللعب ليس وسيلة للقضاء على هذه الوظائف وتكييفها وإعدادها لقبول حياة جديدة
على إن أهم تلك النظريات التي فازت بإعجاب قسم كبير من علماء النفس هي نظرية (التدريب الإعدادي) ? وأول من فكر فيه وتعمق في دراستها العالم الكبير عام 1896 في كتابه (ألعاب الحيوان)
أراد هذا العالم أن يتجه في درس اللعب إلى ناحية جديدة - بعد أن لمس عقم نظريات زملائه - فولى وجهه شطر الناحية البيولوجية من بحثه ليقف على دقائقها وليعرف كنه أسرارها. ولقد وفق (كروس) في نظريته هذه توفيقاً كبيراً، حتى أنه أدرك القوى العقلية وتفهم اضطراباتها، لا عند الإنسان فحسب، بل عند الحيوان أيضاً
ولو أردنا أن نبحث، على ضوء هذه النظرية القوى الفعالة للعب، لوجدناه يختلف جد الاختلاف في جماعة الإنسان، ويتباين بتباين أنواع الحيوان. فالهرة الصغيرة تقبع في ركن من أركان الحجرة، منبسطة اليدين، مغمضة العينين، مرهفة السمع، حتى إذا ما اهتزت أمامها ورقة ما أو سحبت من أمامها، تراها قفزت عليها قفزة سريعة، وداعبتها بيديها فترة من الزمن، ثم مزقتها بأنيابها، فكأنها بعملها هذا تستعد للحياة وتهيئ نفسها للقفز على فريستها في المستقبل. والجدي الذي يمارس النطاح منذ صغره يعد نفسه للحياة التي عرفت
عنه، فلكل حيوان غريزة خاصة به، أتته عن طريق الوراثة البعيدة أو القريبة من الفصيلة التي ينتسب إليها، فتظهر هذه الغريزة واضحة جلية - وان كانت في بدئها ضعيفة إلى حد ما - منذ النشأة الأولى
وقد تتفاوت مدة نمو هذه الغرائز في الحيوان بتفاوت درجته في سلم الحياة، فالحيوانات الدنيا تحتاج إلى مدة أكثر مما تحتاجه الحيوانات العليا، لاستكمال نمو غرائزها واستيفاء قوتها؛ وقلما نجد غريزة في حيوان آخر، فالهرة تقفز على الورقة إذا ما اهتزت أو تحركت، ولكنه يتأهب للنطاح حالاً إذا وجد أمامه جدياً آخر؛ فالهرة تجهل النطاح، كما أن الجدي يجهل القفز، لأن لكل منهما غريزته الخاصة به
كذلك نرى للإنسان غرائز بقدر ما لديه من أنواع اللعب: فغريزة للصيد، وثانية للقتال،

وأخرى للمداعبة وغيرها. . . على أن هذه الغرائز الموروثة لا يكتمل نموها ولا تستوفي حيويها إلا باكتساب واقتباس جديدين؛ ولن يفوز الإنسان بهذين العنصرين الهامين إلا بعد ممارسة اللعب الذي من شأنه أن يعد المرء للحياة الصحيحة. لذا وجب على الإنسان - وهو أكثر الحيوان طفولة - أن يلعب، ويلعب كثيراً سنين عديدة، كي يمسي فيها بعد إنساناً جديراً بالحياة؛ إذ أن اللعب، في الواقع، يروض بعض قواه الفعالة، ويروض معها بعض وظائف أعضائه، ويسمو هذا الترويض بالإنسان إلى ما يصبو إليه من أهداف سامية وغايات نبيلة

هذه هي أهم تلك النظريات التي أشبعها علماء النفس درساً وبحثاً، ولا بد لنا من الرجوع إلى البحث عن أثر الألعاب في حياة الإنسان بعد أن أتينا على ذكر عواملها المتعددة

والواقع أن اللعب لا يعني الراحة ولا التسلية؛ وإنما هو عمل حيوي للإنسان، له الأثر الأكبر في حياته، كما أن له خصائص بيولوجية، تسهل على المرء سبل التقدم، وتمهد له طريق الحياة

فالرغبة في اللعب إنما تنبثق من الغريزة الكامنة فيه، فيختار من الألعاب ما يتفق وميوله ورغباته وتساعده على بلوغ هدفه. على إن هذه الرغائب وهذه الميول تتنوع بتنوع العوامل الاجتماعية والخصائص الفردية، إذ تعبر عما يختلج في نفسه من هذه الخصائص وتفصح عن نفسيته بأجلى مظاهرها

وأخذت التربية الحديثة تواجه هذه الميول وتتعهد هذه الخصائص، فتوجهها إلى النواحي الاجتماعية والأعمال الإنسانية التي قد يقوم بها المرء في المستقبل

يقول (فرويل): (ليس للمشرف على الوليد إلا أن يوجه تصرفاته، منذ نعومة أظفاره، في الوقت الذي يرتع ويلعب بين ألاعيبه الكثيرة، إلى معرفة خصائصها، وأن يظهر له أثرها في نفسيته وخلقه) وهي إلى ذلك تمتاز بأنها العامل الأقوى في نموه العقلي والجسدي

فالأبحاث التي قام بها العلامة الفرنسي أكدت لنا أن هنالك اتصالاً وثيقاً بين النمو الجسدي والنمو العقلي، أو بالأحرى بين صحة الجسم ونزوة العقل ووثبة الفكر. لذلك نرى أن الألعاب التي يتهالك عليها الطفل، في بدء حياته، والتي يختلف إليها بين آونة وأخرى تساعده على هذا النمو الذي أشار إليه (بينه) والذي يلازمه طول حياته الأولى؛ فالاعتناء بالألعاب هو وسيلة لتحسين العقل والجسم معاً

يحتاج الوليد، في الواقع، إلى كثير من اللعب، فالقوانين المدرسية التي تحتم عليه الصمت والجمود، لا تتلاءم مع حياته، وما يتطلبه من حرية، وما ينشده من استقلال. لذلك أدرك (فرويل) أن المعهد ليس هو البيئة الخاصة التي تلائم الوليد، لأنها تقيد حريته وتفقده حيوية وتخمد نشاطه. وهذا ما حداه إلى إنشاء روضات الأطفال يلعبون ويغنون ويرقصون في جو حر طليق يتعهدهم كما يتعهد البستاني نبات روضته

فالنظم المدرسية الحديثة حتمت على المربين تعهد الأطفال تعهداً كلياً، وإغراءهم على اللعب بالألاعيب وبشتى الوسائل، وترغيبهم فيها بمختلف العوامل، مما حداهم إلى وضع مقادير وفيرة من الألاعيب الجميلة بين أيديهم، يختلفون إليها برغبة وشوق، ويتصرفون بها بحرية تامة. والطفل لن يكون طفلاً إذا لم يفزع بين حين وآخر إلى اللعب لأن طبيعته تقتضي ذلك

وقد يثير منظر هذه الألعاب فضول الطفل، فيدفعه إلى تفهم أسرارها والوقوف على دقائقها، وما يحيط بها من إبهام وغموض، فيتفتح عقله على آفاق جديدة، وتنكشف نفسه على أجواء ظريفة، ويتقوى جسمه وتتصلب أعضائه، فينعم بالعقل النير، ويتمتع بالجسم القوي، ويتزود بالمعرفة الواسعة

لذا وجب على المربي أن يُذْكي غريزة اللعب في نفس الولد، ويستحث رغباته، ويلهب فضوله للاستقراء عن خصائص هذه اللعب والوقوف على ماهيتها، لأن هذا الاستقراء هو في الواقع من أهم العوامل التي لها الأثر الأكبر في إيقاظ القوى الفكرية فيه، ورفع مستواه الأدبي والعقلي والخلقي؛ بل يجب على المربي ألا يهمل رغبات الطفل - التي هي خلجات نفسية وقتية - وألا يتجاهل فضوله الذي يرتبط إلى حد ما بالبيئة والوسط والعمر. فالإهمال يورثه قلة المعرفة، والتجاهل يخمد فيه الدافع النفسي للعمل الذي من شأنه أن يرسم لنا خطوط نفسيته ويبين ما يجول في خاطره

هذا إلى أن التربية الجسمية والخلقية والعقلية تتصل اتصالاً مباشراً بالألعاب التي يتسلى بها الأطفال؛ وقد تختلف هذه الألعاب باختلاف حداثتهم، وقد تتباين بتباين عواملها، إلا أن الهدف الأسمى والغاية المثلى منها هي تربية الوليد تربية سامية صحيحة.

فاللعب يرمي إلى إنماء الجسم وتقوية البدن، وإلى غرس الفضيلة في النفس، وتزويد العقل بشتى المعارف والعلوم، فصفاء القلب، وجمال الأدب، وطيب الخلق، وإظهار التعاطف، وإبراز العادات الحسنة، وتقوية الميول الاجتماعية، وجميل المعاملة، وحسن المعاشرة، وحب الإنسانية، إنما تكتسب عن طريق الألعاب

ولما كان الوليد يميل بطبيعته إلى العمل ويندفع بغريزته إليه - واللعب أول مظهر من مظاهر العمل - كان الهدف التربية الحديثة أن تصاغ أعمال التربية الأولى في صور الألاعيب، معدة لتصريف غرائز الطفل وتوجيه ميوله ورغائبه توجيهاًيعود عليه بالنفع في مستقبل حياته، فاللعب إذاً هو بمثابة وسيلة هامة لتكوين الطفل تكويناً أدبياً.

فليست (الحركات والألاعيب التي يأتيها الطفل، يقصد إشباع الرغبات، وسد أطماع النفوس وحسب، ولكنها مختارة لغايات تهذيبية وأخلاقية وأدبية).

ولما كانت التربية تبتدئ عملها منذ الدقيقة الأولى التي يبصر الطفل فيها النور، والتي تتمشى جنباً إلى جنب مع الطفولة، وتستمر معه طوال حياته، وجب أن تعاون التربية الطبيعة على الوصول به إلى الغاية المقدرة له، ويتوقف نجاح نشأة الطفل على قوة بدء التربية. لذا كانت العناية بالتربية الأولى في دور الطفولة التي هي أهم أدوار الحياة، تفوق كل عناية، وهذا ما عناه في قوله: إن التربية تبتدي منذ المهد

وماذا يراد بالتربية الأولى؟. . . أليست هي التي ترمي إلى (إنماء قوى الأطفال الجسمية،

وتمرين حواسهم وإيقاظ مداركهم، وحملهم على تعرف مظاهر الطبيعة حولهم، ووقفهم على أسرار الاجتماع، والتعاون على الأعمال، وتوجيه نفوسهم إلى النافع في الحياة؟)

أليست هي التي ترمي إلى إنماء الجسم وإيقاظ العقل وإحياء القلب؟ أليست هي التي تحتم جعل أساليب التعليم سائغة شائقة، تبعث في نفس الوليد الغبطة، وتنفخ فيه أسباب المرح، وتملأ قلبه بهجة وسعادة؟. . .

ليس اللعب في نظر المربين إلا وسيلة للتربية الأولى التي شأنها أن تؤدب النفس، وتهذب الخلق، وتقوم الطباع، وتوجه الغرائز. وما اللعب إلا العامل الأقوى في تهيئة تلك الأجواء التي تتطلبها التربية، وتلك الآفاق التي ترغب في إحاطة الوليد بها؛ فاللعب من أهم الأحداث في حياته - إن لم يكن أهمها - لأن من خصائصها التهذيب والتأديب والتثقيف، فضلاً عن تفتح النفس لألوان من المعرفة، وانفساحها لصنوف المؤثرات والأحاسيس، وتهيؤها للحياة المقبلة

وهو إلى ذلك - أي اللعب - يمثل دوراً اجتماعياً من الطراز الأول في الهيئة الاجتماعية.

وإذا ما رجعنا إلى رأي العالم، كار نجده يقول: إن الألعاب لها الأثر الكبير في إنماء شعور التكتل عند الفرد، وهذا التكتل له الشأن الخطير في حياة الإنسان وفي رفع المجتمع البشري. وقد ذهب هذا العالم الكبير إلى أبعد من هذا الحد، فزعم أن كثيراً من الألعاب تساعد المرء على التخلص من بعض الغرائز الموروثة غير الاجتماعية والتي يتضرر المرء منها، إن هي بقيت متأصلة فيه

غير أن هذا التخلص لا يراد به سوى التسامي بهذه الغرائز وتوجيهها توجيهاً سامياً، فالانفعالات في الوليد أوجدوا لها علاجاً اجتماعياً أطلقوا عليه (التسلية النفسية) التي تتسامى بغرائزه غير الاجتماعية، وقت انفعالها إلى النواحي الاجتماعية كتربية الحيوان وتعهد الأزهار وغيرها

وقد تأثر العلم قديماً ولم يزل يتأثر حتى الآن، بالألعاب التي يتلهى بها الإنسان، وبفضل هذه الألعاب اكتشفت أول خصائص الكهرباء، وظهرت الدراجة، وحلت بعض المعضلات وتمتع العالم بشتى الاختراعات ومختلف الاكتشافات

إن الألعاب التي يلعبها المرء والملاهي التي يلهو بها هي عوامل لها الأثر في ترقيته وتكوين خلقه وميوله وتحديد وجهة نظره في الحياة، فهي عوامل في تربيته يؤثر فيه أثراً مستمراً، فتشكل أخلاقه وعقله من يوم يحل في هذا العالم إلى يوم يغادره) فهي

وسيلة لتأديب نفسه وتهذيب خلقه وتنمية ذوقه
وإذا ما غمرنا الطفل بالألعاب الكثيرة ووسائل اللهو فكأننا غمرناه في بيئة هي أسبقها إلى التربية الحقة، وأدناها غاية منالبيئات الأخرى.
(بيروت)
رفعة الحنبل
كليلة ودمنة
نقد وتعليق
للأستاذ عبد السلام محمد هارون
أفرغت فيه حكم الدنيا ومواعظ الأجيال، وكان (كتاب دهريّ الصَّنعة، متقادم الميلاد) !!عجباً عاجباً وأدباً خالداً
وكان اختيار مطبعة المعارف لهذا السِّفر الجليل أن يكون تذكاراً لعيدها الخمسيني - اختياراً موفَّقاً كل التوفيق، فبرهنت بذلك أنها تحسن هذا الأمر وتجيده
وأما الرجل الذي وكِلَ إليه الاضطلاع بعبء نشر الكتاب وتحقيق مواضع الشُّبه فيه والحكم عليها، فرجل هَدَّكَ مِنْ رجل! فالدكتور عبد الوهاب عزام قطب من أقطاب الثقافة العربية كما هو من الثقافة الفارسية. فكان بذلك خير من يتصدّى لمثل (كلية ودمنة)، لينشره على الناس في هذا الثوب الرائع الفائق، وليجهد نفسه فيه هذا الإجهاد المثمر الطيب
وإني لأبادر فأهنئ الأستاذ عزام تهنئة صادقة، لِمَا أحيا (كلية ودمنة) على نحو يغتبط له ابن المقفع في مثواه، ويغتبط له أيضاً ذلك الجندي المجهول الذي صنع للناس هذا الكتاب في أصله الهندي، ثم تركه يسير في الدنيا كريماً عزيزاً، تتهاداه اللغات، وتتنازعه اللهجات، ويغتبط له كذلك أنصار الأدب العربي في المشرقين والمغربين
كما أزجي تهنئتي إلى رجال مطبعة المعارف، ومنوِّهاً بهذا الفن العجيب الذي أبرز الكتاب تحفة تاريخية ناطقة. وان كان للنشر أدب خاص، فهذا الكتاب منه قطعة أدبية عالية؛ وإن للألواح الثلاثة عشر التي رسمها المصور (رومان ستريكالفسكي) لأثراً كبيراً في إحداث هذا الجو الفني البهيج
وقد صنع الأستاذ عزام لهذا الكتاب مقدمة بلغت من النفاسة مبلغاً، وحوت من الفوائد الكثير؛ فهو قد عرض لتاريخ الكتاب، وبين أن النسخة العربية (أصل لكل ما في اللغات الأخرى، حاشا الترجمة السريانية الأولى، فقد فُقِد الأصل الفهلوي الذي أخذت عنه الترجمة العربية، وفُقد بعض الأصل الهندي الذي أخذت عنه الترجمة الفهلوية واضطرت بعضه، فصارت النسخة العربية أمَّا يرجع إليها من يريد إحداث ترجمة أو تصحيح ترجمة قديمة، بل يرجع إليها من يريد جمع الأصل الهندي وتصحيحه)
ثم تحدَّث عن طبعات الكتاب، فذكر:
1 - طبعة المستشرق دي ساسي الذي كانت طبعته أصلاً من أصول الطبعات المصرية الكثيرة؛ وهي نسخة ملفقة من عدة نسخ
2 - ثم طبعتي اليازجي وطبارة، وهما ملفقتان من طبعة دي ساسي ومخطوطات ومصورات أخرى
3 - ثم طبعة شيخو، وهي أول طبعة في اللغة العربية تقدم للقراء نصَّاً كاملاً غير ملفق من كتاب (كليلة ودمنة) وأصلها مخطوط سنة 739هـ؛ وقد طبعه شيخو كما هو لم يصحح أغلاطه ولم يوضح غامضه، ليكون أمام المستشرقين صالحاً للمقارنة والنقد
ثم تحدث عن النسخة التي نقلت عنها الطبعة الحديثة، وهي في مكتبة أيا صوفيا باسطنبول كتبت سنة 618هـ، فهي أقدم من كل المخطوطات التي وصفها المستشرقون، وأقدم من نسخة شيخو المكتوبة سنة 739
وهذه النسخة مفعمة بالتحريف والتصحيف والإسقاط وخطأ الرسم؛ وتستطيع أن تعد في النموذج المصور من الصفحة الأولى فقط نحو اثني عشر تحريفاً وتصحيفاً
وهذا يدل على مقدار الجهد الهائل الذي بذله الأستاذ عزام في تحقيق هذه النسخة وتقريبها إلى السلامة
ونحن في هذا الصدد نأخذ على الأستاذ أنه لم يتوخ في هذه الناحية ما يقتضيه النشر العلمي من إثبات الأصل والتنبيه عليه؛ فقد يكون للقارئ وجه في التصحيح غير الذي ارتضى. نعم، إن الأستاذ قد أثبت بعض كلمات الأصل في التعليقات التي ألحقها

بالكتاب، لكنها من القلة بحيث لا تغني شيئاً في معرفة أصل الكتاب والوقوف عليه وأمامنا جهود المستشرقين ناطقة بمدى تقديرهم لهذه الناحية التاريخية الفنية، فلا تكاد تجد كتاباً نشروه إلا وقد أثبتوا أصله أو أصوله إن كان ذا نسخ مختلفة وكتاب مثل كتابنا هذا، لَبسَ من جلال التاريخ ما لَبس، جدير بما ذكرت من وجوب بيان أصله للرجوع إليه، ووجوب مقارنة نسخه بعضها ببعض

ولغة أبن المقفع في (كليلة ودمنة) لغة عالية، تعلو على المتأدب والأديب أيضاً، فهي محتاجة إلى توضيح وتقييد وبيان. فكان من المستحسن أن يصنع الأستاذ لها شرحاً أو معجماً يلحقه بنهاية الكتاب، كما فعل من قبلُ الخوري نعمة الله الأسمر، حينما نشر ترجمة ابن الهبارية لكليلة ودمنة، مع أن لغة هذا النظم في مستوَى ترجمة ابن المقفع على أن الأستاذ قد أحسن صنعاً بما حقق من الأعلام الفارسية والهندية، مما يشهد له بتمام البراعة في ذلك

قرأت نسخة الأستاذ عزام، ونعمت - كما نعم غيري - بما فيها من دقة وجمال، فطالعني فيها خير كثير ومقدرة فنية عظيمة، كما ظهرت لي بعض هنات أحببت أن أنبه عليها، وبدا لي بعض الرأي في عبارات الكتاب، فآثرت أن أنشره راجياً أن يباعدني العَنتُ، ويفارقني التكلف، وأن يسعفني في ذلك الحق

في الضبط اللغوي - 1

ص 36س 6: (كالعظم المتعرِّق) بكسر الراء، صوابه: (المتعرَّق) بفتح الراء - 1 المشددة. يقال عرق العظم يعرقه عرقاً، وتعرقه، واعترقه: أكل ما عليه من اللحم

ولكن النفس الواحدة يفتدي بها أهلُ البيت، وأهل البيت تفتدِي بهم) :6، 5 :81 - 2 الوجه: (يُفتَدَى) و (تفتَدَى) بالبناء للمجهول فيهما. .(القبيلة، والقبيلة يفتدي بها المصر فأهل البيت، وكذا القبيلة والمصر لا يفعلِون الافتداء، وإنما يفعل بهم ذلك غيرهم فهم مفتَدون. ومن ذلك ما قال كعب بن سعد الغنوي:

فلو كان حيٌّ يُفتَدى لفديتُه ... بما لم تكن عنه النفوس تطيب

ولا يقال (اغتر إليه) بل (اغتر به). على أن جو العبارة يؤذن ،(ولا تغتر إليه) :6 :87 - 3 بأن صحتها: (ولا تقترب إليه) فليس فيما سبقها من الكلام ما يشعر بأن (شنزبة) قد يتعرض للاغترار أو يقع فيه

وهذه عبارة غير صحيحة. والصواب: (في .(وندفن بقيتها مكاناً حريزاً) :12 :91 - 4 مكان حريز) فإن الفعل (دفن) لا يتعدى إلى ثانٍ إلا بالحرف (في). وليس هذا أيضاً من المواضع التي يكون فيها لفظ (مكان) ظرفاً من الظروف المكانية؛ فإناسم المكان الصالح للظرفية إما أن يشتق من حدث بمعنى الاستقرار والكون في مكان، أولاً. والثاني لا ينتصب على الظرفية إلا بالفعل الذي ينتصب به على الظرفية المختص من المكان كدخلت ونزلت وسكنت. وذلك نحو المضرب والمقتل والمأكل والمشرب والأول (ومنه لفظ مكان) إنما ينصبه على الظرفية أمران: أحدهما الفعل المشتق مما اشتق منه اسم المكان نحو قمت مقامه، وجلست مجلسه، وأويت مأواهُ؛ وثانيهما كل ما فيه معنى الاستقرار وإن لم يشتق مما اشتق منه، نحو قعدت موضعك، ومكان زيد، وجلست منزلَ فلان، ونمت مبيته، وأقمت مشتاه. وما ليس فيه معنى الاستقرار لا ينصبه، فلا يقال كتبت الكتاب مكانك وقتلته مكان القراءة، وشتمتك منزل فلان وليس (الدفن) من الاستقرار في شئ، فلا ينصب لفظ (المكان) على الظرفية المكانية

وقد جاء في نسخة بولاق ص49: (وندفن الباقي في أصل هذه الشجرة، فهو مكان حريز)

البلاء هنا بمعنى الإنعام. وفي ترجمة ابن (وبلاء يضيَّع عند من لا شكر له) 13 :95 - 5 الهبّارية ص95:

ما أضيع النعمة عند الكافر ... وأقبح الخّلة عند الهاجر

وبين اللغويين خلاف في أن يكن البلاء بمعنى الإنعام؛ فقال بعضهم: (الإبلاء: الإنعام. والبلاء: الأشقاء والإتعاس).

أما الإبلاء بمعنى الإنعام فلا خلاف فيه. ومنه قول زهير

رأى الَّله بالإحسان ما فعلا بكم ... فأبلاهما خير البلاء الذي يبلو

أي صنع بهما خير الصنيع. والحق أن الإنعام إنما هو الإبلاء لا البلاء. ومنه الحديث: (من

أُبلي فذكر فقد شكر) وحديث كعب بن مالك: (ما علمت أحداً أبلاه الله خيراً مما أبلاني)

وقد احتج من زعم أن (البلاء) يكون أيضاً بمعنى الإنعام بقوله تعالى: (وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين) وقوله: (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) ورُدّ عليه بأن البلاء في الآية الأولى بمعنى الاختبار لا الإنعام. وكذلك (بلوكم) أريد بها: (نختبركم) وجاء في نسخة بولاق ص51: (وحِباء يصطنع عند من لا شكر له). والحباء، بالكسر: العطاء بكسر الهمزة، وهذا ضبط عامي؛ والصواب: (ولكن إيش الفائدة فيها) :15 :221 - 6

(أَيْشِ) بفتح الهمزة وتنوين الشين المكسورة، واصلها: (أيِّ شئٍ؟) خفِّفت بحذف الياء الثانية من (أيِّ) وحذف همزة (شئ) بعد أن نقلت حركة الهمزة إلى الساكن قبلها، ثم أعلّت إعلال المنقوص. ونحوها في ذلك (وْيُلمِّهِ)، واصلها: (ويلٌ لأمّه)، حذفت لام (ويل) وهمزة (أُمّ).

قال المتنخل الهذلي:

ويلمه رجلاً تأتي به غبناً ... إذا تجرَّد لا خال ولا بخلُ

وقال ذو الرمّة:

ويْلمَّها روحةً والريحُ مُعصفةٌ ... والغيث مرتجزٌ والليل مقترب

وقال علقمة بن عبدة:

ويلم أيام الشباب معيشةً ... مع الكثر يُعطاه الفتى المتلف النَّدي

قال ابن السِّيد في الاقتضاب: (حذف لام ويل وهمزة أُمّ، كما قالوا أيش لك، يريدون: أي شئ؟). وقال الخفاجي في شفاء الغليل: (أيش بمعنى أي شئ خفف منه. نص عليه ابن السيد في شرح أدب الكاتب، وصرحوا بأنه سمع من العرب. وقال بعض الأئمة: جنِّبونا أيش؛ فذهب إلى أنها مولدة. وقول الشريف في حواشي الرضى أنها كلمة مستقلة بمعنى أي شئ وليست مخففة منها، ليس بشيء. ووقع في شعر قديم أنشدوه في السير:

(من آل قحطان وآل أيش)

قال السهيلي في تفسيره: (وأما آل أيش فيحتمل أن تكون قبيلة من الجن المؤمنين ينتسبون إلى أيش. فإن يكن هذا وإلا فله معنى في المدح غريب. تقول فلان أيش هو وابن أيش! ومعناه: أي شئ عظيم؛ فكأنه أراد من آل قحطان ومن المهاجرين الذين يقال فيهم مثل هذا، كما تقول: هم وما هم! وزيد وما زيد، وأي شئ زيد! وأيش في معنى أي شئ كما يقال ويلمه في معنى ويل أمه، على الحذف وكثرة الاستعمال. وهذا كما قال هو: في جيش وأي جيش!)

(له بقية)

عبد السلام محمد هارون

الحروب الصليبية

للأستاذ ر. التميمي

(تتمة ما نشر في العدد الماضي)

تطورات الحركة الصليبية

لقد كانت الغاية الأولى من اشتهار الحرب الصليبية امتلاك الأرض المقدسة وجعلها خاضعة لحكم مسيحي؛ فلما ظهر قواد كبار في الشرق الإسلامي أمثال: نور الدين وصلاح الدين، ورأوا مملكة اللاتين لم تنشأ في الشرق إلا بسبب تخاذل المسلمين وتفرقهم، أخذوا يستعدون لمطاردتهم والقضاء عليهم وهيأوا لذلك جيوشاً مدربة تطورت على أثرها الحركة الصليبية ودب الضعف في جنباتها وفي نفوس منظميها وقوادها.

ولقد تطرق إليها الفشل أيضاً حينما أخذ البابوات يقاتلون آل هوهن شتاوفن وينازعونهم الحكم في جنوب إيطاليا وشمالها، فتجزأت قواتهم وانصرف الجانب الأكبر من عملهم وتفكيرهم إلى إضعاف قوة مسيحية كان عليهم أن يوجهوها إلى تعزيزالفكرة الصليبية إذا أرادوا استمرارها. ويقول بعض المؤرخين إن لأطماع الجمهوريات الطليانية دخلاً كبيراً في التطورات التي طرأت على الفكرة الصليبية، إذ أن البنادقة كانوا السبب الأكبر في توجيه الحملة الرابعة إلى القسطنطينية وسائر ممتلكات البيزنطيين بدلاً من فلسطين وهم الذين كانوا يختلفون لأسباب مادية مع

تجار جنوا فيضعفون باختلافهم الجبهة المسيحية. وقد أباحوا لأنفسهم التقرب من بعض ملوك المسلمين وأمرائهم، فعقدوا مثلاً معاهدة مع الملك الكامل بينما كان العالم الغربي يستعد للحملة الصليبية الخامسة.

لقد تكرر حادث عقد المعاهدات مع المسلمين أكثر من مرة، فعقدها كل من ملوك صقلية والأراغون وجمهورية جنوا قبيل سقوط عكا النهائي في يد سلطان مصر. كل ذلك أضعف الروح الصليبية وحور اتجاهها وخفف كثيراً من حدتها.

أضف إلى كل ما تقدم النزاع الشديد الذي كان قائماً بين رهبان طائفتي الداوية والاسبتالية وانصراف كل فريق إلى الحط من كرامة الآخر واتهامه بأفظع التهم تأميناً لمنافع مادية ليس لها أية علاقة بمجد الصليب والحركة الصليبية.

ويفهم مما تقدم أن الحركة الصليبية قد باءت بالفشل التام بعد أن انتقلت القدس نهائياً إلى أيد إسلامية مع سائر البلاد الفلسطينية، ثم تلا ذلك سقوط عكا وطرابلس وإنطاكية وهي آخر الحصون اللاتينية وطرد آخر صليبي من الديار الشامية في أواخر القرن الثالث عشر. وبهذا السقوط وذلك الطرد ختم الفصل الأخير من الحركة الصليبية التي كانت ألفت لغاية نصرانية كبرى أقامت العالم الغربي وأقعدته وانتقل بسببها مئات الألوف من الفرسان والأمراء وسائر المحاربين إلى ساحات القتال في الشرق، ومنهم من قضى نحبه، وفيهم من حكم أو أصبح ذا سلطان وإمرة بعد إن كان في وطنه الفقير مفلساً لا يملك شروي نقير؛ والجانب الأكبر عاد إلى موطنه يجر ذيول الخسران وعار الهزيمة. ومجمل القول أن الحركة تطورت وباءت بالفشل حين تغيرت غايات المشرفين عليها والمنظمين لها؛ فباباوات القرن الثاني عشر الذين كانوا يتمتعون بسلطان منقطع النظير كانوا وطدوا العزم على امتلاك القدس فاستعلوا سلطانهم وسؤددهم وقذفوا بالجماهير السذج نحو الشرق حيث امتلكوا ما أرادوا. أما بابوات القرن الرابع عشر فلقد كانوا على اختلاف دائم مع ملوك ذلك العصر الذين أخذوا يشعرون بقوتهم وينكرون على السلطة الدينية تدخلها في شؤونهم الداخلية والسياسية؛ وقد بلغ بأولئك الملوك وفي مقدمتهم فيليب الرابع ملك فرنسا وإدورد الأول ملك إنكلترا أن رفضوا أوامر البابا وتغاضوا عن تهديداته؛ وكان النزاع يدور حول فرض الضرائب على رجال الدين بعد أن كانوا معفين منها؛ وكانت الكنيسة ترفض ذلك مدعية أن أرض الكنيسة موقوفة لخدمة الله فلا يصح أن يؤخذ عنها ضرائب. أما الملوك فانهم كانوا في أشد الحاجة للمال بسبب كثرة نفقاتهم؛ لذلك طمعوا في ممتلكات رجال الدين الواسعة ورغبوا في فرض ضرائب عليها؛ وفي ظروف كهذه ليس من المعقول أن يكون أمل في تجديد حملات صليبية على نمط الحملات السابقة ومع كل ما تقدم فكر بعضهم عقب سقوط القدس وسائر الإمارات اللاتينية نهائياً في أيدي المسلمين، وفي تأليف حملة صليبية جديدة، والسعي في إحلال التفاهم محل التنابذ والتحاسد بين رهبان الداوية والاسبتالية. وقد كان فكر في هذا الأمر في مجمع ليون المنعقد سنة 1245، وتقرر القيام به أيضاً في مؤتمر فينا الديني سنة 1311؛ على أن رغبته في التوفيق بين هؤلاء الرهبان لم تتحقق وانتهى الأمر بأن قضى على هيأة الداوية وصادر

ملك فرنسا فيليب الرابع أملاكها وأموالها بعد أن تقاسمها مع البابا. أما رغبة تأليف حملة صليبية جديدة فلم يلتفت إليها حينئذ سوى بطرس الأول ملك قبرص الذي كان يحكم في أواسط القرن الرابع عشر؛ فلقد أنشأ جمعية دعاها جمعية السيف وغايتها تخليص القدس، ثم أرسل وفداً إلى غربي أوربا قام بالتبشير والدعاية لتأليف حملة صليبية جديدة فلم ينجح، فأرسل بطرس أسطولاً اعتدى على شطوط سوريا ومصر وعاد للجزيرة غانماً. وحين مات بطرس هذا أوصى بوجوب متابعة الدعاية لحملة صليبية. اعتباراً من سنة 1230 ارتدت الحركة الصليبية حلة جديدة لم تعرف من قبل، فبينما كان الصليبيون حتى الآن يهاجمون كلما سنحت الظروف بلاد الإسلام في الشرق وأهمها سوريا ومصر، وانقلبوا الآن إلى مدافعين، وأضحى خصمهم الأتراك العثمانيين بدل العرب والأكراد والأتراك من سلاجقة ومماليك. . .

لقد جاء الأتراك العثمانيون إلى أوربا الشرقية سنة 1308م بعد أن أنشئوا ملكا واسعاً لهم في آسيا الصغرى في فجر القرن الرابع عشر وبنوا مجدهم وسطوتهم الحربية بجيش مدرب ومجهز أحسن تجهيز دعوه بجيش الإنكشارية (الينيشرية) وعناها الجيش

الجديد، فأخذوا يهاجمون به البيزنطيين ويتغلبون عليهم، ويدمرون لهم الحصن بعد الحصن، ويقهرون الجيش تلو الجيش، حتى باتوا على مقربة من عاصمتهم. هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى هاجموا فرسان الاسبتالية في رودس وآل لوزينيان في قبرص؛ فذعر العالم المسيحي لهذا الخطر الإسلامي الجديد، وهب البابوات ينفضون عنهم غبار الخمول والمسكنة؛ ويحاولون تجديد جبهة صليبية قوية تقف في وجه أولئك الأتراك الأقوياء، وظلوا يثابرون على حشد الجهود تلو الجهود، وأخذ الناس بالنعرة الدينية إلى أن وصلوا فعلاً إلى تأليف حملة قوية البنادقة والقبارصة وفرسان الاسبتالية وكلهم باتوا مهددين؛ فجاءوا بأسطولهم المتحد وامتلكوا مرفأ أزمير سنة 1344؛ إلا أن هذا الظفر لم يكن ليؤثر في نشاط الأتراك وتقدمهم فلقد واصلوا نجاحهم في البلقان وامتلكوا مدينة فيليبية البلغارية؛ وعلى أثر ذلك جاءت حملة صليبية واشتبكت مع جيش السلطان بايزيد الأول فانكسرت شر كسرة

وفي سنة 1439 تألفت حملة صليبية أخرى من المجريين والبولونيين تحت رياسة قائد ترانسيلواني ممتاز يدعى يوحنا هنياد وحاربت السلطان بايزيد الثاني وتغلبت عليه؛ إلا أنها لم تلبث أن غلبت على أمرها، فكانت هذه آخر حملة جردتها أوربا المسيحية على الأتراك المسلمين.

وفي سنة 1453 ملك الأتراك مدينة القسطنطينية، وبامتلاكها قضوا نهائياً على الإمبراطورية البيزنطينية. وعلى أثر ذلك قام البابا بيوس الثاني ونشر داية واسعة النطاق لحملة صليبية وقاد طائفة من المحاربين نداءه إلى مدينة أنكونا الطليانية، وكان يريد أن يزحف بها على البلقان ليقاتل الأتراك؛ إلا أن أفراد الحملة انفضوا من حوله فحزن البابا لتلك النهاية ومات متأثراً غاضباً.

وبعد ذلك لم نسمع بحملات تحمل اسم الصليبية وانتقلت مهمة منازلة الأتراك المسلمين إلى مُلوك أوربا الحديثة وإلى جيوشها المنظمة

وقبل الانتهاء من هذا الفصل لابد لنا من القول بأن الحركة الديموقراطية قد أثَّرت كثيراً في عقول الناس وفي طريقة التفكير الأوربي بالمسلمين؛ فبينما كان هم الباباوات وسائر رجال الدين ومن ورائهم الملوك والأمراء والفرسان والعامة خلالالقرون الوسطى هو القضاء التام على الديانة الإسلامية وامتلاك بلاد المسلمين أخذت الأحوال تتبدل منذ عهد اليقظة إلى أن حل القرن الثامن عشر، فظهر فيه حكماء وفلاسفة بشروا بحرية الأديان وبمبادئ التسامح والتساهل وظلوا في تبشيرهم حتى أثروا في عقول فريق ليس بقليل من الناس المثقفين، فصاروا ينظرون إلى الشرقيين لا بمنظار للتعصب الذميم والحقد الكامن بل بصفتهم أحد أركان هذه الهيأة البشرية التي ساهمت في إقامة صروح المدنية على ممر الأجيال والعصور ومبادئ التساهل هذه قد انتشرت انتشاراً واسعاً خلال القرنين التاسع عشر والعشرين فاقترب بسببها الشرقي من الغربي أكثر من قبل، ولعبت المصالح المادية الدور الأول في إقامة العلاقات الودية بين الطرفين، وصار الغربي يتودد في كثير من الأحيان إلى الشرقي دون أن ينظر إلى دينه، ويخلص في تودده؛ على أن هذا لا يمنعنا من التنبيه إلى ما يكتبه بعض المؤرخين المغرضين وهم مازالوا يحرصون كل الحرص على مبادئ التعصب والحقد التي سادت دنياهم منذ العصور الوسطى المظلمة، وقد تجد من هؤلاء من ينفث

سمومه في صحف ومجلات محترمة أوربية وأميركية وتراه يحمل حملات شعواء على العرب مثلاً ولا ذنب لهم في نظره إلا لأنهم مسلمون وهو لا يحب الإسلام ولا المسلمين، ويريد أن يرى في الحرب العالمية السابقة حرباً صليبية انتهت بظفر الصليبيين على الهلال ودخول البلاد المقدسة تحت الحكم الإنكليزي

نتائج الحروب الصليبية

من المناسب أن ننظر إلى الحركة الصليبية كجزء أو فصل من تاريخ البشرية، لا كعمل أريد به تنصير الشعوب الشرقية؛ وتأريخ هذا الفصل صعب جداً، لأنك بينما تجد بعض المؤرخين يذهبون إلى أن معظم التطورات الاجتماعية العالمية قد نشأت عن الحروب الصليبية، يقول آخرون خلاف ذلك فلا يهتمون أبداً بتلك الحروب الاهتمام الذي تستحقه على أن من الإنصاف أن نقول ونقرر بأن اضمحلال عهد الإقطاع وظهور المدن الحرة وبشائر عهد اليقظة، حتى والاكتشافات البحرية، كل أولئك يمكن إرجاعه إلى حد ما

إلى الحركة الصليبية
ففي أوائل القرن الحادي عشر كان الأشراف والفرسان أول من لبى نداء البابا، وخرج منهم عدد كبير إلى الشرق قتل أكثرهم، وأقام آخرون في الأراضي المقدسة، فقل بذلك عدد الأشراف. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن إعداد الحملات الصليبية قد اضطر هؤلاء إلى بيع أملاكهم كلها أو بعضها كما اضطرهم إلى تحرير أرقائهم مقابل مبالغ دفعوها إليهم، وقد أقام أولئك العتقاء في المدن واشتغلوا بالصناعة والتجارة , فزادت أهمية المدن وظهرت فيها طبقة جديدة هي الطبقة الوسطى المؤلفة من أولئك الذين حرروا أنفسهم بما دفعوه لسادتهم النبلاء. ولقد استطاعت هذه المدن بفضل جد أبنائها من أرباب الصناعة والتجارة أن تشتري هي أيضاً حريتها من الأشراف ذوي السيادة عليها وتكتفي بحماية الملك أو الإمبراطور
وأما بوادر النهضة واليقظة فقد ظهرت حين اتصل نصارى الغرب بمسلمي الشرق وأخذوا عنهم ما سمعوه من أغان وأحاديث واطلعوا على تاريخ البلاد الآسيوية وجغرافيتها وهي التي أيقظت العالم الغربي من سباته العميق وجمعت كلمته على عمل مشترك بعد أن كانت الفردية فيها مستحكمة العرى وكانت الفكرة القومية كلمة لا معنى لها، فكان الباريزي مثلاً
ينظر إلى ابن مرسيليا نظرة إلى الألماني الأجنبي عنه أو الإنكليزي، وذلك لأن الطرق لم تكن معبدة ووسائل التنقل نادرة صعبة، فكان الناس لا يعرفون إلا من جاورهم من السكان، فلما ضمتهم الحروب الصليبية تحت لواء واحد تعارف أبناء الأمة الواحدة وتآلفوا. ثم أيقظت هذه الحروب بين النصارى فكرة الدفاع عن مبدأ مشترك مقدس وهذا ما كان يقوم في العصور الوسطى مقام المبادئ المشتركة التي تربط جيلنا المتحضر مثل نظرية الحرية المدنية والسياسية وتقرير المصير واحترام العهود والمواثيق
ومن نتائج الحروب الصليبية قيام فريق من الملوك الأوربيين بجمع الضرائب الثابتة من رعاياهم، فقد باشر بجمعها لويس السابع ملك فرنسا فتبعه هنري الثاني ملك إنكلترا، ثم جبيت ضريبة صلاح الدين في معظم العالم الغربي سنة 1188 ولم تقتصر الضرائب هذه على الأهلين بل تناولت أيضاً رجال الكنيسة وذلك بقرار استحصله البابا أينوسن الثالث في مجمع لاتيران الديني سنة 1215 على أن تنفق تلك الضرائب على الحروب الصليبية
وحينما جاء الفرنج ساحات الحرب في الشرق لم يفكروا في تنصير المسلمين بادئ بدء، فلما مضى عليهم نحو عصر استيقظوا من غفلتهم، وكأنهم أرادوا أن يتلافوا ما فاتهم بالتبشير بالدين المسيحي ودعوة الشرقيين إلى التنصر فقاموا قومة واحدة وعلى رأسهم البابا، وأخذوا يبعثون إلى ديار الشرق وإلى قبائل التتارية مبشرين انتشروا في جميع البلاد الواقعة بين عكا والإمارات اللاتينية الشامية من جهة، وسد الصين من جهة أخرى؛ وكان النصارى مع الباباوات يعلقون آمالاً كبيرة على تنصير التتار. فلما حكم هؤلاء تيمورلنك قضى على فكرة التبشير وحمل أبناء قومه على اعتناق الديانة الإسلامية
وقد نقل الفرنج من سوريا أموراً كثيرة إلى بلادهم. فالفرسان منهم أخذوا عن العرب القوس والطبل والبيرق والرمح. وقد كانت في مبدئها عربية أخذها الفرنج عن فرسان العرب الذين كانوا يغيرون على بلادهم خلال العصرين الثامن والتاسع. ويقول سديو المؤرخ الفرنسي: (إن خلال الفروسية الأندلسية وشمائلها الرقيقة كانت مستقى أخذت منه الفروسية النصرانية الكثير من خلالها ورسومها). ويقول فياردو: (إن الفروسية وكل نظمها التي عرفت في الأمم النصرانية كانت مزدهرة عند الأندلسيين أيام الناصر والحكم والحاجب المنصور، وكانت الأندلس في ذلك العصر كعبة يقصدها فرسان النصرانية من
كل صوت بعهد سلام وحماية من الخلفاء ليعقدوا المباريات مع فرسان الإسلام. وقد بلغت الفروسية العربية أسمى درجاتها وذروة ازدهارها في مملكة غرناطة التي تفيض تاريخها بأخبار السادة والأمجاد شهامتهم ووفائهم
فالألعاب الفروسية أصلها سباق الجريد المعروف عند العرب، والمبارزة، وما يتبعها من آداب اجتماعية، مثل تقديم المساعدة للمرأة والولد والشيخ العاجز، والوفاء بالوعد،

والتجمل بمبادئ الرجولة، والمروءة، والكرم، كل أولئك أشياء معروفة عند العرب الذين كانت طبيعة بلادهم وحياتهم الاجتماعية في صحرائهم المترامية الأطراف وشدة عنايتهم بضروب الفروسية تحملهم على الاعتماد على السواعد المفتولة في بلوغ ما يصبون إليه من صفات الرجولة أكثر من اعتمادهم على شئ آخر. كما نقل الفرنج إلى بلادهم بعض المحصولات النباتية كالسمسم والمشمش والبطيخ والذرة والليمون والشمام والقطن والسكر.

هذا عدا أشياء وأمور وعادات شرقية كثيرة انتقلت إليهم عن طريق الأندلس وصقلية. كل ذلك يبرهن على مبلغ التأثير الكبير للحروب الصليبية في حياة الأمم الاجتماعية في الديار الغربية

(فلسطين)

ر. التميمي

المصريون المحدثون - 2

شمائلهم وعاداتهم

تأليف المستشرق الإنجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

مقدمة الكتاب

البلد ومناخه - العاصمة - المنازل - السكان

من المشاهد أن أكثر الخصائص لشمائل أمةٍ وعاداتها وأخلاقها، إنما يرجع إلى الخصائص الطبيعية لإقليم هذه الأمة. فخصائص الإقليم المصري تؤثر ولا شك في أحوال المصريين الأخلاقية والاجتماعية، وهي لذلك تقتضينا كلمة إيضاحية نجمل فيها الآثار العامة؛ أما الآثار الخاصة، فستتجلى في الفصول الآتية من هذا الكتاب

يجري النيل في وادي مصر العليا الشديد الضيق الكثير الريح بين صحراوين جبليتين رمليتين، حتى يجتاز سهول مصر السفلى؛ وهو في مجراه تكتنفه في كل مكان، ما خلا مواضع قليلة منه، حقول زراعية تكونت من غرينه؛ وهذه المناطق الزراعية ليست مستوية كل الاستواء لانخفاضها عند الصحراء وارتفاعها قليلاً عند النهر؛ يتخللها غابات من النخل وسلاسل من القرى، وتقطعها ترع عديدة

تصل أمطار الصيف الغزيرة التي تقع في الحبشة وما جاورها من البلاد أرض مصر حول الانتقال الصيفي؛ وعند الاعتدال الخريفي يبلغ النهر أقصى فيضانه، فيُترع النهيرات والقنوات التي تروي الحقول، ويغمر بقاعاً واسعة من الأرض الصالحة للزراعة، ثم يهبط تدريجياً حتى يعود سيرته الأولى. ويحمل النيل معه، وعلى الأخص في وقت الفيضان الغِرْين (الطمى) الذي يجرفه من البلاد الجبلية حيث ينبع، فيوزع في كل سنة هذا الغرين الوفر على الحقول المنبسطة على جانبيه، بالفيضانالطبيعي أو بالري الصناعي؛ بينما يرتفع مجراه من تراكم هذا الغِرْين بدرجة مساوية لارتفاع الحقول. ويعتمد المصريون جميعاً على نهرهم في خصب الأرض، لأن المطر ظاهرة نادرة جداً في بلادهم، ما عدا البلاد الواقعة على سواحل البحر المتوسط. ولما كانت الفصول منتظمة كل الانتظام، فان

الفلاح يمكنه أن يرتب العمل الواجب إنجازه بكل دقة. وعمل الفلاح على الجملة سهل، ولكن رفع المياه للري شاق متعب!

ومناخ مصر - في معظم السنة - ملائم للصحة إلى درجة تستحق الذكر. غير أن الأبخرة المتصاعدة من الأرض بعد الفيضان تجعل أواخر الخريف أقل ملائمة للصحة، فهي تسبب الرمد والديسنطاريا وبعض أمراض أخرى تكون أكثر شيوعاً في الخريف منها في الفصول الأخرى. وتهب فجأة رياح جنوبية حارة تدوم ثلاثة أيام في وقت الخماسين التي تدوم على وجه التقريب خمسين يوماً تبدأ في شهر أبريل وتنتهي في آخر مايو؛ وتلك الرياح يندر أن ترتفع منها الحرارة فوق 95 درجة فاهرنهايت في الوجه البحري، أو 105 درجة في الوجه القبلي؛ إلا أنها تكرُب الأنفاس وتضيق الصدور. وفي الصيف يفد الطاعون إلى مصر، ويكون أشد خطراً في مدة الخماسين. ومصر معرضة أيضاً في الربيع وفي الصيف لريح السموم وهي أشد وطأة من رياح الخماسين، ولكنها أقصر مدة، إذ يندر أن تدوم أكثر من ربع ساعة أن عشرين دقيقة؛ وهي تهب عامة من الجنوب الشرقي حاملة معها سحباً من الغبار والرمال. وتتراوح الحرارة في منتصف

الشتاء بعد الظهر في الوجه البحري بين الخمسين والستين درجة في الظل. أما في أشد الفصول فتتراوح بين التسعين والمائة درجة. ويزيد على ذلك حوالي عشر درجات في مناطق الصعيد الجنوبية. على أن حرارة الصيف مهما بلغت شدتها قلما تضايق النفس، لأن النسيم الشمالي يلطفها، ولأن المناخ شديد الجفاف. إلا أن هناك مصدراً كبيراً للضيق يسببه ذلك الجفاف، وهو كثرة الغبار. وهناك أوبئة أخرى تقلل كثيراً من الراحة التي ينعم بها المصريون وضيوفهم في هذا المناخ البهيج. ويكثر الذباب في الربيع والصيف والخريف كثرة مزعجة أثناء النهار. وأما في الليل فينتشر البعوض انتشاراً يقض المضاجع ما لم يتقه النائم بالكلة. ويملأ البق أثناء الفصل الحار كل المنازل ذات الأثاث الخشبي. ولا يمكن تجنب القمل في أي فصل، ولكن من السهل التخلص منه. أما البراغيث فتكثر في الشتاء كثرة مزعجة

ومناخ الصعيد أكثر ملائمة للصحة من الريف وإن كان أشد حرارة. وقلما ينتشر الطاعون فيما وراء القاهرة. وهو أكثر انتشاراً في مناطق المستنقعات القريبة من البحر المتوسط. وفي أثناء السنين العشر الأخيرة، قبل زيارتي الثانية لمصر، لم تحدث غير إصابات قليلة

جداً، إلا في الأقاليم السابقة الذكر؛ وهذه لم يكن الوباء فيها شديداً، لأن البلاد تحسن صرف مياهها، وأدخلت فيها نظم المحاجر الصحية لمنع دخول هذا المرض من بلاد أخرى أو لوقفه. والرمد أكثر انتشاراً في الوجه البحري منه في الأقاليم الجنوبية. وهو يحدث عامة من العرق؛ ولكن ضرره يتفاقم من الغبار ومن أسباب كثيرة أخرى. وقلما يستفحل خطر هذا المرض إذا أسرع المرضى في استعمال الدواء، ولكن كثيراً من الوطنيين لجهلهم طريقة العلاج، أو لإصرارهم على تفويض الأمر للقدر، يفقدون البصر كله أو بعضه

وكثيراً ما سألني السائلون هل في مصر معمرون؟ ومن المحقق أن قليلاً من أهل هذا البلد مَن يبلغ السن العالية؛ ولكن من النادر أن يبلغ المرء هذه السن في بلدنا دون أن يصاب مراراً بمرض مميت لولا عناية الطب التي لا ينالها إلا النزر القليل في مصر. وحرارة الصيف تنهك الجسم ولكنها تدفع المصريين إلى الإفراط في الملذات الشهوانية. وخصوبة الأرض تولد الكسل، فيكتفي المصري بالقوت القليل، وهذه الكفاية يحصل عليها بأدنى سعي وأقل مشقة

والعاصمة المصرية الحديثة التي يشغل الحديث عن سكانها أكثر صفحات هذا الكتاب، تسمى الآن (مَصر) أو باللفظ الأفصح (مِصر)؛ ولكنها كانت تسمى من قبل القاهرة فصفحها الأوربيون إلى (كايرو). وموقعها عند مدخل الصعيد في منتصف المسافة بين النيل وسلسلة المقطم الشرقية، وبينها وبين النهر بقعة صالحة للزراعة في أكثر أجزائها. ويزيد عرضها على ميل في المناطق الشمالية (حيث يقع ميناء بولاق)، ولكنها في الجنوب أقل من نصف ميل. ومساحة العاصمة تبلغ تقريباً ثلاثة أميال مربعة. وقد أُحصى عدد سكانها أثناء زيارتي الثانية فبلغ زهاء مائتين وأربعين ألفاً؛ وقد زاد هذا العدد بعد ذلك كثيراً بسبب إنقاص عدد الجيش ولأسباب أخرى. والقاهرة محاطة بسور تقفل أبوابه ليلاً، وتشرف عليها قلعة كبيرة تقع في زاوية من المدينة بالقرب من الجبل، وشوارعها ليست مبلطة وأكثرها ضيق غير منتظم، وهي أحرى بأن تسمى أزقة وتبدو القاهرة للأجنبي العابر في شوارعها ضيقة جداً تغص بالسكان؛ ولكن الحال تختلف في نظر من يشرف على المدينة من سطح منزل أو مأذنة مسجد. وأكبر الشوارع يكون فيه عادة صف من الحوانيت على كل جانب، وفوق الحوانيت غرف لا تتصل بها، وقلما تكون

مشغولة بمستأجري الدكاكين وتوجد على أيمان الشوارع الكبيرة وعلى شمائلها دروب وحارات، وأغلب الدروب طرق مزدحمة لكل منها بوابة من الخشب كبيرة على مدخليها تقفل ليلاً، ويحرسها بواب من الداخل يفتح لكل من يطلب الدخول. أما الحارات فغالباً ما تتكون من عطفات صغيرة لها مدخل عام واحد ذو بوابة تقفل كذلك ليلاً، ولكن أكثرها يشقها درب من أولها إلى آخرها

ولابد لي من وصف دور العاصمة، وهذه الصورة التي أمامك تعطيك فكرة عامة عن خارج تلك المنازل. وتبنى الجدران الأساسية في الطابق الأول خارجاً وداخلاً من الحجر الجيري الناعم، يقطعونه من الجبال المجاورة. وعندما يقطع الحجر يكون سطحه ذا

لون ضارب إلى الصفرة الخفيفة، ولكن لونه سريعاً ما يقتم. وتلون خطوط الواجهة أحياناً بالحمرة والبياض على التعاقب خصوصاً في المباني الكبيرة كما هو الحال في أكثر المساجد

ويشيد البناء العلوي بالآجر، ويغطى بالكلس أحياناً، وهو ذو واجهة تبرز حوالي قدمين، يقوم على كوابيل أو دعائم؛ والآجر لبن محروق ذو لون أحمر قاتم. ويتكون الملاط من طين بنسبة النصف، وكلس بنسبة الربع، والباقي من رماد التبن والسقط. لذلك تبدو الجدران غير المغشاة بالكلس قذرة اللون كما لو كانت مبنية باللبن. ويغطى سطح المنزل بالكلس، ويكون عادة من غير سور

ويبين الرسم رقم 2 الأسلوب المعماري (الأكثر ذيوعاً) لمدخل المنزل القاهري. فالباب كثيراً ما يزين على هذه الطريقة المصورة، فيصبغ القسم الذي فيه الكتابة والأقسام الأخرى المتشابهة الشكل بلون أحمر يحده حد أبيض، بينما تلون بقية الباب باللون الأخضر. وأما عبارة (هو الخلاق الباقي) التي سنشرح موضوعها عند الكلام على خرافات المصريين فترى على أبواب كثيرة. وهي تنقش عادة بحروف سوداء أو بيضاء. وقلما تصبغ الأبواب ما عدا أبواب البيوت العظيمة. ويكون لها على العموم سماعة من الحديد وضبة من الخشب، وعلى جانب الباب درجتان من الحجر للركوب

(يتبع)

عدلي طاهر نور

الإنجليز والعمل

(نقلا عن مجلة الشهر الفرنسية)

للأستاذ مصطفى كامل

يضرب المثل بالبرود الإنجليزي، ولكن النشاط الإنجليزي لا يقل ذيوعاً عنه. وكثيراً ما كان الشعب الإنجليزي في رأي الأجانب قليل الاكتراث، بطيئاً في التصميم، مفضلاً الاحتفاظ الشديد بعمله وراحته وعاداته اليومية على كل شئ آخر. مع أن هذا الشعب نفسه قد أدهش العالم مراراً بجلده في المشاق وإصراره الخارق وموارده المادية والأدبية التي لا تنفد، والتي يستخدمها في العمل بمجرد شروعه فيه. أخذ بعض الذين عيل صبرهم على الإنجليز أنهم يعبئوا بتوغل الألمان واستفزازهم في أوائل هذه الحرب؛ ولكن العالم كله اليوم يتحقق من إرادة هذه الحكومة وهذا الشعب التي لا تنثني أمام أية تضحية، وفي عدم ادخار أي مجهود لوضع نهاية لتهديد الريخ الثالث للأمم الشرقية ولمجموع العالم المتمدن. فكيف نوفق بين هذين النوعين من الوقائع؟ سنوضح أنهما غير متناقضين إلا في الظاهر

فلو أننا تأملنا الشعب الإنجليزي إبان العمل لأدركنا سر تصرفه في وقت الراحة. فاللغز هو أن العمل عنصر طبيعي للنفس الإنجليزية، فلا حاجة إلى كلمات بيانية، أو حركات خطابية لحثه على العمل. إذ أن النفس الإنجليزية لا تستطيع أن تتصور حياة بدونه، فالتصرف والعمل لهذه النفس ضرورة حيوية وليس نظاماً، ولهذا لم يكن النشاط المتوالي الذي يفيض منها مكتسباً أو زائفاً أو وقتياً؛ ولم يكن الهدوء والراحة في نظر الإنجليزي غير نتائجه المفيدة المرغوبة. ويجب الاعتراف بأن للإنجليزي سيطرة لا تجارى في العمل تعطيه مع غريزة الاستمرار والتضامن في الجهود، قوةً تجعل منه أثمن حليف وأنفع صديق

الصدارة في العمل

وليس أدل على أن الإنجليز شعب عمل من نفس اللغة التي خلقوها لاستعمالهم؛ فليست توجد لغة أوربية أخرى يهيمن (الفعل عليها بهذه الدرجة - أعني التعبير عن الحركة والفعل والنشاط - كما أنه لا توجد لغة لها مثل قدرتها على التعبير الدقيق عن النظام والأمر، وفي تصوير ما فعل أو ما يتعلق بما يفعل، يمثل هذا الإيجاز والوضوح ولكل مراتب الحركة والعمل (فعل) في الإنجليزية ينطبق عليها تماماً بغير ضرورة إلى استعمال ظرف أو أي تعبير للتحديد أو الإيضاح. وفعل يرفس وهو مثل من آلاف الأمثلة التي تزخر بها اللغة الإنجليزية، ليس له مثيل في أية لغة أوربية، كما أن الفعل في الإنجليزية يتغلغل في الجملة بأكملها، فيبرز جرسها ويحدد وزنها والذي تفصح عنه اللغة الإنجليزية ببراعة هو دقائق تكوين الذكاء الإنجليزي الذي تبدو الفكرة في ثناياه كأنها لم تخلق إلا للاستعداد للعمل والترحيب به وجعله سائغاً. وقد

ذكر سلفادور دي مادرياجا عن هذا الموضوع في كتابه (الإنجليز والفرنسيون والأسبان) آراء في منتهى السداد والدقة، قال:

(إن الذكاء الإنجليزي في الدرجة الأولى من القوة، ويبلغ أقصاه أثناء العمل وعندما يكون الإنتاج العملي محط النظر، ولكنه لا يتكلف المشقة من أجل تصرفات لا تجدي، وهذا هو أحد أسباب الشهرة السيئة التي نسبْت إليه؛ كما أن هناك سبباً آخر، فذكاء الإنجليزي، وهو أقل تخصصاً في الأمور الذهنية، كأنه ذائب في جميع أنحاء جسمه؛ وهذا ما يفسر بطئه في التحرك، فإنه لا يكفي أن يحشد التهيج الخارجي قوى المخ وحده بل جميع الجهاز العصبي أيضاً، كما أن الإدراك لا يتم بالمخ وحده ولكن بجميع الجهاز العصبي كذلك. ولهذا كانت الآلة العقلية في الإنجليزي أكثر تعقيداً وثقلاً وبطئاً للبدء في العمل)

وهذه الفكرة التي تركزت في العمل من تلقاء نفسها تتضح في مذهب المنفعة الغريزي الذي نجد الأدلة العديدة عليه في تاريخ إنجلترا، والذي يفسر كثيراً من الأمور في عادات الإنجليز، فالإنجليزي يتجه قُدماً نحو العمل عندما يتعلق الأمر بالتصرف مهما كانت الوسيلة. ومن السهل عليه أن يقنع بالضروري، ويكون لديه كل ما لم يفد مباشرة في الغرض الذي تكفل ببلوغه فائضاً عديم الجدوى، ومع ذلك فإن هذا لا يعني أن العمل يقوم بطريقة تدل على التسرع والشدة والعسف، بل على العكس، فإن عادة الإنجليزي في التصرف وفهمه للحياة في ظلال العمل تعلمه أن يتصرف بهدوء وتؤدة، وتخول له أن يشعر بالراحة وهو في أوج العمل، وأن يدخل في حسابه على قدر المستطاع أوقاتاً للاستجمام والراحة

والإنجليزي لا يستسلم للاهتياج بسرعة، ولا للاندفاع إلى العمل بغير أن ينضجه تماماً في ذهنه، فهو بطئ في التحرك، ولكنه عندما تستولي عليه فورة العمل لا يقفه شئ، فإنه عندما يتصرف يؤدي عمله بكل جوارحه وقلبه. وكيف لا يكون كذلك وهو في أثناء العمل يشعر أنه كالسمكة في الماء لا تشعر وهي في الماء بالحاجة إلى العنف لتسبح، ولهذا لم يكن في النشاط الإنجليزي أثر من الضيق أو الوهن، بل تصحبه الابتسامة والراحة

وإننا نجد في بعض رسائل الشاعر الروسي تيوتشيف بتاريخ 25 يونيو 1855 قوله: (أما عن العدو - ويقصد الأسطول الإنجليزي في حرب القرم - فقد تبادلت الرسل بين الفريقين هذه الأيام، ولقد كان بين الطلبات السخيفة التي طلبت منا، طلب في غاية الغرابة، هو أن نمنحهم ركناً صغيراً في أرض محايدة ليستطيع رجال أسطولهم أن يتصرفوا إلى لعبتهم المحبوبة (الكريكيت)).

صحيح إن حرب 1855 لا تشبه الحرب في 1939، ولكن الخلق الإنجليزي لم يتغير تغيراً محسوساً، ومع ذلك فإن طلب البحارة الإنجليزي لم يكن سخيفا كما ظن تيوتشيف، لأن التدريب الرياضي جزء من نظام التعليم الذي خلق طراز رجلالعمل الإنجليزي السكسوني

غريزة التضامن

وهناك مظهر أساسي آخر للنفس الإنجليزية، هو غريزة التضامن التي تسود العاطفة الشديدة للمنفعة المشتركة والعمل المشترك؛ فإن النفس الإنجليزية ممتلئة أكثر من أية نفس أخرى بهذه العاطفة. فالتضامن للإنجليزي، سواء أكان مقصوراً على أعضاء الجماعة الصغيرة أم كان يشمل الوطن كله، ليس شئ معنوياً أو مثلاً أعلى للأخلاق أو الاجتماع، وإنما هو حقيقة واضحة مادية، بل هو ضرورة يشعر بالحاجة إليها، وكل أمة جديرة بهذا الاسم تتآزر في الخطر إذا داهمها من الخارج، ولكن ذلك يكون عن اقتناع بالضرورة إليه؛ أما في إنجلترا، فإن الذي نراه في مثل هذه الحالات هو غريزة غير واعية، ولو أنها سليمة الإدراك، وهي تشبه من بعض الوجوه الغريزة التي تثير أعضاء فريق الكريكيت عندما يتعلق الأمر بالدفاع عن الشرف الرياضي لقرية أو مدرسة. وقد أصبحت التقاليد والتعليم طبيعة ثانية، فانه في الخلايا الاجتماعية الصغيرة وفي الحياة اليومية تتكون على التحقيق الغريزة التي يمكن أن توحد، عندما تسنح الفرصة، بين جميع إنجلترا، وكل الإمبراطورية،

بل بين جميع العالم السكسوني الإنجليزي
وغريزة التضامن مصدر للنظام الاختياري الذي لا يشبه النظام الفرنسي ولا للنظام الألماني من باب أولى، فإن الألماني يخضع لأمر، والفرنسي يخضع لمبدأ، والإنجليزي يخضع لنفسه، لغريزته، لرغبة الحياة في المجموع، وهي رغبة طبيعية لديه بمقدار الرغبة في الحياة. النظام الألماني رق اختياري، والنظام الفرنسي خضوع الإرادة للآراء الواضحة البينة؛ أما النظام الإنجليزي فهو فيض غريزة خاصة بكل إنجليزي، وهو وثيق الصلة بفكرة الخدمة: الخدمة التي يؤديها الإنسان طواعية إلى قريبه، لا الخدمة التي يؤديها الشخص إلى متبوعة. وكلمة موظف تترجم في الإنجليزية (بالخادم المدني)، فان لفكرة الخدمة الاجتماعية عند الإنجليزي معنى يشبه المعاني الدينية. ومن الواجبات الرئيسية على رجال الدين الانجليكانيين والبروتستنت في إنجلترا غرس الخدمة الاجتماعية، ومكافحة البؤس والأماكن غير الصحية، وتنظيم الإحسان العام ومقاومة البطالة، وتعويد الإنسان أن يكون نافعاً على أية صورة وبأية وسيلة؛ ولكن ذلك غير مقصور على الكنائس والقسس فحسب، ولكن التعاون الاختياري منتشر بين جميع الطبقات وفي جميع ولايات المملكة المتحدة، وفي مجموع العالم الإنجلوسكسوني
ولتفهم غريزة التضامن الإنجليزية يجب التنويه على الأخص بأنه تضامن إيجابي في العمل، وليس عاطفة سلبية بتحمل المسؤولية المشتركة مما يمكن أن نجدها كذلك في الشعوب الأخرى، فأن الصدارة في العمل تتأكد في هذا الميدان كما تتأكد في مجال الاستمرار التاريخي، في التقاليد الحية. ففي اللحظة التي يهدد الخطر بلاده فيها، وتكون الضرورة إلى العمل المشترك لا محيص عنها، يتجه الإنجليزي بكليته نهائياً إلى تقليده وإلى جماعته، وعندئذ تبلغ عبقريته الفردية أقصى قوتها وتتكشف عن كافة مواردها
إن أهم ما يريد الإنجليزي قوله يقوله في صوت خافت، فإذا كان قلقاً بدا أكثر صمتاً وهدوءاً من قبل، حتى إذا هدد الخطر جميع الذين معه يدرك أن الصمت لم يعد يكفي، وأنه يجب عمل شئ آخر يسهل إنجاز أثقل الواجبات؛ وكلما ازداد الخطر بدت على وجوه المارة في لندن علائم الأنس واللطف
لقد تكلم الناس كثيراً عن قوة بريطانيا المادية وقوة بحريتها وطيرانها، ولكن الذي يفوق هذا
كله هو أطوارها في الجهود بمجرد أن تباشرها، وإحساسها بالتضامن، وهدوءها الحازم في الأوقات الحرجة؛ وبمعنى آخر قواها الأدبية التي تؤيد الحقيقة المطلقة للحكم القائل: (إن الشعب البريطاني ما يزال أثمن حليف في العالم)
مصطفى كامل
رسالة الشعر
من جراح الحرب!
للأستاذ محمود حسن إسماعيل
مهداة إلى الذين نضر الله أيامهم بالغنى واليسار، فتركوا أيام الشقاء والبائسين) صرعى على أعتابهم بلا رحمة ولا إحسان. . .! وإلى الذين شردتهم ويلات الحرب في كل مكان. .)
عَبِيدَ الْخَزائِنِ. . . طُوفُوا بِهَا ... كما طافَ نَعْشُ الْهُدَى بِالصَّنَمْ!
وَأَدُّوا الصَّلاَةَ بِأَعْتَابِهاَ ... عَسَاها لَكُمْ كَعْبَةٌ أَوْ حَرَمْ
وَبُثُّوا الْكُنُوزَ حَدِيثَ الْهَوَى ... لَعَلَّ شَذا المَالِ يَرْوِي النَّهَمْ
وَقَفْتُمْ هَوَاكُمْ وَأَحْلاَمَكُمْ ... عَلَى أَخْرَسٍ سَرْمَدِيِّ الْبَكَمْ
لَهُ رَنَّةٌ في حَشاكُمْ لَها ... صَدَى عَازِفٍ عَبْقَرِيِّ الرَّنَمْ
غَزَا رِقَّهُ دَهْرَكُمْ مِثْلَماَ ... غَزَا النُّورَ لَيْلٌ دَجِيُّ الظُّلَمْ
عَبَدْتُمْ جَمَاداً عَلَى وَجْهِهِ ... لِجُرْحِ النَّدَى آهَةٌ تَبْتَسِمْ
ظَلَمْتُمْ صِبَاهُ فَشَيَّبْتُمُوُ ... هُ كما شابَ في الدَّهْرِ مَعْنَى الْقِدَمْ
سَجَنْتُمْ خُطاَهُ بأَيَّامِكُمْ ... وَلُذْتُمْ بِهِ في زَوَايَا الْعَدَمْ
إِذَا امْتَدَّ ضَوْءٌ لِمِحْرَابِهِ ... دَبَحْتُم خُطا الشَّمْسِ فَوْقَ الْقِمَمِ
وَإِنْ رَفَّ حُلْمٌ عَلَى مَهْدِهِ ... نُسِخْتُمْ فَنَاءً لِهَذَا الحُلُمْ

سَهِرْتُمْ عَلَيْهِ كَأُمِّ الوَحِيدِ ... سَرَى اللَّيْلُ فِيهَا هَوىً يَحْتَدِمْ
قُلُوبٌ سَواهِدُ مِثْلُ الْعُيُونِ ... شَرَايِينُهَا سَاهِداتُ الصَّرَمْ
وَقَفْتُمْ بهَا وَقْفَةَ الدَّيْدَبَانِ ... وَطفْتُمْ بهَا طَوْفَةَ الْمُسْتُلِمْ
عَلَى رَصَدٍ كَفَّنَتْ سِرَّهُ ... بَدٌ سِرُّها في الجَمَاَدِ الأصَمّ
يُسَمُّونَهُ المَالَ وَهْوَ الذي ... يُمِيلُ الْحُظوظَ وَيُمْلِي النِّعَمْ!
أَمَا جَاءَكُمْ نَبَأٌ عَنْ أَسَى ... جِراحَاتُ مِصْرٍ بِهِ تَضْطَرِمْ؟
بَكَى النَّغْرُ حَتَّى سَرَى دَمْعُهُ ... مَعَ الرِّيحِ رُؤْيَا لَهِيبٍ وَدَمّ
يُعَاتِبُكُمْ مَوْجُهُ في الضِّفَافِ ... وَلِلْمَوجِ شِعْرٌ شَجِيٌّ النَّغَمْ
إِذَا أَذَّنَ الْفَجْرُ في أُفْقِهِ ... يُؤَذِّنُ عِزْرِيلُ فَوْقَ الأَكَمْ
فَتَهْوِي قُصُورٌ لها في السَّماَ ... جَبينٌ عَلَى النَّجْمِ عَالٍ أَشَمّ
وَتَهْوِي قُبُورٌ عَلَى أَرْضِهَا ... تَكادُ مِنَ الْهَوْلِ تَبْكي الرِّمَمْ
أَلا مَنْ لِسَارِينُ تَحْتَ الدُّجى ... يُسَقَّوْنَ مِنْ كُلِّ بُؤْسَى وَهَمّ
تُهَاجِرُ أَيَّامُهُمْ وَالطَّوَى ... بِأَحْشَائِهَا وَقْدَةٌ مِنْ ضَرَمْ
لَهُمْ سِيرَةٌ رَاحَ يَرْوِي الأسَى ... أَسَاها بِدَمْعٍ كَسَيْبِ الدِّيَمْ
دِيَارُهُمْ أَقْسَمَتْ لاَ تُرَى ... فَبَرَّ الْخَرابُ لها بِالْقَسَمْ
فَلمَّا تَهاوَتْ عَلَى أُسِّهَا ... وَدَكَّ الثَّرَى صَرْحُها المُنْهَدِمْ
مَشَى المَوْتُ أَعْمَى ضَرِيرَ الْعَصَا ... يُنَقِّلُ في كُلِّ عُمْرٍ قَدَمْ
تَنُوحُ بِكَفَّيْهِ زَمَّارَةٌ ... إِذا نَامَ زَمَّارُها لَمْ تَنَمْ
نماَ غَبُهَا في خَرابِ الْبِلَى ... وَطَافَ بِهِ الشُّؤْمُ يَسْقِي الأَجَمْ
سقَا فَرْعَهُ مِنْ صُرُوفِ الزْمانِ ... رَزَاياَ مُشَعْشَعَةً بالنِّقَمْ
بِأَدْغَالِهِ لاذَ جِنُّ الْفَلا ... وَبومُ الدُّجى بِذَرَاهُ اعْتَصَمْ
نماَ غابُها. . . لَيْتَهُ ما نماَ ... وَلاَ مِنْ حَشاهُ عَوَى أَيُّ فَمْ
إذا وَلْوَلَتْ في ظَلامِ الضِّفَافِ ... أَصَابَ الْبِلى مِنْ صَداها صَمَمْ
فَلا صَرْخَةُ الطِّفْلِ تَلوِي خُطاهُ ... وَلَوْ ذابَ فِيهَا حَشا كُلِّ أُمّ!
مُفاجِئَةٌ لا تَعِي مَا الوُعُودُ ... وَلا مَا الْعُهُودُ وَلا مَا الْحُرَمْ؟
إِذا صَفَرَتْ ذَابَ قَلْبُ الضِّيَاءِ ... وَدَسَّ الدُّجى وَجْهَهُ الْمُدْلَهِمْ
تَخَيَّرَتِ اللَّيْلَ مَسْرَى نِدَاها ... كَمَارِدَةٍ تَشْتَكي لِلسُّدُمْ
عُوَاءُ الذِّئَابِ لَدَى نَوْحِهَا ... أَلَذُّ اسْتماعاً وَأَشْجَى نَغَمْ
تُنَادِي فَيَنْشَقُّ جُرْحُ الأَثِيرِ ... عَلَى قَاذِفَاتِ اللَّظَى وَالْحُمَمْ
طَوَائِرُ لمْ يدْرِ سَاقي الْحَدِيدِ ... أَهَوْلاً سَقَى قَلْبَهَا أَمْ ضَرَمْ؟
وَهَلْ سَاقَها لِلْوَغَى سَائِقٌ ... مِنَ الْجِنِّ أَمْ عَاصِفٌ مِنْ عَدَمْ
يُغِيرُ بها وَالْكَرَى نَائمٌ ... وَلَيْلُ الْحِمى رَاهَبِيُّ الْحُلُمْ
وَلِلنِّيلِ إِغْفَاءَةٌ أَقْبَلَتْ ... عَذارَى الْخَيَالِ بها تَسْتَحِمّ
سَجَا وَاطْمَأَنَّ كَأَنِّي بِهِ ... نَبِيٌّ يُبَارِكُ خَطْوَ النَّسَمْ
وفي وَجْهِهِ قِصَّةٌ لم يَزَلْ ... مَعَ اللهِ قِرْطَاسُهَا وَالقَلَمْ!
أَغَارَتْ عَلَيْهِ رِيَاحُ المَنُونِ ... فَضَجَّ لَها مَوْجُهُ المُرتَطِمْ
وَحَالَتْ مِنَ الرَّوْعِ شُطآنُهُ ... نِدَاءً يَصِيحُ بِمَوْتَى الْهِمَمْ:
مَشَى نَافِخُ الصُّورِ في أَرْضِكُمْ ... فَكُونُوا الْبَشِيرَ لِبَعْثِ الأُمَمْ
دَعُوا الهوْلَ يأتِي كما يَشْتَهِي ... فَإِنْا أَلِفْنَاهُ مُنْذُ الْقِدَمْ
يُدِيرُ عَلَيْنَا خُطَا السَّافِيَاتِ ... عَلَى جَبَلٍ سَرْمدِيِّ الشَّمَمْ!
عَلَى خَمْرَةِ الصَّبْرِ مِلْنَا بِهِ ... نَشَاوَى بِسِحْرِ الأَسَى وَالأَلَمْ
فَمَنْ رَامَ كَيْدَ الْحِمَى وَيْلَهُ ... سَيُشْقِيهِ جَبَّارُهُ المنتَقِمْ!
وَيَسْقِيهِ من سُخْرِيَاتِ الْفَنَاءِ ... عَتِيٌّ عَلَى الدَّهْرِ يُدْعَى الْهَرَمْ
أَبُو الْهَوْلِ فِينَا يَسُوقُ الزَّمانَ ... وَيَرْعَى اللَّيَالِيَ رَعْيَ الْغَنَمْ
فَمَا الْهَوْلُ؟ ما خَطْبُهُ إِنْ دَجَا ... سِوَى هَاجِسٍ بِخُطاَنَا أَلَمّ
دَعُونَا نُحَيِّ الوَغَى وَاللَّظَى ... وَإِنْ كَرْبُها في ثَرَانَا احْتَدَمْ
فما يَصْرَعُ الْمِحَنَ المُبْكِيَاتِ ... إِلاَّ الذي ذاقَها وابتَسَمْ!
دَعُونَا نُحَيِّ لَهِيبَ الْخُطُوبِ ... وَإِنْ جَمْرُها في حَشاناَ اضْطَرَمْ
سَئِمْنَا حَيَاةَ الزَّمَانِ المَرِيضِ ... وَعَيْشَ الزَّمَانِ السَّقِيمِ الْهرِمْ

دَعُونَا نُقِمْ مَجْدَنَا في النُّجُومِ ... فَمِنْ ضَوْئِها قد نَسَجْنَا الْعَلَمْ
سَنَعْصِفُ أَيَّامُنَا بالوُجودِ ... وَنَهْزَأُ أَرواحُنَا بالْعَدَمْ
وَنَبْنِي جَدِيداً لِتَارِيخِنا ... كَفَانا فَخَاراً بِسِحْرِ الْكَلِمْ
تَمرَّدَتِ الأَرْضُ تبْغِي الوُثوبَ ... فَمَا بَالُنَا بالْكَرَى نَعتَصِمْ
أَلا فَلْتَقُمْ من عَمِيقِ الرُّقادِ ... فلاَ بَعْثَ لِلجِيل إِنْ لمْ نَقُمْ!
محمود حسن إسماعيل
العاطفة الحيرى
للأستاذ خليل شيبوب
في الصدر عاطفةٌ ولهى محيرةٌ ... قد طالَ ما أتّقي منها وما أجِدُ
وددتُ لو ظهرتْ حتى يخفَّ بها ... قلبي وحتى يُراحَ الروحُ والجسدُ
كأنها في فؤادي حينما خفيتْ ... أنشودةٌ لم يُذِعْ ألحانَها أحد
حامت على الوتر المشدودِ صامتة ... فهل إلى نزعها منه تُمَدُّ يد
كأنها النجمُ يسري في الغيوبِ وما ... يَدْرِي إلى أيِّ دنيا نورُه يَفِد
أو خمرةٌ ليس يُدْرَى بَعْدُ شاربُها ... تظلُّ في ختمها تَغلي وتتَّقِد
أو درةٌ أخطأ الغوَّاص موقعها ... تظلُّ في الصدفِ المختومِ تنعقد
أو حبةٌ علقت في الأرض ناضجة ... فالأرضُ حُبلى بما فيها وما تلد
يا نزغةً في فؤادي لست أفهمها ... شَرٌّ من الجِدِّ لهوٌ قاتلٌ وَدَدُ
أتى الزمانُ الذي ما زلتُ أرقبه ... وفيه كلُّ أمانيِّ الهوى بِدَد
وعُطِّلَتْ بدواتٌ كان يبعثُهَا ... وجهٌ به قسماتُ الحسن تَتَّحِد
ما عاد لي اليومَ من قصدٍ أُحَقِّقُهُ ... وأيُّ قصدٍ أُدَاريهِ وأفتقد
تقطّعَ الوترُ المشدودُ حين خبا ... نجمٌ سرى وأُريقَتْ خمرةٌ تقد
وأطفأ الصدفُ المختومُ دُرَّتَهُ ... وحبَّةُ الأرضِ ماتت وهي ترتفد
قد بان أمسي وما يومي بمعتلق ... به وليس ليومي في الزمانِ غَدُ
طغَتْ هواجسُ في صدري تُغَمْغِمُ لي ... صِلاتِ عُمْرِيَ تُشقِيه وتضطَهد
كأن تحتي فضاءً لستُ أبصره ... لكِن أحِسُّ به يدنو ويبتعد
حسب الشقاءِ بأني قد رضيتُ به ... وأن لي ما وَهَى عزمٌ ولا جلدُ
خليل شيبوب
البريد الأدبي
من الأستاذ توحيد السلحدار
صديقي العزيز
شاء فضلك أن تنوّه بي في سياق وصفك الفني لمنتداك تحت الكافورة - التي خلّدت ذكرها بأدبك البارع، وإني متيمن، يا صاحب الرسالة، بحسن ظنك شاعر بأثر حبك وعطفك في رأيك.
وكم بودي لو يساعدني ما تعرف من حالي الصحية على القيام بما دعوتني إليه، ولو يكون لي حظ من الكفاية يسمح بالإقدام في ميدان أتهيب الدخول فيه بعد ثنائك الكريم. على أني قد أخاطر كلما خطر لي موضوع وأسعدتني الصحة.
هذا، ولك مني جزيل الشكر، وصادق الإخاء، وأحسن التحية.
(المنصورة)
محمد توحيد السلحدار
تعقيب لغوي
جاء في (شجون) للعلامة الدكتور زكي مبارك بالعدد 421 من الرسالة ما يأتي:
أكبر هموم علمائنا اللغويين أن يعترضوا على نيابة حرف عن حرف، وأن يقول قائلهم:) إن العرب تعرف كيت ولا تعرف زيت (كذا)، وأن يثوروا على أي تعبير لا يجدون له شواهد في أقوال القدماء. . . الخ)
ولست الآن من محاجّة الدكتور في أفكاره هذه بصدد، وإنما هما ملحوظتان لفظيتان أريد التنبيه عليهما في عباراته:
1 - أن (ذَيْت) بالذال لا بالزاي. وقد انتظرت طويلاً لعل الدكتور يعود فيصححها، فلم يفعل. وقد يكون هذا من سبق القلم، كما قد يكون من زلات المطبعة.
2 - أن (كَيْتَ) و (ذَيْتَ) لابد أن تُكرّرا، تقول: كان الأمر كيت وكيت، أو: كان من الأمر

ذيت وذيت. وفي الحديث: (بئس ما لأحدكم أن يقول: نسيت آية كيت وكيت)
. .فكان واجباً أن يقول الدكتور:. . . إن العرب تعرف كيت وكيت، ولا تعرف ذيت وذيت
والله الموفق.
(أ. ع)

صحة مَثل - 1

في ثلاث مواطن من باب (البريد الأدبي) في هذه المجلة، (أنظر الرسالة، الأعداد: 417، 419، 420) كلمات ثلاث في المثل القائل: (النحو في الكلام كالملح في الطعام). ذهب كاتب الأولى إلى تضعيف هذا المثل كون وجه الصحة في إيراده: (الهزل في الكلام كالملح في الطعام) استناداً منه إلى ما جاء في كتاب مجالس السلطان الغوري. فجاء الكاتبان الثاني فالثالث يؤيدان صحة المثل بنصه الأول وهأنذا الآن بين يدي نص صريح وقفتُ عليه، يثبت صحة المثل ويبين مغزى إطلاقه جاء في القسم الثاني من الجزء الخامس من كتاب (المنتظم في تاريخ الملوك والأمم) لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، المتوفي سنة 597هـ (ص 160 من الطبعة التي ظهرت أخيراً في حيدر آباد):

(حدثنا محمد بن يحيى الصولي قال: دخلتُ على أبي العيناء في آخر عمره، وقد كفّ بصره، فسمع صرير قلمي على الدفتر قال: مَن هذا؟ قلت: عبدك وابن عبدك محمد بن يحيى الصولي! قال: قال بل ولدي وأبن أخي! ما تكتب؟ فقلت: جعلني الله فداءك شيئاً من النحو والتصريف! فقال: النحو في الكلام كالملح في الطعام، فإذا أكثرت منه صارت القدر زعافاً يا بني! إذا أردت أن تكون صدراً في المجالس، فعليك بالفقه ومعاني القرآن. وإذا أردت أن تكون منادماً للخلفاء وذوي المروءة والأباء، فعليك بنُتَف الأشعار ومُلَح الأخبار) أهـ

فأنت راءٍ مما نقلنا أن هذا المثل لا يحتمل تأويلاً ولا يستوجب تبديلاً، بعد أن كفانا أبو العيناء (المتوفى سنة 282هـ) نصب البحث عن موقع استعماله

نظرة في مقال - 2

أُطالع باغتباط ما يكتبه الأستاذ محمد عبد الغني حسن بعنوان (مدن الحضارات في القديم والحديث)، فهو بحث جليل؛ وقد استوقفتني فيه نقاط (العدد 417 من الرسالة) أضنها تحتاج إلى مراجعة، وهي:

1 - قال في الصفحة 844 في كلامه على بغداد: (والبحتري الشاعر الرقيق يصف لنا بركة المتوكل في شعر تصويري جميل. . . ويقول في ذلك:
(تنساب فيها الماء معجلة ... كالخيل خارجة من حبل مجريها)
والذي يُفهم من هذا الكلام ومما يتلوه، أن بركة المتوكل كانت في بغداد، في حين أن من المعروف عرفان اليقين أنها في سامراء. والذي يقرأ سيرة المتوكل يجد أنه قضى أغلب أيام خلافته في سامراء، وبها أقام قصوره التي فاقت سائر قصور الخلفاء، ولا داعي إلى تفصيل ذلك

2 - وورد بعد ذلك بخمسة عشر سطراً قوله: (وكان نهر دجلة في ذلك الحين يكاد يغص بالحرامات الكثيرة والزوارق الجميلة. . الخ). والواضح أنها (. . . . يغص بالحَرَّاقات. . .) وهي ضرب من السفن النهرية، ولعل هذا من أغلاط الطبع

3 - وفي آخر الصفحة نفسها، عَدَّ (جميل نخلة المدور) عراقياً مع أنه لبناني (بغداد)

كوركيس عواد

الطنطاوي يتحرك. . . فهل يتحركون؟

قضت الظروف القواهر التي حلت بدمشق إلا أن تحطم الأقلام القليلة التي كانت تهتز بين حين وحين لمسح عبرة من مقلة، أو لتأسو جرحاً في قلب، أو لتبعث نشوة في نفس. وأخذت جلّق تطوي الليالي السود وفي نفوس المثقفين من أبنائنا غصة، وتقضي الأيام العوابس والألم يصهر الغُيُر من شبانها على الأدب الذي أصبح ميتاً فيها خلال هذه الأحداث أو شبه ميت. ولسنا ممن يزعمون أن الأدب في دمشق كان قبل الحرب خيراً منه في خلالها، ولكن العاملين والعاملات كانوا يجدون حين يمتطي القلم أناملهم الخمس اللطاف! ميداناً ينتشرون به ما ينتجون. ولكن هذا الميدان بدأ نطاقه

يضيق منذ اتقدت الشرارة الأولى لهذه الحرب الضروس - التي توشك أن تقضي على البشرية إن لم يطفئها
عقلاء قوم - ولم يكن هذا الضيق خاصاً بالأدب والأدباء وحدهما، وإنما كان عليهما أشد منه على غيرهما من مرافق الحياة. وما زال الضيق يشتد، والنطاق يتأزم، وحتى أمسينا منذ شهور وليس في الميدان من يخط حرفاً (لرثاء) الأدب بعد أن تلاشى وخمدت أنفاسه
وهكذا حطم الأباء والمتأدبون يراعهم، وحرمنا الأنس بصرير أقلامهم، وظريف أقوالهم. . . حُرمنا ذلك كله لتحل محله الوحشية بدوي القنابل، والذعر من عويل الطائرات ولم يعد ثمة مجال لغذاء العقل، وقوت الفكر، ونشوة الروح وها قد أخذنا نتنفس الصعداء بعد هذه الضُّغطة القاتلة وشرعنا نستعيد شيئا من هدوء النفس، وطمأنينة الفؤاد بعد الانقلاب الأخير. فهل نترك عقولنا إلى الأبد دون غذاء، وأفكارنا دون قوى، وأرواحنا دون خمر؟
تقول العامة إن الحركة بركة! وهذا الأستاذ الطنطاوي يتحرك ويسارع بنشاط إلى قلمه بعد أن سكت فأطال وأطال وهذه الأنباء تترى علينا من كل ناحية وصوب، والشائعات تملأ الجو الأدبي وكلها تبشر بخير كثير ونفع عميم. ولعل أعظم هذه الأنباء شأناً وأدعاها للغبطة والسرور هو نبأ إعادة مجلة المجتمع العلمي في وقت قريب إلى حيز الوجود وتأمين صدورهابأوقاتها المعينة؛ والذين يعرفون مبلغ أهمية هذه المجلة في دنيا الأدب سيغتبطون لهذا النبأ دون ريب. وهناك من يقول بان الدكتور العجلاني يسعى للحصول على ترخيص لإصدار مجلة أدبية راقية، وإن لم يكن قد حصل بالفعل. وهناك طائفة من الشبان العاملين في حقل الأدب تعد العدة لإصدار صحيفة في الموضوع نفسه. ونعتقد أن هذه الصحيفة ستكون أكثر توفيقاً من غيرها لأنها ستقوم على سواعد أناس لا يبغون من وراء عملهم سوى خدمة الأدب والثقافة. وهناك. . . وهناك. . . فهل يتحقق كل هذا فيك يا دمشق؟ وهل تصدق كل هذه الأماني والأحلام العذاب؟ وهل ترى أدبائنا كلهم يتسابقون إلى الميدان بإخلاص وعزم وثبات؟ هل ترى الأدب في دمشق مزدهراً يانعة ثماره؟ وهل ترى شيوخ الأدب وشبانه يعملون معاً متوادين متآلفين، مخلصين متفقين، ليس في الشيوخ واحد يستخف بشاب، ولا بين الشبان متحذلق واحد يشتم الشيوخ ويسكب الثناء على نفسه من وراء حجاب؟ هل ترى كل ذلك. . .؟ هل تراه؟
(دمشق)
عبد الغني العطري
الواو التي حيرت النحويين
لابد لهذا الجمود في العلم عندنا من آخر، ولا شئ يقرب نهاية هذا الجمود غير الطعنة الجريئة توجه للمتعارف بين أهله، والمجمع بينهم على صحته، لتثور بذلك ثائرتهم، وتتفتح به أذهانهم المقفلة
وطعنتي اليوم لتلك الواو التي حيرت النحويين في نحو إياك والشر وغيره من صيغ التحذير، فقد حمَّلوها ما لا تحمله من معنى العطف، وتكلفوا في حملها عليه وجوهاً تأباها جزالة اللغة، فقال بعضهم: إن الأصل في ذلك - اتق نفسك أن تدنو من الشرِّ والشرِّ أن يدنو منك - فحذف أن والفعل وجارُّه المقدَّر والجارُّ المتعلِّق به من كل من المعطوف والمعطوف عليه، فصار - اتق نفسك والشر - ثم حذف الفعل والمضاف وأنيب عنه الضمير فانفصل. وهناك تكلفات أخرى في ذلك أسهلها أن الأصل فيه - احذر تلاقي نَفسِكَ والشرِّ - فحذف الفعل ثم المضاف الأول وأنيب عنه الثاني، فصار - نفسكَ والشرَّ - ثم حذف لفظ نفس وأنيب عنه الضمير فانتصب وانفصل وصار - إياك والشرَّ
والحقيقة أن هذه الواو ليست من العطف في شئ، وأن التعليم التلقيني التقليدي هو الذي يجعلنا نصر إلى الآن على أنها للعطف، وأكبر دليل على أنها ليست للعطف أن صيغة التحذير قد تخلو منها فيكون معناها مع خلوها منها كمعناها مع وجودها فيها، كما قال الشاعر:
فإياك إياك المِرَاء فإنه ... إلى الشر دعَّاءٌ وللشر جالب
وليس هذا شأن حرف العطف، وإنما هو شأن الحرف الزائد، فهذه الواو عندي زائدة لا

عاطفة
ويلي هذا عندي أن تكون أصلية عاطفة لا على معنى التشريك في الحكم، ولكن على معنى من الجارَّة، فيكون معنى - إياك والشر - إياك من الشر، ولا غرابة في أن تأتي الواو العاطفة بمعنى من الجارة، فقد وردت عاطفة بمعنى باء الجر في نحو قولهم - أنت أعلم ومالك - أي بمالك، وهذا هو رأيي في تلك الواو أعرضه على قراء الرسالة الغراء، ليوازنوا بين الرأيين، وكم ترك الأول للآخر.
عبد المتعال الصعيدي
النفط
يحتل السائل المستعمل في الاستصباح اليوم مكانة ملحوظة من جميع الشعوب، والقوم في مصر يشكون الآن قلته، ويتنافسون في سبيل الحصول عليه، وذلك لندرته واستنفاد الحرب القائمة لأكثرية الكمية الموجودة منه في العالم. ومن العجيب أن هذا الزيت قد أطلق عليه في مصر العربية جملة أسماء ليس من بينها أسم كانت تستعمله العرب؛ فالحكومة المصرية تسميه في بطاقاتها (الكيروسين) ولا أدري من أين جاءت هذه اللفظة، وكتاب السياسة يسمونه (البترول) ولم أر لها أصلاً في اللغة، والعامة تسميه (الجاز) أو (الغاز) وكل منهما لفظة مجهولة منكورة.
فلماذا لا نسمي هذا السائل باسمه العربي القديم، والذي يطلق عليه اليوم في العراق وفي الهيئات العربية الصميمية، ألا وهو النِّفط؟
جاء في المختار: (والنَّفط والنِّفط دهن، والكسر فيه أفصح)؛ وجاء في القاموس إنه: (ضرب من السرج يستصبح به)؛ وقال المصباح: (والنفاطة أيضاً منبت النفط ومعدنه). فلنقل (النفاطات) بدل (منابع البترول). ويقول بشار بن برد في حبيبته عبدة:
لعبدة دار، ما تكلمنا الدار ... تلوح مغانيها كما لاح أستارُ
أسائل أحجاراً ونؤياً مهدماً ... وكيف يجيب القول نؤي وأحجار؟
وما كلمتني دارها إذ سألتها ... وفي كبدي (كالنفط) شبت له النار!
(البجلات)
أحمد الشرباصي
والد الملوك الأيوبيين أيضاً
أراد الأخ الأستاذ محمد عبد الغني حسن أن يناقش (في العدد 422 من الرسالة) فكرة جديدة بعيدة عما قصدت إليه بردى المنشور في الثقافة عدد 135؛ تلك الفكرة تتلخص - كما فهمت - فيما يلي: هل كان أمراء بني أيوب يلقبون بلفظ الملك أم لا؟ وأنا لا أعارضه في هذا الرأي بل أزيده أن هذا التقليد بدأ في مصر فكان يحمل لقب الملك وزراء بني فاطمة الأقوياء عندما جمعوا السلطان في أيديهم، وساعدهم على ذلك ضعف الخلفاء (وأول من لقب بالملك منهم مضافاً إلى بقية الألقاب رضوان بن ولخشي عندما وزر للحافظ لدين الله. . . سنة ثلاثين وخمسمائة) (المقريزي الخطط، طبعة النيل 2 ص 305). وصار وزراء الفاطميين بعد هذه السنة يحملون ذلك اللقب، ومنهم أسد الدين شيركوه الذي لقبه الخليفة العاضد في خطاب توليته الوزارة بالملك المنصور؛ ومنهم أيضاً صلاح الدين الأيوبي الذي لقبه العاضد كذلك بالملك الناصر، فكان هذا اللقب يمناً عليه، ولزمه حتى وفاته
ولما ملك صلاح الدين وأصبح لآل أيوب الأمر والذكر لقب الكثيرون منهم بألفاظ الملك، وإن لم يحكموا مصر، بل لدي ما يجعلني أستزيد الأستاذ دعاء لي أن يسامحني الله. فقد قال صاحب شفاء القلوب في مناقب بني أيوب حزاب عند ترجمة نجم الدين أيوب: (أيوب بن شادي نجم الدين الملك الأفضل وقيل الأوحد أبو الملوك الأيوبية. . . الخ). فنجم الدين الذي عنيته في مقالي بالثقافة عن تاج الملوك بوري لقب بالملك الأفضل أو الأوحد، والذي حمله هذا اللقب هو الخليفة العاضد أيضاً (راجع المصدر السابق نفس الصفحة) إذ يقول عند كلامه عن لحاق نجم الدين بابنه صلاح الدين وحضوره إلى مصر: (وخرج إلى مصر بجماعته كلهم، ولما قدم خرج العاضد للقائه ولقبه وزينت البلد الخ) ولم أعثر فيما قرأت عن الأيوبيين على مؤرخ واحد لقبه بالملك الصالح إنما الذي تفرد بحمل هذا اللقب هو نجم الدين بن الملك الكامل محمد، لهذا كان لي عذري أن حسبت أن الأسماء تشابهت على الأستاذ عبد الغني، ورأيت أنه لزام

على أن أكتب ما كتبت
لم يبق إذن إلا أن الأستاذ يريد أن يضفي - من عنده - هذا اللقب على أبي الملوك الأيوبيين لأنه محباً للصالحين كما يقول أبو المحاسن ج6 ص 67، وهذا فرض بعيد أولاً، ولا يسمح به التاريخ للأستاذ ثانياً، لأن هؤلاء الملوك وأسماؤهم وألقابهم وأعمالهم أصبحت في ذمة التاريخ، ولا يسمح التحقيق العلمي لأحدنا البتة أن يغّير في صغيرة أو كبيرة منها، فهل لا يزال الأستاذ بعد هذا التحقيق مصراً على تلقيب نجم الدين الكبير بالملك الصالح؟ لا - بل أنا أظنه - وقد ثبت لدى أنه يعلم أن الكبير غير الصغير، يوافقني على تلقيب الأول بالملك الأفضل أو الأوحد، ويترك لقب الملك الصالح لمن يتميز به وهو حفيد العادل؛ ولعلي - بهذه الكلمة - أكون قد أرضيت الحق والتاريخ أولاً، والأستاذ عبد الغني حسن ثانياً

جمال الدين الشيال

المهرجان الأدبي الثالث

يحتفل السودانيين كعادتهم في كل عام بالمهرجان الأدبي الذي سيقام هذه السنة بنادي الخريجين بأم درمان في أيام عيد الفطر المبارك حيث يعرض ما تنتجه العقلية السودانية في ميادين الآداب والعلوم والفنون

والسودانيون الذين تربطهم بمصر روابط لا تنفصم عراها، والذين يستمدون ثقافتهم منها، كم يسرهم أن يلبي رجال الفكر وقادة الرأي وحملة الأقلام دعوتهم ليسعدوا برؤية من يستطيع زيارة السودان في ذلك الحين، وليتذوقوا ما تخطه تلك الأقلام القوية في مختلف الأبحاث

وليت أبناء الكنانه عاملون على تحقيق تلك الرغبة التي سيكون لها أثرها الخالد في تدعيم الصلات بين القطرين الشقيقين

الأمين التوم

سكرتير المهرجان

العدد 426 - بتاريخ: 01 - 09 - 1941

تحت ظلال الكافورة

من أحاديث القهوة

- 2 -

أصبحنا فإذا النيل الجليل يقبل نفّاحاً بالخير فيّاحاً بالنعيم، تتربّع شطئانه الخضر بالعسجد الذائب، وتتدفق مجاريه الفيح بالكوثر العذب، وتتنفس أمواجه الصهب بالتحيات والبركات على بنيه الخلّص الذين خلقوا من طينه الحر ومائه الطهور، وعاشوا على نائله الجم وخصبه الموفور؛ وكأنما تنفرج كل موجة على سؤال من هذه الأسئلة التي اعتاد أن يلقيها كل عام على أهله:

ماذا صنعتم يا بنيّ بالذهب الذي نثرته على أرضكم في العام الذاهب؟ هل قسمتموه بينكم على شريعة الله، وأنفقتموه فيكم على منفعة الوطن؟ أم هل بقيتم على طباع الوحوش الأوابد، تتفارسون بالغيلة أو بالحيلة حتى لا تدع المخالب والمجاريف، شيئاً للفقير أو الضعيف؟ ألا تزال الأمة مقسومة إلى باشوات و (دلاديل)، والسياسة قائمة على بهلوانات وتماثيل؟

ألا يزال أربعة الأخماس من أبنائي، يعيشون مجهودين على فضلات الخمس من أغنيائي، وخيري الفياض لم يدع في مصر كلباً جوعان ولا ضفدعاً عطشى؟

أي شيء صار مائي السماوي الفرات في دمائكم يا ساكني الوادي؟ أموتاً وقد أحييت الصحاري؟ أم ذلاً وقد أعززت الفراعين؟ أم جهلاً وقد خلقت الحضارة؟ إلى متى يا بني تقابلون برّي بالعقوق ووفائي بالغدر، وتقبلون من أوليائكم أن يدعوا مائي وثرائي يذهبان في عباب البحر كما تذهب النفحة الرخية في ثورة العاصفة وثراي مكروب وشعبي جائع؟

ولكن أسئلته الأبوية السنوية تذهب في الهواء كما يذهب فيضه في البحر، فلا أذن تعي، ولا لسان يجيب!!

أخذنا مجلسنا المعتاد من القهوة، وكان النادون المعتادون قد راعهم ما رأوا من جمال النيل وجلال الفيضان فسكنت ثرثرتهم بعض السكون، واتجهوا بمشاعرهم إلى النيل

الطامي يقابلونه بالهشاشة ويبادلونه التحية. وملكتنا نحن أيضاً روعة المنظر، فذهلنا ذهول الشاعر المستغرق؛ وتراءت على مرهفي الحس منا سمات من جلوة الخاطر وطلاقة النفس؛ وكاد
الذهول ينقلب نشوة والحديث يتحول شعراً، لولا الذباب الذي يقع في الكأس فيكدر الصفو، أو المتسول الذي يسقط في الحديث فيقطع الأنس! والمتسولون في المنصورة كالذباب في رأس البر، لا يدعون للجالس مشغلة إلا بالاستعاذة والطرد.
وكان الذي صرفنا عن المنظر الساحر والحديث العذب نوع من هؤلاء المتسولين طريف: رجل كفيف البصر، وثيق التركيب، مربوع القامة؛ على جسمه جلباب محكم التفصيل، وعلى رأسه عمامة حسنة التكوير، وفي يده هراوة صلبة العود؛ كان يقود نفسه على طوار الشارع وهو يقول بصوت جهير رزين ولهجة متزنة آمرة: (طالب من الله: أفطر، وأشرب القهوة، ونصف ريال، وواحد يلمه لي)!
لم يكد هذا الرجل يبدئ ويعيد، ويذهب ويجيء، حتى نهض إليه الجالسون بالقرش بعد القرش حتى أعلنهم أنه استوفي حقه. ثم أنصرف عنهم إلى غيرهم دون أن يجود عليهم بما تعود المتسولون أن يسرفوا فيه من مبتذل الدعاء والشكر!
قلت لصاحبي وقد بدا عليه ما بدا عليّ من العجب العاجب: هذا المتسول واحد من هؤلاء الأوزاع المتبطلين الذين يلحون على الناس بالضراعة والوضاعة، ويلح الناس عليهم بالنهر والقهر، فما السر الذي حمل القوم على أن يفردوه بهذه المعاملة؟
السر في رأيي هو القوة التي برزت في هيئته ولهجته.
والإنسان منذ كان يعجب بالقوة ويخضع للقوى بدافع من فطرته، لأن القوة دليل الحياة لصحيحة ووسيلة العيش العزيز، وهي معبودة منذ كانت في تهاويل الفلك وأفاعيل الطبيعة وتعاجيب الناس. ولولا سلطانها الفطري على القلوب لما عبد صنم ولا قدّس طاغية
ربما يتفق لك أن تجادل بعض الناس بالحسنى وتحاجّه بالمنطق، فيركب هواه ويصر على غيه؛ فإذ فاجأته بالصيحة الغضبة استكان وسلّم. وإنك لتجد كثيراً من خلق الله يصفقون لهجمات هتلر، ويصفرون لخطب رزفلت! وأولئك هم العامة وأشباههم ممن غلبت على نفوسهم عبودية القوة فآمنوا بالحيوان وكفروا بالإنسان، وانقادوا للعاطفة وغفلوا عن المنفعة!!
الديمقراطية كما تعلم وليدة المدنية العليا. وما كان المدني سليم النفس والفكر والإرادة أن يعود إلى عيش القطيع فيلقي مقادته إلى رجل مثله يجوز عليه ما يجوز على البهيم من
غلبة الشهوة وطغيان الأثرة. ولكن النفس البشرية على ما بلغته من المدنية والثقافة لا تزال في سرائرها بقايا من نوازع القوة تفسد بها وتصلح. فهي في السلم الطويلة والرخاء الوارف تنماع فلا يمسكها غير الشدة، وفي لحكم الصارم والسلطان الغشوم تذل فلا يعزها غير الهوادة. لذلك كانت الديمقراطية يا صديقي كاللحم: كلما اعتل الجسم واختل نظامه، كان أول ما يشير به الطبيب على المريض ترك اللحم. كذلك كلما انحل الشعب واسترخت قواه واضطرب أمره، كان أول ما يأمر به الزعيم نسخ الديمقراطية. ذلك ما كان في روسيا وإيطاليا وألمانيا وأسبانيا، ثم كان أخيراً في فرنسا وطن الجمهورية ومعبد الحرية ومعقل الدستور! كأنما خلق الإنسان آكل عشب فاللحم دخيل على طعامه، وكأنما فطر على الجبر والإكراه فالحرية غريبة على نظامه!
وافقني صديقي على جملة الرأي؛ ثم أخذ بطرف من الحديث وجذبه بعنف إلى حالنا التي لا تشبه حالاً من أحوال الأمم! وصديقي حديد اللسان جرئ الرأي فلا أستطيع أن أنقل إليك ما قال في خضوع القطيع لرجل أسمه الباشا، وفناء الجميع في فرد أسمه الزعيم
(المنصورة)
أحمد حسن زيات
قصائد الشعراء - 2
في تأبين سعد
للدكتور زكي مبارك

قصيدة العقاد:
لم يرسل العقاد قصيدته على النحو المألوف في قصائد الرثاء، وإنما قسمها إلى موضوعات ليصف أكثر الجوانب من شخصية سعد في الحياة والممات، فرأينا في القصيدة أربعة عشر موضوعاً تصورها العناوين الآتية:
(الأربعون - موقف التشييع - من منبر القبر - سعد والضعفاء - مراحل الخلود - سعد يملي على التاريخ - صورة على صفحة الزمن - يوم النفي - إلى مؤتمر السلام - مواكب العودة - سيشل وجبل طارق - الاعتداء الأثيم - المؤتمر الوطني - وداع)
وبهذا التقسيم استطاع الأستاذ عباس العقاد أن ينوع الصور في قصيدته، وأن يجعلها حافلة بطوائف مؤتلفة من الألوان وتظهر جودة هذه القصيدة لمن ينظر الصورة الأولى، إذ يقول الشاعر في انقضاء أربعين يوماً بعد وفاة سعد:
أمَضتْ بعد الرئيس الأربعون؟ ... عجباً! كيف إذن تمضي السنون؟
فترةُ (التيه) تغشّتْ أمة ... غاب (موساها) على (طور سنين)
كلَّ يوم ينقضي نفقدُه ... وهو ملء الصدر من كل حزين
تكبُر البلوى به حين مضتْ ... والبلايا حينما تمضي تهون
كيف ينسى الناس من لم يَنسهم ... يوم تُنسى النفس والذُّخر الثمين
لم يزالوا كلما قيل لهم ... ذهب الموت به يلتفتون
ينظرون القبر لم يبعد بهم ... عهدُ رب القبر في البيت الأمين
لا ولا طالت على أسماعهم ... هدأةٌ من دعوات الهاتفين
يتدانى طيفُه في سِنة ... يُفجع الحالم فيها كلَّ حين
إيهِ يا سعد وما أنت سوى ... بَشر يدركه ريب المنون
جئت للناس بِبشْرى خالق ... فإذا متّ فلمْ لا يُفتَنُون
تلبس الخُلد وتنضوه فما ... أجدرَ القومَ بعسف الحائرين
لِمَ يا دنيا - وقد أنشأتِهِ ... بدعة - في خُلده لا تبدعين
عاش ممنوع قرين في العُلا ... ليته في الخُلد ممنوع القرين
ذلك هو الموضوع الأول من موضوعات هذه القصيدة، والقارئ يشهد قوة الفطرة والطبع في مثل هذا البيت:
تكبُر البلوى به حين مضت ... والبلايا حينما تمضي تهون
أما قوله:
أمضت بعد الرئيس الأربعون؟ ... عجباً! كيف إذن تمضي السنون
فهو من القوة بمكان، ومعناه أن الأربعين يوماً طالت حتى عصفت بالصبر الجميل، فكيف إذن تمضي السنون، وهي طوال طوال؟!
أطايب القصيدة
وفي هذه القصيدة كثير من الأطايب، كأن يقول الشاعر في عصامية سعد:
يا كبير النفس في ميعته ... وفتىَّ البأس والعمرُ وهون
وعصامياً بَني الطَّود وكم ... هُدمت أطواد أقوام بُنين
زاهداً في كل فانٍ وله ... طمعٌ في المجد أعيا الطامعين
خلف السؤدد آفاقاً وما ... جاوزت دنيا ثراه أربعين
قبل ميلادك لم يشرف أب ... من بني الريف ولم تنجب بطون
وفي هذا البيت إشارة صريحة إلى خصيصة من أظهر خصائص سعد، وهي نشأته الريفية. ويريد بها الشاعر أن يجعل سعداً عريقاً في العظمة القومية، وكأنه يعرض بمن كانت لهم أصول مدخولة في هذه البلاد، وبدون هذا الغرض لا يتسق الكلام، فللريف المصري فضل كبير في إنشاء المواهب، وما نشأ عظيم في مصر إلا وهو موصول الأواصر بذلك الريف، وإن كان من الدخلاء
ومن أعجب خصائص الريف أنه ينبوع المواهب، ويفتح أمام الأذهان آفاقاً لا تفتحها المدائن. ومن هنا يصلح أي ناشئ في الريف للنهوض بإعمال لم تؤهله لها ثقافته الشخصية
وتفسير ذلك أن الحياة بالريف توجه العقل إلى إدراك المطالب القومية، وتروض الذهن على تعرف المشكلات التي تعترض حياة الأهليين، وهي مشكلات ذات ألوان وأشكال، والتمرس بها يخلق القدرة على الإحاطة بما يثور في الصدور من آلام وآمال.

فقول العقاد في سعد:
قبل ميلادك لم يشرف أب ... من بني الريف ولم تنجب بطون
لم يرد به غير تأكيد القول في نباهة سعد، فهو يريد التنويه لا الاستقراء؛ وإلا فالشواهد كثيرة على من نبغوا من أبناء الريف قبل سعد زغلول
ومن أطايب هذه القصيدة قول سعد كما صوره العقاد:
صال بالجيش (كمال) ومضى ... بذوي القمصان يسطو (مُوسلينْ)
وأنا الأمة والجيش معاً ... وأنا السيف جميعاً واليمين
من بيان الصدق جرّدتُ لهم ... عدة تصمى الكماة الفاتحين
أنا مصر وهي في سؤددها ... أنا مصر وهي الأسر سجين
أنا ألقيت على عاتقها ... حملها المطروح بين الآخرين
وهذا البيت جيد جداً، ومعناه أن سعداً راض الأمة على أن تحمل وحدها عبء الكرامة القومية، وهو عبء لا يحمله غير من وصل إلى شرف الفهم لقيمة التكاليف الثقال، ولا تضيع الأمم إلا حين تتوهم أن الحرية مغنم يساق، وليست مطلباً ينال بالدماء، وتشقى في سبيله عزائم الرجال
ومن روائع هذه المرثية قول العقاد في شخصية سعد:
يَعجبُ المرء أشخصٌ واحدٌ ... أنت أم شتَّى شخوص وفئين
ناضر النفس وإن لاحت على ... وجهك السمح سمات وغضون
وغضير القلب لا يألوك في ... صَرعات النزع في نبض رزين
تأخذ اللب برأيٍ ثاقب ... وفكاهاتٍ عِذابٍ وفنون
ضَحِكُ الأطفال في الطيب إلى ... ضحك الأقدار في الجد الرزين
يوم ودعنك ودعت امرأً ... يملأ الدنيا ويَقضِي ويَدين
وأحيّيك لألقاك غداً ... حجراً يعلوه نوّار الغصون
وهذا شعر نفيس. . . وقول العقاد إن سعداً كان غضير القلب حتى في ساعات النزع ليس خيال شاعر، وإنما هو حقيقة؛ فقد شهد الأطباء بأن قلب سعد كان ينبض عند النزع بمثل القوة التي كان ينبض بها وهو في أوقات الصحة والعافية، وإلى هذه الظاهرة الغريبة أشار الشاعر محمود عماد إذ يقول:
وأنهدَّ قلبٌ طالما اعتدَّت به ... مصرُ ليوم كريهةٍ وغُرام
قلبٌ كقلب الكون يلبث نابضاً ... والموت بادٍ في الحشا والهام
ولا يتسع المقام للإفاضة في محاسن قصيدة العقاد، وما أشرنا إليه يبين جوهرها الثمين
قصيدة الجارم بك
لم تلق هذه القصيدة في حفلة التأبين، وإنما نشرها المقطم في اليوم التالي وقال أنها (للأستاذ الشيخ علي الجارم المفتش بوزارة المعارف) وهي تبتدئ بهذه الأبيات الجياد:
لا الدمعُ غاض ولا فؤادك سالي ... دخَل الحِمامُ عرينة الرئبالِ
وأصاب في الميدان فارس أمة ... رفعَ (الكنانة) بعد طول نضالِ
رشقتْه أحداثُ الخطوب فأقصدتْ ... حربُ الخطوب الدُّهم غير سِجال
للموت أسلحةٌ يطيحَ أمامَها ... حول الجريء وحيلة المحتال
ما كان سعدٌ آية في جِيله ... سعد المخّلد آية الأجيال
تَفنَى أحاديث الرجال ذكره ... سيظل في الدنيا حديث رجال
سارٍ كمصباح السماء يحثه ... كر الضحا وتعاقب الآصال
ومضى الجارم فتحدث عن الأيام التي عانتها مصر قبيل الدعوة إلى الاستقلال: فجعل السيف يلمع فوق كل رأس، وجعل الأرض ترجف والذعر يعصف بالقلوب، وأسرف فجعل الناس جميعاً في أهول من يوم الحساب:
وإذا بصوتٍ هز مصر زئيره ... غضبُ الليوث حمايةُ الأشبال
صوت كصور الحشر جّمع أمة ... منحلة الأطرف والأوصال
فتطلعت عين وأصغت بعدها ... أذن وهمت ألسنٌ بسؤال
مَن ذلك الشعشاع طال كأنهُ ... صدر القناة وعاملُ العسال
ومَن الذي اخترق الصفوف كأنه ... قدَرُ الإله يسير غير مبال

سعدٌ، وحَسبُك من ثلاثة أحرف ... وما في البرية من نُهًى وكمال
ومِن السيوف إرادةٌ مصقولة ... طُبِعتْ ليوم كريهة ونِزال
ومضى يغبّر لا العسير بخاذل ... أملاً ولا نيل السها بمحال
فكأنه سيف المهيمن خالدٌ ... وكأن دعوته أذان بِلال
ما راعه نفيٌ ولا لعبتْ به ... في حُب مصر زعازع الأوجال
كالشعلة الحمراء لو نكَّستها ... لأضفتَ إشعالاً إلى إشعال
والسيل إن أحكمت سد طريقه ... دك الحصون فعدن كالأطلال
ومن أجود هذه القصيدة قول الجارم في صراحة سعد:
خصم شريف نال من خصمائه ... ما نال من إجلال كل موال
عرفوه وضّاح السريرة طاهراً ... شرُّ البلاء خصومةُ الأنذال
إن الشجاعة أن تناضل مُصحراً ... لا أن تدب كفاتك الأصلال
قصيدة مطران
لم تلق في حفلة التأبين، وإنما نشرت في (الأهرام) بعد الحفلة بأيام، وأذكر أني قرأت على الدكتور طه حسين جملة منها في صبيحة اليوم الذي نشرت فيه، وكنا على موعد بداره في مصر الجديدة لنمضي معاً إلى الجامعة المصرية، فاتفق أن رأينا الأستاذ خليل مطران في الطريق، فكان من الطبيعي أن يحدثه الدكتور طه عن قصيدته، فقال الأستاذ مطران ما نصه بالحرف:
(لم أرد أن أقيم ملطمة عامة على سعد، كما صنع جماعة من الشعراء، وإنما أردت أن أحدد مكانه في التاريخ)
وكانت القصيدة كذلك، فقد تحدث مطران عن سعد كما يتحدث المؤرخ، وإن وشى حديثه بزخارف البيان
وقد رجعت إلى مكتبتي أستهديها تلك القصيدة فبخلت، فرجوت الدكتور رشيد كرم أن يتلطف فيحضر نسخة القصيدة من الأستاذ خليل مطران، فأحضرها بعد أيام طوال، ولكن أي قصيدة؟ هي قصيدة سنة 1936 لا قصيدة 1927، وهي القصيدة التي نظمها مطران عند انتقال رفات سعد إلى الضريح.
وذكرت الأستاذ مطران بما كنت أرجوه وقد لقيته في حفل خاص مع الدكتور علي باشا إبراهيم؛ فقال الجراح الأكبر: ألست تذكر أنها نشرت في الأهرام؟ قلت: نعم! فقال: أطلبها من أنطون بك الجميل. فقلت: ولكن ذلك يضيع فرصة الحديث عن هذه القصيدة في هذا الوقت، وسأقدم مقالي لمجلة (الرسالة) بعد يومين أثنين ثم نظرت في القصيدة الثانية فرأيت فيها محاسن جديدة لا أذكر أني ظفرت بمثلها في القصيدة الأولى، فقدّرت أن الشاعر اختارها عن عمد، لتكون صوته المختار في تأبين سعد.
ومطران يقسّم قصائده الطوال إلى موضوعات وتلك عادته منذ زمن بعيد، وقد تحدّث في قصيدته عن الشؤون الآتية:
(مات سعد وروح سعد باقية - مأتم سعد في مصر والشرق - ترجمة سعد - سعد في الصحافة - سعد في المحاماة - سعد في القضاء - سعد وزيراً للمعارف - سعد نائباً عن الأمة في العهدين - صورة سعد - سعد في أحاديثه - سعد الأديب - سعد الخطيب - سعد الزعيم الأكبر ووصف أخلاقه - سعد في وجه أعداء الوطن سعد في صحابته - سعد في منفاه وبعد عودته فائزاً - سعد في رياسته للحكومة الدستورية - بيت الحياة وبيت الخلود - إلى أم المصريين)
وقد أحتفل الشاعر بهذه الموضوعات فتكلم عنها بتفصيل شائق خلاب، كأن يقول في سعد الخطيب
قضى الخطيب الذي كانت فصاحته ... حالاً فحالاً هي الآلاء والنعم
حدِّث عن البلسم الشافي يمرّ به ... على الجراح قد استشرت فتلتئم
حدِّث عن البلبل الغِرِّيد مختلفاً ... بين الأفانين من تطريبه النغم
حدث عن الضيغم الساجي يثور به ... تحرُّشٌ بحمى الأشبال لا القَرَم
حدث عن السيل يجري وهو مصطخبٌ ... حدث عن النار تعلو وهي تحتدم
حدث عن البحر والأرواح عاصفةٌ ... والسحب عازفة والفُلك ترتطم

وكأن يقول في وصف أحاديث سعد:

قضى الذي كان ناديه ومحَضره ... قلادةً لكرام الناس تنتظم
إذا تكلم أصغت كل جارحةٍ ... إليه لا الكدَّ يَثنيها ولا السأم
دُرٌّ يُسلسله فيما يفوه به ... فالقلب مبتهجٌ والعقل مغتنم
كأن جلاسه مهما عَلَوْا رتباً ... راجو صلاتٍ عليهم تنثر النعم

ويرى مطران أن شمائل سعد تعجز المؤبنين فيقول:

يا من يؤبن سعداً، مَن تؤبنه ... هو الهدى والندى والبأس والشمم
هيهات توصف بالوصف الخليق بها ... تلك الفضائل والآداب والشيم
ما القول في دوحة فينانة سقطت ... ومن أماليدها الإحسان والكرم
كأنما غيضةٌ مجموعة نشبتْ ... فيها المنايا تُنَثِّيها وتخترم
لكنني أستعين الله معتذراً ... عن القصور وبعض العجز لا يصم

ومع هذا الاعتذار الطريف فقد أبدع مطران في رثاء سعد كل الإبداع

أما بعد. فقد رأى القراء أن الشعراء الذي تحدثنا عنهم قد التقوا في كثير من المعاني، وكان من الممكن أن نعقد الموازنات فنعرف كيف سبق هذا أو تخلف ذاك، كأن نشرِّح ما قالوا في وصف خطابة سعد، وكأن ننظر كيف صوروه في المحاماة والقضاء

فمتى نوازن بين هذه القصائد الجياد؟

ومتى نبين المعاني التي أنفرد بها بعض أصحاب هذه القصائد؟

زكي مبارك

كيف يكتب التاريخ

للدكتور حسن عثمان

مدرس التاريخ الحديث بكلية لآداب

- 3 -

أول مسألة تواجه المبتدئ في دراسة التاريخ هي مسألة اختيار موضوع البحث، والمسألة تختلف بالنسبة للطالب الذي يبدأ دراسته الجامعية عنها بالنسبة للباحث الذي أنهى مرحلة التعليم المدرسي وبدأ يتطلع إلى الدراسة العلمية المنتجة. فالطالب المبتدئ في التعليم الجامعي لا ينتظر منه عادة أن يقوم ببحث أصلي، أو أن يكشف عن مجموعة وثائق لم تكن معروفة من قبل، أو أن يستخلص حقائق تاريخية مجهولة؛ وإنما المطلوب منه أن يتوفر على تحصيل وسائل الإعداد والتدريب الذي يؤهله للعمل العلمي في المستقبل. فالطالب أثناء الدراسة الجامعية يختار - بإرشاد المدرس - بعض الموضوعات المدروسة، لا لكي يبحثها من جديد وإنما للتمرين والتدريب والاقتباس؛ وهو في هذا يشبه دارس الكيمياء أو الطبيعة الذي يقوم بعمل التجارب التي ثبت صحتها نهائياً لكي يتدرب ويعرف ما عمله غيره من قبل. فطالب التاريخ يستطيع أن يختار موضوعات متنوعة في الفروع التي يدرسها. ويمكنه أن يبحث بعض الموضوعات العامة، كأن يختار مثلاً كتابة ملخص عام عن تاريخ نابليون في حيز محدود. ويعتمد على القليل من المراجع الأساسية عن الموضوع التي يأخذها من المدرس أو التي يستخرجها بنفسه من كتب المراجع. فيقتبس ويدون مذكرات من هذه المراجع. وينبغي أن يلاحظ وضع أرقام الصفحات لكي يمكنه الرجوع إلى بعض النقط عند الضرورة؛ ثم يقارن ويمزج بين المعلومات التي جمعها، ثم يعرض بإيجاز نشأة نابليون وتعليمه وشخصيته وتدرجه في المناصب، وحروبه في الشرق وفي أوربا، وحكومته وإدارته، وظروف أوربا في عهده، ووقوف إنجلترا في سبيله، ثم سقوطه وحياته في المنفى. ويعطي الطالب ملخصاً وافياً لكل هذه النواحي. وهو في هذه الحالة سيتجاوز عن الكثير من التفصيلات والحركات المحلية. وسيكتفي بالمسائل المهمة البارزة فقط، سواء أكانت حوادث الحروب أم مشاكل السياسة الداخلية أو الخارجية. وبعد

ذلك يختار الطالب جزءاً من الموضوع العام الذي ألم به مثل موضوع حملة نابليون على روسيا في سنة 1812، فيبحث الظروف التي أدت إلى تلك الحملة، ويتبع سيرها والحركات الحربية التي وقعت، ووصول نابليون إلى موسكو، ثم ارتداده وفشله، وما يترتب على ذلك من الآثار في فرنسا وفي أوربا. وهو في هذا سيبحث موضوعاً أكثر تحديداً من الموضوع السابق، وإلمامه بتاريخ نابليون العام سيساعده على فهم الحملة

الروسية. ثم يتدرج إلى بحث نقطة تاريخية محددة بالذات مثل معركة واترلو، فيدرس في بعض المراجع العامة الظروف التي أدت إلى هذه المعركة ويوازن بين القوى الحربية لكل من فرنسا وإنجلترا وبروسيا، ثم يدرس خطط المعركة، ويتبع العمليات الحربية، ويوضح كيف هزم نابليون؛ ثم يشرح النتائج التي ترتبت على ذلك. ويمكن للطالب أن يطبق هذه الطريقة في نواح مختلفة من التاريخ. وهذا التدريج نافع جداً لأنه سيجعله يدرك فائدة الإلمام بتاريخ العصر أو الموضوع العام؛ وأثر ذلك واضح في فهم النواحي الخاصة، وفي التغلغل في بحث الموضوعات الجزئية. وسيعلمه هذا التدرج ضرورة الاهتمام بالجزيئات المعينة مع عدم إغفال الروح العام والنظرة العامة عن العصر الذي يبحث فيه. فلا بد من العناية بهاتين الناحيتين معاً على اتساق وتوافق. ثم يدرس الطالب بعض الوثائق الأصلية المطبوعة لبحث موضوع معين؛ كما يدرس بإرشاد الأستاذ طائفة مختارة من الوثائق المخطوطة، ويستخرج منها بعض الحقائق اللازمة لبحث نقطة معينة. وهذا كله كتدريب وإعداد للمستقبل. وما ينطبق على الطالب في الجامعة ينطبق على أي شخص لم تتح له فرصة التعليم الجامعي في بلد كمصر ويشعر في نفسه بالميل إلى دراسة التاريخ وبحثه

وعندما يتم الطالب مرحلة التعليم العالي ويحصل على درجة جامعية، ويرغب في متابعة البحث التاريخي، فإن اختيار موضوع البحث يبدو بشكل مخالف. فهو في هذه الحالة لا يستطيع أن يبحث أي موضوع كان؛ لأن المطلوب أن يقوم ببحث ويكشف عن حقائق تاريخية جديدة؛ فلا يكون البحث بناء على الرغبة فقط، وإنما يكون بناء على ما يجب أن يبحث، أو ما الذي يمكن أن يبحث. والباحث المبتدئ قد يثير اهتمامه أثناء دراسته بعض المسائل في تاريخ اليونان القديم أو في تاريخ العصور الوسطى أو في تاريخ الروسيا مثلاً. فللمضي في بحث إحدى هذه النواحي ينبغي أولاً أن يعرف العلوم المساعدة الرئيسية

المرتبطة بالفرع الذي يرغب دراسته. وإذا لم يكن يعرفها فينبغي أن يقرر بصراحة من أول الأمر: هل هو مستعد لأن يتعلمها أم لا؟ هل هو مستعد لأن يتعلم اللغة اليونانية القديمة أو لاتينية العصور الوسطى أو اللغة الروسية مثلاً؟ وهل هو مستعد لأن يتقن ما يتصل بهذه اللغات من العلوم المساعدة الضرورية مثل علم النقوش، وعلم قراءة الخطوط. . . فإذا لم يكن مستعداً لذلك فينبغي عليه أن يعدل عن المضي في بحث إحدى هذه النواحي التي تعوزه فيها الوسائل الضرورية، ويمكنه أن ينتقل إلى مجال بحث آخر يعرف أصوله وقواعده

والمبتدئ في البحث التاريخي طبقاً للطرق العلمية الحديثة، ينبغي أن يراعي بعض الأمور. فيجب أن يختار ناحية أو نقطة محددة لكي يستطيع أن يتفرغ لدراستها وإخراج جديد عنها؛ وتكون هذه النقطة جزءاً من موضوع عام لكي يتسع المجال أمام الباحث لمتابعة دراساته في المستقبل. فمثلاً لا يصح للباحث أن يتخذ تاريخ الدولة الأيوبية بأكمله موضوعاً للبحث، لأنه موضوع طويل. فالأيوبيون قد حكموا مصر من سنة 1169 إلى 1250م. ودراسة هذه الفترة دراسة عميقة مع كشف حقائق عميقة مع كشف حقائق جديدة عنها لا يمكن تحقيقها في سنوات قلائل. وإذا أصر الباحث على القيام بهذه الدراسة، فإنه لن يأتي بأكثر من تلخيص ما هو موجود في المراجع المعروفة أما إذا خصص وقته وجهده في نفس هذه سنوات القلائل لبحث ناحية معينة بالذات، مثل تاريخ صلاح الدين أو تاريخ الملك العادل أو تاريخ التجارة في عهد الدولة الأيوبية، فإنه يستطيع أن يسبر غور الأرض المجهولة ويكشف عن حقائق تاريخية جديدة. وبديهي أن الوقت والجهد اللذين يخصصان لفترة قصيرة يأتيان بنتائج علمية أعمق مما لو خصص لفترة طويلة. ووضع المؤلف علمي دقيق عن عصر الدولة الأيوبية بأكمله لا يمكن أن يتم إلا بعد دراسة جزيئات هذا العصر وبعد كشف كل الحقائق التي يمكن الوصول إليها. وما يقال عن عصر الدولة الأيوبية ينطبق تماماً على أي عصر آخر. وكذلك ينبغي أن يلاحظ الباحث عند التفكير في اختيار موضوع البحث ميله واستعداده، سواء للناحية الحربية أو السياسية أو الاقتصادية أو الدينية أو الفنية. ولا داعي لأن يقسر الباحث نفسه على ولوج ميدان لا يميل إليه؛ وعلى العكس فإن طرق الميدان الذي يميل إليه يجعله أقدر على العمل وأقوى على كشف الحقائق. والمرحلة

الأخيرة التي ينبغي أن يمر خلالها الباحث قبل أن يختار نهائياً موضوع البحث من الناحية العلمية تتلخص فيما يلي:

هل الموضوع الذي فكر فيه يحتاج أي أن يبحث؟ ألم يكن قد بحث من قبل مطلقاً؟ أو هل بحث بطريقة غير كافية وهل المادة الأصلية الموجودة عنه لم تدرس ولم تنقد كما ينبغي؟ أو هل قد وجدت أو يمكن أن توجد مادة أصلية جديدة تبرر إعادة بحث الموضوع من جديد؟ فإذا توفرت بعض هذه الشروط فمعنى ذلك أن الموضوع يحتاج إلى الدرس والبحث. ولكن كيف يمكن للباحث أن يثبت توفر بعض هذه الشروط؟ الطريقة العاجلة هي أن يبادر باستشارة أحد الأخصائيين في ميدان البحث التاريخي المعين، سواء في البلد الذي يعيش فيه أو في أي بلد آخر بواسطة المراسلات. وإذا تعذر الوصول إلى ذلك الأخصائي فعلى الباحث أن يجيب على هذه الأسئلة بنفسه. فلكي يعرف الباحث المراجع العامة والخاصة التي ظهرت عن العصر المعين، وهل اعتمدت على كل الأصول المعروفة فإنه يلزمه الاسترشاد بفن الببليوغرافيا. والتأكد من أن الأصول التاريخية الموجودة قد نقدت واستخدمت بطريقة علمية صحيحة يدخل في باب نقد الأصول والمصادر؛ ومسألة وجود مادة أصلية جديدة عن الموضوع تعرف عن طريق البحث والعمل في دور الأرشيف مثلاً. وسوف نعرف أشياء عامة عن هذه النواحي في هذه المقالات. وإذا لم تتوفر بعض هذه الشرط السالفة فلا معنى مطلقاً للاستمرار في البحث بدون جدوى عن ذلك الموضوع. ولابد إذاً من العدول عنه إلى موضوع آخر يمكن الإتيان في بحثه بجديد

وما هي الأعمال العلمية والأبحاث التي ينبغي أن تعمل في مصر؟ نحن فقراء ومتأخرين جداً في ميدان البحث التاريخي بالمعنى العلمي الحديث. والغرب قد سبقن بمراحل هائلة جداً في كل أدواره مثل طبع الفهارس ووضع الببليوغرافيات المتعددة الأنواع، وجمع الأصول، ونشر بعضها في مجموعات ضخمة، ووضع المؤلفات التي لا حصر لها عن مختلف أنواع التاريخ في جميع عصوره عن تاريخ العالم كله، وعن تاريخ كل من الدول والشعوب على حدة، سواء في ذلك المراجع التي تتناول التاريخ العام، أو المراجع التي تبحث عصوراً معينة ونواحي خاصة في تاريخ كل من هذه الدول والشعوب. فأين نحن من كل هذا؟؟ صحيح أن بعض الباحثين من المصريين قد وضعوا أبحاثاً عن بعض مسائل

التاريخ المصري وغير المصري نتيجة جهود فردية ولكنها قليلة جداً؛ ونحن عالة على علماء الغرب الذين درسوا نواحي متعددة من التاريخ المصري في عصوره المختلفة. ولكن هذه الدراسات المتعلقة بمصر سواء من جانب المصريين أو الأجانب لا تكفي مطلقاً. وقبل أن نفكر في اختيار موضوعات للبحث في تاريخ مصر ينبغي أن نقوم بأعمال تمهيدية واسعة النطاق وأساسية جداً، لكي يسير العمل سيراً منتظماً وفعالاً. وأول هذه الأعمال التمهيدية القيام بطبع كتالوجات وفهارس لدور الكتب ودور الأرشيف في مصر بالطرق العلمية الحديثة - أي بتبويبها وتقسيمها ووضع الفهارس لها - مما هو غير متوفر تماماً في الموجود منها حالياً، فضلاً عن غير الموجود أصلاً. ثم وضع الفهارس وقوائم للكتب والمخطوطات التي تناولت تاريخ مصر في العصور المختلفة؛ ثم جمع المخطوطات التاريخية ونشر بعضها نشراً علمياً حديثاً. وصحيح أن بعض الأفراد وبعض الهيئات مثل: المطبعة الأميرية، ودار الكتب المصرية، ولجنة التأليف والترجمة والنشر، تقوم بنشر بعض الأصول التاريخية. ولكن لم تنشر أغلبها النشر العلمي الواجب لخلوها من الفهارس مثلاً. ولقد عني المغفور له الملك فؤاد الأول بجمع الكثير من الوثائق المتعلقة بتاريخ مصر في القرن التاسع عشر من محفوظات مصر ومن بعض دور الأرشيف في أوربا وأمريكا، وقد حفظت في أرشيف عابدين؛ كما عنى بنشر بعض مجموعات من هذه الوثائق مثل مجموعة دوان وسامّاركو ومجموعة القرمانات السلطانية وكذلك أشرف جلالته على وضع مؤلفين عن تاريخ مصر العام باللغة الفرنسية، وأشترك في كتابتهما طائفة من العلماء الأجانب؛ ولكن هذا لا يعني أن العمل قد انتهى، فهناك عشرات الألوف من الوثائق لا تزال مجهولة عن نواحي هامة في تاريخ مصر منذ العهد العثماني حتى أوائل عهد محمد علي الكبير في دار المحفوظات المصرية بالقلعة، ويقابلها آلاف الوثائق عن هذا العهد محفوظة في دور الأرشيف الأوربية، وأغلبيتها الساحقة لم تمسها يد إنسان بعد.

فلابد من حصر وجمع وتبويب هذه الوثائق في مصر وفي الخارج؛ ولابد من نشر بعض أجزاء منها نشراً علمياً.
وما عمله الغرب بخصوص نشر مجموعات ضخمة من الوثائق التاريخية، وما عمله ذلك الرجل المقيم في ظلال الأرز والجديد بالإعجاب والتقدير، من نشر بعض مجموعات من
الوثائق عن تاريخ سوريا كفيل بأن يجعلنا نجدّ ونسعى لنشر وثائقنا وأصولنا التاريخية.
وبعد إتمام بعض هذه الأعمال التمهيدية يمكن أن يتقدم وأن ينشط البحث التاريخي في مصر بدرجة مرضية. والمؤلفات التي تكتب قبل أن تتم بالنسبة إليها هذه المراحل التمهيدية، مع أنها جديرة بالتقدير، لا يمكن أن تعتبر آخر كلمة في الموضوع الذي تتناوله. وأرى أنه ينبغي على الباحثين أن يتبعوا أبحاثهم بنشر المهم من الوثائق التي اعتمدوا عليها في مجلد أو في مجلدات خاصة، لأن هذا العمل لا يقل - إن لم يزد - في قيمته العلمية عن البحث التاريخي نفسه. وبعد ذلك تواجهنا ثغرات هائلة في مراحل التاريخ المصري ينبغي أن تدرس وتبحث على مدى الزمن مثل تاريخ المدن المصرية وتاريخ الأزهر والمساجد، وتاريخ الكنائس والأديرة، وتاريخ التجارة في مصر، وتاريخ مصر المالي والإداري في العهد العثماني، وتاريخ علي بك الكبير، وتاريخ الحركة العرابية. . .
وهذه الأعمال الخطيرة لا يمكن أن تؤديها الجهود الفردية، ولا يمكن أن يقوم بها جيل واحد من الباحثين. وللسير في سبيل تحقيقها بالتدريج من الضروري جداً إنشاء معهد أو جمعية للدراسات التاريخية، كما هو الحال في الغرب، وتزود بالمال اللازم، وتضم شتات المشتغلين بالبحث التاريخي في مصر، وتنضم أعمالهم وتوحد جهودهم للإنتاج العلمي الصحيح. ومن اللازم أيضا أن نبدأ بإصدار مجلة للعلوم التاريخية، فإنه توجد في الغرب مجلات عديدة في التاريخ العام ومجلات خاصة لفروع التاريخ المختلفة. ولابد من جهد متواصل وتضافر وإخلاص في العمل، وبعد عن الزخارف وأبهت المناصب؛ ونحن أشد الحاجة إلى إيجاد بيئة علمية صحيحة تعمل للعلم وحده، وتضع تقاليد وطيدة، وتقوم ببعض الواجب نحو العلم والتاريخ.
(يتلى)
حسن عثمان
كليلة ودمنة - 2
نقد وتعليق
للأستاذ عبدا لسلام محمد هارون
7 - 4: 179: (فأسعفني بطِلبتي) بكسر الطاء وهي صحيحة. لكن العرب يختارون في مثل هذا (الطَّلِبة) بفتح الطاء وكسر اللام. ومنه حديث نقادة الأسدي: (قلت: يا رسول الله، أطلب إليّ طلبة، فأني أحب أن أطلبكها)
8 - 4: 261: (إن الملوك وغيرهم جدر أن يأتوا الخير إلى أهله). وقد أفسد هذه العبارة أمران: أما الواحد، فأن (جدر) جمع (جِدار) بالكسر، وهو الحائط؛ والصواب: (جدراء)، أو (جديرون)، وهما الجمعان اللذان يجمع عليهما (جدير)؛ وجمع (فعيل) صفة على (فعل) بضمتين نادر سمع منه: نذير ونذر وجديد وجدد (بدالين)، وسديس وسدس وأما الثاني، فأن (أتى) إذا تعدّى إلى المفعول لا يكون بمعنى الإعطاء، بل يكون بمعاني أخر منها الفعل: أتى الأمر والذنب: فعله؛ ومنها الهدم والقلع، قال الله تعالى: (فأتى الله بُنيانهم من القواعد) ومنها الانتساب، أتى الرجل القوم: أنتسب اليم وليس منهم، فهو أتيٌّ
وأما الذي هو بمعنى الإعطاء فهو الفعل (آتى) على زنة أفعل. ومنه قول الله تعالى: (آتنا غداءنا)؛ وقوله: (وآتيناه الحكم صبيّا)؛ ومضارعه (يؤتى) على يفعل.
وفي كتاب الله تعالى: (يُؤتى. يؤتون. يؤتين. يؤتيه. سيؤتينا. يؤتكم. يؤتيهم. تؤتونهن. وتؤتوها. نؤتيه. نؤته. نؤتها. يؤتهم. سنؤتيهم)؛ وإنما سقت هذه الشواهد لأنبه على أن ما ورد في اللسان من قوله: (والإيتاء: الإعطاء. آتى يؤاتى إيتاءً، وآتاه إيتاءً أي أعطاه) وهم أو تصحيف؛ والصواب: آتى يؤتى
فوجه عبارة أبن المقفع إذن: (جدراء أن يؤتوا الخير إلى أهله).
ولعل السر في هذا التحريف أن طائفة من علماء الرسم الأقدمين كانوا يرسمون

الهمزة ألفاً في كل حالة، وزعيمهم في ذلك سنة 207 وجمهور علماء الرسم يسمون أولئك (أصحاب التحقيق)، أي تحقيق الهمزة؛ وأما الكتابة الغالبة التي نأخذ نحن بها الآن، فيسمى أصحابها: (أصحاب مذهب التخفيف والتسهيل)، وهم يجرون على لغة أهل الحجاز في تخفيف الهمزة وتسهيلها، ويعبرون عنها بصور تسهيلها: من الألف والواو والياء. فلعل هذه بقية من بقايا
رسم التحقيق
في الضبط النحوي - 2
ص14س7: (ولكل علّة مجرى)، صوابه: (مجرى) بالتنوين، وهو تحريف طبع - 1
بنصب (قلبه) وجعلها مفعولاً (فيعلم سرّ نفسه وما يضمر عليه قلبه) :18 :11 - 2
ليضمر، وأضمر يضمر بمعنى أخفى يخفي، فما يكون المعنى في أن يخفي قلبه عليه؟
الصواب: (قلبه) بالرفع على الفاعلية؛ لأن القلب هو الذي يضمر الأسرار والنوايا
يصح (وشبّهت الجرذين بالليل والنهار، وقرضهما دأبهما في إنفاد الآجال) :41 :14 - 3
أن تقرأ: (وقرضهما دأبهما) باستمرار التشبيه، و (شبّه) من الأفعال التي تتعدى إلى مفعولين. وفي اللسان: (شبّهه إياه وبه). ومنه قول الشمردل:
يُشَّبهُون مُلوكاً في تجِلّتهم ... وطول أنْضية الأعناق والأُمم
وقول عبد بني الحسحاس:
فشّبهنني كلباً ولست بفوقه ... ولا دونه إن كان غير قليل
وقد سبق استعمال ابن المقفع لهذه اللغة في 35س4: (وشبهتهما الجُنَّةَ الحريزةّ)
وعلى ذلك يسوغ أيضاً أن تضبط كلمة (العسل) في السطر بعدها بالنصب
قال دمنة: حدثني الأمين الصادق عندي أن شنزبة خلا برؤوس) :16 - 14 :68 - 4
جندك فقال لهم: قد عجمت الأسد، وبلوت رأيه ومكيدته وقوته، فاستبان لي في كل ذلك ضعف، وإنه - بسكر الهمزة - كائن لي وله شأن. وأنه - بفتح الهمزة - لما بلغني
يصح أيضاً: (وأنه كائن) بفتح أن، عطف على فاعل (استبان). ،(هذا عرفت. . . الخ
ويتعين: (وإنه لما بلغني) بكسر الهمزة، عطف على مقول دمنة، أي وقال دمنة: إنه لما بلغني. . . الخ
صوابه: .(وكذلك الجهال لم يزالوا يستثقلون عقلاءهم واللوماء كرامهم) 3 :96 - 5
(واللؤماء) بالرفع. وهذا تحريف طبع
ولا وجه للفرع .(فأعادت ذلك عليه مراراً - كل ذلك لا يلتفت إلى قولها) 4 : - 128
هنا. والوجه (كل ذلك) بالنصب على الظرفية الزمانية. ولا يصح أن تكون: (كل) مبتدأ، وذلك لأن الضمير العائد عليها محذوف تقديره (فيه).
والبصريون يمنعون حذف الضمير العائد على لفظ (كل) إذا كان مبتدأ، ولذلك حكموا بشذوذ قراءة أبن عامر في سورة الحديد (وكل وعد الله الحسنى)، وقراءة باقي السبعة: (وكلاً) بالنصب. وأبن عامر قرأ نظير هذه الآية من سورة النساء 95 (وكلاً وعد الله الحسنى) بالنصب كالجماعة
تكرار (كذا) مع العطف أحد استعمالين صحيحين. .(إلى مكان كذا وكذا) 2 :160 - 7
والوجه الآخر الإفراد، أي (مكان كذا)؛ وبهذا وردت في ص83 من طبعة بولاق
قال أبن هشام في رسالته التي صنفها في معنى هذه الكلمة:
كذا وكذا يكنى بها عن غير العدد. وفيها حينئذ الإفراد والعطف، نحو مررت بمكان كذا، ومررت بمكان كذا وكذا. ويكنى بها عن العدد وليس فيها إلى العطف. . . وقال أبن مالك: سمع فيها العطف وعدمه كالأولى، ولكنه قليل
وفي شرح الأشموني: (تأنى كذا هذه - أعني المركبة - كناية عن غير العدد وهو الحديث مفردة ومعطوفة)
ففهم من هذين النصين أن الإفراد في المكنى بها عن غير العدد مقدم على العطف. ولكن الرضى قدم العطف على الإفراد في الحالين
قال: (وورود كذا كذا مكرراً مع واو نحو كذا وكذا أكثر من إفراده ومن تكرره بلا واو، ويكنى بها عن العدد نحو عندي كذا درهماً، وعن الحديث نحو قال فلان كذا)
وقد التزم أبن المقفع لغة العطف، فقد جاء في 168 س14 (إن اليوم بمكان كذا وكذا) وفي 224 س8: (في يوم كذا وكذا من شهر كذا وكذا)، وفي 258 س13 (فقال كذا وكذا)

والوجه: (إلا .(ولم أذكر ما ذكرت إلا أكون أعرف منك الكرم والسعة) 2 :179 - 8
لكوني أعرف منك) الخ
برفع (أيهما) والصواب (أيهما) بالنصب، فإنها مفعول (لم تدر أيهما تأخذ) 3: 199، 9 -
مقدم لتأخذ، وليس من باب الاشتغال و (أي) هنا استفهامية، ولذا علقت الفعل القبلي
قبلها عن العمل فيها. ولا يجوز أن تكون (أي) هنا موصولة بنيت على الضم، ولو فرضنا
أنها موصولة فإنها لا تبنى عليه إلا في حالة واحدة، وهي إذا ما أضيفت وحذف صدر
الصلة.
وليس في الكلام صدر صلة محذوف؛ فإنها جملة فعلية
قال الرضي: (صلتها أما اسمية أو فعلية. والفعلية لا يحذف منها شيء، فلا تبنى أي
معها. والاسمية قد يحذف صدرها). فلا بناء مع الصلة الفعلية
وبمنع (غدوة) من الصرف. وهذا ضبط جيد، فإن ،(من غذوة إلى الليل) 9: 268، 10 -
(غدوة) هنا معرفة من قبيل أعلام الأجناس، بدليل قرنها بالليل وهو معرفة. وغدوة
حين تعدها معرفة تمنعها الصرف فتجرها بالفتحة
وزعم الخليل أنه يجوز أن تقول: آتيك اليوم غدوة وبكرة؟ فهذا دليل على جواز
الصرف مع إرادة المعرفة
في تحقيق النص - 3
فما وجه (مثل الحراث الذي يثير أرضه ويعمرها ابتغاء الزرع لا العشب) 10: 26، 1 -
العمارة في طلب الزرع؟!
الصواب (يغمرها) بالغين المعجمة، أي بالماء
في الحديث عن الجنين: (منوط قمع سرته إلى مريء بأمعائها). وهو كلام 3 ،38 - 2
متهالك مضطرب. فما العلاقة بين سرة الجنين وأمعاء الأم؟! وإنما الجنين موطنه
الرحم، لا يعدوه ولا يتصل بغيره من الأعضاء. والصواب: (منوط بمعنى (من) سرته)
كما ورد في نسخة بولاق ص28. والمعي، بالفتح، وكإلى: واحد الأمعاء. والمراد به هنا
ما يسمى: (الحبل السري):
أما كلمة (مريء) فعجيبة أيضاً، فإن المريء بفتح الميم وكسر الراء: هو رأس المعدة
اللاحق بالحلقوم، وهو مجرى الطعام والشراب إلى المعدة؛ لا يكون إلا ذلك، فكيف
يكون المريء بالأمعاء؟! ووجه سائر العبارة عندي: (إلى مراق رحمها). وأصل المراق
للبطن، وهي مارق منه ولان
هي (مجهولاً) باللام. جاء في نسخة بولاق: (وكان (والرضا مجهوداً مفقوداً) 6: 40: 3 -
الرضي أصبح مجهولاً) وفي نسخة شيخو 42: (وأصبح الرضي مفقوداً مجهولاً). وعند
ابن الهبارية:
من بعد ما عاد الحجا مجهولاً ... والشر قد سامى السماء طولاً
والحجا بالكسر: العقل والفطنة
صوابه: (إلا مثل غبار الميل). .(كالكحل الذي لا يؤخذ منه إلا مثل الغبار) 7: 44: 4 -
وقد جاء في نسخة بولاق ص30 (إلا غبار الميل) وفي نظم أبن الهبارية ص22:
أوشك أن يبقى بغير مال ... فالكحل لا يبقى على الأميال
الأميال: جمع ميل بالكسر
وفي التذييل ص290: إنها كذلك في (كالشعلة من النار التي يصونها) 2 :52 - 5
الأصل وفي نسخة شيخو، وأنها في النسخ الأخرى (يضربها) وأن قريباً من هذا في
السريانية الحديثة
أضيف إلى هذا التذييل أن في نسخة بولاق ص 34 (يضرمها) بالميم وهذه محرفة بلا
ريب فليس المراد تقوية النار وإضرامها وتذكيتها، بل المراد سترها ومحاولة إضعافها
المسألة هنا بمعنى السؤال، مصدر ميمي (فأحسن الأسد مسألة شنزبة) 1 :58 - 6
من سأل؛ والكتابة المعروفة (مسألة) برسم الهمزة فوق الألف
هي في الأصل ونسخة (مثل المكاري، كلما ذهب واحد جاء آخر مكانه) 12 :75 - 7
شيخو: (مثل البغي كلما ذهب واحداً جاء آخر مكانه). وفي نسخة بولاق: (كمثل البغي
كلما فقدت واحداً جاء آخر). وتغيير الأصل هنا لا مبرر له.
والأستاذ الجليل يعرف أنه لا يجوز لناشر كتاب تاريخي عالمي أن يبدل ما يراه غير
ملائم لأذواق معاصريه وميولهم، ويعلم أن ذلك قد يعد جوراً على حق مؤلف الكتاب،

فإن تسويغ التبديل يسلب الكتاب شخصيته، وربما نكره على مرور الزمان فعاد آخر غير الأول

ولعل ما حذا بالأستاذ على ذلك أن قد وجد أبن الهبارية قد صنع مثله (في ترجمته ص 69:) إذ يقول

شبيه خان فاعلمن ومكتبِ ... من فر يوماً عنهما لم يطلب

لا يحقلان أبداً بمن رحل ... لكل من يمضي من الناس بدل

ومهما يكن فإن لفظ (المكاري) قلق ناب في موضعه، لا يتوجه إلى المعنى إلا مع الجهد والعسر، وإن فيما أثبته الأستاذ من التنبيه على ذلك التبديل في التعليقات لما يحمد عليه، وإن كان لا يعد عذراً صالحاً للناشر

ونسأل: ما الحكمة في أن يرفع الأستاذ هذا اللفظ من صلب الكتاب ثم يثبته وينبه عليه في التعليقات؟! وكيف تسخط هذه الكلمة وغفر لنظائر لها وأشباه متفرقات في ثنايا الكتاب؟!

(له بقية)

عبد السلام محمد هارون

الفقر مسألة اجتماعية

للأستاذ رمسيس يونان

كتب الأستاذ العقاد في عدد مضى من (الرسالة) فصلاً قيماً في مشكلة الفقر كان من بين ما كتب الكاتبون جديراً بالدرس والتحليل

وبالرغم من دفاع الأستاذ العقاد القديم المتواصل عن العامل العاطفي في حياة الإنسان، فلا شك في أنه من رجال الفكر المفتونين بالمنطق العقلي؛ وهذه ميزة في بيئة تعمه في الخرافات والآراء المنقولة والحكم المسطورة. ولكن للمنطق العقلي حدوداً ونقائص، وأولى هذه النقائص أن عرض المشاكل الاجتماعية كما تعرض القضايا المنطقية كثيراً ما يوهم المفكرين بأن حل المشاكل الاجتماعية رهين بحل قضية اجتماعية؛ وليس هكذا يحل المجتمع مشكلاته، وليس هكذا تتطور وتسير الحياة.

ونقيصة ثانية تلازم المعتمدين على المنطق العقلي وحده هو نزوعهم في أغلب الأحيان إلى صياغة آرائهم في قالب الحقائق المجردة الثابتة، وليس هناك حقائق بوجه عام - وحقائق اجتماعية بنوع خاص - مجردة عن ظروف الزمان والمكان. فالمجتمع ظاهرة متطورة، ومع تطوره تتطور حقائقه ومثالياته وأحكامه. . . على أن أهم هذه النقائص هو أن رجال المنطق العقلي كثيراً ما يقعون في شرك خدعة نفسية كبرى، فهم إذ يعرضون آرائهم على أنها أحكام مطلقة أو حقائق لا مراء فيها أو بديهيات أولية، لا ينتبهون إلى أن هذه الآراء هي - عن غير وعي منهم - ليست في صميمها غير انعكاس في أذهانهم لصور مادية يحيطهم بها مجتمع بعينه

وأول ما ألاحظه - تفسيراً لما أقول - أن الاهتمام الحديث المتزايد الذي بدأ من كتابنا بدراسة المشاكل الاجتماعية المتصلة بتوزيع الثروات لم يأت عفواً، ولا من شهوة ذهنية طارئة هبطت على عقولهم من عالم الفكر المجرد. . . وإنما هناك حقائق مادية جديدة قد نشأت في المجتمع المصري هي التي انفعلت في أذهان هؤلاء الكتاب وبعثتهم على التفكير فيها وعرض الآراء والحلول؛ وهذه الحقائق - ككل الحقائق الاجتماعية - في حركة وتطور مستمر، وهي لا تتحرك وتتطور تبعاً لما يرتأى لها المنطقيون، بل يفعل مطالب إنسانية تكشفت وتمت إذ مهدت لتحقيقها وسائل مادية جديدة

وعلى ذلك فأنا أعتقد أن الأسلوب الصحيح الذي يجب أن نسلكه في دراسة مشكلة اجتماعية مثل مسألة الفقر، هو أن نبدأ أولاً ببحث هذه الحقائق المادية الجديدة، وقبل أن نبدي الآراء والحلول المنطقية أو غير المنطقية، يجب علينا أن نتبين جيداً الاتجاه الذي تسير إليه هذه الحقائق، وبهذا فقط يمكن أن يصبح تفكيرنا قوة إيجابية مجددة، بدلاً من أن يكون مجرد انعكاس سلبي، قد يعبر عن (إحدى صور المجتمع)، ولكنه لا يعبر عن (الحركة الاجتماعية) في تطورها الخالق

والعقاد - إذ يعتمد على المنطق العقلي - لم يستطع أن يأتي بحكم واحد لا يقبل الجدل

فالفقر عند العقاد، ولكنا لن نعدم أديباً آخر يقرر أن الفقر عقاب، أو أنه تجربة من رب السماوات
ونفهم من كلام العقاد أنه يريد أن يكون ربح الأفراد مساوياً لما يقدمون للمجتمع من نفع؛ وكلمة (المجتمع) هنا خداعه غامضة المدلول، فأي مجتمع يقصد؟ هل يقصد المجتمع الإنساني شمولاً؟ إذا كان ذلك كذلك فالمجتمع الإنساني كما نرى مقسم إلى مجتمعات كثيرة تتضارب مصالحها إلى حد يصل بها إلى حرب شنيعة كالحرب الحاضرة. وعلى ذلك فالرجل الذي يعد نافعاً أكبر النفع بالنسبة للمجتمع الألماني مثلاً قد يعد مجرماً بالنسبة للمجتمع البريطاني. أما إذا كان العقاد يقصد (بالمجتمع) أمة بعينها، فالأمم كما نرى مقسمة إلى طبقات ذات مصالح متعارضة.
فإذا اكتشف عامل مثلاً وسيلة جديدة يلجأ إليها العمال ليرغموا بها أصحاب المصانع على زيادة أجورهم، عد هذا العامل مفيداً أكبر الفائدة بالنسبة لطبقة العمال، ولكنه لن يعد كذلك في نظر الطبقة التي تملك المصانع
والربح عند العقاد منه الحلال ومنه الحرام؛ وليس لمقاييس الحلال والحرام ثبات؛ فلكل مجتمع مقاييسه التي تنشأ معه لتوافق مصالح الطبقة الحاكمة. فاغتصاب ثروات الآخرين بالقوة مثلاً يعد إجراماً في معظم المجتمعات الحاضرة، ولكنه لا يعد كذلك في كل المجتمعات، ولم يكن يعد كذلك في كل العصور، بل هو ما زال يعد عملاً من أعمال البطولة في ساحات الحروب. . .
ويستنكر العقاد أن (يكون الجزاء الوافي حظ الممثل الذي لا يستحي أن يعرض رجولته للفضوليات من المتفرجات)، وقد يشارك العقاد في هذا الرأي قوم كثيرون، ولكنه من المؤكد أن (الفضوليات من المتفرجات) لا يشاركنه إياه
ومن الحقائق التي لا مراء فيها عند العقاد (أن حياة الإنسان كائناً ما كان انفس من القوت والكساء. . .) فلماذا لا نضيف إلى ذلك أن حياة الإنسان كائناً ما كان هي أنفس أيضاً من سيارة رشيقة، ودار أنيقة، تحيطها حديقة موردة؟. . . فإذا قيل لنا: إن الإنسان يموت إذا حرم القوت والكساء، ولا يموت إذا حرم سيارة أو حديقة، فلنقل: إن الحياة لا تعني عدم الموت فقط، وأن الحياة بغير متعة إيجابية هي والموت سيان
ومن الحقائق أيضاً عند العقاد أن (الأمان كل الأمان خطر على الهمم والأذهان)؛ وهو يريد أن يقول بذلك أنه لو اطمأن كل فرد إلى قوته وكسائه، فقدنا من بني الإنسان العنصر المقتحم المغامر (ومني العالم بخطر من جراء ذلك، هو أخطر عليه من الإجحاف في تقسيم بعض الأعمال، وتوزيع بعض الأرزاق). . .
ولو صدر هذا القول من إسماعيل صدقي مثلاً لعذرناه. . . ولكن الغريب حقاً أن يصدر من العقاد. . .! فكيف يستطيع العقاد الشاعر أن يقول إنه لا تكون مغامرة أو اقتحام إلا حيث يكون طلب الرزق، وإن الإنسان لا يغامر في سبيل غرام، أو في سبيل كشف علمي أو إنتاج فني؟. . . ولماذا لا نقول: إن روح المغامرة إذا تحررت من هموم العيش وأعباء الثروات، فسوف تكتشف لنفسها ميادين وآفاقاً جديدة هي أجدر بعواطف الإنسان؟. . .
ويرى العقاد - كما يرى غيره - أن (العالم مدين للعصاميين)؛ وهذا رأي أقل ما يقال أنه مشكوك فيه. . . فأن عدد الفلاحين الهنود والصينيين يزيد على نصف سكان هذا العالم؛ فهل يمكن أن يقال مثلاً: إن هؤلاء الفلاحين مدينون بشيء للعصاميين؟. . . ولكن لنفرض جدلاً أن هذا الرأي صحيح، فمن الصحيح أيضاً أن نقول: إن الفلسفة والفنون الإغريقية مدينة لنظام الرق. . . وإن الديمقراطية الإنجليزية مدينة للفقر المدقع الذي يعانيه فلاحو الهند. . . فلولا وجود العبيد عند الإغريقلما استطاع (السادة) أن يتفرغوا للتفكير المجرد والبحث عن المثل العليا، ولما ازدهرت عندهمفلسفة أو فنون. . . ولولا الأجور المنحطة التي ينالها فلاحو الهند لما أمكن المستعمر أن يربح هذه الأرباح الطائلة التي بدونها لما يتيسر للحكومة الإنجليزية أن تتقدم لعمالها بمشروعات الإصلاح وبالإعانات والهبات الكثيرة. ولكن لولا هذه الإعانات والهبات لانتظرنا أن تنشط بين العمال الإنجليز الحركة
الشيوعية كما نشطت في ألمانيا؛ وفي هذه الحالة، لا يكون غريباً أن الطبقة الحاكمة الإنجليزية كانت تلجئ إلى النظام الدكتاتوري لقمع هذه الحركة
ولكنا إذا قلنا أن الفنون الإغريقية مدينة للعبيد، وأن الديمقراطية الإنجليزية مدينة لفقر

الفلاحين الهنود، فليس معنى ذلك أن نظام الرق كان يجب ألا يزول، أو أن فقر الفلاحين الهنود ينبغي أن يستمر. . وكذلك إذا صح أن العالم مدين للعصاميين، فليس صحيحاً أن العالم سيبقى مديناً لهم أبد الآبدين. فمهما تكن قيمة الدور التاريخي الذي لعبه العصاميون في تطور الاقتصاد العالمي في القرنين الماضيين، فأن كل الحقائق تدل على أن ما يسميه العقاد (البراعة المالية) ليست في الوقت الحاضر كما يقول (لازمة لتأسيس المرافق الاجتماعية والأخلاق القومية وتنظيم العلاقات واستثارة الهمم وتوزيع الأعمال التي لا يستبحر بنيرها عمران. . .) بل إنها على العكس من ذلك تؤدي بالعالم الآن إلى أشنع تمزيق وتخريب وتدمير عرفه الإنسان

فلا وجود للعصاميين بغير تنافس اقتصادي؛ وللتنافس الاقتصادي العالمي هو المسؤول الأول عن الحرب الماضية وعن الحرب الحاضرة. ولسنا ننتظر من مخلوق به مسكة من الشعور الإنساني أن يقول إن هذه الحرب في ذاتها بركة للإنسان. هذا وإن كنا نأمل - بعد أن فشلت الحرب الماضية في تنبيه الشعوب تنبيهاً كافياً إلى عواقب التنافس الاقتصادي - أن تكون نتيجة هذه الحرب الحاضرة هو القضاء فعلاً على النظام الاقتصادي الذي يؤدي التكالب فيه على جمع الثروات إلى الدجل والاحتيال من ناحية، وإلى الشقاء والمرض والحروب الهمجية من ناحية أخرى. . . .

ولا شك أن الفقر - كصفة لاصقة بحياة الأغلبية من الشعب المصري - ظاهرة قديمة ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ. فما الذي جد إذاً على فقراء مصر حتى أصبحت لهم مسألة تشغل بال كثير من الأغنياء، ويهتم لها المفكرون، وتقلق أدباء كانوا يؤثرون الدعة والراحة في مخادع البرج العاجي. .؟

قد يكون صحيحاً أن بعض الأدباء والمفكرين المصريين قد تأثروا بالأدب والتفكير الأوربي الحديث الذي يعالج مشاكل الاقتصاد وتوزيع الثروات، وهي أم المشكلات في الحياة الأوربية المعاصرة، ولكن هذا التأثر كان يبقى شيئاً خاصاً بأفراد، لا قيمة اجتماعية له، ولا

يثير اهتمام الرأي العام، لو لم تكن حياتنا الاجتماعية قد تأثرت مادياً بالمدنية الغربية ولقد اقتبسنا عن الغرب أشياء كثيرة، منها مظاهر سطحية كأساليب الأكل واللباس، ومنها مظاهر أعمق كأساليب التشريع والقضاء والتعليم، ولكن وراء كل هذه المظاهر يكمن تأثر مادي أساسي، هو اقتباسنا لبعض الأساليب الحديثة في إنتاج الثروات، أي لبعض الصناعات الآلية التي نمت في مصر نمواً مطرداً في السنوات الأخيرة

ودخول الصناعة الحديثة في مصر معناه نشوء طبقتين جديدتين: طبقة رجال الأعمال من ناحية، وطبقة العمال من ناحية أخرى. ورجال الأعمال يعيشون في جو مادي، ولهم أساليب في التفكير، ولهم مصالح اقتصادية تختلف عن نظائرها عند أولئك الذين تعتمد ثروتهم على ملكية الأراضي المزروعة. فمن مصلحة رجال الأعمال مثلاً أن ينتشر التعليم، لأن المصانع محتاجة إلى العدد الوفير من العمال الفنيين وإلى العلماء والمهندسين وماسكي الدفاتر. . . وليس لطبقة ملاك الأرض مصلحة ما في أن يستخدم نصيب من الضرائب المفروضة عليها في إنشاء المدارس الفنية. . . فالزراعة في مصر ما زالت تسير على الطرق البدائية التي كانت تسير عليها في عصور الفراعنة. ومادامت الأيدي العاملة في الزراعة رخيصة إلى الحد الذي نراه، فلن يسعى ملاك الأرض إلى استخدام الآلات الزراعية الحديثة الغالية الأثمان، ولن يحتاجوا تبعاً لذلك إلى المتعلمين تعلماً فنياً إلا بقدر ضئيل. وهذا هو السبب الأساسي في نكبة خريجي مدارس الزراعة على قلتهم في بلد تعيش أغلبيته على الإنتاج الزراعي

وهذا في رأينا هو بعض التفسير المادي للمجادلات الصحفية التي كثرت في السنوات الأخيرة عن التعليم في مصر وضرورة توسيعه أو تحديده أو تغيير مناهجه

وقد تنبه رجال الأعمال في مصر من وقت ظهورهم إلى أن العقبة الأولى التي تقف في سبيل توسعهم الصناعي ورواج بضائعهم هي المنافسة الأجنبية. ومن هنا كانت الدعوة إلى الوطنية الاقتصادية التي لعبت دورها أولاً في حركة الاستقلال وإلغاء الامتيازات، ثم استحالت دعوة مستقلة لتشجيع المصنوعات المصرية. . .

أما العقبة الثانية - وقد بدأ التنبه إليها حديثاً - فهي ضعف السوق المحلية. وما دامت الصناعة المصرية لا تطمع في منافسة الصناعة الغربية في الأسواق الأجنبية، فهي

مضطرة إلى الاعتماد قبل كل شئ على السوق المحلية. ولكن ما دام هناك أربعة عشر مليوناً من سكان مصر لا يكادون لفقرهم أن يستهلكوا شيئاً من المصنوعات، فلا أمل لأرباب الصناعة المصرية في الإنتاج الضخم الذي يدر الأرباح الطائلة على زملائهم في الغرب.

(البقية في العدد القادم)

رمسيس يونان

مدن الحضارات في القديم والحديث - 6

للأستاذ محمد عبد الغني حسن

قرطبة:

يحق للحضارة العربية الإسلامية أن تفخر بما كان لها في عدوة الأندلس من تاريخ مجيد، فلقد كانت الحضارة الشرقية الإسلامية في المشرق يقابلها حضارة إسلامية شرقية في المغرب، ولم يظهر في المشرق عالم جليل أو محدث كبير، أو شاعر شهير، أو فيلسوف حكيم، أو وزير له خطر، أو أمير له قدر، إلا ظهر في المغرب من يدانيه علماً أو ينافسه قدراً أو يزاحمه محلاً

فلقد وقعت المفاضلة بين ابن رشد والطوسي، وبين ابن زهر الحكيم وابن سينا، وبين ابن فرناس والفارابي، وبين ابن هانئ الشاعر والمتنبي، وبين ابن زيدون والبحتري، وبين ابن عبدون والأصمعي، وبين ابن مروان البصري والمعري، فقد كان الشبه بين النظيرين في الفن الواحد قريباً، وكان الفرق بين المتماثلين غير بعيد

وكان حظ المدن من تلك المفاضلة ونصيبها من تلك المقابلة حظ الأتاسي من أهل العلم والنظر والجلال والخطر؛ فهذه بغداد في الشرق على نهر دجلة، وتلك قرطبة في الغرب على الشاطئ الغربي من نهر الوادي الكبير

ولقد أتيح لكثير من المؤرخين في العصور التالية لسقوطها أن يزوروا تلك المدينة الضائعة في ذلك الفردوس الإسلامي المفقود. وزارها في العصر الحديث اثنان من أهل النظر والرأي والأدب والعلم. هما الأمير العربي المسلم الغيور شكيب أرسلان والكاتب المصري الرحالة محمد لبيب البتانونب - صاحب الرحلة الحجازية ورحلة الأندلس

ووصف كل من الكاتبين المدنية الإسلامية على حالها اليوم، ثم تطرق بهما الحديث إلى ذكر تاريخها وشئ من أحداثها، وذكر الجامع العظيم فيها

رأى البتانوني قرطبة في العقد الثالث من القرن العشرين الميلادي (سنة 1927) فلاحت أمام عينيه عربية المظهر، شرقية المنظر (وشكل مبانيها يكاد يكون عربياً صرفاً)

ورآها الأمير شكيب بعد ذلك ببضع سنوات، وقد طحنتها رحى الفتنة حين تأليفه كتاب الحلل، وغيرها حلول المصائب والأحداث، واتصلت الشدائد على أهلها فلم يبق منهم بها

وقت زيارته لها إلا الخلق اليسير

ولقد لفت حياء نسائها نظر البتانوني فأثنى عليهن ونعتهن بالاحتشام وغض البصر والإطراق إلى الأرض في غير تحديق إلى الرجال. والظاهر عندي أن ذلك الحياء حياء جميل يكاد يكون طبعاً في نساء الأندلس اليوم، فقد رأيت كثيراً من فتيات أسبانيا المتعلمات يفدن إلى جامعة (تور) بفرنسا لتعلم الفرنسية في عطلة الصيف، ورأيت منهن الحياء والعفة والبعد عن التبرج الممقوت الذي كنت أنعيه على نساء فرنسا، ورأيت منهن ما يؤيد قول البتانوني (ومع أن بلادهم حارة جداً لا تكاد ترى صدورهن عارية)

على أن هناك رحالة ثالثاً معاصراً تعرض لذكر الأندلس في كتابه (السفر إلى المؤتمر) وهو المرحوم احمد زكي باشا؛ إلا أن حديثه عن الأندلس جاء في عرض كلامه عن رحلة إلى المؤتمر، ولم يكن حديث الأصالة كما فعل الأمير شكيب والبتانوني

وأغلب المعلومات التاريخية التي أوردها الرحالتان مستقاة من نفح الطيب الذي اختص قرطبة في الجزء الأول بحديث طويل. ويروي المقري صاحب نفح الطيب عن ابن سعيد المغربي أو عن الشريف الإدريسي، أو عن الحضرمي

ومعتمدنا في كتابة هذا الفصل عن قرطبة على كتاب نفح الطيب الذي يعد بحق مرجعاً

وافياً لتاريخ الأندلس
ولقد وصف كثير من العلماء (قرطبة) في أزهى عصورها وأجمل أيامها، ويستشهد (المقري) بأقوال هؤلاء العلماء، إلا أنه لا يذكر أسمائهم ولا يدلي بخبر عنهم، فهو يقول مثلاً: قال بعضهم، وقال بعض العلماء. . . وفي الوقت نفسه يذكر أسماء الأعلام منهم، أو الذين وصل إليهم علمهم، واشتهر عنده اسمهم: كالحجازي والحضرمي وابن سعيد والبكري
ولقد ذكر ابن سعيد عمارة قرطبة فقال: إن العمارة اتصلت بها في أيام بني أمية ثمانية فراسخ طولاً وفرسخين عرضاً، وذلك من الأميال أربعة وعشرون في الطول وستة في العرض، وكل ذلك ديار وقصور ومساجد وبساتين بطول ضفة الوادي الكبير.
وذكر آدم متز المستشرق في كتابه: (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري)، نقلاً عن ابن عذاري المراكشي صاحب كتاب البيان المغرب أن عدد الدور التي كانت بها للرعية دون دور الوزراء وأكابر أهل الخدمة مائة ألف دار وثلاثة عشر دار، وأن مساجدها ثلاثة آلاف: (الجزء الثاني من الحضارة الإسلامية ترجمة محمد عبد الهادي أبو ربدة ص 227).
ولقد بلغ من اتساع قرطبة وامتداد مساحتها واتصال العمران بها أن عدد أرباضها بلغ واحداً وعشرين ربضاً، وفي كل منها من المساجد والأسواق والحمامات ما يقوم بأهله ولا يحتاجون إلى غيره
وفي خارج قرطبة امتدت قرى كثيرة قدرها ابن سعيد بثلاثة آلاف قرية. وهو عدد إذا فرضنا أن المبالغة التاريخية قد ضاعفته، فهو يدل بغير شك على ازدحام القرى حول تلك العاصمة الإسلامية، كما تزدحم القرى الصغيرة والكبيرة حول (لندن) اليوم مثلاً، وتمتد إلى عشرات الأميال. وقد قدر لنا أن نرى هذه القرى اللندنية من أعوام خلت
وكان القرويون من أهل أندلس لا يقطعون ترددهم على قرطبة واختلافهم إليها في كل مناسبة صغرت أم كبرت، وكان أعظم ما يجذبهم إليها شهود يوم الجمعة للصلاة مع الخليفة والتسليم عليه ومطالعته بأحوال بلدهم
ولقد بلغت المنافسة بينها وبين بغداد حداً عظيماً، حتى لقد أحبها المؤرخون من أهلها، فحابوها بالوصف، كما يقول المرحوم شوقي: (ولكن من أحب الشيء حابى) . . .
وحاول كثير من وصافها أن يلحقوها ببغداد في أيام عظمتها، حتى لقد زعم قوم من أهلها أنها كأحد جانبي بغداد، وإن لم تكن كأحد جانبيها فهي قريبة من ذلك
ولم تكن قرطبة خاملة الذكر وضيعة المحل قبل الفتح العربي ولكنها كانت عامرة فزادها الفاتحون من المسلمين عمراناً، وزادوها عظمة بما بنوا في ضواحيها من القصور الكبيرة أشباه المدن الضخمة (راجع تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان جـ 5 ص 90)
ويغلب على الظن أن قرطبة قبل الإسلام كانت مما شيده القرطاجيون، ثم صارت تابعة للرومان سنة 152 ق. م إلى أن دخلها المسلمون، وجعلوها حاضرة الملك ومقر الأمارة، وحاولوا أن يخلعوا عليها من جلال الملك ما يدنيها من عواصم الشرق الكبرى، ولعبت المنافسة في ذلك الدور العظيم
وكان فيها نظام الطبقات البنائي كما حدث في القاهرة وفي بغداد وفي سامراء وفي دمشق وفي غيرها من العواصم. والواقع أن فكرة التقسيم بين الطبقان قديمة منذ الزمان الأول؛
فلقد كان في أيام الفراعنة قصور وأحياء للأشراف وأحياء للعامة
وقد عقد المرحوم جورجي زيدان موازنة بسيطة بيم دور الأشراف في روما إبان عمرانها وبين دور الأشراف في قرطبة إبان عمرانها كذلك، وكانت في الأولى ألفين - على ما رواه (جيبون) وفي الثانية أكثر من ستة آلاف - على ما رواه المقري نقلاً عن غيره
وأعجب ما في قرطبة من بدائع الفن وروائع الهندسة العربية آيتان: القصر الكبير والمسجد الجامع. أما القصر الكبير فكان مؤلفاً من 430 داراً كالكامل والمعشوق والمبارك وقصر السرور وغيرها
وكان في هذا القصر من العجائب الكثير سأل عنه ابن بشكوال فقال بعد كلام: (وفيه من المباني الأولية والآثار العجيبة لليونانيين ثم للروم والقوط والأمم السالفة ما يعجز

الوصف، ثم ابتدع الخلفاء من بني مروان منذ فتح الله عليم الأندلس بما فيها في قصرها البدائع الحسان، وأثروا فيه الآثار العجيبة، والرياض الأنيقة، وأجروا فيها المياه العذبة المجلوبة من جبال قرطبة على المسافات البعيدة، وتمونوا المؤن الجسيمة حتى أوصلوها إلى القصر الكريم وأجروها في كل ساحة من ساحاته وناحية من نواحيه في قنوات الرصاص، تؤديها منه المصانع صور مختلفة الأشكال من الذهب الأبريز والفضة الخالصة والنحاس المموه، إلى البحيرات الهائلة والبرك البديعة والصهاريج الغريبة في أحواض الرخام الرومية المنقوشة العجيبة. . وفي هذا القصر القباب العالية السمو، المنيفة العلو، التي لم ير الراءون مثلها في مشارق الأرض ومغاربها).

وقد بناه عبد الرحمن الداخل الأموي بعدما فر من الشرق ووطد لنفسه في الأندلس ملكاً، وزاد الأمراء من بعده عليه كلٌّ على حسب طاقته. ومن المؤلم أن تتطاول يد الزمان وتمتد إلى قصور ذلك القصر وتقتلعها من أساسها، وتدكها من قواعدها، ولم يبق منها بعد مثولها للعيان، وكونها في الزمان، نقش ولا أثر، إلا أثراً يذكر وخبراً يسطر، وقصة تروى، وحديثاً لمن ألقى السمع

وقد اصطلحت على محو تلك القصور والدور عوامل من الزمن، ودوافع من الإحن والمحن. أما الزمن فقد تطاول، والبناء لا يبقى على التطاول، ولا يدوم على امتداد. وأما الإحن والمحن فقد اختلفت على قرطبة، وحدثت الثورات، وفتكت يد التخريب، وأصبح

أهل قرطبة منذ عهد المرابطين عرضة للحوادث وغرضاً للشغب. وجاء المتعصبون من النصارى فحاولوا أن يزيلوا للإسلام كل أثر، وأن يدكوا للعرب كل قاعدة، وأن يهدموا من الحضارة العربية كل ركن؛ فزال البناء ومات البنَّاء، وبكى حين لا ينفع البكاء. وهل يرد الملك المضيَّع فيض الدموع، أو يعيد المجد المحطم وقد الضلوع؟ ولم يدم ذلك الجلال طويلاً. ففي القرن الخامس الهجري أخذ كل شيء ينذر بسقوط قرطبة. وقبل ذلك بزمن كانت هذه العاصمة الجميلة مسرحاً للفتن، وميداناً للمحن. وصار الخلفاء يولون ويعزلون في أجل قصير وأمد قريب. فتولاها في مدة يسيرة ستة من الأمويين، وثلاثة من بني حمود، مما انتهى إلى التفرقة والانقسام

وكان الأمراء يختلفون ويحتربون وتسيل دماء الناس على أيامهم. وقام العداء بين أمير وأمير، ومدينة ومدينة. ودارت الحرب بين طليطلة وقرطبة وظلت بضعة أعوام تتخللها معارك مضطرمة بين الفريقين، انتهت نهاية مؤلمة ومصيراً محزناً بالنسبة إلى قرطبة وحاكمها ابن جهور. فقد صاحب طليطلة بابن جهور وضرب الحصار على العاصمة القديمة للأندلس، ولم يرفع عنها إلا بعد أن أسيلت الدماء، وانهارت على إثر ذلك دولة بني جهور في قرطبة

ومن هذه الفتن أيضاً ما حدث بعد ذلك بقليل، فقد هاجم أهل طليطلة ومرتزقة قشتالة على غرة، فسقطت في أيديهم بلا مقاومة، ولكن نشبت بين الفريقين في الزهراء - مجمع القصور الملكية - معركة دموية دافع فيها الحرس عن القصور دفاعاً شديداً.

وقتل ابن الأمير ابن عباد، ورفع رأسه على رمح وطيف به في شوارع قرطبة ولم يطل ملك بني عباد، حتى تغلب عليه المرابطون سنة 481 فالموحدون سنة 539؛ وانتقصت أطراف هذا الفردوس الجميل شيئاً فشيئاً

(الحديث موصول)

محمد عبد الغني حسن

المصريون المحدثون - 3

شمائلهم وعاداتهم

تأليف المستشرق الإنجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

المنازل

وحجرات الطابق الأرضي لها نوافذ صغيرة مركبة من قضبان الخشب المنقور مرتفعة بحيث تسمح للراجل أو للراكب أن ينظر من خلالها. أما الغرف العلوية فنوافذها تبرز بمقدار قدم ونصف قدم أو أكثر؛ وأغلبها مصنوع من الخشب المخروط المشبك؛ وهو لضيق ثقوبه، يمنع كثيراً من النور والشمس، ويحجب سكان المنزل عن الأنظار؛ ولكنه في الوقت نفسه يسمح بدخول الهواء. ومن العادة ألا يصبغ هذا الخشب، ولكن القليل

منها يصبغ بعضه بالأحمر والأخضر، وبعضه يصبغ كله. وهذا النوع من النوافذ يسمى روشنا، ولكنه في الاصطلاح الغالب يسمى مشربية؛ والكلمة الأخيرة لها وضع آخر سيذكر بعد

وكثير من النوافذ المختلفة الأنواع مصور في هذا الكتاب؛ وقد أوردت على قياس أوسع رسوماً لأكثر نماذج الشبابيك شيوعاً. انظر شكل (3). وقد يكون للنافذة الموصوفة آنفاً مشربية صغيرة تشبه نوعاً ما روشنا مصغراً، تبرز عند الواجهة أو عند الجانبين. وتوضع فوقها قلل من الفخار ذات مسام لتبريد الماء بتعريضه لتيار الهواء. ومن هنا اشتق أسم (مشربية) ومعناه (مكان الشرب). ويعلو النافذة البارزة مباشرة نافذة أخرى مسطوحة من الخشب المشبك أو من القضبان الخشبية أو من الزجاج الملون. وشباك هذه النافذة العلوية، إذا كان لها شباك، كثيراً ما يكون ذا رسوم قوامها موضوعات تصويرية أكثر من الأنواع الأخرى، فيمثل طستاً فوقه إبريق، أو صورة أسد، أو اسم الله، أو أمثال هذه الجملة: (الله أملي) الخ. وقد تكون النافذة البارزة ملوحة كلها بالخشب، وقليل منها يميل إلى الأمام من أسفل إلى أعلى بزاوية عشرين درجة تقريباً. وتفتح من القمة لدخول النور. وبعض الأشكال الغالبة، وتكون جوانبها ذوات ألواح زجاجية. وفي أجمل المنازل أيضاً تجهز شبابيك النوافذ الآن بألواح زجاجية من الداخل فتقفل كلها في الشتاء لأن البرد القارس

يشعر به المصريون عندما تنخفض الحرارة إلى أقل من ستين درجة فاهرنهايت. وأما نوافذ الدور الدنيا فأكثرها من طراز آخر لأنها مستوية مع سطح الحائط الخارجي. وجزؤها الأعلى يكون شباكاً أو قضباناً خشبية، والجزء الأسفل له درف معلقة يقفل بها؛ والكثير منها له مشربية للقلل تبرز عند جزئه الأسفل

وتتألف المنازل، على العموم، من طابقين أو ثلاثة ويتوسط كل دار كبيرة فناء مكشوف غير مبلط يدخل إليه من دهليز ينعطف مرة أو مرتين بقصد منع المارين في الطريق من النظر إلى الداخل. وفي هذه الطرقة من داخل الباب يوجد مقعد حجري طويل يسمى (مصطبة) وهو ملاصق للحائط الخلفي أو الجانبي يجلس عليه البواب والخدم الآخرون. وفي هذا الفناء بئر يتسرب ماؤه المائل للملوحة خلال الأرض من النيل، كما يوجد في جانبه الظليل جرتان يجلب إليهما الماء يومياً من النهر في قرب. وتطل الغرف الرئيسية على الحوش، وتغطى جدرانها الخارجية بالجص وتبيض. وهناك كثير من الأبواب تفتح على الفناء، منها واحد يسمى (باب الحريم) وهو مدخل السلم الذي يؤدي إلى الحجرات المخصصة للنساء ولرب الدار وأولاده

ويوجد غالباً في الطابق الأرضي غرفة تسمى (منضرة) يستقبل فيها الزائرون من الرجال. ولهذه الغرفة نافذة واسعة من القضبان الخشبية، أو نافذتان من هذا النوع تطلان على الحوش، وأرضيتها جزء صغير يمتد من الباب إلى الجهة المقابلة منخفضاً عن بقية الغرفة بأربع أو خمس بوصات تقريباً. ويطلق عليه اسم (درقاعة). وهذه الأخيرة تبلط في المنازل الجميلة برخام أبيض وأسود، وبقطع صغيرة من القراميد الحمر الجميلة في نماذج معقدة أنيقة، ويتوسطها فوارة تسمى (فسقية) يتدفق ماؤها في بركة صغيرة قليلة الغور، مخططة برخام بلون الأرضية المحيطة بها. وتصرف مياه هذا النبع من الحوض بواسطة ماسورة. وأمامك نموذج من أرضية الدر قاعة شكل 6 كما وصفتها آنفاً

ويوجد في نهاية الدرقاعة في مواجهة الباب رف من الرخام أو من الحجر العادي على ارتفاع أربع أقدام تقريباً يطلق عليه اسم (صفة) يستند على عقدين أو أكثر، أو على عقد منفرد؛ ويوضع تحته أوعية للاستعمال العادي مثل أوعية (العطور) والطست والإبريق المستعملين للغسيل قبل الأكل وبعده وللوضوء، كما توضع فوقه أواني المياه وفناجين

القهوة وتكسي عقود الصفة في الدور الجميلة بالرخام والقراميد على مثال بركة الفسقية أنظر (رقم 7 ورقم 8) كما يكسى الحائط الذي يعلوها إلى ارتفاع أربع أقدام أو أكثر تقريباً بمواد مماثلة: جزء منها بألواح رخامية كبيرة قائمة، والجزء الآخر بقطع صغيرة على أسلوب الدرقاعة. أما المنصة أو الجزء المرتفع من الأرضية فيسمى (ليوان)

ويجب على كل داخل أن يخلع نعليه في الدرقاعة قبل الصعود إلى الليوان؛ وهذا

الليوان يبلط عادة بالحجر العادي، ويفرش بالحصير صيفاً وبالبسط فوق الحصر شتاء، وتوضع فوقه الحشايا والوسائد ملاصقة للجدران، ويسمى حينئذ (ديوان). وتوضع الحشية التي يبلغ عرضها حوالي ثلاث أقدام، وسمكها ثلاث بوصات أو أربعاً، على الأرض عادة. أما الوسائد وطولها بقدر عرض الحشية، وارتفاعها مساو لنصف هذا القياس، فتستند مائلة إلى الحائط. وتحشى الحشايا والوسائد بالقطن وتغطى بالشيت المطبوع أو الجوخ أو بما هو أغلى ثمناً. وأحياناً توضع الحشية على سرير من جريد النخل، وأحياناً أخرى توضع على منصة حجرية تعلو إلى نصف قدم تقريباً وتسمى (سدلة)، وهي كلمة من أصل فارسي تطلق أيضاً على فجوة عرضها مساو لعمقها تقريباً، وبها فرش ووسائد حول جوانبها الثلاثة. ويلاحظ أن بعض الغرف به مكان أو أكثر من هذه الأمكنة الداخلة تستخدم للجلوس شتاء وهي لذلك تبقى بدون نوافذ. أما حوائط الحجرة فتغطى بالجص وتبيض. ويوجد في داخل جدران الغرفة دولابان أو ثلاثة قليلة العمق، بمصاريعها حشوات خشبية دقيقة الصنع، لأن الحرارة ويبوسة الجو يعرضان الخشب للتقلص والالتواء كما لو كان داخل تنور؛ ولهذا السبب تصنع أبواب الغرف أيضاً بالطريقة نفسها. ويلاحظ أن هناك تفنناً عظيماً ومهارة فائقة في مختلف الأساليب المتبعة في صنع تلك الحشوات الصغيرة وتركيبها، وقد نشرت بعض نماذج مختارة منها شكل 9. أما السقف الذي يعلو الليوان، فهو ذو جسور من الخشب المنقور يبعد الواحد منها عن الآخر مسافة قدم؛ ويلون بعضها أو أحياناً بذهب، ولكن هذا الجزء من السقف الذي يعلو الدرقاعة يكون في المنازل الجميلة أفخم نقوشاً وأكثر زخرفة. وبدلاً من العروق الكبيرة تسمر بضعة شرائط خشبية دقيقة في الألواح فتؤلف نماذج غريبة التعقيد، كاملة الانتظام، ذات تأثير زخرفي عظيم.
وقد رسمت جزءاً من السقف على هذا الأسلوب الزخرفي، ولكنه ليس من الطراز الكثير
التعقيد (شكل رقم 10). وهذه الشرائط تدهن بالأصفر أو تذهب، وما بينها يلون بالأخضر والأحمر والأزرق. وتكون الألوان في المثل الذي ضربته، كما هو مشار إليها في الرسم بالنسبة نفسها، ولكن على مقياس أكبر. أما المربع الذي يتوسط السقف حيث تكون الشرائط سوداء على أرضية صفراء. وكثيراً ما يتدلى قنديل من وسط هذا المربع. وهناك بضعة نماذج متشابهة، وألوانها - الواحدة بالنسبة للآخر - توضع غالباً بالترتيب نفسه؛ إلا أن هذه السقوف في بعض المنازل لا تلون. أما سقف النافذة البارزة فكثيراً ما يزخرف بالطريقة نفسها كما ترى في الشكل 11. وهكذا يتجلى الذوق السليم بقصر الزخرفة على الأجزاء التي لا تكون دائماً أمام العين، لأن إدمان النظر إلى مثل تلك الخطوط الكثيرة المتقاطعة المتجهة في اتجاهات عديدة مما يؤلم العين
(يتبع)

عدلي طاهر نور

إيماءة إلى الله. . .
إلى طيفها الذي لا يفارقني
للأستاذ محمود حسن إسماعيل

وَأَوْمَأْتُ لِلّه عَلَّي أَرَاهَا . . .!
مَعَ اللَّيْلِ تَسْرِي بِقلبي خُطاها
مَعَ الصَّمْتِ يُشْجِي خَيالي نِداها
مَعَ الزَّهْرِ يَرْوَي دَمِي مِنْ شَذاها
مَعَ الطَّيْرِ تَرْوِي لِرُوحي أَساها
مَعَ النَّفْسِ تَجْرِي هَوَى في هَواها
وَيَجْري بِدَمْعِ اللَّيالي بُكاها. . .
فَقَالَ لِيَ الْغَيْبُ: ضَلَّتْ سُرَاها!
فَهَامَتْ مَعَ الْمَوْجِ حَتَّى طَوَاها
وَذابَتْ مَعَ الْفَجْرِ حَوْلي رُؤَاها
وَرَفْرَفَ مِنْ حَاجِبَيْهِ سَناهِا
وَأَشْرَقَ مِنْ رَاحَتَيْهِ صِبَاها

وَكانَتْ لَهُ غُنْوَةً في لِقاَها
وكانَتْ لهُ آهَةً في نَواها
وكانَتْ لهُ قِصَّةً ما رَوَاها
لِغَيْرِي، وَغَيْرُ الرُّبَى. قُلْتُ: وَاها!
فياَ لَيْتَهُ نَحوَ قلبي هَداها
وَنَضَّرَ مِنْ صَفْحَتَيْهِ ثَرَاها
فَإنْ ظَمِئَتْ مِنْ شَبَابي سَقاها
وَإنْ شقِيَتْ سَاقَ دَهْري فِداها
فمَاَلي مَدَى العُمْرِ سِحْرُ سِواها
هَتَفْتُ. . . فَصَدَّتْ نِدائَي سَماها!
فَأَوْمَأتُ لِلهِ. . . عَلَّيَ أَرَاها
كَأَنِّي (بسَيْناَءَ) صَوْتٌ تَنَاهَى
. . .إلى شَفَةِ الْغَيْبِ يَدْعُو الإلها
(النخيلة)
محمود حسن إسماعيل
من الأدب الفرعوني
نشيد السيفين
من رواية (مصر الخالدة) التي ألفها ويخرجها الأستاذ (فتوح نشاطي). وهي مسرحية فرعونية، تفتتح بها الفرقة القومية موسمها التمثيلي المقبل (. . .
للأديب عبد الرحمن الخميسي
هَيْهَاتَ تُغْفِلُ ذِكْرَناَ الأيَّامُ ... وَلمصْرناَ الْبتَّارُ والبسَّامُ
سَيفانِ تَرجُفُ إنْ رَأتْ حَدَّيْهما (م) ... الأرَضُونَ وَالْجوْزَاء وَالأيَّامُ
الْهَولُ مِنْ حَوْليْهما عَبْدٌ، فكَمْ ... أَمَرَ فَتَاَدَتْ في الوَغَى أَقْوامُ
وَالْموتُ يَكْمنُ فِيهمَا، فكأنما ... هُوَ أنفُسٌ وَهماَ لَهُ أَجْسامُ
سَلْ فِي المَعارِكِ كم أَرَاقَا مِنْ دَمٍ ... قَدْ صَفَّقتْ لَهُما بِهِ الأعْلامُ
فَكلاهُما بَطَلٌ يُباركُ يَأسهُ ... مِنتٌ وَتفْزعُ مِنْ أَذاهُ الهامُ
ثبْتٌ عَلَى الأحْداثِ يَصرعُ بَطْشَها ... فإذَا بها فَوْقَ الرَّغام رَغَامُ
قَدْ شرَّدَ الأعْدَاء فِي البَلوَي كما ... لوْ شُرِّدتْ فِي الْمهْمهِ الأنْعَامُ
أيَّامَ يُوغلُ فِي الدِّماءِ حَديِدهُ ... ظَمْآنَ لا يَرْوِي صَداهُ حِمَامُ
ويُجَدلُ الأحْبَاش وَالْخيتاسَ فِي ... سُوحِ الوَغَى فَتُكبِّر الأهْرَامُ
وَلقَدْ غَزَا البَسَّامُ فينقيا فَمَا ... خَشَعَتْ لِغيْرِ شَباتِهِ الإفْهَامُ
وَمَشَى به رَمْسيسُ يَفْتتحُ الدُّنَى ... مِثْل القَضَاءِ فُتُوحُهُ أحْكامُ
وَالمجْدُ للْبتَّارِ مِنْ سَيْفٍ قَضَى ... ألا يَرَى أرْضَ الْعَدوِّ سَلاَمُ
يَسْتلُّهُ (مِنْتوحُتبْ) مِنْ غِمْدهِ ... فَتَهابُ حَتَّى فَتْكهُ الأصْنامُ
لكنَّهُ والْحرْبُ تَرْعَى بِاسْمهِ ... فِي قَادِشٍ وَجُيوشُهُمْ أغْنَامُ
وَالصَّفُّ بَعْدَ الصَّفِّ مُنْهَارٌ كما ... تَنهَارُ تَحْتَ التَّلْعَةِ الأكوَامُ
خَانَتْهُ مِنْ مِنْتُوحتِبْ يَدُهُ التي ... خَارَتْ فَطَاَرَتْ إثْرَهُ الأحْلاَمُ
وَأسْتَأثَرَ الْخِيتاَسُ بِالسَّيْفِ الذي ... كانتْ تُقَدِّسُ مَجْدهُ الأعْوَامُ
لكِنَّناَ والْحُزْنُ يَفْرِى رُوحَناَ ... مِنْ أَجْلِهِ وَتَهُدُّناَ الآلامُ
مُتَمَرِّدُونَ عَلَى الزّمانِ جَبَابِرٌ ... تَرْتَاعُ مِنْ أَهْوَالِناَ الأيَّامُ
(القاهرة)
عبد الرحمن الخميسي
البريد الأدبي
كليلة ودمنة
قرأت ما كتبه في الرسالة (العدد 425) الأستاذ عبد السلام محمد هارون فشكرت للكاتب الفاضل حسن رأيه، وجميل ثنائه وأعجبت بتدقيقه وتحقيقه، وتلقيت بالقبول والسرور نقده الذي يبن عن صدق النية، وخلوص القصد في طلب الحق. وكلنا طلاب علم نسأل الله الهداية والتسديد!
وقد أخذ الأستاذ على الكاتب مآخذ وهذا بيان رأيي فيها: قال بعد أن ذكر كثرة التحريف

في النسخة المخطوطة، والجهد الذي بذل في تصحيحها:
ونحن في هذا الصدد نأخذ على الأستاذ أنه لم يتوخ النشر العلمي من إثبات الأصل)
والتنبيه عليه فقد يكون للقارئ وجه في التصحيح غير الذي ارتضى. . . وكتاب مثل
كتابنا لبس من جلال التاريخ ما ليس جدير بما ذكرت من وجوب بيان أصله للرجوع إليه
ووجوب مقارنة نسخه بعضها ببعض)
والجواب أن مذهبي في النشر ألا أخالف النسخة التي اتخذتها أصلاً إلى حين أن يتضح
غلطها، وإن كان هذا الغلط في مواضع قليلة أثبته في مواضع. أثبته في الحاشية
ليعرف القارئ ما وقع في أصل الكتاب؛ ولكن نسخة كليلة ودمنة التي أنشرها مملوءة
بأغلاط واضحة كثيرة لا ينال الناشر والقارئ من إثباتها إلا العنت
وأما مقارنة النسخ المختلفة فقد بينت في المقدمة أن النسخ المطبوعة، إلا نسخة
شيخو، ملفقة مغيرة تصرف فيها الناشرون كما شاءوا على غير خطة معروفة. ثم بين
هذه النسخ كلها بعضها وبعض، وبينها وبين نسختنا ونسخة شيخو، ثم بين هاتين
النسختين من الاختلاف ما لا يمكن إثباته في الحواشي بل يختلف السياق أحياناً حتى
يحسب القارئ أن أمامه كتباً مختلفة
ثم يرى الأستاذ أن (لغة ابن المقفع في كليلة ودمنة لغة عالية تعلوا على المتأدب
والأديب أيضاً فهي محتاجة إلى توضيح وتقليد وبيان. . . الخ)
وليس هذا رأياً في هذه الطبعة التي أريد بها أن تكون في الأغلب هدية للعلماء والأدباء
لا أن تكون كتاباً مدرسياً يؤدي به الناشئون. نعم ربما يستعان بهذا الكتاب على درس
أساليب
ابن المقفع وأساليب النثر في عصره، ولكن هذا بحث آخر لا يتعلق بمقصدنا من نشر
الكتاب
ثم أخذ الأستاذ ألفاظاً رأى أنها خالفت الصواب. وقد بينت رأيي فيها على الترتيب الذي
ساقه في مقاله:
1 - ص 36 س 6: كالعظم المتعرِّق، والصواب المتعرَّق بفتح الراء كما قال الأستاذ،
وهي زلة مطبعية فاقت عناية المصحح واجتهاده
2 - 81: 5 و 6: (ولكن النفس الواحدة يفتدى بها أهل البيت، وأهل البيت تفتدى بهم
القبيلة. . . الخ). قال الأستاذ: الوجه يفتدى.
وعلل هذا بقوله: فأهل البيت لا يفعلون الافتداء، وإنما يفعل بهم ذلك غيرهم. . . الخ
ولست أرى هذا الرأي، فأهل البيت يفتدون أنفسهم؛ وفي القرآن الكريم: (ولو أن لكل
نفس ظلمت ما في الأرض لافتدت به). ومثلها آيات أخرى، فلا وجه للعدول عن
المعلوم إلى المجهول. ويؤكد هذا أن اللزوم في افتدى هو الأصل؛ وقد عرضت لها
التعدية، ولم ترد في القرآن إلا لازمة. فالعدول إلى البناء للمجهول عدول عن الأصل
لغير سبب
3 - 87: 6 يقول دمنة للثور: (إن أنت رأيت الأسد ينتصب مقعياً ويرفع صدره. . . الخ.
فاعلم أنع يريد قتلك، فاحذره ولا تغتر إليه). يقول الأستاذ: لا يقال اغتر إليه بل اغترَّ به،
ويرى أن الصواب لا تقترب إليه وقد بينت في المقدمة أن كثيراً مما وقع في الكتاب
من تحريف سببه تغيير العبارات غير الشائعة إلى العبارات الشائعة. وأرى أن كل فعل
يعدّى بإلى إذا أريد الانتهاء إلى ما بعده، أو الركون إليه. فلذلك يقال: استمع إليه،
وجلس إليه، وسكن إليه. وفي القرآن: (إلى ربك يومئذ المستقر): فما رأي الأستاذ في
أن يقال استقر إليه؟. . . فالتعدية بإلى وعلى نحوهما جائزة إن كان في الفعل ما يدل
على الانتهاء أو العلو صراحة أو ضمناً. وإنما الكلام في تعدية الفعل إلى المفعول به،
أيتعدى فيها الفعل بنفسه أو بالباء. . . الخ. ومعنى اغتر إليه هنا سكن إليه أو ركن أو
نحو ذلك مما يتضمنه معنى الانتهاء أو الركون
4 - 91: 12 (وندفن بقيتها مكاناً حريزاً). قال الأستاذ وهذه عبارة غير صحيحة
والصواب في مكان حريز. ونقل عن همع الهوامع وشرح الكافية كلاماً في اسم
المكان،
وانتهي إلى قوله: (وليس الدفن من الاستقرار في شيء فلا ينصب لفظ المكان على
الظرفية المكانية) وهذه الجملة تبطل الاحتجاج الطويل الذي نقل له ما نقل عن كتب
النحو. ففي الدفن إقرار واستقرار ولا ريب، وأنا أعرف أن في النسخ الأخرى: (وندفن

الباقي في أصل هذه الشجرة فهو مكان حريز، أو ندفن بقيتها في مكان حريز) ولكني لا أغير نص الكتاب ولو كان غيره أرجح منه حتى يكون غلطاً واضحاً لا شبهة فيه، فكيف وليس فيه غلط ولا شبهة الغلط؟

قال الأستاذ وبين اللغويين خلاف في أن (وبلاء يضيع عند من لا شكر له) 13 :95 - 5 يكون البلاء بمعنى الإنعام ونقل في هذا كلاماً عن نهاية أبن الأثير ولسان العرب وليس لازماً أن يكون البلاء هنا بمعنى الإنعام، بل الأرجح أن يكون بمعنى الاختبار، والبلاء اختبار بالخير والشر. فكل معروف تصطنعه عند إنسان هو بلاء عنده.

قال الأستاذ: (وهذا ضبط عامي والصواب أيش). (ولكن إيش الفائدة) 5 - 221 - 6 وقد بينت في المقدمة رأيي في هذا الباب ولغته وقلت: (بل أرى فيه من الركاكة ومقاربة العامية الخ المقدمة ص50) ولم أتبعه إلا اتباعاً لنسخة الأصل واستيفاء للبحث.

وبعد. فالأستاذ مشكور على نقده، ولعل فيما أجبت به ما يزيل شبهته.

عبد الوهاب عزام

في مدن الحضارات

أشكر للأستاذ الفاضل كوركيس عواد العراقي ما أبداه من الغبطة بما أكتب في الرسالة الغراء (عن مدن الحضارات) وأنا سعيد لأنه يتابع ما انشره متابعة الباحث المتمكن، والقارئ المتفطن، ولا عجب إذا لفتته مدينة السلام أو دار السلام بما كتبته عنها فقد عرفت مما ينشره في الرسالة أن بغداد دار إقامته

وللأستاذ الشكر على ما كتبه خاصاً ببركة المتوكل مصححاً به ما توهمت من أنها كانت في بغداد. ولعل الأستاذ وهو جد قريب من سامراء يحدثنا حديث المؤرخ الثبت عن (المختار) و (البديع) أجمل قصورها وعن ساجهما الذي حمل إلى (الجعفري) وعن (المتوكلية) التي بناها قرب سامراء وبنى فيها قصر (اللؤلؤة)

أما نسبة (جميل نخلة المدور) إلى العراق فهي شائعة عندنا في مصر ولعلها نسبة جاءت إليه من سبيل كتابته على حاضرة العراق

والحق أنني لم أقرأ ترجمة لهذا الباحث العظيم، وكل ما قرأت له أو عنه كتابه (حضارة الإسلام) وتقريظ كتبه المرحوم الدكتور يعقوب صروف في مقتطف شهر مايو سنة 1888م. المجلد الثاني عشر صفحة 515 وفيه عن جميل نخلة المدور أنه (قد ربي منذ نعومة الأظفار على سلامة الذوق، ورضع آداب العرب والعجم مع اللبن، وأوتي قريحة وقادة لا تخبو نارها بسلامة عبارته، وبصيرة نقادة لا يخفى شرارها بطلاوة نوادره وحسن فكاهته، وجداً يستسهل المتاعب، وثباتاً يغلب المصاعب)

ولا تجد في الطبعات المختلفة التي طبعتها وزارة المعارف المصرية من هذا الكتاب القيم ترجمة مختصرة أو مطولة لكاتبه

ونحن منتظرون تعريفاً بمؤرخ بغداد اللبناني من الباحث العراقي الأستاذ كوركيس عواد وله الفضل والشكر

أما ورود كلمة (الحرامات) في مقالي مكان (الحراقات) فذلك خطأ لم أكن - شهد الله - من جناته، فكيف أصلي بحره؟ والطابعون دائماً يريدون ما لا يريد الكاتبون؛ وكثيراً ما يحرفون الكلم عن مواضعه، وإذا كان صاحب المقال معذوراً في خطأ أقحم عليه فما عذر القارئ اللبيب؟

(المنصورة)

محمد عبد الغني حسن

إلى وزارة المعارف

أعلنت وزارة المعارف عن مسابقة القصة في غضون شهر مايو من هذا العام وحددت يوم 15 أكتوبر آخر موعد لقبول قصص المتبارين - ولعل وزارة المعارف راعت في هذه المواعيد ظروف معلميها وطلبتها دون أن تلتفت إلى عوامل أخرى أكثر أهمية.

ونلاحظ (1) أن المدة كلها واقعة في الصيف، والصيف فصل الركود والراحة والاستجمام، والنشاط فيه محدود، خصوصاً النشاط الذهني، والقصة - بحكم طولها - عمل فني دقيق لا يخلو من مزالق، ووحدة الموضوع والحبكة الفنية عاملان جوهريان في كل قصة. لذلك نرى أن الصيف غير ملائم للإنتاج القصصي

المدة قصيرة جداً لا تكفي لإنتاج عمل فني بارز - وكثير من مشاهير الكتاب (2)
العالميين ينتجون قصة كل عامين فكيف تتسع خمسة أو ستة أشهر لكتابة قصة؟!
العالم يعيش الآن على كف عفريت. والظروف التي نعيش في حلقتها تشغل البال (3)
وترهق الأعصاب وتستهلك كثيراً من النشاط الذهني؛ فالإنتاج الأدبي يستلزم وقتاً
أطول مما كان يستلزمه وقت الدعة والسلام. والذي نعرفه أن هذه العوامل صرفت
الكثيرين من الأدباء عن التفكير في مباراة وزارة المعارف. لهذا نعتقد أننا نعبر عن
رغبات الكثيرين حين نتقدم إلى معالي هيكل باشا راجين أن نتفضل ويمد أجل المباراة
حتى نهاية يناير على الأقل ليتاح للأدباء إنتاج قصص ناضجة تحقق أمل الوزارة.
ق - ع - سوس
إلى الأستاذ محمود الخفيف
حرمت قراءك ومحبي الرسالة من مقالاتك القيمة، وأسلوبك الممتع. فما الذي حجبك
عنا؟ أنفدت الشخصيات التي تكتب عنها، أم نسيت منظارك في القاهرة وأخلدت إلى
الريف الحبيب إلى نفسك؟
أرجو أن تعود سيرتك الأولى؛ وإني أنتهز هذه الفرصة فأستوضحك عن الشخصيات
التي تكتب عنها هل هي موجودة حقاً، أم هي عيوب المجتمع ألبستها هذا اللباس
فكانت كما رأينا؟
(أسيوط)
زكي عبد الله
الجواب
أشكر لك يا أخي تحيتك ومودتك. أما جوابي عما جاء في كتابك عن تلك الشخصيات
فهو أن عملي فيها هو كعمل القصصي الذي يخلق أشخاص قصته؛ فهي إذاً أشخاص
من خلق
الخيال؛ وأحسب أن ذلك هو سبب ما قد يكون لها من قيمة. وما كتبت عن شخص
بذاته، وإلا لما استطعت أن اكتب على النحو الذي أرى قوامه الابتكار والخيال.
الخفيف
1 - الألقاب لا ترتجل
اطلعت على ما دار بين الأستاذين محمد عبد الغني حسن وجمال الدين الشيال حول
تلقيب الأمير نجم الدين بن أيوب - بالملك الصالح - فرأيت أن أنقل كلمة فيمن لقب -
بالصالح - من كتاب (نزهة الألباب في الألقاب للحافظ أبن حجر العسقلاني - من
مخطوطات دار الكتب المصرية):
الصالح: أول من لقب به من الملوك: طلائع بن رزيك وزير الفاطميين. ثم الصالح
إسماعيل بن نور الدين الشهيد.
ثم الصالح أيوب بن الكامل بن العادل بن أيوب. ثم لقب به جماعة من الملوك؟
2 - لفتة
جاء في مقال الأستاذ عبد السلام هارون في نقد (كليلة ودمنة) ببيت المنتخل الهزلي
هكذا:
ويلمه رجلاً تأتي به غبناً ... إذا تجرد لا خال ولا بخل
والصواب: تأبى به غبناً، على ما في (شرح أدب الكاتب للجواليقي) ص 260 حيث قال
في شرح البيت: يقول تأبى به أن تظلم إذا كان معك. . . وسبب غلط الأستاذ هارون
هو اعتماده على (الاقتضاب للبطليموسي) و (أدب الكاتب) حيث ورد فيهما البيت
كذلك مصحفاً.
3 - العود أحمد
قررت وزارة المعارف في تركيا إعادة طبع (كشف الظنون) عن نسخة المؤلف مع
منهوات له لم تكن في الطبعات السابقة، وإكمال خرم كان فيها، والإشارة والتنبيه
على أغلاط الطبعة الأوربية، وضم ذيول نادرة إليه للعلماء الآجلة: رئيس الأطباء الشيخ
بهجت، والشيخ محمد أسعد صاحب المكتبة العامة المشهورة في الآستانة، والشيخ
عارف حكمت شيخ الإسلام صاحب المكتبة العظيمة في المدينة المنورة، وإسماعيل
باشا البحاثة

المعروف، والعلامة إسماعيل صائب مدير مكتبة بايزيد العامة، رحمهم الله. وقد صدر الجزء الأول منه مطبوعاً بحروف عربية ممتازة في نحو خمسمائة صفحة في كل صفحة عمودان، وأسماء الكتب في أوائل السطور ويحققه جماعة من الاختصاصيين
أحمد صفوان

القاموس السياسي

في الوقت الذي زخرت فيه الصحف بالمباحث السياسية، واتصلت فيه الحوادث اتصالاً سريعاً بما قبلها من نقط التاريخ الفاصلة، ومعاهدات الأمم ومواثيقها، وأسماء الكبار من الساسة، وحركات المذاهب المتوازية والمتعارضة، اصدر باحث مصري مدقق (قاموساً سياسياً) يكون في هذا الظرف، وفي كل الظروف بالطبع، رائد المهتمين بهذه الشؤون والمباحث، ومعيناً لهم على اختصار الوقت، وضبط المعلومات، وإدراك الغاية مما يتلمسون البحث عنه في غيابه المراجع العربية أو في تيه المصادر الأجنبية

فالقاموس السياسي قد أخذ محله كما أراد له الأستاذ أحمد عطية الله في صدر المكتبة العربية، أو في (جيب) صدارها كما يقول أصدقاؤه، وأصبح بداية طيبة في تاريخ هذه المكتبة لنظم الكثير الصالح من أمثال هذا المعجم في كثير من الأغراض والأبواب ولسنا نغمط الأستاذ عطية الله حقه إذا قلنا إن هذا القاموس الذي أصدره وإن يكن قد صار اليوم مرجعاً سريعاً للباحث أو القارئ، إذا ما اعترض أحدهما شأن من الشؤون العامة، فإن افتقاره إلى زيادة العناية بالشؤون العربية، وإلقاء الضوء على الكثير من تلك الروابط القوية التي تجمعها وتحركها ويجعل من حق الذين قدروا جهده في هذا السبيل أن يلفتوا نظره إلى تلافي هذا النقص عند إعادة الطبع إن شاء الله

ويبدو أن شبهة عدم الانسجام في (الشؤون العربية) في القاموس ظاهرة أيضاً في بعض ما تناوله من المسائل الدولية والأوربية. على انه ليس من شك مطلقاً في أن مثل هذه الشوائب في كتاب يصدر في مثل هذا الظرف، لتغني به المكتبة العربية في مثل هذا الباب - كانت متوقعة لأي كاتب، وذلك لحداثة التأليف في هذا الموضوع وقلة المراجع، وصعوبة الحصول عليها. فهذا العمل الذي قام به الأستاذ عطية الله سيظل مشكوراً على كل حال

(أ. ص)

القصص

الليلة الثانية بعد الألف

سهرة المليونير

قصة عصرية على طراز ألف ليلة وليلة

للأستاذ محمد علي غريب

فلما كانت الليلة الثانية بعد الألف قالت شهرزاد: سأقص عليك أيها الملك السعيد قصة سهرة المليونير، قال الملك شهريار:

- ومن هو المليونير يا شهرزاد! أهو ملك قبيلة في الجان، أم تاجر لؤلؤ في جزائر واق الواق؟!

وتبسمت شهرزاد فكشفت عن أسنان كأنها الدر المنظوم، ثم قالت: لا هذا ولا ذاك أيها الملك السعيد، فالمليونير هو صاحب مليون من الدنانير فأكثر

- مليون من الدنانير! ما هذه الأحاجي أيتها الجارية! وكم هو عدد المليون؟

- يعني ألف ألف دينار يا مولاي. كل من ملك ألف ألف عد مليونيراً. ولنبدأ القصة من أولها. فقد زعموا أنه كان في مصر شاب أسمه الشاطر (ممدوح) توفى والداه في حادث قطار بخاري و . . .

- قطار بخاري؟ ما هذا الكلام المبهم!

- القطار البخاري يا مولاي مركبات تقودها آلة، وهذه الآلة تتحرك بقوة البخار وتأكل الفحم، ويسمع لها دوي هائل وهي تسير؛ فإذا تعرض لها أحد سحقته سحقاً. وقد وقع لأبوي الشاطر (ممدوح) ذلك فأكلهما القطار البخاري كأنهما قطعتان من الفحم

- وهل القطار البخاري يا شهرزاد منسوب إلى بخارى، وهل تجره خيول أم بغال؟

- كلا يا مولاي إنه منسوب إلى البخار: بخار الماء حين يغلي، ولا تجره خيول ولا بغال، ولكنه يسير على قضيب من حديد. ولنعد إلى الشاطر (ممدوح) فقد أصبح وحيداً في

هذه الدنيا حتى عثرت به سائحة أمريكية
- تقولين أمريكية! من أي بلاد هي يا شهرزاد؟
- أمريكا يا مولاي بلاد بعيدة يسكنها الكفار، وظلت مجهولة حتى عثر عليها رجل أسمه (خريستوف كولمبس)، وهو كافر أيضاً. وقيل إن العرب كشفوا عنها قبله بدليل وجود مسلمين توطنوا هذه البلاد في جزر (الفلبين)
وقد ربته هذه السائحة أحسن تربية، ثم سافرت فأخذته معها إلى أمريكا، وهناك أيفع واستوى، فلما ماتت الأمريكية أوصت له بجميع أموالها إذا لم يكن لها أهل يرثونها
- وتوفر الشاطر ممدوح على تنمية ثروته، فساهم في صناعة (الأتومبيلات)، وكان هو الذي أعان مخترع (الفتوغراف) على إتمام اختراعه، وأنشأ محطة للراديو و . . .
- حسبك أيتها الجارية! ما هذه الرطانة التي تذهب العقل؟
- الأتومبيل يا مولاي سيارة تجري بقوة النفط المكرر
- وحدها!؟
- وحدها. . . كالقطار البخاري تماماً، ولكنها لا تسير على قضيب من حديد. والفتوغراف صندوق يوضع فيه قرص من الشمع الأسود المنقوش، وهناك إبرة ممغنطة تدور حول القرص فتسمع الصوت الذي سجل، فإما غناء وإما موسيقى وإما حديثاً يروى. والراديو آلة تلتقط الأصوات من مكان بعيد، فلو كان هنا راديو لأمكنك أن تسمع الهمس الذي يدور في القصر المسحور وراء السبعة بحور
- إن كان هذا من صنع الجن فلا غرابة
- كلا يا مولاي! لم تعد للجن هذه القدرة على الخلق والإبداع، وملك الجان نفسه أصبح عاجزاً عن أن يكون شيئاً إلى جانب أي عالم من أولئك العلماء المخترعين
- تقولين علماء؟ أهؤلاء المخترعون رجال فقه ولغة ودين؟
- حاشاك الخطأ يا مولاي. فالعلم في هذا العصر الذي أحدثك عنه لم يعد وقفاً على ذوي اللحى والعمائم، ولكنه أصبح عنواناً على غيرهم. . . حتى أولئك الكفار! ولنعد إلى الشاطر ممدوح فبعد أن أغتني وأضحى ذا ثروة طائلة، تذكر وهو في بلاد الغربة أن له أختاً تكفل بها أحد أقاربه ولم يكن يعرف عنها شيئاً؛ فلما طغت عليه موجة الذكريات أنشأ يترنم بهذه الأبيات:
اذكرونا مثل ذكرانا لكم ... رب ذكرى قربت من نزحا
واذكروا صباً إذا غنى بكم ... شرب الدمع وعاف القدحا
ثم فاضت دموعه حتى أصبحت كالأنهار. . . وأخيراً قرر أن يسافر إلى مصر فأعد عدته وركب الباخرة
قال الملك:
- وما هي الباخرة يا شهرزاد؟ أهي القطار البخاري؟
- قالت شهرزاد:
- أجل يا مولاي. . . قطار بخاري يسير في الماء ويتسع لمئات من الراكبين دون قلوع ولا مجاديف. وقد اختار الشاطر ممدوح جناحاً له في الباخرة على أفخم ما يكون من الروعة والجمال؛ فلما وصل إلى مصر ذهب إلى فندق (الكونتننتال)
- قوليها مرة أخرى! يخيل أنها رطانة يا شهرزاد!
- الكونتننتال يا مولاي! اسم خان ولكنه فخم كأنه بيت وزير من الوزراء، وينزل فيه الملوك والأمراء والعظماء، وتملكه شركة من الأجانب يعرفون كيف يستغلون خيرات مصر دون أهلها الفقراء. وقد نزل الشاطر ممدوح في هذا الفندق وتقاطر عليه مندوبو الصحف من كل مكان
قال ملك:
- مندوبو الصحف! وما هي الصحف يا شهرزاد؟؟
قالت شهرزاد:
- هي جرائد يا مولاي تطبع كل يوم حاملة الأنباء والمعلومات والطرائف؛ أما كيف تطبع فقد اخترعوا آلة لطباعة الكلمات
- عجباً يا شهرزاد؟ كأنني أستمع إلى أقصوصة عن الجان!
- حاشاك يا مولاي! فالإنسانية في هذه الأيام التي أحدثك عنها تقدمت، والعقل البشري نضج فأصبح مخترعاً، ولكنه لم ينج من الجمع بين الخير والشر في اختراعه

- وكيف كان ذلك
- لقد اخترعوا كل ما يضمن أسباب الراحة والهناءة للإنسان، ولكنهم اخترعوا كذلك المدمرات والمهلكات. . . فإن قنبلة في حجم الكف قادرة على أن تدمر بناء من عشرين دوراً. وهناك غازات سامة ما يكاد الإنسان يستنشقها حتى يموت، وقذائف من كل صنف تحملها الطائرات في الجو والسابحات في البحر
- وي! كأني أسمع عما يحدث في يوم القيامة. . .
- هذا هو الواقع يا مولاي. فالمدنية التي استحدثها الفرنجة تحمل عناصر هدمها. . . ولنعد إلى الشاطر ممدوح فإنه لم يكد يستقر به المقام حتى بث العيون والأرصاد تفتش له عن أخته التي تركها صغيرة
وبعد أيام عاد إليه عين من عيونه التي أطلقها يقول. . .
وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح
فلما كانت الليلة الثالثة بعد الألف قالت شهرزاد: بلغني أيها الملك السعيد أن عيناً من عيون الشاطر ممدوح عاد إليه يقول: إنه عرف مكان أخته (نفيسة)، ولكنه يعتذر عن التفوه بكلمة مما بلغه عنها
وعندئذ غضب الشاطر ممدوح واشتد غيظه، فأمسك بالجاسوس من رقبته يريد أن يخنقه قائلاً:
- أن لم تقل لي - أيها الكلب - ما هنالك قذفت بك من النافذة. . .!
وخاف الجاسوس على حياته عندما رأى روح الشر في المليونير فوعده بأن يقول. ثم راح يتحدث قائلاً: أنه لم يصر على الصمت إلا رغبة منه في عدم إزعاج الشاطر ممدوح، فإن أخته بعد وفاة والديها، تولى تربيتها أحد أقربائها، وقد ظلت في كفالته خمس سنوات ذاقت فيها الويل والعذاب من زوج قريبها التي كانت تضربها لأتفه الأسباب. . . وأخيراً، هربت من ذلك الجحيم، سارت على وجهها حتى لقيها ذئب بشري. . . فاختطفها وراح يعلمها السرقة، وهي صغيرة لا تكاد تميز. . . ثم كبرت ونضجت أنوثتها. . . فتزوجت أفاقاً راحا معاً يغامران في الحياة ويتظاهران بالوجاهة والأناقة. . .
وبعد أن سمع الشاطر ممدوح هذه المعلومات استغرق في سبات عميق. . . ثم انهمرت دموعه على خديه، وأصبح كالمجنون لا يستقر على حال. وأخيراً فكر في طريقة، فدعا إلى مأدبة ساهرة، وما حل موعدها حتى كانت الموائد قد نسقت، وأقداح الشراب قد اعتدت. . . شراب: الكونياك والويسكي والشمبانيا والبيرة وما هنالك من أصناف. . .
قال الملك:
- ما هذه الأسماء يا شهرزاد؟
- أسماء لأشربة يا مولاي اخترعها الفرنجة للخمر وكلها مسكر والعياذ بالله. ثم زين مكان الحفلة بالثريات الكهربائية، والأوراق الملونة، ووقف الخدم في ثيابهم الزاهية. . . وما حان الموعد حتى توافد المدعوون من كل جانب في ثياب السهرة. . .
- وكانت السيدات مزدانات بالحلي، وقد كشفت كل واحدة عن مفاتنها، فبدا جسدها العاري وصدرها المكتنز. . .
- قال الملك:
- أمام الناس!
- أجل يا مولاي أمام الناس، فما من ضير في هذا بعد أن شاع السفور وتواضع الناس على اختلاط الجنسين، وحتى المصريات كن بهذه الأزياء. ثم دار الرقص فتخاصر الجنسان كل رجل مع سيدة يرقصان (الرومبا) و (الفوكس تروت)
قال الملك:
- عجب!. . . وهل يرقص الرجال!
- فأجابت شهرزاد:
- نعم!. . . إنهم يرقصون طوعاً للمدنية الحديثة التي ترى في الرقص نوعاً من أنواع الرياضة
وعندئذ أشار الجاسوس للشاطر ممدوح على سيدة ومعها رجل يرقصان. وقال له:

- هذه أختك. . . والذي معها زوجها وهو أكبر محتال في الوجود
وأقترب ممدوح من أخته، فجأة أطفأت الأنوار، وبعد قليل أضيئت، وتفقد سيدات كثيرات حليهن فلم يجدنها، وكان ممدوح قد رأى أخته وهي تخفي في حقيبة يدها حلياً، فحار في أمره لا بد أن تفتش، ولا بد أن تظهر أنها سارقة، فهل ينقذها. ويعمل على خلاصها لأنها أخته، أم يتركها تفضح دون أن يكشف لها عن حقيقة نفسه!
تنازعته عواطف مختلفة وتآمرت عليه الانفعالات الشديدة هل ينقذها؟ هل يتركها؟ هذان هما السؤالان البارزان في رأسه؟ وأخيراً راح يعمل على تنفيذ أحد الاقتراحين اللذين
عرضا في ذهنه
وأدرك شهرزاد الصباح فسكت عن الكلام المباح.
محمد علي غريب
العدد 427 - بتاريخ: 08 - 09 - 1941
السيف والكتب
للأستاذ عباس محمود العقاد
جاء في نبأ برقي من نيويورك أن الجماعة البريطانية المؤلفة للترفيه عن الجنود أعلنت أن ستين ألف كتاب ومجلة تجتاز الآن طريقها إلى الجيش الإمبراطوري في الشرق الأوسط؛ وهي أول ثمرة من ثمرات الدعوة التي بدئت في الولايات المتحدة قبل ذلك بأسبوع واحد لجمع مائتين وخمسين ألفاً من الكتب والمجلات لرجال الجنرال (أوفنلك) بمصر وجاراتها
وهذا في الولايات المتحدة
وهناك جماعات أخرى مبثوثة في أنحاء العالم - وبعضها في القاهرة والإسكندرية - تجمع الكتب بالألوف ومئات الألوف للترفيه عن المقاتلين أو المتحفزين للقتال
وهذه كتب ترسل إلى الجنود بغير ثمن، ولكن الجنود أنفسهم يشترون الكتب والمجلات حيث وجدوها بأثمان مضاعفة تربى على أثمانها المكتوبة عليها، ولا يكتفون بما يصل إليهم من طريق التبرع والمساعدة
ومن راقب المكتبات التي تبيع الكتب الأجنبية في العواصم المصرية عرف أن حركة البيع فيها مقرونة بحركة الجنود في نواحيها، فلا يكثر الجنود في عاصمة إلا كثر فيها بيع الكتب والمطبوعات على اختلاف موضوعاتها
وليست هذه الكتب والمطبوعات جميعها قصصاً أو من قبيل القصص كما يتبادر إلى الخاطر لأول وهلة؛ فإن الموضوعات القصصية تغلب عليها، إلا أنها تقترن بموضوعات شتى لها نصيب من إقبال الجنود غير مبخوس، ومن هذه الموضوعات الرحلات والملاحظات الحربية، والكلام على مستقبل العالم الاجتماعي والسياسي بعد الحرب الحاضرة، ومنها الدراسات الأدبية والفلسفية للقدماء والمحدثين من المؤلفين!
واتفق كثيراً أن المكتبات التي تعرف ما عندي من الكتب التي انقطع ورودها كانت تسألني عما استغني عنه منها، لأنها تطلب من تلك المكتبات ولا تستطيع جلبها من الخارج في أيام معدودات، وكنت أسأل أصحاب المكتبات أحياناً عمن يطلبونها فيدهشني أن أسمع أنهم في بعض الأحايين من طبقة الجنود الصغار وهم مع ذلك حريصون على استطلاع أحوال البلاد وتواريخها، أو أحوال العالم وقضاياه ومشكلاته، كأنهم سيدبرون أمر تلك القضايا
والمشكلات، أو سيصنفون فيها الكتب والمقالات. ولاشيء من هذا وذاك يشغلهم في الحقيقة وإنما هو العقل المتفتح لما حوله لا يستطيع أن يحتجب عنه أو يحجبه عن الوصول أليه، ولو كان في ميدان قتال!
نعم ولو كان في ميدان قتال!
وينبغي أن نذكر هذا الاستدراك وأن نعيد ذكره ولا ننساه، فإن الجندي في ميدان القتال إما مشغول بحركة العمل الحربي، أو بحركة الرياضة والمرانة والاستعداد، أو هو إن فرغ من هذه وتلك منصرف إلى اللهو والتزود من متعة الحياة؛ فليس في وقته متسع للقراءة كائناً ما كان موضوعها من السهولة والتشويق، وأحرى ألا يبلغ من اتساع وقته لها أن يحتاج الجيش كله إلى كتب ومجلات تعد بمئات الألوف
ولكن الحاصل هو هذا

الحاصل أن الجنود المقاتلين أو المتأهبين للقتال يقرءون ويدرسون، ويشترون الكتب ولا يقنعون بمئات الألوف التي يتبرع لهم بها المتبرعون
وينبغي أن نعيد هنا توكيد ميدان القتال والقراءة على أهبة من دخول الميدان
فإن طوائف من الشبان المصريين - والشرقيين عامة - كنت إذا لمتهم في الإعراض عن القراءة والمعرفة قالوا لك إن العصر عصر رياضة ولعب وركوب ومسابقات، وليس بعصر قعود ودراسة وقبوع في المكتبات! فهم يعتذرون من خمود الذهن بما ينتحلونه من نشاط الجسد. . . وليس من النشاط أن يصاب الذهن الإنساني بالخمود ولو صحبته ألوف من الأذرع والسيقان لا ينقطع لها حراك
فهذه الطوائف من الشبان خليقة أن تعلم أية رياضة هي رياضة الجندي على أهبة القتال. فهو في رياضة لا انتهاء لها في صباح ولا مساء، بل في رياضة تبلغ من العنف أن تستنفذ جهود الأعضاء والإفهام
ومع هذا هم يطلعون ويستطلعون، وتضفر منهم المطالعة والاستطلاع بحصة من الوقت لا تضفران بعشر معاشرها من أوقات شبابنا في أبان البطالة والسلام
قال لي أديب يحب أن يتحذلق بالغريب من الآراء: أترى أن القراءة شاغل من شواغل الطبيعة؟ أليست هذه الكتب وهذه الأوراق بدعة من بدع الصناعة التي لا أساس لها في
تكوين البنية، ولا حرج إذن على الشاب (المطبوع) أن يصدق عنها بفطرته وينصرف إلى ما تصرفه إليه طبيعة التكوين؟
وأديبنا هذا يحسب الكتب أوراقاً وحروفاً من صنع الحداد وابتداع المخترع الحديث؟ ولهذا هي عنده متاع (مصنوع) وليست بالمتاع المطبوع الذي له في البنية أساس كأساس الجوع والضما وسائر الشهوات
أما معاني الكتب وما تبعثه من شعور فلا تدخل له في حساب. ومعاني الكتب مع هذا شيء حيوي عضوي يمتزج بالتكوين الإنساني كما يمتزج به الغذاء واللهو والرياضة، لأنها من وظائف الوعي الذي هو خلاصة الشعور والإدراك. وهل للحياة الإنسانية بغير (الوعي) وجود؟ وهل لوجودها بغيره قيمة؟ وهل تختلف قيمة الإنسان الذي ينحصر وعيه في المطالب الحيوانية من قيمة الحيوان؟
فالقراءة ليست هي الورق المصنوع من الخرق والعيدان، وليست هي الحروف المسبوكة من المعدن، وليست هي المطبعة التي تدار بالبخار والكهرباء، وتدخل من أجل ذلك في عداد البدع والمستحدثات
كلا؛ بل القراءة هي اتساع الواعية بما يضاف إليها من التجارب والأحاسيس والمعارف والمعقولات، وهي امتداد الحياة إلى آفاق لم يكن يبلغها الفرد في عمره القصير، وهي بديل من السياحة، ومن البحث عن المجهول، ومن الإصغاء إلى النوادر والحكايات، ومن تحصيل التجارب التي يتحدث بها المجربون ومن كل تشوف مطبوع في أساس التكوين، لأنه امتداد لحواس النظر والسمع والإدراك على تعدد وسائله وأدواته. وليس يصح قول القائلين إن الكتاب لذة مصنوعة لأنه يطبع بالبخار والكهرباء إلا إذا صح إن يقال أن الرغيف لذة مصنوعة لأن البخار والكهرباء مما يصنع عليه الخبز في العصر الحديث
فالوعي هو الحاسة الكبرى التي تطلب القراءة
والوعي هو الحياة في أصدق معانيها وفي أوسعها وأرفعها على السواء
وهنا مناط الامتياز والتفرقة بين أجناس بني آدم، فأيهم كان أكثر وعياً فهو أكثر استطلاعاً بمختلف الأساليب، والقراءة أعم هذه الأساليب
ويبدو لنا على نحو يشبه اليقين أن الفرق بين الآدميين في مسألة (الوعي) كالفرق بين سلالة وسلالة أو عنصر وعنصر من عناصر الأحياء. ونعني أنه فرق لا يفسره اختلاف البيئة واختلاف التعليم واختلاف المصادفات العارضة، لأنه أعمق من ذلك وأعرق وأشد إيغالاً في الطبائع على مثال لا نراه إلا في اختلاف وظائف الأعضاء
ويجب أن يكون هذا الفرق قد تجمع في أجيال بعد أجيال، وفي موروثات بعد موروثات، حتى أصبح وشيكاً أن يفصل بين الآدمي والآدمي كما ينفصل الحيان المتباينان. ومناط ذلك فيما تعتقد الأعصاب ثم الخلايا التي يتألف منها نسيج الأجسام، لأن الأعصاب والخلايا هي أجزاء الجسم التي تتسع لتخزين الملكات والطبائع في العصور بعد

العصور، والسلالات وراء السلالات. فيما أبعد الفارق بين إنسان تملأه المطالب التي تملأ الحيوان الأعجم حتى لا تبقى فيه بقية للمزيد، وبين إنسان يستوعب الأحاسيس والأفكار، ويستكنه المجهولات والأسرار، ولا يزال بعد ذلك كأنه في حاجة إلى أكوان وراء هذا الكون تملأ ما في نفسه من آفاق لا تمتلئ ولا تزال مشرئبة متشوفة إلى المزيد

هنا نفهم معنى الشوق إلى المعرفة ومنه الشوق إلى المطالعة، فإنه على هذا التفسير وظيفة حيوية في أصل البنية وليس بالبدعة الحديثة التي ظهرت بظهور الورق والمداد أو بظهور المطبعة والكهرباء

وهنا نعرف لماذا تضيق حياة الفرد في بعض الأمم حتى يوسعها بالفرجة والاستطلاع والرياضة واستيعاب الأخبار ومشاهدة الآثار والأقطار، ثم يكتفي الفرد في أمم أخرى بما يشغل الحيوان فلا يتعداه باختياره إلى أمد بعيد. وغاية ما نرجوه ألا يكون بين أمم الشرق وأمم الحضارة الحاضرة فارق كالذي نحسبه فيصلاً متغلغلاً في أصول التكوين. فكل ما عدا ذلك فهو قابل للإصلاح والعلاج

إذ الحقيقة أن القراءة لم تزل عندنا سخرة يساق إليها الأكثرون طلباً لوظيفة أو منفعة، ولم تزل عند أمم الحضارة الحاضرة حركة نفسية كحركة العضو الذي لا يطيق الجمود. وربما تغيرت موضوعات الكتب وأثمانها وأساليب تداولها عندهم في الفترة بعد الفترة وفي العهد بعد العهد وفاقاً لتغيير الأحوال. أما أن تنقطع الكتب أو ينقطع الاطلاع فذلك عندهم أقرب شيء إلى المستحيل. ولو شئنا لأحصينا هنا عشرات الموضوعات التي أثارتها الحرب ونشطت لها أقلام الكتاب في زمن يخاله بعضنا صارفاً عن كل كتابة وكل قراءة، ولكننا في غنى بالمشاهدة عن الإحصاء.

عباس محمود العقاد

رسالة القلم البليغ

للدكتور زكي مبارك

في ظهر يوم الجمعة الأسبق دعاني أحد الصحفيين تليفونياً إلى الإجابة عن أسئلة متصلة بمهمة الكاتب في المجتمع، وقد أجبت بصراحة لا تحتمل التأويل، ودعوت ذلك الصحفي إلى مراعاة الأمانة فيما ينقل عني، فقد طال بلائي بتحريف آرائي، ثم راعني أن أرى كلماتي مثبتة بدون تغيير ولا تبديل، كأن ذلك الصحفي كان يدوِّن ما يسمع بالحرف. وإنما نصصت على هذه الأمانة في النقل لأحكم على ما نشر باسم الأستاذ عباس العقاد؛ واسم الأستاذ أحمد أمين في هذا الموضوع بالذات، فليس من المعقول أن يحرص ذلك الصحفي على مراعاة الأمانة فيما ينقل عني ثم يمضي فيزيد على هذين الباحثين الكبيرين بلا موجب معقول

وعلى هذا يكون عندنا ثلاثة آراء صريحة في تحديد (مهمة الكاتب في المجتمع)، فما هي تلك الآراء؟

يرى الأستاذ عباس العقاد أنه لا يمكن فصل المهمة الثقافية عن المهمة الاجتماعية، لأن الثقافة تمهد لأن ينظر الناس للحياة نظرة عالية، والنفوس التي تنظر للحياة نظرة عالية هي النفوس التي تستحق الحياة. ويرى أن يكون الأدب للأدب فلا يكتب الكاتب غير ما يوحي به الطبع، وهو يعنى بالحقائق الخالدة. أما المشكلات التي تتعلق بالطبقات المختلفة، فهي مشكلات وقتية يناط تدبيرها بالرجال الإداريين

ويرى زكي مبارك أن للكاتب غاية واحدة هي الصدق، وليست القصة أو المقالة إلا من وسائل التعبير عن ذلك الصدق. ويرى أن الكاتب ليس أجيراً للوطن ولا المجتمع، وهو مطلق الحرية في جميع الشؤون. ويرى أن التعبير عن آلام المجتمع وآماله لا يكون أدباً إلا إذا صدر عن الكاتب، فإن اهتم بالمجتمع طاعةً للمجتمع فليس بكاتب. ويرى أن الصرخة الأدبية لا تكون وحياً إلا إن صدرت عنه بحرارة وإيمان، فهو يحارب حين يشاء، ويسالم حين يريد، ومن حقه أن يتحدث عن الشعر والحب، لأن ذلك يصور إحساسه بالوجود. . ويختم زكي مبارك كلامه بأن الأدب أنواع: أدب محلي يصور البيئة، وأدب وقتيٌ يصور العصر، وأدب خالد لجميع الأزمان

أما الأستاذ أحمد أمين، فيصرح بأن الرأي الذي يقول بأن يكون الأدب للأدب هو رأيٌ سخيف، وهو لهذا يشغل نفسه بالكلام عن الفقر والمرض والجهل

تلك هي الآراء الثلاثة، كما نقلتها عن أصحابها مجلة العزيمة في العدد 79
فما محصول هذه الآراء؟ وكيف أختلف أو ائتلف هؤلاء الكاتبون؟
يرى الأستاذ عباس العقاد أن يكون الأدب للأدب، ويرى الأستاذ أحمد أمين أن القول بأن يكون الأدب للأدب هو رأي سخيف. (ومن الواضح أن الأستاذ أحمد أمين لا يوجه الكلام إلى الأستاذ عباس العقاد، لأنه أجاب إجابة موضوعية بدون أن يخطر في باله أنه يعارض هذا الكاتب أو ذاك)
ويرى زكي مبارك أن غاية الأدب هي الصدق، ولو سار الكاتب وحده في جانب، وسار المجتمع كله في جانب، فهو يحاسب أمام ضميره لا أمام المجتمع، وهو أعز من أن يكون صدى لأي صوت، لأنه يرى أن صوته هو صوت الوطن، وأن الوطن حين ينطق بصوت غير صوته لا يكون إلا حاكياً لأقوال محرومة من روح اليقين
أما بعد فهذه مشكلة من أصعب المشكلات، وللأستاذ عباس العقاد أن يوضح رأيه كما يشاء، وللأستاذ أحمد أمين أن يصر على قوله كما يريد. أما أنا، فأسارع إلى تحديد غايتي الأدبية بلا تسويف، ليعرف قومٌ كيف أعادي وأُصادق في الحدود التي ترسمها (رسالة القلم البليغ)
وإنما يهمني أن أسارع إلى تحديد غايتي الأدبية، لأني أُحب أن يعرف قُرائي وجه الرأي فيما أذهب إليه من الدعوة إلى حرية القلم بلا قيد ولا شرط، إلا أن يدعو العقل إلى التلطف والترفق فلا نواجه الناس بما لم يألفوه في بعض الميادين العقلية والروحية والذوقية والاجتماعية
وما يجوز لك - أيها الكاتب - أن تجادل قومك إلا حين تؤمن في سريرة نفسك بأنك رجل له وجود خاص، وبأن عندك معاني لا تجدها عند أحد من أهل زمانك، وحينئذ تصارح مواطنيك بما يجيش في صدرك، على أن تكون أنت أنت في كفرك وإيمانك، وضلالك وهداك، فلا تقول ما يحب الناس أن يقال، ولا تكتم ما يكره الناس أن يباح وأعيذك أن تفهم أني أوصيك باللجاجة والعناد، وإني أدعوك إلى مخالفة قومك في جميع ما يحبون وما يكرهون. . . فما إلى هذا قصدت. ولا يسرني أن تكون أداة انزعاج وانشقاق،
وإنما أوصيك بالصدق في جميع الأحوال، فإن اتفق رأيك مع رأي قومك فسر معهم باطمئنان، لأن التوافق الإجماعي له دلالة معنوية لا يستهين بها العقلاء، وهو يزيدك قوة إلى قوة، ويمدك بالعصبية الفكرية، وهي عصبية لا توجد أسبابها إلا في أندر الأحايين، وتلاقي المفكر الصادق مع قومه فرصة من فرص التوفيق. . . وبالله نستعيذ من الخذلان!
وإن رأيت أن الحق في جانبك أنت، وأن قومك مخطئون، فتذكر أنك لهذا المقام خلقت، وأن الجبن هو الآفة التي لا يسلم من شرها غير الموهوبين، وأن الشجاعة هي أعظم مناقب الأحرار من الكتاب
وهنا دقيقة قد تخفى عليك وعلى من قل حظهم من التجارب، وهي الوهم الذي يقول بوجوب النضال في جميع ضروب الخلاف. فاحترس من هذا الوهم كل الاحتراس، واعلم بأنه لا يجوز لك أن تجاهر بمخالفة قومك ألا في الشؤون التي يكون فيها سكوتك إثماً تحاسب عليه أمام الذي جعل سواد المداد أشد إشراقاً من بياض الصباح إن قومك يختلفون في كل يوم - واختلاف من أظهر خصائص إنسانية - فلا تناضلهم في كل خلاف، وألتزم الحياد في اكثر أوقاتك، إلى أن تحين الفرصة التي توجب الجهر بكلمة الحق، ولو تعرضت لأفظع المكارة والخطوب
واعلم انك ستبتلي بأقوام يرون غير ما تراه في أكثر الشؤون، وقد يدعونك إلى الترحيب بأن تكون أسير زمنك، أجير وطنك، بحيث لا تنطق بغير ما يستسيغ زمانك وبلادك. وهنا يكون الخوف عليك، وقد تهوى إلى أحط تركات الأسلاف، فما ذل شاعر ولا كاتب ولا خطيب إلا بسبب الخضوع لما قد يريد أبناء الوطن وأبناء الزمان، بلا تدبر ولا أدراك. وكيف تطيع أولئك في كل وقت وهم في بعض أحوالهم فقراء من الوجهة العقلية والروحية، ولا يساير هواهم غير الضعفاء؟
وما الغاية من وجودك إذا كنت صورة مكررة من وطنك وزمنك؟
وبأي حق تحمل القلم إذا خضعت لما يملأ عليك العوام وأشباه الخواص؟
وهل قلت الآراء المنخوبة حتى يضاف إليها رأي من صنفها المنخوب؟

وما قيمتك وأنت تغني صوتاً ليس من تأليفك ولا تلحينك؟
وما قوتك وقد صرت حاكياً لأقوال لم تصدر عن وحي ضميرك؟
وما انتفاع الأمة بك وأنت صوت يكسبه العهد القديم في أذن العهد الحديث؟
يجب حتما أن تكون لك ذاتية جديدة، ذاتية متفردة يجهلها الزمن الماضي، ويهابها الزمن الحاضر. يجب حتماً أن يستقل وجودك في كل يوم عن حاضرك وماضيك، فتطلع مع الشمس بنور جديد، وتواجه الليل بتأملات لم يشاهد مثلها مع قوم سواك.
يجب حتما أن تنظر في آرائك كما تنظر في أثوابك، فالآراء تَبلَى كَما تَبلَى الأثواب؛ والذي يعيش على رأي واحد قد يكون أجهل من الذي يعيش بثوب واحد. فأحذر من العيش وأنت بالي الآراء، كما يحذر من يلقى الناس وهو بالي الثياب
وقد يعيرك الغافلون بالتنقل من رأي إلى رأي، مع أنهم لا يعيرون من يلبس ثوب بعد ثوب، وإنما كان ذلك لأنهم يجهلون أن الآراء من الصور الحيوية، ولأنهم يتوهمون أن الثبات على الرأي الواحد من شواهد اليقين. ولو عقلوا لأدركوا أن العين التي تنظر بأسلوب واحد هي عين بليدة لا تدرك الفروق بين دقائق المرئيات، وكذلك يكون العقل البليد وهو الذي لا يدرك الفروق بين المعنويات والمعقولات، ولها وجوه تعد بالألوف وألوف الألوف
فهل تعقل هذا الكلام، وأنت تحاول الاضطلاع بحمل رسالة القلم البليغ؟
وهنا أيضاً مجال للخوف عليك، فقد يقع في وهمك أن المفكر الحق هو الذي يسرع في التنقل من رأي إلى رأي. هيهات ثم هيهات! فالرجل لا يغير رأيه إلا بقدر ما يتحول الجبل من وضع إلى وضع. وما كان ذلك إلا لأن الأصل في الرأي أن يكون عقيدة فكريه أو روحية، والعقائد لا تغير بالسهولة التي نغير بها الثياب. وإذن يجب أن لا تتحول من رأي إلى رأي إلا وقد تحولت من حياة إلى حياة؛ وهذا قد يقع من لحظة إلى لحظة، وقد لا يقع إلا بعد أعوام طوال وفقاً لاستعدادك في تلقي وحي الوجود
والمهم أن تكون أنت أنت في تحولك وقرارك، فلا تكون أداة للتعبير عن أوهام زمانك وبلادك، ولا تكون ظلاً لعظيم من العظماء، أو حزب من الأحزاب، إلا أن بدا لك أن تصير من طلاب المغانم، وهو مصير لا يعاب، وإن كان يزحزحك عن فردوس البيان، فما قال قوم بأن الأدب للأدب، أو الفن ' ' إلا وهم يرجون أن تكون لنا دولة لا يتطاول إليها أصحاب المناصب والألقاب
فمن أنت أيها الكاتب وماذا تريد؟
لن يصح انتسابك إلينا إلا يوم تؤمن بأن للقلم رسالة يطيب في سبيلها الاستشهاد.
ونحن قد رحبنا بجميع الآلام في سبيل القلم البليغ. ولو رأيت كيف تقدم تلاميذنا وتخلفنا في الميادين الرسمية لعرفت أننا دفعنا ثمن الاعتزاز بدولة البيان
قد ينوشك أقوام لا يعرفون كيف توحدت توحد الليث؛ وقد يسخر منك أقوام يرون الزهد في التودد إلى المقامات العالية ضرباً من الجمود؛ وقد يوافيك أجلك وليس في جيبك ما يشيعك به أهلك إلى مثواك الأخير، فما رأيك فيمن يدعوك إلى الاعتصام بالوحدانية الأدبية لتلقي الله وأنت رجل لم يعرف الخضوع لصاحب العزة والجبروت إلا تأدباً مع ذاته العالية؟
هل تعرف لأي سبب لا ينبغ من أرباب القلم غير آحاد، ولو كانوا في أمة تبلغ المئات من الملايين؟
إنما كان ذلك لأن رسالة القلم تشبه الأمانة التي تهيبت حملها السماوات والجبال
وهل تعرف لأي سبب فتر شوق المصريين والشرقيين إلى مسايرة الأقلام العربية، على نحو ما كانوا قبل أعوام قصار أو طوال؟
إنما كان ذلك لأن المفكرين صاروا أصحاب منافع ومطامع، فهم يتوددون إلى طبقات المجتمع ليحكموها باسم الغيرة المصطنعة على أمالها الضوائع. ومن هنا قل في هذا العصر من يخاطر بمواجهة تلك الطبقات بالرأي الحق، لأن ذلك يقصيه عما يتسامى إليه من المناصب، ويصوره بصورة من يعادي المجتمع، المجتمع الذي أسرف في تدليله من زينت لهم الدنيا أن يتسلحوا بسلاح الرياء الاجتماعي، وهم قوم لا تصح نسبتهم إلى المصلحين إلا مع التسامح البغيض
أين في زمانك من خاطر بمركزه في المجتمع، كما خاطر قاسم أمين؟
وأين في بلدك من رحب بتهمة الكفر في سبيل الإصلاح الديني، كما خاطر محمد

عبده، وعبد العزيز جاويش؟
وأين جهود الكتاب المفكرين في هذا الزمان؟
لقد أصبح من الآفات المألوفة أن يتحكم الجمهور في الكاتب كما يتحكم في المغني. ومن العجب أن يتحرر المغني ولا يتحرر الكاتب. فالمغني يضع أمام جمهوره لوحة كتب عليها
؛ أما الكاتب فقد عجز عن القول بأنه صاحب الحق المطلق فيما (ممنوع طلب الأدوار) يعالج من الشؤون
يجب أن يخرج الكاتب الأجير من الميدان، الكاتب الذي يرضى بأن يكون أجير الوطن أو أجير المجتمع؛ فما يكون الرجل كاتباً إلا إذا شعر بأنه مؤيد بقوة روحانية تعصمه من أحلاف الزور والبهتان. وذلك هو الكاتب المنشود؛ الكاتب الذي يرغم الدهر الاعتراف بأنه طاف على أهل زمانه بكاس لم يذوقوها من قبل، ولم يعرفوا في أي كرمة نبغ رحيقها النفيس!!
فمن هؤلاء الذين يحملون الأقلام وليسوا لحملها بأهل، لأنهم عبيد تلاميذهم من القراء، ولأنهم يتوهمون أن القلم وسيلة من الوسائل النفع الرخيص؟ من هؤلاء؟ من هؤلاء؟!
لن تكون كاتباً إلا يوم يستطيع قلمك أن يصنع بقرائك ما يصنع الدواء بالمريض، والدواء قد يزلزل الجسد فيمثل له شبح الموت، ثم تكون العافية، وكذلك يصنع القلم الصادق، فهو يزلزل الفكر والعقل والروح، ثم تكون العافية الفكرية والعقلية والروحية لمن يصلحون البقاء، ولا بقاء لغير من يستمعون صوت الصراحة والصدق والإخلاص
دنيا هذا لا عصر هي التي أضاعت الكاتب الصادق؟!
وقد دار رأسي منذ سنين حين سألت أحد كتاب باريس من الهواة التي تفصل بين كتاب فرنسا المحدثين وكتابها القدماء من الوجهة الروحية فأجاب وهو محزون:
' ' !!
وما أشد جزعي لما صرنا إليه! فالشرف لا يعوزنا، ولكن الشجاعة هي التي تعوزنا فنحن بالفطرة شرفاء، وإنما نحتاج إلى قوة من الحزم والشراسة والإباء. وأقول بصراحة إن الأدب في مصر على شفا الهاوية، لأن الأدباء يستوحون قراءهم، وتلك علامة الغثاثة والهزال، ومثلهم في ذلك مثل الطبيب الذي يستشير المريض في وصف الدواء!!
قد تقبل هذه الحال من الكتاب الذين يشتغلون بتسلية الجماهير ليأخذوا أموالهم كما يأخذها (الحاوي) في ساحات (الموالد). فاعذر الكتاب الذين أعدتهم مواهبهم ليكونوا هداة صادقين؟ (الرأي القائل بأن يكون الأدب للأدب هو رأي سخيف) كذلك قال الأستاذ أحمد أمين، حفظه الله! ومعنى كلامه أن يصبح الأدب في خدمة المجتمع؛ وهو كلام معقول، ولكني كنت
أنتظر أن تكون للأدب قوة السيطرة على المجتمع، لا حسن الطاعة في خدمة المجتمع، فالمجتمع مريض ونحن الأطباء، ولو كره الخوارج على سلطان القلم البليغ يستطيع الأستاذ أحمد أمين أن يستوحي قراءة سبعين سنة أو ثمانين أو تسعين، ثم يلقاني بعد ذلك، إن عشت وعاش، فلن يكون محصوله الفكري والأدبي غير أوشاب جمعها من أوهام القراء
أيكون الأستاذ أحمد أمين فهم أن (الأدب للأدب) معناه أن يكون جهد الأديب مقصوراً على وصف الأزهار والرياحين، والأقمار والشموس؟
إن ذلك ما فهم فأين صرخة العقل المقدود من ضمير الوجود؟
وأين الأقباس الروحية التي نستعين بها على كشف المجاهيل من سرائر القلوب والعقول؟ الكاتب يعنى بجميع الشؤون: فيتحدث عن الغنى والفقر والصحة والمرض والعلم والجهل، على أن يكون أنفعل بهذه المعاني، بحيث تصير من الغايات التي تشغل روحه الموهوب، وبحيث يكون الاهتمام بالمجتمع غرضاً من أغراضه الصحاح أما القول بأن يكون قلم الكاتب أجيراً للمطالب الوطنية والاجتماعية فهو قول مردود، ونحن أول من يرفع راية العصيان، فلن نخدم الوطن إلا طائعين، ولن نعترف للوطن بأي حق إلا إذا اعترف بأننا أصدق أبنائه الأوفياء
وماذا بقى لمصر الفرعونية والإسلامية بعد المسطور من آثار القلم البليغ؟
وبأي حق صار لمصر سلطان أدبي في الشرق لهذا العهد؟

تلك جهود أقلامنا، أقلام أسلافنا. فمن خضع لصوت الحق واعترف بأن ما بذلناه لخدمة مصر والشرق كان عملاً تنصب له الموازين فهو رجل صادق الإيمان، ومن جهل حقنا فهو صائر لا محالة إلى القرار في هوة العقوق
الأدب للأدب، كما يقول عباس العقاد
والفن للفن، كما قال بعض أقطاب الفرنسيس
والأدب هو الصدق، كما قال الرجل الذي تعرفون
فمتى تعترف الدولة الرسمية بالدولة الأدبية؟
البقاء للحق. البقاء لبياض القرطاس وسواد المداد، ولن يتخلى الله عمن يرى الصدق في
الحب والبغض هو الغاية من شرف الوجود.

زكي مبارك

ماكس إشترنر

فيلسوف الأنانية

1806 - 1856م

للدكتور جواد علي

ولم لا تكون للأنانية فلسفة وفلاسفة، والأنانية من أهم الغرائز التي لعبت دوراً هاماً في حياة البشرية؟ لعبت دورها في حياة الأفراد كما لعبت دورها في حياة الأمم. وليس بعجيب أن أصبحت (الأنانية) موضوعاً هاماً من موضوعات الفلسفة، وهدفاً أو مثلاً أعلى لبعض المذاهب الفلسفية، بل محور فلسفتها تدور حولها جميع أبحاثها كالذي يلاحظ عند (الأبيقوريين) أو عند كثير من فلاسفة القرن الثامن عشر وبعض فلاسفة الإنكليز أمثال فرنسيس هيتجسون 1694 - 1746)، ويرميا بنتام - 1832)، وجون ستيوارت ميل 1806 - 1873) وغيرهم

غير أن كاسبر شميد، أو ماكس إشترنر كما كان يلقبه إخوانه التلاميذ في المدرسة لعلو جبهته واتساعها، كان قد جاوز حدود هيام هؤلاء بالأنانية وتفانيهم فيها وضرب رقمهم القياسي بأضعاف. أعلن للناس أنه صب بالأنانية مغرم، وأنه جاء إليهم برسالة جديدة وديانة جديدة: هي ديانة الأنانية ومحبة الذات. . . ديانة قويمة فوق كل الديانات. إنها السعادة الأبدية للجماعات والأفراد؛ وإنها مفتاح اللذة؛ وإنها الطريقة المثلى للوصول إلى الكمال الإنساني وما يتمناه كل فرد من هذه الحياة. هي طلسم السعادة والكبريت الأحمر الذي أفنى الحكماء أنفسهم عبثاً للوصول إليه، وكيمياء الحياة مفتاح هذا العالم في نظرية ماكس إشترنر كلمة (أنا)؛ ولكن كلمة (أنا) هذه لا تدل على معنى مجرد، بل على شخصية معينة؛ بواسطة هذه الشخصية عرف الكون والوجود. كل ما في الكون هو (أنا) وما عداي وهم وخيال. أنا خلقت الأسماء، وأنا خلقت المصطلحات، وأنا الذي وضعت تلك التعابير التي لا وجود لها في الحقيقة. وأنا الذي سجنت نفسي بيدي. خلقت تلك المعايير الأخلاقية والمقاييس الأدبية فقلت:

شرف ووطنية وإنسانية وديانة
وأخلاق وفضيلة إلى آخر ما هنالك من كلمات جوفاء

قيدت البشرية نفسها منذ خلق العالم بقيود فرضتها عليها جماعة من الأنانيين الأقوياء الذين مثلوا دور (أنا) خير تمثيل. . . استغلوا عقول السذج البلداء، والسواد الأعظم من البلهاء، فحللوا وحرموا ووضعوا القيود الأدبية والحواجز الأخلاقية والاجتماعية. أطاعتها المجتمعات الإنسانية حتى اليوم، وأدخلت نفسها طوعاً واختياراً أو خوفاً ورهبة في عداد العبيد وطبقات الأرقاء. صارت تقاد كما يقاد قطيع الغنم أو البقر إلى المجازر باسم الوطن والشرف والدفاع عن العرض أو العقيدة والمال، إلى غير ذلك من الكلمات التي (فبرقتها) معامل أولئك الأنانيين، وأنتجتها أفواه أولئك الحكام الجبابرة العتاة. وما التاريخ البشري سوى عبودية دائمة من هذا النوع

يقول: لو حللنا الأعمال البشرية بجميع أنواعها وألوانها تحليلاً علمياً لوجدنا (الأنانية) هي الدافع الأول في جميع حركات الإنسان. هي الأول، وهي كل شيء هي الحقيقة الأولى، وهي الحقيقة الأخيرة. هي التي صورت لي العالم بهذه الصورة. وهي التي جعلت الإنسان يبني ويشيد ويشتغل. لو جردنا ما نسميه في قاموسنا (العالم) من أنا، أو الأنانية لما بقي شيء من هذا الذي سميناه عالماً. ولذلك فالحقيقة واحدة وهي حقيقة

(أنا). تدرك هذه الحقيقة ما يحيط بها بواسطة منبعين: منبع الإدراك أو التصور ومنبع الإرادة

فما دام الأفراد الأنانيون هم الذين وضعوا تلك القيود في سبيل منافعهم الشخصية ومآربهم الذاتية؛ وما دامت الأنانية هي الغالبة على كل عمل إنساني، فلم يستمر الفرد على تحمل تلك العبودية؟ ولم يذعن لتلك القيود التي قيد بها جبراً؟ ساقت هذه النتيجة المنطقية إشترنر إلى البحث عن الحرية: حرية الأفراد، وما يملكه الفرد، فوضع كتاباً في هذا المعنى سماه (الفرد وما يملك) تهجم فيه تهجماً شديداً على القيود الأخلاقية والاجتماعية والدينية التي تحكمت وظلت تتحكم في عصره، وشن حرباً شعواء مقدسة على المبادئ الدولية وعلى كل شيء عام يطلق عليه وصف بشري، وعلى الحكومات التي انتزعت سلطة الأفراد، وعلى الشيوعية التي ناوأت الملكية الفردية، وهي أقدس حق من حقوق الإنسان. سخر من المجتمع ومن تكاليف المجتمع بعبارات لاذعة لم يعرف مثلها في أي كتاب من كتب العالم

كان الشاعر الأديب الإنكليزي (برنارد مندويل صاحب كتاب (أسطورة النحل) قد صرح في كتابه بلا خوف ولا وجل بأن (الأنانية) ،(نشر لأول مرة في عام 1714 م) هي الدافع الوحيد للإنسان على أعماله الروحية والمادية، وأن جميع القيود الأخلاقية أو الإنسانية أو الدينية لا قيمة لها أبداً؛ لأنها من وضع الحكام الذين توخوا تأمين السيادة.

غير أن كتاب ماكس إشترنر كان قد جاوز كتاب مندويل الإسكتلندي في التهكم والتهجم على أخلاق المجتمع وجميع الأنظمة البشرية القائمة بأضعاف!

كان كتاب (الفرد وما يملك) عنوان ثورة جديدة أراد أن يؤجج نارها ذلك الفيلسوف: ثورة الفرد على المجتمع، ثورة الفرد على الحكومة. فشارك الديمقراطيين بالفكرة، وكان في طليعة جماعة الاشتراكي اليهودي لاسال؛ إلا أنه اختلف عنهم بالأسلوب. نرى ماكس ديمقراطياً من رأسه إلى أخمص قدميه، ولكنه ديمقراطي فردي يريد أن يشيد بناء ديمقراطياً على أساس السلطة الفردية. يريد أن يرى البشرية مجموعة أفراد، كل فرد من هذه المجموعة يتمتع بحريته ولذاته، هو نهم لا يشارك الآخرين ولا يرضى بأن يشاركه أحد. غايته التمتع بالحياة إلى آخر حد، وأن ينفرد بكل شيء؛ لا يفكر إلا لنفسه، ولا يبالي بما يفعل الآخرون. شعاره لا تهمني إلا نفسي

كل سلطة تتحدى سلطة الفرد يجب أن تقاوم وتهدم. وحيث أن الحكومات تحاول دائما التعدي على حريات الأفراد ومجال عمل الأفراد، فهي سلطات استعبادية ودوائر تفرض الرق على البشرية فرضاً بواسطة صكوك وأوراق تحبرها تطلق عليها الصيغ الشرعية. لذلك تبرم الفيلسوف من الحكومات وعد نفسه من ألد أعدائها، ولكنه كان من ألد أعداء النظام الشيوعي كذلك؛ إذ بينما الشيوعية تحطم ملكية الفرد وتندد بالملكية الخاصة، نرى (إشترنر) يندد بالملكية العامة ويدعو إلى الملكية الخاصة يرى أنه ما دامت الأنانية هي الصفة الغالبة في الطبيعة، وما دامت حركات الإنسان وسكناته كلها حركات منبعها الأنانية، فمن الحماقة التغاضي عن هذه السنة الطبيعية، والالتجاء إلى الأحلام الذهبية الشعرية؛ وقد دلت الأحوال على أن كل محاولة من هذا النوع كانت فاشلة، وأنها ترتد دائماً إلى الأنانية الفردية.

ثم من ذا الذي يضمن للإنسان عدالة أولئك الذين سيقومون بالأشراف على المجتمع العادل؟ لذا، فأنا وحدي صاحب الحق في الملكية، ولي الحق كل الحق في الامتلاك، وعلي أن

أتفاهم مع الآخرين في هذا الحق، فإذا خالفوني على حقي هذا التزمته ودافعت عنه بكل قواي لأجبر الآخرين على الاعتراف بهذا الحق، ولكن الملكية مع ذلك غير مقدسة، إذ لا قدسية في العالم إلا للحق والسيطرة فقط

وبدلاً من هذه الحكومات والتشكيلات الشيوعية، يجب تشكيل جماعات من الأنانيين الأحرار الذين لا يرتبطون فيما بينهم بروابط أو حقوق طبيعية أو روحية كالتي يطلقها عليها اتباع النظريات الأخرى. يكون الأفراد جماعة لا تحاول امتلاك الأفراد، بل يحاول الأفراد امتلاك الجماعة، والرابطة الوحيدة التي تربط الفرد بهذه الجماعة هي رابطة (المنفعة)، وعلى كل فرد أن يبذل كل ما في وسعه لاستغلال الجماعة إلى آخر ما يمكن. فإن حاولت الجماعة استغلال الفرد ثار عليها. وهذا في زعمه هو الفرق بين العبودية والحرية. ففي المجتمعات الديمقراطية أو الشيوعية تحاول الجماعة السيطرة

على الفرد، ولكنها في مجتمع ماكس إشترنر يسيطر الفرد في زعمه على الجماعة لا قيود في هذا المجتمع ولا فروض. لكل شخص عقيدته وديانته، لا تهمه إلا نفسه، ولا يشتغل إلا لنفسه فقط. فإذا تحققت هذه الأمنية على زعم فيلسوفنا تحققت الحرية وتحققت معها السعادة البشرية وتحقق كل شيء. أما الفكرة العالمية أو البشرية أو الدولية فيسائل الفيلسوف نفسه عنها: ما الذي أربحه من الاعتقاد بهذه الآراء؟ وما الذي أستفيده منها؟ ثم يجيب: لا بأس من أن أساير الناس وأن أوافقهم موافقة رجل حذر، ولكن موافقة رجل حكيم أعد لكل شيء عدته، يحاول جهد الإمكان الانتفاع من هؤلاء السذج. فإن انعكست الآية نفر من تلك الجماعة ونبذ ذلك المجتمع الفاسد. والحرية هي تجريد النفس من كل القيود والحدود التي تعوق إرادة الفرد وتحاول منعه من استغلال أنانيته ولو أنها كلمة جوفاء في حد ذاتها. وبعملنا هذا نكون قد أدركنا حقيقة الحرية. والجندي الشجاع مثلاً هو الذي يستطيع أن ينجو بنفسه من الحرب؛ فلا يضحي بنفسه في سبيل أطماع نفر من جزاري البشرية إن ربحوا تقلدوا الأوسمة ودخلوا القصور الفخمة، وإن خسروا انسحبوا إلى مملكة أخرى أو إلى القصور الهادئة وعاشوا عيشة السادة المترفين. في حين أن الجندي المسكين بطل المعركة إن مات مات فقيراً تاركا وراءه عائلة تبكي، وإن عاش عاش فقيراً كذلك لا يهتم بشجاعته أحد

سخرت الأوساط الأدبية من آراء ماكس إشترنر ومن كتابه (الفرد وما يملك) وعلى الأخص الشيوعية منها، فنشرت جريدة الراين (دانيشة تزايتنك) جريدة كارل ماركس نبي الشيوعية مقالات تهكمت فيها من نظرية إشترنر؛ وانبرى أمثال كارل كرين وموذس هيس ونفر آخر من محرري الجريدة فنشروا رسالة بعنوان (آخر الفلاسفة) سخروا فيها من الفيلسوف ومن آرائه

لم يفهم ألمان ذلك الزمن معنى لهذه (الأنانية) العلمية الجديدة، ولم يدافع أحد من فلاسفة العصر عن آراء فيلسوف (الأنانية)، ولم يتمكن محب الدنيا من استغلال الدنيا. لم تقبل الدنيا عليه رغم إقباله عليها. ظلت مدبرة عنه وهو مقبل عليها. توفيت زوجته الأولى (بنت الشارع) في السنة الأولى من زواجه، وطلقته زوجته الثانية (الحرة البوهيمية) لأنه حاول أن يتزوج مالها مكتفياً به عنها. ولم تنفعه شيئاً (جمعية أحرار الروح) التي ألفها مع بعض زملائه البوهيميين المفاليس في حانة (هبل) إحدى حانات برلين. لأن الحياة البوهيمية تحتاج إلى مال، وهذا ما لا قبل للفيلسوف به. ولم ينجح صاحبنا في بيع (الحليب) وتوزيعه عندما اضطرته الدنيا إلى العمل. فقد انهال عليه الحليب وقل الزبائن، وذهب آخر فلس لديه. ولم تنجح آخر نظرية من نظرياته الفلسفية، عندما دخل طوعاً واختياراً في عالم الديون والقروض، ثم في عالم النشل والإجرام حيث قالت الحكومة: عدوته رقم واحد، كلمتها وأدخل السجن. وبذلك أثبتت عملياً أن فيلسوفنا لم يكن على حق فيما قال

لم ينعم (صاحب الجلالة) كما كان يلقب نفسه حتى بقليل من الاهتمام. نعم عده الفوضويون الأجانب نبيا من أنبيائهم المرسلين، وحسبوا كتابه معجزة من معجزات الدماغ البشري؛ فكتبت فئة منهم عن نبيهم، كما فعل الاسكتلندي جون هنري مكي صاحب كتاب (سيرة ماكس إشترنر) وكتاب (الفوضويون). وكذلك الأمريكي توكر صاحب جريدة الحرية الأمريكية، والفرنسي فيكتور بشي في جامعات فرنسا

لم تنصف الدنيا فيلسوفنا الفقير، ولم ينصف أهل الأرض ذلك الفيلسوف المتعجرف الذي كان يكتب الحرف الأول من كلمة (أنا) دائماً بالحرف الكبير، دلالة على العجرفة والعظمة؛ فعسى أن يكون نصيبه من الآخرة خيراً من نصيبه في الدنيا.

(بغداد)

جواد علي

طاغور الخالد

للأستاذ فخري شهاب

ولد بندرانات طاغور سنة 1860 بكلكتا من أسرة عريقة في المجد بنغالية. وفي هذه) المدينة نشأ وفي جامعتها تخرج، ثم ذهب إلى إنكلترا وانتسب إلى جامعة اكسفورد وعكف على دراسة اللاتينية فيها، غير أنه لم يلبث أن مل تلك الحياة وعاد إلى موطنه، سويداء الشرق. وفي عام 1913 منحه المجمع العلمي في (استوكهولم) جائزة نوبل عن ديوان شعره الفلسفي (جيتانجالي). وقد بدأ طاغور حياته الفنية في الربيع الثامن

عشر من عمره وبزغ نجمه في سماء الأدب بمسرحيته التي أخرجها يومذاك (جيترا).
وفي هذه الفترة كان تأثره بالكاتب البنغالي (شندراشتركي) عظيما، وعكف من بعد ذلك على دراسة الفلسفة الهندية ونقل بعض روائعها إلى الإنكليزية بنفسه. ثم أسس جامعة (سانتينكتان) بمدينة بلبور بجوار كلكتا. وقد قام طاغور برحلات لممالك مختلفة واجتمع بأكابر المفكرين المعاصرين ومشاهير القادة الوطنيين من انشتاين إلى فيصل الأول ملك العراق الذي دعاه لزيارة بلاد الرافدين فلبى النداء قبل نحو عشر سنين.
وقد كان طاغور يغمر كل مجتمع يحل به بفيض من علمه وحكمته وسحره وفكاهته وحسن محاضرته التي تستلب الألباب على ما يقول سامعوه. وقبل أن يشهد طاغور انتصار مبدأ السلام الذي خصص له أدبه وافاه الأجل المحتوم فاستشهد في ميدان الدفاع هذا العام. وإذا فقدت الدنيا جسمه ففكره الجبار لن يغيب عن رعاية الناس
وأخيراً آن لهذا المطاف الطويل أن ينتهي إلى نهايته ويشرف على غايته. لقد مات طاغور وبموته استطاع أن يصل إلى الخلود الذي أشتاقه ومنى به نفسه، وردد ذكره في شعره ونثره؛ والذي من أجله أحب هذه الحياة التي كانت الطريق إليه فسايرها مسايرة المحبة والصفاء، لأنه عالم أن سير الركب به كان حثيثا وأنه عما قريب واصل منزل الأبدية الخالد وإن تطل في هذه الدنيا الطريق أو تعترضه فيها الصعاب
لقد مات طاغور، وليس بدعاً أن يموت طاغور؛ ذلك لأنه كان من أبناء الكون الأحياء، وسنة الكون أن يتدرج أبناؤه نحو الكمال، طوعاً كان ذلك أو كرهاً؛ فهو مكتوب عليهم وهم لابد سائرون إليه
أصبح طاغور اليوم اسماً مخلداً في تاريخ الفكر البشري يعرفه الناس - معرفتهم لسقراط وسبينوزا وبرجسون - من مؤلفاته التي تربو على الثلاثين مجلداً وقفها بأجمعها لنصرة الراية التي انضوى تحتها: راية المحبة والسلام في الأرض
ولو أن طاغور لم يقدر له أن يسبق عصره الذي جاء فيه بمئات السنين - إن لم نقل بألوفها - لرأى ساعة استشهد في ذلك الميدان علائم الظفر وبشائر الفوز ورجحان الكفة التي وقف نفسه للكفاح من أجلها كفاح يقين وإخلاص وثبات؛ ولكن سبقه عصره بهذا الأمد الطويل الذي تحتاجه البشرية للتخفيف من غلوئها في محبة القوة والدعوة للهدم أشقى طاغور كثيراً وآلم نفسه وأرمضها، ولكنه عجز عن أن يزعزع يقينها الثابت بالنصر آخر الأمر. وإن ما نرى من استبشاره وحبه للحياة، وتغنيه بما فيها من جمال وسحر، ودعوته إلى عبادة ذلك الجمال وقوله: (أفسحوا لي مجال العيش في نور الشمس في هذه الروضة الزاهرة بين القلوب النابضة)، إنما كان مصدره ذلك اليقين وحده
ولو أن طاغور كتب له أن يعيش في المجتمع المثالي الذي كان يريد بناء مجتمعنا وإصلاحه على نحوه، ولم يقاس في ذلك ألم خيبة الدعوة المبكرة لما اضطر إلى خطاب دعاة الحرب بقوله: (إن صح أن تكون الحقيقة الثابتة الأزلية الكبرى هي شهوة التدمير والتخريب فقد كان لزاماً على هذه الحقيقة أن تعصف بذاتها فتميد بها وتحطمها شر تحطيم) وقوله أيضاً: (إنما تفضح قوة السلاح ضعف الإنسان) وإنما الذي أنطقه بهذا، وشبهه كثير، ما رأى من بعد الحقيقة المادية عن المثالية التي حاول توجيه البشرية إليها قبل أوان ذلك بعصور وعصور
عرف الناس طاغور لشيء واحد لم يعرف فيلسوف قبله لمثله: عرفه الناس لأنه شرقي هندي حاز جائزة نوبل وبذَّ مفكري الدنيا بأسرها في مضمار الدعوة للسلام، وقد قرظه مجمع (ستوكهولم) الذي منحه تلك الجائزة بقوله: (إن شعره مثابة النفوس يشمل جميع خلجاتها ويعرب عن جميع مطامحها). ولقد كان طاغور أغنى الناس عن إشادة (استوكهولم) بفضله والتنويه به؛ ذلك لأن حكمته السامية التي لخصت حكمة الشرق العريق وأجملتها، ما كانت لتحتاج إلى مثل هذه المظاهر والأحكام لتبدوا آثار صحتها. وإذا كان لذلك المجمع من فضل، فليس له على طاغور من ذلك شيء، وإنما يده التي أسداها كانت
للدنيا التي عرفها بفلسفة طاغور وأدبه الرفيع الممتاز، فأقبلت عليه إقبالًا قوياً أحيا أملها بالفوز بالإخلاد إلى السلام ذات يوم، وجدد قواها، واستأنفت كبار العقول من أجل ذلك كفاحها، لا يعوقها عنه بعد الغاية ولا طول الطريق
عرف الناس طاغور لهذا، ولو عرفوه لغير هذا لكان أدل على الحجا وأدنى إلى الحق

والصواب؛ وبسبب هذه المعرفة التي قدمتها (ستوكهولم) لهم، جاء عرفانهم لفضل
هذا الفيلسوف الجليل قاصراً ناقصاً؛ فقد عرف أكثر الناس طاغور مفكراً وأديباً،
وجهلوه مربياً، ومصوراً، وموسيقياً، وصاحب فكاهة حلوة، ونادرة مستطرفة؛ أو بكلمة
أخرى جهلوه فيلسوفاً اتخذ مختلف تعابير الفنون الجميلة وسائل لهديه الناس والسعي
وراء إصلاحهم
وأن الإحاطة بهذه النواحي من طاغور، هي الإحاطة بفلسفته المثالية التي حاول رفع
التفكير البشري إلى مستواها، فحسبها البشر أغراباً في الخيال يخالف حقيقة حياتهم
المادية التي يحيون والتي انغمسوا فيها واندفعوا في تيارها مقهورين فيما يظنون
وإنهم لمختارون. ولو شاء طاغور أن يكون مثل (نتشه) لكان، ولداهن الواقع، ونزل
إلى سوية الناس وتطرف في الدعوة إلى القوة؛ ولكنه جاء إلى الدنيا برسالة تقول
بالتطرف في الدعوة إلى الحق، فمن أجل هذا قام بينه وبين أهل عصره الخلاف، فلم
يفز في أبان حياته بطائل مما رجا للناس من خير وسلام
ذلك من حيث كون طاغور مناراً في طريق البشرية نحو الكمال. أما هو في نفسه،
فعلى العكس مما أخرجته قصور أسرته البرهمية العريقة في أرستقراطيتها: صوفي
عظيم، يألف التأمل وينعم به، ولكن تأمله هذا لم يمنعه من الاندماج في الناس لأنه
إنما كان يتأمل في خيرهم وصلاحهم، ولأن سعيه إنما كان في توحيدهم برغم إجماعهم
على التنابذ والتخالف؛ وقد كانت نظرته إليهم نظرة متأثرة بفلسفة (الحلول) التي
اشتهرت بها الهند، فجمعتهم روح الإله الأكبر، وظهرت أمامهم في مظاهر الكون
الفسيح كافة لتستهويهم وتأسرهم بجمالها، ولتكون فتنة عقولهم التي تأسرها لذة
التأمل العميق
على أن هذه الفلسفة لم تقف مانعاً في طريق طاغور، ليتأمل تلك القدرة المبدعة
الجبارة التي زانت الكون وغمرته بفيض من جمالها الذي يثمل النفس، بل كانت
الفلسفة (الحلولية) - على العكس من ذلك - طريقته التي استطاع أن يتلمس بها آثار
تلك القوة القادرة
المهيمنة الحكيمة التي أبدعت كل شيء صنعا.
وإذا تأمل القارئ هذه القصيدة التي نسوقها إليه الآن، رأى مصداق هذا الكلام، قال
طاغور:
(كلا، ليس لك أن تفتق البراعم في شكل الأزاهير
هز البرعم ما شئت، أو أضربه، فلن تقدر على جعله زهرة، لأن ذلك فوق ما تستطيع)
(إنك لتلوثه إذ تلمسه، وإنك لتقطع وريقاته إرباً إرباً ثم تلقيها في التراب
غير أنه لا لون يظهر ولا عطر يفوح)
(آه. . . ذلك لأنه ليس لك أن تفتق البرعم زهرة
وإن من في استطاعته تفتيقه، هو الذي أبدع صنعه، فسواه بهذه البساطة واليسر)
(إنه ليرمقه بنظرته، فإذا بدم الحياة يتسرب في تضاعيف عروقه، ومن أنفاسه تفتح
الزهرة أجنحتها لتخفق في مهب الرياح
ثم تنتشر فيها الألوان انتشار الأشواق في القلوب. . . ويفوح منها العطر لينم فيها عن)
سر جميل
(إن من في استطاعته تفتيق البرعم في شكل زهرة هو الذي أبدع فسواه بهذه
البساطة واليسر)
وأبدع مما تقدم قوله في مقطوعة رمزية أخرى تظهر ما أحس به طاغور العظيم من
بون شاسع يفصل دنيا الناس عن دنيا مثالية، وكأنه بذلك كان يندد بفكرة البشر المادية
ويحلق في سماوات تصوفه وتأملاته العالية وذلك حيث يقول مخاطباً حبيبه:
(حينما اعتزمت على تصويرك نصباً اقتطعته من حياتي لأقدمه إلى الرجال ليعبدوه،
جمعت - لذلك - ترابي ورغباتي وجميع أوهامي التي زانتها التهاويل، وما عندي من
أحلام)
(وعندما سألتك أن تقيمي لحياتي نصباً تقدينه من قلبك جمعت نيرانك وقوتك إلى
الحقيقة، وضممت إلى ذلك كله المحبة والسلام)
فانظر كيف رمز إلى المثل الأعلى في المقطع الأخير ووشحه بغيره مما في النفس
الآدمية من دعوة للقوة والنار

لا نأمل في هذه العجالة أن نحيط بأفاق طاغور الفلسفية المترامية أطرافها، بل من ذا الذي منى نفسه بأن ينال من طاغور هذا المنال؟ ولكنما نريد أن نلم به اليوم إلمامه الطارق العجلان ريثما تتيسر زيارته الزيارة الطويلة، زيارة المحب ليقضي شوقه من زيارة الحبيب، وإذا لم يكن المجال يتسع لنا بأكثر من هذا، فلنعطف النظر إلى ناحية أخرى عظيمة من نواحي طاغور العظيم

كان طاغور إلى ما نعم به من سمو تفكيره جنديا من جنود الوطنية الهندية على نحو مبتكر جديد لم يكن قد سمعه من قبله الناس. كان طاغور يعشق الحرية عشقاً ظهرت آثاره في مؤلفاته كلها، والحر ليس يرضيه أن يقيم فرد من البشر في قيد الإسار فضلاً عن رضائه على رؤية الملايين من أولئك البشر أسرى خاضعين، ولهذا التنافر بين طبيعته الحرة وما أصيبت به الهند من عوادي الاستعمار برز طاغور في ميدان الوطنية وبذ فيه غيره من المكافحين

كان طاغور يتعشق الحرية ويتعشق السلام في آن واحد. والناس اليوم لا يستطيعون أن يسموا إلى الجمع بين هذين المبدأين، ذلك لأن قلب الإنسان - وإن شئت فذهنه - لم يصل من الكبر والعظمة إلى الحد الذي يتسع فيه لهذين المبدأين في الوقت ذاته.

وإذا ما رأينا من إنكارهم لوطنية طاغور التي خفيت عليهم فإنما مرجع ذلك هذا الاختلاف في التفكير والاختلاف في محبة المثل العليا والتأليف بينها. فقدر طاغور على ما لم يقدروا، وجمع أكثر مما جمعوا، وسما عليهم وبمعجزة أخرى هي سلامة المثل العليا وعدم تنافرها في نفسه بل كانت جميعاً عنده تسير في وفاق والتئام

دعا طاغور إلى الحرية، ودعا إلى تحرير البشر من إسار أقويائهم، ولكنها كانت دعوة موجهة إلى جهة الإيجاب البانية لا إلى جهة السلب المدمرة، وهو في هذا يختلف عن زعماء الوطنية الآخرين الداعين بتطرف إلى الجانب المضاد لضفة طاغور السهلة الجميلة. وليس بدعاً أن يدعو هذا المفكر الجبار لهذه الدعوة، إذ بها وحدها كان يضمن التوفيق بين عقيدتيه اللتين تنافرتا من اجتماعيهما عند غيره من الناس، عقيدة الحرية والوطنية وعقيدة تسوية السلام والمحبة بين الناس

إذا شئت أمثلة من وطنية طاغور فاسترجع في ذهنك الضجة التي أحدثها منذ أمد قريب

جداً إحدى النائبات الإنكليزيات إذ اتهمته - خلافاً لعقائده - بالدعوة السلبية التي لم تؤثر عنه منذ خلق حتى انتقل إلى عالم الخلود. وإذا شئت مثلاً آخر فاذكر أيضاً خطابه الذي وجهه إلى إخوانه الهنود المقيمين في اليابان إذ أرسلوا يسألونه أن يؤيد اليابان بكلمة من عنده في حرب استيلائها على الصين الحرة لكي يكفكف من عدوان اليابانيين على النزلاء الهنود فكان جوابه متضمناً هذا المعنى: (لخير لي أن أرى الهنود من أبناء جلدتي يروحون ضحية للجهاد من أن أنتصر باسم الهند للجور والطغيان)

وإليك مثلاً آخر من وطنيته حين نبذ أوسمة الشرف وألقابه التي قدمتها إليه الحكومة البريطانية وذلك حين أستشعر منها الإجحاف والظلم في معاملة الهنود، وأبى أن يحمل من بعد ذلك اليوم لقب (سير) ولم يجدد وضعه على طبعات مؤلفاته الجديدة ونفر منه نفرة كانت تغضبه وتؤلمه إذا دعي بها

عالج طاغور فيما عالج من مشكلات الهند مشكلتين عظيمتين: أولاهما مشكلة (المنبوذين) التي أقدم على علاجها علاجاً عملياً غير مكتف بما كتب عنها، وكسر جميع أغلال أسرته البرهمية العريقة، وذلك لأنه كان في أعماله أشبه بالمفكر الخالد الحكيم سقراط ينحو نحو تطبيق الفضيلة على نفسه بعد معرفتها ثم يدعو الناس بعد تلك المعرفة وذلك التطبيق إلى أخذ أنفسهم بها والعمل بمقتضاها. وقد أقام طاغور للمنبوذين من ماله الخاص المدارس وأنشأ لهم منشآت الثقافة التي كان أعظمها وأجلها أثراً مدرسته النموذجية التي مر ذكرها آنفاً والتي أصبحت جامعة مثالية يأمها أساتذة الجامعات ليتخرجوا فيها على طاغور تلاميذ مشربين بروح محبته للخير والسلام. وإنه ليروي أنه أنفق الجائزة المالية التي قدمها له مجمع (استكهلم) سنة 1913 في سبيل هؤلاء المنبوذين بعد أن أنفق في ذلك كل ما آل إليه من ثروة موروثة ومال مكتسب

أما الناحية الأخرى التي عالجها من مشكلات الهند فكانت مشكلة المرأة الهندية التي كانت عندما فتح طاغور عينيه للدنيا ليراها في مستوى المنبوذين هؤلاء أو أرفع قليلاً.

ومن أجل تلك المخلوقة المهيض جناحها التي ظلمها تعسف الرجل مئات السنين في الهند وقف قسطاً من جهاده، وأكرمها في شخص زوجته وأبنته، وجعلها ملاكاً كريماً يرفرف بجناحيه على البيت ليكون فيه ظل المحبة الشاملة والسلام الذي ينتظم البيوت.

وما من مسرحية له أو قصة أو أقصوصة أو رواية أو شعر إلا كانت المرأة فيه العنصر السامي الذي يخفف الحدة، ويلطف الشدة، ويمزج بالشر الذي يندس بين الناس ليفنيهم إكسيرا مضاداً له يكافحه ويقف آثار فعله لتنحصر في زاوية ضيقة بدل أن يمتد ويفور

المرأة في نظر طاغور مخلوق جعل لتزين الحياة، يخفف آلامها، ويكثر من مسراتها، ويطبعها بطابع البهجة الذي يحلو للرجل النظر إليه؛ ذلك ما دامت امرأة، فأما اعتلت أريكة الأمومة فهنالك الكمال في السمو إلى حقيقة الحقائق حقيقة المحبة التي يفيض بها قلبها أو فكرها على الناس أجمعين

ولا يستغرب القارئ هذا القول لأن دعمه بالبرهان سهل، فالرجوع إلى كتابه الذي أتممنا نقله إلى العربية ونشرناه كاملاً في أجزاء مجلة وزارة المعارف العراقية (المعلم الجديد)، ذلك الكتاب الذي أسماه الهلال يؤيد هذه الدعوة ويصور الأم للقارئ بشراً سوياً لا تبلغ المحبة في قلب في الكون مبلغها عند أحد سواه

أما بعد، فهذه كلمة موجزة عن طاغور نرجو أن تعقبها لنا عنه دراسات مستفيضة تعرفه إلى الشباب، لأن طاغور من الشخصيات الفذة التي يتعب المؤرخ الاهتداء إلى أمثالها في الدنيا. وتفكير طاغور العميق الهادئ، وتصوفه الروحي البعيد عن المظاهر، ونظرات تأمله التي شملت كل ما في الكون من أسرار وجمال جعلت منه دائرة معارف شرقية حديثة، ولكنها تمت إلى القديم بأوثق الأسباب. وهل كان لعمري ثمة شيء لا يحسنه طاغور؟ ومن أجل هذه السعة في المعرفة يوصي الذين شغفوا بطاغور حباً بدرسه دراسة تأمل وإنعام نظر وفهم دقيق، لأن في دائرة المعارف الشرقية هذه غذاء روحياً لذيذاً، ولكنه دسم لا يفهمه كل إنسان

إن طاغور لم يمت، لأن حكمته الرفيعة وفلسفته وتصوفه وأدبه الذي يحيط من وراء ذلك كله خالد تخجل يد الفناء أن تمتد إليه بعبث أو تخريب. ولن تعرف الإنسانية قدر طاغور اليوم، وإنما ستعرفه الإنسانية بعد مئات طويلة من السنين حين تخرج من سن الطيش إلى طور العقل والحصافة والتفكير الهادئ العميق.

فخري شهاب

الفقر مسألة اجتماعية

للأستاذ رمسيس يونان

(تتمة ما نشر في العدد الماضي)

وهذا مثل ثان من تناقض المصالح بين الطبقة الغنية المعتمدة على الزراعة، والطبقة الغنية المتصلة بالصناعة. فطبقة ملاك الأرض تزداد ثروتها كلما رخصت الأيدي العاملة في الزراعة، وهم الأغلبية الساحقة من الشعب المصري؛ أما رجال الصناعة فإن دخلهم يزداد كلما زادت قدرة هذه الأغلبية على الاستهلاك، أي كلما ارتفع مستوى معيشتها

وعلى ذلك ليس عجيباً أن نرى أن معظم السياسيين المصريين الداعين إلى الإصلاح الاجتماعي؛ أمثال: حافظ عفيفي، علي الشمسي، وهيب دوس، هم ممن اتصلت حياتهم عن قرب أو عن بعد بالصناعة، أو ممن تأثروا تأثراً كبيراً بالحياة الاجتماعية في الغرب التي هي نتيجة وسط صناعي. وليس عجيبا أيضاً أن نرى رجلاً مثل إسماعيل صدقي ينادي بمكافحة الفقر ورفع مستوى حياة الفلاح. . .

وهناك عوامل ثانوية أخرى تدفع الممولين إلى التفكير في الإصلاح: منها أن الأبحاث الطبية تثبت إثباتاً قاطعاً أن الأمراض تنهك العامل والفلاح وتضعف قدرتهما على الإنتاج إلى حد مخيف. وعلى ذلك فبين الممولين من يرى أن مكافحة هذه الأمراض قد يؤدي إلى زيادة في الربح تعادل على الأقل ما يحتاجون إلى بذله في سبيل هذه المكافحة. . .

ومن هذه العوامل أيضاً الرغبة النامية في إنشاء جيش قوى سليم يشعر أرباب الثروة المصرية بضرورته للاحتفاظ باستقلال سياسي يضمن لهم استقلالهم الاقتصادي

على أن رجال الصناعة في مصر والمتكلمين باسمهم لا يدعون إلى الإصلاح الاجتماعي إلا في حدود ضيقة. . . ذلك لأن الدعوة إلى تحسين حال الفلاح تؤدي حتماً إلى تحميس الحركة العمالية المطالبة برفع الأجور. وليس هذا مما يرتاح إليه الممولون وأرباب الأعمال. . .

ومع أن معظم العمال المصريين قد جاءوا من الريف، وبرغم من حداثة عهدهم بالوسط الصناعي، فلا شك في أنهم قد اكتسبوا أساليب في التفكير المعاشي تختلف عن أساليب إخوانهم الفلاحين. ولسنا الآن بصدد بحث العوامل المادية التي سببت هذا لاختلاف، وإنما يهمنا بعض ظواهره الواضحة

وأوضح هذه الظواهر أن العمال قد تجمعوا في نقابات يسعون عن طريقها إلى تحسين أحوالهم، وتشغيل العاطلين منهم، وتنظيم الإضرابات والمظاهرات وإصدار الاحتجاجات عندما يزداد ضغط أرباب الأعمال عليهم. ولم نسمع بعد - بالرغم من مجهودات بعض الأفراد طيبي القلوب - عن هيئة من الفلاحين تسعى إلى شيء من هذا

ولاشك أن هذه النقابات قد أفادت العمال في كثير من الظروف، وزادت بينهم ما يسمى (الوعي الطبقي) وإذا كان هذا الوعي الطبقي لم يصل بهم بعد إلى درجة النجاح في تكوين حزب عمال مستقل، فقد كان كافياً على الأقل إلى أن يقنع بعض الأحزاب السياسية الموجودة أن من مصلحتها التقرب بين العمال ورعاية نقاباتهم والتودد إليهم بالوعود. . .

ومع ذلك فما زالت الحركة النقابية في مصر ضعيفة، وذلك لسببين:

السبب الأول يتصل بالحركة العمالية ذاتها التي لم تنجح بعد في تحقيق (التضامن الطبقي) الكامل بين العمال، كما لم تنجح بعد في أثارت حركة مشابه بين الفلاحين، لاشك أنها إذا قامت واتحدت مع الحركة العمالية، أصبح لمجموع الأيدي العاملة في مصر قدرة رائعة على الكفاح الاقتصادي الناجح. . .

أما السبب الثاني لضعف الحركة النقابية فيرجع إلى المقاومة الجبارة المنظمة التي تواجهها بها الطبقة التي تخاف على مصالحها من نمو هذه الحركة، والتي منها من لا يتحرج أحياناً عن اللجوء إلى أحط الوسائل لإفساد أخلاق بعض زعماء العمال، وتأليب بعضهم على بعض. ولهذا الطبقة سلطان مادي يضمن لها نفوذاً كافياً على التشريع والصحافة. وليس أدل على هذا النفوذ من أن مشروع قانون النقابات ما زال من السنوات يتأرجح بين قاعتي مجلس النواب ومجلس الشيوخ، وما زال يؤجل الدورة بعد الدورة. . . هذا بالرغم من أن هذا القانون يكاد يحرم على العمال كل وسيلة من وسائل الكفاح الجدي

ولسنا نستطيع الحديث عن مسألة الفقر في مصر بغير أن نذكر مشكلة المتعلمين العاطلين. وقد يبدوا عجيباً أن تظهر مثل هذه المشكلة في بلد لا تزيد فيه نسبة المتعلمين على 10 ? بينما لم تظهر هذه المشكلة في معظم الأمم الغربية إلا بعد أن عم فيها التعليم. ولكن تعليل ذلك غير عسير؛ فإن انتشار التعليم في الغرب - كما هو الحال في مصر - كان ملازماً للنهضة الصناعية، وقد وجدت الصناعة الغربية أسواقاً ضخمة بين الشعوب الآسيوية والأفريقية فنشطت واتسعت واستطاعت أن تستوعب القدر الأكبر من خريجي المدارس؛ بينما جاءت الصناعة إلى مصر بعد أن اكتظت الأسواق الخارجية بالمصنوعات الغربية، فلم يبق أمامها غير السوق المحلية، وهي سوق في غاية الضعف كما قلنا بالنسبة للفقر الشنيع الذي تعيش فيه أغلبية الشعب، ونتيجة هذا أن الصناعة (وما يتبع الصناعة من أعمال تجارية ومرافق عمرانية) لا تنمو في مصر ألا في بطئ هو أشد من البطيء الذي ينتشر معه التعليم

وعلى ذلك فنحن نرى أن السبب العميق لظاهرة المتعلمين العاطلين بالنسبة لمصر هو هذا الفقر الساحق الذي تعيش فيه غالبية الشعب

ولسنا من المدافعين عن مناهج التعليم في مصر؛ ولكنا لا نرى في عيوب هذا التعليم السبب الأساسي في عدم اشتغال الشبان المتعلمين بالأعمال الحرة. فالواقع المشاهد أن هؤلاء الشبان لا يترددون عن الاشتغال بأي عمل منتج؛ وقد رأينا من حملة الشهادات من يبيع أوراق النصيب في الشوارع، ولكن الأعمال الحرة في مصر -

بحالتها الاقتصادية الراهنة - مكتظة بالمشتغلين بها، وشوارع المدن الآن ليس فيها مكان لحانوت جديد، ولن يتسع المجال أمام الأعمال الحرة إلا إذا اتسعت الحركة العمرانية، أي إلا إذا نفذت وسائل الحياة الحديثة إلى الريف ونشأت فيه مدن جديدة، وهذا كله موكول بالتقدم الصناعي وارتفاع مستوى المعيشة بين الفلاحين والعمال ويهمنا الآن أن ننبه إلى الصلات الاقتصادية التي تربط مشاكل الفلاحين، ومشاكل العمال، ومشاكل العاطلين من عمال ومتعلمين. فمن فائدة العمال أن ترتفع أجور الفلاحين حتى تروج تجارة المصنوعات وتزداد حاجة أصحاب المصانع إلى العمال فترتفع أجورهم. ومما يودي العمال المنشغلين أن يوجد إلى جانبهم عمال متعطلون؛ لأن الخوف من البطالة يضطر العمال إلى القبول ما يعرضه أصحاب المصانع من أجور مهما انحطت. وما يقال عن العمال يقال عن المتعلمين العاطلين وعن صغار الموظفين؛ فالمصانع تحتاج إلى خريجي المدارس كما تحتاج إلى عمال؛ والتقدم في الإنتاج الصناعي يفتح الأبواب للكثير من الأعمال الحرة أمام المتعلمين، ووجود عدد كبير من المتعلمين العاطلين يخيف

المستخدمين في المصارف والمتاجر وغيرهم ويضطرهم إلى الإذعان لاستبداد الرؤساء وإلى القناعة بالدون من المرتبات

وإذا كانت مصالح الفلاحين والعمال وصغار المستخدمين والعاطلين من متعلمين وعمال مترابطة كما نرى من هذا التحليل، فمما يؤسف له أنه لم يظهر حتى الآن اتجاه نحو توحيد الصفوف بين هذه الطبقات. فما زال العمال بعيدين عن التفكير في حال الفلاحين؛ وما زال صغار المستخدمين بعيدين عن الاهتمام بالحركة العمالية، بل ما زال المتعلمون العاطلون أفراداً منعزلين لا تربطهم هيئة منظمة. وما زال طلبة المدارس الموشكون على التخرج منصرفين عن دراسة المشاكل الاقتصادية التي تهدد مستقبلهم

ونحن نعلم أن قلوب المتعلمين والعمال العاطلين طافحة بالسخط والحقد، وأن بين العمال نفوساً متوثبة تطلب الجهاد، وأن بين شباب الجامعة عدداً كبيراً من الثائرين الناقمين على الأوضاع الحاضرة؛ ولكن هذا السخط والحقد والتوثب، وهذه الثورة والنقمة لن تنجح في مكافحة الفقر والتعطل إلا إذا انتظمت في جهاد يقوم على خطط مدبرة محكمة

ونحن نعلم أن هناك عقبات كثيرة تقوم دون ظهور حركة منظمة بين الفلاحين؛ ولكن ظهور هذه الحركة (وقد ظهر مثلها بين فلاحي الهند) غير مستحيل إذا تضافرت جهود الشباب المتعلم والعمال مع الفلاحين في هذا الكفاح.

والطبقات التي تؤذيها الأوضاع الاقتصادية الحاضرة تكون الأغلبية الساحقة من الشعب المصري؛ وما دمنا نعيش في نظام ديمقراطي، فإن من الممكن لهذه الأغلبية - إذا وحدت صفوفها - أن يصبح لها يوماً حزب سياسي مستقل قوي يعمل على تحقيق مصالحها

فمسألة الفقر في مصر لن تحل بجهود منعزلة يقوم بها أفراد لا يفكرون إلا داخل حدود حياتهم الضيقة؛ فقد ينجح فلاح صغير - لظروف شاذة - في أن يصبح مالكا صغيراً، وقد ينجح عامل في أن يستولي على مصنع حقير، وقد ينجح بعض المتعلمين العاطلين في الحصول على عمل مكان آخرين مطرودين. . . ولكن هذا كله لن يغير شيئاً في حال ستة ملايين فلاح ومليوني عامل وعشرات الآلاف من المتعلمين العاطلين. . . ولن ينجح أفراد في تغيير أوضاع اقتصادية تقوم على حمايتها سلطات تشريعية وتنفيذية وقضائية منظمة.

ولا تحل مشكلة الفقر بسياسة الإحسان؛ فلن تنجح هذه السياسة - إذا نجحت - إلا في تحويل الشعب المصري إلى أمة من الشحاذين المستكينين الصاغرين. . . يقبلون أيدي الأغنياء ويدعون بطول العمر للمستفيدين الرابحين من بقاء الأوضاع الاقتصادية الحاضرة. . .

ولا تحل مشكلة الفقر بالبحث عما يسميه الأستاذ العقاد (حقائق جامحة) و (حقائق كابحة)؛ فأغلب الظن أن هذه الحقائق عند العقاد ليست إلا انعكاساً من موقف التردد عند الطبقة البورجوازية المصرية، التي ترى ضرورة الإصلاح، ولكنها تخاف في نفس الوقت من كل دعوة إلى إصلاح عميق. . . وهو موقف تشترك فيه البورجوازية

المصرية مع البورجوازية الغربية، ونرى صداه في تفكير الكثيرين من الكتاب الغربيين المعاصرين الذين يقرأ لهم العقاد
وإنما تحل مشكلة الفقر بجهاد مشترك منظم يساير نهضة البلاد ويتمشى مع قوانينها وتقاليدها. والله الهادي إلى أقوم طريق.

رمسيس يونان

مدن الحضارات - 7

في القديم والحديث

للأستاذ محمد عبد الغني حسن

أما الآية الكبرى الباقية في قرطبة شاهداً على ما كان للعرب فيها من عمارة وهندسة فهي الجامع الكبير أو المسجد الجامع الذي بناه عبد الرحمن الداخل في موضع كنيسة للنصارى عوضهم عنها أرضاً واسعة ومالاً كثيراً. وطراز هذا المسجد على غرار المسجد النبوي الذي بناه الوليد بن عبد الملك بالمدينة المنورة.

وقد وصفه (لابورد) في كتابه (صفة أسبانيا) وذكر أن طوله 620 قدماً وعرضه 440 قدماً. ونقل دوزي عن لابورد هذا الوصف. أما المستشرق بروفنسال صاحب كتاب (إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر) فقد ذكر أن طوله 180 متراً وعرضه 130 متراً وفي كتاب الحلل السندسية للأمير شكيب وصف مفصل لهذا المسجد، كما افاض الوصف فيه البتانوني صاحب رحلة الأندلس

وتمتاز كتابات الأمير الجليل بالتحقيق والتدقيق والشرح التفصيل والتعليق على كل مشهد والتحليل لكل حادثة؛ فهو لا يكتفي بأبعاد المسجد التي ذكرها دوزي ولابورد والبارون شاك ولكنه يسأل دليله في قرطبة المهندس هرناندز وأحد الموكلين بالجامع والقيام عليه، فذكر له أن طول المسجد 175 متراً وعرضه 125 متراً وذلك قريب مما ذكره بروفنسال

وعلى كل حال لا تخلو الروايات التاريخية المختلفة من اختلاف بينها على سعة هذا المسجد وأبوابه ومحاريبه وسواريه وثرياته ونقوشه ورقومه وصناعات قبلته وفرجة محرابه وقسيه وعمده

وينقل صاحب نفح الطيب عن الإدريسي كلاماً في وصف هذا المسجد، إلا أن النسختين الباريسية والاكسفوردية من كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) للإدريسي جاء فيهما ما يخالف ما رواه صاحب نفح الطيب. ولعل ذلك من أخطاء النسخ وعدم تحري الدقة في النقل، وخاصة فيما يتعلق بذكر الأرقام والإحصاء، وهذا مشاد كثيراً لمن يكثر المطالعة في كتب الأدب والتاريخ

وأعجب ما في هذا المسجد مئذنته، وقالوا لم يكن في مآذن المسلمين ما تعدلها، فبلغ طولها

إلى مكان وقوف المؤذن 54 ذراعاً، والى أعلى الرمانة الأخيرة 73 ذراعاً، وعرضها في كل تربيع 18 ذرعاً

وقد حول نصارى أسبانيا هذا المسجد إلى كنيسة بعد أن دخلت الأندلس في حوزة الفرنجة. وما تزال النقوش العربية العجيبة الشبيهة بالمخرم (الدنتلا) تزين وجهته وعلى الباب الكبير المصفح بالنحاس رسم القوم صلباناً بعد أن تم التحويل إلى كنيسة.

وبقية المئذنة على حالها؛ إلا أن النواقيس أصبحت ترم فيها بعد الأذان والتكبير، وما تزال الآيات القرآنية الكريمة مكتوبة في دار القبلة والمحراب بالخط الكوفي. أما القبة الضخمة التي كانت قائمة فوق المسجد على 365 عموداً من المرمر، فقد أزيلت وأزيل معها 163 عموداً كما أزيل بعض سقف المسجد المحلاة بالأطلية الجميلة والليقة الذهبية؛ ونهب الفرنسيون في غارة نابليون الأول على إسبانيا أربعمائة مصباح من الفضة الخالصة. ولا تنس أن جميع خشب هذا المسجد من عيدان شجر الصنوبر الطرطوشي الذي تضرب به الأمثال في الصلابة والثبات

ويذكر الإدريسي أن بمسجد قرطبة مصحفاً يقال أنه عثماني. ويروي صاحب نفح الطيب الخبر عن الإدريسي، ثم يرويه في العصر الحديث الأمير شكيب صاحب الحلل السندسية، ويذكر أنه المصحف الذي خطه بيمينه عثمان بن عفان رضي الله عنه وفيه نقط من دمه، ولكن البتانوني يناقش هذه الرواية في تحقيق علمي، وينفي عقلاً أن ينتقل مصحف عثمان الأصلي من المدينة إلى الأندلس

وإذا ذكرت قرطبة، ذكرت بجانبها (الزهراء) التي بناها أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر، ولم يكتمل بناؤها ألا في عهد ابنه الحكم؛ وقد شرع الناصر في بنائها على بعد أربع أميال من قرطبة مرضاة لمحظية له كان اسمها زهراء

ويروي المقري عن ابن الفرضي انه كمل للناصر بنيان القناة الغريبة الصنعة التي أجراها وجرى فيها الماء العذب من جبل قرطبة إلى قصر الناعورة غربي قرطبة في المناهر المهندسة، وعلى الحنايا المعقودة يجري ماؤها بتدبير عجيب وصنعة محكمة إلى بركة عظيمة عليها أسد عظيم الصورة، بديع الصنعة، شديد الروعة، لم يشاهد أبهى منه فيما صور الملوك في غابر الدهر، يدخل الماء إلى جوف الأسد ويخرج من عجزه إلى تلك

البركة في منظر يعجب الناظر ويبهره. . . فتسقى من هذا الماء الممجوج رياض القص وجنائنه على رحبها، ويجوز الفضل من ذلك الماء إلى النهر

ويبدع الواصف لهذا القصر - سواء كان المقري أو ابن الفرضي - في وصفه سطحه الممرد المشرف على الروضة ووصف مرمره المسنون، وذهبه المصون، وعمده ونقوشه وبركة وحياضه وتماثيله. وكان يخصص لبحيرة الزهراء كل يوم أحمال وأوزان من اللحم والخبز المصنوع من الحمص الأسود غذاء لحيتانها وأسماكها. . .

وهنا تعمد الرواية التاريخية إلى الإغراق في المبالغة والمغالاة في الإحصاء والأرقام مما لا حاجة بي إلى ذكره في هذا المقام. وهي مبالغة تدل على شيء كثير من الحق، وتصور لنا هذه القصور والدور في صورة نستطيع أن نتخيلها لا بحقائقها ولكن بما أضفي عليها من تهويل وإغراق

وكان الرخام يجلب إلى الزهراء من قرطاجنة وأفريقية وتونس، واشترك في وضع الرخام ولصقه علي بن جعفر الإسكندراني. ولعله اجتلب من الإسكندرية خاصة لذلك

وازدهرت (الزهراء) في عصر الناصر ازدهاراً كاد يضيع من مكان قرطبة ومحلها. وشغل الناصر نفسه بالبناء والعمارة وإتقان القصور، وزخرفة المصانع في الزهراء حتى عطل شهود الجمعة ثلاث جمع متواليات، مما جعل القاضي العادل والواعظ الناصح منذر بن سعيد يعرب بأمير المؤمنين مبتدءاً الخطبة بقوله تعالى: (أتبنون بكل ريع آية تعبثون، وتتخذون مصانع لعلكم مخلدون) ومذكراً فيها بالدنيا الزائلة والحياة الفانية، والدار الباقية والموت المفاجئ، والقدر المواتي، مما أبكى الناصر وأحنقه على منذر لشدة وعظه وغلظة تقريعه

وكان منذر بن سعيد هذا يكثر تعنيف الخليفة الناصر على اهتمامه بالبناء إلى حد كاد ينسيه أمور دينه، وشؤون آخرته. ويروي المقري عن الحجازي في كتاب (المسهب في أخبار المغرب) أن منذراً هذا دخل على الناصر يوماً وهو مكب على الاشتغال بالبنيان فوعظه، فرد عليه الناصر قائلاً:

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها ... من بعدهم فبألسن البنيان

أو ما ترى الهرمين قد بقيا وكم ... ملك محاه حوادث الأزمان

إن البناء إذا تعاظم شأنه ... أضحى يدل على عظيم الشان

ولا يدري الراوي إن كان هذا الشعر الناصر أم مما تمثل به في هذا المقام

لقد شهدت قرطبة منذ الفتح العربي إلى أيام المنصور بن أبي عامر في أواخر القرن الرابع الهجري كثيراً من نواحي الجلال التاريخي، فبقيت زهاء ثلاثة قرون تتمتع بحكم مستقر، وملك وطيد وعمارة وبناء، ويسر ورخاء؛ إلى أن نكبت في النصف الأول من القرن الخامس الهجري الحوادث الجسام وخاصةً في زمن المستعين بالله سليمان

وفي دولتيه اللتين مكثتا ست سنين وعشرة أشهر، وهي تلك المدة التي يصفها ابن بسام صاحب كتاب الذخيرة ناقلاً عن ابن حيان قوله، وكانت كلها شداداً نكدات، صعاباً مشئومات، كريهات المبدأ والفاتحة قبيحات المنتهى والخاتمة، لم يعدم فيها حيف ولا فورق فيها خوف، ولا تم سرور، ولا فقد محذور، مع تغير السيرة، وخرق الهيبة، واشتعال الفتنة، واعتلاء المعصية، وظعن الأمن، وحلول المخافة

وشهدت قرطبة أيضاً الفتنة في زمان المستظهر، وحبسته الشنيعة في أتون الحمام حين قام الدائرة في وجهه وزرقوه وهم يسبونه، فارتد على عقبه وترجل عن فرسه وتجرد من ثيابه حتى بقي في قميصه واستخفى في أتون الحمام ففقد شخصه، ثم أخرج في قميص مسود بحال قبيحة حيث قتل أمام ابن عمه المستكفي. . .

وشهدت قرطبة في سنة 414 هـ ثورة لتعويل أهلها على رد الأمر لبني أمية الذين اغتصب سلطانهم بنو حمود، وبايعوا المستظهر الأموي الذي قتله حفيد الناصر وجلس على العرش باسم المستكفي بالله - وهو والد ولاّدة الشاعرة الأندلسية المشهورة - ثم قتل المستكفي وجاء بعده - بعد فتن وحوادث - المعتمد بالله آخر ملوك بني أمية بالأندلس

ظلت قرطبة منذ الفتح العربي مقصد أهل العلم وطلاب الأدب، يفدون إليها انتجاعاً للعلم أو طلباً للحكمة كما كانت بغداد والقاهرة في المشرق. ويذكر القاضي صاعد الأندلسي أن أبن البغونش الطبيب الحكيم الأندلسي رحل من طليطلة إلى قرطبة لطلب العلم بها

ولم لا تكون قرطبة مقصد العلماء والشداة من أهل الحكمة والمعرفة والنظر والفلسفة، وقد كان من أهلها الطبيب الفلكي الفيلسوف يحيى بن يحيى المعروف بابن السمينة، والرياضي الحكيم أبو القاسم مسلمه المعروف بالمرحيطي. وكان من تلاميذه أبن السمح وأبن الصفار

والزهراوي والكرماني وأبن خلدون (غير المؤرخ صاحب المقدمة). وكان أبن السمح السالف الذكر من أهل غرناطة، ثم وفد على المرحيطي في قرطبة لأخذ الرياضة والحكمة عنه

كما كان من أهلها الكرماني أحد الراسخين في علم العدد والهندسة، والذي قال عنه تلميذه أبن حيي المهندس الفلكي (أنه ما لقي أحداً يجاري في علم الهندسة ولا يشق غباره في فك غامضها وتبين مشكلها واستيفاء أجزائها)

ومنهم الفيلسوف أبن رشد أبو الوليد الذي اشتغل بالرياضة والفلسفة والطب والتشريح وقام: (من اشتغل بعلم التشريح ازداد بالله إيماناً)، وترك من الكتب القيمة عدة صالحة تجد ذكرها في ترجمته في طبقات الأطباء لأبن أبي أصيبعة

كما وفد على قرطبة من أهل المشرق أحمد بن يونس الحراني وأخوه عمر وغيرهما وكان ضياع قرطبة - فيما ضاع من الفردوس الإسلامي - سبباً في إثارة شاعرية كثير من شعراء المراثي للممالك والدول كابن الأبار القضاعي صاحب كتاب التكملة الذي قتل قمصا بالرماح سنة 658 هـ وأحرقت أشلاؤه والذي يقول في رثائه لمدينة بلنسية:

يا للجزيرة أضحى أهلها جَزراً ... للحادثات وأمست جدها تعسا
في كل شارقة ألمام بائقة ... يعود مأتمها عند العدا عرسا
وكلِّ غاربة احجافُ نائبة ... تثني الأمان جذاراً والسرور أسى
تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم ... ألا عقائلها المحجوبة الأنسا
وفي بلنسية منها (وقرطبة) ... ما يذهب النفس أو ما ينزف النّفَسا

وفي قرطبة يقول صالح بن شريف الرندي المعروف بأبي البقاء وهو خاتمة شعراء الأندلس وأدبائها:

وأين (قرطبة) دار العلوم فكم ... من عالم قد سما فيها له شأن؟
والحق أنه يسأل حيث لا جواب ولا كلام؛ ولله سبحانه البقاء والدوام.

(الحديث موصول)

محمد عبد الغني حسن

المصريون المحدثون - 4

شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الإنجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

وفي بعض المنازل توجد حجرة أخرى تسمى (مقعد) - كما مر بك في شكل 4 - ترتفع عن الطابق الأرضي نحو ثماني أقدام أو عشر وتستعمل كالمنضرة، وهي ذات واجهة مكشوفة لها عقدان أو أكثر ودرابزون منخفض. كذلك يوجد في الطابق الأرضي مكان مربع يسمى (تختبوش) له واجهة مكشوفة يتوسطها عامود يحمل الجدران العليا، وأرضية هي ليوان مبلط عليه مقاعد خشبية طويلة يسمى الواحد منها (دكة) تصف على جانب واحد أو على جانبين أو على الجوانب الثلاثة. وكثيراً ما يرش الحوش أثناء الصيف بالماء حتى تصبح الغرف المحيطة به (أو على الأقل غرف الطابق الأرضي)

لطيفة الحرارة. أما تأثيث الغرف فعلى الطريقة السابق وصفها وبين الغرف العلوية الخاصة بالحريم يوجد غالباً غرفة تسمى (قاعة)، كما ترى أمامك في (شكل 12)، وهي عالية بصفة خاصة، ولها ليوانان، واحد على كل جانب، أحدهما أكبر من الأخر. وفي سطح هذه القاعة قسم يعلو الدرقاعة مرتفعاً عن بقية السقف على شكل قبة، يتدلى في وسطه مصباح صغير يسمى (ممراق) ذو جوانب من خشب المشربية والدرقاعة هنا كثيراً ما تكون من غير فسقية؛ وغالباً تبلط على مثال المنضرة (المنضرة)، وعلى مثالها أيضاً يوجد في القاعة صفة جميلة ودواليب ذوات حشوات دقيقة الصنع، فضلاً عما في هذه الغرفة وفي غيرها من رفوف خشبية ضيقة تمتد على طول حائطين، أو على طول الحوائط الثلاثة التي تحد الليوان مرتفعة حوالي سبع أقدام أو أكثر عن الأرض فوق الدواليب تماماً. ويوضع فوق هذه الرفوف أوان خزفية هي للزخرفة أكثر منها للاستعمال العام. وكل الغرف تعلو إلى أربع عشرة قدماً أو اكثر، ولكن القاعة أكبرها وأعلاها، وهي تعد في المنازل العظيمة غرفة استقبال جليلة وفي كثير من الغرف العلوية في بيوت الأغنياء يوجد فضلاً عن الشبابيك نوافذ أخرى من الزجاج الملون بمثل باقات من الزهر وطواويس ورسوما أخرى ذات زخرفة مرحة فاخرة، أو نماذج خيالية ذات أثر في النفس لطيف. وتلك النوافذ الملونة الزجاج يطلق عليها لفظ (قمرية)، ارتفاعها يتراوح بين قدم ونصف وبين قدمين ونصف، وعرضها من قدم إلى قدمين؛ وهي تصف بطول القسم الأعلى من مشربية النوافذ البارزة، أو يعلو بعضها هذه المشربيات بحيث تكون مربعاً كبيراً، أو توضع في أي مكان في أعلى الجدران منفردة أو مزدوجة كل زوج بجانب الأخر. وهذه النوافذ الزجاجية تتكون من قطع صغيرة من الزجاج المختلف الألوان، المثبتة بالجص في إطار من الخشب. وكثيراً ما تزين حيطان بعض الغرف بصور غليظة للمسجد الحرام، أو قبر الرسول (صلعم)، أو لبعض الزهور، أو لموضوعات أخرى يصورها صناع الوطنيين المسلمين الذين يجهلون القواعد الأولى للرسم النظري، فيشوهون هكذا ما يحاولون أن يزينوه. وفي أغلب الأحوال تعمل هذه الرسوم الملطخة إرضاء لذوق الأتراك الرديء. وقلما يوجد نظيرها فيما بني على الطراز العربي الجميل، وأحياناً تزين الحوائط بعبارات عربية من حكم وغيرها تكتب على ورق بخط جميل، ثم توضع في أطر مجهزة بألواح زجاجية. وليست هناك غرفة خاصة تؤثث للنوم: فالسرير يطوى أثناء النهار ويوضع على جانب، أو في غرفة ملحقة تسمى (خزنة) تعد للنوم في الشتاء. وفي الصيف ينام الكثيرون في أعلى المنازل. ويغطى الجزء المرتفع من الأرضية المبلطة بالحجر بحصير أو بساط ويوضع فوقها ديوان، وهذا هو الأثاث الكامل للغرفة.

وعند تناول الطعام يؤتى بصينية مستديرة توضع فوق كرسي منخفض، ويجلس الآكلون حولها على الأرض. وليس هناك موقد؛ وإنما تدفأ الغرفة بفحم الحطب الذي يحرق في مجامر. ولكثير من المنازل عند القمة مسقط منحدر يسمى (ملقف) ويكون غالباً من ألواح خشبية أو من خشب وقصب، ويغطى في الحالة الأخيرة بالجص ويبيض من الداخل والخارج، وفتحته تتجه نحو الشمال أو نحو الجنوب ليدخل النسيم البارد الذي يهب من هاتين الجهتين إلى (فسحة) - غرفة مفتوحة - سفلى، وهناك عادة فسحة قبل مدخل كل غرفة أو أكثر من الغرف الرئيسية، فيها يجلس أفراد العائلة أو ينامون صيفا. . .

ويجهز كل باب بقفل خشبي يسمى (ضبة) كما ترى في (شكل 13)؛ ورقم 1 من هذا الشكل هو منظر أمامي للضبة والمزلاج مسحوب للوراء. أما الأرقام 2، 3، 4 فهي مناظر خلفية لأجزاء القفل كل على حدته وللمفتاح. وفي رأس الضبة مسامير صغيرة (أربعة أو خمسة أو أكثر) تسقط في ثقوب مقابلة لها في المزلاج المتحرك كلما دفع إلى المهج. وفي المفتاح أيضاً مسامير مطابقة لتلك الثقوب تدخل فيها فترفع المسامير الأولى وحينئذ يمكن سحب المزلاج للوراء فيفتح القفل. ويبلغ طول قفل باب الشارع أربع عشرة بوصة تقريباً. وأبواب الغرف والدواليب الخ. من سبع إلى تسع بوصات تقريباً. أما أبواب الحارات والمباني العامة فأقفالها من النوع نفسه، ولكن طولها غالباً قدمان أو أكثر. وليس من الصعب فتح هذا القفل

ويلاحظ أن رسم أكثر المنازل يعوزه النظام. فالغرف مختلفة الارتفاع بحيث يجب على الإنسان أن يخطو عدة درجات عندما ينتقل من غرفة لأخرى ملحقة بها. وغاية

المعماري الأولى هي جعل المنزل خاصاً بقدر الإمكان، وخصوصاً قسم الحريم؛ فيشيد المنزل بحيث لا تطل النوافذ على غرف منازل أخرى. ويراعي المعماري غرضاً آخر في بناء منازل الموسرين والعظماء وهو أن يجعل للمنزل باب سر يستطيع الساكن أن يهرب منه في حالة الخطر، أو يمكن العاشقين المرور منه. ومن الشائع أيضاً بناء مكان لإخفاء الكنوز يسمى (مخبأ) يكون في جانب من المنزل. وفي حريم المنازل الكبيرة حمام يسخن على طريقة الحمامات العمومية

وقد أشرت إلى طراز معماري آخر على الطريقة التركية جرى عليه الأغنياء أخيراً في بناء منازلهم وتلك المنازل لا تختلف كثيراً عن تلك التي سبق وصفها ما عدا النوافذ. فهي في الغالب يوضع بعضها بجانب بعض تقريباً. وعندما تشغل الحوانيت الجزء الأسفل من البناء في شارع ما (كما هو الحال في شوارع العاصمة الكبيرة، وفي بعض الشوارع الصغيرة) يقسم البناء العلوي عادة إلى مساكن منفصلة يطلق عليها اسم (ربع) وتلك المساكن ينفصل بعضها عن بعض، وكذلك عن الدكاكين تحتها، تؤجر للعائلات التي لا تقوى على دفع إيجار منزل بأكمله. وكل مسكن في الربع يحتوي على غرفة أو غرفتين للجلوس والنوم، وعلى مطبخ ودورة مياه. ويندر أن يكون للمسكن مدخل من الشارع على

حدته، فليس هناك إلا مدخل واحد وسلم واحد لعدة مساكن. والغرف في الربع تشبه غرف الدور الخاصة السابق وصفها. وهي لا تؤجر أبداً بفرشها. ومن النادر أن يسمح للأعزب أو الجارية بالسكن في تلك الربوع أو في أي مسكن خاص. ومثل هذا الشخص، ما لم يكن يعيش مع أبويه أو مع أقاربه المقربين، يضطر إلى السكن في وكالة (خان)؛ وهي بناء مخصص لاستقبال التجار وإيداع بضائعهم

وفيما عدا العاصمة وبعض المدن الأخرى، قلما توجد منازل كبيرة أو جميلة. أما مساكن الطبقات السفلى وخصوصاً طبقات الفلاحين فيبدوا عليها الفقر المدقع. فأكثرها مبني باللبن والطين وبعضها ليست إلا أكواخاً عادية. ومع ذلك فأغلبها يحوي غرفتين أو أكثر بالرغم من أن القليل منها يتألف من طابقين. ويوجد في مساكن فلاحي الوجه البحري، في غرفة ما، (فرن) في الطرف الأقصى من المدخل شاغلاً عرض الغرفة كلها، وهو عبارة عن دكة من الطوب والطين لا يزيد ارتفاعها على صدر الإنسان، سقفها مقوس في الداخل ومسطح عند القمة. ويندر أن يمتلك الفلاحون لحافاً يلتحفون به في ليالي الشتاء، فينامون كلهم على سطح الفرن بعد أن يوقدوا فيه ناراً، أو يتمتع بهذا الترف الزوج وزوجته، بينما يفترش الأطفال الأرض. وفي الغرف فتحات صغيرة مرتفعة يدخل منها النور والهواء وتشبك أحياناً بقضبان خشبية. وتكون السقوف من جذوع النخل وتغطى بالجريد والسعف وسيقان الذرة، وتكسى بطبقة من الطين والتبن. ولا يتعدى أثاث المنزل حصيرة أو حصيرتين للنوم، وبعض أوعية من الفخار، ورحاً لطحن الحبوب. ويلاحظ أن في كثير من القرى أبراجاً للحمام كبيرة مربعة الشكل مع ميل خفيف في جدرانها نحو الداخل (مثل كثير من مباني قدماء المصريين)، أو على شكل قالب سكر، تبنى على أسطح الأكواخ باللبن والفواخير والطين. وأكثر قرى مصر يقع على أطلال مرتفعة بحيث لا تصل إليها مياه الفيضان. وتحيط بها أو تجاورها أشجار النخل. وهذه المرتفعات تتكون عادة من بقايا أكواخ سابقة أو مدينة قديمة، ويبدو أنها تزيد بقدر ما يزيد مستوى الوادي من الرواسب وبقدر ما يزيد مجرى النهر

(يتبع)

عدلي طاهر نوري

ليالي قاهرة

خائن!. . .

للدكتور إبراهيم ناجي

اللَّيَالي! يَا مَا أَمَرَّ اللَّيَالي! ... غَيَبَتْ وَجْهَكَ الْجَمِيلَ الْحَبِيباَ
أَنْتَ قَاسٍ مُعَذِّبٌ لَيْتَ أَنِّي ... أَسْتَطِيعُ الْهَجْرانَ وَالتعْذِيباَ
إِنَّ حُبِّي إِلَيْكَ بالصَّفْحِ سَبَّا ... قٌ وَقَلْبِي إِلَيْكَ مَهْماَ أَصِيباَ
يَا حَبِيبي كَاَنَ اللقَّاء غَرِيباً ... وَافْتَرَقْنَاَ قَبَاَتَ كُلٌ غَرِيباَ
غَيْرَ أَنِّي أَسْتَنَجْدُ الدَّمْعَ لاَ أَلْ ... قَي مَكَانَ الدُّمُوعِ إِلاَّ لَهِيباَ

آهِ لَوْ تَرْجِعُ الدُّمُوعُ لِعَينِي ... جَفَّ دَمْعي فَلَسْتُ أَبْكي حَبيباَ
أَنْتَ مَن بَدَّلَ الوُجُودَ لِعَينِي ... أنتَ صَيَّرتَهُ جَمَالاً وَطِيباَ
أَنتَ مَنْ بَدَّلَ السَّماءَ لِعَينِي ... أنتَ صَيَّرتَها ابتِسَاماً رَحِيباَ
أَنتَ يا رِقَّةً تُذِيبُ الْقُلُوباَ ... وَتُذيبُ الصَّخْرَ الأَصَمَّ المذُيباَ
غَيْرَ أَنِّي إِلَيْكَ جِئْتُ مِنَ اللَّيْ ... لِ وَقَدْ حَانَ لِلدُّجى أن أَؤُوبَا
إبراهيم ناجي
كنت أهواك
للأديب محمد قطب
كنت أهواكِ خاطراً في شعوري ... وخيالاً يجول في تفكيري
كنت أهواك (فكرةً) ذات حسن ... ورواء، رفافةً في ضميري
كنت أهواك لا كحب الأناسيِّ ... فما كنتِ غير روح طهور
كنتِ روحاً مرفرفاً في خيالي ... بجناحين من نقاء ونور
كنتِ معنىً مِنِّي أراك بروحي ... في ثنايا عواطفي وشعوري
كنتُ ألقاك حين أسمو بنفسي ... عن دُنَى الناس لُطِّخت بالشرور
ولقد طالما هبطتُ إلى الأر ... ض فأعليتني لوادي النور
حيث نرتاده خِفافاً من القي ... د وتنساب كانطلاق الطيور
حيث ننسى ضآلة الأرض إذ تج ... معنا وحدةُ الوجود الكبير
ونحس الحياة خلداً جميلاً ... رائق الصفو كالسنى، كالعبير
كان هذا متاع قلبي وفكري ... كان فيه سعادتي وسروري
لقد كنتِ أنتِ معنى من السحر ... طليقاً في عالمي المسحور
كنت سراً أرتاده في ضميري ... وضمير الحياة خلف الستور
فإذا ما لقيته طرت نشوا ... ن بهذا اللقاء جد فخور!
إنما اليوم أنت عقل وجسم ... رابض جاثم بغير طفور
أنت في الأرض تثقلين انطلاقي ... وتَمُدِّينَني كقيد الأسير
وتريدين لي حياة ظلام ... في نظام محدد مكرور
ما حياة الأجسام؟ ما (واقع) ال ... عقل؟ سوى عالم من الديجور
كنت أهواك حين كنتِ خيالاً ... وانطلاقاً في عالم مذخور
كنت أهواك هل ترى كان هذا ... ماضياً؟ يا لشقوتي وكفوري!
كيف أحيا وأنت لست بدينا ... ي تضيئينها بنور غزير؟
وتبثين في فنوني حياة ... وتمدينها بخصب وفير؟
سوف أهواك فكرة ذات حسن ... ورواء، رفافة في ضميري
سوف تبقين في فؤاديَ ذكرى ... لهوى مشرق وعهد نفير
محمد قطب
ثورة!. . .
للأديب عبد الرحمن الخميسي
مَاذا تُرِيدُ الزَّعْزَعُ النَّكْبَاء ... مِنْ رَاسِخٍ أَكتَافُهُ شَمَّاءُ؟
تَتَكَسَّرُ الأَحْدَاثُ تَحْتَ يَمِينِهِ ... وَتَمِيدُ مِنْ صَرخَاتِهِ الغَبْرَاءُ
وَيُمَزِّقُ الظُّلمَاتِ عَنْ فَجْرٍ لَهُ ... فِيهِ حَيَاةٌ عَذْبَةٌ وَرَجَاءُ
وَيُدَكُّ بِالإِيمَانِ كلَّ كَرِيهَةٍ ... وتَمَلُّ مِنْ أَوْصَالِهِ الأَدْوَاءُ
وَيُشَارِفُ النَّجْمَ الرَّفِيعَ جَبِينُهُ ... وَتَبُثُّهُ إِلهامَهَا الَجوْزَاءُ
وَيَبِيتُ يَنْفُثُ قَلْبَهُ في شَدْوِه ... فِلَذاً تَهِيمُ بِصَوْغِهَا الشعَرَاءُ
في كَفِّهِ قَدَرٌ كَنِينٌ تَرْتمي ... مِنْ حَوْله الأَهْوَالُ وَالأَرْزَاءُ
وَعَلَى يَدَيْهِ مِنَ الصِّرَاعِ دِمَاء ... وَبِنَاظَرِيهِ تَمَرُّدٌ وَإِبَاء
وَبِأَصْغَرَيْهِ نَوْرَةٌ هَوْجَاءُ ... تَنْهَارُ فِي تَيارِهَا البُرَحَاء
الشَّوْكُ يا كَمْ دَاسَهُ مُسْتَهْزِئاً ... وَمَشَى تُزَمْجِرُ فَوْقَهُ الأَنْوَاء
وَالنَّارُ يَعْبُرُهَا فَتَسْكُنُ رُوحَهُ ... لَكِنَّهَا فِي رُوحِه أَنْدَاء
وَالصَّعْبُ تمْحَقُهُ خُطاَهُ وَلاَ تَني ... تَجْتَازُهُ مَاَ مَسَّهَا الإِعْيَاء
مَاذا تُرِيدُ الزَعْزَعُ النَّكْبَاء ... مِنْ رَاسِخٍ أَكتَافُهُ شَمَّاءُ
سَأَرُدُّهَا مَدْحُورَةً مَجْنُونَةً ... تَعْوِي فَتُعْوِلُ حَوْلَها الأَجْوَاء

وَأَعِيشُ كالْبُركانِ أقْذِفُ مِنْ فَمي ... حُمَماً تَمُوتُ بِنَارِهَا الأعْدَاء
وَأُحِبُّ نَفسِي وَحْدَهَا فَهْيَ التي ... لِلْحُبِّ فيها حُرْمَةٌ وَفَضَاء
وَأَضُمُّ هَذَا الكَوْنَ لي وَحْدِي ففي ... ذَاتي لهُ تَسْبِيحَةٌ وَغِنَاء
هَذِي الْحَياةُ جَمِيَلةٌ بِشُرُورِهَا ... وَنَقَائَهَا مَعْشُوقَةٌ حَسْنَاء
وَلقَدْ خُلِقْتُ لِكيْ أَعِيشَ وَيَنحَني ... مِنْ حَوْلَي الإصْبَاحُ وَالإمْسَاء
أَسْتقْبِلُ الفَجْرَ الوَدِيعَ مُغَرِّداً ... وَتَلفِني مِنْ آيِهِ الأَضْوَاء
وَأوَدِّعُ اللَّيْلَ البَهيمَ تَضِيء لي ... مِنْ حُجْزَتَيْهِ شعْلَةٌ حَمْرَاء
وَأَكُونُ كالإعْصَارِ أَعْصِفُ بالَّذِي ... يَعْتَاقُني وَتَهَابُني الأعْبَاء
في قَبْضَتِي قَبَسُ يُنيُر مَسَالِكي ... نَحْوَ الرَّعَانِ وَغَايَتِي الْعَلْيَاء
تَتَجَدَّدُ الرَّغَبَاتُ في نَفْسِي كما ... تَتَجَدَّدُ الأَكْوَانُ وَالأَحْيَاء
أَنَا ذَلِكَ الْجَّبارُ لا تَعْنوُ لَهُ ... إلا المَصَائِبُ وَالْمُنَى الْقَعْسَاء
الْبَابُ تَقْرَعُهُ رِيَاحُ مُلِمَّةٍ! ... مَاذَا تُريدُ الزَّعْزَعُ النَّكْبَاء
(القاهرة)
عبد الرحمن الخميسي
البريد الأدبي
من جديد
يقول الأستاذ الجليل (ا. ع) إن قول بعضهم: (من جديد) إنما هو تركيب غير عربي (مما جناه جهلة المترجمين، وأن كتابنا وبلغاءنا قبلوه من غير تفكير ولا بحث فوشج بلغتنا) ثم هو يدعم حجته برد هذا التعبير إلى اللفظة الإنجليزية:
ولكني وجدت الحسن بن رشيق القيرواني (390 - 463هـ) قد أورد هذا التعبير في شعره، إذ أثبت المترجم له في مقدمة كتابه - العمدة - قوله في إحدى قصائده:
قد أحكمتْ مني التجار ... بُ كل شيء غير جودي
أبداً أقول: لئن كسب ... تُ لأقبضنَّ يديْ شديد
حتى إذا أثريت عُد ... تُ إلى السماحة من جديد
فيتضح من ذلك أن التعبير قديم الاستعمال، أو هو - على الأقل - لا ينتمي إلى التعبير الإنجليزي الحديث في شيء نعم أن ابن رشيق ممن لا يحتج بكلامه، ولكن ورود هذا التركيب في شعره مما ينفي عنه تهمة (الترجمة الخاطئة) ويميل بنا إلى الجزم بانتمائه إلى العربية الصحيحة، فما رأي أستاذنا الجليل (ا. ع) في ذلك؟
(جرجا)
محمود عزت عرفة
1 - فرية قتل الإمام الشافعي
نشر بعضهم كلمات في (جريدة الأهرام) يؤيدون فيها خبر أن الإمام الشافعي مات مقتولاً، ورد بعضهم ذلك، وإني مثبت هنا ما يستبين منه كذب هذا الخبر. قيل أن أشهب المالكي ضرب الشافعي فشجه فمرض حتى مات. وقيل إن الذي ضربه هو فتيان المالكي: أما نسبة ذلك إلى أشهب ففرية صريحة، وإن ذكرها الشمس البرماوي من غير سند، بل هذا لا يصدر من عالم قطعاً، على ما حققه العلامة ابن حجر العسقلاني في (توالي التأسيس). وأن نسبتها إلى فتيان فإنك أيضاً. قال الحافظ بن حجر في كتابه المذكور: (لم أره من وجه يعتمد)، وقال العلامة أبو عبد الله الراعي في كتابه (انتصار السالك) (لم يصح ولم يرد من وجه يعتمد عليه)
وفي الخبر نفسه ما ينقض عزو ذلك إليه، لأنه عاش سنة كاملة بعد وفاة الشافعي، ومات حتف أنفه سنة 205، فلو كان قتله بمفتاح حديد - كما قيل - لما ونى الوالي (وهو السري ابن الحكم) عن الاقتصاص منه، لأنه كان قد عزره تعزيراً شديداً لما بلغه أنه سب الأمام الشافعي في مناظرة بينهما، فكيف لو قتله؟!
وإنما هي أفائك مكشوفة من دعاة الفتنة، يعكرون بها صفو الإخاء بين المذاهب. ولم يقع من صميم رجال المذاهب ما يشين ناصع أعمالهم في دور من أدوار التاريخ مطلقاً؛ وإنما ذلك من المتطفلين البعيدين عن الفقه وأهله. ومرض الشافعي بالباسور الشديد متواتر الخبر بأسانيده في (توالي التأسيس) وغيره.
2 - جميل نخلة المدور

قال الأستاذ محمد عبد الغني حسن (في العدد 426): أما نسبة جميل نخلة المدور إلى العراق فهي شائعة عندنا في مصر. والحق أني لم أقرأ ترجمة لهذا الباحث العظيم وفي (الأعلام للأستاذ الزركلي) ترجمة موجزة له نتعلل بها إلى أن يسمح الأستاذ البحاث كوركيس عواد بترجمة مبسوطة: جميل بن نخلة المدور (1279 - 1325 للهجرة): متأدب، من أهل بيروت، وسكن مصر فتوفى فيها، اشتهر بكتابيه (حضارة الإسلام في دار السلام) و (تاريخ بابل وأشور)، وكان الشيخ إبراهيم اليازجي يصحح له ما يكتبه. وفي أصحابهما من يرى أن (حضارة الإسلام) لليازجي، وأنه نحله جميلاً في أيام ادقاع الأول وإثراء الثاني.

أحمد صفوان

وقع في كلمتي في العدد (426) غلطتان :(تصويب)

مطبعيتان، صوابهما: (الهذلي) و (البطليوسي)

تصويبات سريعة

عرض الأستاذ وجدي في الجزء السابع من مجلة الأزهر لبعض كتب النبي صلى الله عيه وسلم والردود عليها واستهل مقاله بأنها كانت في السنة السادسة من النبوة، ثم شك في ردود ثلاثة مستدرجاً في شكه حتى أنكرها وسماها مفتريات ساذجة. وإحقاقاً للحق وإنصافاً للسيرة والتاريخ - نشير في هذه العجالة إلى الصواب؛ ونهيب بالأستاذ وهو رجل مسئول أن يعطي السيرة بعض عنايته واهتمامه حتى لا يورط القارئ في مهاوي الشكوك بعد:

1 - الصواب أن إرسال الكتب كان في السنة السادسة من الهجرة والتاسعة عشر من النبوة

2 - وأن هرقل والمقوقس كانا يعلمان من الكتب القديمة أن نبياً سيظهر. وموضوع التبشير بالنبي صلى الله عليه وسلم معروف مستفيض جاء به القرآن الكريم وغيره مما لا يدع مجالاً لشك الأستاذ ولا استبعاده. وإنما لم يذعنا له خوفاً على الملك والسلطان، ولا عبرة بتصديق لا إذعان معه ولا إسلام

3 - ثم حسبك دليلاً على إسلام النجاشي أصحمة أن النبي صلى الله عليه وسلم نعاه، وصلى عليه صلاة الغائب، وأنه أكرم المهاجرين إليه في الهجرتين إكراماً، وأنه زوج النبي صلى الله عليه وسلم أم حبيبة بنت أبي سفيان وأصدقها عنه أربعمائة دينار، فكيف تنكر بعد هذا إسلامه وتستبعد رده بشبهة ظهور الصنعة فيه؟ ولئن سلمنا هذه الصنعة إن الرد مترجم قطعاً. وللمترجم أن يتصرف في الألفاظ ما شاء ما دام أميناً على المعنى حفيظاً عليه

هذه تصويبات خاطفة ومن ابتغى المزيد فليرجع إلى السيرة الحلبية، والى كتاب الجنائز في البخاري، والى شرح المواهب اللدنية ص346 ج3. وكفى بهن دليلاً

طه محمد الساكت

المدرس بمعهد القاهرة

إلى الدكتور زكي مبارك

الحسن والفضل منفوسان على أصحابهما. لهذا ما تراني في هذه الكلمة متصدياً للرأي الطريف الذي ارتأيت في أحد (شجون الأحاديث) التي تحدث قراءك كل أسبوع في الرسالة الغراء. إن للأفكار الحسان عشاقاً يحومون حولها كما يحوم حول الحسان من بنات حواء كل عاشق ولهان. فاسمح لي إذاً أن أحوم قليلاً حول ما ارتأيت من رأي في حديث (ما علمتني الأيام).

ارتأيت ألا يبدي أحداً رأياً في مسائل الأخلاق والدين والاجتماع إلا مكتوباً، فيأمن مغبة التزيد الشنيع الذي يتزيد بعض خساس الناس على الأحاديث ترسل إرسالاً في المجالس والنوادي والمجتمعات. وذلك أن الكلمة المكتوبة، خلافاً للكلمة الملفوظة، لا تقبل التزيد ولا التحريف المقصود، أو غير المقصود، وإن ركب أحد المعاندين المكابرين رأسه وحاول أن يزيد أو ينقص أو يحرف فيما كتبت ونشرت، فأنت بما تملك من سلاح المنطق والرجوع إلى الحقائق والاحتكام إلى الرأي العام خليق أن ترده إلى محجة الصواب أو تلقمه حجراً إن كان لا يسد فاه إلا حجر. ولا أنكر أن للرأي قوته

وإغراءه وللنصيحة ما تستأهله من إصغاء تام، لا سيما وهذه الأيام هي الأيام التي تروج فيها سوق الرواة المتزيدين المحرفين المشنعين. ولكن، ولا بد من لكن هنا، هل ينجو صيارفة الفكر وصاغة الكلام من مساوئ التشنيع والتزيد والتحريف لو اعتصموا بالصمت ولاذوا بالسكوت كما تنصح لهم أن يفعلوا يا دكتور؟! أما أنت فقد أجبت جواب الموقن أنه ما على المرء لينجو من مساوئ التزيد والتحريف إلا أن يطبق شفتيه ويطلق قلمه ينقل إلى القارئين آراءه وأفكاره فلا تعبث بها الأهواء الخبيثة والذواكر العابثة. أما أنا، وأني على أشد اليقين مما أقول، فلا أرى الاعتصام بالسكوت في النوادي والمجالس الخاصة أو العامة منجياً من أذى التزيد والتشنيع لسبب واحد بسيط يكاد لبساطته وشيوعه لا يخفى على أحد: فقد تنجح في أن تروض نفسك على ألا تبدي رأياً في شؤون السياسة والدين والاجتماع إلا مكتوباً، ولكن ما حيلتك في هذا النفر الذين لا يعنيهم أن يسمعوا رأيك خارجاً من شفتيك أو مدوناً في صحيفة أو كتاب فيمضون يشيعون أنك قلت كيت وكيت وارتأيت زيت وزيت؟

هذا شيء، والشيء الآخر وجوب الكلام أننا قد نفيد في عرض أفكارنا على غيرنا قبل إثباتها على الورق فائدة التمحيص لهذه الأفكار وإزالة الفضول، فنعدل عن الفكرة الجائرة، وتعدل الفكرة الحائرة ونثبت على الفكرة الصائبة

وشيء ثالث أن كثيراً من المفكرين لا يجدون الوسيلة إلى التدوين، أما لأنهم خطباء مرتجلون أو لأنهم لا يجدون الصحيفة تنشر لهم ما يرتأون، فهل يصمت هؤلاء أو يتكلمون؟!

بناءً على هذه وبناءً على أن الله خلق الحنجرة والشفتين واللسان قبل أن يخلق الورق والمداد والأقلام وحتى لا تصبح المجالس والنوادي ميادين تتبارى فيها فنون الملق والتدجيل والرياء أرى أن يتكلم كل ما أطاق لسانه وحنجرته الكلام، ولكن في حدود اللياقة والمنطق والاحتشام

هذا ولما كان الحديث ذا شجون فقد استرعى انتباهي من شجون حديثك ما ارتأيت من أن الكفايات يجني بعضها على بعض، وهي قولة حق يحس صدقها كل من عانى التعبير عن هواجس النفس وخوافي الحس بطريق غير الطريق الذي اعتاده؛ ولكن هذا لا يعني أن نخضع للأمر الواقع ونترك هذه الكفايات يبتلع بعضها بعضاً حتى لا تبقى إلا الكفاية الواحدة تستبد بصاحبها أبلغ الاستبداد، ولا تدع له أن يقول قولاً أو يبدي رأياً أو يدون هاجسة من هواجسه إلا عن طريقها وبأسلوبها، وقد يكون بين الكفايات المكبوتة ما هو أولى بالبروز وأخلق بالرعاية وأحق بالترويض من الكفاية التي زاحمت ما عداها من الكفايات فزحمتها وردتها ذليلة مقهورة. ثم يجب ألا يفوتنا أن الممارسة والمران كفيلان بأن يزيلا عن الكفاية المكبوتة ما قد بحسه صاحبها من العسر عند أول ما يحاول استغلالها. فالكفاية العالية المهملة كالجواد الكريم طال ارتباطه وحرم أن يسعى أو يجول في طريق أو ميدان، فيجد راكبه صعوبة في تصريفه أول الأمر، ولكنه لا يلبث طويلاً حتى يعود إلى ما هو خليق بالعتق والأصل الكريم من التبريز في غير عسر ولا عناء.

أديب عباس

العدد 428 - بتاريخ: 15 - 09 - 1941

أحاديث التلاميذ المصريين

يوم العودة إلى المدارس

(لكاتب كبير)

في أكثر البلاد الأوربية والأمريكية يكون (يوم العودة إلى المدارس) يوماً خفيف الظل، لطيف الروح، وهو عند تلاميذ تلك البلاد أجمل أيام العام الدراسي الجديد، ولكن ما سر الجمال في ذلك اليوم؟ أيكون في تنسم أرواح المدرسة من جديد، ولها في قلوب أكثر التلاميذ مكان؟ أيكون في تسلم الكتب الجديدة، ولها جاذبية يتشوق إليها عقلاء التلاميذ؟

لا هذا ولا ذاك، فهنالك عذوبة تفوق هذين المعنيين الكريمين، وهي عذوبة الأحاديث التي يتجاذبها التلاميذ، وهم يقصون أخبار الصيف وما وقع لهم فيه من نوادر وطرائف، وما شاهدوا فيه من غرائب وأعاجيب. . . إي ولله، فهنالك لذة طبيعية، هي لذة الحديث عما رأينا وسمعنا في أيام الراحة من متاعب الدروس، وهي لذة لم نذقها ولم

يذقها أبناؤنا ولا تلاميذنا، ولن يلتفت إليها المربون المصريون إلا يوم يؤمنون بأنها تصنع في خلق الحيوية الذوقية والروحية ما تعجز عنه المدارس والمعاهد والكليات.

فماذا يقول التلاميذ المصريون بعضهم لبعض يوم يلتقون في مطلع العام الراسي الجديد؟ وما هي موضوعات الأحاديث التي يتجاذبونها في ذلك اليوم؟

الواقع يشهد بأننا لم نبذل جهداً قوياً أو ضعيفاً في تلوين البلاد المصرية؛ فلم ننشئ فيها غابات، ولم نلتفت إلى ما بها من بحيرات، ولم نحاول تشويق أبناءنا وتلاميذنا إلى درس ما فيها من نبات وحيوان، ولا فكر جماعة منا في إعداد المناهج لأيام الصيف، وهي في مصر أطيب الأيام، وإن تعرضت لوهج القيظ من حين إلى حين

الحق أننا لا نفكر في حقوق الأبناء والتلاميذ. . . وهل نفكر في أنفسنا حتى نفكر فيهم؟

إن عيشنا رتيب رتيب، وأكثرنا يقضي أيام الإجازة على النحو الذي يقضي به أوقات الفراغ في موسم الأعمال، فلا ينتقل من بلد إلى بلد، ولا يتيح لعينيه فرصة التطلع إلى منظر جديد، وكذلك نحبس أبناءنا في بيوتنا أيام الصيف. إلا أن نتلطف فنسمح لهم بالتجول في رحاب تلك البيوت، ثم تكون النتيجة أن يلقوا رفاقهم يوم افتتاح العام الدراسي وليس عندهم ما يتحدثون به غير المغامرات الصبيانية، وهي لا تخرج عن التغزل المزيف أو الصحيح

بخادمات الجيران!

أنا أريد أن يلقى التلميذ رفاقه في مطلع الخريف وعنده أشياء يحدث بها أولئك الرفاق؛ كأن يقول إنه قضي أياما أو أسابيع في رحلات طريفة تعرف بها إلى بعض خصائص هذه البلاد، وكأن يقول إن (بحيرة قارون) لها تاريخ لم تظفر بمثله (بحيرة التمساح)، وكأن يقول إنه عجب من الأقدار التي فكرت منذ الأزل في تهيئة الوسائل لإقامة خزائن أسوان، وكأن يقول إنه عرف بالضبط مواطن اللولبيين، وكان لهم تاريخ في مناوشة قدماء المصريين، وكأن يقول إنه عرف المسجد الثاني، وهو المسجد الذي بني بعد المسجد الجامع بمدينة الفسطاط، وكأن يقول إنه عرف الموجب الذي قضى بأن تكون هناك منافسات ظاهرة أو خفية بين أهل الشمال وأهل الجنوب

أريد وأريد، ولكن المدرسين والآباء يصدونني عما أريد

فإن اعتذر الآباء بشواغلهم اليومية، فما أعذار المدرسين ولهم مواسم يرون بها مع تلاميذهم ما يشاءون، ولو كانت لهم عيون؟!

وهل لحاضرات المدرسين عيون وأكثرهم يقضي الإجازات في رحاب القهوات؟

وما قيمة المدرس الذي لا يجد ما يحدث به تلاميذه عن مشاهداته في أيام الصيف؟ ما قيمة العيون البليدة التي لا تتطلع إلى الجديد من مشاهد الوجود؟

ولكن ما الوجوب لإيذاء المدرسين بهذا الهجوم العنيف وهو عضو في الأسرة المصرية، وهي أسرة لا تفكر في إعداد ميزانية لأيام الإجازات؟

أيام العمل مرجعها إلى البيت، وأيام الراحة مرجعها إلى البيت، وأيام المرض مرجعها إلى البيت، ولو أبيح لهؤلاء أن يقبروا في بيوتهم لعدوا ذلك من دلائل التوفيق؟

فيا بني آدم، من أهل هذه البلاد، تذكروا إن المثل المصري يقول: (الحركة بركة) وتذكروا أن لأبنائكم منافع من التعرف إلى أقاليم النيل السعيد، إن كانت لكم غاية في تثقيف أولئك الأبناء؟

ماذا يقول المدرس لتلاميذه يوم العودة المدرسية،

وماذا يقول التلاميذ بعضهم لبعض في ذلك اليوم؟

ضرب حجاب الغفلة على أولئك وهؤلاء، فلن يجدوا غير الحديث عن صفارات الإنذار وأسعار القطن وغلاء الأقوات وهو حديث معاد لا تنشرح لسرده القلوب

لأولئك وهؤلاء أن يعتذروا بعجزهم المادي عن مشاهدة بعض الأقطار الشرقية أو الغربية، فما عذرهم في العجز عن مشاهدة الأقاليم المصرية؟

أيريدون أن تقوم وزارة المعارف بتكاليف تلك الرحلات؟

كنت أرجو أن يكون في أنفس المدرسين والتلاميذ ما يوجب جوب الأقاليم المصرية مشياً على الأقدام ليعرفوا كيف يكون (طولها شهرا وعرضها عشر)، كما قال عمرو بن العاص، ولكن. . . ولكن أبناء هذه البلاد مصريون لا أعراب!

تحركوا قليلاً، يا أبناء مصر، فالحركة في أسوأ أحوالها أفضل من السكون، لأن الحركة

حياة والسكون موت، أعانني الله وإياكم على التخلق بأخلاق الأحياء
كاتب
الحديث ذو شجون
للدكتور زكي مبارك
الإسلام الصحيح - القدوة الصالحة أنفع من البرهان - مناجاة)
روحية - عجز المدنية الأوربية عن إقراء السلام لا يجب أن
بصرفكم عن فهم روحها الأصيل. . .)
الإسلام الصحيح
رجاني الأستاذ أحمد كامل مدرس علم النبات في مدرسة مشتهر الزراعية أن أجيب عن أسئلة وجهها إلي حضرة الأديب تادرس مسيحية وكيل بريد أخطاب، والأسئلة تدور حول التعريف بالإسلام الصحيح
ويظهر إن هذه الأسئلة وجهت من قبل إلى حضرة الباحث المفكر الأستاذ فريد وجدي، كما وجهت إلى بعض الوعاظ، وإلى أحد الأساتذة بكلية أصول الدين
ويظهر أيضاً إن صاحب الأسئلة رجل قد أطلع على كثير من المباحث الإسلامية، فخطابه يشهد بأنه قرأ بعض التفاسير، ونظر في بعض المذاهب، وكون لنفسه فكرة واضحة وغامضة عن العقيدة الإسلامية، بحيث يستطيع المجادلة في كثير من المسائل التي يدور حولها الخلاف بين المسيحيين والمسلمين
ويظهر كذلك إنه يتوهم إن الإجابة عن أسئلته ضرب من المستحيل، وإلا فكيف جاز له أن يتحداني فيقول: هذا موطن الشجاعة إن كنت من الشجعان؟!!
وأجيب بأن هذه الأسئلة ترجع إلى غرض من أثنين:
الأول هو الرغبة في درس بعض المشكلات الدينية، والثاني هو الشوق إلى فهم أسرار العقيدة الإسلامية. فإن كان الحافز هو الغرض الأول، فأنا غير مستعد للمشاركة في هذا الجدال، فقد علمتني التجارب إن المجادلة التي تقع بين رجلين من دينين مختلفين، تنتهي غالباً إلى تعميق هوة الخلاف، ولا تجني منها غير ثمرة الفرقة والشقاق، إلا أن نكون وصلنا إلى أشرف الغايات في التفاهم العلمي، وذلك غير مضمون، ما دام الجدل قد انتقل إلى الجرائد والمجلات، فقد ينقلب الجدل إلى لجاجة من حيث لا نريد
وإن كان الحافز هو الشوق إلى فهم أسرار العقيدة الإسلامية فأنا أرجو حضرة السائل أن يراعي المسائل الآتية حين ينظر في الكتب التي تشرح أصول الدين الإسلامي:
أولاً: لا يجوز القول بأن الإسلام مسؤول عن جميع ما سطر باسمه عن حسن نية من أقوال بعض الوعاظ والفقهاء، حتى يجوز اتهامه بقبول الأباطيل والأضاليل، كالذي يقع في كلام أهل الغفلة عن روح الإسلام، وهو من أوهامهم براء
ثانياً: لا يجوز الاعتماد على ما قاله بعض أئمة المسلمين في ساعة غضب، كالذي نقله الأديب تادرس مسيحية عن الشيخ محمد عبدة إذ يقول: (لو أخذنا مسلما من شاطئ الأطلنطي، وآخر من تحت جدار الصين، لوجدنا كلمة واحدة تخرج من أفواههما وهي: إنا وجدنا آبائنا. . .)
فتلك كلمة قالها الشيخ محمد عبدة في ساعة من ساعات غضبه على من كان يناوئه من رجال الدين بلا فهم ولا إدراك، وإلا فهي كلمة مفترا على المسلمين، وفيهم ألوف الألوف من أهل البصيرة واليقين.
ثالثاً: يجب أن يكون مفهوماً أن تقاليد الإسلام تعرضت لما تعرضت له تقاليد سائر الديانات من التشويه والتحريف، فمن الظلم أن يؤخذ الإسلام بعبارات دونت في عصور الظلمات، ولو نسبت إلى بعض الأكابر من العلماء.
رابعاً - مرت أوقات على الباحثين من المسلمين وهم لا يفطنون إلى اخطر التساهل في سرد الظنون والفروض، ولو عقلوا لأدركوا أن التساهل ستكون له عواقب سود، كأن يصبح حجة ينتفع بها خصوم الشريعة الإسلامية، وهم قد انتفعوا بما في بعض التفاسير من أباطيل.
خامساً - يجب أن نفهم أن الإسلام قد سيطر على كثير من أمم المشرق والمغرب، وهذه السيطرة نفعته من جانب وأضرته من جانب: نفعته لأنها كانت شاهدا على قوته الذاتية، وأضرته لأنها كانت السبب في مزج روحه الأصيل بأوشاب الآراء الموروثة عن

تلك الشعوب؛ فمن العدل والإنصاف أن ننزه الإسلام عما أضيف إليه بسبب الغفلة أو بقصد التضليل

سادساً - قد اختلف المسلمون أنفسهم لأسباب عنصرية أو سياسية؛ وكان من نتائج هذا الاختلاف أن يتأثر المؤلفون بالنزعات العنصرية والسياسية وهي نزعات توجب على الباحث أن يحترس ويحتاط، حتى لا يحمل الإسلام ما لا يطيق، ولو كان من غير المسلمين، لأن نزاهة الحكم واجبة على الجميع

سابعاً - لم يغفل أكابر المسلمين عما أضيف إلى الإسلام من الأباطيل، فكل اعتراض له دفع، وكل شبهة لها تفنيد، فإن رأيت ما يسوءك من كلام بعض الوعاظ أو بعض الفقهاء فارجع إلى ما دحض به على ألسنة الموهوبين من أهل الإسلام الصحيح، وذلك في مقدورك إن أردت الاهتداء

ثامناً - بيننا وبين ظهور الإسلام نحو أربعة عشر قرناً، فحدثني أيها المنصف، حدثني كيف تمر هذه القرون بدون أن تجنى على ذلك الدين بالتحريف والتزييف؟ وهل سمعت برأي عاش أربعة عشر عالما بدون أن يتعرض للمسخ والتشويه؟ فكيف يعيش دين أربعة عشر قرناً وهو في أمان من أهل التزيد والافتراء، وله ملايين من الخصوم والأعداء، فضلاً عما له من الأصدقاء الجهلاء؟!

إذا صح هذا - وهو صحيح صحيح - فكيف يؤخذ الإسلام بآراء مدخولة أملاها الحقد الأسود، أو صاغها التودد إلى بعض الوثنيات البوائد في الممالك الآسيوية والأفريقية والأوربية في عصور غاب عنها الناقد الرشيد؟!

تاسعاً - المصدر الأصيل للعقيدة الإسلامية هو القرآن، فماذا في القرآن من اللبس والغموض؟ وماذا فيه مما يوجب الشك والارتياب؟

في القرآن كلمات تحتاج إلى تأويل، لبعد العهد بيننا وبين ظهور القرآن، وأنا حاضر لتأويل تلك الكلمات، على شرط أن يكون مناظري طلاب فهم وحق، لا عشاق لجاجة وعناد

عاشراً - عاش الإسلام نحو أربعة عشر قرناً برغم القوا صف والعواصف والأعاصير؛ وأنشئت في دحضه وتزيفه ألوف الألوف من الخطب والرسائل والقصائد والمؤلفات، فهل يتصور عاقل أن الباطل تكون له مثل هذه القوة العاتية؟

إن كان للباطل مثل هذه الصلاحية للبقاء فسأغير رأيي، وسأقول إن الثبات على الخطوب من صور الحق الغلاب، ولو قيل في معنى الثبات ما قيل (بغض النظر عن عقيدتي الصوفية في الأنس بجميع صور الوجود)

والإسلام باقي، ولم يبيد أبداً، لأن روحه مقبوسة من جمر الخلود

القدوة الصالحة أنفع من البرهان

ويرجوا الأديب تادرس مسيحية أن أقنعه بمزايا الإسلام ليسلم. وأقول: إن الكمية لا تهمني ولو كان الأمر بيدي لشذبت الإسلام من بعض الغصون الطفيلية، فما انتصر الإسلام بالأرقام وإنما انتصر بالمعاني، وهذا الأديب قد وعد بمتابعة ما أكتب في هذا الموضوع الدقيق، فليتدبر هذا القول:

لا ينتقل الرجل من دين إلى دين بفضل الحجج والبراهين إلا في حالة التجرد من مستور النوازع والأهواء، ولو كان الناس يصغون في كل وقت إلى صوت العقل لأراحوا كواهلهم من ألوف المتاعب والصعاب

فلم يبق إلا باب واحد من أبواب الهداية، وهو القدوة الصالحة، القدوة التي تخلق الجاذبية الروحية فتنقل القلب من مكان إلى مكان بلا دعوة ولا نداء

وهذه القدوة هي التي استطاعت في الأزمان الماضية أن تحول جماهير الأقباط إلى الإسلام عن رغبة صحيحة وقلب سليم

وكان للأقباط الذين أسلموا فضل كبير في إذكاء الروح الإسلامي بالديار المصرية. فكان منهم نوابغ في الفقه والتوحيد، استطاع جماعة منهم أن يصلوا إلى أعظم المناصب الإسلامية بجدارة واستحقاق، وليس أمام الإخلاص مستحيل

وما أحب أن أكتم رغبتي الشديدة في وحدة الأمة المصرية من الوجهة الدينية لتنعدم أسباب الشقاق الذي يثور من وقت إلى وقت، ولنقضي على الفتنة التي تهددنا من حين إلى حين باسم الأكثرية والأقلية، وهي فتنة لا ينتفع بها غير الأعداء.

ولكن هذا الغرض لن يتحقق في عام أو عامين، فماذا نصنع إلى أن تريد المقادير أن يتحقق؟
نعتصم بالأخوة الوطنية فلا يبغي بعضنا على بعض، ولا يأثم فريق في حق فريق بسبب اختلاف الدين
والأخوة الوطنية تحتاج إلى حراسة قوية، وهي لا تقوم إلا على قواعد من الأخلاق الصحاح. والخلق الصحيح يوجب أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك. ويوم نتحلى بهذا الخلق
تنعدم الفوارق أو تكاد بين المختلفين في الدين، ويشعر المسيحي في مصر بجاذبية نحو الإسلام، وهي الحجر الأول في بناء الإخاء
وهنا شبهة يجب عرضها بلا مواربة لنعرف كيف نهدمها من الأساس، وهي الشبهة التي تصيح وتصرخ في كل يوم بأن اختلاف له دخل في المشكلات المعاشية المتصلة بالوظائف الرسمية
وأساس الشبهة أن المتعلمين من الأقباط كانوا قبل عشرين سنة يجدون الوظائف بلا صعوبة، وهم اليوم لا يجدون وظائف إلا بمشقة وعناء
هذا حق، ولكن تعليله سهل، فالمتعلمون قبل عشرين سنة من المسلمين والأقباط كان عددهم أقل من عدد الوظائف، فكان الشاب المتعلم يجد وظيفة تريحه من هموم البطالة، ولو كان من حملة الشهادة الابتدائية
أما اليوم فعدد الوظائف أقل من عدد المتعلمين، وهي أزمة تواجه المسلمين بأكثر مما تواجه الأقباط؛ بسبب النسبة العددية؛ والشبان الأقباط يعرفون هذا الأزمة بلا جدال، والشكوى لا تصدر عنهم، وإنما تصدر عن آبائهم الذين نشأوا في عهود الرخاء، فهم يظنون أن التعصب الديني هو الذي ضيق ميدان الوظائف، ولا يدرون أن قانون العرض والطلب هو الذي خلق ذلك الضيق
وإنما نصت على هذه الشبهة لأنها موجودة بالفعل، ولأن أذاها يواجهنا في كل يوم، ولأن التحرر منها يبدد غيوماً تعكر سماء هذه البلاد، بدون أن يكون للمسلمين يد في حوك ظلالها السود
الشاب القبطي قد يتجاهل الواقع فيعلل نفسه بأنه مضطهد لقبطيته، فكيف أعلل الظلم الذي أعانيه منذ أعوام طوال واسمي محمد ورئيسي اسمه محمد؟
وأنا بعد هذا أرجو أن يفتح الله علينا جميعاً فلا نعاني أزمات هذا الزمان، ولا يفسد ما بيننا بسبب المعاش، وهو غاية ثانوية في حيوات أصحاب المبادئ والآراء
أتراني أجبتك بصراحة وصدق، يا وكيل البريد في أخطاب؟
مناجاة روحية
كدت أعرف بعض الخصائص التي يمتز به قلبي وروحي لطول ما أجهدت نفسي في التعرف إلى ما ينطوي عليه القلب والروح من أسرار وغرائب وأعاجيب، وقد كنت أخشى أن ينقضي العمر قبل الظفر بذلك المطلب المنشود
وأظهر ما عرفت به تلك الخصائص هو الشوق إلى إدراك سرائر الوجود، بما فيه من النقائض لمن يجهل ما أقيم عليه من الأساس، كأن يجتمع فيه البغض والحب والدمامة والجمال
وأعجب العجب أن يصح عندي أن ليس في الدنيا شر بالمعنى المعروف لهذا اللفظ، فما مرت بي أزمة إلا أحمدت عواقبها، وعددتها من فضل المنعم الوهاب، ولا تنكر صاحب أو صديق إلا كان ذلك التنكر فرصة لدرس أهواء النفوس والقلوب
وأعجب من هذا أن تكون الوشايات والنمائم والأراجيف مصدر قوة واستعلاء، فما أذكر أبداً أني تهيبت أقوال الناس، أو نصبت لأوهامهم أي ميزان، إلا أن يلتفت ذهني إلى الاستفادة من ذلك في أبواب التعليم والتثقيف
وأنا أبتسم كلما ناسا يتوهمون أن في مقدورهم أن يأمروني فأطيع، كأنهم يجهلون أني أؤرق جفونهم عامداً متعمداً ليعرفوا كيف الاستصباح بظلام الليل، وليهتدوا إلى السر المكنون في سواد المداد
والحق كل الحق أني رجل طيب القلب، وتلك الطيبة هي سر شقائي بالناس، فأنا أريد أن أرفع الغشاوة عن قلوب أهل الجمود، ولن ترفع تلك الغشاوة بغير مشرط يؤلم ويوجع، وإن كان لا يريد غير النفع الصحيح

ولو كانت غايتي من حمل راية القلم هي الانتفاع المادي لسلكت سبيلاً غير هذا السبيل، فللأقلام ميادين تصل بأصحابها إلى الثراء العريض، ولكن أين هذا مما أريد؟ وما قيمة الدنيا وأمعائي لا تتسع لغير وجبة واحدة في كل يوم، وما أراد الله أن أعرف مهني الظمأ والجوع في غير المعنويات؟

غايتي الأصيلة هي رفع الغشاوة عن قلوب الجامدين من أبناء هذا الجيل. والجهاد في طب القلوب قد يفضل الجهاد في طب العيون

فما ذلك الصراخ الذي ينبعث من بعض الجرائد والمجلات؟

وما بال قوم يشهدون على أنفسهم بالضجر من كلمة الحق، وكان الظن أن يكونوا رسل

هداية وتوفيق؟

وما بال فلان يحشد جيشاً من الثرثارين لإيذائي، ولي عليه فضل سيذكره صاغراً أمام العزة والجبروت، إن كان لمثله يوم البعث مكان؟

أما بعد، فما أردت بهذه الكلمات غير المناجاة الروحية، وأناجي روحي فأقول:

من أي جوهر صاغك الله، أيها الروح، وقد بقيت سليما على رغم ما اعترض طريقك من ألوف الصعاب والعراقيل؟

واجهت بلادك وزمانك بكل ما تريد بلا تهيب ولا إشفاق، وبغي عليك الأصدقاء قبل الأعداء، ثم بقيت رحيما بالعدو، وبرّاً بالصديق، كأنك لم تدرك ما بيت أولئك وهؤلاء

من أي جوهر صاغك الله، أيها الروح، وقد غلبت من من غلبت وقهرت من قهرت، مع الترفق الشديد بصرعاك؟

يمر بك المناضلون مرور الطيف العابر فلا يبقون غير لحظات ثم يختفون، وإن كان مرورهم أعنف من الكابوس الثقيل؛ ثم تبقى أنت في سنة 1941 كما كنت في سنة 1919 ولا يكون لمناضليك غير الازدهاء بأنهم ساجلوك ساعةً من زمان، وذلك حظهم في هذه الدنيا من أصول التشاريف

أيها الروح، صاغك الله كما أراد، فله الحمد وعليه الثناء

أسرار المدينة الأوربية

لم تمر على أوربا أزمة أقسى وأعنف من الأزمة التي عانتها في العامين الأخيرين، فقد اندحرت ممالك كنا نرى اندحارها من المستحيلات، واستطالت شعوب لم نكن ننتظر أن تستطيل وصح عند الأكثرين أن المدينة الأوربية أفلست كل الإفلاس، بعد خيبتها في إقرار قواعد العدل والسلام

وأقول إنه يجب أن ندرس أوربا من جديد، وأن نستعد لدفع شرها كل الاستعداد، فمن الظاهر أن طمع طغاتها لن تكون له حدود، وأن عللونا بمعسول الأماني والمواعيد وآفتنا منذ أزمان هي الغفلة عن مرامي المدينة الأوربية، وفهم ما تقوم عليه من قواعد وأصول، وقد نعرف ثم نكتم ليصح وفاؤنا للشرق، كأن من الحرام أن ندل قومنا على مصادر الحيوية في أقطار الغرب!! وهناك آفة أفظع وهي غفلة بعض من عاشوا في أوربا

عن التعرف إلى مواهبها العلمية والروحية والاقتصادية والحربية، فأنا أعرف شخصاً عاش في تلك البلاد سبعاً وعشرين سنة ثم عاد وهو لم يتغير ولم يتبدل، ولم يعرف من خريطة البلد الذي عاش فيه غير خطوط معدومة المدلول، ثم انسجم حين عاد مع بيئته القديمة بلا تحفظ ولا احتراس، وكان الظن أن يغيرها من حال إلى حال، ولكنه عاش في أوربا معصوب العينين فلم يعرف ما فيها من أسرار ليمد قومه حين يعود بزاد جديد

ولهذا الشخص أمثال وأمثال، وجهلهم أو رياؤهم هو السبب في صد مصر عن فهم الاتجاهات السياسية والاقتصادية في البلاد الأوربية

اعرفوا أوربا. اعرفوها. اعرفوها. لتتقوا شرها عن بصيرة وإدراك، واحترسوا ممن يوهمكم أن أوربا ذهبت ولن تعود

أوربا المبلبلة باقية إلى أزمان وأزمان، فادرسوها بعناية لتعرفوا مسالكها الظاهرة والخفية، ولتقفوا على غرضها المستور من التودد إلى أقطار الشرق، فالجسم المزخرف الأملس هو أظهر شمائل الحية الرقطاء، وما قال أحد إنه رأى أنياب الحية

إلا بعد التزود من سمها الزعاف. . . والله الحفيظ، وبه نستعيذ
زكي مبارك
كيف يكتب التاريخ
للدكتور حسن عثمان
مدرس التاريخ الحديث بكلية الآداب
- 4 -
جمع المراجع والأصول التاريخية
الخطوة التالية بعد اختيار موضوع البحث التاريخي هي عملية جمع المادة التاريخية عن ذلك الموضوع سواء من المراجع العامة والخاصة أو من المصادر والأصول المطبوعة والمخطوطة، مع جمع ودراسة الآثار والمخلفات التي تتعلق بذلك الموضوع. والمراجع العامة والخاصة تفيد في إعطاء فكرة عامة عن العصر الذي يكون موضوع البحث جزءاً منه. وعدم الاستفادة بما كتبه السابقون يعتبر مضيعة للوقت وإخلالاً بشروط البحث العلمي؛ فينبغي على كل جيل من المؤرخين أن يعرف ما كتبه السابقون، وأن يبدأ حيث انتهوا، وأن يعمل مؤرخ اليوم لكي يمهد لمؤرخ الغد. والمراجع العامة والخاصة تساعد أيضاً في كشف بعض الأصول التاريخية المجهولة وتفتح آفاقاً جديدة للبحث. والباحث الذي يكتب في ناحية من تاريخ مصر في القرن الثامن عشر مثلاً ينبغي أن يدرس بعض المراجع التي تناولت تاريخ مصر منذ أقدم العصور، كما يدرس بعناية المراجع التي تبحث في تاريخها أثناء القرن الثامن عشر، ويطالع ما كتبه الرحالون الذين زاروا مصر من الشرق ومن الغرب، ويدرس ما دونوه من المعلومات والمشاهدات، وذلك لكي يفهم تاريخ العهد المعين الذي يرغب في الكتابة عنه وكيف يمكن للباحث أن يعرف كل المراجع العامة والخاصة والأصول المطبوعة عن الناحية التي يرغب في دراستها؟ الإحاطة بذلك ليست أمرا سهلاً. ويمكن الباحث في أول الأمر أن يستعين بالاطلاع على بعض المقالات في دوائر المعارف فيعرف بعض المراجع والأصول التي تهمه. ثم يرجع إلى كتب البيليوغرافيات (المراجع) التي تتناول موضوع دراسته. ولقد أصدر الغربيون أنواعاً مختلفة من البيليوغرافيات، فمنها البيليوغرافيات العامة ومنها الخاص بقطر أو بعصر أو بشخصية معينة؛ وبعضها يكتفي بذكر المراجع
والمصادر وأماكن وسني طبعها وعدد صفحاتها؛ بينما البعض الآخر يعطي مذكرات وصفية موجزة عن تلك المراجع والأصول المطبوعة. إنما هذا لا يكفي، لأن كتب المراجع لا تكون وافية في كل الأحوال، وهي في الغالب لا تذكر شيئاً عن المقالات التي تنشر في المجلات التاريخية وهي كثيرة ومتنوعة؛ فمن الضروري إذاً مراجعة فهارس هذه المجلات للإلمام بما كتب فيها عن الموضوع المعين. وكذلك يلزم الباحث أن يراجع فهارس دور الكتب المطبوعة غير المطبوعة. ويجمع الباحث من كل هذه النواحي أسماء المراجع والأصول التي تعنيه؛ ويحسن أن يستعين بعمل فهرس أبجدي على جذاذات من الكرتون ويضع عليها ملاحظاته، وإذا اقتضى الأمر أن يكتب ملاحظات مطولة فليدونها على أوراق خاصة. ثم يبدأ في قراءة الكتب التي يصل إليها ويأخذ منها مذكرات باللغة الأصلية في المواضع الهامة على الأقل، مع وضع أرقام الصفحات؛ ويرجى قراءة الباقي لحين الوصول إليه بتصويره بالفوتوستات أو بالسفر إلى مكان وجوده
ثم تأتي الأصول التاريخية التي لا توجد في أغلب الأحوال كتب ببليوغرافية تدل عليها. ومن هذا النوع نجد الوثائق والرسوم والصور ومخلفات الإنسان. . . والوثائق عبارة عن القوانين والأوامر والمنح والأحكام والفتاوى والعقود والمراسلات والمعاهدات والمذكرات والتقارير. وهي تحفظ في الأصل عند الملوك والأمراء وفي المحاكم والأديرة أو عند الأشخاص العاديين. وليس من الضروري وجود وثائق وافية عن كل حوادث التاريخ؛ فالكثير منها تنطمس آثاره وتزول دلالاته لأنها تتعرض في ظروف مختلفة للتلف والضياع مثل ظروف الثورات أو الحرائق أو الرغبة في التخلص منها وإتلافها عمداً عندما تكون في حوزة من لا يفهم قيمتها التاريخية، أو من يهمه منع تداول معلوماتها بين الناس. وبذلك يضيع الكثير منها بالنسبة للتاريخ؛ وكأن الأفكار والحوادث التي كانت تحملها في طياتها وثناياها لم تكن في الوجود. وعلى ذلك فإن

المؤرخ كثيراً ما يجد فجوات في التاريخ لا يستطيع أن يملأها. وستبقى حلقات كثيرة من التاريخ مجهولة إلى الأبد؛ وليس هناك ما يمكن أن يعوض عن ضياع هذه الوثائق؛ وحيث لا توجد وثائق لا يوجد تاريخ. وينطبق ذلك على كل آثار الإنسان وعملية البحث والكشف عن الوثائق هي أهم عملية أساسية لكتابة التاريخ. وكشف كمية من الوثائق الهامة عن الموضوع المعين هو الذي يحدد إمكان الاستمرار في بحثه أو العدول عنه إلى غيره. والباحث الذي يكتب التاريخ وقد فاته الوصول إلى مجموعة من الوثائق الأساسية لا يكون لبحثه قيمة علمية مهما كانت كفاءته وقدرته على العمل. والباحثون الأولون في التاريخ قد لاقوا صعوبات جمة في سبيل الوصول إلى الوثائق التاريخية؛ وإذا كانت الحوادث التي قصدوا أن يكتبوا عنها قريبة العهد من العصر الذي عاشوا فيه، فإنهم كانوا يرجعون إلى أقوال بعض الأشخاص الذين شهدوا الحوادث ويوازنون بينها ويستخلصون منها ما يمكن الوصول إليه من الحقائق التاريخية. على أن هذه الطريقة لا تكون سليمة دائما نظرا لتعرض الروايات الشفوية للتغيير والتعديل، والأفكار والآراء والأقوال الشفوية إذا ما دونت أصبحت مسجلة ووقف تغييرها إلى الحد الذي وصلت إليه. فالوثائق ضرورية جداً للعهد القريب من المؤرخ فضلاً عن العهد البعيد عن الزمن الذي عاش فيه. والوثائق في أغلب الأحيان تنتقل بالتدريج من حوزة الأشخاص إلى الأماكن العامة وتحفظ في دور الأرشيف ودور الكتب وفي المتاحف والكنائس والكثير من الوثائق المحفوظة في الأماكن العامة قد وضع عنها كاتالوجات وفهارس مختلفة؛ إلا إنها في أحوال كثيرة أيضاً لا تزال غي وافية، وأغلبها يكتفي بوضع أرقام مجلدات الوثائق مع بيان الشهور والسنوات التي تتناولها، بدون أن تصف محتوياتها، وهي بين قديم وحديث ومخطوط ومطبوع. كما أنه توجد وثائق في مصر وفي الخارج لم تنظم ولم توضع عنها الفهارس الأولية بعد، وهذه بالنسبة للباحثين تعتبر في حكم المجهولة، ولا يمكن الاستفادة منها قبل تقسيمها وترتيبها ترتيباً أولياً على الأقل، وهذا كله يبين صعوبة البحث عن الوثائق. إلا أن التقدم مستمر في هذا الباب. ولقد وضعت كتالوجات وصفية لبعض نواح من الوثائق في دور الأرشيف بالغرب؛ واهتمت الحكومات الغربية بإرسال بعثات خاصة إلى الخارج لكي تبحث في دور الأرشيف الأجنبية عن الوثائق التي تهم تاريخ بلادها وعندما فتح أرشيف الفاتيكان للباحثين أنشأت كثير من الدول معاهد خاصة في روما لكي يشتغل أعضاؤها بجمع ونسخ ووضع فهارس عن الوثائق التي تهمها في الفاتيكان، فهكذا فعلت إنجلترا وفرنسا وألمانيا وأسبانيا وبلجيكا والدانمرك. . .

وكيف يمكن للباحث المبتدئ أن يشق طريقه في هذا البحر العجاج؟ لا ريب في أن طريق البحث وعر شاق؛ ولا بد من الصبر والجلد، ويستطيع الباحث أن يتصفح فهارس وكاتلوجات الوثائق التي يظن أنها تحوي شيئاً يعنيه، وبعض هذه الفهارس مطبوع وأغلبها مخطوط. ومن حسن حظ الباحث أن تكون بعض الوثائق اللازمة له قد حصرت ونظمت ووضعت عنها الفهارس. ولكن ستبقى أمامه دائما مناطق مجهولة لا بد من الإقدام على كشفها بنفسه. والباحث عن الوثائق يشبه المنقب عن الآثار الذي يظل سنوات عديدة يبحث في مناطق مختلفة حتى يعثر في النهاية على ما يرضيه ويرضي العالم. ولنأخذ بعض الأمثلة العملية عن جمع الوثائق والأصول التاريخية.

فالباحث في دار المحفوظات المصرية بالقلعة عن تاريخ محمد علي قائد الجند الألباني، بعد رحيل رجال الحملة الفرنسية عن مصر قبيل ولايته حكم مصر، سيجد مادة قد وضعت عنها السجلات الأولية فيستعين بها في فحص بعض دفاتر مرتبات العساكر الألبانيين ابتداء من 1217هـ، وسيجدها مكتوبة بخط القيرمة؛ فلابد من الاستعانة على قراءتها بمن يعرف ذلك الخط، حتى يتعلم البحث قراءته بنفسه. وسيعثر الباحث في هذه الدفاتر على أسم (محمد علي أغاسر جشمهء عساكر أرنؤود) وسيعلم بعض أشياء عن مرتباته وعن تكاليف عساكره. ثم يفحص أيضاً دفاتر (كشيدهء ديوان مصر)؛ ويجد أنها تحتوي على صور فرمانات سلطانية وأوامر باشوية بعضها يخص محمد علي أغا. ثم يبحث بعض الأوراق التركية التي لم يتم وضع سجلات لها،

وهي عبارة عن بعض أوامر باشوية أو تذاكر ديوانية خاصة بمرتبات جند محمد علي
وقد يسافر الباحث في ناحية من تاريخ الشام إلى سوريا لمقابلة بعض العارفين بتاريخ البلاد وبدور الكتب بها كالدكتور أسعد رستم فيجده قد أنتقل إلى المصيف، فيتبعه إلى ظهور الشوير ويتحدث إليه طويلاً ويأخذ منه ما يريد. وقد يحاول الاتصال بالأستاذ إسكندر المعلوف فينتقل إليه في زحلة ويستفيد بخبرته ومعلوماته. ثم يقصد دمشق فيجد الأستاذ كرد علي قد غادرها إلى شمال سوريا، وفي انتظاره يجتمع بالأستاذ عبد القادر المغربي وبالأستاذ حسني الكسم فيتحدث إليهما وتنفتح أمامه سبل لم يكن يعرفها من قبل، وبذلك يمكنه الوصول إلى مجموعة من المخطوطات الأساسية التي لم تدرس من قبل

والبحث في أرشيف الحكومة التاريخي في فلورنسا عن تاريخ المصادمات البحرية بين الأسطول العثمانية وبين السفن التسكانية في القرن السابع عشر مثلاً، يجد في الفهارس والكاتالوجات المطبوعة والمخطوطة بدار الأرشيف بعض ما يفيد في فحص مجلدات خاصة؛ ولكن هذا لا يكفي، بل عليه أن يدرس عشرات من المجلدات في سنوات معينة وفي نواح مختلفة؛ فيفحص مثلاً المجلدات التي تحوي مراسلات ممثلي فلورنسا في الدولة العثمانية، ومذكرات التجار الفلورنسيين، وتقارير رجال سان ستيفانو الواردة إلى حكومة فلورنسا، والتي تحوي أخباراً عن حوادث ذلك الاصطدام. وكذلك يفحص المجلدات التي تضم صور المراسلات الصادرة من حكومة فلورنسا إلى ممثليها في الشرق الأدنى، وإلى التجار الفلورنسيين، وإلى رؤساء وقواد نظام سان ستيفانو. وللغرض نفسه ينبغي أن يفحص أيضاً عشرات من المجلدات عن المراسلات الواردة من صقلية والبندقية وجنوا مثلاً إلى حكومة فلورنسا، والتي تتضمن أخباراً عن هذه المصادمات؛ ثم المجلدات التي تحوي صور المراسلات الصادرة من فلورنسا إلى كل تلك الجهات؛ وينتج عن ذلك المجهود جمع مادة أصلية مهمة لم تكن معروفة من قبل عن موضوع البحث

ولا ينبغي على الباحث أن يقتصر في جمع الوثائق البحث الذي يدرسه على أرشيف واحد فقط؛ فمن الضروري البحث عن وثائق أخرى - إن وجدت - في أمكنة متعددة، ونتناول نفس الموضوع، فيتجه الباحث إلى أرشيف الحكومة التاريخي في فيينا لأنه يرى أن علاقات السلم والحرب كانت قوية دائماً بين الدولة العثمانية وإمبراطورية النمسا، وأنه لا بد من أن أخبار الاصطدام البحري بين السفن العثمانية والسفن التسكانية قد وصلت إلى ممثلي النمسا في القسطنطينية، وانهم قد أرسلوها بدورهم إلى حكومة فيينا. ويكتب الباحث إلى مدير أرشيف فيينا فيرسل إليه المعلومات التي يعرفها؛ وملخصها إن المادة الموجودة عن ذلك الموضوع قليلة جدا وعديمة الأهمية. إنما ذلك لا يعني أن هذه المعلومات صحيحة، ولا يقتنع الباحث برد مدير الأرشيف. ويسافر بنفسه إلى فيينا، ويجد إن الكتالوجات الموجودة لا تفيد شيئاً؛ ولكن ذلك لا يمنعه من البحث؛ يعمل بعض الزمن وينتهي به الأمر إلى كشف طائفة ممتعة من الوثائق الألمانية والإيطالية عن الموضوع الذي يدرسه، فيحملها إلى مدير الأرشيف ويرجوه أن يدرجها في كاتالوجاته. ونلاحظ إن الباحث ينسخ بنفسه جزءاً من الوثائق التي يعثر عليها ويمكنه اختصاراً للوقت أن يشرك معه بعض الأخصائيين في نسخ جزء من الوثائق، كما يمكنه أن يصور بالفوتوستات جزءاً آخر على حساب الحالة. ولا يكتفي الباحث بكل ذلك، بل يمضي بالبحث والكشف عن الوثائق في أماكن أخرى مثل باريس ومدريد ولندن. . . ويدرس الباحث المادة التي جمعها ويقارن بين مجموعات الوثائق التي كشفها ويوازن بين معلوماتها وبين ما وصل إليه من المراجع والأصول المطبوعة، ويستخلص الحقائق التاريخية التي يمكنها الوصول إليها، كما سنرى ذلك في المقالات التالية. وهذه كلها أمثلة عملية تعطى فكرة عامة عن كيفية البحث عن الوثائق والأصول التي تظل مجهولة للعلم حتى يكشف عنها. وإلى آخر لحظة يظل الباحث يتوقع كشف أصول جديدة توضح أو تغير ما وصل إليه من الحقائق مما قد يضطره إلى تعديل معلوماته إذا لم يكن قد طبع بحثه بعد، أو إلى تغييره إذا ما أعاد طبعه

ويتصل بالوثائق الرسوم والصور وهي مهمة من ناحية تاريخية. والأثر الذي يحدثه الشكل يسجله الفنان على الورق أو على المرمر، والصف الكتابي مفيد في بيان

عادات وخلق نابليون مثلاً؛ لكن رسم الفنان إياه أو صنع تمثال له يعطينا فكرة مجسمة تضاف إلى ما نعرفه من أوصافه بطريق الكتابة. والرسوم والصور وثائق مهمة لأنها تحفظ لنا أبداً آثارا وأشكالا ومناظر وأزياء مختلفة قد تغيرت معالمها أو زالت من الوجود، ولا تستطيع أن تعبر عنها بوضوح الكتابة الوصفية. ونزداد أهمية التصوير بعد تقدم استعمال الفوتوغرافيا في الوقت الحاضر، فهي تسجل مشاهد عديدة للإنسان ولآثار الحضارة والعمران

ومن الأصول المهمة أيضاً نجد آثار الإنسان ومخلفاته وتقاليده، كما عرفنا ذلك في مقال سابق. وأعمال الحفر والتنقيب تكشف عن مخلفات العصور القديمة؛ والبحث في بعض الأماكن يؤدي إلى العثور على آثار الإنسان في العصور الحديثة. ويجب على الباحث أن يشاهد ويدرس بنفسه آثار العصر الذي يكتب عنه. وينبغي أن يزور المباني القائمة التي كان رجال العصر يعيشون فيها، والحدائق التي كانوا يروحون عن خواطرهم في أرجاءها، وأن يتعرف طرق المعيشة والأزياء وأدوات الحرب وآلات الموسيقى. . . وفي الغالب تحول المباني إلى متاحف وتجمع فيها بعض آثار الإنسان. ولا ريب فإنه من الضروري للمؤرخ أن يعيش فترة خلال هذه الذكريات التي أدت من الماضي إلى الحاضر، وأن تشيع في نفسه هذه الرؤى وتلك الخلجات التي أحاطت برجال العصر الذي يدرسه

(يتلى)

حسن عثمان

كليلية ودمنة

نقد وتعليق

للأستاذ عبد السلام محمد هارو

فلبث الذئب وابن آوى والغراب أياماً لا يصبن شيئاً مما كن يعشن به) 5 - 1 :80 - 8 من فضول الأسد، وأصابهم جوع وهزال شديد. فيعرف الأسد ذلك منهم فقال: جهدتن واحتجتن إلى ما تأكلن. فقلن ليس همنا أنفسنا ونحن نرى بالملك ما نرى، ولسنا نجد (للملك بعض ما يصلحه. قال الأسد: ما أشك في مودتكم وصحبتكم

وهذه صورة عجيبة من التعبير لم أدر لها سراً، وكان أولى بابن المقفع أن يجعل الضمائر العائدة إلى هذه الجماعة من الحيوان على طراز واحد، كما هو الأصل في إرجاع الضمائر. أما أن يجعلها للمؤنثات ثم لجماعة العاقلين ثم للمؤنثات أخرى ثم لجماعة العاقلين رابعة، فهذا عجب لم نره لكاتب غيره

وقد ينزل العرب غير العاقل منزلة العاقل، وابن المقفع جعل هذه الجماعة مرتين من غير العاقلين ومرتين من العاقلين فأسرف فيما أجازه القوم إسرافاً

وألفيته يعاود هذا المذهب ويراجعه. ففي 86 س 7 (فلنأت سائر الطير فلنذكر ذلك لهم. فأجابوه إلى ذلك وأعلمهن ما أصابه وحل به) الضميران في (لهم) و (أعلمهن) عائدان إلى سائر الطير. وفي 91 س 4 (ودنا منهن ليبصرن، فتناوله بعضهم وضرب به الأرض) الضمائر راجعة إلى: (جماعة من القردة) في الصفحة السابقة. وفي 152 - 153 (فبينما هم في ذلك إذ وقع لهم غراب فقال بعضهم: انتظرن حتى يأتينا هذا الغراب) الضمائر مرجعها (جماعة من الطير). وغير ذلك كثير

(فلما فرغ دمنة من تضريب الأسد على الثور) 5 :74 - 9

التضريب هنا: التحريض، وفي اللسان: (والتضريب تحريض للشجاع في الحرب. يقال ضربه وحرضه) والتضريب أيضاً: الإغراء، وفي اللسان: (والتضريب بين القوم: الإغراء) وفي نسخة بولاق ص 43 (من تحميل الأسد على الثور) وهي الرواية الجيدة؛ لأنها لغة ابن المقفع، ولازمة من لوازمه الكتابية. فقد جاء في ص 1. 1 س 7 (ولكن قتل لتحميل الأشرار) وفي س 11 من الصفحة عينها (من تحميله إياك عليه وفي ص 249 س

وفي س 14 من الصفحة نفسها (ليحملوا عليه الأسد) فهذا (تحميل الملك علي) :8 هذا

وقد أراد ابن المقفع بكلمة (التحميل) الإغراء. ومن اللفظ العجب أن ابن منظور وصاحب القاموس لم يذكرا هذا اللفظ في مادته، بل ذكرا في هذا المعنى (حمله على الأمر يحمله حملاً فلنحمل: أغراه به) ثم انفرد ابن منظور بقوله (وحملت على بني

فلان إذا أرشت بينهم) والتأريش: التحريش والإغراء
وبدلهما في نسخة بولاق ص 48: (فأعنني)، و (فأعينوني وظافروني) 4 :86 - 10
(ظافره) بمعنى أعانه وظاهره لم يذكرها صاحبا اللسان والقاموس، وقاربهما ابن
منظور بقوله (وتضافر القوم عليه وتظاهروا بمعنى واحد) فنستطيع أن نزيد في
معجمنا المنتظر هذه الكلمة، وابن المقفع ثقة يحتج بقوله: وهو دليل أن المعاجم
المتداولة لم تستوف ولم تستوعب كل أصول اللغة وفروعها إلا ما نبهت على عدم
وروده. فذا مرجعه إلى استيثاق الرواة الأولين واستقصائهم
ابن المقفع - فيما أشعر - لا (ليس بمستكبر لها أن تختطف بزاتها الفيلة) 7 :95 - 11
يقول هذه الكلمة بل يقول (بمستنكر)
ومما يجدر ذكره أن استكبر الشيء بمعنى رآه كبيراً وعظم عنده، قول منسوب إلى
الإمام ابن جني، ولم يقله عامة اللغويين. واتفقوا أن استكبر بمعنى تكبر؛ وفي كتاب
الله: (إنه لا يحب المستكبرين)، (يصدون وهم مستكبرون)
وقد رجعت إلى نسخة شيخو (ص 99) فوجدت: (ما أرضا (كذا) يأكل جرذها مائة من
من حديد بمستنكر لبزتها أن تختطف غلاماً)
فما ذلك .(إذا جئتني بالليل من غير نداء ولا رمى ولا شيء يرتاب به) :6 :107 - 12
الرمي؟!
الصواب: (ولا رمز) - أي إشارة وعلامة؛ وقد جاء بدلها في نسخة بولاق (53): (ولا
إيماء)، وهو والرمز والإشارة بمعنى
وص 116: 1 وص 117: 1، 16 وص 118: 2، 6: (رأس 16 ،13 :115 - 13
الخنازير) و (سيد الخنازير). عندي أنها: (رأس الخبازين) و (سيد الخبازين)
يؤيد ذلك ما جاء بدلها في نسخة شيخو السريانية: (فتكلم صاحب المائدة)، وما هو عند
ابن
الهبارية (115):
118 فأخذ الخباز كف دمنه وقال: لله العظيم المّنه وكذلك ص:
فأطرق الخباز لما سمعا ... ذلك من مقاله وخضعا
وكما يفهم من قول ابن المقفع عنه 117: 12: (ثم أنت تجترئ أن تقوم بين يدي
الملك وتلي طعامه)
تطبيع، صوابه: (وإن أذنب) (ولا مسيء وإن أذنبه بضائره ذنبه) :11 :116 - 14
باء بإثمه فهو يبوء بوءاً: إذا أقر به؛ وفي :(فأقر بذنبك وبؤ بإساءتك) :9 :120 - 15
الكتاب: (إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك)؛ وفي الحديث: (أبوء بنعمتك علي وأبوء
بذنبي) - أي أقر؛ وقال لبيد:
أنكرت باطلها وبؤت بحقها ... عندي ولم تفخر عليَّ كرامُها
وأصل البوء الرجوع، فمن باء فكأنه رجع إلى الإقرار بعد الإنكار والسكوت
وبهذا أيضاً يفسر قول ابن المقفع في س 15: (وأن أبوء بما لم أجن)
(فحفظ الفرخان ذلك بلسان البلخية) 12 ،11 :121 - 16
البلخية: أهل بلخ، بفتح الباء: مدينة مشهورة بخراسان والتاء فيه دلالة على الجمع.
وهي عند التحقيق علامة للتأنيث بتقدير الجماعة أو الطائفة كأنك تقول: الجماعة
البلخية، فلما حذفت الموصوف وأقمت صفته ألحقت بها تاء التأنيث المنبهة على
الجمع أيضاً. ومثلها في ذلك: الإباضية، والإسماعيلية، والأشعرية، والباطنية، والجبائية.
ونحو ذلك كثير من الأسماء للفرق الدينية والسياسية
لج فلان في الأمر .(وأخفت على الشبكة حتى لججت فيها وصويحباتي) 14 :127 - 17
تمادى عليه وأبى أن ينصرف. فهو فعل اختياري لا دخل للقسر فيه. والمعنى لا يتجه
بهذا. وإنما هو (لحجت) بالحاء المكسورة المهملة بعدها جيم. لحج السيف وغيره
بالكسر يلحج لحجاً: أي نشب في الغمد فلم يخرج. وفي حديث على يوم بدر (فوقع
سيفه فلحج) أي نشب فيه. ويقال لحج في الأمر يلحج إذا دخل فيه ونشب. ومن البين
أن المراد نشوب الطير في الشبكة، مما أعماهن القدر وأعشى أبصارهن
أجرى (الطير) مجرى (ويستنزل الطير من الهواء، إذا قضى ذلك عليهم) 1 :128 - 18
العاقل فجعل لها ضميره. وهو معروف عند العرب. وفي كتاب الله: (لا الشمس ينبغي
لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون) وفيه: (إني رأيت أحد

عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين)، (يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحكمنكم سليمان وجنوده)، وقال عبدة بن الطبيب:

إذ أشرف الديك يدعو بعض أسرته ... إلى الصباح وهم قوم معازيل
جعل للديك أسرة وسماهم قوماً

19 - 130: 1 (منها عداوة من يجتزيان على ذلك كعداوة الأسد والفيل). وفي نسخة بولاق 62 (منعا ما هو متكافئ كعداوة الفيل والأسد) وعند ابن الهبارية 129:

(وهو التجازي لا سواء إنما)

الاجتزاء: طلب الجزاء، قال:

يجزون بالقرض إذا ما يجتزى

وفي ذلك معنى التكافؤ. والتجازي - كما ترجمه ابن الهبارية أصل معناه التقاضي، والمراد به المقاصة، فهو كذلك في معنى التكافؤ

2 - 133: 15 (وكان الضيف رجلاً قد جال الآفاق ورأى الأعاجيب)، والفعل (جال) لا يتعدى بنفسه. والوجه (جال) في (الآفاق). وسمع جول الأرض: جال فيها، وجول في البلاد أي طوف. فهذا المضعف ورد بالوجهين. وفي القاموس أن جال الشيء: اختاره. وهذا معنى لا يراد هنا

21 - 139: 8 (وانقلبت ظهر البطن، وانجررت حتى دخلت حجري) فماذا جره حتى انجر؟! إنما هي (وانحدرت) أي نزلت في سرعة إلى الجحر

22 - 150: 7 (إن كان بعيداً لم يأمن من معاودته، وإن كان متكشفاً لم يأمن استطراده، وإن كان قريباً لم يأمن مواثبته). والصواب (مكثباً) أي دانياً. أكثبك الصيد والرمي وأكثب لك: دنا منك. وعلى هذا الوجه الذي أثبت وردت الكلمة في نسخة بولاق 69. ويؤيد هذا التصحيح ترجمة ابن الهبارية 148:

لأنه إن كان منه نازحا ... أعاد مثل فعله مشايحا
أو كان منه دانياً أو حاضرا ... واثبه مبادراً مساورا

فكلمة (دانيا) في النظم تقابل كلمة (مكثبا) التي ذكرت

23 - 165: 16 (فإن الغراب ذو أدب ومكر ومكيدة). لا وجه لورود كلمة (أدب) بالدال في هذا المعرض. والصواب (أرب) بالراء؛ ليصح اقترانها بأختيها: المكر والمكيدة. والمقام مقام ذم وتهجين. والإرب بالكسر، أو بالتحريك: الدهاء والخبث والنكر. وفي نسخة شيخو 158 (فإن الغراب ذا أرب ومكائد)

24 - 166: 15 (فإن الشر يدور حيثما دارت). هي (حيثما درت)

25 - 171: 4 (فابتليت ببلاء حرمت عليَّ الضفادع) والجملة بهذا الوضع مبتورة ناقصة. وتمامها (حرمت عليَّ الضفادع) من أجله (أي من أجل البلاء. وذلك كما في ص 77 من طبعة بولاق

26 - 173: 1 (بل برأيك وعقلك كان هذا؛ فإن الرجل الواحد أبلغ في إهلاك العدد من كثير العدد ممن ذوي البأس). وفي هذه العبارة نقص كسابقتها: وتمامها كما في نسخة بولاق 78: (؛ فإن الرجل الواحد) العاقل الحازم (). . . الخ. وعند ابن الهبارية ص 174:

فالرجل اللبيب في الأعداء ... أبلغ من ألف ذوي فَتَاء

و (اللبيب) هو العاقل ذو اللب

27 - 190: 12 (قول البرهميين للملك حين سألهم تعبير الرؤيا: (فلعلنا - إن استطعنا - أن ندفع ما نتخوف منه). الوجه (تتخوف) بالخطاب؛ قد ليس من شأنه أن يحكموا في تعمير الرؤيا بهذا الحكم قبل أن يجتمعوا للتشاور والتآمر. وهم قد استمهلوا الملك (ستة أيام) ليتمكنوا من ذلك. والملك هو الذي كان متخوفاً، لأنه (رأى ثمانية أحلام يستيقظ عند كل منها)

28 - 191: 6 (لنجعل دماءهم في أبزنٍ ثمم نقعدك فيه). كلمة (الأبزن) معربة عن الفارسية، بفتح الهمزة بعدها باء موحدة ساكنة ثم زاي مفتوحة. وهو الحوض من نحاس يستنقع فيه الرجل؛ ويعرف في ألفاظنا الدخيلة باسم (البانيو) وبالفرنسية: وبالإنجليزية - و (أبزن) أصله في الفارسية: (آبزَن) بمد الهمزة؛ وتكتب أحيانا (آب ز

ن)؛ فسرت في معجم استينجاس بأنها حوض للاستحمام من نحاس أو حديد بطول جسم الإنسان يملأ بماء طبي يجلس فيه المريض أو يتمدد
وقد أهمل هذا اللفظ كثير من اللغويين، منهم الليث، والجواليقي، وابن دريد، والزمخشري، مع أنه مستعمل قديماً وجاء في شعر أبي دُوَاد الإيادي، يصف فرساً وصفه بانتفاخ جنبيه:
أجوف الجوف فهو منه هواء ... مثلُ ما جافَ أبزَناً نجَّار
وأبو دواد جاهلي. ويفهم من هذا الشعر أنه يصنع أحياناً من الخشب، لِمَا جعل صانعه النجار. وكأن بعض العرب كانوا يجتزون بالخشب عن النحاس، قال ابن بري: (الأبزن شيء يعمله النجار مثل التابوت)، وأنشد بيت أبي دواد. وروى البخاري أن أنس ابن مالك قال: (إن لي أبزناً أتقحَّم فيه وأنا صائم)
وقد فسر (الأبزن) في هذا الحديث بأنه الحوض الصغير، أو حجر منقور كالحوض، أو شيء يتبرد فيه وهو صائم يستعين بذلك على صومه من الحر والعطش.
(له بقية)
(عبد السلام محمد هارون)
معركة الأطلنطي
للأديب محمد شاهين الجوهري
لا تكاد خطبة من خطب تشرشل تخلو من ذكر (معركة الأطلنطي)، على صفحات هذا المحيط تقوم معركة من أشد المعارك وأعنفها، فهي المعركة التي ستكتب السطر الأخير من سطور الحرب. وفي هذه المعركة يتعاون السلاح الجوي الألماني مع سلاح الغواصات، فتضرب الطائرات الألمانية الموانئ والمدن الإنجليزية لتنهك قوى بريطانيا في الداخل، وتفتك الغواصات بالقوافل التجارية في عرض المحيط. وإذا كان يجري في هذا المحيط شريان الإمبراطورية البريطانية الحيوي، فلا عجب إذا رأينا ألمانيا تبذل قصارى جهدها لتقطع هذا الشريان لتمنع عن بريطانيا ما يأتيها من معونة ومدد، بينما تعمل بريطانيا على أن تبقى على هذا الشريان إذ في بقائه بقاؤها)
المصانع الأمريكية تعمل فتنتج المؤن والعتاد الحربي؛ واتفاقية الإعارة والتأجير تبيح إصدار هذه المؤن وهذا العتاد إلى بريطانيا. وفي الجزر البريطانية يرابط المدافعون عن الديمقراطية، ويفصل المحيط الأطلنطي بين هذا المدد الأمريكي وبين المدافعين عن هذه الجزر. وفي هذا المحيط ترتع الغواصات الألمانية متعاونة مع الطائرات في معركة لا تعرف هوادة ولا رحمة ضد السفن الإنجليزية. ويرمي هتلر من وراء هذه إلى غرضين:
أولهما إضعاف إنجلترا بتدمير موارد ثروتها الداخلية وأحواض سفنها وموانيها، وشل حركة إنتاج السفن والذخائر الحربية.
وثانيهما منع المدد الذي يصل إلى بريطانيا من الخارج بإغراق سفنها في المحيط، وعزلها عن أمريكا. وعندئذ يسهل عليه مهاجمة بريطانيا
تبلغ هذه المعركة شدتها في فصل الربيع. ففي هذا الفصل تتقشع السحب التي كانت تخيم على آفاق المحيط فتجعل عمل الغواصات والطائرات عسيراً، وتبدأ الغواصات الألمانية تجوب المحيط باحثة عن السفن البريطانية، وتنطلق الطائرات الألمانية في الجو لتساعد الغواصات في المهمة الملقاة على عاتقها. وقد كان المتحمسون للطيران في ألمانيا يعقدون آمالاً كباراً على السلاح الجوي ضد الملاحة البريطانية، فكانوا يعتقدون أن قاذفة القنابل قادرة على أن ترسل أية سفينة حربية إلى أعماق المحيط، ولكن التجارب برهنت على أن
هذا السلاح لم يحقق ما بنى عليه من آمال، ولذا أصبح عمل الطائرات الألمانية الرئيسي هو القيام بمهمة استكشاف مواقع السفن واتجاهاتها وإبلاغ ذلك باللاسلكي إلى الغواصات لتهاجم هذه السفن
وعدد السفن الذي يصل إلى بريطانيا سالماً هو الذي يقرر إن كان في مقدورها أن تحافظ على سلامة هذا الخط الحيوي بينها وبين أمريكا، وأن تضمن دوام وصول الإمدادات إليها. ويقول المستر نوكس: (إن هتلر يعمل على ألا تصل المؤن والذخائر إلى بريطانيا، لأن في وصولهما هزيمته. إننا لا نرضى لمنتجاتنا أن تغرق في الأطلنطي، وستلحقنا الهزيمة إذا رضينا بذلك. يجب علينا أن نفي بوعدنا ونساعد بريطانيا لأنها

عانت كثيراً في الحرب الكبرى الماضية لما كان قد لحق أسطولها من الوهن من جراء نشاط العدو. ففي أبريل من سنة 1917، أغرقت الغواصات الألمانية من السفن البريطانية ما حمولته مليون طن تقريباً. وكان الألمان يتوقعون انهزام بريطانيا في ذلك العام، ولكن تطبيق نظام القوافل البحرية ووصول المدمرات الأمريكية، وسفن الحراسة، واختراع الأجهزة المخبرة عن الغواصات، قد أضعف كثيراً من خطر الغواصات).

ويحاول هتلر الآن جهد طاقته كسر شوكة بريطانيا البحرية ويبذل في ذلك أعنف الجهود. فإن دخول إيطاليا الحرب، وما يحرض به اليابان من قيامها بمناورات دبلوماسية وعسكرية، إنما هي خطة يرمي من ورائها إلى إرغام إنجلترا على استخدام أسطولها في ميادين بحرية متعددة لتتوزع قواه، وتقل مقدرته، ويصبح من السهل على هتلر أن يضربه الضربة القاضية. وأن مجرد وجود الأسطول الإيطالي في البحر المتوسط قد أضطر بريطانيا إلى الاحتفاظ بوحدات عديدة من أسطولها في هذا البحر في وقت تحتاج فيه إلى هذه الوحدات في الأطلنطي لتعمل ضد الغواصات، وفي حراسة القوافل. وقد فطنت بريطانيا إلى ذلك وعملت من جانبها على إحباط السياسة الألمانية فأجرت بعض القواعد البحرية للولايات المتحدة، أو بمعنى آخر ألقت مهمة الدفاع عن هذه القواعد على عاتق الأسطول الأمريكي، وذلك لتقلل من الأعباء الملقاة على عاتق الأسطول البريطاني وتوجه قواه لمناهضة العدو وتأمين طرق قوافلها التجارية وضمان وصول الإمدادات إليها

عندما بدأت الحرب كانت بريطانيا تملك من السفن ما حمولته 18. 5 مليون طن، أضيفت إليها حمولة قدرها 8. 5 من الأطنان حصلت عليها إنجلترا من الدانمرك وبلجيكا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا والنرويج وهولندا، ومن هذا المجموع الذي يبلغ 27 مليوناً من الأطنان أغرق الألمان ما حمولته خمسة ملايين طن أي ما يعادل 51 ما تملكه بريطانيا تقريباً

من أين لبريطانيا أن تحصل على ما يسد هذا النقص؟

تنتج بريطانيا من السفن سنويا ما حمولته 1. 500000 طن. ولكي تسهل المهمة الملقاة على عاتقها أدخلت بعض تعديلات على بناء السفن، وذلك بالتخلي عن كل ما ليس له مهمة رئيسية في السفينة. وقد صار يبنى الآن نوع من السفن يكبر حجم السفن العادية مرتين ونصفاً، ويمكن بناء أجزاء هذه السفن في مصانع في داخلية البلاد بعيدة عن غارات الطائرات الألمانية على أحواض السفن. ويبلغ حمولة ما أمدت به الولايات المتحدة بريطانيا في عام (1941) 1000000 طن. كما تقرر أن تمدها أمريكا بما مقداره 2000000 طن في عام (1942)، وسيبلغ هذا المدد خمسة ملايين طن في عام (1943) وبلغت حمولة ما وصل بريطانيا فعلاً 1. 500000 طن يضاف إليها خمسون قطعة أعطيت لبريطانيا بموجب قانون الإعارة والتأجير. وسيرسل إليها 150 قطعة تبلغ حمولتها 1. 500000 طن. وهناك مورد آخر لبريطانيا وهو السفن المحجوزة في موانئ الولايات المتحدة، ويبلغ عددها 58 قطعة حمولتها 589000 طن تلك هي الموارد التي تجد فيها بريطانيا عوضاً عن بعض ما تفقده. هذا ويبذل العمال جهوداً جبارة لبناء أكبر عدد من السفن، كما يضرب السلاح الجوي موانئ الغزو الألمانية ملحقاً ما استطاع من الخسارة بهذه الموانئ وأحواض السفن. ولا يألو رجال البحرية جهداً في مكافحة الغواصات والقضاء عليها؛ وبذا تعمل بريطانيا على زيادة الإنتاج وتقليل الخسارة مما يساعد كثيراً على سد هذا النقص

وغنى عن البيان أن لسيطرة النازي على البلاد الساحلية في أوربا أثرها العظيم في سير معركة الأطلنطي، فإن الغواصات الألمانية تتخذ من موانئ النرويج شمالاً إلى موانئ فرنسا جنوباً قواعد تكمن فيها. وهذا قد أعطى ألمانيا ميزتين هامتين:

أولاهما إن ألمانيا باستيلائها على هذه القواعد أمكنها أن تستخدم غواصات صغيرة الحجم تسع من خمسة رجال إلى عشرة، بدلاً من الغواصات الكبيرة التي تسع من ثلاثين رجلاً إلى أربعين، وبذلك قلت الخسارة التي كان يتحملها الألمان من إغراق غواصاتهم كما زاد عدد الغواصات لتي تعمل في المحيط. والميزة الثانية إنه باستيلاء

ألمانيا على النرويج وفرنسا مكن الغواصات الألمانية من أن تتفادى الخطر الذي كانت تلاقيه في الحرب الماضية حين كان من المحتوم عليها أن تمر بحقول الألغام التي كان ينشرها الإنجليز في مضيق دوفر وبحر الشمال كلما أرادت الوصول إلى قواعدها على الساحل الألماني. فللإنجليز الآن إذا ما حاولوا تضييق الخناق على الغواصات الألمانية يجب عليهم أن يبذروا حقول الألغام على طول الساحل الأوربي، وهذا يعد من أصعب الأمور وأشقها على الأسطول البريطاني نظراً لوقوع هذه السواحل تحت رحمة القواعد الجوية الألمانية. كذلك فقدت بريطانيا ميزة كانت لها في الحرب الماضية وهي عدم استخدام الموانئ الأيرلندية الغربية كقواعد للسفن مما يضطر الدوريات البحرية أن تقطع للقيام بدورياتها رحلات أشق كثيراً مما كانت في الحرب 1914 وإذ كان في استيلاء ألمانيا على هذه السواحل كسب لها وخسران لبريطانيا، فبريطانيا قد سعت من جانبها لإيجاد وسائل تفسد على الألمان ما اكتسبوه من ميزات فزودت سفنها بأجهزة ترشد إلى مكان الغواصات، وقذائف الأعماق التي تتفجر تحت سطح الماء وهي تعتبر من أفتك الأسلحة بالغواصات. وكذلك وفق الإنجليز إلى نوع جديد من السفن يعرف باسم (الكورتيث) وهو عبارة عن مدمرة صغيرة تجمع إلى بساطة تركيبها سرعتها وسهولة إدارتها وتبلغ تكاليف هذه المدمرة الصغيرة 108 تكاليف بناء المدمرة العادية؛ فلا يزيد ثمنها على نصف مليون من الجنيهات، وتحتاج إلى عدد قليل من البحارة لا يزيد عن الأربعين، ويبلغ طولها نصف طول المدمرة؛ وحمولتها أربعمائة طن وسرعتها 25 عقدة بحرية في الساعة. ويمكن بناء عشر مدمرات من هذا النوع بدلاً من مدمرة واحدة كبيرة. وتحمل هذه المدمرة مدفعين من عيار 4 بوصات وقذيفتين للأعماق. ولما ثبت نجاح هذا النوع من السفن في محاربة الغواصات قامت كندا ببناء 80 قطعة. وتبني إنجلترا الآن 300 قطعة من هذا النوع. هذا وقد زودت كل سفينة تجارية بمدفع ضد الطائرات والغواصات لتكون أقدر على حماية نفسها.

وهكذا تبذل الدولتان قصارى جهودهما وتقذفان بثمرات إنتاجهما في هذا المحيط حيث تدور المعارك الكبرى

محمد شاهين الجوهري
معهد الصحافة العالي بالجامعة الأمريكية

المصريون المحدثون - 5

شمائلهم وعاداتهم في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الإنجليزي ادورد وليم لين
للأستاذ عدلي طاهر نور

السكان

من المستحيل تقريباً في بلد لا يقيد فيه مواليد ولا أموات أن يعين عدد السكان بدقة. وقبل تأليف هذا الكتاب ببضع سنوات عمل إحصاء على أساس عدد البيوت في مصر وافتراض ثمانية أشخاص لكل بيت في العاصمة، وأربعة أشخاص لكل بيت في الريف وهذا الإحصاء - على ما أعتقد - يقرب جداً من الحقيقة. ولكن الملاحظة الشخصية والبحث يجعلانني أميل إلى الاعتقاد بان مدناً كالإسكندرية وبولاق ومصر العتيقة تحوي كل منها خمسة أشخاص على الأقل لكل منزل. أما رشيد فنصفها آهل ونصفها الآخر قفر، ودمياط المزدحمة بالسكان يجب أن نحسب ستة أشخاص لكل منزل فيها وإلا نقص تقديرنا كثيراً عما يظن أنه عدد سكانها. فإذا أضيف شخص أو شخصان إلى كل منزل في المدن المذكورة، فلا يحدث مع ذلك إلا فرق ضئيل في إحصاء سكان مصر ومجموعهم طبقاً لتلك الطريقة الحسابية يبلغ أكثر من مليونين ونصف المليون من الأنفس؛ ولكن هذا العدد قل فيما بعد. وكان من المحتمل أن يكون من هذا العدد قرابة مليون ومائتي نفس من الذكور ثلثهم (400000) يصلحون للخدمة العسكرية

وقد جند محمد علي من هذا العدد الأخير مائتي ألف رجل على الأقل لجيوشه النظامية وللخدمة البحرية. وأقصى خسارة نتجت من إبعاد هؤلاء الرجال عن زوجاتهم، أو منعهم من الزواج عشر سنين، لا بد أن تزيد على ثلاثمائة ألف؛ ولذلك جعلت مجموع السكان أقل من مليونين. أما عدد أفراد الطبقات المهمة فقد كان كما يلي على وجه التقريب:

مصريون (فلاحون وحضريون) 1. 750. 000
مصريون مسيحيون (أقباط) 150. 000
عثمانيون أو أتراك 10. 000
سوريون 5. 000
يونانيون 5. 000
أرمن 2. 000
يهود 5. 000

أما بقية السكان من البدو والنوبيين والعبيد والمماليك والفرنج، فمن المحتمل أن يبلغ عددهم نحو سبعين ألفاً. أما عدد كل طائفة على حدة فلا يمكن معرفته على وجه اليقين. وقد كان عرب الصحراء بين الغربية والشرقية لا يعدون في سكان مصر.

قلت: إن القاهرة يبلغ عدد سكانها مائتين وأربعين ألف نفس تقريباً عندما وضع هذا الكتاب. ولو كنا قد بنينا حكمنا على أهل هذه المدينة من ازدحام شوارعها المهمة وأسواقها لخدعنا كثيراً. ففي كثير من القارات والأزقة لا يرى إلا القليل من المارين. كذلك لا يمكننا الحكم من سعة المدينة وضواحيها، فإن داخل الجدران كثيراً من الأمكنة الخالية، بعضها يتحول إلى بحيرات أثناء الفيضان. ثم إن الحدائق والمقابر الكثيرة وأحواش المنازل والجوامع تشغل مساحة واسعة. وقد عددت بين سكان القاهرة نحو مائة وتسعين ألفاً من المصريين المسلمين، وحوالي عشرة آلاف من الأقباط وثلاثة آلاف أو أربعة آلاف من اليهود، والبقية أجانب من بلدان مختلفة

ويرجع أن سكان مصر في عصور الفراعنة كان عددهم ستة ملايين أو سبعة. ولو أن شيئاً من محصول الأرض في العصر الحاضر لم يصدِّر، لعال هذا المحصول أربعة ملايين نفس. وإذا كانت الأرض الصالحة للزراعة تزرع، لكفى المحصول ثمانية مليون، وغاية ما يمكن أن تصل إليه مصر في أغزر السنين فيضاناً. ولذلك فإني أعتقد أن المصريين القدماء في الوقت الذي كانت فيه الزراعة في حالة ازدهار كان عددهم كما قررت سابقاً. كما انه من المفروض إن عددهم لم يكن يزيد على نصفهم إلا بقليل في عصر البطالسة والعصور التالية، عندما كانت تصدر كميات كبيرة من الحبوب سنوياً. وهذا الإحصاء يتفق مع ما قاله ديودور الصقلي من أن مصر بلغ عدد سكانها في أيام الملوك الأقدمين سبعة ملايين، بينما في عصره لم يقلوا عن ثلاثة ملايين

ومن تأمل في سياسة محمد علي لا يسعه إلا أن يأسف للفرق بين حالة مصر تحت حكمه وبين ما كان يجب أن تكون، إذ لم يزد عدد سكانها بكثير عن ربع العدد الذي كان في إمكانها إعالته.

ولقد كان في استطاعة العاهل العظيم أن ينفع شعبه أجزل النفع لو أنه بدلا من إفقار الفلاحين بنزع الأراضي الزراعية واحتكار المحصولات القيمة، واستخدام كفاءة السكان في إرضاء طموحه وتحقيق فتوحه، أو في منافسته الصناعة الأوربية على غير طائل كان قد وجه عنايته إلى مساعدة الطبيعة في أن يجعل مصر بلداً زراعياً على الأخص، فقد كان يكفي محصول قطنها وحده، بل ويفيض، للحصول على كل منتجات المصانع الأجنبية وكل المحصولات الطبيعية التي تتطلبها حاجة السكان من البلاد الأجنبية

الفصل الأول

ميزات المصريين المسلمين وملابسهم

يؤلف المسلمون العربيو الأصل غالبية سكان مصر منذ قرون. وقد أحدث ذلك انقلابا في اللغة والقوانين والشمائل العامة، وأصبحت العاصمة المصرية أعظم قاعدة للمعارف والفنون العربية. وسيخصص لوصف هذا الشعب - على الأخص الطبقتان الوسطى والعليا في القاهرة - أكبر جزء من هذا الكتاب

ويلاحظ أن شمائل المصريين وعاداتهم تثير الاهتمام بنوع خاص، لأنها مزيج من تلك الشمائل والعادات التي تسود الجزيرة العربية وسورية وشمال أفريقيا كله وتركية إلى

حد بعيد. وليس في العالم بلد كمصر يمكننا أن نحصل فيه على معرفة تامة بأكثر طبقات العرب تمدناً

ويظهر من الإحصائيات الواردة في مقدمة هذا الكتاب أن المصريين المسلمين - أو المصريين العرب - يؤلفون تقريباً أربعة أخماس سكان العاصمة، وسبعة أثمان سكان مصر كلها

والمصريون المسلمون من جنس خليط انحدر إلى حد كبير من عدة قبائل وعشائر عربية وفدت إلى مصر في عصور مختلفة، بعيد الفتح. وهؤلاء العرب المهاجرون كانوا أولا قبائل تجوب الصحراء، ولكنهم تركوا حياة البداوة وتحضروا، ثم اصهروا إلى الأقباط

الذين أصبحوا بالإسلام آمنين، فأدى اختلاطهم هذا إلى تكوين شعب كثير الشبه بقدماء المصريين الذين ينتمون إلى الجنس (القوقازي) مع قرابتهم إلى الجنس الأسود على درجات مختلفة، وهذا الشبه يبدو تاماً في عدة أفراد منهم على الجملة، وعلى الأخص في القبط والنوبيين، وهو في مسلمي مصر الوسطى والعليا أكثر شيوعاً ووضوحاً، ولكنهم مع ذلك ليسوا أقل عروبة من أهل الحضر في الجزيرة ذاتها، إذ فشت فيهم منذ القدم عادة اقتناء الجواري من قبائل الجلا والأحباش، إما للزواج وإما للتسري. ولذلك كان عرب المدن الآن يشبهون الجلا والأحباش بقدر ما يشبهون البدو. وهذا - على الأقل - هو الحال في مدن الإقليم الجنوبي الغربي من بلاد العرب؛ أما الجهات الجنوبية، فالحضريون فيها أكثر اختلاطا بالهنود وأجناس الملايا وبالأفريقيين كذلك. فالمصريون عامة والعرب كذلك - ولو على درجة أقل - ينزعون بعرق إلى أهل أفريقيا الأصليين. ويلاحظ أن لفظ (العرب) يطلقه سكان البلاد العربية الآن على البدو في مجموعهم، ويطلقون كلمة (العربان) على أهل القبيلة أو على القليل منهم، أما الفرد فيسمى (بدويا). وقد زال التمييز بين القبائل تقريباً في العاصمة وفي غيرها من المدن المصرية؛ ولكنه لا يزال باقياً بين الفلاحين الذين حافظوا على عادات بدوية كثيرة سأتكلم عنها فيما بعد. وفي بقاع مختلفة من مصر عشائر تنحدر من العرب الأولين الذين يترفعون عن التزوج ممن هن أقل منهم جنساً. وهؤلاء يصعب بل يستحيل تمييزهم من قبائل صحراء الجزيرة العربية. ومسلمو القاهرة الوطنيين يسمون أنفسهم عادة: (المصريين) و (أولاد مصر) أو (أهل مصر) و (أولاد البلد)؛ وآخر تلك العبارات الثلاث أكثرها شيوعاً في المدينة نفسها. أما أهل الريف، فيسمون بالفلاحين (أو المزارعين)؛ وكثيراً ما يطلق الأتراك على المصريين لفظ الفلاحين، ويقصدون به معنى الغلظة والجفاء، أو ينبذونهم بأهل فرعون إهانة لهم، فيرد عليهم المصريون كلما اجترءوا على ذلك بتسميتهم أهل نمرود

ويتراوح طول المصريين بين خمسة أقدام وثماني بوصات، وخمس أقدام وتسع بوصات، وأغلب الأطفال تحت سن التاسعة أو العاشرة دقاق الأطراف ضخام البطون، ولكن. . . سرعان ما تتحسن إشكالهم كلما تدرجوا في النمو، فلا يبلغون أشدهم حتى تتناسب أعضاؤهم بشكل ظاهر. فالرجال أقوياء مفتولو العضلات، والنساء جميلات التكوين بدينات

من غير إفراط. ولم أرى في المصريين بدانة إلا في الذين أخلدوا إلى حياة البطالة في العاصمة وفي غيرها من المدن

(يتبع)

عدلي طاهر نور

ليالي القاهرة

وقفة على دار

للدكتور إبراهيم ناجي

قِفْ يا فُؤَادُ عَلَى الْمَنَازِلِ سَاعَا ... فَهُنَا الشَّبَابُ عَلَى الأَحِبَّةِ ضَاعا

وَهُناَ أَذَلَّ إِبَاءهُ مُتَكَبرٌ ... أَمَرَتْ عِيُوُنٌ قَلبَهُ فَأَطَاعا

أحْسَسْتُ بُالدَّاءِ القدِيمِ وَعَادَنِي ... جُرْحٌ أَبَيْتُ لِعَهْدِهِ إِرْجَاعا

وَمَشَىَ مَعِ الأَلَمِ الذُّهُولُ كأَنَّمَا ... طَارَتْ بِلُبِّي الحَادِثَاتُ شِعَاعا

كَثُرَتْ عَلَيَّ مَتَاعِبي فَمَحَوْنِني ... ومَحَوْنَ حَتَّى السُّقْمَ والأَوْجَاعا

يا مَنْ هَجرْتَ لقَدْ هجْرتَ إلى مَدىً ... فإِلى اللِّقاَءِ! ولَنْ أَقُولَ ودَاعَا

غيمه
للأديب عبد الرحمن الخميسي
تَخِفُّ إلى صَدْرِ السَّمَاءِ تَمِيمَةً ... رَمادِيَّةَ الأَصْبَاغِ مِنْ كفِّ رَاهِبِ
تَشُقُّ عُبَابَ الجَوِّ حَيْرَى كأنها ... سَفِينَةُ وَهْمٍ فِي خَوَاطِرِ كاتِبِ
يُنَادِمُهَا فَجرٌ نَدِىٌ مُنَوِّرٌ ... وَيُطْلِقُها فِيَ أَرْجُوَانِ المَوَاكِبِ
وَتُرضِعُها مَسْفوُحَها الشَّمسُ وَقتما ... تُرِيقُ دِماهَا فَوْقَ هَامِ المغَارِبِ
وَتَرْقُبُ دَمْعَ البَدْرِ فِي كلِّ ليلَةٍ ... لِتَسْبحَ في غَمْرٍ مِنَ النُّورِ ذَائِبِ
من لواعج الذكرى
للأستاذ محمد كامل حته
!أبى! كيفَ ماتَتْ مَعَانِي الرثاءْ ... عَلَى شَفتيَّ وَغُصَّ القلمْ
. . .وكيفَ احتوانِي ذهولُ الفناءْ ... عَشَيَّةَ غُيِّبْتَ بَينَ الرِّممْ
!وأينَ الدموعُ، وأينَ البكاءْ ... يموجُ على شاطِئَيهِ الألَمْ
وأينَ الرثاءُ يَهُزُّ السماءْ ... وَيُدْمِى الجفونَ وُيذكِى الصَّرَمْ
تَأَبَّتْ عَلَيَّ فنونُ العزاءْ ... وَجَارَتْ عَلَيَّ همومُ العدمْ
فأَعْوَزَني يومَ مِتَّ الوَفاءْ ... وما أنا في الناسِ بالمتَّهَمْ
!كأني وقد حُمَّ فيكَ القضاءْ ... ذبيحٌ تَحَشْرَجَ فيهِ النغمْ
تُرَى كيفَ مَرَّتْ عليَّ الشهورْ ... وكيف انقضَى العامُ والآخَرْ
!وكيف احتوانِيَ صَمْتُ القبورْ ... وأخرسني وَحْيُهَا الساخرُ
وبي لوعةٌ من عذابِ السعيرْ ... تَلَظَّى بها القلبُ والخاطرُ
وما في بَيَاني وَنَّي أو قُصُورْ ... ولي منْطقِي المسعفُ الهادرُ
لقد خدَعَتْني المنَى وهي زُورْ ... وغَرَّرَ بي الأملُ الغادرُ
فأقسمتُ: ساقي الردَى لن يدورْ ... على مهجتي كأسُهُ الدائرُ
!فدارَتْ بيَ الكأس ظَمأى تفورْ ... وَغُولُ الردَى مُطْبِقُ كاشِرُ
هُوَ الموتُ قدْ رَوَّعَتْنِي رُؤاهْ ... فذابَ جَنَانِيَ في قَبْضَتِهْ
وَأَعْوَلَ فِي دُنْيَيَاتِي صَدَاهْ ... وَغَامَتْ حَيَاتي على صَفْحَتِهْ
فلمَّا تَقَشَعَ عَنِّي دُجَاهْ ... تَلَفَّتُّ، وَالقلبُ في غَشْيَتِهْ
فأَلَفيتُنِي فِي خِضَمِّ الحيَاهْ ... مَهِيضَ الشراعِ على لُجَّتِهْ
!وَحِيدًا تُرَوِّعُهُ فِي سُرَاهْ ... هُمومٌ تَفَزَّعُ مِنْ وَحْشَتِهْ
وَأَيْنَ العزاءُ، وكيف النجاةْ؟ ... سؤالٌ يُدَمْدِمُ في وَحْدَتِهْ
!وأين أبي؟ في جِوَارِ الإلهْ ... يُلقَّى الكرامة في جَنَّتِهْ
. . .إلى البدر
للأديب محمد عبد السلام كفافي
سميرك يا بدر الدجى كاد يغربُ ... ويحجبه من عالم الموت غيهبُ
أرانا تشابهنا فأنك في الدجى ... منار وإني في دجى اليأس كوكب
ونحن بنو أم كلانا سليلها ... ولكنَّنا فيها نُوَارى ونُحجب
فويلك إن أُلْقت عليك بظلها ... وويلي إذا ما في ثراها أُغَب
ولكن تخالفنا فأنت تعود من ... غروب ولن آتي إذا حان مغرب
وأنت صليب القلب لكنني فتى ... فؤادي بألوان الهموم معذَّب
فكم بات قبلي سامرون مدى الدجى ... طوتهم من الماضي سنون وأحقب
تناجيك أشعار لهم وأهازيجٌ ... ويشجيك نايٌ خالد اللحن مطرب
وولوا ولم تحزن عليهم بدمعة ... ولكن على أجداثهم بت تلعب
حكيت فتاتي في الملاحة والسنى ... وتحكيك منها قسوة وتجنب
كأنك منها وهي منك تحدرت ... فليست إلى الأرضين تُنمى وتنسب
أراها على أفق الجمال تربّعت ... يداعبني منها شعاع محبّب
فيوهن بأسى حبُّها ويهدّ من ... قوى عزمتي والحب أقوى وأغلب
فويليَ يا بدران - إن مت - منكما ... فلا هي تبكيني ولا أنت تندب
البريد الأدبي
1 - ما رأيكم في هذا الجواب؟
لأستاذنا الكبير (ا. ع) فضل في أقوال الكتاب والشعراء من التعابير

الدخيلة في اللغة الغربية. وهو يخصني بالعناية فيتناول كلامي بالنقد
من حين إلى حين، وإن كان في يأس من إصغائي إليه في كل وقت،
لأني أرى من حق الكاتب أو الشاعر أن يدير التعبير كيف يشاء، وفقاً
للصورة التي تتمثل في ذهنه وهو يساور بعض المعاني ولأغراض
ومن أغلاطي عند عبارة (من جديد) وهي كثيرة الدوران في كلامي، ويرى أستاذنا (ا. ع) أنها (من التعبيرات التي تسربت حديثاً إلى لغتنا، فتداولها الكتاب من غير تمحيص، ولا وزن لصحتها اللغوية، ولا لصلاحيتها لأن تندمج في الأساليب الفصيحة وتغدو جزءاً منها) ثم قال: (وما كنت أتوهم قط أنها تصل يوماً إلى أقلام البلغاء) وبعد أن رجح أنها (من التراكيب الإفرنجية الكثيرة التي شوهتها الترجمة السقيمة) تلطف فقال: (أفلا يرى معي حضرة الدكتور أنه يجدر بنا أن نحارب هذه الطفيليات في لغتنا، وأن نقضي عليها قبل أن يستشري فيها شرها؟)
واتفق أن صرفتني الشواغل عن الجواب فكتب الأستاذ بعد ذلك بأسابيع كلمة يقرر فيها أن عبارة (من جديد) لن تقتلع من اللغة إلا بعناء، وفوض أمره وأمر اللغة إلى الله!
فما رأي أستاذنا (ا. ع) فيمن يخبره أن اللغة العربية عرفت هذا التعبير قبل أكثر من تسعة قرون؟ ما رأيه في قول ابن رشيق وهو من أقطاب الأدب العربي:
قد أحكمتْ من التجا ... ربُ كل شيء غير جودي
أبداً أقول لئن كسب ... تُ لأقبضنّ يَدَيْ شديد
حتى إذا أثريتُ عُدْ ... تُ إلى السماحة من جديد
أيراني أجبتُ؟ إن لم يقتنع فسأرجع إلى مصاولته من جديد وإن اقتنع فأنا أنتظر منه جائزة سنية على هذا الجواب، والسلام
مشكلة جديدة - 2
قبل ظهور العدد الماضي بثلاثة أيام قدمت الكلمة السابقة لمطبعة الرسالة، وراعني أن أجد أحد الأدباء سبقني بكلمة عن أبيات ابن رشيق، ولم تكن تلك الأبيات بعيدة مني، فهي من شواهد كتاب (الموازنة بين الشعراء) ولكن الحظ قضى بأن تكون (الجائزة السنية) من حق ذلك الأديب وقد وصلت كلمته قبل كلمتي
وهنا تظهر مشكلة جديدة تصورها الأسئلة آلاتية
1 - حكم الأستاذ الكبير (ا. ع) بأن عبارة (من جديد) لم تكن شائعة بيننا قبل نحو عشر سنين، فهل يؤمن بقيمة الاستقراء الفردي في اللغات؟
2 - وحكم بأنه ما كان يتوهم قط أن تصل هذه العبارة يوماً إلى أقلام البلغاء، فهل يتفضل فيشرح الأسباب التي تمنع وقوع هذه العبارة في كلام بليغ، ولو صح القول بأنها منقولة عن اللغات الأجنبية؟
3 - ورجح القول بأنها مترجمة عن الإنجليزية، وأقول إن لها نظيراً في الفرنسية، فهل يجب أن ننفي من لغتنا كل عبارة لها نظائر في لغات الأجانب؟
4 - قال أستاذنا (ا. ع) إنه جهد في أن يخرج هذا التركيب في مختلف أوضاعه تخريجاً سائغاً فلم يوفق، ثم قال: (قد يكون التقدير في عبارة الدكتور (من وقت جديد) أو (من شيء جديد) أو (من أمر جديد) مثلاً، ولكن كيفما قدرنا هذا الموصوف ألفينا الكلام غثاً لا معنى له)
ومن حقي أن أسأل أستاذنا عن الموجب لهذا التقدير وهو من صور التكلف والافتعال؟ يضاف إلى ذلك أن البحث عن أصول التعابير يضيع الغرض الأصيل وهو الإيجاز ويفقد التعابير حظها من الذاتية البيانية.
إن أجاب سعادة الأستاذ عن هذه الأسئلة بما يقنع فله عندي جائزة سنية، على شرط أن يخص السؤال الثاني بالعناية والاحتفال.
زكي مبارك
من جديد
اطلعت في العدد (427) من (الرسالة) على كلمة للأستاذ الفاضل محمود عزت عرفة،
يعقب بها على ما كتبته في تخطئة قول بعضهم: (من جديد)؛ ويستشهد لعربية هذا التعبير بما رواه لابن رشيق في إحدى قصائده.

ولقد طربت - علم الله - لهذا التصويب، وإن كان لا ينزلنا منزلة اليقين؛ - كما قال الأستاذ - يميل بنا إلى الجزم بانتهاء هذا التعبير إلى العربية الصحيحة، ويبعد بنا عن فكرة أنه مترجم عن الإنجليزية لقدم عهده.
وإني أشكر للأستاذ إفادتي وخدمته للغة بكشفه هذا.
هدانا الله إلى السداد، وألهمنا الصواب فيما نقول ونعمل.
(ا. ع)
الذي حرك العالم!
تساءل الأديب الفاضل أحمد الشرباصي في العدد الخامس والعشرين بعد الأربعمائة من (رسالتنا الغراء) عن السبب في تسمية (الجاز) المستعمل في المنازل بأسماء مختلفة، فقال: إن الحكومة تكتبه في البطاقات التي تعطى شهرياً للجمهور باسم (الكيروسين)، وكتاب السياسة يسمونه (البترول)، والعامة تسميه (الجاز)؛ ويقترح الأديب أن يطلق عليه (النفط)، كما كان يسميه العرب وتسمى منابعه (النفاطات).
والواقع أن (الجاز) أحد مشتقات عديدة تستخرج من زيت معدني هو البترول، أي أن كلمة (الجاز) لا ترادف كلمة (البترول)، والعلاقة بينهما هي علاقة الفرع بالأصل. وأما كلمة (الكيروسين)، فهي ترجمة إفرنجية علمية صحيحة للجاز، وموضوع (البترول) موضوع كيميائي متشعب. والمكتبة الإفرنجية غنية بالمصنفات العديدة عنه نظراً لأهميته الحيوية لجميع الأمم، سواء المتحاربة أم المسالمة، فما من مصنع يشتغل، أو سيارة تتحرك، أو طائرة تحلق، أو قطار يسير، أو بيت يعمر بأهله، إلا كان للبترول ومشتقاته فضل كبير في ذلك: فمنه يستخرج بنزين السيارات والطائرات، ومنه تستوقد النيران في المنازل بالجاز، ومنه زيوت التشحيم بأنواعها المختلفة، ومنه زيوت الديزل والمازوت للوقود، ومنه الشمع، ومنه الإسفلت. وأما كلمة (الجاز) التي شاعت على لسان الجمهور فأغلب الظن أنها مأخوذة من أحد زيوت البترول المسمى جاز أويل وهو نوع خفيف من زيت الديزل ويستضاء به أيضاً.
وإذا كان قد جاء في المختار والقاموس والمصباح أن النفط ضرب من السرج يستصبح به، وأن النفاطة منبت النفط ومنبعه، فأظن أنه بعد التقدم العلمي في دراسة البترول وتقسيم مشتقاته لا يكفي. فعلى علماء المجمع اللغوي أن يحددوا اللفظ المقابل لكل من المواد السالفة الذكر، بعد أن اتضح أن الجاز شئ والبترول شئ آخر.
أحمد علي الشحات
كيميائي
استيضاح
في العدد (425) كتب الأستاذ الكبير (أ. ع) تعقيباً لغوياً على الدكتور زكي مبارك جاء في هامشه ما نصه: (ويكنى عن الأمر بكذا؛ إلا أن (كذا) تفرد إن لم يتعدد الفعل. قال في (المصباح): ويكون كناية عن الأشياء، يقال فعلت كذا، وقلت كذا؛ فإن قلت: فعلت كذا وكذا فلتعدد الفعل آه).
وفي هذا القول نظر، كما يقول الأسلاف إذ جاء في مختار الصحاح ما نصه: (تقول فعل كذا وكذا) و (تقول عندي كذا وكذا درهماً) وهذا يفيد جواز تكرار (كذا).
وقول المصباح: (فإن قلت: فعلت كذا وكذا فلتعدد الفعل) مبهم محتاج إلى توضيح، إذ لا نفهم معنى تعدد الفعل هنا؛ أيقصد تعدد الفعل من الفاعل، أم يقصد تعدد الفعل في الجملة وتقديره مضمراً يفسره المذكور، أم ماذا؟ مع ملاحظة أن المصباح نفسه قد أورد قبل ذلك في المادة نفسها هذه الجملة: (يقال اشترى الأمير كذا وكذا عبداً).
فهل يتفضل الأستاذ الكبير (أ. ع) بتوضيح ذلك وتبسيطه لعامة القراء؟
(البجلات)
أحمد الشرباصي
في اللغة
طالعت بجريدة الأهرام صباح الأحد كلمة (هناء) في مقال بإمضاء (مصري) وتحت عنوان (يا أولياء الأمور)
وقد سبق أن أنكر الباحثون وجود تلك الكلمة في اللغة وقالوا إن الصحيح (هناءة) لا (هناء) فهل يتفضل العلامة وحيد بك بما يؤكد الخطأ أو الصواب.

ولحضرته الشكر.
(ع. ع)
القصص
ذَهَبْ آلْ هُوهِنِزْلَرِنْ
تأليف الكاتب الإنكليزي س. فورستر
للأديب سيد إبراهيم البكار
عندما كان ابن عمي بريان طالباً بالطب، كان كثيراً ما يختلف إلى منزلي، وخاصة عندما يكون في حاجة شديدة إلى النقود. أما الآن وقد أصبح طبيباً ناجحاً فلم أعد أراه أو أسمع صوته. لذلك كانت دهشتي شديدة، عندما دق جرس التليفون في أحد الأيام وكان المتكلم بريان. وسألني عما إذا كان في استطاعتي أن أستغني عن جزء من وقتي ليواضعني الرأي في أمر هام. وقد انتهى حديثي معه بأن دعوته إلى العشاء.
ومع أنني كنت مشغولاً إذ ذاك بعرض إحدى رواياتي على مسارح لندن، ومنهمكاً في درس تفاصيل اتفاق مع إحدى الشركات السينمائية على شراء رواية أخرى، فإني كنت مشتاقاً إلى رؤية بريان، وقضاء بعض الوقت معه. فقد كان شاباً ظريفاً، يتفجر حيوية ونشاطاً.
وكان لبريان مقدرة عظيمة على ضبط نفسه، فلم يكلمني في ذلك الأمر الهام حتى فرغنا من تناول العشاء وشرب القهوة. وفي أثناء ذلك أخذ يسألني بكل أدب عن الرواية والفلم، وعن مدى نجاح مسرحيتي الجديدة. ولم يكن عجيباً أن يلقبني بريان بالعم فقد درج على ذلك منذ صغره، ولم أكن من ناحيتي أرى غضاضة في ذلك، بل كنت أعتبر هذا شعوراً طيباً منه نحوي. ولما فرغ بريان من إشعال سيجارته سألته عن ذلك الأمر الهام الذي كلمني عنه في التليفون.
قال بريان: حسن يا عمي، كل ما أريده منك أن تصحبني في رحلة على ظهر الدوليسينيا. والدوليسينيا هو الاسم الذي أطلقه على يختي الخاص.
قلت: يا طفلي العزيز، لقد كنت تتكلم الآن عن الرواية والفلم. وأنت تعرف أني أريد أن أنتهي منهما. وعلى ذلك لن يكون في استطاعتي أن أستغني عن دقيقة واحدة في ستة الأسابيع القادمة.
قال بريان: حسن، هذا ما كنت أخشاه، فبعد ستة أسابيع يكون الوقت قد مضى، وأنت تعرف أن الملاحة في الدانوب تتعطل في أثناء الشتاء.
- الدانوب؟ وأين تريد أن تذهب؟ ولماذا؟
- أنت ترى، ولكن يحسن بي أن أتكلم من البداية.
- إن هذا يكون أكثر إيضاحاً.
- لقد بدأت هذه القصة منذ أسبوعين مع أحد مرضاي وهو بحار ألماني ظريف يدعى (باير). وكانوا قد حملوه إلى المستشفى من الميناء، إذ أصابته إحدى الرافعات إصابة خطرة. وقد بلغت ما في وسعي لإنقاذه فنلت بذلك ثقته، وقد ساعدني على ذلك معرفتي باللغة الألمانية. وقبل وفاته بقليل أرسل إحدى الممرضات لاستدعائي - ولحسن الحظ كنت موجوداً حينئذ في المستشفى - وأخبرني عن الكنز.
- الكنز؟
- نعم، الكنز. إنها تبدو لك رواية خيالية. وقد فكرت فيك وهو يقص عليّ تلك القصة العجيبة. ألا ترى معي أنها كذلك؟ البحار الذي يحتضر يقص على الدكتور الطبيب في المستشفى قصة الكنز المخبوء، إنما كان ينبغي أن تكون مع البحار خريطة يبين عليها مكان الكنز.
- وهل كان معه؟
- كلا ولكن ما قاله يكفي. لقد قال إنه كان جندياً في الحرب العظمى، ولم يشتغل بالملاحة إلا أخيراً. وقد كان أحد الحراس الثلاثة الذين أرسلته الحكومة الألمانية لحراسة مقدار من المال أرسلته إلى بلغاريا أثناء الحرب. وقد عهد إلى أحد الضباط حراسة العربة المملوءة بالمال. ولما كانت أرض بلغاريا أرض صخرية وعرة، فقد وصلوا إلى هناك متأخرين. وأنت تعرف أن بلغاريا كانت أسبق الدول التي بادرت في التسليم.
- نعم. هنا صحيح. ولا زلت أعجب كيف أن الشبان الذين لم يكونوا إلا صبية صغار في

سنة 1918 يعرفون عن معركة هاستنج أكثر مما يعرفه آباؤهم وأعمامهم الذين خاضوا غمارها وذاقوا ويلاتها.
وعاد بريان يقول: لقد كانوا قريبين من الحدود عندما سلمت بلغاريا. ولما سمع الضابط أن
جيشاً إنجليزياً كان في طريقه إلى صوفيا أمر بتحويل عربة الكنز إلى خط آخر، ووصلها بالقطار الذاهب إلى ألمانيا. ولم يكن سيرهم سريعاً، لأن خطوط السكك الحديدية كانت غير منتظمة. وكانوا لا يزالون في هنغاريا عندما سلمت النمسا أيضاً.
قلت: هذا معقول جداً. فالنمسا كانت ثانية الدول التي سلمت
واستطرد بريان يقول: وهكذا كانوا هناك مع عربة من عربات السكك الحديدية ملأى بالذهب. ولم يكونوا قادرين على التقدم ولا على الرجوع. وكان عليهم أن يعملوا عملاً حازماً سريعاً. ومما حملهم على ذلك أيضاً أن التشيك والرومانيين كانوا يسيرون في اتجاههم. وكان الإيطاليون يتقدمون نحو فينا. وبالطبع لم يكن الضابط يريد أن يستولي الحلفاء على ذلك الكنز ولذلك دفنوه.
قلت: وهل أخبرك أين دفنوه؟
- بالطبع. فقد وقف قطارهم عند تل عال يقع بالقرب من قرية تسمى (ديللنجن) على نهر الدانوب. وعلى قمة هذا التل صليب تذكاري. وقد تعاون الضابط وباير والرجل الثالث على إخراج الذهب من العربة، وحملوه ليلاً إلى أعلى التل، ودفنوه هناك على عشر خطوات من الصليب المذكور.
وقد قال لي باير إن المال كله كان في صناديق حديدية، من بينها اثنان لم يستطيعوا حملهما إلا بصعوبة.
- وهل تظن أنه كان يقول الحقيقة؟
- نعم. . إني متأكد من ذلك تأكدي من جلوسي هنا معك.
- ولكن هذا لا يعني أن الكنز لا يزال هناك.
- صبراً. فسأخبرك عن كل شئ في وقته، فبعد أن دفنوا الكنز رحل الثلاثة: باير، والضابط، والرجل الثالث، قاصدين بلادهم. وقد كان رجوعهم شاقاً، فقد كانت هناك ثورات في كل مكان؛ وكانت آثار التخريب والدمار بادية في كل قرية.
- نعم هذا صحيح، فقد شاهدت بعيني ما حدث في دول أوربا الوسطى بعد الهدنة بقليل.
- وعلاوة على ذلك لم يكن مع أحدهم الغذاء الكافي. وكانت العدوى الأنفلونزا منتشرة في ذلك الوقت، وقد أصيب بها الرجل الثالث فمات في فينا. وبقى باير والضابط. ولما وصلا
أخيراً إلى ألمانيا كانت الحرب هناك قد انتهت أيضاً؛ ولكن كانت هناك فتن وقلاقل داخلية. وبينما كانا خارجين من محطة السكك الحديدية في درسدن قذف شخص مجهول قنبلة أصابت من الضابط مقتلاً. وأصيب باير بجروح لم تكن خطرة على كل حال، فقضى هناك بعض الوقت حتى التأمت جروحه، ولما ثابت إليه صحته صمم على أن يحتفظ بسر الكنز لنفسه وألا يخبر به أحداً ما داموا لم يسألوه عنه. فقد نسى الجميع كل شئ عن هذا الكنز وسط القلق والاضطراب والثورات القائمة.
- ليس هذا بعجيب.
- حسن. منذ ذلك الوقت وباير يبحث عن طريقة يحصل بها على هذا المال؛ ولكن لم يكن ذلك بالشيء اليسير، إذ يجب عليه أن يجتاز بعض الحدود، ويتعرض للشبهات والظنون. وفضلاً عن ذلك فإن هذه الرحلة الطويلة الشاقة تتطلب كثيراً من النقود ولم تكن النقود متوفرة لديه. وكان يخاف أن يطلب معونة أحد حتى لا يطلعه على سره. لذلك أخذ يتنقل من عمل إلى آخر، منتظراً حدوث معجزة تدنيه من غرضه. ولكن لم يتحقق حلمه، فقد كان آخر عمل له أنه كان بحاراً على ظهر السفينة الألمانية، ولم يعش طويلاً؛ فقد مات بعد أن قص على هذه القصة.
- وهل سمعه أحد وهو يخبرك بهذه القصة؟
- كلا. إن هذا مستحيل. ومع ذلك فقد كان يكلمني باللغة الألمانية.
- حسن، كل شئ يكاد يبدو حقيقياً، ولكن ما هي خطتك؟
- أريد أن نركب الدوليسينيا إلى هناك، ويمكننا أن نبحر إلى أعالي نهر الرين، ونعبر

القناة الواصلة بين الرين والدانوب.
- يا إلهي! لقد نسيت كل شئ عن هذه القناة.
- ومن ثم ننزل إلى الدانوب، من فينا، وبعد ذلك ترسى عند ديللجمة، ثم نحمل الكنز ليلاً إلى اليخت. وأنت تعرف أن اليخت أكثر صلاحية لتخبئة الكنز من السيارة. ولن يرتاب فينا إنسان أو يشك في الأمر أحد.
- هه!
- ستأتي معنا. أليس كذلك؟ سنكون أنا ودوروثي مسرورين بمجيئك.
- دوروثي؟ يا للشيطان! وما الذي أدخل دوروثي في الأمر؟ ودوروثي هي خطيبة بريان.
- نحن على وشك الزواج، وستكون هذه الرحلة بمثابة شهر العسل لنا.
- فليبارك الله نفسي. هل تظنني أصحبكما وأتطفل على زوجين في شهر العسل؟
- لكننا لا نبالي بذلك.
- ربما لا تبالون أنتم بالأمر؛ ولكني أنا أبالي. إني أفضل أن يختل عقلي - كما أتوقع - بهذه التجارب وهذا الفلم. أما أنت فخذ اليخت، ولكن لا تسألني أن أصحبكما لنفسي.
- أشكرك يا عمي. ستأخذ نصف الكنز. هل تقبل؟ إننا سنستخدم يختك كما تعلم.
ردني ما قاله إلى عالم الحقيقة مرة ثانية. لقد رن كل شئ في أذني معقولاً إلى الآن. ولكن عندما أخذت أنظر في الأمر عن كثب بدا لي كل شئ أقرب إلى الخيال منه إلى الحقيقة الواقعة. فاكتشاف الكنز المخبوء لا يكون إلا في القصص والروايات.
وقطع على بريان سلسلة تأملاتي بقوله:
- كم تظن من المال هناك؟
قلت: أنا لا أعتقد أن دولة كبيرة كألمانيا ترسل إلى بلغاريا في أثناء الحرب أقل من مليون جنيه. أليس كذلك؟
وتناولت ورقة وقلماً وأخذت أحسب.
- كل شئ حسن. لقد حسبناها أنا ودوروثي. نحن نستطيع أن نحمل مليون جنيه على ظهر الدوليسينيا بكل سهولة.
وأخيراً اتفقنا على كل شئ. سأضع يختي تحت تصرف بريان؛ وعندما يأتي بالمليون سيعطيني عشر هذا المليون. وأنا أعتقد أن مائة ألف جنيه تكفي عجوزاً مثلي لكي يقضي بقية حياته في هدوء واطمئنان. ويستطيع بريان أن يأخذ باقي المليون، وإذا لم يستطع إنفاق كل هذا المال فعليه أن يعيد بناء مستشفى لندن. وكنت أعرف أن بلاد الدانوب مليئة بالفتن والقلاقل، وأنهم سيتعرضون لكثير من المخاطر. فلما أبديت مخاوفي إلى بريان ابتسم وقال:
- إن دوروثي تحب المغامرات، وهي تخوض المخاطر بشجاعة منقطعة النظير. وعلى كل حال نحن نعرف كيف نحتفظ برؤوسنا سليمة، فلا تخف.
وأخذنا نتناقش في بعض التفصيلات الخاصة بالرحلة، وإعداد العدة لها، ولم يبرح بريان منزلي إلا بعد الساعة الرابعة صباحاً.
وأخيراً أتى اليوم السعيد، يوم زواج بريان ودوروثي. ولم أستطع التخلص من مشاغلي إلا بصعوبة. وما صدقت أني أصبحت حراً طليقاً، من أوامر الأستديو، وقيود التجارب في يوم بأكمله، حتى قصدت الكنيسة حيث أقيمت مراسيم الزواج، ووقعت باسمي شاهداً في السجل الخاص بالزواج، ثم قدت العروسين السعيدين إلى مرسى الدوليسينا. كان أمامي ستة أسابيع قبل أن أراهما ثانية. ولا أقول إن هذه الستة أسابيع مرت ببطء، أو إني قضيتها على أحر من الجمر، فقد كانت مشاغلي كثيرة. كان أمامي الرواية المسرحية، ومضايقات التجارب التي لا تنتهي؛ ثم هناك أيضاً الفلم، ولا تستطيع من يشتغل بإخراج فلم أن يجد من وقته لحظة واحدة يقضيها في هدوء وسلام. وعندما انتهى الفلم وأصبح صالحاً للعرض، كان لا يزال على أن أنتهي من هذه الرواية بسرعة، وقد انتهيت منها في الوقت الذي تعهدت بتقديمها فيه إلى الناشر. وعندما انتهيت من هذا كله أحسست كأن عبئاً ثقيلاً أزيح عن عاتقي. ومن ثم أخذت أفكر طويلاً في الدوليسينا، وكنت أتخيلها وهي تأخذ طريقها عبر القناة بين مرتفعات بافاريا، ثم أتخيلها وهي تندفع مع التيار في نهر الدانوب؛ ثم أتخيلها وهي تثير شكوك البوليس في سبع دول مختلفة.

وكنت أواظب في أثناء ذلك على قراءة الجرائد الأجنبية. ولكني لم أعثر فيها على أي نبأ بالقبض على زوجين إنجليزيين بتهمة التجسس أو سرقة كنز. ولكنني مع ذلك أخذت أتضايق، وأوشك صبري أن ينفذ عندما سمعت جرس التليفون يدق فجأة، وكان الترنك يناديني من سوثهامبتن.

- هالو! عمي! لقد رجعنا ثانية. وكان الصوت صوت بريان.

قلت: وهل أنتما بخير؟

قال: نعم وقد وجدنا الكنز.

وصحت فجأة: وجدتما ماذا؟

- وجدنا الكنز كله سليماً. ألم أقل لك إني سأجده؟ سأخبرك بكل شئ في هذا المساء. نحن الآن في المحطة على وشك ركوب القطار إلى المدينة.

وربما كان أول ما خالج نفسي من مشاعر هو الاطمئنان لعودتهم سالمين، ولكن مع هذا طغى على فضول هائل لمعرفة كل شئ عن الكنز. وقد كنت ما أزال في ريب من أن هذه المغامرة قد انتهت بهذه السهولة. وعهدي بالمغامرات أنها لا تتحقق إلا في الروايات الخيالية التي كنت أؤلف منها العدد الكبير. كنت في الحقيقة بين الشك واليقين، وكنت في اضطراب ذهني، وقلق فكري، عندما أتى بريان ودوروثي لينقذاني مما أعاني.

قلت عند رؤيتهم: حسن؟

قال بريان: نحن مسروران لرؤية عمي المؤلف العظيم.

وقالت دوروثي: لقد رأينا ونحن في التاكسي جموع الجماهير المحتشدة وهي تتزاحم على شراء التذاكر لرؤية مسرحيتك الخالدة!

قلت: لعنة الله على المسرحية، لنتكلم عن الكنز أولاً.

قال بريان: حسن، ولكن أسمح لي أولاً بشيء من الشراب يا عمي.

وأحضرت إليه ما طلبه، ثم أخبرت الخادم أن الدكتور والمسز سومرست سيبقيان للعشاء. ثم استدرت نحوهما وقلت: حسن.

وابتدأ بريان يقول: لم تكن رحلة رديئة بالنظر إلى الدين كانوا يرافقونني.

ورمته دوروثي بمخدة صغيرة.

قلت وقد شعرت بالغضب لتدخلها: لا تكوني طفلة حديثة الزواج هكذا! اتركي هذا الطفل الأحمق يقص قصته بطريقته الخاصة.

وعاد بريان يقول: لم تكن الرحلة تستحق الذكر. إلا أن النهر كان مليئاً بالقوارب الكبيرة والجرارات الضخمة التي كانت تحدث صوتاً عالياً، حتى أنك لا تستطيع أن تسمع كلامك نفسه؛ وقضينا يومين على هذا الحال. أما اليخت فيجب عليك يا عمي أن تضع فيه ماكينة فاخرة بعد ذلك. لقد كنت أقول دائماً إنك ستستعمل اليخت عاجلاً أو آجلاً.

قلت بضيق: سأفعل ذلك في المرة القادمة.

- هذا عن نهر الرين. أما الملاحة في الدانوب فقد كانت حسنة. إنه نهر واسع جميل، وكانت الرياح تساعدنا، وكانت الأمواج هادئة، وبعبارة أصح كانت الرحلة موفقة. آه، لقد نسيت أن أخبرك عن العبور من هولندا إلى ألمانيا. كان علينا أن ندفع . . .

قلت وقد نفذ صبري: أنا لا أهتم بما تدفعه. استمر في قصتك.

- حسن، لقد عبرنا تشيكوسلوفاكيا والنمسا والمجر، وكان كل من يرى الراية الزرقاء ترفرف على اليخت لا يفهم السبب الذي حدا بيخت إنجليزي خاص إلى المجيء إلى أواسط أوربا، ولكنهم اعتادوا رؤيتنا فلم يسببوا لنا متاعب عند رجوعنا أخيراً بالذهب؛ وكان كل مكتب جمارك يدعونا ليلقي علينا بعض الأسئلة عن المكان الذي أتينا منه، وعما نفعله، وإلى أين نحن ذاهبان، وكان أكثرهم يتظاهر بأنه لا يعرف الألمانية.

قلت وقد عيل صبري: لعنة الله على الألمانية! ألم تذهب أخيراً إلى ديللنجن؟

- نعم في آخر الأمر، وكان أول شئ بدا لنا من ديللنجن هو الصليب التذكاري على المرتفعات القريبة من الماء. وكان هناك خط حديدي بجوار التل كما قال باير تماماً؛ وكان علينا أن نذهب إلى الشاطئ ونعبر شريط القطار، ثم نصعد إلى قمة الجبل، ولما وصلنا إلى ذلك الصليب التذكاري خطوت عشر ياردات إلى الشمال منه، وكان كل شئ حسناً.

- ماذا تعني بقولك حسن؟
- لقد قال باير الصدق، فقد كان هناك كثيب صغير من الرمال وحشيش نام لا يلاحظه إلا من يعرف مكانه بالضبط.

وعلى ذلك فقد رجعنا إلى اليخت، وانتظرنا إلى أن أتى الليل، وكان الانتظار طويلاً ومملاً، إذ كان يلوح لنا أن الوقت لا يتقدم. ولما خيم الظلام على الكون، ذهبنا إلى الشاطئ ثانية. . . وكنت قد اشتريت مجرافاً أثناء مروري بمدينة فينا، فأخذناه معنا واجتزنا شريط القطار، وكان قطار الشرق السريع الآتي من استامبول يمر في ذلك الوقت. . . فانتظرنا حتى مر، ثم ارتقينا التل في الظلام. ولم يكن من السهل العثور على ذلك الصليب التذكاري في هذا الظلام الشامل. . . ولكن كان من حسن حظنا أننا قد أتينا إلى هذا المكان في النهار. . . فجلست القرفصاء، وأخذت أتحسس الأرض لكي أعثر على كثيب الرمل. . . ولما وجدته بدأت أحفر في ذلك المكان. . . ولم أحفر كثيراً، فبعد أن حفرت ثلاث بوصات بدأ المجراف يحدث صوتاً مسموعاً نجم عن اصطدامه بشيء معدني، وكان ذلك الشيء صندوقاً حديدياً كبيراً. . . وبذلنا أنا ودوروثي مجهوداً كبيراً حتى أخرجناه من الحفرة. . .!

وكان هناك صناديق أخرى في تلك الحفرة. وكنت أعرف أننا إذا أخرجناها كلها من الحفرة فلن نجد الوقت الكافي لكي نحملها إلى اليخت قبل طلوع النهار. وهذا يعني أن بعضها سيبقى على التل إلى النهار، وسيظهر الناس على حقيقة الأمر كله. لذلك آثرنا أن نحمل هذا الصندوق أولاً، ثم نحمل بقية الصناديق في الليالي التالية. وعلى ذلك، فقد ردمنا الحفرة بمهارة ورجعنا إلى اليخت بالصندوق الأول، وكان ثقيلاً. وقد حدث أن وقع على قدمي، وكشط الجلد كله، وكانت دوروثي هي السبب في ذلك. . . وصاحت دوروثي معارضة: كلا، لست أنا. . .

وصحت غاضباً: كوني هادئة، أيتها الطفلة. . .

وعاد بريان يقول: حسن، بعد ما اجتزنا شريط القطار أوصلنا الصندوق إلى اليخت بواسطة قارب، ثم وضعناه أخيراً في الكابينة، وكان أمامنا وقت كاف لكي نحضر صندوقاً آخر، ولكننا آثرنا أن نفتح ذلك الصندوق أولاً لنرى ما بداخله.

وكأنما تعمد بريان مضايقتي، لأنه اختار هذه اللحظة بالذات لكي يشعل سيجارته، ولكنني امتنعت عن أي معارضة وانتظرت بفارغ الصبر حتى انتهي من هذه العملية وعاد يقول:

- ولم يكن فتح الصندوق بالشيء الصعب، فقد كان القفل قديماً قد أتلفه الصدأ، فلم نجد صعوبة في كسره، وكان. . .

فقاطعته وأنا أقول بلهفة: وماذا وجدتم في الداخل؟

- وجدنا المال الذي قال عنه (باير)؛ ولكنه كان أوراقاً مالية، وبالطبع كانت هذه الأوراق من الطبعة التي أصدرتها ألمانيا أثناء الحرب. وكان في الصندوق نصف مليون فرنك إن لم يكن أكثر؛ وأظنك اشتريت لي أوراقاً من هذا النوع بعد الحرب مباشرة لكي ألعب بها، وفي الوقت الذي خرجت فيه هذه الأوراق من دائرة التعامل، كان المائة ألف منها تساوي بنساً واحداً على ما أظن!

سيد إبراهيم البكار

العدد 429 - بتاريخ: 22 - 09 - 1941

الأدب والإصلاح

للأستاذ عباس محمود العقاد

أشار الدكتور زكي مبارك إلى حديث لي لخصته صحيفة العزيمة الأسبوعية بقلم مراسل من مراسليها ولخصه الدكتور في قوله إن الأدب ينبغي (أن يكون للأدب، فلا يكتب الكاتب غير ما يوحي به الطبع، وهو يعني بالحقائق الخالدة؛ أما المشكلات التي تتعلق بالطبقات المختلفة فهي مشكلات وقتية يناط تدبيرها بالرجال الإداريين)

ثم قال الدكتور: (أما بعد فهذه، مشكلة من أصعب المشكلات، وللأستاذ عباس العقاد أن يوضح رأيه كما يشاء)

ورأيي في هذا الموضوع الذي يستحق التوضيح إن الأديب لا يغض من أدبه أن يكتب في مسائل الاجتماع والإصلاح الموقوت، ولكن الكتابة في هذه المسائل ليست شرطا من شروط الأدب وليست حتما لزاماً على كل أديب

لان الأدب التعبير، والتعبير غاية مقصودة، وغاية كافية، وغاية لا يعيبها أن تنفصل عن سائر الغايات
ولا فرق بين الأديب المعبر بنظمه ونثره وبين الموسيقي المعبر بألحانه ونغماته. فكلاهما يصف النفس الإنسانية في حالة من حالاتها، وكلاهما مستقل بوحيه لا يشترط فيه أن يتعرض لعمل المصلح الاجتماعي أو الباحث الأخلاقي أو الناظر في مشكلات الثروة وشؤون المعيشة
وإنما جاء اشتراط البحث الاجتماعي أو الاقتصادي على الأدباء وأصحاب الفنون بدعة من بدع المذهب الاشتراكي في العصر الحديث، وهو مع هذا نقيض الدعوة الاشتراكية في الأساس والصميم
لان الدعوة الاشتراكية تستكثر على الفقراء أن يستغرقوا حياتهم في طلب القوت والاشتغال بأعباء المعيشة، وترى أن الحياة الصالحة هي الحياة التي يقل فيها جهد العمل، وتكثر فيها فرص المتعة بالنعيم
فإذا كان هذا هو رجاءها الأعلى وغايتها القصوى، فمن أعجب العجب أن تجعل الخبز وضرورات المعيشة شاغلا لكل عامل وقائل، ومحوراً للأحلام والآمال، وفريضة لا يعفى منها أحد من الناس حتى الذين وكلتهم المجتمعات الإنسانية منذ كانت إلى التجميل والتزيين وتذكير أبناء آدم بأنهم نفوس وألباب لها مطالب في بعض ساعاتها غير مطالب المعدات والجلود! وأكبر من مطالب السوائم والحشرات
ماذا نقول! أنقول السوائم والحشرات؟ كلا معاذ الله أن نتهم السوائم والحشرات بالاستغراق في المطاعم والمعدات، فإنها تعلمنا ما يجهله غلاة الاشتراكيين، ويريدون منا أن نغفل عنه ونتعلم نقيضه: تعلمنا أن الجمال، وأن الطعام ضرورة مفروضة وليس بالحياة كلها ولا بالشاغل الذي يستوعب كل حي في كل ساعة في كل عمل وكل مسعاة: تعلمنا إنها تغني وتمرح وتلعب وتحير الشمس والقمر، وتلوذ بالأعشاب والأزهار، ولا تدين نفسها بدين الخبز والمعدة إلا ريثما تفرغ من هذه السخرة والمفروضة عليها أو هذا العبء الذي يثقلها ويعطلها عن سرورها ونشوتها
ونحن إذ نقول هذا لا نجهل ما يقوله الاشتراكيون إذ يستخفون بالفنون والآداب التي تناط بالجمال الخالد ولا تناط بالمنافع الموقوتة. فإنهم يزعمون أن الجوع أولى بالتفكير والتعبير من هذه المطالب التي يسمونها بالكماليات وهي هي كما أسلفنا طلبة الحياة وطلبة جميع الأحياء
وحسن ما يقولون أو فليكن حسناً كما يشاءون، ولكن الأمة التي لا تستطيع أن تفرغ من حياة جميع أبنائها بعض ساعات لبعض هؤلاء الأبناء يشبعون فيها مطالب الجمال، هي أمة لا تستحق الطعام ولا تستحق الوجود. فبحسب الفرد عشر ساعات من الأربع والعشرين للكد والكدح وطلب المعاش؛ وبحسب الأمة تسعة ملايين وتسعمائة وتسعة وتسعون ألفاً من عشرة ملايين بين أفرادها يكدون ويكدحون لمعاشها. وغير كثير بعد ذلك ألف أو اقل من ألف يذكرونها الجمال ويعبرون لها عن أحلام الحياة التي يعطيها الطير والحشرة وتعطيها الضارية والبهيمة كل ما استخلصته من براثن الضرورات
لا بل نزيد على ذلك أن الألف الذين يذكرونها الجمال ويعبرون لها عن أحلام الحياة لا يخلون من فائدة في باب الخبز والطعام إذا نظرنا إلى النتائج والحقائق ولم نقصر النظر على البوادر والعناوين
فالشاعر الذي يفتن المرء بجمال الزهرة، يرفعه من معيشة الذل والشظف، ويجعل قناعته
بالدون والسفساف ضرباً من المستحيل. وفكتور هوجو لم يكن من أصحاب البرامج الاجتماعية، ولكنه وصف البؤس والظلم فأغنى عن البائسين والمظلومين ما لم يغنه الدعاة المنقطعون لما يسمونه: مشاكل المجتمع وبرامج الإصلاح. وكل نغمة موسيقية تعبر عن شوق إنساني هي خبز لا يحسن بالإنسان أن يحتمل جوعه ويصبر على فقده، لان عدم الخبز الذي تطلبه المعدات فقر وعوز. أما عدم الخبز الذي تطلبه الأرواح، فهو مسخ وحرمان من الأذواق والأخلاق
ويكثر الاشتراكيون من ذكر الاقتصاد، ويحسبون الدنيا بحذافيرها اقتصادا في اقتصاد، وهم يخالفون قواعد (القصد الطبيعي) فيما يشيرون به على نوابغ الأدب والفنون، لأنهم يطلبون من العبقريين الموهوبين عملا يقوم به من ليست لهم عبقرية فنية ولا

ملكة أدبية، إنما يغنى فيه من درسوه وحذقوه وتفرغوا لإحصاءاته وقواعده ومقابلاته ومقارناته، ونريد به بحث المسائل الاجتماعية، ومسائل الفقر والغنى، وتوزيع الثروة ونظام الطبقات. فهذه موضوعات لا حاجة بها إلى عبقريات هوميروس وابن الرومي والمتنبي وشكسبير وبيرون؛ ولا تخسر شيئا إذا أقبل عليها من خلقوا لها وانقطعوا للإحاطة بمعارفها وأصولها، ولكن العالم الإنساني يخسر أولئك العبقريين إذا وقفوا ملكاتهم على مسائل يوم أو مسائل امة، لن تصبح بعد يوم آخر ولا بين أمة أخرى. . .

في حين إن الذي كتبوه لا يزال شاغل بني الإنسان في جميع الأيام وبين جميع الأقوام فليس من القصد الذي يترنم به الاشتراكيون أن تصرف عبقرية من عمل تحسنه، وتحيلها إلى عمل يتولاه غير العبقريين وغير الموهوبين، وإنما هو خلط في التوزيع يعاب لما فيه من سوء الوضع فوق ما يعاب لفشله وقلة جدواه

ويستطرد بي هذا المقال في (الرسالة) للأستاذ رمسيس يونان، ينحلني فيه كلاماً لم أقله ولم أقل ما يؤديه؛ بل قلت ما هو نقيضه على وجه صريح لا محل فيه لتأويل فالأستاذ رمسيس يونان يروي الحقائق عند العقاد ومنها (أن الأمان كل الأمان، خطر على الهمم والأذهان، وانه لو اطمأن كل فرد إلى قوته وكسائه، فقدنا من بني الإنسان العنصر المقتحم المغامر)

ثم يقول: (ولو صدر هذا القول من إسماعيل صدقي مثلا لعذرناه، ولكن الغريب حق أن

يصدر من العقاد. فكيف يستطيع العقاد الشاعر أن يقول انه لا تكون مغامرة أو اقتحام إلا حيث يكون طلب الرزق، وإن الإنسان لا يغامر في سبيل غرام أو في سبيل كشف علمي أو إنتاج فني؟! ولماذا لا نقول إن روح المغامرة إذا تحررت من هموم العيش وأعباء الثروات، فسوف تكتشف لنفسها ميادين وآفاقاً جديدة هي اجدر بعواطف الإنسان؟!)

والعجيب كما أسلفت أنني صرحت بنقيض هذا الكلام في مقالي عن المال الذي يناقشه الأستاذ رمسيس يونان. فقلت: (إن طلب المال كطلب العلم فطرة لا تتوقف على التوريث ولا على ما يعقبه الأباء للأبناء؛ وقد يهمل الإنسان رزقه ورزق أبنائه ليتابع الدرس ويتقصى مسألة من مسائل العلم والمعرفة. . . وإنما تفسر أعمال الإنسان بالبواعث والدوافع قبل أن تفسر بالنتائج والغايات. وإذا قيل لنا أن فلانا يجمع المال لأنه يخاف عاقبة الفقر، قلنا: ولماذا يخاف هذه العاقبة التي لا يخافها غيره! إنه لا يخالف غيره إلا لاختلاف البواعث النفسية دون الاختلاف في الغايات. . .)

هذا كلامي فكيف فهمه كاتب المقال عن الفقر ومسألته الاجتماعية؟!

فهمه على أسلوب الاشتراكيين في فهم كل شيء؛ وأسلوبهم انهم يفهمون ما يروقهم، وأن الذي يروقهم هو المناوأة والإنكار، وعلى هذه السنة ينكرون العصامية كما ينكرون الغنى، ويسمون الفقر مسألة اجتماعية ليريحوا أنفسهم من العطف على الضعفاء، فلا هم يطيقون الممتازين بالفضل أو الثروة، ولاهم يشعرون بالعطف الصحيح على المحرومين من النبوغ والمال. وماذا يفيد العطف كما يقولون؟ أليست هي مسألة اجتماعية لا دخل فيها للشعور والرحمة؟!

وكأننا إذا قلنا أن الفقر داء اجتماعي يعالج كما تعالج الأدواء الاجتماعية خرجنا به من طريق العلاج. . . وكأنهم إذا قالوا إنه مسألة وليس بداء فرجوا أزمة الفقر أو اقتربوا بها من التفريج على أن الحقيقة إن الدنيا لن يزال فيها الفقراء والأغنياء، ولن يزال فيها الأذكياء والأغبياء، ولن يزال فيها الأخيار والأشرار، ولن يزال فيها السمان والعجاف والطوال والقصار والأقوياء والضعفاء. وآفة الاشتراكيين انهم لا يعيشون ويتعرضون مع هذا لعلاج مسألة العيش. . . فحياة كارل ماركس الشخصية تكتب في صفحتين، وكذلك حياة لينين وستالين وإخوانهم اجمعين. ولو عاشوا لفهموا العيش غير هذا الفهم وعالجوه

غير هذا العلاج

فقوانين الحياة سابقة لقوانين الأجتماع. وقوانين الحياة هي التي أوجبت بين الناس هذا التفاوت في الأرزاق كما أوجبته بين الحيوان والنبات. وعبث أن نعلق الرجاء بالمستحيل، فلا انتهاء للتفاوت في مطبوع ولا في مكسوب. وغاية ما نستطيع أن نمنع الفقر الذي يشقى به من لا يستحقه، وان نرفع طبقة الفقراء بالقياس إلى الأغنياء،

وأن نجعل للأمم نصيباً من ثروة الأفراد
أما محو التفاوت في الكسب فلا سبيل إليه، وليست كلمة (مسألة) بالتي تخلق سبله لو كان إليه سبيل.
عباس محمود العقاد
خلاصة من كتاب:
الحروب الحاسمة في التاريخ
للأستاذ محمد توحيد السلحدار بك
من (أحاديث القهوة) حديث دار بيننا عن هزيمة ألمانيا المنكسرة في الحرب الماضية) وأسبابها الظاهرة والباطنة؛ فقال الأستاذ السلحدار - ومن عادته أن يجعل لكل حديث نتيجة - إنه قرأ في هذا الموضوع كتاباً له قيمة وفيه ثقة؛ ثم لخص لنا رأي المؤلف فكان فصل الخطاب ومقطع الحكم. فرغبت إليه أن يكتب هذا التلخيص لقراء الرسالة (فكتبه الأستاذ لتوه من غير تنقيح ولا مراجعة
في سنة 1933 نشر بايو كتاباً اسمه (الحروب الحاسمة في التاريخ) ? والكبتين ب. هـ. لدل هرت الكاتب العسكري للانسيكلوبيدية البريطانية وترجمته الفرنسية هي لكل من ميرا والكلونيل فنلونج قال المؤلف: إن موضوع الكتاب والغرض من وضعه وقيمته هي أمور لم تتعين في ذهنه تعيناً دقيقاً إلا شيئاً فشيئاً، وعلى ترتيب وسياق هما دون المعتاد في إعداد كتاب. ذلك بأن فكرته الأصلية إنما كانت أن يستخلص الجوهر من مطالعات واصلها عدة سنين، ومن خواطر ألهمته إياها هذه المطالعات. ولذا جاء كتابه خلاصة مكثفة من ملاحظاته التي دونها في أثناء دراسته لكل من تلك الحروب الحاسمة.
وقال إنه أول من وضع لكتابه من غير أن يدخل فيه نظرة في عوامل الحرب الكبيرة الماضية وفيما بين هذه العوامل من علاقات ونسب؛ وقد علل ذلك بأن الاعتماد على أسانيد وافرة أخذاً عن وثائق المحفوظات وعن الشهادات الشخصية كان يومئذ أمراً ممكناً، لكنه اعتقد أن الجو كان لم يزل مشحوناً بكهرباء المجادلات العلنية بسبب ما تدور عليه من المصالح الخاصة؛ وتلك حال يصعب فيها التجرد من الشهوات لقبول حكم في الموضوع. وكان هو شديد الرغبة في آلا يضعف مثل هذا الجو ما أعتبره درساً صادقاً حيوي الأهمية استنبطه من الماضي لينفع في المستقبل، إذ كان غرضه من التأليف هو في الواقع تنشيط بحوث تجري بروح علمي لا إذكاء نار الجدل. كان يريد بما استنبطه من خبرة العالم القديم والعالم الحديث أن يمكن القارئ من الاهتداء إلى الدروس التي أتت بها حرب سنة 1914 إلى سنة 1918. غير أن أصدقاء ونقادا بصراء عرض عليهم أول وضع للكاتب حثوه
على أن يدخل فيه بعض نظرات في تلك الحرب تصل بين خبرة الماضي وخبرة العصر على النظام الذي تقتضيه طبيعة ملاحظات المؤلف، محتجبين لنصيحتهم بأن الطلبة قد أتيح لقليلين منهم الفرصة والوقت للتعمق في أكداس المواد التاريخية
فالكتاب أبحاث استراتيجية في الحروب الحاسمة، مهد لها مؤلفه بفصل في التاريخ من حيث هو خبرة عملية؛ ثم بحث في حروب اليونان (إيبا مينونداس وفيليب والأسكندر فحروب رومة (هنيبال وسبيون وقيصر فحروب القرون الوسطى، فحروب القرن السابع عشر (جستاف أدلف - وكروميل وترين فحروب القرن الثامن عشر (مرلبورو وفريدريك الثاني فحروب الثورة الفرنسية (نابليون)، فحرب القرم وحرب سنة 1914 يريدون بكلمة استراتيجي في اللغة الفرنسية باباً من الفن العسكري يتعلق بخطط قيادة الجيوش إلى حيث تلاقي جيوش العدو. ويعنون بكلمة تكتيك فن ترتيب الجنود واستعمالها في القتال.
وقد ذهب المؤلف إلى إن هذين التعريفين ضيقا النطاق، وإن التكتيك والإستراتيجي متداخلان. وإن هناك الإستراتيجي العادية والإستراتيجي الكبرى وهي تشمل السياسة العامة للحرب سواء أدارت في ميدان أم في ميادين، وأن هذه السياسة يضعها ويديرها الحكام المدنيون؛ أما القواد العسكريون - خصوصا في البلاد الديموقراطية - فعليهم حسن استعمال وسائل القتال لتحقيق أغراض السياسة. وفيما يلي خلاصات من بعض فصول الكتاب. قال صاحبه:
1 - إن رجال العسكرية في العالم يعترفون جميعاً بصدق قول نابليون في الحرب:

نسبة الحال النفسية إلى الحال المادية كنسبة ثلاثة إلى واحد) في الحرب وقد لا يكون لهذه النسبة أية أهمية في الحقيقة إذا اجتزئ بالنظر إلى قيمتها الحسابية، لان المستوى النفسي يميل إلى الهبوط عند عدم كفاية السلاح، وأي نفع يكون لأشد الإرادات ثباتاً في جسم هامد؟

لكن لذة الحكمة قيمتها على الدوام، وإن كان العامل النفسي والعامل المادي متلازمين، وكان كل منهما لا ينقسم، لأنها عبارة عن أن العوامل النفسية هي المرجحة في جميع الأعمال العسكرية الحاسمة؛ فإنها عليها وحدها تتوقف باطراد نتيجة المعركة ونتيجة الحرب؛ وفي

التاريخ العسكري هي وحدها العوامل التي توجد على قليل من الاختلاف في جميع مسائل الحرب، في حين أن العوامل المادية تختلف في كل موقف تقريباً وفي أثناء كل حرب. ويمكن أن يصاغ معنى تلك الحكمة في أسلوب أقرب إلى التعبير العلمي فيقال: إن قوة بلاد العدو تشبه أن تكون قائمة على عدد العسكر وعلى المصادر المادية على حين أن العساكر والمصادر متوقفة توقفاً جوهرياً على اعتدال القيادة وعل حال الجيش النفسية وعلى المؤن.

2 - الاقتراب المباشر هو قيادة الجيش إلى ملاقاة الجيش المعادي الأساسي رأساً والهجوم على قلبه طلبا لنتيجة حاسمة، ولم ينتج هذه النتيجة إلا في النادر عند التفاوت العظيم بين الجيشين. إما الاقتراب غير المباشر فهو الاقتراب بحركات الالتفاف عن بعد والهجوم على جوانب الجناحين، أو في الميدان البعيد عن الجيش الأساسي عند تعدد الميادين، وهو الذي جاء بالنتيجة الحاسمة في كل حرب تقريباً.

3 - الاقتراب غير المباشر يمكن عده من أعمال الاقتراب والحصر، بحرياً كان أو برياً، والإستراتيجي الكبرى؛ وقد كانت الدول الوسطى في آخر سنة 1917 تعاني شدته القاسية. وهذا الضغط الاقتصادي هو الذي خدع الألمان وحملهم في سنة 1918 على هجومهم العسكري في الميدان الغربي (اقتراب مباشر بالنسبة إلى سائر الميادين)

إن فرنسا في سنة 1914 حاربت بخطة حربية اشتهرت باسم الخطة رقم 17 تم وضعها بعد تعيين جوفر رئيساً لهيئة أركان الحرب العامة سنة 1912، وهي الهجوم السريع المفاجئ على قلب الجيش الألماني رأساً بالاقتراب المباشر. ومن الغريب أن هذه الخطة كانت مستلهمة من آراء للقائد الألماني فون كلوزويتز في حين أن الخطة الألمانية التي وضعها الكونت شيلفن سنة 1905 كانت قريبة إلى آراء نابليون. فكانت الخطة الفرنسية خير ما ساعد فون شيلفن على تحويل الخطة الألمانية الأصيلة إلى طريقة الاقتراب غير المباشر من غرب بلجيكا. ومحل المهارة الحقيقة الدقيقة التي جعلت هذه الخطة اقتراباً مباشراً هي الفكرة المتبعة فيها في توزيع القوات على أقسام الجيش: 53 فرقة للمفاجأة الأولى والصدمة من بلجيكا، وعشر فرق لتكون محوراً أمام فردان تدور عليه تلك الكتلة، وتسع فرق فقط للجناح الأيسر من الجبهة الألمانية على طول الحدود الفرنسية فيما يلي

فردان من الشرق إلى الجنوب. غير إن مولتك عدل في تلك الخطة من سنة 1905 إلى سنة 1914 إذ قوى الجناح الأيسر تقوية لم تحفظ النسبة بينه وبين الجناح الأيمن الذي كان معداً للتقدم من بلجيكا، وأبعد الطريق المختار لهذا الجناح عن البحر؛ ثم لم يزل يقوض بتعديلاته أسس الخطة في الميدان حتى انهارت وعدل عنها آخر الأمر في 4 سبتمبر سنة 1914 (معركة المارن الأولى 5 - 9 سبتمبر سنة 1914). ومن تعديلاته أنه أجاب على تحدي الفرنسيين عند قيامهم بالهجوم المباشر في أغسطس سنة 1914، وحاول إحداث معركة حاسمة في اللورين فجنح بذلك إلى الاقتراب المباشر. ولو أن ألمانيا - بعد معارك المارن في سنة 1914 وحتى بأخرة عنها - اتبعت سياسة حرب دفاعية في الغرب هجومية في الشرق (اقتراب غير مباشر) لجاز أن تختلف النتيجة؛ إذ ليس يوجد غير أسباب واهية كانت تحمل على الظن بان جهود الحلفاء - في هذه الحالة - كانت تصل إلى أكثر من حمل ألمانيا على النزول عن بلجيكا وشمال فرنسا مقابل احتفاظها، غير مدافعة، بغنائمها في الشرق. أما في سنة 1918 فإن الفرصة كانت قد فاتتها وكان جلدها الاقتصادي قد تأثر تأثراً خطراً. ذلك هو الموقف الذي كانت فيه ألمانيا سنة 1918 حين بدأت هجومها الأخير في الميدان الغربي نظر المؤلف في معارك الميدان الغربي إلى إبريل سنة 1918 ثم قال:

أصبحت فكرة فوش الموجهة لقيادته أن يحتفظ بالقدرة على ابتداء الأعمال الحربية غير مسوق في المحاربة بعمل العدو ؟ وألا يدع له سبيلا إلى الراحة في ذلك الوقت الذي فيه كانت القوات الاحتياطية تتجمع لديه هو. وكان أول عمل قام به هو تخليص السكك الحديدية على جوانب جيشه وذلك بسلسلة من الهجمات المحلية فقام هيج بالهجمة المحلية الأولى في 8 إبريل سنة 1918 تجاه أميان وقد ضاعف لذلك جيش رولنسن باحتياطات وحيل ماهرة من حيث لم يشعر الألمان. ولعل هذه الهجمة - التي قادها450 دبابة - كانت أتم مفاجأة وقعت في هذه الحرب، وقد كفت لإفساد الاعتدال النفسي في القيادة الألمانية، وأشعرت لوندورف بهزيمة جنوده المعنوية حتى حملته على التصريح بأن الصلح لن يمكن الوصول إليه إلا بالمفاوضة. وقال: إنه ريثما يتيسر ذلك يجب أن يكون هدف ألمانيا الإستراتيجي شل إرادة العدو الحربية شيئاً فشيئاً بدفاع إستراتيجي!!

تلاحقت الهجمات حتى عرقلت خطة لودندورف، إذ لم يبق في وسعه أن ينقل جنوده الاحتياطية بسرعة تمكنه من سبق ضربات الحلفاء ومنعها، واستمر النقصان في هذه الجنود بنسبة كانت في مصلحة الحلفاء؛ وقد سمحت هذه الخطة للحلفاء مدة - على الأقل - بأن يستمروا في التقدم وأن يضعفوا المقاومة الألمانية بالتدريج على نسبة النقصان العددي والخور النفسي في القوات الألمانية. ونظراً إلى هذا الانحطاط، وإلى تأكيد هيج أنه يستطيع اختراق خط هندنبرج قرر فوش أن يقوم بهجوم عام في آخر سبتمبر. وكان من نتائج هذا الهجوم أن جلا الألمان عن الأراضي التي احتلوها بهجومهم سنة 1918، وان ارتدت جبهتهم الغربية كلها، وأتيح لهم تقصيرها وتعديلها بتضحية ساقة الجيش في تقهقره.

في 11نوفمبر سنة 1918 - وهو يوم الهدنة - كانت القوات الألمانية التي دفعها الهجوم العام آمنة في جبهتها المعدلة، وكان الحلفاء الزاحفون في وقفة لم تكن يومئذ بسبب مقاومة العدو بقدر ما كانت لصعوبة تموين الجيوش منطقة أمحلتا الحرب وخربتها.

لم يكن للهجوم العسكري في طوره الأخير إلا أهمية ثانوية؛ لكن الصدمة المعنوية التي أصابت القيادة الألمانية بفعل المفاجأة الأولى التي قام بها هيج بدباباته يوم 8 إبريل سنة 1918 في بدء الهجوم، تلك الصدمة قد أكملتها الحرب في ميدان بعيد وقعت فيه حركة اقتراب غير مباشر، جعلت الصدمة قاتلة: ذلك أن هجوم الحلفاء من (سلانيك) هو الذي أدى إلى هذه النتيجة، فإن العدو لم يستطع أن يمنع تقدم الحلفاء على جناح، إذ لم يتمكن من جلب جنوده الاحتياطية بسرعة كافية بسبب بطأ حركاته في تلك الجبال. وقد طلب البلغار الهدنة إذ انقطع جيشهم قطعتين وهم متعبون من الحرب. وهذا الفوز الذي أحرزه الحلفاء أخرج من ميدان البلقان البعيد أهم نصير فيه للدول الوسطى، وفتح الطريق لتفجر الجنود المتحالفة على النمسا من خلف. ولقد تعين هذا الخطر المهدد عند نجاح هجمة إيطالية على الجبهة النمسوية المنهوكة القوى النفسية والمادية، لان تسليم النمسا في الحال أمر جعل للحلفاء إمكان التصرف في أرضها وسككها الحديدية، واتخاذ قواعد فيها للأعمال حربية ضد ألمانيا من بابها الخلفي. وكان الجنرال جلوز قد صرح للمستشار الألماني - منذ سبتمبر - بأن ما كان من ذلك محتملا وقوعه يومئذ يكون حاسماً إذا هو وقع فعلا. فهذا الخطر المهدد وهو الدخول من الباب الخلفي، والتأثر النفسي المتفاقم من وقع الحصر - الذي هو اقتراب غير مباشر في الإستراتيجي الكبرى - حصر شعب جائع ضائع الأمل، هما أمران كانا مهمازين دافعين للحكومة الألمانية انتهيا بها إلى التسليم.

ففي الطور الأخير من هجوم الحلفاء العام، قام هيج في 29سبتمبر بهجمة على خط هندنبيرج كانت أخبارها الأولى مقلقة للألمان. ويومئذ قررت قيادتهم العليا فجأة أن تطلب الهدنة زاعمة أن انهيار بلغاريا قلب كل ترتيباتها: إذ كانت قد اضطرت إلى أن ترسل إليها جنوداً أعدت أولا للميدان الغربي، وهذا تصرف كان قد غير الموقف تغييراً أساسياً بسبب الهجمات التي وقعت في الوقت نفسه على الجبهة الغربية؛ وهي هجمات وإن أمكن صدها إلى ذلك الحين، يجب أن يتوقع الألمان استمرارها، تلك هي الحال التي فيها دعي البرنس ماكس إلى تولي وظيفة مستشار الإمبراطورية ليبدأ

المفاوضة في الصلح، وسبب اختياره لذلك هو شهرته بالاعتدال والأمانة.
وقد طلب البرنس إمهاله عشرة أيام أو ثمانية أو حتى أربعة ليساوم مساومة مفيدة من غير اعتراف بالهزيمة قبل أن يفاتح العدو رأساً. لكن هندنبرج كرر بصراحة قوله (إن خطورة الموقف العسكري ليس يمكن معها أي تأجيل) وشدد في (أن يعرض الصلح على الأعداء في الحال) فأرسل طلب (الهدنة في الحال) إلى الرئيس ولسن يوم3 أكتوبر.
وقد تضمن طلب (الهدنة في الحال) اعترافاً واضحاً بالهزيمة. وكانت القيادة العليا قد اجتمعت برؤساء جميع الأحزاب السياسية في أول أكتوبر وأعدتهم من شعورها هذا فقوضت بذلك دعائم جبهتها الداخلية الخاصة قبل إرسال طلب الهدنة إلى الحلفاء بيومين؛ لان هذا النور الفجائي أعمى رجالا طال إبقاؤهم عمداً على جهل الأمور وحرك دعاة السلام وكامن قوى الخلاف جميعها. وقد قامت الثورة في ألمانيا يوم 4 أكتوبر، أي بعد إرسال الطلب بيوم، وانتشرت في أنحاء البلاد، فاستقال البرنس ماكس في 9 نوفمبر وسلم مقاليد الحكم إلى إبرت الاشتراكي.
حقا إن لودنددرف هدأت نفسه بعد 29 سبتمبر بمدة، حين اطلع على تقارير تخبره أن الحلفاء خففوا هجماتهم. ولم يرجع عن طلب الهدنة ولكنه كان يريدها لإراحة الجنود، بل شعر في 17 أكتوبر أن هذه الإراحة قد يمكن الاستغناء عنها وذهب إلى تصوره للموقف
في 29سبتمبر كان أسوأ من الحقيقة الواقعة.
لكن شعوره الأول كان قد ذاع أمره في الدوائر السياسية والجمهور الألماني، وكانت الأمة قد تحطم قوة إرادتها وفقدت الثقة بالقيادة العامة. وفي 23 أكتوبر أجاب الدكتور ولسن على المذكرة الألمانية إجابة كانت في حكم طلب التسليم بلا قيد ولا شرط، فاضطر لودندرف إلى الاستقالة في 26 أكتوبر.
والنظر في تاريخ مائة اليوم الأخيرة من تلك الحرب يبين صحة الدرس القديم قدم العالم: ذلك أن الغرض الحقيقي في كل حرب هو إصابة عقلية رؤساء العدو لا أجسام عساكره؛ ويبين أن صدمة المفاجأة والشعور بالعجز عن درء الأعمال الإستراتيجية المحتملة هما اللذان أوهيا قوى لودندرف المعنوية أكثر مما أوهاها فقده الجنود والمدافع والأراضي.
محمد توحيد السلحدار
الحديث ذو شجون
للدكتور زكي مبارك
الترقية إلى المدارس الثانوية - إلى وزير المعارف - ردوا هؤلاء المدرسين إلى المدارس الأولية! - أربعة قرون من تاريخ العراق - افتحوا الشبابيك وانظروا الليل، لتشغلوا عما في قلوبكم من أسباب المعاطف والحتوف
الترقية إلى المدارس الثانوية
كانت وزارة المعارف تراعي (الأقدمية) في ترقية المدرسين من الابتدائي إلى الثانوي، مع ملاحظة تقارير المفتشين ومع النظر في درجات (الدبلوم) وذلك نظام غير مقبول، وإن كان يعتمد على قواعد لها صلات (ظاهرة) بفكرة العدل.
والحق أن نظرية (الأقدمية) لها دخل في تعويق المواهب، لأنها تصل بأهل البلادة والخمود إلى ما يريدون على مر الزمان، وتصد الموهوبين عن الوصول إلى مطامحهم العالية فتردهم أشباحاً تنتظر مرور الأيام لتصل إلى الهدف المنشود بلا تعب ولا عناء.
والحق أيضاً أن درجات الدبلوم ليست وثيقة أبدية لكفاية المدرس، فقد يخمد نشاطه بعد ذلك، وقد يبذه من سبقهم في الترتيب.
وإذن فلا بد من مقياس جديد، وهو مقياس (المسابقة) لاختيار المدرسين للمدارس الثانوية، وذلك نظام لا يثور عليه غير الزاهدين في الدرس والتحصيل، أو الخائفين من الخيبة والإخفاق
وقد أجريت المسابقة بين المدرسين في الأعوام الأخيرة فكانت فرصة لمراجعة نحوية وصرفية وبلاغية وأدبية غفل عنها أكثر مدرسي اللغة العربية، وكذلك يقال في سائر المواد، فتلك المسابقة هي في الواقع فتح جديد، وإن قيل فيها ما قيل.

فإن لم يكن بد من النص على بعض المؤاخذات فأنا أقول إن الترفق بالمتسابقين ظاهر ظهوراً جلياً، وكنت أحب أن يكون ذلك الاختبار أقوى مما رأيناه، ليكون شهادة بالقدرة على
التعمق والاستقصاء، ولتكون له جميع خصائص ال بحيث يمكن للسابقين أن يصبحوا ولهم منازل أدبية وعلمية تستوجب الالتفات.
والخطأ يرجع إلى الأساس الذي يبنى عليه تكوين اللجان، فتلك اللجان تختار في الأغلب من رجال مشغولين، وهم الرجال الذين تختارهم وزارة المعارف لجميع اللجان، كأنهم من (أهل الخطوة) وكأنهم يقدرون على كل شيء، فهم أعضاء في كل لجنة، وهم شهود في كل اجتماع، وهم زينة جميع الحفلات!!!
واختيار اللجان على هذا الأساس يضيع المقصود من المسابقة بعض التضييع، فالأصل أن يكون عند الممتحن من الوقت ما يسمح بأن يراجع مواد الامتحان بعناية وتدقيق، ليدرك الفروق الخفية بين مواهب الممتحنين، وليشعر المتسابقين بقيمة التعمق والاستقصاء، وذلك لا يتيسر لرجل مشغول، وأعضاء اللجان عندنا رجال مشاغل بحرفة الاشتراك في اللجان، وهي حرفة لم نجد لها أثراً فيما قرأنا من كتب التاريخ! جعل الله كلامي خفيفاً على جميع أعضاء اللجان!
أما بعد، فقد ثار على هذا النظام (ستة نفر) من المدرسين بالمدارس الابتدائية؛ وهم الأساتذة: محمد أبو الفضل إبراهيم، وعبد السلام محمد هارون، وعلي محمد البجاوي، وإبراهيم الأبياري، ومحمد سعيد العريان، وعبد الحفيظ شلبي. وهم يرجعون أن يرقوا إلى المدارس الثانوية بدون امتحان
ولكن كيف وهو نظام لا يثور عليه رجل حصيف؟؟
هم يجيبون بان لهم جهوداً في (التأليف والتحقيق الأدبي) وتلك الجهود لا تقل قيمة عن الجهود التي تبذل في الاستعداد لذلك الامتحان!
وأقول إن هذا حق، فلهؤلاء المدرسين جهود محمودة في التأليف والتحقيق، وفيهم من وصل إلى الابتكار في بعض الفنون.
ولكن وزارة المعارف لا يعجزها أن تجيب، فهي تقول إن هذا الباب إن فتح فسيتيح فرصاً كثيرة لأدعياء التأليف والتحقيق. وهي تقول أيضاً إن المؤلف أو المحقق لا يجوز له النكول عن مثل ذلك الامتحان.
وأنا أرى ما ترى وزار المعارف في هذا الموضوع؛ ولكن الحجة التي ساقها هؤلاء (النفر)
وهو التعبير الذي اختاروه في المذكرة التي قدموها إلى وزير المعارف - الحجة التي ساقوها تبعث على التفكير في حظهم من الأنصاف
يقول هؤلاء: (أن مدرسي اللغة العربية الذين يبلغون 1200 ليس فيهم إلا ستة نفر استعلنوا بجهودهم بين هذا الجمع الجامع) إلى آخر الاحتجاج
في مصر 1200 مدرس لم يلتفت منهم إلى التأليف والتحقيق غير هؤلاء؟؟
أهذا حق؟ أم هو وهم اعتصم به أولئك المدرسون؟
إن كان حقاً فيجب أن يرقوا في الحال، وإن كان باطلا فيجب أن يحالوا إلى (مجلس تأديب)، لا نهم أهانوا طائفة المدرسين!
وعلى فرض إنهم لم يقولوا غير الحق فلن تعجز وزارة المعارف من الجواب؛ فستقول - وقد قالت - إن المسابقة يراد بها اختيار المدرسين الأكفاء لا المؤلفين الأكفاء، وهنالك فروق بين التدريس والتأليف
وهذا أيضاً حق، ولكن هؤلاء المدرسون رضا عنهم المفتشون في أمد يزيد على عشر سنين؛ فماذا تريد الوزارة اكثر من ذلك لتطمئن إلى صلاحياتهم للتدريس؟
إلى وزير المعارف
وزيرنا اليوم هو معالي الدكتور محمد حسين باشا، وهو رجل منوع المواهب، ولكن التاريخ لن يحفظ له غير موهبة واحدة هي موهبة التأليف والتحقيق، لأنها اظهر مواهبه العقلية، فما الذي يمنع من أن يتلطف فينظر إلى هؤلاء المدرسين بعين العطف وقد شاطروه اقتداء العيون تحت أضواء المصابيح؟
إن لم ينصفهم الوزير المؤلف فمن ينصفهم؟
وإن كان في ريب من قدرتهم على إجادة التأليف فليراجع مؤلفاتهم (في أوقات

فراغه) ليحكم لهم أو عليهم بما يشاء!
ردوا هؤلاء إلى المدارس الأولية
ومن هؤلاء؟ هم جماعة من المدرسين في المدارس الابتدائية لا يحسنون كتابة مذكرة إلى وزير المعارف وإن كان فيهم أفراد من أهل التأليف والتحقيق
وأعيذ القارئ أن يفهم إني أغض من أقدار معلمي المدارس الأولية؛ فأنا أشير دائماً أن يكون (كبار الأساتذة أوصياء على صغار التلاميذ) فالطفل يحتاج إلى مدرس عنيد، أما التلميذ أو الطالب فحاجته قليلة إلى المدرس الممتاز، لأنه يطلع بنفسه على دقائق العلوم والفنون
فمن هؤلاء الذين أشير يرجعهم إلى المدارس الأولية عقابا لهم على التقصير في الإنشاء؟
هم (النفر) الذين يرجون أن يرقوا إلى المدارس الثانوية بدون امتحان، بفضل ما قدموا في خدمة التأليف والتحقيق؟
وسأهجم على هؤلاء النفر، مع الرجاء أن يراعي وزير المعارف إن هذا الهجوم لا يراد به الغض من منازلهم الأدبية، فهم حقاً وصدقاً من أفاضل المدرسين وإنما جاءت العلة من اشتراك جماعة في كتابة مذكرة معدودة الأسطر والكلمات ولو أنشأها كاتب واحد لجاءت غاية في الوضوح والجلاء
وإليهم أسوق المؤاخذات الآتية
أولا - قال إن ماضيهم في التدريس والتأليف قضى بأن (لا تتهيأ لهم العوامل النفسية التي تسمح بأن يقبلوا على امتحان الترقية)
ومعنى ذلك إنهم صاروا في أنفسهم أعظم من لجان الامتحان مع إن الأخبار ترد من وقت إلى وقت بأن في أوربا وأمريكا من يتقدمون إلى المسابقات بعد الخمسين، ولهم في ميدان المجد الأدبي والعلمي مكان
ثانيا - قالوا (إن المعلم بعد أن ينضج وتكتمل شخصيته العلمية لا يتأتى له أن يعود تلميذاً يستوعب ويفرغ ما يستوعبه)
وأقول إن التلميذ الحق هو المدرس الحق، والاستكبار على التلمذة ضرب من الجهل
ثالثا - قالوا (إن الذي يحسن أن يقول لا يستحسن كما يقال)
وأجيب بأن امتحان الترقية يطالبهم بالنقد لا بالاستحسان
رابعا - قالوا (إن الذي له عقل الناقد غير الذي له عقل السامع)
وأقول إن السمع نوع من النقد، لو كانوا يعقلون!
خامساً - قالوا: (كلما أرتفع الإنسان منزلة في الرأي نزل مرتبة في الاستعداد للتعلم من
غيره)
وأجيب بأن هذا هو زهو بغيض، ولو أنصفوا لحكموا بأن الارتفاع في الرأي يزيد في الاستعداد للفهم والاستيعاب
أما بعد فمذكرة هؤلاء النفر لن تنفعهم بشيء لأنها أقيمت على حجج ظاهرة البطلان
ولكن هذه المذكرة لا تصور أقدار هؤلاء المدرسين، وأنا أنتظر أن يتلطف وزير المعارف فينظر إليهم بعين العدل والأنصاف وهو أقدر الرجال على وزن أهل التأليف والتحقيق
إن غلطة واحدة يكشفها باحث في كتاب قديم أو حديث تستوجب الالتفات، فما سكوتنا عمن جماعة كشفوا العشرات أو المئات من الغلطات؟
يضاف إلى ذلك أن الاهتمام بالتأليف والتحقيق يشهد لاصحابه بالقيمة الأخلاقية، فأولئك المؤلفون والمحققون أنفقوا أوقات فراغهم فيما ينفع ويفيد، ولم ينفقوها في (لعب الأوراق) كما يصنع الفارغون من أكثر الموظفين!
أنصف هؤلاء، يا معالي الوزير، ليعرف جمهور المدرسين أن الدرس والبحث والتنقيب من الأعمال التي لا تضيع
هؤلاء جنود العلم والأدب، يا معالي الوزير وهم صوت مصر الصداح، وإليهم وإلى أمثالهم يرجع الفضل في رفع صوت مصر بأقطار الشرق
وما عسى أن تكون مصر في العهد الحديث لو حرمت أصوات الشعراء والكتاب والمؤلفين؟

أولئك هم المضحون بأنفسهم في سبيل المجد المصري، فمن الواجب أن نعفيهم من حضور الامتحان، أمام فلان وفلان، وأنت تعرف ما أريد!؟

أربعة قرون من تاريخ العراق

كتاب ظهر بالإنجليزية سنة 1925 وهو من تأليف المستر لونكريك المفتش الإداري بالحكومة العراقية سابقاً، ونقله إلى العربية الأستاذ جعفر خياط مدير التعليم الثانوي بوزارة المعارف العراقية

وترجع أهمية هذا الكتاب إلى انه تحدث عن عصور لم يتحدث عنها أحد بالتفصيل، فقد بحث عن تاريخ العراق ف العصور المظلمة من بداية القرن السادس عشر إلى نهاية القرن

التاسع عشر

وكانت النية أن أنظر فيه نظرة عابرة لأكتب عنه كلمة تقوم مقام التحية لصديق كريم من أعز أصدقائي في العراق، وهو الأستاذ جعفر خياط وليس من الإسراف أن تذكر صديقاً بالخير لأنه ترجم كتاباً بلغ أربعمائة صفحة بالقطع المتوسط، وإن لم نطل النظر في ذلك الكتاب

وبدأت بقراءة الفصل الأخير لأهميته عندي، وهو الفصل الذي يسجل أعمال مدحت باشا في العراق، فقد كنت سمعت أنه أعظم حاكم عرفته تلك البلاد بعد الحجاج، ثم استهواني أسلوب المؤلف في التاريخ فمضيت صعداً إلى أن وصلت إلى المقدمة، وكان آخر ما قرأت كلمة المترجم، وتم ذلك كله في يومين اثنين، بفضل مهارة المؤلف في إحياء معالم التاريخ

دلني هذا الكتاب على الكثير من الحقائق، ومنه عرفت كيف كانت دول أوربا تغازل العراق في القرن التاسع عشر، وكيف كانت التجارة وسيلة لإيقاع بلاد الرافدين في الإشراك

والمؤلف لم يرد بكتابه غير هداية قومه إلى خصائص الحياة العراقية، وهو قد صرح بأنه يتحدث (عن تاريخ بلاد يتعلق ماضيها الأخير بحياة الألوف من أبناء بلاده ومصايرهم) ولم يفته أن ينص على أن تلك المصاير تثير الجدل بين مواطنيه وهم ينظرون إلى المستقبل بعناية والتفات

وكذلك يرى علماء الإنجليز أن التاريخ أداة من أدوات النفع، وهل يدرس التاريخ لغرض أنفع من هذا الغرض؟

إن الهدف الأول لهذا المؤلف هو إرشاد قومه إلى خفايا العصور التي كونت العراق الحديث، وقد وصل إلى ما أراد، وإن كان اهتمامه بتسجيل ما صنع أسلافه لم يخل من تحيز مستور أو مكشوف، والنزاهة المثالية لا تتاح لجميع الناس

ولا بد من النص على أن هذا الكتاب من نماذج البراعة في سرد حوادث التاريخ، وهو يربط العراق بالأمم التي تأثر بها من قرب أو من بعد في مدى أربعة قرون، حتى لنكاد نشهد سيال المنافع بين تركيا وإيران، ول شئت لقلت إنه يشير من طرف خفي إلى تأثير مصر في بعض وقائع التاريخ، وتلك نقطة لم يلتفت إليها مؤرخو مصر في العصر الحديث

وإذا كان المؤلف قد أراد هداية قومه إلى خصائص الحياة العراقية، فقد أراد المترجم أن يدل قومه على تلك الخصائص بنقل هذا الكتاب إلى العربية، وهم قوم شغلتهم متاعب الكفاح من تأريخ العراق في عصور الظلمات

وفي مقدمة المترجم إشارة إلى جهود الدكتور مصطفى جواد في المراجعة وبعض التعليقات، وهي إشارة ذكرتنا بأديب فاضل قضى وقتاً في طلب العلم بالجامعة المصرية، وترك في أنفس عارفيه صورة محفوفة بالود والإعجاب.

افتحوا الشبابيك وانظروا الليل

الشبابيك جمع شباك، وهي كلمة فصيحة تؤدي معنى لا تؤديه كلمة النوافذ؛ كما تؤدي كلمة الدكاكين معنى لا تؤديه كلمة الحوانيت

والليل صديقي في هذا العهد، ولا أقضيه في غير داري، لان صدري ينقبض من السهر في القاهرة منذ عرفت المصابيح الزرق؛ وكانت لياليها أشد إشراقاً من الصباح وفي هذه الليالي البيض أو السود، عرفت قيمة الخلوة إلى قلبي؛ كما عرفت قيمة الليل، وكما عرفت أن القلم هو الصديق الباقي على الزمان

إذا عوت صفارة الإنذار كان من واجبك أن تطفئ النور وتفتح الشبابيك؛ كما توصي (وزارة الوقاية المدنية)، وقد اكتفت بذلك فلم تأمرك بالنظر إلى الليل، ولعلها تخاف عليك ففي صدورنا بقية من الخوف الموروث عن أسلافنا القدماء، يوم كانوا يعيشون في الغابات والأدغال، وحين كان الليل مسرح المهالك والحتوف

ولكن، هل تعرف لم أوصيك بنظر الليل حين تطفئ المصباح؟

أوصيك بنظر الليل لتشغل به عن النظر في قلبك، إن كان لك قلب!

وهل في الوجود معاطب أخطر وأعنف من المعاطب المبثوثة في ثنيات القلوب؟ الوقوع في مهاوي سقر أهون عليّ من الوقوع في مهاوي قلبي، ففيه مخاوف ومهالك لا أستطيع اجتيازها بأمان، ولو زودتني المقادير بما زودت به أهل الغفلة والجمود، وما أسعد الغافلين والجامدين من أبناء هذا الزمان!

احترس من قلبك كل الاحتراس، وتغافل في كل وقت عن مطامحه العاتية، فهو لا يقنع بالقليل، ولا يرضيه إلا أن تسيطر على جميع من في الوجود، وأين أنت مما يريد؟

احترس من قلبك، إلا أن تعرف كيف تسايره في أودية الأماني والآمال، وشعاب الشعر والخيال

احترس من قلبك، كما أحترس من قلبي، فما سايرته إلا في ميدانين اثنين: ميدان الحب وميدان المجد، ثم كان نصيبي أن أقضي حياتي في عناء وشقاء

القلب، وما أدراك ما القلب؟ هو جارحة روحانية تدرك بها ما لا تدرك بالجوارح الطبيعية، وهو سبب ضلالك وسر هداك، فنزهه من النظر إليه في كل وقت، لينتفع بغفلتك عنه فينبغي ويستطيل، كما يصنع السفهاء عند غفلة الرقيب!

لا بد لك من قلب فتاك صوال، ليكون من حظك أن تشهد قيام الموازين، فقد سمعت أن الخلائق لن تبعث جميعا، وإنما يبعث من لهم تاريخ في إزاغة البصائر أو هداية القلوب. . .

زكي مبارك

كليلة ودمنة

نقد وتعليق

للأستاذ عبد السلام محمد هارون

(تتمة)

(أرادوا إدخال النقص عليك في ملكك) 195 :15 - 29

كلمة (النقص) ركيكة في هذا المعرض لا يقولها مثل ابن المقفع. وإنما هي (النقض) بالضاد المعجمة. والنقض الإفساد وحل العقد. وهي سائرة في لغة الجاحظ وأضرابه من أمراء البيان العربي

(وكانت شارته إليها أن غمزها بعينه) 199 :5 - 30.

الشارة: الحسن والهيئة واللباس. وليست مرادة. بل هي (إشارته). وقبل هذا (وأشار عليها بأخذها فأخذتها)

(فأضاء كل ما حولها فاشتاف إليها، وقال لإيراخت) 199 :15 - 31

فاعل (أضاء) هو (كل). وأما فاعل (اشتاف) فهو الملك، فالجملتان محتاجتان إلى فاصل بينهما، واشتاف بالفاء، إذا تطاول ونظر. واشتاف البرق أي شامه. ومنه قول العجاج:

(واشتافَ من نحو سهيل بَرْقا)

(فأنها امرأة عاقلة لبيبة، حريصة على الخير، سعيدة من الملكات، ليس) 9 :200 - 32

وكيف تكون (سعيدة) مع أن الملك أمر بقتلها وأوشك أن ينفذ (لها في النساء عديل أمره؟ ثم هو في معرض التنويه بخصالها. وليست السعادة خصلة أو خلقاً من الأخلاق. والوجه (سديدة (الرأي) من الملكات (التي) ليس لها في النساء عديل)

(الذي يصنع الطعام وينظفه لسيده ثم يقدمه إليه في إبانه) 12، 208 :11 - 33

ليست كذلك، وإنما هي (وينضجه لسيده) تصحفت على الناسخ فشوهها بما رأيت

والجرئ الجاهل المقدم على ما ليس له وإن أتلف نفسه ونفس غيره) 210 :5 - 34

صوابه (ونجحه). والنجح بالضم النجاح وإدراك البغية (في طلب حاجته وشحه

هي لغة في (آخذته) بالهمز. قال صاحب القاموس (إن أنا وأخذته) 223 :13 - 35

وفي اللسان (والعامة تقول وأخذه) والحق أن (وآخذه بذنبه مؤاخذة. ولا تقل وأخذه). الكلمة عربية، وأنها لغة لبعض العرب. وفي المصباح: وتبدل واواً في لغة اليمن فيقال

وأخذه مواخدة. وقرأ بعض السبعة (لا يواخذكم الله) بالواو، على هذه اللغة. والأمر منه (واخِذْ
وقال العرب في مثل ذلك (واخيته) لغة في (آخيته) و (واسيته مواساة) لغة في (آسيته مؤاساة)، و (واكلته) لغة في (آكلته)، (وامرته) لغة في (آمرته)
والهمز في كل ذلك أكثر وأجود
36 - 15: 224 (الحيوانات) جمع حيوان. زعم بعضهم أن العرب لم تنطق بها. ومجيئها
هنا شاهد على صحتها وعلى استعمالها. وقد استعملها (الجاحظ) في كتاب الحيون (س 1 265: 3) قال: (والنسيم الذي يحيي جميع الحيوانات) وكذا الثعالبي في فقه اللغة ص24 طبع الحلبي، قال (فصل في طبقات الناس وذكر سائر الحيوانات). وكذا البغدادي في طبقات (الفرق بين الفرق) المتوفى 429 قال في ص118: (وأصناف الحيوانات) وقال في الصفحة، نفسها (ولا نوعاً من الحيوان) فأجاز بذلك الاستعمالين. واستعمله أصحاب (رسائل إخوان الصفاء) في الجزء الثاني من طبعة التجارية، استعمالاً كثيراً، يدل على ذيع هذه الكلمة وإقرار العلماء لها
37 - 234: 9: (وقع موقع من يركب ناب الفيل المغتلم ثم يغلبه النعاس) .(وقع موقع من يركب ناب الفيل المغتلم ثم يغلبه النعاس) كثر ما ورد اسم (الفيل) في هذا الكتاب وذاك راجع بالطبع إلى الجو الهندي الذي يشيع فيه. وتجده أيضاً مقروناً بكلمة (المغتلم)، كما ورد في 47 س11، 71 س13، 79 س1، 255: س5، فهو مضرب المثل عندهم بالقوة وشدة اليأس. قال الجاحظ في ذلك (وإذا اغتلم الفيل قتل الفيلة والفيالين، وكل من لقيه من سائر الناس ولم يقم له شيء، حتى لا يكون لسواه هم إلا الهرب وإلا الاحتيال لأنفسهم ثم ذكر قصة كان .(يتداولها الفرس عن مصارعة كسرى لفيل مغتلم تمكن من ضربه والفتك به.
38 - 3: 250: (فلما رأوا الأسد قد احتشد في طلب اللحم وغضب) :(فلما رأوا الأسد قد احتشد في طلب اللحم وغضب) أرى أنها (احتد)
والحدة تقارن الغضب
39 - 4: 247: (فما الذي يشبه كفك عن الدماء وتركك اللحم) ؛ وكلمة (يشبه) مقحمة،(فما الذي يشبه كفك عن الدماء وتركك اللحم) لعلها زيادة من المملي للناسخ حين تردده في الكلمة بعدها؛ وصواب العبارة: (فما الذي كَفَّك
(عن الدماء وأكلِكَ اللحم
490 - 4: 256: (واللهج بالزنا) :(واللهج بالزنا) لا تجوز كتابتها بالألف إلا لمن نظر إلى أنها مقصورة من الممدودة (الزناء) وهي لغة بني تميم، ولغة أهل الحجاز القصر؛ ومن ذهب إلى قصرها لم يكتبها إلا بالياء، لأنها يائية الأصل.
41 - 11: 271: (وعلمنا أنك كنت لما ساق الله إليك من ذلك أهلاً، بفضل قسمه لك، فعلى أي فعل عطف الفعل (وتابع)؟ .(وتابع نعمه عليك!
إن عطف على (قسمه) استرك المعنى وعاد الضمير في (نعمه) إلى (فضل) أي نعم الفضل، وليس ذلك شيئاً؛ والوجه: (بفضل (ما) (قسمه). . . الخ. أو (بفضل قسمه لك، ونعمة تابع عليك) - أي تابعها - أو (بفضل قسمه لك، وسابغ نعمه عليك)
42 - 2: 52: (كالشعلة من النار التي يصونها صاحبها وتأبى إلا ضياء وارتفاعاً) .(كالشعلة من النار التي يصونها صاحبها وتأبى إلا ضياء وارتفاعاً) سبق الحديث عن هذه الفقرة في رقم (5)، وكنت على شك من صحة كلمة (يصونها)، إلى أن ظهر لي وجهها فيما قرأت من عيون الأخبار: (ذو الهمة إن حط، فنفسه تأبى إلا علواً، كالشعلة من النار (يصوبها) صاحبها وتأبى إلا ارتفاعاً)؛ والتصويب: الخفض والتنكيس؛ وفي التهذيب: (صوبت الإناء ورأس الخشبة تصويباً إذا خفضته). فصاحب النار يخفض رأس الخشبة المشتعلة، فلا يمنع ذلك النار أن ترتفع وتأخذ طريقها في العلو
43 - 13: 276 (ولم تجدي من الأسف والحزن على شبليك شيئاً إلا وقد كان من كنت وليس يقال حزن فلان حزناً أفضل .(تفعلين بأحبابه ما تفعلين يجد مثله أو أفضل منه من حزن فلان، أو أسف أسفاً أفضل من أسفه، والوجه (أمثل) كما ورد في أصل النسخة. و (أمثل) هنا تفضيل من مثل بالرجل يمثل مَثْلا ومُثْلة: نكل به. فالمعنى أشد تنكيلاً منه
44 - 279: 4 (ويبقى حيران متلدداً) .(ويبقى حيران متلدداً) وعند ابن 1. 1 (متردداً) وفي نسخة بولاق
267 الهبارية:
عاد إلى طِلاب ما قد تركا ... فضلَّ عنه وبقى مرتبكا

والمتلدد والمتردد بمعنى، وهو من أسرار العربية: أن يختلف اللفظان في حرفين متقاربي المخرج فإذا المعنى واحد أو كالواحد. وفي اللسان (تلدد: تلتفت يميناً وشمالاً وتحير متبلداً). وجاءت هذه الكلمة بالراء في 280: 12 (فبقى حيران متردداً)

في التعليقات - 4

1 - أورد الأستاذ في شواهده على أثر الأسلوب الفارسي في هذه النسخة ما جاء في صفحة270 (فسأله رجل فقال) وقال في المقدمة 26 (تشبه هذه الجملة التعبير الفارسي): (برسيده كفت) وفي التعليقات 300 (هذه الجملة تذكر بالتعبير الفارسي (برسيده كفت)

وليس للأسلوب الفارسي أي أثر في هذه العبارة، بل هي عربية خالصة جرى عليها العرب في الغابر، واستفاضت في كلامهم

وبين يدي أحد الصحاح الستة، وهو صحيح أبي عبد الله البخارى. ففي 2: 1س6 (أن الحارث بن هشام رضى الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي). وفي 162: 1س3 (أن زيد بن خالد الجهني أخبره أنه سأل عثمان بن عفان فقال: أرأيت) وفي161: 2س3 (سألت أنس بن مالك رضى الله عنه قلت أخبرني بشيء عقلته عن النبي صلى الله عليه وسلم) وفي 41: 3س (عن عمران بن حصين رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سأله - أو سأل رجلاً، وعمران يسمع - فقال: يا أبا فلان). وغير ذلك كثير.

2 - 287 تعليقا على ما ورد في الأصل ص16 (آدرهرير) قال الأستاذ: (نظنها محرفة عن آزر هربد، أي سادن النار)، ولست أدري: لم عدل عن لفظ (آدر) بالدال إلى (آذر) بالذال المعجمة مع انهما بالفارسية في معنى واحد، وهو النار؟!

3 - وفي الصفحة نفسها تعليقاً على ما ورد في ص21 س4 (ما أتذمم منك) أن (ذلك) وضع موضع الضمير والمعنى ما أتذمم له. قال الأستاذ (وضع الإشارة موضع الضمير هنا يشبه التعبير الفارسي) وقال نحو هذا القول في تعليقه في المقدمة ص26 على قول ابن المقفع (تجرى أمورهم فنونا يغلب على أكثر ذلك الخطأ) حين استشهد على أثر اللغة الفارسية في ترجمة ابن المقفع

والحق أن هذا أثر من آثار اللغة العربية لا الفارسية؛ فإن العرب يضعون الإشارة موضع الضمير في كثير من عباراتهم. ويطرد ذلك في ربط الجمل الخبرية، والأصل في ذلك الضمير. وفي الكتاب (والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار) أي هم. وفيه (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) أي كله

4 - 288 تعليقا على ما ورد في الأصل ص30 (أكن كالمصدق المخدوع الذي زعموا أن جماعة من اللصوص) أن كلمة الذي هنا تشبه أن تكون ترجمة الكلمة الفارسية (كِهْ) وهي تكون بمعنى الذي، وتأتي للتعليل والتفريع. أي أن ابن المقفع ترجم كلمة (كه) بكلمة (الذي) مع أنها هنا للتعليل والتفريع، أي بمعنى (فقدته) فلا تحتاج إلى ضمير عائد، على حين أن كلمة (الذي) في استعمالها العربي تحتاج إلى عائد

وهذه شبهة طيبة، واستنتاج حسن. ولكن الضمير العائد إلى الموصول يحذف كثيراً. وجاء حذف العائد حين يتصل بحرف الجر في قول الله تعالى: (ذلك الذي يبشر الله عباده) أي به. وفي قوله (فاصدع بما تؤمر) في أحد وجهي تخريجه وقول حاتم الطائي:

ومِنْ حسدٍ يجورُ عليّ قومي ... وأيُّ الدهر ذو لم يحسدوني

أي فيه، وذو موصول عند طيء. وقال الجاحظ (فالحمد لله الذي كان هذا مقدار عقولهم) أي كان هذا منه. فهذا الحذف في كلامهم جائز وإن كان قليلاً جداً. وهو أولى في التخريج مما ذهب إليه الأستاذ من تأثير اللغة الفارسية. وابن المقفع أيقظ من أن يؤثر في بيانه العربي هجنة فارسية، أو يلتاث في ترجمته هذه اللوثة

5 - 295 تعليقاً على ما ورد في 174 من قوله (وأكيس الأقوام من لم يكن يلتمس الأمر بالقتال ما وجد إلى غير القتال سبيلاً): (هممنا أن نحذف (يكن) من هذه الجملة ثم رأينا أنها تشبه أن تكون من أثر الترجمة الفارسية؛ فإن استعمال الفعل يكون، مألوف في مثل هذا التركيب بالفارسية)

هذا نص ما ورد في التعليق. والحق أن التعبير عربي خالص، ولم تشبه شائبة فارسية ولم تقربه، وأن (يكن) هنا قد جردت من معنى المضى، وألزمت معنى الثبوت واتصال

الزمان من غير انقطاع. وفي كتاب الله من غير ذلك كثير. (وكان الله شاكراً عليما)، (وكان الله سميعاً عليما)، (فإن الله كان عفواً قديرا)، (وكان الله غفوراً رحيما)، (وكان الله عزيزاً حكيما) ومنه قول المتلمس:

وكنا إذا الجبار صَعَّرَّ خده ... أقمنا له من صعْره فتقوّما

وقول الفرزدق:

وكنا إذا القيسى نبّ عَقودُه ... ضرمناه فوق الأنثيين على الكردِ

وقول قيس بن الحظيم:

وكنت امرأ لا أسمع الدهر سُبَّةً ... أسبُّ بها إلا كشفت غطاءها

فليس في الكلام هجنة فارسية كما رأيت

هذه نظرات في بعض مواضع من هذا الكتاب الجليل. ولم أشأ أن أطنب في سرد محاسن النشر وجودة العرض؛ فذلك أمر يبادر الناظر في هذه النسخة ويبدهه في أول ما ينظر

وليس يفوتني في هذه الفرصة أن أكرر تهنئتي للأستاذ الكبير (عبد الوهاب عزام) بهذا العمل العظيم الخالد على الزمان، وأن أزجي مثلها إلى الأخ المحترم (الأستاذ شفيق متري) صاحب مطبعة المعارف، بما أنفق من جهد ومال، في الاحتفال الناجح بمرور خمسين عاما على جهاد مثمر، بدأه والده وسهر هو على إتمامه وعايته.

عبد السلام محمد هارون

المجرم رجل مريض

للأستاذ حسين الظريفي

كان سيزار لمبروزو أول من تناول المجرم بالبحث العلمي وطلع على العالم بنتائج طريفة كان أخطر ما فيها إثبات العلائم الدالة على الأجرام. وقد لبثت نظريته في المجرم والجريمة ردحاً من الزمن وهي ذات سيادة تكاد تكون كاملة في عالم الجنائيات. إلا أنها أخذت بعد حين بكثير من النقد والتجريح، ثم توسع فيها الناقدون وأضافوا إلى أصلها كثيراً من الحواشي التي لم يقل بها صاحب النظرية، حتى يكاد يعد لمبروزو خارجا على ما ينسب إليه، أو أنه ليس من المدرسة المعروفة باسمه

وفي الواقع ان لمبروزو لم يصب كبد الحقيقة، إلا أنه لم يزغ عنها تمام الزيوغ؛ فالنظرية ليست كلها على خطأ أنها ليست كلها على صواب؛ وأحسن ما يمكن أن يقال فيها إنها صورت نصف الحقيقة، ولم يعن جمهور العلماء بنقضها ودحضها إلا لأنها ظهرت في غير ظرفها الملائم وقبل الزمن المهيأ لأخذها بالقبول

وتتضح خطوط هذا التحليل في تفصيل النظرية الحديثة على بواعث الأجرام. تلك النظرية التي تنطوي على بعث الجريمة من وراء الخلل في الغدد الصماء

وهذه الغدد غير منقاة، وهي تلتقي عصارتها في الدم مباشرة من دون وسيط فتنتقل على متنه إلى كافة أجهزة الجسم وتفعل فيه الأفاعيل من هدم وبناء وتنويم وأيقاظ على رغم مقاديرها الضئيلة، وهي في مجموعها تؤلف وحدة حيوية مترابطة الأجزاء تفعل وتتفاعل بمقدار وعلى نمط خاص

وكان من العلماء الذين وقفوا سنوات طويلة من حياتهم على البحث في الغدد الصماء (الدكتور رالف رينولدز) بسان فرنسيسكو وزميله الدكتور (ستانلي) طبيب سجن كانتين. وقد قام هذان الدكتوران بكثير من العمليات لإزالة اضطرابات الغدد وتنظيم سيرها في السجناء من الجناة فكان ما قاما به عظيم الأثر في تحسين أحوالهم الطبيعية والعقلية؛ وتغيرت طباعهم وأخلاقهم وحتى إشكالهم الظاهرة. وقد وجد الدكتور (رالف) أثناء اختباراته المتواصلة أن نسبة مئوية كبيرة من أبناء السجون مصابة بحالة غير عادية في الغدد الصماء، وشاهد أن من يرتكبون جناية القتل وما يماثلها من الجروح يكونون مصابين

باضطرابات في الغدد الدرقية الموجودة في أصل العنق، وأن المزورين والمحتالين والسراق يختلفون من غيرهم بغددهم النخامية، وأن من ينغمسون في الجرائم الشهوانية والنقائص الجنسية، وإذا كانت هيئة أعضائهم في الذكورة والأنوثة شبيهة بسواها فلأن منبع الاختلاف مستقر في الداخل.

على أن الغدد المضطربة يكثر أن تترك آثار اضطراباتها ظاهرة في أجزاء البدن الظاهر، تلكم الآثار التي أوحت إلى لمبروزو نظريته فأصاب وأخطأ في آن واحد.

والذي يظهر من هذه الكشوف العلمية أن الجريمة ظاهرة مادية لعلة فسيولوجية تقوم في جانحة المجرم، أو أنها ليست إلا مظهراً لزيادة أو نقص تلك العصارات الذرية التي تفرزها الغدد الصماء في الدم، فتختلق في الإنسان ما تشاء من عواطف وشذوذ.
وبالقياس إلى هذه النظرية يصبح العقاب غير مجد في معالجة الأجرام وفيه جناية اجتماعية على الجاني. والطريق الوحيدة لإزالة الجريمة هي معالجة ما يعانيه الجناة من الاضطرابات في غددهم الصماء.
قد يقال: إن من الجناة من لا يعود إلى ما جنى إذا نزل به العقاب، وإن منهم من يقلع عن ارتكاب الجرائم متى تقدمت به السن. وعندي أن الرد على هذا النقد منطو في أن من الجناة من يندفع إلى الجريمة بقوة ظرفه الخاص؛ فمثل هذا الجاني لا يمكن أن يعد في عداد أولئك الذين تتحرك في نفوسهم عوامل الأجرام من وراء الخلل في الغدد الصماء. كذلك يمكن أن يقال: أن الغدد قد تعود إلى التوازن بعد الإفراط في الإفراز متى ضمرت ببلوغ الشيخوخة.
ونحن وإن كنا نرى استحالة تطبيق هذه النظرية في أكثر البلاد وتعسر تطبيقها في البلدان الأخرى، فإن البحث العلمي يجب ألا ينقطع بقيام التعذر والاستحالة في التطبيق، وأنه لا مناص من اعتباره باعثا عليه.
على أن من الجرائم ما قد يكون منبعثاً عن سوء التربية في دور الطفولة. فقد ثبت في دائرة العلوم النفسية والتربوية أن لسنوات الطفولة من التأثير الخطير في نفس وأخلاق الطفل ما يبقى رازحاً تحت أعبائه طول حياته.
وليس عجيباً أن نحلل بعض مظاهر الأجرام، فنجدها عائدة إلى ما كان من سوء التربية في
مراحل الطفولة، فإن الوليد لا بد أن يأخذ عن وسطه المحدود كثيراً مما ندعوه بالعقد النفسية، تلك التي تتسرب إلى سريرة الطفل كأمراض داخلية تظهر عادة في أخلاقه وأعماله وفي طريقة تفكيره، وقد تندفع به إلى نوع خاص من الأجرام، وذلك أن سلسلة التفكير تصطدم بالعقد النفسية فيقف دون نموه الطبيعي ويضطر إلى اتخاذ طريق آخر معوج في النمو يوحي به ما ترسب في قاع النفس من عهد الطفولة.
فالعقدة ليست إلا الشرك الذي تقع فيه حياتنا العقلية، وقد توحي بارتكاب الجريمة، وأي من وراء قناع من العقل الباطني تتوارى فيه الأبصار.
إن هذه العقد النفسية مهما كانت راسية في قرارة النفس، ولا تكاد تظهر إلا في ثوب مستعار تخفى فيه حقيقتها عن الأنظار فإن في الإمكان أن تصل إليها يد البحث العلمي بطريقة التحليل النفسي، حيث يهتدي بهذا الطريقة إلى العقد النفسية التي اعترضت حياتنا العقلية، وعاقتها عن السير في طريق تكاملها الطبيعي؛ ثم أخذت تظهر من حين لآخر في ضروب أخلاقنا وأفكارنا وأعمالنا، وكانت مصدر شذوذ في كثير من أولئك. وقد ظهر لدى البحث العلمي أن المرض يزول بالوقوف على العقدة التي فرضته وبهذه الطريقة يمكن إرجاع المصابين في حياتهم العقلية إلى حالتهم الطبيعية بعد أن تكون قد انحلت العقدة، وقضى على أصل المرض.
وظاهر مما سبق أن الجريمة قد تكون منبعثة عن تلك الرسائل الكهربائية التي تطلقها الغدد الصماء على متون الدماء فتتصل عن طريقها إلى أجهزة البدن كافة. وقد تكون وليدة العقد النفسية التي تصيب الحياة العقلية؛ وتورث من الأمراض ما قد تظهر آثارها في صورة ارتكاب بعض الجرائم.
فالمجرم لم يعد بعد كما كان من قبل مثال الرجولة والبطولة، والسجن لا يقوم على الرجال، وإنما يقوم على أشباه الرجال ممن أصيبوا في غددهم أو في نفوسهم، وكانوا أجدر بالمعالجة الطبية أو النفسية من الزج بهم في أعماق السجون
(بغداد)
حسين الظريفي المحامي
شخصيات تاريخية:
ثيموستوكل
للأستاذ محمد الشحات أيوب
كانت بلاد اليونان في أوائل القرن الخامس قبل الميلاد، محاطة بدول فتية ناهضة كدولة الفرس في الشرق التي قضت على الإمبراطوريات الكبرى القديمة في مصر

وكلدونيا وسوريا وليديا، وكدولة القرطاجنيين التي نهضت في شمال أفريقيا، وأخذت تبسط سلطانها على البلاد المجاورة لها في الجزء الغربي من البحر الأبيض المتوسط، وكدولة روما الناشئة التي ثارت في وجه الأثرسكيين، وأخذت تكون لنفسها سلطاناً واسعاً في شبه جزيرة إيطاليا. وقد اتفق الفرس والقرطاجنيون، واتفق القرطاجنيون والأثرسكيون، على وضع حد لاستعمار اليونان بعد هذه الحركة التي كان من نتائجها انتشارهم في معظم أجزاء البحر الأبيض المتوسط.

لذلك كان لا بد من أن ترتطم قوة الفرس بقوة اليونان في الشرق، وقوة القرطاجنيين والأثرسكيين مع اليونان في الغرب. وقد أراد الفرس الانتشار غرباً، فوجدوا أمامهم اليونان ستتبين في غرب آسيا الصغرى، فأخضعوهم لسلطانهم، ولكن هؤلاء اليونان ثاروا على أسيادهم الفرس، وطلبوا المعونة والمساعدة من إخوانهم يونان القارة الأوربية، فلم يلب نداءهم إلا دولتان هما: أثينا وإرسيزى اللتان وجهتا حملة لتخليص إخوانهم من نير الفرس. من اجل هذا حقد الفرس على هاتين الدولتين، وصمموا على معاقبتهما والانتقام منهما؛ فكانت ثورة اليونان في غرب آسيا الصغرى بدء عهد نزاع خطير، يعرف باسم الحروب الميدية بين قوتين لا يستهان بهما وهما: قوة الفرس وقوة اليونان.

وقد استمر النزاع مدة طويلة بين هاتين القوتين. ونحن لا يعنينا اليوم من هذا النزاع إلا تلك الحروب التي نشبت في أول القرن الخامس قبل الميلاد، ولا يهمنا منها إلا تلك الشخصية العظيمة، شخصية (ثيموستوكل) التي لعبت دوراً مهماً جداً في ترجيح كفة اليونان على كفة الفرس.

ولكي نتمثل أهمية الدور الذي لعبه ثيموستوكل، يجب أن نعلم أن اليونان لم يكونوا متفقين فيما بينهم وبين أنفسهم على الخطة التي يجب عليهم أن يتبعوها. كانوا فريقين: فريقاً منهم مع الفرس يساعدهم ويشد أزرهم، وفريقاً آخر في صف الوطن يعمل للدفاع عنه وللتمكين من استقلاله، وهم بعد ذلك لم يكونوا دولة متحدة قوية تقف صفاً واحداً أمام دولة الفرس، بل كانوا دولاً صغيرة تتنافس فيما بينها وتحقد كل منها على الأخرى، ثم إلى جانب هذا وذاك كانت كل دولة على صغرها منقسمة على نفسها في الداخل وتتنازعها الأهواء والأحزاب. فكان النزاع قوياً جداً بين الأرستقراطيين والديموقراطيين في أثينا وشديداً جداً بين الملكيين والأينور الخمسة في إسبرطة؛ وكذلك كانت الحال في أرجوس وكورنث وتساليا وغيرها، فجاء ثيموستوكل واستطاع أن يوحد بين هذه الأشتات المتناقضة وكون منها جبهة قوية وقفت أمام الفرس وصدتهم عن أرض اليونان، بل وأحرزت عليهم انتصاراً عظيماً هو انتصار موقعة (سلامين). فالشخص الذي يستطيع أن يجعل بلاده تحرز هذا النصر الحاسم وهي على هذا النحو من الانقسام والفرقة لا شك يعد من أكبر الشخصيات في التاريخ.

وقعت الحرب الميدية الأولى في عام 490 ق. م ووجه الفرس حملتهم الأولى ضد أثينا وبلاد اليونان في هذه السنة، فتصدت لهم القوة الأثينية وعلى رأسها مليتاد يساعده بعض القواد مثل طالليماكوس وتيموستوكل وأرستيد، وتمكنت هذه القوة من صدهم وإلحاق الهزيمة بهم في موقعة ماراتون الكبرى، فارتد أسطول الفرس بعد ذلك عائدا إلى بلاده. انتصرت أثينا في هذا الدور الأول وكانت الشخصية الغالبة هي شخصية مليتاد؛ أما تيموستوكل فلم يكن له شأن كبير حينئذ، إنما كان يقوم بدور ثانوي في هذه المعركة، إذ وضع هو وأرستيد على رأس الوسط في الجيش، أما كبار القواد مثل مليتاد فقد وضعوا على رأس الجناحين لأن خطة الجيش اليوناني كانت ترمي إلى القيام بحركة تطويق لحصر جيش الأعداء.

هزم الفرس في هذه الموقعة؛ ولكن (دارا) ملكهم لم يكن بالشخص الذي يرضى عن الهزيمة، وإنما أخذ يعد العدة للانتقام، ثم مات دون أن يحقق هذا الغرض، وخلفه ابنه أجررنسيس تاركاً لهذا الابن عبئاً ثقيلاً ومهمة خطيرة، ولم يصب أجررنسيس هذا من النجاح ما أصاب أبوه من قبل، ولم ينجح في النيل من اليونان والانتقام منهم بالرغم مما عرف عه من مضاء العزيمة وقوة الإرادة وحدة الذكاء ونشاط الشباب. هزم كما هزم أبوه من قبل، وأنتصر عليه اليونان لأنهم أوتوا من الحظ السعيد ما أوجد لهم شخصية عبقرية هي شخصية تيموستوكل التي عرفت كيف تتبصر للأمر، وتضع الخطط

الحربية الماهرة استعداداً لهذا العراك العنيف. وكانت هذه الهزيمة سبباً لازدراء اليونان به، واحتقارهم له؛ فتحدث عنه (أشيل) في تراجيديته الرائعة (الفرس) وصوره كما صوره غير من كبار كتاب اليونانيين في صورة بشعة: صوره كأنه رجل مجنون أصيب في عقله. أراد أن يتسامى إلى صف الآلهة فاعتقد نفسه منهم، فتكبر وطغى، فحقدت عليه وتربصت به، وجعلته يضل السبيل، ويرتكب من المآثم والغلطات ما كان من الأسباب التي أدت إلى هزيمته

وكان الحزب المسيطر على شؤون الحكم في أثينا في ذلك الوقت هو الحزب الديمقراطي، وهو الحزب الذي استطاع أن يقودها إلى النصر. وكان على رأس هذا الحزب زعيمه تيموستوكل الذي إليه يرجع الفضل الأكبر في إحراز النصر في موقعة (سلامين)، لذلك كان هذا النصر من الأسباب التي قوت من شأن الديمقراطية الأثينية وجعلتها ترتكز على أساس متين حتى بلغت أوجها في عهد بركليس

لم يكن تيموستوكل من الأشراف ولا من الأرستقراط، بل ولم يكن من الطبقات الوسطى، وكانت العادة في القديم إلا يولى الشخص مهام دولة إلا إذا كان من أبناء البيوتات الكبيرة. لذلك كان من أعجب الأمور أن يستطيع شخص كتيموستوكل أن يصل إلى أعلى المناصب في الدولة وهو فرد من أفراد الشعب، فلم يتعود الناس من قبل أن يتزعم الحزب الديمقراطي شخص من أبناء الشعب، وإنما كانت العادة أن يتزعمه أفراد من الأرستقراط الذين كانوا يميلون إلى الشعب ويودون إنصافه ورفع الظلم عن كاهله؛ بل كان تيموستوكل أكثر من هذا، كان من أصل اجنبي، ونحن نعرف إن الشعوب القديمة كانت تنظر نظرة خاصة إلى الأجانب لاعتبارات أساسها الدين، كما وضح ذلك خير توضيح المؤرخ الفرنسي الشهير فيستل دي كولا في كتابه عن (المدينة القديمة لذلك كانوا في مركز الخاص من الوجهة القانونية، فلم يكن يسمح لهم بالتدخل في شؤون البلاد الداخلية إلا إذا اكتسبوا حقوق المدينة وهي ما نعرفها اليوم (حقوق التجنس بالجنسية الأهلية). كان أبو تيموستوكل من هذا النوع: كان أجنبياً ولكنه أكتسب صفة المواطن بما خوله له دستور كليستين من حقوق، وكانت أمه أجنبية أيضاً، ولكنه تمكن، بالرغم من ذلك، من أن يعتلي أكبر المناصب في الدولة، وهو صغير السن، كمنصب الأركون في عام 493492 ق. م. وسنه لا تزيد على ثلاثين عاماً ومنصب الاستراتيج في عام 490489 وقد بلغ من العمر ثلاثة وثلاثين عاماً، لأنه أوتي من المواهب والصفات ما جعله يصل إلى الحكم في سهولة ويسر؛ إذ كان ذكياً إلى أقصى درجة من درجات الذكاء، وكان سريع الحكم في ثقة واطمئنان، وكان خطيباً بارعاً ذاق اللسان فصيحاً، وكانت موهبته من هذه الناحية موهبة طبيعية لم تأت عن طريق الدراسة ولا عن التجربة، إنما أتاه الله حظاً عظيماً من الفصاحة والبلاغة جعله يسيطر على مواطنيه، فيملك عليهم مشاعرهم ويوجههم أنى شاء، فأسلسوا له القياد، وجعلوه يتربع على مكان الزعامة فيهم. وقد تمكن من هذه الزعامة وأستأثر بها، حتى أنقذ بلاده من خطر داهم كاد يقضي عليهم، فأحرز لها نصراً حاسماً نقلها من دولة صغرى إلى دولة كبرى لها إمبراطورية ضخمة، وتتحكم في موارد البلاد المجاورة وتشرف على جزء كبير من شرق البحر الأبيض المتوسط. فتكبر وتغطرس، وطغى وتجبر؛ ولكنه كان رجلا لا كالرجال، وعبقرياً لا كالعبقريين. تضطرنا عبقريته إلى التغاضي عن كثير من عيوبه، لان هذه العبقرية من النوع الذي يجعلنا ننحني أمامه

إجلالاً واحتراماً. وهو كغيره من الشخصيات العظيمة التي أحدثت انقلاباً هائلا في تاريخ بلادهم مثار نزاع بين كثير من المؤرخين ولا سيما القدماء منهم مثل أبي التاريخ هيرودوت، والمؤرخ الأول توسيديد: قسا الأول عليه قسوة شديدة، فأصدر عليه حكما في شيء كثير من البعد عن جادة الحق، أما الثاني فكان أقرب إلى الاعتدال: وقف إلى صفه ودافع عنه دون تحفظ ولا احتياط

نظر تيموستوكل إلى بلاده فوجدها عبارة عن شبه جزيرة تحيط بها المياه من جميع الجهات إلا جهة واحدة، ووجد الخطر عليها عظيم إذا ما أتى العدو إليها يغزوها عن طريق البحر فينزل إلى البر - كما فعل الفرس - قوات هائلة، لا يستطيع الأثينيون لها رداً ولا صداً، إلا إذا كانت لديهم قوات بحرية تستطيع أن تنازلهم فتبعدهم عن أرض الوطن، فأخذ يعلن بين الأثينيين أن مستقبل أثينا على البحار. وقد خالف الكثيرون في ذلك؛ ولكن التجارب والحوادث التي وقعت فيما بعد أيدت رأيه وصدقت نظريته. رأى كثير من أبناء جلدته أن موقعة ماراتون هي آخر المواقع بين الفرس واليونان، وأنهم ما داموا قد انتصروا فيها، وما دام العدو قد ابتعد عن بلادهم فلن يعود إليهم أبداً. لذلك وثقوا واطمأنوا؛ أما هو فكان يرى غير هذا الرأي، كان يرى أن ماراتون ما هي إلا خطوة من خطوات النزاع بين الفريقين، وأن الفرس لا شك راجعون من جديد للانتقام لأنفسهم من الهزيمة الساحقة التي لحقتهم من قبل، وذلك لوقوفه على بعض أخلاقهم ولمعرفته ببعض عاداتهم. من أجل هذا رأى أن يمكن لأثينا على البحر بأن يؤسس لها أسطولا بحرياً ضخماً يجعل لها السيادة البحرية من دون منازع. ورأى أيضاً أن يعمل على تحويل الشعب الأثيني من شعب حربي بري، إلى شعب حربي بحري، من شعب مشاة وفرسان، إلى شعب ملاحين وبحارة، ولكن هذا وحده لا يكفي، فلابد إلى جانب هذا من اختيار المواني المنيعة التي تصلح لإرساء الأسطول، والمواقع الطبيعية التي إن حصنت صلحت مراكز مهمة للدفاع عن البلاد. فعدل عن ميناء فالير المكشوف لتعرضه للرياح والأعاصير، ولعدم صلاحيته من الناحية الطبيعية، إلى ميناء بيريه وحوله خلجان طبيعية منيعة كخليج (نريا) وخليج (موينخيا)؛ وهذه الخلجان تصلح هي الأخرى لان تكون مواني جيدة. فأخذ يحصن هذا الميناء - الجديد، وساعده على القيام بهذه الأعمال أعمال التحصين أن كان يتولى مركزاً من مراكز القيادة - وهو مركز الأستراتيج في عام 490489

ذاعت آراء (تيموستوكل) وانتشرت بين الاثينيين، فانضم إليه كثير منهم يؤيدونه ويساعدونه على تكوين هذا الأسطول البحري الضخم الذي يحلم بتأسيسه، بعد أن سمعوا ما سمعوا عن استعداد الفرس العظيم، وقرب قيامهم بالهجوم على وطنهم، وبعد أن رأوا من هذا النزاع الذي يهدد بلادهم بالخطر بين أثينا وأرجينا، وفي هذا النزاع لم تستطع أثينا إحراز النصر آلا بعد صعوبة كبيرة، بعد أن أعارتها كورنت عشرين سفينة من أسطولها، فأثر الخطر الفارسي والخطر الأرجيني عليهم. وقد زاد عدد المؤيدين لنظرية (ثيموستوكل) زيادة هائلة بعد ما وجد الأثينيون أن وطنهم أصبح في حاجة شديدة إلى المواد الغذائية التي قلت بنسبة عظيمة بعد أقفال الأسواق الاقتصادية في الخارج في البلاد المعادية لبلادهم، كبلاد البيوسيين والشاليين، أو في بلاد خضعت للفرس مثل بلاد شبه جزيرة اكليسيديك والبحر الأسود ومصر. فلم يكن بعد ذلك أمام أثينا أسواق اقتصادية واحدة تستطيع أن تتمون منها وهي سوق الغرب

في صقلية وبلاد اليونان الكبرى؛ وأثينا لا تستطيع أن تستورد من هذه البلاد القمح والمواد الغذائية الأخرى إلا إذا كان لديها أسطول عظيم يحمل لها ما هي في حاجة إليه ثم إن تيموستوكل أثر على مواطنيه بحجة أخيرة وهي من أقوى الحجج تأثيرا على ذهنية الشعب - إن صح إن للشعب ذهنية - فبين لهم إن الأسطول المزمع إنشاؤه سيكون مورداً لإعالة فقراء الأمة من الذين لا يجدون عملا ما، وهم أصحاب الطبقة الرابعة من الشعب المسماة طبقة (التيت فمن هذه الطبقة سيجند الملاحون والبحارة الذين من دونهم لا يستطيع الأسطول أن يقوم بمهمته على الوجه الأكمل أقنعت أغلبية الشعب بهذه الحجج المختلفة؛ ولكنهم تساءلوا: من أين لنا بالمال الذي يساعدنا في بناء هذا الأسطول، ونحن نعرف أن الأسطول يحتاج إلى مال كثير؟ لم يقفوا كثيرا عند هذا السؤال، إذ ساعدهم الحظ في ذلك الوقت فوجدوا المال اللازم، وجدوه في مناجم (لوريون) بالعثور في عام 483 - 482 على عرق ثالث من عروق الفضة قائم بين طبقتين من الطبقات الأرضية، كطبقة (الشيست) وطبقة (الككلير)، وكان هذا مصدر ثروة
كبيرة، وعلى الأخص بعد أن نضب معين العرقين السابقين. وهنا اختلفت آراء الشعب بصدد هذا المصدر الجديد من مصادر الثروة، فانقسمت الأمة قسمين قسم على رأسه أرشيد الزعيم المعروف يريد توزيع هذا الإيراد - وهو إيراد منتظم - بين المواطنين جميعا (ويتراوح هذا الإيراد بين 50، 100تالانت) فإذا وزع على هذا النحو نال كل فرد ما يقرب من 20 دراخمة (والتالانت فيها 6000 دراخمة). وقسم آخر على رأسه ثيموستوكل يرى أن تعير الدولة لكل مائة من كبار الأغنياء (تالانت واحدة) على أن تكلف كل وحدة من هذه الوحدات المئوية ببناء سفينة، حتى إذا اجتمعت هذه السفن بعد بنائها كانت نواة طيبة للأسطول الأثيني. طالت المناقشات بين الفريقين وزاد النزاع حدة بينهما، ولكن تيموستوكل وأنصاره تغلبوا في آخر الأمر، ونفى الشعب الزعيم المعارض أرشيد، وظفر ثيموستوكل وأتباعه بما أرادوه لوطنهم من هذا الأسطول الذي كان السبب الأكبر في إحراز النصر في أكبر معركة بحرية في القرن الخامس على الإطلاق وهي معركة (سلامين). وعلى هذا النحو حدث هذا الانقلاب الهائل الذي حول أثينا من دولة برية إلى دولة بحرية لها أسطول قوي ضخم كان هو السبب الرئيسي في بناء مجدها وعظمتها في القرن الخامس قبل الميلاد، فأصبحت أثينا بذلك دولة بحرية قادرة على الدفاع عن أرضها وعن أرض اليونان جميعاً ضد قوات كبيرة تفوقها في العدد والعدة وهي قوات الفرس. وقد كان ثيموستوكل في هذا رجلا عظيماً، إذ استطاع أن يحدث هذا الانقلاب وأن يكون هذا الأسطول الذي جمع ما يقرب من مائتي سفينة والذي كان العامل الأساسي في بناء الإمبراطورية الأثينية البحرية أخذت أثينا بعد ذلك تستعد للمعركة القادمة وهي واثقة ومطمئنة إلى أسطولها القوي، ولكنها تشعر تمام الشعور إنها لا تستطيع وحدها مناهضة الفرس، بل كانت على يقين من ضرورة الحصول على تأييد إسبرطة والدول اليونانية الأخرى. وكانت إسبرطة أنانية، بلغت أنانيتها حداً عظيماً جداً عرف في التاريخ القديم، فهي لا تهتم إلا بشؤونها وبشؤون جزيرة البيلوبونيز الخاصة لسلطانها المتمكنة لأمرها، ولكنها فهمت أخيراً أن من مصلحتها الاتفاق مع أثينا والمدن اليونانية الأخرى التي تريد الدفاع عن اليونان لوضع خطة دفاعية مشتركة، لأنها أحست أن في انتصار الفرس ترجيحاً لكفة أعدائها كدولة أرجوس التي
تناوئها العداء في شبه جزيرة البيلوبونيز، وإضعافاً لسلطانها ونفوذها هي؛ لذلك دعت إلى عقد مؤتمر يوناني عام، هو مؤتمر الجامعة اليونانية الأول، اشترك فيه عدد من اليونان، وامتنع عن الاشتراك فيه عدد آخر كان يؤيد الفرس، ولزم عدد ثالث جانب الحياد وفي هذا المؤتمر العام الذي عقد بجوار مدينة كورنث نرى ثيموستوكل يلعب دوراً بارزاً مهماً هو دور الصلح والتوفيق بين اليونان، وتحقيق الوحدة بينهم جميعاً ضد العدو المشترك، فسعى سعياً حقيقياً للقضاء على أسباب الخلاف بينهم، وعلى الأخص بين أثينا وأرجينا؛ ثم إنه أظهر في هذا المؤتمر أيضاً بعداً في النظر وترفعاً عن المطامع الشخصية، فقبل أن يكون قواد الأسطول والجيش من رجال إسبرطة، وأن يمثل هو في الأسطول مكاناً ثانوياً مع إن المنطق كان يقضي بأن تكون قيادة الأسطول لأثينا، لأنها أصبحت أقوى الدول اليونانية في البحر، ولكنه تغاضى عن ذلك

ورضى أن يعمل تحت إمرة أمير البحر الإسبرطي (إيربياد) بل وأيده كل التأييد، مع أن (ايربياد) هذا كان دونه في شؤون البحر، ثم بذل له من النصح والإرشاد في موقعة سلامين الكبرى ما يحملنا على أن نقارن بين موقفه هذا وبين موقف سيف الإسلام خالد بن الوليد الذي رضى أن يجاهد في سبيل الإسلام تحت قيادة أبي عبيده بن الجراح مع أنه يفوقه في الفنون الحربية، ومع أنه كان يتولى شؤون القيادة قبله على نفس الجيش الذي كان يحارب في صفوفه. وقد رضى كل من ماند وثيموستوكل بهذا لأنهما لا ينظران إلى مصالحهما الشخصية بل ينظران نظرة كلها جلال وجمال. هي النظرة إلى المصلحة العامة ووضعها في المكان الأول من اهتمامهم ورعايتهم. ثيموستوكل من الرجال الذين يفضلون وطنهم على أشخاصهم ويتعالون بمطامع بلادهم على مطامعهم الشخصية، لذلك كانوا أبطالا حقاً. من أجل هذا السبب استطاعوا وأن يكونوا عند حسن ظن مواطنيهم بهم، فكونوا لا نفسهم مجداً لا زال باقياً على الحياة، واسماً لا يزال صداه يرن في آذاننا حتى اليوم

هذا في الخارج؛ أما في الداخل فقد رضى أن يستدعى منافسه ومعارضه أرشيد من المنفى، بل وأن يشركه معه في الحكم، فاتفق الاثنان معاً في ذلك الوقت العصيب الذي تعرضت فيه بلادهم لخطر الغزو الأمين. فبرهن ثيموستوكل بذلك أيضاً على أنه قادر على دفن الأحقاد الشخصية في سبيل رفع كلمة الوطن

وعلى هذا النحو استطاع ثيموستوكل أن يحقق الوحدة داخل وطنه بالاتفاق مع خصومه ومعارضيه، وأن يحقق الوحدة في الخارج بالاتفاق بين بلاده والبلاد المنافسة لها وعلى رأسها إسبرطة، وأن يعد العدة للنزاع المقبل ببناء أسطول قوي لا يستطيع اليونان إحراز النصر بدونه، فكان أن أعد البلاد على خير وجه لاستقبال قوى الفرس. واليونان مطمئنون إلى عدالة قضيتهم وواثقون إلى قوادهم وزعمائهم، وهم يعملون آخر الأمر ويحاربون متحدين متراصين كالبنيان يشد بعضه بعضاً في سبيل الدفاع عن الوطن المقدس

كان هذا هو الدور الإعدادي الذي أظهر فيه ثيموستوكل مواهب العبقرية في الزعامة والتنظيم والإدارة. أما عن دور التنفيذ وهو الدور الحاسم الذي أحرز فيه اليونان جميعاً النصر المبين فله مجال آخر سنحدثك عنه في العدد القادم إن شاء الله

محمد الشحات أيوب

المصريون المحدثون - 6

شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الإنجليزي إدوارد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

(تابع الفصل الأول)

يلاحظ أن أهل القاهرة وسكان الأقاليم الشمالية حيث يكثر المهاجرون لاعتدال الجو: هؤلاء لقلة تعرضهم للشمس يمتازون بوجوههم الشديدة الصفرة وببشرتهم الناعمة الملمس، بينما الآخرون يزداد لونهم ظلمة وبشرتهم غلظة. أما في مصر الوسطى وفي الصعيد الأعلى فيشتد وهج الشمس وتزيد سمرة الوجه كلما صعد الأنسام نحو النوبة حيث يكون الجو أشد حرارة، وحيث يحل النوبيومن محل المصريين تدريجياً. وسحنة المصريين المسلمين بيضية الشكل جميلة الهيئة. فالجبهة معتدلة الحجم نادرة الارتفاع شديدة التقوس، والعينان بعيدتا الغور، أو تبدوان كذلك نتيجة لخفض الحاجب من بهر الشمس، سوداوان لامعتان، تشبهان بعض الشبه أعين الأجناس الحبشية، والأنف مستقيم غليظ بعض الشيء، والفم جميل التكوين، والشفتان اقرب إلى الغلظ، والأسنان جميلة الشكل تشبه إذا نظرنا إلى الموميات أسنان المصريين القدماء واللحية سوداء خفيفة جعداء. وقلما ترى عيون رمادية، إلا في ذرية الأجانب من أوربيين وغيرهم أو في سلالتهم. وقد أعتاد الفلاحون لدوام تعرضهم للشمس كسر جفونهم؛ وهذه من ميزات البدو. وأكثر المصريين مصابون بالعور أو بالعمى. وهم لا يحلقون اللحية كلها وإنما يحلقون ما فوق الفك الأسفل وما تحته وكذلك ما تحت الشفة السفلى ما عدا العنفقة على مثال الرسول (صلعم). وقد ينتفون تلك المواضع. والقليل منهم يحلق اللحية كلها ما عدا الشاربين فلا يحلقهما أحد، وهم يطلقون لحاهم

بمقدار قبضة اليد تقريباً
وهذا هو المتبع عادة. وتلك كانت عهدة الرسول صلى الله عليه وسلم، هم لمحافظتهم على
السنة لا يطيلون الشاربين ولا يمدونهما على الأقل فوق الشفة العليا حتى لا يضايقانهم عند الأكل أو الشرب. وعادة الخضاب ليست شائعة في مصر ولأنهم يحترمون الشيب.
ويحلق المصريون شعر الرأس كله، أو يتركون خصلة صغيرة فوق الناصية تسمى (شوشة). ويقال إن هذه العادة الأخيرة - التي تكاد تكون عامة بينهم - منشأها خوف المسلمين عند وقوعهم في أسر الكفار أن يعمد هؤلاء - عند ذبحهم - إلى وضع أيديهم النجسة في الفن ليحملوا الرأس منه إذا لم يجدوا شعراً. وقد تكون اللحية قصيرة أيضاً، ولكن الراجح أن تلك العادة أخذت عن الأتراك، لأنها لا تشاهد عامة عند البدو، ولأن عادة حلق الرأس ظهرت بين العرب منذ عهد قريب، ثم إنها للنظافة. ويتبع المصريون عادات أخرى لنظافتهم لا محل لذكرها هنا. ويلاحظ أن كثيراً ما يشم رجال الطبقة السفلي وغيرهم أذرعهم وأحياناً أيديهم وصدورهم كما يفعل النساء، (وسنصف هذه العادة عند الكلام عن النساء)
وتتألف ملابس رجال الطبقتين العليا والوسطى من الأجزاء الآتية: أولاً، سروال فضفاض من الكتان أو القطن يشد حول الوسط بشريط طرفاه مطرزان بالحرير الملون وإن كانا تحت الملابس الخارجية. ويصل السروال إلى ما تحت الركبتين بقليل أو ينزل حتى الكعبين. إلا أن الكثير من العرب لا يلبسون السراويل الطوال لأن النبي (ص) حرمها عليهم. بعد ذلك قميص أكمامه واسعة جداً تصل حتى المعصم، يصنع من نسيج الكتان الأبيض الرخص أو من نسيج القطن أو الحرير الموصلي أو الحرير المخلوط بالقطن، وكلها مفوفة ببضاء. ويرتدي أغلب الناس فوق هذا، عندما يبرد الطقس (صديرياً) قصيراً من الجوخ أو من الحرير الملون المفوف أو من القطن، ولا أكمام له. يضاف إلى هذا رداء طويل من الحرير المفوف أو القطن يسمى (قفطان) أو على حسب التعبير الغالب (قُفطان)) ينزل حتى الكعبين وأردانه الطويلة تمتد إلى ما بعد أطراف الأصابع ببضع بوصات وتشق من فوق الرسغ بقليل، أو من وسط الذراع بحيث تكشف اليد؛ إلا انه يمكن سترها بالكم عند الضرورة، لأن من العادة أن تغطى اليدان في حضرة شخص عظيم. ثم يلف حول هذا الثوب شال ملون أو قطعة طويلة من الحرير الموصلي الأبيض المنقوش. وأخيراً، الحلة الخارجية العادية وهي عبارة عن كساء طويل من الجوخ، من أي لون كان، يسميه الأتراك
ويسميه المصريين (جبة) ولا تتعدى أكمامه المعصم تماماً وبعض الأشخاص (جبة) يلبسون (البنش) - وهو قباء من الجوخ - أكمامه كإكمام القفطان طولا ولكنه أوسع منها ويرتدونه - على الأخص - في الحفلات فوق الجبة، ولكن الكثير منهم يستبدلونه بها؛
وهناك رداء آخر يسمى (فرجية) يشبه البنش تقريباً وأكمامه طويلة غير مشقوقة، ويلبسها غالباً رجال العلم. ويتوشح شقاءً بنوع من المآزر الصوفية السوداء يسمى (عباية)، وقد تشتد فوق الرأس، وفي الشتاء أيضاً يتدثر كثير من الناس بشال من الحرير الموصلي، أو غيره (مثل الذي يستعملونه للعمامة) يلف حول الرأس والكتفين. أما غطاء الرأس، فيتكون من قلنسوة قطنية صغيرة مطابقة للرأس تماماً وتغير كثيراً. ثم يوضع (الطربوش) - وهو غطاء من الجوخ الأحمر - محكم على الرأس أيضاً، يتدلى من قمته شرابة من الحرير الأزرق القاتم، وأخيراً يلف على الطربوش قطعة طويلة من الحرير الموصلي الأبيض المصور، أو شال كشميري وهذه هي العمامة. وقلما يستعمل الشال الكشميري إلا عندما يبرد الجو. وقد يلبس البعض طربوشين أو ثلاثة، الواحد فوق الآخر. أما عمامة الشريف وهو الموصول نسبة بنسب الرسول فخضراء، وله وحده هذا الامتياز؛ كما أنه ليس من المعتاد أن يلبس أحد غير الأشراف ثياباً خضراء ناضرة
أما الجوارب فلا يستعملها إلا بعض الناس شتاء، ويتخذونها من الصوف أو القطن. وأما الحذاء فهو من الجلد المراكشي الأحمر السميك وطرفه الأمامي مدبب معقوف إلى أعلى. وينتعل البعض حذاء داخلياً من الجلد المراكشي الأصفر الناعم ذا نعل من الجلد نفسه، فيخلع الحذاء الخارجي وحده عند الدوس على البسط ولهذا السبب يلبس

الحذاء الخارجي مكعوباً
ويحمل المصريون في خنصر اليد اليمنى خاتماً من العقيق أو غيره ينقش عليه اسم حامله ويصاغ عادة من الفضة. ويرفق الاسم غالبا بعبارة خادمه (أي خادم الله أو عبده) أو بعبارات أخرى تعبر عن إيمان الشخص بالله الخ. وكان الرسول (ص) يستقبح استعمال الذهب، ولذلك قلما يلبس المسلمون خواتم من ذهب. ولكن النساء يتحلين بمختلف الحلي (من خواتم وأساور الخ) من هذا المعدن الثمين
ويستعمل الخاتم لختم الرسائل وغيرها من المكاتبات! ويعتبر الخاتم أصدق من إمضاء اليد،
وطريقة ذلك أن يلطخ الخاتم بقليل من الحبر بإصبع من الأصابع، ثم يضغط على الورقة بعد أن يأخذ الشخص من ريقه بإصبع آخر ويبلل المكان المراد ختمه. وكل فرد تقريباً يحمل خاتماً متى كان يستطيع ذلك ولو كان خادماً. ويضع محترفو الكتابة والعلماء وغيرهم في منطقتهم دواة (دواية) من الفضة أو النحاس الأصفر أو النحاس الأحمر، وهي عبارة عن محبرة أو صندوق به أوعية للحبر والأقلام. ويحمل البعض بدلا منها أو علاوة عليها مطواة أو خنجر، وتلك عادة قديمة. أنظر حزقيال، الإصحاح التاسع الآية الثانية
ويحمل المصريون شبكهم معهم أينما حلوا (إلا في المساجد) أو يحملها لهم خدمهم؛ وأن كانت العادة لم تجر بالتدخين في الشوارع. وهم يضعون كيس التبغ في صدر القفطان الذي يتهدل فوق الحزام، كما يضعون فيه أيضاً مناديلهم المطرزة بالحرير والمرصعة بالذهب، بعد أن تطوى باعتناء
وقد يرغب الكثير من أفراد الطبقة الوسطى أن ينفوا عنهم فكرة الإثراء فيرتدوا فوق ملابسهم مئزراً قطنياً أسود اللون لا تميزه عن مآزر العامة ميزة
عدلي طاهر نور
في الليل!
للأديب عبد الرحمن الخميسي
في الليل على فراشي طلبت من تحبه نفسي. . . طلبته فما (وجدته)
(التوراة)
أسدَلَ اللَيْلُ يا حَبيبي سُتورَهْ ... ومَشَى في جَوَانِبِ المعَمُورَهْ
كاهِناً تْخفُقُ الشُّموعُ عَلَى كَفَ ... يهِ حَيَرَي كَأَنَهَا مَذْعُورَهْ
حَالِماً يَعْقِدُ الضَّبَابُ حَوالي ... هِ أكاليلَ في الدُّجى مَنْثُورَهْ
شَاعِراً يَنْقُلُ النَّسِيمُ أَغَانِي ... هِ وَتَنْدى جِوَاوِهُ الْمَسحُورَهْ
سَاحِراً يَبْهَرُ النُّفُوسَ وَيُلقِى ... بِعَصاهُ عَلى الرِّيَاضِ الشَّجِيرَهْ
شَادِياً يُنْصِتُ الوُجُودُ لِمُوسِي ... قاهُ حَتى كَأَنَّهَا مَنْظُورَهْ
عَابِدَاً تَظْمَأُ الصَّلاةُ إِليهِ ... وَمَحَارِيبه السَّمَاءُ الكَبِيرَهْ
ذَاهِلاً أَغْرَقَ الدُّنَى فيْ ذُهُولٍ ... مُسْتَحَبٍ إِلى القُلُوب الكَسِيرهْ
صَامِتاً تَضْجَرُ المُرُوجُ بِنَجْوَا ... هُ وَلَكِنَّهُ وَسِيعُ السَّرِيرَهْ
سَاهِماً يَرْقُصُ الخَيَالُ حَوَالي ... هِ وَيُجْرِي الرَّبِيعُ فِيهِ عَبِيرَهْ
رَاحِماً يَلجَأُ الحَزِينُ إِليهِ ... بِشِكَايَاتِهِ الدَّوَامِي المَرِيرَهْ
شَاعَ فيْ جَوِّهِ السُّكُونُ وَمَدَّتْ ... فِيهِ أَنْفاسَها النُّجُومُ المُنِيرَهْ
وَجَرَتْ خَلفهُ الظُّنُونُ وَحَاطَتْهُ ... طُيُوفٌ مُجَنَحاتٌ سَجِيرَهْ
فَهوَ لِلْبَائِسِ الطَّرِيدِ عَذَابٌ ... يَمسَحُ الفَجرُ فيْ الفَضَاءِ سُطُورَهْ
وَهَوَ لِلعَاشِقِ الوَفيِّ سَمِيعٌ ... يَتَلَقَّى عَنْ حُبِّهِ أُسطُورَهْ
وَهوَ لِلشَّاعِرِ الكَئِيبِ مَلاذٌ ... يْنفُضُ الدَّمْعَ فيْ صُواهُ الصَّرِيرهْ
أَقْبَلَ اللَّيْلُ! آهٍ يَا وَيْلتاَ مِنْ ... مَقْدَمِ اللَّيْلِ لِلنُّفُوسِ الْكَسِيرهْ
أَقْبَلَ اللَّيْلُ! فاَسْتَيَدَّتْ بِقَلْبي ... حَسَراتٌ عَلَى عُهُودِي الخَضِيرَهْ
وَسَرَى فيْ دَمِي حَنِينٌ وَشَوقٌ ... مُبْهَمٌ. . . آهٍ مَا أَشَدَّ سَعِيرهْ
وَصَحَتْ حَوْليَ الهُمُومُ وَنَاشَتْ ... ذَاتَ نَفسِي كَأَنْها مَسْعُورَهْ
أَقبَلَ الِلَيْلُ فَارتَطَمَتْ كَأَنِّي ... مَوجَةٌ فَوقَ شَطِّهِ المَحْبُوبِ
قَذَفَتْ بِيَّ إِلَيهِ أَشْوَاقُ رُوحِي ... وَشُجُوني وَحَسرَتي وَلَهِيبي

وَارِتِيَاحِي إلى الظّلامِ وَيَأَسِي ... وَحَنِيني إلى السُّكونِ الرَّحيبِ
وَاغتِرَابي عَن الأَنامِ كأني ... زَهْرَةٌ بَيْنَ جَلمَدٍ وَجِدِيبِ
!وَهُرُوبي مِنْ الْحَقِيقَةِ يَا لَيْ ... لُ فَأَتْرِعْ بِخَمْرِةِ الوَهْمِ كوبي
أَوِهٍ! إني أُرِيْدُ أَنسَى غَرَامِي ... وَجِرَاحِي وَذِكْرَيَاتِ حَبِيبي
!أَبْعِدُوا الصُّوْرَةَ الجَمِيلةَ عَني ... أَبْعِدُوها لِتُخْمِدُوا تَعْذِيبي
!أَبْعِدُوا الصُّورَةَ الجَمِيلةَ عَني! ... أَبْعِدُوها فَإنّها لحَبِيبي
فَهي في مَسبَحِ الهَواءِ تَهَادَتْ ... رِقَّةً تَبْعَثُ اشْتِيَاقَ القُلُوبِ
وَهْيَ في جَبْهَةِ السَّمَاءِ هِلاَلٌ ... يَتَغَنَّى بِنُورِهِ تَشْبِيبي
وَهيَ في الظُّلْمَةِ المَدِيدَةِ نُسْكٌ ... شَاعَ في رَحْبِها النَّدِيِّ الرطِيبِ
!وَهيَ في البَحْرِ! وَالسَّماءِ! وَفي النُّو ... رِ! وفي سُحمةِ الظّلامِ الرهِيبِ
وَهيَ في الأَرْضِ كلِّها. . حَيَواتٌ ... وَمِثالٌ لكلِّ حُسنٍ نَشيبِ
صَاغَهَا اللهُ مِنْ مَفَاتِنِ هَذا ال ... كَوْنِ فنّاً لِكلِّ فَنٍ ذَهِيبِ
!أَبْعِدُوا الصُّورَةَ الجَمِيلةَ عَني ... أَبعِدُوهَا لِتُخْمِدُوا تَعذِيبي
كيْفَ أَنِّي أُرِيدُ أَنْسَى غَرَامِي ... وَجِرَاحِي وَذِكْرَيَاتِ حَبِيبي؟
وَلقَدْ أَطْبَقَتْ جُفُوني وَلكِنْ ... قَدْ تَرَاءتْ رُسُومُهُ في جُنُوبي
أَيها اللَيْلُ قَدْ فَزِعتُ إلى عَط ... فِكَ مِنْ ظُلمِ حُرْقَتي وَكُروبي
!أَنَا أَهْوَاكَ يَا ظلاَمُ فَأَطفئِ ... لي دَرَارِيكَ وَاستَمِعْ لِنَحِيبي
!وَلتَكُنْ فِي النَّسيمِ مِنكَ شَكاتي ... ارْوِهَا لِلسَّمَاءِ عَنْ مَكْرُوبِ
أَيُّهَا الليلُ لَيتَني كنتُ نَجماً ... عَائماً في مِيَاهِكَ الزرْقاءِ
أَقطَعُ الظُّلمَةَ الأَتِيَّةَ لهَفَا ... نَ إلى مَخْدَعِ الْحَبيبِ النَّائي
ثمَّ أُضْفِي عَلَيهِ مِني خُيُوطاً ... تَحْتَويهِ في ضَمَّةٍ رَعناءِ
لأُرَوِّي بِقُبلَةٍ مِنهُ نَفْسي ... تُطلِقُ الرُّوحَ من أسَى وَعَنَاءِ
وَأُحَلِّي بِسِحرِ عَينَيْهِ ذاتي ... ثُم أَزْهى عَلَى نُجُومِ السَّمَاءِ
!غَيْرَ أَني يَا حَسْرَتا آدَمِيٌّ! ... قَيَّدتِني أَرْضِيَّتِي في بِنائِي
أَيها الليلُ لَيْتَني كنتُ عصفو ... راً طَلِيقاً مَعَ السَّنَي وَالهَوَاءِ
كنْتُ نَقَّرتُ فَوقَ نَافِذَةِ الَمحْ ... بُوبِ أَدْعُوهُ لاسْتِماعِ غِنائِي
لِيُغَنِّي مَعِي وَيُحْكِمَ قَيدِي ... بَيْنَ كفّيْهِ رَاضِياً بِشَقَائِي
غَيْرَ أَني يَا حَسْرَتاَ آدَميٌّ! ... قَيَّدَتْني أَرْضِيَّتِي في بِنائي
أيها الليلُ ليْتَ أَنِّي هَوَاءٌ ... سَابحٌ في حدِيقَةٍ زَهْرَاءِ
أجْمعُ العِطْرَ مِنْ ثُغُورِ الأَقَاحي ... وَالرَّياحينِ في مَدَى أَحْنَائي
ثمَّ أَمْضِي إلى حَبِيبي عَلِيلاً ... أَسْكَرَ البَدْرُ عُنْصُري بالصَّيَاءِ
أَحمِلُ الطِّيبَ في فُؤَادِي إليهِ ... وَأُفرِّي حِيَالَهُ أَحْشَائي
لأكُونَ الأَنفَاسَ في رِئَتَيهِ ... وَلأَحْظَى في صَدرِهِ بفَنَائِي
غَيرَ أَنِّي يَا حَسرَتا آدَمِيٌّ! ... قيَّدَتني أَرْضِيَّتي في بِنائي
أَيُّها اللَّيْلُ! ليتَني كنتُ روضاً ... مُورِقَ الزَّهْرِ، وارِفَ الأَفياءِ
نمَّقَتْ صَفْحَتي أَنَامِلُ حَسنَا ... ءُ رَبِيعِيَّةُ النّدَى والرُّواءِ
كنْتُ نَسَّقْتُ مِنْ وُرُودي تاَجاً ... لِحَبيبي كالهالةِ البَيْضَاءِ
!غَيْرَ أَنِّي يَا حَسْرَتا آدَمِيٌّ! ... قيَّدَتني أَرْضيَّتي في بِنائي
أَيُّهاَ اللَّيْلُ يَا مُقِيلَ الْحَيَارَى ... والْمَسَاكِينِ فِي البَلاَءِ الشديدِ
في دَمي ثَوْرةٌيَبُثُّ لَظاَهَا ... هَاجِسٌ أَلهَبَتْهُ نَارُ الصُّدودِ
وَعَلَى مُهْجَتِي يَؤُزُّ الْتِيَاعُ ... جَائِعٌ لِلوَقودِ بَعْدَ الوَقُودِ
وَأَنَا بَيْنَ ما أُعَاني لَهِيفٌ ... أَتهاَوّى في قلِبَي المَهْدُودِ
نهْزَةٌ لِلشُّجُونِ لَكِنَّ رُوحي ... تَتَخَطَّى إلَيْكَ كلَّ السُّدُودِ
خُذْ بِنفْسي إلى السَّلاَمِ وَهَدِّى ... سَوْرَةَ الوَجْدِ في فُؤَادِي العَمِيد
وأمْسَح السُّهْدَ عَنْ عُيُوني وصُغْ مِنْ ... زَفَرَاتي النّشِيدَ تِلوَ النّشِيدِ
فَارْتِقابُ الوِصَالِ أمرٌ بَعيدٌ ... خِلتُهُ لَيْسَ كالسُّهَا بِالْبَعِيد
!وَحَرَامٌ عَلَى الغَرَامِ ضَيَاعِي! ... وَحلاَلٌ فِي ظِلِّهِ تَغْرِيدي
وَحرامٌ عَلَى العَذَابِ اجْتِياحي ... وَأَنا مَا بَلَغتُ عُمرَ الوُرُودِ
وحرامٌ عَلَى العُيُونِ اللوَاتِي ... حيَّرَتْني، فِي بُعْدِها تَشْرِيدِي

وحرامٌ عَلَى الهَوَى يَا حبيبي ... أنْ يُحِيلَ السَّعيدَ غَيرَ سَعِيدِ!
وحرامٌ عَلَى الليَالِي طَوَافِي ... حوْلَ أَهْوَالها الغِضَابِ السُّودِ
وأَنَا ما خُلِقْتُ إلا لأَشْدُو ... في رِكابٍ مِنَ الجمَالِ فَرِيدِ
أيُّهَا الليلُ في فُؤَادِيَ لَيلٌ ... زَاخِرُ الَمَوْجِ لَيْسَ بالْمَحْدُودِ
وَسَيَهْتَزُّ في ضُلوعكَ فَجرٌ ... يُوقِظُ الطَّيرَ لِلنهارِ الجَديدِ
وَأَنَا مُظْلِمُ الْجَوانِحِ ظَمْآ ... نُ إلى فَجْرِى الْمُنيرِ الْفَقِيدِ
لِي رَجَاءٌ في رَحْمَةِ اللهِ لَمَّا ... وَسِعَتْ في الوُجُودِ كُلَّ الوُجُودِ
أَنْ يُنِيرَ الْحَيَاةَ في قَلبِيَ الدَّا ... جي وَيُقْصِى عَنِّى هَزِيمَ الرُّعُودِ
فأَنَا زَوْرَقٌ يُضَلِّلُهُ الإِعْ ... صَارُ عَنْ شَطِّهِ الأمِينِ الوَحِيدِ
حَجَبُوهَا! وَمَنْ سَيُطْلِقُ أَسْرَا ... بَ الأمَاني إلى وُكورِ حَيَاتي؟
حَجَبُوهَا! وَمَنْ يُنَضِّرُ أَغْرَا ... مِي وَيَجْنِي مَع الصِّبَا ثَمَرَاتي؟
حَجَبُوهَا! وَمَنْ يُجَمِّلُ عَيْشِي ... وَيُغَذِّى بِحُسْنِه صَبَوَاتي؟
وَلِمَنْ جِئْتَ يا غَرَامِي إلى الدُّنْ ... يا؟ وَمَنْ ذَاتُهُ تُكمِّلُ ذاتي؟
حَجَبُوهَا! فَمَنْ يُهدْهِدُ أَشْوَا ... قِي إليها وَلَهَفَتِي وَشَكائي؟
أَيُّهَذَا القَضَاءُ لا كنْتَ يا غَا ... دِرُ! فَرَّقْتَ في اللَّهِيبِ شَتاتي
وَشَرِبْتَ الدِّمَاء مِنْ غَوْرِ قلبِي ... وَاخْتَطَفْتَ الصِّبَاء مِنْ بَسَمَاتي
وَغَرَسْتَ الْهُمُومِ في ذاتِ نَفْسِي ... كَجِرابٍ تُدَكُ في جَنَباَتي
وَزَرَعْتُ الأشْوَاكَ في طُرُقاتي ... وَأَرَقتَ الذُّهولَ في نَظَرَاتي!
فعَبَرْتُ السِّنِيَن كالطَائرِ المح ... مُومِ أقتاَتُ من رِمالِ الْفَلاةِ
أَيْنَ عُشِّي وَأيْكَتِي وَغَدِيري ... وَرَحيقِي وَزَهْرَتي وَلِدَاتي؟
وَلِماذَا أَبْعَدْتَني يا زَماني ... عَنْ حِمَاها! فأَظْلَمَتْ طُرُقاتي؟
أناَ أَهْوَاكِ يَا شَقيقَةَ رُوحي! ... أناَ أَهْواكِ يَا حَيَاةَ حَياتي!
فَنِيَتْ نَفْسي في هَواكِ كما لوْ ... فَنِيَ النَّهْرُ في الْخِضَمِّ الْعَاتي
وتَلاشَيْتُ في غَرَامكِ، وَاهْتَا ... جَتْ من الشَّوقِ والْجَوى حُرُقاتي
أنتِ شِطْري وكَيْفَ يَبْعُدُ شِطْري ... ثمَّ تَخْبُو إذا تَأَى حَسَرَاتي؟
أنتِ إِشْرَاقَةٌ مِنَ اللهِ تَنْسَا ... بُ وَتَمْحُو بِنُورِها ظلمُاَتي
أَنتِ مَعْنىً فَوقَ الجمالَ رَفِيعٌ ... أَتَسَامَى إليه في صَلَوَاتي
قَرِّبيني مِنَ الإلهِ وَهَاتى ... مَا تَشَائِينَ مِنْ كُنُوسِكِ هَاتى
وَخُذيني إليكِ في كُلِّ مَعْنىً ... منْ مَعَانِيكِ يا حَيَاةَ حَيَاتي!
(القاهرة)

عبد الرحمن الخميسي

البريد الأدبي

جواب

أجيب عن سؤال الأستاذ الفاضل (ح. ج) بأن (الهناء) لفظ عربي صحيح، والله يحفظه وحيد

البيئة ونزع العمائم

ذكر الأستاذ الكبير الدكتور زكي مبارك تحت موضوع البيئة في عدد 418 من الرسالة المحبوبة أن اللذين زاروا الأندلس من أهل المشرق كان فيهم من دهش حين رأى بض القضاة يجلسون للحكم بين الناس ورءوسهم عارية، ولم يفهم أن هذا من تأثير البيئة، فأهل أوربا ينزعون أغطية الرءوس في المواقف الجدية وبهم تأثر العرب في الأندلس. . . الخ

بهذا التأثير الغربي حكم الدكتور كما قد مر بك، وبه قطع، وبه استشهد، وبه يريد أن يقوّم ما أعوج من بعض أبناء زمانه ساعده الله عليهم. . . فإن صح هذا الحكم على أن أهل الأندلس تأثروا بالبيئة الأندلسية فبمن تأثر أهل المشرق وعمن أخذوا نزع العمائم في بعض المواقف وبيئتهم تختلف اختلافاً كبيراً عن بيئة الأندلس؟ ومن أخبار تلك المواقف الجدية المشرقية البغدادية الرواية الآتية: قال صاحب الأغاني في (ح9 ص 97): قال الراوي حدثنا محمد بن عباد المهلبي قال: لما مات أبو عيسى بن الرشيد دخلت إلى المأمون وعمامتي علي فخلعت عمامتي ونبذتها وراء ظهري والخلفاء لا تعزى في العمائم. . . الخ

فعلى هذا أرجو من الدكتور المبارك أن يدلي برأيه في هذه الرواية ولحضرته من أبناء الشرق وتأريخه الحديث كل التحيات (بغداد)

عبد المجيد الساكني

النفط

جاء في مقال الأديب الأخ أحمد الشرباصي أن كلمة نفط عربية الأصل، ولكن يا سيدي الأديب جاء في كتاب منشة طبري أن النفط هو سائل أفضل من زيت الزيتون للمعابد وخصوصاً في ليلة السبت. وهذا الكتاب مطبوع في بغداد من قبل 1700 سنة فهو دليل على أن الاسم عبراني لا عربي. والرجاء من علمائنا اللغويين وهم الأفاضل الأيوبي بك والعوامري بك والنشاشيبي بك أن يفيدونا هل نفط عربية أو يوجد لها اسم آخر بلغة العرب؟ ولهم الشكر من قراء الرسالة

(القدس الشريف)

داو ود أحمد العاروري

لحبيب أم لابن عبد ربه؟

في (يتيمة الدهر) للثعالبي ج1ص400 الأبيات الآتية منسوبة إلى حبيب بن أحمد الأندلسي وهي:

ودعتني بزفرة واعتناق ... ثم نادت متى يكون التلاق
وتصدت فأشرق الصبح عنها ... بين تلك الجيوب والأطواق
يا سقيم الجفون من غير سقم ... بين عينيك مصرع العشاق
إن يوم الفراق أفظع يوم ... ليتني مت قبل يوم الفراق

وقوله:

هيج البين دواعي سقمي ... وكسا جسمي ثوب الألم
أيها البين أقلني مرة ... فإذا عدت فقد حَلَّ دمي
يا خليَّ الروع نم في غبطة ... إن من غارقته لم ينم
ولقد هاج لقلبي سقما ... حب من لو شاء داوي سقمي

وفي (العقد) لابن عبد ربه - المجلد الرابع ص41 - عندما تكلم في التوديع ينسب هذه الأبيات إلى نفسه. فهل أخطأ الثعالبي في التحرير، أم كذب ابن عبد ربه وادعى لنفسه ما لم يقل؟ نريد من الأستاذ إسعاف النشاشيبي أن يسعفنا بالقول الفصل وله منا الشكر ومن الله حسن الجزاء

أحمد حسن علي شعيب

كتاب (محمد فريد) لعبد الرحمن الرافعي بك

لم يكتب إلى اليوم تاريخ مصر الحديثة كاملاً، وإلا فأين صفحات فلان وفلان من أبطال جهادها والذائدة عن حقوقها؟ وإذا كان تاريخ (محمد فريد) - وهو من زعمائها الآحاد - كادت تغمره الحوادث في لجة النسيان حتى نشأ الناشئ وهو لا يدري عنه إلا ما لا غناء فيه فكيف بمن هم دون فريد أثراً؟ لقد عنى بعضهم داخل الجامعة وخارجها بالكثير من الموضوعات التاريخية، فقرأنا لهم المباحث الطيبة قي شتى فترات التاريخ، ولكنا لم نجد بين إنتاجهم التاريخي شيئاً عن مصر الحديثة المجاهدة

ولقد قيل كثيراً: إنه يصعب كتابة تاريخ الأيام القريبة لاعتبار سياسي؛ وهو قول ينبغي الأخذ به، فالمؤرخ الحق لا يعرف شيئاً يمكن أن يجور به في عمله عن قصد السبيل؛ والإنسانية استطاعت الآن إلى حد كبير أن تحمي العلم الخالص من كل تحكم ظالم؛ وإن أناساً هنا وهناك نشروا مذكراتهم، أو تأليفهم التاريخية، وفيها مساس كبير بالمعاصرين، فخرج عملهم على حظ عظيم من الإحسان والدقة. . . هذا، ووثائق التاريخ المصري الحديث لما تندثر، وفرصة تمحيص رواياته أكثر اليوم مواتا للباحثين؛ ونشر صفحاته ستفيد منه الأمة وناشئتها بصفة خاصة خيراً كثيراً؛ وإذن فليس يجمل إهمال هذه الاعتبارات جميعاً تلقاء الخوف من اعتبار واحد فيه ضعفه.

لا غرو بعد هذا إن نحن قابلنا كتاب (محمد فريد) للرافعي بك، وهو إحدى حلقات سلسلته الذهبية في تاريخ مصر القومي بالكثير من الغبطة والتقدير. . . فهو تاريخ كامل للفترة الواقعة بين سنتي 1908 و 1919، تلك الفترة التي لا نغالي إذا قررنا أن شبيبتنا التي لم تدركها تجهلها، أو - على أحسن الفروض - تجهل الكثير من أحداثها

ولقد جمع الرافعي في كتابه ما يكاد يطلع القارئ على كل ما كان في هذه الحقبة الهامة في تاريخ النهضة المصرية، وكأن القارئ الشاب عاشها فعلا، ولكن لا كفرد عادي يعرف شيئاً وتغيب عنه أشياء، بل كفرد وثيق الصلة بالحركات المختلفة للنهضة، مطلع على دقائقها

ولن يجد الشباب في كتاب الرافعي كتاباً تاريخياً دقيقاً فحسب، ولكنهم سيجدون فيه أيضاً سيرة مثالية توجه نزعاتهم الطامحة

سيرون الجهاد والمثابرة في أسمى صورهما، وسيرون كيف يكون الزهد في المنصب والجاه، وكيف يكون التفاني في المثل العليا بأوفى معانيه. وسيرون السعي السلمي المنظم

لإيقاظ الشعور الوطني، وترقية الأفكار العامة، وإحراز الدستور. وسيرون مولد الكثير من المشروعات الإنسانية في نواحي الاقتصاد والاجتماع والتعليم، وسيرون في جنباته صوراً كثيرة لأدب تلك الفترة، وسيجدون أمامهم من الوقائع والروايات ما يستشفون منه الموضوعات الاجتماعية والسياسية وقتئذ

وسيرون - وما أنفع وما أروع! - سيرون العنت الهائل يلحق بأسلافهم المجاهدين فيزيدهم إيماناً! سيرون كيف كانت المطالبة بالحقوق جريمة يحاكم فاعلوها بالحبس مع الشغل.

وسيرون الأخلاق الواهية، وكيف ينبعث من بني الوطن من يكيدون للوطن وخدام الوطن. ثم سيرون في تاريخ الوطنية أحداثاً لم يعاهدوها إلا في تاريخ الأديان: سيرون الهجرة والفتن والردة! وسيرون بعد حامل الرسالة لا يهن ولا يهون

ليقرأ الشباب هذا الكتاب ليروا فريداً المجاهد تعذبه الغربة، وتؤوده العلة، ويود لو انتقل إلى مكان في نفس أوربا أرحم بمرضه فلا يستطيع لضيق ذات يده! ثم ليروه وهو المصاب بأدواء الكبد والاستسقاء، والذي يغادر مشفى ليدخل آخر، وينتهي من عملية القيلة المائية ليعاني (بزل) الماء الراشح في تجويف بطنه. . . تارة بالتسعة لترات، وتارة بالسبعة عشر لترا. . . ليروا هذا المريض المجهود يدع البلد الذي آنس فيه بعض الشفاء وينفر إلى المؤتمر الدولي الاشتراكي في (لوسرن) ليرفع فيه صوت مصر!

وسيتابع الشباب في الكتاب حياة (فريد) حتى تأفل، وسيسمعون قوله والمنية ترنق عليه: (لست أخاف الموت، لأنه حق، ولكن كل ما كنت أتمناه أن أرى مصر متمتعة بتمام استقلالها!)

وسيسمعون إلى وصيته الدافقة وطنية وأسى وشعراً؛ (فإذا مت فضعوني في صندوق، واحفظوني في مكان أمين، حتى تتاح الفرصة لنقل جثتي إلى وطني العزيز الذي أفارقه وكنت أود أن أراه!)

أما بعد، فقد ترك لنا الأستاذ الرافعي سبيلا ننقد منه كتابه القيم، فهو يتعقب عامداً زعيماً بعينه يبحث له عن زلات، ويفسر الكثير من تصرفاته بما يسيء إلى سيرته؛ والرافعي قد يكون رجلاً حزبياً سياسياً يتلمس الأسباب لرفع مذهب على مذهب، وينظر إلى عمل خصمه السياسي نظرة تبدي المساوئ؛ فهو لذلك قد يكون معذوراً فيما صنع، ولكننا كنا

نؤثر أن يغلب الطابع العلمي التاريخي المحض على كتابه العظيم

وفي الكتاب أخطاء مطبعية يضيق المقام عن سردها، ونرجو أن يبرأ منها في طبعاته التالية إن شاء الله

وللأستاذ المؤلف شكر الوطن القادر صنيعه ووفاءه

(المنصورة)

لبيب السعيد

العدد 430 - بتاريخ: 29 - 09 - 1941

عبرة من (نظام أوربا الجديد)

للأستاذ محمد توحيد السلحدار بك

عنوان إن هو إلا زواق خادع، خلعته الدعاية النازية على سياسات (نظام أوربا الجديد) شيطانية تؤسسها القوة الألمانية في أوربا، لتستغل بها الشعوب المغلوبة وتستفحل، فتمد رواق سيادتها حيث توجد مطامعها من العالم القديم إلى الجديد، إن هي خرجت

ظافرة من هذه الحرب الضروس.
وقد استعار إينتسج ذلك العنوان لكتابٍ فند به (ما تدعيه النازية من أن الدول الأوربية التي تخضع لسلطان ألمانيا ستتمتع برخاء منقطع النظير في تاريخ البشرية) في ظل هذا النظام، وكشف (عن الخطط المحتملة التي تدل التجارب على أن النازيين سوف يتبعونها في المستقبل). فلله دره!
دعاية تحارب دعاية! لكن (إينتسج) جاء بحقائق وعبر يجب أن يتأملها الناس، عسى أن تستنير بها بصائر، وترتفع أوهام، ويتبين مآل كل حال. وحسب الشرقيين موعظة قوله: (الشرط السياسي الأساسي لقيام نظام أوربا الجديد هو وجود جيش ألماني. . . بحال تمكنه من غزو البلاد التي يريد غزوها من غير أن يلقى مقاومة تستحق الذكر، يكفي لقيام الأحوال السياسية التي يحتاجها إنشاء النظام الجديد).
ولذلك فإننا غير واثقين من أن البلاد التي يشملها هذا النظام ستحتلها قوى ألمانيا العسكرية بصفة دائمة. . . وأكبر ظننا أن بعض أجزاء من البلاد المفتوحة ستضم بالفعل إلى الدولة الألمانية. . . لكن ألمانيا قد تجد من الملائم لها مع ذلك أن تقيم عدداً من الدول الخاضعة لسلطانها مستقلة بالاسم عنها، ولكنها خاضعة لها خضوعاً تاماً. . .
ولن ينقضي أجل الاحتلال الألماني للبلاد المفتوحة حتى يقاوم فيها نظام للحكم موال لألمانيا. ولربما اتخذوا من وعدهم بجلاء الجيوش الألمانية وسيلة يحصلون بها على تأييدهم في إنشاء نظم للحكم صورية تكون ألعوبة في أيديهم. أما الأمم التي تظهر عدم رغبتها في قبول (حقائق الموقف)، فستنذر بالضم إلى الدولة الألمانية. . .
إن قيام هذه الحكومات المحلية بالأعمال الإدارية العادية يوفر على برلين عناء كبيراً، ويمكنها من أن تتفرغ لوضع قواعد سياستها العامة. يضاف إلى هذا أن جزءاً من العداء الذي يوجه إلى ألمانيا إن أدارت هي شؤون البلاد، سيتحول تياره نحو هؤلاء الحكام، فإذا لم يطق الناس حكمهم لشدة كرههم إياه، استبدلت بهم طائفة أخرى من الخونة الذين لا يستنكفون أن يخدموا المصالح الألمانية. . .
وليس من المحتم أن يكون الذين يقبلون الاشتراك في هذا العمل الإداري خونة، فقد يشعرون بأنهم يخدمون أمتهم إذا قاموا بالعمل العادي الضروري لحياة المجتمع الحديث.
ولكن الذي نرجحه أن تقوم سياسة ألمانيا في البلاد التي تحت سلطانها على إيجاد طوائف من الخونة مختلفين، نازيين أو غير نازيين يعارض بعضهم بعضاً. وقد تكون الأحزاب النازية المحلية المتنافسة أصلح الطوائف لهذا الغرض، فإذا لم تكن كذلك فإن ألمانيا لن تتردد في أن تقدم معونتها لأي نظام يخضع لمشيئتها وإن لم يكن قائماً على المبادئ النازية. . .)
تلك إذن هي السياسة النازية العاملة في البلاد الأوربية، وهي من ظواهر المنطق الألماني الذي يوهم صاحبه أنها سياسة يعمل بها حتى غير الألمان، فيقول استي مثلاً في كلام على التوسع الإمبراطوري البريطاني في مصر: (وجد لسوء الحظ في مصر، كما وجد في الهند، خونة للوطن ظنوا أنهم بعون الإنجليز يستطيعون الاستيلاء على الحكم، وبهذا نجحت في البقاء بمصر سلطة أجنبية ما كانت أبداً لتستطيع التسلط على بلد متحد حول الفكرة القومية).
لو وقع ذلك في مصر لكانت حالها حينئذ عين الحال التي يضربها الألمان من الآن على أمم أوربا المغلوبة وهي ليست بأقل منهم إنسانية، وإن أنكرت ذلك النازية المتغطرسة حتى على الآريين من غير الجرمان.
وإذا كان شأن الألمان مع الأوربيين أنفسهم هو ما علمت فما الظن بما يستحلون في استعباد الشرق واستغلاله واستيعاب ثروته، إن قدر لهم النصر في النهاية؟
حقاً إن في بيان إينتسج لعبرة يجب أن يعتبرها كل مخدوع أو مخادع وهو غافل عن الحقائق.
محمد توحيد السلحدار
الحديث ذو شجون
للدكتور زكي مبارك
الدراسة الجامعية كما يفهمها الأستاذ أحمد أمين - كيف

تغترب ومعك قلمك؟ - الشكوى إلى ضريح الإمام الشافعي
تصور يأس الناس من العدل في الأرض، فهم يلتمسونه في
السماء - إلى وزير الأوقاف - مسابقة الأدب العربي لطلبة
السنة التوجيهية. . .
الدراسة الجامعية
للأستاذ أحمد أمين آراء تظهر من وقت إلى وقت، فتدل على مبلغ فهمه للحياة الأدبية والاجتماعية، وهي آراء لا تحتمل النقض، لأنها في الأغلب واهية البنيان، والمعول لا ينقض إلا على البناء المتين.
وآخر ما صدر من تلك الآراء هو حكمه على الدراسة الجامعية، فهو يرى أنها (تجعل من الحبة قبة، ومن الهزل جداً، وإن شاءت فمن الجد هزلاً)؛ ثم يقرر بعبارة صريحة أن الدراسة الجامعية: (تميت الحي وتحي الميت، فهي تحيي اللاتينية واليونانية والحبشية والأكادية وقد ماتت، وهي تميت الحي، فتدرس اللغات الحية دراسة تميتها وتفقدها روحها، وتبعد عن تذوقها، ولذلك قل أن تخرج الجامعة أديباً شاعراً أو كاتباً، وإنما تخرج أديباً ناقداً أو أديباً عالماً؛ ومن كان أديباً من رجال الجامعة فمن طبعه ونفسه، لا من الدراسات الجامعية، وإن شئت فقل إنه أديب برغم الدراسات الجامعية، لا بفضل الدراسات الجامعية)
ذلك ما قاله الأستاذ أحمد أمين في العدد 142 من مجلة الثقافة الغراء، وهو اعجب ما صدر عن هذا الرجل المفضال.
وقبل أن أنقض رأيه في الدراسة الجامعية أقرر أن كلية الآداب لا تطوق بهذا الرأي، ولن يكون حجة على أساتذتها وطلابها وخريجيها، فيشمت فيهم الدرعميون والكلغريون.
فكلية الآداب هي صوت مصر الأدبي في الشرق، ولن يضيرها أن يخطئ أحد المنتسبين
إليها بكلمة يكتبها في وقت لم يكن يصلح فيه لجد ولا لعب، كما صرح بذلك في تلك الكلمة الواهية ثم أواجه الموضوع فأقول:
أتكون مهمة الدراسة الجامعية أن تجعل من الحبة قبة؟ أم تكون مهمتها أن تمنع الحبة من أن تصير قبة، وأن تحمي القبة من أن تصير حبة؟
المنطق يوجب أن تكون مهمة الدراسة الجامعية هي إقرار الحقائق في نصابها الصحيح، بلا تزيد ولا تحيف، وإلا كانت دراسة بهلوانية!
ثم أقول: كيف يكون واجب الدراسة الجامعية أن تجعل من الهزل جداً، ومن الجد هزلاً؟
يصح أن يقال إن الدراسة الجامعية ترى كل شيء صالحاً للدرس ولو كان من الهزل، لأن العلم جده جد وهزله جد، ولكن كيف يصير الجد هزلاً بفضل الدراسة الجامعية؟
ثم يحكم بأن الدراسة الجامعية (تدرس اللغات الحية دراسة تميتها، وتفقدها روحها، وتُبعد عن تذوقها)
فمن أين أخذ هذا الرأي؟ وعمن سمع هذا القول؟
أتكون الحالة كذلك في كلية الآداب لهذا العهد؟
ثم يرى الأستاذ أحمد أمين أنه يقل أن تخرج الجامعة أديباً، شاعراً أو كاتباً، وإنما تخرج أديباً ناقداً أو عالماً. فهل يستطيع أن يدلنا كيف تستطيع الجامعة أن نخرج الأديب الناقد أو العالم وهي تدرس اللغة دراسة تميتها وتفقدها حيويتها وتبعد عن ذوقها؟
إن الأصل للمتفق عليه أن النقد هو إدراك الصلات الوثيقة بين الألفاظ والمعاني والأغراض، فإذا صح أن الدراسات الجامعية تنحرف بالأستاذ والطالب عن ذلك الأصل فكيف تخرج الجامعة أديباً ناقداً وقد تعلّم على أساس منخوب؟
والأصل في العلم أن يصل بصاحبه إلى فهم الحقائق على ما هي عليه، فكيف تخرج الجامعة أديباً عالماً وقد أبعد عمداً عن تذوق الجمال الأدبي؟
كيف تغترب ومعك قلمك
قرأت خطابك يا صديقي، وعزّ عليّ أن يقع في حياتك ما يزعجك، ولو شئت لنصصت على اسمك وبلدك لتكون المواساة جهيرة الصوت، لا يصدها تهيب، ولا يسترها حجاب،

ولكن حرصي على استقلالك يمنع من هذه المواساة الجهرية، فما أحب لأرباب الأقلام أن
يحتاجوا إلى أسندة من العطف والإشفاق على صفحات الجرائد والمجلات، وإن كان ذلك من الأساليب المألوفة في العصر الحديث.
إن الذي يعوزك هو الثقة بنفسك، لتأنس بقلمك، فلا تشعر بضجر الاغتراب في بلدك وبين قومك، فقد كتب الله الغربة على أهل الفكر والعقل، ولو عاشوا في رحاب عشيرتهم الأقربين. . ألا تذكر قول أبي تمام في اغتراب أحد الفضلاء: غربته العُلا على كثرة الأهل فأمسى في الأقربين جنيبا فليطل عمرهُ فلو مات في (مَرْوَ) مقيماً بها لمات غريباً.
فما رأيت أصدق من هذين البيتين في وصف ابتلاء أهل الفضل بالغربة والتوحد، وإن كانوا محفوفين بالمئات من الأصحاب والسجراء، ولا نظرت في هذين البيتين إلا حمدت الأقدار التي قضت بأن يكون في ماضينا الأدبي معانِ كهذه المعاني. . . طيب الله ثراك يا حبيب!
على أنه لابد من لومك على ما استجزت من إعلان التبرم بالناس، ففي رسائلك إلى ما يشهد بأنك على جانب من الغفلة، فقد كنت تتوهم أن الناس سيقيمون لك التماثيل في حياتك، لأنك واجهتهم بالطرائف الروحية والذوقية، وفاتك أن تذكر أن (كل ذي نعمة محسود) وأن الفضل قد يعد من أكبر الذنوب، لأنه يمنح أصحابه سلطاناً لا يزول، ولأنه الآية الباقية على الزمان، الآية التي تشهد بأن لله حكمة في إعزاز أرباب المواهب، ولو كانوا فقراء الجيوب، والفقر فقر القلب لا فقر الجيب. . .
يجب أن تعرف أن الذين يحاربونك لأنك جهرت بهذا الرأي أو ذاك، لا يحاربونك مجاهدين، وإنما يحاربونك مغتاظين، فهم حطب جهنم، ولو غطوا أقوالهم بألف رداء من أردية الرياء هل تفهم قول أبي فراس؟
ومن شرفي أن لا يزال يعيبني ... حسود على الأمر الذي هو عائب
افهم هذا البيت، فما وجدت من يفهمه على الوجه الصحيح معنى هذا البيت أن الشاعر يؤخذ بأقوال وأعمال يتمنى عائبوه أن تكون من زادهم المكسوب، وكذلك يتمنى خصومنا أن تخلع عيوبنا عليهم، لأنهم يعرفون أنها عيوب رجال، وعيوب الرجل هي العسف والسيطرة والاقتحام في ميادين لا يطيقها غير الفحول.
فإن صدقت فراستي فيك فستكون لك أنصبة ضخام مما يجيده صاغة الزور والبهتان، وسيكون حاضرك وماضيك هدفاً لكل أفاك أثيم، إلا أن ترى الأقدار أنك جدير بالرحمة من حمل الأمانة الفكرية والعقلية، فتردك شبحاً لا يثور عليه حاقد ولا حاسد ولا جهول.
أسمع، يا صديقي!
في كل ميدان تقوم جماعة من أهل الشجاعة والاستبسال، فهذه جماعة تقاتل في ميدان الوطنية، وتلك جماعة تخاطر في ميدان الاقتصاد، إلى آخر ما أعرف وتعرف من أنواع الجماعات، فكيف يخلو ميدان (الفكر الحُر) من جماعة تصاول في سبيل حمايته من طغيان أهل الغفلة والجمود؟
وكيف يخلو زماننا من رجال يضحون بمنافعهم في سبيل الحرية الفكرية؟
وبأي وجه نلقى الله إذا تراجعنا وبأيدينا أسياف الحق وهي أقلامنا؟
الجبن جائز على أي مخلوق، إلا أن يكون من حملة القلم أو السيف، فإن كنت منا فأقدم غير هياب، وإلا ففي ميدان السلام الرخيص متسع للجبناء.
أخوف ما يخافه المفكرون من أبناء هذا العصر هو أن تصبح أعراضهم مضغة في أفواه الغافلين والجاهلين، وما خطر ذلك وهو هباء في هباء؟
إن لحومنا لحوم الأسود، ولا تدخل مضغة منها جوف رجل إلا مزقته أفظع تمزيق، وسوف يعلم المرجفون نبأ هذا النذير بعد حين.
ثم اسمع، يا صديقي
هل تعرف الأثر الذي يقول (من مات غريباً مات شهيداً)؟ كان المفهوم أن المراد هو الغربة الجسمية، كأن يموت الرجل في بلد غير بلده، فكيف يصير من يموت وهو في غربة روحية أو عقلية؟
عند الله ندخر الجزاء على هذا الاغتراب، وكيف يغترب من يأنس الله ويكاد يراه في كل وقت وفي كل مكان؟

إليك أوجه أشواقي، أيها المحبوب، وذلك هو اسمك عند الصوفية. إليك أوجه أشواقي، فلولا الإيمان بسمو حكمتك في خلق الوجود على هذا الأسلوب لكانت الإقامة في بعض نواحيه جحيماً لا يطاق.

وأنا مع ذلك عاتب، فما الذي يمنع من أن ترفع الحجاب لأعرف بعض ما أجهل من أسرار
هذا الوجود.

لقد هديتني فعرفت أن لك حكمة في خلق (الكوبرا) وهي أشرس الحيات، لأن سمها ينفع في دفع أشرس الأمراض وهو السرطان.

فمتى تهديني لأعرف حكمتك في خلق الدساسين والنمامين والمفسدين والمرجفين من صاغة الزور والبهتان؟

أيكونون من (الكوبرا) الآدمية؟!

العدل بين الأرض والسماء

كتب أحد الوعاظ كلمة في إحدى المجلات رداً على ما قلت في الوعاظ وقد أراد ذلك الواعظ أن يذكرني بأهمية الوعظ فذكر أشياء يجب أن ينزه عنها الجمهور المصري، ومن تلك الأشياء تقديم العرائض إلى ضريح الإمام الشافعي، لينصف المظلومين من الظالمين.

وكلام هذا الواعظ حديث معاد، فقد قيل هذا الكلام قبل مئات السنين، وهو لا يدل على فكر ولا عبقرية، لأن أصغر متعلم يدرك أن الأمر بيد الله وحده، وأن الشافعي لا يملك لنفسه ولا لغيره ضراً أو نفعاً، فجهاد الوعاظ في مثل هذا الشأن التافه جهاد في غير ميدان. ولكن هذه العرائض لها مغزى فلسفي لا يفطن إليه ذلك الواعظ اللبيب، وذلك المغزى هو اليأس من العدل بين أبناء الأرض، والشعور بأن العدل لا يصدر إلا عن السماء.

ومن هم المحتكمون إلى الإمام الشافعي؟

هم جماعات من العوام عجزوا عن تقديم غرمائهم إلى ساحات القضاء، لأنهم لم يجدوا الرسوم، أو لأنهم لم يجدوا الشهود، أو لأن حقوقهم على غرمائهم بلغت من الخفاء مبلغاً لا يفصل فيه غير السماء، لأن قضاة الأرض لا يحكمون إلا بعد ظهور الأدلة والبراهين، وهي لا تظهر في جميع الأحيان.

هل سمعتم أن وزارة العدل كلفت أحد رجالها درس تلك الشكايات؟

كل ما يقع هو اهتمام الشيخ القائم على الضريح بتمزيق تلك العرائض حتى لا يجدها الشاكون في أماكنها عند رجوعهم إلى الضريح، وبذلك يفهمون إن الإمام الشافعي أخذها بيديه الكريمتين ليدرسها بعناية، وليصدر حكمه الصارم على الظالمين.

وإنما يفعل ذلك شيخ الضريح ليضمن عودة أولئك العوام بالنذور والهبات، فهل أدبته وزارة
الأوقاف ليكف عن عمله (المقبول)؟

وكيف نعيب على العوام أن يستعينوا بالإمام الشافعي، وجمهور المتعلمين في مصر يؤمن بأن لا تقديم ولا تأخير بغير الوساطات والشفاعات؟

التفتوا مرة واحدة إلى هذه المعاني، يا جماعة الوعاظ، ولا تكتفوا بإعادة الدروس التي تلقيتموها عن أشياخكم، وهي دروس لم تصل بهم ولن تصل بكم إلى يقين.

إلى وزير الأوقاف

وزير الأوقاف لهذا العهد هو أستاذ الفلسفة الإسلامية بالجامعة المصرية من قبل، والتفاتاته الذهنية تجعل الفرصة مواتية لدرس هذا الموضوع الدقيق.

وأنا أقترح أن يؤلف لجنة لدرس الشكايات التي توجه إلى المزارات المصرية لنعرف فهم الشعب لقدسية العدل، ولنعرف أسباب يأسه من إنصاف القضاء.

فإن أجاب - وسيجيب - فقد نظفر بفكرة فلسفية تؤكد القول بأن لا جديد تحت الشمس، وأن الذين يقدمون شكاياتهم إلى المزارات الإسلامية كان لهم أجداد يقدمون شكاياتهم إلى المزارات الوثنية، والمعنى واحد عند أولئك وهؤلاء، ومرجعه الأول هو اليأس من عدل الأرض، والشواهد تنطق بأن لهذا المعنى وشائج في الحياة المصرية.

يجب أن تصادق سكرتير الوزير لتصل إلى الوزير.

ويجب أن تصافي سكرتير الوكيل لتصل إلى الوكيل.

فما ذنب العوام في أن يتوهموا أن الحضرة السماوية لها سكرتارية أرضية، وهم يشهدون تأثير الشفاعات والوساطات في جميع الشؤون؟
ما ذنبهم وهم بفطرتهم من أهل القياس؟
وهل يفهم هذا الكلام بعض من يتصدرون لهداية هذا الجيل؟
افتحوا عيونكم وقلوبكم وعقولكم، يا قادة الرأي في هذه البلاد، فإن لم تفعلوا فسيكون للقلم معكم تاريخ.

مسابقة الأدب العربي لطلبة السنة التوجيهية

كتب إلينا جماعة من الناجحين في امتحان الثقافة العامة يرجون أن تلتفت مجلة الرسالة إلى
تشريح الكتب المقررة لمسابقة الأدب العربي، على نحو ما صنعت في السنة الماضية.
وأجيب بأن شواغل هذه الأيام لن تصرفنا عن ذلك الواجب، وسنشرع في تأديته بعد أسبوع أو أسبوعين، بحيث يستطيع طلبة السنة التوجيهية أن يدركوا أسرار تلك المؤلفات قبل الامتحان.
وأنا أعيد الرجاء الذي وجهته إلى أصدقاء الرسالة في السنة الماضية، وهو التفضل بمشاركتي في أداء هذا الواجب، رعايةً لحقوق أولئك الأبناء.
أما الذين فازوا في مسابقة العام الماضي فلهم منا أطيب التهاني، ثم أصدق الرجاء في أن يظلوا أمناء للحياة الأدبية، ولو اتجهوا إلى العلوم والرياضيات. والله عز شأنه ولى التوفيق.
زكي مبارك

من أخلاقنا:

حق الضيافة

للأستاذ علي الطنطاوي

قد أكون على موعد يفوتني بفواته خير عظيم، ولا يبقى بيني وبينه إلا مقدار ما ألبس ثيابي وأمشي إليه، فيجيئني ضيف لا حاجة له عندي، ولا خير له في زيارتي، ولا يبتغي مني إلا أن يدفع الملل عن نفسه بالبقاء ساعتين أو ثلاثاً عندي، فيسقط في يدي، وأحار في أمري: إن استقبلته ضيعت موعدي، وإن رددته أضعت (حق الضيافة) وتعرضت لسوء الأحدوثة؛ ثم أختار أهون الشرين: فأرحب به وأدعوه، وآمل أن أفهمه حقيقة حالي وأعجل له بالقهوة فينصرف. . . وأجلس بين يديه متململاً متضايقاً، وأتلطف في إفهامه والاعتذار إليه، فلا يحفل بي ولا بموعدي، ولا ينظر إلا إلى نفسه ورغبته في قطع الوقت بهذه الزيارة، فيقعد آمناً مطمئناً، يحدثني حديث السياسة، ويسألني عن الروس واليابان، والصين وتركستان، ويعرض عليّ رأيه في الأنظمة التي ستعم العالم بعد الحرب. . . ويفيض ويسهب، وأنا أتقلب على النار، ويبقى على ذلك حتى لا يبقى لي منفعة من الذهاب، ولا يمكن تدارك ما فات، فينصرف ليتحدث عني بأني لقيته بجفاء وخشونة، وكلمته باقتضاب وإيجاز، ولم أوفه (حقوق الضيافة)!
وقد أكون مستغرقاً في مطالعة، أو منصرفاً إلى كتابة قد جمعت لها ذهني. . . فيجيئني ضيف، فأنزل إليه لأسمع منه لغو الحديث، فيفترق ما أجتمع من ذهني، وتفسد على مطالعتي، وإن أنا بعثت من يقول له: (ليس هنا) أكون قد كذبت، وإذا اعتذرت إليه بمطالعتي أو كتابتي أكون قد قصرت في (حقوق الضيافة)!
وقد يأتي الضيف ومعه ولده، فيعبث بالكراسي والمناضد ويكسر الكأس، وربما أمره أبوه بأن يتسلى باللعب مع أولاد الدار، فينطلق كالجن. . . فيفسد كل ما يمر عليه ويزعج الأهل ويأتي كل كريهة، فإذا زجرته أو كففته أو أفهمت أباه أنه ليس من الذوق ولا من التهذيب أن يحمل أبنه - أعني عفريته - إلى بيوت الناس، أكون قد فرطت في (حقوق الضيافة)!
وإن كانت وليمة أو عقد ودعوت عشرين رجلاً، جاءوك ومعهم عشرون ولداً، فتنقلب الدار إلى مدرسة أو إلى مارستان ويتحول المضيف إلى معلم أو قاضي أولاد، وقديماً قال المثل
العامي: (قاضي الأولاد شنق نفسه). . . فإذا وقفت على الباب خادماً يمنع دخول الأولاد، غضب الآباء المدعوون، وانصرفوا ساخطين على هذا الذي لا يعرف (حقوق الضيافة)!

وقد يكون لك عدو تعرض لك بأنواع الأذى، وأراك فنون العدوان. . . ثم نشأت له حاجة عندك، فزارك في دارك، وأبى أن يشرب قهوتك حتى تقضى حاجته، وربما كانت حاجته أن تنجح أبنه في الامتحان. . . فإذا قضيتها خنت أمانتك وعاد إلى مضارتك. . . وإن أبيت عليه وأعرضت عنه، وأفهمته أن الامتحان أمانة، وأن ابنه ضعيف كسلان لا يجوز نجاحه، كنت الملوم المعاتب، لأنك لم تحفل (بحقوق الضيافة)!

والضيف يزورك حينما يحلو له لا حين يحلو لك، ويبقى ما طاب له البقاء عندك، ولا شأن له بفراغك ولا بشغلك، ولا بضيق وقتك ولا بتعب أهلك، ففي الغداة تجوز الزيارة، وفي الضحى وعند الزوال ساعة الغداء، وفي الظل وقت الراحة، وفي الأصيل وفي الليل. وقد يصل الزائر هذه الأوقات كلها بعضها ببعض، فيشرفك بزيارته من الصباح ويلبث (يؤنسك) إلى وقت النوم، وقت منامه هو لا منامك أنت، وربما زارك أقرباؤك، أو أقرباء أقربائك بنسائهم ورجالهم وأطفالهم؛ وأقاموا عندك (صلة للرحم) أياماً وليالي، ونغصوا عليك عيشك، وافسدوا نظام دارك، وأنت مضطر إلى السكوت لا تستطيع أن تقول شيئاً يمس (حق الضيافة). وربما زارك الزائرون في محل عملك، فشغلوك عنه وأكسبوك غضب رؤسائك، وسخط زملائك.

ولقد كان الكرم والشجاعة عماد الأخلاق عند العرب وشعارها وجماع أمرها، لمكان البداوة من حياتهم، فقد كانوا يعيشون في قفار قاحلة وقرى كالقفار، لا فندق فيها ولا مطعم ولا خان، وما للنازح فيها عن داره إلا أن ينزل ضيفاً على كريم يؤويه ويقريه، ولم يكن في بلادهم شرطة ولا نيابة ولا سجن فلم يكن للرجل إلا سيفه يعتصم به، فتعودوا الشجاعة والكرم حتى صار ذلك طبعاً لهم وخلقاً، وبالغوا فيهما وجانبوا القصد، فبلغوا التبذير وقاربوا التهور، وكان عذرهم في ذلك أن الرجل منهم يطعِم حتى يطعَم، ويقري الطارق الغريب كي يقرى هو طارقاً غريباً، وأستمر ذلك إلى الإسلام، بل لقد بولغ فيه بعده حتى أتى القوم بهذه العجائب التي نقرأ أخبارها في الكتب. وانتهى ذلك إلينا فنشأنا على تقديس (حق الضيافة) وتقديمه على سائر الحقوق، ورفعه مكاناً عالياً لا يناله النقد ولا التقويم، واتهام من يقول فيه مثل مقالتي باللؤم والبخل. لذلك أقدمت عليها متردداً يدفعني إليها أننا في مطلع حياة جديدة يجب في مثلها تمحيص الأخلاق والعادات وتقويمها والإبقاء على النافع منها وطرح مالا فائدة منه بعد ما تغير الزمان، ولا يكون ذلك إلا بالخروج من ربقة التقليد الذي لا يفيد، ومنه تقليد أجدادنا الأولين في هذا الكرم القبيح الذي ذمه الله وسماه تبذيراً، وجعل أهله إخوان الشياطين، والقصد في الأمر والتوسط فيه، ووضع الأمور في مطارحها ولو أن حاسباً مستقرياً نظر فيما ينفق عندنا في كل سنة على الولائم والأعراس والمآتم من الأموال لهاله الحساب، ولرأى أن هذه الأموال التي تنفق فيما لا طائل تحته، ولا موجب له إلا التقليد الضار، يمكن أن ينشأ بها من المدارس والمصانع ما يرفع أمتنا درجات في سلم الارتقاء في آن قريب، فضلاً عما يكون فيه من راحة البال، واضطراد الأعمال، ودفع المكاره التي ذكرت أمثلة عليها في مطلع هذه المقالة.

وإذا كانت الحاجة هي التي علمت أجدادنا هذا الكرم، فأي حاجة تدفعنا إلى الاستمرار عليه؟ وما هو الضرر الذي ينال الضيف إن قلت له: أنا الآن مشغول فزرني إن شئت في وقت آخر؟ ولم تخاف من ذلك وهو من آداب ديننا، وقد كان من خلائقنا قبل أن يتخلق به الإفرنج؟ وماذا يضر الأهل والأقربين أن يهنئوا بالمولود فلا يشربوا (الكراوية)، وأن يحضروا (العرس) فلا يأكلوا الرز واللحم والبقلاوة، وما هم في صحراء كصحراء العرب يحتاج فيها إلى القرى، ولا هم جياع قد حضروا للطعام، وليس المقصد إلا الاجتماع وقد حصل؟ لقد خبرني صديق صادق مطلع أن نفقات عشر ولائم فقط من أوسط ما يكون في الأعراس أو المآتم تكفي لفتح مدرسة ابتدائية تتسع لمائتي تلميذ، فما قولك بنفقات الولائم كلها وسكاكر الأعياد وهدايا الولادة والعرس؟

أنا لا أرتقب من الأمة أن تقرأ هذه المقالة وتنام ليلتها فتصبح وقد نبذت هذه العادات وحددت آداب الزيارة، وتنكبت سبيل التبذير، فإن هذا مالا يكون، وإنما أرتقب أن أجد من القراء من وهبه الله الجرأة في الحق، والرغبة في الإصلاح فيسن للناس سنة (قي هذا الباب) حسنة يكون أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، كما صنع في دمشق شيخها الشيخ طاهر الجزائري رحمه الله، وعادات الإفرنج في الزيارات والولائم أصلح

في الجملة مما نحن عليه اليوم، وتقديرهم للوقت أشد، وهذا كله من آداب الإسلام، والسلف كلهم كانوا
على مثله، فلنقتبسه عن الإفرنج إذا كنا لا نتبع فيه سلفنا الصالح، ولنجعل للزيارة آداباً وأوقاتاً، ولنعلم أن (حق الضيافة) لا يقدم على حق المواعيد، ولا حق العمل، ولا حق الأهل؛ وأن رد الضيف أهون من احتمال الأذى، وإخلاف الوعد، وترك العلم، وإضاعة الأشغال ولنجعل إمامنا قول الله جل وعز (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم). صدق الله العظيم

علي الطنطاوي

نشيد الانتقام

شاعر الجرمان الأعظم

لأستاذ جليل

ألا إن قصيداً عبقرياً يصوغه (أبو محرز خلف) راوية العرب ومبدع تلك الطائفة من عبقرياتهم، ويختاره (أبو تمام حبيب ابن أوس الطائي) أكبر شعراء العرب ومختار تلك الدواوين للفائقات من أشعارهم، ويطلع عليه (ولفغنغ غوث) أعظم شعراء الجرمان ومفكريهم فيروقه ويطربه بل يبهره فينظمه، وإنما يعرف العبقري - لحقيق جد حقيق بالرواية في (الرسالة) كتاب العرب، وديوان العلم والأدب. فخذوا هذا النشيد، وخذوا هذي السطور في ابن غوث.

وقد نقلت شرح لهذه القصيدة في ديوان الحماسة وأضفت إليه ما لم يفسره التبريزي وأبو العلاء، وما رأيت فائدة في إيراده راجعاً في ذلك إلى هذه الكتب: المصباح، الإفصاح، الصحاح التاج، اللسان، المخصص، النهاية، الفائق، الأساس، تهذيب الألفاظ، كامل المبرد، بلوغ الأرب، مجمع الأمثال، كتاب سيبويه، شرح المفصل، شرح الكافية، مبهج ابن جني، خزانة الحموي، شرح المتنبي للعكبري، شرح شواهد سيبويه، شرح المقصورة الدريدية.

والمأمول أن تكافأ (الرسالة) بما تصنع فيكلف الأساتذة الكرام في كل إقليم عربي الطلاب في أعلى صف ابتدائي وفي الصفوف الثانوية، وفي الصفوف في الكليات - استظهار (نشيد الانتقام). وإنه لمن الكفر في دين الأدب ألا يحفظ شعراً عربياً أدهش شاعر الدنيا - جميع أدباء العرب.

نشيد الانتقام

قال ثابت بن جابر:

(إن بالشَّعب الذي دون سَلع=لقتيلاً، دُمه ما يُطلُّ)

(الطل) مطل الدم والدية وأبطالهما. دمه لا يذهب هدراً قلت: (الشعب) الطريق في الجبل، والجمع الشعاب

(خلْف العبءَ عليّ وولّى=أنا بالعبء له مُستِقل)

(العبء) الثقل، والمراد به ههنا طلب دمه. قلت: أقل الشيء واستقله: رفعه وحمله. ومن المجاز هو لا يستقل بهذا الأمر: لا يطيقه.

(ووراء الثأر مني ابن أخت=مَصِعٌ، عقدته ما تحل)

(المصع) الشديد المقاتلة، الثابت ههنا.

قلت: يقال: إنه لمصع بالسيف. والمماصعة المجالدة بالسيوف، والمجالدة: المضاربة.

(مُطرقٌ يرشح سَمًّا كما أطـرق أفعى يَنفثُ السمِ صل)

قلت: أطرق: أرخى عينيه ينظر إلى الأرض، ورجل مطرق: كثير السكوت. وفي حديث أم سلمة: نهش الرقشاء المطرق. (الصل) الحية الدقيقة الصفراء. يشبه الرجل بالصل إذا كان داهية، قال النابغة:

ماذا رزئنا به من حية ذكر ... نضناضة بالرزايا، صل أصلال

(خبرٌ ما نابنا مُصْمَئِلٌّ=جلّ حتى دق فيه الأجلُّ)

(مصمئل): شديد

(بْزنى الدهر - وكان غشوما -=بأبيْ، جارُه ما يُذَلْ)

(بأبي) الباء للتأكيد زائدة، ويجوز أن يكون عذى (بزني) بالباء لما كان معناه فجعني،

فيكون من باب ما عدى بالمعنى دون اللفظ.
قلت: بزه غلبه وغصبه، وبز الشيء: انتزعه، وأصل البزة (أي اللباس) من بززت الرجل أبزه إذا سلبته، فسمى اللباس بما يؤول إليه من السلب. . .!
(شامس في القُرِّ حتى إذا ما=ذكت الشعرى فبردٌ وظل)
أي هو كريم، وشامس أي ذو شمس، يعني أن من لجأ إليه في الفر وجده كالشمس التي تدفئ المقرور، ومن لجأ إليه في القيظ وجد لديه برداً وظلاً.
قلت: الشعري: كوكب نير، طلوعه في شدة الحر (ذكت) اشتد حرها ومراده طلوعها. وذكت الشمس ذكاء، ومنه قيل لها ذكاء والصبح ابن ذكاء لأنه من ضوئها، واشتقاق ذكاء من ذكو النار وهو تلهبها.
(يابسُ الجنبين من غير بؤس=وندى الكفين، شهم مدل)
يريد أنه يؤثر بالزاد غيره على نفسه، ومن عادتهم التمدح بالهزال. (الشهم) الذكي الحديد
هو الواثق بنفسه وآلاته قلت: (البؤس): الشدة والفقر (الشهم) الذكي الفؤاد (المدل) والشهم السيد النافذ النجد.
معنى (يابس الجنبين من غير بؤس) - كما أراه - أنه يتفحل ويخشوشن - غير مفتقر - كلفاً بالرجولية والفحولة ومقتاً للتخنث والتأنث والتترف. وهل يفسد المرء بل الأمة كلها جمعاء إلا الترف، إلا فرط التنعم والدعة. وأقوال ابن خلدون وغيره في هذا المعنى مشهورة.
كتب عمر (رضى الله عنه) إلى أهل حمص لا تنبطوا في المدائن، ولا تعلموا أبكار أولادكم كتاب النصارى، وتمعززوا، وكونوا عرباً خشنا.
أي لا تتشبهوا بالأنباط في سكنى المدائن والنزول بالأرياف، أو في (. . .لا تنبطوا) اتخاذ العقار واعتقاد المزارع، وكونوا مستعدين للغزو، مستوفزين للجهاد (الأبكار) الأحداث (تمعززوا) من المعز وهو الشدة والصلابة. وقد نهى (رضى الله عنه) عما نها عنه لأن القوم وقتئذ بعوث لإبلاغ الرسالة، فاليوم في حمص وغداً في الصين أو الأندلس.
!!أين عمر، أين أبو حفص عمر، أين تلميذ محمد؟
(ظاعنٌ بالحزم حتى إذا ما=حل حل الحزم حيث يحل)
(غيث مُزنٍ غامرٌ حيث يُجدي=وإذا يسطو فليث أبَلْ)
(المصمم الماضي على وجهه لا يبالي ما لقي (الإبل).
(مسِبلٌ في الحي أحوى، رفلٌّ=وإذا يغزو فسِمعٌ أزلٌّ)
من أسبال الإزار والبرد لأنهم يصفون ذا النعمة بذلك، وإنما يحمدون ذلك في (مسبل) حال الدعة والأمن، فأما في الشدائد وعند الحرب فإنهم يمدحون الرجل بالتشمير. (الرفل) الطويل الذيل. (أحوى) الذي به حوة، وهي سواد في الشفتين محمود، أو مسبل شعراً أحوى أي أسود لأنهم كانوا يوفرون لممهم، ويصفون الشاب بحسن اللمة. (أزل) الزلل خفة العجز، وذلك خلقته
قلت: السمع سبع مركب لأنه ولد الذئب من الضبع، وفي المثل: (أسمع من سمع) ويقال أيضاً: (أسمع من السمع الأزل) -: (أي الخفيف الوركين، قليل لحم العجز والفخذين) لأن هذه الصفة لازمة له كما يقال للضبع العرجاء. قال:
تراه حديد الطرف أبلج واضحاً ... أغر طويل الباع، أسمع من سمع
وليس في الحيوان شيء عَدْوه كعدو السمع لأنه أسرع من الطير، يقال: وثبات السمع تزيد على عشرين أو ثلاثين ذراعاً. .
(وله طعمان أرْيٌ وَسرْيٌ=وكلا الطعمين قد ذاق كل)
يراد به العسل، وإن كان في الأصل عمل النحل (الأرى)
قلت: (الشرى): الحنظل، وفي المقصورة الدريدية:
ليَ التواء إن معادي التوى ... ولي استواء إن مولى استوى
طعميَ شرى للعدو تارة ... والراح والأرى لمن ودي ابتغى
(يركب الهولَ وحيدا ولا يص_حبُه إلا اليماني الأفل)
قلت: سيف أفل: ذو فلول، وفلوله كسور في حده. وسيف أفل: ذم لما به من الخلل الظاهر، ومدح لما ضرب به كثيراً. سأل عروة بن الزبير عبد الملك أن يرد عليه سيف

أخيه عبد الله، فأخرجه في سيوف منتضاة، فأخذه عروة من بينها، فقال له عبد الملك: بم عرفته؟
فقال: بما قال النابغة:
ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب
(وفُتُو هجّروا ثم أسْروا=ليلهم حتى إذا إنجاب حلّوا)
جمع فتى (هجروا) ساروا في الهاجرة. يريد أنهم وصلوا السير بالسرى (فتو)
(كلُ ماض قد تردى بماض=كسنى البرق إذا ما يسل)
ارتدى بسيفه، وتردى، واعتطف به، ويسمى السيف الرداء والعطاف
قلت: (السنى): الضوء. كل رجل ماض قد تردى بسيف ماض. (الماضي) الجسور المقدم، والماضي الأسد لجرأته والسيف لنفاذه في الضريبة. مضى السيف مضاء قطع
(فأدركنا الثأرَ منهم ولما=ينج ملْحيّين إلا الأقل)
قلت: (ملحيين) من الحيين، حذف النون لسكونها وسكون اللام من الحيين كما قالوا في بلعنبر وبلحارث - يريدون بني العنبر وبني الحارث - ونحو من هذا قول قطري:
غداة طفت عَلْماءِ بكرُ بن وائل ... وعجنا صدور الخيل نحو تميم
أراد على الماء، ولا يقولون مثل هذا في بني النجار؛ لأنهم لو قالوا: بنجار لحذفوا النون،
وقد أعلموا اللام بالإدغام، فكان ذلك إجحافاً بالحرفين.
ومن طريف ما وجدته في باب الاختصار أو الاختزال . . في الألفاظ ما ورد في حديث ابن مسعود (رضى الله عنه): أن امرأة ابن مسعود سألته أن يكسوها، فقال: إني أخشى أن تدعي جلباب الله الذي جلبك به!
قالت: وما هو؟
قال: بيتك
قالت: أجنك من أصحاب محمد تقول هذا .!!.
أجنك أصله من أجل أنك أو لأجل أنك
(فاحتسوا أنفاسَ نوم فلما=هوّموا رعتَهمُ فاشمعلّوا)
جدوا في المضي، رجل مشمعل أي جاد خفيف (اشمعلوا)
قلت: حسا المرقة واحتساها وتحساها. (النفس) الجرعة. ومن المجاز احتسوا أنفاس النوم، (هوموا) إذا كان النوم قليلاً فهو التهويم. وفي حديث رقيقة: بينما أنا نائمة أو مهومة: التهويم أول النوم وهو دون النوم الشديد:
(فأن قلت هذيل شباه=لبما كان هذيلاً يفل)
حد الشيء، إن كانت هذيل تمكنت منه فكسرت حده فهو بما كان يؤثر من (الشباة) قبل في هذيل
قلت: في قصيدة أعشى بأهله التي يرثي بها المنتشر:
إمّا يصبك عدو في مُباوأة ... يوماً فقد كنت تستعلي وتنتصر
إما سلكت سبيلاً كنت سالكها ... فاذهب فلا يبعدنك الله منتشر
في مباوأة: يقول في وتر
(وبما أبركها في مُناخ=جَعْجَع ينقَب فيه الأظل)
مناخ سوء، وهو الأرض الغليظة (الأظل) باطن الخف (ينقب) يحفى. والمراد (الجعجع) فيما كان ينال منهم ويحملهم على المراكب الصعبة.
قلت: (المناخ) أصله الموضع الذي تناخ فيه الإبل. وأناخها: أبركها فبركت. واستناخت بركت، ومن المجاز: هذا مناخ سوء: للمكان غير المرضي.
(وبما صّبحها في ذَراها=منه بعد القتل ذهب وشلّ)
قلت: (ذراها) مأواها، مكانها. الذرى كل ما استترت به، يقال: أنا في ظل فلان وفي ذراه، أي في كنفه. (الشل): الطرد، ومر فلان يشلهم بالسيف أي يكسؤهم - يتبعهم - ويطردهم
صِلَيت مني هذيل بخِرق ... لا يملّ الشر حتى يملوا
قلت: الخرق: السخي الكريم الجواد يتخرق في السخاء ويتسع فيه. والكريم الجواد شجاع، والشجاعة أخت الكرم، والخرق: الفتى الكريم الخليقة
(ينهل الصعدة حتى إذا ما=ما نهلت كان لها منه عل)

القناة تنبت مستوية، وجمعها صعدات - بفتح العين - لأنها أسم، ثم قيل في :(الصعدة) المرأة المستوية القامة والأتان الطويلة. . صعدة، وهي وصف لهما، ويجمع حينئذ على صعدات - بسكون العين - لكونها صفة.

قلت: النهل: الشرب الأول وقد نهل وأنهلته أنا، والعل والعلل: الشربة الثانية؛ وقيل الشرب بعد الشرب تباعاً، ومن المستعار عله ضرباً أي تابع عليه الضرب.

(حلت الخمر وكانت حراماً=وبلأي ما ألّمت تحل)

يجوز أن تكون (ما) صلة، ويجوز أن تكون مع الفعل بعده في تقدير (ما ألمت) المصدرية. (بلأي) ببطء. ألمت حلالاً أو إلمامها حلالاً (الإلمام) الزيارة الخفيفة، وتوسع فيه فأجرى مجرى حصلت عندي.

قلت: في حديث أم أيمن (رضى الله عنها) فبلأي ما استغفر لهم، أي بعد جهد ومشقة وإبطاء. ويقولون: لأياً عرفت. وبعد لأي فعلت. قال زهير:

فلأياً بلأي ما حملنا وليدنا ... على ظهر محبوك ظماء مفاصله

نصبه على المصدر موضع الحال، والتقدير حملنا وليدنا مبطئين ملتئين. (المحبوك) الشديد الخلق (الظماء) القليلة اللحم، وهو المحمود منها، وأصل الظمأ العطش.

قالوا: إن من عادتهم تحريم الخمر على أنفسهم حتى يدركوا ثأرهم، قال امرؤ القيس:

حلت لي الخمر وكنت امرأ ... عن شربها في شغل شاغل

فاليوم أشرب غير مستحقب ... إثماً من الله ولا واغل

يقول هذا حين قتل أبوه ونذر ألا يشرب الخمر حتى يثأر به، فلما أدرك ثأره حلت له أشرب: سكنت الباء ضرورة، ومن يرد هذا ينشد: فاليوم أسقى أو فاليوم فاشرب (الواغل) الداخل على الشرب ولم يدع.

فاسقنيها يا سوادَ بنَ عمرو ... إن جسمي بعد خالي لخل (الخل) المهزول. (سواد) رخمه عن سوادة، ولك أن ترويه: يا سواد بن عمرو

قلت: في (يا زيد بن عمرو، ويا هند ابنة فاطمة) يجوز في زيد وهند وجهان: الضم على الأصل والفتح للاتباع، وحق الصفة أن تتبع الموصوف، وههنا قد تبع الموصوف الصفة، والفتح يختار ولا يجب، وقد ذهب بعضهم إلى وجوبه

هذا البيت يذكرنا ببيتين في (الجناس المعنوي) لأبي بكر ابن عبدون، فقد قال وقد اصطبح بخمرة ترك بعضها إلى الليل فصار خلاً:

ألا في سبيل اللهو كأس مدامة ... أتتنا بطعم عهده غير ثابت

حكت بنت بسطام بن قيس صبيحة ... وأمست كجسم الشنفري بعد ثابت

بنت بسطام بن قيس كان اسمها (الصهباء) والشنفري قال: (اسقنيها. . . البيت) والخل هو الرقيق المهزول فظهر من كناية اللفظ الظاهر جناسان مضمران في صهباء وصهباء، وخل وخل، وهما في صدر البيت وعجزه. والجناس المعنوي المضمر هو أن يضمر الناظم ركني التجنيس، ويأتي في الظاهر بما يرادف المضمر للدلالة عليه، فإن تعذر المرادف أتى بلفظ فيه كناية لطيفة تدل على المضمر بالمعنى كقول أبى بكر السابق، وهو أحسن ما سمع من هذا النوع

أنا ممن يقول: عوذ بالله من هذا (البديع) وأهله، وما سطرت ما سطرت إلا إكراماً لتأبط شراً وابن أخته الشنفري وخلف الفرغاني وغوث الجرماني.

(تضحك الضبع لقتلى هذيل=وترى الذئب لها يستهل)

استعار الضحك للضبع، والاستهلال للذئب، وأصل التهلل والاستهلال في الفرح والصياح.

(وعتاق الطير تغدو بطانا=تتخطاهم فما تستقل)

يروي: تهفو بطانا وهفت بمعنى تطير، يقال: هفت الصوفة في الهواء: إذا ارتفعت. بمعنى يعتاق الطير أكلة اللحمان وعافية الجيف.

قلت: العتيق: الخيار من كل شيء: النمر والماد والبازي، وعتاق الطير الجوارح منها، والجوارح من الطير والسباع ذوات الصيد لأنها كواسب أنفسها من قولك: جرح واجترح الواحدة جارحة. (بطاناً) ممتلئة البطون. (تتخطاهم) تخطو عليهم وتخطى الناس واختطاهم، ركبهم وجاوزهم. (تستقل) استقل الطائر في طيرانه: نهض للطيران وارتفع في الهواء، واستقلت الشمس في الهواء: ارتفعت وتعالت.

تم القصيد العبقري، وكمل شرحه الذي رجعت فيه إلى ما سميت في المقدمة، وسأنشر الكلمة الموجزة في ناظمه باللسان الجرماني في الجزء المقبل إن شاء الله تعالى.

(* * *)

ناحية من طاغور

يجب أن نفهمها نحن. . .

للأستاذ حسين مروة

لم ترتعش روحي ارتعاشة الجزع في تلك اللحظة وحدها: لحظة أذاع الأثير نبأ وفاة طاغور، بل قد سرت فيها الرعشة كموجة الكهرباء منذ استطار في العالم أن طاغور يعاني آلام المرض الخطير، إذ اختلج في إحساسي - حينذاك - أن هذه الإنسانية الكاملة التي تجتمع كلها في شخص هذا العظيم، قد أشرفت على ساعة الانتقال من دنيانا هذه إلى دنياها الجميلة في ملكوت الله، حيث تبلغ روح طاغور قمة الفرح الأسمى التي نشدتها بالحب الإلهي، وبالتأمل في جمال الأكوان التي (تحلها) روح الله.

قد اختلج في إحساسي - حينذاك - أن إنسانيتنا المسكينة تكاد تلتهمها لجة اليأس بانقطاع هذا الخيط الجميل من النور الأمل الذي يمتد إليها من صوت طاغور.

قد اختلج في إحساسي - حينذاك - أن أرضنا المعذبة تكاد تفقد فضلة إيمانها بالعدل والحق والخير، بانطفاء هذا القبس الوهاج من إيمان طاغور.

قد اختلج في إحساسي، كذلك أن ناس هذا الجيل تكاد تسكت في جوانب ضمائرهم أصداء هذه الأنشودة الرخيمة التي يترعها قلب طاغور رحمة ودعوة صالحة للسلام، فلا تتجاوب في ضمائرهم - من بعد - إلا أصداء أنشودة واحدة تتعالى في جوانب هذه الأرض من كل صوب، يوقعها قلب ماردٍ جبار يحدو بالإنسانية إلى هاوية الخراب والدمار: تلك أنشودة الحرب التي تجلجل اليوم في الضمائر أكثر مما تجلجل في الآذان.

ويا سرعان ما صدق القدر كل هذا الذي اختلج في إحساسي منذ تأذن الأثير باشتداد وطأة المرض على جسم طاغور، ويا سرعان ما أزفت لحظة القدر، فإذا هذا الإنسان العظيم يصعد إلى القمة العليا لينعم بحبه في كنف الحبيب الأعلى، تاركاً هذه البشرية تزحف في السفح الرهيب بين الآثام والأرجاس كما تزحف الحشرات الدنيا في الأقذار والأنجاس.

وبعد: لقد مات طاغور، فمن هو طاغور؟

أهو شاعر؟ أجل: ولكن شاعر يتغنى بأشواق الروح ليطهر أشواق الجسد، ويعلن نداء الخير ليسكت صرخة الشر، ويشهد بجمال الموت ليسمو بجبال الحياة، ويهدهد أحلام القلب

ليزين جلال العقل، ويعقد أفراح الأمل ليهدم أبراج اليأس.

أهو فيلسوف؟ نعم: ولكن فيلسوف يتسامى إلى ما وراء الطبيعة لا لكي يهجر بيت الطبيعة، بل لكي يستجلي أسرارها على هدى من الإشراق الإلهي، ويستخرج كنوزها بعونٍ من القدرة العليا المبدعة، ويستكشف فضائلها وخيراتها على ضوء من صفاء الروح، وسمو النفس، وبساطة الفطرة، ووضوح العقيدة، وحرارة الإيمان، وهذه هي خلاصة فلسفة الشرق القديم مجلوة بروح جديدة، هي روح طاغور الصافية، الطليقة، السمحة.

أهو صوفي؟ أجل: هو كذلك، ولكن أية صوفية هذه التي يلبس (جبتها) طاغور؟ هي لون جديد في دنيا التصوف، لون محبب للنفس ومحبب للعقل معاً، لأنها صوفية جميلة أنيقة مترفة، لا تتقشف ولا تتزهد ولا تتزمت، وهي - حين تسمو بروح طاغور عن دنيا البشر لتفنيها في ذات الله فناء مطلقاً - لا تذهلها نشوة الفناء عن آلام بني الإنسان وشقاء أبناء التراب، وإنما هي تستمد من حبها الإلهي السامي، ومن نشوتها الروحية العليا - فيضاً من الحب للإنسانية جمعاء، بل هي كلما أمعنت في الاقتراب من الحبيب الأعلى أمعنت في الاقتراب من الإنسانية: تتلمس آلامها، وتتحسس أحزانها، وتتأثر مواطن شقائها، ذلك لكي تقيم الدليل، بأسلوب من إلهام الروح، على أن رابطة الحب السامي بين الله والإنسانية هي أسمى روابط الحب، وهي أهدى طرق النجاة من هذه الآلام والأحزان وهذه الضروب المختلفة من الشقاء التي يعانيها الإنسان على

هذه الأرض، ولكي ترى هذه الصوفية العذبة على وضح الإدراك الصحيح - يجب أن تقف بفكرك لحظة عند هذه الأغنية من أغاني (البستاني) التي يستهلها طاغور بنداء يهتف به أن: (قد آذنت شمسك بالمغيب واشتعل رأسك شيباً، فحسبك غناء وإنشاداً، بل آن لك أن تصغي وتصيخ إلى داعي (الغد) فتقول: لبيك)

فبماذا يجيب طاغور هذا النداء؟:

(. . . من للقلوب وعواطفها، وللعيون وأسرارها إذا أنا تبوأت من ساحل الحياة صخرة صماء ولبثت شاخصاً إلى أكمة الموت وما وراءها)

أتراه الآن صوفياً كهؤلاء الصوفية المتزمتين الغارقين في لذاذة الفناء بالله حتى لا يحسون الحياة ولا تحسهم الحياة؟

لا: بل إنك لتراه إنساناً طفحت نفسه بالحياة حتى تملاها إحساساً، وتملكته رسالتها إيماناً وعشقاً، واتحد فيها حبه الإلهي وحبه الإنساني معاً، وما الحياة - في فلسفة طاغور - إلا مجلي من مجالي الروح الإلهية العليا، ومن هنا كان طاغور (الصوفي) منسجماً مع طاغور (القصصي) أو (الروائي) إذ تراه في قصصه ورواياته يتناول صغائر حياة الناس ودقائقها يحللها ويجلوها صوراً إنسانية قوية الحركة والحيوية، تثير في النفس ألواناً من العواطف والاحساسات النبيلة. ومن هنا أيضاً كان طاغور (الصوفي) منسجماً مع طاغور (الشاعر) ذلك الانسجام نفسه، فتصوف الرجل لا يعني - في الواقع - إلا الحب بأرحب معانيه: الحب المنبثق من نفس رحبة تحب الله لكونه هو الله، وتحب الإنسان لكونه إنساناً؛ وإنك إذا رأيت إنساناً يدعي الإغراق في حب الذات الكلية العظمى، ثم ينأى عن أخيه الإنسان ويضن عليه بحبه؛ فقل: إن هذا لا يعرف الله حقاً، ولا يحبه حقاً، وإنما هو يحب نفسه ليس غير: يشفق عليها من العذاب الخالد، أو يرجو لها النعيم الخالد.

ومن هذا كله ترى طاغور الشاعر، والفيلسوف، والصوفي، والقصصي - يأتلف وينسجم مع طاغور (المصور) و (الموسيقي) أجل وأتقن ما يكون الائتلاف والانسجام، ذلك لان شاعريته الرحبة، وفلسفته المشرقة، وصوفيته السمحة، وفنه القصصي الحي - ليست هي كلها سوى مظهر من مظاهر رسالته الروحية التي شاء الله أن يلقيها إلى إنسان تتسع نفسه للتعبير عنها بكل ضرب من ضروب التعبير الجميل.

أما طاغور (الإنساني) فهو هو نفسه ذلك الإنسان المتعدد الجوانب، المتنوع (الشخصيات)، وليست إنسانيته (شخصية) مستقلة مندمجة في (شخصياته) تلك، لأن الروح الإنساني الشامل هو مركز قوة لكل ناحية من نواحيه، بل تكاد تنحصر عظمة هاتيك النواحي بما تمدها به هذه الإنسانية الكبيرة من معاني السمو، والسباحة، والصفاء، والشمول؛ وبكلمة واحدة: إن جوانب طاغور المتعددة، وإن مواهبه المتنوعة لتجتمع كلها في هذه (الإنسانية) الرحبة فتؤلف منها شخصية واحدة تشبه الكل البسيط الذي لا يتجزأ ولا يقبل التحليل والتفكيك.

بقيت ناحية واحدة غفلت ذكرها فيما سبق عمداً لأنها هي الناحية التي أقصد إليها في عنوان هذا المقال، ولذلك أردت أن أتحدث عنها منفردة لكي أبلغ القصد الذي ارمي إليه،

وإن كانت هذه الناحية ليست إلا وجهاً من وجوه الصفة الإنسانية الغالبة على روح طاغور، وأعني بهذه الناحية وطنية الرجل، أو مفهوم الوطنية في تفكيره، وفي اتجاهه الروحي، وهنا أحب أن أعترف للقارئ الكريم بأنني - حين أقدمت على التعبير عما أحسست من جزع لفقد هذا الإنسان العظيم - لم أطمح لدراسته دراسة (تستوعب نواحي عظمته جميعاً، وهي لأبعد من أن تنال بهذه الكلمات الطائرة، ولكنني أردت أن أستعين بهذا القدر الضئيل الذي أملك من الطاقة الروحية والذهنية على الوفاء بواجب ذي وجهين: وجه يتعلق بهذا العظيم الذي بلغ نشوته الكبرى بلقاء الروح الكلي الأعظم، ووجه يتعلق بهذا الوطن العربي الذي يتقاضانا استخلاص العبرة، واستخراج ناحية الانتفاع العملي من سيرة هذا العظيم، وإذا كانت نواحي طاغور كلها موضع الانتفاع لكل وطن، وكل قوم، وكل فرد - فإن ناحيته الوطنية أشد لصوقاً بما نحن فيه اليوم من أحوال وظروف، لأننا اليوم أحوج ما نكون إلى تفهم معنى الوطنية على ضوء جلي من تفكير وإلهام هذا الإنسان الملهم، فلقد كادت تنقلب عندنا مقاييس الوطنية انقلاباً غريباً، حتى كادت تكون الوطنية التي نفهمها هذه الأيام لا تعني سوى ارتقاب واغتنام

أقصر الفرص لكسب الرزق أو الشهوة أو الحكم، سواء أكان في ذلك خير الوطن أم جلب الضر إليه، وسواء أكان في ذلك تخفيف الشقاء عن أهليه أم إنزال الشقاء عليهم أضعافاً مضاعفة.

إن طاغور (الإنساني) الذي يشمل الإنسانية جمعاء بحبه وحنوه وصفاء قلبه، هو نفسه طاغور (الوطني) الذي أفاض على الهند من هذا الحب والحنو والصفاء ما عرفه الهنود أنفسهم وقدروه قدره، وقابلوه بفيض مثله من الحب والإكبار والإيمان، وهل هذا غريب؟

كلا: ليس شيء أقرب للاتساق مع الطبيعة والمنطق من أن يكون طاغور الإنساني وطنياً صادقاً، عميق الإخلاص، يؤثر مواطنيه بقسط كبير مما وهب قلبه الكبير من الحب الدافق والحنان الشامل، ولكن ما هو مفهوم هذه الوطنية التي تتسق ذلك الاتساق مع نزعة إنسانية تتخطى الحدود والمعالم، وتتخطى العرف والتقاليد والأوضاع؟!

نترك الحديث عن وطنية طاغور وعن حدود هذه الوطنية في ذهنه - إلى سيرته العملية أولاً، ثم إلى آثاره الأدبية ثانياً أما سيرته العملية فتتجلى فيها وطنيته من نواح عدة: فلقد عنى طاغور برفع مستوى شعبه العقلي والروحي والاجتماعي عناية تظهر آثارها العظيمة

فيما أسس من مدارس لتطبيق تعاليمه الفكرية والروحية والاجتماعية: تعاليمه التي يؤمن بها إيماناً منقطع النظير، وتتملكه رسالتها النبيلة تملكاً يشبه من وجوه كثيرة حالات القديسين، تلك التعاليم التي كانت في عقيدته خير وسيلة لإنقاذ الشعب الهندي من صغاره وعبوديته، ومن شقائه وبلائه، ومن ضعته وانحطاطه، ولعل أروع ظاهرة في سيرته العملية هذه، هي محاولته التخفيف من حدة التقاليد البرهمية التي كانت توسع شقة الفوارق والحواجز بين طبقات الشعب وطوائفه، وأنبل مظاهر هذه المحاولة تأسيس طاغور مدرسة عالية لطائفة المنبوذين ليثقفهم تثقيفاً عقلياً وروحياً يغرس في نفوسهم الاعتزاز بكرامتهم الإنسانية، ويشعرهم بأقدارهم في الوجود، ولقد أفاد طاغور من هذه المحاولة أن بث في روحية هؤلاء المنبوذين الخامدة لهباً من روحه كاد يقربهم منزلة من الطبقات الأخرى المترفعة عنهم، وفي هذه المحاولة - كما ترى - مظهر رائع للوطنية الحق، بمقدار ما فيها من نزعته الإنسانية النبيلة، وفي سيرته العملية مظهر آخر للوطنية يتجلى في دعوته إلى إخماد لهب الأحقاد بين المسلمين والهندوس، وإطفاء ثائرة البغضاء بين جميع الطوائف التي تؤلف شعوب الهند، ولقد كانت له في هذا السبيل صيحات كريمة نافعة.

فها أنت ترى أن الوطنية في عرف طاغور ليست عملاً سلبياً مبنياً على الصراخ والتهويش والادعاء الفارغ والتشدق بالألفاظ الفخمة المجنحة، بل هي عمل إيجابي صامت يبني وينشئ ويتناول بالبناء والإنشاء عقل الأمة وروحها قبل كل شيء، لأن الأمة في رأيه ليست أمة حقاً إذا لم تكن ذات عقل ناضج وروح سام، وذات وحدة عقلية وروحية شاملة، على أن تكون في وحدتها العقلية والروحية مجتمعة على الإيمان بمثلها العليا، إيماناً يلهب وجدانها بنزعة التأمل في جمال هذه المثل الكريمة، وبنزعة التقديس لمظاهر الألوهة في هذا الكون العظيم.

هذه أروع مجالي الوطنية في سيرة طاغور العملية، وهي في ذاتها أمثلة عالية للاعتبار والاحتذاء، وهي كذلك حدود واضحة لمعنى الوطنية الصحيح. أما ما تحدثنا به آثار هذا الرجل الأدبية عن مفهوم الوطنية في ذهنه، فحسبك أن تقف من ذلك على بعض رواياته التي يدير فيها الحوار على ألسنة أشخاصها مشبعاً بالآراء والأفكار السامية حول موضوع الوطنية وحدودها، ولعل في روايته (البيت والعالم) أعظم آرائه وأفكاره في هذا الباب، فلقد

دارت هذه الرواية كلها حول هذه النقطة، وهي حدود معنى الوطنية كما تستقر في ذهني شخصين يختلفان كل الاختلاف بالاتجاه الفكري وبالمزايا النفسية وبالنزعات الخلقية أما أحدهما (سانديب)، فهو زعيم وطني يثير حماسة الجماهير ببلاغة منطقه وبقوة إيحائه النفسي، وبهذا الأسلوب نفسه، يلهب حقد الشعب على الأجانب، ويدفعه إلى مقاطعة بضائعهم، ويغريه بإيذاء المواطنين المتخلفين عن تنفيذ تعاليمه بكل وسيلة من وسائل الإيذاء، بل يغريه في سبيل ذلك باستباحة كل جريمة وبارتكاب كل

منكر؛ وأما ثانيهما (نيكهل)، فهو من راجات الهند، مثقف ثقافة عالية، ومهذب تهذيباً نفسياً سامياً عجيباً، وبسمو تهذيبه هذا استطاع أن يطهر نفسه من الأحقاد والأضغان، وأن يحملها على الهدوء والصفاء والتسامح في وجه الأزمات والرجات النفسية، وفي وجه الأشخاص الذين يحدثون هذه الأزمات والرجات في مجرى حياته، وجاهد في أن يطهر نفسه أيضاً من نوازع الأنانية العمياء التي تضحي بهناء الآخرين وشخصياتهم في سبيل هناء وشخصية صاحبها، ثم يصوره لنا طاغور رجلاً قوي السلطان على نفسه إلى غاية استطاع عندها أن يكون إنساناً سامياً حقاً، ثم يصوره رجلاً وطنياً يحب هناء شعبه ورخاءه وصون كرامته، ولكنه لا يتبجح بوطنيته هذه، بل يعمل لها بهدوء وصمت: ينشئ المعامل لتشغيل العمال وتوفير الحاجات الصناعية الوطنية، ويقتني لبيته الأثاث الوطني ويتغذى الأغذية الوطنية، ويستعمل أدوات الزينة الوطنية، ولكنه - مع كل ذلك - لا يحاول إيذاء الأجنبي بإخراج بضائعه من مقاطعته، أو إحراقها كما يفعل (سانديب)، ولا يحاول أن يقهر أحداً من مواطنيه على استعمال بضاعة معينة، لكي لا يكون في ذلك حرج أو ضرر عليه، وهو - من أجل هذا - يقف من حركة (سانديب) موقف التحفظ والحذر، وقد يحاول أن يجادل (سانديب) في أساليب حركته العنيفة، مصطنعاً في جداله الهدوء والمنطق الرزين، مبتعداً في هذا الجدال أيضاً عن التأثر بالعصبية لرأيه رغم إيمانه به كل الإيمان. أما (سانديب)، فيصوره طاغور على النقيض من صورة (نيكهل) هذه، إذ يرينا نفسه تصطخب بدوافع ونوازع هائلة مخيفة، ويرينا شخصيته لا تعتمد في تزعم الحركة الوطنية إلا على بلاغة المنطق وقوة الاستهواء، بل لقد صوره طاغور رجلاً خداعاً ماكراً يستبيح لنفسه السرقة باسم الوطنية، ولا يجد حرجاً في إغراء زوجة (نيكهل) بالتمرد على حياتها الزوجية الوادعة المطمئنة، المغمورة بسعادة الحب الجميل، مستغلاً نزعتها الخيالية ليستفيد من أموالها، يروي بها شهوات نفسه المتعطشة للزعامة لذاتها كغاية لا وسيلة، وهكذا يستمر طاغور متتبعاً خطوات (سانديب) في حركته الطاغية العنيفة حتى يستحل في سبيلها خداع زوجة (نيكهل)، وهدم هناءتها الزوجية، وهدم أحلامها العظيمة التي بناها هو لها في خيالها الملتهب، وحتى ينهي حياة هذه الأسرة الطيبة بفاجعة مروعة على حساب وطنيته المموهة.

بهذا التصوير البارع يحدد لنا طاغور حقيقة الوطنية كما يرتضيها هو، وكما يؤمن بها كوسيلة للعمل المنتج في سبيل الأوطان، ولعل هذا العرض يبقى ناقصاً إذا لم نشفعه ببضعة آراء وأفكار خطيرة أدارها على لسان (نيكهل) الذي يبدو لنا أنه هو الشخص المختار في هذه الرواية لتمثيل آراء طاغور نفسه في الوطنية، وأنا أعرض هذه الآراء والأفكار لا لأجل إيضاح معنى الوطنية عند طاغور وحسب، بل لأجل أن تكون أمثالاً عليا نؤمن نحن بها، ونحفر لها مستقراً أميناً في قرارات وعينا، لعلها تكون عوناً لنا في هذه الظروف والأحوال التي تحيط بنا اليوم:

قال (نيكهل) بعد أن أخرج المربية الأجنبية من قصره بتأثير ضغط الحركة الوطنية التي يقودها (سانديب)، وقد شيعها بنفسه في عربته فانتقدته الصحافة الوطنية المتطرفة لأجل ذلك مر الانتقاد: (إنني أخدم بلادي ولكني لا أعبدها، فإني أعبد الحق وهو أعظم من بلادي، أما من يعبد بلاده كما يعبد الله فهو يسئ إليها ويتوهم أنه من المحسنين).

وكان نيكهل يجادل سانديب في بعض آرائه الوطنية فقال له: (. . . أما حقيقة رأيي - الكلام لنيكهل - فهي أن الذي لا يستطيع أن يتحمس لبلاده كما هي حقيقة، والذي لا يستطيع أن يحب إنساناً لمجرد كونه إنساناً، والذي يريد تأليه وطنه بالهتاف والهياج - فهو يحب الهياج أكثر مما يحب وطنه).

وحين شاع أن خزينة المهراجا قد سرقت جاء إلى (نيكهل) أستاذه الحكيم، وفيما هذا يتحدث عن (سانديب) وأتباعه قال هذه الكلمة العظيمة يعني بها رجال الحركة المتطرفين: (لقد وضعوا الوطن حيث طردوا الضمير)

وقال (نيكهل) وهو في نقاش مع (سانديب):

إني أقول لك الحقيقة (يا سانديب): إنك تجرح عواطفي حين تدعو الظلم واجباً، وتطلق على البغي اسم الخيال الأدبي، فليس العقل هو الذي يمنعني عن السرقة بل الذي يمنعني عنها عاطفة تدعوني إلى احترام نفسي)

اكتفى بهذا القدر لأن الإطالة قد بلغت حداً لم أكن أقصد إليه. أما بعد: فيا أيها الإنسان العظيم الناعم الآن بفرحة الحب الأسمى، لقد بلغت رسالتك الجميلة، وأسكرت الدنيا بترانيمك المترعة رحمة ومحبة، ودعوة للسلام والألفة، فمن حقك أن تهنأ الآن بلقاء حبيبك الأعظم، ومن حقك على الدنيا هذه أن تذكر فضلك، وأن تهتدي بهدى روحك العظيم يوم تصحو من هذا الجنون المطبق، وهي لابد أن تصحو يوماً.

(بغداد)

حسين مروة

أدباء ومدرسون!. . .

حديث ذو شجون إلى وزارة المعارف وإلى الدكتور زكي)

مبارك. . .)

للأستاذ محمد سعيد العريان

تلطف الدكتور زكي مبارك فتناول في حديث الأسبوع الماضي موضوع (الترقية إلى المدارس الثانوية)؛ وهو موضوع من حق صديقنا الدكتور زكي مبارك أن يتحدث عنه، لأنه بسبيل من عمله الرسمي في وزارة المعارف، وعمله الأدبي في مجلة (الرسالة)؛ فليس من حق أحد أن يدهش للأسلوب الذي تناول به موضوعه، أو الطريق الذي سلكه لإبداء الرأي فيه؛ وإنه لمن الغبن أن يكون الدكتور زكي مبارك ملوماً على ما في حديثه ذاك من التناقض وفساد الحكم؛ إذ كان يملي عليه الرأي حين يحكم شخصيتان لا تجتمعان على فكرة واحدة: شخصية زكي مبارك المفتش بوزارة المعارف، وشخصية زكي مبارك المؤلف المحقق الأديب؛ ومن أين لهاتين الشخصيتين أن تجتمعا على رأي وبينهما ما بينهما من الفوارق العقلية، ولكل منهما مقياسه في موازين الأشياء. . .!

والموضوع الذي تناوله الدكتور زكي مبارك حقيق بالبحث والدراسة، لأنه موضوع عام يتصل من قريب بشأن من أخص شؤوننا الأدبية، إذ كان المعلم هو فكرة الشعب، وأماني الغد، ومستقبل الثقافة، ولكن هذا الموضوع على عمومه يتصل بجانب من حياتي الخاصة يحرجني أن أتخذه موضوعاً للحديث، ولعل كثيراً من الذين يقرءون لي في الرسالة منذ سنين، لم يدر في خلد أحد منهم أن يسأل عن عملي الذي أتكسب منه ووظيفتي الرسمية التي أعيش بها قبل أن يعرف بي الدكتور زكي مبارك. . ومعذرة إلى طائفة من القراء، فإن الرأي العام في مصر وفي الشرق ما زال يقيس منازل الرجال على قدر منازلهم في مناسب الحكومة أو منازلهم في دولة المال!

على أنه لا مندوحة لي اليوم عن الحديث في موضوع كنت أتنكبه فراراً من التهمة، ولست أطمع بعد في كلمة عطف أو أخشى كلمة ملام، فإني لقوي بنفسي عن استجداء العطف أو خوف الملام، ومن وجد في نفسه الطاقة فليس له عذر من التقصير؛ وليغضب من يغضب لنفسه أو للحق، فليس بي إلى أحد حاجة، وليس لي في سبيل الحق أن أخاف سطوة إنسان!

وأبدأ حديثي لأصحح للدكتور زكي مبارك قوله: (الترقية إلى المدارس الثانوية) فإن كلمة (الترقية) هنا لا تؤدي معناها اللغوي كما يفهمه أهل التحقيق، وليس في نقل معلم من المدرسة الابتدائية إلى المدرسة الثانوية أي معنى من معاني (الترقية) وليس ثمة فرق بين معلم هنا ومعلم هناك، لا في الدرجة العلمية، ولا في العمل، ولا في المال، ولكن الفرق كل الفرق في التلميذ وفي المكان. . .

هذا حق يعرفه زكي مبارك (المفتش بوزارة المعارف)، كما يعرفه وزير المعارف نفسه، وكما يعرفه المعلمون جميعاً في المدرستين الابتدائية والثانوية؛ ولكن لماذا، لماذا - والأمر كذلك - تصر وزارة المعارف على تسمية هذه النقلة (ترقية)؟ ولماذا يشكو طوائف من المعلمين فيطلبون حقهم في هذه (الترقية)؟

جواب ذلك: أن هذه (النقلة) هي مظهر من مظاهر (الثقة العلمية) بالمعلم المنقول، وهي (اعتراف رسمي) بأن لهذا المعلم أهمية لتعليم طائفة من التلاميذ أنضج عقلاً من إخوانهم في المدرسة الابتدائية؛ وهذه (الثقة العلمية) وهذا (الاعتراف الرسمي) هما كل جزاء المدرس المنقول، وهما حسبه وكفايته؛ وأهل العلم دائماً هم أقنع الناس بالقليل!

وقد سنت وزارة المعارف سنة منذ عامين: أن تسبق بين المعلمين في امتحان . . .
سنوي عام، لتمنح أسبقهم ثقتها العلمية واعترافها الرسمي.
لقد كثر ما تحدث المربون عن عيوب الامتحان، واختلال ميزانه، وجنايته على شخصية
التلميذ. . . أفلم تجد الوزارة - بعد تجارب السنين - وسيلة لاختيار كفاية المعلم غير
الامتحان وقد قالت ما قالت فيه وسمعت ما قيل؟
أليس لدى وزارة (المعارف) من وسائل (المعرفة) في ذلك غير امتحان (المعلمين)؟
بلى! هكذا قالت وزارة المعارف منذ سنتين وما تزال تقول: الامتحان!
الامتحان؟ بالله كيف صارت عيوبه حسنات، واختلال ميزانه دقة، وجنايته على (شخصية
التلميذ) سبيلاً إلى تحديد (شخصية المعلم)؟
ولكن لا علينا من ذاك؛ فليس يعنينا ما تكون وسيلة وزارة المعارف إلى اختيار
معلميها، ولو كانت المباراة بين المعلمين في حمل الأثقال. . .!
ولكن، لأي شيء سنت الوزارة سنة الامتحان؟
الوزارة تقول أنها تقصد من ذلك إلى استثارة القوى والكشف عن (الكفايات
المغمورة)؛ هذا كلامها؛ فما بالها تصر على امتحان ذوي القوى العاملة و (الكفايات
المشهورة) إذا لم يكن القصد من الامتحان إلا الكشف أو الاستكشاف؟ ما قيمة
المصباح تشعله في النهار والشمس طالعة؟ وما عمل المظلة ترفعها على رأسك في
الظلام ولا مطر ولا غمام؟ وماذا يقول المعلم يوم الامتحان إذا كانت مؤلفاته وأعماله
الأدبية هي موضوع الامتحان؟
هنا مشكلة أدبية عامة، هي مشكلة (النفر الستة) الذين قصر عليهم الدكتور زكي
مبارك حديثه في العدد الماضي.
ليت شعري ما شأنك وشأنهم يا صديقي؟ إنك لتعرف هؤلاء النفر الستة معرفة الرأي
والنظر، وتعرف كم أبلوا في جهادهم للعلم منذ سنين؛ وأراك لم تنكر أقدارهم العلمية
والفنية على طول ما تعتبت عليهم وتجنيت.
هؤلاء النفر الستة يا صديقي - وأنا منهم - لم يرجوا وزارة المعارف أن ترقيهم إلى
المدارس الثانوية كما ظننت، فإنهم أصدق نظراً من أن تخدعهم الفروق الصغيرة بين
الأسماء فتحملهم على الرجاء والاستجداء. . .
بلى، نحن لم نطلب هذه (الترقية)، ولم نسع لها، ولا نعرف لها طعماً مما يمر في
الأفواه ويحلو؛ وإن لنا من الإيمان بأنفسنا ومن الإيمان بمعنى الأدب ما يرتفع بنا عن
ذلك المستوى، ولكنا كتبنا لننبه وزارة المعارف إلى معنى أدبي كان ينبغي ألا تغفل عنه
أو يغفل عنه القائمون بشؤونها؛ - كتبنا لننبهها إلى أنها بما أكثرت من الحديث والنشر
عن امتحان المسابقة، ونتائج المسابقة، قد ألقت في وهم الناس أن معلم المدرسة
الابتدائية ليس له من العلم مثل حظ المعلم في المدرسة الثانوية، وليس له تحصيله
وكفايته. . . . . .
هذا المعنى يا صديق يسوءني ويسوءك، ولكنه يسئ إلى وزارة المعارف أكثر مما
يسوءني ويسوءك حين يعرف الناس أن بين المعلمين في المدارس الابتدائية طائفة
من أهل التأليف والتحقيق يدوي صوتهم في آذان الشرق العربي ويملأ حديثهم نوادي
الأدب هنا وهناك ولا تكاد تحس بهم وزارة المعارف. .!
أي تهمة يا صديقي تنال وزارة المعارف في سمعتها، وماذا يقول الناس عن كفايتها
وحسن
تقديرها للآثار العلمية، وهي تجهل أقدار العاملين من معلميها وما أنتجوا من بحوث وما
استحدثوا من فنون؟
هذا المعنى يا صديقي هو الذي رفعنا من أجله الصوت إلى وزارة المعارف - . . .
ووزيرها من أهل التأليف والتحقيق - نطلب إليها أن ترد إلينا الاعتبار العلمي، فتعترف
بنا أدباء ومؤلفين ومحققين.
ولكنك تقول يا صديقي: (إن هذا الباب إن فُتح فسيتيح فرصاً كثيرة لأدعياء التأليف
والتحقيق. . .)
وأعيذك يا صاحبي أن تكون قصدت إلى المعنى الذي تشير إليه عبارتك؛ فأي عمل
لوزارة المعارف إن كانت لا تدرك الفرق بين المدعي والأصيل من أهل التأليف
والتحقيق؟

ويذكرني قولك هذا يا صديقي كلمة قالها لي الدكتور فلان منذ بضعة أشهر، قال: (لو كنت موظفاً في مصلحة التنظيم لوجدت من وزيرها اعترافاً بمجهودك الأدبي أكثر مما أنت واجد اليوم في وزارة المعارف. . .!)

على أن للمسألة يا صديقي وجهاً أخطر من ذلك وأبعد أثراً في أدب الجيل؛ فإن إنكار الفضل على (ستة نفر) استعلنوا بجهودهم بين ألف ومائتي معلم في المدارس الابتدائية، جدير بان يفقد هؤلاء (النفر الستة) حلاوة الإيمان بمعنى الأدب، ويردهم آلات لا يعملون إلا (الواجب)، الواجب الذي يؤجرون عليه بالطعام والشراب واللباس وزخرف الحياة، وأعوذ بالله من سوء الخاتمة!

ومالي أبعد في الظن وأقدر وأتوقع وأترك الواقع الملموس؟ ألست تعرف كما اعرف يا صديقي مَن الذي (يؤلف) أكثر الكتب المدرسية في وزارة المعارف ومن الذي (يشرفها) باسمه الكريم؟. . . أحسبك لا تطالبني بالتصريح بأكثر من ذلك، لأنك لا تحاول أنت أن تنكره ولا أحاول أنا أن أخفيه. . . . . .

وتسألني: ما لهذا وللمشكلة التي نعالجها اليوم وتلك قضية من قضايا الأخلاق وهذه مشكلة من مشاكل الأدب؟

وأقول: إنه ما دام الاعتبار الأول عند وزارة المعارف في الحكم على الآثار الأدبية هو (وظيفة المؤلف) فما بد أن يكون هناك تعاون بين ذوي (العلم) وذوي (الجاه) شبيهه بالتعاون بين (رأس المال) و (جهد العامل) في تكوين (شركة) من شركات (الربح والتثمير)!

أتريد أمثلة يا صديقي أم كفاك ما تعرفه وأعرفه مما لا تحاول أنت أن تنكره ولا أحاول أنا أن أخفيه!

ولكني أراك لم تقنع بعد بالعلاقة بين ما ذكرت وبين المشكلة التي نحن بسببها؛ إذن فاعلم يا صديقي أن جرثومة ذلك الداء هي تلك (الأرستقراطية العلمية) التي تأبى أن تعترف بقيمة الإنتاج الأدبي لأحد من (صغار المعلمين) إلا. . . إلا ماذا؟. . . معذرة فقد نسيت!

أتراك يا صديقي قرأت قصة (من أدباء الجيل)؟ نعم، إنني أذكر ذلك، فقد كانت موضوع حديث بيننا يوماً، ولكني أشير عليك أن تعود إليها فتقرأها مرة ثانية، فلعلك واجد فيها متاعاً ولذة يرفهان عنك بعض ما تجد من ثقل هذا الحديث!

وأعود إلى ما كنا فيه، فأسألك يا صديقي: أترى حقاً وصدقاً أنه لا بد من امتحان (المسابقة) للترقي في الوظائف حين تكون كفاية الموظف في حاجة إلى دليل؟. . .

ففي أي مباراة سبقت أنت حتى صرت (مربياً كبيراً) تحكم على أقدار (صغار المعلمين)؟ وفي أي مباراة سبق فلان وفلان ليكونوا أعضاء في لجان الامتحان وحكاماً في مباريات المعلمين؟. . .

وأبادر فأعتذر إليك وإلى فلان وفلان؛ فما أردت أن أغض من أقداركم العلمية، وإنكم لأدباء من أهل التأليف والتحقيق. . .

ولكني رأيتك في بعض ما ساقتك إليه شجون الأحاديث، تنكر قيمة كل المقاييس . . . العلمية إلا مقياس الامتحان، فرأيت أن أعرف أين أنت هناك؟. . .

أهذا ما تسميه الزهو البغيض؟

الهم إني أستغفرك وأستهديك، وأسألك إلا ما جنبتني من الكبرياء، أن تزيدني ثقة بنفسي، ويقيناً بحقي، وإيماناً بعملي!. . .

وإنه لعلى الرغم مني - يا صديقي - ألا تتهيأ لي العوامل النفسية التي تسمح لي أن أقبل على الامتحان، وإن كانوا: (في أوربا وأمريكا يتقدمون إلى المسابقات بعد الخمسين، ولهم في ميدان المجد الأدبي والعلمي مكان). . .

تسألني: لماذا؟

وأسألك: لماذا؟

وتعرف وتسكت، وأعرف وأغضي، وتفتر الشفاه عن بسمات حين تتراءى صورة فلان وفلان. . . (وأنت تعرف ما أريد)!

محمد سعيد العريان

المدرس بالمدرسة الابتدائية

الوضع الصحيح للإصلاح الاجتماعي في مصر
للأستاذ محمد عبد الرحيم عنبر
- 2 -
ذكرنا في العدد 418 من هذه المجلة الغراء أن الوضع الصحيح للإصلاح الاجتماعي في مصر يقتضينا ألا ننظر إلى الفقر كمشكلة قائمة بذاتها؛ لأنه - كما قلنا - نتيجة لمشاكل أخرى كثيرة. وعلى ذلك يجب علينا أن نبين مدى مساهمة تلك المشاكل في خلقه ومضاعفة آثاره المحزنة. وهي كلها مشكلات اجتماعية خطيرة ملحة. واستمرار وجودها واستفحالها يجعلها تتفاعل بعضها مع بعض، وتنتج عصير الشقاء الذي تتجرع كأسه الأغلبية الساحقة من سكان هذه البلاد.
والذين يتحدثون عن (الفقر) وحده مخطئون كل الخطأ، إذ لا يحلمون إلا بإعادة توزيع الأراضي على جميع أفراد الشعب على السواء وملء جيوب الفقراء بالمال. وهو أمر مستحيل وضار من الوجهة الاجتماعية ومناقض للبداهة السليمة والقوانين السماوية كلها ومنافٍ لمنطق الأشياء. فلو تحول الشعب يوماً ما إلى أغنياء بمثل هذه الطريقة لاضطرب المجتمع من جديد بعنف لتعيد الطبيعة توازنها الفطري، وعاد معظم الفقراء إلى ما هو أشد وأنكى من فقرهم الأول. فللطبيعة قوانين خفية تسري من تلقاء نفسها وتحطم كل ما يقف في سبيلها. والفقر ظاهرة طبيعية، ولكنه عندما يتجاوز حده يصبح ظاهرة اقتصادية اجتماعية.
وإذا كنا قد تحدثنا في المقال السابق عن صلة الحالة الاقتصادية بالفقر، فلنحاول اليوم أن نرسم صورة سريعة للصلة الوثيقة بين مشكلتي الجهل والفقر.
مشكلة الجهل في مصر
كثير من الناس ما زالوا يخلطون بين الجهل والأمية، ولا يفرقون بينهما. فالأمية ضد التعليم بمعناه الضيق. أما الجهل فهو عكس الثقافة التي تستلزمها الحضارة والتربية العامة للشعب. وهي أوسع معنى من التعليم وأشد لزوماً منه. فالنبي عليه الصلاة والسلام كان أمياً لا يعرف القراءة والكتابة، ولكنه كان مثقفاً، نير الفكر، واسع الإدراك، ولهذا تمكن من الاضطلاع برسالته العظيمة. وكم من رأسماليين عالميين وعظماء ومخترعين دوليين معروفين لم ينالوا قسطاً وافراً من التعليم. ويقابل هؤلاء متعلمون، ومنهم من درسوا في الجامعات، تراهم يتكلمون أو تقرأ لهم ما يكتبون فتشعر أن على شخصياتهم الباهتة سمات الجهل المطبق والمنطق السقيم. وعلى هذا يصح أن نقول: وكم في المتعلمين من جهلاء!
وقد كان الغرض من التعليم في الماضي هو تأهيل الشبان للأعمال الحكومية الآلية، ولا شئ غير ذلك، عندما كانت تسيطر على دفة الحكومة والتعليم عقليات إنجليزية ركزت بين أناملها تصريف الأمور، وصار تبعاً لذلك الطلبة نسخاً متشابهة مكررة من أصل واحد! ثم انتهى هذا العهد، وظهرت في الوجود نظريات جديدة تربوية نادت بوجوب الاهتمام بشخصية الفرد، وإنماء ملكات الابتكار المودعة في جهازه البشري الدقيق. وقد تطورت تلك النظريات، وصارت توائم بين حاجات الفرد وحاجات الجماعة التي لا غنى عن المحافظة عليها، ولا مفر من تنسيق نشاط أفرادها مع زيادة نفعها لهم؛ وبذلك صار التعليم تربية وثقافة حرة مرنة لا مجرد تلقين معلومات جافة، وحشو الأدمغة بدراسات ميتة لا غناء فيها ولا طائل تحتها. وصارت التجارب العلمية والعملية الكثيرة التي تطبق اليوم في أوربا وأمريكا توحي دائماً بالبرامج النافعة التي تكون أكثر انطباقاً على حاجات الفرد الغريزية والاجتماعية والمادية. وليس في نيتي أن أعتدي على اختصاص الفنيين وأخوض في شروح وفروق تلك النظريات التربوية الحديثة، فأنا أمر عليها بقدر ما يسمح لي بحث اجتماعي كهذا، وإنما أذكر أن هدف التربية الحديثة هو الإكثار من الكفايات الاجتماعية. وهي - أي الكفايات الاجتماعية - وحدها القادرة على الحياة والكفاح وكسب القوت المحترم الشريف في عصر مضطرب بالشهوات الماحقة والصوالح المتعارضة، والنظريات العلمية المتجددة على الدوام. والتربية الحديثة توحي بالتعليم الذي يناسبها ولا يعطل آثارها. وهي إذا سارت في مجراها العلمي المنتج كانت أقوى درع ضد الفقر، وأيسر السبل إلى الثروة والغنى والمجد.
ومصر لم تعمل بعد بهذه النظريات، وإن كانت قد عرفتها وأرسلت البعثات تلو البعثات

لدراستها، ولم تأخذ بنصيبها من رسالة التربية الحديثة وإن كانت تنادي بها وتعطف عليها وتشترك في مؤتمراتها. ويخطئ بل يكذب من يقول غير هذا عن وزارة المعارف. فهي
نفسها إلى اليوم حائرة ضالة طريقها مرتبكة لم تعلم بعد رسالتها، ولم تفهم مهمتها على وجه التحديد!! وهو أمر لو كان في بلد آخر غير مصر لكان جريمة لا تغتفر، ولاتهمت وزارة المعارف بإفساد حياة الناس، ولرفعت عليها القضايا من أولياء أمور الطلبة، ولثار عليها الرأي العام. وذلك لأن التعليم في عصرنا هذا فريضة وطنية، والتربية العامة واجب مقدس. ووزارة المعارف هي وحدها الأمينة عليها؛ فإذا هي اضطربت في تأدية رسالتها كان الأمر نكراً، واضطربت معها حياة الناس، وارتبك سير الآلة الاجتماعية. وإذا كنا نعلم أن جهالة فرد قد تطوح بمستقبل أسرة أو عدة أسرات أمكننا أن نتصور مدى الخطورة في جهالة شعب بأسره!!
ولنسرد الآن شيئاً من التفصيل عن هذه الناحية. فقد جاء في الإحصاءات الأخيرة أن نسبة المتعلمين بين الصغار الذين بلغوا سن التعليم هي 12 % ولتبيان ضآلة هذه النسبة نذكر أنها في السويد 98 %، وفي تشيكوسلوفاكيا 60 %، وفي اليونان 31 %، مع أن المعروف عن هذه الدول أنها من الصف الثاني والثالث من حيث التعليم.
أما نسبة الأمية - ولا نقول الجهالة فأمر هذه أفدح وأنكى - فيمن فاتوا سن التعليم من الذكور فهي 79 %. وإن هذه النسبة المخجلة جداً لتصبح أشد هولاً لو أسقطنا من الحساب عاصمتي القطر (القاهرة والإسكندرية) إذ نجدها في أسوان وأسيوط وجرجا 70 %، ثم تتراوح في باقي المديريات بين ذلك وبين 91 %.
فإذا أردنا أن ندلف من التعميم إلى التخصيص وجدنا عار الأمية متفشياً بين أرباب المهن الحرة والفلاحين، مع أن هذه الطبقات في أشد الحاجة إلى التعليم، بل وإلى نوع معين بالذات من التعليم.
ومن الغريب، بل من المضحك المبكي، أن مصر التي تشكو الأمية مر الشكوى بها أزمة بطالة بين المتعلمين. وهما مشكلتان متناقضتان، وقلما تجتمعان في بلد متحضر. وسر هذا التناقض أن المشرفين على التعليم - في الماضي - لم يراعوا حاجة البلاد إلى التعليم، ولم يحسبوا للضرورات الاجتماعية حساباً. ونحن اليوم ندفع ثمن هذه الجريمة الوطنية من كرامتنا وثروتنا القومية، ونعاني تأخراً مخجلاً في حضارتنا العقلية والأدبية والمادية.
ولو أردنا تشخيص مرض الأمية المتفشية في مصر لوجدنا أسبابه كما يأتي مجتمعه وبلا
ترتيب:
1 - ضآلة ما ينفق على التعليم بالنسبة لحاجة الشعب إليه، والرغبة في مسايرة العصر: فميزانية التعليم لا تزيد عن 21 من الميزانية العامة مع أن المستر كلاباريد - الخبير 9 % السويسري الذي استقدمته الحكومة المصرية منذ أكثر من اثني عشر عاماً - أوصى برفع هذه النسبة إلى 12 % على الأقل، لأن إنقاذ مشروعات الإصلاح التي تتطلبها البلاد تتوقف على محو الأمية، ونوع التعليم الذي يعطى لأفراد الشعب. ولكي ندلل على ضآلة ميزانية وزارة المعارف قد يكفي أن نضرب الأمثال. فنسبة ميزانية التعليم في النرويج 2. 14 % إلى الميزانية العامة، وفي الدانمارك 7. 13 %، وفي هولندا 3. 19 %، وفي سويسرا 30 % مع أن شعوب هذه البلاد على درجة عالية من حيث التعليم.
2 - سوء توزيع ميزانية التعليم
بدأت الحكومة المصرية بالاهتمام بالتعليم الإلزامي منذ سنة 1917 حين وضع المغفور له عدلي يكن باشا وزير المعارف في ذلك الوقت تقريراً وافياً عن ضرورة التوسع في هذا النوع من التعليم بحيث يكفل تعليم 80 % من الذكور، 50 % من الإناث، وهاهو ذا قد مر ما يقارب من ربع قرن والحالة آخذة في الانحطاط ووزارة المعارف تسأل نفسها كل يوم: ما هي مهمة هذا التعليم، وما هي أهدافه وبرامجه؟ مع أنه في يقيني

أن مهمة وزارة المعارف لو اقتصرت على ذلك النوع من التعليم، وقامت بها جاهدة ناجحة لأدت رسالتها
الشعبية على أكمل وجه، ولكنها مضطربة موزعة الفكر بين هذا التعليم وغيره من أنواع التعليم الأخرى. وأعتقد - غير مغال - أنها قد فشلت فيها جميعاً! وقد ترتب على ذلك أن صار هذا الجيل إلى فشل خطير. أصبح معه عاجزاً عن الكفاح في الحياة من أجل كسب القوت.
ثم إن وزارة المعارف تضاعفت ذلك الخطأ بإغفالها الحاجات الفردية والاجتماعية في ميداني التعليم والتربية، واهتمامها بالتعليم النظري القليل الثمرة في عصرنا هذا أكثر من اهتمامها بالتعليم المهني الغزير الفائدة. فقد بلغت نسبة إنفاقها على النوعين 4: 1 مع أن العكس هو الأولى والأحجى. نعم إن مصر شعب زراعي ولكن المزارع المصري ما زال يعيش بعقلية آبائه وأجداده حتى أصبح عاجزاً عن متابعة تقلبات الأسواق المحلية والعالمية التي يصّرف فيها محصولاته، فقد سيطرت العقلية الجديدة المثقفة على كل شئ: على الحقل والمصنع والمتجر والسوق. ومصر ككل شعب زراعي لا تستطيع أن تعتمد في معاشها على الزراعة وحدها وخاصة أن في جوف تربتها مواد أولية ثمينة، وجوها مناسب لصناعات عديدة، وبها فعلاً نهضة صناعية متوثبة.
ووزارة المعارف تأبى إلا أن تخطئ في كل شئ. فمصر برغم كونها بلداً ديمقراطياً يعيش على فأس الفلاح وجهد العامل، وبرغم أن الشعب المصري (يتمتع) بنسبة من الأمية لا مثيل لها في العالم، فإن وزارة المعارف لا تبذل من الجهد، ولا من المال على التعليم الأولى والإلزامي الخاص بهاتين الطبقتين قدر ما تبذله منهما على التعليم الخاص بأبناء الطبقات الميسورة والراقية. ومعنى ذلك أن في مصر الديمقراطية تعليماً أرستقراطياً! وهو أمر من الأمور الكثيرة المعكوسة في بلادنا العزيزة!
فساد البرامج التعليمية - 3
من أبسط القوانين البديهية أن الوسائل تخضع للغايات وتخدمها، وليس العكس، لأن الوسائل فانية متغيرة، أما الغايات فمن صفاتها الثبات والدوام. ومن المعروف أن البرامج الدراسية ليست بذاتها غاية مقدسة، وإنما هي وسيلة لغاية اجتماعية وقومية. ولكن مصر جرى فيها العرف على أن تفنى الغايات في الوسائل. وهذه القاعدة مطبقة على التربية والتعليم. فقد ضحيت التربية على مذبح التعليم دون أن يستفيد التعليم من هذه التضحية!
فوزارة المعارف لم تستطع إلى الآن أن تكون وزارة تربية، وإنما ظلت وزارة تعليم بمعناه الضيق القديم: أي وزارة تلقين معلومات جافة، ودراسات ميتة لا أثر للتجديد والابتكار فيهما. وبرامجها الدراسية أصدق شاهد على هذا؛ فهي كل يوم في شأن، ولها في نهاية وبداية كل عام دراسي ضحايا يعدون الآن بالآلاف يبتلعهم المجتمع المضطرب القاسي والكفاح الذي لا يرحم. فإذا شبهنا المجتمع بصرح مشيد، أو بناء قائم، كان فيه ألئك الطلبة الفاشلون كأنقاض الهدم! فكل شاب متعلم فاشل هو (شهادة فقر حية) لنفسه ولأسرته. وهو جزء خَرِب في آلة المجتمع. فهل أحست وزارة المعارف بمسئوليتها في هذا الخلل الخطير الكائن بجسم المجتمع؟؟ أم هي مشغولة بكبار موظفيها وترقياتهم وأغراضهم، ذاهلة عن رسالتها، حائرة في تحديد مهمتها!؟
محمد عبد الرحيم عنبر
بوزارة الشؤون الاجتماعية
المصريون المحدثون - 7
شمائلهم وعاداتهم
في النصف الأول من القرن التاسع عشر
تأليف المستشرق الإنجليزي ادورد وليم لين
للأستاذ عدلي طاهر نور
تابع الفصل الأول - الملابس
أما ملابس الطبقة السفلى فهي جد بسيطة: يلبسون سروالاً فوقه قميص طويل فضفاض، أو ثوباً أزرق طويل الأكمام من الكتان أو القطن أو من الصوف الأسمر؛ ويسمى الأول (عريا) والآخر (زعبوطاً)، وهو يشق ابتداء من الرقبة إلى الوسط تقريباً. ويتمنطق البعض بمنطقة بيضاء أو حمراء من الصوف؛ والخدم يتحزمون بحزام عريض

أحمر اللون من الصوف أو من الجلد وبه عادة كيس لحفظ النقود. وعمامة العامة شال من الصوف أبيض أو أحمر أو أصفر، أو قطعة من غليظ القطن أو الحرير الموصلي تلف حول طربوش تحته لبدة بيضاء أو سمراء. وبعض الفقراء لا يملكون غير اللبدة؛ فلا عمامة ولا سراويل ولا نعل. إنما يرتدون الجلباب الأزرق أو الأسمر أو أسمالاً بالية. وعلى النقيض من ذلك يرتدي الكثيرون صدرياً تحت الجلباب الأزرق؛ ويلبس بعضهم وعلى الأخص خدم العظماء، جلباباً أبيض وصدرياً وقفطاناً وجبة، أو أحدهما ثم (العرى) الأزرق أخيراً. وتشد أكمام (العرى) الواسعة إلى أعلى بحبل يمر حول كل من الكتفين ويشبك خلف الظهر ويعقد. وقد تعود الخدم (والسواسن خاصة) هذه الطريقة، ويستعملون لها حبالاً من الحرير الأحمر أو الأزرق القاتم. ويرتدي الكثير من أفراد الشعب في الشتاء عباءة كالتي وصفناها من قبل، ولكنها أغلظ منها، وبدلاً من اللون الأسود تكون أحياناً ذات خطوط عريضة سمراء وبيضاء أو زرقاء. وهناك نوع آخر من الأكسية كثير الاستعمال يتخذ من الصوف الأسود أو الأزرق القاتم، وهو أوسع من العباءة ويسمى (دفية). أما النعال فهي من الجلد المراكشي الأحمر أو الأصفر أو من جلد الخراف. ونعال السواس تكون من الجلد المراكشي الأحمر القاتم، ولكن أحذية البوابين والسقائين تكون عادة من الجلد الأصفر.

وتمتاز عمامة المسلم باللون عن عمامة القبطي واليهودي وغيرهما من رعايا الباب العالي، فهؤلاء يعتمون بالأسود أو الأزرق أو الرمادي أو الأسمر الخفيف، ويلبسون عامة الثياب القاتمة. ويرجع استخدام الألوان للتمييز بين المذاهب والعشائر والأسر المالكة إلى عهد بعيد. فإن الإمام إبراهيم بن محمد لما قتله الخليفة الأموي مروان اتخذ بنو العباس الثياب السود لباساً لهم حداداً عليه، ومن هنا أصبح سواد اللباس والعمامة الزي المميز للعباسيين وولاتهم. حتى أنهم كانوا إذا غضبوا على عامل حكموا عليه بلبس أبيض. أما اللون الأبيض فقد أختاره مدعي النبوة (المقنع) ليميز حزبه عن العباسيين، كما أختاره فواطم القاهرة لعدائهم لبني العباس. وكان سلطان مصر الملك الأشرف شعبان الذي حكم من سنة 764 إلى 778 هجرية - 1362 إلى 1376 ميلادية أول من أمر بتمييز الأشراف بالعمامة الخضراء. ومن الدراويش الرفاعيين من يلبسون عمامة من الصوف الأسود أو من الموصلي الزيتوني القاتم. أما عمامة الأقباط واليهود وغيرهم. فهي عادة من الموصلي أو الكتان الأسود أو الأزرق. والعمامة الغالبة الآن في مصر لا تختلف أشكالها كثيراً. فعمائم الخدم معقدة ذات تلافيف حلزونية مدرجة، وكذلك عمائم كبار التجار والمتوسطين منهم وغيرهم من سكان العاصمة والمدن الكبيرة، إلا أنها أقل حجماً منها. والعمامة التركية في مصر أكثر أناقة؛ والعمامة السورية تمتاز بسعتها. وكان العلماء ورجال الدين والأدب يلبسون العمامة الواسعة الكبيرة ويسمونها (مُقلة) كما ترى في شكل 16. والعمامة موضع الاحترام والإجلال؛ فلها في منازل الموسرين كرسي توضع عليه ليلاً ولا يستعمل لغير هذا الغرض. وكثيراً ما يعد هذا الكرسي في جهاز العروس؛ كما كان من المعتاد أيضاً أن يكون للمرأة كرسي آخر لغطاء رأسها. وتحضرني حكاية قصها عليّ صديق أسوقها إليك مثالاً لمقدار الاحترام الذي يكنه الشعب للعمامة. فقد رووا أن عالماً سقط من فوق حماره في شارع من شوارع المدينة فتدحرجت مقلته بعيداً عنه. فتجمع المارون وأخذوا يجرون وراء العمامة صائحين: ارفعوا تاج الإسلام! ارفعوا تاج الإسلام! بينما كان العالم المسكين طريح الأرض يناديهم مغتاظاً: (أنهضوا أولاً شيخ الإسلام).

تنتقل الآن إلى وصف هيئة النساء العامة وملامحهن. فالمصريات منذ بلوغهن سن الرابعة عشرة حتى العشرين، هن من حيث الجسم مثال الجمال؛ ومحياهن يسر العين، ويجذب النفس. ولكن سرعان ما يذوى هذا الجمال بعد أن يستحير الشباب ويستكمل الجسم نموه. وطبيعة الجو تؤثر على طبيعة الصدر قبل الأوان، فترتخي هيئته وتستوي أجزاءه؛ بينما يحتفظ الوجه بكل فتنته. وبالرغم من أن تراخي الزمن لا يذهب رواءهن، فإن كثيرات منهن متى بلغن الأربعين يصبحن، ولو كن جميلات في شبابهن، قبيحات الصورة كريهات المنظر. وأنوثة المصريات يبدأ نموها عند التاسعة أو العاشرة تقريباً؛ فتبلغ عنفوانها في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة. ويلاحظ أن سحن النساء

كسحن الرجال؛ إلا أن الشمس لاحتجابهن لا تسفعهن، ويمتزن بمحياهن البيضى الجميل، وقد يعرُض في بعضهن. أما العيون فدعجاء، نجلاء، لوزية الشكل، وطفاء الأهداب، تفيض وداعة تملك النفوس، وسحراً يسبي القلوب، ولم أر فيما رأيت عيوناً أجمل من العيون المصرية. ويزيدها جاذبية احتجاب الملامح بالنقاب. وتأثيرها في النفوس يزيده كحل الجفون كما ترى في شكل 17. والكحل سناج اللبان العطري المحروق. ويصنع أيضاً من سناج قشر اللوز. وهذان النوعان مع الاعتقاد بفائدتهما للعين يستعملان للزينة فقط. إلا أن هناك أنواعاً أخرى تستعمل لخواصها الطبية الحقيقية، وأخصها مسحوق الرصاص، المضاف إليه العنزروت وعرق الذهب وسكر النبات ومسحوق الذهب البندقي، وأحياناً مسحوق اللآلئ ويقال إن الأثمد كان يستعمل قبلاً لتكحيل أصول الأهداب. وتكحل العين بمِرْود صغير من الخشب أو العاج أو الفضة، دقيق الطرف كليل الحد، يبلّ أحياناً بماء الورد ثم يغمس في المسحوق ويمرر بين الجفنين. والوعاء الزجاجي الذي يوضع فيه الكحل يسمى (مُكْحَلة) كما ترى في شكل 18.

وعادة التكحل كانت شائعة بين الجنسين في مصر القديمة؛ وهي ظاهرة في نقوش المعبد والمقابر المصرية ورسومها. وكثيراً ما أكتشف في المقابر القديمة مكاحل فيها آثار الكحل ومراودها، (شكل 19).

ولكن طريقة التكحل القديمة تختلف بعض الاختلاف عن الطريقة الحديثة كما ترى في شكل 20. وقد رأيت في ضواحي القاهرة نساء يكحلن أعينهن على الطريقة القديمة، ولم أصادف ذلك إلا مرتين.

وهذه الطريقة نفسها كانت شائعة في عقائل الإغريق ونساء اليهود في قديم الزمن.

وعين المصرية على الجملة أجمل ما في وجهها. ويلاحظ أن جمال الملامح في المصريات أقل من جمال الهيئة؛ ولكني بصرت بوجوه يميزها نوع من الحسن ينم عن حلاوة العذوبة ويعبر عن فتنة الأنوثة؛ فيأخذ بمجامع القلب إلى حد ينكر الإنسان وقتاً ما أن الله لم يخلق للمصريات مثيلات في أي بلد آخر. والقليل من النساء يسفرن أمام الغريب مدفوعات إلى ذلك بالرغبة في إظهار جمالهن وإن ادعين غير ذلك. ومن ثم لا يستطيع الأجنبي أن يبنى رأياً صحيحاً من هؤلاء النسوة. ولكن مثل هذه العيون لا يمكن أن تخلق إلا في الوجه الحسن ولو كانت تقاطيعه متوسطة الجمال؛ أما الأنف فمستقيم القنا؛ والشفاه أغلظ من شفاه الرجال دون أن تصل إلى غلظة شفاه الزنوج؛ غير أن الفم وغيره من قسمات الوجه تقرب من الجنس الحبشي. وأما الشعر فهو من ذلك الأسود الحالك المصقول الذي يناسب السحن كلها غير السحنة البيضاء، وقد يكون غليظاً بعض الشيء، ذا حلق من دون تجعيد. ويخضب نساء الطبقات الراقية والوسطى والكثير من الفقيرات أيديهن وأقدامهن بأوراق الحناء، فتكتسب أطرافهن لوناً أحمر مشرباً بالصفرة، أو برتقالياً قاتماً. والكثيرات منهن لا يصبغن غير أظافر الأصابع، وبعضهن لا يتعدين عقود الأنامل، والبعض الآخر يرسمن خطاً على وصف العقود التالية؛ وغير ذلك من الأشكال الغريبة الأخرى. إلا أن الطريقة الغالبة هي تخضيب أطراف الأيدي والأرجل حتى المفاصل الأولى، وكذلك راحة الكف وبطن القدم؛ وأحياناً يضاف خط بجانب المفاصل الوسطى وآخر فوق أصابع القدم بقليل، والخضاب يكون بسحق أوراق الحناء وعجنها بالماء، ثم تبسط على راحة الكف وأجزاء اليد الأخرى، ثم تثنى الأصابع وتقبض اليد، وتربط برباط من الكتان ليلة بطولها؛ وكذلك القدم. ولا ينصل الخضاب إلا بعد أيام، فيجدد كل أسبوعين أو ثلاثة أسابيع. وعادة الخضاب ليست قاصرة على مصر، بل تتعداها إلى بلدان الشرق التي يمونها شاطئ النيل بالحناء.

والحناء على الأظافر تكون أكثر لمعاناً وأشد صفاء وأطول بقاء. كما أن تخضيبها أو تخضيب الأصابع يعتبر بحق زينة للنساء، إذ يحسن لون البشرة ويكسبه رقة. بيْد أن بعض النساء يعمدن إلى طرق لا يستسيغها الذوق الأوربي، فيُعقبن الحناء بمعجون من الجير والسناج وزيت بذر الكتان فيتحول لون الحناء الجميل إلى لون اسود أو زيتوني مشرب بالسواد. وكثيراً ما يلاحظ ميل النساء إلى هذه الطريقة فيُرِيْنَ مخضبات الأظافر أو الأصابع بهذا اللون القاتم، إلا أنهن يتركن العقود الوسطى بحمرة الحناء؛ والكف على النقيض من ذلك يتوسطه خط عريض أسود؛ وبعضهن يتبعن ابسط الطرق

فيسودن الأنامل وراحة الكف كلها.
(يتبع)
عدلي طاهر نور
ليالي القاهرة
الدمعة الخرساء!. . .
للدكتور إبراهيم ناجي
عَرفْتُ الذِي تُخْفِينَ عرفانَ مُلْهَمِ ... إذا الدّمْعَةُ الْخرْسَاءُ لم تَتَكَلمِ
وَأنْتِ سَمَاءٌ يَعْشَقُ الْمرْءُ نُورَها ... ويَعشْقُ مَا في أفقِها مِنْ تَجَهُم
وإنّي إذا عَيناكِ بالدَّمعِ غامَتا ... جدَيرٌ بِأنْ يَمشِي عَلى هُدبِها فَمِي
دَعيني أُحلقْ في سمَائِكَ طائَراً ... وَيَسبحْ خيَالِي في سَناكِ المُعظّم
ألا إنّ ضوَء البدْرِ إحسان مُحسنٍ ... لهُ أيْنمَا يَسرِى تفَضلُ مُنعِم
يطوفُ به في النّاضِرِ المُتبسّمِ ... وَينشُرهُ في الدّارِسِ المُتهدَّم
ويَا ربُمّا يَغشَى الخَميلةَ ضَاحِكاً ... فتَحْلمُ في جوٍ مِنَ السّحرِ مُبَهمِ
وَيَنشرُ في الأطْلالِ ظِلاًّ كأنهُ ... خَيالُ الأمَاني في مَحَاجرِ نُوّم
إبراهيم ناجي
من غربة الروح
في وادي التيه!. . .
للأديب عبد الرحمن الخميسي
شَرّدتَني بَينَ الْمجَاهلِ أيّا ... مي فَصَاحتْ في وجَهيَ الفَلواتُ:
أيُها التّائهُ المُنقلُ في الرَّمْ ... لِ خُطاهُ ضَاقتْ بِكَ العَثراتُ
قَدْكَ! إنَّ المسِيرَ أنْهَكَ أقدَا ... مَكَ وَالأفْقُ غائمٌ وَالسماءُ
وَالأعاصِيرُ نَائِحاتٌ حَوَاليْ ... كَ وبَينَ الْقِفَارِ عاشَ المَمَاتُ
أيْنَما سِرْتَ فالخَرابُ مقيمٌ ... أنِقِذيهِ مِنَ الْبِلَى يا حَيَاةُ!
وَخُذيهِ إلى الذي يَبْتنِيهِ ... حَوْلكِ الشّعرُ وَالهَوى وَالغِناءُ
وَكَأنَّ الرَّيَاحَ تَسْألُني: مَا ... تَرْتَجيهِ لمَ السُّرَى وَالعَناءُ؟
قُلتُ: أهْوَى أسِيرُ إني أرَاها ... هاتِهِ وَاحَةٌ! وَثمَّ ضِيَاءُ!
وَتَغرّبتُ في المَهَامِهِ عَطْشَا ... نَ وَلكنْ عَلىَّ عَزَّ الماءُ
أحْمِلُ الْفَرحَةَ الكَبِيرَةَ بالآ ... مَالِ هَاتَتْ حِيَالَها الأعْبَاءُ
وَأغَنّي عَلَى الجدِيبِ كَأنّي ... بُلبُلٌ رَاقَهُ الشّذَى والنّبَاتُ
أقُتلُ الجوعَ والصّدَى في فُؤَادي ... بالأمَاني. . . وَكلهُنَّ هَبَاءُ
وَبَلْغتُ السّرَابَ لَمْ ألْقَ شَيْئاً ... أيْنَ مَا كُنْتُ أرْتَجي يا سَمَاءُ
ضَاقَ بي الْكوْنُ كلّهُ يا إلهي ... بَعْدَ أمّي وَقَطّبَتْ لي الْحيَاةُ
يا عُوَاءَ الذّئابِ في الْبَلْقَع الْمجرُو ... دِ! يا مَعْنًى قَدّسَتْهُ الْفَلاةُ!
كُفَّ عَنْ مَسْمَعي فلمْ يَبْقَ غَيْري ... وَأنَا مَيّتٌ كما قَدْ مَاتُوا!
عبد الرحمن الخميسي
عيناها. . .
للأديب أحمد العجمي
إنّ في عَيْنَيْكِ مِنْ سِحْرِ الْهَوَى ... فِتَناً تَرْقُصُ في قلبي سُكَارَى
كُلّما أرْسَلْتِ مِنْهَا فِتْنَةً ... تَتَهادَى أشْعَلَتْ في الْقَلبِ نارَا
وَإذا أمْعَنْتُ سِرّا فِيهِما ... قَتَلَتْني عَيْنُكِ الوَسْنَى جهارَا
أنتِ يا فاتِنَةَ الدُّنيا، وَيا ... بابِلَ السّحْرِ وَيا قَيْدَ الأسَارَى
لم تَكُنْ عَيْنُكِ إلاّ قَبَساً ... كابتِسَامِ الفَجْرِ يَفتَرُّ افتِرَارا
وَهِيَ الآن سِهامٌ وَظباً ... تَقتُلُ الصّبّ وَتحْيِيهِ مِرَارَا
فاصْنَعِي مَا شِئْتِ يا فاتِنَتي ... إنّ في عَيْنَيْكِ لَيْلاً وَنَهارَا!
هَدّئي رَوْعِي! وَقُولِي لِدَمِي ... وَيْكَ يا ظَمْآنُ لا تَشْكُ الأوَارَا
هَذِهِ عَيْنِي! وَذَيّاكَ فَمي ... وَإذا الوَرْدُ رَأى خَدّي تَوارَى
ثمَّ تَشْكُو ظَمَأ الرُّوحِ مَعي ... وَأنَا أسْقِيكَ مِنْ عَيْنِي عُقارَا
آهِ لَوْ تَرْجِعُ أيامَ الْهَوَى ... إذ خَلَعْنَا في لَيَالِيها الْعِذَارَا

وَقَضَيْناَهَا وَلاَ نَدْرِي بِهاَ ... بَيْنَ أحْلاَمٍ كَأنفاَسِ الْعَذَارَى
أحمد أحمد العجمي
البريدُ الأدبي
حول التعليم في العراق
ألقى الأستاذ فاضل الجمالي مدير التربية والتعليم في العراق
في مساء الثلاثاء 991941 محاضرة قيمة عن التعليم في
العراق على جمهرة من رجال التربية والتعليم في مصر بنادي
المعلمين.
وقد تحدث الأستاذ عن سياسة العراق التعليمية، وكان من بين المشكلات التي أثارها مشكلة الامتحانات، وذكر أن العراق - علاجاً لهذه المشكلة - تتجه إلى أن تكون المدرسة هي صاحبة الرأي الأول في نجاح الطالب إلى أن يصل إلى الامتحانات العامة وهي التي تعقدها وزارة المعارف، ثم أملَ الأستاذ أن يتعاون رجال التعليم في مصر والعراق في بحث هذه المشكلة.
ومشكلة الامتحانات قديمة في مصر وغيرها، وأذكر أن كثيراً من اللجان عقدت في مصر وطال فيها بحثها. ولا شك أنها اهتدت إلى نتائج، ولكننا لا نرى أثراً لهذه النتائج في مدارسنا؛ فالامتحانات هي هي، مقياسها خاطئ وميزانها معتل.
وقد يكون من وضع الأمور في مواضعها أن نقول إن هذا الرأي الذي تتجه إليه العراق - وهو أن تكون المدرسة هي صاحبة الرأي الأول في نجاح الطالب - هو الرأي الذي رآه من قبل أستاذنا القباني بك وأشار إليه في كثير من بحوثه القيمة في التربية، بل انه وضعه موضع التنفيذ في المدرسة النموذجية الملحقة بمعهد التربية فنجح أي نجاح.
والطريقة المتبعة في هذه المدرسة أن يجتمع المدرسون بعد امتحان الفترة الأخيرة ونصب أعينهم نتائج الفترات الثلاث لكل تلميذ وما حصل عليه في اختبار الذكاء وسن التلميذ، وأخيراً رأى كل مدرس فيه، ومن كل هؤلاء يوضع التلميذ موضعه من النجاح أو البقاء في فرقته أو نصح ولي أمره بتوجيهه إلى الوجهة التي يصلح لها إن لم يكن يرجى منه في وجهته خير، وقد يشرك ولي أمر التلميذ - في بعض أحوال خاصة - في نجاحه أو بقائه.
ويظهر انه قد تبين لأولياء الأمور، عند بحث هذه المشكلة في مجلس النواب، وصواب هذا العلاج لمشكلة طال عليها الأمد فعزموا على الأخذ به في بعض الفرق الأولى، ولعلنا نراه قريباً في جميع الفرق وفي جميع مراحل التعليم ناجحاً نجاحه في المدرسة النموذجية.
محمد محمود رضوان
المدرس بالمدرسة النموذجية
1 - حول كتاب الأستاذ الرافعي عن فريد بك
قرأت في العدد (429) من (الرسالة) كلمة للأديب لبيب السعيد عن هذا الكتاب أختلف فيها مع نفسه ونقض في آخرها ما أثبته في أولها؛ إذ قال عنه: (إن الشباب سيجدون فيه كتاب تاريخياً دقيقاً)، ثم قال بعد ذلك عن المؤلف: (إنه يتعقب زعيماً بعينه فيبحث له عن زلات! ويفسر تصرفاته بما يسئ إلى سيرته). وهذا كلام لا يمكن لقارئ منصف أن يقبله؛ لأن الدقة في التأريخ تتنافى مع البحث عن الزلات وتلمس المساوئ؛ ويلوح لي أنه كتب هذه الكلمة قبل أن يقرأ الكتاب؛ أو هو قرأه ولم ينتبه إلى ما فيه من الحقائق والوثائق! وآية ذلك أنه لم يذكر لنا شيئاً من مواضع الإحسان ولا مثلاً من مآخذ الإساءة. ولو ذكر لنا ولو حادثة واحدة غيرتها حزبية المؤلف عن وضعها الطبيعي وردها هو إلى حقيقتها التاريخية لوجدنا في كلامه ما يستحق النظر.
ولعل هذه هي المرة الأولى التي يُرمى فيها الأستاذ الرافعي بالميل مع الهوى. ولعله كذلك الرجل الوحيد الذي أجمع مخالفوه في الرأي والسياسة على نزاهته وعفته. وقد كان المغفور له (سعد زغلول باشا) يفاخر بمعارضته في مواقفه البرلمانية، ويتخذها مثلاً للمعارضة النزيهة.
ولست أرى بعد هذا من أين جاء لبيب أفندي بما ادعاه على الأستاذ وهو شئ ليس في كتابه ولا في أي كتاب من كتبه.
2 - أدعياء الشعر

تصفحت عدد السياسة الأسبوعية رقم 239 فلفت نظري فيه قصيدة منشورة في صفحة الشعر تحت عنوان (أفي الحق أن أنسى بلادي سلوة؟) وهي قصيدة مشهورة من عيون
شعر الأستاذ معروف الرصافي شاعر العراق. وقد نشرت في الصحف والمجلات منذ أكثر من عشرين سنة! وهي مطبوعة في كثير من كتب المحفوظات المدرسية. وهي موجودة أيضاً في ديوان الرصافي ومطلعها:
هو الليل يغري بالأسى فيطول ... ويرخي وما غير الهموم سدول.
أبيت به لا الغاربات طوالع ... علي ولا للطالعات أفولُ.
لفت نظري أن أقرأ هذه القصيدة منشورة في السياسة الأسبوعية في العدد الماضي بإمضاء (صلاح الدين الضيف، من تمى الأمديد). ولم أعجب لجرأة هذا المتشاعر على انتحال شعر غيره لعلمي أن لصوص الشعر والأدب كثيرون ولكن الذي عجبت له، هو غفلة هذا المسكين وحرصه على ألا يضع توقيعه الكريم إلا على قصيدة معروفه لشاعر مشهور!
فإذا كان هذا المتشاعر قد أرضى شهوته بنشر أسمه تحت هذه القصيدة. فماذا يكون حاله حين يعرف الناس أنه رقيع، وليس له من هذه القصيدة غير التوقيع؟.
(المنصورة)
علي عبد الله
على هامش القاموس السياسي - (أفغانستان)
من الكتب القيمة التي ظهرت في هذه الأيام كتاب: (القاموس السياسي)، ولست أنكر ما تحمله الأستاذ أحمد عطية الله في وضع هذا الكتاب من التعب والنصب، وقراء العربية يشكرونه على ما جمعه فيه من المعلومات القيمة المختصرة عن الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية لمختلف البلدان المعمورة وإن كنت أعترض في كلمتي هذه على بعض ما كتبه في قاموسه عن بلادي، فذلك ذكراً للحقيقة وخدمة للقراء الكرام
1 - يقول الأستاذ في صفحة 32 من قاموسه (واستولى على العرش أمان الله خان الذي شن غارات ضد إنجلترا، انتهت بعقد صلح في عام 1921)؛ ولقد لفت نظري تسمية حرب استقلال أفغانستان بشن غارات، والله اعلم أنها لم تكن شن غارات، بل حرباً نظامية في ثلاث جبهات وعسى أن يوفقني الله إلى شرح هذا الموضوع في المستقبل
2 - يقول الأستاذ في نفس الصفحة السابقة أيضاً: (وفي عام 1926 لقب نفسه بالملك أمان
الله)؛ وأعتقد أن الأستاذ يوافقني على أن هذه الجملة تتعارض مع كتاباته السابقة التي قال فيها: إن أمان الله خان استولى على العرش عام 1919، وإن إنجلترا اعترفت باستقلال أفغانستان عام 1921
فإذا كان أمان الله خان لقب نفسه بالملك عام 1926، فبماذا كان يلقب من عام 1921 إلى ذلك التاريخ؟
إن ما عمله أمان الله خان عام 1926، هو إنشاؤه مجلساً عاماً للأمة برياسته كان يسمى (لوي جركة) جمع فيه أعيان الأمة ونوابها وعلماءها ومفكريها ليستشيرهم ويتباحث معهم في الإصلاحات الداخلية للمملكة
3 - قال الأستاذ في صفحة 33 من كتابه عن العلم الأفغاني إنه أخضر وأحمر وأسود بنقوش في وسطه وليس العلم الأفغاني كما قال الأستاذ، بل هو أسود وأحمر وأخضر. أما النقوش التي في وسطه والتي ذكرها الأستاذ، فهي رسم للجزء الداخلي من الجامع بالمحراب والمنبر
محمد هارون المجدوي
إلى الأستاذ النشاشبي
جاء في مختار الصحاح مادة (سخف)، السخف بوزن القفل رقة العقل وبابه طرب فهو سخيف، وقد استوقفتني عبارته (من باب طرب)، لان الأوزان القياسية التي تأتي من باب فعِل في الصفة المشبهة لم يذكر فيها هذا، ومع أني لا أنكر أن باب الصفة المشبهة كثيراً ما يعتمد على السماع، إذ قد ورد من باب فَعِل أوزان سماعية منها:

سعيد وسقيم وأسيف ومريض. . . إلى غير ذلك. فقد حاولت أن اقف على الحقيقة كاملة، فاتجهت إلى معاجم اللغة الكبرى كلسان العرب والقاموس والأساس فلم أجد من نص على أن سخف من باب فعل بل ضبطت في كل المعاجم المذكورة بالضم على أنها من باب فعل

جاء في القاموس: سخف ككرم سخافة فهو سخيف، وجاء في الأساس: وقد سخف الثوب سخافة وهو السخيف النسج والصحاح للجوهري مع انه الأصل لكتاب مختار الصجاج وجدت الكلمة فيه أيضاً مضبوطة بالضمة. قال الصحاح: سخف الجوع رقته وهزاله يقال

به سخف من جوع. والسخف بالضم رقة العقل. وقد سخف الرجل بالضم سخافة فهو سخيف. الجزء الثاني مادة سخف

هذا ما قدرت على بحثه ومراجعته وهو وإن كان يخول لي تخطئة المختار إلا أني لا أزال أتوجه إلى الأستاذ النشاشيبي راجياً أن يبين لنا وجه الحق في هذا؛ وإني لفي لهفة وشوق للتزود من معارفه وآفاقه الواسعة التي وعتها مجلة الرسالة الغراء.

وبمناسبة ما جاء في مختار الصحاح، أنقل كلمة للمرحوم الشيخ نصر الهوربني في مقدمته لكتاب الصحاح للجوهري، يقول: (اختصر هذا الكتاب ابن الصائغ الدمشقي والجوابي والرازي).

ومن بينهم المولى محمد المعروف بالقيسي المتوفى سنة 1016 ومختصره أنفع وأفيد من مختار الصحاح. كذا قيل لكنه لم يشهر وإذا كان هذا الكلام صحيحاً فما الذي منع وزارة المعارف عن طبع هذا المختصر؟. . . لعل الأستاذ يذكر لنا شيئاً عنه، ويعرفنا به؛ فلعل الوزارة تسمع صوته فتقوم على طبعه؛ وللأستاذ منا أصدق الشكر والمحبة

(بستان دمياط)

عبد المنعم سليمان مسلم

تعقيب

رأيت الأستاذ (الكاتب الكبير) حفظه الله يقول في مقاله (أحاديث التلاميذ المصريين) الرسالة رقم 428 (. . . إن عيشنا رتيب رتيب) وفي قصيدة الشاعر حافظ إبراهيم العجيبة (أذنت شمس حياتي بمغيب) يقول الشارحون الفاضلون للبيت:

لا ولا يسئمه ذاك الذي يسئم الأحياء من عيش رتيب (الذي وجدناه في كتب اللغة بهذا المعنى: الراتب لا الرتيب). الجزء الثاني من الديوان طبعة عام 1937

قلت: وكثيراً ما اجتهدت أن أقع على كلمة رتيب فيما أقرأه من الشعر والأدب القديمين ولكني إلى اليوم لم أظفر بذلك.

والذي جعلني أخوض في ميدان التعقيب اللغوي، وهو ميدان وعر المسالك لا أحب لنفسي الخوض فيه، هو اضطراري أحياناً إلى استعمال هذه الكلمة في الشعر فانكب عنها لعدم اطمئناني إليها

فهل للكاتب (المبارك) أن يبين لي رأيه في ذلك أو يظهرني على ورود هذه الكلمة في قول قديم، فيفيدنا من علمه وأدبه، أعز الله قلمه فيما يصول ويجول؟

(نابلس)

فدوى عبد الفتاح طوقان

في اللغة

أشكر للأستاذ العلامة الكبير وحيد بك جوابه عن سؤالي الخاص بكلمة (هناء) ومع ثقتي بعلمه وإطلاعه أرجو أن يسمح لي بسؤال أخر في سبيل الخدمة اللغوية العامة:

بحثت أنا وبعض أصدقائي من الأدباء عن (هناء) في لسان العرب وتاج العروس والمحيط للفيروزابادي والأساس للزمخشري.

حتى. . . المصباح المنير ومختار الصحاح، فلم نجد هذه الكلمة

فهل يتفضل السيد العلامة الكبير وحيد بك بأن يرشدنا - أنا والأصدقاء المنضمين إلي في هذا السؤال - إلى المرجع الواردة فيه الكلمة المذكورة؛ والذي نعتقد من تحقيق العلامة الكبير أنه من المراجع الموثوق بها.

(ح. ح)

العدد 431 - بتاريخ: 06 - 10 - 1941

السعادة. . .
للأستاذ عباس محمود العقاد
أرسل إلى الأديب عبد القادر محمود الذي عرف نفسه إلي بأنه (أحد الكتاب المحدثين) مقالاً عن السعادة مشفوعاً بخطاب يرجوني فيه (أن أصغي إلى حديثه قليلاً ثم أرد على صفحات الرسالة الغراء بما يروى ظمأه ويرشده إلى الحق إن كان قد حاد عن سبيله).
وخلاصة مقال الأديب أن السعادة وهم ليس له وجود، وأن بعض الأشقياء مطبوعون على الشقاء فهم به سعداء، وأن كل ما يقال عن السعادة إعادة لما قيل.
ويسألني الأديب بعد ذلك ماذا أقول؟
فلا أدري هل سأعيد قديماً بما أنا قائل في هذه الصحيفة، أو أنني مسوّغ هذه الإعادة بتصوير طريف.
ولكني لا أحسب الكاتب مطالباً باختراع الآراء التي لم يسبق إليها، ولا أرى عليه من غضاضة أن يبدي رأياً تقدم أصحاب الآراء بإبداء مثله، وإنما الشرط أن يصدر عن تجربة، وأن يروى عن خيرة، وأن يكون لكلامه لون من نفسه وحسه وتفكيره، ولا عليه بعد ذلك أن يتشابه ما يقول وما كان قد قيل.
والسعادة في رأيي لا استحالة فيها إلا كالاستحالة في كل مطلب من مطالب هذه الدنيا.
فأنت إذا أرت كسوة جميلة في نسجها ولونها وتفصيلها وثمنها ومتانتها وجدتها حيث توجد الكثيرات من أمثالها.
أما إذا أردت كسوة هي المثل الأعلى الذي لا يعلى عليه ولا يجاري في جمال النسج وجمال اللون وجمال التفصيل وسهولة الثمن وطول البقاء فقد أردت المستحيل، لأنك أردت المثل الأعلى الذي ليس له مثيل، وهو بطبيعته فوق ما ينال.
والسعادة إن أردتها سعادة لذات معهودات فأنت واجدها لا محالة في وقت من الأوقات.
أما إن أردتها سعادة العمر أو سعادة في كل شيء لا نظير له ولا انقطاع لها فتلك هي الاستحالة التي تنفرد بها السعادة، ولا فرق بين تعذرها وتعذر كل مطلوب على تلك الشريطة.
فليست السعادة بوهم، وليست الكسوة بوهم، وليست اللقمة السائغة بوهم، ولكن اللقمة
السائغة مع رخصها وخجل بعض الناس من المقابلة بينها وبين السعادة تساوى السعادة الكبرى في استحالتها إذا أنت خرجت بها من عالم المعهود وارتفعت بها إلى عالم الأحلام المأمول.
لأن الاستحالة من طبيعة الأحلام، وما من حلم يتحقق إلا بطلت تسميته بالحلم وانتقل إلى المحسوسات والمدركات
فالسعادة طبقات وأصناف.
والصنف الرخيص منها موجود وموفور ومبذول، والطبقة القريبة منها على متناول الباع الطويل والباع القصير
فإذا قيل: إن أصنافاً منها لا تبذل ولا تتوافر، فكذلك الصنف الغالي من كل شيء، حتى العدس والقطن والورق والتفاح.
وإذا قيل: إن الطبقات العالية منها لا تنال أولا تنال في كل حين ولا ينالها كل إنسان، فكذلك كل طبقة رفيعة من كل سلعة وكل ثمرة وكل موجود.
هناك لحظات سعيدة في الحياة. فهناك إذن سعادة لأمراء ولكن ليس في الدنيا أناس سعداء، لأن السعادة الملازمة للإنسان في كل حالة وكل مطلب هي المثل الأعلى، وهى الحلم، وهى الغاية التي لا تدرك، والبغية التي لا تنال.
وما هي السعادة بعد هذا؟
هل هي من عامل السكينة أو من عامل الحركة؟ وهل السعيد من لا يتحرك، أو السعيد من لا يسكن؟
هي هذا وذاك. . .!!
فللسكينة سعادتها وللحركة سعادتها، ولكنهما لا تتشابهان:

سعادة السكينة رضى وارتياح خاليان من الشوق والطموح، وسعادة الحركة تقدم ونجاح خاليان من القناعة والاكتفاء
ومن يبغ هذه لا يبغ تلك، ومن يطلبهما فليطلبهما متفرقين في زمنين مختلفين، لأنهما لا تجتمعان.
وما لنا لا نقول: إن المثل الأدنى في التعاسة نادر كالمثل الأعلى في السعادة. فأشقى الأشقياء وأسعد السعداء في الدنيا اثنان متكافئان متعادلان، ولعلهما لا يوجدان!!
ولو خرج أحد من الرحالين ليجوب أقطار الأرض باحثاً عن أشقى شقي للزمه من الوقت والعناء قريب مما يلزمه في بحثه عن اسعد السعداء!
فلا يقل حانق على السعادة إنها مستحيلة في هذه الدنيا، لأن استحالتها من جنس كل استحالة، ولأن يسرها من جنس كل يسر، ولأن الفرق بين المثل الأعلى والمثل السائر فيها كالفرق بينهما في أكلة أو لبسة أو رشفة أو ما شئت من متع الحياة.
وهي ليست - بعد - شيئاً واحداً كتلك الجوهرة المكنونة التي يحكون عنها في الأساطير ويتخيلونها في كل يد تعثر بها على استواء، لا فارق بين يد العبد ويد السيد، ولا بين يد الجاهل ويد الخبير.
وإنما السعادة سعادات: سعادة هذا شقاوة ذاك، وسعادة إنسان في حين من الأحيان غير سعادته في غير ذلك الحين.
أتسألني عن السعادة المطلقة بالقياس إلى كل إنسان وإلى كل حين؟
تلك ليس لها وجود، وكذلك كل شيء مطلق من القيود والملابسات في عامل القصور والفناء.
ولنعلم أن اختلاف الناس في أمر السعادة إنما هو اختلاف شعور قبل أن يكون اختلافا في الرأي والنظر
فهم يشعرون بالسعادة على اختلاف، وإن فكروا فيها على اتفاق؛ وهم يختلفون في شعورهم بين عمر وبين حالة وحالة كاختلافهم في كل ما يحبون وكل ما يكرهون.
وأرجع إلى نفسي فأراني قد شعرت بالسعادة على وجوه قلما تتماثل في بضع سنوات.
في الشباب كنت أقول لها:
لا تطمعي اليوم مني ... بالسعي خلف خيالك
فقد سألتك حتى ... مللت طول سؤالك
وقد جهلتك لما ... سحرتني بجمالك
فلا تمري ببالي ... ولا أمر ببالك
أشقى الأنام أسير ... معلق بحبالك
تلك دالة الشباب يحسب أن السعادة خليقة أن تسعى إليه، وأنه إذا أومأ إليها بيده فلم تبادر إلى لقائه فقد أسرفت عليه في الدلال، واستوجبت منه الإعراض والملال.
وبعد حين كنت أحسب السعادة في النسيان فأقول:
لذة النفس في السلافة والشعر ... وفى الحب والكرى والغناء
خير ما في الحياة يا قلب ما أنسا ... ك ذكر الحياة والأحياء
وتلك هي مرحلة التجربة الأولى في انتظار التجربة الثانية.
فأما التجربة الأولى فهي تجربة الفتور الذي بعقب الإلحاح الباكر:
إلحاح الشباب في الآمال.
وأما التجربة الثانية، فهي التي تعقب ذلك الفتور أو تلك الراحة، من نشاط ووثوب.
وجاءت فترة كنت أحسب السعادة في الخطر:
عش آمن السرب كما تشتهي ... ما نحن ممن يغبط الآمنين
إن حياة الأمن في شرعنا ... مشنوءة مثل حياة السجين
كلاهما يخفره حارس ... مسدد النظرة في كل حين
أيتها الأخطار علمتنا ... بأننا الأحرار لو تعلمين
وهذه هي الفترة التي كنت أرى فيها الراحة حظاً للوضيع والتعب قسمة مفروضة على العظيم.
إن الشقي الذي لا صنو يشبهه ... وللأصاغر أشباه وأمثال
ثم تكاملت عواطف النفس فتاقت إلى نصيبها من المجاوبة الناضجة والمقابلة

المستوفاة، وأيقنت أن السعادة مشهود لا يرى بعينين اثنتين بل بأربعة أعين، وعاطفة لا يحسها قلب واحد بل قلبان متفقان، فمن رامها بعينين وقلب فكأنهما يرومها شطراً مسلوخاً من جسم ميت، لأن الأجسام الحية لا تعيش شطرين.

إن السعادة لن ترا ... ها في الحياة بمقلتين
خلقت لأربع أعين ... تخلو بها ولمهجتين
لك مقلتان ومهجة ... أترى السعادة شطرتين؟

والنقيب بالزهاوي رحمه الله وأنا أومن بأن السعادة حقيقة وليست بأكذوبة، فلما قال الأستاذ

الزهاوي: لا سرور في الحياة ولا لذة، وإنما اللذة عدم الألم. قلت: هذا كقولنا إن الحياة عدم الموت، والأولى أن تعكس القضية فيقال: إن الموت عدم الحياة قال: ولم تقرن اللذة بالحياة وتجعل لهذه حكم تلك في القياس؟

قلت: إن الحياة قوة إيجابية لا قوة سلبية، وكذلك الشعور بما يوافقها هو قوة إيجابية من نوعها وليس امتناع قوة أو عدمها؟

والآن؟

تسألني ما قولك الآن:

قولي الآن أنني أعرف السعادة من وجهها ومن قفاها، وفي صدقها وفي ريائها؛ ولكنني أقاربها وأنا مشفق من عواقبها، إذا أنا على يقين من كشف الحساب الذي يعقب كل نشوة من نشواتها. وكشف الحساب هذا عملة مسكوكة من المحظورات والمخاوف والشكوك، وهي العملة التي تشتري بها السعادة على اختلاف أصنافها وطبقاتها، فعلى قدر السعادة يكون الثمن، وعلى قدر النشوة يكون الحذر والألم والتنغيص!

ولا أكتفي مع هذا بأن أقول: إن الخوف لازم لأداء ثمن السعادة، بل أزيد عليه أن الخوف لازم لمعرفتها ولو بذلت لك بذل السماح، وإن الخوف حافز إليها يغريك بنشدانها. فمن لم يخف لم يسعد، وليس بالعالم الذي لا خوف فيه حاجة إلى السعادة!

عباس محمود العقاد

أومن بالإنسان - 9!

للأستاذ عبد المنعم خلاف

استجابة

أعود إلى الكتابة تحت هذا العنوان استجابة لنداء الحياة ونداء النفس؛ فقد نادتني الحياة الإنسانية الراهنة الزاخرة إلى الإيمان به وبمستقبله برغم إثمه وشره في عصره هذا، وحملتني على ذلك بنبوتها ومعجزاتها. والحياة المدنية الحالية نبوة! نبوة شيوعية. . . أخذت جميع أمم الأرض بمعجزاتها وأخضعت أعناقهم بأدواتها المأخوذة من أسرار الطبيعة. فلنعرفها على حقيقتها. ولنعلم أنها باب الملكوت الذي وعدت به رسالات الشرق الأولى التي وجهت الإنسانية.

إنها نبوة الطبيعة وقوانينها، وحقائق الأشياء وبراهينها. . . لا نبوة الإرشاد والتربيب والكلام الذي ألقاه الرجال الآباء في سمع الإنسانية وهي في أدوار تكوين الضمير وتطبيع الأعصاب وتوجيه الأخلاق بالرحمة والإخلاص وسمو النظرة إلى الإنسان في حياته هنا وفي مصيره هناك. . . وهي صفات لا بد منها في المهود والمدارج. . .

فأن أنا لم أستجب لنداء هذا الحياة بالجسم الخفيف السريع، والفكر اللطيف اللماح الحاذق الفطن لأسرارها، الواعي لخطرها وقيمها، العارف باتجاهات قافلتها. . . كنت من المتخلفين البلداء الكافرين بنعمة الله! ولله في هذه الحياة المدنية الحالية نعم جليلة لا يكدرها إلا عنف وحماقة وطيش من بنيها.

وقد نادتني النفس التي حاولت جهدي أن أحفظ لها حدودها وطابع عالمها الخاص وألا أسمح بطغيان الجسد عليها طغيانا يجعلها تذهل عن ذاتها وتخلط بين معدنها الخاص والمعادن الأرضية إلى الإيمان بها كذلك، وحملتني على ذلك بما كشفته لي من آفاقها الخاصة التي لا دخل التعليل البيولوجي والفسيولوجي فيها.

وكنت حريا - وأنا أطلب الحق - أن أستمع للنداءين فأوفق بين نداء النفس ونداء الحياة، وأن أرى ضلال الذين عكفوا على الحياة المادية وحدها أو على النفس وحدها ولم يزاوجوا بينهما.

انتقال أسرار الطبيعة إلى الفكر - خليفة القهار - إدراك المادة ثم النفس ثم الله - لا عمق
في العالم المادي - الفكر مجال مؤقت ومجال منتظر - باب مفتوح وباب مغلق - مضى عهد مضغ الكلام - لا سدود أمام الإنسان - الطبيعة هي الحكم فيما يمكن وما يستحيل - تربية تعلم غزو الطبيعة - الطبيعة المطيعة - عصر الإحساس بقدرة الفكر - أسئلة يجب ترديدها دائماً.
ألقت الطبيعة أكثر صورها إلى فكر الإنسان، وانتقل إلى ذهنه جانب كبير من أسرارها وقوانينها، فصار يقلدها ويصنع من مواردها ما يشاء من ألوان التجسيم والتشكيل والتحريك، ويسلط بعضها على بعض، وصار له مقام معلوم ملحوظ بين عوامل التكوين والتخريب فيها. . .
وقد بنى أساس هذا التقليد على قواعدها الكلية، وبقى التنويع والتفريع الذي لا ينتهي في الجزئيات والأشكال.
وقد وصلت يده إلى منابعها ومواردها الأولية: فهو يبحث الآن في الذرّة والكهرب والأثير، لعرف المبادئ الأولى للمادة والقوة والدفعة الأولى التي ابتعثتهما ودفعتهما. . .
فماذا ينتظر الإنسان بعد فراغه من هذا التسلط؟ وما هي النتائج؟ أهي المغالبة والمنافسة والشهوة على الأساليب التقليدية الجاهلية؟ إن هذه نتائج لا تتلاءم مع عالم فكره العالي، ولا يصح أن تكون أهدافاً لهذه الصرامة والجد العظيم الذي تسير به الحياة وقوانينها في خدمته. . . وإن المغالبة والمنافسة والشهوة بأساليبها المعروفة الوضيعة، ينبغي أن تكون غير ذات خطر عنده، بعد أن عرف آفاقاً جديدة لشهوات رفيعة، وهي تحقيق أحلامه في الكشوف العلمية والانطلاق السريع بالطيران والسبح والسبق وإزالة الحواجز والسيطرة على القوى الآلية، وغير ذلك من طلائع مجده وملكوته المرتقب!
إن الله قاهر فوق الطبيعة، وهو يدرب (خليفته) في الأرض على التغلب على العقبات التي تعترض طريق أحلامه الطليقة وأفكاره المحررة من قيود المواد الثقيلة. والله أنشأه في الضرورات والآلام ليفتق هو الحيلة للخلاص منها، ويكمل وسائل السيطرة الذاتية على المادة؛ وإذا اطرد السير على منهاج تاريخه الذي عرفناه، فسوف يتغلب على كل شيء.
إن فكر الإنسان قانون ينمو ويتدرج غير واقف عند حد؛ وقوانين الطبيعة صارمة جامدة متحجرة. ونموه في ذاته يجعل الطبيعة نامية به. ألا ترى ما يستحدثه فيها من المعجبات
التي لا تنتهي؟
وأرجو أن يفهم هذا القول فهماً عميقاً، لأننا إذا فهمنا فكر الإنسان على هذا، أدركنا موضعه ورسالته في الوجود، وأحللناه محلاً رفيعاً يدفعه إلى العمل والسير في منهج محدد واضح، وحملنا ذلك على أن نحوطه دائماً بقوانين تحفظه من الارتداد والضلال، ونتدرج به حتى نستوعب كل مباحث المواد والقوى، ونستخرج به أسرارها الكامنة، وننتقل به نقلة تسلمنا إلى الوقوف على عتبات عالم آخر، لعله أن يكون عالم النفس. . .
وإن إدراك النفس لا يتأتى إلا بعد إدراكها ما في الكون المادي؛ وهذا هو سر قلقها ونبشها في الطبيعة وعدم رضاها عن ركن واحد منها؛ وكلما أخذت من الطبيعة سراً، أحست أنها تقترب به إلى إدراك ذاتها الجزئية، لتدرك من وراء ذلك علماً من الروح الأكبر!
أجل. إن إدراك الكون لا بد منه لإدراك النفس، إذ أن الفكر يرى كل عمق في الحياة المادية يصير ضحلاً بعد ترديد النظر عليه واستيعابه بالإدراك. وطبيعي أن تشعر النفس بعد هذا الاستيعاب أنها أوسع وأعمق من الموجودات المادية؛ وأن ترى آفاق الحياة المادية عديدة لا أكثر وليس لها عمق ولا نهائية؛ فهي في موجودات الطبيعة ومستحدثات الإنسان لا تتعدى اختلاف النسب التركيبية بين العناصر التي تزيد قليلاً على التسعين.
وما يخيل إلى البعض من أن هناك أعماقاً وأغواراً لا تنتهي في المادة إنما هو صورة مما يحدث للناظر إلى لوحة فنية بارعة ذات صنعة موحية مثيرة للشعور باللانهائية.

حتى إذا ما كشط سطحها قليلاً تذكر أنها ليست أكثر من تمويه وتخييل وبراعة في بسط الأصباغ والأضواء والظلال وقبضها، وتكشّف له السطح الزاخر باللانهائية عن باطن محدود لا يتعدى ألوان الطيف السبعة!

إن الإنسان لم يعد يؤلمه الماء والنار والهواء والتراب ويفرغ عليها أوهام القداسة والهول اللذين كانا لها في ذهنه قديماً، بعد أن حلل عناصرها وركبها وتسلط عليها وسبر أغوارها. ولم تعد النفس العالمة التي تشرف على لجة البحر أو لجة الهواء أو أغوار التراب أو جحمة النار، ترى فيها أكثر من مواد وقوى عمياء محكومة بقوانين أخذتها النفس في حوزتها وجعلتها من مدخرات فكرها، وتستطيع أن تولد بها ناراً وهواء وماء. . .

إني أشعر حينما أقلب بصري في آفاق السماء وآفاق الأرض أن فكري لا يستطيع التعمق فيها إلى ما لا نهاية، بل يقف عند نهايات معينة هي العناصر المحدودة التي تألفت منها مادة السماء والأرض، والنسب الهندسية والحسابية التي قام عليها بناء الأجسام وتشكيلها؛ ثم يبدأ الإحساس بفراغ وعماء لا صور فيه ولا خواطر عنه.

وطبيعي أن نظرة مثل نظرتي هذه لا يكون وراءها إحساس بخشية من الطبيعة ذاتها كما كان الأمر عند سكان الأرض القدماء الجاهليين، لأن حدودها رئيت وأسرارها عرفت وصورها طبعت في النفس، ولكن يكون وراءها إحساس بخشية ورهبة من ذلك الذي خلقها هائلة هكذا وجعلها بهذه النسب الرياضية والهندسية والقوة الدائبة الجبارة. . .

إذاً ما هو المجال الحيوي غير المحدود لهذا الفكر الإنساني الذي يرى عمق الكون المادي ضحلاً بعد ترديد النظر عليه ومعرفة أسرار تركيبه وقوانينه الهندسية والرياضية؟

إنه لا بد عالم لا نهائي لا تدركه الأبصار والمناظير ولا تحلله المخابير، ولا تسبر آفاقه المسابير والمعايير، ولا تدركه علوم الزمان والمكان!

وطبيعي أن هذا المجال الحيوي بهذا الوصف لا يمكن أن يكون للفكر الإنساني قدرة على إدراكه هنا في هذه الدار التي نعيش فيها بالحواس وقيود المواد الثقيلة الكثيفة، والفكر المحدود.

ولهذا يجب أن ينصرف الفكر الإنساني عن محاولة اقتحام هذه السبحات ويتوجه إلى المجال المحدود المؤقت الذي وضعناه فيه لندركه هو أولاً ونفرغ من استيعاب أسراره وظواهره.

وإن من يريد التعمق الآن في إدراك ما وراء الطبيعة ولا يقنع منه باللمحات والخطفات فلن يظفر بمحصول غير الشرود والخيال.

وقد برهن تاريخ الإنسان على ذلك. فالأمم التي لا تزال تطلب في هذا العصر علم اليقين بالنفس والله قبل إدراك قوانين العلم الطبيعي، والتي لا تزال تطلب الله عن طريق الشعر والوجدان وحده كالهندوكيين ولا تطلبه عن طريق البحث في أرضه وهوائه ومائه والتطلع العلمي إلى سمائه، ولا تَقُصُّ آثاره يده في صنع نماذج الطبيعة لتعرف مقدار ما عنده من العلم والإحاطة بالجزئيات والكليات، ولا تلخص أسرار صنعته وتختزلها في قوانين ومعادلات حسابية وجبرية، ولا تحاكي نماذج الطبيعة، إنما هي أمم بدائية ضالة طريق تحقيق الأوطار والأشواق إليه، جل مجده، قليلة العلم بما عنده من أفانين تتجدد ولا تنفد، تعرفه عن طريق العواطف والرموز، لا عن طريق الفكر والوضوح.

إن الإرادة العليا مصرة على إغلاق ما وراء الطبيعة الآن أمام فكر الإنسان، ولعلها تفتحه بعد أن يفرغ من إدراك كل ما في الطبيعة أولاً.

أما الطبيعة ذاتها فقد دل تاريخ العلوم على أن أبوابها تفتح لمن تركوا اتخاذ الكلام غاية وحيدة للحياة، وعكفوا على محاريبها وأطفالها وموجوداتها يقلبون النظر والفكر واليد فيها ثم يتكلمون بعد ذلك. . .

إن الكلام وسيلة لا غاية. هو قوالب لاختزان المعاني التي تنشأ من المزاوجة بين خواطر الفكر وخواص المادة. هو أوعية الحقائق المرفوعة من الأجسام، إلى عالم التعبير والصور والأرقام. فلا يصح أن تمتلئ بتكاذيب الأماني وتخييلات الأحلام، إلا أن

تكون تمهيداً من عالم الخيال والمثال لعالم الواقع. وكثيراً ما هدت سوانح الشعر إلى عالم حقائق العلم. . .

فلا يضمن أحد السدود النظرية أمام عمل الإنسان في الطبيعة ما دامت هي تلبيه وتتفتح له وتنتج. ولا يجوز حمله على السكون والركون إلى مواريث الأفكار القديمة التي تجعل الطبيعة أمام الإنسان حرماً مقدساً يجب التهيُّب من الشروع في تغيير شيء فيه أو تنقحيه بالزيادة أو النقصان. . .

فهي وحدها الحكم الذي تُرضى حكومته في العمل فيها أو تركه. . .

فما دامت تفتح له الأبواب وتهتك الأستار فليدخل وليتوغل وهو موقن بأن هذا عمله الذي خلق من أجله. . . وليس إبقاء الطبيعة كما هي بدون تغيير عبادة كما كان الزعم القديم،

ولكن صار تغيير إلى الأصلح هو العبادة. . .

والتربية الناجحة هي التي توحي للنفس ألا تتقهقر وتتضاءل وتنزوي في نفسها أمام قوى الطبيعة، بل تجعل من النفس قوة غازية موجبة غير سالبة، تؤثر في الطبيعة بالتسخير والتحويل والتنقيح. . . والتربية الشرقية على العموم لا تزال تؤول قصور النفس الناشئ عن الجهل والكسل والعجز أمام الطبيعة بتأويلات تحمل فيها الأقدار العليا أكثر مما تحتمل، وتفر من وجه السدود والعوائق تحت تأثير قناعة مصطنعة تحيكها أخيلة طفلية، ولا تأخذ ما في الحياة وإنما يأخذها ما في الحياة.

وقد كان الاعتماد على القوى السحرية هو أساس العمل لتحقيق الأماني؛ والآن صار الاعتماد على القوى الآلية في الطبيعة هو أساس ذلك العمل.

لقد قدمت الطبيعة الطاعة أمام فكر الإنسان؛ فهو يأخذ نواصي كثير من قواها بقوانينها هي، وقد عرف الأبواب الخفية التي يتسلل إليها منها فأمعن في غزوها.

وإن أعمال العلماء الطبيعيين قد اكتسبتْ من جبروت الطبيعة شيئاً من الهول والاجتياح والاتساع؛ فمدافع كروب الثقيلة البعيدة المرمى، والقنابل الشديدة الانفجار، والقلاع الطائرة، والمناطيد، والخزانات العظيمة، والمحطات الكبرى لتوليد الكهرباء، والمصانع الواسعة، والإذاعة المبثوثة باللاسلكي وتعبيد الطرق العظيمة كطريق نيويورك - ميامي مثلاً، أو إكسبريس الشرق وغير أولئك. . . كلها أعمال عظيمة تمتاز بطابع الاتساع والهول والجهد الجبار.

ولا يتوهمن متوهم أن هناك عداوة وغيظاً وحرباً ذات حقد بين الإنسان والطبيعة، وإنما للطبيعة صدر رحيب كصدر أم يمرح عليه أطفالها.

نحن بنو الطبيعة ونتاج عواملها وتأثيراتها الظاهرة والخفية، جسمنا منها وعقلنا وتجاربنا، ولكن روحنا من الله بارئها؛ ولذلك كان لنا قدرة عليها وافتنان في تنقيح موجوداتها ومحاكاتها والزيادة عليها. . . فلنبدأ عصر يقظة بالإحساس بحياتنا الممتازة، والإحساس بقدرتنا الفائقة على الأعمال العظيمة. وليكن ديننا هو حيرتنا ودهشتنا: كيف خلقنا؟ وكيف اقتدرنا؟ وكيف نعلم؟ وكيف نعمل؟

إن الراحة الدائمة هي في أن نلقى بأجسامنا على صدر الطبيعة مفكرين فيها باحثين عاملين. . . وبأرواحنا بين يدي ربها متعرفين إليه صابرين على الدهشة والحيرة والإيمان بالغيب حتى يأتينا اليقين في الآفاق وفي الأنفس. ولا بد وراء ذلك من تأويل ويقين!

قد يطير الطير في أجواز الفضاء وهو في ذهول. . . وقد يسبح الحوت في جوف العباب وهو في ذهول. . . وقد تَدْرُجُ الوحش والأنعام والبهائم على أديم الأرض وهي في ذهول. . . ولكن ابن الإنسان ينبغي له أن يتساءل دائماً: كيف أحيا؟! وكيف أفكر؟! وكيف أدرُج؟! وكيف أسبح؟! وكيف أطير؟! ثم كيف أريد وأقتدر؟!

وينبغي له ألا يغفل عن ترديد هذه الأسئلة:

ما الذي أخرج الإنسان من ركام المَوَات والجمود ومختلط القوى العمياء التي يزخر بها الكون؟

وما الذي وضع فكر الإنسان واختياره وسط الدورات الجبرية التي تتداول الأرض؟

وما الذي هيأ له مهاده الوثير المريح المستقر وسط النيران والصخور وتدافع القوى العمياء؟

إن رحلة واحدة في جوف الماء الزاخر، أو الهواء الدافع، أو النار الموارة، أو التراب

الثقيل الفادح المتراكم. . . كافية أن تشير لنا إلى موضعنا وخصوصياتنا في الكون، وإلى رعاية من أخرجنا وسط هذه الأهوال والقوى العارمة المجنونة في مهاد من رحمته بين عوامل جبروته وسطوته!

عبد المنعم محمد خلاف

التصريح بعد التلميح

في توجيه الجيل الجديد

للدكتور زكي مبارك

كنت أُوهم قرائي أن غايتي من المصاولات القلمية هي إيقاظ الحياة الأدبية بعد أن طال عليها الهجود. وذلك غرضٌ نبيل ولكنه أصغر من الغرض الذي أتسامى إليه، وهو نقل المجتمع في أخلاقه وآدابه من حال إلى أحوال.

وقبل المضيّ في شرح الغرض الذي أرمي إليه بهذا المقال أذكر أن المجتمع المصري مجتمع سليم، فقد نهض بأعباء لا ينهض بها من يكون في مثل حاله من التعرض لمكاره التقلبات الدولية.

وخبرتي بطبقات المجتمع في كثير من البلاد الشرقية والغربية دلتني على أن المجتمع المصري مفطور على التماسك، وأقنعتني بأن شبان مصر على جانب من الأخلاق التي تصوغ أكابر الرجال، وإلا فكيف سَلِمتْ مصر من التصدع برغم ما تعاني من حوادث وخطوب؟

هذا حق، وإذن فلا خوف على مصر ما بقيتْ تلك المناعة من الانحلال.

ولكني مع ذلك خائف على مصير بلادي. ففي كل يوم أرى جماعات تغري الشبان بالرجعة إلى العصور السحيقة، عصور الجمود والخمود.

ومن عجيب ما يقع في مصر أن تكون الدعوة إلى الأخلاق مقصورة على أناس لا يعيشون إلا بأسندة من المجتمع، مع أن العقل يوجب أن تصدُر الدعوة الأخلاقية عن رجال أقوى من المجتمع، رجال يقيمون البراهين على أنهم في حيوية ذاتية تعصمهم من المداهنة والرياء، وتضمن لهم النجاة من مزالق التصنع والازدلاف.

الدعوة إلى الأخلاق تصدُر عن الأقوياء لا عن الضعفاء، لأن الأصل في أُخلُق أن يكون قوة روحية وعقلية وذوقية تصل بصاحبها إلى شرف الثقة بالنفس في غير ازدهاء ولا اختيال.

أما صدور تلك الدعوة عن أناس لا يستطيعون مواجهة أمواج الحياة إلا إن أمددناهم بالعون والرعاية فهو عمل لا نرضى عنه إلا إذا نوينا التصدق والافضال.

وأقول بصراحة إني لا أستريح إلى من يدعوننا في كل يوم إلى التخلق بأخلاق العصور الذواهب، بعد أن عرفتُ ما عرفت من أخبارها السود، فقد كان الرجل يُسجن وتُستصفَى أمواله بلا تحقيق، لأتفه الشبهات، وكان التاريخ يكتُب بالأجر فيجوز فيه الكذب والتهويل بلا حساب.

في العصور الماضية وُجِد حكام ولم توجَد شعوب. . . وإني أحب أن يكون فنياً رجل مثل عمر بن الخطاب، ولكني أكره أن نعيش على النظام الذي عاش عليه عصر عمر بن الخطاب. . .

وأنا أرّحب بعودة هرون الرشيد، ولكني أكره أن يعود عصر هرون الرشيد، فما يسمح عقلي بقبول الصورة التي عاش عليها المسلمون في عهد ذلك الخليفة العظيم، وإن لوّن عهدُه بروائع الألوان.

وما رأيكم في الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي وُلد في بلادنا الغالية؟

كان غاية الغايات في إيثار العدل، وأنا أتمنى أن يعود، إن كان للأموات إلى الدنيا مَعاد، ولكني أكره أن يعود عهدُه مرةٌ ثانية، فقد كانت الأمم الإسلامية في تناحُر وشقاق، وكانت الإدارة الحكومية أضعف من أن تجمع الشمل، وترأب الصدع، وترتق الفُتوق، فكانت أيامه قنطرة تحمل أثقال الفِتن من جانب إلى جانب، بلا نِظام ولا وثاق، وهي أيام لها سوابق ولواحق، وبشؤمها المأثور هوت الأمم الإسلامية إلى المهاوي التي سجّلها التاريخ.

وخلاصة القول أن (للسّلف الصالح) لا يتمثل في غير الحكام العادلين، وهم آحاد أو عشرات، أما الشعوب في تلك العهود فلم يكونوا يحتكمون إلى غير السيف، وقد كان وحده الفَيْصل في أكثر ضروب الخلاف.

ماذا أريد أن أقول؟
أريد النص على أن التعلق بأهداب العصور الماضية ضلال في ضلال، وأن الذين يريدون أن يردّونا إليها ليسوا إلا أحياءَ يحملون قلوب الأموات، وإن تردّوا بأردية الصالحين والأتقياء!
لم يكن للشخصية الفردية وجود صحيح في العصور الخوالي، ولا كان أحد يجرؤ على مواجهة الحكام بنقد ما يقع في أعمالهم من جور واعتساف، إلا نوادر من المعارضات قام
بها أفراد من الزهاد والصوفية. نوادر فَرِح بها عشاق الصراحة والعدل فسجلوها بطنطنة وتهليل، لأنها كانت في أنظارهم من جملة الغرائب والأعاجيب. . . وهل يُنَصّ على شيء إلا إن كانت فيه غرابة توجب الالتفات؟
وخلاصة القول أني أدعو إلى مدينة العصر الحديث، فهي آخر ما اهتدت إليه العقلية الإنسانية، وإن لم تخلُ من نقائص وعيوب. وسنساير هذه المدينة إلى أن تجئ مدينة أفضل منها وأنفع، على فرض أن العقل الإنساني يرتقي من يوم إلى يوم.
ولعله يكون كذلك بفضل ما يرتطم فيه من مآثم الطغيان الدولي؛ وهو طغيان يخلُق النفرة من البغي والعدوان، ويؤرّث نار الثورة على الظلم والظالمين.
والحق أن عيوب المدينة الحديثة ليست بشيء بجانب مزاياها الأساسية، وإنما يقع الخطأ من الغفلة عما لها من محاسن، والوقوع فيما لها من عيوب. ولو كان لنا جميع فضائل الأقوياء وجميع مساويهم لتبدّل الحال غير الحال وصرنا على جانب من المَنَعة نصاول به من نعاصر من كبار الشعوب، ولكن الخوف يساورنا من ناحية واحدة، هي صعوبة التسلح بالفضائل وسهولة التردي في العيوب.
وهنا نقطة دقيقة لا أحب أن يَغفُل عنها قرائي، فقد يتوهمون أني أنهاهم عن اتباع ما ورثوا من محمود التقاليد، - وهذا وهمٌ فظيع - ففي التقاليد القديمة أشياء وأشياء تستحق الإعجاب. وليس عندي ما يمنع من أن يكون فينا من يساير المحمود من تقاليد القرن الثالث أو الرابع، على شرط أن يحسّ تلك التقاليد إحساساً يمنحها قوة الفاعلية الأخلاقية، أما متابعة السلف بلا وحيٌ ولا إحساس فذلك ضربٌ من الجمود البغيض، لأنه يرّدنا إلى الحيوانات التي تسير في طريقها المرسوم بلا تبّصر ولا إدراك. وبالإشارة يكتفي اللبيب!
لك أن تساير ما تشاء من المبادئ الأخلاقية، ما دمت تؤمن بالمبدأ الذي ارتضيته منهاجاً لحياتك. . . وقد أصل إلى أبعد الحدود فأقول: إنه لا خوف عليك من التخلق بأبغض الأخلاق في نظر المجتمع، على شرط أن تكون اقتنعت في سريرة نفسك بأنك على هدًى وأن معارضيك في ضلال. فالذي نشكوه هو ضعف العزيمة الخُلُقية، كأن نرى جماهير تسير سير القطيع بلا إرادة ولا تمييز، وتلك بداية الخذلان.
يجب حتماً أن تكون لك إرادة صحيحة فيما تنصرف عنه وما تُقبِل عليه. ولا قيمة لطواعيتك لآداب المجتمع إن خَلَتْ تلك الطواعية من النية. . . وهَل يثاب من يقرأ القرآن على طريقة الببغاء؟
لقد أنكر قومٌ صحة الصوم بالنسبة إلى من لا ينوي الصيام. فما معنى ذلك؟ معناه أن العمل بلا نية ضياع في ضياع
وأنت قد رأيت ناساً تأدبوا بأفضل ما أُثِر من آداب المجتمع، ثم ظلوا متخلفين. ورأيت ناساً ثاروا على المحمود من تقاليد المجتمع، فما ضرَّهم ذلك ولا فاتهم شيء من الطيبات. فهل تعرف سرّ هذه الظاهرة الحيوية؟
يرجع السرّ إلى أن النية هي الأصل في موجبات الضر والنفع؛ فالذي يساير التقاليد الحميدة خضوعاً للمجتمع بدون أن يكون له في الإيمان بها نصيب يظل طول عمره ضعيف الكفاية الأخلاقية؛ وقد يُنسى فلا يشهد يوم الحساب، لأنه صار أداة آلية، ومن كان كذلك فلا مكان له بين من يستحقون الحمد، ومن يستأهلون الملام. . . والذي يثور على المجتمع وهو مؤمن بأنه على حق - وإن كان في الواقع من المبطلين - هذا الثائر قوي جداً من الوجهة الأخلاقية، وهو أقرب إلى الله ممن يسايرون التقاليد الحميدة وهم غافلون عن مدلولها الصحيح.
وهنالك طبقة منحطة أبشع الانحطاط، وهي الطبقة التي تثور على التقاليد المحمودة بلا نية ولا إرادة ولا عزيمة، وإنما تصنع ما تصنع على سبيل التظرف السخيف، لأنها

سمعت أن الثورة على تقاليد المجتمع تعد أصلاً من أصول التمدن الحديث، وهذه الطبقة هي التي تعوَّق الوثبات الإصلاحية، وهي التي تعطي الحجة لأهل البلادة من دعاة الخضوع لقديم التقاليد، بلا تفريق بين الزائف والصحيح.

وهؤلاء المتظرفون السخفاء هم خصومنا الألداء. فإليهم يرجع السبب في نفرة الجمهور من الوثبات الإصلاحية، وإن كان حالهم أقل بشاعة ممن يسايرون القديم على علاته ليسرقوا ثقة المجتمع الغافل عن مسالك أهل الرياء.

والرأي عندي أنه لا قيمة لأي عمل إن لم يَصدُر عن النفس بحرارة وإيمان، وإن كان في ذات نفسه من جلائل الأعمال، لأن القيمة الأخلاقية ترجع في جوهرها إلى النية الصحيحة.

فيما نأتي وما ندع، بغض النظر عن الاهتداء إلى طريق الصواب. وقد ينتفع المخطئ أعظم الانتفاع بما يزاول من أخطاء، لأن الله لا يحاسب من يقعون في الخطأ عن جهل، ولأن أعمالهم حين تتسق مع ضمائرهم تصون الشخصية الخُلقية من الانحلال، ولا كذلك من يعملون الصالحات بغير نية أو عقيدة، فأعمالهم لا تقدم ولا تؤخر.

وفي رياضة النفس على التطبع بكرائم الأخلاق أواجه الموضوع بعبارة أوضح وأصرح فأقول:

إن عندنا اليوم جمهورين يقتتلان حول القديم والحديث من التقاليد، ولكنه اقتتال غير منبعث عن عقائد راسخة الجذور في الصدور، ومن أجل هذا ظل عديم الجدوى في إيقاظ الحياة الأدبية والاجتماعية، وقد ينقضي هذا العصر بدون أن نشهد ثورة فكرية تحل عقال الأفئدة والعقول كالثورة التي شهدها من عاصروا محمد عبده وقاسم أمين.

ولكن ما أسباب هذا الجمود الدميم؟

ترجع الأسباب إلى نوع الحياة التي يحياها المفكرون في هذا الجيل. وهم فريقان: فريق يعيش في ظل الوظائف الحكومية، وفريق يعيش في ظل المنافع السياسية.

أما الفريق الأول فأسير للمثل المغربي: (صاحب الوظيف وصيف) وانطباق هذا المثل على الموظفين لا يحتاج إلى بيان.

فالموظف في مصر يهدَّد في رزقه وأرزاق أبنائه حين يتعرض لغضب المجتمع؛ والمجتمع يغضب لأضعف الأسباب؛ وهو يريد أن يكون الموظف أداة حكومية كالأداة التي تسجل حضور الموظفين في الصباح بدون أن تعرف ما تصنع، فإن استباح الموظف لنفسه حرية الفكر والقول فله الويل!. . . أليس في الدنيا أناس يحرَّضون الرؤساء على مرءوسيهم بالخطابات السرية أو بالغمز المرذول في بعض المجلات؟

وعلى هذا يكون الأمل ضعيفاً جداً في انبعاث الحياة الفكرية من بيئات الموظفين، مع أنهم صورة الاستنارة الفكرية في جميع البلاد، بفضل حظوظهم من التثقيف والتهذيب.

وأما الفريق الذي يشتغل بالسياسة من أهل الفكر والعقل فالأمل في ثورته على غفلة المجتمع أضعف من الضَّعف، لأن هذا الفريق يفكر دائماً في المعارك الانتخابية، وهي معارك لا يفوز فيها من يتعرض للقال والقيل، ولو كان من أكابر الحكماء السياسي لا ينجح

أبداً إلا إذا راعى أهواء المسُوسين، وفيهم الأحمق والعاقل، والبليد واللبيب، على تفاوت في هذه الصفات لا يسرني أن أقول رأيي فيه بغير التلميح.

وعلى هذا يضعف الأمل في انبعاث الثورة الفكرية من بيئات السياسيين، كما ضَعف الأمل في انبعاث تلك الثورة من بيئات الموظفين.

فإلى أين تسير بلادي الغالية؟ وكيف يجوز أن يمرّ بها زمن طويل أو قصير وهي محجوبة عن أقباس الحرية الفكرية؟

هذا رجل يظاهر التمدن القديم ليقتات من فُتات الرجعيين، وذاك رجل يظاهر التمدن الحديث لينتفع بجاه أدعياء التجديد، وذلك مخلوق يساير أولئك وهؤلاء بلا بصيرة ولا يقين، لأنه في حقيقة أمره حيران، أو لأنه أَلِف السمسرة في ميدان الأخلاق!

الرجعي المؤمن بالرجعية غير موجود، وإنما هو شبَح يتوهم أن له منفعة في مؤازرة الرجعيين المزيفين.

والمجدَّد المؤمن بالتجديد موجود، ولكنه غير مزوَّد بالشجاعة الوافية، بدليل أنه يترك أخاه دَريئةً لسهام السفهاء، فلا يدفع عنه كلمة البهتان، ولا يمدّ إليه يد المواساة حين ينتاشه الأغبياء!

إلى أين تسير بلادي الغالية؟ إلى أين؟ إلى أين؟
لم ينبغ في عصرنا مؤمن في مثل حماسة الغزالي، ولا صوفي في مثل روحانية ابن الفارض، ولا مرتاب في مثل عقل أبى العلاء، ولا فاجر في مثل ظرف أبي نؤَاس. . .
فبأي وجه نلقي الله وقد خلا وادينا العزيز من أمثال هذه المعاني؟
أتقدَّم إلى الله حطبَ جهنم وهم المذبذَبون بين القديم والحديث؟!
وكيف نجيب إذا هتف هاتفٌ يوم القيامة بأن المصريين في بعض عهودهم لم يراعوا حقوق واديهم الجميل؟
قد يقال: إن عندنا رجالاً يثورون على ركود المجتمع من وقت إلى وقت؛ وهذا حق، ولكن ثورتهم في أغلب أحوالها من الحديث المُعاد، فهي في ضعف المبتذلات؛ فالنائب الذي صاح مرة بأن المصريين مختلفون في الأزياء لم يأت بجديد، فقد سمع الناس هذه الصيحة قبل أعوام تُعدَّ بالعشرات. وهذا النائب نفسه لا يستطيع أن ينكر أن اختلاف الأزياء لم
يعوّق (السلف الصالح) عن النهوض؛ فما سمعنا أبداً أن الأزياء توحدت في أمة إسلامية في العصور التي يلقبونها بالعصور الذهبية، حتى يصح القول بأن اختلاف الأزياء هو السبب في تخلف الأمة المصرية، والأستاذ الذي أتعب نفسه في الكلام عن انحلال الأغاني الشعبية لم يأت بجديد، فقد قيل هذا الكلام ألوف المرات، ولم يكن توكيده في احتياج إلى صيحة من عميد إحدى الكليات!!
وأرجع فأقول إني أكره أن يعيش الجيل الجديد بلا بصيرة ولا يقين، لأن هذا الضرب من العيش ليس إلا ضرباً من الموت، وإليكم أسوق بعض الشواهد:
كثر القول في الدعوة إلى إصلاح الأزهر والمعاهد الدينية، وقد شغلت نفسي بهذا الموضوع حيناً من الزمان؛ ثم انصرفت عنه كل الانصراف، حين شعرت بضعف الأساس الذي رجوت أن يقام عليه البناء.
ولتوضيح هذا المعنى أقول: إني رأيت الأزهر بين لا يثقون بمعهدهم إلا ثقة صورية، ولو شئت لصرحت بأنهم يثورون عليه ثورة لا يسترها غير الكبت، بدليل أنهم لا يلتفتون إليه حين يجدون فرصة للتحرر والانطلاق.
كانت مشيخة الأزهر إلى الشيخ سليم البشري، ومع ذلك ربّى جمهور أبنائه مدنية لا دينية. ثم كانت إلى الشيخ أبى الفضل الجيزاوي، ومع ذلك ربى أبنائه تربية مدنية لا دينية. ثم كانت إلى أستاذنا الشيخ الأحمدي الظواهري، وقد ربى أبنائه تربية مدنية. وشيخ الأزهر اليوم هو أستاذنا المراغي؛ وقد ربى أبنائه تربية مدنية، وأبنه مرتضى وكيل محافظة القنال وليس شيخاً لمعهد طنطا أو دسوق؛ فماذا ترون في مغزى هذا الشاهد الطريف؟ ألا يدلكم على أن الأزهريين لا يثقون بمعهدهم إلا ثقة صورية؟
وإن كان الأزهر هو المثل الأعلى في إعداد الشبان للحياة الدينية والدنيوية فكيف يفوت شيوخه الإجلاء أن يصونوا أبناءهم بالالتجاء إلى حصنه الحصين؟
وإن لم يكن صالحاً لتربية هؤلاء الأبناء فكيف يفوت أولئك الآباء أن يصارحوا الأمة برأيهم فيه وهم هداتها إلى الدنيا والدين؟
كان يتفق لبعض كبار العلماء أن يوزعوا أبناءهم بين المعاهد الدينية والمدارس المدنية، كما صنع الشيخ محمد شاكر والشيخ عبد المجيد اللبان؛ ولكن هذه الظاهرة قد انقرضت ولم
يبق من الأزهريين من يربي أبناءه تربية دينية وهو يجد الوسيلة إلى تربيتهم على الطريقة المدنية. . . أليس لهذا المسلك من المعاني ما يوجب التفات من يسجلون التطورات الإجماعية؟ أليس هذا بشيراً أو نذيراً بأن الأزهر يريد أن يتحول؟
وما يقال في الأزهريين يقال في كثير من الطبقات: فالمدرسون في جملتهم لا يرضون أن يصير أبناؤهم إلى احتراف التدريس، كأنهم يتوهمون أنه مهنة لا تمنح صاحبها أهلية الغنى والمجد. فكيف يؤدي المدرس واجبه تأدية حسنة وهو ينظر إلى مهنته بعين الاستخفاف؟
والموظفون الذين ينشرون الثقافة الزراعية عن طريق المقالات والمحاضرات لأبنائهم أن يكونوا فلاحين، ومع أن الفلاحة هي أساس الثروة المصرية.
يجب أن تؤمن كل طبقة بأنها شريك أمين في الهيئة الاجتماعية. ويجب أن نحترم جميع أعمالنا احتراماً يصل إلى الحب لنتذوق طعم القيام بالواجب في صدق وإيمان،

ولنسترد ما أضعناه من المنافع بسبب الفهم الخاطئ لاختلاف الطبقات، وهو اختلاف لا يتم بدونه وجودٌ صحيح.
أما بعد، فهذا مقال لم أرد به غير وجه الحق. وأنا أدعو جميع الكتّاب إلى الاهتمام بأمثال هذه الشؤون في صراحة لا يصدها تهيب ولا احتراس، وليثقوا بأن الشعب المصري يقبل جميع الآراء ما صدرتْ عن نزاهة وإخلاص.
الشعب المصري لم يخذل داعياً من دعاة الحق، ولم يصمْ أذنيه مرة واحدة عن كلمة الصدق، فقد استجاب لجميع المصلحين، وحفظ لهم منازلهم في التاريخ، فما تهيُّبُ بعض الكتاب من عرض ما يجيش في صدورهم من الآراء الصحاح؟
أقدموا غير هَّيابين. فما فاز غير المزوَّدين بفضيلة الشجاعة ونعمة الإيمان.
زكي مبارك
شاعر الجرمان الأعظم
يحيى ولفغنغ غوث
لأستاذ جليل
طالع (يحيى ولفغنغ غوث) ناظم معاني (إن بالشعب. . .) باللسان الجرماني على الدنيا سنة 1749 وغاب سنة 1832
وشعر ونثر - وقد هذب الدهر لغة القوم - فحير وبهر.
وقد روى الراوون محققين وصادقين أنه قَرزمَ وهو ابن ست سنين! (يا يحيى، خذ الكتابَ بقوة، وآتيناه الحكم صبيّا).
وهو ثاني أثنين في الأقاليم الغربية لا ثالث معهما، وان يكون الثالث. . . وإن سبق صاحب (هملت) في القريض بجملة أقواله فقد بذَّ غوثٌ شكسبير بفوست. ليست لشكسبير شبيهة فوست.
وغوث هذا هو ذو المنقبتين أعني العبقريتين: العبقرية الشعرية، والعبقرية العلمية. وهما عبقريتان لا تلتقيان عند إنسان. فأعظمْ بدماغ لف هاتين القوتين، وألّف بين الضّرتين! أعظم به ثم أعظم!!
ولقد ظاهرت مؤلفات هذا العبقري مقالات الوحديين والنشوئيين وأشياعهم كما ظاهرهم قريضه - أيمّا مظاهرة.
وقال في (التحول) في مباحثه ذات القدر في النبات والحيوان مستقرياً مدققاً، ومفصلاً موضحاً، وهادياً أولى النهى إلى تلك القرابات الواشجات قبل أن يقول ابن لامرك، وقبل أن نسمع ابن دروين. ويدُ هَذين العلّمين العلامتين في تينك المقالتين المشهورتين بما بسطا في شرحهما ذا البسط وبتلك الإحاطة - مذكورة مشكورة لا تكفر. وللسلف الصالح كلمات في هذه المعاني مختصرة متفرقة في المصنفات مبثوثة في المواضع المختلفة، وفي بعضها ما يلاقي تصريح بخنر وهيكل وهكسلي.
وفي (الرسالة) ذات الرقم255 ص848 جملة ابن خلدون المجملة في تدريج التكوين. إنها
سنة الله في إنشاء الكائنات (ولن تجد لسنة الله تبديلا)
والأستاذ (أرنست هيكل) يذكر في أكثر كتبه أعظم شعراء الجرمان ومفكريهم - كما يصفه - مفخماً ومتقوياً بأقواله في مقالته (الوَحدية) ومباحثه المحكمة المحققة النشوئية. وقد أورد في كتابه (تأريخ الخلق الطبيعي) في الباب الرابع نصوصاً أو شذرات من مؤلفات (غوث) تعلن سبقه رجال (المذهب) في الاهتداء إلى ما هداه الله إليه.
وكان نابغة الجرمان، سيد الجرمان يجل قائدنا وهادينا (أبا القاسم) إجلالاً كبيراً. ولن تغشّى حسناتٍ لغوث تخاليطُ في (رواية). وقصيدته في يوم النصر، يوم الفصل، يوم (بدر) وشهدائه المؤمنين الخالدين الأبطال - شمس تضيء، شمس مضيئة أو سورة. وإن قوله في (القرآن) لهو القول. إنه يراه قد أعطى فيه كل مقام حقه، وأخذ كل معنى من مقاصده لفظه كما يراه قوياً (إشْتِرْنكْ) عظيماً سامياً متعالياً (إرْهابِنْ) رائعاً مهيباً (فورْشْتْبارْ) قد خرق العادة؛ فلا غرو أن يبلغ أثره في العالم حيث بلغ.
يا كتاب محمد، يا كتاب عظيم الدنيا، يا أعظم كتاب في هذا الكون، يا خالق هذى الأمة، يا باني ذاك المجد، هل يعرفك حق معرفتك إلا العبقريون، إلا الأقطاب الأغواث (الغوثيون)؟!

هل يعرفك الجهلاء الأغبياء البله العمهون؟
هل يعرفك العوام أو أشباه العوام من الأدبيين والمعمعيين؟
هل يعرفك الشعارير أو المتشاعرون والكوتبيون الصغيرون الحقيرون الأمعون؟
هل يعرفك كل وغد نغل (مزور) مائن من المضللين الوقحين؟
ألا إن القرآن في الكلام مثل محمد في الأنام، فإن وجدت لمحمد خطيراً ألفيت للقرآن نظيراً (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً).
وكان الأستاذ الأكبر (أرنست هيكل) يجهر كذلك بتبجيل (أكبر معاني الكون وصفوة النوع الإنساني)، وبتفضيل شرعته
والإسلام يعلو ولا يُعْلى - على تينك النحلتين. وذكره معظماً في كتابه (أحاجي الكون) - أو معضلات الكون - وفي غيره من كتبه - وأظهر في ذلك الكتاب الهادي أثر زيارته مساجد في نفسه حينما جاء الشرق (سنة 1873) مادحاً هدوءاً وخشوعاً وسكينة فيها، وهاجياً ضجيجاً وعجيجاً وشعبذة في معابد أقوام وملة سماهم وسماها، ولا أرى أنا أن أسميهم أو أسميها قي هذا المقام حتى لا يغضب أصحاب لنا وأحباب.
وغوث مطوق بفضل علمه وأدبه أجياد جميع الجرمانيين، ولم يتفلت من قيد إحسانه متفلت منهم. فكل جرماني - كما يقول أحد الجرامنة - إما أن يكون قد درس مؤلفات غوث فاستفاد منها، أو استفاد ممن درس مؤلفات غوث. ففضلُ (ذي المنقبتين) قد عم القوم قاطبة - عموماً.
وإن شئت فقل: إن أمة غوث تتلو صحفه كما يتلو أهل الحنيفية (الكتاب) وكما يقرأ القراءون من اليهود والنصارى التوراة والإنجيل.
وكتبه عند الجرمانيين ثروة كريمة جسيمة، وقد أربت على أكثر من مأتي مؤلف.
وغوث هو شائد الوحدة الجرمانية الحق؛ فلغته وأدبه هما اللذان جمعا كلمة أولئك الأقوام المتفرقة، وألفا بين قلوبهم المتوزعة.
ولو أقامت (سياسة بسمرك) ألف سنة تجد في الضم والتأليف ما ألفت بين قلوبهم، ولكن غوثا ألف بينهم. إن سلطان الأدب والأديب واللغة في الأمم لقوى عظيم.
وصيت هذا العبقري ومكانته في غير أمته من الغربيين مثلهما في أمته. وخلقه العالي وفضائله أعظم من شعره العجيب وعلمه. قال له كبير ذات يوم: يا غوث، لقد أفاد الناس سلوكك، وسيرتك أكثر مما استفادوا من علمك وأدبك. وأدبه وعلمه هما ما علمت.
وإن بلاغة غوث وبراعة شكسبير لتعجزان عن أن تبينا فضائل تلك السيرة مزاياها وعجائبها، فالجأ إلى التوهم واسجن في عالمه.
وقال نابليون بونابرت وهو يومئ بيده إلى القطب الغوث (غيث): هذا رجل!
ولو أنصف هذا الملك لقال: هذا ملك.
إنما غوث ملك: ما هذا بشراً، إنْ هذا إلا مَلكٌ كريم! وإن غوثاً وأمثال غوث من العبقريين العظيميين الكرام الكاتبين الكاملين، لمستغنون جد مستغنين عن شهادات الممجدين وإطراء المطرين من النابوليين وأشباه النابوليين.
إنه الشمس تبدت ضحوة، نورها الباهر خير الشاهدين. . .
شخصيات تاريخية
تيموستوكل - 2
للأستاذ محمد الشحات أيوب
مدرس التاريخ القديم بكلية الآداب
كان اليونان إذن مهددين في عام480 ق. م إذ علموا أن أجرزسيس سير جيشه الجرار من قلب آسيا الصغرى وأسطوله الضخم محاذياً السواحل الآسيوية والأوربية المحيطة بمضيق الهيلليسبونت لغزو بلاد اليونان، طامعاً في أن يقوم بما لم يستطع أن يقوم به أبوه من قبل وهو الانتقام من أثينا بل وإخضاع بلاد اليونان عامة، فما كان عقله يصدق أن بلاداً صغيرة كبلاد اليونان تجرؤ على أن تقف في وجه أعظم عاهل على وجه البسيطة حينذاك وهي على ما هي عليه من فرقة وانقسام وتباين واختلاف.
وقد اختلف المؤرخون القدماء والمحدثون في تقدير عدد الجيوش الفارسية واليونانية، ولكنهم إن اختلفوا في هذا التقدير نجدهم يجمعون على أن جيش أجرزسيس كان

عظيم العدد جداً، وعلى أن جيش اليونان كان دونه بكثير.
جاء الفرس بهذه الجيوش الضخمة ووصلوا إلى شمال بلاد اليونان بعد أن عبروا ما عبروا من بحار، وجابوا ما جابوا من سهول ووديان، وتسلقوا ما تسلقوا من تلال وجبال، وهم واثقون كل الثقة أنهم لا بد غالبون هذا الشعب بل هذه الشعوب الإغريقية المختلفة على أمرها مقامرين على انقسام اليونان وضعف اليونان وفقر اليونان، وقد غاب عنهم أن اليونان كانوا يعرفون بلادهم تمام المعرفة ويثقون بقوادهم الذين سيقودونهم إلى النصر لأنهم يدافعون عن أعز شيء في الحياة وهو الحرية والاستقلال.
وكان تيموستوكل على علم بحركات الفرس كلها. لذلك أعد بلاده خير إعداد، وجهزها بما كانت تحتاج إليه من وسائل الدفاع كبناء الأسوار والجدران، ومن وسائل الهجوم كالسفن التي عمل على بنايتها لتكوين الأسطول مما جعله يصمد أمام الأعداء ولا يتزعزع أمام هذه الغزوة الجريئة.
ويعمل اليونان على توحيد الصفوف والاستعداد لملاقاة الأعداء فيعتدون مؤتمراً هو مؤتمر
الجامعة اليونانية الثاني (في أوائل ربيع عام480 ق. م) وفيه يقرون إرسال حملة للدفاع عن وادي تمبي في الشمال بعد أن وعدهم سكان تلك الجهة ببذل المعونة والمساعدة لهم، وسارت الحملة عن طريق البحر وعلى رأسها قائد أسبرطي يساعده في القيادة آخر أثيني هو صاحبنا تيموستوكل، ووصلت هذه الحملة إلى تلك الجهة ولكنها لم تجد معونة ولا مساعدة فرجعت بخفي حنين.
ويتفق اليونان أيضاً في هذا المؤتمر على تنظيم خطوط دفاعهم فيجعلونها أربعاً. الأول عند وادي تمبي السابق الذكر، والثاني عند الثرموبيل، والثالث عند وسط اليونان (ببوسبا وأثيكا) والرابع عند برزخ كورنث ويقررون التراجع عن الخط الأول إلى الخط الثاني وعن الخط الثاني إلى الخط الثالث وهكذا حتى الخط الرابع إذا لم يستطيعوا الاحتفاظ بأي خط من هذه الخطوط.
وهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بخط دفاعهم الأول على نحو ما رأينا منذ حين، لذلك نراهم يقررون، عندما علموا بخبر زحف الفرس إلى أواسط بلاد اليونان، والوقوف عند خط الدفاع الثاني أي عند أراض الثرموبيل براً، وعند رأس (الأرثيميزيون) بحراً، والنقطتان تكمل كل منهما الأخرى، ويوجهون نحو الأولى حملة برية بقيادة الملك الإسبرطي الشهير ليونيداس، ونحو الثانية أسطولاً بقيادة رجل إسبرطي هو إيريبياد ويساعده في القيادة تيموستوكل. وقد تلاقى الجيشان جيش الفرس وجيش اليونان عند الثرموبيل، وكان ما كان من أمر هذه الهزيمة الساحقة التي منى بها ليونيداس وأتباعه، حيث أبيد اليونان كلهم عن بكرة أبيهم في هذا المكان الضيق بعد أن أظهروا من الشجاعة ما خلد اسمهم على صفحات التاريخ - أما عند النقطة الثانية فقد التحم الأسطولان، والأسطول اليوناني كامل العدد والعدة، أما الأسطول الفارسي فقد هبت عليه زوبعة قبل معركة (الأرثيميزيون) ودمرت ما يقرب من ثلثه تقريباً، لذلك لقي الأسطول اليوناني نجاحاً بادئ الأمر، ولكنه لم يستطع أن يصمد أمام حركة تطويق قام بها جزء من الأسطول الفارسي نحو الجنوب إذا أراد الالتفاف حول جزيرة أيوبيا ليأخذ الأسطول اليوناني على غرة من الخلف، ولحسن حظ هذا الأسطول نجده يتمكن من الإفلات والنجاة من هذا المأزق الحرج فيرجع عند خط الدفاع الثالث أي عند وسط بلاد اليونان، وقد دهش الفرس عندما رأوا الأسطول اليوناني يتراجع
بعد هذا النجاح النسبي الذي ناله، ولكن اليونان فهموا أن هزيمة جيشهم في الثرموبيل قد قضت على خطتهم الدفاعية وجعلتهم يخافون على قواتهم من الفناء، من أجل هذا تراجعوا نحو الجنوب لأن هذه الفرصة الوحيدة لإنقاذ جيشهم وللاحتفاظ به للمستقبل.
من هذا يتبين أنه لم يكن لتيموستوكل موقف ظاهر واضح في هذه المعارك وعلى الأخص في الحملة البرية الأولى عند أرض تمبي، وفي الحملة البحرية الأولى عند رأس الأرثيميزيون، ولكنه بالرغم من ذلك موقف عظيم الخطر والأهمية، لأنه كان هو الروح الذي ينبعث في الجيش الحمية والحماس، وفي الأسطول الرغبة والإقدام على الهجوم، إذ كان يقف إلى جانب القائد الإسبرطي موقف المرشد الناصح الأمين الذي يجعل مصلحة بلاده فوق أي اعتبار. وكان هذا القائد الإسبرطي يوافق على آرائه

بالرغم مما فيها من خطورة وجرأة؛ لأنه كان ينصح دائماً بالهجوم، سائراً على هذا المبدأ الذي أخذ به نابليون من بعده وهو (الهجوم خير وسيلة للدفاع)؛ وكان إلمامه التام بحالة الفرس وبحالة اليونان خير مشجع له للإقدام على الهجوم؛ فهو يعلم أن اليونان أقلية في العدد بالنسبة للفرس - ولكنهم أكثرية في نواح أخرى - إذ كانوا أكثر تجانساً من أعدائهم، (فلم يكن بينهم نفر من الأجانب، على حين أن جيش الفرس يتكون في أغلبيته من أفراد الشعوب العديدة الخاضعة لهم) واكثر اتفاقاً فيما بينهم، فهم يحاربون بطوعهم واختيارهم لأن مثلهم الأعلى هو المحافظة على استقلال بلادهم وإحاطة حريتهم وحرية بيوتهم وعائلاتهم وأراضيهم بسياج من المنعة والقوة. أما الفرس أعداؤهم فإنهم يسيرون بالسياط ويحاربون مجبرين، لا لتحقيق مثل أعلى وإنما تنفيذاً لرغبة عاهل جبار استحوذ الطغيان منه على فؤاده واستولى الكبر على قلبه وعقله حتى شبه نفسه بالآلهة، فساق هذه الجموع الزاخرة سوق الأنعام والماشية. ثم إن اليونان بعد هذا وذاك يفوقون أعداءهم في الأسلحة التي كانوا مجهزين بها وفي القيادة التي كانوا يخضعون لها. وإلى جانب ذلك كله كان تيموستوكل على علم تام بحركات الأعداء، يوقفه عليها هؤلاء الجواسيس ونقلة الأخبار الذين كان يبثهم بين أعدائه مثل هذا الملاح الماهر سكيلياس الذي أتى له بمعلومات عن الأعداء قبل موقعة الأرثيميزيون؛ فأوقفه على ضعف الروح المعنوية فيهم، وعلى انعدام المثل الأعلى بينهم، وعلى عدم الانسجام بين وحداتهم المختلفة، وعلى التنافر بين عساكر الجيش والأسطول

الذين هم عناصر جنسية مختلفة، وكذلك على الكوارث التي أصابت الأسطول الفارسي كهذه الزوبعة التي هبت عليه قبل الأرثيميزيون فدمرت أربعمائة سفينة.

ثم يتابع أجرزسيس سيره نحو الجنوب حتى يصل إلى أواسط بلاد اليونان، وهو لا يحجم عن تخريب ما يلاقيه في طريقه من قرى ومدن، ولا يتردد عن انتهاك حرمة المعابد والأراضي المقدسة، ولا يتأخر عن تدمير ما يقابله من محاصيل زراعية أو تماثيل للآلهة، حتى ألقى الذعر في قلوب بعض اليونان، فخضعت له البلاد اليونانية الوسطى والشمالية ماعدا مقاطعة أثيكا. وكان من الأشياء المقررة عند اليونان أن يقف الجيش اليوناني عند الجبال التي تفصل بين مقاطعتي أثيكا وبيوسيا للدفاع عن المقاطعة الأولى، ولكن هذا الجيش تراجع حتى برزخ كورنث ووقف هناك ينتظر ما سيجابهه من حوادث. أما الأسطول فكان هو الآخر مصوباً وجهته نحو الجنوب، وقائده الإسبرطي يريد به التراجع نحو شبه جزيرة البيلوبونز للدفاع عنها، ونحن لا ننسى أن هذا القائد، وهو إيربياد، اسبرطي يضع مصلحة بلاده فوق كل اعتبار؛ ولكن تيموستوكل يتمكن بعبقريته وبشخصيته القوية من أن يقف في وجه هذا القائد حتى يتغلب عليه ويوجه الأسطول كما يريد هو لا كما يريد هذا القائد فينجح في تلك اللحظة الرهيبة في حمل اليونان على اتخاذ قرار خطير، ذلك هو القرار القاضي بأن يقف الأسطول اليوناني عند جزيرة سلامين، من أجل هذا رأى اليونان أنهم مجبرون بعد هذا القرار الجديد على أن يرسموا خطة جديدة تضمن التعاون بين الجيش والأسطول للدفاع عن بلادهم وصد الغزاة.

زحف أجرزسيس بجيوشه وزحف حتى وصل إلى أبواب أثينا، وكذلك كان الأسطول الفارسي متقدماً في سيره نحو الجنوب حتى لا يبتعد كثيراً عن الجيش، وخطة الفرس على ما نعلم تقضى بأن يتعاون الأسطول مع الجيش؛ من أجل هذا لم يجد الأثينيون أمامهم - والعدو على أبواب وطنهم - إلا أن يهجروا مدينتهم، فأصدر الشعب الأثيني مجتمعاً في مجلس (الأكليزيا) مرسوماً يأمر بإخلاء المدينة على ألا يبقى بها إلا نفر من الشيوخ للدفاع عنها. أما الفقراء من أفراد الشعب الذين لا يستطيعون أن يتحملوا نفقات الهجرة فقد نص هذا المرسوم بإعطاء كل شخص منهم مبلغاً من المال ليساعده على الرحيل؛ وذهبت أغلبية الأثينيين بأبنائهم ونسائهم إلى جزيرة سلامين حتى يروا ما سيقضى الله من أمر. أما

الفرس فقد دخلوا المدينة ووجدوها قد خلت من سكانها إلا هذا النفر الضئيل من الشيوخ. وهذا النفر بالطبع لم يستطع أن يثبت في وجههم فتغلبوا عليهم، وصعدوا إلى قمة الأكروبول وأقاموا هناك حيث توجد معابد الآلهة.

(البقية في العدد القادم)
محمد الشحات أيوب
في سبيل العروبة
مصر والعلم العربي
للأستاذ عمر الدسوقي
لا شك أن الحرب التي تدور رحالها اليوم ستتمخض عن انقلابات تاريخية وإقليمية ذات بال. ونحن - وإن لم نخض غمارها - متأثرون بنتائجها؛ وكل أمة تيقظ فيها الشعور القومي ترى لزاماً عليها أن تفكر في مصيرها، وتحدد هدفها؛ حتى تسير قدُماً نحو غايتها حين تضع الحرب أوزارها.
ومصر قد سلكت حتى اليوم مسلكاً رشيداً، وأتبعت سياسة ناضجة حكيمة إزاء هذه المحنة العالية، وكانت وفية صادقة لحليفتها، برة بوعودها، ولكنها لم تستغل هذا الموقف الشريف لخيرها وخير شقيقاتها العربية، التي تنظر إليها بعين ملؤها الرجاء والأمل. وعندي أن القضية العربية هي من أهم المسائل الحيوية التي يجب أن تدرسها مصر دراسة جيدة، وتوجه إليها عنايتها، وتبذل في سبيلها الجهود الصادقة.
أجل! إن مصر تتمتع في العالم العربي بمنزلة رفيعة، فقد حباها الله موقعاً جغرافياً هيأ لها التجارة النامية والثروة الطيبة، وجعلها صلة بين الشرق والغرب، وسخر لها النيل يفيض على واديها بالخصب والنماء، ويغدق عليها النعمة والثراء، فتصورها الناس في كل وادٍ أرض الكنوز المطمورة، والخيرات المتدفقة؛ ثم إنها أكثر البلاد العربية سكاناً وقد سبقت شقيقاتها في حمل مشعل النهضة على يد عاهلها الكبير محمد على باشا وخلفائه، وخطت خطوات واسعة في سلم الحضارة والعلم، فأصبحت ذات سلطان قوي على الرأي العام في البلاد العربية بما تملك من صحافة غنية منظمة، ومجلات أدبية وعلمية تعد الغذاء الروحي لعدد كبير من أبناء العروبة يفتقدونها إذا تأخرت، ويكبون عليها بشغف ونهم إذا أقبلت؛ وبأزهرها العتيد وجامعتها الحديثة؛ وبمطبعتها الخصبة التي ما فتئت تحي القديم وتظهر الجديد من المؤلفات القيمة والكتب الثمينة؛ وبكتابها الذين يزيدون في ثروة التراث العربي، ويتمتعون بشهرة واسعة في كل مكان تسود فيه لغة الضاد لغزارة أفكارهم وجودة أساليبهم، وتنوع كتاباتهم؛ وبالغناء المصري الذي يتردد على كل لسان في ربوع العروبة ويهتز له الشيخ الكبير والحدث الصغير على الرغم مما به من نقص، ولكن حسبهم أنه غناء مصري حتى يفتنهم.
كل هذا جعل من مصر قبلة الأمم العربية، ومثالاً تنسج على منواله وتترسم خطاه، وتتنسم أخباره بلهفة وشوق، حتى صار أبناؤها يختلفون فيما بينهم تبعاً لاختلاف الأحزاب المصرية، ويعرفون عن وادي النيل كل صغيرة وكبيرة.
فماذا كان موقف مصر من هذه البلاد التي تحبها حباً صادقاً لم يشتر بالمال ولم يبتذل في سبيله دعاية؟
لقد تقاعست مصر عن القضية العربية في الماضي - وهذه كلمة صريحة يجهر بها مصري مخلص لبلاده - ولم تعمل على جذب هذه القلوب التي تهفو لها حباً وإخلاصاً!
إي وربى! تقاعست مصر حتى كاد يفلت من يدها الزمام، وحتى قام من يناهضها ويعمل على تقويض سلطانها المتمكن في الأفئدة، بالدعاية الباطلة والإفك الصريح، مؤولاً تقاعس مصر بالكبرياء، وإعراضها بالغطرسة، ومصر - يشهد الله - مما يقولون براء.
أجل! لقد شغلت القضية المصرية والكفاح على سبيل الاستقلال كل أفكار وادي النيل، ولكن لم تمنعهم هذه القضية عن الانتصار للحبشة مثلاً بالمال والنفوس والدعاية، مع أن قطراً عربياً آخر كان ينكأ كل يوم بجراحات مثخنة مميتة، ويجاهد جهاد المستبسل المغوار في سبيل حياته، ومصر تنظر وكأن الأمر لا يعينها، حتى قبض الله لها رجلاً لا يوجد في الألوف مثله ذكاء وعبقرية وإقداماً، قدم لهذا القطر العربي المساعدة المالية السخية التي تكفكف دموع اليتامى والأيامى، ودفع بمصر في سبيل العروبة حاملاً بنفسه علم الدفاع، ولكن أبت الأقدار إلا أن تناوئه فانزوى عن الميدان.
كان لعمله هذا أثر محمود عند كل عربي، وأخذت الأعناق تشرئب إلى مصر تنظر ماذا تفعل، ولكن مصر رجعت إلى سابق عهدها من الصمت والتغافل ثم أشعلت نار الحرب

وشغل كل امرئ بنفسه، إلى أن أصبحت حليفة مصر - بريطانيا العظمى - مسيطرة على الموقف في الشرق الأدنى، وصرح رئيس وزرائها مستر تشرشل - مثال الصبر والجلد والبطولة في الكفاح - بعطفه على القضية العربية، فهل آن لمصر أن تعطف على القضية العربية وهي أولى الناس بهذا الأمر؟

إن مصر عربية قلباً ودماً ولحمة وسدى! وكل من يقول غير هذا فهو مأفون الرأي. سائلوا التاريخ عمن حفظ اللغة العربية وهي تحتضر في كل مكان إلا مصر! سائلوا التاريخ عن تلك الهجرات المتتابعة من ربوع العروبة إلى مصر منذ الفتح إلى اليوم!

إن بين مصر وبين البلاد العربية وشائج من الدم واللغة والتاريخ والأدب والعاطفة تحتم عليها أن تتبنى القضية العربية.

وهنا أوجه كلمة صريحة إلى جماعة من الكتاب في مصر أخذوا يتجادلون حول القضية العربية والقضية الإسلامية. مصر عربية إسلامية وعروبتها تحتم عليها أن تهتم بالقضية العربية وتتألم لنكبات الأمم العربية، وتفرض عليها الاشتراك في الحلف العربي، وإسلامها من جهة ثانية يتطلب منها أن تنظر بعين العطف إلى القضايا الإسلامية في جميع أنحاء المعمورة، ولا اختلاف بين الجهتين، ولا تناقض بين الميدانين: القضية العربية قومية، والقضية الإسلامية دينية، وفي استطاعة الإنسان العاقل أن يكون وطنياً مخلصاً لوطنه مجاهداً في سبيله، وأن يكون متديناً ورعاً قائماً بواجبات دينيه، دون أن يكون هناك تناقض بين جهتي الإخلاص أو بلبلة في أفكاره.

وهنا أيضاً عتاب أوجه إلى كتاب مصر عامة، وإلى العلامة الدكتور زكي بصفة خاصة بأنهم يستعملون كلمة (شرقي) بدلاً من (عربي)، والبلاد الشرقية الشقيقة بدلاً من البلاد العربية الشقيقة، فكأن الصلة التي تربطهم بأبناء العروبة هي أنهم جميعاً شرقيون فحسب. هذه نقطة دقيقة طالما أثارها محبو مصر في البلاد العربية، وطالما خجلنا منها ونحن بين ظهرانيهم. فهل الدكتور زكي مبارك مستعد منذ الآن أن يستعمل كلمة عربي بدلاً من شرقي وعربية بدلاً من شرقية، فإنه ملوم بخاصة لخبرته بالبلاد العربية وتمتعه فيها بشهرة طيبة.

وهاك عتاباً آخر لا أوجه في هذه المرة إلى الدكتور زكي مبارك، فقد أدى ما عليه وزيادة، ولكن أوجه إلى كتاب مصر وإلى جمهرة القراء بها: يلوموننا في البلاد العربية لعزلتنا الأدبية، واعتزازنا بثقافتنا، وعدم إقبالنا على ما تنتجه المطابع العربية، وينشئه أو ينظمه حملة الأقلام بها. وهذا عتاب لعمر الحق في محله، ولقد كانت خطوة موفقة وسعياً محموداً ما قررته وزارة المعارف المصرية من دراسة الأدب العربي الحديث في الأقطار العربية على بعض الأساتذة، ولا عجب، فالدكتور هيكل باشا جد عليم بشعور أبناء العروبة في هذه الناحية، وهو خبير بما عندهم من أدب رفيع وخيال خصب وإنتاج طيب قلت: إن الدكتور

زكي مبارك قد أدى ما عليه في هذا الميدان، إذ كتب عدة مقالات في (الرسالة الغراء) عن الأدب العراقي، تعد مقدمة طيبة لدراسة عميقة مستوفاة. أما الأدب السوري - بما في ذلك السوري واللبناني - فسآخذ على نفسي عهداً بدراسته على صفحات (الرسالة) إن شاء الله حينما أفرغ من هذا النداء الذي يعبر عن عواطف أبناء العرب وشعورهم حيال مصر العزيزة.

(للحديث بقية)

عمر الدسوقي

وكيل كلية المقاصد الإسلامية ببيروت

حول المسابقة على الثانوي

للأستاذ سيد قطب

قرأت في عدد الرسالة الأخيرة ما كتبه الدكتور زكي مبارك خاصاً بمذكرة (الستة) المقدمة إلى وزارة المعارف لإعفاء (أشخاصهم) من التقدم إلى امتحان المسابقة. حسبما روى الدكتور والعهدة عليه فيما رواه.

ولا أحب أن أتحدث عن امتياز هؤلاء الستة - في صدد الحديث عن هذه المسابقة - فتلك مسألة تافهة لا يجوز لها أن تتدخل في تقرير مبدأ من المبادئ العامة كمبدأ امتحان النقل إلى المدارس الثانوية.

ولكني أحب أن أتناول تناولاً موضوعياً، فأذكر أنني تقدمت في العام الماضي بمذكرة لحضرات كبار المسؤولين في الوزارة خاصة بموضوع اليوم، لا أرى ضرراً من تلخيصها هنا والزيادة عليها بما جد لي من الرأي حولها، ولا أجد حرجاً في التصريح بأنها لقيت اقتناعاً بالأسس التي تضمنتها.

لم أحاول أن أنكر مبدأ المسابقة في ذاته، فقد يكون أسلم المبادئ لتحقيق العدالة وإبراز المواهب، والحد من المحسوبية والتحرر من ضغط الصلات الشخصية بين الرؤساء والمرءوسين سواء كانت طيبة أم رديئة.

ولكني أنكرت شكل المسابقة وقواعدها الحالية ونتائجها العملية، ووجوه إنكاري لها هي هذه:

أولاً: أن المسابقة تتجه اتجاهاً خاطئاً إلى اختبار محفوظات المدرسين وتحصيلهم العلمي، دون أن تتجه إلى اختبار ثقافاتهم وعقلياتهم ونمو شخصياتهم من جميع نواحيها.

ووجه الخطأ في هذا الاتجاه أنه تثبيت وتوكيد (لعقلية الامتحانات) التي نشكو منها بالقياس إلى التلاميذ، ونعمل على التحرر من قيودها، بانتهاج طرق (المدارس الناهضة) وطرق التربية الحديثة التي اهتدى إليها المربون في القرن الأخير فامتحان المسابقة في شكله الحاضر نكسة للعقلية التعليمية تضمن للعقلية القديمة والاستمرار فترة أخرى أطول مما كان مقدراً لها بعد النهضة الحديثة.

فكان هذا الشر يجد مبرراً لو أن الوزارة قبل وضع المسابقة هذا الوضع قد قامت بإحصائية من تقريرات حضرات المفتشين المختصين عن خمس سنوات أو عشر أو بأية وسيلة أخرى. فتبين لها أن أغلبية المدرسين أو عدد كبير منهم ضعفاء في المادة العلمية وحينئذ تتجه اتجاهاً معقولاً إلى تقوية التحصيل في أوساط المدرسين.

ولكنها لم تقم في هذا الإحصاء، والظواهر جميعها لا تشير إلى ضعف الأساتذة في مادتهم العلمية، وإن كانت هناك في بعض الحالات نواح من الضعف في الثقافة العامة وفي مسايرة المجتمع والعالم في خطواته وفي نمو الشخصيات المطرد في أوساط المدرسين منشأها مراعاة الأقدمية وحدها في النقل إلى المدارس الثانوية، وتسرب المحسوبية إلى المدارس على حساب الكفايات العلمية كذلك!!

ثانياً: أن المسابقة في وضعها الحاضر لا تضمن النمو المطرد في ثقافات الناجحين وشخصياتها، طالما أنها لم تعن بهذه الناحية أية عناية. وليس ما يمنع هؤلاء أن ينسوا هذه المعلومات التي حفظوها بعد نجاحهم ووصولهم إلى ما يبتغون من النقل إلى التعليم الثانوي، كما يصنع التلاميذ الذين نحشو أدمغتهم حشواً بالمعلومات على طريقة المسابقة سواء بسواء!

ولو أن المسابقة وجهت همها إلى اختبار الثقافة والعقلية والتأكد من نمو الشخصية لضمنت استمرار صلاحية المدرسين فالشخصية النامية لا تتغير بل يزيدها الزمن نمواً وثقافة، ولأن حوافزها إلى المعرفة والاطلاع حوافز شخصية قد تذكيها المسابقة ولكنها أصيلة على كل حال.

وأصحاب هذه الشخصية هم الذين تضمن بهم رقى الثقافة ونهوض التعليم في المدارس الثانوية وسواها، ونضمن ألا ينتكسوا بعد اجتيازهم حوافز السباق!

وقد كان يصح للستة الذين روى عنهم الدكتور زكي، أن يستندوا إلى مثل هذا الرأي فيعدوا اشتغالهم بالتأليف والتحقيق العلمي قبل المسابقة دليلاً على أصالة هذه الحوافز في نفوسهم وضمانتها لصلاحيتهم؛ لولا أنهم آثروا أن تستهويهم هالات موهومة حول شخصياتهم الكريمة!

ثالثاً: أن النتائج العملية للمسابقة - على فرض أنها ستؤدي إلى اختيار أصلح العناصر - تؤدي في الوقت ذاته إلى نتيجة سيئة على التعليم الابتدائي الحكومي والتعليمين الابتدائي
والثانوي في المدارس الحرة.

وتفصيل ذلك أنها تستنفد بالتدريج كل العناصر الصالحة في المدارس الابتدائية الأميرية والثانوية الحرة - أولئك الذين ينجحون في المسابقة - فتعنيهم الوزارة في مدارسها أو تنقلهم إلى التعليم الثانوي. ولا يبقى بعد هؤلاء إلا العاجزون - فرضاً - عن النجاح؛ فينحط مستوى التعليم الابتدائي عامة ومستوى التعليم في المدارس الحرة التي

تنهض بعبء كبير في ميدان التعليم.
هذا كله من ناحية، ومن ناحية أخرى أن المدرس الذي يشغل وقته بتحصيل ما في هذه الكتب المطولة الكثيرة العدد، لا يستطيع أن ينهض بواجبه في خلال العام المدرسي لتلاميذه وقد يرسب فيعاود الكرة في عام آخر. والتلاميذ هم الذين يؤدون ثمن الاستذكار الدائم لمعلومات متفرقة لا يزيد تحصيلها شيئاً في مقدرة المدرس الثقافية في جميع الأحوال. ولا في مقدرته العلمية في كثير من الأحول.
هذه العيوب الأساسية في نظام المسابقة الحاضر يمكن التفادي منها باتباع قواعد أخرى:
أولاً: أن تتجه المسابقة إلى اختبار ثقافة المدرس ونموها الدائم واختبار عقليته في الوقت ذاته. وهذا الاتجاه يقتضي أن يكون الأساس الأول للاختبار رسالة علمية أو أدبية في علوم اللغة العربية وآدابها القديمة أو الحديثة، يناقش صاحبها فتبين مقدرته وتقاس ثقافته وعقليته. ولا ضرر - إذا لم يكن بد من قياس التحصيل - أن يتبع نظام (التعيين) الأزهري القديم في بعض المواد لمعرفة المعلم على التحصيل والاطلاع في مختلف المؤلفات.
ثانياً: أن يمنح الناجح في هذه المسابقة درجة علمية تبرز الجهد المبذول فيها تقابلها درجة مادية تحفز الهمة وتقوي العزيمة. ويمكن الاستدلال من رسالته على الناحية التي يبرز فيها فتستغل خير مواهبه في تدريس هذه الناحية ولا سيما في الفرق الثانوية المتقدمة!
ثالثاً: ألا تكون نتيجة النجاح الحتمية هي النقل إلى التعليم الثانوي. وأقول النقل لا كما تسميه وزارة المعارف ترقية، فهذه الترقية لا وجود لها. بل توزع هذه الكفايات بعد منح أصحابها الدرجة العلمية والدرجة المادية على كل فروع التعليم. فتتوازن خطواته وتتعادل دعاماته. وليس التعليم الثانوي بأجدر من التعليم الابتدائي بالعناية والكفايات العلمية.
رابعاً: أن تنظم الوزارة في العطلات الصيفية محاضرات عامة للمدرسين، وتجعل لنسبة الحضور فيها وزناً في المسابقة وفي نظرتها لهؤلاء الأساتذة. ونظام المناطق يسهل على الوزارة هذا الأمر ويقسم جماعات المدرسين على المناطق وييسر إلقاء المحاضرات في كل منطقة.
وتلك مادة دائمة للثقافة المتجددة يجب أن ينال المدرسون نصيبهم منها وهم أجدر طوائف الأمة بها. وهي ضمانة أكيدة لاستمرار الثقافة وتجددها.
بقيت مسألتان على هامش ما كتب الدكتور زكي مبارك، أمر بهما كارهاً في هذا المجال أولاهما: تلك الطعنة التي وجهها الستة الكرام - إذا صح ما روى عنهم - إلى ألف ومائتين من الزملاء، اختصوا أنفسهم دونهم بما زعموه من امتياز، ليس هذا مكان مناقشته وامتحانه.
2 - انزلاق الدكتور زكي مبارك - وهو يؤيد المسابقة - إلى غمزات لا تليق، كقوله:
(وقد أجريت المسابقة بين المدرسين في الأعوام الأخيرة، فكانت فرصة لمراجعات نحوية وصرفية وبلاغية وأدبية، (غفل عنها أكثر مدرسي اللغة العربية).
فالواقع - كما قلت - أن هذه المراجعات لا قيمة لها، وأن ما له قيمة لم يغفل عنه أحد، أو على الأقل لم تقم الوزارة بالإحصائية التي تؤيد هذا الزعم، والأساتذة في المدارس لا يجوز التجني عليهم إلا بعد تثبت وتحقيق.
أما غمزاته لأعضاء اللجان، فذلك شأنه الخاص، ولعل نقائص هذه اللجان كلها تنتفي عنها لو أتيح له أن يكون عضواً فيها، وذلك مطلب لا أدري، أقريب هو أم بعيد على الدكتور؟
(حلوان)
سيد قطب
من بحوث مؤتمر التعليم
التعليم الأولي والإلزامي
للأستاذ مصطفى شكري بك
المراقب العام للتعليم الأولي
(أستهل الأستاذ مصطفى بك شكري المراقب العام للتعليم الأولي تقريره عن هذا

التعليم ببيان مدى اهتمام الدول المختلفة به وما خصته به من اعتمادات كبيرة، وتدرج من ذلك إلى ضرورة العناية به في مصر والعمل على ترقيته).

مراحل التعليم الأولي

أستطرد التقرير فذكر المراحل المختلفة التي مر بها هذا النوع من التعليم في مصر منذ تولت أموره وزارة المعارف وهي ثلاث مراحل: أولها مرحلة الكتاتيب التي انحصرت مهمتها في تحفيظ القرآن وتعليم القراءة والكتابة، ثم المرحلة الثانية التي صدر فيها قانون مجالس المديريات، وأباح لها إنشاء المدارس الأولية؛ وفي نفس هذا العصر قامت الوزارة بإنشاء مدارس المعلمين والمعلمات الأولية.

ثم ذكر المرحلة الثالثة وهي التي بدأت بصدور الدستور عام 1923، وما جاء فيه من أن التعليم الأولي إلزامي ومجاني بالمكاتب العامة، وما تلا ذلك من إنشاء 127 مدرسة أولية سميت (مدارس المشروع)، وكانت مجانية، والدراسة فيها طوال اليوم، وكانت كالمدارس القديمة مع اهتمام يجعلها في أمكنة جديدة، وتأثيثها تأثيثاً حسناً.

وبعد ذلك قامت الوزارة باستعراض جميع النظم التي سبق التفكير فيها لتعميم التعليم الأولي، وعدلت خطتها في تعميم هذا التعليم تعديلاً أساسياً، وقررت مشروع التعليم الإلزامي الحالي على أساس أن نحو خمسة آلاف من المكاتب العامة تكفي لتعليم الأطفال من سن 7 إلى سن 12، باعتبار أن اليوم المدرسي نصف نهار، لتستعمل غرف الدراسة لطائفتين من الأطفال قبل الظهر وبعده، وأن نفقات المعلمين تخفض إلى أدنى حد ممكن، وقد قدرت نفقات هذا المشروع بما لا يتجاوز ثلاثة ملايين من الجنيهات، ووزعت نفقاته على 23 سنة (من سنة 1925 إلى سنة 1948)، على أن تقوم الوزارة كل سنة بإنشاء

عدد معين من المكاتب وتحول مدارسها القديمة ومدارس المشروع بالتدريج إلى النظام الجديد (نصف اليوم)، على أن تتحمل الوزارة نفقات إعداد المعلمين ومرتباتهم ومرتبات الخدم وثمن الكتب والأدوات ونفقات التفتيش زيادة على نفقات ما ينشأ من هذه المكاتب في المحافظات. وتتحمل مجالس المديريات نفقات الأماكن وأعدادها، وكذلك الأثاث، وتتولى إدارة هذه المكاتب لجنة فنية تسمى: (لجنة التعليم الإلزامي) مكونة من بعض أعضاء المجالس وبعض موظفين يمثلون الوزارة.

ولما صدر قانون التعليم الأولي لسنة 1933، بدأت الوزارة بتحويل جميع مدارسها (عدا مدارس البنات في المحافظات)، إلى نظام التعليم الإلزامي، وأشارت على مجالس المديريات بأن تنحو هذا النحو في مدارسها. وقد أدى التوسع في التعليم وانتشاره إلى عجز ميزانيات المجالس عن تحمل نصيبها من النفقات، فاضطرت الوزارة إلى أن تتحمل هذه النفقات.

وفي أكتوبر سنة 1934 أنشأت الوزارة في الأقاليم 720 مكتباً عاماً. وقد نص قانون التعليم الأولي بأن تتكفل مجالس المديريات بالتعليم الأولي في المديريات، وتتكفل به وزارة المعارف في المحافظات.

وفي سنة 1935 لاحظت الوزارة أن نظام المكاتب العامة لا يؤهل من يرغبون في التعليم الابتدائي للحاق بمدارسه في سن مبكرة، وأن رياض الأطفال غير كافية لتحقيق هذا الغرض؛ فأعادت إنشاء مدارس اليوم الكامل وجعلت التعليم فيها بالمصروفات، ووضعت لها خطة خاصة تخالف خطة المكاتب العامة وأباحت قبول الأطفال في سن الخامسة.

وقد بدأ تنفيذ القانون المشار إليه في نوفمبر سنة 1936، ثم صدرت لائحة تنفيذية لذلك القانون في نوفمبر سنة 1940.

وهي وإن كانت قد وسعت نطاق إشراف وزارة المعارف على التعليم الأولي بالأقاليم - إلا أنها لا تكفل تنظيم التعليم التنظيم الواجب - ولا تمكن الوزارة من النهوض به إلى المستوى الذي تنشده.

اقتراحات المراقب لإدارة التعليم الأولي والإلزامي

تم ذكر التقرير جملة اقتراحات قدمها الأستاذ المراقب لما يجب أن تكون عليه إدارة التعليم الأولي وهي:

1 - أن تتولى وزارة المعارف دون غيرها أمر الإشراف الفني والصحي والإداري على

التعليم الأولي والإلزامي في جميع أنحاء المملكة، وأن يكون الإنفاق عليه من خزانة الدولة وفق الميزانية التي تضعها الوزارة على أن تضم النسبة المخصصة للتعليم الأولي بميزانيات مجالس المديريات إلى خزينة الدولة.

2 - تنظيم المراقبة العامة للتعليم الأولي تنظيماً يتفق مع أهمية هذا النوع من التعليم حتى تتمكن من مواجهة حركة الإصلاح بخطى ثابتة حاسمة.

3 - يلغى النظام الحالي لمديري التعليم ونظام تفتيش المناطق للتعليم الأولي وتستبدل به وظيفة (مدير التعليم الأولي) بكل مديرية ومحافظة على أن تتبع مراقب المنطقة التعليمية. ويشرف هذا الموظف على سير التعليم الأولي والإلزامي وعلى تنفيذ الإلزام وفقاً لحاجة كل مديرية أو محافظة، ويتبع كل مدير تعليم هيئة تفتيش لإرشاد رؤساء ومعلمي المدارس والمكاتب العامة على أن يشجع المبرزون منهم بإفساح مجال الرقى لهم.

4 - تنظيم هيئة التفتيش الصحي على التلاميذ.

5 - إنشاء هيئة إدارية تخصص بكل منطقة لإنجاز الأعمال على وجه السرعة.

ثم أشار التقرير إلى ما يجب أن يكون عليه الغرض من التعليم الإلزامي وهو تثقيف الطفل تثقيفاً عاماً إلى جانب محو الأمية، على ألا يكون التثقيف سطحياً، بل مؤسساً على دعائم ثابتة متينة.

ويرى المرقب أن تبقى سن التلميذ كما هي الآن، أي بين 7 سنوات و12 سنة على أن تكون المكاتب على نظام اليوم الكامل، وأن تكون مدة التعليم 5 سنوات.

نشر التعليم الإلزامي

دنت الإحصاءات على أن نسبة الأطفال المقيدين بالمدارس الأولية والمكاتب العامة تتراوح بين ثلث ونصف الذين في سن الإلزام، وإذا سلمنا جدلاً بإمكان إعداد العدد اللازم من المعلمين والمعلمات لتعميم التعليم فإن تدبير الأماكن الصحية المناسبة وإعداد الأثاث والأدوات للتلاميذ ليس بالأمر الهين كما أن انتزاع هذا العدد من الأطفال من حياتهم اليومية مدعاة لتذمر الأهلين وهم لم يؤمنوا بعد بفوائد التعليم. ويرى التقرير - كأجراء تمهيدي -

أن يقتصر التوسع في تعليم الأطفال الذين في سن الإلزام على المدن المتوسطة التي ازدهرت فيها بعض الصناعات. أما فيما يختص بالمحافظات والمدن الكبيرة فإن الحالة تستمر فيها كما هي الآن حيث الإقبال على التعليم فيها مكفول بطبيعة الحال، وأما فيما يختص بالقرى فإن التوسع فيها يكون بالتدريج.

وتقدر مدة تعميم التعليم الإلزامي على هذا الأساس بما لا يقل عن 15 سنة.

مناهج الدراسة

وذكر التقرير جملة مقترحات لإكمال ما في مناهج الدراسة الحالية من نقص وهي تتلخص في جعلها مرنة حتى تناسب البيئة التي بها المدرسة وحذف بعض الموضوعات التي لا تتناسب وإدراك التلاميذ ووجوب الاهتمام بتدريس الأشغال اليدوية والتدبير المنزلي كما يرى تعين بعض مدرسات رياض الأطفال في المدارس الأولية للبنات.

نظام نصف اليوم

وانتقد تقرير نظام نصف اليوم ونادى بضرورة إعادة نظام اليوم الكامل لجملة أسباب: منها أن المقصود من التعليم الأولي هو إعداد الناشئين إعداداً حسناً لا أن يكون تعليمهم سطحياً وإلا كان في ذلك إسراف دون فائدة. ثم أن نظام اليوم الكامل يؤدي إلى مواظبة التلاميذ وخصوصاً في القرى وبذا تقل قيمة ما يتكلفه الواحد منهم في المتوسط.

وزيادة على ذلك فإن المنهج الحالي هو الحد الأدنى لما يجب أن يتلقاه التلميذ، ولا يمكن تلقينه له في أقل من خمس سنوات كاملة، كما أن هذا النظام ييسر أداء كل من التلميذ والمعلم لعمله ويدفع التلميذ إلى الإقبال على المكتب ويحببه فيه. ويرد التقرير على ما يمكن أن يوجه من اعتراض على نظام اليوم الكامل بأنه يباعد بين التلميذ والعمل في الحقل أو المصنع فخلص بأن ذلك وإن كان صحيحاً في القرى الزراعية إلا أنه ليس كذلك في الجهات الصناعية لأن الصغير لا يصلح للأعمال الصناعية في مثل هذه السن المبكرة.

إعداد المدرسين ورفع مستواهم

وختم المراقب تقريره بذكر حالة المدرسين وسوء إعدادهم لوظائفهم وضآلة مرتباتهم التي تتراوح بين ثلاثة وستة جنيهات مما يؤثر في حالتهم المعنوية وإقبالهم على عملهم.

واقترح أن يرفع مستوى مدرسي الإلزام وزيادة ثقافتهم العلمية، وذلك أثناء إعدادهم في مدارس المعلمين والمعلمات الأولية، كما يجب الاهتمام برفع مستوى المدرسين الحاليين بإرشادهم، والنهوض بهم علمياً وفنياً واجتماعياً، كما نادى بوجوب تأمين المدرس على حالته ومستقبله، حتى يعلم أن ترقيته لن تكون إلا نتيجة اجتهاد فقط، كما يجب تخفيض عدد الدروس التي يكلف بها كل مدرس، حتى لا تتجاوز 34 درساً، وهي الآن 46 درساً في المتوسط، كما رأى ضرورة مرتباتهم، حتى يليق بعملهم وتوازي ما يبذلونه من مجهود شاق.

المصريون المحدثون - 8

شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الإنجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

تابع الفصل الأول

هناك عادة أخرى لا تختلف كثيراً عن عادة الخضاب شائعة بين نساء الدهماء في مدن الريف وقراه، وفي العاصمة بدرجة أقل: تلك هي عادة الوشم (الدق)، يكون في الوجه وغيره أو على الأقل أعلى الذقن وظهر اليد اليمنى، واليسرى أحياناً، وعلى الذراع اليمنى أو الذراعين معاً، وفي القدم، ووسط الصدر، والجبهة، وأغلب علامات الذقن والكفين شيوعاً بينها الشكل 22. وطريقة الوشم أن يوخز الجلد بمجموعة من الإبر تكون سبعاً في العادة على الشكل المراد رسمه، ثم يدلك الموضع بمزيج من سناج الخشب أو الزيت ومن لبن امرأة. ثم بعد أسبوع، قبل أن يبرأ الجرح، يوضع عليه معجون من أوراق السلق الطازجة أو البرسيم فيكسبه لوناً أزرق أو مشرباً بالخضرة؛ أو بدلاً من ذلك يدعك مكان الإبر بالنيلج. وتوشم الأعضاء عادة في سن الخامسة أو السادسة وتقوم بعمله نساء النور. ويلاحظ أن أغلب نساء الصعيد الأقصى وهن يمتزن بلونهن القاتم يشمن الشفاه ليكسبن أسنانهن بريقاً. إلا أن ذلك يشرب لونهن القاتم زرقة لا يقبلها الذوق الأوربي.

ومن مميزات المصرية الواجب ذكرها قوامها الممشوق ومشيتها الجميلة. وهذه الصفة تشاهد خصوصاً في الفلاحة. ولا شك أن سبب ذلك ما تحمله على رأسها من جرار الماء وغيرها من الأثقال.

أما ملابس نساء الطبقتين الوسطى والعليا فتمتاز بجمال نسيجها وأناقة زيها (الشكل 23) وقميص المرأة كقميص الرجل فضفاض، ولكنه قصير فلا يكاد يصل إلى الركبتين. وهو أيضاً من النسيج نفسه، أو من الكريب أسود أو غير أسود. أما السراويل، وتسمى (شنتيان)

فهي واسعة، وتكون من الحرير أو القطن المفوّف أو المطبوع أو المطرز أو من الأبيض الواحد الشكل. وتشد بتكة حول الوركين تحت القميص أما أطرافها السفلي فتشد إلى أعلى وتربط تحت الركبتين تماماً، إلا أن طولها يهبط بها حتى القدمين وغالباً إلى الأرض. ويلبس فوق القميص والشنتيان سترة طويلة تسمى (يلك) من نسيج الشنتيان، تشبه القفطان، ولكنها أكثر التصاقاً بالجسم والذراعين، وأكمامها أطول. واليلك له أزرار تشده إلى الجسم، من الصدر إلى ما تحت الحزام حتى لا يتهدل، كما هو الحال في القفطان. وهو مشقوق الجانبين من أعلى الورك إلى أسفل، ويشق عادة بحيث يكشف عن نصف الصدر لولا القميص. ولذلك كان الكثير من النساء يرتدين قميصاً واسع الصدر. ولا بد أن يكون اليلك طبقاً لأحسن الأزياء ضافياً حتى الأرض أو يكون له ذيل قصير.

وقد يستبدل به صدرة قصيرة تسمى (عنتري) تصل إلى ما تحت الوسط بقليل وتشبه اليلك المقطوع الأسفل. وبمنطق الوسط بشال مربع أو بمنديل مطرز يطوي منحرفاً ويربط في استرخاء ويتدلى طرفاه خلف الظهر. وقد يطوي طبقاً للزي التركي، مثل حزام الرجال، وإنما يكون أكثر استرخاء. وتوضع فوق اليلك جبة من الجوخ أو المخمل

أو الحرير مطرزة بالذهب أو الحرير الملون. وهي تختلف عن جبة الرجال بعدم سعتها، وبالأخص في مقدمتها؛ وتكون بطول اليلك. وكثيراً ما يستعمل بدلها سترة تسمى (سلْطة) من الجوخ أو المخمل مطرزة على غرار الجبة. ويتكون غطاء الرأس من طاقية وطربوش ثم منديل مربع يسمى (فارودية) من الموصلي الموشي أو المطبوع، أو من الكريب، يلف حولهما بقوة ويسمى هذا (رْبطة). وكانت هذه المناديل تستعمل منذ قريب، ولا زالت تستعمل أحياناً لربط عمائم النساء التي تكون مرتفعة مستوية بخلاف عمائم الرجال. وهناك نوع من التيجان يسمى (قرصاً). وبعض الحلي الأخرى توضع على غطاء الرأس. وقد ألحقت بهذا الكتاب فصلاً خاصاً بحلي النساء وصفها وصورها. وهناك أيضاً (الطرحة) وهي قطعة طويلة من الموصلي الأبيض محبوكة الطرفين بالحرير الملون والذهب، أو من الكريب الملون المرصع بأسلاك الذهب وصفائح ذهبية كفلوس السمك (ترتر)، تطرح فوق الرأس وتتدلى على الظهر حتى تكاد تداني الأرض أحياناً.

أما الشعر، فيضفر ضفائر، من إحدى عشرة ضفيرة إلى خمس وعشرين عادة، على أن
يكون العدد فردياً؛ ويضاف إلى كل جديلة ثلاثة خيوط من الخيوط، يعلق بها قطع ذهبية صغيرة تسمى:
(صفا) وهي موصوفة في ملحق للكتاب.

ويقص الشعر فوق الجبهة وتتدلى منه على الصدغين خصلتان غزيرتان حلقاً أو جدائل والقليل من سيدات مصر يلبسن الجوارب، غير أن أكثرهن ينتعلن المز (أي الحذاء الداخلي) وهو من الجلد المراكشي الأصفر أو الأحمر المطرز بالذهب أحياناً. وينتعلن بابوجاً من الجلد المراكشي الأصفر، مرتفع الطرف الأمامي مدببة، عندما يمشين على البسط والحصر، أو يستعملن قبقاباً يعلو إلى تسع بوصات ولا يقل عن أربع، ويزين بالصدف أو بالفضة. . . الخ؛ والقباب يستعمله الرجال والنساء في الحمام دائما، ولا يستعمله النساء في المنزل؛ إلا أن بعضهن ينتعلنه حتى لا يسحبن ذيل الثوب على الأرض، وبعضهن يتخذنه ليبدون طويلات. . .

تلك هي ملابس السيدات داخل المنزل؛ أما ثياب الخروج، فتسمى (تزييرة)؛ فالسيدات كلما يخرجن من المنزل يتدثرن
علاوة على الملابس السابق وصفها - بدثار كبير فضفاض ضاف (يسمى (توب) أو - (سبلة)، يكاد عرض كميْه يعادل طوله، ويكون من الحرير الوردي أو البنفسجي؛ ثم يضمن بعد ذلك (البرقع) - أي غطاء الوجه - وهو عبارة عن قطعة طويلة من الموصلي الأبيض تحجب الوجه كله ما عدا العينين، وتسقط حتى القدمين. ويشد البرقع إلى الرأس بشريط ضيق يمر على الجبهة، ويخاط مع طرفي النقاب الأعليين بعصابة تلف حول الرأس، ثم يرتدين (الحبرَة). وحبرة السيدة المتزوجة تتكون من نسجين من الحرير الأسود اللامع، ويوجد في أعلى الحبرة من الداخل - على بعد ست بوصات من طرفها - رباط ضيق من الحرير الأسود يربط حول الرأس. ويبين الشكل رقم 25 طريقة لبسها. إلا أن البعض يقلدن تركيات مصر فيضممن مقدم الحبرة، بحيث تخفى الملابس كلها ما عدا جزءاً من النقاب يعلو اليدين. أما غير المتزوجات فيرتدين حبرة من الحرير الأبيض أو شالاً. وبعض نساء الطبقات الوسطى لا يستطعن اقتناء الحبرة فيلبس عوضاً عنها (إذاراً) - وهو قطعة بيضاء من نسيج القطن على شكل الحبرة ويلبس مثلها. أما الحذاء، فهو (خف) من
الجلد الأصفر يدخل في بابوج.

وثياب الخروج متعبة مربكة عند المشي، وهي وأن كانت محتملة لدى سيدات الطبقة الراقية اللائي قلما يشاهدن راجلات، فقد يرتديها غيرهن ممن لا يملكن أجرة الركوب. وإعداد هذه الملابس لإخفاء زينة المرأة وكل ما فيها من جاذبية أو ملاحة لا عيب فيه، إذا أن الثوب ذاته يعوزه الكثير من الأناقة. إلا أن هناك اعتباراً يقتضينا أن نلاحظ عدم ملاءمة هذه الثياب لغرضها الأصلي، وهو أن العيون التي تكاد تكون دائماً جميلة يزيدها جمالاً حجب تقاطيع الوجه التي يندر أن يبلغ جمالها جمال العين؛ ثم إنها تجعل الأجنبي يتصور الوجه الجذاب وجهاً معيباً دميماً لاختفائه وراء القناع. ويرجع استعمال النقاب إلى قديم الزمن، غير أن الظاهر من نقوش الفراعنة ورسومهم أن المصريات في ذلك

العهد كن سافرات، ولكنهن في الوقت الحاضر - حتى الخادمات منهن - يتخذن من فضل طرحتهن قناعاً يخفين وراءه الوجه، إلا عيناً واحدة، كلما وجدن في حضرة رجال العائلة التي يخدمنها.

(يتبع)

عدلي طاهر نور

غَالِيَةُ. . . فِي لُبْنَانُ

للأستاذ أنور العطار

أَتَدْرِينَ أَنَّكِ أَحْلاَمِيَهْ ... وأَنكِ أَعذَبُ أَنْغَامِيهْ
وأَنَّ خَيالَكِ في خَاطِرِي ... يَرِفُ كَزَنْبقَةٍ نَادِيهْ
وأنكِ أشْعَارِيَ الهاجِساتُ ... بنفْسِيَ في العُزْلَةِ الْقَاسِيهْ
ذَكَرْتكِ والقلْبُ نهْبُ الفُتُونِ ... رَهِينُ الرُّوَى الُحلوَةِ الوَافِيهْ
و (لُبنَانُ) يسَبحُ في نَشوةٍ ... مِنَ السحرِ وُالحبَّ وَالْعَافِيهْ
تَوَشحَ بِالْعَبَقِ الُمْسَتطَابِ ... وَغلْغَل في الْبَهجةِ الصَّافِيهْ
وَنَام على شُرُفاتِ الْغَمام ... وَطاَفتْ بهِ الخُضرةُ الحَالِيهْ
تَناَثُر فَوْقَ الرَّوابي قُرَاهُ ... كَمَا تَتَناثَرُ آمَالِيهْ
عَلَى كلَّ مَائِسَةٍ صَادِحٌ ... وَفي كُلَّ وَارِفةٍ شَادِيهْ
وتَصُغِي الوِهادُ إلى قِصَّةٍ ... منَ الْحُبَّ تَسْرُها السَّاقيهْ
وقَدْ أنصَتَ الكَوْنُ الإصَدى ... يُرَدِدُ أنشُودَةَ الرَّاعِيهْ
تَطَلَّعُ في زَهْوِها الرَّاسِياتُ ... حنِيناً إلى عَوْدةِ الثَّاغِيَهْ
وَنمَّ على الدَّرْبِ سِحْرُ الغِناءِ ... فأغْفى على النَّغْمةِ الشَّاجِيهْ
وَظلَ المَساءُ يَحُومُ عليهِ ... وَيرعَاهُ بِالمُقْلَةِ الرَّانِيهْ
وَفي خَلْوةِ الوَادِ نَبْعٌ حَبِيبٌ ... يُهدْهدُ أوْجاعَهُ الْبَاكِيهْ
كَمأنَّ على النَّبعِ قيثارَةً ... تنُوحُ مُلوَّعةً شاكِيهْ
و (بَيرُوتُ) نائمةٌ في السفُوح ... تُتّمُ أحْلامَها الزّاهِيهْ
تَرامَتْ على الْبحْرِ مأخُوذةً ... تُناجِيهِ حَانِيَةً صَابِيهْ
قَصائِدُ حَافِلةٌ بالطُّيُوبِ ... يَموجُ بِها السّهلُ والرّابيَهْ
تغَنّى اللّيالي بألَحْانِهَا ... فتَغْرقُ في سَكرةٍ باقِيهْ
رَأيتُكِ (لُبْنانِي) المُشتْهَى ... وَجَنتّهُ اللّذةَ الشّافِيهْ
وَأبْصرتْ وَجهَكِ يَطْفوُ عَلَيْهِ ... وَيَغْمُر أرْجاَءهُ النَّائِيهْ
فَغَابتْ مَسَارِحُهُ الْغَالِياتُ ... وَلَمْ يَبْقَ غَيْرُكِ يا (غَالِيَهْ) . . .

(عاريا - لبنان)

أنور العطار

أغنية البحيرة

(مهداة إلى ناظم (أغنية الجندول) وملحنها البارع)

للأديب حسن أحمد باكثير

إن رأيتِ الصبح يبدى لكِ سحره ... فاذكريني واذكري يوم البحيرهْ
يوم أقبلتِ وفي يمناكِ زهره ... قد حكت من وجهك الوضاح ثغره
ونسيم الصبحُ يهدى لكِ عطره ... والندى يكسو وجوه الزهر نضره
فعرتني - حينما سلّمتِ - حيره ... أأداري القلب أم أعلن سره؟
وأواري الحب أم أظهر أمره
أنتِ يا من وشحتْ بالزهر عمري ... وأضاءت بشعاع الطهر صدري
اذكريني واذكري يوم البحيرة
لم أعد أذكر إلا أن نظره ... أشعلت في قلبيَ الولهان جمره
وأطارت من حنايا الصدر زفره ... وأسالت من سواد العين عبره
وجَنَت للروح تهياماً وحسره ... يا لسحر الحب! ما أفتك سحره!
يأسر القلب وما أعذب أسره! ... إن أكن أنسيت ما أنسيت ذكره
ليتني - إذ ذُقته - ما ذُقت مُرّه
أنتِ يا من وشحت بالورد عمري ... وأضاءت بشعاع الخلد صدري
اذكريني واذكري يوم البحيرة

واذكري إذ قلتُ: هذا اليوم غُره ... في جبين العمر فانشتفَّ بِشره
وانثري من ثغرك الفتان دُرّه ... وانشري من شعرك الوسنان عِطره
أو دعيني أرتشف من فيك خمره ... أو أقبلْ خدَّك الوردي مَره
فتصاممتِ كما لو كنتِ صخره ... وصرتِ في وجهكِ الأخاذ حُمره
طرباً أخفقتِ إذا حاولتِ ستره
أنت يا من عطَّرَت بالحب عمري ... وأضاءت بشعاع القلب صدري
اذكريني واذكري يوم البحيرة
واذكري الزورق إذ أوقفتُ سيره ... بعدما اجتاز بنا عرض البحيره
فانتَحَيْنا مجلساً تحت شُجيره ... مجلساً حُفَّ بماء وبخصره
وبأزهارٍ حباها الفجر طهره ... ومروج تلهم الشاعر شعره
فكسرنا عنده بالحب سكره ... لم تدم إلا كما تخطر خطره
آه لو عادت وعادت ألف مره
أنت يا من عطَّرّت بالحب عمري ... وأضاءت بشعاع القلب صدري
اذكريني واذكري يوم البحيرة
حسن احمد باكثير
البَريُد الأدبي
جواب
وأجيب عن السؤال الثاني بأن (الهناء) في (تاج اللغة وصحاح العربية) من صحاح اللسان العربيّ، دام الهناء للسائل الفاضل.
وحيد
هما لابن عبد ربه
سأل الأديب أحمد حسن علي شعيب في (العدد 429) عن مقطوعتين من الشعر نسبتا في اليتيمة إلى حبيب بن أحمد الأندلسي وعزاهما ابن عبد ربه إلى نفسه في (العقد). والذي نرجحه أنهما لابن عبد ربه، لأن الفتح بن خاقان ذكرهما مع شعر لا بن عبد ربه في ترجمته من (مطمح الأنفس) ص58، ولأنه عرف عن الثعالبي أنه ينسب شعراً إلى غير قائليه، وقد نبه على ذلك الأستاذ الصاوي في كتابه (المراجع العربية) عند الكلام على (يتيمة الدهر) وأورد أمثلة (ص45 و46) منها نسبته شعراً إلى سيف الدولة. قال ابن رشيق إنه لابن الرومي، وأبياتاً أخرى لسيف الدولة أيضاً.
قال ابن خلكان إنه رآها في ديوان عبد المحسن الصوري. بل إنه - أي الثعالبي - عزا مقطوعة لأبي المطاع الحمداني ذي القرنين، ثم نسبها بعينها إلى ابن طباطبا الرسي المصري، وهي تروى ليزيد بن معاوية وغيره، انظر ص32 المراجع العربية. وإنا لتحقيق الأستاذ النشاشيبى لمرتقبون.
أحمد صفوان
تحقيق في نسبة حديث
جاء في مقال غزوة حنين (العدد 417) من الرسالة:
أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الخوارج: (أكفارهم أم منافقون)؟ فأجاب: (من الكفر فروا). لا، إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً، وهؤلاء يذكرون الله كثيراً).
فكتبت في العدد (422) أستبعد نسبة هذا الكلام إليه، وقطعت بأنه من كلام علي بن أبي طالب.
فجاء الكاتب الفاضل صاحب المقال يسأل في العدد (423) عن المصدر الذي نسب هذا القول إلى علي، ويذكر أن مصدره هو: (السيرة الحلبية ج 3 ص140). ويقول في ختام كلمته: (ليس هناك ما يمنع صحة هذه النسبة إلى النبي على سبيل القطع)
فمن الخير أن نبين ما يمنع صحة هذه النسبة:
1 - كانت نشأة الخوارج بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بأكثر من ربع قرن وعرفوا بهذا الاسم لخروجهم على علي في حرب صفين.
2 - إذا جعلنا صدور هذا الكلام عن النبي من باب الإخبار بالمغيبات اعترضنا أمران: الأول أن الأحاديث المأثورة في هذه الباب تذكر صفات عامة ولا تسمى أشخاصاً ولا فرقاً بأسمائها.
والثاني أن الصحابة الكرام لا علم لهم بالمغيبات، فكيف وقع إليهم اسم (الخوارج)

حتى يسألوا عنه. ونحن نعرف أحاديث كثيرة يجعلها المحدثون في باب الكلام على الخوارج، إلا أنها جميعاً ليس فيها هذا الاسم؛ حتى أن ابن عمر وغيره كانوا إذا سئلوا عن الخوارج (بعد سنة 36هـ طبعاً) حدثوا هذه الأحاديث التي فيها صفات قد تنطبق عليهم باجتهاد الراوي. وانظر في ذلك ما جاء في كتب الحديث بدلالة (مفتاح كنوز السنة: الخوارج) في أكثر من عشرين موضعاً.

3 - هذا الكلام المنسوب إلى رسول الله، المنقول من السيرة الحلبية يناقض ما قبله وما بعده فيها من الأحاديث الصحيحة كل المناقضة: فبينا يورد صاحب هذه السيرة (3: 140) أحاديث في كفرهم ووجوب قتالهم نرى هذا الكلام ينفى عنهم الكفر والنفاق صراحة.

4 - لو صح عن النبي شيء فيهم بصراحة، ما وسع علياً أن يقول موصياً فيهم: (لا تقاتلوا الخوارج بعدي، فليس من صاحب الحق فأخطأ كمن طلب الباطل فأدركه)، ولو صح ذلك ما جاز لابن عباس أن يقول فيهم لعلي: (والله ما سيماهم بسيما المنافقين وإن بين أعينهم لأثر السجود وهم يتأولون)، وإنما المعقول أن يستشهد بما قال النبي صلى الله عليه وسلم. ولو صح ذلك أيضاً لما جعلهم المحدثون (البخاري ومسلم وأحمد والترمذي والنسائي وابن ماجهْ) ممن تنطبق عليهم أحاديث المروق اجتهاداً منهم. أما سندي في عزو هذا الكلام إلى صاحبه علي بن أبي طالب فهو العقد الفريد وقد سهوت فذكرت الخوارج في العدد

(422)

وإنما هو أصحاب الجمل وراى على في الخوارج هو نفسه في أصحاب الجمل على ما ذكرت لك آنفاً في وصيته فيهم. جاء في العقد الفريد: (ج 3 ص105 المطبعة الأزهرية) سنة 1928. سئل علي عن أصحاب الجمل: (أمشركون هم؟) فقال: (من الشرك فروا) قال: (فمنافقون؟) قال: (إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً) قال: (إخواننا بغوا علينا).

ولعل أطرف الأشياء وأعجبها السند الجديد الذي أظفرني به السائل. إن سندي في نفي هذا الكلام عن النبي صلى الله عليه وسلم هو السند نفسه الذي أحتج به في نسبته إليه، وسأنقل الفقرة نفسها مع ما قبلها ليتبين الحق على وجهه. جاء في السيرة الحلبية (ج 3 ص120) ما نصه: (وقد قاتلهم (يعني الخوارج) علي كرم الله وجهه وقد سئل صلى الله عليه وسلم عن الخوارج (أهم كفار) فقال: (من الكفر فروا) فقيل: (أمنافقون؟) فقال: (إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً وهؤلاء يذكرون الله كثيراً) فقيل: (ما هم؟) فقال: أصابتهم فتنة فعموا وصموا) فلم يجعلهم صلى الله عليه وسلم كفاراً لأنهم تعلقوا بضرب من التأويل.

ألا يرى معي الكاتب الفاضل والقراء الكرام أن (صلى الله عليه وسلم) الواردة بعد (سئل) وبعد يجوز أن تكون (يجعلهم) خطأ من ناسخ أو طابع، وأن الكلام يستقيم بدونها ويتجه إلى الصواب، فيكون من كلام علي ويطابق ما جاء في المصادر الصحيحة كلها. وذلك من أغرب ما يوقع به سهو أو خطأ.

وسيبقى هذا خطأ حتى يثبت بطريق صحيح يشتبه إلى النبي صلى الله عليه وسلم

(دمشق)

سعيد الأفغاني

حول نقد كليلة ودمنة

طالعت باهتمام ما كتبه الأستاذ عبد السلام هارون في نقد وتعليق على الطبعة الأخيرة لكتاب (كليلة ودمنة) وقد رأيت أن أعلق على تعليقه الثالث المنشور بعدد (الرسالة) رقم 428 على نقاط ثلاث لم يصحبه التوفيق فيها:

الأولى: (إذا جئتني بالليل من غير نداء ولا رمي، ولا شيء يرتاب به)؛ يتساءل الأستاذ بعدها بقوله: (فما ذلك الرمي؟) ويرجح أنها مصحفة (من الرمز)، والحقيقة أن كلمة (الرمي) صحيحة وملائمة، وليس هناك ما يحمل على العدول عنها، بل يوجد ما يوجب التمسك بها، فالرمي بحجر أو حصاة وسيلة معروفة من وسائل التنبيه عند القدامى والمحدثين وهو أدعى إلى الارتياب، ويفسر له ذلك ما روى في نوادر ابن أبي عتيق: (عبد الله ابن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق) قيل: وتعشى عبد الله ليلة ومعه رجل من الأنصار، فوقع حجر الدار، ووقع آخر وثالث؛ فقال للجارية: اخرجي فانظري أذَّنوا المغرب أم لا؟ فخرجت وجاءت بعد ساعة وقالت: أذَّنوا وصلوا؛ فقال

الرجل الذي كان عنده: أليس قد صلينا قبل أن تدخل الجارية!؟ قال: بلى، ولكن لو لم أرسلها تسأل عن ذلك لرُجمنا إلى الغداة أفهمت؟ قال: نعم قد فهمت!
وواضح من هذا أن صديقاً للجارية كان يدعوها بالرمي الثانية: (رأس الخنازير) و (سيد الخنازير)، يرجح الأستاذ أنها (رأس الخبّازين)؛ ولا أدري لمن يخبز هذا الخباز ومن الذي سيأكل خبزه من السباع الضاربة!؟ ويؤيد الأستاذ ظنه بأنه قد أشير إليه في بعض النسخ بعبارة (صاحب المائدة)
وهذا دليل لا يقدم ولا يؤخر، فما المانع من أن يكون (رأس الخنازير) هو (صاحب المائدة) في نفس الوقت، وهذا هو الواقع، وهو من دلائل الحبكة القصصية عند المؤلف، حيث جعل الأسد يأمر بعزله عن وظيفة القيام على مائدته بعد ما تحدث (دمنة) عن قذارته ودمامته، ولا أفهم كيف تدل كلمة (صاحب المائدة) على الِخبازة، ومائدة الأسد معروفة ألوانها؟ وقد التفت إلى ذلك الأستاذ المرصفي في طبعته المصورة فقال: (وسيد الخنازير هذا كان خادماً على مائدة الملك، كما يفهم مما بعد. . الخ ..)
الثالثة: (وانقلبت ظهراً لبطن، وانجررت حتى دخلت جحري) ويسأل حضرته قائلاً: (فماذا جره حتى انجر؟ إنما هي: وانحدرت) ونحن نسأله على طريقته (ماذا قلبه حتى انقلب؟ وماذا حدره حتى انحدر؟)، فهذا الفعل المطاوع لا غبار عليه البتة، وأمثاله كَثْرٌ في اللغة، وهذا الفعل بالذات تقول عنه المعاجم: وقد جَرّت الإبل تجر جراً إذا رَعَتْ وهي تسير، أو الجرُّ أن تركب الناقة وتتركها ترعى، وقد جرها يجرها (كالانجرار) فيهما، وأنشد ابن الأعرابي:
(إني على أَوْنِي وانجراري)
وهذه الأفعال المطاوعة - كانتشر وانكمش وانتقل - مطاوعة لعامل ذاتي لا لعامل خارجي، أي تتجاوب مع عاملٍ طبيعي فيها، فهو قد قلب نفسه فانقلب، وجر نفسه فانجر، وحدر نفسه فانحدر.
هذا ما وجدته حرياً بالتنبيه عليه حتى لا يتهم الأستاذ الفاضل بالتكلف أو التحامل. . . وأعيذه منهما.
حسين منصور
حول كتاب (محمد فريد) أيضاً
في العدد 429 من الرسالة وفينا هذا الكتاب القيم حقه من التقدير، وأشرنا إلى أن المؤلف الفاضل قد تعقب زعيماً بعينه في مواضع لم يكن التعقب فيها حتماً عليه. وقد أنكر علينا أديب في العدد الماضي هذا القول وطالبنا بالمثال. ونحن نكتفي بأن ندله على الصفحات الآتية من الكتاب وهي صفحات: 188 و 260 و 355 و 356 و 388 و 412، فان فيها مقنعاً لمن يريد أن يقتنع.
لبيب السعيد
محنة التعليم
أخي الأستاذ علي عبد الله
قرأت في العدد 423 كلمتك في محنة التعليم الإلزامي، فلم أعجب للفوضى التي وصفتها فيه، والنظم الجائرة المطبقة عليه؛ ذلك لأن المصيبة عندنا في نظم التعليم وأساليبه ليست بأقل من مصيبتكم فيه إن لم أقل أشدو أفدح. أما العدل فلا عدل، أما التقدير فلا تقدير. ترى المعلم النشيط ذا الوجدان الطاهر يلقى دروسه على طلابه من الصباح إلى المساء، باذلا من الجهد ما يضنى جسمه، مجرباً كل الوسائل الممكنة لإفهام الطلاب تنشئة صالحة قويمة، وترى إلى جانبه المعلم الجاهل يقضي نهاره في راحة ودعة، لأنه فقد الضمير والوجدان. فماذا تجد؟
يحزنني والله أن أخبرك أن الأول مظلوم مهمل مغضوب عليه، وأن الآخر مرضى عنه حائز ثقة رؤسائه، يزيد مرتبه على مرتب ذاك زيادة قد تبلغ الضعف أحياناً. ولملك تستغرب هذا وتود أن تعلم السبب في ذلك:
هناك أسباب كثيرة أجدرها بالذكر أن الأول لا ينافق ولا يمارى، ولا يتملق أولى الأمر، وأن تقدير قيمة المعلم وقيمة عمله متوقف على تقارير المفتشين، ولا أكتمك أن في هؤلاء المفتشين من برع في الرياضيات والطبيعيات براعة فائقة، ولكنه لا يعرف من اللغة العربية إلا مبادئ لا تغنيه. ولو أن وزارة المعارف ولتهم تعليم ما اختصوا به لما

عدت سبيل الحق، ولأفاد الناشئون منهم ومن علمهم.
وناحية أخرى، هي أن قيمة المعلم - لدى أولي الأمر - لا بعلمه وفضله، ولكن بما يحمل من شهادات! فكلما كانت شهادته أكثر كان أعلم وأفضل، وهذه طريقة لا نراها عادلة كل العدل - وعلى الأخص في دروس اللغة العربية.
وأنا مشفق بعد هذا - مثلك - من أن أذكر كل ما أعرف، فلا تحزن يا صاحبي، وليكفك أن وجدانك مستريح وان ثوابك غداً عند الله لا في هذه الدنيا.
(دمشق)
ناجي الطنطاوي
العدد 432 - بتاريخ: 13 - 10 - 1941
من أحاديث القهوة
- 3 -
حبسني عن ندامى (الكافورة) عوادٍ من الشغل والمرض فلم أعد إلى الأنس بهم إلا بعد حين. وهذا الحين على قصره كان كافياً أن يجعل الحال ويبدل الجو غير الجو هذه طلائع الخريف الباكر قد هيمنت على الأفق: فالرياح السوافي تنوح على عذبات الشجر الوريق فيرتعد فرقاً من نذير الجفاف والموت، والغنائم الرقاق تتجمع غبراً كخَمل النعام، أو تتفرق بيضاً كمندوف القطن، فيتعاقب من تجمعها وتفرقها الظلام والنور والظل والحرور على صفحة النهر ووجه الأرض
وطلائع الخريف تبكر في الريف فتحدث في نظام الطبيعة قليلاً من الفوضى. ذلك أن الفيضان يشارف غايته المقدورة في أوائل سبتمبر، فيترع النيل كل القنوات، ويغمر أكثر الحقول، ويكون من جراء هذا الري الطافح أن يفتر الحر، ويطرب الهواء، وينقد بخار الماء سحباً في السماء، وأندية على الأرض، فلا تجد أواخر الصيف مناصاً من الرحيل. وفي رحيل الصيف على هذه الحال اضطراب في حياة الناس والزرع. فالقطن يعوقه احتجاب الشمس عن اكتمال النضج فيفسد لوزه، والإنسان يُعجله تغير الجو عن اتخاذ الحيطة فيميل اعتداله.
سكنت الريح بعد هبة حمقاء هصرت غصون الشجر، وكشفت أغطية المناضد، وقلبت وجوه الحُدَّاث والجُلاَّس فقطعوا سلاسل الحديث، واسترجعوا رسل النظر. وكان إخواننا المصطفون قد نابهم من ثورة الريح ما ناب الناس؛ فانزوى كل امرئ عن أخيه وانطوى على نفسه. فلما سكت عن الريح الغضب عادوا يستقبلون أنفاس الموج، ويستروحون أنسام الزروع، ويستمعون إلى الأستاذ نجيب، وكان يتحدث عن مشكلات التموين ومخزيات الإدارة. والأستاذ نجيب مدرس بكلية الآداب، قضى أسابيع من عطلته عند أهله في سمنود. وكان له بجانب ذهنه معدة كمعدة الأحياء لا تفتأ تطلب القوت. والقوت اليوم بفضل الطاغية (هتلر) لم يعد كما كان مبذول المنال يأتيك على اغتماض وأنت وادع؛ إنما أصبح عزيز الدرك لا تناله إلا ببطاقة أو صداقة أو شفاعة. فكان يلقى كتابه من يده، ثم يخرج ومعه بطاقة التوزيع يسأل عن القمح فلا يجاب، ويبحث عن البترول فلا يجد.
نظام البطاقات محكم دقيق يضمن لكل بطاقة رصيدها، ولكل مستهلك نصيبه؛ فمن أين جاء الحرمان والخير موجود، وكيف سيطرت الفوضى والنظام قائم؟ كان الأمين الذي جعلته الحكومة على خزائن التموين قد قضى أن يكون مع بطاقة التوزيع تصريح منه لا يظفر به إلا ذو المال أو الجمال أو القربى؛ وصديقنا الأستاذ لم يؤته الحظ شفاعة من هذه الشفاعات المجابة، فبقى من جمهرة الفقراء يحتشدون كل يوم على باب الأمين يسألون فيه غير مجيب، ويسترحمون منه غير راحم. قال الأستاذ وقد نبض من الغيظ نابضه، فارتجفت شفتاه وتهدج صوته:
كان مئات من ذوي الضعف والمسكنة يتركون بيوتهم صفراً من القوت والوقود ويظلون النهار كله على باب هذا (الحاكم) قياماً وقعوداً وبأيديهم القفف والأكياس، وفي جيوبهم البطاقات والنقود، يسألونه التصريح مرة بالدعاء ومرة بالبكاء، فلا يجيبهم غير الجنود بعصيهم الملهبة، وكلماتهم الغليظة؛ حتى إذا أمسى المساء انصرف المجدودون بتصاريحهم إلى تاجر بعينه يكتالون بالسعر المقرر، وانقلب المكدودون بأوعيتهم إلى التاجر نفسه يكتالون بالسعر المكرر. ومن عرق البائسين ودموع اليتامى تنتفخ جيوب وتكتظ كروش؛ وبأمثال هذا الموظف وذلك التاجر تدول دول وتسقط

عروش!
قلت: وما يدريك يا نجيب، لعل الحال في بلدك هي الحال في كل بلد! لقد فجر التاجر وهودتهم الطامع، فاحتكروا السلع، واختزنوا الأرزاق، وعموا عن طريق الحق، وصمتوا عن نداء الضمير، ولم تزعْهم خشية الله ولا سطوة الحكومة؛ لأن الله يمهل، ولأن الإنسان يهمل. والقانون من غير تنفيذ ورق مطبوع، والتنفيذ من غير خلق ظلم مسلح.
إن في مخازن الأغنياء ومخابئ التجار من الأقوات ما لو عرض للبيع المشروع لأعاد إلى الناس عيشهم الأول؛ ولكن الفقدان والحرمان سيدومان ما دام للطامع يد وليس له قلب، وللحكومة لسان وليس لها عين.
إن الحكومة قد أيقظت وعيها ورأيها لشؤون الوقاية والتموين؛ وفي سبيلها تستطيع أن تبتكر الأسلوب البارع وتسن النظام المحكم، ولكنها لا تستطيع أن تبعث النور في الحس المظلم، ولا الشعور في الفؤاد المصمت.
هذه إنجلترا تمون الجنود من نهر النيل إلى بحر قزوين، ومن أقصى المحيط الغربي إلى
أقصى المحيط الشرقي؛ فهل تجد مع ذلك جندياً في البر أو في البحر أو في الجو يزعم أن نصيبه الموفور من الطعام والشراب والفاكهة والخمر والحلوى والعتاد والسلاح والذخيرة لم يدركه في موعده الموقوت على أكمل نظام وأعدل قسمة؟ وهل كان هذا العمل المعجز ممكناً لو لم يكن بازائه خلق يعين على قضاء الحق، وضمير يحث على أداء الواجب؟
قال الأستاذ علي: وهل عطل الأنظمة، وعوق الإصلاح، وأوهن العلائق، وشتت الوحدة، وأشاع البؤس، غير فساد الأخلاق؟ إن ما أصابنا من نكد العيش وذل النفس وحبوط العمل، نتيجة محتومة لما أصابنا من فحش الجور وقبح الأثرة وسخف الذمة (ولو يؤاخذ الله الناسَ بظلمهم ما تركَ عليها من دابة). فقال الأستاذ توحيد: إن التعبير هنا بالدابة من معجزات البلاغة القرآنية؛ فإن الناس إذا زاغوا عن طريق العدل، وخرجوا على منطق العقل، لا يصدق عليهم غير هذا اللفظ.
وعادت الريح الباردة تهب هبوب الخلق الشموس فقطعت الحديث، وقوضت المجلس، وأنذرت القوم أن يهجروا الكافورة حتى يعود الربيع.
المنصورة في 1891941
أحمد حسن الزيات
الصلات الأدبية والعلمية بين مصر والعراق
للدكتور زكي مبارك
قضى سعادة الدكتور محمد فاضل الجمالي في مصر نحو شهرين كان فيهما موضع الحفاوة والترحيب من أكابر المصريين، فالتفتت الأذهان من جديد إلى وجوب توكيد الصلات الأدبية والعلمية بين مصر والعراق. ويزيد في أهمية هذا الالتفات وجاهة الغرض الذي حضر لتحقيقه هذا المربي المفضال، فقد جاء يستحث المدرسين المصريين إلى المسارعة بالتوجه لخدمة العلم في المدارس العراقية، وعددهم في هذه المرة كثير جدا بحيث يكفي لتوكيد تلك الصلات إن أدرك جميع هؤلاء المدرسين أنهم سفراء مودة وإخلاص؛ والمأمول إن يدركوا هذا المعنى أتم الإدراك بفضل ما سيلقون في بلاد الرافدين من الإعزاز والتبجيل. أسبغ الله عليهم أثواب العافية، وجعل التوفيق حليفهم في جميع الشؤون!
أما بعد فموضوع هذا المقال مستوحى من زيارة الدكتور الجمالي، وقد كان يجب أن نتحدث عنه في (الرسالة) قبل اليوم، لأنه لم يزر مصر إلا موفداً لمهمة من أشرف المهمات، وكان ذلك يوجب أن نتحدث عن قدومه ولو بعبارة وجيزة في البريد الأدبي، ولكن الدكتور الجمالي نفسه هو سبب ما وقع من السكوت، فقد بدا لي أن أوجه إليه طائفة من الأسئلة المكتوبة ليجيب عنها إجابات مكتوبة طلباً للسلامة من الخطأ والتحريف، ورعاية لمركزه الدقيق، وهو مركز لا يبيح له أن يتحدث عن الصلات بين مصر والعراق بلا تدبر ولا إمعان، فقد رأيته غضب حين قرأ في إحدى الجرائد أنه سئل عن النظام الجديد في بلاده بعد الثورة الكيلانية وأنه أجاب بكيت وكيت، فلما سألته عن سبب غضبه مع أن الجواب المنسوب إليه لا غبار عليه قال: لا يليق بمن يوفد لمهمة علمية أن يتكلم عن شؤون سياسية.

وأريد أن أقول أن الدكتور الجمالي حار في الإجابة عن الأسئلة التي وجهتها إليه، وكانت تلك الحيرة سبباً في أن تتأخر الإجابة أسابيع، فلم يقدمها إلي إلا وهو يتأهب للرحيل.

عواطف نبيلة

وقبل أن أسوق الأسئلة والأجوبة أذكر أن الدكتور الجمالي أقام برهاناً جديداً على أصالة الأريحية العراقية، فكان اهتمامه عند حضوره مقصوراً على زيارة الرجال الذين تشرفوا بخدمة العلم في العراق، فزار الأستاذ محمد عبد العزيز سعيد (أول أستاذ مصري قدم العراق، ونظم دار المعلمين، وكان الدكتور الجمالي من أوائل تلاميذه في سنة 1918) وزار الدكتور السنهوري الذي رفع القواعد من كلية الحقوق العراقية؛ وسأل عن الأستاذ الزيات بلهفة وشوق فعلم أنه بعيد عن القاهرة، وتفضل فزارني في سنتريس ليرى البلد الذي قال فيه الشاعر عبد الرحمن البناء:

لبُعدك كابدتْ بغدادُ حُزناً ... وإن فرحتْ بقربكِ سنتريسُ

ولن أنسى أبداً أن الأسابيع التي قضاها الدكتور الجمالي في مصر كانت من المواسم الروحية، فقد كان يسأل عني في كل يوم، كأنه رب البيت وكأنني الضيف.

أخت بغداد والألقاب

واتصلت أيام الدكتور الجمالي عندنا بفكاهات كثيرة كان يوجهها إلى أقطاب وزارة المعارف من وقت إلى وقت، منها السؤال الذي واجهني به سعادة الأستاذ شفيق بك غربال:

- سمعت أنك لم تصب بأخت بغداد، فهل هذا صحيح؟

- أصبت بالأخت الحقيقية لبغداد، وهي (ليلى المريضة في العراق) وفي هذه الإصابة مناعة من جميع العلل والأدواء.

وفي إحدى سهراتنا أعلن الدكتور الجمالي ثورته على كثرة الألقاب في مصر، فأجبت بأن الحال في مصر غير الحال في العراق، فالظاهر أن الألقاب كانت تشترى بأبخس الأثمان فيظفر بها من لا يستحقون التبجيل، ولهذا ثار عليها العراقيون؛ ولا كذلك الحال في مصر، فالألقاب عندنا لا ينالها من ليس لها بأهل، وإن كان في النحو باب يسمى باب الاستثناء.

وأردت أن أنتقم من الدكتور الجمالي فكنت أخاطبه بعبارة: يا فاضل بك؛ فلم يمض إلا وقت قليل حتى استأنس بلقب البكوية كل الاستئناس، إلى الحد الذي سمح بأن يسأل عن حظي من الألقاب الرسمية بعبارة تفيض بالعطف. وقد تحزن حين أجبته بأن الألقاب لا تمنح للموظفين إلا حين تصل مرتباتهم إلى مبلغ لا أصل إليه إلا بعد أعوام طوال، ثم أردت أن أطمئنه فقلت: ولكن لا موجب للجزع فقد تنفع المؤلفات في الظفر بالألقاب!

ومن المنتظر أن يستوحش فاضل (بك) حين ينزع منه هذا اللقب بعد وصوله إلى بغداد، ودنيا الألقاب إلى زوال!

الجواب المحذوف

في الأسئلة التي وجهتها إلى الدكتور الجمالي سؤال يقول: ما هي الشخصيات التي ظفرت بإعجابكم؟ وما الشمائل الأصلية لتلك الشخصيات؟

وأجاب الدكتور الجمالي عن هذا السؤال بصفحة كاملة، ثم عاد فخلط بياضها بسوادها فلم أتبين منها غير أشباح، وإن كان تفضل فأبقى العبارة الخاصة بأحد الرجال. وقد سألته عن السبب في حذف هذا الجواب فاعتذر بأنه قد يعرضه إلى محرجات.

وأجهدت عيني في تعرف تلك الأسماء فلم أهتد إلا إلى سمات خطية عرفت منها أسماء: السنهوري وغربال ومشرفة وجوهر والقباني وفهيم.

وكان قبل ذلك حدثني عن إعجابه بالدكتور سليمان عزمي والأستاذ علي بدوي.

وللدكتور الجمالي الحق كل الحق في أن يسكت عمن عرف في مصر من الرجال، فلكل رجل في مصر خصائص تتعب من يهمه التحدث عنها بإيجاز أو إطناب. وغني مصر بالرجال لا يحتاج إلى بيان، والذي يتصل بمصر وهو في مثل ذكاء الدكتور الجمالي وإخلاصه لا يستطيع النجاة من الفتون بما لرجالها من رجاحة العقل، ونفاذ البصيرة، وقوة اليقين.

أما إعجاب المصريين بالدكتور الجمالي فهو إعجاب صادق، وقد أطلعوه على دقائق النهضة العلمية والأدبية والفنية والاجتماعية. وتفردت أنا بإطلاعه على دقائق الحياة الشعبية، وذلك جانب يراه بعض الناس من المبتذلات وأراه من الطرائف، فما في مصر بقعة إلا وهي مصدر وحي أو مبعث خيال.

زرت مع الدكتور الجمالي أكثر الأحياء الوطنية، الأحياء التي نبت فيها آباؤنا وأجدادنا قبل أن يعرفوا المدينة الغربية، الأحياء التي أوحت ما أوحت من فنون الرأي والعبقرية، زرت معه (حي الخليفة) الذي نشأ فيه مصطفى كامل، وهو حي تغلب عليه البداوة ولكنه مزود بقوة الروح، وفي رحابه نشأ كثير من جنودنا الأبطال.

والأخوة التي بيني وبين الدكتور الجمالي فرضت عليه أن يرى مصر بعيني، مصر التي لم يخلق مثلها في البلاد، مصر التي ولد فيها موسى، ونشأ بها عيسى، وصاهرها محمد، وهم صفوة الأنبياء.

لم أر في مصر شيئاً يجب إخفاؤه عن رجل من أرباب القلوب؛ وإذا احتاجت مصر إلى الدفاع عن نفسها، فلن يكون ذلك إلا بفضل جناية الجمال على الجميل.

جمالُكِ فاتنٌ والحسنُ ذنبٌ ... لأهل الحُسنِ في شرع الذئاب
فما شكواكِ من ظلماَء طالت ... وتلك جنايةُ المجد اللُّبَاِب

إن استباح السفهاء من أهل البغي أن ينالوا مصر بسوء، فسيكون لهم من وراء البغي ألوان وصنوف من غضب صاحب العزة والجبروت.

مصر التي لم يهتف بمثلها شاعر ولا كاتب ولا خطيب، مصر التي لم يتفتح الزهر في أرض أكرم من أرضها ولا أخصب، مصر التي لم يتخطر على ثرى ثراها أسرابٌ لا ترى مثلها العيون في شرق ولا غرب

مصر الجميلة الغالية ليس فيها ما يعاب، فمن حقي أن أطلع على خفاياها من يشاء، فإن صح أن فيها ما يشوك، فهو سواد الخال في الخد الأسيل

بكاء غريق الألطاف

البكاء محرم على الرجال إلا في مقامين اثنين: مقام الشوق إلى الله، وقام الحزن لفراق الأحباب. وللمقام الثاني صورة لا ينجيني من أطيافها المزعجات إلا تدوينها على القرطاس، فإن الإنشاء كالبكاء يخفف ما تعاني القلوب من لواعج وأحزان. وكيف نعيش لو حرمنا الخلوة إلى القلم من وقت إلى وقت، وقد أقفرت الدنيا من الصديق الذي ننفض بين يديه ما في صدورنا من أشجان وكروب؟

والصورة الآتية من صور البكاء تستحق التسجيل، فهي واضحة الدلالة على أن الأخوة العربية قد انتقلت من حال الشرح والتفسير إلى حال الذوق والإيمان. فما تلك الصورة من البكاء؟

في الأيام الأخيرة لإقامة الدكتور الجمالي بالقاهرة جدت شواغل منعتني من الأنس بهذا الصديق الغالي، وهي الشواغل التي تصحب افتتاح العام الدراسي، ومع ذلك عرفت أنه سيغادر القاهرة في عصر هذا اليوم (11041)

وقبل الموعد المحدد لقيام القطار بنحو خمسين دقيقة كنت في الفندق الذي نزل فيه لأصحبه إلى محطة باب الحديد، ولكني لم أجده هناك، ثم حضر بعد لحظات، فكانت تحيته: لطفك يا دكتور! وحدق في وجهي لحظة ثم قال: هل تعرف أني قضيت مساء الأمس وصباح اليوم في البكاء لفراق القاهرة؟ فابتسمت وقلت: الجروح قصاص، فمن واجب القاهرة أن تصنع بك بعض ما صنعت بي بغداد، وأنا بكيت لفراق بغداد حتى رحمني أعدائي، فاشرب قطرة من الكأس الذي شربته حتى الثمالة. واحترس من التزيد على المحبين!

ولم يقع في الوهم إلا أن الدكتور الجمالي يلاطفني بالحديث عن تحزنه لفراق القاهرة، فهو من بلد له تقاليد في مراعاة الآداب الإخوانية، ولكن لم نكد نفارق الفندق في طريقنا إلى المحطة حتى غلب الرجل على وقاره، وأخذت دموعه تبلل خديه على ما يصاب به المتيمون.

ورأيت من الحزم أن أتجاهل ما يعانيه، لئلا يزداد عناء إلى عناء، فأخذت أشاغله بالسؤال عن معالي الدكتور سامي شوكت وسعادة الأستاذ طه الراوي، وانطلقت فسردت له عشرات من الأسماء التي أحبها في أرجاء العراق، ولم أطو عنه إلا أسماء

من صادقت من رجال الجيش، فقد خشيت أن أسمع أن فيهم من قتل في الحرب التي دامت ثلاثين يوماً. وكان لي في الجيش العراقي أصدقاء لا يفدون بغير الأرواح، كتب الله لهم العافية من مكاره الصروف في هذه الأيام!

ثم بلغنا محطة باب الحديد وقد جفت دموع الدكتور الجمالي، فرأينا هنالك طوائف من الإخوان ينتظرون باسمين، فسرى عنه بأسرع من لمح البرق، وأخذ يحاور ويناضل بعزيمة لا تعرف البكاء.

وأراد الإخوان أن يصارحوه بحزنهم لفراقه فأشرت إليهم أن يكفوا، فسكتوا وقد فهموا أني أعرف من أمره ما لا يعرفون؛ والمصري أقدر الناس على فهم خطرات القلوب ولمحات العيون.

وكان الدكتور الجمالي مع هذا مهدداً برجعة البكاء، فقد كان يرى ناساً لا ينتظر أن يراهم في الساعة الثالثة بعد ظهر يوم من أيام رمضان، فكان يقول لمن يراه: غريق ألطافكم! غريق ألطافكم!

وتمت الأعجوبة حين رأى أقطاب وزارة المعارف يفدون لتوديعه وهم رجال لا تسمح شواغلهم بأداء هذا الواجب في مثل هذه الأيام المثقلة بالتكاليف.

وقد تأثر الدكتور الجمالي بهذا المنظر فكاد يبكي من جديد، ثم صده حضور صاحب الفخامة نوري باشا السعيد، فقد أخذ يسألني عن صحة ليلى بعبارات لا تخلو من فكاهة ومزاح.

ودوى صفير القطار فتحاجز المودعون، وانخرط الدكتور الجمالي في البكاء، البكاء الذي لا يجيده في مثل هذا الموقف غير كبار الرجال.

وما الذي يمنع الدكتور الجمالي من البكاء لفراق القاهرة، وقد عاش فيها شهرين بعين المحب وقلب الصديق؟

لو كان الدكتور الجمالي من الشعراء ونظم في توديع القاهرة ألف قصيدة لكان تعبيره عن أساه أقل بياناً من تلك الدموع النبيلة وقد جاد بها قلب نبيل.

الثقافة المصرية

حدثني الدكتور الجمالي قال: (شغلت عن مسايرة الثقافة المصرية نحو عشر سنين، بسبب التفاتي إلى الثقافة الإنجليزية، ثم كانت هذه الزيارة فتحاً جديداً، وقد اشتريت من المؤلفات المصرية ما ملأ حقيبتين كبيرتين، فحبي القديم لمصر أضيف إليه حب جديد، كنت أحبها للأخوة العربية، فصرت أحبها الأخوة العلمية، وإعجابي بتقدم مصر العلمي جاوز ما كنت أقدر من الفروض)

ومع أنه زار مصر في أشهر العطلة المدرسية فقد عرف كيف يدرك ما عندنا من مذاهب الحياة التعليمية، بفضل صلاته الوثيقة برجال التعليم، وفضل ما فطر عليه من حب الاستقصاء.

وليس معنى هذا أن مصر وصلت إلى ما لم يصل إليه أحد في العالمين، ولكن معناه أن الرجل شغل بالمحاسن عن العيوب، فلم تقع عيناه في مصر على شيء غير جميل.

وهذه النظرة الودية هي أساس التعارف الصحيح، والداعون إلى الوحدة العربية فاتهم هذا الجانب، وهو الابتداء بخلق صلات روحية وذوقية تصل العربي عن طريق الحب الصفاء.

أسئلة وأجوبة

لم يبق إلا أن نذكر بعض ما دونه الدكتور الجمالي بخطه، مكتفين بالأهم، لضيق المجال

س - ما هي الصفات التي يجب أن يتحلى بها المصر حين يخدم العلم بالعراق؟

ج - كل ما نريده للمصري الذي يأتي لخدمة العراق هو أن يشعر بأنه في بلاده وبين أهله وإخوانه، ومتى شعر بأنه يخدم أبناء قومه فلا أشك في أن عمله سيكون مثمراً أطيب الثمر. وإني لأنصح لمن يشتغل بالتعليم في العراق أن يبتعد عن البحث في القضايا السياسية والأمور المذهبية، فما دخلت هذه البحوث في دور العلم إلا أفسدتها.

س - أتراك مطمئناً إلى صحة القول بأن مصر صلة الوصل بين الشرق والغرب؟

ج - إن مصر خير مثال لبلد تمسك بشرقيته ثم غذاها بالنتاج الثقافي الغربي، فمصر عربية في روحها، إسلامية في تقاليدها، وهي مع ذلك تأخذ عن الغرب أساليبه العلمية، وأنظمته الصناعية والزراعية والتجارية، فهي بودقة تصهر ثقافتي الشرق والغرب،

ونرجو أن تخرج منهما ثقافة موحدة لمحاسن كلتيهما، وإذ ذاك تصبح مصر ومن ورائها البلاد العربية صلة الوصل بين الشرق والغرب حقاً.

س - ما الذي تحب أن ينقل من شمائل بغداد إلى القاهرة ومن شمائل القاهرة إلى بغداد

ج - احب أن تنقل بعض شمائل القاهرة إلى بغداد، لا سيما ما يتعلق بتنظيم العمران وفتح الشوارع وتشجيرها وإكثار من الميادين والحدائق العامة، ولا أرى مل يمكن نقله من بغداد إلى القاهرة.

س - هل اتسع وقتك للنظر في الفروق بين المناهج المصرية والمناهج العراقية؟

ج - هناك فروق بين مناهج التعليم في مصر والعراق، وهذه الفروق ناتجة من أمرين: الأول أن العراق حديث في نظامه التعليمي، ولم تتولد له مشاكل تاريخية بعد، ففي وسعه أن يطبق أحدث النظريات الفنية التعليمية بدون أن تكون في الطريق عقبات خلفها له الماضي. أما أنظمة التعليم في مصر فلها تاريخ بعيد نسبياً. فلا يمكن الأخذ بما هو صالح من الجديد إلا بالتدريج. والأمر الثاني هو أن العراق قد اعتنق الفكرة العربية منذ تكوينه الجديد بقيادة المغفور له الملك فيصل الأول، فهذه الفكرة متغلغلة في كل برامج التعليم، ولم تصل هذه الفكرة في مصر إلى صميم التعليم بعد كما هو الحال في العراق.

س - أنت زرت تركيا وكتبت عن التعليم فيها تقريراً مفصلاً، فهل ترى وقد زرت مصر أننا قريبون أو بعيدون من الأتراك من الوجهة الثقافية؟

ج - لا أستطيع أن أتحدث عن الثقافة التركية اليوم، لأني لم أتتبع التطورات الأخيرة في معارف تركيا منذ وفاة المغفور له أتاتورك. أما الثقافة التركية كما عرفتها في سنة 1937 فكانت تختلف عن الثقافة في مصر اختلافاً أساسياً وهي بعيدة عنها كل البعد. أولاً لأن الأتراك في ثقافتهم قطعوا صلتهم بالماضي ووضعوا لأنفسهم أسساً جديدة واضحة وجهت الثقافة بموجبها، فهم أخذوا كل ما راقهم من المبادئ الغربية وتركوا الثقافة الشرقية وراءهم. وثانياً لأن الانقلاب التركي جاء شاملاً وسريعاً، بينما مصر تسير على الأساليب الديمقراطية التدريجية، فهي تبقى الجيد من القديم وتضيف إليه الحديث، ولذلك أرى أن الشقة الثقافية قد بعدت بين البلاد العربية والبلاد التركية. هذا ما بدا لي سنة 1937 ولا أعرف ما هو الوضع اليوم هناك.

(انتهى ما اخترناه من أجوبة الدكتور الجمالي)

أما بعد فقد فرغت من كتابة هذا المقال في لحظة قدرت فيها أن الدكتور الجمالي لم يصل إلى الحدود المصرية ليجتازها إلى فلسطين، فليكن مقالي هذا تحية ثانية إلى الصديق الذي ودع القاهرة بدموع الوفاء، وليتفضل فيذكر أن القاهرة لا تنسى أحبابها أبداً، ولو بعدت الدار وقدم العهد.

وإذا كان الدكتور الجمالي قد تلطف فدعاني لزيارة بغداد مرة ثالثة فليعرف أني ما فارقت بغداد، ولا غاب عن عيني محيّاها الجميل.

سيَسألُ قومٌ من زكيٌ مباركٌ ... وجسميَ مدفون بصحراءِ صماء
فإن سألوا عني ففي مصر مرقدي ... وفوق ثرى بغداد تمرح أهوائي

زكي مبارك

كيف يكتب التاريخ

للدكتور حسن عثمان

مدرس التاريخ الحديث بكلية الآداب

- 5 -

نقد الأصول

أهمية النقد، التزييف والانتحال واثبات صحة الأصول

قد عرفنا أن التاريخ يدرس بواسطة الأصول كالوثائق وآثار ومخلفات الإنسان من الزمن الماضي. وحوادث التاريخ يمكن أن تعرف عن طريقين: عن طريق مباشر بملاحظة ومشاهدة الحوادث أثناء وقوعها، أو عن طريق غير مباشر بدراسة الآثار المتنوعة التي خلفتها هذه الحوادث. فالمعلومات عن حادث زلزال مثلاً يمكن معرفتها بطريق مباشر من بعض شاهدي العيان، أو بطريق غير مباشر بملاحظة آثار التدمير التي خلفتها الهزة الأرضية، أو بقراء وصف كتابي سجله أحد الناس عنها سواء بطريق

المشاهدة أو بطريق الرواية. وهذا ينطبق تماماً على حوادث التاريخ. والحوادث والأوصاف التي يسجلها الرحالة المعاصر مثلاً تمتاز بإعطائها دقائق وتفاصيل، وبتصويرها روح العصر، وذلك ما لا يتاح للكاتب المتأخر. ولكنا نلاحظ أن وجود الكاتب في العصر الذي يسجل حوادثه ليس معناه أنه يمكنه الإحاطة بجميع نواحيه وإجادة الكتابة عنه. وذلك لعدة عوامل، لاحتمال تحيزه للتيارات المتنوعة التي تسيطر على الفكر الإنساني، أو لتأثره في كتابته باتباع المصلحة لوصول إلى أغراض شخصية أو لتجنب الاضطهاد في بعض الأحيان؛ وكذلك لعدم إمكان حصوله على جميع الأصول التاريخية، بالرغم من عيشه في العصر الذي يدرسه، والتي تظل خافية وممنوعة من التداول سنوات عديدة سواء لدوافع سياسية، أو للرغبة في عدم إذاعة الأسرار الخاصة في حياة بعض الناس. فالأفضل دائماً أن يكون المؤرخ بعيداً عن العصر الذي يكتب عنه لكي تظهر الأصول والأسرار والخفايا بعد أن تتبلور حوادث التاريخ خلال الزمن الغابر.

فحوادث التاريخ تعرف بصفة أساسية عن طريق غير مباشر بدراسة آثار الإنسان المختلفة

التي تحفظ من الضياع. والمؤرخ في أغلب الأحوال لا يرى الحوادث نفسها، وإنما يرى ويدرس آثارها. فآثار ومخلفات الإنسان المتنوعة هي نقطة البدء، والحقيقة التاريخية هي الهدف الذي يتوخى المؤرخ الوصول إليه. وبين نقطة البدء والهدف يوجد طريق معقد متشابك تعتوره الأخطاء والمصاعب والعقبات العديدة، والتي قد تبعد الباحث عن الهدف وعن الحقيقة التاريخية. والمؤرخ لا يجد غير هذا الطريق للوصول إلى غرضه. ودراسة وتحليل الأصول التاريخية في هذه المرحلة من أهم أدوار طريقة البحث، وهي عبارة عن ميدان نقد الأصول التاريخية.

وكما عرفنا نجد أن آثار الإنسان قد تكون أبنية وتماثيل ومصنوعات مادية ملموسة، أو قد تكون آثاراً كتابية سجلهاالإنسان عن الحوادث. فالنوع الأول أسهل في الدراسة لأنه توجد علاقة واضحة بين الآثار الماثلة أمام المؤرخ، والتي يلمسها بحواسه، وبين أسباب وجودها وارتباط ذلك بحوادث التاريخ. ولكن الكتابات التي يدونها الإنسان عن حوادث تاريخية معينة هي أثر عقلي سيكولوجي وليست الحادث التاريخي في ذاته؛ فهي لا تزيد عن أنها رمز وتعبير عن أثر تلك الحوادث في ذهن الإنسان. فالآثار الكتابية تنحصر قيمتها في أنها عمليات سيكولوجية معقدة وصعبة التفسير، لأن الإنسان نفسه على وجه العموم معقد مركب متضارب وصعب الفهم، فلا ريب في أن تكون حوادثه والتعبير عنها على ذلك الغرار. وللوصول من الأصل التاريخي المكتوب إلى الحوادث ينبغي تعقب سلسلة العوامل التي أدت إلى كتابته؛ فلا بد من أن يحي المؤرخ في خياله سلسلة الحوادث التي قام بها كاتب الأصل التاريخي منذ أن شاهد وجمع معلوماته عن تلك الوقائع المعينة حتى دونها في الأصل المكتوب والماثل أمام المؤرخ، لكي يصل إلى الحوادث الأصلية. ويلاحظ المؤرخ قبل البدء في نقد الأصل التاريخي وخاصة إذا كان مخطوطاً هل هو نفس الحالة التي وجد عليها من قبل؟ ألم يبل ويتآكل وتضيع بعض أجزائه؟ لكي يرممه ويجعله أقوى على البقاء والحفظ.

وتوجد عدة أدوار ومراحل للنقد. فالنقد الخارجي أو الظاهري يتعلق بعدة أمور مثل إثبات صحة الأصل والخطأ والمؤلف؛ والنقد الداخلي أو الباطني ويبحث الحالات العقلية التي مر خلالها كاتب الأصل التاريخي، فيحاول أن يعرف ما الذي قصده الكاتب؟ وهل كان

يعتقد في صحة ما سجله؟ وهل توفرت المبررات التي جعلته يعتقد صحة ما كتبه؟. . .

وأساس النقد والحذر والشك في معلومات الأصل التاريخي، ثم دراسته وفهمه واستخلاص الحقائق من ثناياه. والناس يتكلمون عن ضرورة النقد ولكن من الناحية النظرية فقط؛ وهم في الغالب لا يميلون إلى تطبيقه عملياً. والإنسان في أحوال كثيرة ينقد الغير ولكن لا يجب أن يذكره الغير إلا بالمديح والثناء! والإنسان في أحوال كثير أيضاً أميل إلى الكسل والإهمال. والإنسان في حياته اليومية قد يكون أميل إلى تصديق ما يصادف هوى في نفسه، وأبعد إلى تكذيب ما يصطدم بعواطفه ورغباته.

والإنسان في حياته اليومية أيضاً لا يستطيع أن يقبل أقوال جميع الناس بنفس الثقة وبنفس التقدير، لأن الناس جميعاً لهم قيم وأغراض وأهواء مختلفة. وأصحاب النفوس

الزائفة يكذبون وينافقون ويغررون للوصول إلى الأغراض والمطامع. أو ليس ذلك أدعى إلى الخداع والعبد عن الحقيقة السافرة؟ فإذا كان هذا هو حال فيما يتعلق بالحاضر فما بالنا بحوادث الأمس، والأمس البعيد؟ ولقد استخدم المؤرخون في الزمن الماضي الأصول التاريخية بدون نقد أو حذر فوضعوا تعميمات خاطئة. وإنه لأسهل على الإنسان أن يصدق بغير مناقشة وأن يوافق بدون نقد وأن يجمع الوثائق والأصول التاريخية بغير تقدير أوزن دقيق ولكن لا يستطاع الوصول إلى الحقيقة التاريخية بدون نقد الأصول كل على حدة وبدون الموازنة بينها وتحديد العلاقة بين المعلومات الواردة في كل منها، ويستغرق ذلك زمناً طويلاً ولكن البحث العلمي التاريخي لا يمكن أن يكتب بدون ذلك. وليس هناك ما يضطر الباحث لأن يعمل فوق طاقته، بل عليه أن يقصر عمله على النقطة التاريخية المحددة التي يستطيع أن يأتي في بحثها بعمل أصلي جديد مبتكر بالنسبة للعلم كله. والباحث في التاريخ كالباحث في أي فرع من أنواع المعرفة، إذا عرف بإخلاص قيمة البحث العلمي الصحيح الذي يستوفي شروط الزمان والمكان لن يرضى بغيره بديلاً مهما كانت الظروف.

وأول مرحلة من مراحل نقد الأصول التاريخية هي إثبات صحة أو بطلان تلك الأصول. فإذا كان المصدر أو الأصل كله أو جزء منه مزيفاً أو منتحلاً فإنه لا يمكن الاعتماد عليه. وصحيح أن تزييف الأصول والوثائق اليوم أصعب منه في الزمن الماضي، ولكن دوافع التزييف والدس لا تزال قائمة كالمطامع والأهواء والكسب وحب الشهرة. والانتحال والتزييف يوجدان في كل أنواع الأصول والمصادر. فالآثار المادية تزيف من أجل الكسب في أحوال كثيرة. ومن الأمثلة على ذلك ما حدث من وجود مجموعة من الأواني والأدوات الفخارية في أورشليم في 1872؛ وقد دل على وجودها سليم العربي الذي كان يعمل في خدمة بعض المنقبين عن الآثار في تلك الأنحاء، واشترى بعضها متحف برلين، ولكن البحث العلمي أثبت أن هذه الآثار مزيفة. وفي الغالب كان سليم العربي نفسه هو صانعها بقصد الكسب. ومن الأمثلة على الكتابات المزيفة مجموعة من الخطابات والتواريخ والأشعار طبعت في إيطاليا بين سنتي 1863 و 1865 على اعتبار أنها قد كتبت عن جزيرة سردينيا في الفترة بين القرن الثامن والقرن الخامس عشر للميلاد.

ولقد أثار ظهور هذه المجموعة دهشة كبيرة في الأوساط العلمية، لأنه كان مجهولاً وجود حضارة في سردينيا من هذا النوع في ذلك العهد. وبعد نشر هذا الكتاب، وضعت الأصول الخطية في كتبة كالياري في سردينيا، وحدثت مناقشات طويلة عن هذه الآثار، فعرضت الأصول الخطية على أكاديمية العلوم في برلين لدرسها، ففحص بعض العلماء الخطوط التي كتبت بها هذه الأصول، وبحث البعض الآخر اللغة والأدب، كما ناقش آخرون المعلومات التاريخية، ووجدوا أن كل ما جاء بها لا ينطبق ولا يشابه ما عرف عن خطوط وكتابات وأدب وتاريخ سردينيا في تلك القرون، وقرر العلماء أن هذه الآثار الكتابية مزيفة.

ومن هذا النوع أيضاً نجد ملحق مذكرات (بايي) عمدة باريس وأول رئيس للجمعية الوطنية في حوادث الثورة الفرنسية وأسمه: ونشر لأول مرة في (1804) على أنه من وضع أحد أعضاء الجمعية التأسيسية في باريس بدون تحديد الإسم؛ وعندما أعيد طبع مذكرات (بايي) في (1822) اعتبر هذا الملحق من تأليف (بايي) نفسه. إلا أن الدكتور فلنج أستاذ التاريخ الأوربي بجامعة نبراسكا في أمريكا استطاع أن يكشف مع بعض تلاميذه في الجامعة عن حقيقة هذا الملحق؛ ووجدوا بالمقارنة الوافية أن فقراته شديدة القرب في اللغة والأسلوب والمعلومات مما ورد في بعض الجرائد التي كانت تصدر في باريس في (1789)، مع تغيير ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم في بعض الأحيان، لكي يتفق ذلك مع مذكرات (بايي) الأصلية. ولو أن جامع هذا الجزء قد أشار إلى المواضع التي استقى منها

مادته، لكان ذلك عملاً نافعاً لمن لا يستطيع الوصول إلى إعداد تلك الصحف النادرة. وهذا الجزء يعتبر مثالاً لكيفية الانتحال، وتحذيراً للباحثين بعدم قبول أي مصدر بثقة عمياء.

والملكة (ماري أنطوانيت) من الشخصيات التاريخية التي دست عليها رسائل لم تكتبها، وهذا مما يجعل عمل المؤرخ صعباً. ولقد نشرت مجموعات من رسائلها تحتوي على

الصحيح والمزيف منها؛ ولجأ المزيفون إلى الاقتباس من رسائلها الصحيحة وتقاليدها من حيث الخط والأسلوب. ولقد نشرت مجموعة من هذه الرسائل في باريس في (1858)، وتحتوي على رسالة لم تنشر من قبل بتاريخ 20 يونيو 1789، تبين أن ماري أنطوانيت اعتقدت أن أسلم سياسة ينبغي أن يتبعها لويس السادس عشر، هي الانضمام إلى الشعب. فهل هذه الرسالة صحيحة أم مزيفة؟ ولم يمكن العثور على أصلها المخطوط، وهذا مما يجعل البحث صعباً. وبالدراسة المقارنة نجد أن ماري أنطوانيت كانت ميولها ضد الشعب، وهذا يميل بالباحث إلى الشك في صحة هذه الرسالة. إلا أنه من الجائز أن ماري أنطوانيت كان لها هذا الرأي المخالف لما عرف عنها، إنقاذاً للموقف؛ وهكذا لا يصل المؤرخ أحياناً إلى رأي قاطع في صحة بعض الأصول التاريخية.

وأخيراً نعرض لمثال درسه الدكتور أسد رستم. فإنه عندما ثارت مشكلة البراق بين المسلمين واليهود، وقدمت اللجنة الدولية لدرسها، ظهرت وثيقة في مصلحة المسلمين. ولكن اليهود عارضوا في صحة هذه الوثيقة، فعرضت على الدكتور رستم لفحصها من الوجهة الفنية التاريخية، فوجدها أنها عبارة عن رسالة صادرة من محمد شريف باشا حكمدار بر الشام في عهد الحكومة المصرية إلى السيد أحمد أغا دزدار متسلم القدس بتاريخ 24 ربيع أول 1256هـ (27 أيار 1840) يخبره فيها بصدور إرادة شريفة خديوية من محمد على باشا بمنع اليهود من تبليط البراق مع إعطائهم حق الزيارة (على الوجه القديم). وفحص الدكتور رستم هذه الوثيقة بوسائل النقد الظاهري والباطني، فوجد أن الوثيقة مكتوبة على ورق صكوكي قديم تركيبه الكيماوي وأليافه من نوع أوراق الحكومة المصرية في مصر والشام في ذلك العهد؛ والمداد الذي دونت به هو مداد استانبولي. وأثبت التحليل الكيماوي والفحص بالمجهر أنه مزيج من الكاربون التجاري والصمغ والماء؛ وأثبت المجهر أيضاً من أثر القلم على الورق أنها كتبت بقلم قصبي مما كان شائع الاستعمال في ذلك العصر.

وكان الخط هو السائد في دواوين مصر والشام. وفاتحة الرسالة: (افتخار الاماجد الكرام ذوي الاحترام. . .) وخاتمتها: (لكي بوصوله تبادروا الإجراء العمل بمقتضاها. . .) تتفق مع أسلوب عهد محمد علي. ثم عدم مراعاة قواعد اللغة العربية ووجود ألفاظ أعجمية الشيء الذي كان منتشراً في مصر والشام في النصف الأول من القرن التاسع عشر. ثم تذرع الدكتور رستم بأدلة أخرى، فتأكد من محفوظات عابدين أن شريف باشا كان حاكما عاماً على الشام من أوائل 1248هـ إلى أواخر 1256هـ. وعرف من سجلات المحكمة الشرعية بالقدس أن أحمد أغا دزدار كان قائماً بأعمال المتسلمية في القدس في ربيع الأول سنة 1256هـ. وتثبت أيضاً من أن محمد باشا كان يسيطر على جميع حكام مقاطعات الشام ومن بينهم متسلم القدس أحمد أغا دزدار، ومن أنه كان يتلقى الأوامر من محمد علي باشا وإبراهيم باشا لكي يبلغها للجهات المختصة. ووجد الدكتور رستم أيضاً أن محتويات هذه الوثيقة تتفق مع المعلومات المعروفة عن علاقة اليهود بالبراق وموقف المسلمين منهم من ناحية إباحة اليهود زيارته وتساهل حكومة محمد علي الذي جعلهم يتطلعون للحصول على الإذن بتبليط البراق. وانتهى بحث الدكتور أسد رستم بإثبات صحة هذه الوثيقة من الوجهة الفنية التاريخية سواء من ناحية الورق والحبر والقلم وعادات المراسلة واللغة والأسلوب، أو من ناحية شخص المرسل والمرسل إليه، أو من ناحية مطابقة واتفاق معلوماتها مع الظروف التاريخية.

وهذه أمثلة عملية تبين أهمية وطريقة نقد الأصول التاريخية من ناحية إثبات صحتها وأصالتها وخلوها من الدس والتزوير والانتحال؛ وبغير ذلك لا يستطيع المؤرخ أن يعمل لأنه إذا بنى أبحاثه على الأصول المزودة خرج بنتائج بعيدة عن الحقيقة ومخالفة للواقع التاريخي. وسوف نبحث في المقالات التالية نقد الأصول من نواح أخرى

(يتلى)

حسن عثمان

الوعاظ والخطباء

للأستاذ علي الطنطاوي

تواردت الخواطر والأقلام (في أجزاء الرسالة الأخيرة) على نقد أساليب الوعاظ في

الدعوة إلى الله، فساء بعض الواعظين عندنا، ولو فكروا في مغزاه وما يلزم منه لسرهم، ولعلموا أنه لولا الاعتراف بخطر الوعظ وأهله، ومنزلتهم من الأمة، وعلو قدرتهم عند العامة، ما كتب في (الرسالة) عنهم، ولا استغل الكتاب بنقدهم. ثم إن أولى ما ينبغي أن يتحلى به الواعظ أن يبدأ بنفسه فيعظها، وأن يخلص قوله لله وعمله، وأن يفرغ من شهوات نفسه، فلا تملكه شهوة الشهرة والجاه، ولا شهوة الغنى ولا شهوة النساء، وأن يكون في فعله أوعظ منه في قوله، فلا يأمر الناس بالزهد ثم يخالفهم إلى ما زهدهم فيه فيزاحم المتكالبين عليه، ولا يتظاهر بالدين ابتغاء الدنيا وتوصلاً إليها، فيجمع من حوله العاملين على الكسب الحلال، والجادين في جمع المال من حله، ليأخذ من أموالهم ما يتعالى به عليهم، وليذيق لذائذ العيش من عطاياهم، وليسلبهم فوق ذلك حريتهم وعقولهم وكرامة أنفسهم عليهم، فيصرفهم في مآربه، ويسيرهم حيثما شاء، ويذلهم بين يديه ليستكبر عليهم، ويجعل الدين وسيلة إلى ذلك، فيجعل طاعة نفسه من طاعة الله، بل ربما جعل نصيبها من هذا الشرك أكبر، والعياذ بالله من ذلك. ولقد حدثني من أقطع بصدقه أنه سمع مرة واعظاً من هؤلاء (يقص) على تلاميذه قصة مريد سمع شيخه يقول: يا الله، ثم يمشي (زعم القاص) على وجه الماء الجاري، فسأله أن يتبعه، فقال له الشيخ: قل يا شيخي فلان (يعني الشيخ نفسه) ثم اتبعني فإنك تمشي مثلي. ففعل المريد ذلك، وتابعه أياماً، ثم خطر له (يقول الواعظ) أن يقول: (يا الله)، مكان قوله: (يا شيخي) فقالها فغرق في الماء، ومات . . .

فهل يشك مسلم في هذا الوعظ مخالف للإسلام مباين له؟ وهل يغضب الواعظ العالم الصادق أن ينتقد الواعظ الجاهل المُمَخْرِق الكذاب؟ أو ليس من دأب الواعظ الصادق أن يتقبل النصيحة ويشكر عليها ويعمل بها؟ وأن يتخلص من شرور نفسه قبل أن يتصدر للوعظ والإرشاد، حتى يكون الإسلام هو الذي يتكلم على لسانه، وحتى يتوهم السامعون أن ملكاً هو الذي يعظهم، أو جسداً إنسانياً ضم روح ملك من الملائكة قد ارتفع عن شهوات الأرض ليتصل بكمالات السماء، وأنه لا يزهدهم في دنياهم ليحوزها من دونهم؛ فإن أنسوا منه غير ذلك زهدوا فيه هو وفي وعظه . . .

كان في مسجد من مساجد دمشق خطيب جهير الصوت، طلق اللسان، معتزل مستور، يعتقد الناس إخلاصه ودينه وتخطيه أهواء نفسه ماشياً قدماً على صراطه المستقيم، صعد المنبر جمعة من الجمع، فاستهل خطبة بآية من القرآن فيها وعيد للكافرين شديد، ومضى من بعدها يبرق ويرعد، ويسوق الجمل آخذاً بعضها برقاب بعض، وكلها من مادة (كفر يكفر. . .) حتى إذا ظن أنه أقنع وأشبع، وملأ نفوس السامعين سخطاً وغضباً، عمد إلى التصريح بعد التلويح، فإذا الذي انصبت عليه هذه الحمم، ونالته رجوم الشياطين، (رجل تجرأ على دين الله، فتكلم في الداعين إليه، والداعين عليه، ومن رضى عنهم الله وعقلاء خلقه: خطباء المساجد). فلما قضيت الصلاة استقرى الناس الخبر فإذا هو صاحب جريدة كتب مقالاً معتدلاً في الدعوة إلى إصلاح الخطب المنبرية، فبعث الخطيب بمقالة يرد بها عليه فلم ينشرها وإنما أشار إليها، فكان جزاؤه أن تكون الخطبة كلها في ذمه وتكفيره. فانصرف الناس من يومئذ عما كانوا يعتقون في الخطيب ولم يعد وعظه ذلك المبلغ من نفوسهم، وجعلوا يرون فيه خطيباً له (نفس)، وهيهات بنفع واعظ أو خطيب له (نفس) . . .

فتعالوا أنبئوني من الذي جعل المنبر ملكاً لهذا الخطيب، يتصرف فيه تصفه بثوبه ودابته، ويجعله سلماً له إلى شهرته وشهوته، وهذا المنبر إرث رسول الله، والخطيب خليفته في الدعوة إلى دين الله واطراح النفس والهوى؟ ألم يرو الرواة أن علياً أمير المؤمنين رضي الله عنه كان يتبع مشركاً (في معركة) ليقتله، فلما أيس المشرك من الحياة تلفت إلى علي فبصق على وجهه، فكف عنه علي، فقيل له، فقال رضي الله عنه: كنت أنوي قتله لله وحده، فلما بصق عليَ خفت أن يكون قد داخلني غيظ منه، فخشيت أن يكون قتليه انتصاراً لنفسي، فلذلك كففت عنه. أليس في هذا الخبر (وإن لم يأت عن الثقات) عبرة وأسوة للواعظين؟ وكيف أستطيع الاتعاظ بالخطيب الذي جاء في خطبته مرة بحديث موضوع، فلما انتهت الصلاة وتفرق الناس أقبل عليه شاب من المشتغلين بالحديث والمنقطعين إليه فذكره بان ذلك الحديث موضوع لا أصل له،

فما كان منه إلا أن رجع من الجمعة المقبلة، فجعل خطبته في هذا الشاب وأصحابه (الوهابيين أعداء الرسول. . .) وأثار عليهم العامة حتى نالهم شر وأذى. فأين مكان الإخلاص من نفس هذا الخطيب؟

إن أول شرط للواعظ أو الخطيب أن يكون مخلصاً في وعظه لله، والشرط الثاني أن يكون عالماً بالعربية، عارفاً بالتفسير والحديث روايته ودرايته، والفقه أصوله وفروعه، وإلا كان وبالاً على الدين وأهله. ولقد أدركت والله من العامة من كان يكور العمامة، ويطيل اللحية، ثم يعقد للتدريس في مسجد دمشق الجامع فيقول ما شاء له الجهل والهوى ويجعله ديناً، والمفتي والقاضي والعلماء يمرون عليه أو يعلمون به فلا يتكرون عليه، ولو اعتدى هذا الرجل على جبة أحدهم لأقام عليه الدنيا. أفكان الدين أهون على أحدهم من جبته؟ وأدركت عامياً آخر ذكيا خدع طائفة من أذكياء البلد وعلمائه فاعتقدوا به، وتأدبوا بين يديه، وأخذوا عنه تفسير الآثار. وأعجب من هذا رجل يدعي النبوة يقيم الآن في غوطة دمشق، وقد آمن به أكثر فلاحي قرية (حرستا). ولقد خبرني من شهد صلاته بأصحابه أنهم يقهقهون ويكركرون كلما جاءت آية نعيم، ويتصايحون مستبشرين ويهنئ بعضهم بعضاً، وأنهم يبكون منتحبين مولولين كلما سمعوا في الصلاة آية عذاب؛ وربما (أخذ بعضهم الحال) فقفز في الصلاة أو صاح أو التبط بالأرض. ولهذا المتنبي أو (المتعهدي) ضريبة دائمة على أصحابه يؤدونها إليه باسم الزكاة فيشتري بها العقارات والحقول. . .

والشرط الثالث حسن الأسلوب في الوعظ، ومخاطبة الناس على قدر عقولهم، وابتغاء طريق اللين واللطف. وللواعظين أسوة في ذلك بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولهم من سيرته قدوة صالحة، فأين هم عنها؟ وما لأكثر من عرفنا منهم لا يعرفون إلا طريق العنف والقسوة الذي يبعد الناس عن الدين، ويغلظ قلوبهم عليه، وينفرهم منه. فلا يرون في مجالسهم شاباً من تلاميذ المدارس مثلاً إلا جعلوا الموضوع في تفسيق من يحلق لحيته، ومن يتشبه بالنساء، وأمثال ذلك، حتى تأكل هذا الشاب الأنظار، فيغرق في عرقه خجلاً؛ ثم لا يعود إلى المسجد أبداً؛ ولو أنهم حاسنوه وجاملوه لكان من المتقين. حضر درس الشيخ (بدر الدين) رحمه الله تعالى شاب حليق حاسر من شبان (المودة)، وكان الشيخ (على عادته) مطرقاً. فقال له أحد الثقلاء من الحاضرين: (سيدي، ما حكم الشبان الذين يتخنثون ويتشبهون بالنساء ويتزينون بزي الكفار). فأدرك الشيخ بذكائه النادر أن في المجلس غريباً، وفرع رأسه فلمح الشاب، فدعاه فأجلسه بجواره وأكرمه، وقال للسائل مؤنباً بأسلوبه الناعم: (يابا. . . هذا يتبارك به) يعني أن شاباً مثله يطلب العلم ويؤم مجالسه ويستهدي الطريق إلى الله، أهل لأن يتبرك به أمثال ذلك الثقيل الذين (قطعوا الطريق) إلى الله بغلظتهم وغباوة قلوبهم.

والشرط الرابع هو أن يعلم الواعظون أنه ليس في الإسلام طبقة هي أولى بالله من طبقة، وليس بين العبد وربه وسيط، وأن الإسلام ليس فيه (رجال إكليروس)، فإذا علموا ذلك اقتصدوا في تكفير الناس لأتفه الأسباب، وراجعوا الآثار الواردة ليعلموا حقيقة الكفر والإيمان، فلا يرمون بالكفر كل من خالفهم في رأي أو ناقشهم في مسألة قد يكون لها وجوه، ولا يصدرون مثل الكتاب الذي أصدره منذ بضع سنين عالم معروف في دمشق - كان أصدره قبله بأكثر من عشر سنين كتاباً آخر - كفر فيهما كل من يقول بحركة الأرض، وكفر الشيخ محمد عبده والسيد رشيد باشا رضا؛ ورد أشنع الرد على ابن حزم والشيخ محمد بخيت المطيعي، رحم الله الجميع. وأخذ بقوله بعض خطباء المساجد فكفروا على المنابر من يقول إن الأرض دائرة حول الشمس. ولا نسمع أحداً يجعل قيامك للضيف يدخل عليك كالسجود له سواء حكمهما، لأن كلا منهما (على دعواه) من أركان الصلاة استويا في ذلك. ونسى أن القعود أيضاً من أركان الصلاة، أفيحرم قعودك بين يدي صديقك أو أستاذك؟؟

والخطابة يوم الجمعة من أكبر أبواب الوعظ، فإذا صلحت صلح بصلاحها فساد الأمة، وإن فسدت أفسدت. فمتى يتم تنظيم الخطابة، بحيث يختار لها الكفو العالم ويعدل عن طريق الوراثة فيها، فلا تنتقل بعد الخطيب إلى ابنه الصغير الذي لا يدري ما يكون منشؤه ومرباه، ويقام له وكيل رسمي؛ بل يعلن عن الخطابة الحالية، ويجعل بين الطالبين سباق وامتحان، ثم ينتقي أقدرهم عليها وأصلحهم لها. ولو كانت وراثة لورثها

أبو بكر ابنه ولدفعها عمر إلى ولده. فمن أين جئتم بهذه القاعدة الواهية؟
فإذا تم الاختيار على ما ترتضي المصلحة الإسلامية، أخذ الخطيب بنوع رقابة أو إشراف يمسكه أن يحيد فيختار من الموضوعات ما يؤذي المسلمين، أو يكون فيه منفعة للخطيب شخصية، ويجعله ينتقي أقرب الموضوعات لأحداث الأسبوع، فيبين فيها حكم الله، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، بشرط أن يقوم بهذه الرقابة العلماء أنفسهم، وألا تمنع إلا ما
يخالف الإسلام ومصلحة المسلمين، وألا تمس حرية الخطيب فيما عدا ذلك، وإذا تم الحصول على هذه الثمرات من غير رقابة أصلاً فذلك هو الأولى، وهو ما عليه المسلون من قديم الزمان.
هذا وإن الموضوع خطير، ومجال القول فيه ذو سعة، والواعظون العالمون الصادقون أحق الناس بالكتابة فيه، فإن صاحب الدار أدرى بما فيها، وأحسن شيء يعطى القوس باريها، وإننا نسأل الله أن يجعلنا من أهل الإخلاص.
علي الطنطاوي
شخصيات تاريخية
تيموستوكل - 3
للأستاذ محمد الشحات أيوب
مدرس التاريخ القديم بكلية الآداب
(تابع)
تحتم إذن وضع خطة جديدة لمجابهة هذا الموقف الجديد، فمن لليونان بقائد ماهر يستطيع وضع هذه الخطة؟ لم يبحث اليونان كثيراً، إنما نظروا إلى صفوفهم فوجدوه بينهم يحثهم على أن يتراجعوا ويتماسكوا، فلما رأوه وكله ثقة واطمئنان إلى نتيجة النزاع وهي النصر الحاسم سرت الثقة بينهم وتجمدوا في أماكنهم كالثلج الذي وقع على الأرض لا يريد أن يبرحها وقد تركوا أمروهم إليه وأسلسوا له القياد فوضع هذه الخطة التي كانت أساساً لما أحرزه اليونان من نصر عظيم في موقعة سلامين الشهيرة. وأظنك أيها القارئ بعد هذا لم يخف عليك أن هذا القائد صاحب هذه الخطة إنما هو بطلنا تيموستوكل العامل الرئيسي في إحراز النصر والاحتفاظ باستقلال اليونان كاملاً.
اقتضت هذه الخطة أن يهجر الأثينيون مدينتهم إلى جزيرة سلامين القريبة من أرض وطنهم وأن يقف الأسطول اليوناني في المضيق البحري الذي يفصل بين أثينا وسلامين، وهو مكان ضيق جداً، إلى شماله تقع سواحل أثيكا، وإلى جنوبه وغربه تقع سواحل سلامين، وقد اختار تيموستوكل هذا المكان لضيقه لأنه عقد العزم على أن تكون الموقعة الفاصلة في البحر، وشجعه على ذلك هذا النجاح الذي أحرزه في الموقعة البحرية السابقة موقعة الأرتيميزون، وفي هذا المكان الضيق تنعدم الميزات الناشئة عن كثرة العدد وعما يمكن أن يقوم به العدو من حركات التفاف وتطويق بالنسبة لأسطوله الزاخر بالسفن. واختار هذا المكان أيضاً لقربه من جزيرة سلامين وإليها هاجرت الأسر الأثينية، وهي بإقامتها في الجزيرة بالقرب من الأسطول لا شك خير مشجع لكل أثيني بل لكل يوناني على الأستماتة والاستبسال في سبيل الدفاع عن أرض الوطن واستقلال البلاد؛ ونحن نعلم ما كان للأرض عند اليونان من حرمة وقداسة فهي رمز لكيانهم في الحياة وفي الممات.
لم ينل تيموستوكل بسهولة هذا القرار القاضي بإلزام الأسطول اليوناني ساحل جزيرة سلامين الشمالي وإنما ناله بعد كبير عناء، لأن اليونان كانوا مترددين جد التردد في التزام هذا المكان. وكان القائد الأعلى وهو إيريبياد متردداً هو الآخر، بلغ تردده حداً عظيماً لأنه كان غير واثق من النصر من ناحية، ولأنه كان يريد التراجع نحو الجنوب للدفاع عن بلاده وهي شبه جزيرة البيلوبونيز من ناحية أخرى. وقد عقد القواد ثلاثة مجالس حربية ظهر فيها هذا التردد بأجلى معانيه، لذلك لم يكن أمام تيموستوكل إلا أن يسلك سبيل التهديد والوعيد، فهدد بترحيل العائلات الأثينية إلى بلدة سيريس في جنوب شبه جزيرة إيطاليا واتخاذها مقاماً للأثينيين جميعاً. وهم بهذه الهجرة يتركون الإسبرطيين وبقية اليونان وحدهم، فلم يستطع القائد الإسبرطي بعد هذا إلا أن يسلم بوجهة نظر تيموستوكل وهو صاغر للنصيحة ومستسلم لهذا الإرشاد، آملاً انتهاز فرصة

مقبلة لتنفيذ رأيه القاضي بالتقهقر والتراجع، وهو قد رأى هذه الفرصة قد أقبلت حينما علم بحركات الأعداء وقرب إقدامهم على الهجوم، فعزم على التراجع نحو الجنوب من جديد. وتفسير ذلك أن أجزرسيس عاهل الفرس جمع قواده في فالير واستشارهم فيما يجب أن يتخذوه من أمر لأنفسهم في هذه المعركة، فأشاروا كلهم بضرورة الهجوم ما عدا الملكة أريتميز ملكة الدوريين في جنوب غرب آسيا الصغرى، وحجتهم في ذلك أن المكان ضيق فهم يستطيعون إذن القضاء على أسطول اليونان إذا ما هاجموه هجوماً عنيفاً، وقد غاب عنهم أن المكان ضيق لا يبيح لهم القيام بحركات تطويق أو التفاف أو انقضاض، وإنما يحتم عليهم أن ينبسطوا انبساطاً، وبذلك تنعدم الفائدة عن التجمع والتركيز فيسهل لسفن الإغريق الصغيرة الحجم أن تتسلط على سفنهم الكبيرة فتحاصرها في هذا المكان الضيق وتصليها ناراً حامية.

ولكن من أين لتيموستوكل هذا الهجوم وهو يكاد يكون الفرصة الوحيدة التي تجبر اليونان على التزام أماكنهم وإجبارهم على القتال؟ لم يجد تيموستوكل أمامه إلا المكر والخداع، وذلك بأن يحث الفرس على المضي في حركاتهم الهجومية، بل والإسراع فيها، فأرسل إلى ملكهم رجلاً من أتباعه يثق فيه كل الثقة - هو الخادم سيكينوس - لإبلاغه أن اليونان يحاولون الهرب من المضيق نحو الجنوب، ولإيقافه أيضاً على حالة اليونان وتصويرها

على أنها تنم عن انقسام في الرأي وتشعب في المصالح واختلاف في الرغبات؛ فإذا أراد القضاء التام على أسطول اليونان فليس له إلا أن يقوم بهجومه هذا، بل ويسرع فيه؛ وقد اقتنع ملك الفرس بهذا الرأي، ووقع في الفخ وأسرع في الهجوم، فاضطر اليونان إلى أن يلزموا أماكنهم ولا يبرحوها، وبذلك نجح تيموستوكل في حمل اليونان على البقاء في مضيق سلامين والقتال فيه!

ثم التحم أسطول الفرس بأسطول اليونان، وانتصر اليونان انتصاراً عظيماً كان له دوي هائل في البلاد المتحضرة حينذاك، وليس لنا أن نتحدث هنا عن تفاصيل هذه المعركة البحرية الحاسمة التي كان لها شأن في تقرير مصير بلاد اليونان لمدة قرنين على أقل تقدير، وإنما لنا أن نقرر هنا أن الفخر في إحراز هذا النصر الحاسم إنما يرجع أولاً وقبل كل شيء إلى تيموستوكل القائد الأثيني العظيم. من أجل هذا، لا نعجب إذا علمنا أن جائزة عظيمة منحت له لجسارته وشجاعته وحسن توجيهه للمعركة.

وهذه المعركة تعد في نظرنا أهم عمل أتاه تيموستوكل في حياته فهي من المعارك الحاسمة في التاريخ، إذ على إثرها زال الخطر الفارسي عن بلاد اليونان أو كاد؛ وقد كانت هزيمة الفرس شنيعة جداً، وبقدر ما كانت هذه الهزيمة ساحقة، بقدر ما كان نصر اليونان عظيماً وحاسماً. ولقد اضطر أجزرسيس بعد ذلك إلى ترك بلاد اليونان، ورجع إلى بلاده في غير إبطاء ولا تمهل، لأنه كان يخشى عواقب هذه المعركة، ومر بمضيق الهيلليسبونت، وهناك رأى الجسور التي كان قد بناها من قبل قد اقتلعتها الزوابع والأعاصير، والشعوب التي كان قد أخضعها وهو في طريقه إلى أثينا قد قامت بالثورة ضد سلطانه ونفوذه؛ فلم يجد أبداً من أن يترك ببلاد اليونان جزءاً من جيشه للاحتفاظ بسلطان الفرس على هذه البلاد، ولانتهاز فرصة ربما تسنح في المستقبل للتغلب على اليونان.

أما اليونان، فقد انقسموا على أنفسهم بعد زوال الخطر عنهم، فاعتقد الإسبرطيون كما سبق أن اعتقدوا من قبل هم وغيرهم من بقية اليونان بعد موقعة ماراتون، أن معركة سلامين نهائية، لا يجسر الفرس أن يأتوا بعدها إلى بلادهم لغزوها. ورأى الأثينيون غير هذا الرأي، إذ كانوا أكثر من الإسبرطيين حصراً وتبصراً بعواقب الأمور، فاعتقدوا أن الفرس لا شك سيعيدون الكرة من جديد، وقد كانوا على حق في ذلك، لأن الفرس لا زالوا ببلاد

اليونان يأتمرون بإمرة قائدهم ماردونيوس الذي قادهم في العام التالي إلى موقعة (بلاثية)، وفيها التحموا بالجيش اليوناني وعلى رأسه الإسبرطي بوزانياس، وكان أن انتصر اليونان من جديد، وكان الانتصار عظيماً أيضاً.

ولقد أسهبنا في الحديث عن مقدمات معركة سلامين لأن النصر فيها راجع إلى تيموستوكل قبل أن يرجع إلى أي شخص آخر، ولم نخض في تفصيلاتها الحربية التي لها مجال آخر غير هذا المجال وكنا مضطرين اضطراراً إلى هذا الإسهاب لأن هذه

المعركة من أهم المعارك التي أثرت على عقلية اليونان، ذلك أن اليونان لضعف أمرهم ولصفو شأنهم لم يؤلموا أن يحرزوا هذا النصر الحاسم ضد أكبر دولة قوية في هذا العصر وهي دولة الفرس لذلك كان هذا الانتصار انقلاباً عظيما في بلاد اليونان ووضعها بالنسبة للدول الأخرى، من أجل هذا قويت نشوة الفرح والسرور عندهم وزادت ثقتهم بأنفسهم؛ وكان لهذه المعركة أيضاً دوي عظيم وتأثير كبير على العقلية اليونانية إذ ألهمت أحد كبار الشعراء وهو (إشيل) فجعلته يكتب، وقد كان شاهد عيان للمعركة، وتراجيدية رائعة هي تراجيدية الفرس في أسلوب قوي فتان رفع من شأن اليونان وقوى الثقة بأنفسهم بقدر ما وضع من أمر الفرس وعاهلهم (أجرزسيس) فزادت حماسة اليونان وقوي شعورهم بأنهم أصبحوا دولة جديدة سيكون لها شأن خطير في التاريخ. لذلك كانت هذه المعركة بداية لعصر جديد هو عصر ازدهار الحضارة الإغريقية وفيه وصلت الآداب اليونانية إلى القمة وتطورت العلوم والفنون، بل ونظم الحكم التي حققت ما ترنو إلى تحقيقه الحضارة الأوربية الحديثة من حرية ومساواة، فكانت الديمقراطية الأثينية في عصر بركليس وكانت الآداب اليونانية في عهد إشيل وسوفوكليس.

واعتزت أثينا بعد ذلك بهذا النصر، فاعتبرها اليونان صاحبة الفضل في إبعاد الخطر الفارسي عنهم، فالتفت حولها الدويلات اليونانية الصغيرة وعلى الأخص البحرية منها التي توجد في بحر إيجه وطلبت إليها أن تدافع عنها ضد غزوات الفرس وتهديداتهم، فكانت هذه الحركة بداية لتكوين حلف ديلوس الشهير، وهو أساس الإمبراطورية الأثينية في القرن الخامس قبل الميلاد.

ونحن لا يهمنا بعد أن بينا فضل تيموستوكل على هذا النحو، أن يحاول هيرودوت أبو التاريخ الغض من شأن تيموستوكل والإقلال من أمره، فكل ما أثاره حوله من ريبة وشكوك لا نثق فيه مطلقاً. وقد عرفت أيها القارئ الكريم من المقالة الأولى أن هيرودوت كان شديد التحامل على بطلنا هذا حتى قسا عليه قسوة شديدة. والغريب أن هيرودوت يتهم تيموستوكل بالخيانة العظمى نحو قومه، ويحاول أن يقنعنا بأنه أرسل إلى ملك الفرس من يخبره بأنه لن يتعقبه هو وأسطوله، بل على العكس من ذلك سيحتفظ بالأسطول اليوناني في جزيرة سلامين، وليس هناك من شك في أن كلام هيرودوت مناقض للواقع. صحيح أن الأسطول لم يتعقب الأسطول الفارسي أثر الموقعة مباشرة. وسبب هذا راجع إلى أن اليونان كانوا في غفوة هي غفوة الانتصار، ذلك أن الانتصار كان عظيماً جداً بحيث أدخل على قلوبهم الفرح والسرور فلم يصدقوا أنفسهم أنهم أحرزوا هذا النصر الحاسم، ولكنهم بعد أن أفاقوا من هذه الغفوة تعقبوا الأسطول الفارسي حتى جزيرة أندروس فوجدوه قد لاذ بالفرار فلم يعد بإمكانهم الالتحام به لإبادته والقضاء عليه؛ ونحن نرد هذا الاتهام أيضاً لأن أعمال تيموستوكل خير شاهد على أنه كان يخدم وطنه بصدق وإخلاص، فقد كان هو الوحيد الذي عمل على أن يلزم الأسطول اليوناني سواحل جزيرة سلامين للدفاع عن الأسر اليونانية المكدسة في هذه الجزيرة وعن أرض الوطن المقدسة، فكيف يجوز لعقولنا إذن أن تصدق، إن كان لها منطق سليم تفكر به أن بطلاً قومياً هذا شأنه في العمل على القضاء على عدوه بكل الطرق والوسائل يخون قضية وطنه وهو لم يدخر في سبيل ذلك وسيلة إلا اتخذها كالمكر والخداع حينما أوقع ملك الفرس في فخه فأوهمه أن اليونان ينقسمون على أنفسهم وعلى وشك الهروب من المكان الضيق الذي كانوا به عند سلامين بعد ما علموا من بدء تحرك الفرس وإقدامهم على الهجوم، مما حفز عاهل الفرس على الإسراع في هجومه، وكان هذا الإسراع من أسباب فشله، ومن العوامل التي ساعدت تيموستوكل واليونان على إحراز هذا النصر الحاسم.

ليس هناك من شك في أن تيموستوكل بطل يوناني عظيم خدم القضية اليونانية بكل صدق وإخلاص؛ وهو وإن كان قد تخلى عن هذه القضية القومية فإن ذلك كان يعد موقعة سلامين وهو لم يلتجئ إلى هذا إلا بعد خطوات، إذ الواقع أن سياسته تطورت جد التطور، فبعد أن كان يأخذ صف اليونان ويدافع عنهم بشدة، نجده يسير رويداً رويداً نحو جانب الفرس حتى

يصبح من أتباعهم والخاضعين لهم والقائمين بخدمة سلطانهم ونفوذهم، وأمرْ هذا التطور عجيب له قصة شائقة سنعرضها عليك أيها القارئ الكريم في مقالة مقبلة إن

شاء الله.
محمد الشحات أيوب
من كتاب (البحث عن المستقبل)
إمبراطورية ابن السعود
للأستاذ روم لاندو
بقلم الأستاذ حسن السلماني
طيف ملك
المفروض أن السفارات الأجنبية والمفوضيات السياسية أنها تنقل البلاد التي تمثلها إلى قلب عاصمة الإنجليز. فمن (بلجريف سكوير) تفوح روائح سيام، ومن (بورتلند بليس) تهب نسائم شيلي. ولكن مما يؤسف له أن أغلب هذه السفارات تستبدل بعادات بلادها عادات الأقطار التي أرسلت إليها، وهذه لعمري نقص كبير في التمثيل. أما في المفوضية العربية بلندن فلا تجد مظاهر الحياة الأوربية متسعاً لها.
لقد تعرفت بالشيخ حافظ وهبة وزير المملكة لعربية السعودية المفوض بأحد المؤتمرات التي عقدت بلندن والتي اشتركنا سوية بها. ومعرفتنا هذه أدت إلى توحيد العلاقات الودية بيننا فزالت الحجب وصرنا صديقين حميمين.
ولم تكن البساطة الظاهرة في مقام الشيخ حافظ ولا النكهة الطيبة في القهوة العربية التي يكثر تقديمها لزائريه مما جعلتني أكثر التردد على المفوضية العربية، وإنما شوقي لزيارة المملكة العربية السعودية هو الذي كان يدعوني إلى ذلك. والحقيقة أن طيف بن السعود ملك البادية المخيم على تلك المفوضية كان يجذبني دائماً إلى قاعة الاستقبال في (إيتون بليس)
وعندما طلبت التأشير على جواز سفري أفهمت أن أمر ذلك بيد جلالة الملك وحده. وليس للوزارة الخارجية أو المفوضيات إلا تقديم طلبات الراغبين بزيارة البلاد له، وهو وحده الذي يجيز لهم الدخول للمملكة، وجلالته يسمح لمن يشاء ويرفض من يشاء. ومن حسن حظي أن الشيخ حافظ وهبة كان على أهبة السفر إلى المملكة العربية السعودية فاغتنمت تلك الفرصة ورجوته أن يقدم طلبي بنفسه لجلالة الملك.
وبعد عشرة أسابيع من مغادرة البلاد الإنجليزية دعيت إلى المفوضية العربية وأخبرت بموافقة سيد الجزيرة العربية على زيارتي لبلاده.
وتتجلى الروح العربية بأجلى مظاهرها في المفوضية العربية بالقاهرة. فبناء المفوضية من الطراز القديم، وغرفة السفير بسيطة خالية من الطنافس الأوربية الغالية، والقائم بشؤون المفوضية يرتدي الملابس العربية البدوية؛ وإن نظراته الحادة النافذة إلى أعماق قلوب زائريه وسمرة محياه واسوداد لحيته توحي لزائريه صورة من صور البادية وساكنيها.
ولا يتحدث السفير لزائريه إلا باللغة العربية، لا لأنه يعجز عن التكلم بلغة أخرى، ولكن لأن العرف العربي يحتم عليه ذلك. ويشعر المتحدث إليه لأول وهلة بأن نفسه تتوق لخيل الصحراء، وتصبو لجمال الرمال، وتشتاق لخيام البادية؛ ولولا ما تقتضيه التقاليد لعاف ما يحيط به من أثاث أوربي لا يلتئم وطبعه، ولاستبدل به الفراش العربي الوثير.
وعندما قابلته المرة الأولى تردد في التأشير على جوازي، ولم يفعل ذلك إلا بعد أن أبرق إلى مكة طالباً موافقة جلالة الملك. فلما جاءته الموافقة زاد في إكرامي واعتبرني من ضيوف جلالة سيده. وفي زيارتي الأخيرة للمفوضية أقام لي وليمة عربية فاخرة اختتمها بحديثه الشيق عن الدور المهم الذي لعبه لورنس في الحجاز، ولم نفترق إلا ونحن صديقان حميمان.
جدّة
كانت الباخرة التي أقلتنا من السويس إلى جدة باخرة إيطالية صغيرة لم تر منذ أن أنزلت إلى البحر شيئاً من العناية أو الاهتمام. وكأن الخدم الصوماليين اعتادوا الإهمال حتى فيما يرتدون من ملابس بيضاء. وكانت ابتساماتهم الكثيرة وحسن تصرفهم لا تعوض عن رداءة الطعام. ويبدو لي أن الدعاية الإيطالية أغفلت البواخر الصغيرة المخصصة لنق المسافرين من إيطاليا فجدة فالحبشة. ويعزى سبب ذلك، حسبما أعتقد، إلى أن أغلب راكبي تلك البواخر من الإيطاليين أو المصريين أو العرب.
وكان من بين المسافرين القلائل شاب في قبيل العمر عرفت منه أنه ابن لأحد أغنياء

المدينة المنورة قادم من اسطنبول حيث كان يدرس الطب بجامعتها. وكان يرتدي هذا الشاب الملابس الإفرنجية ويتكلم اللغة الإنجليزية والفرنسية، ويكثر من تدوير جرامافونه الصغير. وفي أحد الأيام دعاني إلى سماع جرامافونه في حجرته (قمرته) وما كادت رجلاي تتخطيان عتبة تلك الحجرة حتى شعرت بأن جميع المتناقضات اجتمعت في ذلك الشاب، وأن معالم المدينة الغربية وعالم الطب الحديث لا أثر لهما في تلك الحجرة
الصغيرة. فالمقاعد والكراسي، وحتى قاع الحجرة مغطاة بالرزم وبالصناديق وبالعلب، وكأن أحواض الغسيل خصصت لحفظ الموز والبرتقال، والرفوف عملت للطعام ولتعليق اللحم. والويل لمن أراد التنقل في تلك الحجرة الضيقة، فإن قدميه لا بد أن تصطدما بقدر أو بآنية ملقاة على الأرض، أو قد تزلان من أثر قشرة موز أو قطعة من البرتقال أليس هذا من المتناقضات؟ أو ليس بغريب أن تجد شاباً يدرس الطب بجامعة اسطنبول يستطيب طهي الطعام بنفسه وأكله على الطريقة العربية وحده؟
ومن الغريب حقاً أن ذلك الشاب لم يتردد في تقديمه الخمر والسجاير لمعارفه وهو عليم بأن قانون بلاده يحرم ذلك. إن في أفعال هذا الشاب يتجلى كرم المسلمين ممتزجاً بالملاذ التي لا يبيحها الدين الإسلامي. وكنت طوال سفري أسائل نفسي: أكان هذا الشاب مثالاً لشباب بلاده، أم قدر لي أن ألاقي في المملكة الوهابية ما لاقيته في مصر؟
و (جدة) بلد غريب كأنه مجموعة من البيوت الخالية في التناسق قذفها اليم إلى شاطئه المقفر المغطى بالرمال. فمياه البحر أمامها، والتلال الجرداء خلفها، والرمال تغطي الميمنة منها والميسرة. ومما يزيد في غرابة منظرها اختلاف أشكال أبنيتها: فبعضها مرتفع متعدد الطبقات، وبعضها واطئ يقتصر على طابق أو طابقين. وجميع هذه الأبنية مطلية بالجير المطفأ. والمدينة محاطة بسور قديم يضم تلك (الناطحات) البيضاء. أما أزقتها فضيقة، وهذا ما يجعل المنازل تبدو أعلى مما هي عليه من ارتفاع.
وتظهر (جدة) للقادم بأبنيتها الطينية العالية كأنها صورة ممسوخة لمدينة (نيويورك)، لكن ما يكاد يقترب المسافر من الشاطئ، حتى تظهر له الشرفات الخشبية التي يدعوها الناس هناك (بالمشربيات)، ويستطيع تمييز النقوش الجبسية المقتبسة من الفن الفارسي أو الطراز التركي التي تزين أبواب المنازل، والتي لا تعبر عن ذوق أو عن دقة في الصنعة أو مهارة في العمل.
ولا يفصل الصحراء عن المدينة إلا سور قديم كثير الأبواب عديد المسالك. وتحتل الأسواق والمقاهي وميادين بيع الحيوانات محلاً وسطاً بين المنازل. أما المفوضيات الأجنبية، فليست ببعيدة عن الأسواق والمحلات التجارية. ولولا كثرة الذباب وانتشار الغبار وضيق الطرق وقذارتها، لصح أن يقال: إن (جدة) مدينة جميلة. وتبدو المدينة - أثناء الليل
وبالأخص في الليالي المقمرة - أكثر روعة وجمالاً مما هي عليه في النهار. وإن المتجول في أزقتها الضيقة، ليحسب نفسه خلال تلك الليالي النيرة في عالم غريب أو في مدينة خالية. . .
الله أكبر. . .
وصلت (جدة) خلال موسم الحج لمكة. وتبعد مكة هذه خمسة وخمسين ميلاً عن جدة مينائها المهم والموضع الذي يضع الحاج ركبه فيه بعد طول السفر، وبعد ما قاسى من صنوف المشاق ما قاسى. وهي المرسى الذي ترسو فيه البواخر المقلة للحجاج من أقصى الأرض ومن أدانيها: من جاوة وسومطرة، من الهند وزنزبار، من السودان ومراكش، من الهند الصينية والصومال.
وقد بلغ عدد الحجاج في ذلك العام نيفاً ومائة ألف ازدحمت بهم الشوارع، واكتظت بهم الأسواق، وضاقت بهم المدينة. وكانوا يمثلون جميع الأجناس البشرية ومختلف ألوان الناس، ففيهم السيدات الجاويات الرشيقات اللاتي يسترن أجسامهن المستدقة بالساري الحريري الجميل، ويتجولن في الشوارع والأسواق جنباً لجنب مع أبناء البادية أصحاب النظرات الشزرة والشعور الكثة المغبرة، والأصوات الخشنة العالية؛ وفيهم الصينيون بعيونهم اللوزية، واليمانيون بجفونهم المثقلة، والنجديون بسيمائهم الناطقة بشدتهم وخشونتهم، والذين سرحوا شعورهم وضمخوها بالطيوب، وكحلوا عيونهم

بالكحل، الفاحم، وبينهم من وضع حول عنقه قلادة مرجانية أو عقداً زجاجياً، وبينهم من تدلت من بيد أصابعه مسبحة كهرمانية طويلة، وفيهم من تجلبب بالملابس الكثيفة، ومن ترك جسمه عارياً إلا من قطعة قماش صغيرة تستر ما يجب ستره.

وفي اليوم الذي وصلت فيه (جدة) كان بعض الحجاج في عودته من مكة، وبعضهم يتأهب للسفر لزيارة قبر النبي (ص). ومنذ أن وطئت قدماي أرض الحجاز، أخذت أسائل نفسي عن العوامل التي توحد بين هذه الأقوام المختلفة خلال أيام الحج. ولكنني لم أقض بينهم أيام حتى أدركت أن قدسية البيت بمكة وحرمة القبر بالمدينة أقوى العوامل في التأليف بين قلوب هذا العدد العديد في المسلمين، وفي توجيههم وجهة واحدة على ما هم عليه من تباين في القومية واختلاف في العنصرية. ومع أنهم لا يتخاطبون فيما بينهم بلغة واحدة، ولا يتبعون تقاليد متماثلة، ولا تجمعهم رغبات موحدة، فإن وحدة إيمانهم خلقت بينهم ألفة ومحبة تعجز عن خلقها أي وحدة سياسية أو مبدأ اقتصادي آخر.

وفي جميع زياراتي للحجاز لم أشاهد أو أسمع عن شجار واحد وقع بين أهل تلك البلاد وبين إخوانهم الحجاج، مع أن جل أولئك الناس كانوا من الذين لا يضعون حداً لمشاكلهم ولاختلافاتهم إلا بالسيف والخنجر. ولا يرجع هذا لشدة بأس الحكومة وقوة شكيمتها فحسب، بل إلى تغلغل العقيدة في نفوسهم، واستقرار الإيمان في أعماق قلوبهم.

ولا نعني بهذا أن ليس من خلاف بين الطوائف الإسلامية، ولكن الذي يمضي لزيارة الحجاز أثناء موسم الحج يؤمن معي أن في الدين الإسلامي قوى تؤلف بين معتنقيه أشد وأقوى من تلك التي تفرق بينهم. والذي ينعم النظر ويطيل التأمل في أولئك الحجاج لا بد أن يشعر بأنهم بمجيئهم إلى هذه الأرض المقدسة قد طهرا أنفسهم من أدران النفعية الداعية لكل خلاف والمسببة لكل تفرقة. وكأن القبلة التي يتجهون إليها طهرت نفوسهم وألانت قلوبهم، فصيرتها أكثر تسامحاً وأقل قساوة مما كانت عليه قبل أن تطأ أقدامهم تربة الحجاز.

ولا أدري، أيحق لنا - نحن أبناء الغرب - أن نستمر في تبجحنا بأن المسيحية تستطيع أن تؤلف بين طوائفنا المتباينة وأقوامنا المتناحرة، فتضع بذلك أسس الإخاء وتشيد أركان المحبة في أوربا المسيحية؟ متى يا ترى نؤمن. وقد كثرت اختلافاتنا فأثرت في نفوسنا الخيلاء والفخار بأن الدين أشد القوى التي تستطيع الوقوف بوجه ما يهدد كياننا الاجتماعي من أخطار؟

يعتقد المسلمون أجمعون أن الحج للبيت أعظم ما يقومون به من عمل في حياتهم. وجلهم يؤمن بأن هذه الفريضة الدينية أكثر أهمية وأوفر أجراً من كل ما يأتيه المسلم من شعائر دينية أو من طقوس مذهبية. فالحج فريضة على كل مسلم ومسلمة، وفيه يمتحن الخالق عباده المؤمنين. ويندر بينهم من لا يعلل نفسه ويمنيها بزيارة الأرض المقدسة، ما دام أول الحج عبادة وآخره عيداً.

والغريب من أمر هؤلاء المسلمين أنهم يتهافتون على الحج على ما فيه من مصاعب ومتاعب وأهوال. وهم شاعرون بأن تلك الجهود والشدائد قد تودي بحياتهم كمال أودت بحياة الألوف من إخوانهم من قبل، فكانت خاتمة حياتهم رقدة هادئة بين طيات التربة المباركة أو بجوار البيت المقدس. ومن حسن حظ المسلمين أنه منذ أن وضع ابن السعود يديه على أرض الحجاز ساد البلاد أمان وعمها رخاء، وأخذ الحجاج يتمتعون باستقرار واطمئنان بعد ما ظلوا سنين طويلة يقاسون، فضلاً عن أهوال السفر ومشاق الطريق، اعتداء البدو من سكان الحجاز ونهبهم لأموالهم وأمتعتهم وطمع الموظفين الحجازيين فيهم.

وما تكاد تطأ قدما الحاج أرض الحجاز ويمتع بصره بمنظر جبالها الجرداء ووديانها القاحلة حتى يشعر بزوال ما كان يقاسيه من عذاب أثناء سفره الشاق. فكأن رؤية شواطئ البلاد المقدسة تذهب التعب عن نفسه، وتزيل المصاعب من سبيله، وتنسيه ما ينتظره من متاعب عند ما يعود إلى وطنه. وكم كان عجبي شديداً عندما شاهدت في صباح يوم وصولي إلى جدة جماعة من الحجاج شاخصين نحو تلك التلال الجرداء التي تخفي وراءها قبلة المسلمين وأمنية كل فرد منهم. وكانت عيونهم تشع بنور الفرح، وأفواههم صامتة حائرة، وقلوبهم خافقة واجفة من وقع ذلك المنظر الذي كان

يوحي إليهم السر الإلهي والإيمان الصادق.
والله وحده يعلم ما سيشعرون به عندما يقفون خاشعين نادمين على ما اقترفوا من ذنوب وما آتوه من آثام حيال الكعبة المقدسة بكسوتها الموشاة بالذهب، أو عندما يستلمون بأيديهم المرتعشة الحجر الأسود المبارك، وعندما يضعون شفاههم عليه؛ ذلك الحجر الذي جاء به جبريل من السماء لإبراهيم الخليل، والذي ظل المسلمون يقدسونه طوال القرون الثلاثة عشر الماضية.
إن الأيام التي يقضيها الحاج بمكة والتي لا تزيد على خمسة عشر يوماً تمر كالحلم عليهم، وفي هذه الأيام القلائل ينصرفون إلى عبادة الله متناسين ما في الأرض من متاع زائل، كاظمين ما في قلوبهم من أحقاد، كابتين ما في نفوسهم من شهوات، متغاضين عن جميع الاختلافات العنصرية، والفروق المذهبية، والمطامع الفردية؛ كأنما اجتمعت أرواحهم جميعاً تحت سماء الكعبة التي سطرت على غطائها آيات القرآن وأحاديث الرسول.
وكم من الحجاج يستطيع التعبير عن شعوره أثناء وقفته تلك؟ إن ذلك اليوم هو اليوم الذي تنتصر فيه الروح على الجسد؛ وإن تلك الوقفة في ذلك الحرم المترامي الأطراف لوقفة تقرب المسلم من المسلم، وتجعله يسعر نحو أخيه في الدين بأعظم ما يشعر به نحو ابن
أمه.
البصرة - العراق
حسن السلمان
المصريون المحدثون - 9
شمائلهم وعاداتهم
في النصف الأول من القرن التاسع عشر
تأليف المستشرق الإنجليزي إدورد وليم لين
للأستاذ عدلي طاهر نور
تابع الفصل الأول
وملابس أغلب الموسرات من الطبقة الدنيا تتألف من سروال كشنتيان السيدات الراقيات، إلا أنه من أبيض القطن أو الكتان الواحد الشكل؛ وقميص أزرق ن الكتان أو القطن لا يكون بسعة قميص الرجال، يصل إلى القدمين؛ وبرقع أسود من غليظ الكريب؛ وطرحة زرقاء قاتمة من الموصلي أو الكتان. وبعضهن يلبسن فوق القميص أو بدلاً منه ثوباً من الكتان كثوب السيدات الراقيات (شكل 26)، وبعضهن يلبسن قميصاً قصيراً تحت القميص الطويل ويضفن إليه أحياناً صديرياً أو عنترياً. وتشمر أكمام الثوب فوق الرأس حتى لا تضايق الشخص أو لتحل محل الطرحة. وقد يتدثر بعضهن فوق هذه الثياب بمعطف ذي مربعات شطرنجية يشبه الحبرة ويلبس مثلها أو مثل الطرحة ويتكون من قطعتين من القطن المنسوج أشكالاً مربعة زرقاء وبيضاء، أو خطوطاً متشابكة تصبغ أطرافه بصبغ أحمر. ويسمى (ملاية) (شكل رقم 27). ويزين أعلى البرقع بلآلي زائفة، وقطع صغيرة من النقود الذهبية، وبعض الحلي الذهبية الصغيرة المسماة (برق) وأحياناً بخرزة من المرجان تحتها قطعة من النقود الفضية وبعض النقود الذهبية وغالباً بحبات من النحاس أو الفضة تسمى (عيون) تعلق في الأطراف (شكل رقم 28). وتلف الرأس بمنديل أسود يسمى (عصبة) بحاشية حمراء وصفراء، يطوى منحرفاً ويعقد عقدة واحدة من الخلف (شكل رقم 29). وقد يلبس الطربوش والفارودية بدلاً من العصبة. وأحس الأحذية التي ينتعلها نساء الرعاع تكون من الجلد الأحمر المراكشي المنثني الطرف ولكن يغلب أن يكون طرفها مستديراً.
والبرقع والنعال شائعا الاستعمال في القاهرة والوجه البحري. أما في الصعيد فقلما يستعملان وعند الضرورة يستبدل بالبرقع إسدال الطرحة على الوجه. والملاحظ أن نساء الطبقات السفلى حتى في العاصمة لا يتنقبن. والثياب الشائعة في معظم القطر المصري هي القميص الأزرق أي الثوب، والطرحة. أما في أقاليم الصعيد الأقصى، وعلى الأخص ما فوق مدينة أخميم، فأغلب نسائها يتغطين بقطعة من الصوف الأسمر القاتم تسمى (هلالية) تلف حول الجسم وتضم أطرافها فوق الكتفين (شكل رقم 30) وتستعمل قطعة مثلها كطرحة. وهذا الثوب القاتم اللون

بالرغم من جماله يشوه هيئتهم كالوشم الأزرق الذي يرسمنه على شفاههن. والكثير من نساء الطبقة الدنيا يتحلين بحلي زائفة مختلفة من أقراط وعقود وأساور ومن خزام الأنف أحياناً، وبعضها موصوفة ومصورة في ملحق الكتاب.

ويرى المصريات أن واجب تغطية الرأس وما خلفه أولى من تغطية الوجه، وحجب الوجه أولى من حجب أكثر أجزاء الجسم. وكثيراً ما رأيت في هذا البلد نساء لا تكاد تسترهن أسمالهن الحقيرة، وأخريات في زهرة الشباب أو في متوسط العمر لا يحملن على أجسادهن غير خرقة ضيقة تشد حول الوركين.

الفص الثاني

الطفولة وتربية الأطفال

يسترشد المسلمون في تربية أطفالهم والاعتناء بهم بأوامر الرسول (صلعم) وتعاليم الأئمة. ومن أول الواجبات عند ولادة الطفل التأذين في أذنه اليمنى، ولا بد أن يكون المؤذن ذكراً. ويقرأ بعضهم الإقامة، وهي تشبه الآذان تقريباً، في الأذن اليسرى. والغرض من ذلك حفظ الطفل من الجن. وقد يتلى للغرض نفسه عبارة: (باسم الرسول وابن عمه علي)

وكانت استشارة المنجمين قبل تسمية الطفل واتباع ما يختارونه له، عادة شائعة في مصر والبلاد الإسلامية الأخرى. وقلما يتبع أحد الآن تلك العادة القديمة فيختار الأب لابنه اسماً من غير احتفال ولا تكلف؛ أما تسمية البنت فتكون عادة باختيار الأم. وكثيراً ما يسمى الأولاد بأسماء الرسول (صلعم) (محمد، أحمد أو مصطفى) أو أهل البيت (علي، حسن، حسين الخ. . .) أو أصحابه الأفاضل (عمر، عثمان، عمر الخ. . .) أو الرسل والأنبياء

مثل: (إبراهيم، اسحق، إسماعيل، يعقوب، موسى، داود، سليمان الخ. . .) أو يسمون عبد الله، عبد الرحمن، عبد القادر وما شابه ذلك. . . أما البنات فكثيراً ما يسمين بأسماء نساء الرسول أو ابنته الحبيبة أو غيرهن من نساء عائلته مثل خديجة، عائشة، أمنه، فاطمة، زينب أو يسمين بأسماء تعني محبوبة، مبروكة، نفيسة الخ. . . أو بأسماء الزهور أو أي معنى لطيف آخر.

ولما كان الاسم لا يتحتم توارثه على العموم، فقد جرت العادة أن يميز الشخص بعلم أو أكثر: إما (كنية) مثل (أبو علي)، (ابن أحمد). . . الخ. أو (لقب) مثل (نور الدين)، (الطويل) الخ. . . أو (اسم) يتعلق بالبلد أو المولد أو الأصل أو المذهب أو التجارة أو الحرفة. . . الخ. مثل: الرشيدي، الصباغ، التاجر. وكثيراً ما يتوارث بعض هذه الأعلام وعلى الأخص الألقاب والنسب فتصبح لقب العائلة.

أما ملابس أطفال الطبقتين الوسطى والعليا فهي كملابس الوالدين، ولكنها قذرة غير مهندمة. ويلبس أطفال الفقراء إما قميصاً وطاقية من القطن أو طربوشاً، وإما أن يتركوا عراة حتى سن السابعة أو ما بعد ذلك. وقد لا يصعب عليهم الحصول على خرقة تستر بعض الجسم كما في أغلب القرى. ويلاحظ أن البنات الصغيرات اللاتي لا يملكن إلا قطعة من رث النسيج لا تكفي الجسم والرأس معاً، يفضلن تغطية الرأس، وأحياناً يدفعن الدلال إلى حجب الوجه بفضلة من النسيج بينما يترك الجسم كله مكشوفاً. أما الراقيات في سن الرابعة أو الخامسة، فيلبسن كأمهاتهن النقاب الأبيض. ويحلق رأس الولد، حينما يبلغ الثانية أو الثالثة أو قبل ذلك، وتترك له خصلة في وسط الرأس وأخرى فوق الجبهة. وقلما يحلق رأس البنات. ويحمل الأطفال فوق أكتاف أمهاتهم ومربياتهم على هيئة ركوب الخيل، أما إذا كانت المسافة قريبة فيحملون فوق الورك.

لا تظهر الموسرات في تربية أطفالهن تسامحاً زائداً وشفقة مفرطة، ولكن الفقيرات لا يبذلن نحوهم إلا العناية القليلة بقدر ما تقتضيه الطبيعة من الحاجة الضرورية. وقد جعل الشرع تمام الرضاعة حولين كاملين إلا إذا وافق الزوج على غير ذلك، فيفطم الطفل عادة بعد السنة الأولى أو بعد سنة ونصف سنة. وينشأ الطفل - ذكراً أو أنثى - في الأوساط الموسرة، بين جدران الحريم، أو على الأقل داخل المنزل. ويستمر هكذا - تحت رعاية

النساء - حتى يعهد به إلى معلم يعلمه القراءة والكتابة كل يوم. ومن المهم ملاحظة أن ما يتعلمه الطفل في الحريم من واجبات الاحترام المشوبة بالعطف والمحبة نحو

الوالدين وكبار السن، يهيئه للاتصال بالعالم الخارجي كما سترى بعد قليل.
وكثيراً ما يصطحب النساء أطفالهن عند الخروج للزيارة أو للتنزه؛ فتحمل كل جارية أو خادمة طفلاً أو تجلسه أمامها على الحمار، إذ جرت العادة أن تركب الخادمات مثل سيداتهن الحمير. وكان النساء إذا ركبن الحمير أدلين كل ساق علىجانب ولكن قلما ينعم الأطفال الأغنياء بهذه التسلية الهينة؛ فقد أثر على صحتهم طول الحجاب وشدة العناية وإفراط التغذية؛ فيصبحون لذلك كثيري التقلب، متكبرين، أنانيين. ويندر كذلك أن يشتد نساء الطبقة الوسطى في تربية أطفالهن. ويتوقف تقدير الزوج لزوجه أو تقدير الناس لها إلى درجة كبيرة على كثرة النسل والعناية بالأطفال؛ لأن الشرقيين رجالاً ونساء، أغنياء وفقراء، يعتبرون العقم لعنة وعاراً. ومن الشائن أن يطلق الرجل امرأته بلا سبب ما دامت قد ولدت له طفلاً وما دام الطفل حياً. فالمرأة الولود تكون موضعاً لحب الزوج واحترام الناس، وبيتها يكون مثابة للسرور والإيناس.
(يتبع)
عدلي طاهر نور
ليالي القاهرة
بين الشاعر والريح
للدكتور إبراهيم ناجي
الشاعر:
لَسْتُ أَنْسَى أَبَداً ... سَاعَةً في الْعُمُرِ
تَحْتَ رِيحٍ صفَّقَتْ ... لِارْتقاَصِ الْمَطَرِ!!
نَوَّحَتْ لِلذِّكرِ ... وَشَكَتْ لِلْقَمرِ
وَإِذا ما طَرِبَتْ ... عَرْبَدَتْ في الشَّجَرِ
هَاكَ مَا قَدْ صَبَّتِ الري ... حُ بِأُذْنِ الشاعرِ
وهْيَ تُغْرِي القَلْبَ إغْرَا ... ءَ النَّصِيحِ الفاجرِ
الريح:
أوَ كلُ الُحْب في رَأ ... يكَ غُفْرَانٌ وَصَفْحُ
أَيُّهَا الشَّاعرُ تَغْفُو ... تَذْكُرُ الْعَهْدَ وَتَصْحُو
وَإِذا مَا التَامُ جُرْحٌ ... جَدَّ بالتَّذْكاَرِ جُرْحُ
فَتَعَلمْ كيفَ تَنْسَى ... وَتَعلمْ كَيْفَ تَمْحُو
هَاكَ فَانْظُرْ عدَدَ الرَّمْ ... لِ قُلُوباً وَنَساءْ
فَتَخَبَّرْ مَا تَشاءْ ... ذَهَبَ الْعُمْرُ هَباءْ
ضَلَّ في الأَرْضِ الذي يَنْ ... شُدُ أَبْناء السَّمَاءْ
أيُّ رُوحَانيةٍ تُعْ ... صَرُ مِنْ طِينٍ وَمَاءْ
الشاعر:
أيُّها الريحُ أجَلْ لَكنَّمِا ... هيَ حُبي وَتَعِلاْتي وَيَأسي
هِيَ في الْغَيْبِ لقلْبي خُلِقَتْ ... أَشْرَقَتْ مِنْ قَبلِ أَنْ تُشْرِقَ شَمسي
فَعَلَى تَذْكاَرِهَا أَطْبَقْتُ عُيَنْي ... وَعَلَى مَوْعِدِها وَشَّدْتُ رَأسِي
يَا لَها مِنْ صَيْحَةٍ مَا بَعَثَتْ ... عِنْدَهُ غَيْرَ أَلِيمِ الذكرِ
أَرِقَتْ في جَنْبِهِ فَاسْتَيْقَظَتْ ... كَبَقَايَا خِنْجَرٍ مُنْكَسرِ
لَمَعَ النَّهْرُ وَنَادَاهُ لَهُ ... فَمَشَى مُنْحَدراً لِلنَّهرِ
نَاَضِبَ الزَّادِ وَمَا مِنْ سَفَرٍ ... دُونَ زَادٍ غَيْرُ هَذا السَّفرِ
الشاعر:
يَا حَبيبي كلُّ شيْء بقَضَاءْ ... مَا بِأَيْدِينَا خُلِقْنَا تُعَسَاءْ
رُبَّما تَجْمَعُنَا أَقْدَارُنَا ... ذاتَ يَوْمٍ بَعْدَ مَاعَزَّ اللقَاءْ
فَإِذا أَنْكَرَ خلُّ خِلهُ ... وَتَلاَقَيْنَا لِقَاَء الْغُرَبَاءْ
وَمشَى كلُّ إِلى غَايِتِهِ ... لاَ تَقُلْ شِئْناً وَقُلْ ليَ الَحْظُّ شَاءْ
إبراهيم ناجي
صرخة!!
للأديب عبد الرحمن الخميسي
عَلامَ أَضْحَكُ وَالآفاقُ بَاكِيةُ ... وَالشَّمْسُ تَحْجُبُهَا الأَنواءُ وَالظُّلَمُ

وَالريحُ قُد دَمْدَمَتْ في السَّهْلِ فَاختَنَقَتْ ... بِهَا الأزَاهِرُ صَرْعَى وَهْيَ تَبْتَسمُ
وَالسَّيلُ يُجَرْفُ مِنْ يَلقَاهُ مُؤتَلقاً ... حَيَّا وَيَتَركُ من أَحْرَى بهِ الْعَدَمُ
وَالنَّارُ تأكلُ ما اخضَرَّتْ مْنابتهُ ... أمَّا الَهشيمُ فَتُبْقِى عُمْرَهُ الرمَمُ
!عَلامَ أَضْحَكُ يا رَباهُ مِنْ زَمَنِي؟ ... وَشاطئَي فَوْقَهُ الأَهْوَالُ تَرْتَطِمُ
لَكِنهَا ضحْكةُ البُرْكانِ قَاذفةً ... مِنْ قلبيَ النَّارَ أذكى أَصْلَهَا الأَلمُ
!إني أَقُولُ لهذا الدَّهرِ في صَلَفٍ: ... إشْرَبْ دِمائيَ وَاثمَلْ أَيُّها النهِمُ
وَخُذْ فَهذا فُؤادِي في يَدِيَ قَلقٌ ... واشبعَ فيهاتَ يغشَى مُهْجَتي السأَمُ
!هَيهاتَ تَبْلغُ إذلالِي وَتُخضِعُني ... إني عَتِيٌ قَوِيٌ ثَائِرُ بَرِمُ
!وَإنْ تَمزقْ ضُلوعي منكَ صَائِبَةُ ... فَفي فَمِي مِنْ جِرَاحي بَسْمَةُ وَدَمُ
عبد الرحمن الخميسي

البريد الأدبي

حول كلمة (هناء)

سبق للأدباء أن قتلوا لفظة (هناء) بحثاً منذ ست سنوات ولا بأس من إيراد طرف من أقوالهم تعميماً للفائدة:

قال الأستاذ أسعد خليل داغر: إن الهناء صحيح، لأنه اسم مصدر من هنأ بتشديد النون كالسلام من سلم والعزاء من عزى والكلام من كلم

وقال الأستاذ يوسف الدجوي من هيئة كبار العلماء: اشتهر في هذه الأيام التي كثر فيها الاجتهاد وشغف الناس بالانتقاد أن الواجب أن يقال هناءة لا هناء، وهذا من قصور الاطلاع. ففي كتاب الهمز لأبى زيد الأنصاري المطبوع ببيروت صفحة 25 ما يفيد صحة ذلك وروده. وكذلك في كتاب (الفلك المشحون) ليونس المكي المتوفى في القرن الثامن ما يفيد ذلك أيضاً (ص163) ومثل ذلك قول الأديب الكبير ابن نباته:

هناء محا ذاك العزاء المقدما ... فما عبس المحزون حتى تبسما

وقول إمام العربية محمد بن مالك في حروف الزيادة ذلك البيت المشهور:

هناء وتسليم تلا يوم أنسه ... نهاية مسئول أمام وتسهيل

وهو الذي قال: إني قرأت صحاح الجوهري فلم أستفد منه غير كلمتين

وقال الأستاذ محمد الدسوقي صاحب كتاب (الألفاظ العامي): الهناء والهناءة بمعنى - جاء صحيفة 24 من الجزء الرابع من المخصص: هنأني يهنئني والاسم الهناء.

وقال الأستاذ وحيد بأهرام 561935: إن الهناء لفظ عربي

وكفى ذكر وروده في تاج اللغة وصحاح العربية جاء فيه: هنأ

يهنئني بفتح فسكون، ويهنئوني فتح فسكون هنأ وهناء.

ترى أيكتفي اللغويون والمتأدبون بما تقدم فيدعو كل منهم لأخيه بالهناء، أم سوف يقوم قائم منهم بعد ست سنوات أخر فينكر هذا اللفظ؟

يجمل بالجمع اللغوي أن يهتم بمثل هذا الصواب المخطأ ويذيعه في نشرات على الناس، فمن الخير تصحيح الخطأ، أما تخطئة الصواب، فجريمة لا تغتفر.

(القناطرة الخيرية)

محمد فتح الباب

إلى الأستاذ الكبير أ. ع

ذكر الأستاذ الكبير (أ. ع) في العدد 424 من الرسالة أن الكتاب والبلغاء يخطئون في استعمال كلمة (عَبْر) في نحو قول الصحف (ومن زمن قريب ادعت اليابان لنفسها حق مرور قواتها عَبْر شمال الهند الصينية) وقولها: (كلما فرغت مصانعنا من إخراج طائراتنا الضخمة أو جاءت إلى هنا عبر الأطلنطي) وقال إنها ترجمة خاطئة لكلمة إنجليزية ذكرها

وإن الكتاب جعلوها في نسج الكلام ظفراً كما يصنع الإنجليز بكلمتهم فأخرجوها عن معناها ووضعها اللغوي بلا مسوغ مطلقاً.

قلت: قد جاءت هذه الكلمة في شعر إسلامي لسواد بن قارب الكاهن حين وفد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلماً

روى صاحب الجمهرة أن سواداً قال لعمر بن الخطاب: إن نجياً من الجن أتاه في ثلاث ليال متتابعة وبشره بظهور نبي يدعو إلى الحق. قال سواد: (فلما أصبحت يا أمير المؤمنين أرسلت لناقة من إبلي وأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأسلمت وبايعت

(وأنشأت أقول:
أتاني نجّي بعد هدء ورقدة ... ولم يك فيما قد عهدت بكاذب
ثلاث ليال قوله كل ليلة ... أتاك رسول من لؤي بن غالب
فشمَّرت عن ذيلي الإزار وأرقلتْ ... بيَ الدعلبُ الوجناء عَبْر السباسب
(مقدمة جمهرة أشعار العرب ص26)
ومن ثم يرى الأستاذ الكبير أن الكلمة صحيحة كما يستعملها الكتاب على عهدنا.
ولو أننا أردنا تخريج الكلمة على وجه صحيح لوجدنا أكر من وجه خلافاً لما يقول الأستاذ، واقرب هذه الوجوه عندي أن تكون عَبْر مصدراً مراداً به اسم الفاعل فتكون حالاً مما قبلها ويكون التقدير (مرور قواتها عابرة شمال الهند الخ) و (أو جاءت إلى هنا عابرة الأطلنطي)
والمصدر يقع في موضع اسم الفاعل كما قال الله عز وجل: (إنْ أصبحَ ماؤكمُ غوراً) أي غائراً، ويقال رجل عدل أي عادل ويوم غمُ أي غامُ، كما يقع اسم الفاعل في موضع المصدر نحو قول الشاعر:
ألم ترني عاهدت ربي وإنني ... لبين رتاج قائماً ومقام
على حلفة لا أشتم الدهر مسلماً ... ولا خارجاً منِ فيَّ زور كلام
وبعد. فلعلي أتيت الأستاذ الكبير بما يطمئن به قلبه والسلام.
(بني سويف)
محمد محمود رضوان
المدرس بالمدرسة الابتدائية
حول تقرير مراقب التعليم الأولي
كان تقرير الأستاذ مصطفى شكري بك المنشور بعدد 431 من (الرسالة) بمثابة اعتراف صريح ببراءة المعلم من تبعة إخفاق التعليم الإلزامي، وإلقاء هذه التبعة على كاهل الذين وضعوا أصوله ورسموا فصوله، وأسسوا قواعده، وشرعوا مناهجه! وأهم هذه الحقائق التي وردت في التقرير هي: عدم صلاحية النظام النصف يومي، وعدم كفاية الزمن لدراسة مواد المنهاج، وإرهاق المعلمين بتدريس 48 حصة في الأسبوع، وضآلة المرتبات، وعدم العدالة في الترقيات، وتنازع السلطة بين الوزارة ومجالس المديريات. . .
هذه حقائق لا مراء فيها، ولا يستطيع أحد أن ينكر أثرها في فشل هذا التعليم، كما لا يستطيع أحد أن يحمل المعلم تبعة شيء منها، لأنها ليست من عمله، وقد رفع صوته منادياً بإصلاحها فلم يسمع له أحد قولاً. . .!!
وقد أشار التقرير إلى ضرورة العناية بإعداد المعلم، وعندي أن الوزارة قد أهملت المعلم من ناحيتين:
الأولى عدم استقرار المناهج في مدارس المعلمين، وعدم موافقتها لمقتضى الحال.
والثانية إهمال مكتبات المدارس الإلزامية وعدم تزويدها بالكتب النافعة المفيدة التي يمكن للمعلم أن يرجع إليها ويستعين بها على توسيع ثقافته. فليس في مكتبة المدرسة الإلزامية غير مختار الصحاح وتفسير الجلالين!!
أما علوم اللغة والدين والفقه والتاريخ والأدب وغيرها، فليس فيها منها ولا كتاب واحد! على أن هذا لم يمنع الكثير من المعلمين من الاعتماد على أنفسهم في اقتناء الكتب المختارة والمجلات النافعة. فاستطاعوا بفضل ذلك أن يظهروا على غيرهم، وأن يحصلوا على الشهادات العالية من منازلهم.
ومن غريب المفارقات أن الوزارة بينما تبخل على المعلم الإلزامي حتى بالكتاب الذي يستفيد منه، تعطى الكثير من الكتب لمكتبات مدارسها الثانوية والابتدائية. وهي تعلم أن هذه الكتب ستبقى كما هي لا تقلب صفحاتها يد، ولا تنظر إليها عين، وأن شأنها شأن القرط عند مقطوعة الأذنين!
فعسى أن يكون لتقرير الأستاذ المراقب عند الوزارة من الأثر العملي ما يرتجيه المشفقون وما يقدره المخلصون.
(المنصورة)
علي عبد الله
حول نقد كتاب (كليلة ودمنة)

ستصدر ابتداءً من العدد المقبل بقية مقالات الدكتور عبد الوهاب عزام في الرد على نقد الأستاذ عبد السلام هارون في كتاب (كليلة ودمنة)

القصص

حوار عند الغروب

للقاص الفرنسي بيير لويس

للأديب عبد الغني العطري

بيير لويس شخصية أدبية فذة لها مكانتها الرفيعة في عالم الرواية والقصة والفكر. ولو لم يكن لهذا الكاتب سوى روايته الخالدة (آفروديت) التي تجري حوادثها في مدينة الإسكندرية، ولو لم يكن له من أبطاله سوى (كريزيس) صاحبة تمثال (حياة خالدة) لكان ذلك كافيا لجعله في مقدمة زعماء الرواية العبقريين.

وكما برع لويس في الرواية فقد برع في القصة والأقصوصة أيضاً، وله في ذل مجموعة نفيسة سماها قصص مختارة، والقطعة التي نقدمها اليوم لقراء الرسالة الزهراء تحتل المكان الثاني في هذه المجموعة الرائعة. ولعل أقوى ميزات هذه الأقصوصة الحوار الطريف (الساذج) الذي أجراه الكاتب على لسان راعية وراع.

(ع. ع)

أركاس - أيتها الفتاة. . . يا ذات العينين السوداوين

مليتا - لا تمسني!

- لن أمسك. . . سأظل بعيداً عنك - كما ترين - يا أخت آفروديت ويا ذات الشعور الجميلة المعقدة على شكل عناقيد من العنب. هأنذا أقف على جانب الطريق دون أن أستطيع الذهاب، لا إلى الذين ينتظرونني، ولا إلى الذين خلفتهم ورائي

مليتا - أذهب! أذهب! إنك تتكلم عبثاً، وتفوه بما لا طائلة تحته أيها الراعي من غير غنم، ويا جواب الطرق المشبوهة الوعرة إذا كنت لا تستطيع بعد سلوك الطريق العام فاذهب إذن عن طريق الحقول، على ألا تطأ قدماك مرجي المخضوضر. أنت الذي لا أعرفه. . . وإلا ناديت واستغثت

- من عساك تنادين في هذه الوحدة؟

- الآلهة التي تسمعني

- إن الآلهة يا فتاتي الصغيرة بعيدة عنك الآن أكثر مما أنا بعيد عنك بكثير ولو كانت على مقربة منك لما منعتني من إبداء إعجابي بجمالك وسحرك، لأنها تفخر بوجهك الصبوح وتزدهي وتعلم أنه تحفتها الرائعة

- صه أيها الراعي صه! إليك عني. لقد حظرت أمي عليَ الإصغاء إلى أقوال الرجال. إني في هذا المكان أرعى نعاجي الكثيرة الصوف وأحافظ عليها إلى أن تتضيف الشمس ثم تأوي إلى مرقدها. يجب عليَ ألا أصغي إلى أصوات الفتيان الذين يمرون بهذا الطريق، مع أنسام المساء والغبار المتطاير

- ولم ذلك؟

- لست أدري السبب، غير أن أمي تعرفه بدلاً مني. . . لم يمض بعد ثلاثة عشر عاماً على ولادتها إياي فوق سريرها المصنوع من ورق الشجر، وسأكون عاقة لها إذا لم أصدع بكل ما تأمرني به

- لم تفهمي يا فتاتي مقصد أمك الرءوم. . . إن أمك طيبة عاقلة، حسناء محترمة. . . لقد حدثتك إذ حدثتك عن البرابرة الذي يجوبون الحقول والأرياف وهم يحملون المجان في يسراهم والسيوف في يمناهم. . . هؤلاء يا فتاتي يستطيعون إيذاءك لأنك ضعيفة وهم أقوياء. . . لقد قتل هؤلاء الأشرار في المدن التي احتلوها خلال الحروب البغيضة كثيراً من العذارى الحسان اللواتي يضاهي جمالهن جمالك. ولئن عثروا بك في طريقهم فلن يشفقوا عليك. . . أما أنا فأي أذى أستطيع إلحاقه بك، ولست أحمل سوى جلد الخروف على كتفيَ، وهذه العصا في يدي. . . انظري إلى ملياً. . . أمخيف. . . أنا إلى هذا الحد؟

- لا أيها الراعي. . . لست مخيفاً. . . إن ألفاظك عذبة ناعمة، لذا يمكنني أن أصغي إليها طويلاً؛ ولكنهم حدثوني فقالوا: إن أعذب الكلام وأحلاه أكثره إمعاناً في الغدر والخداع، وذلك حين يغمغم به شاب في أذني واحدة منا نحن الفتيات. . .

- أأفوز منك بجواب إذا وجهت إليك سؤالاً؟

- أجل. . .
- بم كنت تفكرين تحت الزيتونة السوداء عندما مررت؟
- لا أريد أن أخبرك به. . .
- ولكني أعرفه!
- قله لي. . .
- إذا سمحت لي بالدنو منك، وإلا فسألزم جانب الصمت، لا أستطيع أن أقوله إلا همساً. . . في أذنك، لأنه سرك وليس سري. . . أتأذنين لي بالدنو. . . وأن آخذ يدك بين يدي. . .؟
- قل. . . بم كنت أفكر؟
- في نطاق زفافك. . .
- ولكن. . . من أنبأك بهذا؟ أكنتُ أتحدث بصوت مرتفع؟ أأنت إله أيها الراعي فتقرأ من مسافة بعيدة ما يجول في خواطر العذارى؟. . . لا تنظر إلي هكذا. . . لا تحاول أن تقرأ أفكاري في هذه اللحظة. . .!
- كنت تفكرين بنطاق زفافك وبالرجل المجهول الذي سيحل عقدته ببعض من ألفاظه المعسولة العذبة التي تخشينها الآن. . . تُرى، أتخلو هذه أيضاً من الخيانة والغدر؟
- إني لم أستمع إليها بعد. . .
- ولكنك تستمعين إلى كلماتي، وتنظرين إلى عيني. . .!
- لا أريد بعد أن أراهما. . .
- سترينها في الحلم. . .
- أيها الراعي. . .!
- لماذا ترتعشين عندما آخذ يدك في يديّ. . .؟ لماذا تنحنين عندما أضمك إلى صدري. . . ولم يبحث رأسك الكليل عن كتفي. . .؟
- أيها الراعي. . .!
- أكان في الإمكان أن أضمك هكذا بين ذراعي وأنت شبه عارية. . . لو لم أكن زوجاً لك على وجه التقريب؟
- ولكن لا. . . لست زوجاً لي. . . دعني. . . دعني. . . إني خائفة. . . إليك عني فأنا لا أعرفك. دعني، إن يديك تؤذيني. . . دعني. . . فلست أريدك!
- لم تتحدثين إليَ أيتها الطفلة بلسان أمك؟
- لا ليست هي التي تتحدث إليك، بل أنا التي أتحدث، إني عاقلة مفكرة. إليك عني أيها الراعي فأنا أخجل أن آتي بمثل ما فعلته (تاييس) أو (فيليرا) أو (كلوي) اللواتي لم ينتظرن يوم زفافهن، بل تعلمن أسرار (آفروديت) وأخذن ينسلن أولادهن في الخفاء!. . . لا. . . لا. . . لن أستسلم! في إمكانك أن تمزق قميصي فلن أستسلم إليك أيها الراعي! سأخنق نفسي بيدي هاتين قبل أن تنال مني مأرباً
- ولِمَ كل ذلك؟ بل ماذا صنعت؟ لقد لمست قميصك ولم أمزقه. . . ولثمت نطاقك دون أن أفك عقدته. ليكن ما تشائين! سأتركك تذهبين حيث أردت. . . هيا اذهبي. . . اذهبي. . . لم لا تذهبين؟
- دعني أبكي
- لعلك تحسبين أن حبي لك قليل ضئيل حتى أسلبك من نفسك ثم أدعك تستسلمين إلى أحزانك؟ أكنت أتحدث إليك هكذا مطولاً لو أني لم أكن راغباً منك بغير ساعة من اللذة البهيمية التي تستطيع أية فتاة راعية أن تمنحني إياها؟ أما أنبأتك عيناي بما أريد؟ ولكنك لا تنظرين إليهما أبداً. . . وإنك تحجبين عينيك، وترسلين عبرتيك
- أجل. . .
- ولكن. . . لو شئت لوددت أن أقضي عند قدميك حياة مفعمة بالحب والهوى، ولغمرتك بألفاظي العذبة الناعمة، ولكنت طوقتك بذراعي هاتين، ووضعت رأسي على نهدك، وفمي على ثغرك، ولكنت أرسلت شعرك الجميل يداعبني برفق وحنان؛ ونحن نتناغى ونتبادل القبل. اصغي إلي قليلاً يا فتاتي! لو شئت لصنعت لك كوخاً من أغصان خضر مزدهرة وأعشاب طرية ملأى بالجنادب المغردة والجعلان الذهبية التي تشبه الجواهر في قيمتها!. . . في ذاك المكان تنفردين بي طوال الليالي على فراش أبيض واحد هو معطفي الممدود، وهناك يخفق قلبانا إلى جانب بعضهما إلى الأبد

- دعني أبكي أيضاً
- بعيداً عني؟
- بين ذراعيك. . . وأمام ناظريك!
- أي حبيبتي. . . إن الظلام أخذ ينتشر، وبدأ الليل يرخي سدوله، وشرع النور يتوارى في السماء كطائر مجنح لقد أصبحت الأرض بادية الظلمة. لم يعد يُرى من بعد سوى مجرى الجدول الفضي الطويل الذي يتلألأ كأنه نهر كبير من النجوم حول حقلنا. . . فيا له من نور عظيم!
- بلى إنه لعظيم. . . والآن هيا، قدني
- تعالي. . . إن الغابة التي سندخل الآن بين غصونها المتمايلة التي ستعانقنا جد عميقة، ولعله يصعب على الآلهة نفسها أن تقطعها في رائعة النهار دون أن تصاب بشيء من الرعشة والخوف. وفي تلك الممرات الضيقة لا ترى آثار حوافر آلهة الغابات المزدوجة متقفية آثار الإلهة الغابات. وكذلك لا ترى بين الأوراق عيون آلهة الغاب الخضر، محدقة بأنظار الرجال الفزعة. ولكننا لن نخشى شيئاً ولن نفرق أبداً ما دمنا نحن الاثنين معاً: (أنت. . . وأنا)
- لا، لن نخاف، إني أبكي بالرغم عني، ولكني أحبك وسأذهب معك. إن في قلبي إلهاً! هيا حدثني. . . حدثني كثيراً. . . إن صوتك لينطوي على إله أيضاً!
- أرسلي شعرك الجميل حول عنقي، ولفي ذراعك حول نطاقي، وضعي وجنتيك على وجنتي. انتبهي واحذري. يوجد هنا حجارة. اخفضي بصرك. . . يوجد هنا جذور. . . الأرض ندية رطبة، والعشب تحت أقدامنا العارية. غير أني أشعر بحرارة نهدك تحت يدي
- لا تبحث عنه، إنه. . . صغير، إنه. . . فتيّ، إنه. . . غير جميل. في الخريف الماضي لم يكن أكبر منه ولا أنضج من يوم ولادتي. وكثيراً ما كان صديقاتي يسخرن مني بسبب ذلك. لقد بدا نموه في الربيع مع براعم الأزهار. لم يعد في طوقي مواصلة المسير
- تعالي. . . إننا نمشي في الظلام. . . في الدجنة، لم أعد أرى وجهك. لم نعد نظهر، لقد لفنا الظلام واحتوانا الليل. تعالي نذهب إلى تلك الدوحة الكبيرة، أمام أشعة القمر. إن ظلها لكبير. . . إنه يمتد إلى حيث نحن. هيا. . . تعالي. . .!
- إنها ضخمة. . . إنها في حجم قصر!
- قصر زفافك الذي يفتح أبوابه لاستقبالنا نحن الاثنين في جوف هذا الليل المقدس
- إني أسمع ضجيجاً. . . إنه حفيف النخيل
- تخيل حفلة الزفاف الصخَّاب
- وهذه النجوم؟
- إنها المشاعل
- وهذه الأصوات؟
- إنها الآهة
- أيها الراعي، لقد دخلت هذا المكان وأنا عذراء مثل (أرتميس) التي يسطع علينا نورها من بعد. . . من خلال الأغصان السود، والتي قد تكون مصغية إلى حديثنا الآن. لست أدري أأحسنت في مجيئي معك إلى هذا المكان، أم لم احسن، ولكني كنت أحس أن روحاً بين جنبي تنبعث وأنا معك، روحاً قدسية بعثها صوتك في أعماقي. لقد منحتني السعادة الكاملة إذ منحتني يدك
- أيتها الفتاة. . . يا ذات العينين السوداوين، لم يَسْعَ أبوك ولا أبي إلى لمِّ شملنا وتهيئة هذه السعادة لنا، أمام مذبح مواقدهم وأنا أستبدل ثروتي بثروتك. نحن فقيران فنحن حران إذن. إذا كان أحد قد سعى إلى زواجنا في هذا المساء فارفعي عينيكِ، إنهم الأولمبيون حماة الرعاة
- أي زوجي. . . ما اسمك؟
- أركاس. . . وما اسمك؟
- مليتا.

(دمشق)

عبد الغني العطري

العدد 433 - بتاريخ: 20 - 10 - 1941

!لو
للأستاذ عباس محمود العقاد
من فكاهات الصحافة الأمريكية التي اطلعت عليها أخيراً قصة موضوعة على ما يظهر، فحواها أن رجلاً صارماً من المطبوعين على حب الزجر والتنديد لقي في بعض المنازه رجلاً آخر يدخن لفيفة نفيسة، ويبدو عليه الاستمتاع بتدخينها والارتياح إلى تقليبها بين شفتيه؛ فاستباح لنفسه أن يخاطبه، وجرت بينهما المحادثة التالية:
- كم لفيفة من هذا النوع تدخن في كل يوم؟
- نحو عشر
- وكم ثمن الواحدة منها؟
- خمسة قروش على التقريب
- يا للعجب! خمسون قرشاً كل يوم تذهب دخاناً في الهواء. . . فكم سنة مضت عليك وأنت تدخن؟
- ثلاثون سنة!
إن خمسين قرشاً في اليوم تجتمع منها في ثلاثين سنة ثروة عظيمة. . . أليس كذلك؟
- بلى كذلك
- أفلا ترى تلك العمارة الجميلة التي على ركن الطريق؟
- بلى أراها!
- إنك لو لم تدخن قط لتسنى لك أن تملك تلك العمارة! قال واضع الفكاهة: وهنا عاد المسئول سائلاً وانثنى يسأل المندد الزجار:
- هل تدخن؟
فقال الرجل متأففاً مزهواً: كلا! ما دخنت قط ولن أدخن أبداً
فسأله مرة أخرى: وهل تملك أذن تلك العمارة؟
قال: كلا!. . .
قال: ولكنني أنا مالكها!. . .
هذه قصة فيها مجال طويل للتأمل واختلاف النظر بين حظوظ الحياة وضروب المتعة فيها
فأي الرجلين على خطأ وأيهما على صواب؟
إن واضع القصة قد سهل لنا أن نعرف خطأ المندد الزجار، لأنه أظهر لنا أن التدخين لم يحل بين الرجل المدخن وبين ملك العمارة التي تساوي تكاليف التدخين في ثلاثين سنة
ولكننا نفرض أن الرجل لم يكن مالكها؛ فهل يكون حتماً لزاماً أنه من المخطئين وأن لائمة المتصلف على صواب؟؟
إذا قيل نعم أنه لمن المخطئين لأنه فقد عمارة كان في وسعه أن يجدها أمامه، فلماذا لا يقال أن العمارة كانت مفقودة في السنين الثلاثين ولم يكن موجوداً في حسه غير لذة التدخين؟؟
نعم إن لذة التدخين لا تجتمع لبنة فوق لبنة، وطبقة فوق طبقة، وجداراً إلى جانب جدار؛ ولكن إلا يوجد الشيء إلا إذا لمسناه لمس الجدران؟ ألا يكون له أثر إلا إذا صدمنا في الطريق كما تصدمنا العمارات؟ ألا يجوز أن لحظات التدخين قد هيأت لصاحبها فرص ارتياح وثمرات حساناً من ثمرات الحياة؟ ألا يجوز أنها أرضته حيث كان وشيكاً أن يغضب؟ وأسلست آراءه حيث كانت وشيكة أن تختلط وتتعقد؟ وشجعته على العمل حيث كان وشيكاً أن يتهاون ويتراجع؟ ألا تحسب هذه اللحظات في ثلاثين سنة لأنها لا تقاس بالمتر ولا ترصد بالأرقام؟؟
تلك لعنة النقود المسكوكة، وذلك مدى تأثيرها في قواعد التفكير وفي أصول النظر إلى الأشياء فالنقود المسكوكة من المخترعات التي علمت الناس نمطاً من الفكر لم يكن مطبوعاً ولم يكن من الضروري أن يفكروا على مثاله وينظروا إلى الأمور بمنظاره لولا اختراع النقود!
وكثير من الأشياء كانت تكون لها في تقويم الناس قيمة كبرى لولا أنهم تعودوا أن يقوموا كل شيء بعدد القطع من الذهب والفضة
بل كثير من الأشياء كانت تبطل قيمته الشائعة وكان يبطل الصراع عليه والتناحر حوله

لولا اختراع النقد وشيوع التقويم على حسابه
فقلّ أن يعرف الناس اليوم قيمة لشيء لا يتحول إلى كذا من الدنانير وكذا من الدراهم
ومع هذا كم في الدنيا من قيم غاليات لا تتحول إلى نقد ولا تباع بالنقد، وليس لها في سوق النقد حساب؟
إن لذة التدخين محسوسة، فالذي ينكرها يسهل على المدخنين أن يعرفوا خطأه أو يعرفوا الناس بخطئه ولو بعض التعريف
ولكن اللذات لا يحسها المنكرون كثيرات، وهي لو أمكن تحويلها إلى ذهب وفضة لملأت الخزائن وأدارت حركة المصارف سنوات
فواحدة من اثنتين: إما أن تتحول ذهباً وفضة لنصونها عن البخس والنكران، وإما أن تعرف خطأ الحساب الذي يدار على الذهب والفضة في تقويم قيم الحياة. ويومئذ يربح الناس خيراً كثيراً ويستريحون من عناء كثير، لأنهم لا يعرضون عن لذات نفسية أو فكرية كل ذنبها أنها لا توزن بالدرهم والمثقال، ولا يتناحرون على قنية هي في ظاهر الأمر ملك وفي باطنه حرمان واضع القصة أرانا أن المدخن كان هو مالك العمارة، وأن التدخين لم يفوّت عليه ملكها؛ ولكنّ واضع القصة كان يستطيع أن يخطو وراء ذلك خطوة فيقول لنا أن الرجل لم يكن ليملك تلك العمارة لولا تدخينه أو تدخينات زينت له رأياً من الآراء أو صفقة من الصفقات، فكانت العمارة بعض هذه الثمرات
وأقول هذا ولست أدخن الآن، ولا أنا مؤمن بضرورة التدخين لمن يفكرون
بل أقول هذا وكنت أدخن أربعين لفيفة في اليوم زمناً من الأزمان، فلا أذكر أنني أشعلت لفيفة وأنا أكتب لأستعين بها على الكتابة، وربما أطفأتها لأكتب أو اقرأ أو أقلب الرأي في مسألة من المسائل، فليس من تجاربي أن التدخين والتفكير متلازمان، وكل ما أعنيه أن السرور الذي يشعر به المدخن ينبغي أن يحسب وإن لم يتمثل في صورة الحجارة والحجرات، وهكذا ينبغي أن يحسب كل سرور
كذلك لا دخل هنا للأخلاق والموازين الأدبية في صواب التقويم والتقدير؛ فإن صاحب العمارة قد يملكها بمال مكسوب من السحت والربا الفاحش، ثم لا يقدح ذلك في قيمة العمارة عند تقويمها بين البائعين والشراة
والسرور الذي يداخل الحس قد يرجع إلى الحرام المحظور فيدان كما يدان الحرام المحظور، ثم لا ينفي هذا أنه في سرور وليس بغم ولا عذاب
ولهذا يجب أن توضع في الميزان ثلاثون سنة في المتعة التي تذهب دخاناً في الهواء ولا تتحجر لبنات وعمارات في الطرقات. والفارق بين هذه وتلك أن العمارة تنقل من مالك إلى
مالك ولا ينقل السرور الذي يستمتع به صاحبه أو يشتري منه بمال.
وهذه تفرقة سارية في عرف السوق؛ ولكنها ليست بسارية في عرف الحياة
فسرور الأب بابنه لا ينقل ولا يباع، ولكنه مع هذا أنفس من نفائس الأموال
وسرور العين بالجمال لا ينقل ولا يباع، ولكنه مع هذا ثروة تفلس الدنيا بفقدانها أيما إفلاس ومقياس النفاسة، صعد الاقتصاديون أو هبطوا، وصاح رجال المال أو سكتوا، هو في نهاية الأمر مقدار ما توحيه من شعور.
فالعمارة لا تساوي حفنة من تراب إذا كانت لا تنتقل من يد إلى يد ولا يصطحب انتقالها بسرور بائع أو سرور شار أو سرور مستأجر
ونفس واحد من لفيفة واحدة أنفس من جميع العمارات التي لا نترجمها شعوراً في حالة البيع أو الشراء أو حالة الاستئجار، أو في حالة النظر إليها إن كان النظر إليها باعث شعور.
أليس الاطمئنان إلى الرزق هو خير ما تقتني من أجله العمارات؟ فالاطمئنان إذن هو ثمن العمارة الصحيح، ولولا أنه شعور مطلوب لما بذلت في أضخم العمارات أرخص الدريهمات. ولكن هب مالك العمارة غير مطمئن إلى رزقه؟ وهبه خائفاً عليها من الحريق أو خائفاً عليها من إفلاس شركات التأمين؟ وهبه كثير الهواجس من جراء ملكها ومنازعات المنازعين فيها، فهي إذن فقر في حسابه وفقر في حساب كل مقتن لها يشعر في اقتنائه إياها بمثل هذا الشعور
نسي الناس هذه الحقيقة وخسروا بنسيانها، لأن العملة سكت عقولهم بطابعها

فأصبحت القيمة مرهونة بما يباع بكذا من الدراهم أو كذا من الدنانير، وبطلت القيم النفسية التي هي الأساس وهي المرجع في تقويم متع الحياة
ولو بقيت لنا رغباتنا وآمالنا كما كانت قبل اختراع النقد واختراع المال على الإجمال لتغير وجه التاريخ وتغيرت هموم النفوس وتغيرت أسباب الحروب والخصومات وأسباب النضال على العروض والمدخرات
ولتقريب هذا المعنى تخيل أن العملة وبديلاتها ستبطل بعد أسبوع فماذا يكون؟ إنك لتبصر في هذه الحالة من يعطي بيتاً ليشرب قدحاً من الليمون وليس بنادم ولا معدود من السفهاء
أو تخيل أن كل متعة في الحياة أصبحت لا تنال إلا بهذه العملة الشائعة فماذا يكون؟ إنك لتبصر في هذه الحالة من يعطي تراث الأرض لينعم بشعاع من أشعة الشمس والقمر
أو تخيل أن كل نعمة روحية أو فنية قد أستطيع تحويلها بعد اليوم قروشاً وجنيهات فماذا يكون؟ إنك لتبصر في هذه الحالة رجلاً من أصحاب القرائح يشتري دولتين أو ثلاث دول بفكرة خالدة توحي إليه
وسيأتي لا ريب يوم يثوب الناس فيه إلى تفكير طليق من أسر العملة ومن طابع المسكوكات. فيومئذ يعرفون الغنى الصحيح ويرهبون الفقر الصحيح، لأنهم يبذلون الجهد بمقدار حقه فيدخرون كثيراً من ضائع الجهود في غير طائل، ويأخذون حسبما يبذلون، ثم لا يقومون الأشياء بمقدار صلاحها للانتقال من مالك إلى مالك في غير جدوى؟ بل بمقدار صلاحها للبقاء في الخواطر والأرواح وهي شاعرة بما تستبقيه.
عباس محمود العقاد
-
10 - أومن بالإنسان!
للأستاذ عبد المنعم خلاف
- زال عهد الصمت والجمود - رسالة يبعثها سر الإنسان
ضالة لا تبعث على الاستكانة - لا تتعجلوا النتائج - موارد
- فياضة معطلة تنتظر الصنعة - السيد هو إنسان الصناعة
بين قيادة البقر وقيادة الفولاذ - مضى زمن التخريف في الله
وبقى التخريف في الإنسان - برزخ على هوة! - سر ظهور
الدين قبل العلم - أسس خفية لحياة الاجتماع - أباطل أصلح
للحياة من الحق؟ - مم تفجر نبع الضمير؟ - حيث الأنس
بالإنسان.
قديماً كان كل شيء في الطبيعة صامتاً جامداً أيام بدء ظهور الإنسان. فلم يكن يتكلم غير هو؛ بل كان هو أيضاً أبكم محبوس اللسان لا يتكلم إلا بمقاطع ساذجة وأصوات وجدانية؛ وكانت وجوه الطبيعة صامتة مبهمة، وأبوابها موصدة. . .
والآن صارت الأشياء متكلمة محدثة طليقة الوجوه مفضوحة الأسرار. أنطقها الإنسان الذي علمه الله البيان فعلمه هو بدوره إياها وجرد منها حناجر تحدثه وتعيد عليه حديثه لتؤنسه في رحلته إلى صوب مجهول. . .!
ولقد زادت عجائب الكون بانضمام العجائب الإنسانية إلى العجائب الإلهية في الطبيعة. وكان كفر الإنسان بالله ناشئاً من ذهوله عن بدائع مصنوعاته تعالى، وكذلك صار الآن كفر الإنسان بنفسه ناشئاً عن ذهوله عن مصنوعاته هو!
ألا إن حمله على الإيمان بنفسه رسالة لا تحتاج إلى رسل يبعثهم سرّ السماء إلى الأرض، وإنما تحتاج إلى رسل يبعثهم سر الإنسان ووحي أعماله في الأرض. . .!
وقد ظل الله ربه يقول له وهو طفل جاهل قاصر عاجز: من هنا الطريق. . . إلى الحياة
والملكوت. افعل هذا واترك هذا. كن كذا ولا تكن كذا. . . حتى أدرك جادة الحياة الكبرى وبانت له تباشير المدنية المنشودة التي كان يحلم بها ويطلبها من الرسل كمعجزات. فأسرع إليها وغمرت حواسه دهشتها وأعاجيبها، وألهاه ذلك عن التفكير في نفسه فعاش في ضجة ما يصنع كما تعيش دودة القز في الشرنقة. . .
وقد خلى الله بينه وبين الحياة بعد أن ترك له وصاياه في الصحف الأولى. . .

قد يقول قائل: ماذا يريد ذلك الإنسان المحدود من ضجته في الأرض؟ ضجة حناجره ومصانعه ومدافعه وجراراته ودباباته وطياراته وبوارجه؟ إنه ضئيل، وإن مسرحه ضئيل.
فهو شيء صغير على سطح الأرض وهي ذرة سابحة مع ملايين الملايين من النجوم والكواكب. فماذا عساه أن يصنع حتى لو ركب الأرض نفسها وصرفّ مقاليد سيرها كما يصرفّ مقاليد طياراته وجراراته؟ أليس الفناء نهايته ونهاية ما يصنع؟
فأقول لأمثال هذا: رويدكم. . . لا تتعجلوا نتائج حياة الإنسان ولا تشكوا في إنها ستكون عظيمة أعظم مما تتصورون بعد أن رأيتم من فعله ما لو رآه آباؤكم لماتوا عجبا!
إنكم تشكون فيه لأنه لم تثبت لحياته نتائج دائمة، وعندكم أن كل أعماله ملاه وسلويات في شئون خاصة كالشئون الخاصة بأي فصيلة من فصائل الحيوان
كذلك قال الذين لا يعلمون من آبائكم مثل قولكم. إذ لم يروا ميتاً يرجع ومفقوداً يؤوب. . .!
ولكن الأمر في حياة الإنسان وخلوده ليس كما تتوهمون أمراً متعجلاً، وليس ماضي عمره على الأرض طويلاً. إنه ثمرة لا بد من نضجها في زمن معلوم تظهر بعده نتائج خالدة وأسرار مخبوءة لها صلة وثيقة بالكون الطبيعي نفسه وبالروح الأكبر الذي وراء الطبيعة
وسيري الذين يذهبون الآن أنهم بعد الموت في دور انكشاف وظهور، إذ لا يعقل أن يمضي هذا الخالق الصغير إلى الفناء المطلق. . .
ثم أقول: ماذا تريدون أن يفعل إذن؟ أتريدونه ينام حالماً يدخن النارجيلة والحشيشة والأفيون كما يصنع أغلب إنسانية الشرق المضيّعة؟ أم تريدونه يجلس فارغاً ينتظر الموت وينشد الأشعار ولهو الأحاديث؟
إن عليه أن يملأ هذه الأرض بالضجة والقوة التي يستطيع تسخيرها، وأن يسلط قوى نفسه الكامنة على هذه المواد الساكنة ويثيرها أيما ثورة ليدخلها في نطاق الحركة بعد السكون
والحياة بعد الركود. . . ولا عليه بعد ذلك أنه ضئيل فوق زورق ضئيل يسبح في عيلم كبير. . .
فلو نظر الإنسان إلى جبروت الطبيعة وهول السماء لاستصغر جهده على الأرض مهما عظم ولم يفعل في حياته إلا ضرورات احتياجاته. وبالطبع هذا يرده ضعيفاً مستضعفاً شقياً فريسة لغيره كما كان؛ ولكنه إذا آمن برحابة نفسه وقوة فكره وقدرته على أن يفعل الأعاجيب، وأنه على ضؤولة جسده يستطيع أن يحرك الجبل وينسفه بتسليط قوة طبيعية أخرى عليه. إذاً كان هذا به أولى وعليه أنفع وأجدى، وكان هذا أشرف له إذ يجعله قوة من القوى العاملة الجبارة في الحياة
إن عليه أن يصنع ويتمتع ويتفرج بما يصنع. . . وربما يكون هناك عالم آخر يتفرج أيضاً بما يصنع الإنسان ويتمتع به كما نتمتع نحن بنتاج النحل ومنافع كل كائن أقل منا في الأرض إدراكاً واحتيالاً. . .
إن الطبيعة تغازل فكره وتثيره للعمل فيها منذ أيامه الأولى، فالطفل يبحث في محيطه ويسلط جميع حواسه على محتوياته فيراه ويلمسه ويذوقه ويتسمعه ويشمه حتى يحيط بخواصه ويثير كوامنه ويطلقها خيراً من تعطيلها وسجنها
وقد وجدنا كل ما في الطبيعة من مواردها الكبرى بسيطاً غير معقد، فياضاً بكميات كبيرة جداً، خاضعاً للتعقيد والتركيب والتأليف والتوزيع والتنويع. . . فدلنا ذلك على أن هذه المواد إنما وضعت هكذا هائلة فياضة انتظاراً لصنعة ستتناولها بها يد صناع
وكلما رأيت غزارة ماء الأمطار - وهو أصل الحياة - وكثرة المقادير التي تصبها الأنهار في البحار فتذهب من غير انتفاع إلا بجزء قليل جداً منها. . . قلت: إن هذه الكميات الهائلة إنما أفيضت لا لإخصاب السهول الحافة بها فقط، والتي تصل إليها مياهها في سهولة ويسر. . . وإنما أفيضت لإخصاب هذه الأراضي البور من الصحاري والسهوب الضماى العقيم. . .
وكلما رأيت مناجم الأرض تمتلئ بالمعادن والركاز المعطلة وهي ذات النفع العظيم والإمتاع الدائم، قلت: هنا موارد ظلت الطبيعة تحفظها في صدرها حتى أتى يوم بعثها على يد من عرف أسرار الانتفاع بها في زمن نمو علوم الآليات والكهرباء

وكلما رأيت أغلب مناطق الأرض لا تزال خالية من السكان أو غير متشبعة بهم. . .
قلت: هذه مساكن احتياطية لأقوام آتين ستلجئهم ضرورات الزحام إلى سكناها وتعميرها وتعديل مهودها؟ وأجوائها وإخصاب بقاعها. . .
وكلما رأيت البحار السبعة وما فيها من عوالم وعناصر وموارد للطعام والدفء والصناعة. . . قلت: هذه قدور هائلة يطبخ فيها مستقبل مجهول لهذا المخلوق. . .
فهذه المقادير العظيمة من المياه والمعادن والأراضي والغابات ظلت تفيض فيوضها بالكيل الواسع، وتدور دوراتها وترجع من غير أن ينتفع بها أحد انتفاعاً يبرز غزارتها إلى أن أتى عصر تفتح حاجات الإنسان الصناعية والعمرانية بتفتح أسرار الطبيعة لفكره، فإذا بهذه الموارد التي كان يظن البعض أن فيها إسرافاً وتبذيراً يبدو لعيون العلماء وأرباب الصناعات والأعمال أنها موزونة متكافئة مع نمو حاجات الإنسان واتساع افتنانه. . .
هذه الحياة الصناعية البارعة المعقدة كانت هي أعظم الموحيات الآخذات نفسي إلى الإيمان بالإنسان وإلى الكشف عن قوته الإبتداعية النامية المنمية. وإن بها تفرده وامتيازه بين الكائنات في إحداث الأشياء، وفي تغلبه على غيره من الحيوانات، بل وفي تغلب بعض أقوامه على بعض. وقد نمت قوته الصناعية نمواً عظيماً حتى بدت في هذه القوى الساحقة التي يستخدمها الآن في حربه. . .
ولا شك أن إنسان الصناعة هو سيد الأرض. أما إنسان الزراعة فمهما افتن فيها وهندس واجتهد فإن حياته حياة بدائية، لا تعقد الفكر ولا تترك في الأعصاب أثر القوة والابتداع والسيادة. وقد صارت الزراعة الآن خاضعة إلى حد كبير للصناعة ذات تبعية لها. . .
ولذلك رأينا الأمم الصناعية تسود الأمم الزراعية على رغم القلوب الطيبة والمثل العليا التي تشيع بين الزراعيين في العادة منتقلة إليهم من اعتمادهم بعد بذل جهودهم على منزل الغيث وباعث الخصب. . . ومن طول معاشرتهم للنعاج الوديعة والبقر المطيعة والأنعام التي تعطي ولا تأخذ، وتسام على الخسف ومع ذلك تجتر سعيدة حالمة. . . !
وطبيعي أن يتغلب من يدرب أطفاله على ركوب الحيوانات الحديدية وقيادة الوحوش الفولاذية على من يدرب أطفاله على ركوب الحمير والبغال، وقيادة الأغنام والأبقار. . .
وكل ما يحدثه الإنسان في المواد يدل على اتساع مدى نفسه وامتداد خيالها، وأخذها من
محيط واسع عميق، وامتياحها من ينبوع زاخر بالصور والأشكال والأنواع، وقوة تعقيد فكرها وقدرتها على إحداث نسب جديد، بين العناصر والمواد. . . وهذا ما لا وجود له في الزراعة
ولكي تدرك ما أرمي إليه، فكر في الحياة الصناعية من المسمار الصغير إلى المصنع الكبير وما بينهما. . .
يلام الإنسان على غفلته عما صنعه هو بيديه وملأ الدنيا به كما كان يلام في العصور السالفة على غفلته عما صنع الله في الطبيعة
ولقد مضى زمن التخريف والضلال في العقيدة بالله رب الطبيعة، لأن الحياة لا تحتمل الجهل به تعالى إلى الحد السخيف الذي كانت فيه عبادة الأصنام والأشخاص والنجوم وغيرها. ولا تحتمل أن تجرد الطبيعة منه تجريداً كالذي كان من المعطلين منكري القصد والإرادة والعناية فيها. ولفظت العقول الأديان التي تعتمد على غير العقل في إثبات حقيقة الوجود الأولى والحقائق التي تليها؛ وعشق الناس جمال الطبيعة وصدقها، وعرفوا من أسرار الصناعة فيها، فيبقي عليهم لتكمل عقائدهم في الحياة أن يتيقظوا دائماً لمنشئها ومديرها، ويتقربوا إليه بالفكر فيه وتكريم اسمه كما يتقربون على الأقل لأساطين علمائهم الذين عرفوا من علومه جانباً ضئيلاً. . .
ولكن جد تخريف وضلال في العقيدة بالإنسان بسبب فرض لم يثبت في نظرية النشوء والترقي، أطلق حوله كثيراً من الاعتقادات الفاسدة. ومقاومة هذا التخريف الأخير هي أهم رسالات الدين في هذا العصر.
هذا الفرض جعل كثيراً من الناس لا يريدون أن يصدقوا أن بينهم وبين الله صلة محترمة أو عناية. وكأنهم يجفلون من التكريم والإحسان اللذين يقول الدين إن الله

يصطنعهما في معاملة الإنسان
وهم يقولون إن حياة الإنسان بالنسبة لله تعالى حياة تافهة ضئيلة، وإن بينهما هوة سحيقة لا عبور لها، وأن الحياة الإنسانية على الأرض لا تقدم ولا تؤخر في سير الناموس الأعظم الذي ينتظم الكون. فسواء على الله وعلى الكون أن يضل الإنسان أو يهتدي، أن يعف وأن يشره. . . فتلك شئون خاصة به خاضعة لاعتبارات مجتمعه، وسوف يفني بأخلاقه وأعماله
. . .كما تفنى النمال والنحل، وكل ما لبسته الحياة من غير رُجعى أو مصير أكمل
ولكن الواقع أن ضجة الإنسانية وحدها، وتغير الأرض بها وحدها، وتعقد الدنيا بها وحدها، واطراد نمو الحياة المادية وانكشاف خصائصها بها وحدها، وارتقاب غاية مجهولة منها وحدها. . . هي أمور من الحق بحيث تشغلنا عن سواها وعن شبهات ضآلة الإنسان بالنسبة لله. . . وهي ذاتها البرزخ الذي نعبر عليه تلك الهوة التي بيننا وبين الله!
فعندما ينظر ناظر لظاهر مجموع الناس يخيل إليه أنه لا صلة بين قلوبهم وأفكارهم وبين السماء، وأنهم غير مأبوه لهم من صاحب الوجود. . . وحينئذ تنطلق الاعتقادات الفاسدة والتافهة بالحياة وتنطلق وراءها الغرائز الخطرة، وتوجد (طمأنينة الكفر!) . . .وينظر الإنسان للإنسان على أنه شيء تافه يصح سلبه واستعباده وقتله
ولكن عندما ننظر للحياة الإنسانية من داخل القلب نجد النظر يخلق المنظور خلقاً آخر جليلاً، ويشعر الناظر بأن عين الله راعية وصية على هذا المخلوق. . .
فما أعظم أثر هذا في طمأنينة النفس حتى لو كان هذا باطلاً! إنه يرفع آمال النفس البشرية وأفكارها حتى يجعل منطق الله خالق الطبيعة الهائلة منطقها هي. مع أن الهوة بينها وبين الله سحيقة، إذا استسلم الإنسان للعلم وحده في عبورها لن يتمكن! إذ يجد مكانه في الوجود يكاد يكون لا شيء. . . إذ الأرض ذاتها لا شيء بجوار عظمة الكون، فما بالك بالفرد الضئيل فيها؟ هذا يجعل للنفس ثقة وإحساساً بالعظمة، إذ يجد به الإنسان لنفسه مكاناً ملحوظاً في الوجود حين يجعل علاقته مباشرة بصاحب الوجود. . .
ومن العجائب في ظهور حياة الإنسان وتدرجها، أن حياة التدين فيها سبقت حياة العلوم، فبينت حياة التعزية والثقة على الدين قبل العلم
ولو قد سبق العلم الدين إذاً لكان موقف الإنسان في الحياة موقف ابن الطريق الشريد القادر الفاجر، الذي لم يجد أباً وأماً يأخذ من حنانهما حناناً لنفسه، ويعرف أن قلبيهما منبعان غزيران لصفات الإخلاص والرحمة والحب، بل وجد نفسه مدركاً رشيداً، ذكياً قاسياً، على قارعة الطريق تدافعه زحمته، يعرف جرائم الحياة وجفاءها، وأخلاق الشوارع والأسواق، ولا يعرف روابط الأسرة ومعاملة الأخوة والنبوة ووصايا الأمومة؛ فيكون موقفه فيها موقف قاطع الطريق المسلح بالأدوات والمهارة. . .
علام يقوم بناء الحياة الإنسانية؟
حين أستعرض نظام مدينة أو أمة أو إمبراطورية، فأجد ناسها يعيشون في تفاهم وتعاطف ومبادلة منافع، وأجد مرافقها ومبانيها وشوارعها ومصانعها ومعاهدها تقوم في دقة وموازنة وجمال وأمانة كأنها من الطبيعة الموزونة بيد الله. . . أسائل نفسي:
من الذي أقام بناء هذه الحياة الإنسانية في تلك الأمة أو المجموعة على هذه الأوضاع العظيمة؟! ومن الذي سدد جهاد أفرادها جميعاً نحو غايات مشتركة وأهداف موحدة؟ ومن الذي أعطاها تلك الروح الاجتماعية التي تسلك في أعمالها وآمالها مسلك الروح الواحد في الجسم الواحد؟
ومن الذي هذب طباعها ورققها وجملها وصقلها وسار بها شوطاً بعيداً من عيشة الوحشية والتأبد، إلى هذه الإنسية والاجتماع؟
ومن الذي أقام هذه الأسر والعائلات على التراحم وجمع أطفالها ورجالها على الحب؟
إنه لا شك سر النبوات التي نبعت من القلوب الكبيرة التي كانت للإنسانية في مهد نشؤها كالأمومة الرحيمة المضحية المربية المسددة
إن هذا لا شك هو الأساس الأول الذي قامت عليه الحياة الاجتماعية وذهب بناؤها مطرداً في العلو والسموق
فلئن غابت الآن عن الأنظار القصيرة والأفكار المشلولة، فكما تغيب أسس الأبنية العظيمة في باطن الأرض، لا ترى ولا يعرفها إلا الناظرون في الأعماق. . .

. . .ولقد مات الرعيل الأول من الأباء والأمهات، ولكن بقي الأبناء دليلاً متجدداً عليهم
ثم نسأل: أيهما أصلح للحياة؟ أأن يعتقد الإنسان أن الله به حفي، وأن يؤمن بالإنسان
فيحتفل لولادته ويقوم لجنازته ويؤثره على نفسه، ويتواضع له ويحترم دمه وعرضه،
ويعيش في سجون الأخلاق التي تسمو بالحياة الاجتماعية، وتقلل الخلاف والشقاق
وتنمي الحياة، وتحيط الإنسان بجو من سكينة العلم ورقة الفن، وتسخر العلم في
خدمته وتخفيف ويلاته، وتضع أمامه أهدافاً مرسومة ومثلاً عليا، وفلسفة يطرد بها
الوفاق؛ وبجعل إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وغيرهم من الرجال الآباء نماذج
وقمماً يتطلع إليها. . . أم أن ينظر الإنسان إلى الإنسان كما ينظر للنبات والحيوان. . .
فإذا ولد فكجرو الكلاب أو سخل
النعاج؛ يسخر ويلعب به، ولا عرض ولا ناموس ولا قيود، وحياته حياة فنّها آلي وعلمها
للتدمير والغلبة، ومثلها مكيافلية. . . وإذا مات هلك وقذف به إلى ظلمة الأبد من غير
رجعة أو ذكرى أو أمل في مصير أكمل؟!
أما والله لو كان دين الإنسانية هذا خداعاً باطلاً، لكان أعظم أثراً في صلاح الحياة من
ضده ولو كان الحق! لأنه قانون الحياة الاجتماعية، فإذا تركه الإنسان كان عليه أن يرتد
. . .إلى حياة الغابات. . . وقد أرتد بعضه فعلاً الآن. . . ولكنه سيعود
ولست أدري: ما هو غرام بعض الناس في أن يزعموا أنهم كشفوا تيارات واتجاهات
في الحياة تجعل الناس يحطمون الحياة الاجتماعية التي نمت مواريث علومهم
وأخلاقهم في أحضانها؟
إن كل ما يضر حياة الجماعة، فهو شر يميت الضمير وينزع منه الإيمان بالخير ويسلم
إلى النكسة والارتداد
على أسوأ الافتراضات في تفاهة أصل الإنسان وضآلة مكانه في الوجود، فتفجر نبع
. . .الضمير في قلبه وطواعيته تحت تأثيره لا بد أن يكونا بوحي وضغط من عالم أعلى
وهذا الروح اللطيف الذي يوجد في القلب حين الحب، أو حين مبادلة العلم والفكر، أو
حين تفتح القلوب بالخير، أو حين النظر للوجود بالعين الصافية الآملة المتفائلة، أو حين
استحضار المعاني الكبيرة: كالمروءة والإيثار والتضحية الصامتة، أو حين الإيمان
العميق الرحب المشع. . . هذا الروح هو مكان رصد الإنسان والأنس به والأمل فيه
فلنرصده من هناك ليكون المنظر جميلاً أخاذاً، يبعث على التفاؤل والحب والسعي إلى
الاكتمال. . . أولى من أن نرصده من مكان آخر يبدو منه مطموس الجمال، مقبوح
الخصال، منحط المكانة، باعثاً على التشاؤم والبغض والحقد وسوء المآل!

عبد المنعم محمد خلاف

في الطريق إلى الوحدة العربية

للدكتور زكي مبارك

نص الخطاب الذي أرسله الدكتور زكي مبارك ليلقى في)
(مؤتمر الخريجين بأم درمان

أخي الأستاذ رئيس مؤتمر الخريجين

إليك وإلى إخواني عندك أقدم أصدق التحيات، ثم أذكر مع الأسف أن المنهاج الذي
رسم لحضوري وحضور الأستاذ (الزيات) لزيارة السودان لم يظفر بالتحقيق، فقد
قضى الأستاذ (الزيات) أسابيع بالمنصورة وهو مريض، ثم منّ الله عليه بالعافية بعد
فوات الوقت الذي يسمح بتأهبه لحضور مؤتمركم المرموق. أما أنا فقد صدّتني شواغل
لو عرفتموها لأكرمتموني بالصفح الجميل. فلم يبق إلا أن أرسل إليكم هذا البحث
ليلقيه الأستاذ (محمد حسنين مخلوف) بالنيابة عني، أو يلقيه أديب من الخرطوم أو من
أم درمان، وسينشر هذا البحث في (الرسالة) مع أيام المؤتمر، ليكون تحية جهرية تؤيد
بها مصر جهادكم النبيل

فماذا أريد أن يذاع باسمي في ناديكم بأم درمان؟

أريد أن أتحدث عن العقبات التي تعترض السائر في الطريق إلى الوحدة العربية بلا
مواربة ولا تلميح، لأني أومن بأن عندكم من الفتوّة ما يوجب الخروج على الرموز في
مثل هذا الشأن الدقيق، ولأني أفهم جيداً أنكم من طلائع الجيل الجديد، ومن الإساءة
إليكم أن يرسل إلى ناديكم كلام ملفوف تعوزه صراحة الصدق وشجاعة الإيمان

ثم أواجه الموضوع فأقول:

كثر التحدث في هذه الأيام وقبل هذه الأيام عن (الوحدة العربية) وذلك يشهد بأنها كادت تصبح من الغايات القومية في الشرق العربي. . . وهل يمكن أن تدور (فكرة) على ألسنة الملايين من العرب، بدون أن يكون لها في قلوب تلك الملايين مكان؟ إن هذه الفكرة لم تدر على الألسنة إلا بعد أن تأصلت في القلوب، فماذا نصنع لوقايتها من العواصف التي تثور من حين إلى حين؟

نترك السياسة جانباً، السياسة الدولية، وننظر إلى هذه الفكرة من الوجهة القومية، فمصايرنا بأيدينا، والله لا يغّير ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم، وإذا سلمت ضمائرنا من الزيغ والانحراف فلن تستطيع أية قوة في الأرض أن تصدنا عما نريد لأنفسنا من السداد والتوفيق

والعقبة الأولى في طريق الوحدة العربية هي عقبة الجنس، فكثير من الناس يتوهمون أن الرجل لا يكون عربياً إلا إذا كان من أصل عربي صميم؛ وهذا خطأ في خطأ وضلال في ضلال، فالعربي الحق هو من انطبع على لغة العرب ولو كانت أصوله من المكسيك، ولا يجوز عندي أن ينتسب إنسان إلى العرب وهو لا يعرف من أسرار لغتهم غير أوهام وظنون، ولو قدم الوثائق التي تثبت أنه من سلالة الرسول

العروبة لغة لا جنس. العروبة لغة لا جنس. العروبة لغة لا جنس

ولو شئت لكررت هذه العبارة ألف مرة، بدون أن أشعر بأنها حديث معاد؛ لأن روحي يحس كل حرف من حروفها إحساساً قوياً، ولو كررتها ألوف المرات

وإذن فمن واجبي أن أثور على من يقسم بلادنا إلى أجناس، وبلادنا هي جميع البلاد التي تتكلم العربية في الأقطار الأفريقية والأسيوية

فجميع أهل مصر والسودان عرب، وسكان أفريقيا الشمالية عرب، والفلسطينيون والسوريون واللبنانيون كلهم عرب، والعراقيون جميعاً عرب، والهنود اللذين يتكلمون لغتنا عرب، وأهل فارس في أصولهم عرب، لأنهم نهضوا بلغتنا المحبوبة في أجيال طوال

والأستاذ سلامة موسى عربي، وإن كان يخاصمني من وقت إلى وقت حول مكانة العرب في التاريخ، بل هو سليم العروبة إلى أبعد الحدود لأنه يتجنى على العرب بلغة العرب، وعروبته أصح عندي من عروبة من صح نسبه إلى يعرب وليس له في خدمة اللغة العربية وجود

العروبة لغة لا جنس، فليفهم هذا دعاة الوحدة العربية، إن كانوا صادقين

وسيأتي يوم ندعو فيه مواطنينا إلى الاندماج في الكتلة العربية، وأريد بهم المستشرقين من أبناء الألمان والروس والفرنسيين والإنجليز والطليان والأسبان، فأولئك إخواننا حقاً وصدقاً، وإليهم يرجع الفضل في تشجيع الدراسات العربية، وإحساسهم بالعروبة أصدق من إحساس العرب اللذين غفلوا عن إدراك ماضي أسلافهم في خدمة الأدب الرفيع

العروبة لغة لا جنس، فليتق الله بعض الناس، وليعتبروا بحوادث التاريخ. فماذا دوّن التاريخ؟ دون التاريخ أن (إمبراطورية اللغة العربية) تمزقت بسبب الاعتزاز بالجنس، وهذا الاعتزاز الطائش هو الذي خلق الشعوبية؛ فبسببه أقسم الفردوسي لينظمن الشهنامة بدون أن يحتاج إلى لفظة عربية، وبسببه جلا سلطان اللغة العربية عن بلاد كان لها في دماء أبنائها مكان. وبسبب مقالة حمقاء كتبها كاتب أحمق في فضل العرب على الأتراك أقسم أتاتورك ليهجرن الحروف العربية. وبسبب هذا الاعتزاز الطائش عاشت لغات في المغرب والشام والعراق، لقصد الطائشين من العرب عن القول بأن لغتهم أحسن اللغات، وبأنها ستكون لغة الناس جميعاً في (دار الخلود) كان العرب وحدهم أبناء آدم، وكأن من عداهم وحوش لبسوا أثواب الرجال!!

العروبة لغة لا جنس. وهل كان جان جاك روسو فرنسي الأصل، وبفضل بيانه الساحر نهضت لغة الفرنسيين؟

العروبة لغة لا جنس. وهل كان أحمد شوقي عربي الأصل وهو من طلائع النهضة الشعرية في الأدب العربي الحديث؟

العروبة لغة لا جنس. وهل كان وهيب دوس عربي الأصل وهو أصدق من عرفت في التغني بأشعار العرب من قدماء ومحدثين؟

وهل كان مكرم عبيد عربي الأصل وله خطب طوال تذكر بخطب سحبان؟
ليتّق الله بعض الناس في ميراث العروبة، وليحذروا من أن يخربوا بيوتهم بأيديهم، عن علم لا عن جهل، وزلة العالم أبشع الزّلات
وما الموجب لأن يكون في الدنيا عرب خلص؟
لو اقتصر العرب على التزاوج فيما بينهم لبادوا وانقرضوا، فما انطوت أمة على نفسها إلا استهدفت للفناء
وهل استطاع العرب أن يسيطروا على العالم حيناً من الزمان إلا بسبب التخلص من العنجهية الجنسية؟
إن التحرر من ربقة الجنس هو البند الأول من وصية الزعيم العربي الأول، وهو محمد بن عبد الله الذي مكن العرب من سيطرة عالمية لم تخطر لأسلافهم الأقدمين في بال، وهي
سيطرة روحية لن يظفروا بمثلها إلا إن تخلقوا بأخلاق ذلك الزعيم الحصيف
العربي الصحيح النسب إلى يعرب قليل الوجود، وهو حين يوجد لا يكون إلا جسداً هامداً لا نفع فيه ولا غناء، لأن التزاوج بين الأجناس شريعة طبيعية، ولا يخرج على تلك الشريعة إلا من كتب عليهم الأفول
إن نبيكم صاهر أمماً لا تمت إلى العروبة بجنس ولا دين، فهل تتوهمون أنكم أهدى منه إلى سواء السبيل؟
اتقوا الله في أنفسكم وفي ماضيكم، وتمسّكوا بشمائل ذلك الرسول لتفوزوا كما فاز أسلافكم الماجدون، واتقوا حاضركم فتناً لا يتعرض لشرها إلا الجهلاء والأغبياء
العروبة لغة لا جنس، فافهموا هذه الحقيقة يا بني آدم من أهل هذا الجيل
أما العقبة الثانية في طريق الوحدة العربية، فهي عقبة الدين؛ فقد توهم قوم أن العروبة والإسلام شيء واحد، وبذلك كثر ارتيابهم في صحة الأخوة العربية، حين يتصل بها ناس من غير المسلمين.
والحق كل الحق أن العروبة والإسلام شيء واحد، على شرط أن نفهم المراد الصحيح لهذا التعبير المريب
الإسلام هو أصدق أثر صدر عن العرب، ولولا الإسلام لبادت لغة العرب منذ أزمان طوال وإذن، فمن واجب العرب من غير المسلمين أن ينظروا إلى الإسلام بعين الرفق والعطف لأنه صوتهم وصوت آباءهم وأجدادهم فيما غبر من الأجيال، وإن لم تأنس آذانهم بذلك الصوت الجميل بفضل تناحر المذاهب والديانات، وهو تناحر لن يقدر على طمر ذلك الينبوع الفياض ذلك واجب العرب من غير المسلمين، فما واجب العرب من المسلمين؟
واجبهم أن يفهموا أن النصرانية واليهودية ديانتان عربيتان. وهل نكون أعقل وأحكم من النبي محمد وقد نظر إليهما بعين الإعزاز والتبجيل، ولم يحارب غير من شوهوا النصرانية واليهودية بالتزوير والتحريف؟
للإسلام والنصرانية واليهودية مسرح واحد هو بلاد العرب؛ وهذه الديانات هي سلطاننا الأدبي في الشرق والغرب؛ وهي حجتنا يوم تطلب الحجج على تفوق بعض الشعوب على بعض. ولعل هذا هو السبب في أن أكابر المسلمين في العصور الخوالي لم يفّهم أن يدونوا
ما في التوراة والإنجيل من حكم وأمثال
إن من المعجزات أن تكون أعظم الديانات المسيطرة على العالم ديانات عربية الأصل، فمن طاب له أن يغمز إحدى هذه الديانات فهو عربي مدخول، لأنه لا يعرف أثرها في التنويه بمجد العرب في العالمين
الرأي عندي أن الروحانية العربية تطورت من حال إلى أحوال فانتقلت من الموسوية إلى العيسوية ثم إلى المحمدية. فهي قد تغيرت في الفروع، مع الاحتفاظ بالأصول. والأصل الأصيل عندنا وعندهم هو التوحيد، والتثليث الذي أنكره القرآن على النصارى لم يكن إلا صورة حرفية من صور الإغراق الذي أولع به بعض أنصار المسيح، وهو إغراق ينكره النصارى المستنيرون في هذا الزمان
إن القرآن يلاطف مخاصميه فيقول: (إنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين) وعقيدة التثليث لم توجد بعد عدم، فهي في الأصل عقيدة مصرية، وعلى ذلك تكون

جزءاً من ماضينا، ونحن لن نتنكر لأجدادنا أبداً وإن قيل في عقائدهم ما قيل
ثم أثب إلى الغرض الذي أرمي إيه فأقول: إن الإسلام يحكم بالكفر الموبق على من يمس شخصية موسى أو عيسى بسوء؛ فمتى ننتظر أن تكون شخصية محمد شخصية قدسية في البيئات المسيحية والإسرائيلية؟ متى؟ متى؟ ومحمد أوصى أصحابه بأن ينظروا إلى موسى وعيسى بعيون لا ترى غير الجميل
وخلاصة القول أن اختلاف الديانات لن يعوق الأخوة العربية إذا صحت النيات، لأنه اختلاف أراده صاحب العزة والجبروت، وله في إيقاظ الحيوية العربية تاريخ أو تواريخ قد يصير العرب جميعاً إلى دين واحد بعد جيل أو جيلين أو أجيال، فليكن لهم منذ اليوم أدب واحد هو التآخي الصحيح؛ فمن المؤكد أن المسلمين لن يسمحوا بهدم كنيسة أو كنيس إن تمّ لهم الفوز المطلق، لأن معابد النصارى واليهود عنصر أصيل من عناصر الروحانية العربية، ومن قال بغير ذلك فهو آثم في حق (الوحدة العربية) وهي فكرة دعا إليها نصارى الشام والعراق قبل أن يدعو إليها المسلمون، ولذلك أسباب فصلتها قبل اليوم بإسهاب
قيل ألف مرة: (إن الدين لله والوطن للجميع) ولو تدبرتم لعرفتم أن الدين لنا أيضاً، والله لا ينظر إلى الصور ولا إلى الأعمال، وإنما ينظر إلى القلوب
وخلاصة الخلاصة في تحرير هذه القضية أنه يمكن للرجل أن يكون عربي اللسان والذوق والعصبية، ولو كان من أعداء الدين، لأن العروبة لغة وليست بجنس ولا دين، وإن كان من المفهوم أن القرآن هو سفير اللغة العربية إلى مختلف الشعوب. ومن واجب العربي غير المسلم أن يفرح لسيرورة القرآن في المشرقين، لأن سيرورته من أقوى الحجج في نصرة القضية العربية.
والقائلون بأن اللغة العربية لغة المسلمين لا يخدمون الإسلام بهذا القول، وإنما يبعدون عنه أنصاراً أمدته بهم جاذبية اللغة العربية. والشواهد تنطق بأن النصارى من العرب والمستعربين أدوا للإسلام خدمات يعرف أقدارها عقلاء الرجال
في الدنيا معنى يسمى الديبلوماسية السياسية، فلم لا يكون عندنا ديبلوماسية إسلامية كالذي كان عند أسلافنا الأمجاد، يوم كانت عقولهم تدعوهم إلى تألف من يخالفونهم في الدين؟
أما العقبة الثالثة في الطريق إلى الوحدة العربية فهي اجترار حوادث التاريخ، ولتوضيح هذه النقطة أقول:
كان أبناء العرب قد اختلفوا في أشياء مذهبية وسياسية وجنسية، وهو اختلاف مشؤوم عاد عليهم بالوبال، وكانت له عواقب في الأقطار المصرية والمغربية والسورية والعراقية، ونال من قوة العروبة أضعاف ما نالت فوادح الخطوب؛ فمن واجبنا أن نبالغ في تناسي ذلك الاختلاف إلى أن ننساه، فإن لم نستطع فلننظر إليه بعين العقل، ولنفهم أنه اختلاف قضت به ظروف لا يصح أن نحمل جرائرها بحال من الأحوال
كان بين الأقباط والمسلمين في مصر نزاع وقد محته الأخوة الوطنية، فما الموجب لإحياء ذلك النزاع؟ وكان بين السنة والشيعة في العراق شقاق، وقد محته الأخوة القومية، فكيف يستبيح عاقل إحياء ذلك الشقاق؟ وكان في البلاد السورية خلاف أثارته النزعات المذهبية، وقد خمد ذلك الخلاف بفضل الأخوة العربية، فكيف يصح لإخواننا هناك أن يوقظوا ذلك الخلاف؟ وكان في الأقطار المغربية قتال أرّثت ناره العصبيات الجنسية، ثم أخمدته الأخوة الإسلامية، فكيف يجوز بعث أسباب ذلك القتال؟
إن من الجرائم المنكرة أن نرى نعيق المفسدين يتصايح من وقت إلى وقت بدون أن نقضي عليه بحزم الرجال!
يجب أن نفهم المفسدين أنهم حبائل الشيطان، وأننا لا نجهل السر في حرصهم على إذاعة ما يدعون من مبادئ وآراء؛ فهم جماعات من العاجزين عن طلب الرزق من وجهه الصحيح، ومن كانوا كذلك فمن واجبهم نحو بطونهم أن يلبسوا ملابس الدعاة إلى الحق، والحق منهم براء!
كل دعوة إلى الفرقة لها سبب تعرفه أمعاء المفسدين، والرجل الصادق في الدين والوطنية لا يرضيه أبداً أن يثور بين قومه خلاف يصل إلى تمزيق الأواصر والصلات ولن نستطيع رفع القواعد من بناء الوحدة العربية إلا إن ضمنّا السلامة من مكايد اللذين يؤذيهم أن تزول أسباب الخلاف، ومن الخلاف تمتلئ بطونهم الخاوية، قاتلهم

الله أنى يؤفكون!
وهنالك عقبة رابعة هي غفلة الصحافة عن رعاية الوحدة العربية، وفي شرح هذه النقطة أضرب بعض الأمثال:
كاتب مصري يقول: إن مصر أفضل الأمم العربية
وكاتب سوري يقول: إن المصريين ليسوا بعرب وإنما هم فراعين
وكاتب عراقي يقول: ليس للعروبة وطن غير العراق
فأمثال هؤلاء الكتّاب يجب صلم آذانهم بدون ترفق، لأنهم دعاة الفرقة والشتات وأنا أقبل أن يجرح المصري مصر، ولو بسوء نية، ولكني أرفض أن يجرحها أحد إخواني في الشام أو العراق، ولو بحسن نية، وكذلك الحال هنالك، فالسوريون والعراقيون يقول كل منهم في بلده ما يشاء، ولكنه يغضب ويثور حين يغمز بلده في جريدة مصرية، ولو كان الكاتب أصدق أنصار الوحدة العربية
وفي هذا المقام أذكر أني عاديت رجالاً من أهل لبنان لأنهم قالوا في مصر كلاماً لا يقاس إلى بعض ما أقوله فيها من حين إلى حين
وقد أطلعت وأن طالب في السوربون على جريدة لبنانية تشكّك العرب في مركز مصر الأدبي، فحفظت تلك الجريدة، ونقلتها مع أمتعتي من باريس إلى القاهرة، ومن القاهرة إلى بغداد، وقد مزقت ما مزقت من الجرائد والمجلات لأخفف العبء عن مكتبتي بعض التخفيف، ثم ظلت تلك الجريدة في أمان من التمزيق، لأرد عليها بعنف حين تسمح
الظروف
يقع مني هذا الحمق، مع أني أدعي لنفسي حرية العقل، فكيف يكون الحال عند إخواني في سائر الأقطار العربية إذا تعرضت بلادهم لكلمة سوء تصل من خارج الحدود الجغرافية؟
من المؤكد أنني لم أتفرد بهذه النزوة العقلية، فالعراقي يقبل أن تشتم بلاده في جريدة عراقية، ولكنه يرفض أن تغمز في جريدة سورية أو مصرية. واللبناني يجرّح وطنه من وقت إلى وقت، ولكنه يثور على ذلك التجريح إذا صدر عن جريدة مصرية أو فلسطينية أو عراقية
هذه نقطة حساسة جداً فلنرعاها أتم المراعاة في جميع الظروف، ولنفهم أن إخواننا في غير مصر لهم قلوب يؤذيها التحامل ولو بالرمز والإيماء
أما العقبة الخامسة فهي انصراف أبناء العرب بعضهم عن بعض، في الظروف التي توجب التعاضد والتساند والمواساة، ولو بالكلام، وهو لا يكلفنا كثيراً ولا قليلاً من العناء إن كلمة وجيزة تكتب في جريدة مصرية طّبا لجرح تعانيه إحدى البلاد العربية يقع موقع البلسم الشافي لذلك الجرح، فما بخلنا بمثل تلك الكلمة، وهي أهون ما في الدنيا من تكاليف؟
وقد تلطفت المجلات السورية واللبنانية والعراقية فأخرجت أعداداً خاصة في التنويه بالثقافة المصرية، فماذا صنعت مجلات مصر في رد ذلك الجميل، بل ماذا صنعت هذه المجلات في التنويه بمؤتمر الخريجين في السودان، والسودان أخو مصر الشقيق؟
يجب أن ترفع غشاوة الغفلة عن بعض العيون، ليصح لمصر أن تقول إنها الدعامة الأساسية للوحدة العربية، وهي كذلك لو أرادت، فهل تريد هذه الأخت الظلوم؟
مصر تعمل ولا تتكلم، فهي بالفعل سناد الوحدة العربية، وهي بالفعل حصن العرب الحصين، فكيف تبخل بكلمة تعلن بها أن أرض مصر ملك ورثه العرب عن الفراعين؟
يستطيع أي بلد أن يكفر بالعروبة حين يشاء ألا مصر؛ فما يجوز لها أن تتخلى عن مجد بنته بأيديها في عصور الظلمات، حين كانت العروبة من خيالات الأوهام والظنون بعد سقوط بغداد بأيدي المغول
أما بعد فهذه كلمتي إلى مؤتمر الخريجين في السودان، وهي كلمة تلخص آرائي في العقبات التي تعترض طريق الوحدة العربية، وقد أوردتها صريحة منزهة عن الرمز والتلميح،
لأنها ستلقى على فتيان صراح هم شبان السودان، أعزني الله بودهم الوثيق وهل تستطيع هذه الكلمة أن تغفر ذنوبي في التقصير نحو ذلك القطر الشقيق؟
ذلك جهد المقل، وجهد المقل غير قليل، وسأزور ناديكم بعد أسابيع، فما يرضى الله أن

أعيش بعيداً عن مصادر الوحي في أعالي النيل
زكي مبارك
كليلة ودمنة - 2
للدكتور عبد الوهاب عزام
كتب الأستاذ عبد السلام هارون مقالات أربعا في كتاب (كليلة ودمنة) كما نشرته. وقد عجلت جواب المقالة الأولى في العدد 426 من (الرسالة)، ثم بدا لي أن أنتظر فراغ الأستاذ من بحثه. فلما فرغ شغلتني شواغل عن البدار إلى الإجابة، فأرجو أن يقبل الأستاذ الناقد والقراء عذري في تأخير الإجابة التي انتظروها
وإجمال الكلام في المقالات الثلاث أن كلام الأستاذ فيها ضروب، منها ما هو تفسير لكلمة غامضة، أو توجيه للفظ يبدو في السياق غريباً؛ ومنها ما هو إجازة لوجه آخر غير الوجه الذي جرى عليه الكلام في الكتاب. وهذا الأضرب من التفسير والتوضيح والتجويز يشكر عليها الأستاذ وأوافقه عليها ومنها بحث في أساليب ابن المقفع، وهو موضوع يحتاج إلى مقدمات في كتاب (كليلة ودمنة) لم تستوف كلها، وللأستاذ رأيه فيه واجتهاده
وأما الضرب الذي يقتضي الجواب، فهو ما أخذه الناقد على كلمات أو جمل جاءت في الكتاب وعدها غلطاً، أو ظن غيرها أقرب منها إلى الصواب. وأنا أعرض على القراء آرائي في مآخذ الأستاذ على النسق الذي أجرى عليه الكلام:
أخذ الأستاذ على هذه (إن الملوك وغيرهم جدر أن يأتوا الخير إلى أهله) :4 :216 - 8 الجملة أن جدر جمع جدار لا جمع جدير قال: (وجمع فعيل صفة على فعل نادر سمع منه نذير ونذر وجديد وجدد وسديس وسدس
والجواب أنه يجوز أن يكون الكاتب قد أجرى جدير مجرى نذير وغيره، والأولى مع هذا أن يتبع الكثير المعروف فيجمع جدير على جدراء
والمأخذ الثاني في هذه الجملة أن الأستاذ ظن أن يأتوا في الجملة بمعنى يعطون فقال: (الصواب يؤتون من آتى) وليس هذا من الصواب في شيء، والمراد في الجملة إتيان الخير بمعنى فعله ولو غيرت الجملة برأي الأستاذ إلى (يؤتوا الخير إلى أهله)، لكان فيها مأخذان: الأول تعدية آتى بعلى وهي متعدية بنفسها كما في القرآن: وآتوا اليتامى أموالهم - ولا تؤتوا السفهاء أموالكم - والثاني: أن يعدل بالجملة من أتى الخير بمعنى فعله، وهو استعمال شائع، إلى آتى الخير بمعنى أعطاه وهو استعمال غير معروف في الكلام الفصيح.
فعبارة الكتاب صحيحة واضحة لا يكون تغييرها إلا إفساداً لها
الضبط النحوي
عدد الأستاذ تحت هذا العنوان مآخذ
ص 18س11 (فيعلم سر نفسه وما يضمر عليه قلبه): قال وأضمر يضمر بمعنى - 1 أخفى يخفى فما يكون المعنى في أن يخفى قلبه عليه؟ الصواب قلبه بالرفع لأن القلب هو الذي يضمر الأسرار والنوايا: (والجواب أن من اليسير أن يضمن الكاتب (يضمر) معنى يطوي أو يطبق أو نحوه. وتحويل قلبه من المفعولية إلى الفاعلية يجعل معنى الجملة (يخفى عليه قلبه) فهل يرى الأستاذ أن هذه العبارة أسد من الأولى؟
قال: (وشبهت الجرذين بالليل والنهار، وقرضهما دأبهما في إنفاد الآجال) 41 :14 - 2 يصح أن تقرأ وقرضهما دأبهما باستمرار التشبيه الخ. والجواب أني رجحت الرفع لأن في النصب إخلالاً بنسق الجملة، بتعدية الفعل (شبهت) بالباء في المفعولين الأولين (الجرذين بالليل والنهار) وتعديته بغير حرف في المفعولين الآخرين (وقرضهما دأبهما) فالاستئناف برفع قرضهما أرجح
وقال الأستاذ: ولا وجه (فأعادت ذلك عليه مراراً كلّ ذلك لا يلتفت إلى قولها) 122 :4 للرفع هنا؛ والوجه كلّ ذلك على الظرفية الزمانية ولا يصح أن يكون كل مبتدأ. وذلك لأن الضمير العائد عليها محذوف تقديره (فيه)، والبصريون يمنعون حذف الضمير العائد على لفظ كل إذا كان مبتدأ. ولذلك حكموا بشذوذ قراءة ابن عامر (وكلّ وعد الله الحسنى)
وليست الظرفية هنا حتما، بل يجوز أن يكون المعنى: كل ذلك القول لا يلتفت إليه، فالإشارة للقول لا للزمان وقد وضع الكاتب الاسم الظاهر موضع الضمير فقال: (إلى

قولها) بدل (إليه) والجملة على الوجهين ليست من الأساليب العربية المختارة
ص 2: 179 (ولم أذكر ما ذكرت ألا أكون أعرف منك الكرم والسعة في الخلق) قال:
الوجه إلا لكوني أعرف منك وأقول ليس هذا وجهاً. فإن المعنى: لم أذكر ما ذكرت
جهلاً بكرمك. فهو اعتذار عن الكلام السابق الذي يشعر بأن الغيلم يشك في كرم
القرد. ويؤيد هذا أن بعد هذه الجملة: (ولكن أحببت أن تزورني في منزلي) وهو
استدراك حسن في الجملة التي أثبتناها في الكتاب، وهو إثبات بعد نفي: لم أجهل
كرمك ولكني أحببت، ولا يحسن
هذا الاستدراك إذا أجرينا الكلام على الوجه الذي رآه الأستاذ فجعلناه: (ولم أذكر ما
ذكرت إلا لكوني أعرف منك الكرم ولكن أحببت الخ) والتأمل في سياق الكلام يبين أن
لا وجه إلا ما جاء في متن الكتاب
قال: والصواب أيّهما بالنصب. وصدق، فالنصب أقر وأرجح (لم تدر أيّهما تأخذ) 3 :199
وإن يكن للرفع وجه فما قصدته
في تحقيق النص
أورد الأستاذ تحت هذا العنوان مآخذ:
ص26 س10: (مثل الحراث الذي يثير الأرض ويعمرها ابتغاء الزرع لا العشب). قال:
(فما وجه العمارة في طلب الزرع؟ الصواب يغمرها أي بالماء). وأقول: (إن الزرع
ضرب من عمارة الأرض لا ريب). وما أحسب الكاتب إلا حاكي الآية القرآنية: (وأثاروا
الأرض وعمروها). ولا يعتبر عن سقي الأرض بغمرها؛ فكلمة يغمرها بعيدة من سياق
الكلام هنا
ص38 س3: في الحديث عن الجنين: (منوط قمع سرّته إلى مريء بأمعائها). قال
الناقد: وهو كلام متهالك مضطرب؛ فما العلاقة بين سرة الجنين وأمعاء الأم؟ إلى أن
قال: (أما كلمة مريء فعجيبة أيضاً). وانتهى إلى أن صواب الجملة: (منوط بمعي من
سرته إلى مراقّ رحمها)
إن كان الأستاذ يريد أن يغلط الكاتب الذي كتب باب برزويه فليجادله في التشريح كما
يشاء؛ وإن كان يريد أن في الكتاب تحريفاً لم نهتد إلى صوابه فلست أرى رأيه. عبارة
الكتاب: (منوط قمع سرّته إلى مريء بأمعائها يمص به من طعامها وشرابها وبذلك
يعيش ويحيا) وظاهر أن الكاتب يرى أن الجنين يصل بين سرته وأمعاء أمه مريء أي
مجرى للطعام كالمريء الذي بين حلق الإنسان ومعدته؛ وأنه يتغذى من طعامها بهذه
الصلة. فالكلام بيّن معرب عن مراد الكاتب صواباً أم خطأ. وفي نسخة شيخو (منوط
من سرته إلى سرة أمه وسلك السرة يمص من طعامها وشرابها) وفي نسخة طبارة
(منوط بمعي من سرته إلى سرة أمه ومن ذلك المعي يمص ويقتبس الطعام) فالفرق
بين نسختنا وهاتين النسختين أن سرة الجنين تفضي بهذا المعي أو المريء إلى سرة
الأم أو أمعائها. وعبارة الطعام والشراب تدل على أن الاتصال بواسطة سرة الأم أو
بغير واسطتها ينتهي إلى الأمعاء،
وهذا الذي تدل عليه عبارة نسختنا. وأما فرض الأستاذ أن أصل العبارة (منوط بمعي
من سرته إلى مراق رحمها) فندع الكلام في صحته للأطباء. ومهما يكن رأي الأطباء
فيه فلن يجيز الأدباء الأمناء على نشر الكتب أن يحولوا نص الكتاب إلى العبارة التي
يقترحها الأستاذ مع بعدها عما في النسخ كلها. ولو أبحت لنفسي التصرف في متن
الكتاب لما تركت به عبارة تقبل اعتراض النقاد
يرى الأستاذ أن كلمة مجهود محرفة عن مجهول. (وأصبح الرضا مجهوداً مفقوداً) 614
ويستشهد النسخ الأخرى، وله الحق؛ فكلمة مجهول أقرب إلى ظن القارئ من كلمة
مجهود؛ ولكني لم أستحسن تغيير الكلمة لسببين: الأول أن مجهوداً تفيد معنى في
الجملة غير الذي تفيده كلمة مفقوداً، وأن كلمتي مجهول ومفقود تؤولان إلى معنى
واحد. والثاني أن الكاتب في هذا الفصل وصف الأمور المعنوية بأوصاف تجعل القارئ
لا يستغرب أن يوصف الرضا بأنه مجهود كما قال: وكأن القدر أصبح مستيقظاً والوفاء
نائماً، وكأن الكذب أصبح غضاً والصدق قاحلاً، وكأن الحق ولّي عاثراً والإنصاف بائساً
الخ
قال صوابه إلا مثل غبار الميل. وأقول (كالكحل الذي لا يؤخذ منه إلا مثل الغبار) 7044
لا يكون هذا صواباً لأن الذي يؤخذ من الكحل ليس غباراً ولكنه يشبه الغبار. وإذا قلنا

مثل غبار الميل فقد جعلنا ما على الميل غباراً، والغرض أن يشبه بالغبار، ثم جعلنا ما يؤخذ من الكحل مثل غبار الميل وهو غبار الميل نفسه فكلمة مثل لغو. والظاهر أن النسخ الأخرى زادت كلمة الميل توضيحاً للعبارة لأن الكحل يؤخذ من المكحلة بالميل. ونسخة شيخو توافق نسختنا. وفي النسخ الأخرى إلا غبار الميل. فالعبارة (مثل غبار الميل) لا توافق العقل ولا النقل

قال الأستاذ هي في الأصل (مثل المكارى كلما ذهب واحد جاء آخر مكانه) 12، 75 ونسخة شيخو ونسخة بولاق: (مثل البغي كلما. . . الخ) ثم أخذ على الناشر تغيير الأصل واشتد في هذه المؤاخذة.

وأنا قد بينت الأصل في التعليق ويكون القارئ على بينة مما فعلت، وأما حكمة التغيير التي سأل عنها الأستاذ فيدركها من تأمل فعرف المشبه في هذه الجملة وتبين أنه لا يليق أن يجمع بين طرفي التشبيه هذين في كتاب كهذا الكتاب ينشر في مثل هذه الأحوال

(للكلام صلة)

عبد الوهاب عزام

من أخلاقنا!

للأستاذ علي الطنطاوي

أعرف رجلاً أنعم الله عليه بسعة المال، وفطره على صدق الود وبسط اليد، فأباح إخوانه ماله، يغترفون منه اغترافاً، ويأخذون منه علاًّ ونهلاً، قرضاً حسناً لا يطالبون برده، وهدية لا يسألون المقابلة بمثلها، وهبة لا يرتقب منهم عوض عنها، ولا يسمعون كلمة منّ أو تذكير بها. وفتح لهؤلاء (الإخوان) - وما كان أكثرهم - داره، وأفرد لهم جناحاً فيها لا يدخله أحد من حرمه وأهله، وأقام عليهم خادماً وطاهياً، وانقطع فيه لاستقبالهم قادمين بالبشاشة والترحيب، وإيناسهم مقيمين وخدمتهم، وتوديعهم راجلين . . .مشيعاً إياهم بالكرامة، شاكرهم على (تفضلهم) بالزيارة، سائلهم (التكرم) بالعودة

ولبث هذا الرجل على ذلك حتى أضاع ماله كله، فباع الدار وأثاثها، وغدا فقيراً يحتاج إلى (الورقة السورية)، فلا يجد في كل أولئك (الإخوان) من يدفعها إليه، لا وفاء دين، ولا مقابل هدية، ولا عوضاً من هبة، ولا قرضاً حسناً إلى أيام السعة، اللهم إلا بربا، ولا . . .يرضى المرابون أن يقرضوا مفلساً

ولعلّ الرجل أخطأ حين عمد إلى هذا (الكرم الجاهلي) فأخذ به، وترك التأدب بأدب القرآن الذي يقول: (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك، ولا تبسطها كل البسط، فتقعد ملوماً محسوراً)؛ والذي جعل المبذرين إخوان الشياطين. ولعله لقي جزاءه. . . فما سقطت القصة للحكم عليه، وإنما قصصتها لأنها ذكرتني بطائفة (من أخلاقنا)، هي كالداء في جسم الأمة، لا يجمل بالكتّاب وحملة الأقلام السكوت عنها والرضا بها، وهم أطباؤها وأساتها، وعندهم دواؤها

ذكرتني بما نكاد نراه كل يوم من الحوادث وما يكاد يعرف له كل قارئ شبيهاً ومثيلاً، حين يأتيك الرجل من أصدقائك أو جيرانك متذللاً متواضعاً، مظهراً للتقي والأمانة، يسألك أن تقرضه مالاً قد تكون أنت في حاجة إليه في يومك أو غدك ويذكرك الكرم والثواب؛ وربما استعان عليك بمن لا يرد طلبه عندك فتعطيه ما يريد، تضعه في كفه خالياً به، تستحي أن تشهد عليه شاهداً، أو تأخذ به كتاباً، مع أن الله أمر بكتابة الدين إلى الأجل المسمى أمر ندب واستحباب، لا أمر إيجاب وافتراض، فيأخذه منك ويذهب شاكراً فضلك، مثنياً عليك

ثناء يخجلك ويضايقك؛ ثم لا تراه بعد ذلك ولا تبصر له وجهاً فتفتش عنه لتسأله رد المال وقد انقضت مدة الدين، وتجددت حاجتك إليه، فيروغ منك، وينأى عنك. . . فتطرق بابه، فيقال لك هو غائب عن الدار، فتعود إليه في الصباح فيقال هو نائم، فترجع بعد ساعة فيقال خرج. . . فتبتغي إليه الوسائل وتتشفع إليه بالأصدقاء. . . فيلقاك شامخ الأنف مصّعراً خده، يقول: (يا أخي، أزعجتنا بهذا الدين. . . ما هذا الإلحاح الغريب؟ أتخاف أن آكله. . .!) وينتهرك وأنت تداريه. . . ثم إن كان (رجلاً طيباً) دفع إليك الدين، ولكن قرشاً بعد قرش، و (ورقة) بعد (ورقة)، فتريق في استيفاء دينك ماء وجهك، وتنفق فيه الثمين من وقتك، ثم لا تنتفع منه بشيء. وإن لم يكن (صاحب ذمة) أكل الدين كله، وصرخ فيك حيثما لقيك: (مالك عندي شيء. اشتك للمحاكم!)، وهو

يعلم أنه لا سند في يدك، ولا بينة لك عليه. . . وهبك أخذت منه كتاباً بدينك، أفتصبر على طول المحاكمة ومتابعتها وتأجيلها وتسويفها، و (رسومها ومصارفها). . . إن ضياع المال أهون من إقامته الدعوى به

ومثل هؤلاء المقترضين (الأفاضل) مستعيرو الكتب، أولئك الذين تركوا في قلبي غصصاً حلفت بعدها بموثقات الأيمان أني لا أعير أحداً كتاباً. ولم أنج مع ذلك منهم، ولم يرد لي إلى الآن كتاب (كشف الظنون) الذي نسيت من استعاره مني منذ إحدى عشرة سنة. . .

ولهؤلاء المستعيرين نوادر شهدت منها العجب، منها أن أستاذاً محترماً في قومه جاءني مرة يلتمس إعارته جزءاً من تفسير الخازن من خزانة كتبي، ليراجع فيه مسألة ويرده إلي عاجلاً، ففعلت؛ وانتظرت أربع. . . أربع سنوات - والله - ثم ذكرته به؛ فغضب وقال: (لإيش العجلة يا أستاذ، لم أراجع المسألة بعد. . .)!

والذي يذكر منهم صاحب الكتاب ويتنازل فيرده إليه، يرده مخلوع الجلد، ممزق الأوصال. وأنكى منه المستعير المحقق المدقق الذي يرمي في الكتاب موطناً يحتاج إلى تعليق، فيكتب التعليقة التي يفتح الله بها عليه على هامش كتابك بالحبر الصيني الذي لا يمحى ولا يكشط، ويذيلها باسمه الكريم!!

وشر من هؤلاء جميعاً الثقيل الذي يتظرف ويتخفف، فيرى أن من الظرف سرقة الكتب، فإذا زارك وتركته في المكتبة وخرجت لتأتيه بالقهوة أو الشاي أخذ كتاباً فدسه تحت إبطه، أو وضعه في جيبه ثم ذهب به وأنت لا تدري. . .

وربما كان هذا المدين المماطل، وذلك الذي يأكل الدين وينكره، والذي يستعير الكتاب ويمسكه، ربما كانوا عند العامة من أقطاب الوقت وأولياء الله الكبار؛ ذلك لأن الناس جهلوا حقيقة التقى وبدلوا معناه، فكان التقي في صدر الإسلام هو الذي يتقي المحارم والمظالم ما ظهر منها وما بطن، ولا يدخل جوفه ولا جيبه إلا طيباً حلالاً، ويفر من مواطن الشبهات، ولا يطلب المال إلا لإمساك الرمق ونيل القوام. والعيش عيش القناعة والرضا، ولا يأخذه إلا من حلّه. ولم يكن الرجل ليشهد للرجل بالتقوى إلا إن صحبه في سفره، أو عامله في مال؛ فصار التقي اليوم من يكبّر عمته، ويطيل لحيته، ويوسع كمه، ولا تفارق يده سبحته، ولا يقف لسانه عن ذكر؛ ومن يتوقر ويطيل المكث في المساجد. وهذا كله حسن لا اعتراض عليه، غير أن حسنه ينقلب قبحاً أبشع القبح إذا اتخذه صاحبه أو حبولة يصطاد بها الدنيا، كذلك الذي كان وصياً على أيتام ضعاف لا يملكون حيلة، اغتر أبوهم بلحيته وسبحته فوصى بهم إليه، فجرعهم كؤوس المذلة والجوع، ونشأهم في الأزقة نشأة اللصوص، وأكل أموالهم وهو يقرأ كل يوم بصوته الجميل: (إن اللذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً)، وهو مع ذلك لا ينقطع عن الأذكار وحلقاتها، ويجهر بالبكاء إذا سمع الموعظة. . . وينكر أشد الإنكار على من يهمل السنن فيشرب بشماله أو يحلق لحيته، والناس يتبركون بلثم يده. فكيف السبيل إلى إفهام هؤلاء الناس ما هي حقيقة التقي كيلا يعظموا اللص ويجعلوه ولياً مباركاً، ولا يغتروا بالصلاح المجاني الذي لا يكلف صاحبه مالاً بل يجمع به المال، ويعلموا أن الله الذي وضع في نفوس الشباب شهوة الجسد وضع في نفوس (هؤلاء) المشايخ (لست أعني المشايخ كلهم) شهوة المال، وإنه لا فضل لأحدهما على صاحبه؛ وأن الشيخ التقي هو الذي لا يقيم للمال وزناً، ولا عبرة بغضه البصر عن النساء واتباعه سبيل العفاف؛ وأن الشاب الصالح هو الذي لا تغلبه على نفسه تلك الشهوة ولا عبرة يبذله المال. . .

لقد انحدرت أخلاقنا حتى صار الشاب منا حين يخوض خضم الحياة، ويرى الاختلاف بين ما علموه من الأخلاق في المدرسة، وما تواضع عليه الناس في الحياة، يقف حائراً مدهوشاً لا يدري ما يأخذ وما يدع؛ فلا هو يرتضي لنفسه التفريط في أخلاقه: صدقه وأمانته وعزة نفسه، ولا هو يرتضي الحرمان من المتع واللذائذ والمناصب العالية والمرتبات الكبيرة

يناله جزاء تمسكه بما علّموه من الأخلاق. حدثني صديق لي أنه أنتسب في شبابه إلى الشرطة، فجعلوه رئيس مصلحة السير في بلدة من بلاد الشام، وكان ذلك منذ خمس وعشرين سنة أو في من ذلك، وكان مقره في (مخفر) في ظاهر البلد، فمر عليه رتل من السيارات فيه حجاج آيبون، وكان نظام تلك الأيام أن سيارة لا تجتاز على مخفره

إلا بوثيقة وإذن، لا أدري ما صفتهما فقد نسيت دقائق حديثه، ولم يكن معهم ذلك (الإذن) فوقفهم ومنعهم من المرور إلا به. (قال) فغاب السائق هنيهة ثم عاد وفي يده صرة وضعها على مكتبي فيها أربعون ريالاً مجيدياً، وقال هؤلاء حجاج آيبون يريدون التعجيل بالوصول. . . وهذه الصرة ثمن (فنجان قهوة) رجاء السماح لهم الخ. . . فلما سمعت ذلك قفّ شعري وصحت به: أتريد أن ترشوني يا كذا وكذا، وأمرت به فوقف، واستلمت الهاتف (التلفون) أهتف بمدير الشرطة أرفع إليه الأمر وأنا أرى أنه سينزل به أشد الجزاء، فإذا به يأمر بإطلاقه، ويأذن للسيارات بأن تسافر على خلاف النظام، وأن يبعث إليه بالمال ليجري التحقيق. (قال صديقي) وذهب المال ولم يعد، وتركت العمل. ولو أني بقيت لطرحت على عاتقي ثقل الأخلاق التي تجعلني غريباً بين زملائي، وتحرمني من الغنى، وتكسبني غضب الرؤساء فلا يصيبني ترفيع، ولا يصل إلى خير. وليست هذه القصة فريدة في بابها، ولا هي نادرة من النوادر، بل هي قصة كل يوم، وهي الداء الذي يزداد ويسيطر والأساة عنه غافلون. وأين أساته وأهل السياسة مشغولون بالقتال على كراسي الحكم، هي الدنيا لهم وهي الأخرى، وأهل الأدب بين نائم يستمتع بشهي الأحلام، ومستيقظ قد ألهاه هواه، فهو يملأ الدنيا بكاء ونحيباً لأن صاحبته أسهرته يعد النجوم ولم تأته. . أو أنها قد وعدته بقبلة ثم وجدت أجمل منه أو أفسق فأعطته إياها. وأهل العلم يعيش أكثرهم على هامش الحياة لا هم له إلا مرتبه يقبضه من (دائرة الأوقاف) في مطلع كل شهر، ثم لا تراه ولا يراه أحد إلى الشهر الذي بعده، أو (حاشية) يقرؤها ويعيدها على من حضر مجلسه، قراءة تبرك لا قراءة تحقيق، فلا يرجع ولا ينتقد ولا يقابل قانوناً على قاعدة فقهية، ولا ينظر في مشكلة من مشاكل العصر ليرى حكمها. ومن اشتغل منهم بالمسائل العامة أخذ نفسه بالاهتمام بأمر لا يقدم في الدين ولا يؤخر، ولا يتوقف عليه إيمان ولا كفر. والشباب الناشئون لجهلهم حقائق الإسلام، وبعد ما بينهم وبين المشايخ، وقصر أيديهم وإفهامهم عن نيل الكتب (ذات الشروح والحواشي) قد زهدوا في كل ما هو شرقي واستهانوا به، وعظموا ما يقابله من كل حماقة دعيت مذهباً اجتماعياً، وكل سفسطة سميت فلسفة، وكل كفر بالدين والعرض دعي أدباً، وأعانهم على ذلك أن أكثر المدرسين من اللذين لم يقدر لهم فهم علوم الإسلام والغوص على كنوز كتبه. ولست أطلق القول وأجنح إلى التعميم، فإن في كل فئة من هؤلاء الطيبين المصلحين، ولكن الكثرة على نحو ما ذكرت. فمن أين يرجى إصلاح أخلاقنا وأوضاعنا؟

ومن أين يرجى لأخلاقنا صلاح، ولم نتفق بعد على (الأخلاق) التي ينبغي أن نتخلق بها، فمنا من يرى المثل الأعلى في أخلاق الجاهلية: كرم إلى حد التبذير، وشجاعة إلى حد التهور، كصاحبنا الذي استهلك بحديثه هذا المقال، وعامة طائفة (الزكرت) في الشام، (وهي أشبه بالفتوة في مصر) وأكثر البدو. ومنا من يميل إلى التخلق بأخلاق أجدادنا في القرن الماضي على ما كانت عليه بلا زيادة عليها أو نقصان منها، ومن يخالفهم مخالفة الضد للضد فيرى أن نقتبس الأخلاق الغربية برمتها. ويتشعب بهؤلاء الرأي فيميل كل إلى الأمة التي تعلم في مدارسها أو رحل إلى أرضها؛ ومن يرى اقتباس الجيد النافع من كل أمة من غير أن يحدد أو يعين. ولا دواء لهذه الفوضى في رأيي، ولا صلاح لأخلاقنا، إلا بالرجوع إلى الإسلام الصحيح الذي جاء به سيدنا وسيد العالم محمد صلى الله عليه وسلم، لا الإسلام الذي يفهمه الحشويون والمتاجرون بالدين، ولا الذي تفهمه العامة. فإذا فعلنا فثمة كل خير، ولا يكون ذلك إلا إذا شمر العلماء وحققوا المسائل، ودرسوا المشكلات، وألقوا عن المصنفين الأولين رداء التقديس، واستمدوا الأحكام من موردها ثم ترجموا هذه الكتب القديمة إلى لغة العصر، فأين من ينتدب نفسه لذلك؟

علي الطنطاوي

الصحافة والدولة

للأستاذ زين العابدين جمعة المحامي

(هنري وبكهام اسنيد الذي نترجم له هذا الفصل من كتابه) صحافي ثبت وكاتب علم. درس دراسة واسعة (الصحافة) وخبر الصحافة خبرة طويلة ناجحة؛ إلى أن كان مراسلا

لصحيفة التيمس في برلين وروما وفينا، وأن انتهى إلى رياسة تحرير هذه الصحيفة. والرجل مفكر عبقري لا يتهيب أن يرتجل رأيه ويصارح الناس به. وقد تناول الصحافة الحاضرة في كتابه من مختلف نواحيها؛ وكان من سياق تحقيقه العلمي والعملي أن أفاض فيما للصحافة من أثر حاسم فيما ينعم به الناس من حرية القول وحرية الرأي وحرية العمل، وما صار يتهددها على يد الحكام المستبدين.)

زين العابدين

عقب أن تولى هتلر زمام الحكم في ألمانيا بأشهر قلائل سألني النصح صحافي ألماني فيما يكابده من أمر ضرورة ملحة. ولقد عرفته رجلاً طيب الخلق نقي الصفحة؛ قضى سنين الطوال وهو يخدم إحدى الصحف اليومية الألمانية المهيبة الجانب لما امتازت به من نباهة الشأن واستقلال الرأي. وكان آنئذ قد تلقى بلاغاً ينبئه أن مركزه، وبالتالي أرزاقه، قد صار معلقاً بما يظهره من استعداده لإبرام ذلك الميثاق الذي (ينظمه) في سلك الاشتراكية الوطنية أو جماعة النازي التي لا يرى رأيها ولا يذهب مذهبها

لقد شق عليه الأمر ومرت برأسه خواطر متشعبة: أيبرم الميثاق فيضيع على نفسه ما تنعم به من كرامة الذات واستقلال الرأي، أو يأبى عليهم التوقيع فلا يبقي له شيء يعيش عليه إلا ما يعتز به من احترام النفس واحترام النفس وحده. ثم أخذ يسألني عما يجمل به أن يختاره من مصير

والحق أنه لم يشق علي النصح مثلما شق علي من أمره. فهل كان يسعني أن أقول له: (لا توقع، وسأرى أنه ما من ضير يصيبك أو ينتظرك في هذا السبيل؟). نعم لقد كان مثل هذا القول سهلاً ميسوراً؛ ولكن يا لها عندي من شجاعة رخيصة أن أقول لرجل كن مقداماً جريئاً فأحمله على أن يجازف بمقومات حياته وأسباب عيشه من غير أن أهيئ لغيرها السبيل!! والحق أني كابدت من أمر (قضيته الوجدانية) نصيباً لا يقل عما يكابده فيها من نصيب

ولعله كان بسبب ما يعوزني من شجاعة أدبية أن حاولت إعفاء نفسي من نصحه. وبدلاً من أن أتقدم برأي سألت سائلي أن يخبرني عن حقيقة مشاعره، ثم ناقشت معه جميع الفروض والاحتمالات المرتبطة بالقبول أو المترتبة على الرفض. وإذ علمت من أمره أنه قد عقد النية على ألا يبرم الميثاق وأجمع رأيه على أن يحمل لهم حياته في كفه تاركا للمقادير أن تفعل به ما تشاء، فقد رأيت أن ألبس في تفنيد حججه ثوب الدفاع. وعرضت له القضية من ناحية أخرى هي ما يصيب الشعب الألماني من ضرر إذا ما اجتثت من تربة الصحافة الحرة جميع الدوحات المباركة، وحرمت الصحافة الألمانية من رجالها الأمناء النابهين. فاستحال عليهم في المستقبل القريب أو البعيد ترقب النهزة واغتنام الفرصة لمعاودة الجهاد وإصلاح المعوج وتقويم السبيل. والحق أني ما حاولت أن أحمله على العبث بوجداناته إلا لأرفه عن نفسه عبء ما يشق عليها من مسئولية أدبية لما يتهدده وينتظره إذا لم يلب الدعوة ويبرم الميثاق. وكان أكبر همي أن أنقذه من نفسه فلا أدعه في ثورته النبيلة وغضبته العادلة يقرر لنفسه مصيراً عساه يلومها عليه فيما بعد

لقد عقد النية على التضحية بمادته والاحتفاظ بمثله؛ وكانت له الخيرة بين القبول المغني والرفض المفقر. فآثر الرفض على القبول، وتأبى عليهم في عزة وأنفة إبرام العهد، وكان قدراً مقدوراً أن فقد مركزه وضاعت أرزاقه. ومنذ ذلك الحين أخذ يضرب في الأرض

هائماً على وجهه لا يلوي على شيء إلا ما عساه أن يظفر منه بمرتزق جديد، فلا يصيب من ملتمسه إلا ما يتبلغ به

ولقد قدر لي لعهد غير بعيد أن أجتمع به ثانية في قطر أجنبي حيث كان يبحث عن مرتزق ثابت وعيش مأمون. ويا له من شأن لا أقضي من نبله العجب أن أراه وما تبدر لي منه بادرة آنس منها انه ارتاب يوماً في عدالة منهجه أو أنه أصبح في شك من صواب رأيه فاتهم نفسه في صدق اختياره

يا لها من أمنية طيبة أن أراه في مستقبل العمر وقد اعتذر له الدهر عن خطيئته ووافاه الزمن بجزائه العادل؟

إن منهج هذا الصحفي الحر ومنهج غيره من الصحفيين الذين لا يقلون عنه تضحية ولا إقداماً لما يجعل سلوك هؤلاء الصحفيين، من غير جماعة النازي، اللذين استكانوا وأبرموا الميثاق على كره منهم ومنهجاً مهيناً قدراً. ألم يصبحوا مجرد أداة لا وزن لها ولا تقدير لمجهوداتها؟ ألم يمسوا مجرد أبواق للدعاية التي هي من صميم كيان الحكومة النازية الاستبدادية؟ ألم يقتصر أمرهم في التحرير على أن يستخدموا ما توفر لهم من كتابة وما تهيأ لهم من مواهب في تنظيم ما يتلقونه من الدكتور (جيبلز) أو (قلم المخابرات السرية) من موضوعات يؤمرون بكتابتها ويجبرون على إذاعتها؟ ألم يهيئوا لهم طابعاً رسمياً من ثياب عسكرية ليكون ذلك شاهداً على استرقاقهم وآية على عبوديتهم؟ أيظل هؤلاء صحفيين بما تحمله كلمة الصحافة من معنى، أم صاروا وقد جمدت قريحتهم وسقم وجدانهم تبعاً مستضعفين وعبدة مستعبدين؟

إن الجواب على ذلك مدرج في مسائل أخرى أبعد مدى وهدياً إذا كانت الصحافة المقيدة المستعبدة تعتبر صحافة أصلاً بما تحمله كلمة الصحافة من معنى، وإذا كانت الأمم الاستبدادية تفسح للصحافيين في ميادينها مكانة كتلك المكانة التي يعرفها الناس لها في الأمم الحرة

إن (الصحافة) الألمانية أداة حكومية خصت بأن تلعب الدور المنوط بها وفقاً للأسلوب النازي وتبعاً لوجهة النظر النازية في طبيعة الأمور، وأولئك الذين يعنون بحرية الصحافة البريطانية كمظهر من مظاهر الحرية السياسية البريطانية على العموم يجب أن يفهموا

ماهية هذه الأداة وعلاقتها بالنظام النازي

فلقد عرف الهر (ولهلم والدركرش) وجهة نظر النازي في الصحافة بأسلوب واضح يدعو إلى الإعجاب في مؤلف ألماني عنوانه: (واجب الصحافة السياسي) قائلاً: (إن جماع ما يسعنا أن نفهمه من واجب الصحافة السياسي هو أن نسلم تسليما مطلقاً وأن نعترف اعترافاً قاطعاً لا يحده وصف ولا يقيده شرط بما (للزعامة) من شأن في الدولة وبما هو لزام عليها من تأييد الزعيم في رواج خططه تأييداً طليقاً من أي قيد أو تحفظ. وإن الصحافة بأوسع ما ينطوي عليه عملها السياسي من دلالة، مباحة لأن تكون من الاستسلام والخضوع بحال يتيسر معها أن تتضافر جهود الصحف الألمانية جميعاً على تدعيم أسلوب التجديد الناضج في الحياة السياسية. وبوسع الصحافة الألمانية بما تؤديه أو تخفق في تأديته أن تؤثر تأثيراً فعالاً ذاهباً إلى أبعد مدى في كيان الحكومة الألمانية. وهنا مبعث الاهتمام في إدراك ماهية العمل السياسي للصحف.

ولقد كان من بواعث الغبطة وحسن التوفيق أن اختفت اختفاء تاماً من ميدان حياتنا الاجتماعية تلك الأغراض المتشبعة والمقاصد الملتوية والغايات المتنوعة، كما اختفت أيضاً الصحف التي لم يكن يعنيها إلا أن تخدم المقاصد والأغراض الحزبية من غير أن تلقى بالاً لما انطوى عليه العنصر الألماني (من المزايا الجنسية والقيم المعنوية). ولقد أصبحنا الآن ونحن لا نسمح لأية صحيفة أن تجعل لها سياسة خاصة بها، أو أن تدلي من وجهات النظر والآراء ما من شأنه أن يعرقل سبيل القيادة في الدولة. وقديماً تهيأ للنقد ميدان واسع الأرجاء بعيد المدى، وكان بوسع الناقدين أن يجري في خاطرهم أنهم يخدمون المصلحة العامة؛ إلا أن الرقباء الغيورين قد رأوا بثاقب فكرهم في ذلك الزمن بعينه ما يلازم أمثال تلك الآراء من الزيف والخديعة، وما يجب أن ننتهي إليه من إفساد وضلال. لقد أصبحنا اليوم ونحن نفهم فهماً تاماً أن العهد الجديد بحاجة إلى رأس جديد، وأن الحكومة قد وطدت العزم على أن تحتفظ في يدها بقيادة الدولة، وعلى الصحف أن تدرك مقتضيات هذا الشأن فستعمل بكل الوسائل على تأييد خطط الحكومة

ولقد جهر الهر (ولدكرش) أن يؤثر في نفوس مواطنيه وأن يلبس آراءه ثوباً جذاباً فعالاً فاقتبس لها عبارات متنوعة من كلام الزعيم بحروفها، وهي عبارات تلح في أن الثورة لا يسعها أن تنجح ما لم يتهيأ لها أن تطبع بطابعها الشعب بأسره؛ فإن لزاماً على الدولة

النازية أن تنشئ نشأً جديداً. وإن رسالة الصحافة هي أن تطبعهم بالطابع الحقيقي) أو بعبارة هتلر: (إن الصحافة هي الوسيلة إلى تهيئة المجموع لأن يربي نفسه وأن يتثقف على ضوء ما يراه ويختطه الزعيم الذي يقود الدولة) ولقد أدلى بهذه الآراء الدكتور

(جيبلز) الذي اقتبس عنه الهر (ولدكرش) مؤيداً نظره ومستصوباً رأيه. فصرح بأن ما يسمح به من رخص للكتاب مقيد بذلك الالتزام الماثل في أن تكون وقفاً على خدمة الدولة

والذي يخلص من أمر هذه الحقائق ومن سائر الحقائق الأخرى الملموسة هو أن جماع ما يتصور للصحافة من حرية، بل وما يظن للفرد نفسه من حرية، قد حذف من منحى السياسة الألمانية؛ فلم تعد الصحافة الألمانية قادرة على أن تكون عنصراً من عناصر التعبير عن (الرأي العام)، إذ فرضوا عليها أن تطبع في رءوس الجمهور ما جرى به قضاء زعيم الدولة أن يكون موضع التفكير العام. وكم يحتاج الأمر في بريطانيا - وفي البلاد الأخرى التي لا زالت الصحافة فيها تنعم من حريتها بمثل ما تنعم به في إنجلترا - من جهود عقلية للإحاطة بكامل ما انطوت عليه تلك الثورة من معنى، ولإدراك أن ما للصحافة المستعبدة (المتماثلة في الدرجة والأسلوب) من قوة، لأكثر مثولاً فيما تكف عن قوله أو لا تجترئ على نشره منه فيما يتسنى لها نشره أو يطيب لها إثباته وإبرامه

ولو أن الأمور المؤكدة قد تصبح موضع ريبة ومبعث شك إذا لم تؤيدها الحقائق المماثلة في طبيعة الأشياء أو ينهض الدليل بحجتها، إلا أن ما صادف الحقائق التي لها أثرها في تهيئة عقول الأفراد وتكوين آرائهم من ضياع أو تشويه، قد صيغ بأسلوب ماكر قوي، من شأنه أن يعطل النقد وأن يحول دون نمو الآراء المعارضة

وبهذه الطريقة امتدت عملية (الأسلوب الواحد) الإجبارية - التي خضعت لها الصحف الألمانية منذ عام 1933 - إلى الشعب بأسره، وكان ذلك من طريق تشويه الصحف للحقائق كما كان ذلك من طريق ما طبعته في رؤوس قرائها في أوامر الزعيم ونواهيه ولقد صار من مقتضيات التعامل مع ألمانيا - كما هو الحال مع الأمم الأخرى المحكومة حكماً استبدادياً - أن أصبح رجال السياسة والصحافة في الأمم الحرة يواجهون في الشؤون الدولية حالة لم يسبق لها مثيل، فقد تغير بين الدول مقياس الصلات السياسية والعقلية، ولم يعد هناك تكافؤ في تبادل الآراء العامة بين الأمم المحكومة حكماً استبداديّاً والأمم التي لا زال الرأي فيها حراً؛ ولم يعد هناك أيضاً من شكوى ترفع أمام قضاء الشعب من نظام حكومته الاستبدادية

والأمر على النقيض من ذلك في الأمم الحرة؛ إذ بوسع صحافة الحكومات الاستبدادية ووكالاتها الأخرى الخاصة بالدعاية والنشر - بل وكثيراً ما وسعها كما أيدتها التجارب - أن تتقدم بشكواها إلى الرأي العام في الأمم الحرة، وأن تكون هذه الشكوى أحياناً ضد نظام ومصالح هذه الأمم الحرة؛ إلا أن هذه المعاملة الكريمة لا يسمع لها صدى في الأمم المحكومة حكماً استبداديّاً، حيث لا تكافؤ في المعاملة ولا تعادل بين ما يعطى وما يؤخذ، ولا ترقب للإقناع والقبول بالدليل القاطع أو البرهان الدافع ما دامت الحكومة وحدها في الأمم الاستبدادية هي صاحبة الكلمة العليا والقضاء المبرم، وما دام الشعب قد قدر له أن يجهل كل شيء من شأنه أن يهيئه لأن يتأبى على الزعيم قبول سياسته - والواقع أن الفاشية في إيطاليا والشيوعية في روسيا السوفياتية، بل وحتى القيصرية في روسيا القيصرية، كل أولئك يعتبر موطناً للحرية إذا ما قورن بالنازية في ألمانيا. فلم تكن الرقابة التي فرضها قيصر الروس على الصحافة، ولم تكن الرقابة التي بسطتها عليها (البيروقراطية) الباطشة القوية، أو الإدارة السرية، لتبلغ من التوفيق والنجاح ما بلغته النازية من إسكات ستة الصحف الكبرى، وهذا النظام الاستبدادي الذي يفرض على الشعب بأسره ما تبدعه الدولة وتصبو إليه من النظر والرأي يعتبر حدثاً جديداً وأمراً ثورياً وطابعاً مشئوماً وقالباً معكوساً في العالم الجديد

(للكلام بقية)

زين العابدين جمعة

المحامي

المصريون المحدثون - 10

شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الإنجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور
تابع الفصل الثاني

يلاحظ في مصر أن القليل من المال يكفي لإعالة ذرية كثيرة وأسرة كبيرة. ومهما يكن تدليل الأطفال والولوع بهم عظيما، فهؤلاء يكنون ويظهرون لأبويهم احتراماً عميقاً خليقاً بالمدح. ويعتبر المسلمون العقوق من أعظم الخطايا. وهم يضعونه لجسامته مع الكبائر الست الأخرى، وهي الشرك بالله وقتل النفس وقذف العفيفات بالزنا وأكل أموال اليتامى والربا الفاحش والتخلف عن جهاد العدو. وقلما ترى في مصر أو في العرب من لا يطيع والديه. ويصطبح الطفل، في الطبقات الوسطى والعليا، بتقبيل يد أبيه، ثم يقف أمامه باحترام وخشوع حتى يصدر إليه أمراً أو يسمح له بالانصراف. ولكن العادة جرت أن يقبل الأب ابنه ويلاطفه. ولا يقل احترام الطفل لأمه عنه لأبيه، وكذلك احترام أفراد العائلة الآخرين بمقتضى سنهم وقرابتهم ومركزهم. ومن هنا تنشأ في الطفل السهولة واللباقة في تصرفاته خارج الحريم، كما تنشأ فيه الطاعة والولاء اللذان كثيراً ما يعدان، من غير حق، نتيجة الحكم الاستبدادي في الشرق. ويندر أن يجلس الأبناء أو يأكلوا أو يدخنوا في حضرة الأب إلا إذا سمح لهم بذلك. وكثيراً ما يقومون أيضاً على خدمته وخدمة ضيوفه عند تناول الطعام وفي المناسبات الأخرى. ويظل الأبناء كذلك حتى بعد أن يصبحوا رجالاً. وقد دعيت مرة في شهر رمضان إلى الإفطار على مائدة تاجر مصري أعدّت أمام داره. وكان يدعو كل شخص يمر بالقرب منا، مهما كان فقيراً، إلى مشاركتنا الطعام. ومع ذلك كان يقوم على خدمتنا اثنان من أولاده أكبرهما يبلغ الأربعين. وقد لاحظت أنهما لم يتناولا بالرغم من صيامهما طول اليوم غير جرعة ماء؛ فرجوت الأب أن يسمح لهما بالإفطار معنا، فأجاب رجائي في الحال؛ ولكنهما رفضا. وتتمتع الأم بأكبر قسط من عطف أطفالها ولكنها لا تتمتع مثل الأب بأكبر قسط من الاحترام. وقد رأيت خدماً كثيرين يعطون أمهاتهم ما يدخرون من أجرهم، وقلما كنت أرى من يدخر شيئاً لأبيه ويلاحظ أن الأطفال المصريين، ما عدا أطفال الأغنياء، يظلون دائماً قذري الشكل ممزقي الثياب، مع أنهم في محل الرغبة وموضع التفكير. وقد يشمئز الأجانب من رؤيتهم، ويسرعون في الحكم على المصريين بأنهم شعب قذر دون أن يبحثوا عن سبب آخر لذلك. ومن الملاحظ أيضاً أن أكثر الأطفال تدليلاً وعناية، أقذرهم جسما وأحقرهم ثيابا. وليس من الغريب أن ترى السيدات الجميلات في شوارع القاهرة متئدات في مشيتهن، معطرات الجو بعطر المسك، مراعيات في زينتهن الكاملة دقة النظافة ومنتهى الرقة، معتنيات بكحل عيونهن، مخضبات الأصابع، بينما يرافقهم طفل قد يكون الوحيد، وهو ملطخ الوجه ملوث الثياب. ومن الأشياء التي أثارت عجبي عند قدومي إلى هذا البلد مناظر من هذا القبيل؛ وقد لفتت نظري لغرابتها وتناقضها، فأخبرت أن الأم الحانية على أطفالها تهمل هندامهم فتتركهم بلا نظافة، وتلبسهم أحقر الملابس عمداً، وعلى الأخص عندما يرافقونها في الخارج خوفاً من شر العين. ويخشى من الحسد بصفة خاصة على الأطفال لأنهم يعتبرون نعمة عظيمة ويشتهيها الجميع. ويرجع للسبب نفسه حجز الأطفال في الحريم طويلاً؛ حتى أن البعض يلبسن الذكور من أطفالهن ملابس الإناث لأن البنت أقل تعرضا للحسد. وأطفال الفقراء ما زالت هيئتهم بعد أكثر إهمالاً. فهم فضلاً عن قلة ملابسهم وحقارتها أو تمام عريهم قذرون إلى أقصى حد. تغشى عيونهم الأدران والذباب دون أن يكترثوا لذلك. ويعتبر المصريون أن غسل العين أو حتى لمسها عندما يسيل منها الصديد الذي يجذب الذباب، مضر بها. ويؤكدون أن فقد البصر قد ينتج من كثرة لمس العين أو غسلها عندما تصاب بهذا السيلان، غافلين عن أن الغسل إنما يلطف الألم

ويختن الولد في سن الخامسة أو السادسة، وأحياناً بعد ذلك وقبل الختان يحتفل القاهريون وغيرهم من الحضريين، إذا توفر لديهم مال، بزف الولد في موكب يمر بالشوارع المجاورة للمنزل. وكثيراً ما يحتفلون بزفة الختان مع زفة عرس في الوقت نفسه تقليلاً من نفقات الاحتفال. وفي الحالة الأخيرة يتقدم الموكب الولد وحاشيته. والمحتفل به يلبس أحياناً عمامة من الكشمير الأحمر، وقد يرتدي لاعتبارات أخرى ثياب أنثى، فيلبس إليلك والسلطة والقرص والصفا وغيرها من حلي النساء، ليجذب العين الحاسدة إليها ويلهيها عن

شخصه. وتستعار هذه الملابس عادة من بعض السيدات الموسرات، وتكون من أفخر الملابس وأبهاها كما تكون كافية السعة لتلائم الولد. ويستعار كذلك حصان جميل العدة ليركبه المحتفل به. ويمسك الولد بيده اليمنى منديلاً مطرزاً مطوياً يضعه باستمرار أمام فمه ليحجب بعض وجهه اتقاء شر العين. ويتقدم المحتفل به صبي الحلاق الذي سيقوم بعملية الختان، وثلاثة من الموسيقيين أو أكثر؛ وآلاتهم لا تتعدى المزمار والطبول، كما ترى في (شكل 31). فالشخص الذي يتقدم الموكب هو صبي الحلاق - كما ذكر - ويحمل (الحمل) وهو صندوق خشبي نصف أسطواني ذو قوائم أربع قصيرة، يزين وجهه قطع من المرايا ومن النحاس البارز النقش، ويغطي ظهره بستار. وهذا الحمل وهو شعار الحلاق. ويحمله الخادم بالطريقة المبينة في الرسم ثم يتبعه الزمار والطبالان (وقد يتقدم بعضهم الحمل)، ثم الولد يقود جواده سائس؛ وأخيراً يمشي خلفه الكثير من القريبات والصديقات. وكثيراً ما يحتفل بختان ولدين مما وقد يحملهما حصان واحد. أما موكب العرس الذي كثيراً ما يتضمن موكب ختان كما سبق فسنتكلم عنه في حينه. وسنذكر أيضاً وصفاً لبعض العادات الأخرى المتعلقة بالختان وبالأخص واحدة منها أقل شيوعاً وأكثر وجاهة، في الفصل المتعلق بمختلف الأفراح والأعياد الخاصة

وقلما يبذل الأبوان كثيراً من وقتهما أو انتباههما في تربية الطفل تربية ذهنية، قانعين بتثبيت بعض المبادئ الدينية في ذهنه الصغير، فإذا كانت لديهم المقدرة، يعهدون به للمدرسين. ويلقن الطفل في سن مبكرة بقدر الإمكان الشهادتين وحب الإسلام. وأكثر أطفال الطبقات العليا والوسطى، وبعض أطفال الطبقات الدنيا يتعلمون في الكُتّاب القراءة وتلاوة القرآن أو ترتيله؛ ثم يتعلمون بعد ذلك أغلب قواعد الحساب الشائعة والكتاتيب كثيرة العدد لا في العاصمة فحسب، بل في كل مدينة كبيرة، كما يوجد في كل قرية كبيرة مدرسة واحدة - على الأقل - ويلحق بكل مسجد وسبيل وحوض في العاصمة كتّاب يتعلم فيه الأطفال بأيسر الأجور؛ إذ يتناول (الشيخ) أو (الفقي) كل خميس من أب الطالب نصف قرش أو أي شيء آخر. ويتناول مدرس المدارس الملحقة بالمساجد أو

بغيرها من مباني العاصمة العامة سنوياً طربوشاً وقطعة من الموصلي الأبيض للعمامة وقطعة من الكتان وحذاء. كذلك يتناول كل ولد طاقية من الكتان وقطعة من نسيج القطن طولها أربعة أذرع بلدية أو خمسة، وقد يأخذون نصف ثوب من الكتان مقداره 10 أو 12 ذراعاً بلدياً وحذاء، وأحياناً يعطون قرشاً أو نصف قرش؛ وهذه الخلع تؤخذ من أموال موقوفة على المدرسة وتقدم في شهر رمضان. ولا يحضر الأولاد إلا ساعات الدرس ثم ينصرفون إلى منازلهم. ويكتب الدرس عادة على ألواح من الخشب المصبوغ بالأبيض، تمسح بعد كل درس ويكتب عليها الدرس الجديد. وتعّلم الكتابة أيضاً على اللوح نفسه. والعادة أن يجلس المدرس وتلاميذه على الأرض وكل تلميذ بيده لوحه أو نسخة من القرآن، أو جزء من أجزائه الثلاثين، توضع على كرسي من الجريد، ويلقي الأولاد جميعهم درس القراءة أو ينشدونه بصوت واحد عال، هازين رؤوسهم وأجسامهم هزاً لا ينقطع إماماً وخلفاً؛ وكذلك أغلب قراء القرآن يتبعون تلك العادة ظناً أنها تساعد على التذكر، وليتصور القارئ أي ضجة يحدثونها.

وأول ما يتعلم الأولاد حروف الهجاء، الشكل، ثم يتعلمون القيمة العددية لكل حرف من حروف الهجاء. وقد جرت العادة قبل وصول التلميذ إلى تلك المرحلة الثالثة في تعليمه أن يزين المدرس اللوح بالحبر الأسود والأبيض والصبغ الأخضر، ثم يكتب حروف الهجاء بترتيبها العددي ويرسلها إلى والد التلميذ، فيعيدها هذا إليه وعليها قرش أو قرشان. وهكذا يكرر ذلك في مراحل التعليم اللاحقة، وفي كل مرة يكتب الدرس التالي على اللوح. وعندما يحفظ الولد القيمة العددية لحروف الهجاء يتمرن على قراءة الكلمات السهلة، مثل أسماء الرجال، ثم صفات الله التسع والتسعين، وبعد ذلك يحفظ الفاتحة فيكررها حتى يعيها تماماً، ثم يشرح في حفظ السور الأخرى. ويندر أن يتعلم الأولاد الكتابة إلا عندما يخصصون لبعض الوظائف التي تتطلب معرفتها. وفي هذه الحالة يتعلمون الكتابة والحساب كذلك على يد (قباني، وهو الشخص المنوط به وزن البضائع في السوق على القبان. أما الذين يسلكون أنفسهم في النظام الديني أو في أي مهنة

علمية فيتبع غالبهم تعليماً منتظماً في الجامع الأزهر
وأغلب معلمي الكتاتيب قليلو العلم والاطلاع. والقليل منهم من تتعدى معرفته القرآن وبعض الأناشيد والأدعية، فيؤجرون لتلاوتها وتلاوة القرآن في المناسبات الخاصة. وقد حدثوني أخيراً عن رجل لا يحسن القراءة والكتابة نجح في شغل وظيفة مدرس؛ فقد كان يحفظ القرآن كله ولذلك سهل عليه الإصغاء إلى الأطفال وهم يسمعون الدرس. أما تعليمهم الكتابة فقد كان يستخدم فيها (العريف) مدعياً ضعف النظر. وبعد شغله هذا المنصب بأيام جاءته امرأة فقيرة ليقرأ لها خطاباً جاءها من ابن لها ذهب للحج. فتظاهر الفقي بالقراءة ولكنه لم يفه بحرف واحد. فاستوجست المرأة من سكوته شراً واستنتجت من هدوئه أخباراً سيئة فقالت له: (هل أصوات؟) فأجابتها (نعم) وسألته: (هل أمزق ثيابي) فأجابها: (نعم). فرجعت المسكينة إلى منزلها وأقامت هي وصاحباتها مناحة ومأتماً. ولم يطل عليها الزمن حتى عاد ولدها، فسألته ماذا يعني بهذا الخطاب الذي يخبرها بموته؟ فلما شرح لها ما في الخطاب ذهبت إلى المدرس وطلبت منه أن يوضح لها لماذا قال لها أن تصوت وتمزق ثيابها ما دام الخطاب يقرر أن ابنها بخير وأنه في طريق العودة؟ فأجابها غير مضطرب: (إن الله عنده علم الغيب. فمن أين لي أن أعرف أن ولدك سيعود سليما؟ وكان خيراً لك أن تظنيه ميتاً حتى لا تنتظري عودته، وقد يخيب انتظارك). فصاح بعض الجالسين مادحاً حكمته: حقا إن (فقينا) الجديد رجل ثاقب البصر حكيم. وهكذا بين عشية وضحاها ارتفعت شهرة الرجل لغلطة غلطها. وبعض الآباء يجعلون لأولادهم شيخاً يعلمهم في المنزل. والعادة أن يعلم الأب ابنه الوضوء والصلاة وغير ذلك من الواجبات الدينية والأخلاقية على قدر إمكانه. وقد أمر الرسول (صلعم) أن يعّود الصلاة من يبلغ السابعة ويضرب من يمتنع منهم عند العاشرة، كما أمر أن ينام الأولاد كل وحده في هذه السن. ومع ذلك يندر أن يقوم المصريون بواجب الصلاة قبل البلوغ.

(يتبع)

عدلي طاهر نور

رسالة الشعر

ليالي القاهرة

من (ن) إلى (هـ)

للدكتور إبراهيم ناجي

طلَبتِ الكِتاَبةَ يَا جَنَّتي ... وَمَاذَا تُرِيدينَ أنْ أكْتُباَ؟
وَمَا في الجَوَانحِ خَافٍ عَلَيكِ ... وَقَلبُكِ يَعلَمُ مَا غُيِّبَا!
سَأكتُبُ أنَّكِ أنْتِ الرَّبيعُ ... وَحُسنُكِ أنْضَرُ مَا فِي الرُّبَى
وَأنْتِ الحَيَاةُ وَأنْتِ الجَمَالُ ... وَفَجْرُ الشَّبَابِ وَحُلمُ الصِّباَ
أُنَادِي بِاسْمِكِ عِنْدَ الصَّبَاحِ ... وَأطْوِي عَلَى ذِكرِكِ المَغْرِباَ

إبراهيم ناجي

الوردة الذابلة

للأستاذ محمود عماد

قالت وقد ألفتْ على وجهها ... غبرةَ هَمّ لم تكد تنجلي:
إن تذبل الوردة ظلت لها ... بقية من عطرها الأولِ
قلنا وطيّ النفس ما طيّها ... لو شاءت الوردة لم تذبل
لو شاءت الوردة كنا لها ... ندي إذا الأنداءُ لم تنزل
لو شاءت الوردة كنا لها ... شوكاً يقيها عبث الأنمل
لو شاءت الوردة كنا لها ... أرضاً مُوطَّأة على جدول
لو شاءت الوردة كنا لها ... شمساً تريقُ الضوَء في معزل
فظلّ للوردة ما أعطيت ... من ناضر الحسن وغالي الحُلِي
لكنها اختارت لها مغرساً ... بمثلها في الورد لم يجمل
حيث الثرى سمّ وحيث الندى ... هَمّ وحيث الضوءُ لم يُرسَل
فكان حقاً أن ترى حسنَها ... يزوي وألا تعجب المجتلي
وإن تعزت ببقايا الشذى ... فهو عزاءُ الكحل للأحول

محمود عماد

أحلام الموتى
للأستاذ علي شوقي
مَتى أنا نازلٌ نُزُلَ الرِّجام ... ومبلَغتي الوفاةُ حِمى الحِمامِ
فأغدو ظاعناً من دار هُونٍ ... مُزايَلَها إلى دار السلامَ
أراني والعَوادي عائداتي ... وواهبتي أضاميمَ السَّقام
كطفلٍ ملّ من ثدي سقيم ... فمال عن الرضاع إلى الفطام
وما عَشق الحياةَ سوى محبٍ ... قضى منها لُباناتِ الغرام
ومن رضىَ المقام بها فإني ... لأمرٍ ما رغبت عن المُقام
لئن آنستُ تحت الشمس ظلماً ... فمالي لا أفِرُّ إلى الظلام
فيا داراً سأبرحُها، سلامي ... عليك وإن صَغُرتِ عن السلام
ويا أرضاً غداً ستكون قبري ... ألا أعجلْتِني قبل التمام
لعلي إن أمُتْ تبكي عيونٌ ... تُرَوّى من مدامعها عظامي
عيون طالما أمهرت جفني ... عليها وهي تنعم بالمنام
وتذكرني شفاهٌ كنت حيناً ... أدِين لها بمأثور الكلام
وتندبني سُويعاتٌ تقضّت ... خضبت أكفّها بدم المدام
رأيت العيش معنى كل شر ... وهذا الناس معنى للرغام
وما هذي الحياة سوى أمانٍ ... تَدَاولُ بين أحلام الأنام
علي شوقي
البريد الأدبي
إلى الأستاذ أحمد أمين
كنت أشرت فيما سلف من الأحاديث إلى أني سمعت كلاماً منسوباً إلى أحد المفكرين من الأجانب في محاضرة ألقاها الدكتور إبراهيم ناجي، ثم قرأت الكلام نفسه في (الثقافة) بعد يومين بصورة تشهد بأنه من مبتكراتك، وكانت الأمانة العلمية توجب أن تذكر النص الذي نقلت عنه، وفقاً لقواعد (الدراسة الجامعية)
واليوم أذكر أن جريدة (الوفاء) التي تصدر في شرق الأردن نشرت مقالاً عنوانه (عدالة العمل) بتاريخ 19 أغسطس سنة 1941، وفي التاريخ نفسه نشرت مجلة الثقافة التي تصدر في مصر مقالاً عنوانه (العدالة) وذلك توارد غريب!!
وعند الموازنة بين المقالين تبين أن الأصل واحد، فهما منقولان عن كتاب (البشرية الكاملة) للمؤلف الأمريكي فرانك كراين
ولكن بين المقالين فرقاً بسيطاً جداً، فالأستاذ صبحي زيد الكيلاني صاحب جريدة الوفاء نص على أن المقال مترجم عن الإنجليزية بقلم صبحي جلال القطب؛ أما الأستاذ أحمد أمين صاحب مجلة الثقافة فقد نص على أن المقالة من إنشاء أحمد أمين!
فهل لك أن تتفضل فتدلني على وجه (العدالة) في هذه القضية؟ وهل لك أن تذكر أن الدنيا فيها ناس يقرئون وينقدون ما يقرئون؟
يجب أن يفهم حضرة الأستاذ أن (الدراسة الجامعية) لا تمنح أصحابها حتى انتهاب الأفكار والآراء؛ فإن أجاب بأنه (ترجم بتصرف) فأنا أقول بأن النص على الأصل واجب ولو كانت الترجمة بتصرف
وبالنيابة عنه أعتذر لمن شكاه من فضلاء عمان، والصديق ينوب عن الصديق في بعض الأحيان
زكي مبارك
عبر كذا. . .
اطلعت على ما كتبه الأستاذ الفاضل محمد محمود رضوان في العدد 432 من (الرسالة)
في نقد ما ذهبت إليه من أن استعمال الكّتاب الآن لكلمة (عبر) - مصدر عبره - ظرفاً غير صحيح فقال الأستاذ: قد جاءت هذه الكلمة في شعر إسلامي لسواد بن قارب (الكاهن، حين وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلماً
ثم ساق حكاية سواد كما رواها صاحب الجمهرة، وفيها أبيات له، منها:
فشمرتُ عن ذيلي الإزار وأرقلتْ ... بيَ الدعلب الوجناء عَبْر السباسب

وبعد ذلك قال: (ومن ثم يرى الأستاذ الكبير أن الكلمة صحيحة كما يستعملها الكتاب على عهدنا) فكأن الأستاذ ارتضى استعمال (عبر) ظرفاً أخّذا بظاهر عبارة الشاعر التي تنطبق في صورتها على استعمالات الكتّاب لهذا العهد. وكأنه يتوهم أنها منصوبة على الظرفية (بأرقلت)

ولكن الواقع أنها صفة ثالثة للناقة لا غير؛ فإن الشاعر في مقام تعديد محاسن ناقته وما فيها من مزايا يقتدر بها على السرعة في أداء مهمته، فهو يصفها بالفتاء والقوة، وبأنها قادرة على شق السباسب، تمضي بها وتجرؤ عليها

ويؤيدني في أن الوصفية وحدها هي الوجه الواجب أني لم أجد لمعنى الظرفية في (عبر) أثراً فيما قرأت من كتب اللغة وراجعت وبحثت، وإن كانت الكتب التي بين أيدينا لا تحوي كل شيء، بل قد فاتها كثيراً جداً، كما نعترف بذلك جميعاً

ثم ترقى الأستاذ في تفنيد مذهبي في هذا الموضوع فقال:

ولو أننا أردنا تخريج الكلمة على وجه الصحيح لوجدنا أكثر من وجه، خلافاً لما يقوله) الأستاذ. وأقرب هذه الوجوه عندي أن تكون (عبر) مصدراً مراداً به اسم الفاعل، فتكون حالاً مما قبلها، ويكون التقدير: (مرور قواتها عابرة شمال الهند. . . الخ) و (أو جاءت إلى هنا عابرة الأطلنطي).

أقول: يكفي في الرد على هذا أن أذكر الأستاذ أنه من المقرر أن المصدر قد يقع حالاً (إذا كان نكرة). فالتنكير شرط لازم، نحو: (ثم ادعهن يأتينك سعياً) و (ينفقون أموالهم سراً) و (جاء بغتة) و (قتله صبراً) و (حضر سرعة) و (أقبل ركضاً) و (كلمته مشافهة). . . إلى غير ذلك.

وقد رأيت أن (عبر) في الأمثلة الثلاثة التي أتيت بها للتوضيح في مقالي السابق معرفة بالإضافة. وكذا الحال في جميع ما نراه من ذلك كل يوم في الصحف والمجلات؛ لأن استعمالها لا يكون إلا هكذا في أساليبها.

فلا يمكن إذاً أن تعرب (عبر) حالاً. فقد بطل تخريج الأستاذ

أما المصدر المعرف فمجيئه حالاً نادر. والمسموع منه قليل جداً. وهو لا يعدو أن يكون علم جنس، كقولهم: جاءت الخيل بداد، أو معرفاً بال، نحو: أرسلها العراك.

بقى قول الأستاذ: (والمصدر يقع في موضع اسم الفاعل. . . الخ كلمة)، فهذا مما لسنا بسبيله.

(ا. ع)

الأستاذ كرد علي في بيت المقدس

لبى الأستاذ محمد كرد على دعوة الإذاعة الفلسطينية، فتوجه إلى القدس وذهب من توه إلى بيت صديقه أديب العربية الأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

وكانت أولى محاضراته: (هل تمدنا) قرر فيها الأستاذ أن الأمم العربية قطعت شوطاً بعيداً في المدنية منذ نصف القرن الماضي، وتمنى لو تلقفنا من الغربيين عاداتهم وتقاليدهم فهي بالجملة خير من عاداتنا وتقاليدنا؛ ولم ينس الأستاذ أن يذكر المرأة الشرقية وخروجها سافرة في العصر الحديث بعد أن كانت مكبلة بسلاسل يسمونها خلاخيل، وأنها نالت قسطها الوافر من المدنية وتشبهت بأختها الغربية بمنافسة الرجل في مختلف ميادين الحياة.

وفي المحاضرة الثانية تكلم الأستاذ في موضوع: (الشاميون والتاريخ) قصر حديثه على سرد أسماء المؤرخين الشاميين ومؤلفاتهم وتاريخ وفاتهم؛ وعلل الأستاذ وفرة المؤرخين في الشام لكونها كانت عاصمة العرب، وفي العاصمة يتمثل ازدهار المدنية أكثر من سائر البلدان

وفي المحاضرة الثالثة حكى عن (طرائف فارس) وخصص كلامه في مخطوط يسمى (طرائف الطرف) فكشف عن قيمته التاريخية ثم ختم كلامه بالقول: إن في إيران مخطوطات عربية قيمة تفوق المخطوطات الموجودة في القاهرة وفي دمشق وذكر أن في مكتبة العلامة الإيراني (نصر الله) خمسين ألف مجلد عربي، ويؤكد الأستاذ أن كثيراً من

أغنياء إيران يهمهم أن ألا تخلو مكتباتهم من التآليف العربية فإن ذلك يدل - في عرفهم وتقاليدهم - على السراوة والنبل

وكان موضوع محاضرته الأخيرة: (بقية ما ترك لنا الأجداد) فافتتح كلامه بالأسف

الشديد على أن فقدت المكتبة العربية كثيراً من المخطوطات الثمينة ثم قصر كلامه على التحدث عن (أبي حاتم بن حيان البستي) وذكر أنه لا يقل عن ابن ماجة في أهمية أسانيده للحديث، ثم أعلن أسفه بأن أحداً من المترجمين العرب لم يذكره في تآليفه، ولولا ياقوت الحموي لكان نسي كما نسي كثير من العلماء. ثم رجح الأستاذ أن نسبه ينتهي إلى (إياس بن مضر) وقال أن حياة هذا العالم الجليل قد انتهى بأن قتله خليفة المسلمين لتلبسه جريمة الاشتغال بالعلوم الرياضية.

عبد القادر جنيدي

إلى الكتاب

يجدّ الردى فينا ونحن نهازله ... ونغفو ولا تغفو فواقاً نوازله

كنت أتحدث مساء يوم من الأسبوع الماضي عن (معركة الإصلاح الاجتماعي) مفتتحاً العام الدراسي الخامس لمدرسة الخدمة الاجتماعية، فجال بخاطري وأنا أعرض وجوه المعركة أن أتساءل: أين كتابنا في مركز القيادة، وأين هم في صف الجنود، وأين هم في مجال الدعاية والإرشاد؟ وهل وضعوا خطة وبرنامجاً لعلاج مشكلاتنا الاجتماعية الكبرى ثم تهيئوا لخوض غمار المعركة حاملين علم الجهاد، أو أنهم آثروا حياة الدعة وعيشة السكون، والتزموا الحيدة المطلقة تلقاء هذه المعركة التي شنت فيها الآفات الاجتماعية الغارة علينا بغير رفق أو هوادة؟

ثم ألقيت نظرة على ما طوى التاريخ من أحداث اجتماعية غيرت أوضاع الحياة، فبصرت بأقلام الكتاب ولها السبق في ميدان الدعاية إلى المبدأ وبث الفكرة وحفز الهمم ومناصرة التجديد والإصلاح في نضالهما مع قوى الرجعية، وأحسست صولة القلم تسبق صولة السيف، ورأيت مهمة التمهيد لمعركة الإصلاح يضطلع بها نفر من أئمة الكتاب يشقون الطريق للجنود ويرسمون الخطط للقادة، ورأيت صرح الإصلاح وقد استقر على دعائمه الراسخة يحيط به سياج من أقلامهم

ثم شهدت ما حشدته الأمم للإصلاح من قوى فبصرت بقوة الأقلام يصول بها الكاتب القدير في الميدان، ويشق ببريقها الظلام المخيم على العقول والقلوب، ويدفع بها النفوس إلى المثل العليا وهنا ألقيت نظرة على مصر، فإذا بمعركة الإصلاح خامدة، وإذا الروح المعنوية متخاذلة يعوزها القادة والخطة والجنود وقوة الإيمان، مع اتساع الميادين وفداحة الخطوب وعظم المشكلات وقلة الزاد ووعورة الطريق، تكتنفنا عوامل الانحلال التي تقربنا إلى الهوة بخطوات واسعة. وشعرت أننا نسير في الظلام، وقد خبت الأضواء، واختفت مصابيح السماء، فصحت في نفسي والألم يحزها: (أين كتابنا من هذا النضال؟ هل آثروا العزلة في بروجهم العاجية، يشرفون علينا من عل، فيعبسون حيناً ويبتسمون أحياناً، ثم يقهقهون ملء أشداقهم، ثم يخلدون إلى متعتهم من الفن وروعة الخيال، يغذون بها روحهم، ويستوحون منها فيض أقلامهم؟

ألم يقض هؤلاء الكتاب فترة من سني حياتهم الناعمة في قرى الريف، فتثور نفوسهم لمشاهدة الحياة فيها، فيستلوا أقلامهم ليخوضوها معركة حامية في سبيل هؤلاء التعساء اللذين ضن المترفون عليهم بقسط يسير من مقومات الحياة الإنسانية الكريمة؟ ألم يستشعروا ما يحيط بهم من مآسي الحياة المصرية؟ هل فكروا في وجوه الإصلاح ونصيب الكتاب في الدعوة إليه والنضال في سبيله؟ لقد حباهم الله بخيال خصب وروح اجتماعي سام ينم عنهما ما تزخر به مؤلفاتهم وبحوثهم من شذرات وخواطر، فكيف السبيل إلى استغلال هذه المواهب في توجيه قوى الخير لمكافحة عوامل الشر؟

يخيل إلي أن أدباءنا ينعمون بأنانية منقطعة النظير، هيأتهم لأن يعيشوا لأنفسهم، وأن يفكروا حين يفكرون، ويكتبوا حين تتحرك أقلامهم، لمتعة الروح وإرضاء الخيال، دون نظر لما تقتضيهم حقوق الوطن من التزامات تحتم عليهم أن يكونوا في مركز القيادة، وأن يتولوا مهمة الإرشاد

أين إنتاج أدبائنا مما توحي به الحرب، وما يتطلبه تنظيم الحياة الاجتماعية بعد الحرب؟ ألم يروا كيف نهض الكتاب في البلاد الغربية يعالجون المشاكل الاجتماعية التي أوجدتها الحرب، والتي ستتمخض عنها الحرب عندما تخبو نارها، فاستخلصوا العبرة، ووصفوا

العلة، ورسموا الطريق للمستقبل؟!
يجب أن يتغير وجه الحياة المصرية في طرائق التفكير وأسس الثقافة ومعايير الإصلاح وروح التشريع، نتيجة لتلك الهزة العنيفة التي توشك أن تتداعى منها جوانب الحضارة القائمة، وأن يكون الكتاب قادة المعركة الإصلاحية التي تطالعنا كتائبها. فمكانهم منها في الطليعة، ولو عرضوا أنفسهم ليكونوا أول ضحاياها.

محمد العشماوي
نائب رئيس رابطة الإصلاح الاجتماعي

الكتب

(أرواح شاردة)
تأليف الأستاذ الشاعر علي محمود طه
بقلم الأديب محمد فهمي كمال

هذه (الأرواح الشاردة) في تيه المرح والعذاب والحب، يحتفل بها شاعرنا علي محمود طه في كتابه الجديد احتفال الشاعر الهائم الذي تضطرب حياته في خضم هذا الكون العظيم، حيث تتوارى المعالم وتتلاشى الآفاق وتغيب الشطئان. ولقد وسم نفسه في عالم الأدب بالتيه والشرود، فهو (ملاح تائه) يهيم إثر (أرواح شاردة)، يجد لذته ومتعته في شروده وهيامه، حتى لكأنه أحد أولئك الشعراء البوهيميين الذي كتب عنهم (هنري برجير)، فهو ممن نلتمس عنهم غذاء الروح وري القلب في البيان المصطفق والخيال المنطلق والنغم المتسق!

ومن نعم الأيام أن يصدر هذا الكتاب الجديد في زمن تصطخب فيه الآذان وتضطرب الأذهان بأنباء أفظع مجزرة بشرية تمثلها روح الشر على مسرح الوجود، بل نحن في محنتنا هذه أحوج ما نكون إلى أمثال هذه الكتب المختلفة بالذوق الجميل والفن الرفيع، أكثر من حاجتنا إلى كتب العلم والمعرفة والحكمة والفلسفة التي لو شئنا شيئاً منها لالتمسناه في الكتب التي نقل عنها المؤلف أو تأثر بها، وفي غيرها مما لم ينقل عنه أو يتأثر به، ولكنا نحب هذا المزاج البديع من فن الشاعر الثائر علي محمود طه الذي عشقناه وفتنّا به في قصائده الفرحة وغنائياته المرحة!! فهذا الشارد الحائر بين معالم الجمال ومفاتنه في مصر والبندقية وبرن وروما وفرساي وانسبروك، سعيد بأن يلتقي بجماعة من الشاردين الحائرين أمثال: فيرلين ورامبو وبودلير وشلي ودي فيني وموسيه وجورج سان وشو وويلز، ممن تناولهم بالدراسة، أو عرض لهم ولآثارهم عرضاً سريعاً

فأما بول فيرلين فحديثه ممتع، ألمّ فيه المؤلف بسيرة هذا الشاعر الذي كان أرخم صوت صدح به الشعر الفرنسي في القرن الذي أنجب هيجو ولا مارتين وموسيه وجوتيه وسنت بيف ومالارمي وليكونت دي ليل وأناتول فرانس وغيرهم من الأعلام والعباقرة الأفذاذ

ولقد تناول المؤلف في حديثه هذا أصول الفن مطوّقاً بالمصادر التي استمدت منها شاعرية فيرلين ألوانها الباهرة، واستلهمت أنغامها الساحرة؛ ثم تناول شخصية فيراين بالاستقراء والتحليل، هذه الشخصية التي قال أناتول فرانس في صاحبها: (إنه سقراطي بالفطرة أو خير من ذلك، مخلوق خرافي، حيوان غابة، نصفه إنسان، ونصفه حيوان، نصفه وحش ضار، ونصفه إله، هائل كقوة طبيعية غير خاضعة لشريعة ما. . .)

ولقد وفق المؤلف في تفصيل ذلك كله وكان رائعاً ومتواضعاً في ترجمته لقصيدة فيرلين في الخريف، بل إن أمانة النقل تبلغ في هذه الترجمة مبلغاً عظيماً مع الاحتفاظ بالروح الغنائي المرح الذي يفيض به شعر فيرلين

وفي عشرات الكتب والدراسات التي وضعت عن فيرلين تجد المؤلف قد ألم بالكثير من الآراء، وقرّب هذه الشخصية العجيبة إلينا، ولو أضاف إلى ما كتبه رأي (فرنسوا بوشيه) في علاقة فيرلين برامبو لانتهى إلى الحقيقة ولما قال إنها لا تزال موضع تحقيق النقاد والمؤرخين

أما بودلير فقد عرض المؤلف لفنه وللعوامل الموضوعية والذاتية في شاعريته أكثر مما عرض لسيرة حياته، وإن كان لم يهمل ما رآه متصلاً أوثق الاتصال ببحثه القيم النفيس، فقد تناول جانباً من حياة هذا الشاعر يلقي ضوءاً على المؤثرات التي عملت عملها في شذوذه وغرابة طباعه وأطواره وحماسته في عبادة شهواته، وكان حديثه

رائعاً عن نشأة بودلير ورحلته إلى جزائر الهند، وعن أوكار الحشيش والأفيون، وهذه الأجساد التي تنضح بشهواتها وتسترق أنفاسها من دخان العطور الشرقية المخدرة؛ كما كان حديثه بليغاً وبديعاً عن هذه الفتاة السوداء التي نصبها بودلير إلهة للجمال بجسدها المعتل السقيم الذي يملأ الكلف أو البقع أديمه وهو يتخلع في ثوب مهلهل خلق. . .

ومن الحق أن نسجل في هذا الفصل للأستاذ المؤلف قوته البيانية وطلاقته الفنية وحرارة تعبيره وإن كنا نأخذ عليه الإيجاز في محاكمة بودلير مع أنه عرض لها أكثر من مرة في فصله هذا مما يدلنا على إلمامه بدقائق هذه المحاكمة وخاصة عندما نوه بزعيم الإبداعيين فيكتور هيجو ودفاعه عن بودلير كفنان، وقد كان على المؤلف أن يشبع الموضوع بتفاصيل هذا الدفاع

أما الكلمة التي نقلها المترجم عن الكاتبة (ربيكا) في الأدب الإنجليزي الحديث فهي من أدق وأوفى الدراسات التي كتبتها هذه الأديبة العظيمة فقد اشتغلت بالتأليف الأدبي مدى ثلاثين عاماً، وحسبنا هذا ثقة بآرائها في الأدب المعاصر

وقد وفق علي محمود طه في ترجمة قصيدة شلي ودي فيني وقصائد ماسفليد وسيتول و (فنست ملاي) توفيقاً عظيماً وخاصة في الثلاث قصائد الأخيرة فإنه يبلغ الذروة في الدقة والرقة والقوة أما قصيدته في قبرة شلي فقد جمعت كل ما سكبه قلب الشاعر الإنجليزي العظيم من الحلاوة والحرارة والصفاء وكل ما جادت به شاعرية المترجم من فنون التصوير والغناء وسعة الخيال وحسن الأداء، ولقد قدم المترجم لقصيدتي شلي ودي فيني بكلمتين عن الشاعرين ولم يصنع ذلك في بقية القصائد، ولو كان صنع ذلك لحمدنا له صنعه

وما أحسب أن الملاح التائه قد أهمل عن عمد تعريفنا بملاح غير تائه هو جون ماسفيلد شاعر العرش البريطاني الذي بدأ حياته ملاحاً صغيراً يعمل في البحر وهو في الرابعة عشرة من عمره

أما القسم الأخير من كتاب أرواح شاردة، فأنا شديد الإعجاب به، مفتون بالصور التي رسمها المؤلف لرحلاته في أوربا، مشغوف بالحوار الذي أجراه علي محمود طه على ألسنة الأشخاص اللذين التقى بهم في طريقه؛ فليست هذه المقالات مجرد وصف وتزويق من الخيال، بل هي ضلال وأضواء من الفن والعلم والأدب محتفلة بالرشاقة والعذوبة وخفة الروح، ممثلة لهذه العناصر أبدع تمثيل، كأقدر كتاب الأقصوصة، حتى لتشيع فينا ألواناً من الطرب الروحي ساعة من زمن أو لحظة من وقت كما يشيع إشراق الكأس المترعة طرب الشّرب ومرح الندمان؛ وحبذا لو أتحفنا علي محمود طه بكتاب يفرده لهذه الذكريات مضيفاً إليها ما أظنه لم يجد وقتاً لكتابته أو بالنسبة لحجم كتابه (أرواح شاردة)

أما القصيدة التي ختم بها المؤلف كتابه والتي أنشأها في محنة باريس وطلعت بها (مجلة الرسالة) على العالم العربي، فهي مثال من الحسرة والعبرة التي عرفناها في شعر شوقي في مثل هذه المناسبات!

فليهنأ عالم الأدب بمّلاحنا التائه، وليهنأ هو بأرواحه الشاردة

محمد فهمي كمال

العدد 434 - بتاريخ: 27 - 10 - 1941

من أحاديث القهوة

- 4 -

كأننا حين كنا نجلس في لَحَق القهوة على شاطئ النهر كنا نشرف على مسرح من مسارح الفكر والشعور لا يقع في صفوه كدر من أوزار الناس، ولا قذر من أوضار المادة. فلما دفعتنا بواكر الخريف إلى داخل القهوة أحسسنا الدنيا بصخبها وشغبها، وجدها ولعبها، وصدقها وكذبها، وفشلها وغلبها؛ واستشعرنا ثقل الحياة وضعة الناس وسخف الرواية الإنسانية تمثل على أسلوب واحد كل يوم في أي مكان من الأرض صغير أو كبير، وبأي عدد من الناس قليل أو كثير.

مسرح الحياة في القهوة ضيق المجال ضئيل العدد قليل الشهود، ولكنه صورة مقاربة لمسرحها في الوجود الأكبر: ثلاث سلاسل من المناضد الرخامية امتدت في ثلاثة أروقة، قد جلس عليها هواة النرد والدومينو والشطرنج والورق: فأما النرد، ومثله

الدومينو، فيمثل مذهب الحظ والتهويش في ابتغاء الربح؛ فلاعبه لا ينفك ظياش الحلم، جياش الدم، يصك الخانة بالقشاط، ويربك الخصم بالعياط والزياط. وأما الشطرنج، ومثله الورق، فيمثل مذهب الروية والأناة في محاولة الكسب؛ لذلك ترى لاعبه ساكنا ساكتا كتمثال الحكمة، تحسبه من طول تفكيره لا يعمل. ومكسب العقل أو الشطرنج بطيء ولكنه ثابت، ومكسب الحظ أو النرد سريع ولكنه متقلب.

وعلى حواشي هذه السلاسل جلست جماعات مختلفات في منهج السلوك ودرجة الثقافة؛ فهؤلاء من رجال العمل يُداهي بعضهم بعضاً في مبايعة أو مقاولة، وأولئك من رجال العلم يتنازعون الحجج في مناقلة أو مجادلة.

وفي مماشي القهوة أفراد من صعاليك الخلق يمشون وأبصارهم لا تقع إلا على النعال أو على الأرض: أولئك هم ماسحو الأحذية ولاقطو الأعقاب؛ وهم يمثلون الذين رضوا بالهُون والدون، وجهلوا أن فوق الأرض سماء، وأن مع (البراطيش) طرابيش!

ولو أردنا لوجدنا لكل طبقة من طبقات المجتمع صورة من صُور القهوة نَشَقق عليها الحديث ونعمق فيها البحث، ولكننا نقف اليوم عند صورة هذه العيون المشدودة إلى الأرض، أو المعقودة في النعال، فإنها أولى بالتفكير وأجدر بالرثاء.

هذه الصورة تمثل الفلاح ابن الأرض وعبد الأرض؛ قصر نظره على الأرض ليزرع، كما قصرت البهيمة نظرها على الأرض لترعى؛ فلا هو يطمح أن يكون إنساناً يترقى، ولا هي تطمح أن تكون طائراً يرتفع. حتى الصلاة لا يعرف الفلاح منها غير الركوع والسجود؛ أما دخوله فيها بالتكبير، وخروجه منها بالتسليم، فمعنيان ميتان في نفسه، لا يفهم من الأول صلته بالله، ولا من الآخر صلته بالناس. وإذا علمت أن هذا الفلاح في بعض الأمم الدستورية الشرقية هو الكثرة الكاثرة والسواد السائد، علمت كيف يُزوَّر فيها الرأي العام، ويُزَّيف النظام الديمقراطي!

كانت هذه الصورة في تلك الليالي مثاراً للحديث عن الفلاح وما يتحمله من سوء الحالة وقبح الجهالة؛ وكانت القهوة على ما تريد (الوقاية) مغلقة النوافذ مرخاة الستائر لا تملك لضوضائها المكبوتة وأنفاسها المحبوسة متنفَّساً ولا فرجة؛ وكان اصطكاك النرد وارتفاع الأصوات وضجة المذياع قد جعلتنا أشبه باليهود في بُرصة العقود، فلم نكد نسمع الأستاذ عدلي وهو يلقي هذا السؤال على الأستاذ توحيد:

- إذا صح أن الشعور بالنقص مبدأ الكمال، فبماذا نعلل بقاءنا في هذا الدرك الأسفل من الحياة ونحن لا نكاد نسمع في كل مكان ومن كل إنسان غير الشكوى من اختلال النظم واعتلال احكم وانحلال الخلق؟

فقال الأستاذ توحيد: أما إجماع الناس على الشكوى من سوء الحال فما أظن الواقع يؤيده. وإذا كنت تعني إجماع أهل الرأي من رجال الثقافة والصحافة، فإن شكوى هؤلاء لا تدل إلا على آلامهم هم. والقول بأن الأمة متمدنة لأن فيها قوماً يأكلون أكل الذوات، ويلبسون لبس الخواجات؛ وبأنها متعلمة لأن فيها جماعة يحملون شهادات من كل نوع، ودرجات من كل قياس؛ وبأنها طموحة لأن فيها طائفة من مرهفي الحس وعشاق الكمال يطمحون إلى خطير المساعي، ويتشوفون إلى بعيد المطامع؛ ذلك القول لا يسوغه إلا الغرور أو الهزل.

صحيح أننا كنا نقول قبل اليوم: إن المصريين أصل الناس، وإن مصر أم الدنيا؛ فلما رقَّت الأغشية الكثيفة عن العيون، كدنا نبصر موقعنا من البلاد وموضعنا من الأمم، ولكن ذلك لا يعني أننا شعرنا بالنقص، ووقفنا على العلة، وبرمنا بالجمود، ونزعنا إلى التكمل.

أن الفلاحين وهم جمهور الأمة قد مات في نفوسهم - لسبب لا أدريه - ذلك القلق الروحي

الذي يتحدى القدر ويخلق الطموح ويحقق التطور. فإذا انبثق في صدورهم ذلك النور الإلهي اهتدوا إلى الطريق الإنساني الذي أظلوه، فلا يحتاجون إلى من يبني لهم المراحيض في البيوت، أو يضع لهم النعال في الأرجل. وليس العلم شرطاً في حُبَّك النظافة وطلبك الحق وإبائك الضيم ورعايتك الصحة، فإن ذلك كله من مقتضيات الفطرة السليمة. والبدوي على عنجهيته وجهله لا يزال المثل المضروب في الاعتداد بالنفس والاحتفاظ بالكرامة. وفي يقيني أن الواجب الأول على رجال الدين وأقطاب الصحافة ورجال الإصلاح أن يقنعوا الفلاح بأنه إنسان. ذلك وحده كفيل أن يعلمه كيف

يعيش، وأن يلهمه كيف يرقي!
وهنا قدح الأستاذ توحيد زناده الفضيَّ النادر، وأشعل سيجاره التُّسكانيَّ الفاخر؛ ولم يكاد يطفئه ويستأنف الكلام حتى أُغلقتْ مفاتيح الأنوار، وأطلقت صفارة الإنذار، فخشعت الأصوات، وسكنت الحركات، واستولى على الناس شعورٌ من صريح القلق ورياء الصبر فاستحال الإصغاء وانقطع الحديث!
(المنصورة)
أحمد حسن الزيات
كلمات صريحة:
في التربية والتعليم
للدكتور زكي مبارك
شعار التلميذ - في مدارس البنات - ضرب التلاميذ - الغداء في المدارس - بين النظار والمدرسين - أخطار تهدد بعض المدارس الأهلية
شعار التلميذ
كنت اقترحت على حضرة صاحب العزة مراقب النشاط المدرسي أن يشير بأن تكون ملابس التلاميذ جميعاً من قماشٍ واحد، وبهندامٍ واحد، ليسلم أغنياؤهم من آفة الازدهاء، وينجو فقراؤهم من آفة الاتضاع، ولنضمن سلامة أولئك وهؤلاء من عوادي التنافس البغيض.
ثم مضيت فكتبت كلمة وجيزة في جريدة (الأهرام)، أردت بها التمهيد لعرض هذا الموضوع على (مؤتمر التعليم) فكيف استقبله كبار المربين بوزارة المعارف؟
اتفقوا على صواب الفكرة، ولكن معالي الوزير رأى في تنفيذها إرهاقاً للآباء في مثل هذه الظروف، فقد يكون فيهم من يعجز عن إمداد أبنائه بأثواب جديدة في العام الدراسي الجديد.
ولا ريب في أن معالي الوزير لم يرد غير الرفق بالآباء، ولكن ما رأيُ معاليه فيمن يحدثه بأن التلاميذ لن يرفقوا بآبائهم أبداً، ولن يكون فيهم من يفهم أن الناس جميعاً يعانون قسوة الغلاء؟
إن التلميذ طفل، والطفل يعتقد أن أباه على كل شيء قدير، وإذا فرضنا المستحيل وقدّرنا أن الطفل قد يراعي ظروف أبيه، فلا يكلفه ما لا يطيق في هذه الأيام، فمن يضمن سلامة هذا الطفل من الألم المكبوت، وهو يرى من بين التلاميذ من يرجعون إلى المدارس وهم في اختيال بما أعدوا للعودة المدرسية من الزينة والرَّواء؟
ليس في مصر تلميذ واحد يقدر ظروف أبيه، وإن فعل فسيشعر في قرارة نفسه بأن أباه
ضعيف الحول، وأن الدنيا بخلت عليه وعلى أبيه بما يبعد عنهما شبهة العوز والاحتياج.
وما وجودُ المصلحين إذا عجزوا عن رأب هذا الصدع بوسيلة لا تكلفهم غير قليل من الالتفات، كأن يرعوا أن التلميذ جندي والملابس واحدة لجميع الجنود؟
قد لا يخر في بال وزير المعارف أن في مصر آباءً يقتلون أنفسهم بالبلاء الذي يسمى (التقسيط)، فأولئك الآباء يزوّدون أبناءهم بما يشتهون عن طريق الدَّين، فيظهرون بمظهر الغني، مع أنهم يستعجلون الفقر بخطوات سراع!
و (شعار التلميذ) وقاية من هذا الداء، فقد يستطيع التلميذ الفقير أن يقضي العام كله بثوب واحد، ما دام يتعهده بالصيانة والتنظيف، ولن يكون في ذلك ما يحرجه أمام رفاقه، لأنه لم يلبس غير الثوب المطلوب.
ومن أعجب العجب أن نفكر في الطب لجميع أمراض المجتمع ثم ننسى الطب للأمراض التي يتعرض لها التلاميذ، وهم بحكم أسنانهم الصغيرة معرَّضون للآفات النفسية، لأنهم يعجزون عن مقاومة آفات النفوس، ولأن رفاقهم لا يعفونهم من الغمز والتلويح، إذا رأوهم في أثواب لا تعفي لابسيها من التعرض للازدراء. . . وكل ثوب لا يكون ابن يومه هو في نظر التلميذ علامة فقر وإملاق. . . وكان الله في عون من له أبناء يتعلمون في المدارس المصرية، ولو كان من الأغنياء!
وهنالك ظاهرة غريبة لا يلتفت إليها أكثر المربين، فالتلميذ الذي يستحي من شكوى حاله إلى أبيه، لا يستحي من الشكوى إلى أمه، وليس بينه وبينها حجاب، والأم امرأة لا

مرؤ، وإحساس المرأة بتفاوت الأزياء أحدّ من السيف الصقيل.
فماذا تصنع الأم؟ إن بلّغت الشكوى إلى زوجها كدرته بلا موجب، لأنها تعرف عجزه عن تحقيق ما يريد ابنها (الطفل)، وإن كتمت شكواها وشكواه عاش البيت في جمر لا يطمسه غير رماد لا يحتمل عصف الرياح.
ومن المزعج أن الأغنياء لا يكتفون بإسباغ الأثواب الجميلة على أبنائهم المنعَّمين، وإنما يزوّدونهم بالمال في كل يوم، ليُقبِلوا على (مَقصف المدرسة) إقبال الأفاعي على الأوطاب. وللمنصف أن يتصور كيف يكون حال التلميذ الذي لا يجد في جيبه غير قرشٍ واحد بجانب التلميذ الذي يجد في جيبه عشرات القروش؟
ذلك تلميذ يشتري شطيرة مكونة من الخبز والفول بقرش أو نصف قرش، وهذا تلميذ يلم بجميع ما في المقصف من ألوان وأصناف، ثم يشاء له (أدبه) أن يزهد في الماء فلا يشرب غير منقوع المنجة أو الليمون.
وليكن مفهوماً أن طبقات التلاميذ في الحاضر هم طبقات الرجال في الاستقبال، ومعنى هذه اللفتة أن تناحر الطبقات في الغد توضع بذوره في المدرسة، المدرسة التي أقيمت لتشيد صروح الأخلاق!
فما أعجبَ ما نصنع بأبنائنا، وهم في أصل الفطرة أبرياء!
ثم ماذا؟ ثم يشاء الأغنياء - عفا الله عنهم - أن لا يعود أبناؤهم إلى المنازل إلا في سيارات خصوصية!
وهنا أذكر حادثاً رواه أحد المفتشين، قال:
اتفق مرةً أن يدوم عملي في التفتيش على إحدى المدارس إلى الحصة الأخيرة،) فخرجت وقد أعييت، ولم أكد أخرج من باب تلك المدرسة حتى واجه الصغير آذاني من كل صوب، فشعرت بدوار مخيف، وبدا لي لا نجاة من أخطار السيارات التي تنتظر أبناء الأغنياء. ثم جمعت ما تبدد من قواي ونظرت حواليّ فرأيت التلاميذ الفقراء يتسللون إلى الطريق في ذلة وانكسار، كأنهم طرائد لعار ورثوه عن آبائهم المساكين!)
فما الموجب لأن يرجع بعض التلاميذ إلى منازلهم في سيارات خصوصية، وفي طنطة تجّسم ما بين الطبقات من فروق لا يسكت عنها الناس إلا عاجزين؟
ما الواجب لذلك ولأكثر التلاميذ مواصلات أنفعها المشي على الأقدام ليعَّودوا مواجهة الصعاب، إن كان المشي عشرة دقائق من جملة الصعاب؟
إن سعادة سامي بك راغب وكيل وزارة المالية يصل إلى مقرّ عمله عن طريق (المترو) ثم (الترام) وكأنه في مثل حالي! ومنذ يومين صادفت الأستاذ خيري بك مراقب منطقة القاهرة حيران في ميدان باب الحديد، لأنه وجد جميع قطارات (الترام) مشغولة - ومن ذلك فهمت أنه لا يقتني سيارة - وقد اشترك مع بعض زملائه في (تاكسي) ليصل إلى وزارة المعارف في الوقت المحدد. وكبار الموظفين في مصر لا يقتنون سيارات، إلا أن يكونوا من محدثي النعمة ومن هواة الشهرة بالترف والنعيم. . . وهل أنسى أن الأستاذ نجيب بك حتاتة حدثني أنه لم يعرف المستر دنلوب إلا في الترام، وكان المستر دنلوب في الأيام الخوالي طاغية وزارة المعارف؟
وخلاصة القول أن الأغنياء في مصر لا يعرفون ما يجنون على أنفسهم وعلى أمتهم بما يتورطون فيه من إعلان الغني والثراء.
أيكون للغني هذا البريق الذي يزيغ الأبصار والبصائر؟
ألا يرعوي بعض الأغنياء عن إعلان غناهم بتلك الطرق البهلوانية، ليقوا بلادهم شر الفتنة المخوفة من حقد الفقراء على الأغنياء؟
كل شيء جائز، إلا أن تمتد ألسنة هذه النار إلى المدارس، وهي فيما نرجو محاريب لا يتوجه إليها غير من تنزهوا عن التكبر والاستعلاء.
أما بعد فما رأي وزير المعارف؟
ما رأيه في الدعوة إلى أن تكون المدرسة كالمسجد، وفي المسجد حصيرٌ واحد لجميع المصلين، ولو كان فيهم وزراء وأمراء؟
يجب أن يكون (شعار التلميذ) واحداً لجميع التلاميذ، ولو كان فيهم أبناء فلان وفلان، لأنهم جميعاً جنود، والملابس واحدة لجميع الجنود، فإن لم يراع هذا وزير المعارف

فسنسجل عليه أنه فرّط قليلاً في حق هذا الجيل.

في مدارس البنات

يظهر أنه لا مُوجب للخوف من التنافس بين تلميذات المدارس فيما يتصل بالأزياء، فالمرايل واحدة للجميع، وهي تستر ما تحتها من الملابس القطنية أو الصوفية أو الحريرية، إن صح أن عند البنات من العقل ما يكفهن عن التطلع إلى ما تحت (المرايل) من أثواب!

ومع ذلك فلا بد من أن تحرص ناظرات المدارس على النظر في هذه الدقائق، لنضمن سلامة التلميذات من التنافس في الأزياء.

والناظرة أمٌّ ثانية، وتعقبها لهذه الشؤون لا يعدْ من الفضول، وستظفر بالثناء من الأغنياء قبل الفقراء.

أما المقصف فحاله في مدارس البنات كحاله في مدارس البنين وهو مصدر شر وبلاء، ومن الواجب أن لا يباع فيه غير الأطعمة الضرورية، بحيث لا تجد التلميذة غير تدفع الجوع الذي يطرأ قبل وقت الغذاء، أما تزويد المقصف بكل ما لذّ (تصبيرة) وطاب فهو فرصة لنمو العادات السخيفة، كالتباهي بالغنى والترف والنعيم. . .

وبدعة صبغ الوجه بالألوان قد وصلت إلى بعض تلميذات اليوم، ولعلها وصلت إلى بعض المعلمات!

فلتنظر في ذلك ناظرات المدارس، فالتلميذات سيكن في المستقبل ربات البيوت، والرياضة على إيثار اللون الطبيعي ستنفعهن كل النفع، فاللون الخمريُّ أجمل الألوان، والإبقاء عليه غاية من الغايات القومية، لأنه من خصائص هذه البلاد، ولأنه الوشيجة التي تقرّب بناتنا من أخواتهن في الحجاز والعراق. وهل استطاع السواد أن يحجب الجمال الفتان عن أخواتهن في السودان!

إن القول بأن (البياض نصف الحُسن) مدسوس على الرسول، وهو فرية أذاعها الوافدون على العرب من الأقطار الرومية، فلندفع عن اللون المصري شر الأصباغ المجلوبة من بلاد لا تعرف من الجمال غير الطلاء.

ضرب التلاميذ

العقوبات البدنية ممنوعة بأمر وزارة المعارف المصرية، وتلك العقوبات موضع خلاف بين رجال التربية والتعليم، وقد أجازها بعض الإنجليز والألمان، بحجة أنها عقوبات طبيعية.

والواقع أن بعض التلاميذ (يستأهلون الضرب) ولكن إقرار هذا المبدأ قد تكون له عواقب سود، كما شهدت الحوادث التي ساقت مجترحيها إلى القضاء.

والواقع أيضاً أن المدرس قد يكون مسئولاً عن شيطنة التلميذ في بعض الأحيان، فهو قد يحاسبه على كل لفتة وكل لفظة بأسلوب يحمله على العناد، وإذا عاند التلميذ أستاذه كان ذلك بداية الاختلال في الصفوف.

التلميذ لا يجهد نفسه وقت الدرس بقدر ما يصنع المدرس، ومعنى ذلك أن الإجهاد قد يعرّض المدرس لسرعة الانفعال، ولا كذلك التلميذ، فهو في راحة نفسية تجيز له أن يضحك من غير موجب، وقد يرسل النكتة لمنظر يراه من المدرس أو من بعض التلاميذ.

وهنا تسنح الفرصة لإبراز قدرة المدرس على ضبط النفس، ولو شئت لقلت إن من واجب المدرس أن يرحب من وقت إلى وقت بشيطنة التلاميذ، لأنها من مظاهر الحيوية، ومن الشواهد على أنهم أصحاء.

وهل تكون المدرسة في كل أوقاتها كدحاً في كدح، ونضالاً في نضال؟

إن العلة الأساسية هي الشعور بأن التلميذ مسئول عن النظر إلى الدنيا بعين المدرس، وهذا شعور خاطئ، فالمدرسون والتلاميذ يمثلون جيلين مختلفين، ولا يتم بينهما التوافق إلا إذا روعي هذا الاختلاف.

وإذا شعر التلميذ بأن أستاذه يتجاوز عن هفواته في بعض الأحايين أضمر له الحب، وانساق إلى الطاعة بأدب وإخلاص.

أكتب هذا وتحت يدي وثائق تشهد بأن ضرب التلاميذ لا يزال مباحاً في بعض المدارس الأولية والابتدائية، أما المدارس الثانوية فتلاميذها يستطيعون الدفاع عن أنفسهم إذا

اشتجر القتال!
الضرب ممنوع، ممنوع، ممنوع،
والمدرس الحق هو الذي يشغل تلاميذه عن اللهو بجذبهم إلى موضوع الدرس بحيث تضيق صدورهم من التلميذ الذي لا يراعي أدب الاستماع، ومتى صار التلاميذ من جنود المدرس أصبح من حقه أن يقول إنه من كبار المربين.

الغداء في المدارس

أكثر المدرس الأهلية والأجنبية لا تقدِّم لتلاميذها طعام الغداء، فما سبب ذلك؟
يرجع السبب إلى أن المصروفات المدرسية بدون الغداء تبدو هينة، فإذا أضيف إليها الغداء ظهرت عسيرة الاحتمال.
والمدارس التي لا تغدي تلاميذها تسمح لهم بالخروج ساعتين، ليتغدوا في بيوتهم أو حيث شاءوا. وفي أغلب الأحوال يأخذ التلاميذ من آبائهم ثمن الغداء، ثم يتغدون في المطاعم السوقية، وقد يؤثرون الجوع ليدخروا من تلك القروش ما يعينهم على قضاء بعض السهرات. . . والمهم هو النظر في الساعتين اللتين يقضيهما التلميذ بعيداً من المدرسة وبعيداً من البيت، فماذا ترونه يصنع في هاتين الساعتين؟
هل ترونه يصنع ما كان يصنع أمثاله يوم كانت الدنيا بخير، ويوم كان التلميذ يذهب إلى أقرب مسجد فيصلى الظهر ثم يراجع دروسه بشغف وشوق؟
يظهر أن الأمر لم يعد كذلك، ويظهر أن لا مفر من وصف هاتين الساعتين بالمشئومتين، ففيهما يعرف التلميذ أشياء لا تخطر للمدرسة في بال.
وإذن يجب منع التلاميذ من الخروج وقت الظهر، ويجب أن يتغدوا في المدرسة، لا في السوق ولا في البيت، وفي مثل هذه الحال تعدُّ لهم المدرسة غداءً قليل التكاليف، لتبقى السهولة في المصروفات. وأهون طعام تعدُّه المدرسة سيكون أنفع للتلاميذ من طعام السوق، وأصون لهم من الجري في الطرقات.
فإن لم تستطع هذه المدارس أن تغدِّي تلاميذها وأن تصونهم من قضاء ساعتين بلا رقابة مدرسية ولا بيتية، فيجب حتماً أن تسير على النظام الذي اختارته بعض المدارس الأجنبية، وهو قضاء اليوم الدراسي في وقتٍ موصول، بحيث ينتهي في منتصف الساعة الثانية، ثم يخرج التلاميذ إلى بيوتهم ليقضوا بقية النهار تحت رعاية الآباء.
وأرجو أن يسمع بعض خلق الله هذا الكلام، وما أحب أن أزيد.

بين النظار والمدرسين

توجد أزمة مكبوتة بين النظار والمدرسين، ومَرَدُّ هذه الأزمة إلى الوهم الذي يقول بأن الناظر هو صاحب الأمر كله في الدار المدرسية، بحيث لا يتصرف المدرسون أقل تصرُّف إلا بعد الاستئذان.
وهذه الحال تُشعر المدرس بأن الصلة بينه وبين الناظر صلة رسمية لا تعليمية، والفرق بين الصلتين بعيد، فالصلة الرسمية لا تصل بالمدرس إلى حب الدار المدرسية، أما الصلة التعليمية فتصل به إلى الشعور بأنه في داره وبين عشيرته الأقربين.
ويؤلمني أن أصرِّح بأن المدرسين لا يحبون مدارسهم إلا في أندر الأحيان، فما سمعنا أن مدرساً في قنا رفض النقل إلى القاهرة بحجة أنه يشعر بأن بينه وبين مدرسته صلة روحية، وإنما سمعنا أن المدرس يطلب النقل من مدرسة إلى مدرسة لأسباب بعيدة كل البعد عن المعاني التعليمية.
فهل يكون للصلات بين النظار والمدرسين أثرٌ في خلق هذا العقوق؟
أنا أتمنى أن يوجد عندنا المدرس الذي يرى في أحجار مدرسته شمائل قدسية، فلا يرضى بفراقها ولو كانت في الواحات.
وأتمنى أن يوجد عندنا الناظر الذي يشعر بالأبوة للتلاميذ والأخوَّة للمدرسين.
بأيديكم أيها النظار والمدرسون أن تخلقوا في الجو المدرسيّ روحانية تعوّض ما يفوتكم من المناصب المحفوفة بالبريق الخلاب، فإن غفلتم عن هذا الجانب فستظلون في الاكتواء بالمهنة التي لا تسعد غير من يُقبل عليها بصدق وإخلاص.

أخطار تهدد المدارس الأهلية

للمدارس الأهلية تاريخ مجيد، فقد عاونت على نشر التعليم، وأمدت الأمة بجمهور كبير من المثقفين.
ولكن هذه المدارس معرَّضة لأخطار قد تأتي على بنيانها من الأساس، لا قدر الله ولا

سمح، فلتلك المدارس على الأمة حقوق.
هذه المدارس لا تفكر في استبقاء المدرس، ولو وثقت به إلى أبعد الحدود، فهو عندها ضيف يرحل متى شاءت أو شاء، والرباط بينها وبينه عَقدٌ يُشترى بمليمين وتخط فيه كلمات عديمة المدلول، وإلا فكيف يجوز أن يبقى المدرس بلا علاوة ولا ترقية ولو أفنى شبابه في تلك المدارس؟
هل سمعتم أن مدرسة أهلية أغنت مدرسيها عن التطلع إلى الوظائف الأميرية؟ لبعض تلك المدارس عذر مقبول، كأن تكون قليلة المال، أو مثقلة بالديون، فما عذر المدارس التي أمدت أصحابها بالثراء العريض وجعلتهم من أعيان البلاد؟
ولو كان هذا المسلك ينفع تلك المدارس لقلنا إن لها غاية اقتصادية، ولكن هذا المسلك لا يجلب عليها غير الضر، ولا يسوق إليها غير البوار. وما قيمة مدرسة يشعر تلاميذها بأن أساتذتهم ليسوا إلا معلمين ضاقت عنهم المدارس الأميرية فلم يجدوا سعة في غير المدارس الأهلية؟
لو كان لأصحاب تلك المدارس نصيب من الفهم الصحيح لقواعد الاقتصاد لجعلوا من وسائلهم إلى الثرة أن ينافسوا الحكومة في تزويد مدارسهم بأكابر المدرسين، ويومئذ تشعر الحكومة بأن لها منافسين أقوياء، فيرتفع قدر المدرس، وترتفع أقدار المدارس، ويُنقض الوهم القائل بأن التعليم (مهنة بلا مجد)
وعند الله يحتسب المدرسون جهادهم في خدمة التربية والتعليم فهو عز شأنه لا يضيع أجر
المجاهدين الصادقين.
زكي مبارك
كليلة ودمنة - 3
للدكتور عبد الوهاب عزام
ص 95 س 7: (إن أرضاً يأكل جرذانها مائة منّ من حديد ليس بمستكبر لها أن تختلف بُزاتها الفيَلة)، قال الناقد الفاضل: (ابن المقفع - فيما أشعر - لا يقول هذه الكلمة، بل يقول بمستنكر). ومما يجدر ذكره أن استكبر الشيء بمعنى رآه كبيراً وعظيم عنده، قولٌ منسوب إلى الإمام ابن جنى ولم يقله عامة اللغويين. . . الخ
أقول: هذا القول جاء من كتب اللغة كثيراً منسوباً إلى ابن جنى وغير منسوب، وهو مقيس مسموع. وأرى أن (أمُستَكبر) أولى بهذا الموضوع من (مستنكر)، لأن الاستنكار أن يعدّ الأمر نُكراً، والاستكبار أن يعدّ كبيراً، ومرجع المعنى في هذه الجملة إلى أنه مستكبر للبزاة أن تختطف الفيلة لا إلى استنكار هذا. ثم استعمل كلمة (لها) دون (عليها) أقرب إلى الاستكبار. فإن جاز أن توضع مستنكر هنا فمستكبر في رأيي اقرب إلى سياق الحديث وأخصّ في المعنى.
ص 107 س 6 (إذا جئتني يا ليل من غير نداء ولا رمى ولا شيء يرتاب به) قال الناقد: فما ذلك الرمي؟ الصواب: (ولا رمز) وأقول إن الرمي هو الصواب لأن الرمز من أغلب معانيه إشارة باليد أو غمز بالعين أو الحاجب. وهذا مما لا يبين بالليل وإنما أراد الكاتب أن ينبذ إليها شيئاً تعرف به حضوره.
ص 115 س 13 وصفحات أخرى (رأس الخنازير وسيّد الخنازير) قال: عندي أنها رأس الخبّازين وسيد الخبّازين. واستدل ببعض النسخ. وأرى أن الخنازير أقرب إلى الصواب لأن دمنة وصف هذا الرئيس بصفات الخنازير. وليس في وصفه بأنه صاحب المائدة ما يجعله خبازاً ثم تسميه رئيس الجماعة سيدهم كما يقال سيِّد الخنازير أقرب من أن يسمى رئيس الصناع سيدهم فيقال سيد الخبازين. وقد بينت اختلاف النسخ في هذه الكلمة في التعليق الحادي عشر من باب الفحص عن أمر دمنة. وعن هذا التعليق أخذ الناقد روايات النسخ التي استدل بها. ومن غريب ما وقع في هذا النقل أني قلت في التعليق (وفي نسخة شيخو والسريانية) أعني النسخة السريانية الحديثة فقال الأستاذ في النقد: (وفي نسخة شيخو السريانية). وليس لشيخو نسخة سريانية.
ص 127 س 1: (وأخفت عليّ الشبكة حتى لججت فيها وصويحباتي)؛ قال الناقد: إنما هو لحج - أي نشب - وقوله في هذا سديد جيد، أرجو أن يكون ابن المقفع أراده.
ص 133 س 15: (وكان الضيف رجلاً قد جال الآفاق) قال: والفعل جال لا يتعدّى بنفسه، والوجه جال في الآفاق. أقول: والأمر في هذا هين، فقد قيل جوّل البلاد وجول

فيها ولا يبعد أن يعدّى جال بالتضمين أو ضرب من التوسع.
ص 139 س 8: (وانقلبت ظهر البطن وانجررت حتى دخلت جحري). قال: وإنما هي انحدرت - أي نزلت في سرعة إلى الجحر - أقول: كان هذا وجهاً لو كانت الجملة (وانجررت في جحري)، ولكنها: (انجررت حتى دخلت في جحري)، فقد جرّ الجرذ نفسه حتى بلغ الجحر. ولا يلزم أن نتصور الحجر في مكان منخفض، فنضع انحدر مكان اتجرّ
ص 150 س 7 (إن كان (العدو) بعيداً لم يأمن من معاودته إن كان متكشفاً لم يأمن استطراده)
قال: متكشفاً أي بادياً ظاهراً وهي لا تساير الكلام، والصواب مكثباً أي دانياً الخ.
ورأيي أن هذا ليس صواباً. فإن الاستطراد أن ينهزم المقاتل أمام قرنه ليكر عليه فهو ضرب من المكيدة يراد به إبعاد القِرن عن فريقه أو نحو هذا. ومعنى الكلام هنا أن الإنسان ينبغي أن يكون على حذر من عدوه في كل حال ولا ينخدع بالحالات التي يظن فيها العدو بعيداً أو مهزوماً فإن رأى عدوه متكشفاً ظاهراً له غير ممنوع منه أو متظاهراً بالهزيمة فلا يأمنّ أن يكون هذا استطراداً يريد أن يخدعه به ليكر عليه. فإن وضعنا كلمة (مكثياً) أي دانياً موضع (متكشفاً) اختل الكلام اختلالاً وكان معناه إن رأيت العدو قريباً فلا تفتر بقربه فلعله يريد أن يستطرد لك. وهو كلام متهافت، لأن اقتراب العدو ليس من أحوال الخداع التي يفتر بها عدوه، فيقال له: لا تفتر بقربه، فإنه يستطرد لك. ثم حالة القرب مذكورة بعد هذه الجملة: (وإن كان متكشفاً لم يأمن استطراده، وإن كان قريباً لم يأمن مواثيقه)
قال: هي حيثما دُرتَ - وليست كذلك .(فإن الشر يدور حيثما دارت) 15 :166
فالضمير راجع إلى الطبائع المذكورة في الجملة (أرأيتك لو أحرقناك بالنار كان جوهرك وطباعك تحترق معك؟ فإن الشر يدور حيثما دارت)
قال: والجملة بهذا الوضع مبتورة ناقضة (فابتليت ببلاء حرمت على الضفادع) 4 :171
وتمامها (حرمت على الضفادع من أجله) أي من أجل البلاء وذلك كما في صفحة 77 عن طبعة بولاق.
أقول هذا الاعتراض وأشباهه يسيرٌ على من يريد أن يغير أسلوب الكتاب إلى الأسلوب المألوف المعروف كما فعل الكتّاب بنسخ الكتاب الأخرى. ولكني أزعم أن أمامنا نصاً آخر جديراً بالبحث وأن أسلوب ابن المقفع لا يخلو من أثر الفارسية ولعل هذه الجملة من شواهد هذا التأثير فليس في الجملة الفارسية عائد على الموصول أو الموصوف. لهذا أثبتها كما وجدتها غير عادل عنها إلى روايات النسخ الأخرى.
هذا إجمال الجواب عما يحتاج إلى جواب مما جاء في المقال الثالث من مقالات الناقد الفاضل، وموعدنا بالجواب عن المقال الأخير العدد الآتي إن شاء الله.

عبد الوهاب عزام

الفن الجميل في القرآن الكريم

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

يخطئ من يظن أن دين الله تعالى زهد محض، وتقشف بحت، ورهبانية لا تعنى بزينة الدنيا وزخرفها، وتصوف مظهره لبس المرقعات، فلو صح ذلك لم يكن دين الله عاماً صالحاً لكل الناس، وملائماً لكل زمان ومكان، بل يكون خاصاً بطائفة من البشر، تؤثر التقشف على التنعم، والزهد في زينة الدنيا على التمتع بها. وليس كذلك دين الله تعالى، لأنه دين عام صالح لكل الناس، وملائم لكل زمان ومكان، ولهذا جعل الزهد في الدنيا وزينتها مباحاً لمن يريده، وأحل التمتع بتلك الزينة لمن يريدها، حتى لا يكون فيه حرج على أحد في هذه الحياة، ولا تضيق به طائفة من طوائف البشر، وتسير الحياة في نظامها الصالح بدون إفراط أو تفريط.
وعلى هذا الأساس جاء القرآن الكريم بالفن الجميل من البناء والنحت والتصوير والغناء وغير ذلك، وذكر الله لنا فيه عهد ازدهار تلك الفنون في بعض ما أنزل من الشرائع، وأقام من الملك، وحكى ذلك في أسلوب يفيض مدحاً وإطراء بما ظهر من آثار تلك الفنون في هذه العهود، ويدل على روعة تلك الآثار وجمالها، وأنها كانت أية في الإبداع، ومعجزة من معجزات الفن الجميل، ومفخرة من المفاخر الباقية الذكر.

وقد ازدهر من ذلك في عهد سليمان عليه السلام فنون كثيرة، فبلغت فيه فنون البناء والنحت والتصوير أوج عظمتها، ووصلت إلى أرقى ما وصلت إليه عند الأمم المتحضرة في العصور القديمة، وقد ظهرت آثارها الرائعة فيما بنى سليمان من المساجد والقصور، وفيما شيد من المدن والحصون، وإلى هذا يشير الله تعالى في قوله: (ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر، وأسلنا له عين القطر، ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير، يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب، وقدور راسبات، اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور). 12، 13 من سورة سبأ.

وكان بيت المقدس أعظم ما تجلت فيه تلك الآثار، وتبارى في زينته أرباب الفنون الجميلة؛

وكان داود عليه السلام قد ابتدأ بناء ذلك البيت لعبادة الله تعالى، ثم مات قبل أن يتم بناءه، فلما ملك سليمان عليه السلام من بعده مضى في إتمام ذلك البيت العظيم، وعمل على أن يكون في عصره آية الآيات، ومعجزة فنون البناء والنحت والتصوير؛ فجمع له أرباب تلك الفنون من سائر الجهات، وخص كل طائفة منهم بالعمل الذي تعرفه، وأحضر الرخام والبلور من أماكنهما، وأمر ببناء المدينة بالرخام والصفائح لتتلاءم مع ذلك البيت الذي يريد تشييده، ويكون واسطة العقد وقلادة الجيد، وقد جعلها أثنى عشر ربضاً، وأنزل في كل ربض سبطاً من أسباط بني إسرائيل، ثم شرع في تشييد ذلك البيت العظيم وأحضر الذهب والفضة والجواهر واليواقيت والدر الصافي والمسك والعنبر والطيب، وأتى من ذلك بشيء كثير لا يحصيه إلا الله تعالى، أتته به أساطيله التي كانت تمخر عباب البحار، وتتنقل فيها شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً، ثم أحضر المهرة من الصناع وأمرهم أن ينحتوا تلك الأحجار ويجعلوها ألواحاً، وأن يصلحوا الجواهر ويثقبوا اليواقيت واللآلئ، فبنى ذلك البيت بالرخام الأبيض والأخضر والأصفر، وعمده بأساطين البلور الصافي، وسقفه بأنواع الجواهر الثمينة، وفصص سقوفه وحيطانه باللآلئ واليواقيت وسائر الجواهر، وبسط أرضه بألواح الفيروزج، فلم يكن على وجه الأرض بيت أبهى ولا أنور من ذلك البيت، حتى كان يضئ في الظلمة كالقمر ليلة البدر.

وقد زاد في زينة ذلك البيت ما نقش فيه من الصور الجميلة، وما أقيم فيه من التماثيل البديعة، وكان بعضها مصنوعاً من النحاس وبعضها مصنوعاً من الرخام وبعضها مصنوعا من الزجاج، وكان منها ما يمثل صور الملائكة ومنها ما يمثل صور الأنبياء، ومنها ما يمثل صور الصالحين، ومنها ما يمثل صور السباع والطيور وغيرها. وكان من معجزات تلك التماثيل تمثالا أسدين كانا موضوعين تحت كرسي سليمان عليه السلام، وتمثالا نسرين كانا موضوعين فوقه، فإذا أراد أن يصعد بسط له الأسدان ذراعيهما، وإذا جلس على كرسيه أظله النسران بأجنحتهما.

وإن ننس لا ننس حديث الصرح الذي شيده سليمان لبلقيس ملكة اليمن، وأشار الله تعالى إلى عجيب شأنه في قوله (قيل لها أدخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها، قال إنه صرح ممرد من قوارير، قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان
لله رب العالمين) - 44 - من سورة النمل.

فهذا الصرح كان آية من آيات الفن الجميل، وهو يدل أكبر دلالة على عظم ازدهاره في ذلك العهد، وكان سليمان قد شيد ذلك الصرح لبلقيس ليريها عظمة ملكه، ويطلعها على براعة أرباب الفنون في دولته، فأقامه من الزجاج الأبيض كالماء، وأجرى الماء تحته، وألقى فيه السمك والضفادع وغيرهما من دواب البحر، ثم وضع سريره في صدر المجلس وجلس عليه، فلما أقبلت بلقيس قال لها سليمان ادخلي الصرح، فحسبته لجة أي ماء عظيما، وكشفت عن ساقيها لتخوضه إلى سليمان في صدر المجلس، فقال لها أنه صرح ممرد من قوارير، فحينئذ سترت ساقيها، وعجبت من ذلك غاية العجب، وعلمت أن ملك سليمان من الله تعالى، فأسلمت لله رب العالمين.

وكذلك ورد فن الغناء في القرآن الكريم منسوباً إلى داود عليه السلام، وإليه الإشارة بقوله تعالى: (ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد) 10 من سورة سبأ، ولهذا يقال - نغمة داود - مثلاً في طيب الصوت، وكان عليه السلام إذا

قام في محرابه يقرأ الزبور عكفت عليه الوحش والطير تصغي إليه، ويقال أيضا - مزامير داود - لأنه فيما قيل كان له مزامير يزمر بها إذا قرأ الزبور، فكان إذا اجتمع عليه الإنس والجن والوحش والطير أبكى من حوله. وقال المبرد: (مزامير آل داود كأنها ألحانهم وأغانيهم)، وقال غيره: (إن طيب صوته ونغمة نغمته شبها بالمزامير ولا مزامير ولا معازف هناك)

وكان عثمان بن عفان أول من عنى بتلك الفنون بالإسلام، ولهذا أخذ عليه أعداؤه أنه بدل الإمارة على المسلمين من زي النسك إلى زينة الملك. وقد نقل ذلك أبو نصير العتبى في كتابه (اليميني عن رسالة ألبستي في الترجيح بين الصحابة)، وهذا شيء نراه مفخرة لعثمان رضي الله عنه - وإن رآه أولئك المتنطعون في الدين مذمة له - وقد أخذ عثمان يهتم بتزيين المملكة الإسلامية بعد أن استقر أمرها، وتغلبت على دولتي الفرس والروم؛ فلم يعد من اللائق أن تبقى على مظاهر البداوة، وقد دان له من دان من أهل الحضارة.

وكان مسجد المدينة أول ما عمد إلى تشييده، فهدمه وبناه بالجص والحجارة، وأحضر له مهرة البناءين من المملكة الإسلامية الواسعة. ثم أتى الوليد بن عبد الملك فأرسل إلى عامله

على المدينة عمر بن عبد العزيز، فزاد في المسجد شرقاً وغرباً وجنوباً، وبنى له أربع مآذن، وفرش أرضه بالرخام، ووشّى جدرانه بالفسيفساء، وكسا سقفه بالذهب، وجعله أساطينه من المرمر.

فيا رب هذا دينك جميل كل الجمال، وليس فيه شيء من ذلك الحرج الذي أفسد أذواقنا، وأغلظ طباعنا، وعكس موازين الحسن والقبح بيننا، حتى صرنا نرى الحسن قبيحاً، والقبيح حسناً. ولا شك أن الفنون الجميلة هي التي تهذ الوجدان، وترقق العاطفة، فلا يسع أي دين أن ينكر فضلها، أو يغض من شأنها. وقد ذكرنا من أمرها في القرآن ما فيه الكفاية لبيان شأنها فيه.

عبد المتعال الصعيدي

اتجاهات الاقتصاد النازي

للأستاذ فؤاد محمد شبل

كلمة عامة

من المبادئ الأساسية للحزب الوطني الاشتراكي أن صالح المجموع يجبَّ صالح الفرد، وهذا يعني خضوع مصالح الأفراد لما تعتبره القوة الحاكمة في الدولة مصلحة للجماعة. ويتخذ القائمون على شئون ألمانيا اليوم هذا المبدأ ستاراً لتدخل الدولة في الشئون الاقتصادية للأفراد تدخلاً غير محدود المدى.

وإنه وإن كان النظام الاقتصادي النازي يتلقى في جوهره مبدأ (إدارة الدولة) إلا أنهم في الواقع قد بسطوا إشراف الدولة والمجالس البلدية على كثير من المشروعات. ومن المفارقات أن رجال النازي رغماً من ذلك ينادون باعتناقهم المبدأ القائل بأن الحياة الاقتصادية يجب أن يكون قوامها الحافز الفردي والمشروع الفردي بمعنى الملكية الفردية لأدوات الإنتاج، وتحمل الفرد لأخطار المشروع، لكنهم يطالبون بخضوع الفرد لإشراف الدولة وتوجيهها. وليس هناك ما يغضب الألمان أكثر من تشبيه نظامهم الاقتصادي بالنظام الاقتصادي السوفييتي، ونراهم يقولون في معرض تفسيره والدفاع عنه أن نظامهم في جوهره لا يعتبر نهجاً اقتصادياً إذ ليس ثمة هيئة مركزية عليا تشرف على تنفيذ النهج، ولا نهج تسعى هذه الهيئة لتحقيقه على نحو المتبع في مشروع الخمس سنوات الذي تتبعه روسيا. فمشروع السنوات الأربع الأولى في ألمانيا كانت الغاية منه القضاء على التعطل والثانية لتحقيق الاستكفاء الاقتصادي للبلاد والاستعداد للحرب.

ويسود الحياة الاقتصادية الألمانية نظام يدعونه نظام الزعامة، مبناه أن يقوم على كل جماعة منتجة (زعيم) تأتمر الجماعة بأمره، وهو مسؤول عن توجيه الإنتاج الخاص للجماعة إلى خير الوجهات التي تتفق والسياسة العليا المرسومة. على أنه قد خفف من قوة ضغط نظام الزعامة هذا في الصناعة، فعدل في السنوات الأخيرة بأن أوجدوا سلطة عليا تستأنف إليها آراء الجماعة عند اختلاف أعضائها وعدم وصولهم إلى قرار حاسم، هذا ويوجد جيش من الموظفين الرسميين مهمته التحقق من نفاذ قوانين

الحكومة التي لا عد لها ولا نهاية، ويتجلى هذا التدخل بنوع خاص في كل ما يتعلق بالبيوت التي تعمل في التجارة
الخارجية أو التي تطلب تصاريح للحصول على مواد أولية.

وإذا استقرينا النظام الاقتصادي الألماني وجدناه يعوزه كثيراً وجود الارتباط بين أجزائه المختلفة، مما أفضى إلى نشوء كثير من المتاعب، وسبب خسارة في سجايا الفرد وكفايته الطبيعية. وليس أبعد عن الحقيقة من تصور الاقتصاد الألماني يسير ويعمل كالساعة دقة ونظاماً. فهذا النظام صورة براقة خلابة، لكنها زائفة مستعارة. وليس أدل على ذلك من التصريحات الكثيرة التي يذيعها قادة ألمانيا والمتكلمون عن سياستها الاقتصادية من أن هذا التدخل البعيد المدى في الحياة الاقتصادية والتنظيم الدقيق أمر وقتي وغير طبيعي نتيجة للضروريات التي تجتازها ألمانيا ولا يلبث أن يذهب بذهابها.

وإننا في هذا المقال سنجلو بعض الحقائق عن هذا النظام ثم نتبعه ببيان أساليب ألمانيا التجارية التي تعتبر إحدى صور هذا النظام التطبيقية.

1 - هيمنة الدولة على جميع العمليات المالية

تمكن الألمان بفرضهم رقابة قوية فعالة على التبادل الخارجي، أن يجعلوا اقتصادياتهم بمنأى من تأثير التغيرات التي تأخذ مجراها في بقية أنحاء العالم، فإنه وإن كان في قدرة العوامل الخارجية أن تحدث أثرها في حجم تجارة ألمانيا الخارجية، إلا أنها لا تستطيع أن تنشئ تبايناً واسع المدى بين قيمة كل من الواردات والصادرات عموماً؛ ونتيجة لهذا تمتعت ألمانيا منذ عام 1933 إلى عام 1937 ما خلا عام 1934 بميزان تجاري موافق، فاستطاعت تسديد جزء كبير من ديونها للخارج التي ما فتئت تحد من حريتها في علاقاتها التجارية مع البلاد الأخرى. وثمة نتيجة أخرى لتقييد التبادل الخارجي، وهي فصل النظام النقدي الألماني والأسعار الداخلية عن الأسعار المالية التي أصبحت بعيدة عن تأثير الذهب؛ ومما يتصل بتقييد التبادل الخارجي وضع قيود شديدة على خروج الأموال ولا سيما العملات الأجنبية من البلاد.

ولقد أصبح النظام النقدي في داخل ألمانيا قائماً على المبدأ العام الآتي، وهو أن حجم النقود والائتمان الموجود في التداول يجب أن يتمشى مع الزيادة في الإنتاج والمحصول السلع والخدمات، وهذا ما يعبرون عنه بقولهم: وبعبارة أخرى يرمي الألمان إلى أن يكون نشاط الأحوال الاقتصادية مماثلاً في حجم الإنتاج، لا القيمة الناجمة عن ارتفاع السعر.

وكما أعار الألمان اهتماماً فائقاً للحقيقة الاقتصادية الآتية: وهي أن المنبع الحقيقي لثروة جماعة ما هو العمل والإنتاج فحسب، واعتبروا النقود شيئاً ثانوياً بالنسبة لهم، وإن لم يغفلوا دورها الهام في تمويل المشروع في جميع أشكاله، كما اعتبروا الإنتاج الصناعي أهم أنواع الإنتاج.

ولقد طبقوا في عملهم سياسة تبدو لأول وهلة أنها سياسة تضخم، وذلك أن بنك الريخ خاصة، والبنوك الأخرى عامة، أنشأت أدوات المبادلة (سواء أكانت نقوداً ورقية أم اعتمادات) قبل عملية إنتاج الثروة، إذ الأصل أن يتبع حجم النقود المتداولة حجم الثروة المنتجة. ولقد أظهرت التجربة أن خلق النقود يحمل معه ارتفاعاً تضخمياً في الأسعار، ما دام أن هناك قدراً كبيراً من مصادر الثروة العاطلة وجزءاً من الطاقة الإنتاجية لا يستغل في الوجوه المنتجة المثلى. ولكي تتفادى أخطار التضخم ورزاياه يجب توفر شرطين: الأول ثبات مستوى الأجور ثباتاً جوهرياً. والثاني ألا يصحب عملية خلق النقود بحال ما تصدير رأس المال على نطاق واسع، وهذا ما سعت ألمانيا إلى تحقيقه عن طريق تدخل الدولة.

ولم تك ألمانيا بإنتاجها هذه السياسة مسيرة بالاعتبارات المؤسسة على الفكرة والتحليل الاقتصادي فحسب، ولكنها اضطرت إلى ذلك تحت ضغط الظروف التي ألفتها محيطة بها في عام 1933، ففي هذا الوقت هبط إنتاج السلع الصناعية إلى مستوى غير عادي، وكانت البلاد تعاني أزمة حادة للعاطلين، بعكس صناعات الاستهلاك التي كانت تسير سيراً حسناً نسبياً، وكانت هذه الحالة تعمل على رفع مستوى الأثمان في داخلية البلاد، ولتفادي هذا رأت الدولة ضرورة ازدهار سلع الإنتاج التي أصابها الكساد أكثر من غيرها، ولا سيما أن نمو الاستهلاك ينتج عنه زيادة في المستورد من

المواد الأولية الخام التي لا يمكن تدبير وسائل تمويلها لافتقار البلاد إلى صكوك الدفع الأجنبية التي بها تدفع هذه الواردات. وعلى ذلك حصرت الدولة مجهودها في تنشيط الإنتاج وتدبير العمل للعمال بتشغيلها في الأعمال العامة وعلى الأخص التي تعتبر إنتاجاً رأسمالياً لا استهلاكياً.

وبينما كان الإنعاش يقام مباشرة على اتساع الاستثمار الحكومي الذي أتخذ في مبدأ الأمر شكل أعمال عامة ثم أصبح التسلح بعد ذلك المسحة التي تغلب على الأعمال العامة، كان

ثمة أمر من الأهمية بمكان غدا يهيمن على حجم الاستثمار الخاص وطابعه. فقد حل مكان الرغبة في اجتناء الربح هذه الغريزة التي تحفز الفرد على الاستثمار والمخاطرة في نظام اقتصادي حر تنظيم متقن محكم رسم في مبدأ الأمر لغرض الحيلولة دون اكتظاظ صناعات خاصة بالراغبين في الاستثمار ثم انتقل بعد ذلك إلى أن أصبحت الغاية منه توزيع الاستثمار لأغراض الدولة.

ولقد حسد تماماً من وظيفة سعر الفائدة كمقياس لتوزيع الاستثمار بما اتخذته الدولة من تدابير تعمدت فيها إنزال سعر الفائدة إلى مستوى يعتبر واطئاً بالنسبة لما يمكن اجتناؤه من توظيف رأس المال لو كان هذا حراً. وتتجلى هذه النزعة في قانون صدر بمنع توزيع حصص فائدة على الأسهم والسندات تربو على 6 %، وهذا القانون مضافاً إليه السيطرة على الإصدار الجديدة لرؤوس الأموال كان له أبلغ الأثر في تقليل أهمية البورصة كثيراً وإن بقيت لها وظيفتها في التعامل في الأوراق المالية القديمة.

2 - تثبيت الأجور والأسعار

ظل المستوى الأدنى لمعدلات الأجور على حالة لم تتغير منذ عام 1933 رغماً عن زيادة دخول العمال الذين يعملون بالساعة ولا سيما دخول ذوي الأجور الأسبوعية وخاصة الذين يعملون منهم في الإنتاج الصناعي؛ وهذه الزيادة تغزى إلى أسباب منها: زيادة الكفاءة الإنتاجية، قلة لعمال بالنسبة لكثرة الأعمال، ذيوع أسلوب الأجر بالقطعة، العمل الإضافي. . . الخ.

ولقد أخضعت الأسعار لرقابة كانت آخذة في الشدة من حين لآخر حتى توجت بقانون (وقف الأجور) الذي صدر في نوفمبر سنة 1936 والذي وقف حائلاً أمام كل زيادة في الأسعار تحدث دون موافقة مندوب الريخ لمراقبة الأسعار. ومنذ عام 1933 هوت طائفة كبيرة من الأسعار بفعل تدخل الدولة. بيد أنه ظل كثير منها في ارتفاع. ومهما يكن من الأمر فقد كانت النتيجة الخالصة زيادة مقدارها 13 % فحسب في الرقم القياسي العام للأسعار بين 1933 ومارس 1938.

إبعاد الزراعة عن نظام الأثمان المعتاد

اعتبرت الزراعة الألمانية كلها وحدة تامة منفصلة عن مناحي الإنتاج الأخرى ونظمت على أنها كذلك، وأصبح الإشراف تاماً على الإنتاج والتوزيع في كل مرحلة من مراحلهما من وقت وجود المحاصيل في يد الفلاح إلى وصولها إلى المستهلك. ويختلف مدى الإشراف على عمليات الزراعة كثيراً؛ ففي حالة الإنتاج يكون الإشراف غير مباشر عادة ويتم من طريق تنظيم الأسعار وإسداء النصائح للمزارعين والدعاية. أما التوزيع فيتم مباشرة غالباً. وليس هناك سعر أعلى أو أدنى يحصل عليه الزارع لقاء محصوله، ولكنه يحصل على سعر تضمنه الحكومة. وفي جميع المراحل التالية حتى وصول المحصول إلى المستهلك، يتخذ ثمن الإنتاج أساساً لتحديد السعر على أن يسمح بتاجر الجملة والتجزئة والصانع الخ بالحصول على ربح عن طريق وضع معدل نسبي لكل.

وفي خلال عامي 1933 و 1934، انتشلت أسعار المنتجات الزراعية من الوهدة التي كانت قد تردت فيها في سني الكساد. ثم ثبتت الأسعار إلى مستوى حقق في حينه عائداً مناسباً؛ بيد أن هذه الأسعار لم تعد تغل ربحا في عامي 1936 و 1937 بسبب ارتفاع تكاليف الزراعة وأسعار المنتجات الصناعية؛ وكانت الغاية من ذلك التحديد حماية الزارع من تقلبات الأثمان العادية للسوق، وتوفير أسباب الطمأنينة الاقتصادية له حتى يمكنه أن يتوفر على أداء واجبه في إمداد الشعب الألماني بمطالبه الغذائية الأساسية ولا سيما في وقت الحرب.

ولاعتبارات اجتماعية وسياسية وحربية نظر إلى الزارع نظرة خاصة. فعد جديراً بحماية

الدولة ومساعدتها واعتبرت الزراعة طريقة للحياة لا وسيلة من وسائل عدة لاكتساب العيش. وأوحي إلى الزرّاع أنهم رمز نقاء العنصر الجرماني وقوته. ولقد توجت هذه الآراء المتطرفة بقانون الوراثة الزراعية الذي عمل على خلق عدد كبير من الملكيات الزراعية من الأب إلى الابن مجردة عن احتمال وقوعها في الرهن والدين في المستقبل.

القضاء على التعطل

أخذ الحزب النازي بعد أن تولى السلطة على نفسه عهداً أن يضمن لكل مواطن ألماني عملاً. ويتفرع عن اعتراف الدولة بحق كل فرد أن يجد عملاً، حق الدولة في إلزام كل فرد بالعمل. وهذا المبدأ غير محدود المدى، إذ قد يعني أن للدولة الحق أن تقرر للفرد نوع العمل ومكانه وساعاته ومقدار الأجر. مهما تنافى هذا مع مصلحته الخاصة ويباين ميوله ورغباته. وقد يكون لهذا الإجراء مبرر في أوقات الحرب، ولكن تطبيق هذا الرأي في أوقات السلم أمر يتعارض مع حرية الفرد بجميع أشكالها، وهو يدل دلالة لا ريب فيها على رغبتها في الحرب واستعدادها لها والتهيؤ لها اقتصادياً على نحو ما يظهر لنا من استعراض تاريخ ألمانيا - الاقتصادي خاصة - منذ عام 1933.

وفي عامي 1933 و 1934 عندما كانت البلاد ترزح تحت عبء مشكلة المتعطلين، أوجدت الحكومة أعمالاً لكثير منهم أعمالاً خلقتها الدولة خلقاً لدرء العطل عن العمال. وكان العمال في هذه الأعمال يعملون عملاً مرهقاً، ولا يتناولون لقائه سوى مصاريف جيبهم وغذاء ومأوى. ولم يكن لهم محيص من القبول إذ لو لم يوجد لهم هذا العمل لكانوا يتناولون الإعانة الضئيلة المخصصة للعاطلين فقط.

وفي خلال السنوات 1935 - 1937 انتهى الأمر إلى هذا النوع من أعمال الترفيه عن العاطلين إذا استوعبت الأعمال الإنتاجية الجديدة كل العمال تقريباً. وإنه وإن كانت معدلات الأجور قد ثبتت بالنسبة لمستوى 1933 - 1934 إلا أنه لم يكن ثمة ما يمنع رب العمل من عدم دفع أجر أعلى لعماله، أو العامل من تغيير عمله إذا أمكنه الحصول على أجر أفضل في مكان آخر. ولقد حرم الإضراب وحتم عرض النزاع بين العمال وأصحاب الأعمال على التحكيم الإجباري؛ كما ألغيت نقابات العمال واستبدل بها جبهة العمل التي كانت عظيمة النشاط في حماية مصالح العمال. وكان ثمة نوع من تمثيل العمال في جميع الصناعات عدى الصغير منها.

بيد أنه كانت ثمة تغييرات عميقة الأثر في علاقة الدولة بالعمال أخذت مكانها ابتداء من صيف 1938، فزيادة توتر الموقف السياسي في أوربا نتيجة لنزاع ألمانية مع تشكوسلوفاكيا حمل الحكومة الألمانية على أن تقرر تحصين جبهة البلاد الغربية بأقصى سرعة ممكنة، ولتسرع في إنجاز برنامج تسلحها على وجه العموم. ولما كانت البلاد قد انتقى منها التعطل تماماً ولم يعد ثمة عمال يزيدون على الحاجة لتشغيلهم في أعمال جديدة فقد صدر مرسوم في 28 يونية سنة 1938 يخول الدولة الحق في دعوة أي مواطن ألماني داخل البلاد، ليعهد إليه القيام بأي عمل تعتبره الدولة ذا أهمية خاصة عاجلة بالنسبة أليها. وفي ظل هذا القانون نزع مئات الألوف من العمال من أعمالهم الأصلية بعد انتهاء حالة هذه الضرورة.

ومهما يكن من الأمر فواضح أن الدولة في ألمانيا تجمع في يديها الآن سلطات لا حد لها على عمالها، وهذه السلطات هي مما لا شك فيه حق من حقوق الدولة، ولكن مما يميز حالة ألمانية أنها استعملت في أوقات السلام منذ تسلم النازي أزمة الحكم، في حين أنها في غيرها من الدول لا يلتجأ إليها إلا في الأوقات الغير العادية. وهنا يتبادر إلى ذهننا السؤال الآتي: هل تبقى هذه السلطات في ألمانيا في المستقبل بعد الحرب، وبذلك يظل العامل الألماني مسلوب الحرية فاقد الإرادة في اختيار نوع ومكان العمل الذي يروقه؟ هذا سؤال نترك الرد عليه لما يأتي به الغد. على أنه يمكننا أن نقرر مستندين في ذلك على آراء الثقاة الذين زاروا ألمانيا قبل الحرب ودرسوا أحوالها، أن الحالة هناك وصلت إلى درجة التشبع فيما يختص بتشكيلات الدولة المالية، وأن إضافة شيء جديد منها إلى الموجد منها فعلاً أمر لن يقابل بالارتياح من لدن الرأي العام الألماني.

5 - تحقيق الاستكفاء الاقتصادي
تحت ألمانية قبل الحرب نحو توفير المواد الغذائية والمواد الأولية في بلادها التي يكون طلبها غير مرن، أو التي تقطع عنها عند نشوب الحرب، أو كوسيلة للضغط الاقتصادي أو السياسي إذا تعرضت البلاد للانهيار. بيد أن ألمانيا لا تصبو إلا إلى تحقيق الاستكفاء الاقتصادي التام الذي ينتج عنه توقف تجارتها الخارجية، فما دامت لا تستورد فهي لا تصدر، إذ أن غاية ألمانيا من التجارة الخارجية زيادة صادراتها لتدفع بأثمانها ما تشتريه من الخارج.

أما فيما يختص بالمواد الأولية، فقد وجهت السياسة الاقتصادية نحو إحداث تغيير أساسي في أسس الصناعة من حيث اعتمادها على المواد الأولية النادرة الوجود في ألمانيا أو التي يلزم استيرادها من الخارج، بأن تستبدل بها مواد أخرى يمكن إنتاجها في ألمانيا بما يكفي حاجات الصناعات أو معظمها، أو مواد يمكن استيرادها من الأقطار المجاورة لألمانيا التي لن تشترك في الحرب طوعاً أو كرهاً. وتحقيقاً لذلك نرى المواد البديلة تأخذ مكان الحديد
وغيره من المعادن، والزيادة الكبيرة في إنتاج الألومنيوم والمغنزيوم والحديد الخسيس النوع، وحلول المطاط الصناعي محل المطاط الطبيعي، والاستعاضة بالألياف الصناعية عن القطن والصوف، وابتكار البزين الصناعي. . . الخ.

ولقد عملت هذه الخطة على إضافة أعباء جسيمة جديدة إلى النظام الاقتصادي الألماني؛ فسوق الاستغلال أصبحت مكتظة بالمشاريع المختلفة، فأصبح الاستثمار ينوء بما ألقى على عاتقه من تمويل صناعات الاستكفاء، ولأنه يزيد من الطلب على العمال في وقت أصبحت فيه ألمانيا في عوز تام إليهم، وأصبحت مشكلة توفرهم في البلاد من أخطر المشاكل التي تعتبر عاملاً يحد من نشاط الاقتصاد الألماني. وفضلاً عن ذلك، فإن هذه الصناعات تعتبر عملاً خاسراً من الوجهة التجارية، إذ تتضمن ارتفاع في تكاليف الإنتاج يؤدي إلى خفض مستوى معيشة السكان. بيد أن ألمانيا لم تراع سوى شيء واحد، هو توفير أسس الفوز في حرب قصيرة الأجل يستطيع تحملها الاقتصاد الألماني.

6 - تفريق الصناعة والسكان
يعتقد الاقتصاديون الألمان أن تصميم المدينة الصناعية في الوقت الحاضر وما تحشده جنباتها من عدد عديد من العمال تسكن في حجر ضيقة أمر فظيع لا يمكنهم قبوله. فهم يرغبون أن تقوم سياسة تفريق الصناعة عوضاً عن تركيزها وتجميعها بأن تنشأ مدن صناعية صغيرة موزعة في أنحاء البلاد.

ولقد شرعت ألمانيا منذ تولى النازي أزمة الحكم في تنفيذ فكرتهم وكان الغرض الحربي هو الغاية الأساسية لتفريق البيوت الصناعية. بيد أن تفريق الصناعة أوجد مشاكل عدة لحياة البلاد الاقتصادية خصوصاً للزراعة. ولقد أنشئ في برلين معهد أسموه (مجلس النهج المركزي) على اتصال بجميع الجامعات والسلطات الإقليمية للتشاور في كل المسائل المتعلقة بإنشاء الطرق والمساكن والمصانع والمباني المختلفة على وجه العموم. واختص المجلس المركزي برسم خطوط سياسة البناء والتعمير العامة للدولة بأجمعها. . .

فبينما كان الجزء الأكبر من نشاط بناء المساكن في ألمانيا منذ عام 1933 آخذاً شكل بناء منازل في المدن الكبرى التي كانت في عوز شديد إلى المساكن، كانت هناك حركة بناء مساكن للعائلات الصغيرة في الضواحي والأرياف. ولقد كانت هذه الحركة مظهراً من
مظاهر تنفيذ مشروع السنوات الأربع الثانية إذ أنه اتصل بحركة إنشاء المصانع الجديدة الخاصة بتحقيق الاستكفاء الاقتصادي للبلاد.

ولقد وجه إلى حركة إنشاء مسكن العمال ولا سيما التي تقوم على إنشائها المنشئات الصناعية كثير من أوجه النقد، إذ أن هذا من شأنه زيادة اعتماد العامل على مخدومه. والواقع أن خطة الدولة الألمانية تجاه عمالها ذات وجهين، فهي من جهة تجعل من العمال شبه أرقاء لا حول لهم ولا قوة، فترهقهم بالعمل وتحدد لهم أجورهم وساعات العمل ونوعه ومكانه كما تشاء وإذا بها من الجهة الأخرى تعتنق بعض الإصلاحات الاجتماعية التي يقوم بها المجتمع الرأسمالي اليوم.

ومن الخير أن تقرر أن طموح ألمانيا نحو هجرة صناعاتها من المدن الكبيرة ونقل العمال إلى الريف لم يتحقق إلا على نطاق ضيق وإن كان ما زال غرضاً نسعى لتحقيقه.

هذه هي المعالم الأساسية للنظام الاقتصادي النازي؛ وتلك هي الاتجاهات التي يسير فيها، يبدو من تقصيها مدى الفراغ الواسع الذي يفصل بينها وبين النظم الاقتصادية الحرة التي تسير عليها دول كبريطانيا العظمى ومصر وفرنسا والولايات المتحدة. وعلى الذين ينظرون إلى هذا النظام من حيث النتائج التي حققها من انتقاء التعطل من ألمانيا ونشاط جهازها الاقتصادي أن يستعرضوا الظروف التي أحالت بقيامه ثم وجوده، والأسباب التي عملت على وصوله إلى النتائج التي وصل إليها. وفي مكنة الدول الأخرى أن تستفيد من دراسته وأن تأخذ ببعض أساليبه التي حققت فوائد لألمانيا، على أن يلاحظ في تطبيق هذه النواحي أتم الحيطة والحذر، فألمانيا تخالف في روحها ونظمها وتقاليدها الشعوب الحرة الأخرى. فالأخذ بالنظام الاقتصادي الألماني وتطبيقه على علاته كما يبدو لبعض قصار النظر من الناس أمر لن ينتج منه سوى هدم كيان بلادهم وزعزعة نظمها الاقتصادية والاجتماعية وتعريضها للانهيار.

فؤاد محمد شبل

مفتش تموين إسكندرية

شخصيات تاريخية

تيموستوكل - 4

للأستاذ محمد الشحات أيوب

مدرس التاريخ القديم بكلية الآداب

لعل من الغريب أن نرى الديمقراطية الأثينية لا تفي تيموستوكل حقه من المجد والسلطان بعد انتصاره في معركة سلامين، بل على العكس من ذلك تنكرت له. ونحن لا نستطيع أن نبخسه حقه كما فعلت معه الديمقراطية الأثينية، فشأنها في هذا ربما لا يختلف في قليل ولا كثير عن شأن الديمقراطيات الأخرى في القديم أو الحديث. ويحدثنا هيرودوت أنها ذهبت إلى أبعد من هذا فعملت على أن تتخلص منه، فأرسلته في بعثة إلى إسبرطة ليطلب إليها أن تمد يد المعونة الحربية إلى أثينا في أقرب فرصة ممكنة، ولكنه فشل في هذه البعثة وعاد إلى وطنه فاستقبله مواطنوه استقبالاً فيه شيء كثير من الفتور، وأخذ عليه الأثينيون بوجه خاص كبرياءه وغطرسته، وحان وقت الانتخابات فلم يظهر اسمه من بين المنتخبين ليكونوا الاستراتيج العشرة وهم المشرفون على الحكم في الدولة، وأبعدوه عن الحكم وفضلوا عليه زعيم المحافظين وهو أرشيد. ولعل هناك وجهاً للمقارنة بين هذا الموقف وموقف الديمقراطية الفرنسية غداة انتصارها في الحرب العالمية الكبرى الماضية، إذ تنكرت هي الأخرى لزعيمها وصاحب الفضل في انتصارها وهو كليمنصو فلم تنتخبه رئيساً للجمهورية؛ بل فضلت عليه شخصاً دونه في العبقرية، بل إنه يعد في حكم المتوسطين. وتعليل هذا بسيط: ذلك أن الديمقراطية تخاف على نفسها من هؤلاء الأبطال الذين يحرزون لها هذا النصر ويشيدون لها هذا المجد أن تحدثهم أنفسهم أن يحكموها عن طريق العنف والاستبداد ككل دكتاتور يستبد بالسلطة بعد اشتداد أمره وازدياد أتباعه، أو بعد نصر يصيبه في معركة التحم فيها أو بعد نجاح في بعثة أوفد إليها. ومن الطبيعي أن يكون عدم عرفان الجميل على هذا النحو سبباً من الأسباب التي أدت إلى حفيظة تيموستوكل ضد بني قومه، فكانت هذه الغلطة في نظرنا أولى الخطوات التي أدت إلى تطور تيموستوكل من جانب اليونان إلى جانب الفرس حتى جعلته يقلع عن خدمتهم إلى خدمة أعدائهم.

وبالرغم من هذا يتجاهل تيموستوكل كل هذا التنكر وينسى نفسه ومطامعه ومصالحه الشخصية فيتفق مع خصمه ومنافسه الزعيم أرسيتد على برنامج للإصلاح القومي الغرض منه بعث أثينا وإعادتها إلى الحياة بعد أن كانت قد أوشكت على الفناء على أثر غزوة أجرزسيس لها، وذلك ببناء ما دمر من بيوتها وإصلاح ما خرب من أراضيها، وكان أساس هذا البرنامج العبارة اليونانية الشهيرة التي مؤداها أن يجعل أثينا تعتمد على ميناء بيريه. وكذلك الأرض تعتمد على البحر.

وهذا البرنامج واسع شاسع لا يمكنه أن يتمه في يوم وليلة؛ لذلك نجده يفضل الأهم

على المهم، والضروري على الزائد عن الحاجة، فيشجع على البدء أولاً بإقامة التحصينات اللازمة للدفاع عن الدولة بعد تخريب الفرس لها، أما بناء البيوت وإزالة الخرائب والأنقاض عنها؛ وأما إقامة المعابد الجميلة التي تناسب الآلهة فإنه يعمل على تأخيرها إلى فرصة أخرى مناسبة؛ ثم نراه يحث قومه على الإسراع في بناء هذه التحصينات حتى يتموها في شهر واحد تقريباً، وكانت نتيجة هذا كله أن أصبحت أثينا محاطة بسور متين بلغ طوله 9 كيلومترات.

وأنت لا تستطيع أن تظن أن تنفيذ هذا البرنامج سهل يسير، كلا ثم كلا! ذلك أن أعداء أثينا واقفون لها بالمرصاد، مثل الدول المحيطة بها، كأريجينيا وميجارا وكورنث. وقد فهمت هذه الدول القصد الذي ترمي إليه أثينا، فأخذوا يتربصون لها ويحقدون عليها، وعلى الأخص بعد موقعة سلامين، لأنها كانت تعتبر صاحبة الفضل الأول في إحراز النصر لليونان جميعاً، وقد طلبت هذه الدول إلى إسبرطة التي كانت على رأس الحلف البيلوبونيزي أن تعمل على هدم هذه الأسوار، فهي تخاف من أثينا أن تستطيع وحدها الوقوف على أقدامها فتنجح في الدفاع عن استقلالها ضد كل دولة تحدثها نفسها بغزو أرضيها؛ فإذا تمكنت من الدفاع عن هذا الاستقلال والمحافظة عليه ربما أمكنها أن تلعب دوراً مهما في البيلويونيز وفي غير البيلويونيز. وقد لبت إسبرطة هذا النداء وأرسلت سفراء من لدنها يتكلمون باسمها أمام المجالس الأثينية، ولكن تيموستوكل يفسد عليهم خطتهم بسلوكه مسلك الختل والخداع؛ فهو يحرص قبل كل شيء على أن تقام هذه

التحصينات في أقرب وقت مهما كلف ذلك من جهد وعناء، فتمكن من أن يحصل من مجلس (البولي) على قرار بإرساله هو على رأس سفارة إلى إسبرطة لمفاوضة أهل الحل والعقد هناك، وفي الوقت نفسه طلب إلى أعضاء سفارته هذه أن لا يبرحوا أثينا حتى يتم بناء هذه التحصينات؛ ثم ذهب إلى إسبرطة وأخذ يفاوض ويفاوض ويماطل في المفاوضة حتى فطن إلى ذلك أعداؤه وأعداء بلاده، فنبهوا إسبرطة إلى هذا الخداع وطلبوا إليها الإسراع في العمل على تنفيذ رغبتهم حتى لا يفلت الأمر من يدهم ويدها. فترسل إسبرطة سفارة ثانية إلى أثينا ولا تكاد تصل هذه السفارة إلى هذه المدينة حتى تكون الأسوار قد تمت بفضل تفاني جميع المواطنين من شيب وشبان ونساء وأطفال في إتمامها، فاستطاع بعد ذلك أعضاء وفد تيموستوكل مبارحة أثينا والانضمام إليه في إسبرطة، فلما رآهم قد أصبحوا إلى جانبه خلع النقاب وكشر عن الأنياب ورفع الصوت عالياً معلناً لكل من يريد أن يستمع له أن بلاده لا تخضع لوعيد ولا لتهديد، وأنها إذا أرادت أن تأتي أمراً في داخل بلادها فهي وحدها صاحبة الأمر في ذلك، وهي حرة التصرف في شؤونها الداخلية لا تقبل من أية دولة ولا من أية جهة أن تتدخل في أمورها؛ لذلك فإنها ترفض طلب إسبرطة وحلفائها. وما استطاع تيموستوكل إعلان هذا الرأي إلا بعد أن رأى أن وطنه قد استطاع الظفر في الحرب ضد الفرس، بل وأن هذا الظفر يرجع قبل كل شيء إلى جهود بلاده وتضحياتها، فإن كانت الدول اليونانية الأخرى قد ساهمت في إحراز هذا النصر العام فإن هذه المساهمة ضئيلة لا تعد شيئاً مذكوراً إلى جانب ذلك المجهود الجبار الذي بذلته أثينا، فالعدو قد ضرب أراضيها وأنتهك حرمة معابدها وأراضي آلهتها، والأثنيون بعد ذلك شردوا أيما تشريد، وهاجروا من وطنهم إلى بلاد سلامين على نحو ما ذكرنا في المقال السابق، والأرض الأثينية كانت الميدان الذي قاسى الأهوال، وتحمل الكوارث والمصائب. أما البلاد الأخرى في البيلوبونيز فلم تقاس شيئاً من أهوال هذه الحرب. أفهل يحق لها بعد ذلك أن تقسو على أثينا، وأن تطلب إليها أن تكون مجردة من كل وسيلة من وسائل الدفاع، وخاصة وأن تيموستوكل ومعه الأثينيون ما يزالون يعتقدون أن الحرب لم تنتهي وأن الفرس ربما يربحون مرة أخرى لغزو بلادهم؟ كلا! إن ذلك لا يمكن أن يحدث بعد الآن فالدولة الأثينية قد أصبحت رشيدة تستطيع أن تدافع عن مصالحها وحقوقها، بل وأن تذهب إلى أكثر من ذلك فتتسامى عن السياسة الذاتية إلى السياسة العامة، وهي سياسة الدفاع عن جميع بلاد اليونان قاطبة. لم يسع إسبرطة أمام هذا الإصدار إلا أن ترضخ فتركت أثينا وشأنها. وقد لامها حلفاؤها وعابوا عليها هذا المسلك فوصفوه بأنه ينم عن الضعف والتخاذل والإهمال، لأنه من غير شك سيساعد أثينا على المضي في طريقها بعد أن رأت إن أكبر الدول اليونانية لا تستطيع أن تمنعها من تحقيق سياستها،

فتشجعت ونهضت بعد هذا البعث الجديد وتمكنت من أن تسير قدماً إلى الأمام لتنفيذ سياستها الإمبريالية وهي سياسة التوسع والفتوح.

نجح إذن تيموستوكل في هذه المهمة، وهي إحاطة أثينا بالأسوار والتحصينات، ولكنه لم يهدأ له بال بعد ذلك إذ رأى أن هذه الأعمال الدفاعية لا تحقق الغرض منها إلا إذا أكملت بأعمال أخرى في ميناء بيريه. فيوجه إلى هذا الميناء كل جهوده لاعتقاده الجازم أن هذه الأعمال كلها مرتبطة ببعضها تمام الارتباط، فلا يصلح عمل منه دون أن يتم العمل الآخر، وهو كثيراً ما نادى - على نحو ما رأينا في ما سبق - أن مستقبل أثينا على البحار، لذلك لم يكن من الغريب أن تكون سياسته كلها موجهة نحو البحر، بل مرتكزة على البحر، فالبحر في نظره عماد كل شيء كما قال في تلك العبارة الشهيرة التي أوردناها منذ حين: (أن الأرض الأثينية تعتمد على البحر والمدينة تعتمد على ميناء بيريه). وتنفيذاً لهذه السياسة يعمل على إحاطة ميناء بيريه هي الأخرى بسور، وقد تم ذلك فبلغ طوله عشرة كيلو مترات بعد أن بناه من الأحجار الضخمة التي استخرجها من المحاجر المجاورة. بل ربط تيموستوكل هذا الميناء الجديد بالميناءين المجاورين وهما (زيا) و (موتخيا) وجعلها كلها ميناء واحدة ومدينة واحدة، وشجع الناس على أن يفدوا إليها من الخارج، أي من البلدان القريبة منها، فأقبلوا زرافات ووحداناً، بعد أن رأوا أنفسهم قد أعفتهم هذه المدينة من الضريبة الثقيلة المسماة وهي التي كانت تفرض على كل أجنبي يريد أن يقيم بها، فكثر سكانها وازدحموا ازدحاماً عظيما حتى أصبحت بعد ذلك أهم ميناء في البحر الأبيض المتوسط، واعتبرت قلب الإمبراطورية الأثينية النابض. ففيها يرسو الأسطول وهو عماد الإمبراطورية الأثينية البحرية، ومنها تصدر الصادرات الأثينية وإليها ترد الواردات من الخارج، كالقمح والخشب والمعادن من البلاد المحيطة بالبحر الأسود أو من آسيا الصغرى

ومصر، وكذلك من طريق الغرب من صقلية وبلاد اليونان الكبرى في جنوب شبه جزيرة إيطاليا.

سار الشعب الأثيني وراء تيموستوكل واتبع نصائحه ونفذ إرشاداته وتوجيهاته ولكن إلى حين؛ ثم سحب بعد ذلك ثقته من هذا البطل ومنحها لخصومه زعماء الحزب الأرستقراطي، وكان من أبرزهم في ذلك الوقت أرسيتد الذي طالما ذكرنا اسمه وشخصية أخرى جديدة ظهرت إلى جانبه ثم حلت محله بعد ذلك في زعامة هذا الحزب، هي شخصية الشاب الأرستقراطي سيمون بن مليتاد بطل ماراتون. وكانت هذه الشخصيات الثلاث عبارة عن ثالوث يوجه شؤون الدولة ويدير دفتها في هذه الحقبة من التاريخ.

تتغلب هاتان الشخصيتان الأرستقراطيتان، أرستيد وسيمون، في عالم السياسة الأثينية بقدر ما تتواري شخصية تيموستوكل ويأفل نجمه، وتتفق هاتان الشخصيتان على السياسة الخارجية وهي تقضي بالانصراف إلى شؤون حلف ديلوس والاهتمام بأمره حتى يكمل تنظيمه فيستطيع حينئذ أن يحقق الغرض الذي من أجله أسس وهو الدفاع عن اليونان في بحر إيجه وفي غرب آسيا الصغرى ضد الفرس، وهما لا يترددان، في سبيل تنفيذ هذه السياسة عن الاتفاق مع إسبرطة وتقسيم مناطق النفوذ معها؛ فلها البر ولأثينا البحر. أما تيموستوكل فيقول بغير هذا، يقول بتوجيه الاهتمام إلى حلف ديلوس ولكن على أن يكون هذا الحلف هو القوة المسيطرة وحدها في بلاد اليونان جميعاً، فيجب أن تكون لأثينا السيادة في جميع أجزاء العالم اليوناني، وهو يعلم تمام العلم أنه لا يستطيع تنفيذ هذه السياسة وإسبرطة قائمة على رأس حلفها، لذلك نادى بضرورة الاتفاق مع الفرس حتى يكون لأثينا الغلبة والسيادة، وبذلك تغيرت سياسة تيموستوكل الخارجية تغيراً يكاد يكون تاماً بعد معركة سلامين. ألم نره ألد عدو للفرس وهو الشخص الذي كان روح المقاومة وبطل الاستقلال؟ ألم نره قد عمل على التوحيد بين اليونان جميعاً لصد الفرس وردهم عن البلاد؟ تغيرات إذن هذه السياسة، فلم هذا التغيير؟ الجواب على هذا السؤال بسيط لا يحتاج إلى كبير عناء، فتيموستوكل لا يفكر إلا في وطنه وفي مصلحة وطنه، ويكاد يكون هذا التفكير شاغله الأعظم، فهو يريد لأثينا الزعامة على بلاد اليونان كلها والسيادة في البر والبحر معاً، والآن وقد زال الخطر الفارسي لم يبق أمام وطنه إلا الخطر الإسبرطي، وقد اعتقد

اعتقاداً جازماً لا يخامره الشك أن الفرس بعد هزيمتهم الساحقة، في معركة سلامين، قد أصبحوا أقل خطراً من قبل. لذلك وجه سياسته إلى الاتفاق معهم حتى يتفرغ لمحاربة إسبرطة، بخلاف الزعيمين السابقي الذكر، أرستيد وسيمون، فهما أرستقراطيان، تكاد تتفق ميولهما وتربيتهما مع الميول والتربية الإسبرطية، فنزعتهما أرستقراطية لا تختلف عن النزعة الإسبرطية في قليل ولا كثير. وقد كانت هذه السياسة هي سياسة الحزب الأرستقراطي طول القرن الخامس ق. م. أما تيموستوكل فهو ديمقراطي تختلف نزعاته عن نزعات إسبرطة، وتختلف ميول الحزب الديمقراطي عن ميول الدولة الإسبرطية، لذلك اصطدمت سياسة هذا الحزب بسياسة إسبرطة حتى كان ذلك من العوامل القوية التي دفعت أثينا إلى الحرب مع إسبرطة في النصف الثاني من القرن الخامس ق. م. وذلك في عهد بركليس.

(يتبع)

محمد الشحات أيوب

جولة في أسرار الناس

(مهداة إلى الدكتور زكي مبارك)

للأستاذ م. دراج

حقاً لقد صدق الذي قال: (إن الإرادة الحازمة لا تعرف المستحيل) فمن ذا يصدق أني أكتب هذا المقال بعد انتصاف الليل بساعات قضيتها أرقاً أفكر في الناس والمجتمع وكيف أن الغش والكذب والمخادعة هي الأصناف الرائجة بل هي الوحيدة التي يتجر فيها تجار السياسة وسماسرة الأحزاب والمضاربون في سوق المنافع والفرص (الذهبية). كان رأسي مملوءاً بالخواطر المغلقة والصور تحتشد أمامي، والحقائق تندفع من وراء مخابئها تهتك أسرار مجرمي الجمعية التي أعيش ويعيش فيها ملاين من أبناء وطني مقيدين بأغلال الفقر الأسود الذي فرضه علينا دجالو السياسة والاجتماع والاقتصاد، حتى لم أعد أطيق البقاء في فراشي فنهضت أعالج ضوء مصباحي الخافت ففشلت في جعله صالحاً للكتابة فيه، وعدت أفتش عن قلم أسطر فيه خواطري اليقظة فلا أجد غير بقية لا تصلح، وليس لي مكتب أجلس إليه، وكلها عقبات كفيلة أن تثني رجلاً في مثل حالي عن الكتابة. فلست من المبرزين في رجال المجتمع حتى تتهافت الصحف على كتاباتي، ولا أنا ممن أوتوا حظاً من المال أذلل به عقبات النشر، وليس لي بين الصحفيين أصدقاء يهتمون بأفكاري حق الاهتمام، ومع ذلك أجد يدي قد امتدت إلى المصباح فوضعته قرب الوسادة، وظفري قد نبش القشرة الخشبية حتى ظهر سن القلم إذ لا سلاح لدي، ثم أنبطح على الفراش والورقة أمامي كما ينبطح الجندي في ساحة القتال. كل هذا من أجل من؟ أللناس أكتب أم لنفسي؟ وهل كان يجدر بي أن أكتب هذه المقدمة لو أنني كنت فيما أكتبه للناس مخلصاً؟ هكذا قلت لنفسي:

على أية حال لقد تبينت في نفسي رغبة خفية للكتابة، والناس أسرار. ألا ترى أننا نحب دائماً أن نسمع رأي الناس فينا؟ ومع ذلك نكره منهم النقد ولو كانوا في نقدهم محقين؟ بل أكثر من ذلك نحب أن نطلع على خبايا نفوسنا عند دعاة العلم بالغيب ممن يفتحون (الكتاب) ويضربون (الرمل) ويقرؤون في الكف الماضي والحاضر والمستقبل أيضاً، ونحن نعلم أنهم يرجمون بالغيب؟ أليست كل هذه الشعوذات عناصر أكذوبة ضخمة جازت على عقول المفكرين في هذا المجتمع المريض؟ مر بخاطري ذلك الصحفي الذي يملأ صحيفته بالحديث عن نفسه وكيف قضى يومه بين زيارات وحفلات وسهرات، وعجبت كيف يفرض على الناس أن يهتموا بسهراته ومقابلاته وأحلامه؟ إن مثل هذا الصحفي يلقبونه أحياناً (صحافياً عبقرياً) لماذا؟ ألا إنه يعلم أن في وطنه آلاف المشكلات التي تستحق عنايته ككاتب يعبر عن آلام الشعب وأمانيه، ثم يصرفهم عن الجد بالهزل ويحول بينهم وبين المطالبة بحقوقه بأمثال هذه (الطرق الأمريكية)؟ وأتى دور المحامي الشهير الذي أعلن قريباً (أن العلاج الناجح لمثل هذا الوطن المنكوب بملايينه الجائعة العارية المريضة الجاهلة هي الاشتراكية، ونسي أنه من الأثرياء الذين لا يحسنون فهم الروح الاشتراكية، وأن الاشتراكية نفسها تأبى جمع المال بمثل هذه الوسائل بل وتحاربها أيضاً. ثم تقدمت صورة طبيب ملأ الجشع نفسه حتى لم يجد من

العار أن يساوم المريض على فراش الخطر وأن يبهظ قدرته على الصرف بإطالة أسباب العلاج، غير مراع في ذلك حرمة المهنة ولا الضمير الإنساني.
هؤلاء الأطباء يدعون أنهم خدام الإنسانية! وتذكرت فجأة أني ركبت تراماً وسمعت بعض الذين أشقتهم أزمة الغلاء وعدت على قوتهم الضروري يقولون: ليت الذين ينصحوننا بالصبر والقناعة ويوصوننا بعدم الإسراف، يعلمون أن في بيوتنا جياعاً لم يتذوقوا الطعام. الطعام الذي ينصحوننا بالاقتصاد فيه) وهل خفف هؤلاء الناصحون من مظاهر ترفهم أو رقوا لحال من يعملون في مزارعهم أو قصورهم أو مصانعهم أو متاجرهم؟
الجواب دائماً: لا ثم لا!!
هؤلاء الحكام والسياسيون يستطيعون في كل وقت أن يصنعوا شيئاً لهذا البلد، ومع ذلك لا يفعلون؟ إنهم حينما يرون كسب عطف الفلاح أو العامل بات أمراً جوهرياً لبقائهم لا ينفكون يتوددون إليه بشتى ألوان الوعود والأماني العذاب، حتى إذا تم لهم ما يريدون، نسوا أو تجاهلوا ما كان.
هل يمكن لمثل هذه الملايين البائسة أن تمنحهم ثقتها بعد أن ضيعوا عليهم ربع قرن من الزمان في منازعات حزبية شخصية غايتها اقتسام المنافع واقتسام المناصب والسلطان؟ وهل تغتفر لهم ضياع فرص قد يعز على المستقبل أن يجود بمثلها؟؟ هذا سؤال سترد عليه
الأيام المقبلة.
كان في نيتي أن أستيقظ لأسرار الناس، وأطيل التأمل في حياة الجمعية التي تعيش فيها، ولكن بعد ما مضيت قليلاً عثرت على مفتاح هذه الأسرار فوجدت فيه الجشع المادي الذي لا حد له قد سيطر على عقول أفرادها فما يشفيها منه إلا طبيب ماهر جرئ يعرف موطن الداء ويعرف كيف يقضي عليه بالمصل المضاد. . . ثم ألقيت قلمي ونمت مع أفكاري جنباً لجنب!
م. دراج
نفسية المحارب
للدكتور محمد حسني ولاية
قبل أن أخوض في هذا الموضوع أقول إن السادية هي النزعة إلى إيلام شخص آخر أو القضاء عليه، مصحوبة بشعور لذيذ. وهذا الألم إما أن يكون وليد عامل مادي كالضرب بالسوط، أو معنوي كالتوبيخ والاحتقار. أما الماسوشية فهي على النقيض من هذا، لأنها تنطوي على استعذاب العذاب والألم مادياً كان أو معنوياً.
إن الذي يدعو الإنسان إلى قتل أخيه الإنسان هو النزعة السادية المتحكمة في نفوس البشر جميعاً؛ وليست هذه النزعة غريبة عن نفوس النساء، بل هي مستقرة في أعماقهن بدليل ظهورها في بعض العصبيات، وأحياناً في اللاتي بلغن سن اليأس.
ويحمل كل إنسان - رجلاً كان أو امرأة - نزعة السادية متوازنة مع نزعة الماسوشية؛ ويُبقى الرجل جانباً كبيراً من ساديته في وعيه، فيتسلط على المرأة ويتحكم فيها، ويحاول التسلط على ضعفاء الرجال، والتغلب على صعوبات الحياة. على أنه يكبت في عقله اللاواعي (العقل الباطن) معظم النزعة الماسوشية.
ويحدث عكس هذا في المرأة، لأن وعيها يحملها على الخنوع والاستسلام لبقاء معظم النزعة الماسوشية فيه. وكثيراً ما تبرز النزعة السادية في المرأة عندما تصادف منافسة لها في حب الرجل فتعمد حينئذ إلى الانتقام من أحدهما أو كليهما.
تعني السادية أن يهدم الإنسان سواه ليخلو له الجو ويستأثر بالحياة. فهي نزعة مقترنة بالرغبة في الحياة والسيطرة. أما الماسوشية، فتعني أن يهدم الإنسان نفسه. فهي وثيقة الصلة بغريزة الموت، وتستقر غريزة الحياة في عقلنا الباطن جنباً إلى جنب غريزة الموت؛ ولهذا الجانب من التمثيل المعنوي جانب مادي يقابله، فغريزة الحياة تمثلها الغدد الجنسية التي تفرز العناصر الحيوية الأولى. أما غريزة الموت، فيمثلها الجسد الذي مآله إلى البلى!
ولا يلجأ الإنسان إلى عداء الإنسان إلا إذا أمعن في كبت النزعة الماسوشية، وأبرز في الوعي كل الطاقة النفسية المتعلقة بالسادية.

يؤدي العرف في أوقات السلم إلى أن يكبت الرجل شطراً من ساديته لينسجم مع المرأة
والبيئة. أما في زمن الحرب فتتحكم السادية في العقل الواعي وحينئذ يتحرك الحيوان الرابض في الأعماق ليقضي على فريسته. وليس هذا الحيوان سوى الإنسان البدائي الذي ما زال متمتعاً بكامل قوته وعدته.
وحين تسير الجيوش لملاقاة العدو يتناسى كل جندي شخصيته ويعود إلى ماضيه الفطري ويعمل كما كان يعمل آباؤه الأولون. وهو في هذه الحالة يشعر بأنه ليس طوع نفسه، ولكنه رهن الإرادة البشرية الأزلية التي تسيطر على سرائرنا جميعاً. أما إذا أمعن الجندي في وعي ذاته - وشعر بأن شخصيته قائمة بذاتها لم تستطع روحه الاندماج مع الروح التي تقود زملاءه الجنود إلى التلاحم مع العدو.
ويصيب بعض الجنود مرض الهستريا أو القلق العصبي بتأثير الحرب؛ ففي الحالة الأولى قد يعتري الجندي شلل في إحدى ذراعيه أو كلتيهما، أو في إحدى رجليه أو كلتيهما، كما قد يغتابه العمى الهستيري بتأثير الغازات الخانقة مثلاً، أو الصمم بتأثير القنابل، وكل هذه الأعراض نفسية يمكن شفاؤها بالعلاج النفسي.
ويشعر المريض بالقلق العصبي بالخوف وخفقان القلب واهتزاز لأعضاء وغير ذلك، أما شفاؤه فليس بعسير.
وقد وجد أن بعض المصابين بمستهل جنون المراهقة أشد ثباتاً وأرسخ نفسية من بعض زملائهم لانطفاء انفعالاتهم وعواطفهم، فلم لا يلمون بالأخطار المحدقة بهم، ويسيرون في الصفوف كالبهم السائمة.
محمد حسني ولاية
الصراع الأمريكي الياباني
للأديب محمد شاهين الجوهري
يتخذ الصراع الأوربي كل يوم مظهراً جديداً، وتطغي الحرب الأوربية على كل ما عداها، فاشتداد وطأتها وسرعة تطوراتها قد أكسباها خطورة، وحولا إليها اهتمام العالم وتفكيره.
وإلى جانب هذا الصراع نضال آخر قد اتصلت أسبابهما: ذلك هو النضال القائم بين أمريكا واليابان، وإنه وإن لم يكن قد دخل للآن في طور القتال إلا أنه على أشده.
ووراء هذا النضال برنامج من التسلح لا يقف عند حد. فالأمتان تستبقان في هذا الميدان. وإذا عرفنا أنهما دولتان بحريتان يؤلف الأسطول خط دفاعهما الأول، فسيكون البحر مسرحاً فسيحاً لنضال عنيف بين الأسطوليين يرغم فيه القوي الأضعف على التخلي عن الميدان تاركاً له السيادة والسيطرة.
ولذا نجد جل اهتمام الدولتين وجهودهما مركزاً في تقوية بحريتهما، فكلتاهما تخصص الملايين لزيادة أسطولها وتقويته وجعله أكثر تفوقاً على خصمه. وليس أدل على هذا الاهتمام من أنه لم تكد تمضي ساعتان على توقيع الرئيس روزفلت اعتماد خمسة ملايين دولار لتعزيز البحرية الأمريكية، حتى أعلن القائمون بأمر التنفيذ أنه قد تم التعاقد مع الشركات التي ستتولى بناء السفن.
أخذت اليابان في السنوات الأخيرة تقفو آثار السياسة الأوربية وتتبع خطاها، واضعة نصب عينيها أن يكون لها من وراء كل أزمة أوربية ربح ومغنم. وأخذت أمريكا ترقب عن كثب تطورات السياسة الأوربية، مسترشدة بها في توجيه سياستها. وهكذا رأينا الدولتين تسيران حسب ما تمليه عليهما تلك السياسة، ولكن هناك تباين واضح بين السياستين.
فالولايات المتحدة دولة قد خلت سياستها من كل مطمع استعماري، ويهمها أن يسود السلام بقية الدول، حتى تجد فيها أسواقاً رابحة لتجارتها. وقد رأت أيضاً أن مبادئها التي طالما نادت بها في الحرب الكبرى الماضية كقواعد ثابتة للسلم لم يحققها رجال السياسة الأوربية،
فضلاً عن أنها لم تسترد ما لها من الديون عند الدول التي اقترضت منها في الحرب الماضية. أضف إلى ذلك أن الشعب الأمريكي شعب قد أشبعته سياسة بلاده بمبادئ السلام، فاتجه بجهوده وتفكيره إلى ميادين العمل السلمية، فضرب بسهم رابح في نواحي النهضة المختلفة علمية كانت أم فنية؛ وساعده على ذلك ما تتمتع به بلاده من

ثروة طبيعية ومالية. لذلك كانت سياستها بعيدة عن التوسع والاستعمار.
أما اليابان، فإمبراطورية حديثة النشأة. الاستعمار أهم عوامل نهضتها، كما أن صغر مساحتها بالنسبة لعدد سكانها أملى عليها ضرورة إيجاد مساحات جديدة لهذا العدو المتزايد. وإذا كانت أمريكا قد ارتضت مبدأ (أمريكا للأمريكيين)، فإن اليابان يعز عليها أن تجد في آسيا شعوباً غريبة عنها، فينادى ساستها كذلك أن (آسيا للآسيويين). ناهيك بأن اليابان لا تجد في بلادها كثير من الخامات التي تلزم صناعتها. لهذا رأيناها توجه سياستها إلى الناحية الاستعمارية. فإذا كانت هذه هي سياسة اليابان، فإنه لم تكد تخلق لها الحوادث الأوربية فرصة إلا اقتنصتها وخطت في سبيل تحقيق سياستها خطوات واسعة. ففي يونيو سنة 1940، حين انهارت المقاومة الفرنسية وبقيت بريطانيا بمعزل تواجه أشد الغارات الألمانية، كانت هذه - بلا شك - فرصة سانحة لليابان لتحقيق مآربها. فأظهرت لبريطانيا رغبتها في إقفال طريق بورما الذي يأتي منه المدد لجنود الجنرال الصيني شان كاي شيك، وطلبت منها أيضاً سحب جنودها من المدن الصينية؛ واتبعت في تنفيذ رغبتها العنف، واضطرت بريطانيا في ذلك الوقت أن تنزل على رغبتها، فأجابتها إلى ما طلبت. ولم يمض على ذلك وقت طويل حتى عادت اليابان فطالبت الحكومة الفرنسية باحتلال بعض مناطق الهند الصينية والسماح لجيوشها بالمرور منها إلى الصين. وبعد مناوشات واصطدامات ومفاوضات خضعت الحكومة الفرنسية للمطالب اليابانية، فزحفت قوات اليابان إلى الهند الصينية لمهاجمة جنود الجنرال شاي كاي شيك في ميدان جديد، كما اتخذت بعض الوحدات اتجاهها نحو سيام فهددت بذلك القواعد الإنجليزية في سنغافورة، وكذلك جزر الهند الشرقية الهولندية التي تعتمد عليها الولايات المتحدة في استيراد المطاط والقصدير اعتماداً كبيراً، كما هددت جزائر الفليبين الواقعة تحت الحماية الأمريكية والتي لا تبعد عن الهند الصينية أكثر من ستمائة ميل.
وفي سبتمبر سنة 1940 أمضت اليابان المحالفة العسكرية الثلاثية مع ألمانيا وإيطاليا، وينطوي هذا التحالف على أن تشترك الدول الثلاث المتحالفة في الحرب ضد أية دولة - ومنها الولايات المتحدة - ورمت اليابان من وراء ذلك إلى ضمان اشتراك ألمانيا وإيطاليا معها إذا اشتبكت في حرب مع الولايات المتحدة وفي أكتوبر سنة 1940 ألقى وزير خارجية اليابان بياناً أوضح فيه سياسة بلاده حيال الولايات المتحدة فقال: (إنني أوجه هذا التحدي إلى الولايات المتحدة، فإنها إذا رأت أن تؤثر الإقدام في عمى وتعصب على أن تعمل ما من شأنه إحداث تغيير في الحالة الراهنة في المحيط الهادي نستقدم على محاربتها)
تلك هي سياسة اليابان التي اتبعتها والخطط التي انتهجتها فما هو رأي الشعب الأمريكي حيال هذه السياسة؟
يمكننا تلخيص آراء الأمريكيين في رأيين:
أحدهما يرمي إلى إتباع سياسة سلمية في كل علاقة بين بلاده واليابان.
والرأي الآخر يرى أنه لا بد من مقاومة المطامع اليابانية ووقفها، بل القضاء عليها بالقوة قبل أن يتسع نطاقها وتطغى على أمريكا وتصبح أمام خطر يهدد كيانها ويصعب مغالبته. فعلى أمريكا أن تأخذ أهبتها لمقاومة هذا الخطر. وفي هذا يقول ليبمان الثقة الأمريكي (إن خير وسيلة للدفاع عن الجزر ليست مجرد حشد الأساطيل حول سواحلها لحراستها وارتقاب هجوم العدو، ولكن بمباغتته في عقر داره وتحطيم الموانئ التي يأتي منها الغزو وتأمين المسالك البحرية)
وبعد انهيار المقاومة الأوربية وسيطرة الدول الديكتاتورية على أوربا أخذ الرأي العام الأمريكي يميل إلى مساعدة الدول التي تناهض الديكتاتورية حتى ولو أدى ذلك إلى تدخل أمريكا الفعلي في الحرب. ويقول أصحاب هذا الرأي إنه ليس على الولايات المتحدة أن تتجاهل ما تقوم به اليابان في الشرق الأقصى، كما أنه ليس في الإمكان تهدئة اليابان وتسوية المشاكل القائمة تسوية سلمية ما لم تقبل أمريكا ما تمليه عليها اليابان.
فاليابان ترغب في أن تنفض أمريكا يدها من النزاع القائم بينها وبين الصين وأن تكف عنها المساعدة، وبمعنى آخر تتخلى أمريكا عن مبدأ حرية التجارة، وعلى ذلك تصبح

الصين بمعزل عن المعونة الخارجية مما يسهل مهمة اليابان في القضاء عليها. ولكن كيف
تنفذ الولايات المتحدة رغبة اليابان وتتركها تقضي على الصين - وهي بمثابة خط دفاعها الأول - ولذا ينادي أصحاب هذا الرأي بوجوب قطع التجارة مع اليابان، لأن اليابان تنفق ثمن ما تصدره من الحرير إلى الولايات المتحدة على جيوشها في الصين، فإذا ما قطعت التجارة عنها أصبحت اليابان عاجزة عن مواصلة هذه الحرب، كما يرون ضرورة تصدير المؤن والذخائر إلى الصين لتكون أقدر على الدفاع عن نفسها وإنهاك قوى اليابان. ويرون كذلك أن اليابان - إذا لم تقف الولايات المتحدة في وجهها - ستحتل جزر الهند الشرقية الهولندية؛ وعندئذ تقطع عن أمريكا ما تستورده من المطاط والقصدير وتملي عليها ما تشاء من الشروط في سبيل الحصول على حاجتها من هاتين المادتين. وهناك نقطة أخرى وهي أن الشعب في الولايات المتحدة ومن ورائه الشعوب الأمريكية اللاتينية يؤيد السياسة القائلة بمساعدة الصين؛ فإذا ما كفت الولايات المتحدة عن هذه المساعدة ثارت روح الاستياء في الرأي العام الأمريكي. كذلك إذا تركت الولايات المتحدة أمر جزر الفليبين التي تعتمد على حمايتها وتثق بها، فإن هذه الجزر ستكون بلا شك عرضة للغزو الياباني وهذا ما يسبب حنق الشعوب اللاتينية أيضاً وهو ما يخشاه رجال الحكم في الولايات المتحدة، وينقسم أنصار السياسة السلمية إلى فريقين: فريق يرى أن قوة اليابان وخطرها على الولايات المتحدة أمر مبالغ فيه، إذ أن اليابان منهمكة بكل قواها في الحرب الصينية وليس في مقدورها محاربة الولايات المتحدة أو تهديدها تهديداً فعالاً؛ فليس على أمريكا أن تشغل نفسها بمشاكل الشرق الأقصى إذ يمكنها أن تستعيض عن المطاط الذي تستورده من جزر الهند الهولندية الشرقية بمطاط صناعي؛ ويمكنها أيضاً استيراد ما تحتاجه من القصدير من أمريكا الجنوبية كما أن كلتا الدولتين سوق رابحة للأخرى ليس من المصلحة الاستغناء عنه.
ويرى الفريق الآخر أن المحالفة العسكرية الثلاثية بين اليابان وألمانيا وإيطاليا قد وضعت أمريكا أمام مشكلة الحرب في المحيطين الهادي والأطلنطي؛ وليست أمريكا الآن على استعداد لهذه الحرب حتى يتم بناء أسطولها الجديد. لذلك يرون وجوب حل المشاكل القائمة بين الولايات المتحدة واليابان حلاً سلمياً والعمل على تركيز جهود الأسطول الأمريكي في المحيط الأطلنطي ضد ألمانيا وإيطاليا.
ويقول ليبمان: (ليس البحر وحده ضماناً ضد الغزو، فإن الجزر البريطانية التي لا تبعد سوى عشرين ميلاً من أوربا لم تتعرض للغزو منذ مئات السنين، بينما تجد أمريكا التي تبعد عن أوربا بآلاف الأميال عرضة لكثير من غزوات الأوربيين. إذن فليس البحر هو الذي يحمي بريطانيا أو أمريكا وإنما تحميها القوة التي تسيطر على هذا البحر)
لذا نجد أمريكا واليابان يخصان الأسطول بأكبر نصيب من ميزانية الحرب لبناء قطع حربية جديدة تضاف إلى أساطيلهما.
ويظهر لنا البيان الآتي صورة واضحة عن قوة الأسطوليين
الولايات المتحدة
اليابان
النوع
ما تملكه الآن
ما تشرع في بنائه
المجموع
ما تملكه الآن
ما تشرع في بنائه
المجموع
بارجة
15
17
32
10

4
14
حاملة طائرات
6
12
18
6
2
8
طراد
37
48
85
44
6
50
مدمرة
197
171
368
مدمرات
وقوارب 135
طوربيد
10
145
غواصة
103
82
185
69
13
82
المجموع
358
330
688
264
35
299

وهنا يجدر بنا إجراء مقارنة بسيطة بين الأسطوليين: فالبوارج الأمريكية أقل سرعة من مثيلاتها اليابانية، ولكن مدافعها أقوى وأبعد مدى؛ وتفوق حاملات الطائرات والطرادات والمدمرات الأمريكية مثيلاتها اليابانية في القوة والسرعة والحجم، وبالأسطول الياباني قوارب طوربيد ولا بد أن تكون البحرية الأمريكية قد عملت لها حساباً، وبجانب تقوية الأسطول ترى الولايات المتحدة في الدول المناهضة للديكتاتورية خطاً رئيسياً للدفاع عنها وعن مصالحها. لذا أسرعت بتقديم كل مساعدة ممكنة لهذه الدول، لأنه إذا انهارت بريطانيا أصبحت اليابان حرة في توجيه ضرباتها في الشرق الأقصى، وأنه ما دامت بريطانيا تحارب، فسوف تبقى المصالح الأمريكية بعيدة عن أي خطر أو تهديد، كما أن استمرار الحرب الصينية معناه جعل اليابان في موقف لا يساعدها على مناهضة أمريكا في الشرق الأقصى، أو تقديم أية معونة فعالة لألمانيا أو إيطاليا من

شأنها إضعاف بريطانيا التي تعمل الولايات المتحدة جادة على إبقائها، بل زيادة قوتها.
ولتنفيذ هذه السياسة أصدر الرئيس روزفلت أمره بحظر تصدير الحديد إلى اليابان.
ويجب أن نذكر أنه قبل أن يصدر الرئيس هذا الأمر كان قد وافق على اعتماد مبلغ 25 , 000 , 000 ريال لحكومة الجنرال شان كاي شيك، وكان الغرض من هذا القرض في الظاهر شراء بعض المواد الخام من الصين، وحقيقياً مضاعفة جهود المقاومة الصينية ضد اليابان،
كما طلبت الولايات المتحدة من بريطانيا إعادة فتح طريق بورما، حتى يمكن توصل سيل الإمدادات إلى الصين.
ودأبت الولايات المتحدة على مد روسيا بأدوات الحرب اللازمة حتى تتمكن من تقديم مساعدتها للصين عن طريق روسيا ولتساعد روسيا أيضاً في حربها ضد الدول الديكتاتورية. ولا تألو الولايات المتحدة جهداً في سبيل تلك المساعدة؛ وليس أدل على هذا مما اتخذه الرئيس روزفلت والمستر تشرشل من قرارات في اجتماع المحيط، ووصول مندوب الرئيس روزفلت الخاص إلى مؤتمر الحلفاء بموسكو.
وهناك بعض اقتراحات ترى الولايات المتحدة الأخذ بها إذا جد ما يدعو لها وهي إرسال سفن حربية أمريكية إلى قاعدة سنغافورة وبعض القواعد الأسترالية. ويرى الخبراء الفنيون أن اتخاذ الأساطيل المشتركة لهذه القواعد سيقضي على كل محاولة تقوم بها اليابان للاستيلاء على جزر الهند الشرقية الهولندية إذ أن وجود ثلاثة أساطيل مشتركة - الأمريكي والبريطاني والهولندي - يجعل اليابان في حذر، وخصوصاً وإن على الأسطول الياباني عبء ضرب الحصار على السواحل الصينية وتموين الجيش الياباني بالصين.
وإذا ما عملت أمريكا بهذا الاقتراح فإنها ستنقل نقط الدفاع البحرية الرئيسية للولايات المتحدة من جزر هاواي إلى سنغافورة التي تبعد عن هاواي بمقدار 6. 000 ميل، وهذا ولا شك سيسهل مهمة الأسطول الأمريكي في حماية جزر الفليبين واتخاذها قاعدة لإصلاح السفن وتضمن له حماية جزر الهند الشرقية الهولندية.
ولكن تعترض هذا الاقتراح عقبات منها أن ذلك قد يكلف الأمريكيين ثمناً أغلى مما يستفيدونه من هذه الجزر، إذ عليهم أن ينفقوا ملايين الدولارات على أسطول يخوض غمار معارك بحرية تقع على هذا البعد الشاسع من مراكز البحرية الأمريكية الرئيسية في المحيط الهادي.
تلك هي الخطوات التي قطعتها كلتا الدولتين في هذا الصراع وهو كما ترى صراع قد اتصلت أسبابه بالصراع الأوربي، صراع في أجلى معانيه بين الديمقراطية والديكتاتورية.
محمد شاهين الجوهري
معهد الصحافة العالي بالجامعة الأمريكية

أغنية الحب!
للشاعر (هايني)
للأستاذ علي محمود طه

يا رِفاقي غنت الفرحة ' في كل مكان!
إن هذا زمن ' الحب، فضجُّوا بالأغاني!
ارفعوا الأقداح ملأى، واشربوا نَخْبَ الحِسان
فالربيع السَّمْحُ يدعوكم إلى أكرم حان!
الربيع المرِحُ الجذلان يختال فَخورا
إنه الحسن الذي يملأ بالحب الصدورا
كيف لا نقطف منه الثمر الحلو النضيرا؟
أنت يأتيها الشمس املئي الآفاق نورا!
يا رفاقي قد دعانا زمن الحب فهيا
أطلعَ الروضُ جَني الكرمةِ والزهرَ النَّديَّا
اقطفوا الأزهار منه واعصروا الكَرْمَ الجنَّيا
يا رِفاقي قد دعانا زمن الحب فهيا!. . .
علي محمود طه

مضى أمسى. . .
للآنسة فدوى عبد الفتاح طوقان
مضَى أمسي بأحلامي ... فمنْ يخلُقُ لي أمسى
وغاضَ مَعينُ أوهامي ... فمن يَرْوي صَدى حسي
مُنىً كَمْ أفعمتْ جامي ... بهَنَّ، ذهْبن أشتاتا
ورحن بسحر أيامي ... وما عَودٌ لما فاتا
وفي قلبي مآتُمهُ ... على أمسِ الذي ماتا
وقد دَرَسَتْ معالمُهُ ... فهل ترجعُ؟ هيهاتا
ويومي راح هادِمُهُ ... يهيبُ بيَ: انظري لغدِ
غدٌ خفيتْ معالمه ... فدعني، ما غدي بيدي
غدي في حُجُبِ الغيبِ ... فلا تكشفْ ليَ الحجْبا
يثيرُ الروْعَ في قلبي ... تَوَهُّمُ أن أرى الغيبا
أخاف أخاف أن يُرْبى ... غدي جرعةَ إتْعاسي
وما أسْقيتُه حسبي ... فنحِّ صُبابةَ الكأس
أخافُ خفَّيةَ الأقدارْ ... وما أجْرَى ليَ القلمُ
وهذا الفلكَ الدوَّارْ ... وفيه التيهُ والعدمُ
كؤوسٌ للقضاءِ تُدارْ ... على الشَّرْب وهمْ لاهون
لئن عدموا لهنَّ خُمارْ ... فآذنْهمْ، غداً سيكون
نفضتُ يديَّ من حُلُمٍ ... نعمتُ به إلى حينِ
طوتهُ مجاهلُ العَدَمِ ... وعدت أتخسرِ مغبونِ
وكم أفعمتُهُ بدمي ... أقَرَّبُ من دمي زُلفَى
عسى يبقى، فَوَا ندمى ... تُخُطِّفَ من يدِي خطفا
لكمْ تصبو له نفسي ... وكم أشتاقُ أطيافَهْ
تجي وتروحُ في حسّي ... وضاء الحسنِ رفّافة
تلاشَي بعدهُ أنسي ... وأزهِقَ إتْرَةُ روحي
فما أصبحُ أو أمسي ... سوى أنفاس مذبوح
(نابلس)
فدوى طوقان
مذبح الحب. . .
للأديب محمد عبد السلام كفافي
باتت به الناسُ أَسْرَى وهي أحرارُ ... وحَفَّهُ من دَمِ العُشَّاقِ أَنْهارُ
يخاله من يراه جنةً عَجَباً ... لكنَّه للذي يرتآدُه نارُ!
قُيُدُه من صَميمِ السحرِ قد صُنِعَتْ ... والوجدُ سكينُه والحسنُ عقَّارُ
يا مَذْبَحَاً لم يكُنْ إلا لَدَي خلَدِي ... له بِناءٌ عَلاَ حَاطَتْه أسْوَارُ
بُسْتانُه ناَضِرٌ ضافي الجمالِ به ... ماءٌ وظلٌّ وأنسامٌ وأزهارُ
لم يَسْقِه مَطَرُ لكنَّما هَطَلَتْ ... عليه من أدْمُع العُشَّاقِ أمْطَارُ
ولم يعَطَّرْهُ زَهرُ فوق أغْصُنِه ... لكنَّه بعهودِ الحبِ مِعْطَارُ
وما شَدَا فيه طَيْرٌ إنما سَجَعَتْ ... عليه من أنْفُسِ العُشَّاقِ أطيارُ
أَضَحتْ وقد أطلِقَتْ من سجنها ولها ... في الحبِّ وصلٌ وفي الجنَّاتِ أوْكَارُ
من عهدِ آدمَ قد شِّيدتَ وانفتلتْ ... تُعْلِي بناءك أجْيالٌ وأدهارُ
فكنْتَ بيتاً صغيراً ثم صِرْتَ وقد ... شِيدَتْ على صَفْحَةِ الدُّنْيا لك الدارُ
كم من قتيلٍ بلا ذنبٍ أرقتَ له ... دماً وكم ذلَّ في ناديك جَبَّارُ
وكم ببابكَ تنصبُّ الدموعُ وكمْ ... تُهدَى إليك أغاريدٌ وأشعارُ
وكم تُقَامُ صلاةٌ فيك خاشعةٌ ... تُتْلَى بها من كتابِ الحبِّ أسطارُ
أسديتَ للفنِّ آلاءً مخلّدَةً ... تَرْوِى عُلاَهاَ على الأيام آثار
كم قد أَذَعْتَ حديثاً في الورى عجباً ... شدا به الشعر أو غَنَّتْهُ أوتارُ
وكم تماثيلَ تجلوها وكم صُوَرٍ ... تَلَقَّت الوحيَ فيها عنك أفكارُ
يا مذبحاً يتراءى للعيون وما ... يَبِينُ منه لِعَقْلِ الناس أسرارُ
حدِّثْ عن الزمن الخالي فكم طُوِيَتْ ... به من الوَجدِ في ناديك أَعْمَارُ

ولي ذَوُوها ولكن لا تزال لهم ... ذكرى على الدهر لا تَفنَى وَإكْبَارُ
صدقُ الوفاء وإن أوْدى بصاحبه ... حديثُهُ خالد في الكون سَّيارُ
محمد عبد السلام كفافي

البريد الأدبي

وفاة الآنسة (مي)

في يوم الأحد التاسع عشر من هذا الشهر استوفت الكاتبة الكبيرة (مي) أنفاسها في مستشفى (المعادي) وكانت قد نقلت إليه على أثر إغماء غشيها ثلاثة أيام وهي في بيتها لا يعلم بها أحد، حتى فطن إلى ذلك بواب المنزل فأبلغ أمرها إلى الشرطة. والسنوات الأخيرة من حياة (مي) كانت مأساة يرتاع لها الضمير ويلتاع القلب. وقد أشارت الرسالة إلى بعض فصولها في أعدادها السابقة.

والآنسة (مي) تنتمي إلى أسرة زيادة من قضاء كسروان في لبنان، وقد ولدت هي بالناصرة حيث كان يعمل والدها المرحوم إلياس زيادة، وتلقت علومها الابتدائية بمدرسة عين طورة، ثم جاء بها والدها إلى مصر فاستكملت ثقافتها وتميزت بالذهن البارع والذوق السليم، والمشاركة في سائر العلوم، وحذقها للغات الفرنسية والإنجليزية والإيطالية والألمانية والأسبانية. ثم أخذت تنشر فيض قريحتها الخصبة في المحروسة ومجلة الزهور والمقتطف والهلال والأهرام والسياسة والرسالة؛ وغذت المكتبة العربية بطائفة من الكتب الممتعة موضوعة ومنقولة. ومنذ بضع سنوات توفى والدها ثم والدتها فظلت بعدهما حزينة وحيدة، ثم مالت إلى العزلة وانقطعت عن الكتابة والتأليف. ثم أصابها مرض نفسي ساعد على ضعف أعصابها وانحلال قواها، فنقلوها إلى لبنان تستشفي فيه، حتى إذا أحست روح العافية رجعت إلى مصر فألقت محاضرة في الجامعة الأمريكية أعادت إلى الذاكرة وقفاتها على المنابر. ثم عادت صحتها فساءت في الأيام الأخيرة حتى توفاها الله. وفي عدد قادم ستقول الرسالة في الفقيدة الكريمة كلمة الإنصاف.

مسابقة الأدب العربي لطلبة السنة التوجيهية

كنت أحب أن أعفى نفسي من دراسة الكتب التي قررتها وزارة المعارف في مسابقة الأدب العربي لطلبة السنة التوجيهية، بعد الذي عانيت من المتاعب في دراسة الكتب التي قررتها الوزارة في السنة الماضية، وإنما يتعبني هذا النوع من الدراسة لأنه يوجب النزاهة المطلقة في إصدار الأحكام الأدبية، وليس هذا بالشيء الهين، فأكثر أصحاب هذه الكتب أحياء، وقد تكون بيني وبين فريق منهم تراث وأحقاد، وتخليص النفس من الهوى مطلبٌ شاق، ولن أستطيع القول بأني مبرأ من الأهواء.

ولكن الرغبة الكريمة التي أبداها بعض كبار المربين من أمثال الأستاذ أحمد نجيب هاشم ناظر مدرسة فاروق الأول الثانوية، والأستاذ سامي عاشور ناظر مدرسة شبرا الثانوية، والأستاذ حبيب إسكندر مدير مدارس التوفيق القبطية، هذه الرغبة الكريمة قوّت عزيمتي وأعانتني على صد هوى النفس في معاملة بعض خصومي من رجال الأدب الحديث، فأنا ماض بعون الله في درس الكتب المقررة لمسابقة هذه السنة بالنزاهة التي التزمتها في السنة الماضية، لأن مقامي في نقد هذه الكتب مقام المدرس، والمدرس لا يجوز له أن يواجه تلاميذه بغير الصدق، وإن كان في الصدق ما يجرح هواه.

وقد أرسلت الوزارة منشوراً بالكتب المقررة إلى جميع المدارس الأميرية والأهلية والأجنبية، فلا موجب للنص عليها في هذه الكلمة الوجيزة. وهل يفوت المدرسين الأوائل أن يبلغوها إلى جميع الصفوف؟ إنما يهمني أن أنص على أن كتاب (المنتخبات) لأستاذنا أحمد لطفي السيد باشا مقرر تحريرياً على جميع المتسابقين، وليس عندي ما أقوله في هذا الكتاب بعد الذي قلته في العدد 388 من مجلة (الرسالة)، ويستطيع الطلبة أن يجدوه في مكتبات المدارس الأميرية والمكتبات العمومية.

فإلى العدد المقبل، وسأبدأ بتشريح كتاب (الأخلاق عند الغزالي) فلي بمؤلفه صلة شخصية، وإن كنت أخشى أن يفسد النقد ما بيني وبين المؤلف، وهل جاملتُ صديقاً حتى أجامل هذا الصديق.

زكي مبارك

1 - شكر ووعد
قرأتُ ما تفضّل بكتابته الأستاذ محمد عبد الغني حسن، في العدد 426 من الرسالة الغراء، فشكرتُ لحضرته وافر أدبه وحسن ظنه بي. وأود أن أذكر الآن، أنني بعثت اليوم إلى هذه المجلة بمقال يحتوي على ما أمكنني الوقوف عليه من ترجمة جميل تخلة المدور. فعساي قمت ببعض الواجب نحو رجلٍ خدم الآداب العربية خدمة جليلة.
أما طلبه الكتابة في (قصور سامرا)، فذاك بحثٌ وفّيناه حقه من العناية في بعض الملحقات
التي أضفناها إلى كتاب (الديارات) للشابشتي، ذاك الكتاب الذي نرجو من الله أن يوفقنا لنشره بالطبع في وقت نرجو أن يكون قريباً.
2 - كتاب الشعور بالعور
بينما كنت أقلب فهرس المخطوطات العربية المصونة في خزانة كتب برلين، وقع نظري على ذكر نسخة من كتاب (الشعور بالعور) لعلامة عصره صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي المتوفى سنة 764 للهجرة. وهذه النسخة برقم 9867 من قائمة أهلوردت فتذكرت حينئذ أنني قرأت نبذاً منشورة في مجلة الرسالة. ولما رجعت إليها ألفيتها خمساً، كتبها ثلاثة أفاضل في شأن هذا الكتاب ونسخه المعروفة. ويؤخذ من الفهرس المشار إليه أن نسخة برلين تقوم في (112) صفحة متوسطة، في كل منها 27 سطراً، وأنها كتبت قبل نحو من مائتي سنة وبذلك، تكون النسخ المعروفة لهذا الكتاب ثلاثاً، وهي:
1 - نسخة المغفور له أحمد زكي باشا، المصورة عن مخطوط في بعض خزائن استانبول.
2 - نسخة الخزانة الخالدية في بيت المقدس، وتاريخها سنة 841 هـ.
3 - نسخة برلين، وهي التي ألمعنا إليها في هذه الكلمة
(بغداد)
كوركيس عواد
تأبين الأستاذ يوسف أسعد
أقام شعراء المنصورة وأدباؤها في الأسبوع الماضي حفلة تأبين بنادي الأرز للأستاذ يوسف أسعد الشاعر الذي توفى في الشهر الماضي. وقد كانت هذه الحفلة صورة لوفاء الشعراء والأدباء في الدقهلية نحو شاعر هتف بأعذب الشعر في جميع المناسبات القومية والاجتماعية والخيرية، وكان له أقوى الأثر في تشجيع النهضة الأدبية بالدقهلية.
وقد ولد المرحوم يوسف أسعد في لبنان، وأتم علومه بمدارسها، واشتغل في أول أمره مدرساً لعلوم البلاغة في المدرسة الوطنية اللبنانية؛ ثم اشترك في تحرير مجلة الحقيقة التي كان يصدرها المرحوم نعيم بك صوايا بلبنان؛ ثم هاجر إلى مصر، واختار المنصورة داراً، واشتغل بالتجارة والزراعة، فنجح فيهما؛ إلا أن ذلك لم يصرفه عن قرض الشعر ومعالجة
الأدب، وقد كان أميل إلى الحكم والمواعظ، وله في هذا المعنى كتاب قيم اسمه (رأس الحكمة مخافة الله). رحمه الله رحمة واسعة، وألهم أهله الصبر عليه، وعوض أمته الخير من فقده.
(المنصورة)
علي عبد الله
الأسود بن قنان
ورد هذا الاسم في كتاب مسهب بليغ بين النثر والشعر، للأمير أبي عبد الله بن الأحمر الغرناطي، بعث به إلى سلطان فاس متوسلاً مستغيثاً متوجعاً من بني الأسبان ومناكرهم! وهو من إنشاء الشاعر الناثر أبي عبد الله محمد ابن عبد الله العربي العقيلي، وقد سماه (الروض العاطر الأنفاض، في التوسل إلى المولى الإمام سلطان فاس)
وفي ثنايا الكتاب يقول مادحاً السلطان المذكور: (. . . أعز جاراً من أبي دُوَاد، وأحمي أنفاً من الحارث بن عُباد. . . إن أغاث ملهوفاً فما الأسود بن قنان يذكر، الخ)
فمن هو الأسود بن قنان؟

يقول الأساتذة الإجلاء (السقا والإبياري وشلبي) الذين قاموا بضبط وتحقيق كتاب (أزهار الرياض في أخبار عياض) تعليقاً على هذا الاسم في الهامش: لم نجد شيئا عن الأسود ابن قنان هذا في المظان التي رجعنا إليها.

وللإخوان الكرام كل العذر، فالأسود بن قنان لم يسعده الحظ بالشهرة مع ما أوتيه من فتوة وأريحية وبأس ونجدة.

وقد عناني أن أعرف هذا الرجل الهمام الذي وصفه العقيلي بأكرم خلة يتصف بها إنسان: وهي إغاثة الملهوف! وخيل إليّ أنني مررت بهذا الاسم فيما قرأت وإن غاب عني المصدر، حتى كنت ذات ليلة أتصفح (ديوان المعاني لأبي هلال العسكري) فبعثرت به مصادفة في فصل المديح من كتاب المبالغة.

قال أبو هلال رواية عن أبي الحسن البرمكي عن محمد ابن ناجية الرصغاني، قال: كنت أحد من وقعت عليهم التهمة أيام الواقعة بمال مصر، فطلبني السلطان طلباً شديداً، حتى ضاقت عليّ الأرض برجها! فخرجت إلى البلاد مرتاداً رجلاً عزيزاً منيع الدار أعوذ به وأنزل عليه، حتى انتهيت إلى بني شيبان بن ثعلبة، فدفعت إلى بيت مشرف بظهر رابية منيعة، وإلى جانبه فرس مربوط ورمح مركوز يلمع سنانه، فنزلت عن فرسي وتقدمت فسلمت على أهل الخباء، فرد على نساء من وراء السجف، يرمقنني من خلل الستور بعيون كعيون أخشاف الظباء! فقالت إحداهن:

اطمئن يا حضري، فقلت: وكيف يطمئن المطلوب أو يأمن المرعوب! وقلما ينجو من السلطان طالبه، والخوف غالبه دون أن يأوي إلى جبل يعصمه، أو معقل يمنعه.

فقالت: يا حضري، لقد ترجم لسانك عن قلب صغير وذنب كبير، قد نزلت بفناء بيت لا يضام فيه أحد، ولا يجوع فيه كبد، ما دام لهذا الحي سَبد أو لبَد. هذا بيت الأسود بن قنان، أخواله كلب، وأعمامه شيبان، صعلوك الحي في ماله، وسيدهم في فعاله، لا ينازع ولا يدافع، له الجوار وموقد النار وطلب الثار، وبهذا وصفته أمامة بنت الجلاح الكلبية حيث تقول:

إذا شئت أن تلقي فتى لو وزنته ... بكل مَعَدِّيٍّ وكل يماني
وفي بهمُ حلماً وجوداً وسؤدداً ... وبأسا فهذا الأسود بن قنان
فتى كالفتاة البكر يصفر وجهه ... كأن تلالي وجههِ القمرَان
أغرّ أبرْ ابنيْ نزارٍ ويعرُب ... وأوثقهم عقداً بكل لسان
وأوفاهمُ عهداً وأطولهم يداً ... وأعلاهمُ فعلاً بكل مكان
وأضربهم بالسيف من دون جاره ... وأطعنهم من دونه بسنان
كأن العطايا والمنايا بكفه ... سحابان مقرونان مؤتلفان

فقلت: الآن ذهبت عني الوحشة، وسكنت الروعة، فأنّى لي به؟! قالت: يا جارية، اخرجي فنادي مولاك، فخرجت الجارية فما لبثت إلا هنيهة حتى جاءت وهو معها في جمع من بني عمه، فرأيت غلاماً حسناً قد أخضر شاربه، واختط عارضه، وخشن جانبه. فقال: أي المنعمين علينا أنت؟ فبادرت المرأة فقالت: يا أبا مرهف، هذا رجل نبتْ به أوطانه، وأزعجه سلطانه، وأوحشه زمانه، وقد أحب جوارك، ورغب في ذمتك، وقد ضمِنا له ما يضمنه لمثله مثلك! فقال: بلَّ الله فاك! قال: فأخذ بيدي وجلس وجلست؛ ثم قال: يا بني أبي وذوي رحمي، أشهدكم أن هذا الرجل في ذمتي وجواري، فمن أراده فقد أرادني، ومن كاده فقد كادني، وما يلزمني من أمره في حال إلا ويلزمكم مثله: فليسمع الرجل منكم ما يسكن إليه قلبه، وتطمئن إليه نفسه. قال: فما رأيت جواباً قط أحسن من جوابهم؛ إذ قالوا بأجمعهم ما هي أول منة مَنَنتَ بها علينا، ولا أول يد بيضاء طَوَّقتناها، ومازال أبوك قلبك في بناء الشرف لنا ودفع الذم عنا، فهذه أنفسنا وأموالنا بين يديك!

ثم ضرب لي قبة إلى جانب بيته، فلم أزل عزيزاً منيعاً حتى صنع لي السلطان ما أملت فانصرفت إلى أهلي.

إذاً فالأسود بن قنان من شيبان بن ثعلبة بن عكابة بن صعب ابن علي بن بكر بن وائل من ربيعه.

علي الجندي

العدد 435 - بتاريخ: 03 - 11 - 1941

مي
للأستاذ عباس محمود العقاد
كنت يوماً بمكتب صحيفة (المحروسة) فلقيت وأنا خارج منه صاحبها الأستاذ الياس زيادة والد الآنسة (مي) رحمها الله وكان من عادته إذ لقيني أن يخاطبني باسم الأديب حسين فتوح، وإذا لقي الأستاذ فتوحا خاطبه باسمي ومشى معه أو معي مسافة يصحح فيها الاسم ويتلطف بالاعتذار ويتناول بعض الأحاديث العامة. . .
وجرى الحديث إلى مؤلفات الآنسة فقلت: إنها جديرة بان تفخر بها. إنها أعظم كاتبة في العربية
قال: ولك أن تقول: أعظم كاتب
يريد أن المفاضلة والتفضيل قد يجريان بينها وبين الكاتب ولا يقتصر على الكاتبات. فقلت مزكياً شهادته: ليس زهو الأب وحده بالذي يملي عليك هذه الشهادة. إن كثيرين غيرك ليسبقونك إليها
وكان الرجل على حق في فخره وتقديره. فمثل الآنسة (مي) من يفخر بها الآباء وغير الآباء من أبناء العربية، ومنزلتها في الثقافة وخدمة الرأي منزلة فضلى بين الكتاب والكواتب، وإن كنت قد أردت أنها أعظم كاتبات العربية جميعاً منذ عرفت لغتنا الكاتبات، ولم أرد أنها أعظم الكاتبات في عصرنا هذا دون غيره.
وما تتحدث به ممتع كالذي تكتبه بعد روية وتحضير، فقد وهبت ملكة الحديث في طلاوة ورشاقة وجلاء، ووهبت ما هو أدل على القدرة من ملكة الحديث - ونعني به ملكة التوجيه وإدارة الأحاديث بين الجلساء المختلفين في الرأي والمزاج والمقام - فيكون في مجلسها عشرة: منهم الوزير والموظف الصغير، ومنهم المحافظ والمغالي بالتجديد، ومنهم المرح الثرثار والوقور المتزمت؛ فإذا دار الحديث بنهم أخذ كل منهم حصته على سنة المساواة والكرامة، وانفسح مجال القول لرأيه وللرأي الذي ينقضه ويشتد في نقضه، وأنتظم كل ذلك في رفق ومودة ولباقة، ولم يشعر أحد بتوجيهها وهي تنقل الأحاديث من متكلم إلى متكلم، ومن موضوع إلى موضوع، كأنها تتوجه بغير موجه وتنتقل بغير ناقل، وتلك غاية البراعة في هذا المقام.
بقيت لها هذه الملكة في أشد أيام السقم والسآمة، فلم يكن سامعها يحس فرقاً بين (مي) في إبان عافيتها و (مي) في ساعات الضنى والإعياء حين يستطرد الكلام إلى الأدب أو إلى التاريخ أإلى معارض الآراء. ولم أسمع منها قط في معرض من هذه المعارض إلا ما هو خليق بالإصغاء والتدوين.
وكانت لها فطنة للضحك تحي المساجلة وتزين الحوار، ولكن فطنها للمواقف المضحكة كانت أدق من فطنتها للنكتة واشتراكها فيها، وكانت كبيرة الإعجاب بفكاهة المصريين التي تسميها (النغاشة) أو القافية التي لا تعذر ولا ترحم!
بحث بعض أساطين الشرقيين بعد الثورة الوطنية في توحيد الزي الملائم للبلاد الحارة، وكان أحمد شفيق باشا صاحب الحوليات والمذكرات المشهورة رئيساً لجماعة الرابطة الشرقية وحريصاً على إشاعة الزي الموحد بين الأمم العربية وأمم الشرق الأدنى عامة، ولفرط حرصه على هذا لم ينتظر إقناع الناس ولبس الزي الذي ارتضاه ثم مشى به في طرقات العاصمة إلى محطتها مؤثراً المشي على الركوب ليراه السابلة في تلك الطرقات الحافلة.
وكان يوم ثلاثاء ونحن في مجلس الآنسة مي والزوار كثيرون وأقبل بعض الفضلاء يبتسم كمن يغالب ضحكة جامحة. فسألته: مم الضحك؟ فقال: كنت اللحظة أعبر بار اللواء فناداني أمين واصف بك وسألني: أرأيت شفيق باشا في زيه الجديد؟ والله لقد حسبته مسجوناً مسوقاً إلى محطة العاصمة لتسفيره إلى الليمان!!
هي تعرف شفيق باشا وتعرف أمين بك، وتعرف أن الأول رئيس الثاني في جماعة الرابطة الشرقية، ومع هذا لم يرحمه حين جاء في طريق القافية!
فلا أنسى كيف غلبت ضحكا لهذه المفارقة (المصرية) وهذا التشبيه العابث، واندفعنا جميعاً نضحك وهي تضحك حتى اغرورقت عيناها بالدموع، وحتى قال الأستاذ مصطفى عبد الرزاق بحيائه المعروف: ما بالنا أيها الأخوان نضحك هذا الضحك وننسى وقار المجلس؟
فهتف به الأستاذ خليل مطران مداعباً: اضحك اضحك يا أخي! من الذي يجد الضحك

ويفرط فيه؟
وكانت سهرة ضاحكة من سلامها إلى وداعها، وكانت (مي) في تلك الليلة كأحسن ما كانت
بشاشة وأنساً وغبطة وإقبالاً على الحديث والمسامرة. . . رحمها الله. ما رأيتها بعد ذلك في صورة آنس من تلك الصورة، وتلك البشاشة كلها، وذلك الذكاء كله الآن في التراب، بعد سنوات مسحت فيها النضرة، ورانت الغمة، ونضب معين الأمل والغبطة، وطال الألم والعذاب!
ألا ما أسخف الحياة!
لقد كان مصابها بأمها بعد أبيها في أشهر قلائل صدمة محطمة زلزلت كل ما بقى في جنانها من يقين وسلوى.
لكنها كانت قبل ذلك قاسية على نفسها كثيرة الانطواء على دخيلتها. وكان يخيل إلى أن احترمها المفرط خصلة عميقة في سريرتها لازمتها من ريعان شبابها، لأنها كانت قليلة الأمن والطمأنينة إلى الناس، وكانت على دماثتها لا تدع الحواجز بينهم وبينها، ولا تفتأ وراء سور من الحيطة والكتمان
وكنت أشفق من فرط احترامها وكلفتها؛ فقلت لها يوماً مجترئاً على مصارحتها: أنا على رأيك يا صديقتي في أن الناس لا يؤمنون، ولكني لست على رأيك في نفع الحذر وجدوى الاحتراس. بل عندي أن عناء الاحتراس أضر من كل عناء يصيبنا به ترك الحذر وقلة المبالاة. فلا تبالي ولا تحترسي وانطلقي في حياتك فذلك أخف الضررين
قالت: كأنك تعيد علي ما قاله الأستاذ داود بركات
قلت: وماذا قال!
فقصت علي حديثاً جرى بينهما في السفينة وهما عائدان من أوربا، وكانت في السفينة سهرة راقصة والليل رائق والبحر ساج والطرب غالب على المسافرين. ورآها الأستاذ داود منزوية في ركن من الأركان كأنها تأبى أن تشاركهم أو تشارك الطبيعة في فرصة الصفاء. فناداها كالزاجر المندد: ما بالك تعكفين على نفسك عكوف العجائز؟ تعالي أرقصي وأطربي مع هؤلاء الفتيات والفتيان فمنهم من هو أكبر منك وكلهم يسبقونك في مجال السرور
قلت: وبماذا أجبته؟
قالت: تضايقت منه!
ثم أومأت إلي منذرة باسمة وقالت وهي تقتضب الحديث: فإن أردت أن أتضايق منك فعد إلى نصيحتك ونصيحته. . . وإياك أن تعو!
وكنا نتبادل الرأي كثيراً ونختلف كثيراً ولا نستغرب هذا الخلاف ولا نكف عن تبادل الآراء؛ لأن الخلاف بين كل أنثى وفيه لطبعها وكل رجل وفي لطبعه أمر من البداهة بمكان. فهي تنظر بعين حواء إلى حقائق الدنيا وهو ينظر بعين آدم، وكلاهما مخلص في خلافه ومستفيد
على أنها كانت ترى في اللغة العربية واللهجة العامية مثل ما أراه، وكانت على تربيتها الأوربية وأحاطتها بخمس لغات أجنبية تغار على عربيتها غيرة البداوة، فلا تجاري الذين يميلون إلى مجافاة الفصحى وتبديل التهجئة والكتابة وتذهب في هذا مذهباً قريباً من مذهب المحافظين المتشددين
وأسمها (مي) اختصار لأسم (ماري) باختيار أول حروفه الميم وآخرها الياء، ولكنها أحبت الاسم لعربيته لا لاختصاره، فان اسم ماري نفسه ليس بالاسم الطويل ولا الكثير الحروف
تذاكر الأدباء في مجلسها يوماً مناقب رجل من أعظم رجالات المصريين فشاركتهم إعجابهم به وثناءهم عليه، واستأذنت بعد ذلك أن تلومه أمامهم في أمر صغير
قالت: كنت في الجامعة المصرية فقدمني إليه الأستاذ لطفي السيد وتفضل فأطرى كتاباتي العربية والإفرنجية بما شاء له فضله وتشجيعه
ثم قالت: فلا أدري لماذا نسى الزعيم العظيم أنني عربية وأنني كاتبة عربية وأختار أن يخاطبني بالفرنسية ويصر على مخاطبتي بها مع إجابتي له بالعربية على كل سؤال
وبدا عليها حقاً أنها غضبت لعربيتها من أن يخاطبها مصري عظيم بغير لغته ولغتها، وهي هي التي تتقن خمس لغات وتكتب بكل لغة كتابة يرضاها القراء من أبنائها. ولقد

تكون الواحدة من بناتنا وما تحسن لغة واحدة كلاماً فضلاً عن الكتابة، ثم لا تزال ترطن بها في البيت والطريق مع أبناء جنسها كأنها لا تفهم لغة غيرها.
وواجب لي في عنق العربية أن تغار على أدبها كغيرة مي على نسبتها إليها. فما عرفت العربية كاتبة أفضل من مي واقدر وأجلى، وليس فضل الندرة هنا بأقل من فضل الإحسان والإتقان.
حياها الله في ذكراها
عباس محمود العقاد
-
11 - أومن بالإنسان
للأستاذ عبد المنعم خلاف
آلهة وحيوانات - عمل الطبيعة في تكوين الإنسان الواحد - أزهرت الأشجار وأدركت الثمار - مدينة خالدة ذات سلطان عجيب وشامل - جئنا لنحيا لا لنموت - الحياة بالفكر في المجاهل والمعامل - عبقرية المادة وعبقرية الروح - الذكاء البطر الجموح - إلى أحضان الأمم الكبرى.
إذا جردنا الإنسان مما أسبغته عليه الحياة المدنية من أفانينها وأنواعها وأشكالها ظهر لنا أن البون بعيداً جداً بين الإنسان الذي أخرجته الطبيعة، وهذا الإنسان الذي غيرته الصناعة وتعقيد الفكر. وظهر لنا بأن حياته الصناعية عالم مستقل منفصل خلقه هو. ولكنه عالم غير خالد ولا متوالد إلا باطراد تقدم الإنسان. بخلاف مخلوقات الله في الطبيعة فإنها أبدية دائمة تعمر بها الطبيعة.
وكلما فكرت في الفرق العظيم بين حياة رجل على الفطرة وبين حياة رجل ألماني أو إنكليزي أو أمريكي وعقدت موازنة بينهما المأكل والملبس والملهى والمركب والمعمل والإنتاج والفكر والإحاطة بآفاق الدنيا والتسلط على الطبيعة ظهر لي أن الأول يكاد يكون في صفوف نوع آخر غير الإنسان، وأن الثاني ينقصه الروح والعدل ليكون الإنسان المنشود البار بوصايا الله؛ لأنه هو الذي أحسن الأخذ عنه وخلفه في الماديات خلافة واسعة ونمت على يده الحياة وتنوعت وتشققت مجاريها وتوسعت. . .
ولا يجوز عقلاً أو شرعاً أن يعطى الأول الحياة وعزتها، وأن يتسلط على الثاني ما دام كل منهما على حالته. كما لا يجوز لحيوان أن يسخر إنسانا
وكلما استعرضت معارف الإنسان المدني المدونة في كتبه وصحفه وألواحه وأرضه وآثاره أدركت مبلغ ما حمله من أمانات الحياة. وأسرار الدنيا ذات الصمت والعمل.
ولا شك أن الإنسان العادي الذي يقرأ صحيفة يومية يحمل ذهنه من قضايا العالم وأخباره في الصباح والمساء ما لم يكن في حسبان أحد من السابقين ووجدانه. . .
ولا شك كذلك أن هذا كله قد ترك أثره الواسع الشامل في تكوين الذهن الإنساني الحالي وتكييف أعصابه وإحساسه بالحياة، غير ما كان عليه الناس في زمن المواصلات والثقافات
المحدودة.
إن الأقدار تصنع عقل الإنسان الحديث وقلبه صناعة تشترك فيها كل معارف الحياة العصرية.
ومن الأعمال العظيمة التي تقوم بها الطبيعة الآن عملها في تكوين الإنسان الواحد الخاضع لمؤثرات الواحدة. ونحن الذين يقع علينا تأثير أعمالها العظيمة ونعيش في غيبوبة عن خطواتها بنا لا يدرك منا هذا التأثير إلا الراصدون المسجلون الذين تجعلهم الأقدار مخصصين لرصد خطوات الحياة وتسجيل ظواهرها. وهؤلاء يكادون يكونون نادين عن حبال الشبكة التي تلف غيرهم من أبناء الحياة.
لقد تركزت المعلومات فصارت القارات كالقرى. . . وملايين الجنود كأصابع اليد. . . والدبابات كالنعال. . . والطائرات كالعصافير. . . وأخبار العالم كله كأخبار الحي الواحد. . .!
وهكذا تتركز الحياة وتتلخص في فكر الإنسان وتختزل صورها العظيمة في أرقام وحروف. . .
هذا العصر جدير أن يسمى (عصر الفوران والغليان) - على سبيل التشبيه بسطح ماء في وعاء على نار - فقد لبث سطح الحياة ساكناً في عصورها السالفة لا يتحرك إلا

حركات موضعية. كما يلبث سطح الماء أول ما يوقد عليه في النار. حتى إذا ما وصلت حرارته إلى درجة الغليان هدر وفار وأشتد وقذف وتبخر وتحول. . .

إن عوامل الحرارة كانت تحته من قديم، ولكنها لم تصل معه إلى درجة الإنضاج والحركة السريعة والتحويل إلا أخيراً. وكذلك عصر الإنسانية الحالي هو عصر ظهور كوامن أسرارها وأسرار الطبيعة ظهوراً شديداً متلاحقاً.

وقد انكشفت حيوات جميع الناس للناس؛ فعلموا أنواعهم ولغاتهم وأديانهم ومذاهبهم في الحياة.

وقد كانوا ضائعين مغمورين تائهين كأسرة مفرقة فرقها حادث. . . ثم جمعتهم الظروف مرة ثانية. . .

أني أتخيل صورة الدنيا في عقول ساكنيها الأولين، وصورتها الآن في عقول بنيها المثقفين، فيصيبنا دهش مشوب بفرح وبهجة وشكر لله على تسديده الإنسان إلى غاية ابتدأت تنكشف وجوهها.

وكان الأنبياء والحكماء القدماء وحدهم هم المدركين وجهات الحياة. وكانوا في الناس وما يكون البصير بين عميان، والأب الكبير بين صبيان، والراعي بين قطعان. وكان قليل من الناس هم الذين يدركون ما يشيرون إليه. ولكن الآن صار العلم والدين والإدراك الصحيح شيئاً مشاعاً كالهواء والماء، تقاربت فيه المعتقدات والآراء.

أجل، هذا زمن حصاد جهود الإنسانية؛ فقد أزهرت الأزهار وأدركت الثمار، وظهر الحقل مستوى السوق مستغلظ الأعوام، قد أينعت فيه عُلب الأسرار وحان قطافها!!

انظر في بقاع الأرض جميعها تجد إنسانية تفتح عيونها وتستيقظ من غفلاتها لتدرك الحياة الحديثة وتشترك فيها وتتلاقى مع غيرها في خدمتها. وقد زال الانبهام والغموض اللذان كانت تحسمها عقول الإنسانية والمتوسطة في ظواهر الحياة. وصار الإنسان معتمداً على نفسه وحسابها الدقيق وأخذها بأساليب الطبيعة في الإنتاج والاختراع، وترك الإعتماد على الأماني، فضاقت دائرة الاعتماد على الأقدار. . .

ولنتلفت إلى الماضي كثيراً لندرك مدى ما كسبناه وحصلناه من محصولات الحياة كإنسانية واحدة وضع كل شعب وكل حضارة لبنة في بنائها، حتى خرجت هذه الحضارة العالمية المشتركة التي أقحمت كل قطر وكل مدينة في الأرض، وصارت كقدر الله الذي لا مرد له ولا مفر منه.

إنها حضارة باقية خالدة لن تبيد ولن تفنى ولن ترتد! إذ أن بذورها ألقيت في كل مكان ونبتت فيه. فلئن ذهبت أوربا إلى الخراب والدمار لسوف تبقى أمريكا. . . ولئن ذهبتا معاً لسوف يحمل المشعل أمم الشرق وتلك الأمم المنثورة في أرض الله وجزر المحيطات وغيرهم ممن اقتنعوا بأن هذه المدنية هي نبوة الطبيعة ذات المعجزات الدائمة التي لا مفر من الإيمان بها والعمل لها وأن هذا العصر هو أوان حصاد الغلال وجني القطاف التي زرعها وتعهدها الأقدمون، وزادت كل أمة في ميراثها حتى صار فيها من كل قطر وردٌ ومن كل أمة مدد ورفدٌ.

إن هذه مدنية فرضت نفسها فرضاً على الناس جميعاً. فرضت آلامها وشرورها كما فرضت إسعادها وخيراتها وعلومها، وصار الناس لا يستطيعون منها فراراً بعد ما دخلت عليهم أقطارهم قسراً واقتداراً.

هي قدر لازم لا فكاك منه كأنها الرياح والأمطار والأشعة ومما يؤكد أنها خالدة مؤبدة انتشارها في كل مكان وليست كالمدنيات السالفة الموضعية ذات العصبية القومية. لأنها قامت على العلم الذي لا تتناقض حقائقه بتعدد الأماكن والأجناس، بل تتلاءم وتتوافق بتوافق قوانين الطبيعة الواحدة

وكانت المدنيات السابقة تجارب وجذوراً متشعبة لجذع عظيم هو هذه المدنية الحالية ولم يحدث في الماضي أن صبغت مدنية الناس جميعاً كما فعلت هذه المدنية، فخضع لها الموحد والوثني والملحد والمؤمن والزنجي والإسكيمي والشرقي والغربي ولم يحدث أن وجدت ميادين كثيرة مشتركة بين الناس جميعاً كما وجدت ميادين النشاط العلمي والآلي والصناعي والسياسي والأدبي في رحاب هذه المدنية.

ولم يحدث أن اشتبكت مصالح الناس جميعاً كما اشتبكت الآن بفعل السرعة وسهولة الانتقال وتبادل المنافع وتشعب الاحتياجات.

ولم يحدث أن درست ثقافة واحدة في مدارس الأمم جميعاً كما درست هذه الثقافة

العصرية.
فأي مكان نجا من سلطان مدنية الزمان؟
أي طريق لم تجس خلاله سيارة؟ وأي جو لم تخفق فيه الطيارة؟ وأي بلد لم يستصبح بنور الكهرباء؟
إن هذه المدنية تحيط بالإنسان في كل أفق من آفاق حياته. وإني استعرض الآن كل ما يحيط بي وأنا أكتب فأجد جميع ما تقع عليه عيني قد اشتركت فيه آلاف العمليات الإنسانية المعقدة. وقد صار إحساسي بها كإحساسي بضرورات حياتي. وأكاد لا أرى شيئاً خالصاً من يد الطبيعة وحدها إلا جسمي. . . وحتى هو لم يسلم من هندسة الحلاق و(رتوشه)!
ويمكنك أن تجرد الأرض مم فعله الإنسان فيها وما عقده وركبه، لتدرك مدى الحياة الأرضية من غيره ومدى العالم الذي أحدثه هو. . . وإذا ألقيت نظرة على شارع في نيويورك أو لندن أو القاهرة فإنه يروعك أن ترى ما في مخازنه ومناظره وآثار الأيدي التي عملت فيه، حتى لا تستطيع بعض الأذهان أن تتخيل الدنيا خالية منه من طول الألفة
وطول الغفلة عن التفكير في مبادئ الحياة. . .
طوفوا في شوارعكم أيها الناس بقلب ذاكر للطبيعة مدرك لمباديها لتعرفوا مقدار ما بينكم وبينها ومقدار قوتكم الابتداعية فتتلفتوا لأنفسكم متعجبين محترمين محافظين عليها وعلى قواها الفكرية والإنتاجية من الضياع والذهول والغفلات!
إن أفراح الحياة تغمر قلبي حين أطوف بجسمي في الشوارع العظيمة، أو حين تطوف بي الحياة في دور السينما، فأرى عجائب ما استحدثه الإنسان في عوالم المواد والمعاني. . .
ولست أزهد في رؤية الحياة المادية وتقصي دقائقها، لأن كل دقيقة منها ترسل في قلبي دقيقة من التعجب والإيمان. . .
ما جئنا للحياة لنموت ونستحضر فلسفة الموت من أول يوم، والقبر ليس نهاية بل بداية مرحلة تالية. . . فعلى الذين يجعلون القبور نصب أعينهم فيهونوا من أجلها كل عظيم ولو كان الصحة أو العلم أو التفاؤل، أن يعلموا أنهم جاءوا ليحيوا ويحسوا الحياة عميقة فيما خلق الله من شيء، وينتفعوا به انتفاع الحلال والعقل والحفظ. . .
ومن الكفر أن نترك الأجسام فريسة للجراثيم الفاتكة والآفات وعوامل الشؤم انتظاراً للموت الأكبر. . . فيدب فيها منذ ولادتنا
كذلك يجب أن يكون إيمان الرجل المتمدن. . . إيمان البصير الواثق بأن عمل النفس البشرية في المادة باب إلى الإيمان لا الكفر كما يتوهم الأغبياء البلداء الأغرار!
إني لا أعيش في نفسي وحدها، ولكني أعيش في نفوس بني الدنيا جميعاً، لأرى الحياة بعيونهم من آفاقهم، حتى أخرج ومعي الكثير من أسرار الحياة في القلوب والعقول. . .
وأنصح لأصحاب الإيمان التقليدي أن يستحدثوا في قلوبهم ونظراتهم ما أستحدث، ليعرفوا أي لذة وأي إيمان مضاعف يغمر قلوبهم. . .
وأنصح لأصحاب النظرة المادية والذهول عن المعاني، أن يستحضروا أرواحهم وراء كل نظرة وكل عمل وكل علم. . . فإن هذا هو الوضع الحقيقي لحياة الفكر والاستعمال الحق للروح وقوى الجسم. . .
ولنعش بأفكارنا وأرواحنا دائماً، سواء أكنا في غابات خط الاستواء، حيث الطبيعة بكر غير مفضوضة لم يطمثها إنس ولا جان. . . أم في مصانع (فورد) بنيويورك، حيث يدور الفكر مع الحديد في ضجة وتعقيد وقدرة!
الغربيون قدموا لنا عبقرية المادة، فلنقدم لهم عبقرية الروح. . . فلنخدم أرواحهم كما خدموا أجسامنا. . .!
إنهم استغنوا بذكائهم عما وراء الطبيعة، وقد كفهم ذكاؤهم تدبير أمورهم كلها فيما يخيل إليهم مع أن الواقع أنهم في شبكة الأقدار العليا والتدبير الشامل لحياة الأرض. والرجل الذكي غني بالحيل وتجدد الأفكار. والغني يبعث دائما على الطغيان. ومن هنا أتى الغربيون ودخلت عليهم نكبات الحياة لأنهم اعتمدوا على غنى ذكائهم وحده.
وحين يستغني الطفل بذكائه وقدرته عن ثدي أمه ورعايتها، ويعلو مستواه البدني

والعقلي عن مستواه، فذلك عهد ابتداء عقوقه إياها إذا لم يكن ذا ذخيرة موفورة من الإدراك والحب والرحمة والأدب، وما دام ينسى أنه قطعة قدت من جسمها وقلبها، وأنها الوشيجة الوثيقة بينه وبين أرومة الحياة والطبيعة.

وكذلك ينسى الإنسان الذكي عجزه أمام قهر صاحب الطبيعة ويستغني بذكائه عن الاستمداد منه والاستيحاء منها فيصير مخلوقاً يكاد يكون ذا صلة بينه وبين ما في الطبيعة من موجودات تسير طائعة بالإلهام والتوجيه.

فهل نترك الغربيين يذهبون بأرواحنا وأرواحهم في أودية بعيدة عن الرحمة والعدالة والأشواق إلى المجهول والبحث عن الله ذي الجلال؟!

أنتركها ونتركهم للحديد البليد القاسي يطبعها بطابعه، ويوحي إليها ببأسه سياسة البطش والطغيان، ويشغلها بضجته المنكرة عن همسات القلوب وأصوات الضمائر؟

إننا إن تركناهم وتبعناهم على الخير والشر فسوف نكون فرائسهم وجزر سيوفهم وطحين طواحينهم الحديدية الحمراء!

فلنذكرهم بمبادئ الطبيعة أمنا وأمهم، تلك المبادئ التي فيها من منطق الوجدان أكثر ما فيها من الذكاء الجامح وقوة الاختيار من غير ضابط من هدى الطبيعة.

وإن الطبيعة لتذكر أبنائها دائماً بوصايا الحق والعدل كما تذكر الأم البسيطة أبنائها الأذكياء بوصاياها وعواطفها التي بنت عليها عشها. فمهما اختلفت أفكار الناس وأخلاقهم فإنهم يتوحدون حين يقفون بين يدي الطبيعة ويشعرون بشعور واحد فيه صدق الفطرة واعتدالها.

ومبادئ الأمومة وجوها وبساطتها وعدم تكلفها، والحنين إليها والشوق إلى مهدها يجب ألا تنسى؛ لكي يعيش الإنسان باراً بريئاً عامر القلب بالعواطف الشريفة ذات التأثير الكريم في خدمة الحياة!

وكما يوصف الرجل الذي يهجر أمه بالعقوق واللؤم مهما كانت هي بسيطة جاهلة، ومهما كان هو فائق العقل واسع العلم عريض الجاه، كذلك يوصف الرجل بالعقوق حين يهجر أحضان الأم الكبرى الطبيعة، أوحين يؤذي أو يهمل اخوته منها!

عبد المنعم محمد خلاف

مسابقة الأدب العربي لطلبة السنة التوجيهية

(الأخلاق عند الغزالي)

للدكتور زكي مبارك

تمهيد - الكتاب والمؤلف - اليوم المشهود - انتقال القلب من مكان إلى مكان - الروح السائد في الكتاب - العناصر الرئيسية - الكفر والأيمان - كلمة تنفع شبان الجيل الجديد ..

تمهيد:

أنا أشعر بأن مقال اليوم لن يخلو من ضعف، لأني أكتبه وأنا كاره، والإجادة لا تتاح إلا لمن يكتب بشغف وشوق، وإنما أقبل كارهاً إلى مقال اليوم لأنه متصل بأحد مؤلفاتي، وأنا لا أحسن وصف هذه المؤلفات إلا في المواقف التي تمد النفس بموجبات الزهو والخيلاء، ولا شيء من ذلك في هذا الوقت، لأن فورة الهجوم على كتاب (الأخلاق عند الغزالي) قد خمدت منذ أعوام، بعد أن شغلت الناس وشغلوني بأبحاث بعيدة عن موضوع هذا الكتاب

ولكن، ما الذي يدعو إلى هذا المقال وحالي كما وصفت؟ يدعو إليه أن الكتاب مقرر لمسابقة الأدب العربي، ولا بد من معاونة طلبة السنة التوجيهية على إدراك بعض ما فيه من مقاصد وأغراض، على نحو ما صنعت في السنة الماضية، وعلى نحو ما سأصنع في السنة الحاضرة، في درس الكتب المقررة للمسابقة بين أولئك الطلاب.

ولو أنني وجدت من ينوب عني في الكلام عن كتابي، لأعفيت نفسي من هذا الواجب المزعج، فلم يبق إلا أن أتكلم عن كتابي كما أتكلم عن كتب الناس. . . وهل في الدنيا شريعة تفرض علي أن أنصف الناس وأظلم نفسي؟

وليكن مفهوماً أني سأنظر إلى كتابي بعين المحب، فحسبي وحسبه ما عانينا من الظلم والاضطهاد. ألم يرفض جماعة من علماء العراق مصافحتي بحجة أني آذيت الغزالي؟ ألم يقل جماعة من علماء مصر بأني وجهت أقوال الغزالي إلى غير ما كان يريد؟ ألم يقترح

الأستاذ جاد المولي بك أن ينص في محضر الامتحان على أن اللجنة غير مسؤولة عما في الكتاب من آراء، وإنما مُنح مؤلفه إجازة الدكتوراه جزاء ما بذله من الاجتهاد في استنباط تلك الآراء؟

لن أذكر كتابي بغير الجميل، وإن كنت أعلم الناس بما فيه من عيوب هي في نظري من غرائب الجمال. وهل يعاب عليه غير أقباس من الحيوية لا ينجو منها شاب كالذي كنت في سنة 1924؟

ردوني إلى ما كنت عليه من شراسة وحمق في ذلك العهد، وخذوا ما أملك من ثروة وصيت، فيوم واحد من شبابي أطيب وأنضر من أطايب الوجود

الكتاب والمؤلف:

يقع هذا الكتاب في أكثر من أربعمائة صفحة بالقطع المتوسط، وثمنه خمسة عشر قرشاً، أما النسخة المجلدة فتباع بعشرين، فأرجو المكتبة التجارية أن تراعي هذا السعر، فلا ترهق التلاميذ، لأن أكثرهم أفقر مني

وقد قدم هذا الكتاب لنيل الدكتوراه في الفلسفة من الجامعة المصرية سنة 1924، وكانت لجنة الامتحان مؤلفة من حضرات الأساتذة الأكابر: منصور فهمي، وأحمد ضيف، ومحمد جاد المولي، وعبد الوهاب النجار، وأحمد عبده خير الدين؛ وقد انتقل النجار وخير الدين إلى جوار الله، فإلى روحيهما في دار الخلود أقدم أصدق التحية وأطيب الثناء

واسم المؤلف محمد زكي عبد السلام مبارك، وكان فيما سمعت شابا يحاول الوصول إلى الحق، وطريق الحق كثير الأشواك والعقبات، فلم يصل إلا بعد أن أدمى قدميه، إن صح أن الله أراد أن يكون من الواصلين

ويظهر أن المؤلف كان يعاني ثورة روحية وعقلية عند تأليف هذا الكتاب، وهو نفسه حدثني أنه صاحب الغزالي في مؤلفاته نحو خمس سنين، فأسره الغزالي على نحو ما يصنع بمن يواجهون نوره الوهاج، ورأى المؤلف أن تأليف كتاب في (الأخلاق عند الغزالي) لا يتيسر إلا بعد النجاة من أسر الغزالي، فجمع قواه وكسر باب الأسر، ليتنسم أرواح الحرية الفكرية، وليلقي الغزالي لقاء الند للند، إن كان للغزالي أنداد

وفي مدى ثلاث سنين استطاع ذلك الشاب أن يكتب رسالة للدكتوراه في الفلسفة عن (الأخلاق عند الغزالي)، وهي رسالة شرقت وغربت، بحق أو بغير حق، وأهتم بها الدكتور سنوك هوجرنيه، فنشر في الثناء عليها بحثاً باللغة الهولندية كان طليعة التنويه بالمؤلف في بيئات المستشرقين

اليوم المشهود

هو اليوم الذي نوقش فيه المؤلف بجلسة علنية في الجامعة المصرية. فقد كان بين الحاضرين جماعة من أساتذة الأزهر الشريف، على رأسهم الأستاذ الجليل عبد المجيد اللبان شيخنا وشيخ أشياخنا وصاحب الفضل على كثير من العلماء، وقد طاب للشيخ اللبان في ذلك اليوم أن يعترض من وقت إلى وقت بأسلوب يحرج الممتحن ويحرج لجنة الامتحان، واقتفى أثره المرحوم الشيخ محمد الإبياري فاعترض بعبارات حملت الدكتور منصور فهمي على أن يعلن أن الجمهور لا يصح له التدخل في شؤون هي من حق لجنة الامتحان

وانتقلت الثورة من الجمهور إلى أساتذة الجامعة من غير لجنة الامتحان، فتقدم معالي الأستاذ حلمي باشا عيسى وأسر في أذن الدكتور منصور فهمي أن الدكتور طه حسين يريد أن يوجه ثلاثة أسئلة إلى زكي مبارك، فأعلن الدكتور منصور أن لأساتذة الجامعة وحدهم أن يتدخلوا في الامتحان، وهو كذلك يعطي الكلمة للدكتور طه حسين. . . والله الحفيظ!

وكانت معركة لم أنتصر فيها إلا بأعجوبة، فقد كان الدكتور طه هزمني قبل ذلك في امتحانات الليسانس مرتين!

ثم كانت النتيجة أن يفوز الطالب بعد امتحان دام نحو ثلاثة ساعات فيصير دكتورا في الآداب بدرجة (جيد جداً) من الجامعة المصرية

انتقال القلب من مكان إلى مكان

ورأى الأستاذ خليل بك ثابت أن يرسل مندوباً يشهد الامتحان ويحدث قراء المقطم عما وقع فيه من جدال وصيال، وقد وقع اختياره على المرحوم حسن حسين، وكان أديباً له

بدوات، فلخص معركة الامتحان بأسلوب صورني فيه بصورة الثائر على التقاليد الدينية، فانبرى لمجادلتي على صفحات المقطم عالمان جليلان، أحدهما الشيخ أحمد مكي، طيب الله ثراه،

وثانيهما أستاذي في أكثر ما تلقيت من العلوم الدينية وهو الشيخ يوسف الدجوي، ولم أستطع الرد على هذين الأستاذين الجليلين - وكان يشرفني أن أجاريهما في ميدان النضال - لأني علمت من إدارة الجامعة عن طريق الأستاذ سامي راغب أن مساعد السكرتير العام بوزارة المعارف وهو الأستاذ محمود فهمي النقراشي طلب من الأستاذين جاد المولى وخير الدين أن يقدما تقريراً عن امتحان زكي مبارك في الدكتوراه، ولأن الدكتور طه والدكتور منصور نصحاني بالسكوت عما أثار امتحاني من جدال، وهي نصيحة سجلها الدكتور طه في جريدة السياسة وهو ينقد كتاب (مدامع العشاق) في أوائل سنة 1925

وأقول أن قلبي انتقل من مكان إلى مكان بسبب هجوم الشيخ أحمد مكي والشيخ يوسف الدجوي، فما كنت أنتظر من هذين الأستاذين أن يثيرا عجاجة يهتاج بها الجمهور، وتلتفت إليها وزارة المعارف

ولم يصح عندي أن هجوم الشيخ مكي والشيخ الدجوي يستند إلى الحق، فأسررتها في نفسي، وقلت أن رجال الدين لم يكونوا دائما ملهمين، وذلك هو السبب في أني أجازيهم ظلماً بظلم وإجحافاً بإجحاف، من حين إلى حين

ولكن لا بأس فقد استطاع كتاب (الأخلاق عند الغزالي) أن يقاوم هجمات الناقدين عدداً من السنين إلى أن تعرض له ناقد لا يرحم المؤلف، وأن كان يحمل اسم المؤلف، ففي اليوم الرابع من أبريل سنة 1937 وقف طالب يؤدي امتحان الدكتوراه في جلسة علنية بالجامعة المصرية. وكان أكبر همه أن ينقض آراء الطالب الذي وقف هذه الوقفة في الخامس عشر من مايو سنة 1924

فماذا صنع؟ أثبت في كتاب (التصوف الإسلامي) أنه ظلم الغزالي في كتاب (الأخلاق عند الغزالي) والحكم على النفس من مظاهر القدرة على مغالبة الأهواء

روح الكتاب

وقد حاولت مرات كثيرة أن أرجع إلى هذا الكتاب بالتغيير والتبديل لأقدمه بصورة جديدة إلى عشاق الدراسات الأخلاقية، ولكنه يأسرني كلما نظرت فيه، لأني الفته في أوقات كنت فيها ثائر القلب والعقل على فهم القدماء للأخلاق، وهي ثورة لم أنج من شرها إلى اليوم، وقد أسايرها وتسايرني إلى آخر أيامي. وكيف يهدأ من يروعه أن يرى في رجال الدين من

يعرفون خريطة الحياة الأخروية ويجهلون خريطة الحياة الدنيوية؟

إن كتاب (الأخلاق عند الغزالي) لم يكن إلا دعوة صريحة إلى التشكيك في أصول الأخلاق الموروثة عن القدماء، والمؤلف يقسم الفضائل إلى قسمين: فضائل سلبية وفضائل إيجابية، ثم يقرر أن الغزالي وجه اكثر اهتمامه إلى الفضائل السلبية (ولم يعن بشرح الفضائل الإيجابية كالشجاعة والإقدام والحرص وما إلى ذلك مما يحمل المرء على حفظ ما يملك، والسعي لنيل ما لا يجد، فإنه لا يكفي أن يسلم الرجل من الآفات النفسية، بل يجب أن يزود بكل مقومات الحياة. وخير للمرء أن يوصم برذائل القوة من أن يتحلى بفضائل الضعف، فإن الضعف شر كله، ولكن اكثر الناس لا يفقهون)

وقد عاب المؤلف على رجال الدين أن ينسحبوا من الميدان السياسي في الأوقات التي يفرض فيها الجهاد، فطوق الغزالي بطوق من حديد حين سجل عليه أنه لم يؤدي واجبه في التحريض على مقاومة الحملات الصليبية، مع أنه (حجة السلام) ومع أن صوته كان مسموعاً في اكثر الأقطار الإسلامية.

واثبت المؤلف في لواحق الكتاب مقالا نشره في المقطم بتاريخ 4 يونية سنة 1934 أيد فيه القول بأن الدين الإسلامي دين فتح وامتلاك، وهو مقال كتبه في الرد على من ناوشوه من العلماء وفيه يقول:

الظاهر أن حضرات العلماء فهموا من الفتح التخريب والاعتداء على الشعوب. كلا، يا) هؤلاء! الدين الإسلامي دين فتح، رضيتم أم كرهتم، وللفتح آداب وشروط سنها الدين الحنيف، وأنتم حين تنفرون من كلمة (الفتح) إنما تجارون الأجانب الذين يتوددون إليكم بوصف الإسلام بالقناعة والرضا بالقليل، وهذا خطأ سراح، فالدين الإسلامي ابعد

الأديان عن الزهادة وأبغضها للخمول، ولا حرج على الإسلام في أن يرغب أتباعه في امتلاك ناصية العالم، فإن هذا أمل نبيل، ولم يحدثنا التاريخ عن أمة قوية أو ملة قوية وضعت حدا لمطامعها في الحياة، وإنما ترغب الأمم الضعيفة أو الملل الضعيفة على (أن تحدد آمالها وأطماعها بضيق الحدود

وهذه الفقرة توضح بعض اتجاهات المؤلف في تفسير الأغراض الصحيحة للدين الإسلامي.

وأنكر المؤلف على الغزالي أن يتعلق بأهداب الآداب السلبية التي دعا إليها الإنجيل، وفي ذلك يقول:

أن الآداب التي وضعها الإنجيل غير طبيعية، على معنى أنه لا يمكن أن يسكن إليها) بطبيعته أحد من الناس، فالحكمة الإنجيلية التي تقول: (من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر) حكمة غير معقولة لا يقرها لها عرف ولا يدعو إليها قانون. . . والحكمة المسيحية التي تقول: (من سخرك ميلا فامش معه ميلين) حكمة غير ممكنة القبول، ومن المستحيل أن تجد مسيحيا يدير لك خدك الأيسر حين تضربه على خده (الأيمن، أما المسيحي الذي يتبعك ميلين حين تسخره ميلاً فهو نادر الوجود

ثم يقول المؤلف بعد كلام مفصل في نقد الأخلاق المسيحية: (أليس من الغريب أن يصدق الغزالي أن عيسى يقول: (من أخذ رداءك فأعطه إزارك) ومن الذي يرضى من المسلمين أو النصارى أن يتأدب بهذا الأدب الغريب؟)

وينفي المؤلف عن نفسه تهمة التحامل على المسيح فيقول: (ونحن بهذه الكلمات لا ننكر نبوة عيسى عليه السلام، وإنما نرجح أن أتباعه جنوا على شريعته بما زوروا باسمه من الأحاديث، وهذه جناية كثيرة الأمثال في تواريخ الشرائع، فإن الإسلام مع تواتر سنده الأول وهو القرآن لم يعدم من أصحاب الغفلة وأصحاب الأغراض من زوروا الأحاديث باسم النبي حتى كادوا يقضون على ما للإسلام من قوة الحق وروعة الجمال. . . ونحن كذلك لا ننكر أن المسيحية تدعو إلى الزهد، ولكنا نرجح أنها كانت تدعو إلى الزهد بقدر ما تفل من حدة الناس وتقلل من جشعهم وطمعهم، أما الدعوة إلى الفرار من طيبات ما أحل الله فهي دعوة بعيدة الوقوع من الأنبياء والمرسلين)

هذا الروح السائد في كتاب (الأخلاق عند الغزالي) الذي يعطفني عليه، ويصرفني عن التعرض له بالحذف والإيصال، مع أني رجعت عن بعض الآراء المدونة فيه حين ألفت كتاب (التصوف الإسلامي) وبين الكتابين أعوام تنقل فيها عقلي من أفق إلى آفاق.

والمهم هو أن ينظر طلبة السنة التوجيهية إلى المعضلات المبثوثة في هذا الكتاب بالعين التي نظر فيها المؤلف، ولهم أن يثوروا على المؤلف كما ثار على نفسه في كتاب (التصوف الإسلامي) إن اتسع وقتهم للبحث والاستقصاء.

وأهم من هذا أن يمتحنوا ما في هذين الكتابين من آراء فلسفية، ليشعروا لجنة الامتحان بأنهم انتقلوا من الدرس والاستيعاب إلى النقد والتحقيق، وليس هذا بكثير على شبان هم بأذن الله طلائع الجيل الجديد.

العناصر الرئيسية

في كتاب (الأخلاق عند الغزالي) أربعة عشر باباً، وفي كل باب عدة فصول، ومن مواد هذا الكتاب تتضح ألوان كثيرة من التفكير الفلسفي عند العقول الإسلامية، وتظهر عبقرية الغزالي في نضارة وإشراق.

وأسلوب الكتاب يغلب عليه الحذر والتهيّب وقد يصل إلى الرمز والإيماء، لأن المؤلف كان يعاني رقابة عنيفة، هي رقابة اللجنة المكلفة بالنظر في صلاحيته لامتحان الدكتوراه، وإن كان من واجب المؤلف نحو نفسه أن يعلن أن تلك اللجنة لم تحذف منه غير فقرتين اثنتين، ولم تشر بغير زيادة كلمات معدودة تحدد المراد من بعض الأغراض

وكان شاع منذ أعوام أن كتاب (الأخلاق عند الغزالي) من تأليف الدكتور منصور فهمي، وهي إشاعة تشرفني وترفع من قدري، فأنا تلميذ هذا المفكر الجليل، ولو قضيت العمر في الثناء عليه لما وفيته بعض حقه في تعليمي وتثقيفي؛ ولكن كتاب (الأخلاق عند الغزالي) كتابي لا كتابه، بشهادة ما فيه من غطرسة واستعلاء، وأستاذنا الدكتور منصور آية في التواضع المقبول

وكان يجب أن ألخص ما في الكتاب من أبواب وفصول ليسهل درسه على

المتسابقين، ولكني نظرت فرأيته في غاية من الوضوح والجلاء، فلم يبقى إلا أن أنص على ما يجب درسه بعناية والتفات:

في الباب الأول فصول تصور عصر الغزالي بإيجاز وتصف المدائن التي عرفها الغزالي، وسيسأل الطلبة عن محتويات هذا الباب

وفي الباب الثاني فصول عن أسرة الغزالي ومولده ونشأته وحياته الروحية، ومبلغ فهمه للحياة، وسيسأل الطلبة عما حصلوه من عناصر هذا الباب

والباب الثالث متعب، لأنه خاص بالينابيع التي استسقى منها الغزالي آراءه الفلسفية، ولا بد للطلبة من مذاكرة أساتذتهم في الاهتداء إلى تلك الينابيع

وفي الأبواب التالية يكون الكلام في صميم المبادئ الأخلاقية بنظرتين مختلفتين: نظرة الغزالي ونظرة المؤلف، ومن واجب الطلبة أن يمتحنوا هاتين النظرتين بفهم وذوق، ليقيموا الدليل على ما يملكون من أصالة الفكر ورجاحة العقل

فإذا كان الباب التاسع رأينا المؤلف يحاسب الغزالي على آراءه في العلوم والفنون وفي التربية والتعليم، وهو باب سيسأل الطلبة عما فيه من آراء، لأنه وثيق الصلة بالموازنة بين العقل القديم والعقل الجديد

وفي الباب العاشر يتكلم المؤلف عن الواجبات الفردية والاجتماعية، ويقع هذا الباب في أكثر من خمسين صفحة، ويكفي الطالب أن يدرس منه عشر صفحات، ليواجه لجنة الامتحان وهو على شيء من التحصيل

وفي الباب الحادي عشر يطول الكلام عن تأثير الغزالي في عصره وما تلاه من العصور، وللطالب أن يقرأ من هذا الباب ما يشاء ولكن عليه أن يدرس الصفحتين 361و362

وفي الباب الثاني عشر كلام عن أنصار الغزالي وخصومه، وهو موضع اعتراض، فقد قيل أن المؤلف أوجز في الكلام عن أنصار الغزالي مع أنه تحدث عن خصومه بإطناب، فعليك أن تعتذر عن المؤلف بلطف!!

أما الباب الثالث عشر فهو في الموازنة بين الغزالي والفلاسفة المحدثين، وفيه فصل مهم جداً عن الموازنة بين الغزالي وديكارت ولن تعفيك لجنة الامتحان من هذا الفصل، لأنه من عيون الكتاب، ولأن التأمل فيه قد يجذبك إلى الدراسات الفلسفية

وفي الباب الرابع عشر تجد (آراء علماء العصر في الغزالي) من أمثال الأساتذة: منصور فهمي، علي عبد الرزاق، يوسف الدجوي، محمد جاد المولي، عبد العزيز جاويش، الكونت دى جالارزا، علي العناني، عبد الوهاب النجار، حسين والي، عبد الباقي سرور، أحمد أمين

فإن استطعت أن تقرأ الكتاب كله قراءة الفهم أولاً، وقراءة النقد ثانياً، فستظفر بالجائزة الأولى، وسيصافحك وزير المعارف مصافحة الود والإعجاب

الكفر والإيمان

في الموازنة بين الغزالي وكارليل تقع صحائف أراها من النفائس وقد تكون أصدق ما جري به قلمي، وهي من صفحة 389 إلى صفحة 399، ولا أستطيع تلخيص تلك الصفحات في هذا المجال، طلباً للنجاة من الدخول في معارك نفضت من غبارها يدي، فقد راضتني الأيام بعد الجموح، وانضممت كارهاً إلى العصابة التي تقول بأن الرياء سيد الأخلاق!

هذه الصفحات تنفعك في الامتحان، لأنها تشهد بأنك وصلت إلى الأسرار المطوية في كتاب (الأخلاق عند الغزالي) وذلك هو الغرض المنشود، ولكنها ستضرك وستؤذيك، لأنها ستفرض عليك أن تزن (المسئولية الأخلاقية) بميزان جديد وأنت في غنى عن هذه المتاعب الثقال!

كلمة تنفع شباب الجيل الجديد

قد يكون فيكم من يتوهم أن اللجنة التي تحتكمون إليها في مسابقة الأدب العربي يسرها أن تراكم أبواقاً تحكي ضلالات المجتمع في فهم الأدب والأخلاق، هيهات ثم هيهات، فستؤلف تلك اللجنة من رجال وزارة المعارف ورجال كلية الآداب، فأفهموهم بلسان الحال ولسان المقال أنكم طلائع الجيل الجديد، وأنكم جديرون بما لهم فيكم من آمال

وبالنيابة عن اللجنة أوصيكم بدرس ما يطيب لكم من مواد الكتب المقررة للامتحان

الشفوي، على شرط أن تعلنوا اللجنة بذلك، وعلى شرط أن يكون لكم في التعقيب إلى المؤلفين آراء تجعلكم من أرباب الفكر الأصيل
ليس المهم أن تقرءوا الكتاب من الألف إلى الياء، ولكن المهم أن تدركوا سريرة المؤلف، وأن تحاسبوه بنزاهة وإخلاص
أنتم في السنة التوجيهية إلى كليات الجامعة المصرية فأفهموا لجنة الامتحان أنكم انتقلتم من التحصيل إلى التفكير، فالتفكير هو الغرض المنشود
وسنتكلم في الأسبوع المقبل عن (إبراهيم الكاتب)؛ فإلى اللقاء
زكي مبارك

كيف يكتب التأريخ

للدكتور حسن عثمان

مدرس التاريخ الحديث بكلية الآداب

- 6 -

نقد الأصول

تعيين شخصية المؤلف وتحديد زمان ومكان التدوين

إذا ما ثبت للباحث أن الأصل أو المصدر التاريخي صحيح وغير مزيف فليس معنى ذلك أن المعلومات الواردة به ذات قيمة تاريخية كبيرة. ولا بد من نقد الأصل التاريخي من نواح أخرى. وبعض الأصول تحمل أسم مؤلفها وزمان ومكان تدوينها، والبعض الآخر الذي يكون عليه طابع الصحة وعدم التزييف يغفل بعض أو كل هذه النواحي، فينقص ذلك من قيمتها التاريخية. فكيف يقدر الباحث قيمة الأصل التاريخي وهو يجهل اسم المؤلف وشخصيته وعلاقته بالحوادث التي كتب عنها؟ هل شهدها بنفسه أم سمعها ونقلها عن الغير؟ ومتى دونها؟ هل دونها أثناء وقوع الحوادث أم بعدها بزمن طويل؟ وفي أي مكان تم ذلك التدوين؟ هل كان في مكان وقوع الحدث أم في جهة بعيدة عنها؟ من الضروري جداً معرفة كل هذه النواحي بقدر المستطاع. فكيف السبيل إلى تحقيق كل ذلك؟

إن معرفة اسم وشخصية كاتب الأصل التاريخي مسألة هامة لأن قيمة المعلومات التاريخية التي يوردها ترتبط كل الارتباط بشخصية الكاتب وبمدى فهمه للحوادث وبكل الظروف التي تحيط به على وجه العموم. فالمعلومات التي يدونها الأمير أو الحاكم تختلف عن المعلومات التي يسطرها السياسي أو صاحب المهنة أو الجندي أو رجل الشعب. وكاتب الأصل التاريخي، سواء كان شاهد عيان أو اعتمد على غيره من شهود العيان، يعتبر الواسطة التي يصل المؤرخ عن طريقها إلى الوقائع التاريخية. فإذا كان الكاتب شخصاً صادقاً عدلاً بعيداً عن الأهواء بقدر المستطاع كانت معلوماته صحيحة بصفة عامة، والعكس صحيح أيضاً. وعلى ذلك تتضح أهمية البحث لمعرفة أكبر قسط ممكن من المعلومات عن كتاب الأصل أو الوثيقة التاريخية. وفي هذه الناحية كغيرها من نواحي نقد

الأصول التاريخية الأخرى، يصبح عمل المؤرخ شبيهاً بعمل القاضي، والقاضي يمتاز بأن شهود الحوادث أحياء أمامه بالحق أو بالكذب ينطقون، ولكن المؤرخ عليه أن ينتقل من الحاضر إلى الماضي بالعقل والنقد والخيال، وأحياناً تضيع عبثاً جهود المؤرخ لمعرفة اسم وشخصية كاتب الأصل التاريخي فيظل مجهولاً، وأحياناً أخرى لا يمكن للمؤرخ إلا أن يجمع بعض المعلومات القليلة عنه، ونلاحظ أن وضع اسم شخص على أصل أو مصدر تاريخي لا يفيد دائماً أنه كاتبه كما فهمنا ذلك من عوامل الدس والانتحال. وإذا عثر الباحث على الأصل التاريخي المخطوط أمكن في أحوال كثيرة التعرف على شخص الكاتب أو الاقتراب منه على الأقل، بدراسة الخط ونوع الورق والحبر واللغة والأسلوب والمصطلحات الخاصة بعهد تاريخي معين وبدراسة المعلومات التاريخية الواردة به

وإنه ليختلط الأمر أحياناً على الباحث في التاريخ فيخطئ في نسبة الأصل التاريخي إلى كاتبه الحقيقي. ومن الأمثلة إلى ذلك ما ذكره الأب بولس قرالي أنه عند حضور علي باشا أمير البحر التركي إلى المياه السورية لفض النزاع القائم بين فخر الدين أمير لبنان ويوسف سيفا صاحب طرابلس في يوليو سنة 1619، أرسل الأمير فخر الدين رسالة إلى الباشا التركي يعتذر فيها عن الحضور إليه بنفسه. ويقول الأب قرالي

أن الأستاذ اسكندر المعلوف قد أورد ترجمة هذه الرسالة باللغة العربية في كتابه عن الأمير فخر الدين. والأستاذ المعلوف يعتبر أن هذه الرسالة قد صدرت عن فخر الدين ولكنه يتشكك في تاريخ إصدارها ولا يمكنه أن يحدد ذلك ويذكر الأستاذ المعلوف أنه قد نقلها عن ريكو والوقع إن هذه الرسالة ليست لفخر الدين. والمؤلفان كنوللس وريكو قد أخذا معلوماتهما عن هذه الفترة عن كتاب مينادوى الرحالة الإيطالي المعاصر الذي زار سوريا ولبنان أثناء حملة إبراهيم باشا لإخضاع الدروز في 1585. ومينادوى يورد نص هذه الرسالة باللغة الإيطالية، ويقول أن ابن معن قد أرسلها إلى إبراهيم باشا في يوليو 1585. ولقد نقل كنوللس هذه الرسالة عن مينادوى إلى اللغة الإنكليزية. ولا يحدد مينادوى ولا كنوللس (وريكو) من هو المقصود بابن معن. على أنه لا يمكن أن يقصد بابن معن في ذلك المقام الأمير فخر الدين، لأنه كان إذ ذاك غلاماً صغيراً، والمقصود بابن معن، هو قرقماز بن معن والد فخر الدين، وليس فخر الدين نفسه. والذي حاول إبراهيم باشا أن يحمله للقدوم عليه للغدر به. وبالبديهة لا يمكن أن تكون هذه الرسالة قد صدرت عن الأمير فخر الدين إلى الباشا التركي في 1919. لأن كتاب مينادوى الذي يتضمن أقدم نص معروف عن هذه الرسالة قد طبع في البندقية في 1594.

ومن الأمثلة التي توضح طريقة إثبات شخصية كاتب الأصل التاريخي أن الباحث في التاريخ قد يجد خطابا باللغة الإيطالية مدونا في باريس بتاريخ 29 يونيو 1789 وموجه إلى حكومة على رأسها مجلس شيوخ، ولكن بدون تحديد تلك الحكومة وبدون تعيين الكتاب. وفحص هذا الكتاب يدل على أن كاتبه هو أحد السفراء الإيطاليين في فرنسا. فمن هو ذلك السفير؟ وإلى أي حكومة أرسل خطابه؟ الحكومة الإيطالية الوحيدة التي كانت على رأسها مجلس الشيوخ في 1789 هي جمهورية البندقية. فالخطاب إذاً قد كتبه سفير البندقية في فرنسا إلى حكومته. فمن هو؟ البحث في سجلات أرشيف البندقية يدل على أن سفير البندقية في باريس في ذلك العهد كان أنتونيو كابللو.

وقد يحتوي الأصل التاريخي على معلومات عن حوادث رآها شاهد عيان بنفسه أو على معلومات سمع بها ونقلها عن الغير. فينبغي أن يحدد الباحث على وجه الدقة أجزاء الأصل التي دونها الكاتب بناء على ما شهده بنفسه، ويعتبر إذاً أصلا من الطبقة الأولى، وكذلك يحدد أجزاء الأصل التي اعتمد الكاتب في تسجيلها على الغير، وتعتبر أصلا من الطبقة الثانية، مع تحديد مصدر هذا النوع الأخير من المعلومات إذا أمكن ذلك. من الأمثلة التي توضح ذلك ما ذكره (كاميل ديمولان) في بعض ما كتبه عن المشاهدة التي حدثت بين مندوب الملك لويس السادس عشر وبين ميرابو أثناء اجتماع مجلس طبقات الأمة في 23 يونيو سنة 1789. والباحث يعرف من التاريخ أن ذلك الاجتماع لم يكن حضوره مباحاً للجمهور، وكاميل ديمولان لم يكن عضو في مجلس طبقات الأمة؛ وعلى ذلك فأن ديمولان لم يسمع بنفسه ما قال ميرابو لمندوب الملك. فكلامه عن هذه المشاهدة أخذه عن طريق السماع، فيعتبر أصلا من الطبقة الثانية. وإنما وصف ديمولان لما شهده خارج الاجتماع من قدوم الملك أو احتشاد الجماهير يعتبر أصلاً من الطبقة الأولى

وفي بعض الأحوال يجد الباحث كتاباً طبع في باريس في 1890 مثلا. ومن المحتمل أن يكون مؤلفه قد نقله بنصه عن مؤلف سابق وضعه في 1850 بدون أن يشير إلى ذلك. فالمسؤول عن المعلومات الواردة هو الكاتب الأول السابق. وصحيح أن السطو على كتابة الغير والنقل منها بغير حساب قد نقص الآن، وبمنعه القانون أحياناً؛ ولكن كثير ما يجد الباحث أن من الأصول والوثائق ما هي إلا عبارة عن نقل حرفي لأصول ووثائق سابقة، سواء قصد الناقل السرقة وانتحال المعلومات لنفسه أو جمعها لأنها تهمه وتفيده. فعلى الباحث في التاريخ أن يتعقب الكاتب الأصلي؛ وإنه لمن أهم المسائل في هذه الناحية من النقد معرفة المصادر أو الوثائق التي اخذ عنها ذلك الأصل التاريخي. ومن الأمثلة على ذلك أن الباحث قد يعثر على مجموعة من الكتابات عن المصادمات البحرية بين العثمانيين والتسكان في القرنين السادس والسابع عشر جمعها أحد المهتمين بإبراز بطولة التسكان وهو بستيانو بالبياني، ولكن بدون تحديد المصدر التي اخذ عنها. والبحث في سجلات أرشيف فلورنسا التاريخي يوضح أن بالبياني قد أقتبس مثلا من أقوال بعض رجال الحملات البحرية التسكانية بقيادة

الفارس فرنشسكو دل مونتي والأميرال أنجرامي في الشرق الأدنى وفي شمال أفريقيا في 1607

وقد يجد الباحث أحياناً مجموعات من الأصول والوثائق تتناول بحث نقطة معينة، فينبغي إذا جمعها وترتيبها وتقسيمها إلى مجموعات على حسب التقارب والاختلاف في المعلومات الواردة، وقد يكون التقارب شديداً جداً أو قد يوجد اختلاف بين هذه الأصول والوثائق مثل الاقتصار والاجتزاء في مواضع، والإطالة وإعطاء تفصيلات ومسائل جديدة في مواضع أخرى. وقد توجد علاقة بين هذه الأصول التاريخية في ناحية النقل والاقتباس عن مصدر أساسي واحد. فعلى الباحث دراسة هذه الأوجه كلها لمعرفة الشخص أو الأشخاص الذين كتبوا في هذه النواحي المتشابهة والمختلفة لتقدير ووزن أقوال كل منهم، وسنعود إلى ذلك عند بحث ناحية أخرى من نواحي نقد الأصول التاريخية

وقد يكون الأصل التاريخي من عمل أكثر من مؤلف واحد. فالكثير من الأصول تدخل عليه إضافات وزيادات وتعليقات في مواضع مختلفة، ثم تطبع ويعتبر الأصل وما أضيف إليه كأنه من وضع كتاب واحد. إلا إنه من الممكن بدراسة هذا الأصل كشف الحقيقة؛ وإذا وجد الأصل المخطوط أصبح من السهل تمييز الأصل من الإضافات والزيادات. أما إذا ضاع الأصل المخطوط ولم يبقى أمام الباحث إلا المطبوع أصبحت المسالة اكثر صعوبة، إلا أنه

يمكن بالدراسة الوصول إلى نتائج معقولة. فيدرس الباحث اللغة: هل هي واحدة أم متغيرة، والأسلوب هل هو واحد أم متغير، وهل تسود الكتاب فكرة واحدة وروح واحدة، وإلا توجد خلافات ومتناقضات وفجوات في تسلسل الأفكار؟ وإذا كان الكاتب الذي أضاف في موضع أو أكثر من النص الأصلي واضح الشخصية أمكن تمييزه، وإلا يبقى مجهولاً لدى الباحث في التاريخ.

ولنعرض لمثال حققه الدكتور أسد رستم؛ فإنه قد عثر على مخطوطة صغيرة تتناول أخبار الدولة المصرية العلوية في سورية في زمن إبراهيم باشا، وكانت غفلاً من اسم المؤلف. ووجد الدكتور رستم إنها ليست تاريخاً واحداً، وإنما هي ثلاثة تواريخ فقسمها إلى (ا. ب. ج)؛ ولاحظ أن هذه الأقسام لا تعطي حوادث متسلسلة، ولا يبدأ قسم منها حيث ينتهي سابقه، وأن الحوادث تتكرر في أقسامه الثلاثة، ولاحظ أيضاً أن (ا، ج) يستعملان التاريخ الهجري، بينما (ب) يتخذ التاريخ المسيحي، ووجد أن (ج) أكبر الأقسام، وأن أخباره تتعلق بحوادث لبنان مع إعطاء تفصيلات شخصية ديرانية محلية عن دير القمر وبيت الدين. فرجح الدكتور رستم أن كاتب (ج) شخص لبناني ديراني، أو أقام بدير القمر على الأقل. فقصد الدكتور رستم إلى المكتبة البطريركية في بكركي، وفحص أوراق 1831 - 1841، وبعد الدراسة الطويلة عثر على رسائل مكتوبة بنفس الخط الموجود في (ج)، وبنفس اللغة واللهجة، وعليها إمضاء القس أنطون الحلبي. فاتجه الدكتور رستم إلى بطريك الموارنة ماري الياس حويك، وعرف منه أن القس أنطون كان من المقربين للأمير بشير الشهابي، وأنه سكن بيت الدين، وأنه كتب عن أحكام الأمير بشير، وعن حروب إبراهيم باشا في سورية، وأن أغلب ما كتبه قد أحرق أثناء حوادث الصدام بين المسيحيين والدروز في 1845. وإذاً، فالقس أنطون الحلي هو مؤلف المخطوطة (ج)

وليس يكفي أن نعرف اسم المؤلف فقط إذا كان مجهولاً؛ والغرض من معرفة الاسم هو معرفة شخصية وصفات الكاتب لأن ذلك سيكون له قسط كبير في تقدير قيمة المعلومات التي ترد في الأصل أو المصدر التاريخي. فلا بد من أن يجمع الباحث كل المعلومات الممكنة عن شخصية كاتب الأصل التاريخي. وأحياناً يمكن للباحث أن يجمع معلومات عن شخصية المؤلف من بعض كتب التراجم؛ أو يجمع معلوماته عن الكاتب من الأصل

التاريخي الذي دونه. فمثلاً الكتابة المؤرخة في 24 يونيو 1789 عن بعض حوادث الثورة الفرنسية في باريس وفرساي يفهم الباحث من لغتها وأسلوبها وطريقة عرضها ومعلوماتها أن كاتبها شخص مثقف، وأنه شاب قوي الجسم يمكنه أن ينتقل من باريس إلى فرساي أثناء المطر المنهمر، ويدرك الباحث أنه شخص متحمس جرئ ثوري، يتكلم بصراحة ويقرر أن ممثلي الشعب لا يخافون الموت، ويعلم الباحث أيضاً أن

الكاتب كان مهتماً بالحوادث التي شهدها لدقة وصفها وحسن التعبير عنها. ولا ريب فأن هذه الوصاف تنطبق على (كاميل ديمولان) الذي كتب عن تلك الحوادث.

والمسالة التالية في هذه الناحية من النقد هي معرفة زمن تدوين ذلك الأصل التاريخي. فالأصل أو الوثيقة قد تكون صحيحة، وكاتبها قد يكون من الأشخاص الذين يتحرون الصدق والبعد عن الهوى، ومع ذلك فقد ينقص من قيمتها بعد الزمن بين وقوع الحادث ورؤيته وبين تدوين أخباره. فالذاكرة تخون الإنسان، ويفوت الكاتب حوادث وتفاصيل خاصة كلما بعد به العهد عن زمن وقوع الحادث مهما كانت رغبته في قول الصدق ومهما حاول استرجاع وقائع الزمن الماضي. فإذا كان الكاتب لم يحدد تاريخ تدوين الأصل التاريخي، فكيف يستطيع الباحث أن يحدد ذلك ولو بالتقريب؟ في بعض الأحيان يمكن دراسة المحتويات وضع حدين لمبدأ ونهاية الأصل؛ أي أنه يعين التاريخ الذي لا يمكن أن تكون الحوادث قد وقعت قبله والتاريخ الذي لا يمكن أن تكون هذه الحوادث قد وقعت بعده. ولتحديد ذلك ينبغي أن يكون الباحث صاحب ثقافة تاريخية واسعة تتعلق بالعصر الذي يدرسه. ولا بد أن تكون الوثيقة أو الأصل قد دون بعد آخر حادث ورد به؛ ولكن من الجائز أن يكون التدوين قد حدث بعد ذلك بزمن قصير أو طويل. وإذا فرضنا أن كتاب سفير البندقية في باريس لم يكن مؤرخا، فأنه يمكن معرفة تاريخ كتابته بدراسة محتوياته. فالحوادث التي ذكرها السفير هي حوادث يونيو 1789؛ وآخرها حادث ذكره هو اجتماع مجلس طبقات الأمة في 27 يونيو 1789؛ وعلى ذلك فلا بد أن السفير قد دون كتابه بعد ذلك الحادث مباشرة وقبل أن يقع حادث آخر مهم. والمجلس اجتمع بعد ذلك في 30 يونيو؛ فيكون السفير إذاً قد كتب خطابه إلى مجلس شيوخ البندقية في 28 أو 29 يونيو 1789.

ثم يواجه الباحث في التاريخ مسألة أخرى هي مسألة تعيين مكان تدوين الأصل التاريخي؛

وهي مرتبطة كل الارتباط بما سبق. وسواء كان النص الموجود أمام الباحث أصلا تاريخياً من الطبقة الأولى أو أصلا تاريخياً من الطبقة الثانية فلا بد من معرفة مكان تدوينه. فهل دون شاهد العيان الحوادث في مكان وقوعها أو في مكان بعيده عنه؟ أو هل أخذ معلوماته عن أشخاص شهدوا الحوادث بأنفسهم، وأين كان ذلك؟ وهل كان التدوين في مكان وظروف تجعل كاتب الأصل التاريخي قادراً على تصوير الوقائع تصويراً صحيحاً، أم أن التدوين قد حدث في مكان بعيد واعتمد الكاتب على الذاكرة والخيال في سرد الواقع؟ المعلومات التاريخية التي ترد في الأصل قد تحدد مكان التدوين في بعض الأحيان. أو قد يمكن معرفة ذلك في المعلومات العامة عن الكاتب. فمثلا بابي كتب مذكراته في ربيع 1792. ونعرف من التاريخ أن بابي كان في ذلك الوقت مقيماً في نانت. وإذاً فهو قد كتب مذكراته في نانت وليس في باريس مسرح الحوادث التي كتب عنها

(يتلى)

حسن عثمان

ثورة علي ابن سينا

أو عقيلة (الأركانا)

للدكتور جواد علي

لقد كان صاحب هذه الثورة ومؤجج نارها طبيب سويسري وفيلسوف أوربي عاش في مدينة (باذل) عاصمة العلم في المقاطعات السويسرية الألمانية في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر للميلاد. طبيب كانت له نفس تواقة على التنقل من مدينة أوربية إلى مدينة أوربية أخرى، ومن جامعة أوربية إلى جامعة أوربية أخرى في سبيل طلب العلم والحقيقة؛ في سبيل إدراك كنه الإنسان وسر هذا الكون وعظمته.

ولكنه كان حيث هبط في أرض أو حل في مدينة يجد الكتب اللاتينية العويصة المترجمة عن العربية أو عن اليونانية تحتل المكان الأسمى في عالم علم ذلك الزمان؛ ويجد الأطباء والعلماء يتجادلون في أبحاثهم وفق القواعد المنطقية المترجمة عن العربية أو اليونانية رأساً. يدونون آراءهم في الكون والإنسان وفق ما جاء في كتاب ابن سينا ولا سيما كتاب (القانون في الطب) وكتب أرسطو وجالينوس. لم يكونوا يحكمون عقولهم،

أو يستخدمون التجارب في أبحاثهم، أو يجيلون النظر في الأفق البعيد. وهذا ما ساءه جداً ودفعه إلى إعلان عصيانه وتمرده على كتب العرب واليونان معاً.

وقد عرف ذلك الطبيب الفيلسوف باسم الطبيب المتنقل (بارسلس)؛ أما أسمه الحقيقي فكان يتركب في الواقع من بضعة أسماء ضمت بعضها إلى بعض على عادة ذلك الوقت كان يدعى أورويلس ثيوقراستس بارسلس بومباستس فون هوهنسهايم دعي بالطبيب المتنقل لأنه كان مشغوفاً بالأسفار محباً للتنقل من محل إلى محل ومن مكان إلى مكان. ولقد كون فيه هذا الميل عقلاً يختلف جداً في طراز تفكيره وأسلوب اشتغاله عن طراز تفكير واشتغال عقول علماء ذلك الوقت. جمع في أنسجته وخلاياه خلاصة الثقافات الأوربية المختلفة والنزعات الثورية التي بعثتها النهضة الأوربية على القديم البالي، وخلاصة النزعات العملية التي بعثتها التجارب العلمية التي بدأ يقوم بها علماء الطب والطبيعة في ذلك الحين. فشك في مقدرة كتب أبن سينا الطبية والفلسفية، وزلزل إيمانه بمقدرة كتب أرسطو أو أبقراط أو جالينوس على إنعاش حياة الإنسان من الناحيتين

الروحية والمادية. ونادى في المجتمعات العلمية وعلى رؤوس الأشهاد أن عصر أبن سينا واليونان يجب أن يزول، وأن أياماً جديدة يجب أن تحل محل تلك الأيام كانت فلسفة أبن سينا فلسفة هادئة؛ وكذلك كانت فلسفة حكماء اليونان لم يكن فيها ما يبعث على المجازفات والمغامرات والبحث عن الأسرار ومجاهل الأرض. بينما كانت أوربا تتمخض عن حركة جديدة، هي حركة تسخير العلم في خدمة الإنسان والاستفادة من الطبيعة في سبيل رفاهية أبن آدم. كانت كلمة (الأركانا) من أبرز الكلمات وأحلاها في قاموس علم ذلك الزمان. وكلمة أركانا تدل على معان جمة عميقة تدل على المادة السرية التي يمكن بواسطتها تحويل أي معدن خسيس إلى معدن ثمين. ولا يستغرب صدور هذا الميل المادي الجشع من إنسان ذلك الوقت. فقد قلب القرن الخامس عشر العالم رأساً على عقب. كدس الذهب والفضة في بلاط ملوك البرتغال والأسبان، وحرم الشعوب الأوربية الأخرى من مصادر القوة والثروة. ووجد حملة سر (الأركانا) في قصور الأمراء وملوك أوربا مرتزقاً حسناً جداً. كانوا يجوبون عواصم أوربا ليعرضوا على ساداتها آخر ما وصل إليه علمهم عن هذه الكلمة السحرية معشوقة الأغنياء. وكان أبرعهم وأشهرهم الذي تمكن بواسطة بضاعته في علم (السيمياء) وطلاقة لسانه، من السيطرة على عقل الأمير (فردريك) أمير ورتمبرك في عام 1597 م ومن ابتزاز أموال الأمير بلا حساب، لتحويل النحاس إلى المعدن الثمين الذهب. وقد سطر لنا عصر بارسلس عشرات وعشرات أمثال هذا العالم السيميائي الشاطر.

كانت (الأركانا) رمز عقلية الجيل الجديد، ذلك الجيل الذي سخر من عقلية من تقدمه، لأنها في نظرة عقلية قديمة آسنة ذات تفكير قديم. كانت تؤمن بالخرافات وبزخارف القول وما جاء في الأساطير. وما الأركانا في نظره سوى ثورة جديدة على العصور القديمة وعلى ما أنتجته تلك العصور.

ولكن الجديد في عقلية الأركانا حقا هو ثورة الفرد على الطبيعة وثورة الإنسان النشيط على الإنسان المتزن الهادئ، ثورة الجرمانية على العربية واللاتينية.

ولكي يبرهن ذلك الإنسان الجديد على انه إنسان جديد في كل شيء. إنسان عملي حرفي أرادته وتفكيره فرق بين علوم الأوائل وعلوم الأواخر، بين علوم الأجيال التي سبقت القرن

الخامس عشر وبين علوم الأجيال التي ظهرت بعد هذا القرن. سمي علم السحر القديم مثلا (علم السحر الأسود) فميزه عن علم السحر الجديد الذي ابتدعه وسماه (علم السحر الأبيض). وعلم السحر الأبيض في نظر إنسان ذلك الوقت علم جديد عملي مجرد من الأباطيل والخرافات؛ وقد ضمن هذا لإنسان على القدماء حتى في مصدر العلم فقال: إن مصدر علمه السماء، أما مصدر علم القدماء فكانت الأرض.

ومادام مصدر السحر الأبيض السماء، فلم لا تكون للأجرام السماوية ذاتها يد في مقدرات الإنسان؟ آمن إنسان الأركانا بفعل البروج والأفلاك في مستقبل الإنسان، ولكنه لم يؤمن كما آمن الأولون. نعم آمن بقدرة البروج والأفلاك، وأيقن بأهمية ليتمكن بواسطة أسرار هذا العلم من معاكسة تأثيرات في السماء، وليسخر قوى البروج الخلفية في صالح الإنسان. أما الإنسان الأول، فقد آمن بها إيمان رجل مستسلم

للمشيئة والأقدار يرجو رضا القوى الخفية لتجلب عليه السعادة والرفاهية.
رأينا تأثير السماء على الإنسان، فلم لا يكون للأرض نفس هذا التأثير على الإنسان؟ نعم، للأرض إذا أثر هام على سكان الأرض، وللإنسان إذاً أن يبتدع علماً يقاوم تأثير هذه الأرض، بل للأرض نفس الأثر، حتى على ما في بطون الأرض، فإذا ما تمكن الإنسان من اكتشاف سر هذه الأرض، فإذا ما تمكن الإنسان من اكتشاف سر هذا الأثر، تمكن من إيجاد هذا العلاج الناجح لمقاومة تأثير الأرض. وقد بحث الإنسان عن المادة السرية التي يمكن بواسطتها تحويل المعادن الخسيسة إلى معدن نفيس، وتلك المادة المطلوبة السرية هي حجر الحكماء أو الفلاسفة كما كانوا يطلقون عليها في القرن الخامس عشر للميلاد تؤثر على حياة الإنسان مجموعة قوى أخرى على رأسها (روح الإله العالية) التي تخللت جميع أجزاء هذا الكون، وحلت في كل شيء، فأصبح الكون هو السكون؛ وما الإنسان في نظر بارسلس سوى (العالم الأصغر) الذي هو صورة مصغرة (للعالم الأكبر)
وقد أسبغ صاحبنا على نظريته هذه ثوباً من أثواب الحلولية التي ترد في الصوفية الإسلامية أيضاً ولقد كان لها صدى بعيد في أنحاء أوربا، أثرت على أفكار فلاسفة الطليان والألمان والإنكليز وغيرهم أمثال كيور دانو وكامبنيلا وتيليزيو وروينشلين وبرونوميلنشوتن وأكريبافون نيتيسهايم وهرمان لوتسه الفيلسوف الألماني الشهير (م 1881 - 1817) في القرن التاسع عشر للميلاد قال بارسلس وفي العالم الأصغر وهو الإنسان قوى بنائية روحية تقاوم الأرواح الخبيثة التي تكون في الخارج وتساعد على بناء الجسم ودوام اتصاله بالعالم الأكبر، وما العالمين سوى وحدة واحدة لا تتجزأ لذلك، فأنا للعالم والعالم أنا وقد سمى هذه المادة من كلمة اليونانية ومعناها المادة الأساسية أو الأساس. وكان الفيلسوف اليوناني أنا كسمندد قد استعملها لتدل على هذا المعنى والعلم الذي يبحث في هذه المادة هو أشرف العلوم؛ وحيث أن الطب هو العلم الباحث عنها، لذلك كان علم الطب هو أشرف العلوم طراً وقد شرفه حتى على علم اللاهوت.
ومن واجب الطبيب تنظيف هذه المادة مما قد يتعلق بها من الأرواح الخبيثة وذلك بواسطة العقاقير والأدوية المفيدة. وقد حضر الطبيب الفيلسوف قائمة بأسماء العقاقير والمشروبات المعدنية والأدوية السرية التي تنفع لمقاومة الأمراض النفسية والجسمية معاً. وما الأمراض في نظره سوى صراع بين ال وبين الأرواح الخبيثة والقوى الخارجية المحيطة بالإنسان
وبقدرة هذه العقاقير والمواد السحرية يستطيع الطبيب الذي هو اقرب مخلوق إلى الله من تنظيف الروح والجسد من السادران ومن رفع مستوى البشرية إلى مصاف الأرواح السماوية العليا، وبذلك يتم الاتصال بين (العقل الأول) أو (الروح) وبين العقل الثاني وهو الإنسان. ولذلك لهذه الفلسفة شهرة عظيمة بين رجال المتصرفة من الأوربيين ولا سيما الألمان منهم، فظهر حلاجهم وهو يعقوب وظهر فالنتين وأيكل وظهر أمثال لهذين المتصوفين ينادون بالفناء والاتحادية.
وبعد أن أتم بارسلس وضع قائمة عقاقيره السحرية أجج في ليلة عيد الغفران من عام 1517 ناراً عظيمة في حفل رهيب وتقدم في موكب يتبعه تلاميذه والمعجبون بآرائه يحمل بيديه (إنجيل الأطباء) وهو كتاب (القانون في الطب) لابن سينا (لوثر الأطباء) كما كانت أوربا تسميه وبعد خطبة وحفلة دينية مؤثرة ندد فيها بآراء ابن سينا وزعماء الطب من العرب اليونان، ألقى بكتاب القانون في النار معلنا بذلك دخول أوربا في عصر تفكيري جديد. ولكنه قوبل من الناس بازدراء عظيم واضطرت بلدية المدينة إلى إخراجه من المدينة (باذل) لتجاسره على كرمة أعظم طبيب عرفته العصور.
اجتمعت في بارسلس سذاجة القدماء وتفكير المحدثين. كان زمانه زمان انتقال فطبعه
بطابعه الخاص. وجد المحدثون في زماننا فيه رمزاً من رموز التفكير العنيف والإنسانية الفعالة. وعلى الأخص الكتاب الأوربيين منهم. وجد فيه ألفريد دوزنبرك رجلاً أوربياً أعلن حرب الجرمانية على السامية واللاتينية؛ لذلك أسست جمعية أطلقت على نفسها اسم جمعية بارسلس قامت بنشر رسائله ومؤلفاته لأبناء القرن العشرين
جواد علي

الصحافة والدولة - 2
تأليف الصحفي العالمي ويكهام اسفيد
للأستاذ زين العابدين جمعة
المحامي

أما بالإضافة إلى إيطاليا فمجرد النظر في (الكتاب السنوي للصحافة الإيطالية) وفي صفحاته التي تربي على الألف صفحة كاف لأن تتكشف معه الحقيقة عن أمر تلك العبودية التي انتظمت الصحافة الفاشية فأمست خاضعة لها. ولقد كانت كبريات الصحف الإيطالية مثل صحيفة (الكوريري دلاسيرا) التي تصدر من ميلان وصحيفة (الاستمبا) التي تطبع في تورين - وحسبنا منها هاتان الصحيفتان - تنافس أعظم الصحف في أوربا وتناهضها قبل أن تبتدع الفاشية نظاماً. بينما كان الصحفيون الإيطاليون ينعمون في كتاباتهم بنصيب من الألمعية وبراعة الأسلوب ورقة العبارة لا يطاولهم فيه أحد

ولقد انتهى أمرهم اليوم إلى أن نظموا في سلك (النقابات) والجمعيات الرسمية وأمسوا وهم لا يستطيعون أن يؤدوا عملهم ما لم تدون أسماؤهم في سجل المهنة، ليكون ذلك شاهداً على استقامة رأيهم وسلامة عقيدتهم في النظام الفاشي. ولقد حددت مركزهم تلك الأوامر (الملكية) المعقدة تعقيداً لا حد له، وصيرتهم موظفين مؤتمرين بأوامر تلك الفئة الوحيدة التي تحكم الدولة. ولقد تلقى الصحفيين الإيطاليون درساً قاسياً عرفوا منه ما ينتهي إليه التمرد على الفاشية من مصير وخيم. فقد رأوا أنبل الناس نفساً واوفرهم استقامة بين ظهرانيهم يضربون بتلك الهراوة الفاشية ضرباً مبرحاً، وقد يكون مميتا - كما كان من أمر (جيوفاني أمندولا) - أو يحكم عليهم بمدد طويلة في الأشغال الشاقة، أو يرسلون إلى معسكرات ضاقت بمن سيقوا إليها أو زجوا فيها، أو يوضعون تحت مراقبة البوليس في الحالات الأخف وزناً وفي المخالفات الأقل خطورة وحتى أولئك الذين أمكنهم أن يهربوا من إيطاليا كالمرحوم (كارلو روزلي) وقد أدركوا أنهم لم يكونوا بمنجى من أن تصل إليهم أيدي المجرمين ومدى السفاحين.

لذلك نجد في الفصل الذي عنوانه: (روح الصحافة الفاشية وكيانها) - المذيل بعبارة عهد
موسوليني كعنوان إضافي - من الكتاب السنوي للصحافة الإيطالية موضوعاً اقتبس منه ما يأتي:

(ووقتما ابتدعت الفاشية نظاماً للدولة، واختفت من الميدان الصحف المعارضة بعبارتها القارصة وأسلوبها اللاذع؛ ووقتما اهتدت إلى صوابها الصحف الناقمة الخارجة - تلك الصحف التي ذاعت ثقافتها العقلية التقليدية وكان لزاماً أن تحترم على الأقل ما بقيت لها ألقابها القديمة - فقد أحس الجمهور لوقت ما بشعور من الحيرة والارتباك ليس من الأمانة أن ينكر. إذا كان مما يتواتر على ألسنة الناس قولهم: (أيسعنا أن نقرر أن الحكومة لم تعد تخطئ، وأن الدولة دائما على صواب؟؟

- وذلك لأن الجمهور الساذج غير المثقف يختلط عليه أمر (الحكومة) و (الدولة) فيخالهم شيئين مختلفين مع أنهما اليوم وحدة لا تتجزأ لها ذاتيتها وخاصيتها. ومراعاة للأمانة والحق يجب أن نقرر أيضاً - ما دام الدوتشي نفسه قد قرره - أن طبع الصحافة بالطابع الفاشي لم يكن بالأمر الغريب المنار بل كان أمراً شاقاً ومنهجاً صعباً) ثم يحدثنا الكتاب السنوي إلى ذلك قائلاً: (ولكن أيسع أحداً اليوم أن يخبرنا عما إذا كانت الصحف هي التي تكون الرأي، أو كان الرأي هو الذي يكون الصحف؟؟) ثم يضيف إلى ذلك:

(والصحف تارة تتقدم الأسلوب الثوري وتارة أخرى تكون لاحقة له عندما يجري قلب أوضاع المجتمع في سبيل المدنية الحديثة انقلاباً جوهرياً، تلك المدنية التي جددت أسلوب النظم العامة والخاصة ووظيفتها، في شعوب أوربية عظيمة كإيطاليا وألمانيا. ففي هاتين الأمتين نجد الصحافة اليومية وقد تميزت عن سائر الصحف الأخرى في باقي أمم الأرض تميزاً واضحاً)

فما هو هذا الشيء الذي يميز الصحافة النازية الألمانية والفاشية الإيطالية عن غيرها من صحف العالم؟؟ هنا يتولى (الكتاب السنوي) شرح هذا الفارق المميز فيقول:

أن الفاشية التي كانت النتاج البكر بين حركات التجديد في أوربا كانت حرباً صليبية) كبرى لتحرير الروح الإيطالي. . فهل كانت رجعة إلى الفطرة الأولى؟؟ نعم، ولكنها في الواقع مفتتح ثورة فعالة من شأنها أن تعيد إلى الشعب في غداة ثورة تاريخية عظمى نوعاً من العيش الفذ والحياة البكر). أيضاً (الكتاب الثانوي) يقول: ثم

أن الصحافة الفاشية قد بعثت شباب إيطاليا بعثاً جديداً ووضعت أمام عينيه - وقد أجادت الاختيار واحترزت من أمره - حقائق لها قيمتها التاريخية لا مجرد أخبار مشوشة مضطربة. وما برحنا على حال لا يضايقها أن نقرر أن الصحافة قد أتمت رسالتها تحت لواء النظام الفاشي، ذلك النظام الذي وضع الصحافة في الصف الأول ومنحها قيادة نبيلة؛ الأمر الذي اصبح معه خضوع الصحف (لرأي الدولة) وهو من نوع استسلام الجندي المخلص لا من نوع تلك العبودية المفروضة على تابع أحسن إليه. و (رأي الدولة) هذا قد ورد ذكره وعرف في المجلد الثامن من كتاب (كتابات وأقوال بنتو موسليني) إذ جاء به (إن رأس الحكمة الفاشية هو إدراك معنى (الدولة) ومعرفة جوهرها وفهم أعمالها والإلمام بأغراضها ومراميها. فإذا كان من مقتضيات الفاشية أن تكون الدولة مطلقة التصرف فذلك من جهة تلك الصلات التي تربط الأفراد والجماعات بالدولة وتربط الدولة بهم. ولا يباح للأفراد والجماعات الحق في التفكير وتكوين الرأي إلا إلى الحد الذي لا يتعدى نطاق ما اختطته الدولة. والحكومة الحرة لا تدير أمر أعمال المجتمع وتصرفاته ولا تنهض بتقويم نتاجه المادي والروحي بل يقتصر أمرها على مجرد تسجيل النتائج؛ بينما نجد الحكومة الفاشية ولها ما اختصت به من إدراكها لهذه المسائل ومن اختيارها لما تختاره منها ومن مشيئتها فيها ولهذا السبب لقبولها بالحكومة (الأدبية). . .)

انتهينا فيما تقدم - وبعبارة صريحة - من عرض المميزات والفوارق الأساسية بين وظيفة الصحافة في الحكومة الاستبدادية ووظيفتها في الأمم الحرة التي ما زالت حرية الأفراد فيها وهي تعد أمراً طيباً في ذاته؛ ولو كان المبدأ القائل بأنه: (في سبيل الفاشية يجب أن تكون الحكومة حكومة مطلقة) هو مبدأ إيطالي الأصل والنزعة، لساغ أن يتقبله العقل الإيطالي وأن يتحمل ما ينطوي عليه من أعباء الممارسة الفعلية لمسألة هي من أهم مسائل النظام الاجتماعي والسياسي. ومهما كان من التناسق والتلازم في أفكار موسوليني السياسية، فهي مأخوذة - على وجه أو وجهين - من آراء (هيجل) الفيلسوف الألماني الذي صيغت آراؤه عن الدولة - ولاسيما الدولة البروسية - في قالب صعب لأكثر من عصر مضى؛ ولم يكن ما تلقاه (فردريك أنجلز)، (كارل ماركس) من آراء (هيجل)؛ وما أوحى به إليهما فيما انتهيا إليه من نظر عن الدولة الشيوعية بالشيء القليل، وعن (ماركس)، (إنجليز) تلقى (جورج سوريل) رسول النقابية في فرنسا أول ما تلقاه من مبادئ العنف النقابي كوسيلة للانقلاب السياسي والاجتماعي قبل أن يتعقبها إلى منهلها في فلسفة (هيجل)، وينهل من هذا النبع المسموم؛ وعن (سوربل) تلقى (موسليني) بدوره هذه المبادئ الضارة والنهج الوبيل

فلقد صرح (هيجل) آنئذ في كتابه المعروف (بفلسفة التاريخ) بأن الدولة هي أسلوب فعال مطلق، وتجسيد لفكرة (أي تجسيد الحقيقة الماثلة وراء الظواهر). وعنده أن تلك الكائنات الحية التي تعيش تحت ظلال هذا الأسلوب من الحق المطلق، ليس لها من الحق في الاعتبارات المستقلة بأكثر أو بأقل مما للخلية بالإضافة إلى الهيكل البشري؛ وهو يقول: (إن الدولة هي أسمى فكرة وأجل وحي وأنبل خاطر، يغمر الحياة ويعيش على وجه الأرض)، لأن: (جماع ما للكائن الحي من قيمة وجماع ما ينعم به من الحقائق الروحية، إنما يتهيأ له فقط ويأتيه عن طريق الدولة)؛ يضاف إلى ذلك أن الدولة غاية في نفسها وشيء قائم بذاته، وهي الغاية القصوى التي يسمو حقها الأعلى على حق الفرد الذي ينطوي أسمى واجباته في أن يكون فرداً في الدولة

وهذه التعاليم هي من نوع التوفيق بين وجهة النظر الحرة ووجهة النظر المسيحية على حقيقتها في الحياة. إذ كلا النظرين يجعل لشخصية الإنسان قيمة عظمى. تلك الشخصية التي يعدها المذهب الحر العنصر الأولي الذي لا غنى عنه في مجتمع مكلف حر من الكائنات الإنسانية. بينما تنظر إليها العقيدة المسيحية كمستودع للنفس الخالدة. والصحافة الحرة قد هيئت لأن تنهض فور الوقت بواجبها نحو الحرية

الاجتماعية والسياسية إذ تكون لسانها الناطق وحارسها الأمين. إلا أن الأمر يختلف عن ذلك تحت نير تلك النظم السياسية التي تعامل الفرد كمجرد تابع خاضع في كل شيء لإرادة حكومة مطلقة تعبر عنها أوامر حاكم مستبد حيث لا تصادف الصحافة الحرة ولا الصحفيون الأحرار أي عدالة أو ضمان

ولكن المسألة لا تنتهي عند هذا الحد إذ تصل إلى الأعماق من فلسفة الصحافة ذاتها. ففي الأمم الحرة ليس من شأن الصافة، لا يمكن أن يكون من شأنها ومن شأن ما يسمى أحياناً (بمسئولية) الصحفي، أن تكون مجرد صدى يردد ما يجري على لسان الحكومة من رأي. أو تعني بالتزام ذلك الصمت الذي يأخذ رجال السياسة أنفسهم به، أو يجري في عقيدتهم أنه من مقتضيات المراكز التي يشغلونها. والصحف المستقلة إن أيدت الساسة في خططهم

وكانت لهم سنداً في الاحتفاظ بمراكزهم فهي إنما تمنحهم هذا العون طليقة مختارة وعن عقيدة شخصية قوامها أن هؤلاء الساسة يخدمون مصالح المجتمع جهد طاقتهم ولقد بين (روبرت لو) (اللورد شربوك فيما بعد) الفارق بين واجبات الصحافة الحرة وواجبات السياسة بياناً علمياً صائباً في المقالين الافتتاحيين الخالدين اللذين حررهما لصحيفة (التيمس) في6، 7 فبراير عام 1852 وقتما كان (ديلان) ينهض برئاسة التحرير فيها

ففي شهر ديسمبر من عام 1851 قام (لويس نابليون) بحركة غير مشروعة كان من أمرها أن وثب إلى كرسي الإمبراطورية في فرنسا فنصب نفسه إمبراطوراً للدولة التي كان يتولى رئاسة الجمهورية فيها. وكان من أمر اللورد (بلمرستون) الذي كان يتولى وزارة الخارجية في ذلك الوقت من وزارة (رسل) أن أقر بالنيابة عن بريطانيا العظمى هذا الأمر الواقع من غير أن يراجع زملاءه في ذلك ويبادلهم الرأي ومن غير أن يخطر الملكة به. وأذ ذاك قامت قيامة صحيفة (التيمس) وآذنته هو و (لويس نابليون) بحرب شعواء جاهدتهما بها وناهضتهما فيها. ولقد بلغ من قسوة هذا النضال العنيف وما صيغ به من عبارة قارصة وأسلوب لاذع أن (ضاق لويس نابليون به صدراً) وثارت ثائرته عليه، وأن غضب له من شايعه من الوزراء البريطانيين وحاولوا أن يفلتوا من حملاتها بتكميم فمها. إلا أنه لم يكن من أمر إقرار (بلمرستون) لذلك الانقلاب الغير مشروع والذي كانت له اليد الطولي فيه إلا أن انتهى بعزله، إذ احتجت الملكة احتجاجاً حازماً على ما كان من خطل نهجه، وأبى عليه رئيس الوزارة قبول معاذيره أو إقراره على حججه. واختير فعلاً (لورد جرانفيل) خلفاً له ووزيراً للخارجية من وزارة رسل. وعقب ذلك بحولي الشهرين سقطت وزارة رسل بأجمعها. وتحين الفرصة (اللورد دربي) الذي خلف (لورد جون رسل) في رئاسة الوزارة. فما أن واتته - بمناسبة ما ثار وقتئذ من نقاش وما ألقى من خطب رداً على خطاب العرش - إلا أنحى إلى صحيفة التيمس بالملائمة وقبح منها ما كان من سفور النقد وصراحة العبارة زاعماً: (أنه إذا كان من حق الصحافة البريطانية في هذه الأيام أن تطمح لأن تقاسم الساسة سلطانهم، أفلا يحق عليها أيضاً أن تقاسمهم مسئولياتهم؟؟)

ولما كان (ديلان) صحفياً مستقلاً يعرف لحرية الرأي حقها وخطرها، فقد أحس من نفسه برغبة ملحة في ألا يدع هذه النظرية تمر من غير تحقيق وتمحيص ومن غير أن يظهر وجه الصواب منها، فأوحى إلى (روبرت لو) أن يفندها، وأن يبين للناس المبادئ التي تنظم كلا الأمرين حرية الصحافة وواجبات الصحفي في المجتمع الحر. ولقد نهض (لو) بهذه المحاجة برأي حازم وبصيرة نافذة؛ وإذ أخذ في مناهضة تلك المزاعم ومناقشة هذه القضية المنطقية التي أثارها (لورد دربي) بما زعمه من أن الصحافة التي تطمح في أن تشاطر الساسة سلطانهم يكون لزاما عليها أيضاً أن تشاطرهم مسئولياتهم، كتب في عدد التيمس الصادر في اليوم السادس من شهر فبراير عام 1852 المقال الآتي:

إذا كان الطرف الأول من هذه القضية ثابتاً مقرراً فلا جرم أن الطرف الثاني يتبعه في هذا الثبوت بداهة. ونحن من بين الناس جميعاً أقلهم ميلاً لأن نضع من شأن ما نهض به من عمل خطير أو ننكر ما يقع علينا من مسئوليات وما ننعم به من سلطان نستمده من قوة الشعب وثقة الجمهور. إلا أنه لا يسعنا مهما يتهيأ لنا من أمر هذا السلطان

سواء أكان عظيماً أم صغيراً أن نقرر أن من مقتضياته أن نشاطر رجال السياسة أعمالهم، أو أن هذا السلطان مقيد بمثل ما يتقيد به وزراء التاج من قيود العمل والزمن. وبمثل ما يلازمهم من واجب ومسؤولية، فكل من هذين السلطانين متميز عن الآخر تمام التمييز في مقتضياته وواجباته. وهما على العموم أمران مستقلان، وأحياناً شيئان متعارضان يسيران على خطين متوازيين فلا يتقابلان، والصحافة تعبث بحريتها وتقيدها وتحد من نشاطها إثر تلك اللحظة التي تقبل فيها أن تشغل مركز المسود من السيد، وأن تنزل منزلة التابع من المتبوع؛ وهي إن عنيت بتأدية واجباتها باستقلال صحيح تام؛ وبالتالي بما يتطلبه منها جماع المصلحة العامة، لما وسعها أن تهادن رجال الساعة من الساسة أو تحالفهم، أو أن تخضع مالها من شأن خالد ونفع متواصل لما يتهيأ لأية حكومة من سلطان موقوت ونفوذ سرعان ما يزول عنها أو تزول عنه

(البقية في العدد القادم)

زين العابدين جمعة

المصريون المحدثون - 11

شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الإنجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

تعليم البنات

قلما يتعلم البنات القراءة والكتابة. وكذلك لا يتممن الصلاة حتى بنات الطبقة الراقية. ويستخدم بعض الأغنياء (شيخة) لتزور الحريم يومياً فتعلم بناتهم وجواريهم إقامة الصلاة وتلاوة بعض سور من القرآن. وقد تعلمهن القراءة والكتابة، إلا أن هذا، حتى لنساء الطبقات الراقية، شيء كالذي يندر أن يتم. وهناك عدة مدارس تعلم فيها البنات الخياطة والتطريز الخ. ولكن إذا سمحت الظروف يعهد بالبنات إلى (معلمة) تعلمهن تلك الأشغال في منازلهن

الفصل الرابع

الحكومة

قاست مصر - هذه السنوات الأخيرة - تقلبات سياسية عظيمة، وزالت تبعيتها للباب العالي إلا قليلاً. وقد استقبل حاكمها الحالي محمد علي تقريباً، بعد أن أباد الغز أو المماليك الدين شاركوا أسلافه الحكم؛ إلا أنه أعلن ولاءه للسلطان، وأصبح يؤدي الخراج للأستانة كما هي العادة. ثم إنه خضع لأحكام القرآن الأساسية والسنة. وهو - خلافاً لذلك - يتميع بسليطة لا حد لها. فهو يستطيع أن يقضي على أي فرد من رعاياه بالموت دون محاكمة أو تعيين سبب. وكفاه أن يحرك يده حركة أفقية بسيطة ليتضمن ذلك حكم الإعدام. ولكن يجب ألا يفهم من كلامي أنني ألمح بميله إلى سفك الدماء بلا موجب. أن من طبع هذا الوالي الصرامة الحازمة لا القسوة الشريرة. وقد دفعه طموحه المطلق إلى جميع الأعمال، فكان يجلب لنفسه المدح تارة أو الملامة تارة أخرى. ويجد في قلعة العاصمة مجلس للقضاء

يسمى (الديوان الخديوي)، يرأسه في غياب الباشا نائبه (الكخيا) حبيب أفندي. ويبت رئيس الديوان الخديوي في الأمور التي تخرج عن اختصاص القاضي أو التي تكون واضحة بحيث لا تحتاج إلى الرجوع إلى القاضي أو أي مجلس آخر.

وقد أقيمت في أنحاء العاصمة دور كثيرة للشرطة، في كل منها بلوك نظام أي فرق منظمة. ويسمى الشرطي (قلق) أو (قراقول). ويقبض على من يهتم بالسرقة أو السطو الخ ويقاد إلى دار الشرطة الرئيسي في الموسكي حيث يسكن أغلب الفرنج. وبعد أن تثبت التهمة كتابة يقاد المتهم إلى (الضابط) إي رئيس شرطة العاصمة. وبعد أن يسمع الضابط القضية يرسل المتهم للمحاكمة أمام الديوان الخديوي. وعندما ينكر المتهم الجريمة الموجهة إليه، ولم يكن هناك دليل على الإدانة، يجلد ليحمل على الاعتراف بجريمته. وحينئذ، إن لم يكن قبلاً، يعترف المتهم بالجريمة إذا كانت طبيعتها لا تعرضه لعقوبة شديدة. ويعترف اللص عادة بعد هذا التعذيب بقوله: (إن الشيطان أغراني ففعلت) وعقوبة المجرمين يرتبها نظام مستبد ولكنه لطيف حكيم. ويكون عادة بإلزامهم للقيام ببعض الأشغال العمومية مقابل قوت قليل، مثل نقل القمامة وحفر

القنوات الخ. وقد يجند الشبان الأقوياء متى كانت التهمة طفيفة. ويستحق محمد علي على استخدامه المجرمين لإصلاح البلد وتحسينه المدح الذي كان وقفاً على سابا كون الفاتح الحبشي وملك مصر الذي يقال إنه أدخل هذا النظام؛ إلا أن الباشا كان شديداً في معاقبة الجرائم التي ترتكب ضد شخصه فالإعدام هو العقوبة العادية في أحوال كهذه

وهناك عدة مجالس دنيا لإدارة شؤون الأقاليم المختلفة، وأهمها: أولاً. (مجلس المشورة) ويقال أيضاً (مجلس المشورة الملكية) تمييزاً له عن المجالس الأخرى. ويختار الباشا أعضاء هذا المجلس والمجالس المشابهة الأخرى ممن يتحلون بمواهب أو صفات أخرى. ولذلك تخضع جميع قراراتهم لأرادته ورغباته؛ وهم آلته ورهن إشارته، ويكونون لجنة تشرف على إدارة البلد العامة وشؤون الباشا التجارية والزراعية. وتعرض العرائض الموجهة إلى الباشا أو إلى ديوانه المتعلقة بالمصالح الخاصة أو بشؤون الحكومة على أعضاء المجلس وتخضع لتقديرهم وحكمهم، إلا إذا وقعت في اختصاص المجالس الأخرى المذكورة فيما بعد. ثانياً (مجلس الجهادية) أو (مجلس المشورة العسكرية) واسمه يدل على مدى اختصاصه. ثالثاً مجلس (الترسخانة) أو البحرية. رابعاً (ديوان التجار) وقد أنشئ هذا المجلس الذي يتكون أعضاءه من تجار مختلفي البلد والدين تحت رئاسة (الشاه بندر) لينظر في بعض الأحوال الناشئة عن المعاملات التجارية الحديثة مما لم ينص عليه في القرآن أو السنة

ويتولى قاضي القاهرة القضاء في مصر لمدة سنة واحدة ثم يرجع عند انتهائها إلى الآستانة. وجرت العادة أن يقوم القاضي من القاهرة مع قافلة الحج الكبيرة إلى مكة فيقضي واجبات الحج ويبقى في المدينة المقدسة سنة واحدة، وفي المدينة المنورة سنة أخرى يقضي بين الناس. ويشتري القاضي منصبه بالممارسة من الحكومة التي لا تقيم أي اعتبار لمواهبه. غير أنه يجب أن يكون ذا علم ولو قليلاً، وأن يكون عثمانياً حنفي المذهب. وقلما يجيد القضاة اللغة العربية لأن معرفتها لا تلزمهم. ولا يكاد القاضي في القاهرة يعمل شيئاً غير التصديق على حكم (نائبه) الذي ينظر في أغلب العادية والذي يختاره القاضي من علماء استنبول، أو التصديق على قرار (المفتي) الحنفي الذي يقيم دائماً في القاهرة ويصدر فتواه في القضايا الصعبة، ولكن النائب على الأكثر قليل المعرفة باللغة المصرية العامية

ولذلك يجب على القاضي في القاهرة، حيث يتكلم أغلب المتقاضين العربية، أن يضع غاية ثقته في (الباش ترجمان)؛ ومنصب هذا دائم، ومن ثم فهو يعرف أنظمة المحكمة، وخاصة نظام الرشوة، وهو على أتم استعداد لأن يلقن هذا النظام لكل من يستجد من القضاء والنواب. وقد يكون القاضي جاهلاً بالشرع جهلاً غليظاً في كثير من تفاصيله، وقد حدثت عدة أمثلة من هذا النوع، ولكن يجب أن يكون النائب بارعاً في الشرع علماً وعملاً

وعندما يرفع الشخص قضية يذهب إلى المحكمة ويطلب من الباش رسول أن يرسل (رسولاً) ليحضر الخصم، ويتناول الرسول قرشاً أو قرشين يقسمهما مناصفة بينه وبين رئيسه على انفراد. ويحضر المدعي والمدعى عليه في بهو المحكمة الكبير: وهو غرفة كبيرة تواجه فناء فسيحاً، ولها واجهة مكشوفة بها صف من الأعمدة والعقود، ويجلس فيها كتبه يسمى الواحد منهم (شاهداً) وعمله أن يصغي إلى أقوال الطرفين في القضية ويدونها، ورئيسهم الباش كاتب، ثم يقصد المدعي أي وأحد من هؤلاء الكتبة ويقرر أمامه ظروف القضية. . . فيثبتها الشاهد كتابة، ويتناول جعلاً قدره قرش أو أكثر، ثم بعد ذلك يصدر

حكمه إذا كانت القضية لا قيمة لها والمدعى عليه يعترف بعدالتها، إلا قدم الطرفين إلى النائب في غرفة داخلية. وبعد أن يسمع النائب القضية يأمر المدعي أن يستصدر من فتوى من مفتى الحنفية الذي يتناول جعلاً يندر أن يقل عن عشرة قروش، ويزيد غالباً على مائة قرش أو مائتين، ويصدر النائب حكمه في القضايا التافهة منفرداً وبأقل تعب. أما القضايا المهمة أو المعقدة فأنها تنظر في غرفة القاضي الخاصة أمام القاضي نفسه والنائب ومفتي الحنفية الذي يستدعي للفصل فيها بفتوى؛ وقد تزيد القضية صعوبة أو أهمية، فيستدعي بعض علماء القاهرة؛ وبعد أن يصغى المفتي إلى

القضية يصدر حكمه كتابة، فيصدق القاضي عليه ويختم الورقة بختمه، وهذا كل ما عليه أن يعمله في أي قضية. ويستطيع المتهم أن يبرئ نفسه باليمين إذا لم يقدم المدعى شهوداً، فيضع يده اليمنى على القرآن ويقول: بالله العظيم ثلاث مرات، مردفاً: وبما يحتويه هذا من كلام الله. ويجب أن يكون الشاهد عدلاً أو يزعم أنه كذلك، وألا تكون له مصلحة في القضية. ويلزم لكل دعوى شاهدان على الأقل أو رجل وامرأتان، ويجب أن يزكي الشاهدين شخصان آخران. وشهادة الكافر على المسلم لا تجوز شرعاً في حالة العقوبة الشديدة. والشهادة لصالح الابن أو الحفيد أو الأب أو الجد لا تقبل كذلك شهادة الأرقاء، ولا يستطيع السيد أن يشهد لصالح عبده.

(يتبع)

عدلي طاهر نور

رسالة الشعر

إلى. . .؟!

(للشاعر المجهول)

تحدثتَ بالهتَّاف أنك حاضرٌ ... لإيناسِ روُحي بعد بِضْع دقائقِ
فكيف ترى عيشي يطولُ فأجتنِي ... على شغَفي أرواح تلك الشقائق
ألوفٌ من الأحلام طافتْ فداعبتْ ... فؤادَ أسيرٍ ظامئ الروح وامق
فما صحَّ حُلمٌ في هواك ولا انتهتْ ... على اليأس مَوْجَاتُ الدموع الدوافق
أأنتَ برغم الصد والدَّل قادمٌ ... لإسعاد مشتاقٍ وإنجاد عاشق؟
أمثلك تسديه الحياةُ إلى فتىً ... مَرِيد الهوى والشوقِ وَعْرِ الخلائق؟
وكيف أري داري على ضِيق ساحها ... تحيط بديَّان الشموس الشوارق؟
سألقاك - هل ألقاك؟ - في ثوب ضَيْغَمٍ ... يرى الرفق بالغزلان إحدى البوائق
تعالَ تجدْني جذوةً من صبابةٍ ... تسَّعرُ في صدرٍ مَشوقٍ وشائِق
لِنجواكَ أستبقي شبابي فعاطِني ... كؤوس الهوى قبل ابيضاض المفارق
وأعْزِزْ فؤاداً لو أردتَ جعلتَهُ ... أعزَّ من الشَّغواءِ في رأس شاهق
لقد مالت الدنيا وجافتْ وجانَبَتْ ... فكُنْ مُنقذي من جَورها المتلاحق
إذا كنت لي يوماً ولو بعض ساعةٍ ... تجودُ بها جُود الحبيب الموافق
فسوف أري الدنيا على سوءِ بغيها ... أطالب من لَهْوِ الشبابِ الغُرَانِق
دقائِقُ كالأعوام طالتْ ولم تَجَئْ ... حَماك إله الحبِّ من كُلِّ عائِق
سيَقتُلني شوقي إليك فهل أري ... خيالك عند الموت وهو مُعا نِقي
أُحُبُّك حُبَّ القلب للوَحْيِ فالْقَنِي ... ولو لحظةً يَنفُذْ الغيب بارقي
شَبَبْتَ بقلبي ثورةً لم تُعانِها ... جوانِحُ مَشغوفٍ ولا صدرُ حانق
وصيَّرتَنِي لا صرتَ مِثليَ عِبرةً ... لِكلِّ ألوفِ الروح جَمِّ العلائق
فحَتَّى متى أحنو عليك ولم أكنْ ... بحفظك للميثاق يوماً بواثق
أُحِبُّك حُبَّ العَين للنور فاهدني ... إلى الصبر عن لُقياك إن كنت صادقي
وهل أبصر الرابون من عُصبة الهوى ... نظيرَكَ في أوهامهم والحقائق؟
لكَ المجدُ بينَ الحالتين فولِّنى ... قضاءَ الأسى بين القلوب الصوادق
أُحِبُّك حُبّاً لو تمثَّلتَ وَقْدَهُ ... لأمسيتَ في كربٍ من الحُزن ساحق
إلى الله أشكو ما أعانيه من جوّى ... هو الدهرُ يَرمي بالصروف الصواعق
إلى خالق الأرواح أشكو بَليَّتي ... بروحٍ غَدورٍ في الغرام وماذِق
تؤرِّقني أطيافُ ذكراهُ سُحرةً ... بَروْعٍ كأهوال الخطوب الطوارق
فما الذنبُ؟ ما ذنبي وما كنتُ في الهوى ... سِوَى شاعرٍ للصدق في الحبِّ خالقِ
ستُطوَى أحابيلُ الملاح وتنطفي ... على الدهر نيرانُ الشُّجون المواحِق
ويبَقَى نَشِيدي في هواكَ وثيقةً ... تُسَجِّلُ أحلامَ القلوب الخوافق

(الشاعر المجهول)

البريد الأدبي

المحتسب في الإسلام

نشرت مجلة الجمعية الصحية المصرية في عدد من أعدادها الأخيرة مقالاً قيماً للدكتور فريد بك حلمي المفتش بوزارة الصحة عن نظام التفتيش على المأكولات والاشتراطات الصحية في العهد الفاطمي معتمداً في بحثه على كتاب (معالم القربة

في أحكام الحسبة) لمؤلفه محمد بن أحمد القرشي المعروف بابن الأخن، أثبت فيه أن المحتسب كان يقوم في هذا العهد بوظيفة مفتش مأكولات ومعاون صحة ومفتش موازين ومفتش بيطري، وبالجملة يعتبر من رجال الضبطية القضائية؛ وكانت الاشتراطات التي يفرضها المحتسب على المحلات لا تقل دقة عن اشتراطات وزارة الصحة اليوم إن لم تفقها، وللتدليل على ذلك نذكر بعض ما يخص الجزارين قال:
(لا يجر الجزار شاة برجلها جراً عنيفاً، ولا يذبح بسكين كالة لأن في ذلك تعذيب للحيوان، ولا يشرع في السلخ بعد الذبح حتى تبرد الشاة وتخرج منها الروح. وينهي الأبخر عن النفخ في الشاة عند السلخ لأن نكهته تغير اللحم وتزفره، ويمنع المحتسب القصابون من الذبح على أبواب دكاكينهم فإنهم يلوثون الطريق بالدم والروث، وهذا منكر يجب المنع منه، وأن يفردوا لحوم المعز عن لحوم الضأن، وينقطوا لحم المعز بالزعفران ليتميز عن غيره وتكون أذناب المعز معلقة على لحومها إلى آخر البيع ولا يخلط لحم الذكر بالأنثى)

هذا جزء بسيط مما يقوم به المحتسب، ومثل ذلك كان يفرض على كافة الحرف والصناعات.

وكان المحتسب يدخل في صميم الصناعة بشكل يعجب به أبن القرن العشرين لمعرفته بطرق الغش التي تخفى على الكثيرين، والتي لا تمسها شروط وزارة الصحة إلا عن بعد. ومن شروط الحسبة والمحتسب أن يكون مواظباً على سنن رسول الله (صلعم)، وأن يكون عفيفاً عن أموال الناس، ووظيفته أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، وأن يقصد بقوله وفعله وجه الله تعالى وابتغاء مرضاته الخ.

(كوم حماده)

كامل يوسف

أصل كلمة النفط

أرى أن كلمة النفط عبرية الأصل، وتنطق في العبرية نفتً وقد وردت في التوراة في مواضع مختلفة بمعنى التقطير أو القطر أو القطرات، وهو المعنى الأصلي الذي أخذ منه اسم زيت البترول (نفت) لعلاقة التقطير أو القطر في كلٍ

ففي الآية الثالثة من الإصحاح الخامس من كتاب الأمثال (لأن شفتي المرأة الأجنبية تقطران عسلاً (نفت) وفمها أنعم من الزيت). وفي الآية الثالثة عشرة من الإصحاح الرابع والعشرين من الكتاب نفسه (يا بني كل عسلاً لأنه لذيذ وقطره (نفت) حلو في فمك)

وفي الآية الثالثة عشرة من المزمور التاسع عشر نجد (وأحلى من العسل وقطر (نفت) الشهد)

والأمثال والمزامير من أقدم كتب التوراة. ولا أذكر أنني عثرت في الأدب الجاهلي أو الإسلامي على كلمة نفط أو نفت فمن المرجح إذا أن تكون الكلمة عبرية الأصل دخلت إلى العربية بعد الفتح الإسلامي. هذا إلى أن كلمة (نفت) أو نفط مستعملة في الفارسية الحديثة والقديمة. وأذكر أنني قرأتها في الشهاهنامة الفارسية، وإن كنت لا أستطيع الآن وهنا أن أنص على موضعها لعدم المرجع

(بخت الرضا. سودان)

عبد العزيز عبد المجيد

في نقد الأصول

ذكرني الدكتور حسن عثمان في بحثه - نقد الأصول - الذي هو فصل من بحوثه القيمات التي ينشرها في (الرسالة الزهراء) تحت عنوان (كيف يكتب التاريخ) ذكرني ذلك بما كنت قرأته في ترجمة الخطيب البغدادي المؤرخ العظيم، فإنه لما رجع من مكة، إلى بغداد تقرب من رئيس الرؤساء أبي القاسم بن مسلمة وزير القائم بأمر الله، وكان قد أظهر بعض اليهود كتاباً وادعى انه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسقاط الجزية عن أهل خيبر، وفيه شهادات الصحابة وأنه خط على رضى الله عنه؛ فعرضه رئيس الرؤساء على أبي بكر

الخطيب فقال: هذا مزور، فقيل له من أين لك ذلك؟ قال في الكتاب شهادة معاوية أبن أبي سفيان ومعاوية أسلم يوم الفتح وخيبر كانت في سنة سبع؛ وفيه شهادة سعد بن معاذ وكان قد مات يوم الخندق في سنة خمس. فاستحسن ذلك منه

محمد أبو البهاء
في الخوارج
كتب الأستاذان الصعيدي والأفغاني (في الأعداد 422، 23، 31) في تحقيق نسبة كلمة في الخوارج إلى النبي صلى الله عليه وسلم أو إلى سيدنا علي بن أبي طالب. وسأل الأستاذ الصعيدي عن المصدر الذي نسب هذا القول إلى علي، وأجاب الأستاذ الأفغاني بأنه (العقد الفريد)
وإليك رواية تؤيد أن الخبر من كلام سيدنا علي وردت في قديم المصادر ووثيقها. قال الهيثم بن عدي حدثنا إسماعيل بن خالد عن علقمة بن عامر قال: سئل علي أهل النهروان أمشركون هم؟ فقال من الشرك فورا، قيل أمنافقون؟ قال إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً، فقيل فما هم يا أمير المؤمنين؟ قال إخواننا بغوا علينا فقاتلناهم ببغيهم علينا. فهذا ما أورده ابن جرير الطبري وغيره في هذا المقام. أنظر (البداية والنهاية لأبن كثير) ج7 ص289 و (مجمع الزوائد ومنبع الفوائد الهيثمي) ج6 باب في الخوارج، باب في أهل النهروان
أحمد صفوان
حق الضيافة
طلع علينا العدد (430) من (الرسالة) وهو يحمل مقالاً قيماً للأستاذ - علي الطنطاوي - عن (حق الضيافة) وقد رأيت هذا المقال الممتع ثورة على أخلاقنا ونقدا لتقاليدنا وصورة من صميم الحياة المصرية فكشف الستار عن داء عضال في المجتمع يجب استئصاله؛ وهذا لا يتنافى مع الشهامة والكرامة، فقد اتخذت الضيافة في هذه الأيام وسيلة للمضايفة ومجالاً للتسلية والمسامرة وضياعاً للمصالح. وما أحوج مصر الحديثة التي أصبحت في احتياج إلى اتجاهات جديدة أن تجد من حملة أقلامها وقادة الرأي فيها مثل هذه الشجاعة
فيورثون على هذه التقاليد التي تضر ولا تنفع. فإلى الأمام يا أستاذ - الطنطاوي - وأكثر من هذه الأبحاث ففيها ترقية للذوق الشرقي وتهذيب للأخلاق وسعادة للمجتمع والله موفقك ومبارك غايتك.
محمد أحمد عمر
عبر كذا. . .
رداً على الأستاذ الكبير (أ. ع) أقول:
كنت احتججت ببيت سواد بن قارب
فشمّرت عن ذيلي الإزار وأرقلت ... بي الدعلبُ الوجناء عبر السباسب
وقلت في الحاشية: (ولعل من الإنصاف أن أقول: يمكن تخريج الشاهد على غير ما استشهدت له بجعل عبر صفة للناقة الخ) ومن ثم يرى القارئ أني لم أوجب أحد الرأيين، وأني أجزتهما ولكني - في هذا الشاهد - رجحت العبر بمعنى العبور، على أن يكون مصدراً مراداً به أسم الفاعل
ولكن الأستاذ (أ. ع) يحتم في رده أن تكون صفة ثالثة للناقة لا غير. ويرى أن الشاعر في مقام تعديد محاسن ناقته وما فيها من مزايا، فهو يصفها بالفتاء والقوة، وبأنها قادرة على شق السباسب الخ. . .
ورداً على ذلك أقول: لا يتعين في هذا الشاهد قصر المقام على تعديد محاسن الناقة، فإن في قوله (الذعلب) وهي الناقة السريعة، و (الوجناء) وهي القوية الشديدة، كما في اللسان ما يغني عن الوصف بأنها (عبر سباسب) وهو معنى لا يغاير سابقيه كثيراً ويؤيدني فيما أذهب إليه ورود البيت في بعض الروايات على معنى الظرفية لا الوصفية. ففي السيرة الحلبية ج1 ص267:
فشمرت من ذيل الإزار ووسَّطت ... بي الذعلب الوجناء بين السباسب
وكذلك الرواية في (سفينة الراغب ص638) نقلاً عن (أنوار الربيع في أنواع البديع) وليس معنى هذا أنني أؤيد استعمالها ظرفاً، ولكني لا أزال أرى أنها مصدر وقع موقع أسم الفاعل. فقد خرج من حسابنا ما ساقه الأستاذ من الأدلة على أنها ليست ظرفاً، فهو رأى لم أقل به.
ونرجع إلى التخريج الذي رأيته، وجهد الأستاذ أن يفنده، فقال: إن المصدر لا يقع حالاً

إلا إذا كان نكرة، و (عبر السباسب) معرفة بالإضافة، وأبطل بهذا - في زعمه - تخريجي
وأقول: إن الأستاذ لم يتبين رأيي على وجهه الصحيح، إذ توهم أني أرى (عبرا) مصدراً أريد به الحال، ولم أقل هذا، وإنما قلت: إنه مصدر وضع موضع أسم الفاعل، فهو عبر معنى عابر، كما في قوله تعالى: (إن أصبح ماؤكم غوراً)، أي غائراً؛ ورجل عدل، أي عادل. . .
وسواء وقوع هذا المصدر بعد ذلك حالاً أو خبراً أو فاعلاً الخ فذلك راجع إلى السياق. . .
فقد أصبحت القضية الآن: هل يشترط تنكير المصدر إذا وقع موقع أسم الفاعل، بصرف النظر عن كونه حالاً أو غير حالاً؟
لم يقل أحد هذا، فأنت تقول: (قاضيكم العدل)، أي العادل، (وأنصفني عدلكم)، أي عادلكم. فأنت ترى أني أنص على أن كلمة (عبر حال) - حتى يشترط تنكيرها - وإنما نصصت على أنها مصدر بمعنى فاعل، وكونها (حالاً) أمر اقتضاه سياق الكلام في الجمل التي ساقها الأستاذ وساعد عليه أن المصدر سيفقد تعريفه بعد التقدير، وسيصير المضاف إليه مفعولاً، وذلك في قولك: (عابرة الاطلنطي)؛ فليس ثم ما يمنع من أن يكون المصدر (حالاً) بعد أن فقد تعريفه
وبعد. . . فأني أنشد الحقيقة. . . وعلى الأستاذ أن يقنعني - إن استطاع - فأسلم له ومني عليه التحية
(بني سويف)
محمد محمود رضوان
المدرس بالمدرسة الابتدائية
حول كلمة (عبر)
سيدي الأستاذ الكبير (الزيات)
سلام الله عليك. قرأت بإعجاب كبير ما دبجته براعة الأستاذ الكبير (أ. ع) خاصاً باستعمال
كلمة (عبر) ظرفاً وبيان وجه الخطأ في ذلك. وإنا نوافق الأستاذ الكبير على كل ما أورده في كلمته القيمة؛ أم إدعاء الأستاذ محمد محمود رضوان صحة استعمال (عبر) ظرفاً واستشهاده على ذلك بقول سواد بن قارب:
فشمرت عن ذيل الإزار، وأرقلت ... بيَ الدعدب الوجناء عبر السباسب
فهو إدعاء باطل من وجهين:
الأول: احتمال كون (عبر) صفة للناقة، والدليل إذا تطرق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال
الثاني: فساد المعنى يجعل (عبر) ظرفاً بمعنى بعد؛ لأنه لا معنى لإرقال الناقة بعد قطع السباسب والانتهاء إلى غايتها وعندي أنه يصح أن تكون (عبر) في هذا البيت مصدراً مفعولاً لأجله، ويكون المعنى أن الناقة أرقلت لعبر السباسب أي لعبورها. وهو معنى صحيح مناسب لا غبار عليه
هذا، وللأستاذ الكبير إعجابي الكبير بأبحاثه اللغوية الممتعة. والسلام عليكم ورحمة الله
إبراهيم محمد نجا
الصباح الأدبي في دمشق
أصدر فريق من أبناء دمشق الناهضين صحيفة أدبية راقية باسم (الصباح) ولم يشأ القائمون بهذا المشروع أن يكتفوا بالشبان من الأدباء، بل اتفقوا مع فريق من أكابر الأدباء والأدبيات في البلاد العربية، كي يغذوا (الصباح) بثمرات أقلامهم الناضجة، وفي مقدمة هؤلاء الأساتذة:
محمد كرد علي، شفيق جبري، خليل مردم بك، عبد القادر المغربي، محمد البزم، ميشيل عفلق، فؤاد الشائب، صلاح الدين المحايري، زكي المحاسني، وداد سكاكيني، فلك طرزي، وغيرهم.
ومما لا نرتاب فيه أبدا أن (الصباح) ستكون كما ظهر من عددها الأول مرآة صادقة للأدب الجديد الناهض في سورية.
ع. ع
العدد 436 - بتاريخ: 10 - 11 - 1941

تعقيب على رأيين
في الغناء والموسيقى بمصر
للأستاذ محمد توحيد السلحدار بك

في مصر بصيص من العلم والفن مشى بنوره الأقلون، وبان لبعضهم حقائق واقعة في وطنهم، مانعة من إصلاح الفاسد وتيسير الرقي، فمالوا طبعاً إلى كشفها لقومهم بشتى الأساليب في سبيل المصلحة العامة. ومن هؤلاء أحيانا من يخص الغناء والموسيقى ببعض ما يكتب.

هذا موضوع قد يتناوله كتاب تدفعهم إلى البحث فيه مصالح خاصة، أو أهواء ليست في شيء من غرض الإصلاح، أو مقرونة بقصده، فيسيئون إلى أمتهم، أو يكون ضرر صنيعهم أكبر من نفعه. أما دعاة الإصلاح الصادقون فلا غرض لهم سواه؛ وهم لا يوجهون نقدهم إلى أشخاص معينين، بل يكشفون حقائق طور من الأطوار أدت إليه عوامل عامة أحدثت هذه الحال الشاملة التي لا يلام عليها الأفراد من مؤلفي الأغاني والملحنين والمغنين والموسيقيين.

على أن المعلمين والمثقفين، المتفوقين من أهل الفن، يلام الواحد منهم إذا هو وقف من كلام النقاد على حال فنه الحقيقية السيئة، فلم يجتهد في إنقاذه منها بما في وسعه ولو كان مقصوداً بنقد، أو واهما ذلك: لأن كل محب لفنِّه ليس يبالي إلا بما يرفع من شأن الفن. والإصلاح آت، وإن كان مما لا يتحقق في لحظة. وأغلب الظن أن الذين يمهدون طرقه، أو تتاح لهم فيها فتوح، سوف يظهرون من هذا الفريق؛ ولا يعادل انتصار على ناقدٍ لذة مسابق يسبق إلى مثل هذا الفوز وينال شرفه.

ثم إن أولئك الدعاة ينظرون إلى المستنيرين المخلصين لفنونهم ويأملون الآن منهم أن يؤمنوا أولاً بحقائق عيوبها، وأن يدركوا أن إزالة هذه العيوب يزيد الناجحين منهم نجاحا: فإن هذا الإيمان وهذا الإدراك هما مفتاح لباب الإصلاح. ولذا كان من النافع أن تتعرف آراؤهم فيما يلاحظ على الغناء والموسيقى بمصر.

أبدى شاعر نابه، عميق العاطفة، عذب الأسلوب، رأيه في هذا الموضوع بمقال جاء فيه أنه رأي، في سنة 1925، ما يهدد الأخلاق من شيوع (الأغاني المكشوفة) فدخل مضمار النظم للغناء؛ وبث في الزجل (روح الشعر من الطهر والعفة)؛ وأدخل في نظمه (من أبحر الشعر ومجازاته ما وسع دائرته، وفتح للملحنين أبوابا كثيرة)؛ فتناولت الأغاني (أبواباً جديدة من الغزل البريء، كان أهم عناصره الأمل والوفاء، والذكرى والتضحية، وما إلى هذا من صفات الحب الروحاني).

صدق. وهو جدير بالشكر على نزعته الفاضلة إلى الإصلاح. غير أن الوفاء والتضحية، والذكرى والأمل، أشياء قد توجد عند محب عزيز أبي، وعند محب ذليل دني؛ وما وفاء هذا، مثلاً، كوفاء ذاك؛ وأساليب العبارات الصادرة عن الخصلة الواحدة في الاثنين، هي التي تصف لونها في كل منهما، لاختلافه باختلاف نفسيَّتيهما؛ فإن كان منظوم الشاعر الفاضل يمثل جله أو كله كلام المحب الأول، فإن منظوم غيره هو، في الأكثر، كلام الثاني وهو طاغ على الأغاني.

قال في المقال إن شعراء ناصروه في مذهبه فكانوا جميعاً أصحاب (المدرسة الحديثة). ولم تقتصر أغانيهم على الحب، (بل شملت أنواعاً من الوصف الرقيق في جمال الطبيعة)؛ وأنهم بأسرهم ينظمون للمسرح والسينما والحاكي والراديو، (وفي هذه الميادين مجال كبير للمعاني التي لا تذكر الحب)؛ وينظمون (تارة بالعربية الفصحى، وتارة بهذه العامية الفصحى).

صدق أيضاً. لكن كم من وصف الطبيعة في جملة ما يغنى؟ وهل جيد هذا الوصف بين أغانينا أوفر من رديئه؟ وهل أدرك المعاني الجيدة وغنى بها الملحن والمغني، وأداها كل منهما تأدية توافق المواقف المختلفة، وتشعر النفوس ببهجة الطبيعة؟ وكم نظم الناظمون للغناء من المعاني التي (لا تذكر الحب) في ذلك المجال الكبير بميادين المسرحيات وسواها؟ وما النسبة بين ما نظموا بالعربية الفصحى وبين ما نظموا بتلك العامية (الفصحى)؟ هذه الأسئلة أجاب عنها النقاد إجابة صحيحة بشهادة حال الغناء والموسيقى عندنا.

ومن كلامه: (القول بأن الغناء ينحدر في مصر فيه من القسوة شيء كثير، إذا قيس

نتاج هذه السنين القليلة بعصور إسماعيل، وتوفيق، وعباس)؛ و (قد زال من قاموس الغناء ما كان في القديم من ذكر الدلع والخصر والكفل. . . والخمر ومجلسها، والنديم ودلاله)؛ و
(انعدم من جو الغناء ذلك الغث المحدث، وليد الحرب والثورة)
أليس في هذا الكلام مبالغة إذا جرد منها انعكس معناه؟ فإن (جو الغناء) متسع لأكثر من جيد أغاني المجيدين من شعراء اليوم؛ وليس من كلامهم العف كل ما يغني، ولا أوفره؛ ولم ينعدم في الأغاني (ذلك الغث المحدَث) ولا ذكر الدلع والدلال. وقد يوصف يوصف جمال الإنسان بلا تمجن، كما يصوره المثال، وإنما العبرة بأسلوب الوصف. وكم يعبرون عن الشهوات الحسية بلهجة في اللحن وحركة في الغناء، فيأتي تعبيرهم الصوتي الماجن أبلغ من الكلمة الصريحة، ويثير غريزة الجمهور؛ وذكر الخمر والخصر خير من تمثيل الاستخذاء والذل.
والأهم أن تلك العصور كان، من الجهة الفنية، أرقى من غناء اليوم، إذ كان ملائماً لأغانيها، وأصدق بملاءمته تأدية لمعانيها، وأقرب إلى القلوب بصدقه وخلوه من التخليط المشوه للفن. وقد غنوا قصائد وتواشيح، وأدواراً سياسية، وعزفوا بشارف. ذلك عهد مضى عليه ربع قرن، وأصبح الغرب في مصر، وصاحت مصر في الغرب؛ وهي اليوم في عصر الجامعة، ومعاهد الموسيقى، والحاكي، والسنما، والراديو؛ ومع هذا كله فقد صرنا نؤدي الأغاني بخليط من الألحان كثيراً ما يتنافر فيه الترح والمرح، والشرقي والغربي، وبمزيج من أنغام معزف تضارب أنغام حناجر، في الغالب. ذلك بأننا تركنا الشعور والفهم وتبعنا السمع الضال والغريزة الجامحة والتقليد الأعمى. فليست الموازنة بين الماضي وبين هذا الحاضر في مصلحة نتاجه.
احتج، من غير موجب للتغني بالحب حيث قال: (كيف تخلو الأغاني من ذكر الحب، والله سبحانه وتعالى قد بنى الملك عليه وعمر. . . وليس في الوجود عاطفة أبعث للتضحية وأحيا للأمل، وأخلق للنبوغ من هذه العاطفة الكريمة)
ولكن أحداً من الناس نشر نقد له لم يقل بتجريد الأغاني من ذكر الحب، وإنما قالوا ألا يقصر الغناء عليه، وألا يقصر هو على العاشق الذليل البكاء: لأن حبه ليس من تلك (العاطفة الكريمة) في الإنسان السليم من الآفات النفسية والجسمية؛ وهو ضحية الاستهانة به، فبأي الأشياء يضحي بعد الكرامة؟ وأي أمل لميت الأحياء؟ وفي أي ميدان ينبغ راض بالخزي أو معجب بمثاله؟
واحتج للشكوى والاستعطاف بقوله: (لم تخل أغانينا من الشكوى والاستعطاف، فهما في مرآة القلب أبداً؛ ولكنها شكوى الحافظ للعهد، الباقي على الود، وهي ناحية في دمنا نحن المصريين. . . ولقد ألفت أغاني كثيرة في البطولة، والوطنية، والأخلاق. . . ودخل في أناشيد. . . معان جليلة في العزة والاستقلال؛ ولكن الطلبة، والجند، والشعب، لم يرددوا منها كثيراً ولا قليلاً)؛ و (ردد الناس أكثر ما رددوا هذه الشكوى فطغت على بقية الأغاني واتهم الغناء عامة باللين والميوعة)
فكأن اعتراض النقاد على الأغاني من الشكوى والاستعطاف سببه هما في ذاتهما، وإنما المنكر هو ذلك الروح العليل الذي ينفث الذل فيهما، وهو طغيانهما طغياناً يتفشى معه الاستخذاء بالناس؛ فالاحتجاج لهما مناقض لمصلحة المصرين ومصلحة الفن.
وفي كم من الأغاني نجد (شكوى الحافظ للعهد، الباقي على الود)، ونجد استعطاف الإنسان الحر؟ أليس الأغلب أنهما شكوى حيوان أذل من كلب مضروب، واستعطاف هو الكدية الحقيرة؟ فأي الأخلاق هما مثاله! وحتى الأغنية البريئة من هذا العيب الشنيع قد يجرد اللحن والغناء شكواها واستعطافها من كل كرامة.
فالنقاد على حق في اتهامهم (الغناء عامة باللين والميوعة) لما طغى - كما قال بحق - على الأغاني من الشكوى الخانعة المائعة والاستعطاف الذليل، ولغير ذلك من عيوب الأغاني والتلحين والغناء جميعاً. وليس من الصواب أن يقال إن هذا الطغيان سببه ترديد الناس لتلك الشكوى، وإنما طغت الشكوى من الأغاني فجرفهم طوفانها. ولو كان أهل الفن قد انساقوا وراء الشعب لكان صنيعهم تجارة لا فناً كما يزعمون.
أما قوله: الشكوى (في دمنا نحن المصريين)، فهو كلام قد رجح فيه الشعر والإنشاء وعنى ظاهراً من الحال ولم يصب الحقيقة. وحسبنا أن نلاحظ أن هذا الشعب المصري بعينه يتحمس لأبي زيد وعنترة تحمساً يدل على أن سر ميله إلى الأغاني الشاكية

الباكية هو غير ضعف قابليته للطرب من غناء المعاني القوية وللتغني بها، إن صح أن هذا الضعف فيه.

إن أغاني البطولة والعزة، والوطنية والاستقلال، إذا أخرجت بطابع التميع والتخنث في ألحانها وفي غنائها وموسيقاها، كان هذا التناقض البين فيها مضحكا إضحاك نشيد مشهور في مصر بهذه السخافة. وقد تعمد إظهار هذا التناقض كلوديس، الممثل الهزلي الفرنسي،

في أغنية حربية غناها بلحن غرامي، فاستغرق النظارة في الضحك وصفقوا له أي تصفيق. وإذا أغانٍ من هذا القبيل سمعت باعتبارها جدية، كانت مدعاة للسخرية والاحتقار، فلا غرابة إذا مجتها الأسماع وعافتها الطباع، ولو جادت من كل وجه لتغني بها الناس.

ومن طريف الاحتجاج للأغاني التي يضعفها طغيان (الشكوى والاستعطاف) تعليله ضعفها - أو قلة الأغاني القوية - ليس بما (في دمنا نحن المصريين) فحسب، بل بطبيعة أصوات معازفنا أيضاً، مبرراً بذلك ضعف أغانينا وموسيقانا معاً، إذ قال: (كيف يقوم التخت بالإكثار من هذه الأغاني القوية وقد خلق من أنة العود وحنة الناي ورنة القانون؟)

الجواب أن هذه الآلات الأتانة الحنانة الرناتة، هي مع ذلك صيتة، منتهرة، نعارة، تخرج البشارف القوية المعاني، المطربة بما فيها من الشدة والرقة على أحسن تقويم، كما يجمع الافتنان البديع بين الغزل والحماسة لا بين الغزل والذل؛ تلك البشارف التي تتخيل موسيقاها معبرة بشدة في رقة عن حب، حب النفس العزيزة الأبية، تعبيراً بعيداً عن ذلك التناقض في كلام محارب يتهدد بصوت مغازل، أو في كلام جزل المعاني يغنيه صوت تلوثه نفس مخنثة، متضعضعة، أريدت على التحمس.

أو ليس لهذه المعازف أشباه مقاربة في الآلات الغربية لا تصم أغاني الغربيين بطابع الخور والمذلة؟؟ أليس هذا التخت هو الذي يقحم في غنائنا جملاً موسيقية قوية، أو أخلاطاً مسيخة من الأنغام الأجنبية لا توائم سياقه؛ وهو الذي يشرك بعض معازف الغربيين في تأدية ما نسرق من ألحانهم؟؟ فكيف نتوهم أن ضعف أغانينا وغنائنا سببه (أنه العود وحنة الناي ورنة القانون)؟ إنما الصحيح هو العكس. ولم لا نحاول تحسين معازف التخت واختراع غيرها في سبيل الإصلاح المنشود على كل حال؟؟

تلك الكلمة في التخت وما ورد في المقال من أن توسيع دائرة الزجل (فتح للملحنين أبواباً كثيرة) هما كل ما ذكر الشاعر على التلحين والموسيقى. والواقع أن النقاد قد نهبوا إلى عيوبهما جميعاً، وشمل نقدهم الغناء - أي فن المغني ذاته - بل إن الكاتب اللبق عارض النقد برمته، مبالغاً في الإيجاز، بقوله: إنه هو ومن ناصره في مذهبه من (شعراء هذه المدرسة الحديثة) ألفوا الأغاني (فانتشر غناء جديد وموسيقى جديدة كانت غريبة على الخاطر والسمع معاً - أول الأمر - ثم مال إليها الشعب فتغنى بها في كل مكان)

إذا كان الشعب تغنى بها لأنها الشكوى التي في دمه فلم كانت غريبة على السمع والخاطر معاً أول الأمر؟؟ وإذا كان يتغنى بها لغير ذلك، أو لهذا وذاك، فباب الأمل مفتوح لمن يتوخى الإصلاح: لأن (المدرسة الحديثة) تقرر أن فنها قد غير ذوق الشعب في زمن قصير، أوله سنة 1925، حتى قبل ما كان غريباً على السمع والخاطر، فتغنى به الناس في كل مكان. وهذا تقرير يؤخذ منه أن ما في دماء المصريين من الشكوى، على قول صاحبه، لم يحل دون تذوق الموسيقى الجديدة التي خلطت الأوبرا بالجاز، وأن تغيير الذوق المصري في مدة وجيزة أمر ممكن. فلم يبق إلا أن نجعل التغيير إصلاحاً بدل الإفساد، ولو في زمن أطول.

بيد أن الإصلاح المنشود قد يمتد به الزمن امتداداً لا نهاية له إذا كانت الجهات التي يجب عليها أن تؤيده تميل - على العكس - إلى معارضته بمثل الصوت الرسمي الذي قرر أنه (يجب ألا ننسى اختلاف الأذواق وتباين وجهات النظر في التقدير عند البحث في جمال الصوت وسلامة الأغنية من العيوب التي يشكو منها بعض دعاة الإصلاح).

أي نظر وأي ذوق عناهما هذا الإيجاب؟ أي نظر، يا ترى، في مثل الفرق الواضح بين الليل والنهار، ونحن نتمنى أن يسمو بنا التعليم والتهذيب إلى أعلى مستويات الأمم الراقية في هذا العصر المنير؟! نرجو ألا يكون نظر العامة وأشباه العامة ممن تغرهم

قشور من معارف لا يدركون ما وراءها من حقائق، نظر جماعات كأن أبصارهم لا تتصل بسوى أجسادها، فلا علاقة لها بأنبل ما في النفس الإنسانية من ملكات؛ أو نظر أفرادٍ ضئيل تهذيب مشاعرهم في الحياة، قليلٍ إطلاعهم على تحف من أنواع الفنون، تافهةٍ ثقافتهم الفنية، سقيمةٍ بهذا النقص آراؤهم في الغناء والموسيقى.

وأي ذوق بالله في العيوب التي يشكو منها بعض دعاة الإصلاح؟! أهو ذوق تلك الجماهير التي تغشى مجالس الغناء بإنصافها السفلى وحدها، فلا تستطيع أن تكبح جماح غرائزها إذا هي أحست من الصوت حركة تخنث أو همسة تأنث، فينطلق عنان حيوانيتها، وتضطرب أجسامها يمنة ويسرة في قيام وقعود وتلويح بالجوارح، ويعلو صغيرها وهذيانها استعادةً شاطة لما لا تفهم في الغناء سواه من دواعي الشبق؛ وقد تقطع بعجيجها وضجيجها أجمل الجمل الصوتية التي يتأنق بها المغني في إظهار افتنانه وقدرته، فتذهب مزايا هذه الجمل

وتبقى الجماهير بثورتها البهيمية أشبه بتلك القبائل الهمجية في حفلاتها الهائجة المائجة، وذلك كله لا مثيل له في أمة راقية من عالم المدنية.

والأعجب أن المغنين لا يظهرون امتعاضاً من هذا الاعتداء الصارخ على فهم لعلهم يهذبون هؤلاء المستمعين، بل هم يسرون بعمل المعتدين، إذ يعتبرونه دليل الاستحسان لفنهم، وإنما هو استحسان لشيء مخجل في غير محله ووقته؛ ولو كان للفن في ذاته تقدير وحرمة عند تلك الجماهير، لأظهرت استحسانها بعد سماع الأغنية أو الجمل الممتازة في غنائها، كما يفعل المستمعون بأنصافهم العليا وحدها من أهل المدنية.

فمجمل كلام الشاعر الفاضل أن المدرسة الحديثة أبدلت الحب الروحاني بالحيواني في الأغاني، وضمنتها شتى المعاني، وقد فضل الأغاني الحديثة، بمقاصدها وعباراتها، على أغاني عهد مضى؛ وبرر ما فيها من الشكوى، وهي تفجع وهوان، ودافع عما يسمونه الموسيقى الجديدة ولم يبين ما هي، وما هي إلا تخليط شنيع.

وذلك كله يتعلق بالعرض من فنون الغناء والموسيقى، سواء أعد من الصفات المستحسنة أم العيوب المستهجنة. أما الذي يتعلق بالجوهر فهو الداء المفسد الوبيل، الموجب للنقد، المتأصل في تلك الفنون، وهو ما لم يذكر الشاعر ولم يشر إليه الصوت الرسمي بحرف.

ألا إن وجه النقد الباقي بحذافيره راجع إلى (ماهية الموسيقى والغناء الأصلية، أي الدلالة الصوتية على الأحاسيس والخواطر)، عائد إلى عيوب الائتلاف (بين معاني كلام الأغنية ومعاني لحنها وغنائه، ومعاني موسيقاها)؛ وهو منصب على جهلنا (أن اللحن الموسيقي إنشاء يجب ألا تتضارب الجمل الصوتية في سياقه) من (تخليط قديم مسيخ بمسروقات محرفة من الألحان والموسيقى الغربية، القديمة والحديثة، ومن أصوات الجاز)؛ وهو منبه على أننا لا نسلك سبيل الشرقيين القدماء، أو الغربيين المعاصرين لنا؛ في التغني بمختلف الأحاسيس في مواقف الحياة الإنسانية المحوطة بجمال الطبيعة، ومنبه أيضاً على أننا لا (نقلد الغرب فيما ارتقت إليه موسيقاه من التصوير. الذي عظم شأنه بالتحسين والابتكار في المعازف).

وقد قلت إن (الفنان يؤثر في بيئته وجمهوره وإن تأثر منهما، ومن هنا نصيبه في تهذيب ذوق الجمهور وإعلاء مثله الأعلى بقدر مواهبه وسحر فنه؛ ومن هنا تبعة الفنون الضالة

ومسئولية أصحابها في إفساد الأذواق)؛ وإن في مصر (معاهد أهلية وحكومية للموسيقى يجب عليها أن تلتفت إلى حقيقة حال هذه الفنون عندنا وإلى ما يصلح من شأنها، فذلك خير لها من أن تظل على الأيام صوراً جوفاء خاوية، لا تصلح إلا لتمكين الفن السقيم الضعيف والمحافظة عليه)

لكن ذاع صوت رسمي كأنه يقول: (ليس في الإمكان أبدع مما كان!) فصدق القائل: (لما يصل رقينا إلى أن نشعر أن الغناء تربية للأمة)

محمد توحيد السلحدار

مسابقة الأدب العربي لطلبة السنة التوجيهية

إبراهيم الكاتب

للدكتور زكي مبارك

الكتاب والمؤلف - جناية المازني على موهبته الشعرية)

وعلى أسلوبه في الإنشاء - ضاع المازني الشاعر فما مصير
المازني الكاتب؟ - المواهب تلاحق أصحابها ولو فروا منها
- إلى شعاب الجبال - المازني الشهيد - من إبراهيم الكاتب؟
الحب في نظر وزارة المعارف.
الكتاب والمؤلف
يقع الكتاب في 384 صفحة بالقطع الصغيرة، وثمنه عشرة قروش، وهو يطلب من مكتبة عيسى الحلبي بالقرب من مسجد الحسين.
والمؤلف لا يحتاج إلى تعريف، فهو الأستاذ إبراهيم عبر القادر المازني أحد أقطاب الأدب الحديث.
ولكن شهرة المازني في مصر وفي سائر الأقطار العربية لا تعفينا من النص على خصائص ذاتية لم يعرفها القراء من قبل وإن كان المازني لم يترك مجالاً لمن يريد أن يتحدث عنه بإيجاز أو إطناب، فأشعاره ومقالاته تسجل ما فيه من محاسن وعيوب.
وهنا يحتاج الكلام إلى تقييد، فالمازني مغري بالسخرية من نفسه، وقد يتوهم من لا يفهم أنه لا يقول عن نفسه إلا الحق وذلك وهم فظيع، فهذا الرجل من أهل الجد الرزين، وله مبادئ أدبية وقومية يحرص عليها حرص الأبطال، وأقل ما يوصف به المازني أنه (رجل شهم) وهو من عناوين المروءة في هذه البلاد.
عرفت المازني معرفة أدبية لا شخصية في أعوام الحرب الماضية، وكان قد أخرج كتاباً في نقد (حافظ إبراهيم) وكان نقد حافظ في تلك الأيام يعد من شواهد التفوق. ثم زاد اهتمامي به حين سمعت أن حافظ إبراهيم كانت له يد في إخراج المازني من وزارة المعارف (وأنا هنا أحكي كلاماً قاضت به المجالس في ذلك العهد بغض النظر عما فيه من صحبة أو بطلان).
ثم جاءت فرصة رأيت فيها المازني وجهاً لوجه في سنة 1922 ولكن كيف؟
كان الأستاذ عبد القادر حمزة اشترك مع عبد اللطيف بك الصوفاني - رحمهما الله - في إخراج جريدة الأفكار بصورة تجمع بين مقاصد الوفد المصري ومبادئ الحزب الوطني، وكان عبد القادر ينظر إلي بارتياب لصلتي الوثيقة بالحزب الوطني، فكان يخفي عني أسماء المحررين الذين يساهمون في التحرير من بعيد، ومن هؤلاء كاتب تنشر له (الأفكار) سلسلة من المقالات الرائعة بعنوان (الإسناد المتداعية) فمن ذلك الكاتب؟ من ذلك الكاتب؟ ليتني أعرف!
وفي ذات يوم دخلت على الأستاذ عبد القادر حمزة أبلغه ملاحظات الصوفاني بك على بعض ما في (الإسناد المتداعية) من آراء فابتسم وقال: اسأل الأستاذ! فنظرت فرأيت المازني في حال تستوجب الرثاء، فقد كان دامي العينين، وكان كيانه يشهد بما يعاني من إعياء، وكذلك عرفت أن إبراهيم المازني هو صاحب (الإسناد المتداعية)
وبعد خمسة عشر عاما من ذلك التاريخ عرفت المازني خبراً يشبه هذا الخبر الغريب، وحياة هذا الرجل كلها غرائب.
كنا زميلين في تحرير جريدة البلاغ، ولم يكن بيننا ما يقع عادة بين الزملاء من التنافس المكبوت، فأسررت إليه مرة أن عندي موضوعاً أتهيب الكتابة فيه، لأنه قد يضايق فضيلة الشيخ المراغي، وهو إعلان الرسائل التي تنال بها العضوية في (جماعة كبار العلماء)، وبينت له أن من الواجب أن يكون حال تلك الرسائل شبيهاً بحال الرسائل التي تنال بها الدكتوراه من الجامعة المصرية، فهي تطبع وتنشر ليعرف الجمهور أن الجامعة لا تعطي الألقاب العلمية بدون استحقاق، فما الذي يمنع أن يكون الأمر كذلك مع (كبار العلماء)؟؟
وطرب الأستاذ المازني لهذه الفكرة وقال إنه سيذيعها بالنيابة عني، وكان مفهوماً أنه سيذيعها على صفحات (البلاغ) فماذا وقع؟
رأيتها منشورة بعد أيام في جريدة (الأهرام) بدون إمضاء فعرفت من جديد أن المازني بروحين أو أرواح، وعرفت أن الذي كان يراسل (الأفكار) وهو في (الأخبار) هو نفسه الذي يراسل (الأهرام) وهو في (البلاغ). ثم تعقبته فعرفت أن بينه وبين الأستاذ أنطون الجميل صلات، وأنه ينشر في (الأهرام) أشياء بدون إمضاء، رعاية لمكانه في (البلاغ).
جناية المازني. . .
لا يحتاج القارئ إلى معرفة الأسباب التي استوجبت أن يتحرر المازني من خدمة

الحكومة المصرية، وكان منذ أكثر من ثلاثين سنة أستاذاً بالمدارس الثانوية. وكان الظن أن يصير من أقطاب وزارة المعارف، لو صبر على ما توجب الحياة الرسمية من تكاليف خفاف أو ثقال. . . لا يحتاج القارئ إلى معرفة تلك الأسباب، لأن المازني لا يصلح أبداً لحياة الهدوء والاطمئنان. ولو أجلسناه على كرسي الوزارة لخلع نفسه بعد لحظات، ليقول في الوزارة ما يشاء، وليغمز الرسميين كما يريد.

وقد اشتغل المازني بالتعليم في المدارس الأهلية، ولعله أنشأ لنفسه مدرسة لم تظفر بطول البقاء. ومن المؤكد عندي أن (الكاتب) هو الذي أضاع (المدرس)؛ فما كاد يرى بوارق النضال السياسي حتى اندفع إليه بقسوة وعنف، وكانت باكورة مقالاته السياسية ردا على المرحوم إسماعيل أباظة باشا. وكان هذا الرجل على جانب من القوة والعمق، وكان لا ينشر شيئاً إلا بعنوان: (بيان لا بد منه)، فرد عليه المازني في جريدة (النظام) بمقال عنوانه: (لا بد مما ليس منه بد)

ومضى المازني ينشر في الجرائد مقالات سياسية في تأييد الخطة الوفدية. وجاء (مشروع ملنر) وكان للصحفيين الوفديين في تأييده مجال - وكانت المعارضة في ذلك الوقت بيد الحزب الوطني - ثم ظهر مفاجأة مقالان في نقد ذلك المشروع لكاتبين وفديين، هما المازني والعقاد، فدعاني الأستاذ محمد الههياوي إلى التعليق على هذين المقالين. وكان رأيه أن ذلك صدع في بناء الهيئة الوفدية. ولكن شجاعة المازني والعقاد أوجبت أن أخصهما بكلمة ثناء.

وجاء الخلاف بين أمين الرافعي وسعد زغلول، فادفع المازني في الهجوم على الوفد. وكانت مقالاته غاية في القوة البيانية، وفي حرارة أخطر من الجمر المتوقد، بحيث لا يشك قارئ في أن (الكاتب) سيعادي الوفد إلى آخر الزمان، ولكن هذا (الكاتب) الذي يعادي الوفد

علانية في جريدة الأخبار هو نفسه (الكاتب) الذي يزور جريدة الأفكار كل صباح ويقدم إليها في تأييد الوفد أشياء!؟

ويمر زمن قصير فنرى المازني يعطف على الجريدة الرسمية للحزب الوطني ويصادق الشيخ عبد العزيز جاويش. ثم يثبت فجأة فينتقل إلى حزب الاتحاد ويزامل الدكتور طه حسين في تحرير جريدة (الاتحاد)، مع انعطافات خفية يغمز بها هذا الحزب في جريدة (الأخبار). ثم ننظر فنراه مع الأحرار الدستوريين في صحبة الدكتور محمد حسين هيكل رئيس تحرير (السياسة)، ونلتفت فنراه انتقل إلى (البلاغ)، وبوصوله إلى (البلاغ) خطرت له فكرة الاستقرار الموقوت!؟

وفي أثناء هذه التنقلات السياسية كانت للمازني تنقلات أدبية، فكان يرسل إلى المجلات ما تقترح عليه. وقد أنشأ لنفسه مجلة كما كان أنشأ لنفسه مدرسة؛ ولكن المازني رجل ملول، وإنشاء مدرسة أو مجلة يحتاج إلى شمائل تبغض الملال.

ولم يقف المازني عند هذه المراحل من التنقل السريع، فخلق لقلبه وعقله مجالات كثيرة في الحجاز والشام والعراق، فهو من أعرف الناس بالتيارات الفكرية والسياسية في أكثر البلاد العربية.

أراني أطلت من غير طائل، فماذا أريد أن أقول؟

أريد أن أهوى بيدي على رأس المازني فأحطمه بلا ترفق، عقاباً على ما صنع بنفسه بلا ترفق!؟

كان المازني من أكابر الشعراء، وكان يستطيع أن يمد الشعر بقوة وذوقية تصل ما انقطع من لوامع هذا الفن الجميل.

ولكن المازني الذي (انشغل) بالكتابة في جميع الأوقات ولجميع الأحزاب لم يعد يجد الفرصة للغناء، ولا بد للشعر من غناء. والغناء يوجب الخلوة إلى النفس من حين إلى حين؛ ومتى يخلو إلى نفسه من يعاني ضجيج المجتمع السياسي في الصباح والمساء، ومن عود نفسه الأنس بالقيل والقال في الكبائر والصغائر من شؤون هذا المجتمع الصخاب؟

وهنا يظهر انخداع المازني أو خداعه، فهو لا يقول إنه مشغول بالكلام عن الغناء، وإنما يكابر فيزعم أنه لم يبق للشعر في الدنيا مكان، وأن الشعراء ليسوا إلا جماعة من الحمقى

والمجانين!
وحول هذه القضية ثارت الخصومة بيني وبينه على صفحات البلاغ حين ظهر ديواني في سنة 1934، وهي خصومة مست قلب المازني، وكان من المحتمل أن تكون لها عواقب سود، ولكن الرجل تراجع حين عرف أن غضبه لم يقم على أساس.
وبعد أعوام حدثته بأني انصرفت عن الشعر فحملق في وجهي حملقة الغول وهو يصرخ: (أنت تبت! أنت تبت!)
وكذلك يرى المازني أن الانصراف عن الشعر توبة، وكأنه يجهل أنه أساء إلى وطنه إساءة ستجعله من أهل النار يوم يقوم الحساب، فضياع شاعر مثل المازني ليس إلا نكبة وطنية. لا جزاء الله إلا بما هو له أهل!
ضاع المازني الشاعر، فما مصير المازني الكاتب؟
بدأ المازني حياته النثرية بالطريقة الجاحظية، وهي تقوم على أساس الازدواج، وقد وفى المازني لهذه الطريقة أصدق الوفاء في أمد يزيد على عشر سنين، وكان عهده في رحاب هذه الطريقة أجمل عهوده الأدبية. فقد كان نموذجاً للكاتب الفنان، وكان بناء الجملة على سنان قلمه غاية في المتانة والجمال.
ثم جنى المازني على نفسه بالكتابة اليومية، ولكن كيف؟ يدخل الجريدة فيتحدث ويتحدث ثم يتحدث إلى أن يضيع الوقت وإلى أن تنفذ قواه، وفي آخر لحظة يكتب المقال المطلوب بأي أسلوب، وكذلك صار المازني يكتب كما يتحدث، وبين الكتابة والحديث مراحل طوال.
ثم ماذا؟ ثم ابتدع المازني طريقة جديدة هي كتابة أكثر مقالاته وقت إنشائها بالكتاب، فينشئ المقال على أصوات: طق طق، طق!!
هل فهمتم ما أريد؟
المازني اليوم لا يكتب كما نكتب بقلم ومداد وقرطاس، ليستطيع المحو والإثبات كما نستطيع، وإنما تدور أنامله على الكتاب بوحي من رأسه الموهوب؛ فيخرج المقال وهو كلام لا إنشاء.
فمن هاله أن يرى بناء الجملة عند المازني الجديد يخالف بناء الجملة عند المازني القديم فليذكر هذا التاريخ من حياة هذا الفنان.
ولكن. . .
ولكن المواهب تلاحق أصحابها ولو فروا منها إلى شعاب الجبال، فالمازني أديب موهوب، وهو كتلة من العواطف والأحاسيس، ومواهب هذا الرجل لن تتركه بعافية، وسيظل المازني هو المازني، ولو انتقل من تسيطر مقالاته على الكتاب إلى تسطيرها على الهواء.
ولعل لله حكمة فيما صار المازني إليه، فهو الشاهد على أن الفطرة أفضل من الفن، وهل الفن إلا الصدق في النقل عن الطبع؟
المازني الجديد فنان بأسلوب جديد، وسيكون له مكان في تاريخ الأدب العربي، فسيقال حتما إنه عاون على حماية اللغة الفصيحة من عوادي الجمود.
لقد بدأ للأستاذ محمود تيمور أن يؤلف بعض الأقاصيص باللغة العامية ليغزو قلوب الطبقات الشعبية، فهل وصل إلى ما يريد؟
إن كتابة المازني - وهي غاية في إيثار الفصيح - أسهل وأوضح من كتابة تيمور العامية، ولو ترك مصير اللغة إلى من يخطبون ود العوام لصارت إلى البلبلة ثم الفناء.
والأستاذ محمود تيمور له يوم، وسنلقاه بعد قليل، فله فوق هذه المشرحة مكان.
المازني الشهيد
رأينا المازني في هذه الصفحات إنسانا يتنقل من أفق إلى آفاق. فهو مدرس أولاً، وشاعر ثانياً، وكاتب ثالثاً، ورأيناه يساير جميع المبادئ وجميع الأحزاب، فهل نعده من أهل الرياء؟
لا بد مما ليس منه بد.
لا بد من أن تقال في هذا الرجل كلمة الحق، فمن الإجرام أن نترك أدباءنا تحت حماية الأقاويل والأراجيف، وهم صوت مصر في الشرق.
المازني الذي عرفته رجل صادق إلى أبعد الحدود، صادق في البغض وصادق في الحب، صادق في الجد وصادق في المزاح.

كان صادقاً في تأييد الأحزاب التي أيدها بالقلم واللسان. كان وفدياً صادقاً وهو يؤيد الوفد المصري، وكان وطنياً صادقاً وهو يؤيد الحزب الوطني، وكذلك كان حاله مع الدستوريين
والاتحاديين، ولو بدا له أن يعاون الشيطان لبلغ غاية الصدق في تأييد الشيطان!
هذا رجل يعيش بأعصابه واحساساته، وقد يكون لبلائه باحتراف القلم تأثير في تقلباته النفسية والوجدانية. وما ظنكم برجل يكتب كل يوم فيستنفذ ما يملك من بواعث القرار والهدوء؟
وأهجم على الغرض الذي أرمي إليه فأقول: هذا رجل جنى عليه قلمه، وجنى عليه إحساسه، فلم يعرف قيمة الصبر على الانحياز إلى إحدى الجهات، في زمن لا يعيش فيه المفكرون إلا بأسندة من العصبيات السياسية أو الاجتماعية.
وزارة المعارف نسيت المازني، فبينها وبين صحبته القديمة أعوام وأجيال
والأحزاب السياسية لا تذكر المازني، فقد تقطع ما بينه وبينها من أسباب.
لا يعرف المازني غير قرائه وهم أقوام لا حول لهم ولا طول، فإلى من يتوجه هذا الرجل إذا بدا له أن يقصف قلمه في ساعة ملال؟
الموظف الذي ينتفع بمرور الأيام في احتساء القهوة والتأشير على بعض الأوراق يواجه الشيخوخة وله معاش يضمن له الراحة والاطمئنان
والمتجرون في التراب يجمعون الألوف، وحدث ما شئت عن المتجرين في البهتان!
فما مصير (إبراهيم الكاتب) وقد قضى نحو أربعين سنة في صحبة القلم والقرطاس؟
ما مصيره وقد عادى الجميع في سبيل رسالته الأدبية؟
المازني حساس إلى الحد المزعج، وهو يغم حين يرى اسمه (إبراهيم) وضعت فيه ألف بعد الراء، فهو عند نفسه (إبرهيم) لا (إبراهيم) والجنون فنون!
وهذا الإحساس المرهف هو الذي صير هذا الكاتب إلى ما وصفنا في هذه الصفحات،
فهل من الإسراف أن نطالب الدولة برعاية المصاير لمن يكونون في مثل حاله من العناء بحرفة الأدب والاكتواء بنار الكتابة كل يوم أو كل أسبوع في آماد طوال لا تصلح بعدها النفس لانتهاج مذهب جديد في الحياة المعايشة؟
إن الذين صدقوا في خدمة الأدب آحاد، لا عشرات ولا مئات، فهل تعجز الدولة عن تدبير معاش لأولئك الآحاد حين يطيب لهم أن يستريحوا من متاعب البيان؟
من إبراهيم الكاتب؟
إبراهيم الكاتب قصة غرامية تفرعت إلى شجون وصفية واجتماعية، وقد تحدث المازني في المقدمة عما سلك من طرق التأليف، بإسهاب يغني عن النص على ما فيها من مقاصد وأغراض. إنما يجب النص على مسألتين سلك فيهما المازني مسلك التحريف ولا أقول التضليل!
أما المسألة فهي إصراره على أن إبراهيم الكاتب غير إبراهيم المازني، وحجته أن إبراهيم الكاتب يتلقى الحياة باحتفال، أما إبراهيم المازني فيتلقى الحياة بغير احتفال (؟!)
وأقول إني صحبت المازني أعواماً في جريدة البلاغ وأياماً في مدينة بغداد، فما رأيت أشد منه احتفالاً بالتوافه من شؤون الحياة، فهو يغضب ويثور لأوهى الأسباب، فكيف يكون حاله فيما يمس جوهر المنافع الحيوية؟
أما المسألة الثانية، فهي الصفحات المنقولة حرفيا عن كتاب (ابن الطبيعة)، ويقول المازني: إن هذا توارد خواطر لا سرقة أدبية، ويقول الأستاذ علي أدهم: إن المازني نقل هذه الصفحات متعمداً ليجد الشاهد - عند اللزوم - على أن توارد الخواطر هو الأصل فيما ينسب إليه من سرقات، وهل من المعقول أن يسرق الكاتب خمس صفحات؟!
وهنا نعرض فكاهة تستحق التسجيل:
كنا في جريدة (البلاغ) في الأسبوع الأول من قدوم السير (لامبسون)، وهو رجل فارع الطول، ورأت إحدى الجرائد الإنجليزية أن تنص على طوله، فنشرت جزءاً من صورته في الصفحة الأولى وقالت: إن البقية في الصفحة الثانية!!!
فقال المازني بغير وعي: ما الذي يمنع من سرقة هذا المعنى؟! واتهام المازني بالسرقات الأدبية معروف، ولكن هذا لا يغض من قدرته البيانية، فلعله أول مترجم في

مصر يوهمك وهو يترجم أنه الكاتب الأصيل.
عند المازني عبارات كثيرة مجنحة بأخيلة أجنبية، ولكنها لا ترد في كلامه إلا وهي مطبوعة بإحساسه الخاص، فهو يستأسر للمعنى والصورة قبل أن يفكر في السرقة أو النقل. . . فهل تراني أحسنت الدفاع عنك يا صديقي؟
الحب في نظر وزارة المعارف
قصة (إبراهيم الكاتب) قصة غرامية، وفيها ألوان من اضطرام العواطف والأحاسيس،
فكيف جاز لوزارة المعارف أن تقررها لمسابقة الأدب العربي بين طلبة السنة التوجيهية، مع أن هذه الوزارة كان يؤذيها أن يكون في المحفوظات المقررة شيء من الغزل والتشبيب؟
تلك وجهة جديدة في وزارة المعارف، فهل نراها بمنجاة من الانحراف؟
ولكن، ماذا جنت وزارة المعارف في عهودها السوابق من إخفاء قصائد الحب عن التلاميذ؟ هل جعلتهم أقوى من تلاميذ إنجلترا وألمانيا، والحب عند هاتين الأمتين له في جميع النصوص الأدبية مكان؟
لوزارة المعارف عندنا صوت في إدارة الإذاعة اللاسلكية، فهل اعترضت على أغاني الحب؟؟ وكان لوزارة المعارف رأي في توجيه الفرق التمثيلية، فهل اعترضت على الروايات التي يقع فيها تقبيل وعناق؟؟
آن لوزارة المعارف أن تعرف أنه لا موجب للهرب من المطالب الروحية، وأن الحزم كل الحزم في أن تتولى هي تربية العواطف في صدور التلاميذ، لا أن تترك عواطفهم لرياضة الجهلة من السفهاء.
المحرم هو الإسفاف في تصوير الشهوات، أما تشريح عاطفة الحب باعتبارها عاطفة إنسانية، فهو غرض يوجبه التعليم والتثقيف.
وما قيمة الحرص على إخفاء الجمال مصوراً في قصيدة وجدانية، وهو يعرض كل لحظة في شوارع القاهرة، وقد يباع بلا ميزان؟
كونوا أساتذة التلاميذ في جميع الشئون، واحترسوا من تركهم تحت رحمة الأهواء، واعلموا أن شغف التلاميذ بالنظر في أحاديث الحب يرجع إلى إصراركم على القول بأنه حرام لا مباح، فقديماً قيل: كل ممنوع متبوع.
وسلام على إبراهيم - إبراهيم الكاتب - من صديقه الحميم:
زكي مبارك
كليلة ودمنة
للدكتور عبد الوهاب عزام
(تتمة)
ص 195 س 15: (أرادوا إدخال النقص عليك في ملكك) قال الأستاذ: (كلمة النقص ركيكة في هذا المعرض لا يقولها مثل ابن المقفع وإنما هي النقض بالضاد المعجمة) ولست أرى في النقص هنا ركاكة. وما كان لي أن أغير الذي أمامي في أمر لا دليل فيه، وهذا دأبي في تصحيح الكتاب، ولو كان الأمر إلى اختياري لما اخترت إحدى الكلمتين ضربة لازب.
ص 200 س 9: (فإنها امرأة عاقلة لبيبة حريصة على الخير، سعيدة من الملكات ليس لها في النساء عديل) قال الأستاذ: (وكيف تكون سعيدة مع أن الملك أمر بقتلها الخ. . . ثم هو في معرض التنويه بخصالها، وليست السعادة خصلة أو خلقاً - الأخلاق والوجه: سديدة الرأي من الملكات التي ليس (في النساء عديل) وقال في الحاشية أنظر كليلة ودمنة طبع بولاق) - والجواب أنه ما كان لمصحح أمين أن يغير برأيه سعيدة من الملكات إلى سديدة الرأي من الملكات التي الخ. . . وطبعة بولاق وغيرها شواهد على ما جناه الناشرون المتصرفون بآرائهم في متن الكتاب. ومعنى سعادة الملكة هنا أنها مباركة ميمونة كان عهدها مع الملك عهد سعادة وغبطة
ص 208 س 11، 12 (الذي يصنع الطعام وينظفه لسيده) يرى الأستاذ أن الكلمة ينضجه حرفها الناسخ إلى ينظفه. وهو رأي سديد، وكان ينبغي أن يشار إلى هذا التعليق إن لم يجز تغيير المتن.
ص 210 س 5: (والجريء الجاهل المقدم على ما ليس له وإن أتلف نفسه ونفس غيره في طلب حاجة وشحه) قال صوابه ونجحه. وأرى أن الصواب شحه يعني حرصه

على ما يطلب. وليس الشح الحرص على ما في اليد فقط بل منه الحرص على أخذ ما ليس في اليد وفي حديث ابن مسعود: والشح أن تأخذ مال أخيك بغير حقه. وفي حديث ابن عمر: إن كان شحك لا يحملك على أن تأخذ ما ليس لك فليس بشحك بأس.

ص 250 س 3: (فلما رأوا الأسد قد احتشد في طلب اللحم وغضب) وقال: أرى أنها احتد والحدة تقارن الغضب. أقول بل هي احتشد وكذلك وقعت في نسخة شيخو. واحتشد الإنسان في الأمر إذا اجتهد وبذل وسعه فيه.

ص 247س 4: (فما الذي يشبه كفك عن الدماء وتركك اللحم) قال: كلمة يشبه مقحمة، ولعلها زيادة من الممل للناسخ حين تردوه في الكلمة بعدها - وقد وقفت عند هذه الجملة حين التصحيح وهمت أن أضع مكانها ما في شيخو: (فما الذي يمسك كفك عن الدماء) ولكني وجدت في آخر الجملة (وتركك اللحم) وفي شيخو وترك اللحم وهذا لا يستقيم مع كلمة يمسك. ورأيتها في نسخة طبارة (فأي شيء يشبه كفك عن الدماء الخ. . .) فآثرت الإبقاء على ما في نسختنا. وكان يسيراً أن أغيرها كما غيرتها النسخ الأخرى. ومعنى الجملة: أي سيرة هذه التي لا نرى لها شبيهاً؟

271: 11 (بفضل قسمه لك وتابع نعمه عليك) قال: فعلى أي شيء عطف الفعل (تابع)؟ - رأي أن تصحح الجملة على وجوه مختلفة - وأرى أن في الجملة نظراً ولكن معناها بين، وتابع معطوف على قسمه والضمير في تابع يرجع إلى الله وليست جملة تابع وصفاً لفضل وإن كانت عطفاً على الوصف.

52: 2 (كالشعلة من النار التي يصونها صاحبها وتأبى إلا ارتفاعاً) قال الأستاذ إنه وجدها في عيون الأخبار (يصوبها) أي يخفضها - وأقول: هو وجه حسن جيد ولكن لم يقع في نسخة من نسخ الكتاب فلم يتوجه الرأي إليه. وهو حري أن يؤخذ به، وللناقد الشكر.

276: 13) ولم تجدي من الأسف والحزن على شبليك شيئاً إلا وقد كان من كنت (تفعلين بأحبابه ما تفعلين يجد مثله أو أفضل منه قال الأستاذ: وليس يقال حزن فلان حزناً أفضل من حزن فلان. . . والوجه أمثل الخ. ولا أرى هذا وجهاً. وقد بينت في التعليق أن الفضل معناه الزيادة. وعندي أن كلمة أفضل أقرب من أمثل في هذا السياق. وإن فسرت أمثل بأنها من مثل بمعنى نكل كما فسرها الناقد.

في التعليقات

جادل الناقد الفاضل في جمل رأيت أن بها أثراً من الفارسية، وقلت إن ابن المقفع لم يسلم من تأثير الفارسية حين الترجمة - وقد رأى الأستاذ أن لهذه الجمل أوجهاً في العربية الصحيحة. ولست أريد أن أتناول هذه الجمل بالتفصيل، وحسبي أن أقول: إن هذه الصيغ أشيع في الفارسية وأقرب إلى أساليبها، وقد ذكرتني بالفارسية حين قرأتها، ولعل الذي حفز الأستاذ إلى الجدال في هذه الجمل أنه يرى (ابن المقفع أيقظ من أن يؤثر في بيانه العربي الخالص هجنة فارسية، أو يلتاث في ترجمة هذه اللوثة). ولست أشاركه هذا الرأي، فلا ريب عندي أن أثر الفارسية يظهر أحياناً في أساليب ابن المقفع؛ وهو أمر يحتاج إلى تفصيل وتبيين، وعسى أن تتاح فرصة للكلام فيه.

وبعد، فقد آثرت الإيجاز في الرد على الناقد الأديب توفيراً للوقت وعلماً بأن قليلاً من القراء من يحمل نفسه على تتبع الجدال في جزئيات كهذه.

ثم للأستاذ عبد السلام الشكر بما قرأ وبحث ودقق ونقد. وقد دل نقده على علم وأدب، نسأل الله له منهما المزيد، كما نسأله أن يهدينا إلى السداد في الرأي والقول، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

عبد الوهاب عزام

مملكة الشمس

أو

للدكتور جواد علي

من الفلاسفة من يأبى خيالهم إلا أن يسمو من عالم الأرض إلى عالم السماء؛ ومن هؤلاء الفيلسوف الإيطالي توماس كامبينيلا صاحب مملكة الشمس المملكة المثالية التي افترضها هذا الفيلسوف لتكون المملكة الفاضلة من بين الممالك البشرية

والنموذج الأعلى لكل الممالك التي تصورها العقل البشري بلا نقص أو هنة من الهنات. كان هذا الفيلسوف من الطليان الحركين الذين كانت لهم روح لا تستقر على حال. لم تعجبه حياة الرهبنة والتقشف على شدة تعلقه بمبادئ الدومينيكان. ولم يقبل بأن يسجن الإنسان نفسه حراً مختاراً في قبعة ضيقة بين الأسوار والجدران باسم الرهبانية والدين. وقد دفعته هذه النزعة إلى الخروج على تقاليد جماعته وعلى الانضمام إلى زمرة السياسيين الثودويين الذين كانوا في مدينة نابولي يجاهرون ملك الأسبان بالعداء؛ فسجن مقيداً في محبس المدينة المظلم مدة ستة وعشرين عاماً ونصف، وعذب سبع مرات.

ومملكة الشمس التي أراد أن يقيمها هذا الفيلسوف مملكة تستند على الأسس والمبادئ الفلسفية التي تصورها أفلاطون في جمهوريته ودولته. ولكنه اختلف عن أفلاطون في شدة اعتنائه بالتنظيم، وبالجزئيات، وبتوزيع الأعمال على حكام هذه المملكة وعلى الأتباع، وقد اختلف في نظريته عن النظرية المثلية التي تصورها الفيلسوف الإنكليزي توماس موروس من ناحية مبدأ الحكم في هذه المملكة. فمملكة توماس موروس مملكة اشتراكية ديمقراطية النزعة تأخذ بمبدأ الانتخابات فيها، ولحرية القول والاعتقاد نصيب وافر. أما مملكة الفيلسوف الإيطالي فهي مملكة اشتراكية أيضاً ولكنها تمثل نظر العقلية الإيطالية إلى الحكم خير تمثيل. هي النموذج الصالح لنظر العقل الإيطالي إلى الحكم، لا محل فيها للحرية الفكرية ولا للعقيدة، ولا مجال فيها لإبداء الرأي أو الاعتراض. كل شيء يدبره الفلاسفة وهم الحكام. وكل شيء فيها قد نظم وقنن وضبط وعين حتى الأكل والشرب وساعات العمل وطراز الأنس والطرب.

يتصرف في شؤون مملكة الشمس حكيم ميتافيزيقي يدعى هوه أو سول انفرد من بين جميع رجال المملكة بالحكمة والعلم وحسن التصرف، فهو أعلم الناس وأحكمهم طراً. أحاط بكل شيء علماً فلا يعزب عنه في تدبير المملكة شيء. وتكاد تكون صفات هذا الرئيس الحكيم هي نفس صفات (الرئيس الفيلسوف) الذي اختاره الفارابي ليحكم (أهل المدينة الفاضلة) مع اختلاف في طريقة الحكم وتوزيع الأعمال، وإمكانية التطبيق سببه اختلاف نظام الحكم في بلاد الإسلام في عهد الفارابي عنه في مملكة أسبانيا وإيطاليا في عهد الفيلسوف كامبنيلا. ينظر الفارابي إلى الحكومة نظرة فلسفية أفلاطونية روحانية إسلامية مجردة بينما ينظر كامبينيلا إلى الحكومة بنظرة فلسفية مثالية عملية كأوليكية، تعكس لنا صورة العقل الإيطالي في عهد هذا الفيلسوف.

ويساعد الرئيس (سول) ثلاثة وزراء، هم بون وسن ومور اقتسموا شؤون المملكة كل حسب اختصاصه ونبوغه. وتعرفون بالناحية التي اختصوا بها تصرف رجل خبير قدير لا يجاريه في فنه أي شخص آخر من أشخاص هذه المملكة. وقد اختص الوزير (بون) من بين الوزراء بالشؤون الحربية وبمهمة الدفاع عن المملكة، ووظيفته أن يبذل كل ما في وسعه لصد هجمات أي معتد أثيم يريد بالمملكة سوءاً. وعلى كل مواطن في هذه المملكة كما في مملكة أفلاطون أن يساهم في الدفاع عن الوطن، يستوي في ذلك الرجل والمرأة، والمرأة لا تستثنى في هذه الحكومة من الجندية لأنها تساهم الرجل في شؤون الحياة. وهذه هي الفكرة التي صرع بها أفلاطون في جمهوريته.

أما الوزير سن فهو وزير معارف هذه المملكة إليه ترجع أمور تعليم الشعب وتثقيفه، وله واجبات كثيرة متفرعة فهو يشرف على تعليم الناس الفنون الحرة والفنون العلمية الآلية (أي الصناعات) وهو يشرف على تعليم سكان المملكة قواعد العلم وأسراره. وهو يشرف على تعليم سكان هذه المملكة جميع فنون العلم التي يحتاجها الإنسان في الحياة.

أما التعليم فهو إجباري عام يستوي في ذلك الذكر والإناث. خصص وزير المعارف لكل مدينة من مدن الشمس محلاً يدعى ليكون بمثابة مدرسة ذلك اليوم. والأوربيس بيكتس عبارة عن محل واسع عام أقيمت عليه سبعة جدر مربعة متساوية، جدار من هذه الجدر في الوسط، أما الجدر الآخر فتحيط به على صورة هالة. وقد زينت هذه الجدر بصور مختلفة التي تمثل سلسلة العلوم التي يحتاجها البشر وضعت بصورة منتظمة حسب تطور درجات

العلم. وهنالك معلمون يوضحون للأطفال مغزى هذه الصور بصورة بسيطة سهلة لا تكلف فيها ولا إجهاد.

والتعليم في هذه المملكة من النوع المختلط، والمنهج من النوع الموحد، والكتاب الوحيد الذي يدرس في هذه المملكة هو كتاب (الحكمة) وقد ألفه كاميبنلا على طريقة فيثاغورس جمع بين دفتيه من كل فن شيئاً. ويؤكد الفيلسوف أن كتابه هذا هو من أسهل وأحسن ما كتب، وأن أسلوبه أزلي لا يتبدل، لذلك لا يمكن لأي طفل بلغ العاشرة من العمر مهما كانت مقدرته العقلية أن يرسب في امتحان الدولة أبداً. أما المواضيع النحوية واللغوية فلا مجال واسع لها في هذا الكتاب ولا في دوائر معارف مملكة الشمس؛ لأن التوسع في هذه الأبحاث يبعث على الجمود الفكري، وعلى توجيه العقل نحو التلاعب بالألفاظ وترك اللب وهو العقل. ولذلك نرى اللغوي يبذل كل جهوده في دراسة قشور الفكرة وهي الألفاظ فيحاول جهد طاقته تسخير الأفكار وسبكها حسب صناعته لتكون جملة من أحلى الجمل التي يستذوقها طبعه؛ ولكنها في الواقع من أسخف ما يكتبه إنسان.

لا يقتصر التعليم في هذه المدينة على الدروس النظرية، بل يحتم القانون على كل طالب من طلاب هذه المملكة الانخراط في معامل المدينة لإتقانه فنون الصناعة والحصول على معلومات عامة عنها؛ لا يستثنى من ذلك أي طالب من الطلاب. وبعد حصول الطالب على المعلومات الصناعية يساق إلى القرية إلى المزرعة النائية حيث تعرض عليه مختلف أنواع النباتات والحيوانات؛ ويعلم بنفس الوقت كيفية استغلال الأرض وتربية الماشية. ثم يساق بعد ذلك إلى الثكنات حيث يدرس الفنون الحربية وكيفية استعمال السلاح ليستوي في ذلك الذكور والإناث!

أما وزارة الوزير (مور) فهي من أخطر الوزارات الثلاث لأنها وزارة حساسة مهمة تتعلق بالجنس والمحافظة على الجنس. عليه أن تنظم العلاقات الجنسية وأن تسهر على إنتاج جنس قوي من أحسن الأجناس، وهي وزارة الحب ووزارة العلاقات الجنسية. فالرجال في هذه المملكة ملك مشاع للنساء، والنساء في هذه المملكة ملك مشاع للرجال. لا زواج ولا استئثار، كما لا زواج في جمهورية أفلاطون ولا استئثار. كل شيء عام. تقوم في هذه المملكة عاطفة الحب مقام عاطفة الزواج. لذلك كان أهم وظائف الوزير مور تنظيم هذا

الحب حتى لا يؤدي إلى استئثار فردي وحتى لا يؤدي إلى حدوث مشاكل ونزاع بين الأفراد.

وعلى الوزير مور أن يهيئ لمملكة الشمس جيلاً منتخبا من أقوى العناصر البشرية وأجملها بنفس الوقت، كي يتمتع الإنسان بالسعادة والهناء؛ ولكي يتم ذلك، عليه أن يربي الأطفال تربية صحية، وأن يجهزهم بالطعام الكافي وبالملابس المقتضية. والملابس في هذه المملكة من النوع الموحد أيضاً، تلبس في الصيف والشتاء على حد سواء، ولا فرق في هذه المملكة أيضاً بين ملابس الرجل والنساء.

وإنك لا تجد في هذه المملكة أثراً للعائلة، كما لا تجد فيها أثراً للملكية الخاصة. كل شيء فيها عام، حتى الدين لا يستأثر فيه (الثالوث المقدس) رمز المسيحية بالنفوذ من بين مقدسات الإنسان. هكذا أراد (كامبينيلا) الراهب أن تكون مملكة المثلية على سطح الأرض على المثال الذي أراده أفلاطون، حتى في توزيع الأعمال وتقسيم الطبقات. وكذلك حلم الفارابي المسلم فأراد أن تكون مدينته مدينة مثلية فاضلة، لها ميزاتها من بين المدن المثلية. وكذلك أراد ابن طفيل أن تكون البشرية في عقلية حي بن يقظان. وكذلك فكر الشيخ الحلي في جزيرته الخضراء. بمثل هذا فكرت عقلية عشرات وعشرات من مفكري الإسلام.

لقد فشل أفلاطون حينما أراد أن يطبق ما تخيله عقله على سطح الأرض. وفشل الفيلسوف الإيطالي كاجنبيلا كذلك عندما أراد تطبيق مشروعه على سكان الأرض. هكذا يحلم فلاسفة البشر عن بشرية كاملة مثلى، ولكن أحلامهم تصطدم دائماً بحقيقة ثابتة تمثل فلسفة الواقع، وهي أن بين عالم الأحلام وبين عالم الحقائق بوناً يمثل بعد الأرض عن السماء. فآمن أيها القارئ بالواقع تعش سعيداً ما دامت لك حصة في هذه الحياة.

بغداد
جواد علي
جميل نخلة المدَّور
(1862 - 1907)
للأستاذ كوركيس عواد
1 - كلمة في تراجم رجال العصر
ما زال الشيء المدون من تراجم رجال عصرنا ضئيل القدر. فالباحث يحار في أكثر الأحيان، ليقف على ترجمة هذا أو أخبار ذاك! لأن ما بأيدينا من هذه التراجم لا يتعدى العشرات! وأما أكثر العلماء والكتاب وغيرهم، فلا شأن لهم في تلك المدونات. إذ يأتي هؤلاء فيعملون ثم يذهبون إلى حيث يذهب الناس، ثم تندثر أخبارهم وتطمس معالمهم! ولو أحصينا كتب تراجم المحدثين لما تجاوزت العشرة على ما نظن. وهذا شيء زهيد، إذا ما قيس بالأسفار الموضوعة في تراجم الأقدمين. فللمؤلفين القدماء كتب لا تحصى في تراجم الرجال عامة، أو في تراجم طبقة أو فئة خاصة منهم. فأفردوا للأطباء مثلاً تراجم، وللوزراء تراجم، ومثل ذلك قل عن الأدباء والشعراء والنحاة والحكماء والمحدثين والفقهاء والحفاظ وغيرهم. بل إنك تجد تآليف خاصة بمدد من السنين: كتراجم رجال المائة السادسة أو السابعة أو الثامنة وهلم جرا؛ كما تلفى كتباً في تراجم من عاش في قطر ما أو بلدة ما، أو تراجم رجال المذاهب والفِرق، أو من تميز بصفة أو أصيب بعاهة، كالمعمرين والمتطفلين والعميان. أو غير ذلك من صنوف التراجم التي يطول بنا ذكرها. وإن تمادينا في تعداد ما صنفه الأقدمون في التراجم، وقسناه بقلة ما صنعه المحدثون فيها، وجدنا ما في أيدينا من هذا التآليف الأخيرة شيئاً نزراً، يسعف في بعض الأحوال، ويخيب آمالنا في أكثرها!
2 - سبب كتابة هذا المقال
والذي حملنا على كتابة هذا المقال، هو كلمة قلناها بشأن مقال ثمين عقده الأستاذ الفاضل محمد عبد الغني حسن في هذه المجلة بعنوان: (مدن الحضارات القديمة) ثم أجابه حضرته على كلمتنا المذكورة بعبارة رقيقة، دلت على سمو أدبه، وسعيه وراء الحقيقة أينما كانت. وقد طلب فيها أن أكتب ترجمة لجميل نخلة المدور. وما كدت أبدأ بذلك حتى وجدت
الأستاذ أحمد صفوان يعقب بنبذة على كلام الأستاذ محمد عبد الغني حسن ويؤكد فيها طلبه.
وهاأنذا ألبي طلبهما بما في مكنتي وفاءً لحق كاتب راحل، خدم الأدب والتاريخ خدمة كبيرة. وقد استعنت في كتابة هذه الترجمة بمؤلفاته نفسها، وبالمراجع المختلفة التي بحث فيها عنه والله المستعان.
3 - ترجمة جميل نخلة المدور
1 - مولده
كانت ولادة جميل في بيروت سنة 1862، ببيت عرف حينذاك بالمجد والأدب. وقد أرخ الشيخ ناصيف اليازجي. أديب زمانه وكبير كتابه، مولد جميل، ببيتين من الشعر وهما
لنخلةَ قد أتى نجلٌ جميلٌ ... كما سُميْ فسَرَّ أباً وأمَّا
دعوتُ فقلتُ بالتاريخ ينشو ... غلامٌ طابَقَ الاسمَ المسَّمى
سنة 1862
2 - والده
أما والده فهو ميخائيل بن يوسف مدور، الذي ولد في بيروت سنة 1822. ثم دخل في مدرسة عين طورا فدرس اللغتين الفرنسية والإيطالية، فضلاً عن اللغة العربية التي برع فيها. ثم أخذ يتعاطى التجارة زمناً مع أخوته. وفي سنة 1852 اقترن بالسيدة روزا بنت نقولا صالحاني، وكانت سيدة فاضلة أديبة.
ولقد توغل ميخائيل في تاريخ الغرب، وأصاب بسهم وافر من آدابهم؛ فاختير عضواً في الجمعية الآسيوية الفرنسية بباريس، والجمعية العلمية السورية ببيروت، وكان صديقاً حميما للشيخ ناصيف اليازجي. ومما يذكر له بلسان الثناء والتقدير الذي هو أهل له، أنه في الوقت الذي كانت سوق العلم كاسدة، والإقبال على نشر الكتب يكاد يكون معدوماً في البلدان الشرقية قام فطبع على نفقته في سنة 1854 مقامات اليازجي

المعروفة بـ (مجمع البحرين) كما سبق له أن طبع (مقامات الحريري) فأنشده الشيخ ناصيف قصيدة، منها هذان البيتان:

ملكت الفضل في شرع وعرف ... فليس على كمالك بعض خلف
إذا عدَّت رجال العصر يوماً ... فإنك واحد بمقام ألف

وكان عوناً على إصدار أول جريدة عربية في بيروت، وهي (حديقة الأخبار) سنة 1858 وعين ترجماناً في قنصلية فرنسا ببيروت، لأنه كان يجيد الفرنسية إجادته العربية ولبث في هذا المنصب إلى آخر أيامه.

وكانت له خدمات علمية ووطنية عديدة، لا يسعنا استيفاؤها في هذا المقام.

وقد خلف أربعة أبناء اشتهر منهم اثنان في العلم والتأليف وهما نجيب وجميل صاحب الترجمة.

3 - شيء من حياة (جميل)

عرف (جميل) منذ صغره بالنباهة والذكاء وسلامة الذوق، وأوتي قريحة وقاد لا تخبو نارها بسلاسة عبارته، وبصيرة ناقدة لا يخفي شرارها بطلاوة نوادره وحسن فكاهته، وجدّاً يستسهل المتاعب، وثباتاً يغلب المصاعب. وقد أظهر براعة كوالده في تعلم العربية والفرنسية؛ فوضع في الأولى تصانيف ومقالات عديدة كما كان له من الثانية أكبر عون على توسيع آفاق فكره، ونقل بعض المؤلفات منها إلى لغة الضاد.

ولقد نالت مؤلفاته استحساناً من رجال عصره. فكتابه (حضارة الإسلام في دار السلام) الذي يأتي الكلام عليه في مكان آخر من هذا المقال، (قدِّره وأنزلهُ منزلةٌ رفيعة كما يستحق، كل من جودت باشا وزير المعارف العثمانية، وأحمد مختار باشا الغازي المعتمد السلطاني في مصر سابقاً، وغيرهما من مشاهير الرجال. وقد كافأه عليه حينئذ السلطان عبد الحميد بجائزة مالية تنشيطاً له على خدمة العلم).

وهذا العلامة جبر ضومط، أثنى على كتاب حضارة الإسلام المذكور ثناء عاطراً، فقال فيه إنه (كتابٌ لو وُزن بالدرر لرجحها!).

وذكر المؤرخ جورجي زيدان، في معرض كلامه على ما أداه جميل المدور للغة العربية، فقال إنه (خدم آداب هذا اللسان خدمة حسنة بذكرها له التاريخ ما بقيت اللغة العربية!).

وذكر إدورد فنديك في محتويات كتاب حضارة الإسلام أنها (مفيدة من حيث لغتها وآدابها ورونقها التاريخي) وزاد على ذلك قوله: (نحث كل شاب على اقتنائها).

وانتقل جميل إلى القاهرة، وتولى في آخر حياته فيها تحرير جريدة (المؤيد) وهي إحدى كبريات الصحف المصرية فأظهر من المقدرة الصحافية حينذاك ما يشهد له بطول الباع فيها.

وكان قد نشر مقالات عديدة في مجلة (المقتطف) ومجلة (الجنان) للمعلم بطرس البستاني وأبنائه من بعده.

وهنالك مناح مختلفة من حياته لم نتحققها، لأن جميع المراجع التي بأيدينا لم تشر إليها. من ذلك هل كان قد تزوج؟ وهل خلف أبناء؟ وفي أية سنة ارتحل إلى مصر؟ وما هي الدواعي إلى ذلك؟

4 - وفاته

وقد أدركته المنية في القاهرة في 24 وقيل في 26 كانون الثاني سنة 1907، وهو في عز كهولته، إذ لم يتجاوز آنذاك من العمر السادسة والأربعين! فمات بعيداً عن وطنه وذويه، مأسوفاً عليه من عارفيه ومقدري فضله. فرحمه الله رحمة واسعة.

(البقية في العدد القادم)

كوركيس عواد

الخريف

'

لشاعر الحب والجمال (لامرتين)

أنشأ (لامرتين) هذه القصيدة في خريف عام 1819 في وقت
من أوقات التألم والقنوط، وهي حافلة بمرارة طريقة تصور
الصراع بين الميل الغريزي إبان الكابة، الذي يحبب الموت،
وبين الميل الغريزي إبان الانشراح، الذي يوحي الأسف على

الحياة!. . .
ويظهر أن الشاعر حين أنشأ هذه الأبيات كان يستذكر القصيدة المشهورة (سقوط أوراق للشاعر الفرنسي (ميلفوي
(المترجم)
سلاماً أيتها الغابات المكالة ببقية من اخضرار،
وأيتها الأوراق المصفرة فوق الأعشاب المبعثرة!
سلاماً أيتها الأيام الأخيرة الجميلة! إن حداد الطبيعة
يلائم الألم ويروق لأنظاري.
اتبعتُ بخطوة الحالم المسلك المنعزل؛
وأحب أن أرى بعدُ للمرة الأخيرة
هذه الشمس الشاحبة حيث يكاد ضوءها الضعيف
ينبعث إلى قدميَّ من خلال ظلمة الغابات.
نعم، في هذه الأيام من الخريف حيث تلفظ
الطبيعة النفس الأخير،
أجد في نظرتها المقنعة جاذبية وافرة.
إنها وداع صديق. إنها ابتسامة أخيرة
من الشفاه التي سيطبقها الموت إلى الأبد.
هذا، وأنا على أهبة مغادرة أفق الحياة،
باكياً خيبة الأمل من أيامي الطويلة،
أتلفت ثانية، وبنظرة الحاسد
أرمي هذه النعم التي لم استمتع بها.
أيتها الأرض، أيتها الشمس، أيتها الأودية،
أيتها الطبيعة الجميلة الحلوة،
إنني مدين لكِ بعَبرةٍ على حواشي رمسي.
الهواء غزير الشذى، والضياء بالغ النقاء!
تبدو الشمس فائقة الجمال أمام ناظري المحتضر!
أريد الآن أن أُفرغُ حتى الثمالة
هذه الكأس الممتزجة بالسلسبيل وبالمرارة؛
عسى أن تكون هناك قطرة من شهد باقية
في قرارة هذا الكأس التي شربت منها الحياة!
فلربما كان المستقبل محتفظاً لي بعدُ
بعودة سعادة ضاع فيها الأمل!
ولربما كانت وسط الزحام نفسٌ جهلتها
ستفهم نفسي، وستلبيني!. . .
تسقط الزهرة واهبة عطرها للنسيم،
وهكذا يكون وداعها للحياة والشمس.
إنني أموت؛ وعندما تزهق نفسي
تعبق كنغمة حزينة رخيمة.
(الإسكندرية)
محمد أسعد ولاية
الصحافة والدولة
تأليف الصحفي العالمي ويكهام اسنيد
للأستاذ زين العابدين جمعة
المحامي
(تتمة)
إن أول واجبات الصحافة هو أن تظفر بالأخبار الصحيحة عن مجريات الأمور في أقرب وقت مبكر. وأن تذيعها على الفور فتصبح وهي بين يدي الجمهور ملكا مشاعاً للأمة.
أما رجال السياسة من الوزراء وغيرهم فانهم يجمعون أخبارهم في غير علانية وبطريقة سرية ويحتفظون في حيطة مضحكة حتى بأخبار اليوم إلى أن تتغلب يقظة

الصحافة على حذر السياسة في ميدان النشر. وقوام حياة الصحافة منوط بما يتهيأ لها أن تظفر به في ميدان الإذاعة والنشر. ومهما كان شأن ما يذاع على الناس تحت لوائها فلسوف يصبح جزءاً من ثقافة زمننا وتاريخه. والصحافة وهي تؤدي رسالتها تحتكم كل يوم وإلى الأبد إلى سلطان العقول المنثورة في الرأي العام. وإذا كان لزاماً عليها أن تتعقب سير الحوادث وتسبق الزمن فتتنبأ بما سيكون من أمرها، فقد تعين عليها أن تقف عند مفترق الطريق بعين الحاضر والمستقبل وأن تبسط ميدانها ليمتد إلى أفاق العالم.

أما واجب السياسي فعلى النقيض من ذلك تماماً، إذ يحرص على أن يخفي عن عين الرأي العام المعارف التي ينظم بها أعماله ويكون منها آراءه. وهو يحتفظ برأيه في مجريات الحوادث، ويتباطأ في الإدلاء بها إلى أبعد وقت يتهيأ له لغة السياسة. وهو إذا ما رجح عقله ونبلت أغراضه يجعل نفسه على خدمة المصالح الحقيقية لبلاده، أو المصالح التي من شأنها أن تؤثر على بلاده تأثيرا مباشراً. وهو لا يخاطر فيتهور في حدسه وتصويره للمستقبل؛ وهو يركز في صفقاته جمع تلك القوى التي تحاول الصحافة أن تذيع أمرها على العالم. فواجب إحدى القوتين إذا هو أن تفصح وتتكلم، وواجب الأخرى أن تلازم وتتحرز. وإحداهما تبرر منهجها وتزكي صنيعها عن طريق التحليل والجدل، والأخرى تظفر بسلطانها بكفاية من اليقظة والعمل. وإحداهما توجه عنايتها في الغالب من أمرها إلى الحق والمصلحة، والثانية تتحدث إلى العقل وتخاطب العاطفة. والأولى تحوجها الضرورة إلى الحيطة والاحتراز. أما الثانية فمن ضروراتها أن تكون طليقة حرة.

يلخص لنا إذا من هذا التناقض بين النهجين أن ما يلقى على كل من هاتين القوتين من المسئولية هو من التنوع والاختلاف بمثل ما تنوعت أعمالهما واختلفت واجباتهما. وليس من عيب أعيب لنا معشر الصحفيين من أن ننكص على أعقابنا فلا نميط اللثام عن وجه الحقيقة لتظهر للناس بذاتها سافرة واضحة. وشأننا من الإفصاح والصدق لا يقل أثراً عما للهواء والنور من شأن في الحياة. فنحن مرتبطون بأن ندلي بالحقيقة كما نلمسها من غير أن نحسب للعواقب حساباً، وإلا ندع للظلم والاضطهاد سبيلاً ينفذان منه أو مأوى يسكننا إليه ويسلمان فيه. بل نناهضهما فور الوقت ونعرضهما على قضاء العالم. . . وإذا ما قاسم صاحب القلم العام رجل السياسة نفوذه إلى أية درجة كانت فإنه على الأقل يقاسمه من تلك الأغراض الشخصية التي تنظم شطراً كبيراً من السياسة الجارية. . . والصحفي حتى لو لم يهلل له حزب أو يظفر كفاحه بالنجاح في ما يوجهه إليه من كسب ولاء أو بسط سلطان؛ فتلك الآراء التي أذاعها ودافع عنها أو أنشأها إنشاء وابتدعها ابتداعاً - إن صح له مثل هذا التعبير - تسقط من يده في اللحظة التي يكتب لها النصر فيها حيث ينتهي أمرها بأن تأخذ مكانها بين الحقائق المقررة. والمسئولية التي يأخذ الصحفي بنصيبه منها هي في الحق قريبة الشبه بمسئولية رجل الاقتصاد أو المحاماة التي ليس من شأنه أن يخلق نظاماً يتناسب مع مقتضيات اليوم، بل شأنه أن يتقصى الحق وأن يصوغه في مبادئ ثابتة تنظم شئون الحياة.

لذلك كانت المسئولية الملقاة على عاتقنا أقل شأناً من المسئوليات التي يضطلع بها رجال السياسة؛ إذ تقدر بمقياس يختلف عن مقياس هؤلاء اختلافاً تاماً. قوامه الاستقامة والواجب. . . والصحافة مدينة بواجبها الأول للمصالح العامة التي تمثلها، ولكن شأنها في ذلك لا يختلف عما لها من شأن وتأثير في قضية الحضارة في العالم أجمع. والصحافة البريطانية - وهي تشغل الآن هذه المكانة الفريدة في نوعها وسلطانها بما يهنأها من حرية صحيحة تامة - قد تبعث بمميزاتها عبثاً محزناً إذا ما أعوزتها الفطنة لإدراك ما هو لازم للمصلحة العامة في أوربا ولقد يتفق مع أغراض الساسة أن يلقوا قناعاً على تمثال الحرية. وأن يهمسوا بشيء من ذلك الأسلوب التقليدي الاصطلاحي الذي صبغ صياغة ماكرة لتبرير أخطائهم في الشئون الأجنبية. ذلك الأسلوب الذي أملته مخاوفهم ولم تمله عقائدهم. ولكنا في سبيل ما نطمع فيه من الإصلاح وما نصبو إليه من التأييد والنجاح نترقب ذلك اليوم الذي تبعث فيه الحريات المسلوبة في أوربا من مرقدها وتظفر بنصيبها من الحياة وتهيئ نفسها إلى بلوغ المستوى الذي نأمله ونتعلق به. وعلى أية دعامة - بعد

ذلك كله - يسع ساسة إنجلترا أن يلتمسوا القوة والسيادة في وطنهم إذا ما تهددنا الضرر والأذى ما لم تكن تلك الدعامة مائلة فيما يتهيأ للشعب البريطاني من عزيمة مبصرة وحزم رشيد في الاضطلاع بالمبادئ التي ينهض على أساسها نظام حكومتنا واستقلالنا؟)

وقد لا يكون من الإسراف في التقدير أن يرى رجال الصحافة والسياسة في إنجلترا أن من واجبهم اليوم أن ينعموا النظر في أمر ذلك السؤال الأخير الذي وجهته صحيفة التيمس في عبارة حاسمة لست وثمانين سنة خلت. وما كان ليتهيأ لأشياء كثيرة في أوربا أن تسلك هذا السبيل المعوج الفاجع لو أن قادة الصحف في بريطانيا فطنوا لتلك المبادئ التي بسطتها صحيفة التيمس في ذلك الحين.

وإذ فرغت التيمس من عرض تلك المبادئ في مقالة واحدة من مقالاتها الافتتاحية فقد واصلت من اليوم التالي شرحها وتفصيلها لتبين على ضوئها حقيقة المصير الذي سبقت إليه فرنسا على يد لويس نابليون (تلك الحال التي تتفق الآن في أكثر من دلالة مع ما انتهى إليه الأمر في الشعبين الإيطالي والألماني).

وفي السابع من شهر فبراير عام 1852، كتبت التيمس ما يأتي:

إن الغايات التي يجب على الصحيفة المتعلقة بحب وطنها حقاً والمتنورة أن تجعلها قيد النظر هي - كما نعتقد - عين غايات الوزير المتنور المحب لبلاده؛ ولكن المناهج التي ينهجها الصحفي والوزير في تحقيق هذا الغايات والقيود التي يعملان تحت سلطانها تختلف اختلافاً أصيلاً واسع المدى. فالسياسي في صفوف المعارضة يتعين عليه أن يتكلم كإنسان يعد نفسه لمنصب حكومي والسياسي في المنصب الحكومي يرى من واجبه أن يتكلم كإنسان أعد للعمل والنضال. والوعود العامة والوثائق الرسمية بالإضافة له أشياء خارجة عن التمحيص والجدل، إذ هي لديه مجرد مقياس لجس النبض والظفر بالثقة والتأييد. وإذ لا يعني بتمحيص المشاكل السياسية وتحقيقها عنايته بأن يتولى قيادة الشئون العامة، فلم يعد لزاما عليه أن يتقصى الحقيقة كشيء واجب لذاته. أما الصحافة، فهي من ناحية أخرى لا تشغل منصباً معيناً، وهي تفصح عما تنصرف إليه من مراميها بوسيلة واحدة هي وسيلة المنطق والحوار والجدل. وإذ كانت غير مقيدة بما تقيدت به السلطتان الإدارية والتنفيذية من الواجبات فقد جاز لها، بل ووجب عليها أن تخطو بإرادة حرة فوق هام تلك الأبحاث التي يتهيبها رجل السياسة ولا يجترئ على لمسها. . . وإذا كان واجب الحكومة أن تعامل الحكومات الأخرى باحترام شكلي وإن خبثت عناصرها واسودت صفحات أعمالها، فقد كان من حسن حظ الصحافة أنها لم تخضع لمثل هذه القيود، وأن يتهيأ لها من الأمر - وقد اجتمع الساسة يتبادلون عبارات الود ويشربون نخب المحبة والصداقة - أن تكشف الغطاء عن لب الحقيقة من أمرهم فيبرح الخفاء، وأن تعلن عن معايب الحاكم ومقاذره وإن له سطوة الحكم وبيده عصا السلطان.

فواجب الصحفي على هذا الوضع هو عين واجب المؤرخ، كلاهما يتقصى الحقيقة ويعلو اعتبارها لديه فوق كل اعتبار. وكلاهما يبذل قصارى جهده في تحقيق ما يعرضه على قرائه. فلا يعرض عليهم ما تنصرف إليه رغبة الحكومة مهما كان شأنها ومهما عظم سلطانها، بل الحق والحق الصراح. فإذا ما حاولنا إذن أن نخضع الصحفي والسياسي لقيود واحدة ولقواعد واحدة لكان معنى ذلك أن نجمع بين المتناقضين وأن نخلط بين شيئين اختلفا اختلافاً جوهرياً. وهو من الوجهة النظرية من الخطأ وسقم الرأي كشيء لم يسمع به أصلاً وغير متوقع الحصول من الوجهة الفعلية. فالصحافة لا تطمح - كما يقول (اللورد دربي) - في أن تظفر بسلطان الرجل السياسي. ولكنها تحتفظ لنفسها بهذا الاعتبار الذي طاب (اللورد دربي) أن يزعمه لها - ليعلنها بهذا الحكم الاستبدادي الجريء الصادر عن مزاج دموي - لأمور أكثر احتراماً وأعظم تقديراً من مجرد السلطان الآمر والقوة الغاشمة. . . ومع ذلك فنحن عندما ناقشنا السياسة الفرنسية لم تبدر منا بادرة قبيحة ولم نضرب على تلك النغمة الآثمة التي صاغ بها اللورد دربي خطبته. فنحن لم نقل أصلاً إن حكومات فرنسا تعاقبت في حلقات من اختلاس المنصب واغتصاب السلطان - سواء كان من هذا النوع أو من الآخر - في الستين سنة الأخيرة. فنكون إذن قد ناقضنا أنفسنا وقذفنا جيراننا.

ونحن لو قررنا أن هذا الأسلوب من اغتصاب السلطان كان في مظهره أو نوعه نتاج الانتخاب الحر في الأمة. وأسوأ من ذلك لو أننا قررنا أن تلك السلطة غير المألوفة التي حصل عليها رئيس جمهورية فرنسا قد منحت له عن طريق ما ظهر من إجماع الرأي العام في فرنسا على اختياره. . . نقول لو أننا قررنا شيئاً من ذلك لكان في الواقع ما قررنا سبة للشرف الفرنسي ومعرة للقومية الفرنسية.

والحق أن أولئك الذين يقولون مثل تلك الأقوال أو يصدقونها يعاملون فرنسا الأبية الباسلة كما يعاملون جيشاً من العبيد فرض عليه أن يختار عاهله المخوف ليضع رأسه تحت أقدامه.

إننا لو وضعنا في المقال المتقدم اسم (موسوليني) أو (هتلر) بدلاً من (رئيس الجمهورية الفرنسية) لوجدنا أن ما قررته التيمس عام 1852 قد صار منطبقاً على تلك الحال التي انتهى إليها أمر الشعبين الإيطالي والألماني في هذا الربع الثاني من القرن العشرين. ونحن إذا قارنا بين لغة ما يتولى قيادة بلادنا من هذه الصحف اليومية العريقة في مناقشتها (للأعمال الطائشة) التي انتهت بذيوع الاستبداد في الفاشية الإيطالية والنازية الألمانية بلغة التيمس عام 1852 لما انتهت بنا المقارنة إلى ما يشرف صحافة اليوم في إنجلترا أو يطمئننا على الثقة فيها. والغالب إن لم يكن هو الوضع الدائم من أمر أصحاب صحفنا الكبرى ورؤساء تحريرها أنهم قد استحوذ عليهم شيطان نظرية دربي القائلة بأنه (إذا ساغ للصحفي أن يطمح في أن يقاسم السياسي سلطانه فعليه أن يقاسمه أيضاً نصيبا من مسئولياته) وحسبوا سرابها ماء فضلوا السبيل اللهم إلا صحيفة أو صحيفتين من كبريات صحفنا اليومية. ولو كانت هذه النظرية مما يجعل الأخذ به أو يصح قبوله لما كان للصحف البريطانية من شفيع في التمرد على ذلك الطلب الذي بسطه لها الهر هتلر في شهري فبراير ومارس من عام 1938 القائل بأنه لدوام العلاقات الطيبة بين الحكومتين النازية والبريطانية يلزم الأخيرة أن تبسط سلطانها على الصحافة البريطانية فتمنعها من نشر الأخبار أو الآراء التي لا يرغب فيها عاهل ألمانيا. ولقد كان بوسع الصحافة البريطانية على العموم أن تنزل منزلاً كريماً وتشغل مركزاً متيناً يتهيأ لها فيهما أن تتأبى في عزة وأنفة قبول مثل هذه المقترحات التي انطوى عليها طلب الهر هتلر، وترفضها بالاحتقار اللائق بها لو لم تكن قد ضحت بحريتها في سبيل ذلك المنطق السقيم الذي أشرك الصحفي في مسئولية رجل السياسة.

إن واجب الصحافة الأول لينصرف نحو الشعب ونحو الشعب فقط، لا إلى أي وزير أو أية حكومة قد يتهيأ لها أن تشغل المنصب لوقت محدود. وهي لو فكرت أو عملت على خلاف مقتضى هذا الواجب لساقها ذلك إلى أن تقف في مفترق الطرق حيث تنحدر من أوج الاستقلال والحرية إلى الحضيض من الاستعباد الدكتاتوري.

إن ما أصبحنا نواجهه من شأن حيوي يتهدده الخطر، هو من صميم الفارق المميز بين النظر الحر والنظر الاستبدادي في الحياة السياسية. والمميز بين الحرية الشخصية المهيبة الجانب، التي ينعم بها أعضاء مجتمع حر ينظرون إلى (الدولة) باعتبارها مجموعاً كلياً للوظائف الإدارية العامة التي يوفدون لها الوزراء ويهيئون لها الإدارات التنفيذية - وما يراه النظر الاستبدادي الفاشي أو النازي في الدولة باعتبارها (قوة مطلقة) وغاية في نفسها ووكالة شبه مقدسة تنعم بها الحكومة التي يخضع، بل يجب أن يخضع لها المجتمع بجميع أعضائه وأفراده. وما إن تقبل وجهة النظر الاستبدادي في أمة من الأمم - حتى ولو كان هذا القبول على سبيل اللهو أو العبث - إلا واستتبع ذلك حتما أن تسترق الصحف استرقاقاً كلياً أو جزئياً، وعلى النقيض منذ لك يتوفر الضمان الوحيد الأكيد لحرية الصحافة متى نبذت النظر الاستبدادي في كلياته وجزئياته، ومتى عملت على تدعيم سلطان الشعب وجعل الأمة مصدر السلطات جميعا بحيث يعلو شأنها على كل اعتبار بين المواطنين الأحرار الذين يسعهم، وقد توافرت لهم المعرفة التامة بما جريات الأمور على يد صحافة رشيدة غير هيابة، أن يكون نصيبهم من الكفاية المرنة أوفر حظاً مما يحصلون عليه تحت لواء أية حكومة استبدادية مهما تهيأ لها من إطلاق اليد ونفوذ السلطان. وقد يخلص لنا ونحن نأسف له ونتوجع عليه أن رجال الصحافة والسياسة في بريطانيا هم على السواء بحاجة إلى أن يتعلموا مبادئ

الفلسفة السياسية.
زين العابدين جمعة
المصريون المحدثون - 12
شمائلهم وعاداتهم
في النصف الأول من القرن التاسع عشر
تأليف المستشرق الإنجليزي ادورد وليم لين
للأستاذ عدلي طاهر نور
الحكومة - تابع الفصل الرابع
جرت العادة إلى وقت قريب أن يدفع الرسوم من يكسب القضية. أما الآن فيدفعها الطرف الآخر. والرسوم القضائية في قضايا بيع الأموال تكون 2 % من مجموع الأملاك، وفي قضايا الوصايا 4 %، إلا إذا كان الوارث قاصرا فيدفع 2 % أما القضاء في المسائل المتعلقة بملكية العقار فيكون رسمه 2 % إذا كانت قيمة العقار معلومة وإلا فيكون إيجار سنة. هذه هي الرسوم الشرعية؛ ولكن كثيراً ما يلزم المتقاضي بأكثر من القدر الواجب. ويحدد نائب القاضي مقدار الرسوم في غير الأحوال المتعلقة بالملكية. وهناك رسوم أخرى غير الرسوم القضائية يجب دفعها بعد الحكم. مثلاً، إذا كان الرسم القضائي مائتين أو ثلاثمائة قرش، وجب دفع قرشين تقريباً إلى الباشترجمان؛ ومثلهما للباش رسول وقرش للرسول أو لكل رسول قام بعمل.
وكثيراً ما تؤثر مكانة المتقاضين أو الرشوة في حكم القاضي. ويُرتشي النائب والمفتي على العموم، ثم يتناول القاضي نصيبه من النائب. وقد يحكم في القضية لصالح الطرف الذي يدفع أكثر من الآخر - وعلى الأخص - عندما تطول الخصومة. فصرامة العدل لا تتحقق دائماً لاستخدام المتقاضين الرشوة. والشهادة الزور. وقد يصب الوثوق بالمدى الهائل الذي وصلت إليه عادة الرشوة وشراء شهود الزور في المحاكم الإسلامية، وقد يقتضي ذلك أدلة قوية تستند إلى سلطة لا ريب فيها. وهاأنذا أورد مثل هذا الدليل بتلخيص دعوى نظرت من زمن غير بعيد قصها عليّ ناموس الشيخ المهدي وإمامه، وكان حينئذ مفتي القاهرة الأعلى (لكونه المفتي الأكبر لمذهب الحنفية)، وكانت الدعوى قد عرضت عليه بعد أن أصدر القاضي حكمه فيها.
توفى تاجر من تجار القاهرة عن أملاك قدرها ستة آلاف كيس، ولم يكن له وارث غير بنت واحدة. فلما سمع السيد محمد المحروقي الشاه بندر بهذا الحادث رشا فلاحاً عادياً كان بواباً لشيخ محترم وكان الناس يعرفون عائلته، ليدعي أنه ابن أخ المتوفى، ورفع الأمر إلى القضاء. ولما كانت الدعوى ذات أهمية عظيمة استدعى بعض أكابر علماء المدينة ليحكموا فيها. وكانوا جميعاً محل رشوة المحروقي أو تأثيره كما سيبين الآن. وأتى بشهود زور ليشهدوا بصدق ادعاء البواب، وبآخرين ليزكوا هؤلاء الشهود. فقضى القاضي بثلاثة آلاف كيس لابنة المتوفى، وبالنصف الآخر للبواب؛ وتناول المحروقي المبلغ المحكوم به بعد أن خصم منه ثلاثمائة قرش أعطاها البواب.
وكان المفتي الأكبر الشيخ المهدي غائباً عن القاهرة أثناء نظر الدعوى. فلما عاد بعد أيام توجهت ابنة التاجر المتوفى إلى منزله وقصت عليه أمرها متوصلة إليه أن ينصفها ومع أن المفتي اقتنع بما أصابها من جور ولم يشك في صدق ما نسبته إلى المحروقي في هذه القضية، فقد أخبرها أنه لا يستطيع نقض الحكم إذا لم يجد مخالفة في إجراءات الدعوى، وأنه سيطلع على الدعوى في سجل المحكمة. ثم أسرع إلى الباشا الذي كان للمفتي عنده حظوة كبيرة لعلمه واستقامته، وشكا إليه أن المحكمة قد أسقطت حرمتها بإفراطها في الظلم، وأن العلماء يقبلون شهادة الزور مهما كان أمرها واضحاً ساطعاً، وأنهم أصدروا أخيراً حكما أثناء غيابه أثار لغط المدينة وعجبها. فاستدعي الباشا القاضي وجميع العلماء الذين قضوا في الدعوى لمقابلة المفتي في القلعة. ولما اجتمعوا خاطبهم في شكوى المفتي كما لو كان الأمر صادراً منه. فظهر السخط عيهم لهذه التهمة وطلب القاضي أن يعرف علام تستند هذه التهمة. فأجابه الباشا إلى قرائن عامة، ولكنها تستند خاصة على القضية التي سلمت فيها المحكمة بادعاء بواب قرابة ووراثة لا يمكن الاعتقاد بحقه فيها. فأبان القاضي أنه أصدر الحكم تبعاً لإجماع العلماء الحاضرين حينئذ. فقال الباشا لنقرأ محضر الدعوى؛ فأتوا بالمحضر،

فلما فرغوا من تلاوته قال القاضي بصوت جهوري ولهجة صلفة (وهكذا حكمت!) فصاح المفتي بصوت أعلى وأكثر سلطة (وكان حكمك زوراً) فشخصت الأنظار دهشة، آنا إلى المفتي، وآنا إلى الباشا، وآنا آخر إلى العلماء. وأدار القاضي والعلماء رؤوسهم، وأخذوا يعبثون بلحاهم؛ ثم صاح القاضي ضارباً صدره بيده: (أنا قاضي مصر أصدر حكماً زوراً؟) وصاح العلماء: (ونحن! نحن يا شيخ مهدي! نحن علماء الإسلام نقضي قضاء زوراً؟)، وقال المحروقي، وقد كان يحضر مجالس الباشا لما بينهما من معاملات تجارية، (يا شيخ مهدي احترم العلماء كما يحترمونك) فصاح المفتي (يا محروقي! هل لك شيء في هذا الأمر؟ صرح بنصيبك فيه وإلا فالزم السكوت. اذهب وتحدث في مجتمعات التجار ولا تسمح لنفسك مرة أخرى أن تنبس ببنت شفة في مجلس العلماء) فترك المحروقي القصر في الحال لأنه أدرك كيف ينتهي الأمر، وأن عليه أن يرتب أموره. وطالب العلماء المفتي بالدليل على بطلان قرارهم. فسحب المفتي من صدر قفطانه كتيباً في أحكام المواريث وقرأ عليهم: (لإثبات دعوى القرابة والوراثة يجب التحقق من اسم أبي المدعي وأمه وجده لأبيه ولأمه وجدته لأبيه ولأمه) ولم يكن شهود الزور معدين لإعطاء هذا البيان فكان هذا نقصاً في الشهادة ينقض الحكم. وجئ بالبواب أمام المجلس ولما أنكر القرية التي جعلوه محورها أمر الباشا أن يجلد بشدة؛ ولكن على الرغم من التعذيب الذي احتمله، لم يعترف إلا بأنه لم يتناول من الثلاثة آلاف كيس غير ثلاثمائة قرش. وفي أثناء ذلك ذهب المحروقي إلى سيد البواب وأخبره بما حدث في القلعة وما ينتظر ووضع بين يديه ثلاثة آلاف كيس ورجاء أن يذهب حالاً إلى المجلس ويسلم هذا المبلغ قائلاً أنه كان أمانة عنده من خادمه. وقد تم ذلك وأعيدت النقود إلى ابنة المتوفى.

وفي قضية أخرى سلط فيها باشا من الباشاوات (غير محمد علي) نفوذه على القاضي ومجلس العلماء حتى أصدروا حكماً مخالفاً للشريعة فعارضهم الشيخ المهدي بالطريقة نفسها. وهذا المفتي مثل نادر في النزاهة والاستقامة. وقد قال إنه لم يتناول على فتاويه أجراً. وقد توفى هذا الشيخ بعيد زيارتي الأولى لمصر. ويمكنني أن أسرد حوادث أخرى على ذيوع الرشوة في القضاء ولكن ما قدمته يكفي.

في القاهرة خمس محاكم دنيا. وفي بولاق ميناء القاهرة الرئيسي، محكمة؛ وفي مصر العتيقة، مينائها الجنوبي، محكمة أخرى. ويرأس كل محكمة من هذه المحاكم الصغيرة شاهد من المحكمة الكبرى نائباً عن كبير القضاة الذي يصادق على تصرفاته. وتحال على هذه المحاكم القضايا المتعلقة ببيع الأموال والوصايا والزواج والطلاق. فالقاضي يزوج اليتيمات

القاصرات اللاتي ليس لهن أقارب بلغ يتولون الوصاية. والنساء كثيراً ما يلجأن إلى أحكام الشريعة لإجبار أزواجهن على الطلاق. ويوجد أيضاً في كل مدينة من مدن الريف قاض يكون على العموم من أهل البلد ولا يكون أبداً تركياً. وهو يقضي في جميع القضايا، أحياناً في حدود معرفته للشريعة، وعادة طبقاً لفتاوى المفتي. ويقوم القاضي في أكثر من قرية.

ولكل مذهب من المذاهب الأربعة (شيخ) أي رئيس ديني يختار من أعلم علماء المذهب، ويقيم بالقاهرة. ويؤلف شيخ الجامع الأزهر، وهو شافعي المذهب دائماً مع شيوخ المذاهب الأربعة والقاضي ونقيب الأشراف وغيرهم كثيرين مجلس العلماء الذي كان يثير الرهبة والاحترام في نفوس الحكام الترك والمماليك ويحد من طغيانهم؛ وقد فقدت الآن هذه الهيئة نفوذها على الحكومة إلا قليلاً. ويتحاكم الطرفان المتنازعان في الخصومات التافهة أمام شيوخ المذاهب غالباً، إذ أن كلا من هؤلاء هو مفتي مذهبه الأكبر، ومحل الاحترام العظيم والامتثال التام. كما أن الباشا كثيراً ما يعرض على هؤلاء الشيوخ القضايا الصعبة الخاصة بأحكام القرآن والسنة. ولكنه لا يرى دائماً رأيهم، مثل استشارته إياهم في شرعية التشريح للعلم، فلما أعلنوا أن التشريح يتنافى وأحكام الدين، قرر ممارسته لطلبة الطب المسلمين.

ويخضع حرس العاصمة للقيادة العسكرية أكثر من خضوعه للسلطة المدنية. وقد كان من سنوات قليلة تحت رياسة الوالي والضابط. إلا أنه منذ زيارتي الأولى لمصر ألغيت سيادة الأول. وكان واجب الرئيس أن يقبض على اللصوص وغيرهم من المجرمين. وكانت المومسات تحت ولايته. وكانت عنده قائمة بعددهن. وكان يفرض عليهن ضريبة.

وكان يشرف أيضاً على سيرة النساء على العموم ويضيف من تتهم بفاحشة واحدة إلى قائمة المومسات وتفرض عليها الضريبة إلا إذا فضلت أن تتفادى هذا العار برشوة ذات اعتبار. وكان النظام المطرد، ولا زال، أن يلتزم شخص بجباية الضريبة من المومسات العازبات والمتزوجات على العموم. ولكن أولئك الأخريات قد يقتلن إذا لم يستطعن الخلاص بالرشوة أو بحيلة أخرى. ومثل هذه الإجراءات مع ذلك تخالف القانون من ناحيتين. فنص القانون أن كل من يتهم امرأة بالزنا أو ارتكاب الفاحشة دون أن يقدم أربعة شهود على الجريمة يجلد ثمانين جلدة. وينص على عقوبات أخرى غير فقد الاعتبار والغرامة توقع على من حكم عليها.

(يتبع)

عدلي طاهر نور

الشاطئ والحرب

ليالي الزورق

أيُّها الشاطئ قدْ طال بنا ... أمدُ البعدِ ولمَّا نلتقي
أينَ أيامٌ قضيناها هُنا ... مُشرقاتٍ من سناكَ المشرق
أتعودينَ معَ الصفوِ لَنا ... ضاحكاتِ يا ليالي الزورَق
نُبْصِرُ الدنيا على نورِ الهوى
أَيْنَعَتْ فيها الأماني من جديدْ
أمْ تولى كلُّ شيء وانطوَى
ذلك الماضي على ألاّ يَعُودْ
أينَ يا شاطئ أحبابي ومَن ... كنَّ للعينينِ أنْساً وسَنا
كم أتيناكَ بقلبٍ مُطْمَئِنْ ... وَمَرحنا في ظلالٍ مِن مُنى
أيُّنا أرْهَفَ أُذْناً للرَّمَنْ ... أيُّنا مَلَّ التلاقي أيُّنا
أناَ يا شاطئُ ظَمْآنُ إلى ... رقصاتِ الموجِ في ضوءِ القَمَرْ
ما سَلَتْ عيني ولا القلبُ سَلا ... أمسياتٍ حالياتٍ وَذِكَرْ
شدَّ ما ألْقاهُ من دهري ألاَ ... ترجِعُ الأيام تُحيِي ما غَيَرْ
ونرى الدُّنيا على نورِ الهوى
أينعت فيها الأماني من جديد
أمْ تولى كل شيءِ وانطوى
ذلك الماضي على ألا يعود
طالَ يا شاطئُ قد طالَ بنا ... أمد البعد ولما نلتقي
أين أيام قضيناها هنا ... مشرقات من سناك المُشرق
أتعودين مع الصفو لنا ... ضاحكات يا ليالي الزورق

(الإسكندرية)

مصطفى علي عبد الرحمن

الكأس الأولى. . .

!!هَذِهِ كأسِي وَمَا أَعْجَبَ كأسِي
طفَرَتْ بِي مِنْ جَوَى يَوْمِي وَأَمْسِي
وَجَلَتْ عَالَمَ أَفْرَاحي وَأُنسِي
!أناَ أَفْدِيهاَ بِأنفاَسِي وَنَفْسِي
كُلَّماَ قَبَّلْتُ فاَهَا ... أَغْرَقَتْ نَفْسِي صَدَاهَا
في عُبابٍ مِنْ سَنَاهَا ... شَعَّ مِنْ بَدْرٍ وَشَمْسِ
هِيَ في كَفِّي وَرُوحي وَنَشِيدِي
نَبْأَةٌ باَحَ بهاَ سِرُّ الوُجُودِ
عُصِرَتْ في سَجْوَةِ الدَّهْرِ الْبَعِيدِ
!مِنْ شِفاَهِ الغِيدِ أو وَرْدِ الْخُدُودِ
رَفْرَفَتْ قَلْبِي المُعَنَّى ... فَصَبَا القَلْبُ وَحَنَّا
وَتَغَنَّى وَتَمَنَّى ... مَاضِيَ الْحُبِّ السَّعِيد
أَشُعَاعٌ في يَدِي أم قَطَرَاتُ؟
وَشَرَابٌ في فَمِي أم جَمَرَاتُ؟

وَلهيبٌ في دَمِي أم نَزَوَاتُ؟
تِلْكَ كأْسُ الخَمْرِ بَلْ تِلْكَ الحَيَاةُ!
هِيَ وَالسَّاقِي لَدَيَّا ... كلَّمَا أَوْفَى عَلَيَّا
مَاسَ بِالكَأسِ وَحَيَّا ... سَكْرَةٌ بَلْ سَكَرَاتُ؟
أنا ظَمْآنُ وَكأسِي في فَمِي
أَتَغَنَّى بِالرُّضَابِ الشَّبَمِ
إنَّهُ رِيٌّ لِقَلبِي وَدَمِي
هَاتِهِ وَاعْطِفْ عَلَى كلِّ ظمِ
بِكؤوسِ الْبَاقِيَاتِ ... أَنْتَ حَسْبِي مِنْ حَيَاتي
هَاتِ مِمْ حُسْنِكَ هَاتِ ... لِفُؤَادِي المُلْهَم
أَنْتِ وَالْبَدْرُ وَآفاقُ الْفَضَاءِ
وَالْهَوَى وَالشِّعْرُ في ظِلِّ الْمَسَاءِ
وَمُحَيَّاكَ وَكأسِي وَصَفائي
فِتَنٌ دَانَتْ خَيَالَ الشُّعَرَاءِ
كأسِيَ الأُولَى أعِيدِي ... رَجْعَ أَحْلاَمِي وَعِيدِي
وَصِلِينِي بِالْخُلُودِ ... وَبِأَسْبَابِ السَّمَاءِ!
(كوم النور)
أحمد أحمد العجمي
البريد الأدبي
طاغور في اللغة العربية
بعد أن نال الهندي الفيلسوف السر (رابندرانات طاغور) جائزة نوبل للآداب، وهو الشرقي الوحيد الذي نالها، اشتهر اسمه في الخافقين؛ فترجمت أكثر دواوينه وقصصه إلى سائر اللغات الحية، وكان نصيب العربية منها غير قليل. وهذا الذي ترجم عنه يفوق ما ترجم عن أديب آخر غريب عن اللغة العربية. وها نحن نذكر لك ما وقع بأيدينا من مؤلفاته مترجماً: (البيت والعالم) قصة ترجمها الأستاذ طانيوس عبده. (البستاني) ديوان شعر، ترجمة الأديب اللبناني وديع البستاني نظماً ونثراً. (الضحية وروايات وأبحاث أخرى) ترجمها صاحب (العصور) الأستاذ إسماعيل مظهر. (خالتي وقصص أخرى)، و (وكيل البريد وقصص أخرى) ترجمها الأديب الشاعر عبد اللطيف النشار؛ وترجم الأستاذ عبد المسيح وزير كتاب (الزورق الذهبي) ونشر بعض قطعه. وترجم الأستاذ كامل محمود حبيب أناشيد طاغور الخالدة (جيتا تجالي) التي نال بها الجائزة العالمية، ونشرها في السنة السادسة من هذه المجلة الزاهرة؛ وترجم هو أيضاً أحد دواوينه (البستاني) نثراً، ونشره أخيراً في مجلة المقتطف الغراء؛ وهناك رسالة عن حياته ومختارات من مؤلفاته، كتبها الأستاذ محيي الدين الخطيب. . . هذا عدا ما ترجم ونشر في صحف ومجلات الدنيا العربية، قبل وفاة شاعرنا الفيلسوف وبعدها وهو كثير.
(بغداد - الكرخ)
محمود العبطة
الإصلاح الاجتماعي والتعليم
نشرت السيدة منيرة ثابت مقالاً في أهرام 26 أكتوبر الماضي عن الإصلاح الاجتماعي والتعليم ذكرت فيه أنها ليست في حاجة لأن تذهب إلى الريف لترى وتلمس ما فيه من شقاء؛ لأنها ترى في القاهرة نفسها ما يدعى الأكباد. فهؤلاء تلاميذ يريدون الالتحاق ببعض المدارس الأولية والإلزامية (وهي من أحط أنواع التعليم في طريقتها العلمية والاجتماعية) فتسد في وجوههم الأبواب لأسباب واعية. ثم اقترحت على الوزارة إغلاق هذه المدارس
وتعميم التعليم الابتدائي وجعله مجانياً، واستلت على تأخرنا بمجانية التعليم بجميع أنواعه في العراق.
ومن يقرأ هذا المقال يعتقد أن السيدة الكاتبة. لم تدرس مشكلة التعليم عندنا؛ لأنه لا يوجد في القاهرة ولا في أي بلد من بلاد الدولة مدرسة أولية أو إلزامية تسد بابها في وجوه التلاميذ لأسباب واهية أو غير واهية. والمشاهد أن المدارس تشكو من عدم إقبال التلاميذ عليها حتى اضطرت الوزارة أخيراً إلى تنفيذ قانون الإلزام، وتقديم الذين

يمنعون أولادهم إلى المحاكمة. وفي كل مدرسة سجل خاص مستخرج من دفاتر الصحة بأسماء التلاميذ الذين بلغوا سن التعليم في منطقتها. والمدرسة هي التي تتولى طلب التلاميذ للتعليم، كما تتولى إدارة القرعة طلب الشبان للتجنيد. وإذا كانت السيدة الكاتبة في شك من هذا فأنا زعيم لها بإلحاق من تريد من التلاميذ - مهما بلغ عددهم - بالمدارس التي يرغبون الالتحاق بها.

ولا ريب في أنها جاوزت الحق حين ذكرت أن التعليم في المدارس الأولية والإلزامية من أحط أنواع التعليم: إذ ليس من المعقول أن تهون المدارس الأولية لأنها تعلم الأطفال أو يهون معلموها لأنهم يضعون الحجر الأول في بناء العقول، وعلماء التربية يرون أن مرحلة الطفولة من أهم مراحل التعليم، لا من أحطها كما ذكرت الكاتبة. على أن القائمين بالتعليم في مدارسنا الأولية والإلزامية من الرجال الذين تخصصوا في هذه المهمة. وطريقتهم تساير أحدث مبادئ التربية الفنية. ولا يدانيهم فيها غيرهم مهما بلغ شأنهم.

أما تعميم التعليم فلا سبيل إليه، لأن الوزارة لم تستطع تعميم التعليم الأولي إلا بعد عشرين سنة، وعلى أساس نصف يوم، ولو جعلته يوما كاملاً لاحتاجت إلى سبعة آلاف مدرسة وثلاثين ألف معلم، غير الموجود عندها.

فكيف تستطيع إذاً تعميم التعليم الابتدائي في الدولة كلها؟ ومن أين لها الرجال والمال؟

أما مجانية التعليم بأنواعه في العراق فسرها عدم الإقبال عليه وقد كان هذا حالنا في الجاهلية الأولى!

ويلوح لي بعد هذا أن اعتكاف السيدة الكاتبة في برجها العاجي الذي ذكرته في مقالها قد حجب عنها الكثير من الحقائق التي يعرفها عامة الناس.

أما المشكلة الحقيقية فليست في عدم قبول التلاميذ في المدارس الإلزامية، وإنما هي في إطعام الفقراء منهم وكسوتهم، ومعالجة مرضاهم، فإذا استطاعت الوزارة تدبير حل لهذه المشكلة، فقد خطت في سبيل الإصلاح الاجتماعي خطوة موفقة.

(المنصورة)

علي عبد الله

العروبة في السودان:

سيدي. . .

قد سررنا وايم الله أن يكون الدكتور مبارك أحد المشتركين بكلمة في المهرجان الدبي بأم درمان - بل بدرس قيم في توحيد أواصر العروبة المتفرقة شيما وأحزاباً - فإن كلمته التي بعنوان (في الطريق إلى الوحدة العربية) قد كانت حديث المجالس الأدبية في كل ناد. . . وهنا قلما تجد شاباً متعلماً لا يقرأ (الرسالة) بنظام ويلم بما فيها من بحوث قيمة وكلمات جيدة وشعر رصين. . .

ثم إن الذي حدا بي لكتابة هذه الكلمة هو أن برسالته ما يلفت النظر: فإن السامع لها أو القارئ يشتم منها أن الأستاذ يعتقد أن العروبة في السودان لغة لا جنس. وللإيضاح ووضع الأمور في نصابها نقول: إن بالسودان أكثر من النصف من العرب العريقين في عروبتهم سواء في الجنس أو اللغة أو الدين؛ بل فيهم عدد هائل يتحدث بالعربية اليوم - وهم أميون - كما كان يتحدث بها العرب منذ قرون، ويعيشون على نمط معيشة العرب منذ أجيال. من هذا النوع القبائل الآتية: الكداهلة، الكبابيش، الشنابلة، الحمر، الرزيقات:

ولا يستطيع الدكتور أن يكتب عن السودان بصدق إلا بعد ما يزوره ويتحدث هنا في (كردفان) مع عربانه، فحينذاك يمكنه أن يضع السودان في المحل اللائق به في مركب العروبة.

أما كيف كان بالسودان أكثر من النصف من العرب الصرف وكيف نزحوا إلى السودان، ومتى كان ذلك؛ فإذا شاء الدكتور علم ذلك، فسيراه بجريدة (النيل) الغراء بقلم أحد الأدباء.

وله ولصديق السودان (الزيات) مني ومن كل سوداني سلام

(الأبيض - سودان)

الفاتح النور

العدد 437 - بتاريخ: 17 - 11 - 1941
أدب اليوميات
للأستاذ عباس محمود العقاد
هل تكتبون مذكرات يومية، أو هل في نيتكم كتابة مذكرات أو تدوين ترجمة . . .(1) لحياتكم الحافلة كما يفعل كتاب الغرب؟ وهل لا توافقونني على أن كتاباً كهذا تصفون فيه ما صادفكم من عقبات وما تغلبتم عليه من الصعوبات، وتقصون فيه ما لا يعرفه الكثيرون عن حياتكم الشخصية والأدبية والسياسية يكون درساً مفيداً لشبان هذا الجيل والأجيال المقبلة؟
هل معنى عدم إقدامكم على الزواج إلى الآن أن الحياة الزوجية تقيد رجل الفكر (2) أو تشغله عن أداء رسالته، أم أنكم لم تهتدوا إلى المرأة التي ترونها المثل الأعلى المفكر؟
لكل إنسان أماني وآمال ومطالب، ومطالب من عاش لا تنتهي. . . وهي تختلف (3) باختلاف الأحوال والأيام؛ ولكن ترى ما هي أعظم أمنية تتوقون إليها في الحياة؟
(الإسكندرية)
أحمد عبد اللطيف الحضراوي
بالمعهد البريطاني
هذه فقرات من رسالة وصلت إلي من الأديب صاحب الإمضاء المتقدم، وفي الجواب عن بعض أسئلته ما يصح أن يشترك فيه حضرات القراء، لأنه من موضوعات الكتابة العامة التي تطرق في الكتب والمجلات
وأول هذه الأسئلة سؤاله عن المذكرات اليومية وما أدونه منها الآن أو بعد حين وجوابي عن هذا السؤال أنني بدأت حياتي الأدبية - منذ الدراسة الأولى - بكتابة المذكرات والتعليقات على ما أطالع وأشاهد في كل يوم، وإنني لم أنقطع عن هذه المذكرات إلا في السنوات الأخيرة التي لا تتجاوز خمس سنوات
فأول كتاب صدر لي هو (خلاصة اليومية) واسمه يدل عليه. فقد كان تلخيصاً لما أثبته في مذكراتي اليومية من الآراء والملاحظات والأصول التي أتناولها بالتوسع إذا خصصتها بالكتابة
ثم ألفت كتابي (ساعات بين الكتب) وهو غير الكتاب الذي طبع بعد ذلك بهذا العنوان. فإنما كان الكتاب الأول تعليقات القراءات التي تفرغت لها وأنا مقيم في أيام الحرب الماضية بأسوان، ولم يكن مجموعة مقالات أو فصول نشرت في الصحف كالكتاب الذي يحمل الآن هذا العنوان
لكن المذكرات اليومية نوعان وليست بنوع واحد؛ فهذا الذي ذكرته مقصور على الفكر والقراءة كأنه فصول صغيرة أو موضوع متفرق في عدة صفحات، وهو النوع الذي أكثرت من الكتابة فيه، وعندي منه الآن مجموعة صالحة في انتظار الطبع كما هي، أو في انتظار التوحيد والتأليف، لأنها تصلح لهذا وذاك
أما النوع الآخر وهو المذكرات عن حوادث الحياة وعوارضها فلم اشرع في الكتابة فيه إلا مرة واحدة طالت بضعة شهور، ثم مزقت ما كتبت وأحرقته ولم أعد إلى تجربة الكتابة في هذا النوع مرة أخرى، ولعلي لا أعود
ولكني لا أحكم على أدب اليوميات كله بالتمزيق والإحراق من أجل أنني اضطررت إلى تمزيق ما كتبت وإحراقه؛ لأن أسبابي غير أسباب الآخرين، وموانعي غير موانعهم، والمحظورات التي أتقيها غير المحظورات التي يتقونها
فالواقع أنني من أرغب الناس في قراءة اليوميات والانتفاع بها، وهي في اعتقادي أنفع القراءات للمؤرخ والمستطلع لأحوال الأمم وسرائر النفوس، ولاسيما المكتوب منها بخلوص نية لا يشوبها التكلف والرياء، ومعظم كتاب اليوميات ممن يتوخون خلوص النية وصدق الرواية عندما يخلون إلى صفحاتهم الخفية، لأن المسألة عندهم (ظاهرة نفسية) أشبه بالتوجه إلى محراب الاعتراف وكأنهم يخففون أعباء ضمائرهم بإلقائها عنهم في صفحات مسجلة يرجعون إليها ويؤمنون بصدقها وأمانتها، كما يخفف الإنسان أعباء ضميره بالإفضاء إلى صديق أمين؛ فهم مسوقون إلى صدق الكتابة بهذا الشعور العجيب الذي لا يستريح إلى غير الأمانة، وفي هذه الراحة ضمان للقارئ أو ضمان للحقيقة أقوى من ضمان المحاسبة والبينات

ولليوميات أدب مستفيض في اللغات الأوربية عامة وفي مقدمتها اللغة الإنجليزية، وهذا الأدب موضع دراسة المؤرخ والناقد النفساني، والفيلسوف، والباحث العلمي، وكل من تعنيه سير الجماعات والأفراد؛ يشتركون في دراسته وبحثه تارة لبيان الأسباب التي تدعو الناس في فترة خاصة من الزمن إلى تدوين مذكراتهم والعكوف على أسرار ضمائرهم بمعزل عن الجماهير وشوا غلهم العلنية، وتارة لتحقيق الوقائع واستكشاف دخائل الرجال، ويأتون في جميع هذه التعليلات والتخريجات بما يلذ الوقوف عليه ويفيد!

وما من كاتب يوميات في الحقيقة إلا وهو ظاهرة نفسية كثيرة البدوات والغرائب، كثيرة الجوانب التي تتعلق بها مباحث النفسانيين والحكماء. وقد أشرت إلى طرف من ذلك في مقدمتي للجزء الثالث من مذكرات أحمد شفيق باشا رحمه الله حيث قلت عن يوميات صمويل بيبيز أنها موضع الحيرة عند بعض النقاد، (فلا هم قادرون على أن يجزموا بأنه كتبها لنفسه، لأن الإنسان لا يكتب كل هذه المجلدات وكل هذه الحوادث ليطلع عليها وحده، ولا هم قادرون على الجزم بأنه كتبها للأجيال المقبلة، لأنه كشف فيها أسراراً عن سيرته وسيرة أقربائه، كان معروفاً انه يخفيها اشد الإخفاء ويود لو يتعقبها بالمحو والنسيان)

ثم ضربت لذلك أمثلة شتى منها أن مسألة من المسائل البيتية كدرته فأتلف جميع أوراقها وأسانيدها ثم عاد إلى مذكراته فدون فيها جميع تلك الأوراق والأسانيد بأقصى ما استطاع من إسهاب وتفصيل!

هذا هو العجب، وهذا هو موضع التأمل والدراسة، وهذا الذي يجعل اليوميات مرجعاً صادقاً لدارس الحوادث ودارس الأخلاق.

فآنا لا أدين أدب اليوميات كله لأنني احترقت يومياتي ولم يخطر لي أن أعيد التجربة مرة أخرى

وإنما يباعد بيني وبين كتابة اليوميات أمران كلاهما حقيق بالإثبات لأنهما أيضاً من ظواهر النفسيات وظواهر الفترة التي عشت فيها

وأول الأمرين إنني غير مطبوع على التوجه إلى محراب الأعتراف، لأنه ضرب من الاستغفار لا أستريح إليه، أو لأنني ادخر لنفسي خفاياها وأنزها عن البوح لأحد غير مستثن من ذلك إلا القليل

فالمسألة التي تلعج خاطري وتثير شعوري وتتسرب إلى أعماق ضميري ليس مصرفها عندي أن أسجلها كما هي أو أفضى بها إلى أذن سامع قريب، وإنما مصرفها أن اعبر عنها

في الشعر والكتابة، وأن أعرضها للتحليل والتقليب على وجوه شتى. فإذا حللتها واستخرجت معناها فقد استرحت منها وفتحت مغالقها ولم يبق فيها عندي موضع للمعالجة والاستقصاء

ورب كارثة نفسية من المقيمات المعقدات تسكن كما يسكن البحر الهائج في لحظة واحدة ساعة انتهائي إلى مقطع الرأي فيها، أو ساعة علمي بما ينبغي أن أقابلها به من عمل. وهذا الذي ينوب في طبيعتي مناب الإفضاء والبوح وما أسميه التوجه إلى محراب الاعتراف

أما الأمر الثاني الذي دعاني إلى إحراق يومياتي فهو راجع إلى حوادث الفترة التي نعيش فيها لا إلى البواعث الخلقية

وخلاصة إنني دونت تلك اليوميات لأستعين بها على تاريخ الفترة وتحليل أخلاق رجالها.

ثم رأيت في أثناء الثورة الوطنية وبعدها بقليل أن ملفقي التهم ومدبري المكائد يستعينون بأمثال هذه اليوميات على طبخ القضايا وإحراج الأبرياء، وظهر لي أن إثبات ملاحظاتي على رجال الفترة من العسر بمكان مع تعرض اليوميات للمصادرة والسؤال، فآثرت إحراقها أيام اشتداد المحكمات والمصادرات وأحرقت معها رسائل شتى وصوراً وأوراقاً لها في حياتي الخاصة اثر لا يزول، وفاتني بإحراق هذه وتلك نفع كبير في مراجعة الحوادث التاريخية وصيانة الذكريات النفيسة، ولكنه اقل من الضرر الذي كنت متعرضاً له ومعرضاً له غيري لو أبقيت عليها وحدث ما كنت أتوقعه بسبيلها على أنني ودعت كتابة اليوميات ولكني لم أودع كتابة المذكرات أو كتابة ما يقول عنه الأديب صاحب الخطاب انه قصة من الحياة الشخصية والأدبية والسياسية تكون درساً

مفيداً لشبان هذا الجيل والأجيال المقبلة
ففي نيتي وأمام ذهني كتاب كبيراً كسره على أجزاء منفصلة وأفرغ كل جزء منه لناحية مستقلة تتناول حياة الأديب وحياة الصحفي والنائب والسياسي معاً وحياة الإنسان في خاصته وعامته وحياة الباحث عن نفسه وكونه وإلهه وسائر ما يتصل بالعقيدة والسريرة الدينية
ويخيل إلى أنني لو فرغت سنة واحدة مكفي المؤونة استطعت أن أفرغ من أجزاء هذا الكتاب كلها بغير عناء كبير، لأن أصوله وموضوعاته قلما تحوجني إلى مراجعات تفصيلية
بعيدة من الذاكرة والوجدان
تلك كلمتي الموجزة في اليوميات، وما كتبت منها وأنوي أن أكتب بعد حين
أما سؤال الزواج، فقد أجبت عنه في (الرسالة) جواباً يغني فيه الأجمال عن الإسهاب، وكل ما أزيده هنا أنني استغرب المصادفة التي ساقت ألي أربعة أسئلة في شأن الزواج خلال شهر رمضان، وان كان أحدهما لا يستغرب في وقت من الأوقات، لأنه مزمن يأتي من السيدة الوالدة على غير ميعاد! فهل شهر رمضان - وما يعقبه من أفراح الأعياد - هما المسئولان عن مصادفة الأسئلة الثلاثة الأخرى؟
وأما أمنيتي التي يسألني الأديب عنها سؤاله الأخير، فلعلها لا تشرح في ذيل هذا المقال، وأحرى بها أن تؤجل إلى مقال قريب، لأنني لا اطرق منها جانباً يخصني دون غيري؛ بل أطرق منها ما يصح أن يمتد إليه كل بحث وينظر فيه كل ناظر
عباس محمود العقاد
12 - أومن بالإنسان!
للأستاذ عبد المنعم خلاف
التحرر من التاريخ - نحن غير البائدين - تلاميذنا أصبح علما بالطبيعة من أرسطوا - العلوم والفنون ليست تحفاً تقتنى منفصلة عن النفس - لابد من قلوب حديثة - من جرائر التاريخ - الإنسان يصنع أقداره - استطراد إلى مشكلة القدر إلى المنتظرين بعثا من غير نفوسهم - الآن فقط وجد الحق - أدوات الدعوة لتصحيح الأفكار عن الحياة - عباب التاريخ يجرف الطفولة النضرة مع الجيف القذرة! - لا مفر من عزل الطفولة لتصحيح أفكارها - مناقضات بين ما في الشوارع وما في الجامعات - صورة من دراستنا الحالية للتاريخ - طبائع مدلسة ليست بنت زمانها - ما يستهلكه الخير وما يستهلكه الشر - هل مضت الحاجة إلى دور الغرائز في خدمة الحياة؟ - حرب الآهة
طالما ألححت بقلمي على التاريخ: هذا الجار الهائل. . . هذا السد القوي. . . هذا السجن العتيد. . . لأحطمه وأنقذ نفسي من جوه المعتم الخانق!
وطالما قلت: ما دام هذا الماضي القاصر الجاهل المخرف الوحشي يحمله الإنسان في أوعيته وأعصابه إلى الحاضر، فهو دائماً في ضلالة القديم، كما يعيش حامل المكروبات الضارة دائماً في أمراض ونكسات.
والحقيقة التي يجب أن توضع نصب العيون الآن هي أن هذا الإنسان العصري هو غير الإنسان البائد بلا شك! هو غيره في علمه وإدراكه للطبيعة وتذليله لعقبات الحياة واضطلاعه بأدوات تحقيق الاحتياجات وتفتيحه لكنوز الأرزاق والأقوات
فكيف يرضى أن يحمل ذات قلبه القديم وغرائزه كما كانت وان يحمل غشاوات القرون الأولى ليعيش بها في عصر الانكشاف والظهور والقدرة الفائقة؟!
كيف يرضى من ملك زمام اليابس والبحر وذرع الأرض بالطول والعرض، ونبش كنوزها أن يعيش بأساليب الذي كان لا يعرف غير طريق القرية أو النجع أو الجزيرة التي يعيش فيها؟
إن تلاميذ المدارس الابتدائية اصح علماً عن الأرض والطبيعة من سقراط وكونفوشيوس وأرسطو وابن سينا والفارابي وغيرهم من حكماء القدماء؛ فكيف ترضى الإنسانية الحالية أن تعيش حياتها النفسية بأساليب جهلاء عصورهم؟!

إن التاريخ النفسي للحياة الإنسانية ينبغي أن يدرس بعين غريبة عنه ناقدة له في شك وارتياب. فما هو إلا سجل جهاد الناس في سبيل وصولهم إلى حقائق هذا العصر الحالي. فما يليق أن تؤخذ مرحلة من مراحله محطاً يطمئن الناس إليه بعقولهم؛ لأن مراحله السابقة كانت مراحل موضعية ضيقة خاصة بأمة ما من أممه. ولكن أمر أمم الناس الآن أمر جماعة توشك أن تتقارب أهدافها وتشتبك مصالحها وتشتجر اشتجاراً لا خلاص لفروعها منه أبت أم كرهت

هل من المعقول أن نلبس ملابس الحياة الحديثة على الأجساد ثم لا نغير ملابس النفس؟ أنكون قروداً وببغاوات تحكي قضايا العلم الطبيعي بألسنتها وظواهرها ولا تمثله قلوبها ونوازعها؟

هل يكفي من العلم أن يقتني في الحوافظ والذاكرات غير ممزوج ولا مدمج في الأعصاب والأحاسيس والانفعالات، بل يوضع في الرءوس كما توضع التحف والدمى على الرفوف والمناضد للزينة والخيلاء والبيع والشراء عند الحاجة؟

إني أرى العلم ينبغي له أن يكون في كياننا كالماء في أعواد الشجر الحي لا يقف تسربه إليه وتفريع حياته إلا إذا جف واحطب ومات. . . فلا شجر بدون ماء. . .

إن عملية عظيمة في داخل الحياة النفسية الإنسانية ننتظر إجرائها لبناء قلوب حديثة تتلاءم مع الأفكار الحديثة!

ومن آثار التاريخ في الحياة العصرية هذا الخلاف العنيف بين الأديان بعد ما سطعت شمس الله الواحد. . . وبعد ما أدرك العقل التناسق والانسجام والتوافق بين قوانين الطبيعة مما لا يمكن أن يكون إلا بإدارة يد واحدة!

ومن آثاره كذلك فيها أننا لا نزال نخضع لمنطق الأمم التي كانت تعيش متحاجذة في سدود وتخوم بين عقولها وأخلاقها ومرافقها، وتجعل الدنيا دنيوات، والإنسانية الواحدة أنواعاً متباعدة، وتجعل من اختلاف الأجناس والألوان واللغات اختلافاً أصيلاً جوهرياً بين الطبائع الإنسانية يبيح هذه العداوة الفاجرة المريرة المخربة للعمران، ويحمل على المبالغة في البطش والطغيان ونسيان الصفات المشتركة بين بني الإنسان

ومن آثاره كذلك أن اكثر الناس لم يدرك بعد مدى الانتقال العظيم والترقي السريع والتفاوت البعيد بين الحياة قبل القرن العشرين والحياة فيه؛ ولذلك لا يزالون يضمرون في أنفسهم اعتقادات متشائمة في الإنسان ومستقبله، ويدينون في الحياة بدين السخط وإطلاق الغرائز الخطرة والآراء التافهة التي يجعل الإنسان يعبر الحياة بدون أن يجتهد في ملء نفسه بأسرار التكوين، وفي إضافة كشف أو اختراع أو منفعة إلى ميراث الحياة الإنسانية. . . وليس هناك شيء اضر على الحياة الإنسانية من نزعة التشاؤم والتبرم والسخط على حاضر الإنسان ومستقبله!

ومن آثاره كذلك أننا رضينا أن نعيش أكثرنا جاهلا أمياً لا يفقه مبادئ العلم والحياة التي في رءوس العلماء مع أن نمو تلك الأسرار يتغير كل صباح ومساء. . . وكأننا بذلك وأدنا هؤلاء الأحياء ودفناهم كما كانت تفعل جاهلية العرب بموءودة الأجساد. . . وكان هذا الإهمال منا بمثابة فعل من رأى أهله يموتون ظمأ واحتراقاً، وهو على علم بمنبع ماء غزير يطفئ غلتهم ولوعتهم ويحي نفوسهم ولكنه لا يسعى إلى إنقاذهم. . .

ومن آثاره كذلك إننا نعيش في ذهول عما يحيط بحياة الإنسان الآن من كنوز تتفتح وأعاجيب تخترع، فترى الناشئ منا ينشأ بين القطارات والسيارات والطيارات والراديو والتليفون والغواصات والفونوغراف والفوتوغراف والسينما وغير أولئك، ثم يجهل أمرها وتركيبها ولا يدري عنها شيئاً ولا يكلف نفسه سؤال أحد عن نبئها العظيم. . . كأن ذلك شيء تافه أو أمر بدهي لا يحتاج إلى فكر شديد وتعجب بالغ!

ومن آثاره إننا برغم إدراكنا الآن كثرة الأقوات وكفاية الأرزاق كثرة وكفاية تشبعان حاجات الإنسانية جميعها لو وزعت توزيعاً معقولاً بدون احتكار وتحكم وإتلاف لجانب من المحصول في سبيل الاحتفاظ بالأسعار المرتفعة. . . لا نزال نطيع الجشع والطمع ونعصي دواعي العدالة والرأفة بالطبقة المحتاجة المجهودة!

ومن آثاره إننا لا نزال نغطي عجزنا وكسلنا بالاستسلام لما نسميه (الأقدار) مع أن مفتاح الأقدار بأيدينا، ومع إننا نرى إننا نصنع اغلب أقدارنا، ومع أن دائرة الإيمان

بالأقدار في الدين لا تتعدى منطقة الصبر على المصائب والكوارث التي تأتي إلينا بدون حيلة أو خيرة منا، ومنطقة الرضا بما نحصل عليه بعد الجهاد. . .
وهنا مكان استطراد إلى مشكلة الأقدار لا بأس أن نرسل فيه بعض الحديث:
هناك أقدار نريد أن تتحقق، وهي أقدار الخير والسعادة، وهذه موقفنا منها يجب أن يكون كما يأتي:
أن نسعى جهدنا للتمهيد لتحقيقها بالأخذ بأسبابها التي تهدينا تجاربنا إلى أنها عوامل جالبات لما نسعى إليه. فإن تحقق ما نبغي فذاك، وإن لم يتحقق - وهذا قليل نادر - علمنا أن الإرادة العليا المسيطرة على وجودنا لها غاية غير غايتنا في تلك المسألة التي نسعى لتحقيقها. والإيمان بتلك الإرادة يقضي حينئذ بالإذعان والتسليم لقدرها العالي الذي لا حيلة معه
وهناك أقدار نريد إلا تتحقق، وهي أقدار الشر والشقاء، وهذه موقفنا منها يجب أن يكون كما يأتي:
أن نسعى جهدنا للتمهيد لدفعها بالأخذ بأسبابها التي تهدينا تجاربنا إلى أنها عوامل دافعات لما نخشاه ونتجنبه. فإن كان ما نبغي فذاك، وإن لم يكن كان علينا كذلك الإذعان والتسليم للإرادة العليا.
تلك هي المشكلة الأقدار في جانبيها. وفي كلا هذين الجانبين لرأينا أن على الإنسان أن يقدم جهده في التمهيد لها أو دفعها. فإذا وقف أمامها منتظراً مكتوف اليدين مشلول التفكير كان حرياً أن تأتي إليه أقدار الخير فلا ينتفع بها إذ لم يبذل لها جهداً من فكره أمله، وكان
حرياً كذلك أن تنزل عليه أقدار الشر فلا يسعى لتخفيفها وان يجزع منها جزع الذي يظن انه كان في مقدوره أن يدفعها ولكنه قصر في ذلك، فيظل ملوما محسوراً. . .
والحياة العملية ذات البراهين البريئة من الجدليات توحي إلينا بل تحدثنا بكلمات مقروءة مسموعة بريئة من غموض الرمز والإيماء أن الذي ينتظر أقداره بدون أن يسعى لجلبها أو دفعها لن تكون حياته إلا كحياة ذلك البدوي ساكن الصحراء الذي لا يعمل عملاً لجلب الماء، وإنما هو ينتظر سقوطه عليه من السماء، وطبيعي ألا تكون آماله بيده، وأن يعيش حياته معرضاً لأخطار الظمأ والجفاف معلق القلب مهدد العيش يتجدد قلقه كل سنة لأنه لم يمسك من أسباب الحياة إلا بحبل بعيد هيهات أن يكون في يده دائماً. . .
وأنى تكون حياة هذا البدوي من حياة بدوي آخر سعى حتى اهتدى إلى ضفاف نهر تمسك منابعه بحوالب السحاب، وتحلب الماء إليه جارياً ميسوراً ليده وأفواه دوابه وقطعانه، ثم هو بعد ذلك يشق السواقي والقنوات ليصل منها الماء إلى كل بذرة بذرها؟!
لا شك أن كليهما اخذ من مصدر واحد، ولكن أحدهما حمل نفسه على العسرى، والآخر حملها على اليسرى. . . وشتان ما بينهما!
فلينهض الراقدون على آذانهم في الشرق الإسلامي مستسلمين في صغار لعوامل الشقاء والحرمان، حاسبين أن أحوالهم ضربة لازبة حتى يأتيهم آت من غير أنفسهم ينفخ في الصور، فإذا الأرض حولهم جيوش وجحافل، ومصانع ومعامل، ومعاهد ومعابد، وحقول وجنات وعيون، وإذا هم - بقدرة قادر! - آلهة في الأرض يحكمون!
لينهضوا وليحرروا أنفسهم من قيود التاريخ النفسي الذي انحدر إليهم من الجاهليات فهم يعيشون به في الماضي وإن كانت أجسادهم فلبس أثواب القرن العشرين. . .
ولتكن قوارع هذه الحرب أجراساً وأبواقاً تجمعهم وتدفعهم إلى السير مع قافلة سريعة المراكب، متلاطمة المواكب، غليظة الأثقال، حاشدة جبال الحديد والفولاذ، والقوى العارمة المجنونة التي يقول قائلها: (أنا القدر! أنا القدر! يا بني البشر!)
هل لنا أن نزعم أن الحق وصل إلى نفوس أكثر الناس فأدركوا صدقه وجماله ثم مع ذلك رفضوه، وحينئذ يحق لنا أن نتشاءم في مستقبل الإنسان؟
أؤكد انه لم يصل في عصر ما من عصور التاريخ إلا إلى القليل من الناس. والى الآن لم
تقم دعوة إلى الحق الواضح في الطبيعة بدون أن توضع في طريقها أغشية وعقبات ومعوقات تحجبه وتمنع الناس من إدراكه

. . .والآن، وقد تيسرت أدوات الدعوة وأدوات الإقناع وأدوات التربية يجب بدء دعوة
. . .وإن في الناس لخيراً كثيراً جداً أعظم مما يتضح من النسبة التي نجدها فيهم الآن
والدليل على ذلك نجاح أمم الشمال في أوربا خلقياً، فقد أثرت فيهم التربية حتى
أوشكت بلادهم أن تخلو من السجون والجرائم والخيانة حيث الثقة بالنفس الإنسانية
وطيدة هناك
إن أدوات صحة النظر في الحياة واتجاهاتها موفورة الآن لأغلب سكان الأرض؛ ولكنهم
مأخوذون عن ذلك بجرائر التاريخ. وكان من الواجب بعد العلم الغزير أن يوجد الفكر
الهادئ والقلب الكبير الذي نضج وطاب؛ ولكن عباب التاريخ وسيوله لا تزال تجرف
الطفولة والبذور مع الجيف والقش والغثاء. . . وتلقي الجميع إلى المصب الذي تلتقي
. . .فيه الأخلاط والضلالات التي تركها أبناء الجهلة الأولون
فلا مفر من فصل البذور والطفولة وعزلها عن مجرى سيل التاريخ وإنشائها بأيد غير
ملوثة إنشاء يرضى به هذا الزمان وعلومه وفنونه، ويؤهل الإنسانية لتلك الخلافة
الواسعة المتعاونة في جهاد الطبيعة واستنزال بركاتها وثمراتها.
ولا مفر من تصحيح الفكرة عن الحياة وتوجيهها إلى الإيمان بها كمرحلة ممتعة أتاحها
القدر لمن يخرج من العدم، فيجب صرفها في العمل والفرجة والاطلاع على ما يمكن
الاطلاع عليه من آفاقها
ولا مفر من تحويل عبقرية الفكر إلى عبقرية القلب والخلق والجسم. فالعلم والفن
يجب صقل النفس بهما وإشراب الجسم إياهما وإخراجه على مقتضاهما بحيث لا
تتخلف حياة الجسم وقواه وحركاته عن المدى الذي وصل إليه الفكر. . . وبحيث لا
يتخلف ما في الشارع والحقل عما في مدارس الفنون والعلوم والتجارة والزراعة وما
إليها حتى تكون حياة الجماعة صورة ومظهراً صادقاً لحياة الجامعات والأندية الثقافية،
ولا يكون في الأمة مفارقات ومتناقضات بين حياة الفكر وحياة الواقع.
ولا مفر من حمل كل إنسان على أن يدرك نفسه ويستغرق في التفكير في حياته
وحياة الإنسانية ويتيقظ لتلك القوة والقدرة التي تتسلط بها الإنسانية على القوى
العمياء الجبارة
وتسخرها في خدمتها
وما الإنسان بدون يقظة للمعنى الفائق والروح السامي الذي في حياته إلا جسد يختلج
ويضطرب في ذهول وبلادة، ويحيا هكذا حياة مغناطيسية آلية
ولكي ندرك جرائر التاريخ على العقول أثره في تدليس الحاضر وإفساده وتزوير
النفوس سأعيد عليك حديث صورة لا تجهلها عن طرق دراسته على ألسنة العجائز
وفي المدارس ومجالس القصص:
يتفتح عقل الناشئ منا فتلقنه عجائز بيته وشيوخ قومه ومعلمو مدرسته تاريخ قوميته
وتاريخ الإنسانية بأغلاطه ونقائضه ومحاولات العصور القاصرة في فهم الحياة وجهاد
الإنسانية في شق طريقها الأول بين الصخور والمتاهات والعقبات. فما يكاد عقل
الناشيء يصل إلى دور الحكم والموازنة حتى يكون قد تطبع بما وعى وأصابه ثقل
التخمة وحيرة الامتلاء والتبلبل
ذلك لأن التاريخ لا يدرس على أنه محاولات أولية من الإنسان فيها أخطاء كثيرة؛ فيجب
الحكم عليها حكم دور الرشد على دور القصور؛ ولكنه يدرس وعليه طابع التقديس
والإعجاب بالأقدمين والاعتزاز بهم في مغالاة وتعصب، وبخاصة تاريخ القوميات
والجنسيات
وكان من كبرى نتائج ذلك أن عاش كثير من الماضي السيئ في الحاضر. بل وجدنا
جماعات تفر من الحاضر لتعيش في الماضي وترى انه كان الحياة. .! وتمدح الناس
بما فعلت الجدود وقالوا إنا على آثارهم مقتدون
فلم يفتح أبناء العصور المختلفة عيونهم على حياتهم في زمانهم بل فتحوها على
الماضي وعاشوا به في الحاضر، وظهر اثر ذلك في الافتتان بهوامش الحياة والعكوف
على دراسة سطوحها وترك دراسة أصول الحياة وعلومها الطبيعية والتجريبية التي
تبقى لها نتائج دائمة تسلم إلى نتائج أخرى في سلم الترقي والتطور
وقد لاقى اكثر الناس الحياة بطباع مدلسة ليست بنت زمانها، وإنما هي بنت الماضي
السحيق، وحملوا معهم في رحلة العصور خرافات ووثنيات وسخافات احتفظوا بها

حتى في القرن العشرين، ووضعوها حواجز وعوائق في طريق الحياة الحديثة ذات المعجزات
والنبوات الدائمة التي لا تحتمل جدلاً أو مخرقة!
وكان من نتائج ذلك أن وجد المصلحون في كل عصر ركاماً من الغباوات والجهالات توضع في طريق دعواتهم إلى الإصلاح والعلم وفتوح الذكاء ونور البصيرة. . .
ليس قبيحاً جداً بالطفل أن يعترك مع إخوته على شيء يريده لنفسه ويريدونه لأنفسهم، فيتصايحوا ويتضاربوا ويحطموا ما أمامهم؛ لأن الطفل يعيش بالغرائز، فهو أناني ضيق التفكير لا يدري أن أباه يملك الكثير، ولا يفهم فضيلة الإيثار إلا بعد التمييز والتدريب
ولكن ما بال الأمم التي رأت خيرات الله تملأ فجاج الأرض تتقاتل على البحر الزاخر والحقول الممرعة والجو الواسع؟ إن ذلك من أخلاق الطفولة وضيق آفاقها وتحكم الغرائز في حياتها، وهذه صفات وجدت لها في مخلفات التاريخ مبررات وحججاً وتأريثاً!
ومن العجائب انهم يدمرون ما يسعون إليه من الغنى والثروة حين تثور غرائزهم! وان الحقد والشر والطمع لتستنفذ وتهلك من مال الأمم الأثرة الجشعة، ومن بذلها الدم الفياض ما لا يمكن للخير والسلام والإحسان والتعاطف والتفاهم أن يستهلكه أو يستهلك عشر معاشره!!
ونظرة واحدة إلى النفقات اليومية للأمم المتحاربة الآن تكفي في البرهنة على هذا وعلى أن الإنسانية ما دامت مصروفة عن طاعة الحق والعدالة والحسنى، إلى تحكيم الغرائز الدنيا والانحدار في مجرى التاريخ، فسوف تظل هكذا تعمر لتدمر، وتعلم لتجهل، وتتقدم لتتأخر
وكأن المقصود بحياة الإنسان إذا استمر على هذا هو تحقيق مشتهيات الغرائز وإظهار عبقريات النفس البشرية في التخريب بعد التكوين: فهي طوراً تبني وتعيش في صفات البناء وأخلاقه، وطوراً تهدم وتعيش في أخلاق الهدم وصفاته، لتدرك معالم الضدين المتقابلين الأبديين: الخير والشر. . .
ولكن إن صح هذا كتعليل لحياة الشر في الماضي حين كانت الحياة محتاجة إلى دوافع الغرائز لتدريب الإنسان في طفولته على ما تهيئه له الأقدار في مستقبله ولحمله على الاقتحام والكشف وتفتيق الحيلة، وحين كانت نتائج ثورات غرائزه محدودة ضيقة لا تتعدى أضرارها إلى هدم أصول الحياة وتحطيم أسس الاجتماع ومخلفات الإنسانية ذات الحرمات والقيم التي لها اعتبارها، كما هي الحال الآن في نتائج هذه الحرب. . .
فلن يصح الآن هذا
التعليل بعد أن صار قتال الإنسان كقتال الآلهة لا كخصام الأطفال
وقتال الآلهة - لو كان هناك آلهة إلا الله - تخريب لأصول الحياة وسحق لبراعمها ومناطق نموها. وهم يعلمون بالطبع طرق التسلل إليها والإطباق عليها لأنهم فرضاً خالقوها وواضعو أسرارها. . .
فلنوحد الإنسانية بعد أن صار لها قوة الآلهة في التخريب، كما وحدنا الأرباب!
ولنعلن بأرواحها وأفكارها عن مستوى بنات الطين والتراب، من كل ذات ظفر وناب!
عبد المنعم محمد خلاف
المغزل. والريف. ونفسي
إلى الشاعر التائه صاحب (أرواح شاردة) الصديق علي
محمود طه
للأستاذ راشد رستم
شردت من الحضر إلى الريف - وليس العجب أن يشرد المرء من الحضر إلى الريف - وإلا فأين معنى الشرود، وأين موطن الشرود، بل رأين الروح الشرود. . .
أما أنت يا صاحبي، فقد شردت من الريف إلى الحضر! ذلك إذا عددنا مصر، بنيلها العظيم، وزرعها النضير، وإنسانها الكريم، ريفاً وأي ريف، ثم حسبنا بلاد الغرب بمياهها المعدنية، ومدنها الفنية، ورهطها النشيط، حضراً وأي حضر. . .
فهل أنا موفق هنا معك، أم أني شرود كذلك في هذا الخيال وهذا التشبيه؟ على أنه كانت الأولى فإني منتصر، وإن كانت الثانية فلست أنت المنتصر. . .

ولكن خبرني، ما بالي أثير عليك غبار هذا الجدل وأنا في سكون البكور من صباح منير، وسط ريف هادئ بديع! لماذا هذا الجدل وأنا في جو نقي نظيف، حيث البساطة والسهولة والوضوح! في هذا الصباح البدري الذي لا تصيح فيه الديكة إلا لكي تدعو النيام إلى القيام، والذي تحمل فيه الطيور النطاطة تحيات النهار - وهذا أول النور وآخر الظلام!

هذا صباح الريف، سكون ولكن حياة. وهاهي الطبيعة، ناعسة تتمطى ولا تقوم. وأنا صاح قائم اذكر قول الشريف الرضي، رضى النفس، شارد الروح، وهو يقول:

وأكتم الصبح عنها وهي غافلة ... حتى تكلم عصفور على علم

وهأنذا أتحدث عن هذا الصباح الغريب، فقد كان صباحاً ساكناً، ثم ثار، ثم سكن. أثبت الحقيقة كما جاءت فيه - والحقيقة أصل لكل خيال - فقد جلست الساعة بعد هذا الشروق البهي، و (مغزلي) في يدي، وأنا في المكان من الصعيد السعيد البعيد. . .

وهذه هي الأرض تغمرها مياه النهر الكريم، تحفها سلسلة هذه الجبال الراسيات، يضم القوم بينهما هذا الوادي الأخضر السهل الفسيح الممتد

وإذ أنا في هذه الحال، هادئ النفس هادئ البال، إذا بالبلدة الناعسة، وهي تطرح عنها أطراف الليل، تستيقظ على صوت مزمار وطبل - جماعة يحجون إلى دير بالجبل بعيد - حتى إذا عادوا من نذرهم وقد مروا علينا بالطريق، صبحونا مبدرين مبكرين، ودخلوا القرية وافدين؛ حيونا بأصوات البشير، وتلقيناهم بأحسن تكريم، وتبادلنا وإياهم في ساعة هذا النهار المنعش الصبوح، صفاء قلوب في صفاء قلوب

ثم أداروا علينا من أنغامهم موسيقى ذات دوي بعيد وحنو قريب، فأخذت القوم نشوة اليقظة بعد فترة الرقاد الطويل، وتولتهم هزة الفرح، فراحوا وزامر الحي يزمرون ويطبلون، كما أنشئوا (يتحاطبون)، يحملون عصيهم في الفضاء، تدور بهم وهم بها دائرون، يبتعدون ثم يلتفون، وفي خفة يقفزون، ليس فيهم طالب ولا مطلوب، ولا غالب ولا مغلوب، إذ هم في لهو يمرحون، وأهل القرية من حولهم معجبون مبتهجون حتى إذا تحول الطرب ودارت للرقص أنغامه، دارت في الساحة من الرجال أربابه، يتفكهون وإن كانوا به يتباهون؟

غير أن للخلخال رناته، وللخال المحجب ساعاته، وقد دق الطبل لبنات الحي دقاته، فنزلن إلى الساحة يخطرن وللقلب وقتها دقاته، وأثارت بنات الحي في الحي للرقص موجاته، فارتفعت في ميزان (الحرارة) شاراته، وازدحم الميدان واشتدت حماسا ته، فقد دارت بنات الحي في الميدان للرقص دوراته، وحمي الوطيس واشرأبت من الجمع هاماته؛ هؤلاء هن للدلال والوقف والعطف سيداته، وهؤلاء هن للف والميل والدوران رباته:

صان الإله رشيقةً مياسةً ... أربتْ على الغزلان في الجولان

ثم خلت الساحة من حسان راقصاته، إلا التي هي من بنات الحي أبين باناته. هيفاء هيفاء، تخطر فوق الثرى وكأنها تصعد في الجو إلى ثرياته، خفة ورشاقة وسناء؛ بينما تراها هناك. وهي أن حنت على المشيب أقبلت عليه ترعاه، فتجعله من فرط الرضا شباباً. . . فإذا تجنت على الشباب تحولت إليه تسبيه هياماً فتجعله هباء أو سراباً. . .

وكأني بها حمامة الصبح وهذا هو الصبح قد لاح، فهل تبعد يا أليف الهوى وهذا هو الإلف قد بان وسبحان الفتاح؟ تعال. تعال. خذ الخصر بيمناك، ودر بالساق مع الساق، ولا تقل أين المساق. إن للحياة مداها، وللروح في حب الرضا قرباها، ومناها، ونجواها. . .

وانظر الآن! هذه هي الخيل تجري في أعنتها وفق هواها، تدب دبيب السعد والخيلاء والخير معقود على نواصيها. وهؤلاء فرسانها لا يستطيعون لها كبحاً، فتفزع تدخل بهم الساحة مسرعة، كأنها تأبى إلا أن تأخذ نصيبها في موكب الصباح، ولكنها ترتد سريعة جامحة، كأنها من نيران أمامها خائفة، وما هي إلا ذات الخلخال، لا تزال في الساحة قائمة، لم تترك مكانها، فكيف إذن للخيالة أن تستبيح الميدان؟

لما أن رأتهم مندفعين، وقفت وقفتها تكشف فيها لهم عن القسي والسهام، فأدركوا ما قد يصيبهم من كبوات وغرام، وخافوا على أنفسهم وخيلهم من الذي والضرام، وهكذا ارتدوا خائفين وهم هم السادة الشجعان، من الخيالة والخيل والفرسان.

حتى إذا هدأ الروع، واستقر الفؤاد، عادوا بعدئذٍ إلى الساحة مطمئنين، بل كراماً نازلين، يدورون ويدورون، يلعبون (ويتفرسون)

والخيل تمزع مزعاً في أعنتها ... كالطير ينجو من الشؤبوب ذي البرد
وللخيل صيحات وللفرسان صيحات
وهكذا بين جمال وجلال وكر وفر، وصهيل وتهليل، تسود البطولة أجواءنا، وتملك النعومة أرواحنا. . .
حتى إذا بلغت نشوة الفرح حدها، وضيافة الصبح سمتها، وأذن مؤذن الركب بالرحيل، وأخذ القوم يعودون في هدوء آسفين، ونحن من ورائهم كذلك آسفون؛ وخلا المكان، وانفض السكان، وإذا بي قد شردت من حالي دون أن أبرح مكاني، وإذا بي يشتد شأني دون أن اترك شأني، وإذا بي أرى مغزلي بجواري فألجأ إليه عنده خلاصي وإني وقد آخذ مقامي من هذا الريف النظيف، أبدأ كل يوم فيه بما قد هويته صغيراً، ولا أزال أهواه كبيراً: (غزل) الصوف بهذا المغزل القديم المعروف؛ إذ أجد للفكر إذا ما شرد، وللنفس إذا ثارت، راحة وسكوناً مع دورات هذا المغزل الأنيق الرشيق العتيق وإنك لتراه يتدلى في الفضاء دائراً دائراً، معلقاً في خيط رفيع دائماً؛ ينساب من بين أنامل ماهرة، قد تكون كذلك ناعمة، تجعله خيطاً رفيعاً ناعماً، تتجلى فيه دقة الصنعة إذا ما جعلته رفيعاً رفيعاً، متيناً متيناً
تراه محملاً مثقلاً، معلقاً في ذلك الخيط المتين الرفيع، كما يتعلق الهائمون الشاردون بالأمل في خيط منه وحيد رفيع
يدور المنزل في الفضاء مثقلًا مثقلاً، كأنه النفس المثقلة بأنواع الهموم، تغزلها يد الأقدار، تلفها عليها في سكون ودوام، ثم تدور بها في طيات هذه الحياة
هذا المغزل الذي بين يدي، هو كهذه النفس التي بين جنبي، حملتها كبيرة صغيراً، ولا أزال أحملها كبيرة كبيراً
هذا المغزل بينما تراه خلياً حيناً، مثقلاً أحياناً، يدور في فضاء الله، كما تدور فيه هذه النفس ثائراً، هادئاً صابراً
. . .هذا المغزل مهما كان عتيقاً عريقاً، فإنه متجدد دائماً، نظيف دائماً، رشيق دائماً
(مزرعة كوم المنصورة)
راشد رستم
مسابقة الأدب العربي لطلبة السنة التوجيهية
ديوان البارودي
للدكتور زكي مبارك
تمهيد - نقد مقدمة هيكل باشا - نصيب البارودي من علوم اللغة العربية - الخمريات والغراميات - الجديد في شعر البارودي - التحكم في التاريخ - الطبيعة بين الصمت والنطق - المستنيرون في عهد توفيق - تاريخ الشعر العربي - المصريون في عهد البارودي - ما صنع البارودي في منفاه
تمهيد
المقرر للمسابقة هو الجزء الأول، طبع دار الكتب المصرية وشرح الأستاذين: علي الجارم بك، ومحمد شفيق معروف؛ وهو يطلب من مخازن وزارة المعارف ومن شهيرات المكاتب
وللشارحين كلمة يشكران فيها النقراشي باشا (لاهتمامه بإنجاز طبع الديوان)، وهيكل باشا (لتكرمه بكتابة التقديم) وجعفر والي باشا (لكبير معونته)، والسيد أشرف البارودي (لإمدادهما بأصول الديوان الخطية)
وكنت أحب أن يشيرا الشارحان إلى أن عناية وزارة المعارف بطبع دواوين الشعراء الذين رفعوا اسم مصر في العصر الحديث ترجع إلى العرابي باشا، فهو صاحب هذه الفكرة، وفي عهده ظهر ديوان حافظ إبراهيم سنة 1937
وكنت أحب أيضاً أن يشيرا إلى الظرف الذي كتب فيه التقديم، وقد تركه الدكتور هيكل باشا بدون تاريخ، لسبب توضحه الأسطر الآتية:
كانت وزارة المعارف إلى الدكتور هيكل في وزارة محمد محمود باشا الأخيرة، وفي تلك الأيام بدئ بطبع ديوان البارودي، وكان مفهوماً أن هيكل باشا سيكتب مقدمة الديوان؛ ثم استقالت وزارة محمد محمود باشا وتلتها وزارة علي ماهر باشا، وفي الوزارة الثانية كان

النقراشي باشا وزير المعارف، فكتب إلى هيكل يدعوه إلى كتابة مقدمة الديوان، مع أن ظواهر الأحوال كانت تقول بان بين الرجلين شيئاً من الجفاء
ولو أشار الشارحان إلى هذه اللمحة الأدبية لكانت شاهداً جديداً على ما عند رجالنا من كرائم الآداب
وسكت الشارحان عن الشارح الأول، كما سكت عنه هيكل باشا، وفي الطبعات العلمية لا يجوز هذا الإهمال
ويستطيع طلبة السنة التوجيهية أن يسألوا أساتذتهم عن ذلك الشارح، إن كان يهمهم الاستقصاء
نقد مقدمة هيكل باشا
تقع هذه المقدمة في اكثر من ثلاثين صفحة بالقطع المتوسط، وقد كتبت في ساعات غلب فيها الصفاء، قد كان الدكتور هيكل في عزلة تشبه عزلة النساك بعد خروجه من المعارف، وكان يعاني الكلف بالخلوة إلى القلم بعد أن شغل عن الأنس به عدداً من الشهور الطوال
هي مقدمة جيدة جداً، وربما جاز القول بأنها أجود ما صدر عن الدكتور هيكل من الدراسات الأدبية، فقد نفذ إلى أعماق العبقرية البارودية، واستطاع في بعض النواحي أن يذيع سرها المكنون
وسيجيء في الامتحان التحريري سؤال أو أسئلة من هذه المقدمة، فمن الواجب أن نتناولها بالنقد الرفيق، لنساعد طلبة السنة التوجيهية على إدراك ما فيها من مقاصد وأغراض، فالنقد هو الذي يوجههم إلى فهم مدلولها الصحيح، وهو الذي يهديهم إلى مكانة البارودي في تاريخ الأدب الحديث
نصيب البارودي من علوم اللغة العربية
نص الدكتور هيكل باشا مرتين على أن البارودي كان يجهل النحو والصرف والعروض، والنص على هذا مرتين في المقدمة يشهد أن هيكل باشا لم يكن في هذا الحكم من المرتابين
فممن اخذ (حيثيات) هذا الحكم القاسي؟
أخذه عن الشيخ حسين المرصفي، فقد نص في (الوسيلة الأدبية) علة أن البارودي كان
يجهل النحو والصرف والعروض؛ وكان يجب على الدكتور هيكل أن يذكر أن الشيخ المرصفي لم يقل هذا القول إلا في مقام الثناء على ما كان البارودي يملك من بوارق الفطرة والطبع، وإلا فمن العسير أن نصدق أن البارودي كان يجهل ما لا يجوز جهله من أصول النحو والصرف والعروض
ولكن أين الشواهد على علم البارودي بعلوم اللغة العربية؟ في الديوان رسالة مثبتة بالزنكوغراف، وهي رسالة لم يلتفت إليها الدكتور هيكل، ومنها أتخذ الشواهد على ضعف الحكم الذي نقله عن صاحب (الوسيلة الأدبية)
والى معاليه أسوق الحديث:
1 - في ص 43 جاء بخط البارودي في وصف ما عانى هو ورفاقه من هياج البحر:
(ومكثنا على ذلك ثلاثاً، لا نجد فيها غياثاً)
وعند تأمل الخط نجد أن الأصل (ثلاث) و (غياث)، وأن البارودي التفت إلى الخطأ النحوي فرسم ألفين فوق هاتين الكلمتين، وهذا يشهد بضعفه في النحو، ولكنه لا يشهد عليه بجهل النحو، بدليل هذا التصحيح
2 - وفي ص 46 نجد بخط البارودي:
(هيهات، ما كل شامة خالًا، ولا كل حلقة خلخالاً)
وعند تأمل الخط نرى أن الأصل (خال) و (خلخال)، ونرى البارودي وضع ألفين فوق هاتين الكلمتين
والتصحيح في هذه المرة أدق، فهو في الشاهد السالف كان التفاتاً إلى حكم الظرف وحكم المفعول في الأعراب، وهو في هذا الشاهد التفات إلى حكم (ما) الحجازية؛
وكان يسعه أن يعفي هاتين الكلمتين من التصحيح ليسير مع النحوي الذي يقول:
ومُهفهَفِ الأعطافِ قلت له: انتسب ... فأجاب: ما قتلُ المحب حرامُ
والذي يفرق بين (ما) الحجازية و (ما) التميمية لا يوصم بجهل قواعد اللغة العربية
3 - وفي ص 49 نجد بخط البارودي:

؟!(بل حسبت أن قطرات المزن، دموع أسالتها زفرات الحزن)
وننظر إلى العين من دموع فنراها كانت (عاً) ثم أصارها البارودي (عٌ)
فما معنى ذلك؟ معنا انه توهمها أولاً مفعول (حسب) ثم أدرك أنها خبر (أن) والذي يجهل
النحو لا يدرك هذا الفرق
4 - وفي الصفحة نفسها نجد البارودي يقول:
(الهم يا هادي الضلال في الليل المدلهم، وناصر الملهوفين في غمرة اليوم المسلهم)
وننظر فنجد البارودي محا كلمة (الملهوفين) واثبت كلمة (الهلاك) حرصاً على الازدواج، فنفهم انه كان يعرف علم البديع
5 - ومن هذا ما جاء في ص 50 حيث يقول:
(ما وعد إلا وأخلف، ولا سالم إلا وأتلف)
فقد محا (سالم) واثبت فوقها (أوعد) حرصاً على الجناس والطباق!
6 - وفي مقدمة الديوان يحدثنا البارودي عن (ذكر الشيء باسم غيره لمجاورته إياه) فنفهم انه كان يعرف أشياء من علم البيان
7 - ونص البارودي على قصائد فيها (لزوم ما لا يلزم)، فكيف يقع هذا من رجل يحكم عليه هيكل باشا بجهل القوافي؟ يضاف إلى هذا أحكامه على الشراء وهي تدل على بصره بالنقد الأدبي، وكذلك تدل استفادته من المعاجم على فهمه لأصول علم الصرف
وصفة القول أن البارودي كأن على بينة من علوم اللغة العربية، وان لم يصل إلى التفوق في تلك العلوم؛ فقد كان يعتمد على فيض الفطرة والطبع، وهما افضل أدوات الشعراء
الخمريات والغراميات
وطاب للدكتور هيكل باشا أن يؤكد أن البارودي لم يكن صادقاً في الخمريات والغراميات، وقد جزم بان قصائده في هذين الفنين لم تكن إلا محاكاة لأساليب القدماء
وهذا الحكم صواب من جانب وخطأ من جانب، فهو صحيح في الخمريات لأن أشعار البارودي في الخمر لا تخلو من ضعف، ولكن هذا الضعف لا يرجع إلى أن الخمر لم تذهب بعقل البارودي، كما يقول الدكتور هيكل، وإنما يرجع إلى أن وصف الخمر فن لا يحسنه جميع الشعراء وإن كانوا في حبها من الصادقين
أما غراميات البارودي فهي صدق في صدق، وأشعاره في العشق آية في الإفصاح عن صبوات القلوب، وقد تذكر بغراميات الشريف في بعض الأحيان
وما الموجب لأن نقول للبارودي (كذبت) حين يتحدث في أشعاره عن هواه، مع انه يقول
في مقدمة الديوان:
(إنما هي أغراض حركتني، وإباء جمح بي، وغرام سال على قلبي)
أما أن كان الدكتور هيكل يريد تنزيه البارودي عن مآثم الفتيان، فلكلامه وجه مقبول، فقد كان البارودي رئيس الوزارة في بعض العهود، ويجب على الوزراء أن يعيشوا بلا قلوب
الجديد في شعر البارودي
ويقول الدكتور هيكل باشا إن الجديد الذي استدعى الإعجاب بشعر البارودي (هو نزوعه إلى تصوير الواقع كما هو في بساطة وسلاسة وقوة دون اعتماد على محسنات اللفظ البديعية)
ونقول إن هذا التصوير بعيد من أذهان من عاصروا البارودي وكانوا مولعين بالزخرف والبريق، وإذن يجب على الدكتور هيكل أن يتلمس رأياً غير هذا الرأي، وهو قد اهتدى إلى الصواب بعد ست عشرة صفحة فقال:
إن هذا الشعر كان جديداً كله، كانت محاكاته الأقدمين جديدة، وكانت معارضته إياهم (جديدة، وكانت رياضته القول على مثالهم جديدة)
فإذا أعيد طبع الديوان فليتفضل الدكتور هيكل يحذف الحكم الأول والاكتفاء بالحكم الثاني
التحكم في التاريخ

للبارودي قصيدة لامية قال فيها ما قال في التندي بالمصريين، وينص الديوان على أنها قيلت في عهد (إسماعيل) وكن الدكتور هيكل يعتسف فيحكم بأنها قيلت في عهد (توفيق)

فهل يملك الحق في نقل القصائد التاريخية من عهد إلى عهد؟

إن عصر إسماعيل كان مبعث نهضة بإجماع الآراء، وعصور النهضات لا تخلو من بواعث الحب والبغض، والحمد والملام، فكيف نستبعد صدور قصيدة ثائرة في عهد إسماعيل؟ وكيف عرف هيكل باشا أن البارودي لم يذق في عصر إسماعيل غير القرار والاطمئنان؟

لو أن الدكتور هيكل التفت إلى القصيدة التي أثبتها بيده في ذيل الصفحة الثالثة والعشرين لرجع عن ذلك الاعتساف، وهذه إشارة فيها كل البيان

الطبيعة بين الصمت والنطق

وشاء الدكتور هيكل باشا أن يحكم بأن (البارودي إذ كان يسجل للصور في شعره لم يكن يسجلها في صمتها وسكينتها على ما يولع به عشاق الطبيعة الصامتة)

فما معنى هذا الكلام؟ ومتى صمتت الطبيعة في أوصاف الشعراء؟

لعله يريد أن يقول إن البارودي كان قوي الشعور بحيوية المناظر الطبيعية، وبما فيها من فاعلية وانفعال، فقصر به التعبير عن بلوغ ما يريد

المستنيرون في عهد توفيق

هم في نظر الدكتور هيكل باشا رجال الجيش، وقصر الاستنارة على رجال الجيش في ذلك العهد غير صحيح، فقد كان في مصر جماعات علمية وأدبية تفوق في الاستنارة رجال الجيش، والصواب وضع كلمة (السياسيين) في مكان (لمستنيرين) فقد كان رجال الجيش ساسة البلاد في ذلك الحين

تاريخ الشعر العربي

ويقول الدكتور هيكل إن الشعر العربي قضى ألف سنة في انحلال إلى أن بعثه البارودي، فمن اين جاء بهذا القول؟

أنحكم على ماضينا الأدبي هذا الحكم الظالم في سبيل إنصاف البارودي؟ ليرجع الدكتور هيكل إلى (مختارات البارودي) إن شاء، فإن فعل فسيعرف أن البارودي يرى غير ما يراه، فقد وصل اختياره إلى القرن السابع، وصح له أن يحكم بأن سبط ابن التعاويذي وهو من شعراء القرن السادس كان يتابع الشريف الرضي ويمشي على اثر مهيار الديلمي. والبارودي الذي اعترف بحياة الجزالة الشعرية في القرن السابع كان من شعراء القرن الثالث عشر، وعلى هذا تكون المدة التي انحل فيها الشعر نحو خمسة قرون، فكيف يجعلها الدكتور هيكل عشرة قرون ويوصي بإسقاطها من الحساب؟

يشفع للدكتور هيكل انه أراد المبالغة في التنويه بمقام البارودي، ولكن الإحسان إلى البارودي كان يتم بدون الإساءة إلى تاريخ الشعر العربي. فليتفضل بمراعاة هذا الجانب من مقدمته في الطبعة التالية، إيثاراً للعدل، فما كان في أحكامه الأدبية من الظالمين

المصريون في عهد البارودي

حكم الدكتور هيكل بأنهم لم يكونوا يعرفون اللغة العربية، وإنما كانوا يتحدثون بلغة أخرى هي العامية

وهذا الكلام يحتاج إلى تحديد، فان كان يريد الخواص فهو مسرف، فقد كان هؤلاء في يقظة عقلية وروحية، بدليل ما تركوا من نفائس المؤلفات، وان كان يريد العوام فهم إلى اليوم يتكلمون العامية، ولم يستطع جهلهم أن يصد الخواص عن التحليق في أجواء الأدب الرفيع

البارودي في منفاه

اكتفى الدكتور هيكل بالنص على حنين البارودي إلى الوطن وهو في منفاه، وسكت عن مسألة مهمة جداً، وهي براعة البارودي في بعث (المدائح النبوية) بعد أن طال عليها الموت، ولهذه المسألة تفاصيل يضيق عنها هذا المجال

أما بعد فهذه ملاحظات لم يكن منها بد، لأن مقدمة الدكتور هيكل ستكون أساساً لدرس ديوان البارودي، ومن واجبنا أن ننبه المتسابقين إلى ما يوجه إليها من

الاعتراض، ليكونوا على بينة من مكاسر ذلك البحث الدقيق
وقد بقيت مآخذ لا تستوجب المسارعة إلى التنبيه، ولعلها تدق عن أفهام طلبة السنة التوجيهية، أما محاسن المقدمة التي كتبها هيكل باشا فهي أظهر من أن تحتاج إلى بيان
لم يبق إلا النظر في المقرر للمسابقة من أشعار البارودي، فإلى الأسبوع المقبل
زكي مبارك
البحر. . .
(البحر لا ينام وفي يقظة البحر تعزيه لروح لا تنام)
(جبران)
للدكتور حسن عثمان
مدرس التاريخ الحديث بكلية الآداب
ضاقت نفس الشاعر بالأرض اليابسة التي تزدحم بالمدن، وتعج بالحركة، وتضيق بالتقاليد، وترهق بالأوضاع والمظاهر، فانطلق إلى الماء الفسيح، إلى البحر الطليق، يلتمس عوناً وملاذاً. وأقترب منه رويداً رويداً وهو يشخص ببصره إلى زرقته من بعيد، وصوت أمواجه المتلاطمة يعلوها الزبد يضرب في أذنيه، ورائحة البحر الملحة تملأ صدره، ورياحه تتخلل غصون الشجر، فتهتز وتتمايل، وتخرج منها أصوات تجاوب أصداء البحر. وأخذ الشاعر يطيل السير وحيداً على شاطئه دون أن تسمع صوت أقدامه، وهو ينظر مطرقاً إلى هذه الأمواج تصطفق ثم تنساب على الشاطئ. ويتأمل ويفكر ويحلم وينعم الطرف فيما هو قريب وفيما هو بعيد، إلى أن يضيع نظره فيما وراء الأفق، في رهبة وسكون
ثم يقطع تفكيره وسكونه أصوات حوله فيتلفت، فإذا به يرى أنماطاً من زبانية البشر، من عبيد الأرض، يهرعون إلى البحر لكي يطفئوا نيرانهم، ويطهروا نفوسهم من الآثام والخطايا. ويلمح الشاعر في ناحية قصية نفوساً هالعة وقلوباً دامية تصرخ من أعماقها في الظلام. . . فيسارع إليها ويدرك شكاتها لأول نظرة. . . فتثير في نفسه كل هذه الرؤى كوامن الشجن، وتهتز مشاعره، وتنهمر دموعه الملحة الساجيات غزيرة مختلطة بماء البحر المالح. ويحس البحر الواسع الرحيب هذه النيران، ويلمس تلك الخطايا والأشجان، فيقبلها ولا يلفظها. ويطهر الآثام، ويأسو الجراح
وترك الشاعر مكانه واعتلى ظهر سفين مطوفاً إزاء الشاطئ فشاهد صور اليابسة وألوانها. فهذه رمال وكثبان صفراء، تعلوا من بينها باسقات النخيل، وتنحسر عنها مياه البحر الزرقاء؛ وتلك جبال شاهقات تكللها الخضرة، وأخرى صخور جرداء شامخات توازن
بارتفاعها عمق البحر؛ وأولئك هم الصيادون والغواصون يجمعون اللآلئ والمرجان والأصداف والأعشاب من كنوز البحر وعجائبه؛ وهاتيك الطيور البيضاء تهبط إلى سطح الماء تلتقط الأسماك كانا تشكو عصف البحر، فتعلو في جوف الطيور إلى الفضاء؛ وهذه الجزر وتلك الصخور المتناثرة تحيطها مياه البحر، وتتكسر حولها أواذيه، ويتصاعد، على جنباتها رشاش الماء الأبيض؛ وهنا ينبثق نور الفنار المتألق، يشق حجب الظلام الحالك، ويرسل شعاع الأمل وسط الضباب الكثيف
ويبتعد السفين صوب البحر قليلاً قليلاً حتى يختفي الشاطئ عن البصر، ويتهادى أياماً وليالي طوالاً والأفق كله ماء وبحر، تلونه أطياف الشمس وأعماق البحر؛ فهو أزرق داكن، وطوراً أغبر مصفر. ويمر السفين فوق جوف البحر. إن قاعه أرض وصخور ووديان وجبال وبراكين وقارات وعوالم ساكنة ومتحركة في أعماقه منذ الأزل. إنه عميق جداً. لا يصل الإنسان إلى قراره. ولا يعلم أحد كل ما طواه في صدره. ما الذي طواه بالأمس، وما الذي سيطويه في الغد.
إنه يحمل الأطفال من البشر فوق سطحه الفسيح في رفق وحنو. إنه يجول بهم ويستقبل الشمس إذ تبزغ في الصباح وترسل نورها فوق محيطه الواسع، وتغرب عند الأصيل وهي تودعه بأشعتها الأرجوانية. وفي الليل الصافي الساكن تتلألأ السماء بالنجوم البراقة، ويبدو القمر هلالاً ساطعاً خلال السحاب الخفيف، فتنعكس أشعته الفضية على صفحته اللامعة، والنسيم يلمس أمواجه المهتزة المتلاقية. إنه هادئ وادع أليف. إنه يطرب. إنه يبتسم وينشد ويترنم.

وفجأة يكفهر الجو، وتتلبد السماء بالسحب، ويومض البرق نذير العاصفة، وتشتد الريح، ويقصف الرعد مدوياً، ويدفع الإعصار أمواج البحر شاهقة تطاول السحاب، ثم تعود فتنكسر وتهوي على صفحته الصاخبة. إنه غاضب. إنه ثائر عنيف. إنه جبار. إنه يدوي بصوته الغاضب إلى عنان السماء. إنه رائع. إنه هائل جداً. إنه يطوح بالسفن فوق سطحه، ويقذفها عالية فوق أمواجه، ثم يهبط بها في لجته السحيقة. إنها ألاعيب تحمل طرزاً من الكائنات ترتدي أثواباً زرقاء وحمراء وصفراء. إنها دمى يمحو البحر ما بينها من قرون اليابس، ويذيب عنها خيلاء الأرض. وكلها تتساوى وتصغر وتتضاءل أمام جبروته. ويفرق واضحاً أمامها الحد بين الأمس المعلوم وبين الغد المجهول، فتتأرجح كلها بين الحياة والموت في لحظات رهيبة. . . ونبتون يطلق ضحكاته في الفضاء ساخراً!. . . ثم تنجلي العاصفة، وتسكن الريح، ويعود البحر هادئاً وادعاً أليفاً، ويداعب هذه الخلائق التي أرهقها غضبه وثوراته. . . وحينئذ تثوب النفوس إلى رشدها، وتعرف القلوب دناءة الأحقاد وصغارة المطامع، وتنقشع عن البصائر غشاوة الباطل وزور البهتان

أيها البحر العريق! يا أبا الأرض ويا أصل الوجود ويا معلم الإنسانية. . . أيها الحاجز بين القارات، أيها الواصل بين العوالم، يا من أجرت سحبك انهار الأرض، وأقامت أمطارك معالم المدنية. . . ويا من على سطحك جرت الفلك تحمل ثمار الحضارة. . . ويا من شهدت أعطافك جولات القراصنة، وسجلت أمواجك التحام الأساطيل. . . ويا من خشعت مياهك فأفسحت الطريق لبني إسرائيل ثم أطبقت على آل فرعون من القوم الظالمين. . .!

أيها البحر العظيم! لقد عبدك الأقدمون، ورسم أطيافك المصورون، وردد صدى أنغامك الشعراء والموسيقيون. . . انك هادئ صاف رائق. إنك ثائر عاصف عميق. إنك جميل أزرق. إنك مانع جامع. يقرأ الشاعر على صفحتك ما لا يسطره القلم، وما لا يقرأه الأميون من الناس. إنه ينصت إلى أساطيرك وقصصك. إنه يستلهم معانيك ووحيك، ويبهره جمالك وجلالك، فلا يطيق النظر إليك، ويغمض العينين دونك، وتشيع في نفسه رائحتك، وتمر في خياله ذكرياتك وصورك

حسن عثمان

مواسم الأدب

للأستاذ كرم ملحم كرم

يوم لنا ويوم علينا. هذا حال الأدب؛ فلا بد فيه من يقظة وهجعة. والأدب وليد الحس، والحس تتفق له حيناً وثبات يصاول بها الفلك، ويدهمه حيناً سكون تغلب عليه فيه نومة. . . ضجعة الموت أهنأها!

فكأن للأدب مواسم يشع فيها ويكشف عن جبينه وقد دانت له مغلفات الوحي، وتفتحت عليه سموى الإلهام. كأنه يتقلب بين سعود ونحوس؛ فيضيء نجمة وقادة ليخبو كمصباح عطش إلى الزيت. فما إن تعصف به الغاشية حتى تذهب باليانع من أطايبه، والنامي من أغصانه؛ ويحييه غيث ندى فيتلألأ بسخاء، ويزكو بسماح، ويعلو أبداً فيطول عين لشمس وينفذ إليها ساطعاً منها على الدنيا، مالئاً كل زاوية وهجاً وسنى!

ولقد بحثت عن الأدب فما اهتديت إليه بغير أبواب الملوك، وانه ليجالس الملوك؛ يهشون له فيبش لهم، ويصدون عنه فيغمز بهم. فإن يهبوا له العطايا ينفحهم ببدائعه، وإن يمسكوها عنه وينتضوا في مقاتله سيفاً حديداً يناهضهم بلسان أمضى من القاطع الفتاك

وما هي عطاياهم تجاه بدائعه؟. . . عطاياهم تذوب ونفائسه تبقى؛ عطاياهم تذوب لا تنبت على الأيام، على حين أن نواجبه تفل من عزم الأبد، ولولاه، لولا ما يخلع عليهم من مديح، لتناست الأجيال المتعاقبة معظمهم؛ وحتى أهاجيه تمد آجالهم، فيصونهم الخلود، لكون الأدب تغنى بمآتيهم، أو أحسن النيل منهم وأبى على الزمن أن يبيد آيات سمت عن التلاشي والاضمحلال

بيد أن فضل الأدب على الملوك لا يمحو فضل الملوك على الأدب. فما بلغ الأدب أشده، بل هو لم يتنفس وتختلج فيه الحياة المطمئنة الوضيئة، لولا أن هؤلاء الملوك يغذونه بعطاياهم، وتوحي به مجالي الأبهة والجلال في معيشتهم وسكناهم. فالمهابة والندى من باعثات الوحي وحوافز البيان. فلا بد لمن تكمن فيه آيات البلاغة أن

. . .يحسسهما ويبوح بما يجيش في نفسه من إعجاب وإجلال
فالتاج والصولجان ينطويان على عظمة ملموسة تفتق العاطفة على جمودها، وتستل من أعماق القلوب الكلام المجنح والمنطق الحلال. فيفيض الأديب الموهوب بالبيان الصافي،
وينتزع المعاني من مخابئها؛ بل هو يغوص عليها في مظانها يجلو بها العقد النظيم ويدفعه أنيق الصياغة، ساطع الجبين!
وقد تندفع إليه هذه المعاني عفواً، دون ما كد ذهن ولا إجهاد نفس. فالعظمة المنبسطة أمامه بسلطانها وبهائها تبعث في لبه القوة على توليد كل معنى جليل ليعادل بنسخ بيانه المشهد السامي المتعة، المحفوف بالنعمة، المتوهج في عينيه والملك الضليل نفسه لم يبلغ مكانته الشامخة في أدب الضاد لو لم يعش في أحضان ملوك، ويستنشق في بلاط أبيه شميم العزة، ويلمس بيديه فخامة السلطان. فأقبل إلى ساحة الأدب مثقلاً بفخفخة الملوك، وكان أدبه صدى هذه الفخفخة البعيدة اللمعان المجلببة بالنعمى، اللينة الجانب، المكينة البنيان
وامرؤ القيس، الملك الضليل، في طليعة موكب الأدباء في لغة الضاد. فما لقي الأدب بيانه المنشور في سوى بدائع ذلك الفتى وقد جمحت به العاطفة فانطلقت من كبده حافلة بالقول الشهي والصوغ المحكم الأداء. وتوالت من بعده السلسلة حلقة حلقة، وكلها تنم عن طيب أصحاب الجلالة، أو من يستوي في معاقلهم من أصحاب الجاه الوسيع، والظل المأنوس؟
ومن أنطلق بالأدب المصفى المتلمس، وابن أخته طرفة بن العبد، وابن كلثوم، وابن حلزة اليشكري سوى الملك عمرو بن هند؟. . . فإن هذه القافلة من أدباء العهد الجاهلي مدينة لابن هند في الإبداع في النظم والإنشاد. وأنى لابن كلثوم أن يسمعنا معلقته التياهة:
إلا لا يجهلن أحد علينا ... فنجهل فوق جهل الجاهلينا
لولا عمرو بن هند الملك الأثيل المجد الأبلج المنتمي؟
وهذه الشعلة المتأججة في منظوم النابغة الذبياني، أين كنا نجدها لولا النعمان بن منذر، أبو قابوس؟. . . فالنابغة لم يسحب في أبياته وقوافيه ذيل الدل والإعجاب لولا هيبة السلطان وعاصمة الجليل:
فإنك كالليل الذي هو مدركي ... وإن خلت أن المنتأى عنك واسع
ومثله لبيد. فالنعمان مهد له السبيل إلى النظم والإجادة وهو في سن تقصر عن البلوغ. فطعن في حضرة صاحب السلطان على الربيع بن زيادة العبسي طعنات دامية أزاله بها عن مكانته السامقة وقد صاح بالنعمان والربيع يؤاكله:
مهلاً، أبيت اللعن، لا تأكل معه!
ولن ننسى ابن أبي سلمى، زهيراً، صاحب الحوليات القائل:
سئمت تكاليف الحياة، ومن يعش ... ثمانين حولا، لا أبالك يسأمِ
فإن عليه لهرم بن سنان يدا في إفاضة النظم وفي تذيل المعاني الحسانَ:
تراه إذا ما جئته متهللاً ... كأنك تعطيه الذي أنت سائله
والأعشى. ماذا نقول في الأعشى المتكسب، جواب الآفاق؟
أما أقام بباب الأسود، أخي النعمان، يغالي في المدح ويسأل العطاء - واللهُّي تفتح اللهَّا؟
هذا في العهد الجاهلي. ولقد كان العهد الإسلامي في مستهله أمضى حافز على النظم والإبداع. فالدعوة الإسلامية بحاجة إلى من ينادي بها، ويذيع فضائلها، والخصوم يتألبون عليها. فانتصب المنافحة عنها حسان بن ثابت الأنصاري. واعتمده النبي العربي في الكفاح. وأسمعنا كعب يتيمته:
. . .باتت سعاد فقلبي اليوم متبولُ
وطاف الخطيئة بالأبواب يستندي ويستجدي. ومن أمسك عند يده هدده بقحمات لسانه؛ فأنجده في الجاهلية أبو سفيان، وأجزل له في الإسلام العطاء عمر بن الخطاب، فابتاع منه لسانه بثلاثة آلاف درهم لئلا يطلقه في سب المسلمين لا يخشى، ولا يتحامى فحش القول والتهشيم
ونبض العهد الأموي بالحياة، فإذا الأخطل يبدو ويقبل في أثره الفرزدق وجرير. ثلاثة

معاول للهدم ودك المشمخرة. وبسط معاوية يده في استمالة الأدباء فكان للأدب في عهده موسم خصب وسوق نافقة. فكل من أحس في نفسه ميلاً إلى الأدب تبع ميله وماشى هواه. فالعهد بات عهد نظم وخطابة وإنشاء، يمدح الأدباء معاوية ويزيد ابنه فتمتلئ أيديهم بالعطايا النفيسة، ويغنم الخلفاء ويكسب الأدب!

ولم يعدم هؤلاء الأدباء ساعات للهو يبيحون فيها للنفس سجيتها وينطقون بما ينتفض في قلوبهم من عاطفة مشبوبة وهوى دفين. فيحدثنا الأخطل عن حبه للكأس واستماتته بابنة العنقود وينسب جرير بفاتنته أم عمرو وقد سلبته صفاء القلب؛ وتسبيه حور العيون، فما يتمالك أن يقول:

يقتلن ذا اللب حتى لا حراك به ... وهن أضعف خلق الله إنسانا

ويفضح الفرزدق فسقه في مقاله:

. . .هما دلتاني من ثمانين قامة

وهو هو القائل في زين العابدين، حفيد علي بن أبي طالب:

هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله ... بجده أنبياء الله قد خُتموا

والقصيدة من اسمي المنظوم، وهي في المدح لا عديل لها، فمن أوحى بها؟. . . أبن بنت النبي، ملك من سلالة ملوك وإن هم ناموا في مطلع نهضتهم عن التاج والصولجان

وعظمة سحبان وائل، الخطيب البليغ اللسان، أين تجلت في أبهى جلالتها؟. . . أليس في بلاط معاوية الأول؟. . . وبيان عبد الحميد الكاتب أين سما؟ في بلاط الخليفة الجعدي، خاتمة الملوك الأمويين!

وزحزح العهد العباسي لثامه فإذا أبن المقفع في خدمة أعمام الخليفة، وإذا الخليفة العباسي الثاني يدعوه إليه ويكلفه نقل الكتب الأعجمية الذائعة الصيت إلى لغة الضاد. وهكذا نعمنا بكليلة ودمنة، أنقى مثال للأدب الوزين!

واتسع المجال في منتدى الخلفاء لكل ناظم وكاتب. فقام أبو دلامة وأبو معاذ الأعمى بشار بن برد، في بلاط المهدي.

واشتد الإقبال على الأدب. ولم يكن بيت المال في بغداد دون بيت المال في دمشق، فتألفت المدارس الأدبية، وبدا المنشئون في سطوة وهناءة. فالعباسيون شاءوا أن يبزوا الأمويين في العلم وبث الدعوة. وما خلا الجو للرشيد حتى أصبح أدب الضاد مشعل هدى، وكان قد أضاء في سمائه الخليل بن أحمد، وأبو نواس، وأبو العتاهية، والأصمعي، وأبو عبيدة، وسيبويه، والجاحظ، والكسائي. وجاء المأمون فإذا أوسع نهضة أدبية في لغة الضاد تتجلى. فما شهدت لغتنا عهداً فواحاً خصباً في الأدب والعلم كعهد المأمون!

وقبض المأمون فقامت دولة أخيه المعتصم. وفي كنف المعتصم لمع أبو تمام. وكان المتوكل فنبغ في رحابه الشاعر البحتري. وانتهى الموكب إلى المتنبي فتلظت مواهبه في حمى

الملوك، ولا سيما في بلاط سيف الدولة الحمداني

وما شذ الأدب في الأندلس عن القاعدة. فعاش في ظلال الملوك وانطفأ بانطفاء الملوك، مثله في دمشق وبغداد. فما إن تنقضي الدولة حتى يأوي إلى المضجع. ولقد طال هجوعه نحواً من ستمائة سنة، فلم يتنفس بسوى انتظام اليازجي الأول في ديوان الأمير بشير الثاني حاكم لبنان

وكان قد بعث في وادي النيل في عهد محمد علي. وبلغ أوجه في دولة عباس حلمي. وقد زانه شوقي وحافظ وإبراهيم اليازجي ونجيب الحداد وولي الدين يكن ومصطفى لطفي المنفلوطي بأبهى حلل البيان. وإنه ليتهادى اليوم في خطوة متفيئاً دوحة أبناء محمد علي الباذخة. فكأنه يستطيب أبداً صحبة الملوك. فلا تقوم له قائمة في سوى جنابهم، ولا تتقد فيه العزيمة وتلتهب الحياة إلا وهو يجالسهم. فموسمه موسمهم، كأن دولتهم دولته، وكأن أبناءه أشباه لهم وأنداد!

(بيروت)

كرم ملحم كرم

جميل نخلة المدور

1862 - 1907

للأستاذ كوركيس عواد
(تتمة ما نشر في العدد الماضي)
4 - مؤلفاته
الذي لم يقف على شيء من ترجمة المؤلف قد يظن أنه رجل عراقي، وهذا أمر متوقع! فإن جميل نخلة المدور، عني عناية خاصة بتاريخ العراق، وخدمه خدمة مشكورة يحفظها له التاريخ على مدى الأيام، ويقدرها له أبناء العربية حق قدرها، وعلى الأخص أبناء العراق منهم
فلقد قضى ردحاً من حياته في تدوين تاريخ العراق قبل العهد الإسلامي وبعده بكتابيه: (تاريخ بابل وأشور)، (حضارة الإسلام في دار السلام) اللذين سنخصهما بجزء من كلامنا في ما يلي من هذا المقال. ودونك لمحة عن كل مؤلفاته:
1 - تاريخ بابل وأشور
لا نغالي إذا قلنا إن (تاريخ بابل وأشور) هو أول كتاب ظهر من نوعه في اللغة العربية! والذي نعهده، أنه لم تشهد العربية منذ صدوره حتى يومنا هذا سوى كتابين في هذا الباب: أحدهما (تاريخ كلدو وأثور) للعلامة المأسوف عليه السيد أدي شير. وثانيهما رسالة بعنوان: (مقالة في مملكة أثور) للعلامة البطريرك رحماني. ولم نهتد إلى غير هذه التصانيف الثلاثة باللغة العربية مما يتعلق بهذا الموضوع الواسع النطاق. مع أن الكتب الموضوعة فيه باللغات الإفرنجية تكاد لا تحصى لوفرتها!
على أن الجميل نخلة المدور فضل السبق في هذا الميدان، فقد نشر كتابه أولاً في مقالات ظهرت على التوالي في اثنين وعشرين جزءاً من المقتطف. ثم جمعت تلك المقالات في كتاب خاص طبع ببيروت في المطبعة الأميركية سنة 1879 في 62 صفحة. ثم جدد طبعه بمطبعة الفوائد ببيروت سنة 1893 في 128 صفحة
ولا نرى للتعريف بهذا الكتاب خيراً من أن نقتبس من مقدمته الفقرة التالية على لسان مؤلفها:
(وألفت هذا الكتاب في تاريخ أشور وبابل، وقد جمعته من أشهر أقوال المؤلفين . . . في هذا الأوان، مما وصلوا إلى تحقيقه بعد شهادة الاختبار والعيان، وقسمته إلى قسمين: أحدهما جغرافي يبين الحدود والمساحات، والآخر تاريخي ذكرت فيه ترجمة من اشتهر من ملوكهم وعظمائهم، وما اشتهر لهم من الفتوحات وعظائم الأعمال إلى حين انقضائهم. . .)
وهذا الكتاب (وقف عليه اللغوي الشيخ إبراهيم اليازجي فهذب عبارته وصحح مبانيه، فجاء نقيا من الكلف، بريئا من الكلف، قريب اللفظ على بعد مرامه)
وكم كنا نود، لو أشار المؤلف إلى المراجع التي استند إليها في تصنيف كتابه، التي نظنها كانت بالفرنسية، لإجادته هذه اللغة على ما أسلفنا الكلام عليه
وقد وقفنا منذ زمن على بحث للعلامة الأب أنستاس ماري الكرملي عنوانه: (سلوان الأسرى في إيوان كسرى)، فيه نظرات نقدية صائبة للأعلام الواردة في هذا الكتاب، وجهها بشيء من العنف، إلى مؤلف الكتاب، أو بالأحرى إلى مصححه اليازجي
ومهما يكن من أمر فان مباحث الكتاب أضحت في وقتنا هذا قديمة لا يركن إليها، نظراً إلى ما دخل هذا (التاريخ) من الحقائق الجديدة التي هي ولا مراء وليدة علم الآثار. ولا يخفى أن هذا العلم قد أحرز تقدماً مدهشاً في مختلف الميادين خلال هذه المدة التي أربت على الستين سنة! فإذا تركنا هذه الملاحظة جانباً وجدنا في الكتاب بعد ذلك دليلاً واضحاً على ما كان عليه ذلك العلم قبل أكثر من نصف قرن؟ وفي معرفة ذلك فائدة جليلة لمن يبغي دراسة تاريخ العلوم
2 - أتالا
صنف هذه القصة الخيالية الكاتب الفرنسي الشهير شاتوبريان سنة 1801 م باللغة الفرنسية وهي رواية انتزعها المؤلف من كتابه (عبقرية النصرانية)، ولم يكن يومئذ قد أكمله. والحادث الذي تدور عليه الرواية ورد في أميركا الشمالية، وذلك أن (شكتاس) أسره جيل من الناس كان عدوا لرفاقه فحكم عليه بالإحراق، وكانت (أتالا) ابنة الزعيم الأقوى للقبيلة المعادية، فعشقت الأسير وخلصته في الليل وفرت به إلى القفار. أما وصف المؤلف لم انتاب العشيقين من الخوف والأمل والحب ووخز الضمير الذي كان يعذب هذين الفارين

الطاهرين، فمن القطع الأدبية الرائعة! ففي هذه القصة المؤثرة التي وصف فيها الغرام وصفاً بليغاً أوحى شاتوبريان إلى أوربة بعالم جديد. فقد ذكر البحيرات العظيمة والحراج الأبكار التي تغشى أميركة الشمالية، ثم انتقل إلى وصف قبائل هنودها وعاداتهم وأخلاقهم ومعتقداتهم، وبين ما بين الحياة الهمجية والحياة المدنية من التضاد، فزاد ذلك بما في الرواية من الإفادة

وقد نقلها جميل نخلة المدور إلى العربية، وطبعها في بيروت سنة 1882م والذي نعرفه أن لهذه الرواية ثلاث ترجمات عربية اقدمهن للخوري عيسى بترو الأورشليمي الرومي، ومن هذه الترجمة نسخة خطية في خزانة باريس الوطنية 3680، والثانية لجميل نخلة المدور، والثالثة لفرح أنطون، وقد طبعت هذه الأخيرة في نيويورك سنة 1908 في 8 + 48 صفحة

التاريخ القديم - 3

هذا الكتاب مختصر في التاريخ، لم يعلم مؤلفه الذي جمع مواده من مراجع مختلفة، مبتدئاً به بسنة 4963 قبل الميلاد، ومنتهياً به بسنة 395 للميلاد، وقد رتبه على مقدمة وثلاثة كتب ينطوي كل منها على فصول، وسار فيه بحسب السنين

نقله جميل نخلة المدور إلى العربية، وطبعه في بيروت سنة 1895 في 356 صفحة

حضارة الإسلام في دار السلام - 4

هذا هو أسمى مؤلفات جميل نخلة المدور، وأعظمها شأناً، والقطب الذي تدور عليه شهرته. فقد ألفه بطريقة ربما لم يسبقه إليها أحد في اللغة العربية اشتغل في تصنيفه زهاء العشر سنوات. فقد نشر منه فصلاً في المقتطف سنة 1880 بعنوان (البصرة في خلافة المنصور). فوطأ محرر المقتطف حينذاك لهذا الفصل بالكلمة التالية:

(هذه النبذة من كتاب قد باشر تأليفه الشاب اللبيب جميل أفندي المدور. . . (إلى أن قال): فنطلب له تمام التوفيق إلى إنجاز هذا الكتاب الذي لا تحصى فوائده ولا تثمن فرائده)

ولم تظهر الطبعة الأولى لهذا الكتاب إلا في سنة 1889 م

وهنا ندع القول للمؤلف يفصح لنا عن الطريقة المثلى التي سلكها في تصنيف هذا الكتاب

قال في المقدمة:

(هذه رسائل، وضعت فيها عصراً من عصور الإسلام قد أشرق به نور العلم، وجرت فيه أعمال عظيمة قام بها رجال كبراء ملئوا العالم بآثار جمالهم، وجعلت الكلام فيها لرحالة (فارسي) طوَّفته معظم البلدان الإسلامية في المائة الثانية للهجرة وطوقته مناصب الدولة برعاية البرامكة إلى أن نكبهم الرشيد. . .)

فالكتاب رسائل تبلغ العشر عداً، كتبها الرحالة الفارسي الخياني من سنة 156 إلى سنة 187 للهجرة؛ وقد سطر الأولى وهو في النهروان سنة 156، والثامنة وهو في بحر تونس سنة 186، والتاسعة وهو في المشاعر المباركة سنة 186 أيضاً. أما الرسائل السبع الباقيات فقد كتبها وهو في بغداد

وقد لخصه من خمسة وثمانين تصنيفاً تعد بحق من أسمى المؤلفات العربية القديمة الباحثة في علوم الدين واللغة والبلدان والأخبار والأدب وغير ذلك. وما لابد من ذكره هو أنه لم يدون حقيقة أو يسطر قضية إلا اسندها في الحاشية إلى المرجع الذي أخذها عنه، وأشار إلى الصفحة في كل مرة ينقل من هاتيك المؤلفات الخمسة والثمانين التي ألمعنا إليها. وفي هذا من المشقة ما لا يدركه إلا الذين عانوا مثل هذا التلخيص في كتاباتهم

ومن يطالع هذا الكتاب، يدرك أن الغرض من وضعه إظهار طرف من مآثر العرب ومفاخر الإسلام أيام هارون الرشيد والبرامكة. فهو يكشف للقارئ ما كان عليه القوم من علوم وآداب وعادات ومتاجر في بغداد وغيرها من البلدان. أضف إلى ذلك انه موضوع على منوال رحلة لرحالة متفقه بالعلوم والآداب المعروفة في ذلك الزمن، فهو يصف المدن والمعابد والمشاهد والمباني والسفن والموانئ وهيئات الملوك والوزراء والعلماء والشعراء والمغنين وغيرهم من الرجال، ويبين ما كانت عليه طباعهم وميولهم وأفعالهم كما وصفهم الواصفون من أبناء زمانهم المعاصرين لهم

وفي الكتاب، من الفكاهات والنوادر والأخبار المحققة والآراء الصائبة، ما تقر به العين

وترتاح إليه النفس، لأنه جاء فيها بألفاظ مستعذبة وعبارات بليغة
فهذه المزايا أهابت - على ما نظن - بوزارة المعارف المصرية الجليلة إلى طبعه
وجعله كتاباً للمطالعة، ولنعم ما فعلت!
وقد أبدى أحد الكتاب ارتياباً في صحة نسبة هذا الكتاب إلى جميل المدور، فقال: (. . .
وكان الشيخ إبراهيم اليازجي يصحح له (أي يصحح لجميل) ما يكتبه، وفي أصحابهما
من يرى أن حضارة الإسلام لليازجي، وأنه نحله جميلاً في أيام إدقاع الأول وإثراء
الثاني!)
غير أننا لا نميل إلى هذا الرأي، ولا نرى فيه ما يحملنا على تصديقه، لأن كتاباً ينفق من
العمر في تأليفه نحو من عشر سنوات مما لا يجوز أن ينحل، خاصة وأن الشيخ إبراهيم
اليازجي لم يكن بتلك الدرجة من الفاقة التي تدفعه إلى مثل هذا البذل العظيم!
خاتمة - 5
هذه هي مؤلفاته المطبوعة التي بوسع القارئ أن يرجع إليها إن شاء. ولديه تآليف
غيرها لم تطبع، ولم نقف على شيء من أمرها سوى ما ذكره العلامة الأب شيخو من
أن لجميل (في بيت أهله مخطوطات متفرقة أدبية وتاريخية وروائية)
ومما ورد في نهاية مقدمة كتاب حضارة الإسلام في دار السلام قوله:
وقد عقدت النية، إجابة لرغبة علماء المسلمين، ممن تفضلوا باستحسان هذا . . .)
الكتاب، على متابعة سرد التاريخ الإسلامي في شكل هذه السلسلة من الروايات،
وتنسيقها في مثل هذا السمط من درر الآيات البينات. . .)
والذي يؤسف له أن تلك النية الحسنة لم تتحقق. ولا نرى السبب في ذلك إلا اشتغاله
بأمر الصحافة، أو إلى أن يد المنون امتدت إليه فأخترمته! ونحن واثقون من أن أمنيته
لو كانت قد حرت مجرى التنفيذ لكنا نتمتع اليوم بذخائر كنز ثمين من الكتب ونرفل
في جنة من الأدب فيها من كل فاكهة زوجان.
(بغداد)
كوركيس عواد
شخصيات تاريخية
تيموستوكل - 5
للأستاذ محمد الشحات أيوب
مدرس التاريخ القديم بكلية الآداب
قضى تيموستوكل البقية الباقية من حياته وهو يعمل على تنفيذ
هذه السياسة، ويكاد يكون هو الوحيد الذي سار في هذا
الطريق، فهو لا يألو جهداً إلا بذله للنكاية بالعدو اللدود وهو
إسبرطة، ولن الشعب الأثيني تخلى عنه ولم يسايره، إذ داخلته
الشكوك من ناحية، فخشي خطره واصبح يعتقد أن له مأرباً في
تنفيذ هذه السياسة، لذلك كان وحده دون معين ولا نصير في
هذه الفترة الأخيرة من حياته وهي الواقعة بين معركة سلامين
ومماته (من 480 في 464363 تقريباً)
قضى تيموستوكل هذه الفترة شريداً طريداً حتى لم نعد نسمع
عنه كثيراً، بحيث تكاد تكون هذه الحقبة من تاريخ حياته
غامضة، هي غامضة لقلة الوثائق التي تتكلم عنه وبالرغم من
هذه القلة نستطيع أن نتنسم الأخبار من بين السطور التي
كتبت عنها والتي توجد لدينا، فهذه الوثائق لا تتحدث عنه إلا
في فترات متقطعة، ولكنها على ندرتها، ثمينة جداً لأنها
تخبرنا عن تيموستوكل الشيخ لا يختلف عن تيموستوكل
الشاب. ألا يزال هو هو، كله حركة ونشاط، لا يعتريه اليأس
ولا يفل من عزمه عظم المهمة التي ناط نفسه بالقيام بها، فهو
لا يحجم عن الانتقال من مكان إلى مكان للدس ضد إسبرطة
والإيقاع بها أيما استطاع لذلك سبيلاً، فنراه حيناً في أرجوس
يعمل على قلب نظام الحكم الأوليجاركي وإقامة النظام
الديمقراطي مكانه، وحيناً آخر في دولتي إيليد وأركاديا. وهو

في كل البلاد يقوض من أسس النظام الأوليجاركي الذي يؤيد الدولة الإسبرطية ويشجع قيام النظام الديمقراطي لكي تكون عوناً للدولة الاثينية، وفي سبيل ذلك نراه لا يتردد عن اشق المهام، كتأليف اتحاد من المدن الأركادية لمحاربة إسبرطة، وينجح في هذه المهمة ولكن إسبرطة له بالمرصاد إذ تتمكن من إلحاق الهزيمة بهذا الاتحاد الأركادي وتتغلب عليه في موقعة ديبايا (عام472471ن. م)، فتفتح عينا تيموستوكل ويرى بوضوح كامل أن إسبرطة ما زالت قوية على بأس عظيم بحيث تستطيع التغلب على أعدائها، فيحاول أن يسلك سبيلاً آخر، إذ يسعى، بعد هذا الفشل الذريع، إلى النيل منها داخل حدودها وذلك بتقويض دعائم نظام حكومتها وإثارة المستائين ضدها من سكانها مثل البيرييك والهيلوث. ولتنفيذ هذه السياسة نجده يتقرب من شخص آخر يشبهه في المغامرة والجرأة وهو الملك الإسبرطي بوزايناس؛ ونجح في التفاهم معه على التآمر ضد الحكومة القائمة، ويعمل الاثنان للاتفاق مع ملك الفرس، ولكن المشرفين على الحكومة الإسبرطية وفقوا في الكشف عن هذه المؤامرة والقبض على بوزايناس، وقد ثبت لديهم أن تيموستوكل اشترك مع بوزايناس في التآمر ضد دولتهم، فطلبوا إلى أثينا معاقبته، وتلبي أثينا هذا الرجاء وتستدعيه من حيث كان يقيم. ويدلنا هذا على مبلغ كراهيته من الشعب الأثيني حينذاك، ولكنه لم يأبه لهذا الاستدعاء ولم يحفل به، بل ظل في الخارج، ونحن لا نعرف في أي مكان كان يقيم في ذلك الحين؛ ولكن كل ما نعرفه هو انه كان يهرب من مكان إلى آخر خوفاً من أن يقبض عليه ويحمل إلى أثينا فتفتك به إجابة لرغبة إسبرطة؛ أخذ ينتقل من بلد إلى بلد حتى ألقى به عصا التسيار إلى بلد عدو من أعدائه هو أديمبتوس ملك (المولوس) في شمال غرب اليونان، وقد كان عداء هذا الملك لتيموستوكل شديداً جداً. ولكنه استقبله وأضافه بالرغم من هذه العداوة الشديدة وهذا البغضاء المستحكم؛ لأن عادات الضيافة عند اليونان كانت قوية لا تبيح للشخص أن يطرد ضيفه ولو كان من ألد أعدائه؛ بل ولم يقبل هذا الملك أن يسلمه إلى أعدائه، وذهب إلى ابعد من هذا فشجعه على الهرب ونظم له الوسيلة وجهزه بكل ما يحتاج إليه من وسائل السفر، فتمكن له الذهاب إلى (بيدنا) في مقدونيا، ومنها يركب السفينة قاصداً آسيا لملاقاة ملك الفرس، ولكن زوبعة تهب على السفينة فتغيرها عن وجهتها حتى تصل إلى جزيرة تاكسوس في بحر إيجة فيحاول قبطانها الرجوع به إلى أثينا، ولكنه ما زال وراءه بالوعود الخلابة الجميلة حتى حمله على أن يتوجه به نحو مقصده، ووصلت السفينة آمنة سالمة إلى شواطئ آسيا الصغرى. وهناك نزل منها في هذه البلاد. وطئت أقدامه أرض (إيفيز)، فهل تظن أنه أخلد إلى الهدوء بعد ذلك؟ وكيف السبيل إلى هذا ولا وطن له الآن يتعلق به، ولا أرض يدافع عنها، بل هو شريد طريد؟ من اجل هذا صمم على مقابلة ملك الفرس ليرى ماذا هو فاعل به - وهنا يختلف المؤرخون في شخص الملك الذي قابله تيموستوكل، فيقول المؤرخ توسيديد أنه وصل إلى عاصمة الفرس حينما اعتلى أرتاجزرسيس العرش، ويقول المؤرخ فايناس ويوافقه على هذا الرأي بلاثارخوس إنه قدم نفسه ليوجزرسيس الذي طالما حاربه لا لأرياجزرسيس - وهذا الخلاف بسيط لا يمنع الحقيقة الواقعة

وهي أنه ذهب إلى عاصمة الفرس وقابل عاهل الفرس أيا
كانت شخصية هذا العاهل؛ وأن هذا قد أغدق عليه النعم
والعطايا وخلع عليه كثيراً من الهدايا وعينه والياً على بعض
المدن التي أخذ يسوسها حتى قضى نحبه وهو في المنفى بعيداً
عن وطنه وأرض آبائه وأجداده

هنا يختلف المؤرخون أيضاً في الطريقة التي مات فيها. فمنهم من يقول بأن ملك الفرس كلفه بقادة حمله لمحاربة الأثينيين في مصر، ولكنه رفض أن يخون وطنه لعدم استطاعته تلبية مولاه وسيده. ومنهم من يقول بأنه مات ميتة طبيعية في عاصمة ولايته ببلدة (ماجنيزيا) في شمال آسيا الصغرى بعد مرض لم يمهله كثيراً

ألا ترى إذن إلى خاتمة حياة هذا البطل العظيم، كيف انتهت على هذا النحو من المذلة والعار بعد أن كان قد وصل إلى قمة المجد وذروة الرفعة والسلطان؟ ألا ترى أن هذا من شأن العظماء، لا تسير حياتهم على وتيرة واحدة وإنما يعتريها الرفعة والانحطاط؛ فأنت لا يمكنك بعد ذلك أن تظن أن تيموستوكل قد خان وطنه، إذ لم يصل إلينا شيء يثبت أنه قام بعمل ألحق الضرر ببلاده، بل استمر مخلصاً لها وفياً أميناً، حتى أنه يرفض الذهاب في حملة إلى مصر لمحاربة أبناء وطنه، كما ذهب بعض المؤرخين مثل سبتزيمبروث فهو

وإن كان لجأ آخر الأمر إلى ملك الفرس فإنما كان ذلك اضطراراً منه، لأنه رأى وطنه يطارده في كل مكان راغباً الفتك به، فتخلص من هذا وهرب حيث قابل ملك الفرس الذي أغدق عليه النعم والعطايا، وشأنه في هذا لا يختلف عن شأن غيره من كبار اليونان الذين كانوا يضطرون إلى خدمة ملك الفرس حينما يرون بلادهم تنصرف عنهم وتسحب ثقتها منهم، ونحن بعد هذا لا نستطيع أن نعتبر التجاءه إلى الفرس خيانة منه لبني قومه، وإنما كان ذلك لرغبته في الحياة والإبقاء عليها. وكيف السبيل إلى كسب العيش ووطنه قد نفاه وشرده حتى أصبح لا يجد مكاناً يلتجئ إليه عند اليونان على سعة بلادهم وامتداد أطرافها. وقد يلومه بعض الناس على هذا الالتجاء إلى ملك الفرس ولا يبرئونه من تهمة خيانة وطنه، إذ لو كان بريئاً حقاً من هذه التهمة لقدم نفسه إلى المحاكم وهي تفصل في ذلك حتى ترجع الحق إلى نصابه، ولكن غاب عن هذا الفريق أنه لم تكن توجد محاكم في أثينا بالمعنى المعروف لدينا في الوقت الحاضر، وإنما كان الفصل في قضايا الخيانة العظمى راجعاً إلى الشعب وحده، ونحن نعلم ما كان عليه الشعب الأثيني من تهور واندفاع حينما تعرض عليه القضايا السياسية التي تتطاحن فيها المصالح وتتنازع عليها الأحزاب؛ كلا! لم يكن ذلك في استطاعة تيموستوكل ولم يكن هذا الالتجاء إلى ملك الفرس خيانة بالمعنى الصحيح، فهو يعتبر من غير شك خطأ ولكن لهذا الخطأ أسبابه ومبرراته التي تجعلنا لا نغلو في الحكم عليه. وكيف نغلو في الحكم على تيموستوكل وكلنا إعجاب بما قام به من أعمال يعجز عن القيام بها كثير من أفراد البشر؟ ألم يتعهد بلاده في وقت الخطر ويعدها خير إعداد للمعركة الفاصلة؟ ألم يحرز لها نصراً حاسماً أبعد عنها الخطر الفارسي إلى زمن طويل؟ ألم يكن هو من الأشخاص الرئيسيين الذين شجعوا على تكوين حلف ديلوس ونحن نعرف أن هذا الحلف تطور فيما بعد حتى أصبح إمبراطورية تعرف في التاريخ القديم بالإمبراطورية الأثينية البحرية؟ ألم يعمل بعد ذلك على التأسيس والإصلاح وإزالة الخرائب والأنقاض ببناء الأسوار وإقامة التحصينات، حتى أصبحت أثينا ومعها بيريه قلب بلاد اليونان بل ومركز الحضارة اليونانية حتى قال عنها بركليس (إنها أصبحت مدرسة اليونان جميعاً)؟ ألم يؤسس لأثينا هذا الأسطول البحري العظيم الذي جعلها دولة بحرية بعد أن كانت دولة برية والذي كان العماد الذي تعتمد عليه الإمبراطورية الأثينية؟ قام

تيموستوكل بهذه الأعمال الجليلة لأنه كان يضع مصلحة قومه في المكان الأول من اعتباره فيتناسى شخصه ومطامعه ويتجاهل حتى تنكر له قومه وبنو وطنه. كان إذن تيموستوكل من بناة مجد أثينا في القرن الخامس حتى يدعونا هذا إلى أن نضعه في صف كبار الآثينين، فهو لا يكاد يقل شأناً وأهمية عن زعيم آخر من زعماء الديمقراطية، وهو بركليس، وإن كان الناس قد أطلقوا على القرن الخامس عصر بركليس وأفردوا بركليس بهذه التسمية، فإننا نرى أنه يحق لتيموستوكل أن يدعى لنفسه شيئاً من هذا

الفخر والمجد فيطالب بأن يسمى هذا القرن عصر تيموستوكل وبركليس معاً.
محمد الشحات أيوب
المصريون المحدثون - 13
شمائلهم وعاداتهم
في النصف الأول من القرن التاسع عشر
تأليف المستشرق الإنجليزي ادورد وليم لين
للأستاذ عدلي طاهر نور
الحكومة - تابع الفصل الرابع
سبقت الإشارة إلى عمل الضباط، وهو الآن رئيس الشرطة. أما مخبروه الذين لا تميزهم ميزة، فينتشرون في أحياء العاصمة ويختلطون بالناس في المقاهي وكلهم عيون وآذان - وأغلبهم لصوص عفي عنهم - وهم يرافقون الحرس في دورته الليلية خلال شوارع القاهرة. ولا يسمح لأحد غير العمى بالتجول في الخارج بلا مصباح أو أي نور بعد غروب الشمس بحوالي ساعة ونصف. وقلما ترى سائراً بعد ساعتين أو ثلاث. ولا يكاد الليل ينتصف حتى تمر في العاصمة جميعها فلا تقابل أكثر من عشرة أشخاص أو عشرين خلا المراقبين والحراس وبوابي الحارات والدروب. وعندما يمر عابر سبيل يناديه الحارس بالتركية: (من هذا؟) فيرد المار بالعربية: (ابن بلد!) والحارس الخاص كذلك يصيح: (وحد الله) أو (وحد) فقط! فيجيبه السائر: (لا إله إلا الله). ولا يختلف النصارى عن المسلمين في هذا القول، فهم يفهمون التوحيد فهماً مختلفاً. والمفروض أن اللص أو من يشرع في مخالفة القانون لا يجرؤ على النطق بهذه الكلمات. وبعض الأشخاص يجيبون الحارس بصوت مرتفع: (لا إله إلا الله محمد رسول الله). ويستخدم الحارس الخاص لحراسة الأسواق والأحياء ليلاً، وهم يحملون (نبوتاً) ولا يحملون مصباحاً
والعادة أن يتجول الضابط، أو أغا الشرطة، في شوارع القاهرة. ويرافقه غالباً السياف والشعلجي، أي حامل الشعلة المستعملة ألي الآن. وهذه الشعلة تشتعل حال إضرامها فلا يصعد لهبها إلا حين تحرك في الهواء، عندما تضرم فجأة في الخارج. وهكذا تؤدي عمل مصابيحنا المعتمة. وقد يوضع على الطرف المشتعل إناء صغير أو جرة أو يغطى بشيء
آخر حين لا تلزم الإنارة. ويقال أن اللصوص كثيراً ما يشعرون بالشعلة في الوقت المناسب فيتفادون مقابلة حاملها. وعقوبة من يقابله الشرطي بلا نور هي الضرب. وقلما يحاول المقاومة أو الهرب. وكان لرئيس الشرطة سلطة مطلقة في ضرب عنق أي مجرم أو مذنب بلا محاكمة حتى ولو كان القانون لا يعاقبه بالإعدام. وكذلك كان له مرؤوسون كما سترى بعد. وقد ندر في السنوات الأخيرة مباشرة هذه السلطة. وأعتقد أنه لم يعد يسمح لهم بذلك الآن. ويقوم أعوان الضابط بدورتهم الليلية مع الجنود لأنهم أحسن معرفة منهم بمخابئ اللصوص والأشرار ومناهجهم. ويندر أن يباشر الضابط نفسه سلطة تخرج عن حد القرع أو الجلد.
كثيراً ما يتخذ رؤساء الشرطة وسائل غريبة مثل التي نراها في بعض قصص ألف ليلة وليلة لاكتشاف المجرم. وأذكر هنا حادثاً لا يختلف في صحته أحد على سبيل المثال. وسأرويه بالطريقة التي سمعتها: قصد ذات يوم رجل مسكين أغا الشرطة وقال له: يا سيدي، أقبلت إلي اليوم امرأة وقالت لي: خذ هذا القرص ودعه في حيازتك وقتاً وأقرضني خمسمائة قرش. فأخذته منها، يا سيدي، وأعطيتها الخمسمائة قرش وانصرفت. وبعد انصرافها قلت لنفسي: لأنظر إلى هذا القرص، وتأملته فإذا هو من النحاس الأصفر، فلطمت وجهي وقلت: سأذهب إلى الأغا وأقص عليه قصتي عسى أن يحقق هذه المسألة ويوضحها، فليس هناك غيرك من يستطيع مساعدتي في هذه القضية. فقال له الأغا: أصغ إلى ما أقوله لك يا رجل. أنقل ما في دكانك ولا تترك فيه شيئاً ثم أقفله، وبكر في الذهاب صباح اليوم التالي، وبعد أن تفتح دكانك صح قائلاً: يا حسرتاه على أموالي! ثم خذ في يديك مدرتين وأضرب نفسك بهما وصح: يا أسفا على أموال الناس! فإذا سألك أحد: ماذا حدث فقل له: ضاعت أموال الناس، فقدت رهناً كان عندي لامرأة، لو كان ملكي لما انتحبت هكذا. هذا كفيل بأن يكشف لنا الأمر. ووعد الرجل بتنفيذ ما طلب منه، فنقل كل ما في دكانه. وفي بكرة اليوم التالي ذهب

إلى دكانه وفتحه وأخذ يصيح: يا ويلاه على أموال الناس، وأخذ مدرتين وضرب نفسه بهما وجعل يدور في أنحاء المدينة صارخاً: يا حسرتاه على أموال الناس! ضاع رهن لامرأة كان عندي، لو كان ملكي لما أهمني. فسمعت المرأة التي رهنت القرص صياحه وتبينت أنه الرجل الذي خدعته، فقالت لنفسها: اذهبي وارفعي دعوى عليه، وذهبت إلى دكانه راكبة حماراً لتكسب نفسها أهمية وقدراً؛ وقالت له: يا رجل، أعطني ما لي عندك؛ فأجابها: ضاع، فصاحت: قطع الله لسانك! هل أضعت مالي؟ لأذهبن إلى الأغا ولأخبرنه بذلك، فقال لها: أذهبي! وذهبت إلى الأغا وسردت شكواها، فبعث الأغا في طلب الرجل. فلما جاء قال للمشتكية: مالك عنده؟ فأجابته: قرص من الذهب البندقي الأحمر، فقال الأغا: يا امرأة، عندي هنا قرص ذهبي أود أن أريك إياه، فقالت: أرينيه، يا سيدي، فأنني أعرف قرصي. فحل منديلاً وأخذ منه القرص الذي رهنته، وقال: انظري. . . فنظرت إليه وعرفته. . . فطأطأت رأسها. وقال الأغا: ارفعي رأسك وأخبريني أين نقود هذا الرجل؟ فأجابت: يا سيدي، إنها في بيتي. فأرسل معها إلى المنزل السياف مجرداً من سيفه، وعادت بكيس فيه النقود، وأعيدت الخمسمائة قرش إلى صاحبها. ثم أمر الأغا السياف بأخذ المرأة إلى الرميلة، وهي مكان فسيح مكشوف اسفل القلعة، ليقطع رأسها هناك ونفذ الأمر!

أما أسواق القاهرة والموازين والمكاييل، فتخضع لمراقبة المحتسب، وهو يجوس من حين لآخر خلال المدينة، يتقدمه عامل يحمل قسطاطاً كبيراً، ويتبعه الجلادون والخدم. وهو يمر على الدكاكين والأسواق واحداً واحداً، وأحياناً يتفقد واحداً هنا وواحداً هناك، فيفحص الميزان والأوزان والأكيال، كما يستفهم عن أثمان المؤن من مأكولات وغيرها. وكثيراً ما يستوقف خادماً ما يقابله صدفة في الطريق حاملاً مأكولات قد اشتراها، فيسأله عن ثمنها ووزنها. فإذا تبين له أن البائع استعمل موازين أو مكاييل مغشوشة، أو طفف الميزان أو زاد على سعر السوق، انزل به العقوبة في الحال. والعقوبة العامة هي الضرب أو الجلد. ورأيت مرة رجلاً تنفذ عليه عقوبة مختلفة لبيعه خبزاً ناقص الوزن: خرم أنفه وعلقت فيه كعكه بطول الشبر وبسمك عرض الإصبع، وجرد من ثيابه إلا قطعة من الكتان حول صلبه، وشد، وذراعاه خلفه وقدماه فوق قاعدة صغيرة، إلى قضبان شباك من شبابيك جامع الأشرفية في أهم شوارع المدينة، وبقي كذلك حوالي ثلاث ساعات معرضاً لأنظار الجمهور المحتشد وأشعة الشمس المحرقة

وكان ممن عين محتسباً - بعيد قدومي الأول إلى مصر - رجل كردي أسمه مصطفى كاشف، تولى سلطته بأقسى الطرق، فكان يقطع شحمة الأذن أو طرفها لجرم مهما صغر ولغير جرم. وفي مرة قابل رجلاً شيخاً يقود حميراً محملة بطيخاًفأشار المحتسب إلى واحدة من أكبرها حجماً وسأل عن ثمنها. فأمسك العجوز شحمة أذنه وقال: إقطعها يا سيدي! فأعاد عليه المحتسب السؤال مرة بعد مرة فكان الجواب واحداً. فاغتاظ المحتسب ولكنه لم يتمالك أن ضحك، وقال: (هل أنت مجنون أو أصم)؟؟ فأجاب العجوز: (لا، لست مجنوناً ولا أصم، ولكني أعرف إنني إذا قلت ثمن البطيخة عشرة فضة فستقول: (اقطع أذنه). وإذا قلت خمسة فضة أو فضة واحدة فستقول: (اقطع أذنه). لذلك اختصرت الأمر وقلت اقطعها ودعني أتبع طريقي). ولم ينجه إلا ما في تهكمه المفاجئ من فكاهة

كان قطع الأذن هو العقوبة العادية التي يوقعها هذا المحتسب، ولكنه اتبع أحياناً طرقاً مختلفة، فقد عاقب جزاراً باع لحماً ينقص عن الوزن الحقيقي أوقية ونصفاً بقطع هذا القدر من ظهره. أمر بتجريد بائع كنافة حصل على زيادة في الثمن تافهة من ثيابه ووضعه على الصينية النحاسية المستديرة حيث تسوى الكنافة وتركه كذلك حتى احترق احتراقاً رهيباً. وكان يعاقب الجزارين بوضع كلابة في أنوفهم يغلق بها قطعة من اللحم. وفي ذات يوم قابل هذا المحتسب رجلاً حاملاً صندوقاً كبيراً صفت فيه قلل فخارية من سمنود وهو يبيعها بوصفها من قنا؛ فأمر أتباعه أن يكسروا القلل على رأسه واحدة واحدة. وكان يظهر طغيانه خارج ولايته؛ ففي ذات مرة خطر له أن يرسل حصانه إلى الحمام، وطلب من صاحب حمام أن يعد العدة لاستقباله والعناية بتحميته وتنعيم جلده. فثقل على صاحب الحمام هذا الأمر العجيب وخاطر بأن قال أن أرضية الحمام من الرخام، وقد ينزلق لجواد فيقع؛ وقد يصاب ببرد عند خروجه، فيحسن لذلك

نقل ماء الحمام إلى الإسطبل حيث تباشر عملية الحمام. فقال مصطفى كاشف: (أنى أرى السبب غير ذلك. أنت لا تريد أن يذهب جوادي إلى حمامك). بعض خدمه أن يطرحوه أرضاً ويضربوه بالعصي حتى يأمرهم بالكف. ولم يأمرهم بالكف حتى مات المسكين

ولسنوات قليلة خلت كانت العادة أن يسعى بين يدي المحتسب عند طوافه بالمدينة لفحص الموازين والمكاييل، رجل معه ميزان أكبر حجماً من الميزان المستعمل. ويقال إن قب هذا الميزان كان أنبوبة مجوفة بها زئبق، فكان حامل الميزان يستطيع إذا عرف الذين رشوا سيده أن يرجح إحدى الكفتين بسهولة

ويشرف على الأسواق العامة المستخدمون المكلفون بمراقبة تجارة الباشا وصناعاته المختلفة. ووظيفتهم كوظيفة المحتسب سواء بسواء. وقد اشتهر بعضهم بارتكاب أرذل أنواع البغي والقسوة. وكان أحدهم ويسمى علي بك (ناظر القماش) إذا وجد أحداً يملك نولاً خاصاً أو صادفه يبيع ما نسجه، يشده في قطعة من هذا النسيج يغمسها في الزيت والقار ثم يعلقه هكذا على فرع شجرة ويوقد فيه النار، فأباد الكثير بهذه الطريقة الوحشية. وقد مات هو نفسه حرقاً في جم غفير أثناء انفجار مخزن بارود بمنحدر القلعة الشمالي سنة 1824. وقال صديقي الذي حدثني عن فظائع هذا الوحش: (عندما نقلتجثته لدفنها صلى عليها الشيخ العروسي شيخ الجامع الأزهر يومئذ في مسجد الحسين، وكنت أقوم بالتبليغ خلف الإمام، فلما نطق الشيخ بالدعاء ساد السكوت بين الحاضرين الكثيرين؛ ومضى الشيخ يقول: وكان من الصالحين، فلم يسمع لأحد صوت، فارتبك الشيخ وقال بصوت خافت: ليرحمه الله، ثم قال صديقي مواصلاً حديثه: الآن نستطيع أن نؤكد أن مصير هذا الرجل الملعون إلى جهنم، ومع ذلك لا تزال زوجته تقيم له ختمة في منزلها، وتوقد له كل ليلة شمعتين في مسجد الحسين!)

ولكل حي من أحياء العاصمة شيخ يسمى (شيخ الحارة)، وهو يباشر سلطته للمحافظة على النظام ولفض صغير المشاكل بين السكان ولطرد من يعكر صفو الجيران.

وتنقسم العاصمة إلى ثمانية أقسام يرأس كلا منها شيخ يسمى (شيخ النمن)

وكذلك كان لكل طائفة من الطوائف التجارية والصناعية المختلفة في العاصمة وفي غيرها من المدن الكبيرة شيخ يحكم في المنازعات المتعلقة بهذه التجارة أو الحرفة، ويصدق على قبول الأعضاء الجدد

كذلك يخضع خدم القاهرة لإمرة شيوخهم. ويستخدم الخدم بواسطة هؤلاء الشيوخ إذ يشهدون لهم بحسن السلوك مقابل قرشين أو ثلاثة. فإذا ارتكب الخادم سرقة يلزم الشيخ بتعويض السيد، ولو لم يحصل على المال المسروق

واللصوص أيضاً، منذ سنوات قليلة اتخذوا كبيراً منهم شيخاً عليهم، وكثيراً ما كان هذا الشيخ يطالب بالبحث عن المسروقات وتقديم المجرمين لمحاكمة؛ وكان على العموم يقوم بذلك. ومما يستحق الذكر أن هذا النظام العجيب كان سائداً في عهد المصريين القدماء

(يتبع)

عدلي طاهر نور

رسَالة الشِّعر

الطير المهاجر

للشاعر الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد

علّمتني مواسمُ الروض أن الط ... يرَ شتى: مهاجرٌ ومقيم

أتراني لا أسمع الطير إلا ... في رياضي معشِّشاً لا َيريم؟

رُبَّ شادٍ في هجرة يتغنى ... وعليه السلام والتسليم

من جَنوب إلى شمال، وحيناً ... من شمال إلى جنوب يحوم

فله حين يستقلّ وداع ... وله حين يُقبل التكريم

خذ من الطير كل يوم جديدا ... فسواءٌ جديده والقديم

كم مُوَلٍ وصفوُه لا يولى ... ومقيمٍ وصَفْوُه لا يقيم

عباس محمود العقاد

أريد. . .

للأديب أحمد عبد المجيد الغزالي

جف الغدير! فمن للظامئ الصادي؟ ... وصوْح العود تحت الهاتف الشادي
ومات زهر الربى لا الطير تندبه ... ولا الشعاع عليه رائح غاد
حتى الزهور يغول الدهر نضرتها ... لكل ناضرة من دهرها عاد
غاضت منابع شعري وهي زاخرة ... وغام أفقي. أما من بارق هاد؟
طال السري وطريقي شائك حلك ... ولم يغني جديداً ذلك الحادي
أريد لي عالماً يختال (حاضره) ... على شوارد هذا العالم (البادي)
أريد دنيا جديد الوحي يغمرها ... فأستفيق على شدوي وإنشادي
أريدُ أن تسكبي الأنغام في خلدي ... شبعتُ أمسي فهلاَّ تبعثين غدي؟
مالي وقيثارة شُدَّت على خشبٍ ... وأنت قيثارة شُدتْ على كبدي؟
جفَّ النشيدُ على أوتارها فغدتْ ... بكماَء لا تحتفي بالطائر الغَرِد!
طوقتها حانياً، أبكي لياليَها ... كما بكى والدٌ بَرٌّ على ولَد
فهدْهِدي أنت أحلامي بأغنية ... تنساب من نْبِعك الجاري من الأبد
وجدِّدي عهدَها الماضي فإن عرضت ... ذكرى أناشيدها في الحب فاتئدي
أنا الذي نهِلتْ روحي أغانيَها ... كما ستنهلُ في أيامك الْجُددِ
أريد يا جدولي الساري بأوهامي ... أن تستبد بآمالي وآلامي
بالأمس يا جدولي والروض يضحك لي ... نديت من عذبك السلسال أحلامي
واخترت من ورق الأزهار لي صحفاً ... بيضاً ومن هذه الأغصان أقلامي
واليوم يا جدولي لا الروض يضحك لي ... ولا مياهك تروي غلة الضامي
ظمئت يا جدولي والجرح في كبدي ... فهل لمائك يأسو جرها الدامي؟
قد كان شطك لي أنساً وعافية ... فكنت أقوى على دهري وأيامي
فما لأنسى به غاضت منابعه ... ولم تعد ثرة تجري بألهامي
أريد يا كرم، ماء غير رقراق ... فقد برمت بهمس الكأس والساقي
سقيت يا كرم كأسي وهي مترعة ... على شعاع سرى في الكأس براق
ثملت يا كرم حتى غفت نشوتها ... وعفت صمتي على كأسي وإطراقي
مل الندامى خداع الكأس صائحة ... على صباح بنور الفجر دفاق
تميل أعناقهم والكأس دائرة ... حتى كأن الطلا تعويذة الراقي!
ألفت يا كرم تلك الخمر صافية ... كما ألفت يراعاتي وأوراقي
يا كرم، ما صار خير الخمر أقدمها ... إن كان ثم جديد فالهوى باق
أريد يا زهرات الروض أنفاساً ... غير التي عرَّفتني الورد والآسا
ما عدت أستروح الأنسام عاطرة ... ريانة النفح تنسي القلب ما قاسا
نسيت بالروض أياماً لنا سلفت ... كان الندى خمرتي والوردة الكاسا
أشدو بشعري مع الأطيار صادحة ... وقد أقمنا على الغدران أعراسا
فالزهر يبسم رفافاً لفرحتنا ... والغصن يختال تحت الزهر مياساً
رغبت يا زهرات الروض عن أرج ... قد كان يملؤني وهما ووسواسا
فضي جيوبك يا زهرات عن أرج ... ما بات يشعل في الوجدان إحساسا
أريد يا طير تغريداً كتغريدي ... وأن تردده في الدوح ترديدي
ما للأغاني تغنيها فأسمعها ... فلا تطامن من همي وتسهيدي
سئمت يا طير ألحاناً شدوت بها ... بين الرياحين أو فوق العناقيد
إن كان عندك لحن غير ما صدحت ... به رباك، فوقعه على عودي
لو كنت كالطير في الأجواء منطلقاً ... لأنشد الطير للدنيا أناشيدي
وبات يمتعه فني وجدّته ... فلن يكون لي فني وتجديدي
يا ويح للطير، لازالت هواتفه ... تردد اللحن من أيام داود
أريد يا ليل، إن رتلت آياتي ... أن لا تخفف أشجاني وآهاتي
دعني لظلمتك الدكناء أقبسها ... نوراً يضيء حنايا دهري العاتي
شقيت يا ليل بالأضواء تغمرني ... فتوقظ الألم الغافي بأناتي
قد كنت يا ليل تسليني إذا عصفت ... بي الأماني في كيد وإعنات
أما سمعت بعادي الدهر فزعني ... وفوق مسرحه غنى لمأساتي
يا ليل أين السكون العبقري مضى ... وخلف القلب مشبوب الصبابات

هذا السكون الذي استوحيته كلمي ... ما باله لم يعد وحياً لأبياتي؟
أريد يا بدر نجوى غير نجواكا ... قد كان يسعدني في الليل مسراكا
أنداء نورك كانت بلسما عجبا ... للحب ما صنعت - يا بدر - يمناكا
دنياك دنيا هوى والشعر عشت بها ... اجني بها الزهر، حتى زهرها شاكا
وما سلمت بدنيا الناس من نكد ... قد ضقت ذرعاً بدنياهم ودنياكا
تساقط النور أسلاكا كأن به ... سرا، يساقطه يا بدر مثواكا
أضأت للناس حتى أظلموا ومضوا ... يسخرونك أشرارا وفتاكا
ماذا عليك، إذا أرسلتها حمما ... تنقض يا بدر أجراماً وأفلاكا
أريد يا فجر إلا يشرق النور ... وأن يلف شعاع الصبح ديجور
وأن نظل هجوعاً في مراقدنا ... فلا يؤرقنا في الروض عصفور
ولا تجاوبه في الأفق ساجعة ... مسحورة إلفها بالأفق مسحور
لو كان طير الربى يدري مهازلنا ... يا فجر، ما شاقه شدو وتصفير
هم روعوه بشر زاحموه به ... في الجو، فالطير في دنياه مقهو
ألطير، سل عنه أذن الروض مرهفة ... يجبك زهر على الخلجان منثور
والقوم سل عنهم الحرب التي وقدوا ... يجبك أتونها بالنار مسعور
أريد يا أيها الماشي على النار ... أن تستفيق على صيحات أشعاري
تدب يا عالمي فوق اللظى عجلاً ... غداً ستمضي برب الدار والدار
للنيل في عنقي حق سأبذله ... في قذف قنبلة أو عزف قيثار
النيل إن رامه باغ به طمع ... رمى بجيش من الأشبال جرار
النيل في كنف الأشبال حوزته ... وهم على رصد للطامع الضاري
جروا على مائه والفلك سامرهم ... يداعبون خيال الكوكب الساري
أنا الهزاز الذي غنى لسامرهم ... غداً أغني وطير النيل سماري
احمد عبد المجيد الغزالي

البريد الأدبي

اقتراح مرفوع إلى جماعة كبار العلماء

رفع حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمود شلتوت عضو جماعة كبار العلماء إلى صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ورئيس جماعة كبار العلماء اقتراحاً جليل الفائدة، مبارك الآثار، يتصل بتنظيم جهود الجماعة وتوفير إنتاجها؛ وقد نظرت إلى الجماعة الموقرة في هذا الاقتراح بجلستها المنعقدة في اليوم الخامس عشر من شوال سنة 1360 ثم قررت تأليف لجنة من بعض أعضائها لبحثه وتدبير طريق تنفيذه برياسة حضرة صاحب الفضيلة الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم ويسرنا أن نسجل هذا الاقتراح الهام على صفحات الرسالة، لأنه دليل على اتجاه حسن طالما رجوناه ودعونا إليه

وهذا نص الاقتراح:

(إن هيئة كبار العلماء ركن مهم من أركان الإصلاح في الأزهر، بل الذروة التي يجب بلوغها منه ليعود إليه أولئك الفقهاء المحققون، والمحدثون الثقاة، والمفسرون المطلعون، واللغويون البلغاء، والمؤرخون الصادقون، وأهل الصلاح والتقى

(إن هيئة كبار العلماء هي التي يرجى منها أن تكون تاج الجامعة الأزهرية، ومن أهلها أن يكونوا أساطين العلم وحفاظ الشريعة، ومقومي لغة القرآن لتركن الضمائر الواجفة إلى علمهم، وتهدأ النفوس الراجفة بهديهم وإرشادهم، وتطمئن قلوب المؤمنين لقيامهم حفاظاً لليقين، وحراساً على شريعة النبي الأمين)

بهذه العبارات الواضحة حددت لجنة إصلاح الأزهر المؤلفة في سنة 1910 من المغفور لهما عبد الخالق ثروت باشا وأحمد فتحي زغلول باشا، وصاحب الدولة إسماعيل صدقي باشا أطال الله بقاءه، الغرض من جماعة كبار العلماء، وآمال الأمة الإسلامية فيها

ولم تزل الأمة الإسلامية ناظرة إلى هذه الجماعة الموقرة، ترقب منها أن تكون مصدر خير لها في دينها ودنياها. ترقب منها أن تعمل على إعلاء كلمة الله، ونشر ثقافة الإسلام وحياطتها بما يقويها، ويدفع عنها غائلة المعتدين. ترقب منها أن ترشدها إلى

أحكام الدين النقية مما خالطها من شوائب الابتداع في عقائدها وعباداتها ونظمها ومعاملاتها

وإني أقترح تحقيقاً لهذه الآمال الجسام أن يؤلف لجماعة كبار العلماء مكتب علمي دائم، وأن يجعل لهذا الكتب مكان معين معروف شأن كل هيئة رسمية أو غير رسمية من الهيئات التي تعمل لأغراض خاصة

أما مهمة هذا المكتب بعد إنشائه فهي ما يأتي:

(ا) معرفة ما تهاجم به الأديان عامة، والدين الإسلامي خاصة في عصرنا الحاضر، والرد عليه رداً كافياً مقنعاً بأسلوب ملائم لطريقة البحث الحديث

(ب) بحث ما يحصل فيه الاختلاف بين علماء العصر من جهة أنه بدعة يجب تركها أو ليس كذلك، ووضع الأصول الكفيلة بتمييز ما هو بدعة مما ليس بدعة، والعمل على نشر كل ذلك ليرجع إليه الناس، وتنقطع به أسباب الفتنة والنزاع بين المسلمين

وقد سبق للأزهر في عهد فضيلة الأستاذ الأكبر شيخه الحالي أن فكر في تأليف لجنة مشتركة من الأزهر ووزارة الأوقاف مهمتها القيام بهذه الناحية، وألفت اللجنة فعلاً برياسة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ إبراهيم حمروش عضوجماعة كبار العلماء، وسارت اللجنة في عملها شوطاً بعيداً قاربت به الغاية

(ج) العمل على وضع مؤلف يحتوي على بيان ما في كتب التفسير المتداولة من الإسرائيليات التي دست على التفسير وأخذها الناس على أنها من معاني القرآن، والتي لا يدل على صحتها نقل ولا يؤيدها عقل، وهذا يشبه ما قام به رجال الحديث من تجريد الأحاديث الموضوعة في كتب خاصة يرجع إليها الناس

(د) إصدار الفتاوى في الاستفتاءات التي ترد من المسلمين في جميع الأقطار إلى مشيخة الجامع الأزهر

وقد فكرت مشيخة الأزهر الجليلة الحالية في هذا الشأن منذ سنة 1936 وألفت لجنة برياسة أحد أعضاء جماعة كبار العلماء هو المغفور له فضيلة الأستاذ الشيخ حسين والي - طيب الله ثراه - ثم أسندت رياستها من بعده إلى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمد عبد اللطيف الفحام وكيل الجامع الأزهر وعضو جماعة كبار العلماء

(هـ) بحث المعاملات التي جدت وتجد في العصر الحاضر من جهة حكم الشريعة فيها حتى يظهر الناس سعة صدر هذه الشريعة، وقدرتها على تلبية حاجات الناس في مختلف العصور

(و): تنظيم طرق الوعظ والإرشاد والاتصال بالهيئات المعدة لذلك كوزارة الشئون الاجتماعية والجمعيات الإسلامية في مختلف الأقطار

وقد نصت على هذه الناحية لجنة الإصلاح التي أشرنا إليها سابقاً بقولها:

(ومنها - تريد هيئة كبار العلماء - تتألف لجنة تنسيق الوعظ والإرشاد ووضع قواعده) كما عني بها قانون تنظيم الجامع الأزهر الذي وضع في عهد فضيلة الأستاذ الأكبر شيخه الحالي إذ يقول في المادة السادسة عشر منه ما نصه:

(مادة 16: تضع جماعة كبار العلماء نظام الدعوة والإرشاد وتصدره إلى الجهة المختصة لتنفيذه)

(ز): التنقيب عن الكتب المفيدة في مختلف العلوم والعمل على أحيائها وإخراجها إخراجاً علمياً متقناً

والأزهر أجدر الهيئات وأقدرها على الاضطلاع بهذا العمل والوصول به إلى ما يرجى له من النجاح

(ح): الإشراف على مجلة الأزهر والعمل على توجيهها في طريق تخدم به الحركة الفكرية الإسلامية، وتبرز به ثقافة الكليات الثلاث

هذا هو اقتراحي أضعه أمانة أمام جماعة كبار العلماء للنظر فيه بما أعتقد أنه جدير به من العناية والاهتمام، حتى يتم إقراره وتنفيذه

والله يتولانا جميعاً بهدايته وتوفيقه

محمد شلتوت

عضو جماعة كبار العلماء

ووكيل كلية الشريعة
مؤتمر الأدباء في لندن
عقد في لندن المؤتمر الدولي للعقائد، والغرض من هذا المؤتمر الذي يرأسه السير فرنسيس يونجهزبند هو نشر روح الأخاء بين بني البشر من طريق الأديان والتفاهم المتبادل بين
مختلف العقائد
وقد أذيع أن في النية إرسال كتب ورسالات إلى زعماء الأديان غير المسيحية يطلب إليهم فيها إبداء موافقتهم على المبدأ الذي حوته قواعد السلام الخمس التي وضعها البابا منذ سنتين
وقد أرسلت كتب إلى فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي شيخ الجامع الأزهر في القاهرة، والى الزعماء الدينيين في بلاد العرب وتركيا والشرق الأوسط عامة، والى المسلمين والهنود والبوذيين في الهند وبورما والشرق الأقصى
وقد حضر الشيخ حافظ وهبه وزير المملكة السعودية المفوض في لندن اجتماع المؤتمر في الأسبوع الماضي، وخطب في نهاية الاجتماع الأستاذ يوسف على الذي كان في وقت ما مندوباً عن الهند في عصبة الأمم والعميد السابق للكلية الإسلامية في لاهور، فتحدث عن قواعد السلام التي يتوخاها مؤتمر الأديان المختلفة
وعقب ارفضاض الاجتماع أفضى السير فرنسيس يونجهزبند إلى مندوب وكالة الأنباء العربية بحديث قال فيه: (لقد تلقيت من فضيلة الشيخ المراغي مرتين ترحيباً صادقاً بفكرة المؤتمر وتحبيذاً طيباً لعقده، ونحن عل يقين من تأييده التام لفكرة التفاهم بين مختلف العقائد وتآزرها للوقوف في وجه العدوان القائم عليها جميعاً. ويقيني أن فضيلته هو أحد الذين يقدرون القيمة الروحية قبل أي شيء سواها)
وبهذه الناسبة نذكر أن قواعد السلام الخمس التي ألمعت إليها تلك الرسائل هي: 1 - حق الأمم جميعاً في أن تعيش معاً تحت ظل السلام 2 - الاتفاق المتبادل على نزع السلاح 3 - توافر الوسائل المذللة لمراجعة المعاهدات التي تحوي مساساً أو ظلماً في حق أي شعب من الشعوب 4 - الاعتراف بحقوق جميع الأقليات 5 - ضرورة توفر حسن النية إذا أريد حقاً التراضي على سلام مقيم
وفاة موريس ليبلان
توفي الكاتب الفرنسي موريس ليبلان المشهور بقصصه عن أرسين لوبين في مدينة بريبنيان
وقد ولد هذا الكاتب في سنة 1864 فيكون قد توفي عن 77 عاماً؛ وهو أول الكتاب الفرنسيين الذين اختصوا بكتابة الروايات البوليسية. وقد اشتهر بابتداعه شخصية أرسين لوبين بطل رواياته. ومما يجدر ذكره أن الحكومة الفرنسية عينت موريس ليبلان في اللجنة التي عهد إليها تحقيق قضية ستافيسكي المعروفة، وحادث مقتل المستشار برنس. ومن مؤلفاته: أرسين لوبين اللص الظريف، أرسين لوبين ضد شرلوك هولمز، المثلث الذهبي، جرائم أرسين لوبين الثلاث، أنياب النمر. . . الخ
العدد 438 - بتاريخ: 24 - 11 - 1941
لا تقولوا أين الكتاب
وقولوا أين القادة. . .!
أو كلما كظمت الأنفاس روائح الشر، وكرَبت النفوس غواشي الفساد، ذهل الناس عن مرسلي الريح ومثيري القتام وقالوا أين الكتّاب؟ هل الكاتب إلا نذير؟ وهل على الكتّاب غير البلاغ؟ لقد كتبوا حتى أوشك المداد أن ينفد، خطبوا حتى كاد الريق أن يجف؛ ولكن أكثر العامة لا يقرءون، وأكثر الخاصة لا يفهمون. ومتى أغنى القول عن الفعل، وجَزَى الرأي عن العزيمة؟
إن من أقبح ما يعاب علينا وعلى أمم الشرق أننا لم نعرف من أدوات السياسة ووسائل الإصلاح غير الكلام والكتابة؛ فسياستنا خطب، وإدارتنا تقارير، ومناهجنا وعود. ولو كان الشعب قارئاً لرجونا من وراء الكتابة صلاح النفس في الفرد وسمو الروح في الجماعة؛ ولكن الأمية لا تزال بفضل وزارة المعارف حجاباً مستوراً بين عيون الناس ونور الحق. فماذا عسى يصنع الكتّاب وليس لهم من الأمر شيء؟ هل يصنعون إلا أن يفتحوا بأسنان أقلامهم أجفان المتعلمين لتثب إلى عيونهم صورُ العيوب فيدركوها؟

وهم قد فعلوا ذلك ولم يألوا: فعلوه في الكتب والصحف، وفي المدارس والمسارح، حتى لم يبق في هؤلاء الذين تقسموا الحكم، وتوزعوا السلطان، وتنازعوا القيادة، من لم يحفظ صور الفساد ووجوه الصلاح عن ظهر قلب! ولكن الله الذي آتى زعماءنا ملكة الكلام لم يؤتهم ملكة العمل! فهم يستطيعون أن يقولوا ما قال الكتاب، ولكنهم لا يستطيعون أن يفعلوا ما فعل القادة. ومصداق ذلك أنك تراهم في أندية الأحزاب، وفوق مقاعد النواب، وبين أعمدة الصحف، يكشفون عن مواضع النقص، ويشيرون إلى مواقع الكمال، فيفتون في كل مسألة فتوى العالم، ويُدْلون في كل معضلة برأي الخبير، ويعترضون على كل أمر اعتراض اليقظ؛ فإذا وليناهم الحكم وخلينا بينهم وبين العمل، التاث عليهم الأمر، وبرَّح بهم التطبيق، وأصبح جهدهم مصروفاً إلى مناقضة القول بالقول، ومعارضة الرأي بالرأي؛ كأنما تبوءوا مقاعد الحكم ليردوا وهم وزراء ورؤساء، على ما انتقدوه وهم كتاب وخطباء!

من من الزعماء يجهل أن الأمة لا تزال متخلفة في الخلق والمعرفة والحضارة عن أدنى أمم الأرض المعدودة قرناً من الزمان؛ فحياتها بدائية، وأخلاقها همجية، ونظمها ارتجالية،

ومعيشة الزراع والصناع فيها أقرب إلى معيشة البهيم، منها إلى معيشة الإنسان الكريم؟ كلهم يعلمون ذلك وإن لم يقرءوه في مقال أو يسمعوه في خطبة؛ ولكن اشتغالهم بسفساف الأمور، وخسيس المطامع، ودنيء الشهوات، صرفهم عن النظر في شؤون الناس وأحوال المجتمع، فلا يذكرون الشعب إلا يوم يقوم الانتخاب، وتصطرع الأحزاب، ويحتاج كل طماع إلى سلالم من أكتاف المساكين يصعد فيها إلى النيابة والحكم.

ومن من الأغنياء يجهل أن الفقر في مصر ضرب من الرق يذل النفوس، ويقتل المواهب، ويشكك المرزوء به في العدل والحق؛ فهو يسكن ليستكين، ولكنه قد يثور ليثأر؟

كلهم يعلمون ذلك وإن لم يقرءوه في مقال أو يسمعوه في خطبة؟ وهم مقتنعون بأن علة هذا الفقر هي أكلهم الحق الذي جعله الله في أموالهم للفقير؛ ولكن العلم وحده لا يبسط الأنامل الكزّة، ولا يهز النفوس الشحيحة!

ومن من العلماء يجهل أن دين الله صالح لكل جيل من الناس ولكل حين من الدهر؛ فهو ثابت بحقيقته ثبوت الخالق، ولكنه متطور بطبيعته تطور المخلوق. كلهم يعلمون ذلك وإن لم يقرءوه في مقال أو يسمعوه في خطبة؛ ولكنهم أغلقوا على عقولهم باب الاجتهاد فظلوا في دنيا الماضين، يذهبون ما ذهبوا، ويقرءون ما كتبوا، ويجذبون ركب الإنسانية إلى الوراء ثلاثة عشر قرناً ليأخذ من ساكني القبور جواز المرور!

ومن من الموظفين يجهل أن الأمة هي أسرته الكبرى، وأن الوطن هو بيته الأكبر؛ فالعمل الذي يقف أمامه في شأن من الشؤون هو أخوه؟ كلهم يعلمون ذلك وإن لم يقرءوه في مقال أو يسمعوه في خطبة؛ ولكنهم في الكثير الغالب يتحاملون على ضمائرهم فيخضعونها لسلطان الكبر والأثرة، فيرفعون أقدارهم على أقدار الناس، ويضعون المنفعة الخاصة فوق المنفعة العامة!

ومن من التجار يجهل أن الحرام لا يزكو، وأن الغبن لا يحلُ، وأن الحكرة لا تجوز؟ كلهم يعلمون ذلك وإن لم يقرءوه في مقال أو يسمعوه في خطبة؛ ولكنهم في سبيل الثراء الدنيء يتعامون عن بؤس الفقير، ويتصامون عن صوت الضمير، ويهتبلون فرص الحرب ليعصروا الذهب والفضة من دماء القتلى ودموع لأيامي وعَرَق العَمَلة!

الواقع الذي لا مريه فيه أن أمم الشرق لا يعوزها إدراك النقص ولا عرفان الواجب؛ إنما

يعوزها الرجل الذي يطبق علمها على العمل، ويوحد رأيها على الحق، ويجري خلقها على الرجولة، ويجمع شتاتها على الطريق. فهل لصديقي العشماوي بك أن يوافقني على أن مصر اليوم لا تحتاج إلى (عليّ) بلسانه الحكيم، وإنما تحتاج إلى (عمر) بدرَّته الحازمة؟

(المنصورة)

أحمد حسن الزيات

مسابقة الأدب العربي لطلبة السنة التوجيهية
ديوان البارودي - 2
للدكتور زكي مبارك
- الذاتية البارودية: ما رواه الكاظمي وما رواه النقراشي
منابع الشاعرية البارودية: الشقاء بالحب، والشقاء بالمجد،
والشقاء بالناس - وصف الحرب الروسية - البارودي في
منفاه - جنازة البارودي: هل حملت على مدفع؟ وهل ودعها
رجال الجيش؟. . .

في الكلمة الماضية نصصنا على بعض الملامح من شخصية البارودي، في سياق الكلام عن المقدمة التي كتبها الدكتور هيكل باشا للديوان. واليوم ننص على ملامح جديدة تعين الطلبة على إدراك الشمائل النفسية والذوقية لذلك الفارس الفنان.

فمن هو البارودي في شخصيته الذاتية؟

لم يتفق لي أن أهتمَّ بمعرفة ذاتية البارودي من الذين عاصروه وكان ذلك في الإمكان، فقد كانت لي صلات مع الشاعرَين العظيمين: شوقي وحافظ؛ وكنت أستطيع أن أعرف منهما أشياء لو أني التفتّ إلى هذه الناحية. . . على أن الالتفات إلى هذه الناحية لم يكن كل ما ضاع مني، فقد كان في نيتي أن أسأل (شوقي) عن تفسير الإشارة التي مرَّت في كلمته الوجيزة وهو يقدِّم كتاب الدكتور محمد صبري (أدب وتاريخ)، فقد قال كلاماً يشهد بأن للثورة العرابية أسراراً أخطر من أن تذاع، ثم مضت الأيام والسنون، ومات (شوقي) قبل أن أسأله عن المراد بذلك التلميح.

ومع هذا، فقد أراد القدَر أن تساق إليَّ أخبار البارودي بدون أن أتجشم عناء الاستخبار، بفضل السهرات التي قضيتها مع الشاعر عبد المحسن الكاظمي في أعوامه الأخيرة، وكان من جيراني، وكنت أغتنم الأنس بحديثه كلما سمحت الظروف.

ومن أحاديث الكاظمي عرفت أن المروءة المصرية تمثلت لعينيه في شخصيتين كريمتين:

الأولى شخصية محمد عبده، والثانية شخصية محمود سامي؛ ولا أريد في هذا المقام أن أذكر ما كان بين الشيخ محمد عبده والشيخ عبد المحسن الكاظمي، فقد فصّله الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا أجمل تفصيل في أبحاث يعرفها جمهور القراء، وأنا أبغض الحديث المعاد.

أما حديث الكاظمي عن البارودي، فهو عجب من العجب. كان البارودي على ألسنة أصحابه يتمتع بلقب (الأمير)، ويقول الكاظمي: إن البارودي كان (أميراً) في جميع شمائله الذاتية. وقد أكد الكاظمي هذا المعنى في أحاديثه معي عشرات المرات، وما كان اسم البارودي يجري على لسانه إلا ظهرت على وجهه إمارات الحزن الوجيع، وقد سألته مرة عن سر هذه الحال فقال:

كنت أسكن في حارة (قِرمز) بحي الجمالية، وكان مسكني بغرفة صغيرة فوق سطح البيت، وكان السُّلَّم مهدّم الدرجات وبدون درابزين، وكان البارودي يرى من أدب (الإمارة) أن يردَّ الزيارة لكل غريب؛ وكنت يومئذ من الغرباء، فقد كنت حديث العهد بالقدوم من العراق. وفي إحدى الزيارات تخوّف البارودي من ذلك السلم لضعف بصره، فاعتمد بيده على الحائط، فنفذ مسمار في كمه، فمزقه أشنع تمزيق، وما ذكرت ذلك الحادث إلا تألمت لما كان يعاني (الأمير) في سبيل الوفاء!

ومن هذا الخبر البسيط نعرف كيف كان البارودي في شمائله الذاتية، فإذا أضفنا إلى ذلك أنه كان مفتوناً بالمجد أعنف الفتون، وأن الأريحية المصرية كانت ملء برديه، عرفنا أنه كان بطبيعة نفسه من الأمراء بغض النظر عن مجده الموروث.

وهنا يتسع المجال لنادرة ذوقية تعد من الصور الشعرية، وهي نادرة حدثني بها الأستاذ الكبير محمود فهمي النقراشي باشا في سنة 1931، وقال:

كان البارودي يعرف مصيره بعد انهزام الجيش المصري في موقعة (التل الكبير) فاستدعى أحد أصدقائه من أعيان مديرية الغربية وأخبره أن في خزائنه كثيراً من الذخائر الذهبية، وأنه يخشى أن تصير تلك الذخائر من غنائم المنتصرين، ثم فوق بصره إلى ذلك الصديق وقال: هذه الذخائر وديعتي عندك، فإن نفاني الإنجليز ومتّ في

منفاي فهي لك مال حلال، وإن أرادت الأقدار أن أرجع إلى مصر حياً بعد النفي فالنصف لي والنصف لك.

وبعد سبعة عشر عاماً عاد البارودي من منفاه، وطلب نصيبه من تلك الذخائر الذهبية، فأنكرها ذلك الصديق، وأظهر استغرابه من أن تكون للبارودي عنده ودائع، وقد خرج من مصر وهو حَرِيب سليب (؟!)

واتفق أن يمرض ذلك الصديق الغادر بعد شهور قصار مرض الموت، فتجشم الشيخ محمد عبده مشقة الانتقال إليه ليفهمه أن (الدنيا لا تغني عن الآخرة) وأن من واجبه أن يردّ بعض تلك الديون ليلقى الله وهو خفيف الأوزار، فجادت نفس ذلك المحتَضر بعشرة آلاف وهو ينتظر أن يقبلها البارودي مع الحمد والثناء (؟!)

وجاء الشيخ محمد عبده إلى البارودي بصرَّة ثقيلة فيها عشرة آلاف من الجنيهات المصرية، وهو يرجو أن يكون في تلك الصرة عزاءٌ للبارودي عن بلواه بذلك العقوق فماذا وقع؟ نظر البارودي إلى الصرة نظر الليث الشبعان إلى الثمر المعطوب، وصاح: (لن آخذ درهما من هذه الألوف، ويجب أن ترد حالاً إلى سارقها قبل أن يموت، لتكوى بها جنوبه وهو مرموس، وله الويل إن وقع بصري عليه يوم الحساب أمام الواحد الديان)

هنا تنتهي رواية النقراشي باشا، وقد بقى من الرواية فصل، فما هو ذلك الفصل؟

حدثني من عرفوا الشيخ محمد عبده أنه كان يضفي بره وعطفه على من يقرأ في حضرته بيتاً من الشعر بفهم وإدراك؛ فكيف يكون حاله وهو يشهد هذه الصورة الشعرية؟

من المؤكد أن الشيخ محمد عبده قد طرب لإيمان البارودي، وعظمة البارودي، وإباء البارودي. ومن المؤكد أن هذه الواقعة أقنعته بأن مصر لا تزال بعافية، وأنها ستكون إلى الأبد من أكرم المنابت لأحرار الرجال

أكتب هذا وأنا أذكر أن هيكل باشا قال في تقديم الديوان أن البارودي (وُلد بمصر) فبأي مكان من (مصر) وُلد هذا الفارس الشاعر؟ وفي أي مكان مات؟

في شارع (غيط العدة) بالقاهرة دار تسمى (سراي البارودي) وهي سراي عبثت بها مصلحة التنظيم ففعلت بها الأفاعيل، ولم يبق منها غير جانب هو اليوم (مخزن) لبعض المتجرين في توافه الأشياء

فإن لم يكن البارودي وُلد في تلك الدار ففيها أبت يده أن تتسلم عشرة آلاف من الجنيهات لغرض تعجز عن وصفه ألوف القصائد والأقاصيص. ومن واجب (مصلحة الآثار العربية)

أن تستبقي أطلال تلك الدار يوم تفهم أن الأدب له قدسية تفوق قدسية التاريخ

إن الفرنسيين أبقوا على منزل مضعضع الأركان بشارع سان جرمان في باريس، لأنه مولد شاعرهم (ميسَّيه)، وإلى ذلك المنزل يحج عشاق الأدب الفرنسي. فهل يعرف شبان مصر أين يقع منزل شاعرنا البارودي في القاهرة، وأين تقع دار هواه في حلوان؟

إلى الله المشتكي من ضياع الأدب في هذه البلاد، ومنه نستمدَّ العون على ما يعاني الأدب من ثرثرة أهل البغي والعقوق!

منابع الشاعرية البارودية

الشعر فيض من الشعور بحقائق الوجود، وهي حقائق يحسها الناس بمقدار، ويحسها الشاعر بقوة لا تتاح إلا لمن كان في مثل روحه المتوقد وخياله الوثاب

والذي ينظر في أشعار البارودي يجده أحس الحياة أعنف الإحساس، ويراه انطبعَ على الشعور بما فيها من شهدٍ وصاب

وأقوى باعث عند البارودي هو الفُتُوّة، فوجهه يشهد وآثاره تشهد بأنه كان من أكابر الفتيان

وفتوة البارودي فتوة أصيلة تأخذ وَقودها من القلب والروح، فهي التي أشقته بالحب، وأشقته بالمجد، وأشقته بالناس

تنظر إلى البارودي المحب فترى فتىً فاتك الصبوات في قدسية وجلال، فتفهم أن الحب شريعة وجدانية لا يتردد الفتى في اعتناقها ولو كان رئيس الوزراء. فالحب عند البارودي ليس نزوة شباب يُطلب منها المتاب، وإنما هو جذوة روحية تصل صاحبها

بسرائر الوجود، وترفعه إلى أوج الخلود
هل قرأت أشعاره في الحنين إلى روضة المقياس؟
وهل تذكر أنه أول شاعر في العهد الحديث تغنى بصبوات القلوب على شواطئ النيل؟
وهل تعرف أنه صدَح بتلك الأغاني في أوقات كان فيها الغَزَل فناً لا يليق بعظماء الرجال؟
إن البارودي مجّد الفتوة المصرية بتلك الأغاريد، وجعل لمصر مكاناً في ضمير الوجود، فما تطرب الأريحية الإنسانية لأكرم ولا أشرف من التغني بأوطار الأرواح في مثل معاهد الجيزة والروضة وحلوان، وهي معاهد جهلها الشعراء، ونَدَر فيهم من يعرف وجوهها الصِّباح
وفي أي عصر هتف البارودي بتلك الأغاريد؟
في العصر الذي كان فيه بدء كتب الشعر بالبسملة موضع خلاف بين جمهور المؤلفين ثم ننظر فنرى الشاعر بمطالع الأقمار على شواطئ النيل قد امتشق السيف ليواجه الحرب في كريت، أو ليخوض البلاء في فجاج الأراضي الروسية، وهو في هذه الموقعة أو تلك لا ينسى مواقع هواه في ملاعب الجيزة والروضة وحلوان
إن حائية البارودي في وصف الحرب الروسية لو تُرجمت اليوم ووُزْعت على جنود الروس والألمان لرأوها من الأعاجيب، وفيها يقول:
لعمري لقد طال النوى وتقاذفت ... مهامه دون الملتَقى ومطاوحُ
وأصبحت في أرض يحارُ بها القطا ... وتَرهبها الجِنان وهي سوارح
بعيدة أقطار الدياميم لو عدا ... سُلَيْكٌ بها شأواً قضى وهو رازح
تصيح بها الأصداء في غَسَق الدجى ... صياح الثكالى هيجتها النوائح
تردّت بسمُّور الغمام جبالها ... وماجت بتيَّار السيول البطائح
فأنجادها للكاسرات معاقلٌ ... وأغوارها للعاسلات مسارح
مهالك يَنسى المرء فيها خليله ... ويندرُ عن سوم العلا من ينافح
فلا جوْ إلا سمهريّ وقاضبٌ ... ولا أرض إلا شمْريٌّ وسابح
ترانا بها كالأسد ترصد غارةً ... يطير بها فتقٌ من الصبح لامح
مدافعنا نصب العدا ومُشاتُنا ... قيامٌ تليها الصافنات الفوارح
ثلاثة أصناف تقيهنَّ ساقةٌ ... صياح العدا إن صاح بالشر صائح
فلست ترى إلا كماةً بواسلاً ... وجُرداً تخوض الموت وهي ضوابح
نغير على الأبطال والصبح باسمٌ ... ونأوي إلى الأدغال والليل جانح
بكى صاحبي لما رأى الحرب أقبلتْ ... بأبنائها واليوم أغبر كالح
ولم يك مبكاه لخوفٍ وإنما ... توهمَّ أني في الكريهة طائح
فقال: اتئد قبل الصيال ولا تكن ... لنفسك حرباً إنني لك ناصح
ألم ترى معقود الدخان كأنما ... على عاتق الجوزاء منه سرائح
وقد نشأت للحرب مزنة قسطل ... لها مستهل ? بالمنية راشح
فلا رأيَ إلا أن تكون بنجوة ... فإنك مقصود المكانة واضح
فقلت: تعلَّم إنما هي خطة ... يطول بها مجدٌ وتخشَى فضائح
فما كل ما ترجو من الأمر ناجعٌ ... ولا كل ما تخشى من الخطب فادح
فهذه الحائية من عيون الشعر العربي، ولو سمعها أبو فراس لسجد لها سجود الإعجاب، فما عرفت اللغة العربية من الشعراء الفرسان افحل من البارودي وأبي فراس
وللبارودي في الحرب الروسية قصيدة أخرى هي الدالية، ولكن أي قصيدة؟ تلك أقباس لا تصدرُ إلا عن روح مَرِيد، من أرواح الفتيان الصناديد، وفيها يخاطب أحبابه في مصر فيقول:
نأت بيَ عنكم غربةٌ وتجهّمتْ ... بوجهيَ أيام خلائقُها نُكدُ
أدور بعيني لا أرى غير أمةٍ ... من الروس بالبلقان يخطئها العدُ
جواثٍ على هام الجبال لغارةٍ ... يطير بها ضوء الصباح إذا يبدو
إذا نحن سرنا صرَّح الشر باسمه ... وصاح القنا بالموت واستقتل الجند
فأنت ترى بين الفريقين كبَّةً ... يحدث فيها نفسه البطل الجعد
على الأرض منها بالدماء جداولٌ ... وفوق سراة النجم من نقعها لِبد

إذا اشتبكوا أو راجعوا الزحف خلتهم ... بحوراً توالي بينها الجزر والمدُ
تشلّهمُ شلَّ العِطاش ونت بها ... مراغمة السُّقيا وماطلها الورد
فهم بين مقتول طريح هارب ... طليح ومأسور يجاذبه القِد
نروح إلى الشورى إذا أقبل الدجى ... ونغدو عليهم بالمنايا إذا نغدو
ونقع كلج البحر خضت غماره ... ولا معقل إلا المناسل والجرد
صبرت له والموت يحمّر تارةً ... وينغل طوراً في العجاج فيسود
فما كنت إلا الليث أنهضه الطوى ... وما كنت إلا السيف فارقه الغمد
صئول وللأبطال همس من الونى ... ضروب وقلب القرن في صدره يعدو
فما مهجة إلا ورمحي ضميرها ... ولا لَبَّة إلا وسيفي لها عِقد
وما كل ساغ بالغ سُؤل نفسه ... ولا كل طلاَّب يصاحبه الرشد
إذا القلب لم ينصرك في كل موطن ... فما السيف إلا آلة حملها إدُّ

وقد تحدث في هذه الدالية، كما تحدث في الحائية، عن شوقه إلى مصر ولياليها البيض بروح لم يتحدث بمثله أحد من الشعراء الذين سبقوه إلى الحديث عن معاهد الوجد بهذه البلاد

ثم يقضي القَدَر في مصير البارودي بما قضاه، فيشترك في الثورة العرابية، وتقع أحداث وخطوب تنقل وطنه من الخيط الأبيض إلى الخيط الأسود، ويلتفت فيرى دنياه خلت من الرمح والسيف، ولم يبق إلا أن يعيش في جحيم النفي والاغتراب بلا ظفر ولا ناب

لم يكن للبارودي نية في الثورة العرابية، فنحن نرجح أنه اشترك فيها بلا قلب، ولو كان من جناتها لصار التاريخ غير التاريخ فقد كان من مغاوير الأبطال، وكان يستطيع أن يرد المكروه عن بلاده لو آمن بما آمن به العرابيون، وكان يستطيع على الأقل أن يظفر بالاستشهاد في ميادين الجهاد

ومعنى هذا الكلام أن البارودي كان يملك التنصل من تبعة الثورة العرابية ليسلم من التأذي بعواقبها السود، ولكن فتوته أبت عليه أن يقف ذلك الموقف البغيض. فشارك إخوانه في البأساء، واستسلم لحكم القضاء، في سبيل الوفاء

نُفيَ البارودي إلى سرنديب وهو في يأس من المعاد. فقد كانت الظروف الدولية تنطق بأن لا أمل في تغيير مركز مصر السياسي، وكانت الأخبار توافيه بأن مصر ضعيفة الرجاء في زحزحة الاحتلال.

وفي تلك المدة كانت أحوال أهله في مصر تنتقل من ظلمات إلى ظلمات لغياب راعيها الأمين، فكان روحه ينتقل من جحيم إلى جحيم.

هل رأيت الأسد المأثور في حديقة الحيوان، ولاحظت أنه يزأر من وقت إلى وقت ليسري عن نفسه بالزئير مع اليأس من الحرية؟

كذلك كان البارودي، فما ترك الشعر الحماسي في أعسر أوقات الضيق والكرب؛ ولا سمحت نفسه بأن يتوب من الغطرسة والاستعلاء

عفاء على الدنيا إذا المرء لم يعش ... بها بطلاً يحمي الحقيقة شدُّهُ
وإني امرؤ لا أستكين لصولة ... وإن شد ساقي دون مسعاي قده

ويطول بلاء البارودي في منفاه، ويستيئس من الأمجاد الحربية، فيقبل على الأمجاد الأدبية

ليضمن لنفسه الخلود

وفي تلك الآماد من البلاء يلتفت البارودي التفاته جدية إلى ماضي الشعر العربي فيضعه في الميزان ليختار من أطايبه ما يشاء

وهل كان معاصرو البارودي يعرفون من ماضي الشعر العربي مثل الذي يعرف؟

ثم تسمح الدنيا بأن يلقى البارودي وطنه بعد اليأس من اللقاء، ولكن لا يعيش في رحاب الوطن غير أعوام قصار قضاها وهو أشبه بالمكفوف، ولعله لم يمت إلا حين عرف أن القاهرة لن تكون أمام عينيه إلا سواداً في سواد، وكانت لياليها أشد إشراقاً من الصباح

ولم يتسع الوقت فأرجع إلى الجرائد المصرية في أواخر ديسمبر سنة 1904، لأعرف كيف كانت جنازة البارودي، وأغلب الظن أنها لم تحمل على مِدفع ولم يشترك في توديعها رجال الجيش رعاية لبعض الظروف الثقال، مع أن البارودي كان من نماذج

البطولة المصرية في ميادين الحروب
انتهت دنيا البارودي، وانقضى ما كان يعاني من بوائق الغدر والجحود، وبقى للبارودي ما لم يبق لأمثاله من رجال السيف، بقى شعره المسطور على ضمير الزمان، والشاعر الصادق أخلد من الخلود
زكي مبارك
التطور البشري
للدكتور جواد علي
ما هي مقاييس التمدن وأين هي مظاهره؟ أهي في حركات الإنسان وطراز ملابسه ومجموعة مظاهره الخارجية، أم هي في أثاث بيته وأشكال سيّاراته ووسائل راحته وعدد خدمه، أم هي في الإنتاجين العقلي والمادي للبشرية؟ يختلف الجواب طبعاً على هذه الأسئلة باختلاف عقلية المرء ودرجة ثقافته. فجواب العلماء يختلف ولا شك عن جواب السواد الأعظم من الدهماء. وجواب الشرقي يختلف كثيراً عن جواب الغربي، وكذلك جواب الفقير عن جواب الغني
أما المقاييس العلمية فتستند طبعاً على أسس فنية منتظمة، وقواعد منطقية محكمة، لا تكتفي بالمظاهر ولا تقتنع بالظواهر، لها أحكام خاصة ونتائج تستند على مقدمات وبراهين. و (وحدة التطور) في حياة البشرية بالنظر للغة العلم هي (الكفاءة) والقابلية وقوة الابتكار؛ وهي وحدة تقاس بها كفاية الأفراد كما تقاس بها كفاية الشعوب والأمم باختلاف الأجيال والعصور. فكلما أعرقت البشرية في المدنية ازدادت قوة ابتكارها وتنوعت اختراعاتها وتشعَّبتْ اكتشافاتها وتعقدت حياتها وزادتْ احتياجاتها عن مستوى حياة الإنسان السابق
ولا تقتصر هذه الكفاية على الكفاية الروحية فقط، بل تشمل الكفاية الجسمية والمادية أيضاً. ومعنى هذه الكفاية هو خلق جيل قوي جميل، مثلاً، ذي أعضاء وعضلات قوية متناسبة لا تدكه الأمراض ولا تؤثر فيه الجراثيم، فهو يستطيع أن يقاوم ويقاوم. يتمرد على الطبيعة كما كانت الطبيعة تتمرد على الإنسان السابق. له أهداف ومثل عليا كلما نال منها نصيباً طمع في أخرى؛ لا تقصر همته كما قصرت همة الشعوب المنقرضة
والتقدم في الناحية الثقافية معناه تقدم الإنسان تقدماً مطرداً في دائرته المثلية مثل مثله العليا وأهدافه الأخلاقية ومطامعه في الحياة وأساليب معيشته واحتياجاته البيتية بحيث تتعقد حياته الروحية وتصعب وتتنوع طرق تفكيره وطراز تعبيره عن أفكاره في القول والكتابة، ويبدع في الإفصاح عن شعوره وما يجيش في نفسه في الموسيقى والشعر والتمثيل والغناء. وكلما تنوعت هذه وتشعبت وتميزت دلت هذه التطورات على تقدم ونمو وسير مع النواميس الطبيعية لهذا الكون. لذلك كانت احتياجات الشعوب المنحطة في هذه الناحية ابتدائية بسيطة
بينما هي قد تعقدت وتنوعت في الأمم الأوربية المتقدمة تعقداً مهماً
وتطور البشرية دائماً من بشرية ذات قابلية معينة محدودة، ومن بشرية ذات كفاية مقدرة، إلى بشرية أكثر قابلية وكفاية هي نظرية العلماء الطبيعيين وأصحاب نظرية العالم الإنكليزي داروين والنظرية المعروفة باسم نظرية وهذا التناسق الذي يحدث بمرور الزمن في نظام البشر فيجمع شمل الحياة الإنسانية في محيط معقد معين غير متباين بعد أن كانت الحياة غير متسقة متنافرة، هو التطور المقصود في نظر العالم الإنكليزي هربرت سبنسر وقد صور هذا التطورَ في مدنية الإنسان الفيلسوفُ الألماني هيكل بصورة ملفة من ملفات البردي تنفتح بصورة متوالية كلما انفتح دور في حياة الإنسان المدنية حتى تنتهي بدرجة الكمال أو الإنسانية المطلقة. وقد أطلق على هذا الدور ? وهذا التطور هو من العلامات الفارقة بين الحيوان والإنسان وبين الشعوب المتمدنة وبين الشعوب المتوحشة. ونحن لا نكاد نشعر بظواهر التطور في حياة الأمم الابتدائية والمتوحشة بينما نلمس ذلك بصورة جلية في الأمم المتقدمة التي يظهر فيها التطور كلما تقدمت درجة في المدنية. فوضوح التطور أو غموضه إذاً مقياس يعتبر من أهم المقاييس التي تستعمل لقياس مدنية أمة من الأمم وتقدير منزلتها من بين منازل شعوب الأرض
ولا بد أن يقترن ذلك التطور كما قلنا بالابتكار والإنتاج ويرفع مستوى المعيشة لأفراد

الأمة والرفاهية. ولفظه كما يطلق على ذلك الأمريكيون ولذلك يعتبر الرأي العام الإنكليزي نفسه أرقى في المدنية من الفرنسيين لأن الإنكليز أقدر منهم على الابتكار والإنتاج وعلى مجابهة الحوادث، وأكثر منهم قابلية وكفاية بصورة عامة، ودرجة الرفاهية لديهم أعلى من نسبة درجة الرفاهية لدى الفرنسيين
وكلما كان هذا التطور في المجتمع عاماً شاملاً كانت جذور الأمة في المدنية أقوى فيها وأرسخ، وأقدر على مجابهة مشكلات الأمور وحوادث الزمان، وأحكم في السيطرة على أجزاء المملكة وعلى تكوين رأي عام متماسك متقارب فيها لا يندك بسرعة. وهذا هو السر في انهيار بنيان شعوب البلقان مثلاً بسرعة بينما نجد الأمم الجرمانية والإسكانديناوية قوية تقاوم البشر والطبيعة على حد سواء
وهو من العلامات الفارقة بين الحضارات القديمة حتى القرون الوسطى وبعد ذلك، وبين
الحضارة الحديثة والتي ستليها. كان التطور في الزمان السابق قد اقتصر على طبقة معينة من الناس وهي الطبقات العليا، أعني رجال القصر وحاشية الحكومة ورجال اللاهوت. أما الطبقات الدنيا فكانت في مستوى فكري روحي منحط. لذلك لم تكن حلقات الأمة محكمة، ولم يكن المستوى العقلي فيها متشابهاً أو واحداً. لذلك كانت خواص الأمة العقلية وخواصها الفسيولوجية منحطة واطئة، لأنها لم تكن متطورة، فلما أخذت الطبقات الدنيا تشارك الطبقات العليل في التعليم وتشاركها في وظائفها العليا وحقوقها المكتسبة أدركت الأمراض التي كانت تحيط بها والأخطار التي كانت تتهددها، فاحترست منها وأخذت تقاومها مقاومة رجل عالم خبير فقوّت عقلها وقوّت جسمها في وقت واحد. ولذلك خفّ ضغط الشعوب المتوحشة على الشعوب المتمدنة، ثم زال عنها بالتدريج. كان أهم مميزات حضارة الإنسان الأول هو ضعف تلك الحضارة من حيث ناحية الدفاع تجاه الأمم المتوحشة إذ كانت القوة للعضلات وكثرة العدد. فلما تطور الإنسان وظهرت حضارة القوة انعكست الآية وأصبحت الشعوب المتوحشة فريسة الأمم المتمدنة القوية، وأصبحت الأمم المتمدنة هي التي تملي إرادتها على الشعوب المتوحشة وتكيفها كيف تشاء؛ لأن القوة لم تعد قوة العضلات ولا قوة الجسارة والطيش، إنما هي قوة التكيف والتطور والابتكار والمهارة. وأصبحت الأمم المتمدنة لا تفلها إلا الأمم المتمدنة. والأمم المتمدنة هي الأمم التي تصمد أكثر من غيرها تجاه مطرقة الأعداء في أية ناحية من نواحي الحياة
حقق التطور البشري كثيراً من أحلام البشرية وفك بعض طلاسم الكون والوجود، ولكن هل يستمر هذا التطور في سيره السريع هذا؟ وهل يأتي يوم تحقق فيه البشرية كل ما كانت تحلم به أو تصبو إليه، فتتكون على الأرض البشريةُ المثلى وينعم الإنسان في هذه الجنة الأرضية بالخلود والنعيم؟ آمن بعض ذوي الخيال الواسع من العلماء بهذه الفكرة الجميلة فحاولوا قديماً وحديثاً استغلال العلم واستعباد العقل للعثور على سر الحياة واكتشاف لغز الموت لمقاومته، واقتنع آخرون بنظرية إطالة عمر الإنسان مدة تزيد على مدة العمر الطبيعي. وأبى آخرون إلا أن يهتدوا إلى سر الكون، وإلا أن يتوصلوا إلى إدراك كنه ما نسميه بالطبيعة، وأن يجدوا لهم سبيلاً إلى الشمس والنجوم أو طرقاً للمحادثة مع سكان الأجرام العلوية على الأقل.
ولكن دلت التجارب على أن كل تطور يعقبه تطور من جهة أخرى لا يرغب فيه الإنسان. قضى علماء الطب على معظم الأمراض القديمة، ولكن المعامل الكبرى والمدن الضخمة والسكك الحديدية وضجة الآلات والسرعة الرهيبة، كل هذه جاءت إلى البشرية المتطورة بأمراض لم يكن يعرفها إنسان الماضي، وستجيء بأمراض ولا شك لإنسان المستقبل لم نكن نعرفها نحن جزاء تطوره هذا.
وقد جاءت الاختراعات والثورة المادية بعوائد اجتماعية زلزلت بنيان البيت القديم وقوضت دعائم قدسيَّاته الاجتماعية وقواعده الأخلاقية التي كان يستعز بها. وجاءت بعادات جديدة فرضتها عليه فرضاً، ووسع هذا التطور مجال الحروب فجعلها عالمية وقد كانت موضعية، وجعلها آلية تكلف الإنسان ثمناً باهظاً تبتلع معظم ميزانية الدولة فلا تنتهي الحرب حتى يدخل في حرب أخرى جديدة أعم من تلك وأعظم
لذلك تشاءم بعض الفلاسفة من هذا التطور فأعلنوا ثورتهم على التطور الحديث والمدنية الحديثة فاعتزل الفيلسوف الشهير شيخ المتشائمين المحدثين شوبنهور هذا

الكون ومن فيه متمثلاً بآراء فلاسفة الهنود ساخراً من كل شيء إلا من كلبه الأمين الذي أطلق عليه كل العالم ليعبر بذلك عن مقدار استخفافه بهذا العالم
وتبرم فيلسوف آخر هو الفيلسوف المتشائم شبنكلر من الحضارة الحديثة ومن الثقافة المادية التي صبغت كل شيء حتى المثل الأخلاقية بالصبغة المادية، وهدد بناء أوربا بسقوط عاجل مريع في إنجيله الفلسفي الجديد (سقوط الغرب) وقد أبان فيه أن الإنسان قد تطور تطوراً سريعاً جداً
أما من حيث الناحية الروحية فقد سارت البشرية فيها ولا شك بخطوات سريعة أيضاً ولكن إلى الوراء، ونادى الفيلسوف الدانماركي كيركه كارد ? أبناء قومه بعبارة تنم عن نفسية أوربا الحديثة: (هيا إلى الدين)

جواد علي

من أدب الغرب

صفات زوجة

للدوق فرنسيسكو دي كفيدو

بقلم الأديب يوسف روشا

هذه رسالة بعث بها (ألدون فرنسيسكو دي كفيدو) في سنة 1633 إلى (ألدونا اينا دي فونسيسكا) وصيفة ملكة أسبانيا، ضمنها الصفات التي يود أن تكون عليها زوجته، إذا ما قدر أن تكون له زوجة. والرسالة مكتوبة بأسلوب ممتع، فيها شيء كثير من الفكاهة، ويغلب عليها تلك الروح الشرقية التي قد تكون من بقايا ما خلفه العرب في الأندلس من الأخلاق والعادات، بعد أن دالت دولتهم

كل الذي أنشده في الزوجة - لشرفي وراحة ضميري - أن تكون قد تثقفت في رعاية مولاتي، ونشأت وترعرعت في خدمتها، واعتادت طاعتها لتحظى برضاي. أما إذا رأت مولاتي وأصرت على أني جدير بزوجة أرقى من هذه، فنزولاً على رغبتها وتلبية لطلبها سأحاول في هذه الرسالة تبيان الصفات التي يجب أن تتحلى بها تلك الزوجة التي قد ينعم الله بها عليّ، وذلك بواسطة مولاتي ومولاي الأمير. على أني لا أبغي - علم الله - من وراء ذلك تنوير مولاتي، بل تسليتها.

أما أنا، فعديم الأهمية، لولا مولاي الأمير الذي هذبني وقومني ونشلني من الهوة السحيقة التي ترديت فيها. وإذا كنت أتمتع الآن بشيء من الحظوة وسعة العيش، فذلك لأني عزفت، والحمد لله ولمولاي الأمير، عما كنت عليه سابقاً من الموبقات لقد كنت شريراً ماكراً، وبالرغم من أني قد تركت تلك الصفات الآن، فإنني لم أصلح كل
الصلاح بعد. ذلك لأني لم أهجر شروري وآثامي عن ندم وتوبة، وإنما نبذتها لأني ضقت ذرعاً بها

أنا رجل من أرومة طيبة في بلدي كما تعلم مولاتي. وإن لي داراً في الجبال، وأنا ابن والدين عزيزين أفخر بهما، ولهما عندي أطيب الذكر، على حين أن أعمالي - ولا ريب - تزعجهما وتسبب لهما حزناً عميقاً. . .
يصفني أعدائي بأني أعرج. وكل ما في الأمر أني أبدو كذلك لعدم اهتمامي بنفسي. ولا يستطيع أحد أن يجزم هل أنا أعرَجُ أو أحني ركبتي. ومهما يكن من أمر، فليراهن من يشاء على عرجي

أما سحنتي، فلا أقول إنها ترضي من يراها، ولكنها على كل حال ليست دميمة أو شتيمة إلى درجة تبعث على السخرية أو الاشمئزاز

والآن وقد أتيت على وصف نفسي وكشف النقاب عن وجهي، أنتقل إلى وصف المرأة التي أرتضيها لنفسي إذا ما من الله بها عليَّ. على أني أعترف أنه لولا مشيئة مولاتي ورغبتها الملحة، لكان من الحمق لمن كان مثلي في حقارة الشأن وضعة النفس أن يقبل على أمر كهذا، وليس ثمة امرأة ترضى به بعلاً. . .!

أود قبل كل شيء أن تكون زوجتي كريمة المحتد، عفيفة حصيفة؛ والصفة الأخيرة لازمة، إذ لو كانت غبية لما عرفت كيف تحتفظ أو تستفيد من صفتيها الأخريين. ثم إني أرجو أن تكون دمثة الأخلاق، خفيفة الروح، وأن تكون فضائلها فضائل امرأة متزوجة لا

ناسكة متقشفة، لأن الاهتمام بزوجها وبيتها أخلق بها من سماع الوعظ وإقامة الصلاة. أما إذا كانت على شيء من العلم والمعرفة، فأفضل عليها الغبية، لأن العيش مع زوجة جاهلة أفضل وأسلم من العيش مع زوجة مغرورة

وأريدها وسَطا لا بشعة ولا جميلة؛ لأن المرأة الدميمة مصدر خوف وفزع ولا تصلح رفيقة حياة؛ والمرأة الجميلة تزعج أكثر مما تسر. أما إذا لم يكن بد من أن أختار إحداهما، فعليَّ بالجميلة، لأن الهم أهون عليَّ من الخوف، ولأن تكون لي زوجة أحرسها، أحبُّ إلي من أن تكون لي زوجة أفرُّ منها!

ثم إني أريدها ميسورة لا غنية ولا فقيرة، فلا هي تشتريني ولا أنا أشتريها، إذ ليس ثمة فقر ما وجدت العفة والسجاحة. إن المثري الذي يرفض الزواج من امرأة لأنها فقيرة، لهو غني سافل؛ وإن الفقير الذي يخطب امرأة لأنها غنية، لهو فقير حقير

كذلك أريد زوجة بشوشة لا عبوسة، لأن العيش مع هذه شقاء متصل وعذاب مقيم. ثم إني لا أريدها متشائمة تظل قابعة في زاوية من زوايا البيت تنعق كالغراب

ويجب أن تكون حسنة الهندام في غير إسراف، وأن ترتدي ثياباً محتشمة لا تلك التي تخترعها الخليعات من النساء

ويجب ألا تعمل ما يعمله البعض، وإنما تعمل ما يعمله الكل

وأفضّل الزوجة البخيلة على الزوجة المبذرة؛ ذلك أن التبذير شر يجب الابتعاد عنه، على حين أن البخل، وإن كان ذميما، قد ينفع في بعض الأحيان. على أني أعد نفسي سعيداً إذا ظفرت بزوجة سخية

لا يهمني أكانت بشرتها بيضاء أم سمراء، أو كان شعرها أسود أم أشقر، وإنما الذي يهمني هو ألا تجعل شعرها أبيض إذا كان أشقر، لأن ذلك يبعث على الغيرة وقد لا تحمد عقباه. ولا يهمني أيضاً أكانت زوجتي طويلة أم قصيرة، لأن في كعب الحذاء تلافيا لهذا النقص الجسمي؛ والكعب كالموت يسوي بين الناس

أما عن كونها هزيلة أو بدينة، فأقول إنه إذا لم أستطع الحصول على زوجة تكون على الأقل معتدلة الجسم فأنا أفضل الهزيلة. . أحب أن تكون زوجتي هيكلاً عظمياً لا قطعة من الشحم واللحم

ثم أريدها مكتملة الشباب لا طفلة ولا عجوزاً، فالفرق بينهما كالفرق بين المهد واللحد. ذلك لأني قد نسيت من زمان بعيد أناشيد المهد، وأنا لم أتعلم بعد ترتيل المراثي.

حسبي أن تكون امرأة ناضجة، وأن تكون حديثة السن فتلك منة من الله

وأود من صميم قلبي ألا يكون فمها وعيناها ويداها على جمال خارق. ذلك أنها إذا بلغت الكمال في هذه الأعضاء لما احتملها أحد؛ لأنها في هذه الحالة لا تنفك تلعب بيديها لتعرضهما على الناس، ولا تني تدير مقلتيها ليلحظهما الناس، ومما يصعب احتماله أن ترى امرأة دائمة الضحك والتثاؤب لا لشيء سوى أن تريك أسنانها اللؤلؤية. إن القلق يذهب بالجمال، وإن الإهمال يخفي العيوب

ولن أتزوج واحدة قد مات عنها أبواها، وذلك لأتخلص من وجوب إحياء ذكرييهما؛ كما أني لا أرغب أن يكون كل أهلها أحياء. ليدخل أبوها وأمها بيتي على الرحب والسعة؛ أما عماتها فإلى جهنم وبئس المصير؛ وسأوصي بقراءة الفاتحة على أرواحهن مرة بعد مرة

وسأحمد الله وأشكره إذا ما منحني زوجة ثقيلة السمع، معقودة اللسان؛ ذلك أن هاتين الحاستين كثيراً ما تضجران الأصحاب وتقطعان الزيارات. كما أن من دواعي سروري واغتباطي أن تكون زوجتي سيئة الطبع؛ لأن المرأة الكيسة لا تنفك تضرب على وتيرة واحدة متمنية أن لو كانت كباقي النساء وإن طبيعتها السجيحة هي المسؤولة عما تلاقي من الغبن

وأختم رسالتي هذه جاداً متوخياً الحقيقة كما بدأتها، ومؤكداً لمولاتي أن الزوجة التي تحقق رغباتي هذه ستحظى عندي بأعظم منزلة. على أني أعرف كيف أصبر على بلائها إن هي قلبت لي ظهر المجن. ذلك أني قد لا أكون موفقاً في زواجي، ولكني لن أكون زوجاً فظاً بحال من الأحوال. أطال الله حياة مولاتي ومولاي الأمير ومتعهما بالصحة والعافية إنه السميع المجيب

(بغداد)

ترجمها عن الإنجليزية
يوسف روشا
كلمة صريحة
بين الأدبين المصري والسوري!
(لكاتب لبناني)
أفضى الدكتور طه حسين بك إلى بعض الصحف العربية في سوريا بكلمة يعزو فيها قلّة التفات الأوساط الأدبية في مصر إلى الأدب السوري الحديث - بما فيه اللبناني - إلى عدم القيام (بواجب الدعاوة. . .) لهذا الأدب. ولا حاجة إلى البيان أن الذين ينبغي أن يقوموا بواجب هذه الدعاوة إنما هم أفراد الجالية السورية اللبنانية في مصر الشقيقة
وقد أثارتْ هذه الكلمة بعض الأقلام بالمعارضة وبادّعاء تعذّر القيام بمثل هذه الدعاوة لأسباب لا سبيل الآن إلى ذكرها. وأنا أوثر أن أنقل ميدان هذا الكلام - وما يستتبع - إلى هذه المجلة الغراء لأطلع إخواننا المصريين - في هذه الكلمة القصيرة - على بعض النواحي المؤثرة تأثيراً مباشراً في تكييف الحركة الأدبية في سوريا ولبنان
أم العُذر الذي انتحله الدكتور الفاضل - وهو (واجب الدعاوة. . .) - يبتغي به تبرير موقف الأدب المصري الحديث من أن يقال عنه إنه لا يأبه - أو على الأقل - لا يلتفت الالتفات المطلوب إلى تسجيل ظواهر الحركات الأدبية في بلادنا؛ هذا العذر، لا أظن أن الدكتور نفسه مطمئن إلى صحته، وإنما يكون أغضى - وأحسبه إغضاء متعمداً - عن حقيقة سأسجلها بعد حين على أدبنا - ولو كانت مُرَّةً مؤلمة -
من الوهن في التفكير أن يقال إن (الدعاوة) التي تقوم بها الجالية المصرية في بلادنا - إن كان ثمة جالية مصرية تقوم حقاً بالدعاوة - هي التي أضاءت لنا الأدب المصري الحديث، وعرّفتنا به، وحبّبتنا فيه، فإن الواقع لا يثبت من هذا شيئاً، إذ لم نر رجلاً مصريًّا في بلادنا يطرسُ أية كلمة في نقد كتاب مصري صدر في مصر (والنقد ينتظم حسناته وسيئاته)، ولم نرَ رجلاً مصريًّا يعرض في مكاتبنا كتباً صدرت في بلاده دون أن يطلبها منا طالب؛ اللهم إلا أن يكون مقتنعاً أنها لن ترد، وأنها ستحوز الرضى، وستنفق سوقها، لما لها من أهمية عظمى وحاجة ماسة، وطلب ملحاح في بلادنا السورية اللبنانية، فإذ ذاك يبعث بها فيعرضها، وليس هذا من الدعاوة في شيء، إذ أن هذه المؤلفات لا تفتقر إلى مثل هذه الدعاوة.
لهذا كله تصادف المؤلفات المصرية سوقاً رائجة في بلادنا
وأما متعهدو المؤلفات عندنا - أو المؤلفون أنفسهم - فإنهم لا يجدون ميلاً إلى إرسال مؤلفاتهم لعرضها في الأسواق المصرية خاصة، لأنهم مقتنعون أنها لن تحوز الرضى ولن تنفق سوقها، فيكون هذا داعيهم إلى الاجتزاء بعرضها في أسواقنا، وحسبهم ذلك فالدعاوة التي ينيط الدكتور الفاضل بها رواج المؤلفات، ليس لها من التأثير أي قسط.
فلماذا إذن تصادف المؤلفات المصرية، وبالجملة الأدب المصري جواً موائماً في مصر نفسها قبل سوريا؟ ولماذا لا يصادف الأدب السوري هذا الجو نفسه في سوريا بَلْه مصر؟
أجل! لماذا يأنس قراؤنا - نحن السوريين - صَوْرْة إلى قراءة المؤلفات المصرية تفوق ميلهم إلى قراءة الكتب السورية حتى إنك لترى الكتب المصرية تحتل المركز الأول في أسواقنا؟
هذه أسئلة تتطلب أجوبتها صراحة وصدقاً لا تجامُل فيهما على جانب، ولا إشادة فيهما ولا إطراء لجانب آخر!
من الحمق ألا يعترف المرء أن من أسباب ذلك أن النتاج المصري أكثر فائدة وأكبر قسطاً في التفكير الحي، وأكثر طلاوة في الأسلوب، وأوفر جمالاً في ابتداع المعاني وخلق الطرائف، وأرهف إحساساً في تصوير العاطفة؛ وبالجملة: أن النتاج المصري أكثر نضوجاً. وهذه الظاهرة لا تخفى على أحد، ولا يحاول أن يبخس من حقها أحد، فمصر زعيمة البلاد العربية غير مُدافَعَة في مضمار النتاج الأدبي بكل ما ينتظم من فروع؛ وإن تكن مصر زعيمة البلاد العربية في الأدب، فليس بضائرها أن تلتفت إلى الحركات الأخرى. بيد أن الذي لا شك فيه أنه السبب الأساسي في رواج الأدب المصري، وفي كساد السوري - إلى حد - هو أن نتاج السوريين ضئيل، لا يقاس بوفرة

نتاج المصريين وضخامته وغزارته
وآية ذلك أن أي أديب مصري شهير - في عرف المصريين والسوريين على السواء - لا تقل مؤلفاته عن العشرة. وأكثر هؤلاء الأدباء تربو مؤلفاتهم على ذلك بكثير أو قليل. وإنا إذا قلنا (أديب شهير) فإنما أعني أن مؤلفاته لا تجنح إلى الإسفاف أو الضعف، ولا تميل إلى التعقيد والغموض. وبجملة واحدة أن مؤلفاته معروفة مفيدة قيمة. ومن الطبيعي أن يقوَّم
. . .الأديب بعدد كتبه القيمة
ولكننا نرى في أدبنا، أن أي أديب سوري شهير - في عُرف السوريين فحسب (ولم أشفع معهم المصريين لقلة اطلاعهم ونقص معرفتهم في هذا المضمار) - لا تربو مؤلفاته عن الخمسة، وأكثر هؤلاء الأدباء تقل مؤلفاتهم عن ذلك بكثير أو قليل قد يتجه للقارئ هنا أنه قد يكون عزبَ عن بالي أمرُ المؤثرات في البيئات، وهذا أمر له قيمته وشأنه. ولكنك إذا استقرأت جميع المؤثرات في الأدب، وقارنتها بين الأديبين فإنك تراها تختلف اختلافاً يسيراً ليس من شأنه أن يؤثر هذا التأثير العظيم في النتاج الأدبي لكل من البلدين. فالوسط الذي يعيش فيه كلا الأديبين يكاد يكون واحداً، والمجتمع كذلك باعتبار أنه مجتمع عربيٌ أماله واحدة، وغايته واحدة، يتكلم لغة واحدة، والغالب فيه يدين بدين واحد، وتحكمه حكومة واحدة. . . الخ. وأما البيئة الطبيعية فتختلف كثيراً بين جو مصر الثابت، وبين جو سوريا المتبدل المغيّر بحسب الفصول؛ وأنا أرى أن التبدل الجوي في سوريا هو في صالح فكر أدبائها، لأنه دائماً يتلون بلونه ويتأثر أكبر الأثر به؛ فجو مصر الثابت يورث العقل المصري جواً ثابتاً فلا يتغير التفكير إلا بقدر. وأما جو سوريا المتبدل فيورث العقل جواً متبدلاً يمد هذا التفكير بأسباب الاضطراب الدائم، والحركة المختلفة، فيتمخض عن ألوان من التفكير كثيرة، وضروب من العاطفة وفيرة
والآن أعود - بعد أن كاد القلم يشط - إلى تعليل سبب هذا البون الشاسع في النتاج الأدبي
إن الأدباء المصريين لا يألون جهداً، ولا يدخرون قوة في الكتابة، بل يدأبون على امتصاص مداد القلم، وعلى ترشف ماء معانيه، فيكتبون ويكتبون ولا ينصبون، وينهال عليهم الإطراء والتشجيع فيزدادون. . . أجل إنهم يزدادون. . . وهذه الحركة الدائبة في الكتابة تفسح أمامهم طرقاً واسعة لا حبةٌ في التفكير، وتحسر لأعينهم عن مجال جمة فينظرون ويتأملون، وينهلون كأنهم لا يرتوون.
وهم يحسون - إذا ما اضطرتهم ظروف قاسية إلى الانصراف عن الكتابة - بضيق شديد يبرمهم ويؤلمهم، ويستشعرون حنيناً مشبوباً إلى (العودة إلى الروض. . .)
لهذا كله، أضحى نتاجهم الأدبي ضخماً غزيراً لا ينضب معينه، ولا يجف مداده
وأما الأدباء السوريون واللبنانيون فهم على عكس ذلك، وهذه هي الحقيقة المؤلمة
إن حقوق الصراحة لتوجب علينا القول: إن الأديب السوري الذي يقرزم يعتقد أنه أصبح شاعراً أعظم. . . وإن الأديب الذي كتب مقالة نالت بعض الإعجاب يثق بأنه أضحى المفكر الذي لا يجارى، وإن الأديب الذي أصدر قصة أو قصتين يوقن بأنه أمسى القصصي الذي لا يبارى
ولكن من الحق كذلك أن نسجل أن في سوريا ولبنان أدباء وعظماء تجود قرائحهم - إمَّا طابوا نفساً بالكتابة - بدرر بينة وآيات رائعات، ولكنهم - مع الأسف، والأسف الشديد - يجودون بمقال واحد في السنة، ويصدرون كتاباً واحداً في العشر سنين!
إن هذا الانقطاع عن الكتابة من شأنه أن يخمد حيوية الفكر، ويميت قوى التأمل والنظر إلى بعيد، ويقضي على شبوب العاطفة. أنا لا أدعي أن ليس في الأدب السوري شيء قيم، فمعاذ الله أن يكون ذلك؛ بل أقول إن الذي يصدر كتاباً قيما واحداً لا حاجة له بعد الآن إلى إجهاد نفسه وأتعابها. فقد سلس له قياد الفكر السامي. فليخلد إلى الراحة، وليركن إلى برجه العاجي، وليتنسك ما طاب له في منسكه. ألم يطر عليه كافة القراء؟ أو لم تتشوف إليه كافة المجلات. . .
الحق الذي لا مناص من إثباته هو أن الغرور والزهو والتكبر - تتملك كلها - أكثر أدبائنا؛ فينتجون هذا الإنتاج الضئيل. إن كتاباً واحداً تصدرونه - أيها الأدباء قاطبة - لا قيمة له مهما جل فيه من فكر وسما ما يحوي من آراء

ماذا أفدت أيها الأديب (الساخر. .) الذي يدعي أنه يزجي الوقت كله في مطالعة المؤلفات القيمة وهو لم يصدر - مدى حياته الأدبية الطويلة - إلا كتابين أو ثلاثة!!
وأنت ماذا جنيت أيها الشاعر الذي يقول إنه لا يرتاح ثانية من تصفح دواوين كبار الشعراء وهو لم يطلع الناس إلا على مقطوعات صغيرة، هيهات أن تتجمع ديواناً؟!
وأنت أيها القاص الذي لم يصدر إلا كتاباً واحداً لم يحو أكثر من عشر قصص، أكل ما وقع عليه بصرك من صور حية، ومناظر جمة تثير الفكر، وتمده بالحيوية مثبت في كتابك ذاك؟!
وأما أنت أيها الناسك المفكر، فأفق مما أنت فيه، وأطفئ شمعتك الصغيرة التي لا تومض إلا ومضاً، واخرج إلى الحياة، إلى الشمس النيِّرة. . . اخرج إليها بجسمك وعقلك وروحك
وقلبك، فإن لك فيها متسعاً!
لقد غزانا المؤلفون المصريون بمؤلفاتهم، وأثبتوها إثباتاً في بلادنا، فتقبلناها شاكرين، وعُجْنا على مطالعتها متهافتين. وذلك لأنها وافرة، لأنها غزيرة، ولأن في هذه الغزارة قيمة عالية.
ولم نستطع غزو مصر - حتى ولا غزو أنفسنا (إذا أردنا المبالغة) - بمؤلفاتنا، ولم يتقبلها المصريون لأنها نادرة، لأنها قليلة جداً، ولأن في هذه القلة قيمة ضئيلة
كلا! ليست (الدعاوة) التي قصرنا فيها هي السبب في قلة التفاتهم إلينا، وليست (الدعاوة) التي أوفوها حقها هي السبب في تهافتنا على أدبهم!
لا يمضى الشهر المصري دون أن نسمع أن كتابين أو ثلاثة قد صدرت، وتمضي السنة السورية واللبنانية - بل السنون - دون أن نسمع أن كتاباً واحداً قد صدر!
إنها كلمة صريحة آمل أن تُثبت فيقرءوها أدباؤنا. . . علَّ الجد يستحثهم، ويحققون ما يدعون بأن نهضة كبرى تترعرع في بلادنا.
(بيروت)
(كاتب لبناني)

إلى إمام الأزهر
العقائد الوثنية
في الكتب الأزهرية

للأستاذ محمود أبو ريه

هذه كلمة خاصة نرجو أن تبلغ مسامع الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر، وأن تصيب مكان العناية منه فينهض بما أوتي من علم واسع وعزم قوي إلى العمل على تخليص العقائد الدينية من نزعات الوثنية، وتحرير العقول من رق التقاليد الخرافية، حتى تصبح هذه العقائد سالمة خالصة، وتنطلق العقول والأفكار إلى العمل على كل ما يعود عليها بالنفع والخير. وإنه إن يفعل ذلك يكون قد أقام الأصل الأول للدين الإسلامي وهو التوحيد الخالص، الذي هو (كمال الإنسان) كما قال أستاذنا الإمام محمد عبده، ووضع أساس الإصلاح في بلادنا إذ لا يقوم أي إصلاح في أي مرفق من مرافق الحياة إلا بعد تطهير العقائد وتحرير العقول. ذلك بأن العقائد الفاسدة كما لا يخفى تأخذ بأيدي معتقديها وأرجلهم، وتغل عقولهم عن التفكير الصحيح، وتصيب عزائمهم بالشلل الاجتماعي، فلا يعملون في الحياة ولا يُعدون لها عدتها. وأنى لهم العمل وقد (رموا الحمول. . .) على ما اتخذوهم أولياء بزعمهم فاستيقنوا أنهم يقضون حاجاتهم ويجيبون دعواتهم

وإن الذي جعل العقائد الوثنية تفشو ولا ريب بين المسلمين هم أكثر شيوخ الأزهر بما يبثونه في فتاواهم وأحاديثهم ودروسهم ومجلاتهم، ولولاهم لما وجدت الوثنية سبيلاً إلى عقائد المسلمين، ذلك بأنك ترى الرجل من دجاجلة الصوفية يدس عقائد الشرك بين من يسميهم مريديه، ويعبث ما شاء له الجهل أن يعبث بعقول هذه الطوائف الساذجة، فإذا التفت إلى الشيخ الأزهري، وهو الذي يرجى منه أن يعمد إلى ما يبنيه هذا الرجل الصوفي فيأتي عليه من القواعد، لتنظر ماذا يصنع إزاء ذلك وجدته يناصر هذا الدجال ويؤيده؛ وقد بلغ من بعضهم أن يمشي في ركابه ويدعو الناس إلى احترامه وإجلاله فيقول: إن العلم علمان: علم الظاهر وهو لنا، وعلم الباطن الذي هو علم الحقيقة وقد فاز به شيوخ الصوفية. وبذلك يصبح ذلك الرجل الجهول قطب وقته وولي عصره

ولقد كنت يوماً أناقش أحد شيوخ الأزهر فيما يصنعه هو وأمثاله من العمل على إشاعة العقائد الوثنية بين المسلمين، فكان مما أجاب به: إن هذه الأمور قد درسناها على شيوخنا في الأزهر علماً وأخذناها عنهم عملاً، وهي ثابتة في الكتب الأزهرية. وقد قرر شيخنا الدردير في الخريدة أن من لا شيخ له فشيخه الشيطان. وقال إمامنا البيجوري في حاشيته على الجوهرة: إن الله تعالى يوكل ملكا على قبر الولي يقضي حوائج الناس. فنحن لا نقول إلا عن علم ولا نفتى إلا بدليل. ثم التفت إلى متعجباً وقال: كأنك لم تقرأ ما ينشر كل يوم في المجلات الدينية من الفتاوي الدجوية، وآخرها فتوى فائدة الأربعاء القناوية. أو كأنك لم تطلع على القصيدة الصدفية في الاستغاثة بالحضرة الأحمدية البدوية التي نشرت بمجلة الرسالة الغراء! ألا فادرس العلم الصحيح من مصادره، وارجع إن أردت المزيد إلى ما أثبته الشيخان (الأكبران) الشرقاوي والبيجوري وهما ممن بلغوا درجة الإمامة وتولوا مشيخة الأزهر لترى كيف يكون علم العلماء المحققين. فغادرته ورجعت إلى هذه الكتب التي ذكرها لأرى ما فيها، وما كدت أعبر بعض صفحاتها حتى تلقاني علم زاخر وجدت أن لا قبل لي بملاقاة أمواجه، فقفلت راجعاً وقلت اللهم إن السلام في الساحل

أما الكتاب الأول فهو شرح الخريدة البهية (للقطب الكامل والغوث الواصل أبي البركات سيدي أحمد الدردير)

قال هذا القطب بعد أن ذكر من العقائد ما شاء له علمه: إن على كل مسلم (اتباع شيخ عارف قد سلك طريق أهل الله على يد شيخ كذلك إلى أن ينتهي إلى رسول الله)، ثم قال: (ومن لا شيخ له فشيخه الشيطان. وبعد ذلك أوجب على المسلمين تقليد الأئمة الذين ذكرهم اللقاني في الجوهرة بقوله:

وما لك وسائر الأئمة ... كذا أبو القاسم هداة الأمة

فواجب تقليد حبر منهم ... كذا حكى القوم بلفظ يفهم

على أن المسلم لا يدري ماذا يأخذ وماذا يدع في هذا الأمر وهو يجد في كتب العلم مع هذا القول قولا آخر هو:

ألا كل من لا يقتدي بأئمة ... فقسمته ضيزى عن الحق خارجة

فخذهم عبيد الله عروة قاسم ... سعيد سليمان أبو بكر خارجة

على أنا لا نعرض لذلك حتى لا نتحول عن تيار الحديث

ولما فرغ من وجوب تقليد الأئمة الأربعة قال باتباع أبي القاسم الجنيد ومن تبعهُ، لأن من عداهم (من جميع الفرق على ضلال)، ثم قال إن تمام النعمة في اتباع الأقطاب الربانيين أسياده أحمد الرفاعي وعبد القادر الجيلاني وأحمد البدوي وإبراهيم الدسوقي وأبو الحسن الشاذلي ومحمد الخلوتي وعبد الله النقشبندي وأتباعهم (فهؤلاء كلهم سادات الأمة المحمدية)

وقد جاء الشيخ (المحشي) وهو (العلامة الكبير والفهامة النحرير سيدي أحمد الصاوي) فترجم لهؤلاء الأقطاب الربانيين وذكر مناقبهم. وقد أورد من مناقب الرفاعي أنه (أراد شراء بستان فأبى صاحبه ألا يبيعه إلا بقصر في الجنة)، فقال له: (قد اشتريت منك بذلك) وكتب له عقداً هذه صورته: (بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما ابتاع إسماعيل من العبد أحمد الرفاعي ضامناً على كرم الله قصراً في الجنة يحف به حدود: الأول لجنة عدن؛ والثاني لجنة المأوى؛ الثالث لجنة الخلد؛ الرابع لجنة الفردوس، بجميع حوره وولدانه وفرشه وأشربته وأنهاره وأشجاره عوضاً عن بستانه في الدنيا، والله شاهد على ذلك وكفيل) فلما مات إسماعيل دفن معه العقد فأصبحوا وإذا مكتوب على قبره (قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً)

ونقل من كرامات السيد البدوي أن ابن دقيق العيد اجتمع به فقال له إنك لا تصلي، ما هذا سَنَن الصالحين. فقال له اسكت وإلا طيرت دقيقك، ودفعه فإذا هو بجزيرة متسعة جداً، فضاق ذرعه حتى كاد يهلك، فرآه الخضر فقال له لا بأس عليك، إن مثل البدوي لا يعترض عليه. اذهب إلى هذه القبة وقف ببابها فإنه سيأتيك العصر يصلي بالناس فتعلق بأذياله لعل أن يعفو عنك، ففعل فدفعه فإذا هو ببابه

وساق من كرامات الدسوقي أنه يعرف جميع اللغات حتى لغات الوحش والطير، وأنه صام في المهد، ورأى اللوح المحفوظ وهو ابن سبع سنين، وأنه ينقل اسم مريديه من الشقاوة إلى السعادة. ومن أراد أن يستزيد من معرفة مناقب هؤلاء الأبطال فليرجع

إلى هذا الرسالة فإن فيها العجب العجاب
أما الكتاب الثاني فهو حاشية الشيخ الباجوري على شرح ابن قاسم وقد جاء في باب الجنائز ما يلي:
لو شاهدنا الملائكة تغسله (الميت) لم يسقط عنا
(ولو غسل الميت نفسه كرامة كفى كما وقع لسيدي أحمد البدوي أمدنا الله من مدده)
والكتاب الثالث هو حاشية الشيخ الشرقاوي على متن التحرير لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري وقد قال في باب الجنائز أيضاً: (ولو شاهدنا الملائكة يغسلونه (الميت) لم يسقط عنا الطلب بخلاف ما لو كفنوه) إلى أن قال: ولو غسل الميت نفسه كرامة كما نقل عن سيدي أحمد البدوي رضي الله عنه، وكذا عن سيدي عبد الله المنوفي (المالكي كفى لأنه من جنس المكلفين. وكذا لو غسل ميت ميتاً آخر كرامة
نكتفي بهذا خشية الإطالة، ونعرضه عرضاً بغير مناقشة ولا بحث يقرأه الناس، ويطلع عليه إمام الأزهر، وهو القيم على علوم الدين في هذه البلاد والمسموعَ الكلمة بين أرجاء العالم الإسلامي، وكل ما نرجوه أن يوجه عنايته الجبارة إلى الإصلاح الصحيح لعلوم الأزهر، وذلك بإصلاح الكتب الدينية التي تدرس فيه، وبخاصة كتب العقائد منها، وأن يقوم العمل على الأخذ بها والدعوة على ما جاء بها، فلا يعبد الطاغوت في هذا البلد من دون الله، ومن لا يدين بها ويؤمن بأصولها يحال بينه وبين التصدي للدعوة إلى الدين، لأن العالم أو الواعظ إذا لم يكن سالم العقيدة خالص التوحيد، فإنه يكون أضر على الأمة من الجاهل
هذا ما نرجوه من شيخنا الأكبر، حتى يكون المسلم مستحقاً لوراثة الأرض بصلاح، فيأخذ أمور الحياة بأسبابها، ويستغلها بتسخير نواميسها، ويتبع سنن من يعاصرنا من الأمم الراقية شبراً بشبر وذراعاً بذراع، ليتبوأ مكانه اللائق به من العزة والسلطان.
نفزع إلى شيخنا الأكبر في ذلك، ونحن نعلم أنه ليس له غيره، فهو المسئول عن حماية العقائد الدينية في هذه البلاد من عبث الجاهلين، وقد تهيأ له من أسباب إنفاذ الإصلاح ما لم يتهيأ لمن سبقه من الأئمة المصلحين، فلا عذر اليوم
(المنصورة)
محمود أبو ريه

عَبْرَ كذا. . .
للأستاذ الكبير (ا. ع)
يذكر القارئ أني كنت قد كتبت بحثاً في العدد 424 من (الرسالة) أخطّئ فيه ما شاع في أقلام الكتاب من استعمالهم (عَبْر) - مصدر عَبَرَه - ظرفا، مسايرين الترجمة الخاطئة للكلمة الإنجليزية
وقد سقت للتوضيح ثلاثة أمثلة مما تستعمله الصحف والمجلات كل يوم. وسأعرض هذه الأمثلة مرة ثانية، وأبسط الموضوع بسطاً، وأضمّنه مقتبسات من كلامي وكلام مُناظري مما يدور عليه البحث بيني وبينه؛ حتى يعيه من القراء من لم يكن تتبعه منذ البداءة - وهذه هي الأمثلة:
1 - ومن زمن قريب ادعت اليابان لنفسها حق مرور قواتها (عَبْرَ) شمال الهند الصينية
2 - وسنواصل كل شهر قذف. . . بالقنابل الشديدة الانفجار، كما فرغت مصانعنا من إخراج طائراتنا الضخمة أو جاءت إلى هنا (عَبْرَ) الأطلنطي
3 - لهذا وصلوا بين باكو وباطوم (عَبْرَ) القوقاز بأنابيب
فردّ عليّ الأستاذ الفاضل محمد محمود رضوان في العدد 432 من (الرسالة) بأن هذه الكلمة قد جاءت في بيت لسواد بن قارب هو:
فشمرت عن ذيلي الإزار وأرقلت ... بيَ الدعاب الوجناء عبْر السباسب
ثم قال: ومن ثم يرى الأستاذ الكبير أن الكلمة صحيحة كما يستعملها الكتاب على عهدنا
وقال: ولو أردنا تخريج الكلمة على وجه صحيح لوجدنا أكثر من وجه، خلافاً لما يقول الأستاذ: (وأقرب هذه الوجوه عندي أن تكون (عبْر) مصدراً مراداً به اسم الفاعل، فتكون حالاً مما قبلها)؛ ويكون التقدير: (مرور قواتها عابرة شمال الهند الخ)، (أو جاءت إلى هنا عابرة الأطلنطي)
فأنت ترى أنه في عبارته هذه قد أعرب في صراحة (عبر) حالاً فعقْبت عليه في العدد

433 بأن المصدر لا يقع حالاً إلا إذا كان نكرة و (عبْر) في الأمثلة التي أتيت به - وفي غيرها مما تلوكه الصحف كل يوم - معرفة بالإضافة، فلا تصلح أن تكون حالاً؛ ثم جئت بعدة أمثلة مما يستشهد به النحويون لضرورة تنكير المصدر إذا وقع حالاً؛ وقلت أيضاً: إن
وقوع المصدر المعرف حالاً نادر جداً، ولا يكون إلا في صورتين يمثل لهما بمثالين هما: جاءت الخيل بَدادِ، وأرسلها العِراك
ولكن الأستاذ لم يُرِد أن يعترف بأنه قال ما قال - وهو ما خطّته يمينه صريحاً كما مرّ - فجاء في العدد 435 يقول ما نصه:
وأقول: إن الأستاذ لم يتبين رأيي على وجه الصحيح؛ إذ توهم أني أرى (عبراً) مصدراً أريد به الحال (تأمل)، ولم أقل هذا (تأمل)، وإنما قلت: إنه مصدر وضع موضع اسم الفاعل، فهو عبر بمعنى عابر، كما في قوله تعالى: (إن أصبح ماؤكم غورا)؛ ورجل عدل: أي عادل!
أقول: ما على القارئ إلا أن يرجع إلى عبارته، فهي من الوضوح والسلامة والإيجاز بحيث لا توقع في وهم أو ضلال.
ثم نرى الأستاذ بعد ذلك يعود فيؤكد إنكاره لما قال، ويتسرّب من هذا الإنكار - في شيء من الالتواء - إلى إجازة إعراب (عبر) حالاً؛ إذ هذا المصدر - كما يقول - سيفقد تعريفه بعد التقدير. . . الخ
وإني واضع عبارته كلها أمام القارئ، مراعاة للدقة، وسوقاً للحجاج على وجهه الصحيح، قال:
فأنت ترى أني لم أنص على أن كلمة (عبر حال) حتى يشترط تنكيرها، وإنما نصصت على أنها مصدر بمعنى فاعل (تأمل). وكونها (حالاً) أمر اقتضاه السياق الكلام في الجمل التي ساقها الأستاذ. وساعد عليه أن المصدر سيفقد تعريفه بعد التقدير. وسيصير المضاف إليه مفعولاً، وذلك في قولك: (عابرة الأطلنطي)؛ فليس ثم ما يمنع من أن يكون المصدر (حالاً) بعد أن فقد تعريفه (
أقول: إن المثال - وموضوع البحث والمناقشة - غير صحيح؛ إذ لا يعرف في العربية مصدر معرف يقع حالاً إلا في صورتين أو صور قليلة شاذة - فلا يمكن أن يتلمس له من (التقدير) ما به يخرج من فساده المتأصل
ألا إن الموضوع من الخطورة بحيث لا ينبغي أن يُرْمى فيه الكلام على عواهنه
بقيت مسألة ليست محل نزاع بيني وبين الأستاذ، وهي ما أشار إليها بقوله: (فقد أصبحت
القضية الآن: هل يشترط تنكير المصدر إذا وقع موقع اسم الفاعل، بصرف النظر عن كونه حالاً أو غير حال؟)
وللإجابة عن هذا أقول: يحسن أن يرجع الأستاذ مرة ثانية إلى ما جاء في العدد 433، فقد قلت فيه: (يكفي في الرد على هذا أن أذكر الأستاذ أنه من المقرر أن المصدر قد يقع حالاً (إذا كان نكرة). فالتنكير شرط، نحو. . . الخ)
فأنت ترى أني قصرت كلامي على (المصدر الواقع حالاً) ولم أتعرض لغيره، فلا محل هنا لهذا الاستفهام)
وليس كذلك بيني وبينه خلاف في المصدر قد يقع في موضع اسم الفاعل، ولا في أن اسم الفاعل قد يقع في موضع المصدر
وبعد فقد آن لي أن أختتم هذه الكلمة، بعد أن أفرغت الوسع في المقابلة بين كلام مناظري وكلامي. وإلى القراء أحتكم والله ولي التوفيق
(ا. ع)

فضل الصفر على المدنية

للأستاذ قدري حافظ طوقان

قد يعجب القارئ الكريم من هذا العنوان. وقد يتبادر إلى ذهنه أسئلة عديدة؛ ما علاقة الصفر بالمدنية؟ وهل للصفر قيمة ليكون له أثر في تقدم المدنية؟ أليس الصفر صفراً يعني الفراغ والعدم؟ إذن فكيف يوضع هذا العنوان ويصرف له بعض الاهتمام؟
ولكن مهلا. . . لقد فكرنا في هذا الموضوع، ورجعنا إلى الكتب الرياضية وغير الرياضية، فتبين لنا أن للصفر خصائص وأفضالا. وما يكون لنا أن نقتحم هذا الموضوع

لولا أن البحث قادنا إلى ذلك. وفي هذا المقال سنحاول تباين الفوائد التي تجنيها المدنية من الصفر، كما سنأتي على التسهيلات التي قدمها للبحوث الرياضية وغير الرياضية، والتي لولاها لما تقدمت العلوم الرياضية تقدمها المشهود، ولما استطاع العلماء أن يتقدموا بالجبر خطوات واسعة، وبالتالي لما استطاعوا أن يتقدموا بالتي تعتمد على الرياضيات في كثير من مباحثها كالفيزياء والفلك والكيمياء.

نبذة تاريخية

وقبل ذكر شيء عن الصفر وخصائصه وفوائده نرى أن نذكر أولاً نبذة عن تاريخ الترقيم واستعمال الصفر. إن النظام الذي نتبعه الآن في الترقيم مبنيّ على أساس القيم الوضعية، وبواسطته يمكن ترقيم جميع الأعداد وإجراء الأعمال الحسابية بسهولة كبيرة. ولقد بقيت الأمم في القرون الخالية كالمصريين والبابليين واليونانيين وغيرهم محرومة من هذا النظام؛ وكانوا يجدون صعوبة في إجراء الأعمال الحسابية، حتى أن عمليتي الضرب والقسمة كانتا تقتضيان جهداً كبيراً ووقتاً طويلاً. ولو قدّر لأحد علماء اليونان من الرياضيين أن يبعث فقد يعجب من كل شيء، ولكن عجبه يكون على أشده، إذ يرى أن أكثر سكان الأقطار في أوربا وأمريكا يتقنون عمليتي الضرب والقسمة ويجرونها بسرعة ودون عناء.

ولما نهض العرب نهضتهم العجيبة ودوّخوا أكثر أقطار المعمورة، اتصلوا بالهند فاقتبسوا منها الأرقام الهندية وقد قدروا النظام الترقيمي عندهم (عند الهنود) ففضلوه على حساب الجمل الذي كانوا يستعملونه قبلاً. ومن الغريب أن في بلاد الهند أشكالاً متنوعة ومختلفة

للأرقام، ولكن العرب بعد أن اطلعوا على أكثر هذه الأشكال كونوا منها سلسلتين عرفت إحداهما باسم (الأرقام الهندية) وعرفت الثانية باسم (الأرقام الغبارية). ففي بغداد والجانب الشرقي من العالم الإسلامي عم استعمال الأولى أي الأرقام الهندية، وهي التي لا تزال شائعة ومستعملة في بلادنا. وشاع استعمال الثانية، أي الأرقام الغبارية في القسم الغربي - في الأندلس وأفريقيا والمغرب الأقصى - وهذه الأرقام هي المستعملة الآن في أوربا والمعروفة باسم الأرقام العربية ولم يتمكن الأوربيون من استعمال هذه الأرقام في الأعمال الحسابية إلا بعد انقضاء قرون عديدة من اطلاعهم عليها، أي أنه لم يعم استعمالها في أوربا والعالم إلا بعد انتهاء القرن السادس عشر للميلاد

ولم يفطن أحد قبل الهنود إلى استعمال (الصفر) في المنازل الخالية من الأرقام؛ وقد أطلقوا عليها لفظة (سونيا) ومعناها (فراغ) واستعملوا النقطة (.) لعلامة الصفر؛ وقد أخذها العرب عنهم واستعملوها في معاملاتهم. ويقال إن الهنود لم يلبثوا أن عدلوا عن استعمال النقطة وأخذوا يكتبون الصفر بصورة دائرة

فوائد الصفر

مما لا جدال فيه أن نظام الترقيم الذي نعرفه والمنتشر بين أكثر أمم الأرض هو من المخترعات الأساسية القيمة ذات الفوائد الجلّى التي توصل إليها العقل البشري، وهذا النظام لم ينحصر - كما لا يخفى - في تسهيل الترقيم وحده، بل تعداه إلى تسهيل جميع أعمال الحساب. ولولاه لما رأينا سهولة في الأعمال الحسابية، ولاحتاج المرء إلى استعمال طرق عويصة وملتوية لإجراء الضرب والقسمة. ومما لا شك فيه أيضاً أنه لولا الصفر واستعماله في الترقيم لما فاقت الأرقام العربية والهندية غيرها من الأرقام، ولما كان لهما أية ميزة، بل لما فضلتهما الأمم المختلفة على الأنظمة الأخرى المستعملة في الترقيم. والنظام المستعمل والشائع الآن يقضي بجعل قيمة الرقم تتغير بتغير منزلته، أي أنهم أوجدوا منازل للأرقام تكسب الرقم الواحد قيماً مختلفة إذا نقل من منزلة إلى أخرى؛ فالرقم الذي على اليمين يدل على الآحاد، والذي يليه على العشرات، والذي يليه على المئات، وهكذا. . . وإذا أردنا أن نكتب العدد (ثلاثة وأربعين) فإننا نضع الثلاثة في المنزلة الأولى، أي منزلة الآحاد والأربعة في المنزلة الثانية، أي منزلة العشرات. وهنا نجد أن الثلاثة

دفعت الأربعة إلى المنزلة الثانية إلى اليسار وأعطتها قيمة الأربعين. ولكن إذا أردنا أن نكتب بالرقم العدد (أربعين) فمعنى ذلك أنه علينا أن نجد رقماً يدفع الأربعة إلى المنزلة الثانية إلى اليسار. وبذات الوقت لا يزيد في المجموع شيئاً، ومن هنا استعمل

الصفر ووضع علماء الهند علامة لتملأ المرتبة الخالية، فجاءت مكملة لطريقة كتابة الأعداد بالأرقام

وللصفر فوائد أخرى هي من عظم الشأن في مكان عظيم لا يقل خطرها عن التي ألمعنا إليها؛ فلولاها لما استطعنا أن نحل كثيراً من المعادلات الرياضية من مختلف الدرجات بالسهولة التي نحلها بها الآن. ويمكن القول بأن الرسم البياني لم يتقدم خطواته الواسعة إلا باستعمال الصفر. والرسم البياني من أهم البحوث الرياضية، وعليه ترتكز الهندسة التحليلية، وحلول كثير من المعادلات الصعبة، بل هو الركن الأساسي للموضوعات التي تحتاج إلى استعمال علم الإحصاء. وهل تقدمت المثلثات تقدمها المعروف إلا بمعادلاتها؟! وهل يستطيع الرياضي أن يتقدم خطوة في حلها إلا إذا استعمل إشارة (الصفر)؟!

قد يدهش القارئ إذا قلنا إن حساب التمام والتفاضل لا يستغني في بحوثه عن استعمال الصفر، بل إن الصفر عامل مهم جداً في تسهيل حل كثير من مسائله العويصة الصعبة. وعلى كل حال يمكن القول بأن (الصفر) ضروري ولازم في البحوث الرياضية الحديثة والعالية، إذ جعل كثيراً من الأوضاع والمعادلات قابلة للحل غير ملتوية المسالك يمكن الأخذ بها والاستفادة منها، واستعمالها في فروع المعرفة من فلك وطبيعة وكيمياء وهندسة وما يتعلق بهذه من صناعة وفن

علاقة الصفر بالمدنية

ألا تشاركني أيها القارئ في الإعجاب بالأرقام التي نستعملها ويستعملها الأوربيون وبالنظام الذي يستولي عليها؟ أليس عجيباً ومثيراً للدهشة ألا تجد أقل صعوبة في كتابة أي عدد شئت - مهما كان كبيراً - من أرقام لا يتجاوز عددها عدد الأصابع؟ ألا ترى معي أن هذه الأرقام العجيبة قد سهلت الأعمال الحسابية كثيراً؟! ألا تعتقد أنه لولاها لما تقدمت المعاملات التجارية تقدمها الحاضر، ولولاها أيضاً لوجدنا صعوبة كبيرة جداً في إجراء أبسط الأعمال في الضرب والقسمة!!

أرجح أن كل هذا معروف لديك وتوافقني عليه، ولكن قد يزيد عجبك إذا علمت أن إشارة (الصفر) هي التي أوجدت أكثر التسهيلات التي تراها في الترقيم، وهي التي أعطت بعض الخصائص الممتازة للأرقام. لقد ظهر لك المقام العالي الذي يشغله (الصفر) في البحوث الرياضية، وأنه عامل مهم في ترقيتها وفي تسهيل الصعب منها، ولا نكون مبالغين إذا قلنا إنه لولا الصفر لما تقدم العلماء تقدمهم الغريب في العلوم الرياضية. وهنا قد يحلو للبعض أن يتساءل ويقول: قد يكون للصفر هذا المقام في الرياضيات، وقد يكون له هذا الأثر الكبير في ارتقائها؛ ولكن ما علاقة ذلك بالمدنية؟ وهل المدنية تقوم على الرياضيات؟!

وجواباً على هذا السؤال، ليسمح لنا القارئ أن نعطي الجواب أولاً فنقول: نعم، إن المدنية في أساسها وجوهرها ترتكز على العلوم الرياضية.

إن كل فرع من فروع المعرفة يتقدم ويتناوله التغيير والتبديل، وكلما اقترب من الأرقام زاد دقة في التعبير ونحا نحو الكمال ونحو الذروة في الحقيقة. قال كانت (يكون العلم دقيقاً إذا استعمل العلوم الرياضية في بحوثه) ولم يستطع العلماء أن يستفيدوا من بحوث الضوء ومن انكسار النور إلا بعد أن أفرغوا قوانين الانكسار في قالب رياضيّ، وبذلك استطاعوا أن يستعينوا بالمعادلات والأرقام في العدسات التي تستعمل لإصلاح عيوب العين

إن علمي الفلك والفيزياء وصلا إلى درجة كبيرة من الدقة والكمال، وما ذلك إلا بفضل الأرقام والمعادلات. جرد هذين العلمين من رياضيتهما بل جرد الكيمياء الحديثة من معادلاتها وقوانينها وحينئذ لا يبقى إلا تعريفات ومبادئ لا يمكنك بحال من الأحوال أن تستفيد منها أو أن تطبقها فيما يعود على البشرية بالنفع والخير. ولن يستطيع العالم مهما كان قوي العقل خصب الفكر أن يقف على أسرار الطبيعة والكون. ولن يستطيع الغوص في بحارهما ليقف على كنوزهما وعجائبهما إلا إذا ألمَّ بالرياضيات وكانت عنده خبرة بها، وأن الكيمياء الحديثة لفي حاجة إلى الرياضيات حاجتها إلى التجربة والاختبار، وناهيك بالكيمياء فهي الأساس الذي شيد عليه صرح الصناعة في هذا القرن وجعلها تزدهر هذا الازدهار العجيب. إن هذا العصر لهو عصر الهندسة وعصر الآلة، وكل هذه في حاجة إلى الرياضيات ولا يمكن الاستفادة منها أو تطبيقها على مقتضيات العمران

إلا بذلك. قال البروفسور فوس (إن مدنيتنا التي ترتكز على الاستفادة من الطبيعة والسيطرة على
عناصرها مبنية على أسس العلوم الرياضية)، والهندسة وأنواعها والملاحة والصناعة كل هذه تحتاج إلى الرياضيات، ولا يمكنها أن تستغني عنها، بل إن أسس إنشائها تقوم على الأرقام والمعادلات. وما يقال عن هذه يمكن أن يقال عن علوم أخرى إلى حد ما، فإن هذه كلما تقدمت واستطاعت أن تدخل الأرقام في بحوثها اقتربت من الدقة والكمال. فالعلوم على اختلافها إذا اقتربت من الكمال فإنها لا بد محلقة في سماء العلوم الرياضية، وفي جو من الأرقام والمعادلات
ومن هنا تظهر لنا الفوائد التي تجنيها المدنية من العلوم الرياضية وفي استعمالها في العلوم والفنون الأخرى، وقد ظهر أيضاً كيف أن الحضارة الصناعية مبنية على أسس من الأرقام والمعادلات، وقد سبق أن أبَنَّا مكانة الصفر في العلوم الرياضية وفضله في تسهيل المسائل والأعمال، ومن هذه النقطة يتبين للباحث فضل الصفر على المدنية والصناعة
وقبل الختام أود أن أوجه نظر القارئ إلى أني أخشى أن يُساء فهم هذا القول فيظن أن الصفر هو الكل في الكل في العلوم الرياضية وبالتالي في المدنية، ومع استبعادي لذلك أرغب في القول بأن الصفر - ولا شك - عامل مهم في البحوث الرياضية لا يستغني عنه، وهو لازم وضروري لها ولتسهيل المعاملات والأعمال الحسابية، وينتج من ذلك إلى أنه عامل مهم في الصناعة والأعمال الإنشائية التي تحتاج إلى استعمال الأرقام والمعادلات. فاعجب لصفر يشغل هذا المقام السامي وتجني منه الحضارة فوائد هي أعظم جانب من خطر الشأن
(نابلس)
قدري حافظ طوقان
هؤلاء الكتاب
للأستاذ م. دراج
وقلت لنفسي: لقد أصبح الناس يقابلون بالشك والارتياب كتابة الكتاب . . . والمفكرين. فإذا تقصيت السر وجدتهم على حق فيما يشكون؛ فقد باع هؤلاء الكتاب حرية الفكر بعبودية المال، ورضوا وهم طلائع الأمة أن ينقادوا لرجال المال والأعمال؛ وقلما تتفق مصالح الشعب ومصالح أولئك الرجال؛ ولعل هذا هو أكبر ما تعانيه من بلاء، بل لعله السر الوحيد فيما وصل إليه المجتمع من تفكك وانحطاط.
فالتنافس في سبيل القوت قد انقلب إلى تناحر مادي فظيع ليس له حدود، وطريق الاستقلال مفتوح على مصراعيه لكل طارق، وليس للكائنات البشرية قيمة تذكر أمام الغاية الكبرى، وهي جمع المال والإثراء بأي ثمن. فالذي يستطيع أن يلقي بقدر من المال في عمل ما يجد العامل الذي يرضى بالدون من الكفاف؛ ويستطيع أيضاً أن يرغمه على العمل ليل نهار بزيادة بضع قروش أو بضع مليمات! وله الحق في هذا ما دامت قوانين الدولة لا ترسم حدوداً لمثل هذا الاستغلال الفظيع، وما دام الضمير الإنساني لا ينزعج لهذه الحال؛ فكل شيء على ما يرام! أفبعد هذا نلوم الناس على انصرافهم وشكوكهم في إخلاص المفكرين والكتاب؟ أليس الدليل واضح أمامنا في كتابات الصحف اليومية وغير اليومية يعطي أصدق برهان على فساد (التفكير الجماعي) عند هؤلاء الكتاب. إنهم ليفسحون لرجال المال صدور الصحف يكتبون ويعلنون فيها ما شاء لهم الغرض. ثم لا يجدون غضاضة في إعطائهم فرصة للكلام عن بؤس الفلاح وشقاء العامل واضطراب الموظف وحيرة الجماعات، ومتاعب الشعب جملة وتفصيلاً. . . ليستتروا وراء هذه الإعلانات في ثوب الطبيب الذي يتوجع لآلام المريض، وهو يعلم أن بلسمه الشافي بين يديه، ولكنه لا ينزل عن الثمن بأي حال!
هؤلاء الكتاب يسيئون الظن في ذكاء (الغريزة المصرية الواعية) مثلما يسيئون إلى الشعب المصري بقوائم الإحسان التي يعلنون عنها كل يوم في صحفهم. لقد فسدت عندهم مقاييس الإصلاح، فتوهموا أن الكلام قد يغني عن الخبز، وأن الإحسان أجدى وسائل الإصلاح، وأن الدنيا بخير ما داموا هم سعداء! إلا أن الشعب المصري لا يطلب إحساناً ولا بكاء. . .

لا، ولا إشفاقاً، وإنما يبني علاجاً حاسماً يقضي على أسباب المرض دفعة واحدة لا تقسيطاً؛ ولن يكون هذا العلاج إلا (جَماعياً) تؤمن به الدولة وتسنه قوانينها، حتى إذا جرى مجرى التنفيذ أفاد كل (خلية) في جسم الأمة، كما تغذي الدماء الأعضاء المشلولة بالحياة

هراء. . محض هراء. . كل ما تذيعه الصحف من علاجات أرباب المال، لأنهم لا يريدون إلا تبرعاً، والتبرع قد يفيد شخصاً وقد ينجد أسرة، وقد ينقذ ألفاً من الناس، ولكنه لا ينقذ شعباً بأسره يعدّ الفقراء فيه بسبعة عشر مليوناً إلا بضع عشر ألفاً من الأثرياء.

هؤلاء الكتاب يعرفون - أو لا يعرفون - أن سكرة الموت يعقبها هزة عنيفة هي هزة اليأس أو الرجاء، فماذا تراهم صانعين بأقلامهم المزيفة لو صحّ المريض، وسلمت روحه من الفناء، هل يظنون أنذاك أنها إحدى معجزات الإحسان؟!

أم يشهدون أن القوة الكامنة في قرارة النفس المصرية هي التي مهدت له طريق الحياة؟

أيها الكتاب اطرحوا عنكم ضلال المادة. ثم اكشفوا الغطاء عن موطن الداء. تهيئون لكم وللناس فرصة طيبة للعودة إلى الحق والصراط المستقيم. فالتفكير الفردي لا يجذب الجماعات، لأن الإحساس الجماعي يتطلب (تفكيراً جماعياً)، ونحن في أشد الحاجة إلى هذا اللون من التفكير يسود أذهان الكتاب، ولا شيء سواه يمكن أن يضيء للمجتمع طريقه إلى الخلاص وسط هذا الظلام.

والداء العياء لهذا البلد هو الإعسار الشديد في العيش، والإظلام الشديد في العقول والقلوب، حتى أصبحت البيئة المصرية مزرعة لملايين الأمراض البشرية، والأمية سبة في جبين كل مصري يتبعها انحطاط في الأخلاق والتفكير والأحوال المعاشية بوجه عام داء مصر الوحيد هو الفقر بعينه بشهادة اللجنة المالية لمجلس الشيوخ، فإذا استطعتم أن تقولوا كلمتكم في هذا المرض العضال وشرحتم أسبابه وفصلتم نتائجه ورسمتم على هذا النهج طريق الخلاص، أمكنكم النهوض بهذه الأمة سريعاً، أما غير ذلك فضرب من المحال، وضجة وتشويش في غير مجال.

م. دراج

المصريون المحدثون - 14

شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الإنجليزي إدوارد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

الحكومة - تابع الفصل الرابع

يحكم بطريرك الأقباط، وهو الرئيس الأعلى لكنيسته، في القضايا الصغيرة بين المتقاضين من طائفته في العاصمة؛ ويقوم مرءوسوه من القسس مقامه في البلاد الأخرى؛ وقد تستأنف أحكامهم أمام القاضي. وللمسلم الذي يعتدي عليه قبطي أن يرفع أمره إلى البطريرك أو إلى القاضي. أما القبطي الذي يقاضي المسلم فيجب عليه أن يقصد القاضي؛ واليهود كذلك. والفرنجة أو الأوربيون على العموم لا يخضعون إلى غير قناصلهم إلا إذا جنوا على مسلم فيسلمون إلى السلطات التركية التي تستأنف أمامها من ناحية أخرى قضايا الفرنجة الذين يعتدي عليهم أي مسلم ويخضع سكان الأقاليم لحكم المستخدمين الأتراك والمصريين ويقسم القطر المصري إلى عدة مديريات واسعة يتولى كلا منها عثمانلي. وتقسم هذه المديريات إلى مراكز يديرها موظفون من الوطنيين يلقبون (بالمأمور) و (الناظر). وللقرية كالمدينة شيخ يسمى (شيخ البلد)، ويكون من أهل القرية المسلمين. وكان هؤلاء المستخدمون جميعاً، ما عدا شيخ البلد، أتراكا من قبل. وكان هناك ولاة أتراك آخرون يتولون المراكز، وكان يطلق عليهم اسم (كاشف) و (قائمقام) وقد حدث هذا التغيير قبيل زيارتي الثانية لمصر. ويشكو الفلاحون من أن حالهم أصبحت أسوأ مما كان قبلاً. ولكنهم على العموم يقاسون طغيان الولاة الأتراك أشد مقاساة

ويبين الحادث الآتي حالة الفلاح المصري في بعض الأقاليم بعض البيان

في ليلة ما ذهب حاكم مدينة طنطا وهو تركي سيئ السيرة والسلوك، إلى أهراء الحكومة
بالمدينة، فوجد فلاحَين نائمين هناك. فسألهما من يكونان وماذا يفعلان في هذا المكان.
فقال أحدهما إنه أحضر من إحدى قرى المركز 130 إردباً من القمح. وقال الآخر إنه
أحضر 60 إردباً من أرض تابعة للمدينة. فقال الحاكم لهذا: (أيها اللص! هذا الرجل يورد
130 إردباً من قرية صغيرة، وأنت تورد 60 إردباً من أراضي المدينة؟. فأجاب فلاح
طنطا: (هذا الرجل لا يورد القمح إلا مرة واحدة كل أسبوع أما أنا فأورده كل يوم.
فأسكته الحاكم وأمر أحد الخدم أن يشنقه على فرع شجرة قريبة. فنفذ الأمر وعاد
الحاكم إلى منزله. وفي الصباح التالي عاد ثانياً إلى الأهراء فبصر برجل ينقل غلالاً
كثيرة إلى الداخل. فاستفسر عنه وعن المقدار الذي أتى به. فأجابه الخادم الذي شنق
الفلاح في الليلة السابقة: (هذا هو الرجل يا سيدي الذي شنقته إطاعة لأوامرك ليلة
أمس وقد أحضر 160 إردباً) فصاح الحاكم: (ماذا؟ هل بعث الرجل من قبره؟) فأجابه
الخادم: (لا يا سيدي. إنني علقته وقدماه كانتا تلمسان الأرض، ولما انصرفت حللت
عقدة الحبل. إنك لم تأمرني بقتله) فدمدم التركي قائلاً: (آها! إن الشنق والقتل شيئان
مختلفان. إن اللغة العربية غنية. في المرة القادمة سأقول اقتل. اعتن بأبي داود)
وهذه هي كنية الرجل
وأذكر حادثة أخرى تناسب المقام زيادة في بيان طبيعة الحكومة التي تحكم المصريين
يومئذ: عُين فلاح ناظراً على المنوفية قبيل قدومي الثاني إلى مصر. وفي أثناء جباية
الضرائب طولب فلاح فقير بمبلغ ستين ريالاً؛ والريال تسعون فضة فالمبلغ مائة
وخمسة وثلاثون قرشاً فقال الفلاح إنه لا يملك غير بقرة لا تكاد تصلح شأنه وتقيم أوده
هو وعائلته. فلم يأمر الناظر بضربه كما هي العادة عندما يمتنع الفلاح عن دفع
الضريبة، وإنما بعث بشيخ البلد ليأتي ببقرة الفلاح المسكين، ثم أمر بعض الفلاحين
بشرائها. فلم يستطع أحد شراءها لقلة المال. فأرسل الناظر في طلب الجزار وأمره
بذبح البقرة وتقطيعها ستين قطعة. وبعد أن دفع إلى الجزار رأس البقرة أجرة له،
أحضر ستين فلاحاً معاً وأجبر كلا منهم على شراء قطعة من البقرة بريال. فذهب
صاحب البقرة باكياً شاكياً إلى محمد بك الدفتردار رئيس الناظر وقال له: (يا سيدي أنا
مظلوم بائس. لم أكن أملك غير بقرة واحدة، بقرة حلوب كان لبنها قوتنا أنا وعائلتي،
وكانت تحرث لي الأرض وتدرس الغلال. وكانت معيشتي كلها عليها. وقد أخذها الناظر
وذبحها وقطعها ستين قطعة باعها إلى جيراني بستين
ريالاً. بينما كانت تساوي مائة وعشرين ريالاً أو أكثر. أنا مظلوم بائس غريب عن هذا
المكان لأني من قرية أخرى؛ ولكن الناظر لم يرحمني. وقد أصبحت أنا وعائلتي نسأل
قوتنا ولم ندخر شيئاً. رحمتك وعدلك يا سيدي. أتوسل إليك بقداسة حريمك) فأمر
الدفتردار بإحضار الناظر وسأله: (أين بقرة هذا الفلاح؟) فقال الناظر: (بعتها). (بكم؟).
(بستين ريالاً). (ولماذا ذبحتها وبعتها؟) كان على صاحبها ستون ريالاً ضريبة على
الأرض، فأخذت البقرة وبعتها وفاء للمبلغ. (وأين الجزار الذي ذبحها؟). (في منوف)،
فأرسل الدفتردار في طلب الجزار، فلما قدم قال له: (لماذا ذبحت بقرة هذا الرجل؟)
فأجاب الجزار: (إن الناظر أمرني وما كان لي أن أعصي أمره لئلا يضربني ويخرب
بيتي. وقد ذبحتها وأعطاني الرأس أجرة لي)، فقال الدفتردار: (يا رجل هل تعرف من
اشترى اللحم؟) فرد الجزار بالإيجاب. فأمر الدفتردار ناموسة بكتابة أسماء الستين
رجلاً وإرسالها إلى شيخ بلدتهم لإحضارهم إلى منوف حيث أقيمت الشكوى؛ وسجن
الناظر والجزار. وفي اليوم التالي قدم شيخ القرية ومعه الفلاحون الستون. فأخرج
السجينان وأوقفا بين يدي الدفتردار فسأل شيخ البلد والفلاحين: (هل كانت بقرة هذا
الرجل تساوي ستين ريالاً؟) فأجابوا: (يا سيدي إن قيمتها كانت أكبر) فبعث الدفتردار
إلى قاضي منوف وقال له: (يا قاضي، هذا رجل ظلمه هذا الناظر بأخذ بقرته وذبحها
وبيع لحمها بستين ريالاً. فما حكمك؟) فأجاب القاضي: (إن من يظلم أحد من الرعية
طاغية قاس. ألا تساوي البقرة مائة وعشرين ريالاً فباعها الناظر بستين؟ إنه ظلم
صاحبها). فقال الدفتردار لبعض جنده: (اقبضوا على الناظر وجردوه من ملابسه
وأوثقوه). ثم قال للجزار: (يا جزار ألا تخشى ربك؟ لقد ذبحت البقرة ظلماً) فأوضح
الجزار مرة أخرى أنه إنما اضطر إلى إطاعة أمر الناظر. فقال الدفتردار: (أتنفذ ما

آمرك به؟) فأجاب الجزار: (نعم). فقال الدفتردار: (اذبح الناظر). وسرعان ما قبض الجند عليه وألقوه على الأرض ونحره الجزار كما ينحر الحيوان. فقال الدفتردار: (قطعه ستين قطعة). فنفذ الجزار الأمر والحاضرون يتأملون هذا المنظر ولا يجرءون على الكلام. ثم أمر الدفتردار الفلاحين الستين أن يتقدموا واحداً واحداً، وفرض على كل منهم قطعة من لحم الناظر بدفع ريالين. وبهذه الطريقة حصل على مائة وعشرين ريالا. وبعد انصراف الفلاحين سأل الدفتردار القاضي: ماذا يكون جزاء الجزار؟ فأجاب القاضي أن

يجازى كما جازاه الناظر. فأمر الدفتردار أن يعطى رأس الناظر. وفرح الجزار بنصيبه الذي لا يساوي شيئاً وهو يحمد الله على أن حظه لم يخنه أكثر من ذلك. وانصرف وهو لا يكاد يصدق أنه نجا بهذه السهولة. أما صاحب البقرة فدفع إليه ثمن لحم الناظر.

ويتعدى أغلب حكام الأقاليم في طغيانهم حدود السلطة التي خولهم الباشا إياها؛ حتى شيخ القرية يسيء استعمال سلطته الشرعية عندما ينفذ أوامر رؤسائه. وليست وظيفة شيخ القرية منصباً يقبض صاحبه مرتبه بلا عمل. ففي وقت جباية الضرائب كثيراً ما ينال شيخ القرية من الضرب أكثر مما ينال مرؤوسيه، إذ أنه عندما لا يورد سكان القرية المبلغ المطلوب يضرب الشيخ لتقصير الفلاحين. وهو لا يدفع دائماً نصيبه حتى يشبع ضرباً. ويفتخر الفلاحون أجمعون بما يتركه الكرباج على أجسادهم من آثار لرفضهم دفع الضرائب. وكثيراً ما يتباهون بعدد الضربات التي نالوها قبل أن يدفعوا نقودهم. ويصف أمينانوس أرسليوش مصر في زمنه بالخلق نفسه

ويبلغ إيراد والي مصر، على ما يقال، ثلاثة ملايين جنيه إسترليني يرد نصفها تقريباً من الضرائب المباشرة على الأطيان ومما يؤخذ من الفلاح ظلماً بطريق غير مباشر. ويرد النصف الباقي على الأخص من الرسوم الجمركية والضرائب على النخيل ومن بيع محصولات الأرض المختلفة التي تكسب الحكومة منها ما يزيد على الخمسين في المائة. وقد نمى الباشا الحالي إيراده إلى هذا القدر باتباعه أشد الوسائل تعسفاً. فقد نزع من الملاك أراضيهم ومنحهم معاشاً بنسبة مساحة الأرض وصفاتها. ولذلك لم يكن للمزارع ما يخلفه لأولاده غير كوخه، وقد يترك لهم بعض الماشية وبعض مدخرات طفيفة

وتقدر ضرائب الأطيان المباشرة حسب مزايا الأرض الطبيعية. ويبلغ متوسطها حوالي ثمانية شلنات للفدان، ولكن الفلاح لا يستطيع أن يحصي ما تطلبه الحكومة منه. فهو يعاني الكثير من الطلبات غير المباشرة (وهي تختلف باختلاف السنين ولكنها تفرض على الفدان) من الزبدة والعسل والشمع والصوف والسلال المصنوعة من السعف، والحبال المفتولة من ألياف النخيل، وغير ذلك من المحاصيل. ويجبر الفلاح أيضاً على دفع أجرة الجمال التي تحمل الغلال إلى شونة الحكومة، وعلى القيام بنفقات عديدة أخرى. وتستولي الحكومة على جزء من محصول الأرض، وقد تستولي على المحصول كله بثمن مناسب

معين لا يفي مع ذلك في عدة أقاليم ما تبقى من ديون الفلاحين المصريين. وكثيراً ما يضطر الفلاح للحصول على ضروريات الحياة، أن يسرق محصول أرضه ويحمل ما يستطيع حمله إلى كوخه سراً. ويحضر الفلاح بذور أرضه بنفسه أو يأخذها سلفة من الحكومة، ولكنه في هذه الحالة قلما يتحصل على كمية كافية من التقاوي لأن القائمين بالأمر يسرقون منها مقداراً كبيراً قبل أن يسلموها للفلاح. ولا يتسع هذا الكتاب لذكر ما يعانيه الفلاح المصري من ظلم المأمور والمستخدمين وخياناتهم. ويندر أن يستطيع الفلاح أن ينعم بالحياة مع شدة العذاب، لذلك لا أرى ضرورة للقول بأن الفلاح قلما يثابر على تحمل أعباء الزراعة إلا إذا أجبره على ذلك الحكام

ولم يستول الباشا على الملكية الخاصة فحسب، بل أضاف إلى خزائنه كثيراً من دخل المنشآت الدينية باعتبار أن أموالها المتراكمة تزيد على اللازم. وقد بدأ بفرض ضريبة - حوالي نصف ضريبة الأرض المنتظمة - على الأراضي الموقوفة على المساجد والسبل والمدارس العامة. . . الخ. ثم استولى على هذه الأراضي استيلاء تامًّا ومنح عوضاً عنها بعض رواتب سنوية لترميم المباني ولنفقة الأشخاص التابعين للوقف من نظار وموظفين دينيين وخدم وطلبة وغيرهم من المستحقين. وقد أثار الباشا بهذا مقت رجال العلم والدين الشديد، وعلى الأخص نظار المساجد الذين كانوا يثرون من

الأموال الوافرة المودعة تحت رعايتهم وأمانتهم. أما ما وقف على خدمة المساجد والمنشآت العامة (وهي أوقاف مختلفة وقفها كثيرون من طبقات مختلفة) فلم يمسها الباشا حتى الآن.

وقد بلغت ضريبة النخيل حوالي مائة ألف جنيه إسترليني، وهي تقدر حسب أنواع النخيل، وتكون - على العموم - بمقدار قرش ونصف قرش على كل نخلة

وتبلغ ضريبة الدخل المسماة (الفِرْدة) على العموم 121 أو أكثر من دخل الرجل أو مرتبه السنوي إذا أمكن تحديد ذلك، إلا أن الحد الأقصى لا يتعدى خمسمائة قرش. وهي تفرض في المدن الكبيرة على الأفراد وفي القرى على المنازل. وتبلغ ضريبة الدخل في العاصمة ثمانية آلاف كيس أو حوالي أربعين ألف جنيه إسترليني

ويدفع سكان العاصمة وغيرهم من سكان المدن الكبيرة ضريبة ثقيلة على الحبوب الخ. وضريبة الحبوب ثمانية عشر قرشاً على الأردب من كل نوع، وهذا المقدار يساوي ثمن القمح في مصر وقت المحصول الطيب

(يتبع)

عدلي طاهر نور

جواب على تعزية

لا تقولي (عزّ) صبراً إنني ... أجد الصبر على خطبي محالا //
كيف يُرجى من فؤاد حشوه ... لهبٌ أن ينضج الماَء الزلالا
كلفيني وُسع نفسي واعلمي ... أن للأنفس عجزاً واحتمالا
كل حيٍّ، كان ميتاً، صائرٌ ... إذ يحين الحين للموت مآلا
عمرنا للموت شوط وبه ... خطوات الموت سرًّا تتوالى
أنت إذ تصبح حيًّا يبتدي ... عمل الموت نمواً وانحلالا
وإذا ما عمل الموت انتهى ... قلت جاء الموت جهلاً وضلالا
في الحياة اختبأ السر الذي ... فيه صار الموت للحيّ كمالا
حكم بالغة نعرفها ... وبها ننعم في السرّاء بالا
وإذا الضرّاء مسَّتْ وقَتْ ... عادت الحكمة وهماً وخيالا
أثر الحكمة في النفس ولنْ ... تجدَ الحكمةُ في الحسِّ مجالا
من يكن في صدره منَّسَعٌ ... للرزايا، منه حبل العمر طالا
إنما يأكل أيامَ الفتى ... همُّه، فأحذر من الهم اغتيالا
وارتقب في كل يوم عجباً ... فالليالي بالأعاجيب حبالى
الصفا تحويك منه ساعة ... والشقا يطويك أعواماً طوالا
فاغتنم من روْح ساعات الصفا ... ما يعزّيك إذا الصفو استحالا
وادَّخر من صحة تحظى بها ... قوةً تلقى بها الدَّاء العضالا
واتخذْ من صحو أيام الرضا ... ما يقيم العقلَ إن سكرٌ أمالا
هذه أشجاننا يسمعها ... ساهر الليل إذا الهم استطالا
وعليها تهجع العين التي ... ضلَّ عنها طارق الهمّ ومالا
مقلة تذرف دمعاً وفمٌ ... ليس يبدي، خشية الله، مقالا
لا تقولي كيف يبكي رجلٌ ... يملأ الأعين حزماً وجلالا
حكمة الجبار فينا جعلت ... من صروف الدهر ما يبكي الرجالا. . .

(طرابلس - الشام)

(ن. ج)

نظرة. . .!

لما نَظَرتِ إلى أمسِ مُلِيحَةً ... بين الجموع بلحظكِ المرتاب //
رَفَّتْ على شفتيكِ بسمةَ حائرٍ ... ما بينَ شِبْهِ رضىً وشبه عتاب
فقرأْتُ في عينيكِ عمريَ كلَّه ... وفهمتُ أني قد أضَعْتُ شبابي
وذهبتُ لا ألوي على نفسي وبي ... مما تَسَعَّرَ في الجوانح ما بي
ضاقتْ بي الدنيا وكم ضاقت إذا ... ما جدَّ بي وجدي وعَبَّ عُبابي
لَخَّصْتُ عمْرِيَ كلَّه في نظرةٍ ... زادت بِحيْرَتها عَلَيَّ عذابي

واللهِ ما كان ابتعادي عن قِلىً ... أبداً ولا عن هِجْرَةٍ وَغِضَابِ
لكنَّهَا الأقدارُ قد لَعِبَتْ بنا ... وَلِعَابُهَا في العمرِ شَرٌّ لِعَابِ
واليومَ أَنْفَقْتُ الشبابَ وكان لي ... كنزاً أُبَدِّدُهُ بغير حساب
وغدوتُ إنْ سِرْبُ الملاح مَرَرْنَ بي ... أُغضي بِقَلْبٍ في ضُلُوعي كاب
أصبحتُ أَنْفُرَ من جَمَالِ عابر ... يهتاجُ حُبَّاً كان لي وَنَبَا بي
وَيُعيدُ ذكرى ناظِرَيْكِ وفيهما ... نورٌ خَبَا عني وليس بخابِ
تذكو به نيرانُ وَجدي مثلما ... في القفر يُذْكِي الظِمأ لَمْعُ سَراب
حسبي عقاباً في الحياة بأنني ... يا هندُ قد صارَ الجمالُ عِقَابي
خليل شيبوب
!. . .لا تقل
أيْها الراحلُ عن عيني غدَا ... كيف أحيا نائياً عن ناظريكْ
آهِ لو تعلمُ ما سوفَ أرى ... في ليالي البعدِ ما هُنت عليكْ
كيف أحيا بين همي واشتياقي
أشربُ الآلامَ من كأس الفراق
وألاقي في التنائي ما ألاقي
من أسى دهرِي إلى يوم التلاقي
لا تَقُلْ منا دناً
يوم النوى
يا هوى نفسي وآمالَ مُنَاها
لا تدعْني والضنى
إن الهوى
شعلة في القلب لا يخبو لَظَاها
أترى أحيا هُنا
نَهْبَ الجوى
تبلغُ الآلامِ مني منتهاها
فارحمْ القلبَ ولا تقسُ عليه ... ففؤادي ما هَفَا إلا إليكْ
عِشْتَ دنيا النورِ والصفوِ لَديه ... يا تُرى هلْ عاش كالدنيا لديكْ؟
(الإسكندرية)
مصطفى علي عبد الرحمن
البرَيدُ الأدبيّ
العروبة لغة لا جنس
نشرت (الرسالة) كلمة كريمة لحضرة (الفاتح النور) في التعقيب على البحث الذي أرسلته لمؤتمر الخريجين في السودان، وهو يقول إن من سمع ذلك البحث أو قرأه يعتقد أن العروبة في السودان لغة لا جنس، مع أن السودان أكثر من النصف من العرب العريقين
وأجيب بأن السودان لم يشغلني بالذات وأنا أعد ذلك البحث، وإنما هو بحث عام أردت به رفع الأشواك من طريق العروبة في أقطار اللغة العربية
ومن كلام هذا الأديب فهمت أن سكان السودان نصفهم عرب ونصفهم غير عرب، (من حيث الجنس) وأنا أريد غير ما يريد، أنا أريد أن تكون العروبة صفة أساسية لكل من يتكلم اللغة العربية، ولو كان أجداده من الصين
وأقول مرة ثانية إن اعتزاز العرب بالجنس كان له تأثير سيئ في تاريخ اللغة العربية، فهو الذي أقام في طريقها العقبات بالمشرق والمغرب، وهو الذي أوجب أن يحرص الفردوسي على أن تخلو (الشاهنامة) من جميع الألفاظ العربية، وهو الذي ساق أتاتورك إلى كتابة اللغة التركية بالحروف اللاتينية بعد أن كانت تكتب بالحروف العربية في آماد طوال طوال
ويرى هذا الأديب أني لا أستطيع الكتابة عن السودان بصدق إلا بعد أن أزوره وأتحدث مع عربان كردفان، وأقول إن الغاية مختلفة بعض الاختلاف، فأنا لا يهمني أن يثبت أن سكان السودان كلهم أو جُلهم من سلالات عربية، بقدر ما يهمني أن يثبت أن اللغة القومية لجميع أهل السودان هي اللغة العربية

وهنا يتسع المجال لحقيقة قليلة الخطور في البال، وهي أخوال الأشراف المنسوبين إلى الرسول، فقد كان للرسول زوجات من أجناس مختلفات، وكان من الممكن أن يكون للأشراف أخوال من الأقباط واليهود لو بقيت له أعقاب من جميع تلك الزوجات أتريدون الحق؟

الحق أن العرب يبتعدون من تعاليم زعيمهم الأكبر وهو محمد، وهذا الابتعاد جديد، فمن أسماء المسلمين عيسى وموسى وهارون وإسحاق ويعقوب وإبراهيم، ولي صديق من نصارى العراق سيسمي ابنه محمداً حين يرزقه الله بمولود، ليؤكد القول بأن محمداً زعيم

العرب بغض النظر عن اختلاف الدين

إن صدري ليضيق بالخلاف الذي يقع من غير موجب، وأنا أدعو إلى تقديس الفكرة التي تقول بأن (الخال والد) والعرب صاهروا أكثر الشعوب، ونقلوا إلى سلالاتهم كثيراً من الخصائص بفضل التسامح في العصبية الجنسية، فكيف نخرج على تقاليد أولئك الأسلاف، بل كيف نخرج على أدب الرسول؟

العروبة لغة لا جنس

ولي من هذا الرأي هدف لا يخفى على إخواني في جميع البلاد العربية، وسأجاهد في تأييد هذا الرأي بما أملك من الوسائل والأساليب، إلى أن يصبح من البديهيات

ويسرني أن أسجل أني لا أقول وحدي بهذا الرأي، فهو اليوم شريعة أدبية لجميع المتكلمين باللغة العربية على اختلاف الأجناس، وسترون كيف يصبح هذا الرأي من العقائد بعد قليل من الزمان

زكي مبارك

الخباز

من المآخذ التي أخذها الأستاذ عبد السلام هارون على كليلة ودمنة ما جاء في ص115 س13 (رأس الخنازير وسيد الخنازير) قال: (عندي أنها رأس الخبازين وسيد الخبازين) واستدل ببعض النسخ

ولكن محقق الكتاب الفاضل الدكتور عبد الوهاب عزام لم يرتض هذا الرأي فرد عليه في العدد 434 من الرسالة قال: (وأرى أن الخنازير أقرب إلى الصواب، لأن دمنة وصف هذا الرئيس بصفات الخنازير، وليس في وصفه بأنه صاحب المائدة ما يجعله خباز الخ.)

قلت: ظاهر عبارة الدكتور الأخيرة (وليس في وصفه الخ.) أن الخباز غير صاحب المائدة، وأن هذا من الأسباب التي يستبعد لها أن يكون المقصود خباز

وقد أوقع الدكتور الفاضل في هذا فهمُه (الخباز) بمعنى صانع الخبز، وهو كذلك، ولكن للخباز معنى آخر ورد كثيراً في كتب الجاحظ والمسعودي، ولعله كان على عهد ابن المقفع. وهو استعماله بمعنى (خادم المائدة) أي ما نسميه الآن (السفرجي)، ولعله يقوم

أحياناً بصنع بعض الطعام

وقد يبدو هذا الاستعمال غريباً لندرته، ولكنك حين ترجع إلى ما أثبت من النصوص لا تجد ثم مجالاً للريب في صحته

1 - في كتاب البخلاء للجاحظ ص160: (قرَّب خباز أسد بن عبد الله - وهو على خراسان - شواء قد نضجه نضجاً. وكان يعجبه ما رطب من الشواء، فقال لخبازه: أتظن أن صنيعك يخفى علي؟)

2 - وفي البخلاء ص164: (جاء الخبازون فرفعوا الطعام)

3 - وفيه أيضاً: (إذا دعا على مائدته بفضل دجاجة. . . رد الخادم مع الخباز إلى القهرمان حتى يصك له بذلك إلى صاحب المطبخ)

4 - وفي الحيوان للجاحظ ج4 ص26: (إن العرب تقول للرجل الصانع. . . خباز إذا كان يطبخ ويعجن)

5 - وفي الحيوان ج5 ص136: (ولذلك صار الخبازون الحذاق قد تركوا الضأن لأن المعز يبقى شحمه ولحمه فيصلح أن يسمن مرات فيكون أصلح لأرباب العرس)

6 - وفي (التاج في أخلاق الملوك) للجاحظ أيضاً ص173: (فلا يوضع عليها إلا الخبز والملح والخل والبقل، فيأخذ منه شيئاً هو ومن معه، ثم يأتيه الخباز بالبزماورد في

طبق الخ.)
وعلق على كلمة الخباز فيه محققه العلامة المغفور له أحمد زكي باشا بما ذكرنا من أنه خادم المائدة
ولعل مصدر هذا الاستعمال ما ورد في القاموس والمختار والأساس أن (خبزَ - 7 القومَ) معناها (أطعمهم الخبز)
قلت: فالخابز - والخباز مبالغة منه - هو المطعمُ الخبزَ، ثم لعل توسع فيه فأطلق على المطعم أيا كان طعامه وهو خادم المائدة
وبعد. فورود هذا اللفظ في هذا المعنى مما يؤيد الأستاذ هارون بعض التأييد، ويوهي إحدى حجج الدكتور الفاضل
(بني سويف)
محمد محمود رضوان
الأسود بن قنان
قرأت كلمة في (الرسالة) تحت هذا العنوان للأستاذ علي الجندي، وأقول: إن مآثر (الأسود) الغر وأياديه البيض حملت بديع الزمان الهمذاني على أن يكتب مقامة باسم (المقامة الأسودية) نسبة إليه، أتى فيها بما يراه القارئ
وبهذه المناسبة أقول: إن الذي أرشدني إلى هذا المصدر هو الأستاذ البحاثة محمد فؤاد عبد الباقي
علي حسن هلالي
بالمجمع اللغوي
مصر بين القطن والقمح
أذاع العالم الزراعي الكبير الأستاذ حسن الزيني بك حديثاً بالراديو على المزارعين أقنعهم فيه بمنطق الأرقام أن زراعة الحبوب على اختلافها أوفر وأيسر من زراعة القطن. وأهاب بكبار الملاك وبمصلحة الأملاك أن يكونوا قدوة للفلاحين في الإقلال من القطن والإكثار من القمح تأميناً لأقوات الشعب وتخفيفاً عن الفقير في هذه الظروف العصيبة. فإن من أعجب العجب أن تكون مصر في عصورها المختلفة من أوسع أهراء العالم للحبوب ثم لا يجد أبناؤها الرغيف إلا بشق الأنفس. وكان حديث الأستاذ واضحاً كل الوضوح مقنعاً كل الإقناع؛ فعسى أن يكون قد وقع من سامعيه موقع الرضى والاستجابة.
تصويبات:
قرأت مواضع من الجزء الحادي عشر من تفسير القرطبي فوجدت فيها الأغلاط الآتية: ص3 س22: (مدجج) صوابها: (مدجج). وص 26 س1: (أَتَتهون) والصواب: (أَتَتْهون). وص 26 س11 (عبّدا) صوابها: (عبْداً). وص 135 س14: (المقرَور) والصواب: (المقرُور). وص 153 س14: (يريدون) وصوابها: (يردون). وص 187 س7: (يلومَها) وصوابها: (يلومُها). وص 268 س23: (كثيرة) والصواب: (كثير). وص 320 س14: (وأما ما بوسها) وصوابها: (وأما بوسها). وص 341 س22: (كما اللسان) وصوابها: (كما في اللسان)
أحمد صفوان
النفط
أستاذنا الكبير صاحب الرسالة
ذلك تحقيق لغوي عثرت عليه من مطالعاتي بمجموعتي من (المقتطف) سنة 1928، في الجزء الخامس من المجلد الثاني والسبعين تحت مقال للدكتور أمين المعلوف صاحب المعجم الطريف في (علم الحيوان)
قال الدكتور:
النِفط والقار والقير والكُفر والقُفر وقفر اليهود والحُمَر والزفت والمومياء والقَطْران) مواد هدروكربونية مؤلفة الهدروجين والكربون على نسب مختلفة والعلماء في أيامنا يطلقون القار وهو يطلق عند الرومان على جميع هذه المواد، سواء كانت جامدة كالحُمَر، أو سائلة كالنفط، أو هوائية كالغاز الحقيقي. فالنفط بكسر أوله وإسكان ثانيه وقد يفتح أوله، دُهن معدني أبيض أو أسود ضارب إلى الخضرة سريع الاحتراق يسمى باللاتينية بتروليوم أي دهن الحجر أو زيت الحجر

ولفظة النفط عربية سامية قديمة جداً أخذها اليونان عن العرب وقالوا نفثاً وهي معناها. ومما يدل على أصلها السامي أنها بالسريانية والعبرانية مثل العربية مع اختلاف قليل في اللفظ. ثم إن اليونان كانت أول معرفتهم بالنفط في العراق، وكان من البديهي أن يسموه نفطاً كما سمها العراقيون من سريان ويهود وعرب؛ ولعله سمي بذلك لخروجه من باطن الأرض، كما يتضح من مادة النفط ومشتقاتها في كتب اللغة. كذلك نفه ونبط ونبض ونبث ونبش وأشباهها، فكلها تدل على الخروج أو الدفع ثم تفرع (. . .من ذلك معنى الاحتراق. كقولنا تنفط الرجل غيظاً أي احترق
ثم قال بعد كلام كثير مفيد. . . والنفط كما تقدم لفظة عربية فصحية وهي شائعة عن العراقيين. . .
(المنصورة)
حسين محمود البشبيشي
جماعة تيسير الحج
ترحب بكل مستفهم عن جميع ما يتعلق بحج بيت الله وزيارة رسوله صلى الله عليه وسلم من كل أمر يهم الحاج معرفته من أحكام دينية وحاجات السفر وأجور الانتقال وزيارة الآثار.
والجماعة إذ ترشد لشيء فإنما ترشد عن تجربة وخبرة تامة؛ لأن أعضاءها ممن رزقهم الله حج بيته، وقد سنحت لهم الفرص بتصوير جميع المشاهد الإسلامية التي ينبغي أن تزورها في مكة والمدينة
وإذا شرفت مقر الجماعة أخذت فكرة حقيقية عن الحج قبل سفرك، وشاهدت أكثر من ستين صورة من صور الأماكن المقدسة، وإن شئت الاستفهام بالرسائل فالجماعة على أتم الاستعداد للإجابة.
وللجماعة عدا الإرشاد غرض هام آخر، هو أنها تساعد من يريد الحج على توفير المال اللازم له، كما أنها تمده بجميع ما يحتاج إليه منه وفق قانونها.
وقد خصصت الجماعة لاستقبال الحجاج يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع فيما بين الساعة الرابعة والسادسة مساء بشارع رفعت رقم 27 شبرا مصر
وكيل الجماعة
محمد الشافعي
مدرس بمدرسة شبرا الابتدائية للبنات
جريدة الواجب
نقلت جريدة (الواجب) الأسبوعية التي تصدر من مدينة المنصورة لصاحبها الأستاذ احمد
جاد جمعة إلى مدينة القاهرة شارع البراموني رقم 6 تليفون 47738 وستظهر في ثوب جديد قشيب، يشترك في تحريرها نخبة من رجال الأدب والمحامين.
العدد 439 - بتاريخ: 01 - 12 - 1941
. . .أمنيتي
للأستاذ عباس محمود العقاد
قلت في ختام مقالي السابق: (أما أمنيتي التي يسألني الأديب عنها سؤاله الأخير فلعلها لا تشرح في ذيل هذا المقال، وأحرى بها أن تؤجل إلى مقال قريب، لأنني لا أطرق منها جانباً يخصني دون غيري، بل أطرق منها ما يصح أن يمتد إليه كل بحث وينظر فيه كل ناظر. . .)
ولم أقصد بكتابة هذا المقال عن أمنيتي في الحياة إلا ما قصدته بكتابة مقالي السابق عن أدب اليوميات، وهو تسجيل ظاهرة نفسية أستطيع أن أراقبها في نفسي وأن أتخذ من تجربتي لها فائدة أضيفها إلى تجارب غيري. فليس أصدق في دراسة النفسيات من تسجيل تجارب النفوس.
وإذا صدقت تجربتي في هذا الباب فما من أمنية تسيطر على حياة الإنسان إلا ظهرت بذورها الأولى في بواكير صباه، فإنني لم أتمن في حياتي أمنية كبرى بعد الذي تمنيته بين العاشرة والخامسة عشرة، وكل ما أضافته السنون من جديد أنني كنت في الطولة أتمنى على سبيل الرمز والتلميح، وأنني استوضحت أماني بعد ذلك فبرزت لي على ضوء الوصف البين الصريح

بين العاشرة والخامسة عشرة تمنيت على التوالي أن أصبح ولياً من أولياء الله، وقائداً من كبار القادة، وأديباً من رجال القلم النابهين. فعلمت مع الزمن أن هذه الأماني الثلاث إن هي إلا أمنية واحدة ضلت طريقها حتى اهتدت إليه، وجهلت عنوانها حتى اتسمت به والتزمت مسماه، وأن الولي والقائد إنما هما جانبان منطويان في الجانب الأكبر أو الجانب الوحيد الذي هو جانب الباحث والمفكر والأديب.

شاقني من الولاية وأنا في العاشرة تسخير قوى الطبيعة واستطلاع أسرار الدنيا والآخرة؛ فقرأت مناقب الصالحين وكتب السحر، وأردت أن أمشي على الماء، وأن أطير في الهواء، وأن أتلو القسم على شيء من الأشياء فإذا هو مذعن مطيع، وأن أدعوا الغيب إلي فإذا هو مجيب سميع؛ فصليت عشرات الركعات، وسردت ألوف الأسماء، وأوشكت أن أتمادى في (الدروشة) وأن أزهد في الدنيا وأنقطع للعبادة، وأنتظم بين من يسمونهم أهل الطريق. ثم

عصمني حادثان صبيانيان يضحكان، ولكنها بما أعقبا وأفادا بالغان في الجد والتسديد: أحدهما ضياع حذاء بالمسجد الكبير في يوم صلاة جامعة بين أولئك أهل الطريق! فقلت: إن أناساً يسرقون الأحذية في مساجد الله لا يرجى بينهم فلاح. والآخر إمام من أئمة (المندل) كذب على الحاضرين باسمي وأنا أنظر لهم في (الفنجان) لأستطلع الغيب؛ فقلت إن الذي يكذب في الحس المشهود، لن يدلني على الغيب المحجوب. وكان هذا وذاك فراق بيني وبين الولاية والكرامات.

أما قيادة الجيوش فكان لها سبب معقول في تلك الأيام. فقد كانت بلدتي (أسوان) قاعدة من القواعد الكبرى في طريق حملة السودان، وكان فيها مقر الجنود المصريين والسودانيين والإنجليز الذين ينتظرون السفر ذاهبين أو قافلين، وكنا نصبح ونمسي على خوف من الدراويش الذين يذبحون الرجال والنساء ويرفعون الأطفال مطعونين على أسنة الحراب. فكانت لعبتنا في المدرسة تمثيل هذه الجيوش واستعجال النقمة من الأعداء.

ثم لم ألبث أن ظهر لي أن قيادة الجيش ليست هي الأمل المقصود ولا الأمنية الفضلى؛ وأنني كنت من آل عطارد ولم أكن من آل المريخ؛ لأننا كنا ننظم الجيوش على أساليب القصص العنترية والهلالية وما ورد عن سيف بن ذي يزن وأبطال ألف ليلة وليلة: فارس يبرز بين الصفوف ليتحدى خصومه بأبيات من الشعر أو فقرات من الكلام المسجوع، وهذا هو بيت القصيد!

فلما نظمت الشعر عرفت ما أردت، ووصلت إلى ما قصدت، وتركت فتوح القيادة، كما تركت من قبلها كرامات الولاية! وانتهيت بعد طواف قصير في هذا التيه الصغير إلى أمنية الأدب والكتابة، ولكني لا أزال ألمح في باطن هذه الأمنية مسحة من غلبة القيادة، ونفحة من أسرار الولاية، وشوقاً إلى المجهول لم يقف قط عند حد من الحدود؛ ولم يفارقني قط حتى حين أحسبني مستغرقاً في الحس وفي غواياته وملاهيه هذه عقدة من عقد النفوس التي التبست فيها أول الأمر ثكنة القائد وصومعة العابد وروضة الشاعر. ثم انجلت الرؤية من وراء الغشاوة الظاهرة شيئاً فشيئاً، حتى ظهر أن الثكنة والصومعة والروضة شيء واحد يفترق من بعيد ويتفق من قريب لكن العجيب غاية العجب هو أن تحل هذه العقدة على البداهة السهلة وعلى أيدي طائفة من

التلاميذ لم يفهموا ما صنعوه ولعلهم لا يفهمون بعد ذلك لو سئلوا فيه وبيان ذلك أننا كنا قبل خمس وعشرين سنة نعمل في التدريس بالمدرسة الإعدادية الثانوية: الأستاذ المازني، والأستاذ الزيات، والأستاذ علي الجندي، وكاتب هذه السطور، وطائفة مختارة من الفضلاء الذين لهم اليوم مكانهم الممتاز في مناحي العلم والعمل بهذه البلاد

فقيل لنا يوماً إن التلاميذ المعاقبين يملأون جدران الحبس بالنوادر والفكاهات عن المدرسين، وذهبنا إلى حجرات الحبس فقرأنا على الجدران أفانين من تلك النوادر والفكاهات: أذكر منها مما كتبوه عن المازني وعني: أن ناظر المدرسة سألني وقد رآني على بابها: أين صاحبك؟ فقلت له: نسيته في الدرج! وأن العقاد دعا المازني إلى وليمة على مائدة فلم يأكل المازني؛ ثم دعا المازني العقاد إلى وليمة على الأرض فلم يأكل العقاد! وكثير من أمثال هذه المساجلات نكتفي بما تقدم منها على سبيل التمثيل

لأنه غير المقصود في هذا المقال.
أما المقصود فهو الألقاب التي أطلقها علينا أولئك الخبثاء وكشفوا بها من جوانب الشخصية ودخائل النفس ما يعي به كبار النقاد.
فاختاروا للأستاذ المازني اسم تيمورلنك
وللأستاذ الزيات اسم الشاب الظريف.
وللأستاذ علي الجندي اسم ابن المقنع!
ولكاتب هذه السطور اسم حرحور!
أما الأستاذ المازني فبراعة التسمية في أنه كان يدرس التاريخ وأنه كسميه صغير الجسم مصاباً بإحدى قدميه، وأنه مسيطر على التلاميذ، قلما يحتاج إلى معاقبة أحد منهم لخروجه على نظام الحصة، لأنه كان مهيباً بينهم قديراً على أخذهم بمهابتهم إياه قبل خوفهم من عقابهم؛ فجمعوا كل ذلك في اسم تيمورلنك أحسن جمع مستطاع وأما الأستاذ الزيات، فدماثته، وظرفه، ولطف حديثه، وأسلوبه الأدبي، وأناقة ملبسه، ترشحه لاسم الشاب الظريف أصدق ترشيح.
وأما الأستاذ الجندي فقد لاحظ الخبثاء في تسميته بابن المقفع أنه نحيل هزيل، وأنه يدرس لهم كليلة ودمنة وقواعد البلاغة، فوفقوا بين ذلك كله أبرع توفيق!
وأما كاتب هذه السطور فقد سموه (حرحور) باسم الكاهن الحكيم المصري الذي انتزع الملك على صعيد مصر قبل الميلاد بألف سنة؛ فلم تكفه أسرار الكهانة وحب الحكمة حتى طمح إلى الغلبة والسطوة. ولم يفت الخبثاء في هذه التسمية أن كاتب هذه السطور من أقصى الصعيد حيث قامت دولة حرحور! وهو ما كانوا يذكرونه بينهم كلما أخذتهم بالشدة التي اشتهر بها أهل الصعيد الأقصى
وفي براعة هذه التسميات شاهد على أن بداهة الجماهير لا تهبط بهم دائماً إلى ما دون طبقة الأفراد، بل ربما ارتفعت بهم أحياناً إلى طبقة من الزكانة لا يبلغها الفرد الممتاز في كل حين
فاسم حرحور قد جمع من جديد ما فرقته أيام الصبا الباكر بين طالب الولاية وطالب القيادة وطالب الشعر والثقافة. وقد دل من جديد على أن هذه الصور المختلفات لم تغب في أطواء
العمر كل الغياب؛ فإلى جانب الروضة الأدبية لا يزال للثكنة مكان وللصومعة نصيب.
ويسألني سائل: ولم تمنيت الأدب أو تمنيت المنزلة الأدبية؟ فأقول: إن (التعبير عن النفس) هو مزية الأدب والشعر والكتابة عامة، وهو في الوقت نفسه طريق إثبات النفس الذي يمثل الثكنة نحواً من التمثيل، ويمثل البحث عن الحقائق والأسرار من قريب.
ويلوح لي أن التعبير عن النفس أو (إثبات النفس) عندي شيء لا أنساه حتى حين أكتب عن نبذ الشهوات وعن العبادة وعن الصيام قاصداً أو غير قاصد.
ففي مقالي عن الصيام منذ ست عشرة سنة قلت سائلاً:
ولكن هل الصوم من دواعي إنكار الذات المتنبهة، أو هو من دواعي إثباتها وتوكيدها؟) وهل هو من أسباب نسيان النفس الشاعرة وسحق كبريائها، أو هو من أسباب تذكرها (وتقرير وجودها؟
ثم قلت مجيباً: (أكاد أقول إن الصوم بجميع درجاته وأنواعه حيلة نفسية خفية لتقرير وجودها وتوكيد عزتها ورفض كل ما يسيء الظن بها في نظر صاحبها. وما أيسر أن نعرف ذلك! حسبنا أن نراقب الحالة التي تناقض الصوم لنهتدي إلى الحقيقة من المقابلة بين النقيضين. فانظر على سبيل المثال إلى أي رجل تعرفه ممن أرخوا العنان لشهواتهم وأجابوا نفوسهم إلى أهوائها واسترسلوا في الغواية بلا رادع ولا مقاومة، فهل ترى هذا
الرجل (واجداً) نفسه مكرهاً لها، أو تراه مبتذلاً نفسه فاقداً لها في غمار شهواتها وتيار أهوائها؟ إنك لا ترى رجلاً كهذا إلا قد ارتسمت على وجهه علامة احتقار هي قبل كل شيء موجهة إلى نفسه. . . ولست أعرف معنى للنفس في حالة الاستسلام والاسترسال التي نشاهدها فيمن يلبون حاجات نفوسهم ولا يقفون لها في شهوة من شهواتها؛ فإن حكم هؤلاء في هذه الحالة كحكم الخشبة المنساقة في تيار الماء، أو الريشة المتطايرة في الهواء؛ أي أنه هو حكم الجماد المفقود في تيه النواميس الكونية

بلا إدراك ولا شعور ولا إرادة. ولا يزال الإنسان شيئاً لا نفس له ولا استقلال لكيانه حتى يمتنع عن شيء يدفع إليه ويقف في وسط التيار الذي يحيط به. فهناك يجد نفسه بعد إذ فقدها بالمطاوعة ونسيان الذات، ويشعر بمعنى رفيع هو أسمى معاني الحياة لم يسم إليه إلا الإنسان بين سائر الأحياء)

وفحوى هذا جميعه أنني تمنيت الأدب لأنني تمنيت التعبير عن النفس، ولأن التعبير عن النفس يجتمع فيه عندي تحقيق وجودها ومتعتها واستكناه حقيقتها وحقيقة ما حولها، وليس فوق هذا المطلب من مطلب رفيع يتطلع إليه موجود شاعر بوجوده.

عباس محمود العقاد

طموح الشباب

لصاحب العزة الدكتور منصور فهمي بك

مدير دار الكتب المصرية

تفضلت وزارة الشئون الاجتماعية فدعتني لأتحدث إلى الشباب في مطامحه. ولعلها بتلك الدعوة أحسنت الظن برجل طالما اتصل بشبابنا المثقفين، وأنه وإن حالت ظروفه دون وفرة الاتصال بهم، ففيما يحفظونه له من ود كريم، وفيما يحفظه لهم من حب وحنان، ما يسوغ مد الأسباب بينه وبينهم ليفضي إليهم بما يعتقده خيراً وحقاً فللوزارة إذن شكري الخالص، إذ أتاحت لي فرصة التحدث إلى أبناء العروبة عامة، وإلى أبناء وطني وكلهم أمل باسم مرموق لبلادهم العزيزة، وللشباب أنفسهم صادق دعواتي لعيشة راضية يملأها البشر والتفائل، وتنتشر منها مكارم الأخلاق وصدق العزائم، وتفيض بنعم المعنويات

لقد نشأ الشباب الحاضر في فترة من الزمن تمتد بين حربين عظيمتين، وتصطبغ بشر المنازع للنفوس الأمارة بالسوء، وتتجلى فيها مساوئ الحياة المادية والآلية وتبدو عليها متاعب الأنانية والجشع، وتلوح منها مكاره المخادعة والعناد، وتلتزمها مخازي التحلل من القيود الأدبية، وتظهر فيها مخاطر الانحراف عن المنطق السليم، وتكتنفها مهازل الركون إلى النظم المنهارة البالية، مما انتهى إلى تباين في الحظوظ من مغانم هذه الحياة، وتنافر بين الشعوب والطبقات، وتباغض وتناحر بلا هوادة ولا رحمة. . .

ولو ذهبنا نستعرض ناشئة العالم المتحضر لوجدنا في بعض بلاد الغرب شباباً قد ترعرع في أجواء مسممة من أثر اليتم والأحقاد والغرور، مما كان له خطره الواضح في الانقلابات والثورات والأزمات وحدوث هذه الحرب الدامية

أما في بلاد أخرى كبلادنا العربية التي تأثرت بنتائج الحرب الماضية، فثم تغييرات سياسية، واضطرابات داخلية، وشهوات حزبية، ونزعات نفسية، وانقسامات واختلافات في الآراء، وثم تحرج عند شتى المشكلات العمرانية والثقافية والاقتصادية، مما انتهى بطائفة من شبابنا إلى الحيرة والإشفاق من المستقبل، والتشاؤم، وفتور الخلق والنزوع إلى الوصولية، والاستخفاف بالمألوف. . .

ولعل مختلف الظواهر والأحوال الاجتماعية التي اتصلت ببلادنا قد حملت شبابنا قسطاً من الآلام، وآخر من الآثام.

فأما هموم شبابنا وآلامه فلها ارتباط وثيق بما يشعر به من غموض المآل. وأما الأخطاء والآثام فمنشؤها غفلة الشباب حين يغفل عن قيم الحياة الحقة، ليلتفت إلى قيمها الزائفة، وحين يضلله سراب الحياة الخلاب إلى غير ما يشتهي من مائها الزلال، وحين يطمئن عن ضعف في البصيرة إلى سطح الحياة المستقر على بركان ثائر، وحين ينصرف الشباب عن جد الحياة إلى هزلها العاثر، وعبثها الساخر، ويؤوب منها بالقدح الخاسر. وعلى الجملة حين تتبدى الحياة في ثوبها المزخرف، فتستدرج إلى صغائرها الباطلة وشهواتها من لا حصانة لهم من الشباب، وكان لكل ذلك أثره في أمزجة الناشئين وأعصابهم وسلوكهم، فتعدد فيهم المتشائمون، وتكاثر فيهم المستخفون المستهترون، وأصبح بينهم المتمرد الجامح والخائر المهزوم.

على أننا نلتمس المعاذير للشباب على تشاؤمه واستخفافه، وجموحه وخوره، ونغتفر له انحرافه عن الطريق التي يرضاها له النصحاء الخيرون، إذ ترجع التبعة في كل ذلك على ظروف الماضي القريب وملابساته. فإذا كان لأحد أن يتحمل قسطاً من اللوم، فعلى الآباء بعض أثقال هذه الملامة؛ أما شبابنا فحليق بهم أن تنالهم شفقة المشفقين، وحدب العاطفين.

على أنه حري بالنشء الجديد أن يوجهوا جهودهم، ويحولوا طموحهم إلى حياة أسمى من التي يتذوقون مرها، وأن ينشدوا جوً أصلح من ذلك الذي يتنسمون سمومه، فللشباب من مفسوح الحياة ومقتبل العمر ما يوسع له المجال لتحقيق عيش يرضاه لنفسه ولمن يخلفونه؛ وله من نشاطه الحيوي ما قد يسخره في الخروج من الحياة المظلمة إلى حياة نيرة، وما قد يستخدمه لتحويل قطوب دنياه إلى بسمات، وزعازعها إلى نسمات، وأنينها إلى نغمات، فلا يأس مع الشباب، ولا يأس مع الحياة.

ويلوح لي أن أشد الحوافز لنشاط الشباب، وأقوى المثيرات لحيويته، وأمضى الشاحذات لعزيمته حين ينشد حياة أصلح من التي يحياها، إنما يكون في توجه الشباب إلى الأهداف العليا، والمثل السامية، ليسلم نفسه لسلطانها إسلاماً، ويذعن لسيطرتها إذعاناً. وهل من هدف أولى من الخلق الكريم ليكون موضع طموح الشباب؟ وهل من سلاح غير سلاح هذا

الخلق يستطيع الشباب أن يحول به مذاق العيش حلواً وعذابه نعيماً؟

إذن فالاعتزاز بالخلق الرفيع هو ما ينبغي أن يكون مثل شبابنا الماثل، ومطلبه الشامل وإذا كان الخلق الكريم في جملته وتفاصيله هو الهدف الذي ينبغي لشبابنا أن يروضوا أنفسهم عليه، وأن يلقوا بأعمالهم في دوائره وأحضانه؛ فيقيني أن أكبر معين لإصابة هذا المرمى هو التدين الصحيح.

وإني حين أعفي نفسي من الإسهاب في تفاصيل الأخلاق الكريمة، وبسط جزيئاتها الرائعة؛ أقرر بأن التدين الصحيح هو أفضل رائد للوصول إلى الأخلاق الفاضلة الرفيعة؛ ذلك لأن الديانات على اختلافها قد أجمعت على تقديس الأخلاق الأساسية التي كانت أهداف الإنسانية مع تتابع العصور، واختلاف الأجناس والأقاليم

وليست هذه الأخلاق المقررة مجهولة تحتاج إلى التذكير، أو منكرة تحتاج إلى الإبانة والتعريف، أو مستورة خفية تحتاج للكشف والإظهار، إنما كل ما تحتاج إليه أن يستجيب الناس إليها، وأن يأخذوا أنفسهم بالإذعان لدواعيها، وأن يؤمنوا بأن تجارب العصور والأجيال لم تكن عبثاً حين لم تأت بما يضعف من قيمة هذه الأخلاق، أو يشكك في نفعها لدعم سعادة الأفراد وعظمة الأمم. فكل دين يأمر بالمعروف وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي؛ وما ندم قط امرؤ اتخذ من أخلاق دينه هادياً له في معاملاته وسلوكه؛ وما هانت ولا وهنت أمة تمرس أفرادها في آداب الدين، ذلك لأن التدين والدين يحضان على العزة والتضحية والإيثار والعدل والقسط وجد الحياة ومهيئات السلامة والسلام.

ويقيني أن التدين الصحيح إذا استحال في عناصر الدم دماً، وفي عناصر الأعصاب عصباً، وعلى الجملة في عناصر النفس الناطقة روحاً ويقيناً وإيماناً، فإن أفعال الناس جميعها تستقر على الخير، وتدور في دوائر الحق، وتسرح في ميادين الجمال . . .

وحسبنا من التدين أن يذعن المرء لقيود والتزامات ونظم تحت رقابة حاضرة لا تغيب، يقظى لا تغفل، عالمة لا تجهل، تلك رقابة الضمير الطاهر، تلك رقابة الوجدان الساهر، تلك رقابة القوي القاهر، تلك رقابة الله

وكما أن للتدين الصحيح رقابة على النيات الخافية والمعنويات التي تؤثر في صور المعاملات وأشكالها، فإن له أجلى أثر في رياضة الناس على حب النظام. فكل دين يقاضي

أتباعه بأنواع من الشعائر في فترات موقوتة، وفي وضعات معينة، وفي حالات خاصة؛ ففي مختلف الصلوات، وفي أنواع الخشوع، وفي أصناف التوجهات، نُظم للجسم والنفس من شأنها أن تؤلف المرء على حب النظام، وما أحوج شبابنا لخلق النظام.

قد يأخذ البعض على الديانات ما فيها من حواجز وحدود تحد مما تبيحه الحريات. على أنهم ينسون أنه لا خير في الحريات

ما لم تقف عند الحواجز والحدود، وإن وراء حدود التدين هاوية فتاكة بالنفوس، وتيهاً مضللا للعقول والأحلام

وإذا أضيف إلى فضائل الدين ما يتعزى به المنكوبون المعتقدون، وما يأمله المستحقون ممن يعتقدون بعدل الله، وينتظرون جزاءه الأوفى، فما أحرى الشباب أن يرعى حرمة الدين، ويتجه إلى هدفه المبارك المأمون

وزيادة على ما أتمناه لشبابنا من هذه المطامح المتقدمة، أرجو أن يجعل من أهدافه

المباشرة نزعة الكرامة الأدبية، فعندما يطمح المرء إلى هذه الكرامة، وعندما يشعر بحرارتها المنبعثة من الأعماق تتجلى له قيمته الإنسانية المقدسة من خلال ماضيه وحاضره، وتفكيره وأمله ومسلكه الخلقي، وعندما يستذكر المرء معاني الكرامة، فإنه يحس في طواياه بنوع من عظمة النفس تدنيه إلى كل عمل حميد، وتضعه في كل منزل من المنازل التي تسدى فيها المكارم وتساق فيها المحاسن لخير نفسه، وخير أمته، وخير الناس أجمعين.

فالكرامة إذن هي نزعة نفسية عالية يتحقق بها الخلق الشريف والموقف المنيف لدنيا يريدها المرء مصقولة معقولة كريمة.

بل هي نزعة إلهية تتأثر بها كل قوانا النفسية لتستنهض أكثر الفضائل من شجاعة وصدق، وصراحة وجد، وضبط للنفس، وإيثار ووطنية وما إلى ذلك من الخلال الآدمية التي يأخذ بعضها برقاب بعض لتتحقق مشيئة الله حين أراد أن يكرم بني آدم

وهذه الكرامة التي أدعو شبابنا إليها غنية عن التعريف والوجاهة، غنية عن الأحساب والأنساب، ما دامت تستعين بالإيمان بأن الإنسان الحقيق بإنسانيته، هو من يصدر عنه دائماً الخير وطيب العمل

وإني حين أرسل صوتي إلى شبابنا ليحصر أهدافه في دوائر الأخلاق والتدين والكرامة الإنسانية فإني على يقين من أنه بذلك سيستصلح لنفسه عالماً نيراً مسعداً، فما عالمنا إلا مظاهر نفوسنا وأخلاقنا تتجلى على صفحات هذا الوجود

وإن ما أرجوه لشبابنا الفتيان هو نفس ما أرجوه لفتياننا. على أنهن حقيقيات بأن يتذكرن مملكة البيت، وما تقتضيه من أخلاق وسلوك ونزعات مما ينبغي أن يكون هدفاً للفتاة وحسبي أن أشير إلى أنه من واجب فتياتنا المصريات والعربيات، أن يحذرن ما انزلق إليه الكثيرات من فتيات الغرب وخدعن في قيمته، حين انحرفن عن هدف الحياة العائلية. فإسعاد العائلة في عائلها، وفي حسن تنشئ صغارها، وإمداد وكرها بما يرفع النفوس ويقومها ويقويها، هو أجدى على الأمة من كل ما تقوم به المرأة خارج البيت

وقصارى القول أرجو إلى شبابنا أن يفسحوا في صدورهم، وأن يحفظوا في ألبابهم وتفكيرهم مكاناً للمعنويات، ومجالاً للحياة الروحية، فلا يقصروا همومهم على مطالب الثروة والدأب فيما يشتهون من متع الحياة وشهواتها

وإنهم ليحسنون مهما اختلفت عقائدهم أن يقفوا خاشعين مستبشرين في كل صباح ليرسلوا من قلوبهم وعلى ألسنتهم صلاة عربية مبينة حين يقولون: (اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم، ولا الضالين).

منصور فهمي

مسابقة الأدب العربي لطلبة السنة التوجيهية

طه حسين (أيام)

للدكتور زكي مبارك

تنبيه - حيرة وارتباك - المرحلة الثانية - عمائم وطرابيش وبرانيط - أسرار كتاب (الأيام) - أحزان الطفل الضرير - صور وصفية - أما بعد فهذا كتاب

تنبيه

في العالم الماضي تكلمنا عن الجزء الأول من (الأيام)، والمقرر للمسابقة في هذه السنة هو الجزء الثاني، وقد نشرته (مكتبة المعارف) بالقاهرة وثمنه عشرة قروش.

ويهمني قبل الشروع في الكلام عن الجزء الثاني أن أنبه إلى مسألة طال فيها عتب العاتبين في السنة الماضية، فقد عابوا علي أن أقول في صحيفة سيارة: إن الدكتور طه رجل ضرير؛ مع أني قلت بصريح العبارة: إن توضيح الدقائق من كتاب (الأيام) لا يتيسر بغير النص على أن المؤلف يعبر عن أغراض لا تتجسم لغير المكفوفين، والنقد يحتم هذا تحتيماً، ولو سكتنا عن هذه الناحية لضاع الغرض من شرح مواطن القوة والضعف في تلك المذكرات

أنا أريد أعاون طلبة السنة التوجيهية على فهم الكتب المقررة لمسابقة الأدب العربي، ولا يتم ذلك بدون إرشادهم إلى طريق الفهم المنشود، ومؤلف (الأيام) ضرير، ومراعاة هذا الجانب من شخصية واجب مفروض، لنعرف كيف واجه دنياه عن طريق السمع واللمس والإحساس

يضاف إلى هذا أن الدكتور طه أكبر من أن يتأذى بالنص على أنه ضرير، فهو يقول ذلك في جميع صفحات (الأيام)، وهو يعرف من أصول النقد الأدبي ما لا يعرف أولئك العاتبون، ويعرف أن الكلام عما في كتابه من محاسن وعيوب لا يتفق مع التغاضي عن تلك الحالة الشخصية، وهي حالة لا تغض من منزلية الأدبية بأي حال.

طه حسين ضرير، كما يقول، وقد سايرنا طفولته في السنة الماضية ونحن ننقد الجزء الأول، فكيف نراه في حداثته ونحن ننقد الجزء الثاني؟

حيرة وارتباك

في هذا الجزء بداية تقع في ست صفحات، وهي غاية في الضعف عند من يجهل، وغاية في القوة عند من يسرف، وربما كانت أعظم صفحات الكتاب، برغم ما فيها من غموض والتواء

وترجع عظمة هذه الصفحات إلى أنها تمثل ما يعاني الطفل الضرير من حيرة وارتباك، حين ينتقل من أرض إلى أرض، ومن مكان مألوف إلى مكان مجهول

كان الطفل يعرف داره بالريف، يعرفها بيديه، فلم تف عليه خافية من ملامح النوافذ والأبواب والسطوح، وكان يجد الأنس كل الأنس في حبس تلك الأشياء باهتمام والتفات، وسنرى كيف يفرح حين تسمح الظروف بأن يداعب الصندوق الذي أرسلته أمه إلى القاهرة لينتفع به أخوه، فسيكون ذلك الصندوق مراداً لسياحات كثيرة يتمتع بها الطفل حين يشاء، فيجلس عليه مرة، ويختبر أدراجه بيديه مرات، ولا يفوته في هذا الموقف أن يشير إشارة حزينة إلى أن أمه كانت تضع حُليها في هذا الصندوق يوم كان لها حُلي، فنعرف أن أمه وقع لها ما يقع لأمهاتنا في الريف من بيع (الصيغة) في بعض الظروف، ولأمهاتنا هنالك متاعب تستحق التأريخ

ترك الطفل داره بالريف، وأقبل على داره بالقاهرة، فكيف كان حاله في داره الجديدة؟ كيف؟ كيف؟

أقام أسبوعين وهو شارد اللب حيران: فهو يلمس جدراناً لا يعرف من أحوالها غير أوهام، ويسمع أصواتاً لم يكن له بمثلها عهد. ألم ينزعج للصوت المجهول؟ وأي صوت؟ صوت كريه بغيض لا يصل إلى أذنيه إلا بعد أن يلفح وهج النار وجهه من قرب، فما ذلك الصوت؟ سيعرف أنه قرقرة النرجيلة، فيهدأ ويستريح بعد أن مسه الخوف، وبعد أن طال تفكيره في السؤال ولم يصده غير الاستحياء

ولم يكن ذلك كل ما عاني في هذين الأسبوعين، فقد آذاه ما يحيط بداره الجديدة من روائح قذرة بغيضة لا تخلو من تعقيد. وسنعرف فيما بعد كيف صار يستبشر بهياج تلك الروائح، لأن هياجها أثرٌ من وقدة الشمس، وتلك الوقدة بشير بقودم الصيف، وهو في الصيف يرجع إلى داره بالريف، فيستريح من الأزهر والأزهريين، فقد نص بعبارة صريحة على أن

سجنه في قفص الأزهر قد طال، وأنه يرجو الخلاص بالانتساب إلى الجامعة المصرية، عليها أزكى التحيات!

المرحلة الثانية

حين تكلمنا عن الجزء الأول من (أيام) طه حسين في السنة الماضية كنا نجاريه في المرحلة الأولى من حياته، وهي تبدأ باليوم الذي عرف فيه كيف يختزن الذكريات، وتنتهي باليوم الذي تأهب فيه لطلب العلم بالأزهر الشريف

وفي هذه السنة نجاريه في الجزء الثاني وهو المرحلة الثانية، وهي تبدأ باليوم الذي فرح فيه بدخول الأزهر وتنتهي باليوم الذي فرح فيه بالتحرر من الأزهر. وهو مع ذلك سيحدثنا في الجزء الثالث أن صلته بالأزهر بقيت إلى أن تقدم لامتحان (العالمية). وسنعرف أن اللجنة التي أدى أمامها امتحان العالمية قضت في أمره بما لا يحب، لأنها لم تستطع النفاذ إلى مواهبه العقلية، أو لأن الأخبار كانت تواترت بأنه لا يحترم الأزهريين، أو للسبب الذي حدثنا به في سنة 1927، فقد أخبرنا أن يداً أرادت أن يسقط في امتحان (العالمية)، وله على تلك اليد شهود جَبُن منهم من جبن، وشَجع من شجع، والأمانة للتاريخ توجب أن نقول إن الدكتور طه حدثنا أنه حين أراد الطعن في نزاهة لجنة الامتحان لم يجد من يجرؤ على الشهادة بالحق غير رجلين اثنين: سيد المرصفي ومحمد الابياري

وإنما تعجلنا فأشرنا إلى كلام سيكون بداية الجزء الثالث ليعرف القراء كيف يتبرم

الدكتور طه بماضي الشيخ طه، وكيف رضي الانتقال من الشرق إلى الغرب بلا توديع ولا تسليم، لينتقم ممن ظلموه، أو ليصير رجلاً من طلائع الجيل الجديد، ومن دعاة المدنية الحديثة، بلا تحفظ ولا احتراس

عمائم وطرابيش وبرانيط

من واجب النقد الأدبي أن يبحث عن الأسرار المطلوبة في ثنايا الحروف، فما تاريخ طه حسين من الوجهة الفكرية والذوقية وهو يواجه دنياه في المرحلة الأولى والثانية؟ في الجزء الأول يرى المجد مصوراً في (العريف) وهو معلم الأطفال، ثم يراه مصوراً في (القاضي الشرعي) صاحب العمامة والجبة والقفطان

وفي الجزء الثاني نراه على عهده الأول، نراه يحترم العمائم ثم ننظر في الصفحات الأخيرة فنراه يعلن أنه (ظفر بشيء طالما تمناه، وهو أن يتصل ببيئة الطرابيش) فما سر هذا الانتقال؟

كان يعرف أن أمور الدولة إلى أصحاب الطرابيش، ولعله سمع أن ناساً اقترحوا على الشيخ محمد عبده أن يلبس الملابس الأفرنجية ليمكن أن يصير من الوزراء، كما صار الشيخ سعد زغلول بعد ذلك من الوزراء

وقد صبر الدكتور طه على عمامته بعد فراق الأزهر بأعوام قصار أو طوال، فأدى امتحان الدكتوراه بالجامعة المصرية في سنة 1914 وهو معمم، وأقلته الباخرة من الاسكندرية إلى مارسيليا وهو معمم، ولكن ركاب تلك الباخرة قد التفتوا مندهشين إلى شيء يقع في البحر وقد ألقاه صاحبه بعنف، فما ذلك الشيء؟ هو عمامة طه حسين!!!

وقد تحدث الدكتور طه مع أحد الصحفيين بأنه لم يندم على شيء كما ندم على رمي عمامته في عرض المحيط؛ ولكن الواقع غير ذلك، الوقع أن الدكتور طه وُلد وعلى رأسه (برنيطة) وقد حدثني مرة أنه يرجح أن أسلافه القدماء كانوا من اليونان، فإن لم يصح ذلك فهو في نزعته اليونانية مَدين لرواية ألفها الشاعر أحمد شوقي واسمها (ورقة الآس) وفيها تمجيد لليونان.

ولهذا وذاك صلة بانتقال الرجل من حال إلى أحوال، فقد انحدر من أسرة أكثرها مشايخ، ولكنه مع ذلك يحيا حياة مدنية منقطعة عن حياة المشايخ تمام الانقطاع. والنص على هذا الانقلاب واجب، لأنه يفسر ما خفي من أسرار الوحي في اتجاهاته الأدبية والاجتماعية

ولكن هذا الشيخ اليوناني بقيت فيه ملامح من ذلك الشيخ الأزهري، فما شاع يوماً أنه يدعوا إلى اللغة العامية، كما يصنع بعض المتظرفين الثقلاء، ولا جاز عنده أن تكون العقيدة الإسلامية مجالاً للتشكيك والإيذاء، وإن وقعت في بعض مؤلفاته عبارات تغاير المألوف من التعابير الدينية.

هذا رجل بعيد الصلة بين حاضره وماضيه، لأنه سريع القفز والوثب، ولأنه على وفاق مع ضميره الفني والأدبي، فهو يسايره إلى حيث يريد. وكل شيء عنده جائز، إلا العدوان على اللغة العربية، أو التحرش بالعقيدة الإسلامية، فهما عنده في مقام القدسية والجلال!

وفي كتاب الأيام سطور تفصح عن أسباب القلق في حياة الدكتور طه حسين، فهو يجزع من العزلة ويفزع من الانفراد، لأن الاتصال بالناس هو أداته في الاتصال بالحياة الخارجية، ومن هنا نجده حريصاً أشد الحرص على أن يكون لاتصاله بالناس ضروب من الضجيج والعجيج، لينجو من متاعب العزلة والانفراد، وهذا هو السر في انتقاله من رأي إلى رأي، ومن حزب إلى حزب، ومن ميدان إلى ميدان!

كان مع الدستوريين وهم يقاتلون الوفديين، وكان مع الوفديين وهم يقاتلون الأحزاب أجمعين، فإذا انجلت المعارك السياسية وانقطع إلى الحياة العلمية كان من الواجب أن يخلق أزمة جامعية، فاذا نُقل من الجامعة إلى وزارة المعارف كان من الحتم أن يخلق مشكلة في وزارة المعارف

ومع أن للدكتور طه عذراً في التخلف عن شهود بعض المآتم وحضور بعض الحفلات، فهو يشهد جميع المآتم ويحضر جميع الحفلات، ليطرد عن نفسه عناء العزلة والانفراد فالذي ينظر إلى الأمور نظرة سطحية يحكم بأن الدكتور طه رجل متغير متحول، أما الذي ينظر نظر المدقق فيرى التغير والتحول من صور الثبات والاستقرار بالنسبة إليه،

لأنهما يؤديان وظيفة أساسية في حياته اليومية!
ومن الجائز أن يكون لهذه النزعة دخل في هيامه بالفروض والحدوس وهو يساور الأبحاث الأدبية والتاريخية، فؤلفاته في أغلب أحوالها قليلة التعمق، لأن التعمق يوجب أن يقف عند البحث الواحد عاماً أو عامين، والوقوف يضايقه بعض الشيء، لأنه يصرفه عن التحول والانتقال بين المعاني والآراء!
زار الدكتور طه باريس وأنا هنالك، فلما مضيت للتسليم عليه أدهشني أن أجده في غرفة تطل في غرفة تطل على ميدان (الأوْبسرفتوار) وهو ميدان صخاب ضجاج؛ فقدرت أنه يريد أن (يسمع) باريس بعد أن فاته أن (يرى) باريس!
ويحدثنا الدكتور طه في (الأيام) أنه كان يأنس أنساً شديداً بمراسلة إخوانه وهو في الريف، وتفسير ذلك سهل، فهو يلقي بالرسائل من يشاء من الإخوان.
ويحدثنا أنه حين رجع إلى بلده بعد قضاء بضعة أشهر في الأزهر أقام معركة حول فكرة التوسل بالأولياء، فما سر ذلك؟ لم يرد في الواقع غير خلق دنيا يراها عقله، وإن لم ترها
عيناه!
وقد سجل عتبه على أخيه، الأخ الذي كان يتركه وحده ويمضي للسمر مع الأصحاب والسجراء، ولو أن ذلك الأخ تأمل قليلاً لعرف أن أخاه الضرير الناس إلى الأنس بالأسمار والأحاديث!
وتأليف كتاب (الأيام) هو في ذاته تسلية لهذا المؤلف، فهو يخلق لخاطره أجواء جديدة تحتشد فيها مواكب من الصخب والضجيج، وإلا فكيف اتفق أن لا يفكر في إحياء تلك (الأيام) إلا وهو في المصايف الفرنسية، حيث يشغل عنه أهله بطرائف تلك المصايف، ولا يبقى له إلا اجترار ما اختزن من الذكريات؟
وقد شهد الدكتور طه على نفسه في مواطن كثيرة من كتاب (الأيام) باضطراب العقل؛ وأقول إن هذا الاضطراب هو مصدر قوته الذاتية، لأنه من مظاهر الحيوية، ولأنه الشاهد على أنه من كبار الأحياء
وهل كان من العبث أن تتنقل الطبيعة بين فصول مختلفات أشد الاختلاف منها الصيف والشتاء؟
هذا رجل حي، يعد ويُخلف، كما تعد الطبيعة وتخلف، ويستنيم عند الخوف كما تستنيم الطبيعة عند الخوف، ولا يتنمر إلا عند الاطمئنان إلى الأمان
وسر القوة عند هذا الرجل أنه كما وصفت، فهو من دعاة الثورة إن أتسع المجال للثورة، وهو من دعاة الهدوء يوم يحس بأن المجال لا يسمح بغير الهدوء، ولذلك شواهد يعرفها جميع الناس.
هو طه حسين، ولن يكون غير طه حسين. وكيف يكون رجلا آخر، وهو ليس برجل آخر؟ تلك إذن قضية، ولم تكن له قضية، وكيف تكون له قضية، وهو أعظم من أن تكون له قضية؟!
أسرار كتاب الأيام
نحن مع الدكتور طه في المرحلة الثانية من حياته الشخصية؛
وكلمة (الشخصية) لها مدلول؛ فهو في الجزء الثاني من الأيام لا يزال صبياً وفي أحلام الصبيان؛ والصبي لا يخرج من الحياة الشخصية إلى الحياة الاجتماعية إلا في نطاق محدود
والعجب كل العجب أن يستطيع الرجل الكهل وصف حياته وهو طفل بتلك الدقة العديمة المثال
تكلم طه حسين عن حياته الأولى في الأزهر بعد أن فارقها بنحو أربعين سنة، فكيف اختزن تلك الذكريات في أمد كاد يزيد على أربعة عقود؟
الشيخ طه هو الذي كتب (الأيام) لا الدكتور طه، فهي صور فطرية لأحلام طفل كانت دنياه محصورة بين حي الأزهر وحي الجمالية، ولا يكاد قارئ هذه المذكرات يصدق أن كاتبها تخرج في السوربون وإن كانت السوربون هي السبب في أن يجيد مثل هذا القصص الطريف
جمال هذه المذكرات يرجع في جملته وتفصيله إلى ما انطوت عليه من الصدق.
والكاتب يقول إنه ضرير، ولو سكت عن هذه الناحية لأفصحت عنها الشواهد؛ فهو لا

يحدد أي مكان إلا بالنص على أنه من عن يمين أو عن شمال؛ وهو يصور المعقولات بصور المحسوسات، لتكون مما يلمس أو يذاق، فهذه ضحكة غليظة، وذاك ابتسام سخيف؛ وهو لا يذكر من عذوبة الشاي إلا أنه كان يوضع فوق ماء له أزيز عند اشتداد الغليان؛ وهو لا يقول إنه كان يتسمع أحاديث الجيران وإنما يقول إنه كان يمد أذنيه مداً ليسمع أو ليلمس تلك الأحاديث؛ وهو لا يقول إن أخاه كان يتركه إلى أن يعود، وإنما يقول إن أخاه كان يلقيه كما يلقي المتاع؛ وهو لا يقول إن الليل يستر الأشياء والأحياء وإنما يقول إن الليل: (يمس بيده المظلمة العريضة هذه الأشياء وهؤلاء الأحياء) ويؤيد هذه اللفتة قوله في وصف بعض الأشخاص:

كان ضحكه غريباً مضحكاً حقاً، فقد كان يبدأه عالياً ثم يقطعه، ويضحك صامتاً لحظة) (ثم يستأنفه عالياً، ثم يقطعه، ويمضي فيه صامتاً، ثم يستأنفه، وهكذا

وهذه صورة لا تتفق من يعتمد على السمع في وصف بعض الأشياء.

وهنالك صورة ثانية تؤيد هذه اللفتة، وهي قوله بأنه (كان يجد للظلمة صوتاً يبلغ أذنيه، صوتاً متصلاً يُشبه طنين البعوض لولا أنه غليظ ممتلئ)، ولهذه اللفتة أمثال وأمثال، كأن يسجل بنفسه أنه كان مفتوناً بعد درجات السلالم، وكأن يقول إنه كان يطرب لأصوات الملاعق وهي تداعب الأكواب، وكأن يقول فيمن يصف امرأة حسناء: إنه كان يفصلها بعينه تفصيلاً، ويحللها في نفسه تحليلاً، ويجردها من ثيابها تجريداً؛ وكأن يقول إن الروائح الكريهة كانت تنعقد فتؤلف من فوق رأسه سحاباً رقيقاً ولكنه متراكم قد غشي بعضه بعضاً وكأن يقول إن مواطئ أقدامه كانت تعتدل حيناً وتعوج مرة أخرى فذلك كله يشهد بأن (اللمس) أداته الأولى في الإحساس

أحزان الطفل الضرير

وفي كتاب الأيام صفحات تقهر عصي الدمع، وهي صفحات بالنسبة لذلك الطفل، فهو يعد على أخيه جميع الهفوات مع الصفح الجميل، وهو يذكر بعد أربعين سنة أنه لم يكن يتناول طعامه بحرية، وأن نصيبه من ماء (الطرشي) لم يكن له وجود، وأن الحديث على مائدة الفول المدمس لم يكن يزيد على كلمة أو كلمتين، مع أن الطفل الضرير يحتاج إلى الكلام أشد الاحتياج، بدليل أنه يحادث نفسه بصوت صخاب حين لا يجد من يحادثه من الرفاق

ولم يقف بلاء ذلك الطفل عند هذا الحد، فقد نص على أن فريقاً من أشياخه بالأزهر كانوا يقولون له حين يوجه إليهم بعض الاعتراض:

(اسكت يا أعمى، اسكت يا أعمى)

وكان يعرف أنه أعمى، مع الأسف الموجع، ومع العجز عن دفع ذلك الإسفاف واتفق في تلك الأيام أن يتصل ذلك الصبي بشيخ من أصحاب المواهب، وهو الأستاذ سعيد بن علي المرصفي، وهو رجل ما ذكرته إلا رأيت أنه حجة مصر في العبقرية العربية

والدكتور طه يقول إنه كان يفهم دروس الشيخ سيد المرصفي في شرح الكامل للمبرد، وذلك عنده سبب تلك الجاذبية، ولكني أرجح أن السبب يرجع إلى أن الشيخ المرصفي كان ينشد الشعر بأساليب موسيقية تخدر الثعابين، فلم يكن من العجب أن يستريح إلى إنشاده طفل في حال طه حسين، وهو يواجه الوجود بأدوات أهمها السماع

وأقول إن الشيخ المرصفي كان غريباً في الأزهر وكان تلاميذه غرباء، وبهذا أصبح طه حسين من المنبوذين في أنظار (العلماء) وصار من حقهم أن يهينوه ظالمين بالتصريح أو التلميح

ثم تمضي الدنيا بالطفل الضرير إلى ما لا يريد، فيشيع بعض حاسديه أن يرى ما لا يرى الأزهريون من كفر (الحجاج) وهو أعظم رجل تولى أمور العراق في نظر (العقل) لا في نظر (التاريخ)

ويهان الطفل الضرير لهذه اللمحة الفكرية، فيمسي وهو زنديق في أنفس الأزهريين، وهم أصحاب الرأي الرسمي في الكفر والإيمان، ثم تكون لذلك عواقب يعاني متاعبها إلى اليوم

صور وصفية

في الجزء الثاني من الأيام ألوان من الصور الوصفية، ولا تظهر قيمة هذا الكتاب إلا لمن يلتفت إلى تلك الألوان
وأجمل صور هذا الكتاب ما جاء في وصف الشيخ سيد المرصفي، وهي صورة جدية فصلت شمائل ذلك الشيخ أجمل تفضيل والحياة الأزهرية بمزاياها ونقائصها نالت حظها من التدوين في الحدود التي تصورها الطفل، وقد عاش في بيئة مولعة بتعقب العيوب، وهو لهذا لم ير من الأزهر ورجاله غير ما يؤذي النفس، ويثير البغض، وما نراه يلتفت إلى محاسن الأزهر إلا في أندر الأحيان
وحياة (الرَّبع) ظفرت بألوان لطاف ظراف هي غرة الكتاب، وربما جاز القول بأنها من أطايب الأدب الحديث
والمجون له في هذا الكتاب مكان، ولكنه مجون ملفوف، إلا حكاية (أبو طرطور) فهي من المجون المكشوف، وهو مكروه على أرجح الأقوال!
وعنى الطفل بوصف أخيه عناية فائقة، فصوره في هزله وجده وغضبه ورضاه، بأسلوب يغلب عليه العتاب
وتحدث الطفل عن أبيه حديث اللوم في حين وحديث الحمد في أحيان. أما حديثه عن أمه فهو من أبرع صور الوفاء. ويظهر أنه لم يحب أحداً بلا قيد ولا شرط كما أحب أمه الغالية، ولم يثق بأحد كما وثق بقلبها الرفيق. ولا تقل إن الذوق هو الذي نهاه عن أن يتحدث عنها كما يتحدث عن أبيه وأخيه، فذلك كاتب وصاف قد يستبيح في الخروج على الذوق ما لا يباح، وإنما الوجه أن الدكتور طه لم ير من أمه غير الشمائل الأصلية في الرفق والعطف والحنان
حديث الدكتور طه عن أمه حديث نفيس جداً، وهو يصدر عنه بحرارة وجدانية قليلة الأمثال. ألا ترون كيف صورها بأساليب مختلفات تشهد بأنه كان بها من المفتونين؟
من المفهوم أن الرجل لا يستطيع أن يذكر أمه بغير الجميل، ولكن الدكتور طه يخلق الفرص حلقاً ليتذوق النعيم بتصور ما كانت أمه تذرف من الدموع وهي تعد الزاد الذي يرسل إلى أبنائها الغائبين.
كان الطفل في غرفة مغلقة النوافذ في يوم صائف، فلما خرج تروح النسائم الرطاب، فتذكر ما كانت أمه تطبع على جبينه من القبلات.
والأم التي أنجبت طه حسين خليقة بكل إعزاز وإجلال
أما بعد فهذا كتاب
وأي كتاب؟ هو صفحات مقبوسة من القلب والروح، كتبها أديب مرهف الأعصاب، بعد أن تجنى عليه الوجود بلا رحمة ولا إشفاق
قال أستاذنا السنيور نالليني، ونحن نذكر عاهة طه حسين:
وأقول إني لم أنقد الدكتور طه يوماً وأنا أتصور أنه ضرير، فما قُدَّ قلبي من الصخر، حتى أصوب سنان القلم إلى رجل مكفوف، وإنما أنقده وأنا جاهل بحالته الشخصية، كما تعبر الأوراق الرسمية
طه حسين ليس بضرير، وإنما هي دعوى حمله عليها حب التظرف، وسيبقى هذا الرجل شاهداً على أن البصر السليم هو بصر القلوب
زكي مبارك
الشيخ عبد الوهاب النجار
جهوده في جمعية الشبان المسلمين
للأستاذ عبد المنعم خلاف
لما قبض الله إلى جواره الكريم المغفور له المجاهد الشيخ (عبد العزيز شاويش بك) الوكيل الأول لهذه الجمعية، تلفت أعضاؤها يبحثون عمن يملأ مكانه الخالي، فلم يجدوا غير فقيدنا العزيز الذي اجتمعنا اليوم لتأبينه. إذ كان الشيخان - أسبغ الله عليهما فيوض رحمته - نظيرين في الدعوة إلى الله والعلم بأسرار الإسلام والبذل في سبيله والوقوف على أسرار تشريعه ومناهج دعوته، مع اطلاع واسع في مقارنات الأديان، وقدرة على حل كثير من العقد الاجتماعية التي تشغل بال الشباب في ظروف الانتقال الخطير التي يجتازها الشرق الإسلامي
وإذا كان الأستاذ (شاويش) لم يمد الله في أجله طويلاً في خدمة هذه الجمعية، بعد أن

اشترك بجاهه وخبرته في دور تأسيسها، وتمهيد العقبات الأولى أمامها، فقد مد الله وبارك في خدمة الأستاذ (النجار) لهذه المؤسسة حتى نمت واتسعت جهودها الدينية والاجتماعية

فمنذ ثلاث عشر سنة والفقيد دائب على القيام بواجباته فيها، يأنس به الشبان ويستفتونه في قضايا الإسلام والشبهات التي تترامى على عقولهم في فترة الانتقال واحتكاك العقل الشرقي بالعقل الغربي، وهو يفتيهم ويدحض ما يحوك في صدورهم من الشبهات، ويدخل على قلوبهم الطمأنينة ويرد اليقين وقوة العقيدة

وقد ساعده على الاقتراب من قلوبهم والدخول إلى عقولهم اتصاله بنصيب وافر من العلوم العصرية التي كان يعلم منها ما جعله ابن زمانه وربيب عصره لا رجلاً متخلفاً عن ملاحقة سير الحياة بالأحياء وسرعة نمو هذه المدنية العجيبة التي تتفتح فيها أسرار الطبيعة للعقول تفتحاً متلاحقاً يحير الألباب ويثير الدهشة، ويكشف عن كلمات الله التي ليس لها نهاية ولا نفاد!

فكان عليه رحمة الله يعلم من مباحث علوم الطبيعة والكيمياء والكهرباء وفنون الصناعات والآليات ما كان يثير إعجاب من يسمعونه وهو شيخ معمم تقدمت به السن، وتوجه فكره من قديم إلى الأدبيات وعلوم اللغة والشريعة والجدليات وما إليها من الميراث الشرقي النظري

ولا عجب أن يكون فقيدنا كذلك؛ فقد كان يحمل بين جنبيه قلب شاب ويحمل في رأسه عقل حكيم. وشباب القلب وحب الحكمة نعمتان جزيلتان تجعلان صاحبهما متفتح الفكر متجدد العزم متلفت الذهن نحو ما تلده الليالي من أعاجيب الحياة، بريئاً من الاشتغال بالأضغان الغليظة والسخافات التافهة التي تشغل بال الجهال وتصرفهم عن ملء قلوبهم وأوعيتهم بأسرار الوجود

وإلى هذه الصفات في الفقيد كان يرجع أنس الشباب به وحبهم إياه وحبه إياهم وفهمه عقليتهم ومنازع نفوسهم في زمانهم يضاف إلى تلك الصفات أنه كان مؤرخاً واعياً وقصاصاً مملوء الحافظة بحوادث التاريخ ونوادر الرجال، فكانت مجالسة عامرة بأعذب القصص وأطرف الحكايات وتلك ميزة محببة إلى نفوس الناس جميعاً وخصوصاً الشبان الناشئين الذين يسرهم كثيراً أن يستمعوا لأحاديث الغابرين وصور الماضي تلقيها وتعرضها عليهم شيخوخة جليلة يتكلم الزمان على لسانها ويتحدث من خلال بيانها

وقد نفع الله شباب هذه الجمعية بالفقيد كمؤرخ إسلامي أجل نفع، إذا كان لما يسرده من تاريخ الإسلام ورسوله الأعظم صلى الله عليه وسلم وأبطاله ومغازيه وذكرياته وفتوح سيوفه وأقلامه، أثر بالغ خالد في توجيه نفوسهم إلى إحياء تلك الذكريات الغاليات والأمجاد الخالدات

وقد سمعت من السيد رشيد رضا رحمه الله قوله: إن العقيدة الإسلامية لايريبها ويثبتها في القلوب إلا قراءة التاريخ الإسلامي؛ وإن أثر قراءة هذا التاريخ في تكوينها أعظم بكثير من قراءة كتب العقائد والجدليات

وهذا قول صادق تزيده الأيام تأييداً. فكلما زاد اطلاع المسلمين على تاريخهم ونشطت المطبعة في إخراج دفائنه ازدادت عقيدتهم رسوخاً وإيمانهم بأنفسهم وثوقاً

وقد جمع الفقيد إلى صفات المؤرخ الإسلامي ضلاعته في الاطلاع على الأديان الأخرى، وحفظه كثيراً من نصوص التوراة بالعربية والعبرية التي كان يحذقها، والأناجيل وإلمامه بأقوال شراحها، واستخلاصه من كل أولئك ما يؤيد رسالة الإسلام ويجلو أوصاف رسوله كما وردت في تلك الكتب، مما ملأ أيدي الوعاظ والدعاة الإسلاميين بالحجج المدافعة عن دينهم في مجال الجدل الديني، ومما جعل الشبان في عصمة من أضاليل الإرساليات الدينية الأجنبية التي همها تشكيك المسلمين في رسالتهم الخالدة

وحين رأت هذه الجمعية أنه لا يتم صلاح الأمة إلا بصلاح نصفها الذي طال إهماله - أعني نساءها - لأنهن الأساس في بنائها والمتصرفات في قلوب نشئها، وعزمت أن تنشئ لهن دروساً دينية عهدت إلى الفقيد بإلقائها وتنظيمها بالاشتراك مع المغفور له شيخ العروبة أحمد زكي باشا. فنهضا بذلك نهضة كان لها أثرها. إذ حملت كثيراً من

فضليات السيدات الآنسات المسلمات على تأسيس جمعيات نسوية للدعوة الدينية بين النساء وتوجيهن إلى فهم أسرار دينهن، مما يبشر بتحقيق الآمال في حركة الإصلاح
لم يكن نشاط الراحل الكريم قاصرا على خدمة أغراض هذه الجمعية في داخل حدود مصر، بل تعداها إلى البلاد العربية والإسلامية الشقيقة، فقام إليها بسفارات عدة وأسفار بعيدة؛ إذ اشترك في أول مؤتمر إسلامي عام حين عقد بالقدس خاصاً بقضية فلسطين 1931، وتزعم الرحلة التي قام بها جوالة الشبان المسلمين في صيف السنة ذاتها إلى فلسطين وسوريا ولبنان. وكان وجوده على رأسها من اعظم أسباب الترحيب بها والالتفات إليها من السلطات والأندية الدينية والاجتماعية التي كان له فيها ذكر مرفوع. ثم قام برحلة مع جوالة الشبان المسلمين كذلك إلى تركيا في صيف 1934
ولكن أعظم رحلة قام بها في خدمة أهداف الجمعية هي رحلته إلى الهند سنة 1936 في البعثة الأزهرية التي بعثها فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي لدراسة شئون طائفة المنبوذين في الهند تمهيداً لدعوتهم إلى الإسلام ولدراسة شئون إخواننا المسلمين هناك عن قرب، وإنشاء روابط تعارف بين رجالنا ورجالهم
هذه الرحلة الشاقة التي ركب الفقيد فيها البر والبحر والجو، وتنقل فيها ببلاد الهند الواسعة يخطب ويكتب ويتحدث، وهو الشيخ المعمر الذي يحتاج إلى الراحة السكون. . هي أعظم شهادة له تدخله في عداد المجاهدين الصادقين والعلماء العاملين الذين . وهبوا الله جهودهم وأعمالهم بعدما وهبوه ألسنتهم وأقلامهم إلى آخر رمق من حياتهم.
والذين يعلمون أن العمل للإسلام في هذا العصر لا يكون بتحصيل العلوم وتأليف الكتب وحدها بل لابد معه من النزول إلى ميدان الجهاد العملي والاشتراك في المعترك الأبدي بين الخير والشر
. . .والإصلاح والإفساد
وإن أدراك الحق ورسمه على الصحف أمر سهل جداً على النفوس، ولكن العمل على تحقيقه وتجسيمه بين الناس متمثلاً في أشخاص وأعمال مهمة شاقة، لا يحتملها إلا أُلو العزم من محبي الإصلاح
هناك جانب خفي للفقيد في مؤازرة هذه الجمعية شاء هو أن يخفيه عمداً، هو جانب بذله المال حسب طاقته في بعض حاجات هذه الجمعية وحاجات غيرها من وجوه البر.
فقد كان لا يبخل بمال، ولا يحسب حساب ذريته الخاصة في سبيل تحقيق مصلحة عامة؛ وقد طال عمره وهو كبير الراتب، ولكنه لم يتهالك على جمع شيء من الحطام . . .الفاني، ولم يخرج من الدنيا إلا عن ميراث الحكماء والأصفياء
!إذا ورث الجهال أبنائهم غنى ... ومالاً فما أشقى بني الحكماء
ألا سلامٌ على تلك الشيخوخة الجليلة السمحة المتفائلة التي كانت تضحي بما يصحب . . .تقدم السن من الترفع والاعتزال، وتمتزج بروح الشباب لتعطيهم خبرتها وتجاربها
وسلامٌ على تلك الروح الرحبة اللطيفة الوديعة التي كانت كأنها لا تعرف الغضب والمساءات. . . وعلى ذلك القلب البرئ كقلوب الأطفال الأبرار، وعلى تلك الأسارير المنبسطة التي يترقرق فيها الطهر وخلوص الطوية، وعلى ذلك المنطق العفيف عن . . .الادعاء والغيبة وتجريح الناس ومقابلة السوء بالسوء
وسلام على تلك الجبهة العالية التي كرمت صفحتها عن سمات الذلة والخضوع لغير الحق. . . وعلى تلك الذاكرة الواعية التي ما كان يفر منها رقم أو مسألة من مسائل !العلم والدين التي اطلعت عليها، وما كان أكثرها
ألا إن فقيدنا لم يكن شخصاً، وإنما كان حديقة مزهرة مثمرة بأطايب المعاني العالية، . . .ورقائق الصفات الكريمة، ووثائق الأخبار والأسمار والمعلومات
فرحمة الله له، والخلود لذكراه، والصبر الجميل لذويه وتلاميذه ومحبيه
عبد المنعم خلاف
حول مسرحيات محمود تيمور
من اتجاهات علم النفس
في المسرحية
للأستاذ زكي طليمات
مفتش شئون التمثيل بالمعارف
أصدر الأستاذ الكبير محمود بك تيمور مؤلفاً يتضمن ثلاث)

مسرحيات جديدة فيها الكثير من طرافة التحليل النفسي، فآثرت
أن أقدم لنقدي إياها بهذا البحث الذي يكاد يكون قائماً بذاته
(ولذاته
كثيراً ما يقع للقارئ المنقب في أروع القصص والمسرحيات الغربية، مترجمة كانت أو
بلغتها الأصلية، - وقليلاً ما يقع له ذلك في مطالعة آثار أدباء الطليعة في مصر خاصة
وفي الأقطار العربي عامة - أن يلاحظ شيئاً يستوقفه برهة ينسرح خياله فيها، ويأخذ
ذهنه بأسباب التأمل والمراجعة، ذلك أنه يرى شخصية من شخصيات هذه المسرحية أو
القصة يستوي فجأة على حالة تنبو عن التقويم النفسي العام الذي أجراه عليها
المؤلف منذ بدء الرواية، فإذا بهذه الشخصية تغمض وتبهم، وإذا بها تصبح نهبة لتعقيد
نفسي غريب، فتبدر منها بادرات تتناقض مع المعقول صدوره منها قولاً أو فعلاً،
وتتراءى هذه الشخصية في النهاية وكأنما تلبسها ذاتان مختلفتان!! وهي مع كل هذا
تبدو إنسانية أصيلة تحس بصدق خلجاتها، ونلمح في وجهها أشباهاً فيمن نعرف من
الناس أو فيمن يصل إلينا خبرهم بطريق السماع المقطوع بصحته.
إن الفكرة الشائعة على أن النفس الواحدة قد تبدو أحياناً في تصرفاتها وكأنما تلبسها
شخصيتان متناقضتان، تجد أعراقاً لها ممتدة بعيدة إلى صميم الأدب الاتباعي، ثم تلوح
بادية الأشاجع في الأدب الرومانسي، هذا على الرغم من أن القاعدة الأساسية في علم
النفس لدى الاتباعيين - والرومانسيون تبع لهم في هذا - هو أن كل ما يخطر بالنفس
ويجري فيها واضح أمره لها، لأنها تحسه وتدري بمسراه فيها، فهي تتحكم فيه إذا
شاءت بطريق الإرادة، وهي تنظمه بمعاونة المنطق، وتكون النتيجة الحتمية لهذه
القاعدة: أنه بما أن النفس في هذا الصدد لا يخفى عليها شيء مما يختلج فيها، إذن
فكل ما يجري فيها واضح المعالم والحدود تفصح عنه الأقوال والأفعال وتفسره.
على هذه السنة، سنة الوضوح والإيضاح، يقوم التحليل النفسي لدى الاتباعيين
والرومانسيين ومن ينحو نحوهم في كتابة القصص والمسرحية التي هي معارض
لنماذج بشرية تتنفس وتتحرك وتعمل فيها.
بيد أن المؤلفين الاتباعيين والرومانسيين، على أخذهم بقاعدة الوضوح هذه في علم
النفس، لم يكونوا بمنجاة من التعثر ببعض تلك الحالات النفسية المعقدة التي تبدو
النفس خلالها، وكأنها عالم يشوبه الغموض وتتجاوب أصداؤه بالمتناقضات والفوضى
فماذا كان موقف هؤلاء المؤلفين من هذه الحالات؟ كانوا يحاولون التفسير جهدهم
ليستخرجوا من الإبهام وضوحاً ومن الاضطراب نظاماً، متجشمين في سبيل ذلك بياناً
خطابياً حاذقاً ولهجة منطقية حارة يجرونها على ألسنة شخصيات رواياتهم ابتغاء
الإفصاح، وليسروا على القارئ أمر الانتقال من النتائج إلى الأسباب وبالعكس من غير
ما يضطرب المنطق اضطرابة عنيفة، وليقيموا صلة ما بين ما هو معقول ومألوف
صدوره عن هذه الشخصيات، وبين ما هو غير معقول وناب من بادرات طارئة وصور
ذهنية معقدة في تواردها
وهذه الحالات النفسية المعقدة لدى الرومانسيين، تمتاز عن مثيلاتها لدى الاتباعيين
بأنها تكون عادة مبطنة بفورات نفسية طارئة. ومرجع هذا كما هو معلوم، أن الأدب
الرومانسي أساسه القلب، فهو يترك الحبل على الغارب للتيارات العاطفية دون أن
يمد بينها وبين اعقل الراجح شكيمة ولجاماً، وهذا بخلاف ما هو الأدب الاتباعي
لدى الواقعيين والطبعيين
وفي أواخر القرن الثامن عشر، نزل بهذه القاعدة في علم النفس الكثير من الهزال
والتعقيد، فأخذت تتحور على أساس نزعة فكرية جديدة، سداها ولحمتها أن الكائن
الإنساني ليس فقط
ما يريد أن يكونه، أو ما تقضي إرادته أن يستقيم عليه، لأن العناصر المادية تجري
تأثيرها على جسده بلا انقطاع. فهذا الكائن الإنساني خاضع لمؤثرات المناخ والبيئة لا
بجسمه فحسب، بل وبروحه أيضاً، وما يتأثر به الجسد تتأثر به النفس. وما دام الأمر
كذلك - في زعمهم - فواجب أن ننظر إلى النفس وخلجاتها من وجهة نظر علمية
خالصة، وذلك بأن تخضع خلجات النفس وبادراتها ولمعاتها إلى التعليل العلمي الصرف
هذه النزعة لم تكن غير صدى لسيطرة النزعة العلمية والتحليلية في القرن التاسع

عشر في فرنسا وإنجلترا، فوجدت نظريات الوراثة والبيئة مجالاتها الواسعة فيما تخرجه أقلام الكتاب القصاصين والمسرحيين، وهكذا تمت غلبة المحسوس على غير المحسوس في كل شيء، وأصبح علم النفس خاضعاً لآلية (المعمل) يحلل ويجزئ، وما يحلل ويجزئ غير مظاهر المادة. وسيطرت الواقعية على ألوان الأدب والفنون، وتبعتها فيها (الطبعية) وهي لون متطرف من الواقعية

ماذا كان يعمد إليه الكتاب والواقعيون والطبعيون وهم يعالجون في رواياتهم تحليل شخصيات ملقحة بالغموض تنتابها تعقيدات نفسية؟

وقد يحسب القارئ أن هذه الحالات النفسية المعقدة قد انتهى زمانها بعد أن أخذ العلم يحلل كل شيء ويعلل. لا شيء من هذا لم يحدث، لأن هذه الحالات عريقة في النفس البشرية التي لم تتغير ولن تتغير، وما كانت هذه النزعة العلمية التحليلية لتحجز الكتاب عن تقديم هذه المخلوقات المعقدة التي تبدو كأنها ظاهرات عجيبة، نظراً إلى أنها تعيش بيننا ويُحس بها، ولأن القصة والمسرحية من مجالات تسجيل النفس على اختلاف ضروبها وتعقد حالاتها. للمناخ والبيئة تأثير لا ينكر أحياناً على بعث كوامن النفس واصطخابها، فهما عاملان يساعدان أحياناً على إحياء التناقض في الطبع الإنساني الواحد، ويمهدان لتشقيقه وفتح فجوات في كيانه. ولا شك في أن المؤثرات التي تنزل بالجسم وتنال منه، من شأنها أن تشق للنفس مسارب تنقلت منها في وثبات لا يمكن للمنطق الخالص أن يعللها ويفسرها.

نعيد سؤالنا فنقول: ماذا كان يعمل هؤلاء الكتاب، كتاب الواقعية (والمعمل) إذا عرضت لهم تلك التعقيدات النفسية؟

لم يكن يعمدون إلى الصمت ولا شك. لقد كان أسلافهم الاتباعيون والرومانسيون - وهم أقل ادعاء للعلم منهم، ولم يبلغ العلم في زمنهم ما بلغه في الواقعية - يعللون هذه الظاهرات العجيبة تعليلاً منطقياً ويفسرونها تفسيراً عقلياً متواضعاً، فكيف يلزم الصمت الكتاب الواقعيون والطبيعيون، ربائب العلم والنظريات المادية، وقد تطاول العلم في زمنهم على كل شيء يحاول تعليله وتفسيره!! كان الواقعيون يتحدثون كثيراً ويفسرون طويلاً، لا على أساس المنطق والعقل، ولكن على أساس النظريات العلمية، يتعلقون بأذيال العلم ويحملونه ما لا يقدر عليه، ليقرروا بعد ذلك - وهم يلهثون - أن هذه التعقيدات والظاهرات الإنسانية العجيبة، إنما هي حركات انعكاسية للنفس نجمت عن تغيرات واضطرابات عضوية في الجسم خاضعة لقوانين المادة.

أفلاس المعمل

ولم يمض زمن طويل حتى خففت المادية من غلوائها بعد أن عجزت النظريات العلمية عن تفسير كل شيء، وأفلس (المعمل) بعد أن أنهكه تحليل المركبات، وصارت تلك التفسيرات التي يصدرها الكتاب الواقعيون والطبيعيون لا يؤبه لها، بل غدت عقيمة عقم العقل نفسه في النفاذ إلى جوهر الأشياء واستبطان حقائقها. فاشرأبت النفوس إلى مطالعة وسائل جديدة غير الوسائل السالفة تقدم إليها ما ينقع غلتها في استطلاع المجهول الغامض في حناياها

الرمزية

وكانت يقظة للنزعة الرمزية من جديد، ولكن على غير غرار الرمزية الدينية (الصوفية) فقامت لها حركة بدأت في شمال أوربا وانحدرت إلى الجنوب، وهذه الحركة في صميمها ليست إلا مظهراً من مظاهر المزاج الأدبي العام للتحرر من (واقعية) الأدب، ووثبة من وثبات الذهن إلى ارتياد آفاق جديدة للكشف عن الغامض في النفس وحل أحاجي تلك التعقيدات النفسية التي سبق أن تحدثنا عنها.

شوبنهور وهارتمان

وجاءت تعاليم الفيلسوفيين شوبنهور وهارتمان من ألمانيا فأضافت جديداً على هذه الحركة التحريرية، فقد حاول هذان الفيلسوفان أن يقررا أن العالم لا يسيره الذكاء، بل هو خاضع في سيره إلى نوع من الإرادة تعمل وتعمل من غير أن تفسر عملها ومن غير أن تأبه لقواعد العقل والمنطق. وهذه فكرة من فلسفة ما وراء ولا شك. ولكنها تحمل في طياتها عناصر جديدة شام فيها الأطباء وعلماء النفس آفاقاً جديدة فعقدوا عليها فصولاً

وبحوثاً أسفرت عن جديد يصح أن يتخذ مفتاحاً للمغلق الغامض في النفس
خطوات جديدة
العالم تسيره قوة من غير أن تفسر عملها ومن غير أن تعبأ بقيود العقل والممنطق، والنفس جزء من هذا العالم. . .!!
من هنا يبدأ الخيط الذي رسم الاتجاه الجديد لعلم النفس
فمن اكتشافات العلامة الفرنسي (شاركو) بين 1870 و1890 في التنويم المغنطيسي وإثباته أن في الاستطاعة أن يسكب المنوم في نفس الوسيط آراء وواردات لم يكن لها أصل في ذهنه الواعي ويوجهه توجيهات لم يكن له قبل بها من قبل. . .
إلى ما كتبه العلامة (ريبو) عن أمراض الذاكرة، وذلك في ما بين 1882 و1885 وتدليله على أنه تسكننا حافظات لا نحسها - إذ ليس لنا بها علم من قبل - ولكنها تعيش فينا متحوية منطوية على نفسها، وسرعان ما تنسرح وتنشر مطاويها فينا على أثر مرض طارئ؛ وكيف أن كائناً إنسانياً عادياً متماسكاً ليس في مظهره شذوذ ما قد ينقلب فجأة شخصاً آخر، شخصاً عادياً بدوره، ولكنه لا يذكر شيئاً عن الشخص الأول؛ وكيف أن هذا الكائن الإنساني قد يجد من جديد شخصه الأول الذي كان يعيش ولا شك في زاوية من عقله اللاواعي أو الباطن، وذلك بمجرد اختفاء الشخص الثاني. . .
إلى ما انتهى إليه (بيير جانيه) في دراسته للإيهام وللاضطرابات العصبية وأمراضها، من أن هناك ما يحمل على الاعتقاد بأنه يمكن أن تعيش في نفس كائن إنساني واحد شخصيات عديدة وتيارات متباينة قد تتدخل في بعضها أحياناً وتختلط مدومة مدوية!
العقل الظاهر والعقل الباطن
وقام العلامة (سيجموند فرويد) (1856 - 1939) النمساوي وأنشأ فصولاً جديدة في التحليل النفسي تعرف باسم أرجع فيها كل خليقة من الخلائق، وكل عارضة من عوارض النفس إلى الغريزة الجنسية، وقرر أنه يسكن النفس البشرية ذاتان، الأولى طبعية بدائية
عارية من صقل جبلت وفاقاً للطبع المركب فينا، والأخرى مختلفة اختلافاً بفعل التثقيف والتهذيب، ومنسقة تنسيقاً صناعياً بيد الاجتماع والمتواضع عليه. ثم استطرد البحث ليقول إن عقلنا - وهو واعيتنا الظاهرة - لا يجيب غير ما يصدر من الذات الأخرى التي هي من صنع التثقيف والتهذيب، ولكن قد يقع كثيراً أن تتغلب الذات البدائية العارية من كل صقل وتنسيق فتجمح النفس وتبدو منها بادرات طارئة ي القول أو الفعل تبدو غريبة معقدة، وتلمع في النفس لوامع خاطفة لا تعلل ولا تفصل!
برجسون (1859 - 1940)
وانبرى الفيلسوف الفرنسي برجسون يشن حرباً شعواء على النزعة الآلية والمادية وليدة العلم و (المعمل)، ويخطئ من يحسب الإنسان آلة صماء في يد القوانين المادية، وهاجم الذكاء والمنطق لينادي بوجود عنصر جديد في النفس أسماه ' به أكثر مما نعيش بذكائنا ومنطقنا، أي بالعقل. ثم حدد العقل الظاهر أو الواعي بما مفاده أن هذا العقل الظاهر ليس إلا جزءاً من كياننا النفسي العام، ودوره عملي خالص لا يتجاوز إلقاء ضوء مزدوج على أطراف الأشياء والتي يجب أن نعملها، وعلى نواحي الفكر التي تتولاها، وأنه ليس لهذا العقل الظاهر أن يفسر الأشياء وأن يفصح عنها. ثم قرر برجسون بعد ذلك: أننا نتجاوز أحياناً في أعمالنا الحدود والمعالم التي يقيمها العقل الباطن الظاهر، وأننا خاضعون في تصرفاتنا إلى العقل الباطن، باعتبار أنه النبع الخفي البعيد الغور المترامي الأطراف الذي ينساب منه في خيط دقيق ماء رقراق، هو عقلنا الظاهر!
كل هذا مع ما جاء على غراره جعل الحياة الباطنة تتغلب على الحياة الظاهرة؛ فأخذ علم النفس يتجه اتجاهاً جديداً، يتخلص في أن العقل الواعي إنما هو شيء ظاهر سطحي لشيء باطن عميق قابع في أغوار النفس؛ وأنه إذا أردنا أن نبحث عن تفسيرات تلك التعقيدات النفسية من بادرات طارئة وواردات غريبة فلنطرق باب العقل الباطن حيث لا سلطان للعقل والذكاء، ولا صوت للمنطق والإرادة، وحيث الغرائز تتشابك وتفور
زكي طليمات

على هامش بحوث المجلس الأعلى
رسالة التعليم الالزامي
للأستاذ محمد كامل حته
لعل من أهم عوامل التعثر والاضطراب في التعليم الإلزامي
ما يكتنف فكرته وأهدافه من البلبلة والغموض. ونحن نتقدم
بهذه الكلمة في بيان رسالة هذا التعليم إلى المجلس الأعلى
بمناسبة تناوله إياه بالبحث في اجتماع اليوم
لم يكن عبثاً - وقد خرجت الأمة المصرية في أعقاب الحركة الوطنية ظافرة بالحرية والدستور - أن ينص هذا الدستور على أن يكون التعليم الأولي إلزامياً بالمجان لجميع الناشئة من بنات وبنين؛ لأن هذا النص على إلزامية التعليم، وعلى نشره بين جميع طبقات الشعب بالمجان، هو أول اعتراف بحق هذا الشعب في أن يحيا حياة جديدة فيها ما يبثه التعلم في النفوس من معاني الحرية والكرامة والرقي، وفيها الضمان الوحيد على أهلية هذا الشعب لما أحرزه من النتائج الوطنية، وتثبيت دعائم النهضة القومية، ومواصلة الجهود لتحقيق كل أسباب العزة وشوارد الآمال. . .
لهذا كان مشروع التعليم الإلزامي في مصر أهم مشروع تمخضت عنه النهضة الوطنية الحديثة، لأنه مشروع تتصل أسبابه بجميع أفراد الشعب، ولأنه الدعامة الأولى لكل إصلاح ينتقل بالأمة من حياة الجهل والخمول إلى حياة مستنيرة عاملة، تستقيم بها الأوضاع الاجتماعية وتتعاون فيها الجهود على النهوض بجميع مرافق الإصلاح.
لقد أطبقت ظلمات القرون ومظالم الأحداث على آفاق البلاد حقباً متطاولة، فإذا هذا الوطن الذي أنبت أول حضارة على ظهر الأرض، والذي كان قبلة العالم في علومه وفنونه وآدابه، والذي يفيض نيله عسجداً مذاباً، وتخرج تربته من كل الثمرات، والذي تخلق طبيعته الساحرة بطولة الأجسام والعزائم والعقول - إذا بهذا الوطن الذي توفرت فيه كل أسباب العظمة والخلود، تتدهور الغالبية العظمى من أهله في مهاوي الجهل والفقر
والمرض والانحلال، تدهوراً يبعث على الحسرة البالغة والأسف العميق!
وليس من شك في أن العامل الأول الذي أدى إلى هذه النتائج المؤلمة، والذي ترتبت عليه العوامل الهدامة الأخرى، إنما هو الجهل الذي مني به السواد الأعظم من الشعب، فعرضه لغيره من الآفات الاجتماعية التي تنخر في كيانه وتحول بينه وبين كل تطور محمود
فالتعليم الإلزامي - إذاً - هو العلاج الحاسم الذي يجتث هذه الآفات من أصولها، ويمد جسم الأمة بالقوة التي تقاوم بها آثار هذه الآفات، والمناعة التي تقيها شرور العدوى والانتكاس
بل هو الشعاع الأول المنبثق من فجر النهضة إلى أعماق الريف السحيق، يخترق في سبيله الظلمات الداجية والضباب المركوم، حتى يصل إلى تلك المجاهل النائية، فتتفتح له الأجفان المطبقة، وتستجيب له القلوب الصماء، وما يزال هذا الشعاع يقوى وينتشر وما تزال العيون تتفتح والقلوب تستجيب، حتى تتبدد تلك الظلمات وتستبين القافلة معالم الطريق. . .
ومن هنا نستطيع أن نفهم رسالة التعليم الإلزامي في مصر، على صورتها الصحيحة ومعناها البعيد. فليست هذه الرسالة قاصرة على محو الأمية فحسب - كما يريد البعض أن تكون - لأن مكافحة الأمية ميدان محدود بالنسبة إلى الميادين الرئيسية الأخرى، ولأن قصر هذه الرسالة على هذا الميدان عمل آلي تافه الأثر ضعيف النتائج، لا يبث في نفوس الناشئة فكرة سامية، ولا يمدها بتوجيه سديد
بل إن في هذا الحد من رسالة التعليم الإلزامي على هذا الوجه أضراراً عقلية واجتماعية هي شر من الأمية والجهل؛ لأنك إذا وضعت في يد الناشئ مفتاح القراءة والكتابة، ولم تصب في عقله المقاييس الصحيحة للحياة، ولم تملأ أحاسيسه بالعواطف اللازمة لسعادة المجتمع - كان هذا المفتاح الذي في يده يدور بوحي عقله القاصر المضطرب، وإلهام غرائزه المستعرة العارمة، فلا يفتح على نفسه وعلى المجتمع الذي يعيش فيه إلا أبواب الشرور. . .
وإنما تمتد رسالة التعليم الإلزامي إلى آفاق أبعد من ذلك غاية وأسمى غرضاً، فهي

ترمي إلى تكوين الجيل على أساس قوي من الوطنية المستنيرة، والإدراك لحقائق المجتمع، والحرص على حقوقه الاجتماعية، والنهوض بأعبائه الثقال في مكافحة ما يندس في كيانه
من الآفات، ومسايرة القافلة الإنسانية في تنقلها السريع.
وإلا فما قيمة تلك النتائج التي أحرزها الشعب في جهاده الطويل، إذا لم يكن هذا الشعب قد تهيأ للانتفاع بها على الصورة التي تبدو فيها آثار التطور واضحة ملموسة؟ وما قيمة تلك المبادئ التي كفل بها الدستور الحقوق والحريات، إذا كان الشعب عاجزاً عن تمثل هذه المبادئ وتطبيقها في حياته الفردية والاجتماعية؟
إننا بهذا الاتجاه السديد في فهم رسالة التعليم الإلزامي، نستطيع أن نتبين السر فيما نشكوه من العيوب في نواحي السياسة العامة. ونستطيع أن نعلل الفشل الذي يلازم أكثر مشروعات الإصلاح في هذه البلاد، لأن هذه المشروعات لم يسبقها إعداد التربة الصالحة لنموها وازدهارها، وإيجاد الأيدي الشعبية القوية التي تقوم على تحقيق هذه المشروعات تلك هي رسالة التعليم الإلزامي في مصر، مستمدة من روح الدستور الذي وضع للمواطن المصري أرقى مبادئ السياسة والتشريع، ومستلهمة من حاضر هذا الوطن المفتقر إلى كل إصلاح، المشرئب إلى مستقبل وثيق الصلة بماضيه المجيد (القاهرة)
محمد كامل حته
المصريون المحدثون - 15
شمائلهم وعاداتهم
في النصف الأول من القرن التاسع عشر
تأليف المستشرق الإنجليزي أدورد وليم لين
للأستاذ عدلي طاهر نور
الفصل الخامس
الحياة المنزلية
الآن - وحسبنا ما نظرنا في حالة مسلمي مصر الأخلاقية والاجتماعية - نستطيع أن نلقي نظرة على حياتهم المنزلية وعاداتهم المألوفة. ولنبدأ بالطبقتين العليا والوسطى يطلق على رب العائلة أو من يبلغ سن الرجولة إذا لم يكن خادماً أو خاملاً لقب (شيخ) احتراماً وتشريفاً. والمعنى اللغوي لكلمة شيخ هو عجوز؛ ولكن كثيراً ما تستعمل مرادفة لفظة (سيد)، وإن أطلقت بصفة أخص على رجال الدين وأولياء الله. ويقال للشريف (من سلالة النبي صلى الله عليه وسلم) (السيد) أياً كان منصبه. وكثير من الأشراف يشتغلون خدماً وزبالين وسائلين ومع ذلك يلقبون بالسيد، ويميزون بالعمامة الخضراء؛ إلا أن غالبهم، يفضلون على هذه الامتيازات لقب الشيخ والعمامة البيضاء. ويسمى من قام بفريضة الحج (الحاج). على أن هناك جملة حجاج، مثل الأشراف، يفضلون لقب الشيخ. ويطلق على العقائل بوجه عام لقب (الست)
وقبل أن أصف عادات رب العائلة يجب أن أشير إلى الطبقات المختلفة التي تتكون منها العائلة: (الحريم)، أي نساء المنزل، ولهم غرف خاصة بهن يطلق عليها، كما يطلق على النساء، الحريم ولا يسمح للرجال بدخولها ما عدا رب العائلة وبعض الأقارب الأدنين والأطفال. ويتألف الحريم من زوجة أو أكثر، ثم من الجواري. والبيض من الجواري والحبشيات أو نساء الجلا يقتنين على العموم للتسرى، وأما السود منهن فيتخذن للخدمة، وأخيراً الخادمات الحرائر. أما التابعون الذكور فهم عبيد سود أو بيض، ثم خدم أحرار وهم
الأكثرية. وقلما يبيح المصريون لأنفسهم ما أباح الدين من تعدد الزوجات. ولا يزال عدد من يعاشر أكثر من امرأة بالزواج أو التسري قليلاً حتى أن أغلب الذين يكتفون بزوجة واحدة لا يتسرون ليتمتعوا بالهدوء المنزلي، إذا لم يكن لسبب آخر. ولكن بعضهم يفضل اقتناء جارية حبشية للتسري على القيام بالنفقات الزوجية المرهقة، ويجعل لخدمتها جارية سوداء أو خادمة مصرية.
ويندر أن يحتفظ الرجل بزوجتين أو أكثر في المنزل نفسه، وإلا خصص لكل منهن غرفة متميزة. ويقوم على خدمة رب الدار وضيوفه خادم أو أكثر، ومنهم خادم يسمى (سقا)، ولكنه على الأخص يقوم على خدمة السيدات وهن خارج المنزل فقط، ثم

البواب وهو يجلس دائماً على باب المنزل، والسائس للاعتناء بالاصطبل. وقلما يمتلك المصريون مماليك إذ أن أغلبهم في حوزة أغنياء الترك. ويندر أيضاً أن يكون لأحد غير عظماء الأتراك أغاوات. ويفتخر أغنياء التجار المصريين عندما يسير في ركابهم، أو يحمل شبكهم، عبد أسود.

يبكر المصري في نومه وفي استيقاظه، وهو ينهض للصلاة قبل الفجر، وبينما يقوم بفروض الوضوء والصلاة تجهز له امرأته أو جاريته القهوة، وتحشو له شبكه تبغاً وتقدمهما له حين ينتهي من فروضه الدينية

وكثير من المصريين لا يتناولون شيئاً قبل الظهر غير القهوة وتدخين الشبك؛ وبعضهم يتناول أكلة خفيفة في ساعة مبكرة. ويتكون الفطور من الخبز والبيض والزبد والجبن والقشدة أو لبن الزبادي. . . الخ أو فطيرة تؤكل وحدها أو بالعسل يصب فوقها أو بالسكر. ومن الألوان المألوفة في الفطور الفول المدمس، وهو يدمس بإنضاجه على مهل ليلة بطولها في إناء من الفخار يدفن إلى رقبته في نار الفرن أو الحمام بعد أن تسد فوهته سداً محكماً. ويؤكل الفول بزيت بذر الكتان أو بالزبد، وقد يعصر عليه قليل من الليمون. ويباع هذا الفول في أسواق القاهرة وغيرها من المدن. ويتكون طعام الفقراء من الخبز (والدقة) وهي خليط من الملح والفلفل مع الزعتر أو النعناع أو الكمون وأحد المواد الآتية أو أكثرها أو جميعها: وهي الكزبرة والدارصيني والسمسم والحمص. ويصنع الخبز مستديراً مسطحاً، بطول الشبر تقريباً وفي عرض الأصبع أو أقل

ويتمتع بالتدخين والقهوة كل من يستطيع لنفسه هذا الترف، في الصباح المبكر وأحياناً أثناء النهار. وهناك كثيرون يندر أبداً أن تراهم بدون شبك، إما بين أيديهم وإما مع الخادم. ويجعل المدخن، لاستعماله اليومي، دخانه في كيس من الصوف أو الحرير أو المخمل، يضعه في عب قفطانه، وكثيراً ما يكون معه كيس آخر به الزناد والصوفان.

ويبلغ طول قصبة التدخين (وأسماؤها عديدة منها الشبك والعود الخ) أربعة أقدام أو خمسة، أقصر من ذلك والبعض الآخر أطول بكثير. وما يستعمل عادة في مصر يصنع من خشب (الجرمَشق) وأكثر طول القصبة، من الفم إلى ثلاثة أرباعها، يغطى بالحرير الذي تحد طرفيه سلوك ذهبية محبوكة بالحرير الملون أو تحدهما ماسورتان من الفضة المذهبة؛ ويتدلى من الغطاء الحريري في الحد اسفل شرابة حريرية، وكان هذا الغطاء مخصصاً بادئ الأمر ليبلل بالماء فيبرد بالتبخر الشبك وبالتالي الدخان. ولكن الشبك لا يغطى إلا إذا كان عتيقاً أو قبيح الشكل. وكثيراً ما يستعمل أيضاً الشبك المصنوع من خشب الكرز خصوصاً في الشتاء وهو لا يغطى أبداً. ولا يبرد الدخان في شبك الكرز صيفاً مثل ما يبرد في الشبك السابق ذكره. أما (الحجر) فهو من الآجر؛ وأما الفم أو (التركيبة) فيتكون من قطعتين أو أكثر من الكهرمان الفاتح اللون، يصل ما بينهما زخارف من الذهب المرصع بالمينا والحجر اليمان واليشب والعقيق أو غير ذلك من الأحجار الكريمة أو المعادن النفسية. والفم أثمن ما في الشبك، وقد يرصع بالماس.

ويبلغ ثمن الشبك الأكثر شيوعاً بين الطبقة الوسطى من جنيه إلى ثلاثة جنيهات إسترليني. ويوضع فوق الشبك أنبوبة من الخشب كثيراً ما تغير كلما تلوثت بزيت الدخان. والشبك ذاته يتطلب النظافة كثيراً، وينظف بألياف الكتان مشدودة في سلك طويل. ويعيش كثير من فقراء القاهرة على تنظيف الشبك

ويدخن أفراد الطبقة الراقية في مصر تبغاً له عطر لطيف لذيذ، يجلب أكثره من جوار اللاذقية في سوريا. وأحسن الأصناف (الدخان الجبلي) يزرع على تلال هذه المدينة. وهناك صنف قوي ينسب إلى مدينة صور، وهو الدخان الصوري، يخلط أحياناً بالصنف السابق ويستعمله أفراد الطبقة الوسطى. وعندما يدخن المصريون أو الشرقيون يسحبون نفساً طويلاً، فيصل كثير من الدخان إلى الرئة، ويعبرون عن التدخين عادة بشرب الدخان

أو شرب التبغ. والقليل يبصق عندما يدخن. ولم أر أحداً فعل ذلك إلا نادراً جداً.

ويستعمل بعض المصريين الشبك الفارسي الذي يمر فيه الدخان خلال الماء، وهذا النوع يستعمله عادة أفراد الطبقة الراقية ويسمى (نارجيك) لأن الوعاء الذي يحوي الماء جوزة هندية (واسمها بالعربية نارجيلة) وهناك نوع آخر ذو وعاء زجاجي يسمى (شيشة) وكلا النوعين له أنبوبة طويلة لينة. انظر (شكل 33) وهناك نوع خاص من

التبغ الفارسي يسمى (تنباك) يستعمل في شبك الماء. وهو يغسل أولاً عدة مرات ويجعل بعد ذلك حجر الشبك وهو رطب، ثم يوضع عليه جمرتان أو ثلاث من الفحم. وللتنباك عطر لطيف مقبول. ولكن شدة استنشاق الدخان في هذا النوع من التدخين يضر الرئة الضعيفة. ومدخن الشبك الفارسي يشد الدخان إلى رئتيه مثل ما يستنشق الهواء الخالص. وترجع كثرة أمراض الكبد في بلاد العرب إلى استعمال النرجيلة، كما أنه في مصر يتألم الكثيرون جد الألم بسبب هذا. وهناك نوع يسمى (جوزة) يشبه النرجيلة إلا أن أنبوبته عصا قصيرة بدلاً من أنبوبة النرجيلة القابلة للانثناء، ويستعمله رجال الطبقة السفلى لتدخين التنباك والحشيش.

(يتبع)

عدلي طاهر نور

ليالي النيل

للأديب مصطفى علي عبد الرحمن

يا ليالي النيلِ في ظلِّ الأماني الزُّهْرِ عودي
وأعيدي الصفوَ والأنسَ لعينيَّ أعيدي
أنا ما زلتُ على عهدي فهلْ صُنتِ عُهودي
حيث غنتنا الضفافُ الحالماتُ ... أغنياتٍ ردَّد القلبُ صداها
شاعتْ الفرحةُ فيها والحياةُ ... وانتهى البشرُ إلينا وتناهَى
والهوى يَعمرُ رُوحيْنا بهاءَ وضِياءَ
والسنا يغمرُ قلبينا فُتوناً وصفاء
والمنى تملأُ دنيانا أماناً ورجاء
ذاك عهدٌ صنته بين ضلوعي ... أتُرى تذكر عهدي؟ أتُراها
أم تناستْ سحر أيام الربيع ... ناديات لألأ الكون نَدَها
وضفافُ النيلِ في ظلِّ الأماني البيضِ سكرى
حوّم الطيرُ حواليها وفاض الكون بشرا
ولنا الموج تغنى وبنا الزورقُ أسرى
نحو نور الخلدِ ترعاه المنى ... لحظات أنا والعمرُ فداها
ليت يا زورق لم ترجع بنا ... قِبْلةَ الشطآن يوما فنراها
ونذيرُ البين يسعى بين آمالي وبيني
وافترقنا للقاء ورجاء وتمنى
وأتى قلبيَ يسعى للتلاقي بيد أنّي
لم أجد في الشط ما يشفي غليلي ... أين أفراحي وكأسي وطِلاها
وليالي النيل في ظلِ ظليلِ ... ليتها عادت لنحيا في سناها
طالَ شوقي وحنيني وهوى نفسي فعودي
وأعيدي الصفو والأنسَ لعينيَّ أعيدي
أنا ما زلت على عهدي فهل صنت عهودي؟

(الإسكندرية)

مصطفى علي عبد الرحمن

فوزية

(هي فتاة وافاها القدر المحتوم يوم نجاحها في الامتحان)

للأستاذ محمد برهام

عَدَت المنون على الشباب الباكر ... فمحت بشاشات النجاح الباهر
نبني أمانينا العراض على غد ... وغد على راجيه أشأم طائر
ظهرت نتيجة الامتحان وأنت في ال ... نزع الأخير، ورهن موت قاهر
فوقفت أرقب والصحيفة في يدي ... فتك المنية بالملاك الطاهر
الرقم يوحي لي التسبم للمنى ... والداء يوحي لي بدمع زاخر
تلميذتي ما كنت غير غمامة ... برقت، وإلا لمحة في الخاطر
الحفلة الكبرى التي سنقيمها ... لنجاحك اندثرت كأمس الدابر
لبس الممات إليك ثوب مهنئ ... ودهاك ضنّاً بابتهاج الظافر
هلا تمهل بعد فوزك مدة ... وأتاك من بعد انفضاض السامر

كم حذروك إذا خرجت كأنما ... ضمنوا النجاة بقولهم لك حاذري
يا زهرة ما كاد ينشر طيبها ... حتى حرمنا من شذاها العاطر
نامي استريحي قد تعبت فلم يعد ... أحد يقول لك اسهري أو ذاكري
محمد برهام
البريد الأدبي
هنأ وهناء
استقريت ما كتب في (الرسالة) في تحقيق هذه الكلمة فرأيت الأستاذ الجليل وحيد يعزو كلمة (هناء) بالمد إلى الصحاح للجوهري، وقد رجعت إلى نسخة مخطوطة من الصحاح عند صديقنا الأستاذ أحمد عبيد (صاحب المكتبة العربية في دمشق) لا نظير لها فيما أعلم، وهي مكتوبة سنة 850هـ كتبها محمد ابن يوسف الصلتي ومضبوطة بالشكل الكامل، ومنقولة من
نسخة بخط ياقوت الموصلي (أنظر ابن خلكان ومقدمة الهوريني للصحاح) وفي آخرها ما نصه (بلغ العرض بنسخة نقلت من نسخة علي بن عبد الرحيم بن الحسن لسلمي الرقي المعروف بابن العصاد (أنظر ترجمته في بغية الوعاة) وذكر أنه عارض بها عدة نسخ منقولة من خط أبي سهل الهروي النحوي (أنظر البغية) الذي نقله من خط المصنف وذكر أن عليها ما هذه صورته: عارضت هذا الجزء والذي قبله من كتاب الصحاح بالأصل المنقول عنه الذي بخط أبي سهل الهروي الذي نقله من خط المصنف واجتهدت في تصحيحه واستدركت ما وقع فيه من السهو والتحريف عما عليه أكثر أهل اللغة. وكتب يحي بن علي الخطيب التبريزي (قال ياقوت) وهذه النسخة المعارض بها هذه النسخة فيها أيضاً شكوك كثيرة وكلام كأنه غير عن باقي النسخ وقد ذكرت أكثر ذلك في حواشي هذه النسخة الخ. . .
والذي وجدته في هذه النسخة (هَنْأ وهِنْأ) بالفتح والكسر في غير مد، ومن ذلك يظهر أن الذي في النسخة المطبوعة تطبيع فليصحح.
علي الطنطاوي
غبر لا عبر
تتبعت ما كتبه الأستاذ الكبير (أ. ع) من أبحاث لغوية قيمة حول كلمات شائعات على أقلام كتاب هذا العصر ومنهن كلمة (عَبر)، وتتبعت كذلك احتجاج الأستاذ رضوان لهذه الكلمة واستشهاده ببيت سواد بن قارب.
فشمرتُ عن ذيلي الإزار وأرقلت ... بي الدعلب الوجناء (عَبْر) السباسب
ثم ما نشأ أخيراً من محاجات حول إعرابها، ولا يسع المتتبع لهذا لبحث إلا أن ينكر هذه الصناعة النحوية التي تأباها طبيعة هذه الكلمة؛ وإلا أن يبحث عن رواية أخرى تساوق ذوق اللغة العربية. وأقول إني عثرتُ على هذه الرواية في بعض المراجع؛ ففي تفسير ابن كثير في الجزء السابع ص486 رُوي هذا البيت لسواد بن قارب في قصيدة جاءت نهاية لقصة تتعلق بإسلامه، ونحن لا يعنينا صحة هذه القصة وإنما تعنينا صحة هذا اللفظ الذي ورد في البيت هكذا:
فشمَّرتُ عن ساقي الإزار، ووسَّطتْ ... بي الدّعلبُ الوجناءُ (غُبْر) السباسب
ولا أستبعدُ أن تكون رواية (عَبْر) مُصحفة عن هذه الرواية (غبر) وقد قال صاحب لسان العرب في مادة (غبَر) بعد كلام كثير في تأويل حديث أبي هريرة (بيننا رجل في مفازة غَبراء) إن الغبراء هنا هي الأرض التي لا يهتدي للخروج منها؛ ولا شك أن (غُبر) جمع غبراء
وإذا كانت القصة التي وردت فيها القصيدة قد وضعت سواد ابن قارب هذا في الهند وكلفته أن يُسرع إلى مكة، أدركنا أي سباسب غبرٍ أوجبت عليه اجتيازها
وبعد فأرجو أن تكون هذه الرواية قد حلت ما بين الأستاذين من ألغاز النحو وأحاجيه
(دار العلوم)
محي الدين صابر محمدين
التشريع المحكم والدستور الخالد
كنت كلما طالعتنا الرسالة الزهراء بشمائل وعادات المصريين المحدثين (في النصف الأول من القرن التاسع عشر) أميل روحاً وحساً ومعنى لأعرف من عادات قومي ما أرخه مستشرق أجنبي ونقله إلى أصحابه أستاذ مصري. . .

ولكني عندما ما أدركت الفصل الرابع - في الحكومة - وقرأت طرفاً منه شعرت أني انتقلت من واد غير ذي زرع إلى رياض ذوات أفنان متمشياً مع المؤلف (أو المترجم) بقلب صادق وحس مرهف كأن فيه ضالة منشودة. حتى إذا ما فرغت سرحت بأماني وآمالي. . .

إنه قرن مضى. . . كان فيه مجلس العلماء يثير الرهبة والاحترام في نفوس الحكام الترك والمماليك ويحد من طغيانهم ثم فقدت - الآن - هذه الهيئة نفوذها على الحكام إلا قليلاً

هذا - وايم الله يا أقطاب الأزهر المعمور - كلام المستشرق (أدوارد وليم لين) وليس كلامي ولا كلام أي مصري واسألوا في ذلك الأستاذ عدلي طاهر نور. . .

وايم الحق إنه ليقطع أنياط القلوب أن نفرح بمادة الدستور التي تنص على أن دين الدولة الرسمي هو الإسلام ثم نغضي عن تنفيذ شرائعه وأحكامه حتى فقدت هيئتنا العلمية كلمتها المستمدة من نور الله ووحي الرسول (ص) إلا ما تقوم به من وعظ

إن مدنيتنا ليست في غير الرجوع إلى الوراء. فهل آن لنا أن نستبدل الوضعية بالسماوية، والغرض الأسفل بالطموح الأعلى، وعرض الدنيا بباقي الآخرة حتى تكون لنا سابق رهبتنا

على أني لا ألبث أن أرى سحابة منقشعة أمام شمس الأمل الضاحية حين أذكر أن في بلدنا مصلحين ومجاهدين يتكلمون ويعملون بقلوب مؤمنة وصدور تشع منها أقباس قدسية تبشر بمستقبل سعيد.

هذا هو الأستاذ الجليل الزيات يسلط - حتى على مجلته - إشعاعه الروحي الكريم، فيفرد منها عدداً للهجرة، ثم يقول قالته الكريمة: (ذلك محمد يا زعماء اليوم وهؤلاء أنتم، فهل تحسون بينكم وبينه صلة، أو تجدون بين سياستكم وسياسته مشابهة؟)

وهذا هو الإيمان يتفجر من قلب كبير، فينطلق فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر - وهو علم الدين المرفوع في أيامنا هذى - ويقرر أمام مولانا الملك المفدى ووزرائه أن القرآن تشريع محكم ودستور خالد، وأنه لا سعادة بدونه غير ما له من مأثور القول وسديد الجهاد، كلأه الله بالنصر القريب!

وهذه هي (الرسالة) الزهراء تقول بلسان أحد كتابها الأفاضل: (فلنتبع المنهج الذي ألف به الإسلام بين المسلمين، ولنطبق سياسته الحكيمة الرشيدة من جديد، فسترون المعجزة تتجدد، والرجاء يتحقق، والحياة تبسم لنا، والمجد يصافحنا، بعد عبوسها وجفائه)

وهذه هي (رابطة الإصلاح الاجتماعي) برياسة الدكتور هيكل باشا تقر في أول قراراتها أن (القرآن) تشريع سعد العالمين. . . الخ، ثم تطالب بالعمل به.

وفي إمامنا الأكبر والمعبرين عن شعورنا باكورة جهاد يتوالى بعدها الثمر داني القطوف، فنسعد حكومة وشعباً. . .

ولي إلى هذا الموضوع عودة، إن تفضلت (الرسالة) الغراء فسمحت. . . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

(المحلة الكبرى)

حلمي إبراهيم النبوي

في ميزان الشعر

يقول الدكتور إبراهيم ناجي في قصيدته (بين الشاعر والريح) في عدد مضى من الرسالة:

هي في الغيب لقلبي خُلقتْ ... أشرقت من قبل أن تشرق شمسي

فعلى تَذكارها أطبقتُ عيني ... وعلى موعدها وَّسدت رأسي

وفي البيت الثاني خطأ عروضي خشيت أن يكرره الشاعر في قصائد أخر، فيكدر ذلك من صفاء شعره. إذ البيت من بحر (الرمل) وعروض هذا البحر لا تكون إلا:

1 - محذوفة وأضربها ثلاثة: محذوف، صحيح، مقصور.

2 - مجزوءة صحيحة وأضربها ثلاثة أيضاً: مجزوء، صحيح، مجزوء مسبغ، مجزوء محذوف. فهذه أوزان ستة للرمل. . . وظاهر أن البيت من الوزن الثاني - محذوف العروض صحيح الضرب - ولكن الشاعر صح العروض هنا (. . بقتُ عيني: فاعلاتن) لأن الواجب أن يحذفها فتكون (فاعلاً أو فاعلنْ) لأن تصحيح العروض لا يجوز في هذا البحر

إلا يقع (التصريع)؛ وذلك إنما يكون في أول القصيدة.
أرجو أن تتفضلو بالإشارة إلى هذا، ولكم مني جزيل الشكر.
(جرجا)
محمود عزت عرفة
إلى الأستاذ علي عبد الله
إني معجب بكل ما كتبته حول مشكلة التعليم الإلزامي، وبدفاعك عنه دفاع الجندي في ساحة القتال.
أستاذي. أعرض عليك رأياً في التعليم الإلزامي خامرني من مدة طويلة راجياً تمحيصه على صفحات مجلة الرسالة الغراء أجمعت وزارة المعارف على أن نظام نصف اليوم من أسباب فشل التعليم الإلزامي وتبعها في ذلك كثير من الكتاب. وعندي اقتراح يكفل تحويل جميع المدارس إلى نظام اليوم الكامل بدون زيادة في الميزانية:
أولاً - يكون التعليم إلزامياً للبنين والبنات في جميع مدارس المحافظات وعواصم المديريات وبنادر المراكز.
ثانياً - يكون التعليم إلزامياً للبنين فقط في جميع مدارس القرى والفصول والمدرسون الموجودون في كل مدرسة كافون لتعليم البنين يوماً كاملاً.
ثالثاً - تقوم مجالس المديريات بترتيب القرى الواقعة في اختصاصها ترتيباً تنازلياً على حسب أهمية كل قرية من حيث عدد سكانها وقابلية أهلها في التعليم. وكلما وجد المال اللازم يبدأ بتنفيذ الإلزام على البنات وفق الترتيب المتقدم.
ومني لأستاذي كل تحية واحترام.
سليم الحجيري
مدرس إلزامي
تصويب
جاء في مقالي (عدد 438 من الرسالة) ما يأتي:
في ص 1432: والصواب:
وفيها: كما فرغت مصانعنا، والصواب: كلما فرغت مصانعنا وفي ص 1433 (في الهامش): من المصادر المعروفة، والصواب: من المصادر المعرفة.
وفيها: في المصدر قد يقع في موضع اسم الفاعل، والصواب: في أن المصدر. . . الخ
(أ. ع)
القصصُ
الصاحب والآلهة
لتشارلس جارفس
بقلم الأديب كمال رستم
وقف جاك كارلتون في ناحية من (الهملايا) يرقب رجاله وهم يقومون بتغطية السفح بالأكواخ الخشبية، فما عتم أن أحس بشعور الرضى تزخر به نفسه.
نزح جاك إلى تلك الأصقاع وفي رأسه مشروع كبير هو قطع الأدواح الباسقة القائمة في تلك الأجمة المترامية الأطراف وسط تلال الهملايا، وتصدير الآلاف منها إلى الخط الحديدي الممتد على ثلاثة الآف قدم من السهول الجنوبية.
وعلى مسافة قصيرة أسفل التل وقف رئيس عماله (رينجت سينج) وعيناه أبداً شاخصتان إلى سيده، وذراعه دوماً على أهبة الاستعداد لأن ترفع في أي وقت إشارة لآلاف الرجل الذين لا تكاد عيونهم تقع على شيء غيره، وكان لهذا الرجل تأثير غريب على أهل هذه البقعة بلا أستثناء!
وهو وإن بدت عليه آثار السن العالية كان رائيه يستملي فيه وداعة الطفل، ويستجلي منه قوة خارقة للمألوف؛ فيه شجاعة مدمرة لا تعرف الونى أو الفتور، ثم هو بعد أملس البشرة عدا شارب أبيض يحكي الجليد. وكان وقتذاك يرتدي ثياباً وطنية من صوف الماعز، وينتعل خفين من الشعر. ورنجت سينج هذا تجري في عروقه قطرات من الدم الملكي، فهو سليل جنس (الراجا) العريق في القدم الذي ينحدر رأساً من سلالات آلهة عاشوا على مدى الأجيال وسط صقيع (جانجوتريا) أرومة (الجانجوتريين) العظام، وكان طبعه وجملة مشاعره، تغلب عليها الروح الأوربية، وإن كان من العسير إن لم يكن من المستحيل على الفهم قبول ذلك. أما روحه فكانت تفيض بشاعرية

مرهفة، وأما قانونه فكان الانتقام، وهو متأثر في كل من طبعه وقانونه بهؤلاء الرجال الذين نصبوا أنفسهم لنشر عقائد (البوذية) و (الشاستية)! أما في روحه فقد كان يجنح إلى الذين وجدوا في طفولة العالم
وإن قلبه لينبض بحب اثنين في هذا العالم المملول: حفيده الطفل (سيكوندار)، وسيده كارلتون (الصاحب).
ولعل الجو في السهول السفلي لم يكن نقياً، حتى لقد غدا الغلام سقيما مدنفاً، فأذن كارلتون لجده أن يصعد به إلى التلال. . .
وكان (سيكوندار) جميلاً فاتن الجمال، ذا عينين نجلاوين تحكيان عيني غزال؛ وهو وإن فاض عليه الجمال الهندي الآسر فقد التمع في عينيه كذلك بريق الحدة التي لا تقف بصاحبها الهندي عند حد. . . وتعلق الطفل بكارلتون، فغدا لا يفارقه أينما ذهب. وكان جاك قد أعطاه دواء أفاده فائدة ملموحة، فعاده جماله العازب ومرحه الذي زايله حيناً.
. . وكان كارلتون يجلس إليه ويصغي إلى أحلامه وأوهامه وأقاصيصه عن مواطنيه القدماء وخرافاته عن الأحراج والأدغال. . . هذا وكارلتون لا يفتأ يفكر في فتاته (إيثيل).
. . .. . ولم يجحد رانجت الجميل الذي أسداه إليه (الصاحب) فأحبه وقدره
وفي هذه اللحظة التي بدا فيها حظ كارلتون معلقاً في كف القدر، كانت عينا سيكوندار اللامعتان مثبتتين في كارلتون. . .
!. . .وقد التمع فيهما بريق القلق. . . هذا وكارلتون منتصب القامة، مستيقظ الحواس وأخيراً، أصدر أمره، فهوت دوحة وانحدرت إلى أسفل المنحدر. . . ومن ثم إلى البحيرة على مسافة ثلاثة آلاف قدم. . .
وتبعتها ثانية ثم ثالثة. . . وأخذت الأمور تجري مجرى حسناً، فلمع بريق الرضا في عينيه، ولكن لفظ (الرضى) لا يؤدي مفهوم السعادة. . . كان (جاك) قد تأله في قلبه حب (إيثيل رين) وهي ابنة (ماجور) قتل في غارة من تلك الغارات التي يشنها رجال العصابات من حين لآخر. . . وكانت (إيثيل) في زيارة بعض أقربائها حين رآها (جاك) لأول مرة، فاستشعر في قلبه حباً لها. . . ولكن، من هو؟. . . ضابط غابة لا أكثر ولا أقل!. . . وإن حبه الصادق ليتخطى تلك الاعتبارات. . . ما لم تكن إجازته قد ألغيت فجأة، واضطر إلى الرحيل قبل أن يكشف لفتاته عن ذات قلبه. . .
وبعد شهر من رحيله تواترت الأخبار تحمل إليه نبأ زواج فتاته من (هيرسن) مقاول أعمال الخطوط الحديدية الشهير، وهو عصامي جمع من عمله ثروة طائلة، فأصبح بعد قادراً على أن يفرض حبه وقتما وحيثما شاء.
. . .ولم تكن (إيثيل) على علاقة طيبة بذويها، ولعلهم أرغموها على قبول هذه الزيجة عاد (جاك) إلى كوخه وخلع ثيابه، ثم أشعل غليونه وراح يفكر في فتاته. . . وهو وإن كان قد أقسم ألا يفكر فيها، فقد تداعت أفكاره بالرغم عنه، وتراءت له (إيثيل) في تلك الآونة في جمالها الآسر، وشعرها الأسود، وأهدابها الوُطف، وشفتيها الصارختين. . . تراءت له كما رآها آخر مرة حين قال لها: (إلى اللقاء). وأفاق من تأملاته على صوت (سيكوندار) يقول: ضيوف يا (صاحب)!. . .
فنهض من فراشه واتجه إلى باب الخيمة، فأبصر جماعة صغيرة تتخذ طريقها إلى التل، واستطاع أن يتبين من بين أفرادها رجلاً وامرأة من البيض
- أعد الشاي يا سيكوندار. . . قال ذلك وأسرع للقائها فقابلها عند منعطف الممر، فما عتم أن أخذ وأسقط في يده!
لم تكن المرأة غير (إيثيل رين)، كل، بل (إيثيل هيرسن) لأن هذا الرجل القصير البدين ذا العينين العكرتين والشفتين الغليظتين لابد أن يكون زوجها. . . وامتقع وجه (إيثيل) وتقلصت شفتاها، وأخذ كل منهما يحدق في وج صاحبه إلى أن بددت (إيثيل) ذلك الصمت هوم على المكان بقولها:
- أهذا السيد (كارلتون). إذن فأنت ضابط الغابة هنا؟
فأجابها بهدوء:
- نعم. . .
قالت:
- هذا زوجي ألح عليه المرض وأضناه، جاء إلى هنا يلتمس الشفاء بين التلال. . .
قال (هيرسن):

- لا أظن أن الجو هنا أشد برودة من جو الوادي. أيبعد معسكرك كثيراً من هنا؟ فأجابه جاك محاولاً أن يظهر سروره لرؤيته:
- كلا. لا يبعد كثيراً، ويعد من تحصيل الحاصل أن أذكر لكما أني مضيفكما على الرحب والسعة، وأننا لن نذخر وسعاً لأن نجعل زورتكما لطيفة بهيجة. والجو هنا صحو عليل آمل أن يفيد السيد، وكذا آمل أن يفيد السيدة، وأضاف الجملة الأخيرة إذ استملى من بشرتها
لمحة عابرة فإذا بها قد زايلتها حمرتها واستولت عليها بدلاً منها صفرة واهنة. وتبدت له جميلة يروعها الحزن فتفتن
أضافهما جاك في خيمته وقدم لشاي لإيثيل. أما هيرسن فقد تجرع سائلاً من زجاجة كانت معه. وقام جاك بدور المضيف على أحسن وجه، ووقف بنفسه على حقيقة مرض السيد هيرسن، فهو وإن لم يكن قد رأى الرجل قبل الآن فقد تواترت إليه الروايات الكثيرة عنه. وجاك خبير بقراءة الوجوه ودلالاتها؛ فالخطوط السود التي يقتم بها ما حول المآقي، والصوت الأجش الجاف، والنظرات المتكسرة الحزينة، إذا لم يكن كل أولئك من صنع الخمر، فقد يكون مظهر السيد هيرسون قد غبنه غبناً صارخاً
وفي اليوم التالي أمر جاك بإعداد (خيمة) ليقيم فيها ضيفاه وخدمهما؛ ولكن هيرسن طلب أن تضرب الخيمة في وسط أجمة كان في نهايتها معبد، فهي بذلك في نظر الأهلين أجمة مقدسة. فاضطر جاك أن يرفض الطلب، وعرض عليه أن يضرب خيمته في مكان آخر؛ ولكن هيرسن أصر على مكان يقع مباشرة تحت الأدواح الظليلة حتى يتفيأ ظلالها. وبذلك يكون قد شاء أحد مكانين. يقع أحدهما في خياله، ويقع الثاني في الأجمة المقدسة. وأخيراً رأى جاك فضاً للنزاع أن تضرب الخيمة بجانب لفيف من الأشجار
وغفا جاك في هذه الليلة إغفاءة بسيطة كالليلة السابقة وعمل بحق على مقاومة حبه القديم لعقيلة هيرسن، حتى خيل إليه أنه نجح في ذلك وقابلها وحدها في الصباح، وسألها عن هيرسن فأخبرته بأنه مريض، وعزت مرضه إلى وعثاء السفر، ولكن جاك لم يكن في حاجة إلى معرفة مرض زوجها بعد إذ رأى بعيني رأسه بالأمس صناديق (الويسكي) يحملها العبيد إلى خيمة هيرسن.
لم يدخر جاك وسعاً في إسعاد ضيفيه، فكان يصحبهما إلى النزهات الجميلة. على أن هيرسن لم يكن يجد لذة في مثل هذه الجولات، وكانت زجاجة الويسكي هي الشيء الوحيد الذي يبعث الضوء إلى عينيه الذابلتين، أما إيثيل فإنها لم تمل مطلقاً مشاهدة انحدار التل السريع إلى البحيرة الراقدة عند قدميه، ولم تضجر.
من محادثة الرجال، وسماع صوت الأشجار تهوى من شاهق، وأصوات العبيد تسري من فوق يرجع الفضاء دويها، ثم تأخذ في الضعف رويداً رويداً حتى تصلها رفيقة خافتة. وأخذت الطبيعة تحسر لها في كل يوم عن أسرار جديدة في الآجام وفوق التلال، وفي البحيرة السريعة الجريان. وكان جاك يصحبها في أكثر هذه النزهات، ويسير معها جنباً إلى جنب، إلا أن أحدهما لم يكن يذكر الماضي بكلمة واحدة. فكان جاك يحدثها عن مشاهداته في الهملايا، وكانت هي بدورها ترثي لحال زوجها وتأوى عليه. ولقد اعتاد أن يجلسا على أحد التلال الرئيسية تجري من تحتها الأنهار الجليدية على ارتفاع خمسة وعشرين ألف قدم. وكانت قمة التل شديدة البرودة، بينما كان النهر الذي يجري في أسفل حاراً شديد الحرارة! على أن الحرارة في وسط المنحدر كانت معتدلة! وكانت سهول الهند وكل مدنيات أوربا تبعد عن هنا كثيراً، فأقرب محطة إلى هذا المكان تقع على بعد مائتين وخمسين ميلاً، منها مائة ميل في مسالك جبلية وعرة، تكاد لا تسمح لحيوان أن يسير على طول حافة هاوية. . . وكان كارلتون الحاكم المطلق على هذه الغابات جمعاء. وكان عمله ينحصر في قطع أشجار (الدردار) ولم يكن يعكر عليه صفو حياته إلا صورة إيثيل تتراءى له بين الفينة والفينة؛ ولكن هاهي ذي إيثيل إلى جانبه، وهما ينصتان معاً إلى طائر (الكورلا) الأخضر يرجع تلك الكلمة الحبيبة: (أحبك) وهي الكلمة التي لم يفه بها لفتاته، والتي لا يستطيع الآن أن يفوه بها!
وكان سكوندار الطفل يصحبهما دائماً في نزهاتهما، وقد أحب إيثيل حباً جماً هي أيضاً، فكانت تسمح له بأن يجلس عند قدميها عندما تكون راقدة في فراشها، وتنصت إلى أقاصيصه التي لا تكاد تنتهي عن شجاعة الصاحب كارلتون. . .!

أما هيرسون فكان يبغض الطفل بغضاً شديداً
وفي ذات يوم صحب جاك إيثيل وزوجها ليريهما قرية مهجورة حلت عليها لعنة الآلهة، لأن رئيس قبيلتها جرؤ على قطع شجرة من أشجار الدردار المقدسة. . . وكان الموت عقاب هذه الجريمة؛ فمات رئيس القرية وفر الأهلون تاركين وراءهم القرية قاعاً صفصفاً!. . . وما إن سمع هيرسن هذا القول حتى أغرب في الضحك ثم قال:
- حقاً إن هؤلاء العبيد لتملأ الخرافات رؤوسهم، وإني لأريد أن أنزع عنهم بعضها. . . وكان ثملاً يلمع في عينيه الذابلتين بريق الدهاء والمكر.
ومرت الأيام في أمن وسلام، حتى كان ذلك اليوم المشؤوم الذي مر فيه جاك هو ورنجت
بخيمة هيرسن، فإذا بصيحة يتمثل فيها الرعب والضراعة تطرق آذانهما. وما لبث بعدها أن اندفع سيكوندار من الخيمة يتبعه هيرسن ثائراً صاخباً ممسكاً بهرواته. وكاد الطفل يفر من الرجل الثمل لولا أن اشتبكت سترته بصندوق فارغ من الويسكي، فلحق به هيرسن وضربه ضربة قوية جرى بعدها الطفل وهو يتلوى من الألم
فصاح جاك غاضباً: ما هذه القسوة يا هيرسن؟
وخرجت إيثيل في هذه الآونة واجفة القلب واكفة الدمع، وقادت هيرسن إلى داخل الكوخ في صمت وسكون
هذا، ورينجت سينج ساكن هادئ لا تنفرج شفتاه على كلمة، وإنما تآلفت قسماته على الإفصاح عما استسر في نفسه، وكاد الغضب يتطاير من عينيه ناراً. . . واعتذر جاك عن هيرسن، ولكن رنجت سينج ظل على صمته، ومضى تاركاً سيكوندار لجاك. . .
وفي الأصيل قابل جاك إيثيل وسارا معاً في الأجمة المؤدية إلى معبد الدردار في ذلك المكان المقدس. فقالت له بصوت هدجه الألم:
- لقد كنا عبئاً ثقيلاً عليك إلى وقت طويل يا جاك. . . إنما يجب ألا نقضي ليلة واحدة بعد هذه. . . نعم يجب أن نرحل ولكن جاك رجاها أن تمكث أسبوعاً، فقبلت بعد إلحاح.
وما لبث أن أقبل هيرسن عليها وقد عاد إليه شعوره وقال:
- آسف، فقد كنت فاقداً لصوابي يا كارلتون. . .
وحانت منه التفاتة إلى الأجمة فقال:
- إني لتعتلج في نفسي رغبة ملحة في أن أقطع بعض هذه الأشجار!
قال جاك:
- إقطع ما شئت من شجيرات التل، ولكن لا تمس أشجار هذه الأجمة بسوء.
فتساءل هيرسن بحزن:
- ولم لا تكون واحدة من هذه؟
فأجابه جاك قائلاً:
- لأن أشجار هذه الأجمة مقدسة يا هيرسن. أنسيت سريعاً قصة القرية المهجورة؟ . . .
فأغرب هيرسن في الضحك وقال:
- إنك خيالي يا كارلتون كهؤلاء العبيد. فما الذي يحدث لو أنني قطعت إحدى هذه الأشجار المقدسة؟
فأجابه جاك:
- يحدث أولاً أن يغادرني كل رجل في هذا المكان. . .
قال هيرسن هازئاً:
- وثانياً؟ . . .
أجابه جاك بهدوء:
- وثانياً هم يعتقدون أن الرجل الذي يجرؤ على مس إحدى هذه الأشجار المقدسة تحل لعنة الآلهة وتنقضي حياته بانقضاء حياة الشجرة.
فجرت على شفتيه بسمة ماكرة ثم قال:
- الحق أني أبغض أجمتكم العابسة هذه، وتركهما ومضى
كان جاك يتناول عشاءه حين طرق سمعه أصوات لا يمكن أن يخطئ في معرفتها. . . أصوات صاخبة ثائرة تنذر بشر مستطير آتية من الغابة. فنهض جاك واقفاً وأسرع إلى الخارج؛ فما عتم أن رأى الشعب الهائج الثائر في طريقه إلى الأجمة فتبعه، فإذا الأجمة وقد زخرت بالجموع الحاشدة التي راحت تتفرق جماعات هنا وهناك. وفي

إحدى هذه الجماعات أخذ القوم يضربون على صدورهم، ويذرون الرمل فوق رؤوسهم بينما تعالت أصواتهم إلى عنان السماء مهددة منذرة.

شق جاك طريقه وسط هذا الجمع الحاشد الذي أخذ يحدق في شيء مسجى على الأرض، وما لبث أن انجلى الموقف بوضوح! هناك على الأرض كانت ترقد شجرة من أشجار الدردار المقدسة هوت بها يد ملعونة، وإلى جانبها جلس رينجت سينج يكاد يتميز من الغضب. وللمرة الأولى لم يحي (رينجت سينج) الصاحب. فربت جاك على كتفه قائلاً: مر هؤلاء الرجال أن يعودوا من حيث أتوا يا رينجت سينج. فنهض الرجل واقفاً، وحيا كارلتون ثم رفع عقيرته آمراً القوم أن ينصرفوا. . وغادر الرجال الأجمة ورؤوسهم مطرقة إلى الأرض، وأيديهم لا تفتأ تضرب صدورهم! حتى غابت أصواتهم في الفضاء

عاد جاك إلى خيمته، وأخذ يقلب الأمر على جميع وجوهه. وأخيراً اقتنع بوجوب رحيل هيرسن في الحال، لأن كل ساعة يمكثها يعرض نفسه فيها لخطر ماحق. . . وتهالك على فراشه، ولكن الكرى نفر عنه فظل أرقاً مسهداً، وإنه لكذلك إذا بصوت من الخارج يقول: يا صاحب! يا صاحب!

فنهض من فراشه، ورأى أمامه إيثيل وسيكوندار

- أتريدني؟ قالت إيثيل ذلك، وقد امتنع وجهها وتقلصت شفتاها، والتمع في عينيها بريق مزيج من الحزن والرعب

- كلا. . . ولكن سيكوندار أشار إليه محذراً فاستدرك قائلاً:

- كلا لم أبعث في طلبك. قال سيكوندار:

- لقد غدا الصاحب مجنوناً، وأمسك بفأس يهدد بها من يقف في طريقه. قال جاك:

- أدخلا وسأذهب بنفسي لأراه

فتعلقت إيثيل بذراعه قائلة:

- كن حذراً يا جاك، فإنه كما وصف الطفل. فقال:

- خلي عنك مخاوفك

ومضى في طريقه صوب خيمة هيرسن، وما كاد يقترب منها حتى طرق سمعه صوت رهيب، كما لو كان ثقل هائل قد هوى من شاهق، وما نشب أن رأى مجموعة الأدواح التي كانت تظلل الخيمة تهوى بأجمعها عليها فتدركها دكاً. وصاح جاك مستنجداً، فخف إليه جمع حاشد يتقدمه رينجت سينج وقد جرت على شفتيه بسمة الفوز والغلب.

فصاح فيهم جاك:

- أسرعوا، وانظروا ما إذا كان الرجل هناك. وقد كان هناك، ولكنه لم يعد له ثمة مظهر من مظاهر الناس فقد سحقته مجموعة الأشجار سحقاً ورفع ريجنت سينج يديه إلى السماء وقال:

- الصاحب والآلهة! وأسرع جاك إلى مجموعة الأشجار ولكنه لم يجد أملاً في إنقاذ الرجل. أما كيف وقع هذا الحادث، فهذا ما ظل جاك يتساءل عنه إلى أن كل لسانه السؤال، فلم يكن ثمة إلا جواب واحد. . . (الصاحب والآلهة!)

(المنصورة)

كمال رستم

العدد 440 - بتاريخ: 08 - 12 - 1941

بعض الكلام في (مي)

بمناسبة الأربعين

وُلدت (ميّ) ثم ماتت كما يولد النهر من قَطْر السماء، فتربيه الطبيعة الهادئة الفسيحة، ثم تبعثه برسالة الحياة إلى حوضه، فيشق بالجهد والصبر طريقة الموحش في صخور الجبل وقفار الأرض وأصول الغاب؛ ثم يُلقي على شاطئ الوادي ما حمل من فضل الله، فيحيا المَوات، وتتجمع الخيرات، وتنشأ الحضارات، وتتآلف الملاحم، ويتكلم التاريخ؛ ثم يأخذ النهر مجراه بين الحقول الناضرة والمدن العامرة شادياً بالمال والجمال والحب حتى يذهب في عباب البحر كما تذهب الروح الطيبة في قضاء اللانهاية!

لن تجد (لميّ) في حياتها وموتها أقرب من هذا التشبيه. فقد كانت من خلال ما غشى الشرق

من الهمود والظلام قبساً من الحياة من يمسَسْه وهيجه وساء انتعش ما همد منه، واستنار ما أظلم فيه

كانت (ميّ) في حياة القاهرة ظاهرة من الظواهر العجيبة! والعجب فيها أنها كانت كممدوح المتنبي واحدةً من ناس دنياها وليست منهم: كانت جنساً من الخلق الجميل تميز بخصائص الجنسين، فكان فيه أفضل ما في الرجل وخير ما في المرأة. فمن كان يسمعها خطيبة في محفل، أو يشهدها محدثة في منزل، كان يحسبها - وقد استدارت على رأسها الأنيق هالة من السحر والفتنة - (قليوبَ) إحدى بنات (جوبير) التسع، وإلهات الفنون التسعة، قد سرقت من أخواتها أسرار فنونهن ثم هبطت من فوق (البرناض) إلى ضفاف النيل تجدد في الناس آي المسيح تميت القنوط وتحيي الأمل ومن يستطيع أن يحسب (ميّ) غير هذا وهي فتاة قد نشأت في عهد كانت المرأة فيه شيئاً من المتاع، ترى ولا تعلم، وتسمع ولا تفهم؛ ثم تحذق هي الكتابة والشعر والفلسفة والتصوير والموسيقى، وتتقن العربية والفرنسية والإنجليزية والإيطالية والألمانية والإسبانية، وهي لم تولد في قصر، ولم تتخرج في جامعة؟!

أبصرتْ (ماري زيادة) الدنيا أول مرة في (الناصرة) بلد المسيح، ومن هنا استوحى أبواها اسمها الأول على ما أظن؛ ثم أرسلت إلى منبت أسرتها في قضاء كسروان بلبنان، فثقفت طفولتها قليلاً في (عين طورة)؛ ثم هاجرة إلى مصر مع والديها، فتفتح صباها الغض على ماء النيل، وتفتق ذهنها الصافي على نسيم الوادي. وكان والداها إلياس يحترف الصحافة ويصدر (المحروسة)؛ فكان لها من عمل أبيها، ومن أصالة الملكة فيها، حافز سديد التوجيه إلى الأدب. ولكن أدبها على الرغم من نشوئه وبلوغه ونبوغه في القاهرة لم يتأثر بأدب مصر، وإنما تأثر في شكله وموضوعه بأدب لبنان. ذلك لأن الأدب اللبناني كان وحده في أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحاضر مظهر الحياة والجدَّة والتنوع في الأدب العربي الحديث. فبينما كان الأدب المصري يصدر عن الأزهر، والأدب العراقي يصدر عن النجف، والأدب السوري يجري على أسلوب هذين الأدبين، كان الأدب اللبناني يصدر عن مدارس تتسم بسمة الدين، ولكنها تعترف بوجود الدنيا؛ فهي تعلم العلوم الحديثة، وتلقن اللغات الحية، وتعتمد في أدب القلب على الإنجيل، وفي أدب اللسان على القرآن؛ فبيضت الكتب الصفراء، ورتبت المعاجم المشوشة، ونشرت الكتب المقهورة، ولقحت الآداب الأوربية، وكان من أثر هذا اللقاح النقد والترجمة والصحافة والتمثيل والقصص؛ وكان من ثمر هذا اللقاح طلائع هذه النهضة من آل اليازجي والبستاني والشرتوني وزيدان وصروف وشميل والريحاني وجبران ومطران؛ وكان لابد لمارى العربية أن تجنى ثمر الثقافة مما غرس الفرنسيسكان والأمريكان والمارون، وأن تقبس نور العروبة من الضياء والهلال والمقطف، وأن تناجى عنادلنا الغَرِدة في رياض مصر وخمائل لبنان ومنارة الدنيا الجديدة، وأن يحملها الاعتداد بجنسها ولغتها على أن نقتصر من أسمها الأعجمي على طرفيه ليكون منها اسمها العربي (مي). وعلى هذا النهج بلغت مي غايتها من الأدب والعلم والفن، فاستفاض ذكرها على الألسنة، وعظمت مكانتها في الأفئدة؛ ووصلت بينها وبين كثير من أولى الفكر والجاه أسباب من الروح، فكان صالونها في أيام الثلاثاوات كصالون الولادة بنت المستكفي منتجع الصفوة من أقطاب السياسة وأعيان الأدب، يعكفون على أصدق مثال للأناقة واللباقة والذوق في فتاة بارعة الظرف، تشارك في كل علم، وتفيض في كل حديث، وتختصر للجليس سعادة العمر كله في لفتة أو لمحة أو ابتسامة!

لقد كان لي ولصالون مي في أدب العصر آثار وسمات: ألهمت صبري، وأوهمت الرافعي، وألهبت جبران؛ ثم أخرجت من سواد المداد صوراً مختلفة الألوان متنوعة الأفنان أضافت إلى ذخائر الفكر الإنساني ثروة.

ثم تقدم العصر وطوت (مي) أكثر مراحل الشباب، فتنكر الدهر وتغير الناس؛ وورد أبواها متعاقبين حياض المنون فاستكانت للحزن، وأخلدت إلى الوحدة، فانفض السامر الأنيس، وانطفأ السراج اللامع، وانحدرت (مي) في طريق الوحشة والمرض والنسيان

إلى نهايتها الأليمة!
أما بعد فقد قال بشار لبعض جلسائه ذات يوم: ما سمعت شعر امرأة قط إلا أحسست فيه الضعف! فقيل له: أو كذلك الخنساء؟ فقال في لهجة الفطِن المحترس: تلك فوق الرجال!
ونحن نقول في مي مقال بشار في الخنساء، ونزيد عليه أن مي هي الأدبية الكاملة في تاريخ الأدب العربي كله! أما إجمال هذا التفصيل فله مناسبة أخرى.
(المنصورة)
أحمد حسن الزيات
مسابقة الأدب العربي لطلبة السنة التوجيهية
معرض الآراء الحديثة
للدكتور زكي مبارك
كلمة المترجم - كيف يقرأ الطالب هذا الكتاب - تنبؤات سياسية - غاية وطنية - ما هذا الكلام؟ - وما هاذ أيضاً؟ - التماسك في الأخلاق البريطانية - الغيرة على الريف - فكرة فلسفية - وثبة جديدة موضوعات الدرس - اختبار جديد.
كتاب ألفه لويس دكنسن، وترجمة محمد رفعت. ونشرته لجنة (معرض الآراء الحديثة) التأليف والترجمة والنشر، وهو يقع في 115 صفحة بالقطع المتوسط، وثمنه ستة قروش.
كلمة المترجم
لم يبذل المترجم جهداً في التعريف بالكتاب، ولعله أساء إلى المؤلف بالكلمة التي نص فيها على أن في الكتاب بعض المغالطات وبعض الخطأ في الآراء، فأنا أرجح أن المؤلف قصد تلك المغالطات وتلك الأخطاء، ليبين ما قد يقع في المجتمعات السياسية والأدبية من الانحراف، أو ليتخذ منها وسيلة للنقاش والجدال.
فعلى الطلبة أن يراعوا هذه الناحية وهم يدرسون الكتاب
وحدثنا المترجم أنه حذف عبارات لا يستسيغها الذوق العربي وليته لم يفعل؛ فإن الغرض من نقل المؤلفات الأوربية إلى اللغة العربية يشمل التعريف بما بيننا وبين الأوربيين من اختلاف الأذواق.
وأراح المترجم نفسه من ترجمة العبارات التي وُشِّيت بالتشبيهات والإشارة إلى الأساطير اليونانية في خطبة (فيفيان) لأنه (وجد أن كل عبارة من عبارته تستلزم شرحاً وتعليقاً طويلاً) وبهذا الكسل أضاع فرصة من فرص الترجمة، وهي إعطاء القارئ العربي فكرة عن اتصال التعابير الإنجليزية بالأخيلة اليونانية في بعض الشؤون فأرجو أن يلتفت المترجم إلى هذه الملاحظات في الطبعة الثانية.
كيف يقرأ الطلبة هذا الكتاب
أراد المؤلف أن يصور الاتجاهات السياسية والاجتماعية والأدبية في بلاد الإنجليز، بأسلوب يشبه بعض الشبه أسلوب أفلاطون؛ فأنطق ثلاثة عشر خطيباً بأقوال تلخص ما كان يعتلج في ضمير المجتمع البريطاني عند تأليف الكتاب، وبهذا صح له أن يسميه (معرض الآراء الحديثة) وهي آراء جماعة بعضهم من المحافظين، وبعضهم من الأحرار، وبعضهم من الاشتراكيين، وبعضهم من الفوضويين وفيهم الأستاذ والصحفي والشاعر والأديب ورجل الأعمال
والمؤلف يصور هذه الجماعة وقد اجتمعت في داره بالريف في ليلة من ليالي يونيه، وقد حملها القيظ على أن تسمر فوق السطح كما يصنع الناس في بغداد، وفي تلك السهرة تحدثت الجماعة بلا تحفظ ولا احتراس، فقال كل خطيب ما قال وهو في أمان، بدون أن يخطر في البال أن كلامه سيدون في كتاب خاص
ويمعن المؤلف في توكيد هذا الخيال الطريف؛ فيشرح كيف كانت الأحوال النفسية لأولئك الخطباء، وكيف كانوا يتبرمون بالجدل من حين إلى حين، كأن يقول على لسان أحد المجادلين: (لقد خلت الحلبة واختفت المقاعد الصامتة في جوف الليل وبدت في ضوء القمر الضعيف أشباح روحانية ترفرف على مشاهد خلافاتنا العارضة، وهذه الأشباح هي التي تقف من خلفنا وتسدد الضربات التي يلوح أنها تصدر عنا، فإذا ما انقضت آجالنا استنفرت هذه الأشباح خلقاً غيرنا للقتال والنزاع، وإذا سحب النسيان ذيله على أسمائنا أحيطت أسماء غيرها بهالات من المجد الفاني. فعلام إذن نقضي

الليل كله حتى مطلع الفجر في كدح وضجيج؟ إن سماء واحدة تضلنا، ونجوماً بعينيها تطلع وتغرب علينا، وليست آراء رمنهام إلا زبداً يذهب جفاء، وإن التيار ليجرف الجميع على سواء نحو القدر المحتوم، فلنتقابل ولو فترة قصيرة أمام قوته الصامتة الجارفة، ولنمد أيدينا لنتصافح في هذه اللحظة من وراء المنضدة).

فهذه لفتة أديب متوجع من إيغال أهل الفكر والرأي في الخصومة والعِداء، ولهذه اللفتة نظائر لا تخفى على القارئ وهي تشهد بروحانية هذا الأديب

وأرجع فأقول إنه يجب على الطالب أن يذكر أن المؤلف يجسم بعض الآراء عامداً متعمداً، ليصح له أن يناقشها بعد ذلك بقوة أو بضعف، ليصور اتجاه الآراء في بلاده أو ليصور اتجاهه الخاص، وإن كان السياق يشهد بأنه نزه نفسه عن التحيز لهذا الرأي أو ذاك.

تنبؤات سياسية

لم يحدثنا المترجم في مقدمته الوجيزة عن التاريخ الذي ظهر فيه كتاب (معرض الآراء الحديثة) ولم أجد من الوقت ما يسمح بتحقيق ذلك التاريخ، فقد كانت النية أن أقرأ الكتاب في القطار وأن أكتب مقالي عنه بالليل، حين أصل إلى أحد البلاد، ولكن رفيقي في السفر وهو الأستاذ محمد خلف الله شغلني عنه بحواره الطريف، فلم يبق إلا أن أقرأ الكتاب وأدّون ملاحظاتي عليه في وقت لا يتسع لما ضاق عنه وقت المترجم المفضال! وهل يطالب المسافر بما لا يطالب به المقيم؟

في الكتاب عبارة تدل على أنه أُلف قبل الحرب الماضية، لأن المؤلف يشير في بعض عباراته إلى (عاهل ألمانيا) وهو بالتأكيد رجلٌ غير هتلر، فهو غليوم الثاني.

وهنا يظهر ما في الكتاب من تنبؤات تصورها العبارة الآتية: (إني أرى المستقبل ينذر بالحروب وإشاعات الحروب ويُخيل إليّ أن هذه الأمة بنوع خاص قد أصبحت هدفاً لحسد شعوب أوربا وشرهها وكرامتها وأطماعها، وما ذلك إلا بسبب ثرائها وقوتها ونجاحها المنقطع المثيل. أرى هذه الشعوب تتطلع إلى الخارج تبحث عن منافذ لسكانها المتزايدين، ولكنها تجد أن الجنس البريطاني قد سبقها إلى احتلال كل ركن من أركان المعمورة، وأن الراية البريطانية تخفق على جميع جهات الأرض، ولكن أملنا الأكبر في المستقبل ينبعث من هذا الخطر الرئيسي، لأن بلاد الإنجليز لم تعد مقصورة على إنجلترا نفسها، بل إنها قد بذرت في كل قارة من قارات العالم بذوراً حية قوية ترجو أن تتعهدها بالعناية لكي تدب فيها الحياة، فيصبح كل منها عضواً نافعاً قائماً بواجبه في جسم هذه الإمبراطورية، بل إنني لأرى الروح قد أخذت تسري في هذه الأعضاء، وأعتقد أن المستعمرات البريطانية لن ينفرط عقدها فتسّاقط عنا تساقط الفاكهة الناضجة عن الشجرة، ولن تكون ممتلكاتنا غنيمة لغيرنا. وسوف تستيقظ الأمة عاجلاً أو آجلاً لتؤدي رسالتها الإمبراطورية وسوف تخفق معنا إخواننا الإنجليز من وراء البحار، ويكون الاتحاد الذي أتنبأ به هو اتحاد الشعوب البريطانية في جميع أنحاء العالم، اتحاد الإنسانية كلها).

فإن كان هذا الكلام قبل الحرب الماضية فهو عجب، وإن كان قبل الحرب الحاضرة فهو أعجب، وهو نفسه الكلام الذي يهتف به الإنجليز في هذه الأيام، والذي يستنفرون به أنصارهم في الشرق والغرب صباح مساء.

غاية وطنية

وهذه العبارة تدلنا على أن للمؤلف (غاية وطنية)، فهو يريد تنبيه قومه إلى ما يحيط بهم من أخطار بسبب تحاسد الشعوب الأوربية، ويحاول أن يخلق لبلاده عصبية في الأقطار التي تخفق فوقها الراية البريطانية.

ومع أن المؤلف لا يجهل أن أصطرع الآراء المتنافرة قد يعرض بلاده لأخطر المصاعب، مع هذا لا يفوته أن يعرض تلك الآراء بترفق وتلطف، وكأن لسان حاله أو مقاله يشهد بأن تلك الآراء ليست إلا نباتات بريطانية جديرة بالعناية والاهتمام، وإن لم يخل بعضها من شذوذ.

ما هذا الكلام؟

المؤلف حريص على ضرب الآراء بعضها ببعض، ولكنه يتسامح مع الخطيب الذي شرح مزايا الأمة الأمريكية، فما هذا الكلام؟ ولأي غرض قريب أو بعيد استباح المؤلف أن

يثني على الأمة الأمريكية بلا اقتصاد ولا اعتدال؟
لذلك أغراض:
الغرض الأول هو التعريف بحقيقة الأمة الأمريكية في مذاهبها المعاشية، وهنا يهتم المؤلف بتقرير ما عليه الأمريكان من احترام الواقع الملموس، وكأنه يدعو قومه إلى فهم هذا الجانب من الذهنية الأمريكية.
يقول الأمريكان: (دعونا نأكل ونشرب) يقولون ذلك وهم مؤمنون إيماناً قوياً صحيحاً، ولا يزيدون عليه ذلك القول المتبط السقيم (فإننا سنموت غداً).
ومع أن المؤلف ساق هذا الكلام مساق السخرية من الأمريكان فأنا أرجح أن له غاية في عرضه على مواطنيه، عساهم ينتبهون إلى تفاهة الاهتمام بالنظريات. الغرض الثاني هو الغض من قيمة المناقشات الدينية، وهي المناقشات التي بددت قوى الشعوب الأوربية في أجيال طوال
من رأي المؤلف أن الدين في أمريكا نبات طفيلي بلا جذور وان انتسابهم إلى المسيحية
ليس إلا وهماً من الأوهام، برغم ما تشهد الظواهر من تعلقهم بالدين.
الغرض الثالث هو حرب البلادة الممثلة في اجترار الماضي، فهو ينبه قومه إلى أن حرمان الأمريكان من الماضي الجميل في الآداب والفنون لم يحل بينهم وبين الظفر بالمكان الأول بين أقوياء الشعوب.
الغرض الرابع هو الحط من قدر الثرثرة الاجتماعية، فالأمريكان لا يفكرون في غير الابتكار والاختراع، ليكونوا أقدر الناس على غزو الأسواق بالمنتجات التي تسير التمدن الحديث. وهو اتجاه ظاهر النفع بلا جدال.
وما هذا أيضاً؟
أعطى المؤلف الكلمة لرجل أيرلندي فوضوي ليقول على لسانه وهو يعرض أحد الأناشيد: (هو أقوى تحدّ وجّه إلى إنجلترا بلادكم، البليدة الطبع، العقيمة الخيال، الضعيفة التصور)
ومع هذا لم يفته أن ينطق ذلك الخطيب بأنه لا يقصد إنجلترا بالذات، وإنما يقصد أوربا وأمريكا والعالم كله، فما معنى ذلك؟
معناه أن للمؤلف غاية نبيلة، هي إيقاظ العبقرية الإنسانية، وهي لا توقظ بغير العنف، ثم يقرر بلسان ذلك الخطيب (أن ما قام بالسيف لا يُمحى بغير السيف، وما أسس على العنف لا يقضى عليه بغير العنف) وينطلق فيقرر مرة ثانية بلسان ذلك الخطيب أن في العالم فوضويين لم يُلقوا خطاباً ولم يحملوا سلاحاً، وهم المحاربون بقوة الروح.
إن في العالم أشياء بلغت من الشر مبلغاً لا تصلح معه إلا للاحراق، وإن فيه عقبات (قد وصلت إلى درجة من الهول والضخامة لا يغني معها إلا النسف بالديناميت، وإن الهدم مقدمة ضرورية للخلق والبناء).
كذلك يقول المؤلف بلسان ذلك الفوضوي الأيرلندي، فهل نراه يتربص بالأمة الإنجليزية، هل نراه يدعو إلى العنف والعسف؟
لا هذا ولا ذاك، وإنما هو رجل يصور اشتجار الآراء في عصره بنزاهة وإخلاص.
ولكن ما غرض المؤلف من شتم إنجلترا بلسان أحد الأيرلنديين؟
له من ذلك غاية وطنية، هي وصف إنجلترا بسعة الصدر، وسماحة القلب، وإلا فكيف استباح أحد أبناءها أن يُنطق رجلاً ايرلندياً بأن النظام البرلماني في إنجلترا واهي الأساس؟
ما أتعس حظ عضو البرلمان حين يضطر لإعطاء صوته في مسائل لا حصر لها، ولا (يدري منها أولياتها، ولكنه يفعل ما يفعل إطاعة لأوامر رؤساء الأحزاب الذين تسيطر عليهم آلة حزبهم العمياء البلهاء! إن ذلك النظام يجعل من الشعب عبيداً مسخرين للنواب، ويجعل النواب مسخرين لرؤسائهم، والرؤساء مسخرين لآلة عمياء مجردة من الضمير. . .)
والمؤلف لا يثور على النظام البرلماني في كل وقت، وإنما يمنح فرصة الثورة على ذلك النظام لرجل أيرلندي، وهو يرجو أن يكسب بذلك عطف الأيرلنديين على الإنجليز، بأسلوب طريف، هو (تصعيد) ثورتهم المكبوتة على الأمة الإنجليزية.

التماسك في الأخلاق البريطانية

أشرت من قبل إلى أن هذا الكتاب يصور اشتجار الآراء بين جماعة من البريطان، وأذكر الآن أن ما فيه من صيال ونضال يصور حيوية التماسك في الأخلاق البريطانية، وللإنجليز (في بلادهم) أخلاق صحاح، وكلمة (في بلادهم) مستعارة من حافظ باشا عفيفي، والنص عليها واجب، لأن الإنجليز في نمير بلادهم معرضون للخطأ والانحراف، ويرجع ذلك إلى أن الإنجليزي بطئ الذهن وإن كان قوى الخلق، وهو لذلك. ينتظر إلى أن توجد الحجج التي يحكم بها لك أو عليك، وبهذا تضيع عليه فرص قد تعود وقد لا تعود.

وأقول إن (معرض الآراء الحديثة) ألفه إنجليزي مطمئن فهو يحاور ويجادل تحت ظلال الأشجار في الصيف أو بجانب الموقد في الشتاء.

أرجع إلى الصفحات التي تصور ما عانى المؤلف وهو يضرب الآراء بعضها ببعض في تشريح مذاهب الأحرار والمحافظين

أرجع إليه وهو يكاد يهتف بأن الكفر من الشرائع، وهو موقفٌ وصفه المترجم بأنه ينافي الذوق العربي، ولو أنصف لقال إنه ينافي الذوق الإسلامي، فما كانت العبارات التي حذفها المترجم إلا فناً من الكفر الملفوف، وهي مع ذلك ليست إلا تصويراً لما يساور قلوب المؤمنين في بعض الأحايين.

الإنجليزي يكفُر حين يشاء، ولكنه يكفُر كفُر الرجال لا كفر الأطفال؛ فهو يشرّح ما يجول بصدره من حقائق وأباطيل، ليعرف المصادر التي توحي إليه بالشك أو اليقين.

والذي يقرأ كتاب (معرض الآراء الحديثة) بدون إدراك هذا المعنى لن يكون له من فهمه غير أشباح وأطياف!

الريف، الريف

في الكتاب كلامٌ كثير عن الريف وسادة الريف، ومن ذلك الكلام ندرك أن الأمة الإنجليزية ترى الريف ملجأها الأمين، وقد تراه الأصل في مجدها الأثيل. وشعور الإنجليز بأهمية الريف يُخلق في كتّابهم ومصلحيهم فكرة العناية الموصولة بتجميل الريف والتألم لما يقع فيه من فقر أو عناء!؟

وهنا يلتفت المؤلف إلى سوء العاقبة، عاقبة الإسراف في تجسيم شقاء الريف بلسان أحد الخطباء:

لقد كنت أقرأ في أحد الأيام مقالاً من تلك المقالات المروّعة عن حال الزراع، ثم ذهبت بعد ذلك راكباً إلى الريف فتبين لي أنه لم يبلغ من السوء الحد الذي وصفه به الكاتب، ولا أعني بذلك أن حال الريف كلها كانت مما يسرّ له الإنسان، ولكنه رغم هذا كان مدهشاً حقاً؛ فقد رأيت خيلاً ضخمة يتدلى من جباهها شعرٌ أشعث، ترعى في المروج الخضراء، ورأيت ماشية تخوض في الماء الضحل، وجداول تحف بشطانها أشجار الصفصاف، وعصافير تزقزق، وقنابر وطيوراً أخرى مغرّدة. ورأيت بساتين الفاكهة ترتدي حلة من الزهر الأبيض النضر، وحدائق صغيرة اهتز ورقها وربا في ضوء الشمس الساطع وظلال السحب المارة فوق السهول، ورأيت الزارع الذي أفاضوا في وصف حاله وسط هذا كله، فلم أره بمظهر البؤس المجّسم كما يقولون، بل رأيته يفكر رأيته يفكر في خيله أو في عيشه وجبنه، أو في أطفاله يَحْبُون في الطريق، أو في خنازيره وديكته ودجاجه. ولست أظن بالطبع أنه يدرك ما في هذه الأشياء كلها من جمال، ولكنني واثق من أنه كان يشعر شعوراً مريحاً بأنه جزء من هذا كله، وأن حاله طيبة، ولم يكن قلقاً من حاله كما تقلقون من حاله. ولست أعني من هذا أن لا حق لكم في القلق، ولكني أعتقد من واجبكم أن لا تظنوا العالم كله شراً لا يطاق لمجرد (أنكم تستطعيون أن تصوروا عالماً خيراً منه).

غاية فلسفية

ونظرة المؤلف في هذا الموضوع نظرة إصلاحية، وهي تشهد بأن الإنجليز يعانون بعض ما نعاني من كثرة الكلام عن متاعب أهل الريف، وهو كلام يضّر أكثر مما يفيد، لأنه يزعزع طمأنينة الريفين، ويحرمهم الاستمتاع بما في الحياة الريفية من خيرات وثمرات.

ولكن للمؤلف من وراء هذا الكلام غاية فلسفية تمثلها دعوته الصريحة إلى الترحيب بالوجود في جميع مناحيه، ومن رأيه أن (الحياة نفسها هي المتعة، وهذه المتعة دائمة

في جميع العصور ولجميع الطبقات). ثم يندفع فيقرر أن (المثُل العليا لا وجود لها في الحقيقة) وهو بهذا يريد أن الحرمان من النعيم الموجود لا يعوَّض بالنعيم المنشود؛ ثم يقفز إلى أعلى أبراج الفلسفة الشعرية فيهتف (إني حين أغادر اجتماعاً أو أفرغ من قراءة مقال مروّع عن الإصلاح الاجتماعي أشعر كأن من واجبي أن أعانق كل شيء وكل شخص أقابله لمجرد أنه أحسن إلى العالم بوجوده فيه، أرى كأن من واجبي أن أعانق سائقي السيارات العامة والمركبات وأصحاب الحوانيت والأكواخ القذرة ومن فيها من الضحايا واللصوص. إن هؤلاء جميعاً في الوسط الذي يعيشون فيه يطفون فوق نهر الحياة العظيم الذي كان وجوده في الماضي والحاضر - وسيكون وجوده في المستقبل - مبرراً كافياً لوجوده مهما كان البلد الذي يجري فيه).

وهذه لفتة شعرية على جانب من الصحة والقوة، فإن التشكي الكثير من نظام الوجود ليس من علائم العافية، إلا حين يراد به خلق نظام جديد ميسور، لا تخيُّل نظام لا وجود له إلا في أذهان المتكلفين.

وثبة جديدة

ولكن المؤلف يثب بعد ذلك وثبة جديدة بلسان خطيب آخر فيقرر أن الإنسان في طور التكوين، وأن واجبه منذ هذه اللحظة أن يكوّن نفسه بنفسه، فقد سارت به الطبيعة إلى الحد الذي وصلت به إليه، فوهبته أعضاء جسمه وعقله ومبادئ روحه، وأصبح في استطاعته أن يكمل هذا الهيكل البديع أو يفسده إذا شاء.

فماذا يريد المؤلف أن يقول؟

يريد أن يجعل عبء الكمال فوق كاهل الإنسان لا كاهل الطبيعة (لآن الطبيعة لا تريد أن توجد إنساناً لا يستطيع أن يوجد نفسه، فإذا عجز هو عجزت هي أيضاً، ورجع المعدن إلى بودقته، وبدأت العملية من جديد، أما إذا نجح فنجاحه عائد عليه وحده، فمصيره إذن في يده هو لا في يد غيره) وهذه لفتة أخلاقية ساقها المؤلف على لسان أحد الشعراء، وتظهر قيمة هذه اللفتة لمن يتذكر الفروق بين الإنسان القديم والإنسان الجديد، فقد استطاعت الإنسانية بتطورها المستمر أن تصل إلى آفاق كان يعجز عن تصورها الخيال.

موضوعات للدرس

يظهر أن المقال لن يتسع للإلمام بما في الكتاب من العناصر الأساسية، فعلى الطلبة أن يراجعوا المسائل الآتية، ليواجهوا اللجنة الامتحان وهم على بينة من أكثر ما في الكتاب من أغراض:

1 - الفرق بين النظرة العلمية والنظرة الدينية: (راجع ص 52)
2 - هل تتدخل الدولة لتنظيم الزواج؟ (ص 53 و54)
3 - هل يستطيع الشعب أن يحكم نفسه؟ (ص 55 و56)
4 - تحرر الجيل الجديد من أوهام الجيل القديم (ص 57)
5 - بين العقائد والعواطف والعقول (ص 46 و47)
6 - نظرية المساواة دُرست في مكانين، فلأي غرض نوقشت هذه النظرية؟
7 - أنظر نقض فكرة الحرية في (ص 17)
8 - هل تستطيع الاشتراكية أو الفوضوية أن تغير الحقائق الأساسية؟ (ص 73 و74)
9 - هل تعيش الحكومات لأنها سرقت حقوق الناس؟ (ص 31 و23)
10 - الهجوم على التعليم الابتدائي والثانوي والعالي (54)
11 - وضع المترجم تذييلاً تحدث فيه عن بعض الآراء وبعض الأعلام، فانظر في ذلك التذييل، فقد يوجَّه إليك سؤال متصل بما فيه من المعلومات الفكرية أو التاريخية
12 - إن غام أمامك جوّ هذا الكتاب، فاقض ساعة أو ساعتين في درس كتاب (الإنجليز في بلادهم) لتعرف المشكلات التي تعرّض لها (دكنسن) بالنقد والتشريح، فالحكم على الشيء فرعٌ عن تصوره، كما قال القدماء

اختبار جديد

من المحتمل أكون عضواً في اللجنة التي تحكم في مسابقة الأدب العربي، فما السؤال الذي أوجهه إلى المتسابقين عند اختبارهم في هذا الكتاب؟ سأسألهم عن الفروق بن اتجاهات الخطباء من طريق العبارة والأسلوب

وأدلكم على الجواب فأقول:
عبارة (كنتلوب) تختلف عن عبارة (فيفيان) أشد الاختلاف، ولكن كيف؟ إليكم يوجه السؤال!
وعبارة (إلس) تغلب فيها المعلومات على الدراسات، فما سبب ذلك؟ فكروا قليلاً تجدوا الجواب! وبين أشخاص الكتاب خطيب دخل في شعاب غير شعاب مهنته الرسمية، فمن ذلك الخطيب؟
المفهوم أن هذا الكتاب يصور أصطراع الآراء في عهد المؤلف، فهل ترون أن إنجلترا كانت فيها مشكلات لم يتعرض لها المؤلف؟
أدلكم على الجواب فأقول: كنا ننتظر خطيباً يتحدث عن متاعب إنجلترا في المستعمرات، وخطيباً يتكلم عن أزماتها الروحية، وخطيباً يشرح خصائص الفرنسيين والألمان، على نحو ما صنع الخطيب الذي شرح خصائص الأمريكان
وقد مرّ المؤلف مرور الطيف على المعضلات التعليمية، فما سبب ذلك؟
اقرءوا حياة المؤلف، كما لخصها المترجم! تجدوا الجواب!
أما بعد، فهل ترون أنى دللتكم على أسرار هذا الكتاب؟
لم يبقى إلا أن تطلبوا أن أؤدي امتحان المسابقة بالنيابة عنكم، يا أشقياء!
وأنا والله حاضر، إن سمح وزير المعارف!
زكي مبارك
كيف يكتب التاريخ؟
للدكتور حسن عثمان
مدرس التاريخ الحديث بكلية الآداب
- 7 -
نقد الأصول
تحري نصوص الأصول وتحديد العلاقة بينها
نبحث الآن ناحية أخرى في نقد الأصول التاريخية. فلا بد المؤرخ قبل استخدام المعلومات التي ترد في تلك الأصول أن يتحرى نصوصها، وأن يتثبت من حرفيه ألفاظها وعباراتها سواء المخطوط أو المطبوع. وعلى المؤرخ أن يبحث هل كتبت هذه الأصول بخط المؤلف، أم أنها نقلت عن نسخه المؤلف الأصلية؛ وإذا كانت قد طبعت فهل طابقت مخطوطة المؤلف الأصلية؟ وألم يدخل عليها بعض التحريف اللفظي أو النقصان أو الزيادة الطفيفة سواء عن قصد أو غير قصد؟ وأنه ليتضح لنا أهمية تحري نصوص الأصول التاريخية وألفاظها عندما نجد أن مؤلف اليوم بالرغم من إمكانه مراجعة تجارب المطبعة بنفسه، فإنه قد تفوته بعض الأخطاء القليلة. وعمال المطبعة كثيراً ما يجعلون المؤلف يقول كلاماً لم يقصده بالمرة؛ وإن تغيير حرف بسيط في كلمه قد يغير المعنى رأساً على عقب.
ولقد ضاع الكثير من الأصول التاريخية ولم يبق إلا نسخ أو صور منقولة عنها. فهل هذه النسخ قد نقلت عن الأصول الأولى، أم نقلت عن صور لها؟ فينبغي أن يتأكد الباحث من أن النص الموجود أمامه يطابق الأصل الأول الذي وضعه المؤلف. وإذا وجدت أخطاء في النسخة - وهو الغالب - لا بد من محاولة تصحيحها بالرجوع إلى الأصل الأول، إن كان من المستطاع ذلك. وإذا ما اعتمد الباحث على نص منقول عن أصل أول، ويحتوي على أخطاء في النقل، فإنه يحمِّل المؤلف أموراً غير مسؤول عنها، وإنما المسؤول عنها الناقل. ومشاهير المؤرخين لا يتحرون دائماً صحة نصوص الأصول التي يعتمدون عليها. وحتى وقت قريب كانت تطبع الأصول التاريخية بدون مراعاة طرق النشر العلمي، سواء لتجنب المجهود أو للعجلة. إلا أنه قد حدث تقدم كبير في هذا الميدان المهم في الوقت الحاضر
والأصول التاريخية المخطوطة يمكن لأن نقسم من ناحية تحري النص وتحقيق اللفظ إلى ثلاث حالات. فالحالة الأولى هي أن يكون أمام الباحث الباحث الأصل الأول بخط المؤلف نفسه. ويمكن التأكد من ذلك بملاحظة نوع الورق والحبر وبدراسة خط المؤلف ولغته ومعلوماته من كتاباته الأخرى، إن وجدت. وبتطبيق ذلك على الأصل الموجود يستطيع الباحث أن يستفيد وهو مطمئن من هذه الناحية، من المعلومات التي يوردها هذا الأصل الأول، كما يمكنه أن ينشر هذا الأصل التاريخي لفائدة العلم. إنما

ينبغي أن يراعي عند النشر في كل الحالات، إبقاء الأصل الأول كما هو بحروفه وألفاظه وأجروميته وأخطائه الخاصة به، بدون تصحيح أو تعديل في النص نفسه. لأن أي تغيير قد يغير المعنى. وبقاء النص الأول كما هو يساعد الباحث على فهم تاريخ ذلك العصر المعين كما كان فعلاً؛ فيدرك الباحث عقليه رجال العصر وأساليبهم في التعبير، ويلم بتطور اللغة والاصطلاحات التي سادت في زمن مضى

ومن الأمثلة على ذلك ما أورده أحمد الخالدي الصفدي في كتابه عن تاريخ الأمير فخر الدين المعنى من ألفاظ وأساليب عاميه لبنانية محلية مختلطة بالتراكيب العربية، (سبق أهله وجاء حتى يعلم الأمير. . . فوصل بحال الليل إلى باب القلعة ودق الباب على البواب حتى يروح يعلم الأمير. . .). ومن الأمثلة على ذلك أيضا ما ورد في الفرمانات السلطانية العثمانية من التعبيرات الخاصة مثل (قدوة الأمراء الكرام، عمدة الكبراء الفخام، المختص بمزيد عنايت الملك العلام. . .). أو الوثائق المحفوظة في دور الأرشيف الأوربية والتي تحتوي على معلومات مدونة بلغة وأجرومية خاصة بالعصر الذي دونت فيه، مثل , في الوثائق الإيطالية؛ ومثل ألفاظ وو الواردة في الوثائق الفرنسية؛ ومما يخالف ذلك ألفاظ وأساليب ومصطلحات هذه اللغات في الوقت الحاضر. فإذا ما نشرت مثل هذه الأصول التاريخية ينبغي أن تبقى كما هي بغير تعديل.

والحالة الثانية في هذه الناحية من نقد الأصول، هي التي تضيع فيها نسخة المؤلف الأولى، ولا يبقى أمام الباحث إلا نسخة واحدة منقولة عنها. فدراسة هذه النسخة المنقولة الوحيدة للتثبت من صحة ألفاظها ونصوصها تستلزم الدقة والحذر. ومهما كانت دقة الناسخ وأمانته فإنه قد يتعرض للخطأ في النقل. وتوجد أسباب وأنواع للاختلافات التي يمكن أن تلاحظ

بين الأصل الأول وبين المنقول عنه. فقد تسقط ألفاظ أو جمل عند النقل من باب النسيان أو السهو، أو لعدم وضوح المعنى، أو للخطأ في قراءة بعض الألفاظ أثناء النقل، أو للخطأ في السمع إذا ما أملى على الناسخ ما يكتب. وبعض النساخ يغيرون ويعدلون الألفاظ التي ظنوا أنها وردت خطأ في الأصل الأولى، واعتقدوا أن من واجبهم تصحيحها.

والتغيرات الناتجة عن عمد أو عن خطأ في فهم النصوص من الصعب تحقيقها فضلاً عن كشفها. وبعض الفقرات التي تسقط قد لا يمكن التعويض عنها. ولكن من المستطاع معرفة الأخطاء التي تحدث عفواً أو سهواً، بملاحظة الارتباك في المعنى أو الخلط في بعض الحروف والكلمات، ووضع أحرف أو كلمات مكان أخرى، أو تكرار بعض المقاطع أو تكرار بعض المقاطع أو كتابة مقاطع بعض الكلمات مرة واحدة بدلاً من مرتين، أو الخطأ في تقسيم بعض الكلمات أو بعض الجمل. وكل هذه الأنواع من الأخطاء والتغييرات في النصوص الأولى والتي تحدث سواء عفواً أو عن قصد، قد قام بها الناسخون في كل اللغات وفي جميع الأقطار وفي كل عصور التاريخ.

وعلى الباحث في حالة ضياع نسخة المؤلف الأولى مع بقاء نسخة واحدة منقولة عنها، أن يدرس هذه النسخة ويعرف كل خصائصها من ناحية الشكل واللفظ والمصطلحات والمعلومات التاريخية؛ ثم يدرس حياة المؤلف ومؤلفاته الأخرى إن وجدت ويلم بأشهر الكتاب المعاصرين الذين تناولوا نفس الموضوع الذي كتب عنه. وتطبيق هذه المعلومات على النسخة الوحيدة المنقولة يساعد في أحوال كثيرة على تحري نصها وعلى التثبيت من صحة ألفاظها. ولقد حقق الدكتور أسد رستم مثالاً يوضح هذه الحالة. فهو قد وجد أن عدداً كبيراً من الأصول الأولى لمناشير إبراهيم باشا في سوريا قد فقد، وإنه لم يبق منها إلا نسخة واحدة منقولة ومطبوعة؛ مثل المنشور الذي أصدره إلى متسلم دمشق في صفر 1248هـ عن بعض حوادث اصطدامه بالعثمانيين والذي ورد في كتاب (مذكرات تاريخية بقلم أحد كتاب الحكومة الدمشقيين) ونشره الأب قسطنطين الباشا. ولاحظ الدكتور رستم أن بعض ألفاظه غير واضحة. فبحث طويلاً حتى وصل إلى سجلات المحكمة الشرعية في طرابلس، وعثر على منشور أصدره إبراهيم باشا إلى متسلم طرابلس ويحتوي على نفس المعلومات التاريخية؛ وأمكنه أن يستنتج أن ناسخ منشور إبراهيم باشا إلى متسلم دمشق قد أخطأ في فهم بعض الألفاظ فقرأ استغاثوا (استفاقوا) وحيث أن (حنان) وأغثناهم (غنامهم) وهكذا.

وعلى كل حال فإن النسخة المنقولة عن أصل أول مجهول قد تقاوم كل جهود النقد لمحاولة الوصول إلى ذلك الأصل الأول وصحيح أن النقد كثيراً ما يمكنه أن يحدد التغييرات والأخطاء في النص الوحيد المنقول، ولكنه كثيراً ما يقف عند ذلك دون أن يتخطاه إلى معرفة الأصل الأول. والباحث في التاريخ قد يبالغ في الشك في بعض النصوص التي تتغير لم تتغير على الإطلاق، ويناقش النصوص أكثر مما ينبغي، ويضع افتراضات مبالغ فيها. ويعتبر عمل الباحث في هذه الناحية نوعاً من الاجتهاد قد يصل إلى حد المغامرة.

والحالة الثالثة هي التي يضيع فيها الأصل الأول، وتبقى عدة نسخ تتشابه وتختلف فيما بينها، ولا تعرف الصلة بينها، ولا الصلة بينها وبين ذلك الأصل الأول. والباحثون السابقون كان عليهم أن يكافحوا للوصول إلى استخدام أول نسخة تقع في أيديهم، ومهما كان نوعها ومهما كانت صلتها بالأصل الأول ثم أخذ الباحثون يتجهون إلى استخدام أقدم نسخة موجودة، ولكن قِدَم تدوين نسخة ما لا يعني دائماً أنها أصح النسخ المنقولة عن الأصل الأول المجهول. فمثلاً مخطوط من القرن السادس عشر والذي ينقل عن أصل قديم ضائع من القرن الحادي عشر، قد يكون أكثر قيمة من نسخة أخرى نقلت عن ذلك الأصل الضائع في القرن الثالث عشر، وتحتوي على تغييرات وأخطاء في النص الأصلي. ولا شك في أن الباحثين المحدثين يمتازون عن سابقيهم في هذه الناحية؛ فهم يستطيعون أن يقارنوا بين النسخ المتعددة المنقولة عن الأصل الأول، فضلاً عن إمكان حصولهم على معلومات أفضل وأدق عن تلك النسخ وعن العصر الذي وجدت فيه، بقصد الوصول إلى النص الأول الصحيح بقدر الإمكان.

وفي هذه الحالة يعمد الباحث إلى تحديد النص الأول، أو أقرب ما يمكن إليه بالدراسة المقارنة، وعلى أساس التشابه والاختلاف بين النسخ المختلفة، وعلى أساس فهم لغة المؤلف وروحه والإلمام بعصره، كما سبق الإشارة إلى ذلك. ولنفرض بأنه لدى الباحث عشرون نسخة لمخطوط واحد، وأصلها الأول مفقود؛ وأن ثماني عشرة نسخة منها تتشابه نصوصها، ولنسمها مجموعة (ا) وأن نسختين منها تتشابهان ولنسميها (ب) فالأغلبية

العددية هنا لا قيمة لها، ولا تدل على أن نصوصها هي الصحيحة. فمن الجائز أن سبع عشرة نسخة من مجموعة (ا) قد نقلت عن النسخة الثامنة عشرة. ففي هذه الحالة تكون مجموعة (ا) عبارة عن نسخة واحدة تكررت في النسخ التي نقلت عنها. فيكون البحث موجهاً إذاً إلى تحديد أي النصين أقرب إلى الأصل الأول الضائع، هل هو النص (ا)، أم النص (ب)؟

ويلاحظ الباحث عند تحديد العلاقة بين النسخ المتعددة لمخطوط واحد، قاعدة شبه عامة، وهي أن النسخ المتشابهة التي تحتوي على نفس المعلومات واردة بنفس اللغة وبنفس الأخطاء، أما أن تكون قد نقلت عن بعضها البعض، أو أنها قد نقلت جميعاً عن أصل أقدم منها، أخذ عن الأصل الأول الضائع، ويحتوي على نفس المعلومات ونفس الأخطاء. ولا يعقل من الناحية السيكولوجية أن عدداً من الناسخين ينقلون مستقلين أصلاً تاريخياً معيناً ويوردون نفس المعلومات بنفس اللغة وبنفس الأخطاء؛ بل لابد من وجود فوارق مختلفة بينهم.

فعلى الباحث إذاً أن ينبذ جانباً النسخ المنقولة عن أصل واحد محفوظ، وأن يستبقي فقط وبقدر المستطاع النسخ الرئيسية المستقلة التي نقلت عن الأصل الأول مباشرة، أو التي نقلت عن أصل ثانوي معين منسوخ مباشرة عن ذلك الأصل الأول المجهول. وتقسم النسخ إلى جماعات وفصائل على أساس التقارب والاختلاف، والقرب والبعد عن الأصل الأول، إذا ما ثبت ذلك وأنه لأفضل دائماً أن يكون لدى الباحث عدة نسخ أخذت مستقلة عن الأصل الأول الضائع. ونلاحظ أن كثرة النسخ تتعب الباحث أحياناً بدلاً من مساعدته في العمل. وعند طبع الأصلي التاريخي، في هذه الحالة، ينبغي أن ترفق به في الهامش الاختلافات التي توجد النسخ الرئيسية الأخرى.

(يتلى)

حسن عثمان

آمال. . .

للأستاذ محمد محمد المدني

أخذت جماعة كبار العلماء تهتم بآمال الأمة المعقودة عليها، وتفكر في أن لها رسالة، وتنظر في الوسائل التي تؤدى بها هذه الرسالة.

أخذت الجماعة تفكر في هذا كله، وتهتم بهذا كله، فتؤلف له اللجان، وتضع له الخطط، وذلك على أثر الاقتراح الذي رفعه إليها حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمود شلتوت بعد انضمامه أليها.

وكان من آثار ذلك أن الأمة أخذت تلتفت إلى هذه الجماعة وتنظر أليها بعين الرضا بعد أن كانت تنظر أليها شزراً، أخذت تدرك فائدتها وتستبشر خيراً بنهضتها المباركة، ورجا الناس أن يغفر التاريخ لها ما ضيعت من عمر طويل يربى على الثلاثين عاماً، وهي تغط في نوم عميق هادئ متصل، لا تكدر صفوه الأكدار، ولا تقطع اتصاله واطراده حوادث الليالي والأيام!

من الظواهر التي تدل على التفات الأمة لهذه الجماعة، ورضاها عن هذه النهضة، تلك الرسائل التي جعلت تتري على رياسة الجماعة، وأعضاء الجماعة: فهذه رسالة تحمل معاني الغبطة والسرور، وتتحمس في التأييد والتشجيع؛ وهذه رسالة تحث على تعجيل البر بهذه الأمة في دينها وفقهها، وعقائدها وعباداتها، ونظمها ومعاملاتها؛ وهذه رسالة تشفق على هذه الأغراض النبيلة من اللجان، وما ألف الناس من تواكلها وتناقلها، وموت المشروعات النافعة على أيديها؛ وهذه رسالة تتقدم باقتراحات تراها جديرة بالنظر والتنفيذ، أو بالشكوى من عيوب مختلفة تريد لها الإصلاح والتقويم. . . إلى غير ذلك

لقد لمست الأمة إذن في هذه الجماعة معنى جديداً، وأحست روحاً سرى في أعضائها فسرت به (الآمال)، وتجاوبت له أصداء النفوس بالمطالب والرغبات، وأصبح الناس يتطلعون إلى هذه الجماعة لتنقذهم مما هم فيه، ويرقبون على يديها إصلاح كثير من شئونها في دينها ونظمها وثقافتها، فإذا كنا نهنئ الجماعة الموقرة بهذه الثقة العظيمة من الأمة، فإننا نحمد الله قبل كل شيء على هذه الظواهر الكريمة التي تدل على حسن اتجاه الأمة إلى هذا الدين، وتلمسها الأسباب للعودة إلى أحضانه، والعمل بمبادئه، والاهتداء بهديه.

إننا نحمد الله على ذلك، ونستبشر به خيراً، لأنه يدل على تأصل الروح الإسلامية في المسلمين، وعلى أن الأحداث لم تعبث بهذه الروح ولم تفسدها، وعلى أن الأمة لا تنتظر إلا القادة المصلحين، لتسير وراءهم غير مترددة ولا وانية، تحت راية القرآن الكريم!

من ظن أن رسالة جماعة كبار العلماء رسالة سهلة يسيرة، يكفي أن تتنبه لها، وتأخذ في أسباب أدائها، وتجمع لها لجنة أو لجنتين، وتعقد لها جلسة أو جلستين، فقد ظن عجزاً

ذلك بأنها رسالة يجب أن تتضافر عليها الجهود لأعوام وأعوام، وأن تحشد لها القوى المختلفة، كما تجند الأمم قواها للحروب!

وهي رسالة تحتاج مع القوة إلى الشجاعة في مواجهة الحقائق، والجراءة على الباطل الذي مد رواقه، وضرب بجرانه

وهي رسالة تحتاج مع القوة والشجاعة إلى الصبر والمثابرة والإخلاص للعلم والعمل والإنتاج.

ستنظر الجماعة في البدع التي شاعت وذاعت، وتغلغلت في أوساط العامة والخاصة حتى عد الناس كثيراً منها من الدين، وأصبح عزيزاً عليهم يدفعون عنه، ويغارون عليه.

ستنظر الجماعة فيما لنا من عادات تتحكم فينا وتفرض علينا سلطانها الجبار، وإرادتها القاهرة فنحافظ عليها ولا نتسامح فيها، وربما عددناها من شعائرنا وحسبناها من تقاليد ديننا، وزحمنا بها أنفسنا وأموالنا وحكمناها في مصائرنا.

ستنظر الجماعة في هذا وأمثاله لتقرر ما هو بدعة وما ليس بدعة، وتضع لذلك الأصول، وتضرب فيه للناس الأمثال، لعلهم يجتمعون على الحق، ولا يهيمون في أودية الباطل.

وهنا ينبغ أن تتجلى شجاعة العلماء، فما كان من خير أقروه، وما كان من شر أنكروه؛ أما الخوف من العامة ومجاملتهم أو ممالأتهم على العقائد التي يعتقدونها، أو العادات

التي يألفونها، وتأويل ذلك لهم على وجه له ظاهر من الصحة والقبول، فهذا هو الخطر الأكبر، ولو فعلته جماعة كبار العلماء لكان حكم التاريخ عليها قاسياً لأن التاريخ سيقول إن جماعة كبار العلماء قد سكتت عن رسالتها ثلاثين حولاً، فلما استيقظت لها جعلت تجاري أهواء الناس ورغبات الطوائف، ولم تجرؤ على هدم الباطل، فالتمست له المعاذير، وأفتت فيه

بالتأويل والتخريج! ستنظر جماعة كبار العلماء فيما جد من نظم الأمة في معاملاتها وقضائها واقتصادها، وسترقب الأمة آراءها وبحوثها في ذلك كله بقلوب واجفة لتعلم بأي روح سيمضي كبار العلماء في حل مشاكلها وإصلاح نظمها، أبالروح التي تدرك حاجات الناس، وظروف الزمان، وسماحة الشريعة، وابتناها على المصالح وعدم الحرج؟ أم بالروح الجامدة المقلدة التي تتقيد برأي فلان وفلان، وقواعد فلان وفلان، مما اصطلح عليه المصطلحون في زمان غير هذا الزمان، وفي كتاب الله وسنة رسوله منأى عنه، ومخلص منه، وتيسير عظيم؟

ستنظر جماعة كبار العلماء في تفسير القرآن، وما أدخلته الروايات المدسوسة عليه من إسرائيليات شوهت جمال القرآن وشغلت قارئه والمتدبر فيه عن العظة والاعتبار، لتنبه على ذلك كله، وترشد الناس إلى الصواب فيه، وربما وضعت تفسيراً وسطاً للناس تنفي عنه الدخيل والضعيف والمكذوب.

وهنا ينبغي أن ننبه إلى شيء آخر لا يقل خطراً عن هذه الإسرائيليات في الإساءة إلى تفسير القرآن: ذلك كثرة الروايات المأثورة في المعنى الواحد، أو في أسباب النزول. إنك لتقرأ الآية من كتاب الله فتراها واضحة لا غموض فيها، حتى إذا أردت أن تستظهر على معناها الذي فهمت منها بكتاب من كتب التفسير وقعت في بحر لجي لا ساحل له، ورأيت روايات مختلفة متعارضة وغير متعارضة، فلا تدري بأيها تأخذ، ولا بأيها تترك، فتعود من حيث أتيت آسفاً على ما أثارته في نفسك هذه التفاسير من شكوك.

وهذا معنى يشكو منه الناس مر شكوى، وخصوصاً ضيوفنا من البلاد الإسلامية، وفي بقائه صد عن القرآن الكريم وحجب عن نوره وهدايته.

وقل مثل هذا في (أسباب النزول) فليس من شك أن هذه الأسباب تفيد فائدة ما تجلية المعنى والإرشاد إليه، ولكن الروايات فيها قد تعددت في الموضع الواحد، وتضاربت، وربما أخرجت الآية أو الآيات إلى معنى سقيم يشهد الذوق السليم أنه لا يتفق وبلاغة القرآن وما له من عموم في الهداية والتشريع ولو شئنا لضربنا لذلك الأمثال ولكنه بحث مستقل نرجو أن نعالجه بعد حين.

فمن الخير إذن أن ينشر بين الناس تفسير تعتمده الجماعة يكون مع تنبيهه إلى الإسرائيليات خالصاً من هذه الروايات المتضاربة التي لا يعرف لها سند صحيح، ولا يقرها ذوق سليم وستنظر الجماعة في واجب الدفاع عن الدين، ورد المطاعن التي توجب إليه، والشبه التي تثار حول عقائده أو قواعده

وأول واجب في ذلك هو تبسيط العقائد، وتنقية علم الكلام ولو إلى حد ما من الفلسفة التي طغت عليه وعقدته وجعلته فوق مستوى العامة وكثير من الخاصة. ثم الرجوع إلى طريقة السلف الصالح في الإيمان بالغيب وما أستأثر الله بعلمه دون تدخل فيه أو تهجم عليه، فليس يضير المسلم ما دام مؤمناً بأصل الحساب والسؤال أن يلقي الله من غير أن يعلم بالتحديد: هل سترتفع الأرض بنصف الميت الأعلى ليجلس للسؤال أو ستنخفض بنصفه الأسفل. وليس يضيره أن يلقى الله جاهلاً بلغة الملائكة السائلين أهي السريانية أم غيرها، ولا بالموازين التي توزن بها أعمال الناس يوم القيامة: أمن حديد هي أم من نحاس؟ وهل لها كفتان تسع كلتاهما السماوات والأرض لو وضعت فيها أو هي على شكل آخر ما دام أصل الإيمان بالوزن والموازين كما ذكرها الله في القرآن موجوداً والاعتقاد به حاصلاً.

وستصدم الجماعة حين تقوم بواجبها في الدفاع عن الدين بفكرة التبشير، وستسلم - حين تدرسها عن كثب - بخطرها الشديد على ناشئة هذا الجيل والأجيال المقبلة، هذا الخطر الذي يسري في خبث وخفاء، كما تسري الصلال في رمال الصحراء، أو كما تسري الأمراض الخبيثة في الأجسام، هذا الخطر الذي يعتمد على الزمن، وعلى أخلاقنا الكريمة المتسامحة، وعلى تهاوننا في مدافعته، وعلى ثقتنا بمناعة هذا الدين وحصانته

سيلمسون بأنفسهم هذا الخطر، وسيقفن أمامه وجهاً لوجه، وسيرى الله عملهم ورسوله والمؤمنون، فإذا سوّغوا لأنفسهم أن يهادنوه أو يسكتوا عنه، أو يغمضوا عيناً على قذاه، مجاملة لهذا الرئيس أو مراعاة لهذا الحاكم، أو احتفاظاً بصداقة هذا الوزير، أو تسامحاً حين يكون التسامح تفريطاً لا يغتفر، فقد أضافوا إلي الخطر خطراً أشد، وقد أعانوا عدوهم على أنفسهم، ومكنوه من دينهم وعقائدهم، وبالله نستعيذ!

إن الإسلام دين حصين وإن له مناعة وقوة يستمدها من مبادئه الموافقة للعقول السليمة، والطبائع المستقيمة: ذلك حق لا مريه فيه، ولكننا إذا اغتررنا به، واستنمنا إليه لعبت بنا فنون الدعاوى وأثرت في شبابنا أفاعيلها الخلابة، وغررت بنا وسائلها الخادعة الفاتنة،

ويومئذ نرى السيل جارفاً، فلا نستطيع أن نقف في طريقه ونرى هذا المستصغر من الشرر وقد اندلع نيراناً حامية، تلتهم كل شيء وتأتي على كل شيء!

ستنظر الجماعة في هذا كله، وستصدم بهذا كله، فإن صبرت عليه، واحتالت له، وفرت له الجهود والقوى، ومسّكت فيه بأهداب الشجاعة، واستعانت على تذليل عقابه بالإخلاص والتضحية، كتب الله لها النجاح، وحقق الله بها الآمال.

وإن كانت الأخرى. . . لا! لا أقولها ولا أفرضها، فإني أرتاع من هولها وأشفق منها، وأسأل الله السلامة من شرها!

أما بعد: فهل آن أوان النهوض والتقدم، أو تلك آمال وأحلام يتعلل بها الراغبون في الإصلاح، وتتراءى لهم في عالم الخيال؟ وهل أحيلت هذه الرغبات والمقترحات إلى لجنة من الجماعة لتلبث قيد البحث والنظر أعواماً بعد أعوام حتى تصاب بالموت أو الهزال كما ألف الناس فيما يحول إلى اللجان؟

لا. لا، ومعاذ الله أن يكون ذلك هو الغرض، فإن على رأس الجماعة الموقرة رجل الإسلام المصلح الغيور على مبادئه الدين والخلق: الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي، فلولاه ما نظرت الجماعة في مثل هذه المقترحات، ولولاه ما دارت في نفس مقترحيها، ولولاه لتشكك فيها المتشككون، وشغب عليها أهل الفتنة، وابتلعتها لجج الجامدين!

وإن على رأس اللجنة التي تنظرها لرجلاً من رجال الأمة، يعرف فيه الناس العلم وصفاء العقيدة ورجاحة العقل والميل إلى مبادئ الإصلاح: ذلك هو المفتي الأكبر الأستاذ الشيخ عبد المجيد سليم.

فإلى هذين الرجلين العظيمين، وإلى أعضاء الجماعة الموقرة عامة تتوجه الآمال: آمال الأمة، وآمال الدين، وآمال الأزهر.

حقق الله الآمال.

محمد محمد المدني

المدرس بكلية الشريعة

ظاهرات نفسية

في مسرحيات محمود تيمور

للأستاذ زكي طليمات

مفتش شئون التمثيل بالمعارف

- 1 -

أصدر الأستاذ الكبير محمود تيمور مؤلفاً يتضمن ثلاث مسرحيات صغيرة هي: (الصعلوك) و (أبو شوشه) و (الموكب) مكتوبة باللهجة العامية، تناولتها الأقلام بما هي جديرة به من الاهتمام؛ لأن لتيمور بك اسماً نابهاً متفرداً بطرائقه في عالم القصص المصري، نُقل بعضه بأقلام كتاب غربيين إلى الفرنسية والإنجليزية والألمانية، وأثيرت حوله بحوث من جانب بعض المستشرقين المعنيين بالأدب العربي المستحدث. وفوق ذلك فإن تيموراً سليل بيت عريق في خدمة الأدب العربي والتبريز في مجلاته المختلفة.

بيد أن ما دبجته أقلام النقاد عن هذه المسرحيات الثلاث لم يتجاوز تسجيل مفاتنها الظاهرة، وذلك من حيث رشاقة الأسلوب، ورونق السياقة، وحبكة الوضع، ومن حيث الأغراض الاجتماعية التي تهدف إليها

والأسلوب وما يتبعه، والأغراض الاجتماعية وما يتعلق بها لا تعنيني بقليل أو كثير، لأنها

ليست حقائق خالدة؛ بل هي أشياء تغير لبوسها من عصر إلى عصر، وأوضاع تتحور وتتبدل، تتغير النظرة إليها بتغير المزاج الاجتماعي، وبتبدل الذوق البياني في التركيب الإنشائي وفي السياقة وبتحور الصيغ الفنية الخاصة بكتابة المسرحية؛ والإنسان في هذا - كما يثبت الاستقراء في التاريخ - يحرق اليوم ما كان يعبده بالأمس، ثم يعود فيعبد ما حرق!

فإذا صح لي أن أعني بمسرحيات تيمور - وهي طريقة جديرة بالعناية - فإن موضع اهتمامي سيكون مقصوراً على ما بتلك المسرحات من حقائق ثابتة لا تتغير. والثابت الخالد من الحقائق في العمل الأدبي أو الفني إنما هو ما يتصل بالنفس البشرية وما تمتد أعراقه في تربة الإنسانية. وذلك لأن النفس خالدة، والإنسانية وحدة قائمة متماسكة في كل زمان ومكان لا تتجزأ ولا تتقسم، والنفس والإنسانية في المسرحية يتمثلان في أبطالها وشخوصها من ناحية تقويمهم في أصدق تكوين نفسي لكل منهم

إن المتمعن قراءة هذه المسرحيات المستبطن دخائلها يطالعه شيء لابد أن يستوقفه برهة يخلد أثناءها إلى التأمل والمراجعة، ذلك أن أبطال هذه المسرحيات لا يجرون في الكشف عما في نفوسهم على سنة الوضوح التام والمنطق المنظم، وهو المألوف المتعارف عليه في الأدب الاتباعي والرومانسي والواقعي، وهو المتداول أيضاً في نتاج أدبنا العربي المستحدث ما عدا القليل النادر

أجل، إن أبطال تيمور في مسرحياتها الثلاثة يغمضون أو يلغزون أحياناً وقد يغلقون الإغلاق كله، وهم يعطون قولاً ما يعارضونه فعلاً، وهم يثبون وثبات نفسية لا تستقيم مع المنطق الظاهر المألوف، فيتراءون وكأن كل واحد منهم قد ركب فيه شخصان أو أكثر!!

هل لي أن أجشم القارئ مشقة استذكار هذه المسرحيات؟

لا، بل حسبي أن أستأذنه متفضلاً أمر التلويح له ببعض الشيء منها، مما لا غنى عنه حتى يستقيم هذا البحث.

لماذا مزق (دردير أفندي) - وذلك في مسرحية (الصعلوك) - رزمة الألف جنيه وهي كل سلاحه الذي ينيله ما يريده من (وحيده هانم) القينه الفاتنة؟

وهل يعقل أن صعلوكاً يعيش بين الخصاصة والكسب الطارئ يتلف ألف جنيه من غير ما سبب قاهر؟

ولما أحجم (مؤنس بك) وذلك في مسرحية (أبو شوشة) عن معاودة اتصاله بحسنية هانم معشوقته السابقة - وقد سنحت له الفرصة التي أخطأته فيما مضى، وقد وجد كل منهما في قلبه الميل نحو صاحبه؛ ما الذي يحجزها عن إحياء الماضي الجميل؟

وكيف تأتي أن فضل الله باشا - وذلك في مسرحية الموكب - يقول بشيء ثم يفعل غيره، وينهي عن أمر ويأتي مثله؟

ما حقيقة هذا المقنع الذي يخفى مسراه في نفوس هؤلاء الثلاثة ويظهر أثره سافراً في فعالهم؟ وهل حق أن الإنسان قد يبدو أحياناً وكأنما تسكن نفسه شخصيتان متناقضتان؟!

عن هذا الشيء أنشأتُ فصلاً طويلاً في العدد الماضي من هذه المجلة، أبنت فيه كيف أن علم النفس في اتجاهه الأخير أصبح يأخذ بما قرره العلماء والفلاسفة من أن كياننا النفسي الكامل يتألف من العقل الظاهر (الوعي)، ومن العقل الباطن (اللاوعي)، وأننا في تصرفاتنا خاضعون إلى التيارات الخفية التي تنطلق في واعيتنا الباطنة، وأن عقلنا الظاهر لا يستطيع أن يفسر اللوامع الخاطفة التي تبدر من هذه الواعية الباطنة، فتسلمنا إلى التناقض وإلى التعقيد، حتى نبدو وكأنما تعيش فينا شخصيتنا تتناقضان أحياناً.

على هدى هذا الاتجاه الأخير الذي يساير العلم في تقدمه، سنأخذ في نقدنا هذه المسرحيات من الناحية النفسية. وأغلب الظن أننا سنجد تفسيراً كافياً لتلك التعقيدات النفسية التي تتمثل واضحة ملموسة في شخصيات: (الصعلوك)، (مؤنس بك)، (فضل الله باشا)، إذا حاولنا أن نرد كل تعقيد نفسي فيها إلى حقيقته اللانهائية التي تتجاوز مناطق الذكاء وحدود البيئة والوراثة، ولم نعبأ بأعراض العقل الظاهر أكثر من أن

نتخذه دلالة ظاهرة لأشياء مضمرة، وتغلغلنا منحدرين إلى أعماق النفس ومتاهاتها، حيث تتحوى الغرائز وتنطوي على نفسها مكبوتة مغلولة، وحيث تصطخب تيارات خفية لا تتراءى على سطح الروح الذي قد يعدم هدوءاً ظاهراً.

لنبدأ بمسرحية الصعلوك

الصعلوك في مسرحية تيمور هو (دردير أفندي) وحكايته تبدأ بمجرد ما يقدمه المؤلف إلينا؛ فنراه يقتحم خدر الفاتنة (وحيدة هانم) وهي واحدة من بنات التفريط وأشباه الحرائر. يقتحمه بسلاحه المألوف وهو تصعير الخد والملق والاسترضاء بالدعابة وإثارة الفضول. وإذ يلمح الرضاء في عيني الفاتنة الحُوَّل ويستوثق من غبطة مزاجها يصارحها بأنه يحمل في جيبه أوراق نقد مالي قيمتها ألف جنيه ربحها بطريق اليانصيب، وأنه معتزم أن يهبها لمن ترضى أن تقضي معه ليلة حمراء تمنحه فيها أفاويق اللذة الحسية. إنه يخرج أوراق النقد من جيبه وبعدها فلا تلبث (وحيدة) أن تهب مدومة شباكها فوق رأسه في تلميح لا يخفى عليه، ويحس بأنه نائل منها ما عز عليه مناله من قبل. هاهي خمر (الشمبانيا) تطري حنجرة سيد الساعة، وهاهي (وحيدة) ذات الحول والطول بأناقتها وجاذبيتها قد تهيأت لتقدم له ما يبتغيه. الفرصة سانحة، والليل يستر العاشق ويبعث رواقد الأحلام، ولكن . . .

ولكن بدلاً من أن نرى (دردير أفندي) يهوى بذراعيه يعتق المعوقة المستسلمة ويروي ظمأه حسه منها، إذ به يأخذ بأطراف حديث لا علاقة له بجوهر الموضوع القائم بينهما: حديث خيالي عن الجمال وقداسته؛ والحرير الأبيض - شبيه خدها الناعم - ولطيف ملمسه، وكيف تنتهك حرمة نصاعته إذا تأتي أن يدب عليه ذكر خنفس أسود مهما كان يحمل هذا الخنفس على ظهره من كريم الجوهر الغالي؛ ثم لا نلبث أن نرى (دردير أفندي) يحطم الكأس التي في يده ويخرج الأوراق المالية من جيبه، وينهال عليها دعكا وتمزيقاً في ثورة صاخبة، يشتبك فيها الضحك بالبكاء؛ فلا تلبث وحيدة أن تنهال عليه بالشتائم والضرب وتطرده شر طردة لتستلقي بعد ذلك على وجهها وتشتهي بالبكاء في غيظ ثائر!

الآن نتساءل كيف بدرت هذه البادرة الغريبة من الرجل وليس فيما سبق منه ما يمهد لها أو يبعثها؟ كيف استقيظت هذه الخالجة الطارئة لتبدو في نطحة نفسية عجيبة؟ قد يقول قائل إنها الخمر التي أفقدته رأسه وأسلمته إلى هذا الهذيان؛ ولكننا نقول - دفعاً لهذا التعليل - إن الرجل متمرس بالخمر يصمد لحمياها كما تشير إلى ذلك حياته السابقة. وفوق هذا فإنه لم يحتس من أخف أنواعها - وهي الشمبانيا - غير أربع كاسات!!

قد يقول قائل - والقائل بهذا أحذق من الأول -: إن الرجل لابد أن يكون عنيناً هامد الحس فافتعل هذه الفعلة يفتدي بها فضيحة. وفي دفع هذا التعليل نقول إن المؤلف لم يشر إشارة صريحة أو غير صريحة إلى هذا الأمر.

إذن ماذا!

فلنحاول أن نرد دردير أفندي هذا إلى حقيقته

هو - كما رسمه المؤلف - واحد من ذلك الصنف الإنساني الذي أعرفه (دردير أفندي) باسم المفلس الطروب. هو الرجل فقير بجيبه غني بنفسه، حبته الطبيعة القلب الكبير والحس المرهف، ولكنها لم تحبه الحظ المادي الذي يجعل حياته تستقيم على ما تقتضيه كرامة حسه وقلبه. هو جواب ذليل لآفاق الترف والنعيم لا يأخذ منها غير ما يؤذن بأخذه لكلب مدلل أو قط مرموق. بل هو أدنى مرتبة من ذلك. إنه مسخ يتفكه بنفسه كما يتفكه به الناس من أهل اليسار وفي مقدمتهم معشوقته (وحيدة). وأعجب من هذا أنه يحس بكل شيء فيه، فهو الضحكة الذي يعي موضع الفكاهة والسخرية فيه، وهو الصعلوك المؤمن بصعلكته. مثل هذا الشخص يحب العالم ويمقته في آن واحد. يحبه بعقله الظاهر، فتراه متهالكاً على ملاذه بقدر ما لديه من وسائل محدودة. وهو يكرهه بدافع شيء آت من وراء الوعي. لأن هذا العالم قد أذله وحرمه ما تتوق نفسه إلى اجتنائه دائماً، فتراه يسخر؛ وإذا هبط عليه شيء من المال بطريق الكسب الطارئ - سباق، ميسر، يا نصيب - لم يتوان عن القضاء عليه بالإنفاق السريع المتلف، وكأنه بدافع لا شعوري يثأر لنفسه من المال الذي يطول دائماً ارتقابه إلى مجيئه، وكأنه أيضاً، وبنفس الدافع

اللاشعوري يلتمس التمتع بمظاهر الفخفخة والعظمة المادية التي حرمها بمجرد أن تصل إلى يديه وسائلها، وهي المال. فهو يلقي به إلى البوار من أجل متعة عابرة بها، هو يفعل كل هذا لأن عقله الباطن متشوف تشوفاً مكبوتاً إلى هذه المظاهر. ولعل هذه الظاهرة النفسية العجيبة تفسر لنا بعض ما نلحظه كثيراً في سلوك معوزين وفقراء يحبوهم الحظ السعد في لحظة بمال غير قليل فنراهم يتلفونه إسرافاً وتبذيراً بدلاً من أن يقيموا عليه ويتدربوا في صرفه. هذه هي حقيقة (دردير أفندي) بكامل كيانه النفسي، أي بعقله الظاهر وبعقله الباطن. . .

بعد هذا، ألا يرى القارئ معي أن هذه البادرة الغريبة من جانب (دردير أفندي) في إتلافه المال الذي يملكه وهو واقف أمام معشوقته إنما ترجع إلى أمرين مأتاهما العقل الباطن: الأول يقظة الثأر من الحرمان الذي يكابده في المال وما يجره من أسباب المتعة، وهي يقظة جامحة تستنفد كل مدد في العناصر التي تتاح لها حتى تقضي على نفسها وعليها. فالمتعة لا تستقيم في نظره إلا إذا استنفدت كل معينه من الوسائل المادية، فيكون قد جرى، فيما أتاه، على مألوفة في مواقف سابقة تحدث عنها في الرواية وكلها تشهد بأنه قد ألف القضاء على كسب طارئ من غير مبرر معقول!!! والأمر الآخر انتفاض خالجه هامدة ارتفعت فجأة من أعماق الغرائز، وقد تهيأت لها الظروف، فأراد أن يثأر لنفسه من الذل الذي فرضته عليه هذه الغانية (وحيدة)، هي ودنيا الغني اللتان دأبتا على أن تتخذا منه ضحكة وبهلولاً!!

وقد يتساءل القارئ كيف ثأر (دردير أفندي) لنفسه من (وحيدة)؟ والجواب واضح لا يحتاج إلى تبين لأنه واضح في سياق المسرحية.

ونعود فنقول: أتى هذا الرجل كل هذا، وخرج على العقل والمنطق وهو لا يشعر، لأنه إنما كان مسيراً بعقله الباطن الذي تكمن فيه الغرائز مكبوتة بفعل المختلق من الأوضاع الاجتماعية أو بضغط الظروف القاهرة. وما حديثه عن الجمال والحرير والخنفس إلا صدى ما ركبه عقله الظاهر، وهو عقل لا يملك إلا التكييف السطحي لتصرفاتنا وانتحال الأسباب وفاقاً للمنطق. كما أن الحديث نفسه هو وسيلة المؤلف للتعبير والتعليل وأداته للإيضاح، وهو يحاول متعثراً أن تنشئ علاقة بين هذه البادرة الباطنية الغامضة، وبين الواضح والمعقول في أقوال وأفعال (دردير أفندي)

ولابد من الإشارة إلى أن المؤلف أطال في تعليل وتفسير هذه البادرة أو هذه العقدة النفسية، لأنه نحا في هذا نحو الكتاب الرومانسيين كما يتضح ذلك في بحثنا السابق عن اتجاهات علم النفس في مراحل المسرحية.

نعم إن تيمور صاغ مسرحيته على أساس الرومانسية، فلم يكن له بد من أن يجري على شرعتها في تفسير العقدة النفسية، وهو في هذا قد أحسن التمهيد لهذه العقدة، وذلك الانطلاق الغريزي في ناحية من نواحي النفس بأن جعل (دردير أفندي) يحتسي خمراً، والخمر تساعد على إيقاظ هوامد النفس وانطلاق الرابض المكبوت في أعماقها، وتعمل على إسقاط القناع الذي تخفى النفس وجهها الأصيل وراءه.

وليس في جرى (تيمور) على سنة الرومانسيين في إنشاء مسرحيته هذه ما يسلب شخصية الصعلوك طرافتها من الناحية النفسية، إذ أن شخصية (دردير أفتدي) عريقة في إنسانيتها تحيا بيننا ونحس بها، هي أنموذج بشري طريف سجل سماته قلم تيمور في عالم المسرحية المصرية.

(للحديث بقية)

زكي طليمات

الحرب والطبيعة البشرية

للأستاذ محمد أديب العامري

لا يظهر للقارئ من الكلمة التي أرسلها الدكتور محمد حسني ولاية أن نزعتان جنسيتان، مع أن ذلك هو خاصتهما كنزعتين؛ وإنما يظهر له أن هاتين النزعتين صفتان في البشر عامتان فقط، وأنهما تكتمان آناً وتبدوان آناً آخر على صورة مصطنعة وفجائية.

وربما كان الدكتور ولاية يحب أن يورد النزعتين مردودتين إلى أصلهما البيولوجي، ولذلك كان ما يمكن أن يفهم قارئوه من السادية أنها نزعة تعني (أن يهدم الإنسان

سواه ليخلو له الجو ويستأثر بالحياة. . . أما الماسوشية، فتعني أن يهدم الإنسان نفسه).

في نظر الدكتور أيضاً (إلى أن يكبت الرجل شطراً (ويؤدي العرف في أوقات السلم) من ساديته لينسجم مع المرأة والبيئة، أما في زمن الحرب فتتحكم السادية في العقل الواعي، وحينئذ يتحكم الحيوان الرابض في الأعماق. . . وحين تسير الجيوش لملاقاة العدو يتناسى كل جندي شخصيته، ويعود إلى ماضيه الفطري، ويعمل كما كان يعمل آباؤه الأولون، وهو في هذه الحالة وهذه الإرادة البشرية الأزلية. . .)

وهذه التعاريف والاستنباطات القطعية التي تحمل طابع العلم الذي يؤمن به الناس اليوم ويخضعون له كانت تكون يسيرة الخطر لو أنها - على ضعف مبرراتها - لا تنتهي إلى تثبيت فكرة الويل والدمار والهلاك الرانية على قلب العالم؛ فلا يمكن أن يفهم قراء الدكتور ولاية إلا أن الحرب على شكلها الحاضر متصلة بنزعات عميقة، وإلا أن المحارب يشتق نفسيته من هذه النزعات المتأصلة؛ ومن هنا بطبيعة الحال ستسمر الحرب هكذا، بل وتشتد جيلاً بعد جيل إلى ما شاء الله!

والذي أرى هو غير هذا في المقدمات وفي النتائج

فالسادية والماسوشية - كما يرى كرافت إبنج وفرويد وغيرهما - إنما هما نزعتان متصلتان بالجنس مباشرة كما سبق أن أشرنا، وإنهما في حالة بروزهما تعتبران انحرافاً جنسياً - أي نوعاً من أنواع الضعف التناسلي - ويعتبر لخت أن عدم وقوعه على إشارات سادية وماسوشية في المصادر الأدبية اليونانية يدل على أن حياة اليونانيين كانت حياة صحية (يقصد الحياة التناسلية)

أما تصوير هاتين النزعتين كأنهما دافعان أساسيان للحرب والقتل الدائر اليوم أو مثله، فليس له مبرر؛ ولكن الذي له مبرر فيما يظهر هو أن الأصول البيولوجية لهاتين النزعتين ترجع إلى (الحاجة إلى التغلب على أية مقاومة يبديها الهدف الجنسي، ولا تجدي معها حركات المداعبة). وهو تعليل بسيط قريب الصلة بالمظاهرة التي نحن بصدد الكلام عنها.

اجل، ترتد النزعتان في نظر بعض العلماء - وهذا إذا تعمدنا تعمقاً أشد - إلى شهوة أكل الإنسان اللحوم البشرية (أي خدمة غريزة حب السيطرة)، ولكن هذا مشكوك فيه كثيراً كما سيتضح الآن

ومهما يكن من أمر فالمرد الأساسي للسادية والماسوشية غير مؤكد الآن، ولذلك يرى (فرويد) أن التفاسير الموضوعة لأصول هاتين النزعتين غير كافية، وانه من الممكن أن تكون هنالك دوافع نفسية عديدة ومتحدة لتكون هاتين النزعتين

وليس صحيحاً أن يقف الناس عندما انتهى إليه فرويد أو غيره من الثقاة؛ ولكن الدكتور ولاية يقول بأن (كل إنسان - رجلاً كان أو امرأة - يحمل نزعة السادية متوازنة مع نزعة الماسوشية). وهذه بالطبع حالة الإنسان العادي. ويقول هفلوك إليس أيضاً إن (جميع حالات السادية والماسوشية تبدي آثاراً من النزعتين في الفرد الواحد نفسه).

وواضح من اجتماع النزعتين دائماً في فرد واحد أن وجودهما معاً لا يمكن أن يعزي إلى شهوة العدوان، ومن ثم غريزة حب السيطرة (دع عنك القتل الإجماعي - الحرب) لأن هذا التأويل إن وضح للسادية فلن يوضح الماسوشية، إلا إذا قلنا إن الإنسان يشتهي أن يقتل نفسه، وهذا يغاير ما تنزع إليه غريزة البقاء، التي لا يرتاب في أصالتها وسيطرتها وشمولها

وإذا كانت الحرب تطوراً للسادية فماذا ترى يكون تأويل دخول المرأة في معترك الحروب اليوم؟ وإذا استمرت الحرب أزمنة طويلة قبل أن يكتشف الناس غباوتهم فيها - فلا ريب أن المرأة ستسير جنباً إلى جنب في الحرب مع الرجل. فهل تصلح الماسوشية، وهي النزعة المتغلبة في المرأة، تأويلاً لمظهر هذه الحرب أيضاً؟

وخلاصة ما أريد أن أقول هو أن هاتين النزعتين كما نعرف هما اليوم جنسيتان، وأن أصولهما غير مؤكدة. على أنه مهما تكن هذه الأصول فمن المؤكد أنها أصول لا تمت إلى

الحرب الإجماعية بسبب

وإذا كان العدوان أصل السادية فإن ذلك لا يعني أن تتطور هذه النزعة في اتجاه العدوان متضخمة. إذا تضخمت السادية كانت انحرافاً جنسياً. ذلك نعلمه بالتأكيد.

وهفلوك إليس، وهو ممن أكبر ثقاة المسألة الجنسية، يرى أن (القتل الإجماعي بالحرب ليس طريقه اجتماعية غير ملائمة لدور الحضارة الحالية فحسب، بل إنه على الإطلاق لا أساس له في العالم).

وارجح الرأي أن الدكتور ولاية يفرض أولاً أن الحرب شيء أزلي أو يتفق مع الطبيعة البشرية ثم يمضي ليجد الأسباب العلمية لهذا الغرض. ولما لم تكن الحرب في شكلها الحاضر شيئاً يتفق مع الطبيعة البشرية، ولا مع درجة الحضارة الراهنة للبشر، على أقل تقدير، فإن أية محاولة لإقامة هذه الظاهرة - الحرب - على أساس علمية تكون اصطناعية

إن من السهل أن نلاحظ أن الجندي لا يذهب إلى ساحة الحرب راضياً، وإنما يدفع إليها دفعاً. فإذا ضحى فيها لم يكن عدوانه إلا مظهراً من دفاعه عن نفسه. إنه إن لم يقتل من يواجهه فهو مقتول لا محالة. فقتل غيره هو أضمن السبل لخلاص نفسه. وواضح أيضاً أن الجندي يحب في كل وقت من أوقات الحرب أن يُسرّح ليعود إلى أمنه وطمأنينته، سواء أكان الجيش الذي يحارب فيه مغلوباً أو منتصراً.

إن الحرب الإجماعية على شكلها الحاضر لا تتصل بالنوازع البشرية أو بالغرائز، وإنما تقوم لمصلحة أناس محدودين ضاق نظرهم وتكمن الخوف من نفوسهم. وتشمل هذه المصلحة الدوافع النفسية الملتوية والدوافع المادية على السواء. إن سواد الجنود يحارب لغير دافع من نفسه، فالقتل للقتل صفة غير معروفة. والدكتور ولاية يرى هذا فيقول إن الجندي عندما ينعم النظر في (وعي ذاته ويشعر بأنه شخصية قائمة بذاتها لا تستطيع روحه الاندماج مع الروح التي تقود زملاءه الجنود إلى التلاحم). وهذا القول يقرر أن الوعي البشري مخالف لروح الحرب التي يظن القارئ لمقال الدكتور أنها أزلية فتستمر ابد الدهر مستمدة نفعها من أعماق الطبيعة البشرية.

(السلط)

محمد أديب العامري

قيمة الحرية

للصحافي العالمي ويكهام استيد

بقلم الأستاذ زين العابدين جمعة المحامي

من الممكن عندي صياغة جميع المسائل المتعلقة (بقيمة الحرية) في أسئلة ثلاثة:

1 - هل الشخصية الحرة كعنصر من عناصر الحياة البشرية أنبه شأنا وأعز جانباً وأنفس قيمة من تلك الشخصية التي تنطبع وتتشكل وفقاً لمشيئة قائد أعلى حاكم بأمره في مصادر وموارد الدولة الاستبدادية المطلقة؟

2 - هل يتوقع لإرادة الفرد الحرة أن تخطو بمصالح البشر إلى الأمام أكثر مما يتوقع لإرادته التي تدرج من المهد إلى اللحد على منهج موضوع يصيرها خاضعة لكلمة القيادة العليا خضوعاً غبيا ومطيعة لها طاعة عمياء؟

3 - أليس هنالك من ضرر يتهدد الجنس البشري، ومن خطر على تقدم المعارف وانتشار الثقافة، ومن خوف على كل شيء نفهمه عن طريق (المدنية) بنشوء هذه الجماعات الفقيرة التي تسير في مناهجها على نمط واحد، وتجري في تفكيرها على (أسلوب واحد، وتنطلق خائفة مذعورة كقطيع من الغنم أمام راعيها؟

ويكهام استيد

من القضايا التي يزعمون أنها من بداءة الرأي قولهم:

وإذ نفرض صحة هذه القضية م غير أن نسلم ،(لكل بلاد ما تستحقه من صحافة) بحجتها يسعنا أن نتساءل: (وأية صحافة نستحقها نحن؟)

والجواب على ذلك ليس بالأمر الهين؛ فقد جاء في مقال لكاتب إيطالي - أغفل اسمه - نشر في كتاب سنوي فاشي عن الصحافة الإيطالية قوله: (إذا كانت بريطانيا العظمى لا تزال تملك صحفاً تشغل مكانتها بين خيار صحف العالم، فإنها ما برحت تملك صحفاً أخرى هي بلا شك أسوأ الصحف في العالم، أو على أي حال في أوربا).

وإني لا أجد بصدد هذا النظر سوى أسباب ضعيفة أخالفه الرأي فيها. اللهم إن صحافتنا حتى أسوأها شأناً ما زالت إلى الآن لا تخضع لأي رقابة رسمية، أو تستعبد لأية قيادة حكومية؛ إذ لا يسعنا أن تجمع

بين النقيضين: حرية الصحافة وقيود الرقابة.
والحرية التي سمحت لجريدة إقليمية كبرى (كالمنشستر جارديان) بأن تنادي غير هيابة بالحقائق اللازمة لسلامة الكيان السياسي بأجمعه؛ والحرية التي أباحت لصحيفة التيمس عام 1852 أن تلقى على رجال السياسة درساً قيماً عن وظيفة الصحافة الحرة في المجتمع الرشيد، لا يسعنا أن نقيدها جملة رجاء أن نتخلص من الخبيث الضار ونحن نعني بتنشئة الطيب النافع.
ولكن هل الحرية شيء محبوب لذاته عظيم في نفسه، حتى أنه يصبح لزاماً علينا أن نتحمل من أجلها ما هو أقل صلاحية وجودة من شؤوننا؟
إننا عندما ننعم النظر فيما للصحافة البريطانية اليوم من شأن وفيما قد يتهيأ لها من مستقبل تصادفنا تلك القضية القديمة وأعني بها ما لحرية من مكانة وقيمة، فإذا هي منها بمنزلة الأساس من البناء والأصل من الكائنات.
ولقد صار واجباً على جيل أن يحل مشكلات هذه القضية لنفسه. أو ليس يتفق مع طبيعة الحياة الإنسانية اتفاقاً كبيراً ما صاغه جوت صياغة ماهرة في عبارته الخالدة إذ قال: (إذا شئت أن تحتفظ بما ورثه لك آباؤك، فعليك أن تهيئ نفسك لأن تكون قادراً على استرداده والظفر به).
وعندي أن الحرية لا ترتبط ارتباطاً كلياً أو جوهريا بالحالات المادية أو بطرق الإنتاج الصناعي على الرغم مما يذهب إليه كارل ماركس في مذهبه.
وقد توجد علاقة دقيقة بين حق الفرد في أن يظفر بنصيب من الملكيات الخاصة وحقه في التمتع بحريته الإيجابية، إذ القضاء على جميع الملكيات الخاصة من شأنه كما يتوقع له وينتظر من مصيره أن يعتمد الأفراد اعتماداً تاماً على الدولة ينتهي بأولى الأمر فيها إلى حال لا يحتملون معها الأفعال أو الآراء التي لا يرحبون بها، ولا يسمحون للناس معها أن يتبرموا بها أو يلوموهم عليها. اللهم إلا معارضة سالبة صامتة تتردد في صدور البرمين بالأوامر العالية، وإن كانت الحرية المنشودة لجميع المقاصد الحيوية والأغراض العملية هي حرية الكائنات البشرية في أن تعبر عن وجودها وتفصح عن غايتها بالكلام أو الكتابة أو العمل في حدود القوانين التي هي نتاج التشريع الحر والقبول الطليق فإن الصمت
الإجباري وكم الأفواه لا يختلف كثيراً عن إلقاء العقول في غياهب السجون.
والصحافة، وحق الرأي العام في الإفصاح والتعبير وعقد الاجتماعات والنظم النيابية. وسائر المميزات الأخرى للنظام الديمقراطي كل أولئك يحمل معنى الحرية لأنه سبيل المجتمع إلى التعبير الحر والرأي الطليق، وهيهات أن يتهيأ للشعب أن يظفر بحريته بمعناها السياسي ما لم يكن له الحق في النقد والمعارضة. ويندر أن تطمئن عقول الرجال لأسس الحياة وتقبلها قبولاً حسناً ما لم تمتحن هذه الأسس بأذى يهددها أو قوى تنكرها أو تتجاهلها. ولعله بسبب ما يتهدد الحريات الأساسية الآن من عبث العابثين واضطهاد المضطهدين، أو من إنكارهم عليها في مثل هذه المساحات المترامية الأطراف من أوربا والعالم، أن يكون لها قيمة وشأن، أن انصرفت الرغبة أخيراً للتفكير في تلك الأسس. ولتقصي مصادر تلك المذاهب التي بلغت من نفوس أجدادنا ما تبلغه العقيدة الصادقة والإيمان المتين، ولمعرفة ما إذا كان يجب أن تصبح تلك العقائد محلاً للجدل أو هدفاً للانقلاب الاجتماعي وهي العقائد التي قاسى الناس الأهوال في سبيلها ولم تستقر في نفوسهم إلا بعد كفاح أجيال متعاقبة، سأذكر هنا النتائج التي انتهى تفكيري إليها بعد إعمال الفكر في هذه المسائل وفي الكثير من نظائرها وتقصي ما لها من شأن وقيمة، وسوف يتضح من أمرها أنها تمت بصلة وثيقة لمستقبل الصحافة.
إنه لم يكن بالأمر العارض في إيطاليا وألمانيا - وفيهما اختفت الحرية وباتت الصحافة مجرد آلة للدعاية القومية أو الدعاية الخارجية، أن ينادي بالحكومة التي تخدمها تلك الصحافة (كحكومة استبدادية) وأي بحث قائم على التفكير السليم فيما للحرية من قيمة يحملنا فوراً على أن نمحص الحوار القائم بين (السلطان المطلق) و (السلطان النسبي) وينتهي بنا عاجلاً أو آجلاً لأن نقرر أن قوام الحرية العالية هو الإنكار الدائم للسلطان المطلق سواء أكان عقلياً أو روحياً أو سياسياً، وأنها نتاج التجارب المستمرة التي تتهيأ لعقولنا ومشاعرنا، وأنها ثمرة الاتجاه المتواصل لعلاقاتنا وقيودنا الاجتماعية

نحو المثل العليا.
والقيود التي تحد من حريتنا في التصرف الآن ترجع إلى القوانين أو الالتزامات التعاقدية، أو إلى عادات المجتمع الذي نرتبط به. والحرية التي ننعم بها الآن هي (شرطية) كما
يعبرون عنها في الاصطلاح السياسي، بمعنى أنه يجب ألا تتعارض مع سلامة المجموع الذي تملك تغيير زمام هذه الحرية وتنعم بجناها. وهذه الحرية لا تمت بصلة إلى الحرية الصورية التي صورها (روبنسن كروزو) على رفعة جزيرته. تلك الجزيرة التي لم يسكنها إنسان قبل أن يبعث فيها إنسانه (فرايداى) إذ بوصول هذا الرجل إليها بدأت تدب فيها عناصر البيئة التعاونية وأسس الهيئة الاجتماعية. وعلى ضوء هذه الاعتبارات جميعاً غدت حريتنا الاجتماعية أو السياسية وهي ليست بالحرية المطلقة. وكلما قدر للمجتمع أن يتجاوز حالته البدائية تجاوزاً نسبياً تلك الحالة التي قد ينعم فيها كل رجل بحرية واسعة المدى يستمد معها قانونه من مشيئته كلما صارت حرية أفراده وهي أكثر اتصالاً وأشد تقيداً بحرية الآخرين. وهي أيضاً أقل إطلاقاً وأكثر خضوعاً للأوضاع والقيود الاجتماعية. ويسعنا أن ندعو هذه الحرية المقيدة (بالحرية الواقعية) ما خضعت لتلك القيود الأجنبية لتلك القيود الأجنبية عنا، والمستقلة عما لأشخاصنا من رغبة أو كراهية؛ كما تتقيد حريتنا بقيود أخرى يسعنا أن نسميها (بالقيود المعنوية) ومثل هذه القيود إذ نألفها ونهيئ أنفسنا لأن نسكن إليها، يخف حملها ولا يشق علينا أمرها. فلا نشعر معها بشيء يقيد حريتنا. لأننا في الواقع لا نتأذى مما يقيد حريتنا من الناحيتين الاجتماعية والمادية لمجرد أنه تقيد لحريتنا فحسب، بل نتأذى به إذا ما أحسسنا بثقله وضقنا به ذرعاً، فنحن بعبارة أخرى نتأثر بقيود حريتنا (المعنوية) أكثر مما نتأثر بضوابط (حريتنا الواقعية) التي لا يشق علينا شيء من أمرها حتى أحسسنا أنه ما من شيء يدعونا للثورة على القوانين أو للتمرد على العادات والنظم؛ وشأننا في ذلك كشأننا مع قوانين الجاذبية من ناموس الطبيعة التي إذا ألفناها لا نجد من سبب للثورة عليها.
ولكننا مع ذلك بحاجة لأن نكون على حذر من أمرنا قبل أن نقبل أسس الحرية التي نساق لها أو تساق إلينا، ولا سيما إذا كانت تلك الأسس من ذوات الطابع (المعنوي) وإلا انتهت قيود حريتنا بأن تستبد بنا استبداداً واسع المدى بالغ الأثر. فننتهي معها إلى أن نصبح عاجزين عن الاحتفاظ بحريتنا في التفكير أو القول أو العمل. وآنئذ نفتقد عقائدنا وبالتالي إرادتنا في مقاومة التدخل في شئون حريتنا الواقعية. ويكون من أمرنا أن نتساهل فيما لا يجمل التساهل فيه، وأن نستبيح في حق أنفسنا أن تخوف بالاستبداد المنظم الذي يشق
علينا أمره ويصعب علينا احتماله. وعلى ضوء هذه الاعتبارات جميعاً كانت أولى النتائج التي انتهيت إليها من دراسة قيمة الحرية. إن من صواب الرأي أن نعلم أن الاستبداد بالرأي هو الشيء الوحيد الذي يلزمنا ألا نتسامح فيه إذا أردنا أن نظل أحراراً. لذلك كان لزاماً علينا مثلاً أن نتسامح في أمر الصحف الرديئة لنظل أحراراً في أن نحتفظ بصحافة طيبة، وهذه النتيجة تعود بي إلى قضية النسبية. فالأصل في التسامح أن يثير الموازنة بين الحرية المطلقة والحرية المقيدة، وهذه الموازنة تنتهي بنا لأن ندرك أن جميع الحقائق نسبية، وأنه لا توجد حقيقة واحدة مطلقة سياسية كانت أو اجتماعية. وأن ندرك أيضاً أن الأمر لا يقتصر هنا على وجوب التسامح في الآراء والعقائد، بل يتجاوزهما إلى التسليم بالحق في النقد والاعتراف بحرية النقد، تلك الحرية التي أصبحت الآن عماد حرية الفرد ومصدر ما يصيبه من نجاح في الثقافة أو العمل، إذ تحمل في ثناياها المميزات الأساسية للجماعة الحرة، تلك المميزات التي يفصح عنها ما ينطبع في الشعب من سجية التسامح في الآراء التي قد لا يسلم بصحتها الكثير من أفراده، ولا تروق في أعين غالبيتهم. وإذا ما تسامح الناس في تقبل الآراء في الوقت الذي لا ينعقد لهم إجماع على صحتها، وإذا ما تأبوا على أنفسهم أن يبطشوا بها أو يضيقوا بها ذرعاً، وإذا ما حرصوا أن يكون سبيلهم في مناهضتها عن طريق المحاجة والإقناع، فإنهم على هذا النهج القديم يعترفون بحقيقة ما بين العقول البشرية من خلاف نزيه في النظر والتقدير. وأنه لأشد رعاية لحرمة الرأي البشري أن تمتحن المذاهب المختلفة عن طريق مقارنة الحجة بالحجة، ومقارعة الرأي بالرأي لا أن يفرض على الناس واحد من هذه الآراء أو تلك تحت سلطان القوة التهديد. والحرية

السياسية لا تتفق مع تلك الحال التي يفرض فيها على الأمة رأي واحد، ويكون لزاماً عليها أن تتشابه فيها العقليات ويوحد النظر. بل هي على النقيض من ذلك تنهض على ما يجب أن ينعقد إجماع الشعب عليه من إباحة الاختلاف في الرأي، كما تنهض على أن يعترف الجميع اعترافاً إيجابياً عملياً بأن اختلاف الآراء في الهيئة الاجتماعية يجعل حياتها أخصب تربة وأكثر إنتاجاً مما يتيسر لها لو سارت على نهج واحد مناطراد المذهب ووحدة النظر. والجماعة إنما ينعم بحريتها على وجهها الصحيح متى كانت عادتها وقوانينها في الوضع الذي يفسح المجال لرأي الفرد ويهيئ الميدان لتصرفاته الشخصية، فلا تضيق الخناق على
حريته في الرأي والتصرف إلا إذا أجراهما على نهج غبي لو ترك وشأنه فيه لحال بين الآخرين وتمتعهم بحريتهم
والفرد لا ينعم في الجماعة الحرة بما يظفر به من الحرية لمجرد أن قوانينها وعاداتها هي القوانين والعادات التي قد يفضلها على ما عداها، بل لأنه يحظى بنصيب كبير من توجيه شؤونها العامة والاجتماعية أن كان لكل مواطن حقه في أن يدلي برأيه في شؤون الدولة ويكون له أثره الفعال في توجيه سياستها وإن كان من واجبه إلى ذلك أن يخضع لحكم الأغلبية وأن يقاسم بني وطنه الحياة والعمل.
(يتبع)
زين العابدين جمعة
المصريون المحدثون - 16
شمائلهم وعاداتهم
في النصف الأول من القرن التاسع عشر
تأليف المستشرق الإنجليزي إدوارد وليم لين
للأستاذ عدلي طاهر نور
تابع الفصل الخامس - الحياة المنزلية
أما القهوة فهي تصنع قوية لا تحلى بالسكر ولا تحفف باللبن. وفنجان القهوة صغير لا يسع الكثير منها. وهو من الخزف ولا أذن له. فيوضع في ظرف من الفضة أو النحاس تبعاً لحالة الشراب. وهو يشبه تقريباً في شكله وحجمه ظرف البيض عندنا ولتحضير القهوة يغلي الماء أولاً، ثم يضاف إليه البن بعد أن يحمص ويطحن حديثاً، ويقلب، ثم يعاد وعاؤه على النار مرات حتى تنضج القهوة رويداً رويداً، ثم تصب في الفناجين قبل أن يزول ما تكوّن على سطحها من القشدة ويحب المصريون القهوة الخالصة حباً شديداً، وقلما يضيفون أليها السكر؛ وبعضهم يحليها عندما يشعر بتعب. ولا يضيفون اللبن أو القشدة أبداً ولكن كثيراً ما يضعون فيها الحبهان. وتبخير الفناجين بالمصطكا شائعة. وقد يعطر الأغنياء القهوة بعطر العنبر اللذيذ. والطريقة الشائعة أن يوضع حوالي قيراط من العنبر في وعاء القهوة ويذاب على النار ثم تنضج القهوة في وعاء آخر بالطريقة السابق ذكرها، وبعد قليل تصب في الوعاء الأول (شكل 34) ومن الناس من يستعمل العنبر للسبب نفسه بطريقة مختلفة. فهم يأخذون قيراطين من العنبر بعود صغير يضعونهما في قاع الفنجان ويصبون القهوة بعد ذلك. ومثل هذه الكمية تكفي أسبوعين أو ثلاثة أسابيع. وهذه الطريقة كثيراً ما يتخذها م يحب لنفسه شرب القهوة معطرة بالعنبر دون ضيوفه. وقد يقدم (بكرج) القهوة موضوعاً على جمر في وعاء من الفضة أو النحاس يسمى (عازقي) شكل 35 ويعلق هذه الوعاء في ثلاث سلاسل. ويقدم الخادم القهوة ممسكاً أسفل الظرف بين الإبهام والسبابة، وعندما يتناول الفنجان والظرف يستعمل كلتا يديه واضعاً شماله تحت يمينه.
وتستعمل مجمرة تسمى (منقلاً) ويسميها العامة (منقداً) من النحاس المبيض بالقصدير ويحرق فيه البخور أحياناً. ويتلذذ المصريون بالعطور تلذذاً عظيما. وكثيراً ما يبخرون غرفهم، وأكثر المواد استعمالاً لهذا الغرض بخور من نوع رديء يسمى (بخور البز) ويستعمل كذلك الجاوي والعود.
وقلما يرى المصري ماشياً أبعد من عتبة داره إذا استطاع أن يقتني ركوبه أو يستأجر حماراً. ولكن القليل من أهل القاهرة والمدن الأخرى من يخاطر باقتناء جياد، معرضاً نفسه إلى الاشتباه في أنه يمتلك أموالاً زائدة تفرض عليها ضرائب ورسوم أشد مما كان سيتحملها بوجه آخر. وتحشى عدة الجواد الحديثة بالقطن وتغطي بالجوخ أو

المخمل وتطرز أو تزخرف؛ ويزين اللجام عند الرأس والصدر بشراريب حريرية وقطع نقدية وغيرها من الزخارف الفضية. والعادة أن يركب البغال أغنياء التجار وكبار العلماء، وعدة البغال كعدة الحمير تقريباً وعندما يكون الراكب عالماً تغطي العدة بسجادة، وكذلك قد تكون العدة التي يستعملها النساء بالرغم من شدة الاختلاف بينهما. وتستعمل الحمير في شوارع القاهرة الضيقة المزدحمة. وهناك عدد كبير للكراء. واشتهرت القاهرة من زمن بجودة حميرها، فهي أكبر من حمير بلادنا وأفضل منها في كل ناحية. ويقدر ثمن الحمار الأصيل المدرب بحوالي ثلاثة جنيهات أو أربعة، وقد يزيد بعض الحمير على ثمن الجواد العادي. ويجهز الحمار بعدة محشوة يغطي مقدمها بالجلد الأحمر، ومقعدها بشرائط صوفية ناعمة، ويكون الركاب عالياً دائماً. ويتقدم الراكب خادم أو خادمان ليفسحا الطريق، ويحمل كل منهما (نبوتاً) قابضاً عليه من أسفل رافعاً إياه إلى أعلى. وقد يرافق الراكب للغاية نفسها خادم يجري بجانب الحمار أو أمامه صائحاً في المارة ليخلو الطريق يميناً أو شمالاً. ومع ذلك يجب أن يكون الراكب حذراً فلا يعتمد على خادمه كل الاعتماد لئلا تصرعه أحمال الجمل الكبيرة. وهذه الحوادث قد لا يكون مفر منها في شوارع القاهرة الأكثر ضيقاً والأشد ازدحاماً، وعندما ينزل السيد إلى منزل ما أو دكان ما يملأ الخادم له الشبك ويشعله ويقضي المصري أغلب وقته، إذا لم يكن له عمل منتظم يشغله في الركوب والزيارة، أو شراء حوائجه، أو في التدخين أو شرب القهوة كثيراً وعلى مهل، أو في التحدث مع الأصدقاء في المنزل، أو التنعم بترف الحمام ساعة أو أكثر صباحاً. وفي الظهر عليه أن يؤدي الصلاة

إذا كان يقوم بفروضه الدينية، إلا أنني لاحظت أن القليل من المصريين نسبياً قد لا يهمل هذه الفروض، وأن هناك كثيرين يندر أن يقيموا الصلاة أبداً. وبعد الظهر مباشرة (إذا لم يكن فطوره متأخراً) يتناول غداء خفيفاً ثم يأخذ الشبك والقهوة. وعندما تشتد حرارة الجو لا يمنع نفسه من القيلولة. وكثيراً ما ينسحب ليستريح في الحريم حيث تراعي زوجته أو جاريته راحته أو تدلك له قدميه؛ وحينئذ، أو عندما يرغب في الخلوة يقول الخادم للزائرين إن السيد في الحريم، فلا يستدعيه أحد إلا إذا كان لعمل ضروري. وهو يتمتع مرة أخرى بين صلاة العصر إلى الغروب بالتدخين والقهوة بمصاحبة أصدقائه في المنزل أو في الخارج. وبعيد غروب الشمس يتناول عشاءه. ويجب على الآن أن أصف وجبتي (الغدا) و (العشا) وكيفية تناولهما ونظامهما. ولم ألاحظ فرقاً بينهما، غير أن وجبة العشاء هي الأهم. والعادة أن يجهز الطعام في العصر، وما يفضل بعد وجبة العشاء يقدم أثناء وجبة الغداء في اليوم التالي إذا لم يكن بالمنزل ضيوف. وعلى العموم يتناول رب الدار طعامه مع زوجته أو زوجاته وأطفاله. إلا أن كثيراً من الرجال وعلى الأخص رجال الطبقة العليا، يمنعهم كبرياؤهم أو يشغلهم ارتباطهم بمجتمعاتهم عن تناول الطعام مع العائلة، إلا في بعض المناسبات القليلة، وحتى بعض رجال الطبقة السفلي يندر أن يأكلوا مع زوجاتهم وأولادهم. ويجب على رب الدار عندما يكون في منزله صديق له أن يأمر بإحضار الطعام في وقته وهذا لابد منه إذا كان الضيف أجنبياً.

ويغسل كل شخص يديه، وفمه أحياناً، بالصابون والماء قبل أن يتناول الطعام، أو على الأقل يصب على يده اليمنى بعض الماء (أنظر شكل 36) وبحضور الخادم لذلك طستاً وإبريقاً من النحاس الأبيض أو النحاس الأصفر. وللطست غطاء به عدة ثقوب، وفي وسطه نتوء لوضع الصابون، فيمر الماء عند الغسيل خلال هذه الثقوب إلى داخل الطست بحيث إذا قدم هذا إلى شخص آخر لا يرى الماء القذر، ويعطي لكل فوطة.

والمائدة صينية مستديرة من النحاس المبيض، أو من النحاس الأصفر أحياناً، قطرها بين قدمين أو ثلاث أقدام. وتوضع على كرسي ارتفاعه حوالي خمس عشرة بوصة. ويصنع الكرسي من الخشب وقد طعم بالصدف أو الباغة أو العظم الخ.

فالصينية والكرسي يكونان السفرة (أنظر شكل 37) وتوضع على الصينية أرغفة الخبز المستديرة التي سبق وصفها، كاملة أو مقطعة أنصافاً. ويصف معها حول الصينية أنصاف من الليمون لتعصر على المأكولات التي قد تحتاج إلى الحامض، وملعقة من خشب البقس أو الأبنوس أو الباغة لكل آكل. وكثيراً ما يستعمل الخبز بدل الصحون. وبعد ذلك توضع أطباق اللحوم والخضر على اختلاف أنواعها، جميعها مرة واحدة مرة

واحدة تبعاً للعادة المصرية أو طبقاً طبقاً حسب الطريقة التركية. وهذه الأطباق تكون من النحاس المبيض أو الخزف.

ويجلس الآكلون على الأرض حول الصينية وعلى ركبتي كل منهم فوطته. أما إذا وضعت الصينية بجانب ديوان منخفض فيجلس البعض على الديوان والآخرون على الأرض. ولكن عندما يكثر العدد توضع الصينية في وسط الغرفة ويجلس الجميع حولها واضعين إحدى ركبتيهم على الأرض والأخرى (اليمنى) قائمة. وهذا هو الوضع المستحسن أثناء تناول الطعام (أنظر شكل 38) وبهذه الطريقة يستطيع اثنا عشر شخصاً أن يجلسوا حول صينية سعتها ثلاث أقدام. ويشمر كل شخص عن ذراعه اليمنى حتى الكوع أو ما تدلى من كمه. وقبل أن يشرع أحد في الأكل يسمى باسم الله بصوت منخفض ظاهر ويبدأ رب الدار بالبسملة. ويعتبر هذا ملاطفة منه ودعوة إلى المدعوين لتناول الطعام. وعلى من يقال له بسم الله أو تفضل أن يقول إذا رفض الدعوة (هنيئاً) أو ما شابه ذلك. وقد يكون ذلك أيضاً خشية شر العين إذا وقعت على الأكل. ويقولون في هذا: (لا بركة في الطعام إذا اشتهى). إلا أن الإلحاح الذي يدعو به المصرّي الأجنبيّ إلى مشاركته الطعام يبين أن الذوق السليم وواجب الضيافة يحتمان عليه قول البسملة. ويبدأ بالأكل رب الدار ثم يتلوه الضيوف مباشرة.

والمصريون لا يستعلمون السكين ولا الشوكة، وإنما يستعملون بدلاً منهما الإبهام وإصبعين من اليمنى. وتستعمل الملاعق لتناول الحساء أو الأرز أو غيرهما من الأصناف التي لا يسهل تناولها بدونها. وقد تستخدم اليدان معاً في أحوال سأذكرها الآن. وفي حالة ما توضع الأطباق جميعها مرة واحدة يغترف كل واحد من أي صنف يشتهيه أو من جميع الأصناف على التعاقب. وعندما يقدم الطعام طبقاً طبقاً يتناول الواحد من الطبق بعضه ثم سرعان ما يرفع ليقدم غيره. ومن الأدب أن تناول صديقك قطعة مختارة. وأرى أن طريقة تناول المصريين والشرقيين طعامهم بالأصابع أرق مما يتصور الأوربيون الذين لم يشاهدوهم أو لم يسمعوا الوصف على حقيقته. فالواحد منهم يأخذ من الخبز قطعة يغمسها في الطبق ثم يرفعها إلى فمه مصحوبة بقطعة صغيرة من اللحم أو غير ذلك من محتويات الطبق، وتكون قطعة الخبز مزدوجة بحيث تحيط بقطعة اللحم الخ ولا يستخدم عادة غير الإبهام والإصبعين الأولين. وإذا تناول شخص قطعة لحم على اللقمة وضعها عادة على رغيفه.

(يتبع)

عدلي طاهر نور

(مي) إلى. . .

للآنسة فدوى عبد الفتاح طوقان

طرحتِ الحياةَ وعبَء الحياةِ ... يا سميرةً من كِبار السِّيَرْ
نعاكِ النعيُّ إلى الخافقين ... فعلّمني كيف يهوى القمر
مضيتِ كأن لم تكوني ضياءً ... ينيرُ القلوب ويجلو الفِكر
لعمركِ، لو قام قبل النشور ... رفاتٌ تلاشي وعظم نخِر
لقامت سكينة في إثر عمر ... ة تستقبلانك دون الحفر
نهار الثلاثاء يا (مي) حالَ ... محيّاه فهو شَجٍ مكفهر
لأقسم بعدك ما أن يرقُّ ... نسيمُ أصائله والبكر
تفقد مجلسَك المستطابَ ... وحلو الحديث وأنسَ السمر
وفكراً يُفيض على السامرينَ ... جمالَ خيالاته والصور
وإذ يَنْثَنّرُ طَلُّ الحديثِ ... على المنصتين نِثَارَ الزهَر
فتعبق حولك دنيا القلوبِ ... ودنيا العقولِ بنشْر عطِر
وتهفو النفوسُ، ويعنوا لسحرِ ... بيانك كلُّ بيانٍ سحر
مآثركِ الغرُّ تنبئُ كيفَ ... يُخَلّدُ كلُّ عظيم الأثر
كأني بها قَبَسَتْ من طهو ... ر سيناَء يا (ميُّ) تلك الغرر
اهذي (صحائفك) المشرقاتُ ... أم الذهن ضاَء خلالَ السُّطُر
وهاتيك أَهْيَ (سوانحُ) أم ثا ... قبُ الفكر جَلّى طباعَ البشر
خَبَرْتِ الحياة وحالاتِها ... وأفعمتِ منها بحلوٍ ومُر

وكنتِ بِشرْعتها تعلمينَ ... فبيّنتِ أحكامَها والعبر
تغلغل روحُك في سرها ... وكشَّف كُنهه ما استتر
وإذا جُزْتِ يا (ميّ) أسفارها ... وما هي إلا سبيلٌ وَعُر
إلى عالمٍ دقَّ تفسيره ... وليس لواردِه من صَدَر
فكيف وجدت لدَيه المُقامَ ... وكيف يُصرَّف فيه العمر؟
بربكِ هل تستريحُ إليه ال ... قلوبُ وتنعمُ بالمستقر
بنفسي نُزُوعٌ إلى خُبْرِهِ ... فهاتي حديثكِ وأروى الخبر
هنالك أودعتُ نفساً صَفَتْ ... إذا نَغِلَتْ أنفسٌ من كدر
أخٌ إن عثرتُ أقال عثارى ... وكان ملاذيَ والمدَّخر
أحنُّ وأذكرُ آلآءه ... فيصدعُ قلبي عذابُ الذكَر
وأنضرُ في إثره العابرينَ ... فأشتاقُ لو كنتُ فيمن عَبَر
هنا ضقت بالعيش ذرعا فقَرِّى ... هنالك عيناً بطيب المقر
تُظلّكِ من سدرة المنتهى ... غصون دنا ظلّها وانتشر
فلا النفس تَوْهن من شِقْوةٍ ... ولا الروحُ يا مي تشكو الضجر
(نابلس)
فدوى عبد الفتاح طوقان
البريد الأدبي
يوم (مي)
في يوم الخميس الماضي حفلت دار الاتحاد النسائي بصفوة من رجال الفضل والعلم أجابوا دعوة السيدة هدى هانم شعراوي لتأبين المغفور لها الآنسة (ميّ) وكان الكلام لنخبة من أمراء البيان جلوا مآثر الفقيدة في نواحي الثقافة والصحافة والسياسة والإصلاح، فتكلمت رئيسة الاتحاد عن (فقيدة العروبة النابغة)، وتكلم معالي الدكتور هيكل باشا عن (مي والسياسة)، وتحدثمعالي الأستاذ مصطفى عبد الرزاق باشا عن (ذكريات مي)، والآنسة ابنة الشاطئ عن (مي الإنسانة)، والدكتور منصور فهمي بك عن (مي والعروبة والأمومة)، وألقى الأستاذان عباس محمود العقاد وخليل مطران بك قصيدتين من عيون الشعر. ثم تحدث الدكتور طه حسين بك عن (مي والأدب العربي)، والأستاذة عزيزة عصفور عن (رسالة مي)، والدكتورة نعيمة الأيوبي عن (مي والأبوة). ثم نهض الأستاذ أنطون الجميِّل بك فوجه الشكر عن أسرة الفقيدة إلى كل من شارك في هذا العرس الحزين بقلبه أو لسانه. ثم ارفض الحفل وفي قلب كل من شهده حسرة لاذعة على أفول هذا النجم الذي لمع في سماء الأدب حيناً ثم خبا والشرق أحوج ما يكون إلى وحيه وهديه. وفي العدد القادم سننشر جملة من مختار ما قيل. رحم الله الفقيدة الكريمة، وعوض الأدب من فقدها خير العوض.
هناء
أُعاود بعدما قال الأستاذ المكرّم علي الطنطاوي، فأقول: إني سئلت عن (الهناء) فأجبت بأنه مذكور في (تاج اللغة وصحاح العربية)، ولكن لا أدري الآن الحكم الصحيح، لأنه يجوز أن يكون في النسخة (المخطوطة) التي اطلع عليها الأستاذ سهوٌ، والعلم لله).
(وحيد)
تيسير الكتابة العربية
تجتمع في الأيام القريبة المقبلة لجنة الأصول بالمجمع اللغوي لإقرار مشروع (تيسير الكتابة العربية) في صورته الأخيرة بعد أن فرغت اللجنة التي كانت مؤلفة من بحثه ودراسته وإدخال التعديلات عليه. وأساس هذا المشروع اقتراح الأستاذ علي الجارم بك،
ومبادئه الأساسية هي:
أولاً: يبقى للقرآن الكريم رسمه المأثور.
ثانياً: تبقى صور الحروف العربية كما هي:
ثالثاً: توضع علامات للحركات والسكون والتنوين، على أن تكون هذه العلامات داخلة في بنية الكلمات، لا هي فوقها ولا تحتها كما هو الآن، حتى لا يخطئ اللسان في بناء كلمة إعرابها.

رابعاً: الحرف المفتوح لا توضع له علامة اختصاراً، فترك العلامة دليل الفتحة، وقد اختيرت الفتحة لكثرة دورانها في الحروف، فترك علامتها اختصار كثير.
خامساً: لكل من الكسرة والضمة والسكون والتنوين علامة خاصة أشبه ما تكون بحرف جديد يتصل بالحرف الأصلي مباشرة.
وقد احتوى المشروع إلى جانب ذلك على قواعد تسهيل كتابة الهمزة والألف المتطرفة، وكذلك وضعت قواعد للتقليل من العلامات، وقواعد أخرى لمراعاة النطق في الكتابة.
ومما لاحظته اللجنة في دراستها للمشروع ما تقتضيه الناحيتان الخطية والطباعية، فروعي ذلك مراعاة عملية، توصلاً إلى إمكان تنفيذ المشروع في المطابع وفي الكتابة العامة.
والمنتظر أن تفرغ لجنة الأصول من إقرار هذه القواعد والعلامات، لتعرض على مجلس المجمع في جلساته الأولى المقبلة، حتى يعرض المشروع بعد ذلك بحذافيره على جمهور المشتغلين بالعلم والأدب والفن في مصر والبلاد العربية.
المؤتمر التعليمي العربي والأبحاث التمهيدية للدعوة إليه
اجتمعت في الأسبوع الماضي برياسة وزير المعارف اللجنة التي وكل إليها وضع منهاج لمؤتمر التعليمي الذي ستدعو إليه مصر الأقطار العربية، والذي تأمل وزارة المعارف أن تجعل منه فرصة مناسبة لتقريب الفكر العربي من المركز الثقافي في القاهرة، وأن نسعى به إلى تحقيق أمل قديم في جعل شباب الأقطار العربية يتلقون ثقافة متقاربة موحدة بقدر الإمكان.
وقد علمنا من بعض أعضاء هذه اللجنة أن أهم أعمال المؤتمر ستدور حول غرضين رئيسيين أولهما (الثقافة العامة) وثانيهما (المناهج المدرية). أما الغرض الأول فيقصد به
ربط الشعوب العربية بلون ثقافي متجانس يستمد طابعه من المقومات المشتركة بين هذه الشعوب. وأما الغرض الآخر فمن السهل تحقيقه؛ وعند ذلك يمكن للطالب في أي قطر عربي أن يستكمل مراحل دراسته الثانوية أو العالية في أي قطر آخر - وخصوصاً الآن في مصر - من غير أن يواجه بسياسة تعليمية مضادة لما نشأ عليه.
وسيعني المؤتمر في الموضوعات التي سيتعرض لها بالمشاكل التعليمية التي تشغل البال اليوم في جميع البلاد العربية ومنها مصر وأهمها طرق التدريس، وفي هذا الشأن قد تنتفع الأقطار العربية من خبرة المصريين بطرق التدريس الحديثة؛ ولكن من المشكوك فيه الآن أن نحصل على اتفاق في توحيد المناهج في الوقت الذي راجت فيه عندنا فكرة التعليم الإقليمي أي وضع مناهج خاصة لكل إقليم على حدة بحسب ظروفه وحاجاته.
أسرة الشعر بكلية الآداب
حددت أسرة الشعر بكلية الآداب برنامجها هذا العام فيما يلي
1 - ترحب الأسرة بكل دراسة تحليلية للشعر في مختلف أوضاعه وللشعراء في شتى نزعاتهم ويتناشد الأدباء والشعراء في مصر والأقطار الشقيقة لهذه الغاية.
2 - ستقوم الأسرة بتنظيم حفلات نصف شهرية في أحد مدرجات الكلية لإلقاء هذه الدراسات وعرض الأشعار المنتجة وسماع الموسيقى والأغاني وستعطي للمستمعين فرصة للنقد والتعليق.
3 - ستصدر الأسرة مجلة (الشعراء) شهرية مؤقتاً تضم البحوث الفنية في الشعر وروائع الشعر الحديث والقديم.
4 - ستقيم الأسرة في نهاية العام (ليلة للشعر).
5 - المكاتبات تكون باسم حضرة سكرتير أسرة الشعر بكلية الآداب.
تحقيق تاريخي
قال الأستاذ أحمد أمين بك في مقال نشرته مجلة (الثقافة) بعددها 130: أن الشيخ يوسف الشربيني مؤلف كتاب: (هز القحوف في شرح قصيدة أبي شادوف) من أعيان القرن الحادي عشر الهجري، وقد تعرض لكتابة (هز القحوف) بالتحليل في هذا المقال، ولا

يعنيني الرد عليه في صورته التحليلية وإنما الذي يعنيني أن أذكر أن (الشربيني) من أعيان القرن الثاني عشر، لا من أعيان القرن الحادي عشر، وأنه كان من العلماء الأعلام، فلقد وقفت بخزانة كتب مولانا العلامة المؤرخ الشيخ محمد محمد حامد المراغي الجرجاوي على ما كتبه بخطه على نسخة (هز القحوف).

في الفهرست لدار الكتب الأميرية ص 213 ج 6 ما لفظه (هز القحوف) بشرح قصيدة أبي شادوف، تأليف العلامة الشيخ يوسف بن محمد بن عبد الجواد بن خضر الشربيني من علماء آخر القرن الحادي عشر كان موجوداً سنة 1109

وقد علق على هذا العلامة المؤرخ المراغي الجرجاوي بقوله: رأيت مؤلفاً اسمه (السيف الصقيل، في عنقي من يرد المطلقة الثلاث من غير تحليل) صرح فيه بالرد على هذا الضال، وأنه شرع في تأليفه يوم الثلاثاء سابع عشر المحرم من شهور سنة 1109 هـ ولفظه:

وبعد، فيقول العبد الفقير إلى الله تعالى يوسف بن محمد بن عبد الجواد بن خضر الشربيني، كان الله له ورحم أباه وسلفه، لما كان يوم الثلاثاء المبارك سابع عشر المحرم من شهور سنة 1109 هـ، وأنا قاطن بثغر دمياط ومحل الخير والرباط. . . الخ

ففي أوائل القرن الثاني عشر كان المؤلف على قيد الحياة، فهو من علماء القرن الثاني عشر، وهو من العلماء الأعلام، لا كما يقول الأستاذ أحمد أمين بك أنه كان من المهرجين.

هذه إلمامة موجزة أزجيتها لخدمة التاريخ، والله ولي التوفيق.

(جرجا)

محمود عساف أبو الشباب

رسالة المعلم الإلزامي وكيف ينبغي أن تكون

في العد السابق من (الرسالة) الزاهرة أبان صديقي الأستاذ (محمد كامل حته) ماهية رسالة التعليم الإلزامي من حيث هو (مادة) وأجلى للقائمين بالأمر من أن التعليم الإلزامي أسمى مما يظنه البعض نحو قصوره على محو الأمية فحسب.

وإتماماً للفائدة رأيت بهذه المناسبة أن أتكلم عن رسالة الذي عهد إليه عملية هذا البناء

والذي وكل إليه مستقبل هذه الأمة وعن الأمانة التي وضعت في عنقه فحملها عن طيب خاطر ألا وهو - المعلم الإلزامي -

المعلم الإلزامي له رسالة داخل المدرسة حيث الطفل لا يزال كالعجينة، فهو الذي يصهرها ويصيغها كيفما شاء. وله رسالة خارجها: حيث الشعب وسواد في القرية والمدينة

ومن هنا يجدر بنا أن تؤمن بأن المعلم الإلزامي له شأن آخر يختلف عن زميله الجامعي أو العالي من حيث الأهمية والخطر. . . فهو رسول الأمة في تعليم أبنائها داخل المدرسة وخارجها

ولذا يجب أن تكون حياته ملأى بالمثل الصالحة الجديرة بإنهاض الأمة وتثقيف عقول أبنائها وتقويم أخلاقهم.

وأن يكون هدفه المباشر مصلحة الطفل في المدرسة وخارجها، وأن ينظر في أمر إصلاح القرية من نواحيها المختلفة؛ فهناك فساد النفوس وإعراضها عن الحق، وعلل الأجسام والأمراض الفاشية، وسوء الحالة المادية وفساد النظام الصحي.

وإن من أهم ما يثير حيويته حين ينشد الحياة الصالحة أن يكون عارفاً لنفسه حقها وأن يكون رجلاً أبياً عيوفاً ذا إرادة حديدية لا تغلب، وعزيمة جبارة لا تقهر، وأن يؤمن بشرف رسالته فيكون خير مثال يحتذي به في القول والعمل جاعلاً نصب عينيه التفاني في الواجب وإنكار الذات.

ولكن هل المعلم الإلزامي يعرف رسالته؟ وهل هو جدير بها؟ وهل يؤديها على الوجه الأكمل؟ وإذا لم يكن فلماذا؟ وهل وجد اتحاد التعليم الإلزامي لتحقيق هذه الرسالة؟ أم أن جهوده قاصرة على تحسين حال المعلم المادية فقط؟

هذه أسئلة تدور على ألسنة كثير من الناس، وهي جديرة بالرد عليها - وموعدنا العدد القادم إن شاء الله

محمود محمد عيد
وكيل نقابة القاهرة للتعليم الإلزامي
العدد 441 - بتاريخ: 15 - 12 - 1941
وأمنيتي. . .!
للأستاذ عباس محمود العقاد
فهمنا من مقالكم (أمنيتي) ما هي العلاقة بين الفروسية وقرض الشعر، أو بين . . .) أن تتمنى قيادة الجيوش وأن تتمنى النبوغ في الأدب. ولكن تسمحون لي أن أقول إن العلاقة بين التدين والأدب لا تزال غير جلية، فهل تتفضلون بتوضيحها. . .
ولا أدري هل تمنيتم الأدب ولم تتمنوا شيئاً آخر من الدنيا؟ ألم تتمنوا السعادة . . .) مثلاً؟ ألم تتمنوا لذة من لذات الحياة؟ أليس الحب أمنية للشاعر وإخوانه من رجال الفنون الجميلة؟ فما قولكم في هذا؟ هل يغني الأدب وحده عن كل هذه الأماني. . .!)
محمود حسين
هذه نبذة من خطاب مطول في التعقيب على مقالنا السابق عن أمنيتي في الحياة، نعود بها أو تعود بنا إلى هذا الموضوع الذي لا يزال أبداً في حاجة إلى تكملة كاحتياج المرء إلى التمني
واستكناه ما يتمناه وإطالة القول في هذا وذاك.
ويلوح لي أن الأديب المستفهم يبحث عن علاقة بي الأدب والتدين كالعلاقة بين الأدب ونظم الشعر في ميدان القتال والتهويل على الأنداد.
فالشعر قريب من الفروسية لأن الفرسان كانوا ينظمون الشعر بين الصفوف، فهم فرسان وشعراء؛ والقرابة بين الطائفتين واضحة على هذا المنوال.
ولكن ما هي العلاقة بين الإيمان الديني والنزعة الأدبية؟ هنا يقول الأديب المستفهم إن العلاقة يحيط بها شيء من الغموض
والواقع أن العلاقة هنا أوضح وأقرب إذا بحثنا عن المناسبات السطحية التي من قبيل نظم الشعر بين صفوف القتال للتحدي والتهويل؛ فإن كثيراً من الشعراء ينظمون في الأغراض الدينية وفي الغزل الإلهي وفي شطحات الصوفية وأهل الطريق.
فإن كان هذا هو المقصد من العلاقة بين الإيمان الديني والنزعة الأدبية فما أوضح الموضوع وما أبعده من الغموض. . .!
إن الشعراء الصوفيين لا يقلون عن الشعراء الحماسيين، وقصائدهم رائجة بين الناس كرواج قصائد الفرسان، لأن حلقات الأذكار وما يشبهها أشيع في الأندية والمجالس التي تنشد فيها سير الأبطال بلغة الفصحاء أو بلغة العوام.
ومن ذكرياتي في هذا الصدد أنني نظمت الشعر في الأغراض الدينية كما نظمته في المناجزة والدعوة إلى القتال.
فقد أسلفت بمقالي السابق أنني أوشكت أن أسلك طريق (الدروشة) وأنقطع عن الدنيا ومساعيها. وكنت خلال ذلك أسمع الأذان من مؤذن المسجد المقارب لبيتنا وهو منشد مشهور بجمال صوته وحسن إلقائه، فكان شجوني أن أسمع مقدمات الأذان قبل صلاة الجمعة وهي الأناشيد الثلاث التي كانوا يسمونها حسب ترتيبها بالأولى والثانية والثالثة، وكلها من الشعر المنظوم في التصوف أو مدح النبي عليه السلام.
وكان مسموحاً للناشئين أن ينشدوا هذه القصائد مع المؤذن أو على انفراد، بل كان إنشاد الناشئين مفضلاً مستحباً لأنهم أقرب إلى صفاء النفس وطهارة العبادة.
فاستأذنت في إلقاء إحدى هذه القصائد مرات، واخترت في بداية الأمر شعراً من دواوين البرعي وأمثاله. ثم تجرأت على نظم قصيدة طويلة أحكي بها شعر المديح النبوي، وأنشدتها دون أن أخبر أحداً بأنني ناظمها، وخفت أن يسكثروها عليَّ بعد ظهور الحقيقة فختمها ببيت لا أذكر منه إلا الشطرة الأخيرة وهي: (عباس من هو بالأشعار مدرار)
وإنما أذكرها لأنها هي الشطرة الوحيدة التي انتقدها أبي رحمه الله حين أطلعته على الحقيقة. فتبينت الفرح في أسارير وجهه والتشجيع في صريح كلامه، ولكنه قال لي برفق: ما ينبغي أن تثني على نفسك هذا الثناء وأنت ترى كيف يختم الأئمة المادحون قصائدهم بالتذليل والتوسل وتصغير ما قالوه وأسلفوه من الصلوات والعبادات.
فهذه علاقة بين التدين ونظم الشعر كالعلاقة بين نظم الشعر والحماسة العسكرية،

ولكنها كما قدمت علاقة سطحية توجد بين الأدب وبين كل موضوع ينظم فيه الشعراء. ففي وسعك على هذا القياس أن تقول مثلاً إن الهندسة (الميكانيكية) قريبة من الشعر لأن بعض الشعراء ينظمون في وصف الطيارة، وأن تقول كذلك إن علم الحيوان قريب من الشعر لأن بعض الشعراء ينظمون في وصف الخيل أو وصف العصافير.

إلا أنها علاقة سطحية لا يرجع إليها في استكناه أسرار الشخصية الإنسانية وروابط الملكات والطبائع الخفية، وغير هذه العلاقة أردنا حين قلنا: (إن التعبير عن النفس يجتمع فيه عندي تحقيق وجودها ومتعها واستكناه حقيقتها وحقيقة ما حولها).

فالتعبير عن النفس هو الأدب في لبابه

وما هو التعبير الذي عنيناه؟

التعبير الذي عنيناه هو كشف المكنون وتوضيح الأسرار وتمثيل في صورة تخرجها من عالم الخفاء إلى عالم النور.

وهنا العلاقة الوثيقة بين أعمق أعماق الدين وأعمق أعماق الأدب: هنا العلاقة بين استطلاع أسرار الوجود وبين معرفة النفس ومعرف الإفصاح عن معانيها والإبانة عن أشواقها بلسان الأدب أو بلسان الفن على التعميم.

فكل تعبير ينطوي على سر موضح مكشوف

وأي سر أعمق من سر الوجود وأحوج منه إلى التعبير والتقريب والإلحاح بعد الإلحاح في الاستكناه والاستطلاع

ذلك ما أردناه حين قلنا إن الصومعة قريبة من الروضة الأدبية، وذلك هو التغيير عن النفس بمعنى إثبات حقيقتها وإثبات العلاقة بينها وبين الحقائق الكبرى.

ولكل نفس تعبيرها على حسب ما تحسه وتتوق إليه، فليس من الضروري أن ينتهي التعبير بكل إنسان إلى التعمق في أسرار الدين، ولكنه إذا انتهى ببعض الناس إلى التعمق في تلك الأسرار فليس ذلك بغريب

أما أنني تمنت الأدب ولم أتمن السعادة فسبب ذلك بسيط لا نطيل الإفاضة فيه. سببه أن السعادة أمنية عامة وليست بالأمنية المحدودة أو الأمنية الخاصة.

فمن قال إنه يتمنى السعادة فكأنما قال إنه يتمنى ما يتمناه كل إنسان، وكأنه بذلك لم يقل شيئاً يستحق السؤال.

كلنا يتمنى السعادة، ولكن سعادة هذا غير سعادة ذاك

سعادة هذا في المعرفة، وسعادة ذاك في جمع المال، وسعادة غيرهما في السطوة والاستعلاء، وسعادة آخرين في الراحة والقناعة، وكلهم يتمنون السعادة على نحو من الأنحاء

فإذا سألني ماذا تتمنى فهو لا ينتظر مني أن أحيله إلى السعادة مجملة غير مفصلة، بل هو ينتظر مني أن أبين له الأمنية التي تسعدني أن ظفرت بها، أو التي أعتقد أن طريقها هو طريق السعادة وإن لم أصل إليها

وكذلك لذة الحياة أو لذات الحياة. فهي مسألة وظيفة من وظائف البيئة الحية لا تحتاج إلى سؤال، وما من حي إلا وهو يشتهي أن يشعر باللذة وأن يجتنب الألم.

وغاية ما بين الأحياء من فروق في هذا الباب أن يختلفوا في أسباب اللذة ودرجاتها على نحو قريب من اختلافهم في أسباب السعادة ودرجاتها

هي وظيفة وليست أمنية.

ومن قال إنني أطلب اللذة فكأنما قال إن لي معدة ولي عينين ويدين وقدمين، وذلك غني عن المقال.

أما الحب وأنه أمنية للشاعر وإخوانه من رجال الفنون فذلك صحيح.

ولكن من قال إن (التعبير عن النفس) لا يشمل الحب في بعض نواحيه؟

ومن قال الاشتياق إلى الحب والاشتياق إلى التعبير عن النفس شيئان مختلفان؟

إن الإنسان لا يجد في شئ كما يجدها في الحب، وإنه لا يعرف ما فيها من قوة وضعف، ومن عطف وجمود، ومن رحمة وقسوة، ومن خفايا وظواهر، ومن فجيعة وضحك، ومن حكمة وحماقة، وممن إنسانية وحيوانية كما يعرف ذلك جميعه في الحب فالحب ومعرفة النفس صنوان.

ومعرفة النفس منتهية لا محالة إلى العبير عنها، ولم يكن هذا التعبير بالمنظوم والمنثور

ونحن حين قلنا إن (التعبير عن النفس) يجمع ما تفرق بين الثكنة والصومعة والروضة الأدبية قد قصدنا أن تحيا النفس أولاً وأن تشعر بالحياة شعورها الخاص بها أن يتاح لها تمثيل ذلك في صورة من صور التعبير.

ولم نص الحب وحده بين دوافع الشرور؟

لم لا نذكر المجد أو البر أو الجهاد الإنساني أو الوطنية أو غير ذلك من معارض الشعور ومعارض الشوق إلى التعبير؟

فالتعبير عن النفس عندنا كلمة مقابلة للشعور بالنفس. ومتى شعرت النفس بحقيقتها فالعواطف الكبرى جميعاً حاضرة بغير استثناء، مذكورة بغير تسمية، معممة بغير تخصيص.

عباس محمود العقاد

الحياة صادقة!

(إلى ضحية الحرمان والأحزان النابغة (مي)!)

للأستاذ عبد المنعم خلاف

هذه الشعلة التي تسكن جسم الحي، تتطلب إحساساً كاملاً بها وذوقاً مستوعباً لها يتملاها ملياً، وينهل من حرارتها عباً ورياً. . .

. . .هذه الشعلة تنادي الجسد أن يحيا ليحيا بها، ويُمدها بوقود ليستدفئ ويستضيء إنها كمعنى النار: حرارة في جسم حار. . . عرض على جوهر لا انفكاك بينهما، ولا استقلال لوجود أحدهما عن الآخر. . .

. . .إنها لا تغتفر لمن يحاول كبتها وإخمادها، وإنما تختفي فيه فتُصليه وترديه شعلة الحياة هي أكبر هبات واهب الحياة؛ لأنها نفحة من وجوده الخالد! فكيف يأبى العود الأخضر أن يدب فيه النماء، ويتسرب فيه الماء، وتنبثق منه البراعم ذات الأفراخ الزغب، والأوراق الخضر، والزهرات النضر، والثمرات الصحاح المملوءة بأسرار الحياة؟!

لا جرم أن يصير هذا العود المتأبي على عوامل الحياة والنماء حطباً يحترق بعوامله الذاتية ويموت في موضع الحياة، حتى تأتي يد الحطاب فتأخذه لنقذفه في النار، وتنفي منه صفحة الحقل الخصيب. . .

إن الحياة صادقة، وذوو الفلسفات الذين ينادون بالحرمان من ينابيعها كاذبون! إنها لا تحابي أطفالها الذين يأبون رضاع أفاويقها، ولا تمكث بجوارهم لتعللهم طويلاً إلا ريثما يدركون وجهاتها ويصيرون صالحين لحمل شعلتها ذات الأمانات والأسرار ثم تجازيهم على العقوق والمخالفات. . .

فلتحذر القلوب الشابة الشاعرة التي قد يخدعها ما في الفن من تزاويق وضباب ملون، أن تستلم لخطفات الشعراء المتشائمين، وأخذات الرهبان المتسامين، وشطحات المتصوفة المنقطعين. . . أولئك الذين يسيرون أحراراً من قيود الأرض لا يعيشون في عش. . . وإذا عاش الإنسان في عش خضع لقوانين الأرض، وارتبط بها كارتباط الحيوان والنبات بحبل الذرية. . . فلم يفكر في الشرود.

وأني له الشرود ودواعي الأرضية تناديه في قلبه بالعواطف الأبوية والزوجية، وفي جسمه بالمحافظة لمقاومة عوامل هدم العش، وفي فكرة بالتدبير للاقتناء والتوريث. . .!

أما إذا ظل متفرداً حتى جاء أوان الإدراك الكلي، وحان بلوغ الأشد، فسيموت في نفسه الخوف من الحياة والحب لها، وحب الارتباط بالواقع. . . وسيكفى التدبير والعمل للاقتناء والتوريث، وسيستمر حتى يخلص فكراً طليقاً بعيداً عن قيود الأجسام وضرورات الأرض، ويكون قلبه وكراً لساكنات غريبات من الأفكار والأوهام، كما يكون الركن الحرب مسكناً لطيور وحشرات لا تحبها الحياة، ولا تحب هي نور الحياة. . .!

لن يجدي الإنسان شيئاً أنه يقف على ملء يديه بالأضواء والرياح والمياه، وما لا قبض عليه ولا محصول يدوم منه إلا صوراً بيانية في ورقات جافة. . .

إن الحياة هي كلمة الله النافذة إلى القلوب، لا يحسها إلا من يحملها بأعبائها، ثم يحاول أن يسلمها لغيره. . . وقد أودعها الله قلب آدم، (فجعلها كلمة باقية في عقبة إلى يوم يرجعون. . .)

إنها كلمة السر! من لا يعرفها لا يستطيع أن يسير في المسالك والدروب التي طرقتها

. . .أرجل القافلة منذ فجر الحياة إلى يوم الناس هذا
كثير من المتطلعن المتوسمين لما يولد في الكون من عجائب يحبون أن يروا مخدوعاً
شاذاً يأتي إليهم بطبائع غريبة وألوان مستحدثة من الحياة والتفكير. ومن هنا كان
إعجابهم بأمثال (أبي العلاء) و (نيتشه) و (شوبنهاور) وغيرهم من المتشائمين
المتشككين الذين أبوا أن يمدوا أيديهم إلا الحنظل والأشواك ويتركوا ما في الحياة من
تفاح وأزهار. ومنشأ إعجابهم بأمثال هؤلاء أنهم يحبون أن يروا الشذوذ ليدركوا منه
القاعدة العامة التي تنتظر حياتهم.
إنهم يحبون أن يروا الضحايا المصلوبين ليتخذوا منهم مادة لأقوالهم وخيالهم وتأملاتهم.
وكثيراً ما يخدع الشباب المفتون بهذه الحياة الشاعرة الحادة المتشائمة المنطلقة من
قيود الأرض التي لفتت النقاد والمتكلمين ودعتهم إلى التحليل وإضفاء النعوت والألقاب
وضفر أكاليل الغار ونثر الأزهار. فيحب أولئك الشبان الشعراء أن يحوزا مثل تلك
. . .الشهرة ولو أصابتهم أوجاع المصلوبين والمحرومين
ولكن ما جدوى الشهرة وأكاليل النار على من أقفر قلبه من بشاشات الحياة؟ وعلى
من رأى الحياة عبئاً ثقيلاً يود الفرار منه ولو إلى جهنم؟
إن السعادة لن يكون منشؤها غير الفيض الذاتي من القلب الذي يتصل بأعماق الحياة
ذات المسرات الأصلية. ولن تأتي بها شهرة أو مال أو ألقاب يخلعها عشاق الأعاجيب.
. . .فليحذر الشباب أن يصدقوهم ويكذبوا الحياة
كلا. لم نخرج إلى الوجود لنفهم أنفسنا عن أطايبه إلا ما يه تأثيم ومساس بحقوق
الجماعة التي تنمو بينها عوامل الحياة
فلنأخذ طوعاً من الوجود كل طيب مريء كما نحمل كرهاً على تناول الخبيث الوبئ من
آلامها. . . وليس من العدالة أن نقبل الألم ونأبى السلامة، إلا إذا أردنا أن تكون حياتنا
سلسلة من النقمة والسخط والوجيعة واجتراز الأحزان ورؤية الحياة من وجهها المظلم
. . .وحده
ولندفع أنفسنا إلى غايات الكبرى في شئ من الخديعة والتلبيس كما ندفع الأطفال إلى
. . .غايات مستقبلهم
وإن الاعتراف بازدواج المساءات والمسرات في الطبيعة هو أول أسس النجاح واجتياز
محنة الاختبار في هذه الدار. ونكون سعداء حينما تخرج من هذه الحياة متوازنة فينا
نواحي الآلام والمسرات. ونكون أسعد حينما متفائلين طيبة نفوسنا راضين عن الحياة
. . .وواهب الحياة
وإن الأقدار ترمينا بيد السوء لتمسح عنا بيد النعمى. فإذا وقعت علينا إحدى اليدين
فمن الفطنة ألا ننسى أن الأخرى وراءها. فواجب أن نفر من الحزن ولا نحسبه ضربة
. . .لازب، وألا يطيش بنا الفرح فحسبه ضربة لازب
!عينان لعينين، وشفتان لشفتين، ويدان ليدين: تريان وتذوقان وتذودان
تلك شركة إنسانية أرادها الله وطبع عليها الحياة. فمن رأى بعينيه وحده لا يرى
. . .نفسه. . . ومن ذاق وحده قتل حسَّه. . . ومن زاد وحده لم يحمِ جنسه
شركة أرادها الله ليخرج من بينها أيدياً وشفاهاً وعيوناً تنظر وتذوق وتعطي شعلة
. . .الحياة حطباً، ونواميسها عملاً، وطواحينها طِحناً
هذا الجنس الطيني لن يكون ملكياً خالصاً وهو في الأرض والمطلوب منه ألا ينسلخ
ويتجرد من قوانين التراب. ومن قوانين التراب المزاوجة والتجمع والمؤلفة بين
المتشابهات. فبدوات الآمال المحررة، وأحلام الانطلاق الكلي لم تخلق لهذا العالم
الأرضي، وإنما هي نماذج مما سيكون هناك. . . تراها أرواحنا لتتعلق بها وتعمل على
. . .بلوغها بعد الرحلة
والناس يحيون هنا بالجسد أكثر مما يحيون بالروح. فهم إن عجبوا من المتحررين من
الأجسام فما ذاك لأنهم يريدون اقتفاء آثارهم، وإنما يقفون أمامهم لحظة أو لحظات
!ثم ينفلتون إلى غمرات الحياة ذات السحر والسلطان الآسر القاهر
فلا تأخذنكم خواطف العزلة يا شباب الشعراء ولا تتخطفكم الأشباح والأوهام من
رحاب الجماعة وأحضان الطبيعة ذات المنطق العملي؛ فإن لذلك عقاباً صارماً وثمناً
غالياً يدفع من الأعصاب والدماء وقوى الجسد والروح. ولا مقابل لذلك إلا قبض على
!ريح، ومضغ لماء، واغتراف من سراب

ما نحن المتكلمين تجاه وجه الحياة الواضح المعروف إلا نكرات مبهمة لا يعرفها أحد. أما هي فوجهها معروف السمات صادق القسمات. فإذا طالعنا الناس بوجوه مخالفة لها كذبونا وصدقوها. . .

وما منطقنا تجاه منطق الأبد العميق الذي يجر الأحياء إليه بقيود وحبال من سحره الخفي، إلا منطق تافه ذو صوت خافت تذهب به ضجة الحياة ذات المراكب الثقيلة والمواكب المتلاطمة. . .

فليكن وجه أدبنا صورة من وجه الحياة الصادق. . . وليكن منطقنا منتزعاً من منطقها الصارم. . . ليكونا أدباً ومنطقاً يخدمان أهداف الحياة ويخففان أعبائها. . .

وليكن عرضنا للآلام والأحزان عرض المذكر بدولتها على النفوس حتى لا تطيش بها الأفراح والمباهج، لا عرض الذي جعلها محور فنه. وليكن أدب الحرمان بمقدار الحرمان الذي في الحياة، لا يزيد عليه ولا يجترُّه. . .

والحياة وَهُوبٌ معطاءٌ أكثر مما هي بخيلة ضنينة. فليكن تصويرنا لها بالفن كما هي، بل إن استطعنا أن نزيد بالفن ألوان مسراتها وأنواع عطاياها فلنفعل. . .

إن الحياة هبة عظمى ثمينة من واهبها! فلنعرف لها مقدارها. . .

ولنهتز مع أعوادها الخضر للرياح والنسمات والأنداء والأضواء اهتزاز النماء والإنتاج والإثمار وإعطاء الأسرار للأبناء بعد أخذها من الآباء. . .

ماض (مَيّاً) لو عاشت (أنشى) للبيت والأمومة والفن المخفف بدل تلك الرهبانية التي اختطفها من رحاب الحياة وانتهت إلى اختطافها من صومعة الفن كذلك؛ فحرمت العروبة وحرمت الأدب من أعذب صوت نسوي يشدو ببيان عربي؟

إن الفن تفر إليه النفس لتخفيف أعباء الوقع؛ فينبغي ألا يتخذ غذاء دائماً للنفس وإلا فقد سحره وأورث النفس سآمة لا دواء منها. ومن أين الدواء وقد صار (أفضل ما في النفس يغتالها)! وصارت الغصة مما كان يزيل الغصة؟

وما كان ضرها لو مرت بموت أبويها كما يمر سائر الناس بموت الآباء والأمهات: بكاء على الفراق حتى نتعود الفراق، فيندمل الجرح وننسى إلا في ساعات الذكرى التي لابد فيها من استحضار صور الأحباب والأعزاء الذاهبين، فتدمع عيوننا دمعاً لذيذاً رقيقاً يغسل غشاوات القلب بما غير حميم لذاع. . .

إن احتجاز الأحزان الثقيلة واجترارها أعظم ما يبتلى به القبل به الأعصاب ويمحو بشاشات الأيام ويحبس النفس في جدرانها تحت ظلل من الخواطر القاتمة. . .

مسكينة (مي)! استغنت عن صداقتها ومجالس أسمارها وأحاديثها في أشد أوقات حاجتها إلى السلوى بها!

لقد نجاها الموت من عذاب مثلث الأوجاع: التفرد، والشكل، والمرض. . . وما كان لأنشى أن تحمل مثل ما حملت وتنهض به. . .

عبد المنعم خلاف

مسابقة الأدب العربي لطلبة السنة التوجيهية

نداء المجهول

للدكتور زكي مبارك

التعاون بين الأدباء العرب - شخصية محمود تيمور - درس

- الطبقات الفقيرة هو أسهل الجوانب في الدراسات النفسية

- فتنة المستشرقين - الولد سر أبيه - وهو أيضاً سر أخيه

صدق محمود تيمور يتمثل في (نداء المجهول).

الأدباء العرب

حديث اليوم عن (نداء المجهول) للأستاذ محمود بك تيمور، وتطلب الطبعة الثانية من مكتبة المعارف بالقاهرة، وثمنها عشرة قروش.

ورعاية للوفاء نذكر أن هذا الكتاب طبع أول مرة في بيروت بعناية (دار المكشوف)، وقيل في المقدمة إن نشره هنالك (برهان جديد على السعي الجدي في سبيل التعاون بين الأدباء العرب) - وهذا حق - فإخواننا في فلسطين وسورية ولبنان والعراق ينتهزون جميع الفرص لتوكيد صلات الإخاء بينهم وبين زملائهم في الديار المصرية، وتلك عاطفة بذكرها المصريون بالحمد والثناء، ولا يعلم إلا الله مقدار الاستيحاش الذي عانيناه يوم قضت الحوادث منذ أشهر بانقطاع البريد بيننا وبين تلك البلاد.

شخصية محمود تيمور

كنت أشرت وأنا أتحدث عن الأستاذ إبراهيم المازني إلى أني سأضع الأستاذ محمود تيمور فوق المشرحة - وكذلك صنعتُ - فكتبت عنه مقالاً يؤذيه بعض الإيذاء، ثم مزقت ذلك المقال حين تذكرت أن محمود تيمور لم يشترك قبل اليوم في المعارك الأدبية، ولم يتعود دفع النضال بالنضال، وما يجوز ذوقاً أن نهجم على رجل لا يفكر في الدفاع.

ولكني مع هذا مسئول أمام قرائي، ومن الواجب أن أحدثهم عن رأي في أدب محمود تيمور

بلا مواربة ولا رياغ، وهل من الحتم أن نعلن الحقيقة بعنف، ونحن نملك إعلانها برفق؟

سأقول كل شئ في محمود تيمور بدون أن أعرضه للضجر والامتعاض، إلا أن يغضب من الحق، كما يقع لبعض الناس فمن محمود تيمور؟

هو شخصية ساهية لا ينم مظهرها على شئ، إلا بعد التأمل والتدقيق، كأن يذكر المتوسم أنه كاتب معروف، ولابد أن تنطق معارف وجهه بأشياء، وفي الناس من لا ينطق إلا إن أنطقناه بالعنف أو باللين.

وعند التفرس في وجه محمود تيمور نرى أنه (وَلدٌ واعي) كما تقول العبارة البلدية، وهو في الواقع غاية في الوعي. وسحنته الساهية تؤيد المثل الذي يقول (تحت السواهي دواهي)، وهذا أجمل ثناء يقدم إلى هذا الرجل الحصيف.

والدليل على أن محمود تيمور داهية هو إقباله على فنه الأدبي بطريقة جدية من حي لا يشعر أحد بأنه من أصحاب الأهداف، فمنذ أكثر من عشرين سنة وهو يفكر ويكتب بنظام لا يعرف الملال، وقد يتفق له في أحيان كثيرة أن يهيم في شوارع القاهرة بلا غرض ظاهر، فهل يصنع هذا الصنع إلا ليستوحي القاهرة ويتعرف إلى شمائل الناس في الغدو والرواح؟ الرأي عندي أن ذلك هو حاله في جميع ما عرف من البلاد، فأقاصيصه تشهد بأنه ينقل عن عيان لا عن سماع.

ويحدثك ناس أنهم زاروا محمود تيمور وسامروه، وأنهم سألوه عن كيت فأجابهم بذيت، وتنظر فتجد بعض أولئك من ذوي الغفلة العقلية، فما غاية هذا الرجل من الترحيب بأمثال أولئك الناس؟ ما غاينه وأكثرهم يتوهمون أنه تلميذهم المطيع، وأنه سيمنحهم نعمة الخلود في ظلال العقل، لا في حظائر الخبال؟

محمود تيمور له غاية من صحبة من لا يمتون إليه بصلة نفسية أو ذوقية، وغايته هي درس الغرائز والأحاسيس فيمن يلقي من الناس، ولو كانوا من الأوشاب.

ألم أقل لكم إن تشريح أجسام الضفادع لا يقل قيمة في نظر العلم عن تشريح أجساد الأسود؟

ولكن هذا الدهاء لم يمض بلا جزاء، فاهتمام تيمور بدرس النفوس الصغيرة حرمه نعمة التحليق في الجِواء السامية، فمن النادر أن نراه يلتفت إلى المخاطر التي تصاول كبار النفوس.

وأندر من ذلك أن نراه يهتم بتصوير الأزمات التي تصارع كبار العقول. وهل تخطر هذه الأشياء على بال وهو لا يتمرس بالجانب الوعر من صخرة الوجود!

محمود تيمور يهتم بدرس الطبقات الفقيرة، مع أنه (ابن ذوات) فما سبب ذلك؟

أكاد أجزم بأنه يختار الجانب الأسهل من الدراسات النفسية؛ فالفقير ينفض همومه بين يديك حين تحادثه لحظة زمان، أما الغني فيطوي همومه عن جميع الخلائق، وقد يلهو ويلعب وبين ضلوعه نيران تأكل الجبال.

الغني يعرف عن الفقير كل شئ، لأنه يراه في كل وقت ممثلاً في الخادم أو السائق أو الصانع أو الفلاح، ومن إلى هؤلاء من تقوم على كواهلهم قواعد المجتمع، وهم لسذاجتهم ينطقون بما يشتجر في صدورهم من آلام وآمال. ولو شئت لقلت إن الفقير يتحدث عن كل شئ، حتى الدسائس التي يحوكها عقله الضيق، والحيل التي يصوغها ذهنه الكليل.

فهل تحتاج متاعب هؤلاء إلى كاتب فنان؟

تمد يديك لمعاونة امرأة فقيرة على ركوب الترام فتهتف:

(الله لا يغلّب لك ولية)

وهي كلمة لا يهتف بمثلها الغني ولو أنقذته من أنياب القضاء في تهمة تبديد

محمود تيمور رجل هادئ أو كسلان، وإلا فكيف جاز أن يقضي عشرين سنة في صحبة

القلم بدون أعداء؟ وكيف يعادي رجل لم يستطع قهر الجمهور على درس إحدى المعضلات؟!
هو طبيب في يده مشرط، ولكن مشرط (هذا) الطبيب صورة ثانية من المرسوم فوق صفحة من كتاب!
وذلك مصير كل كاتب يهتم بإرضاء الجهلاء المتعالين، وهم دعاة الموت، أو هم الأموات وإن ترددوا بأردية الأحياء
فمتى ننقل تيمور إلى صفوف المكافحين لنضع في دمه شيئاً من الحديد؟
فتنة المستشرقين
محمود تيمور من أكابر العقلاء، ولكنه مهدد بأحد الأخطار المواحق ومن البر بصديقك أن تبذل في نصحه ما تملك، وهذا الرجل من أعز أصدقائي، فأنا ماض في نصحه بلا تحفظ
ولا احتراس.
صديقنا (تيمور) مفتون بالمستشرقين، وما أريد بهم الجماعة التي تعني بدرس حياة العرب قبل الإسلام، أو الجماعة التي تدرس حياة العرب في عصر النبوة، أو الجماعة التي تدرس حياة المدنية الإسلامية في عهود العباسيين والأمويين، أو الجماعة التي تدرس ما صار إليه أدب العرب بعد سقوط بغداد، أو الجماعة التي تدرس العقلية العربية فيما سيطرت عليه من الممالك الأوربية. ما أريد هذه الجماعات العلمية، فمحمود تيمور لا يلتفت إلى هؤلاء العلماء، وإنما يلتفت إلى المستشرقين المشغولين بدرس الأدب العربي الحديث، وهم شبان على جانب ضئيل من التحصيل ولا يهمهم غير البريق
وأنا أعرف هؤلاء الشبان، وأعرف غرضهم القريب والبعيد. همُّ هؤلاء الشبان أن يوحوا إلى أبناء العرب أن مصير اللغة العربية مصير اللغة اللاتينية سواءً بسواء، وقد تفرعت اللاتينية إلى لهجات، فما الذي يمنع من أن تتفرع العربية إلى لهجات؟ وهل يكون ما بين مصر والشام والعراق من وشائج أقوى مما كان بين الفرنسيس والطليان والأسبان؟
يجب أن تحرص كل أمة من الشرق العربي على وجودها الذاتي بحيث يصبح لكل أمة لسان، وإلا فهي أمم متأخرة لا تنصاع لقانون التطور، وهو قانون!!!
وهؤلاء من المستشرقين يسرهم أن يسجلوا أن أول من كتب العامية بحروفها النطقية هو فلان، والأستاذ محمود بك تيمور يسره أن يكون ذلك الفلان.
ألم تقرءوا المسرحيات التي نشرتها مجلة (الحوادث) منذ أسابيع، مع تقديم لطيف يشير بجعل العامية لغة الأدب المسرحي في هذه البلاد؟
هذا الصنف من أهل (الاستشراق) له تأثير سيئ في حياتنا الأدبية، وهو يظلل الجمهور أشنع تضليل. ألا ترونه يقدم ويؤخر في أقدار الأدباء، مع أن نقاد الأدب في بلاد العرب هم أصحاب الحق الأول في تقويم الآثار العربية؟
منذ أعوام نشرت جريدة (باري سوار) مقالات دمية عن (ليالي القاهرة)؛ ورأت الحكومة المصرية أن تمنع تداول تلك الجريدة في مصر بسبب تلك المقالات، فما قصة الكاتب الذي قال في (ليالي القاهرة) ما قال؟
هو أديب فرنسي قدم القاهرة ولم يزر غير الحانات، فكان نصيبه نصيب المستشرق الذي
زار مصر ولم ير غير الأدباء المفتونون باللغة العامية، وهم بشهادة أنفسهم من المتخلفين عن رعيل أهل الفكر والبيان.
والخطر الخوف من مذهب محمود تيمور يرجع إلى أنه رجل محترم، فهو من أدبائنا الكبار بلا جدال، وإقباله على التعبير بالعامية ستكون له عواقب سود، لطف الله به وهداه!
في مَدَى أربعة عشر عاماً لم يجرؤ واحد من الأئمة على كتابة العامية العربية بالحروف النطقية، كما صنع محمود تيمور في المجموعة التي نشرتها مجلة (الحوادث)، وهي مجموعة تشهد بأنه انقاد لفتن المستشرقين أبشع انقياد، وسيهوى بها في قاع جهنم ألف خريف.
الولد سر أبيه

أترك هذا الجانب الشائك، وأنتقل إلى شرح مسألة طال حولها الخلاف، وهي البعد بين تيمور الأب وتيمور الإبن، فجمهور أهل النقد يرى أن محمود تيمور يسير في طريق ينكره أحمد باشا تيمور، وكان هذا الباشا من أكابر أهل البحث والتحقيق وأسارع فأقرر أن (محمود) سر أبيه في اللغة وفي القَصص، ولكن كيف؟
ألف تيمور باشا رسالة في اللغة العامية، ولهذا المنحى من التأليف مدلول، فهو يشهد بأن ذلك الباحث العظيم كان يرى أن اللغة العامية خليقة بـ (ردِّ الاعتبار)، فهي لغة فصيحة لا ينقصها غير الإعراب، وليس الإعراب شرطاً في البيان إلا عند خوف اللبس والغموض.
وقد ورث محمودٌ عن أبيه هذه النزعة مع شيء من الانحراف أغراه به صنائع المستشرقين.
ومحمود سر أبيه في القصص، ولتوضيح هذه النقطة الدقيقة أقول:
مؤلفات تيمور باشا تغلب عليها النزعة القصصية، وإن كانت في الأغلب من فنون البحث القائم على الأسانيد.
هل قرأتم كتاب تيمور باشا عن (أعيان القرن الثالث عشر)؟
قد تقولون: إن الأخبار الواردة في هذا الكتاب منقولة عن الواقع لا عن خيال؛ وأقول: إن تلك الأخبار الواقعية فيها نزعة خيالية، وهل كانت القصة الجميلة غير حكاية صحيحة؟
تيمور باشا لم يخترع ما في كتابه من حوادث، ولكن أسلوبه في تخير الحوادث يشهد بأنه
مبدع أقاصيص
وما الغرض من القصص؟
للقصص غرض واحد: هو إنطاق الحوادث بما كان يجب أن تقوله لو نطقت، وهذا درس أقدمه لبعض الخلائق بالمجان
ولتيمور باشا كتاب عن أبي العلاء، فإن قرأتم ذلك الكتاب، فستعرفون أن المؤلف يرى الناحية القصصية أساس التأليف.
والولد سر أخيه
لمحمود تيمور أستاذ هو أخوه محمد تيمور، وكان هذا الأخ مفتوناً بدرس الملامح البلدية، وكتاب (ما تراه العيون) يؤيد هذا الفتون.
كان محمد تيمور فتى تذوق أفاويق الحياة في باريس. ويقول من رأوه إنه كان من نوادر أهل الجمال، وشاءت لوذعيته أن يشترك في بناء المسرح المصري بالتأليف والنقد والتمثيل. ولا أزال أذكر كيف كنت أتعجب من مثل قوله على صفحات جريدة (المنبر) وهو يبدي إعجابه بأحد الممثلين: له ثنائي وقبلاتي! ولو رجعنا إلى مقالاته في النقد المسرحي لوجدنا الإعجاب لم يكن له صورة في قلمه غير العناق!
فماذا ورث محمود عن محمد تيمور؟
ورث عنه النظرة إلى الحياة الشعبية، ولم يرث عنه النظرة إلى السريرة الأريستوقراطية، ولو عاش محمد تيمور لصار من أكابر الشعراء في حدود تفتن أهل هذا الجيل
ولكن محمود تيمور له موهبة لم يظفر بمثلها أخوه، وهي الصدق في الوصف، الصدق الصادق الأمين، فما قرأت شيئاً لمحمود تيمور إلا أدركت أنه يختزن ما يشاهد من الأحلام والأوهام ليزود به قلمه الوصاف.
نداء المجهول
ويتجلى فن محمود تيمور في قصة اليوم، وهي: (نداء المجهول) وأي قصة؟
قرأتها في جلسة واحدة، مع أنها تقع في أكثر من مائة وستين صفحة؛ ثم تلفت إليها في اليوم التالي فاشتهيت قراءتها من جديد.
لم أقيد على المؤلف غير غلطتين اثنتين: الأولى تنويهه بأن الفندق الذي نزل لم يكن يمانع في أن يجلس الزائرون على المائدة بالملابس البلدية، وكان هذا غلطاً لأن حوادث القصة تقع في سنة 1908 وفي قرية من قرى لبنان ليس فيها غير ثلاثة بيوت، وليس من المعقول أن يكون لمثل تلك القرية في ذلك الوقت تقاليد إفرنجية.
أما الغلطة الثانية فهي أفظع، ولكن كيف؟

هام بطل الرواية بفتاة إنجليزية، فأنست به واطمأنت إليه، وقالت لنكن صديقين، ثم شاء لها الدلال أن تقول: إنها امرأة بلا قلب.
وهنا يذكر بطل الرواية أنه شعر بالخيبة والإخفاق
ولو تأمل هذا (البطل) لعرف أن ذلك إغراء
وكيف يعرف وهو محمود في سنة 1908؟ وهل كان في ذلك الوقت غير طفل لا يعرف طبائع النساء؟
نقد رفيق
قد أتعصب لمصر إن جبل لبنان لم يظفر بوصاف في قوة محمود تيمور، ولكن أخانا تيمور أخلف الظن في فهم لبنان بعض الإخلاف، وهل تكون الأخلاق اللبنانية في مثل ذلك الاتساق الرتيب؟
نبيل الأخلاق من أول يوم إلى آخر يوم و (الدليل مجاعص) سخيف من (الشيخ عاد) أول يوم إلى آخر يوم.
و (حبيب) خادم الفندق أبله في جميع الأوقات
و (السائح المصري) لم يقدر على استغواء (سائحة إنجليزية) شرح الله ولا شرعك، يا تيمور!
أما كان في مقدورك أن تلون الحيوية في أخلاق أولئك الأبطال؟
أما بعد فهذه (رواية) لم يكتب مثلها كاتب في الموضوع الذي صيغت فيه، وقد اشتهيت أن تكون هذه الرواية من وحي قلمي على شرط التحرر من أخطاء كاتبها المفضال!
وهل تعاب الرواية من أجل غلطة أو غلطات؟
ألا يكفي أن المؤلف استطاع أن يقنعنا أنه البطل بحق وصدق؟
زار كثير من المصريين لبنان، وفيهم أدباء فضلاء، فهل كان فيهم من استمع لـ (نداء المجهول) على نحو ما استمع هذا الفنان؟
ثم أما بعد فلطلبة السنة التوجيهية أن يعرفوا أن رواية اليوم رواية وصفية من جميع الجوانب، فهل يعرفون أين يقم ضرام التشبيب في تلك الصفحات؟
ما المرض الذي كان يساور (مس إيفانس)؟
وما السبب في تخاذل (الأستاذ كنعان)؟ وما وجه السخرية من نزعته العلمية؟
وكيف سخر المؤلف من بعض الأوضاع والتقاليد؟
لم أقل شيئاً، مع أني قلت كل شئ، ولكن كيف كان ذلك؟
أجيبوا أيها الفتيان النجباء
زكي مبارك
أول مقالة نشرتها وأول درس ألقيته
للأستاذ علي الطنطاوي
إني لأحظ عنوان هذا الفصل وأنا أسخر من نفسي، إذ أحدث الناس حديث مقالاتي، والناس في شغل عني وعن مقالاتي بهذا الهول الهائل، والبلاء النازل، والغلاء الشامل، وبالله العوذ مما هو أشد وأعظم.
ولعمر القراء ما أكثر الحديث عن نفسي لا لزهو ولا لكبر ولا غرور؛ ولكنها صناعة الأدب يسوغ معها ما لا يسوغ مع غيرها. وإني (إذا أردت الجد) لمن أشد الأدباء زهادة في الأدب، وأخال أن الناس في أدبي لأزهد، ولولا كليمات أسمعهن أحياناً فيهن تعليق على ما أكتب أو ثناء عليه، أو رسائل في مثل ذلك قد يأتيني، أو فقرات قد أقرأها في صحيفة فيها تنويه بي، لولا ذلك (وما ذلك؟!) ما ظننت أن أحداً يقرأ مقالاتي!
وما قصدت هذا الموضوع قصداً، ولكني نبشت أوراقي أفتش عن ورقة أريدها، فخرج في يدي (عدد) من المقتبس قديم، تاريخه سنة أربع وعشرين وتسعمائة وألف، ففتحته أنظر فيه، ففتحت لي دنيا من الذكريات اللذة، وقرأته فقرأت فيه تاريخ نفسي: رأيتني في الصفوف الأوائل من الثانوية، وحولي رفقة ما رأيت بعدهم مثلهم في إقبالهم على الدرس وجلدهم عليه، وفي رسوخ ملكاتهم الأدبية، وقوة طبعهم في الأدب وسليقتهم في اللغة، وتسابقهم إلى مطالعة نفائس المصنفات، ومعرفة المصادر والأمهات، ولم يكونوا كشباب اليوم الذين يحاولون الكتابة قبل القراءة، ويغتربون بالنشر فيحسبون أنهم أنداد وأقران لكل من يكتب في الصحيفة التي تنشر لهم، ويعلن أحدهم عن كتابه الذي سيصدره قبل أن يكتب منه عشر صفحات، وينتقد الكاتب الكبير وهو لا يحسن أن

يقيم لسانه في قراءة مقالة من مقالاته، ويخدع المجلة عن أدبه فتظنه شيئاً فتخدع به القراء، وما لم أذكر من صفاتهم آلم وأنكى. . .

وكنت قد قرأت طائفة من الكتب أذكر أن منها (حياة الحيوان للدميري) وهو أول ما طالعت من الكتب، وهو دائرة معارف (كما يسمونها اليوم) أو هو معلم جامع فيه فقه ولغة وأدب وقصص وتاريخ وخرافات وعلم وحقائق أفدت منه كثيراً، (والصباحي لأحمد بن فارس) وقد ألقى في نفسي إجلال العربية والإيمان بسعتها وجلالها، وحبب إلى جزالة الأسلوب

وفحولة اللفظ، ولا أزال إلى اليوم أعجب برسالة ابن فارس هذا إلى من أنكر فضل الجديد لأنه جديد، ومال إلى تقديس كل قديم لأنه قديم، وأعدها من نفائس الآثار، وهي في مقدمة الكتاب، و (بلوغ الأدب للألوسي) وقد أورثتني التعصب للعرب والمبالغة في ذلك، ثم علمت أن قد كان فيه زيف كثير كما كان فيه صحاح كثير، وما زلت أحفظ جملة صالحة من أخباره صحيحها وباطلها؛ و (الأغاني) قرأته كله، أعني أخباره وقصصه دون ما فيه من أسانيد وأصوات وأشعار وأصوات وأشعار وأنساب، وهو رأس مالي في الأدب؛ وقرأت (الكشكول) و (المحلاة) و (مراقي الفلاح) في الفقه الحنفي ألزمني والدي قراءته، أسبغ الله عليه رحمته، (وشرح رسالة ابن زيدون) المطبوع على هامش (الغيث المنسجم) وكانت طريقتي في المطالعة أني إذا فرغت من دروس المدرسة دخلت مكتبتنا فتخيرت كتاباً فأخذته فنظرت فيه، فإن أعجبني مضيت فيه لا أدعه حتى أتمه وإلا أخذت غيره، لا أستعين على ذلك بمرشد، ولا أستهدي بهاد، إلا ما كان شيخنا لأستاذ اللغوي الشيخ عبد القادر المبارك يسمعه لنا من الكتب ويرشدنا إليه. وكنا نأخذ الأدب عن الأديب الضليع المتفنن الأستاذ سليم الجندي، وكان يحذرنا (جزاء الله عنا خيراً) أن نقرأ الجرائد والمجلات وكتابات أهل العصر، على اعترافه أن فيهم من أطفأت شمسه بدور البلغاء من الأوائل، خشية أن نسيء الاختيار فتصيبنا عدوى الركاكة وهي شر من عدوى الكوليرا والجذام. فدخلت الجامعة وأنا لا أعرف من العصريين إلا المنفلوطي رحمة الله، وكنت أظنه أبلغ كتاب العصر، ولا أعدل بأسلوب (نظراته) شيئاً حتى وقع في يدي (رفائيل) للزيات، فوجدته كنزاً من أغلى كنوز النثر، وصغرت معه (عبرات) المنفولوطي حتى صارت كلا شيء. ثم عرفت الرافعي وقد أصدر كتابه (تحت راية القرآن) رفع الله به درجاته في الجنة، فعلمت أن الله قد خلق من هو أبلغ من المنفلوطي، إي والله ومن عبد الحميد وابن المقنع وابن العميد، ومن كنا نراهم يومئذ أئمة البلاغة والّلسن. على أني لم أنس المنفلوطي وترجمت عن شكري له ولأستاذي الجندي والمبارك بإهداء الثلاثة كتابي (الهيثميات) وهو أول كتاب ألفته (1930)

أقول إني أحسست بعد قراءة ما ذكرت من الكتب بشيء تجيش به نفسي، فنفست عنها بمحاولة الكتابة فاستوى لي مقال، نسيت اليوم موضوعه، قرأته على رفيقي أنور العطار

وكان يومئذ يجرب قول الشعر، فأشار على أن أنشره فاستكبرت ذلك، فما فتئ يزينه لي حتى لنت له. وغدوت علة (إدارة) المقتبس وكانت في شارع السنجقدار العظيم الذي صار خرائب وأطلالاً. فسلمت على أبي بسام الأستاذ أحمد كرد علي رحمه الله ورحم جريدته. . . ودفعت إليه المقال، ولم يكن من إخواننا من يعرف طريق صحيفة أو يجرؤ على النشر فيها. وكنا يومئذ متلبسين بجريمة الحياء التي أقلع عنها شباب اليوم والحمد لله الذي لا يحمد على المكروه سواه. فنظر في المقال فرأى كلاماً مكتهلاً ناضجاً، ونظر في وجهي فرأى فتى فطيراً، فعجب أن يكون ذاك من هذا، وكأنه لم يصدقه فاحتال علي حتى امتحنني بشيء أكتبه له زعم أن المطبعة تحتاج إليه فليس يصح تأخيره، فأنشأته له من يسابق قلمه فكره، فازداد عجبه مني ووعدني بنشر المقال غداة الغد، فخرجت من حضرته وأنا أتلمس جانبي أنظر هل نبتت لي أجنحة أطير بها لفرط ما أستخفي السرور. ولو أني بويعت بإمارة المؤمنين ما فرحت أكثر من فرحي بهذا الوعد. وسرت بين الناس وكأني أمشي فوق رؤوسهم تعالياً وزهوراً. وما احسبني نمت تلك الليلة ساعة، بل لبثت أنقلب على الفراش أتصور أي جنة من جنات عدن سوف أدخل في غداة الغد. . . أي كنز سأجد. وجعلت أترقب الصباح ولا ترقب عاشق متيم ينتظر وصلاً بعد طول الهجران، حتى إذا أنبثق الصبح

وأضحى النهار، أخذت الجريدة، فإذا فيها المقال وبين يديه كلمة ثناء لو قيلت كلمة ثناء لو قلت للجاحظ لرآها كبيرة عليه . . .

وعدت أنظر إلى الجريدة القديمة الصفراء وهي مائلة بين أوراقي، وأفكر في هذا الأدب ماذا جنى علي وماذا جنيت منه. لقد سرت بعد تلك المقالة أعدو في طريق النشر. فكتبت في جرائد الشام ووفدت على خالي الأستاذ محب الدين الخطيب في مصر، فأخذ بيدي وسدد خطواتي، وكان لي أفضل مرشد ومعين، وأفدت من خلقه ومن علمه ومن ماله، ثم عدت إلى دمشق، ثم اتصلت بالرسالة صديقة روحي وسميرة وحدتي، وكانت لي خير مدرسة، فيها الأستاذ الزيات خير مدرس. وكنت إذا نظرت في كتاب، أو أصغيت إلى حديث، أو ضمني مجلس، أو شملتني عزلة، أو اضطجعت لأنام، أو نهضت من منام، أو ذكرت ماضياً، أو فكرت في آت، أو أغمضت عيني متأملاً، أو فتحتهما على مشهد من مشاهد السماء والأرض، أجد في كل ذلك موضوعاً لمقالة أكتبها أو فصل أنشئه، وأجد الهمة حاضرة والذهن نشيطاً. ثم كرت أيام، وغبر دهر، وأصبحت لا أستطيع أن أخطر سطراً على قرطاس، وإذا كتبت لم أدر كيف أكتب، ولا لماذا. وأبعث بالذي أكتبه إلى (الرسالة) مضطرب الأعصاب مزلزلها، فإن أخرته غضبت، وإن ألفيت به تطبيعاً وخطئات لم يتنبه لها المصحح تألمت وإن وجدته نسب إليَّ ما لم أقل، ويجعل في المقالة أخطاء تدل على جهل الكاتب وما هي مني ولا أنا صاحبها، عزمت على ترك الكتابة بالمرة وكبر على الأمر، ثم إن جاءت المقالة منشورة قرأتها مرة لأطمئن عليها ومرة لأنقذها مجرداً من نفسي ناقداً لها، ثم أرميها فلا أطيق النظر فيها، ولا أجد من يحدثني عنها كأني أكتب لصخور الجبل لا لبنى آدم . . .

فماذا أفدت من الأدب؟ أما إني لم أجد الأدب إلا عبثاً، ولم أجد إلا مجانين، يسمى الناس وراء المال ويسعون وراء سراب خادع يسمونه (المجد الأدبي). كلما أقبلوا عليه نأي عنهم فما هم ببالغيه حتى يموتوا. وما ينفع ميتاً ذكر في الناس، ولا يغني عنه مجد، ما ينفعه إلا ما قدم من عمل صالح - ولقد كان رفيقي سعيد الأفغاني أعقل إذ كان يمد شفته ساخراً كلما حدثته عن آمالي في الحياة ورغبتي في أن أكون كاتباً يشار إليه بالأصابع؛ وكنا يومئذ في المدرسة الثانوية نتسابق إلى مطالعة الكتب ونتبارى في تلخيصها والملاحظة عليها. فما صنع الزمان بآمالي؟ لقد أراني أني كنت أسعى أطلب السراب، فلا أصل إلى شئ، وما ثمة شئ حتى أبلغه . . .

هذه هي قصة ابتلائي بهذا الأدب الذي أنا تاركه اليوم، أو ظان أني تاركه، ومقبل على الفقه أجدد العهد بما قرأت من كتبه، وواهب له قوتي ووقتي، فليهنأ الذين يجدون فيَّ سداً في وجوههم أن يبلغوا من الأدب ما يريدون، والذين يرون أني مزاحمهم على هذا المورد الآسن.

ولقد كنت أهزل يوم كتبت أفضل الأدب على العلم، وأين من أين؟ وهل تستوي الحقائق والأوهام؟ وهل من علم يوازي على الفقه ويضارعه شرفا، وبه يعرف الحلال من الحرام، وبه تضمن الحقوق، ويدرأ الخصام ويعم السلام. . .؟ ولئن فزع الشباب من زي أهل الفقه، وخافوا أن يوصموا بالجمود والرجعية، فما، يفزع ذلك من سمي بالشيخ وارتضاه له اسماً، ولا تثقل عليه عمامته إن كورها، ولا لحيته إن أطلقها. . . وللثياب، لا جرم، عمل في تكوين طبائع المرء وتوجيه سيرته، فأنت حين تتخفف من الثياب، أو تتخذ ثياب أهل الرياضة (السبور)، فتلبس السراويلات المناكير القصار أو التبان، تشعر بالخفة وتميل إلى القفز والتوثب، وتكره القرار على الأرض؛ فإن أطلت لبسه، أوشك أن يكون ذلك لك عادة، وإن لبست الجبة ولبثت على هامتك العمامة، ملت إلى التوقر والرزانة، ولم تستطع أن تأتي ما هو مناف لها، وتنزهت حتى عن قعود في قهوة، أو ولوج سينمة، أو إسراع في مشية في طريق أو مزحة نابية، أو قهقهة مقرقعة في مجلس . . .

وتتطبع على ذلك حتى يعود لك طبعاً. وإن اتخذت (البرنيطة) جنحت بالضرورة إلى مصاحبة أهلها ومجالستهم، وملت عن المساجد ومجالس العبادة، ولو كنت مصلياً متعبداً، ومن هنا جاء النهي عن التشبه بغير المسلمين، والأمثلة على ذلك كثيرة . . .

على أني إن تركت الأدب فما أنا بتارك الكتابة، وإن من الكتابة لعلماً، وإن منها لإصلاحاً، وإن منها لما ينفع الناس ويدلهم على طرق الخير. . . كما أن من الكتابة ما

هو ثرثرة جميلة، وتسلية سخية، ولغو من القول يذهب جفاء. . . فلينظر ذوو الأقلام ما يأخذون منها وما يدعون، ولينظر القراء ما يقرؤون منها وما يهملون. . .!

أعتذر إلى القراء مرة ثانية من الحديث عن نفسي، فإنه أثقل الأحاديث على أذن السامع، ولكنها صناعة الأدب، قاتلها الله. . .

ولقد أردت حين شرعت في هذه المقالة أن أقول أشياء كثيرة زورتها في نفسي وأعددتها، فلما بلغت الكلام عن أول درس ألقيته، وذكرت هذه المرحلة من حياتي التي قضيتها معلماً، وتنقلت فيها في الآفاق، ورأيت فيها من المتع والآلام، ومن بيض الليالي وسود الأيام، ما لا يعلم حقيقته إلا الله. . . وما لم أصف في مقالاتي في (الرسالة) إلا الأقل الأقل منه. . .

لما بلغن ذلك اعتلج في نفسي من العواطف، وثار فيها من الذكر، ما عقل قلمي وحبسه عن المسير. وكيف أجمع في مقالة واحدة ما تفرق من قلبي في جنات دمشق، وقد علمت في كل مدرسة فيها، وفي (الحرش) الفتان من بيروت حيث (الكلية الشرعية) وعلى الشاطئ الوادع من دجلة حيث (الثانوية المركزية)، وفي طريق الأبلة إحدى متنزهات الدنيا الأربعة حيث (الثانوية البصرية)، وعلى سيف الفضاء الأرحب من (كركوك) بلد الذهب الأسود الذي يشتعل أبداً، وعلى ضفة الفرات الجميل في دير الزور، البلد الكريم أهله، وحيث أذكر ولا أذكر.

إنها لتطر على قلبي الساعة آلاف من الصور التي مرت من قبل على عيني؛ بل إني لأبصر الآن الآلاف من وجوه زملائي في التعليم وتلاميذي الذين أحببتهم، تنبعث من ظلام الذكريات؛ ثم تطيف بي محيية باسمة تتلو على قصة نفسي، وتعيد إلى ما مضى من عمري؛ فكيف إلى الاجتماع بهؤلاء الأصدقاء لأودعهم قبل أن يتجدد الفراق، ولا حدث بهم عهداً، كيف وقد تفرقوا تحت كل نجم! كيف وقد علا منهم من علا وهبط من هبط، وشغلهم شواغل الحياة فلم يعودوا يذكرون معلماً ولو لم ينسهم ذلك المعلم! كيف ومنهم الوفي ومنهم الجاحد والناس معادن. . .

يا رحمة الله للمعلمين، لمن كان منهم قلب، وسلام على أيامي التي صرمتها معلماً. . . وعلى كل من يقرأ هذا الفصل من زملائي وتلاميذي، ولهم مني أوفى حبي، وتحيات قلبي!

(النبك - سورية)

علي الطنطاوي

القاضي الشرعي

العقدة النفسية

في طريق التكون وفي طريق الزوال

للأستاذ حسين الظريف المحامي

يراد بالعقدة كل مرض يصيب الحياة العقلية. وتفصيل ذلك أن الطفل يولد وعقله الواعي ستارة بيضاء، حتى إذا اتصل بوالدته وذويه وبالوسط الذي هو فيه، بدأ عقله الشاعر يتكون ويتطور، ودنوت على تلك الستار معاني ما يأخذه عما حوله.

ويمكن إجمال أدوار الطفولة في أن الطفل يشعر بادئ ذي بدء بأنه جزء من أمه، حتى إذا بلغ الثلاث من العمر، أخذ يشعر باستقلال نفسه، وذكت فيه عاطفة فرض ما يريد على الغير ولفت نظرهم إليه.

ويلي هذا الدور، دور السؤال عما حوله كمن يريد أن يحلل ويعلل، ولا يندر أن يسأل الطفل عن نفسه: كيف وجد؟ ومن أين أتى؛ وهو في كل أدواره هذه يعمل على تكوين وتنمية عله الواعي، مفزعاً إياه في الوضع الذي تهيئه له معاني وسطه المحدود.

فحياة عقلنا الظاهر يبدأ تاريخها منذ الولادة، غير أن هذه الحياة قد تكون سلسلة متعاقبة الحلقات، وقد تقوم بين هذه الحلقات بعض الحواجز فتفقد السلسلة صفة التسلسل، وما هذه الحواجز إلا العقد التي تعتور العقل الشاعر في طور نموه، فتقف حائلاً دونه، وترغمه على تبديل اتجاهه الطبيعي بآخر معوج يدركه فيه بعض الشلل.

قد تكون هذه (العقد) في صورة إدراك حقيقية مغلوطة تفقد جزءاً من العقل بعض ارتباطه، وقد تكون منبعثة عن سوء تربية الطفل وعما وراء هذا من مختلف العوامل، فينشأ الوليد شاذاً غير سويّ

إن الدافع الجنسي في الطفل تكون بعد الولادة بقليل، ومن مظاهره مص الأصابع، والرغبة في القبض على الثدي بالشفاه، حتى في غير أوقات الرضاع. هذا ما يقوله الدكتور فرويد ويضيف إليه أن الطفل يوزع حبه على أفراد عائلته، غير أنه يهب أكثره لأمه لشدة اتصاله بها، فإذا ألهاها عنه الزوج نشأ عنده الكره لأمه والغيرة من أبيه، ويزداد هذا الانفعال رسوخاً بتكرر الوقائع، حتى يصبح فيه الطفل واقعاً بين عامل الحب لأحد أبويه، وعامل البغض والغيرة، فإذا بلغ الحلم وجه حبه إلى من يختار من الجنس الآخر، وبذلك يجد

الحب له منقذاً طبيعياً يفنى فيه. أما إذا لم يوجه التوجيه الصحيح لجهل الأبوين أو لشذوذ في الطفل، فقد يبقى الفتى محباً لأمه، أو لمن يماثلها من الفتيات، وتبقى الفتاة محبة لأبيها، أو لمن يماثله من الفتيان؛ وهذا مظهر من مظاهر الشذوذ الجنسي، وهو ما يراد من العقدة. ذلك لأن سلسلة الفكر عن الحب وموطن وضعه فيه لم يجر على ما هو بصورة طبيعية، وإنما انحرف عما خلق له، لعامل في نفس الطفل، أو لشذوذ في تربيته، وسلك طريقاً آخر غير سوى، قد يكون مصدر كثير من آلامه طول حياته.

كذلك يمر بالطفل دور يحب فيه معرفة ما يحيط بموضوع الولادة، فيبدأ بالسؤال عنه فتسكته أمه بما يشعر بقبح الموضوع، فيلتهب فيه حب الاستطلاع بطريقة غير حميدة، ويجد في الموضوع لذة على الرغم من إفهامه أنه قبيح، وتكون النتيجة اعتقاد الطفل بأن الشيء اللذيذ هو الشيء القبيح. وهنا تنشأ العقدة. ويترتب على ذلك أحد أمرين، فإما أن يكره الطفل أن تقترب منه أمه، أو تتولد فيه الرغبة في المخالطة المادية، فيتبع إحدى الطريقتين، إما الخجل أو اللذة الجسدية؛ فإذا أنكفئ الطفل على ملذاته ورأى منه والده ما يريب وانتهره ولجأ معه إلى الشدة، انقلب خوف الولد من أبيه إلى الكره له، والاعتقاد بأنه لو لم يكن أقوى منه لما خذله، وتكون العقدة في نفس هذا الطفل، هي شعوره بالضعف. ولما كان الصغير لا يجد أمامه مجالاً للإفصاح عما وقع له فهو يحاول إخفاءه عن الجميع، ويوجد في محاولته هذه الصفات المضادة للصفات التي يحاول إخفاءها، كطرق دفاعية نفسية ضدها يشعر ما يشعر به من ضعف يوشك أن يظهر للناس.

قال فرويد: إن للعقل الباطن طريقتين متناقضتين للتعبير عما فيه؛ فقد يكون رجلاً فاضلاً شريفاً ذلك الذي يطيل الحديث عن الشرف والفضيلة، وقد يكون سافل النفس دنيئاً فأرد أن يخفي بهذا الحديث ما يعرفه في نفسه مخافة أن يعرفه الناس. وعلة هذا أن العقل الباطن يجب أن يعبر عن النشاط الكامن فيه فإذا كان أحد الطريقين مقفلاً اختار الطريق المقابل

إن الطفل يحمل كثيراً من الغرائز التي يجب أن تعبر عن ذاتيتها وحيويتها في أعماله؛ فإذا نحن منعناه عن الإفصاح عن إحدى غرائزه، اختار للتعبير عنها طريقاً آخر شاذاً، تنشأ فيه العقدة في نفسه، وقد يضغط على رغبة التعبير عن إحدى الغرائز فتتسرب تلك الرغبة إلى

قاع النفس وهي ممنوعة عن الظهور، إلا أنها لا تسكن في موطنها الجديد، وإنما تبقى فاعلة متفاعلة في حدود العقل الباطن، حتى إذا سنحت فرصة الظهور خرجت من العقل الباطن إلى العقل الواعي ونفست عن نفسها في هذا الخروج.

لنفرض أن طفلاً مدللاً أرسله أبواه إلى المدرسة فلم يجد فيها ما ألفه في بيته من الحنان، فمثل هذا الطفل إما أن يغير سلوكه الذي اعتاده قبل دخوله المدرسة، أو يبقى مستمراً عليه، فإذ هو لم يختر ما وقع له وظل يريد من الحياة أن تكون مثلما رآه في بيته، مملوءة بالحنو والرقة، ففي هذه البداية ينتهي الوليد إلى اعتبار كل زميل له في الدراسة فظاً غليظ القلب فينفر من الاقتراب منه، ويشعر بالبغض له، ومن ثم يحدث له نفور من كل غريب حتى تعذبه كل تعارف جديد. ود تغيب هذه الرغبة الشاذة في طيات عقله الباطن، ويزيدها تطاول العهد إمعاناً في التواري، إلا أنها تبقى حية عاملة وهي تكون جزءاً من عقل العليل. فالرغبة التي تربط الموضوع في هذا المثال، هي العقدة

إن أكثر من نعرف يحمل في طيات نفسه من العقد النفسية ما يخرج حياة عقله عن السواء ويميل بها إلى جانب من الشذوذ يكتنف شعور صاحبه وإدراكه ويملي إرادته

على ما يأتيه من قول وعمل. وقد ثبت في دائرة العلوم النفسية أن أخطر سنوات الطفولة ما يقع بين الثالثة والثامنة من العمر، ففي غضون هذه السنوات يقع أكثر ما يدعي بمشاكل الطفولة.

على أن العقدة في ذاتها لا تعد خطراً على صاحبها إلا إذا كانت متوارية عنه، وهي تعمل من وراء حجاب من الزمن. فإذا حلت العقدة زال ما بصاحبها من مرض يصيب العقل في الصميم

غير أن تحليل العقدة إلى العنصر الذي نشأت عنه، وبعبارة أخرى أن تذكر الحادثة الخاصة التي تنطوي عليها العقيدة ليس مما لا يشق على من يعانيه؛ ذلك لأنه إذا فعل وجد نفسه أمام مانع عنيد هو الزمن، فالعقدة لا تكتفي بالاختفاء وراء ثوبها المستعار وإنما تتوارى فيما وراء وقائع الزمن. وفي أحضان هذا الواقع تقع الصعوبة في تحليل العقدة. ولكن مهما يكن الأمر صعباً فأن طريق الخلوص إليه واضح لمن يريد لنطلق العنان لما لنا من خواطر وأفكار ومنازع يعج بها العقل الباطن حتى نخرج بها إلى الذاكرة، ومن ثم إلى عقلنا الواعي فنحللها فيه ونرجعها إلى مصادرها الحقيقية، فإننا إن

فعلنا ذلك استطعنا حل كافة العقد النفسية، وممن ثم يسهل علينا التحرر منها بالإرادة وطول الممارسة

تلك هي طريقة التحليل النفسي، بها نخرج بالعقدة إلى العقل الواعي ونربطها بالحادثة التي نشأت عنها فيظهر لنا بطلانها، وبالتالي نتحرر منها وتصبح وكأن لم تكن بالأمس شيئاً.

(بغداد)

حسين الظريفي

المحامي

2 - قيمة الحرية

للصحافي العالمي ويكهام استير

بقلم الأستاذ زين العابدين جمعة المحامي

لقد زعموا أحياناً أن الجماعات التي يتولى أمرها سلطان يملي إرادته على الجميع هي أقوى من الجماعات التي يمنعها اختلاف الرأي فيها عن الاتحاد في العمل. وأصحاب هذه الدعوى يزعمون أيضاً أن التسامح آية الضعف، وأن التعصب سجية من سجايا القوة، وأغلب ظني أنها دعوى خاطئة، فلقد يكون لمثل هذه الدعوى ما يبررها لو أنه كان من الممكن أن تظفر بحقيقة سياسية واحدة لا تقبل النقاش أو بمبدأ قاطع بات لا يحتمل الجدل، ولكن ما دام واقع الأمر على النقيض من ذلك إذ يعتذر اقتراض شئ من عصمة الرأي البشري، فإن محاولة القضاء على وجهات النظر المختلفة وتتويج رأي غير معصوم من الزلل بحيث لا يرتفع إليه النقد ولا يسمو إليه الجدل هو في الواقع من دون الرأي القائل بأنه ما دامت جميع الحقائق السياسية حقائق نسبية فمن صالح الجماعة أن تختار لنفسها من هذه الحقائق ما يصادف من ذوي العقول الحرة القبول العام باعتباره أسلم القواعد التي يجب أن تتحكم في المصالح البشرية.

والضعفاء من الناس هم أولئك الذين يستبيحون في حق أنفسهم أن يقضي على رأي الفرد فلا يسمع له صوت ولا يقام له وزن، أو أولئك الذين يتلمسون الفرار من مضلات المعترك الإنساني بأن يعتصموا ببعض النظريات أو المذاهب الاستبدادية المطلقة التي يجدون في قبولها نجاة لهم مما يضطلع بها المواطنون الأحرار من معاناة نقد الآراء وتقصي أوجه النظر ومن التردد بين الآراء وما يلازمه من قسوة الشك وألم الحيرة، ومقياس النظم السياسية مائل فيما يخلفه على المواطن الحر من طابع. ذلك المواطن الذي هو غرس يدها ونتاج تعاليمها، والنظم التي تحرم تنوع الآراء وتعدد المذاهب وتخنق حرية النقد تنتهي بأن تسير أبناء البلاد على نمط واحد مطرد، فتقضي بذلك على مرونة العقول البشرية وتنزل بها إلى الحضيض من ركود الحياة وجمود العقل، وتقف حجر عثرة في سبيل تقدم الخلق الإنساني. فقضية النقد إذن هي قضية خطيرة الشأن عظيمة الأثر بحيث لا يتسنى للمدنية أن تصادف نجاحاً بدونها؛ ولذلك كان حتماً على الجماعة إذا ما تأبت عار الخضوع

ووصمة الجمود أن تبيح النقد إباحة لا يعطلها عقاب ولا يتهددها ضرر.
ومع ذلك يوجد هنا فارق هام بين حرية النقد وحرية النهج، إذ - كما لاحظ مستر (برناد شو) في إحدى مقدمات كتبه - لا يسمح له أن يغير سلوكه الاجتماعي ما لم ينجح نده في أن يغر القانون إذ استطرد قائلاً: (وإننا لعلى جهل خطير بأصول مدنيتنا حتى أن غالبيتنا لتحسب أن لها حقاً في أن تغير منهجها فور الوقت الذي تغير فيه آراءها).
ومن أعقد المسائل التي تواجهنا في حياتنا الاجتماعية والتي قد يتيسر التغلب عليها وحل معضلاتها في المجتمعات الحرة بطريق الثقافة وحده أن نميز بين النقد النزيه مجرد الثورة على الأوضاع الاجتماعية، وأن نفرق بين حرية الرأي المبدأ وبين رخص النهج الاجتماعي.
وإذا قدر أن يكون فعالاً منتجاً لا مجرد هدام للنظم والعادات التي تمت في ظروف غير تلك الظروف التي تغشى الناس في وقت معين أصبح لزاماً أن تتوفر للشعب حرية البحث وحرية المعرفة وحرية الكلام وحرية الكتابة، وصار واجباً أن تناقش الآراء وتمحص الأصول التي أسست عليها تلك الآراء، وهذا أمر لا يتسنى وجوده، كما اعترف بذلك الكتاب النازيون ما لم يقم على دعامة من حرية الصحافة التي تنطوي فيها حرية المعارف علمية كانت أو أدبية. ولقد سجل هتلر نفسه هذه النظرية في كتابه (كفاحي) فقال: (يجب أن يكون هدف الحكومة أن تنشئ (هيئة اجتماعية من الكائنات الحية يتشابه أفرادها مادياً وعقلياً). وزعم الدكتور (ديتريش) وهو الموظف الحكومي المتولي الإشراف على الصحافة النازية أن (رأي المجموع) لا رأي الفرد هو ما يجب أن يكون مصدر الثقافات جميعاً بما يتبعها من الدراسات العلمية. كما سودت الدكتور (أوتوكيلويتر) وهو أستاذ نازي جامعي (فكرة الجماعة) على فكرة الفرد.
ومهما ظهر للشعوب التي تربت في كنف الحرية من تعصب هذه الدعاوي، فهي من وجهة النظر الاستبدادية إصلاح منطقي سديد؛ إذ في البلاد التي ضيقوا الخناق على الحرية فيها لا يمكن احتمال الفكرة الفلسفية العميقة أو التحليل التاريخي الدقيق ما لم تنهر تلك الآراء التي فرضتها الحكومة المطلقة ونادى بها قائدها. فروسيا الشيوعية لا تقبل البحث الحرفي في مسائل كالتي تتعلق بملكية الأشياء؛ وألمانيا النازية لا تسمح للعقائد الخاصة بالدم
والجنس أن تكون موضع بحث أو نقاش؛ وإيطاليا الفاشية لا تطبق النظر الحرفي في طبيعة الحكومة ووظائفها، أو في مكانة الأفراد بالنسبة للحكومة. وحسبها من شر أن أسكتت مثل هذا الفيلسوف العظيم (بنيد توكروس). ولشد ما تثيرني آراؤه عن الحكومة والحياة السياسية. ففي كتيبه (أورنيناتتي) قال: (إن حبنا للدولة هو أن نعمل مع الدولة، وأن تخص الدولة ونغمر حياتها السياسية بكامل ما يتوفر لنا من أسمى معانينا وأنبل مشاعر وأصدق ما يجرى في معتقداتنا من الحقائق، أي تلك الحقائق التي تصدر عن ولاء مكين وإيمان متين، وعما يتهيأ لنا أن نأمله من مثلنا العليا. واشتراكنا مع الدولة على ضوء هذه الاعتبارات هو ما نسميه بالحرية بتعبير آخر. وهذه الحرية ليست بمقاومة الدولة أو بالإساءة إلى هيبتها وعظمتها، ولكنها هي حياة الدولة بذاتها وإلا وسعنا أن نزعم أن الدم الذي يجري مجدداً نفسه بدورة مستعمرة في أوردتنا هي حركة متمردة على ما لنا من سلطان في ضبط حركة الوظائف العضوية من أجسامنا، لهذا لا تكون الحرية ملحوظة في الدولة ما لم تكن حرية سياسية مطبوعة على العمل مع مقتضيات حياة الدولة
والحق أن هذا الفيلسوف الإيطالي قد أثم في حق الثقافة الفاشية إذ أهمل النظر للدولة - كدولة مطلقة - ثم أسرف في الإساءة إلى النظام الفاشي، فلم يشأ أن يعتبر الدولة إلا عنصراً تنفيذياً للهيئة الاجتماعية وإلا مجموعاً كلياً للوظائف العامة التي تفوضها الأمة للهيئة التنفيذية لحماية الصالح العام وتدعيمه.
ولا يبعد هذا المذهب عما ذهب إليه (جون استيوارت مل) وقتما وفق لأن يلمس بعض الظواهر الإيجابية لحرية الأمة في رسالته الشهيرة عن الحرية فلقد أشار (مل) إلى أنه إذا عمل أي إنسان عملاً من شأنه أن يضر الآخرين كان من مقتضى العدالة أن يستوفي العقوبة التي فرضها القانون، أو أن يلقي جزاءه من الاستنكار والتحقير العام إذا كان ما فعله لا يقع تحت طائلة نصوص القانون، ثم استطرد قائلاً:
وقد تقضي العدالة إلى ذلك بإجباره على القيام بأعمال إيجابية كثيرة شرعت لصالح

الآخرين، مثلما يلقي على عاتقه من عبء إثبات ما يدعيه في ساحة القضاء، أو ما يتحمله من نصيبه العادل في الدفاع العام أو ما يضطلع به من الأعمال الاشتراكية الأخرى اللازمة لصالح الجماعة التي ينعم بحمايتها. ومثلما يفرض عليه من أعمال خاصة شرعت لصالح
الفرد كأن يتقدم لإنقاذ حياة إنسان أو يتدخل بين الضعيف الذي لا سند له والقوي الذي لا حجة معه لينتصف للمظلوم من الظالم. وهي أمور إذا ما اتضح أن من واجب الرجل أن يؤديها كان من مقتضى العدالة أن تناقشه الهيئة لاجتماعية الحساب عن عدم وفائه بها. فالإنسان قد يلحق الضرر بغيره بسبب ما يقدم عليه من عمل، أو نتيجة لامتناعه عما يجب عليه من عمل وفي كلا النهجين يجب حقاً وعدلاً أن يكون ملزماً بتعويض الضرر.

وهذا النظر الصائب أنسب لحرية الصحافة وأشد انطباقاً عليها من غيرها. وكم تخفق الصحافة في تأدية رسالتها للأمم الحرة، وفي القيام بواجبها على وجهه الصحيح، إذا هي مرت بالطغيان والظلم مرور الكرام، أو ذلت واستكانت فأغمضت عينيها عما يواجهها من سوء استعمال الحق ومن المتصرفات الضارة بالصالح العام. إذ واجب الصحافة أن تترصد الأخبار لتذيعها على الناس، وأن تتعقب الخفاء حتى يبرح، والخبئ حتى يظهر، وأن تواجه الشبه حتى تنجلي، وأن تفصح عن ذلك كله في عبارة حاسمة صريحة، فإذا بالصبح وقد تبين لدى عينين، وإذا هي لا تدين بولاء ولا تنفيذ بواجب إلا للشعب وللشعب وحده لا لأية سلطة تتولى الحكم في البلاد؛ وإذ الطريق الوحيد لكبح جماح الهيئة الحاكمة والحيلولة بينها وسوء استعمال الحق هو أن تذيع على الشعب كيف يتصرف رجال الحكومة بسلطانهم!

ووقتما أصر (مل) ذلك الفيلسوف الحر، على أن يسأل الرجال، وكذلكم الصحافة من باب أولى، لا عما يجترمونه من جرم فحسب، بل عما يترتب على امتناعهم عما يجب عليهم عمله، لم يكن نظره هذا ببعيد عن تلك العبارة الذائعة الواردة في تعاليم الكنسية الإنجليزية، وهي: (لقد عملنا ما كان يجب علينا ألا نعلمه، وأغفلنا عمل ما كامن يجب علينا أن نعمله، وافتقدنا رجاحة العقل وسداد الرأي)؛ وبعبارة أرى قد تكون جرائم الترك هوان للحرية كجرائم العمد

وإذا كان الانتفاع بالحرية والدفاع عنها بحاجة حقاً إلى مجتمع متمدن نشط يصدر في أفعاله عن إرادة حرة وعزيمة صادقة، فليس بأقل من ذلك وزناً ما نحن بحاجة إليه من إعادة النظر في آرائنا وتنقيح مناهجنا فيما ينظم حريتنا على ضوء ما نتبينه من مجريات الأمور وما ينتهي إلينا أو ننتهي إليه من تطور الأحوال وتغير الظروف. ومنذ قرن مضى كانوا يعتبرون ضريبة الدخل التي تستنفذ اليوم على ربع إيراد المواطن الحر، وتلك الواجبات
والالتزامات المتوالية أو المتواترة التي قد يكون من شأنها أن تستأثر الدولة بنصف ما يفيده المواطن من ثروته. نقول إلى قرن مضى كانوا يعتبرون تلك الضرائب والقيود المالية غارة شعواء غير مشروعة على حق الملكية الخاصة وعلى الحرية الشخصية. أما اليوم فقد صارت هذه الضرائب أمراً مقبولاً أو نهجاً مقرراً لا يشق على الناس أمره ولا يتأذون به. ولأقل من عصر مضى تكلموا كثيراً عن حق المنتجين في ابتياع (جني الجهود الطليقة) في (سوق حرة) وكان أغلب ظن أولئك العمال الذين وسعهم أن يفيدوا أجوراً طيبة من بيع جهودهم أنهم قد أمسوا وهم ينعمون بكامل حريتهم؛ وتاريخ حركة الاتحاد العمالي التجاري في هذه البلاد (إنجلترا) هو تاريخ الجهود التي بذلت لتحقيق (هذه الحرية) وإصلاح شأنها عن طريق عقد الصفقات الاشتراكية الرابحة على الرغم من أن حقيقة نظام هذا الاتحاد التجاري ما كانت لتسمح للأفراد بأن يستقلوا عنها ببيع جهودهم مهما كان الثمن الذي يتهيأ لهم الحصول عليه

وما شرع للمصانع من قوانين كان له بلا ريب أثره في التدخل في حرية المنتجين وانتقاصها أصبح اليوم وهو يرى كأمر ضروري لحماية عمال من أي استغلال غير عادي يكون عليهم غرمه وللمنتجين غنمه. ولا زال لدينا من الأسباب ما يحملنا على الظن بأنه سوف يواجهنا يوم يحتاج الأمر فيه إلى إصلاح يعطل حرية المالك في التصرف في ملكه إذا لم يكب للإصلاح النجاح في القضاء على تلك الظاهرة المائلة في إحلال الماكينات محل العمال والقضاء على تلك الأيدي المبسوطة للعمل بان تساق إلى نوع

آخر من الرق الاقتصادي وتنتهي بها حاجتها إلى العمل لأن تكابد شقوة البطالة الإجبارية.

للكلام صلة

زين العابدين جمعة

بعد منتصف الليل

للأستاذ م. دراج

الدقائق تمر بطيئة، وصبري يوشك أن ينفد، وكلما تطلعت إلى النافذة توهمت أننا أشرفنا على الصباح. . . وتعددت مني اللفتات حتى عز الأمل في انبلاجه أو كاد، فازداد قلقي، واشتد تبرمي بالفراش فنحيت عني الغطاء بعيداً، وفي حركة عصبية انتصبت واقفاً، وقد صممت على أن أتنفس هواء الفضاء! فما عدت أتحمل قبلاتها الجائعة تنقض عليَّ في غير رحمة؛ لا، ولا موسيقاها الخبيثة تجفل مها الحواس كل غدو ورواح. وخير لي أن يجف دمي من البرد في الطرقات، ولا تمتصه هذه الحشرة الجائعة. ومن يدري؟ ربما قضت على أن ألازم (الملاريا) وأصادقها ولو لمدة أيام!

كنت لا أحمل ساعة، وأنا كذلك دائماً، وكان مبلغ تشاؤمي لا يتعدى أن الوقت حول الخامسة صباحاً. قلت لنفس هذا الوقت المبكر أصلح جويسري عن الإنسان همومه ومتاعبه، فيه تحتفل الطبيعة بالتقاء الليل والنهار فتلبس أبهى حللها، وتغني طيروها أعذب الألحان. وما ضرني لو شاركت الطبيعة أعظم أفراحها وشهدت كيف تمثل قصتها الخالدة عل مسرح الحياة! لا شئ. أجل، لا شئ.

وأسرعت فارتديت ملابسي وهممت بالانطلاق، ولكني غريب عن المدينة، وفي منزل ليس لي فيه كل الحرية، وليس من اللياقة أن أحرج مضيفي، فأجرح عزة نفسه، ولكن ماذا أصنع وهذه حالي، أنام. . .؟ لا أنام! أبقى. . .؟ لا أبقى، هذا مستحيل! إذن لا مفر من الخروج، وإذا كنت غريباً عن المدينة فأنا ضيفها فأنا في الوقت نفسه، وللضيف حقوق ولو حامت حوله الشبهات. . .! بهذا التفسير غير المقنع أقنعت نفسي، وأخذت أدلف من طريق إلى طريق، وأنعطف مع الشارع إلى الميدان متمهلاً في مشيتي لعلي ألمح تباشير الصباح؛ ولكن الطريق خالية، والناس نيام، والسكون يشمل الفضاء، حتى الطير قد أخلد إلى أوكاره، وأسلم نفسه للكرى، والحراس هنا وهنالك في شبه غفوة يحتاجون إلى من يحرس أسلحتهم من أيدي اللصوص الجبناء. . .! والساعة تدق الثانية بعد منتصف الليل.

ماذا تراني أصنع. . .؟ إني لا أعرف أين يقع الفندق إن كان ثمة فندق يقبلني في هذا القوت، ولا أعرف أيضاً كيف الطريق إلى (استراحة الحكومة) فأنا مشرد من أجل العمل

في خدمة الدولة، والدولة لا يعنيها من أمري شئ. إنها لتكافئني بالحسرة والخسران على ما أبذل من جهد ونصيب، هي ترهقني ليستريح غيري من أرباب الحسب والنسب وذوي الألقاب والأرقام الضخمة وما أشبه هؤلاء في

مراكزهم بأصحاب (العزب والوسايا) أو هم تماماً كالمهرجات في الهند، كلما تضخمت ثرواتهم، هوت على العب نوازل الفقر والخراب، والشعب هنا أمثالي من الموظفين الصغار، (فالقانون المالي) لا يطارد إلا أمثالي بالحرمان من كل شئ، حتى حق الاطمئنان إلى بقائي لأقوم بواجبي في هدوء وانتظام. . .!

لم أوافق على العودة ثانية من حيث فررت، وإن خفت أن يصيبني سوء من طول الوقت واشتداد البرد في الهزيع الأخير من الليل، وأنا رجل يؤثر البرد في جسمه وأعصابي معاً. . .

الساعة تدق الثانية بعد منتصف الليل، وعليّ أن أظل هكذا أربع ساعات طوال!!

وقبل أن أفكر في حل لسؤالي، لاح لي شبح في الظلام، يمش مشية الحذر ثم يمض مندفعاً إلى الأمام، ثم يتوقف وكأنه جندي يستكشف مواقع الأعداء، وهكذا بدا لي أمره غريباً فحاولت أن استكشف سره.

يا الله! إنها إنسانة تحمل وليداً وقد احتضنته إلى صدرها وألقت وشاحها الممزق على الخرق المهلهلة المحيطة بجسمه. سألتها عن حالها فتوقفت ولم تحر جواباً. . . ثيابها الريفية الممزقة، وروحها الحائرة، وعقدة لسانها الظاهرة وصمتها البليغ وأخيراً ربيع حياتها. . .! كل هذا كشف عن حقيقة حالها، هي تبيع نفسها من أجل المال، المال الذي

تشتري به الخبز، هل أعطيها شيئاً مما وهبني الله؟ وهل يحل هذا الشيء مشكلتها؟ لا. . . لن أعطيها شيئاً. . .! ولم أشفق على حالها فأتركها فريسة لمجتمع مملوء بالذئاب . . .الجائعة فقد تتعود الاستجداء في مقابل ما. . .! وليس الناس ملائكة
هذه الإنسانة لها على الدولة حقوق أهونها أن تكسوها وتطعمها، وإلا فكيف يمكن أن تعيش عيشة شريفة في مجتمع يقتتل فيه الناس من أجل المليم؟ وإذا كان الحكام دائماً من الأغنياء الذين لا يتصورن كيف تجوع المعد الآدمية، فلترسل لهم هذه الإنسانة عبرة الحق لعلهم يهتدون. . . وفجأة ظهر الشرطي بعد نومة طويلة بمظهر اليقظ اللبيب فأمسكت أنفاسي
وظهر على شئ من الاضطراب. حاول أن ينال مني بالغمز واللمز، فنهرته بشدة وأنا أعلم أنه سيركب رأسه.
وهناك حيث (ينام) رجال الشرطة على مصالح الناس انتظرت الضابط طويلاً أين هو؟ أين هو؟ لا أدري، ولكني ألمح منطقته تتدلى من المشجب، وسترته تضيء بأزرارها اللامعة فوق كرسي مكتبه. وهو غائب على ثلاث ساعات طوال؛ وتبينت أخيراً أنها زوجة مات عنها زوجها لثلاثة شهور خلت، ولا تدري كيف تقطع الشقة بين الحياة والممات فهامت على وجهها بعد أن أرخى الليل سدوله، تفتش عن رغيف، ولو كسبته عن طريق غير شريف، نتركها بين محاضر التحري تنتظر مستقبلها المجهول.
وعدت إلى الشارع فوجدت الصبح قد غمر المدينة والناس يستقبلون الحياة في معترك لجب ليس فيه حدود، فإذا تساءلت لماذا؟ أجابوك: إنها الحرية التي تقدسها الدولة.
م. دراج
-
المصريون المحدثون - 17
شمائلهم وعادتهم
في النصف الأول من القرن التاسع عشر
تأليف المستشرق الإنجليزي ادورد وليم لين
للأستاذ عدلي طاهر نور
تباع الفصل الخامس: الحياة المنزلية
يجهز الطعام بحيث يسهل تناوله بالطريقة السابق وصفها، وهو يتكون في مجموعة من (اليخني): وهو لحم مسلوق وبصل مقطع، أو قليل من البامية أو غيرها من الخضر، و (القاوُرمة): وهو لحم كثير التوابل مع البصل؛ و (ورق محشي): وهو ورق العنب أو الكرنب أو الخس: يحشى بالأرز واللحم المفروم بعد أن يبتلا بالملح والفلفل والبصل وغالباً بالثوم والبقدونس، ويسلق، ومحشي الخيار أو الباذنجان أو القرع الكوسة، و (الكباب): وهو قطع صغيرة من لحم الضأن تشوى على السفود، وبعض الألوان تتألف جميعها أو أغلبها من الخضر مثل: الكرنب والرجلة والإسباناخ والبامية والفول والترمس والحمص والقرع المقسم إلى قطع صغيرة والقلقاس والعدس الخ. ويعد السمك المطبوخ بالزيت كذلك طبقاً مألوفاً، وتطهى أغلب الأطعمة بالسمن لعدم وجود الدهن، وتوضع فيها التوابل بكثرة، ويذوب السمن في الصيف تماماً، ولابد من استعمال اليدين معاً ما يقدم من الطيور. وقد يقوم بهذه العملية حصان معاً كل بيده اليمنى فقط؛ ولكن بعضهم يقوم بذلك وحده بدون مساعدة وبيد واحدة، ولا يقبل بعض العرب لمس الطعام - على أي حال - بيسراهم إلا إذا كانت يمناهم مبتورة. وليس من غير المعتاد أن تقدم الطيور المنزوع عظامها المحشوة بالزيت والفستق والخبز المفتت والبقدونس، أو حمل بأكمله محشواً بالفستق الخ؛ وهنا يسهل نزع اللحم بيد واحدة. وكثيراً ما تخلط الحلوى باللحم مثل: العناب والخوخ والمشمش الخ والسكر مع اليخني؛ وكثيراً ما تقدم مختلف أصناف الحلوى دون مراعاة نظام خاص بالنسبة للأصناف الأخرى. ومن أصناف الحلوى المحبوبة الكنافة: وتصنع من دقيق القمح وهي أدق من الشعرية - وتقلى بالسمن وتحلى بالسكر أو العسل. ولا تخلو المائدة - من البطيخ في موسمه: وهو يقطع قبل الأكل ويترك في الهواء ليبرد بالتبخر، ولكن يجب ملاحظته حتى لا ينفث الثعبان سمه فيه، لأن الثعبان - على حد قولهم - يحب البطيخ حباً شديداً، ويشم رائحته على مسافة بعيدة. والبطيخ كثير في مصر كثرة

زائدة، وهو غالباً لذيذ الطعم. وآخر طبق يقدم الأرز المفلفل (بيلاف الأتراك) ويوضع عليه الزبد ويبتل بالملح والفلفل، إلا أن كثيراً ما يتبعه - على موائد الأثرياء - (خشاف): يتكون عادة من الماء والزبيب المسلوق فيه ويحلى بالسكر ثم يضاف إليه عند ما يبرد من ماء الورد. وكثيراً ما يحل البطيخ محله.

ويأكل المصريون باعتدال ولكن بسرعة، وحالما ينتهي أحدهم يحمد الله ويقوم دون أن ينتظر الآخرين، فيقدم له الخادم الطست والإبريق ليتسل يديه وفمه بالصابون والماء كما سبق

ولا يشرب المصريون على الأكل غير الماء. وقد يقدم على مائدة الأغنياء (الشربات) التي سأصفها الآن. ولا يشرب العرب على الأكل إلا قليلاً من الماء، أو لا يشربون مطلقاً، وهم على العموم يتناولون جرعة كبيرة بعد الأكل مباشرة. ويمتاز ماء النيل بحلاوة؛ ولكن ماء الآبار، في القاهرة وغيرها، يميل إلى الملوحة. ويشرب الماء إما في أوعية من الفخار أو طاسات من النحاس وأوعية الفخار نوعان: (الدوق) (شكل 39) و (القلة) (شكل40) والأول ذو حلق ضيق، والثانية حلقها واسع. وهما م صلصال ذي مسام يبرد الماء برودة لذيذة بالتبخر. وهما يوضعان لذلك في تيار الهواء. وكثيراً ما يسود داخل الوعاء بدخان الأخشاب الصمغية، ثم يعطر بدخان خشب (القَفَل) والمصطكا. ويستعمل لهذا الغرض وعاء صغير من الفخار يسمى مبخرة (شكل 41) يوضع فيه الفحم اللازم لحرق الخشب والمصطكا، ثم تعلق القلة أو الدورق مقلوباً فوقه. ويشد حول رقبة الدورق خرقة على بعد بوصة من الخلق لمنع السناج أن ينتشر بعيداً على خارج الوعاء. وكثيراً ما يوضع أيضاً قليل من ماء زهر البرتقال فيكسب الماء طعماً لطيفاً. وللأوعية سدادات من الفضة أو النحاس أو القصدير أو الخشب أو أغطية من السعف المجدول. وهي توضع في صينية يسقط فيها الماء الراشح. وكثيراً ما تستعمل الأوعية الصينية (شكل 42) في الشتاء عوضاً

عن الفخار حتى لا يبرد الماء برودة شديدة ويبين (الشكل رقم 42) كاستي الشرب الأكثر شيوعاً. وبعض الكاسات ينقش في داخلها آيات قرآنية، ولم أر ذلك كثيراً. ويبسمل الشارب قبل الشرب ويحمد الله بعده، فيقول له من الأصدقاء الحاضرين: هنيئاً، فيرد عليه: هناك الله.

وبالرغم من إشارة قصص ألف ليلة وليلة إلى مائدة المدام فإن المصريون المسلمين في هذا العصر لا يقدمون النبيذ في المجتمعات العامة في أي وقت من الأوقات على العموم. إلا أن الكثيرين لا يمتنعون عادة عن شرب النبيذ مع الأصدقاء المقربين. وحينئذ لا يدخل الخادم غير الندامى أما غيرهم فيقول لهم: إن السيد ليس بالدار أو أنه في الحريم. وهؤلاء يحتسون النبيذ أثناء العشاء وقبله وبعده ويستحق قبل العشاء لأنه على حد قولهم يثير الشهية وقد أخبرني صديق مسلم تاب عن الخمر بعد إدمان (ولا يمكنني أن أتحدث في هذا الموضوع عن تجربة لأنني لم أشرب النبيذ أبداً فلم يدعني مسلم قط إلى ندوة شراب) أن مائدة المدام تتألف من صينية مستديرة أو طبق زجاجي توضع على الكرسي ويصف عليها إبريقان للنبيذ والعنبر أو أكر من إبريق معاً أحياناً وعدة أكواب صغيرة وصحن صغير فيه فاكهة يابسة وطازجة أو مخللات أحياناً، وأخبراً شمعتان وغالباً ياقة زهر تثبت في شمعدان أو توضع على الصينية.

ويصنع المصريون عدة أصناف من (الشربات) وأكثرها شيوعاً الماء المحلى بالسكر فقط ويكون زائد الحلاوة (والليموناتة) أو شراب الليمون نوع آخر، وهناك صنف ثالث أحب إلى النفس وهو شراب البنفسج ويكون بسحق زهر البنفسج ووضعه مع السكر في الماء وتركه على النار حتى يغلي، وهذا الشراب أخضر اللون، وشراب التوت والحميض والزبيب الذي يباع في الشوارع، والعرق سوس والخروب، ويقدم الشراب في أكواب مغطاة تسمى الواحدة على العموم (قلة) (شكل 43) وبعض المألوف من هذه الأكواب يزين بزخارف مذهبة من الزهور وغيرها وهي توضع على صينية مستديرة مغطاة بقطعة من الحرير المطرز أو الجوخ المرصع بالذهب، ويعلق على ذراع الخادم فوطة مستطيلة الشكل عريضة الحاشية المرصعة بالذهب والمطرزة بالحرير الملون، ومن الجلي أنها تقدم لمسح الفم بعد الشراب، ولكنها في الواقع تتخذ للمباهاة أكثر منها للاستعمال

يمض المصريون ما بين وجبة المساء وصلاة العشاء في التدخين وشرب القهوة، ويستأذنون لذة التدخين بعد فراغهم من الصلاة. وقد يلعبون الضامة أو الشطرنج أو غير ذلك، أو على الأقل يتسامرون فينقضي الوقت دون أن يشعروا بأدنى ضيق. ويقضي أفراد العائلة المصرية وقتهم عندما تسمح الظروف في حبور وبهجة ولكن في هدوء. وكثيراً ما قوم الرجال بزيارة أصدقائهم ليلاً وقت العشاء أو بعد ذلك، ويستضئيون أثناء خروجهم بمصباح مستدير مموج الجوانب يسمى فانوس، ويصنع من النسيج المشمع المشدود إلى حلقات من السلك بينما أعلاه وأسفله يصنعان من النحاس المبيض. وترى هذا النوع في الشكل رقم 44، وبجانبه النوع الشائع وهو القنديل بغطائه الخشبي العادي الذي يقيه شبه الهواء. وهذا القنديل وعاء زجاجي صغير ذو أنبوبة في قاعة، يدخل فيها ذبالة من القطن تلف على عود من القش. ويصب فيه الماء ثم الزيت وكثيراً ما يعلق القنديل على مدخل المنازل. ويخيم على داخل البيوت أثناء الليل جو قاتم ثقيل. ويكفي لإنارة الأبهاء الواسعة العالية ضوء شمعة أو شمعتين على الأرض أو على كرسي؛ وقد تحاطان بوقاد زجاجي كبير، أو توضحان في مصباح من الزجاج لأن النوافذ من الخشب المشبك. والقليل من المصريين من يسهر أكثر من ثلاث ساعات أو أربع صيفاً بعد غروب الشمس (إذا أن الوقت يحسب عندهم من الغروب) وكثيراً ما يسهرون خمس ساعات أو ستا في الشتاء.

(يتبع)

عدلي طاهر نور

رسالة الشعر

قصيدة العقاد في (مي)

أين في المحفل (مَيٌّ) يا صِحاب ... عودتنا هاهنا فصل الخطاب
عرشها المنبر مرفوع الجناب ... مستجيب حين يُدْعى مستجاب
أين في المحفل (مي) يا صحاب؟
سائلوا النخبة من رهط الندىْ ... أين مي؟ هل علمتم أين مي؟
الحديث الحلو واللحن الشجيْ ... والجبين الحر والوجه السنىْ
أين ولى كوكباه؟ أين غاب؟
أسف الفن على تلك الفنون ... حصدتها، وهي خضراء، السنون
كل ما ضمته منهن المنون ... غصص ما هان منها لا يهون
وجراحات، ويأس، وعذاب
شيم غرٌّ رضيات عِذاب ... وحِجى ينفذ بالرأي الصواب
وذكاء ألمعي كالشهاب ... وجمال قُدُسي لا يعاب
كل هذا في التراب! آه من هذا التراب!
كل هذا خالد في صفحات ... عطرات في رباها مثمرات
إن ذوت في الروض أوراق النبات ... رفرفت أوراقها مزدهرات
وقطفنا من جناها المستطاب
من جناها كل حسن نشتهيه ... متعة الألباب والأرواح فيه
سائغ مِيز من كل شبيه ... لم يزل يحسبه من يجتنيه
مفرد المنبت معزول السحاب
الأقاليم التي تنميه شتى ... كل نبت يانع ينجب نبتا
من لغات طوقت في الأرض حتى ... لم تدع في الشرق أو في الغرب سَمتا
وحواها كلها اللب العُجاب
يا لذاك اللب من ثروة خصب ... نير يقبس من حس وقلب
بين مرعى من ذوي اللباب رحب ... وغني فيه وجودٍ مستحب
كلما جاد ازدهى حسنا وطاب
طلعه الناضد من شعر ونثر ... كرحيق النحل في مطلع فجر
قابل النور على شاطئ نهر ... فله في العين سحر أي سحر
وصدى في كل نفس وجواب
حي (ميا) إن من شيع ميا ... منصفاً حياً اللسان العربيا

وجزى حواء حقاً سرمديا ... وجزي ميا جزاء أريحيا
للذي أسدت إلى أم الكتاب
للذي أسدت إلى الفصحى احتسابا ... والذي صاغته طبعاً واكتسابا
والذي خالته في الدنيا سرابا ... والذي لاقت مصابا فمصابا
من خطوب قاسيات وصعاب
أتراها بعد فقد الأبوينِ ... سلمت في الدهر من شجو وبين
وأسى يظلمها ظلم الحسين ... ينطوي في الصمت عن سمع وعين
ويذيب القلب كالشمع المذاب
أتراها بعد صمت وإباء ... سلمت من حسد أو من غباء
ووداد كل ما فيه رياء ... وعداء كل ما فيه افتراء
وسكون كل ما فيه اضطراب
رحمة الله على (مي) خصالا ... رحمة الله على (مي) فعالا
رحمة الله على (مي) جمالا ... رحمة الله على (مي) سجالا
كلما سُجل في الطرس كتاب
تلكم الطلعة ما زلت أراها ... غضة تنشر ألوان حلاها
بين آراء أضاءت في سناها ... وفروع تنهادى في دجاها
ثم شاب الفرع والأصل، وغاب
غاب والزهرة تؤتي الثمرات ... ثمرات من تجاريب الحياة
خير ما يؤتي حصاد السنوات ... بعثرتهن الرياح العاصفات
ورمتهن تراباً في خراب
ردَّ ما عندك يا هذا التراب ... كل لب عبقري أو شباب
في طواياك اغتصاب وانتهاب ... خلقاً للشمس أو شم القباب
خلقا لا لانزواء واحتجاب
ويك! ما أنت برادٍّ ما لديك ... أضيع الآمال ما ضاع عليك
مجد (مي) غير موكول إليك ... مجد (مي) خالص من قبضتيك
ولها من فضلها ألف ثواب
عباس محمود العقاد
قصيدة مطران في (مي)
قد تولى رفاقُنا ويقينا ... يعلم الله بعدهم ما لِقينا
هل من الصاب في كؤوسك سُؤرٌ ... قد سقينا يا دهر حتى روينا
أوداع يتلو وداعاً وتأبين ... على الإثر معقبٌ تأبينا
أيها الشاعر الذي كان حيناً ... يتغنى وكان ينحَب حينا
حطِّم العود، إن كر الليالي ... لم يغادر في العود إلا الأنينا
أن يُلمَّ الردى بَميّ وأن يط ... فئَ مصباحها أليس غبينا؟
طالع السعد كيف بدل نَوْءا ... يبعث الريح والسحاب الهتونا
فإذا ما أقرَّ أمسِ عيونا ... قَرَّح اليومَ بالدموع عيوناً
نعمة ما سخا بها الدهر حتى ... آب كالعهد سالباً وضنينا
أبهذا الثرى ظفرت بحسن ... كان بالطهر والعفاف مصونا
لهف نفسي على حِجيً عبقري ... كان ذخراً فصار كنزاً دفينا
إيه يا مي أسرف اليتم تبري ... حاً بروح كان الوفيَّ الحنونا
فقدك الوالدين حالا فحالا ... جعل البيض من لياليك جُونا
ورمى أصغريك رامي الكبير م ... ن فذاقا المنون المنونا
أقفر البيتُ، أين ناديك يام ... ي إليه الوفود يختلفونا
صفوة المشرقين نبلا وفضلا ... في ذراك الرحيب يعتمرونا
فتساق البحوث فيه ضروباً ... ويدار الحديث فيه شجونا
وتصيب القلوب وهي غِرَاثٌ ... من ثمار العقول ما يشتهينا
في مجال الأقلام آل إليك أجلس ... بق في المنشئات والمنشئينا
في لغات شتى وفي لغة الضا ... د تجيدين صوغ ما تكتبينا
أدب قد جمعت فيه علوما ... يخطئ الظن عَدها وفنونا

وتصرفت فيه نظما ونثرا ... باقتدار تَصرَّفَ الملهمينا
تبتغين الصلاح من كل وجه ... وتعانين شقوة المصلحينا
وحي قلب يفيض بالحب للخير ... ويهدي إليه من يهتدونا
ويود الحياة عزا وجهدا ... لا يود الحياة خسفا ولينا
فهو آنا يبث بثاً رفيقاً ... يملأ النفس رحمة وحنينا
وهو آنا يثور ثورة حر ... عاصفاً عصفة تدك الحصونا
ينصر العقل، يكشف الجهل، يوحي ال ... عدل، يرعى الضعيف والمسكينا
أين ذاك الصوت الي يملك الأس ... ماع في كل موقف تقفينا
فُجِع الشرقُ في خطيبته الفص ... حى وما كان خطبها ليهونا
أبلغ الناطقات بالضاد عَيَّت ... بعد أن أدت البلاغ المبينا
أطربته وهذبته وحثت ... هـ على الصالحات دنيا ودنيا
بكلام مفصل زانت الحك ... مة فيه البيان والتبيينا
قدرته لفظاً ولحظاً وإيما ... ء بما ودت المنى أن يكونا
ذاك في العيش ما شغلت به وال ... غيد تلهو وأنت لا تلهينا
لم ترومي إلا الجليل وجانب ... ت الأباطيل واتقيت الفتونا
وجعلت التحصيل دأباً وآتي ... ت جناه فطاب للمجتنينا
فعليك السلام ذكراك تحيا ... وبرغم البعاد لا تبعدينا
خليل مطران

-

البريد الأدبي

المجمع اللغوي والإنتاج الأدبي

طلب مجمع فؤاد الأول للغة العربية إدراج ثمانمائة جنيه في ميزانية السنة المقبلة لتشجيع الإنتاج الأدبي. وسيخصص نصف هذا المبلغ للممتازين في الآثار الأدبية التي يقرر المجمع أنها تستحق الجوائز، ويخصص النصف الآخر لجائزتين يمنحهما الأول والثاني في فرع من الفروع التي يطلب إلى الأدباء المسابقة فيها.

وعلى اللجنة المؤلفة لهذا الغرض أن تحدد كل عام في شهر فبراير النوع الأدبي للمسابقة وشروطها. فأما الآثار التي تجاز أو ينوه بها، فهي التي يتحقق فيها أن يكون الأثر مظهراً للإنتاج المستقل، وأن يأتي في بفائدة محققة، وألا يكون قد سبق نشره قبل السنة التي تتناولها التقارير. وستضع هذه التقارير فرعية من اللجان العامة، واحدة للشعر، وثانية للقصة والرواية، وثالثة، للمقالات والبحوث الأدبية من نقد وتاريخ ونحو ذلك.

وعلى كل لجنة فرعية أن تنتهي الإنتاج الأدبي في الفرع الذي أسند إليها، وأن تقدم تقريرها في شهر ديسمبر من كل سنة بملاحظاتها العامة على سير الحركة الأدبية في مصر والعالم العربي في هذا الفرع، وعلى ما يمكن أن يكون ممتازاً من الإنتاج امتيازاً يقتضي تشجيع صاحبه معنوياً أو مادياً. ثم تدرس اللجنة العامة هذه التقارير في شهري ديسمبر ويناير، وتعرض تقريرها على مجلس المجمع في شهر فبراير. ثم يعقد المجمع جلسة علنية في شهر مارس تعلن فيها القرارات وأسبابها، وينوه فيها بما استحق التنويه من الآثار الأدبية.

هذا وقد نص على أنه لا يجوز لأعضاء المجمع أن يشتركوا في المسابقات أو ينوه بآثارهم. وسيمضي المجمع في تحقيق هذا المشروع بعد الموافقة على إدراج المبلغ المذكور في الميزانية.

المؤتمر العربي للتعليم

تضمن تقرير اللجنة الفرعية لمؤتمر التعليم في البلاد العربي، الكلام عن أغراض هذا المؤتمر وبرامجه ولجانه.

فقيل عن المقصود به إنه أول حلقة من سلسلة المؤتمرات لبحث الأسس التي تقوم عليها

أنظمة التعليم والمشكلات المشتركة بين البلاد العربية والسياسية العامة التي يجب وضعها للسير بمقتضاها، وأن من أغراضه وضع الأسس التي يقوم عليها التعليم نفسه، وكذلك الوسائل العلمية التي تحقق الغايات السالفة بين مختلف البلاد العربية.

أما برنامجه فيخلص في القيام بالبحوث التالية:
- واجب الدولة بالنسبة إلى التعلم الأولى والعام.
- أغراض التعليم الثانوي ووسائل تحقيقها.
- مدى تأثر التعليم بالروح العربية.
- تعليم اللغات الأجنبية.
- مدى المركزية في التعلم.
- كذلك يشمل البرنامج الكلام عن البعثات وتبادل الطلاب والأساتذة وعن المؤسسات الثقافية، والزيارات العلمية والرياضة، وتوحيد المصطلحات المدرسية، وبحث المعادلة بين الشهادات.

وقد تقرر أن يدعي إلى هذا المؤتمر كل من: العراق وسورية ولبنان وفلسطين وشرق الأردن والحجاز واليمن والسودان

وتقرر أن يفتح باب الاشتراك للهيئات والأفراد من مختلف البلاد، سواء أكانت هيئات لها صبغات رسمية أم غير رسمية

واقترح تأليف إحداهما لوضع الترتيبات الخاصة بهذا المؤتمر، والأخرى لتحضير أعماله الفنية

كذلك اقترح أن يطرح على هيئة المؤتمر تأليف لجنة دائمة للعمل على تحقيق أغراضه طبقاً لما يستقر عليه رأي المؤتمرين.

في المجمع العلمي العربي بدمشق

كنا ذكرنا منذ شهور أن الأساتيذ أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق قد انتخبوا (أ) جميعاً الأستاذ العلامة محمد كرد علي رئيساً للمجمع المذكور. وقد عادوا فانتخبوا منذ (أمد قصير الشيخ عبد القادر المغربي نائباً للرئيس، والأستاذ خليل بم أميناً للسر والأستاذ المغربي أشهر من أن ينوه بلغوياته وآرائه وهو من أعضاء المجمع اللغوي في مصر. الأستاذ مردم بك فقد جمع إلى أدب الدرس ورقة الشاعرية النبل وأدب النفس، وهو أرفع من شغل هذا المنصب في المجمع العلمي.

كانت المحاضرة الثانية من محاضرات المجمع للأستاذ الشيخ نائب الرئيس (ب) عنوانها بـ (غريب اللغة في البرشان)، وقدم لها بكلام طويل على ضرورة التسامح في قبول الكلمات الأجنبيات التي لا ينبو عنها السمع أو يأباها الذوق. . . وهو أخذاً بذلك جعل البرشان في عنوان محاضرته. ثم فسر معنى هذه الكلمة، وقرأ ما أرسله إليه أحد أصدقائه من أخبار أهل الكتاب في القدس عنها، ويبين أنه يريد أن يجعل غريب اللغة في أسلوب يسهل على السامع أو القارئ هضمه وقبوله، كما يجعل الدواء المر ضمن (برشانة) ليسهل ابتلاعه. وقد عمد الأستاذ إلى الكلمات الغربية فنسج حولها أقاصيص صغيرة تفهم بها وتحفظ. وقد (برشن) الأستاذ عدداً من غرائب الكلمات سرت الحاضرين وأضحكتهم. وهاكم أنموذجاً منها قال الأستاذ:

كل خبر من أخبار العرب أو لفظ من ألفاظهم له علاقة بالبحر أو بالملاحة يكون في) الغالب مرورياً أو محكياً عن قبائل عرب عُمان، الساكنين على شاطئ البحر والحاذقين بصناعة البحر. غير أنهم لبعدهم عن بلاد مضر، كان لهم لهجة خاصة بهم، ويستعملون ألفاظاً من العربية لا يعرفها الحجازيون. فترى علماء اللغة إذا نقلوا كلمة من لهجتهم عبروا عنها بقولهم: إنها كلمة عمانية أو لغة عمانية. ففي المخصص (ج 9، ص 146): (القذف غرف الماء وصبُّه بلغة عمان). وقذاف بوزن غراب معناه الغرفة الواحدة من الماء. . .

ومن ملوك عُمان (الجَلَنْدي)، قال إنه هو الملك الذي كان يأخذ كل سفينة غصباً كما جاء في التنزيل، وقد كان ظالماً حتى ضرب بظلمه المثل قال الشاعر:

كان الجلندي ظالماً ... وأنت منه أظلم

وكان للجلندي هذا بنتٌ أميرة في نسبها وأصلها، غير أنها بلهاء في تصرفها وعقلها. وكان يحمقونها، وقد اشتهرت على ألسنة اللغويين باسم (العُمانية بنت الجلندي) ذكروا في حماقتها أنه كان لها غيلمة أي سلحفاة بحرية. أرادت يوماً أن تلهو بها فألبستها حُلي زينتها، وسرحتها تمرح في حدائق قصرها، وغفلت عنها، فهرولت الغيلمة إلى البحر

وقَمست فيه أي غاصت (والقَمس الغوص ومنه القاموس الذي معناه البحر!) وبعد هينهة تفقدت الأميرة سلحفاتها فلم تجدها وتيقنت أنها قمست في البحر. فنادت جواريها ليساعدنها في نزف ماء البحر واسترداد الغيلمة الآبقة، فجعلت وجعلن يغترفن ماء البحر بأكفهن ويصببنه على رمل الساحل. وكانت الأميرة كلما آنست من جواريها فتوراً وضجراً حمستهن قائلة (نزافِ نزافِ، لم يبق غير قُذافِ) ونزاف اسم فعل أمر بمعنى أنزف، والنزف أن تنزح ماء البئر أو الحوض كله. أما معنى قداف فالغرفة الواحدة توهمن أنهن قاربن الانتهاء.

(دمشق)

صلاح الدين المنجد

تحرز مفسر عن التكفير في رأي خطير:

يجازف كثير من الناس في هذه الأيام بتفكير أصحاب الآراء الجديدة في الدين، ولا يكتفون بتخطئتها، وترك عقيدة أصحابها لمن هو أدرى بها منهم، ونحن نسوق لهم هذا المثل من تفسير غرائب القرآن لنظام الدين النيسابوري، ليعرفوا كيف كان سلفنا الصالح يقابل الآراء الجديدة بالهدوء اللائق بكرامة العلم، ويحاول ردها في لين ورفق، فلا يقم في ذلك مناحة باسم الدين، ولا يجازف بالتكفير والتضليل كما نجازف اليوم.

وقد جاء هذا الرأي الخطير في تفسير الآيات الواردة في قصة داود وسليمان من سورة سبأ، وفيها ذكر تسخير الجبال وتسبيخها مع داود، وتسخير الرياح والشياطين لابنه سليمان، وكذلك إلانة الحديد وإسالة القطر، فقال النيسابوري: زعم بعض المتحذلقين أن المراد من تسخير الجبال وتسبيحها مع داود أنها كانت تسبح كما يسبح كل شئ بحمده، وكان هو عليه السلام يفقه تسبيحها فيسبح، والمراد من تسخير الريح أنه راض الخيل وهي كالريح، والمراد من إلانة الحديد وإسالة القطر أنهم استخرجوا الحديد والنحاس بالنار واستعمال آلاتها، والمراد بالشياطين ناس أقوياء ولا يخفي ضعف هذه التأويلات، فإن قدرة الله في باب خوارق العادات أكبر وأكمل من أن تحتاج إلى هذه التكلفات.

فالجمهور يرى هذه الأشياء أنها كانت معجزات لداود وسليمان عليهما السلام، ويفهمها على

ظاهرها من الدخول في باب خوارق العادات، فلما ساق النيسابوري ذلك الرأي الذي يخرجها من هذا الباب، لم يفعل إلا أن جعله حذلقة لا داعي إليها، لأن قدرة الله أكمل م تحتاج إلى مثلها، والحذلقة يا معشر الناس شئ غير التكفير والتضليل، وإنما يقال - حذْلق - إذا أظهر الحذق أو ادعى أكثر مما عنده كما فعل هذا المتحذلق.

ولو أن مثل ذلك الرأي ظهر في عصرنا لقامت له الدنيا وقعدت، وامتلأت صفحات الجرائد والمجلات بألفاظ الكفر والضلال والإلحاد والزندقة، وما إلى هذا من الألفاظ المؤذية، وشر الإيذاء ما يتعلق بالعقيدة.

فهل لكم يا معشر المجازفين بتكفير الناس أن تنتفعوا بسوق هذا المثل، وان تقتدوا بما فيه من الظرف واللباقة في الرد، فقد سئم العقلاء جدلكم النابي في الدين، لأنه يضر ولا نفع، ويبغض في الدين أكثر مما يحجب، ولهذا أمرنا أن نجادل بالتي هي أحسن.

عبد المتعال الصعيدي

1 - نص خطير

أكثر المفسرين على أن الآية الكريمة (وقرن في بيوتكن) خاصة بنساء النبي صلى اللهّ عليه وسلم. ولكن الإمام القرطبي يقول في تفسيره الجامع: (معنى هذه الآية الأمر بلزوم البيت وإن كان الخطاب لنساء النبي (ص) فقد دخل غيرهم بالمعنى - هذا لو لم يرد دليل في جميع النساء - فكيف والشريعة طافحة بلزوم النساء بيوتهن والانكفاف عن الخروج منها إلا لضرورة). انتهى

2 - جاء في كتاب أحكام القرآن للإمام أبي بكر بن العربي

في سورة التوبة: (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره

(حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعقلون

نفى الله عنهم العقل لنفي فائدته من الاعتبار والاستبصار، وقد

ينتفي الشيء بانتفاء فائدته، إذ الشيء إنما يراد لمقصوده، فإذا

عدم المقصود فكأنه لم يوجد. . . الخ
والصواب: (لا يعلمون) بدل (لا يعقلون). فالتفسير غلط في غير موضعه
أحمد صفوان
العدد 442 - بتاريخ: 22 - 12 - 1941
على ذكرى (عيد الميلاد)
بعد ثلاثة أيام تتجدد ذكرى (مولد المسيح)، فيقف أبناء (قابيل) آلة الحرب؛ ثم يخرون جاثين لله في الثكنات والمطارات والبوارج والخنادق والمخابئ والكنائس يرتلون حاسرين نشيد السلام المأثور:
(المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام!)
فإذا أصبحوا انقلبوا سراعاً إلى آلات الفناء فأرسلوا منها الصواعق على إخوانهم الذين هتفوا معهم بالمجد لله في السماء، وبالدوام للسلام على الأرض! فسحقوهم أو أحرقوهم على رمال لوبيا، وفوق ثلوج روسيا، وبين أطباق الهواء، وتحت أعماق الماء؛ كأنما اختلت الدنيا، واختبلت الناس، وانقلبت المعاني، فصار الدين معناه الكفر، والسلام معناه الخصام، والمفاوضة معناها الختل، والمعاهدة معناها الغدر، والأخوة معناها العداوة؛ وأصبح هذا الكوكب بقاراته ومحيطاته وسكانه كرة من النار تتقاذفها الأرجل الحديدية بين فريق هتلر وموسولينى والميكادو، وفريق تشرشل وروزفلت وستالين. ولا يدري إلا الله من سيقذفها في (الجول)؛ وما الجول هنا إلا عبودية الأبد أو حرية الأبد!
كان العالم المسيحي في مختلف أقطاره يجدد بعيد الميلاد ما أنطمس في نفسه من معاني المودة والرحمة والأسرة والطفولة، فيصل بالتزاور ما انقطع من أسباب القرابة، ويؤكد بالتهادي ما وهي من عرى الصداقة؛ وكان الميكادو على وثنيته يقوم بدور الشيخ الطيب (نوبل)، فيحمل اللعب من اليابان بأبخس الأثمان إلى كل بيت فيه طفل؛ فلما صُلِبت المسيحية في أوربا على صليب النازية المعقوف، انتكست الطباع وانعكست الأوضاع، وانكفأ بعض الشعوب إلى البربرية الأولى، يغالبون بعصبية الجنس، ويسودون ببأس الحديد. وجامل الميكادو في الشر كما جامل في الخير، فترك دور الشيخ (نوبل) وقام بدَور الأب (فويتار)، فاستبدل بلعَب الأطفال من صور الدبابات والطائرات والسابحات، قطعاً كالجبال من الحديد والبارود تدك مدائن البر، وتبتلع جزائر البحر، وتشعل النار فيما بقى من أطراف الأرض، حتى أوشك أن يجاوز الصواب قول الفلكيين إنها كوكب مظلم!
بعد ثلاثة أيام تعاود الناس ذكرى ليلة الميلاد وهم من تفاعل المذاهب والقرون في رجفة من الصراع الماحق توشك أن تقيم عليهم القيامة. وسيذكر الشباب المجندون لمجالدة الحق أو مجاهدة الباطل أنهم كانوا في مثل هذه الليلة أمام المواقد أو حول الموائد قرة عيون
وزينة بيوت، وأنهم في هذا اليوم يستقبلون عيد الحياة وهم مشردون في مجاهل الأرض ومساقط الموت لا يعرفون متى يصرعون ولا أين يقبرون. ثم يقول هذا الشباب الريَّق الريان لنفسه: أبعد الترتيب والتهذيب والعيش الناعم والأمل الباسم والغد المرجو نصير طحيناً لهذه الرحا الهائلة من غير سبب موجب إلا نزوة من نزوات الطيش، في رأس رجل من طلاب العيش؟!
أما الستة الذين يحاولون أن يقرروا مصير العالم على مشيئة الله أو على هوى الشيطان، فسيذكرون بمولد المسيح أشياء أُخَر: سيذكر هتلر بيلاطس وديقليانوس، والدتشي يهوذا ونيرون. وسيذكر رزفلت بولس، وتشرشل قسطنطين؛ أما استالين إن ذكر فسيذكر لوثر؛ وأما الميكادو فلا يذكره العيد معنى من حياة المسيح، ولا مغزى من تاريخ المسيحية؛ إنما يذكره تلك اللعب التي كان يقدمها إلى لهو الأطفال ليربح من ورائها القروش، فأصبح اليوم يقدمها إلى قتل الرجال ليربح من ورائها الممالك!
سبحانك ربَّ السموات والأرض! ما كان لنفس مؤمنة أن تحسبك تركت أمر هذا العالم لهؤلاء الحمقى من خَلقك.
لا جرم أن لك من هذه القارعة الصغرى حكمة تدق على بصيرة ابن آدم إن مع القيامة نشوراً أكمل وحياة أفضل. كل نظام سنه ابن العاصي سيتغير، وكل قانون نزغ فيه الشيطان سيلغى. لن يبقى يا مولاي غير شرعك، ولن يدوم غير دينك

وكَلْت ابن آدم إلى نفسه فجرب قواه كلها في تدبير أمره وتسخير غيره، فما أنتج غير الاضطراب والخراب والفوضى.
تبجح بعلمه وتشريعه وفلسفته؛ وزعم أنه هيمن على الغريزة بقوة الخلق، وسيطر على الطبيعة بسلطان العلم، وتوهم أنه يستطيع بما كشف من الأسرار وذلل من القوى أن يصنع مفاتيح الغيب ويقتحم أبواب القدر؛ فلما ابتليته بتحقيق زعمه وتطبيق فهمه، تحرك في طبعه الطين الراسب، وتيقظ في نفسه الحيوان الراقد، وتألبت الأهواء على رأيه فاضطرب وتفرق، وتغلبت المطامع على جمعه فتنازع وتمزق!.
رباه إنا مؤمنون، وإنا مطمئنون! فأدام علينا نعمة الهداية، واكفنا شرّ هذه الغواية، واجعلنا الإدلاء على طريقك، والأمناء على حقك، حتى تنجلي هذه الغمة عن الدنيا، فيرجع إليك
النوى، ويخضع لك القوى، ويلوذ بك الضعيف!
احمد حسن الزيات
مسابقة الأدب العربي لطلبة السنة التوجيهية
ديوان حافظ إبراهيم
للدكتور زكي مبارك
تمهيد - اهتمام العرابي باشا بنشر آثار الأدب الحديث - شرح ديوان حافظ والنص على (محاسن) الشارحين - درس الديوان - توجيهات أدبية - المحدث حافظ إبراهيم - ما هو السر في انتصار شوقي على حافظ؟ وما قيمة حافظ على وجه التحديد؟
تمهيد:
لما شعر (شوقي) رحمه اللهّ بأن الشيخوخة بدأت تراوحه وتغاديه أقبل بجدّ على طبع (الشوقيات) ليأمن الخوف على شعره من الضياع قبل أن يموت.
واتفق بعد ظهور الجزء الأول والثاني من (الشوقيات) أن قضيت ساعة مع (حافظ) في منزل السيد حسن القاياتي فاقترحت عليه أن يجمع أشعاره على نحو ما صنع شوقي، فأجاب بعبارة تنذر بالتسويف، ويرجع ذلك إلى أن (حافظ) لم يكن يملك من الصبر على المراجعة بعض ما كان يملك (شوقي)، فقد كانت حياته اليومية مهدَّدة بالقلق، وكان لا يجد الأنس، في غير الانتقال من مكان إلى مكان، ليخرج من عزلته البيتية بمحادثة من يصادف من الرجال.
وبعد أن انتقل حافظ إلى جوار الله في صيف سنة 1932 قام جماعة من أصدقاءه وقرروا الاحتفال بذاكره، وكانت لهم يومئذ مشروعات عظيمة، منها تأليف كتاب في إظهار عبقريته يشترك فيه فحول الباحثين؛ ومنها طبع ديوانه، وإقامة قبره على قواعد عالية تذكّر الناس بمنزلته السامية؛ ومنها دعوة الأدباء في سائر الأقطار العربية للاشتراك في حفلة التأبين، إلى آخر ما يجود به الخيال في مثل تلك الحال.
وفي ذلك العهد كتبت كلمة (البلاغ) قلت فيها أن تلك القرارات لن ينفذّ منها شيء، ورجوت أصدقاء (حافظ) أن يقفوا وفاءهم على عمل واحد وهو طبع الديوان، فقد كنت أعرف أن أدبائنا في اغلب أحوالهم رجال أقوال، لا أعمال وهل صنعوا شيئاً في إنقاذ ما ترك (زكي باشا) من الآثار الأدبية، وفيها نفائس قد لا يجود بمثلها الزمان؟ وهل تضنهم يلتفتون إلى
جمع ما تبددْ من آثار (محمد مسعود)؟.
لم يصنع أصدقاء حافظ شيئاً يؤكد الوفاء لذلك الروح الوهاج ولكن الله لم يشأ أن يضيع حافظ في هذه البلاد، فكانت تلك الالتفاتة الكريمة من وزير المعارف الأسبق، (علي زكي العرابي باشا)، الألتفاتة التي قضت بأن يُطبع ديوان حافظ على نفقة وزارة المعارف، وأن يكون ظهوره بداية لطائفة من المطبوعات تُحي ما يُخاف عليه من آثار الشعر الحديث، فقد كان من العجب أن تكون مصادر الأدب في القرن الثاني أقرب إلى الأيدي من مصادر القرن الرابع عشر، وتلك ظاهرة لا نسكت عنها إلا كارهين.
وفي هذا المعنى كتبت في جريدة المصري مقالاً جاء فيه:
أن العرابي باشا أخذ جزاءه الأوفى يوم ظهر ديوان حافظ، فقد استطاع أن يؤدي إلى) اللغة العربية خدمة جليلة بأحياء شاعر كان في عصره ملء المسامع والأفواه والقلوب. . .
وما الذي يمنع أن يتفضل فيشير بطبع مجموعات وافية مما نظم الشعراء وكتب

الكاتبون منذ فجر النهضة الحديثة إلى اليوم؟! أنه خليق بأن يجعل ديوان حافظ فاتحة لعهد جديد من المطبوعات العلمية والأدبية التي تشهد بما صنعت مصر في العهد الحديث وهو أن حقق هذه الرغبة فسيمكنّ الأدباء في مصر وفي سائر الأقطار العربية من الوقوف على طلائع النهضة الأدبية، وهي نهضة نرجو أن تقوى وتستفحل لتُشعر الأبناء والأحفاد بأن لهم لغة قوية تطاول اللغات الحية وتسابقها في ميادين العلوم والأدب والفنون. فأن قال الوزير إن أمثال هذه الأعمال مما يقوم به الأفراد لا الحكومات فإنا نجيب بأن الحال في مصر تختلف عما عداها بعض الاختلاف؛ لا يزالون يودون أن ترفع عنهم حكومتهم كثيراً من التكاليف ومن شواهد ذلك مطبوعات الجامعة المصرية ومطبوعات دار الكتب المصرية؛ فهذه المطبوعات يعجز عنها الأفراد، ولا تستطيع المكاتب أن تنهض بها إلا بجهد عنيف. وما بالنا نلح على الوزير في تحقيق هذا الغرض؟ أنه يعرف أن دراسة الأدب الحديث مقررة في المدارس الثانوية والمعاهد العالية، ودراسة هذا الأدب ستضل ضعيفة ما دامت المصادر بعيدة عن أيدي الأساتذة والطلاب؛ فهو حين يحقق هذا الغرض يؤدي خدمة أساسية لا كمالية، ويجعل أبناءه في المدارس الثانوية والعالية قادرين على التمكن من ناصية الأدب الحديث، وهو كذلك سيسن شريعة جديدة لأمثاله من وزراء المعارف في مختلف الأقطار العربية؛ فقد نسمع بعد قليل أن وزراء المعارف في الشام والعراق والمغرب والحجاز قرروا نشر ما اندثر عندهم من معالم الأدب الحديث، وعندئذ تقترب هذه الشعوب (بعضها من بعض، وتضيع مآرب الباغين العادين من خصوم لغة القرآن

وإنما أعدت هذه الفقرة من مقال نشرته قبل سنين لأني أجد فيها دعوة يجب أن تجدد في كل يوم، فما تزال الحكومات العربية قليلة الالتفات إلى أهمية الأدب الحديث، وما يزال في الدنيا أقوام يرون الأدب الجديد أقل قيمة من الأدب القديم، مع أن أدبنا في أكثر نواحيه أعظم حيوية من أدب القدماء، وهو يصور ما نحن عليه من قوة وضعف، وإيمان وارتياب

شرح ديوان حافظ

شرح هذا الديوان ثلاثة من أهل الأدب، هم الأساتذة: أحمد أمين، وأحمد الزين، وإبراهيم الإبياري. وقد نص الأستاذ أحمد أمين في المقدمة على أن هذا الشرح أُريد به ثابتة الأدب وناشئة الشعر، ولم يُرَد به الخاصة والمنتهون

ومعنى هذا الكلام أنهم قد يوضحون ما لا يحتاج إلى توضيح رعاية لإفهام المبتدئين وكان الأمر كما قالوا في المواطن التي تسعفهم فيها المعجمات، كأن يقولوا إن السدة هي الباب، والشجون هي الأشواق

أما إذا احتاج للشرح إلى بحث فالمبتدئون في حكم المنتهين، ولا موجب للعناء! ومن أمثلة ذلك:

1 - وردت في شعر حافظ كلمة (آذار) فقال الشارحون: (شهر من شهور السنة المسيحية معروف)

فهل في الحق أن المبتدئين من شبان مصر يعرفون آذار؟ كان الواجب أن ينص على أن (آذار) هو شهر (مارس)

والقول بأن آذار من شهور السنة المسيحية خطأ في التاريخ؛ والصواب أن يقال من شهور السنة الشمسية، فقد عرف التقويم الشمسي قبل المسيح بأزمان طوال ونحن اليوم نقول سنة قمرية وسنة شمسية أما أسلافنا من العرب فكانوا يقولون: سنة هلالية وسنة خراجية

2 - ورد في شعر حافظ اسم (مائي) فقال الشارحون: (هو صاحب مذهب المانوية المشهور)

فهل يمكن القول بأن مذهب المانوية مما يعرف المبتدئون؟ ثم أراد الشارحون أن يعينوا الوقت الذي ظهر فيه (ماني) فقالوا إنه ظهر في أيام سابور بن أردشير وأقول إن هذا الكلام كان ينفع من يعيشون قبل ألف سنة، يوم كان العرب على بينة من تواريخ الاكاسرة، أما اليوم فهو كلام غامض المدلو.

3 - ورد اسم (روسو) في شعر حافظ فقال الشارحون:

(روسو كاتب فرنسي معروف، وهو صاحب كتاب الاتفاق الجمهوري)

وما أعرف شيئاً عن كتاب (الاتفاق الجمهوري) ولعلهم يريدون كتاب (العقد الاجتماعي)

إلا أن يكونوا أبصر مني بالأدب الفرنسي، وذلك جائز!
4 - وكلمة (معروف) كثيرة الدوران على ألسنة الشارحين: فأبو تمام شاعر عباسي معروف، والبحتري شاعر عباسي معروف، وجمال الدين الأفغاني فيلسوف معروف، ومحمد باشا سعيد هو الوزير المعروف، إلى آخر ما نثروا في الشرح من هذا اللفظ المعروف!
5 - والترقيم خطأ في بعض الأحيان، فقد جاء في المقدمة أن حاجة الشاعر إلى الخيال الخصب أقوى من حاجة الناثر، والعبارة صحيحة، ولكنها ختمتْ بعلامة التعجب، ولا موجب لذلك.
6 - وأشير في المقدمة إلى (حادثة المؤيد) بلا نص على مكانها من صفحات الديوان، فهل أهملت لأنها من الحوادث المعروفة؟
7 - وكذلك أشيرَ إلى (وداع اللورد كرومن)، والصواب (لورد كروم)، لأن (كروم) في هذه العبارة لا يقع موقع عطف البيان، وإنما يقع موقع المضاف إليه من المضاف، وهذا أمر قد يخفى على المبتدئين، كما خفي على الأستاذ أحمد أمين.
8 - وفي المقدمة: (لئن نقص حظ حافظ في الخيال فقد غطى عيبه شيوع الجمال في سائر نواحيه)؛ والصواب (لقد) وحافظ نفسه يقول:
لئن هَدَوْكم لقد كانت أوائلكم ... تهدي أوائلهم أزمان أزمان
وقد عثرت على شواهد وقعت فيها الفاء في مكان اللام في مثل هذا التعبير، وإذن تقبل تلك
العبارة بقول مرجوح، وإنما أدافع عن هذا الخطأ لأنه وقع في بعض أشعاري!!
9 - وفي ص 151 ج1 قال حافظ في محمد المويلحي:
فإذا نثرت على الصحيفة خِلتها ... غرساً ألحّ عليه صوب قطار
وجاء في الشرح أن القطار جمع قطر بفتح فسكون وهو المطر، ثم قال الشارحون: إن الديوان المطبوع فيه (نثار) مكان (قطار)
وأقول: إن الصواب إثبات (نثار) وتصحيح كلمة (غرساً)، فيكون للبيت:
فإذا نثرت على الصحيفة خلتها ... عرساً ألحَّ عليه صوب نثار
والنثار هو المعروف في مصر بالنقوط في يوم العرس، وذلك هو المراد.
10 - وفي ص 66 ج1 قال حافظ في تحية واصف غالي:
مازلت تُلقي على أسماعهم حججاً ... في كل ناد وتأتيهم بسلطان
حتى انثنيت وما للعُرب بحتريٌّ ... على البناء ولا زار على الباني
والصواب وضع كلمة (الغَرب) مكان (العُربْ)
11 - وفي الصفحة عينها أن رينان هو الفيلسوف الفرنسي المعروف الذي رد عليه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فيما رمى به الإسلام والمسلمين من تهم، وما نعرف أن الشيخ محمد عبده كانت له مواقف مع رينان، وإنما كانت له مواقف مع هانوتو، أما الذي ردّ هجوم رينان على المدنية الإسلامية فهو جمال الدين الأفغاني
12 - وفي ص60 ج1 قال حافظ:
فانبرت ظبية الشام وقالت ... بعض هذا فقد رفعت الشآما
وجاء في الشرح: أي قولي بعض هذا، إذ لا نستحق كله.
والصواب أن يقال في الشرح: أطوي بعض هذا، فما نستحق كل هذا الثناء
13 - والاضطراب في رسم الأعلام الأعجمية يقع أحياناً في هذا الشرح، فهو جُو الشاعر الفرنسي نراه مرة هيجو ومرة هوغر ومرة هوجو؛ وهنا نذكر أن الأعلام الأوربية نُشرتْ جميعاً بحروف عربية، وكان يجب أن ترسم أيضاً بالحروف اللاتينية ليُعرف نطقها بالضبط، فإن تعذر هذا على الأستاذين أحمد الزين وإبراهيم الإبياري، فقد كان يسيراً على الأستاذ أحمد أمين.
14 - والأخبار الأدبية المتصلة بقصائد حافظ لم تأخذ حقها من البيان، وستصير هذه الأخبار من المنسيات بعد حين، فكان من الواجب أن تسجل قبل أن تضيع، فإن لها أهمية في توضيح مرامي ذلك الشاعر العرَّيض.
15 - وسكت الشارحون عمن سيفهم إلى شرح (القصيدة العمرية)، وقد شُرحتْ مرتين: شرحها المرحوم محمد بك الخضري، وشرحها المرحوم مصطفى بك الدمياطي، والنص على مثل هذا واجب في الطبعات العلمية. وكان يجب أيضاً أن يُنص

على تأثير هذه القصيدة في الشعر الحديث، فعلى غرارها صاغ الشيخ محمد عبد المطلب (القصيدة العلوية)، وصاغ الشاعر عبد الحليم المصري قصيدته في الجد الأكبر للملك فؤاد، وكان لتلك القصائد رنين في المحافل الأدبية، وقد تكون مصدر الوحي للشاعر أحمد محرم في (الإلياذة الإسلامية).

درس الديوان

المقرر للمسابقة هو الجزء الأول، ولكن النظر في الجزء الثاني ينفع، لأنه يكمل صورة حافظ الشعرية

وفي الجزء الأول مقدمة كتبها الأستاذ أحمد بك أمين، وهي مقدمة وافية، ومراجعتها بعناية تعين الطلبة على اجتياز الامتحان

ونقدم التوجيهات الآتية:

أولاً - جاء في الجزء الأول أشعار تصور أشجان حافظ حين كان في السودان، فيجب الرجوع إلى ما يتصل بهذه الناحية في الجزء الثاني

ومع هذا لا يستطيع الطلبة تصور محنة حافظ بأيامه في السودان، إلا إن نظروا في كتاب (ليالي سطيح)؛ والرجوع إلى هذا الكتاب مفيد جداً؛ ففيه صفحات هي أقوى وأجمل من كل ما هتف به حافظ في دنياه؛ وقد تكون أعظم ما أُثِر من الثورة على الاستبداد

وكان حافظ يحفظ (ليالي سطيح) عن ظهر قلب، كما يحفظ قصائد الجياد، ومن لم ير حافظ في (ليالي سطيح) فهو عن أدبه من الغافلين

ثانياً - حافظ كثير الكلام عما عرف من الرجال، فديوانه ليس إلا صوراً جميلة أو دميمة لخلائق من أتصل بهم من قرب أو من بُعد، ولهذا تقل في شعره التأملات النفسية، لأنه دائماً موصول بالمجتمع

ثالثاً - حافظ كثير التعريض في مدائحه وأهاجيه، وهو تعريض لم يظفر بما يستحق من الشرح، فإن استطاع الطلبة أن يواجهوا لجنة الامتحان بأشياء سكت عنها الشارحون فقد يظفرون بطيف من الثناء!

رابعاً - قد أرخت أكثر قصائد حافظ، وبقي فريق منها بدون تأريخ، فعلى الطلبة أن يبحثوا عن المناسبات، وإليهم هذا الشاهد:

في ص 201 ج1 قال حافظ أبياتاً في توديع شوقي يوم سافر إلى مؤتمر المستشرقين، وننظر في الشرح فنجد إحالة على الحاشية رقم 5 ص50. فإذا رجعنا إلى تلك الحاشية لم نجد كلاماً عن المؤتمر ولا عن مكانه في التاريخ، فماذا نصنع؟ نرجع إلى الجزء الأول من الشوقيات، وهو أيضاً مقرر لمسابقة الأدب العربي، فنجد أن ذلك المؤتمر عُقِد في جنيف (سبتمبر سنة 1894)

خامساً - وقد يظن أن الشارحين دونوا جميع قصائد حافظ، وليس الأمر كذلك، فلحافظ قصائد لم تضف إلى هذا الديوان وسندل الشارحين على تلك القصائد عند الطبعة الثانية

سادساً - قال الأستاذ أحمد أمين إن الحزن الذي غلب على طبيعة حافظ هو الذي قضى بأن تكون أكثر قصائده في المراثي.

ونقول إن الرثاء كان يفرض على حافظ في كثير من الأحايين، ومن هنا تقل اللوعة في أكثر مراثيه، فيستر الموقف باجترار حوادث التاريخ

سابعاً - قيل وقيل إن حافظ لم يكن من أهل الصدق في الغزَل والتشبيب، فما سبب ذلك؟

يرجع السبب إلى أن ضجيج المجتمع شغل حافظ عن سحر الجمال، وقد يرجع إلى ضعف في حاسته الذوقية من هذه الناحية، فالإحساس بالجمال يتفاوت عند الشعراء، كما تتفاوت الحواس عند سائر الناس

وربما جاز القول بأن حافظ كان في سريرة نفسه من عبيد المجتمع، فهو يغني على ليلى المجتمع قبل أن يغني على ليلاه، والمجتمع كان ينتظر منه البكاء على المصائب اليومية، قبل أن ينتظر منه التغريد فوق أفنان الجمال

ثامناً - تشهد أشعار حافظ بأنه كان ابن زمانه وابن وطنه، فلم تكن له نزعة فلسفية ولا

وثبة إنسانية إلا في أندر الأحيان، وأشعاره في مآسي بعض الأمم الشرقية أو الغربية لم تكن إلا صدى للعواطف المصرية في ذلك الحين، وهي في الأغلب عواطف تخلقها الجرائد والمجلات

المحدث حافظ إبراهيم

نقول في شعر حافظ وفي نثره ما نشاء، ونتجنى عليه كما نريد؛ أما حافظ المحدث فهو أديب لم تر مثله أندية الأدب منذ أجيال طوال

وما ظنكم برجل كان الزعيم سعد زغلول يتشهى حديثه كما يتشهى عودة الشباب؟ لا أذكر أني رأيت رجلاً في مثل ظرف حافظ، ولا أكاد أصدق أن الدنيا ستسمح بأن يكون له ضريب أو مثيل

سألت أستاذي الشيخ (رنيه دوميك) عن أهم خصائص أناطول فرانس فأجاب:

ولو أن شاعرنا حافظ كان يكتب كما كان يتكلم لكان سحره في اللغة العربية شبيهاً بسحر أناطول فرانس في اللغة الفرنسية

وبراعة حافظ في الحديث هي التي قضت بأن ينتصر عليه غريمه شوقي. . . كان حافظ يتحدث ويتحدث إلى أن تنفد قواه فلا تبقى له قدرة على الغناء؛ وكان شوقي يصمت ويصمت ليستجم فتبقى له القدرة على السجع والهُتاف. والقوى الإنسانية لها حدود، وإلا فكيف جاز أن يكون المدرسون أعجز الناس عن الشعر والخطابة والتأليف؟ ألا يرجع ذلك إلى أنهم يضيعون نشاطهم في الدرس، فلا تبقى لهم عافية يساورون بها تلك المواهب الأدبية؟

أراد حافظ أن يمتع أهل زمانه فأضاعوه. كان زينة الأندية والمحافل، وكان حديثه أشهى من وعد الحبيب بعد طول الجفاء، وأطيب من اندحار الرقيب، وأشهى إلى النفس من الانتصار على السفهاء، إن كان الانتصار على السفهاء من الممكنات!

عليك - يا حافظ - تحية الشعر والنثر والحديث

وإلى روحك في عالم الخلود، نقدم آيات الثناء، يا حجتنا الباقية على أن مصر مهد الروح المتوهج والقلب الخفاق

زكي مبارك

بحث مقارن

الوضع الاجتماعي للمرأة في الإسلام

للأستاذ محمد عبد الرحيم عنبر

مقدمة

لم يتسع نطاق الحديث عن المرأة في عصر من العصور بقدر أتساعه في العصر الحاضر الذي يمكن أن يسمى بحق (عصر المرأة). ففي كل زاوية من زوايا المعمورة نشمُّ رائحة المرأة: شخصاً، أو موضوعاً، أو عاطفة، أو هدفاً. وبالجملة هي تشغل حيزاً كبيراً من تفكير الرجال وضمير المجتمع. وإذا كان كل شيء في ذاته قابلاً للمدح والذم فأن المرأة قد تفردت بالحصول على نهايتهما!

ولا عجب أن تحتل المرأة هذه المكانة العريضة، فإنها لم تعد محلاً لقضاء شهوة، أو سلعة تباع وتشتري، أو خادمة ذليلة، أو مواطناً لا حقوق له، أو حتى تمثالاً جميلاً يركع الرجل تحت قدميه؛ وإنما أصبحت الممثل اللاعب في حياة الرجل من وراء ستار، و (القالب) الفذ العميق الذي تتشكل فيه شخصية المجتمع، ويحمل أفراده ملامحه، وينطبع فيهم كل ما به من خير أو شر. ثم هي قبل كل شيء ما زالت - كما كانت منذ فجر البشرية - حجر الزاوية في الأسرة الإنسانية

ومن البدهي أن يعنى المفكر العصري بالكلام عن المرأة بعد إذ ظفرت بحقوق كثيرة، ووثبت هذه الوثبة الاجتماعية الكبيرة، وليبحث فيما إذا كانت قد جاوزت بذلك حدود طبيعتها، واعتدت على حقوق الرجل، وجنت في النهاية على نفسها وعلى غيرها أم لا؟ وأي الشرائع أهدى لها وأكثر اعتناء بها؟

ثم هل الشريعة الإسلامية قد حررتها وأعزتها وصانتها أم قضت بعبوديتها وأذلتها وابتذلتها!

المرأة في غير الشريعة الإسلامية

يروي لنا علماء الاجتماع أن الرجل، عند بدء الخليقة، كان يعيش عيشة الحيوان،

يطوف في الأرض، ولا يعرف الأسرة بالمعنى الذي نفهمه. ويعتقدون أنه لم تكن له يومئذ أوضاع
مرعية في اتصاله بالمرأة، وكان كل احتفاله بها منصباً على أن يقضي شهوته البهيمية منها ثم ينصرف عنها لا يلوى على شيء، وتظل هي وحدها حتى تضع حملها، وتسعى لتقوت بنيها الذين لا يعرفون لهم أباً، ولا يستشعرون الأبوة، ولكنهم ينسبون إليها، ومن ثم كانت - المرأة - تبني الأسرة بمفردها. ولم تكن لها في تلك المرحلة قِبلَ الرجل أو القبيل الذي تنتمي إليه أي نوع من أنواع الحقوق، بل كانت حياتها كلها واجبات!
وبعد ذلك استقر الرجل بعض الاستقرار، وبدأت (زعامة الأب بعد (زعامة الأم وفي هذا الدور احتكر الرجل المرأة التي جعلها من عبيده وسراريه
وإذا كانت المرأة آنئذ قد تخففت من بعض العبء الذي كان ملقى على كاهلها إلا أنها لم تكن أكثر من ظل للرجل.
فهؤلاء هم الأثينيون - أكثر الأمم القديمة حضارة - عاملوا المرأة معاملة سقط المتاع، تباع وتشترى في الأسواق، بل سموها رجساً من عمل الشيطان، وحرّموا عليها كل شيء سوى تدبير البيت وتربية الأطفال، وأباحوا للرجل التزوج بأي عدد من النساء. أما في إسبرطة، مع أن الرجل كان ممنوعاً من أن يتزوج بأكثر من واحدة إلا في أحوال قاهرة، فقد أبيح للمرأة أن تتزوج بأي عدد تشاء من الرجال!
وكانت المرأة عند اليهود تكره على الزواج والبغاء، وتورث ولا ترث، وكان محجوراً عليها التصرف في مالها الخاص.
وكانت بعض الشرائع تبيح للأب بيع ابنته، ولم تكن المرأة في القانون الروماني شيئاً يذكر، فهي قبل زواجها تحت سلطة أبيها، فإذا تزوجت دخلت في سلطة زوجها.
وكان العرب في الجاهلية يئدون بناتهم، وكان فيهم من يرى أنه لا قصاص ولا دية في قتل المرأة!
وقد قرر أحد المجامع العلمية (كذا!) في روما أن المرأة حيوان نجس لا روح له ولا خلود، ولكن يجب عليها العبادة والخدمة، وأن يكمم فمها كالكلب المسعور لمنعها من الضحك والكلام!!
وفي سنة 586 ميلادية عقدت بعض الولايات الفرنسية اجتماعاً عاماً، شهده الآلاف من الرجال الذين ظلوا ساعات طوالاً يبحثون فيما إذا كانت المرأة إنساناً أو غير إنسان؟! وبعد
مناقشات جدية عنيفة أصدر المجتمعون بأغلبية الأصوات قراراً يمنح المرأة درجة (الإنسانية)، ولكنه يقضي فيما عدا هذا بأنها (لم تخلق إلا لخدمة الرجل)!!
ويذكر التاريخ أن أهم إنصاف نالته المرأة قبل ظهور الإسلام بنحو ربع قرن ما منحه إياها القانون الروماني، فإن هذا القانون قد ترك للعذراء والأرملة كل حريتهما ما دامتا بالغتين سن الرشد. أما المتزوجة فقد وضعها تحت سلطة زوجها المطلقة؛ فهي، بحسب هذا القانون أشبه ما تكون بالمحجور عليه أو القاصر من الناحية القانونية، ولزوجها السلطة الواسعة في مراقبة شئونها الشخصية، وهو حر التصرف في ملكها ومالها من دونها، وله أن يمنعها من الاجتماع بأي شخص لا يريد اجتماعها به، وأن يفض رسائلها الصادرة منها أو الواردة إليها!
وكما أنه من جهة أخرى كانت الكنيسة في القرون الوسطى تعلم الأولاد أن الوحشية) صفة التنين، وأن المكر صفة الأفعى، وأن المرأة قد جمعت بين الرذيلتين، وكان رينان الفيلسوف الفرنسي العظيم (1833 - 1892) يلاحظ أن الكنيسة رفعت المرأة إلى درجة جلب الخطيئة! ونرى مارتن لوثير المصلح الديني الألماني الكبير، ومؤسس المذهب البروتستنتي في النصرانية (1483 - 1546) قد كان نصيراً لمذهب القائلين بحرمان المرأة من الثقافة. ونرى أيضاً الملك هنري الثامن يصدر أمراً بتحريم مطالعة الكتاب المقدس على النساء وآخرين من طبقة منحطة! وقد كان النساء طبقاً للقانون الإنجليزي العام (حوالي سنة 1850) غير معدودات من (المواطنين)؛ وكان لذلك مباحاً لبعولهن أن يضربوهن بعصا لا يزيد حجمها على رأس الإبهام. كذلك لم يكن لهن حقوق (شخصية، ولا حق ملكية في ملابسهن ولا في الأموال التي يكسبنها بعرق الجبين!
وقد حدث، في عهد قريب، أن باع رجل إنجليزي زوجته لشخص كان يغازلها بخمسمائة جنيه بسبب فقره وعدم توافق طباعهما. ولما قدم الزوج المحاكمة قال محاميه

للقاضي أن لا وجه لإقامة الدعوى لأن القانون الإنجليزي كان يبيح بيع الزوجات، بل لقد بلغ (سعر) الزوجة في سنة 1801 ستة بنسات (أي نحو 24 مليماً)!! ولكن القاضي لم يأخذ بدفاع المحامي اللبق، وقضى بالحكم على الزوج بخمس سنوات، ذاكراً في أسباب حكمه أن القانون الذي يشير إليه المحامي ويستند عليه قد ألغى في عام 1805 (أي بعد نزول القرآن، وإعلان حرية المرأة المسلمة بنحو أثنى عشر قرناً!!)

واليهود هم أول أمة سمحت أن يكون الزواج مبنياً على مجرد الاختيار الشخصي، وتقدمت عندهم حقوق المرأة بخطى كبيرة. وقد جاءت المسيحية من بعدهم فضاعفت هذه الحقوق، وحرمت تطليق المرأة إطلاقاً، ثم إباحته بشروط مخالفة بذلك شرعتها، بعد أن تبين لها أنه ضروري للرجل والمرأة معاً، وأعلنت استقلال المرأة بملكيتها كالإسلام! أما تعدد الزوجات فلم تسمح به

والشائع في أوربا اليوم هو الزواج المدني، والتحرر السريع من القيود الدينية المسيحية فيما يختص بالمرأة وعلاقتها بالرجل. فالطلاق مباح، والزواج العرفي معترف به وبآثاره وبما يترتب على عشرة السوء! وبالجملة قد تخلصت المرأة مما تقيدها به ديانتها، وساعدها الرجل على ذلك، وحصلت على حرية واسعة بلغت حد الإباحة، وعلى احترام كبير وصل إلى درجة التقديس، لا لأنها مخلوق ضعيف يستحق الرعاية والتنعم والصيانة، بل لأنها مخلوق لطيف، مؤنس، رشيق، يفوح منه عبير العطور، وينشر في مجالسه السحر المذاب الحلو، وأشياء أخرى تدل عليها الآثام العميقة التي كانت تسبح فيها أوربا قبل هذه الحرب، والفضائح التي كانت تزكم الأنوف!

المرأة في الشريعة الإسلامية

ظل الناس في بداوة الجاهلية الأولى ضاربين، وفي غمرة الشهوات الهمجية غارقين، وظلت المرأة تعاني مرارة الذل وقسوة الحيف والاستعباد حتى جاء (منقذ المرأة ومحررها)، محمد النبي العربي بكتاب سماوي يقول: (ولهن مثلُ الذي عليهن بالمعروف، وللرجال عليهن درجة)؛ فكانت هذه الآية الكريمة الوثيقة القانونية الأولى التي تعترف بإنسانية المرأة، وحريتها، وحقها في الحياة، ومساواتها للرجل مساواة نبيلة أبية لا فضل فيها لمخلوق. ولقد فصل الإسلام حقوق المرأة تفصيلاً دقيقاً بديعاً، وتغلغل في صميم حياتها حتى أنه عالج أصغر هواجسها، وأتفه شؤونها، وتناول أدق وأحرج أسرارها. فهو قد شمل حقوق المرأة بوصفها بنتاً وزوجاً وأماً وأختاً، وكذلك بوصفها عضواً في المجتمع الإنساني؛ وفيما يلي موجز ذلك:

1 - أوجب الإسلام للبنت النفقة شرعاً في حياة أبيها حتى تتزوج، وليس له أن يلزمها طلب الرزق كالابن. وإذا ما تزوجت ثم طلقت فعادت إلى بيت أبيها عادت نفقتها عليه بعد انتهاء مدة نفقتها الزوجية. وقد قررت الشريعة ذلك حماية للبنت من السقوط في حمأة الرذيلة إذا أمسك عنها أبوها أو ألزمها طلب الرزق

2 - جعل الإسلام رضا البنت عند بلوغها سن الرشد شرطاً لصحة العقد عليها. وليس لمخلوق كائن من كان يكرهها على الزواج بمن لا تريد. ولنا في رسول الله أسوة حسنة؛ فقد كان إذا أراد أن يزوج امرأة يأتيها من وراء حجاب فيقول لها: (يا بنيَّة، إن فلاناً خطبك فإن كرهته فقولي (لا) فإنه لا يستحي أحد أن يقول (لا)، وإن أحببت فإن سكوتك إقرار). وهذا الحق الطبيعي الرائع الذي منحته المرأة المسلمة في القرن السابع للميلاد حُرمته المرأة الأوربية حتى القرن السادس عشر!

3 - وقد أراد الرسول (ص) أن يدفع الناس إلى الاعتناء ببناتهم بعد أن حرم الله وأدهن، وأعطاهن حق الحياة المقرر للرجل فقال: من كانت له بنت جعلها الله له ستراً من النار، ومن كانت عنده ابنتان ادخله الله الجنة بهما.

4 - وكان بعض الرجال يسيئون معاملة زوجاتهم، ويمتنع الزوج الكاره زوجته عن تطليقها حتى تفتدي نفسها بمهرها، فنزلت الآية الكريمة (فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان)؛ وقوله: (هن لباس لكم، وأنتم لباس لهن)؛ وقوله: (هو الذي خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة)؛ وجاء في أخبار الرسول أنه قال (ألا إن لكم على نسائكم حقاً، ولنسائكم عليكم حق. أما حقكم على نسائكم فأن لا يوطئن فراشكم من تكرهون، ولا يأذن في بيوتكم لمن تكرهون، ولا يأتين بفاحشة، فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن في المضاجع)؛ وقال: (حق المرأة على

الزوج أن يطعمها إذا طعم، ويكسوها إذا اكتسى، ولا يضرب الوجه، ولا يقبح، ولا يهجر إلا في البيت)؛ وقال: (عليكم باللطف والرفق بنسائكم: لا تظلموهن، ولا تضيقوا عليهن، فأن الله تعالى يغضب للمرأة إذا ظلمت كما يغضب لليتيم). وفي ذلك كله تبين روح الآداب الزوجية التي يبثها الإسلام في تعاليمه، وينزلها الله تعالى على لسان نبيه الكريم، وفي تصرفاته، وقدوته لعشيرته، وبني قومه الذين حكموا الدنيا ودوخوا العالمين عندما كان الرجال يتقون الله في نسائهم، وكانت الأسرة الإسلامية منبع سرور وشهامة

وإن من آداب الإسلام العائلية لما يذهب إلى أبعد من هذه الحدود، فقد روى أنه جاءت إلى عمر بن الخطاب امرأة قالت: إن زوجي يقوم الليل ويصوم النهار. فقال لها عمر: لقد أحسنت الثناء على زوجك! فقال كعب بن سوار الجالس بجواره: بل لقد شكته! تزعم أن ليس لها من وقت زوجها نصيب. قال عمر: فإذا قد فهمت ذلك فاقض بينهما - فقضى. ولو تدبرنا هذه الفئة الإسلامية العابرة لوجدناها ترمز إلى إشكال عريق في حياة المرأة ومصدر سوء تفاهم مزمن في حياة كثير من الأسر!

وإذا كان المصلحون الاجتماعيون في أوربا وأمريكا لم يهتدوا إلى الطريق الأمثل لفض المنازعات الزوجية إلا في القرن الحالي، فقد أشار الإسلام إلى ذلك في القرن السابع. فقد قال سيدنا عمر بن الخطاب مخاطباً الأزواج: (إذا لم يفد المرأة الوعظ والهجر والضرب (ولن يضرب خياركم - وفي هذا المعنى الحضر لشيء أباحه الله لضرورة قاسية بشروط حتى لا يساء استعماله) عمد الرجل إلى التحكيم، وهو أن يؤلف (مجلساً) من أهله وأهلها فيعرض كل من الزوجين ما يشكوه من الآخر، فإن تمرد المحكوم عليه منهما فرقوا بينهما بالطلاق وهو آخر أنواع من التأديب)

(البقية في العدد القادم)

محمد عبد الرحيم عنبر

بين موسَّيه وخالد الكاتب

للأستاذ صلاح الدين المنجد

أذكر أني قرأت منذ شهور بعاد مقالاً ذكر فيه صاحبه أن الشاعر الفرنسي (موسّيه) كان يُشابه خالداً الكاتب في بكائه وألمه وهواه، وأن من الحق أن يسّمى خالد (موسّية الشرق)!

وقول كهذا القول يطوي في ثناياه من التسرَّع في الحكم والجهل في المقايسة النصيب الكبير؛ فليس من الصحيح إقامة الموازنات بصلة هزيلة أو نسبة ضعيفة، وليس من العلم إطلاق الألقاب بدون حذر أو أناة

لقد أحبَّ (موسَّيه) وأحبَّ (خالد) وبكى موسَّيه وبكى خالد؛ فكانا في الحب مختلفْين وفي البكاء متباينيْن. أما الأول فقد بكى وتألم حتى سمى الشاعر الألم. وكان الدافعَ إلى ذلك حبٌّ مفجع وقلب محطم وكان شاباً ناعماً يفوق لداته بالرشاقة والأناقة والنبوغ. فلما أحب (جورج صاند) غرَّد بحبها في أشعاره وملأ به أناشيده وأغانيه. ثم حملها إلى إيطاليا بلد الجمال والفن ليقضيا حياة حلوة كالعسل، رفافة كالنعيم، ويتمتعا بالجمال البارع والحب الوليد على أنها تركته بعد قليل وتبعت (باجيلو) الطبيب الإيطالي. وكأنها كانت كالفراشة النشوى يروقها رشف الرحيق من كل زهرة! فثار موسَّيه لما رأى إعراضها وهم أن يقتل الحبيبة والطبيب معاً، ولكنه فضل البكاء على الجريمة، ورحل عن (فينسيا) باليأس والخيبة؛ فهام في رباع أوربة ثم عاد إلى فرانسة وأخرج للناس آيات رائعات، غنى فيها بأشعار رقاق من السهل الممتنع، آلامه المبرحات وحبه الجريح، ويأسه الداجي، وإخفاقه المر. والحق أن موسَّيه كان بارعاً في تصوير ذلك، لأنه كان صادقاً، والصدق يؤثر في القلب الشاعر ويطربه؛ ولأنه آلامه ويأسه وإخفاقه عواطف، تجدها قد لامست كل قلب وأقرحت كل كبد، ولذلك يشعر المرء أن في أشعار موسَّيه ترجماناً مما يعتلج في حنايا ضلوعه. ولقد كان شاعرنا إذا وصف ألمه وذكر المرابع التي رآها والأحوال التي صادفها واليأس الذي لقيه برع وأجاد.

ولقد سما في وصفه لحبيبته (في ليلة تشرين) ففي هذه القصيدة تجد صورة أخاذة للحبيبة الشهوانة ذات العينين السوداوين، العطشى للحب، الظمأى للقبل، التي لا تفي لحبيب، ولا تقنع بحبيب. ولعل هذا آت عن فرة حسها وفرط شاعريتها وسعيها وراء لذتها التي خلفت لها وأغوت الناس بها

على أن موسَّيه قد أتخذ من بكائه وألمه وسيلة للتعليم كما أرى، فجاء طرف من شعره تعليمياً أبان فيه عن ضرورة الألم وأثره في النفس، ومحاسنه التي لا تنفد ومزاياه التي تهذب الروح وترهف الحس. يقول: (أن الرجل صانع والألم معلمه. والمرء لا يعرف نفسه إلا إذا تألم؛ ولا شيء كالألم يجعلنا عظماء ذوي شأن). ثم يدعو إلى الألم ويبرع في الدعاوة له وتزينه للناس. ويقولون إن أهل عصره كانوا يسيغون أشباه هذه الأقوال، ويعجبون بمن يذرف الدمع ويصعد الحسرات، وينظرون إلى الذين يقاسون آلام الحب وأسقام القلب نظرة إعجاب؛ بل كانوا يشتهون ذلك. فمن عانى التهيام والتحنان والسهر؛ والبكاء وما يدعو إليه الهوى فقد امتاز عن غيره بكثير ولقد كان فلاسفة اليونان الأقدمين ينصحون للفتى إذا سألهم النصح (أن اعرف نفسك بنفسك) وكانوا يحسبون إن السعادة الكبرى في هذه الحروف الثلاثة. ثم تساءلوا: كيف يعرف المرء نفسه؟ فركب كلٌ مركباً؛ أما موسّيه فقال (ينبغي لك أن تتألم كي تدرك ما تريد، لأن المرء يعرف نفسه إذا تألم) وهو في كلامه هذا ينطق عن تجربة، ويعتقد أنه عرف نفسه وعبقريتها، لما أدمى الحب قلبه فتألم. وعندئذ علا صوت قلبه الشجي. وصوت القلب كما يقول يصل وحده إلى القلب، فهو يود أن يدع قلبه يتكلم دائماً في كل حال. لأن على الشاعر أن يصغي إلى قلبه ويدع عقله، وأن يبتغي رضا القلب قبل مرضات الناس، والحب إذا فجر الألم من القلب جعله غلاباً للمصاعب، عزاماً في المصائب، لأن الألم رمز القوة وهو سبيل الخلود. والخير الفرد الذي بقى لنا في الدنيا هو تذرافنا الدمع في بعض الأحايين

أفيكون حال خالد كحال موسَّيه؟

لا جرم أن ما نعلمه من حياة موسَّيه أوفر مما نعلمه عن حياة خالد. لا شك أن كلا أحب وكلا بكى، ولكن شتان ما بين البكاءين. ولقد ذكروا أن خالداً كان كاتباً في الجيش، وأنه كان يهوى جارية لبعض الوجوه ببغداد فلم يقدر عليها، وأن محمد بن عبد الملك ولاه الإعطاء في الثغور، فخرج إليها، فسمع في طريقه منشداً ينشد ومغنية تغني:

من كان ذا شجن بالشأم يطلبه ... ففي سوى الشأم أمسى الأهل والشجن

فبكى حتى سقط على وجهه مغشياً عليه؛ ثم أفاق مختلطاً واتصل ووسوس. أفيكون سبب بكائه ونحيبه هواه لهذه الجارية أم هناك سبب آخر؟ يقول صاحب الأغاني إن خالداً كان مغرماً بالمرد ينفق عليهم كل ما يفيد، وأنه هوى غلاماً يقال له عبد الله كان أبو تمام يهواه، فتهاجيا بسببه وأنه وسوس على أثر ذلك

وهنا نتساءل: (هل اتخذ خالد من بكائه وألمه ما اتخذه موسَّيه؟!)

لا جرم أن خالداً لم يذهب مذهب موسيه في بكائه وألمه، ولم يفطن للألم وأثره في النفس، ولم يبرع في تصوير الألم براعة موسَّيه، ولم تكن في شعره تلك الصفة الإنسانية التي تجدها عند موسيه. فقد تجد بعض التكلف في العواطف والغلو في المعاني لديه؛ على أنه تفنن في وصف الدمع، وشعره فيه يعذب ويرق. ولا شك أنه الشاعر الفرد الذي بلغ في وصف الدمع ما لم يبلغه أحد من شعرائنا، وهذا ما يمتاز به من موسيه

ويحدثنا خالد في ديوانه أنه أصبح دنفاً هائماً بمن صارمه واحتجب عنه، فبكى؛ وجعل الدمع مداداً يكتب به على خده ما في فؤاده!

ثم طلب من الحبيب أن يفهم معاني دمعه. فلما أعرض عنه هواه وفقد الراحة، لج في تذراف الدمع حتى تقرحت عيناه وطلبتا العذر منه، فلم يعذرهما لأن قلبه لا يعذره ولا يشفق عليه

ولقد كان إذا مرض فله عائدوه، ونأى عنه طبيبه، دعا الدموع فهي مطيعة له، تسرع إليه وتجيبه. وهو ينصح لمن كان هذا شأنه أن يفعل ما فعله، وإذا أنكر الحبيب حبه ودنفه فهو يتخذ الدمع شفيعاً شهيداً. وما زال يبكي حتى كاد يعشب خده:

ولو أن خداً كان من فيض عبرة ... يُرى معشباً لا خضر خديَّ فأعشها

كأن الربيع الزهر بين مدامعي ... بما اخضل فيه من ضني وتصيبا

على أنني لم أبك إلا مودعاً ... بقية نفس ودعتني لتذهبا

وما زال هكذا حتى تخاصمت عينه وقلبه:

القلبُ يحسد عيني لذة النظر ... والعينُ تحسد قلبي لذة الفكر
يقول قلبي لعيني كلما نظرتْ: ... كم تنظرين؟ رماك الله بالسهر
العين تورثه هماً فتشَغلُه ... والقلب بالدمع ينهاها عن النظر
هذان خصمان لا أرضى بحكمهما ... فاحكم فديتك بين العين والبصر
فإذا نفد دمعه نادى:
نفدتْ عبرتي فهل ... عبرةٌ أستعيرها؟
فأنت ترى من هذه اللمحة الموجزة أن الشاعرين مختلفان في حبهما وألمهما وبكائهما، وأن لكل مزايا. ولعلي أعود إلى خالد فأوسع الكلام عنه

(دمشق)

صلاح الدين المنجد

التفسير الكيميائي

لأعمال العقل والحياة

للأستاذ حسين الظريفي

إن الحقائق العلمية التي أسفرت عنها بحوث الكيمياء الحيوية قد دلت على ارتباط مظاهر العقل والحياة بما يحمله الدم من مواد

قال أحد علماء علم الأحياء: (كنت أرتاب قبلاً في أن البحوث الكيميائية الحيوية والكيميائية النفسية تستطيع أن تسفر عن رأي من الآراء في ظاهرة ليست من ظاهرات الطبيعة والكيمياء، إلا أنني الآن أرى غير ذلك. ولأضرب على ذلك مثلاً غريباً بما قد يستطيعه بعض العلماء في المستقبل من القطع بأن نقصاً في إحدى مركبات الفسفور، وزيادة في فعل التأكسد في ناحية معينة من قشرة الدماغ، يصحبان دائماً العبقرية في الشعر

ولندلل على حقيقة عنوان المقال ببعض آثار ما تفعله الغدد الصماء؛ فقد ظهر أن هرمون البرولاكتين، وهو مما تصنعه وتدفعه الغدة النخامية في فصها الأمامي، ذو أثر خاص عند الإناث يدل على أن حب الأمومة قائم على أصل غزيولوجي ممثل بشكل مادة كيميائية قد تكون مؤلفة من جزيئات زلالية كبيرة

وعندما يبلغ أحدنا دور المراهقة تبدأ الغدد التناسلية بإفراز هرموناتها الخاصة، تلك التي تبدو على أثرها أعراض الصفات الجنسية الثانوية، مثل ظهور الشعر في الوجه وتضخم الصوت عند الذكور، ونمو الحوض والصدر وترسب الشحم تحت الجلد عند الإناث. فإذا كان في الغرائز الجنسية ما يبعثها على التهيج والغليان، فإن الطبيعة تسلك في تهدئة هذه الغرائز طريقاً كيميائياً يحدثه لها هرمون البرولاكتين. فقد ظهر أن من مزاياه عرقلة مغالبة الغدد التناسلية عندما تكون بها حاجة إلى التهدئة

على أن هذه الكتلة النسيجية الحمراء المستكنة في منخفض عند قاعدة الجمجمة التي لا يزيد وزنها عن نصف غرام ولا يربو حجمها على حجم حمصه كبيرة - وأعني بها الغدة النخامية - تعتبر الغدة الحاكمة في الجسم وإليها مرد الفضل في أعمال النمو البيولوجية

كذلك ظهر أن هرمون الثيروكسين وهو مما تفرزه الغدة الدرقية يقوم بأعمال الهدم والبناء في جسم الإنسان، وإذا قل مقداره عن حده المعتدل تعرض الإنسان للبله وقصر القامة؛ وأن

بتأثير هرمون هذه الغدة يتميز الأذكياء عن الأغبياء والأقوياء عن الضعفاء بالرغم من أن ما يوجد منه في الجسم مقدار يسير

أما هرمون الأدرنالين وهو مما يفرزه الكظران، فذو علاقة كبيرة بالتعبير عن الانفعالات القوية، ذلك أنه يؤثر في الشجاع فيقدم وفي الجبان فيحجم، ولهذا يزداد إفراز هذه المادة إذا تعرض الإنسان إلى خطر، وبمقدار هذه الزيادة تزداد قوته العادية فيندفع إلى القتال والاستبسال أو إلى التعلق بأذيال الفرار

وقد جاء الأطباء أن مركز الانفعال كائن في جزء من مؤخرة الدماغ، وأن بينه وبين الكظرين صلة وثيقة، فإذا وقف الإنسان في موقف أغضبه أو أخافه فأن مركز انفعاله في الدماغ يرسل في الجهاز العصبي سلسلة من الرسائل إلى الكظرين فتحملهما على إفراز هرمون الأدرنالين لإيصاله عن طريق الدم إلى الكبد، حتى إذا وصله حمله على إطلاق بعض السكر المخزون فيه لإيجاد طاقة جديدة، يدفع بها المرء عنه الخطر

بالمقاتلة أو الهزيمة
إن هذه الحقائق العلمية تذكرني بما كتبه أحد الأساتذة في موضوع الرقة في النفس والذهاب إلى أنها من مظاهر القوة دون أن يقوم هذا التقرير على غير مجرد التفكير والإدلاء بالأدلة البيانية والواقع أن رقة النفس ككل ظاهرة أخرى إنما تقوم على أصول فزيولوجية تبعثها بعض المواد الكيميائية وليست هي وليدة ضعف أو قوة، وقد نجد قوي النفس أو الجسم قاسياً أو رقيقاً
إن جريمة القتل وهي أفضع ما يجره الإنسان على غيره، قد تصدر عن رجل لم تعهد فيه القسوة أو الغلظة، ذلك لأن الجاني لا يقوم بالجريمة مندفعاً بعامل من دماغه وإنما هي شيء يقع مما وراء الدماغ حيث يقوم الخلل في توازن ما تفرزه الغدد الصماء حتى لقد قال أحد العلماء:
إن غدد القاتل هي التي تسحب المسدس وتسدده نحو القتيل وتطلق عليه النار فترديه، وأن غدد السارق هي التي تنقل قدميه إلى مكان الجريمة، وهي التي ترفع يديه لأخذ مال الغير، وهي التي تدفع به إلى التواري والهرب.
فالإنسان من حيث تركيبه الكيميائي يقوم بالإجرام كما يقوم بغيره ومظهر الرقة ولطف
المزاج قد يكون في الجاني وقد يكون في غيره، بالنظر إلى قيام أو عدم قيام المواد الكيميائية التي ينبعث عنها ذلك المظهر.
وما تقدم في صدر هذا المقال عن قرض الشعر لا يخرج عن حدود الواقع، وقد ضربت لقريحة الشاعر مثلاً بالبطرية الكهربائية، فتأليف القصيدة يستهلك من قوي القريحة ما تحتاج فيه إلى أمد تستطيع به إعادة خزن ما فقد، شأنها في ذلك شأن البطرية الكهربائية فإنها تحتاج إلى الشحن المستديم بقدر ما تطلق من كهرباء.
هذا قانون طبيعي يجري حكمه على قريحة الشاعر كما تنفذ كلمته على البطرية الكهربائية سواء بسواء والنتيجة الحتمية لهذه الخاصة الآلية، هي أن الشاعر إذا أجهد ذهنه في قرض الشعر غير مبال بالاستهلاك دون التعويض، انحدر شعره إلى هوة الضعف في معانيه ومبانيه، كشأن كل مصباح يوصل بتيار بطرية لا يأتيها المدد بعد أن تنفذ.
إن عمل الفنان ورجل الصناعة وجناية الجاني، كل أولئك آثار ما تنفعل به مجاميع المواد الكيميائية، ولكن مجال هذه المواد لم يزل البحث فيه عند بداية طريق طويلة، ومتى يصل البحث فيه إلى الذروة يظهر كل شيء عند هذه المواد.
(بغداد)
حسين الظريفي المحامي
. . .مدرسة
للأستاذ أحمد الطاهر
سجا الليل وغشى المدينة ظلام دامس، وكنت قد اخترت لليلتي كتباً أخلو إليها كما يختار الأصدقاء، قليلة العدد كثيرة الوفاء ولكنني برمت بها وبمجلسي، فطويت أجنحتها وعمدت إلى المصباح فأغمضت عينيه، واندفعت إلى شرفة بمنزلي ففتحت بابها وخلوت إلى السماء؛ فإذا القمر يطل منها على الأرض، ويسكب عليها فيضاً سخياً من ضوئه الوهاج. ولا يستطيع أولو الأمر في الحرب أن يرقوا إليه فيسدلوا عليه حجاباً أو ينذروه عقاباً وقلت في نفسي ما يقوله الناس في هذه الأيام: وا حسرتاه! كنا نجد في ضوء القمر لذة ومتاعاً حين كان السلم يبسط رواقه على العالمين، واليوم نوجس منه خيفة وارتياعاً، حين اتخذت الطائرات ضوءه سلماً تهبط به على الآمنين. وما كادت الحرب تخطر ببالي حتى دفعتها عنها دفعاً. وأرسلت البصر إلى السماء، فرأيت سحابة باسطة الذراعين تجرر أذيالها تسعى إلى القمر في تؤده ووناء؛ ثم تبسط يدها على وجهه فيخبو ضوءه قليلاً؛ ثم تنداح فتحجب أكثر هذا الضوء؛ ثم تنحاب عنه فإذا هو خارج من غمرته منبسط الأسارير كما عهدته وإذا السحابة تخلفه وراءها وتمضى وهو باسم بسمة الحليم حين يمتحن في حلمه وهي مطمئنة اطمئنان القوى حين يفوز بخصمه
سبحانك اللهم! وغفرانك! حسبنا أنا حرمنا نعمة الضياء بهذه الحرب فبسطت لنا في سمائك كتاباً فيه سطور من نور. وحسبنا أننا قطعنا الأسباب على كل مبعث للضياء بما

أسدلنا من سجف وأستار وإذا ضياء سمائك لا يحجبه حاجب ولا يمنعه ستار!
ترى هل أستطيع أن أقرأ في هذا الكتاب المبسوط في السماء؟ هل من سبيل إلى فهم بيان السماء؟ هل أفوز من القمر والحساب والسماء والنجوم بحديث اطلع به على الناس مغتبطاً كما يزهو الصحفي حين يفوز بحديث زعيم أو عظيم مع ما بين الحديثين من تفاوت؟
ودار بخاطري أننا أنشأنا مدارس لتعليم اللغات الحية وعكفنا على دراستها حتى قتلناها وأنشأنا معاهد لتعليم اللغات الميتة، وعكفنا على ذكرها حتى أحييناه واحتدم بيننا الجدل فيما نفعل حتى اختلط الشك باليقين، وانتصر قوم لزكي مبارك وتشيع قوم لأحمد أمين، وما في ثبت تلك المدارس والمعاهد مدرسة لتعليم لغة الطبيعة ولا (حصة) لدراسة لسان لا سماء
والأرض الذي تنطق به كل المخلوقات ولا يفهمه إلا الأقلون؟!
وقدرت أن من الخير لنا أن نهيب بالشعراء والأدباء ليدلوا الناس على هذه المدرسة ويبسطوا لهم نظامها ونهج الدراسة فيها ليقبلوا على دراسة لغة الطبيعة وتخصص أسرارها بالبحث، وقدرت أن الإقبال على هذه المدرسة رهن بما يثار حولها من دعاوة وإعلان. ولما لا نحيط الفكرة بالدعاوى والإعلان ليقبل الناس عليها ونحن في هذا الزمان نحيض الباطل بالدعاوى والإعلان حتى نحسبه حقاً، ونبهرج الكذب والمين حتى يبدو لنا صدقاً واستوت لي في هذا التفكير صورة (إعلان) عن هذه المدرسة فإذا هي كما ترى:
مدرسة تعليم اللغة الطبيعية
المدرسة مؤسسة منذ أن خلق الله الكون وجعلها تذكرة وعبرة لأولى الألباب. مواد الدراسة فيها لا يحصيها حصر ولا يحيط بها بيان، ويأخذ منها الطلاب ما تسع جهودهم وتحمل إفهامهم: منها السماء ونجومها، والسحب وأمطارها ورعودها وبروقها، والشمس والقمر، واليابس والماء، والجبل والسهل، والشجر والثمر، والرياح والعواصف، والرمل والحصى، وكل ما تفزع إليه الأبصار البصيرة حين تضيق بها سبل الحياة فتلتمس في جمالها النجاة، وحين تحتبس النفس في ظلمة المادة فتلتمس الفرج في نور الطبيعة. ويدرس بالمدرسة الإنسان وطبائعه والحيوان وخصائصه كما تدرس العلل والأمراض في مدارس الطب وصحة الأبدان والدراسة في هذه المدرسة ليلية حتى دراسة الشمس! وقد اختير الليل لأن سواده ينم عن أدق أسرار الطبيعة كما ينم سواد العيون عن أسرار القلوب. والطبيعة خِفِرَة رقيقة يؤذيها الأضواء الوهاجة وتؤلمها الأصوات الصاخبة، فلا تبدو في أنصع أثوابها إلا في سواد الليل، ولا يشرق وجهها إلا بعد غروب الشمس، ولا تستيقظ إلا حين ينام الناس، ولا تنطق إلا حين يصمت كل لسان. ويشترط للانتظام بهذه المدرسة أن يقدم الطالب شهادة بأنه قد مارس الجمال والحب والفن فلم يفرق بين ثلاثتها، وذاق لذاتها وآلامها وحلاوتها ومرارتها. ولا تقوم وثيق الزواج مقام هذه الشهادة. وأن يقدم شهادة موقعاً عليها من أثنين من كبار علماء الأرض يعترف فيها معهما بأن مبلغ علمه وعلمهما أن الثلاثة لا يعلمون شيئاً. والمدرسة تعد الطالب للعلم بلغة طبيعية، وعليه بعد هذا أن يناجيها بلسانها فيفهم أسرارها ويستودع أسراره ويقدس جمالها ويحدث عن جلالها. وأنه لموفق سعيد إن استطاع
(.أن يمضي معها في سبيل
وبعد فالشاعر أو الناثر الذي يفهم لغة الطبيعة ويتمرس بها لن يكون أدبه غثاً ولا تافهاً، ولن يجد فيما يخرج للناس أو لنفسه من شعر أو نثر عناء ولا عنتاً إلا بمقدار ما يختار من الألفاظ جزلها وما يسبغ على أسلوبه من طلاوة. ذلك بأنه في إبراز المعاني والأخيلة والتشبيهات لا يمنح من بئر عميق، ولا يرحل إلى مكان سحيق إنما يتناول ذلك كله مما أنطبع في نفسه، وأوحى به حسه، وانبجس من وجدانه، يجربه في قصبة يراعه فإذا هو شعر أو نثر يتسلسل تسلسل ماء النهر
هذا هو الأدب الذي توحي به الطبيعة أن صادفت نفساً صفية وإحساسا دقيقاً ووجداناً سامياً وخاطراً سريعاً. تجده أدباً حياً ناطقاً يصدر طواعية لإحساس موجود وشعور قائم بالنفس؛ ولا مراء في أن انطباع الصور في نفس الأديب شاعراً كان أم ناثراً هو الوسيلة التي تطوع له جيد الشعر أو النثر وذلك هو ما يعبرون عنه بهضم المعاني،

يقصدون بالتعبير أن يكون المعنى قد أستقر في (بطن الشاعر) وجرى منه مجرى الدم وسرى فيه سريان الروح فلا يصدر إلا عما انطوى عليه إحساسه وقام بنفسه. وأنه ليجري مجرى هذا القول ما نراه من تأثر شاعر أو ناثر بشعر شاعر قبله أو ناثر تقدمه، أن كان المتأخر قد بذل جهداً في دراسة أدب المتقدم، وتقفي أثره وترسم خطاه. هنا لا نلبث أن نرى في شعر المتأخر وأدبه روح المتقدم ونفسه. وهنا يخطئ كثير من الناس فيحكمون على المتأخر بالسرقة؛ وإنه لتجن لا مسوغ له، وتعسف ليس له ما يجيزه. خذ مثلاً شعراء الأندلس في القرن الرابع الهجري، ترى أنهم أعجبوا بطريقة المتنبي ومذهبه وحاولوا السير على نهجه الذي ابتدع ولم يكن ذلك بدعاً فأن أهل المغرب إذ ذاك قد أغرموا بالتشبه بفحول الشعراء والأدباء من أهل المشرق؛ وأنك لواجد روح المتنبي ظاهرة بارزة في قول أبن هانئ الأندلسي:

فجزعتُ حتى ليس بي جزع ... وحذرتُ حتى ليس بي حذر

ومن ذا الذي لا يلمس المتنبي في قول أبن زيدون:

سر أن في خاطر الظلماء يكتمنا ... حتى يكاد لسان الصبح يفشينا

وهاك ابن زيدون هذا يقول في رسالته الهزلية: وغناك مسألة، ودينك وعلمك محزقة. ألا يذكرنا هذا بما قاله المتنبي في ابن كيغلغ في ميمته التي أولها: لهوى النفوس سريرة لا تعلم؟ ولندع المتنبي فقد تقفي آثاره كل من جاء بعده فتأثر به بعضهم وسطاً عليه البعض؛ ولننظر إلى البحتري يصف بركة المتوكل:

إذا علتها الصبا أبدت لها حبكا ... مثل الجواشن مصقولاً حواشيها

ولنضع إلى جوار هذا البيت بيتاً لأبن حمديس يصف بركة المنصور:

وكأنما نسج النسيم لمائه ... درعاً فقدر سردها تقديراً

أنا لنجد الجوهر في البيتين واحداً، ولا يقبل بأي حال أن يحمل هذا محمل السرقة، وإنما هو تفاعل نشأ من امتزاج شعر الشاعر المتقدم بنفس الشاعر المتأخر على هذا النحو من التفاعل يكون أثر الطبيعة في شعر الشاعر أو نثر الكاتب الذي يفهم لغة الطبيعة ويتأثر بصورها ويؤخذ بمظاهرها، ويفتن بجمالها ويؤمن بجلالها: تفيض عليه غيثاً دافقاً، وتوحي إليه وحياً صادقاً

وكذلك يكون الشعراء والأدباء

(الإسكندرية)

الصاغ أحمد الطاهر

3 - قيمة الحرية

للصحافي العالمي ويكهام أستيد

بقلم الأستاذ زين العابدين جمعة المحامي

(تابع)

تصبح مدارك الحرية اقتصادية كانت أو سياسية، وهي آراء نسبية أي خاضعة لمقتضيات الظروف. والعلاقة الصحيحة القائمة بين الحرية الاقتصادية والحرية السياسية في وقت معين وفي ظروف خاصة هي عندي موضوع يجب أن يعرض في حينه للبحث الحر والدراسة الصحيحة والاستقراء السليم، وليست بتلك المذاهب السياسية أو الاقتصادية الموضوعة. فأصحاب المبدأ الذي نادى بحرية التجارة ورفع القيود الجمركية من ناحية، وأتباع العقيدة المرقصية من ناحية أخرى، مسئولون مباشرة أو من طريق غير مباشر عما أصاب لفلسفة الحرة من كسوف تلك الفلسفة التي كانت دعامة النظر الحر في القرن التاسع عشر. ولو قدر لدعاة الاشتراكية أن يقفوا اليوم وقد تملكهم العجب وحاروا من أثر ما يرونه من مقاومة الحكومات الاستبدادية لإقحام العقيدة المرقصية في روسيا وإكراه الناس على اعتناقها، فإنهم يحسنون صنعاً لو أنعموا في الأمر النظر ليعرفوا إلى أي حد قد يتكشف تحقير المرقصية والاشتراكية لمبادئ الحرية السياسية عن دواعي الشرور التي ألموا لها وبكوا عليها. إن ديكتاتورية الطبقات الدنيا ومذهب صراع الطبقات ليتناقضان مع النظر الفلسفي الصائب مثلما تتناقض معه عقائد الفاشية والنازية؛ إذ لا يتهيأ للناس مع الحكومات الاستبدادية التي تتولى السلطان باسم الطبقات الدنيا أو الطبقات المجردة من الملكية من كفالة العيش والاطمئنان للحياة أكثر مما يتهيأ لهم مع الحكومات الاستبدادية التي تنهض بالحكم على حساب

جماعات الشعب الأخرى التي قد يكون لديها من حطام الدنيا ما يفرض عليها أن تفقده ويعز عليها أن تتخلى عنه أو تفقده. ولقد كان هتلر في عبارات قليلة من كتابه (كفاحي) أكثر فطنة وأبعد نظراً منه في تلك العبارات التي عبر بها عن مخاوف الطبقة المتوسطة الضعيفة من أن ترجع القهقرى فيلقى بها في غمار الطبقة الدنيا من الأجراء البائسين التي عملت على الإفلات من التردي في غمرتها. وما أصابه هتلر من النظر الألمعي الذي هداه إلى أن يجعل حركة (الاشتراكية الوطنية) في وضع يتفق إلى حد ما مع رغبات الطبقة المتوسطة الرقيقة الحال الضعيفة الشأن في ألمانيا، لم يكن في واقع الأمر بأقل مما أصابه مرقص والمرقصيون الاشتراكيون الذين أسسوا ما رسموه من خطة للانقلاب الثوري الناجح على عقيدة قوامها أنه إذا تهيأ للطبقات الدنيا في جميع أنحاء العالم أن تتحد وتظفر من وحدتها بقوة لا تقف أمامها قوة، وبسلطان لا يقهره سلطان، وسعها أن تحطم أغلالها وتحقق آمالها. والفاشية والنازية قد طبعتا الظلم بطابع رسمي وهما تحسبان أنهما تذودان عن الملكية وتسهران على حمايتها. ولقد أعرب (دون سالفادور دي مدارياجا) عن حقيقة الأمر في أوجز عبارة ممكنة وبما مرن عليه من قوة البيان ودقة الأسلوب بقوله: (ليست الفاشية سوى صورة للشيوعية تراها العين على صفحة ماء يضطرب من الخوف).

وهنا وكما قصدت أن أبينه تتكشف الحقيقة عن أنه لم يكن بدعاً أن ينتظم هذه السلطات الاستبدادية المطلقة معنى واحد، هو أنها لا تحتمل للصحافة حرية، بل لا بد لها، أن تقضي عليها؛ وأولئك الرجال الذين لا يتأصل معنى الحرية في أنفسهم نتيجة لشعور سليم وإيمان متين غالب أمرهم أن يضيقوا بحرية الصحافة ذرعاً. إلا أننا من جهة أخرى نجد مجرد التشدق بالفضائل الديمقراطية والتمدح بالانضواء تحت لوائها، وهو لا ينهض بديلاً عن الإيمان بالحرية إيماناً صادقاً رشيداً. والحق أن فقر الفكرة السياسية وعقمها في الجماعة والأحزاب القديمة العهد، وفي الأمم التي ما زالت تنعم بحريتها هو من أعظم الشواهد العقلية على ما تكابده من خمول الشأن في زماننا هذا.

ومادام الناس قد كتب عليهم أن تستأثر المادة برغباتهم وتملك عليهم عقولهم ومشاعرهم فلا يعملون إلا لها، ولا يهتفون إلا بها، ويتأصل في معتقداتهم أنهم يعيشون للخبز وللخبز وحده، ومادام أغلب ظنهم أن بيد الاقتصاد السياسي مفاتيح الغيب التي تنفتح معها جميع الأبواب لتنفذ منها الحكمة الاقتصادية، فسوف لا تصبح لغة الحرية يوماً ما وهي لغتهم الشعبية. وسوف لا يتحدثون بها بذلك الأسلوب القوي السليم الذي يجري على لسان عظماء القادة ممن يقدرون قيمة الحرية حق قدرها، وإذ يعرفون لها فضلها يؤثرونها لذاتها. ومع ذلك قد تتكشف لهم الحقيقة عن أولئك القوم من رعاع الناس المحتقرين، ومن أعداء البشر من المموّلين النهمين، ومن العمال المستضعفين ما برحوا وهم ينعمون بنصيب كاف من الفطنة والرشد يدركون معه أن اختيار النظم الحرة للهيئات الاجتماعية اختياراً موفقاً صائباً لا يستقر في الأفكار والعقائد التي تنادي بها جماعة الشيوعية الاستبدادية من ناحية اليسار، والمذاهب والآراء التي تفرضها الهيئات الفاشية والنازية من ناحية اليمين، بل يجب أن ينهض على المبادئ الحرة المنظمة التي ظلت أعظم ما يصبو إليه النظر، وتنصب عليه التجارب في بريطانيا رجاء النهوض بمدينة الجنس البشري

إننا بحاجة لأن نمعن في تقصي هذا الموضوع والاستزادة من استقرائه ودراسته ما دمنا نترقب ما قد ينتهي إليه من التحكم في حرية الصحافة. وهنا نجد لزاماً علينا أن نتساءل لمَ بلغ تهديدهم للحرية هذا المبلغ الخطير، ولماذا انتهى إلى هذه الحال المروعة؟ ولماذا ضيع أمثال هؤلاء الناس العظام من الطليان والألمان حريتهم واستكانوا للذلة وخضعوا للطغيان؟ ولم يدلنا ظاهر أمرهم على أنهم يفخرون بتلك النظم التي تقضي على كرامة الإنسان وتضيق الخناق على الحرية؟ ولم نرى في بريطانيا هؤلاء القوم من عظماء الرجال العموميين وأصحاب الصحف الخطيرة الشأن الواسعة السلطان يطأطئون رؤوسهم ويطمئنون من نخوتهم أمام دعاة تلك النظم الاستبدادية وقادتها؟ ولم يتعامون عن تلك الجرائم النكراء التي تنادي بمسئولية قادة تلك النظم وهم إلى ذلك يعيرونهم آذاناً واعية ويمجدون أعمالهم؟

والجواب على ذلك هو أنه وقتما ينهض في الشعب نظام استبدادي كالشيوعية الروسية ويطبع نفسه بطابع من القوة الغاشمة والعنف المروع ثم يتأتى له بعون من

رجال الشرطة الجبابرة القساة المنبثين في كل مكان أن يسحق الحريتين السياسية والشخصية ويحرم على الناس الملكيات الخاصة، تقف منه النظم الأخرى التي تزعم لنفسها حماية الملكيات الخاصة موقف المعارضة والمناضلة، ثم لا يكون منها هي الأخرى إلا أن تتخذ من سلاح القوة والعنف ومن رجال البوليس السري عوناً لها، لا للقضاء على أولئك الرجال وتلك الأحزاب من شيعة الشيوعية فحسب، بل ولتحطيم سند الحرية وحماتها وممثلي الديمقراطية أيضاً.

زين العابدين جمعة

المصريون المحدثون - 18

شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الإنجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

تابع الفصل السادس - الحياة المنزلية

جرت العادة أن ينصرف التاجر بعد تناول الفطور مباشرة إلى حانوته أو مخزنه ولا يعود إلى المنزل قبل الأصيل. ولديه هناك الفراغ الكافي للتدخين متى شاء، وكثيراً ما يدخن حرفاؤه معه، فيقدم إلى بعضهم شبكه الخاص، والقهوة يستحضرها من أقرب مقهى. وقد يمضي أغلب يومه في التكلم مع الحرفاء أو مع جيرانه من التجار. والتاجر يقيم صلاته على العموم في دكانه، ويتناول بعد صلاة الظهر طعاماً خفيفاً مثل طبق من كباب ورغيف من الخبز يحضرهما إليه خادم صغير من المنزل أو من السوق يومياً، أو بعض الخبز مع الجبن أو المخللات، أو غير ذلك مما يشتريه من الباعة المتجولين. ويدعو التاجر دائم الحريف إلى مشاركته الطعام، وقد يلح في الدعوة. ويحتفظ في دكانه بقلة كبيرة يملأها عند اللزوم سقاء متجول، ويعود التاجر إلى منزله مساء للعشاء، وسرعان ما ينام . . .

والعادة أن ينام الرجل هو وزوجه في سرير واحد، إلا أن أفراد الطبقة الموسرة يتخذون غالباً سرراً منفصلة. ويتكون السرير عند متوسطي الحال مما يأتي: حشية طوله حوالي ست أقدام، وعرضها ثلاث أقدام أو أربع، توضع على سرير منخفض من جريد النخيل، ومخدة ليستريح عليها الرأس، وملاءة تفرش فوق الحشية والمخدة. وغطاء الصيف خفيف، ويسمى (حراما)، أما غطاء الشتاء فغليظ محشو بالقطن ويسمى (لحافا). وقد توضع الحشية على الأرض إذا لم يوجد سرير، أو توضع اثنتان معاً واحدة فوق الأخرى، وكثيراً ما يكتنفها مسندان من مساند الديوان؛ والكلة تعلق فوق السرير بأربعة خيوط تشد إلى مسامير تدق في الحائط. ويندر أن يغير المصري ملابسه عند النوم. وفي الشتاء ينام بملابسه

العادية جميعها إلا الجبة والملابس الجوخية. أما في الصيف فينامون عراة أو شبه عراة. وينصب السرير شتاء في غرفة صغيرة تسمى (خزنة) وصيفاً في غرفة واسعة. ويطوي فرش السرير نهاراً ويوضع على جانب، أو في الخزنة السابق ذكرها. وعند اشتداد الحر ينام أغلب الناس على أسطح المنازل أو في (الفسحة): وهي غرفة لا سقف لها؛ ولكن تعرضهم للهواء الطلق أثناء الليل يسبب لهم الرمد وأمراضاً أخرى. وأكثر أنواع الأسرة شيوعاً ما يصنع من جريد النخل، وهو يجلب البق الذي يكثر كثرة فاحشة في مصر أثناء الصيف مثل كثرة البراغيث في الشتاء، وقد سبق ذكر هذه الحشرات والبلايا الأخرى التي يتعرض لها المصريون ليلاً ونهاراً. والقمل أكثر هذه الحشرات إثارة للاشمئزاز؛ ولكن الذي يغير ملابسه الداخلية كل يومين أو ثلاثة أيام قلما تضايقه هذه الحشرة، وأن لم يكن تجنبها سهلاً دائماً حتى مع النظافة التامة. وإذا كان القمل يضايق فأن من السهل الخلاص منه، لأنه لا يلصق بالجلد وإنما يوجد على العموم في الثياب. ومن الممكن أن ينظف المنزل من البراغيث بكثرة الغسل والكنس، وأن يمنع الذباب من الدخول بوضع الشباك على الأبواب والنوافذ، وإن كانت حلقاتها واسعة، ولكن من المستحيل أن يطهر المنزل المصري من البق إذا كان أثاثه من الخشب كما هو الحال غالباً.

وحياة الخدم الذكور كلها دعة وراحة ما خلا السائس الذي يجب عليه أن يرافق سيده وقت الركوب فيجري أمامه أو بجانبه وقد يقوم بعمله هذا في أشد الأوقات حراً ولمدة

ساعات طويلة دون أن يبدو عليه التعب. ولكل ثري من أثرياء القاهرة تقريباً بواب يلازم باب المنزل، وعدة خدم ذكور آخرين. وأغلب هؤلاء مصريون. ويستخدم أيضاً النوبيون في القاهرة وفي غيرها من مدن مصر. وكثيراً ما يقوم النوبيون بحراسة الأبواب؛ وهم على العموم أكثر أمانة من الخدم المصريين. وأجرة الخادم تافهة لا تتعدى ريالاً أو ريالين في الشهر، إلا أنه يتناول منحاً كثيرة فيعطي السيد كل خادم في عيد الفطر بعض الملابس الجديدة أو خلعة كاملة من عرى وطربوش وعمامة. وعلى الخادم أن يدبر لنفسه ملابسه السنوية الأخرى ما عدا الحذاء أحياناً. وقد يتناول، علاوة على ما يعطيه السيد، بعض النقود من الضيوف أو من التجار الذين يعاملهم السيد وعلى الأخص عندما يشتري صفقة كبيرة. وينام الخدم بملابس النهار على الحصر، ويغطون أنفسهم شتاء بدثار أو حرام.

وكثيراً ما يرفع الخادم الكلفة مع سيده فيضحك ويمزح معه. وفي بعض الأحوال الأخرى يخضع كل الخضوع ويظهر له كل الاحترام، ويتقبل كل ما يوقعه عليه من العقوبة البدنية بهدوء الأطفال.

ويراعي السيد الخادم العبد أكثر من الخادم الحر؛ ويحيا العبد حياة توافق طبيعته الكسولة. ويمكنه إذا كان غير راض عن عمله أن يجبر سيده على بيعه. وأغلب عبيد مصر يلبسون الملابس العسكرية التركية. وهم على العموم أشد الناس تعصباً في مصر وأكثر تعوداً على إهانة المسيحيين وكل من كان على غير دينهم الذي اعتنقوه دون أن يعرفوا من مبادئه أكثر مما يعرف أطفال العرب الذين لم يمض عليهم في المدارس أكثر من أسبوع. وسأذكر بعض أخبار الجواري في الفصل القادم.

ومعرفة أحوال المصريين المحدثين كثيراً ما تجرنا إلى مقارنة عاداتهم المنزلية بعادات الأوربيين في القرون الوسطى؛ وما في هذه المقارنة من مشابهات، تعتبر اكثر تأثيراً مما فيها من مباينات، هذا بالنسبة للرجال؛ أما بالنسبة للنساء فالآمر على العكس الآن وقد أطلت الحديث عن الرجال يجب أن أنتقل إلى الكلام عن الحريم. ولكن يجب أولاً أن أذكر بعض الشيء عن الزواج وحفلاته.

يعتبر المصريون امتناع الرجل عن الزواج بلا مبرر عند بلوغ السن الملائمة مخالفاً للآداب ومسيئاً للسمعة. وقد لقيت أنا نفسي لارتكابي هذه الخطيئة (أقول ذلك حتى لا أذكر ما هو أشد قسوة)، مضايقات ومكاره كثيرة، واحتملت عتاباً شديداً أثناء زيارتي الأوليين لمصر. فقد بدا لي في المرة الأولى أن أنتقل من المنزل الذي سكنته بعض شهور في شارع كبير من شوارع القاهرة إلى منزل آخر في حي مجاور، وكتبت عقد الإيجار ودفعت العربون، ولكن جاءني وكيل المالك بعد يومين يخبرني أن سكان الحي وأكثرهم أشراف يعترضون على سكني بينهم لأنني أعزب؛ ولكنهم يقبلونني بكل سرور إذا اقتنيت على الأقل جارية تنفي عني عار العزوبة. فأجبته إنني لا أنوي الإقامة بمصر فلا أحب أن أتخذ لي زوجة أو جارية قد يضطرني الرحيل إلى تركها. فأعاد إلي العربون. وساعدني الحظ في حي آخر فلم يعترض على عزوبتي أحد، وإنما طلب مني الوعد بعدم السماح لأي شخص يلبس القبعة أن يزورني في الحي. ولكن بعد أن أستقر بي المقام أخذ شيخ الحي

يحاول إقناعي بوجوب الزواج. ولم يقم وزناً لكل ما أبديته من الحجج التي تمنعني عن الزواج وقال: (تذكر لي أنك تريد ترك مصر بعد سنة أو سنتين. وأن هنا أرملة شابة جميلة تسكن على مقربة منك، ويسرها أن تصبح زوجتك مع رضاها بأن تطلقها حينما تترك البلد. وفي وسعك طبعاً أن تفعل ذلك إذا لم تعجبك.) وقد استطاعت هذه الشابة مراراً أن تجعلني أبصر وجهها الجميل أثناء مروري بالمنزل الذي تسكنه مع أهلها. فقلت لصاحبي إنني رأيت وجهها بطريق الصدفة، وإنها آخر امرأة أرغب في الزواج منها في مثل هذه الظروف لتأكدي من أنني لا أستطيع طلاقها أو فراقها إذا عشت معها. وقد شق عليّ أن أسكت صديقي الخدوم. لقد ذكرت في المقدمة أن الأعزب أو من لا يقتني جارية يضطر إلى السكنى في الوكالة إلا إذا كان يعيش مع أهله، ولكن الإفرنج الآن يّعفون من هذا القيد.

وتبلغ المصريات في سن مبكرة قبل نساء البلدان الباردة. وكثيراً ما يتزوجن في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة. وقد ينضجن قبل السن بشكل يستحق الاعتبار ويتزوجن في العاشرة. إلا أن هذا الزواج المبكر غير شائع. وقلما تبقين بدون زواج بعد السادسة

عشرة. وقد تصبح الفتاة المصرية أماً في الثالثة عشرة أو قبل ذلك. ونساء مصر على العموم ولودات، ولكن الأجنبيات اللاتي توطن مصر عقيمات غالباً. ويندر أن يعيش من يولد في مصر من أولاد الأجانب إلى سن الكهولة ولو كانت الأم مصرية. ولهذا يرجع السبب في تبني المماليك المعتقين غيرهم من المماليك.

ومن الشائع بين العرب في مصر وغيرها أن يتزوج الرجل من ابنة العم أو الخال. ويستمرون بعد الزواج على التنادي بألقاب القرابة. لأن رابطة الدم لا تفصم، ولكن صلة الزوجية عرضة لزوال. ومثل هذا الزواج يدوم على العموم بسبب رابطة القرابة، وقد تربطهما وحدة البيئة في طفولتهما، ولكن قلما يسمح للفتى أن يرى وجه قريبته في الطبقتين العليا والوسطى، أو يقابلها أو يحادثها حين تقرب من سن البلوغ إلى أن تصبح زوجته.

ويتم زواج العذراء بالطريقة الآتية، إلا إذا كانت أرملة أو مطلقة فيكون الحفل صغيراً. تبدأ أم الراغب في الزواج أو إحدى قريباته بوصف الفتاة التي تكون عرفتها وذكر أحوالها، وترشده في اختياره. وقد يستخدم خاطبة وهي امرأة عملها أن تساعد الرجال في الزواج.

وقد يستخدم أكثر من خاطبة. وتقدم الخاطبة بيانها عن الفتيات مساره، فتصف الواحدة أنها كالغزال جمالاً ورشاقة صغيرة السن، والأخرى أنها ليست جميلة ولكنها غنية، وهكذا. والعادة أن تذهب أم الخاطب وبعض قريباته مع خاطبة لزيارة عدة بيوت. وللخاطبة حق الدخول لاحترافها سمسرة الزواج، إذا أن النساء كالرجال يستخدمنها أيضاً، وقد تقوم الخاطبة بمهنة (الدلالة) أيضاً تبيع الحلي والملابس الخ، فيسهل عليها دخول البيوت تقريباً، وتقدم النساء اللاتي يرافقن الخاطبة، للبحث عن زوجة لقريبهن، باعتبارهن زائرات فقط، وقد لا يلبثن طويلاً إذا لم يصادفن مرادهن، ويفهم الطرف الآخر طبعاً القصد من الزيارة ولكن إذا وجدن بين نساء المنزل (ولا بد من رؤيتهن جميع من يصلحن للزواج) فتاة أو امرأة شابة تتحلى بالصفات اللازمة يكشفن عن قصدهن ويستفهمن، إذا لم يكن طلب الزواج وقتئذ مستقبحاً، عما تملك الفتاة من أملاك وحلي الخ. وقد تملك الفتات إذا توفى أبوها منزلاً أو اكثر وحوانيت كثيرة الخ. وتملك كل بنت على وشك الزواج، في الطبقتين العليا والوسطى، مجموعة من الحلي الذهبية والجواهر في جميع الأحوال تقريباً. وبعد أن يستعلم الزائرات عن هذا وغيره يقدمن تقريرهن إلى الراغب في الزواج، فإذا رضى بذلك البيان يقدم إلى الخاطبة هدية ويرسلها ثانية إلى عائلة الفتاة لتعرفهن رغباته، وتبالغ الخاطبة على العموم في حديثها عن صفات الرجل الجذابة وثروته الخ، فتتحدث مثلاً عن شاب خامل تعلم هي أنه لا يكاد يملك شيئاً ولا يمتاز بشيء بقولها: (يا ابنتي، إن الشاب الذي يرغب في الزواج منك صغير السن لطيف العشرة أنيق أمرد ثرى جميل الملبس مغرم باللطائف؛ إلا أنه لا يستطيع أن يتمتع بهذا الترف وحده فهو يريد أن تكوني شريكته. وسيعطيك كل ما يشتري بالمال؛ وهو لا يخرج كثيراً، وسيمضي وقته كله إلى جانبك يلاطفك ويدللك).

عدلي طاهر نور

اللحن الجديد

(للشاعر المجهول)

بَعَد السنينَ الطوالْ ... ورغَمَ كيدِ الأعادِي
قد جازَ فيكَ المُحَالْ ... ونِلتُ منك مرادِي
الليلُ غَفْوَانَ يدري ... ما كان بيني وبَيْنَكْ
وكنت في الليل بَدري ... وكان نورُك حُسْنكَ
في لحظةٍ صار عيشي ... يَفوقُ عُمرَ الوجودْ
فليحرسُ الحبُ طيشي ... في قطف تلك الورود
تهْ بعد هذا وسافِرْ ... إلى أقاصِي نَوَاكْ
لم يَبْقَ لي ما أحاذرْ ... من شقوتي في هواكْ
لِمَنْ صفاؤك بَعدِي ... كدَّرتُ بالفَنْكِ وِرْدَكْ
أعيش أن رُمتُ وحدي ... فِعش إن استطعتَ وحدك
أنت الأسيرُ الرهينْ ... لصَبْوَتي وخَبَالي

فأحذَرْ حِذارَ الطعين ... من سطوتي وصِيالي
أأنت تُخِلف وعدكْ ... وكنتَ رمز الوفاء؟
أأنت تُنكر عهدكَ ... يا جذوةً من صفاء؟
لِمن تكون؟ أجِبني ... فأنت فوقَ الظنونْ
بمن أهيم؟ أعِذني ... قد طاب فيك الفُتُون
لو شئتُ، لا شِئتُ، طارت ... غوايتي عن حِماك
ولو أردتُ لجالتْ ... مآثمي في رُبَاك
يا مِحنتي في المساء ... وفتنتي في النهارْ
قد طال فيك العناء ... فأين مِنْك الفرارْ؟
ماذا يريدُ غِضَا بُكْ ... ماذا يروم جَفَاكْ
إلى الفؤاد إيابُكْ ... إذا أردتُ لَقِاك
ارجعْ إلي تَجدني ... كما عهدتَ وأسمحْ
أو فانْتَظِرْ بَعدُ مني ... فَتى يسَّمى ويذبح
ظبي يروح ويَغْدُو ... في شائكات السُّهوب
ويأمنُ الليثُ يَعدو ... أأنت ذاك اللعوب؟
سأستبيحُ احْتِبَالكْ ... إن ثارَ شوقي إليك
سأستجيزُ اغتيالك ... إن طال خوفي عليك
بيني وبين اقتناصِكْ ... صُبَابةُ من حَيَاءْ
فاسلُكْ سبيل خلاصِكْ ... إن اشتهيتَ البقاء
إن كنتَ تنُكِرُ جهلاً ... فَنْكَ القلوب الجوارحْ
فسوف أسقيك سَجْلاً ... يُدمى عيونَ النوائح
لا، لن تكونَ لغَيرِي ... والله، لا، لن تكونْ
وكيف يا وَحْيَ شِعري ... أهابُ فيك المَنُون
أضلَّ حُّبك قلبي ... والحبُ كالنُّور يهدي
أكان عندكَ ذنبي ... أني وفيتُ بعهدي؟
لولا التقَى لجعلتُكْ ... تسبيحةً في الصلاة
ألا تراني أصرتُكْ ... تغريدةً في الحياةْ
أدوسُ جَمْرَ الجحيمْ ... عند ارتياد جمالكْ
فأين روضُ النعيمْ ... عند استياف وصالك
لَحنُ كلحِن الرحيقْ ... في الكأس، ذاك بغامك
فهل تراني أفِيقْ ... ومن شرابي كلامُكْ؟
خدَّاكَ خَّداكَ، آهاً ... من الجمال الفصيحْ!
عيناكَ عيناكَ، واهاً ... من الفُتُون الجريح!
لم يُؤذني بُخْلُ لفظِكْ ... في جَهْرِه وأُلْخُفوتْ
عرفتُ من وْحي لحِظكْ ... أن الهوَى لا يموتْ
لو قيلَ يومَ احتضاري ... هذا شقيقُ الفؤادْ
لأشرقتْ بك داري ... وكان يوم المَعاد
مَن أنتَ؟ ضلَّ العَذُولْ ... في غابة الافتضاحْ؟
مَن أنتَ؟ لا، لن أقولْ ... سِر الهوَى لا يُباح؟
(الشاعر المجهول)

الزنبق

للأستاذ خليل مردم بك

حَيَّتْكَ باسمةً ثغورُ الزنبق ... مفترةً عن طيِّبٍ متألقِّ
ضَمَّتْ براعُمها شِفاهَ مقبَّل ... وحنتْ عليكَ حنو صبٍ شَيَّقِ
وكأنها في الماء خود شَّمرَتْ ... عن ساقها عند الورود لتَستقي
وكأنها استحيتْ فغضَّت طرفهَا ... وتطأمنتْ خفراً برأس مطرق
نهلتْ أفاويقَ الندى زهراتهُا ... فتفتحتْ كالشارب المتمطق
لم تقوَ صُغراها على برد الندى ... أفما تراها ذاتَ ثغر أزرق
وترى عناقيد البراعم تنضوي ... متلازماتٍ في عناقٍ ضَّيق

من طيِّبِ الأنفاس والأردانِ ذي ... جفنٍ على حلم التعانق مطبق
عذراءُ تستهوي العيونَ بطلعةٍ ... وضَّاءة بيضاء كالعرض النقي
تختال من زهو الصبى في ميعةٍ ... ومن الشباب وحسنه في ريِّق
فكأنها ببياضها وسنائها ... برزتْ إليك من الضحى في رونق
وتسربلتْ بغلالةٍ وبريطةٍ ... من سندسٍ خُضْرٍ ومن إستبرق
خفَّاقة الأقراطِ زهراء الحلي ... معقودة الإكليلِ فوق المفرق
ما أقبلتْ إلا بثغرٍ باسمٍ ... وبمقلةٍ نشوى ووجهٍ مُشرق
وكأنها سكرى تمايلَ عنقُها ... ورنتْ بجفنٍ النعاس مرنَّق
مر النسيم على الندى بجفونها ... فترجرجت قَطراته كالزئبق
أني ليشجيني الندى متعلقاً ... بجفونها كالمدمع المترقرق
تُغني بريَّاها وطيب شميمها ... عن بابليْ في الدنان معَّتق
أنفاسُها تحي النفوسُ وريحها ... روحُ تشيع بسائف متنشق
هيفاء إن رفَّتْ أعاليها بدتْ ... في الحوض شروي راية في زورق
ما شئت في زهراتها من كوكبٍ ... متألقٍ بشعاعه متمنطق
كم زهرةٍ رفَّتْ فخلتُ فراشةً ... بيضاء رفَّ جناحُها بترفق
أطباقها مثلُ الأنامل شُبَّكَتْ ... في كل كمٍ تلتقي في مأزق
أو كالجفون طويلة أهدابُها ... من ناعسٍ ومغمَّض ومحدَّق
أو لؤلؤ رطب تشظى حوله ... صدف أناف على بياض المهرق
إن الذي خلق الأزاهر خصَّها ... بقضيبها وبتاجها والبيرق
الحوُرُ في جنات عدنٍ تُجتلي ... والِبيضُ منها في خمائل (جِلَّقٍ)
(دمشق)
خليل مردم بك
البريد الأدبي
غُبْر وعَبْر
لخص الأستاذ الكبير ا. ع في كلمته المنشورة بالعدد 438 من الرسالة القضية التي بيننا حول كلمة (عبر) واحتجاجي لها واحتجاجه عليها.
وكنت قد أزمعت أن أفصل بالشواهد رأي. حتى نشرت الرسالة بالعدد 439 كلمة للأديب محي الدين صابر بدار العلوم يدلنا على رواية أخرى لهذه الكلمة في بيت سوار بن قارب وجدها في تفسير ابن كثير وهي:
فشمرت عن ساقي الإزار ووسَّطَتْ ... بي الدعلب الوجناء غبر السباسب
ثم قال إنه لا يستبعد أن تكون رواية عبر مصحفة عن غبر، ثم نقل عن اللسان أن الغبراء هي الأرض التي لا يهتدي إلى الخروج منها.
وأقول: إنها رواية سديدة جيدة، ويؤيدها كثرة ورود هذه المادة (اغبر - غبراء. . .) في وصف السفر وقطع السباسب والفلوات، ومن ذلك قول ذي الرمة:
وغبراء يقتات الأحاديث ركبها ... وتشفى ذوات الضغن من طائف الجهل
وقول القُلاخ:
وبلدٍ أغبر مخشيَّ العطب ... يضحي به موج السراب يضطرب
وقول ذي الرمة أيضاً:
وغبراء يحمي دونها ما وراءها ... ولا يختطيها الدهر إلا المخاطر
. . .ومع هذا أقول: إن لهذه الرواية وجهاً من الضعف لا يخفي على اللبيب ذلك أن العامل في كلمة غُبر في رواية ابن كثير هو الفعل (وسطت). . . والكلام بهما مستقيم لا غبار عليه. ولكننا نعلم أن الرواية في بعض المصادر (أرقلت) وهذه لا تتفق مع كلمة غبر جمع غبراء ولا يستقيم الكلام بهما لأن الأرقال هو الإسراع وفعله لازم. فما معنى (وأسرعت بنا الناقة غبر السباسب)؟
زد على ذلك أن الروايات مختلفة في هذه الكلمة فهي (عبر) في جمهرة شعر العرب ص 26، وهي (بين) في سفينة الراغب ص 638، والسيرة الحلبية ج1 ص 267، وشرح لامية العجم للصفدي ج1 ص 18، وهي غبر في ابن كثير.
واختلاف الروايات على هذا النمط - مضافاً إليه وجه الضعف الذي ذكرت يعوز رواية ابن كثير إلى مرجح. فلسنا نستطيع إذن أن نقطع بها إلا بهذا المرجح المنشور

وبعد. . . فقد رجا الأديب محي الدين أن تكون هذه الرواية قد حلت ما بيننا من ألغاز النحو وأحاجيه، وأقول أن القضية قد خرجت من كلمة (عبر) صحيحة كانت أو فاسدة، إلى قضية نحوية أخرى جديرة بالبحث والتمحيص، قلت وقال فيها الأستاذ أ. ع وليس من مصلحة اللغة أن يبتر الكلام فيها. . . هي قضية المصدر الذي يقع حالاً. وإن لي في هذا الموضوع بحثاً للاجتهاد فيه نصيب كبير أرجو أن أوفق إلى عرضه إن اتسع صدر الرسالة لمثل هذه البحوث وإنه لكذلك إن شاء الله

محمد محمود رضوان

رسالة المعلم الإلزامي وكيف ينبغي أن تكون

أبنا في كلمتنا السابقة عما يجب أن يكون عليه المعلم الإلزامي ووعدنا القارئ الكريم أن نجيب على تلك الأسئلة التي طالما جهر بها المشفقون على الأمة عن رسالة المعلم الإلزامي وهل يقدرها المعلم؟ وهل أداها على الوجه المرضي؟ وإذا لم يكن فلماذا.

إما أن المعلم يعرف رسالته فهذا ما لا سبيل إلى جحوده، وإما أنه أداها على الوجه الأكمل. فهذه مسألة فيها نظر. . .

قام المعلم بعمله على قدر ما وسعه جهده، ولكنه ارتطم بعوامل قوية حدت من عمله، وأضعفت من معنويته، وكان من أهم تلك العوامل.

1 - أن وضع نظام (التعليم الإلزامي) لم يكن الوضع الطبيعي لمسايرة حاجة المجتمع فلم يحدد له هدف، ولم يرسم له خطة فنظام (نصف اليوم) وتخبط الوزارة في خطط الدراسة والمقررات وعدم الاستعانة بعنصر المعلم الإلزامي فيما يعتروها من مشاكل جعلته يمش حبواً.

2 - عدم تقدير المعلم، لا من الحكومة ولا من الشعب، والحكومة وضعت العراقيل في طريقه ولم توفر له وسائل العمل، والشعب نفسه لم يتهيأ لأن يهضم هذا النوع من التعليم، ونظر إليه نظرة المتشكك الوجل - وكان الناس في هذا فريقين: فريق الأغنياء، وقد خشوا على أنفسهم أن يتعلم الشعب، في هذا انهيار لهم كما كانوا يظنون. . . وفريق العامة، وقد كانوا نحو التعليم كالطبيب المداوي مع مريضه الجاهل.

3 - مرتب المعلم: حددت له الدولة راتباً ضئيلاً لا يكفيه القوت الضروري، فجعلته يئن تحت عبء الحاجة

4 - أرهق بالعمل إلى درجة الإعياء، وضنت عليه الدولة بما يفتقر إليه من كتب ومراجع وأدوات

ولكن المعلم بقي وحده يصارع تلك العوامل بقوى نفسية عجيبة كان من أثرها قيام (اتحاد التعليم الإلزامي)، فساعد المعلم على إزالة تلك الأشواك من طريقه، وأمكنه أن يسمع صوت المعلم لمن بيدهم الأمر، وهاهو ذا قد نجح بعض الشيء، وكان من أثر ذلك أن تهيأت الأسباب لقبول دعوته، وأرهفت الآذان وتفتحت لسماع حجته، فتحركت الوزارة أخيراً فنشطت للعمل، وهاهو المجلس الأعلى ينظر ويبحث.

ولو أن الدولة كرست جهودها لتحقيق مطالب التعليم الإلزامي ويسرت للمعلم أسباب العمل - كفاها مؤونة تلك الجهود التي تذهب سدى من تلك الجمعيات - ولقام هو بأفضل مما تقوم به وزارة الشؤون الاجتماعية

والأمل كبير في الله وبفضل الاتحاد والاعتصام بالعروة الوثقى، ومن كان لهم الفضل في الأخذ بيد المعلم وعلى رأسهم أستاذنا الكبير الزيات أن تثمر رسالة المعلم وينجح التعليم، وأن تنهض البلاد، وفقنا الله إلى ما فيه الخير

محمود محمد عبد

وكيل نقابة القاهرة للتعليم الإلزامي

خطأ في كتاب المفصل

في كتاب (المفصل في تاريخ الأدب العربي) - تأليف بعض رجال المعارف - الأبيات التالية منسوبة إلى ابن رشيق القيرواني:

ولما بدا لي أنها لا تحبني ... وأن هواها ليس عني بمنجلي

تمنيت أن تهوى سواي لعلها ... تذوق صبابات الهوى فترق لي

فما كان إلا عن قليل وأشغفت ... بحب غزال أدعج الطرف أكحل
وعذبها حتى أذاب فؤادها ... وذوقها طعم الهوى والتذلل
فقلت لها، هذا بهذا، فأطرقت ... حياء وقالت: كل عائب ابتلى
وهذه الأبيات نسبها أبن رشيق في عمدته إلى علي بن الله من سلالة جعفر بن أبي طالب حيث قال: (ومثل هذه الحكاية ما قاله بعض الكتاب، وقد دخل على علي بن عبد الله بن جعفر ابن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب وهو محبوس، أين هذا الجعفري الذي يتديث في شعره؟ قال علي: فعلمت أنه يريدني لقولي: ولما بدا لي الأبيات فقلت أنا هو جعلت فداك)
(العراق - حلة)
جواد كاظم
بين صبري وابن دريد
وقع نظري على أبيات في الغزل لإسماعيل صبري وردت في ديوانه. . . بعثت في نفسي دهشة عجيبة لا لروعتها وفتنتها، بل لأنها خلقت مشكلة عجيبة، فما هي هذه المشكلة؟
المشكلة أن هذه الأبيات بقليل من التحريف اللفظي وجدتها منسوبة (لأبي بكر بن دريد) في مقال للشاعر الكبير محرم بالعدد الثاني من المجلد الثالث لمجلة أبولو (أكتوبر سنة 1932)
أما البيتان الواردان في ديوان صبري فهما:
إن الذي أبقيت في مهجتي ... يا متلفَ الصبِ ولم يشْعر
حُشاشة لو أنها قطرةُ ... تجول في عينيكَ لم تُنْظَر
وأما بيتان (أبي بكر بن دريد) الواردان في مقال الشاعر محرم فهما:
إن الذي أبقيت (من جسمه) ... يا متلفَ الصَّبِ ولم يشعر
لو أنها قطرةُ ... تجول في جفنيكَ (لم تقطر) (صُبابةُ)
فليس من شك في أن صبري قد سرق البيتين وليس له غير تغير لم يوفق فيه. وليس من شك أيضاً في غفلة المحققين لديوان صبري عن هذه السرقة العجيبة.
حسين محمود البشبيشي
أيهما أصلح لتعليم الأطفال المعلم أم المعلمة؟
كنت أعتقد بعد أن كتب الأستاذ الزيات كلمته عن المعلمين وبعد أن قدم الأستاذ مصطفى شكري بك تقريره عن التعليم الأولي، أن وجه الحق في هذا الموضوع قد أصبح واضحاً، وأن مجال القول لم يعد في حاجة إلى إعادة، وباب الكلام لا يتسع لزيادة!
ولكني قرأت في جريدة (المصري) رأياً لوكيل وزارة المعارف المساعد الأستاذ شفيق غربال بك استحسن فيه إحلال المعلمات محل المعلمين، وتمنى لو استطاعت الوزارة أن تعمم هذا في جميع المدارس. وقال: (إن إحلال المعلمات محل المعلمين في المدارس الأولية والإلزامية للبنات مشروع عظيم؛ لأن المعلمة كالأم، والأم أولى بحضانة الطفل، ولو استطعنا أن نعمم ذلك في المدارس الأولية والإلزامية، لكان هذا أوفق وأحسن)
قرأت هذا وفهمت منه أن الأستاذ الوكيل يرى أن المعلمة أوفق وأحسن من المعلم حتى في تعليم البنين، لأنها كالأم والأم أولى بحضانة الطفل!!
ولا شك أن هذا الكلام يقال في مقام العواطف لا في مقام التربية والتعليم، وإن حرمان الطفل من عناية المعلم أبلغ في الضرر من حرمانه من رعاية المعلمة! وحاجته إلى أبيه، لا تقل عن حاجته إلى أمه، وإذا قلنا إن المعلمة ستبعث في نفسه الحنان والعطف والرقة والشعور بالجمال، فأنه سيبقى مع ذلك في حاجة إلى من يعلمه الرجولة والشجاعة والحزم والتضحية والبطولة والاعتداد بالنفس
ومن الذي يستطيع هذا غير المعلم؟
أما الحضانة فليست للأم إلا قبل سن التعليم. فإذا بلغ الطفل السابعة كان لأبيه بنص الشريعة؛ لأنه أدرى بتربيته، وأبصر بمصلحته.
وإذاً يكون الاستدلال بحق الأم في الحضانة غير مستقيم مع قواعد المنطق، ولا مع وقائع الحال والناس يرون الرجل الذي تنفرد المرأة بتربيته ناقص الرجولة ويقولون

عنه (إنه ابن امرأة!!)
ولم تأخذ البلاد الأوربية إلى الآن بنظرية انفراد المعلمة بتربية الطفل مع أن المرأة عندهم سبقت المرأة عندنا بأجيال! كما أن ثقافة المعلم عندنا أرقى من ثقافة المعلمة، لأن منهاج
مدارس المعلمين أوسع من منهاج مدارس المعلمات؛ والمعلم يزيد في ثقافته بالدرس والمطالعة، بينما المعلمة لا تفكر في شيء من هذا بعد خروجها من المدرسة.
والوزارة نفسها جعلت مناهج البنين غير مناهج البنات في المدارس الإلزامية! وفي كل هذا ما لا يستقيم مع رأي سعادة الوكيل!
على أن الوزارة قد حاولت تجربة هذه الطريقة منذ خمس سنوات، فأشركت المعلمات مع المعلمين في مدارس البنين. وترتب على هذا أن ساءت الحالة العلمية وأختل النظام؛ لأن المعلمة كانت تقف في وسط التلاميذ حائرة. فإذا ثاروا وعجزت عن إسكاتهم جلست تبكي مغلوبة على أمرها، حتى يأتي أحد المعلمين فيسكت التلاميذ عند رؤيته ويلزم كل وأحد منهم عمله!
وأذكر أن معلمة ذهبت تشكو لرئيس المدرسة تلميذاً، لأنه كان كلما ضربته بالمسطرة على يده يضحك ويسألها المزيد!
واضطرت الوزارة أخر الأمر وبعد أن ضج المفتشون من الفوضى. إلى تخصيص المعلمات بالتعليم في مدارس البنات! وإذن يكون القول بإحلال المعلمات محل المعلمين في المدارس الإلزامية مجازفة غير مؤمنة العاقبة، وفكرة أثبتت التجارب السابقة فشلها!
وأكبر ظني أن مثل هذه الآراء المرتجلة، هي التي أضاعت التعليم الإلزامي، وأفسدت طرائقه، وغيرت حقائقه، وحالت بينه وبين الإنتاج المنشود. ولو أنصف القائمون بأمره لردوا الأشياء إلى أصولها، والأصول إلى قواعدها، ولرجعوا إلى المعلم يسألونه رأيه فيما هم فيه مختلفون، ويستخبرونه عما لا يعلمون.
(المنصورة)
علي عبد الله
القصص
الميتة. . .
لجي دي موباسان
بقلم الأديب كمال رستم
أحببتها حباً عنيفاً! لم يحب الإنسان؟ أليس عجيباً ألا ترى في العالم إلا إنساناً! ألا تقوم في النفس إلا فكرة! ولا في القلب إلا رغبة! ولا في الفم إلا اسم! أسم يرقى دواماً!. . . يرقى كماء نبع ثجاج من أعماق نفس ولهى! يرقى إلى الشفاه! نذكره! ونذكره! نتمتم به دائماً، وفي كل مكان كأنه صلاة!
سوف لا أقص قصتنا؛ فليس للحب إلا قصة واحدة! قابلتها وأحببتها! هذا كل ما في الأمر! وعشت عاماً تغمرني برقتها، وتحتويني بين ذراعيها، وتخصني بظرفها وترعاني بلحظها؛ وتلفعني بأدثرتها، وتهمس إلي بكلماتها!. . محاطاً مطوقاً، حبيساً في كل ما يصدر عنها بهذه الطريقة الفاضلة التي لم أحاول أبداً أن أعرف غيرها، ليلاً كان أو نهاراً، حياً كنت أو ميتاً، على هذه الأرض العجوز أو في مكان آخر!
ماتت زوجتي إذن! كيف؟. . . لا أدري!
عادت ذات مساء مطير، يبلل المطر ثيابها، وفي اليوم التالي حملت، واستمرت تشغل حوالي أسبوع لزمت بعده سريرها!
كيف حدث ذلك؟. . . لا أدري!
. . .!عادها أطباء. . . وصفوا الدواء. . . ومضوا
. . .!واستحضرت أدوية. . . وامرأة تجرعها إياها
كانت يداها دافئتين وجبهتها متقدة منداة، ولحظها وامضاً حزيناً. حدثتها وأجابتني! ما الذي قلناه؟ لا أدري!
نسيت كل ما قيل! كله. . . كله!. . . ماتت إذن! وإني لأذكر جيداً آهتها الخافتة. آهتها الأخيرة!. . .!. . . وتأوهت الممرضة قائلة: (آه)! فأدركت. . . أدركت

لا شيء عرفت أكثر من ذلك أبصرت قساً انفرجت شفتاه عن كلمة (خليلتك)! خيل ألي أنه
سبها فليس لنا الحق منذ ماتت أن ندعوها كذلك، ولذلك طردته!
وحضر آخر وكان طبيب القلب للغاية، لطيفاً للغاية حق لقد استعبرت عندما حدثني عنها! ولقد أخذ برأي في ألف شيء بخصوص الجنازة، لا أذكر الآن منها شيئاً مطلقاً وإن كنت أذكر جيداً صورة ناووسها؛ وصوت المطرقة حينما أغلقوه عليها!. . . أواه يا إلهي!. . . وووريت. . .! ووريت! هي! في هذه الحفرة! وحضر بعض الناس! بعض الأصدقاء! فررت منهم همت على وجهي طويلاً في الطرقات! ثم عدت أدراجي إلى منزلي؛ وفي اليوم التالي قمت بسفرة طويلة. . .!
رجعت أمس إلى باريس. . .!
وعندما رأيت ثانية غرفة نومي؛ غرفة نومنا! مهادنا أثاثنا، كل ما في هذا المنزل. . . كل ما بقى من حياة شخص بعد موته. . . أصبت برجعة حزن محض! فقمت إلى النافذة وأطلت منها على الطريق. . .!
ولما لم أستطع أن أصبر على الإقامة بين هذه الأشياء، بين هذه الجدران، تناولت قبعتي وخرجت أبغي فكاكا! وفي طريقي إلى الباب مررت بمرآة البهو الكبيرة التي وضعتها هناك، لترى فيها نفس من رأسها إلى أخمص قدميها كل يوم عند خروجها لتتأكد من زينتها كاملة، وأنها تبدو جميلة آسرة من حذائها إلى قبعتها. . .!
وقفت أحدق في هذه المرآة التي طالما عكست صورتها طالما! طالما!. حتى خيل إلى أنها تتراءى فيها. . .!
كنت ثم واقفاً، مرتجفاً، وعيناي مثبتتان على زجاج المرآة، على الزجاج المسطح! الضيق! الرحيب!. . . الزجاج الذي يحتويها بأكملها؛ يتمتع بمشاهدتها أكثر مني؛ أكثر من نظرتي الولهة!. . . خيل إلي أني أحببت هذه المرآة! لمستها؛ ألقيتها باردة أواه! يا لها من ذكرى يا لها من ذكرى!
مرآة مؤلمة! مرآة متقدة مرآة حية! مرآة مروعة!. . . سعداء هؤلاء الذين يحكى قلبهم مرآة؛ يدعون صور المرئيات تنزلق عليها، ويزيلونها متى شاءوا، فينسى كل قلب ما احتواه؟. . . كل ما سر أمامه! كل ما شاهده! كل ما سدد إلي عواطفه!. إلى حبه. . . كم أتألم. . .!
وخرجت، وعلى غير وعي! على غير إدراك؛ دلفت إلى المقابر. وثم رأيت رمسها بسيطاً جداً. . . رأيت صليباً من الرخام نقشت عليه هذه الكلمات؟. . .
(أحبتني وأحببتها ثم ماتت)!
كانت هناك! في أسفل! عظاماً نخرة! يا للهول!
لبثت هناك طويلاً، طويلاً. . . ولما أقبل الليل قامت في نفسي رغبة غريبة، رغبة مجنونة، رغبة نفس قانطة! تشوقت إلى قضاء الليلة قريباً منها. . . ليلة أخيرة أذرف دمعي على قبرها!
ولكنهم سيبصرون بي وسيطردونني؛ فما العمل؟. . . نهضت، وأخذت أضرب في مدينة الموتى هذه. . . مضيت! مضيت! كم هي صغيرة هذه المدينة إلى جانب أختها؛ تلك التي نراها، ومع ذلك فالأموات أكثر عدداً من الأحياء.
وأنه لمن المفارقات حقاً أن تكون كل هذه الدور الفخيمة، والميادين الفسيحة؛ كل هذه المساحة الشاسعة للأحياء القليلين، يرقبون النهار ليتنفس، ويكرعون ماء الينابيع وسلاف الكروم، وينعمون بخيرات السهول، بينما لا يكون لكل أجيال الموتى شيء. . . حقل. . . تقريباً لا شيء. تستردهم الأرض. تجعلهم نسياً منسياً. . . تبتلعهم. . . ثم الوداع. . .!
وفي نهاية القبور المأهولة، أبصرت فجأة القبور المهجورة، حيث بليت جسوم الموتى على طول الزمن وتم اختلاطها بالثرى! حيث الصلبان نفسها قد تداعت. . . وحيث يرقد في الغد هؤلاء الذين قدر لهم أن يفنوا. . . مكان مليء بالورود المبعثرة، وأشجار السرو السوداء السامقات. . . حديقة حزينة شاسعة تعيش على جثث البشر. . .
وكنت هناك وحدي فتسلقت شجرة خضراء وتواريت بين أفنانها الغليظة الظليلة كغريق يتشبث بما يصادفه. . .
ولما إحلولك الليل. . . غادرت مكمني ومشيت في خطوات وئيدة في خطوات مخنوقة

على هذه الأرض المفعمة بالموتى. . . وأخذت أجول طويلاً طويلاً دون أن أقف لقبرها
. . .على أثرها. . . الذراعان ممدودتان. . . العينان مفتوحتان
متلمساً القبور بيدي، بقدمي، بساقي، بصدري، برأسي نفسه. . .؟
مضيت كضرير يتلمس طريقه. . . لمست الأحجار، والصلبان، والنوافذ الحديدية،
. . .والتيجان الزجاجية، والأكاليل الزهرية الجافة
ورحت أقرأ الأسماء بأصابعي أمر بها على الحروف. . . يا لها ليلة، يا لها ليلة؟ لم أجد
. . .قبرها
وكان القمر غائباً فاستولى علي الخوف، وخوف مروع في هذا المكان الموحش. . .
بين صفين من القبور. . .؟
!. . .القبور! القبور! القبور
. . .قبور. . . إلى اليمين وإلى اليسار. . . إلى الأمام وإلى الخلف. . . في كل صوب قبور
!.
تهالكتُ على واحد منها، لأني لم أستطع أن أتابع السير أكثر من ذلك. . . لأن ساقي
كانتا تلتويان. . . أصخت بأذني أصغي لو جيب قلبي. . . أصغي أيضاً لشيء آخر. . .
ماذا. . .؟ نبأة مبهمة لا أسم لها. . . أكان ذلك في رأسي المجنونة. . . أكان ذلك في
غبش الليل الضارب سجوفه وإسداله أم تحت الأرض الخفية. . . تحت الأرض
!المزروعة بجثث البشر؟
كم من الوقت مكثت هناك؟ لا أدري. . . غدوت قعيداً من الخوف. . . أصبحت ثملاً من
الرعب. . . على أهبة الصياح. . . على أهبة الموت. . . وفجأة، خيل إلي أن لوح الرخام
الذي كنت جاثماً فوقه قد تحرك. . . حقاً، تحرك كما لو كان قد رفع. . . وبفطرة واحدة
ألقيت بنفسي على الجدث المجاور. . . وشهدت. . . نعم، شهدت الحجر الذي غادرته
قد انتصب واقفاً وظهر الميت. . . هيكل عظمي ليس غير. . .! وإن كان الليل وقتذاك
قد نشز على الكون ذوائبه. . . فقد رأيت. . . رأيت جيداً على الصليب هذه الكلمات:
(هنا يرقد (جاك أوليفان) المتوفى في الواحدة والخمسين من سني حياته، كان محباً
لذويه، شريفاً، طيب القلب. . . وتوفي إلى رحمة الله. . .!)
ولما قرأ الميت هذه الكلمات المنقوشة على قبره، انحنى إلى الأرض، والتقط قطعة
من الصخر. . . قطعة صغيرة مدببة. . . واخذ يزيل هذه الكلمات بعناية ودقة. . . أزالها
عن آخرها ببطيء وهدوء، محدقاً بعينيه الواسعتين في المكان الذي كان منذ برهة
متوارياً فيه. . . وبطرف العظمة التي كانت يوماً ما سبابته. . . كتب بحروف براقة
لامعة:
هنا يرقد (جاك أوليفان) المتوفى في الواحدة والخمسين من سني حياته، تعجل)
بقسوة قلبه موت أبيه ليرثه، عذب زوجه، أشقى أولاده، خدع جيرانه، سرق كل ما
(!. . .استطاع سرقته، ومات شقياً
ولما انتهى الميت من كتابته أخذ يشهد نتيجة عمله. . . ولاحظت في عودتي أن . . .
كل القبور قد فتحت، وأن كل الهياكل العظمية خرجت منها، وان الجميع مسحوا تلك
الأكاذيب التي خطها ذووهم على قبورهم ليوهموا على الناس؛ ورأيت أنهم كانوا جميعاً
قساة القلوب، حقودين، مرائين، كذابين، خبثاء، مفترين، حساداً. . . رأيت أنهم سرقوا
وخدعوا وارتكبوا كل الأفعال المخجلة، ووصموا بكل خلق دنيء. . . وهؤلاء الآباء
الطيبون. . . هؤلاء الزوجات الوفيات. . . هؤلاء الأبناء المخلصون. . . هؤلاء الحفيدات
العفيفات. . . هؤلاء الرجال وهؤلاء النساء. . . لا لوم عليهم جميعاً، لأنهم لا يستطيعون
!. . .أن يقرروا الحقيقة المؤلمة
وراحوا جميعاً يخطون في وقت واحد على عتبة مسكنهم الأبدي الحقيقة القاسية،
الحقيقة المروعة، الحقيقة المقدسة، التي يجهلها الجميع أو يتجاهلونها وهم على قيد
!. . .الحياة
وأيقنت أنها لا بد قد قامت تكتب على جدثها، وبدون أدنى خوف الآن. . . فركضت
وسط التوابيت نصف المفتوحة، وسط الجثث، وسط الهياكل العظمية. . . مضت إليها
واثقاً أني سأجدها في الحال. . . ورأيتها من بعد. . . من غير أن أستجلي وجهها، لأنها
كانت قد غطته بالكفن. . . وعلى الصليب الرخامي الذي قرأت عليه منذ برهة:
(!أحبتني وأحببتها ثم ماتت)

لمحتها تكتب: (خرجت يوماً لتخون زوجها، فأصابها برد تحت شؤبوب منهمر وماتت!) ورأيتني أهوى إلى الأرض مغشياً عليّ. وفي اليوم التالي وجدوني مسجى إلى جانب مقبرة. . .!
(المنصورة)
كمال أحمد رستم
العدد 443 - بتاريخ: 29 - 12 - 1941
العامية والفقر
للأستاذ عباس محمود العقاد
جاء في خطاب مطول من الأديب (عبد القادر العشماوي) يروى فيه مناقشة أدارتها جماعة (الرابطة المصرية ضد التدخين) وقالت فيها الأستاذة الفاضلة نعيمة الأيوبي - على رواية الأديب - (لنكن عاديين في أحاديثنا لنقدر أن نعبر عن شعورنا وأفكارنا ونتفاهم في أغراضنا وشؤون إصلاحنا، لا سيما مع الطبقات الفقيرة. ولنخلع عنا ذلك الرداء المزيف الصناعي الذي نلبسه كلما قابلنا عظيماً أو وقفنا في حفل للخطابة؛ فلا ندري أأخطأنا في التركيبات النحوية أم في التعبير عن أفكارنا. ولنتكلم الآن باللغة التي نستعملها في كل مناقشاتنا حتى في مرافعاتنا أمام القضاء، ألا وهي العامية).
قال الأديب عبد القادر العشماوى: (ثم نهض الأستاذ كامل الكيلاني عقب الدكتورة نعيمة الأيوبي وقال ما فحواه: (إنه لا يسمح بأية حال من الأحوال بالموافقة على نصرة العامية على اللغة العربية الفصحى. ومن لم يستطع التعبير بالعربية الفصحى فما هو بمستطيع أن يعبر عنها بالعامية. . .)
وهكذا إلى آخر ما ورد في خطاب الأديب. ثم قال سائلاً: (ما رأيكم في هذا الخلاف؟ وهل يمكن نصرة اللغة الفصحى في بلد سواده الأعظم من الأميين؟ وإذا خاطبت إنساناً فقيراً باللغة الفصحى لتسدي إليه النصح والإصلاح هل يفهمك أو يظن انك تسخر به فيحز ذلك في نفسه وينصرف عنك متألماً؟ وأرجو أستاذي إذا تفضل بالجواب أن يكون رده على صفحات مجلة (الرسالة) الزاهرة المحبة إلى نفوسنا، واليكم عظيم الاحترام. . . الخ)
تلك رواية الأديب، وهي لا تستلزم في الجواب عليها أن أتعرض لتفصيلات رأيين لم أقف منهما على غير هذه الإشارات التي لا تشمل كل ما يقوله صاحب الرأي في شرحه والدفاع عنه.
فحسبنا أن نحصر الكلام هنا في العلاقة بين الفقر والعامية، وهل من دواعي العطف على الفقير أو من دواعي النظر في مشكلة الفقر أن ننصر العامية على الفصحى، وأن نعبر عن آرائنا باللغة التي يتكلمها الفقراء؟
فالعامية قبل كل شئ هي لغة الجهل وليست بلغت الفاقة أو بلغة اليسار وبين الأغنياء كثيرون لا يحسنون الكلام بغير العامية التي لا جمال لها ولا طلاوة على عباراتها
وبين الفقراء من يحسنون التعبير بالفصحى، أو يعبرون بالعامية تعبيراً يزينه جمالها وتبدو عليه طلاوتها
فإذا عطفنا على العامية فإنما نعطف على الجهل ونستبقيه ونستزيده، ولا نخفف وطأة الفقر ذرةً واحدة بتغليب عبارات الجهالة على العبارات التي تصاغ بها آراء المتعلمين والمهذبين
إن علاج مشكلة الفقراء هي أن ترفع طبقهم معيشة وتفكيراً وحديثاً ومنزلة من التعليم والتهذيب، وليس علاج تلك المشكلة أن نسجل عليها حالة من العجز والجهالة هي التي يشكون منها ويسألون المعونة على علاجها
وماذا يفيد الفقراء أن يسكن الأغنياء الأكواخ؟
وماذا يفيد الفقراء أن يتكلم المتعلمون لغة الجهلاء؟
وماذا يفيد الفقراء أن تساويهم في الحرمان من المال والعلم ومن الفصاحة وقدرة التعبير؟
إنما يفيد الفقراء أن تصبح أكواخهم قصوراً أو كالقصور في الإراحة وتصحيح الأبدان وإنما يفيدهم أن يكون نصيبهم من اللغة كأحسن نصيب يتعلمه المتعلمون. فان لم يبلغوا هذا المبلغ فالفائدة ألا يكون نصيبهم منها أحقر نصيب، وألا نسجل عليهم هذه

الحالة المزرية كأنهم لا يصلحون لغيرها ولا يطمحون إلى ما فوقها.
وإنما يفيد الفقراء أن يساووا أحسن الناس لا أن يصبح أحسن الناس مثلهم في المعيشة والعمل والعلم والكلام
ولم يقل أحد أننا حين نبني القناطر والجسور والمستشفيات لعلاج داء الفقر ينبغي أن ننسى الهندسة لأن الفقراء لا يعرفونها
ولم يقل أحد أننا حين ندبر الطعام للمعوزين ينبغي أن نبطل أطايب الطعام لأن المعوزين لا يملكون أثمانها
فلماذا يقول قائل إن إهمال اللغة الفصحى واجب عند البحث في مشكلة الفقر والجهل لأن الفقراء والجهلاء لا يحسنون اللغة الفصحى، وأن المناقشة في تلك المشكلة ينبغي أن تدور بالعامية لأنها هي اللهجة التي يتكلمها الفقراء والجهلاء؟
يقول الأديب صاحب الخطاب (إذا خاطبت إنساناً فقيراً باللغة الفصحى لتسدي إليه النصح والإصلاح هل يفهمك أو يظن أنك تسخر به، فيحز ذلك في نفسه وينصرف عنك متألماً؟)
فمن اللازم أولاً أن نفرق بين اللغة الفصحى واللغة الصعبة التي لا يفهمها إلا الأقلون؛ إذ ليس كل فصيح صعباً ولا كل عامي ركيك سهلاً على سامعيه
ومتى فرقنا بين الفصاحة والسهولة أدركنا أن السهولة تتوافر للكلام الفصيح وتنفذ إلى أسماع الجهلاء غير حائل بينها وبين النفاذ إلى تلك الأسماع حركة الأعراب ولا صحة التركيب
هذا أولاً
أما (ثانياً) فمن اللازم أن نذكر أن العظات إنما تتلقى بالخشوع والتوقير كلما اقترنت في ذهن السامع بملابسات الخشوع والتوقير
والعظات التي تقترن في ذهن السامع بالمسجد وحلقات العلم أحرى أن تقترن بالنفوس الخاشعة والأسماع المصغية من عظات تحمل طابع السوق ومجالس اللهو والمزاح. وهذه المقارنة النفسية أشبه بمقارنة الهيبة التي تسري إلى قلوب السامعين وهم يصغون إلى الواعظ في المسوح ولا تسري إليهم وهم يصغون إليه في مباذل البيت وملابس السهرة وكسوة (الردنجوت)
أما شعور الجاهل الفقير وأنت تخاطبه بالفصحى فقد تختلف فيه الأقوال حسب اختلاف الأحوال، ولكنه لو أنصف لأمتعض ممن لا يخاطبه إلا وهو متنزل إلى لغة أوضع الطبقات، كأنه يترفع عن مخاطبته باللغة التي يخاطب بها أقرانه وزملاءه. وما أظن الجاهل الفقير يجب أن يترفع الأغنياء عن لقائه في حجرة الاستقبال التي يلقون فيها أقرانهم وزملائهم ليخرجوا له إلى المراء حيث يجلس بغير مقعد وبغير مهاد. . . فلماذا يحب الجاهل الفقير أن يتنزل مخاطبه من أسلوبه وأسلوب أقرانه وزملائه ليخاطبه بما هو دون ذلك الأسلوب؟
إننا لم نسمع أن أحداً تواضع حباً للفقير فخلع حذائه ليمشي حافياً أو يلبس النعال؛ فما بال أناس يتواضعون فيخلعون لغة المعرفة والثقافة لأنها كما يزعمون لغة لا يفهمها الفقراء؟
ما خلت الدنيا قط ولن تخلو من التعلم والتعليم، وإن اليوم الذي ننبذ فيه كل ما نتعلمه ونتعب في تعلمه لهو اليوم الذي ينحدر فيه الإنسان إلى الجهل الذي هو أشيع شئ بين الناس وأغناه عن معلمين ومتعلمين وعن جهد في التعليم والتحصيل
وإذا كنا نحتج لبقاء اللغة العامية بأنها اللغة التي يعرفها الجاهل بغير تعلم فلماذا لا نحتج لكل جهل بمثل هذا الاحتجاج؟ وأي شئ أحق من العقل الإنساني ومن النفس الإنسانية بأن نفهمها على الوجه الأمثل حين نفهم اللغة الصالحة لإبداع أشرف المعاني وأرفع الصور الذهنية وأحقها بالبقاء والتخليد
واللغة العامية بطبيعتها لغة وقت محدود وجهة محدودة، فهي لا تصلح لبقاء أثر من الآثار التي تستحق البقاء. ولن نكسب شيئاً ولا الفقراء يكسبون بصيانة حديث العامة وإهمال الحديث الذي يخلد المتنبي والمعرى وابن الرومي وشكسبير وهوميروس وسوفكليس وفرجيل
وما ارتقى العامة قط لأنهم فهموا نظام الصحة وقواعد الحكم وهم جهلاء أميون، ولكنهم يرتقون حين يتعلمون ويقتدرون على فهم الكلام في لغة المعرفة والإرشاد. أما

وهم أميون جهلاء فلن يفهموا ما يقال، ولو قيل لهم بلغة الجهال
وأنها لبدعة عجيبة تلك التي سرت في الزمن الأخير وتعلق بها أناس منا مخلصين وأناس منا مخدوعين وأناس منا يسيئون النية وهم على علم بالغرض مما يدعون إليه فالدعوة إلى تغليب العامية إنما تنبع في مصدرها الأول من جانبين متناقضين وإن اتفقا في غرض واحد
فجانب الشيوعيين المنكرين للعقائد والأديان يحقدون على اللغة الفصحى كحقدهم على كل امتياز وارتفاع، وغرامهم بكل ما يهبط إلى مرتبة الصعاليك؛ ثم هم لا ينسون أن القضاء على العربية الفصحى فيه قضاء على دين المسلمين الذي يحاربونه كما يحاربون كل دين
وجانب المبشرين لا يعنيهم من الأمر إلا أن يحاربوا الدين بين الأمم العربية، فلا يعنيهم في بلادهم أن يغلبوا الكلام المسف المبتذل على الكلام المهذب الفصيح.
ومما يكشف عن سوء نية هؤلاء وهؤلاء انهم يفضلون الكتب التي تؤلف بكلام العامة فيما يختارونه للترجمة إلى اللغات الأوربية؛ مع أن الترجمة لا تظهر فرقاً بين أسلوب العوام وأسلوب الخواص، ولا يدري من يقرأها وهو لا يعرف الأصل أهي من الكلام الدارج
منقولة أم هي منقولة من كلام تلتزم فيه الفصاحة وحركات الأعراب.
فهو إذن تشجيع للعامية في وطنها وليس بتشجيع للعامية في اللغات الأخرى، ومن هنا ينكشف سوء النية الذي أومأنا إليه.
فرأي فيما سأل عنه الأديب أن تغليب لغة الجهل كارثة على الأمة العربية وعلى العقل الإنساني لا تقل عن كارثة الفقر وسوء العيش، وإن علاج مسألة الفقر لن يتوقف في وجه من وجوهه على ترك الكلام الفصيح وتقديم الجهالة الكلامية، ولن يختلف الأمر هنا بين طب الأمراض البدنية وطب الأمراض الاجتماعية. فلا الطبيب مضطر إلى إهمال لغة الطب وهو يعالج مريضه، ولا المصلح الاجتماعي مضطر إلى إهمال لغة المعرفة وهو يعالج الفقر أو الجهالة، وليس ما يفهمه الفقير الجاهل من عبارات العامة بأكثر مما يفهمه من لغة الخاصة إذا كانت الصعوبة في الإدراك أو كانت الصعوبة في الموضوع. فلو نقلت أر سطو إلى أوضع اللهجات لما سهلت فهمه إلى أقل تسهيل، بل لملك تزيد الصعوبة بإقحام المعاني الرفيعة في لغة لم تتهيأ لتمثيلها منذ زمن بعيد.
ولنرحم الفقير الجاهل برفعه إلى طبقة اليسار والمعرفة، والتسوية بينه وبين من يفصحون ويفقهون
أما رحمته بإبقائه حيث هو في عمله وكلامه ومداركه فتلك هي القسوة التي لا يشيعها الرحماء.
عباس محمود العقاد
مسابقة الأدب العربي لطلبة السنة التوجيهية
(الشوقيات)
للدكتور زكي مبارك
أين مقدمة هيكل باشا؟ - رأى الدكتور طه حسين في شاعرية
أخلاق شاعر الأخلاق - دسائس صحفية! - كيف - (شوقي)
يدرس المتسابقون شعر (شوقي)؟ - نهج البردة - الأندلس
الجديدة - انتحار الطلبة - التغني بالآثار المصرية - الحرب
العثمانية اليونانية - تكليل أنقرة - انتصار الأتراك في الحرب
والسياسة - رحالة الشرق
أين مقدمة هيكل باشا؟
المقرر للمسابقة هو الجزء الأول من (الشوقيات)، وبه مقدمة بقلم معالي الدكتور هيكل باشا، وكان في النية أن أنظر في تلك المقدمة نظرة نقدية، على نحو ما صنعت بالمقدمة صدر بها ديوان البارودي، ولكني لم أجد المقدمة المنشودة في النسخة التي بين يدي، فأين ذهبت؟ وكيف رضيت أن تظل نسختي عاطلة من تلك المقدمة العصماء؟
لذلك تاريخ يجب تسجيله قبل أن يضيع، فقد تأتي أيام يجهل فيها ما مر بالشوقيات من ظروف، وللتاريخ الأدبي علينا من حقوق، فما ذلك التاريخ؟

النسخة التي بيدي ناقصة، ولكنها نفيسة جداً، لأنها على نقصها مصححة بقلم (شوقي) في مواضع كثيرة، وليس ذلك بالمغنم القليل
وأواجه ذلك التاريخ فأقول:
كانت الصلة قوية بيني وبين (شوقي) في سنة 1925، وكان شرع في طبع (الشوقيات)، فشاء لطفه وكرمه أن يدعوني لكتابة المقدمة بعبارة لا أزال أذكر نصها بالحرف:
(سيكتب الدكتور هيكل مقدمة تاريخية، وستكتب أنت مقدمة أدبية)
وبعد أيام تلطف فأهدى إليّ ما طبع من الجزء الأول مصححاً بخطه الجميل، لأكتب في تقديمه ما أريد
ورجعت إلى نفسي فتذكرت إن المقدمات يلتزم فيها الترفق، وذلك ما يجمل بكاتب مشغول بالنقد الأدبي مع شاعر لا يزال في الميدان، وأسرعت فكتبت إليه خطاباً قلت فيه: أني لا أستطيع كتابة المقدمة التي ينتظرها أمير الشعراء، لأني أخشى أن أقول فيها كلاماً يصدني عن نقده إن رأيت في أشعاره المقبلة ما يوجب الانتقاد، وهو - بارك الله في عمره - لا يكف عن مساورة الشعر والخيال صباح أو مساء
وفي عصرية اليوم الذي كتبت فيه ذلك الخطاب قابلت الدكتور طه حسين وأخبرته بما وقع، فغضب أشد الغضب وقال: (ليتك استشرتني قبل أن تصنع ما صنعت! ألا تعرف انك أضعت على نفسك فرصة من فرص التشريف؟ لو طلب (شوقي) مني ما طلب منك - وأنا خصمه - لأستجيب بلا تردد، فشوقي في رأيي هو أعظم شاعر عرفته اللغة العربية بعد المتنبي)
وبعد شهور طوال ظهر الجزء الأول من (الشوقيات)، وبه مقدمة الدكتور هيكل، ونادى المنادي بوجوب الاحتفال بتكريم أمير الشعراء احتفالاً يشترك فيه من يستطيع من أدباء الأمم العربية، وبرعاية الزعيم سعد زغلول
ثم يقام الحفل الحافل بدار الأوبرا الملكية في التاسع والعشرين من نيسان سنة 1927، ويقول الشعراء والخطباء في (شوقي) ما يقولون في إطناب وإسهاب
ويلتفت الدكتور هيكل كاتب مقدمة (الشوقيات) فيرى من الواجب إصدار عدد خاص من (السياسة الأسبوعية) لتكريم (شوقي)، ويدعى للاشتراك في تحرير ذلك العدد الخاص رجال كان فيهم كاتب هذا الحديث. ويرى (شوقي) من حقه أن ينظر قي محتويات ذلك العدد فيشير بحذف مقالات كان منها مقال. . . ألم أستكبر عليه فارفض كتابة مقدمة (للشوقيات)؟!
كانت (للسياسة الأسبوعية) في تلك الأيام توجه التيار الأدبي في مصر وفي سائر البلاد العربية، وكان إصدار عدد خاص عن شاعر من مثل تلك المجلة يعد تزكية أدبية تفوق الوصف؛ ولكن (شوقي) لم يرتح كل الارتياح إلى ذلك العدد الخاص، فقد ظهرت فيه عبارات تغض كثيراً أو قليلاً من مقام أمير الشعراء
أخلاق شاعر الأخلاق
غضب (شوقي) على ذلك العدد من (السياسة الأسبوعية) وكان (شوقي) إذا غضب غضب معه ألف مرتزق من أدعياء الأدب، فمضى أولئك المرتزقة يقولون في الدكتور هيكل ما تسمح بنشره الوريقات المتسمة زوراً بوسم الجرائد والمجلات، فكتب الدكتور هيكل في (السياسة الأسبوعية) مقاله المأثور: (أخلاق شاعر الأخلاق)، وهو مقال فصل فيه ما كان بينه وبين (شوقي) وتوعده توعداً أليماً، فقد نص على أن (شوقي) لن يظفر منه مرة ثانية بمثل ذلك الاحتفال!!!
ورأيت أن ارجع إلى الدكتور طه استفتيه، فابتسم وقال:
كان مصيرك سيكون أفضع من مصير هيكل لو كتبت مقدمة (الشوقيات)!!!
ثم ماذا؟ ثم ذهب (شوقي) الحقود، (شوقي) الذي قطع ما بينه وبين كرام الرجال لأسباب لا تستحق أن ينصب لها ميزان، وبقى (شوقي) الشاعر، (شوقي) الذي رثاه (المازني) يوم مات، بعد أن قال فيه ما قال!
دسائس صحفية
فسد ما بيني وما بين شوقي بعد اعتذاري عن كتابة مقدمة الشوقيات، فانقطعت عن لقائه بمكتبه في شارع جلال، وأنقطع هو أيضاً فلم يعد يسأل عني. وجاء ظاغور أمير شعراء الهند فأقام له حفلة في داره دعا إليها أساتذة الجامعة المصرية، ولكنه تجاهل

أسمي فلم يدعني إلى استقبال ذلك الشاعر الصناج.
وسمع بذلك الحادث جماعة من الصحفيين فحرضوني على إيذاء شوقي بمقال أو مقالين، وزعموا أن مال شوقي لا ينال بغير الهجاء!
وما أنا ومال شوقي أو غير شوقي؟
هل منحنا الله نعمة القلم الصوال، لنبتز الأموال؟
إن شوقي الحقود حرمني فرصة التمتع بصوت طاغور، وما صوت طاغور بالقياس إلى الموسيقية الشوقية؟
شوقي شاعر مصر، وهو على جحوده أستاذ الأساتذة في ميدان القصيد، فمن الواجب أن أحفظ عهده إلى أن يموت، وقد مات قبل أن يسمع كلمة نابية من قلمي أو لساني.
فعليك يا شاعرنا العظيم ألف تحية وألف سلام! وحفظ الله عهدك بين أقطاب الأدب الرفيع!
كيف يدرس المتسابقون شعر شوقي
الغرض من هذه الدراسات هو توجيه من سيتبارون في مسابقة الأدب العربي، فماذا نقول في توجيه أولئك الشبان؟
أهم قصيدة في الجزء الأول من الشوقيات هي قصيدة (نهج البردة). ولهذه القصيدة تاريخ يجدونه في الطبعة الثانية من كتاب (الموازنة بين الشعراء)، وما أريد أن أغتنم الفرصة فأعلن عن كتابي في مجلة الرسالة بالمجان، وإنما هي فرصة للطلبة الأعزاء، فأن درسوا ما كتبت عن تلك القصيدة في ذلك الكتاب فسيشغلون لجنة الامتحان بأبحاث تجوز بهم السراط في أمان.
وهنالك مرجع ينفعهم في هذا الموضوع الدقيق، وهو كتاب (المدائح النبوية في الأدب العربي) وفي ذلك الكتاب تفصيل واف لتطور المدائح النبوية من عهد حسان إلى عهد شوقي، فقد بدأ هذا الفن مدحاً خالصاً، ثم تحول إلى نزعة من (التشيع) ثم صارفنا بلاغياً يسجل فنون (علم البديع) ثم عاد مدحاً صرفاً على لسان شوقي والبارودي والحملاوي، مع تفاوت في أسلوب الأداء.
أما القصيدة الثانية فهي (الأندلس الجديدة) ويجب حفظها عن ظهر قلب، لأنها من محفوظات لجنة الامتحان، ولأنها فيما نعتقد أعظم شعر جاد بها الشعر الحديث في تصوير التعاطف بين الأمم الإسلامية:

مقدونيا - والمسلمون عشيرةٌ - ... كيف الخؤولة فيكِ والأعمامُ
أتَرَيْنهم هانوا، وكان بعزهم ... وعُلوُّهم يتخايلُ الإسلام
إذ أنتِ ناب الليث، كل كتيبة ... طلعتْ عليك فريستهُ وطعامُ

وقد سما شوقي بهذه القصيدة سمواً لا يدرك مداه غير من يعرف أسرار الشعر وسرائر القلوب.
ولهذه القصيدة أهمية في شاعرية شوقي، فقد كادت آراء النقاد تجمع على إن عبقرية شوقي
لم تتفتح ألا بعد نفيه في أيام الماضية، وهو قد نظم هذه القصيدة في سنة 1912 قبل النفي بأعوام.
ثم تجئ قصيدة (انتحار الطلبة) وهي قصيدة طوِّقت بها وزارة المعارف بأطواق من حديد، فالطالب المنتحر:

ناشئٌ في الورد من أيامهِ ... حَسْبُهُ الله أبالورد عَثِرْ؟
سدد السهم إلى صدر الصبا ... ورماه في حواشيه الغُرَر
بيدٍ لا تعرف الشر ولا ... خُلِقتْ آلا لتلهو بالأكر

ولكن كيف صنع الطالب بنفسه ذلك الصنع المقوت؟

قال ناسٌ: صرعةٌ من قَدَر ... وقديماً ظلمَ الناسُ القَدَرْ
ويقول الطبُّ: بل من جِنَّةٍ ... ورأيت العقل في الناس نَدَر
ويقولون: جفاءٌ راعَهُ ... من أبٍ أغلظَ قلباً من حجر
وامتحانٌ صَّبتْه وطأةٌ ... شّدها في العلم أستاذ نَكِر
لا أرى ألا نظاماً فاسداً ... فكك العلم وأودَى بالأمر
من ضحاياهُ - وما أكثرها! - ... ذلك الكاره في غض العُمُر

وتلك قصيدة نادرة، فليتفهمها الطلبة وليحفظوها عن ظهر قلب، فموضوعها يكاد يتجدد

في كل يوم، وهي تنهي عن آفة من آفات الضعف في هذا الجهل.
التغني بالآثار المصرية:
فاتحة الشوقيات هي قصيدة شوقي عن (كبار الحوادث في وادي النيل) وهذه القصيدة تصحح غلطة وقع فيها صاحب (الموازنة بين الشعراء) فقد نص على أن إسماعيل صبري هو أول شاعر من مذاهب القول في وصف آثار الفراعين، بعد أن ثار الجدال بينه وبين خليل مطران في سنة 1904، ثم تشاء المقادير أن يعرف ذلك المؤلف أن شوقي سبق صبري في التغني بتلك الآثار الخوالد في القصيد الذي ألقاه في مؤتمر المستشرقين سنة 1894
فما ذلك القصيد؟ هو قصيد طويل سجل به الشاعر ما كان لمصر من تحليق وإسفاف في أعوام تزيد على خمسة آلاف.
وهنا يظهر أعجب العجائب، فقد كان شوقي ناشئاً يوم نظم ذلك التاريخ ولكنه مع ذلك عرف كيف يهتف:
قل لبانِ بني فشادَ فغالى ... لم يجز مصرَ في الزمان بناءُ
ليس في الممكنات أن تُنقل الأج ... بال شماً وأن تنال السماء
أجفل الجنُّ من عزائم فرعوْ ... نَ ودانت لبأسها الآناء
شاد ما لم يشد زمان ولا أنش ... أعصرٌ ولا بَنَى بنَّاء
هيكلٌ تُنثر الدِّياناتُ فيه ... فهي والناسُ والقرونُ هباءُ
قبورٌ تحط فيها الليالي ... ويواري الإصباحُ والإمساَء
وهذه الباكورة كانت البشير بأن ستكون لشوقي مكانه في وصف آثار الفراعين لقد طوفت بأقطار كثيرة من الشرق والغرب، فما رأت عيني مثل ما تركت الفراعين بوادي النيل، وسيجتمع المؤتمر الطبي العربي بعد أيام بمدينة أسوان، وسيعرف رجاله صدق هذا المقال بعد أن يزوروا آثار الأقصر، عليها أزكى التحيات!
الحرب العثمانية اليونانية
هي حربٌ وقعت في عهد السلطان عبد الحميد، ولم يذكر الديوان تاريخها بالضبط، ولا أتسع وقتي لتحقيق ذلك التاريخ، وأين من يصدق أني أكتب هذه الصفحات وأنل في (قطار الصعيد)؟
هي إحدى قصيدتين أعترف فيها حافظ بشاعرية شوقي، ولم يكن حافظ يعترف لشوقي بشيء، ولا كان شوقي يعترف لحافظ بشيء، وآه ثم آه من تحاسد النظراء!
أعترف حافظ بقيمة البائية:
بسيفك يعلو الحق والحق أغلب ... وينصرُ دين الله أيان تضرب
أعترف حافظ بقيمة هذه البائية في كتاب (ليالي سطيح) ولا أعرف الآن موقع هذا الاعتراف من ذلك الكتاب، فعهدي بقراءته يرجع إلى زمن بعيد
أما القصيدة الثانية فهي بائية شوقي في (توت عنخ آمون) وكان حافظ يحفظ هذه البائية وقد أنشد فيها مرات، وكان له في إنشادها ترجيع لطيف
كانت البائية الأولى فتنة العصر الذي ظهرت فيه، وكان جمهور الأدباء يحفظها عن ظهر قلب، وراويها في هذا اليوم هو الأستاذ محمد سعيد لطفي بك، وله بها هيام وغرام، فهو ينشدها كما لاحت فرصة للحديث عن شوقي
اقرءوا هذه البائية، يا شباب اليوم، لتعرفوا كيف نستهين بما ينظم الأطفال من الشعر في هذه السنين العجاف!
اقرءوا هذه البائية احفظوها، فهي من آيات الشعر الحديث
وما السيف آلا آية الملك في الورى ... ولا الأمرُ إلا للذي يَتغلبُ
فأدِّب به القوم الطغاة فأنه ... لنعم المربى للطغاة المؤدب
تنام خطوبُ الملك إن بات ساهراً ... وإن هو نام استيقظت تتألب
تكليل أنقرة وعزل الآستانة
تلك قصيدة كافية تسجل انحسار الخلافة عن استنبول، بعد حوادث تشيب ناصية التاريخ، وتصور عزة الترك بأنقرة في عهدهم الجديد
وفي هذه القصيدة توجع شوقي لعزل استنبول، وأعتذر عن أبنائها الاماجد فما نقلوا مركز الملك إلى أنقرة ألا رعاية لخطة من خطط الدفاع عن البلاد
لو أن سلطان الجمال مخلّد ... لمليحةٍ لعذلتُ من عزلوك

خلعوك من سلطانهم فسليهمُ ... أمِن القلوب وملكها خلعوك
لا يحزُنك من حُماتك خطة ... كانت هي المُثلى وأن ساءوك
أيقال فتيان الحمى بك قصروا ... أم ضيعوا الحُرمات أم خانوك؟
وهم الخفاف إليك كالأنصار إذ ... قلّ للنصير وعزَّ من يفديك
والمشتروك بمالهم ودمائهم ... حين الشيوخ بجبة باعوك
هدروا دماء الذائدين عن الحمى ... بلسان مفتي النار لا مُفتيك
شربوا على سر العدو وغردوا ... كالبوم خلف جدارك المدكوك
لو كنت مكة عندهم لرأيتهم ... كمحمد ورفيقه هجروك

وهو يشير في هذه الأبيات إلى ما وقع من رجال الدين في استامبول، فقد أفتوا بوجوب مقاتلة الكماليين بوجوب طاعة الخلفاء، وكانوا احتلوا استامبول، ولم يجلوا عنها بعد ذلك ظائمين، وإنما أكرهتهم السيوف الكمالية على الجلاء

والشاعر يجعل انتقال أتاتورك ورفاقه من استامبول إلى أنقرة شبيهاً بانتقال الرسول ورفيقه من مكة إلى المدينة، وهو تشبيه على جانب من الجمال

انتصار الأتراك في الحرب والسياسة

ثم يلتفت القارئ مرة ثانية فيرى شوقي يرجع إلى تمجيد أتاتورك من جديد، بقصيدة بائية على غرار بائية أبى تمام في فتح عمورية، وقد تلاعب فيها بالمعاني وجال في فنون القول كل مجال

كان عصمت باشا مندوب الأتراك في مؤتمر لوزان، وكان رجلاً ضعيف السمع لا يصل إليه الصوت إلا بالصياح، فجعله شوقي:

أصمُّ يسمع سر الكائدين له ... ولا يضيق بجهر المحنق الصخب

والذي يقرأ أخبار الحرب في هذه الأيام يرى الانسحاب يوصف بالجمال، وقد سبق شوقي لغة هذه الأيام فقال في انسحاب اليونان:

جدِّ الفرارُ فألقى كل معتقل ... قناته وتخلّى كلُّ محتقب
يا حُسْنَ ما انسحبوا في منطقٍ عَجَب ... تُدعى الهزيمةُ فيه حُسْنَ مُنسحَب

وكان ساسة اليونان منوا شعبهم بمملكة جديدة في بلاد الترك، فقال شوقي:

هم حسِّنوا للسواد البُله مملكةً ... من لِبدة الليث أو من غِيلة الأشِبِ
وأنشئوا نزهةً للجيش قاتلةً ... ومن تنزه في الآجام لم يؤب

وكان الدكتور طه حسين كتب مقالاً في جريدة الاتحاد أراد به التهوين من شأن هذه البائية، فهل ينظر فيها من جديد ليعرف أنه كان من المخطئين؟

رحالة الشرق

وهذه قصيدة عينية قالها شوقي في تكريم الرحالة محمد حسنين باشا، وكان استكشف واحتين في الصحراء الروبية

ويضيق المقام عن شرح ما في هذه القصيدة من أغراض، ومع هذا لا يفوتني أن أدل للطلبة على سجية شوقي في الجنوح إلى التأمل العميق من حين إلى حين. وهل وازن أحد بين الصحراء والحياة على نحو ما وازن بينهما شوقي إذ يقول:

كم في الحياة من الصحراء من شَبَهٍ ... كلتاهما في مفاجأة الفتى شَرَعُ
ورآء كل سبيل فيهما قَدَرٌ ... لا تعلم النفس ما يأتي وما يدع
ولست تأمن عند الصحو فاجئةً ... من العواصف فيها الخوف والهلع
ولست تدري وأن قدرت مجتهداً ... متى تحط رحالاً أو متى تضع
ولست تملك من أمر الدليل سوى ... أن الدليل وأن أرداك متَبع

والبيت الأخير من وثبات الخيال

أما بعد فهذه كلمات سريعة بددت بها ساعات من الطريق بين القاهرة و (المنية) ولم أنظر فيها بعد ذلك، فليتلقها القارئ على هواه، بالحمد أو بالملام، وهل يكلف الله نفساً فوق ما تستطيع؟

أثنيت على شوقي مرات وأنا أراجع الشوقيات؛ ثم لمته مرة أو مرتين!

لقد أشرف بنفسه على طبع الجزء الأول والثاني، فما كان ضره ولو أرخ جميع القصائد، ونص على جميع المناسبات ليتمثل القارئ صور البواعث الروحية أو السياسية؟

قصائد شوقي تمثل معضلات عصره أصدق تمثيل، ولكن القراء لن يروها خليقة بهذا

الوصف إلا إذا شرحت مناسبتها بإسهاب، فأين من ينهض بهذا الواجب قبل أن تنسى تلك المناسبات؟
ثم أقول أن الشوقيات زادت أيماني بمجد بلادي، فقد امتطيت القطار وأنا متخوف من ضجر الطريق وما هي ألا لحظة حتى كانت الشوقيات وحياً يهتف بأن كل بقعة من أرض مصر معهد مجد أو محراب فتون
ليت شعري والدهر حرب بنيه ... وأياديه عندهم أفياءُ
ما الذي داخلَ الليلي منا ... في صبانا ولليلي دهاءُ
في هذه اللحظة أشعر بالندم على آني ركبت القطار السريع، ولم أركب القطار (القشَّاش) وهو القطار الذي يقف على جميع المحطات، ويباع فيه القصب والبرتقال بسخاء؟!
وما أسعد من يمر بالقطار على جميع المحطات المصرية، وقد بلغ عددها (532) يمر القطار السريع على قرى الصعيد مرور الطيف، فلا يكاد المسافر يتذكر أن كل قرية من تلك القرى فيها أرواح وقلوب، ولأهليها تاريخ أو تواريخ
هذه منارة تدل على مسجد، فأين من يذكر أن مساجد الصعيد كانت لها أياد في حفظ العلوم الإسلامية؟
وذلك فلاح يناجي الأرض مناجاة الحبيب للحبيب، فأين من يذكر أن الفلاح المصري قد يكون أخوف الناس من الله، ثم لا تمنعه تقواه من انتهاب شبر أو فتر من أرض الجيران؟
وهل يستطيع أحد أن يقنع الفلاح المصري بأن الجنة أجمل من أرضه الغالية؟
ذنبك مغفور - أيها الفلاح - فأعص الله كيف شئت في انتهاب أرض جيرانك، فذلك شاهد بأنك تقدر نعمة الله على أهل هذه البلاد!
ثم ماذا؟ ثم اذكر أن هذا الكلام يخرج عن موضوع هذا المقال، وأني سأصل إلى (المنية) بعد لحظات، وأن التمادي في الثرثرة أمر غير مقبول!
وما ذنبي إذا فتنتني بلادي؟
أمِن الإثم هُتافي بالجمال ... في بلادٍ كلُّ ما فيها جميلْ
لو بعيني نظر اللاحي وجال ... لرأى الفتنة في كل سبيل
حار الناس في تعليل التفاوت بين شوقي وحافظ، لعرفانهم بأن حافظ كان أذكى من شوقي بمراحل طوال، فهل آن لهم آن لهم أن يعرفوا أن شوقي تقدم لأنه كان من أكابر المُلاَّك في هذه البلاد، وأن حافظ تخلف لأنه بشهادة نفسه لم يملك من أرض مصر نصف فدان؟
ما أنا وهذا الكلام؟ هذه ثرثرة لا تليق برجل منَّ الله عليه بركوب قطار الصعيد، وهو قطار يساير نهراً بين جبلين، وتلك حال توحى بإعزاز السرعة والقسوة واللين، ومن هذه العناصر الثلاثة يتكون جسر الخلاص؟
أحبك - يا وطني - أحبك أحبك بأعظم مما أحبك مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول
أحبك - يا وطني - وأستعذب عذابي فيك، لأنك في عيني وقلبي غاية في روعة الجمال لم يعان أحدُ من الظلم في وطنه مثل ما عانيت، فما زادني ذلك الظلم الأثيم إلا عرفاناً بجمال وطني. وهل رأيتم جميلاً غير ظلام؟؟
(قطار الصعيد في 171241)
زكي مبارك
مظاهر النظام التجاري النازي
للأستاذ فؤاد محمد شبل
أن دراسة طرائق ألمانية التجارية أمر من الأهمية بمكان، إذ يقودنا إلى تفهم أسلوبها في السيطرة الاقتصادية على وسط أوربا والبلقان التي تبعها النفوذ السياسي. كما تعتبر هذه الأساليب أهم جانب يشرح لنا النظام الجديد في أهم صوره العملية، ويظهر للعالم ما ينتظره من وراءه وما يتوقعه من تطبيقه من إلغاء حرية التعامل وتقييد التبادل تقييداً غير محدود المدى، وتدخل الدولة في كل ما جل ودق من شؤون الفرد.
وسيظهر لنا تحليل السياسة التجارية التي أتبعت في فترة تولي النازي أزمة حكم ألمانيا أن هذا النظام معناه تسخير الشعوب لمد ألمانيا بما يعوز صناعاتها من المواد

الخام، فضلاً عن إلغاء جميع الأوضاع النقدية المقررة التي ألفها العالم واطمأن إليها، كما يبين لنا شرح هذا النظام مدى مسئوليته عن الحرب الحاضرة.

1 - تقييد حرية نقل الأموال

يعتبر عام 1931 السنة التي ولد فيها نظام التحكم في التجارة الخارجية التي كانت الغاية المرجوة منه الحيلولة دون سحب القروض الأجنبية من ألمانيا التي كانت دعامة ترتكز عليها قيمة المارك في الخارج. ولما تولى النازي أزمة الحكم في ألمانيا، هرعت رؤوس الأموال الأجنبية فيها إلى الخروج منها حتى بلغت قيمة ما سحب منها 4. 5 مليار ريشمارك في المدة 1932 - 1934. هنا صدر مرسوم يقيد نقل الأموال التي يحصل عليها الأجانب من استثماراتهم داخل ألمانيا، وخول للمدينين الألمان التخلص من التزاماتهم تجاه الخارج بإيداع قيمتها ماركات في حساب خاص في برلين. على أنه أستمر تحويل الفوائد والأقساط المستحقة لغرض (داوز) والفوائد المستحقة لغرض (يونج). أما أقساط الاستهلاك للقروض الأخرى، فقد أوقف صرفها، ودفعت نصف الفوائد المستحقة لها، فحسب بالعملة الأجنبية إلى نهاية سنة 1933. أما الفوائد غير المحولة، فأن الدائنين الأجانب منحوا سندات في مكنهم بيعها لبنك خصم الذهب ليحصلوا مقابلها على العملة الأجنبية. بيد أن هذا البنك لم يكن ليقبل شراء هذه السندات إلا بنصف قيمتها الاسمية؛ أما النصف الأخر فكان يستخدمه البنك المذكور لإعانة الصادرات التي يأمل الحصول - عن طريقها - على النصف الذي يحول. فكان الدائن الأجنبي يخسر من هذه العملية ربع الفوائد المستحقة له. ولقد جلبت ألمانيا في هذا الحين على نفسها السخط من جراء تنظيمها التحكمى للنقد الأجنبي، وسماحها بوجود عدد من فئات الماركات تعمل في درجات مختلفة من الخصم، إلا إنها كانت تبرر هذه الإجراءات بأن الدول الدائنة ترفض أن تقبل ديونها بضائع

وفي صيف عام 1934 أصبح التبادل الألماني الخارجي في أسوأ الحالات، فعلى حين كانت الواردات الألمانية في ازدياد، كانت الصادرات في هبوط. فقاد هذا بالطبع إلى تواصل الضغط على الذهب وعلى العملة الأجنبية التي بها تدفع ألمانيا ديونها للخارج، فأصبح من المتعذر عليها الاستمرار في عمليات التحويل وفقاً للأساس السابق مما دعاها في يونية 934 إلى إيقاف صرف الفوائد المستحقة عليها بالعملة الأجنبية وعرضت على الدائنين الأجانب سندات أجلها عشر سنوات بفائدة 3 %. فأسرعت البلاد الدائنة إلى المفاوضة مع ألمانيا للحصول على شروط أسخى؛ وكثير منها قبل عقد اتفاقات مقاصة لتسوية ديونه، وهذه الاتفاقات كان أثرها مزدوجاً فزادت صادرات ألمانيا إلى البلاد التي قبلتها وزادت صادراتها هي إلى ألمانيا

ولقد كان النظام المتبع في الاستيراد منح المستوردين الألمان حصة من العملة الأجنبية بقيمة ما أستورده في عامة 1931. إلا إن هذه الحصة هبطت في فبراير 1934 إلى 50 % منها؛ وفي مايو من نفس السنة أصبحت 5 % وأخيراً غدت تقدر يوماً بيوم طبقاً لنظرة بنك الريخ وخطته إزاء العملة الأجنبية

2 - نظام المقاصة الفردية

في سبتمبر 1934 أعلن الدكتور شاخت وزير الاقتصاد منهاجاً جديداً للتجارة الخارجية، فألغى نظام الحصص السابق واستعيض عنه بنظام يقوم على الحصول على شهادة قبل إجراء كل عملية تتعلق بالتبادل الخارجي. وتنفيذاً لهذه الفكرة أنشأت سبع وعشرون إدارة تمثل سبعاً وعشرين صناعة أو مادة أولية؛ وهذه الإدارات أصبحت المسئولة عن إعطاء تصاريح الاستيراد وعلى تقرير لأي البلاد أو لأي السلع تستخدم هذه التصاريح. ولهذه الإدارات إشراف على الصادرات كذلك

ولقد أظهر التطبيق العملي للسياسة الجديدة مدى قيامها على المتاجرة الثنائية ومبادلة السلعة بالسلعة. كما أنشأت نظاماً متشابك الناجي لاتفاقات المقاصة الفردية التي تمثلت في طرائق ثلاث نشرحها على الوجه التالي:

مدار الطريقة الأولى أن المستورد الألماني الراغب في شراء سلع من الولايات المتحدة مثلاً يسعى للعثور على مصدر ألماني يريد بيع سلع للولايات المتحدة، ولكنه لا يستطيع الحصول على ثمن ما باعه الذي يبلغ بسعر الصرف س % (مثلاً) أكثر من السعر العالمي. فعلى المستورد الألماني أن يدفع ال س % هذه وبذلك يكن المصدر

من تقبل السعر العالمي لسلعته. وفي مقابل الحصول على هذه ال س % يقبل المصدر الألماني التنازل عن حقوقه في النقد الأجنبي الذي يحصل عليه من بيع بضاعته إلى الولايات المتحدة. ولما كان قد دفع علاوة س % للمصدر فإنه يتقاضاها برفع سعر السلعة داخل ألمانيا. ومن الواضح إن مقدار الإضافة سالفة الذكر (س % فرضاً) تتغير بتغير العلاقة بين مستوى الأثمان في الداخل والخارج كما يتعلق بطبيعة السلعة المستوردة ومدى الطلب عليها

والشكل الثاني الذي اتخذه نظام المقاصة يجري على النسق التالي: مستورد ألماني (1) يرغب الحصول على سلعة من مصدر إنجليزي (ب). فإنه يعرض عليه إضافة في السعر الذي يشتري به زيادة عن السعر العالمي للسلعة المشتراة. والمصدر الإنجليزي بدوره - لضمان حصوله على ثمن سلعته - يبحث عن مستورد إنجليزي (ج) على استعداد أو يمكن ترغيبه (بإعطائه جانباً من الإضافة المذكورة آنفاً) لشراء السلعة التي يصدرها مصدر ألماني آخر (د). وتتم العملية كلها بحدوث المقاصة بين (ج) و (ب) بالإسترليني وبين (ا) و (د) باليشمارك!

الشكل الثالث للمقاصة هو نظام ماركات الأسكي، ومضمونه أن المصدر الأجنبي الذي يبيع سلعته لألمانيا يتقاضى نضيرها اعتماداً بماركات الأسكي. وهذا النوع من الماركات يمكنه بيعها - بخصم كبير - لمستورد السلع الألمانية. وبهذا يستطيع أداء ما اشتراه من ألمانيا بهذه الماركات. ولما كانت ماركات الأسكي هذه لا يتأتى بيعها إلا بعد دفع جانب منها. فكان المصدر الأجنبي يدخل في حسبانه هذا الأمر فيزيد ثمن سلعته بما يحقق له الحصول على

الثمن الأساسي. هذا وقد خصص لكل قطر نوع خاص من ماركات الأسكي

3 - مساوئ نظام المقاصة

العيب البارز في سياسة المقاصة كما ظهر تطبيقاً في ألمانيا هو تعقد أوجهها وتشابك مناحيها وعظم تكاليفها، عوامل كان لها أثر بالغ في الحد من تقدم تجارة ألمانيا الخارجية. يضاف إلى ذلك أن تقييد الواردات مع زيادة الطلب على المواد الخام قد حتم تقييد توزيع هذه المواد داخل ألمانيا، وتطبيق اتفاقات المبادلة والمقاصة في تجارة ألمانيا الخارجية معناه تقليل نصيبها من القطن الأمريكي والصوف الأسترالي وغير ذلك من حاصلات البلاد التي تعتنق مبدأ حرية التبادل. وفي كثير من الحالات كان التباين كبيراً بين المواد الأولية موضوع المقاصة والمواد التي تتطلبها حاجات للصناعة. وهذا ما ظهر أثره واضحاً على صناعة المنسوجات الألمانية بسبب احتياجها إلى المواد الخام واختلاف نوع المواد المستوردة عن المطلوبة من الجهة الأخرى.

وأخيراً فإن تقرير سياسة القيمة الاسمية للمارك في الخارج جعل أسعار الجملة الألمانية أعلى من مثيلاتها في الخارج فأصبح من الضروري إعانة حركة الصادرات بشتى الوسائل. وهذا ما تحقق بقرض ضريبة على الصناعة بلغت في عام 1935 حوالي الألف مليون مارك أي من ربع إلى خمس القيمة الاسمية للصادرات الألمانية في هذه السنة. وقد حول الاقتصاديون الألمان تبرير هذا الأجراء بقولهم إنه تدبير اتخذ لمجابهة هبوط العملات الخارجية ولا يقصد به إغراء الأسواق الأجنبية بالبضائع الألمانية.

وإزاء هذه العيوب الخطيرة عمدت الحكومة الألمانية إلى تثبيت مستوى الأسعار في داخل ألمانيا، ومنع تصدير رؤوس الأموال منها على نطاق واسع، وذلك بأن لا تستورد إلا ما تستطيع دفعه مما تحصل عليه من صادراتها، وأن توجه صادراتها إلى تلك الأقطار التي تتقبل بضائعها، والتي ألمانيا في حاجة إلى منتجاتها. وتنفيذاً لهذه السياسة أنشأت شبكة من الإدارات لا تشرف على الواردات فحسب، ولكن على تنظيم حركة المواد الأولية داخل ألمانيا أيضاً.

4 - الميزان التجاري

حققت سياسة توجيه السياسة والأشراف عليها الغاية المرجوة منها من توازن ميزان ألمانيا التجاري، فبينما نتج عن عام 1934 عجز في ميزان ألمانيا التجاري قدره 284 مليون ريشمارك أسفر عام 1935 عن موافقة الميزان التجاري لها بنحو 111 مليون ريشمارك، وصعد هذا الرقم إلى 550 مليون ريشمارك في عام 1936، وتعزى هذه النتيجة أساساً إلى تقييد الواردات التي هبطت في عام 1936 عن مثيلتها في عام 1934 بنحو 233 مليون ريشمارك. ويلاحظ تغير في نوع السلع المستوردة عام 1936

عن تلك في عام 1934، فقد زاد المستورد من المواد الغذائية قليلاً فشغلت 36. 6 %
من مجموع الواردات في عام 1936 مقابل 34. 6 % في عام 1934. أما المواد
الأولية ونصف المصنوعة فقد شغلت 55 % في عام 1936 مقابل 52. 4 % في عام
1934 في حين هبطت نسبة الوارد من البضائع التامة الصنع من 12 % من مجموع
واردات 1934 إلى 9. 4 % من واردات 1936 كما كان هناك تغير ملحوظ في واردات
ألمانيا. فقد زادت وارداتها من البلاد المجاورة لها وخاصة أوربا الجنوبية الشرقية
وأمريكا الجنوبية بينما هبطت وارداتها كثيراً من الولايات المتحدة واستراليا وفرنسا
وهولندا وروسيا

أما الصادرات فقد زادت في عام 1936 عن مثيلتها في عام 1934 بنحو 600 مليون
ريشمارك، وتعزى هذه الزيادة إلى حد كبير إلى انتعاش أحوال التجارة العالمية كما يرد
جانب منها إلى إعانة التصدير التي أشرنا إليها، وإذا ما علمنا أن ثمن واردات ألمانيا قد
ارتفع بين عامي 1935 و1936 بمقدار 3. 8 % بينما هبط ثمن صادراتها في نفس
المدة بمقدار 2. 8 % فأدركنا إن التبادل التجاري بمعناه الصحيح لم يكن موافقاً لها،
مما جعل مركزها التجاري يزداد صعوبة، ولم يتح الفائض في الميزان التجاري في
عامي 1936 و1937 لألمانيا إلا حظاً ضئيلاً إذ كان عليها إن تدفع فوائد ديونها الخارجية
التي ارتفعي في عام 1935 إلى 550 مليون ريشمارك بسب بعض اتفاقات المقاصة
مع فرنسا ويوجوسلافيا بصفة خاصة

ولقد زادت واردات ألمانيا من 4. 2 مليار ريشمارك في عام 1936 إلى 5. 5 مليار
ريشمارك في عام 1937 وصادراتها من 4. 8 مليار إلى 5. 9 مليار. وبلغت زيادة
صادراتها عن وارداتها 443 مليون ريشمارك في عام 1937 مقابل 550 مليون
ريشمارك. وبهذه الزيادة في الصادر والوارد استطاعت ألمانيا أن تساهم في حركة
الإنعاش العامة للتجارة الدولية في عام 1937. بيد أن التبادل التجاري ظل في غير
مصلحتها بالنظر لزيادة أثمان وارداتها بمقدار 10. 2 % في حين زادت أثمان صادراتها
بنحو 3. 6 % فحسب وكان الميزان التجاري غير موافق لألمانيا عام 1938 نظراً
لهبوط معدل صادراتها من جهة وزيادة وارداتها من المواد الخام التي عملت على
تخزينها استعداداً للحرب. ومن الأحرى بالذكر أن صادرات ألمانيا تتكون غالباً من
المواد التامة الصنع التي تكون السلع الإنتاجية فيها نسبة كبيرة جداً وبالتالي فهي أكثر
تأثراً بالأزمات الاقتصادية من الصادرات البريطانية مثلاً الأكثر تغيراً وشمولاً
وفي مقال تال سنشرح اتجاهات التجارة الألمانية قبل الحرب وطرائق التوسع التجاري
الألماني.

فؤاد محمد شبل
مفتش تموين الإسكندرية

علماؤنا يعودون إلى المجتمع
لأزهري الكبير

وأخيراً حققت الآمال العظيمة التي طمح إليها دعاة الإصلاح في مصر والشرق . . .
الإسلامي، وتوِّج هذا الجهاد الحافل بالفوز والتوفيق، فأنصت الأزهر لهذه الدعوة
الصارخة، وآمن بها، وأخذ يضيف إلى تاريخه التليد صفحات طريفة مجيدة. فمنذ أسابيع
قرأنا إن عضواً بارزاً من جماعة كبار العلماء قدم إلى الجماعة اقتراحاً جديداً تشيع فيه
الرغبة الصادقة في توجيه الثقافة في هذه الجامعة العظيمة وجهة جديدة صالحة تجمع
بين أمرين عظيمين:
الأول: بعث روح الإنتاج العلمي، والاضطلاع بأعبائه في شتى فروع الثقافة الدينية.
الثاني: العناية بشؤون المجتمع؛ وبحث مشكلاته الخلقية والاجتماعية والاقتصادية وبيان
موقف الدين الإسلامي حيالها.

ثم علمنا أن هذا الاقتراح يشق طريقه نحو التنفيذ، فأيقنا أن الأزهر مصمم على السير
إلى أبعد غايات الإصلاح، مؤمن بتوفيق الله ورعايته.

ولا يخالجنا شك في إن الجماعة - وقد ضمت عناصر جديدة ممتازة - ستظفر بتحقيق
هذه الآمال، وستكتب في تاريخ الأزهر الحديث أروع الصفحات. وليس هذا على
الجماعة بكثير فقد عنى بها الأستاذ المراغي عناية كريمة فآثر بعضويتها أولى الكفايات
من العلماء الحريصين على مسايرة الحياة إلى أسمى غاياتها، وتوجيه الحياة

الاجتماعية بنور الدين وهدايته.
إن المجتمع في حاجة إلى الأزهر، والأزهر في حاجة إلى المجتمع، ولا ريب في أن اتجاه علمائنا نحو المجتمع وبحث شئونه ومشاكله ستجعل الناس على بينة من دينهم، وتهديهم إلى سبل الخير والفضيلة والرشاد.
لقد مضى زمن الجدل في العقائد، والبحث النظري في القشور دون اللباب، وسئمنا الكلام في المياه التي يجوز بها التطهير والتي لا يجوز، وفي إثبات كرامة الأولياء ونفيها، وفي طبقات السماء أمن فضة هي أم من ذهب، إلى غير ذلك؛ وهانحن أولاء نشاهد إشراق عهد جديد يشارك فيه علماؤنا الناس، وينزلون من عزلتهم التقليدية إلى حيث يسير الناس
وتتحرك الحياة، ويضمنون شؤون المجتمع ومشاكله نصب أعينهم، ويقفون منه موقف الناصح الأمين.
ولعمري لقد ملئ الإيمان قلوب الناس، بل وعقولهم يوم كان الدين روحاً وعقيدة وخلقاً وعملاً. ولم يمتحن المسلمون بأعظم من الجدل في العقيدة والخلاف في الدين، حتى انحل ما كان معقوداً من ألفتهم، وخمد ما كان متأججاً من روحهم. ولقد ظهر الغزالي في عصر مفعم بالفتن والاضطرابات والجدل والخلاف، فدعا الناس إلى دين الله بلغة العاطفة والقلب حين رأى الدعوة إليه عن طريق الخصومة والجدل داعية فتنة وثائرة ضلال؛ ولكن الغزالي يأس من المجتمع لأنه كان يود أن يراه مجتمع ملائكة أبرار لا مجتمع شياطين أشرار، فزهد في الحياة، وعزف عن المجتمع، واعتزل الناس، إيثاراً لسلامة الدين والنفس وبعداً عن شرور المجتمع وسيئاته؛ وقلده في مذهبه الاجتماعي أصحابه ومريدوه، فظلت تلك الروح نزعة لعلمائنا حتى العصر الحديث.
ولقد كانت أسمى غاية للأستاذ الإمام محمد عبدة من إصلاح الأزهر أن يحمله على الاندماج في المجتمع، والتغلغل في أعماقه، والسمو به - عن طريق الإرشاد والتهذيب الديني الصحيح - إلى أبعد ما يستطاع من غايات؛ وكان يريد من وراء ذلك أن يذكى في الأمة الإسلامية روح القوة والفضيلة، وأن يدفع بها إلى الحياة الكريمة العزيزة، لتستطيع أن تذود عن حريتها، وتحافظ على تراثها المسلوب، وحتى يتسنى لها - إذا تابعت السير في هذا المضمار - أن تستعيد ما كان لها من مجد باذخ وجلال قديم، فتسير في قافلة الحياة البشرية داعية خير وهدى وسلام. ولقد أبى الأزهر حينئذ أن يستجيب لدعوة الأستاذ الإمام، وآثر أن يعيش في ظلام الجمود والحيرة عزوفاً من جديد الذي كان يؤمن بأنه بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار. . .
وبعد ربع قرن من وفاة الأستاذ الإمام تكشف غيوم الحيرة، وخضدت شوكة الجمود وحماته، وألقيت مقادة الأزهر في يد تلميذ من تلامذة الإمام، فأخذت دعوته طريقها إلى قلوب الأزهريين وعقولهم، وسرت في الأزهر روح جديدة، وأيقن رجالاته بضرورة الإصلاح، وإن اتجهوا في ذلك وجهات مختلفة متباينة. . .
فليعد علمائنا إلى المجتمع حاملين في ظلمات الحياة الاجتماعية نور الدين وهدايته، ناشرين
في ضلال الحياة الإنسانية دعوة الله ورسالته، هادين الناس إلى الحق وإلى طريق مستقيم. . .
(باحث)
بحث مقارن
الوضع الاجتماعي للمرأة في الإسلام
للأستاذ محمد عبد الرحيم عنبر
(تتمة ما نشر في العدد الماضي)
(6) الدين الإسلامي قد قرر استقلالا المرأة بمالها وبحريتها في حدود معقولة لا حرج فيها ولا تضييق. فالمرأة المسلمة تعتبر من الناحية القانونية الشرعية حرة فيما تملك من مال وعقار، لا يمنعها مانع من التصرف بأي نوع من أنواع التصرفات، ويجري عليها في ذاك ما يجري على الرجل سواء بسواء، وهما أمام القانون سواسية كأسنان المشط مهما كانت درجة قرابتها به، وانتسابها إليه، كما أنه ليس لزوجها أن يطلع على أسرارها إلا إذا حدث منها ما يوقعه في الشبهة، ولا يسافر بها إذا شرط لها أن لا

يخرجها من بلدها.

وقد ترفق الدين الإسلامي بالمرأة مما يتناسب وكرامتها وعفتها، وظروفها (7) الاجتماعية، ولها فيه أحكام خاصة بها من طهارة، وصلاة، وصيام، وحج، وزواج، وطلاق، وجهاد، وشهادة وحداد، وكل ما يتصل بشؤونها.

والمرأة في الإسلام غير مكلفة بتعلم ما لا حاجة لها به في دينها وبيتها الذي ألقيت (8) إليها مهمة إدارته وتدبير شؤونه على أحسن وجه. وليس لولى أمرها أن يلزمها طلب القوت، وإذا كانت لا عائل لها فلا يمنعها من أن تتعلم ما تريد لا لتنافس الرجال ولكن لتعيش. وتحبيها لها في وظيفتها التي هيئتها الطبيعة لها قال رسول الله (ص) مخاطباً النساء جميعاً:

ولعلي لا أجاوز الصواب (مهنة إحداكن في بيتها تدرك جهاد المجاهدين إن شاء الله).

إذا قلت إن تعليم المرأة علوم الرجال يفسد أنوثتها فساداً لا يمكن إصلاحه، ولا حتى تخفيف آثاره. وإذا كانت حياتنا الاجتماعية المضطربة قد سمحت لنفر من الكتاب المنافقين أن يضللوا المرأة، ويخدعوها، ويحرضوها على الالتواء عن وظيفتها الطبيعية وعلى أن تلج أبواب الجامعة والمدارس العالية حباً في العلم ذاته فأنهم بذلك يقولون بألسنتهم ما لا يؤمنون به في قلوبهم. فهم أنفسهم الذين عادو، بعد إذ لبت المرأة دعوتهم بعد تأثير إغرائهم،

يصرخون مما ترتب على تلك الحال من مآس موجعة، وظلال كبير، وينذرون المجتمع بالويل والثبور! وبجوار هؤلاء الداعين الزاعقين فريق أخر يتظاهر بالرصانة ولكنه لا يقل عنه خطراً إذ يهدئ الروع كذباً، ويطمئن النفوس عن غش وملق، ولو كشف عن نية هذا الفريق الأخير لوجدت ما يقصده هو إن الذي يفزع منه الناس اليوم سيصير في اعتقاد الجيل القادم شيئاً عادياً، لاشيء فيه، وهو تطور حقيقي في نفسية الشعوب! وليس أدل على صواب العقيدة الإسلامية وبعد نظر الإسلام من أقوال بعض أساطير أوربا ودهاقينها في كل العصور. فقديماً قال نابليون العاهل الفرنسي العظيم (إن التعليم العام لا يتفق وطبيعة المرأة لأنها لم تخلق لتعيش بين الجماهير؛ فأن الزواج وتدبير شؤون البيت هما أجمل ما تحلم به كل امرأة غير شاذة). وقال حكيم أوربي (إن أماً صالحة لخير من مائة معلم) وقال فيلسوف فرنسي (آني لا أعترض على زوجة جاري إذا رأيتها تحرق رأسها وتمزق أصابعها في الكتابة والتأليف، ولكنى لا أريد من زوجتي ألا تعرف سوى حياكة الملابس وإتقان طهي الطعام). وما أبلغ قول من قال منهم إن المرأة التي تقلد الرجال ترتكب خطأين في وقت واحد؛ فهي تزيد عدد الرجال الآثمين، وتنقص عدد النساء الصالحات!)

ومن الغريب إن وزارة المعارف تتجاهل فيما تتجاهل هذه الحقيقة؛ فهي لا تهتم بتهيئة الفتاة للقيام بوظيفتها الطبيعية اهتمامها بحشو رأسها الصغير بعلوم لا حاجة لها بها، وتجعلها مغرورة بنفسها، غير ملمة بمهمتها الأصلية وهي (البيت) أولاً وآخراً. فالفتاة التي تقتصر على التعليم الابتدائي أو الأولى لا تدري قليلاً أو كثيراً عن ذلك البيت الذي ينتظرها، والزوج الذي يحلم بها. وتشاركها في ذلك أختها التي تلج أبواب الجامعة. آما المدارس التي تلقن الفتيات التدبير المنزلي، أو الثقافة النسوية فهي قليلة، ولا توجد إلا في مدن تعد على أصابع اليد. ووزارة المعارف ترتكب بذلك، ولا شك، في حق أمهات المستقبل خطأ لا يغتفر!

9 - ولما كان الله قد اختار لكل دين خلقاً فقد جعل خلق الإسلام الحياء. والله سبحانه وتعالى لم يفعل ذلك عبثاً، فعصمة المرأة في حيائها، وخروجها عن ذلك الحياء يكلفها الكثير من التضحيات المرة التي لا قبل لها بها. فالمرأة التي تبدو في الطريق شبه عارية، وتخالط الرجال في المجتمعات الصاخبة مخالفة للحياء وموقظة للفتنة النائمة. ومحط

أنظارهم، وهدف اهتمامهم مهما تنكرت، وهي مزهوة بذلك مهما أنكرت! وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا عدوا بين أنفاس الرجال والنساء فأنه إذا كانت المعاينة واللقاء كان الداء الذي ليس له دواء) وقال: (والذي نفسي بيده ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان بينهما). وسأل يوماً إحدى بناته: (أي شئ خير للمرأة؟) فقلت: (ألا ترى رجلاً، وألا يراها رجل) فضمها النبي إلى صدره وقال: (ذرية بعضها من بعض). والدين الإسلامي يتشدد في المباعدة بين النساء وغير محارمهن من الرجال لا يريد

بذلك إن يحجر على حريتها، ولا أن يحرم عليها التمتع بمباهج الحياة جميعاً، وإنما يبغي صونها من كل سوء لأن سمعتها تتأثر من كل شئ. والذين يخدعونها عن هذه الحقيقة لا يرحمونها إذا علق بها أقل شك، أو لحقت بها أدنى ريبة! وليس المخلوق أرحم أو أعلم بالمرأة من خالقها الذي صنعها. والدليل على ذلك كثرة حوادث الطلاق بين الطبقات أو الأسر التي لا تبالي بتقاليد دينها، وتركت الأمر فوضى بين أفرادها. وإلا فليذكر لنا أولئك السادة أي شئ أفادته المرأة المسلمة من تمزيق نقاب الحياء، وهجرها لبيتها، واختلاطها بالرجال؟ وليقارنوا مقارنة بسيطة بين مركزها الاجتماعي على هذه الحال، ومركزها الاجتماعي الذي حدده لها الدين!

وعليه فليس في التزام المرأة المسلمة لبيتها، وعدم اختلاطها بالرجال الأجانب عنها خمول ولا ذله ولا حرمان من مباهج الحياة وإنما فيه انصراف إلى واجبها، ومحافظة على سمعتها، وتعفف عما يؤذي كرامتها ومستقبلها. وفي حدود حريتها المعقولة تستطيع إن ترقى، وتتذوق متع الحياة، وتتعلم، وتأخذ بأساليب المدنية الحديثة الرفيعة.

10 - وبأخذ بعض الناس على الإسلام تقريره حق الطلاق أو الخلع أو تعدد الزوجات. وهم لو علموا حكمتها وقيودها لأدركوا أي ضمان وضعه الإسلام بذلك لتقوية أركان الأسرة، ولسلامة بنيان المجتمع.

قال الله تعالى: (الطلاق مرتان، فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) وقال: (يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن). وقد ورد في القرآن الكريم آيات أخرى تدل كلها على مشروعيته. أما عن السنة فقد روى أن النبي طلق إحدى زوجاته ثم راجعها. وقد طلق فريق كبير من الصحابة نسائهم، منهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

وقد شرع الطلاق للتخلص من رابطة الزوجية عند تباين الأخلاق، وعروض البغضاء الموجبة عدم إقامة حدود الله بحيث يفوت الغرض المقصود من الزواج وينقلب مضره. فالناس مفطورون على التمايز والاختلاف في وجوه الرأي، ومجهولون على الحب والبغض. والزواج قبل كل شئ هو اندماج رجل وامرأة اندماجاً كلياً بقصد التعاون على الحياة. ولما كان من المستحيل أن يندمج كل رجل مع كل امرأة، كما أنه ليس من الميسور أن يتعرف كل رجل على المرأة التي تناسبه، فقد جعل الطلاق والخلع فرصة لكل زوجين إن ينفصلا عندما يكون الانفصال أمراً لازماً حتى لا يتحرجا في الوقوع من المحظور، فضلاً عما تجلبه العشرة الإجبارية من شقاء وعذاب لا حد لهما. والزواج عقد يجب أن تصان به حرية المتعاقدين الكاملة في الإنشاء والإلغاء مع تقييدها بما لا يخرج عن دائرة المنفعة. فإلزام زوجين متباغضين استحكمت بينهما حلقات النفور الموجع قد يكون، من الوجهة الاجتماعية والإنسانية والخلقية، نكبة أكبر من نكبة السماح لهما بالفراق.

ولكن لما كان الطلاق في حد ذاته مع فائدته ومشروعيته آثار عنيفة، فقد رتبت الشريعة الإسلامية ما يخفف من حدة هذا الضرر فضلاً عن تزهيدها الناس في استعمال هذا الحق، حتى لا يساء استغلاله وتفوت حكمته. فقد شرط لإباحة الطلاق قيام الحكمة التي دعت إلى تشريعه، فإذا لم تقم كان إيقاع الطلاق محرماً شرعاً. قال الله سبحانه وتعالى: (فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا): أي فلا تطلبوا الفراق؛ وقال الرسول: (أبغض الحلال إلى الله الطلاق)؛ وقال: (لعن الله كل ذوَّاق مِطلاق). ويقاس على الطلاق الخلع الذي أبيح للزوجة بمقتضاه أن تفتدي بنفسها عندما لا تجد في الزواج ما كانت تنشده، فتشعر بالحرج في البقاء مع زوجها، ويستخلص بعض الفقهاء من ذلك كله أن الأصل في الطلاق الحظر والإباحة، استثناء زيادةً في تقييده وتضييق حدوده.

وليس أصدق شاهد على ضرورة الترخيص للزوجين بالطلاق أو فصم عري الزوجية عند اللزوم من مخلفة غير المسلمين لشرائعهم، وتحايلهم على نصوصها فيما يختص بتحريم الطلاق!

ثم أن الشريعة الإسلامية قد جعلت الطلاق آخر حل ينتهي إليه الزوجان، فقد أشار الله تعالى بالتحكيم بين الزوجين فيما يقع بينهما من الشقاق، حتى إذا لم يفد ذلك، كان الطلاق على يد جماعة من أهله وجماعة من أهلها؛ وفي ذلك نزلت الآية الكريمة: (وإن خفتم شقاق

بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما، إن الله كان عليماً خبيرا)؛ وقد أسلفنا قول عمر بن الخطاب عن (مجلس التحكيم)

أما مسألة تعدد الزوجات، فإن أساس تشريعها قوله تعالى في سورة النساء: (وإن خِفتم ألا تُقسطوا في اليتامى فأنكِحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورُباع، فإن خِفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا)؛ وقد فسر الفقهاء هذه الآية التشريعية تفسيرات شتى متباينة، ولكنها تجتمع كلها عند نقطتين بارزتين مهمتين هما:

الأولى: إن التزوج بأكثر من واحدة إلى أربع مباح ابتداءً

الثانية: إذا خاف الرجل الجور وعدم العدل بين نسائه إذا تعددن، يحرم عليه التزوج بأكثر من واحدة

وعلى ذلك يكون الأصل الثاني قيداً للأصل الأول، وهذا القيد مقصود به منع اضرر الذي ينشأ عن استعمال حق التزوج بأكثر من واحدة. ويتبين ذلك من قوله تعالى: (ذلك أدنى ألا تعولوا): أي أقرب من عدم الجور والظلم؛ وهذا يطابق ما تتقيد به كافة الحقوق في الشريعة الإسلامية

وبالرغم من أنه قيل: إن الحرمة الناتجة عن خوف الجور بين النساء إذا تعددن لا يترتب عليها بطلان عقد الزواج شرعاً، فإن لولى الأمر ديانة أن يراقب استعمال هذا الحق، ويحول دون استغلاله في عكس ما قصد منه، لأن الله يزع بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن، فقد نتج في استعماله مفاسد جمة. وقد وضعت وزارة العدل سنة 1928 مشروعاً لتعديل بعض أحكام الأحوال الشخصية، اشتمل على تقييد استعمال حق التزوج بأكثر من واحدة بما يتفق وحكمة الشرع وروح نصوصه؛ وقد تضمنت ذلك المواد الثلاث الأولى من المشروع، ونصها:

المادة الأولى - لا يجوز لمتزوج أن يعقد زواجه بأخرى، ولا لأحد أن يتولى عقد هذا الزواج أو يسجله ألا بإذن من القاضي الشرعي الذي في دائرة اختصاصه مكان الزوج

المادة الثانية - لا يأذن القاضي بزواج متزوج إلا بعد التحري وظهور القدرة على القيام بحسن المعاشرة والأنفاق على اكثر ممن في عصمته ومن تجب نفقتهم عليه من أصوله وفروعه

المادة الثالثة - لا تسمع عند الإنكار أمام القضاء دعوة زوجية حدثت بعد العمل بهذا القانون إلا إذا كانت ثابتة بورقة رسمية

وكان المشروع يتضمن مادة أخرى في هذا الباب حذفت منه أخيراً؛ وكان نصها: (يعاقب بالحبس مدة لا تزيد على ثلاثة أشهر، أو بغرامة لا تزيد على عشرة آلاف قرش، أو بهما معاً المتزوج الذي يخالف المادة الأولى، وكذلك من يتولى عقد هذا الزواج أو يسجله)

ويبدو من نصوص هذا المشروع بقانون أن المشرع قد أصاب الهدف الاجتماعي والإنساني العائلي الذي يرمي إليه الدين الإسلامي؛ فلم يقصد منع استعمال حق وإنما يقصد تنظيمه بما يتفق والحكمة التي دعت إليه. وقد أشارت الوزارة إلى ذلك في مذكرتها الإيضاحية. وقد قال الله سبحانه وتعالى: (فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة). وقديماً قال الفقهاء: (إن الزواج عند العجز عن النفقة محرم). ولكن المشروع السالف الذكر لم يصدر بسبب مهاجمة بعض العلماء له، وعند تهيؤ ذهن الرأي العام الإسلامي لمثل هذا التنظيم الاجتماعي العصري في المسائل الدينية وهو ما يسمى (السياسة الشرعية). وإذا علمنا إن مهاجمتهم للمشروع لم تنصب على ضرورة التقييد حق التعدد وإنما على عدم جواز وضع هذا التقييد بيد الحاكم أو القاضي، بحجة أنه أمر شخصي اعتباري من المتعذر تحديده بواسطة الغير. والرأي الأصح الذي يميل إليه جمهرة العلماء المصريين هو أن التعدد ليس حقاً مطلقاً، وإنما هو حق معلق على قيام سبب يدعو إليه، وأن الرجل إذا أساء استعمال حق له فإن لولي الأمر أن يحول بينه وبين ذلك بما له من ولاية سد الذرائع اتقاء للضرر قبل وقوعه. وعلى هذا الأساس شرع الحجر على السفيه المبذر. ومن هذا كله يتبين مدى سماحة الشريعة الإسلامية، والضلال الذي يسير عليه بعض المسلمين والتي هي منه براء

وحق التعدد في حد ذاته إذا ما استكمل الشروط اللازمة لاستعماله في الحدود السالف ذكرها، ليس فيه من الضرر الذي يصوره أعداء الدين الإسلامي، فقد تدعو إليه

ضرورة ماسة، ويرتفع به حرج يقع على الزوجة إذا طلقت بسبب المرض أو العقم أو غير ذلك من الأسباب التي تجر إلى المحظور

النتيجة:

يلخص مما قدمنا إن الدين الإسلامي وضع المرأة من الناحتين الشخصية والاجتماعية في أحسن وضع وأرحمه وأعدله وأيسره.

ولا مشاحة في أن بين المسلمين من أساءوا إلى دينهم بفساد تطبيقهم لنصوصه، وجمود تفسيرهم لروحه، وإن المرأة المسلمة لو أتبعت أحكام دينها، وأنصفها الرجل الأنصاف الذي تمليه تلك الأحكام لما أصابها حيف، ولما عاقها ذلك مطلقاً عن رقي صحيح رفيع. فدينها فضلاً عن تقريره لحقوق لا تنالها أخت لها من أي دين وملة جعلها جوهرة بالغ في صيانتها من كل عبث واستغلال. وإذا كانت المرأة الأوربية قد نالت نصيباً كبيراً من الاحترام بفضل تعليمها فإنها لا تتمتع في شرعيتها، ولا في قوانين بلادها بمثل الحقوق الرائعة التي قررها الإسلام. وقد اضطرت إزاء ذلك إن تعوض ما فاتها من حقوق بالحرية الواسعة النطاق التي حصلت عليها، والتي لا ضابط لها م مما أدى إلى حرج مركزها الشخصي، وفقدانها ما هو أعز من هذا القدر الزائد من الحرية، ومما نتج عنه من تفكك عري الأسرة الأوربية، وانهيار المجتمع الغربي تفككاً وانهياراً كانا الشرارة التي أشعلت لهيب الحرب المدمرة الحاضرة. وأظنني لست بحاجة إلى تذكير حضرات القراء بقول بيتان رئيس الدولة الفرنسية، بعد سقوط فرنسا الأخير، ولا بما فعله بعض ساسة أوربا وزعمائها من رد المرأة إلى بيتها لتقوم بمهمتها الأصلية، وتضيق حريتها تضيقاً تمليه مصلحتها الخاصة، ومصلحة المجتمع عامة إنقاذاً للأسرة والأمة معا.

محمد عبد الرحيم عنبر

مفتش بوزارة الشئون الاجتماعية

قيمة الحرية

للصحافي العالي ويكهام استير

بقلم الأستاذ زين العابدين جمعة المحامي

(تتمة)

إذا ما غلب علي ظن الهيئات العادية من أولئك القوم الذين ينعمون بما لهم من رصيد في صناديق التوفير أو ممن يحيون حياة طيبة في أكواخهم أو ممن يهنأهم ما جمعوا أو جمع لهم من ظارف أو تليد، إن ما بيدهم على وشك أن يزول عنهم، ثم تركت لهم الحيرة بين نظامين أحدهما يضيع على الناس أموالهم وحريتهم، والأخر يميل إلى الاستبداد بهم والتضييق على حريتهم، لانصرفت رغبتهم إلى ثاني المصيرين، وفضلوا أن يضحوا بحريتهم في سبيل الاحتفاظ بأموالهم. وعندي إن هذه الرغبة هي من منبع الضلالة وعماد ما يتهدد الحرية عموماً وحرية الصحافة ضمناً من إرهاب أو طغيان هو أكثر أساليب الاستبداد تضليلاً للعقول البشرية، إذ لو ترك لأمثال هؤلاء الناس أن يدركوا ما سيسوقهم إليه خيارهم من مصير لعرفوا انهم سوف يندمون على ما صنعوا ولات ساعة مندم. وسوف تتكشف لهم الحقيقة عن أن خسارتهم في حرية التملك لم تكن بأقل من خسارتهم في حرية التفكير وحرية التصرف وحرية القول ونقائص ذلك النظام الذي يخلعون عليه اسماً غامضاً فيدعونه (بالنظام الرأسمالي) قد ترجح أولاً ترجح على فضائله. إلا أنه في الأمم التي احتفظت بنظامها النيابي الديمقراطي وبالتالي بحرة صحافتها ما زال (للرأسمالية) فضلها في ترك نقادها أحراراً في نقدها إياها، وبعون من النقد العام يتهيأ للإصلاح أن يقلم أظفار (الرأسمالية) ويخفف من غلوائها في استعمال حقوقها استعمالاً مضراً بالآخرين أن لم يسعه أن يضع الأمور في وضعها العادل. فإباحة النقد كما سبق لي بيانه هي سند الحرية في الجماعات التمدنية أو هي كما عبر عنها أحد خدام بريطانيا الممتازين: (ما لنا من حق في أن نقول لأية حكومة كائنة ما كانت لقد ضقنا بك ذرعاً فإلى صقر) فلا ضمان لحرية شخصية، ولا أمل في تحقيق نجاح، ولا عاصم من طغيان، ولا أثر فعل للآراء الخاصة، ما لم تتوفر لنقد حرمته وحريته.

والهيئات الاجتماعية الحرة التي ظفرت من حريتها بقسط كبير تنادي به صحافتها، ويجري على ألسنة جماهيرها في الطرق العامة، ويفصح عنه من يمثلها من نوابها تحت قبة دار النيابة بوسعها وقتما يكون الصالح العام بحاجة إلى تعديل الأساليب أو تغيير النظم أن تتخلص من حكامها وتغير قوانينها من غير أن تحدث حدثاً خطيراً أو توقدها ثورة شعواء. بينما نرى الأمر في الأمم الاستبدادية وهو يجري على غير هذا الوجه إذ لا يتيسر لها تغيير النظم وإصلاح المناهج إلا إذا تمرد الشعب على حكامه، فاشتعلت فيها نيران الثورة. ووثبت القوة الناقمة لمناهضة القوة الغاشمة.

وقد يتهيأ للنظم الاستبدادية في وقت ما وفي ظروف استثنائية خاصة تمليها الضرورة القاهرة أن تكون أكثر نفوذاً وأوفر كفاية من النظم الديمقراطية. إلا إن مثل هذا الفضل الموقوت لا يقتضي حتماً إن الديمقراطيات التي تضطلع شعوبها بشئونها العامة، وتوجهها صحافة يقضه جريئة سوف تضل دائماً وهي أقل كفاية واستبداداً من النظم الاستبدادية

ولا زال الحق الذي لا مريه فيه شاهد عدل على إن ما يتقيد به السلطان في الأمم الديمقراطية من قيود، وما يستنفذه من وقت بين الاعتراف بما يجب أن يكون والقيام به فعلاً عندما تنادي المصلحة العامة بوجوب التعديل أو التبديل هو من قبيل التعمق في التقوى والتحرز من أهوال الطفرة ونكبات الانقلاب

وما زال قيد النظر ومحك التجارب حتى في المسائل المتعلقة بالحياة أو الموت، كالحروب مثلاً ما إذا كانت الديمقراطيات الحرة كنظم سياسة أقل شأناً من تلك الجماعات التي تتنزل عليها الأوامر من عروش قادتها. ومع ذلك ما كانت الديمقراطيات هي الخاسرة في الحرب العظمى الماضية، ولو أن حاجتها الخطيرة إلى انسجام الرأي ووحدة القيادة في تلك الأوقات العصيبة كان من شأنها أن تنتهي بها إلى مصير موجع فاجع يفقدها أمنها وسلامها ويوردها موارد الهلاك

وعندي انهم من ممكن صياغة جميع المسائل المتعلقة بقيمة الحرية في أسئلة ثلاثة: هل الشخصية الحرة كعنصر من عناصر الحياة البشرية أنبه شأناً وأنفس قيمة من تلك الشخصية التي تنطبع وتتشكل وفقاً لمشيئة القائد الأعلى الحاكم بأمره في مصادر وموارد الدولة الاستبدادية المطلقة؟ وهل يتوقع لإرادة الفرد الحرة أن تخطو بمصالح البشر إلى

الأمام أكثر مما يتوقع لأرادته التي تشب عليها من المهد إلى اللحد على نهج موضوع يصيرها خاضعة لكلمة القيادة العليا خضوعاً غبياً، ومطيعة لأوامر الزعامة طاعة عمياء؟ أو ليس هنالك من ضرر يتهدد الجنس البشري ومن خطر على تقدم المعارف أو انتشار الثقافة ومن خوف على كل شئ نفهمه عن طريق (المدنية) بنشوء هذه الجماعات الغفيرة التي تسير في مناهجها على نمط واحد وتجري في تفكيرها على أسلوب واحد وتنطلق خائفة مذعورة كقطيع من الغنم أمام راعيها؟

وما زال رهن الدراسة وقيد البحث منذ زمن بعيد ما إذا كان عقل الفرد كعنصر من عناصر كيان الحياة البشرية وتوفير الحرية له في التفكير والاستنتاج وتكوين الرأي أغلى قيمة وأكثر نفعاً من عقل هذا الخليط من الكائنات البشرية أو ما يسميه هتلر (بوحدة القطيع)، وعنده أن اتحاد الشعوب البريطانية في الحرب العظمى الماضية كان نتيجة طبيعة لما امتازت به من (وحدة عقلية)، وإن ما صادفته ألمانيا من الفشل في تلك الحرب كان جزاء وفاقاً لشتات الآراء وتقلب الأهواء في الشعوب الألمانية. وغالب أمره أنه لم يفهم إن ما نعمنا به آنئذ من انسجام العقلية كان جني تعاون أعضاء الجماعات الحرة تعاوناً صادقاً للذود عن حياضهم ولإنقاذ حريتهم وقتما ادلهمت الحروب ودق ناقوس الخطر؛ أو أنه لم يدرك أن هؤلاء المواطنين الأحرار قد تخلو عند الشدائد وبمحض أرادتهم عن حقوق كانت صعبة المنال غالية الثمن فكانت أثيرة عندهم عزيزة عليهم، وصدروا في ذهابهم عنها أو ذهابها عنهم عن وجدان سليم وشعور طليق من تكريس حياتهم للصالح العام، وهو شعور كريم لا يتغلغل إلا في نفوس أفراد مارسوا مسائل الحرية مراساً حكيماً وطالت خبرتهم بها فألفوا الاضطلاع بمسؤولياتها. ولقد كان من نتيجة هذا الفهم الخاطئ أن شرع هتلر شريعته عن وحدة عقلية العشائر الألمانية على نهج من الطغيان والاستبداد؛ إذ فرضها على الجماعات جبراً وحملهم عليها بالدعاية تارة وبمجرد الإرهاب تارة أخرى، ظناً منه أن مثل هذا

النهج قد ينهض بديلاً عن الانسجام الحر والتعاون الطليق في الشعوب الحرة
وشريعة هتلر هذه لم تكن في مناحيها الحربية والسياسية بأجنبية عن جبلة الشعب
الألماني، فهي على استعداد لأن تخضع لسلطان النظام وتتحرك في كتل بشرية
مرسومة. وليس في
هذه الشريعة من جديد بالإضافة لتك الفطرة الألمانية. إلا إنها قد قضت على حية
الرأي وحرية المعرفة وحرية الاستقراء وحرية النقد، تلك الحريات التي اشتهرت بها
الفلسفة والعلوم الألمانية وشيدت على أساسها في الأزمان الخالية
إن تقدم المجتمع الإنساني كما أفهمه لم يكن نتاج نظر (الكتل البشرية) أو جنى العمل
على توحيد (عقلية الشعوب). وتلك الخطوات التي خطاها الإنسان من بربريته الأولى
إلى ما ينعم الآن من مدينته بل وحتى ما تهيأ له من أصغر نصيب منها كانت ثمرة
تفكير أفراد عظماء نادوا بها ومهدوا السبيل إليها
وقوام الأمر من قيمة الحرية أن تهيأ لعقول الأفراد الفرصة في مناهضة الرذيلة
والجهل، وإن تتقصى مظان الحق. فإذا ما صادفت منها ضالتها أشاعتها في الناس
وقائع صادقة وشهدت بصحتها حقائق مقررة من غير تردد أو وجل. وأن تفسح الميدان
أمام الفرد للجهاد والإنتاج. وأن تكون من الناحيتين السياسية والاجتماعية الطريق
الموصل إلى الخدمة العامة
أو لا يخلص لنا أذن إنها والنظم الاستبدادية منهجان متناقضان ونقيضان لا يجتمعان،
وأنها لا بقاء لها مع إرهاب الحاكم بأمره وطغيان المستبد برأيه.
وليت شعري اليوم ما هو نصيب أولئك الرجال الذين بيدهم مقود الصحافة البريطانية
من أدراك قيمة الحرية؟؟ وما هو حظ قرائهم من فهم ما انطوت عليه (حرية
الصحافة) من مبنى ومعنى؟؟ وحتى ما سيظل جهلهم بهذه الأمور وتهاونهم فيها عاملاً
على الحط من قدر الصحافة حتى يتهيأ للشعب أن يظفر من صحافته بحاجته وغنيته؟
قد يصبح الجواب الشافي على هذه الأسئلة والعلاج الناجح لتلك الأدواء أيسر مطلباً
وأقرب منالاً لو أنه تحقق لدينا أن غالبية الصحف البريطانية أو حتى أقليتها النابهة قد
تولى أمرها وقام بتحريرها رجال ممن قدروا قيمة الحرية قدرها فعرفوا إنها أسمى ما
يمتلكه البشر من متاع الحياة.
لقد حان لوقت لأن نرفع ذلك الغشاء البراق الخادع الذي يغشى ثوب مدينتنا
(الديمقراطية) ونعمل على أن تظهر حقيقة ما انطوى عليه من لحمة نسجه. وآن
الأوان ولا سيما للصحافة البريطانية وللرجال الذين يتولون أمرها لاختبار خيوط هذا
الثوب ليعرفوا ما إذا
كان قد نسج نسجاً متيناً أميناً في تلك الأيام الخالية أو أنه في وضعه الحاضر وفي
حياكته تعوزه متانة الغزل، ويعيبه أنه صنع من خيوط ثياب قديمة عفا رسمها، وافتقدت
قوتها.
وقد يقتضي بقاء المؤسسات الحرة والأوضاع السياسية لحرية الفرد إن تعجل بتجربتها
وبحثها، وهي كما سماها (إيرل بالفور) (شريان الحياة) الهيئات السياسية بأجمعها.
وليس بينها من شئ له من قوة الدلالة على ما اشتملت عليه من معانيها ومبانيها أكثر
مما للصحافة الحرة منها، الصحافة التي تحرر من قوامة القيود التجارية أو الصناعية أو
المالية مثلما تحرر من الخضوع لأية سلطة سياسية كانت ما كانت. ولعله ما زال هنالك
متسع من الوقت أمام صحافتنا وملاكها لأن يتدبروا أمرهم، ويذكروا المواثيق التي
تربطهم بالحرية وتربط الحرية بهم فيدللوا عن طريق رعاية هذه المواثيق والإخلاص
لها أنهم قد ظفروا بالحل الصحيح لتلك المسألة التي تعتبر بحق (حجر الزاوية من
المدينة الحديثة)
(المنصورة)
زين العابدين جمعة
المصريون المحدثون - 19
شمائلهم وعاداتهم
في النصف الأول من القرن التاسع عشر
تأليف المستشرق الإنجليزي ادورد وليم لين
للأستاذ عدلي طاهر نور

قد يزوج أهل الفتاة فتاتهم لمن يشاءون دون موافقتها إذا كانت قاصرة. ويمكنها إن تختار زوجها إذا كانت بالغة، وتعين من ينوب عنها في ترتيب الزواج وعقد العقد. والعادة أن تجتهد الخاطبة وقريبات القاصرة في الحصول على موافقتها. وكثيراً ما يعارض الأب في تزويج ابنته بمن ليس مثله من المهنة أو التجارة، أو في تزويج الصغرى قبل الكبرى. ويندر أن يستطيع العريس اختلاس نظرة من عروسه قبل أن تصبح في حوزته إلا إذا كانت من الطبقة السفلي فيسهل عليه أن يراها وعندما تشرع المرأة في الزواج تعين وكيلاً ينوب عنها في عقد العقد. وهذا التوكيل واجب إذا كانت الفتاة قاصرة ويكون أبوها حينئذ وكيلها وفي حالة وفاته يكون أدنى الأقارب الذكور أو الوصي المختار أو المعين. أما إذا كانت بالغة فتعين هي وكيلها، أو تعقد الزواج بنفسها وذلك نادر

وبعد أن يختار الرجل عروسه طبقاً لبيان قريباته أو الخاطبة، ويعد المعدات الأولى السابق ذكرنها يقابل مع بعض أصدقائه وكيل العروس ويحصل منه على الموافقة، ثم يسأله عن مقدار المهر إذا كانت العروس قاصرة

ولابد من دفع المهر كما ذكرت في فصل سابق. ويقدر المهر على العموم بالريال باعتبار كل تسعين فضة. والريال نقد اسمي لا وجود له. ويبلغ المهر عادة إذا كان دخل العروسين متوسطاً ألف ريال، وقد لا يزيد على نصف هذا المبلغ. ويقدر الأغنياء المهر بالكيس وهو خمسمائة قرش، ويحددون المبلغ إلى عشرة أكياس أو أكثر. هذا في حالة العذراء؛ أما مهر الثيب فأقل بكثير. وكثيراً ما يحدث بعض المساومة في تحديد المهر كأي عملية مالية أخرى. فإذا طلب الوكيل ألف ريال يحتمل أن يعرض الطرف الأخر ستمائة ثم ينتهي

الأمر بعد الزيادة والنقصان إلى ثمانمائة ريال. ويشترط دفع ثلثي المهر حالاً قبل العقد، ويدفع الثلث الأخير إلى الزوجة عند الطلاق بغير أرادتها أو وفاة الزوج ويتم الاتفاق على هذا الأمر بقراءة الحاضرين الفاتحة. ثم يحدد يوم قريب، قد يكون بعد اليوم التالي، لدفع مقدم المهر والاحتفال بعقد الزواج الذي يسمى عقد النكاح. ويسمى إنجاز العقد كتب الكتاب، ولكن قلما توجد وثيقة مكتوبة تثبت الزواج إلا إذا كان العريس بسبب انتقاله إلى مكان آخر يخشى أن يضطر إلى إثبات الزواج حيث لا يتيسر له إحضار شاهدي العقد. وقد يتم عقد الزواج حالما ينتهي الطرفان من الأنفاق على المهر، ولكن كثيراً ما يعقد بعد يوم أو يومين من ذلك الوقت. ويذهب العريس في اليوم المحدد مع صديقين أو ثلاثة إلى منزل العروس قرب الظهر عادةً فيستقبلهم وكيل العروس وبعض أصدقائه. ويجب عقد الزواج بشهادة شاهدين مسلمين ألا إذا استحال ذلك. ويقرأ جميع الحاضرين الفاتحة، ثم يدفع العريس مقدم المهر ويعقد بعد ذلك العقد بكل بساطة. فيجلس العريس على الأرض أمام وكيل العروس وكلاهما واضع إحدى ركبتيه على الأرض، ثم يمسك كل منهما يمنى الأخر ويرفع إبهامه ويضغط به على إبهام الثاني. ويتولى تلقين الوكيلين صيغة العقد بعض الفقهاء. فيضع على اليدين المتماسكتين منديلاً، ثم يستهل العقد عادةً بخطبة لا تخرج عن بعض الإرشادات والصلوات وبعض الآيات والأحاديث التي تشير إلى فضل الزواج ومزاياه. ثم يطلب من الوكيل أن يقول: (أخطب لك (أو أزوجك) ابنتي (أو موكلتي) فلانة (ويسمي العروس) العذراء (أو العذراء البالغة) بمهر قدره كذا)، وقد لا يذكر المهر. ثم يطلب من العريس أن يقول: (أقبل خطبتها (أو زواجها) وآخذها تحت رعايتي وأتكفل بحمايتها، واشهدوا على ذلك أيها الحاضرون). ويردد الوكيل قوله هذا على العريس مرة ثانية وثالثة فيجيبه الأخير في كل مرة بما سبق. وحينئذ يقول كلاهما (والسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين آمين)؛ ويعيد الحاضرون قراءة الفاتحة. وليس للخطبة التي تتلى في هذه المناسبة كلام موضوع أو نظام معين وقد تحذف إطلاقاً. وقد يقبل العريس (ويندر ذلك إلا إذا كان من الطبقة السفلى) بعد انتهاء العقد أيدي أصدقائه وغيرهم من الحاضرين؛ ثم يقدم الشربات إليهم ويمكثون حتى تناول الغذاء. ويهدي إلى كل منهم منديل مطرز تقدمه عائلة العروس بينما يتناول الفقيه منديلاً متشابهاً تصر فيه قطع صغيرة

من النقود الذهبية يقدمه له العريس. وتحدد ليلة الدخلة قبل انصراف الحاضرين. وتلك هي الليلة التي تنتقل فيها العروس إلى منزل العريس حيث يراها لأول مرة

ويمهل العريس عروسه حوالي ثمانية أيام أو عشرة بعد عقد الزواج على العموم، ويرسل إليها في أثناء ذلك من حين لآخر بعض الفاكهة والحلوى الخ، أو يهدي إليها شالاً أو بعض الأشياء الثمينة. وتشتغل عائلة العروس في الوقت نفسه بإعداد الجهاز. ويصرف مقدم المهر في شراء الجهاز الذي يصبح ملكا للعروس، فإذا طلقت يعاد إليها. وتدفع عائلة العروس مبلغاً أكبر قد يزيد على المهر نفسه في أعداد الجهاز، ولذلك لا يمكن القول بحق أن الزوجة تشترى؛ ويرسل الجهاز عادة إلى منزل العريس على ظهور الجمال. وكثيراً ما يشمل الجهاز كرسي العمامة الذي سبقت الإشارة إليه، وكرسي العمامة كبير الحجم بسيط الصنعة، إذ يصنع أسفله وظهره من الغاب، وهو لا يستعمل للجلوس أبداً، وقد تكون له مظلة. وتوضع العمامة عليه، وتغطى بقطعة من الحرير السميك ترصع عادة بسلوك ذهبية. وقد يحتوي الجهاز على كرسيين: أحدهما لعمامة الزوج، والآخر لعمامة الزوجة.

ويستقبل العريس عروسه في مساء الجمعة أو الأثنين، ويعتبر يوم الجمعة أسعد الأوقات. فلنقرر إذاً أن العروس تنتقل إلى عريسها مساء الجمعة، ويومئذ تضاء الشوارع أو الحي الذي يسكنه العريس أثناء الليلتين السابقتين أو قبل ذلك بالشمعدانات والفوانيس، أو الفوانيس والقناديل الصغيرة، يعلق بعضها في حبال تمتد من منزل العريس وعدة منازل أخرى إلى المنازل المقابلة على جانبي الشارع، وتعلق أيضاً مع القناديل، أو منفصلة، رايات حريرية ذات لونين: أحمر وأخضر. ويقام في منزل العريس أثناء هذه الليالي - وعلى الأخص الليلة الأخيرة التي تسبق عقد الزواج - عدة حفلات. ومن المعتاد في هذه المناسبات أن يرسل المدعوون والأصدقاء الخلص الهدايا إلى منزل العريس قبل الدعوة بيوم أو يومين: فيرسلون سكراً وبناً وأرزاً وشمعاً أو حملاً. . . وتوضع الهدايا السابقة على صينية نحاسية أو خشبية، وتغطى بنسيج مطرز أو من الحرير. وتستخدم لتسلية المدعوين فرق موسيقية ومغنيات مغنون وراقصات، أو تقام (ختمة) أو (ذكر). وتقدم العائلات الموسرة إلى الخاطبة أو إلى (داية) العائلة وإلى (البلانة) وظهر العروس - بعد إتمام العقد بيوم أو يومين - قطعة من النسيج الذهبي، وشالاً كشميرياً، أو قطعة حريرية مصنوعة من نسيج اليلك والشنتيان؛ فتضع هؤلاء النسوة هذه الملابس على الكتف اليسرى، ويربطن أطرافها معاً على الجانب الأيمن، ويركبن الحمير وأمامهن طبالان أو أكثر، ويمررن على صديقات العروس ليدعوهن إلى مرافقتها إلى الحمام ذهاباً وإياباً، والى حضور الحفلات التي تقام بتلك المناسبة. وكلما يمررن على منزل تؤدب لهن مأدبة، إذ أنهن يعلن عن زيارتهن في يوم سابق، وتسمى أولئك: (مودنات) أو على الأصح (موذنات)، وينطقها العامة (مُدْنات)؛ وقد رأيتهن أحياناً يسرن راجلات، ولا يتقدمهن الطبالون، ولكنهن كن يزغردن بدل دق الطبول. . .

(يتبع)

عدلي طاهر نور

الأرض. . .

للأستاذ محمد محمد توفيق

(أنطق صديقي الدكتور حسن عثمان البحر بمناجاته الرائعة على صفحات الرسالة الغراء، وأبى أن يعود بشاعره إلى الأرض، مؤثراً عليها عرائس البحر وعجائبه. فنطقت الأرض أم الكائنات بهذه الأبيات لعل الشاعر أن يعود إلى أحضان أمه. . .)

أنا الأرضُ فوقي كلُّ حَيٍ وميِّتِ ... وما البحر إلا ملتقى عبراتي
أنا الأرض مهد الكائنات ولحدها ... فهل غفل الإنسان عن حسناتي؟
وعيتُ نداء الله في كل خلقِهِ ... وما طاف بي مسٌّ من الشُّبُهاتِ
ومن قبل خلق الكائنات عبدتُهُ ... مع الشمس والأفلاكِ منطلقات
أدورُ كما دارت وأسعى كما سعت ... مُؤَجَّجَةَ النيران، محترقات
تُطَهِّرُنا النارُ الإلهَّيةُ اللَّظى ... وَتَصْهَرُنلَ للخير والبركات
أنا الأرض كما حَجَّتْ وفودٌ وأعْصُرٌ ... إليَّ وكم بدَّلتُ ثوْبَ حياتي!
وكم طيِّباتٍ فوق سطحي مُشاعةٍ ... وكم من كنوزٍ فيَّ مُختَزَناتِ

وكم من حياةٍ تملأ الروحُ كأسَها ... وتسكبها في أعظمٍ نَخِرَاتِ
وهذى العظامُ الناخراتُ أحيلُها ... تراباً عليه تغتذي ثمراتي
أنا الأرضُ لا حيٌّ عليَّ مُخَلَّدٌ ... ولا ميِّتٌ يبقى بغير حياةِ
وما فتئَ الناموسُ عندي كتابُهُ ... فهلا وعيتم حكمتي وعِظاتي
فيا بحرُ. . . ماذا أنت يا بحرُ قائلٌ ... وما صوتك المخنوق بالعبرات؟
وما هتفاتٌ رجَّع الصخرُ شجوها ... وما قَطَراتٌ ذُبنَ في قَطَرات
وما صرخاتٌ للأواذيِّ صُعَّدٌ ... تُرَدِّدُها القيعان في الدركات
لقد هاجني يا بحرُ أنّك شاعرٌ ... وأنّك فَذُّ الشعرِ والسَّبَحاتفأنطقتُ أطوادي وأجريت
أَنْهُري=وأوحيتُ نجواها إلى هضباتي
وأسكرتُها بالراحِ من كأسِ كرمةٍ ... شهدتُ بها مَسّاً من السَّكَرَات
فيا بحرُ. . . قل يا بحرُ ما أنت قائلٌ ... فقد فاض بي بحرٌ من الكلمات
وقد طال إغفالي جمالي وزينتي ... وقد طالَ بي صمتي وطال سُبَاتي
أنا الأرض للإنسانِ أُرْسِلْتُ جَنَّةً ... عليَّ سلامُ اللهِ طولَ حياتي
وكنتُ لخلقِ الله مرعى ومسرحاً ... وما ضِقتُ بالأنعام والحشرات
فلا نملةٌ تشقى إذا طاب سعيها ... ولا طائرٌ إلا يُصِيبُ فَتاتي
ولا دودةٌ مكنونةٌ وسط صخرةٍ ... ولا هائمٌ في البيد والفَلَوات
لكلٍّ نصيبٌ منْ ترابي وأنْعُمي ... وكلٌّ له حظٌّ من النَّسمات
وكلٌّ يناديني بيا أمَّ إن شكا ... فأغمره بالحبِّ والدَّعَوَات
وأشرحُ صدري للذي ضاق صدرهُ ... وأعتنق المكدودَ بالقُبُلات
وأسكُبُ دمعي أن أبى المُزُنْ أدْمُعاً ... وأرْسِلُ في لحن الصَّبا زفراتي
فَهُنَّ وَدِيعاتٌ عليَّ عزيزةٌ ... وَصَوْنُ وديعاتِ الإله صلاتي
فإن غربت شمسُ الحياةِ فإنني ... أشَيِّعُ أبنائي إلى الظُّلُمات
وأنشُرُ من فوقِ التّرابِ عليهمُ ... رداءً من الأعشابِ والزَّهَرات
ترابي ومائي فيهما كلُّ زينتي ... وكلُّ أفانيني وكلُّ هِبَاتي
وإنك تُلْقي جوهر الترب واحداً ... ويونع بالأثمار مُختلفات
فآلافُ آلافٍ من الزهر والغضا ... وآلافُ آلافٍ من الثمرات
تفيض بها أرحامُ ترب رحيمةٌ ... ويُرضِعها النَّهْتَانُ بالقطرات
ولي ريشةٌ في فنِّها عبقرَّيةٌ ... تُكَوِّنُ أزهاري بماء حياتي
وما طَرَّبي نبتٌ ولا هاجَ يابسٌ ... ولا جَفَّ قِطْمِيرٌ بِشِقِّ نواةِ
ولا حملت حُبْلَى ولا خفَّ حملها ... ولا دَبَّ مسجونٌ من اليَرَقات
ولا سَقْسَق العصفورُ والطلُّ بارقٌ ... ولا هاجرت طيرٌ إلى القَمَرَات
ولا حَلق النَّسْر الكُمَيْتُ مُصَفِّراً ... ولا أنقض مسعُوراً على الوُكُنات
ولا أطبقَتْ أنيابُ لَيْثٍ غَضَنْفَرٍ ... على رَشَأٍ من ساكني الأجَماتِ
ولا إنبَجَسَ الماءُ الزلالُ من الصَّفا ... ولا فاض يَنْبُوعٌ من الرَّبَوَات
ولا طلعت أكمامُ وردٍ وسَوْسَنٍ ... ولا أخضَرَّ رَيَّانٌ من الورقات
ولا عتَّقَتْ كرْمٌ دِنانً من الطّلي ... ولا نفخ النَّيْرُوزُ في القَصَبَات
ولا هامَ نحلٌ بالأزاهيرِ شادِياً ... يُقَبِّلُ مَعْسُولاً من الوَجَنات
ولا عصفَت ريح الخريف بشاحبٍ ... من الورقِ الوسنانِ في الشجرات
ولا سَنْبَلَتْ حبَّاتُ قَمحٍ مُبَارَكٍ ... ولا أبْلَحَتْ عيدانَةٌ بفلاة
ولا أرْطَبَتْ إلا بميقاتِ خالقٍ ... يفيض على الأكوانِ بالرَّحِمات!
أنا الأرض أطياف الرَّبابِ مظَلّتي ... نهاراً وأسرابُ الغمام سُقاتي
وَرَيدَاتتي شعري وقيثارتي الصَّبا ... وتغريد أطيار الرّبا نغماتي
وأخطرُ في الأزهارِ وظَّاحةَ السَّنا ... وأعقد إكليلا من الخرزات
وأبْسَمُ عن لمحٍ من البرق خُلَبٍ ... وأعبَسُ بالإعصارِ والهبَوات
وأصرخ حتى يفزَعَ الرعدُ في السما ... وتنخلعَ الأنكالُ مرتعدات
وأغضبُ حتى يُنكِرِ الكونُ غضبتي ... وأبْسُطُ في صفحي يَدَ الحسنات
أنا الأمل الشَّعاعُ في كلِّ غايةٍ ... أنا الجوهرُ المكنون في الجمرات
أنا الذهبُ اللَّمَّاعُ في الترب والصَّفا ... تذيبونه بالنار والحسَرَات
تذيبونه من فرط ما تعبُدونه ... وما فيه من سحر سوى اللَّمعات

وتُسْقَونَهُ كالمُهْلِ يشوي بطونكم ... فما ذَوبُهُ إلا حميمُ طغاة
حميمٌ لمن لا يعرف الله قلبُهُ ... ويسبح في بحر من الحُرُمات
فيا عابدي هذا الفِلِزَّ وما شَرَى ... وما ابتاعَ من جور ومن سطوات
ويا صائغيه شهوةً في قلوبكم ... وزينة شيطانٍ وتاجَ عُتَاةِ
ويا مُرْسِليهِ في الأساريرِ صُفْرَةً ... وشُحًّا وكِبْراً جامد النظرات
وَتَبْلاً وأطماعاً وحرباً أثيمةً ... تُبيد وتُفني كلّ ذاتِ حياة
أيا عابدي هذا الفِلِزَّ وما شَرَى ... وما ابتاع من زهو ومن شهوات
رُوَيدَكُمُ هلاّ أذَبتُمْ قُلوبَكم ... وقد جَمُدَتْ كالمرو في الصَحَّرات
ويا ليت شعري كم نِداءٍ أتاكم ... وأنتم من الآثام في غَفلات!
نداءٍ لوَ أنَّ الراسيات وَعَيْنَهُ ... لأطْبَقْنَ من أهواله صَعِقَات
وكم من نبِيٍّ كلم الله جائياً ... وأطلق طوفاناً من العبَرات
فهلاّ خشيتم نِقمتي بعد نِعمَتي ... أُسَلِّطُهَا سيلاً من اللَّعنات
وأطلق صوتي قاصفاً الرعد داوياً ... وأنفُخُ في بوق الرّدَى صَرَخاتي
وأرسلُ زلزالاً عليكم وَعَيْلَماً ... فَتُطبقُ أطوادي على رَبَواتي
وتندلعُ النيرانُ من كلِّ ثغرةٍ ... وتندلقُ الأهوالُ من فَجَواتي
براكين من أفواهها تقذف الرَّدى ... مُسَعَّرَةَ الأحجار، مُحْتَدِمات
تسيلُ على القيعان ناراً وحُرْقَةً ... تَصَعَّدُ منها أفجعُ الزَّفرات
وفي مثل لمح البرقِ ينهارُ عالمٌ ... من الكفر والآثام والشهواتِ!
أيا ساكني بيتي ذَرُونى أكُنْ لكم ... كما كنتُ أماً جَمَّةَ الرّحَماتِ
ولا تفجعوني في سنين مريرةٍ ... تَدِبُّ بها الساعاتُ مُكْتَهَلاتِ
فإني أخالُ العمرَ قد طالَ وانقضى ... وأحسبُ إن الحشر في لحظاتِ!

البريد الأدبي

مجلس التعليم الأعلى

عقد مجلس التعليم الأعلى اجتماعه الأول للدورة الحالية في الأسبوع الماضي برئاسة معالي الدكتور محمد حسين هيكل باشا وزير المعارف فأفتتح معاليه الاجتماع بخطبة ضافية من جوامع الكلام عرض فيها مشكلات التعليم المختلفة وما يراه من أوجه علاجها.

وبدأ معاليه الحديث معرباً عن سروره بتحقيق المشروعات التي أقرها المجلس في دورته الماضية وأقرها البرلمان لنظم الامتحان والقوانين المتصلة بها، ورجا أن تنتهي الوزارة والبرلمان من إقرار قانون التعليم الإلزامي ونظام المجان قريباً.

ثم تكلم عن التعليم الأولي وتعدد ألوانه بين نظام اليوم الكامل، ونظام نصف اليوم، ورياض الأطفال، وما تجره هذه الألوان من تشكيل مختلف لعقلية التلاميذ؛ وانتقل إلى الكلام عن غرض هذا التعليم وهل هو محو الأمية أو تزويد عامة الشعب بقسط من الثقافة.

وبعد ما عرض لتاريخ التعليم الأولي في مصر قال أن وزارة المعارف في عهده حاولت الاستفادة من التعليم الإلزامي واتخاذه أساساً للحياة العملية فلن توفق في بعض التجارب وكان نجاحها محدوداً في بعضها الآخر.

وعالج أسباب هذه الحالة وهل هي في التعليم الإلزامي نفسه مع ما أسداه من خدمات للبلاد في استنارة الشعب، وتنزيه عامته عن كثير من العادات السيئة، أو مرجعه إلى عوامل أخرى.

وقال بعد ذلك: أن الوزارة بحثت أوجه النقص فرأت أن تتوحد السلطة التي تشرف على التعليم الإلزامي، وإن يستبدل بنظام نصف اليوم نظام اليوم الكامل، وأن تكون مدة التعليم الأولى ست سنوات تبدأ من سن السادسة، وأن توحد خطة الدراسة، فيما خلا اللغة الأجنبية، بين التعليم الأولي والتعليم الابتدائي، فإن تعذر توحيدها فالتقرب جهد المستطاع

وانتقل معاليه إلى الحديث عن مشكلة التغذية والحالة الصحية لتلاميذ الإلزامي وأوجه علاجها وما يقام في طريقها من عقبات مالية، وترك إبداء الرأي لحضراتهم في هذه المسألة

وأستطرد إلى موضوع تعليم اللغات الأجنبية في المدارس الابتدائية، وسأل: هل نأخذ

برأي القائلين بعدم تعليم الطفل لغة أجنبية قبل الحادية عشرة من سنه؟ أم أن أحوال مصر
الخاصة تقتضي التجاوز عنه والأخذ بما يخالفه؟
وبعد هذا تحدث عن معهد التربية الابتدائي وما تراه الوزارة من ضرورة أعادته؛ ثم قال: وموضوع هذا المعهد من المسائل المعروضة على حضراتكم في هذه الدورة؛ وأكبر رجائنا أن تتعجلوا درسها والبت فيها، حتى إذا أقررتموها دخلت في ميزانية الوزارة للعام المقبل.
ثم عرض للمسألة الأخيرة التي سيعرض بحثها في هذه الدورة وهي مسألة التعليم الثانوي والغرض منه ومدى نجاحه في الإعداد للجامعة وللتعليم العالي الفني وغيره وختم معالي الوزير خطبته بقوله: إذا بحثنا هذه المسائل نكون قد حددنا أغراضنا من التعليم في حياة مصر الحاضرة، ووضعنا الأساس السليم لسياستنا التعليمية، وأعددنا أمتنا لمستقبل نرجوه كلنا زاهراً مجيداً.
كيف تفسر معجزات داود وسليمان عليهما السلام
ذكر الأستاذ عبد المتعال الصعيدي في العدد (442) من مجلة الرسالة الغراء، أن بعض المفسرين ذهب إلى أن المراد من تسخير الجبال وتسبيحها مع داود أنها كانت تسبح كما يسبح كل شيء بحمده، وكان هو عليه السلام يفقه تسبيحها فيسبح، وأن المراد من تسخير الريح لسليمان أنه راض الخيل وهي كالريح، وأن المراد من إلانة الحديد وإسالة القطر استخراجهما بالنا واستعمال الآلات، وأن المراد من الشيطان التي سخرت له ناس أقوياء. ثم ذكر أن نظام الدين النيسابوري جعل ذلك حذلقة لا داعي إليها، لأن قدرة الله في باب خوارق العادات أكبر من أن تحتاج إلى هذه التكلفات وفي رأي أن هذه التأويلات حذلقة حقاً، ولكن النيسابوري لم يوافق في الرد عليها. فأما أنها حذلقة فلأن صاحبها لم يحمله عليها إلا إرادة حملها على غير بابها من خوارق العادات، فجرى في التفسير وراء ميله وهواه، وللتفسير أصول متبعة، وقواعد مرسومة وشأنه في ذلك كشأن كل العلوم، فليس هوى النفس من سبيل العلم، ولو اتخذناه أصلاً في ذلك لأدى بنا إلى إنكار المعجزات كلها، كما فعل بعض الناس قديماً وحديثاً. ومن المقرر أنه لا يصح تأويل النقل ألا عندما يعرضه العقل، فحينئذ يجب التوفيق بينهما بالتأويل، لأن دلالة النقل ظنية، ودلالة العقل قطعية، والواجب حمل الظن على القطع، ولا يصح العكس
وأما أن النيسايورى لم يوفق في الرد على هذه الحذلقة، فلأن معجزات الأنبياء لا يكفي في
إثباتها الاعتماد على إمكانها وقدرة الله عليها، ذلك لأن الله تعالى يقدر على ما لا وجود له، فقدرته على معجزة من المعجزات لا يكفي في إثبات وجودها
وفي رأي أنه يجب الرجوع في معجزات داود وسليمان عليهما السلام إلى تاريخهما الصحيح، لا ألا ما أحاط بتاريخهما من خرافات التاريخ، فإذا ثبت من تاريخهما الصحيح أنهما عورضا في الدعوة إلى الأيمان، وطلب منهما هذه المعجزات دلالة على نبوتهما، كانت هذه الآيات من باب المعجزات، لأنها استوفت أركان المعجزة من خرق العادات، والاقتران بالتحدي مع عدم المعارضة. وإذا لم يثبت من تاريخهما الصحيح شئ من ذلك، كان لنا تأويل هذه الآيات بمثل ما أولت به أو غيره، ولم يكن ذلك في شئ من الحذلقة
ولكن أنى لنا هذا في عصر طغى فيه الجمود، وأسكت فيه الجامدون صوت الإصلاح، كفانا الله شرهم، وهداهم إلى ما فيه مصلحتنا ومصلحتهم، إنه الهادي إلى سواء السبيل
(عالم)
أخطاء في كتاب المنتخب
وقع نظري في (المنتخب من أدب العرب الجزء الثاني - تأليف بعض رجال المعارف -) على أخطاء في النحو والفهم في قصيدة ابن الرومي التي مطلعها:
يا أخي أينَ عَهدُ ذاك الإخاءِ ... أين ما كان بيننا من صفاءِ
1 - فأما الخطأ الأول فهو:
وأرى أن رُقعةَ الأدمِ الأحمرِ (م) ... (أرضاً) علّلتها بدماءِ!

فكلمة (أرضاً) خطأ واضح - والصواب (أرضٌ)
2 - أما الخطأ الثاني فهو:
تقتل الشاة حيث شئت من الرقعة (م) ... (طِباً) بالقِتْلةِ النَّكراءِ
. . .هكذا بكسر الطاء ثم قالوا في الحاشية: طِبا علماً
والأصوب بل الألين بمقام المدح، والأنسب للفن الشعري أن تكون (طَباً) بفتح الطاء أي عالماً خبيراً. وقد وجدت في (شرح ديباجة القاموس) الطبُّ بالفتح الماهر الحازق بعمله.
وجاء في (أساس البلاغة) أنا طبّ بهذا الأمر عالم به.
كما ورد في المصباح؛ ويقال للعالم بالشيء طَبّ
وعلى هذا يكون المعنى: إنك لتقتل الشاة خبيراً عليماً بالقتلة النكراء حيث ما شئت من رقعة الشطرنج
3 - وأما الخطأ الثالث فهو:
راحةِ النفس والصيانةِ والعفةِ ... والأمنِ في حياءٍ (رُوَاء)
هكذا بضم الراء. . . وجاء بالحاشية (حياء رُواء أي جميل) والصواب: حياءِ رَوَاء. . . بفتح الراء أي حياء جم كثير
فقد سُمع حياء جم. . . ولمْ يسمع حياء جميل
حسين محمود البشيشبي
ورد في كلمتنا (صبري وابن دريد) :(حاشية)
خطأ مطبعي هو: (وأما بيتان أبي بكر ابن دريد)
والصواب: (وأما بيتا أبي بكر وابن دريد. . .)
المباراة الاجتماعية لرابطة الشباب المصري
تبرع حضرة صاحب السعادة صالح عنان باشا رئيس رابطة الشباب بثلاثين جنيهاً مصرياً - كعادته في كل عام - لتوزع على حضرات الكتاب المشتغلين بالمسائل الاجتماعية. وقد رأت الرابطة أن يكون موضوع مباراة هذا العام عن (تأثير المرأة في توجيه الشعب) وقد حددت الرابطة يوم 31 يناير سنة 1942 آخر موعد لقبول إجابات هذه المسابقة، واشترطت إن تكتب على وجه واحد من الورق وألا تزيد على عشرين صفحة من حجم الفولسكاب، وأن يكتب اسم المتسابق وعنوانه على ورقة مستقلة، وترسل باسم الأستاذ أحمد إبراهيم خطاب سكرتير رابطة الشباب (بوسنة القلعة بمصر). أما جوائز هذه المباراة فسيمنح الفائز الأول خمسة عشرة جنيهاً مصرياً، والثاني عشرة جنيهات، والثالث خمسة جنيهات، أما لجنة التحكم في هذه المباراة فمكونة من الأساتذة: خليل ثابت بك رئيس تحرير المقطم وعضو مجلس الشيوخ، والدكتور أمير بقطر عميد قسم المعلمين بالجامعة الأمريكية، والأستاذ محمد مظهر سعيد المفتش بوزارة المعارف
وستعلن نتيجة هذه المباراة في شهر فبراير المقبل عند انعقاد مؤتمر الشباب الاجتماعي بقاعة بورت التذكارية.
العدد 444 - بتاريخ: 05 - 01 - 1942
الرسالة في عامها العاشر
باسم الله تخطو الرسالة إلى عامها العاشر؛ وبغير أسم الله نور السموات والأرض لا يهتدي في هذا الظلام الحالك سارٍ ولا سائر. والظلام في هذا الكوكب طبيعة أصيلة؛ فأناره الله بالشمس والقمر والدين؛ وأنرناه نحن بالزيت والكهرباء والعلم، حتى أوشك أن ينجاب الحلَك الغاشي عن آفاقه وأخلاقه؛ ولكن سلائل الطين لا تستضيء بصائرهم وسرائرهم بغير الدين؛ فإذا أطفئوه في قلوبهم تنفسوا الظلام فإذا الدنيا ضلال وجهل!. وإذا العالم دمار وهُلْك! وتلك هي الحال التي يكابدها الناس اليوم: ظلام في بلاد الأرض، وظلام في نفوس الناس، وظلام في وجوه المستقبل! فمن يخرج يده لا يكدْ يراها، ومن يتعلق بسبب من أمله انقطع به! ومن ينظر في صفحة الغد عمِّيت عليه! ومن لم يجعل الله له نوراً فما من نور!
الظلام! الظلام! الظلام! ذلك هتاف الأمان ودعاء السلامة في كل أمة من أمم الشرق والغرب اليوم! فليت شعري هل تأله الشر وتحكم الشيطان وصدقت المانوية؟ غشينا ظلام الغرب ولفَّنا ليلة الألْيل؛ فكأنما انطفأت في مشرقنا عين الشمس! وما

كان المغرب منذ دحا الله الأرض إلا مبعث ظلمة؛ وما كان المشرق منذ أوقد الله الشمس إلا مطلع نور. فإذا دجت الآفاق واستسرت المعالم كان معنى ذلك أن الشرق قد انكفأ فلم يرسل شمسه ولم يبلغ رسالته!

والحق أن منازل الوحي من الطور والجليل وحِراء قد أصبحت ترسل أمواج النور الإلهية لغير قابل. كان لها من نفوس الأنبياء أجهزة من صنع الله تقبلها وتنشرها وتهدي بها وتدعو إليها؛ فلما خُتمت النبوة وانقطع الوحي ورث الخلفاء والعلماء رسالة الله فكانوا كورّاث الملك أو المال، منهم القاعد المضِيع، ومنهم المجاهد الكاسب. ولو شاء ربك أن يدرك النصرَ أولياؤه، ويطبِّق الأرض دينُه، لجعل الناس أمة واحدة؛ ولكن لا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك، ولذلك خلقهم!

لا تزال منازل الوحي ترسل الأمواج السماوية بالهدى ودين الحق؛ ولكن الله الذي يضل من يشاء ويهدي من يشاء حرم الناس نعمة القبول فاستأسدت فيهم الغرائز، وأسرفت عليهم المطامع، وتفرقت بهم المذاهب، وذاقوا من فساد النظام وطغيان الحكام ما لم يذقه الحيوان الأدنى من القتل والجوع والجور والبؤس والفوضى.

وكان الظن بالأزهر الذي قام للدين، وعاش بالدين، أن يكون لأمواج الوحي الخالد محطة

استقبال وإذاعة؛ ولكنه انقطع عن ركب الحياة فخضع لعوادي الدهر القاهر، خضوع القلعة المحصورة للمغير القادر!

على أن هذه الحرب العالمية هي كما قلنا القيامة الصغرى؛ ومن الحتم أن سيكون بعد القيامة الخَلق الجديد والحياة الفضلى. والواقع في الظن أن الأزهر يمهد لهذا الانبعاث، ويهيئ لهذه الحياة. وما هذه الروح التي دبت في (جماعة كبار العلماء) آخر العام المنصرم إلا نفحاتُ الربيع الأولى يرسلها الفيروز لتُجري الماء في الأعواد، وتوقظ الحياة في البراعم.

لعلك تقول لنفسك: ما بال الرسالة لا تنفك تذكر الأزهر في معرض الإصلاح والنهضة، وما الأزهر في رأي أكثر الناس إلا متحف آثار ومقبرة أفكار وطلل مذاهب؟

وقولي فيما تقول أن الشرق لا ينهض إلا بالدين، وأن الدين لا ينهض إلا بالأزهر. ولست أقصد بالدين هذا الدينَ الذي يعتقده المسلم المعاصر، ولا بالأزهر هذا الأزهر الذي تراه في نظامه الحاضر؛ إنما الدين الذي أعنيه هو دين القرن الأول، والأزهر الذي ابغيه هو أزهر القرن الرابع عشر. أريد الدين النقي القوي الذي فتح الممالك، ومدن الأمم، وكرّم الإنسان، واحترم العقل، وفرض المعرفة؛ أما هذا الدين الذي يقول بعبادة الأولياء، وتمجيد القبور، وتقديس القديم، وإيثار التواكل، ومخادعة الله بالحيل، ومهاواة القادة بالنفاق، فليس دين الله؛ إنما هو دين هؤلاء الأوزاع الأتباع الذين ضلّوا وذلّوا فمزقتهم الأحداث، وأكلتهم المطامع، وأصبحوا نهباً تتقاتل عليه الدول ويعتدل بتقسيمه التوازن.

وأريد الأزهر الجديد الذي يضع لثقافة الشعب أساساً من الدين، يقوي بقوة الله، ويثبت بثبوت الحق، ويدوم بدوام الدنيا؛ ثم يقيم عليه من القواعد والنظم والأوضاع ما يقره العقل ويؤيده العلم، وتقبله العصر، وتقتضيه الحاجة؛ أما هذا الأزهر الذي يَعْلك الكلام، ويجترّ الماضي، ويقتات الفُتات، ويبطل الاجتهاد، ويعطل العقل، فهو مسجد من المساجد الأثرية لا أقل ولا أكثر.

أما بعدن فقد عوّدتك يا قارئي العزيز أن أتحدث إليك في مطلع كل عام عن بلاء الرسالة في الجهاد وعملها في المستقبل؛ وإنك لتعلم أن هذا الظلام الشامل الكثيف الذي ضرب على أبواب الغد حجباً فوق حجب، يجعل مثل هذا الحديث أقرب إلى لغو الكلام وعبث الأماني.

فاسأل الله أن يتولانا في هذه الزلزلة العامة برحمته وفضله!

أحمد حسن الزيات

أحلام العام الجديد

للدكتور زكي مبارك

التفت أخونا الأستاذ الزيات فرأى العام الجديد لا يخيفه إلا من ناحية (استحكام أزمة الورق ومواد الطباعة وارتفاع أثمانها إلى عشرة أضعاف)، فتوكل على الله وقرر أن (الرسالة ستستمر على نظام العام السابق من التخفيض والتقسيط والإهداء مع

المشتركين القدماء؛ أما المشتركين الجُدد فيردون الاشتراك كاملاً، مقسّطاً أو غير مقسّط). وبهذا ظهر (امتياز) الصديق القديم على الصديق الجديد!
والتفتّ فرأيت العام الجديد يخيفني من ناحية غير تلك الناحية، فأنا لا أشكو غلاء الورق ولا ارتفاع مواد الطباعة، بعد أن أرجأت النظر في طبع مؤلفاتي الجديدة إلى أن تنتهي الحرب؛ وإنما أشكو غلاء العواطف وارتفاع أثمان الصدق إلى ألف ضعف لا عشرة أضعاف.
وما ظنّكم بزمان لا يبرع شعراؤه في غير الحديث عن (الرغيف)، كالذي ترون من يوم إلى يوم في بعض الجرائد والمجلات؟
ما ظنُّكم بزمان يعدّ فيه الحديث عن أحلام القلوب ضرباً من الفُضول؟
إن هذه المحنة العاتية هي الفرصة لاختبار ما عند أدبائنا من عناصر الثروة المعنوية، فيها نعرف ما عندهم من أرزاق الروح والذوق والوجدان.
أيكون الكلام عن (الرغيف) تودداً إلى أهل البطون، وهم ألوف أو ملايين؟
إن كان ذلك فأين الأريستوقراطية الأدبية وهي تسمو على الحاجيات اليومية؟
أيكون الكلام عن الرغيف فرصة من فرص القول يهتبلها من لا يصل إلى بعض الجرائد والمجلات إلا بعناء؟
إن كان ذلك فأين تصوّن الأديب عن الكلام المبذول؟
سمعت - بل علمت - أن مدرساً في (قنا) أرسل إلى جلالة الملك برقية يشكو فيها انعدام الرغيف، فماذا وقع من الخطر حتى يجوز مثل هذا الصراخ؟ وماذا نصنع لو أصبحت بلادنا وهي ميدان حرب، وقد تصير كذلك إذا طال استمراء المتحاربين لما اندفعوا إليه من استطابة الجنون؟
وإذا استجاز (المدرس) أن ينظم القصائد الطوال في الشوق إلى الرغيف وهو مدرس يقتات بالعواطف والأحاسيس، فماذا يصنع (الفلاح) أو (الصانع) وهما شخصيتان تعتمدان في القوت على الرغيف؟
لعل الأيام أرادت أن تعلمني ما كنت أجهل، فقد طال مني التجني على الصوفية (وكانوا يدعون إلى التحرر من ربقة الرغيف) فهل كان للرغيف مثل هذه الآفة في العصور الخوالي؟
ولعل الأيام أرادت أن تقنعني بأني صرت من الحكماء من حيث لا أعرف، فقد هجرت الخبز منذ أعوام طوال، واكتفيت بما تيسر من الخضروات، بغض النظر عن اللحم الذي نأكله باسم النقد الأدبي، وهو لحم غاب أسمه عن (دولة الحاكم العسكري) فلم يفرض على من ينتاشه أي عقاب!!!
ما تهمني أزمة الرغيف، وإنما تهمني أزمة القلب
ولو كان في وزراء مصر لهذا العهد من عانى أزمات القلوب لعرف كيف يحارب أزمة الرغيف، لأن القلب هو الأساس في فهم أخطار الوجود.
الظبية تجترئ بالعشب فتستغني عن الماء، ومن أجل هذا سُمَّيتْ جازية، و (جازية) اسم من أسماء الملاح في هذه البلاد وإن لم يعرف الجمهور ما فيه من معنىً ملفوف
فإذا فقدت الظبية العشب، فكيف تعيش وبه غنيتْ عن الماء؟
لن أنسى أبداً سخرية (فاجيه) من (أفلاطون)، وفاجيه كان أكبر من اهتممت بآثاره الأدبية والفلسفية من بين أقطاب الأدب الفرنسي، وعن سيرته تعلمت أشياء هي الهادي والدليل في حياتي الأدبية، فأنا أسجل كل ما يعتلج في صدري قبل أن يضيع، ثم أقدمه للجرائد والمجلات حين أشاء، بلا تقيد بالمكان والزمان!
وفي هذه المرة أكون أعظم من أستاذي فاجيه، فقد سخر من تسامى الفلاسفة إلى ولاية الحكم وهو ينقد أفلاطون. أما أنا فأرى أن الفلاسفة هم أقدر الناس على إقامة الموازين بالقسطاس.
نحن، رجال القلم، أعرف خلق الله بما يشتجر في الصدور من الآم وآمال
كانت الحكومة إلى رجال يعيشون في حصون تقفل أبوابها بالنهار وبالليل: فلا يعرفون ما يعاني الشعب من ظلمات الحوادث والخطوب. . .
ولم نكن كأولئك، فنحن قوم نعيش للشعب وفي صحبة الشعب، ولنا فيه أعمام وأخوال، ولن نتجنى عليه بأي حال

ونحن مع هذا معرّضون لدسائس سود، ومن الواجب أن نبدّد تلك الدسائس، بلا تسويف، تمهيداً للوزارة التي سنؤلفها في العام الجديد.
قيل إن الزيات متأنق في الأسلوب، فهو يزاوج بين لفظ ولفظ بغير عناء؛ وأقول إن هذه النزعة تنفع في المزاوجة بين الطبقات والأحزاب، حين يمس الزيات وهو رئيس الوزراء.
وقيل إن العقاد مولع بوصل ما بين الشرق والغرب في الآفاق الفكرية، وأقول إنه أصلح الأدباء لتولي وزارة الخارجية.
وقيل إن أحمد أمين لا يجيد الكلام في غير البحث المطروق، وأقول إنه أصلح الناس لوزارة المواصلات، فلن نجدد فيها إلا بعد انتهاء الحرب.
وقيل إن المازني أول أديب حجّ بيت الله في غير موسم الحج، فهو إذن أصلح الأدباء لأن يكون سفير مصر في الحجاز، وإن قال في صلاة (زكي باشا) ما قال.
وقيل إن توفيق الحكيم يقدس (السيدة زينب) فهو إذن وزير الأوقاف.
وقيل أن طه حسين لم يُجد في (هامش السيرة) غير الحديث عن (الراهب) فهو إذن وزيرنا في بلد النجاشي.
وقيل إن محمود تيمور لا يحسن القول إلا في وصف الطبقات الشعبية، فهو إذن وزير الشؤون الاجتماعية.
ولا موجب للحديث عن الأدباء الغَدَرَة من أمثال: عبد القوي أحمد ومحمد هيكل ومصطفى عبد الرزاق؛ فقد تولوا الوزارة قبل أن يستأذنوا إخوانهم من رجال القلم البليغ!
بقي مكاني في الوزارة المنشودة، فما عسى أن يكون؟
هل أختار وزارة المعارف؟
وكيف وهي وزارة متعبة، وما تولاها رجل إلا عرف خطر المشي على الشوك؟
صار من تقاليد وزارة المعارف أن يهدم الخَلَف ما بني السلف، وأنا أكره التقلبات الكثيرة،
وأبغض الضجيج المفتعَل، والصياح المصنوع.
يضاف إلى ذلك أني نشرت مقالات تفوق العدّ والإحصاء في شؤون التربية والتعليم، ومن الجائز أن يطالبني الجمهور بتحقيق ما اقترحت في تلك المقالات، وهنالك الخطر كل الخطر، إلا أن أروض نفسي منذ اليوم على التنصل من تلك المقترحات!
هل أختار وزارة الداخلية؟
هذا هو المركز اللائق برجل يغضب للشعب، ويثور على الاحتكار والمحتكرين.
إن توليت وزارة الداخلية - وهذا أمرٌ قريب - فسأفرض على رجال الحكومة في مختلف الأقاليم أن يعرفوا جميع البيوت وجميع الناس، ليدلوا الدولة على المستور من الثروات والنيات، وسأجعل من سلطة الشرطة جيشاً يمزق الشراذم الباغية على الأمن والنظام، وهل يهدّد الأمن والنظام بمثل الإصرار البغيض على احتكار الأقوات؟
لن انتظر حتى ينتفع الناس بوعظ الواعظين، وإرشاد المرشدين، فقد ظهر أن في الدنيا قلوباً لا يقومّها وعظٌ ولا إرشاد. لن أنتظر غير حكم العدل، والعدل يوجب أن يعرف وزير الداخلية حقيقة الثروة المدفونة في زوايا البيوت، بيوت الأغنياء والفقراء، فأنا أخشى أن تكون هذه الأيام قضت بأن يكون في الفقر تزوير وافتعال (ولم يكن المصريون كذلك في الأيام الخالية، فقد كانوا يسترون الفقر عن الأقربين قبل الأبعدين)
إن توليت وزارة الداخلية - ويجب أن أتولاها - فسأحرم العمد نعمة الثرثرة فوق المصاطب، وسأحولهم إلى جنود نافعين، فأولئك أقوام يعلمون من أمور بلادهم كل شيء، ولكنهم يكتمون ما يعلمون، فإن طووا عني ما يجب أن أعرف فسأقضي فيهم بالعدل، وهم يفهمون جيداً خطر العدل.
أليس من العار أن يصبح التموين مشكلة من المشكلات في مثل هذه البلاد؟
وكيف تكون الحال لو شاءت المقادير أن نطالب بتموين مئات الألوف من الجنود يوم يدعو الداعي إلى الجهاد؟
اللعب في أمثال هذه الأيام لا يليق، ومن اللعب القبيح أن يكنز ناس ما يملكون من أصول الأقوات لينتفعوا بالربح الحرام على حساب الشعب المهدد بالجوع.

وأنا مع هذا أعرف ما تصير إليه سمعتي يوم أتولى وزارة الداخلية، فسيقول السفهاء من
الناس إني خليفة الحجاج، وسيتخذون من شراستي دليلاً على أن المواهب الأدبية تنطوي على جحيم من الطغيان المكبوت.
وما خوفي من القال والقيل وأنا في غنىً عن رضا الناس، ولن أتقدم يوماً لخوض معركة انتخابية؟
إن رجال الأقلام هم أصلح الرجال لسياسة الدولة في السنين العجاف. وهل يشقي أحدٌ في سبيل الأمة كما نشقي؟ وهل يعرف أحدُ من متاعب الأمة بعض ما نعرف؟
الوزراء في الأمم الدستورية لا يقدرون على الحزم إلا في أندر الأحيان، لأنهم مقيدون بعواطف الناخبين، وفي الناخبين خلائق لا تعطى أصواتها إلا لغاية مطوية، هي السكوت عن آثامها الثقال.
ولن أكون وزيراً برلمانيّاً يحسب لعواطف الناخبين ألف حساب قبل أن يُقدم على إعزاز شريعة العدل
سأكون بإذن الله وزياً يختار لغرض واضح صريح: هو القضاء على البغي والفساد، وزجر من يحرمون الشعب من الأقوات.
وقد فكرت في مصير البرلمان الحاضر، وهو برلمان طال حوله الخلاف، ثم صح الرأي على السكوت عن هذه المعضلة الدستورية إلى حين، فما يتسع وقتي للنظر في شئون تضر أكثر مما تنفع. وهل تحتاج الأمة إلى برلمان إلا حين يعوزها الحاكم الرشيد؟ - (إنما أسأل أمام ضميري لا أمام البرلمان)
سأفاضل بين الأحزاب على أساس غير الأساس المعروف، فلن تكون هناك أغلبية وأقلية، وإنما يكون التفاضل بقدرة هذا الحزب أو ذاك على توفير أسباب الرخاء.
لن يقول النحاس باشا: (أنا أول من أنذر بأزمة التموين) فسأسوقه سوقاً إلى الطواف بالبلاد لدعوة أنصاره إلى الإفراج عن القوت المحبوس
ولن يقول الدكتور ماهر باشا: (أنا أول من تأهب للحرب)؛ فسأجره جراً إلى ميدان جديد هو حرب الغلاء!
سأغيّر من أخلاق الناس، إن دُعيت إلى ولاية الحكم في هذه الأيام، وليس ذلك بالأمر البعيد، فقد جُرّبتْ جميع القُوى السياسية، ولم يبق إلا تجربة القوة الأدبية، وهي أقوى من
الزمان.
أما بعد فهذا حُلمٌ من أحلام العام الجديد، ولكل عام أحلام
هو لفتة روحية ستؤتي ثمارها بعد حين، فمن الشر الموبق أن يحال بين رجال القلم وما يشتهون من إقرار العدل، وما كانوا في الحاضر والماضي إلا موازين.
دعوْناكم ألف مرة إلى الاعتراف بالسلطة الأدبية فلم تسمعوا؛ ونهينا كم ألف مرة عن تناسي السلطة الأدبية فلم تنتهوا. فهل جازينا كم صداً بصد، وإغضاءً بإغضاء؟
لا، والله، وإنما مضينا على السجية الكريمة، فأوقدنا في صدر الأمة جذوة الشوق إلى التماسك والتساند والتآخي، فما كان في الأمة من خير فهو من صُنع أقلامنا، وما كان في الأمة من شر فهو من جناية الراغبين في السيطرة والاستعلاء.
لن تصلحُ الأمور إلا يوم تصبح المقاليد بأيدي رجال القلم البليغ ومن قال بغير ذلك فهو بقية من بقايا الطغيان البغيض
أتريدون الدليل؟
نحن نبخل بالحكم لقطعة شعرية أو نثرية حين نراها بعيدة عن الجيد المستطاب، مع أن الحكم لقطعة شعرية أو نثرية لا يقدم ولا يؤخر في سياسة البلاد.
وأنتم تُضفون الألقاب السنية على من تحبون بغير حساب، وقد تُسندون بعض المناصب إلى من لا يُزكّيه غير رضاكم عن أسلوبه في حفلات الاستقبال.
الأدباء هم أقدر الرجال في مصر على عصيان الأهواء
ألا ترون كيف نحارب منافعنا في سبيل النزاهة الأدبية؟
نحن نصاول الأحزاب والهيئات في كل يوم لنرفع قدر الفكر والرأي، ونرحب بجميع المتاعب في سبيل تلك الغاية العالية، فأين من يصنع بعض الذي نصنع؟ وأين الذي يعاني في سبيل المبادئ السامية بعض ما نعاني؟

لو سخرنا أقلامنا في سبيل الغايات الوقتية لسددنا الطريق في وجوه الكثير من طلاب النفع الموقوت، وهم أعمدة المجتمع فيما يتوهمون.
إلى أقلامنا يرجع الرأي في سياسة هذه البلاد، وإن بُعدنا صورياً عن المناصب الوزارية والبرلمانية. . . لكل وطن روح، وروح هذا الوطن هو رسالة القلم البليغ.
زكي مبارك
ظاهرات نفسية
في مسرحيات محمود تيمور - 2
للأستاذ زكي طليمات
مفتش شئون التمثيل
سبق أن قررت في مقالي السابق عن مسرحيات تيمور أن القيمة الأدبية الحقة للعمل الأدبي، مسرحية كان أو قصة، رهينة بما يسجله من الحقائق الإنسانية الخالدة التي تسمو على مشكلات الاجتماع، ومسائل الإصلاح الموقوت، وأزياء الأساليب البيانية، وتتجاوزها إلى ما هو أعرق في الأصالة وأجدر بالمعالجة، إلا وهو النفس البشرية بكامل كيانها، فيكون همُّ الكاتب قبل كل شيء، تسجيل سماتها والكشف عن مظاهرها ومضمراتها. ومن أجل هذا جعلت نقدي للمسرحية الأولى من مسرحيات تيمور، ألا وهي (الصعلوك)، معنى بهذه الناحية وتجاوزت قصداً عما سواها؛ وسيكون هذا دأبي في نقد المسرحيتين الأخريين، وهما (أبو شوشة) و (الموكب) وعلى أساس أن كياننا النفسي الكامل يتألف من العقل الظاهر (الوعي) ومن العقل الباطن (اللاوعي)، وإننا في تصرفاتنا خاضعون إلى التيارات الخفية التي تنطلق من معقل الوعي الباطن فتدفعنا إلى إتيان بادرات، لا يستطيع عقلنا الظاهر تفسيرها.
النقد تنبيه وتبيين وتسجيل
إن مهمة الناقد وقد أخذ بما أسلفناه شاقة عسيرة، ولكنها مجدية للقارئ قبل كل شيء، إذ أنها تقدم له بيان واضح وسرد مستفيض غير مقيد بأوضاع وقيم فنية مرسومة، تقدم إليه سمات هذه الشخصيات التي نلخصها في تعقيدها النفسي مضطربة مقنعة، بعد أن يكون الناقد قد استخرجها من بين السطور، وقيد أوابدها، وتصيد شواردها، وحلل نزعاتها، وأسقط أقنعتها.
ورب معترض يقول: وما هذا اللون من الأدب أو المسرحية الذي يحتاج إلى تفسير وتعليق وتذييل يجلو الغموض ويبدد الأبهام؟ ولم كل هذا التعليق من جانب الناقد!؟ وجوابنا: أن لا غموض ولا إبهام تلحظه العين في عمل أدبي حق، لو أن كل قارئ كان سامياً في ثقافته إلى المستوى الذهني الذي أصدر عنه الكاتب أو الشاعر عمله الأدبي الرفيع، وصدق القائل:
وكم من عائب قولاً صحيحاً ... وآفته من الفهم السقيم
وإن النقد كما أنه تنبيه منزه عن السقوط إلى ما يتضمنه العمل الأدبي من مفاتن ومقابح، فهو تفسير وإيضاح لما يسجله المؤلف مجملاً أو مركزاً، وقد تقيد بقيود الوضع الشكلي الذي تفرضه صياغة القصيد أو القصة أو المسرحية، وأخذ بأسباب شرائط فنية قد توجب الإغراب قصداً، وقد تحتم التلويح بدلاً من التصريح في مواقف، والعكس بالعكس في مواقف أخرى، وقد تقضي بالإيجاز الذي يضني القارئ في ناحية، لتنهكه مرة أخرى في تنقل وثبي جريء، تدفعه من فكرة إلى فكرة، ومن خيال إلى خيال، من غير تمهيد يستطيع كل قارئ معه أن يجد الرابطة بين كل هذا.
وهناك شيء آخر جدير بالاعتبار يتصل بالمؤلف نفسه مباشرة، وذلك أن النقد إذا صح أنه إيضاح وتبيين فوق تبين، ييسر لكل قارئ استبطان دخائل العمل الأدبي الذي يقرؤه، ويبصره بمواطن الفتنة والسمو والقبح والإسفاف فيه، فهو أيضاً تسجيل وتحليل لطرائق المؤلف واتجاهاته في الأسلوب والصياغة والفكر؛ وهو أيضاً تقدير لمبلغ توفيقه في كل هذا، لأن المؤلف الموهوب قد يصدر كثيراً فيما يكتب عن وحي الساعة وقد لبسته حال من اللاوعي، فهو لا يخضع كل سانحاته وطوارقه الذهنية إلى مقاييس الفن ومعايير البيان. إنه يرتجل أحياناً وهو يدري ولا يدري بعد أن تهيأت نفسه للخلق والإبداع، وفي تسجيل هذا من جانب الناقد تبصير جديد للقارئ وإقرار صحيح لمنازل الكتاب من حيث القيم الأدبية الفنية.
وفيما نحن بصدده في مسرحيات تيمور - وقد نحا في التأليف والتحليل النفسي نحواً

يقضي بتسجيل النتائج والأعمال التي يأتيها أبطال مسرحياته من غير أن يعني بتبيين البواعث والدوافع، وذلك باعتبار أنها أعمال تبدو من العقل الباطن ولا يستطيع العقل الظاهر تعليلها وتفسيرها - لا مناص من أن تكون مهمتنا الأولى إيضاح هذه البواعث التي أدت إلى النتائج، ولا يخفى أن أعمال الناس تفسر بالبواعث والدوافع قبل أن تفسر بالنتائج والغايات.

والآن فلتقدم إلى مسرحية (أبى شوشة)

أبو شوشة

اسم لعجل مدلل، يرعاه (مؤنس بك) في ضيعته (كفر البلابل)، ومن العجيب أن يكون عنواناً لمسرحية أسم عجل يخور ولا يند لسانه بحوار في المسرحية ولا ترى له وجهاً على المسرح، ولن من يدقق قراءة هذه المسرحية لا يلبث أن يصل إلى ما توخاه المؤلف من هذا العنوان، بعد أن يتضح له أن (ابا شوشة) ليس إلا رمزاً للحاضر الجاثم بكيانه القادر بظروفه وشواغله. (والحاضر) في هذه المسرحية عنصر هام وخطير.

وترك مؤنس بك ماضيه في القاهرة منذ ست سنوات وهاجر إلى الريف وتزوج من حرائر أعيانه. له من زوجته رفيق مؤنس، وله توفره على الزراعة ومنتجاتها شغل وعزاء. تراه أول ما تراه في المسرحية، محنقاً مكروباً، لأن العجل (أبا شوشه) متوعك المزاج يعاف أكل العليق وعينه محمرة دامعة!! القصر الريفي في حيرة واضطراب، الخدم يرقبون شفاء للعجل العزيز السيد خادماً يسهر على راحته.

فجاءة يهبط القصر نفر من الزوار من أعيان الريف، بينهم حسنية هانم وزوجها (ظاظا بك) - وهما من سكان القاهرة - جاءا الضيعة لزيارتها بعد أن ذاع صيت نظامها ووفرة غلتها في دوائر القاهرة. فنرى مؤنس بك يضطرب ويرتبك لمرأى (حسنية) وكأنه فوجئ بمجيئها، ولكنه يتغلب على ارتباكه ويرحب بالزائرين.

وإذ يخلو لمؤنس وحسنية المكان بعد تمهيد دق المؤلف في إتيان مواقفه من غير تكلف، نراهما منجذبين الواحد نحو الآخر، متقابلين فماً لفم، وسرعان ما ينجلي للقارئ أسباب ارتباك مؤنس واضطرابه. . . لقد كان مؤنس وحسنية متحابين، متعاقدين على الزواج قبل أن يهجر مؤنس القاهرة ويقيم بيته وأعماله في الريف. ولكن حدث إذ ذاك أن توفي والده وطالعته تركة موروثة مرهقة بالدين تتدحرج نحو الإفلاس والبوار؛ فأسقط في يده، وخابت أمانيه في الزواج، لأن كبرياءه حجزته عن أن يتزوج من حسنية الناعمة المثرية. فترك القاهرة بغتة واستقر في الريف يرمم المنهار من تركته بعد أن قطع كل رباط يربطه بالقاهرة وساكنيها. وكان أن تزوجت حسنية من ظاظا بك.

. . .هذا المشهد هو دعامة المسرحية وبيت القصيد فيها

هما هما الاثنان يبعثان الماضي وذكرياته، وها هو مؤنس يشد على يد حسنية في إتقاد، مهيباً بها أن تنسى الحاضر وأن ترجع بعين الخيال إلى مراتع حبهما، فتزداد التصاقاً به، وتدني فمها من فمه، مغمغمة أسمه المحبوب، القبلة تكاد تتم فصولاً، الحب الهامد يتسرح من جديد و. . . .

ولكن يحدث في هذه اللحظة أن يرتفع خوار العجل أبى شوشة؛ فإذا بمؤنس يجمد في مكانه، وإذا بالقبلة لا تتم، وإذا به يترك حسنية واجمة متعجبة، ويطل من النافذة منادياً متسائلاً عن صحة العجل العزيز الغالي!!

بادرة عجيبة ولا شك من جانب مؤنس تناقض الواقع الذي كان يعيش فيه منذ لحظة بيان لسانه وكمال وعيه!

ويستدرك مؤنس ما أتاه من غير وعي بهذه البادرة النابية فيعاود الحديث عن الماضي ويستعين عليه في هذه المرة بمطالعة بعض صور فتوغرافية قديمة تمثله مع حسنية في مواقف عديدة. ويبدو للقارئ أن مؤنس يحاول لاهثاً أن يستمد من هذه الصور إنقاذاً لمخيلته ويقظة لحسه. وتقع يد حسنية بين هذه الصور على رسم للعجل أبى شوشة فتتبرم؛ ثم لا تلبث أن تزداد عجباً على عجب، إذ ترى مؤنس يأخذ بأسباب سرد مشرق عن ولادة العجل وحياته الأولى.

وهكذا يبدو مؤنس متطوحاً بين (الماضي) الذي يشده بعيني حسنية، وبين (الحاضر) الذي يجتذبه بجوار أبى شوشة.

ولا تجد حسنية موضوعاً للحديث غير الكلام عن الطقس. ويفطن مؤنس إلى ذلك

فيعتصر حسه من جديد ويأخذ في إطراء مفاتن حسنية، فينشط حس المرأة أمام هذا الإطراء فلا تتوانى عن أن تعرض عليه أن يحضر الحفلة التي ستقيمها في القاهرة بمناسبة عيد ميلادها، ولا تتحرج عن أن تناشده معاودة حياته الأولى في ظل حبها.
مؤنس ينقاد إلى حديثها في شبه حلم لذيذ وقد غمره الماضي، فلا نلبث أن نسمعه متبرماً بحاضره. وها هو أخيراً يقرر في نبر صوتي متقد أنه سيعود إلى القاهرة، وأنه سيحضر حفلة عيد ميلادها. . . وأن الإنسان في وصفه أن يحقق ما يريد إذا صح عزمه على ذلك.
وإذ هما يحتضنان، يرن صوت الخادم وقد أقبل نحوهما. . . الخادم يدخل فرحاً معلناً أن (أبا شوشه) أكل عليقه، وأن الصحة عاودته. . .
يا لسخرية الحاضر من الماضي!!
نرى مؤنس ينتفض فجأة وكأنه، خرج من حلم بعيد وينطلق نحو الباب والفرحة ترقص أمامه، ويدعو حسنية إلى أن ترافقه إلى مذود العجل؛ ولكنها ترفض فيتركها وقد نسى القاهرة وحفلة العيد!!
هذا المشهد هو الرواية كلها، وقد وفق تيمور في التمهيد لانطلاق الإيحاءات الباطنة التي كانت تطرق مؤنس وتجعله وهو لا يدري ينقض ما يبرمه وهو يدري. وفق تيمور في هذا بطريق إيرادها جسات نفسية خاطفة كانت تلوِّح للأمر المزمع، والغاية المقصودة.
وتجري بعد هذا المشهد الحافل مشاهد إضافية، نرى (حسنية) في أحدها تعلن لمن جاءوا الضيعة معها أن (مؤنس) سيحضر حفلة عيد ميلادها بالقاهرة؛ ولكن سرعان ما يحضر مؤنس وقد امتلأت نفسه نشاطاً وفاضت غبطة ليعلن الحضور بدوره أنه سيشترك في المعرض الإقليمي بمنتجاته الزراعية، وكان قبل ذلك متردداً في هذا الاشتراك. تمتعض (حسنية) وتقطع الحديث وهي تقترح العودة إلى القاهرة، لأن لديها ما يشغلها لإعداد حفلة عيد ميلادها. وإذ ذاك يتذكر (مؤنس) أمر هذه الحفلة، ويبدي حيرته كيف يوفق بين الاشتراك في المعرض وحضور حفلة القاهرة. . . ولكن (حسنية) تتدخل في الأمر تدخلاً عابراً من باب جبر الخاطر - وأغلب الظن أنها بدورها أحست فتوراً من الرجوع إلى شيء مضى وفات - ويعتذر مؤنس عن حضوره الحفلة وكأنه أنقذ من ورطة قادمة!
وتنتهي المسرحية بأن ترحل (حسنية) إلى القاهرة لتعيش هناك في (حاضرها)، ويبقى (مؤنس) في قصره الريفي ليعيش بدوره في (حاضره).
كل هذا يجري ولم نر المؤلف يجعل بطلي المسرحية (مؤنس وحسنية) يحاولان تعليل تلك الإيحاءات الباطنة وتفسيرها بطريق المنطق، بل جعلها تعرض نفسها خطفاً، وبهذا خالف النهج الذي نهجه في مسرحيته الأولى (الصعلوك) وحسناً فعل.
والآن نتساءل ما الذي يلبس هذا الرجل (مؤنس بك) الفينة بعد الفينة، والموقف واحد لم يتبدل زمانه ومكانه، فنراه يتخبط وينقض فعلاً ما أبرمه كلاماً ويتأرجح بين قوتين عنيفتين تشهد كل منهما من ذراع لتجتذبه أحدهما في النهاية؟؟
إلا يرى القارئ معي أن هذا الرجل يحاول عبثاً إرجاع الماضي وبعثه بمذكيات الذكرى وبحطام نفسه ويشخص المرأة التي كانت له شريكة فيه؟؟ وأن الحاضر يأبى عليه ذلك ويسير على شرعته الأزلية من أن ما فات مات، وأن لا رجعة لما أغرقه الزمن في لجته؟؟
نعم هو هذا. وأن الذي كان يلبس الرجل ويدفعه بقوة خفية إلى التناقض إنما هو سيطرة الحاضر الذي أقام لنفسه في الواعية الباطنة سلطاناً يدفع به وثبة الماضي إذا قدر له أن يستفيق من همدته وتهيأ للانسراح بعد انكماشه، والماضي بدوره له في الواعية الباطنة منازل ينطوي فيها على نفسه ولكنه يقنع من السلطان بأن يكون معين الصراع بين المادة والحافظة، وأن يكون الشرفة التي نطل منها على المستقبل.
لا سبيل إلى إحياء الماضي، تلك هي المسألة التي أثارها تيمور في مسرحيته - الماضي لا يعود - ومرد هذا أن النظرة إلى الأشياء تتغير بتغير الميول، والميول تبدل أثوابها بمرور الزمن، الزمن الذي يبلى كل شيء ويسير دائماً إلى الأمام دون أن ينظر إلى الوراء، الزمن الذي يستبد فينا بحاضره، ويدفعنا بشواغله والتزاماته إلى أن نحيا فيه. فكان النظرة إلى الأشياء مقضي عليها بالتغير، ومتى تغيرت النظرة تغيرت معها

معالم الدنيا من إنسان وجماد.
لقد نال الزمن من (مؤنس) وهو لا يدري، كما نال من نفس (حسنية) وهي لا تشعر، ولم يكن حظها في هذا أرفق من حظ مؤنس، وآية ذلك أنها حينما أجابت نداء (الماضي) عن لقائها حبيب القلب الغابر وانساقت مع دفعاته الفاترة المتقطعة، لم تستطع أن تدفع سلطان (الحاضر) بل كانت في محاولتها إحياء الماضي، كما كان (مؤنس)، متعثرة على الرغم منها.
ولو أن تيمور أجرى موضوعه على الرجل دون المرأة لأوقع بالمسرحية ثلمة تنفذ إليها منه بالمؤاخذة، ولكنه فطن إلى ما لا يفطن إليه عادة غير المرتاض بصياغة القصة المتمرس بعرض موضوعه عرضاً صادقاً كاملاً.
ورب معترض يقول: إن الدافع الحقيقي الذي حجز (مؤنس) عن معاودة حياته العاطفية مع (حسنية) هي أعماله بالريف وشواغله الملحة فيه. وهذا حق من ناحية أن هذه الأعمال وتلك المشاغل إنما هي من عناصر (الحاضر)، والحاضر، كما قررنا، يفرض سلطانه
علينا، بيد أن هذا ليس كل شيء، لأن الظروف المحيطة بمؤنس وحسنية - ما رسمها المؤلف - كانت ظروفاً مواتية تسمح لهما باستئناف علاقتهما دون أن يخل ذلك بشواغلهما، ولكن بشرط. . . وهذا الشرط أن يكون لأعج العاطفة المتأجج في قلبيهما متقداً قوياً كما هو المشاهد المألوف لدى الأكثرين، لأن الإنسان يحيا بغرائزه وعواطفه أكثر مما يحيا بعقله ومنطقه، وفي تلك الفترات التي يكون فيها الإنسان لحياة العاطفة لا يبالي بأي قيد من القيود. ولكن العاطفة القوية أو الحب المتقد لم يكن يعمر قلبيَّ مؤنس وحسنية عند لقائهما الأخير. لقد كان الأمر غير ذلك فيما مضى، ولكن الزمن أطفأ اللاعج المتقد وأوهن القوى النابض، ولم يبق في قلب كل منهما من ذلك الغرام غير هيكل من عظام نخرة ترتدي مسوح (فينوس) تكفي أن تهزها اليد لتنهار.
زكي طليمات
التبعة والعقوبة في المجتمع البشري القديم
للأستاذ رفعة الحنبلي
ساد المجتمع، خلال العصور القديمة، نوع من النظم الاجتماعية، وضرب من المبادئ الفطرية، أخذ بها طوال المدة التي جنح فيها إلى التفكير الهزيل، والمعرفة الضئيلة، والعلم القليل مما كان له أثر فيه. فاتسم بطابع خاص يتميز به عن بقية المجتمعات الإنسانية الأخرى، ولم يقتصر على الثقافة فحسب بل تناول التقاليد والعادات أيضاً.
وفي الواقع أنه إذا تقصى المرء أحوال المجتمع البشري القديم في الأزمنة الغابرة، ودرس نظمه الاجتماعية، وتفهم نفسية أفراده وأخلاقهم، والتمس ميولهم ورغائبهم، وتبين عاداتهم وتقاليدهم، واتصل بهذه النظم على ضوء الدرس المنظم وعن طريق التتبع والاستقراء، تكشفت له عن حياة اجتماعية متأخرة، وبيئة ضيقة، وعقلية محدودة وتفكير سقيم تتباين مع الحياة الاجتماعية الأخرى في المجتمعات الثانية وبيئتها وتفكيرها وعقليتها، هذه الحياة الاجتماعية توقفنا على درجة من درجات رقي المجتمع وحضارته وتكشف لنا عن سمة من سمات الطبع والنفس، ومظهر من مظاهر الروابط الاجتماعية والقيم الخلقية.
على أن هذه الحياة لا يزال يشوبها كثير من اللبس والغموض، ولا تزال تكتنفها ظلمة كثيفة في كثير من أفيائها وإن أخذ بعض علماء الاجتماع - يدفعهم في ذلك حب البحث والاستقراء والحاجة الملحة إلى المعرفة - يبددون ما أحاط بها من ظلمة، وما اكتنفها من شوائب.
ومن النواحي التي درسها علماء الاجتماع ناحية جليلة خطيرة لها أثرها المباشر في الحياة الاجتماعية وفي مقومات المجتمع البشري أيضاً: هذه الناحية تعرف بالتبعة والتي عرفها المجتمع في الوقت الذي عرف الإنسان فيه العمل الاجتماعي واضطلع به، إذ ذهب هؤلاء العلماء إلى أن التبعة كانت معروفة عند أكثر الأمم والشعوب القديمة. وقد استمدت بعض المجتمعات الحديثة نتفاً من قوانينها ونظمها فدمجتها فيما ابتكرته من نظم وقوانين حملت الإنسان تبعة ما يقوم به من عمل اجتماعي أو أدبي أو غيره. والواقع أن المجتمعات البشرية تختلف باختلاف درجتها في سلم الحياة

والارتقاء. فعلى قدر ما يكون المجتمع البشري من الرقي والحضارة يحتاج إلى نظم جديدة تتلاءم مع الحضارة والرقي اللذين أخذ
بهما؛ فالمجتمعات والحالة هذه لا تتمشى على نظم واحدة، ولا تتقيد بقوانين واحدة، بل لابد لها من نظم مختلفة وقوانين متباينة تميز المجتمع الواحد عن الآخر وتصور نفسية أفراده وبيئتهم ودرجة رقيهم وحضارتهم.
بقيت مبادئ التبعة التي أخذ بها المجتمع البشري القديم، ردحاً من الزمن - قل أو كثر - خافية على كثير ممن يعالجون البحوث الاجتماعية حتى كشف عنها بعض كبار الباحثين ممن درسوا المجتمع القديم دراسة مكنتهم من إدراكها إدراكاً قد يكون تاماً أو لا يكون، بعد أن وقفوا على خصائص الحياة الاجتماعية التي سادت ذلك المجتمع، وبعد أن تفهموا المقومات الاجتماعية العديدة. وما زال الباحثون الاجتماعيون من ذوي الاختصاص يسبرون غور هذه الحياة وهذه المقومات الاجتماعية بعدما درست آثارها، وعفت رسومها أو كادت، فراضوا صعابها وجلوا شكوكها إلى أن وقفوا على عناصرها وعواملها، وكشفوا عن أسرارها وخبيآتها؛ وهم إلى ذلك - أي الباحثون - يؤمنون بأن القدامى من أفراد المجتمع كانت لهم من الآراء الفطيرة، والتفكير الفقير، والتقدير الهزيل، ما حملهم على إلقاء التبعة لا على عاتق كل فرد من أفراد المجتمع فحسب، بل على كل الكائنات الحية من حيوان وجماد أيضاً.
بدأ علماء الأجتماع، في العصر الحاضر، يدرسون المبادئ التي من شأنها أن تجدد كل عمل يقوم به الفرد في مجتمعه وما يتبعه من عقوبة وقصاص على ضوء علم النفس الحديث، وعلم الأمراض النفسية بعد أن كان المجتمع القديم يقيم حدها على كل فرد من أفراده، دون أن ينظر إلى نفسية هذا الفرد وإلى الأمراض المتصلة بها التي تتعاوره إبان حياته، بل كان مآل نظم المجتمع القديم فرض العقوبة على أي امرئ ارتكب جرماً أو اقترف إثماً.
والتبعة ليست، في الواقع، إلا نتيجة لعمل اجتماعي، شرعياً كان أو غير شرعي، يخالف ما تعارف عليه المجتمع وما ألفه الناس، أو بعبارة أخرى نتيجة أعمال وأفعال اجتماعية يقوم بها أفراد المجتمع تتعارض مع القوانين أو النظم الموضوعة التي تستوجب التبعة، فإذا ما خرق امرؤ حرمة الآداب والأخلاق، أو نكث عهداً من العهود الاجتماعية، أو اتهم برقة في دينه أو وطنيته، أو احتفظ بعلاقة غير شرعية مع فتاة، كان ذلك كافياً، في نظر المجتمع،
لأن يحمل تبعة عمله وأن يعدَّ مسؤولاً.
ولابد للمرء أن يتساءل عن الأعمال التي قد ترضى الجماعات الإنسانية أو تفضيها إذا ما قام بها، ولابد له من أن يتفهم التقاليد والعادات التي تدنيه من المجتمع أو تبعده عنه، كي يستبين طريقه على ضوئها، ويتمشى حسب نظم المجتمع لئلا يقحم نفسه في مآخذ عنيفة ومزالق خطرة تستوجب التبعة والعقوبة.
وماذا يعني بالتبعة؟. . . هي قيام امرئ بعمل ما، في مجتمعه أو في مجتمع آخر، في حالتي النفع والضرر. فالمرء الذي يقدم على أعمال من شأنها تحدي النظم القائمة وخرقها والتي قد يتضرر منها المجتمع الإنساني يكون مسئولاً عن أعماله هذه، كما أن المرء الذي ينشط إلى المحافظة على الآداب والأخلاق، والذي يلذ له خدمة الأمة والإخلاص لها والتفاني فيها يكون مسئولاً عن هذا العمل أيضاً. فالتبعة إذا تقع على عاتق المرء في الحالين المتقدمين وإن اتجه كل منهما اتجاهاً يختلف والآخر جد الاختلاف من حيث الوسيلة والغاية؛ وإذا ما أبدلنا العقوبة بالمكافأة واللوم بالثناء، فمن هو الذي يستحق العقوبة واللوم، ومن هو الجدير بالمكافأة والثناء؟. . . مما لا مشاحنة فيه إن الإنسان يكافأ على عمله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره. . .
ألا ترى أن الأب يكافئ ابنه الأديب الوديع ويعاقب الطائش الشرير؟. . . وكذلك المربي؛ إلا تراه يثني الثناء العاطر على الطالب الخلوق الطيع، وينحي باللائمة على النفور المتمرد؟! والحكومة، ألا تشعر أنها تكافئ رجالها المخلصين والعاملين بالأوسمة والرتب، وتعاقب المجرمين والخائنين بالسجن والإبعاد والقتل أحياناً؟. . . ألا ترى أن الجماعة البشرية قد أعدت جوائز قيمة، أدبية ومادية، للأفراد الذين يحملهم الإخلاص ويدفعهم الوفاء على التفكير بترقية المجتمع وتخفيف الآلام عن الإنسان، ورفع مستوى

الحياة الاجتماعية؟ أليس كل ذلك يدخل في حدود التبعة الاجتماعية على اختلاف شكوكها وتباين غاياتها؟! على أن العلماء لم يقصدوا بالتبعة إلى المعنى الذي ذهبنا إليه، ولم يتجهوا الاتجاه الذي أخذنا به، ولكن هي الحقيقة وهو الواقع! ولمَ لا يكون المرء مسؤولاً عما قام به من صالح الأعمال كما يكون مسؤولاً عما جنته يداه من إثم أو جريمة؟! وما التبعة في الواقع إلا
صدى تلك الحياة الاجتماعية التي ارتضاها الإنسان لنفسه، وتلك البيئات التي تكتنفها التقاليد والعادات. . .

ومن هو المسئول - في الدرجة الأولى - في نظر المجتمع لقد أعطت الجماعات الإنسانية أجوبة تختلف باختلاف حياتها الاجتماعية وبيئتها وثقافتها، وتتباين بتباين أخلاقها وتقاليدها وعاداتها. على أنها حُملت الإنسان - منذ الأزمنة القديمة - التبعة، باعتبار أرقى المخلوقات الحية وأشرفها وأذكاها، وأقربها من المدينة والحضارة، حيث يقوم بدوره الرئيسي في المجتمع، إذ أنه ينعم بعقلية نيرة تدفعه إلى استخدام الحيوان لشؤونه اليومية والمعاشية والاستفادة من النبات والجماد لمنافعه الشخصية والبيتية التي تتطلبها حياته الاجتماعية. وهو - فوق ذلك - يملك من الأهلية والاستعداد ما يجعله يحمل تبعة ما يقوم به من عمل. لذا نجد الإنسان شاعراً بالتبعة ورازحاً تحت ثقلها منذ اليوم الذي قتل فيه قابيل أخاه هابيل

ولا يمكن الأخذ بالتبعة أو الإقرار بها إلا في حالة خاصة، بمعنى أن الإنسان إن لم يتمتع بعقل سليم وتفكير صحيح فلا جناح عليه بما يأتيه من عمل شائن أو فعل قبيح؛ لأن سلامة العقل وصحة التفكير شرط أساسي - في بعض المجتمعات - لإلقاء التبعة وتحمل العقوبة، وإن أقرَّ البعض هذه التبعة على من لم تتوفر فيه هذه السلامة والصحة، حتى أن بعضهم ذهب إلى إلقاء التبعة على الطفل والمجنون والأبله والمعتوه أيضاً. . . وتغالت المجتمعات القديمة، والحديثة المتأخرة، فذهبت إلى أبعد من هذا الحد، إذ ألقت التبعة على الحيوان والجماد!!

وقد تتعدى هذه التبعة من شخص إلى آخر وإن لم يجمعها نسب أو قرابة، وتتجاوز الفرد إلى الجماعة، وإن لم تكن بينهما صلة أو علاقة، وتعرف حينئذ بتبعة الجماعة، لكنها تبقى - في غالب الأوقات - تبعة غير محدودة بيد أن الجماعة التي تتحمل التبعة تكون ذات صلة مباشرة أو غير مباشرة - ولو إلى حد ما - بصاحب الجريمة أو الإثم، باعتبار أن أفرادها وحدة لا تتجزأ، وباعتبار أن المتهم فرد منها، فالجريمة التي يؤخذ بها هذا المتهم تؤخذ بها الجماعة، والتبعة التي يتحملها تشاركه الجماعة فيها، والعقوبة التي تفرض عليه تنالها أيضاً على حد سواء؛ وتبعة الجماعة إنما تكون في الجماعات التي تعيش قبائل

منفصلة الواحدة عن الأخرى، وفي المجتمع القديم الذي يتبع نظام التوعية والجماعت التي يرأسها شيخ هو أكبر أفرادها سناً ومن هذه الجماعات ظهرت أول مبادئ تبعة الجماعة التي تتعدى أقرب الناس إلى أبعدهم عن المتهم.

وهنالك أيضاً بعض الجماعات ممن يقرون مبدأ التبعة الفردية في جرائم خاصة، ومبدأ تبعة الجماعة في جرائم أخرى؛ ففي حالة الجرائم الصغرى كالسرقة أو القتل، إنما تكون التبعة فردية، وتكون جماعة في حالة الجرائم الكبرى كالخيانة الوطنية وخرق حرمة الدين، والثورة على الحكومة وقتل الملك وغيرها. . . ففي هذه الحالة تسود التبعة جميع أفراد عائلة المتهم دون النظر إلى تفاوت درجة القرابة والأعمار بينهم؛ فالجد والأب والأعمام والأولاد والحفدة يساقون إلى منصة الإعدام كالمجرم على حد سواء؛ أما أقرباؤه الأدنون، فيعاملون معاملة العبيد ويصبحون أرقاء، توزعهم الحكومة على قادة الجند بمثابة رهائن، ينقطعون للعمل، ويحبسون على الخدمة، وتصادر أملاكهم، وتحجز أموالهم، كما صودرت وحجزت أملاك أولئك من قبل.

كذلك كان عدم الوفاء لصاحب الجلالة، أو عصيان أوامره المقدسة، يسبب للفرد عقوبة تذهب بحياته، وتودي بأسرته إلى العذاب البئيس، وتهوى بهم إلى أدنى درجات الاسترقاق والعبودية؛ أما هو، فيعدم ويحرق، وأما زوجه وأولاده، فيصبحون أرقاء؛ أما أبواه وجداه واخوته وأولاد أخيه، فينفون من الأرض إلى أمد بعيد.

وهكذا نجد أن هذه العقوبة العنيفة التي تعرَّض صاحبها وأسرته ومن يلوذ به إلى الموت، والتي تجعل من ذوي قرابته عبيداً أرقاء، لم تستأثر بها أمة دون أخرى، بل

اشتركت أكثر الأمم فيها مع اختلاف العقوبة من حيث العنف والقسوة باختلاف شرائعها وقوانينها. ففي فرنسا مثلاً - أيام قيام الملكية في ربوعها - كانت عقوبة النبيل والشريف الذي يرتكب أية هفوة في حق الملك أو الإمبراطور، هي تجريده من رتبة العسكرية، وإنزال درجته النبيلة، وإبعاده مع أسرته خارج المملكة، أو الإمبراطورية، مع حرمانه هو وأسرته من العودة ثانية إلى بلاده ووطنه حرماناً قد يكون أبدياً؛ وإن قدر له أن يعود دون عفو خاص من صاحب الجلالة، فإنه يعدم حالاً دون أية محاكمة أو أي تحقيق؛ أما إذا لم يكن نبيلاً، وكان ينتسب إلى عامة الشعب، فعقوبته كما يقول الأستاذ تماثل عقوبة الشريف فضلاً عن هدم منزله

وإعفاء أثره. وإذا تعمق الباحث في درس هذه التبعة، ردَّ دواعيها ومسبباتها إلى ذلك الاعتقاد السائد - قديماً وحديثاً - أن صاحب الجلالة هو خليفة الله في أرضه، لذلك كان لهذا الاعتقاد من الأثر القوي في نفسية الشعوب والأمم ما جعلها تشرع هذه العقوبة العنيفة لحفظ خليفة الله من الاغتيال وحرصاً على شخصيته المقدسة.

والأمة العربية لم تعرف في سالف عهدها التبعة الفردية بل كانت آخذة تبعة الجماعة باعتبار أنها ترى نفسها قائمة على التكتل وعلى المبادئ القبلية وإفناء الفرد إفناء كلياً في المجموع. وكم من حرب ظل ضرمها يحتدم بين قبيلة وقبيلة لجريمة ارتكبها أحد أفراد هاتين القبيلتين!. . . وكم من تضحية فرضت على فرد لم يقترف إثماً. . .! أو على أفراد قبيلة لم يجنوا جريرة أو ذنباً!. لقد كان رأس القبيلة هو المسئول الأول والمباشر عن عمل كل فرد من أفراد جماعته، كما أن القبيلة بأجمعها مسئولة عن هذا العمل أيضاً. . . وجاء الإسلام بالشريعة السماوية السمحة، فمحا تبعة الجماعة وأقر تبعة الفرد ورسم حدودها وأمسى الفرد مسئولاً عن عمله دون غيره مهما ترادفت آثامه وتعددت جرائمه، ولا تزروا وازرة وزر أخرى. . .

إلا أن العرب عرفوا، قبل الإسلام، نوعاً من التبعة الفردية، في حدود ضيقة محدودة، كانت قائمة ما قام (نظام الخليع) على معنى أن القبيلة كانت تكره في بعض الأحايين على مجازاة أحد أفرادها لخصال وخلال لا تقره عليها أو تتنافى مع بيئتها وأخلاقها - فتخلعه من ذمتها وتبعده عنها وتقطع صلته بها؛ فالمرء الذي تلفظه القبيلة يتحمل هو وحده تبعة عمله وليس لقبيلته أن تتحمل شيئاً من هذه التبعة كما أنها لا تطالب بدمه إذا أهدر.

إن هذه الظواهر الاجتماعية، في صدد تبعة الجماعة ليست في الواقع، إلا صدى تلك الحياة الاجتماعية الضيقة وصدى ذلك النظام الاجتماعي الضعيف. وكثيراً ما كانت هذه التبعة جد عنيفة وقاسية ينوء الفرد بحملها ويرزح تحت ثقلها.

لقد تقلص ظل هذه التبعة عن الإنسان في مجتمعنا الحاضر وعفت رسومها وأمحى أثرها إلا عند الجماعات المتخلفة عن المدنية والحضارة واتجه إلى التبعية الفردية إذا أصبح الإنسان مسئولاً عما يرتكبه من آثام وجرائم، ولا شأن لأسرته وذوي قرابته فيما يرتكبه من إثم وجريمة، وإن كان بعض الأمم التي بلغت أقصى درجات المدنية والحضارة، وأسمى مراتب الرقي والتمدن، تأخذ بها أحياناً في حالات خاصة إبان الحروب والثورات.

بيروت - (البقية في العدد القادم)

رفعة الحنبلي

من الأدب الروسي

أنطون تشيكوف

الكاتب الروسي العالمي

(من كتاب (رجال القصة الروسية الحديثة) لسيرج برسي)

للأستاذ خليل هنداوي

من عادة الناس القول: (بأن الإنسان لا يحتاج إلا إلى مترين من الأرض، لكن هذه الحاجة هي حاجة الجثة الهامدة، لا حاجة الإنسان الحي الذي لا يكفيه إلا هذا الفضاء. لا يطلب الإنسان من الأرض قيد أقدام، ولا يطلب مسكناً، وإنما يطلب الأرض بأسرها، والطبيعة بسعتها، لكي تتفتح على آفاقها كل خصائصه ومزاياه بحريته؟)

هذا ما قاله - تشيكوف - عن أبحاثه ورسالته حين دخل الحياة الأدبية. ولد سنة 1860، وبعد أن أنجز دراسته في جامعة بلده أتم دراسة الطب في موسكو حتى غدا طبيباً

مشهوراً، لكنه أخذ يسأم هذه الحياة العملية، ويستهويه عامل الأدب. فنشر عدة أقاصيص في بعض الصحف، وكان يؤجر عليها، لأن موارده في العيش كانت ضئيلة. وقد جمعت قصصه الأولى ولم تكن مما تبعث على الرضا، لأنها قصص كتبت لاجتذاب القراء وتسليتهم في أوقات فراغهم، دون أن تنطوي على فلسفة معينة، أو غاية معلومة. لكن الكاتب سرعان ما تبلورت نفسه، واتسعت آفاق عقله، فترك ذلك الجو الصبياني، ودخل في جو ملؤه دراسة الإنسانية، وهذه الدراسة طوقت روحه بالحزن والكآبة. أضف إلى ذلك أن بلده كان يكابد عناء الحروب في الحرب الروسية التركية، هذه الحرب التي كان ثمنها تحرير بلغاريا مذ أوحت إلى الروس أنفسهم بإدراك حريتهم وأثارت في الشباب العزم للعمل على الوصل إلى هذه الحرية مهما بلغ الثمن وأرهقت المقادير. لكن هذا الأمل تحطم، وهذه الجهود ذهبت عبثاً، لأن الرجعية قد ظفرت، وبظفرها طارت الأحلام، فعرا النفوس شيء من الذهول أو التحذير، ومن كان في قمة العزيمة والأمل جاء انتكاسه عظيماً، ووشكان ما دب في هذه القلوب النشيطة دبيب اليأس والعجز، فمن القلوب من لاذ بالعزلة لوحده كأنه لا يريد أن يبدي جراحه، ومنها من اعتصم بالعمل ليذهل، ومنها من ظل يرسل الأنين تلو الأنين لعلة يشفى. وهكذا يقال إن ضباباً رمادياً أحاط بحياة القوم، حاملاً معه الكآبة.

هذه هي المشاهد التي وقف عليها - تشيكوف - براعته، ولم تنتج روسيا مثله كاتباً استطاع أن يصور لنا اضطرابات هذه الفئة من الناس التي كانت تمشي خابطة على وجهها بدون فجر ولا رجاء.

يقول أحد أبطاله مفسراً الأزمة الخلقية: (ليس لي من العمر إلا ست وعشرون، ولكن أراني لا أجهل أن الوجود يمشي بلا غاية، خالياً من أي غرض، وكل شيء فيه باطل زائل. تتشابه فيه حياة ساكن جزيرة (سخالين) مع حياة ساكن (بنس)؛ والفرق بين دماغ (كانت) ودماغ ذبابة ما لبيس له قيمة حقيقية، وأن لا شخص في هذا الكون على ضلال ولا على صواب)

وفكرة - العدمية - بكل ظواهرها المروعة تنعكس كثيراً ما في آثار تشيكوف، وأقصوصة (القبلة) ليست إلا وجهاً من هذه الظواهر. فالعريف (ريابوفيت) بتأثير قبلة غير مقصودة لبث بحلم بالحب طوال صيف؛ فهو ينتظر متألماً ساعة العودة ليرى جميلته المجهولة، لكن حلمه لم يكن إلا وهماً، إذ لم يكن هنالك أحد ينتظره. وبينما كان في أصيل يوم يسرح على ضفة جدول استسلم لتأملات تتفجر من قلبه: (الماء يفر إلى حيث لا يعلم أحد، ولا لماذا. إنه يفر على الحالة التي مرّ بها في أيار الغابر. إنه عبر من الجدول إلى النهر الكبير، ومن النهر الكبير إلى البحر، ثم إنه تبخّر واستطار، ثم استحال مطراً. فهل أرى ذات الماء يركض جديداً على مرأى من عيني؟! ما غاية ذلك ولماذا؟! وهكذا أصبحت الحياة عند هذا العريف لغزاً معمي لا يدركه العقل، تمشي على غير غاية، هائمة بدون قرار.

وقد أعطانا تشيكوف نماذج عدة لأفراد انتقاهم من بيئات مختلفة؛ فكأنما يأخذ القارئ بيده، يقوده إلى أي مكان يستطيع أن يعرض عليه فيه صوراً من المجتمع الروسي الحديث: في الحقل أو المصنع أو الطريق. وهو بعد ذلك لا يستقر في موقف، ومهما كانت المواطن التي يرتادها القارئ وراء آثاره لا يخرج منها إلا مشبعاً بهذه العزلة الروسية المؤلمة.

يقدم لنا تشيكوف مثلاً للحبة الضالة فتى كثير الأحلام، يضع رأسه حيث تطلع عليه منه أية فكرة جديدة. قد بحث عبثاً طوال حياته عن شكل عملي يلائم مثله الأعلى الذي يراه، والآن تركه القدر أباً أو ترك له ابنة تكرهه على كسب قوتها وقوته، هو يحب ابنته، ولا يفتأ

يردد اللوم لها على كثير من العيوب في حياتها القلقة. في أمسية ساهرة، وجدت امرأة أيم - هذه الفتاة العابسة الشاردة، فأخذت تعزيها بكلمات لطيفة، وفي هذه الساعة تحدث الأيمان وشكا كلاهما للأخر ما عنده، وأذاع الرجل عليها قصة حياته كلها، وما ساقه إليه القدر، فاهتمت بحديثه اهتماماً شديداً وأقبل بقلبه وعاطفته. حتى ليظن الناظر أن القدر لم يجمع بينهما باطلاً، وإنما لأمر يريده في الجمع بينهما، وفي الغد ركبت المرأة العجلة، وكان يساعدها على الركوب، وإن الآذان لتنتظر منهما الكلمة التي يجب أن تجمع ما بينهما، ولكن لم يقل واحد هذه الكلمة. انطلقت العجلة ولبث

الرجل جامداً كالتمثال. ينظر بعاطفة فيها فرح وألم إلى الطريق البعيدة التي توارت عليها السعادة التي فرت من بين يديه منذ قليل.

وقصة (الغارة) تقدم لنا مثلاً لعاطفة الخوف الحادة التي تغزو فجأة نفس فتى متكبر اصطدم ببعض الحقائق. فالطالب (فاسيليف) وهو ذو طبيعة حادة دخل للمرة الأولى بيت الهوى ولكنه لم يستطع أن يتحمل التأثيرات المرهقة التي كان يكابدها؛ وغزت رأسه أفكار مظلمة أحاطت به من كل مكان. فكان يصيح آخذاً برأسه: (أحياء. . . أحياء. . . لو حطمت هذا المصباح لوجدتم أن في هذا شراً، ولكن - هنالك - ليست المصابيح هي التي تحطم، ولكن حيوات الخلائق البشرية. . . أحياء) ثم أخذ يفكر في وسائل استنفاذ هؤلاء المنكوبات، ويبدو له أن يجلس على قارعة الطريق مخاطباً كل عابر: (إلى أين تمضي؟ ولماذا؟ إخش الله؟) لكن هذه الفكرة سرعان ما غلب عليها الألم والريبة من نفسه، وزاد عليه الألم حتى سحق قلبه، ولكن فتيان مجتمعه لم يتألموا من أجله، وإنما كانوا يعربون غير ملتفتين إليه. فأحس الطالب أن عقله يفلت منه. فقيدوه حتى إذا ما شفى مما هو فيه ذكر عواطفه الأولى، وخجل منها، وهكذا حطم مذهبه، وخفق حلمه.

في الأوساط الاجتماعية، ومرابع العمال يكاد الإنسان يبدو أكثر ابتعاداً عن الأثواب السطحية والمظاهر الكاذبة. فإن المكافحة المتواصلة ضد الفقر لم تترك فرصة لغيرها. الحياة قاسية تحطم بلا رأفة أحلام السعادة، ولا ندع للإنسان - على الأغلب - رفيقاً يقاسمه أثقال الهموم والرزايا حتى الصغيرة منها. وقصة السائق تعطينا مثلاً لهذه العزلة، هذا السائق المعدم فقد ولده فلم يأنس في نفسه القدرة على احتمال هذه المصيبة. ووجد فيها ما يدفعه إلى أن يحدث الناس بها. ولكنه كان يبحث عبثاً عمن يستمع إليه. وفي يوم من أيام عمله ألقى نفسه وحيداً مع فرسه فناجاها: (نعم يا فرسي الصغيرة! إنه مات ولدي الحبيب، وتوارى سريعاً من دون علة. لنفرض أن لك مهراً، وهذا المهر مات على حين غرة، ألا يؤلمك فقده؟) أما الفرس فقد رنت إليه بعينين هادئتين لامعتين، ونفخت من أنفاسها بين يدي صاحبها الذي أنجز قصة موت ولده.

ولتشيكوف قصص رائعة وقفها على وصف الحياة للقروية التي تشبه من وجوه عدة حياتنا القروية. ومن ذلك (القرويون)، فنيقولا خادم في أحد فنادق (موسكو) ساوره داء عياء ووجد نفسه مضطراً إلى مغادرة عمله. وكان كل ما يقتصده يذهب إلى أيدي الأطباء والصيادلة. وعندما يئس من شفائه قرر أن يعود إلى قريته حيث أهله وأخوته، لأنه يؤثر إذا فاتته الحياة أن يموت على مرأى من أهله. لقد تر القرية حين كان فتى ثم لم تقع عليها أنظاره بعد ذلك. عاد هو وزوجه وابنته، فوجد أباه وأمه وأخوين له مع أزواجهما وأولادهما في هوان وفاته، وألقى أن الأسرة كلها تأوي إلى زريبة مظلمة قذرة يرن في أجوائها الذباب؛ فأدرك أن بقاءه في موسكو كان الأجدر به، ولكن هذا أمل خادع لأنه لا يملك أجر العودة. إذن يجب البقاء في هذا اللحد الذي أختاره. وهكذا استقبلتهما هو وزوجه حياة كلها تعب ونكد وشقاء ليس فيها إلا النزاع والصفع والهوان بدون نهاية. إنه يريد أن يعود، لأنه مل هذا الوجود؛ ولكن أني له المال؟ فزادت صحته سوءاً على سوء؛ فوعده صاحب قديم بشفائه، فقام بجملة تجاريب كانت القاضية عليه. وقضت زوجه من بعده شتاءها في القرية مع ابنتها. فأسرع دبيب الهم بخطوط الكهولة إلى وجهها الذي كان يحار فيه ماء الشباب، ومالت قامتها، وتبدلت حالتها. ومن ذا الذي يبقي على الهم؟ أقبل الربيع والأم وابنتها تدخلان الكنيسة ثم تزوان ضريح فقيدهما، ثم تطوفان سائلتين في الطرق! وتشيكوف نفسه يقول: (إن حياة عمالنا هي سوداء تمشي في طريق الفسق، أما حياة الشعب: عماله وفلاحيه، فما هي إلا ليل مدلهم ملؤه الجهل والفقر والألم)

إن تشيكوف ببراعته الفائقة، ونظراته الشخصية، يصف الحياة الإيجابية والسلبية؛ وهو ليس بذي طبيعة هجائية، لأن كتابته يغمرها العطف العميق. وهو لا يسخر من أبطاله، وإنما يشفق عليهم. عبقريته هادئة، مفكرة، عميقة، ولكن يخيل أحياناً أن هذا الهدوء ليس إلا قناعاً. وقد قال ناقد فيه: (إنه قلم ذو حنان) وهو في قصصه ينبوع فياض، لا ينفذ له موضوع، ولا يغتر له تحليل برغم بساطته. وهو لا يُعنى بالإسهاب الكثير، والاستطراد

البعيد، لأنه يكفيه أن يطرق الجانب الحي من الموضوع.
جرب تشيكوف الكتابة المسرحية، وله منها القوى المتين، ومن ذلك مسرحية (الأخوات الثلاثة). هؤلاء كن يقضين حياتهم في بلدة حقيرة تبعث على السأم، خالية من الرجال اللامعين، وليس فيها إلا من تشابهت وجوههم، وتشاكلت نفوسهم، كأنهم نسخة واحدة تكررت نسخاً. وكان حل هؤلاء السفر إلى موسكو، لكن بلادتهن قضت عليهن بالبقاء، فليتهن يتناقشن ويتجادلن متفلسفات في مواضيعهن. وقد اتفق أن نزل المدينة ثلة من الجند، فماجت فيهن الحياة، وكان لهن حوادث حب مع العرفاء دامت حتى يوم الرحيل.
قالت الكبرى: إنهم رحلوا. . . سنبقى وحدنا! والحياة الساكنة ستبدأ.
فقالت الثانية: إنما يجب العمل، لا شيء يعوزنا إلا العمل!
وقالت الثالثة معانقة أختيها في حين راحت الموسيقى العسكرية تعزف لحن الرحيل: يا أختيَّ! إن حياتنا لم تنته بعدُ إننا سنحيا.
هذه الموسيقى تصدح طربة. . . رويداً رويداً! إنني أحس به. . . سنعلم غداً لماذا نحيا ولماذا نتألم!
هذه ناحية قوية من نواحي فلسفة تشيكوف البسيطة، وهي بمجموعها تنم عن (عجز عن الحياة مشوب بأمل مبهم. . .)
إن تشيكوف في الحقيقة منحة الأدب الروسي، وغرسة لم تتعهدها إلا تربة عرقه. ففي نزوعه إلى الحرية ترن ألحان تولستوي؛ وفي ميله إلى شراء الماضي بالألم يلوح وجه (دوستوفسكي) كأنما آثار كبار الروس تتبين خلال سطوره.
وقد يشبه تشيكوف من نواحٍ عدة (موباسان) و (إيبسن) لكنه لا غموض ولا إبهام فيه، لأن الغموض النرويجي لا يلائم روح الأدب الروسي الذي ينزع إلى مجابهة المسائل الملعونة في الحياة مجابهة صريحة عنيدة. ولقد حار في تحديد قيمته النقاد فمنهم من وصفه بأنه كاتب (خلى) لأن كتابته لا تدعو إلى الثورة التي برزت في بعض آثار غيره، ومنهم من وجد فيه متشائماً لا يتفاءل في شيء من الحياة الروسية، لأنه ملتفت إلى وصف الآلام أو الجهود النازعة إلى طلب حياة تكون أحسن أثاثاً ورئياً.
ولعل في الرجوع إلى بعض سطور له ما يفيدنا في توضيح صفات هذه الشخصية الفذة، ومما يقوله: (إنني أخاف أولئك الذين يفتشون عن ميول ورغبات خفية بين السطور، وأولئك الذين يريدون أن يجدوا فيَّ محرراً أو محافظاً. . . إنني لست من ذلك في شيء. . . لست بالمحرر ولا بالمحافظ، ولا بالراهب ولا بالخلي، وإنما أنا رجل أمقت الكذب والصولة في أي مكان وتحت أي مظهر. . . لا أريد أن أكون إلا فناناً. . . وهذا كل شيء) ولكن هذا الفنان الحر الذي أبغض الكذب والصولة في المعنى الذي تفهمهما لم يستطع أن يكون إلا محرراً للإنسان بأوسع معنى للتحرير، ولم يكن بذلك المتشائم الذي تمثلوه، لكنه كان كاتباً يتألم لمثله الأعلى، ويوقظ بكتاباته الأمل في الخروج من غسق الحياة التي وصفها. وقد تبدي في بعض مراحله أنه مؤمن بمستقبل الإنسان والإنسانية، فيقول في محاورة له لبستانه: (أتعلم بعد جيلين أو ثلاثة أن الأرض ستصبح بستاناً زاهراً وإذ ذاك كم تغدو الحياة جميلة؟) وهو الذي يقول بأن الإنسان قوة الأرض المركزية (وينبغي للإنسان أن يعلم أنه أسمى من كل ما في الطبيعة. . . إننا أكوان سامية عظيمة؛ وحين يتسنى لنا أن نعرف كل قوى العبقرية البشرية تغدو قرناء للآلهة)
لكن هذه الآمال الكبرى لم تحل بينه وبين وصف عجز الإنسان في كل زمان ومكان، فهل تأتي ذلك منه بطريق المناقصة؟ نقول: لا، لأن تشيكوف إذا لم يشك لحظة في تقدم الإنسانية فإنه ليتألم، ويبعثه على الألم تشاؤمه الأسمى للنزاع إلى السمو؛ وهذا التشاؤم الإنساني تجاه ما يخور العقل أمامه عجزاً، وهذه العاطفة تتألم وتيأس إزاء خبط الحياة وعصف الموت.
يقول أحد أبطاله: (إني إذا ما خشيت الحياة ولم أفهمها، فعندما أرقد على بساط من الأعشاب. وأتأمل طويلاً في حشرة ولدت في مطلع الليل، لأتفهم شيئاً من وجودها. يخيل إلى أن حياتها ليست إلا مرحلة من الرعب والذعر، فيها أرى نفسي، وأتمثل خاطراتي. . . كل شيء يروعني لأني لا أفهم العقل ولا نهاية الأشياء. لا أفهم شيئاً، ولا

أدرك أحداً. . . أما أنت فإذا كنت تفهم فأحر بي أن أهنئك. . .) و (حين ينظر الإنسان طويلاً في السماء الزرقاء المترامية، فالأفكار المنبعثة والنفس تتحد اتحاداً خفياً في عاطفة عزلة عميقة،
(وخلال لحظة واحدة يشعر الفكر بوحدة الموت ولغز الحياة اليائسة المروعة
إن هذا اليأس الشامل، وهذا الشقاء الذي تحدث عنه تشيكوف يتمثلان في آثار كل الشعراء والفنانين الروس البارزين. ومن منهم لم يرسم الحياة بهذه الخطوط المجعدة، ولم يجعل فؤادها مغموراً بهذا اليأس!
على أن تشيكوف - بما أوتي - رأى وأدرك وجهي الحياة: وجه تقدمها التاريخي والاجتماعي، ووجهها الآخر الذي يحيط بها من كل ناحية: هذا الوجه المظلم المجهول الغائم تحت أنفاس الموت الباردة.
(حلب)
خليل هنداوي
في المخبأ. . .
للأستاذ محمد محمود دوارة
عشنا لنرى ما لم يخطر لنا على بال. واضطرتنا حوادث الأيام إلى أن نأتي أعمالاً لو أنا أتيناها قبل اليوم لنسب إلينا الجنون المطبق!. . .
انقلبت جميع الأوضاع رأساً على عقب.
كان الظلام مبعث الرهبة والخوف، فأمسى هو الملجأ منهما كان المنزل هو المكان الذي يتوفر فيه أمن المرء وطمأنينته فأصبح الهلاك كل الهلاك في البقاء بالمنزل.
كانت الشجاعة في الثبات أمام الأخطار والكاره ومجابهتها وجهاً لوجه فإذا هي في الفرار والهرب.
كان النهار معاشاً والليل لباساً فإذا النهار غير معاش والليل هلاك.
كان القمر فتنة الكون في لياليه الباهرة، وكان نجوى الشاعر والعاشق والفنان، فإذا هو علامة من علامات الشر، ونذيرٌ من نذر الدمار والخراب.
فسبحان الذي يغير ولا يتغيّر. . .
بعد منتصف الليل والكون غارق في بحار الكرى تدوي في الفضاء فجأة أصوات منكرة متقطعة متكررة لا عهد لنا بها من قبل، فكأنه قد نفخ في الصور، وجاء البعث والنشور.
يثب المستدفئ من فراشه الوثير وكان لو خيَّر بين تركه أو خسارة نصف ماله لضحّى بالمال غير متردد في الاختيار.
وتمتلئ الشوارع في تلك الساعة التي اعتادت فيها الفراغ إلا من متسكع لا مأوى له، أو حارس تعلم بالتجربة كيف ينام وهو واقف، أو معربد جعل من ليله نهاراً.
رجال ونساء وصبية وأطفال كلهم مفزع مضطرب. كلهم صامت كأن لم يخلق له لسان ولا شفتان، وكلهم سريع الخطى لا فرق بين هرم وشاب، ولا بين عجوز وفتاة في عنفوان الصبا والشباب.
قف في تلك الساعة وتأمل معي الناس. . .
هذه جارتي الحسناء التي اعتادت أن تقف أمام المرآة نصف النهار لتخرج إلى الناس فتنة وسحراً لا يقاومان، هاهي قد خرجت تهرول بوجهها الذي خلقه الله. لم تمكنها المفاجأة ولم
يمكنها الخوف من الكذب على عباد الله.
وهذا جاري الذي لم أكن أراه ولم يكن يراه الناس إلا منتفخ الأوداج مصعر الخد متبختراً يمشي الهوينى كأنه الهودج أو الديك الرومي، هاهو الآخر يهرول في مشيته ضارباً بأصول العظمة والكبر ومشية الحاكم عرض الحائط.
وهذا الرجل الذي قطع حبل السكون بضراعته إلى الله تعالى وبدعوة رسله وأنبيائه وأوليائه، هل رأيته في الصباح وسمعته وهو يسب الأديان جميعاً لسبب من أتفه الأسباب؟
ما أروع الفرق بين الليل والنهار في هذه الأيام!
وما أقرب المسافة بين إيمان الإنسان وكفره، وبين أمنه وخوفه وبين هداه وضلاله!
وفي المخبأ في كل ليلة من ليالي الغارات تستطيع أن تشهد وأن تسمع ما لا عين

شهدت، ولا أذن سمعت، قبل هذه الليالي السوداء!
دخل المخبأ متأخراً عن رواده بقليل رجل يحمل في إحدى يديه مصباحاً كهربائياً (بطارية) يستعين به بين الفينة والفينة على تعرف طريقه، فما كاد يطأ بقدميه بابه حتى ضغط زر المصباح ليرى ما أمامه، ولكنه سرعان ما ارتد إلى الوراء مفرغاً مضطرباً إذ تعالت صيحات الاحتجاج والتوبيخ الموجهة إليه من كل جانب.
- من هذا الحمار الذي يريد ضياعنا في شربة ماء؟!
- من هذا المجرم الذي يريد قتلنا؟!
- اطفئ النور أيها المغفل
- الله، الله. . . أتريد قتلنا بمصباحك كما قتل مصباح آخر قوماً آخرين بالإسماعيلية؟
ووسط ذلك السكون الرهيب والظلام الدامس انبعث صوت متحدث رزين تدل نبراته على فرط الرسوخ في العلم.
قال زاده الله علماً ومعرفة:
- الصمت مطلوب في هذه اللحظة يا إخوان، لأن طيارات الأعداء بها أجهزة خاصة لالتقاط أصوات المتكلمين وهي من الدقة بحيث لا يخفي عليها حتى همسات الهامسين. . . ضعوا ألسنتكم في أفواهكم، وإن استطعتم فاكتموا أنفاسكم على قدر الاستطاعة! بهذا حكم الله وبه قضى، ولا راد لقضائه سوى رحمته. واعلموا أن كل من يجازف بالحديث أثناء
تحليق الطائرات في الجو كأنه يريد أن يدل الأعداء على مكاننا، أو بمعنى آخر كأنه يريد القضاء على نفسه وعلينا جميعاً.
ولست أدري هل صدَّق الناس قول ذلك الخبير العجيب أم لم يصدقوه، فان واحداً منهم لم يعترض على ما قال ولم يحاول مناقشته، ولكني لا أشك لحظة في أن جارتي العجوز قد آمنت بكل كلمة من كلماته، وإلا فما بالها تكتم أنفاسها ذلك الكتم الشديد الذي جعلها في آخر الأمر تعلن إفلاسها في تلك المحاولة العسيرة قائلة: يفعل الله ما يشاء. . . إنني أكاد أموت اختناقاً.
ثم جازفت وعادت سيرتها الأولى في استنشاق الهواء ونفثه بالكيفية المعتادة وعند مدخل المخبأ مع بعض اللاجئين فراراً من الجو الخانق في داخله كان بيننا جندي من أهالي الصعيد يظهر من لهجته الجافة أنه لم يتلق أي نصيب من التعليم أو التهذيب.
ومما يدل على حاجته الشديدة إلى دروس في الذوق أنه اختار هذه المناسبة ليحدثنا عن جماعة لجئوا إلى مخبأ في بلد من البلاد المنكوبة بالغارات فأصيب ذلك المخبأ وهم فيه بقنبلة مباشرة نسفته نسفاً وجعلت من فيه أشلاء لا يعرف فيها القدم من العنق ولا المعصم من العامود الفقري!
وفي أثناء حديثه ظهرت أنوار المصابيح الكاشفة منعكسة على السحاب فأراد أحدنا أن ينتهز فرصة ظهورها ليحول التفاتنا إلى غير ذلك الحديث المقلق للراحة حديث الجندي اللبق! فقال وهو يشير بسبابته إلى حيث تلك الأنوار:
- انظروا! هاهي الأنوار الكاشفة قد بدأت عملها
ولكنه ما كاد يفعل حتى انقض الجندي على ذراعه الممدودة في الفضاء وإذا به يجذبها في شدة وعنف قائلاً في غضب ليس بعده غضب:
- أأنت مجنون يا هذا؟ أتريد أن ترى الطيارات ذراعك الممدود وسبابتك الموجهة إليها فتعرف مكاننا ولا تتركنا إلا أشلاء لا يعرف فيها القدم من العنق ولا المعصم من العامود الفقري كما حدث في. . .
واستأنف حديثه كما بدأه. . .
وردد الفضاء صوت انفجار أول قنبلة مضادة للطائرات، ثم تلاه أصوات متلاحقة لقنابل أخرى تتفاوت في الشدة والقوة فسرت في المخبأ دمدمة رهيبة تلاها ضمت كصمت القبور لم يقطعه إلا صوت امرأة تخاطب زوجها قائلة:
- هذا صوت قنابل الطيارات. إنهم يضربون البلد! لابد من الهجرة غداً
فأجابها في صوت ضعيف مستكين:
- ليست هذه قنابل الطيارات
- ماذا تكون إذن؟ لابد من الهجرة غداً. . . غداً من الفجر بإذن الله. هل جننت حتى

أعيش في هذا الجحيم؟
- لست هذه قنابل الطيارات. قلت لك إنها المدافع المضادة لها
- بل هي قنابل الطيارات
- ليست هي قنابل الطيارات
- بل هي قنابل الطيارات
- ليست. . .
وشفع كلامه في هذه المرة بحركة صاحت على أثرها المرأة صياحاً منكراً، وإذا بها معكرة زوجية من الصنف الحاد.
وطغا صوت المرأة على صوت أضخم المدافع وأقواها صوتاً
وكان الأستاذ كامل قد احتسى كأساً أو كأسين غير حاسب للغارات حساباً؛ فلما فاجأته غارة الليلة وهو في نشوته اللذيذة هبط إلى المخبأ وهو يلعن الحرب ومن كان السبب في شبوبها.
وهناك انتبذ ركناً قصياً واستسلم للتفكير
ولكنه لم يهنأ بجلسته طويلاً، إذ صاح صبي من الصبية كان يجلس إلى جواره قائلاً:
- هنا رجل سكران يا ماما. . . في المخبأ سكران طينة. . إنني أشم رائحة الخمر.
وأيدته امرأة عجوز قائلة:
- إن رائحته كبرميل من الخمر القذرة
وإذا بدردبيس أخرى تقول:
- إن وجوده بالخندق نجاسة!
فلم يسمع كامل أفندي إلا أن ينفلت من مكانه في سكون تاركاً القوم قبل أن يكشفوا أمره. . . ومن يدري ماذا يفعلون به حينئذ؟!
. . . وأقسم من تلك الليلة إلا يذوقها إلا نهاراً
في المخبأ عجائب لا تجتمع في مكان آخر، وفيه مفارقات لا تخطر على بال
هاهنا رجل جبان رعديد ينتفض من الفزع، بينما أخذت طفلة في الخامسة تشجعه وتهون الأمر عليه.
وهناك فتاة عابثة تضحك من كل شيء ومن لا شيء
في المخبأ لمحات من الفكاهة الصافية الحلوة وصور عابسة من الأسى المرير. وإذا كنت لم تر السعادة مرتسمة على وجه من الوجوه فتعال إلى المخبأ وانظر إلى وجوه الخارجين منه بعد انتهاء الغارة وكأنهم يبعثون!
أما إذا أردت أن ترى الهم في أقتم صوره فانظر إلى ذلك الوالد وهو يجلس إلى جوار زوجته المريضة وقد حمل على يديه ولداً من أولادها بينما حملت هي آخر، بينما جلس بينهما ثلاثة أو أربعة آخرون.
(السويس)
محمد محمود دواره
المصريون المحدثون - 20
شمائلهم وعاداتهم
في النصف الأول من القرن التاسع عشر
تأليف المستشرق الإنجليزي ادورد وليم لين
للأستاذ عدلي طاهر نور
تابع الفصل السادس - عاداتهم
من العادات التي تراعيها طبقات الشعب أن تذهب العروس ظهر الأربعاء الأول أو بعيد الظهر، أو يوم السبت إذا كان الزواج يتم مساء الاثنين، إلى الحمام في أبهة واحتفال. ويسمى هذا زفة الحمام. فيتقدم الزفة فرقة تتكون من مزمار أو مزمارين وطبول مختلفة الأنواع. وكثيراً ما تنتهز الفرصة للاحتفال بختان الولد؛ فيسير هذا وحاشيته خلف الموسيقيين بالطريقة السابق ذكرها. وقد يتقدم حاشية العروس رجلان يحملان الأواني والملابس التي تستعمل في الحمام على صينيتين مستديرتين تغطيان بنسيج من الحرير المطرز أو الساذج. ويوجد أيضاً سقاء يروى ظمأ السائرين، ورجلان آخران يحمل أحدهما قمقماً من الساذجة أو المذهبة، أو من الصيني مملوءاً بماء الورد أو زهر البرتقال يرش منه على السائرين من وقت لآخر. ويحمل الآخر مبخرة من الفضة

يحرق فيها العود وغيره من المواد العطرية، ولكن يندر أن تسير الزفة بهذه الطريقة.
وتكون حاشية العروس من صديقاتها وقريباتها المتزوجات، يتقد من اثنتين اثنتين، وتتلوهن الفتيات العذارى. ويلبس المتزوجات الملابس العادية ويتدثرن بالحبرة الحريرية السوداء؛ أما الأخريات فيلبسن الحبرة الحريرية البيضاء أو الشال. ثم تتبعهن العروس تحت مظلة حريرية ذات ألوان زاهية قرنفلية أو وردية، أو صفراء، أو ذات لونين معاً على هيئة خطوط عريضة غالباً ما تكون وردية وصفراء. ويحمل المظلة من قوائمها الأربعة المعلق على كل منها منديل مطرز. أربعة رجال. ويفتح صدر هذه المظلة. وتختفي العروس تحت ملابسها فتتدثر من قمة الرأس إلى أخمص القدمين بشال كشمير أحمر، أو نادراً بشال أبيض أو
أصفر، ويتوج رأسها بغطاء من الورق المقوى يوضع عليه الشال فيحجب عن الأنظار وجهها وملابسها الثمينة وحليها خلا قُصة أو قُصتين. وحلي أخرى أحياناً من الماس والزمرد تعلق على هذا الموضع من الشال الذي يغطى الجبهة. ويرافق العروس تحت المظلة اثنتان أو ثلاث من قريباتها، وامرأة أخرى تروح عليها عندما تشتد الحرارة بمروحة كبيرة من ريش النعام الأسود يزين أسفلها مرآة صغيرة. وقد تقام زفة واحدة لعروسين معاً تحت مظلة واحدة. وتسير الزفة ببطء شديد وتتبع طريقاً ملتوياً ليطول العرض. وتتوجه إلى اليمين عند البدء في السير؛ ويأتي في ذيل الزفة فرقة موسيقية أخرى مثل الأولى أو فرقة من طبالين اثنين أو ثلاثة. ويلاحظ أن السائرات في زفة العروس من الطبقة السفلى يزغردن كثيراً. ويزغرد كذلك نساء الطبقة الفقيرة كلما شاهدن زفة. (شكل 46) زفة عرس (قسم أول)
وقد يستأجر الحمام كله للعروس وحاشيتها فيمضين ساعات أو ساعتين على الأقل في الاستحمام واللعب وتناول الطعام. وكثيراً ما تستأجر العوالم (القيان) لتسليتهن في الحمام. ثم تعود الزفة بالنظام نفسه. ويتحمل أهل العروس نفقات الزفة، إلا أن العريس يقيم المأدبة التي تعقب ذلك.
وتعود العروس من الحمام إلى منزل أهلها فتتناول مع رفيقاتها العشاء. وتصحبهن القيان لاستئناف اللهو. وتدور أغانيهن على الحب والزواج. وبعد ذلك تعجن بعض الحناء وتضع العروس قطعة من العجين في يدها، ثم تتناول (النقوط) من ضيفاتها، فتلصق كل منهن قطعة من النقود الذهبية عادة في تلك العجينة حتى لا يبقى موضعاً فيها، فتقشطها العروس حينئذ بعيداً عن يدها على حافة وعاء مملوء ماء، ثم تضيف بعض الحناء إلى يديها وقدميها وتربطان بالكتان حتى الصباح، فتصبح بلون أحمر برتقالي قان. وتستعمل المدعوات ما تبقى من الحناء لصبغ أيديهن. وتسمى هذه الليلة (ليلة الحنا) (شكل 47) زفة عرس (قسم ثان)
ويقيم العريس الحفلة الكبرى في هذه الليلة، وأحياناً في اليوم السابق. فيعرض (المحبزون) ألعابهم أمام المنزل أو داخل الفناء إذا كان المنزل واسعاً. وقد وصفت الألعاب الشائعة الأخرى التي تعرض على المدعوين لتسليتهم.
وتزف العروس إلى منزل عريسها في اليوم التالي. وتسمى هذه الزفة لأهميتها (زفة العروسة). أما الزفة السابق وصفها فتسمى (زفة الحمام) لتمييزها عن الأخيرة. وقد تسير العروس إلى الحمام بغير أبهة أحياناً تقليلاً لمصاريف الاحتفال وتكون الزفة إلى منزل العريس فقط. وزفة العروس كالزفة السابقة تماماً. وتتناول العروس الفطور مع حاشيتها ثم تبدأ الزفة بعد الظهر، فتسير ببطء وانتظام كزفة الحمام سيراً طويلاً خلال الشوارع الرئيسية لأجل العرض ولو كان منزل العريس قريباً. وقد تدوم الزفة ثلاث ساعات أو أكثر عادة. وقد يتظاهر أمام الزفة مبارزان لا يلبسان غير السراويل، أو يتضارب فلاحان بالنبوت أو بغيره. وترحب العائلات الموسرة بمن يجيد تسلية المتفرجين بحليهم وألعابهم العجيبة أثناء زفة العروس، وتقدم إليهم هدايا جميلة. وحينما زوج السيد عمر نقيب الأشراف الذي كان الوسيلة الكبرى لبلوغ محمد علي ولاية مصر، بنته منذ حوالي خمس وأربعين سنة سار أمام الزفة شاب قد شق بطنه وأخرج أمعاءه على صينية من الفضة، ثم أعادها إلى موضعها بعد الزفة ولزم السرير عدة أيام قبل أن يشفى من آثار هذا الجنون الكريه. وضرب آخر ذراعه بسيفه أمام المتفرجين ثم شد جرحه قبل أن يخرج السلاح ببضعة مناديل تشربت بالدم. وقد وصف لي هذه الألعاب شاهد عيان. وهناك مشهد أكثر غرابة واشد إثارة للاشمئزاز لا

يقل شيوعاً في هذه المناسبات عادة إلا أنه يندر أن يشاهد الآن. وقد يعرض الحواة أيضاً حيلاً مختلفة إلا أن أكثر الألعاب تكون تقليداً للمعارك. وقد تعرض مثل هذه الألعاب في الاحتفال بختان، وقد تسير في الزفة العظيمة عدة عربات يركبها صناع وتجار من مختلف الفنون والحرف الممارسة في العاصمة يمثلون أعمالهم العادية. ويوجد في إحدى العربات بعض الرجال يصنعون القهوة ويقدمونها إلى المتفرجين أحياناً، وفي عربة أخرى يجلس بعض الموسيقين، وفي عربة ثالثة بعض العوالم. وتركب العروس في مثل هذه الزفة عربة أوربية مقفلة، ولكن كثيراً ما تركب العروس وقريباتها وصديقاها الحمير فوق البراذع المرتفعة، ويتقدمهن الموسيقيون والمغنيات ويتلوهن فرق أخرى في نهاية الزفة.

وتؤدب للعروس ورفيقاتها مأدبة عند بلوغهم منزل العريس، وسرعان ما تنصرف الصديقات وتبقى أم العروس وأختها وحدهما معها أو إحدى قريباتها الأخريات وامرأة أخرى تكون (البلانة) عادة، وتسمى الليلة التالية (ليلة الدخلة)

ويبقى العريس في الدور الأسفل، ويذهب قبل الغروب إلى الحمام فيتغير ملابسه وقد يغيرها في المنزل؛ وبعد أن يتناول وجبة العشاء مع بعض أصدقاءه ينتظر قليلاً إلى قبيل الصلاة أو إلى هزيع من الليل، ثم يذهب حينئذ - حسب العادة الشائعة - إلى أحد المساجد المشهورة مثل مسجد الحسين لإقامة الصلاة؛ وتقام له بهذه المناسبة زفة إذا كان شاباً، فيتوجه إلى المسجد مسبوقاً بفرقة من طبالين وزمار أو زمارين، وبصحبته بعض أصدقائه وحاملي المشاعل: والمشعل عبارة عن عصا طويلة ينتهي طرفها الأعلى بإطار أسطواني من الحديد يوضع فيه خشب مشتعل؛ وقد يكون لها اكثر من وعاء واحد للنار (أنظر شكل 48)، (شكل 48) مشاعل وتسير الجماعة إلى المسجد عادة بخطى سريعة ونظام قليل، وتختم الزفة فرقة موسيقية كالأولى أو فرقة طبالين. ويلبس العريس عادة قفطاناً ذا خطوط حمراء وجبة حمراء ويعتم بشال من الكشمير باللون نفسه، ويمشي بين صديقين في مثل ثيابه. وتقام الصلاة للاحتفال فقط، وفي أكثر الأحيان لا يصلي العريس مطلقاً، أو يصلي من غير وضوء مثل المماليك الذين يقيمون صلاتهم خوفاً من سادتهم فقط. وتعود الزفة من المسجد في نظام أتم وأبهة أعظم وبطء شديد. وربما كان سبب ذلك أنه لا يليق بالعريس أن يسرع إلى المنزل ليحظى بعروسه. ويتقدم الزفة

كما سبق - موسيقيون وحاملوا مشاعل، يتبعهم رجلان يحملان على كتفيهما إطار - معلقاً في مذراةٍ يتدلى منه ستون فانوساً صغيرة أو أكثر مقسمة إلى أربع دوائر تعلو إحداها الأخرى، ولا تثبت الدائرة العليا بحيث يستطيع أحد حاملي الإطار أن يدرها من حين لأخر. وينير لآلاء هذا الفوانيس والمشاعل الكثيرة الشوارع التي تمر فيها الزفة، فتحدث تأثيراً جميلاً يستحق الاعتبار , يتقدم العريس وأصحابه وغيرهم في شكل حلقة مستطيلة متقابلين وفي يد كل منهم شمعة أو أكثر، وأحياناً يحملون أغصاناً من شجر الحناء أو بعض الزهور عدا العريس وصديقيه على كل جانب، وهم يمشون في مؤخرة الحلقة التي تشمل عشرين شخصاً أو أكثر. وكثيراً ما يقف الموكب برهة يغني أثناءها أحد رجال الحلقة أو صبيانها أنشودة العرس، ويقف أثناء ذلك دق الطبول ونغمات المزمار الحادة التي تبلغ مسامع العروس قبل وصول الزفة إلى المنزل بنصف ساعة أو أكثر. وينتهي الموكب كما سبق بفرقة موسيقية ثانية.

هذه هي الطريقة الشائعة في زفة العريس. وهناك طريقة أخرى أكثر اعتباراً تسمى (زفة ساداتي) يسير العريس فيها بين أصدقائه كالطريقة السابقة وبين حاملي المشاعل دون الموسيقيين، ويستخدم مكان هؤلاء رجال يسمون لاحترافهم الغناء في مثل هذه الأوقات (ولاد ليالي) ويتوجه العريس بين هذه الحاشية إلى المسجد. ثم يعود الموكب على مهل ويشرع المغنون في الغناء أو إنشاد الموشحات في مدح الرسول (صلعم) ويرتلون متعاقبين ما تيسر من القرآن بعد الوصول إلى المنزل، ثم يقرءون جميعاً الفاتحة، وينشد أحدهم بعد ذلك قصيدة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم؛ وأخيراً ينشد الجميع مرة أخرى الموشحات ويتناولون النقوط من العريس وأصدقائه.

(يتبع)

عدلي طاهر نور

برقة
للأستاذ عبد اللطيف النشار
ما بَرْقة تلك التي خَلقَتْ لنا ... شغلاً وشغلاً للهواجس في غد
تلك التي حمل ابن أوس هما ... في بارع بادي الجمال مخلد
(أصَبا الأصائل إن برقة مَنشد ... تشكو اختلافك بالهموم العوَّد)
أم برقة أخرى وكم من برقة ... أخفى تألقها اتساع الفدفد
قد كدت أنساها لطول تذكري ... فضللت حتى كدت ألاَّ أهتدي
ولست بجارة ... إن لم تردي عنه كيد المعتدي (يا جارة الوادي)
ثأرُ السنوسيين لما ينسه ... أهل العروبة واللسان والأمجد
جبّتْ عروبتنا عهوداً قبلها ... ومضت حفائظنا وراء المسجد
مضت الألوف من السنين بما حوت ... مما حمدناه وما لم نحمد
والآن يقرئ بالسلام يمينَهم ... ويسارَهم أبناء دين محمد
ولقد شهدت وأدمعي منهلة ... أسراكمو، يا ليتني لم أشهد!
أتحالفون لغزو مصر عدوكم ... وعدوَّها وعدو أهل السؤدد
يا جارتا إن كنت غير مطيقة ... إدراك ثأرك فاغضبي وتمردي
أما لا ألوم على المساوئ أهلها ... إن كنت لما تدركي فتجلدي
إني لأذكرها فأذكر شاعراً ... (ظن الظنون فبات غير موسد)
ماذا شهدت؟ شهدت أسمج مشهد ... فتيان رومةَ في القميص الأسود
وأظنهم لا ينزعون سوادهم ... لا بل يحك عليهمو بالمبرد
صدأ العقول كسا الجسوم بلونه ... فمشوا عراة مشية المتبلد
فرحوا بأسرهمو فدان ألوفهم ... في موكب الأسرى لفرد أوحد
لا بل همو اعتادوا المذلة قبلها ... فبلادهم تعنو لرأي مفرد
متبجح جعل الصياح أداته ... فسما على أكتاف شعب مُجْهد
لا تطلبوا من خاضع حرية ... (صعب على الإنسان ما لم يعتد)
أمر الجنود بغزو صر فأذعنوا... وأتوا إلى مصر بغير تردد
لا فاتحين ولا غزاة وإنما ... أُمروا فكانوا طوع أمر السيد
ووراءهم (عَرَبٌ) فوا أسفالهم ... لِمَ يتبعون جيوش طاغ معتد؟
وإذا أردت عن الحروب نبوة ... فانظر إلى الجندي ماذا يرتدي
الفاتحون، ثيابُهم ولحاهمو ... شهدت لهم بعقاب يوم مُرْصّد
شعر أغصُّ به فذلكموا أخي ... ولو أنه في نهجه لم يرشد
لو كنت من أبناء برقة ما خطت ... رجلي إلى مصر وسيفي في يدي
هيا أدخلوها راكعين وسجداً ... أنتم بمصرٍ عند أقدس معبد
لو يشهد (المختار) أسرى برقة ... لرثى لشعبٍ في الهوان مبدد
سد يا حليف فكل فرد سيد ... لكن شعبك ما له من سيد
لا ندعى لك عصمة في موقف ... لا بل نقول لصاحب لا تبعد
طال الخلاف وما تزال بقية ... منه ولكنا كرام المحتد
خلق الوثائقَ والكتابةَ قومُنا ... حرصاً على عهد لهم أو موعد
سادوا، وما سادوا بغير جدارة ... ما ساد إلا كل سامي المقصد
عبد اللطيف النشار
(الرسالة)
في عيدها العاشر
مهداة إلى (الرسالة) الحبيبة وإلى أقطابها الثلاثة: الزيات)
والعقاد وزكي مبارك. . .)
للأستاذ أحمد أحمد العجمي
حيَّ (الرِّسالَةَ) وَاقْبِسْ مِنْ مُحَيَّاهَا ... مَا شِئتَ مِنْ حُسْنِهاَ أو مِنْ حُمَيّاهَا!!
رّفَّتْ عَلَى الشَّرْقِ أَبْدَى مِنْ أَزَاهِرِهِ ... كأَنَّ مِنْ نَفَحَاتِ الخُلْدِ رَيّاهَا
وَأَشْرقَتْ بِشُعَاعِ الْفِكْرِ نَاضِرَةً ... تَسْبِي الْقُلُوبَ وَتجري في حَناياهَا
حَسْنَاءُ أَوْفَتْ عَلَى عَشْرٍ وَمِنْ عَجَبٍ ... سِرُّ البريّة لا يَعْدُو ثَنَايَاهَا
ترجو العيونُ إذا أَبْصَرْنَ نَضْرَتَهَا ... لَوْ أَنَّهُنَّ شِفَاهٌ قَبَّلَتْ فَاهَا

مَضَى الزَّمانُ عَلَيْهَا وَهْيَ أُغْنِيَةٌ ... فَمُ الخلودِ ارْتَوَى مَنْهَا وَغَنّاهَا
تختالُ بالفَنِّ والآداب مُتْرَعَةً ... كالنَّهر يضحكُ أَعْشاباً وأمواهَا
الفكرُ أدبها، والعقلُ هَذَّبها ... وَالطبعُ حبَّبها، والحُسْنُ جَلاَّهَا
والشرقُ مَن وَرْدَها ريَّانُ مُقتبسٌ ... مِن نورها مُستمدٌ مِن سجاياهَا
تغدو عليه كأنفاسِ الربيع لها ... في كل قلبٍ معانيها ونجواهَا
وللحياةِ مجالٍ في صحائفها ... كالنفس تزخَرُ بالدنيا طواياهَا
لم يبق للكون سرٌّ بعد ما بعثتْ ... شُعاعَها في الدُّنى يجلو خفاياهَا
رسالةُ النيل لا يَبْغي بها بدَلاً ... وَهْيَ (الرسالة) و (الزياتُ) أدّاهَا
سَمَتْ إلى المجد وَالْعَلْيَا وصاحِبُها ... أوفى عَلَى الغاية القُصْوى ووفاَّهَا
في كلِّ لفظٍ من (الزياتِ) أغنيةٌ ... السّمْعُ يعشقها والفكرُ يهواهَا
والفنُّ في أدب (الزياتِ) مَوْهبةٌ ... الْحُسْنُ باكَرَها والسحرُ غاداهَا
ما زال يهتف بالفصحى ويكلؤُها ... حتى غدا وهوَ حاميها ومؤْلاهَا
أما (زكيٌّ) فلا والله ما خَلَقَتْ ... لَهُ الطبيعةُ أندادا وأشباهَا!
أهفو إليه كأنّ النفسَ غارقةٌ ... في حُبِّهِ! وكأنّ الحبَّ سَلْواهَا
حديثهُ ذو شجونٍ سحرُها عجبٌ ... ما رادَها شاعرٌ إلا تمنَّاهَا
معنىَ جميلٌ وأسلوبٌ له صِلةٌ ... بالموْج في البحر: هَدَّاراً وتيَّاهَا
لو أنّ بالخمر معنىً من سلامتهِ ... لباعتِ الناسُ بالأقداحِ دُنياهَا!
وسائِلوني عن (العقادِ) إنَّ لهُ ... نَفْساً تفيضُ المعاني من زَواياها
أَصْفَي منَ الكَوْنِ تَخْتَالُ الحياةُ بها ... بالشِّعْرِ والحُبِّ والدُّنْيا ومغزاها
لهُ عَلَىَّ أيادٍ لَيْسَ يَعْرِفُها! ... ولَسْتُ أَجهْلهُا بل لَسْتُ أنْسَاها
ديوانهُ قبْلتِي ألقَي الحياةَ بها ... حَسْنَاء بالحُبِّ تَلْقَاني وألْقَاها
مِرْآةُ نَفْسٍ جَمالُ الكُوْنِ رَفْرَفَها ... وَسِرُّ رُوحٍ لِسَانُ الدَّهْرِ نَاجَاها
أقسمتُ أنكَ يا عقادُ مُعْجِزَةٌ ... هَيهاتَ يدري ضميرُ الكَوْنِ مَعْناهما
آمنتُ بالشِّعر يا عقادُ في بَلَدٍ ... غَلَّ الْعَمَى مُقلتَيْهَا ثمَّ غَشّاها
للِجَهل فيها دواوين وأروقةٌ ... تدعى المدارس حيَّ الله مبناها!
آمنتُ بالشِّعر والدنيا تضيق به ... وطالما أضحك الدُّنيا وأبكاهَا
أنا - ويا ويح من تجني عليه أنا - ... كزهرة الجبل العالي وريْاها!
يضوع منها الشذى لكن يضيع سدى ... مع الرياح وما تدري ببلواها
حسبي من الدهر أن أحيا بعاطفة ... مماتها في سبيل الشعر محياها!
(كوم النور)
أحمد أحمد العجمي
القصص
ليلة عيد الميلاد
للكاتب الإنجليزي (نيودورجو)
بقلم الأستاذ كامل يوسف
- 1 -
طلب الناس هدنة من أحزانهم ليلة 25 ديسمبر سنة 1917 وراحوا يحيون ذكرى ميلاد (السيد المسيح)، فأنيرت الثريات الملونة، وأوقدت شموع الميلاد في كل دار، وتدفق الشراب في أجواف الناس، حتى أصبحوا لا يشعرون إن كانوا يحملون فوق أكتافهم رؤوساً أم أثقالاً. وامتلأت البطون بألذ وأفخر المآكل، حتى خيل إليهم إنها تكاد تنفجر من فرط ما استقر فيها، وتلمس كل المتع فمن مخاصر إلى مراقص إلى مناج إلى مختلس للقبلات. كان الناس على هذه الحالة من المرح والسرور، وهم يقولون في أنفسهم: (غداً سيكون الطوفان) فستحمل إليهم الأنباء ويلات الحرب التي نزلت بذويهم وفلذات أكبادهم، وربما حملت إليهم هذه الأنباء، وأشفق ذوو الأمر من تبليغها حرمة لهذا العيد المقدس.
في هذه الليلة تنبه شيطان من شياطين العالم الآخر على حركة مرح غير عادية في الكوكب الأرضي، واستغرب صدور ذلك من سكان الأرض وقال في نفسه: (لعلهم لا يشعرون بما يجري من ويلات!) ولم يدر سبب ذلك فلجأ إلى زميل من زملائه يعبر له عن عجزه عن إدراك السبب، وكان بجوارهما مفستو فليس كبير الأبالسة ينصت إليهما

فقال لهما في ابتسامة ساخرة: ألا تعلمون سر هذا المرح؟ اليوم ذكرى ميلاد رب السلام، فما أغبى الإنسان! إنه ينسى مصائب الأجيال والأزمان ممثلة في الحرب الأوربية الآن ويهلل فرحاً بهذا العيد!

فلما سمع الشطيان ذلك قال أحدهما للآخر: ما دام الأمر كذلك فدعنا نمزح ونضحك من الناس قليلاً هذه الليلة.

فأجابه الآخر: وأين نضحك وهنا مجال عملنا في الضحك والاستهزاء، وأشار بيده إلى جهنم. فقال الأول: حقاً إنه لمجال مُله مسل، وإنه لا يسرني شيء أكثر من ذلك الرجل

الذي يقال له فيدياس فقد قيل عنه إنه أخرج أحسن دمية عرفها التاريخ، ومن ذلك الرجل الذي يقال له فيدياس فقد قيل عنه إنه أخرج أحسن دمية عرفها التاريخ، ومن ذلك الرجل الذي يقال له (دافتشي)، ومن ذلك الرجل العابس الذي كان يكره أمه كرهاً عميقاً وانفصل عنها ثم جمعتها المصادفة في موطننا العزيز أعني به (شوبنهور). ليس يضحكني أكثر من هذه الشخصيات الغربية التي تبددت في شخص امرأة جميلة، رآها فيدياس فقال إنها أجمل مما صاغته يده؛ ورآها دافتشي فاعترف بحقارة فنه تجاهها؛ ورآها الرجل العابس شوبنهور فأقر بخطأ رأيه في المرأة وعادت العلاقات بسببها مع أمه، تلك المرأة المتحذلقة، ورآها لويس الرابع عشر فأمر مدام ببادور أن تكون خادمتها، واستحت كيلوبطرة أن تظهر أمامها لئلا تفقد شهرتها التاريخية.

وكان هذا الشيطان مع حداثة عهده قديراً مبدعاً في مخاطراته، وساخراً بارعاً في أفعاله؛ وكان زميله ينصت إليه بشوق ولذة، فقال له وهو معجب: هيه يا بعلزبول!

فاستمر الأول يقول: تصور هذا الجمع من المجانين تظهر في وسطهم حورية! لقد كنت أتودد إلى كل واحد منهم على حدة حتى أدعه يثق بأنها أصبحت أسيرة هواه، فإذا استقر هذا الرأي في ذهنه تحولت عنه إلى آخر، ومثلت هذا الدور نفسه مع كل واحد، وبذلك استفززت غيرتهم جميعاً فنشب بينهم الخصام. وسمعت شوبنهور يقول بعد ما قاسى الخيبة: (محال أن أنزل عن رأي الذي ذكرته في المرأة. إنها الخادعة الماكرة) وسمعته ينادي نيتشه: تعال يا بني وهات معك سوطك لكي أتفاهم مع هذه المرأة المغرية) فقد ضحكت كثيراً من حركات هذا الفيلسوف العصبية. وددت لو صورت نفسي على مثال كلبه لكي أمزح معه، ولكني أشفقت على أعصابه. لقد كان يوماً جميلاً حقاً ظللت فيه أبحث عنك لكي تشهد هذا الفصل المضحك فلم أجدك، فأين كنت؟

- كنت مشغولاً بدعاية من نوع دعايتك. فقد هيأت لنيرون أن يشمل النار في جهنم ليزيد في لذته، فإذا استعد لذلك ظهرتُ كالمارد فاستخزى وسكن جنونه. ولكني في الحق سئمت هذا المزاج وتاقت نفسي إلى شيء جديد.

فقال الشيطان الأول: وأنا كذلك أريد تجديداً.

ثم قال فرِحاً كمن طرأ عليه خاطر جميل: دعنا نمزح ونسخر مع من في الأرض الليلة؟

- وهو كذلك. إنها لفكرة حسنة. دعنا نضحك من سخفهم هذه الليلة.

- 2 -

في مساء تلك الليلة اجتمعت الجموع في كنيسة القديس بولس. وكانت الجموع خاشعة، وقد اكتظت الكنيسة بالمصلين، كل قد جاء يدعو الله أن يحفظ أهله من شرور هذه الحرب الطاحنة؛ وكانت صلاة القداس يعلوها وقار وجلال لم يشهد من قبل، وكانت قلوب المصلين تتجه إلى الذات العلية مخلصة صادقة في دعواتها وصلواتها؛ وظل هذا الجلال والصمت لا يقطعهما غير صوت الكاهن وأغاني الشمامسة ونغمات الأرغن حتى أتى دور الدعوات، فأخذ الكاهن يتضرع إلى المولى عز وجل أن يزيل الكروب، وكان يجد من مساعدة الشعب له ما يجعلهم يرددون بصوت يرن صداه في قبة الكنيسة ومن أعماق القلوب (آمين يا رب. آمين يا رب) واستمر الكاهن في توسله يقول: (وامنع الحروب والغلاء والفناء وسيف الأعداء)، وقد توجهت القلوب بجملتها إلى الذات الإلهية بإخلاص أن يكشف عن الإنسان ذلك الكابوس الثقيل الذي لم يقاس أفظع منه. ومن منهم لا يتوجه بإخلاص إلى الله بهذه الضراعة وكلهم منكوب إما في نسله أو في ذوي قرباه؟ لذلك كانت (آمين يا رب) تخرج من القلوب بحرارة

صاعدة إلى عرش الملكوت في ذلة الضعيف يطلب صنيعاً من سيده.
في هذه اللحظة الرهيبة كان المستر باترمان يردد هذه الدعوات وهو يقول في دخيلة نفسه: (يا رب لا تسمح بإجابة هذه الضراعة لأن فيها خرابي بل خراب أمتنا العزيزة)، وكان الشيطان الكبير يرافق زميله الصغير في هذه الحفلة المقدسة. فلما سمعا المستر باترمان اقتربا منه وسمعها أمنيته فضحكا من هذه المهزلة الإنسانية الكبيرة وأرادا أن يعبثا بالمستر باترمان فرغب الشيطان الكبير أن يهوي الرجل على الأرض، وكان عجوزاً في السادسة والستين من عمره لا يقوى على الوقوف طويلاً أثناء القداس؛ لذلك كان يستند على عصاه الأبنوسية، وفي فترات السكون الشامل بين الضراعة والأخرى، جاء الشيطان الكبير فزحزح العصا. فسقطت من يد الشيخ العجوز وأحدثت ضجة كبرى لفتت أنظار المصلين، وانكفأ الشيخ على وجهه وكاد يسقط لولا أن تمالك نفسه، ولما كان لا يقدر على الوقوف بدون العصا، انحنى ليأتي بها، ولكنه ما كاد يقبض عليها حتى خطر للشيطان الصغير أن يبعث به أيضاً فجذب العصا منه ثم تركها تهوي على الأرض فأحدثت مثل الضجة الأولى
في فترة السكون، ولكن المستر باترمان أحكم في المرة الثانية القبض عليها ووقف مستنداً إليها وهو يشعر بشيء من وخز الضمير علله بأنه نتيجة أمنياته التي تخالف أمنيات المصلين.
والمستر باترمان من أغنياء الإنجليز وصاحب مصانع الذخيرة والأطعمة المحفوظة، وهو مع ذلك من أقطاب السياسة وله نفوذ كبير في إدارة دفنها. لذلك لا تستغرب منه هذه الأمنيات السيئة، إذ في إبطال الحرب ضياع ثروته التي جعلها في مواد سيكون مصيرها البوار. وهو ككل رجال السياسة يعيدون عن توخي الصالح العام، يوقعون الأمم في شباك الحروب للغنم الذي يعود عليهم أو لخطر وهمي في أذهانهم، ويدفعون بملايين من أرواح البشر في سبيل هذه الغايات المجرمة. وكان من سوء حظ البشرية أن نعتقد في رجالها القداسة، وكان المستر باترمان ككل سياسي يبرر موقفه المخزي بشتى العلل والنيات. لذلك كان يجيب على هذه الضراعات التي كانت تخرج من قلوب المصلين ومن صميم الإنسانية جمعاء، بالتوسل للذات الإلهية إلا يجبها لماذا؟ لأن في إجابتها وانتقاء الحروب ضياعاً لثروة أمة ممثلة في ثروته تصبح بعدها في ذل الإفلاس والانحطاط المالي.
انتهت الصلاة وخرج باترمان وهو ما زال يشعر بوخز ضميره، وقصد النادي وخرج وراءه الشيطانان، وقال أكبرهما: لنتبعه حيثما يذهب، ولنجعل منه متعة لأنفسنا الليلة. (فما كاد يدخل ردهة النادي حتى سمع أصواتاً عالية كان أصحابها في مناقشة حادة؛ فلما دخل القاعة وجد أعضاء النادي في صخب وجدل فسأل صديقه المستر كونراد عن سر هذا الجدل، فعلم منه أنهم يجادلون في محاصرة بلاد العدو. وهل هذا العمل يكلف الحلفاء والإنجليز خاصة أكثر مما يربحون، ولكن باترمان لم يكن صافي الذهن خلي البال حتى يدلي برأيه، غير أنه سأل صديقه:
- وهل من جديد في الجو السياسي؟
فأجابه: لا شيء غير ما نقلته إلينا التلغرافات الآن من أن البابا يناشد الدول المتحاربة وخاصة الحلفاء أن يكفوا عن القتال
وقد وجد باترمان مجالاً يخرج فيه عن صمته الذي لزمه منذ كان في الكنيسة فانفجر صائحاً:
- لقد ضايقنا هذا البابا بأمنياته، فماذا يهمه من الحرب؟ نحن الذين ضحينا بأبنائنا وأموالنا لنا الخيار في الكف عن الحرب أو الاستمرار فيها؛ أما هو فماذا يهمه من الخسائر؟ لقد انزوى هو ورجاله في معقل الفاتيكان ثم يريد أن يملي إرادته علينا. إن خير جواب على هذا النداء أن تقابله بما قوبلت به نداءاته الأخرى بالإعراض والإغفال.
فرد عليه صديقه المستر كونراد:
- أنت محق يا عزيزي باترمان. إن البابا لم تحترق يده في النار ليعرف ما هي النار. لذلك لا يمكنه أن يحكم على نزاعاتنا؛ وهو لم يغامر في هذا المديان؛ وهو وجنوده يسمنون من أكل أجود اللحوم وشرب أفخر الأنبذة. دع غواصة ألمانية تصيب أربعة منهم وهو يتنزهون في قارب - أقول أربعة فقط لا ملايين كما فجعنا نحن - وعندئذ يحق لنا الأخذ برأيه ونقول إنه جرب الأسى والحزن مثلنا، وعندئذ لا يتمالك أن يصب

غضبه وغضب الإله الذي ينوب عنه على هؤلاء السفلة الألمان.
وكانت هذه الإجابة قد أرضت سياسينا فكسرت من حدة غضبه، واطمأنت ثائرة نفسه فقال - هو كذلك -: أوعز إلى الصحف المحافظة أن تستخف بنداء البابا، ولندع الصحف الكنائسية تنادي بهذا الحلم الخيالي الذي يبدو جميلاً لأربابها أعني به الصلح والسلام.
وهو كذلك -
وأنصرف باترمان وخرج من النادي بعد أن وقف على تطورات الحالة السياسية وقصد فندق سيسل، وكان الفندق غاصاً بالناس تلك الليلة يحيون فيه عيد الميلاد، ودخل المستر باترمان الفندق وخطا في ردهته الطويلة فلقت نظره في نهايتها ما حرك اهتمامه، فدرج نحو هذا الشيء وهو يقول في نفسه: (هل بعثت؟ محال أن يكون ذلك، فلسنا في عصر المعجزات، إذن لابد أن تكون قريبتها)، وكلما اقترب ازداد يقيناً، لأن ما يراه أمام ناظريه الآن ينبئ عن صلة القربى. فأمامه سيدتان كبراهما ذات جمال رائع وقامة كغصن البان، وعيون هي موارد السحر، وشعر هو الذهب الوهاج، وسنٌّ في حدود الثلاثين؛ والأخرى لا تقل عنها حسناً، ولكنها أقصر قامة وأقل فتنة. وقد اقترب منهما باترمان وهو واثق من هذه القربى، وشغل باله بها فلم يع شيئاً غيرها. ولما وقع نظره عليها شعر بتجاوب العاطفة في نفس تلك السيدة؛ فقد بدا على ثغرها ابتسامة جميلة فهم منها الشيخ معنى الرضا. ولما
اقترب منهما رفع قبعته وانحنى وحياهما: (مساء الخير يا سيداتي! عيد ميلاد سعيد) فأحنت الكبيرة رأسها قليلاً بكبرياء، وأجابت هي وشقيقتها الصغيرة: (مساء الخير يا سيدي، عيد ميلاد سعيد). ولم تكن المستر باترمان يعرفهما من قبل، ولكن دفعه إلى هذه التحية وجه الشبه الذي رآه والذي أراد تحقيقه. لذلك لم يلبث أن فاجأهما بهذا السؤال: (أليس سيدتاي من أسرة سوانسون) فأجابت الكبرى في رفق وعلى ثغرها ابتسامة مغرية: (كلا يا سيدي، بل نحن من أسرة كلارك). وكان ثغر الصغيرة يفتر عن ابتسامة خفيفة، ولكن الشيخ لم يقنعه هذا الرد. وذهب إلى أنه لابد أن يكون هناك صلة قديمة بين أسرة سوانسون وكلارك، ولكنه لا يمكنه تحقيق ذلك وهو في طريق كل إنسان يدخل أو يخرج من الفندق. لذلك دعاهما للجلوس معه فلم يرفضا، كانتا فرحتين طروبتين، وقصدا مكاناً قصياً بعيداً عن ضوضاء الأحاديث وصخب الراقصين، ودعاهما إلى الشراب فلم يرفضا، وكانت علامات السرور بادية على محياهما، كما كان الشيخ مسروراً لهذه العلاقة التي ذكرته بالماضي. . . وكانوا كلما شربوا كثر ضحكهم وعلا صوتهم، وكان الرائي يشاهد خصلتين من الشعر على فوديهما كأنهما قرنان، ولم يفطن لذلك الشيخ الذي أعماه السرور، وقد حق للشيخ أن يسر، فقد وجد شبهاً قوياً بين السيدة الكبرى وبين زوجته، كان قد احب في شبابه فتاة من طبقة النبلاء كانت آية الجمال في عصرها، ثم تزوجها بعد جهد جهيد ولم تعش معه إلا عاماً ونصف عام ثم ماتت على أثر ولادتها الأولى. فقطع على نفسه عهداً منذ ذلك الحين أن يحفظ لها المودة ما دام حياً، وقد بر بوعده، وصرف عنايته إلى ابنه (جيمس) وغمره بحبه، وجعل منه الذكرى الوحيدة لتلك الحبيبة الراحلة. . . لذلك كان قرة عينه وحبة قلبه، لا يألو جهداً في العناية بأمره - ولو كلفه ذلك كل ثروته - إخلاصاً لتلك الفتاة التي فتح لها قلبه لأول مرة. . . وكان لجيمس تلك الطلعة السمحة التي كانت لوالدته، وتلك النوتة التي كانت في متوسط ذقنها، فهو صورة منها. . . كان الشيخ المهدم يرى فيها مطلع السحر. . . فلما وقع نظره في تلك الليلة على هاتين السيدتين، انتعشت روحه، لأن حبيبته تعود للحياة ثانية. . . ولشد ما جذبته تلك الطلعة نحوها لتصور الماضي البعيد المملوء بالأحلام السعيدة. . . ذكر كيف ظفر بحبيبته وتذوق السعادة لأول مرة في حياته! ولكن الشقاء كان يسخر من هذه السعادة فلم يلبث أن انتزعها منه. . . هذا الماضي البعيد يعود الآن، وهو الذي جعله ينسى الحالة السياسية وما فيها من تطورات ومفاجآت. . . كانت تشغل باله على الدوام، وخاصة تلك الليلة. لقد اعتقد تلك الليلة بالبعث، وكان يقول في نفسه: لعلها تجهل في حاضرها شخصيتها السابقة. . . وقد كذب هذا الوهم ما رآه من ميلها من أول نظرة إليه. . . فهي هي إذن، وسذاجتها في حديثها هي سذاجة حبيبته التي ورثها عنها ابنه (جيمس) معبوده الثاني بعد أمه، وكان يود تلك اللحظة لو يحضر جيمس ليشاهد طلعة أمه - أو على الأقل - ليشاهد طلعة نسخة منها، ولكن (جيمس) في ميادين الحرب، قد تملكه النزعة الإمبراطورية فأبى

أن يخلد إلى السكينة في الوقت الذي تصوب سهام العدو إلى هدم إمبراطورية أجداده، فتطوع في الحرب برغم كل العراقيل التي وضعها والده في سبيله. . . ولكم كان يسر الشيخ إذا علم أن الفرقة التي ينتسب إليها ابنه قد حازت انتصاراً على العدو، وكان يعتقد ان الظفر قد تم بفضل حذق ابنه، وكان يكثر من ترديد ظفر الفرقة التي يحارب فيها ابنه أمام أصدقائه، وكان يقول لهم: وإلى حذق ابني يرجع الفضل. . . وكان عند التحاق ابنه بالجيش يخشى عليه عادية الردى، ولكن بعد أن تدبر تاريخ حياته وما فيه من نكبات وفواجع، استكثر على المقادير أن تختمها بفقده، وأصبح يميل إلى اعتقاد أن المقادير رحيمة، تكفر عما أصابته بهذه الحسنة، وقد أغراه بهذا الوهم ما كان يصله من حين وآخر من سلامة ابنه من كل الأخطار. . .!

في هذه اللحظة القدسية التي وجد فيها الشيخ نفسه بجوار حبيبته نسى العالم وما فيه من شرور، وشعر بسمو روحه وبلذة قدسية، كلها قد هبطت عليه من السماء. . . وكان يزيد هذا الشعور الروحي في داخله كلما فتح عينه فرأى صورة زوجته وحبيبته، أو هي بذاتها. . . ولم يكن هذا الشعور من فعل الخمر، فإنه لم يكرع غير ثلاثة أكواب من الويسكي لم تحدث له أي جموح في الخيال، بل هي على العكس قد زادت في انتباهه وذهبت بالغضب الذي كابده طول هذا اليوم.

وكان حديث الشيخ عادياً، أو قل كان مقطوعاً، وهل في مثل هذه اللحظة يجري الحديث؟. . . وكان معظم ما قام به لا يخرج عن تعبيره عن غبطته وسروره وسعادته بتلك اللقيا، وكانت الفتاتان لا تكلفان أنفسهما أكثر من الابتسامة رداً على تمنياته. وقد أحدث سروره

نوعاً من الذهول جعله في عزلة عما يحيط به؛ حتى إنه لم يشعر بوجود خادم الفندق بجواره يقدم إليه شيئاً في صحن، حتى نبهته كبرى الفتاتين، فالتفت إلى الوراء فوجد الخادم، فقدم إليه برقية وقرأ على الغلاف: في خدمة صاحب الجلالة الملك. . . ففهم أنها برقية حكومية، وما كاد يفض الغلاف ويقرأ البرقية حتى أفاق من نشوته، وأظلمت الدنيا في وجهه، وأغمى عليه. . . فتناولت الفتاة الكبرى البرقية وقرأتها؛ فإذا فيها:

(الملازم الأول (جيمس باترمان) أصابته رصاصة قضت عليه. . .!)

(القيادة العامة)

وبعد أن عاد إلى حسه سمع صوتاً يردد: (يا رب، لا تسمح بإجابة هذه الضراعة، لأن فيها خرابي، بل خراب أمتنا العزيزة!) وتلا ذلك ضحكات ملئها السخرية والتهكم. . . ففتح عينه، فلم يجد مصدر هذا الصوت، ولم يجد جليستيه. . . ولكنه شعر بحفيف أشبه بحفيف الأجنحة أحدث تياراً شعر به!

كامل يوسف

العدد 445 - بتاريخ: 12 - 01 - 1942

الطموح والتمني

للأستاذ عباس محمود العقاد

ولست أدري لماذا تصرون على أن تكون هناك علاقة بين الأدب وقيادة الجيوش، . . .) أو بينه وبين انجذاب أهل الطريق. ففي رأيي أن لا علاقة هناك إلا علاقة الطموح والرغبة في نعم الشهرة المنعقدة فوق جبين الكثيرين. . . فطموحكم من مطالع صباكم هو الذي حبب إليكم أن تكونوا شيخاً يحيط بكم ما كان يحيط بمشايخ حيكم من احترام وتبجيل في بيئة كالتي نشأتم بها، والتي يبدو لي أنها كانت شديدة التقوى كثيرة الاحتفاء بالدين ورجاله، ثم تحولت الأنظار إلى الجيش المصري والإنجليزي الهابطين من السودان وكثر الحديث عنهما وعن قوادهما في بلدكم، فتحولت (بوصلة) الطموح عندكم إلى هذا القطب الجديد. هذا رأيي الذي أظنه الصواب، وقد جريت مثل ذلك بنفسي، وتمنيت وأنا في المدرسة الابتدائية أن أكون لاعب كرة يحيط بي من تصفيق الطلبة وإعجابهم ما يحيط بمشاهير اللاعبين. ثم تمنيت من أول دراستي الثانوية أن أكون محامياً وأنتم تعلمون شدة اهتمام الجمهور بقضايا عهد صدقي باشا السياسية.

وفي انتظار تكرمكم بإبداء وجهة نظركم في رأيي هذا إما بكتاب خاص أو بمقال في الرسالة، أكرر تهنئتي وأقدم لكم الشكر والتقدير. . .)

ادورد حنا سعد

إيرادات بلدية الإسكندرية

ورأيي أن الطموح تفسير وليس بتفسير.
فالناس يشتهرون بألوف الأشياء ويظهرون بين أقوامهم بكثير من المزايا التي تكفل لاصطحابها الوجاهة وارتفاع الصوت والصيت: بالمال والمنصب والهيبة الدينية، أو الدنيوية، وبالعلم على اختلاف أبوابه وتعدد مناحيه، وبالنبوغ في الألعاب والفنون التي يدركها الجمهور بداهة أو يدركها محاكاة لمن هم أرفع منه في المنزلة والمعرفة، وكلهم طامح وكلهم محقق لما تمناه من الطموح
فليس بتفسير أن يقال إن هذا الشاعر العظيم بلغ مكانه من الشهرة الشعرية لأنه طامح، وأن هذا المهندس العظيم بلغ مكانة من الشهرة العلمية لأنه طامح، وأن هذا الغني العظيم بلغ
مكانه من الثراء واليسار لأنه طامح، وأن كل عظيم طمح فاشتهر لأنه تعلق بالطموح كلا. ليس هذا بتفسير فيما أرى
وليس هذا بالحقيقة فيما أعلم من شأن نفسي، وفيما أعلم من شأن البواعث التي حفزتني إلى معالجة (الدروشة) والكرامات الدينية، وحفزتني إلى قيادة الجيوش والغلبة في القتال، وحفزتني حيث استقر بي المطاف إلى المضي في طريق الأدب والكتابة دون كل طريق
فلو كانت المسألة طموحاً وتطلعاً إلى الحفاوة لكان الأولى بي أن أطمح إلى جمع المال والتوسع في التجارة لأنها قبلة الأنظار في بلد له في التجارة تاريخ عريق حتى قيل إن اسم الإقليم مستمد من اسم السوق
بل لو كانت المسألة طموحاً إلى الحفاوة التي يلقاها رجال الدين لكان الأولى بي أن أطمح إلى مكانة القضاة الذين يخرجون بين الحراس والحجاب ويتقدمون على رجال الحكم ورجال الجيش حينما اجتمعوا معاً في مكان حافل أو مأدبة حكومية، أو لكان الأولى بي أن أطمح إلى منزلة كمنزلة أستاذنا الفقيه الأديب الأستاذ أحمد الجداوي - رحمه الله - وكانت له حلقة دينية أدبية يتردد عليها أعاظم القوم ويجلسون بين يديه جلسة الخشوع والتوقير، وكانت له إلى جانب ذلك مساجلات أدبية يحج إليها المعلمون والمتعلمون، ويتندر بفكاهاتها وطرائفها من يدرسون ومن لا يدرسون
أما حياة (الأسرار) الدينية فلم تكن محل ظهور ولا وجاهة بين الناس، ولم يكن أحد ممن يقتدي بهم في هذا المجال على مظهر يشوق الطفل الناشئ أن يحكيه أو يعيش على غراره: مظهر مسكنة وحرمان وشظف وانقطاع
وأدل من هذا على خطأ التفسير بالطموح في هذا الصدد أن الظهور وطلب الكرامات والأسرار نقيضان كما تنبئنا أول صفحة من أول كتاب في مناقب الصالحين
فمن طلب الظهور فلا سبيل له إلى كرامة ولا نفاذ له إلى سر مكنون من أسرار القداسة والولاية
إنما تناول الكرامات والأسرار بالإعراض عن المظاهر والزهد في الحفاوة، وأن ننذر نفوسنا للفاقة والشظف والحرمان، ونجنبها غواية الزهو والترف والإعلان، وهذه هي الأمنية التي تمنيتها لأنني تمنيت البحث عن الحقيقة والهيمنة من طريق معرفة الحقائق
على ما حولي من قوانين الكون وعناصر الطبيعة
فالطموح كما قدمنا ليس بتفسير لطلب العظمة كائناً ما كان مجالها والغرض منها. فبعد الطموح يبقى لنا سؤال آخر عن علة طلب العظمة من هذا الطريق وعن التوفيق بين نوع العظمة المطلوبة ونوع المزاج النفسي الذي يطلبها ويؤثرها على غيرها
والطموح بعد ذلك ليس بالتفسير الصحيح في الحالة الخاصة التي ذكرتها عن أمنيتي؛ لأنني لم أطلب الظهور بل ضحيت به في سبيل الحقيقة التي أصل منها إلى هيمنة لا ظهور فيها؛ ولا يزال الظهور الشائع مفسدة لها وداعية إلى حبوطها
وما لنا ولهذا والأديب صاحب الخطاب يذكر حالة تنفي تعليل كل شيء بالطموح فيما ذهبنا إليه؟
قال في خطابه: (تمنيت وأنا في المدرسة الابتدائية أن أكون لاعب كرة يحيط بي من تصفيق الطلبة وإعجابهم ما يحيط بمشاهير اللاعبين. . .)
فليعلم الأديب صاحب الخطاب أن التصفيق لم يحط بلاعب كرة كما كان يحيط بلاعبيها الأسوانيين في ذلك الحين. فقد كانت العناية بالرياضة البدنية يومئذ في أبانها، وكان

للجيش الإنجليزي بأسوان فرق مدربة تسترعي أنظار المدنية بأسرها ويتمنى كل طالب أن تتغلب فرقته المدرسية عليها، وكانت فرقة أسوان تسافر إلى إدفو وقنا وسوهاج وأسيوط لتلاعب هناك فرقة بعد فرقة وتعود من تلك البلاد غالبة أو مغلوبة يتطلع الزملاء إلى أخبارها كما يتطلع قراء الصحف إلى أنباء المعارك الحاسمة، ومع هذا كله فشلت مساعي المدرسين في إغرائي بالانتظام في فرقة الكرة أو الفرق الرياضية على اختلافها لنفوري منها، وظللت أتجنبها وأفضل الحبس على حضور حصة الرياضة البدنية في أوقاتها المفروضة علينا، ولم يستهوني الطموح ولا الشهرة ولا التصفيق إلى هذا الجانب المغري لكل طالب، ولم أكن أفهم دهشة زملائي لرفضي دخول الفرقة وهم يتحرقون شوقاً إلى دخولها ويتمنون لو وهبوا تلك الصفات الجسدية التي جعلت المدرسين حريصين على ترشيحي لفرقة الكرة وكل فرقة رياضية فليست المسألة يا صاحبي مسألة طموح وظهور، ولكنها مسألة شوق باطني وجد مصرفه في هذه الناحية أو تلك حتى استقر من الناحية الأدبية إلى قرار

ومن الواجب أن نربط بين النزعة الدينية والقيادة العسكرية والملكة الأدبية إذا أردنا أن ننفذ إلى خاصة من خواص النفس البشرية التي تؤلف بين النقائض حتى تنتظم في نسق واحد، وهي كما تبدو على وجه الأمور غير قابلة للتناسق والائتلاف

وربط هذه الشعب المتفرقات واجب هاهنا لأن العلاقة بينها صحيحة متغلغلة ملموسة؛ فلابد من سبب اتصال بينها، ولابد من النفاذ إليه، وليس النفاذ إليه بعسير

فالنزعة الدينية - نزعة الأسرار والهيمنة على العناصر الطبيعية - تلاقي البحث الأدبي من طرفين: أحدهما الاستطلاع والاستكناه وهو أصيل في طلب الأسرار الدينية وأصيل في طلب الأسرار الفكرية على الإجمال

أما الطرف الآخر فهو طرف لإثبات النفس، وهو في جانب التدين سيطرة على أسرار الكون، وفي جانب الأدب تعبير عن النفس وتوجيه للأفكار وامتلاك لناصية الحقائق، وكلا الطرفين قريب من قريب

ولا صعوبة في التوفيق بين التدين والقيادة العسكرية، وإن ظهر لأول وهلة كالنقيضين المتدابرين

إن النضال لعميق في روح الدين لم تخل منه الأديان الأولى ولا أديان الكتب المنزلة التي يدين بها معظم الأمم اليوم

فإله الخير وإله الشر، أو إله النور وإله الظلمة، ما برحا متصارعين عند الجاهليين من أقدمين ومحدثين

وكل دين من أديان الكتب المنزلة يؤمن بالصراع بين الملائكة والشياطين، وبالحرب الدائمة بين جنود الله وجنود إبليس

وكل ساعة من ساعات الضمير فهي مصارعة ومغالبة قلما تنتهي بالنصر الحاسم لجانب من الجانبين. وما هي حياة الضمائر إن لم تكن حياة العراك والمقاومة والانتصار؟ وما هب أسرار الكون إن لم تكن أسرار التجاذب والتدافع بين دواعيه ونواهيه؟

فالنضال أصيل في روح الدين

والتقاء التدين وطلب الغلبة وطلب التعبير فترة واحدة أو فترات متعددات في النفس (المتطورة) ليس بالأمر الغريب ولا باللغز العسير التعليل

!وكم أديب مناضل وجندي يحمل السلاح وهو غير مطبوع على النضال

وقد تركت أمل القيادة العسكرية منذ الصبا الباكر ولكني لم أتركه إلا في الظاهر الذي لا يتعدى الملابس والأزياء

فما هو إلا أن أسلمتني المناوشات الصبيانية إلى نظم الشعر للتحدي والمناجرة حتى انتقلت إلى عالم التعبير والكتابة وانتقلت إلى هذا العالم الأدبي لأناضل وأقضي العمر كله في نضال باطن بيني وبين نفسي ونضال ظاهر بيني وبين الآخرين

فما الغرابة في التوفيق بين هذه الأماني؟ وما الصعوبة في هذا التوفيق؟ وأيهما أسهل وأدني إلى القبول: تعليل كل أمنية بالطموح وليس هو بالتعليل الشافي ولا بالتعليل الصحيح، أو النظر إلى ما وراء الطموح من بواعث متقاربات تتلاقى عندها الظواهر المتباعدات؟

الراحة الكبرى تنال على جسر من التعب كما قال أبو تمام، والسهولة الكبرى في

تعليل الحقائق تنال بعد خطوات من السهولة العارضة على وجه الأمور، ولكنها بعد اجتياز هذه الخطوات أسهل من كل سهل قريب، لأن هذا السهل القريب لا يؤدي إلى شيء ولا يستريح الواقف لديه

عباس محمود العقاد

الصوم عن القاهرة في يوم العيد

رسالة مهداة إلى الأستاذ الزيات، وإلى من تعنيهم مكانة القلم)

(البليغ

للدكتور زكي مبارك

كان من السنن الجميلة أن أقضي يوم العيد بين أهلي في الريف وكان للعيد في حياتي تأثير جميل؛ فقد كنت أسمع من أمي وخالاتي وعماتي دعوات أكاد أشهد صعودها إلى السماء

وما أذكر أني قضيت العيد بعيداً عن أهلي إلا في الأعوام التي قضيتها بين الاعتقال والاغتراب، ولله حكمة عالية في ابتلاء القلوب بألوان من الضجر والضيق تؤهلها لإدراك بعض المجاهيل من بيداء الوجود

وفي صبحة أحد الأعياد مضيت إلى (سنتريس) وأنا خالي الذهن من المفاجئات، فراعني أن أرى أبي يجذب يدي فيقبلها بحرارة وشوق، وكنت أنا الذي يقبل يمناه في جميع فرص اللقاء ولو أتيحت في اليوم الواحد عشرات المرات، فماذا فهمت من ذلك العطف الجديد؟

قدرت أن أبي سيموت، وأنه لم يقبل يدي إلا إيذاناً بالوداع، وأنني لن أره في مثل ذلك اليوم من السنة التالية، وأن الدنيا لن تسمح بأن أرى العيد في صحبة صديق كان غايةً في صباحة الوجه، وحصافة العقل، وطهارة الوجدان. وهل رأت عيناي رجلاً أفضل من أبي؟

وصفه المسيو دي كومنين لأحد محدثيه بهذا الوصف الطريف:

!يرحمك الله، يا لأبي! ويرحم أيامي في رعاية قلبك الرفيق

كان أبي يحبني إلى حد الإسراف، وكنت خليقاً بذلك الحب، فما بات من أجلي ليلة واحدة وهو مخزن ومكروب. وهل جشمت أبي ما لا يطيق، أو فرضت عليه أن يحسب لمتاعبي أي حساب. مع أنه لم يمت إلا بعد أن تمرس كاهلي بحمل الألوف من المصاعب الثقال؟

ثقل على قضاء العيد في الريف بعد موت أبي، فكيف كان العوض من ذلك الحرمان؟ أشار أخ كريم بأن أزور قصر جلالة الملك يوم العيد لأقيد اسمي في دفتر التشريفات، فماذا غنمت من تحقيق ذلك الاقتراح الجميل؟

كنت أبكر قليلاً، لأسير في شوارع القاهرة لحظات قبل أن أصل إلى قصر جلالة الملك، فعرفت من جمال القاهرة ما لم أكن أعرف. وما ظنكم بمدينة لا يستطيع العيد أن يزيدها جمالاً إلى جمال؟

كان يروعني أن أرى القاهرة لا تتأثر بالعيد، وكيف وجميع أيامها أعياد؟

وهل يمكن أن تمر بأحد شوارع القاهرة في أي وقت، ثم تعود وأنت في أمان من الفتون؟

إني أحسد من يرى القاهرة لأول مرة، أحسده وأحقد عليه. فالبرغم مني أن يكون لي في هواها شريك، ولو كان من أكابر أهل الوفاء

وأقول (أول مرة) لأني أخشى أن يكون طول الإلف قلل من طرافتها في عيني، وإلا فكيف جاز أن يكون طوافي بشوارعها مقصوراً على أوقات الأعمال؟ ألا تمر أسابيع في أيام الإجازات بدون أن أستصبح بنورها الوهاج؟

وأرجع فأدون أني كنت أصل إلى قصر جلالة الملك بعد أن أطوف بشوارع القاهرة لحظات، فأرى القصر يموج بالمهنئين من الوزراء والقضاة والمحامين والنواب والشيوخ والأعيان، وألتفت فأراني أستقبل كل قادم، وأودع كل ذاهب، كأنني في داري، وأنتهب الفرصة فأدير المناقشات الأدبية والاجتماعية مع من أصادف هنالك من رجال القلوب والعقول، ولا أنصرف إلا بعد أن أطمئن إلى أني عيدت على أكثر من أجب أن أراهم في يوم العيد

وكان جلالة الملك رأى أن يخفف على شعبه الأمين تكاليف التشريفات، فكان الوافدون على القصر للتهنئة لا يشعرون بالفروق الموروثة بين الطبقات، وكان حظ أي زائر مماثلاً تمام المماثلة لحظ رئيس الوزراء

ثم ماذا؟ ثم جاء هذا العيد بجديد لم ألتفت إليه من قبل

نظرت في منهاج التشريفات فهالني أن لم أجد فيه مكاناً لرجال القلم البليغ، مع أن لرجال القلم نصيراً في قصر جلالة الملك، هو الرجل أحمد محمد حسنين، وكان من لطائفه أن يراعى هذا الشأن الدقيق

مليكنا العظيم الشاب يسره أن يشهد جميع ما في وطنه من القوى الحيوية، وأعظم القوى في مصر هي قوة القلم البليغ، فكيف يصعب علينا أن نصافح جلالة الملك في يوم العيد،

ونحن رسل الثقافة المصرية في الشرق؟

إن أقلامنا هي زينة الوطن في أعوام النعماء، وسناده في أيام البأساء، فكيف يحال بيننا وبين مصافحة رمز الوطن في يوم العيد؟

رجال الدين لهم في التشريفات الملكية مكان، وللوزراء والسفراء مكان، ولكبار رجال الأعمال مكان، فأين المكان المحفوظ لأقطاب القلم البليغ؟

أعيذ القارئ أن يتوهم أني أطالب بمغانم رسمية، تغض من سمو المنزلة الأدبية، فما نحن طلاب ظواهر، وإنما نحن طلاب معاني، والقصر هو الرمز المعنوي لروحانية هذه البلاد، ونريد بصراحة أن يكون لنا في ظلاله مكان، باسم الفكر والبيان.

. . . للأدب الأدب.

ولهذا المعنى نطالب بأن يكون له في التشريفات الملكية مكان

قد يقال إن حملة الأقلام في مصر يعدون بالعشرات أو بالمئات، ومن الصعب أن يوضع لهم نظام في التشريفات.

وأجيب بأن من السهل أن يكتفي بالطبقة الأولى، وأفرادها لا يحتاجون إلى تعريف، ثم تكون هذه الطبقة رمزاً للقوة الأدبية في التشريفات، ليعرف رجال القلم أن حظهم غير ضائع في هذه البلاد

كان متوسط ما يصدر عن المؤلفين المصريين اثنا عشر مجلداً في كل يوم، قبل أن ترتفع أثمان الورق، فهل أقيم لجهودنا ميزان في وزارة المعارف أو رياسة مجلس الوزراء؟

واسم مصر يرتفع من يوم إلى يوم في أقطار اللغة العربية بفضل القلم البليغ، فهل جوزي حملة الأقلام على ذلك الجهاد؟

نحن أغنياء بأقلامنا وأرواحنا عن ثناء الأمة المصرية، ولكننا نشتهي أن تكون أمتنا غاية في الوفاء، وهو أشرف الخصال، فهل تسمع أمتنا هذا الصوت؟

شاءت المقادير أن تكون لمصر الزعامة الأدبية في الأقطار العربية والإسلامية، أفلا يكون من العيب أن يحفظ قدر القلم المصري في جميع الديار، إلا الديار المصرية؟

بأعصابنا ودمائنا غنمنا المعركة الأدبية، بعد نضال حشدت فيه قوى كريمة تتمتع بالهواء الذي تنسمه ملك بني أمية، وملك بني العباس.

ولن تنزع الراية الأدبية من أيدينا، ولو عاد عهد الخلفاء في قرطبة ودمشق وبغداد، فإن شاء بنو الأعمام والأخوال أن يناضلوا من جديد فنحن على استعداد للنضال

وهل يحتاج بنو الأعمام والأخوال إلى مثل هذا الوعيد؟

إن عطفهم مبذول بغير حساب، ونحن لا نشكو غير تجني الحكومة المصرية، فهي لا تعترف للقلم بحق إلا إن كان صاحبه من السياسيين، وسنؤلب جميع أدباء اللغة العربية على الحكومة المصرية، فلتعرف هذه الحكومة أن صبرنا لن يطول على تجنيها الجميل!

أما بعد فقد عز على أن يحظى ناس بمقابلة جلالة الملك، ثم لا يكون نصيبي غير كتابة اسمي في دفتر التشريفات، وأنا من فئة قليلة تحمل المصابيح لإنارة القلوب والعقول، ولها فضل معروف أو مجهول في بناء هذا الجيل

وكذلك قررت الصوم عن القاهرة في هذا اليوم، والصيام في العيد حرام لا حلال، فهل يغفر الله هذا الذنب الدميم؟

أين أنا من القاهرة؟ وأين القاهرة مني؟

لقد سكنت الدنيا من حولي، ولم يبق غير الأصوات الصواخب في أعماق الوجدان
أهو يوم أضعته؟ لا، والله، بل هو عمر ضاع، فليس من رؤية القاهرة عوض، ولو
انتفعت بالاعتكاف لتسجيل أعظم حديث يجود به القلب الخفاق
وهل استوفيت حظي من الحياة حتى أسأل عن نصيبي من القاهرة في مثل هذا
اليوم؟
صمت عن القاهرة في يوم يحرم فيه الصيام، فما جزائي؟
الجزاء هو الحرمان من رؤية وجهها الأصبح في يوم عيد، وقد تجمعت الخلائق لشهود
معترك الحسن والوجد في ساحتها الفيحاء. . .
للقاهرة في كل يوم مذاق، فكيف أصوم عنها في يوم العيد، وهي فيه ألوان من
الأذواق؟ أمن أجل الغضب لقوم لا يغضبون لأنفسهم أصوم عن القاهرة في يوم عيد،
وهو فيها صنوف، من الحسن الموصوف؟
لقد ضحيت ما ضحيت لأغنم الثواب في التنويه بجمال بلادي، فما ثوابي عند القاهرة،
وقد جعلت الصيام عنها في العيد من المحرمات؟ الجواب عند روحها اللطيف.
زكي مبارك
المدينة الفاضلة
للدكتور جواد علي
والمدينة الفاضلة هي أصغر مجموعة بشرية كاملة تصورها الفيلسوف الفارابي
فيلسوف المسلمين في كتابه: (آراء أهل المدينة الفاضلة) وقد نعت مدينته هذه بهذا
الاسم ليميزها بذلك عن المدينة الجاهلية والمدينة الفاسقة والمدينة المتبدلة والمدينة
الضالة وغيرها من المدن التي ابتكرها عقل الفارابي، وقد سجل أسماءها وخواصها
في كتابه حيث ذكر خواص كل مدينة من هذه المدن وعلاماتها الفارقة وميولها من خير
أو شر
وكتاب (آراء أهل المدينة الفاضلة) في ذاته نوع من أنواع الإيتوبيا (طوبي) أراد فيه
مؤلفه الفيلسوف المعلم الثاني معالجة قضية من أشكل القضايا البشرية التي جابهها
المسلمون ألا وهي قضية شكل الحكومة المثلية والنموذج الأعلى لنظام الحكم في
هذا العالم كما فعل قبله الفيلسوف اليوناني الكبير أفلاطون في جمهوريته أو كما فعل
المعلم الأول الفيلسوف أرسطو في سياسته وكما فعل فيلسوف المسيحية الأول
القديس أوغسطين في كتابه مملكة الإله أو وكما عالج نفس هذه المشكلة فلاسفة
آخرون من القدماء والمحدثين ممن كانوا قبل عصر الفارابي أو ممن جاءوا من بعده
بقليل أو كثير
وآراء الفارابي في هذه المدينة تكاد تنطبق على عالم أهل السماء أكثر من انطباقها
على عالم أهل الأرض. هو فيلسوف ينظر إلى الحقائق بنظرات مجردة تختلف كثيراً
عن وجهة نظر السياسي المحترف أو الإداري العملي إلى الأمور. هو مفكر له مثله
العليا ويريد تطبيق مثله هذه على جميع شؤون الحياة. وقد أصاب الهدف في جهات
ولم يصبه في جهات أخرى. ولقد كان شأنه في مدينته هذه كشأن توماس الأكويني في
شرحه لكتاب السياسة لأرسطو أو دانته الشاعر الإيطالي الفيلسوف في كتابه
(المملكة) حاول أن يوفق بين آراء أفلاطون وأرسطو، وبين كتاب الجمهورية وبين
كتاب السياسة، وبين الحاكم والمحكوم. فكان يرى الفارابي في الخير الخير العام
وفي السعادة السعادة العامة للحكام والأتباع معاً
ويريد أن يوفق بين هذه الآراء وبين آرائه الشخصية، وبين مقتضيات الزمن. ومقتضيات
زمانه السياسية من اصعب الأشياء إذ عليه أن يرضى حماته أصحاب الحل والعقد وإلا
جلب على نفسه السخط والنقمة وعليه أن يرضي ضميره وضميره ضمير فيلسوف
عالم لا يؤمن إلا بالعلم ولا يثق إلا بالعقل، وهذا ما لا يرضي معظم الناس طبعاً
وقد اتبع الفارابي في معالجة ضروريات مدينته والدوافع الطبيعية التي تدفع الإنسان
إلى الاجتماع طريقة الفلاسفة الطبيعيين مبتعداً في كثير من الأحايين، وعلى الأخص
في القسم الأخير من كتابه على طريقة الفلاسفة المنطقيين. تراه يشبه المدينة
بجسم حي ثم يأخذ في شرح أهمية كل عضو من أعضاء هذه المدينة، يفعل ذلك على
نحو ما يفعل علماء الاجتماع في هذا اليوم، ويتوصل من ذلك إلى نظرية يضعها هي
نظرية التفاوت بين قابليات الأفراد وبين قابليات العناصر البشرية وبين قابليات الحكام

والأتباع. وهي نظرية عامة يطبقها حتى على المعايير الأخلاقية والقواعد الأدبية والاجتماعية
يترأس مدينة الفارابي رئيس لا يرؤسه إنسان آخر أصلاً هو الإمام، وهو الرئيس الأول للمدينة الفاضلة، وهو رئيس الأمة الفاضلة، وهو رئيس المعمورة من الأرض كلها، ولا يمكن أن تصير هذه الحال إلا لمن اجتمعت فيه بالطبع اثنتا عشرة خصلة قد فطر ذلك الرئيس عليها. واجتماع هذه الخصال كلها في إنسان واحد عسر، لذلك لا يوجد من حظي بهذه الفطرة إلا الواحد بعد الواحد والأقل من الناس. فإذا اجتمعت الحكمة في شخص والصفات الأخرى في شخص كانا هما رأسين في هذه المدينة، فإذا تفرقت الخصال في جماعة وكانوا متلائمين كانوا هم الرؤساء الأفاضل
وللحكمة في هذه المملكة حظ عظيم كما هي في مملكة أفلاطون؛ ولكن حكيم أفلاطون حكيم زمني لا يأتيه الوحي ولا يعتمد على إلهام من السماء؛ أما حكيم الفارابي فهو حكيم مسلم بكل معنى الكلمة يمثل زمان الفارابي خير تمثيل، يأتيه الوحي ويتنزل عليه الإلهام؛ وله سلطان واسع في الحكم لا حد له هو أفلاطون في ثوب رسول كريم. وفي هذه النقطة من البحث تجتمع العقلية الشرقية بالعقلية الغربية، تجتمع وجهة نظر أفلاطون بالنسبة للفيلسوف الحكيم الحاكم بوجهة نظر الشرقيين، وهي السيادة المطلقة التي هي من ضروريات الحكم لدى الشرقي، وهنا تلتقي الفلسفة اليونانية بالفلسفة الإسلامية، فيتكون من امتزاج الفكرين صورة جميلة على أحسن ما يكون
يظهر التأثير الإسبارطي واضحاً في جمهورية أفلاطون، وفي (السياسة) لأرسطو، وتظهر
الروح الفردية بصورة جلية على الأخص في مملكة أفلاطون؛ وفي آراء كل من الفيلسوفين انعكاس تام لآراء اليونانيين الخاصة بالنسبة لسياسة المدن حيث كانت حكومة المدن هي النموذج الأعلى لنظام الحكم لدى اليونانيين القدماء. أما في مملكة الفارابي فالمثل الروماني بالنسبة لطريقة الحكم هو المثل الأعلى إذ يسيطر الرئيس الذي افترضه الفارابي على المعمورة الفاضلة كلها، وفي حالة تعذر وجوده يقوم رئيسان أو ثلاثة أو أربعة أو غير ذلك من توفرت فيهم شروط الرآسة الفطرية والقابليات الطبيعة بنظام الحكم على طريقة تشبه طريقة حكم المسلمين في أوائل عهدهم وإلا هلكت المملكة أو المدينة وتاهت البشرية. وإن تعذر وجود الرؤساء قام وكلاء عن الرؤساء بالأمر يدبرون شؤون الناس ويقومون بتنفيذ الأحكام والعدل بين الناس وتكون لهم سلطة عليا لا حد لها تستند على حق طبيعي شرعي افترضه العقل على الإنسان فرضاً
وعلى الرئيس الحاكم أن يسعى في جلب السعادة لأتباعه المرؤوسين؛ ومتى حصل ذلك، وكانت الخصال التي رآها الفارابي قد توفرت فيه كان ذلك الرئيس هو الرئيس الفاضل، وكانت المدينة هي المدينة الفاضلة ولا يهم الفارابي بعد ذلك شكل الحكم إذ هو فيلسوف يفني في السعادة ويرى الخير كل الخير فيها على نحو ما يذهب إليه المتصوفة وما ذهب إليه الفيلسوف أرسطو
والرؤساء هم الذين يعينون شكل المدن ويهدون الناس إلى الصراط المستقيم. فإذا كان رؤساء المدينة أو الرئيس الأول من طبقة الحكماء الذين دأبهم الخير للمجتمع كانت المدينة فاضلة، وإذا كان دأب الرؤساء أو الرئيس الأول استغلال أهل المدينة والتحكم في الناس كانت المدينة مدينة جاهلية أو ضالة أو متبدلة حسب المعاملة الغالبة التي تكون بين رؤساء هذه المدينة أو أبنائها. ويحاول الفارابي أن يضع العلامات الفارقة التي تبين شكل المدينة ولكنه لا يحاول أن يعين نوع الحكم ولا طريقة الحكم كما فعل القديس أوغسطين أو توماس الأكويني أو توماس مور أو سنت سيمون أو غيرهم من الأيتوبيين
لم يعتقد الفارابي بنظرية المساواة الاجتماعية ولم يتصور في مدينته الفاضلة أية صورة للمساواة الاشتراكية التامة أو الناقصة سواء أكان ذلك بين أهل المدينة بصورة عامة أو بين طبقة معينة كما تصور ذلك أفلاطون. والفارابي فيلسوف عملي من هذه الناحية يرى

التفاوت حتى في درجات الفضيلة ينظر من جهة أخرى إلى ما يحتم عليه الوضع السياسي وآداب مجتمع ذلك العصر.

جواد علي

ثقافة فلكية

عمر أمنا الأرض

للأستاذ خليل السالم

يجد الباحث البصير أن تاريخ أي علم من العلوم مملوء باللمعات الفنية والخطرات الثاقبة والإشراقات الذهنية والفكر الدقيقة التي تشبه الوحي ينزل من الملأ الأعلى على العالم أو المخترع أو المكتشف. وإن الباحث ليقف إزاء لحظات التجلي التي تمر بالعالم وقفة كلها دهشة وروعة وإعجاب ندر أن تتسنى له وهو يتفرس في محاسن التمثال الخالد، أو يستشف مواطن الإبداع في القصيدة الرائعة، أو يغيب وعيه في الاستماع إلى قطعة موسيقية ساحرة

أنا لا أقول هذا اعتباطاً؛ وإنما أقوله عن اعتقاد جازم مكنه في نفسي شعور من يوثق بأقوالهم وشعوري أنا الداخلي الصادق. تأخذ الاكتشافات العلمية بعضها برقاب بعض؛ فاكتشاف حقيقة بعينها يقود بقليل من التدبر والوعي إلى اكتشاف أو وضوح حقيقة أخرى لا تمت إلى الأولى بصلة سوى أن اكتشاف الأولى سبب في اكتشاف الثانية. فالروعة إذا كامنة في نقطة الاتصال أو في الطريقة التي تم بها اكتشاف تلك النقطة. وليسمح لي القارئ أن أدرس معه في هذا الفصل القصير مشكلة عمر الأرض. فلا شك أنه رأى - أو سيرى - الأرقام الكبيرة التي يزعم العلماء أنها عمر هذه الحسناء التي تنعم كل عام بالربيع الطلق والحيوية النابضة مختلف أعضائها، والتي لا تبدي من شيبها دليلاً على صدق أقوال العلماء. ولعل حيرة القارئ تزول بعض الشيء إذا عرف الطرق العبقرية التي تم بها انتزاع هذا العمر الطويل من فم الحسناء نفسها، ولعله يفهم أيضاً معنى تلك الإشراقات الذهنية التي أشرت إليها أولاً

سأل الناس منذ القدم عن عمر الإنسان على الأرض أو عمر الأرض في الكون، فلم يجدوا جواباً شافياً. واحتال العلماء على الأرض لعلها تعترف بعمرها، ولكنها - كالعادة في بنات جنسها - أبت إلا كتماناً وإصراراً على الكتمان حتى قيض الله لهالي (عالم فلكي إنجليزي) في لحظة من لحظات الإلهام أن يستنطق المحيطات فتجيبه عن عمر الأرض. من كان يظن - قبل أن يقول هالي - أن ملوحة ماء البحر تكشف سر الأرض؟ وهل يرى القارئ

بسهولة العلاقة بين عمر الأرض وملوحة المحيط؟. . . إليك ذلك:

يتبخر الماء من المحيط دائماً، ثم يعود إلى المحيط مع الأنهار الجارية. فبقليل من التساهل نستطيع أن نفرض أن مقدار الماء في المحيط ثابت ما دامت العودة إلى المحيط تتم بنفس السرعة التي يتبخر بها الماء؛ لا يهمنا هذا بقدر ما يهمنا أن نعلم أن ملوحة المحيط تزيد زيادة مطردة أثناء هذه العملية المستمرة. فالماء الذي يتبخر كما لا يخفي مقطر خال من الأملاح. أما الماء الذي تحمله الأنهار، فيعود وقد ذاب فيه قدر ضئيل من الأملاح. فإذا عرفنا معدل الزيادة السنوية لملوحة ماء المحيط، استطعنا أن نعين بكثير من الدقة عدد السنين التي انقضت على استمرار هذه الظاهرة الطبيعية؛ وهكذا كان، فإن الإحصاءات والدراسات الحديثة لمعدل الزيادة السنوية لملوحة ماء المحيط، استطعنا أن نعين بكثير من الدقة عدد السنين التي انقضت على استمرار هذه الظاهرة الطبيعية؛ وهكذا كان، فإن الإحصاءات والدراسات الحديثة لمعدل الزيادة ومقدار الملوحة الحالية تبين لنا كما يقول جينز المحيطات تعود في عمرها إلى مئات من ملايين السنين

لم يرق للعلماء هذا الاعتراف ولن يخفف من غلواء جدلهم، فقد تكون الأرض قد كذبت عليهم وغررت بهم، وكان أن اتسعت شقة الخلاف بين البيولوجيين والجيولوجيين من جهة، وعلماء الطبيعة من جهة أخرى: أولئك يؤيدون وهؤلاء يكذبون. وحجة أولئك أن تلك المخلوقات التي تعني بها الأرض وترعاها لا تبلغ هذا الكمال في نشوئها إلا في غضون أجل طويل سحيق في القدم. وحجة الآخرين أن الأرض لم تهرم بعد، وهي تبرد من نفسها وفي كل عام تفقد من حرارتها وتخسر من نشاطها وحيويتها؛ وإذا كان ما يقوله خصومهم صحيحاً فيجب أن تكون الأرض الآن جثة هامدة باردة الأطراف لا

يعيش عليها حيوان ولا ينبت نبات. واحتدم الجدل واشتد النقاش، والأرض صامتة لا تعي، لاهية عما يبحثون، نشيطة في رياضتها وطفرها حول أمها الرءوم (الشمس) ولكن جفرز (عالم إنجليزي) رفع عينيه نحو السماء لعل عندها بعض الخبر، ولحسن حظه وقوة عبقريته ونفاذ فكرته وجد عند شقيق الأرض - عطارد - نبأ مهماً. ماذا لاحظ؟ لاحظ أن مدار عطارد يكاد يقرب من الدائرة، وانتقاله من الشكل الإهليلجي إلى ما يقرب من الشكل الدائري تم بفعل المواد المنتشرة في الفضاء التي تناثرت عقيب انفصال السيارات عن السديم الشمسي، فقد

كان عطارد لقربه من الشمس يصطدم بتلك المواد. فالمدة التي انقضت حتى بلغت المدة (0. 2) هي عين المدة التي انقضت حتى فنت تلك المواد. فلو بقيت لتمت الاستدارة، ولو فنت قبل أن تصل المدة مقدارها الحالي لما وصلته حتماً. وبموجب الحساب الدينامي وجد جفرز أن عمر الأرض أو عمر النظام الشمسي على الإطلاق ينحصر بين (1000 - 10000) مليون من السنين

لم يتأكد العلماء أيضاً من شهادة عطارد، فعادوا ثانية إلى الأرض يقرءون في وجهها أخاديد الكبر ويجسون نبضها ويفحصون قلبها الكبير، وكان أن قضى الله أمراً كان مفعولاً على يد العالم الطلعة رسل (عالم فلكي أميركي) فقد وجد هذا عمر الأرض مسطوراً في مناجم الراديوم وغيره من العناصر المشعة. وفعل الإشعاع هذا حجة دامغة ضد الذين قالوا بفتوة الأرض. فالأرض لا تبرد من نفسها كما كان يظن. ليس هذا فحسب، وإنما هي تسخن بفعل هذا الإشعاع. فصار علماء الطبيعة مستعدين أن يقدروا للأرض عمراً لم يفرضه خصومهم من قبل

ما هي نقطة الاتصال بين إشعاع الراديوم وعمر الأرض؟ يعلم كل مثقف أن عناصر الراديوم والنوريوم المشعة تتحول من عناصر ثقيلة إلى أخرى تكون أعدادها الذرية أقل من أعداد الأولى. ويجيء الرصاص مسكا لختام هذه السلسلة

ولحسن الحظ وجد أن الرصاص المتكون بفعل الإشعاع يختلف عن الرصاص العادي في أن وزن الأول الذري (206) بينما الوزن الذري للثاني (207. 18)، ومن هنا سهل التفريق بين النوعين. وفي مناجم الراديوم لا تجد اليورانيوم دون أن تجد معه الرصاص الذي تكون من إشعاع اليوزانيوم. ولما كان معدل التحول من اليورانيوم إلى الرصاص وهو (1 %) كل (66) مليوناً من السنين معروفاً أصبح من السهل جداً أن نعرف عمر الأرض بمعرفة النسبة بين الرصاص واليورانيوم في منجم واحد. وقد قدر عمر النظام الشمسي بما لا يقل عن (1300) مليون من السنين. وهو كما يلاحظ القارئ يتفق تمام الاتفاق مع ما قدره جفرز من قبل

وجاءت من السماء رسائل تؤيد هذا التاريخ حملتها الشهب والنيازك التي عجز الهواء المحيط بالكرة الأرضية أن يحرقها تماماً فسقطت جلاميد كبيرة على الأرض وأحدثا أغواراً

عميقة كحفرة أرزونا مثلاً، وفي كثير من هذه الجلاميد يلتقي عنصر الراديوم ونفايته وقد وجد أنه ليس بين الحجارة التي امتحنت ما زاد عمره على (2900) مليون من السنين وما قل عن السن التي شهدت بها الصخور الأرضية

وكما أن لكل بداية نهاية فلا بد للأرض أن تهرم وتموت، متى؟ هذا بيد الله، فربما لا يزيد هذا الزمن الذي يحير عقولنا ويشعرنا بعظمة الكون عن أن يكون لحظة قصيرة عابرة في مخيلة المهندس الأكبر وربما يكون المستقبل أرحب وأوسع بكثير من الماضي

وفي نفس الوقت الذي يكون القارئ لنفسه رأياً في هذه الأرقام الضخمة، أرى أن أذكره بتلك اللمعات الفنية والإشراقات الذهنية التي تمر بذهن العالم، وأن أشير عليه أيضاً بالتزود ما استطاع من الثقافة العملية. ففي الأخيرة لذة وطرافة وقصص رائع لا تقل عما يلقى في غير العلم من ميادين الثقافة الواسعة

(تجهيز السلط)

خليل السالم

من الدرجة الأولى في الرياضيات (.ب. ع)

مدينة طرابلس الغرب

للأديب مصطفى بعيو الطرابلسي

من بين المدن العديدة التي يتردد ذكرها في هذه الأيام على صفحات الجرائد (مدينة طرابلس الغرب) عاصمة الإقليم المعروف باسمها ومقر حكومة ليبيا الإيطالية، وهي مدينة إغريقية في اسمها ومعناه المدن الثلاث، وهي (سبراتا وكان البربر يسمونها (زواغة) قبل أن يلقبها العرب (بصبرة)، وهي اليوم تدعى (زوارة)؛ ثم (أوا التي هي أويات في نظر البربر قبل أن يحرفها الرومان إلى اللفظ السابق عند استيلائهم على تلك البلاد، وأخيراً (ليبدس التي لم يبق منها إلا آثار متهدمة تشهد على عظمتها في سابق عهدها، وقد حلت محلها اليوم مدينة (الخمس) العامرة، وأصبح أهالي البلاد يطلقون اسم (لبدة) على تلك الأطلال الخربة

وجدير بالملاحظة أن كلمة (طرابلس) لم تكن معروفة حتى القرن الرابع (ق. م) عندما أطلقها الكتاب الرومانيون على تلك المدن الثلاث السابقة الذكر، ولكن هذه الكلمة تغير مدلولها في العصر البيزنطي، وأصبحت تطلق على (أوا) فقط دون غيرها ولما جاء العرب استعملوها على هذا النحو، إلا أنهم أضافوا إليها كلمة (الغرب) تمييزاً لهذه المدينة عن مدينة (طرابلس الشام)، وكانوا يسمونها أحياناً (أطرابلس) بزيادة الهمزة في أولها، على أن صاحب القاموس قد ضبط اسمها بفتح الطاء وضم الباء واللام وجعل الهمزة من مميزات الشامية، ولكن البكري والتيجاني وغيرهما يرون إلحاق الهمزة بمدينة (طرابلس الغرب)، وهذا ما أرجحه لأن الأهالي إلى وقتنا هذا ما زالوا ينطقونها أحياناً بهذا الشكل

ويرجع تاريخ إنشاء مدينة (أوا) إلى أوائل القرن الخامس ق. م ونظراً لحسن موقعها وصلاحية مرساها للسفن بسط الفينيقيون سيادتهم عليها حتى تتم لهم السيطرة على البحر الأبيض المتوسط؛ ثم ورثهم في هذه السيطرة خلفائهم القرطاجنيون الذين أسلموها بدورهم إلى الرومان على أثر هزيمة قرطاجنة في الحروب البونية خلال القرن الثاني ق. م. ويذكر لنا بروكويبس أحد مؤرخي الرومان أن الوندال عندما استولوا على مدينة أوا (طرابلس الحالية) هدموا أسوارها، ولكن ليس هناك شك في أن البيزنطيين قد أعادوا بناءها عند استرجاعهم لها في عصر الإمبراطور جستنيان بدليل ما نراه من أثر التجديد

البيزنطي في بقايا الأسوار التي ما زالت إلى اليوم. ولكن هذه الأسوار لم تكن تامة الإحاطة بالمدينة من جهة البحر مما سهل على العرب فتحها على أيدي جنود عمرو بن العاص؛ ولهم في ذلك قصة ترويها كتب التاريخ تتلخص في أن عمرو بن العاص قد ضرب حصاراً على المدينة من جهة البر وأقام يتحين الفرص للاستيلاء عليها حتى وافاه ذلك عندما خرجت جماعة من جنوده للصيد، فلما شعرت بوطأة الحر توجهت إلى البحر لتخفيف ما تشعر به، وكانت المدينة تشرف على البحر مباشرة لا يفصلها عنه أي حاجز؛ فوجد الجنود طريقاً إلى المدينة على أثر جزر البحر فتسللوا إلى داخلها. وكم كانت دهشة الرومان عظيمة عندما سمعوا تهليل هؤلاء الجنود وتكبيرهم مما دفعهم إلى الاحتماء بسفنهم. وأبصر عمرو أصحابه في جوف المدينة فأقبل بجيشه واستولى عليها بعد أن سهل عليه أصحابه تلك المهمة. وقد فطن العرب إلى هذا النقص في تحصين المدينة فيما بعد مما دعا هرثمة بن أعين - وإلى المدينة من قبل الخلافة العباسية أن يعمل على إتمام هذه الأسوار من جهة البحر. وبدخول العرب لمدينة طرابلس دخلها الإسلام وانتشرت فيها اللغة العربية ولا تزال لغتها ولا يزال الإسلام دينها على رغم بعض المحاولات الفاشلة

ومما تجب ملاحظته هنا أن المؤرخين قد اختلفوا في تحديد زمن تبعية هذه المدينة للعرب؛ فبعضهم يقول إن ذلك تم في سنة 22هـ والبعض الآخر يقول إن ذلك كان في سنة 23هـ ويمكنا التوفيق بين الطرفين مع عدم أهمية هذا الخلاف لبساطة الفارق الزمني إذا اعتبرنا جزءاً من الحملة العربية على مصر قد توغل غرباً بعد فتح مصر حتى وصل مدينة طرابلس ثم تبعته بقية الحملة في سنة 23هـ. والحقيقة التي لا مراء فيها أن مدينة طرابلس نفسها لم تخضع للعرب خضوعاً تاماً حتى سنة 26هـ عندما حاول عقبة بن نافع التوغل في أفريقية وفتحها، فاتخذ منها قاعدة حربية لأعماله الجديدة وبقيت بها حامية عربية. وكان والي مصر هو في نفس الوقت حاكماً لمدينة طرابلس، ولكنها سرعان ما انفصلت عن مصر عندما عين عمرو بن العاص والي مصر ابن خالته عقبة ابن نافع بن عبد القيس الفهري والياً عليها من قبله، فكان بذلك أول

ولاتها الذين لم تصلنا أسماؤهم بعد
وكانت مدينة طرابلس خلال القرن الثاني والثالث الهجريين ميداناً للقلاقل والفتن الدينية نتيجة لأعمال فرقة الأباضية إحدى فرق الخوارج التي وجدت لها أتباعاً بين قبائل البربر
من هوارة وزناتة؛ فأقلقوا بذلك بال الخلافة العباسية بهجومهم المتوالي على المدينة ومحاصرتهم لها. وكذلك كانت حالة طرابلس أثناء حكم بني الأغلب مما سهل على العباس بن أحمد بن طولون والي مصر أن يغزو تلك المدينة بعد أن استولى على إقليم برقة واستطاع أن يتغلب على حاكمها محمد بن قرهب عند لبدة سنة 255هـ وحصره في مدينة طرابلس ثلاثة وأربعين يوماً تمكن من بعدها أن يفك الحصار عن نفسه
وتبعاً لقيام الخلافة الفاطمية في المغرب خضعت طرابلس لسلطانها، وتولى حكمها أفراد من بني خزرون الذين أسلموها إلى بني حفص أصحاب اليد الطولى في رخائها وتعميرها كما يحدثنا بذلك التيجاني في رحلته عندما زار المدينة سنة 1308م فيخبرنا بإقامة الحاكم في قصر بديع ربما كان القصر الحالي قد بنى على أنقاضه. ويحدثنا عن طريقة حكم المدينة بواسطة مساعدة مجلس من شيوخ المدينة يتكون من عشرة أعضاء. ولا يخفى التيجاني إعجابه بحمامات المدينة ونظافتها وشوارعها الواسعة المنسقة التي يتلاقى معظمها بزوايا منظمة، كما أعجبته آثارها ومسجده الملقب بالجامع الأعظم، ومدرستها المسماة بالمستنصرية، وأسوارها المحصنة بالأبراج والخنادق. والخلاصة أن الحياة كانت فيها كما وصفها لنا ناعمة مزدهرة. ولكن تنازع أفراد بني حفص على الحكم وانشغالهم عن الإصلاحات الضرورية جعل المدينة تأخذ في التدهور والضعف مما عرضها لهجمات أهل جنوا، إذ كان كثير من تجارها يترددون عليها، فعرفوا نقط الضعف فيها، ولم ينقذها من أيديهم إلا تلك الفدية التي قدمها لهم أبو العباس أحمد بن مكي صاحب قابس وقدرها خمسون ألف مثقال من الذهب الخالص
وما كادت المدينة تسترجع أنفاسها بعد هذا الغزو الأجنبي حتى وقعت مرة أخرى في قبضة الإسبانيين سنة 1510م الذين مكثوا فيها عشرين عاماً عاثوا فيها فساداً ولكنهم مع ذلك جددوا قصر حاكمها الذي ما زال محتفظاً ببعض شكله حتى يومنا هذا كما أصلحوا ما تهدم من أسوارها وبنوا الرصيف المعروف باسمهم في ميناء المدينة لرسو سفنهم واتخذوا منها قاعدة بحرية لمعاكسة أعمال العثمانيين في البحر الأبيض المتوسط في ذلك الوقت. ثم انتقلت بعد ذلك إلى أيدي فرسان القديس يوحنا في جزيرة مالطة الذين بقوا فيها حتى سنة 1551م بمساعدة شارل الخامس إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة رغم ما عانوه من
هجمات ثوار العرب بمساعدة سكان البلاد الداخلية. وتروى لنا كتب التاريخ قصة طريفة عن مقدمات احتلال الأسبان لمدينة طرابلس، وهي ولاشك أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة وتتلخص في أن الأسطول الإسباني التجاري قدم إلى الميناء فأتى أحد أهالي المدينة واشترى جميع سلع المراكب ودفع لأصحابها الثمن فوراً، ثم استضافهم رجل آخر في بيته بعد أن جهز لهم طعاماً فاخراً، ولما أخرجه لهم أخذ ياقوتة ثمينة وسحقها ورشها على طعامهم فبهتوا لذلك الأمر، ولما انتهوا من الطعام قدم لهم بطيخاً فطلبوا سكيناً لقطعها فلم توجد في داره تلك الآلة البسيطة الضرورية ولا عند جاره إلى أن خرجوا إلى السوق وأتوا بسكين. فلما رجع هؤلاء التجار إلى بلدهم سألهم ملكهم عن حال البلد التي قدموا منها، فقالوا: ما رأينا بلداً أكثر منها مالاً وأقل سلاحاً وأعجز أهلاً عن مدافعة عدو. وحكوا له الحاكيتين فتشجع بذلك وتأهب للاستيلاء عليها
على أن تفاقم استبداد الإسبانيين بأهالي مدينة طرابلس أجبرهم على الهجرة منها والالتجاء إلى مدينة (تاجوراء)؛ ثم انتخبوا وفداً للذهاب إلى دار الخلافة العثمانية طالبين تخليصهم من أيدي الإسبانيين فأجاب السلطان سليم الأول طلبهم وأرسل معهم مراد بك أغا أحد أغوات الحرم الذي تمكن من تخليصها من أيدي الإسبانيين في 13 أغسطس سنة 1551م بعد أن فر حاكمها إلى جزيرة مالطة. وبذلك أصبح مراد أغا حاكماً للمدينة وما زال مسجده الذي بناه في سنة 1554م في تاجوراء يحمل

ذكراه إلى يومنا هذا. وعبثاً حاول الأسبان وشركاؤهم فرسان مالطة استرجاع المدينة.
ولم تبق لهم طريقة ينتقمون بها من العثمانيين سوى انسلال مراكبهم إلى داخل الميناء ليلاً وإحراق السفن العثمانية
هكذا أصبحت طرابلس تحت الحكم العثماني يتولى شأنها ولاة يعينهم السلطان، ولكن نظراً لبعد المدينة عن الحكومة المركزية في الأستانة وضعف خلفاء بني عثمان بمرور الزمن عمل الولاة على الانفصال عن الحكومة المركزية خصوصاً بعد أن اختلطوا بأهل البلاد. فنرى أحمد باشا القره مانلي يعلن استقلاله في سنة 1711م مؤسساً أسرة القره مانلية التي حكمت حتى سنة 1835م. وقد خلفت لنا هذه الأسرة الكريمة عدة آثار قيمة تشهد بعظم شأنها وحكمها ولاسيما أحمد باشا القره مانلي الذي حكم حوالي أربعة وثلاثين عاماً كانت بمثابة العصر الذهبي لتاريخ هذه المدينة، إذ استطاعت بسط نفوذها على داخل البلاد حتى
فزان وحدود برقة شرقاً، وعمل على حفر قنوات لجلب المياه العذبة للمدينة من العيون القريبة، فضلاً عن حفره عيناً على الساحل لتزويد البحارة بالمياه العذبة، وهذا لا يعد شيئاً بجانب مسجده الذي شيده في سنة 1738م، ومدرسته التي ما زالت عامرة بالطلبة حتى يومنا هذا تستمد نشاطها من الأوقاف المخصصة لها. وكان قصره ندوة لقناصل الدول لكسب صداقته. خصوصاً وأنه أتبع سياسة التسامح نحو المسيحيين فكثر عددهم في المدينة فضلاً عن أنه أحسن معاملة بعثات الفرنسسكان.
هذا قليل من كثير يشهد بحسن أعمال مؤسس هذا البيت، ولولا ضيق المقام لأتيت على باقي أعمال أفراد هذه الأسرة التي رفعت من شأن طرابلس وجعلت دول أوربا تخطب ودها نظراً لما كان لأسطولها من سطوة في مياه البحر الأبيض المتوسط
ولولا ذلك الوباء الذي اكتسح المدينة على أثر مجاعة حلت بها سنة 1784 - 1785م والذي قضي على أربعة عشر ألف نسمة من سكانها البالغين مائتي ألف؛ ولولا تلك المنازعات العائلية من أجل تولي الحكم والتي أفسحت المجال للتدخل الأجنبي؛ ولولا دسائس قنصل فرنسا وإنجلترا لافتراس البلاد لبقيت طرابلس محتفظة باستقلالها وكيانها مدة أطول من تلك الفترة التي تمتعت بها ولكن كل هذه العوامل عجلت تداعي الكره مانلي ما ساعد تركيا على استعادة البلاد مرة ثانية يوم 28 مايو سنة 1835م. وبابتداء ذلك التاريخ تبدأ صفحة جديدة في تاريخ مدينة طرابلس الغرب حاول الأتراك خلالها إصلاح الحال ولكن الأجل لم يساعدها على تحقيق ذلك إذ سرعان ما احتلت الجيوش الإيطالية تلك المدينة في عصر يوم 5 أكتوبر سنة 1911م على أثر إعلانها الحرب على تركيا
وبابتداء هذا التاريخ أيضاً تدخل مدينة طرابلس الغرب في حياة جديدة أرجو التحدث عنها في مقال آخر مع ذكر أهم آثارها ووصف موجز لبعض إحيائها وعادات أهلها وأشهر علمائها ورجالها
مصطفى بعبو الطرابلسي
كلية الآداب - القاهرة
الصحيفة المثالية
لرجل الصحافة (ويكهام استيد)
بقلم الأستاذ زين العابدين جمعة المحامي
حاولت فيما عرضته أن أوحي إلى القارئ بما يجب أن تتوفر الصحافة على خدمته من مثل أعلى، وأن أدله على ضوئه إلى ما كان من تقصير الصحافة البريطانية في أمره ونيتها في نهجه وقصورها عنه، وبوسعي أن أتخيل صحفياً أثقله عمل لم يؤده إلى بجهد جاهد ودرى بما يرسف فيه من أغلال وما نصب له من أشراك دراية جامعة وهو يحاورني عن علم وخبرة قائلاً: (عافنا من عسير أرمك يا أخي وترسل فيما يجتال بخاطرك من نسج النظر ووهم الخيال!) فأي نوع من الصحافة يسعك أن تبدعه إذا هيئوا لك الفرصة، وأطلقوا في الأمر يدك؟
هبك كنت (توماسن) بصحيفته (التربين)، أو (الفردهارموث) بصحيفته الناضجة (الديلي ميل) أو (ليفي لوسن) بصحيفته (الديلي تلغراف)، وقل لي لعمرك ماذا عساك صانعه - وأنت مقيد بقيود الصحافة الحاضرة - لتظفر بالحرية وطيب الحياة لصحافة أمست وهي تخضع خضوعاً كبيراً للاعتبارات التجارية؟؟

أغلب ظني أنه حوار حكيم وسؤال عادل، وقد يتأتى لي أن أجيبه إجابة نظرية عما سأل بقدر ما يشق على أن أقارعه الحجة بالحجة من الوجهة العملية الناجحة وأضعها نصب عينيه حقيقة واقعة؛ فهذا شأن آخر له قدره وأثره، وليس يتوفر لجميع الصحفيين من البراعة وبسطة الكف ما يسعهم معه إنشاء صحيفة؛ فقد كان (و. ت استيد) مثلاً صحفياً عبقرياً ورئيس تحرير نابغاً وهو إلى عبقريته ونبوغه قد أخفق إخفاقاً محزناً في إخراج صحيفة يومية، وإني على العموم لست قانعاً بأني أملك لنفسي من الكفاية والأداة ما يسعني معه أن أطالع الناس بصحيفة يكتب لها النجاح من الوجهة التجارية؛ كما وسع (جون) و (ولتر الثاني) صاحب (التيمس)، وليفي لوشن صاحب (التلغراف)، ويوسف بوليترز صاحب (النيويورك ويرلد)، وأدولف أخ صاحب (النيويورك تيمس)، والفرد هارمسورث صاحب (الديلي ميل)؛ في مذاهبهم الخاصة وطرقهم المختلفة، أو كما وسع (لورد بيفربروك) صاحب (الديلي اكسبرس)، ولورد كامروز صاحب (الديلي تلغراف)، (السندي تيمس) من أصحاب الصحف الحاضرة. فجميع هؤلاء الرجال قد حققوا آمالهم وطفروا من (الصحافة) بمآربهم باعتبارها من المؤسسات الاستغلالية؛ ولقد كان فريق منهم - وما زال بعضهم - من الصحفيين الأفذاذ

إلا أنه سواء لدي أكانت الصحافة استغلالاً خصيباً أم كانت مستراداً جديباً ما دمت لا أومن إيماناً تاماً بأن ما يرجى للصحف من نجاح تجاري هو أفضل مقياس للصحافة الممتازة الطيبة. فصحيفة (ألوست مانشستر جازت) مثلاً ما تهيأ لها قط أن تعيش من غير أن تقترض، ومع ذلك فأي صحافي يسعه أن يقول إنها لم تكن صحيفة فذة جديرة بالإعجاب. وما كانت صحيفة (ألمانشستر جازت) لتصبح يوماً ما في ذاتها وبذاتها معقد رجاء أصحابها في أن تغدو منجماً ذهبياً وتثميراً رابحاً ولكني إلى ذلك لا أرى لها من تفوقها الممتاز نظيراً في أي قطر كان

إن ما أنشده من مثل أعلى للصحافة لينطوي في تقصي واستيعاب نوع الصحيفة التي سيكون بوسعها أن توفق بين رسالتها المعنوية وما تترقبه من ثروة مادية من غير أن تضحي في هذا النهج الدقيق بشيء من النزاهة الصحفية والخلق القويم

وما إن يحفل خاطري بالآمال الحسان شأن غالبية الصحفيين حتى يتملكني العجب أحياناً، وأسائل نفسي: أي نوع من الصحافة يجمل بي أن أخرجه للناس إذا ما اجتمع لي من الجنيهات مثلاً مليون أو يزيد، وأطلق لي التصرف فيه. فكان بوسعي إما أن أبدعها صحيفة جديدة لنفسي، أو تطلق يدي في صحيفة من الصحف الحاضرة لأغير أسلوبها وأقوم نهجها وأجعل طابعها وفق ما أريد؟؟ وهل يتيسر لصحيفة تثقلها تلك القيود التي يخضع لها الآن: (الإنتاج الصحفي) أن تحرر من أغلالها وترتفع فوق مستوى ما يقيدها أو ترجعه إلى الوضع الذي يسعها معه أن تسترد حرية الصحافة وتصونها؟ الجواب عندي أن هذا الوضع هو ما يجب أن يكون، ولو أني لا أنكر أن الرجل الذي يتهيأ له أن ينهض بهذا العمل قد يكون بحاجة إلى كفاية أسمى شأناً ومقدرة أبعد أفقاً مما يسعني أن أظفر به أو أطمع فيه، وقد تعمل ضرورة الساعة على بعث هذا الرجل وقد لا تعمل. ففي الحرب العظمى كانت هنالك حاجة ملحة للبحث بين جيوش الحلفاء عن قائد حربي ذي رأي عبقري وكفاية فذة ليتولى أمر القيادة العامة، وهبهم لم يعثروا بهذا الرجل أفكان ذلك

أو لم يكن لأن الحالة آنئذ بلغت من التعقيد والإعجاز مبلغاً لا يسمح بالسيادة لأي رجل كان؟؟

لقد أتيح لي في أوائل عام 1921 وقبل الذكرى المئوية لوفاة نابليون بأسابيع قليلة أن أسأل المارشال (فوش) (الذي عرف عن نابليون أكثر مما عرفه أي قائد آخر من قادة الحلفاء) عما إذا كان قد همس بضميره يوماً ما وهو القائد العام لقوات الحلفاء والجيوش المتحدة في أواخر الحرب العظمى الماضية أنه كان بوسع نابليون لو حل محله أن يكون أوفر منه كفاية وأحكم قيادة وأكثر توفيقاً أم كانت طبيعة الظروف الحديثة من شأنها أن تجعل من نابليون رجلاً أدنى قدراً وأقل شأناً. وقد أجابني (فوش) أنه كثيراً ما وجه لنفسه هذا السؤال بعينه إبان الحرب العظمى الماضية ووقتما كان يمر بقبر نابليون في (الأنفاليد). وأن رأيه قد استقر آنئذ على ما امتاز به نابليون من البطولة الفذة والقلب الصارم في كفاحه ومن الكفاية الممتازة والبأس الصادق في

الاضطلاع بالصعاب ومجالدة الأعداء كان من شأنه أن يمكنه من التسلط على الحرب الحديثة في قرابة الستة أسابيع. قائلاً: (وآنئذ كان يسع نابليون أن يضع لجيوشه خططا وأساليب جديدة ويبدع للحرب فنوناً لا عهد لها بها من قبل ثم يعمل ما توفر له من عبقرية ودهاء في أن يضرب أعداءه وقد هالهم الفزع الضربة القاضية.

وأغلب ظني أنه على هذا النهج بعينه يسع منشئ الصحيفة النابغ أن يسيطر على ما يصادفه عقبات جسام في طريق إنشاء الصحف الحديثة سيطرة تامة تنعكس معها آية تلك العقبات فإذا هي فرص مواتية وصفقات رابحة. وإذا هو يحدق بأعدائه المناهضين لمشاريعه فيهزمهم هزيمة نكراء قبل أن يتنبهوا إليه من حيث لا يعلمون. وغالب الأمر من نجاحه أنه رهن كفايته في قراءة ما يجول برءوس أبناء الأجيال الناشئة والإفصاح لهم عما تحفل به رءوسهم من أفكارهم وتوجيههم إلى ما تطمح أنفسهم له وتنصرف أمانيهم إليه لو أنهم اهتدوا إلى سبيله.

ولعهد غير بعيد بعث كاتب برسالة لصحيفة (ألمانشستر جارديان) رثى فيها لحال أبناء هذا العصر لما يستبد بهم من شعور بحاجتهم إلى مثل أعلى يعيشون له أو يموتون في سبيله إذا دعتهم الحاجة إلى ذلك. وكان جماع رأيه أن حياتهم بحاجة إلى نصيب من الصفات

الروحية والمقدمات المعنوية. ويغلب على ظني أن ما شكاه من أمرهم قد بنى على أساس صحيح. فالناس قد اختلط عليهم الأمر وفترت عزائمهم وضلوا السبيل، وهم - ولا سيما شبابهم - يزجون بأنفسهم في ميادين الخطر ومسارح اللهو حيثما يكون أعظمهم مخاطرة أفضلهم شأناً. وكثير منهم عاملون على الاحتفاظ (بكفايتهم) لركوب هذه الأخطار. ولو أن قليلاً منهم يسعهم أن يجيبوا هذا الناشئ الموفور القوة على ما يسألهم عنه وقد تملكه العجب من احتفاظ الرياضي بكفايته من غير مران يعتصم به قائلاً: (لقد أنفقت جميع أوقاتي في الاحتفاظ بكفايتي. ولكن علام احتفظ بهذه الكفاية؟؟)

لقد أصبح الكثير وهم من (هواة الطيران) الذين لا يتهيبون أن تمزق أوصالهم وتتحطم رؤوسهم. أو ممن يتولون قيادة (سيارات السباق) ليندفعوا بها في سرعة طياشة قاتلة. كما أصبح المتقدمون في السن منهم وهم يرقصون تلك الرقصة الشاقة المضنية المسماة برقصة (الجاز) أو يلتمسون الرياضة العقلية في (حل الألغاز). أما شأنهم في الميادين الاجتماعية ونصيبهم منها فيا لهما من شأن موجع ونصيب منقوص. فهم بالإضافة إلى الشئون العامة ليس لهم من عقيدة تصدر عن تفكير رشيد. وهم لا يؤانسون في التعلق (بالوطنية) بدورها ما يشبع جل رغباتهم وإن كانت (الشيوعية) بالقياس إلى غيرها قد أمست وهي تجذب إليها قليلاً منهم. على حين أفل نجم داعي (الاشتراكية) - وهي صورة مخففة وطابع معتدل من الشيوعية - ففقد بريقه وضيع الافتنان به. وما برحت النازية أو الفاشية وهي أقل شأناً من أن تلفت أنظارهم إليها كعلاج ناجع لجميع الأدواء الاجتماعية. وهم إلى ذلك كله لم يظفروا من الإلمام بالمبادئ الحرة إلا بنصيب هو من قلة المحصول وضآلة الشأن بحيث لا يصلح لأن يكون وحياً للخاطر أو مصدر للإلهام. ولو أن غالبهم يميل إلى المبادئ الحرة ميلاً تقليدياً لا يصدر عن خبرة صحيحة أو إدراك سليم. وهم وقد صارت تلك المبادئ التي ينادى دعاتها بوجوب صيانة السلام العالمي ويزعمون أن القضاء على الحرب أمر محبوب ميسور وهي أجنبية عن فطرتهم، نجدهم ينفرون من الحرب ويشق عليهم أمرها. وهم يبحثون عن أشياء أجل من حياتهم شأناً وأعظم من أنفسهم قدراً يقفون عليها حياتهم وأنفسهم ولكنهم لا يملكون لها طولاً ولا يستطيعون إليها سبيلاً. وهم لم يظفروا من نتاج الأدب وخطب المنابر ومن سياسة الساسة وتشريع البرلمان ومن فلسفة الفلاسفة وعلم

العلماء إلا بما هو كالسراب من الماء أو الحصباء التي لا تنفع أقواماً يفتقرون حقيقة إلى الخبز.

يضاف إلى ذلك كله أن انطباع الحياة بذلك الطابع الآلي المطرد الأسلوب من شأنه أن يفوت عليهم الفرصة في الانتفاع بجهودهم وتجديد نشاطهم.

(البقية في العدد القادم)

زين العابدين جمعة

التبعة والعقوبة في المجتمع البشري القديم
للأستاذ رفعة الحنبلي
(تتمة ما نشر في العدد الماضي)
تبعة الطفل
إن أكثر الشرائع الأوربية الحديثة لا تحمل الطفل تبعة ما، لكن بعضها لا يبرئه منها، وقد تختلف باختلاف رقي المجتمع ورفعة البيئة وتتباين بتباين التقاليد والعادات. ففي إنجلترا وروسيا مثلاً لا يؤخذ الطفل بالتبعة إن أقدم على جريمة ما حتى العام السابع من عمره، والسنة الرابعة عشرة في مقاطعتي (فو السويسرية وفالوا الفرنسية، والسادسة عشرة في بلجيكا. أما في فرنسا عام 1810 فقد حددت التبعة حتى السادسة عشرة، وأدخل عليها بعد ذلك تعديل آخر إلى أن تدنت إلى السابعة أو الثامنة ثم عدلها مجلس الأمة الفرنسي إلى العام الثالث عشر
والشرائع الإنكليزية الحديثة لها نصيبها في إقرار هذه التبعة على الطفل، وإن قبلت الحكومة - تحت تأثير الرأي العام وبعض أصحاب الضمائر الحية من القضاة - مبدأ إعفائه منها إعفاء جزئياً أو كلياً أو تعديلها تعديلاً يتلاءم مع الحياة الاجتماعية الإنكليزية، إلا أنها أبقتها كمبدأ قد يعمل به من حين آخر. ففي عام 1457 أخذ وليد له من العمر أربع سنوات بجريمة قتل، وحكم على مراهق لم يتجاوز الاثنتي عشرة سنة بجريمة أيضاً، وفتاة لم تشرف على ربيعها الثامن أخذت بالتبعة لإشعالها النار في مسكن على أن بعض الشرائع تحتم على الولد نفسه، دون غيره، أن يتحمل تبعة عمله، والبعض الآخر تحمله وتحمل أسرته معاً؛ وفي كلتا الحالتين لا ينجو الولد منها وإن كانت التبعة في الثانية أخف وطأة عليه من الأولى
أما في العهد القديم فالقانون الصيني لم يخل من تشريع غريب في صدد هذه التبعة يتنافى مع التبعات الأخرى في المجتمعات الثانية؛ فالولد الذي يرتكب إثماً أو جرماً ولم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره - مثله مثل رجل جاوز السبعين من سنيه، أو شيخ فقد عيناً واحدة أو ذراعاً واحدة - يتمكن أن يستبدل المال بالإعدام إذا كانت الجناية ليست بذات
أهمية - أي لا تستوجب الإعدام - ويكون المال حينئذ كفارة عن ذلك الإثم أو الجريمة؛ أما الولد الذي يؤخذ بجريمة تستوجب الموت ولم يتجاوز العشر سنوات من عمره - فمثله كمثل رجل أربى على الثمانين، أو شيخ فقد عينه أو ذراعيه - يسمح له أن يطلب عفواً خاصاً من جلال الإمبراطور. والوليد لذي لم يتجاوز الربيع السابع من سنيه - مثله كمثل صاحب التسعين - لا يتحمل أية تبعة ما وبالتالي لا يحكم بأية عقوبة إلا في حالتي الخيانة والتمرد. فالولد في هذه الحالة يؤخذ بالتبعة هو وأسرته ويتحملان العقوبة بمعنى أن كل أفراد أسرته الذين لم يتجاوزوا الخامسة عشرة من سنيهم، من كلا الجنسين، يخضعون لعبودية ثقيلة قد تكون وبالاً عليهم في المستقبل، فالذكور منهم يرسلون إلى مستشفيات خاصة حيث يعقمون بينما الإناث يقضين بقية حياتهن في خدمة المجتمع!
أما تبعة الوليد عند اليونانيين القدماء فيختلف باختلاف الحكومات القائمة في ذلك العهد؛ فحكومة أثينا، تمشيا على شريعة أرسطو، طرحت جانباً تبعة الوليد واستنكرت معاقبته في حال قيامه بإثم عرضي غير مقصود به أي ضرر، ولكنها تأخذه بجرمه إذا ما ارتكب جريمة قتل الإنسان ولا تقر شريعة أفلاطون التبعة على الوليد الآثم، وهو في أدوار الجنون والمرض والطفولة حتى في حالة الخيانة والكفر والزندقة، ولكن أفلاطون استثنى حالة واحدة هي جريمة قتل الإنسان؛ أما إذا قدر للولد أن يجرح مواطن له، فإبعاد عام واحد عن البلاد، وإن سولت له نفسه العودة قبل إتمام هذه المدة، فسجن عامين كاملين؛ أما حكومة إسبارطة فيبعد الوليد إلى خارج بلاده وإلى أمد بعيد أن أرتكب جريمة قتل دون قصد منه. وهذا الإبعاد هو بمثابة انتقام خاص لعائلة القتيل وإرخاء رمزي لها؛ وفي حالتي الخيانة والصبأ، فالعقوبة تتناوله فوراً دون النظر إلى عمره، وقد تتناول أسرته أيضاً.
ولا تقر الشرائع الجرمانية القديمة التبعة على وليد أخذ بسرقة ولكنها تأخذه بجريمة قتل وتحده، وربما رأفت به وخففت العقوبة عنه؛ وتحاكى هذه العقوبة الأحكام المقررة على الراشد الذي يقترف القتل عفواً.

يتبين مما تقدم أن التبعة تلازم الولد - منذ اقدم الأزمنة حتى الآن - ملازمة لا ينجو منها، وإن فكرت بعض الأمم في تحقيقها، لكن البعض الأخر أخذ في بداءة هذا القرن يجتهد في إلغائها عن ولد لا يفقه معناها، ولا يفهم النظم الاجتماعية لأن تجريمه هو بمثابة ظلم لا
مسوغ له.

تبعة المجنون:

اختلف المتشرعون الحديثون في أهمية الدور الذي يقوم به المجنون في المجتمع الإنساني وما يتركه من أثر قوي أو ضعيف فيه، ولكنهم أقروا - وإن اختلفوا في الاجتهاد - مبدأ واحداً هو أن لا تبعة على المجنون وأنه معفى من العقوبة.

وماذا يراد بالجنون؟ لقد عرفه الأستاذ (مرسيه بأنه (اختلال في أي عنصر من عناصر القوى العقلية؛ وقد يكون هذا الاختلال تشويهاً أو توقفاً في النمو أو انحلالاً والتواء في عنصر من تلك العناصر) مما يجعل (الفرد غريباً عن الوسط الذي يعيش فيه، وقد يصطدم اصطداماً يضر به وبالمجموع معاً دون أن يدرك عاقبة عمله). ويقول الأستاذ (مرسيه) أيضاً: (إن أكثر حالات الجنون سببها تسمم بطيء يؤدي إلى انحلال العرى بين المراكز العليا والمراكز السفلى، ثم يؤدي إلى انحلال العناصر التي تكون ذلك المركز) وقد عرفت الشريعة المجنون (بالفرد الذي خرج عن قواه العقلية فلا يصحو إلا في فترات نادرة أو لا يصحو أبداً). وإذا كانت هذه وضيعة المجنون المحزنة وعقليته القاصرة، فكيف أجاز المجتمع البشري لنفسه أخذه بالتبعة والحكم عليه بالعقوبة؟!. . .

كان كثير من المجتمعات القديمة والحديثة، تأخذ المجنون بالتبعة والعقوبة. ففي القرن الثامن عشر أصدر بعض قضاة فرنسا أحكاماً مختلفة على بعض المجانين، فأثارت هذه الأحكام حفيظة نواب مجلس الأمة، واحتفظ هذا المجلس، بما له من سلطة تشريعية، بتخفيف هذه العقوبة أو إلغائها، ولكنهم أقروا مبدأ التبعة والعقوبة في حالة جريمة يرتكبها المجنون تتناول صاحب الجلالة أو أمراء الأسرة المالكة أو الرئيس الأول أو غيرهم من الزعماء كبار القادة.

والشريعة الصينية تميل بعض الميل إلى تخفيف التبعة عن المجنون وتعديل عقابه. فالجريمة التي تستوجب الإعدام يستعاض عنها بالسجن والتصفيد بالحديد عند عفو أهل القتيل عنه، وإذا قدر للمجنون أن يجرح أباه، فعلى هذا أن يبعث برسالة خاصة إلى صاحب الجلالة يتوسل فيها أن يعطف على ولده، ويعفو عن خطيئته ويغفر له ذلته؛ أما إذا قتل أباه فيؤخذ بالعقوبة وبأشد ما تكون قسوة وعنفاً حيث تقطع أوصاله وتحرق حتى ولو
قضي نحبه قبل تنفيذ الحكم فيه.

وكان الرومانيون يعاملون المجنون معاملة القاصر - وهي تشبه إلى حد ما معاملة اليونانيين - ألا إنه قد يدفع في بعض الأوقات مبلغاً من ماله أو قسماً من أملاكه يتناسب مع أهمية الجريمة التي ارتكبها. وفي نهاية القرن الثاني أصدر الإمبراطور (مارك أوريل) وابنه الإمبراطور (كومود) قانوناً يبرئ فيه المجنون من التبعة ويرفع عنه التهمة، وينقذه من العقوبة، وساندهما في ذلك كبار المتشرعين آنئذ، وحجتهما أن الجنون بعينه هو عقوبة في حد ذاتها؛ أفلا يكفي المجنون عقوبة أن تكون الطبيعة قد حرمته من نعمة العقل، ولذة الفكر، وسعادة الحياة، حتى يزيده المجتمع شقاء بتجريمه وعقابه!!. . . إن هذا لكثير على امرئ بائس مسكين. . .

وهكذا زي المجتمع البشري يعاقب المجنون ويحمله التبعة ليس لأنه يتجاهل حالته العقلية والنفسية، ويتعامى عن وضيعته الشاذة المضطربة بل تمشياً لما جاء في الشرائع من أن المجنون يؤخذ بالتبعة والعقوبة.

تبعة الأموات

لقد عرف المجتمع القديم هذه التبعة كما عرف غيرها من التبعات الأخرى التي تتناول الحيوان والبحار والنبات. وكان الاعتقاد السائد، في ذلك الزمن، أن التبعة تتناول الميت نفسه باعتبار أن جثة المجرم عليها أن تتحمل العقوبة، وعلى هذا الاعتبار أقروا مبدأ التنفيذ

ويذكر التاريخ لنا حوادث عديدة من هذا النوع الطريف؛ ففي الهند يقطع رأس المجرم

الميت ويحمل على الحراب ويسلخ جلده؛ وفي اليونان تقطع أوصاله وتحرق؛ وقد يحتفظ بجمة من شعره كذكرى لهذه العقوبة
ولا يؤخذ بهذه العقوبة إلا في حالتين اثنتين: أولاهما في حالة الانتحار؛ وثانيتهما في حالة ارتكاب جريمة تتناول الأمة والوطن. فالمنتحر يحكم وتنفذ العقوبة في جثته، فيسام إلى الجلاد حيث يصلب ويمثل به أشنع تمثيل، ولا يحتفل بدفنه احتفالاً دينياً، ويحرم من الرقود في باطن الأرض بسلام
وعرفت الأمة المصرية هذا النوع من العقوبة أيضاً، فكان المجرم - وهو الجثة الهامدة -
يمثل أمام محكمة كهنوتية فإذا أخذته بجرمه حكمت عليه حكماً يحاكي في أصوله وفروعه الأحكام اليونانية؛ وكذا الحال في الأمة الفارسية فقد قطع الملك الفارسي رأس أخيه - وكان يناصبه العداء ويوثب الأمة عليه - ومثل فيه تمثيلاً فظيعاً بعد ن سقط في إحدى المعارك قتيلاً
وعرف المجتمع اليوناني أيضاً أنواعاً كثيرة من هذه العقوبات فمنها ما ينتهي بالتمثيل بجثة المجرم وحرقها، وما ينتهي بسحقها تحت الرحى وذرها في البحر، وما ينتهي بالحرم الديني ورمي الجثة خارج البلاد وغيرها
والواقع أن مثل هذه العقوبات تدلنا دلالة واضحة على عقلية المتسرعين الضيقة الذين لم يدركوا كل الإدراك ما في هذه العقوبات من إسفاف وسخف وتفكير عقيم
تبعة الحيوان
وكما أن التبعة والعقوبة كانتا تلازمان الإنسان في المجتمعات القديمة فهما تلازمان الحيوان أيضاً. فمن تقاليد قبيلة أن تأخذ بثأر أحد أفرادها إذا ما قتله نمر أو فهد وذلك بقتل الحيوان المفترس أو قتل آخر من فصيلته؛ ومن تقاليد القبائل الساكنة في جزيرة مدغشقر الاقتصاص والانتقام من التماسيح؛ فأفراد قبيلة التي تربطهم بالتماسيح رابطة الأخوة والصداقة - وهي التي وعدت وأقسمت، حسب اعتقادهم، ألا تأكل إخوانها من بني الإنسان - لا تتوانى عن معاقبة أحدها إذا حنث بيمينه أو رجع عن وعده
ينفر رئيس القبيلة أفراده، ويوثب جماعته لأخذ الثأر من هذا الأخ الحيوان الذي لم يرع حرمة الأخوة والصداقة، ويوحي هذا الثأر في نفوسهم حب الانتقام منه، ويشتد إضغانهم عليه، فينهضون حالاً إلى ذلك النهر وعلى وجوههم إمارات الجرأة وعلامات البأس، حتى إذا ما اقتربوا من ساحله المرمل، ونزلوا بقبالة مسايله وخلجاته، يتقدم رئيسهم بالشكوى المريرة إلى إخوانه التماسيح - تمشياً على الشريعة المقدسة - ويتبسط في سرد الجريمة على مسمع منها، ويتلوم القائل على فعلته هذه ويتوعده - وهو الذي أقسم وعاهد ألا يفتك القائل بأخيه الإنسان - طالباً منها أن تسلم القائل صباح الغد للاقتصاص منه، ملقياً في النهر شصاً كبيراً تتدلى منه قطعة كبيرة من اللحم حجمها قرابة من ربع بقرة؛ ومن ينكفئ كل منهم إلى مسكنه، وينصرف إلى نفسه يتوفر على الاستعداد للانتقام صباح الغد؛ فالنساء
يأخذن في جدل الشرائط الحريرية، والفتيات في غزل خيوط القنب، والرجال والأيفاع في شحذ الأسنة والحراب والرماح
فما يكون الغد حتى يتوافد زمر الرجال والنساء، وجموع الفتيان والفتيات إلى مضرب الزعيم يتشاورون معه في كيفية المحاكمة، وتساورونه في طرق الانتقام، حتى إذا جمعوا جموعهم واكتمل عددهم، أخذوا سمتهم إلى ذلك النهر الهادر بأمواجه، مكان الجريمة وموضع الاستغفار والتوبة
يتقدم الزعيم فيغمز الشص متربصاً بغريمه مواتاة الفرصة، وقد لا يطول ثواؤه حتى يظفر به ويهب بجماعته أن يساعدوه ويعاونوه، وما أن يظهر التمساح على سطح الماء حتى يأخذوه بالعنف والقسر ويبادرونه بالأهازيج والأغنيات رمز الظفر والغلبة، ويتسابقون في إحكام أربطة القنب والحبال على جميع أطرافه إحكاماً قوياً لا يستطيع معه حراكا. وبعد أن يتحلق القوم حوله يعمد رئيس القبيلة إلى التبسط في الجريمة وإلقاء التبعة على هذا التمساح، معتذراً إلى رجال القبيلة بمحاكمته والحكم عليه بالموت - باعتباره أخاً لهم - وما أن يحكم عليه حتى يندرئ القوم بغرز الأسنة والرماح في بطنه إلى أن تقر حركته وتهدأ ثورته وتخمد أنفاسه، حينئذ تتقدم النساء بنزع

الأربطة واستبدالها بأربطة حريرية ثم يزمله الرجال بالأكفان الناعمة بين عويل أولئك وبكاء هؤلاء حتى يواري في رمسه، وهو رمس لو تعلم جميل، أعد له ولأمثاله منذ أمد بعيد، وذلك باحتفال ديني مهيب. . .

وهكذا نرى أن هذا الحيوان السائم الذي لا يعرف ما ينفعه وما يضره يعاقب عقاب من يرتكب إثماً من بني الإنسان، ويحتفل به احتفالاً قد يقل نظيره لأبن آدم. . .

والمزدكيون التابعون لمذهب زرادشت يأخذون الحيوان بالتبعة والعقوبة فالكلب المسعور يعاقب بصلم أذنه اليمنى إذا افترس حملاً أو جرح رجلاً، وتصلم أذنه اليسرى في حالة الإعادة، وإذا تعددت آثامه وشروره ففرضة في رجله اليمنى واليسرى ثم يبتر ذنبه؛ وبما أن مبادئ المزدكيين لا تسمح بتقطيع أوصال المجرم - إنساناً كان أو حيواناً - فالعقوبة لا تتعدى حدود ما ذكرنا

وقد تشمل التبعة والعقوبة صاحب الحيوان أيضاً، وهذا ما تأخذ به المجتمعات القديمة والحديثة، فالشرائع القديمة كانت تحمل صاحب الحيوان ما يسببه هذا من ضرر وأذى، وتحمله على أداء تعويض مالي أو ترغمه على إعطاء عقار أو متاع يوازي قيمة الأضرار التي صدرت عنه، والمجتمع العربي القديم كان يعرف هذه التبعة ويأخذ صاحب العجماء بها على اعتبار أنه هو وحده مسئول عن الإهمال أو بالأحرى عن الضرر الذي تأتى عن الحيوان، فلو أن صاحب العجماء عقل الحيوان عقلاً تاماً ورعاه رعاية فيها كثير من الحذر واليقظة لما سبب إضراراً لهذا وأنزل خسائر بذاك، بل ذهبت الأمة العربية في الزمن الغابر إلى أبعد من هذا الحد، فأخرت مبدأ شهادة الحيوان أمام القضاء، فقد أورد مؤلف الأغاني قصة الشاعر (الحزين الديلي) الذي كثيراً ما كان ينصرف بمفرده إلى تعاطي الأشربة المحرمة في ظاهر مكة ولا صديق يؤاكله ويشاربه إلا حماره الذي يحمله ما يحتاج إليه من آكال لذيذة وأشربة خمرية معتقة أحب جماعة من أهله وأصحابه أخذه بهذا الإثم وإقامة الحد الشرعي عليه وكانوا يؤبون في كل مرة بفشل مرير، ولم يكن لهم من طريقة أخرى إلا أخذ الحمار كقرينة على ارتكابه الإثم، ولما مثل الشاعر أمام القاضي وسئل عن التهمة أنكرها، فأراد القاضي أن يأخذ الحمار كقرينة على ارتكابه الإثم، وأحب أن يحده الحد الشرعي، وما أن سمع الشاعر قولته حتى بادر القاضي بقوله: إني أقبل هذا الحد - وإن لم يكن شرعياً - لكن أخوف ما أخافه أن يضحك منا أهل العراق ويتقولوا أن أهل مكة يأخذون بشهادة الحمير

والواقع أن الأخذ بمثل هذه القرينة هي بمثابة نوع من أنواع التبعة التي كانت تلازم الحيوان فيما مضى، وهي أيضاً بمثابة رجوع العربي إلى المنطق القبلي الذي كان يأخذ الحيوان بالتبعة

أما في العصر الحاضر فإن العرب لا يأخذون بهذه النظرية خلاف الأمم الأوربية التي تأخذ بها لاسيما في الأجرام الجزائية. ففي الثورة الفلسطينية عام 1936 - 1939 عمل الإنجليز بشهادة كلاب الأثر وفرضوا العقوبات الصارمة وطبقوا قانون الطوارئ الذي يقضي بالإعدام على كل من حمل سلاحاً، إلا أن قضاة العرب لم يوافقوا على ذلك إذا عرضت عليهم قضايا من هذا النوع كما جرى مع أحد القضاة الذي رفض الأخذ بشهادة الكلاب كما ورد في سياق حكمه

وجاءت الشريعة الإسلامية فهدمت ما أخذ به الجاهليون من هذه النظم، وأقرت مبدأ التبعة على صاحب الحيوان فحسب، وكذا الحال في المجتمعات المتمدينة الحديثة التي تكون قد اتصلت بالحضارة الإسلامية وتفهمت شرائعها ونظمها فأقرت ما أقرت وهدمت ما هدمته

ويخبرنا أرسطو بأنه شاهد بنفسه، في أثينا، محاكمة الحيوان المجرم في محاكم خاصة، وكثيراً ما كانت العقوبة تتناول قتل الحيوان وطرحه خارج حدود المدينة؛ ويقول أفلاطون أن حيوان النقل يؤخذ بالتبعة والعقوبة إذا أودى بحياة فرد خلال حالات خاصة كالاحتفالات الدينية والأعياد الوطنية؛ وعقوبته إما القتل أو الإحراق

وهناك نوع من العقوبات الدينية، مصدرها الكنيسة الكاثوليكية، تختلف عن بقية العقوبات اختلافاً كلياً تتناول الحيوان الوحشي دون الأليف باللعنة الدائمة والجرم الأبدي

تبعة النبات والجماد
وكما تقع العقوبة على الحيوان تقع أيضاً على النبات والجماد على حد سواء، فقبائل تقتص من الشجرة إذا أودت بحياة أفرادها وقت وقوعها والاقتصاص منها إنما يكون بتقطيعها إرباً إرباً وسحقها سحقاً ناعماً وذرها في الهواء؛ وعند سكان استراليا يحرق سلاح القاتل
ويروي التاريخ أن أحد ملوك فارس جلد البحر عقب معركة بحرية هزم فيها، وأن إمبراطور بدد ماء نهر لأنه حال دون انتصاره على أخيه
وأخبرنا ديموستين الخطيب اليوناني الكبير أنه شاهد بنفسه محاكم خاصة صلاحيتها محاكمة الجماد دون غيره، وحدث أن عائلة يونانية تسكن جزيرة رفعت الدعوى على تمثال بطل عظيم من أبطال اليونانيين لحادثة وقعت على أحد أفرادها من قطعة صغيرة منه، إلى أن فازت بالحكم على التمثال وألقت به في البحر
تلك هي التبعة والعقوبة في المجتمع البشري القديم التي أظهرت لنا حياة اجتماعية متأخرة، وبيئة حقيرة، وحضارة فقيرة وواضحت نظماً وقوانين قد لا يأخذ ببعضها أو بأجمعها المجتمع الحاضر وعادات وتقاليد قد لا يقرها أيضاً، وإنما عالجنا هذا البحث لكي توقف القارئ العربي على درجة من درجات تفكير المجتمع القديم ومظهر من مظاهر الروابط الاجتماعية فيه
رفعة الحنبلي
المصريون المحدثون - 21
شمائلهم وعاداتهم
(في النصف الأول من القرن التاسع عشر)
تأليف المستشرق الإنجليزي ادورد وليم لين
للأستاذ عدلي طاهر نور
تابع الفصل السادس - عاداتهم
سرعان ما يترك العريس - بعد عودته من المسجد - أصدقاءه في الدور الأسفل ينعمون بتدخين الشبك واحتساء القهوة والأشربة. وتظل أم العروس وأختها أو غيرهما من قريباتها في الدور الأعلى بينما تكون هي والبلانة في غرفة منفصلة. وينبغي أن يبدي العريس الشاب بعض الحياء مثل العروس؛ فيحمله لذلك أحد أصدقائه في بعض الطريق المؤدي إلى الحريم. وقد تجلى العروس إذا كانت من الطبقات الموسرة أمام العريس في ملابس مختلفة تصل إلى سبعة. وعلى العموم يرى العريس عروسه مع البلانة وحدها، فيمنحها عند دخوله الغرفة منحة فتنسحب في الحال. وتغطى العروس رأسها بشال لا يرفعه العريس قبل أن يهبها هبة مالية تسمى (كشف الوش) بينما تظهر العروس في سبيل رفع الغطاء نفوراً وممانعة شديدة لتعبر عن خفرها البتولي. ويبسمل العريس عند كشف النقاب ثم يحي العروس قائلاً: (ليلة مباركة!) فتجيبه إن لم يرتج عليها من الخجل: (بارك الله فيك). وقد يرى العريس حينئذ لأول مرة وجه عروسه. ويجد العريس على العموم أن العروس كما وصفت له تقريباً. وكثيراً ما تنجز حينئذ طقوس عجيبة، فيرفع العريس ملابس العروس جميعها ما عدا القميص، ويجلسها على حشية سرير يتجه نحو مكة كما يولي ظهر العروس هذه الجهة، ثم يجذب حجر قميصها إلى الأمام ويبسطه على الحشية ويقف أمامها على بعد ثلاث أقدام تقريباً ويصلي ركعتين واضعاً رأسه ويديه عند السجود على هذا الجزء من القميص. ولا يبقى العريس مع عروسه أكثر من بضع دقائق بعد أن يكون قد أشبع فضوله بمشاهدة جاذبيتها، ويطلب من النساء - اللاتي يتجمعن عند الباب وهن قلقات - أن يزغردن. وتصل الصيحات الحادة إلى مسامع الرجال في الدور الأسفل وإلى الجيران وتتجاوب النساء بالزغاريد مخبرات أن العريس رضي بعروسه. ثم يهبط العريس إلى أصدقائه ويبقى معهم ساعة أو أكثر قبل أن يعود إلى زوجته، ويندر جداً أن يطلق الزوج زوجه إذا خاب فيها رجاؤه وإنما يستبقيها أسبوعاً أو أكثر الآن وقد وصفت طريقة الاحتفال بزواج العذراء في القاهرة أضيف بعض كلمات عن بعض حفلات شاهدتها في أحوال أخرى خاصة بالعذراى والثيبات سواء
يندر أن يذهب بنات العظماء إلى الحمام العمومي قبل الزواج لوجود الحمام في المنزل. وعندما تخلو منازل العائلات الموسرة أو المتحضرة من حمام، تذهب العروس

مع قريباتها وصديقاتها إلى حمام عمومي يستأجر لهن خاصة. ويفضل الكثيرات الذهاب إلى الحمام وإلى منزل العريس دون زفة راكبات الحمير فوق البراذع المرتفعة. وتتدثر العروس بشال كشميري على طريقة الحبرة. وقد ترافق حاشية العروس فرقة عوالم يركبن الحمير أيضاً ويغنين طول الطريق

وقد يكون لعائلة العروس أو العريس أغاوات فيتقدمون العروس راكبين. وقد يجري على رأس الزفة رجل يصيح: (صلوا على النبي) وينثر هذا الرجل عند باب المنزل بعض أوراق السلق ليسير عليها السيدات اتقاء لأحداث الدهر. ثم يصيح الرجل نفسه قائلاً: (نصر من الله وفتح قريب)

وقد يتم عقد الزواج عند المصريين من غير أبهة ولا احتفال حتى في حالة زواج العذراء، برضا عائلتي العروسين المتبادل، أو بموافقة العروس نفسها. أما الثيب فلا تزف أبداً عند الزواج. ويكفي أن تقول المرأة لمن يتقدم لزواجها: (وهبت لك نفسي) فتصبح امرأته شرعاً متى كانت بالغة من دون شهادة إذا استحال الحصول عليها. وقد يعقد المسلمون في مصر وغيرها من البلاد العربية الزواج بالثيب بهذه الطريقة البسيطة. ويبلغ مهر الثيب على العموم ربع مهر العذراء أو ثلثه أو نصفه

وتتم حفلات الزواج في القاهرة عند الطبقات التي تعلو الطبقات السلفى وإن حقرت معيشتها بنفس طريقة الطبقة الوسطى. إلا أنهم يراعون البساطة عندما يستحيل تحمل نفقات مثل هذه الزفة السابق وصفها، فتسير العروس متدثرة بشال أحمر ويحيط بها فريق

من قريباتها وصديقاتها في أحسن حللهن أو فيما يستعرن من الملابس. ولا يبهج الموكب من صيحات الفرح غير الزغاريد التي يرددنها من وقت لآخر

وتختلف الزفة في القرى عن الزفة السابقة. فالعادة أن تركب العروس جملاً وهي متدثرة بشال حتى تبلغ منزل العريس. وقد يجلس معها على الجمل بعض النساء والبنات، اثنتان على جانبها واثنتان أو ثلاث وراءها. ويكون الهودج كبيراً ويغطى بالبسط وغيرها. ويتبع العروس جماعة من النساء يغنين. وكثيراً ما يتقابل أصدقاء الطرفين وصديقاتهما في منزل العريس مساء يوم الاحتفال والأيام السابقة ويلهون في الهواء الطلق طويلاً بالأغاني والرقص الذي ينقصه المهارة على ألحان الدف والطبل. ويغني الجميع رجالاً ونساء ويرقص النساء فقط. وقد اختصرت الكلام في وصف الحفلات الريفية لتجنب ترديد الوصف في موضوعات متشابهة. ولنرجع إلى عادات أهل القاهرة.

في الصباح التالي للزفاف يعرض (الخولات) والغوازي (رجالاً ونساء) ألعابهم أمام منزل العريس أو في الفناء. وفي الصباح عينه إذا كان العريس شاباً يدعوه الشخص الذي سبق أن حمله إلى الحريم إلى قضاء اليوم في الريف مع الأصدقاء. ويسمى هذا (الهروبة). وقد ينظم ذلك العريس نفسه ويشترك في النفقات إذا زادت على ما يقدمه أصدقاؤه من النقوط في هذه المناسبة. ويستأجر الموسيقيون والراقصات لتسليتهم.

ويسير العريس من الطبقة السلفى في مؤخرة الموكب مسبوقاً ببعض الطبالين والزمارين. ويحمل كل من أصدقائه وغيرهم باقة من الزهر كما يفعلون عادة في زفة الليلة السابقة. ويرافق الحاشية حاملو المشاعل والمصابيح عند عودتها بعد الغروب بينما يحمل الأصدقاء علاوة على الباقات شمعاً. وهناك حفلات لاحقة تقام بمناسبة الزواج أيضاً ستوصف في فصل لاحق

ويفضل العريس على العموم إذا وفق إلى ذلك أن تعيش أمه في منزله حتى يتسنى لها أن تحمل شرف زوجته وبالتالي شرفه أيضاً. ويقال إن الحماة تسمى كذلك لهذا السبب ويقال إن المصريات يملن إلى الدسائس، وأخشى ألا يكون هذا الحكم ظلما. وقد يسكن الزوج زوجه في بيت أمها ويتولى الإنفاق عليهما. وهذا يوجب على الأم أن تهتم بالنفقات جد الاهتمام وأن تدقق في ملاحظة ابنتها خوفاً من أن تطلق. ولكن يقال إن الأم في هذه الحالة تعمل وسيطة لابنتها، فتعلمها الحيل والمكايد التي تتسلط بها على زوجها وتبذر نقوده.

ويندر أن يقل الخوف من تأثير أم الزوجة عليها ولو كانت لا تنعم برؤية ابنتها إلا في مناسبات عرضية. ولذلك يرى الرجال أنه من الحكمة أن يتزوجوا بنتاً لا أم لها ولا قريبات، حتى أن بعضهم يحرم على زوجته أن تستقبل امرأة غير قريباته؛ ولكن قلما

يفرض هذا التقييد الشديد.
(يتبع)
عدلي طاهر نور
الصحراء الغربية
للأستاذ عبد اللطيف النشار
صحراَء مصرَ سلمتِ يا صحراء ... فلحكمة لم يجر فيك الماء
تحمي الكنانة من أذى أعدائها ... وهي الخصيبة، تربة جرداء
يا نيل، صحراواك جدبُهما غِنىً ... يا كنزُ، بابُك صخرة صماء
إن الطبيعة لا مردَّ لحكمها ... الفقر سور خلفه النعماء
أحنى القلوبِ جسومها مَوْضونة ... والناعمات قلوبهن هواء
ووداعة الدمث الرقيق وأمها ... ألاَّ تفارق ربَّها الخيلاء
يا هَّيناً سلس المقادة ليناً ... هل في ثيابك حية رقطاء
أعداءُ مصرٍ جاوروا صحراءها ... أتُقِلُّ جمعهمو لنا الصحراء؟
جسرٌ إلينا أنت أم جسر إلى ... قاع الجحيم وللطغاة جزاء
باء الحليف بنصرة مرجوَّة ... وتسابقت في عونه حلفاء
لكن نصر الله في بحر بلا ... ماء وأرض ما بها أرجاء
ومَضَلة أفواهها مغفورة ... أبد الزمان وما لها أحشاء
درداء تلتهم الخميس بأسره ... وتطير في لهواتها الأحياء
ظمأ وجوع أنشآها نشأة ... لا البحر يشبهها ولا الغبراء
تُخفِي معالمَ جُرْمها فيظنها ... قديسة أعداؤها الجهلاء
خوّارة موّارة لا أرضها ... أرض ولا أجواؤها أجواء
نادوا يجبكم في مجاهلها الصدى ... وتبينوا إن الجواب نداء
ردٌ ولا رد ويُوهِمُ آلهُا ... أن الذي يروي النواظرَ ماء
هيا إلى إعصارها وسمومها ... فالغول جاع وجاعت العنقاء
وجسومكم وحديدكم ونحاسكم ... خُبْزٌ لدائمة الطوى وشِواء
عُبَّادَ هتلرَ أقبلوا أو أدبروا ... حُمَّ القضاء ولن يُرَد قضاء
كثر الطغاة وكاثروا عداد الحصى ... ومضى الجميع فكلهم أسماء
أو غير من خَلَقَ الصحارى خالق ... الخياليات وهُنَّ بَعْدُ مِلاء
فليعرف الصحراء في أبنائها ... من لا تبين لعينه الأشجاء
أممٌ وأديانٌ وفن ناصع ... بعثت بها في العالم الصحراء
وطوت نظائرها وتطوى هتلرا ... والآخر الجعجاع حين تشاء
آثار روما من محاجرها التي ... تبقى وروما ساحة بلقاء
عبد اللطيف النشار
الحكمة الحائرة
للأديب عبد الرحمن الخميسي
(إِذَا لَمْ يُعَكِّرْ صَفَاَء السِّماءِ ... نِثَارٌ مِنَ السُّحُبِ الْعَابِرَةْ
فَلَيْسَتْ تَبِينُ تَهَاوِيلُهَا ... وَلاَ صَفْوُ قُبَّتِهَا السَّاحِرَةْ
وَإِنْ لَمْ يَثُرْ في حَوَاشِي الْحُقولِ ... شِتَاءٌ، هَوَاطِلُهُ غَامِرَةْ
فَمَا تَتَرَعْرَعُ أَغْرَاسُهَا ... وَمَا تُورِقُ الْخُضْرَةُ الزَّاهِرَةْ
وَلَوْلا شُبُوبُ الْحَرِيقِ لَمَا ... فَزِعْنَا إلى الْغُدُرِ الْهادِرَة
وَهذَا الصَّبَاحُ يُطِلُّ خِلاَلَ ... نَوَافِذَ حَالِكَةٍ يَاسِرَةْ
وُيولَدُ في رَاحَتَيْ ظُلْمَةٍ ... لِيَنْفُثَ أَنْوَارَهُ الْبَاهِرَةْ
فَلاَ بُدَّ لِلشَّرِّ من أن يَعِيشَ ... وَتَحْرُسَهُ الأَنْفُسُ الْخَاسِرَةْ
لِتَبْزُغَ في عُمْرِهِ هَالَةٌ ... مِنَ الْخَيْرِ صَادِقَةً طَاهِرَةْ
(وَتِلْكَ نَوَامِيسُ هذَا الْوَجُودِ ... وَتِلْكَ هِيَ الْحَكْمَةُ الْحَائرَةْ
كَذَلِكَ قَالَتْ لِنَفْسِي الْحَيَاةُ ... وَأَوْحَتْ مَعَالِمُها السَّاخِرَةْ
وَقَالَ لِيَ الصَّقْرُ في عِزَّةٍ: ... أُحَلِّقُ فَوْقَ الذُّرَى النَّافِرَةْ
وَأَنْقَضُّ في اللَّيْلِ فَوْقَ الْوُكُورِ ... وَأَنْهشُ أَطْيَارَهَا السَّادِرَةْ
وَأَتْرُكُهَا لِلدُّجَى وَالسُّكُونِ ... هَوَاتِفَ بِالْفَجْعَةِ الْغَادِرَةْ

وَيُسْفِرُ في الرَّوْضِ وَجْهُ الصَّبَاحِ ... فَتُغْوِرُهُ الْجَوْقَةُ الطَّائِرَة
وَيَسْأَلُ مُسْتَنْجِداً بِالْغُصُونِ ... عَنِ الطَّيْرِ وَالغُنْوَةِ الْبَاكِرَةْ؟
فتَهْتَزُّ هَامَاتُهَا حَسْرَةً ... وَتَدْمَعُ أَزْهَارُهَا الْعَاطِرَة
لأِنَّ الْعَصَافِيرَ مَا اسْتَيْقَظَتْ ... وَمَا هَلَّلَتْ بِالشَّذَى سَاكِرَة
وَمَا اسْتَقْبَلَتْ بِالْغِنَاءِ السَّنَى ... وَمَا حَوَّمَتْ فِي الْفَضَا ذَاكِرَة
وَيَنْسَابُ بَيْنَ الْعَشَاشِ الضِّيَاءُ ... لِيُوقِظَ أَطْيَارَهَا الشَّاعِرَة
وَيَرْتدُّ مُنْذَعِراً بَاهِتاً ... وَتَفْتُرُ لمْعَتُهُ الْوَاهِرة
إِذَا مَا جَرَى فَوْقَ أَعْشَابِها ... عَلَى جُثَثٍ مَيْتَةٍ ضَامِرَة
وَيَعْلَقُ بِالنَّسَماتِ النَّدَى ... دُمُوعاً مُبَلْوَرَة ثَائرَة
كأَنَّ السَّمواتِ تَبْكِي الطُّيورَ ... وَتَبْكِي أَهَازِيجَهَا الْغَابِرَة
وَتَجثَمَ فَوْقَ الرُّبَى وَحْشَةٌ ... وَتمْتَدُّ في الأَيْكَةِ النَّاضِرَة
وَمِنْ ثَمَّ يُعْرَفُ قَدْرُ النَّشِيد ... وَقَدْرُ بَلاَبِلِهِ الآسرَة
وَلَولاَ افْتِرَاسِيَ أَسْرَابَها ... لمَا افْتَقَدتهْا الرُّبَى الزَّاهِرَة
وَإِنْ لَمْ يُعَكِّرْ صَفَاء السَّمَاءِ ... نِثَارٌ مِنَ السُّحُبِ الْعَابِرَة
فَلَيْسَتْ تَبِينُ تَهَاوِيلُها ... وَلاَ صَفْوُ قُبَّتِهَا السَّاحِرَة
وَتِلَكَ نَوَامِيسُ هذَا الوجُودِ ... وَتَلْكَ هِيَ الْحَكْمَةُ الْحَائِرَة!
عبد الرحمن الخميسي
البريد الأدبي
وضع نشيد للسلام الملكي
انتهت لجنة (وضع النشيد للسلام الملكي) إلى دعوة الشعراء والأدباء لنظم نشيد يجري في توقيعه مع موسيقى السلام الملكي جرياناً دقيقاً؛ ويشترط في هذا النشيد أن يكون مؤلفاً من ثمانية أبيات، ولا يزيد على اثني عشر، وأن يدور معناه حول العرش رمزاً لمصر الخالدة، وحول الملك رمزاً لآمال الجيل. وينبغي أن يكون هذا النشيد (مشرق اللفظ، محكم النظم، رائع المعنى، منشطاً للهمم)
وقررت اللجنة أن تمنح الفائز في هذه المسابقة مائة جنيه، وجعلت آخر موعد لتقديم الطلبات منتصف الشهر القادم
روح الإسلام
تحدث صاحب السمو الملكي الأمير فيصل نائب جلالة الملك عبد العزيز آل سعود إلى بعض الصحفيين المصريين قال: (إن الإسلام خير دين تعالى به الله عما يحاول أن يلصقه به المؤتفكون، فليس في الإسلام - كما يزعم هؤلاء - خمول ولا تواكل ولا استذلال ولا خضوع، وإنما هو دين الجد والكد والتوثب والنهوض. ولو أن المسلمين اعتصموا بكتاب الله وسنة رسوله، واستمسكوا بالعروة الوثقى، وتآزروا وتعاونوا على البر والتقوى، لكانت لهم قوة مرهوبة تبعث الرجفة في القلوب
لقد جمع كتاب الله وسنة رسوله من الأحكام ما ينير للناس طريق الدين والدنيا معاً،)
فما بال بعض المسلمين يتنكبون هذا الطريق السوي المستقيم؟
ولو أننا ألقينا نظرة على الدول الغربية، لرأينا أن الآخذة منها بما يقرب من أحكام)
ديننا في المعاملات والحقوق والشرائع والحرية والديمقراطية، هي أكثرها نجاحاً وأعظمها تقدماً وفوزاً)
واستطرد الأمير فقال: إن بعض الناس يدعى أن ضعف شوكة المسلمين يرجع إلى التدخل الأجنبي فيما بينهم؛ وأنا أقول: إن التبعة كلها واقعة على المسلمين أنفسهم الذين يوسعون شقة الخلاف فيما بينهم، والذين تفرقوا شيعاً وطرائق فرقت الشمل وأوهنت من قوة الإسلام وأضعفت شوكته
ومن واجب المسلمين الصادقي الإيمان أن يقضوا على هذا الحال، وأن يعودوا جميعاً إلى جبهة واحدة، لا موئل لها ولا قبلة سوى الكتاب والسنة، وأن يعملوا متكاتفين متساندين، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى (غن أكرمكم عند الله أتقاكم)، ويوم يتم ذلك للمسلمين، لن نتوانى نحن (آل السعود) وأبناء نجد والجزيرة عن تبوئ مكاننا من هذا الموكب الجليل بين الصفوف
مؤتمر التعليم للأقطار العربية
تبحث اللجنة المؤلفة في وزارة المعارف للتمهيد لعقد المؤتمر العربي على ضوء

الحاجة إلى إصلاح النظم الحالية وتعديل السياسة المتبعة في كثير من المسائل التعليمية في مصر وجاراتها
وفي انتظار موافقة مجلس الوزراء على عقد هذا المؤتمر تعمل هذه اللجنة على أن تنتهي من عملها على الوجه الأكمل حتى يمكن الاتصال بالأقطار العربية بعد موافقة المجلس مباشرة
ونستطيع أن نذكر أن الموضوعات الرئيسية التي يفكر كبار رجال التعليم في مصر في طرحها على بساط البحث في هذا المؤتمر تشمل المسائل الآتية:
1 - واجب الدولة نحو التعليم العام والتعليم الأولي
2 - وسائل تدريس اللغة العربية
3 - تبادل الزيارات العلمية بين طلاب الأقطار العربية والمدرسين بها
4 - تنظيم الانتفاع بالكتب التي تطبع حديثاً في هذه الأقطار في مختلف العلوم والفنون والآداب
5 - مواصلة السير على ندب مدرسين من قطر إلى آخر حسب ما تقتضيه روح التعاون الثقافي
ومما لا ريب فيه أن عقد هذا المؤتمر سيكون نواة لتعاون واسع النطاق بين البلاد العربية التي باعدت بينها ظروف خاصة، وأن الانتفاع به على الوجه الصحيح سيعزز مكانة مصر في الشرق. وقد يلاحظ أن حرص العراق يماثل حرص مصر على عقد هذا المؤتمر الأول من نوعه في العصر الأخير، وذلك يدل على تجاوب الآمال بين البلدين في إقامة الوحدة
العربية الفكرية على أسس متينة بحيث يتاح لجميع البلاد التي تنطق لغة واحدة وتتأثر بشعور واحد أن تواجه مستقبلها بقلب مطمئن واتحاد وثيق
مكافحة الأمية بين الفلاحين والعمال
فكر لفيف من طلبة جامعة فؤاد الأول في أن يشغلوا أوقات فراغهم في عطلة الصيف بالعمل لمحو الأمية ورفع مستوى التفكير للفلاح والعامل. وقد وضعوا لذلك مشروعاً هو قيد البحث الآن مع كبار رجال التربية والتعليم والإصلاح الاجتماعي وهم يواصلون جهودهم في ذلك السبيل المشكور في كل فرصة تتاح لهم. وقد انتخبوا من بينهم وفداً لمقابلة صاحب المعالي الأستاذ إبراهيم دسوقي أباظة بك وزير الشؤون الاجتماعية لعرض هذا المشروع عليه ورجاء معاليه تعضيد الوزارة له.
المرحوم (معاوية محمد نور)
رزئ القطر الشقيق - السودان - بفقد المرحوم معاوية محمد نور من أدباء الشباب المستنيرين الذين قامت بفضل جهودهم الموفقة دعائم النهضة الفكرية الحديثة في مصر الجنوبية
وقد تلاقيت مع المرحوم معاوية لأول مرة على صفحات جريدة السياسة الغراء حوالي عام 1929؛ ثم توثقت بيننا عرى الألفة والزمالة حين أسسنا جماعة الأدب القومي التي كان يرأسها معالي الدكتور هيكل باشا، فجمعية العشرين التي أسسها الأستاذ محمود تيمور بك. وكان الأستاذ معاوية قد تخرج حديثاً في كلية غردون بالخرطوم وأراد إتمام تعليمه في كلية الآداب؛ غير أنه صادف عقبات منعته من الالتحاق بالجامعة؛ واتصل النبأ بسمو الأمير العالم عمر طوسون فرأى أن يرسله في بعثة خاصة على نفقة سموه إلى الجامعة الأمريكية ببيروت. وبعد أن نال إجازتها في الآداب عاد إلى القاهرة واتصل بالأوساط الأدبية وزاول مهنة الصحافة في صحف شتى كالأهرام والهلال والإجبشيان ميل، وكتب على صفحات الرسالة، وساهم بقلمه وفكره في كافة الحركات الأدبية التي اضطلع الشباب بأعبائها. وفي غضون تلك الفترة وقع الاختيار عليه ليكون سكرتيراً لغرفة التجارية بالخرطوم، غير أن فاجعة أليمة وقعت له وانتهت باختلال قواه العقلية
وكان المرحوم معاوية في كافة مراحل جهاده الأدبي يتوق جهده إلى توثيق عرى الصداقة بين القطرين الشقيقين، ويقصر جهده على خدمة أمته عن طريق إذاعة أدبها القومي فكتب بعض أقاصيص سودانية لها صبغة محلية، وصور طبيعة بلاده في صور سحرية أخاذة يساعده على ذلك ثقافة العربية والسكسونية
وأطلعني قبل موته على تجارب كتاب كان ينشر فصولاً منه على صفحات الإجبشيان

ميل بعنوان (الأدب المصري وتاريخه) تناول فيه بالدراسة والبحث مدارس التفكير في الأدب المصري وقادته، ثم أدب المقالة والنقد الأدبي فخصائص الأدب القومي والشعر والقصة والمسرح وأثر الجيل في كل حقل من حقوله، وكان غرضه من ذلك أن يقف الرأي العام الإنجليزي على تطور الأدب العربي عامة والمصري خاصة

وكان إيمانه بالأستاذ العقاد يفوق حد الوصف فكتب بعض فصول حلل فيها أدبه وارتباطه بشخصيته، وحلل شعره وأثره في البيئة المصرية. أما أخلاقه فكانت على جانب من السمو. وقد عرف البؤس والفاقة في بعض أويقات حياته غير أنه لم يقاسهما مطلقاً، بل كان يعمل وكان سعيداً أن يرى الناس تفهمه وتقدر جهوده

محمد أمين حسونة

أهلاً وسهلاً بك

من الصواب المخطأ قولهم: (أهلاً بك) فقد قام في زماننا من ينكر هذا القول ويخطئه على صفحات جريدة كبرى

ودخل أستاذ على تلاميذه حاملاً معاجم اللغة مدعياً أن العرب لا تقول: (أهلاً بك) وإنما تقول: (أهلاً وسهلاً) أي حللت أهلاً ونزلت مكاناً سهلاً ومنه: (مرحباً وأهلاً، وناقة ورحلاً، ومستناخاً سهلاً)

قال قائل منهم: وما رأي أستاذي في قول حافظ:

البلاد ومرحباً ... جددتم العهد الذي قد اخلقا (أهلاً بنابتة)

فقال: كلام المتأخرين لا يحتج به

ثم دارت الأيام دورتها وإذا بهذا الأستاذ نفسه يملي على تلاميذه أنفسهم قصيدة النابغة في وصف المتجردة ومنها:

لا مرحباً بغد ولا (أهلاً به) ... إن كان تفريق الأحبة في غد

فأعجب للنابغة كيف حكم بين اللغويين العصريين ميتاً كما كان يحكم بين الشعراء الجاهليين حياً

وطالما جرى هذا التعبير على ألسنة الفحول من المتقدمين أمثال ابن دريد في مقصورته والجاحظ في بيانه وتبيينه وأبي الفرج في أغانيه

وفي الصناعتين لأبن المعتز:

أهلاً وسهلاً بالناي والعود ... وكأس ساق كالغصن مقدود

قد انقضت دولة الصيام وقد ... بشر سقم الهلال بالعيد

ولما دخل الرسول على المتوكل برأس اسحق بن إسماعيل قام علي بن الجهم يخطر بين يدي المتوكل ويقول:

أهلاً وسهلاً بك من رسول ... جئت بما يشفي من الغليل

برأس اسحق بن إسماعيل

فقال المتوكل قوموا التقطوا هذا الجوهر لا يضيع.

محمد فتح الباب

برقة وأبو عبادة

طلع علينا الأستاذ النشار - بعد صمت طال حنيننا إليه فيه - بقصيدته الرائعة (برقة)؛ فحمدنا له هذا العود الحميد، على أننا نستميحه المعذرة في ذكر نقطتين من قصيدته عن لنا بسط الرأي فيهما:

1 - ضبط الاسم في مطلع قصيدته (برقة) بفتح الباء. والذي أعرفه أن اسم هذا الإقليم (برقة) بالضم - وفي معاجم اللغة أن البرقة (بزنة غرفة): أرض غليظة فيها حجارة ورمل وطين، وجمعها برق. . . أما البرقة - بالفتح - فهي الدهشة والخوف، ولم ينظر في تسمية الإقليم إلى هذا المعنى

2 - برقة . . . يقول الأستاذ في قصيدته مشيراً إلى:

تلك التي حمل ابن أوس همها ... في بارع بادي الجمال مخلد

(أصبا الأصائل إن برقة منشد ... تشكو اختلافك بالهموم العود)

ونفهم من هذا أنه ينسب البيت إلى (ابن أوس)، أي إلى حبيب ابن أوس الطائي، وهو المعروف بأبي تمام؛ مع أن المعروف أن البيت هو مطلع قصيدة لأبي عبادة البحتري يمدح بها يوسف ابن محمد. . والأستاذ النشار لم يخطئ في نسبة البيت إلى قائله

فحسب، بل نقله على تحريف، إذ صحته كما جاء في ديوان البحتري
أصبا الأصائل إن برقة منشد ... تشكو اختلافك بالهبوب السرمد
هذا ما عن لي التعليق به، وعلى الأستاذ منى أزكى السلام
(جرجا)
محمود عزت عرفة
مهرجان أدبي لعيد ميلاد حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك
في كل يوم تتوالى مبرات المليك على شعبه، وتتجلى إمارات عطفه على رعيته، ولأياديه يد بيضاء في كل عمل خيري، وتجابر من صنع يده يتوج به كل مشروع نافع وللشعب - بحمد الله - قلوب تفيض بإجلاله وتبجيله، وتخفق بحبه والتعلق به، وتنبض على حركاته، لحراسة ذاته وكلاءة الله له؛ ووراء هذه القلوب ألسنة يرطبها ترديد محاسنه، وذكر مفاخره، والدعاء له بطول العمر وفسحة الأجل
ولمناسبة عيد ميلاد جلالته السعيد في 11 من فبراير سنة 1942 تعقد لجنة المهرجان الملكي الأبدية بمشيئة الله مباراة عكاظية، يلتقي فيها الكتاب والأدباء والشعراء والزجالون بخطبهم وقصائدهم وأزجالهم وأناشيدهم كل بما تجود به يراعته وما تفيض به نفسه من إخلاص للمليك المفدى، وولاء وحب لصاحب العرش المكين
وإن ميدان البيان البليغ لمتسع: شباب رائع فتي، وعقل ألمعي، وقلب تقي، وخلق عظيم، ودين مكين؛ قد ضرب أروع الأمثال في رعاية الفقير والترفيه عنه واحتضانه والأخذ بيده
لنا من سيرته الحميدة ومآثره المشهورة نبراساً يضيء الطريق في ميدان الخطابة والإنشاد، وخير حافز على تسجيل نفثات اليراع في كتاب يرفع إلى مقام المليك وينشر على الملأ بعد
أن يذاع منه بحفلة دار الأوبرا الملكية ما هو جدير بالتفضيل
وستضع اللجنة جوائز مختلفة لمن يجوز قصب السبق في المباراة. والمرجو ممن يتقدم لهذه الحلبة أن يبعث بما تجود به قريحته إلى حضرة الأستاذ محمد عبد الجواد المدرس بمعهد التربية للمعلمات بالزمالك في ميعاد لا يتجاوز آخر يناير الجاري
السكرتير
أمين حمدي فرج
الكتب
نظرات في كتاب:
أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث
للأستاذ حسن حبشي
(ترى ما نصيب المكتبة العربية من التآليف والتراجم عن بلادنا؟ وما نصيب المترجم في بلاد الضاد؟ . . .) سؤالان تبادرا إلى خاطري حين أنهيت مطالعة هذا السفر القيم الذي تناول فيه مؤلفه الغربي (أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) والذي أبت همة مترجمة الأستاذ جعفر الخياط إلا أن ينفح به المتكلمين بالعربية، والمهتمين بدراسة التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية للشرق الحديث عامة، والعراق خاصة
قد يكون من اليسير على المؤرخ تدوين الأحداث السياسية في العراق الحديث لكثرة ما يقع تحت يده من المصادر والوثائق الموجودة في دور وزارات الخارجية، وإلى ما قد يحصل عليه من الأخبار الواردة بالرواية، لكن كلما رجعنا بالزمن القهقرى ألفينا قلة المصادر، حتى ليجد الباحث نفسه يضرب في مجاهل مظلمة، فالروايات معدومة، والمراجع نادرة. . . فإذا عرفنا هذا أدركنا أهمية هذا الكتاب الذي ألم فيه مؤلفه (مستر ستفين هملي لونكريك) بتاريخ العراق في حقبة كان القطر الشقيق خلالها نهبة أطماع الدول الأجنبية
تناول المؤلف في هذا الكتاب الظروف التي مرت على العراق منذ مطلع القرن السادس عشر، ودرس الصراع العنيف بين الأتراك والإيرانيين، هذا الصراع الذي يسميه (بالجوع)، حتى إذا طلع القرن السابع عشر ظهر اتحاد قبلي مؤلف من بني مالك، والأجود، وبني سعيد، وتلا ذلك هجرات قبلية بشرية بقصد الاستقرار
ويشير المؤلف إلى تدهور موقف البرتغاليين؛ والواقع أنهم كانوا من أشد المستعمرين تطلعاً لامتلاك لعراق وفارس، ولا سيما بعد أن عقدوا معاهدة مع الشاه إسماعيل

1515م، مما أدى ببريطانيا إلى التطلع هي الأخرى شطر هذه الجهات لتحد من مطالع البرتغاليين، حتى استطاعت بعد قرن من الزمان أعني عام 1622م أن تقضي بمساعدة الفرس على نفوذهم، لكن وجد الإنجليز أنهم قد أخرجوا البرتغاليين من الميدان ليحل محلهم الهولنديون، مما هو معروف للملمين بتطورات الشرق الأدنى السياسية في العصر الحديث

وأن الكاتب ليلتفت لدراسة الحركة الوهابية، ذلك الانفجار الديني الذي ولد في واحات نجد وكان ما كان له من الأثر الفعال البارز في تاريخ الشرق الإسلامي في ذلك الحين، والذي كان شوكة في جانب الدولة العثمانية، ويظهر أن المؤلف ممن يعتنقون الفكرة القائلة بأن نشأة هذه الجماعة ترجع إلى عدائها للأتراك، فيقول ص 277: (إن أخشن رعاياهم أو أوحشهم من القبائل والمقاتلين كانت لا تعرف من القرآن والسنة إلا النزر اليسير. . . وكانوا يضمرون للخليفة ولكل شيء تركي استهانة لا تحتمل، وهذه التفاته جديدة في تفسير دواعي نشأة المذهب الوهابي يمكن أن تضاف إلى الأسباب المعروفة في تكوينه.

ويتناول الكتاب بعد ذلك تطور العراق حتى يصل إلى نهاية القرن التاسع عشر في شيء من التفصيل، وحكومة مدحت باشا. ومن الفصول الجديرة بالمطالعة الدقيقة بحثه عن الخطة الجديدة في إسكان القبائل، والتي تتضمن بيع أراض من أراضي الحكومة بأقساط قليلة سهلة. وتتبين روح المؤلف العلمية في هذا الفصل الذي خصصه لدراسة المصادر التي اعتمد عليها في تأليفه، وهي تربى على مائة وعشرين مرجعاً ما بين تركية وفارسية وعربية وأخرى باللغات الأوربية، وكتب السياحات، وكذلك سجلات شركة الهند الشرقية الإنجليزية. وخلاصة القول أن مراجعة ثبت المصادر أبرز دليل على ما تكبده المؤلف من عناء البحث والتدقيق ومقارنة المصادر بعضها ببعض حتى أخرج كتابه هذا

أما الترجمة العربية فقد وفق الأستاذ خياط كل التوفيق فيها، لما اجتمع له من تمكن في الإنجليزية وهو خريج كاليفورنيا، وحسن تبصر في العربية، وسلامة الأسلوب، ودقة الاختيار للألفاظ. وليس هذا الكتاب بأول كتاب يخرجه المترجم الفاضل بل لقد سبق له أن نقل إلى العربية كثيراً من المؤلفات العلمية، مما يشهد له بطول الباع والمران.

وعجيب أن يجد من وقته - وهو المشرف على التعليم الثانوي في العراق - فراغاً يستغله في هذه الترجمة العربية الرائعة. وإن المقدمة التي مهد بها الأستاذ جعفر الخياط بين يدي كتابه هذا لنفحة شعرية، تحس فيها بالحسرة التي تغمره وتغمر كل عربي حر حين يذكر مجد الإسلام في هذه البلاد وما ألم به من محن دامية، قضت على مدنيته الزاهرة، وهي توشك اليوم أن تعود سيرتها الأولى

وكم كنا نود أن الأستاذ جعفر أبقى أسماء المراجع الغربية كما هي ولم يترجمها وهي ما زالت بعد في لغاتها الأولى وعلى كل ففضل المترجم غير منكور.

(بغداد)

حسن حبشي

العدد 446 - بتاريخ: 19 - 01 - 1942

. . .مشكلة الرغيف

وكيف لا يكون للرغيف مشكلة، والمشكلات منذ هبط الإنسان الأرض إنما تتناسل من أب واحد هو الرغيف، ومن أم واحدة هي المرأة؟

سمِّ الرغيف وسيلة حفظ الحياة، وسم المرأة وسيلة حفظ النوع؛ ثم حاول أن تنسب بشيء من التحليل الدقيق جميع ما سجل التاريخ من خصومات ومشكلات وأزمات وثورات إلى هاتين الوسيلتين، أو هاتين الغريزتين، فلن تجد في نسبة البنات إلى أبويهن غموضاً ولا مشقة.

كانت المرأة في بدء الخليقة هي حواء، وكان الرغيف في حياة الجنة هو الشجرة، وكانت الأثرة والطمع والحسد هي إبليس، وكانت الضحية لهؤلاء جميعاً هي سعادة آدم! ثم مضى الرغيف والمرأة وإبليس يعملون في دنيا الأرض ما يشاء القدر: يصلحون هذا ويفسدون ذاك، ويعمرون هنا ويخربون هناك، ويخلقون التنافس لتنشط عناصر الحياة، ويوجدون الخلاف لتتفق عوامل الموت، وينزعون الملك من يد إلى يد، وينقلون الحكم من دولة إلى دولة، حتى قال ابن أبي الحديد بحق: (لم تسل السيوف إلا لوجه أصبح

من وجه، ولقمة أسوغ من لقمة)
ولو كان الملائكة يأكلون الرغيف ويخالطون المرأة لكانوا أناساً كالناس، ولكان الملكوت الأعلى كالملكوت الأدنى، ولكن الله لم يشأ أن يجعل النور كالظلام، ولا أن تكون السماء كالأرض!
على أن الرغيف لاكتنان سر الحياة فيه كان أشد الثلاثة إيقاداً للخصومة!
كان مالك بن أنس يذكر عثمان وعلياً وطلحة والزبير فيقول: (والله ما اقتتلوا إلا على الثريد الأعفر)
وأنت إذا ذكرت في تاريخنا العدنانية والقحطانية، والقيسية واليمانية، والمهاجرين والأنصار، والهاشمية والأموية، والعباسية والعلوية، والعروبة والشعوبية، والتركية والفارسية، والهلالية والصليبية، والإسلامية والقبطية، والسعدية والعدلية، والقُلانية والعِلاَّنية، لما قلت إلا ما قال أنس بن مالك.
كذلك إذا ذكرت في تاريخ الناس الشرقية والغربية، والديمقراطية والدكتاتورية، والرأسمالية والشيوعية، لما وجدت لهذه الأسماء معنى ولا مغزى إلا ما قاله كثير بن شهاب لغلامه وقد
طلب منه الطعام يوماً فقال ما عندي إلا خبز وبقل: (ويحك! وهل اقتتلت فارس والروم إلا على الخبز والبقل؟)
لذلك كله عالج الدين مشكلة الرغيف بتنظيم المعاملات، وفرض الصدقات، وكفكفة النفوس الشرهة بالقناعة والعفة والحدود؛ واتقت الدول جرائر الرغيف بالعلم والنظام والإصلاح والاستعمار؛ فإذا غلب الكفر أو طغت الأثرة؛ شبت الثورة أو نشبت الحرب. ذلك أن الفرد أو الشعب يصاب في حريته فيصبر، ويؤذى في كرامته فيستكين، ويفتن عن عقيدته فيرضى؛ ولكنه إذا حرم الرغيف انقلب ضارياً كالوحش، أو جازفاً كالبركان، لا يذر من شيء أتى عليه إلا جعله كالرميم.
هذه مصر هبة النيل وجنة الشرق وملتقى البحرين والبرين طالما عركتها الخطوب فاستكانت للقدر، واستعانت بالصبر، ومضت على حسن ظنها بالله تتربص الدوائر بالمغير، وترجو الغوائل للظالم، حتى إذا أخذت هذه الحرب الأكول تنازعها الرغيف، أصبحت كلها لساناً واحداً يتضاغى مخافة انقطاعه، فلا تجد في الأمة ولا في الحكومة إلا سائلاً عنه، أو شاكياً منه، أو باحثاً فيه، أو ساعياً له؛ وكأنما اختُزلت لغات الناس فأصبحت لا تعدو ألفاظ التخزين والتموين، والإحصاء والاستيلاء، والاستيراد والاستكثار، والمطاحن والمخابز، وما يدخل في هالة الرغيف النورية من مادة وأدب! فليت شعري إلام تأول الحال إذا تأزم الأمر، وضاقت موارد الرزق، فلا أرض تغل ما يكفي، ولا بحر يسد ما ينقص؟! تمثيل الحال في الخيال مرعب، فما بالك بتقرير الحس وتصوير الواقع؟
الأمر جد لا مساغ للبعث فيه، والخطر بادٍ فلا مناص من الاعتراف به، والتقصير ثابت فلا سبيل إلى التنصل منه. وإذا فاتنا الاستبصار للمستقبل، فلن يفوتنا الاعتبار بالحاضر.
وإذا عجزت السياسة أن تحل مشكلة الرغيف فلا أزعم أن يحلها الأدب. وكل ما يستطيع الأديب أن يقوله للسياسي أن مشكلة التموين لا يحلها أن يكون لها وزارة، ولا أن تُقصر على أمورها السياسة والإدارة؛ إنما يحلها أداء الحاكم للواجب، وقضاء المحكوم للحق. وأقسم بالله جَهْدَ القَسم لو أن القائمين على شؤون الناس بسطوا لها الأيدي النظيفة، وتحروا فيها الأوجه الصالحة؛ ثم ساووا بين العامة والخاصة في القسمة، وعدلوا بين الأقوياء والضعفاء في التكليف، وأيقظوا العيون لخفايا الحيل، وأنضجوا الآراء لمشتبهات الأمور؛
ثم عاونهم الشعب بفضائله، فلا يطمع المنتج، ولا يدخر المستهلك، ولا يحتكر التاجر، ولا يشح الغني، ولا يجوع الفقير، لما كان للرغيف في مصر مشكلة، ولا كان للتموين في الحكومة وزارة. ولكن مشكلة المشكلات هي أن مكارم الأخلاق لا تُباع ولا تُعار ولا تكسب في الزمن القليل، إنما هي تهذيب الدين الصحيح وصقال الدهر الطويل.
احمد حسن الزيات
بين الورق والدوح
(رسالة مهداة إلى المسيو (دي كومنين))
للدكتور زكي مبارك

حدثت قرائي غير مرة أن ذاكرتي فيها انحراف غريب: فهي ضعيفة كل الضعف فيما يتصل بالأرقام والأعلام، وقوية كل القوة فيما يتصل بالحوادث والمعاني، ولها قدرة عجيبة على تمثل الملامح والأصوات والألوان، فمن السهل أن أصف حادثاً رأيته قبل عشرين سنة، مع الإحاطة بما لابسه من دقائق التفاصيل، ولكن من الصعب أن أتذكر رقماً سمعته قبل يومين، إلا أن يتصل بأمر تلتفت إليه الذاكرة بعض الالتفات، ولأجل هذا أقيد ما يهمني من الأرقام في دفتر خاص.

وفي هذه اللحظة أتذكر جيداً كيف شهدت عدوان الخريف على آثار الربيع، ولم أكن شهدت ذلك العدوان قبل أول أيلول قضيته في باريس، وأتذكر أيضاً كيف كانت قدماي تخبّان في أوراق الأشجار وأنا أخترق حديقة (لكسمبور)، وأكاد أتمثل كيف انتشيت حين رأيت ذلك المنظر الجميل، وما هو في الظاهر بجميل، ولكنه أعانني على فهم جوانب من حيوية الأدب الفرنسي، ففيه ألوف من صور العدوان البغيض، عدوان الخريف على آثار الربيع، بلا تهيب ولا استحياء.

وفي يومٍ عاصف جلست تحت (الدوح) وهو ينظر بحزن إلى تساقط (الورق)، فوعيت من حوارهٍ أحاديث لن أنساها ما حييت. وكيف أنساها وقد زلزلت قلبي، وأطلعتني على بعض ما كنت أجهل من سرائر (الأدواح) و (الأوراق)؟

سمعت (الدوح) يقول في صراخ مبحوح:

(إلى أين يمضي هذا الورق الساقط؟ وكيف جحد جميلي عليه؟ حملته وهو ضعيف لا يقدر على التماسك، وأمكنته من شرب الندى وارتشاف أكواب الضياء، وحرمت نفسي عذوبة التمتع بصحوة الشمس في الربيع، ونشوة القيظ في الصيف، ليجد الفرصة لتذوق النعيم، فهل حفظ هذا الصنيع؟

(لقد أبحته أن يمتص دمي كيف شاء، ليواجه نور الوجود بحرية الطفل الغافل عن جهاد أبيه، ولكل أب جهاد يجهله الأبناء ولو كانوا من الملهَمين، فهل عرف الورق الساقط أنني حرمت نفسي نعيم الندى والضياء ليتخايل ويستطيل؟)

وسكت (الدوح) لحظات، ثم صرخ من جديد:

(والآن يعرف الورق أن الشتاء قادم، أنني سأحتاج إليه لدفع عوادي البرد والجليد، فهو ينخلع عني، ليتركني بلا غطاء، في قر الشتاء!)

ويسمع الورق أنين الدوح فيهتف:

- ما عتبك عليّ أيها الدوح؟ ما عتبك عليّ وقد بذلت في البر بك غاية ما أملك؟ ألا تذكر أني صبرت على مصاحبتك في السيطرة والاستعلاء شهوراً من الزمان؟ ألا تعرف أني عققت من أجلك أمنا الأرض؟ فما ذنبي إذا اشتهيت العودة إلى الأم الرءوم، وهي أيضاً تحتاج إلى من يدفع عنها البرد والجليد؟

وسمع الدوح هتاف الورق فأجاب:

- الأرض أمي وأمك، ولكني فهمت عنها ما لم تفهم، فقد حدثتني ألف مرة أنها لا تريد أن يرجع إليها غير الأموات من أبنائها الأعزاء، فإن كنت مت أيها الورق فارجع إلى أمك الأرض!

فزمجر الورق:

- أنا مت؟ أنا؟ وهل يموت من يرجع إلى حجر أمه الغالية؟

فيقول الدوح:

- نعم، ثم نعم، يموت من يرضي بأن تدوسه الأقدام، ولن يكون لك نصيب غير الدوس، يا جهول!

وهنا قال الورق للدوح:

- هل تنسى أني أدفأتك في الصيف؟

فقال الدوح للورق:

- لم أكن أحتاج إلى دفء في أشهر الصيف؛ وإنما أحتاج إلى الدفء في أشهر الشتاء

فقال الورق للدوح:

- لا أستطيع سماع صوتك وأنت مجلل بالسواد

فقال الدوح للورق:

- إنما تجللت بالسواد حداداً عليك. ألا تذكر أنني كنت أحبك حباً هو الغاية في الكرم، لأنه حب القوي للضعيف؟ ألا تذكر أني كنت أقاوم العواصف والزوابع لأقي خدودك ذلة الالتصاق بالأرض؟ ألا تعرف أنني أعني لفراقك كروباً لا تطاق؟
قال الورق:
(أتحبني إلى هذا الحد، أيها الدوح؟)
فتأوه الدوح ثم أجاب:
(لا أحبك لأنك ورق، فأنت تعرف أني صبرت على تقلب الأوراق أربعين عاماً أو تزيد، ولن أموت يوم أموت بسبب تقلب الأوراق - وإنما أحبك لأنني أنشأتك كما يحب الله هذا الوجود، فأنت بعض ما صنع دمي أيها الورق، ولن تعيش بعد فراقي إلا بفضل ما سكبت في عروقك من الدم النفيس، وقد حل عليك غضبي، فلا بقاء لك بعد اليوم. . . وهل تستطيع أن تطبّ لما صنعت بنفسك أيها الورق الساقط؟ لقد دعوتك إلى الترفق بمصيرك فلم تسمع، ومن أجل غفلتك لبست عليك ثوب الحداد، ولم استغرب من فرحك بمصافحة الأرض، فأنم أعرف أنه لا يرحب بالاستعلاء غير الأقوياء، كما أعرف أن الأم لا ترحم من أبنائها غير الضعفاء)
قال الورق:
(وبأي حق تستطيل علي، أيها الدوح، وأنت أسود مظلم، لا ترَجى لك صحوة ولا معاد؟)
قال الدوح:
(ذلك سواد الشباب، يا أحمق، وليس سواد الحداد، ولن تقيم الحياة لدلالك أي ميزان، وهل تطول حياتك حتى ترى ازدهائي بالورق الجديد في الهوى الجديد؟ إن الدم الذي سوّاك، سيسوي ورقاً سواك، وسأعبث هذا العبث بالأوراق إلى أن أبلغ الثمانين أو التسعين!)
قال الورق:
(خذني إليك، أيها الدوح، فقد اشتقت إلى ساعدك القويّ المتين)
فأجاب الدوح:
(تعال إلي، إن استطعت، أيها الورق الساقط، فأنا لا أملك البعث كما أملك الإنشاء، وهل أملك مساماة صاحب العزة والجبروت؟)
وتكلف الورق ما لا يطيق ليرجع إلى الدوح من جديد، ولكنه عجز عن تحقيق ما يريد، وتلك نهاية من يجهل السر في تمتعه بشرف الوجود، والشرف معناه الارتفاع، وقد انحط الورق بسقوطه على الأرض، فأمسى وهو ضعيف مَهين.
ثم قال الدوح:
- لن نلتقي بعد اليوم، أيها الورق الساقط، وكيف نلتقي وأنا أجد عناءً في التعرف إلى هويتك؟ وهل أراك إلا وهماً يصوره الرفات المسحوق، مع قرب العهد بالفراق؟
فأجاب الورق:
- ستجدني في الربيع المقبل
قال الدوح:
- سأجد في الربيع المقبل ورقاً غيرك
قال الورق:
- كنت أنتظر أن يكون في سخطك عليّ ما يزهدك في جميع الأوراق
فصاح الدوح:
- كان ذلك لو أني أردت الانتفاع بالتجارب، والانتفاع بالتجارب يدل على العقل، ولكنه يشهد بضعف الحيوية، والخير أن نواجه الحياة في كل يوم بأحلام الناشئين، لا بعقول الكهول، لتبدو لنا الحياة بكراً في كل لحظة، كما تبدو الغابة المؤذنة بالوحشة والأنس في كل حين. ولو أني اكتفيت بما جربت من أخلاق الورق لكان من المستحيل أن أراك، بعد أن عرفت ما عرفت من شمائل سواك.
قال الورق:
- وأستطيع أنا أيضاً أن أغفل الانتفاع بالتجارب وأرجع إليك في الربيع المقبل
فضحك الدوح وقال:
- وهل كانت لك معي تجارب أيها الورق؟ هل رأيت مني ما يعاب حتى تزعم أنك فارقتني عن عتاب يمحوه التفضل بالإعتاب؟ أنا الذي أنشأك، وأنا الذي رباك، وأنا الذي

أوحي إليك معاني الشوق إلى الندى والضياء. . . أنت لم تفارقني لأني جفوتك أو أسأت إليك، وإنما فارقتني لأنك ضعفت عن صحبتي، كما يضعف السحاب عن مصاحبة الجبال.

قال الورق:

- خذني إليك، أيها الدوح، لأذوق من دمك ما كنت أذوق

فأجاب الدوح:

- عيب الأقوياء أنهم لا يصفحون عن المذنب ولو عفّر جبينه بالتراب، وأنت أيها الورق الساقط جحدت جميلي، فلن أراك بعد اليوم ولو استشفعت بأزهار الربيع

قال الورق:

- وهل يكون الورق الجديد أجمل مني أو أصدق مني؟

فأجاب الدوح:

- لن يكون أجمل منك ولا أصدق منك، فتجارب أربعين سنة دلتني على أنكم جميعاً من وحلٍ واحد، ولكن الورق الجديد سيلقاني وهو على جانب من الغفلة والجهل، والغفلة والجهل يزيدان في قيمة الجمال، فإذا تعاقل وتعالم، كما تعاقلت أنت وتعالمت، فسيكون مصيره إلى أمه الأرض، وأستريح منه قبل أن يستريح مني

قال الورق:

- أيكون معنى هذا الكلام أن لك سياسة مرسومة في امتهان الأوراق؟

فأجاب الدوح:

- معنى هذا الكلام أني أحقد حقداً أبدياً على من يجحدون المعروف. لقد قضيت أربعين سنة أو تزيد في تعهد الأوراق بالرفق والعطف، فما حفظت ورقةٌ عهدي، ولا اعترفت بجميلي. . . ويعزيني أن الله ينتقم لي فما انخلعت عني إلا كتب الله عليها الذبول والفناء

قال الورق:

ومع هذا فأنت لفراقي حزين، باعترافك في بداية هذا الحوار، وهذا الحزن هو انتقامي من غطرستك وكبريائك، وأنا أتوعدك بقول أحد الشعراء:

سأنساك فانظر كيف تحيا إذا انقضى ... نصيبك من روحي وحظك من قلبي

ونظر الدوح فلم ير الورق، فأين ذهب؟ أين؟ أين؟

لقد عصفت الريح فأطارت ما كان في (لكسمبور) من أوراق، وباد ما تعاقر الحديقة من (خشخشة) كانت أروع ما سُمع من الغناء في باريس

قال الراوي:

وكنت فتي مصرياً لم يسمع مثل هذا الحوار بين الورق والدوح، فمصر الوفية لا تشهد انحلال الورق عن الدوح في خريف أو شتاء بغض النظر عن الأشجار المجلوبة من بلاد لا تعرف خلائق وادي النيل.

قال الفتى المصري:

وتسمعت ما يقول الدوح بعد ذهاب الورق فوعيت هذه الكلمات:

- إلى أين ذهبت أيها الورق، وكنت الشاهد على أن الضعف من عناصر الجمال؟ إلى أين ذهبت وكان عطفي عليك دليلاً على أني من الأقوياء؟ إلى أين ذهبت وبفضلك سمت تغريد الحمائم والبلابل والعنادل. ولم أر بعد ذهابك غير وقر الجليد في (أعوام) الشتاء، وكل يوم في الشتاء بعام أو عامين لمن يعيش بلا أليف؟

ثم سمعت الدوح يقول:

- لو كنت أملك من أمري ما يريد الهوى لخلعت العذار في البحث عن الورق الذاهب، ولكن الطبيعة التي أمدتني بالقوة قيدتني بالوقار؛ فأنا جاثم في مكاني، وإن كان هواي في بلدٍ بعيد بعيد، وآه ثم آه من المراعاة لما يوجب التغافل عن الهوى المشبوب!

وسمعته يقول:

- سقط عني الورق، لأنه ضعف عن مصاحبتي في أيام الشدائد؛ وهل يطالَب الضعيف بما لا يطيق؟ فما عتبي عليه وهو أضعف من أن يقاسمني المصاعب في أيام الشتاء؟ وهل يتوهج الجمال إلا في أوقات اللين والصفاء؟

ثم سمعت الدوح يقول:

ألا يمكن اتهامي بإرغام الورق على أن يصير إلى ما صار إليه؟ كان في مقدوري أن)

أضاعف له الكمية المبذولة من دمي، ولكنني جهلت الواجب فارتضيت أن يعيش في الخريف بمثل ما كان يعيش في الربيع. ولو أني ضاعفت له الدفء لكان من الممكن (أن فكر في حفظ الجميل، والدنيا أخذ وعطاء، ولو كره الأوفياء

قال الفتى المصري وهو يحاور قلبه بعد سماع ذلك الاعتراف:

لقد نطق الدوح بالقول الفصل، وأجاب عن هذا السؤال: (ما الذي يمنع من أن نعيش كما

تعيش بعض الأشجار التي تخلع أوراقها في الخريف لتكتسي بأوراق جديدة في الربيع؟) وما وجهت إلى نفسي هذا السؤال إلا بعد أن عانيت ألوف المكاره من الوقوف عند حالٍ واحد في الحب والبغض، والاقتراب والابتعاد. والأوراق هي العواطف فما بالنا نحرص حرص الأشحاء على استبقاء تلك الأوراق، وفيها ما يصل إلى الذبول والجفاف، ومن الخير أن نخلعه بلا رحمة ولا إشفاق؟ ما بالنا نحرض عليها حين تتصل بأحباب يصعب عليهم أن يقاسمونا شتاء الزمان؟

إن الله لا يضن على الشجر بالورق الجديد عند قدوم الربيع، فهل يضن علينا بالهوى الجديد عند استهلال الرخاء، وقد عرفنا من كرم الله ما لا تعرف الأدواح والأوراق؟ وهل يملك الدوح من الحيوية عند سقوط الورق مثل الذي نملك من الروحانية عند خمود الوجد؟ أكاد أجزم بأن الماء المكنون في الشجرة العارية من الورق لا يقاس إلى الجمر المكنون في القلب الخالي من الحب، فنحن والشجر إلى ربيع قريب، وإن استطال الشتاء.

وبعد لحظات عاد الفتى المصري إلى محاورة القلب

- الدوح مجلل بالسواد، والسواد شارة الحزن، فما بال الدوح يحزن وهو غاية في القوة؟

- الحزن من علائم القوة، وليس من علائم الضعف، فهو دليل على شعورنا بقيمة ما نفقد، ولا يقع ذلك إلا ونحن أقوياء، والجهلة هم الذين لا يفرقون بين الحزن والذهول

- وكيف؟

- أنسيت ما قرأناه لأناطول فرانس من أن الموت نتيجة لضعف الـ

- أذكر ذلك، ولكني أخشى أن يكون الحزن هو أيضاً نتيجة لضعف الحيوية

- أنت مخطئ في هذا التأويل، فالحزن هو صوت الشهوة إلى النعيم المفقود، والشهوة لا تصدر عن النفس إلا في حالة الفتوة والأريحية والطغيان

- وإذن فما بال جماعات من خلق الله تندد بالمحزونين؟

- كما تندد جماعات من خلق الله بالفرحين!

- ماذا تريد أن تقول؟

- أريد أن أقول إن الحسد هو الذي يحمل بعض الناس على التنديد بأهل الأحزان والأفراح، وما قام في الدنيا أدب ولا مجد ولا سلطان إلا بفضل ما في عاطفة الحزن أو

الفرح من ثورة واشتعال

- أتريد أن أحزن، يا قلبي؟

- أريد أن تفرح بالحزن الصادق، فقد كان شعار الأنبياء؛ أما الحزن الكاذب فهو شعار المتصنعين. إن للحزن آداباً يجهلها أكثر الناس، ومن آداب الحزن أن يصدر عن عاطفة لا عن تصنع، وأن يأخذ وقوده من الإحساس لا من الخيال، وأن يردنا إلى الصدق فيما نكتب وفيما نقول، وأن يزيد في احترامنا لأهل الأفراح؛ فهم إخوان أعزاء، ولو نقلهم الفرح إلى آفاق الجنون. أنظر إلى هذا التمثال وذلك التمثال!

قال الفتى المصري:

ونظرت فرأيت تمثالين: أحدهما لعامل مكدود، وثانيهما لفتى تحتضنه فتاة بأسلوب يمنع من وصفه أدب أهل الشرق، فقد ضمته إليها كما يضم الحبيب المحبوب، وما أحب أن أزيد، وهل أستطيع القول بأن ذلك التمثال أفصح عن أشياء ينكرها الحياء؟ من بلايا الزمن أن الكاتب لا يملك من الحرية ما يملك المثّال!

كان هذان المنظران المتباينان يمثلان السلامة الوجودية أصدق تمثيل، فالعامل المكدود هو مثال الحزن الشريف، واحتضان الفتاة للفتى هو مثال الفرح النبيل، وليس من العيب أن نفرح أو نحزن بإفراط وإسراف ما دمنا صادقين. وهل تهجم الفتاة على

الفتى إلا طاعةً لغريزة كريمة هي سر البقاء؟ وهل تجعد وجه العامل المكدود إلا في سبيل السعادة لأطفال يتمنى أبوهم أن يجهلوا معنى الفقر في أيام الشتاء: شتاء الزمان؟
ثم عاد الحوار بعد لحيظات:
- حدثتك عما قرأنا لأناطول فرانس، فهل تذكر ما سمعنا لعهد الطفولة في سنتريس؟
- لا أذكر من سنتريس غير أطياف بددتها أحلام باريس، فماذا تريد؟
- كان أهل سنتريس يقولون: (لما يخضرّ التوت، البرد يموت)
- وما معنى ذلك؟
- معناه أن الأوراق هي الوقاية من البرد!
- وإذن!
- وإذن تكون العواطف هي الوقاية من شتاء الزمان
- وما حال الشجرة التي لا ينخلع عنها الورق في أي وقت؟
- هي شجرة سعيدة أعاذها القدر من اختبار الأحباب، ومزية هذه الشجرة أنها تتذوق ما في الأرض والهواء من حيوية عارمة لا تلتفت إلى تغير الفصول إلا في أندر الأحايين!
- وهل في مقدورنا أن نكون مثل تلك الشجرة؟
- إذا تخلقنا بأخلاقها
- وكيف؟
- في الأسبوع الرابع من آذار تظهر تباشير الورق الجديد فوق غصون الأشجار التي عانت آلام العري في الشتاء، وننظر فنرى الأشجار الصغيرة أورقت قبل الأشجار الكبيرة، فنفهم أن للشباب يداً في سرعة الإيراق؛ وقياساً على ذلك يكون الشباب الدائم هو الذي يحمي بعض الأشجار من سقوط الورق في الشتاء
- أيكون لهذا الملحظ دخل في تقديس شجرة (الجميز) عند قدماء المصريين؟
- ليس هذا التخريج بغريب، وقد يضاف إليه أن لشجرة الجميز ميلاً إلى البر بالجيران؛ فهي تمد فروعها لتمتعهم بالثمار والظلال بلا انتظار للجزاء!
- أراك تهرب من الجواب!
- وأراك لا تفهم المعاريض!
- أنا أحب أن أعرف كيف أحتفظ بالشباب
- إذا احتفظت بالعواطف
- وكيف أحتفظ بالعواطف؟
- إذا احتفظت بالشباب!
- وكيف أحتفظ بثروة من أعدائها الليل والنهار؟
- أنت أقوى من الليل والنهار، إذا أردت؟
- وكيف؟
- اجعل الليل والنهار من خدامك
- كيف؟ كيف؟
- لا تضيع لحظة واحدة بلا عملٍ نافع، فالعمل الموصول فن من السيطرة على شباب الزمان؛ ألم تسمع بأخبار نوح؟
- وما أخبار نوح؟
- عاش في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً
- وهل يعيش الإنسان ألف سنة إلا خمسين عاماً؟
- بقليل من الفهم تدرك أن عمر نوح لا يرجع إلى الكمية الصورية، وإنما يرجع إلى الكمية المعنوية؛ وقد استطاع نوح باختراع (السفينة) أن ينقذ الإنسانية من (طوفان) الفناء؛ فالعشرات من أعوامه تعد بالمئات. فاصنع صنع نوح، لتعيش عمر نوح!
قال الراوي:
ثم رأيتني أهتف بقول أحد الهائمين:
ولو أن عمري عمر نوح وبعته ... بساعة وصل منك قلت كفاني
فالله وحده هو الذي يعلم قصة الورق والدوح. وهو الذي يعلم ما أعاني من البلبلة بين القاهرة وباريس وبغداد. وهو الذي يعلم كيف أفر من التصريح إلى التلميح، لينجو (الورق) من الافتضاح.

إن عاد الربيع، إن عاد، فسوف نعقد (معاهدة ودية) لا يقضها خريف ولا شتاء
وشبابي، شباب الجسد والروح يحدثني بأن الربيع إلى معاد ويلطف الله بمن يقول:
لنجواك أستبقي شبابي فعاطني ... كؤوس الهوى قبل ابيضاض المفرق

زكي مبارك

الإنسان الكامل

للدكتور جواد علي

عرّف المتصوفة الإنسان الكامل بقولهم: هو الإنسان الجامع لجميع العوالم الإلهية والكونية الكلية والجزئية، وهو كتاب جامع للكتب الإلهية والكونية؛ فمن حيث روحه كتاب عقلي مسمى بأم الكتاب، ومن حيث قلبه كتاب اللوح المحفوظ، ومن حيث نفسه كتاب المحو والإثبات؛ فهو الصحف المكرمة المرفوعة المطهرة التي لا يمسها ولا يدرك أسرارها إلا المطهرون من الحجب الظلمانية. فنسبة العقل الأول إلى العالم الكبير وحقائقه بعينها نسبة الروح الإنساني إلى البدن وقواه. وإن النفس الكلية قلب العالم الكبير، كما أن النفس الناطقة قلب الإنسان؛ ولذلك يسمى العالم بالإنسان الكبير.

ويكاد يكون الإنسان الكامل نفس (الإنسان الأول) لدى أرسطو، أو (الحكيم) لدى أفلاطون، أو (الإنسان الفاضل) لدى الفارابي، أو (الإنسان المطلق) لدى جماعة إخوان الصفاء في البصرة؛ وتكاد الفكرة تكون نفس الفكرة (الإنسان الذي لا إنسان فوقه) ? لدى هاينريش مولر من رجال أواخر القرن السابع عشر مبتدع هذه اللفظة لأول مرة والشاعر الشهير جوته، والفيلسوف نيتشه أو فكرة السوبرمان في اللغة الإنكليزية مع اختلاف بسيط سببه وجهة النظر والتفكير.

وفكرة الإنسان الكامل من الأفكار التي ترد على لسان المتصوفة كثيراً. وقد استعملها المتصوف الشهير محيي الدين بن العربي المتوفى سنة (638هـ - 1240م) وعلى الأخص في كتبه ومؤلفاته. وتكاد الفكرة تكون محور تعاليمه والنقطة التي تدور حولها أبحاثه التصوفية. وابن العربي هذا من الشخصيات الإسلامية العظيمة التي تنتمي إلى أرومة عربية عريقة في القدم. شخصية أثرت في الحياة الروحية الإسلامية تأثيراً عظيماً ولا سيما في الحياة العقلية للأتراك والفرس. وتتصل آراء هذا الصوفي بعضها ببعض بصورة متسقة منتظمة اتصال الحلقة أو السلسلة على غموض بعض أفكاره وعويص معانيه، وذلك أمر يقتضيه التصوف ذاته والموضوع الذي يدور حول البحث. والظاهر أنه استمد آراءه في الإنسان الكامل كما استمد ذلك سائر المتصوفة من الصورة التي رسمها مثاليو المسلمين للنبي الكريم، إذ نرى الصورة التي تصورها المتصوفة للإنسان الكامل
تسير جنباً لجنب مع الصورة التي يذكرها أصحاب السير للرسول نبينا العظيم.

استعمل محي الدين بن العربي هذا الاصطلاح كاستعمال أرسطو لكلمة (الإنسان الأول) أو استعمال فلاسفة اليونان لكلمة أو العقل، أو كلمة تقريباً؛ استعمل هذا الاصطلاح ليدل على نسبة العقل الأول إلى العالم الكبير أو النفس الجزئية بالنسبة إلى النفس الكلية ليدل على فكرة طالما أفنى المتصوفة أنفسهم شوقاً إليها إلا وهي فكرة المعرفة والتجلي عن طريقي الوجد والفناء حتى يصل الإنسان في النهاية إلى (الشجرة) وهي درجة الإنسانية الكاملة التي لا إنسانية فوقها أبداً. ونظراً لمكانة هذه الفكرة وما يحيط بها من إبهام وغموض، تصورها المسلمون لذلك بصور شتى وأشكال لا حد لها خرجت في كثير من الأحايين من عالم الفلسفة الإسلامية إلى عالم آخر أبعد من عالم الإسلام والتصوف بدرجات.

وقد ظن المستشرق ماكس هورتن أن ذلك العالم هو العالم البراهمي وهو عالم غني بهذه الأفكار مملوء بهذه الآراء، وظن المستشرق شيدر - وهو مستشرق يرجع أصل كل شيء في الحضارة الإسلامية إلى مصدر إيراني قديم - أن مصدر هذه الفكرة الآراء المانوية الإيرانية القديمة. يرى أن هذه الآراء أثرت في التصوف كما أثرت في فلسفة أبي بكر الرازي وإخوان الصفاء وناصر خسرو وغيرهم، وذل لوجود تشابه رآه هذا المستشرق بين فكرة الإنسان الكامل وبين المعتقدات المانوية القديمة.

وترد نفس هذه الفكرة في فلسفة فيلون وفي الفلسفة البوذية حيث يكون بوذا أكمل مخلوقات الله، فيه اجتمعت المتناقضات، وفيه تم كل شيء، فهو الإنسان الكامل وهو

رمز وحدة الوجود، فيه اجتمعت الروح بالمادة بصورة لا نتصورها إلا في الله، لذلك هو المثل الأعلى للبشرية، وهو الإنسان الكامل؛ وعلى كل إنسان يريد أن يصل إلى مرتبة البشرية الكاملة أن يسعى سعياً روحياً للوصول إلى هذه الدرجة التي لا تتم إلا على يد قطب أو وسيط، وهذا القطب أو الوسيط هو نفس الوسيط الذي استعمله الصوفية والإسماعيلية والشيع الإسلامية السرية للوصول إلى واجب الوجود.

وقد مزج المغيرة وهو أحد الذين اتهموا في دينهم (احرق عام 737م) بين فكرة (الإنسان المطلق) وبين نظرية العدد والبروج التي ترد في مذهب الفيثاغورسيين والمنجمين فقال

بأن الإنسان أكمل المخلوقات طراً، لأن له أثني عشر عضواً يقابل كل عضو من هذه الأعضاء برجاً من البروج؛ لذلك فالعالم الأكبر اجتمع هنا في العالم الأصغر، فهو هو هو، والعالم الأصغر هو نفس العالم الأكبر. وحيث أن آدم هو أبو البشر فهو يمثل الصلة بين العالم الأكبر وبين العالم الأصغر فهو إذا اكمل البشر وهو الإنسان الأول أو الإنسان الكامل على الإطلاق.

وتقارب هذه النظرية، على ما يقوله ماكس هورتن، نظرية (الحروفية) وهم الذين يمثلون فلسفة العدد في الإسلام، والذين ينتهون بحكم هذه التعاليم إلى الحلولية على نحو ما ينتهي إليه أمثال هؤلاء في الشرق والغرب، مثل ما انتهى إليه نيقولا كوزانوس الذي كان يقول بأن الواحد مرآة صافية للكل، وأن العالم الأصغر هو هو العالم الأكبر، فيه حل الواحد وفي كل شيء حل الله، على نظرية ما في الجبة إلا الله. وهو في تعاليمه يشابه الفيلسوف العربي الكندي ويكاد يكون أحد تلاميذه أو أتباعه. ومثل الفيلسوف لايبنتز في نظريته عن الذرات الروحية أو طلاجينلا الإيطالي المشهور والشاعر الشهير جوته في مذهب الحلول.

وهذا الإنسان الكامل الذي أبدع في وصفه المتوفة، هو إنسان خيالي روحاني ليس له مثيل بين سكان الأرض، يجمع بين العالمين العالم الروحاني والعالم المادي، لا يعبأ بهذا الكون ولا يقيم له وزناً، وهو على طرفي نقيض مع (الإنسان الأعلى)، أو السوبرمان الذي ابتدعه فلاسفة أوربا المحدثون، ويعنون بذلك الإنسان الذي يحبذ هذا الكون ويقدسه، يريد السيطرة ويحترم مبدأ القوة، لتناقض موجود في الأساس بين الفكرتين الشرقية الخيالية والغربية العملية الاكتشافية.

وقد جمع عبد الكريم الجيلي المتوفى عام 1410م تقريباً آراء فلاسفة الإسلام في الإنسان الكامل، في كتاب سماه: (الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل) استفاد منه المستشرق الإنكليزي نيكلسون كثيراً إذ ذكر وجهات نظر المسلمين في هذا الإنسان أثناء بحثه عن التصوف الإسلامي فليرجع إليه.

جواد علي

مطالعاتي حول المدفأة

المدينة الضائعة

للأستاذ صلاح الدين المنجد

تهت الليلة في مخارم الجبال مع (جوكليه) سعياً وراء المدينة الضائعة. إن هذا الكاتب ليهزني؛ فهو وصاف للعادات مرة، قصاص مغالٍ أخرى، متفلسف هزاء على نحو فولتير تارة، مؤرخ يمزج التاريخ بالأدب أحياناً. . . وهاأنذا أغامر معه الليلة في روايته الأخيرة؛ فأرشف العذوبة، وأهيم مع الخيال، وأسمع نداء الحكمة والحياة.

لا بأس على القراء أن يتيهوا معي، فالرواية طريفة والقصاص بارع. هاهو ذا (جوكليه) في جزيرة (لوسون) من الفيليبين يلتقي بفتى يتدفق حماسة وقوة، يريد أن يفتش عن كنز عظيم تركه ملاح صيني كبير، في مدينة ضاعت بين الجبال، في شرق الجزيرة منذ أربعة قرون. وكان نداء المجهول، وحلاوة المغامرة، يدفعان الفتى إلى البحث عن الكنز، فأثر في رفيقه القصاص وساقه معه.

وكان يصحبهما رفيق ثالث شاذ الطبائع، غامض العواطف، أسمه (دون انطونيو) عرفوه في الفندق. وكان هذا يود الهرب من المدينة الزائفة لأسباب غامضات.

وهام الثلاثة في طريقهم، وقد صحبوا دليلين قويين، وبضعة بغال. . . ثم تغلغلوا في قلب غابات المتوحشين. وكان يصادفهم أخطار ترعب، ومصاعب لا تحد: لذع من الشمس، وخبل من الهواء، وغرق في الماء، ونهس من الذباب، وتيهان في

المستنقعات؛ فضلاً عن شهق الجبال وعمق الأودية، واشتباك الغابات، ووفرة الشباك المنصوبة على حفافي الطرقات.

وفاجأتهم قبائل النكريتو بسهامها في إحدى الغابات، ففروا بعد جهد وعذاب. ومضت القافلة الصغيرة تماشي الهضاب، وتصعد في الجبال، وتفتش عن (لمدينة الضائعة) في كل مكان. فاستيقظوا ذات يوم، بعد أن قذفهم واد عظيم، وإذا بهم يرون من شواهق الذرى، في حضن جبل، على حافة بحيرة راكدة: مزارع أرز واسعة، وآثار بناء شامخ، تقوم عند أقدامه مساكن صينية حقيرة. فخفوا نحوها، فاستقبلوهم بصمت وحذر وجفاء، وأدخلوهم باباً في ذلك البناء. . . فعلموا أنهم أضحوا سجناء في مدينة واسعة، قامت في قلب الجبل، لا يدركون من أمرها شيئاً. . .

وساقوهم إلى شيخ صيني نبيل، فأعلمهم بعد جهد، أنهم في المدينة التي شادها الملاح الصيني العظيم (ليموجونك).

(لقد قضى الوقت الطويل في البحث عن أعوانه. كان يرد أعواناً لا تبش وجوههم لبريق المال الذي يحيط بهم، ومكاناً لا تصل إليه الأقدام، فاختار هذا الجبل مقاماً له عندما يقفل من قرصنته في البحار. وعاش مع أصحابه حياة هادئة غامضة لا يستطيع مؤرخ أن يكتب شيئاً عنها؛ ثم أخضع القبائل التي كانت تعيش في الغابات المجاورة والجبال، وجعلهم عبيداً له طول الحياة. . .!

(ولم يفكر قط واحد منهم، لا واحد منا، أن يعود إلى البلاد المتمدنة التي يضطرب فيها كل شيء. . . فإذا ومضت هذه الفكرة في رأس أحدنا علمنا أنه مريض. . .

(ولقد وضعنا في طريق ذل العالم المتمدن عقبات كثارا لتعجز كل قوة أنسية عن اجتيازها. . . نعم، أيها السادة، تلك قصة الملاح العظيم، وإني لآسف أن أراكم بيننا، وإن سعادة هذا الشعب الهادئ الذي يعيش هنا توجب على سجنكم عندي لئلا تغروهم بالعودة إلى دنيا المصائب والبلايا. . .!)

وسجن الأصحاب الثلاثة، ولكنهم تحسسوا الأخبار، وعلموا أن ذلك الملاح الشقي، أودع كنوزه إحدى جزر المحيط قبل أن يموت. . . ففروا من سجنهم بعد أن رأوا الموت مرات، وفقدوا أحد الأدلاء. على أن الفتى (ميجيل) ما كان في هذه المرة يبتغي نوال المال، فلقد أراد أن يسعى وراء حياة هادئة، ليس فيها شيء من (الوكر) ولا (السيست) وغيرها. . .

هاهم أولاء يتيهون في البحار، ينتقلون من جزيرة إلى جزيرة دون أن يعثروا على التي سمعوا وصفها، فقرروا أن يعودوا من حيت أتوا. . . ولكن عاصفة مجنونة حملتهم على جزيرة بعيدة: كلها أعشاب خضر، وبرار محروثات. . . وإذا هم بين أناس من الصين علموا أنهم أحفاد الملاح الكبير. . . وأدركوا أن تلك الأراضي كنوز الملاح. . . فعاشوا بسذاجة وانطلاق. . .

وخطر على بال القصاص أن يعود مع الفتى، فعادا. . . أما (دون أنطونيو)، فقد آثر البقاء هناك، وقال:

(لن أستطيع العيش في المدن. إن فيها جدرانا كثيرة تخنق المرء. . . كل يوم فيها اصطدام واضطراب وظلم. . . إن فيها قيوداً كثيرة. إنها سجون مظلمة. . . وسيبحث عني أولئك الذين عرفتهم فلا يجدوني، وسيحسبون أني مجرم آوتني السجون. . . ليقولوا ما شاءوا. . . فأنا أعيش مع المتوحشين، ولكني حر طليق. . . لا يقيدني قيد، ولا يخيفني مخلوق. . . نعم، وسيعلمون بعد حين أن عدد الهاربين من المدن ومن المدينة ومن الترف إلى الطبيعة سيزداد وينمو. . .!)

وعاد الصديقان وحدهما، وقد علما أنه لابد لهما من العودة يوماً ليستجيبا لنداء المجهول، وليعيشا في الأرض التي لا تعرف الشقاء، أرض الأعشاب والمرجان. . .) أ. هـ

أين أنت أيتها الأرض البعيدة التي ستضمينني؟

. . .أيها المجهول الذي يناديني، ادفعني إلى تلك الأرض الهادئة لأستريح من لؤم الإنسان. . .!

. . .ادفعني. . . لأحيا. . .!

(دمشق)

صلاح الدين المنجد
في الفلسفة الإسلامية
إخوان الصفاء
للأستاذ عمر الدسوقي
مقدمة
في أواسط القرن الرابع الهجري ذهبت سطوة الخلافة العباسية واستبد بالخلفاء مواليهم من فرس وديلم وترك، وساموهم الخسف وسوء العذاب، فاستقل كثير من الأمراء عن بني العباس وأسسوا دويلات صغيرة: كآل بويه، وأل حمدان، والساسانيين وغيرهم، ولم يبق للخليفة من مظاهر القوة شيء.
بيد أن هذا الانحطاط السياسي في الدولة لم يمنع الحياة العقلية من الازدهار لتنافس الأمراء في تقوية دويلاتهم علمياً وأدبياً؛ فنما الشعر ونضج التفكير، واشتدت حركة النقل والبحث في العلوم الفلسفية على اختلاف شعبها ثم هضمها وصبغها بالصبغة الإسلامية.
وكان من عواقب الانحطاط السياسي للدولة العباسية تكوين كثير من الجماعات السرية وغير السرية التي تحاول القضاء المبرم على العباسيين حتى تضع غيرهم مكانهم، أو توجد لنفسها كياناً مستقلاً. ومن هذه الجمعيات التي ظهرت في منتصف القرن الرابع الهجري (جماعة إخوان الصفاء) وهم من الشيعة الباطنية الذين لم يرضوا عن الخليفة العباسي كما لم يرضوا عن الخلافة الفاطمية في مصر. وحاولوا قلب النظام السياسي بقلب التفكير العقلي وإيجاد ثقافة جديدة يعتنقها شباب عصرهم مقتفين في ذلك أثر الفيتاغوريين وأفلاطون. ومن المعلوم أن الفيتاغوريين كانوا جماعة سرية إصلاحية حانقة على نظام الحكم اليوناني وأنهم حاولوا تغييره بخلق مذهب جديد ونظريات حديثة عن العالم ونشأته داعين إلى الزهد والتقوى. ومن المعلوم كذلك أن أفلاطون كان ساخطاً على حكومة أثينا. فلا الأرستقراطيون أرضوه لما يرتكبونه من ظلم وجور، ولا الديموقراطيون حققوا آماله للفوضى التي ضربت خيامها في أثينا؛ وذلك حد في وضع منهج جديد للحكومة في كتابه الجمهورية وإن كان قد فشل حينما حاول تطبيقه عملياً.
أما إخوان الصفاء فقد نالوا شيئاً من النجاح لأنهم من الإسماعيلية الباطنية. وهؤلاء قد استطاعوا أن يوجدوا لأنفسهم كياناً سياسياً مكن لهم في بعض الأرض ونشر الرعب في العالم الإسلامي. وسنرى فيما بعد أدلتنا على أنهم من الإسماعيلية بل إن رسائلهم هي
دستور هذه الطائفة.
من هم إخوان الصفاء
لقد أحاطت هذه الجماعة السرية نفسها بسياج متين من الكتمان ويقولون في ذلك: (إننا لا نكتم أسرارنا عن الناس خوفاً من سطوة الملوك ذوي السلطة، ولا حذراً من شغب الجمهور من العوام ولكن صيانة لمواهب الله عز وجل لنا. لذلك حار الناس قديماً وحديثاً في معرفة أسمائهم، ولولا ما نقله القفطي عن أبي حيان التوحيدي في هذا الصدد وتعداده لبعض الأسماء المشهورة بينهم لعمى علينا الأمر فقد ذكر في أثناء حديثه عن زيد بن رفاعة (أنه أقام بالبصرة طويلاً وصادق بها جماعة لأصناف العلم وأنواع الصناعة، منهم أبو سليمان محمد بن معشر البستي (ويعرف بالمقدسي) وأبو الحسن علي بن هاورون الزنجاني وأبو أحمد المهرجاني وأبو الحسن العوفي وزيد بن رفاعة)
مكانهم وزمانهم:
كانت البصرة مركزهم الرئيسي وإن لم يذكر الإخوان شيئاً من ذلك في رسائلهم بيد أن القفطي قال: (وقد أقام زيد بن رفاعة بالبصرة زماناً طويلاً وصادق بها جماعة لأصناف العلم. . . الخ)، وهناك ما يؤيد رأي القفطي وهو أن البصرة كانت منذ أسست عاصمة العلوم الإسلامية ومحط كثير من رجال الفقه، فيها نشأ الحسن البصري ورؤساء المعتزلة، وفيها قام عبد الله بن ميمون بفتنة القرامطة أصل مذهب الإسماعيلية في أواخر القرن الثالث الهجري، وفيها قام أبو الحسن الأشعري يتنصل من الاعتزال، وكانت فيها حلقات العلم من كل فن وفي مربدها ينشد الشعراء

قصائدهم؛ فلا عجب إذا أن كانت البصرة مأوى إخوان الصفاء.
هذا وقد كان للجماعة أنصار في مختلف البلدان ولهم دعاة يبشرون بمذهبهم بطرق منظمة؛ وفي هذا يقولون: (إن لنا إخواناً وأصدقاء من كرام الناس وفضلائهم متفرقين في البلاد). ويظهر أنه كان في بغداد جماعة أخرى على اتصال وثيق بإخوان الصفا وعنها يقول أبو حيان التوحيدي في كتابه المقابسات: (من أعضائها أبو سليمان محمد بن طاهر السجستاني، وأبو زكريا العميري، والعروضي أبو محمد المقدسي، ويحيى بن عدي، وأبو إسحاق
الصابي، وماني المجوسي)، ويظهر أن أبا سليمان المنطقي السجستاني كان رئيس هذه الجماعة فكثيراً ما يقول أبو حيان (دارت في مجلس أبي سليمان. . . مناظرات)، ويقول: (أملى علينا أبو سليمان). ويظهر أيضاً أن أمر هذه الجماعة الفلسفية كان على شاكلة أختها في البصرة سرياً؛ فقد ثبت أن أبا العلاء المعري كان يختلف إلى هذه الجماعة بدار عبد السلام البصري أيام الجمع حينما قدم بغداد وهم الذين سماهم إخوان الصفاء حين يقول:

كم بلدة فارقتها ومعاشر ... يذرون من أسف على دموعا
وإذا أضاعتني الخطوب فلن أرى ... لوداد إخوان الصفاء مضيعا
خالت توديع الأصدقاء للنوى ... فمتى أودع خلي التوديعا

وقد كان لاحتكاك أبي العلاء مع تلك الجماعة وتعرفه على مختلف النظريات الفلسفية والدينية والصوفية الأثر الأكبر في اتجاه أفكاره وفلسفته، فيقول الأستاذ ماكدونالد (يظهر أن أبا العلاء اتصل بفئة مثل إخوان الصفاء إن لم يكونوا هم أنفسهم)
ومما تقدم نرى أن إخوان الصفاء كان مركزهم الرئيسي بالبصرة وكان لهم فرع قوي ببغداد، وأنصار ودعاة في مختلف البلدان والأمصار.
أما الزمن الذي وجد فيه الأخوان فهو أواسط القرن الرابع الهجري: ومن العسير تحديد السنة، بيد أن هناك ما يرجح أن الرسائل ألفت فيما بين سنتي 334هـ و 373هـ؛ لأن بدء ظهورهم كان على أثر سيطرة آل بويه على بغداد سنة 334هـ، ولم نسمع بهم قبل هذا التاريخ، ومن الجائز أن تكون جماعتهم قد تأسست قبل ذلك وبقيت في طي الكتمان، ولم تتجرأ على إظهار الرسائل إلا بعد هذا التاريخ.
نظام جماعتهم
كانت جماعة إخوان الصفاء تتكون من أربع طبقات: الأولى شبان يتراوح عمرهم بين خمس عشرة وثلاثين سنة، وهم الذين يسمونهم في رسائلهم بالإخوان الأبرار الرحماء. ويظهر أن الرسائل قد ألفت لهذه الطبقة لأن الخطاب فيها موجه دائماً إلى الأخ البار الرحيم. أما الطبقة الثانية فرجال الثلاثين والأربعين يتلقون الحكمة الدنيوية، ويظهر أنه كان يعهد إليهم مراعاة الإخوان ومساعدتهم والتحقق عليهم، وهم الذين يسمون في الرسائل بالإخوان الأخيار الفضلاء. والطبقة الثالثة رجال بين الأربعين والخمسين من العمر وهم
يعرفون الناموس الإلهي، كما أنهم أصحاب الأمر والنهي والسلطة بين الإخوان، وإليهم يعهد بدفع العناد والخلاف عند ظهور المعاند المخالف لهذا الأمر بالرفق والمداراة في إصلاحه)، وهم الذين يسمون بالإخوان الفضلاء الكرام. والطبقة الرابعة وهي مرتبة من يزيد على الستين سنة وهي أعلى المراتب في نظامهم ومن يصل إليها يكون فوق الطبيعة والشريعة والناموس، ويكون ذا كشف يستطيع به أن يشاهد (أحوال القيامة من البعث والنشر والحساب والميزان)
والآن! كيف يقبل المرشح لعضوية هذه الجماعة؟ تجيبنا الرسائل: (أنه ينبغي لإخواننا أيدهم الله حيث كانوا في البلاد إذا أراد أحدهم أن يتخذ صديقاً مجدداً أو أخاً مستأنفاً أن يعتبر أحواله ويتعرف أخباره ويجرب أخلاقه ويسأله عن مذهبه واعتقاده ليعلم هل يصلح للصداقة وصفاء المودة وحقيقة الأخوة أو لا يصلح. لأن في الناس أقواماً طبائعهم متغايرة خارجة عن الاعتدال، وعاداتهم رديئة مفسدة ومذاهبهم مختلفة حائرة)
وكانوا يتحرون عن الشخص الذي يريد الانضمام إليهم كل التحري، ويحذرون إخوانهم من الاغترار بالظواهر: (واعلم بأن من الناس من يتشكل بشكل الصديق، ويدلس عليك بشبه الموافق، ويظهر لك المحبة وخلافها في صدره. فانظر من تصحب وتعاشر

ولا تغتر بظاهر الأمور من غير معرفة بواطنها. . . بل ينبغي أن تنتقده كما تنتقد الدراهم والدنانير والأرضين الطيبة التربة للزرع والغرس وكما ينتقد أبناء الدنيا أمر التزويج وشراء المماليك والأمتعة). . . (لأن إخوان الصدق هم الأعوان على أمور الدنيا والدين جميعاً وهم أعز من الكبريت الأحمر، وإذا وجدت منهم واحداً فتمسك به فإنه قرة العين ونعيم الدنيا وسعادة الآخرة وابذل له نفسك ومالك وافرش له جناحك وأودعه سرك وشاوره في أمرك وإن هفا هفوة فاغفر له)

وكانوا يحثون الإخوان على أن يعاون الغني منهم الفقير والمتعلم الجاهل ويؤثرون أصدقاءهم على أنفسهم وأولادهم وأزواجهم، لأن محبة هؤلاء لمصلحة دنيوية، أما الإخوان الذين انضموا إليهم، فيحبونهم لله.

فإذا ما قبل العضو قرءوا عليه خطبة فيها دعوتهم وغايتهم: (وينبغي لإخواننا إذا حضروا المجلس ومعهم أخ مستجيب يستحب أن يقرءوا عليه هذه الخطبة: اعلموا - أيها الإخوان

- أيدكم الله وإيانا بروح منه، وهداكم للحق، وجعلكم من أتباعه، وسهل لكم سبيل الخير، وأرشدكم إلى معرفة أهله، وعصمكم من الشر، وجنبكم صحبة أهله، وحرسكم من المزور الشيطان، ووقاكم جور السلطان ونكبات الزمان ونوائب الحدثان، ووفقكم لقبول نصيحة الإخوان، إنه ودود منان - اعلموا أن كل دولة لها وقت منه تبتدئ، ولها غاية إليها ترتقي، وحد إليه تنتهي؛ وإذا بلغت أقصى مدى غاياتها ومنتهى نهاياتها، أخذت في الانحطاط والنقصان، وبدأ في أهلها الخذلان، واستأنف في الأخرى القوة والنشاط والانبساط والظهور، وجعل كل يوم يقوى هذا ويزيد، ويضعف ذلك وينقص، إلى أن يضمحل الأول المتقدم، ويتمكن الحادث المتأخر. . . وقد ترون - أيها الإخوان - أنه قد تناهت قوة أهل الشر وكثرت أفعالهم في العالم في هذا الزمان، وليس بعد التناهي في الزيادة إلا الانحطاط. واعلموا أن الملك والدولة ينتقلان في كل دهر وزمان من أمة إلى أمة، ومن أهل بيت إلى أهل بيت، ومن أهل بلد إلى أهل بلد. . . واعلموا أن دولة أهل الخير يبدأ أولها من أقوام خيار فضلاء يجتمعون في بلد، ويتفقون على رأي واحد، ودين واحد، ومذهب واحد، ويعقدون بينهم عهداً وميثاقاً بأنهم يتناصرون ولا يتخاذلون، ويتعاونون ولا يتقاعدون عن نصرة بعضهم بعضاً، ويكونون كرجل واحد في جميع أمورهم، وكنفس واحدة في جميع تدابيرهم.

وقد كان للجماعة دعاة ومبشرون يجتهدون في اختيار أعضاء جدد يضمونهم إلى صفوف الإخوان، وقد كانوا يدربون تدريباً خاصاً على الدعاية: (واعلم أيها الأخ أيدك الله وإيانا بروح منه أن لنا إخواناً وأصدقاء من كرام الناس وفضلائهم متفرقين في البلاد، فمنهم طائفة من أولاد الملوك والأمراء والوزراء والكتاب والعمال، ومنهم طائفة من أولاد الأشراف والدهاقين والتجار والتناء، ومنهم طائفة من أولاد العلماء والأدباء والفقهاء وحملة الدين، ومنهم طائفة من أولاد الصناع والمتصرفين وأمناء الناس. وقد ندبنا لكل طائفة منهم أخاً من إخواننا ممن ارتضينا في بصيرته ومعارفه ينوب عنا في خدمتهم بإلقاء نصيحة إليهم بالرفق والرحمة. وقد اخترناك أيها الأخ البار الرحيم لمعاونتهم فامض على بركة الله وحسن توفيقه إلى أخ من إخواننا، وتوصل إليه بالرفق على خلوة وفراغ من مجلسه وطيبة من نفسه فاقرأ عليه منا التحية والسلام، وبشره بما يسره من نصيحة الإخوان، وعرفه شدة شوقنا إلى إخائه ومودته وولايته، ثم اقرأ عليه هذه الخطبة (المتقدمة الذكر) وعرفه معانيها وفهمه مغزاها ومقصدها. . . (فإن وقعت هذه التذكرة منه مكانها من القبول وسمت نفسه إلى ما أشرنا إليه فذلك هو الذي تريده، وإن توقف وقال ما علامة ما تقولون، وما تصديق ما تزعمون من الرأي والحديث؟ فتقول عندنا دلائل واضحة، فإن أراد أخونا الفاضل الكريم فليبعث إلينا ثقة من ثقاته وأميناً من أمنائه، ومن يشاكلنا في العلوم والمعارف ليتضح له حقيقة ما قلنا.

ويظهر أن هؤلاء الذين يوجه إليهم الأخ البار الرحيم والمنتشرين في أنحاء الأرض كانت ميولهم وأغراضهم السياسية تشبه ميول إخوان الصفاء وأغراضهم، ولم يكونوا قد انضموا إليهم بعد، أو لم يعلموا بوجودهم. . . (واعلم أن من إخواننا وأهل شيعتنا طائفة أخرى بوجودنا شاكون، وفي بقائنا متحيرون فيما يعتقدون من موالاتنا، وطائفة أخرى ببقائنا موقنون، لكنهم غافلون عن أمرنا غير عارفين بأسرارنا، وكلهم منتظرون لظهور

أمرنا، مستعجلون لمجيء أيامنا، مشتهون نصرة حزبنا)
(بيروت - يتبع)
عمر الدسوقي
مدير كلية المقاصد الإسلامية
الصحيفة المثالية
لرجل الصحافة (ويكهام استيد)
بقلم الأستاذ زين العابدين جمعة المحامي
(تتمة ما نشر في العدد الماضي)

واجب الصحافة الرشيدة أن تستوعب أمر هذه الحال المفككة الأوصال وتنعم النظر في سبب تلك الأدواء الاجتماعية وعلة هذا الضلال، ثم تتنزل على ضحاياه لتأخذ بيدهم وتأسوا جراحهم وتنهض بهم من غير أن تبتعد عنهم، أو ترتفع في شرعتها عن مستواهم. وهنا تتهيأ الفرصة للصحفي الذي تأصل في نفسه مثل أعلى وتولى زمامه قصد نبيل أن ينشئ للناس صحيفة رشيدة. وقد أخفى مثله ونبالة قصده في نفسه واختزنها لغرضه حتى لا يسخر منه الحمقى ويضعوا من كفايته قبل أن يتمكن من تحقيق لبانته.

أما عن أمر صحيفتي المثالية التي أحلم بها وأصبو إليها فسوف تطالع الناس وهي تستوعب مصادر الأدواء الاجتماعية ومواردها وتتقصى أسباب الضلال والحيرة الماثلين في الحياة الحاضرة، وهي وإن تصدر في ذلك عن إيمان مكين لا يقل شأنه على أية حال عن إيمان الصحف الحاضرة بواجبها في تقصي تلك العلل؛ إلا أنها ستضع للحق أعلاماً لا شبهة فيها فتعالج تلك الأدواء باعتبارها ضلالاً وحيرة لا أشياء أخرى تعدد حقيقتها وتتجاوز قدرها.

وسوف تتلمس الحقيقة الماثلة وراء الظواهر، وتنتهي إليها، وتظفر بها ثم تذيعها على الناس في جرأة وأمانة فلا تبقي من أمرها على شيء كاذب، ولا تصانع الشعب فيما انعقد إجماعه عليه فتحترم ما جرى عليه العرف فيه لمجرد أنه قد صار للناس عرفاً. وهي إذ تقر لذي الفضل بفضله، وتقدر للمحسن إحسانه، وتوجه التكريم إلى الوجهة التي يجب أن يتجه إليها، ولا تقر له شرعة غير شرعة الحق والعدل، ستدعو التصنع تصنعاً وتسمي الخداع خداعاً بكامل ما انطوى عليه اسمهما من لفظ ومعنى.

وسوف لا تتهيب شيئاً كائناً ما كان أو تخشى في الحق لومة لائم. وإذا هي (لا تتحرج) في معالجتها للموضوعات المؤلمة أو المزعجة، وإذا هي تسجل على نفسها خطأها إذا قدر لها

أن تخطيء، والزلل لا عاصم منه فالعصمة لله وحده. وإذا هي لا تقبل من ضروب الإعلان إلا ما يتحقق لها صدق عبارته ومادته وأمانة ذويه. وعندئذ يصبح قبولها للإعلان ضماناً أدبياً يصون مصالح القراء ويكفل حقوق الناشرين على السواء. وإذا هي تتأبى أن تنشر للتجار الشهادات المتعلقة بصافي مبيعاتهم وتحتقر الطواف (بعينات) البضائع لتبيعها لحساب عملائها؛ وإذا هي تتأبى على هؤلاء العملاء وقد غمرها شعور فياض بالكرامة والعزة أن تهبهم شيئاً من الامتيازات المجانية أو أية رخص أخرى؛ وإذا هي تذيع على الناس في قوائم سوداء أسماء الناشرين وشركات الإعلانات ثم تثيرها عليهم حرباً جبارة لا هوادة فيها ولا رحمة تذيع على الناس ما ينتهي إليها من خبئ أمرهم ومستور حيلهم إذا ما حاولوا في نهجها العادل وقصدها الشريف أن يعملوا ما وسعهم من جاه وثروة للقضاء عليها.

وسوف تنفق شطراً كبيراً من رأسمالها في كسب ثقة العقول الشابثة الطامحة الذين سيتعلمون عاجلاً كيف يثقون برأيها ويقنعون بقضائها ويقدرون نصحها؛ وسوف تكون صحيفة مجاهدة يلمس الناس جهادها وضاحاً من أول عمود من أعمدة (أقلام تحريرها) إلى آخر عمود فيها. وسوف لا ترتبط بأية مصالح مهما كان شأنها ما لم تتفق ومثلها الأعلى. ولا تعبأ بعداء أو خصومة مهما كان مصدرها، بل تكون إلى ذلك كله مؤمنة كل الإيمان بما انتهت إليه من منزلة لا يسع كائناً ما كان أن يتجاهلها.

وسوف يكون من ديدن صحيفتي أن تفرغ وسعها في الحصول على الأخبار، وتعني بإذاعتها مبوبة منظمة، فتضع أهم الأخبار في صفحتها الأمامية كما يجب أن تكون، وسوف لا تتحرج أن تطبع عدة أعمدة متوالية (لقصة) واحدة مسلسلة، فهي ستنظر

دائماً باحتقار لتلك الحيل المضيعة للوقت من التنقل بالقراء من صفحة لأخرى عن طريق وضع بداءات (القصص) المختلف على القمة من كل عمود.
وسوف لا تخدع قراءها بإقحام عنوان لا تعدو الحاجة إليه، أو ابتكار لا غنية فيه؛ واستعمال حروف الطبع المختلفة النوع والحجم استعمالاً طيباً دقيقاً من شأنه أن يهيئ للقراء الإلمام بما سطر في الصحيفة من غير أن يضيع عليهم شيئاً من الموضوع.
وسوف تتقدم صحيفتي (بالأخبار) الصالحة للنشر في وضوح تام وصراحة مطلقة، سواء
أنفقت هذه الأخبار مع (سياستها) أو لم تتفق، فستكون سياستها بحيث لا تعنى إلا بالحقائق وحدها فلا تخفف من أمر الأخبار أو تبالغ فيها، ولا تعلق عليها أو تؤولها لتتفق مع (سياستها)
وسوف تفسر الشك لصالح النشر في الحالات التي يتردد الصحفي فيها، فيرى أنه قد كون من صواب الرأي أن يمسك عن النشر.
وسوف لا تؤيد أية حكومة بالغة من السلطان والسطوة ما بلغت، أو تزكي أي سياسي كائناً من كان إلا لما تقتنع بصدقه من الأسباب العامة التي لا تخفيها عن الجماهير.
وسوف تكون خادمة وحده، ولصالح الشعب فقط، سوف تعترف بواجب الرعية نحو الحكومة، وتقر ولاء الشعب لأولياء أموره؛ وسوف لا تقود الشعب قيادة عمياء من طريق الزلفى إليه، فإذا هي تعامل جمهوراً وهمياً زاعمة أن القراء لا قبل لهم باحتمال القول الصريح والحقائق المرة؛ إذ من واجب الخادم الأمين أن يقول الحق لسيده.
وسوف تكون صحيفتي صحيفة قومية، لا صحيفة تعني بالروابط الجنسية والفوارق العنصرية؛ وسوف تطبع بطابع عام من سياسة الرجال الأحرار لا بطابع خاص بحزب الأحرار.
وسوف تجاهد في سبيل السلام الحقيقي من غير أن تنشده على ضوء النظريات السلمية التي تتجاوز طبائع الناس وطبيعة الحياة. فتكتشف الستار عن الأمور الجوهرية وتفصح عن المسائل التي تقتضيها ضرورة الحياة، تلك المسائل التي يكون من حق الأمم والرجال أن يحاربوا من أجلها حرباً لها ما يبررها ويزكيها، أو يموتوا في سبيلها موتاً شريفاً نبيلاً إن ضاقت بهم السبل، ولم يتيسر لهم طريق آخر يدعمون به حجتهم من الاحتفاظ بمقومات حياتهم؛ وسوف لا تقع صحيفتي أبداً في ذلك الخطأ الفاجع فيخيل لها أن اجتناب الاصطدام بين الأمم، وأن التوفيق بين المذاهب المتعارضة للشعوب المختلفة أمر ميسور، وهو خطأ اقترفوه عندما حسبوا أن اجتناب الحرب أمر ممكن ومرغوب فيه لذاته.
وسوف تكافح صحيفتي بكل ما وسعها من قوة ذلك النهج العدائي الخرق الماثل فيما يثور بين الأمم من جدل. ولكنها إلى ذلك ستذكر دائماً أن قلوب الرجال سوف لا تنصرف عن الحرب وما تنطوي عليه من روح الإقدام والمخاطرة انصرافاً أبدياً، ما لم يقدر للسلام أن
يطبع ما يكرسون له أنفسهم ويضحون في سبيله بأرواحهم بطابع يوجههم إلى أشياء أجل من الحرب شأناً وأنبل منها غاية.
وسوف تعمل صحيفتي على أن تثبت قواعد المودة بين الأمم، وتدأب على توثيق العلائق بين الشعوب، لا لبغية اجتناب الحرب فحسب، بل لتستعين بذلك في الدفاع عن الحرية الشخصية والحقوق الإنسانية، ولتشق طريقها إلى إنشاء التعاون الدولي.
وسوف لا يقل نصيبها في ذلك عن تصيبها فيما ستضطلع به من تجنيد جميع طبقات الشعب فيما يتصل بالشئون القومية والاجتماعية، بغية النهوض بما يتطلبه صرح الجماعة من إنشاء وتجديد.
فهل يتاح لصحيفة كهذه، احكم صنعها من الناحية الفنية، وظفرت بما طمعت فيه من الثقة والتقدير، وسارعت بإذاعة الأخبار بما طمعت فيه من الثقة والتقدير، وسارعت بإذاعة الأخبار في إبانة وصدق، ووجهت ضرباتها القوية بحكمة وحزم غير أبهة بسلطان أو حافلة بمال، ثم تهيأ لها حظ موفور من القوة والنشاط ومجالدة الأعداء، أقول: هل يتيسر لصحيفة كهذه أن تطمع في انتشار واسع يجعلها تتحكم - ولا أقول تلتمس - في دخل كاف من أجور الإعلانات يهيئ لها موازنة ميزانيتها؟!
أغلب ظني أنه سوف يتاح لها ذلك كله متى ما توفر لها من الثروة في أوائل نشأتها

(ما يثبت أقدامها) في ميدان الاختبار، إلى أن يتهيأ لها أن تكسب ثقة شعبها.
وقد تتهيأ الفرصة يوماً لرجل عبقري توفرت فيه مؤهلاته وكفايته ان يخرج للناس صحيفة من هذا القبيل. وآنئذ سوف نرى من نغمرهم الآن بمجاملاتنا من أصحاب الإعلان ومن المساهمين في الصحيفة الذين لا يأبهون إلا لما يخلص إلى جيوبهم من ربح ومن يتحرون بالتداول الصحفي، ولو كان تداولاً زائفاً مصطنعاً.
وقد سقط في أيديهم وتملكهم العجب مما تهيأ للصحفي المثالي من نجاح عظيم، وإلى أن يتاح لي تحقيق هذه الآمال المنشودة ستظل صحيفتي المثالية وهي في مملكة المثل الأعلى من عالم الخيال. وستظل الصحافة البريطانية - إذا قدر لها حقاً ألا تستعبد للحكام المستبدين - وهي تسير متثاقلة على نفسها في طريقها الذي تسلطه راحلة حيث لا تنفك بعيدة عن قمة لمجد الصحفي التي تتوق لها نفسي ويخفق بحبها قلب كل صحفي أصيل.

(المنصورة)

زين العابدين جمعة

مع الشمس الغاربة

للأستاذ م. دراج

واعجباً لهذا الفكر المضطرب! كلما تهيأت لأواجه موضوعاً خذلني وارتد القلم يترنح من عنف الصدمة، تاركاً وراءه خطوطاً مائلة منكسرة متعرجة - كتلك التي تجرها يد طفل عابث - هي كل ما أغنمه من أسلاب الفكر المهزوم!. . . حاولت ذلك مرة في الإسكندرية، وأخرى في دمياط، وثالثة في المحلة الكبرى، ومرة أخيرة هنا في القاهرة، ومع ذلك فشلت، وكان فشلي محزناً يدعو إلى الإشفاق. لم أدر لذلك سبباً، فأنا حين أكتب لا أحتاج إلى جو خاص، وليس ثمة ضجيج يمنعني عن الكتابة أو سكون يعينني عليها. ذلك لأني لا أغتصب الفكر شيئاً إلا إذا أحسست رغبة قوية عميقة حارة تدفعني إلى الإذعان له.
وهاأنذا أعود مرة أخرى إلى الإسكندرية لأحاول من جديد إخضاع الفكرة العصية المتمردة لعلها تلين وترضي. . . فهل من سبب لهذه الظاهرة؛ أجيبوا يا أصحاب الخبرة والتجارب؟
كنت أفكر في هذه المرحلة التاريخية التي كان من حظي أن أعيش فيها لأشاهد أعظم انفجار عالمي يوشك أن يزلزل رسوم الحياة، بما فيها من نظم وأخلاق، وعادات وأفكار، تتصل كلها لصميم الحضارة - حضارة القرن العشرين - تلك التي كلما فشلت في رسالتها، قذفت بالبشرية في جحيم باسم الحرية، ذلك الوهم المنحوس.
وكان هذا التفكير يجلو لعينيَّ غامضة، تسطع فجأة، ويتألق نورها، فأرى على وميضه بلاداً غنية التربة، تنتج من الغلال والحبوب فوق حاجتها فلا ترى مانعاً من أن تلقي بالفائض في البحر، كلما وجدت في هذا العمل الشائن ما يحفظ للسلعة سعرها العالمي المناسب. . . فهذه كميات عظيمة من الأذرة تروح (علفاً) للخيل، وتلك مقادير هائلة من ثمار (الموز) تبتلعها الأمواج، وأخرى من البن تلقى بين النيران المتأججة. ثم أشاهد أناساً يسكنون الأصقاع الشمالية ينتفضون من الجوع والبرد، يتضورون بين الدغال طلباً للخبز أو الدفء فلا يكادون يبلغونه إلا على سنان المخاطر. . . ثم أجدني قد انتقلت إلى سوق أخرى تزدحم فيها المصانع، وتتكدس الآلات والمنتجات، ويكثر التعطل والجوع والحرمان!! وتمر الأقطار أمام عيني مراً سريعاً، وكأني أشاهدها على الشاشة البيضاء.
فهذه رقاع من الأرض ضيقة الشقة قليلة الموارد صخرية التربة يتمتع أهلوها بأطايب الحضارة وملذاتها؛ وأخرى بلاد غنية تدر الذهب، وتخصب الشهد، ومع ذلك فهي فقيرة يعيش أهلوها جياعاً حفاة شبه عراة!! وثمة شعوب تابعة ومتبوعة. صور عجيبة متناقضة تنتظم سلك الحضارة، ومع ذلك يأسفون لوقوع الحرب! ويندبون حظ الحضارة الآفلة!!. . .
هذه هي الحياة كما رأيتها على وميض الفكر الواعي: خداع وطمع، وسيادة واستعباد، ترف وحرمان، ضحكات ودموع؛ وحشية عارية تستتر وراء الفكرة الخبيثة التي يسمونها بالحرية! فأنتفع من هذا كله بشيء واحد، برعت المدينة في إبداعه من حيث أخفقت في كل شيء. ذلك هو المظهر الخلاب على الجوهر الرخيص المبتذل. وكأن اللذين

فتنتهم هذه المدينة نسوا أن الظاهر تعيش حيناً ثم يعروها التلف والفناء، أما الجوهر فيبقى دائماً كما هو. . .

كانت الشمس تحتضر عند حافة الأفق البعيد، لما أشرقت أفكاري بهذه الصورة الغاربة. وكنت قد أسلمت نفسي لصديقي أتبع خطواته كطفل وديع مطيع، لا أعترض ولا أستفسر عن شيء، حتى أستقر بنا المطاف على متكأ عند شاطئ البحر نشاهد هذا الصراع العنيف بين عناصر الطبيعة، وتتابع تطوراته باهتمام بالغ. فرأينا الشمس الغاربة مكفهرة الوجه، تسيل منها العبرات شعاعاً مخنوقاً يتساقط على مياه البحر، فيصبغها بلونه الأرجواني الحزين. وهناك في الجانب الآخر من الأفق، كانت طلائع الليل الزاحف تتواثب هنا وهناك ملقية ظلالها الكئيبة على الأحياء، والبحر واجم يتلقى أنفاس الشمس اللاهثة بحنان وصمت غريبين. أما الطيور فكانت جازعة، كأم روعها الخطر على وليدها، فهي تروح وتغدو مولولة صارخة تستنجد ولا مغيث! حتى إذا هجم الليل بهجومه الأخير، ارتعش النور، واضطربت الشمس، ثم أسلمت نفسها للمغيب. . .

سقطت الشمس الغاربة في هوة المغيب، فأحسس برجة عنيفة تسلبني اليقظة، وتتركني إنساناً بلا وعي. كنت - في الحقيقة - جسماً ملقى على الجدار الصخري القائم عند التقاء اليابسة بالبحر، لا يحس ولا يتأثر بما حوله، فإن بدت منه التفاته إلى هنا أو هناك، فهي بلا شك نظرات لا معنى لها، كتلك التي تصدر عادة من ذوي الأفكار الشاردة. آه، لقد

عرفت الآن أن هذه الرجة التي أصابتني، لم تكن إلا وثبة من أفكاري لحقت بالشمس الغاربة في دنيا المغيب.

أين يذهب هذا النور؟ ولاذا تبدو عليه دلائل الإعياء كلما غرب أو أشرق؟ هذا كانت توسوس نفسي! فتبعث آخر شعاع ينفلت من يد الظلام، وانسللت وراءه أتجسس في دنيا المغيب عن أسرار هذا الكون العجيب. سمعت همساً يدور حول جريحة تنزف الدماء منها بغزارة، وليس في وسع أحد أن ينقذها من الخطر.

هم يقولون: إنها ظالمة لنفسها، وليس ثم من يستطيع علاجها إذا كانت أظافرها هي سبب بلائها! وفجأة، رأيت لهيباً يندلع في الجو، وسحباً داكنة تنعقد في سمائه، ومياهاً باردة ترتطم بوجهي، فأصحو من غشيتي لأسمع زئير البحر الهائج، وقد تدافعت أمواجه وتلاطمت، وقذفت وجهي برشاشها المتطاير. ثم أسمع دوياً هائلاً يهز الأرض هزاً عنيفاً يعقبه طلقات سريعة متتابعة تندفع إلى السماء مزمجرة صاخبة، فأطلع بوجهي إلى حيث استقرت في كبد الظلمة فأرى خطوطاً من النور تمتد وتتطاول، ثم تتحرك في سرعة خاطفة، والأشباح تهوم في الفضاء، والريح البادرة تعصف بشدة، فأدرك في الحال من تكون تلك الجريحة التي كانوا يتهامسون عنها في دنيا المغيب! وأعلم أنها (الإنسانية) التي طعنت نفسها بسلاح الطمع وأضرمت في جسمها نار الحرب!

أما النور الذي يبدو عليه الإعياء كلما غرب أو أشرق! فهو الحرية التي يتعلل بها المجرمون في دنيا الوحشية والطغيان!

وهنا هتف صديقي قائلاً: لقد غربت الشمس، وأسدل الليل ستاره الأخير! فزدت، وانقضت الحرب بصواعقها، وما تدري متى ترفع نقمتها عن العالمين.

م. دراج

المصريون المحدثون - 22

شمائلهم وعاداتهم في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الإنجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

تابع الفصل السادس - عادتهم

لا يصعب على من اختلط بمجتمع الرجال المسلمين في القاهرة - كما قد يتصور الأجنبي - أن ينال من غير زواج أدق المعلومات الكثيرة عن شئون النساء وعاداتهن؛ فأغلب رجال الطبقة الوسطى المتزوجين والقليل من الطبقة العليا يتحدثون طوعاً عن مسائل الحريم إلى من يصرح لهم باستحسانه آراءهم في الأخلاق.

ولا تعتبر الزوجة - على العموم - معتقلة في الحريم، لأنها تكاد تكون مطلقة الإرادة في الخروج، وزيارة الصديقات، واستقبال الضيفات؛ ولا جرم أنه ليس للجواري هذا الاختيار، إذ هن سواء خضعن للزوجة كما يخضعن للسيد، أو للسيد فقط، تحت سلطة

لا حد لها تقريباً. ومن أهم ما يرمى إليه رب الدار بتخصيص حريم منفصل أن يتلاقى رؤية الخدم وغيرهم من الرجال لنسائه دون نقاب كما ينص الدين. وتبين الآية التالية أنه يجب على المسلمة أن تخفى عن الرجال، خلا بعض الأقارب وغيرهم، ما يلفتهم إلى شخصها أو زينتها: (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها، وليضربن بخمرهن على جيوبهن، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن. . .)؛ ويشير النص الأخير إلى عادة رن (الخلخال) الذي يستعمله نساء العرب في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ولا يزال المصريات يتحلين به.

ويجب عليَّ أن أذكر هنا تعليقين فاضلين مدرجين في ترجمة سيل للقرآن توضيحاً للآية السابقة، حتى لا تؤديا إلى فهم العادات المتأخرة الخاصة بدخول الحريم أو عدمه فهما خطأ.

والتعليق الأول خاص بكلمة (أو نسائهن) وقد شرحت كما يلي: (أي المسلمات، ويرى البعض أن سفور المؤمنة أمام الكافرة مخالف للشرع أو للحشمة على الأقل، إذ لن تعف الكافرة عن وصفها للرجال. ويفترض الآخرون أن هذا الاستثناء يشمل النساء جميعهن على العموم، وتختلف آراء العلماء في هذا الموضوع). ولا يعتبر الآن - في مصر وفي كل بلد إسلامي آخر على ما أعتقد - دخول امرأة من أي طبقة أو من أي دين حريم المسلم أمراً مخالفاً.

ويتعلق الشرح الآخر بجملة (ما ملكت أيمانهن): (يشمل هذا الاستثناء جميع الأرقاء من الجنسين، وكما يرى البعض الخدم غير الأرقاء مثل هؤلاء المنتمين إلى شعب آخر. ويروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه أهدى مرة إلى ابنته فاطمة عبداً، وعندما أحضره أمامها لم تكن متدثرة بثوب ضاف، فكان لابد أن تترك رأسها أو قدمها مكشوفاً؛ فقال لها الرسول صلى الله عليه وسلم حينما لحظ ارتباكها: أن لا تهتم، لأنها ليست في حضرة أحد غير أبيها وعبدها). وقد يكون الحال كذلك اليوم عند عرب الصحراء، ولكن لم يبلغني قط أنه يسمح للعبد البالغ في مصر أن يرى حريم رجل فاضل سواء كان العبد في خدمة الحريم أو لا. وقد أكد لي أنه لا يسمح بذلك أبداً. وقد يكون سبب منح القرآن عبد المرأة هذا الامتياز استحالة الزواج به ما دام عبداً لها؛ ولكن ليس هذا موجباً لمنحه حق الدخول إلى الحريم في مثل هذا المتجمع. ومما يستحق الاعتبار أن الآية السابقة لم تمنح الأعمام حق رؤية بنات الأخ أو الأخت مكشوفات الوجه. ويرى البعض أنهم ليسوا أهلاً لذلك خشية أن يصفوهن إلى أبنائهم، ولا يليق بالرجل أن يصف سحنة امرأة أو شخصها، (كأن يقول أن لها عينين نجلاوين وأنفاً مستقيماً وفماً صغيراً الخ) إلى من تحرم عليه رؤيتها. ولا عيب في وصف المرأة وصفاً عاماً مثل قولك: (إنها فتاة لطيفة مكحلة بالكحل ومخضبة بالحناء)

ولا يسمح للرجل عامة أن يرى غير زوجاته وجواريه ومن حرمن عليه لقرابة أو رضاعة بدون نقاب. وقد أشرت في الفصل الأول إلى قدم عهد النقاب، كما ذكرنا أيضاً أن المصريات يعتبرن تغطية أعلى الرأس ومؤخره ألزم من تغطية الوجه، وحجب الوجه أهم من حجب أغلب أجزاء الجسم الأخرى. فالمرأة التي لا يمكن حملها على كشف وجهها أمام

رجل قد لا تخجل من الكشف عن صدرها أو ساقها. وهناك حقيقة كثيرات من الطبقة السفلى يظهرن دائماً سافرات أمام العامة، ولكنهن مدفوعات إلى ذلك لفقرهن ولصعوبة إحكام الطرحة - التي يندر أن تتجرد منها امرأة - فوق الرأس لتحل محل البرقع؛ وخاصة إذا شغلت كلتا اليدين في تثبيت ما يحملن من الأثقال. وتسرع المرأة الجليلة عندما يصادفها رجل

مكشوفة الوجه أو الرأس - بلبس الطرحة أو أحكام وضعها؛ وكثيراً ما تصيح: (يا - دهوتي! أو يا ندامتي!). ولكن كثيراً ما يدفع الدلال المرأة المصرية إلى كشف وجهها أمام الرجل متظاهرة أنها فعلت ذلك عفواً أو ظنت أنها لا تراه. وقد ينعم الرجل أيضاً برؤية وجه سيدة مصرية أحياناً - بينما هي تعتقد حقاً أنها بعيدة عن الأنظار - من شباك مفتوح أو فوق سطح. ويوجد في القاهرة منازل صغيرة ليس لها غرف سفلى

لاستقبال الضيوف من الرجال فيصعد هؤلاء إلى الدور الأعلى صائحين مراراً: (دستور! يا ساتر!)، أو ما شابه ذلك لينبهوا من يصادفون من النساء في الطريق لينسحبن أو يحتجبن، فتسحب المرأة فضلة من طرحتها أمام وجهها إلا عيناً واحدة. ويصل شعور المسلمين بحرمة النساء إلى درجة غريبة، حتى أنه يحرم على الرجال دخول قبور بعض النساء؛ فلا يسمح مثلاً لغير النساء بزيارة زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم وغيرهن من أسرته في مدافن المدينة. ولا يدفن الرجل والمرأة في قبر واحد أبداً إلا إذا فصل بين الجثتين حائط. ويوجد مع ذلك من لا يهتم كثيراً بهذا الأمر وإن قل عددهم. ولي صديق مسلم من هؤلاء يسمح لي على العموم أن أرى أمه عندما أذهب لزيارته. وأمه أرملة في الخمسين من عمرها تقريباً، ولكن ضخامة بدنها ودلالة سيماها على عدم الكبر يجعلانها في سن الأربعين. وتقبل عادة إلى باب غرفة الحريم حيث أُستقبل لخلو المنزل من غرف سفلى للاستقبال، وتجلس هناك على الأرض، ولكنها لا تدخل الغرفة أبداً. وقد تكشف أحياناً وجهها تماماً كما لو كان الأمر عرضياً، فتبدو عيناها وقد أحاط بها الكحل الكثير، كما أنها لا تحاول أن تخفي حليها الماسية والزمردية وغيرها، بل على العكس من ذلك تحاول إبرازها. ولم يسمح لي صديقي برؤية زوجته أبداً مع أنه أذن لي بمحادثتها مرة في حضوره خلف زاوية في ممر أعلى السلم.

وأعتقد أن نساء مصر لا يضيق عليهن بالشدة المشاهدة في البلاد الأخرى الخاضعة للباب العالي؛ ولذلك ليس من غير المعتاد أن ترى نساء الأوشاب يتدللن ويمزحن مع الرجال علناً، والرجال يضعون أيديهم عليهن دون حرج. وقد يُظن أن نساء الطبقتين العليا والوسطى يشعرن بالجور والتعاسة في عزلتهن، ولكن ليس هذا هو الحال عادة، بل على العكس نلاحظ أن الزوجة المصرية التي تتعلق بزوجها قد تظن، إذا أطلق لها زوجها الحرية أنه يهملها ولا يحبها كثيراً، وتحسد أولئك اللاتي يخضعن للرقابة الدقيقة.

وليس من المألوف أن يتزوج المصري بأكثر من امرأة، أو يتسرى بأكثر من جارية، مع أن الشرع يبيح له أربع زوجات كما أشرت قبلاً؛ والتسري، طبقاً للرأي الغالب، حسب رغبته. إلا أن الرجل وإن اقتصر على زوجة واحدة يمكنه أن يبدل كيفما شاء. ويقيناً ليس هناك كثيرون في القاهرة لم يطلقوا امرأة إذا طال أمد الزواج. ويستطيع الزوج أن يطلق زوجه وقتما يريد بقوله: (أنت طالقة). فإذا استقرت إرادته على ذلك عن صواب أو عن غير صواب، وجب على المرأة أن تعود إلى أهلها أو صديقاتها. وتعرض المرأة لطلاق لا تستحقه مصدر لأحزان وقلق اشد مما تتعرض له من أي اضطراب آخر. وقد تصبح لذلك في حالة عوز شديد. وهذا التعرض يبدو طبعاً على العكس تماماً لأولئك اللاتي يأملن تحسين حالتهن. ويستطيع الرجل أن يطلق زوجه مرة أو مرتين ويردها إليه في كل مرة من غير حفل. ولكنه لا يستطيع أن يردها شرعاً في المرة الثالثة قبل أن تتزوج رجلاً آخر وتطلق منه، وهذا بعينه نتيجة الطلاق ثلاثاً المعبر عنه في جملة واحدة: (أنت طالقة بالثلاثة). ولكن قد يتفق الرجل والمرأة على مخالفة الشرع، أو ينكر الرجل أنه أوقع يمين الطلاق. وتجد المرأة في الحالة الأخيرة صعوبة كبيرة في تنفيذ الطلاق قانوناً إذا أرادت ذلك.

وأذكر لتوضيح هذا الموضوع قضية أدخل فيها أحد معارفي شاهداً على يمين الطلاق. فقد كان جالساً في مقهى مع رجلين آخرين كان أحدهما قد غضب على امرأته لشي قالته أو فعلته. وأرسل هذا بعد حديث قصير في هذا الأمر يدعو زوجه التي أوقع عليها يمين الطلاق ثلاثاً وأشهد زميليه على ذلك. ولكنه سرعان ما ندم على فعله وأراد أن يعيد مطلقته، فرفضت العودة إليه ولجأت إلى (شرع الله) فقدمت القضية إلى المحكمة وقررت

المدعية أن المدعي عليه أوقع الطلاق ثلاثاً ويريد الآن ردها إليه لتعيش معه كزوجة على خلاف الشرع. وأنكر المدعي عليه الطلاق؛ فسأل القاضي المدعية: (هل لديك شهود) فأجابته (عندي شاهدان)، وكانا هما الرجلين اللذين شاهدا الحادث في المقهى. فقررا أن المدعي عليه طلق امرأته ثلاثاً في حضرتهما. فأكد المدعي عليه أن التي طلقها في المقهى كانت امرأة أخرى، ولكن المدعية نفت وجود زوجة أخرى. فلفت القاضي نظرها إلى استحالة معرفتها ذلك، وسأل الشاهدين عن اسم المرأة التي طلقها الرجل أثناء وجودهما، فأجابا أنهما يجهلان اسمها. فطلب منهما أن يقسما إذا استطاعا أن المدعية هي المرأة المطلقة أمامهما. فأجابا أنهما لا يستطيعان ذلك لأنهما

لم يريا المرأة سافرة أبداً. فرأى القاضي إزاء ذلك أن يرفض الدعوى. وأجبرت المرأة على العودة إلى منزل زوجها. كانت تستطيع أن تطلب حضور المرأة التي اعترف الرجل بتطليقها في المقهى، ولكن كان من السهل أن يحضر امرأة تقوم بالدور المطلوب ما دام لا يطلب منها وثيقة الزواج. وفي مصر يعقد الزواج دائماً من غير كتابة، ومن غير شهادة أحياناً.

عدلي طاهر نور

. . .بنى وطني

لشاعر العراق الأستاذ معروف الرصافي

بنى وطني ماذا أُؤمِّل بعد ما ... تفشَّت سعاياتٌ لكم بالتجسسِ
أقول لن قد لامني في تَشدُّدي ... على كل تدليسٍ أتى من مدلِّس
لو أسودَّ وجه المرء من قبح فِعله ... لما كنت تلقى عندنا غير مُدفِس
ولو نال بالإخلاص مثر تراءهُ ... لما كنت تلقي بيننا غير مفلس
نحاول عزًّا بابتذال نفوسنا ... فنشري خسيساً بالثمين المقدس
ومن جهلنا استكراهُنا في معاشنا ... شقاءً نزيهاً للنعيم المدنَّس
سأرحل عنكم للذي قد أقامني ... على موحشٍ من أمركم غير مؤنس
أبَيْتُ لنفسي أن تحلَّ مكانةً ... من العيش إلا فوق عز مؤسس
ولو أنَّ هذا الصبح كان انبلاجُهُ ... بغير شروق الشمس لم يتنفَّس
فلا أبتغي بالذل عيشاً مرفَّها ... ولو عشت في العُزَّى بقولٍ مُدمَّس
وما أنا كابن العبد إذ عانق الردى ... لِجَدْوَى أَبَتْهَا رغبة المتلمِّس
إذا ابتسمت لي عفتي ونزاهتي ... فلست أبالي بالزمان المعبّس
أقابل أخلاق الرجال بمثلها ... وأعرف منهم وجهها بالتفرس
فأعنو لمن يعنو وأقسو لمن قسا ... واظهر كالغطريس للمتغطرس
ولست أجازي المعتدي باعتدائه ... ولكن بصفح القادر المتحمس
وما أنا من أهل الدعارة والخنا ... ولا من أولى حمل السلاح المسدّس
ولكنَّ لي فيكم يراعاً إذا شدا ... أتاكم بكافٍ من عُلاه ومُخرِس
وما خالق الأكوان إلا مهندس ... وإن جل عن تعريفه بالمهندس
تجلَّى على أكوانه بصفاته ... وأغلس فيهم كُنهُهُ كل مُغلَس
وأقبسهم نوراً شديداً جلاؤه ... فساروا به كالعُمى في كل حِندس
وألبسهم حمر الغرائز فاغتنوا ... بحمرتها عن كل ثوب موَّرَّس
وما مُقبِس عند النهي غير قابس ... ولا لابس عند النهي غير مُلبس
فأيَّان جال الطرف لم ير غيره ... إذا كان في ألحاظه غير مُبلِس
حقيقة مخلوقاته لم تكن سوى ... حقيقة دع عنك حدس المحدّس
ألا إنني للكائنات موحّد ... ولو أرغمت كل المذاهب معطسى

معروف الرصافي

الأسطول البريطاني

للأستاذ عبد اللطيف النشار

تَخَيَلها ولم يرها جرير ... وزان خياله لفظٌ نضيد
فقال كأنه يصف الجواري ... وينصرهن نحن فما نزيد
(وسُخِّرت الجبالُ وكنَّ خُرساً ... يُقطِّعُ من مناكبها الحديد)
ترى أي السفائن كان يعني ... ألم يطلع على الدنيا جديد؟
وهل شهد القدامى ما شهدنا ... وشق بحارَهم جبل صلود
تمنى شاعر ضخَم الأماني ... فحققت الذرارى ما يريد
وما كنا لنشهد ما نراه ... إذا حُرمت من الشعر الجدود
حياة الحالمين بلا قيود ... فمن أحلامهم كان الجديد
وهل يعني الطوائرَ أم سواها ... جريرٌ والقصيد هو القصيد
يقول وقوله أبداً غريب: ... أما حَدَّث منازعه الحدود؟
(تصَّيدن القلوب بنبل جن ... ونرمي بعضهن فما نصيد)
هل امتدت نُبوءته إلينا ... لعمري إنه نظرٌ بعيد
فقال وليل مصر كما نراه ... وقد شملت إضاءتها القيود

(نظرنا نار جعدةَ هل نراها ... أبُعدٌ غال ضوءك أم همود)
أطلتُ أطلتُ لا أعني جريراً ... وضلَّل منْطقي فكرٌ شرود
أرى الأسطول أم أهرام مصر ... ولكن أم (خفرعه) ولود
أرى الأهرامَ فوق الماء تجري ... لماذا ذلك العدد العديد
وعند ذويه لو شاءوا مزيد ... لعمري إنه شعب سعيد
أرى الأسطول عند جدار داري ... ألا شعرٌ لديَّ؟ ألا نشيد
وأبغضُ ما تكون الحرب عندي ... ولكن كيف عن وطني أذود
أُحب سكينة الراضي بحال ... فهل ترضى عن الراضي الحُقُود
فأفٍ للسكينة حيث كانت ... هي الذلُّ المهين، هي الجمود
على الكأس السلام فقد تولت ... محبتها وقد صدق الوعيد
وأنظر لا أرى إلا سفيناً ... وإلا البحر تحميه الأسود
ضراغم من أراهم أم جنود ... وطارفهم أجل أم التليد
وما الماضي بمنسيٍّ ولكن ... مضى الماضي وليس له معيد
ونحن ونبتنا البردي ادري ... بما تعنى المواثق والعهود
سبقنا بالكتابة كل شعب ... ولسنا عن مواثقنا نحيد
وتعجبني الروائع إذ أراها ... وصاحبها هو الخصم اللدود
بلادي ما أعزك يا بلادي ... أمالك عن مسالمة محيد
أمالك مثل ما لهمو سفين ... ولا في الجو أجنحة ترود
أرى الذهب الحبيب إلى أناس ... بغيضاً والحبيبُ هو الحديد
فليت جدودنا كانوا قيوناً ... فيحمي مُلكَنا ركن شديد
فَرِحتُ بقصة وببيت شعر ... ويحميني المحالف والعقيد
وعندي ما أقول وعند غيري ... ولكني سكتُّ فما أزيد

عبد اللطيف النشار

البريد الأدبي

قرار لجنة كبار العلماء وبرنامج الإصلاح

يعرف القراء أن جماعة كبار العلماء قد قررت في جلستها الأخيرة تأليف لجنة برياسة حضرة صاحب الفضيلة المفتى الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم لبحث المقترحات الهامة التي رفعت إليها من بعض حضرات أعضائها.

وقد عقدت اللجنة عدة جلسات لهذا الغرض، وتلقت في إحدى هذه الجلسات كتاباً مرسلاً إلى فضيلة الأستاذ الأكبر من الأستاذ الشيخ حسن البنا يقترح أن تقوم جماعة كبار العلماء بإنشاء معجم جامع للحديث يضم شتات كل الأحاديث المحتج بها الخ.

وبعد بحث هذه المقترحات بما فيها هذا المقترح الأخير رأت اللجنة أن تقوم جماعة كبار العلماء بما يأتي:

أولاً:

(أ) إيضاح ما قد يخفى من أصول الدين

(ب) بيان ما هو بدعة وما ليس بدعة

(ج) بيان أحكام الشريعة في المعاملات التي جدت وتجد.

(د) الإفتاء فيما يرى فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر أخذ رأي جماعة كبار العلماء فيه.

ثانياً:

(أ) وضع مؤلفين يجمع أحدهما تفسير القرآن تفسيراً سهل التناول يوافق أصول الدين وقواعد اللغة العربية، مع التنبيه على ما في كتب التفسير المتداولة من الإسرائيليات والآراء التي لا تتفق وأصول الدين العامة وقواعد اللغة؛ ويجمع الآخر الأحاديث التي تصلح للاحتجاج والتي لا تصلح مع بيان درجاتها المختلفة.

(ب) التنقيب عن الكتب الإسلامية التي يعظم نفعها في مختلف العلوم، والعمل على إخراجها اخرجاً صحيحاً متقناً

ثالثاً: إنشاء مكتب علمي يعهد إليه بتنفيذ هذه المقترحات، ويكون من اختصاصه بحث ما يقدم إليه من المؤلفات التي يقوم بها علماء الأزهر وغيرهم في العلوم الدينية والعربية

وسائر العلوم التي تدرس في الأزهر وكلياته، وتقدير قيم هذه المؤلفات والعمل على نشر النافع منها ومكافأة أصحابها، ليكون ذلك مدعاة إلى تنشيط الإنتاج العلمي.
وتقترح اللجنة أن يكون هذا المكتب برياسة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر، وعضوية عشرة من أعضاء الجماعة - ذكرتهم اللجنة في تقريرها - على أن يستعين المكتب بمن يختار من علماء الأزهر وغيرهم.
وقد اقترحت اللجنة على فضيلة الأستاذ الأكبر إلى جانب ذلك:
أولاً: أن تشرف جماعة كبار العلماء بواسطة لجنة منها على مجلة الأزهر، ليكون ذلك وسيلة ناجحة إلى تنفيذ معظم هذه المقترحات، وليكون ما ينشر في المجلة التي يصدرها الأزهر متفقاً وما يبتغي العالم الإسلامي لهذه المجلة من علو المكانة ورفعة الشأن.
ثانياً: أن يعمل فضيلة الأستاذ الأكبر على تأليف لجنة يمثل فيها الأزهر، ووزارة الأوقاف، ووزارة الشئون الاجتماعية، ومشيخة الطرق الصوفية، تكون مهمتها وضع الخطط النافعة في الوعظ والإرشاد واتخاذ ما يلزم لتعميم النفع به من إلقاء خطب أو إذاعات أو طبع رسائل توزع بالمجان على الناس، وغير ذلك مما تراه نافعاً في تقويم الخلق وإصلاح المجتمع.
هذا هو ما رأته اللجنة في شأن المقترحات وطرق تنفيذها، وقد رفعت تقريرها بذلك - قبيل عيد الأضحى - إلى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر، ليتخذ ما يرى في سبيل عرضه على الجماعة تمهيداً لإقراره وتنفيذه.
وبهذا أصبح برنامج الإصلاح في كفالة الأستاذ الأكبر المراغي رجل الإصلاح.
إلى الأستاذ محمود عزت عرفة
عفا الله عني نضو نُعمي وأبؤس ... تمتع حيناً ثم أضناه ما يضني
لحنتُ وأنحلتُ امرأً غير شعره ... وحرَّفت ما أروى فويليَ من سني
وما كنت شيئاً من أولئك أتقي ... ولا خلت أن الشيب من صفة الجن
ويأبى وفائي أن أغالط محسناً ... أأُهدّى إلى وجه الصواب ولا أثنى
فقل للوليد البحتري وصنوه ... حبيب بن أوس ما جنيت ولا أجني
هما الخمر والماء الطهور وأنملي ... معودة مزج السلافة في الدن
لك الحمد يا محمود من ذي مروءة ... يرى الشكر فرضاً والجحود من الجبن
عبد اللطيف النشار
بين صبري وابن دريد
شهد الأديب الفاضل حسين محمود البشبيشي على الشاعر إسماعيل صبري باشا بسرقة بيتيْ شعر وردا في ديوانه، إذ رآهما في مقال للشاعر محرم منسوبين إلى صاحب المقصورة الدريدية
والبيتان اللذان في الديوان هما:
إن الذي أبقيتَ في مهجتي ... يا متلف الصب ولم يشعرِ
حشاشة لو أنها قطرة ... تجول في عينيك لم تُنظرِ
وفي مقال الشاعر محرم وردا بتحريف بسيط فكانا هكذا:
إن الذي أبقيت في (جسمه) ... يا متلف الصب ولم يشعر
لو أنها قطرة ... تجول جفنيك لم (تقطر) (صُبابة)
قلت: إنها شهادة لعمر الحق جائرة. فما كان لشاعر كإسماعيل صبري سما في شاعريته البارعة إلى أعلى مراتب الشعر الغنائي أن يسف هذا الإسفاف الفاضح المعيب، فيعزو إلى نفسه قول غيره. ونحن إذا علمنا كيف جمعت مقطوعات الديوان من هنا وهناك بعد وفاة الشاعر بأعوام طويلة. ظهرت لنا براءته مما وصم به. ففي كلمة الأستاذ أحمد الزين في الديوان نرى أن صهر الشاعر صاحب العزة حسن رفعت بك قد حمل على عاتقه عبء جمع الديوان وهو عبء يجهد لقلة ما كان الشاعر يعني بجمع شعره وترتيبه. يقول الأستاذ أحمد الزين إن صهر الشاعر جمع مقطوعات الديوان من بطون الصحف التي بعد بها العهد ومن أفواه الرواة المعاصرين له والمتصلين به فكان لا يسمع بإنسان جالس إسماعيل صبري إلا زاره وكتب عنه ما يحفظه من شعره - أنظر الديوان صفحة 41 - ومن المرجح عندي فيما يختص بهذين البيتين أن يكون هناك مَن ضمه مجلس بإسماعيل صبري وسمعه ينشدهما فظنهما له

ورواهما لصهر الشاعر على حسب هذا الظن. وهب أن البيتين وجدا مكتوبين بخط الشاعر فليس بعجيب أن يكتب الإنسان في أوراقه شعراً
أعجبه، ولكنه سهو تقع تبعته على الذين أشرفوا على جمع الديوان. وقل مثل ذلك في الأبيات التي وردت في وصف النيل على أنها لإسماعيل صبري وهي لابن الخروف أبى الحسن الأشبيلي من شعراء القرن السادس. ومما يجعلني أقطع في براءة إسماعيل صبري هو أن هاتين المقطوعتين وردتا في الديوان دون أن تشتملا على شهادة بنسبتهما إلى الشاعر كما نرى في بقية أشعار الديوان.
بقيت هنالك مسألة التحريف اللفظي، ولعل الأديب الفاضل يراها مما يقوى زعمه، إذ يعد هذا التحريف تغييراً من إسماعيل صبري لكي يموه على الناس، ولكنه تغيير لم يوفق فيه، على رأى الأديب. والذي أراه أن هذا التغيير الذي لم يمس جوهر ذيتك البيتين الرائعين ما هو إلا تحريف لفظي كثيراً ما يقع في الشعر القديم. فبينما أنت تقرأ في كتاب الأغاني مثلاً تراه بعينه في كتاب آخر، ولكنه محرف بعض الألفاظ، ومثل هذا كثير. فلعل الكتاب الذي وعى منه إسماعيل صبري هذين البيتين هو غير الكتاب الذي أخذهما منه الشاعر محرم منسوبين إلى أبي بكر ابن دريد، ومن هنا حصل هذا التغيير الذي جعل الأديب حسين محمود البشبيشي يشهد هذه الشهادة الجائرة على الشاعر رحمه الله.
(نابلس)
فدوى عبد الفتاح طوقان
القصص
بدلة الأسير
للأستاذ نجيب محفوظ
كان (جحشة) بائع السجائر أول السابقين إلى محطة الزقازيق حين اقترب ميعاد قدوم القطار وكان يعد المحطة بحق سوقه النافقة، فيمضى على الإفريز في نشاط منقطع النظير يتصيد الزبائن بعينيه الصغيرتين الخبيرتين. ولعل (جحشة) لو سئل عن مهنته للعنها شر لعنة. لأنه كغالبية الناس برم بحياته، ساخط على حظه. ولعله لو ملك حرية الاختيار لآثر أن يكون سائق سيارة أحد الأعيان، فيرتدي لباس الأفندية، ويأكل من طعام ألبك، ويرافقه إلى الأماكن المختارة في الصيف والشتاء، مؤثراً من أعمال الكفاح في سبيل القوت ما هو أدنى إلى التسلية والملهاة. على أنه كانت له أسبابه الخاصة ودواعيه الخفية لإيثار هذا العمل وتمنيه من يوم أن رأى الغر - سائق أحد الأعيان - يتعرض للفتاة نبوية خادم المأمور في الطريق ويغازلها بجسارة وثقة، بل سمعه مرة يقول لها وهو يفرك يديه حبوراً: (سآتي قريباً ومعي الخاتم) ورأى الفتاة تبتسم في دلال وترفع طرف الملاءة عن رأسها كأنها تسويها، والحقيقة أنها أرادت أن تبدي عن شعرها الفاحم المدهون بالزيت. . . رأى ذلك فالتهب قلبه وأحس الغيرة تنهشه نهشاً موجعاً. وكان به من عينيها السوداوين أوجاع وأمراض. وكان يتبعها عن كثب ويقطع عليها السبيل في الذهاب والإياب، حتى إذا حلا بها في عطفة أعاد على أذنيها ما قاله لها الغر: (سآتي قريباً ومعي الخاتم)، ولكنها لوت عنه رأسها وقطبت جبينها وقالت له باحتقار: (هات لك قبقاب أحسن). فنظر إلى قدميه الغليظتين كأنهما بطنا بخفي جمل، وجلبابه القدر، وطاقيته المعفرة وقال: (هذا سبب شقائي وأفول نجمي). ونفس على (الغر) عمله وتمناه. . . على أن آماله لم تقطعه عن مهنته، فثابر على كده قانعاً من آماله بالأحلام. وقصد في ذلك الأصيل إلى محطة الزقازيق يحمل صندوقه وينتظر القطار القادم.
ونظر إلى الأفق فرأى القطار قادماً من بعد كأنه سحابة دخان، وما زال يدنو ويقترب وتتميز أجزاءه ويتصاعد ضجيجه حتى وقف على أفريز المحطة. . . وهرع (جحشة) إلى العربات المتراصة، فرأى - لدهشته - على الأبواب حراساً مسلحين، ووجوهاً غريبة تطل
من النوافذ بأعين ذاهلة منكسرة. وتساءل الخلق: فقيل لهم بأن هؤلاء أسرى الإيطاليين الذين تساقطوا بين أيدي عدوهم بغير حساب. وإنهم يساقون الآن إلى المعتقلات.
فوقف (جحشة) متحيراً يقلب عينيه في الوجوه المغبرة؛ ثم أدركته الكآبة لأنه أيقن أن

تلك الوجوه المغبرة؛ ثم أدركته الكآبة لأنه أيقن أن تلك الوجوه الشاحبة الغارقة في البؤس والفقر لن يكون في وسعها إشباع نهمها من سجائره. . . ووجدهم يلتهمون صندوقه بشراهة وجوع فألقى عليهم نظرة سخط واحتقار وهمّ أن يوليهم ظهره ويعود من حيث أتى. ولكنه سمع صوتاً يصيح به العربية بلهجة إفرنجية قائلاً (سجائر) فحدجه بنظرة دهشة وريبة ثم فرك سبابته بإبهامه: أي تقود. ففهم الجندي وأومأ له برأسه فاقترب محاذراً ووقف على بعد لا تبلغه يد الجندي. فخلع الجندي جاكتته بهدوء وقال له وهو يلوح بها: (هذه نقودي) فتعجب جحشة وتفرس في الجاكتة الرمادية ذات الأزرار الصفراء بين الدهشة والطمع. ووجب قلبه، ولكنه لم يكن ساذجاً أو مغفلاً، فأخفى ما قام بنفسه أن يقع فريسة جشع الإيطالي، وأبرز في هدوء ظاهري علبة سجائر، ومد يده ليأخذ الجاكتة. فقطب الجندي جبينه وصاح به (علبة واحدة بجاكتة؟ـ . . هات عشرا) فذعر جحشة وتراجع إلى الوراء، وقد غاض طعمه، وأوشك أن يأخذ في غير السبيل. فصاح به الجندي (أعطني عدداً مناسباً. . . تسعاُ. . . أو ثمانيا) فهز الشاب رأسه بعناد. فقال الجندي: (إذاً سبعا. . .) ولكنه هز رأسه كما فعل في الأولى، وتظاهر بأنه يعتزم المسير فقنع الجندي بست ثم هبط إلى خمس. فلوح جحشة بيده متظاهراُ باليأس، وتراجع إلى المقعد وجلس، فصاح به الجند المجنون: (تعال. . . رضيت بأربع. . .) فلم يلق إليه بالاً؛ وليدله على عدم اكتراثه أشعل سيجارة ومضى يدخن في تلذذ وهدوء. فثارت ثائرة الجندي وأهاجه الغضب، وبدا وكان ليس له غاية في الوجود سوى الاستيلاء على سجائر، فهبط بطلبه إلى ثلاث ثم إلى اثنتين. ولبث جحشة جالساً يغالب اضطرام عواطفه وأوجاع طعمه ولما نزل الجندي إلى اثنتين أبدى حركة بغير حركة إرادة رآها الجندي. فقال له وهو يمد بالجاكتة: (هات) فلم ير بداً من النهوض ودنا من القطار حتى أخذ الجاكتة، وأعطى الجندي العلبتين. وتفرس الجاكتة بعين جذلة راضية، وقد لاحت على شفتيه ابتسامة ظفر. ووضع الصندوق على المقعد وارتدى الجاكتة، وزرها. فبدت فضفاضة ولكنه لم يعن بذلك وتاه عجباً وسروراً واسترد صندوقه. وأخذ يقطع الإفريز فخوراً طروباً. وارتسمت لعينيه صورة نبوية في ملاءتها اللف فقال متمتماً: لو تراني الآن! نعم لن تتجافاني بعد اليوم ولن تلوي وجهها عن احتقاراً. ولن بجد الغر ما يفخر به علي. ولكنه ذكر أن الغر يرتدي بذلة كاملة لا جاكتة مفردة فكيف السبيل إلى البنطلون. وفكر ملياً. وألقى على رؤوس الأسرى المطلة من نوافذ القطار نظرة ذات معنى. ولعب الطمع بقلبه من جديد فاضطربت نفسه بعد أن أوشكت أن تستقر. ودلف إلي القطار ونادى بجرأة: (سجائر. سجائر. العلبة بمنطلون لمن ليس معه نقود. العلبة بمنطلون) وأعاد نداءه مثنى وثلاثاً، وخشي أن يغيب عن الإفهام مقصده فمضى يومئ إلى الجاكتة التي يرتديها ويلوح بعلبة سجائر. ولكنه إيمائه الأثر المرجو فلم يتردد جندي أن يهم بخلع جاكتته ولكنه سارع نحوه وأومأ إليه أن يتمهل، ثم أشار إلى بنطلونه يعني أن ذلك بغيته؛ وهز الجندي منكبيه باستهانة وخلع البنطلون وتم التبادل. وقبضت يد جحشة على البنطلون بقوة يكاد أن يطير من الفرح، وتقهقهر إلى مكانه الأول وأخذ يرتدي البنطلون وانتهى في اقل من دقيقة فصار جندياً إيطالياً كاملاً. . . ترى هل ينقصه شيء؟. . . المؤسف حقاً أن هؤلاء الأسرى لا يغطون رؤوسهم بالطرابيش. . . ولكنهم يضعون أقدامهم في أحذية. . . ولا غنى عن حذاء ليتساوى بالغر الذي يكرب حياته. وحمل صندوقه وهرع إلى القطار وهو يصرخ (سجائر. . . العلبة بحذاء. . . العلبة بحذاء). واستعان على التفاهم بالإشارة كما فعل في المرة الأولى. ولكنه قبل أن يظفر بزبون جديد آذنت صفارة القطار بالمسير.

فتمخضت عن موجة نشاط شملت الحراس جميعاً. وكانت سحائب الظلام تغشى جوانب المحطة، وطائر الليل يحلق في الفضاء، فتوقف جحشة وفي نفسه لوعة، وفي عينيه نظرة الليل يحلق في الفضاء، فتوقف حجشة وفي نفسه لوعة، وفي عينيه نظرة حسرة وغيط. ولما أخذ القطار يتحرك لمحه حارس في عربة أمامية فبدا على وجهه الغضب وصاح به الإنجليزية ثم بالإيطالية (اصعد بسرعة. اصعد أيها الأسير) فلم يفهم جحشة ما يقول وأراد أن ينفس عن صدره فجعل يقلده في حركاته مستهزئاً به مطمئناً إلى بعهد عن متناول يده. فصاح به الحارس مرة أخرى والقطار يبتعد رويداً رويداً (إصعد، إني أحذرك، اصعد) فزمّ جحشة شفتيه احتقاراً وولاه ظهره وهم

بالمسير؛ فكور الحارس قبضة يسره مهدداً وصوب بندقيته نحو الشاب الغافل. . . وأطلق النار. ودوي
عزيف الرصاصة يصم الآذان وأعقبها صرخة ألم وفزع. وتصلب جسم جحشة في مكانه فسقط الصندوق من يده، وتناثرت علب السجائر والكبريت. ثم انقلب على وجهه جثة هامدة.

نجيب محفوظ

الكتب

نظرة جديدة

في (أرواح شاردة)

بمناسبة طبعته الثانية

للأديب حسين محمود البشبيشي

ما ظنك بالروح الشاعر إذا تفتَّح ليستوعب أسرار الوجود، وتغلغل يتأمل ألوان الجمال؟ وما ظنك بالفكر القادر إذا عقد النية على كشف منبهم الأمور، والبحث وراء بوارق المعرفة والنور؟ وما ظنك بالفن الساحر إذا تشوّف إلى الشوارد الفنية الباسمة، وتتطلع إلى مباهج الحياة الفاتنة.

ذلك فيض من (أرواح شاردة) . . . !!

وقع الكتاب في يدي صدفة، فتناولته بلهفة. . . لست أدري أكان مصدرها تجاوب الروح بيني وبين أرواحه الشاردة، أم الرغبة في الإطلاع على لون من الأدب جديد الطابع فريد المنزع.

لست أدري كل هذا؛ ولكن الذي أعلمه هو أني حسن الظن - عن حق - بصاحبه الشاعر، قوي الإيمان بروحه الساحر وشفافية وجدانه، وتألق لفظه، وعذوبة جرسه التي يخيل إلى المرء أنه ينسجها من قلبه نسجاً، أو يسكبها من روحه سكباً

وقرأت الكتاب فوجدتُ روح الفنان غالبةً على روح الشاعر، وروح الشاعر طاغية . . . على روح الكاتب. فهو في كثير من الأحايين يعرض لدراسة شاعرٍ في استقراء الكاتب المحقق؛ ثم هو بعد ذلك يحاول أن يدفع عن الشعراء كل تهمةٍ جائرة مجرّداً لذلك قلمه ساكباً فيه عصارة قلبه. . . ونظرة واحدة إلى دفاعه عن شارل بودلير تريك صدق ما أقول فقد جاء في مقام تعليل انغماسه في الشهوة العارمة، وتلويثه للجمال الأرضي (لقد كان بودلير فناناً صادقاً طموحاً محباً للجمال وعلى العكس مما يرى الكثيرون فإنه باندفاعه المحزن في تلويث الجمال الأرضي، وردّه كل أنثى امرأة عاهرة، قد أفشى عاطفته المكرسة لعبادة الجمال المطلق). . . وهذا كلام بعثه قلبٌ شاعر يدفع عن قلبٍ شاعر!

ووجدت روحَ المؤلف حائرة بين مباهج الشعر، ومفاتن النثر، ولكن ميله الشعريَّ جعله يعرض لدراسة الشعراء أكثر من دراسة الكتاب.

أفلم يعرض لنا بول فيرلين ويسايره أصدق مسايرة، ويتابعه متابعة الشاعر يقدر عظمة الشاعر؟

أو لم يقدم لنا بودلير في فتنة شعره، ويقظة وجدانه، وتوهج شهواته؟ ثم أكثر من ذلك إن روح الشعر في نفس صاحبنا غلبت عليه فجعلته يترجم قبره شلي، وعودة الملاح لجون ما سفيلد، وأغنية القطيع، وبيت الراعي، ثم يشرق علينا بنفحة شعرية هي قصيدته في باريس.

لو أستطيع أن أقول إنه حتى فيما كتب عن ذكرياته في آخر الكتاب كان شاعراً في كثير من الأحايين.

وليس بغريب أن يختار هؤلاء الشعراء موضوعاً لبحثه، فبين نظرتهم الفنية النفسية إلى الحياة بين نظرة صلات ووشائج يدركها الناقد الفطن!

ولا يسعنا إلا أن نقول إنه في اختياره لقصائد القبرة وعودة الملاح، وبيت الراعي، كان منسجماً مع اتجاهات نفسه وأحاسيسه، ولكني أعتقد أن شعوره نحو هذه القصائد يختلف قوة وضعفاً؛ وتبعاً لذلك تتفاوت القصائد.

ولا يسعني إلا أن أرفع القبرة إلى مستوى قدرة شاعرنا نفسه التي لمسناها حية متألقة بسامة في (الجندول)، وفي قصيدته الخالدة (موت شاعر)، ولعل هذه القصيدة الأخيرة كانت أول عهدي بالملاح التائه، ثم قصيدته في ميلاد الشاعر التي نشرتها مجلة

أبولو عقب وفاة شوقي.
ونعود فنذكر رنة مطلعها، وحسن اختيار بحرها، وعذوبة قافيتها وشاعرنا يجيد الاستهلال. أنظر إلى روعة المطلع:

يا أيها الروح يهفو حوله الفرح ... تحية أيُّهذا الصادح المرحُ!
عن أمة الطير هذا اللحن ما سمعتْ ... بمثله الأرض، لا روض ولا صّدّحُ
أنت الذي من سماء الروح منهُله ... خمرٌ إلهية لم تحوها قدحُ
يفيض قلبك ألحاناً يسلسلها ... فن طليق من الوجدان منسرح

ولكن أطربني، وهاج خواطري، وحلق بي في جو من الخيال الباسم الوضيء قدرته على صوغ هذه المعاني السامية إذ يقول:

إنا نفكر في ماضٍ بلا أثرٍ ... ومُقبلٍ من حياة كلها غيب!
ومستحيل نُرّجي برقَّ ديمتهِ ... وكل ما نرتجيه نه مختلب
وكم لنا ضحكاتُ غير صادقة ... ما لم يشب صفوها التبريح والوصب
وإن أشهى الأغاني في مسامعنا ... ما سال وهو حزين اللحن مكتئب!

وهنا وقفة يجب أن يقفها الثائرون على النغم الحزين في أغانينا؛ فهذا شلي الشاعر العالمي ينطق بلسان الفلسفة التي لا وطن لها. إن الحن الحزين هو أشهى ما تسع الإنسانية الحساسة الشفافة التي ترقب الزهر الوليد بنفس العين التي تودع الزهر الذابل أما قصيدة عودة الملاح فلعله ترجمها بدافع تجانس الميول، وتقارب الأحاسيس؛ فقد كان شاعرنا ملاحاً تائهاً! فهو كما يظهر يحب البحر، أو في طبيعته الزخارة بالوجدانات شيء من طبيعة البحر؛ وإلا فلم ترجم عودة الملاح؟ الجواب ينطق به مطلعها:

يا فرحتي للبحر أرجعُ ثانياً ... متفرِّداً بعبائه وسمائه
أقصى منايَ سفينة ممشوقة ... وبزوغ نجم أهتدي بضيائه

بعد أن بينت الدوافع إلى ترجمته لهؤلاء الشعراء ولتك القصائد أدع الكاتب نفسه يعبر عن سبب ترجمته لقصيدة (بيت الراعي) فيقول: (لأنها ذات موضوع طريف حافل، يتكلم فيه الشاعر بدقة ورقة وصراحة وعظمة عن القلب والروح والجسد وشقاء النفس الشاعرة بهذا العالم الجارح ومدنيته الجافية القاسية)

وهذا يصدق قولي في أن الشاعر اختار ما جانس أحاسيسه ولابس وجدانه.
ونتكلم عن ذكريات مرت بقلبه، وعطرت بأريجها ألفاف روحه، وتغلغلت في أحاسيسه، فخَّلدها. . .!

وإنك لتلمح في ليلته الأولى وحشة الغريب ولهفة المشتاق؛ وترى في ميدان إسدرا سحر الألحان وروح الفنان، وتحس في يوم فرساي نشوة الطرب وروعة الجمال، وتنسم من فتاة برن عبير الروح وعبق القلب. . . ثم ترى في قصيدة باريس دمعة الفنان وثورة الوجدان!

تلك هي ذكريات صاحب الجندول التي خضع فيها - كما سأبين - الروح الشاعرية، والنزعة الشرقية، والثقافة الأوربية، ثم في كثير من الأحايين لطريقة أستاذنا الزيات فكيف كان ذلك؟!

أما خضوعه للشاعرية فأمر محتوم، وما كان له أن يتخلص من قيودها الحبيبة الباسمة، بل أنها لتظهر في كثير من اللفتات الرائعة في ألفاف ذكرياته. فهو مقيد بروح الشعر وخاصة عند الحديث عن الجمال والفن بل وكل ما يتصل بالجمال والفن؛ فإن خياله ليصف الحسناء فيقول في معنى شعري ساحر: كأنها طفلة إلهية هبطت لأول مرة عالم الأرض؛ ويطيب لروحه الشاعر أن يتبعها بسجع حلو رقيق فاتن. . . ولعل شاعرنا قد تأثر قليلاً بطريقة أستاذنا الزيات في الصناعة القوية العذبة.

وهو شاعر تنساب حياته انسياب خاطرة الدافق، وتجري جريان خياله المتألق في سهولة ووضاءة وسلام، ولكن الأقدار تأبى (إلا أن تضع في طريقه حادثاً غريباً وشاغلاً عجيباً)، وفي حديثه عن فتيات باريس (وفي عيونهن من أسرار الليل الذاهب ألق، وفي شعورهن من خمر المساء الغابر عبق)، وهو يحلو له أن يعبر عن حيرة وجدانه بسجعة رنانة تحمل من الشاعرية روح الحيوية، وتحمل من الفن حلاوة الجرس، فيخيل له أنه مطارد (يلاحقه خوف أو يتأثره حتف)

وحين يقول: (وبدأت إنشادها بصوت يتماوج مرحاً، ويتفجر شباباً، ويترسل صفاء

وعذوبة وسحراً، وانفعلت هي بغنائها، فاستحالت طيفاً راقصاً نابضاً باهتزازات هذه الأنغام المنطلقة في سكون الليل تودع السلام والحب والرحمة في قلب العالم!)
تلك هي ناحية الشاعرية في نثر الكاتب جلّينا عنها في إيجاز؛ أما ناحية تأثره بالأدب الغربي فظاهرة في كثير من اللفتات، فهو يجمل للضوء أنابيب زئبقية! وللأضواء العاكسة دهاليز من أشعة الشمس تمرق من خلال الغمام الأبيض، بل أنه ليغرق في الروح الغربية، حين يجعل الهواء يرفع معطف فتاته الحريري الأبيض الهفاف إلى ما فوق ذراعيها، فكأنها ملك السحاب يضرب بجناحيه الناصعين في الزرقة الصافية متقدماً رعيلاً من الغمام الأبيض!
بقيت ناحية حبه للشرق والوطن، فهو يهتاج عندما يرى جثة الرسول مرقص فيقف خطيباً في صحبه ويقول: (هذا الرسول الذي ضن البنادقة على مصر بجثته) ثم هو لا يسأم من
ذكر مصر ولو عارض فتاة القلب وقطع عليها حديثها عندما قالت: وهناك بلاد غير بعيدة عن روما وأثينا. . . وعنها أخذ العالم أرفع الفنون. . . فيهتف: بل لا يزال يأخذ عنها!
وكم هزني منه هذه اللفتة الحية النابضة بالوطنية عندما قرن الصحراء والبحيرات الأفريقية والنيل المقدس ببحيرات سويسرا وإيطاليا ومساقط الماء في جبال إنسبرول. . .
ثم هو يهتاج لرؤيته الشباب الأوربي يتألق قوة وهو يسعى للقتال، وقد وقفت الفتيات ينثرن الابتسامات على جباه الشباب البسل. فيتمنى لو يقدر الله له أن يرى مثل هذا المنظر في مصر وطنه الحبيب.
ولعل أطرف ما قابلني من غيرته الوطنية دفاعه العجيب الفلسفي عن الفن المصري وخلوه من الفن العاري!! فيقول معللاً ذلك بأن الحياة في مصر سهلة، والسماء صافية، وكل شيء يفصح في غير إبهام. . . وأن هذا الصفاء والإفصاح بعثت في النفس الرغبة في التستر. . . وهكذا يخلق شاعرنا من موضع النقص في فننا موضعاً للتأمل الفلسفي. . . فتأمل!
أما قصيدة باريس الراقصة المعاني الرنانة الجرس. فحسب مطلعها روعة
سألوني عن بياني وقصيدي ... أسفا باريس قد مات نشيدي!
ولكن كيف يموت النشيد الذي يقول:
صرع النور به وانحسرت ... جبهة الشمس عن النور الشهيد
بل كيف يموت النشيد الذي يقول:
وابعثيها ثورة أخرى فما ... يعرف الأحرار معنى للجمود
وبعد هذا هو الروح الشاعر والفكر القادر والفن الباهر ففيض من أرواح شاردة.
حسين محمود البشبيشي
العدد 447 - بتاريخ: 26 - 01 - 1942
دعاء الكروان
للأستاذ عباس محمود العقاد
طائر الليل. طائر العزلة. طائر الصحراء. طائر الصيحة التي فيها من البشرى وفيها من التبريح وفيها من التسبيح.
تعني (الكروان)؟
نعم، إياه أعني، وهو صامت الآن!
صامت منذ أشهر لا تسمع له من وراء الأفق تلك الصيحة التي كأنها نصل من اللحن يشق ستراً من السكون، أو كأنها عقيقة من البرق تنفتح في سدفة من الظلام، أو كأنها نفثة من الجوي تندفع في هدأة من الصبر الطويل.
وكأنما سكون ليل الشتاء في هذه الآونة الموحشة إصغاءٌ مرهف وحنين مكتوم إلى ذلك الصوت المغيّب الذي سيطول غيابه. . . وسيعود!
سيعود، وسيدير لنا الربيع قالبه المحفوظ من الصرخات والألحان، وسنسمعها ولا نمل سماعها ما كتب لنا أن نسمعها. فهي محفوظات يضن بها الربيع ألا تتكرر، ونضن بها نحن ألا نتذكر، ونضن بها نحن - إن تذكرناها - ألا نعيش معها كما عشنا من قبل سنين وسنين، كل صيحة منوط بها نبأ قديم: نبأ قُل إنه عذب رحيم، وقل إنه موجع أليم. فما بين الرحمة والأم من حدود في هذه المحفوظات، وما لهذه الحدود إن طالت من

مساك.
سنوات، يا لها من سنوات!
قل عشر، وقل إن شئت عشرين!. . . بل زدها إن شئت قليلاً، فما هي بأقل من بضع وعشرين
عمرُ أكبر (كروان) فانٍ
ولكنها أصغر من لمحة في عمر (الكروان) الخالد: الكروان الذي سمعه (آدم) أول الدنيا، والكروان الذي سيسمعه أبناء (آدم) آخر الزمان، والكروان الذي سمعته أنا والشعر أسود كجنح الليل الذي يصدح فيه، وسمعته والشعر يشتعل، وسأسمعه وكل مشتعل في هذه البنية رماد.
سمعته ولبيت كل دعوة من دعواته، وخرجت له في الليالي السود. . . لا بل في الليالي
البيض، إلى الصحراء. . . لا بل إلى الجنة، إلى الصباح. . . لا بل إلى الأبد الذي ليس له حدود.
وتبعته إلى أطراف الرمال، وهذا البيت الذي أسكنه وقد تغير خمسة من ملاكه وأنا الساكن الطارئ عليه لا أتغير - لم تكن من ورائه يوم سكنته غير مملكة واحدة هي مملكة (الكروان)، ولم يكن سامر يستمع فيه إلى غير صوت واحد هو صوت (الكروان).
. . .نعم، هو صوت (الكروان)
وصوت (الكروان) هو جملة واحدة تنطوي في نغماتها كل كلمة من معناها، وما معناها؟ معنى الحياة. معنى الربيع. معنى الحياة والربيع ممزوجين بمثل ما امتزجا به في نفسي من طلاقة إن بلغت مبلغها فحركة الهواء عندها ركود، ومن وحشة إن بلغت مبلغها فظلمة الجحيم عندها ضياء.
وكم دعانا ذلك الصوت؟ وكم يدعونا في أوانه؟
وكم لبيناه؟ وكم نلبيه؟
وكم رصدت لنا الأفعى في طريقه؟ وكم ترصد لنا في تلك الطريق؟
وكم قتلتنا وكم قتلناها؟
وهو مع ذلك دعاء
وهو مع ذلك ملبَّي كأحسن ما يلبي الدعاء
لك الله يا صديقي طه من ملهم فيما اخترت لكتابك الشائق من اسم (الدعاء) فما يسمع (الكروان) حق سماعه من لم يستمع إليه كأنه (دعاء) يتابع مطلوبه ويتعقبه ويفتش عنه ويأخذه آخر الأمر أخذه الهارب الذي يريد أن يهرب، ولا يريد يريد أن يهرب في جنح الظلام حتى إذا انكشف مكانه وقف لا يريم ولا يريد شيئاً. . أو كأنه يريد الاستسلام ويأبى الهرب أشد الإباء.
وهكذا كانت فتاة روايتك الساحرة. هكذا كانت تهرب ولا تهرب، ويعود إليها الكروان وكأنها هي التي تعود إليه.
وإنها لتنسى، وإنها لتلهو، وإنها لتعرض عما كان وتقبل على ما هي فيه، وإنها لفي شأن جديد غير شأنها الأول البغيض، وإذا بالطالب الصياح مقبلاً إليها من بعيد: مقبلاً في عبث
ومثابرة وإلحاح، مقبلاً في دلال كأنه الشماتة، وفي شماتة كأنها الدلال، مقبلاً مقبلاً حتى ليقف على رأسها بل في أعماق رأسها، وحتى لتجمد له في مكانها كأنها الصم الذي لا حياة به، وفيها مع ذلك كل ما مضى لها من حياة.
إلى أين يا مسكينة؟
أنا (دعاء الكروان)!
نعم، ولا فرار من هذا (الدعاء)، لأن الذي يفر منه ينقلب إليه.
تقول رواية صديقنا طه في بعض صفحاتها: (. . . وهانحن أولاء ننزل مضطربات ونسعى متعثرات، وهذه أمنا تريد أن تسأل فيم إناخة الجملين، وفيم النزول في غير منزل، وهأنذا هذه أريد أن أقول شيئاً ولكني لا أكاد أدير لساني في فمي، ولا أكاد أستوعب ما كانت أمنا تقول. إنما هي صيحة منكرة مروعة تنبعث في الجو، وجسم ثقيل متهالك يسقط على الأرض، وإذا أختي قد صرعت، وإذا خالنا هو الذي صرعها لأنه

أغمد خنجره في صدرها. ونحن عاكفتان على هذا الجسم الصريع يضطرب ويتخبط ويتفجر منه الدم في قوة كما يتفجر الماء من الينبوع. نحن عاكفتان في ذهول وغفلة وبله، لم نفهم شيئاً ولم نقدر شيئاً ولم ننتظر شيئاً، وإنما أخذنا على غرة أخذاً، واختطفت هنادي من بيننا اختطافاً. وجسمها يضطرب ويتخبط، ودمها يتفجر، ولسانها يضطرب ببعض الحديث في فمها ثم يهدأ الجسم المضطرب ويسكن اللسان المتحرك ويخفف تفجر الدم، ويمتلئ الجو حولنا بهذا السكون الأليم سكون الموت، ونحن فيما نحن فيه من ذهول وبله وخالنا قائم أمامنا كالشيطان إلا أنه قد أخذه الذهول كما أخذنا.

(وهذا نداؤك أيها الطائر العزيز يبلغني من بعيد، وهذا صوتك يدنو إلي قليلاً قليلاً، وهذا غناؤك ينتشر في الجو كأنه النور المشرق قد أظهر لنا ما كان يغمرنا من الهول دون أن نراه، وهاأنت ذا تبعث صيحاتك يتلو بعضها بعضاً كأنما هي سهام من نور قد تلاحقت مسرعة في هذه الظلمة فطردت من نفسي ذهولها وجلت عنها غفلتها وأيقظتها من هذا البله، وجلت لنا الجريمة منكرة بشعة، والمجرم آثماً بغيضاً، والضحية صريعة مضرجة بالدماء. . . إن صوتك لينبعث في الفضاء مستغيثاً وليس من يغيث، وإن صوتي لينبعث في الفضاء داعياً وليس من يجيب . . .)

وتجري الرواية في مجراها بين جوانح نفس واحدة هي أزحم بالأشباح والأصداء من كل فضاء: نفس الفتاة آمنة أخت الصريعة هنادي، وهي كلما أوغلت في باطنها حتى انقطع ما بينها وبين هذا الفضاء المحيط بنا لحق بها الدعاء وجذبها إلى حيث تستمع النداء. فتغرق آخر الأمر في صمت سعيد كما كانت تغرق في الصمت الشقي حيناً بعد حين: (ولكن صوتك أيها الطائر العزيز يبلغني فيتنزعني انتزاعاً من هذا الصمت العميق، فأثب وجلة مذعورة ويثب هو وجلاً مذعوراً، ثم لا نلبث أن يثوب إلينا الهدوء. فأما أنا فتنحدر على خدي دمعتان حارتان، وأما هو فيقول وقد اعتمد بيديه على المائدة: دعاء لكروان! أترينه كان يرجع صوته هذا الترجيع حين صرعت هنادي في ذلك الفضاء العريض)

وهكذا يستمع إليَّ الكروان من تعود أن يستمع إليه؛ سابح على حومة الليل يمد عرقي الظلام من صوته السريع بحبل خاطف يجذبهم إلى الفضاء، كلما انقطعوا عن الفضاء. يجذبهم من عالم الذكرى إلى عالم الشهادة، ويجذبهم من عالم الخوف إلى عالم الطمأنينة، ويجذبهم من عالم الوحشة إلى عالم الإيناس، ثم يبدو له أن يجذبهم من الإيناس إلى الوحشة ومن الطمأنينة إلى الخوف ومن الشهادة إلى الذكرى، وينجذبون. تسمعه السنةٌ ومعك سامع، وسمعته السنة الدابرة وحدك، وقد تسمعه من قابل وليست معك تانك الأذنان الأوليان، بل معك غيرهما أذنان أخريان! وربما سمعه معك من بينهم وبين السمع حجاب، وربما سمعه معك من أغفلوك وأغفلوه. ويأتي الدعاء فيدعونا ولعلنا نحن الذين دعونه، ولكنه يأتي متوقعاً وغير متوقع، ومحبوباً وغير محبوب، وقائماً على موعده كأنه مرتبط بنظام من أفلاك الليل الذي يحبه ويأوي إليه، ويتعلم على يدي أنواره وظلماته، ويعلِّم من يتعلمون.

(دعاء الكروان) يا!

موعدنا معك الفضاء الرحيب كلما أوغلت بنا الذكرى في أغوار ينقطع ما بينها وبين الفضاء الرحيب.

ومن دعائك أنك جذبتنا خمساً وعشرين سنة أو جذبت إلينا تلك السنين الخمس والعشرين، وإنك أوحيت إلى طه ما يوحي، فإذا به يفتح لنا فضاء الليل وما فيه من أصداء وأشباح، ويفتح لنا فضاء النفس الإنسانية وما فيها من أصداء وأشباح، وإذا به يلقي إلينا بعاصم في الفضاءين من ذلك الحبل السريع الخاطف ففيه لياذ بالنجاة.

قال صديقنا الدكتور طه حسين وهو يهدي إلينا (دعاء الكروان): (أنت أقمت (للكروان) ديواناً فخماً في الشعر العربي الحديث، فهل تأذن في أن أتخذ له عشاً متواضعاً في النثر العربي الحديث، وأن أهدي إليك هذه القصة تحية خالصة من صديق مخلص). وإني لأحسب وأنا أتقبل الهدية شاكراً أن (الكروان) سيأوي إلى العش الذي سماه صديقنا متواضعاً لأنه يرتضي العش وإن أغريناه بالدواوين. وحسبنا منه أنه يدعونا وندعوه، وأننا وإياه نلبي الدعاء.

عباس محمود العقاد
مسابقة الأدب العربي لطلبة السنة التوجيهية
الأجنحة المتكسرة
للدكتور زكي مبارك
تمهيد - النفسية السورية - أحزان سريانية - مهاجرون بلا أنصار - الجميل الغادر - الأمل الضائع - أسلوب جبران - مسألة فيها نظر - الثورة على رجال الدين - جريمة جبران - صدق جبران - الإهداء -
تمهيد
كنت أعفيت نفسي من إتمام هذه الدراسات النقدية بسبب ما توجب من الإرهاق، فليس من السهل أن يقرأ المرء كتاباً في كل أسبوع ثم يكتب عنه بحثاً يرتضيه جمهور القراء، ولكن جماعة من طلبة السنة التوجيهية كتبوا يسألون عن المغازي المطلوبة في كتاب (الأجنحة المتكسرة) للمرحوم جبران خليل جبران، كما سأل فريق عن (وحي الأربعين) للأستاذ عباس العقاد، و (فيض الخاطر) للأستاذ أحمد أمين، فرأيت أن أغتنم ما بقي من الوقت الذي يسبق الامتحان الشفوي لأتتم هذه السلسلة من الدراسات، مع الاعتراف بأنها ليست إلا توجيهات سريعة يراد بها إرشاد القراء إلى طريق الاستقصاء.
وطلبة السنة التوجيهية يذكرون أن الامتحان التحريري سيُعقد في التاسع والعشرين من هذا الشهر، فليُقبلوا عليه بلا تهيب، وليكتبوا بحرية مصحوبة بالرزانة والعقل، وليطمئنوا إلى أن المصححين، قد يرضون منهم بالقليل إن رأوا فيه بوارق تشهد بأنهم على شيء من الفهم العلمي والذوق الأدبي. كتب الله لهم التوفيق!
النفسية السورية
حديث اليوم عن (الأجنحة المتكسرة) لجبران، وقد ضاق الوقت عن مراجعة ما كُتِب عن الأدب الحديث في الديار السورية واللبنانية، وكان من السهل أن أنتفع بكتاب الأستاذ ميخائيل نعيمة عن جبران، ولكني لم أجده في مكاتب القاهرة، ولا وجدت من الفراغ ما يسمح باستعارته من أحد الزملاء، فلم يبق إلا أن أقول في جبران وكتابه كلمةً وجيزة تقرّب مراميه إلى القراء بعض التقريب.
فما تلك الأجنحة المتكسرة؟
كان الرأي عندي أن المؤلف يرمز إلى الأجنحة الفلسطينية والسورية واللبنانية، فجبران في صفحات هذا الكتاب يعبر عن الأشجان الموروثة في تلك البلاد، ثم وجدت في كتابه فقرةً تشهد بذلك، فعرفت أن حكمي على اتجاهاته النفسية لم يكن ضرباً من التخمين.
أحزان سريانية
لكل أدب من الآداب القديمة خصائص، وخصيصة الأدب السرياني هي الإسراف في البكاء، فجبران الحزين هو البقية من روح السُّريان القدماء.
وعلة الحزن السرياني أو السوري لا تحتاج إلى توضيح، فأولئك أقوام كان تاريخهم كله عراكاً في عراك، ولم تكن بلادهم إلا محترّباً يتصاول فيه الفقر والغنى، والعبودية والحرية، والخوف والأمان، بغض النظر عن احتراب العواطف والشجون
وبكاء تلك البلاد لا يمثل العجز، وإنما يمثل العتب على القضاء وقد يرتاض على الصبر الجميل في بعض الأحيان.
ومن أشهر الأغاني السورية هذا الصوت:
ماشي الحالْ، وماشي الحالْ
وما في حالْ، وماشي الحالْ
خلّيها لله، يدبِّرْها الله
وهذه الأغنية هي الصرخة الباقية من بكاء السريان، وهو بكاء ممزوج بالصفح عن كيد الزمان، أو الرجاء في عدل القضاء.
مهاجرون بلا أنصار
والتاريخ يشهد أن الهجرة كانت من المذاهب السورية في كثير من العهود، وهو مع ذلك يشهد ان السوريين كانوا في الأغلب مهاجرين بلا أنصار، فقد بنى أجدادهم الفينيقيون مدينة (مرسيليا) قبل أكثر من خمسة وعشرين قرناً، ولم تحفظ لهم

مرسيليا هذا الصنيع، فأحفاد أولئك البناءين لا يعيشون اليوم في مرسيليا إلا تراجمة أو حمّالين.
ثم هاجرَ السوريون المحدَثون إلى أمريكا، ولم يتركوا قالة من قالات الخير إلا أضافوها إلى الأمريكان، فهل تأمْركوا ونسوا وطن الآباء والأجداد؟
إن نُواحهم الموصول يشهد بأنهم في أمريكا غرباء!
فمن أراد أن يعرف سرّ الحزن في الأدب السرياني القديم، ومصدر اللوعة في الأدب السوري الحديث. فليذكر أن الاغتراب والاضطهاد هما الأصل في ذلك البكاء.
ومن أجل هذا كان السوريون أحرص الناس على تأييد فكرة العروبة لأنهم يرجون أن تكون وطناً فسيح الأرجاء يغنيهم عن الاتجاه إلى الغرب؛ ومن الغرب جاء الاغتراب!
ومن أجل هذا أيضاً كان السوري ينقل وطنه إلى كل أرض ليذكره في كل وقت، عساه يرجع إليه ولو بعد حين.
ومن أجل هذا وذاك كان السوري في أغلب أحواله من رجال الأعمال، ليرحم نفسه من اجترار الأشجان. والغنى في الغربة وطن، كما قال أسلافنا الحكماء.
الجميل الغادر
هو جبل لبنان، الجبل الذي يدعو أبناءه في كل لحظة إلى امتطاء غارب المحيط ليجدوا المجد أو القوت فيما وراء البحار. وكذلك يرحل اللبناني عن الجبل والدمع في عينيه ليواجه العالم بنفس منطوية على الإباء المكبوت أو الهوى الدفين
ولو جمع ما قال المهاجرون اللبنانيون في الشوق إلى ذلك الغادر الجميل لكان تحفة رائعة من صور الوجد والحنين
السوريون المغتربون لا ينسون وطنهم أبداً. وكيف ينسونه وهم مهاجرون بلا أنصار، ولا عزاء لهم غير تمثل ما في بلادهم من أزهار ورياحين؟
الأمل الضائع
كان السوريون واللبنانيون قد رفعوا علم العروبة في الأقطار الأمريكية فأتاحوا لنا القول بأنهم بعثوا (الأندلس) من جديد، وكيف لا يكون الأمر كذلك وقد أنجبوا أدباء من أمثال نعيمة وجبران؟
ولكن الطبيعة تريد غير ما نريد
الطبيعة قضت بأن يكون لبني العمومة في الأمريكتين زوجات أمريكيات وأبناء مخضرمون يعجزون عن فهم لغة الآباء الأصلاء.
وهنا يظهر (عيب) اللغة العربية، فهي ليست لغة تفاهم بسيط ينتفع به الناس في أمور المعاش، وإنما هي لغة أدب وذوق، ولغات الآداب والأذواق لا تعيش بين الأبناء الدخلاء، وذلك هو السر في انحسار اللغة العربية عن بعض الأقطار الإسلامية، وهو أيضاً السر في أن اللغة التي يتكلمها أكثر من مائة مليون لا تنجب في كل عصر أكثر من مائة أديب.
كيف يعود الأدب العربي إلى الأمريكتين من جديد؟
أعتقد أننا خذلنا أولئك الإخوان، فلم نعاونهم على إعزاز العصبية العربية في البلاد الأمريكية ولم نقدم إليهم من المساعدات المالية مثل الذي نقدم إلى بعض الجمعيات العلمية في الممالك الأوربية.
هل سمعتم أن دار الكتب المصرية أو مكتبة الأزهر أو مكتبة الجامعة المصرية أو مكتبة الإسكندرية أو مكتبة وزارة المعارف قد اشتركت في المجلات التي تصدر باللغة العربية في المهاجر السورية كما تشترك في المؤلفات التي ينشرها المستشرقون؟
إلى أهل الغيرة على اللغة العربية نوجه هذا السؤال
أسلوب جبران
عرفنا السر في أحزن جبران، ولم يبق إلا أن ننظر في كتابه الحزين، فماذا نقول؟
نكتب أولاً كلمة عن أسلوب هذا الكاتب؛ ثم نمضي في عرض ما في كتابه من دقائق الأغراض
جبران أراد أن يكون أسلوبه زهرة لا شجرة، فأساء إلى نفسه من حيث لا يريد، وهل كان يتوهم أن النقد الأدبي سيعرف مقاتله بعد حين أو أحايين؟
أغلب الظن أن جبران كان يحب أن يعرف إخوانه في الشرق أن الحياة في أمريكا لم تنسه خصائص البلاغة العربية، وهي بلاغة ظلمها بعض أهليها فتوهموها فنوناً من

الزخرف والبريق، وكذلك شاء جبران أن يكون في كل سطر من كتاباته تشبيهٌ طريف، أو لمحة فلسفية، أو رمز إلى غرض ملفوف يحار في تأويله القراء.

ولكن ما قصة الزهرة والشجرة؟

الزهرة غاية في أناقة التلوين، ولكل ورقة من أوراق الزهرة رونق أخاذ، مع أن أوراقها قد تعد بالعشرات؛ فهي سِحرٌ في سحر وفتونٌ في فتون.

ولا كذلك الشجرة، فهي أفنان مختلفات، وفيها ما يروق وما لا يروق، هي شجرة يعتدل فيها غصن وتعوجّ غصون، وتكون عشاً للبلبل كما تكون وكراً للثعبان.

الزهرة أجمل من الشجرة، ولكن الشجرة أقوى من الزهرة وأقدر على مقاومة العواصف والأعاصير، وكذلك يكون الفرق بين الأسلوب العارم والأسلوب الرقيق، كما يكون الفرق بين الطائر الجارح والطائر الغرِّيد.

ولو كان جبران حيّاً لأسمعته ما لا يحب، ولكنه اليوم في ضيافة التاريخ والتطاول عليه لا يليق.

والمهم هو تنبيه شبان اليوم إلى أن أسلوب جبران ليس أفضل الأساليب؛ فهو زهرة لا شجرة، ونحن نريد أن يكون الأسلوب من صور العنف والطغيان.

مسألة فيها نظر

جبران من أدباء العرب، ونقاد العرب قد فضحوا عمر بن أبي ربيعة حين رأوه يصور معشوقاته بصور المتهالكات على شبابه الجميل.

لا عيب في أن يقول الرجل إنه من هوى الملاح، ولكن ما لا يعاب قد يكون في بعض أحواله مما ينافي الذوق، فكيف استجاز جبران أن يجعل حبيبته صاحبة الخطوة الجريئة في التصريح بالحب، وصاحبة الفضل الأول في الإقدام على (التضحية) يوم اجتمعا لآخر مرة في المعبد الذي جمع بين صورة المسيح وصورة عشتروث؟

قد يجيب بأن جان جاك روسو قد استجاز مثل هذا الصنع ولكن غاب عنه أن روسو لم يقترف ذلك (التصريح) إلا وهو في عقل الأطفال.

جبران قال ما قال وهو في أمريكا (وأنا أزر الشرق) كما قال (ميسّيه) وهو يسخر من (هوجو) وقد يباح في تلك البلاد ما لا يباح!

الحق أن جبران أساء إلى الذوق العربي، وجنى على نفسه وعلى محبوبته جناية سيدخل بها الجحيم، ولن ألقاه هناك!

الثورة على رجال الدين

وغرة كتاب (الأجنحة المتكسرة) هي الصفحات الخاصة بالثورة على رجال الدين، وهي ثورة يحسها المسيحيون لا المسلمون؛ ذلك بأن الإسلام لا يعترف بالكهنوت ولا يقيم له أي ميزان، فالصلاة على الميت تصح من أي مخلوق متسم بالإسلام، وعقد الزواج ويُكتفي فيه بالإيجاب والقبول، والمسلم الصادق هو الذي يتقدم إلى ربه بلا وسيط.

ولا كذلك المسيحية: فهي تعطى رجال الدين طوائف كثيرة من الحقوق، وتمنحهم حرية التصرف في مصاير (المؤمنين) وكان ذلك لأن المسيحية تفترض أن الراعي في جميع أحواله غاية في الرفق والحنان.

والظاهر أن جبران قد اكتوت يداه بنيران رجال الدين، فهو يرجع إلى تجريحهم من صفحة إلى صفحة بلا رحمة ولا إشفاق.

وقد بلغ غاية الشوط فصرح بأن من حق المرأة أن تهجر بيت الزوج لتلقي حبيبها حين تشاء، بدون معاناة لوخز الضمير، وحجته أن (العَقد) الذي يمضيه (الحب) أصدق من العقد الذي يمضيه (المطران)

فكيف وصل الكاتب إلى هذا الحكم الفظيع؟

إن الإسلام لا يعترف لرجال الدين بأي خصوصية دينية، ولا يبيحهم التحكم في مصاير المؤمنين، ومع هذا يخشى المسلم أن تنتاشه ألسنة رجال الدين، لأن صوتهم هو المسموع في تقرير الشك واليقين، فكيف يكون إخواننا المسيحيون؟

الجواب عند جبران، وهو قد صرح بأن رجال الدين لا يخضعون لغير الأهواء، وإن كان من الحق أن نقرر أن هذا التعميم لا يخلو من الإسراف، فعند المسيحية رجال لا يجوز عليهم حكم جبران. وهل يصدُق الكاتب الثائر في كل ما يقول؟

ومع هذا فقد صدق هذا الكاتب بعض الصدق، لأن رجل الدين في المسيحية يدخل جميع البيوت بدون استئذان - ولاسيما في الشرق - وله يد في تعريف بعض العائلات

إلى بعض؛ وقد يكون صلة الوصل في التمهيد للزواج، فما حالُ الفتاة التي لا تطيع هواه في التزوج من فلان أو فلان إذا كان من أصحاب الأغراض؟!
كان جبران يقنعني بأنه يحارب شخصية حقيقية للمطران (بولس غالب)؛ فاتصلت بالأستاذ أنطوان الجميّل تليفونيّاً لأسأله عن تلك الشخصية فأجاب بأنها شخصية خيالية، (وأقول بأنها شخصية حقيقية، وسنعرف أخبارها بعد حين، وإن سترتها المعاريض والمهم! هو أن يسجل النقد الأدبي أن كتاب (الأجنحة المتكسرة) ليس إلا ثورة على رجال الدين في لبنان، بغض النظر عما في تلك الثورة من صحة أو بطلان.
النقد الأدبي مؤرخ، وهو يسجل أعمال الناس، ومن الظلم أن يُسأل عن تلك الأعمال.
جريمة جبران
هي تأثره المكشوف بالأدب الأوربي في القرن التاسع عشر، وهو أدب جميل - ولكنه عليل - لأنه يجعل الحزن غاية الوجود.
ولكن الأدب الوجداني في القرن التاسع عشر غاية في الجمال لأنه غاية في الصدق، وهل ينسى الضمير الأدبي مآسي ميسّيه ولامرتين؟!
صدق جبران
ومع هذا فجبران صادق في بعض مناحيه الوجدانية، وهل يستطيع فتىً أن يبلغ العشرين في لبنان بلا آلام ولا آمال؟
وكيف يكون ذلك الفتى إذا طوّحت به المقادير إلى بلدٍ بعيد بعيد وهو موصول العهد بحبيب لا يرحمه التراب؟
الإهداء
أهدى جبران كتاب الأجنحة المتكسرة إلى: وقد سمت أنها إنسانة أمريكية كانت تنفق عليه لوجه الأدب الرفيع
فما السر في عطف تلك المرأة على جبران؟!
إن هذا الكاتب مغريً بوصف ما بين الإنسان والطبيعة من الصلات، وتلك حال لا يلتفت إليها الأدب الأمريكي كل الالتفات؛ فمن السهل أن نعلل إقبال تلك المرأة على جبران بأنها رأته (إنساناً من الشرق) وكانت تعيش في بلاد تشغلها (السرعة) عن تعقب خطرات القلوب!
هو فتىً ضاقت عنه بلاده، مع أنها اتسعت لألوف الواغلين!
هو روح شرّده الشرق ليدرك سرائر الألم والحنين
هو فتىً يتحدث عن سلمى وليلى في بلاد لا تعرف غير مرجريت وسوزان
هو فتىً بأن المعبد الوثني صار كنيسة ثم تحوّل إلى مسجد، ومعنى ذلك أنه يرحب بانتقال الروح من حال إلى أحوال
أما بعد فهل قلت شيئاً عن جبران؟
الشواغل لا تسمح بأن أقول أكثر مما قلت، وجهد المقلّ غير قليل!
زكي مبارك
أوغسطين - الغزالي
أبو العلاء - دانته
للدكتور جواد علي
بالرغم من اختلاف عصري كل من المفكرين الكبيرين (أوريليوس أوغسطين) قديس المسيحية، و (الغزالي) حجة الإسلام وزين لدين؛ فإن بين الرجلين تشابهاً يكاد يكون عجيباً. تشابهاً في الحياة الخاصة، وتشابهاً في الحياة العامة وفي التفكير والإبداع، حتى في الشخصية تكاد تلامس روحاً واحدة في جسمين مختلفين. عاش أحدهما وهو القديس (أوغسطين) في شمالي أفريقية بين سنة 354 وسنة 430 الميلاديتين. وعاش الثاني في بلاد الشرق الأدنى بين سنة 1058 وسنة 1111 الميلاديتين أيضاً وبين الرجلين كما ترى عدة مئات من السنين.
انتقل (أوغسطين) من حياة الشك إلى حياة اليقين، وانتقل حجة الإسلام (الغوالي) من عالم الشك إلى عالم اليقين كذلك، وكان القديس (أوغسطين) في آخر حياته صوفياً ناسكاً، وكان (الغزالي) في رأس قائمة متصوفي المسلمين. وقد درس (أوغسطين) الفلسفة والمنطق وعلوم اليونان ومعارف عصره؛ ولكنه لم يجد في كل هذه الأمور لذة ولا سعادة، بل وجد لذته في القناعة والزهد والدين الحق، ووجد (الغزالي) نفس

ذلك أيضاً.
لم ينحصر وجه التشابه في طراز معيشة كل من الرجلين العظيمين ولا في أسلوب الدراسة واختيار الدروس فقط، بل ظهر ذلك حتى في طريقة إبراز المعلومات من عالم الفكر إلى عالم الوجود. ألّف (أوغسطين) كتاباً مهماً سمَّاه (مملكة الله) ذاع خبره في جميع العالم المسيحي، وألفّ كتباً آخر سمّاه (العقائد) وألّف (الغزالي) عدة كتب في مواضيع تكاد تكون نفس المواضيع التي عالجها القديس (أوغسطين)، ومن جملة كتبه كتاب (المنقذ من الضلال)؛ وبكاد يكون هذا الكتاب نفس كتاب (العقائد) لأوغسطين في مضمونه واصطلاحاته وأغراضه التي من أجلها وضع هذا الكتاب.
وقد انتبه إلى هذا التشابه المستشرق فريك الذي قارن بين الكتابين وإذا بينهما تشابه عظيم في الترتيب والأسلوب والفصول والأدلة، بل حتى في بعض العبارات يكاد يكون عجيباً. وقد بحث هذا المستشرق عن نقاط الاختلاف الكائنة بين الكتابين أيضاً واحداً اتفقا في كل
شيء عدا الزمن والديانة. وقد دل المستشرق بصورة خاصة على ناحية التصوف والزهد في حياة كل من الرجلين، وهي الناحية الحساسة التي أثرت على مزاج كل منهما، ومزاج كل من أوغسطين والغزالي واحد.
وهذا التشابه غريب في بابه حقاً إذ لم يكن الغزالي يعرف اللاتينية حتى نقول إنه اطلع على مؤلفات أوغسطين، ولم يرد في الرواية أيضاً أن أحداً من علماء المسلمين أو المترجمين كان قد ترجم كتاباً من كتب هذا القديس إلى العربية حتى نقول إن الغزالي اطلع على كتب القديس واقتبس منها. لم يقل بذلك أحد حتى المستشرقون إلى هذا اليوم.
يحدثنا البيهقي في كتابه تاريخ حكماء الإسلام أن الغزالي كان كثيراً ما يورد كلام العالم الإسكندري الشهير يحيى النحوي
لاسيما في كتابه تهافت الفلاسفة حيث يقول البيهقي: (وأكثر ما أورده الإمام حجة الإسلام رحمه الله في تهافت الفلاسفة تقرير كلام يحيى النحوي) ويذكر الشهير زوري في كتابه (نزهة الأرواح) أن الغزالي أخذ أورده في التهافت من كتب يحيى النحوي
وقد اشتهر يحيى النحوي هذا بردّه على الفيلسوف برقلس (410 - 485م) رئيس المدرسة الأفلاطونية الحديثة في أثينا وصاحب كتاب (مبادئ تعاليم اللاهوت)، وكتاب شرح محاورات أفلاطون في إبطال نظرية قدم العالم.
وهل يستطيع القارئ استنتاج شيء عن هذه الرواية؟ والظاهر منها أن الغزالي كان قد اطلع على كتب الفيلسوف يحيى النحوي وكتب هذا الأفلاطوني المتفلسف كما يقول ابن القفطي كثيرة.
تعالج مواضيع فلسفية متنوعة وتعالج مواضيع تخص الكنيسة والعقيدة وهو أحد رجالها فهل توصل الغزالي إلى آراء أوغسطين عرضاً بواسطة كتب يحيى النحوي؟ ولكن هل كانت آراء يحيى أو يوحنا النحوي هذا مستمدة من منبع آخر هو أوغسطين بالنقل دراية أو رواية أو بتشابه الفكرة وتوافق العقيدة فانتقلت هذه عرضاً أو دارية إلى الإمام الغزالي بالنقل أو بطريقة الاطلاع؟ لا أدري. وعلى كل فهنالك مشاكل علمية كثيرة لا يمكن للمؤرخ أن يجيب عنها أجوبة قاطعة أبداً.
وخلاصة ما يمكن قوله هو أن الحجتين تشابهاً عظيماً جداً يكاد يكون محيراً؛ وأن هذا التشابه هو الذي جعل لكتب الغزالي رواجاً عظيماً بين فلاسفة أوربا المدرسيين المسيحيين وشهرة كبيرة أثرت على آراء بعض علماء اللاتين مثل توماس الأكويني وباسكال بطريقة مباشرة أو غير مباشرة حتى يمكن أن نقول إنه كان حجة لدى المسيحيين كما كان حجة لدى المسلمين.
أدرك علماء من المسلمين هذا التشابه بين آراء الغزالي وبين آراء يحيى النحوي فقالوا بأن الغزالي كان يقرر ما كان يحيى قد سبقه به. وأدرك بعض المستشرقين ما بين كتاب (المنقذ من الضلال) وما بين كتاب أوغسطين (العقائد) من الاتصال فقالوا قولاً ل يجزموا أنفسهم بما قالوه جزماً. وأدرك المستشرقون أيضاً ما بين (الكوميديا الإلهية) للشاعر الإيطالي دانته الشهير (1266 - 1321م) وما بين بعض القصص الإسلامية من الاتصال مثل قصة الإسراء. وقالوا إن دخول هذه العناصر إلى الكوميديا الدينية كان إما عن طريق مباشر وإنا عن طريق الأساطير الأوربية التي سبق عهدها

عهد الكوميديا الإلهية. وتظهر هذه الروح الإسلامية في كثير من مواضع الكوميديا. وقد أيد بحث بعض المستشرقين أمثال سنوك هور كرونيه وإيتالو بيتزي هذا الرأي. وقد كتب العالم الشهير عن هذا الموضوع كتاباً خاصاً حلل فيه الكوميدية تحليلاً دقيقاً مظهراً أثر القصة العربية فيه.

وقال آخرون إن هذا التشابه أمر واقعي؛ ولكنه لا يعود إلى مصدر عربي أصلاً بل يعود سببه إلى التقارب الكائن فيما بين العقليتين الرومانية والعربية. بينما يرى إسن أن لرسالة الغفران للشاعر المتشائم أبي العلاء المعري، وهو شاعر فيلسوف يوافق تفكيره التفكير الغربي أثر لا ينكر على كوميدية دانته هذه. وهذا رأي ذهب إله مستشرقون آخرون وقد تعودنا سماعه، ولكنه يحتاج إلى بحث علمي دقيق لنرى وجه التشابه، وسبب هذا التقارب في الأفكار.

وعلى كل فهنا مثالان نسوقهما للقارئ من أمثلة كثيرة، ليرى إلى أي مدى يصل التشابه الفكري بين الناس أحياناً وهو موضوع مهم أكثر ما يسقط فيه المستشرقون. يحتاج إلى درس عميق ومقارنة بين العقليات البشرية، وخصوصاً فيما يطلق عليه (الأفكار البشرية العامة) وهي الأفكار التي تخطر على بال كل أحد وتمر على فكر كل إنسان.

جواد علي

الأحلام

للعالم النفساني سيجموند فرويد

ملخص محاضرة ألقاها قبيل وفاته

للدكتور محمد حسني ولاية

ينقسم الحلم إلى شقين: الحلم الظاهر والحلم الكامن. ويحتوي الأول على نسيج الحلم نفسه، ويتضمن الثاني ما يختفي وراء الحلم الظاهر من الأفكار والصور المستقرة في العقل الباطن (اللاوعي). وللاهتداء إلى الشطر الكامن علنا أن نطلب إلى الحالم استبعاد انتباهه من الحلم الظاهر والاهتمام بعناصره كل على حدة والإدلاء بالحوادث التي عرضت له في اليوم السابق للحلم والتي تمت إلى هذه العناصر بصلة. وعلى هذا الأساس تسهل معرفة الأفكار المرتبطة بحوادث الحلم لما تنطوي عليه من ذكريات من اليوم السابق للحلم علاوة على ذكريات مستمدة من الماضي البعيد والقريب.

يبذل الحلم مقاومة تتفاوت قوتها لإخفاء بعض نواحي الحلم ويتمخض هذا عن اضطراب الحلم وفقده بعض همزات الوصل. وليس الحلم الظاهر أو بعبارة أخرى الحلم المحسوس إلا وليد طاقة فكرية ترمي إلى التعبير عن نفسها، ولكنها اصطدمت بمقاومة؛ وهذا يؤدي إلى أن هذه الطاقة قد تعبر عن مضمونها، ولكن قد تقوى المقاومة على منع هذا التعبير أو أن تستبدل اتجاه الطاقة باتجاه آخر لا يدل على كنهها، وفي أكثر الأحيان ينتج من الصراع بين هاتين القوتين (الطاقة والمقاومة) مظهر منسجم بحيث تستطيع القوى الدفينة أن تقول كل ما تريد أن تقوله، ولكن ليس على المنوال الذي تتوخاه ويتمخض هذا عن تشويه تعبيرها بحيث يصبح غير مفهوم. وتسمى القوة المقاومة (الرقيب الحلمي) وما هي إلا القوة الكابتة المستقرة بين الوعي واللاوعي.

إن المنبه غير الواعي هو خالق الحلم الحقيقي لأنه مصدر الطاقة العقلية اللازمة لتكوين الحلم، وهو كأي منبه غريزي يسعى إلى الوسيلة التي تشبع نهمه وتظهر قوته. والواقع أن كل حلم يعبر عن إشباع رغبة غريزية على نمط هلوسي وهمي، لأن التفريج عن نفسه عن طريق الحركة غير ممكن بسبب النوم وعليه أن يرجع القهقرى ليتدفق في مجرى آخر

هو مجرى الإدراك الحاسي ويعبر عن نفسه بطريقة هلوسية. وعلى هذا تتحول أفكار الحلم الكامنة إلي صور حاسية ومناظر مرئية، وتتزيا الأفكار والصور بزي يبدو لنا جديداً عجيباً. ولما كان الجهاز اللفظي عاجزاً عن العمل في حالة النوم فهو لا يستطيع التعبير عن الارتباطات الفكرية الدقيقة ويتخلف عن هذا مواد فكرية خامة لا تماسك بين بعض أجزائها والبعض الآخر فهي تشبه تعبير الشخصي البدائي. وقصارى القول أن هذا المنبه الفكري المكبوت يتراجع إلى طرق قديمة في الجهاز العقلي بتأثير الرقيب

االحلمي، ويعبر عن نفسه على نمط الإنسان الفطري بالرموز التي أصبحت غريبة على الوعي ولكنها كامنة في العقل الباطن. على أن التغييرات التي تطرأ على العناصر التي تحتوي عليها الأفكار الحلمية على جانب عظيم من الأهمية فإن هذه الأفكار تتكثف بحيث تتكون منها وحدات جديدة كما سنرى فيما يلي.

عندما تترجم الأفكار إلى صور تعبر هذه الصور عن أفكار كثفت واعتصرت وقد يمثل بسبب هذا التكثيف عنصر واحد في الحلم المحسوس عدة عناصر من الأفكار الحلمية، ولكن على النقيض من هذا قد يمثل عنصر واحد من الأفكار الحلمية عدة صور مرئية في الحلم.

وهناك ظاهرة هامة أخرى، هي ظاهرة الإزاحة أو النقل وتنطوي على نقل أهمية فكرة إلى أخرى، وتعد هذه الإزاحة في الوعي كخطأ في التفكير، أو كوسيلة للمزاح. إن الأفكار الفردية التي تكون عناصر الأفكار الحلمية ليست كلها ذات أهمية متساوية، لأن كلا منها مزود بطاقة عاطفية أو انفعالية تتفاوت في قوتها. وتنفصل في الحلم هذه الطاقات العاطفية عن الأفكار، وحينئذ تتحول إلى طريق آخر أو تعدل أو تختفي من الحلم كلية أو تبقى كما هي. وقد تعود الأفكار التي سبق أن حرمت من طاقتها الانفعالية إلى حلم في شكل صور حلمية حساسة، وبذلك تتعلق الأهمية بعناصر لم تكن ذات أهمية، وعلى هذا نرى أن الصور المرئية البارزة في الحلم التي تعتبر أهم عناصره، ليست في حقيقة الأمر أهم عناصر الأفكار الحليمة، كما أن العناصر التي تبدو قليلة الأهمية في الحلم قد تكون في الواقع أهم عناصره، ولكن قلت أهميتها في الحلم بسبب حرمانها من الطاقة الانفعالية أو العاطفية. وهذا هو السبب في أن الحلم يبدو غريباً غير مفهوم. من هذا يتضح أن الإزاحة تؤدي إلى تشويه الحلم تحت تأثير الرقيب الحلمي.

بعد هذه العمليات تصبح الأفكار الحلمية جاهزة، ولكنها قد تتأثر بعملية أخرى غير ملموسة الأثر في كل الأحلام وتسمى عملية الإعداد الثانوي التي تؤثر على الحلم عندما يصل إلى الوعي الذي يحاول أن يوجد همزات الوصل، ويملأ الفراغ بين بعض عناصر الحلم والبعض الآخر، فيبدو الحلم متماسكاً مصقولاً.

وحين ينعدم الإعداد الثانوي تبدو الأحلام على فطرتها لا تماسك بين بعض أجزائها والبعض الآخر. وقد يعمل الوعي على إعداد شطر من الحلم ويترك الشطر الآخر دون صقل ولا تهذيب.

يحتوي الحلم على رموز قد يصعب تفسيرها، وتستعصي معرفة مصدرها.

يرمز المعطف عندما تحلم به امرأة إلى الرجل، ويرجع منشأ هذا الرمز إلى طقوس البدو أثناء الاحتفال بالزواج في العهد القديم فقد كان يلبس البدوي عروسه عباءة وهو يقول (لا تدعي رجلاً آخر يسترك سواي)

وقد ذكر إبراهام أن العنكبوت يرمز إلى الأم القُبُلية لأنها تنهي طفلها عن العبث بقبلة فهو يخشاها ويمثل الخوف من العنكبوت الخوف من حب المحارم وكذا الخوف من رؤية أعضاء الأنوثة.

وقد فسر فرنزي رمز الجسر بكونه يمثل في الأصل عضو الذكورة الذي يصل الوالدين أحدهما بالآخر أثناء العملية الجنسية. على أنه يمثل أيضاً معاني أخرى ناشئة من عضو الذكورة نفسه لأنه المسئول عما يحدث بعد من ولادة الطفل بعد أن يتدفق السائل القرني، ومن هذا يتضح أن الجسر قد يمثل عملية الولادة في حد ذاتها.

(للبحث صلة)

دكتور محمد حسني ولاية
طبيب بصحة بلدية الإسكندرية

نساؤنا في الحج

للسيدة وداد سكاكيني

هنالك على السفوح المقدسة من عرفات ومنى، حيث يتناوح الأخشبان بهامتيهما العاريتين وفي عدوة المسعى بين الصفا والمروة تتهادى نساء في الحجيج، متلفعات بالأبرار البيض، مؤتزرات بأنقى الجلابيب، يبتهلن إلى الله بوجوه مشرقة بالرضا، وقلوب فياضة باليقين، جياشة بالحنين، إلى بيته الحرام؛ وكما يزم الرجل رحاله، ويلملم أحماله، ويطوي البيد أو يمخر البحار، ليصل إلى ديار بني هاشم وعبد شمس،

بإيمان لا يزعزعه زمان، وآمال ترثها الأجيال من الأجيال؛ هكذا تسارع نساؤنا في مواكب الرجال، إلى دارة الوحي وكعبة الدين، لا يصدهن عن الحج حرب ولا بعد، ولا يعوقهن غد غامض مجهول، أو ولد حبيب، فإذا بلغن مكة المكرمة، وباشرن فريضة الحج، بدأن من الشعائر بالإحرام، فلبسن كالرجال إزاراً ورداء جديدين ناصعين بالبياض، ثم والينَ التلبية، رافعات بها الأكف، مبدئات ومعيدات: الله أكبر، الله أكبر! لبيك اللهم لبيك. . . فيتردد هذا الهتاف، ويضيع في زمام الحجيج كلما علون شرفاً ونجادا، أو هبطن سفحاً ووهادا، فمن حول البيت العتيق كم طوفت مسلمات مستلمات الحجر الأسود، ميامنات فيه أشواطاً سبعة مباركة! ولكم ثمة وفين بالنذور، وتشبثن بالأستار الشريفة، داعيات إلى الله بالرحمة والغفران، وسلامة الإياب إلى الأوطان. . .

كانت زبيدة بنت المنصور زوج الخليفة العباسي هرون الرشيد تتوق للحج كلما حج الرشيد الذي كان من دأبه أن يغزو عاماً ويحج عاماً، فلما قتل ابنها الأمين، واستولى المأمون على الخلافة، جاءت زبيدة الثكلى حاجة محتسبة عند بيت الله مصابها في ابنها، فأكبت على المبرات، وأجرت عيناً حتى اليوم باسمها، يجد عندها الحجيج سكناً للهاثهم، وريّاً لظمائهم. . . ومن يدري، فلعل السيدة زبيدة - يرحمها الله - كانت إذا وقفت عند أستار الكعبة تمزج الرحمات بالدمعات، وتنشد قول الحسن بن هانئ في ابنها الأمين:

طوى الموت ما بيني وبين محمد ... وليس لما تطوي النية ناشر
لئن عمرت دور بمن لا أحبه ... فقد عمرت فيمن أحب المقابر
وكنت عليه أحذر الموت وحده ... فلم يبق لي شيء عليه أحاذر

ثم تنثني إلى الصدقات، فتأمر بإمداد المعوزين والمساكين؛ فتكسوا العريان، وتطعم الجائع، وتعطى الفقير. . . ومن الغريب ألا يسلم عصر من عصور الأدب نم مزاحمة الشعراء للنساء، ولو كن في مناسك الحج ومحاريب العبادة والزهادة: (ألم تر أنهم في كل واد يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون؟). . . هكذا كانوا يرتقبون أسباب الدعاب، ويتلمسون مراتع الفتون، فيجيبون داعي القلب، كما يجيبون داعي الرب. على أن أشهر وأكثر من تصدي للنساء بالغزل والثناء هو عمر بن أبى ربيعة، فقد اتخذ من أيام الحج موسماً للهوة ومجانته، وكثيراً ما وقف عند الحطيم هائم النفس يترقب وينشد:

أيها الرائح المجد ابتكارا ... قد قضى من تهامة الأوطارا
من يكن قلبه صحيحاً سليماً ... ففؤادي بالخيف أمسى معارا
ليت ذا الدهر كان حتما علينا ... كل يومين حجة واعتمارا

وقد بلغ من عبثه وغزله أن نفرت كل حصان رزان من الحج، وأبى أحرار الرجال على نسائهم تأدية هذه الفريضة كلما جاء هذا الشاعر المخزومي إلى تلك المناسك المباركة.

كان عمر يقتحم العقبات ولا يحجم عن تعقب الحسان وتتبع الغواني في مغاني الطائف أو بين مسارب العقيق وواديه البهيج مهما لقي من تهديد الخفاء والمتزمتين ومن وعيد أصحاب الغيرة على الحرمات، ولكم هجر مكة أناس فراراً من هذا الشاعر الغزل، وخشية تشبيبه بكرائمهم وتنويهه بأسمائهن وكشفه عن معالم الجمال فيهن. أما موكب النبيلات من شريفات الحجاز أو العراق والشام في مواسم الحج فكانت حافلة بالهوادج والرواحل مثقلة بالمتاع والزينة.

روي أن عائشة بنت طلحة ذات مرة ومعها ستون بغلاً عليها الرحائل والقباب فعرض لها عروة بن الزبير قائلاً:

عائش يا ذات البغال الستين ... أكل عام هكذا تحجين

فأرسلت إليه: نعم يا عُرَيَّة! فتقدم إن شئت. فكف عنها وندم على فضوله

ولم تكن كل النساء في عصر عمر سواء في التنكر للشعراء والتحرج من غزلهم ولهوهم، فالجميلة منهن كانت تتمنى أن يسير في ذكرها الشعر، ولاسيما في شعر عمر بما يزيدها تيهاً بحسنها ويغرى بها الخطاب. وكان الشاعر العرجي يتصدى في موسم الحج لمن عناهن بقوله:

من اللاء لم يحججن يبغين حسبة ... ولكن ليقتلن البريء المغفلا

ولكثير عزة وجيل بثينة والأحوص أشعار في بعض الحاجات المترفات ممن رضين بالأماديح وعدن تياهات بلقيا الشعراء مباهيات بغزلهم ونسيبهم، حتى أن النواسي على مجونه لحق بجنان جارية الثقفي إلى طريق الحج فقال:

حججت وقلت قد حجت جنان ... فيجمعني وإياها المسير

وفي الواقع أن نساءنا في الحج كن في القديم يؤدين هذه الفريضة بشوق وحماسة ودافع ديني صميم؛ وهنالك كن يشهدن في ذك الموسم العظيم مباهج الإسلام وعزة الدين وفضل المساواة وكانت الحاجة تعود إلى بلادها سعيدة جد سعيدة، مزهوة بما نالت من شرف الخطوة بالأرض المطهرة التي فيها أول بين وضع للناس والتي ضمت قبر الرسول عليه السلام وصحبه الأكرمين وأطلعت آفاقها المنورة كواكب رجال تسلموا مفاتح الدنيا وملكوت زمامها.

أما نساء اليوم من أنداد مترفات الأس وفضلياتهن فقلما يدور الحج في خواطرهن وهن مستطيعات إليه سبيلاً، إذ أن تيار الحضارة قد جرفهن بريحه العاتية نحو الغرب فسجن في بلاده، وزرن عواصمه الكبرى للمعرفة والسلوى وكان إليها حجهن المبرور.

فيا مهبط الوحي ويا موطن النبوة والهجرة، إليك تهفو روحي هفهافة كالأجنحة، خالصة صافية كماء النبع، متوجهة للذي فطر السموات متوسلة إليه أن أراني يوماً طوافة في البيت الحرام حوامة على ذلك الصعيد الطهور الذي درجت في حماه خديجة الكبرى وفاطمة الزهراء وعائشة أم المؤمنين وأسماء بنت أبي بكر وسكينة بيت الحسين وغيرهن من القانتات الطاهرات.

ويا حجيج هذا العام من مترامي بقاع الإسلام، يا من طويتم المراحل في غمرة هذه الحرب الضروس إلى بيت الله ومثوى الرسول سلوا ربكم أن يرفع غضبه عن بني الإنسان ويحقن الدماء التي يسفكها الجبابرة والطغاة ليقيموا على جماجم الأبرياء مجداً لجشعهم صبيغاً بالنجيع.

(دمشق)

وداد سكاكيني

رأي في تنقيح الأحاديث

للأستاذ محمود أبو رية

استبشرنا خيراً حينما أهاب بالعلماء الأستاذ الكبير الشيخ محمود شلتوت ليدعوهم إلى العناية بكتابهم فيعملوا على تخليص تفسيره مما شابه من الإسرائيليات التي شوهت جماله وأذهبت نوره، وقلنا لعل هذا العمل الطيب يكون مقدمة لأن يجعل شيوخ الأزهر هذا الكتاب الكريم إمامهم في أخذ العقائد والعبادات والأحكام منه ويسيروا بنوره في هذه الحياة حتى يكونوا هداة بحق، ومن ثم يتبين لأهل الأرض جميعاً أن هذا الدين خير الأديان وأنه صالح لكل زمان ومكان. ومنذ أيام كنت أتحدث مع الأستاذ الكبير صاحب الرسالة في هذا الأمر الذي دعا إليه الأستاذ شلتوت وكان مما قلته له، أن تخليص تفسير القرآن من الإسرائيليات يجب أن يسبقه أو يكون معه تطهير الأحاديث التي هي (السنن القولية) مما أنبث فيها من الموضوعات، إذ ما أصيب الإسلام بشيء أشد وأنكى مما أصيب به في ناحية هذه الأحاديث الموضوعة. وما كانت الإسرائيليات التي تدسست إلى التفسير إلا جزءا منها؛ ذلك بأن أعداء الإسلام وأصحاب الأهواء لما رأوا أنه لا يمكنهم أن يضربوا المسلمين من قبل كتابهم لأنه جاءهم من طريق التواتر، ونسخة منتشرة بين أرجاء الأرض، وكثير من المسلمين يحفظونه عن ظهور قلوبهم فلا يستطيعون بذلك أن يزيدوا فيه حرفاً أو يبدلوا منه كلمة، عمدوا إلى الحدث عن الرسول صلوات الله عليه فلعبت فيه أيديهم ونالوا به مآربهم، وغر المسلمين الأولين أن أولئك الذين يبطنون الكفر والحقد يرتدون لباس الإسلام ويعملون بأحكامه، فقبلوا منهم ما روَوا وصدقوهم فيما حدثوا. وناهيك بما فعل كعب الأحبار ووهب بن منبه وغيرهما. ولقد كان للمسلمين مما وضعه أولئك الأعداء في الأحاديث مشكلات كثيرة في الدين والحس والعلم لم نخلص منها حتى اليوم. فإذا أردنا الإصلاح حقاً كان علينا أن نبدأ بالحديث فننخل كتبه ولا نُبقي فيها غير الصحيح مما يخالف متواتر النقل وصريح العقل وما أثبته العلم وما شهد به الحسن؛ وإننا إن نفعل ذلك لا نكون قد خرجنا عن قواعد رجال الحديث أنفسهم فقد قالوا: إن من جملة دلائل الوضع أن يكون

مخالفاً للعقل بحيث لا يقبل التأويل، ويلتحق به ما يدفعه الحس والمشاهدة أو يكون منافياً لدلالة الكتاب القطعية أو السنة المتواترة أو الإجماع القطعي.

وقالوا: ليس كل ما صح سنده يكون متنه صحيحاً، ولا كل ما لم يصح سنده يكون متنه غير صحيح.

وكذلك قالوا: (ولا يلزم في إجماع الأمة على العمل بما فيهما (البخاري ومسلم) إجماعهم على أنه مقطوع بأنه كلام النبي صلى الله عليه وسلم)؛ ومتى تم لنا ذلك واستقام كان تخليص التفسير في الإسرائيليات وغيرها سهلاً يسيراً؛ أما إذا وقف بنا الأمر عند تفسير كتاب الله تعالى، وتركنا كتب السنة تحمل ما تحمل، فإن عملنا يكون ناقصاً، ويظل المسلمون على ما هم فيه من الاختلاف بين الفرق والتعصب بين المذاهب، ذلك بأن الأحاديث - كما لا يخفي - هي مرجع كل الطوائف ومأخذ كل المذاهب.

هذا ما حدثت به الأستاذ الزيات، فكان من جوابه أن جماعة كبار العلماء قد تداركت هذا الأمر، وإنك ستجد ما قرروه في العدد القادم من (الرسالة). ولما طلع علينا هذا العدد 446 وقرأت فيه قرار الجماعة، عجبت من أنهم لم يلتفتوا إلى أمر السنة إلا لرغبة أتتهم من غيرهم، كان هذا الأمر العظيم ليس له خطر عندهم. على أني رأيت أن أعلق بكلمة صغيرة على قرار الجماعة في أمر السنة ووضع كتاب فيها، وأرجو أن تنال هذه الكلمة منهم الرضا والقبول.

تقول الجماعة: إنها ستضع مؤلفاً يجمع الأحاديث التي (تصلح للاحتجاج والتي لا تصلح من بيان درجاتها)، وكلمة (تصلح للاحتجاج) مطلقة المعنى، فكما تصلح الحجة القوية للاحتجاج، فإن الحجة الضعيفة تصلح كذلك!

فإذا أخذنا بهذه لقاعدة، ظل باب الضعيف مفتوحاً للاحتجاج به، ورجعنا إلى قول بعض الأئمة، في أن الضعيف يقوي بتعدد طرقه، وكأننا لم نضع شيئاً. ونحن بما نرجو في تنخل السنة، إنما نريد إخراج كل ضعيف مهما تعددت طرقه، لأن الضعيف ضعيف ولو تعددت أسانيده، وإذا كانوا قد قالوا في الصحيح: إنه يعطى الظن فتُرى ماذا يعطى الضعيف؟!

على أن هذا الإطلاق يجعل المسلم في حيرة من أمره، إذ لا يعرف ما هي الأحاديث التي يحتج بها في أصول الدين، ولا ما هي التي يحتج بها في فروعه. فالواجب أن يكون وضع كتاب السنة على غير هذه الطريقة. وإني أعرف هنا طريقة في تنقيح كتب الأحاديث، وهي لإمام السنة في هذا العصر المرحوم السيد محمد رشيد رضا، وقد كان هو يريد أن
يعمل بها، ولكن المنيَّة حالت بينه وبين ما كان يريد.

ذك أني كنت حدثته قبل موته بنحو عامين في أن يخدم السنة بتنقيح كتبها؛ فكان جوابه لي رحمه الله أنه لم يأسف على شيء فاته في الحياة أسفه لعدم قيامه بهذا الواجب، وتمنى لو أطال الله عمره لينهض به. وبعد شهور كتبت إليه أذكره بهذا العمل وأسأله عن الطريقة التي تنفع في هذا التنقيح إذا تهيأت أسبابه. فكتب إليّ رضي الله عنه جواباً كأنه كان يخاطب به كل من يريد أن يعالج هذا العمل، وإننا ننقلها إليهم ونرجو أن ينتفعوا بها في عملهم، قال:

إن على المسلين أن ينقحوا كتب السنة ويبينوا للناس صفوة السنة التي بين بها . . .) الرسول صلى الله عليه وسلم كتاب الله وأمر أصحابه بتبليغها للناس، ففعل خلفاؤه وسائر علمائهم ذلك وقاموا به خير قيام على حين لم يكن معهم كتاب مخطوط غير كتاب الله، ويبينوا لهم ما هو قطعي الدلالة والرواية لا عذر لأحد في جهله ولا في تركه، وما هو موكول إلى اجتهاد الأفراد، وما هو خاص باجتهاد الأئمة (الخلفاء والأمراء والقضاة). الخ

هذه هي الطريقة الحكيمة التي أرشد إليها هذا الإمام الكبير وهي جديرة بأن تنال مكاناً محترماً بين جماعة كبار العلماء، فإن لم يأخذوا بها فلا أقل من أن يسترشدوا بما جاء فيها.

هذا ما رأينا أن نعلق به على قرار جماعة كبار العلماء، ونرجو لكي يخرج هذا العمل الجليل كاملاً أن تولاه أخصّاء من كبار المحدثين الفقهاء، أمثال المحدث الفقيه الشيخ أحمد شاكر.

وإن أمل المسلمين جميعاً لكبير في أن الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر سيمد جماعة كبار العلماء بروح منه حتى تنهض بقوة لأداء ما قررته من تفسير كتاب الله تفسيراً صحيحاً وتنقيح سنة الرسول صلوات الله عليه؛ لأن هذا العمل ولا ريب هو أجل عمل تقوم به هذه الجماعة في هذا العصر لتنفع المسلمين بين مشارق الأرض ومغاربها في دينهم ودنياهم.

(المنصورة)

محمود أبو ريه

الصليب

للشاعر لامرتين

بقلم الأستاذ محمد أنور ولاية

ماتت ألفير في 18 ديسمبر 1817 وهي جوليا في قصته رفائيل بعد أن عانت آلاماً) مبرحة وقد حمل أحد أصدقاء لامرتين إليه من التي كان يحبها الصليب الذي كانت ممسكة به ساعة النزع. فنظم هذه الأبيات بعد مضي عام. ولكنها لم تنشر إلا في عام 1823 في مؤلفه (التأملات الثانية)، وربما أدخل عليها المشاعر في تلك المدة بعض (التعديل كعادته

أنتَ الذي التقطتك من فوق فمها وهي تكابد غصص الموت، في ساعة الوداع وهي تلفظ النفس الأخير

إنك رمز قدسي لصورة الإله، ومنحة من يدها وهي نفارق الحياة

كم دمعة ذرفتُها تحت قدميك اللتين أعبدهما،

ومنذ الساعة المقدسة قد تسلمتك يداي المرتعشتان

وأنت ما تزال دافئاً من نفسها الأخير، المنبعث من أحشاء هذه الشهيدة.

كانت المشاعل المقدسة ترسل شعلة أخيرة،

وكان القس يتمتم بأغاني الموت العذبة، الشبيهة بتلك الأغاني ذوات الأنين المؤثر التي ترددها المرأة للطفل المسترسل في النوم.

لقد انطبع على جبينها أثر ذلك الأمل، المنطوي على الورع والتقوى.

وعلى أسايرها التي بدت في جمال رائع،

طبع الألم الهارب بهاءه والموت جلاله.

وهذه الريح التي كانت تداعب جدائل شعرها،

كانت تكشف لي عن محياها آناً وتحجبه آناً،

كما تموج ظلال شجر السرو السوداء على قبر ناصع البياض.

كانت إحدى ذراعيها متدلية من فراش الموت،

والأخرى منثنية على قلبها بتراخ كأنها ما زالت تبحث عن صورة المنقذ لتضمها إلى فمها.

فتحت فاها لتعانقه ثانية،

ولكن روحها ولت الأدبار وهي تطبع عليه هذه القبلة الإلهية كالعطر الرقيق المنبعث من البخور الذي تلتهمه النيران قبل أن يتأجج.

والآن هدأ كل شيء على فمها.

وأخلد النفَس إلى السكون في أحشائها الهامدة.

وعلى عينها اللتين خبا بريقهما أسبلت جفنيها حتى أضحتا مغمضتين نصف إغماض.

تملكني فزع لا أعرف كنهه حين كنت ماثلاً أمامها،

وكنت لا أجسر على الاقتراب من هذا التراث المعبود

كنت لا أجسر. . .! ولكن أنصت الكاهن إلى سكوني وأمسك بيديه المثلجتين الصليب وصاح بي:

(!. . .هو ذا التذكار. هو ذا الرجاء. خذه يا بني)

نعم ستبقى لي أيها الإرث المحزن.

منذ ذلك اليوم بدّلَت الشجرة التي زرعتُها على قبرك وريقاتها سبع مرات ولكنك لم تهجرني.

كنت قائماً إلى جانب هذا القلب وا أسفاه حيث كل شيء سائر إلى الزوال.

فحنيتها من النسيان على مر الزمن.

وطبعت عيناي وهما تذرفان القطرة تلو القطرة أثرهما على العاج الذي لان.
يا من باحت إليه الروح المدبرة بسرها الأخير
تعال. وتربع على قلبي وتكلم أيضاً وبثني حديثها لك عندما أصبح صوتها الضعيف لا يصل إلا إلى مسامعك.
وفي هذه الساعة المريبة حيث النفس خاشعة، وهي تتوارى تحت النقاب الذي يبدو كثيفاً لأعيننا، خارج نطاق حواسنا المثلجة، تنكمش رويداً رويداً غير منصتة إلى الوداع الخير.
وبينما هي على نهاية الحياة في انتظار الموت كالثمرة التي تنفصل من الفرع لثقلها
ترتعش روحنا المعلقة عند كل زفرة على ظلام القبر
وحين تكف أغاني وتنهدات النشيد المضطرب عن إيقاظ عقلنا النائم
إذ بك ملتصق على الشفاه في ساعة النزع كآخر صديق
إنك تعرفين كيف تموتين، وأن دموعك الإلهية التي ذرفتها في تلك الليلة المخيفة، حيث كنت تصلين عبثاً، قد روت شجرة الزيتون المقدسة من المساء إلى الفجر.
وعندما ألقت عيناك نظرة على الصليب لتسبر غور هذا سر العظيم
رأيت أمك تجهش بالبكاء والطبيعة تلبس الحداد
لقد فارقتِ أصدقاءك على الأرض كما هجرت جسدك في القبر
سأبحث عن الموضع الذي زفر عليه فمها منك وداعها الأخير وهي تسلم الروح
لعل نفسها تُقبل لهداية نفسي الهائمة في حب إله واحد
ألا من حبيب يلبس الحداد يلتقط الإرث المقدس من فوق فمي وأنا على فراش الموت وقد اعتراني الاكتئاب والهدوء معاً كملاك مولّه الفؤاد.
فيسدد خطواته ويأتنس به في ساعته الأخيرة
فتنتقل تلك الوديعة المقدسة المنطوية على الحب والأمل من المرتحل إلى المقيم؛ وهكذا دواليك
إلى أن يأتي يوم تخترق فيه الأموات القبة المظلمة
يناديك صوت من السماء سبع مرات
فيوقظ هؤلاء الذين ينامون في ظل الصليب الأبدي
(الإسكندرية)
محمد أنور ولاية
المصريون المحدثون - 23
شمائلهم وعاداتهم في النصف الأول من القرن التاسع عشر
تأليف المستشرق الإنجليزي ادورد وليم لين
للأستاذ عدلي طاهر نور
تابع الفصل السادس - عاداتهم
كثيراً ما يحدث أن يرد الرجل امرأته بعد طلاق ثالث (بشرط أن ترضى هي نفسها باستئناف المعاشرة وألا يوجد شهود بوقوع الطلاق) دون أن يخضع للقانون الثقيل السابق ذكره. وجرت العادة أيضاً أن يستخدم الرجل في مثل هذه الظروف آخرَ يتزوج المطلقة بشرط أن يطلقها في اليوم التالي لزواجهما فيعقد عليها الزوج الأول من جديد وإن خالف ذلك روح الشريعة مخالفة صريحة. ولكن قد تمسك الزوجة عن القبول، إلا إذا كانت قاصرة فيزوجها أبوها أو الوصي عليها من يشاء. ويُختار عادة للقيام بهذا العمل رجل فقير قبيح الشكل أعمى غالباً، يطلق عليه لقب (مستحل) - بكسر الحاء أو فتحها - أو (مُحلِل). وكثيراً ما يعجب المستحل بجمال المرأة التي يتزوجها بالشروط السابقة، أو بثروتها فيرفض أن يتركها، ولا يستطيع القانون أن يجبره على تطليقها إلا إذا ظلم. وطبيعي أنه يحرص على عدم الجور في معاملتها، ولكن الرجل يستطيع أن يستخدم (المستحل) دون تعرض لهذا الخطر. فقد جرت العادة أن يستخدم أثرياء الترك وبعض المصريين عبداً أسود من عبيدهم ليقوم بهذا العمل. وقد يُشتري العبد أحياناً لهذا الغرض، أو يطلب من النخاس أن يقدم العبد على سبيل العارية. وأحسن العبيد أقبحهم شكلاً، ويختار الترك على العموم عبداً غير بالغ، إذ يسمح لهم مذهبهم بذلك. وعندما تستكمل المرأة عدتها يقدم لها مطلقها العبد، بعد أن يحصل على رضاها بذلك من قبل، ويسألها الموافقة على الزواج به، فتوافق أمام

لشاهدين، ويقدم لها المهر لتكمل شرعية الزواج، وبذلك يصبح العبد زوجها الشرعي. وبعد العقد فوراً، أو في الصباح التالي يقدم الزوج الأول إلى مطلقته هذا العبد ملكاً لها، فتنحل عقدة الزواج بقبولها إياه، إذ أن الشرع لا يبيح للمرأة أن تتزوج من عبدها إلا إذا أعتقته. وتستطيع الزوجة عندما يفسخ زواجها بقبولها العبد أن ترده إلى زوجها ثانية، ولكن يندر أن يسمح للمستحل بالقباء في المنزل. وبعد ذلك تستطيع الزوجة - عندما تنتهي عدتها - إن تعود إلى زوجها بعد أن فارقته مدة العدتين وذلك ما يقرب من نصف سن أو يزيد.

ومن الميسور أن نتصور ما تنتجه سهولة الطلاق من ضرر ينال الجنسين معاً. وفي مصر رجال يتزوجون في عشر سنين عشرين امرأة أو ثلاثين أو أكثر من ذلك. وفيها كذلك نساء لم تتقدم بهن السن يتزوجن عشرة رجال أو اكثر على التوالي. وقد أُخبرت أن هناك رجالاً تعودوا الزواج كل شهر تقريباً بامرأة جديدة. ولا يصعب ذلك على الرجل ولو لم يملك إلا القليل، إذ يستطيع أن يختار من بين نساء الطبقات السفلى أرملة شابة أو مطلقة ترضى أن تصبح زوجة له بمهر يقرب من عشرة شلنات، ولا يلتزم عندما يطلقها بأكثر من ضعف هذا المبلغ أثناء عدتها. ولكن يجب القول بأن المصريين على العموم يعتبرون مثل هذه التصرفات فاضحة، وقلما توافق عائلات الطبقات العليا والوسطى أن يزوجن بناتهن من رجل مزواج.

ويقل تعدد الزوجات في الطبقات العليا والوسطى عنه في الطبقات السفلى. وتعدد الزوجات مفسد لأخلاق الزوج وزوجاته، ولا يبرره غير تقليله ارتكاب الفاحشة، ويستطيع الفقير أن ينعم بزوجين أو أكثر، وتستطيع كل منهن أن تقوم بضروريات معيشتها تقريباً بأي صنعة أو عمل. إلا أن أغلب رجال الطبقات العليا والوسطى منصرفون عن ذلك لما يحدثه تعدد الزوجات من نفقات وتعب. وقد يضطر الرجل الذي يحب زوجته العقيم إلى الزواج بأخرى أحياناً لتكون له ذرية، وقد يتزوج بثالثة أو رابعة للسبب نفسه. بيْد أن السبب البيّن والمألوف لتعدد الزوجات هو عدم استقرار الشهوة؛ ولكن قلّ من يرضي هواه بالأسلوب السالف. وأعتقد أن ليس هناك أكثر من رجل واحد بين كل عشرين رجلاً ينعم بزوجتين.

وتتمتع زوجة الرجل الأولى بالمكان الأول بين زوجاته الأخريات وتسمى (الست الكبيرة). ومن هنا كان كثيراً ما يحدث عندما يرغب الرجل في الزواج أن يشترط أهل الفتاة المخطوبة أو الفتاة نفسها أن يطلق الزوجة الأولى أولاً. وطبيعي أن المرأة لا تستحسن زواج الرجل بأكثر من واحدة. ويُعد الرجل الثري أو المتوسط الحال حتى الفقير لكل من زوجاته مسكناً منفصلاً. وتستطيع الزوجة أن تجبر زوجها على أن يخصص لها (مسكناً

شرعياً) منفصلاً أو شقة (بها غرفة واحدة للنوم وللجلوس ومطبخ ودورة مياه) منفصلة عن غرف المنزل الأخرى. وتسمى كل من الزوجتين أو الزوجات (ضُرَّة) وكثيراً ما يتحدث الناس عن مشاجرات الضرائر. ويستنتج طبعاً أن الصداقة لا تحصل دائماً بين امرأتين يقتسمان حب رجل واحد وحدبه. وكذلك الحال على العموم بين الزوجة والسرّية اللتين تعيشان في منزل واحد وفي أحوال متشابهة. ويحدث أحياناً إذا عقمت السيدة وحملت من دونها، زوجة كانت أو سرية، أن تصبح الأخيرة مفضلة لدى الرجل، (وتصغر في عينها) سيدة المنزل كما صغرت امرأة إبراهيم في عيني هاجر للسبب نفسه ولذلك كان كثيراً ما تفقد الزوجة الأولى مكانتها وامتيازاتها. وتصبح الأخرى سيدة المنزل يعاملها منافساتها والحريم جميعه والزائرات، لخطوتها عند الزوج، بنفس الاحترام الظاهر الذي كانت تتمتع به الزوجة الأولى. ولكن قد تستعمل الكأس المسمومة أحياناً للتخلص منها. وكثيراً ما يكون تفضيل الزوجة الثانية سبباً في تقييد الزوجة الأولى في المحكمة (ناشرة) بناء على طلب الزوج أو طلب الزوجة الأولى نفسها. ومع ذلك كان كثيراً ما يرى زوجات يخضعن إلى أزواجهن الخضوع المثالي الصادق في مثل هذه الأحوال، ويعاملن الزوجة المفضلة بود وطيبة. لبعض الزوجات جوار يشترين خاصة أو تقدم لهن قبل الزواج. وأولئك الجواري لا يصبحن سريات للزوج إلا بإذن تسمح به السيدة أحياناً (كما كان حال هاجر جارية سارة) ولكن ذلك نادر جداً. وكثيراً لا تسمح أيضاً الزوجة لجارتها أن تسفر في حضرة زوجها. وقد يتسرى الزوج بالجارية دون إذن سيدتها؛ وقد تحمل منه فيصبح الطفل عبداً إلا إذا بيعت الأم أو

أهديت إلى الأب قبل ولادة الطفل.
والجواري البيض غالباً في حوزة الأتراك الأثرياء، أما سراري المصريين في الطبقتين العليا والوسطى فهن من الحبشيات. ويبدو أولئك الحبشيات من سيماهن ولون وجههن من جنس وسط بين الزنوج والبيض وإن كان الفرق بينهن وبين الجنسين كبيراً. ولكن الحبشيات يعتقدن أن ما بينهن وبين الجنس الأبيض من تفاوت قليل فلا يمكن حملهن على القيام بخدمة زوجات سادتهن مع الخضوع الواجب. وتشعر الجارية السوداء نحو الحبشية الشعور نفسه، ولكنها تخدم البيض بكل ارتياح. وأذكر هنا أن الجواري اللاتي يسمين حبشيات لسن، ما عدا القليل منهن، من بلاد الحبشة، ولكنهن من أقاليم الجلا المجاورة.
وأغلب الحبشيات جميلات. وتقدر الحبشية المتوسطة الجمال من عشرة جنيهات إسترليني إلى خمسة عشر، ولكن هذا نصف ما كان يدفع عادة ثمناً للواحدة من سنوات قليلة خلت. ويقدر أصحاب الشهوة في مصر الحبشيات كثيراً. ولكنهن رقيقات التكوين فيغني أغلبهن رويداً في هذا البلد. ويقدر ثمن الجارية البيضاء عادة من ثلاثة أضعاف إلى عشرة أضعاف الحبشية، وثمن السوداء حوالي النصف أو الثلثين أو ما يزيد بكثير إذا كانت تجيد الطهي. وتقوم الجواري السود بالخدمة.
ويدخل جميع الجواري تقريباً في دين الإسلام. ولكنهن على العموم لا يعرفن من دينهن الجديد إلا قليلاً. وأغلب الجواري البيض اللائى كن بمصر أثناء زيارتي الأولى يونانيات. وقد أسرت الجيوش التركية المصرية تحت قيادة إبراهيم باشا كثيرين من أبناء هذا الشعب البائس، وأرسل كثيرون منهم ذكوراً وإناثاً وأطفالاً ليباعوا في مصر. وقد قل طلب الجواري البيض فيما بعد لشيوع الفقر بالطبقات العليا في مصر. ويجلب من الجركس والكرج عدد قليل قد تلقى بعضهن نوعاً من الثقافة الأولية إذ يتعلمن الموسيقى وبعض الفنون الأخرى. وقد شغلت الجواري البيض مكانة أعلى من مكانة الحرائر في مصر عند الرأي العام. فكثيرات منهن كن رفيقات لعظماء الأتراك أو زوجاتهم. وكان الأتراك يفضلوهن على الأخريات. ويلبس أولئك الجواري أفخر الملابس، ويتقلدن الحلي النفيسة، وينعمن تقريباً بكل مستطاع، ويعتبرن في بعض الأحوال إذا لم يستعملن للخدمة سعيدات. وقد أثبت ذلك أخيراً - منذ انتهاء الحرب في اليونان - أن جواري كثيرات بقين أسيرات في الحريم، ولم يرغبن في الحرية. ولا يمكن افتراض عملهن نتيجة جهل بحالة أسرهن وأقاربهن، أو خوف التعرض للفقر. وإن كان يحتمل وإن كان يحتمل أن بعضهن حمل على البقاء تحت تأثير الظروف الدينية والأخلاقية التي أخضعن إليها قسراً، ولأنهن دخلن في سلطان سادتهن أطفالاً. ولكن إذا كان بعضهن سعيدات وقتاً ما على الأقل فهن قليلات نسبياً. وقد قدَّر لأغلبهن أن يخدمن زميلاتهن الحظيات أو السيدات التركيات، أو أن يتقبلن كرهاً ملاطفات عجوز غني، أو رجل أنهك الإفراط جسده وعقله، ثم يُعرضن للبيع إذا لم يكن لهن أطفال عندما يسأمهن سادتهن أو سيداتهن، أو عندما يموتون. أو يحررون ويزوجن من بعض الوضعاء الذين لا يستطيعون أن يمنحوهن إلا القليل مما تعودنه من الرفاهية. وتعتبر جواري الطبقات الوسطى أحسن حالاً من جواري الأغنياء؛ فلا يعكر صفوهن في أغلب الأحوال منافسة عندما يستخدمن للتسري، ولا يتعبن أو يشتد عليهن عندما يخضعن للخدمة. وكثيراً ما تكون حالة السرية أسعد من حالة الزوجة إذا دامت المحبة المتبادلة بينها وبين سيدها. إذ أن الزوجة قد تطرد في وقت غضب الزوج، فيوقع عليها طلاقاً لا رجعة فيه فتمسي في حالة فقر. بينما يندر أن يطرد رجل جاريته دون أن يدبر لها الأمر. فإن لم تكن تعودت الترف لا تتألم كثيراً أو إطلاقاً من هذا التبدل. فيعتقها السيد ويمنحها مهراً ويزوجها رجلاً طيب السمعة أو يقدمها إلى صديق.
وسبق أن ذكرت أن السيد لا يمكنه التصرف في جارية حملت منه وأعترف بولدها. وكثيراً ما يحدث أن تعتق هذه الجارية بعد الحمل فوراً وتصبح زوجة. فلا تستطيع الجارية عندما تعتق أن تقوم طويلاً مقام الزوجة شرعاً إلا إذا تزوج بها السيد. ويرى بعض الناس أن من العار بيع الجارية التي بقيت طويلاً في خدمتهم. ويفسد (الجلاَّب) أو تاجر الرقيق - في الصعيد والنوبة - الجواري الحبشيات والسود أقبح فساد. ويندر أن ينجو من في سن الثامنة أو التاسعة من شدة عنف النخاسين. وكثيراً ما يلقى هؤلاء الأطفال والأحباش منهم خاصة، أنفسهم في النيل أثناء السفر، هرباً من قسوة

(الجلاب). وتعتبر الجواري من أي طبقة أغلى ثمناً من الذكور في السن نفسه. ويعطى المشتري ثلاثة أيام تظل الجارية أثناءها في حريمه أو في حريم صديق له ليقدم النساء له تقريراً عنها. ومن أسباب إعادة الجارية إلى التاجر أن تغط في نومها أو تصر بأسنانها أو تتكلم أثناء النوم. وتشبه ملابس الجواري ملابس المصريات.

(يتبع)

عدلي طاهر نور

إلى تاج (الفاروق)

(تحية لذكرى مهرجان الشرق في يوم الزفاف الملكي السعيد)

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

لَمْ تَكُنْ نَارُكَ بَرْداً أو سَلاَمَا ... فَعَلاَمَ الشَّدْوُ يَا طَيْرُ عَلاَمَا؟!

بَيْنَ جَنْبَيْكَ حَنِينٌ أوشَكَتْ ... رِيحُهُ الْهَوْجَاءُ تَذْرُوكَ حُطَاما

وَعَلَى عُشِّكَ لَيْلٌ جَاثِمٌ ... كُلَّمَا رَاوَدَهُ الْفَجْرُ تَعَامَى!

سَكْتَةُ الدَّوْحِ، وَآهَاتُ الرُّبَى ... لَمْ تَفِضْ كَالأَمْسِ عِطْراً أو بُغَامَا

وَالْهَوَى لَمْ تَغْدُ في مِحْرَابِهِ ... صَلوَاتُ الشَّوْقِ يَسْحَرْنَ الظَّلاما

كُلُّ شَيْءٍ هَاجَ حَتَّى حَرَّمَتْ ... ضَجَّةُ الدُّنْيَا عَلَى الصَّمْتِ المَنَاما

كَيْفَ وَادِيكَ وَهَل طَافَتْ بِهِ ... نَشْوَةُ الْوَحْيِ فَأَرْعَشْتَ الْغَرَاما

وَتَنَقَّلْتَ بِعِيدَانِ الضُّحى ... عَازِفاً يَسْتَنْطِقُ النُّورَ كَلاَما!

وَنَسَخْتَ الظِّلَّ لَحناً وَالثّرَى ... أُذُناً، وَالنَّبْعَ قَلْباً مُسْتَهَامَا!

كَيْفَ وَادِيكَ وَهَلْ حَالُ الْهَوَى ... مِثْلَمَا كَانَ بِهِ عُرْساً مَقَاما؟

وَنَدَامَاكَ وَقَلْبِي بَيْنَهُمْ ... رَقَّ حَتَّى لَمْ يَكُنْ بَيْنَ النَدَامَى!

جَدْوَلٌ غَافٍ، وَصُبْحٌ ثَمِلٌ ... وَنَسِيمٌ مَرَّ مِسْكِيناً مُضَاما

وَصَدَى صَنْجٍ بِكَفَّيْكَ لَهُ ... في فِجَاجِ الرُّوحِ وَجْدٌ يترَامَى

وَشُعَاعٌ، وَنَدِيٌّ خُيِّلْتُهُ ... مِنْ بَقَايَا حَانَةِ الْفَجْرِ مُدَاما

كُلُّ هذَا كَانَ حُلْماً هَارِباً ... لَيْتَهُ طَنَّبَ في قَلبِي الْخِيَاما!

فَأَعِدْهُ مَعْبَداً مُصْطَخِباً ... وَتَرَنَّمْ وَامْلأِ الدُّنْيَا ابْتِسَاما

وَاسْكُبِ الأَنْغَامَ لاَ تَنْشُدْ لهَا ... أَيْنمَا تَهْزِجْ عَلَى الأَرْضِ مُقَاما

وَتَأَلَّقْ بِأَغَانِيكَ عَلى ... زَمَنٍ عَجَّ لَهِيباً وَقَتَاما

أخضر الشَّطَّيْنِ نَادَاكَ فَطِرْ ... في رَوَابِيه غِنَاءً أو حَماما

مَنْ يَكُنْ لِلْحَرْبِ غَنَّي هَوْلَها ... قُمْ فَرَتِّلْ في مَغَانِيه السَّلاَما

وَأَشُدُ لِلتَّاجِ الَّذِي في ظِلِّهِ ... تَخْشَعُ الأَفْلاَكُ قُدْساً وَاحْتِشاما

صَرَعَ الدَّهْرَ صَبِيّاً، وَتتسَامَى ... دَارَةَ الشَّمْسِ وَلَمْ يَعْدُ الْفِطَاما

أَعْجَزَتْ مِصْرُ بِهِ سِحْرَ النُّهَى ... يَوْمَ كانَ النَّاسُ في الأَرْض سَواما

لَمْ يزل في النيل من آياته ... هزجٌ أشجْىَ بِهِ الْمَوْجُ الغَماما

رُدَّ يا (فَاروقُ) مِنْ أَمْجَادِه ... قَبساً يُوقِظُ في الشَّط النِّياما.

وَأَعِدهُ لِلْبَرَايا كَوْكباً ... طَارَ لِلنَّجْم لِيَاذاً وَاعْتِصَاما

وَانْشُر الحبّ على أَقْوامِهِ ... مَنْ سِوَى نُورِك يَحْتَاجُ الخْصاما؟

كَمْ على طَفْيِكَ أَغْفَى جَائِعٌ ... كان لَوْلاَكَ سَيَقْتَاتُ الرَّغاما

كُلَّ يَوْم لكَ نُعْمَي أَهْلَكَتْ ... آهَةَ الشَّاكي وَتَنْهيد الْيَتَامَى

أَقْبَلَتْ تَنْسَجُ أَرْهَامَ النَّدىَ ... كُلَّ صُبْحٍ لِلْمُقلينَ طَعاما

سَابَقَتْ نُورِكَ في رَأْدِ الضُّحَى ... وَمَشتْ زَاداً إليْهم وَسلاَمَا. . .

كَبر الشَّرْقَ! فَقَالوا: مَنْ بدَا؟ ... قُلْتُ مَنْ غَنىَّ بِهِ الشَّرقُ هُيَاما

مَنْ رَعَى الإسلاَمَ حَتَّى خِلْتُهُ ... (عُمَرِي) الدين رَأياً وَحُساما

في سبِيلِ اللهِ رَكْبُ سَائرٌ ... لبُيُوتِ اللهِ. . . كَمْ رَاعَ الأَنَاما!

كَمْ جَثت للهِ منهُ هَالةٌ ... في سنَاها يُطْرِقُ الدَّهْرُ احْتِرما!

يا مُقِيلَ الدين مِنْ عَثْرتهِ ... أنْتَ أَعْلَيْتَ لِرُكْنَيْه الدعاما

وَتَهادَيْتَ فسَارتْ أُمَمٌ ... جَعلَتْ مِنْ نُورِكَ الصَّافي إِماما

كلَّ يومٍ لكَ عِيدُ مُشْرِقٌ ... يتَرَاءى في فم الوادِي ابتساما

طارَ تَغْرِيدي على آفَاقِهِ ... نَعْمَةً لِلْعَرْش عَزَّتْ أَنْ تُسَامَى

سُقْتُها مَشْبُوبةً مِنْ كَبدٍ ... أوشَكتْ تَسْكُبُ نَجْواهَا ضِراما

لَمْ يَزَلْ مِنْها (بِعَبْدِينَ) صَدى ... ظَلَّ في أَسْوَارِها يُشْجِى الَحْماما
محمود حسن إسماعيل
أمنية. . .
للأستاذ عبد اللطيف النشار
يُنَبتُ قطناً زارعو مصر كلهم ... بِهِمْ ما بِهِمْ، هلاَّ وكَرْماً وتفاحا؟
يقول أناس أدركوا ما عنيته ... لك الويل ماذا تبتغي؟ قلت أرواحا
ووالله لولا زهره ورحيقه ... لِما غرَّد الغِريد يوماً ولا ناحا
أتلك حياة نصفها بِتَّ نائماً ... ونصفاً تُرَى فيه على الرزق كدَّحا
ألا ليتني إلاَّ أكن ذا إمارة ... يُطاع على عِلاته كنت فلاحا
أغذى بأشجاري أنابيب معلمي ... وأسقي مواشيِّ السلافة وارحا
كأن بياض القطن أرؤس نسوة ... عجائز يملأن المحافل أتراحا
إذا لم يكن إلا مسرَّة ساعة ... يجدد فيها صاحب الهم أفراحا
فلا أخصبت أرض تضن بنصفها ... على حانة نشْوَى ولا رحبت ساحا
عبد الطيف النشار
البريد الأدبي
الأزهر والمراجع الأجنبية
يدرس الطلاب في كلية أصول الدين طائفة من العلوم التي يحتاج الطالب فيها إلى مراجع أجنبية، ومنها علوم التاريخ والأخلاق والفلسفة وعلم النفس وتاريخ التوحيد. ولما كانت معرفة هؤلاء الطلاب للغات الأجنبية محدودة فقد رؤى أن تترجم لهم بعض المراجع الشهيرة في هذه العلوم. وعهدت مشيخة الأزهر اختيار هذه المراجع وترجمتها إلى لجنة من أساتذة الكلية مؤلفة من بعض العلماء الأزهريين الذين تخرجوا في الجامعات الأوربية وبعض الأساتذة الذين يدرسون هذه المواد.
وقد عقدت هذه اللجنة اجتماعها الأول بعد مقابلة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي حيث استمع أعضاؤها إلى إرشاداته وتوجيهاته.
والمعروف أن هذه اللجنة ستنتهي من مهمتها التي وكلت إليها في يوم قريب.
في ديوان البحتري
البحتري شاعر مغبون لم يحظ شعره بما يستأهله من عناية، ولم يطبع ديوانه - على ما يبدو - أكثر من مرتين؛ إحداهما بمصر والأخرى ببيروت. والثانية أدق من الأولى ضبطاً وتمتاز عليها بالشكل الكامل، وبتعليقات وحواش قصيرة تفيد المبتدئين.
على أن هذه الطبعة لم تخل من أغلاط بينة أساء الشارح فيها التقدير. وأغلبها يرجع إلى آفة (التصحيف) التي جنتْ على الكثير من مخطوطاتنا القيمة وكنوزنا الأدبية النفيسة.
على أن الشارح نفسه قد توهم - في أكثر من موضع - أخطاء وادعى تصحيحها، وتصحيفات تكلف ردها إلى أصولها! فجاء الديوان مليئاً بعشرات الأغلاط الفاضحة الواضحة. وأنا مثبتٌ هنا منها خمساً - على سبيل التمثيل لا التعديد - لأنبه القارئ إلى وجوب التحرز في قراءة هذا الديوان، وعدم الاعتماد على شكله أو شرحه اعتماداً قد يجر إلى الغفلة ويشغل عن تعريف الصواب:
1 - في قصيدة (قالت الشيبُ بدا قلت أجلْ). قال البحتري:
أصِلُ النزْر إلى النزر وقد ... يبلغ الحبلُ إذا الحبل وُصِلْ
من لَفَا هذا إلى محسوس ذا ... ومن الذوْد إلى الذود إبِل
وقد ضبط الشارح اللفظ الأخير هكذا (أَبِلّ) ثم قال: أبل: أذهب في الأرض. وهذا وهم، إذ الشطر كله مقتبس من المثل العربي القديم: (الذود إلى الذود إبِل) وهو يضرب في الشيء القليل يجتمع إلى مثله فيصير كثيراً.
2 - جاء في قصيدة: (حلفتُ لها بالله يوم التفرق) قوله:
أُعِينَ بنو العباس منه بصارم ... جُرازٍ وعزمٍ كالشهاب المحرِّقِ
وقد صُفحت كلمة (جراز) في الأصل إلى (جران) فنقلها الشارح بوضعها ثم قال: الجران (كذا في الأصل) لعله يريد به الليّن من جرن الدرع لانَ. والوهم في النقل وفي الشرح ظاهر؛ إذ الكلمة: (جراز) بمعنى السيف القاطع.
3 - يقول البحتري من قصيدته (يا يوم عرّجْ بل وراءَك يا غدْ):

أشكو إليك أناملاً ما تنطوي ... يبساً وأخلاقاً تقصّفها اليدُ
قال في الشرح: أخلاقاً محرفة عن (أخلافا) جمع خلف، أي ضرع. . . أما (أخلاق) بالقاف فلا معنى لها هنا
قلت: الصواب (أخلاقاً) كما جاء في الأصل؛ والمعنى أن أخلاق الناس أصبحت من الجفاء والغلطة واليبوسة بحيث تتقصف في اليد تقصف العود الجاف، وفي البيت استعارة تبعية (في الفعل)
4 - جاء في قصيدة (رغم الغرابُ منّيئ الأنباء):
ما للجزيرة والشام تبدّلا ... بعد ابن يوسف طلمةً بضياء؟
أوردها الشارح (بيضاء) - مؤنث أبيض - ثم قال معلقاً: كان القياس أن يقول (بيضاءَ) بالنصب على أنها نعت لظلمة ولكنه جرها إتباعاً لحركة القافية أو لسبب آخر لم أعلمه (كذا!)
قلت: وجه الكلام أن (بضياء) جار ومجرور متعلقان بالفعل (تبدلا) في الشطر الأول
5 - يقول البحتري في مطلع إحدى قصائده:
هوْيناكَ من لومٍ على حبِّ تكْتُما ... وقصركَ نستخبر ربوعاً وأرسما
وقد أعمل الشارح ذهنه في البيت، ثم انتهى إلى قلبه بهذا الوضع (هويناك من لوم بحبِّ تكَتّما) وقال في هامشه: كان أصل الشطر الأول: هويناك من لوم على حب تكتما، وهو غير مستقيم الوزن كما ترى! وكذلك أبدلنا من (على) (باء) فقلنا (بحب) وكثيراً ما وقع لنا مثل هذا الخلل في هذا الديوان وهو خطأ طبعي (!!!)
قلت: الصواب أن (تكتم) - على وزن الفعل - علم على امرأة، وقد ذكره البحتري في شعره أكثر من مرة كقوله من قصيدة أخرى:
لعمري لقد تامتْ فؤادّك تكتُم ... وردّت لك العرفانَ وهو توُّهم
فالبيت في وضعه الأول صحيح وزناً ومعنى، وما التصحيف إلا ما جناه الشارح على البيت وهو يدعى تصحيحه من خطأ موهوم.
هدانا الله جميعاً إلى الصواب؛ وعصمنا من الخطأ وسوء الغفلة بمنّه . . .
(جرجا)
محمود عزت عرفة
بين صبري وابن دريد أيضاً
تفضلت الشاعرة الفاضلة فدوى بنظرة ناقدة بصيرة على كلمتنا (بين صبري وابن دريد)، وقالت: إن الحكم بالسرقة على صبري شهادة جائرة. ولقد بدهنا لأول نظرة في الديوان ما رأته الناقدة الفاضلة، ولكنا رمينا إلى هدف مقصود، هو بيان غفلة محققي الديوان عن أمر البيتين سواء أكان فيهما سرقة أم لم يكن. ولقد نصصنا على تلك الغفلة في أية صورة كانت في كلمتنا السابقة؛ ولا علينا إذا حكمنا بالسرقة على صبري، وأمامنا ديوانه ينطق بها في مواضع كثيرة يحضرني منها:
قد حار بينهما أمر المحبينا ... (فالماءُ في مُقلٍ والنار في مهجٍ)
مأخوذ من قول الشريف الرضي:
إن شئت فاغترفي أو شئت فاقتبسي= (الماء في ناظري والنار في كبدي)
وقوله:
وتزيدُ في فمها اللآلئ قيمةً ... حتى يسودَ كبيرهنَّ الأصغرُ
وليد قول الشاعر:
وما كنت أدري قبل لؤلؤ ثغرها ... بأن نفيسات اللآلئ صغارها
وقوله:
وقضيت الليل أُنضِّدُهُ ... (قد صغت التبر له شركاً)
ينظر إلى قول الشاعر:
إن رمت صيدي في الهوى ... (فانصب شراكاً من ذهب)
أما شاعرية صبري وشخصيته فلنا رأي فيها قد نعود إليه.
حسين محمود البشبيشي
مجلة الأنصار
استقبلت زميلتنا (الأنصار) عامها الهجري الثاني في غرة محرم سنة 1361، وقد صدر

العدد الأول من هذه السنة الجديدة في حجم أكبر، ومادة أوفر، وأبحاث جديدة، وموضوعات شيقة. وقد نهجت الزميلة بهذا العدد نهجها المحمود في التطور، وعبرت عن اتجاهها الصادق في خدمة الفكرة العربية، ونشر الثقافة الإسلامية. فنرجو لها بهذه المناسبة السارة دوام التوفيق.

هذا وقد أعلنت (الأنصار) أن اشتراكها السنوي في عامها الجديد هو 20 قرشاً في مصر والسودان والأقطار العربية و15 قرشاً للمعلم الإلزامي والطالب. والمكاتبات بعنوان: الأنصار شارع البستان رقم 24 القاهرة

الكتب

المؤلفات العربية القديمة

وما نشر منها في سنة 1940

للأستاذ كوركيس عواد

خطر لي قبل عامين، أن أجمع في (مقالات سنوية)، أسماء ما يتاح لي الوقوف عليه من مؤلفات العرب الأقدمين، وذلك مما تنشره المطابع في بحر سنة كاملة، وأن أواصل هذا العمل، سنة بعد أخرى ليتكوّن من مجموع تلك المقالات كشفٌ واسع يفيد مُحِبي الكتب ومُرّاجعيها، ويقفُهم على ما يُنشرُ منها بين الحين والحين.

وكان بدءُ العمل في السنة الماضية، فنشرت في هذه المجلة فصلاً جمعت ما تيسر لي الوقوف عليه حينذاك من مطبوعات سنة 1939. وهأنذا أورد في المقال الحالي ما أمكنني الإطلاع عليه من المصنفات القديمة التي شاءت يد الدهر أن تبقي عليها وتصونها من الضياع!

وقد أَبنتُ في مقال العام الماضي صعوبة الوقوف على كل ما ينشر من تراث الأقدمين وحصره حصراً تاماً! فبعض المطابع في إيران والهند والمغرب وأغلب الأقطار الأوربية لا يمكن الاتصال بها إلا بمشقة وجهد كبيرين. ولقد ازداد الأمر وعورة عن قبل بما ولدته هذه الحرب الجائحة من مشاكل ومعضلات، أدت فيما أدت إلى ركود في حركة النشر، وفتور في سير المواصلات. ومن ثمَّة كان استقصاء جميع ما تنشره المطابع من هذه الكتب أمراً صعباً إن لم نقل متعذراً في بعض الأحوال!

ومع ذلك كله، فقد وقفت على جملة حسنة من تلك المؤلفات ناهزت الأربعين أذكرها فيما يلي بحسب تسلسل عنواناتها، مع الإشارة إلى سنيّ وفيات مؤلفيها، ومحل طبعها، وعدد صحائفها ما أمكن. وأحياناً أُضيف إلى ذلك إشاراتٍ وتوضيحات قد أراها ضرورية في مثل ذلك المقام.

يلاحظ القارئ أنني ذكرت بين هذه المطبوعات ما هو بالحقيقة لمؤلفين معاصرين، وإنما آثرت ذلك، لأن هذه المصنفات طبعت بعد وفيات أصحابها، فاعتبرتها مؤلفات قديمة.

وقد يلاحظ أيضاً، أن بعض ما نُسب من المطبوعات إلى سنة 1940، يُرَى على غلافه أنه طبع سنة 1939، في حين أن طبعه لم يتم، في الواقع، إلا في سنة 1940.

ولي أن أشير في هذا الصدد إلى أن جانباً من هذه الكتب ما يكون نشره قد جرى وفقاً للأساليب العلمية الحديثة، وذلك من وجهة التحقيق والشرح والفهرسة إلى غير ذلك، وبعضها ما كان يُرمى من نشره إلى غرض تجاري صرف يؤذي الكتاب والقارئ معاً إيذاء شديداً، ويفيد التاجر الذي يقوم بطبعه. واختار البعض الآخر طريقاً وسطاً بين هذا وذاك.

على أنه لم يكن من شأني في هذا الموقف التعرض لقيمة الكتاب الحقيقية، أو لنوع الجهد والعناية المبذولين في سبيل إخراجه؛ فللقراء أن يحكموا على كل ذلك حين وقوفهم على الكتب ذاتها. وإنني لو فعلت ذلك - وهذا أمرٌ من الصعوبة بمكان - لضاق بي المجال ولخرجتُ على ما اختططتُهُ لنفسي في هذا الكشف.

إن بعض التصانيف المذكورة أدناه، ما هو مطبوعٌ الآن للمرة الأولى؛ وبعضه ما كان قد طُبع سابقاً مرةً أو غير مرةٍ؛ وإنما أُعيد نشرهُ لأسباب، منها أن تكون نسخ تلك الطبعة قد ندرت أو نفذت، ومنها أن تكون تلك الطبعة قليلة الحظ من العناية والضبط والتحقيق، وقد يكون لذلك أسباب ومآرب أخرى يدركها أرباب النشر!

ومن الخير لي أن أصرح، بأنني لم أُوَفَّق للإطلاع على كل هذه الكتب اطلاعاً مباشراً، بل إن قسماً منها لم أقف عليه مع الأسف! وإنما استقيتُ المعلومات المدونة عنه من

هنا وهناك.
وفي آخر هذا الكشف تكملةٌ، يجد القارئ فيها ما فاتني ذكرهُ من مطبوعات سنة 1939، وقد ذكرتها هُهنا لتكون تتمة أو مستدركاً على المقال المنشور في العام الفائت.

1 - أبو العلاء المعري: نسبه وأخباره، شعره، معتقده
للمغفور له أحمد باشا تيمور (1348هـ). نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر. (القاهرة، د + 160 صفحة)

2 - الاستيعاب في أسماء الأصحاب
لابن عبد البرّ النمري القرطبي (463هـ). طبع مع كتاب (الإصابة في تمييز الصحابة) الآتي ذكره.

3 - الإصابة في تمييز الصحابة
لابن حجر العسقلاني (852هـ). نشرته مطبعة مصطفى محمد، القاهرة (4 مجلدات، صحائفها 571، 536، 644، 483). في أعلى الصفحات طُبع كتاب الإصابة هذا، وفي أسفلها كتاب (الاستيعاب) المذكور في الرقم 2 من هذا الكشف.

4 - أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام
تأليف الأستاذ عمر رضا كحاله. هذا الكتاب وإن كان مؤلفه من المحدثين، فإن مادته قد جمعت من مؤلفات الأقدمين (ما بين مخطوطة ومطبوعة) التي يشير إليها المؤلف في آخر كل ترجمة من التراجم التي رتبها على الطريقة الهجائية (المطبعة الهاشمية دمشق 3 مجلدات، مجموع صحائفها 1668)

5 - إغاثة الأمة بكشف الغمة
لتقيِّ الدين المقريزي (845هـ). نشره الدكتور محمد مصطفى زيادة والأستاذ جمال الدين محمد الشيال بتعليقات وفهارس (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة. ك + 92ص). الكتاب في تاريخ مصر الاقتصادي الاجتماعي في العصور الوسطى حتى سنة 808هـ. وهي السنة التي أُلِّف فيها. عالج المقريزي فيه حوادث المجاعات والطواعين بمصر وتقصى أسبابها.

6 - أنساب الأشراف
للبلاذري (279هـ). القسم الثاني من المجلد الرابع، يحوي فهرس أعلام الرجال والمواقع والأمم وضعها المستشرق شلوسنكر (مطبعة الجامعة العبرية، القدس، 36ص). المجلد الخامس ومتن النصف الثاني من المجلد الرابع، صدرا سنة 1936 - 1938، والعمل في إصدار سائر أقسام الكتاب لا يزال جارياً.

(يتبع)

كوركيس عواد

القصص

العقاقير المخدرة

عن الإنكليزية

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

نهضت (رودا فارمنجتون) عن المعقد الذي كانت جالسة عليه بقرب النافذة وأطلت فرأت العربة المقبلة هي عربة أبيها الدكتور فارمنجتون فتنهدت وقالت: إن مجيئه يمنع الشك وإن المعرفة بأمر مهما يكن نوعه أفضل من فترة الشك. وقد كانت منذ الظهيرة جالسة هذه الجلسة تترقب عودته لتتعرف الخبر، وهي بين حين وحين تطل من النافذة؛ وهاهي الساعة الآن قد تجاوزت الرابعة وسئمت الفتاة الانتظار. وفتحت الباب ودخل الدكتور فقالت بلهجة فيها رنة العتاب: (ماذا!)

وإنما كان عتابها لأن أباها أمرها بالبقاء هنا. وقد كانت واجبات الصداقة تقضي عليها بأن تذهب إلى المريضة (جيسي شاننج)

وفرك الطبيب كفيه الباردتين وقاد ابنته إلى الغرفة وهو يقول: (تعالي يا رودا فإن الجو بارد في هذه الردهة). فتبعته وهي تقول: (هل حالة المريضة أسوأ)

قال الطبيب: (نعم أسوأ جداً)

فقالت: (هل تعني أنها. . .)

قال الطبيب مقاطعاً: (إن جيسي قد ماتت)

ثم نزع الطبيب معطفه بصورة إليه وعلقه على المشجب واتجه إلى الموقد فأدفأ كفيه. وكان الطبيب قليل الكلام وظن أن حديثه مع ابنته قد انتهى بسؤالها وجوابه. ولكن الفتاة ظلت واقفة واجمة كأنها تنتظر المزيد. وبينما هي كذلك إذ دخلت نانسي خادمة المنزل وهي امرأة في منتصف العمر، وأوقدت المصباح ونظرت إلى الدكتور ثم إلى ابنته وقالت: (أرجو أن تكون صحة جيسي سانتج قد تحسنت)

فقال الطبيب: (كلا ولكنها ماتت)

وجمت الخادمة أيضاً وكأنها لم تصدق أذنيها ثم أشارت بيديها إشارة تدل على اليأس وقالت: (مسكين جوردون. . . إن هذا الخبر سيقتله لأنه لا يستطيع أن يعيش بدونها.

فبدت على وجه رودا ابتسامة هزيلة عند خروج الخادمة من الغرفة، ثم ارتمت على المعقد الذي كانت جالسة عليه قرب النافذة وأسندت رأسها إلى ذراعها وقالت بصوت خافت ولهجة بطيئة: (وددت لو أنني كنت مثل نانسي فأستطيع أن أصيح مظهرة العطف نحو جوردون. . . كم كان بودي أن أثير ضجة لأظهر أحزاني).

فقلب الدكتور قطعة من الورق كانت أمامه على المنضدة وقال: (ولماذا تودين ذلك؟).

فقال: (لأنني مثلك لا أستطيع أن أظهر عواطفي)

بدت الرقة على عيني الدكتور، وإن كان صوته لا يزال دالاً على الخشونة، وقال بلهجة حاسمة: (يجب ألا يكون تأثرك كثيراً بسبب موت جيسي، وإنني لهذا السبب منعتك عن الذهاب إليها، وإنني أعرف مبلغ إعزازك إياها كصديقة ولكنك لم تفهميها فإن هناك أشياء لا يفهمها كل إنسان.

فقالت: (إن جوردون يفهمها)

فقال الدكتور: (نعم إن جوردون يفهم، ولكنني أكرر أن موت جيسي يجب ألا يؤثر في حياتك).

فقالت رودا: (إنك تستطيع أن تدرك يا أبي أن هذا القول لا يؤدي إلى نتجية، فإنني في الواقع لا أحزن على الميتة فقد استراحت، بل على الحي، فتصور مقدار انزعاجه).

قال الدكتور بلهجة استغراب: (نعم إن انزعاجه شديد بلا شك ولكن. . .). ثم اشتغل بتقليب الأوراق التي على المنضدة كأنه بذلك يريد الانتهاء من هذا الموضوع.

وبعد فترة قليلة عادت رودا إلى الكلام بلهجة عتاب فقالت: في بعض الأحيان يا أبي أتصور أنك قاس. ولعل ذلك لأنك رأيت كثيراً من مظاهر البؤس حتى ألفتها.

فتهجم وجه الأب أمام هذا الاتهام وقال: أنت مخطئة يا رودا فإن رؤية البؤس لا تجعل القلب قاسياً ولكنها لا تزيد من حزنه، قالت رودا: إذن فلا بد أن تكون حزيناً على جوردون فتصور كيف كان حبهما. لقد كان كاملاً فوق مجال النقد. إنه لم يتركها ولم يكن أحد أوفى لزوجته منه.

فقال الدكتور: نعم لقد كان معها دائماً، ولكن عهد تمريضه لها قد انتهى بعد استمرار سبعة
أعوام.

قال رودا: عهد تمريضه! إنها في الواقع لم تكن مريضة لولا النوبات الخفيفة التي جعلته بساطتُها يمرضها بنفسه بدل أن يستحضر لها ممرضة

وقد كانت رودا تقول ذلك وهي تتذكر أن جيسي كانت تتغدى معها منذ يومين فقط. وكانت صحتها إذ ذاك أحسن من صحة رودا نفسها، وكان لون خديها وردياً، وكانت تضحك وتمزح كأحسن ما يكون والإنسان في حالة الطرب. والآن وقد ماتت جيسي فإن رودا تعود بالذكرى إلى يوم منذ سبعة أعوام كانت فيه هي واسطة التعارف بين جيسي وبين جوردون في نفسي هذا المنزل.

بعد أن تخرجت جيسي من المدرسة جاءت لتزور صديقتها رودا. وكانت رودا هي أجمل الفتاتين ولكنها غير متعلمة على النقيض من جيسي، وذلك استولت الأخيرة على قلب جوردون الذي كان إلى هذا العهد من المعجبين بها والذي يمتاز عن سائر هؤلاء المعجبين بأنه يجمع بين الذكاء وبين المهارة والجمال والغنى.

وقد نزلت رودا عن حبيبها إلى صديقتها وكانت سخية في ذلك، ولكنها لم تخل من الألم ولم تستطع كف الدموع ولم تستطع منع الغيرة. وهي مع ذلك ظلت تكتم الأمر عن الجميع فلم يفطن إلى حقيقته أحد حتى ولا جيسي ولا جوردون.

وفي الآونة الحاضرة استعادت رودا في ذاكرتها كل حوادث الأعوام السبعة الماضية

حتى التافه منها. وكان أخص هذه الذكريات وأهمها ذكرى مرض جيسي ذلك المرض الذي أظهر تفاني جوردون في حبها إلى الحد الذي صار فيه كل الزوجات في المدينة يعيرن أزواجهن لأنهم لا يحتذون هذا المثل العالي من الإخلاص.

ومضت سبعة أعوام وماتت جيسي وانتهى كل شيء، وبعد العشاء لبست رودا ثيابها ومشت وهي ترتعش في برد الليل إلى بيت شاننج، وكان الليل مظلماً فرأت في الطريق شبحاً وعرفته ولكنه لم يعرفها فنادته: جوردون إلى أين تذهب؟ فمد يده إليها وارتعش جسمها عندما لمست يده فصافحها مصافحة ود، وأخذت تبحث في ذهنها عن كلمة تعزيه بها فلم يسعفها الخاطر وأخيراً قالت: إلى أين تذهب يا جوردون؟ وقد أربكها أنه لا يسير في اتجاه المنزل وأنه يمشي بخطى سريعة إلى النهر وقد بدت على

وجهه علائم عزم خطير، وقال: إلى أين أذهب؟ بالطبع يا رودا إلى. . . ثم تابع السير ولكن إلى المنزل.

وبعد جنازة جيسي سافر جوردون ولكن إلى الخارج، وظل متنقلاً من بلد إلى بلد، ولكنه في أشهر الصيف يعود إلى المدينة التي دفنت فيها زوجته.

وكان يرجع (عليَّ غير انتظار من رودا لذلك الرجوع) لأنها كانت تعد دخوله إليَّ منزل زوجته بعد دفنها يشابه شق القبر على ميت، وذلك لما ينطوي عليه المنزل من الذكريات.

وكانت رودا تقدر تمام التقدير حالة جوردون وأنه لم ينس قط زوجته ولم يرد أن ينساها، وإنما هو يعالج نفسه كي يستطع الحياة بالسفر ليرى مناظر جديدة ووجوهاً جديدة، ولما تقابل معها لأول مرة بعد عودته قال: لقد بدت عليك علائم الكبرياء يا رودا ولكنك لم تزيدي إلا جمالاً وقد كنت ولا تزالين أجمل من رأيت.

وقد أدهشت رودا هذه الصراحة في مخاطبتها فترجعت كما يتراجع من ينتظر أن تصيبه صفعة، ونقصت منزلة جوردون عندها في هذه الليلة لأول مرة منذ عرفته. وفي تلك الليلة طلب إليها جوردون في وسط جمع من الأصدقاء أن تتزوج منه وقال: لقد كنت علي الدوام أحبك وحدك وإن لم أتبين ذلك في بعض العهود، وكان طبيعياً أن يكون حبنا كذلك. وكان هذا الاعتراف مخجلاً في نظر رودا فتلقته في ألم صامت ولم تجد من الألفاظ ما يعبر عن شعورها، وكان خجلها لأنها هي نفسها كانت تريد الزواج منه، وأدركت أنها غير وفية لصديقتها وأن جوردون غير وفي لزوجته وأن المسكينة الجديرة منها بالوفاء هي المضطجعة في القبر والمنسية من الجميع.

ولما فرغ جوردون من تصريحه قامت رودا على الفور ودخلت مكتب أبيها ولكنها لم تجده فيه. وكان أبوها يحب جوردون يحترمه. وكانت رودا تعتقد أن حبه واحترامه لجوردون سيزولان إذا أخبرته بما سمعته منه في هذه الليلة من الإنكار لحبه السالف لزوجته.

وترددت رودا في كيفية رفضها لما طلبه جوردون. فهل تخبره بأنها ترفض لمجرد كونها لا تحبه؟ إنها إن فعلت ذلك فلا تكون إلا كاذبة، فإنها كانت لا تقف في حبها إياه عند حد.

ورأت رودا أنها إن تغلبت على الجانب النبيل من عواطفها جانب الوفاء، فإن معيشتها مع جوردون ستكون منغصة بسبب غيرتها من زوجته الأولى، لأنه لن يستطيع أن يواجه إليها

من العطف ما كان يوجهه إلى جيسي. وانقضت تلك الليلة ولم تخبر رودا أباها بشيء. وفي اليوم التالي أجابت جورودون على طلبه بقولها: (. . . ولكن لم يمض على موت جيسي عام واحد، ولها السبب كان من المستحيل أن أتزوج منك)؛ وكانت هذه أول مرة سمع فيها جوردون اسم زوجته المتوفاة؛ واستمرت رودا تقول: (إن ذكراها ستقف على الدوام حائلاً بيني وبينك؛ وإني لأعجب منك كيف نسيتها بهذه السرعة، حتى تريد الآن إحلال أخرى محلها؟ وهمَّ جوردون بأن يتكلم، ولكنها أشارت إليه بالصمت وهي تقول: كلا لن أتزوج منك. فإن هذا مزعج جداً. لقد كنت أحبك إلى حد العبادة يا جوردون، وإنما كان سبب هذا الحب شدة إخلاصك لجيسي؛ ولكنك لم تدم على الوفاء، فأثبت لي أن حبك لم يكن مثلاً عالياً. قال جوردون: ولكن هل من الممكن يا رودا؟ إن المثل الأعلى في الحب وهم لا يصدقه إلا المجانين والأطفال. إنني آسف

لعدم قبولك الزواج مني، وقد كنت أحسب التفاهم بيننا أحسن مما أراه؛ ولقد كنت مخطئاً، وسأعود في الصباح ولن أراك. . . وداعاً!. . . وذهب جوردون وظلت رودا في مكانها تبكي.

ولما رفعت يديها عن عينيها وجدت أباها جالساً بجانبها في حديقة منزل جوردون. ومن الغريب أن الدكتور الذي امتنع خمساً وعشرين سنة عن الزواج حزناً على زوجته، لا يريد أن يفهم رأي ابنته في الزواج. ويقف في صف جوردون ضدها وسألها: لماذا رفضته؟ فدهشت رودا من سؤاله إياها هذا السؤال الذي يدل على علمه بما كتمته عنه فقال: لقد سمعته وهو يطلب يدك. لم تشأ رودا أن تطيل مناقشته فقالت: هل نسيت جيسي يا أبي؟

فضرب الطبيب الأرض بقدمه وقال: يكفي أن يعيش الإنسان في الجحيم سبعة أعوام. ولك أن تنتظري بقية العام إن كنت تريدين المحافظة على مدة الحداد. فقالت رودا: يظهر أن لديك سراً تكتمه عني، فماذا تعنيه بقولك إنه عاش في الجحيم سبعة أعوام؟ إنك تعلم أن الحب كان متبادلاً بينهما. قال الدكتور: إنني أعلم ذلك جيداً ولكن الذي سأخبرك به سيزعجك فاستعدي له. إن جيسي كانت تكتم سرها كل الكتمان، وكذلك كان يفعل جوردون. وقد كان جوردون يظن أنك تعرفين السر مني. ولكني لم أخبرك به. فقالت رودا وقد نفد صبرها: ولكن ما هو هذا السر؟ قال: (إن سر حب جوردون لزوجته ذلك الحب الذي يصلح أن يكون مثلاً أعلى كما تقولين، إنه في الواقع لم يكن حباً، ولكنه شفقة مع الكراهية.

وقد بقي الأمر مكتوماً طول السنوات السبع، وكان يكتم سرها عن الناس بملازمته إياها)

- أي سر هذا؟

- إنها كانت معتادة تعاطي العقاقير المخدرة ولا تستطيع تركها فسكتت رودا وكانت لحظة شديدة شعرت فيها بالذل لضلالها عن حقيقة هذه الظروف طوال السنوات السبع الماضية. . . وعاد الدكتور إلى الكلام فقال: وإن وفاء جوردون

- وأنت تتهمينه بعدم الوفاء - هو الذي جعله يكتم هذا السر حتى في اللحظة التي لو أفشاه فيها لنال سعادته التي يرجوها.

وعاد الصمت مرة أخرى. وكان القمح يسبح في سماء صافية الأديم وجو من الأجواء التي تستثير صبوة العشاق. فقالت رودا بعد قليل لأبيها: (يا أبي اذهب واطلب إلى جوردون أن يعود)

عبد اللطيف النشار

ï» ؟ Error

©ظپططµظٹظ^طط¯ ط®ط·ط ظپظ‰ ط¹ط±ط¶ ظ‡ط°ظ‡ طظ„ط

ï» ؟ Error

©ظپططµظٹظ^طط¯ ط®ط·ط ظپظ‰ ط¹ط±ط¶ ظ‡ط°ظ‡ طظ„ط

ï» ؟ Error

©ظپططµظٹظ^طط¯ ط®ط·ط ظپظ‰ ط¹ط±ط¶ ظ‡ط°ظ‡ طظ„ط

ï» ؟ Error

©ظپططµظٹظ^طط¯ ط®ط·ط ظپظ‰ ط¹ط±ط¶ ظ‡ط°ظ‡ طظ„ط

ï» ؟ Error

©ظپططµظٹظ^طط¯ ط®ط·ط ظپظ‰ ط¹ط±ط¶ ظ‡ط°ظ‡ طظ„ط

العدد 448 - بتاريخ: 02 - 02 - 1942

صحة الفقير وثروة الغني

في هذه الأيام العِجاف يكثر الكلام في الغنى والفقر. والكلام في الغنى والفقر وما يتصل بهما يوشك أن يكون الوظيفة الطبيعية للسان الإنسان؛ ففي الرخاء يكون تعبيراً عن سخط مكظوم، وفي الشدة يكون تبريراً لسخط منفجر. فإذا وجدت في الفقراء من لا يسخط على الأغنياء فثق أنه من أتباع الفلسفة التي تؤمن بمبدأ التعويض في قانون الطبيعة وتقول: (إذا لم يكن للفقراء الأرض فلهم السماء، وإذا لم يُرزقوا المال فقد رُزقوا الصحة؛ والآخرة خير وأبقى من الدنيا، والعافية أعلى وأغلى من الثروة) من هؤلاء الذين جعلوا القناعة فلسفة رجل من القُرَّاء المنكَري الصوت لا يملك في

أكثر أوقاته غير قوت يومه، ولكنه مع ذلك موفور الحظ من السلامة؛ لا يتسخط ولايتبرم، ولا يجد في جسمه ما يشكوه، ولا في نفسه ما يرجوه، ولا في غده ما يخافه. رآني بالأمس جالساً في مكان ضاحٍ من القهوة أنقع في أشعة الشمس الفاترة جسديّ المقرور وعليَّ من ثياب الشتاء لفائف فوق لفائف، فأقبل إليَّ يطفر طفور الظبي بين المناضد المصفوفة وليس على جسمه غير غلالة بيضاء من التيل، وعباءة سوداء من الصوف قد رفع ذيلها إلى عاتقه؛ ثم جلس متهلل الوجه متماسك البدن مكتنز اللحم رفاف البشرة يكاد إهابه من فرط الرِّي وسورة المرح ينشق. فلما تكلم وجدته على ما عهدته من فراغ البال وسلامة الصدر وقلة المبالاة فلم أتمالك أن بدهته بهذا السؤال: أفِي هذه السن وفي هذه الأيام لا أرى للخبز المخلوط أثراً على وجهك، ولا أسمع للمجاعة المتوقعة ذكراً على لسانك؟

قال الشيخ منصور بلهجة الخِليِّ وضحكته: والله يا سيدي ما أكلت الخبز نقياً من قبل حتى أشكو خلطه اليوم. ومن تعود أن يأكل الخبز مخلوطاً بالحصى والتراب، لا يصعب عليه أن يأكله مخلوطاً بالذرة والرز. أما المجاعة التي يتوقعها الناس فلا تختلف عما أنا فيه. وإذا جاز لي أن أشكو، شكوت إلى الله طغيان الصحة؛ فإن للصحة الطاغية تكاليف أقلها النهَم والقَرَم وتحلب الريق وسُعار الجوف وسرعة الهضم. وتحقيق الشبع الدائم للشهوة الدائمة لا يمكن إلا بخزائن عاشور ومخازن عمرو. إني أسأم الصحة كما يسأم غيري المرض. وفي ساعة من ساعات الشرَه يقوم في نفسي أن الله قد منح الفقراء الصحة ليزيد ألمهم من الحرمان؛ ولكنني حين أسكن أطيط أمعائي بفطيرة من الذرة وطبق من المش ورأس من البصل وحزمة من السريس، ينمحي ما صوره الخيال في ذهني من أطيب الآكال وأعذب الأشربة؛ ثم تنتشر على بدني حرارة العافية فأرى الجمال في كل منظر، والنعيم في كل شيء، واللذة في كل عمل؛ وأدرك بمشاعري السليمة القوية ما انبثَّ في عالم الحس من كل متاع؛ ويخيل إليَّ من فرط الشعور وفيض السرور أن الهواء الذي أنشقه هو مددٌ من الروح الخالق يبعث في جسمي النشاط وفي نفسي الغبطة.

أؤكد لك يا سيدي أن الغنيّ يجوع مثل جوعي، ولكنه لا يسبع مثل شبعي. أنا إن أصبت شِبْع بطني بأي لون من ألوان الطعام بدا عليَّ من دلائل الراحة والسعادة ما وصفته لك. أما الغني فإنه إذا جرؤ على معدته المترفة بالشبع قضى وقت هضمه العِسر الطويل وهو فاقد الشعور بالدنيا لشدة ما يلقي من حزَّة الحموضة وثقل الطعام وضيق النفس وضربات القلب. وهو في الكثير الغالب ممعود أو مفؤود أو مكبود أو ممروْر أو مصاب بالملح أو بالسكر، فلا بد له من الجرعات المختلفة التي تنيم الألم أو تكافح الداء أو تؤخر الخطر. وقد ينتهي به الأمر في الزمن القريب أو البعيد إلى الإمساك عن الطعام إلا ما يمسك الرمق.

كان لي عند الباشا ثمن أربعين مقطفاً ضفرتها لدائرته، فلما جئته اقتضيه الثمن أكبره وأنكره وتهدم عليَّ بالكلام العنيف وقال محتجاً لسبابه واغتصابه: (إن ضفر الخوص عمل العاجز، وإن رجلاً في مثل صحتك وقوتك لا يجدر بيديه غير الفأس والكُريك) فقلت له في مثل هذا الهدوء الذي أحدثك به: (يا باشا إن نصيحتك إياي على نفاستها وقداستها لا تبرر أكلك لحقي. ومن اليسير عليَّ أن أنزل لك عن هذه القروش ثم لا أنقص شيئاً؛ ولكنك قد تزيد شيئاً؛ وكلما زاد مالك ساء حالك. إنك قد بلغت أرذل الغنى، ثم انحدرت إلى أسفل الفقر؛ فأنا وأنت يا باشا سواء: أنا فقير لأني مصابٌ في جيبي، وأنت فقير لأنك مصاب في معدتك؛ فأنا أشتهي ولا أجد، وأنت تجد ولا تشتهي؛ ولكن حرماني مؤقت وحرمانك مؤبد، ونقصي يسده الرضا ونقصك يزيده السخط، وجيبي المفتوق يرتقه الرَّفاء بقرش، ومعدتك البالية لا يجددها الطبيب بمليون) وكنت لا أزال أرسل الكلام على هِينَة وحذر مخافة أن ينفجر في وجهي على عادته مع الناس؛ ولكن المعجزة التي ظهرت على يده أو على يدي - لا أدري - هي أن الرجل استرخى وتليَّن وبدا على وجهه الأبكم سمات التفكير لأول مرة. ثم قال في لهجة لا تزال فيها بقية حائلة من الشموخ: (ليتك تدلني على ما فتل عضلك وشد عصبك ودفق فيك هذا الدم الفوار الحار النقي، فليس ذلك من عمل طاهٍ ولا طبيب). فقلت له في شيء

من الشماتة: ذلك يا باشا تعويض الفقر من الغني، وهو صنع الله ولا حيلة في صنعه. أما الطاهي فهو الذي يقدم للغني خيوط الكفن وهو ينسجه بأضراسه؛ وأما الطبيب فلا يعرفه من لا يشبع. ولقد قال أبو جعفر المنصور لأعرابي: (أما عندكم في البادية طبيب؟) فقال (يا أمير المؤمنين، حُمُر الوحش لا تحتاج إلى بيطار). والشبه بين حالنا وحال البدو في الخضوع لقانون الطبيعة واضح. . .

قطعت الحديث على الشيخ منصور بهذا السؤال: أتكره أن تكون في مكانه وهو في مكانك؟ فأجاب الخبيث: لا أقبل ثروة قارون إذا لم أحتفظ بمعدة منصور، ولا أرفض وزارة المالية إذا أسندوا إليّ معها وزارة الصحة!

أحمد حسن الزيات

في بناء الجيل الجديد

أعدى الأعداء!

للدكتور زكي مبارك

الخطر الذي يهدد البيت من جهل الزوجات وتخلف الأبناء - ما الموجب لتشجع الحركة النسوية؟ - لن يذوق الرجل طعم السعادة أو الشرف إلا إن كان السيد الأول والأخير في البيت - السر في تمرد بعض الزوجات على بعض الأزواج - أبناء اليوم بعد بنات اليوم - هل سمعتم أن الأسد يتعطر ويزدان؟

جاء في كلام منسوب إلى الرسول هذه الحكمة السامية:

(أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك)

ولهذه الحكمة كثيرٌ من المرامي، وسنرجع إلى شرحها بعد حين.

والمهم في هذا الحديث هو التنبيه إلى خطر يهدد قوانا المعنوية، وهو الخطر الذي يصل إلينا من الزوجات ومن الأبناء، ولا سلامة من هذا الخطر ولا نجاة إلا أن قاومنا بعزائم لا تعرف التخاذل ولا النكوص.

والرجل الحق في نظري هو الرجل القادر على البطش بحقوق البيت، ولا أريد الحقوق المشروعة التي يوجبها العُرف والدين، وإنما أريد الحقوق المفتعلة التي تخلفها الزوجات الجاهلات، أو الأبناء المتخلفون.

والرجل لا يسمح لزوجته بافتعال الحقوق إلا عند الشعور بضعف الحيوية، فهو يرائيها لتكف عنه شرها المخبول. ولعل لهذا المعنى دخلاً في تهالك بعض الناس على تأييد الحركة النسوية، فما يسيغ ذهني أن يدعو الرجل إلى المساواة بين النساء والرجال، ولا يجوز عندي أن تصدر هذه الدعوة عن صدرٍ بريء من الأغراض.

وأقول بصراحة إني لم أجد شخصاً يساعد على طغيان الحركة النسوية إلا افترضته أحد رجلين: رجل ضعيف يستر ضعفه بالتظرف، أو رجل ماجن يرى هذه الدعوة من أنجح الأحابيل.

وإذا جاز للرجل أن يساير الباطل في المجتمع فلا يجوز له أن يساير الباطل في البيت، وإذا يجب وجوباً جازماً أن تذكر الزوجة في كل لحظة أن مصيرها إلى الهاوية، إن فكرت في الانتفاع بما أباحت المدنية الرخوة من تطاول النساء إلى منازل الرجال.

المرأة لن تكون إلا مرأة ولو طُوِّقت بالجوزاء، وعقل المرأة لن يكتمل ولو ثُقِّف بجميع ما عرفت الإنسانية من علوم وفنون، فما بال فريق من المخلوقات يبدئ ويعيد في الكلام عن حقوق النساء؟

لقد خُرِّبتْ أكثر البيوت في الغرب بفضل التلطف مع المرأة، فماذا تريدون بأنفسكم يا أبناء الشرق؟

إن الخراب ينتظر البيوت التي يسيطر عليها الجنس (اللطيف)، ونعوذ بالله من شر هذا الجنس، فهو في كل مكان وفي كل زمان مصدر البلاء.

وخلاصة القول أن الرجل لن يذوق طعم السعادة أو الشرف إلا إن كان السيد الأول والأخير في البيت. وهل سمّيت المرأة (سيدة) إلا في عصور الانحطاط؟

كان الزمام في أيديكم، فكيف أضعتموه؟

وكانت المرأة في مكانها وعند حدودها، فكيف استطالت، وما كانت إلا مخلوقاً أمض أسلحته البكاء؟

جفّ الدمع في عيون النساء، بعد أن خمد العزم في صدور الرجال، ولن يكون لبنات حواء غير التعاسة بعد لياذهنّ الأثيم إلى الغطرسة والكبرياء، ولن يون لبني آدم غير

الذل بعد رضاهم الممقوت عن تطاول ربات الحجال!
أتريدون أن تعرفوا السر في تمرد بعض الزوجات على بعض الأزواج؟
يرجع السر إلى أن طبيعة المرأة كلبية، فهي لا تعيش بغير سيد يُخضِعها لهواه في جميع الشؤون، فإن شاء الزوج أن يجعلها سيدة ليصير من أبناء العصر الحديث فلن يقع الغُرم إلا عليه، ولعله يبحث فيعرف أن المرأة لا تتمرد على زوجها إلا بعد أن تصير أمة لرجلٍ سواه، ولو في حضانة الخيال؟
ومن أعجب العجب أن تكون هذه الحقيقة البديهية في احتياج إلى شرح، ولكن ما نصنع ونحن نعيش في زمنٍ قضتْ غباوتُه بتوضيح الواضحات؟
لقد بغتْ المرأة ثم بغت، واستطالت ثم استطالت، حتى صار من حقها أن تشترك في مباريات الجمال، ومع هذا لم يسمع أحدٌ أن مباراةً أُقيمت بين النساء في ميدان العقل.
وفي مصر مجلات تعرض وجوهاً نسائية من وقت إلى وقت لتحدثنا بالرمز والإيماء عن تفوق الملاحة والصباحة في هذه البلاد.
وأقول إن المرأة لا تسمح بنشر صورتها إلا وهي منخوبة العقل والوجدان!
كان من العسير على الفتى أن يتمثل صورة فتاةٍ عارية قبل أن تظهر بعض الأفلام وقبل أن تظهر بعض المجلات، وكان من الصعب أن تهتدي المرأة إلى بيت أحد الأقارب بدون دليل. . . واليوم يجوز ما يكن يجوز فنسمع أن المراقص تدار في بيوت بعض الأعيان ثم تُنشر صورها في صحائف يقرأها الجاهل قبل الحليم، ونسمع أن حفلة أُقيمت لغرض لا نسميه، وفيها تراقصَ أناس لا تجمع بينهم لغة ولا جنس ولا دين.
ليكن ذلك، فنحن في (القرن) العشرين
ولكن البيت، البيت، البيت؟؟؟
احذروا ثم احذروا من أن ترقص المرأة في البيت!
واحذروا ثم احذروا من أن يكون للمرأة في البيت أي سلطان!
يرحمك الله، يا أبي، فقد كنت لا تدفع ثمن النعل إلا بعد أن تجربه على رؤوس زوجاتك، وكانت أحبهن إليك أصبرهن على أذاك.
اليوم يجوز ما لم يكن يجوز
اليوم تعارض المرأة زوجها في توافه الشؤون، وتنتصب أمامه كالحية النضناض، لتسأله كيف تأخر عن موعد الحضور دقيقة أو دقيقتين!
ثم ماذا؟
أترك الحديث عن سخافة المرأة وأنتقل إلى حماقة الأبناء فأقول: هل تعلمون أن من شباب اليوم من يظلَّ عالةً على أبيه إلى سن الثلاثين!
ولكن كيف؟
بحجة أنه لا يزال طالباً في أحد المعاهد العالية!
أسقط الله سقوف تلك المعاهد على رؤوسكم، يا جهلاء!
بأي حق يجوز أن يبلغ الفتى سن العشرين قبل أن يصلح للاضطلاع بأعباء المعاش؟
الجواب حاضر: لأنه يستبيح المشي في الشوارع وكأنه غادة بلا نقاب، ولأنه يعتمد على أمه في استغفال أبيه، فيصل إلى الثلاثين قبل أن يصلح لشيء من صالح الأعمال.
أحب أن أعرف كيف يجوز للفتى أن يتعطر ويزدان بإفراط وإسراف؟
أيفعل ذلك ليختلب لُبَّ امرأة؟
إن كان هذا ما يريد فقد أخطأ الصواب، لأن المرأة تشمَ الفتى الفحل، فتنجذب إليه
ولو كان عاطلاً من الحُسن والرُّواء وبهذه المناسبة أقول:
هل فكرت الدولة في إحصاء ما ينفقه الفتيات والفتيان في التزين والتجمل؟
أكاد أجزم بأن (العِطر) في مصر هو سبب أزْمة (الفُول)!!!
وما هذه البدعة التي توجب أن يسير الشبان في الشوارع ورءوسهم عارية، برغم قسوة البرد في الشتاء؟
ألم أقل لكم إن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يغطي رأسه من بين سائر الحيوان؟
فما زُهدُكم في تلك المزية الإنسانية؟
ولو كان ذلك التبرج لا يقع إلا من الشبان الوارثين لخفَّ الخطبُ وهان، ولكنه مع الأسف الموجع يقع من شبان يجهلون ما يعاني آباؤهم في تزويدهم بالقوت، فمن أين يجتلب أولئك الشبان نفقات الطلاء؟!

قد يقال إن تأنق الشبان صار بدعة عالمية.
وأقول إن ما يجوز في الغرب قد لا يجوز في الشرق، لأن الشرق في مطلع نهضة جديدة، وهي توجب أن يتخلق أبناؤه بأخلاق الأسود، وما سمعت ولا سمعتم أن الأسد يتعطر ويزدان.
أيها الناس
اسمعوا، وعُوا، وإذا وعيتم فانتفعوا
لا تسمحوا للمرأة بأن تتحكم في البيت، فما كان تحكُّمها إلا تحكم الضعفاء، وهو أشنع ضروب الاستبداد
ولا تسمحوا لأحد أبنائكم أن يستظل بظلكم بعد العشرين ولو كانت مواهبه تبشر بأن سيكون من أعلام الزمان
أما بعد فهذه كلمة عنيفة، ولكنها حجرٌ متين في بناء الجيل الجديد.
زكي مبارك
أبو سليمان المنطقي
للدكتور جواد علي
أبو سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني المنطقي شخصية من الشخصيات القوية الفذّة التي ظهرت في عالم بغداد في القرن الرابع للهجرة، فأثرت في مجتمعات عاصمة العباسيين العلمية وأنديتها الأدبية تأثيراً يشابه تأثير زميله في المهنة الأديب الفرنسي الفيلسوف (فولتير) في باريس عاصمة الفرنسيين. كان إذا تكلم أقنع، وإذا فاه أسمع، وإذا نطق أسكت، وإذا بحث في موضوع من الموضوعات حلله تحليلاً علمياً منطقياً، فلا يترك لأحد في الموضوع شبهة أو شكاً. وكيف لا يكون كذلك وسلاحه المنطق وهو سلاح اعتبر في عهد العباسيين من أمضى الأسلحة وأقساها، وهو رئيس مناطقة بغداد أيضاً، وزعيم كبير من زعمائهم لا ينازعه في ذلك منازع.
كان للمناطقة في بغداد في القرن الرابع للهجرة دولة ومقام. كانوا لسن الأندية وخطباء المجالس، وكانوا فقهاء القوم وأطباء المجتمع. كانوا كل شيء وبحثوا في كل شيء، ولذلك ميزهم الجمهور عن جماعة الفلاسفة الذين كانوا أكثر اتزاناً في باب العلم وأكثر من المناطقة في الكلام تحفظاً. وقد أطلق على كل واحد منهم لقب (المنطقي) ليميزّوهم بذلك عن الفلاسفة والمتكلمين. وكان عماد أسلحتهم المنطق: منطق اليونان، منطق أرسطو، وفورفوريوس صاحب كتاب (الأيساغوجي) الشهير.
وكان من زعماء الجماعة في القرن الرابع للهجرة صاحبنا (أبو سليمان السجستاني) الذي اشتهر بنبوغه في المنطق، على الأخص حتى عرف به، وحتى لقّب (بأبي سليمان المنطقي). وكان له منتدى يرتاده كثير من طلاب العلم وروّاد المجالس الأدبية من مختلف أنحاء الدنيا. قصده محمد بن عبدون الجبلي من الأندلس، وهو أحد الذين ابتلاهم الله بحب الفلسفة والمنطق ولاقي في سبيل غرامه العلمي ألواناً من القسوة والعذاب. وقصده كثير من أبناء سجستان وتركستان وبلاد الشرق حتى كان منزله مثابةً لأهل العلوم القديمة. وله أخبار وحكايات وأسئلة وأجوبة في هذا الشأن على الرغم من عور كان به، ووضح كان يمنعه من ارتياد منازل الوزراء وكبار رجال الدولة حتى قال في ذلك الشاعر البديهي الأبيات الشهيرة التالية:
أبو سليمان عالم فطن ... ما هو في علمه بمنتقص
لكن تطيرتُ عند رؤيته ... من عَورٍ موحش ومن بَرَص
ويأتيه مثل ما بوالده ... وهذه قصة من القصص
انقطع أبو سليمان عن زيارة بيوتات الوزراء ودور أكابر بغداد على الرغم من ميل طبيعي كان فيه يدفعه دوماً إلى تتبع أخبار الدولة والحوادث العامة وسياسة ذلك الوقت، وما كانت تدبره الأحزاب من مؤامرات وفتن إلى غير ذلك من أمور كان كلفاً بها مشتاقاً إلى معرفتها حتى اتخذ له عيوناً وأرصاداً من تلاميذه وأصدقائه ومحبيه يأتونه بالأخبار أمثال أبى حيان التوحيدي صاحب (الإمتاع والمؤانسة)؛ وكان يغشى مجالس الرؤساء ويطلع على الأخبار، ومهما علمه من ذلك نقله إليه وحاضره به. ولأجله صنف كتاب الإمتاع والمؤانسة، نقل له فيه ما كان يدور في مجلس أبي الفضل ابن العارض الشيرازي عندما تولى وزارة صمصام الدولة بن عضد الدولة من أخبار. ولكنه لم ينقطع عن زيارة بعض بيوتات العلم والأدب أو الأنس والطرب، ولم يأنف أن

يزور مثلاً رسل سجستان في أيام الجمعة وكان فيهم ابن جبلة الكاتب، وابن برمويه، وأبن الناظر أبو منصور وأخوه، وأبو سليمان وبندار المغنى، وغزال الراقص، وعلم وراء الستارة (جارية) وغيرهم من أمثال هذه الطبقة.

ولأبى سليمان نفس تمثل نفسية الموسوعيين (الأنسكلوبيديين) بكل معنى الكلمة؛ تراه يتحدث عن نظرية العلم والمعرفة فيقول: إن العلم صورة المعلوم في نفس العالم؛ وانفس العلماء عالمة بالفعل، وأنفس المتعلمين عالمة بالقوة. والتعليم هو إبراز ما بالقوة إلى الفعل؛ والتعلم هو بروز ما هو بالقوة. إلى الفعل. والنفس الفلكية عالمة؛ بالقوة. وكل نفس جزئية تكون أكثر معلوماً وأحكم مصنوعاً فهي أقرب إلى النفس الفلكية تشبهاً بها ونصيراً لها. وتراه يتكلم عن القرآن والحديث والأحكام بكل إمعان وإتقان وسعة إطلاع حتى كأنك أمام أحد المفسرين أو الفقهاء أو المحدثين. وقد أكسبته هذه الإحاطة العامة شهرة جعلت البعض يكتبون إليه يسألونه وهم في أقاصي البلاد. كتب إليه أبو جعفر ملك سجستان يسأله عن القرآن والعربية والشعر والأحكام. وتراه يتحدث عن السياسة وصفات الملوك وأنظمة المملكة، فيجيد في الموضوع كل الإجادة ويأتي بنظريات تكاد تكون من أحدث النظريات. فيصل علم ذلك إلى الوزير أبى العارض

فيسأل تلميذه التوحيدي وهو من أعلم الناس بأحوال أبى سليمان هذا السؤال: كيف كان كلام أبى سليمان فينا؟ وكيف كان رضاه عنا ورجاؤه بنا، فقد بلغنا أنك جاره ومعاشره ولصيقه الخ؟ ولا يستغرب صدور مثل هذا السؤال من وزير، فلأبي سليمان مجلس له شأن، ولأبي سليمان دائرة ذات مكانة في البلد ومنزلة.

كانت حلقة أهل المنطق في بغداد حلقة كبيرة ضمنت نخبة كانت لهم ثقافية ممتزجة عالية، لم تكن عربية بحتة ولم تكن يونانية أو فارسية أو سريانية خالصة. كانت تجيد مختلف اللغات، وتحمل مختلف الثقافات. ولقد فضل أهل النظر صاحبنا السجستاني على كثير من زعماء هذه الدائرة ممن كانوا يشتغلون بنفس الموضوع الذي اشتغل فيه السجستاني أمثال ابن زرعة أبي علي عينسي ابن اسحق (ولد سنة 371 وتوفي سنة 448هـ)، وهو أحد المتقدمين في علم المنطق وعلوم الفلسفة والنقلة المجودين، نقل من السريانية بعض كتب أرسطوطاليس، وكانت له عناية خاصة على ما يظهر بكتب هذا الفيلسوف ومنطقه دون فلاسفة اليونان الآخرين. وكذلك أبو الخير الحسن بن سوار بن بابا بن بهرام المعروف بابن الخمّار، وابن السمح، والقومسي، ومسكويه، ونظيف ويحيى بن عديّ وعيسى بن علي. وكل هؤلاء من مشاهير بغداد في ذلك العهد ومن أدبائها الممتازين. فلا عجب بعد ذلك ولا غرابة أن رأينا أن عضد الدولة مثلاً كان يكرمه ويفخّمه وينزله منزلة خاصة من بين الأدباء المنطقيين.

انتقلت شهرة السجستاني في المنطق من بغداد إلى الأندلس كما انتقلت فلسفة الفارابي والفلسفة الطبيعية أيضاً وكان الذي نقل هذه الشهرة وهذا المنطق محمد بن عبدون الجبلي من أهالي الأندلس، نقلها إلى الأندلس عام 360 الهجرية (971م) أي في السنة التي عاد فيها ثانية إلى وطنه الأصلي من العراق، وللسجستاني كلمات حكيمة تدل على أنه لم يكن يقنع بالحواس الخمس ولا بالتجارب وحدها وإنما كان يرى في العقل وحده القول الفصل شأن الفلاسفة العقليين الذين يرون في الحجج العقلية الدليل الأولى أمثال بار منيدس الفيلسوف العقلي الشهير وفلاسفة مدرسة الأليئاثن وفلاسفة القرنين السابع عشر والثامن عشر للميلاد، وعلى الأخص أمثال دبكارت وشبينوتزا ولايبنتز وولف وأولئك الذين أطلق عليهم الفيلسوف وند اسم المنطقيين المتطرفين وهؤلاء هم عكس الفلاسفة التجريبيين

الذين يعتقدون بصحة المعرفة إلا إذا جاءت عن طريق التجربة والمشاهدة والحواس أمثال: لوك وفرنسيس بيكن وجون ستيوارت ميل وغيرهم.

جواد علي

مطالعاتي حول المدفأة - 2

حكومة الحدائق

للأستاذ صلاح الدين المنجد

ما عليّ وقد تهت بين الجبال في البحث عن المدينة الضائعة، ملبياً نداء المجهول، مبتعداً عن ثقل الحضارة؛ أن أنتقل مع (دوهامل) بين الأزاهير؛ فأستنشق العطر،

وأرشف الحكمة، وأنعم بهدوء البال.

الحق أن ثقل المدنية يدفع إلى الهرب منها؛ وهذا ما فعله (دوهامل) حين فر إلى حدائق (فالموندوا) في (إيل دوفرانس) فتمتع بالزهر، وسكر بالأرَج، وحلم بحكومة الحدائق. . . فخط رسومها، وبين خططها . . .

هاهي ذي الطبيعة البكر، لم تلمسها يد ولم تطأها قدم تنمو على غير نسق، ودون نظام. فإذا امتدت إليها يد الإنسان ورعتها بالتهذيب، وجملتها بالترتيب، حَلَتْ ونَمتْ. وهاهي ذي الخُضارات والنباتات تربو بفن البستاني، وتزهر بالعناية والحرث والسقيا، ففنُّه إذن يفيد. إنه حياة ثمرتها الإبداع والجمال. . . أفلا نستطيع أن نجني من ذلك عبرة تتبعها في حكومة الناس. . .!

هذا ما يبدأ به دوهامل كتابه. . . على أنه يصف بستانه الذي حكم بحكومته أنه ليس بالكبير ليقصر الإنسان عن العناية به، وليس بالصغير ليوجب إهماله، وليس بالخيالي كبستان الأب موريه، ولا بالبارع كبستان (بلوميه) الذي ابتدعه هوجو في البؤساء. لا. . . ولكنه وسط بين أولئك. ومهما يكن من أمر، فإن هذا البستان يوجب العناية ويدفع إلى العمل: إنه يتطلب جناناً بارعاً، وعملاً متواصلاً، ونظاماً سائداً؛ وعندئذ يطيب الغرس، ويتألق الزهر، ويحلو الثمر، ويربو القطف.

لا جرم أن النظام سر الإبداع وسر الجمال، وهو الذي يحيي النفوس ويرهف الأذواق، ويخلق النبلاء. ولابد لكل مخلوق منه، حتى النباتات؛ فينبغي أن تخضع لقانون تتبعه، وتسلك نهجاً تسير فيه. لكن ما الذي يكون إذا أهمل البستان، فنسيه الفكرُ الذي ينظِّمه، وجَفتْه الأيدي التي تعتني به. . .؟

لاشك أن ذلك البستان يميد من الفرح في أيامه الأول؛ فتسكره الحرية، وينطلق من النظام الذي كان يراه قيوداً فيعيش على هواه: نوم دائم، واستقرار طويل، وخمول لازب؛ وفجاءة

تعتلّ النباتات الضعاف لسعة حريتها، فتعبّ الماء الكثير. . . وتبلى. ثم تغرق الأزاهير الصحاح في الماء فتندى، ثم تروى، ثم يداخل سوقها الوهن، فتصبح كما أصبحت من قبل أخواتها؛ وتفسد الثمار التي تركت على أشجارها فلم تقطفها يد الجنّان، وينثر الهواء البذور في الأرض فتضيع، وتستولي الأعشاب الوحشية على الممرات، وتزاحم النباتات الطائشات الأزاهير الصغار. وعندئذ تسود الفوضى، ويحكم البستان ثلاثة أصناف من الأعاشيب، يرجع إليها الأمر، وتكون الحكم والخصم. ثم يتقاسمن البستان، وتنشأ حولهن أزاهير بورجوازية تكون من الأعوان والأنصار. ثم تغتنم هذه الأزاهير فرصة الفوضى فتنتشر هنا وهناك. فإذا مضى الشتاء وأقبل الربيع، وجاء في موكبه النور والجمال. . . لم تجد في البستان الحياة والرونق، ولا الجمال وبراعة النسق، ولا الحرية المهذبة والنظام. . . بل تجد الاضطراب والفوضى والظلام، وترى بضعة أعشاب أنانية، شرسة، تحكم بعنف، ولا تتراجع أمام شيء، لتشبع نهمها، وتغذي نفسها بالبطش والشر والانتقام.

على أن سلطة رعاع العشب لا تدوم. فهناك، على حفافي البستان تقوم برابرة الأشجار. . . في الغابة. وفيها تجثم قوة مخيفة لا تعرف ولا توصف. لقد كان فن البساتني يوقفها، لأن النظام الذي نراه رَّفافاً في جنبات الحديقة كان يخيفها، وكان يدفعها إلى احترام من يتبعون النظام. أما الآن. . . فلا شيء يمنعها عن التقدم. ورويداً رويداً تتقدّم الغابة فتستعبد البستان بقوة لا تغالب، وجبروت لا يُقهر؛ فتقضى على الثائرين الصغار، وتبطش بالفاسدين الكبار؛ ثم تنمو وتترعرع حتى يأتي يوم يمّحى فيه البستان ويغيب في ظلال الشجرات العتاق. . . ويعود عالمنا كما بدأ مضطرباً مظلماً موحشاً. فالنظام لا جرم سيد الكون، وإن فن الحكومة - حكومة الحدائق - يدل على أنه لابد من خضوع الطبيعة لسلطةٍ ما تقودها نحو النظام، لأن الطبيعة هي حياة أصناف وحشية عندها، وموت أصناف أخر، واستخدام أصناف ثالثة. أما فنّ الجنّان فهو الذي يقاوم قوى الطبيعة الجبارة. فيحمي الأزاهير الجميلة لأنها أرق النباتات، ويضع كلاً في موضعه، ويحدد ذلك الموضع والمكان؛ ويساعد الضعيفة منها؛ ويخفف من غلواء ذوات الطيش والإقدام، ويضع مجموعة من القواعد ملؤها الحكمة والانسجام تكون قابلة للتطبيق والاتباع.

ولابد من وقفة صغيرة. إن السلطة ضرورية، ولكن ينبغي التفريق بينها وبين العنف، وإلا
ما استطاع أحد قيادة الناس، لأن القوة الوحشية التي تسود بالحديد والجرانيت والرخام لا قيمة لها أمام الحياة. . . لأنها ستغلب يوماً. فالبستاني البارع يمارس سلطته باحترام أزاهيره ونباتاته والرفق بها، ويبدّل قواعده التي تستند إلى القوة بالإقناع، لأن الإقناع أشد تأثيراً في النفوس من الحديد. إنه يدفع إلى الهاوية، وإنه يحيى ويميت. فإذا كان ذلك أصبح البستان رقعة من رقاع الفردوس، ورفرف حوله العدل والانسجام والسلام.

(دمشق)

صلاح الدين المنجد

الأحلام

للعالم النفساني (يونج)

للدكتور محمد حسني ولاية

يقسم يونج العقل الباطن (اللاوعي) إلى قسمين:

1 - اللاوعي الشخصي الذي يحتوي على كل ما هو منسي أو مكبوت مما اكتسب بواسطة الإنسان.

2 - اللاوعي الشامل الذي يشمل محتويات غريبة عن الفرد وليس لها طابع شخصي، ويمكن استكشاف هذه المحتويات في هواجس الجنون وبدوات الأحلام التي تنتمي إلى العقل البدائي، فهي لم تكتسب ذاتياً ولكنها موروثة من الإنسان الفطري ومتماثلة على وجه العموم في كل الكائنات البشرية.

وقد قص يونج الحلم الذي سأذكره فيما يلي ليبين الفارق بين الأحلام الذاتية العابرة والأحلام الناشئة من اللاوعي الشامل، وهو يرى أن هذا الحلم قد طفا من مستوى أعمق بكثير من مستوى الأحلام العابرة:

(حلم طالب ديني أنه يصلي أمام شخص جميل أطلق عليه الساحر الأبيض وكان مرتدياً معطفاً أسود. ثم أقبل شبح آخر سماه الساحر الأسود مرتدياً جلباباً أبيض.

رغب الساحر الأسود في التحدث إلى سيده الساحر الأبيض، ولكنه تردد في الإدلاء بحديثه وهو في معية تلميذه (الطالب). وحينئذ قال الساحر الأبيض: (تكلم. إنه طاهر).

فقص الساحر الأسود قصة عثوره على مفاتيح الجنة الضائعة ولم يتيسر له معرفة استعمالها. فجاء إلى الساحر الأبيض مستفسراً ثم قال: إن ملكه يبحث عن مقبرة ليوسد فيها حين يحين حينه، ولكن بينما كان أحد رعاياه يحفر الأرض عثر على مقبرة كبيرة تحتوي على بقايا عظام عذراء، ففتح الملك هذه المقبرة وألقى هذه العظام خارجها وأقفلها.

فما إن تعرضت العظام لنور النهار حتى دبت فيها الحياة، وأخذت شكل حصان أسود جرى إلى الصحراء.

(فتبع الساحر الأسود هذا الحصان، وبعد صعوبات جمة وجد مفاتيح الجنة الضائعة

ويرى يونج أنه لا يمكن تفسير هذا الحلم بالطريقة المختزلة لأن قيمته الحقيقية تكمن في
ذاته لأنه عبارة عن تجارب روحانية تتحدى أية محاولة لتبريرها.

وقد انتقد يونج نظرية فرويد الأحلام والعقل الباطن لأنها لا تعترف بوجود اللاوعي الشامل. ثم قال: إن الوارثة فقط تستطيع أن تفسر التماثل العجيب بين الأقاصيص الدينية الأزلية من ناحية، وبين الأحلام والهواجس من ناحية أخرى. وإن اللاوعي الشامل لا يظهر أثره إلا عند حدوث ظروف غير عادية تطلق سراح نشاطه المستقل.

أختم المقال بحلم شاب في العشرين من العمر مشفوعاً بتعليق يونج عليه:

(رأيتني في كاتدرائية (لورد) وقد شملها جو قاتم غامض ونور خاب وتوسطتها بئر عميقة كان مفروضاً على أن أتوجه إليها)

ثم عقب الحالم على هذا بقوله: (إن لورد هذه بئر للاستشفاء، وقد رأيتها في الحلم بمناسبة تفكيري في السعي إلى العلاج)

(إن كلمة كاتدرائية تعيد إلى ذاكرتي كاتدرائية كولونيا التي أغرمت بها في صباي، وكثيراً ما كانت أمي تستصحبني إليها وتحدثني عنها)

هنا يصف المريض اختبارات مهمة في صباه تعرب بنوع خاص عن صلته الوثيقة بالأم.
وهذه الصلة تنطوي على علاقة سرية غير واعية، وقد عبر عن هذه العلاقة تعبيراً قد يعتبر واعياً في شكل إبطاء في نمو أخلاقه وبقاء مظاهر من الطفولة فيه. وقد برزت فيه بعض خصائص الأنوثة كما يبدو من طريقة تعبيره، وكانت علته التي التمس الشفاء منها حبه الذكور حباً جنسياً
تكافح الشخصية في تطورها لكي تنفصل عن العلاقة الطفلية غير الواعية بالوالدين، ولا شيء يعوق النمو الأخلاقي أكثر من بقاء نفسية طفلية غير واعية.
وتأتي أول فرصة لانفصال عن الأم عن طريق إرضاء الغريزة باستبدال الأم بموضوع آخر يماثل الأم
وإنا نرى في حالة هذا الشاب أن بدواته الطفلية متعلقة برمز الكاتدرائية بسبب حاجته القوية غير الواعية إلى بديل عن الأم، وتمثل الكنيسة هنا بدلاً روحانياً عن الصلة الطبعية بالوالدين.
كان القدماء يحتفلون بسن البلوغ ففيهم الشاب أسرار قبيلته الدينية، وكان الاحتفال مصحوباً
بكثير من الطقوس الدينية والعادات الفطرية ولا ريب في أن هذه تركت أثراً في عقلنا الباطن بل إنها أصبحت تقريباً عمليات غريزية منحوتة في اللاوعي كنماذج قديمة هذا وإن حب الجنس المماثل يرجع إلى وقائع تاريخية عند الإغريق وبعض الفصائل الفطرية، وكانت الرغبة فيه تعد نضوجاً ورجولة. فإذا رجعنا إلى خطة الحلم أمكننا أن نفهم أنها ترمي إلى رغبة المريض في العلاج وإلى إثبات معنى حب الجنس المماثل أو بعبارة أخرى الدخول إلى دنيا البالغين.
(للبحث صلة)
محمد حسني ولاية
الأزهر في عامه الجديد
بين الذكرى والأمل
للأستاذ عبد اللطيف محمد السبكي
فوق ما للأستاذ (الزيات) بين رجال الفكر والقلم من مكانة مرموقة؛ فإن له نزعة دينية تتمثل فيما يكتبه من حين إلى حين عن الثقافة الإسلامية وحاجة الناس إليها، وعن الأزهر وما يتصل بالأزهر من هذه الناحية. وبلاغة الزيات وروحه تقتضيان أن يقرأ له الناس إذا كتب، ويصغوا إليه إذا قال.
وقد تحدث الأستاذ في افتتاحية (الرسالة) لعامها العاشر عما يغشى الناس في هذه الآونة من ظلام: ظلام المطامع والشهوات، أو ظلام القسوة والطغيان؛ حتى عُمِّيت على الناس وجوه الرأي، وأغلقت دونهم أبواب الحيلة، واكفهرت أمامهم بوادر المستقبل.
وتعليل ذلك كله عند الأستاذ الزيات ظلمة السرائر من نور الهداية، وإقفار البصائر من روح الدين، حتى تكاثفت هذه الظلمات الباطنة؛ فكانت في الظاهر كذلك حلكاً غاشياً، وظلماً فاشياً؛ ثم كان ضجر الناس بالحياة، وسخطهم في هذا الوجود. ذلك معنى حديثه، وهو حديث حق لا ريب فيه (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً)
ولكن متى يستبين للناس وجه الرشاد من الغي فيرجوا إلى الدين فيما يتصل بهم أو يصل بينهم من أسباب، لتنجاب عن بصائرهم هذه الغشاوات، وتنكشف لأبصارهم مسالك الحياة؟! علم ذلك عند الله. . .
ولكن الأستاذ الزيات يتجه إزاء هذا السؤال نحو الأزهر، وهو يرى الأزهر في وضعه الصحيح كمحطة استقبال وإذاعة: يتلقى تعاليم الوحي من كتاب الله وسنة رسوله، ويذيع في الناس الحكمة الصادقة، والموعظة الحسنة، والقدرة الصالحة، ويمثل في سيرة أهله ما كان ماثلاً في سيرة السلف وأعمالهم للدنيا وللدين.
والنظر إلى الأزهر بعين كهذه ليس فيه إسراف ولا شطط، فقد قام الأزهر كما يقول الأستاذ - للدين وعاش بالدين - وليس يليق به أن يكون لغير هذا وإن تطاولت عليه السنون؛ ولا يليق به أن ينحدر من عليائه إلى الوضع الأدنى الذي خرطه في عداد المدارس، أو كاد.

ونحن إذ ننظر إلى الأزهر بهذه العين نقف به مع الأستاذ الزيات بين الذكرى والأمل، لترجع بنا الذكرى إلى أزهر القرن الرابع عشر، يوم كان حقاً يعيش للدين وبالدين، ولا تلويه الأحداث، ولا تستهويه المطامع فكان لقوله صولة، ولرأيه شأن وحساب.
وإذ تحولت نظم الحياة الاجتماعية، واقتضى الزمن نشاطاً في السير، ومتابعة للنهوض، فما كان ينبغي للأزهر أن يقنع بالعزلة ويتنحى عن مكان القيادة، ويقعد عن اجتذاب الجماهير إلى حوزة الدين، واشتمالهم بتعاليمه الفضفاضة.
وإن تكن هذه سيئة الزمن الماضي، فماذا صنع أزهر اليوم ليدرك الناس ما فاتهم، ويصل ما انقطع بينه وبينهم، ولا يترك الخرق يتسع، والشر يتفاقم؟
نعم بدأ يخطو الأزهر في عهده الحاضر خطوات لا بأس بها، ولكنها خطوات هينة إذا قيست بالأمانة العظمى التي يتحملها عن الأنبياء. والأمر يقتضي نشاطاً فوق هذا النشاط، ولا يتسع لتريث فوق الذي كان، وهنا مثار الأمل في الأزهر، فإلى من يتجه ذلك الأمل المنشود؟
يتجه إلى صاحب المقام الأعلى، إلى معقد الرجاء، إلى جلالة الملك فاروق، فجلالته حَريٌّ بين الملوك أن يحمل راية القرآن خفاقة على ربوع الإسلام، وأن يجعل القرآن - بتشجيعه وعطفه - منهلاً عذباً في وادي النيل، يصدر عنه الناس وإليه يردون، وهذا ما كشف اللثام عنه بين يدي جلالته شيخ الأزهر في مستهل العام الهجري، فأبان فضيلته عن أمل المسلمين في الأزهر وعن رجاء الأزهر والمسلمين في جلالة الفاروق.
ويتجه الأمل ثانياً إلى فضيلة الشيخ الأكبر وإلى من يؤازره من كبار العلماء، وما يريد المسلمون منهم إلا ما تحدث عنه الأستاذ الزيات: (أن يضعوا لثقافة الشعب أساساً من الدين، يقوى بقوة الله، ويثبت بثبوت الحق، ويدوم بدوام الدنيا، ثم يقيموا عليه من القواعد والأوضاع ما يقره العقل، ويؤيده العلم، ويتقبله العصر، وتقتضيه الحاجة) ففي هذه الكلمات تتلخص حاجة الناس إلى الدين وتنحصر مهمة علماء الدين.
وقد نشط إلى الجهر بذلك منذ أيام شيخ متوثب، انتظم إلى جماعة كبار العلماء، فكان إحساسه يقظاً، وصوته ندياً. وإذا تجاوبت هذه الدعوى، ودخلت إلى مكتب الشيخ، وترامت إلى المسامع العلية، فبعيد أن تفتر هذه الحمية، وبعيد أن يركن الأزهر إلى تلك السياسة
الشكلية التي تؤخر أكثر مما تقدم.
أقول - السياسة الشكلية - وأنا في هذا التعبير من غيرة وخشية: غيرة على عهد المراغي أن يعلق به شيء مما لا نحب، وخشية من لائمة من لا يرضيهم ذلك التعبير.
ولكنه مقام تعوزنا فيه الصراحة أكثر من المجاملة، ويقتضينا الإنصاف ألا نشوب الإخلاص بالمداهنة، وإلا نطوي صفحة الولاء على غش ودخالة.
هي مشكلة إلى حد ما، ونحن نريدها عملية محصنة: عملية في التوجيه العلمي، وتزكير الروح الأدبي والكرامة في نفوس الناشئة. نريدها عملية في الموازنة بين المتصلين بالعمل: إداريّاً كان أو عملياً. وليس بعزيز على الشيخ الأكبر أن يتحسس هذا، ويوازن ويرجح، ويحْدِث ويجدد، بل ذلك فيما نعلم من الخطوات الأولى في إقامة الإصلاح.
فلينظر مولانا الشيخ الأكبر في الأدوات التي يؤدي بها الأزهر رسالته: قولاً كانت أو كتابة. ولينظر فيمن يساهمون في الإدارة؛ فليس يكفي أن يكون الرأس وحده سليماً حتى تسلم بقية الأعصاب والعضلات!
وأكبر الظن أن ينقضي العام الجديد على خير ما بدأنا من آمال، وما رجوناه من أعمال.
عبد اللطيف محمد السبكي
المدرس في كلية الشريعة

أدب الطف

عامل من عوامل نمو الشعر في العراق

للأستاذ عبد الكريم الدجيلي

كتب الدكتور زكي مبارك في أعداد سالفة من (الرسالة) عن (الأدب العربي الحديث في العراق)، ولا أريد بكلمتي هذه أن أناقشه فيما كتب، إذ أن وقت المناقشة قد بَعُد وتقادم، على أني معجب شديد الإعجاب ببعض ما كتب.
وقد كنت معتقداً بأنه سيكتب عن الشعر الذي رُثى به الحسين بن علي بن أبي طالب،

فيكشف لقراء (الرسالة) صفحة مندثرة من الأدب العربي، ومنجماً مليئاً بغرر الشعر وأطايبه، فيُسجل له فضل الأسبقية في هذا الموضوع بعد أن زودته وزارة المعارف العراقية بأغلب الدواوين المطبوعة لشعراء العراق، وأغلبها ملآن بما رُثِيَ به الحسين، فعبدت له الوزارة بعض الطريق. على أن الرجل قد أشار إلى هذا الموضوع من طرف بعيد قد يخفى على كثير من القراء - وعلى الأخص أدباء الأمة المصرية - إذ أن سمعهم لم يطرقه هذا اللون من الأدب العربي إلا النادر منهم.

وكان الأجدر بالدكتور أن يقف عند هذا الموضوع ولو قليلاً، أو يَعِد القراء بالرجوع إليه، لأن رثاء الحسين، أو (أدب الطف) يعد (عاملاً من عوامل نمو الشعر في العراق).

ولعل كلمتي هذه تحفز الدكتور إلى الكتابة في (أدب الطف)، والمراجع لديه كثيرة، والوقت يناسب الكتابة في هذا الموضوع، قبل أن ينقضي شهر محرم الحرام الذي قُتِل فيه الحسين بن علي بن أبي طالب. فالمناسبة إذن تشجع الكاتب على كشف هذا المنهل العذب الصافي من الأدب العربي لكل من تعنيه الدراسات الأدبية والاتجاهات الفكرية. على أن السبب الأول لكتابة هذا المقال، هو نفس السبب الذي دعاني أن أدعو الدكتور أن يكتب فيه.

ذكر الدكتور في المقال الذي كتبه عن (الأدب العربي الحديث في العراق) أن الخصومات الدينية، والخلافات المذهبية بين الشيعة والسنة، قد عادت بالنفع والخير على الأدب والبيان في العراق. وهذا حق لا جدال فيه، فقد يكون بعض الخلاف خيراً وبركة من جهة، ونقمة وبلاء من جهة أخرى. ولو تصفحنا أدوار الأدب العربي من فجرها إلى يومنا هذا، لرأينا أجود ما فيه كان السبب في وجوده الخلاف: فقصيدة عمروا بن كلثوم، والاعتذار الذي

صاغه الذبياني في قصيدته الخالدة، وكثير من شعر حسان، وخطب علي ومعاوية، والمراسلات التي كانت من جراء هذا الخلاف، وشعر جرير والفرزدق والأخطل ومن شايعهم، وخطب عيسى بن علي والسفاح والمنصور؛ ثم الغالب من شعر المتنبي الذي يبرق فيه ويرعد، والرسالتان الجدية والهزلية لابن زيدون، والقصيدة السينية - ما على ظني يأس - كل هذا الإنتاج العقلي وألوف من أمثاله كان السبب المباشر في وجوده هو الخلاف (السعيد) - على حد تعبير الدكتور. وأنا وإن كنت لا أحب أن أذكر، حتى اسم الخلاف الذي يقع بين المسلمين ما دام المنهل واحداً - خصوصاً في بلد كالعراق لا يستغني فيه أحد الفريقين عن الآخر، فإني سأطرقه من ناحيته الأدبية لا غير.

تقام الاحتفالات التأبينية في العراق - وعلى الأخص في نواحيه الجنوبية - وتعقد النوادي فيه تأبيناً للحسين بن علي بن أبي طالب في كل أيام السنة، أما إذا هلَّ شهر المحرم، فإن الأشغال تكاد تعطل، والحوانيت تكاد تقفل طيلة شهري محرم وصفر، فتعقد مئات النوادي لذكرى قتيل الطف.

فإذ كان الأدب العربي يفخر بسوق عكاظ لأنها كانت السبب في رفع مستواه، وكانت السبب في احترامه وتعاليه؛ فإن الأدب العربي مدين كل الدين لهذه النوادي التأبينية، إذ أنها خير مدرسة وخير عامل لنمو الشعر في العراق. فالشاعر الذي تنشد قصيدته على رؤوس الأشهاد وتستحسن يستمر بحكم الضرورة على قرض الشعر حتى يستمر هذا الإعجاب والتقدير.

ثم هناك حافز آخر لخلق الشاعر في هذه الناحية ألا وهو الحافز الديني، فقد وردت أحاديث كثيرة، وأخبار مستفيضة تهب الثواب والجزاء لمن قال الشعر في آل محمد ولو بيتاً واحداً. ومهما كان نصيب هذه الأحاديث والروايات من الصحة فإنها كانت سبباً قوياً وباعثاً لخلق ألوف من الشعراء لا أظن أدبياً أو متأدباً ينضج ويكتمل ما لم يطلع على هذه الناحية من الشعر.

ومن الغريب أن أدباء الأمة العربية لم يعرفوا عن هذا المنجم الأدبي الضخم ولم يسبروا فيه من غور وعمق. ولو أنهم فعلوا ذلك لظهر لهم من شعر الطف ما يغذي العاطفة ويربي الذوق، ولأضيفت إلى الأدب العربي صفحة مليئة بنفائس الشعر الجيد الممتاز، ولفتحت

أمام حملة الأقلام والقوامين على سير الأدب العربي أبواب فيها من الشعر ما هو قمين بكل تقدير.

وإذا كانت الخصومات الدينية، والخلافات المذهبية في العراق هي السبب في حفظ

كيان الأدب والبيان ولولاها لذهبت به تلك الأعاصير الهوج التي مرت عليه طيلة سنين عدة. فإن نفس تلك الخصومات كانت السبب الوحيد في انزواء هذه التحف الفنية والنوادر الأدبية.

ولعلي أوافي قراء الرسالة متى سنحت الفرصة عن بعض هؤلاء الشعراء الذين وقفوا أكثر حياتهم الأدبية على هذه الناحية من الشعر فأكون قد قمت بواجب الأدب والتأريخ معاً.

وإليك أبياتاً مقتطفة من قصيدة طويلة للسيد حيدر الحلي يرثى بها الحسين:

أيها الراغب في تغليسة ... بأمون قط لم تشك الكلالا
أقتعدها وأقم من صدرها ... حيث وفدُ البيت يلقون الرحالا
واحتقبها عن لساني نفثة ... ضَرماً حوَّله الغيظ مقالا
فإذا أنديةُ الحيِّ بَدَتْ ... تشعر الهيبة حشداً واحتفالا
قف على البطحاء واهتف ببني ... شيبة الحمد وقل قوموا عجالا
كم رضاع الضيم! لا شب لكم ... ناشئ أو تجعلوا الموت فصالا
كم وقوف الخيل لا كم نسيت ... علكها اللجم ومجراها رعالا
كم قرار البيض في الغمد أما ... آن أن تهتز للضرب انسلالا
قوّموها أسلا خطية ... كقدود الغيد ليناً واعتدالا

وللحاج هاشم الكعبي من قصيدة مطولة في هذا الموضوع:

فوارس اتخذوا سمر القنا سَمَرا ... فكلما سجعت ورق الغنا طربوا
يستعذبون الردى شوقاً لغايته ... كأنما الضرب في أفواههم ضَرَب
حتى إذا سئموا دار البلى وبدت ... لهم عياناً هناك الخرّد العرُب
فغودروا في العرا صرعى تلفهم ... مطارف من أنابيب القنا قشب
وأفلتت زمر الأعداء ترفل والأح ... قاد تسعر والأحشاء تضطرب
جلا لها ابن جلا عضب الشبا ذكرا ... لا يعرف الصفح إذ يسنله الغضب
تأتي على الحَلَق الماذيِّ ضربته ... ولا يقيم عليها البَيض واليلب
وللحاج كاظم الأزري مرثية من غرر الشعر تقتطف منها ما يلي

وضربة تتجلى من صوارمه ... كالشمس طالعة من جانبي نهر
كأن كل دلاص منهم بَرَد ... يرمى بجمر من الهندي مستعر
إذا انتضى بردة التشكيل تحسبه ... لاهوت قدس تردى هيكل البشر
صالوا وصلتَ ولكن أين منك همو ... النقش في الرمل غير النقش في الحجر
ما أنصفتك الضيا يا شمس دارتها ... إذ قابلتك بوجه غير مستتر
ولا رعتك القنا يا ليث غابتها ... إن لم تذب لحياء منك أو حذر
قد كنت في مشرق الدنيا ومغربها ... كالحمد لم تغن عنها سائر السور

أترى أن مثل هذا الشعر المتسامي في سبله ومتانته وجودة تراكيبه لا يعرف عنه أدباء الأمة العربية وبخاصة أدباء وادي النيل الذين منحهم الله الإحساس الأدبي والشعور الفني لمثل هذه القطع الأدبية والأساليب العربية التي تتجلى بهذا الشعر! وإذا كان هناك لوم يوجه إلى زمرة من الأدباء لأنهم أهملوا هذه الناحية الأدبية من الشعر. فإلى أدباء العراق وحملة الأقلام فيه إذ أن الواجب الأدبي يحتم عليهم أن يعنوا بنشر أمثال هذا الشعر.

ولقد أذكر أنني قرأت كثيراً من هذا الشعر على نخبة من أدباء الأمة المصرية مثل الأستاذ هاشم عطية والأستاذ السباعي بيومي. ومما أذكره أن الأستاذ هاشم عطية قال لي بعد الانتهاء من قراءتي لهذا الشعر: إن هذا الشعر خلاصة تفكير أمة كاملة لا تفكير فرد. وإن مثل هذا الشاعر - ويعني السيد حيدر - لا يوجد في الأمة العربية مثله في كل وقت وحين؛ وإنما يجيء على رأس قرن أو قرنين. فالواجب عليك وعلى أدباء العراق الاتجاه نحو هذا المنجم الأدبي لتخرجوا منه لنا كتباً تكون خير متعة أدبية ولذة فنية.

ومن هنا عنيت بهذا الشعر ولعلي أخرج كتاباً فيه.

عبد الكريم الدجيل
المدرس بالثانوية العسكرية

الفرق السياسية في الإسلام
للدكتور رينولد نيكلسون
بقلم الأستاذ حسن حبشي

كانت مناهضة الأحزاب السياسية والفرق الدينية للبيت الأمويّ اللغمَ الذي أخذ يقوّض دعائمه شيئاً فشيئاً، حتى أنهار ولم تقم له قائمة بعد ذلك. وسنسوق بعض التفاصيل عن الأفكار التي أدّت إلى تطاحن هذه الطوائف، وعن العوامل التي دعتها إلى السخط على النظام القائم، ثم نُثّني ببضع كلمات قلائل عن الفرق الدينية وعقائدها كالمعتزلة والمرجئة والصوفية، ثم التكلم عن أدبهم الذائع الذي كان جُلّه شعراً، وعن حملة لوائه البارزين.

كانت وجهة معارضي الأمويين سياسيةً بادئ ذي بدء، إذ كان معنى تولي معاوية الحكم انتصار الشام على العراق، ومن ثم أصبحت دمشق عاصمة الدولة، وحلت محل الكوفة، وقد لاحظ (فلهوزن): (أن أشد الصيحات خطراً على بني أمية كانت منبعثة من العراق، فلم تكن صيحة حزب خاص بذاته، ولكنها صدى صوت جميع العرب المقيمين هناك، والذين اتفقوا جميعاً على استنكار ضياع استقلالهم وعلى كراهية أولئك الذين آل إليهم الأمر). وفي هذا الوقت نفسه اصطبغت هذه المشاعر بروح دينية، واتخذت من الدين عوناً لها، وسقط النظام الجديد مذموماً موسوماً بسمة الشرك، وبناءً على مبلغ تقدير المسلمين لمعنى الواجب، كان لزاماً على كل رجل حرّ عاقل أن يعمل على إزالة أسباب ذلك المنكر، ومن بين الأحزاب العديدة التي نهضت بأعباء هذا الأمر، يمكننا أن نتبين أربع جماعات وحّد بينها غرض مشترك، وتعاونت في سبيل تنفيذ فكرتها، تلك هي:

(ا) المسلمون عامة المتمسكون بالدين، الذي كان يتألف منهم أهل السنة.

(ب) الخوارج ويمكن تسميتهم (بالمتطهرين) وهم شديدو التطرف في نزعتهم الدينية.

(ج) الشيعة أو أنصار عليّ وآل بيته.

(د) الموالي: وهم المسلمون من غير العرب.

ومن الجليّ الواضح أن الفريق الأول (الذي كان دعاته وأنصاره الفقهاء وحفظة القرآن وصحابة الرسول وتابعيهم)، كان هذا الفريق كارهاً للحكومة التي أرغم على طاعتها والخضوع لسلطانها. أما الاعتقاد بأن القوة التي كان يمثلها الطغاة ومؤيدهم قد وطأت الحق كما جاء به القرآن والسنة، فقد جعل الكثيرين يقحمون أنفسهم في غمار ثورة هائلة؛ ويقال: إن خمسة آلاف قد لقوا مصرعهم في حادثة تخريب المدينة، كما عزف آخرون عن الدنيا أمثال الحسن البصري، وسلكوا سبيل الزهد بعد أن يئسوا من الإصلاح، وقد كان لهذا الاتجاه عواقب خطيرة الشأن كما سنرى.

لما رضي عليّ بعد (صِفّين) بالتحكيم فيما شجر بينه وبين معاوية من خلاف حول مشكلة الخلافة لأمه الكثيرون من جنده ورموه بخيانة العهد، إذ كان - كما يعدّونه - الخليفة المنتخب عن جدارة واستحقاق، فكان لزاماً عليه أن يستمسك بمنصبه السامي ويضحي من أجله بكل ثمين، وفي طريق العودة إلى أمصارهم أنسلخ الساخطون ويقدّر عددهم باثني عشر ألف رجل، وعسكروا في بلدة تدعى (حردراء) على مقربة من الكوفة وصاحوا جميعاً: (لا حكم إلا الله)، وبذلك أظهروا اعتراضهم على التحكيم بتلك العبارة ولم يجيزوه. وحاول عليّ - دون جدوى - أن يستميلهم إلى جانبه، فأبوا عليه ذلك، وانتخبوا خليفة من بينهم، واجتمع في (النهروان) أربعة آلاف من صناديدهم المغاوير ثائرين عليه، فلما أشرف عليهم على وسط جموع جيشه اللجب تفرّق أكثرهم خوف لقائه. أما الباقون، فقد ثبتوا في أماكنهم، وآثروا الموت في سبيل الذّب عن إيمانهم ومعتقداتهم، وأصبحت مكانة (النهروان) عند الخوارج بمنزلة (كربلاء) عند الشيعة الذين اعتبروهم منذ ذلك اليوم أعداءً لهم. وقد ظلت ثورات الخوارج قائمة طوال صدر دولة بني أمية، إلا أن الحركة بلغت أقصى شدّتها وعنفها في سنوات الاضطراب التي حدثت عقب موت يزيد، فانتشر (الأزارقة) في العراق وفي جنوبي فارس، على حين استطاعت شعبة أخرى - وهي النجدية - التسلط على جزء كبير من بلاد العرب وإخضاعها لنفوذها. ولقد ظلّ العُصاة زمناً طويلاً مقيمين على مناهضتهم ومقاومتهم لعبد الملك، ولم يقلعوا على التمرد، حتى قام الحجاج سنة سبع وتسعين

وستمائة، فأخمد ثورتهم التي كانت تحت رئاسة زعيمهم شبيب.
ويقال إن كلمة (خارجي) ترجع إلى آية في القرآن جاء فيها (ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسَعَةً، ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقعَ أجرُهُ على الله وكان الله غفوراً رحيماً) وعلى ذلك فالمقصود من كلمة (خارجي) ذلك الذي يهجر مُقامه بين الكفار ابتغاء مرضاة الله، وكذلك تتصل بلفظ (مهاجر)
الذي أطلق على المؤمنين من أهل مكة الذين صحبوا الرسول في هجرته إلى المدينة.
وهناك لقب آخر يُكْنَوْن به، وهو مُستمد من القرآن في أصله إلا وهو (الشراة) أي الذين باعوا أنفسهم وأموالهم لقاء الجنة كما جاء في قوله: (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقْتُلون ويُقْتَلون وعْداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوْفى بِعَهده من الله فاستبشروا بِبَيْعِكُم به الذي بايَعْتمُ وذلك هو الفوز العظيم)، وأغلب الخوارج من الجند البدو الذين استقروا في الكوفة والبصرة عقب الحروب الفارسية. ولم تستطع الحياة المدنية أن تغّير كثيراً من طبعهم الشموس وخُلقهم الجاف، فلم يروا في قريش من الفضائل ما يجعلها تذهب بالأمانة وحدها، بل أرادوا اختيار رئيس من بين ظهرانيهم تجري في عروقه الدماء التي تجري في عروقهم ويطيعونه - كما جرى سنّة البدو - ما دام قائماً خير قيام بأعباء ما عهد إليه به. ومع ذلك فقد كان الدافع الرئيسي للحركة دافعاً دينياً، ويمكن ردّه - كما أشار فلهوزن إلى القراء الذين ذهبوا إلى تهويل شأن المسألة الخاصة بإلزام علي بالتفكير عن خطيئته الكبرى التي دفعه إلى إتيانها موقفهم المحزن الذي وقفوه حينذاك. وإنهم ليناهضون علياً لنفس السبب الذي دعاهم للوقوف ضد عثمان، ففي كلا الموقفين كانوا يتعلّلون بالرجوع إلى أمر اله للقيام في وجه الخليفة الجائر. وإنه لمن المهم عند التعرض لذكر مبادئ الخوارج الرئيسية عدم إغفال هذين الرأيين التاليين وهما
ا - جواز الخلافة لكل عربيّ حر
ب - عزل كل خليفة لا يحسن القيام بأعباء سلطته أو قتله إذا حتمت الضرورة ذلك
وقد كتب المستورد بن علّيفة الخارجي قائد المؤمنين إلى سمّاك بن عُبَيْد وكان في المدينة العتيقة رسالة جاء فيها: (أما بعد فقد نقمنا على قومنا الجور في الأحكام وتعطيل الحدود والاستئثار بالقيء، وإنا ندعوك إلى كتاب الله عز وجل، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وولاية أبي بكر وعمر رضوان الله عليهما والبراءة من عثمان وعلي لإحداثهما في الدين وتركهما حكم الكتاب) ومن هذا يتضح لنا أن دعوة الخوارج كانت تتلخص في التمسك بما نادى به الإسلام من المساواة والإخاء الذي لم يعد يُعمل به بل تلاشى تماماً. أما من الناحية النظرية فنرى أن جميع المسلمين المتمسكين بدينهم قد اتفقت رغبتهم على إعادته إلى
نصابه، وعلى إدانة الحكومة القائمة، ولم يكونوا دون الخوارج في هذه الناحية وفي مَقْتِ تلك الدولة مقتاً شديداً تأصّل في حنايا النفوس؛ أما الفارق الذي كان يميِّز أفراد الحزب الأخير عن سواهم فهو صرامتهم الشديدة ودقتهم في تنفيذ مبادئهم ونشرها. وكان من آرائهم الجوهرية أنه يجب على الإمام أو زعيم المجتمع أن يحكم باسم الله وبمقتضى كتابه، وأنّ من سار على غير هذا الدرب فقد باع نصيبه في الحياة الأخرى، وأن النجاة الأبدية وقف على اختيار خليفة النبيّ. وكانوا يعدُّون المسلمين الذين يأبون سبّ عليّ وعثمان كفاراً مارقين، كما كانوا يرون من الضروري على كل مؤمن صادق الإيمان أن يساهم في (الجهاد المقدس) ضد هؤلاء وأمثالهم، وأن يقتلهم ويقتل زوجاتهم وأطفالهم أنّى ثقفتهم.
ولقد ارتدت هذه المبادئ الفظة على العصاة الذين سرعان ما وجدوا أنفسهم مهدّدين بخطر الانقراض، ومن ثم أخذت الآراء المعتدلة تنتشر بينهم فأحلَّ الأباضيون (أتباع عبد الله بن أباض) عيشهم بين المسلمين والاختلاط بهم في حدود التساهل المشترك بين الطرفين، ولم يكن التساهل في الواقع مناقضاً لما يريده الخوارج من إقامة مملكة الله على الأرض، ولكن حطّم منطقهم العنيد، كل دستور يوضع؛ فهم يقولون - كما لاحظ عليّ - (لا إمارة ولكن لابد من إمارة برة أو فاجرة) ومع ذلك فقد كانوا يحاربون بإيمان ثابت وعقيدة خالصة في سبيل مرميً شريف، ولم تكن لهم غاية دنيوية يسعون

من اجلها على نقيض الأحزاب السياسية الأخرى.
تكلم الشهرستاني عن الإثني عشر ألفاً الأوائل الذين ثاروا ضد عليّ فوصفهم بقوله (إنهم أهل صيام وصلاة). وكان القرآن حكَمَهم في حياتهم والمهيمن على خواطرهم، حتى أن تاريخ اعتقادهم الأول، وتاريخ المضطهدين والشهداء والمؤمنين. . . كل ذلك غدا مأساة حقيقية واقعة كانوا هم أنفسهم أبطالها الذين قاموا بتمثيلها، كما أن خوفهم من الجحيم أثار فيهم حماسة صادقة وغيرة على إحقاق العدل، كما امتحنوا اعتقادهم الشخصي في دقة وخبروا إيمان جيرانهم. وويل للذين كانوا يجدونه ضعيف الإيمان، فهناك خطوة واحدة تقرب المخطئ من الإسلام، وعلى الرغم من أنه يمكن التجاوز عن الزلة وغفرانها بالتوبة الصادقة إلا أنهم كانوا يُسلكون أيّ مسلم ارتكب إحدى الكبائر ولو مرة واحدة في زمرة الكفّار المخلدين في النار، أو كان ذلك على الأقل في نظر الخوارج المؤمنين.
حسن حبشي
ظاهرات نفسية
في مسرحيات محمود تيمور
للأستاذ زكي طليمات
(تتمة)
نقدنا اليوم خاص بمسرحية (الموكب)، وهي المسرحية الثالثة التي كتبها تيمور باللهجة العامية وأصدرها في مؤلف واحد
وتنفرد هذه المسرحية عن المسرحيتين الأخريين بأنها شاهدت أنوار المسرح وطلعت على الجمهور في المكان اللائق بها. كان ذلك منذ سنتين وتسعة شهور، أيام المواكب والأعياد التي جرت في القاهرة احتفالاً بالمصاهرة السعيدة بين البيت الملكي في وادي النيل والبيت الإمبراطوري في إيران؛ وهو عهد اتجه فيه النشاط الاجتماعي - وذلك في بعض البيئات المصرية - وجهة خاصة لم تدم طويلاً. والأدب من الاجتماع، فكان أن كتب تيمور هذه المسرحية بإيذان تلك الساعات المشرقة، كتبها ليقدمها المسرح المسرحي لوزارة المعارف على مسرح الأوبرا الملكية في الحفلة التي أقامتها الوزارة احتفاء بهذه المناسبة السعيدة.
هي مسرحية سعيدة ولاشك، لأنها كتبت لمناسبة سعيدة، وقام بتأديتها نخبة من الفرق التمثيلية بالمدارس الثانوية، هم طلاب علم وثقافة لا يرون من الحياة إلا جانبها المشرق السعيد؛ فلا غرو أن جاءت مملحة بالمزاح المرح، فياضة بالفكاهة العذبة، تتوالى مشاهدها في إيقاع خفيف جذل.
وهي مسرحية (مناسبة) من حيث الباعث على كتابتها وإخراجها، وروايات المناسبات - كما يدل الاستقراء في تاريخ أدب المسرحية - لا يكون حظها كبيراً من القيمة الفنية ما عدا القليل، ومن هذا القليل هذه المسرحية؛ فقد استطاع كاتبها أن يسمو بها على أدب المناسبات، بأن جعل (المناسبة) شيئاً ثانوياً لا يستأثر بجوهرها، ولا يطغى على الناحية الإنسانية فيها، بل إن (المناسبة) في هذه المسرحية لا تتجاوز أن يكون مطية أحسن المؤلف اتخاذها لإبراز عرض إنساني تضطرب فيها شخصيات عريقة في إنسانيتها، هي تضطرب وتستقر، وتصطفق وتستكين، كاشفة عما بنفسها من ظاهر ومضمر.
الموكب؟
والموكب في هذه المسرحية حقيقة ومجاز. حقيقة باعتباره أنه كائن عادي يُسْمَعُ وَيُرَى جانب منه، يعج عجيجه وتصدح موسيقاه، وترتفع هتافاته فتسري الهزة في شخوص المسرحية، وينطلقون يتحركون ويعملون، كل منهم في الدائرة التي رسمها له المؤلف. والموكب مجاز باعتبار أنه دلالة معنوية على شيء في النفس، في نفوس أشخاص المسرحية. هو لون من ألوان الرغبة التي هي لدى بعض الأشخاص في المسرحية مكبوتة مقيدة، لا هي تهدأ وتستكين، ولا هي تنطلق من إسارها إلا بعد لأي ومداورة ومراوغة، ثم هي لدى البعض الآخر رغبة إيجابية في فورتها تعمل مباشرة للانطلاق ولتحقيق غايتها.
أسرة في بهو بيت من بيوتات القاهرة اجتمعت حول المذياع تنصت الفنية بعد الفنية إلى ما يقوله المذيع عن أوصاف الموكب الذي ينتظم في محطة العاصمة ليسير

بالأمير إلى ساحات القاهرة وطرقاتها. اصطفاق الجماعات وهي تعبر بهذا البيت في طريقها إلى المحطة، ترتفع إلى آذان المجتمعين حول المذياع من وقت لآخر فتشيع الهزة فيهم. والمجتمعون هم (فضل الله باشا) رب الأسرة، والد شيخ مصاب بعصبة أمراض إلا المرض الذي يضعف الشهية ويلجم النهم، وزوجة له دونه سناً وفوقه نشاطاً وعافية، وابن وابنة لهما، في أول سني الشباب يلبسان أحدث الأزياء، ثم ابنة للوالد من سرير تقوض منذ زمن طويل، فهي في منحدر العمر، وزوج لها يكبرها بأعوام، الاثنان يتفقان في الحياء الذي لا سبب له، وفي نزعتهما التحشمية المتحفظة البادية على لباسهما. نماذج بشرية من أجيال مختلفة، وأمزجة مختلفة، إلا أنها تتفق في ناحية واحدة، وهي الرغبة التي تساورهم جميعاً لمشاهدة الموكب!!

الجميع يرغبون في الخروج ولكن. . .

ولكن الباشا (فضل الله) يكره الخروج لأنه يمقت الزحام كما أنه متعب من أوجاع داء المفاصل، وابنته الكبرى وزوجها (زهرية وبديع) يودان الخروج ولكنهما يكبتان الرغبة احتراماً للباشا. هذا في حين أن زوجة الباشا (نظيره) وولديها (بشاير وصفر) يتوقون جميعاً إلى الخروج ويجاهرون بهذا ويعملون على تحقيقه. . . مجتمع طريف ولاشك من حيث تباين النزعات، ومن حيث موقف النفوس أمامها.

الباشا لن يستطيع مشاهدة الموكب لأنه لا يريد أن يبرح مكانه باسم المرض، إذن فلا خروج لواحد من أفراد الأسرة، ولا متعة إلا ما يستطيع أن يستمع بها هو قبل كل إنسان. الباشا قانع ومسرور بمشاهدة الموكب بعين الخيال الذي يبعثه صوت المذيع من الراديو، فواجب أن يقنع الجميع قناعته، وأن يسروا سروره. الباشا، بعبارة أخرى، أَثِرٌ بحب نفسه، الباشا تصرعه الأنانية. . .

بيد أن هذه الأنانية أو الأثرّةَ لدى الباشا غير ملحوظة بحقيقتها من وعيه الظاهر، لأنها من إيحاء المضمر الكامن في وعيه الباطن، والمرء قلما يشعر لأول وهلة بحالة نقص نفسي فيه. ولذلك نرى الباشا يلبس هذه النقيصة وهو لا يشعر حلة غير حقيقتها ويفسرها تفسيراً خاطئاً، وأداته في ذلك المنطق الكليل القاصر عن النفاذ إلى جوهر الأشياء، فنراه في حديثه يزجي حشداً من الأسباب لتبرير البقاء في البيت والاكتفاء بسماع الراديو، ويورد مبررات منطقية لها ظل من الحقيقة النسبية التي يريد فرضها على أفراد أسرته، وهو يأتي كل هذا بعقله الظاهر ليستر شيئاً مضمراً في ثنايا عقله الباطن، وليقيم صلة منطقية بين العقلين.

وأعجب من هذا أن الباشا، وهو أثر يحب نفسه، يفزع من سماع هذه الصفة ملتصقة به فنراه يصارحه بها ابنه (صفر) يتبرم ويتعثر ويأبى إلا أن يفسر هذه الصفة بأنها نزعة غضب أو استبداد!

ونعود إلى موضوع القصة. قلت إن (صفر وبشاير) ووالدتهما يتنزون شوقاً إلى مشاهدة الموكب وأنهم يجاهدون من أجل ذلك، فلا نلبث أن نرى صفر، وكأن وحياً هبط عليه فجأة، يصارح شقيقته وأمه بأنه وجد السبيل إلى الخروج من البيت، ثم ينحني عليهما ويأخذون بأسباب همس حار.

ويعترض سياق الهمس من جانب والحديث من جانب الباشا وابنته الكبرى وزوجها مشهد أورده، على ما أعتقد، ابتغاء تنشيط الحركة المسرحية التي أخذت تركد بعض الشيء، لا يخرج القارئ منه بشيء جديد أكثر من مطالعة شخصية جديدة هي (الشيخ كروان) وهو أفاق مشعوذ ممن يخلطون الجد بالهزل، ويمزجون العته بالذكاء، توسلاً إلى التقاط المال اليسير الذي يعيشون عليه. وقد يضيف هذا المشهد لوناً ثانوياً على شخصية الباشا فتنكشف لنا ناحية من نفسيته، وهي ناحية تلحظ عند كثيرين من البشوات السذج الذين ما برحوا يرون في التمرغ (بتراب الميري) ولو بطريق اقتعاد مقاعد البرلمان، أمنية محببة مرموقة.

وأغلب الظن أن المؤلف قصد بإيراد هذا المشهد أن يمهد للانقلاب النفسي الذي سيجريه على نفسية الباشا في نهاية المسرحية، وذلك بطريق إظهار الباشا ممن يهتمون بالمظاهر الرسمية وممن لا يتركون فرصة تسنح دون أن يذكروا الدولة ورجالاتها بشخصهم الكريم.

ويستأذن (صفر) في الخروج بعد أن أضمر أمراً مع شقيقته ووالدته فيسمح له. وبعد برهة قصيرة يبدو فيها الباشا أكثر اهتماماً يتسمع أقوال المذيع عن وصف الموكب،

وكأنما قد بعثت في نفسه أقوال (الشيخ كروان) عما تتداوله الألسن عن قرب تعين الباشا عضواً بمجلس الشيوخ، يدق جرس التليفون. . .
صوت ناعم يتكلم ويرجو حرم الباشا أن تسارع بالمجيء من أجل مسألة هامة، والباشا يعارض؛ ولكن البيت الذي ستذهب إليه حرمه مجاور لبيته، والداعية صديقة حميمة لها، وزوجها (عبد الغفور بك) جار عزيز لدى الباشا، والمسألة خاصة بوضع تعجل أوانه، فلا يجد الباشا بداً من النزول على إرادة الداعية وإجابة التماس زوجته، فتخرج (نظيرة هانم) وابنتها (بشاير)، ويبقى الباشا ومعه ابنته الكبرى وزوجها.
وسرعان ما يقتحم بهو البيت حيث يتربع الباشا وفد يهتفون باسمه الكريم. الوفد هم أعضاء (جمعية الفتيان المصلحين) التي يتقلد رئاستها الفخرية الباشا ولا فخر.
ما أحذق تيمور في إيراد المتناقضات الخلقية في الشخصية الواحدة، تلك المتناقضات التي تثير الضحك في غير افتعال، وتبعث معين الرحمة في القلوب فتمتد أطرافها إلى تفاهات الإنسانية وضعفها العريق!
اغتنم الوفد فرصة مروره أمام دار الباشا فصعدوا ليذكروه بأن دار الجمعية ترحب بتشريفه لمشاهدة الموكب عن كثب ومن غير عناء. ثم يأخذ زعيم الوفد في الإشادة ببهجة الموكب وبجلال الموكب. فنرى الباشا يعتذر عن إجابة دعوة الوفد. ولا يعتذر، وإذا به نهبة لتيارات جديدة. . . وينصرف أعضاء الوفد هاتفين بحياة الباشا.
وتبدر بعد ذاك بادرة تنم على أن الباشا بدأت تعتلج نفسه بأشياء لم يكن يحسها من قبل. هاهو يطلب إلى ابنته الكبرى أن تفتح شباك الشرفة على مصراعيه، والشرفة تطل مباشرة على الشارع حيث تمر الوفود لتنتظم في سلك الموكب، هو يطلب هذا بدعوى أن الهواء محتبس في البهو.
وإذ ينتهي المذيع من قوله في وصف روعة الموكب وقد انتظمت صفوفه في الميادين، نسمع الباشا يصارح ابنته في قوته. وها هو يقوم ويطل من الشرفة فيرى جماعة من الشيوخ والنواب في ملابسهم الرسمية، وهم يطوون الطريق في سياراتهم. . . إنه ينادي الخادم، ولكن الخدم تركوا البيت لمشاهدة الموكب. . . إنه يطلب إلى ابنته أن تأتيه بالسترة الرسمية الخاصة بالتشريفة!. ولماذا. . .؟ إنه يخاف أن تكون العلة قد تطاولت عليها! بادرات ظاهرة تنم عن لمعات نفسية باطنة يأتيها الباشا وهو لا يحس بدوافعها الحقيقة!
المذيع يلهب الفينة بعد الفينة النزعة الجديدة التي أخذت تلبس الباشا وقد أخذ يرتدي سترته الرسمية بعد جهد وجهاد. هو يتمنطق سيفه ويتخطر أمام المرآة. إنه يتعجل ابنته أن تعيد تثبيت الأزرار التي انفرط عقدها، ثم. . .
ثم هاهو (عبد الغفور بك) جاره العزيز يقتحم البهو ويسأل الباشا أن يعيره ما يشد به (بنطلونه)!
وكيف تأتي أن يترك (عبد الغفور) زوجته وهي على أهبة الوضع؟
وإذ ذاك يسقط القناع عما دبره (صفر)، لقد تكلم باسم زوجة (عبد الغفور بك) واختلق مسالة الوضع اختلاقاً ليسر خروج والدته وشقيقته. . .
الباشا يتوعد ابنه، ولكن سرعان ما ينسى أمام صوت المذيع الذي يعلن وصول القطار للأمير إلى المحطة.
الباشا يدور على نفسه مصلحة هندامه، متعثراً بأثاث البهو، ثم ينطلق خارجاً ووراءه صديقه (عبد الغفور بك).
يبقي بديع وزوجته ابنة الباشا الكبرى. . .
وهنا يقول المؤلف (يراقب بديع الباشا في ذهول وهو يهرش رأسه، يبادل زوجته النظرات، ويقفز جارياً نحو الباب وهو يصيح: الله!! إشمعنا احنا؟ حصليني أوامك. . . بس اوعي تنسى البرقع)
وهكذا يبارح (فضل الله باشا) داره لمشاهدة الموكب بعد أن كان عاقداً العزم على البقاء فيه، وبعد أن حاول جهده احتجاز أفراد أسرته معه.
والآن نسأل هل كلن الباشا صادقاً في عزمه على البقاء في المنزل؟؟ ولئن كان كذلك فلماذا
بارح المنزل، وأين ذهبت آراؤه ومأثورات أقواله في الاكتفاء بسماع ما يذيعه المذياع عن أوصاف الموكب؟؟

نعم كان الباشا صادقاً في عزمته، وكان قانعاً بالبقاء أمام المذياع مؤثراً الراحة في جلبابه وعباءته على التعب في سترته المشدودة لأن نفسه كانت لا تختلج بلاعج يثير كامناً فيها يلوح له بأطراف أمان يصبو دائماً إلى تحقيقها. وكان كذلك مخلصاً في دعوة أفراد أسرته إلى البقاء في المنزل بل واحتجازهم حوله، لا خوفاً عليهم من أخطار الطريق المزدحم، وتطاول النظرات العابثة كما كان يجري لسانه بذلك، ولكن إجابة لداعي أنانية لابسته إذ ذاك، مردها - كما أسلفنا البيان - إلى ألا تكون متعة من جانب أفراد أسرته لا يريد، أو هو لا يقدر على أن يستمع بها أولاً!

ومرض الباشا؟. . . نعم إن الباشا مريض، ولكنه مرض لا يحجزه عن الخروج إذا أراد. أما إذا لم يرد فالمرض يقفز إلى الصف الأول من الأسباب التي يصح أن يعتذر بها عن الخروج. وقد كان الأمر كذلك في أول الرواية، ثم كان عكس ذلك في نهايتها!!

رأينا الباشا يصمد لإغراء أقوال المذيع عن بهجة الموكب وطرافته، ويتمسك برأيه في البقاء بالمنزل ويسفه كل رأي عداه. ولكن حدث أن هاج (الشيخ كروان) في نفسه أمنية اقتعاد مقعد في مجلس الشيوخ فلمعت نفسه بشيء خاطف ألهاه بعض الشيء عما كان موطناً النفس عليه، وأخذ أفراد أسرته يتركونه الواحد بعد الآخر بحجج لم يستطع دفعها، وجاءت هتافات جمعية الشبان ودعوتهم إياه إلى مشاهدة الموكب من مكان لائق مأمون فاتجهت أنانيته السابقة الذكر والتعليل ناحية أخرى هي التفرد بمشاهدة الموكب من مكان قد لا يوفق إليه غيره ممن خلفوه بالمنزل وخرجوا، فكان يشرف مباشرة على مسير الموكب.

اصطلحت كل هذه الواردات والتأثرات على الباشا العنيد فجعلته يلين وجعلت لأقوال المذيع منفذاً إلى مكانة الرغبة في نفسه فسعرتها فإذا هو يندفع خارجاً وفي لباس نالت منه الأيام فجعلته غير صالح للظهور به في حفل كبير!

حقاً إن الإنسان لكائن متغير كصفحة الماء لا يقيم على حال، وله في كل حال أراء ومنطق ومذاهب بفعل المؤثرات التي تطلق من أعماق النفس تيارات تسيطر عليه وتوجهه كما يريد.

وحقاً إن شخصية (فضل الله باشا) هذه تقدم لنا صورة من التقلقل والضعف اللذين لقحت بهما إنسانيتنا، واللذين يبدوان حتى في أتفه الأمور.

وهناك ظاهرات نفسية صادقة وطريفة تتصيدها العين الفاحصة في بعض شخصيات المسرحية. ولعل أعجبها ما يبدر من شخصية (بديع بك) صهر الباشا. هذا المتزمت المقنع يقع في تناقض عجيب حينما تندفع رغبته المكبوتة في مشاهدة الموكب وذلك بمجرد أن يرى والد زوجته يبارح البيت فلا يبالي أن يترك بدوره المنزل مخلفاً وراءه زوجته على أن تلحق به منفردة وبغير دليل وحارس لتخوض أمواجاً بشرية من الرجال المتدافعين بالمناكب!

هذه كلمتي الأخيرة عن كتاب (ثلاث مسرحيات في فصل واحد) لمحمود تيمور قصرتها على معالجة الناحية النفسية والإنسانية في أبطال هذه المسرحيات، وذلك باعتبار أنها الناحية الثابتة التي لا تتغير من الحقائق التي ضمنتها هذه المسرحيات، وأنها أجدر هذه الحقائق بالشرح والتبصرة، وأولاها باهتمام الناقد وبحكمه عليها من ناحية صدقها ومن ناحية مبلغ توفيق المؤلف في معالجتها. وقد أجريت قلمي في هذا بغير قليل من الإسهاب إرادة البيان والتبيين.

ولاشك في أن (تيمور) توخى فيما توخاه من كتابة مسرحياته هذه، أن يقربنا بعض الشيء مما تنغلق عليه نفوسنا تارة وتنفتح عنه أخرى، وهذا من صميم الأدب والفن، لأن الأدب الحق هو ما قرب الإنسان إلى معرفة نفسه.

زكي طليمات

هواجس مريض

على وشك الرحيل

للأستاذ علي عبد العظيم

حياة كالمنيَّةِ سوف تذوي ... فتسلمني المنونُ إلى المنون
وما أخشى الردى لولا عيونٌ ... سأتركها مقرَّحة الجفون
ووالهةٌ تذوب أسىً وهمّاً ... ستهتك حرمة الخدر المصون
تكاد تضم من هلع ضريحي ... وتسأله الحنو على الدفين

وتسكب فوقه أفلاذ قلب ... مسلسلة مع الدمع الهتون
أحس بثكلها في جوف رمسى ... فيوشك أن يُجّنَّ لها جنوني
وأسمع في الظلام لها أنينا ... يردده على بعد أنيني
فيا أماه حان ارتحالي ... إلى وادي الظلام فودعيني
خذيني نحو صدرك واهتفي لي ... بلحن المهد في رفق ولين
وهاتي من حديثك وابسمي لي ... وضميني إليك وقبليني
فَرُبَّتَ بسمة من فيك رفت ... على قلبي رفيف الياسمين
سأقطف من جناها العذب زادي ... وأرشف من مناهلها مَعِيني
وأجعلها إلى الأخرى دليلاً ... يقود إلى مرافئها سفيني
غداة غد تخب بيَ المنايا ... فتقذف بي إلى واد شَطون
تقنع بالظلام وحجَّبته ... عن الدنيا مغاليقُ القرون
فلا شمسٌ ترف على دجاه ... ولا أخلاف غادية هَتون
ظلام تعثر الألباب فيه ... وتفزع منه طارقة الظنون
سميري فيه حصباء ومروٌ ... ومهدي فيه من ماء وطين
ولكني ستؤنسني - إذا ما ... دلفت إليه - أخلاقي وديني
(الإسكندرية)
علي عبد العظيم
أشعار صينية
كتاب الشعر من القرن 13 - القرن 8. ق. م
(إلى السيدة (ل))
للأستاذ م. وهبة
- 1 -
حبيبتي
عند باب المدينة الغربي، تقف فتيات صغيرات يتضاحكن، متمايلات خفيفات كسحاب الربيع. . . ولكني لا أبالي سحرهن، فحبيبتي في ردائها الأبيض وتحت نقابها الشفاف أكثر سحراً منهن.
عند باب المدينة الشرقي، تنام فتيات صغيرات يحلمن، جميلات ناضرات كزهور الربيع. . . ولكني لا أبالي عطرهن، فحبيبتي في ردائها الأبيض وتحت نقابها الشفاف أزكي عطراً منهن.
- 2 -
رسالة
حبيبي! لا تأت إليّ لتسأل عني، أضرع إليك. أنت ستكسر أشجار الصفصاف التي غرستها أمام غرفتي. أنا لا أستطيع أن أحبك أكثر مما أحببتك. يجب أن أذعن لوالديّ.
قلت لهما: (كم أحبك وكم أنت كل شيء لدي، فأسمعاني كلاماً جارحاً
حبيبي! لا تتسلق حائطنا. أضرع إليك. أنت ستكسر أغصان الشجيرة الصغيرة التي أسقيها كل صباح. أنا لا أستطيع أن أعطيك قلبي؛ فإرادة أخي الأكبر صارمة، وهو لا يريدني أن أحبك.
حبيبي! لا تحطم الحاجز الذي اتكأنا عليه سويّاً مساء رحيلك؛ أضرع إليك. أنت ستنزع شجرة الورد التي أشم عبيرها عند الشفق.
- 3 -
وحدي
إنه الأقوى. إنه الأشجع. إنه الأجمل بين جميع المتحاربين: ذلكم من أحبه، ولكنه الآن في جيشه يسير نحو الشرق
هأنذا أرسل شعري للريح الآتية من الشرق، تداعبه! أنا أخشى الشمس والقمر والنجوم، ولا احب سوى مطر الشقاء المنهمر. فقطراته أطلبها لتطفئ ناري، ولكنها لا تستطيع.
أنا أعرف من أين أجمع الزهر الذي يلهمني النسيان. فمنزلنا الصغير يملأه عبيره؛ ولكنني قد أغلقته، لأني أريد أن أتألم

فإذا لم أتألم كما أتألم الآن، فسأكون أكثر بعداً عن حبيبي.
(م. وهبة)
وليم بليك
يمتاز شعر وليم بليك بطابع الطفولة التي غني بها في كثير من قصائده مثل: أغنية المربية، وأغاني المهد، والطفل الساهد، ويسمو أيضاً شعره في الخيال كما في قصيدة (النمر) لذلك أعتقد أنه جدير بأن يسمى (شاعر الطفولة والخيال)
دنيا الأحلام
اصح، اصح، يا ولدي الفريد!
كنتَ فرح أمك الوحيد
لماذا تبكي في النوم الجميل؟
اصح! والدك يرعاك يا طفلي
آه، ما دنيا الأحلام، ما دنياها؟
ما جبالها، وما أنهارها؟
رأيت أمي هنالك، يا أبتاه!
بين زهور الزنبق وأعذب المياه
بين الحملان، في ملابس بيضاء
ومشت مع ابنها ثومس في هناء
فبكيت من الفرح، ونُحت كالحمام الساجع
آه! متى أرجع ثانية، متى أنا راجع؟
طفلي العزيز، كنت مثلك بين المياه العذبة في هيام
إلى انتهاء الليل في دنيا الأحلام
ولكن، والنهر هادئ والماء دافئ فاتر
لم أستطع عبورها للجانب الآخر
أبتاه، يا أبتاه! ما نفعل ههنا
في دنيا الإلحاد والخوف هنا؟
إن دنيا الأحلام أجمل مسكناً
فوق نور الصبح، فوق نجومنا
الزهرة العليلة
أيتها الزهرة، أنت عليلة!
الحشرة في ثوب الخفاء،
التي تطير في جنح الظلام،
وفي الزوبعة الهوجاء،
وجدت فراشك
المملوء فرحاً قرمزياً كالدماء؛
وحباً مختفياً في حجاب الليل؛
فقست على حياتك بالغناء
(الخرطوم بحري السودان)
محمود محمد حسن
البريد الأدبي
إبراهيم حلمي العمر
لا يمرّ أسبوع بدون نعيم يزفّه إلى روحي بريد العراق، فإخواني في بلاد الرافدَيْن لا ينسونني، ولا يفوتهم أن يطلعوني على ما يجدّ هنالك من ثمار الآداب والفنون.
وكان المألوف أن أجد ما يسرني فيما يصل من الجرائد والمجلات، فماذا وقع اليوم؟ جاءت حزمة من أعداد (الأخبار والأحوال والزمان والشهاب) وعلى صدورها جميعاً صورة واحدة لأديبٍ من أصدقائي فعرفت أنه مات. وهل تهتم الجرائد في يوم واحد بنشر صورة لأديب إلا حين يموت؟!
لم يبق شكٌ في أن الأستاذ إبراهيم حلمي العُمَر قد مات، ولن أراه إن قُدِّرت لي زيارة قريبة أو بعيدة لأصدقائي في بغداد، فهو أنسٌ ذهب ولن يعود، وإني لذهابه لحزين،

أحسن الله فيك عزائي، يا إبراهيم!
ذلك كاتبٌ مغامر، رضي عنه قومٌ وغضبتْ عليه أقوام، فكان ملكاً عند أولئك وشيطاناً عند هؤلاء، ولكنه في حدود ما عرفتُه كان أديباً حلو التعبير، بارع الأسلوب، مع أريحية عربية قليلة الأمثال. وما أذكر أبداً أني رأيت منه غير الجميل
كان إبراهيم حلمي العُمَر من أوائل الأدباء الذين نهضوا بالصحافة العراقية كما قالت الجرائد التي لم تر مانعاً من إنصافه بعد الموت، وهل ينتفع الميت بالإنصاف؟!
وإبراهيم هو الذي أنشأ جريدة (لسان العرب) في دمشق منذ أعوام طوال. وقد يكون أول عراقي خلق لوطته صداقات في الديار المصرية قبل أن يصل تعارفُ العرب إلى ما وصل إليه اليوم. ألم يقل من رثوه إنه كان من مراسلي (المؤيد) و (اللواء)؟
سألت عن إبراهيم حين انقطع سؤاله عني فعرفت أنه مريض فغالبتُ وهج القيظ ومضيتُ لعيادته بعد الدرس الأخير في أحد أيام حزيران سنة 1938، فماذا رأيت في داره يومذاك؟
رأيت طفلاً وطفلة يتفاهمان بالتناغي قبل موعد التفاهم بالكلام، كما تتفاهم الحمائم الموصلية، وهما يتصاخبان ويتباغمان بصورة تشهد بأنهما يجهلان أن أباهما مريض ومن المؤكد أن هذين الطفلين وصلا إلى التفاهم بالنطق، وأدركا معنى الحياة والموت، فأين من يواسي هذين الطفلين العزيزَيْن بعد انحسار ظل أبيهما الرفيق؟
الله عز شأنه هو المسئول عن الطب لجراح القلوب
زكي مبارك
من غلط لغوي كبير - 1
في كتاب (نشوء اللغة العربية للأستاذ أنستاس الكرملي) في الصفحة 35: قال ابن فارس في كتابه الصاحبي ما هذا نصه بحروفه (زعم أهل العربية أن القرآن ليس فيه من كلام العرب شيء، وأنه كله عربي، يتأولون قوله جل ثناؤه: إنا جعلناه قرآناً مبيناً)
وفي جريدة الخطأ والصواب في آخر الكتاب نبه على أن (العرب) صوابها (العجم) ولكنه لم يصحح الآية القرآنية، وصوابها (إنا جعلناه قرآناً عربياً)
بَرقة - 2
نشر الأستاذ النشار قصيدته (برقة) وضبطها بفتح الباء. وثم جاء الأديب محمود عزة عرفة فخطأ هذا القيد وقال إن الصواب (بُرقة) بالضم. فرجعت إلى القاموس المحيط فرأيته قال، والبَرقة الدهشة وبلدة بقم وبلدة تجاه واسط القصب وقلعة حصينة بنواحي دوان وإقليم أو ناحية بين الإسكندرية وأفريقية. وفي اللباب في الأنساب لأبن الأثير: البرقي بفتح الباء المنقوطة بواحدة وسكون الراء. هذه النسبة إلى برقة وهي بلدة بالمغرب خرج منها جماعة كثيرة من العلماء في كل فن. . . الخ. وفي معجم البلدان لياقوت: برقة بفتح أوله والقاف أسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الإسكندرية وأفريقية. وفي (المبهج لابن جني) بسط القول في الأعلام المرتجلة والمنقولة
محمد أبو البهاء
كيف تنفح الأحاديث
طالعت ما كتبه الأستاذ محمود أبو رية تحت عنوان (رأي في تنقيح الأحاديث)؛ وإني أشكر للأستاذ الفاضل اهتمامه بهذا الموضوع الخطير، وأرى ما يراه من وجوب تنقيح ما تركه
لنا السلف من تلك الأحاديث، وتمييز الصحيح منها على أساس قوة السند وصحة المتن، ولكني أخالفه أن يكون ذلك بتغيير كتب الحديث القديمة، إذ يرى أن نبدأ بالحديث فننخل كتبه، ولا تبقى فيها غير الصحيح مما يخالف متواتر النقل، وصريح العقل، وما أثبته العلم، وشهد به الحس.
فهذه الكتب أصبحت أمانة تاريخية بأيدينا، فيجب أن نبقيها على حالها، لتشهد بحال رجال الحديث في تلك العصور، وتبين مقدار اجتهادهم في تمييز ما صح من الأحاديث، وقد جرت الأمم على صيانة تاريخها من التغيير والتبديل، وعملت على حفظ نواحيه كلها حتى ما يرجع منها إلى الأساطير، وهذا إلى أن عملنا سيقوم على أساس الاجتهاد، وهو يتغير بحسب المجتهدين، ويختلف باختلاف العصور والأحوال.
فيجب أن نبقي كتب الحديث على حالها، وأن نؤلف كتباً جديدة تنصرف فيها نشاء

باجتهادنان، ونثبت فيها ما نرى إثباته من الأحاديث، ونحذف منها ما نرى حذفه، وقد يأتي من بعدنا فيعمل في كتبنا ما عملناه في كتب من سبقنا، فباب الاجتهاد مفتوح إلى ما شاء الله، والكمال لله تعالى وحده.

عبد المتعال الصعيدي

فتوى في المذاهب الصوفية

هناك ناحية أخرى من نواحي الإصلاح إلى الآن لم يتعرض لها أحد، وهي لا تقل لخطرها عن إصلاح الأزهر، تلك هي (الطرق الصوفية)

الطرق الصوفية مبثوثة في القرى والدساكر، وهي تلقن العوام وأشباه المتعلمين البدع والضلالات، ولو كنتم ممن يسكنون القرى أو لو كنتم ممن يتصلون برجال الطرق الصوفية عن كثب لجعلتم المجهود الذي توجهونه للأزهر وحده مناصفة بينهما.

وقد اطلعت على الفتوى المرسلة مع هذا في كتاب (الجامع لأحكام القرآن للقرطبي) ج11 صفحة 237، 238 عند تفسير قوله تعالى: (قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى) فعسى أن تنشروها بمجلة الرسالة الغراء ليطلع عليها الملأ رجاء أن يكون في نشرها ما ينفع

سئل الإمام أبو بكر الطرطوشي رحمه الله:

ما يقول سيدنا الفقيه في مذهب الصوفية؟ وأعلم حرس الله مدته أنه اجتمع جماعة من رجال فيكثرون من ذكر الله تعالى وذكر محمد صلى الله عليه وسلم. ثم إنهم يوقعون بالقضيب على شيء من الأديم. ويقوم بعضهم يرقص ويتواجد حتى يقع مغشياً عليه. ويحضرون شيئاً يأكلونه. هل الحضور معهم جائز أم لا؟ أفتونا مأجورين

الجواب

(يرحمك الله. مذهب الصوفية بطالة وجهالة وضلال وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله. وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامري لما اتخذ لهم عجلاً جسداً له خوار قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون. فهو دين الكفار وعباد العجل.

وأما القضيب فأول من اتخذه الزنادقة ليشغلوا به المسلمين عن كتاب الله تعالى. وإنما كان يجلس النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه كأن على رؤوسهم الطير من الوقار.

فينبغي للسلطان ونوابه أن يمنعهم من الحضور في المساجد وغيرها. ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم ولا يعينهم على باطلهم. هذا مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي واحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة المسلمين. وبالله التوفيق)

(كفر المندرة)

أحمد أحمد القصير

النابغة الذبياني في كتاب المنتخب

تركت الخدمة وشغلت نفسي بالزراعة، بعد أن أجهدتها في مراحل التدريس كلها خمساً وثلاثين سنة. ثم أراد الله أن ذهبت يوماً إلى العاصمة، واتفق أن جلست على مكتب لأحد الأصدقاء، فحنّت نفسي إلى ما ألِفَته قديماً، فمددت يدي إلى (المنتخب) الذي ينسب إلى ستة من فحول وزارة المعارف.

فكان من حظي أن وقع نظري على عشرين بيتاً (للنابغة) من عينيته المشهورة التي اشتهرت بشواهدها النحوية والبيانية، حتى تولى شرحها شراح الشواهد كالبغدادي والسيوطي. قرأتها فهالني ما عنَّ لي فيها من مآخذ في الشرح والشكل والإعراب، حتى خيل إلى أن المؤلفات المدرسية التي توجت بأسماء هؤلاء الفحول ليس لهم فيها إلا الأسماء والأرباح، وإلا فكيف أوفق بين علمهم الغزير وخطئهم الكثير! وإليك البيان:

عفا ذو حسا من فرتني فالفوارع. ضبطوا الحاء بالفتح، والمعاجم والسروح تنص على ضمنها.

أتاني - أبيت اللعن - أنك لمتني ... وتلك التي تستك منها المسامع

قالوا: تستك أي تضيق، والمعنى أتتني عنك ملامة يضيق عنها السمع ويأباها. أهـ

وليت شعري أسمع النعمان أم سمع النابغة؟ وأقول: إنما أراد النابغة تستك منها مسامعي فزعاً من هول وعيدك ولومك؛ وإذا كان الضيق من معاني الاستكاك فمن معانيه أياً الضم والانسداد، وهذا هو الذي يناسب مقام الفرع الأكبر الذي حل بالنابغة،

فجعله يمعن في الاعتذار والاستعطاف.
مقالة أن قد قلت سوف أناله ... وذلك من تلقاء مثلك رائع
ضموا تاء، قلت: والصواب فتحها. وقالوا: سوف أناله بهجاء أو بأذى، فجعلوا هذا وعيداً من النابغة، لأن التهديد بالهجاء إنما يكون من الشعراء لا من الملوك. وقالوا: تلقاء بمعنى لقاء، أي وذلك مفزع لي عن لقاء مثلك، وفاتهم أولاً أن قوله: أناله معناه أدركه على حد قوله تعالى: (وهموا بما لم ينالوا). وثانياً أن تلقاء هنا معناه جهة أو حذاء على حد قوله تعالى: (ولما توجه تلقاء مدين) وعلى هذا فالمعنى: أتاني وعيدك بأن سوف تدركني أينما اختفيت، وهذا الوعيد منك ومن مثلك من أهل القدرة والسلطان الواسع مخيف مزعج، لا تطمئن معه نفس بعدت عنك أم قربت منك كما قال: ولا قرار على زأر من الأسد.
أتاك بقول هلهل النسيج كاذب ... ولم يأت بالحق الذي هو ناصع
جروا لفظ كاذب، وجعلوه صفة للقول مجازاً عقلياً إذ يقال: كذب الرجل، ولا أعرف كذب القول إلا على حد (عيشة راضية). والأقدمون ينصبونه حالاً من فاعل أتاك، وألمح في النصب إشعاراً بتعمد الكذب، وشاية وإيقاعاً بالنابغة، هذا أبلغ في المعنى.
بمصطبحات من لصاف وثبرة ... يزرن ألالا سيرهن التدافع
كسروا لام لصاف، والصواب فتحها، فقد قالوا لصاف كحذام مكسورة غير منونة، أو كسحاب منونة معربة.
فإنك كالليل الذي هو مدركي ... وإن خلت أن المنتأي عنك واسع
قتل النحاة والبيانيون هذا البيت شرحاً وتحليلاً، وجعلوه من عيون التشبيهات الرائعة، شبه النابغة النعمان بالليل في أن كلاً منهما مع ما فيه من شديد الرهبة والوحشة يغشى مطلوبه بسرعة لا تدع له منحى مهما ظن الفرار ممكناً. أما شراح المنتخب فكل ما قالوه في شرح البيت:
فإن عقابك ومؤاخذتك كالليل؛ أي لا أنجو من عقابك مهما اتسعت أمامي مذاهب البعد عنك والهرب منك. وبهذا أذهبوا روعة التشبيه، إن لم نقل جانبوا غرض الشاعر.
خطاطيف حجن في حبال متينة ... تمد بها أيد إليك نوازع
قالوا: خطاطيف خبر لمبدأ محذوف، أي لك خطاطيف!؟ وأنا أناشدهم الله أفيهم من يقبل من تلاميذ الابتدائي أن يقدروا المبتدأ جاراً ومجروراً!
أتوعد عبداً لم يخنك أمانة ... ويترك عبد ظالم وهو ضالع
رفعوا يترك بعد الواو، والمدارس تعلم الطلبة أن الواو التي يليها المضارع للمعية إذا سبقها نفي أو طلب. ولست أجهل أن الرفع جائز، ولكن المعنى على الرفع غير المعنى على النصب، ولست أشك في أن المعية مقصودة هنا.
وأنت ربيع ينعش الناس سيبه ... وسيف أعيرته المنية قاطع
أبى الله إلا عدله ووفاءه ... فلا النكر معروف ولا العرف ضائع
وتستقى إذا ما شئت غير مصرد ... بزوراء في حاناتها المسك كانع
يصف النابغة النعمان بالسخاء والشجاعة، وأن الله فطره على العدل والوفاء، لا يعرف المنكر، ولا ينسى الجميل، قد تهيأت له أسباب الرفاهية، يشرب ما شاء من أطيب الشراب في كأس من الفضة، كأنها لطيب ما فيها قد لصق المسك بحافاتها، وكل هذا خبر لا دعاء فيه ولا إنشاء؛ ولكن انظر كيف حار المؤلفون الستة في ضميري أبى الله إلا عدله ووفاءه، أهما لله جل شأنه أم للنعمان؟ فقالوا في الشرح: (أي أن الله عادل ليس المنكر مقبولاً عنده، ولا المعروف ضائعاً لديه، وهو جاعل النعمان بإرادته عادلاً، وإن قلنا إن الضمير يعود على النعمان كان المعنى ظاهراً. أهـ). ثم أنظر في البيت الأخير كيف حرفوا كلمة حافات فجعلوها حانات، وكيف غرهم بعض الكتب فاتبعوه؛ وقالوا في الشرح: زوراء دار كانت بالحيرة للمناذرة. وكنع: تراكم ولزق، والبيت دعاء للنعمان!
وليت شعري كم حانة كانت بتلك الدار؟! وما الغرض من تراكم المسك في تلك الحانات؟ ولم جعلوا هذا دعاء للنعمان؟ ولو كان دعاء لفصله عما قبله لاختلافهما خبراً وإنشاء، والدعاء طلب غير الحاصل ليحصل. فهل كان عسيراً على النعمان أن يشرب أي مقدار شاء من الخمر في دار تراكم المسك في حاناتها حتى يتقرب إليه النعمان بالتضرع إلى الله أن يمن عليه بذلك. إن الأقدمين فسروا الزوراء بكأس مستطيلة من

الفضة، وأرى أن البيت:
وتسقى إذا ما شئت غير مصرر ... بزوراء في حافاتها المسك كانع
ويروى: في أكنافها المسك كارع
هذه مآخذي على المؤلفين في عشرين بيتاً لو كانت في المنتخب كله لعُدت كثيرة؛ فرجائي من صاحب المعالي وزير المعارف أن يضع حداً لفوضى تأليف الكتب المدرسية؛ فلا تقرر الوزارة كتاباً مهما علا شأن مؤلفه إلا بعد أن يعرض على لجنة من أساتذة دار العلوم الذين امتازوا بالتوسع في علوم اللغة العربية، ولا تقرره الوزارة إلا لمدة سنة على الأكثر.
عثمان أبو النصر
أستاذ بكلية دار العلوم سابقاً
الكتب
2 - المؤلفات العربية القديمة
وما نشر منها في سنة 1940
للأستاذ كوركيس عواد
7 - البخلاء
للجاحظ (255هـ)، الجزء الثاني. نشرته وزارة المعارف المصرية (طبعة مدرسية) بتحقيق الأستاذين أحمد العوامري بك وعلي الجارم بك. (مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 260ص) الجزء الأول صدر قبل هذا.
8 - البداية والنهاية في التاريخ
لأبن كثير الدمشقي (774هـ) المجلد الرابع عشر (مطبعة السعادة، القاهرة 332ص) فيه حوادث السنين 698 - 767هـ، وبه ينتهي الكتاب. المجلدات 1 - 13 صدرت سابقاً
9 - البديع في وصف الربيع
لأبي الوليد إسماعيل بن عامر الحميري الأشبيلي (المتوفى حوالي 440) علّق عليه ووضع له فهارس للرجال والأماكن والقوافي، المستشرق هنري بيريس المدرس بجامعة الجزائر. (المطبعة الرباطية - الجزائر)
10 - تاريخ الشيخ عيسى حمادة المتوالي
للأب أغوسطين زنده الحلبي (كان حياً سنة 1777م). وهو قطعة من كتاب كبير في تاريخ لبنان في المائة الثامنة عشرة للميلاد. نشرها الأب بولس مسعد الحلبي اللبناني. في مجلة المشرق ببيروت (38 (1940) ص32 - 40)
11 - التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين
لأبي المظفر الإسفراييني (471هـ) نشره الأستاذ عزت العطار الحسيني، بتعليقات للأستاذ محمد زاهد بن الحسن الكوثري وكتب الدكتور محمود محمد الخضيري كلمة عن الصلة بين عِلم الفِرقَ وغيره من العلوم. (مطبعة الأنوار، القاهرة 135ص2، فيها الفهارس)
12 - تحفة الأحباب في ماهية النبات والأعشاب
لمؤلف مجهول - من جنوب مراكش - ألّفه عند مختتم القرون الوسطى. طبعه وحل مشكلاته ونقله إلى الفرنسية: (هـ. ب. ج. رينو) و (جورج س. كولان)؛ لم أقف على خبره في غير ما أخبره به الدكتور بشر فارس في مجلة الثقافة (العدد 113ص282 - 284)
13 - تخميس همزية البوصيري في سيرة الرسول
للشيخ محمد الغلامي الموصلي (1186هـ). نشره الأستاذ محمد رؤوف الغلامي. (مطبعة محفوظ، الموصل، 120ص). البوصيري صاحب القصيدة الهمزية، توفي سنة 696هـ.
14 - تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر
لأحمد باشا تيمور (أنظر الرقم 1 من هذا الكشف). نشر هذا الكتاب سنة 1934 لأول مرة، متتابعاً في اثنى عشر عدداً من مجلة الرسالة (أنظر الرسالة في أعداها 47 - 58، ثم طبع سنة 1940 (القاهرة 164ص)
15 - ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشام

للشيخ عز الدين بن عبد السلام السلمي الملقب بسلطان العلماء (660هـ). نشره الأستاذ أحمد سامح الخالدي (الديري)، (المطبعة التجارية، القدس 16ص)

16 - تفضيل الأتراك على سائر الأجناد

للوزير أبى العلاء ابن حسول (450هـ) وهي رسالة ضمنها الرد على كتاب (التاجي)، لأبى إسحق الصابىء (384هـ) كما تكلم فيها على السلاجقة والديلم والجيل. النص العربي، نشره الأستاذ عباس العزاوي المحامي البغدادي، وكتب له مقدمة توسع فيها بترجمة المؤلف المقدمة (ص1 - 24) والمتن (ص25 - 51) طبعا بالزنكغراف، وقد نقلهما إلى اللغة التركية محمد شرف الدين بك الأستاذ في كلية الآداب باستانبول ونشر للكل في مجموعة (تاريخ قورومي) التي تصدرها الحكومة التركية في استانبول , 14 - 15 , 235 - 266) وقد طبع من الترجمة مع الأصل نسخ قلائل على حدة.

17 - التفهيم لأوائل صناعة التنجيم

لأبى الريحان البيروني (440هـ). ألفه سنة 421هـ، لأبي الحسن علي بن أبي الفضل الخاصي. وهو في الفلك والرياضيات. طبع بمقدمة وتعليقات (طهران 677ص)

18 - جماع العلم

لإمام المذهب محمد بن إدريس الشافعي (204هـ) حققه الأستاذ الشيخ أحمد محمد شاكر (مكتبة القاهرة 150ص)

19 - الجمان المنضد في مدح الوزير أحمد

لمحمد الغلامي الموصلي نشره السيد محمود فوزي الغلامي، بشرح وتعليق الأستاذ محمد رؤوف الغلامي (مطبعة محفوظ - الموصل - ص344). الكتاب في مدح الوزير أحمد باشا ابن سليمان باشا الجليلي، الذي حكم الموصل تسع سنوات، وتوفي سنة 1239هـ.

20 - الحدائق

لعبد الله بن محمد السيد البطليوسي (521هـ)، نشره المستشرق الأسباني آسين بلاسيوس مع ترجمة أسبانية بعنوان:

' -

في مجلة (الأندلس) الأسبانية في مدريد:

1 , 45 - 154. , -

النص العربي مطبوع بحروف مغربية، وهو مع الترجمة وقعا من المجلة المذكورة في 110. صحائف

الكتاب في الحكمة والتصوف.

21 - حديث الحكمة

لأبي الفرج المعروف بابن العبري (685هـ) نشره وصحح نقله لأول مرة البطريرك أغناطيوس أفرام الأول برصوم (مطبعة السلامة، حمص، ص66)، الأصل وضعه ابن العبري باللغة الإرمية، والترجمة المنشورة هذه قد تكون لأحد كتبه المائة الرابعة عشرة للميلاد. في هذا الكتاب لخص ابن العبري بعض مؤلفاته في المنطق والطبيعيات والإلهيات.

22 - الحيوان

للجاحظ (255هـ) المجلد الرابع، نشره الأستاذ عبد السلام محمد هارون بعد أن بذل في تحقيقه وضبطه وشرحه ما لا مزيد عليه (مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ص536) المجلدات 1 - 3 صدرت خلال 1938 - 1939 بمثل العناية التي لقيها هذا المجلد. الكتاب سيتم في سبعة مجلدات، هذا المجلد تناول الكلام على: النمل والقرد والخنزير والحيات والظليم وغير ذلك.

23 - ديوان البارودي

لمحمود سامي باشا البارودي (1322هـ). المقدمة لمعالي الدكتور محمد حسين هيكل باشا، والشرح للأستاذين علي الجارم بك ومحمد شفيق معروف، نشرته وزارة المعارف المصرية في مطبعة دار الكتب بالقاهرة.

24 - رحلة الوزير في افتكاك الأسير

لمحمد بن عبد الوهاب الغساني وزير مولاي إسماعيل وسفيره إلى ملك أسبانية نشره

الأستاذ الفريد البستاني (طبع في طنجة).
25 - الرسالة
للأمام الشافعي (204هـ) نشرها الأستاذ الشيخ أحمد محمد شاكر بعد أن حققها على الأصول المخطوطة والمطبوعة، وأقدمها نسخة بخط الربيع بن سليمان تلميذ الشافعي وراوي كتبه.
26 - رسالة في صنعة القواد
للجاحظ (255هـ) نشرها الأستاذ عبد الرزّاق الحصّان، في (الملحق) الثاني من كتابه (نظرة عابرة في شمالي العراق). (مطبعة التفيّض الأهلية، بغداد، ص72 - 81)
27 - رسالة في نصيحة ولي عهد مروان بن محمد، وفي
صفة تعبية الحروب، والحذر من العدو والمكيدة له وانتقاء
القواد، والاستعداد بالآلات والأموال
لعبد الحميد الكاتب (132هـ) نشرها الأستاذ عبد الرزّاق الحصان في (الملحق) الخامس من كتابه المذكور في الرقم 26 (ص104 - 134)
28 - طبقات ابن سعد
لأبن سعد (230هـ)، القسم الثالث من المجلد التاسع، فيه فهرست أسماء الأشخاص الذين ذكرهم ابن سعد في متن كتاب الطبقات الكبير. رتَّبها المستشرق الألماني إدوار وحالت وفاته دون نشرها (مطبعة بريل في ليدن 258ص). جميع أقسام الكتاب ظهرت خلال السنوات 1917 - 1928، وقد استتمّ الآن.
29 - لعقد الفريد
لأبن عبد ربه الأندلسي (328هـ) الجزء الأول. نشره الأساتذة أحمد أمين، وأحمد الزين، وإبراهيم الأبياري، بعد شرحه وضبطه وتصحيحه وعنونة موضوعاته، وترتيب فهارسه الوافية (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، س + 477ص). هذا المجلد يشتمل على ثلاثة أقسام بحسب تقسيم المؤلف لكتابه، وهي: كتاب اللؤلؤة في السلطان، كتاب الفريدة في الحروب، كتاب الزبرجدة في الأجواد والأصفاد. بقية مجلدات الكتاب تصدر بالتتابع، ولعَّله يتم في نحو ثمانية أو عشرة مجلدات.
30 - العقد الفريد
لابن عبد ربّه الأندلسي (328هـ). حقه الأستاذ محمد سعيد العريان، ونشرته المكتبة التجارية الكبرى (مطبعة الاستقامة، القاهرة). صدر من هذه الطبعة ستة مجلدات، صحائفها
بالتوالي: 346، 367، 374، 343، 415، 350. وسيصدر الجزء السابع وبعده الثامن، وبهما يتم الكتاب.
31 - غرائب الأثر في حوادث ربع القرن الثالث عشر
لياسين أفندي ابن خير الله الخطيب العمري الموصلي (المولود سنة 1157هـ). عُني بنشره الدكتور صدّيق الجليلي (مطبعة أم الربيعين، الموصل، 128ص). في هذا التاريخ حوادث السنين 1200 - 1225هـ.
32 - مسند عمر بن الخطاب
لأبى يوسف يعقوب بن شيبة بن الصلت البغدادي 262هـ. الجزء العاشر، عثر على مخطوطته الفريدة الدكتور سامي حدّاد (أستاذ الجراحة في جامعة بيروت الأمريكية)؛ فعني بدرسه ونشره المطبعة الأمريكية ببيروت، 238ص. فيها المقدمات والتعليقات والفهارس و4 لوحات مطبوعة على الفتوغراف تمثل بعض صحائف المخطوط. سائر أجزاء الكتاب لا تزال - على ما يظهر - في عداد الضائعات.
(له بقية)
كوركيس عواد
العدد 449 - بتاريخ: 09 - 02 - 1942
كيف عالج الإسلام الفقر
ألق عن عينيك هذا المنظار السحري الذي صنعه الأدب والفن؛ ثم أنظر إلى الحياة في شتى مظاهرها تجدها معركة هائلة على القوت لا تنقطع ولا تفتُر. وهذه المعركة التي لا ندرك لها طولاً في الدهر، ولا عرضاً في الكون، لا تنفك رحاها تلفظ على جنباتها قتلى وجرحى؛ وأولئك هم الذين خذلهم الضعف فماتوا شهداء، أو عاشوا فقراء. أما

الموت فلا حيلة لأحد فيه؛ وأما الفقر فهو الداء العياء الذي خامر الإنسانية منذ طبعها الله على القدرة والعجز، وبرأها على الكمال والنقص. وهذا الداء كان وما زال موضوع الطب الاجتماعي يخفف بُرَحاءه بالمُرقد، ويكفكف غلواءه بالتمائم؛ ولكن دواءه الناجع ظل من وراء إمكانه حتى وصفه الله في دينه، وطبقه في شرعه، فانحسمت العدوى وانكشفت البلوى وبرئت العلة. فإذا رأيت في وطن الإسلام طرائد للفقر وفرائس للجوع فصدِّق الله وكذِّب نفسك. إن ما ترى لم يعد ذلك الوطن الذي أشرق بنور الله وتعطر بريح الجنة، إنما هو طلل ترَّحل عنه أهله، ومريض فرط فيه أساته، ومسلمون انطمست فيهم معاني القرآن فتعبدوا بألفاظه، وحاكمون أعضلت بهم أصول الحكم فاكتفوا بصوره. فلو كان للإسلام رأي في الحكومة وسلطان على الأمة لكان الوطن كله أسرة، والناس جميعهم إخوة، تجد فيهم الفقير ولا تجد المحروم، وترى بينهم الضعيف ولا ترى المظلوم؛ لأن شريعة الله جعلت بين الغني والفقير سبباً هو البر، وأنشأت بين القوي والضعيف نسباً هو الرحمة!

عالج الإسلام الفقر علاج من يعلم أنه أصل كل داء ومصدر كل شر. وقد أوشك هذا العلاج أن يكون بعد توحيد الله أرفع أركان الإسلام شأناً، وأكثر أوامره ذكراً، وأوفر مقاصده عناية. ولو رحت تستقصي ما نزل من الآيات وورد من الأحاديث في الصدقات والبر، لحسبت أن رسالة الإسلام لم يبعث بها الله محمداً آخر الدهر إلا لتنقذ الإنسانية من غوائل الفقر وجرائر الجوع. وحسبك أن تعلم أن آي الصيام في الكتاب أربع، وآي الحج بضع عشرة، وآي الصلاة لا تبلغ الثلاثين؛ أما آي الزكاة والصدقات فإنها تُربى على الخمسين.

كأنما أختار الله لكفاح الفقر أشح البلاد طبيعة وأشد الأمم فقراً ليصرعه في أمنع حصونه وأوسع ميادينه! فإن الفقر إذا أنهزم في قفار الحجاز كانت هزيمته في ريف مصر وسواد العراق أسرع وأسهل. ثم أختار الله رسوله فقيراً ليكون أظهر لقوته، كما أختاره أمِّياً ليكون أبلغ لحجته.

كانت جزيرة العرب إبَّان الدعوة العظمى مثلاً محزناً لما يجنيه الفقر على بني الإنسان من تَصْرية الغرائز، وتمزيق العلائق، ومعاناة الغزو، ومكابدة الحرمان، وقتل الأولاد، وفحش الربا، وأكل السُّحت، وتطفيف الكيل، وعنت الكبراء، وإثراء الأغنياء، وفقد الأمن، وانحطاط المرء إلى الدرك الأسفل من حياة البهيم. فلما أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق كان معجزته الكبرى هذا الكتاب المحكم الذي جعل هذه الأشلاء الدامية جسماً شديد الأسْر عارم القوة، ونسخ هذه النظم الفاسدة بدستور متين القواعد خالد الحكمة؛ ثم كانت بوادر الإصلاح الإلهي أن قلَّم أظفار الفقر، وأسا كلوم الفقراء، وقطع جرائر البؤس، فألف بين القلوب، وآخى بين الناس، وساوى بين الأجناس، وعصم النفوس من القتل الحرام، وطهر الأموال من الربا الفاحش؛ ثم عالج الداء الأزلي نفسه بما لو أخذ به المصلحون لوقاهم شرور هذه الحرب التي أمضَّت حياة الناس، وكفاهم أخطاء هذه المذاهب التي قوضت بناء المجتمع: عالجه بالسفارة بين الغني والفقير على أساس الاعتراف بحق التملك، والاحتفاظ بحرية التصرف، فلا يدفعُ مالك عن ملكه، ولا يعارَض حر في إرادته، إنما جعل للفقير في مال الغني حقاً معلوماً لا يكمل دينه إلا بأدائه، ذلك الحق هو الركن الثالث من الأركان الخمسة التي بُني عليها الإسلام، فلا هو فرع ولا ناقلة ولا فضلة. وليست الزكاة بالقدر الذي يخفي أثره في حياة الفقير، فهي ربع العشر في المال، وما يُقَدر بنحو ذلك في غيره. فإذا جُبيت الزكاة بالأمانة على حسابها المقدَّر، ووُزعت بالعدالة على نظامها المفروض، شفت النفوس من الحقد، وأنقذت المجتمع من البؤس، فلا تجد سائلاً في شارع، ولا جائعاً في بيت، ولا جاهلاً في عمل.

ولم يقف الإسلام في علاج الفقر عند فرض الزكاة، وإنما شرع للبر في العبادات والمعاملات موارد لا يأسن لها مَعين ولا ينقطع عنها رافد:

يحنث الرجل في يمينه فيكفر بإطعام عشرة مساكين من أوسط ما يطعم أهله، أو كسوتهم، أو تحرير رقبة.

ويقسم ألا يفعل شيئاً، ثم يرى أن فعله خير من تركه فيكفر بإطعام المساكين ثم يفعله.

ويظاهِر من زوجه ثم يبدو له أن يعود، فيطعم ستين مسكيناً أو يحرر رقبة.
ويرمي فيقتل نفساً من غير عمد، فيطعم أو يعتق فضلاً عن أداء الدية.
ويعجز عن صوم رمضان، لسَقَم أو هَرم، فيفطِر ويطعم كل يوم مسكيناً.
ويفطِر عامداً في رمضان من غير علة، فيطعم ستين فقيراً أو يفك رقبة.
ويخل الحاج بشرط من شروط الحج فيكفر عنه بِذَبح يقدمه للمساكين.
ويتجرد عن المخيط فإذا لبس شيئاً منه لزمته الفدية.
ويُرزق الرجل غلاماً فيعُّق عنه بذبيحة يطعمها الفقراء يوم أسبوعه.
ويقبل عيد الصوم أو عيد الحج فيجب على الأغنياء أن يرفهوا عن الفقراء بزكاة الفطر أو بلحوم الأضاحي.
وينذر المسلم لله نذراً فيوجب الدين عليه أن يفي به براً بالفقراء وعوناً للمساكين.
ويعجز الرجل عن تكاليف العيش فيوجب الدين على من يرثه بعد موته أن ينفق عليه!
فينفق الابن على الأب، والأب على الأبن، والأخ على الأخ، والزوج على الزوج، عملاً بالقاعدة الإسلامية الحكيمة: (الغُرم بالغُنم). ولقد رأى الفاروق عمر بن الخطاب يهودياً لا يقدر على شيء، فوقف به ثم قال له: ما أنصفناك أيها الذمي! أخذنا منك الجزية في قوتّك، فيجب أن لا نضيعك في ضعفك. ثم أجرى عليه من بيت المال ما يمسك نفسه.
وجاءت الشريعة بالوصية لمن حضره الموت: يوصى بثلث ماله لوجوه البر فضلاً عن الوصية للوالدين والأقربين.
ونوهت السُّنة بالصدقة الجارية، فكان بركة من بركات الرسول الكريم على المرضى والزَّمْنَي وذوي الخصاصة وأبناء السبيل وطلاب العلم وحجاج البيت، بما يوقف عليهم أولو الفضل والسعة من المستشفيات والملاجئ والخانات والزوايا والأربطة والمدارس والمساجد والمكاتب. وكفى شهيداً على أثر (الصدقة الجارية) في علاج الفقر وإشاعة البر، أن تحصى الأوقاف في الأقطار الإسلامية؛ ثم ننظر فيما حبست عليه من وسائل الإصلاح ووجوه الخير؛ ثم نحكم على ما قدمت لذوي الحاجات والعاهات من إحسان لا يغبُّ وإسعاف لا يغيب.
كل أولئك إلى ما جاء في كتاب الله وفي سنة رسوله من الحث على الإنفاق في سبيل الله، والترغيب فيما عند الله من حسن المثوبة، بفنون من القول الرائع والتشبيه المحكم.
كذلك عالج الإسلام الفقر من طريق آخر غير طريق الزكاة والصدقات والكفارة: عالجه من
طريق الكسر من حِدة الشهوة، والكف من سَورة الطموح، والغضّ من إشراف الطمع؛ فرغَّب الغنى في الزهد، وأمر الواجد بالقناعة، ومدح الفقير بالتعفف.
ذلك ما عالج به الإسلام داء الفقر الذي أعيا الإنسانية منذ الدهر الأول. وهو على إحاطته وبساطته ونجوعه ينهض وحده دليلاً على أفَن الذين يقولون إن دستور القرآن لا يأتلف مع المدنية، وشريعة نابليون أصلح للناس من شريعة الله، ونظام مَرْكس أجدى على العالم من نظام محمد.
فلو أن كل مسلم أدى حق الله في ماله، ثم استفاد لأريحية طبعه وكرم نفسه، فأعطى من فضل، وواسى من كفاف، وآثر من قلة؛ ثم قيض الله لهذا كله من ولاة الأمر من يجمعه على أكمل حال، ويدبره على أفضل وجه، ويوزعه على أعدل قسمة، لكان ذلك عَسِيَّاً أن يُقر السلام في الأرض، ويُشيع الوئام في الناس، فتهدأ ضلوع الحاقد، وترقأ دموع البائس، ويسكن جوف الفقير، ويذهب خوف الغني، ويتذوق الناس في ظلال الرخاء، سعادة الأرض ونعيم السماء.
أحمد حسن الزيات
لا بد من دين الله لدنيا الناس
لإمام المسلمين الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي
عودة يوم الهجرة للنفوس المؤمنة، كعودة الربيع للجسوم الحية. فالربيع ينشر في الكون الحياة والجمال، فيتجدد البالي، وينتعش الذاوي، ويبتهج الكئيب؛ ويوم الهجرة ينشر في القلوب النور والجلال، فيقوى الخائر، ويهتدي الحائر، ويتذكر الغُفلان. وإذا كانت الحواس لا تنتفع بالربيع إذا لم تكن شاعرة، فإن النفوس كذلك لا تنتفع بمعنى

الهجرة إذا لم تكن ذاكرة. والذكرى تنفع المؤمنين إذا اقتبسوا منها الهداية والتمسوا فيها العظة؛ أما إذا كان قصارى أمرنا في الاحتفال بحوادثنا الكبرى، وشخصياتنا العظمى، أن نكتب ونخطب فما أصبنا الغرض.

إن ذكرى الهجرة هي ذكرى وضع الأساس لهذا البناء الإسلامي الشامخ الذي أنبسط ظله على أكثر الأرض، وانتشر نوره في ظلام الوجود، وأوت الإنسانية منه إلى ركن شديد بالعلم، أمين بالعدل، منيف بالحضارة؛ فالمسلمون أحرياء أن يجعلوا احتفالهم بهذه الذكرى العظيمة تقديساً للدين الذي كانت في سبيله، وتمجيداً للمبدأ الذي قامت عليه، وتأييداً للشرع الذي تكشفت عنه. وتقديس الدين هو الانقياد له، وتمجيد المبدأ هو الإخلاص فيه، وتأييد الشرع هو العمل به. وما كان الناس في عهودهم الخالية بأحوج إلى هدى الله منهم في هذا العهد؛ فقد طغت فيه المادية على الشعوب حتى تعادت، وأفرطت القوة على الدول حتى تفانت، وغررت المذاهب الإلحادية بالإفهام السقيمة فلبّسوا على الناس الحق، وشبهوا على القادة الطريق، حتى زلزلت الأرض بمن عليها، وخشينا على صرح المدنية والفضيلة أن يَنقضْ.

ذلك إيذان من الله للناس بأنهم فسقوا عن أمره فجافتهم رحمته، وحادوا عن سبيله فحق عليهم عذابه. (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون).

لا يكشف عنا ما غشينا من هذه الغمة العميمة إلا العمل بشريعة الإسلام والاحتفاظ بتقاليد الشرق الصالحة. والرجوع إلى شرع الله في أمور الدنيا من بدائه العقل وموجبات الفطرة؛ لأن الله جلت قدرته هو الذي خلق الناس ودحا الأرض، فهو أعلم بغرائز خلقه وأسرار كونه؛ وهو أعلم بما سينشأ عن تصادم الغرائز من نزاع، وما سيشتد على خيرات الأرض

من تنافس؛ وهو أعلم بما سينتجه تفاوت الناس في القدرة والحيلة من بغي الأقوياء على الضعفاء، وجور الأغنياء على الفقراء؛ فشرعه وهو الخبير البصير حقيق أن يكون حلاً حاسماً لمشكلات الحياة، وعلاجاً شافياً لأدواء المجتمع، ودستوراً جامعاً تنتظم عليه شؤون الأفراد وأحوال الأمم في كل أرض وفي كل عصر وفي كل جنس. أما تشريع الناس للناس فهو عرضة للنقص أو للخطأ من جهة الجهل أو من جهة الهوى أو من جهة التطبيق؛ وهو إن صلح لعصر لا يصلح لغيره، وإن أفاد في أمة لا يفيد في أخرى.

فما بالنا ندَع حكم الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ثم نحكّم في أنفسنا وأموالنا وأحوالنا شرائع قد لا تتفق مع عقائدنا، ولا تأتلف مع عوائدنا، ولا تستطيع أن تحيط بما أحاط به الله من خفايا الصدور ومفاجآت الغيب؟!

لا يزكو بأهل القبلة أن يولوا وجوههم شطر المغرب يأخذون عنه من المذاهب والنظم والتقاليد ما أضَّل به أهله. إنما النور في الشرق مطلع الأديان، والهدى في شريعة الله مُنزل القرآن، والدليل في سنة الرسول صاحب الهجرة، والسبيل ما سلكه السلف الصالح فأوفى بهم على الغاية.

والرجاء في مولانا الفاروق أعز الله ملكه أن يبني إصلاح الأمة على قواعد الدين، وأن يُجري قضاء الحكومة على شريعة الله، فهو بما آتاه الله من العلم والحكمة والسلطان أحق بأن يبدأ للأمة الإسلامية هذا التاريخ الجديد.

أسأل الله ولي المؤمنين وأحكم الحاكمين أن يسدّد خطانا في الطريق المستقيم، وأن يكشف عنا وعن الناس هذا الكرب العظيم.

محمد مصطفى المراغي

الأوامر المختومة في المأثورات النبوية

للأستاذ محمود عباس العقاد

يكثر في الحروب الحديثة ذكر الأوامر المختومة التي تصدر إلى قوّاد السرايا والسفن ليفتحوها عند مدينة معلومة أو بعد مسيرة ساعات أو ف يعرض البحر على درجة معينة من درجات الطول والعرض، إلى أمثال ذلك من العلامات التي تعين بها الجهات.

ويتفق في أمثال هذه البعوث أن يكون القائد وحده مطلعاً على سر البعث أو موصياً به ورجاله جميعاً يجهلونه ولا يعرفون أهم خارجون في غزوة أو في استطلاع أو في مناورة إلى ما قبل الحركة المقصودة بساعات محدودات، وهنالك تصدر الأوامر التي لا بد من صدورها للتهيؤ والتنفيذ، ولا خوف من كشفها في تلك الساعة لصعوبة الاستعداد الذي يقابلها به العدو إذا انكشفت له قبل تنفيذها بفترة وجيزة، ولا سيما إذا كانت

الحركة من حركات البحار.
هذه الأوامر المختومة ليست بحديثة.
وقد عرفت في المأثورات النبوية على أتم أصولها التي تلاحظ في أمثالها، ومن ذلك أنه عليه السلام بعث عبد الله بن جحش ومعه كتاب أمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين، وفحواه أن (سر حتى تأتي بطن نخلة على أسم الله وبركاته، ولا تكرهن أحداً من أصحابك على المسير معك، وامض لأمر فيمن تبعك حتى تأتي بطن نخلة فترصد بها عبر قريش وتعلم لنا من أخبارهم).
وهذا نموذج من الأوامر المختومة جامع لكل ما يلاحظ فيها حديثاً وقديماً عند بداية الدعوات على التخصيص.
فأولها كتمان الخبر عمن يحيطون بالنبي عليه السلام؛ فلا يبعد أن يكون منهم من هو مدخول النية عينا عليه وعلى أصحابه من قبل قريش، ولا يبعد أن يكون منهم من يبوح بالخبر ولا يريد به السوء أو يدرك ما في البوح به من الخطر المحظور، ولا يبعد أن يكون منهم الضعفاء والمخالفون، والاستعانة على قضاء الحاجات بالكتمان سنة حكيمة من سنن النبي عليه السلام، وهي في حروب الدعوات على التخصيص أقمن بالاتباع.
ومما لوحظ في كتاب النبي لعبد الله بن جحش كتمان الخبر عن أصحابه ووصاته ألا يكره
أحداً منهم على السير معه بعد معرفته بوجهته. وهذا هو أهم الملاحظات في هذا المقام.
فقد يحارب الرجل وهو مكره مهدد بالموت الذي يتقيه إذ يفر من القتال، ولكنه لا يستطلع وهو مكره ثم يفيد استطلاعه من أرسلوه، بل لعله ينقلب إلى النقيض فيحرف الأخبار عمداً، أو يتلقاها على غير أكتراث، أو يطلع الأعداء على أسرار أصحابه وهم غافلون منه.
ولهذا تعاني الدول أكبر العناء في مراقبة الجواسيس بالجواسيس، وفي امتحان كل خبر بالمراجعة بعد المراجعة والمناقضة بعد المناقضة حتى تطمئن إلى صحته قبل الاعتماد عليه.
وفي الحرب الحاضرة تجربة جديدة لهذا النوع من المستطلعين أو الرواد المتقدمين.
فقد عرف أن هتلر يعتمد على أفراد من جنده يهبطون من الطيارات وراء الصفوف فيتسللون إلى مراكز المواصلات ويعيشون بين القرى المعزولة فيشيعون فيها الرعب والحيرة ويوهمون من يراهم أن الجيش المغير كله على مقربة منهم في جدوى لهم من الاستغاثة أو المقاومة، ويحمل معظم هؤلاء الرواد المتقدمين أجهزة للمخاطبة يستعينون بها على الاتصال برؤسائهم من بعيد.
قيل في الإعجاب بهذه الخطة الهتلرية كثير، وقيل في انتقادها والتنبيه إلى خطرها كثير.
فمن دواعي الإعجاب بها أنها أفادت في قطع المواصلات وإشاعة الذعر وتضليل المدافعين، وإنها شيء جديد في شكله وإن لم يكن جديداً في غايته ومرماه.
ومن أسباب انتقادها أن كل فائدة فيها تتوقف على العقيدة وحسن النية، فهي تستلزم أن يكون الرائد غيوراً على عمله متحمساً لإنجازه رقيباً على نفسه وهو بمعزل عن رقبائه، فليس أيسر له إذا هو أنفرد وأعوزته الرغبة في إنجاز عمله من أن يستأسر في أول مكان يصل إليه من بلاد الأعداء طلباً للسلامة ولا عقاب عليه ولا هو يتقي العقاب إلى نهاية القتال. ثم يتعلل بما شاء من المعاذير إن وجد بعد ذلك من يحاسبه ويعاقبه، وهيهات أن تستجمع الأدلة عليه في أمثال هذه الفوضى.
فالخطة الهتلرية فاشلة لا محالة إن لم ينفذها مريدون متعصبون غير مكرهين ولا متشككين فيما هو موكول إليهم، وهي لهذا أحرى أن تحسب من وحي الطريق وإلهام العقائد لا من
النظام الذي يدرب عليه كل جيش ويصلح لجميع الجنود. فلولا أن النازيين قضوا قبل الحرب الحاضرة زهاء عشر سنوات ينفخون في نفوس الناشئة جذوة البغضاء ويلهبونهم بحماسة العقيدة ويخلقون فيهم اللدد الذي يغني عن الرقابة ساعة التنفيذ لحبطت الخطة كل الحبوط وانقلبت على النازيين شر انقلاب.
وهاهنا تتجلى حكمة النبي عليه السلام في اشتراط الرغبة والطواعية واجتناب القسر

والإكراه.
فهذه (أولاً) بعثة منفردة لا سبيل إلى الإكراه الفعال بين رجالها إذا أريد.
وهي (ثانية) بعثة استطلاع لا يغني فيها عمل الكاره المقسور، وألزم ما يلزم العامل فيها إيمانه وصدق نيته وحسن مودته لمن أرسلوه. فإن أعوزته هذه الصفة فقد أعوزه كل شيء.
أما غرض البعثة كلها وهو الاستطلاع فقد كان النبي عليه السلام عليماً بمزاياه معنياً به غاية العناية يحسب العدو المجهول كالعدو المستتر بأسوار الحصون في حمى من الجهل به قد يحول دون الاستعداد له بالعدة الضرورية ويحول من ثم دون الانتصار عليه.
وكان عليه السلام مثلاً بين قواد الجيوش الذين جعلوا عدة الاستطلاع مقدمة على عدة التعبئة، ومن هؤلاء نابليون الكبير.
قلنا في مقال كتبناه بالرسالة لمثل هذه المناسبة منذ سنتين: (لم يعرف عن قائد حديث أنه كان يعني بالاستطلاع والاستدلال عناية نابليون، وكانت فراسة النبي في ذلك مضرب الأمثال، فلما رأى أصحابه يضربون العبدين المستقيين من ماء بدر لأنهما يذكران قريشاً ولا يذكران أبا سفيان علم بفطنته الصادقة أنهما يقولان الحق ولا يقصدان المراء، وسأل عن عدد القوم فلما لم يعرفا العدد سأل عن عدد الجزور التي ينحرونها كل يوم فعرف قوة الجيش بمعرفته مقدار الطعام الذي يحتاج إليه. وكان صلوات الله عليه أنه يعول في استطلاع أخبار كل مكان على أهله وأقرب الناس إلى العلم بفجاجة ودوربة، ويعقد ما يسمى اليوم مجلس الحرب قبل أن يبدأ القتال، فيسمح من كل فيما هو خبير به، ولا يأنف من الأخذ بنصيحة صغير أو كبير).
ونحن نكتب هذا المقال والحرب الروسية تذكرنا كيف أصيب نابليون في هذا الميدان حين أصيب في وسائل الاستطلاع، ثم تذكرنا كيف تكررت هذه الغلطة بعينها على نوع من
المشابهة بين غزوة نابليون روسيا أمس وغزوة هتلر لتلك البلاد اليوم
فمن أسباب هزيمة نابليون إهماله النصائح التي سمعها في مجلس الحرب من بعض الثقات قبل التوغل في الأرض الروسية.
ومن أسباب تلك الهزيمة أن الروس كانوا يتراجعون أمامه تحت جنح الظلام ويخلون المدن والطرقات حتى لا يرى فيها دياراً يسأله عن مكان الجيش المتراجع أو يلتقط من خلال أجوبته ما يعينه في الاستطلاع الذي كان كما أسلفنا شديد التعويل
أما هتلر فقد أتى من قبل هذين النقصين كما أتى من قبله من هو أعظم منه وأولى بالتحرز والأناة.
فقد أشتهر الآن أنه كان في مجلس الحرب على خلاف مع قواده الثقات الذين علموا من شأن الروس ما ليس له به علم
واشتهر الآن أنه أخطأ في استطلاعه أخبار القوم إذ خيل إليه أن الشعب الروسي يتحفز للثورة ويترقب الإغارة عليه لنصرة المغير كائناً من كان، ولو جاءت الغارة من عنصر معادٍ للعنصر السلافي وهو عنصر الجرمان.
ومحمد عليه السلام لم يتعلم ما تعلمه هتلر ونابليون، ولكنه لم يخطئ قط مثل هذا الخطأ في جميع غزواته وكشوفه. ولعلنا نفهم كلما درسنا زمانه الحافل بالعبر والأمثلة الباقية أن دراسته ضرب من دراسة العصر الحديث والقادة المحدثين.
عباس محمود العقاد
مع المفتي الأكبر
فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ عبد المجيد سليم مفتي الديار المصرية، علم من أعلام الفقه الإسلامي في مصر والشرق، يمتاز بعلم واسع، ونظر صائب، وفكر ثاقب، وقد رأى فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر أن ينتفع التعليم العالي بمواهبه، فأسند إليه منصب (المراقب العام) على الكليات الأزهرية الثلاث، فأصبح له بهذا المنصب، وبشخصيته العلمية الجليلة، مشاركة في الإشراف العلمي على شئون التعليم، يرجى أن تحقق آمال الأستاذ الأكبر في الإصلاح.
وفضيلته - إلى جانب ذلك - عضو بارز من أعضاء (جماعة كبار العلماء) له فيها نشاط محمود، ورأي مشهود، ومقام كريم.

زرته في داره الحديثة الطراز التي بناها في ضاحية (كوبري القبة) فجاءت مثلاً رائعاً لعظمة البناء، وجمال التنسيق، ودليلاً حاضراً على ما يستطيعه (العالم الديني) من جمع بين تقوى الله، وأبهة الحياة.

تلقاني فضيلته مرحباً، وكنت منه على موعد، فلما أستقر بي المقام ذكرت له أن (الرسالة) تعتزم أن تصدر عددها الهجري الممتاز، ويسرها أن تسفر بينه وبين القراء الكرام في جميع أنحاء الشرق العربي بحديث يتصل بعمله في الإفتاء، والرقابة العامة، وجماعة كبار العلماء.

فأبدى استعداداً كريماً لإجابة هذه الرغبة، وأثنى على (الرسالة) ثناءً جميلاً، ذاكراً عنايتها الفائقة بشئون العلم والدين، ودعوتها القوية للثقافة الإسلامية، وقال: إنه يعلق على ذلك آمالاً عظيمة، فإن للرسالة في نفوس المسلمين وأهل العروبة جميعاً مقاماً عظيماً ومنزلة سامية.

فأجزلت لفضيلته الشكر على استعداده وحسن ثنائه، ثم دار الحديث بيني وبينه على هذا النحو:

1 - في الإفتاء

قلت لفضيلته: إن منصب الإفتاء منصب جليل له بالفقه الإسلامي صلة عملية وثيقة، وقد رسم الفقهاء المتأخرون للمفتي رسوماً لا يجيزون له أن يتعداها، وألزموه أن يفتي بآراء عينوها له، وكثيراً ما يذكرون الحكم ويتبعونه بقولهم: (وبه يفتى)، أو (وعليه العمل) ونحو ذلك؛ فهل تلتزمون فضيلتكم هذه الرسوم فيما تصدرون من فتوى، ولا تخرجون عن هذه الأقوال؟

فأجاب قائلاً: إن الفتاوى التي أصدرها على نوعين: نوع يتصل بالقضاء الشرعي والجهات الرسمية، وهذا أفتي فيه بما هو الراجح من مذهب الإمام أبي حنيفة، لأن المستفتي يطلب ذلك في استفتائه، ولأن هذا هو المذهب الرسمي في مصر، ولو لم أتبع هذه الطريقة لاصطدم القضاء بالفتوى.

أما النوع الثاني فهو الفتاوى التي أصدرها في استفتاءات غير رسمية أو واردة من البلاد الأخرى، وأنا في هذه الفتاوى لا أتقيد برسم يرسم، ولا بقول من الأقوال في مذهب الحنفية، وإنما أختار القول الذي أرى دليله راجحاً وأبين سبب رجحانه عندي، وقد أذكر إلى جانبه الأقوال الأخرى إذا طلب المستفتي ذلك أو كان الأمر يستدعي ذكرها.

قلت له: أتلتزمون في ترجيحكم دائرة المذاهب الأربعة المعروفة؟

فقال: أنا لا أتقيد بالمذاهب الأربعة، ولكني لا أخرج فيما أفتي به عن مذاهب العلماء من السلف والخلف. والسبب في ذلك أن الفقه الإسلامي غني جداً بأقوال العلماء وآرائهم فلا تكاد تجد مسألة من المسائل إلا وقد تعددت آراء الفقهاء فيها بحيث لا تستطيع أن تجزم بأن رأياً تراه لم يقل به أحد العلماء من قبل، فليس على الناظر في هذه الثروة الطائلة إلا أن يختار أرجحها مصلحة، وأقواها دليلاً، وأشبهها بروح الشريعة، وهذا هو الذي أسير عليه.

سألت فضيلته: أكان من المفتين الذين سبقوا فضيلتكم في دار الإفتاء المصرية من جرى على هذه الطريقة التي تسيرون عليها؟

فقال: إن الفتاوى التي تحتفظ بها سجلات دار الإفتاء لا تدل على ذلك، وإن كانت تدل في كثير من الأحيان على فقه جيد، ونظر سليم.

قلت له: وفتاوى الأستاذ الإمام محمد عبده؟

فقال: إن الناحية التي تجلت فيها مواهب الأستاذ الإمام الشيخ (محمد عبده) كانت هي إدراكه الصحيح لمعاني القرآن الكريم، وفهمه الدقيق لأغراضه، وتذوقه لأسلوبه ومعجز بيانه، مع بصر عظيم بأحوال الناس، وعبر التاريخ، وأسرار تقدم الأمم والشعوب، وسنة الله في جميع الكائنات؛ يؤازر ذلك قلب جريء، وجنان ثابت، وعقل متصرف. وكان - رضي الله عنه - يعتمد في فتاواه على إدراك روح الشريعة، وتبين أغراضها العامة، لا على مناقشة المذاهب، وترجيح أقوال الفقهاء؛ ولذلك تأتي فتاواه غالباً مختصرة، وقد تثير خلافاً بين أهل العلم. ومن أمثلة ذلك أنه أفتى فتواه المشهورة بجواز لبس (البرنيطة)، فقامت من أجلها ضجة هائلة بين العلماء وأهل الأزهر يومئذ، فلما أردت أن

أفتي في هذا الموضوع انتفعت بموضع العبرة فيه، فأخرجت فتواي التي تجيز لبس (البرنيطة) إخراجاً فقهياً مؤيداً بأقوال العلماء، جارياً على طريقتهم في الاستدلال والترجيح، وبذلك لم يستطع أحد أن يشغب على هذه الفتوى أو يثير في شأنها جدالاً.

2 - في الرقابة العامة

شكرت فضيلة المفتي الأكبر على هذه المعلومات القيمة، ثم توجهت إلى فضيلة المراقب العام أسأله عن آماله فيما يتصل بالتعليم الأزهري العالي، وعن أسلوبه في العمل على تحقيق هذه الآمال فأجاب قائلاً:

- إنني أرجو أن تخرج لنا الكليات الأزهرية في نواحيها المختلفة علماء يمتازون بميزتين:

إحداهما: القدرة على فهم مسائل العلوم فهماً صحيحاً واضحاً لا على استظهارها فحسب؛ وإن لدينا من آثار الأولين لثروة عظمى في سائر العلوم الدينية والعربية والكونية: في اللغة والنحو والصرف وعلوم التاريخ والمنطق والفلسفة وأصول الدين والأخلاق وغيرها. لدينا كنوز مليئة بالخيرات تحتاج إلى من يفتح مغاليقها ويستفيد منها؛ والأزهري هو الذي يستطيع أن يفتح هذه المغاليق، ويثير دفائنها، وهو المطالب بأن يأخذها من مصادرها، ويستخرجها من منابتها في صبر ومثابرة وحسن إدراك.

والوسيلة إلى ذلك هي غرس المحبة للعلم في نفوس الطلاب والأساتذة فإن الذي يذوق لذة العلم لا يعدل بها لذة أخرى، ولا تصرفه عنها صعوبة من الصعاب، والشعور بلذة البحث أول إمارات النجاح.

الميزة الثانية التي يجب أن يمتاز بها العالم هي القدرة على التصرف فيما يعلم، لإفادة الناس به، وتطبيقه عملياً في جميع شئون الحياة.

والوسيلة إلى ذلك فيما أرى هي تشجيع الكفايات العلمية الممتازة، وبث روح العمل والإنتاج في محيط أهل العلم.

فإذا أخرجت الكليات هذا العالم الذي يمتاز بهاتين الميزتين أمكننا أن نرى رجالاً يدرسون قواعد البلاغة ومسائل الأدب ويكونون بلغاء وكتاباً وأدباء، وأن نرى رجالاً يدرسون أصول الفقه ويكونون فقهاء ومرجحين، وأن نرى علماء يستطيعون أن يدافعوا عن الإسلام، ويردوا هجمات أعدائه بأسلوب العصر وهكذا. . .

3 - في جماعة كبار العلماء

قلت لفضيلته: لقد أطلع قراء الرسالة على تقرير اللجنة التي ألفتها جماعة كبار العلماء برياسة فضيلتكم للنظر في المقترحات التي رفعها إليها بعض أعضائها. فما الذي ترونه شخصياً في المقترحات، ومتى يتم إعداد الوسائل للأخذ في تنفيذها؟

فأجاب فضيلته:

لقد سررت بهذه المقترحات العظيمة منذ أول لحظة، وأعلنت رأيي هذا في جلسة الجماعة الموقرة التي عرضت فيها هذه المقترحات وقلت: إن جماعة كبار العلماء منذ تكوينها مطالبة بهذه الأعمال كلها، فإذا كانت قد تأخرت في الماضي عن القيام بهذا الواجب فلا ينبغي لها أن تتأخر بعد الآن، ولا سيما في عصر حضرة صاحب الجلالة الملك الصالح الغيور على دينه: فاروق الأول أعزه الله، وبأشراف الرجل العالم المصلح المؤمن بفكرته: فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي.

وهذه المقترحات لا يتردد أحد في إدراك ما لها من فائدة جزيلة، ولا في وجوبها على جماعة كبار العلماء، فتلك طوائف الأمة تتشاجر وتتشاحن باسم الدين في كثير من الأشياء: أسنة هي أم بدعة؟ أمن الدين أم ليست من الدين؟ وهذه كتب التفسير والحديث ينظر فيها من يستطيع تمييز الغث والسمين ومن لا يستطيع، وهذه شئون المعاملات التي جدت وتجد للناس، وهم محتاجون إلى معرفة حكم الشريعة فيها بطريقة تقضي على النزاع، وتقطع أسباب الجدل والخصومة، وقد اتجهت أفكار المفكرين وآراء المصلحين إلى هذه الشريعة يلتمسون أن تكون نظام حياتهم، وأساس مدنيتهم، فلا بد لنا إذن من العمل، ولا بد لنا من تلبية نداء الأمة، وإعداد أنفسنا لهذه المهمة السامية.

أنا لا أزعم هذا العمل هين أو يسير، بل أعتقد أننا سنحمل منه عبئاً ثقيلاً، ونضطلع بمهمة

شاقة، ولكنني مع ذلك أعتقد أن تضافر القوى، وتعاون الجهود، والإخلاص لله، وابتغاء وجهه الكريم، كل ذلك كفيل بتسهيل الصعاب. لذلك كله أيدت اللجنة هذه المقترحات، وأشارت بإنشاء مكتب علمي للجماعة تمهيداً للأخذ بتنفيذها، ورفعت رأيها في ذلك إلى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر رئيس الجماعة، وإني ألمس من فضيلته عناية واهتماماً بهذه المقترحات، وأعتقد أنها أصابت هدفه الاسمي في الإصلاح الديني والاجتماعي الذي يبتغيه جاهداً للأمة الإسلامية الكريمة، وفقنا الله جميعاً إلى ما فيه خير الدين والوطن.

وهنا انتهى حديث فضيلة المفتي الأكبر، واستأذنته في نشره فأذن، ثم انصرفت شاكراً.

م. . .

الهجرة وشخصيات الرسول

للأستاذ محمود شلتوت

كان للوحي قبل الهجرة اتجاه، وكان له بعد الهجرة اتجاه آخر، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يساير الوحي في هذين الاتجاهين، ويحتفظ بما يؤدي إلى الغاية منهما.

كان الوحي يدور أولاً حول تحديد الدعوة، وبيان الغرض منها، ولفت الأنظار إلى أدلتها، وذكر ما ينفع فيها من قصص الأولين وعبر الماضين، وتسلية الرسول وغرس عوامل القوة الروحية في نفسه، وتعويده عدم الاكتراث بما يجابه به من الإيذاء والتكذيب والاضطهاد. وقد أتجه النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذه الناحية في تفكيره وأعماله وأقواله وسائر تصرفاته، يبلغ الدعوة، ويعالج الصبر على الإيذاء في سبيلها، ويحاول جمع القلوب حولها، ويرسم للناس دائرتها، ويركز أصولها في النفوس، ويعمل على إيجاد بيئة إسلامية صالحة لما يرد عليها فيما بعد من مبادئ التشريع.

فلما تمت الهجرة دخلت الدعوة في عهد جديد تكونت به للمسلمين وحدة اقتضت معاملات ونظماً اجتماعية تمتاز بها عن سائر الجماعات.

ومنذ ذلك الحين أتجه الوحي إلى جهة أخرى تسير مع مقتضيات الحالة الجديدة وتلبي مطالب هذه الأمة الناشئة، واتجه النبي صلى الله عليه وسلم هذا الاتجاه نفسه فأضيف بذلك إلى وظيفته في التبليغ وظائف أخرى، فكان إماماً للمسلمين يسوسهم ويرعى دولتهم وينظم شئونهم؛ وكان مفتياً يجيبهم عما يسألون، ويعلمهم ما يجهلون؛ وكان قاضياً يفصل في خصوماتهم، ويقضي بينهم، معتمداً على ما يظهر به الحق من البينات والأدلة.

وقد صدرت عنه صلى الله عليه وسلم في جو هذه الحياة الجديدة أقوال وأفعال وتصرفات مختلفة عني بها المسلمون عناية فائقة هي مضرب الأمثال في عناية الأمم بتاريخ عظمائها وتتبع آثارهم، دونوها وشرحوها وضبطوا ألفاظها وألفوا المعاجم في شرح غريبها، واهتموا بتفهم أسرارها، وتبين أغراضها حتى كان من آثار ذلك أن نشأت علوم خاصة تعرف (بعلوم السنة) من رواية ودراية وتجريح وتعديل وناسخ ومنسوخ وغير ذلك.

يهم الناظر في التشريع الإسلامي أن يعرف: هل كان النبي صلى الله عليه وسلم في كل ما يروى عنه من هذه الأقوال وتلك الأفعال والتصرفات مُصدراً عن الوحي، ناطقاً بلسانه، أو

كان له إلى جانب الوحي فيها تفكير ونظر واجتهاد؟ ذلك ما نريد معالجته في هذا البحث.

يرى بعض العلماء أن النبي صلى الله عليه وسلم مبلغ عن الله فقط. تنحصر مهمته في تبليغ الوحي وما يتصل به من بيان على الوجه الذي ضمنه الله بقوله (فإذا قرأناه فاتبع قرآنه، ثم إن علينا بيانه).

ويرون أن صفة الرسالة فيه غلبت على صفة البشرية، وأنه عليه الصلاة والسلام تمحض في استعداده لحمل الرسالة وتبليغ الأمانة، معتمدين في ذلك على ما فهموا من قوله تعالى: (إن هو إلا وحي يوحى) بعد قوله: (وما ينطق عن الهوى).

رأوا هذا ورتبوا عليه أن كل ما أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم شريعة من الله رب العالمين، لها صفة الدوام والبقاء إلى يوم الدين، والناس مخاطبون بها في كل زمان ومكان، لا يجوز لهم أن يحيدوا عنها قيد شعرة، ومن حاد عنها أو سوغ لنفسه أن

يتصرف فيها، فذلك خارج على شريعة الله، مخالف عن أمر الله، غير جدير بأن يكون من المؤمنين.

يقولون ذلك ويتشددون فيه، ولا يفرقون بين أقواله وأفعاله وأحكامه وأقضيته وسائر تصرفاته في العبادات والمدنيات والجنائيات والطب والسياسة والحروب والعادات والزي واللباس وآداب الطعام والشراب والجلوس والسير في الطريق وما يكون من الأحوال الشخصية والمسائل الجنسية وغير ذلك، فكل هذا وحي من الله، بعضه ظاهر وببعضه باطن، وكله شرع محكم، ودين متبع لا يجوز الخروج عليه، ولا التصرف فيه.

وقد تجد قوماً منهم يستثنون من ذلك بعض الأشياء التي لا تتصل بالنواحي التشريعية كرأيه صلى الله عليه وسلم في تأبير النحل، أو في اختيار مكان ينزلون فيه للحرب أو نحو ذلك، ولكنهم حين يتحدثون عن هذا الاستثناء يحتاطون في الأمر تمام الاحتياط، فيضيقون دائرته ولا يتوسعون فيه.

لقد جاءت الشريعة الإسلامية (بالاجتهاد)، وأمر الله عباده أولي الأبصار بأن يعتبروا، وينظروا، ويتدبروا كتابه الكريم، وقد كان الاجتهاد سنة الأنبياء والمرسلين من قبل، والقرآن يحدثنا بذلك عنهم كما في شأن يحيى إذ أتاه الله الحكم صبياً، وكما في قصة داود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم. وقد ذكر الله جملة من أنبيائه ورسله، وأثبت لهم جميعاً هذا المعنى بقوله: (أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة)؛

ثم قال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم في الآيات نفسها: (أولئك الذين الله فبهداهم أقتده).

فالنبي إذن مأمور بالسير على سنة الأنبياء والمرسلين من قبله، مأمور بأن يقتدي بهديهم، وهذا أمر تقضي به طبيعة الأشياء، لأنه لا يعقل أن يرسل الله رسولاً في وقت نبغت فيه الإنسانية، واشتد ساعد الفكر البشري، ثم يحرمه النظر والتفكير الذي أباحه لإخوانه الأنبياء في طفولة الدهر وشباب الزمان، وأباحه أيضاً لمتبعيه الذين يدعوهم إلى دينه ويأمرهم بالعمل بشريعته.

كيف يسوغ لأحد أن يقول بحرمان النبي صلى الله عليه وسلم من الاجتهاد، وهو مرتبة علمية من أسمى مراتب الفطنة البشرية والبصيرة الإنسانية؟ أيمنحها الله لذوي العقول وأرباب البصائر ثم يحرمها على الإنسان الكامل؟

كأني بهؤلاء يرون رسالة الرسول أمراً يتعارض مع بشريته. ولقد كان صلى الله عليه وسلم مع رسالته وقبل رسالته بشراً اكتملت فيه جميع معاني البشرية الفاضل. ولم يشأ الله أن يرسله حتى بلغ أربعين عاماً لتنضج بشريته وتكمل رجولته، فلا تطغى عليها الرسالة ولا تسلبها خصائصها. وقد عنى القرآن الكريم بأن يؤكد هذا المعنى في كثير من آياته: (سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً). (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى ألي). ومن زعم أن رسالة النبي قد غلبت على بشريته وقضت على لوازمها السامية فقد تلاقي في رأيه من قريب أو من بعيد بالذين يقولون (أبعث الله بشراً رسولاً)

إن النبي صلى الله عليه وسلم بشر وفي أسمى مراتب البشرية، وقد اكتسب في ذلك شخصية الفقيه المجتهد كما منح شخصية الرسول المبلغ عن الله. وهو (أول الفقهاء) كما أنه (خاتم الأنبياء). فلننظر إذن فيما ورد عنه صلى الله عليه وسلم على هذا الأساس الذي يجمع بين الرسول والفقيه

اقتضت حكمة الله أن يسوس عباده، ويحقق مصالحهم بنوعين من التشريع: نوع يتولاه بنفسه وينص فيه على ما يريد ويرسل به الوحي إلى نبيه. ونوع آخر (يسكت عنه) فلا ينص عليه غير نسيان ولا إهمال، ولكنه (رحمة بعباده) يكله إلى أصحاب الرأي والنظر لاختلاف المصلحة فيه باختلاف الظروف والأحوال. وقد قام (محمد النبي) بحق رسالته فبلغ النوع الأول كما أمره بتبليغه. وقام (محمد الفقيه الأول) بحق بشريته: رسم طريق

الاجتهاد، وعنى بالتطبيق العملي عليها، وبأن يعبدها لمن يجيء بعده من الخلفاء والقضاة والأئمة: اجتهد وقاس وحكم، وأفتى بالحاجة وتقدير المصلحة، وساس الأمة بما أراده الله كما هو الشأن في المجتهدين والحكام

1 - اجتهد في الحروب وفي الأمور الدنيوية

2 - واجتهد في الأحكام الشرعية، فأفتى المرأة التي سألته عن حجها لأبيها بقوله:

(أرأيت لو كان على أبيك دين فقضيته أما كان يقبل منك)؟ وأفتى السائل عن قبلة الصائم بقوله: (أرأيت لو تمضمضت بماء ثم مججته أكان يضرك)؟ وأفتى السائل عمن لامس امرأته أيكتب له أجر وهو يقضي شهوته؟ فقال له: (أرأيت لو وضعها في حرام أيكون عليه وزر؟)

3 - ونزل على اجتهاد غيره فاستثنى (الأذخر) في تحريم شجر مكة حين استثناه العباس. ودعا للمقصرين كما دعا للمحلقين، وأذن في غسل القدور التي طبخت فيها لحوم الحمر الأهلية بعد أن أمر بكسرها، ونزل المنزل الذي أشار عليه أصحابه بأن ينزل فيه

4 - وكان يجتهد ثم ينزل الوحي باجتهاده، وقد يسكت عنه فلا يعرض له بتصويب ولا تخطئة: عاتبه الله على الإذن للمنافقين، وعلى أخذ الفداء من أسرى بدر، وعلى إعراضه عن الأعمى، فكان ذلك إيذاناً من الله في اجتهاده، ورجع هو عن اجتهاده باجتهاد بمجرد النظر والتجربة فقال (لقد هممت أن أنهى عن الغيلة فنظرت في الروم وفارس فإذا هم يغيلون أولادهم فلا يضر ذلك أولادهم شيئاً وقال: (لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدى)

5 - وكان يحكم في الحوادث الجزئية التي ترفع إليه، ويعتمد في حكمه على البيانات وحجج الخصوم ويقول: (لعل أحدكم ألحن بحجته فإنما أنا بشر)

6 - وكان يكل الجهاد إلى أمرائه وقضاته دون أن يقيدهم بالرجوع إليه

7 - وكان يسارع أحياناً إلى الجواب عما يسأل عنه من غير أن يتربص لوحي، وأحياناً ينتظر أمر الله ويقول لم ينزل علي فيه شيء كما في حادثة المرأة التي جادلته في زوجها، وكما في حادثة الرجل الذي قذف زوجته، فقد نزل القرآن بتشريع كفارة الظهار وشهادات اللعان

ولعل الأمر فيما ينزل فيه الوحي وفيما لا ينزل، وفيما يجتهد فيه الرسول وفيما لا يجتهد راجع إلى الفصل بين الشئون التي تتعلق بأساس الدعوة، أو بالجانب الخلقي، أو بالعبادة، وبين ما تختلف فيه المصلحة باختلاف الظروف والأزمنة، والأشخاص، وقد حدد الفقهاء المجتهدون بذلك مواضع الاجتهاد ومواضع النص

نستطيع بعد هذا أن نستخلص للنبي صلى الله عليه وسلم شخصيات متعددة: شخصية الرسول، وشخصية الإمام العام، وشخصية المفتي، وشخصية القاضي

فهو بشخصية الرسول مبلغ عن الله لا يخرج فيما أوحى إليه عن حدود ما أمر به أو نهى عنه، والمسلمون مكلفون به كما تلقوه عنه في عمومه أو في خصوصه، وفي دوامه أو توقيته؛ وهذا يغلب فيما هو من العقائد وأصول الأخلاق والعبادات، ولا يعد النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فقيهاً، وإنما هو أعلى شأناً وأجل مكانة من الفقيه

وهو بشخصية الإمام الأعظم رئيس المسلمين، وزعيم قوميتهم يعمل على تركيز أمته، وطبعها بطابع تتميز به عن سائر الأمم، ويلحق بذلك كل ما ورد عنه مما يتعلق باللباس والأزياء والتشبه بقوم ومخالفة اليهود والنصارى والمجوس والمشركين، وما إلى ذلك مما لا يمس ناحية العقيدة، ولا يعقل فيه معنى التعبد؛ وإنما هو في الشئون الاجتماعية البحتة التي تعرفها الأمم في كل العصور والأجيال، وينزع إليها الزعماء والقادة في القديم والحديث، والأمر فيها راجع إلى ما تراه الأمم، وتقدر فيه قوميتها ومصلحتها وسيادتها

وهو بشخصية المفتي إما مجيب بلسان الوحي فليس له اجتهاد في ذلك إلا في تطبيق النص على جزئيات الحوادث، وإما فقيه يجتهد ويقدر ويلاحظ أحوال السائلين فيجيبهم بما يراه كما يفعل سائر المجتهدين وبالطرق التي يألفها الناس في استنباط المجهولات، وقد علم له من هذا النوع كثير

وهو بشخصية القاضي حكم بين المتخاصمين يسمع دعاواهم، ويتعرف الحق بما يسمع من شهادة الشهود وما يرى من وجوه التثبت، ويقدر ظروف القضية وأحوال المتقاضين كما يفعل سائر القضاة، وأحكامه في هذه الدائرة لا عموم لها في الأشخاص ولا في الأحوال كما يقول علماء الأصول، فليس لها صفة التشريع العام

هذه شخصيات أربع صارت إليه صلى الله عليه وسلم أثراً من آثار تلك الهجرة الميمونة.

وإننا لنلمح هذه الشخصيات في جميع ما اثر عنه ودون في الكتب، ومنه ما تظهر الشخصية التي صدر عنها دون أن يخالف فيه أحد، ومنه ما تخفي شخصيته خفاء تتفاوت الأنظار فيه، وتختلف الآراء في تقديره

ولو أننا تتبعنا المروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأعطيناه نظرة فاحصة يتميز بها ما كان صادراً عن كل شخصية من هذه الشخصيات ولم نخلط بعضها ببعض، ورتبنا على كل منها آثاره، وأعطيناه حقه، لسهل على المسلمين أن يتفاهموا فيما شجر بينهم من خلاف، ولتصافح المتخالفون، ولما رمي أحد سواه بالكفر أو الزندقة، ولعلم الجميع ما هو شرع دائم لا سبيل لمخالفته أو الخروج عنه، وما هو تشريع خاص، أو مؤقت لهم أن يتصرفوا فيه بما تقضي به المصلحة، وبما توحي فيه الظروف والأحوال

لو فعلنا ذلك لما أبقينا على أسباب هذا الخلاف والتناكر بين أفراد الأمة وطوائفها، ولرجعنا إلى كلمة سواء في العبادات والمعاملات والآداب والنظم الاجتماعية وسائر شئون الحياة، ولانتفع الناس بشرع الله ودينه. ولكنا كما يريدنا الله (خير أمة أخرجت للناس). وفقنا الله جميعاً إلى الرشاد وبصرنا بالحق والصواب

محمود شلتوت

وكيل كلية الشريعة

وعضو هيئة كبار العلماء

ساعة في ظلال الجنة

للأستاذ عبد الله عفيفي بك

الطريق من جدة إلى مكة غاص مزدحم، يتدفق بالركب العظيم والركب أروع ركب وأحفله، وأشده إثارة للقلب والعاطفة والخاطر والخيال. فيه الركبان من كل لون، وفيه المشاة من كل قبيل.

وفيه العابدون السائحون الذين صدروا عن أهلهم وأوطانهم منذ بضع سنين مشاة يستبقون إلى الله في بيته الكريم. وفي هؤلاء من ساروا يحملون أثقالهم وأحمالهم والشيوخ المستضعفين الذين لا يطيقون المشي من الرجال والنساء، وفيهم الوالدات يحملن أطفالهن وراء ظهورهن ويرفعن فوق رءوسهن أزواد الركب الكبير. وقد انتشر هذا الخلق الحاشد على الوادي الممدود بين الجبال المتناوحة في قوة وعزيمة وفي صمت وجلال. بينما الشمس تؤذن بالثواء، والليل من ورائها ينشر رواقه على الصحراء الإلهية الآخذة بمجامع القلوب

هذا (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، أن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك) هو النشيد السماوي الذي كان ينبعث من أعماق القلوب فتخشع له السموات والأرض والجبال، وتتحطم في جنباته كل نفس عاتية وكل قلب حديد

وسارت السيارة بي وبرفاقي متئدة متمهلة في جلال هذا الحشد العالمي الذي تغيب في جلجلته ضجة الجيش القاهر، وتخفت لعظمته قعقعة السلاح العتيد

جاوزنا الركب العظيم وأنا في غاشية وجدانية ملكت علي الطريق. أبعد ساعة أو بعض ساعة أكون في البيت الحرام، وحول الكعبة التي تشخص إليها وجوه المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وأقف بين مقام إبراهيم وحجر إسماعيل؟

وأخيراً انتهى الوادي، وانفرجت الجبال، وتراءت لنا عن بعد أنوار مكة

الله أكبر! لبيك اللهم لبيك! سبحانك يا من سبحت له السموات والأرض وما فيهن! تعاليت يا رب الأرباب! أهذه النسمات كان يشمها رسول الله. وهذه الأرض كانت تطؤها قدماه!

وسارت السيارة في أحياء مكة حتى انتهت إلى ما بين عتيقين في أقصى الطريق فوقفت، وقال السائق هذا هو البيت الحرام! نزلت وأنا ثابت، لا أستطيع الحركة، وأبصرت فإذا الكعبة تلوح عن بعد، والمؤمنون يطوفون من حولها، فأحسست بأن هذا المشهد من مشاهد السماء. . .!

دخلت البيت وكأنني روح من الأرواح تجرد عن هذه الدنيا وألقى وراء ظهره أحمالها وآمالها وآلامها وصار لا يشعر إلا أنه في ظلال الجنة

أنا الآن ذاهل اللب، مخطوف القلب، منهل العينين، أهتف بالتلبية، وأنشج بالبكاء وعلى

الكعبة جلال من جلال الله، وجمال من جمال الفردوس، وروح من أرواح العرش، لا يراه الراءون إلا خفوا هياماً به، وحنيناً إليه. وأقسم لقد طفت في الكعبة طواف القدوم وقبلت الحجر الأسود، ووردت ماء زمزم، وشربت منها عللاً بعد نهل، وأنا لا أدري إلا أنني في جلوة سماوية، أو حلم بديع.

خرجت وقد تعلق قلبي بالكعبة، فلا أطيق الصبر عنها، وعدت إليها في السحر، وسمعت أذان الفجر، وأقيمت الصلاة.

فوقف الناس صفوفاً حول الكعبة، واستمعوا القرآن الكريم من إمام عذب الصوت، جميل الترتيل؛ وما أسماه موقفاً، وما أطيبها متعة، وما أخلدها لحظات!

وابتسم النهار ونحن جلوس بجانب المقام، وللكعبة بهاء أكثر إشراقاً من بهاء النهار. هي قوة روحية من قوى الله، تلك التي يفيضها رب البيت على الوافدين إلى البيت. آمنت بأن هذا البناء المشرف العظيم هو الذي بث روح الإيمان ونور اليقين في نفوس المؤمنين، حتى شقوا الطريق بهذا الدين إلى أرجاء العالمين.

وتمثلت في هذا الموقف رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في طريق هجرته إلى المدينة، وقد وقف على ظهر ناقته واستشرف لعله يرى معالم مكة، ثم ناجاها بقوله الكريم: (إني لأعلم أنك أحب البلاد إلي، وأنك أحب أرض الله إلى الله، ولولا أن المشركين أخرجوني منك ما خرجت).

هكذا أقمت في مكة وفي منى وعرفات والمشعر الحرام ثمانية أيام، وعدت إلى الكعبة وأنا أشم منها روح الجنة، وأرى فيها بهاء السماء.

اللهم أعدني إلى مكة، فإني أجد الشوق شديداً، وما زال العهد غير بعيد

عبد الله عفيفي

رسول الله في عرفات

للدكتور عبد الوهاب عزام

أما اليوم فتاسع ذي الحجة، وأما السنة فالعاشرة من الهجرة، والحجيج يسيرون من منى إلى عرفات، فما بال الناس لا يسيرون على السنن المألوف، ولا يفعلون ما كانوا يفعلون؟ ما بالهم لا تفرقهم العصبيات، ينحازون إلى الرايات؟ ما بال القبائل لا تلبي لآلهتها ولا تهيب بأصنامها؟ عجباً، لا تذكر الآلهة حتى اللات والعزى ومناة، ولا تسمى الأوثان حتى ود وهبل؟

كلا، كلا، قد تتابع القوم في سمت وخشوع، فأين الجلبة والضوضاء، والتفاخر بالآباء؟ وإن قريشاً تتجاوز المزدلفة مع الناس إلى عرفات؛ فكيف سوت نفسها بالقبائل، ورضيت أن تسير إلى هذا المنازل؟ لست أرى ما غير قريشاً من غيرهم، ولا الحمس ممن عداهم، وأين النسأة من كنانة؟ لا ترى لهم شارة ولا موكباً ولا تبصر منهم أحداً.

ماذا دها العرب فغير سننهم؟ بل من ذا الذي جاءهم فجمع شملهم ووحد كلمتهم وأخلص لله دعوتهم؟ إن هذا لشيء عجاب. كنا قبل سنتين نسمع الضجيج والضوضاء، والتصدية والمكاء، ونرى كل قبيلة تنحاز إلى علمها وتنادي ربها، فمن مشيد بالأوثان، ومن مناد: لبيك رب همدان؟ فاستمع اليوم: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك!

قد تغيرت الدعوة واختلف الشعار، وتبدلت السيما والسيرة، ما عهدنا هذا من قبل!

والشيطان ذليل حسير قد أوى إلى صخرة على جنب الطريق يرقب الوفود المتآخية بل الأخوة المجتمعة، يرمي الجموع بعينه خزيان، ويعض بنانه حيران، يقول: (ويلي من محمد! لقد أخرب بيوتي من هذه الأوثان، ومحا البغضاء والشنآن. لقد ذهب النزاع والخصام، وأفلت من يدي الزمام. ويلي من محمد! ألم يكن بالأمس يغشى هذه المجامع وحيداً، ويرتد عنها مخذولاً؟ ألم يكن يعرض نفسه على القبائل لتجيره فيلفي الغلظة والجفاء، والهزء والسخرية؟ ويلي من محمد! لست آسى على الحجاز وحده ولا على جزيرة العرب فحسب، إني لأوجس خيفة أن يجاوز هذا التوحيد الجامع، وهذه الأخوة الموحدة، حدود الجزيرة، فتدمر منازلي من معابد الوثنية، وقصور الجبارين، وتمتد إلى كل بقعة تزلزلها الفرقة، ويسيطر عليها الظلم، ويشيع فيها الفساد، وتتغلغل فيها الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ويرفع فيها لواء الباطل فوق كل لواء. ويلي! لقد جاهدت محمداً في داري ثلاثاً وعشرين سنة واستنصرت شياطين الإنس والجن، وحشدت جنود الباطل وخيل إلي مراراً أني أشرفت على الظفر في هذه الجموع التي تسير وراء

(محمد وتدعو بدعوة محمد ومن أنه يوم له ما بعده
يسير رسول الله صلى الله عليه وسلم في عشرة آلاف من الحجاج إلى عرفة وهذه قبة ضربت له في نمرة فينزل بها
زالت الشمس فأمر رسول الله بناقته القصواء فرحلت فركب حتى أتى بطن الوادي وادي عرنة فوقف واجتمع الناس وأصاخوا للخطبة التي لم يخطب الرسول مثلها في مثل هذا الجمع الحاشد، والوصية العظمى التي يوصي بها الرسول أمته في حجة الوداع، والبلاغ الأكبر يوم الحج الأكبر يؤذن للناس بكمال الدين وتمام النعمة، وتمكن الإسلام ووقف ربيعة بن أمية ابن خلف على مقربة من الرسول يبلغ الحجيج بصوته الجهير مقال رسول الله
ألهم الرسول أنه بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، وأن الدين قد كمل ونعمة الله قد تمت، فقال: (أيها الناس اسمعوا قولي فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الوقف أبداً.)
وعلم رسول الله أن التوحيد الذي جاء به الإسلام كفيل بتوحيد الله على مر الدهور، وأن الكتاب الذي بلغه ضمين ألا تعبد الأوثان من بعد، وأن العقول التي حررها تستنكف أن ترتكس في أباطيل الجاهلية. فليس يخشى على أمته الشرك ولكن يخشى أن يستجيبوا للشيطان فيما عدا التوحيد في أمور يحسبونها هينة وعظيمة الأثر في نظام الجماعة وأخلاقها، حرية أن توهي القوة، وتفرق الكلمة، وتعطل العقيدة الصالحة. وذلكم كل كلمة تؤدي إلى فرقة، وكل فعلة من الظلم والعدوان أو الرذيلة والمنكر. عرف هذا خاتم النبيين فقال: (إن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه ولكنه رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم).
ثم وكد الرسول ما بلغه وعلمه ثلاثاً وعشرين سنة من حرمة الدماء والأموال والأعراض. وكد ما أبطل به الحروب المتمادية، والغزوات المستمرة، والثارات المستعرة، وما هدم به جاهلية العرب هدماً، وردها شرعاً من السلام والوئام، وسلطان القانون العام، فقال: (أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وحرمة شهركم
هذا. . . وإن كل دم في الجاهلية موضوع، وإن أول دم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب؛ فهو أول من أبدأ به من دماء الجاهلية).
ثم عمد الرسول الذي علم البر بالفقير وجعل له حقاً في مال الغني، وعطف القلوب بعضها على بعض وأشعرها البر والمواساة، وعمد إلى هذا الإثم الآثم، والجرم المنكر، الذي تتبرأ منه الأخلاق والمروءة، هذه الشرعة الدنيئة التي تحكم الغني في رقبة الفقير بدراهم معدودات، وتتغلغل في الأخلاق والأموال تغلغل السوس، فأعاد ما وكده الكتاب والسنة من إبطال الربا، وأعلن أنه سواء منه ما تقدم وما تأخر قد محقه الله ومحق أثاره فقال: (وإن كل ربا موضوع، ولكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون. قضى الله أنه لا ربا؛ وأن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله)
ولم ينس النساء وقد أنقذهن من الوأد وأشركهن في الإرث وجعل (لهن مثل الذي عليهن بالمعروف)
وشرع لهن الشريعة الكافلة سعادتهن وسعادة الأمة. لم ينس النساء في هذا الموقف العظيم الذي يوصي فيه بأصول شريعته قال: أما بعد أيها الناس فإن لكم على نسائكم حقاً ولهن عليكم حقاً. . . واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله. . . فاعقلوا
أيها الناس: (ليت النساء أخذن الحقوق وأدين الواجبات. ليت ثم ليت)
ثم وكد نبي التوحيد والأخوة ما بني عليه شرعه من التراحم والتآخي والمساواة والمواساة، وأن الناس سواسية كأسنان المشط سواء فيهم الأسود والأبيض، كلهم لآدم وكلهم عباد الله وكلهم اخوة في الله. قال الرسول الأكرم: (اعقلوا أيها الناس واسمعوا قولي فإني قد بلغت وتركت ما أن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً: كتاب الله وسنة نبيه. . . أيها الناس: اسمعوا قولي فإني قد بلغت، واعقلوا تعلمُنّ أن كل مسلم أخو المسلم، وأن المسلمين إخوة؛ فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه من طيب نفس، فلا تظلموا أنفسكم. اللهم هل بلغت؟)
قال الحاضرون: نعم. قال الرسول اللهم اشهد.

ذلكم ما أوصى به الرسول يوم الحج الأكبر في حجة وداعه، وتلكم حقوق الإنسان دوت بها أرجاء العالم قبل ألف وثلاثمائة وخمسين سنة. . . تلكم وصايا الرسول لأمته تدوي بها
الأجيال، وتسمعها الآذان، فأين منها الأعمال (إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين)
عبد الوهاب عزام
شروط الاجتهاد في الفقه الإسلامي
للأستاذ محمد محمد المدني
كان الفقهاء الأولون من المسلمين مثلاً عليا في النشاط العلمي، والتفكير العقلي، والجرأة على الدراسة والشجاعة في مواجهة الحقائق. درسوا كتاب الله وسنة رسوله، وفهموا مقاصد الشريعة، وأدركوا أسرارها، وعرفوا أحوال عصرهم، وعادات قومهم، واجتهدوا ما وسعهم الاجتهاد، ولم يقصروا في ناحية من نواحي النظر، حتى ملئوا طباق الأرض علماً، ووسعوا دائرة الفقه، وجعلوا من مباحثه صوراً تمثل حياة الناس في عصورهم تمام التمثيل، ونشروا علمه الخفاق على دور الحكم والولاية والقضاء، ومراكز الإدارة والسياسة ودوائر الأموال والأعمال!
ثم دار الزمان دورته، وجاءت من بعد ذلك عهود ركدت فيها ريح الفقه، وغلقت أبواب الاجتهاد، وأصبح الفقهاء رواة لمن كانوا قبلهم يرددون أقوالهم، ويشرحون عباراتهم، ويدرسون ألفاظهم، ويتعصبون لمذاهبهم، وابتعدوا بالفقه عن الحياة الواقعية، واحتفظوا منه بصور أثرية تتحدث عن عصور منقرضة وتصف أحوالاً مندثرة؛ وكان من آثار ذلك نفور أهل الحكم والسلطان منه لشعورهم بأنه على صورته التي صار إليها لا يلبي حاجات الأمم، ولا يصلح عيوبها، ولا يحل مشاكلها. وكان من آثار ذلك أيضاً أن انقطعت الصلة بين أهله وبين المجتمع، إذ أصبحوا غرباء عنه، يعيشون في واد غير واديه، ويدرسون أحوالاً غير أحواله. ثم كان من آثار ذلك أن دخلت التشريعات الأجنبية على بلاد المسلمين؛ فأصبحت دستور الحكم، وأساس الإدارة، وقانون القضاء، وعماد النظام في كل ناحية من نواحي الأعمال!
هكذا كان الفقه وهكذا صار!
كثيراً ما أسأل نفسي: هل كان الفقهاء الأولون طرازاً غير طراز سائر الناس؟ هل منحهم الله ما لم يمنحه أحداً من بعدهم، فآتاهم من العقل ما لم يؤت العقلاء، رزقهم من صحة الفهم وقوة الإدراك ما لا ينبغي لأحد بعدهم من ذوي الفهم والإدراك؟ هل فتحت كنوز العلم والمعرفة والنظر عنصراً من الزمان ثم غلقت أبوابها وأحكم رتاجها فلن تفتح بعد ذلك لأحد من العالمين؟
إني أحب هؤلاء الفقهاء وأجلهم ولكنني مع ذلك لا أستطيع أن أجيب عن هذه الأسئلة (بنعم) لأن فضل الله أوسع من أن يقصر على زمان دون زمان، أو يختص بقوم دون آخرين
لا أستطيع أن أجيب (بنعم) لأن كتاب الله خالد، والخطاب به عام لجميع الناس سواء منهم المتقدمون والمتأخرون: كلهم مطالبون بأن يتدبروه ويعقلوا هدايته، ويدركوا أسراره، ويلقنوا منه حجة الله على عباده، وينتفعوا به في دينهم ودنياهم. ولو جاز أن تقف العقول البشرية عن متابعة هداية الله، وعن تدبر كلمات الله، لما قامت حجة الله على المتأخرين من الناس كما قامت على المتقدمين منهم، ولما كان هنالك فائدة علمية في أن يضمن الله الحفظ والخلود لكتابه الكريم!
إذن فما بالنا قد حرمنا أنفسنا هذا المتاع العقلي، وهذه اللذة الفكرية فلم ننظر نظروا، ولم نجتهد كما اجتهدوا؟ بل لماذا رضينا أن نكون صدى لهم في كل شيء حتى لنستشيرهم ولا نستشير عقولنا في أحوال شهدناها وغابوا عنها، ورأيناها رأى العين وتوهموها؟!
هي التي قضت علينا بذلك! نعم شروط الاجتهاد التي تصورها أهل (شروط الاجتهاد) العلم من المتأخرين شيئاً هائلاً رهيباً، وأسرفوا في تقييد أنفسهم وتقييد الناس بها، وأقاموا منها حجاباً بين العقول وما أوسع الله لها من مدى في التأمل والتفكير!
أبى المتأخرون إلا أن يجعلوا للاجتهاد شروطاً، ثم زعموا للناس أن هذه الشروط صعبة لا يستطيعها أحد، كثيرة متشعبة لا تكاد تجتمع لأحد، فأغلقوا باب الاجتهاد، وأوجبوا على الناس أن يقلدوا، ثم لم يكتفوا بذلك حتى أوجبوا عليهم تقليد فقهاء معينين، يتعصبون

لهم، ويزعمون أنهم أولى بالاتباع من غيرهم، ولكن أقوالهم اضطربت في ذلك اضطراباً يثير الظنون، ويغري بالتهم: فقالت طائفة منهم: لا يجوز لأحد أن يختار بعد أبي حنيفة وأبي يوسف وزفر. وقالت طائفة أخرى: لا اختيار بعد الأوزاعي وسفيان. وقال قوم: ليس لأحد أن يختار بعد الشافعي. وقال آخرون: ليس لأحد أن يختار بعد المائتين من الهجرة. ولما اشتهرت المذاهب الأربعة المعروفة وكان لها أتباع ومتعصبون يخشى بعضهم كيد بعض، اصطلحوا فيما بينهم على أنه لا يجوز تقليد أحد سوى هؤلاء الأئمة، فجعلوا لحكمهم أثراً رجعياً ينسحب على جميع الفقهاء الذين اجتهدوا، فلم يعد لأحد أن يأخذ بقول الليث أو سفيان أو غيرهما من أصحاب المذاهب التي لم ترزق من الجد وحسن الطالع ما رزقته هذه المذاهب المعروفة، فانقرضت ولم يبق لها أنصار يدافعون عنها، ويدعون إليها

فعلوا ذلك كله، وألقوه في روع العامة كأنه عقيدة من العقائد، وشغبوا به على أصحاب العقول الراجحة، والأفكار الحرة، وأعلنوا عليهم حرباً طاحنة، جيوشها العامة والدهماء، وأسلحتها التفكير والرمي بالزندقة والخروج على إجماع الأمة، والطعن في الأئمة الذين ارتضاهم المسلمون. . . الخ، ثم عكفوا على كتب بخصوصها لا يعرفون غيرها، ولا يعتمدون على سواها، ولا يتلقون شريعة إلا منها، ذلك بأنها ألفت على هذه الشريطة في عصور التأخر الفقهي، وزعموا أن الدنيا خلت ممن يستطيع أن يخرج على هذه الكتب، أو يتكلم في العلم دون أن يعتمد عليها، بل حرموا على الناس أن ينظروا في كتاب الله أو في سنة رسوله نظر العلماء المستنبطين، وأوجبوا على العالم ألا يقضي ولا يفتي بشيء منهما حتى يعرضه على ما تنقله هذه الكتب من أقوال مذاهبهم، فإن وافقها جاز الحكم به، وإلا وجب رده وعدم قبوله!

تلك آثار بعيدة المدى، لا يزال الفقه الإسلامي يعانيها ويحمل أصرها وأغلالها، ويتعثر في أشواكها وعقابها، وهو الفقه الذي ورثناه عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وعن أصحابه من بعده، وعن الأئمة المهتدين، قوياً لا يعرف الضعف، ناشطاً لا يعرف الجمود، واسعاً لا يضيق صدراً بالنوازل والأحداث!

شروط؟ ومتى كان للاجتهاد شروط؟ هل ذكرت في كتاب الله أو في سنة رسوله؟ هل كان الصحابة الذين اجتهدوا واختلفوا وتعددت آراؤهم يعرفونها؟ وهل روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان ينهاهم عن الاجتهاد أو يشترط له شروطاً خاصة؟

لقد كان الصحابة رضي الله عنهم مع تفاوتهم علماً وفهماً وإدراكاً لأسرار التشريع يجتهدون ويختلفون فيما بينهم؛ وربما انفرد الواحد منهم بالرأي لا يراه غيره، ولقد وجد من بعدهم عشرات بل مئات من المجتهدين، وكانت لهم حرية فكرية واسعة المدى، فأين في هذا كله خبر تلك الشروط وأين حسها؟ وهل زعم أحد أنهم أعدوا أنفسهم أولاً لنيل شروط معينة، وأشهدوا الناس على أنهم حصلوها ثم أخذوا بعد ذلك ينظرون؟ كلا فليس الاجتهاد منصباً تمنحه الأمة وتمنعه، إنما هو مرتبة علمية يشعر بها العالم من نفسه، وليس كل أحد يدعي ذلك ولم نسمع أن أحداً من أهل العلم قد التمسه أو أقدم عليه دون أن تكون له أداته الطبيعية؛ وليس الناس ملزمين برأي من الآراء كأنه فريضة محكمة، وإنما هو العلم أساسه الحجة والبرهان. ولو اتفق الناس على أن رجلاً منهم صار من أهل الاجتهاد لما أعفاه ذلك من تمحيص العقول لآرائه، والتثبت من حجته. ولو أنكر الناس على رجل منهم هذه المنزلة لما أعفاهم ذلك من الخضوع لرأيه حين تكون الحجة إلى جانبه فليس الأمر إذن أمر شروط تشترط، وإنما هو العلم يجب أن تسمع كلمته من أي فم كان، وأن تفهم وتقبل إذا كانت حقاً، وأن ترفض وترد إذا كانت باطلاً، والحق أحق أن يتبع!

ولكن، لندع هذا كله جانباً، ولننظر في نفس الشروط كما يصورها الذين خوفوا الناس بها، وحجروا على العقول من أجلها!

تصفح ما شئت من كتب الأصول التي وضعها المتأخرون، واقرأ ما شئت من هذه الشروط، تجده يبدو لك أول الأمر عسيراً لا يستطاع تحقيقه؛ فإذا راجعت فيه الشروح والحواشي والتقريرات، وجدت الأمر على خلاف ما بدا لك، ووجدته شرطاً هيناً سهل الحصول

قالوا: أول شروط الاجتهاد أن يكون المرء عالماً بكتاب الله وسنة رسوله؛ ثم جعلوا يضخمون هذا الشرط، فحكوا لنا خلاف العلماء فينا يجب علمه من السنة؛ فقالوا: ألفان، وقالوا: عشرة آلاف؛ حتى زعم بعضهم أنه سأل أحمد ابن حنبل: كم يكفي الرجل من الحديث حتى يمكنه أن يفتي؟ يكفيه مائة ألف؟ قال: لا؛ قال: ثلاثمائة ألف؟ قال: لا؛ قال: أربعمائة ألف؟ قال: لا؛ قال: أيكفيه خمسمائة ألف؟ قال: أرجو!

لا تخف - أيها القارئ - ولا تستصعب الأمر، فأن شارح التحرير يقول: (أن ذلك محمول على الاحتياط والتغليظ في الفتيا)؛ وإن الغزالي يقول: (لا يشترط معرفة جميع ما في الكتاب، بل ما تتعلق به الأحكام. . . ولا يشترط حفظها عن ظهر قلبه، بل يكون عالماً بمواضعها بحيث يطلب منها الآية المحتاج إليها في وقت الحاجة، ولا يلزم حفظ السنة عن ظهر قلبه، بل يكون عنده اصل محقق لجميع الأحاديث المتعلقة بالأحكام. ويكفيه أن يعرف مواقع كل باب فيراجعه وقت الحاجة).

فانظر كيف بدأ هذا الشرط عسيراً هائلاً، ثم عاد خفيفاً هيناً!

وقالوا: لا بد أن يكون قادراً على التمييز بين الصحاح والحسان والضعاف من الأحاديث، بحيث يعرف حال رجال الإسناد معرفة يتمكن بها من الحكم على الحديث بأحد هذه الأوصاف؛

والشوكاني يعلق على هذا الشرط فيقول: (وليس من شرط ذلك أن يكون حافظاً لحال الرجل عن ظهر قلب، بل المعتبر أن يتمكن بالبحث في كتب الجرح والتعديل من معرفة حال الرجال)؛ وكذلك يقول صاحب مسلم الثبوت: (مع العلم بحال الرواة، ولو بالنقل عن أئمة الشأن).

وقالوا لابد أن يكون عالماً بمسائل الإجماع، وبالناسخ والمنسوخ. ويقيد الشوكاني هذا الشرط بقوله: (إن كان ممن يقول بحجية الإجماع ويرى أنه دليل شرعي)

ويقول الغزالي (وليس معنى ذلك أنه يلزمه أن يحفظ جميع مواقع الإجماع والخلاف بل في كل مسألة يفتي فيها فينبغي أن يعلم أن فتواه ليس مخالفاً للإجماع. إما بأن يعلم أنه موافق مذهباً من مذاهب العلماء أيهم كان، أو يعلم أن هذه واقعة متولدة في العصر لم يكن لأهل الإجماع فيها خوض)

أما الناسخ والمنسوخ فهذه كتب التفسير والحديث تعد بالمئات وقد تكفلت بيان مواضع النسخ بياناً شافياً. على أن جهابذة العلماء لا يرون القول بنسخ شيء من الكتاب الكريم

شرطوا بعد ذلك أن يكون المرء عالماً بلسان العرب وعلم أصول الفقه، ثم قالوا إلى حد يميز بين صريح الكلام وظاهره ومجمله وحقيقته وخاصة ومجازه وعامه وخاصه ومحكمه ومتشابهه ومطلقه ومقيده ونصه وفحواه ولحنه ومفهومه الخ

الأمر في ذلك يسير وإن بدا متعسراً. فعندنا من العلماء من يعرف لسان العرب كما يعرفه العرب أنفسهم، زمن فاق الأولين بصراً بعلم أصول الفقه وقدرة على التصرف فيه، وبين أيدينا جميع مؤلفات العلماء في ذلك وفي قدرتنا أن نستخرج منها ما نريد، وقد قربوها كما يقول الشوكاني أحسن تقريب!

هذه هي شروط الاجتهاد كما يراها المتأخرون، وهي شروط في المجتهد المطلق الذي ينظر ويستدل ويستنبط في جميع أبواب الفقه، فأما الذي ينظر في باب دون باب، أو في مسألة دون مسألة، فالأمر فيه أيسر، وقد أجازوا له ذلك دون أن يشترطوا فيه إلا (أن يكون على بصيرة فيما يفتي)

فأي شيء في هذه الشروط يصعب تحقيقه؟ وكيف يقال ذلك في عصر العلم والمراجع والمكتبات والفهارس والمذياع وجمعيات؛ المراسلات والمؤتمرات العلمية والصحف والمجلات والدراسات المنظمة، وهو لم يقل في عصور كانت العلوم فيها ناشئة، وكان العلماء فيها يرحلون للحديث الواحد من بلاد إلى بلاد!

أما بعد فقد أتى على الناس حين من الدهر كان التدين فيه هو طابع الحياة، وكانت مظاهر الورع والتقوى والصلاح تستطيع أن تغطي القصور والضعف وقلة الإنتاج

أما اليوم فإننا في زمان هجمت علينا فيه الثقافات من كل جانب، وأصبح الناس بحاجة إلى التوسع في العلوم، وتلبية مطالب الحياة؛ وأصبح النضج الفكري عنوان التقدم ووسيلة الاحترام

فإذا التمس العلماء أن يعيشوا في العصر الحديث بما كانوا يعيشون به في العصر الحديث بما كانوا يعيشون به في العصر القديم فقد التمسوا المحال
(القاهرة)
محمد محمد المدني
المدرس في كلية الشريعة
حلم ليلة الهجرة
للأستاذ علي محمود طه
يا شرقُ، مِلءُ خاطرِي سحرٌ وملءُ ناظري
أوَحْيُ ليلكَ القديمِ أم رُؤَى الزواهر؟
يا شرقُ، أيُّ ليلةٍ رائعةِ الدياجر
نجومها خلفَ الغمامِ أعينُ المقادر
ترنو على جوانبِ السماءِ للمهاجر
تَمُدُّ من شعاعها مِثْلَ جَناح طائر
رُعْيا المحبِّ للحبيب حُفَّ بالمخاطر
تقول ههنا السُّرَى ومن هنا فحاذر
يا شرقُ، أيُّ ليلةٍ بَعَثْتَها من غابر
حقيقة تلوح لي أم ذاك حُلُم شاعرِ؟
أرى على صحيفةِ الزمان حدَّ باتر
تكمنُ في فِرِنْدِهِ جريمةٌ لغادر
ومن بريقهِ تُطلُّ ألْفُ عينٍ فاجر
مُلَقىً وراء صخرةٍ كانت ملاذَ عابر
أوَى إليها مُفْرداً غير أخٍ مناصر
والبادياتُ حوله رَوْعٌ وهمسُ حائر
كأنما أنسامهنَّ تمتماتُ ساحر
هو انتقالةُ الحياة، وثبةُ الأداهر
شدا الرعاةُ باسمه في الأعصرِ الغوابر
وأودعوه فَرْحَةِ جوانحِ السرائر
وأبدعَتْهُ نَغَماً صوادحُ المزاهر
زفَّوا به إلى الحياة أجمل البشائر
لحنٌ وفيه قسوةُ العواصفِ الثوائر
وفيه ثورةٌ عَلى العقائد الدوائر
يقتحمُ الذُّرَى المنيعة اقتحامَ ساخر
يهزأُ بالجيوش في ألوية القياصر
يهدمُ كل فاسدٍ، يهزمُ كل جائر
ومن عجيبِ أمره يبني بناءَ قادر!
يا شرقُ، سحرُك القديمُ مالِكٌ مشاعري
هذي الطوالعُ الحسانُ في الحُلَي النواضر
المطلقاتُ بالنشيد أرخمَ الحناجر
كأنهنَّ جَوْقَةُ الهواتفِ الطوائر
حيَّين مَوْلِدَ الربيع والسَّنَى المباكر
عرائسُ الخيالِ، هُنَّ، أو بناتُ خاطري
ينترن من أكفهنَّ أجملِ الأزاهر
على طريقِ مُلْهَمٍ مُخَلَّدِ المآثر
يا شرقُ، أيُّ روعةٍ جَلَوْتَها لناظري
حقيقةٌ تلوحُ لي أم ذاك حُلْمُ شاعر
علي محمود طه
عدو إبليس
للأستاذ توفيق الحكيم
(عزرائيل ينصرف عن دار النبي بعد وفاته فيرى إبليس مقبلاً

(. . .فرحاً مبتهجاً
إبليس - هل قبضت روحه؟
عزرائيل - وما شأنك وهذا، أخزاك الله؟
إبليس - نعم، نعم، لقد مات. أليس هذا صوت ابنته فاطمة تبكي وتصيح: (أبتاه، أبتاه. أجاب رباً دعاه! جنة الفردوس مأواه! يا أبتاه إلى جبريل ننعاه!)
عزرائيل - وما يعنيك من هذا الأمر؟
إبليس - أو ليس هذا أيضاً صوت عائشة في بكاء وشهيق:
(واحر قلباه! وا مصيبتاه! الآن قد انقطع عنا خبر الزمان!)
عزرائيل - أغرب عن هذا المكان!
إبليس - ثم هاهو ذا صوت نسائه كلهن يبكين:
(واثكلاه! واثكلاه!)
عزرائيل - أغرب عن هذا المكان!
إبليس - ما أجمل هذا النهار. . . إن نفسي لتكاد تنفجر شعراً وغناء. إصغ إلى هذه الأغنية:
ذهب عدوي إلى الفناء
اليوم عيدي فإلى الغناء
عزرائيل - صه! قبحك الله وقبح صوتك!
إبليس - صوتي منذ اليوم يستطيع أن ينطلق حراً في أرجاء الأرض. صوتي منذ الآن يستطيع أن ينفذ إلى تلك القلوب التي كانت تميل عني لتلقى خبر السماء. لقد عاد إلي ملك الأرض من جديد. . . وا فرحتاه! وا فرحتاه!
عزرائيل - خسأت! أن نور السماء قد نفذ إلى قلوب الناس فهيهات بعد اليوم أن يصغوا
إلى صوتك!
إبليس - إنك لا تعرف الناس مثلما أعرفهم. إني أعرف كيف أمر بأناملي مراً رقيقاً على أوتار قلوبهم، فيذهلون، وأغني بصوتي هذا غناء شجياً فيطربون. . . إنك لا تعرف ما هي الأغاني التي أغنيها لهم. أني أغنيهم أغاني الأرض لا أغاني السماء! إن السماء تنير قلوبهم حقيقة. . . ولكن لأجل قريب. لا تنس أنهم خلقوا من طين الأرض. لاشيء يهز كيانهم غير أغاني الأرض!
عزرائيل - إنهم من الأرض ولكن أعينهم تتطلع إلى السماء
إبليس - نعم، عندما يشير لهم إليها النبي بإصبعه، فإذا ولى. . . عادت رؤوسهم تنخفض نحو الأرض. إنهم كالسنبلة التي لا يرفعها غير الإصبع، فإذا تركت سقطت
عزرائيل (كالمخاطب لنفسه) - عجباً! ولماذا إذن رضي الله أن يقبض نبيه؟! إن لله حكمة، أجل، أجل. أنسيت أيها الخاسر أن النبي إنما يأتي للتبليغ ويمضي. إنه جاء بالدين. إنه يذهب ولكن الدين باق. الدين هو الإصبع الدائمة التي لا تنفك تقيم المعوج. لا تفرح إذن كثيراً بموت النبي. ما مات غير الجسد الزائل. أما المبادئ والتعاليم فهي قائمة في وجه ريحك العاتية دائماً. . . أما الرسول في الحقيقة غير الرسالة. . . والرسالة لا تموت
إبليس - نعم، نعم.
عزرائيل - ما بالك وجمت! إن على وجهك الآن لغبرة تزيده قبحاً على قبحه. . .
إبليس - الرسالة والدين والتعاليم. . . هذا صحيح. . . ولكن. . . تلك الأشياء لم تخفني قط. . . فقد استطعت فيما مضى أن أنزع عنها بعض قوتها. . . إن المسيح قد بشر بالمثل الأعلى وفتح قلوب الناس لنور السماء. وذهب وقد ترك في الأرض قديسين وخلفاء ساروا على سنته في نبذ متع الأرض والانقطاع مترهبين في الصوامع والبيع والصحاري ورؤوس الجبال يتأملون وجه الله وحده، ناسين أو متناسين هذه الأرض التي من عناصرها صنعت أجسامهم. . . هنا تراءيت لهم ولمن تبعهم في صور مختلفة تذكرهم بما نسوه وتناسوه، وخاطبت أجسامهم بالمنطق الذي تفهمه، وحدثت عناصر تركيبهم باللغة التي تعرفها. . . فإذا أكثر الناس يصغون الي في أمور حياتهم ومعاشهم ولا يذكرون التعاليم والمبادئ السماوية إلا يوم يجدون في أوقاتهم فراغاً للتفكير في السماء. إني ذكي. إني لم

أرد قط في حربي ضد المسيح أن اقتلع المسيحية من النفوس، ولكني أظهرت في لباقة ما فيها من علو شاهق لا يستطيع المخلوقون من تراب وطين أن يبلغوه ما داموا آدميين. . . فليصغوا إذن إلى أغاني الجسد وأناشيد التراب والطين. . . وليطلب العلو من كان عنده فضل من فراغ ينفقه بعيداً عن الأرض والحياة. . . وبهذا أصبحت المسيحية الحق اليوم ترفاً روحياً لا يقتنيه غير خاصة الخاصة، أولئك الذين لك أستطع أن أخاطب فيهم منطق الأجساد والعناصر. . .

عزرائيل - لقد أدرك الله غرضك الأثيم فأرسل محمداً بدين لا ينكر منطق الأجساد والعناصر. . . دين لا يعرف الرهبنة ولا إنكار قوانين الأرض. . . دين لا يكره أن يصغي أتباعه إلى أغاني السماء والأرض معاً. . . وأن يفكروا في الآخرة والدنيا معاً. . . ما وسائل حربك ضد محمد والإسلام؟

إبليس - حقاً. . . تلك هي المشكلة! لهذا كان النبي ألد عدواً لي!

عزرائيل - إنه خاتم الأنبياء لأنه ضيق عليك الخناق، وسد كل ثغرة يمكن أن تنفذ منها سمومك. . . فماذا أنت صانع؟. . .

إبليس - دعني أفكر. . .

عزرائيل - فكر طول الأبد. . . فلن تظفر. . .

إبليس - بل لقد فكرت وظفرت. . . الأمر بسيط: يجب علي أن اطمس خصائص هذا الدين. . . إني خبرت الناس لطول لصوقي بهم وعشرتي لهم. . . أن الناس يميلون دائماً إلى التشبه والتشبيه. . . هذه القرود الناطقة. . . يصعب عليها التمييز والتفريق والنظر في فلسفة الأشياء. . . غداً عندما يوارى محمد في التراب. . . ويصبح ذكراً وطيفاً كموسى والمسيح، بل ربما قبل أن يواروه في الحفرة. . . أنظر. . . أليس هذا عمر بن الخطاب أحد خلفائه؟ أصغ إليه. . .

عزرائيل - إياك أن توسوس له بشيء.

إبليس - أصغ إليه. . .

(عمر بن الخطاب يقوم في الناس صائحاً)

عمر - لا أسمعن أحداً يقول: إن محمداً قد مات؛ ولكنه أرسل إليه كما أرسل إلى موسى، فلبث عن قومه أربعين ليلة. والله إني لأرجو أن تقطع أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات!

عزرائيل - عجباً! ما هذا الذي يقول؟!

إبليس - أرأيت؟ قد شبهوه بموسى ولما يهيلوا عليه التراب!

عزرائيل - كذبت! إنما هي وسوسة منك!

إبليس - صه! انظر! هذا أيضاً رجل من بين الناس يريد أن يقول شيئاً. . .

(ينهض أحد الناس صائحاً)

أحد الناس - أن رسول الله قد رفع كما رفع عيسى، وليرجعن!

عزرائيل - رباه ماذا أسمع!

إبليس - أرأيت؟ إنهم قد شبهوه كذلك بعيسى ولما يدرجوه في الأثواب!

عزرائيل - لست أصدق ما أرى وما أسمع

إبليس - لقد قلت لك إني أعرف منك بالبشر

عزرائيل - اللهم نورك! كيف خفي على هؤلاء أن دينهم لم يكن تكريراً لما سبقه من أديان!. . . اللهم إنك منزه عن اللغو والتكرار!

إبليس - ما أبهج هذا النهار؟ ألا تطربك أغنيتي:

ذهب عدوي إلى الفناء

اليوم عيدي فإلى الغناء

عزرائيل - آه، لو استطعت أن أبطش بك. . .

إبليس - اقبض روحي إن قدرت. . .

عزرائيل - ليس لك روح يقبض

إبليس - بل لي روح لا تستطيع قبضه يداك الصغيرتان!

عزرائيل - يداي حقاً لا تستطيعان؛ ولكن يد رضيع تستطيع. . . إن روحك ليزهق في اليوم ألوف المرات. . . إن روحك لينطفئ في قلب كل مؤمن ومؤمنة ومحسن

ومحسنة وخيّر وخيّرة. . . إن روحك مارد من دخان يستطيع طفل بكلمة طيبة أن يحبسه في قمقم من نحاس!
إبليس - ولكني لا أموت ولا أذهب إلى الفناء. . . لأني سلطان الأرض وروح الأرض. . . ولن أترك الأرض ما بقيت دودة تسعى في الأرض!
عزرائيل - ابق ما شئت في الأرض، ولكنك لن تقوى على دحر أعدائك. . .
إبليس - عجباً لك! أو لم تر كيف أني في لحظة استطعت أن أغير معنى الدين الذي قضى محمد حياته كلها في تجليته وإظهاره وتوضيحه. . .؟ ألم يذكر محمد قومه في كل وقت أنه بشر يوحى إليه. . . وأنه يحيا ويموت كبقية الناس. . . وأن دينه هو دين الحياة. . . الذي يحل للناس كل وسائل العيش الصالح على هذه الأرض. . . وما دام دينه دين الحياة والفطرة والمنطق البشري. . . فلا ينبغي أن يؤلهه الناس كما ألهو المسيح، ولا أن ينكروا إمكان موته كما فعلوا مع المسيح. . . أليس هذا معنى دينه؟ فكيف إذن بدل الناس الآن المعنى وانقلبوا يسيرون نحو فكرة التأليه؟. . .
عزرائيل - إنهم لن يغيروا شيئاً. . . ولئن وقع في نفسك شيء من كلام عمر بن الخطاب، فهو لا ريب قد قال خوفاً من الردة!
إبليس - ولماذا يخشى ارتداد الناس عن الدين بموت محمد. . . إنهم إذن كانوا يعبدون محمداً!
عزرائيل - اللهم ألقي نورك في صدور الناس!
إبليس - هيهات! إن ما تسميه (وسوستي) قد استقر الساعة في صدور الناس. . .
عزرائيل - خسأت أيها الخاسر. . . أنظر. . . أنظر. . .
إبليس - ماذا؟ من هذا؟
عزرائيل - هذا أبو بكر يقوم في الناس. . . أصغ إليه. . .
(أبو بكر ينهض في الناس صائحاً)
أبو بكر - أيها الناس. . . أما بعد، فمن كان منكم يعبد محمداً فإن محمداً قد مات. . . ومن كان يعبد الله، فإن الله حي لا يموت!
عزرائيل - وا فرحتاه. . . أسمعت؟
إبليس -؟؟؟
عزرائيل - أنظر أيضاً. . . أنظر. . . هذا العباس يريد أن يقول شيئاً. . .
(العباس يقوم في الناس صائحاً)
العباس - أيها الناس. . . والله الذي لا إله إلا هو، لقد ذاق رسول الله الموت، وإنه ليأسن كما يأسن البشر. . . فادفنوا صاحبكم. . . إنه ما مات حتى ترك السبيل نهجاً واضحاً. . . أحل الحلال وحرم الحرام. . . ونكح وطلق وحارب وسالم. . . وما كان راعي غنم يتبع بها رؤوس الجبال بأنصب ولا أدأب من رسول الله فيكم!. . .
(عزرائيل يلتفت إلى إبليس صائحاً صيحة الانتصار)
عزرائيل - ماذا تقول الآن في هذا؟ أغرب الآن عن هذا المكان. . . لقد طهر معنى الإسلام، وتألق روح هذا الدين!. . .

توفيق الحكيم

موقف العلم من الأديان اليوم وحماية المسلمين من ضلالات المادية

للأستاذ محمد فريد وجدي

لقي رجال العلم الكوني من رجال الأديان - منذ ألفي سنة إلى القرن السابع عشر - ما يلقاه الخصوم من الخصوم، وبدل أن تتلطف حدة هذه الخصومة من ناحية المتغلبين - وهم حفظة الأديان - استحالت إلى وحشية جامحة؛ فكانوا إذا آنسوا من رجل نظراً فيما يتعلق بالوجود وقواه العاملة فيه - أو فيما يتعلق بعلل الظواهر الطبيعية - ألقوه حياً في النار، أو رموا به من حالق إلى مكان سحيق

فلما دالت للعلم الدولة بعد أدوار شتى من التطورات العقلية والاجتماعية في القرن السابع عشر، جعل حماته أكبر من همهم ليس الانتقام من رجال الدين فحسب، ولكن من الدين نفسه أيضاً، حتى لا تبق له دعوة في الأرض ينخدع بها بعض السذج فيجد بعض ذوي المطامع من يستغلونهم لسد نهمهم من المال والسلطان

اشتد العلم في إسقاط الدين، فوضع كثير من رجاله مؤلفات للتعديل على سذاجة

عقائده الأساسية، وبينوا للناس أصولها من أوهام الجماعات الأولية وتداعي مبانيه حيال اليقينيات العلمية.

وأكثروا من الحط من كرامة الدين في كل فرصة سنحت لهم حتى لا تكاد تقرأ كتاباً علمياً لا تصادف فيه شيئاً من هذا التصدي. فأفضت هذه الحال إلى نفور مستعصٍ من الأديان في نفوس الطبقات التي تتلقى نصيباً من الثقافة المدرسية

ولكن لما كان من أخص صفات العلم التطور فقد اقتضت به الحوادث منذ تسعين سنة إلى البحث الجدي في عالم ما فوق الطبيعة، ولكن لا كما يفعله الفلاسفة باستخدام قوى العقل في التحسس منه، ولكن على أسلوب العلم نفسه من المشاهدة والتجربة

عقدة النزاع الأساسية بين الدين والعلم

هذه العقدة بين الدين والعلم أن الأول يقول بوجود عالم فوق الطبيعة يتنزل من جميع ما في الكون من كائنات مادية، وقوى عالمية، وهو الأصل الأصيل في وجود وقيام العالم

المحسوس، ويبتني على هذا الأصل القول بوجود الخالق المدبر، والروح الإنسانية، والإلهامات الحيوانية، والإبداعات التكوينية، والوحي وخلود الإنسان في عالم الأرواح لمجردة، الخ الخ. والعلم ينكر كل ذلك، وبعده من الخيالات التصورية، ويقرر أن المادة قديمة، وإن كل ما صدر في عالمها حتي القوى العقلية، والروح الإنسانية، إنما صدر بواسطة النواميس الطبيعية، الملازمة للذرة المادية على سبيل التدريج والتطورات المتعاقبة

تورط العلم أخيراً في بحثه الجديد عن عالم ما فوق الطبيعة على أسلوبه المعروف من التجربة والتمحيص وبدا لألوف مؤلفة من رجاله بصيص من نوره فأثبتوا نتائج تجاربهم وحداناً وجماعات في مؤلفات ومحاضر، قال عنها فيلسوف أمريكا الكبير (وليم جيمس) أستاذ جامعة (هارفارد) بالولايات المتحدة في كتابه (إرادة بصفحة 313 من ترجمته الفرنسية

إذا صدقنا الجرائد وأوهام الصالونات خيل لنا أن الضعف العقلي وسرعة التصديق هما) الرباط المعنوي الجامع بين أعضاء هذه الجمعية (يريد جمعية المباحث النفسية الإنجليزية)، وأن حب العجائب هو العامل المحرك لها، ومع هذا فيكفي أن تلقي نظرة واحدة على أعضائها لدحض هذه التهمة؛ فإن رئيس هذه الجمعية هو الأستاذ (سدجوك) المعروف بأنه أشد الناس شكيمة في النقد، وأعصاهم قياداً في الشك في جميع البلاد الإنجليزية، ووكيلاها المستر أرثر بلفور (أحد رؤساء الوزارات الإنجليزية وعالم مشهور)، والأستاذ ج ب لنجلي. ويمكن التنويه من أعضائها العاملين بالأستاذ ريشية الفيزيولوجي المشهور، وتشمل قائمة أعضائها رجالاً كثيرين آخرين كفاءتهم العلمية أشهر من أن تذكر. فإذا طلب إلى أن أعين جريدة علمية تكون مصادر أغلاطها ممحصة بأدق الأساليب، فإني أنوه بمحاضر جمعية المباحث النفسية، فإن الفصول الفيزيولوجية التي تنشرها الجرائد الخاصة بهذا العلم، لا تبلغ في دقة النقد هذه اهـ (المحاضر المذكورة

لما حدث هذا التطور العلمي الخطير، مال رجال من كبار العلماء إلى النظر في النتائج التي تؤيد الدين منها، وما زالت عقدة النزاع بين العلم والدين هي وجود أو عدم وجود العالم الروحاني، فإن هذه العقدة تحل إذا ثبت صحة وجود هذا العالم بدليل محسوس.

قال العلامة (هـ. و. بيرس) المدرس بجامعة كمبردج في كتابه (الشخصية الإنسانية) في

صفحة 11 منه من ترجمته الفرنسية:

حوالي سنة 1873 حيث كان المذهب المادي بالغاً أوج سطوته على العقول، اجتمع) ثلة من الأصحاب في كمبردج وأجمعوا على أن هذه المسألة المتنازع فيها (يريد مسألة عالم ما فوق الطبيعة) تستحق التفاتاً وجهداً جدياً أكثر مما عولجت بهما إلى ذلك الحين. . . وكنت مقتنعاً بأنه لو أمكنت معرفة شيء من ذلك العالم على أسلوب يمكن أن يقبله العلم ويحفظه، فلا يكون ذلك بالتنقيب في الأساطير القديمة، ولا بوسيلة التأمل فيما فوق الطبيعة، ولكن بواسطة التجربة والمشاهدة، وبتطبيقنا على الظواهر التي تحدث بيننا وحولنا أساليب المباحث المضبوطة المنزهة عن الأغراض، التي نحن مدينون لها بمعارفنا عن العالم المرئي المحسوس. ومباحثنا في هذا السبيل يجب أن

تكون مؤسسة على هذه القضية وهي: (إذا كان يوجد عالم روحاني، وكان قابلاً لأن يدل على وجوده في أي معهد كان، فيجب أن يكون كذلك في أيامنا هذه)
فمن هذه الناحية، وبالأحرى على هذه الاعتبارات واجهت الجمعية التي أنا عضو منها) اهـ (هذه المسألة
وقد مضت بعد هذا القول عشرات السنين وحدثت فيها بحوث عملية دونت في مئات من الكتب والرسائل، تبين منها أن العلم حيال حقيقة ثابتة مؤيدة بالدليل المحسوس الذي لا يمكن التماري فيه حتى قال العلامة الفلكي الكبير (كاميل فلاريون) في كتابه القوي (الطبيعة المجهولة).
إني كلما أفكر في هذا الأمر أدهش من أن دهماء الناس لا يزالون يجهلون هذه) المسائل كل الجهل، على حين أنه قد عرفها ودرسها وقدرها حق تقديرها وسجلها منذ سنين، جميع الذين تتبعوا حركتها بكل نزاهة في مدى هذا العهد الأخير
وقال: (إن المشاهدات الحسية تثبت وجود عالم روحاني محقق كتحقق العالم المادي المدرك بحواسنا الخمس)
نقول وقد قررت جامعات أمريكية دراسة هذا البحث، وجعلت له أخيراً جامعتا كمبردج وأكسفورد مقعدين رسميين له
كيف تحمي المسلمين من ضلالات المذهب المادي؟
اتصل المسلمون بالعالم العلمي منذ أكثر من قرن، وظل رجال الدين وطلابه في عزلة عنه فلم يصبهم من ظلمات النظريات المادية شيء، ولكن حركة التطور العامة دفعت بهم إلى الاتصال به من سائر طبقات الشعب، تقريباً للثقافات الدينية من الثقافات العامة تفادياً من حدوث تناف بينهما، فتصبح الأمة فريقين متنافرين والإسلام متين يقوم وجوده وتقوم دعوته على العلم: (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟)
وقد صافى الإسلام من وجوده العلم، وسمح لأهله أن يندفعوا في تياره، وأن يستفيدوا منه ويشيدوا مجتمعهم عليه، فكان أنبل مجتمع ظهر على سطح الأرض، وكانت له دولة لا تغرب عن أقطارها الشمس، فأقال عثرات الإنسانية، وداوى كلومها، وكشف ظلماتها؛ ولم تعرف في تاريخ الإنسانية أمة قامت بالدين معتمدة على العلم غير الأمة الإسلامية
ولكن العلم الذي كان يدرس في مدارس المسلمين اليوم، قائم على الأصول المادية البحتة للقرن التاسع عشر، ولممثليها من أهل القرن العشرين؛ فتجد كتبها التي بين يدي الطلبة لا تزال تردد لهم النظريات الرثة العتيقة التي تخيلها ديموكريت اليوناني منذ أكثر من ألفين وثلاثمائة سنة وهي: (أن المادة لا تفنى ولا تتجدد)، على حين أن علم القرن العشرين قد توصل إلى إفناء المادة وإحالتها إلى قوة، بذلك المادة لم تكن ثم كانت
هذه المعرفة لها قيمة عظيمة في الدراسات الدينية، لأن القول بعدم تجدد المادة وفنائها يؤدي إلى القول بقدم العالم المادي، وهو أساس المذهب المادي وحصنه الحصين
وفي هذه المدارس الدينية تدرس الفلسفة ويقرر للطلاب فيها أن الرأي المادي هو الذي ساد جميع الآراء، وأن السلطان انتهى إليه، وهو آخر طور من أطوار التفكير البشري، وما هو في الواقع إلا مرمى المادية قبل التطور العلمي الأخير
وتدرس البسيكولوجيا (علم النفس)، وكتبها المدرسية موضوعة على أسلوب الفلسفة المادية، فيضطر طلبة الذين أن يقرءوا فيها: أن ليس للإنسان روح مستقلة عن الجسمان، وليس له ضمير فطري يرجع إلى عالم علوي، وأن كل ما فيه من شعور بالحسن والقبح، وبالفضيلة والرذيلة، وبالخير والشر، أمور اعتبارية لا أصل لها في وجود أرفع من هذا الوجود؛ وأن الغرائز الأدبية ليست متنزلة من روح علوية، ولكنها عادات أوجدتها مصلحة
الاجتماع، فرسخت في الشخصية الإنسانية واعتبرت من الخصائص الروحية، وليست من الروح المزعومة في شيء
ويدرس لهم تاريخ الأديان ولحمته وسداه: أن الدين على ما هو عليه في هذه العصور المتأخرة التهذب، صادر من الدين الأولي الساذج الذي تخيله أهل القرون الأولى،

وليس هو بوحي، لأن الوحي لا وجود له
ثم يقرءون فيها: أن الباعث الصحيح عليه أهواء النفوس، وجهالتها بالعلل الطبيعية، وهلعها من الجوانح الكونية، فتألبت كل هذه العوامل على إحلال الدين في سويداوات القلوب بواسطة الوراثات الطويلة المدى، حتى أصبح هو والحياة عند الفرد والجماعة في مستوى واحد
فما ترجى أن تكون هذه المجموعة من الدروس، غير دعايات للإلحاد في حرم الدين، لم يظفر بمثلها المذهب المادي في أية بيئة من بيئات العالم، وفي العهد الذي أثبت فيه العلم، جرياً على أسلوبه كما قدمنا، وجود العالم الروحاني وقام فيه أقطابه بنقد كل ما أورده المذهب المادي من الشبهات عليه، سعياً منهم لتوحيد غاية الدين المطلق وغاية العلم على حال من الوفاق كانت أمنية دعاة المدنية الفاضلة
الوسيلة المثلى لدرء هذا الخطر أن تخضع هذه الدروس في المدارس الإسلامية الدينية لمراقبة دقيقة، وأن تلقي مواردها متبوعة بالنقد الذي وجه ضدها من علماء القرن العشرين، والتعديل الذي أدخل عليها بواسطتهم؛ مع مراعاة أن يكون النقد ماحقاً لشبهاتها بأدلة ساطعة لا بكلمات جوفاء تزيدها تسلطاً على العقول
هذا خير ما أهديه لقراء (الرسالة) في مفتتح السنة الجديدة، ولهم مني معها أطيب تحية.
محمد فريد وجدي
تأملات
للأستاذ محمد أحمد الغمراوي
ضلت الإنسانية عن ربها وعبدت المال والقوة، ودانت لهما بالطلب والحرص والإكبار؛ وفي سبيل المال والقوة نُسى كل شيء: من دين أو فضيلة أو مبدأ، وفعل كل شيء من:
ظلم وقطيعة وكث. يخدع كلٌّ كلا في السلم كما يتخادع أهل الحرب، كأن أيام الناس في هذه المدينة حرب كلها ولكن بسلاح مختلف. فلحرب السلم سلاحها وفنونها وخططها، كما لحرب الدبابة والغواصة والطيارة. ففي السلم يتحارب الناس وتتحارب الأمم بالتجارة وحواجزها الجمركية، وبالصناعة وموادها الخام، ثم بالدعاية والسياسة؛ وفي سبيل ذلك يسخر الأدب بفنونه والعلم بفروعه، تتنافس في ذلك الأمم، وتتنافس في ذلك الطوائف والأفراد داخل كل أمة؛ حتى الفضائل جعلت سلاحاً وسبيلاً إلى الغلب. فالتاجر إن صدق لا لأن الكذب يزري، أو لأنه منهي عنه في الدين، ولكن لأن الصدق يجزئ ويربح، ولو وجد في الكذب ربحاً لكذب. والأمم تتعاهد، فإن وجدت في الوفاء ربحاً وفت، وإن وجدت الربح في النكث نكث. فالمال هو البغية، والقوة هي الغاية، والشهوة هي السائق، والهوى هو الغالب، كأن قد غلب على هذه المدينة في معاملاتها روح الإحراج وقانون الأدغال؛ وما يقول (دروين) إنه كان غالباً على أنواع الحيوان في أحقاب النشوء
ويل للإنسان من نفسه ومن أخيه الإنسان حين يضل كلٌّ عن ربه. فلو لم يكن للدين ضرورة، لجعله حال الناس اليوم ضرورة؛ ولو لم يقم على وجوب التدين برهان، لكان ما آل إليه أمر الناس بعد ترك التدين هو البرهان. إلا أن الإنسان يذكر وينسى، ويؤمن ويكفر، ويطيع ويعصي، حسب الظروف في الشدة يلجأ إلى الله، وفي البلاء يكثر من الدعاء، ويستغفر ربه وينيب: يفعل ذلك الأفراد، ويفعل ذلك الأمم، حتى إذا استجاب الله وفرج الكرب وكشف البلاء، نسى الإنسان ونسيت الأمم ما كانوا يدعون الله من أجله، وجعلوا الله أنداداً، وانقلبوا له أضداداً، وعادوا إلى آلهتهم من الشهوة والقوة والمال، كأن لم يكن بلاء وكربة، كأن لم يكن دعاء وتوبة؛ وجعلوا يضحكون من خوفهم الذي كان، وجزموا بأن أسبابه لن تعود!
لقد كانت الحرب الماضية، وجاءت الناس بكرب لم يروا مثله من قبل، فجأر الناس إلى الله
وجأرت الأمم، وجعلت تنذر النذر، وتبذر الوعود والعهود، وتقيم الصلوات العامة، تأمر بها الحكومات، ويركع فيها الحكام والملوك. ثم جاء النصر وجاء السلم، فذهبت النذور هباء، ولم تلق الوعد ولا العهود وفاء؛ وكل ما كان هنالك أن جيء بأسماء جديدة أطلقت على مسميات قديمة، فذهب الاستعمار وجاء الانتداب، وذهبت المحالفات

وجاءت عصبة الأمم، وعاد الناس وعادت الأمم تبتغي الكسب وتبتغي المال والقوة، حتى كان من الأمم المنتجة من كانت تحرق ما زاد من غلات أرضها لتبيع الباقي من الأمم الأخرى بثمن أعلى، وانحدر المال إلى خزائن بعض الأمم، كما ينحدر الماء إلى مهابطه من الأرض، فجفت بقاع منه وغرقت بقاع، وجاعت أمم وتخمت أمم، وانقلبت الأوضاع واشتد النزاع، وخسرت الإنسانية السلم، فخسرت بذلك الحرب قبله، إذ قامت هذه الحرب

قامت هذه الحرب ماذا كان؟ كان الذي يعرف كل إنسان أنه كان في الحرب الماضية: فالنذور تنذر، والوعود تبذر والصلوات العامة تقام؛ وأصبحت الأمم المتمدينة لا ترى أهنأ من الأمن، واعتزمت في مستقبلها أن تتناصف في قسمة المواد الخام لتعيش إلى الأبد في سلام!

إنها مدينة مجنونة هذه التي تنسى الله وتعصاه في الرخاء بعد أن كشف عنها البلاء، حتى إذا أخذها بنكثها وإثمها جأرت إليه تسأله النجاة ولم يكن لديها ما تتعهد به للناس أو تنذره لله إلا أن تتعايش في سلام، وتتناصف في المواد الخام.

لقد أفلست المدينة الغربية وحق عليها ما حق على المدنيات الخاطبة قبلها. وهاهي تنتسف بقوتها الكامنة التي من الله بها عليها فلم تطعه فيها. هاهي حين فسقت عن أمر الله تنفجر بما اختزنت من علم ومال حولتهما فيما حولت قنابل وطرابيد تلقي من الجو وتنشر في البر والبحر على المحارب وغير المحارب على السواء (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة، إن أخذه أليم شديد) إنها مدينة كتلك القرية ضربها الله مثلاً في القرآن: (كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها لباس الجوع والخوف)

إنها مدينة مسيحية اسما لكنها لم تقم قواعدها على نصرانية ولا إسلام. فنصرانية عيسى صلوات الله عليه ليس فيها حرب ولا سلاح ولا استعمار. والحرب في الإسلام لا تكون في

سبيل الفرد ولا في سبيل الأمة ولا في سبيل الجنس، ولكن في سبيل الله ليكون الحكم في الأرض لله.

إن الاستعمار الذي ابتدعته مدينة الغرب ليس من الإسلام في شيء، ولا من حكم الله في شيء. فاستغلال القوي الضعيف فرداً كان أو أمة ينكره الإسلام كل الإنكار. وتحكم أمة في أمة بالهوى لا يعرفه الإسلام ولم يشرعه الله. وعلو أمة على أمة وشعب على شعب أو جنس على جنس حرمه اله الذي سوى بين الناس وساوى بين الأجناس ولم يجعل على أحد فضلاً إلا بالتقوى: تقوى الله الذي خلق الأحمر والأصفر والأبيض والأسود. ففيم استعلاء فريق على فريق؟ وفيم تحكم لون في لون أو شعب في شعوب؟ (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم. إن الله عليم خبير).

لقد عرف الله الإنسانية أيما إعزاز حين جعلها خاضعة له وحده سبحانه في الحكم، ليس لأحد سبيل إلا بحق الله طبْق دين الله الذي بينه الناس واضح المعالم ظاهر الحدود في كتابه الكريم الذي فسره رسول الله صلى الله عليه وسلم قولاً وعملاً في حياته الكريمة التي مثلت حياة الأمم وحياة الأفراد كيف ينبغي أن تكون.

لقد علم الله سبحانه أن هذه المدينة المعقدة ستكون، وأن الإنسانية ستقلب في أطوارها التي تقلبت فيها، وأنها ستفتح لها أبواب العلم، وأن هذا العلم سيَفتح لها فنوناً من القوة، وأن هذه القوة ستسلمها إلى صفوف من المشكلات لا تحل حلا حلاً مرضياً موفقاً إلا طبق ما سن الله للفطرة من سنن، وللنفس البشرية من قوانين، عرفت الإنسانية بعضها، وجهلت منها أكثر مما عرفت. فلو أن الإنسانية وكلت إلى نفسها وعلمها وجهدها وحدة ما خرجت، وما أمكنها أن تخرج من ورطاتها التي هي لا بد واقعة فيها بتعمقها في العلم الطبيعي الذي يفتح لها كنوز الأرض من غير أن يريها طريق العدل في استعمالها. فأراد الله سبحانه أن يتم نعمته على الإنسان بأن يجمع له بين القوة وبين الهدى في استعمال القوة، فآتاه العلم، وقبل أن يؤتيه العلم أنزل عليه الكتاب والحكمة ليريه كيف يتقي شر العلم ونتقي خبره بالوقوف في استعماله عند الحدود التي حدها الله فاطر الإنسان وفاطر القوى التي سخرها بالعلم للإنسان.

فإذا كان من عجيب صنع الله للإنسان أن وهبه العقل الذي استفتح به كنوز العلم، فإن أعجب منذ لك أن تفضل سبحانه فأنزل له الدين ليقيه مالا يمكن العقل ولا العلم أن يكفوه إياه من الشرور والأخطار

أقسم أن نعمة الله على الناس في الدين أعجب وأكبر من نعمته عليهم بالشمس أو بالقمر أو بما خلق في الأرض من كائنات ينعم بها الإنسان أو لا ينعم، شكوراً أو غير شكور. إن هذه الكائنات خلق من خلق الله، والإنسان واحد منها يقوي أمام بعض ويضعف إزاء بعض، ينتفع بها أحياناً ويتضرر بها أحياناً، لكن الدين خير كله ونفع كله وسعادة صرفة لمن يتقبله مؤمناً، ويعمل به مسلماً. وأقسم لو سخرت العلوم هذه الكائنات كلها للإنسان وكان الإنسان بتسخيرها يتمتع في هذه الحياة المتعة كلها من غير تعب ولا ملل ولا هَمٍ ولا حزن ولا ضعف ولا مرض حتى إذا مات كان الحساب وكان العقاب إذن لكانت نعمة الله على الإنسان بالدين الذي يقيه عذاب الآخرة ويؤتيه نعيمها أكبر من نعمته عليه بالعلم بقدر ما بين الآخرة وبين الدنيا من فرق وفضل في المدة وطولها، أي بقدر ما بين الباقي وبين الفاني أو بين غير المتناهي والمتناهي من فرق وفضل. فكيف وهذه العلوم لا تسخر للإنسان إلا جزءاً مما حوله، وقد يشقى بما يسخر له منها وقد يسعد؛ وهو في أحزانه وهمومه، ومحاربه ومكارهه، وأمراضه ومصائبه، لا يجد سلوى ولا مخرجاً ولا عزاء إلا بالدين، وبطاعة الله في الدين. وكيف وهو لن يلقي النعيم الصرف الذي لا يخالطه عذاب، والسعادة المحضة التي لا يشوبها شقاء، إلا بعد هذه الحياة في حياة أخرى لانهاية لها ولا أجل إذا كان قد أطاع الله وعمل في دنياه بالدين

على أن هناك معنى في الدين الإسلامي أكرم الله به للإنسان كرامة لا يقوم بها شكر ولا ينقضي منه عجب المتفكر، ألا وهو تفضل الله جل جلاله بمخاطبة الإنسان من كتاب من عنده سبحانه على لسان رسول من البشر تقوم الأدلة القاطعة على صدقه. إن مجرد مخاطبة الخالق كرامة دونها كل كرامة يكبرها ويجلها الإنسان في الدنيا، فكيف والخطاب في كتاب عظيم كريم مبين. الحق سبحانه هو المتكلم فيه، فليس لبشر فيه جملة أو كلمة أو حرف! كتاب من عند فاطر وصفه فيه جل وعلا بصفة الفطرة بقوله: (وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)

أليس من أكبر الكرامة أن يذكر الله الإنسان ولا ينساه، وأنه يوجه ليه الخطاب في كتاب يهديه به سبحانه سبل السلام وسبل الهدى والنور؟ أليس من أكبر النعمة حين علم الخالق سبحانه ضعف الإنسان وجهلاه وما يتهدده من جرائمها من أخطار أن ينزل عليه نظاماً لحياته هو وفق الفطرة التي لم يكن الإنسان ليحيط بها ولا بسنن الله فيها؟

إن العلم شيء وتطبيقه من غير خطأ أو خلل شيء آخر. فلو أن الإنسان أحاط بالقوة علمه لما استطاع أن يطبقها على حياته محكماً لا خلل ولا عوج فيه. بل أن صعوبة التطبيق وإصابة الحكمة فيه لتزداد بازدياد ما يراد تطبيقه وتفرعه. فالإنسانية بقواها العقلية المحدودة أعجز من أن تحيط بالفطرة علماً، ولو علمت لكانت أعجز من أن تطبق علم الفطرة وتنتزع منه نظاماً عملياً لحياة الإنسان في عصر واحد بله جميع العصور

فإن الخالق البارئ الحكيم قد جمع للإنسانية بين علم الفطرة وبين إحكام تطبيقه على الحياة حين أكرمها بالإسلام دين الإنسانية الكامل الشامل الذي أنزله على محمد نبي الهجرة صلوات الله عليه. فاعجب إذن للإنسانية كيف تتخبط وبين يديها الهدى، وكي تشقى وفي متناولها السعادة، وكيف تموت وعلى مقربة منها الحياة؟!

ثم اعجب عجباً بعد عجب من قوم يزعمون من بين الإنسانية أنهم مسلمون إلى الله مؤمنون بالكتاب الذي أنزل والرسول الذي أرسل، ثم هم يعطلونه ولا يقيمونه، ويضعونه ولا يحفظونه، بل هم يلتمسون الهدى في غيره، ويتطلبون الحياة ممن ضل عن روحه ونوره، يولون قلوبهم ووجوههم لا شطر المدينة الإسلامية التي أقامها الرسول بتطبيق كتاب الله فكانت مثلاً عملياً أعلى للإنسانية كلها، ولكن شطر المدين الغربية التي ضلت عن ربها وعبدت المال والقوة والجاه فأداها ذلك إلى التهلكة التي ترى والتي تحاول التخلص منها فلا تستطيع

فريق من الإنسانية بيدهم النور فلا يستنيرون به! وفريق في الظلمات يظنون أنفسهم في نور! أيهما يا ترى أظلم؟ ولأيهما يا ترى تكون النجاة؟

محمد أحمد الغمراوي

الشجاعة وأثرها في الإسلام

للأستاذ محمد عرفه

لو قيل لي أي الأخلاق الفاضلة كان له الفضل في ظهور الإسلام وانتشاره لما ترددت في أن أقول الشجاعة. فالشجاعة الأدبية والشجاعة الجسدية هما الدعامتان اللتان قام عليها الإسلام، وبفصلهما انبثق نوره في سائر الأرجاء؛ أو قل إن الشجاعة الأدبية والشجاعة الجسدية نوع واحد مرجعه إلى جرأة القلب، والاعتماد على النفس، وعدم الخوف من أحد؛ فإذا وجد صاحبها حقاً مهيضاً نصره، وإذا وجد باطلاً عرماً خذله بحد اللسان أو بشبا السنان

ولقد كان صاحب الدعوة الإسلامية أشجع الناس في قول الحق والجهر بما يعتقد، وبحسبك أن قومه كانوا يقدسون الأصنام ويرونها الحق الذي لا ريب فيه، والصدق الذي لا تحوم حوله شبهة؛ وكان يعلم أنهم يتعرضون لشبا السيوف وملاقاة الحتوف محاماة عن أصنامهم وذباً عنهم، فلم يمنعه ذلك من أن يجهر بالحق ويعيب آلهتهم، ويسفه أحلامهم، ويصبح في وجوههم: (إن الذين تدعون من دون اله لن يختلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب). ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان (يسمعون بها؟). (يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر). وقال: (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين أنا كفيناك المستهزئين). وقال: (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس). وأبان له أن كتمان الحق موجب للعنة الله والناس (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون)؛ فعلم أن في العالم حقاً وباطلاً وخيراً وشراً، وأنه يجب على الأنبياء والمصلحين أن يكونوا نصراء الحق والخير وأعداء الباطل والشر، وأن عليه أن يزكى هذه العداوة ويؤجج نارها حتى يديل الله الحق والخير من الباطل والشر. وكما كان صاحب الدعوة صلوات الله عليه المثل الأعلى في الشجاعة الأدبية، فقد كان كذلك في شجاعته الحربية أعظم مثل وأروعه، يدل على ذلك قول علي: (إنا كنا إذا حمى البأس وأحمرت الحق أتقينا برسول الله (ص) فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه. ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي وهو أقربنا إلى العدو وكان من أشد الناس يومئذ بأساً)؛ ووقفته الخالدة يوم أحد ويوم حنين فر الشجاع وارتعد الصنديد أكبر مثل وأعظم برهان

ولقد ربي الإسلام المسلمين على الشجاعة وحبها إليهم وزينها في قلوبهم (أن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفّاً كأنهم بنيان مرصوص) حتى جعل الجنة تحت ظلال السيوف، وما زال يربيهم على الشجاعة والقوة والمنعة إلى أن صاروا فيها مُثلاً عُلْيا وأمثالاً مرددة؛ ففرض الله عليهم أن يثبت الواحد لعشرة ولا يفر منهم، ثم خفف عنهم وأوجب أن يثبت الواحد لاثنين ولا يفر الجيش من ضعفه (يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون، الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم ألف يغلوا ألفين بإذن الله) وكان من أثر الشجاعة في النبي وأصحابه أن عز الإسلام والمسلمون وصاروا أمنع من عقاب الجو وجبهة الأسد، لا تلين قنانهم ولا يسلمون لمن أرادهم، فلم يضعفهم قلتهم وكثرة أعدائهم وكان للإسلام العزة وللمسلمين التمكين في الأرض.

وكان أولوا الأمر من المسلمين الأولين يحافظون على قوة نفوس المسلمين كمنبع لعز الدولة الإسلامية، ويعلمون أنهم إذا عاملوا الرعية بالقهر ذلوا لهم لغيرهم ولم يكن فيهم غناء، فبالغوا في المحافظة على روح المسلم أن تذل وكرامته أن تمتهن، بل جاوز ذلك غير المسلمين ممن تظلهم الدولة الإسلامية برعايتها. ضرب ولد لعمرو بن العاص قبطياً فبلغ ذلك الخليفة عمر بن الخطاب فأرسل إلى عمرو وابنه وقال: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟ لا. بل لقد كانوا يفرحون إذا وجدوا في

الأمة ما ينبئ عن قوة نفس وشجاعة قلب وجرأة على قول الحق. خطب عمر بن الخطاب في خلافته فقال: (أيها المسلمون إذا وجدتهم فيَّ اعوجاجاً فقوموني. فقام رجل من المسلمين وقال: والله لو وجدنا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا، فقال عمر: الحمد الله الذي جعل في هذه الأمة من إذا وجد فيَّ اعوجاجاً قومني بسيفه. وذلكم مدى عناية الإسلام بالشجاعة ومدى ما كان لها من اثر في ظهوره وانتشاره بل أن الحضارة لم تتقدم وإن المدينة لم تنهض وإن العلوم والمعارف لم تعلُ إلا بفضل الشجاعة

يرى المصلح نظاماً فاسداً في المجتمع أو رأياً في السياسة فيشن عليه حرباً شعواء، يظهر عيوبه ومساوئه غير مبال بسخط الساخطين وغضب الناقمين، ويستمر في حربه وجهاده حتى تصبح آماله في الإصلاح حقائق واقعة، فينقذ الأمة من شر وبيل. ويرى العالم جهلاً قد جعل علماً وعلماً قد جعل جهلاً فيجهر بما يعتقد. يحارب الجهل ويشايع العلم، فإن لم يكتب له الظفر في حياته كان لفكرته النصر في مستقبل الأجيال.

وبهذا تقدمت العلوم، ونهضت الأم، وارتقت البشرية، وذهبت أوضاع اجتماعية كانت داء وبيلاً، وحل محلها نظم هي خير وأبقى

فإذا رأيتم أمماً ترزح تحت أنظمة فاسدة وعادات بالية فاعلموا أنها لم تعط الشجاعة الأدبية لنقد الفاسد من أنظمتها والباطل من تقاليدها فتختلف حين جد الراكب وسارت القافلة.

على أن قوة نفوس الشعب وغلبه الشجاعة على أبناء الأمة أمر لا يأتي عفواً، إنما هو نتيجة علم وافر وسياسة عادلة ونظام دقيق وإصلاح عام يتمشى في جميع مرافقها؛ وأول شيء في سبيل ذلك أن يعلم أن النفس الإنسانية إذا استبدلها وأسيء الاحتكام فيها ذلت وضعفت وذهبت منها معاني الرجولة من النشاط والقوة والحزم والعزم والاستقلال الذاتي؛ وإذا رفق بها وعوملت باللين وأحسنت رعايتها عزت وعظمت وكان لها من القوة والعزة والشمم القدر الذي تصلح به وتقدر على إصلاح من معها؛ فإذا علمت الأمة ذلك وراعته وكانت سياستها في الحكم والاجتماع والتربية سياسة رفق ولين في غير ضعف ولا خور اطرد تقدمها ورقيها.

أيها المسلمون:

إذا رأيتم أنفسكم متخلفين عن ركب المدينة فاعلموا أن ذلك منكم وما كان يقدر أن يفعل ذلك بكم أحد سواكم. ملك بعضكم بعضاً ملكة قهر وغلب، واستبد بعضكم ببعض فأفسدتم نفوسكم وجردتموها من معاني العزة والقوة مقومات الحياة الذاتية المثابرة، فضعفت الشجاعة فيكم وضاعت من بين جوانحكم، وإذا فقدت الشجاعة فقد فُقد كل شيء؛ ولو كشف لكم عن حقائق الأمور لرأيتم كل واحد منكم قد أخذ معوله بيده وأخذ يهدم جاهداً في نفوس الآخرين،

فالأب يقتل نفوس أبنائه، والزوج نفس زوجه، والمعلم نفوس المتعلمين، والرئيس نفوس المرؤوسين، وهكذا اصبح كل من له رعاية يستبد فيها بالآخرين ويسيء حكمهم ويقتل فيهم روح القوة والرجولة

أيها المسلمون:

إذا أردتم أن تساهموا في بناء المدينة الحاضرة فإني أوصيكم بواحدة: أن تبقوا على رجولتكم وشجاعتكم وذلك بأن تعدلوا في سياستكم وتحسنوا في رعايتكم، فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالرجل راع على أولاده، والرئيس راع على مرءوسيه، والحاكم على محكوميه، والمعلم على تلامذته. عليكم بالرفق في معاملتكم، والإحسان في سياسة من تلون أمورهم، والمحافظة على كرامتهم كما تحافظون على كرامة أنفسكم. ولتكن آثر الحكومات لديكم أرفقها بكم، وآثر الرؤساء عندكم أعدلهم فيكم، وأحبَّ الناس إليكم من يحافظ على كرامتكم ومن يعمل على أن تكون نفوسكم قوية وأخلاقكم فتية. وليكن أبغض الناس لديكم من يعمل على أن تكون نفوسكم مهينة وأخلاقهم خائرة ضعيفة، واجعلوا صديقكم من الكتاب من ينصحكم ويسمو بكم إلى آفاق الفضيلة والكمال، واجعلوا عدوكم منهم من يغشكم ويستغل غرائزكم الحيوانية، ومن يقول لكم ويقول ثم لا تأخذون مما يقول روحاً سامية، ولا تستفيدون منه سمواً خلقياً

ويومئذ تجرءون على كلمة الحق فتنقدون الأنظمة الفاسدة، والتقاليد البالية والأوضاع

الضارة. ويومئذ تنتقلون من فساد إلى صلاح، ومن ضعف إلى قوة، في جميع شؤونكم وفي جميع مرافق الحياة فيكم
ويومئذ تيسرون مع ركب الإنسانية للعمل لخير الإنسانية، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله

محمد عرفه
عضو جماعة كبار العلماء

متى النور يا ظلمات

للأستاذ عبد المنعم محمد خلاف

أطبق الظلام على جميع آفاق الأرض. . . واختفى النور الصناعي الذي كانت الإنسانية تتسلق عليه إلى سُبُحات الجمال الموقوت والفن الفاني والطمأنينة الكاذبة. . .

وارتدت الأحلام السعيدة إلى واقع الشجن والألم والانتكاس، فعانقت أشباح الكهوف والمغارات. . . وصارت قلوب بني آدم أوكاراً لمخلوقات شنيعة شوهاء هن بنات الظلام والغدر والخيانة والجريمة والخديعة. . .

ولم يَعُدْ للإنسانية غير ينابيع نور الطبيعة تستصبح به. . . لم يَعدْ لعيونها غير الشمس والقمر والنجوم. . . ولم يعد لقلوبها غير نور قبل الأزمنة والدهور. . . ولم يعد لأفكارها غير مبادئ الحق الواقع في الطبيعة.

أما الفلسفات والآراء والنظريات البراقة التي رددتها منابر المعاهد والمجامع ومجالس الترف العقلي، فقد اختفت مع اختفاء الأنوار الصناعية التي أوقدتها الأيدي المظلمة النجسة التي لم تتطهر بنور الله، وقد طارت بكتبها وسجلاتها قذائف الحديد والنار. . .

ترى: هل تكون أمواج هذا الظلام طوفاناً يغسل الأرض من ذلك النور الصناعي المدبس المدخول الذي لم يجر من منابع الحب ويد الله، وإنما من يد الشيطان الذي طمس وجه الحياة وجعلها في نظر الأحياء ليست أكثر من اقتناء الفحم الأسود و (الفحم الأبيض) والذهب الأصفر و (الذهب الأسود)؛ ثم أغراهم بذلك وجعلهم وراءه يتراكضون تراكض الذئاب بالأظفار والأنياب في عصر العجز والقصور، وبالفياصل والمناصل في بدء عصر التغلب والقدرة، ثم بالطائرات والغائصات والبارجات والجرارات في عصر بلوغ الأشد واكتمال السلطان!؟

أم أن القلب البشري لا يزال ولن يزال يعبد الظلام ويفئ إليه ويأنس بسكانه، ويرى في عالمه عبقريات يجب الرجوع إليها على فترات من الزمان؟ ولن تزال وثنيات وثنيات الجنس وخيلاء القومية وعبادة البطش وشهوات الاقتناء عقائد مقدسة يُفَلْسَفُ لها وتصطنع في حبها ترانيم وأناشيد وتقدم لمذابحها قرابين من اللحوم البشرية، ولمجامرها بخور وعطور من الأموال والمقتنيات حتى يرث الله الأرض وما عليها؟

أما أنا فقلبي تغمره موجة من التفاؤل الأكيد حول مستقبل سعيد قريب للإنسان، وظني أن هذه الظلمات تتمخض عن فجر أبلج وضاح يغمر آفاق الأرض غمراً طويلاً كما غمرتها هذه الظلمات طويلاً. . . لأن قواد المعسكرين الهائلين المتحاربين لا ينفكون يرددون على أسماع الأمم التي في أيديهم أزمتها ومقاليدها؛ أنهم يحاربون في سبيل خلق عالم إنساني عادل سعيد هانئ بعد الحرب؛ فإذا حدثت القواد نفوسهم أن يخيسوا بعهودهم وينقضوها، فإن المجهودين المنهوكين من جنود الحرب وعمالها ومنكوبيها سوف ينكلون تنكيلاً، سواء أكانوا منصورين أم مخذولين، لأن الجرائم التي ارتكبت في هذه الحرب لا تغتفرها الشعوب إلا إذا رأيت أنها أسلمت الناس إلى عالم أسعد وأكمل من العالم الحالي، ولأن الحياة الاجتماعية لا تحتمل حرباً كهذه الحرب التي تدمر الإنسان مع أقامه من المدن والأعمال ومخلفات التاريخ ومقدسات العقائد والوصايا الخلقية بالأطفال والعجزة والشيوخ والنساء. . . ولأن حرباً بعد هذه الحرب لا بد أن تكون أدهى منها وأمر، بحيث تسحق براعم الحياة المدنية وأصولها لا يبقى ولا يذر، بما وصل إليه هذا الإنسان العجيب وما سيصل إليه في فترة السلم التي تعقب هذه الحرب. . .

ويخطئ من يظن هذه الحرب صورة من ذلك العراك التقليدي بين بني البشر، وأنها ثورة غرائز وحب غلبة بين مجموعة ومجموعة من أمم تحب الحرب للحرب، وتمجدها لا لشيء إلا اندفاعاً وراء تلك الغرائز والحركات التاريخية الموروثة. . . إن من يظن ذلك ذو نظرة متخلفة، لا تزال تعيش في حدود النظرات الأولى للإنسان. . .

إن هذه الملحمة الكبرى تحول عميق أصيل عظيم في توجيه الحياة. . . الخاصة للأمة الواحدة، والحياة العامة للأمم جميعاً. . . فلنتيقظ لهذا، ولنؤمن به، ولنعمل له. . .
وإن القدر يؤذن بميلاد حياة جديدة، وابتداء دورة زمنية بعقل الإنسان وقلبه وجسمه بعد هذه الحرب الحُطَمة الضَّروس التي تهدم مثل العالم القديم الضيقة بمثلها وأفكارها الحرة، كما تهدم مبانيه ومخالفاته بالديناميت. . .
وهاهي ذي مواكبها ومراكبها وجراراتها العنيفة وزواحفها وطائراتها القاذفة والمنقضة والمترنحة والشراعية والهابطة، وصواريخها وأبواقها وأنفاسها في الأثير، وعيونها الكشافة، وحشود جيوشها الآخذة من شمال الأرض وجنوبها وشرقها وغربها في قاراتها الخمس وبحارها السبعة ومن وراء كل أولئك عقول جبابرتها وأساطين علمائها، ومعاملها الساهرة ومناجمها الحافرة، ومحادثاتها السرية والجهرية ومؤامراتها والدماء والأرواح المبذولة فيها من الجيوش البيضاء والسوداء والصفراء والحمراء، والعروش المقوضة والصوالج والمقاليد المحطمة، والحديث عنها بكل لسان وبين كل قبيل من المتحضرين والهمج. . .
ألا إن الحياة تنقل أقدامها بهذه الحرب إلى المجاهل حينما رأت أن كثيراً من بينها لم ينهضوا بعد من مراقدهم في الكهوف والغابات لمشاهد مواكبها الحديثة التي دقت نواقيسها في الآفاق ولم يشتركوا في حمل قوائم عروشها العظيم الذي من لم يره ويدرك أسراره لا يمكن أن يقال عنه إنه ابن زمانه وإنه حقق الغاية المنشودة من إخراجه للحياة في زمن بعينه. . .
ولما رأت أن نورها في دور السلام والاستقرار استأثر به جماعة من الأوصياء الأنانيين، وتركوا غيرهم من القاصرين يخوضون في الظلام والجهل، حولت ذلك النور إلى شعل ذات لهب وحريق يأكل هذه الصدور الأثرة الأنانية التي ما عرفت قصد الحياة من وضع مصابيح النور في أيديها وخانت أمانات الاستخلاف
فمن الذي لا يستيقظ وينبه بد كل هذه الضجة النكراء ويسرع إلى موكب الحياة العظيم بالجسم الخفيف القوي الصحيح والفكر اللطيف اللماح العام، والقلب المؤمن العارف الحامل لأمانات الحياة؟!
وإذا أعرضت الإنسانية ونسيت آلامها الحاضرة وبؤسها وشقاءها بهذه الحرب وتركت الأنظمة الجائرة الغاشمة تتحكم فيها فويل لها ثم ويل لها! وويل للذين يقودونها! وتعساً للمكتوين بنار الحرب من العمال والصناع والجنود إن لم يقفوا في وجه اللاعبين بالشعوب!
ما اجمل إخاء العالم الإنساني! وما أقربه في القلوب البريئة أكثر الناس! لولا الذين يؤرثون في صدورهم نار الحرب والحقد ببعض الأناشيد وإثارة الذكريات الجاهلية والخيلاء العسكرية والألوان الدموية المهيجة!
إن الثيران تظل هادئة مستأنسة حتى يثيرها مثير باللون الأحمر فيحولها إلى وحوش فاتكة. . .
وكذلك قطعان ابن آدم تريد الهدوء والاستئناس حتى يثيرها مثير بالكلمات الحمراء والحماس الكاذب وحب الشهرة عن طريق الحرب والتخريب حين لا يوجد مجال لبعض الرجال للشهرة عن طريق السلم والعمران وإضافة شيء إلى بناء الحياة
وما أعظم خسارة الإنسانية في أبناء السلم الذين ذهبوا في ضحايا هذه الحرب؟
إنهم إنسانية عالمة عاملة مدربة ماهرة قد نجت من عوامل الموت والجهل والجفوة في تربيتها ثقافات السلام التي استحدثت بعد الحرب العظمى الماضية
إنهم ثمار كبيرة في جمال وصحة ولكنهم الآن يموتون في جفاف الصحاري وزمهرير الثلوج، وعلى أذرع الموج الفاغر والهواء المخلل وتحت أثقال الحديد وبين صعق القذائف! وهكذا يذهبون طعمة لوحوش الفلوات وأسماك البحار وتتساقط أعضاؤهم بين ركام الثلوج كأنهم عصف مأكول أو هباء منثور
فما أعظم خسارة السلم فيهم بعد انتهاء الحرب حين تفتقد العناصر العالمة العاملة الفتية فلا يوجد إلا بعد حين!
ولكنهم قربان لا بد من تقديمه في سبيل مطلب عظيم!
وقد مات الميت فليحي الحي!
وما أعظم ما تحتمل أعصاب البشر! إنهم برهنوا على أن أرواحهم أقوى من الفولاذ

والديناميت؛ إذ رضوا أن يغدوا ويروحوا على مواقع هذا الموت الفظيع والعذاب الوجيع، وهم مع ذلك يطيعون وينشدون. . . وإذا رضوا أن تهدم ديارهم وأموالهم وتنسف أطفالهم وحبيباتهم. . .

ذلك تحرر وانطلاق في سبيل العزة وصيانة العقائد

أين صور الأهوال ووقعها في القديم؟ من كان يضن أن يعيش فترة ينتظر فيها نزول الصواعق والنواسف كل لحظة من السماء وهو مع ذلك يأكل ويباعل ويرقص ويغني ويقتني الأموال وينشد الرفاء والأطفال؟

من كان يظن أن يفعل الناس هذا وهم في ساحات هذه القيامة؟! ما أوثق ما ربط الله الإنسان بالأرض!

هذه النفس البشرية أقوى وأبقى من هذه الأهوال لأنها هي التي صنعتها ولذلك لا تخشاها.

ألا يجوز أن يكون هذا الاحتمال الصابر الذي بدا من النفوس البشرية تحت آلام النار والحديد تدريباً لها من الأقدار العليا وإعداداً لمستقبل مجهول ستحتمل فيه آلام اختراق الحجب الكثيفة التي تحول بينها وبين علم الكثير من غيب السموات والأرض؟!

ألا يجوز أن يكون هذا التسابق العنيف بين الدول المتحاربة في اختزال البعاد والمسافات واقتحام العقبات إنما هو حَبْوٌ على عتبات باب من الانطلاق والتحرير؟

ألا إنها الطبيعة الجامدة الميتة تلبس هذه الأجساد الحية الثائرة المترعة بالحياة المتجددة، الآخذة من موارد علم الله وقوته وقدرته!

ألا إنها القوى التي طال سجنها وكمونها في صدر الأرض، وجدت سبيلها إلى الانطلاق والظهور على يد الابن البكر للأرضّ

. . .ألا إنها جنٌّ خفية تركب مراكبها وتتدافع منطلقة من سجونها في التراب أطلقها يد الإنسان الذي لا يزال ذاهلاً عما يصنع ذهول النحل عما تمزج، أو دودة القز عما تنسج!

هذه الحرب عملية هدم ما على الأرض وما في نفس الإنسان ليحدث الله بعد ذلك أموراً. . . ولن تنتهي إلا بعد أن تشمل موجتها كل البقاع. . . استيقظ على قوارعها سكان خط الاستواء في مجاهل القارة السوداء، وسكان الأراضي البيضاء وما بينها وسكان الجزر النائية المنثورة في المحيطات وامتزجت منهم جميعاً جيوش في جميع البقاع تقتل في سبيل غاية واحدة. . .

وأن الأقدار تحررهم من التاريخ السيئ و (تصفي) ميراث الشراهة والحقد

فهذه آثار لندن العزيزة على أهلها تهدم. . . هدمها الإنجليز لا الألمان! لأنهم لم يسلموها لهم كما سلم الفرنسيون باريس. . . بل تحرروا من حبها وقدموها دون حرية نفوسهم وعقائدهم في الحياة. . . ولا بد أنهم قد علموا بعد أن خوت مدينتهم على عروشها أن النفس هي الباقية أو هي الجديرة بحرص المرء على بقائها سالمة كريمة وما عداها ففداء لها. وتلك حقيقة من حقائق الإيمان كان الإنجليز قد فقدوها حينما تدفقت عليهم سيول الأموال من بقاع الإمبراطورية قروناً طويلة

ولا بد أنهم تذكروا كذلك أن حرية كل شعب محكوم لهم يجب أن تكون أعز عليه من كل شيء، بعد أن هددت حريتهم من عدو غاشم جبار فعرفوا ذلك وكانوا قد نسوه أيضاً في تلك الفترة الطويلة التي حكموا أمماً ولم تحكمهم أمة. . . وبالطبع سيكون لعلمهم وتذكرهم هاتين الحقيقتين من حقائق الإيمان أكبر الأثر في عملهم على إقامة عالم سعيد على أنقاض القديم. وإذا نسى الإنجليز أو تناسوا تلك الحقائق بعد هذه الحرب فسوف لا ينسى الأمريكان الذين كانوا بنجوة من الحروب الحديثة وويلاتها بعد أن تحرروا من وثنيات الأجناس والدماء المختلفة ونعرات القوميات المفرقة وُعَار الاحتكار والاستعمار. . .

أجل إن الأقدار ذات الحفاوة بالإنسان ما كانت لتترك هذه المجموعة الكبرى من الأمم التي تتكلم الإنجليزية ومن يرتبط بها في أكثر بقاع العالم دون أن توحدهم وحدة تامة بأية وسيلة لتتخذ منهم خميرة لوحدة أو شبه وحدة بين بني البشر. وقد خابت مساعي توحيدهم عن طريق السلم، إذ عز على الإنجليز المحافظين أن ينزلوا عن كثير من تقاليد إمبراطوريتهم العظيمة، وعن حقوق الغلبة والفتح فيها، وكانوا أولي الناس باتباع ذلك بعد أن خرجوا من الحرب الماضية منصورين. وإذ عز كذلك على الأمريكان

الأحرار أن يسيروا مع الإنجليز في نظرياتهم المحافظة فيرتدوا عن مبادئ عالمهم الجديد وثوراتهم العظيمة التي قضوا بها على خمائر الأحقاد ومواريث التاريخ السيئ في القارات القديمة، فعاشوا حياة جديدة في أرض جديدة. . .

فكانت هذه الحروب الحالية رداً سريعاً من الأقدار وعقاباً للأمم الناطقة بالإنجليزية لأنها أهملت وتوانت في السعي المشترك المسلح لإقامة عالم أسعد وأعدل، وكانت وحدها - ولا تزال - هي التي تستطيع أن تنهض بأعباء ذلك العالم المنشود

ولم أكد أفرغ من كتابه هذا المعنى حتى ساقت لي الأقدار دليلاً يؤيده من أقوال أحد أساطين الأمريكيين وهو المستر (ويلكي) منافس (روزفلت) في الانتخابات السابقة. . .

قال كما ورد في (أهرام) 1411942: (إننا جميعاً نلوم هتلر وحده، بيد أن هذه الفكرة السطحية ليست صحيحة. فاللوم لا يقع على هتلر وحده بل ينصب علينا إلى حد ما. فلقد سمحنا في الماضي لإنتاجنا الصناعي العظيم أن يتحكم فينا وأن يتغلب على مثلنا العليا. . .)

أجل، هذا هو موضع الداء، وضع (ويلكي) إصبعه عليه. . فإن أمريكا كان يجب أن يكون موقفها بعد الحرب الماضية موقف (بوليس) العالم بعد أن كان انضمامها للحلفاء في تلك الحرب أعظم مرجع لكفتهم، وبعد أن تلقى المعسكران المتحاربان مبادئ الرئيس (ويلسن) الأربعة عشر باللهفة والقبول والاستبشار. وكان فيها المثل الأعلى المنشود، وكان شرف أمريكا يقضي عليها أن تقوم على تنفيذ تلك المبادئ التي قدمها رئيسها باسمها، وأن تعلن حرباً على من يخالفها حتى يفئ إلى أمرها

ولكن ما شغل به العالم بعد الحرب من التهافت على المتاع المادي للتعويض عما أصابه من آلامها، وما رأته أمريكا من عودة ذوي النزعات المحافظة إلى أساليبهم القديمة في مزالة السياسة الدولية، وما قضت به مساعي الرأسماليين والاستعمار الأنانيين من بقاء العالم في أدوائه القديمة. . كل هذا ثبط من عزيمة أمريكا وجعلها تترك العالم القديم في شقائه وتقنع هي بعزلتها السعيدة

ولكن هاهي ذي يد الأقدار تمتد لتنتزعها من هناء عزلتها وتحشرها مع بني عمومتها وتدفعها في معهم في هذه الحرب الزبون برجالها وأموالها وقضها وقضيضها. . . وما أظنها ستنسى واجبها مرة ثانية حين يعود السلام. ومن هنا ينبعث نور الأمل، لأن أمريكا عمل عظيم في طريق أمل أعظم!

وبعد، فإن ذكرى هجرة الرسول الأعظم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ينبغي أن تبعث في قلوب المسلمين روح الاستعداد لانتقال عظيم يجب أن يقدموا عليه بعد هذه الحرب للوقوف في صفوفهم الأمم التي ستشترك في إقامة الحياة العادلة السعيدة التي تخدم أهداف الإنسانية جميعاً. وإنهم لجديرون أن يقدموا للعالم أعظم المبادئ التي تقوم عليها السلامة الاجتماعية والمساواة الفردية والدولية التي تنشدها الأمم وتنادي في كفاحها

فليهاجروا إلى حياة الحق والعدالة التي في دينهم بأرواحهم وأفكارهم حتى يكونوا نماذج

مجسمة لما سيقدمونه العالم بعد الحرب من مبادئ وحلول للعقد والمشكلات

وليعلموا أن هذا هو أوان التبشير والدعوة إلى مبادئ دينهم العالمي الذي قام على أصول أديان الحق التي ارتضتها البشرية في المشرق والمغرب. . .

(ولقد كَتبنا في الزَّبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عباديَ الصالحون)

عبد المنعم محمد خلاف

من وحي النبي

معجزة العنكبوت

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

مشهد غنائي تنبع موسيقاه من الغار الذي أوى إليه النبي العربي الخالد مع صفيه (الصديق) في جبل (ثور) خوفاً من أذى المشركين الذين اقتفوا أثر (المصطفى) في طريقه إلى المدينة يوم الهجرة).

(أبطال المشهد: العنكبوت، الحمامتان، الثعبان)
العنكبوت يغني (وهو ينسج خيوطه بعد أن دخل النبي وصديقه الغار):
في سَبِيلِ اللهِ دَوري ... يَا خُيُوطِي في الأَثِيرِ
أَنَا نَسَّاجُ الْحُصُونِ الشُّ ... مَّ مِنْ أَوْهَى السُّتُورِ
وَقَفَ الدَّهْرُ عَلَى بَا ... بِيَ مَذْعُورَ الصَّمِيرِ
وَحِجَابُ الشَّمسِ لاَ قَا ... نِي بِأَجْفَانِ الضَّرِيرِ
وَالضَّحى حَرَّ كَلَيْلٍ ... فَوْقَ أَعْتَابِي أَسِيرِ
أَنَا شَكٌّ جَاءَ يَحْمِي ... كُلَّ إيمَانِ الدُّهُورِ
أَرْسَلَتْنِي قُدْرَةُ اللَّ ... هِ أَمَانَ الْمُسْتَجِيرِ!
قَدْ وَهَي بَيْتِي. . . وَلكِنْ ... صَارَ مِحْرَابَ الْعُصُورِ
بِالَّذِي أَخْفَي مِن الأَنْ ... وَارَ في وَجْهِ الْبَشِيرِ. . .
فَرْفَعِي يَا حِكْمَتِي سَدَّاً ... عَلَى بَطْشِ الْمِغِيرِ
وَتَغَنَّىْ يَا خُيُوطِي ... ثُمَّ دُوري! ثُمَّ دُورِى!
الحمامة لأختها (وقد وجدنا نفسها فجأة على باب الغار يقفان يفقسان ويسمعان نشيد العنكبوت):
أَخْتَاهُ! مَاذَا دَهَانَا ... فَلَمْ نَعُدْ فِي حِملاَنَا؟!
مَاذَا؟! رِمَالٌ، وَنُورٌ ... وَعَنْكَبَوُتٌ شَجَاعَا. . .
وَالْبِيدُ قَلْبٌ تَرَامَي ... عَلَي الثَّرَى حَيْرَانَا
وَسَامِعٌ، وَمُنَادٍ ... وَأَعْيُنٌ لاَ تَرَانَا
وَضَجَّةٌ فِي الْفَيَافِي ... حَسِبْتُهَا بُرْكَانَا
لَعَلَّ رِيحاً عَتِياً ... عَلَى الْخُورِ رَمَانَا
فَضَلَّلَتْنَا خُطَانَا ... وَأَوْحَشَتْنَا رُبَانَا
أَخْتَاهُ! مَاذَا؟. . .
الحمامة الثانية:
رُوَيداً ... فَقَدْ ضَلَلْتِ الْبَيَانَا . . . . . .
فَمَا تَرَكْنَا رُبَانَا ... لَكِنْ هَجَرْنَا الزَّمَانَا
لِذلِكَ الْغَارِ جِئْنَا ... نُلْقِي عَلَيْهِ الأَمَانَا
فَفِيهِ هَالَةُ نُورٍ ... تُفَجِّرُ الإِيمَانَا
طَافَتْ بِمَكَّةَ حِيناً ... فَدَكَّتِ الطُّغْيَانَا
وَلاَحَ مِنْهَا شُعَاعٌ ... يُكَبْكِبُ الأَوْثَانَا
فَالْمشرِكُونَ لَدَيْهَا ... مُسَهُمونَ حَزَانَى
خَرُّوا سُجُوداً، وَأَرْخَوْا ... لِصَفْحَتَيْهَا الْعِنَانَا!
إِلاَّ بَقَايَا ضَلاَلٍ ... تُسَاوِرُ الْعُمْيَانَا
سَاقَتْ إِلى النُّورِ جَيْشاً ... مُفَرَّعاً، غَضْبَانَا
فَهَاجَرَ النُّورُ حَتَّى ... أَلْقَى الْعَصَا فِي حِمَانَا
ضَيْفٌ! وَكُلُّ الْبَرَايَا ... فِي حُبِّهِ تَتَفَانَى. . .
فَالْعَنْكَبُوتُ يُغَنِّي ... وَيَنْسِجُ النَّسْيَانَا
وَنَحنُ نُلْقِي نَشِيداً ... نُشْجِي بِهِ الأَكْوَانَا
وَنَسْحَرُ الْجَيشَ حَتَّى ... يَفِرَّ حِينَ يَرَانَا
هَيَّا نُغَنِّي. . .
الحمامة الأولى:
وَهَيَّا ... نُرَقِّصُ الْعِيدَانَا. . .
تغنيان معاً:
نَحْنُ بأَرْضِ الْعَرَبِ ... حَارِسَتَانِ لِلنَّبِي
مِنْ وَحْيِهِ، وَطُهْرِهِ ... وَنُورِهِ الْمُحَجَّبِ
نُذِيعُ لِلدُّنْيَا صَدَىً ... بِمِثْلِهِ لَمْ تَطْرَبِ. . .
نَحْنُ لِمَبْعُوثِ السَّمَا ... أَقْدَسُ طَيْرٍ رَنَّمَا
غَرِيبَتَانِ حَلَّتَا ... أَطْهَرَ وَادٍ فِي الْحِمى
فَغَنَّتَا لِدِينِهِ ... لَحْنَاً يُذِيبُ الصَّنَمَا. . .

الثعبان: (خاشعاً مطرقاً بين يدي المصطفى بعد أن لدغ الصديق):
نبِيَّ اللهِ. . . يا هَادِي ... وَيا تَرْنِيمَةَ الْحَادِي
وَيا تَسْبِيحَةَ الْكُثْبا ... نِ، وَالرُّكْبَانِ فِي الْوادِي
وَيا تَوْبَةَ آثَامِ اللَّ ... يَالي. . . تَابِ إِنْشَادِي
وَجِئْتُكَ خَاشِعاً. . . مَائتْ ... نَوَافِتُ سُمَّىَ الْعادِي
وَصَاحَ بِقَلْبِيَ الْغُفْرَا ... ن صَيْحَةَ مُغْرَقٍ صَادِ
أَغِثْ لَهَفِي! وَطَهَّرْ نا ... رَ تَسْبِيحِي وَأَوْرَادِي
لَدَغْتُ صَفِيَّكَ (الصَّدَّ ... يقَ) حِينْ هَفا لإِبعَادِي
وَخِفْتُ أَذُوق حِرْمَانَ السَّ ... نا مِنْ طَيْفِكَ الْهادِي
يمر على الغار ممتطياً جواده متقصياً أثر النبي. . . فضلله بيت العنكبوت (سراقة)) وطمأنينة الحمام. . . فأعرض عن باب الغار وعاد خائباً. . .!)
(لها بقية)
محمود حسن إسماعيل
العام الهجري
عبرة العبر
للأستاذ عبد العزيز البشري
هذه الشمس تطالع العالَم بجفنيها من جانب الأفق. وما تلبث أن تتسلَل منه رويداً رويداً، حتى يَستوي لإطارُها على متنه. وما تزال في خلال ذلك تضاعف ما ترسل على وجه الأرض من خيوطها العسجدية. وكذلك ما تزال تمطُلِ فيها وتبسُطها من الشرق إلى الغرب. وهكذا تظَلَّ تحبو في مَدرَجها إلى قبةَ الفَلَك. وكلما خطت بالزمن خطوة، رأيتها وتترعرع، ويسطع ضوؤها، ويحمَي وهجها إلى أن تبلغ الندوة، وتستوي على أعلى الأوج.
وأنت خبيرُ بأنه ليس بعدَ الصعود إلاّ الهبوط، فهذه سنة الله تعالى في كونه؛ وكذلك تجري سنَتُه على هذا الكائن العظيم؛ فليس بعجيب أن يَدعو الفلكيون هذه اللحظة، أعنى لحظة استواء الشمس في أعلى الأوج بالزوال، إذ كان بدء الزوال، هو غاية الكمال!
وهذه الشمس تمشي إلى الغروب في منحدرها كذلك رويداً رويداً، كما تتداخلها الشيخوخة فالهرم رويداً رويداً؛ حتى إذا أصفر لونها، وبردت السنُّ من جرمها، جعلت تَتدلى في قبرها من مغرب الأفق مستمهلةً مستأنية؛ وهكذا تغيب في أحدها، غير تاركة من التَّراثِ إلاّ صُبابةً من الذهب المذاب، سرعان ما تتبخّر في حلك الظلام. وقد تترك تراثها الفضيّ على صفحة القمر، يرفد العالمَ به بعض ليالي الشهر.
تلك سيرة الشمس كلَّ يوم: ميلادٌ فترعرع ففتوّة، فشبابٌ وفراهة وقوة، وكهولة فشيخوخة فهرم، فتدس في النهاية تحت الرجَمَ. وسبحان الحيّ الذي لا يموت!
على أنها في جميع مراحل حياتها عاملةٌ جادة جاهدة، لا تني عن السعي لحظة واحدة. فها هي ذهِ تَستنبت الأرض، وتزُكي الزرع، وتبسَّق الشجر، وتنضج الثمر، وتفتَّح من أكمامه الزهر. ثم هاهي تي، في عنفوانها، ما تفتأ تجتذب البخار، عذباً سائغاً من أجاج البحار؛ حتى إذا انعقد سحاباً، سَحّ فأخَضل قفراً وأعشب يباباً. وهذه الأنهار الجارية سمُوتُها في أقطار الأرض، تبعث أسباب لكل متهيئ للحياة. وكذلك لا ننس أنها تبرح تعمل عاَّمة النهار، في تطهير الأرض مما يَعلق بجسدها من الأخباث والأوضار.
فأي عنصر، لعمري، من حياة هذا العالم يمكن أن يغني عن الشمس؟ ألا أنها لمصدر الحياة جميعاً؛ فحق للعالم أن يقول: إنما الحياة الشمس، وإنما الشمسُ الحياة!
أيتها الشمس! ما أحسنك وأجملك، وما أطيبك وأكرمك!
تعملين لأول الدهر إلى غاية الدهر، في غير ونيٍ ولا سأم، ولا ضجر ولا بَرَمَ، ولا صلف ولا استعلاء، ولا زهو ولا كبرياء. . ولو شاء الله لأهلك بحرك بعض الأقوام، ولو قد شاء لأهلك بطول حجبك جميع الأنام!
وبعد، فما أخلق الذين يمسهم حظ من المجد في هذه الدنيا، والذين يمسون صدراً من السلطان فيها أن يبتغوا لسيرهم من سيرة هذه الشمس أعلى المثل. فيعلموا كل في محيطه للنفع العام في جد وداب، مؤمنين كل الإيمان أن الموهبة والسلطان إنما

ينبغي أن يكونا ملكاً خالصاً للمجموع لا لأحد من الناس ولا لشيء من الأشياء.
على أن مما يفجع حقاً أن كثرة من هؤلاء الذين ينالون مجداً ويولون سلطاناً سواء أكان أقام من ثم لهم هذا في جماعة أم في شعب أم في شعوب - سرعان ما ينسون كل شيء لأن الأثر قد ملكت من نفوسهم كل شيء. فنفوسهم هي المبدأ، ونفوسهم هي الغاية. حتى إذا أجالوا الفكر في منافع الجماعات، فلا لأنهم يؤثرون لهذه الجماعات نفعاً أو يبتغون لها خيراً، بل لأنهم إنما يطلبون من هذا السعي مراماً لأنفسهم لا لشيء آخر، قد يكون هذا المرام، في أعف الصور هو إحراز المجد. أما ما يقع من خير المجموع، أو ما يحتمل أن يقع، فليس أكثر من طريق! وكيفما كان الأمر، فإنه ما يكاد أحد هؤلاء يحس مجده ويستشعر سلطانه، حتى يَوْرم أنفه، ويتداخله من الصلف والمخيلة ما يملوه اعتقاداً بأن الرأي في الأمر ليس إلا ما يرى هو، وأن ما سواه لا صلاح له ولا خير فيه، بل لقد يكون كله شراً وفساداً.
ولقد يشتدّ طغيان هذه الخَلَّة على المرء، فيرى أن الناس لا ينبغي أن ينظروا إلا بعينه، ولا يسمعوا إلا بأذنه، بل إنه ليرى أن من العبث الضار أن يجري فكرهم بغير ما يجري به فكره، وأن تنتهي آراؤهم على غير ما ينتهي إليه رأيه. فإذا خالفه امرؤ إلى غير هذا، كان بين اثنين: إما ملتاث ممخرق، وإما معاند مكابر يجب أن يعجل له سوء العذاب!
وفي الحق أن اكثر من يغمرهم هذا الطغيان، إنما يرون ما يرون ويفعلون ما يفعلون، عن ثبات إيمان ورسوخ اعتقاد!
وما ظنك بمن تطبعهم شدة الأثرة على الإيمان بأنهم مبعثون من لدن رب السموات لإصلاح ما فسد في رقعه من الأرض أو في رقاع الأرض جميعاً؟ فإليهم وحدهم عهد الله بالاضطلاع بهذا المهم. وعليهم وحدهم تقع تبعة التقصير في علاجه، والراضي في إمضائه وإكماله!
وهؤلاء لا يطلبون الأعوان والأنصار ليعاونوهم بصادق الرأي وصالح المشورة؛ ولكن ليعاونوهم بقوة المظهر وإمضاء ما قضي به الوحي الذي لا يخطئ أبداً!
فإذا تعاطفت ما يختلف على هذه الأرض من عصور العتوّ والطغيان: تخرب العامر، وتدمّر القائم، وتُقفر الآهل، وتراق فيها الدماء بغير حساب، وتزهق النفوس لغير سبب من الأسباب: إذا تعاظمك هذا في عصور الدهر المتتابعة، فاعلم أن علته تلك الخلَّة الفاجرة في الإنسان!
وأمس، لقد أتمتْ دورةُ الشمس حولاً سلكته في عقد التاريخ أيضاً، وآذنت العالم بفجر حولٍ جديد
وإن ذاك العام المدبر، وهذا العام المقبل، لهما - كما تعلم - من أعوام الهجرة، هجرة محمد صلى الله عليه وسلم وصاحبه من مكة إلى المدينة، وقد ساد بها الإسلام، فسعد بسلطانه الأنام
وبعد، فلست بحاجة إلى أن أحدثك عما كان قد غشى الأرض جميعاً من ظلم وفساد، وتصدع في النفوس وتضعضع في الأخلاق، حتى كاد يُقضي على الأمم بعدم الصلاحية للبقاء. إلى أن بُعث محمد من عند الله حقاً، فبلّغ رسالته إلى الناس، كما أوحى إليه بها ربه حقاً، فكان ما شهد التاريخُ من ذلك الفتح والإصلاح والإسعاد
ولا أحب أن أُطيل في وصف ذلك الإصلاح والإسعاد، فبحسبهما أن تنزَّل بآياتهما وحيٌ كريم، من عند الله العليّ العظيم
وإنما أقف وقفةً قصيرةً عند سيرة من خلفوا محمداً صلى الله عليه وسلم، ولم يؤيد أحدٌ منهم بوحي سماوي، ولا حبي بالعصمة التي حُبي بها الأنبياء، إنما هم أناسٍ مثل سائر الناس.
وإذا كان خلفاء الرسول قد ارتفعوا على سائر الناس، فبأنهم إنما ساروا سيرة هذه الشمس التي تطالعهم كلَّ صباح وتغرب عنهم كلَّ مساء. على أنها هي إنما تعمل لعالم الأجساد
والأجرام، أما هم فيعملون لعالم النفوس والأرواح.
يعملون جادّين جاهدين، لا يبتغون من سعيهم نفعاً، ولا يُريغون من ورائه فخراً ولا ذكراً، لأنهم أشد أمانة من أن يقتطعوا لأنفسهم أو لذويهم شيئاً مما ينبغي أن يجرد كله للنفع العام.
يعملون لا مستبديّن بالرأي ولا مستأثرين؛ بل مشاورين مصغين مسرعين، حتى إذا

اتسق لهم الرأي الذي يرون فيه منفعة المجموع، أسرعوا إلى إمضائه ولو جاء من أصغر الجميع.

أما رأى الجماعة، فشرعٌ عندهم مشروع، وقضاءُ مبرمٌ محتوم.

يعملون صادقين مخلصين لله وللنفع العام. لا كبر ولا مخيلة ولا استئثار بمنفعة من المنصب والجاه، بل ليس عندهم إلا الإيثار والتواضع، والرقة للضعفاء. وهيهات أن يؤثروا أحداً على أحد إلا بطاعة الله وما قدم من الخير للمجموع. ولعمري، لتلك أعلى صور الديمقراطية التي يحلم بها أجلّ الفلاسفة من قديم الزمان

وإذا كان هؤلاء الخلفاء قد انعقد لهم أعظم المجد، المجد الخالد على الدهر، فلأنهم لم يريغوه ولم يسعوا له، ولم يشغل هو جزءاً من نفوسهم جليلاً ولا دقيقاً

وبعد، فلا شك أن مما أصفاهم لطلب النفع العام، وتجافى بهم عن الاستئثار حتى بالنفع الخاص، هو طول الذكر للموت. وكيف لهم بنسيانه، وهذه الشمس العظيمة، باعثة الحياة والحركة في العالم تموت كل يوم، بمرأى منهم، بعد أقوى الحياة، ولكل شيء نهاية، ولكل سائلةٍ قرار!

وإذا كانت الشمس تعود كل يوم فتُوالى سعيها في النفع والتجديد والإحياء، فإن زعيماً لن يعود بعد موته، ولو لإصلاح ما عسى أن يكون قد أفسد وتعمير ما عسى أن يكون قد خرّب. فما له، بعد الموت بالأمر يدان!

هذا بعض ما يلهمه حديث الهجرة، وإن فيه لعبرة.

عبد العزيز البشري

بطولة محمد

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

لا أعرف - ولا أحسب أن غيري يعرف ما يشبه - أو يقارب - بطولة محمد صلى الله عليه وسلم. ولست أنسى أني مسلم ولكني مسلم بالعقل قبل أن أكون مسلماً بالوراثة والنشأة. ولست أخشى أن أتهم بالتعصب لصاحب هذا الدين. على أني لا أعني بالبطولة الشجاعة في الحرب، والجرأة في الكر والفر، والإقدام على مقارعة أحلاس القتال ومنازلة الأعداء في حومات الوغى، فما كان صلى الله عليه وسلم يعني بالاشتراك في القتال بسيف أو رمح؛ وكان يشهد المعارك ويصحب رجاله ولكنه لا ينزل إلى الحومة بنفسه ولا يخوض المعمعة مع أنصاره وإن كان يوجههم. وما كانت مزيته أنه أطعن الناس برمح، أو أسدهم ساعداً، وإنما كان نبياً وصاحب دعوة، ورسولاً بدين، ومعلماً ومرشداً وهادياً، وحسب من شاء أن يقدر بطولة محمد أن يتأمل حياته وسيرته لا في مكة وحدها بل بعد الهجرة منها إلى المدينة أيضاً وإلى آخر حياته، فقد جاء بدين ينقض كل ما قامت عليه حياة العرب في زمانه من عقائد وتقاليد وعادات وآراء؛ ولا يرضى حتى أهله، لأنه يحرمهم مزاياهم وما كانوا ينعمون به من عزة في الجاهلية؛ ولم يجد من يؤمن به وبرسالته إلا قلة لا غناء لها، ولقي من الضيم والعذاب والأذى والمطاردة والاضطهاد، ما لم نعهد في البشر إطاقته والصبر عليه؛ وحوصر في الشعب ثلاث سنين بلا أمل أو نصير؛ وقاسي من المحن أقسى ما يخطر على البال؛ ومع ذلك لم يلن ولم يضعف، ولم يكد يخرج من هذا الشِّعب حتى مضى وحده وبمفرده إلى الطائف يدعو إلى ترك الأوثان وإلى عبادة الواحد الأحد، فلم يقابل بغير الإهانة والزراية من الكبراء، والرمي بالحجارة من الصبية والجهال، حتى سال منه الدم فعاد إلى مكة لا يأساً بل مواصلاً بث دعوته وتبليغ رسالته، وظل صابراً مواظباً محتملاً ما يلقي في سبيل الله من الأذى البليغ والعنت الشديد ثلاثة عشر عاماً من يوم تلقي الوحي. ولما اعتزم الهجرة بعد أن مهد لها لم يخرج إلا بعد أن رحل عن مكة معظم أنصاره وأمن واطمأن عليهم، ووثق بنجاتهم وسلامتهم، وهذا ثبات كان خليقاً وحده أن يقنع الذين كتبوا عنه من الأجانب بأنه لا يمكن ولا يعقل أن يكون من (دجال) كما وصفه بعضهم وقد كتب (واشنطون إيرفنج) عن بواعث محمد يقول:

(أكانت الثروة؟ لقد أفاد زواجه من خديجة الغنى، فظل سنوات قبل الوحي لا يبدي رغبة في زيادة ثروته. أم كان يطلب المنازل الملحوظة؟ لقد كانت منزلته عالية في قومه، وكان معروفاً بينهم بالفضل والأمانة، وكان من قريش ومن أكرم فرع فيها، وكانت سدانة الكعبة وما تفيده من العز والسلطان في أسرته منذ أجيال، وكان من حقه أن يتطلع إليها، فلما قام يحاول أن يهدم الدين الذي نشأ عليه قومه اقتلع جذور

هذه المزايا جميعاً، فقد كانت ثروة أهله ومنزلتهم قائمتين على هذا الدين فهاجمه وجر على نفسه عداوة أهله وغضب مواطنيه وسخطهم جميعاً
ويمضي إيرفنج في تقصيه فيسأل: هل كان هناك في بداية سيرته النبوية ما يبعث الأمل أو يعوض هذه التضحيات؟ ويرد على ذلك فيقول: إن الأمر كان على النقيض، فقد بدأ محاذراً متوخياً الكتمان وظل سنوات غير موفق؛ وعلى قدر توسعه في بث دعوته، وإذاعة رسالته، كان يشتد ويعظم ما يلقي من العنت والسخرية والأذى والاضطهاد، واضطر بعض أهله وأنصاره أن يفروا إلى بلاد أخرى، واحتاج هو نفسه آخر الأمر أن يهاجر إلى بلد غير مكة، فلماذا كان يصر كل هذه السنوات الطويلات على (دجْل) يسلبه كل متاع الدنيا في سن لا تسمح بأن يبدأ المرء حياته مرة أخرى؟ فما قام بالدعوة إلا بعد الأربعين وقضى في مكة ثلاثة عشر عاماً، وكان تاجراً حسن الحال فهاجر منها فقيراً معدماً، لا يعرف ما كتب الله له في غيبه من النصر، ولا يبغي أكثر من أن يبني مسجداً يعبد فيه ربه، ولا يرجو إلا أن يعبد الله في سلام. ولما جاءه النصر لم يتكبر، ولم يتجبر، ولم يغتر، كما يفعل الذين ينشدون المآرب الشخصية والغايات الخاصة، فحافظ، وهو يف أوج قوته، على بساطته أيام ضعفه
وقد جاءه نصر الله بعد الهجرة، ولكن الأيام لم تجر كلها بالسعود في المدينة؛ وإذا كان قد انتصر كثيراً فقد انهزم أحياناً، فلا النصر أبطره، ولا الهزيمة أضعفت روحه أو فتت في عضده. ولعل القدرة على احتمال النصر أدل على العظمة من القدرة على احتمال الخيبة؛ ولكنه لم يكن من الهين على من احتمل مثله ثلاثة عشر عاماً من المتاعب أن يصبر على هزيمة جديدة. . . وكان عليه أن يضع للجماعة الإسلامية في المدينة النواميس والنظم في
السلم والحرب. وهو فيما أعلم الوحيد الذي بلّغَ الرسالة كلها، وأتم عمله أجمعه في حياته، فأكمل الدين، وأسس الدولة، ووضع القواعد كلها، ووجه الأمة الجديدة الوجهة التي فيها الخير والصلاح والعز. وليس لهذا مثيل في التاريخ - قديمه وحديثه -. وهنا ينبغي أن نذكر أن مسافة الزمن التي تم فيها كل هذا كانت قصيرة جداً، وأن دينه كان جديداً، يخالف كل ما وجد عليه العرب. وفي هذه المدة الوجيزة لم يغير للعرب عباداتهم وحدها، بل غير نفوسهم أيضاً. ولاشك أن صرف امرئ عن عبادة حجر أو نحوه أهون جداً من صب النفس في قالب جديد. وقد خلق من هؤلاء العرب المتنافرين المتعادين المتهالكين رجالاً يعدون في طليعة أبطال العالم. وماذا كان هؤلاء جميعاً خليقين أن يكونوا لولا محمد؟ ونعني بهم أبطال التاريخ الإسلامي من مثل الخلفاء والولاة والقواد والفقهاء. . . أكان أحد يمكن أن يسمع بهم؟؟ لا أظن! ولا شك أنهم كانوا خلقاء أن يكونوا شيئاً مذكوراً بين قومهم، ولكن قومهم أجمعين لم يكونوا شيئاً. وما قيمة قوم انقسموا قبائل متعادية لا أثر لها في الحياة، ولا يعبأ بها حتى من يجاورها من الأمم؟ ومن هذه العناصر خلق محمد أمة عظيمة فتحت الدنيا، ونشرت الدين، وأهدت إلى العالم حضارة كبيرة غيرت مجرى التاريخ الإنساني كله
ولا يتسع المقام للإفاضة في هذه المعاني، ومن أجل هذا أكتفي بأن أقول إن محمداً أعظم عظيم خلقه الله. وأزيد على هذا أني كنت في صدر حياتي أستهين قول من يقول إن العرب خير الأمم وأفضلها، وأرى ذلك من الغرور، ولكني الآن صرت أعذر من يقول هذا. ولست مغري بالمفاضلة بين الأمم ولا أنا أرى داعياً لهذا، فإن كل أمة تؤدي في الحياة رسالتها على قدر طاقتها ولكن أمة تنجب محمداً، هل يلام من يقول إنها أعظم الأمم؟
إبراهيم عبد القادر المازني
في الطريق إلى قرطبة
للأستاذ محمود تيمور
عندما استتب الأمر لأبي العباس السفاح أول الخلفاء)
العباسيين هرب الأمير عبد الرحمن الأموي من العراق
ووجهته الأندلس ليتسم عرش الأمارة فيها بمعاونة أنصاره
الأمويين. فبينما كان في شمال أفريقيا وقعت له هذه الحادثة
(التي نرويها
كان القمر ينشر نوره الفضي على قرية (مغيلة) في مراكش، فتبدو الدور على ضوئه

الهادئ كأنها تتمطى مبتسمة رافعة هاماتها إلى السماء تنفض عنها فتور النوم. في تلك الساعة التي بدأت فيها القرية تتنفس كان يسير في طريق من طرقاتها المهجورة رجل طويل القامة نحيف الجسم ملتف بعباءة دكناء ووجهه ملثم. كان يسير سيراً حثيثاً في مشيه حذرة، متجنباً الأماكن التي انجلت عنها غبشة الليل، تدل مظاهره التي يجتهد في إخفائها على الأمارة والجاه. ولما دنا من دار (وانسوس) رئيس أقوى قبائل البربر في تلك الجهة توقف عن المسير والتفت حوله ثم دفع الباب في سكون ودخل، ثم أحكم إغلاقه خلفه، وما إن خطا بضع خطوات، حتى تقدم إليه (وانسوس) في خضوع وقال في صوت خافت:

- مولاي الأمير

- كدت أضل الطريق

وبدأ الزائر يرفع لثامه ويحل عباءته، فظهر عارضاه الخفيفان وبانت ضفيرتاه على ظهره، وسار بخطوات رزينة وخلفه (وانسوس)؛ وقال:

- هل أحضر (بدر) الجواهر؟

- أحضرها يا مولاي وهي وديعة عندي لا تستطيع أن تمتد إليها يد إنسان

- وماذا قال لك؟

- إن أختك (أم الإصبع) تقرئك السلام وتقول لك إنها سترسل لك غيرها

- بورك فيها. . . وماذا بعد ذلك يا (وانسوس)؟

- وإن وهب بن الأصفر وشاكرين أبي الأسمط يستحثانك على السفر، إن المراكب معد وهم في انتظارك

وكانا قد تلغا بهولاً تتوسطه نافورة وقد نثرت بجوار حيطانه وسائد عريضة؛ فوقف الأمير أمام النافورة يتأمل المياه ويداه مثنيتان على صدره وقال:

- وأهل الأندلس؟

- يرحبون بمقدمك لتنقذهم من أميرها يوسف بن عبد الرحمن الفهري. هناك أبناء عمومتك يا مولاي ومعهم أنصارهم الأقوياء ثم لا تنس القبائل اليمنية

- هذه حطمتها قوات الفهري

- بل ما زالت محتفظة برجالها الأقوياء

- إن الحروب الأهلية يا (وانسوس) قد نهكت الأندلس، وعمها القحط وجلا كثير من أهلها عنها، فإذا أردنا أن نستعجل النصر فلنعتمد على الذهب نكسب به الأنصار

ودخلتْ في تلك اللحظة (تكفات) زوجة (وانسوس) وكانت امرأة بدينة تلبس إزاراً واسعاً، دخلت في عجلة واضطراب وهي مكفهرة الوجه وقالت:

- بينما كنت على السطح في مكاني المخصص للمراقبة أبصرت رهطاً من الرجال مقبلين في سرعة وتلصص نحو الدار، فما شككت أنهم من رجال ابن حبيب

فتغضن وجه الأمير وقال بصوت أجش:

- لقد وشي بي الواشون

وهرع وانسوس إلى البرج ليستعلم الخبر ثم عاد مضطرباً وهو يقول:

- عجل يا مولاي بالهرب

وجرى الاثنان نحو البرج، ولكن ما كادا يطلان منه حتى عادا أدراجهما والأمير يتمم:

- لقد أحاطوا بالدار

وسمعت في هذه اللحظة جلبه عالية في الخارج فيها وعيد وتهديد وطرح الأمير عبد الرحمن عباءته واستل سيفه ووقف وقفة الجبار ناظراً إلى باب البهو وقد انطبع على محياه المهيب عزم رهيب وقال:

- إني لأشعر بأرواح بني أمية كلها قد تقمصت جسدي فيأت ابن حبيب وجيشه يجرب حظه معي

واشتدت الجلبة وسمع قرع قوي على الباب وأصوات تقول:

- افتحوا. . .

وقال الأمير لوانسوس:

- اذهب وافتح الباب

ووقف وانسوس متردداً

وتكرر القرع بحماس شديد. وسمع الباب يهتز ويتفلق والأصوات تتعالى في سخط

مرددة:
. . .افتحوا. افتحوا
فقال الأمير وهو ينظر إلى وانسوس نظراً حاداً:
- لقد أمرتك أن تفتح الباب
فقال وانسوس في ذلة ويأس:
- الأمر لك يا مولاي
وذهب قاصداً الباب. وما كاد يخرج حتى أشرق وجه تكفات بغتة ولمعت عيناها. وتقدمت في جرأة غريبة نحو الأمير وقالت:
- إنها لحظة من لحظات الدهر الخالدة. فإما إلى العرش وإما إلى القبر. . . تعال
وفتح وانسوس الباب فتدفق الرجال في صحن الدار وضجتهم تسبقهم، ووقف زعيمهم مكشراً أمام وانسوس وقال:
. . .اقبضوا على هذا الخائن
وفي لحظة كان وانسوس مقيداً وملقى بجوار الحائط؛ وأتم الزعيم أمره قائلاً:
- دونكم الدار فلا تتركوا مخبأ إلا دخلتموه، أو ركناً إلا فتشتموه، وإياكم ألا تعثروا عليه
فانتشر الرجال في الدار يفتشون، وسار الزعيم في رهط من أنصاره قاصداً إلى بهو النافورة واختفى الجميع فيه
ومضى الوقت ووانسوس ملقي بجوار الحائط يصغي بأذن مرهفة إلى ضجيج الرجال في داخل داره وعيناه الحائرتان لا تفارقان باب البهو
وأخيراً فتح الباب وخرج منه الزعيم وخلفه رجاله. ولما دنا من وانسوس ألقى عليه نظرة احتقار ثم التفت إلى جماعة بالقرب منه وقال:
- حلوا وثاق هذا الرجل
ثم سار في عجلة نحو الباب وهو يدمدم بكلمات غير مفهومة وخرج والجميع في أثره. وقام وانسوس وهو يفرك عينيه دهشا، وبعد أن أحكم قفل الباب سار مهرولاً إلى بهو النافورة فوجد زوجته (تكفات) جالسة على إحدى الوسائد متكئة بظهرها على الحائط؛ فما شك وانسوس أن قواها خارت من الخوف. فأقبل عليها وسألها قائلاً:
- أين الأمير؟
وفي لحظة كشفت إزارها الواسع فخرج من بينه الأمير وما إن توسط البهو حتى قال:
- تالله إن عرش الأندلس لمدين (لتكفات) بهذه الحيلة لن أنسى لك هذا الجميل يا (تكفات)
فانحنت المرأة أمامه في خضوع
ووقف الأمير عبد الرحمن أمام النافورة ويداه مثنيتان إلى صدره، وقال وقد سطع على وجهه العزم واليقين في صوت ممتلئ قوي:
لقد بت أعتقد أن العناية تساعدني. فهناك على شاطئ الفرات حيث كانت فرسان أبي العباس تلاحقني أنا وأخي نجوت بأعجوبة لم أكن أحلم بها في حين أن أخي قد عاكسه القدر فقبض عليه وقتل على مرأى مني. وهنا تمر بي رجال أبي حبيب وأنا على بعد خطوات منهم فلا يخامرهم شك في أني غير موجود
وأرسلت عيناه وميضاً عجيباً، والتفت حوله وهو رافع الرأس كأسد منتصر على فريسته وقال:
- إيه أيها القدر! تعصمني والعباسيون يتهالكون على الفتك بي، يطاردوني في كل شبر من الأرض. . . إني لأرى الأندلس تدنو مني كما يدنو مقبض هذا السيف من يميني

محمود تيمور

الإسلام دين لا دولة

للدكتور زكي مبارك

أعترف بأني مقبل على متاعب في تحرير هذا البحث، لأني أكره أن يكون ضرباً من الحديث المعاد، وما تريد (الرسالة) في مثل هذا العدد أن تعيد كلاماً فرغ منه الناس منذ أجيال
وأعترف أيضاً بأني لا أجهل الفرق بين حياة الباحثين لهذا العهد وحياة من سبقهم في سالف العهود، فالمسلمون فيما سلف كانوا يقسمون الجمهور إلى قسمين: قسم العوام وقسم الخواص؛ ولم يكن العاميّ هو الذي لا يقرأ ولا يكتب، كما نقول اليوم،

وإنما كان العاميّ هو الذي لا يترك من مرامي القرآن والحديث ما يستطيع به تعقب أقوال الباحثين بالتعديل والتجريح، ولهذا كان يتفق أن يسير في العصر الواحد آراء تختلف وتقتتل بدون أن يشعر أصحابها بأنهم مهدّدون بسوء القالة بين الناس، إلا أن يكون في آرائهم ما يؤدي الخلفاء أو الملوك أو الوزراء، وهؤلاء أيضاً كان لجبروتهم حدود، لأنهم كانوا في الأغلب من أكابر الرجال، وعلى علم بالزائف والصحيح من الآراء.

أما اليوم، فمن حق من يقرأ ويكتب أن يعد نفسه من الخواص، وأن يتعقب الباحثين في الشئون الدينية كيف شاء، ولو لم يتفق له الاطلاع على كتابٍ واحد من كتب الفقه والحديث

وأقول بعد هذا التمهيد: إني سأفترض قلمي باحثاً يقف من الإسلام موقف الحياد؛ فقد مضى الزمن الذي كان يقال فيه: (اللهم إيماناً كإيمان العجائز)؛ فذلك الإيمان لا ينفع في هذا الجيل ولم يبق له مكان. وأنا أعتقد أن الرجل الذي يكفر بعد اجتهاد الأقوياء، أقرب إلى الله من الرجل الذي يؤمن بعد استسلام الضعفاء. وهل تهون العقول على واهب العقول؟

وإنما يقف قلمي من الإسلام موقف الحياد، لأني أريد أن يقوم هذا البحث على قواعد علمية لا خطابية، فهو موجه إلى قراء اللغة العربية، وفيهم ألوف من غير المسلمين، ومراعاتهم واجبٌ مفروض، ومن الحتم أن يخاطبوا بالعقل قبل الوجدان.

يضاف إلى هذا أن الإسلام كان في جميع أطواره ثورة عقلية، فمن أراد من أبنائه أن يجرده من تلك المزية، فهو عدوٌ يلبس ثوب الصديق.

ثم أوجه الموضوع فأقول:

لكل دين من الأديان خصوصيات وعموميات: فالخصوصيات هي اللطائف التي يتعارف عليها أبناء الدين الواحد بعضهم مع بعض، ولا يرضيهم أن تداع لضعفها عن مقاومة النقد العنيف؛ أما العموميات، فهي الأصول التي يجوز نشرها بين جميع الناس، لقدرتها على مواجهة التحامل بشجاعة وكبرياء.

والظاهر أن (الخصوصيات) هي الطور الأول من أطوار التدين، فقد كان التدين في نشأته لوناً من الانحسار عن المجتمع، وهو يوجب الانفراد والانزواء، ومن هنا كانت كلمة (الدين) مرادفة لكلمة (السرّ) عند الأقدمين. ومن هنا أيضاً كانت (العزلة) من ضروب التعبد، لأنها من فنون الاستخفاء. . . ألم تسمعوا أن الصوم عن الكلام كان من العبادات في كثيرٍ من الديانات، مع أن الكلام هو أساس التفاهم بين المتعاملين من الأحياء؟

والنفرة من الزواج عند قدماء المتدينين لها صلة وثيقة بهذا الغرض، وقد أصابت الفطرة الشعبية فيلا مصر حين سمت الزواج (دخول الدنيا)، وإنما كان ذلك لأن الزواج في العرف القديم لم يكن يأتلف مع التأهب للفناء في الدين

ومن هذه النقطة يتشعب حديث اليوم

فالنبي محمد قد اقترن بتسع نساء، قيلت في تعليل هذه الظاهرة أقوال، وأصح تلك الأقوال أنه أراد توكيد الصلات بينه وبين بعض القبائل والشعوب

ولكن يظهر أن من الممكن أن نلتمس تعليلاً غير ذلك التعليل، كأن نفترض أنه أراد أن يقضي قضاء مبرماً على الوهم الذي يقول بأن التدين لا يأتلف مع الزواج، وما كان ذلك (وهماً) من الأوهام، وإنما كان (حقيقةً) من الحقائق في صدور الأحبار والرهبان، وإليهم كان الأمر في مصاير الناس من جهة الدين والأخلاق

ولكن محمداً كان يؤمن بأن من واجبه أن ينقل المفهومية الدينية مع وضع إلى وضع، ولا يتم ذلك بغير ثورة على الترهب، ثورة ماحقة ساحقة تضيف الرهبان إلى طوائف الخصيان، وتصدهم عن الاستهزاء بالمؤمنين المتزوجين. فكان له ما أراد

ومحمد بشهادة خصومه كان من نماذج الفتوة العربية، والفتى العربي يرى الرجال قوامين على النساء، وإذاً، يجب أن يتصل بالدنيا اتصال معاش، ليكون رب البيت بحق وصدق، ولتخضع له نساؤه خضوع العبد الطائع للسيد المطاع، والرزق يذلّ أعناق الرجال، فكيف

بقلوب النساء؟!

وماذا كانت صناعة محمد قبل أن يكون نبياً؟

كان تاجراً، والتجارة هي المختبرَ الصادق لأخلاق الرجال، وقد جاز الاختبار بنجاح مرموق.
وماذا كانت صناعة محمد بعد أن صار نبياً؟
أظنه قال: (جُعِل رزقي تحت ظل رمحي)
ومعنى هذا أنه صار فارساً يعيش مما تغلّ الرماح والسيوف، وذلك أكرم أنواع العيش، وما يليق بنبي أن يكون عالة على الأتباع، ولو كانوا من شرفاء الأغنياء.
وإقبال محمد على الزواج صار نبياً مدنياً، وصار مسئولاً عن الاتصال بالمجتمع صلة معاشية، بعد أن اتصل به صلة روحية. ومن المؤكد أن صنيعه هذا قوبل في عصره باندهاش، واستغراب، لأنه كان (بدعة) في عوف رجال الدين، ولأنه كان اعترافاً صريحاً بان (الدنيا) مطلبٌ لا يعيب من يتجه إليه من الأنبياء
والذي يراجع الأصول الأولى من الدين الإسلامي - وهي الأصول التي سبقت التفريع والتشقيق - يروعه أن يرى الإسلام يقتصد في شرح معاملة الإنسان مع الله، ويهوله أن يراه بطنب في شرح المعاملات مع الناس.
فما معنى ذلك؟
معناه أن الإسلام يمزج بين هذين المطلبين، ومعناه أن حسن المعاملة مع الناس هو المظهر الصادق للخوف من الآثام والشبهات، وبدون الصدق في هذه المعاملة لا ينتفع المؤمن بصلاة ولا صيام، والله يتسامح في حقوقه ولكنه لا يتسامح في حقوق الناس.
ومن أعجب العجب أن نرى القرآن ينطق السابقين من الأنبياء بأقوال ينكرها بعض أتباع الأنبياء.
فما تأويل هذا المنطق؟
التأويل سهل، فالقرآن ينزه جميع الأنبياء عن أوهام الأتباع والأشياع، وما تحدث القرآن عن نبيّ إلا عرفنا أن الدعوات الصوادق لا تسلم من التصحيف والتحريف.
وبقليل من التأمل ندرك أن ذلك ليس من الغرائب، فوضوح النصوص الدولية لهذا العهد
في المخابرات والمعاهدات لا يمنع من أن تصير من الألغاز عند إشتجار الأغراض، فما ظنكم بنصوص دينية جرت في الأصل مجرى التلميح تجنباً للعدوان والاضطهاد؟
والمقام لا يتسع لغير فرضين اثنين: فرض يجيزه الجدل وهو الظن أن القرآن وحيٌ من عند الله، وفرض يجيزه الجدل وهو الضن بأن القرآن من صنع محمد، وللفرض الثاني فرعٌ سنشير إليه بعد لمحات.
فعلى الفرض الأول يكون القرآن هو الفَيْصَل في تقرير مذاهب الأنبياء، وعلى الفرض الثاني يكون محمدٌ أخضع الأنبياء في أقوالهم وأفعالهم لمذاهبه الذاتية في الوصل بين الدين والمدنية.
وأنا في حيرة بين هذين الفرضين، ولو كنت من خصوم الإسلام لاخترت الفرض الأول واسترحت، فليس من الكثير أن يضاف محمد إلى الأنبياء، ولكن الكثير حقاً أن يصل رجلٌ غير ملهَم إلى الوصل بين العلم والمدنية، وهون غرض كان يجب أن يتنبه إليه كبار الأنبياء. و (البلية) كل البلية أن الناس عجزوا عن تخيل نظام يكون أفضل من نظام الإسلام، وهو النظام الذي يوجب أن يوزع المرء قواه بين ثمرات الأرض وأنوار السماء.
الإنسانية أجمع تحتقر الرجل المنزوي في الكهوف، والإنسانية أجمع تبغض الرجل الذي لا يعرف غير اقتناص الأموال، والإنسانية أجمع قد اتفقت على أن الإنسانية الكامل هو الرجل الذي يأخذ نصيبه من الدنيا مع الاحتفاظ بنصيب في الدين
ومحمد هو صاحب هذا الرأي، وبه (أدعّى) على زعم أصحاب هذا الفرض أنه خاتم الأنبياء. ومن هذا الملحَظ ندرك كيف صار خاتم الأنبياء، فمن العسير أن نتصور نظاماً أفضل من النظام الذي شرعه محمد عن طريق الوحي أو طريق الاجتهاد.
هنالك فرضٌ ثالث، وهو أن تكون الضمائر الإنسانية تجمّعت وابتدعت هذه الشخصية المحمدية، لتكوين الرمز الذي يصور مثلها الأعلى في الوجود.
ويمنع من هذا الفرض مانعان حصينان، أحدهما تاريخيّ وثانيهما فلسفيّ.
فمحمد حديث العهد في التواريخ النبوية، ولم يمض من الزمن ما يسمح بجعله شخصية

معنوية، كالذي قيل في بعض الأنبياء، أو بعض الحكماء. ألم يشُك قوم في وجود المسيح وسقراط؟
أما الجانب الفلسفي فهو يضايق خصوم الإسلام، لأنه يجعله سريرة وجودية، وعندئذ يكون من الحتم أن يكون أعظم دين عرفه الوجود.
للباحث المنصف أن يدير هذا البحث كيف يشاء، فلن ينتهي إلا إلى ما انتهينا إليه، وهو القول بأن شريعة محمد خير شريعة عرفها المجتمع الإنساني، فهي إذا منحة ربانية تستوجب الحمد والثناء. وهل يصدر مثل هذا الفيض إلا عن صاحب العزة والجبروت، وهو الذي منح (إنسان العين) على صغره قوة تخترق أجواز السماء، بغض النظر عن فضله العظيم في إضاءة العقول والقلوب؟
ثم ماذا؟
نترك إلى الباحثين المنصفين درس هذه المعضلة بنور المنطق والعقل والعدل، وننتقل إلى شرح الاصطلاح المعروف بالتطبيق، فكيف كان الإسلام بعد موت الرسول؟
شرَّق الإسلام وغرَّب، وجرتْ بين أهله أحداثٌ وخطوب، حتى جاز القول بأن فريقاً من المسلمين أخطئوا فهم الغرض من الدين الحنيف
وفي حومة ذلك الخطأ نشهد ظاهرتين بارزتين بعنف وطغيان:
الظاهرة الأولى هي الاهتمام باللغة العربية اهتماماً يتمثل في المؤلفات التي تُعدّ بالألوف، ويتمثل في قول بعض الفقهاء بأن الصلاة بغير اللغة العربية عملٌ مردود
أما الظاهرة الثانية فهي الإقبال المنقطع النظير على درس الجوانب المدنية من التشريع الإسلامي، ويمكن بسهولة أن نقول إن (القانون المدني) لم يشهد في جميع أدوار التاريخ شرّاحاً أعمق من الشراح المسلمين، جزاهم الله خير الجزاء، فهم الحجة الباقية على أصالة العبقرية المدنية في الأمم الإسلامية
وارجع إلى الظاهرة الأولى بشيء من التوضيح فأقول:
كان المسلمون يرون أن لا سلامة للعالم إلا بوجود (لغة دولية) يتفاهم بها أهل المشرق وأهل المغرب، وهل قام في الدنيا نزاع إلا بسبب انعدام التفاهم بين الناس؟
ومازال المسلمون يساومون هذا الغرض حتى تحول إلى عقيدة دينية، فصح عندهم أن (اللغة العربية أحسن اللغات)، وأن الصلاة بغيرها لا تجوز، وأنها ستكون لغة أهل الفردوس. والمسلمون يعتقدون اعتقاداً جازماً بأن رحمة الله مقصورة عليهم، وأن طمع
سواهم في الجنة لا يزيد عن طمع إبليس، وتلك غاية الغايات في الإيمان بأن (الدين عند الله الإسلام)
ذلك التصور اليوم قد يعدّ من ضروب الخيال، ولكنه كان حقيقة عند المسلمين الأولين، وبفضل تلك الحقيقة وصلوا إلى ما وصلوا إليه من التفوق الملحوظ على أكثر الممالك والشعوب.
والغريب في هذه القضية أن المسلمين الذين آثروا لغتهم بذلك التقديس قد تحرروا في فهم أغراضها تحريراً لا يعرفه أبناء اليوم، فقد كانوا يستبيحون إنشاد أشعار المجون في المساجد وفي أعقاب الصلوات، وكانوا يرون خصومهم في هذه الحرية الأدبية قد (تنسكوا تنسكاً أعجمياً)، ولذلك شواهد يضيق عنها هذا المجال
قد تقول: وما الموجب لهذا التناقض الغريب؟
وأجيب بأنهم أرادوا أن يجعلوا اللغة العربية لغة مدنية لا لغة دينية، واللغات المدنية تتحدث عن جميع الشؤون، ولا تسكت عن شرح العواطف والأحاسيس والأوهام والأضاليل. ألم تروا كيف اتسعت مساجد المسلمين لشرح أشعار النصاري واليهود والصابئين؟
ويتفرع عن هذا ما جاء في التواريخ الإسلامية من أعمال الرجال، فالإسلام كُتلةٌ واحدة، فكما تقول في جد عمر بن الخطاب: حدثنا فلان عن فلان، تقول في هزل عمر بن أبي ربيعة: حدثنا فلان عن فلان. وهل ثبت في أي ملة أن رجال الدين تحرروا من تقاليد فقالوا في الجمال الذي يطوف بالأماكن المقدسة معشار ما قال الشريف الرضي في قصائده الحجازيات، وكان أمير الحج بتفويض من خليفة المسلمين؟
يجب الاعتراف بأن الإسلام أعطى أبناءه حريات لم تعرفها سائر الديانات، لأنه لم يكن ديناً فحسب، وإنما كان ديناً ومدنية

ويجب الاعتراف بأن التطاول على هذا الدين لا يقع إلا من الأوشاب والمأجورين، فما كان إلا نعمة نورانية جاد بها الله على هذا الوجود
وماذا أقول في شرح الظاهرة الثانية، وهي الاهتمام بما في التشريع الإسلامي من الجوانب المدنية؟
تنقسم كتب الفقه إلى قسمين: قسم العبادات وقسم المعاملات ويلاحظ من يقرأ كتب الفقه أن
المؤلفين يترفقون في شرح القسم الأول، ثم ينطلقون كالسهام عند شرح القسم الثاني، وتظهر براعتهم في تشريح دقائق المعاملات
وهنا نكتة تستحق التسجيل. فرجل الدين في الفرنسية يوصف بأنه ومعنى هذا الوصف أنه لا يصلح لفهم أمور المعاش انقطاعه عن صحبة الناس
فكيف أمكن لرجال الدين من المسلمين أن يكونوا أئمة في شرح القوانين المدنية؟
يرجع ذلك إلى روح الدين الإسلامي، وهو دين يدعو جميع أبنائه إلى الاندماج في المجتمع، ويقهرهم قهراً على الأخذ من منافع الدنيا بنصيب، ليعرفوا الدقائق من شؤون الناس وهم قضاة الناس. وهل يصلح القاضي للفصل في نزاع لا يحس له شبيهاً في حياته المعاشية؟
كان يقال إن أحق الناس بالإمامة في الصلاة وفي القضاء هو المتزوج، ويرجح زوج المرأة الجميلة، لأنه أقرب إلى التعفف، بفضل ما يملك من الجمال الحلال
وأقول إنما قدَّم زوج المرأة الجميلة لأنه يعاني من المتاعب أضعاف ما يعاني سواه. فهو أعرف بشؤون المجتمع، وأقدر على فهم شؤون المعاش
وأقول أيضاً إن تنقل الفقيه منم أرض إلى أرض كان يزيد في قيمة التشريعية. فالشافعي له مذهب جديد ومذهب قديم بسبب تنقله بين مصر والعراق.
وأقول كذلك إن الرحلة كانت شرطاً في التفوق العلمي عند الأسلاف لفضلها الظاهر في الاطلاع على دقائق العادات والتقاليد
والقول الفصل أن رجل الدين عند المسلمين لم يكن من رجال القوانين المدنية إلا لأنه كان يساير المجتمع ويراوحه ويغاديه بلا انحسار ولا انقباض
وهل أستطيع القول بأن في الدين الإسلامي أقطاباً كانوا من كبار الأغنياء، ومن المتصرفين في المتجرات والمزروعات؟
إن الصوفية أنفسهم وهم الغاية في الزهد لم يملكوا الفرار من المجتمع؛ فقد كانوا مسئولين أدبياً عن تدبير المعاش للمريدين أليس من العجب أن نقرر أن أصدق ما كتب في آداب التجارة والزراعة والصناعة هو ما صدر عن أقلام الصوفية؟
ثم ماذا؟ ثم ماذا؟
ثم أمضي إلى آخر الشوط فأقول:
أحب المسلمون دنياهم فأقبلوا عليها بنهم وشراهة، فماذا جنوا من ذلك الحب؟
كان امتحاناً قاسياً عنيفاً إلى أبعد حدود القسوة والعنف. فقد عرفوا به أن لا بقاء للحياة بدون أخلاق، فكيف كان نصيبهم من شرح دقائق الأخلاق.
لا أزعم أني قرأت جميع ما كتب عن الأخلاق في جميع الديانات، وإنما أقرر أني اطلعت على مجلدات كثيرة في الأخلاق المنسوبة إلى رجال الدين من غير المسلمين، فما وجدت لها حرارة تشبه النار الموقدة في الكتب الإسلامية، فما سبب ذلك؟
المصلح المسلم تكتوي يده بنار المجتمع في كل يوم، فهو يسكب دم قلبه على القرطاس، وهو يتحدث عن واقع لا عن خيال، فهو يقول رأيت وغيره يقول سمعت، أما أبعد الفرق بين الرؤية والسماع!
الأخلاق في الكتب الإسلامية منقولة عن تجارب شخصية لا روايات خيالية، وما خط مسلم حرفاً في الأخلاق إلا وهو يتمثل مشاهد حية من بغي الناس بعضهم على بعض بلا رحمة ولا إشفاق
معاملة المسلم مع الله تنحصر في هذه الكلمة الوجيزة
(أعبدِ الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)
أما معاملة المسلم مع الناس فلها ألوف وألوف من الدقائق والتفاصيل.
فهل كان ذلك إلا لأن الإسلام أول دين عُنِيَ عنايةً صريحة بالشؤون المدنية؟
قد يقال: وكيف جاز أن يسف المسلمون بعد التحليق؟

وأجيب بأن المسلمين لم يسقّوا إلا بعد أن فُتنوا وزُلزلوا وتوهموا أن المدينة ليست من شؤون الدين
أليس مما يعيب الرجل المسلم في هذا العصر أن تكون له مطامح سياسية واقتصادية؟
اخلعوا النير عن أعناقكم يا مسلمي هذا الزمان، ويا عرب الزمان؟
لقد فَضَحنا (أشراف) مصر حين طالبوا بحقهم في التحرير من الجندية
وفَضَحنا (عربان) مصر حين طالبوا بامتيازهم في التخلص من الجندية
فماذا يريد أولئك وهؤلاء؟
محمد هو أول نبي وآخر نبي حمل السيف
ومحمد هو أول نبي وآخر نبي عرف قيمة الإرادة الذاتية فقضي بأن واجب المرء أن يخاطب ربه بلا وسيط
ومحمد أول نبي وآخر نبي كَرِه لأتباعه القرار والاطمئنان (البحر وراءكم، والعدو أمامكم) فأيان تذهبون؟
غيّروا ما بأنفسكم، يا مسلمي هذا الجيل، ويا عرب هذا الجيل
واحترسوا ثم احترسوا من أن يكون لمخلوق فوقكم سلطان
أنت الأعلون، وإن كنتم مضطهدين، ولن تمر أعوام قبل أن تأخذوا مكانكم فوق هامة الوجود الصحيح
ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين
زكي مبارك
حاجة المدنية إلى دين
للدكتور محمد البهي
للجماعة الإنسانية مهمة، ولها هدف أخير: مهمتها تنظيم رغبات الأفراد، والعمل على تطبيق دائرة التصادم - إن لم يكن منعه - بين هذه الرغبات، بعضها ضد بعض؛ وغايتها من وراء ذلك حياة الوئام والوفاق، أو حياة (السلام) أو سيادة (الخير) على نوازع الشر هذا هو الشأن في كل جماعة إنسانية، حتى في الفطرية منها. فزعيم الجماعة البُدائية يدعي - حتى في اللحظة التي تغالب أنانيته على تصرفاته - أنه يعمل للخير والسلام، وأنه يسعى للتوفيق بين أفراد رعيته في رغباتهم ومآربهم
وقانون الجماعة المهذبة يضع - ما أمكن - نصب عينيه (صالح) الجماعة أو (العدالة) أو (المساواة)، ويحاول أن يبرز هذا الهدف في كل ناحية من نواحيه محافظة على السلام وحباً في خير الجماعة
ولا تتميز الجماعة الفطرية عن الجماعة المهذبة إلا بأن البواعث (الشخصية) أو الأنانية هي التي تتحكم غالباً في تحديد الخير والسلام، وفي توجيه الأفراد نحو الخير والسلام؛ بينما يحتكم قانون الجماعة المهذبة إلى عوامل مجردة - بقدر الإمكان - عن المعاني الشخصية في نظرته إلى (الصالح العام) أو (المساواة) وهذا بعينه هو الفرق بين الطفل والرشيد في الإنسان
وخير الجماعة الإنسانية في الواقع هو في الحيولة دون قيام النزاع والخصومة بين أفرادها بسبب اختلافهم رغباتهم. إذ من شأن اختلاف الرغبات حدوث التصادم بينها عند محاولة تلبيتها
وهذه الحيلولة تتم سواء أكانت بالدعوة إلى كبت الرغبات، وإلى الإقناع بالتنازل عنها أو عن كثير منها بدعوى أن ليست لها قيمة ذاتية كما تصوره لنا دعوة (الزهد) في متع هذه الحياة، أم كانت بتوزيع نفس هذه المتع - بناء عن اعتبارها وتقديرها - بين أفراد الجماعة لكل منها نصيب حسب كفايته التي تختلف حسب اختلاف مقاييسها عند الجماعات المتعددة، كما تنصح بذلك (النظرات) الجديدة في الحياة
والوسيلة الأولى وهي دعوة الزهد، أو دعوة القصد في متع هذه الحياة كانت طريق العقائد
الأولى الشرقية، والمدارس الفلسفية القديمة، وطريق الديانات السماوية كذلك. فكلها وضع (الخير) غاية للفرد وللجماعة، وكلها تقريباً نصح ونادى بالزهد كعامل رئيس من عوامل الوصول إلى هذه الغاية. والفرق بينها أن العقائد الأولى كعقائد قدماء المصريين والهنود والفرس تنسج (الخير) كغاية للإنسان في قصة شعرية أو في حكاية

فرضية
وهي بينها تختلف في مقدار هذا الفرض وقيمته، وفي ذلك العنصر الشعري ومقداره - بينما الفلسفات القديمة أو الديانات السماوية، وأن سلكت طريق الإقناع تميل إلى تحكم المنطق والالتجاء إلى العقل في الدعوة إلى (الخير) والتقرب من مثاله، أو التقرب من الله الذي هو عنوان الخير المطلق. والفرق بينهما كذلك في قيمة النظر إلى الزهد كوسيلة إلى تلك الغاية، فبعض العقائد الشعبية الأولى كبعض المدارس الفلسفية القديمة وبعض الديانات السماوية يبالغ في تقدير الزهد وفي صلته بسيادة الخير في الجماعة؛ ولذا يتشدد في طلبه من الفرد ويوصي به إلى درجة (الحرمان) أو (الإفناء). والبعض الآخر من هذه الاتجاهات الثلاثة يعترف بالزهد كوسيلة للوصول إلى الخير - يقره كذلك - ولكنه لا يطلب أن يكون موقف الإنسان من هذه الحياة سلبياً فقط، بل بجانب نصيحته له (بالقصد) في متعها بوجه نشاطه وحيويته إلى عمل إيجابي للغاية نفسها، وهي غاية الخير

أما الوسيلة الثانية وهي محاولة تنظيم متع هذه الحياة بين أفراد الجماعة الإنسانية تجنباً للتصادم بين رغبات الأفراد المختلفة فهي طريق الأخلاق كعلم استقل عن التأثر بالميتافيزيقيا وطريق القانون. وبعبارة أخرى هي طريق الإنسان الحديث الذي رغب في الاستقلال بنفسه عن الدين وعن الفلسفة الأولى عند تحديده للحياة وتحديد مهمته فيها

فالبحث في تحديد (السعادة) أو (الواجب) مهمة علم الأخلاق؛ واعتبار (سعادة) الجماعة أو اعتبار عمل (الواجب لذات الواجب) هو هدف التشريع الحديث والقانون الوضعي، وهو كذلك أيضاً أساسهما. فالقانون في مواده المختلفة المتعلقة بنواحي الحياة للفرد والجماعة يحاول أن يشعر الفرد ويفهمه أيضاً أنه إذا لم تقتضي له رغبة بأن هذه الرغبة لم تضع عليه في الواقع، إذ (سعادة) الجماعة أو (الواجب)، أو ما صاغه القانون ذاته من (الصالح العام) طلب إحلال أمر آخر محل هذه الرغبة الفردية الخاصة إلى حين؛ وذلك نظير تمتعه - أي الفرد - بالصالح العالم في فرص أخرى وهي كثيرة فالقانون إذا لا يرغِّب عن هذه الحياة، ولا يقلِّل من قيمتها، وقلما يعترف بنهايتها أو بتحولها إلى حياة أخرى ثانية. ولهذا رأي مهمته في تنظيم رغبات الأفراد، وفي التسوية في تلبيتها لهم بقدر ما يمكن، دون أن يراها مثلاً في إقناعهم بالعدول عنها إلى متع أخرى ألذ وأشهى وأدوم كذلك في حياة أخرى

والقانون والأخلاق كعلم من أخص مظاهر المدنية الحديثة. وهذا معناه أن المدنية الحديثة تتميز بالميل إلى الاستقلال وبمحاولة هذا الاستقلال، أيضاً، عن الدين وعن العقيدة وعن الفلسفة الميتافيزيقية في فهم (غاية) الإنسان وفي تعيين الطريق لتحقيق هذه الغاية

وكما كان عنوان الدين، أو من لوازم الدين والعقيدة، الدعوة إلى (الخير)، وكما كان من وسائله إلى تحقيق ذلك النصح بالزهد في هذه الحياة، كان عنوان المدينة الحديثة تحديد (الصالح العام) وتقريره ثم محاولة تحقيقه بتنظيم انتفاع الأفراد بهذه الحياة نظرتان مختلفتان في الحياة، وتوجيهان للإنسان فيها مختلفان كذلك

وربما يبدو أن تنظيم الانتفاع بهذه الحياة بين أفراد الجماعة الإنسانية، وهو محاولة القانون، ليس أشق على طبيعة الإنسان كطلب الزهد منها الذي هو نصيحة الدين؛ والعلاقة الصحيحة بين تنظيم الانتفاع وبين الزهد ليست اليسر من جهة ولا العُسر من جهة ثانية، بل هي تحكم إرادة الإنسان في طرف وإغفالها في طرف آخر. إذ طلب الزهد معناه اعتبار إرادة الإنسان وتحكيمها، بينما تنظم الانتفاع معناه الركون إلى سلطان القانون وتحكمه وحده. فالزهد وإن بدا أنه مظهر سلبي هو عمل إيجابي إذ هو مظهر الإدارة للفرد

وحقاً إذا كانت غاية القانون أو غاية المدينة هي غاية الدين والعقيدة، لأن مآل رعاية الصالح العام، أو رعاية سعادة المجموع، أو تقرير عمل الواجب لذات الواجب هو مآل عمل الخير؛ وحقاً إذا كان في محاولة تنظيم الانتفاع بهذه الحياة بين أفراد الجماعة تحقيق لنتائج الزهد، إذ أن في الرغبة عن متع الحياة أو عن كثير منها تضييق لدائرة النزاع بين الأفراد وهو غاية التنظيم، إلا أن في الدين والعقيدة معنى آخر ليس في القانون وليس في علم الأخلاق، هذا المعنى الآخر هو أن موحي الدين له نهاية الحكمة

وكمال المعرفة في نفس الإنسان المتدين أو المعتقد طبقاً لمبدأ التأليه؛ وهذه صفة للمعبود تدع في نفس الإنسان المتدين عدم المناقشة فيما أوحى به الدين كما تدع فيها أيضاً الرضا بما جاء به الدين.

فطاعته للدين إذا طاعة نفسية، ومحاولة الشذوذ عن أوامر ونواهيه أمر غير قريب إلى نفسه. ولكن واضع القانون، في نظر الخاضع له، إنسان غير معصوم، وبالأخص غير منزه عن التأثر بالعوامل الشخصية في تقنية لأنه من نوعه الإنساني وليس من جنس آخر أسمي منه. فالقانون له احترام من نفس الفرد الخاضع له وما دام لم يتعارض مع رغباته الخاصة. فإذا تعارض قل الأكثرات به في نفسه لأن الانحراف - هكذا ينظر الفرد - عن الصواب قد يكون في القانون نفسه دون أن يكون في رغبات الفرد. فموقف الفرد إذا من القانون موقف الناقد؛ وأساس النقد عنده رغباته الخاصة في الأغلب؛ وطاعته للقانون في كثير من الأحايين ليست لذات القانون بل للخشية من منفذه والقائم بأمره. وإذا قل عنصر الرضا النفسي في الطاعة كانت محاولة المخالفة للقانون موجودة في النفس وقوعها مرهون فحسب بضعف الرقابة أو بزوالها فمحاولة المدينة بقانونها وبأخلاقها الاستغناء عن الدين وعن العقيدة محاولة قاصرة، نجاحها لا يتعدى نطاقاً ضيقاً وهو نطاق الخاصة، وهي في حاجة في الواقع إلى الدين وإلى أن يسود المتدين جماعتها. ومهما استعانت بالعلم الذي هو مظهر آخر من مظاهرها، فليس في العالم وحده ما تحتاجه من العون؛ إذ الإنسان كما هو مودع في فطرته الميل إلى العلم وإلى الكشف، مودع في فطرته كذلك الاطمئنان والركون إلى (السر الخفي)، وتأليهه أو تعظيمه للغير ظاهرة من ظواهر هذا الاطمئنان والركون. والله في نظر الإنسان رمز كل سر وكل خفاء، فلا يدرك كنهه ولا يوقف على حقيقته. ولهذا كان له أرفع درجة من تعظيمه واحترامه. وما ينسب إليه عظيم ومحترم كذلك؛ فقوله قل أن يخالف، ووصيته ندر ألا تنفذ، لأن المخالفة وعدم التنفيذ معناه الشك في هذا التعظيم الذي صار الآن أمراً مقرراً

وإذا كنا ندعو المدينة بوجه عام إلى دين وإلى تدين فلسنا متحيزين إذا دعونا إلى الإسلام بوجه خاص؛ لأن الإسلام في تقرير الزهد كوسيلة للوصول إلى الخير لم يبالغ في طلبه ولم يعتمد عليه وحده، بل جعل بجانبه تنظيم الانتفاع بهذه الحياة - بعد أن أباح التمتع بها - وعمل على تنظيم علائق الأفراد في دائرة هذا التمتع وليس القانون، وليس علم الأخلاق؛ وبعبارة أخرى ليست المدينة هي التي كشفت عن (رعاية الصالح العام)، بل من قبلُ وضعها الإسلام في تنظيمه (للمعاملات) ففي الغاية جمع الإسلام كدين وكتشريع بين (الخير) وبين (رعاية الصالح العام)، وفي الوسائل نصح بالزهد إلى حد ما وعمل على تنظيم الانتفاع بهذه الحياة بعد أن أجاز الانتفاع بها وهو بهذا يعتبر إرادة الإنسان كما لا يهمل رقابة القانون

محمد البهي

على ذكرى الهجرة

القوة والدين

للأستاذ راشد رستم

إن الهجرة التي قام بها نبي الإسلام محمد بن عبد الله عليه السلام - حادث تاريخي، ليس له من صبغة الدين إلا أنه من أيام رسول الله.

غير أن أثرها في الإسلام عظيم

لما أراد المسلمون الأولون أن يؤرخوا لدينهم لم يجعلوا ذلك يوم ولادة الرسول، ولا يوم نبوته - بل يوم هجرته

وقد كان هذا هو رأي رجل الإسلام القوي عمر بن الخطاب - تذكرة للمسلمين بالاضطهاد الذي لاقاه رسولهم - وتنبيهاً إلى الثبات على المبدأ، وتنبيهاً لضرورة الجهاد في سبيل الدعوات

ذلك هو فضل يوم الهجرة: فضل تاريخي، فضل اجتماعي فضل للحياة الآملة المجاهدة. هذه الحياة التي لا تقيم للحق وزناً إلا بالجهاد في سبيله، والتي لا تعرف للحق وجوداً إلا إذا قام له صاحب

وصاحب حق الإسلام هو عظيم المجاهدين له عليه السلام، إذ لم يظهر حقه وقد كان خافياً إلا بعد أن جاهد له، وقد اعترف به الزمان وظل به معترفاً

ولكن كان إذا ونِي أنصار الحق عنه قليلاً ونِي الزمان عنه قبلهم، وإن شدُّوا له وتجمعوا
عاد الزمان فأقامه لهم على هام الدول والأيام واضحاً ثابتاً
ذلك منطق الزمان. هو لا يعرف غير الغالب، والغالب أن يكون الغالبُ صاحبَ حق
ولكن الغالب كذلك ألا يكون الحق غالباً إلا بالقوة، فإن كانت غلبة الحق لا شك فيها،
فإنه وهو غالب يكون كذلك هو القوي. . .
وقد يكون الباطل غالباً. ولكنه هو غالب، يكون كذلك هو القوي.
غير أن دولة الباطل ساعة، ودولة الحق إلى قيام الساعة
لذل لما كان كفار العرب، وهم مع باطلهم أظهر على الرسول وهو مع حقه، كانوا
كذلك لأن القوة كانت لا تزال معهم؛ حتى إذا ثبت محمد بحقه في الميدان واستمر
مجاهداً فاز
بالقوة يدعهم بها حقه ويديمه
ومن مزايا الحق أن الاعتقاد بيقينه يجعل من الضعف قوة، كما يزيد القوة قوى
ومن ذلك كان نصر الحق بالثبات عليه والجهاد له
ورسول الإسلام لم يكن ينقصه الحق ولا مزاياه؛ وإنما هي القوة. . . لذلك كان يعمل
لها بعد أن تأكد من يقين حقه، وكذلك كان من معه
وهكذا كان ثبات النبي مضرباً للأمثال
فكمْ هدد، وأوذي، ورغِّب؛ فلم يجبن ولم يرجع عن جهاده. بل كان يثور للحق ويثير في
نفوس أنصاره الروح النقية القوية، والعقيدة الصحيحة بأن القوة أولى بها أن تكون
للحق، وأن الحق لا بد له من القوة ما دام الباطل يستعين بها فلما فاز الرسول
بالقوة، ظهر على أعدائه حقه
وهكذا كان حال السابقين من أهل الدعوات، فما تمكن دين المسيح عليه السلام إلا
بعد أن دان له الإمبراطور قسطنطين العظيم، فدعمته قوة السلطان
وما كان زاهيا زاهراً دين موسى عليه السلام إلا لما كان السلطان لبني إسرائيل؛ فلما
شالت نعامتهم ذهبت ريحهم
على أننا لا نقصد بالقول أن نحط نمن قيمة الحق، وأن نرفع من القوة، ولكننا نقرر
مركز كل منهما من الآخر، ذلك المركز الذي توجبه جِبِلَّة البشر وطبيعة الإنسان، تلك
الطبيعة التي فطر عليها من أن يَمَلَّ المعنويات ويعظمَ المحسوس
إن هذه الجبلة الآدمية هي التي تدفع بالحق يسعى وراء استخلاص القوة لنفسه، وإنه
لعمل محمود
ليس في السعي وراء القوة عيب، إذ القوة أظهر مظاهر المحسوس، وهي لسان
الإنسان الفصيح وبيانه المفهوم، وهي الواسطة القوية لنشر الفضيلة المطوية، كما أنها
ترفع الباطل إن ظفر بها مختلساً
وسلامٌ على الحق إذا لم تؤيده القوة
وسلامٌ على القوة إذا لم تؤيد الحق
ليس في استعانة الق بالقوة تقليل من قوته أو حط من قدره. فالقوة وسيلة الطبيعة
للبقاء،
والإنسان حيوان قبل أن يكون عقلاً. .
لذلك يسبق في عمله إدراك القوة قبل أن يدرك ما هو حق وما هو باطل
فإذا هو أدرك لأحدهما معناه، عمل لبقاء ما اختار منهما لنفسه والبقاء في هذه الحياة
هو للأقوى
فيا أيها الصالحون، اعملوا على أن تكونوا الأقوياء. . .
وانظروا في ذلك وأنتم في مرحلة لكم جديدة. . .
راشد رستم
من مذكرات عمر بن أبي ربيعه
أيام حزينة
للأستاذ محمود محمد شاكر
(قال عمر بن أبي ربيعة. . .):
وجاء ابن أبي عَتيق (هو عبد الله ابن محمد أبي عتيق ابن عبد الرحمن بن أبي بكر
الصديق)، فوالله لأنَ كنتُ بين ضِرْسين من الجبل يدوران عليَّ دَوَرانَ الرَّحَى، أهونُ

عليَّ من أن أكون لقيتُ هذا الرجلَ الحبيبَ!

كانَ رجُلاً ضربْاً خفيفَ اللَّحم أحمر طِاهِرَ الدَّم كأنّ إهابه شُعْلةً تشبُّ وتتلهَّب، أفرعَ فينَانَ الشَّعر، مخروطَ الوجه، أزهر مُشرقاً كأنّ بين عينيه نجماً يتألق، يُقْبل عليك حُرُّ وجْهه بعينين نَجْلاوين قد ظَمِئ جفْناهما حتى رقَّا، يرسلُ إليك طرَفةُ فترى الضحك في عينيه خِلقَةً لا تكلّفاً. ما احسبني رأيته مضرةً إلا خلْتُه دعابةً قال لها الله: كوني! فكانتهُ.

وكأني به قد دَخل على أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق وهي تَكيد بنفسها - في مرضها الذي ماتت فيه - يقول: كيف أصبحت يا أمّاهُ؟ جعلني الله فِداكَ! فتقول عائشة: أجَدُني ذاهبةً يا بُني! فيقول: فلا إذنْ يا أم المؤمنين!! فتبتسم عائشة وتقول: حتى على الموت يا ابن أبي عتيق!! فيقول: أرضاكِ الله يا أماّه! لو جَاءني الموتُ كأكرهِ ما يأتي على حيٍ، ما تركتُ له دعابتي حتى يستضحك، فيرحل بي عن الدُّنيا بوجهْ غير الذي جاء به!

فلو أنّ أمراً من عرضْ الناس لا أعرفه، جاءني فزعم أن نجماً في السماء بكى، وأن القَمرَ مدّ إليه مثلَ اليَد فكفكف من عَبَراته، لكان أقرب إلي منْ يأتي آت يقول هذا ابنُ عتيق في الناس بعينين ضارعتين خاشعتين ذاهلتين يعرفُ فيهما البُكاء!

رجل صالح تقي خفيف الروح نشوان القلب، قد انحدر من جده (عبد الرحمن بن أبي بكر الشاعر)، حنين الشاعر حين يرى الدنيا كالغانية المنعّمة تتصبيّ له وتتقتَّل، فيحن إليها بصبَوات الشباب المتوهج. . . وآب إليه من جده (أبي بكر الصديق) حنان التقي وهو يرى الدنيا كالناشئة الغريرة لا تزال تنشُدُ تحت جناحه دِفء الأبوّةِ فتأوي إليه وتتضوّرُ، فهو يخفض لها من رحمة الوالد المتحنن. . . فابن أبي عتيق من هذين الأبوين كالربيع: جمال وشباب، ورقة وحنان، وفرح لا ينتهي

وكنتُ أجدهُ فيما يتوقَّدُ عليَّ من الكُربِ كالغمامة الغادية: ظِلٌّ وريٌّ، ثم لا يزال بي حتى أنام إلى دعَابته، فإذا آلامي تطوف بي من بعيدٍ كأنها أحلام، بعد أن كانت في دمي جمرة تتلذّع. ولقد أكون مما أستعصي عليه بأحزاني، فأريدُ أذهب عنه نافراً أبتغي أن أعكُفَ على آلامي كما يعكُفُ العابد على بُدّه، فما هو إلا أن يأخذَ ينشد:

مَتى ترَعْينيْ مالكٍ وجِرَانه ... وجنبَيْه، تعْلَم أنه غيرُ ثائِر
حِضَجْرٌ، كأمَّ التَّوْأمَينِ توكَلتْ ... على مَرْفقَيْها مسْتهِلَّةَ عاِشر

فينشد أغرب إنشادٍ وأعجبه، ولا يزال يجرك ويشير ويمثّل، فوالله ما من ساعة أنشدنيها هذين البيتين، وأقبل عليَّ يريني ما يأتي به، إلا نبع الضحك من قبلي دفعة حتى ما أتماسك معه

فكيف به اليوم وقد سكن كأنه دمعة خافتة تئنُّ تحت الزفراتِ، يمشي إلى كأن أيامه تطوفُ به ثاكلاتٍ نائحات، يغض طرفه كأنما يمسك عبرة همَّتْ من هاربة من الأسر، يطأطأ هامته كأنما يقول للزمن: تخطَّ، فلم يبق بيني وبينك عَملٌ أيها الجبَّار، يستكين حتى لأخاله يجمعُ أطراف نفسه لا يزاحمُ أفراح الناس بما يريد أن يتنفَّسَ من أحزانِه لك الله يا ابن أبي عتيق! لقد كانتْ لك كالجدول النَّامي النميرِ: هو سرُّ الأرض، وسرُّ العود، وسرُّ الزُّهر، وسرُّ العطر؛ فلما جَفَتْ عنك همدت أرضك، وظمئ عودك، وصوَّحَ زَهرك، وتهارب عطرُك. . . زوجةٌ كانت تستودع روحك مع كل شارق، ما تتملَّى به أفراحِك ولهوك ودُعابتك، فتخرج إلى أحبابك لتحمل عنهم همومهم فتغرقها في ذلك البحر الخِضَمَّ من الفرح والابتسام والرضي!

ودخل ابن أبي عتيق فسلَّم سلام الذاهل المتوَله، ثم جلس كأنما هو يلقي عبئاً ثقيلاً كان يمشي به، ثم نَظر في عينيَّ بعينين ندَّيتين ترى في غورْهما ذلك التنُّور المتضرمَّ يتقاذف شُعَلَه في ثنايا النفس وفي مسارب العاطفة. وأدام النَّظر لا يرفعه عني كأنما يقول: انظرْ واعرفْ ولكن لا تتكلَّم! فأشهد أني افتقدتُ ما أقول أعزَّيه به أو أرفه عنه، بل كأنما أفرغ بعينيه في عينيَّ من أحزانه، حتى أراني أجد مسَّ النار في صدري وهي تستعر ولكني خفتُ على صاحبي ورفيقي إن أنا سكتُّ له، أن أكون قد خلَّيت بينه وبين همه، وإن أحدنا لو قَعَد يمارسُ أحزانه يوماً بعد يوم لصرعتْه. أجل وإن الحزن ليهجُم على النفس كالسُبع

الضاري، حتى إذا عَبرَ إليها وقف يستأنس متلفَّتاً يريد ما يختلج أو يتحرَّك، فما هو إلا أن يُهوي إليه فيبطش به، أو ينشب فيه براثنه ينفضه ثم يقضقضُه حتى يهمد. وإذا خُلَّى السبع لا يُذَاد يُطرد بقي يتأبَّد ويستوحش. ولا يزال على عادته يستمرئ كل ساعة

فريسته يغمس في دمها أو يَلغ، ثم لا يطفُّ حتى تكفُّ الحياة عما ينبض أو يتنفس.
وأخذتْ أزورَّ له الأحاديث في نفسي. فلما هممت بها لم أقل إلا ما يقول الناس:
عزاءك يا أبا محمد! فوالله كأنما بها الطير الجثوم، وظل وجه ابن أبي عتيق يروح الدم فيه ويغدو، وجعلت عيناه ترسلان على نظراتهما الدمعَ الذي لا يسفح، والعَتْب الذي لا يتكلم، وظلّ صامتاً، وراحت نفسي تنخزل عما أقدمت عليه، ولكنه لم يلبث أن زَفر إليَّ زفرةً خلت في نفثاتها شرراً يتطاير. ثم قعد يتململ حتى قال:
إن أيامي - يا أبا الخطاب - قد استحالت تيهاً أمشي فيه على مثل هذه الجَمَرات، ولقد كنتما عَهِدتُني، والأيام من حولي عُرْسٌ لا أعدم فيها ما أطربُ له. كَنت إذا ما حزن بعض أيامي، أجد من أفراح الماضي ما أهرب إليه بالذكرى، وأتوهَّم من نشوة الآتي ما أترامى إليه بالأمل، فكنت أعيش بفرحةٍ أحضرُها أو تحضرني لا أخاف ولا أجزع ولا أتوهم في الحياة إلا الخير. فأنا وقد أبت بغتات القدر إلا أن تنتزع مِن كفِّيَّ ما كنت أضنَّ عليه، فهيهات لها بعد اليوم أن تطيق انتزاعه من فكري. آه. . . آه يا عمر! كانت ملئ عيني وروحي وقلبي. كنت أعيش تحت نسيمها كالنشوان ذاهلاً عن الألم مهما أمضَّ، مستصغراً للكبير وإن فَدحَ، راضياً باسماً متحفَّفاً. . . إذ كانت هي هي الأماني تتجدَّدْ مع أيامي عليّ عليَّ وتتبلّج مع كل فجر في قلبي، ما كنت جزوعاً ولقد جزعت!
كيف قلت: عزاءً يا أبا محمد! ها الله يا ابن أبي ربيعه
كيف صبري عن بعض نفسي! وهل يصبِرَ عن بعض نفسه الإنسان؟
كانت بيني وبين الدنيا، وكانت آية الرفق والفرح، فكنت أرى الدنيا بعينها مشرقةً من تحت غياهب الأحداث، فالآن إذ نامت عني، كيف أرى إلا قِطعاً من الليل تغتالني من كل وجه، أو أشلاءً من الدياجي تجثم لي بكل سبيل؟
ثم رأيت في عينيه المَلل وهو يطوي على نظراته ما نشرتْهُ الحياة من همه النفس؛ وتخيلته - حتى كدت أتبينه - شبحاً ينساب في ظُلمة الليل فرداً قد انخلع من الحياة وأسبابها، فهو
يضرب في حشا الظلماء بسآمةٍ لا تهتدي ولا تريد أن تهتدي، وقد كدت مما شجيتُ له أن أدع إليه الحديث حتى يَستِتمَّه، ولكني أعرف في قلبه الرَّقةَ، فخشيتُ أن يمضي به الحزن على غَلْوائه، فقلت له:
مَهْ مَهْ يا أبا محمد، والله ما أنكرتك منذ عرفتك، ولكني اليوم منكر لك أو كالمنكر. أليس لك في إيمانك وإيمان آبائك معتصم أيها الشيخ؟ ما إسلامك النفس للجزع وما غلوُّك فيه؟ إن امرأ يؤمن بالله واليوم الآخر لخليق أن يستكين إلى قضاء الله استكانة الوليد إلى أمه. وإن أمرأ يختاره الله لامرئ هو أهدى سبيليه لا ريب، شَقِي بذلك أم سَعِد، وما يمسك النفس على أحزانها للأمر من قدر الله إلا الشيطان. خبرنّي يا أبا محمد! هل ابتُلِيَ الناس فيما ابتلُوا به بما هو أفضع من فجيعتهم برسول الله صلى الله عليه وسلم؟ كلا! فقد حزن الناس حتى أخذتهم آخذة، وحتى أنكر أحلمهم حلمه، وحتى إن بعضهم ليوسوس، فقام إليهم جدَّك الصديق فرد الناس إلى أحلامهم، وهو أشدهم حزناً على صاحبه ورفيقه؛ فعلم الناس أن الحزن للقلب وحده، وأن العقل والجوارح إنما هي للعمل، وأن هذا هو طريق الإيمان بالله وبقضائه: خيره وشره، أفأنت من يجوز عن سنة الله وسنة المهتدين من آبائه يا أبا محمد؟ كنتَ المرءَ الصالح الذي يرى الدنيا بعينيْ زائل، فما بالك اليوم تراها بِعَيْني متشبث قد أنشب فيها أمثال البراثن من عقله وفكره، فهو يتأبى أن يدور في وهمه أنه مفارقها؟
قال ابن أبي عتيق:
حنانيك يا عمر! فوالله ما تعلمين يا ابن أبي ربيعه إلا ما علمت. لقد عَجمت مني الحوادث صخرة مُلمْلمة لا تضرع. كم سحرْت من الدنيا وأحداثها، فجعلت أطويها في دعابتي طيَّ المُلاءة! كنت أتخففُ منها بنشوة أحْدثها في قلبي، فلو كان عليه مثل الجبل من الهمَّ لطار فيها كما تطير خافية من جناح. ولكني اليوم. . آه! لقلَّ ما جرَّبتَ يا عمر! أسلمت لله مُقَبِل أمري ومُدْبرَه يصرَّفه شاء. ولكني أجدُ هذا القلب المعُني لا يزال يخفق بالذكرى؛ أفأنت منكرٌ عليّ يا عمر أن أذكرها نسيماً رَفرفَ بين الجوانح والقلب؟ أني لي أن ألويَ النفس عن آثارها، وما أكاد أرى شيئاً إلا خلته يحدثني حديث الثاكِل: أنينٌ وحنين؟ فأين المهرب؟ دع عنك يا أبا الخطاب! أأراك تَلْحاني على الجزَع،

وما على ظهرُها أشقى ممنُ يصبح ليفتقد في نهاره حُلماً ضَلَّ عنه مع الفجر؟ كم خلوت إلى هذه النفس ألومها كالذي تلوم؟ وكم
وقفت على هذا القلب أذكره ما يذكرُ الناس مني، فإذا الذي كان بالأمس قد اصبح وكأنه أديم مرقوم قد تفَرَّى عاثَ البلى فمحاه. أريد، ويا لضلَّتي فما أريد! أنا كالساري في لجَّة الليل يلطم في سوادها، قد أضاع لؤلؤة يبحثُ عنها بين الحصى والرمال!. . .
لن أعودَ إلى الناس حتى أجد لؤلؤتي يا أبا الخطاب. . . لن أعود
ورأيت الرجل ينتفض انتفاضة المحموم من هول ما يجد، فرَحَمْته، ولكني آثرت أن أدور على بُنَيَّاته، عسى أن يأوى لهن فيؤوب إلى كبعض ما كان، قلت:
ظلمت نفسكَ يا أبن أخي فظلمت من لا يلوذ إلا بظلك. صغيراتٌ ضعيفات ضائعات: فمن لهن بعدك؟ لو كنتَ وشأنك لها الأمر، ولكنك استُحْفظتَ من لا يحفظه بعد الله إلا رحمتك، ومن لا يغذوه بعد الطعام إلا حديثك، ومن لا يضئ له وجه الدنيا بعد النهار إلا ابتسامك، ومن إذا أهمل ضاع عليك ضيعة الأبد. إنهن بناتك منها وبناتُها منك، فوالله ما تذكرها ذكراً في شيء هو أكرم واحب وأرضى عندها منهن. أجمل يا أبا محمد، أجمل!
فرفع إليَّ رأسه ونظر، ربا صدره بالزفرات وهو يقول:
لقد كنت أخشى لو تمليتِ خشيتي! ... عليك الليالي كرَّها وانفتالها
فأما وقد أصبحت في قبضةِ الرَّدَى ... فشأن المنايا، فلتُصِب من بَدَالها
لولا علمتَ يا عمر! كيف - بربك - كنتَ تراني أحيوهنَّ من قلبي خفقات لامعات . . . باسمات؟ كنتُ لو أطقتُ أن أجعل قلبي بينهن لهواً يتلَعَّبْنَ به لفعلت! فانظر إليك ماذا ترى؟ ما شيء أجتلب به على قلبي ألماً كنوافذ الإبر إلا رؤية هؤلاء الصغيرات الضعيفات الضائعات؛ وإن إحداهن لتعدوا إلي تستأوى فأحملها؛ فكأن قد والله حملت بها صخرة مسرفة يعي حملها، لولا بقية من رحمةٍ - يا عمر - عنهن نفرةً واحد لا أراهن ولا يرينني
أفزعني والله الرجل، ولكني فهمت عنه ما يأتي به. إنه لا يزال يراها بعينيه تحول بينه وبين صغاره. إنه يريدها ويريدهن جملة واحدة، فإذ ذهبت هي، فكأنما ذهب منهن الذي كان يراه فيهن. يرحمك الله يا أبن أبي عتيق! فأما إذ بلغ به حبها هذا المبلغ من اليأس، فلا والله ما ينجيه إلا أن يحتال، فقلت له:
أأراك أنسيت ذكر ربك يا أبا محمد! أتُرانا نعيش في هذه الأرض إلا بما نرجوه عند الله في غيب الله؟ فلولا ما نمثله في أنفسنا من الرجاء، ما نبض لامرئ عرقٌ مما يأخذه من
السَّأم. وأنت، أفيغبى على امرئ في مثل عقلك أن يجعل من مفقودٍ يحبه رجاءً يستمسك به؟ أنظرها يا ابن أبي عتيق بين عينيك، ولا تدع البدن الراحل يغلبُك على ما يحركُ من روحها. إنك بعينها ما عشت، فلا تحسبنَّ أحزانك التي تبتغي أن تنسلّب بها في حياتك، تجعلها تنظر إليك راضية مطمئنة
لا تشكّنَّ يا أبن أخي، فوالله إن الجسد ليذهب إلى البلى، وإن الرُّوح ليخلد، فما ترضى من يحبُّك بأمثل من أن تكون في غيْبهِ ما كنت في محضَره: (إن القلب ليحزن، وإن العين لتدمع، ولا نقول ما يغضب ربنا) وصدق رسول الله. وما ذلك إلا أن نقصر الحزن، وأن نجعل أقوالنا وأفعالنا مرضاة لمن نحب وطاعة. ولا تستطيلنَّ ما بين الحي والميت؛ فإنما هي ساعات قلت وإن أطلت لها. يا أبا محمد أرض ربك وأرض صاحبتك، واجهد أن تكون كما أحبت لك، فإنك عن قليل تلقاها، فلا يلقها منك إلا ما تعرفه دون ما تنكره. . .

محمود محمد شاكر

هجرة في سبيل الله

للأستاذ محمد عبد الغني حسن

هَجَرْتَ بِطَاحَ مَكَّةَ وَالشَّعَاباَ ... وَوَدَّعْتَ الْمَنَازلَ وَالرَّحَاباَ
تَخِذْتَ مِنَ الدَّجى ياَ بْدرُ سِتْراً ... وَمِنْ مَرْهُوبِ حُلْكَتِهِ ثِياَبا
فكَيْفَ تَركْتَ خَلْفَكَ كُلَّ شأنٍ ... وَخَلَّيْتَ الْقَرَابةَ وَالصَّحَابا؟
وَشَرُّ مَوَاطِنِ الإنسان دَارٌ ... يَرَىْ مِنْ أَهْلِهِ فِيهاَ عَذَاباً
يُناَدِيْهِمْ فَلاَ يَلْقيَ سَمِيْعاً ... وَيَدْعُوهُمْ فَلاَ يَجِدُ الْجَوَابا
صَبَرتَ وَكُلُّ دَاعِيَةٍ يُلاَقِي ... مِنَ الأَهوَالِ ماَ يُوْهِي الصَّلاَبا

تَمرُّ بِكَ الَحْوَادِثُ وَهْيَ كَلْمى ... كَأنَّ مِزَاجَهَا الصَّخْريَّ ذَابا
فَمَا أَلقَيْتَ مِنْ رَهَبٍ سِلاَحاً ... وَلاَ خَلَّيْتَ مِنْ نَصَبٍ حِرَابا
تَزيدُك كُلَّ حَادِثَةٍ ثَبَاتاً ... وَصَبراً في الْمَوَاقِفِ وَانْكِبَابا
أَتَعْرِفُ دَعْوَةً للهِ قَامَتْ ... وَكَانَ قِوَامُهاَ شَهْداً مُذاباً؟
سَبِيلُ اَلحْقِّ حُفَّتْ بِشَوْكٍ ... وَلمْ تُمْلأْ عَلَى دَعَةٍ رُضَاباَ
وَمَا غَلَبَ اللَّيَالِي مِثْلَ قَلْبٍ ... تَجَرَّعَ كَأسَهاَ عَسَلاً وَصَابا
نَبَتْ بك أرض مَكَّةَ وَهْيَ أَوْفَي ... وَأرْحَبُ في سَبِيلِ الشِّركِ بَاباَ
وَضَاَقَتْ بِالَحْنِيْفَةِ في إلاَهٍ ... وَمَا ضَاَقَتْ بآلِهةٍ جَنَابا
أَمَا عُبِدَتْ بِهاَ الْعُزَّى قَديماً ... أَمَا شَبَّ الضَّلاَلُ بِهاَ وَشَابا؟
لَقَدْ وَسَعَتْ الأَدْيَانِ بُطْلاً ... وَلمْ تَسَعِ الَحْقِيقَةَ والصَّوَابا
وَمِنْ عَجَبٍ تُسِيءُ إِلَيْكَ أَرضٌ ... شَبَبْتَ فمَا أَسَأْتَ بِهاَ الشَّبَابا
مَنَازِلُ كُنْتَ تَنْزِلهُاَ طَهُوراً ... وَتَلْقَى الْوَحْيِ فِيهاَ وَالْكِتَابا
فَمَا عَرَفوا عَلَيْكَ بِهِنَّ نَقْصاً ... وَلاَ أَخَذُوا عَلَيْكَ بِهِنَّ عَابا
تَقُومُ اللَّيْلَ في جَنَبَاتِ غَارٍ ... وَتَقْطَعُهُ زَكَاَةً وَاحْتِسَابا
وَتَدْعُو وَالْمَضَاجِعُ غَارِقَاتٌ ... بأَهْلِيهاَ وَتَنْتَظِرِ الثَّوَابا
تُزَلْزِلُ بِالدُّعَاءِ ذُرَا (حِرَاءٍ) ... فَلَوْلاَ الله يُمْسِكُهُ لَذَابا
لَقَدْ آذَاكَ أَهْلُكَ في حِمَاهُمْ ... فَكَانَ أَذَاهُمُ الْعَجَبَ الْعُجَابا
رَمَوْا وَاللهُ جَارُكَ مِنْ أَذَاهُم ... فَأَخْطَأَ سهمُ رَمِيهِمْ وَخَابا
فَلاَ تَرْجُ السَّلاَمَةَ مِنْ قَريبٍ ... ولاَ تَأْمَنْ مِنَ الأَهْلِ انْقِلاَبَا
فَرُبَّ أَباَعِدٍ كَانُوا رَجَاءً ... وَرُبَّ أَقَارِبٍ كَانُوا مُصَابا
أَمِينَ اللهِ أَهْلُكَ قَدْ أَسَاءُوا ... وَلَجَّ لِسَانُهُمْ إِثْماً وَعَابا
وَقَالُوا السَّاحرُ الْكَذَّابُ حَاشَى ... لِرَبِّكَ لَمْ تَقُلْ يَومْاً كِذَابا
وَكَانُوا مِنْ صِفَاتِكَ في يَقينٍ ... فكَيْفَ يَرَوْنَ دعْوتَكَ ارْتِيَابا
وَلكِنْ دَوْلَةُ الأَغْراضِ تُعمِّي ... وَتلْقِي فَوْقَ أَعْيُنِهاَ حِجَابا
لَقَدْ جَحَدُاوَ ضِيائَكَ هْو سَارٍ ... يَشُقُّ الْبِيدَ أو يَطْوِي الْهِضَابا
كَأَنَّ مِنَ الْهُدَى فيهِ سِرَاجاً ... وَمِنْ وَضَحِ الْيَقِينِ بِهِ شِهاَبا
وَمَنْ تَكُنِ الْمآرِبُ ضَلَّلَتْهُ ... يَرَى في الَحْقَّ زيغاً وَاضْطِرَابا
يَعَيبُ ذَوي الْمَبَادِئِ وَهْوَاهْلٌ ... لأَنْ يُرْمَي وَأَجْدَرُ أن يُعَابا
أَمِيْنَ اللهِ قَوْمْكُ قَدْ أَسَاءُوا ... وَطَارَ صَوَابُهُم وَمَضَى وَغَابا
لَقَدْ عَادَوْكَ مَوْجِدَةً وَكِبرًا ... وَربَّ مُكَابِرٍ فَقَدَ الصَّوَابا
مَضَوا يَسْتَكْثِرون عَلَيْكَ فَضَلاً ... مِنَ اللهِ الذِي يُعْطِي الرَّغابا
هُوَ الْحَسدَ الَّذِي أَكَلَ الْبَرَاياَ ... وَصَيَّرَهُمْ عَلَى أَنَسٍ ذِئَابا
يَكَادُ الِحْقدُ يَمْسَخُهُمْ قُرُوداً ... وَيَخْلُقُ فِيهِمُو ظُفْراً وَناَبا
وَلَمَّا أَنْ قَدَرْتَ عَفَوْتَ عَنْهُمْ ... وَلَمْ تَفْرِضْ عَلَى اَلْجانِي عِقَابا
دَعَوْتَ لَهُمْ بِمَغْفِرَةٍ وَصَفْحٍ ... فَكَانَ دُعَاؤُكَ الْعَالِي مُجاَبا
مَلكْتَ رِقَابَهُمْ عَفْواً فَلاَنُوا ... وَلمْ أَرَ مِثْلَهُ مَلَكَ الرِّقَابا
خَرَجْتَ إلى الْمَدِينَةِ وَهْيَ دَارٌ ... شَهِدتَ بِهاَ عَلَى الْكُفْرِ انْقِلابا
لَقَدْ آوَاكَ أَهْلُوهاَ وَقاَمُوا ... لِيُنْسوكَ الرَّحِيلَ وَالاَغْتِرَابا
وَجَدْتَ بَهاَ مِنَ الأَنْصَارِ أَهْلاً ... وَزِدْتَ بِهِمْ عَلىَ الْبُعدِ اقِتِرَابا
وَرُبَّ أَباَعِدٍ لَكَ قَدْ أَجَابوا ... وَمَا سَمِعَ الْقَرِيبُ وَلاَ أَجَابا
رَجَوتَ بِهِمْ لِدِينَ اللهِ نَصْراً ... وَلمْ أَر رَاجِياً فِي اللهِ خَابا

محمد عبد الغني حسن

روح الهجرة

للأستاذ محمود البشبيشي

الليل ينشر على الكون وحشة ورهبة، والظلم يغمر النَّفوس رعدة ورهبة، ولكن الحقيقة المؤمنة تتطلق عزمه ورغبة. تنظر إلى أحابيل الشيطان نظرة القدرة القادرة، وتتأمل أباطيل الباطل بثقة الحكمة النافذة، وليكن ما يكون!

في بطون الوهاد وأعالي الجبال عيون تترصد، وفي خفايا المنافذ وحفايا البطاح أرصاد تترقب، وفي جوار كل جدار ووراء كل باب آذان تتسمّع، ولكن الحقيقة المؤمنة في

قلب الرسول تتوثب عزمه، وتتوهج قوة. وليكن ما يكون!
الشيطان قد فعل فعله في النفوس الضالة، والأحقاد قد بلغت الغاية في القلوب الغُلْف، ولم تبق بارقة تسطع من خلال رؤى الآمال!
كل شيء في الجزيرة يحس أن شيئاً سيحدث، وأنه سيكون حدثاً عظيماً. . . كل شيء في الجزيرة يدرك أو يكاد أن أمراً ستتفتح عنه مغاليق الغيب، وأنه سيكون أمراً خطيراً. ولكن ما من شيء كان يعلم أن ظنون الكفار المتبلدة بسواد النيات ستنهار كخيال الوهم. ولكن ما من شيء كان يعلم أن أماني الرسول الكريم ستتوج بالنصر كحقيقة الواقع. . . ولقد كان ما كان
وانطلقت الحقيقة المؤمنة من قيود الباطل، وانبثق النور السماوي من خلال سحب الضلال. إن محمداً قد هاجرا، وكتب للرمال أن تقبل الخطا المباركة، وللغار أن يتيه على أعظم القصور عزة وفخامة. إن محمداً قد لاذ به من كيد المشركين
أجل لقد كان ما كان. بل ما كان يجب أن يكون فأتلق في جبين الزمان نور جديد. فكان يوم الهجرة المباركة. وكان للإسلام عيداً، وأنه لعيد مجيد. فلئن اعتزَّت الأمم بأعيادها المختلفة، وخلَّدتها بأيام من عمر الزمن محدودة، والتفتت إليها من حين إلى حين تعيد إلى ذكرياتها القوة، وتجد ما تقادم من حيويتها، وتبعث فيها الروح بالاحتفال بها. . . أجل لئن اعتزت الأمم بأعيادها وحرصت كل الحرص على أن تعيد إليها القوة بالاحتفال. إن الإسلام ليحتفل بعيد الهجرة. . . لا ليعيد للهجرة حيوية ضعفت، ولا ليجدد للهجرة ذكريات تقادمت، ولا ليبعث في الهجرة روحاً خمدت، بل ليستمد القوة من عزمة الرسول صاحبها، ويقيس من
أنوار أقباس الحيوية السماوية القادرة. وإن أعياد الأمم مهما اختلفت أغراضاً، وتفاوتت مقاصيدَ، لا تزيد على أن تكون رمزاً لناحية واحدة مجيدة اجتماعية أو غير اجتماعية، فردية أو غير فردية، على حين تجتمع في عيد الهجرة أعياد وأعياد
في عيد الهجرة أعياد. ومن أعياده الرائعة المتألقة الوضيئة عيد الوفاء في أروع مظاهره، والفداء في أبهى صوره، والصبر في أكمل معانيه، والجهاد في أعظم غاياته، والإيثار في أنبل مواضعه، وحب الوطن في أقوى حالاته، والثبات على المبدأ في أثبت دعائه
لنا في الهجرة مثال للوفاء يحتذي، وإنه لمثال يتألق حقاً في رفيق الرسول أبي بكر الصديق؛ فقد كانت براثن الخطر تترقب، ومخالب الشيطان تتوثب، وكل شيء في شعاب الطريق ومسالكه يستر خطراً يكاد يهجم، فالأحقاد تلهب الصدور، والصدور تضطرب بنزوة الدم وثورة الضغينة
أجل كان كل هذا ولكن الصديق كان وفياً. ولكن الصديق كان ثبتاً؛ ولكن الصديق كان قد انتضى للأمر عزائمه وتغلغلت في روحه روح الوفاء فأبي أن يكون هيابة نكساً. ووجد الوفاء في قلبه أرضاً طيبة فأينع وأثمر، فذلل له كل مستصعب. فكان خير مثال لمصابرة المكاره، ومعالجة البأساء. تحمل في سبيل الوفاء وعثاء الطريق ولم يضطرب قلبه لمخاوف الرحيل في هذا الجو الملبد بالأخطار. فياله من رجل ترك الأهل والمال والولد ورافق الرسول الكريم لغاية لا يعلمها إلا الله. مثل هذا الوفاء جدير بأن نقيم له الأعياد لنستمد منه أروع المعاني، ونهرع إليه كلما دهمتنا الأحداث ولاحت لنا الخطوب
للهجرة أعياد، ومن أعيادها عيد الفداء
وإن لنا من على كرم الله وجهه لمثلاً للفداء حياً
وما ظنك بالرجل الذي يعلم علم اليقين أن الموت يلمع في أسنة السيوف بباب مرقده، والهلاك يترصد في كل زاوية من دارٍ هو فيها سجين أو شبه سجين؟ ما ظنك برجل يحس بالخطر يتوثب ويترقب، وهو في موقف يؤرق العين ويعذب القلب؟ فالكفار بالباب قد أعلنوا حرباً مصرحة مستعلنة، والكائدون قد نصبوا الحبائل ومدوا الشباك يترقبون الرسول الكريم. . . وهيهات، فإن عليًّا هنالك، وإنه لنائم مكانه أيها الفداء العجيب في شخص عليّ، إنك لخير مثال تتطلع إليه القلوب في مثل أيامنا العجاف
للهجرة أعياد، ومن أعيادها عيد الصبر
ومن ذا الذي صَبر صبر الرسول على المكاره، وتحمل من لأعداء والأهل مالا تتحمله

النفوس البشرية؟. . . في ظلال الإرهاب سار وبليْل الأخطار أدلج؛ رأى الموت فلم يفزع، وكيف تفزع النفس المؤمنة، ومن فيضها اقتبس الإسلام قوة جهاده، واستمدت العروبة عزمتها القادرة وقوتها القاهرة؟ من ذا الذي سواه يستطيع أن يخلع علي مكاره الأيام من روحه المؤمنة روحاً تسهِّل كل صعب وتنال من كل مستحيل. . .؟ يا عجباً! لقد استطاعت القوة المؤمنة أن تفك الحبالة وتسلك إلى النفوس في جوٍ كانت تسير فيه قاله السوء كومض البروق، في جو اجتمع فيه الأشرار على باطلٍ وتفرقوا عن كل حق. . . ومن صبر الرسول الكريم وصبر أصحابه الأبرار ما نزال نستمد العون كلما طرقنا من الحوادث أمر طروق

للهجرة أعياد، ومن أعيادها عيد الجهاد

وجهاد المؤمنين لا ينقصه الدليل ليصدق، ولا يتطرق إليه الشك فينقص؛ فلقد كانت الحقيقة المؤمنة في نفوسهم قوة، وفي قلوبهم حيوية، وفي سيوفهم قدراً عاصفاً، وفي عيونهم أملاً يعلم أنه محقق!

جاهدوا وثابروا فنالوا ما أرادوا، وبعون الله كشفوا عن القلوب غطاء الجهالة؛ فتناثرت أباطيل الظلال أمام يقينهم، وانطمست شمس الضلالة الزائفة أمام إشعاع إيمانهم، وسقطت آمال المنافقين أمام إعصار الحق، كما تتساقط أوراق الدوحة الهزيلة عندما تطيح بها العاصفة

فإلى جهاد المؤمنين في فجر الإسلام توجهوا أيها المسلمون في أقطار الأرض، واستلهموا من معانيه الحيوية معاني العزة القومية، والقوة والإباء، والصبر والجلاد

تلك بعض أعياد الهجرة، ومن أعيادها عيد الإيثار وحب الوطن والثبات على المبدأ

أما الإيثار، فينطق به الأنصار عندما نسوا الأثرة واستقبلوا المهاجرين بكرم اليد وكرم والقلب، وقاسموهم الخير والأرض، وعطفوا عليهم عطف العالم بما لا قوا، المقدر لما تحملوا، المعجب بما أظهروا

وأما حب الوطن والحنين إليه، فيتألق فيما كان يضطرب بين أضلاع الرسول الكريم وهو في الغربة يناضل ويناوص ويستعد ويستجم ليرجع إلى الوطن الذي ترعرع فيه، إلى الوطن الذي غدر به وحجب القلوب عنه، فهو يحن إلى الحج، فيفاوض المشركين رحمة بالأهل، وحرصاً على الدم من أن يهدر. . . وإنه لدم غال عزيز. أفليس هو دم الأعمام وأبناء الأعمام؟

وأما الثبات على المبدأ، فيظهر ناصعاً في كل مراحل الجهاد، في صبر الرسول على الكيد، وتحمل المهاجرين لألم فراق الأهل والمال والولد

وبعد، فقد قهرت القوة المؤمنة القوة الضالة، وقهرت حقيقة الحق رياء الباطل، وارتدت السهام إلى نحور الكائدين، وانطلق النور السماوي من روح الرسول، فبدد سحب المنافقين، وطوى ظلال الشيطان

ولئن استمدت أعياد الأمم القوة بالاحتفال، إن عيد الهجرة ليجدد حيوية الأمم المسلمة. . . ولئن كانت الأعياد وليدة تاريخ الأمم، إن تاريخ الأمم الإسلامية وليد عيد الهجرة

أيها العيد، في ظلالك أعياد، وإنها لأعياد تعتز بها العروبة والإسلام. جمعت الوفاء والفداء، والصبر والجهاد والإيثار وحب الوطن، والثبات على المبدأ والعقيدة.

إن كنت في لغة الحياة وركبها ... يوماً فكن يا ابن الخلود عهودا

(المنصورة)

محمود البشبيشي

العدد 450 - بتاريخ: 16 - 02 - 1942

ماضي الإسلام وحاضره

للأستاذ محمد توحيد السلحدار بك

احتفلت مصر بأول السنة الهجرية، فجيَّ في الخواطر ذكر الهجرة النبوية؛ وتمثل للأذهان المثقفة ما سبقها وما وليها وتتابع بعدها من حوادث جِسام بنتائجها القريبة والبعيدة؛ واتجهت القلوب الشاعرة إلى ذلك الوطن الإسلامي المجيد الذي سطع منه نور الحقيقة الدينية فأضاء الآفاق.

وتلك ستون وثلاثمائة وألف سنة خلت بخيرها وشرها وتركت عبرها لمن يعتبر، فيرى أن الله أسعد المسلمين بدينه الكريم، وإنما هم أشقوا أنفسهم بميلهم عن صراطه

المستقيم.
قام محمد بالرسالة والعرب على شفا حفرة من النار بما كان لهم من دين وثني في تأخر، وأخلاق في تدهور؛ فأنكروا عليه سعيه وائتمروا به، فهاجر إلى المدينة، ثم عاد إلى مكة المكرمة منصوراً بإذن الله؛ وأدخل الرسول في عقولهم الضالّة وأفئدتهم الشاردة عقيدة التوحيد الذي تجلّى في القرآن الشريف بمنتهى القوة وأروع الجلال، والذي هو جوهر الإسلام المتين على قواعده الخمس.
فاعتدلت أحوال العرب بقواعد الإسلام وعباداته وآدابه، وأصبح المؤمنون بفضل التوحيد أخوة في الدين، وجلَّ به شأن المسلمين. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم خير المحسنين إلى الإنسانية بأمانته في إبلاغ الرسالة، وبعظمِه في سيرته الدينية والأخلاقية.
وما أجلَّ قوة الإسلام الذي انتشر سريعاً واستمكن في قارتين على حين كان القتلة يغتالون الخلفاء في أسوأ الحوادث! وأعظِم بها من قوة مدت سلطان الدولة الأموية من الشرق الأقصى إلى الغرب الأنأى في أقل من قرن إن هو إلا لحظة من الدهر! وأكرِم به من دين أزهرت بحسناته المدنية الإسلامية لعهد العباسيين!
فهذا هو الرسول يؤدي الرسالة، وهذا أبو بكر أقلّ عناية بوضع الخطط الحربية منه بالدعوة وجمع القرآن، وبتوطيد الوحدة الإسلامية، وتأسيس حكومة عربية؛ وهذا عمر لا يقلَّ عدلاً عن أبي بكر، وإن زاد ميلاً إلى الفتح وأشرف من الحجاز على جملة الأعمال الحربية؛ وقد كان بقوة يده وشدة شكيمته هو الرئيس الذي تحتاج إليه أمة حديثة التكوّن، يفتْها فيض مغانمها ويظل هو هادئ النفس الأبية، يضاعف بساطة عيشه، ويفخر بثوبه
المرقع، ولا ينال منه التعب، وليس له من الأغراض سوى أن يزيد الإسلام نصراً على نصر؛ وهؤلاء هم الصحابة والأنصار والأبرار، ثم الخلفاء العظماء والقواد الكبار: معاوية وعبد الملك والوليد وعمر وعبد الرحمن، وأبو جعفر المنصور والرشيد والمأمون، وأسامة، وأبو عبيدة، وابن العاص، وخالد، وعقبة، وطارق، وابن نصير، والحجاج.
رحم الله الجميع بما خدموا الإسلام في الفتح بالعقيدة والحسام والله (يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذّكر إلا أولوا الألباب).
طغي الحكم المطلق لعهد المعتصم وبعده في جماعات إسلامية مختلفة دماؤها وذكرياتها القديمة؛ تقرأ في الكتاب المجيد: (إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم، واتقوا الله لعلكم ترحمون)؛ وترى الموالي يبلغون أسمى المراتب، ويداخلها من روح الإسلام الآمر بالشورى والعدل ما يشبه شعور الديمقراطيات في أيامنا بلذة المساواة والحرية، فكان التناقض بين ذلك الطغيان وهذا الروح سبباً من أسباب قلق سياسي واجتماعي مستمر في تلك الجماعات.
وجاء الانحطاط مع ضِعاف الخلفاء ذكاءً وعقلاً، فأصبحت الخلافات العباسية من عهد المعتصم متعثرة في غير الطريق الأقوم تزداد فيها القسوة ويقل التسامح، وتكثر الفتوق والمطامع والمطامح، ويتعدد الانقسام وتنفصل الولايات؛ ثم كثرت حركات الاستقلال في القرون التالية، وتضاعف عدد الأسر الحاكمة في كل صوب، فداول الله الأيام بين الدويلات حتى تضعضع الدهر بالشعوب الإسلامية، وأمست بلادها في النهاية أسواقاً للغاشمين ومستغلات ومسالك للغالبين، ومستعمرات تتبدَّل أسماء بأسماء، ولا تتغير المسميات (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير)؛ (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم).
أما ذلك الطود الأشم، العزيز بالتوحيد، الثابت على قواعد الإسلام الخمس وحِكمه الخلقية وعلى السّنة المحمدية، فهو راسخ لم تذهب به زعازع القرون، ولن تذهب.
ولقد أثبت نجاح الدعوة نجاحاً متواصلاً أن الأخلاق الإسلامية لاءمت كل العصور، ودلَّ على أن الإسلام يوائم نور العقل الإنساني. وقد أيد مبشِّرون مسيحيون أن هذا الدين القويم ينتشر ويمد رواقه في الآفاق؛ وبديهي أن هذه الشهادة هي، بالنظر إلى علة انتشاره، إقرار
منهم بفضل الإسلام وسموّه من حيث هو دين، ومن حيث هو سبب للمدنية.
تلك الحقائق الواضحة ينكرها فريق من أصحاب المصالح الاستعمارية، الحريصين على نفوذهم أو سيطرتهم في البلاد الإسلامية؛ بل هو يزعم أن عالم الإسلام قوة من

القصور الذاتي والقدرة على عدم المطاوعة تعارض بطبعها مدنية الغربيين؛ وإنه عالَم لا يقبل التغيير وعاجز بكيانه وأخلاقه عن التطور الصحيح النافع؛ فهو كتلة تظلّ أبد الدهر غير قادرة على مساواة أمم غربية في الجَلَد والضمير، والصفات النفسية، برغم الظواهر وبعضِ التأويلات التي تخدع من لا خِبرة لهم برجال هذه الكتلة وشؤونها؛ ومواهبُ الشرق الفطرية مناحسُ، هي الخلو من المثل الأعلى ومن الفضائل القومية؛ وهي الجَوْر، والرغبة عن المشروعات التي يطول بتنفيذها الزمن؛ وهي البلادة في رخاوة وتثاقل، والجمود تتخلله أزَمات عنيفة قصيرة ليس فيها كبير طائل؛ فأحسن حال تحدث للبلاد الإسلامية هي أن تدخل، طوعاً أو كرهاً، في وصاية حكومات أجنبية تنيلها، بالتوجيه الحازم، خيرات النظام الذي تمنعها عوائقها أن تقيمه هي من تلقاء نفسها.

ألا إن الإسلام دين الفطرة واليُسْر، ولا تعقيد فيه. وأصله الاعتقاد بالله الأحد، وبالرسالة المحمدية. والقرآن هدى للمؤمنين لا عقبة في سبيل فلاحهم الاجتماعي والأخلاقي، والشرعي والفكري. وقد أصلح النبي على نوره شأنَ العرب وصَلُح به شأن أمم شتى. وكان تقييد العقول أبعَد الأشياء عن خاطر الرسول الذي أوحى إليه: (إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون) و (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب).

وليس الإسلام بذلك النظام الجامد الذي لا يراه إلا أهل النظر السطحي أو أولو الأغراض. ولقد كانت المدنية الإسلامية، قبل قرون، أزهر مدنية في الدنيا، يوم كان شارلمان فارساً خشناً بالنسبة إلى هارون الرشيد؛ وكان العالم المسيحي، لأوائل عهد الإصلاح الديني في أوربا، على حال سادت فيها العقيدة على العقل، وعمّ الرضى الأعمى بالتعاليم وبالسلطة، والعداء لحرية الفكر والعلم، والارتيابُ بهما.

كلا، ليس الإسلام في شيء من المعارضة للعلم والمدنية؛ وقد قضى العالم الإسلامي عهداً مديداً في فتور وحياة متئدة، ولكنه آخذ في الخروج من حال تخلُّفه. فمن ذا الذي يستطيع أن يحكم بأنه لن ينطلق إلى طور جديد يعيش فيه عيشة مصححة بلا معين، محتفظاً
بمعيِّناته الأصلية؟؟

والحق أن للإسلام أثراً جليلاً في حياة الإنسان الدينية، ومكاناً فسيحاً في الدنيا. وله فيهما شأن عظيم سواء أكان من حيث هو دين أم من حيث هو عالَم يضم شعوباً على إيمان واحد، ومظهر أخوّتهم الدينية حجُّهم البيت في الوطن الأصلي الذي نشأ فيه دينهم. يدعوهم الإسلام فيخفّون إلى القبلةِ ويحتشدون فيها على رغم انقسامهم شيعاً ومذاهب، واختلاف نزعاتهم وتبعياتهم. فالإسلام قوة روحانية، وهو من ههنا قوة سياسية واجتماعية من الطراز الأول.

من أجل ذلك فشل طالبو محوه من الوجود ومحاربوه وجهاً لوجه؛ وأصبح في الغرب من يقول: (إن في العالم الإسلامي رجالاً لهم نزعة محمودة يعملون على التوفيق بينه وبين العالم الأوربي؛ وإن في الجانب الأوربي والمسيحي رجالاً أمثالهم يسعون سعيهم، ويدفع الجميعَ وجدانيّ واحد هو الشعور بواجب السعي في تحقيق هذا التوفيق الضروري. وإن هؤلاء الأفاضل - من الطرفين - هم وحدهم الأقدرون على تحقيق (الاتفاق) المنشود بين العالم الإسلامي والعالم الغربي المسيحي).

ويقول أيضاً إن كلمة (الاتفاق) - المطلقة المعنى الواسع العام - مستعملة عن عمد في هذا الكلام الذي لم يُرَد به سوى علاقات حسنة تسهّل الحياة فتروّج التجارة والصناعة، لأن الدين الإسلامي سلطان روحي هو من القوة وزَيْد الجدارة بالاحترام في مقام لا يمكن معه أن يُقصد هنا غير الاتفاق الودي. (ودَّتْ طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون).

وليس شك في أن العاقل يسره التفاهم بين الناس والتوفيق بين مصالحهم، وإيتاء صاحب الحق حقه لا وكس فيه ولا شطط. غير أن كلام الغربي - في هذا الصدد - يشفّ عن الحقيقة وإن ظهرت وراءه في خفاء. فعسى الساعون من رجال البلاد الإسلامية في تحقيق الاتفاق بين الطرفين أن يتبينوا هذه الحقيقة تفادياً من أن يشوب خيره شر لأوطانهم يُطيل أمْد بقائها تحت ألوان الحكم الأجنبي. وهو إسار وإن تموّهت أسماؤه الحسنى.

ذلك بعض ما يرى الناظر في ماضي الإسلام وحاضره، وما يجمعه تداعي المعاني في

خاطره من حقائق عظيمة الشأن. وفي القرآن: (فذكِّر إن نفعت الذكرى، سيذكَّر من يخشى
ويتجنَّبها الأشقى).
فليت المسلمين يلتفتون إلى تلك الحقائق في فاتحة هذه السنة الهجرية المباركة، إذ يبدأ فيها الإصلاح الذي يتوخاه جماعة كبار العلماء، والعمل الجليل الذي عهدوا إلى لجنتهم في القيام به، والحمد لله! (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب).
محمد توحيد السلحدار

الهجرة والأخلاق

للأستاذ محمد يوسف موسى

الهجرة من الناحية التاريخية حادث من أبرز الحوادث في تاريخ الإسلام إذ كانت فاتحة مجده، ومقدمة علو كلمته على الشرك والمشركين. بها أعز الله الإسلام، وصار المسلمون بعد أن كانوا يستخفون من قلته، ويتسللون لواذاً للمدينة فارين بدينهم وأنفسهم، أقوياء بعد ضعف، فيهاجمون قريشاً ومن حالفها، وقد كانوا لا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم عدوان المشركين وجبروتهم. لا جرم أن أفاض المؤرخون والكتاب في هذا الحادث؛ يصفونه، ويقصون ما كان من أمره في بدئه ونهايته.

لكن للهجرة نواحيها الأخرى التي لا تقل عن الناحية التاريخية خطراً، والتي يجب فيما أرى أن نتذكرها ففي هذا عظة وخير. من هذه النواحي الناحية التي تتصل بالأخلاق.

كلما تذكرنا هجرة النبي صلى الله عليه وسلم من مكة مثابة قومه إلى المدينة مستقر أنصاره، نتمثل المبدأ القويم واعتزاز صاحبه به، ومحافظته عليه، ولو وقف الموت في سبيله أو عرضت عليه الدنيا بأسرها، كما نتمثل التضحية في سبيل المبدأ بالمال والولد وسائر ما تحرص عليه فطرة الإنسان وطبيعته. لقد صدع الرسول الشجاع بما أمر به، فلقي قومه من ذلك عظيماً، ورأوا فيه تسفيهاً لأحلامهم، وسباً لآلهتهم، واستهانة بما كان أسلافهم عليه من عقائد موروثة ودين مقدس عزيز. هبت قريش تتلمس السبل للتخلص من هذا الذي أقض عليهم مضاجعهم، وكان لهم في هذا محاولات عدة، باءوا من جميعها بالفشل؛ ومنها ما عرضوه من أن يُملِّكوه عليهم، فيكون الملك المطاع، وهم الرعية الخاضعة. رفض الرسول إذاً كل ما تقدمت به قريش؛ إذ وجد في ذلك ما يحول دونه ودون ما أخذ نفسه به من الجهر بالدين حتى ينال النصر، وتكون كلمة الله هي العليا. وفي ذلك موضع الذكرى والعظة!

ورأت قريش مع هذا أن تعالج الأمر من ناحية أخرى بالقوة العارمة والعذاب الشديد للمستضعفين من المسلمين تريد فتنتهم وردهم للكفر وقد نجاهم الله منه. لكن هؤلاء قابلوا الفتنة بالصبر والتضحية قبل الهجرة وحين شرعوا فيها. كان أول من هاجر إلى المدينة - فيما يروى ابن إسحاق - أبو سلمة عبد الله. فلما أجمع الخروج فرقت قريش بينه وبين زوجه وأبنه، فطاب عنهما نفساً وبقيا بمكة ولم يلحقا به إلا بعد سنة أو قريباً منها.

وصهيب بن سنان يروي ابن هشام حديثه لما أزمع الهجرة فيقول: إنه لما أراد الهجرة قال له كفار قريش: أتيتنا صعلوكاً حقيراً فكثر مالك عندنا وبلغت الذي بلغت ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك. والله لا يكون ذلك! فقال لهم صهيب: أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي؟ قالوا: نعم. قال: فإني قد جعلت لكم مالي. فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ربح صهيب، ربح صهيب.

هكذا كان ثبات النبي وصحبه على المبدأ وتضحيتهم في سبيله بالنفس والنفيس وصبرهم على الأذى. أما نحن فإن الواحد منا يرى وجهاً من وجوه الإصلاح ويعتقد أن في الدعوة إليه ونشره وأخذ الناس به الخير كل الخير لأمته؛ ثم يعد العدة للتبشير به مؤكداً لنفسه ولمن يحيط به أنه جاد فيما يرى، صادق فيما يقول، قائم بالدعوة مهما لقي في سبيلها، باذل في ذلك من وقته وماله ونفسه. وما هو إلا أن يلتف فريق من الناس حوله وإلا أن يلوّح له بعض ذوي الجاه والسلطان بسيف المعز وذهبه حتى ينكشف ويتضاءل فيعود مَسخاً ليس له من الرجولة إلا الإسم؛ وليس له من ماضيه وما كان أعتزم وقدر وقرر إلا الذكريات التي تتراءى له صوراً وأشباحاً تألم لها نفسه إن كان لم يفقد ضميره بعد، أو لا يأبه لها ولا يباليها؛ بل ويسخر منها إن كان فقد مع

رجولته الضمير الحر الحساس أيضاً!

هل نحن في حاجة لضرب الأمثال لهذا الداء الذي شرى فما أظن أن من السهل أن نطب له ونبرأ منه، أعني داء عدم الاعتداء بالمبدأ والتمسك به، مهما قامت العقبات وتعقدت الأمور ما دام في التمسك به خير وصلاح الأمة. المثل لهذا كثيرة؛ نجدها في الميدان السياسي، ونجدها في الميدان الاجتماعي، ونجدها في الميدان الاقتصادي؛ وأخيراً نجدها في الميدان الديني. لنلق نظرة على ما صدر من الصحف في هذه السنوات الأخيرة نجدها ملأا بالدعوات الحارة لمبادئ مختلفة رأى الدعاة إليها خيراً كثيراً في تحققها، وربما ألفت لجان لبعضها تفحصها وتشير إلى وسائل جعلها حقائق فعلية بدل أن تظل أماني تجيش بها الصدور وتلج بها الألسنة. ولكن ما هي إلا أيام أو شهور ونرى الدعاة قد استوعروا الطريق واستطالوا الشقة، أو رأوا فيما يدعون إليه ما ينفر رئيساً أو ذا جاه، في ترك ما حسبوه جرى منهم مجرى الدم من مبدأ أو فكرة ما يقربهم زلفى إلى هذا الرئيس أو ذي الجاه؛ حينئذ ينقلب الواحد من هؤلاء على عقبيه، وينكر ماضيه ويترك مبدأه ويعيش متمتعاً بما نال من حظوة وكسب من صيت وشهرة باعتباره رجلاً من رجال الإصلاح!

إن كنت مبالغاً في هذا الذي أقول فلنتذكر أن لنا بالقاهرة وحدها عشرات من الجمعيات الدينية والاجتماعية ولكل منها مبادئ قامت بها فيما تزعم عليها. وأنه ما من واحدة من هذه الجمعيات أخلصت أو تخلص لمبادئها وجدت أو تجد في الدعوة إليها أو تحقيقها! هل ربت جماعات الكشافة التي تزخر بها المدارس تلميذاً واحداً على الصدق في القول والاستقلال في الرأي والاكتفاء بالنفس، ومعاونة الغير، ونحو هذا من مبادئ الكشف والكشافة؟ هل أفلحت جمعيات المسلمين في جعل فريق من الناس ولو من أعضاءها مسلمين حقاً يعرفون - ويعلمون بما يعرفون - أن الصدق في المعاملة من الدين، وأن اعتبار المؤمنين جميعاً اخوة أساس الدين، وأن كراهة الظلم والظالمين مما يحتمه الدين ويدعو إلى أن يظهر بطريقة عملية تردع هؤلاء الظالمين؟ هل أخذ أعضاء هذه الجمعيات الدينية - التي تدعو للحشمة والصون والعفاف، وتحارب فيما تزعم التبرج والخروج عن الدين - أهلهم وأولادهم جميعاً بحدود الدين وألزموهم سننه وشرائعه؟ معاذ الله أن يفعلوا هذا وأن يلتزموا المبادئ التي يدعو إليها وأن يكون لهم في ثبات النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الصادقين على المبدأ الحق عظة وذكرى!

إذا تركتا هذا النحو من القول، وانعطفنا ثانية لحادث الهجرة نجد فيه مجالاً لعظات أخر من الخير أن نشير إلى بعضها.

هاجر النبي وصاحبه الصديق إلى المدينة فماذا فعل؟ كان أول ما عمل أن آخى بين المهاجرين والأنصار ليكونوا يداً واحدة عل من عاداهم؛ وكان من هؤلاء الأنصار أن واسوا إخوانهم المهاجرين وشاطروهم ما يملكون، وآثروهم ولو كان بهم خصاصة، فكانوا بذلك مؤمنين حقاً؛ حسن إيمانهم، وخلصت قلوبهم، ورأوا من الكذب والزور أن يزعم الواحد منهم أنه أخ لمن يشركه في الدين ثم يستأثر بما أنعم الله عليه به، ويزوي عنه حقه فيه؛ ويحتجن دونه نصيبه منه

أما نحن فنلوك بألسنتنا أن المؤمن أخ المؤمن لا يظلمه ولا يسلمه؛ ونقرأ كثيراً قول الله تعالى: (إنما المؤمنون اخوة)؛ وقول الرسول الحكيم (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه). نعلم هذا كله لا نؤدي الزكاة، ولا نواسي المحتاج، ولا نرحم البائس الفقير؛ ونزعم مع ذلك أننا مؤمنون حقاً؛ وأننا بمنجاة من سخط الله وعذابه لأننا قائمون له بما يجب! ناسين أو متناسين ما رواه عبد الله بن عمر إذ يقول: (أقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا معشر المهاجرين، خمس إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا؛ ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المئونة وجور السلطان عليهم؛ ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا؛ ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدواً من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بما أنزل الله؛ ويتخيروا مما أنزل إليهم إلا جعل بأسهم بينهم)!

يميناً بالله أنني أرى أنا نستحق الآن أن يعمنا الله بعذاب من عنده، لولا ما فينا من شيوخ ركع، وأطفال رضع، وبهائم رتع! لقد اجتمعت فينا هذه الخمس التي خافها الرسول على المؤمنين المهاجرين. فقد منعنا الزكاة والتمسنا لهذا الفتاوى الباطلة والتعلات الكاذبة! وظهرت الفاحشة فينا، بل جعلنا لها ولحمايتها اللوائح والقوانين! وفشا الغش والتدليس في المعاملة، وصار ذلك باباً من المهارة يطلب أن يحذقه التاجر والصانع ومن إليهما! واستعرنا ما تتحاكم إليه من قوانين من فرنسا وغير فرنسا نابذين كتاب الله وما جاء به من شرائع ظهرياً! وصار الغني لا يملك باساً في أن يسكن القصر ويملك الآلاف وبيت يشكو البطنة والتخمة، وبجواره وحواليه المئات من إخوانه في الدين والوطن جياعاً معدمين! ومع هذا كله نزعم أننا بخير، وأن الدين لا يزال ثابت الدعائم مرعى السنن والآداب والأحكام!

بذلك الإهمال للدين، واطراح ما يأمر به الله من سنن وتشاريع، وبترك النصح للعامة والخاصة، صرنا في أمر مريج ولبس شديد، وصار المرام صعباً، والمطلب وعراً، والمسلك حزناً. ولو أننا اتعظنا بالحادثات وراعينا صالح الدين والوطن قبل كل شيء وائتمرنا بما يأمر به الله وانتهينا بنهيه، لسهل الأمر وسلس، وصار قريب التناول، سهل المقاد!

بقيت كلمة أخيرة تخطر بالبال كلما انتهى العام وبدأ آخر: هي أنه كما يقول حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي رضوان الله عليه: ترى التجار يحاسب الواحد منهم نفسه في شهر أو عام ليعرف كسبه من خسرانه؛ فإن كان الأول حمد الله واستزاده منه، وإن كان الآخر بحث الأسباب ليتلافاها فلا يقع فيها مرة أخرى؛ إذا كان هذا عادة التجار، مع أن الخسارة أو الكسب لن يكون إلا شيئاً من حطام هذه الدنيا، فكيف يليق بالعاقل ألا يحاسب نفسه كل ليلة ساعة يأوي لفراشه على ما عمل سحابة نهاره! لست أطمع في الوفاء بما يطلب الغزالي من حساب المرء نفسه كل ليلة، وغاية الذي أرجو أن يكون الحساب آخر كل عام؛ حتى نستقبل العام الجديد بنفوس راضية تائبة عازمة على أن تكون فيه خيراً منها في العام الذي انتهى. هدانا الله إلى الصراط المستقيم؛ وجعلنا من الذين إن تقلد الواحد منهم عملاً سواه، وإن رأى ضالاً هداه، وإن آنس أوداً ثقفه. إنه المستعان

محمد يوسف موسى

المدرس بكلية أصول الدين

الإسلام في أوله وحاضره

للأستاذ عبد العزيز محمد عيسى

أظهر ما توحي به الهجرة إلى النفس، ما كان عند الرسول صلى الله عليه وسلم وعند أصحابه الأخيار من قوة العزيمة ورسوخ الإيمان، قوة ورسوخاً تغلباً على جميع ما لاقوه من شدائد ومصاعب

فقد احتمل الرسول ألوان الكيد وصنوف المشقات من أعدائه بعزيمة لا تعرف الكلل ولا التواني ولا الخنوع. وتحمل المسلمون الأولون معه مثل ذلك بعزائم مقتبسة من عزيمته، حتى كان الواحد منهم يمشط بأمشاط الحديد فلا يصرفه ذاك عن قصده ولا يلويه عن عقيدته. تحملوا هذا الضيم وهم أباته في سبيل نشر الدعوة التي تفتحت لها قلوبهم فاعتنقوها وأخلصوا إليها. وما زالت المتاعب وضروب الإيذاء تغالب عزائمهم تبتغي وهنها والحد من نشاطها، حتى صرعتها هذه العزائم في جلد وصبر واستهزاء، فإذا دين الله ينتشر عزيزاً في بقاع المعمورة، وعلمه يرفرف على أمم وممالك لم تكن للعرب بها صلة قبل ذلك. ثم كانت تلك الفتوحات العظيمة أثراً من آثار رسوخ عقيدة الأولين وإيمانهم بفكرتهم وتفانيهم في الدفاع عنها والعمل على نفوذ سلطانها

إن الحوادث التاريخية منذ القديم إلى اليوم تدل دلالة واضحة أنه على قدر إيمان الدعاة والأتباع بفكرتهم ويقينهم بها يكون عملهم لرفعتها ونجاحهم في نشرها وتحقيق سيادتها. كذلك نشاهد أن الأمم الحديثة التي تؤمن بفكرة اقتصادية واجتماعية وتعتقدها وتفنى فيها تحاول جاهدة بسطها على الناس بالدعاية والإقناع تارة، وبالسيف والنار أخرى. وما التطاحن الحالي إلا مظهر من مظاهر ذلك

على هذا النحو كان المسلمون الأولون في إيمانهم بفكرتهم وعملهم لها. وليس من شك أن للإيمان بالفكرة والانسياب في كل ما ينهض بها وجعلها الشغل الشاغل

لصاحبها أثراً جليلاً في قبول دعوتها وتوجه الناس إليها وتفكيرهم في أمرها
إن الشعوب الأجنبية تنظر إلى الإسلام في أشخاص أصحابه وأعمالهم وأوصافهم، وقديماً كانت الأفراد والشعوب تنظر إلى المبادئ والفكر في تصرفات أصحابها وأحوالهم. وما زلنا نحن نحكم على الأحزاب والجماعات هذا الحكم؛ لأن ذلك أول مظهر ينجلي فيه الإخلاص
للفكرة والاقتناع بها والإعلان عنها. ومن ثم كان من يحاول انتزاع صفات الإسلام والوقوف على مبادئه وغاياته من أعمال شيعته الأولين وتصرفات أحوالهم ومظاهر حياتهم بنتائج تصرفه إلى الاعتراف بصلاحه وتجعله دائم التفكير في الركون إليه.
أما اليوم فمن يحاول انتزاع هذه الصفات والمبادئ من مظاهر أحوال معتنقيه في كافة الشعوب التي تتغنى بأن دينها الإسلام، فإنه يظفر بما لا يجعله شديد الرغبة في هذا الدين ولا كثير التفكير فيه؛ لأن مسلمي اليوم - لا فرق بين جمهورهم وسادتهم - في ضعف واستكانة وذلة؛ وتحلل من جميع الصفات التي ساد بها السابقون وعليها ارتقت دولتهم وعظم سلطانهم.
وهذه المظاهر لا تدل على ضعف في المبادئ ذاتها. لأن هذه المبادئ هي التي نهضت بالسابقين نهضة ما يزال التاريخ يزهي بها؛ وإنما تدل على ضعف في إيمان أصحابها اليوم. ونقص في إخلاصهم للفكرة وانصرافهم إليها. وإن تعجب فعجب أنهم ما يزالون يسمون أنفسهم مسلمين.
ليت شعري متى كان الإسلام كلاماً ودعاوى، ومتى نهضت المبادئ مع تحلل أصحابها عنها وتركها وراءهم ظهرياً! إن الذي يتوهم أن المبادئ تعلو مع خذلان أصحابها لها، وتنتصر مع انصرافهم عنها، وتنهض وهم يعوقون حركتها؛ إن الذي يتوهم ذلك يجري وراء شيء أبعد من الخيال. والرأي عندي لهذا أن الخلاف بين الكلاميين في التفرقة بين الإيمان والإسلام يرجع إلى أمر جدلي أكثر مما يرجع إلى الحقيقة
هناك فرق بين الإيمان بالفكرة والتسليم بها. الإيمان بالفكرة يستلزم التفاني في خدمتها والنهوض بها. ويتبعه جهاد عنيف شاق وعمل دائب متصل لأجل سيادتها وذيوعها وبسط سلطانها؛ ولأن هذه الرغبة تحدو المؤمن بفكرته يحاول جهده أن يقف عند تعاليمها وتأثر خطاها ويترسم حدودها، ويبتعد عن كل مظهر يخالقها أو تلمح فيها مدافعتها. أما التسليم بالفكرة فيكتفي صاحبه باستحسانها وعدم معارضتها دون أن يتبع ذلك عملاً حاسماً في سبيل نصرتها ورفعة شأنها؛ وسواء لديه بعد ذلك أنهضت الفكرة أم ماتت؛ لأنه لم يؤمن بها ولم يخلص إليها ولم يأبه لرواجها
وإذا أردنا استخلاص شيء من ذلك خلص لنا أن المسلمين اليوم ضعاف الإيمان؛ لأن مظاهر قوة الإيمان غير متحققة فيما بينهم ولا جلية في أعمالهم وأوصافهم؛ وكل ما يبدو من تصرفاتهم عنوان هذا الضعف ودليله
لهذا كله نراهم محتاجين إلى قيادة وتوجيه حتى يتزايد عندهم الإيمان ويتولد الشعور بقوته وكماله فينصرفوا كما انصرف السابقون يثبتون دعائمه ويبسطون سلطانه وموقف القيادة والتوجيه لذلك يتطلب من صاحبه أن يكون مثلاً أعلى فيما يدعو إليه؛ مؤمناً بفكرته، مخلصاً لها، حريصاً على نجاحها؛ لا يبدو عليه في قول ولا عمل ما يشعر بعدوله عنها أو ضعف يقينه فيها. فإذا وجد ذلك القائد اقبل الناس عليه واستجابوا دعوته
إن مصر فيما يرى الناس زعيمة الشرق الإسلامي، فمن حقها إذن أن تكون القائد الموجه له في ذلك. فهل تستطيع أن تعمل بحرارة وإخلاص لفكرة سيادة الإسلام وسيطرته؟ وهل تستطيع النهوض بهذا العبء الشاق وتقوى على تكاليفه وتبعاته؟
إنها لتستطيع ذلك وتقدر عليه عن طريق الأزهر ورجاله، أزهر الشباب المملوء توثباً وأملاً وقوة، (أزهر القرن الرابع عشر - كما يسميه الأستاذ الزيات - الذي يضع لثقافة الشعب أساساً من الدين، ويقيم عليه من القواعد والنظم والأوضاع ما يقره العقل ويتقبله العصر وتقتضيه الحاجة)؛ الأزهر الذي يتفانى في سبيل ذلك ويكافح وينافح ويلجئ بسلطانه الروحي رجال الحكم وذوي الرياسات على تنفيذ ما رسم والإيمان بما آمن، لا يعرف من أجل هذه الغاية النبيلة هوادة ولا انتظاراً ولا مجاملة؛ الأزهر المخلص الذي يراه الشعب كذلك فيكون حليفه وناصره، ينقاد لأمره ويعمل برأيه ويسير بخطواته؛ الأزهر الذي يقتفى بحق اثر صاحب الهجرة، فيؤمن إيمانه، ويكافح كفاحه،

ويثق في الله ونصره وثوقه، ويعتمد عليه اعتماده
يقول الأستاذ الأكبر: (كانت الهجرة حداً فاصلاً بين الذلة والعزة وبين الضعف والقوة)؛ فهل يعيد التاريخ نفسه فتكون ذكرى الهجرة اليوم حداً فاصلاً بين ذلة الحاضر وعزة المستقبل، وبين ضعف اليوم وقوة الغد؟ وهل تكون رمزاً لانتصار حق الدين على باطل المدنية الكاذبة الخداعة، فينخلع المسلمون عامة مما هم فيه من مجائبة لنظم الإسلام وتعاليمه وإرشاداته، ويعودوا إلى الحنيفية البيضاء يترسمون خططها ويتبعون هداها وينزلون على أحكامها؟
وهل يقف الأزهر من المسلمين اليوم موقف القائد الجريء الواثق من النصر، المؤمن بمبدئه الراسخ العقيدة فيه؟ وهل تتجه نظمه ودراساته إلى ما يخلق في نفوس أبنائه الإيمان بالفكرة والعمل على إنجاحها وسيادتها؟ وهل يتفانى أهله في سبيل سيطرتها ونصرتها وتغلغلها في صدور الناس فلا يرى من أحوالهم وتصرفاتهم إلا ما ينميها ويحسن الإعلان عنها ويفسح الطريق أمامها؟
ذلك أمل عسى أن يتحقق قريباً
ولينصرن الله من ينصره، إن الله لقوي عزيز
عبد العزيز محمد عيسى
مدرس بمعهد القاهرة
كيف استفتى العلم
في أول وحي إسلامي؟
للأستاذ عبد المتعال الصعيدي
جاء الإسلام وقد آن للبشرية أن تدخل في عصر يجمع بين الدين والعلم، ليتضافرا على هناءتها، ويكفلا لها السعادة في دنياها وآخرتها. فكان لها من الإسلام الدين الذي يحقق لها هذا الغرض، ويمد يده إلى العلم من أول يوم يولد فيه، ليعلم الناس من أول الأمر أنه دين يؤاخي العلم، ويقدر فضل رجاله ويرجع إليهم فيما يفيد الرجوع فيه، ولا ينأى بجانبه عنهم كما نأت الأديان الأخرى، فذمت الحكمة والحكماء، وقالت في بعض رسائلها المقدسة: الرب يعلم أفكار الحكماء أنها باطلة. كما قالت في نص آخر: لأن حكمة هذا العالم هي جهالة عند الله
فلم يغض الإسلام من الحكمة كما غضت منها هذه الأديان، بل مدحها في إطراء، ورفع من شأنها، وعدها أكبر نعمة من الله على بني الإنسان: (يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب)
وقد فتح الإسلام بذلك عصراً جديداً في تاريخ الإنسانية، وانتقل بها من دور الطفولة الذي لم تكن تؤمن فيه بالعلم والنظر، بل كانت تؤخذ إلى الإيمان بوساطة المعجزات، وخوارق العادات لقصور عقلها، وعجزها عن فهم الإيمان إلا بهذه الوسيلة التي تؤخذ فيها بالدهشة، ولا تحتاج إلا إلى قليل من إعمال الفكر والنظر
فانتقل الإسلام من ذلك إلى معجزة تنظر إلى من قصد بها كإنسان كامل، له عقل يفكر به، ويمكن أخذه بطريق النظر إلى الإيمان، ليؤمن عن عقل وتدبر، ولا تنفرد بإيمانه المعجزة وحدها، وليقوم إيمانه على أساس العقل، ويتضافر في تشييد بنائه الوحي والعلم
والآن فلنبين كيف استفتى العلم في أول وحي إسلامي:
نشأ النبي صلى الله عليه وسلم بين قومه في مكة، فرعى الغنم صغيراً، ثم اشتغل بالتجارة بعد رعي الغنم، ثم تزوج خديجة رضي الله عنها، ووجد من وقته فسحة بعد تزوجها، فكان يقصد إلى غار حراء يتعبد فيه الفينة بعد الفينة، فيقضي فيه الليالي ذات العدد، ثم يعود إلى زوجه فيمكث معها أياماً، إلى أن يقصد الغار مرة أخرى؛ ولم يكن هو الذي يفعل ذلك
وحده، بل كان يشاركه فيه كثير من متنسكة قريش
وقضى في ذلك أربعين عاماً لا يفكر في غيره، ولا تحدثه نفسه بما صار إليه حاله بعدها، بل كان راضياً بحالة فيها كل الرضا، إذ كان يجد من زوجه شريكة بارة صالحة، ومن نفسه طهارة واستقامة وقناعة، ومن قومه ثقة وتقديراً وإكباراً، حتى كانوا يلقبونه الأمين تشريفاً له وتعظيماً، وليس بعد هذه الأمور من سعادة للنفس الراضية، كنفس محمد صلى الله عليه وسلم في ذلك العهد فلما جاءه الوحي لأول مرة في غار حراء

صادف نفساً لم تكن تنتظره، وكانت مفاجأة أثرت فيها أكبر تأثير؛ فبينما هو قائم في بعض الأيام على الجبل، إذ ظهر له شخص غريب لم يشاهد مثله في حياته، فقال له: أبشر يا محمد، أنا جبريل، وأنت رسول الله إلى هذه الأمة. ثم قال له: أقرأ. فقال: ما أنا بقارئ؛ لأنه كان أمياً لم يتعلم القراءة؛ فأخذه جبريل فغطه بالنمط الذي كان ينام عليه، حتى بلغ منه الجهد، ثم أرسله فقال: اقرأ. فقال: ما أنا بقارئ؛ فأخذه فغطه ثانية ثم قال: أقرأ. فقال: ما أنا بقارئ. فأخذه فغطه ثالثة ثم قال: اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم

ثم اختفى جبريل بعد هذا الوحي الأول، ورجع محمد صلى الله عليه وسلم وقد بلغ ذلك من نفسه مبلغه، لأنه فوجئ به مفاجأة ولم يكن يعرف من هو جبريل، لأن ذلك لم يكن معروفاً بين قومه. وهو اسم غريب لا يمت إلى العربية بصلة، فسار إلى خديجة يرجف فؤاده مما ألم به من الفزع، فدخل عليها فقال: زملوني زملوني. فزملوه حتى زالت عنه هذه القشعريرة، وذهب عنه الفزع، ثم أخبر خديجة بأمره من أوله إلى آخره، وخشي على نفسه أن يكون أصابها شيء؛ وألا يكون هذا الشخص ملكاً من ملائكة الله تعالى. فطمأنته خديجة رضي الله عنها، وقالت له: كلا، والله ما يخزيك الله أبداً؛ إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فلا يسلط الله عليك الشياطين أو الأوهام، ولا مراء أن الله اختارك لهداية قومك.

فاطمأن محمد بهذا الكلام الطيب من تلك الزوج البارة؛ واطمأنت خديجة على زوجها بعد أن زال عنه ما ألم به من الفزع؛ ولكنهما أرادا أن يزيدا اطمئناناً بعلم العلماء من قومهما، وأن يستفتيا منهم من له علم بحال الرسل ممن اطلعوا على كتب الأقدمين. وهنا يمد

الإسلام يده إلى العلم من أول يوم يولد فيه، وتظهر فضيلته في مؤاخاة العلم والاعتراف بالحاجة إليه في هذه الدنيا. فلا يكون هناك عداء بين العلم والدين. ولا يقف أحدهما حجر عثرة في سبيل الآخر. وهذا هو الذي حصل في تاريخ الإسلام إذ كان يفهم فهماً صحيحاً، ولا يتسلط فيه متنطعون يعادون العلم باسم الدين، والدين براء مما يصنعون

وكان لخديجة ابن عم من علماء قريش يقال له ورقة بن نوفل، وكان امرأ قد تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب. وكان شيخاً كبيراً قد عمى وانقطع للعلم، وأخلص له نفسه فصفت به وطابت، حتى أورثها تواضعاً وإذعاناً للحق، وبعداً عن المراء والتمادي في الباطل، وكراهة للتعصب الممقوت، وبغضاً للجمود على القديم، ومعاداة الإصلاح والمصلحين

فأخذت خديجة زوجها إليه، وقالت له: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك

فقال له ورقة: يا ابن أخي، ماذا ترى؟

فأخبره عليه السلام خبر ما رأى

فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزله الله على موسى؛ لأنه يعرف أن رسول الله إلى أنبيائه هو جبريل

ثم قال: يا ليتني فيها جذع، إذ يخرجك قومك من بلادك التي نشأت بها، لمعاداتهم إياك، وكراهيتهم لك حينما تطالبهم بتغيير اعتقادات وجدوا عليها آباءهم

فاستغرب عليه السلام ما نسبه ورقة إلى قومه من معاداته، مع ما يعلمه من حبهم له، لاتصافه بمكارم الأخلاق وصدق القول حتى إنه لم يلق منهم أذى في هذا العمر الطويل الذي قضاه معهم، فقال لورقة: أو مخرجي هم؟

فقال له ورقة: لم يأت رجل قط بمثل ما جئت إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً

وهكذا مد العلم يده إلى الدين حين مد الدين يده إلى العلم، فآمن به حين مد يده إليه، وزاد في يقينه حين طلب منه أن يزيد فيه، وبذل له المعونة التي يريدها، وتطوع لنصره إذا صادف من أعدائه إنكاراً، وأثبت بذلك أن العلم الصحيح لا يعادي الدين، كما أن الدين الصحيح لا يعادي العلم، لأن الغاية منهما واحدة في هذه الحياة، وهي الوصول إلى هناءتها

وسعادتها، ولا يمكن أن يكون هناك عداء بين شيئين تتحد غايتهما، ويرمي أحدهما إلى الغرض الذي يرمي إليه الآخر، واختلاف الوسائل في ذلك الأمر لا يؤثر شيئاً، لأن اتحاد الغرض هو الذي يجمع بين الأشياء، ولا تهم الوسيلة إليه بعد ذلك في شيء فإذا وجدنا أهل العلم يعادون الدين في يوم من الأيام، فإن هذا يكون ناشئاً عن جهلهم بالدين؛ وإذا وجدنا أهل الدين يعادون العلم في يوم من الأيام، فإن هذا يكون ناشئاً عن جهلهم بالعلم ولهذا كان لزاماً على أهل العلم أن يعنوا بدرس الدين، وكان لزاماً على أهل الدين أن يعنوا بدرس العلم، لتهنأ الإنسانية بالوفاق بين الاثنين، وتفوز منهما بسعادة الدارين

عبد المتعال الصعيدي

بهرام جور

في التصوير الإسلامي

للدكتور محمد مصطفى

أمين مساعد دار الآثار العربية

هو بهرام الخامس بن يزدجرد المسالم أحد ملوك الدولة الساسانية المعروف (ببهرام جور) حكم إيران سنتي 420 و438 ميلادية. وقد استطاع بعدله وسخائه وفروسيته وشجاعته أن يصير محبباً إلى رعيته بعد أن كرهوا أباه (يزدجرد) الذي اضطهد المجوس في سبيل تمكين المسيحيين من العبادة جهاراً في بلاده. وقد هاجمه خاقان التركستان الصينية بجيش قوامه 125. 000 رجل، فاستطاع (بهرام جور) أن يصده بجيش من 10. 000 رجل من خيرة محاربيه وأن يقتله بيده. وكان (بهرام) موفقاً في سياسته، فقد صالح الروم على شروط عادلة بعد أن هزموا جيشه، وحث الناس على الزراعة وأعانهم عليها، وكان يشجع العلماء والأدباء والفنانين والموسيقيين ويدعوهم إلى بلاطه من البلاد الأخرى، حتى أنه استحضر ذات مرة من الهند ألفي موسيقي من الذكور والإناث وفرقهم في بلاده ليطربوا فقراء المزارعين دون أجر، فتوالدوا فيما بينهم وصار منهم القوم المعروفون (بالغجر) وانتشروا من (إيران) إلى البلاد الأخرى.

وقد كان (بهرام جور) فوق ذلك أديباً شاعراً، تعلم الشعر في صباه بين العرب في الحيرة، وقد بقيت هذه الذكرى في الأدب الفارسي والعربي على السواء، فالفرس يقولون إنه أول من قال الشعر وأنه أخذه عن العرب، ويروون له أبياتاً فارسية، والعرب يروون من شعره العربي والفارسي

وبقيت (لبهرام جور) ذكرى حسنة بين رعيته فاخترعوا له قصصاً تعبر عن مكانته في نفوسهم وتبين عن فروسيته وبطولته ومقدرته في القنص والصيد. وصاروا يتناقلون هذه القصص جيلاً عن جيل حتى نظمها (الفردوسي) في (الشاهنامه) حوالي سنة 400 هجرية. ثم اتخذها الشاعر نظامي الكنجوي موضوعاً لإحدى منظوماته الخمس، فنظمها مرة أخرى حوالي سنة 596هـ بعد أن البسها ثوباً جديداً من خياله وشاعريته واستلهم الفنانون وقائع (بهرام جور) في الصيد ومهارته في الرمي بالنشاب في رسم صورهم التفسيرية في مخطوطات كتابي: (الشاهنامه) و (خمسة نظامي)؛ كما صوروها على الخزف والقاشاني وحفروها على الأواني المعدنية ونسجوها في الأقمشة، وصارت هذه الوقائع موضوعات محببة إلى الفنانين في جميع فروع الفن، متنقلين بها من الفن الساساني إلى الفن الإسلامي، حتى وصلوا بها إلى العصر التركي ونرى في شكل (1) صينية من الفضة المذهبة عليها صورة (بهرام جور) يشج بسيفه رأس أسد ويمسك بيده اليسرى شبلاً صغيراً، بينما هجمت عليه لبوة تريد تمزيق رأس جواده. وهذه الصينية محفوظة في متحف الأرميتاج بالروسيا. وهي من القرن 5 - 7 ميلادي، مما يدل على قدم هذا الموضوع الزخرفي في (إيران) قبل انتقاله إلى الفن الإسلامي

يقول الشاعر نظامي الكنجوي في منظومته (هفت بيكر)؛ أي الصور السبع: إن الملك الساساني يزدجرد الأول، عند ولادة ابنه بهرام، عهد به إلى النعمان ابن المنذر ملك الحيرة ليقوم على تربيته، وذلك عملاً بمشورة مستشاريه من المجوس، رغبة منه في إبعاده عنه، كي لا يتخلق الصبي بأخلاق أبيه البغيض لهم. فسلمه النعمان إلى أربعة نسوة اختارهن له فأرضعنه ولم يفطمنه حتى بلغ الرابعة من عمره. وبنى النعمان قصر (الخورنق) لسكنى بهرام، بناه له معمار من بلاد الروم اسمه (سمنار) استدعاه

إليه لشهرته في بناء القصور، فجاء قصراً منيفاً من أجمل الأبنية. فأهلك النعمان سمنار كي لا يعود لبناء مثله ويبقى القصر فريداً - وضرب العرب المثل بجزاء (سمنار)
وتعلم بهرام الكتابة والقراءة، والتاريخ والعلوم، والرماية والصول والجول، والصيد والطرد، فأتقنها جميعاً. واشتهر ببراعته في صيد نوع من الغزلان كبير الحجم، يعيش في تلك الجهات، ويسمى بالفارسية (كور) فعرف ببهرام كور، وعربته العرب فقالوا بهرام جور.
وذات يوم بعد ما بلغ بهرام جور أشده وصار شاباً يافعاً قوياً وشاباً فتياً، ركب وخرج للصيد، وكان في معيته النعمان وابنه المنذر، وإذا به يرى فجأة سحابة من التراب ترتفع من الأرض، فاقترب منها، ولما تبينها رأى في وسطها أسداً قد هجم على غزال، وامتطاه وراح يعمل أنيابه في عنقه ليفترسه. فأخرج بهرام جور من جعبته سهماً مدبباً، وضعه في وتر قوسه، وجذبه بشدة، ثم أطلقه، فانطلق السهم في عنف وقوة وأصاب كلا الحيوانين
تحت الكتف الأيسر، واخترق قلبيهما وجسديهما، ثم غار في الأرض من تحتهما وإلى جانبه سقط الحيوانان كل منهما جثة هامدة. فلما رأى العرب ذلك أعجبوا ببهرام جور أيما إعجاب، وأمر النعمان المصورين أن يصوروا هذه الواقعة على حائط إحدى قاعات قصر الخورنق.
وفي شكل (2) نرى بهرام جور في وسط الصورة على جواد وأمامه الأسد والغزال وقد أصابهما بسهم واحد، ويلاحظ ما أسبغه الفنان على هذه الصورة من جمال الحركة وروح الحياة، وهي من تصوير الفنان الإيراني سلطان محمد، من مخطوط للمنظومات الخمس للشاعر نظامي محفوظ في المتحف البريطاني، كتب للشاه طهماسب بين سنتي 946 - 950 هجرية في تبريز، واشترك في تصوير الصور التفسيرية التي به خمسة من كبار مصوري ذلك العصر هم: سلطان محمد، ومظفر علي، واقاميرك، وميرزا علي، ومير سيد علي. وقد كان سلطان محمد من أساتذة الشاه طهماسب في التصوير، ويقال إنه خلف المصور بهزاد، عميد فناني إيران، في إدارة (الورشة) الملكية في لفنون الكتاب
أتقن بهرام جور الصيد والطرد، واعتاد أن يخرج إلى الأحراج المجاورة لصيد الوحوش والغزلان، وكان أن شرب يوماً مقداراً من الشراب، وخرج للصيد فقابل قطيعاً كبيراً من الغزلان، وأصاب منها الكثير، إلى أن رأى ظبياً جميلاً، رشيق الحركات أراد أن يقتنصه، فأطلق الظبي ساقيه الرشيقتين الطويلتين للريح يسابقها، وأعمل بهرام جور مهمازيه في جانبي الجواد فانطلق يجري، يطلب الظبي، واستمر على ذلك مسافة طويلة إلى أن وصل الظبي إلى فوهة كهف ربض أمامها تنين هائل، بشع الخلقة ذو رأسين عظيمين مد أحدهما إلى الظبي فابتلعه، وكان التنين جائعاً وما كان الظبي إلا ليثير شهيته لافتراس الفارس القادم عليه بجواده، فأخذ بهرام جور سهماً عريضاً من جعبته، وأطلقه على التنين
فأعماه، ثم استل سيفه الكبير وضرب به التنين بين رأسيه فشطره إلى بطنه، حيث وجد الظبي قابعاً، وما كاد هذا يرى الحرية أمامه حتى قفز من بطن التنين وجرى إلى أن دخل الكهف، وتبعه بهرام جور فوجد في الكهف كنزاً عظيماً من قدور ملأى بالذهب والأحجار الكريمة، مما استدعى نقله إلى قصر الخورنق مائة جمل، أرسل عشرة منها إلى أبيه يزدجرد، ووهب النعمان عشرة أخرى، واستمتع هو بالباقي على أن ينفق منها بغير رقيب
وفي شكل (3) نرى بهرام جور على جواد في وسط الصورة يرمي التنين بالنشاب، وهذه الصورة من مخطوط لنظامي محفوظ في المتحف البريطاني ومؤرخ سنة 900 هجرية، وهي من تصوير الفنان الإيراني قاسم علي، أحد تلاميذ بهزاد في هرات، وكان قاسم علي ينقل في صوره الكثير من موضوعات أستاذه، فمثلاً هذه الصورة منقولة عن صورة مماثلة لها صورها بهزاد في مخطوط آخر لنظامي محفوظ بالمتحف البريطاني
وبقى بهرام جور في الحيرة إلى أن مات يزدجرد، وأزمع أعيان الفرس ألا يولوا من أولاده أحداً لما نالهم من ظلمه وجوره، وأجلسوا على العرش رجلاً من بينهم يدعى خسرو؛ فأيد النعمان وابنه المذر بهرام جور وأمداه بالجند، حتى أرغم الكارهين على

تمليكه. واتفق معهم على أن يضعوا التاج بين أسدين جائعين؛ فإذا انتشله من بينهما كان له ملك إيران، وقد كان ذلك وقتل بهرام جور الأسدين ولبس التاج؛ فكان خسرو أول من هنأه بالعرش

ولما كان بهرام جور في الحيرة تجول ذات مرة في أنحاء قصر الخورنق، ووجد قاعة مغلقة لم يدخلها من قبل، فطلب مفتاح بابها ودخلها فإذا به يرى سبع صور، لسبع أميرات، هن بنات ملوك الأقاليم السبعة، وكن آيات من آيات الجمال، فسار يلتفت للواحدة بعد الأخرى ويبتسم لها، وفي غرور الرجل القوي المعتد بنفسه، يظن أن ابتسامته حازت قبولاً لديها، وأنها تومئ إليه إشارة إلى ذلك، وما جاء إلى الأخيرة حتى افتتن بهن جميعاً وتملك قلبه حبهن؛ فأغلق الباب وأخذ المفتاح معه، وصار يخرج للصيد ثم يعود فيدخل هذه القاعة ليناجي حبيباته السبع، وقد هام بهن هياماً شديداً

وفي (شكل 4) ترى بهرام جور في الركن الأيسر إلى الأمام ينظر إلى الصور السبع في قاعة بقصر الخورنق. وهذه الصورة في مخطوط لنظامي كتب في شيراز ومؤرخ سنة 813 هجرية ومحفوظ في مجموعة جلبنكيان

ولما تولى ملك إيران، واستتبت له الحال، أرسل الرسل إلى الملوك السبعة يطلب من كل منهم يد ابنته، وكان أن تم له ذلك فجئن إليه مع الكثير من الهدايا والتحف وتزوجهن جميعاً، فأتاه معمار يسمى (شيدا) وعرض عليه أن يبني له قصراً ذا سبع قباب، ويفرش كل قبة بلون خاص بها، ويرصعها بأحجار كريمة من لونها، فقبل ذلك وبنى شيدا القصر، وصار بهرام جور يقضي كل يوم من أيام الأسبوع في قبة مع إحدى الأميرات؛ فيوم

السبت في القبة السوداء مع الأميرة الهندية، ويوم الأحد في القبة الصفراء مع الأميرة المغربية، ويوم الاثنين في القبة الفضية مع الأميرة التترية، ويوم الثلاثاء في القبة الحمراء مع الأميرة الصقلبية، ويوم الأربعاء في القبة الزرقاء مع الأميرة الخوارزمية، ويوم الخميس في القبة ذات لون الخشب الصندل مع الأميرة الصينية، ويوم الجمعة في القبة البيضاء مع الأميرة الرومية. وكان إذا ذهب إلى إحداهن لبس ثوباً من لون القبة إكراماً لها

وفي شكل (5) يجلس بهرام جور في القبة الصفراء مع الأميرة المغربية. وهذه الصورة في مخطوط لنظامي محفوظ في متحف المتروبوليتان بنيويورك، كتب في هرات ومؤرخ سنة 931 هجرية وهي من تصوير محمود مذهب أحد الفنانين الذين انتقلوا من هرات بعد أن هاجمها الأتابك في سنة 942 هجرية وهاجر إلى بخارى عاصمة الأسرة الشيبانية في ذلك الوقت

يقول الشاعر نظامي الكنجوي إنه كان لبهرام جور جارية من التركستان الصينية، جميلة كالبدر، اسمها (فتنة) بها ألف نوع من المغريات، لها وجه صبوح كالربيع المبكر في جنات عدن. أو هي - على حد قول الشاعر نظامي - قطعة من حلوى العسل مدهونة بالزيت، أو صحن من الفالوذج، أو كليهما معاً، فهي سمينة وحلوة. ولم تكن جميلة فقط، بل كانت تجيد الغناء والعزف على الجنك والرقص. وقد اعتاد بهرام جور أن يصطحب جاريته فتنة كلما خرج للصيد. وفي ذات يوم خرجا معاً فقابلا قطيعاً من الغزلان، فأصاب منها عدداً كبيراً. كل ذلك والجارية تحتال بكل ما أوتيت من أنواع الإغراء والدلال أن تكبح نفسها من أن تعطيه ما يستحق من الإطراء والمديح. صبر الملك برهة إلى أن مر غزال عن بعد، فالتفت إليها وقال لها ألا أيتها التترية ذات العينين الضيقتين، لم لا تفتحين عينيك لتري ما أصيد؛ هاهو ذا غزال آت فأخبريني أي جزء من جسمه أصيب؟ فالتفتت إليه الجارية بشفتيها الجميلتين في حركة طبيعية - وقد كانت امرأة بكل معاني الكلمة - وقالت: اعمل عملاً يشرفك: سمّر حافر هذا الغزال في أذنه بسهم واحد وقد فعل بهرام جور ذلك، فأخذ حصاة وأطلقها على أذن الغزال فرفع المسكين حافره ليحك أذنه، وفي ذات اللحظة أطلق الملك سهماً سمر به الحافر والأذن إلى رأس الغزال، فسقط هذا على الأرض. والتفت الملك إلى الفتاة التترية وقال: لقد نجحت فماذا ترين في ذلك؟ فقالت: لقد اعتاد الملك عمل ذلك فأجاده، وأصبح عمله لا يتطلب منه أية قوة خارقة. فاغتاظ الملك لهذه الإجابة، وأمر ضابطاً أن يقتل الفتاة، فأخذها الضابط إلى منزله لينفذ فيها أمره. ولكن الفتاة نظرت إليه بعينين دامعتين متوسلة وأفلحت في أن تقنعه بأن يبقي على حياتها، واتفقا

على أن تعمل في منزله كخادمة حتى لا تثير الشبهات. وكان في أعلى المنزل منظرة عالية تصعد إليها ستون درجة، وقد اعتادت الفتاة كل يوم أن تحمل عجلة صغيرة ولدت حديثاً وتصعد بها الستين درجة إلى المنظرة، فكانت قوتها تنمو تدريجياً بما يتناسب مع نمو العجل، إلى أن صارت بعد ست سنوات بقرة كاملة النمو دون أن تجد مشقة في حملها. وذات مساء أعطت الفتاة الضابط بعض لآلئها، وطلبت منه أن يهيئ بثمنها مأدبة فاخرة ينتهز فرصة مرور الملك للصيد ويدعوه إليها. فعمل الضابط ذلك، وجاء الملك إلى المأدبة وجلس في المنظرة، فصعدت الفتاة تحمل البقرة على كتفها لتحلب لهم من لبنها أثناء الطعام، فنظر إليه الملك وقال: لقد تعودت حملها، فأنت الآن لا تحتاجين إلى قوة خارقة لعمل ذلك. فقالت له الفتاة: وهل كان الغزال يحتاج إلى قوة خارقة؟ فعرفها الملك وقام إليها فرفع نقابها واحتضنها، ولم يفصلهما بعد ذلك سوى الموت

وفي شكل (6) بهرام جور على جواد في الوسط وقد أطلق سهماً أصاب غزالاً أمامه فسمر حافره بأذنه. وإلى يسار بهرام جور نرى (فتنة) على جواد وفي يدها الجنك. وهذه الصورة من مخطوط نظامي للشاه طهماسب السالف الذكر، صورها مظفر على أحد تلاميذ بهزاد

وفي شكل (7) صينية من الفضة المذهبة عليها رسم بهرام جور يصطاد الغزال وهو جالس على هجين يرتدف جاريته المغنية وهذه الصينية من عصر الانتقال من الفن الساساني إلى الإسلامي. وهي محفوظة في متحف الإرميتاج بالروسيا

وفي شكل (8) صحن من الخزف من صناعة قاشان في القرن السادس الهجري (12 الميلادي) مرسوم بالألوان فوق الدهان، به صورة بهرام جور وقد أصاب الغزال فسمر حافره بأذنه بسهم واحد، وهو راكب على هجين ويرتدف جاريته المغنية ممسكة بالجنك، وقد تتبع الفنان في رسمه قصة بهرام جور والجارية كما نظمها الفردوسي في الشاهنامة وهي تنتهي بأن يغتاظ بهرام جور من إجابتها فيلقيها على الأرض ويطأها بالهجين إلى أن تموت ونرى في هذه الصورة أن الفنان لم ينس تصوير الجارية وهي على الأرض

والهجين يطأ صدرها، وقد كان لبهرام جور - كما وصفه الفردوسي - (هجين مسرج بسرج مغطى بالديباج له أربعة ركب: ركابان من الذهب وركابان من الفضة، فيركبه ويرتدف الجارية وفي حجرها الجنك). أما في قصة الشاعر نظامي فيركب كل منهما جواداً كما رأينا ذلك في الصور السابقة

وفي شكل (9) تربيعة من القاشاني عليها رسم بهرام جور على العجين يرتدف فتاته المغنية وهي من القرن السابع الهجري (13 الميلادي) ومحفوظة بدار الآثار العربية برقم 11590

قال الشاعر نظامي الكنجوي إن الملك بهرام جور ذات يوم للصيد، فشاء حظه العاثر - وهو ذلك الفارس البارع والصياد الماهر - أن يسقط في بئر صادفته في طريقه فيغرق فيها، ولم يعد إلى حبيبته، لا ولا إلى زوجاته السبع، في القصر ذي السبع قباب.

(وكذا كانت الأيام وكذا تكون، فلا يكن منك إليها سكون ولا ركون)

(حلوان)

محمد مصطفى

سيدي رسول الله

الأستاذ شكري فيصل

يا سيدي الرسول:

أتراني أملك منك النجوى، وأستطيع إليك البث، وابلغ من ذلك السبيل، وأنا غائب في فيض من روعتك، ذاهل في فضاء من جلالك، فإن فيّ دنيا من قدسيتك. . . أذكر دعوتك الكريمة. . . فأنساق في جمالها المشرق. . . منذ بدأتها فتى تأنف نفسه الجهل، وتعاف بصيرته التقليد، ويحس في قراءته همسات من النور، وقبسات من الحق. . . حتى أختارك الله داعياً لا يهاب، ورسولاً لا يجبن، وقائداً لا يضعف. . . واتسقُ في ذلك التاريخ. . . يغمرني ألقه الندي، وتتولاني بهجته الطروب؛ وتطالعني فيه العزمات التي لم يفل منها عدد، ولم تقو عليها عدد، ولم يبلغ إليها هدوء أو خور. . . إن المشاعر لتختلط عليَّ. . . وإنَّ الروعة لتملأ مني كل ثنايا النفس. . . وإني لأحس

الرعدة التي تكاد تصرفني عن الحديث، وتقعد بي عنه، وتغمرني بالنشوة الحالمة، فأصفو معها وأرق. . . وأخف معها وأدق. . . وأمتزج بها امتزاج الفناء. . . حتى لا أعي مكاني من الدنيا، ولا موضعي من الغرفة، ولا جواري من الناس.

يا لجلال دعوتك، يا سيدي الرسول. . . إني لأحاول أن أحدق في مشاهدها، وأجول في ثناياها، وأقف عند تفاصيلها، فإذا هذا الجلال المهيب يحول بيني وبين أن أكون من هذه المعجزة القدسية، كما نكون من أحداث التاريخ، ووقائع الأيام، نقبل عليها بالدرس، ونمضي بها في التحليل، ونفصل منها الأجزاء، ونركب عليها النتائج، ونخرج بعد وقد أدركنا منها كل ما خالطها من مؤثرات، ومازجها من عوامل، وما انكشفت عنه من اثر. . . وإذا هذا الكمال الرهيب يطغى على كياني كله، ليسكب عليه ألواناً من الروعة: أخاذة ساحرة. . . تهتز معها المشاعر اهتزازة الانفعال اللذيذ العميق. . .

هاهنا في دعوتك. . . يا سيدي الرسول. . . عالم متسق من الحق البين، والهدى الواضح، ومن السنن القويم والخلق الكريم، ومن العزمات الأبية والرجولة القوية، ومن الخير المتدفق والفضل العميم. . . ومن الجمال الذي ينساب في ذلك كله، فيفيض عليه الرداء، ويشيع فيه البهاء، ويجعل منه الحادث الفذ

أين تقف عيناي من دعوتك الكريمة يا سيدي رسول الله. . . إنهما لتتقلبان في مدى واسع الفضاء، فسيح الأرجاء، بعيد الأطراف. . . وإنهما لتزوغان وتضلان. . . وإن إحداهما لتظلم الأخرى حين تحاول أن تقف بها عند حادث من الحادثات التي يملوها ذكرك الرطب، أو في مرحلة من المراحل التي يغشاها خيالك الندى. . . وإني لأحاول أن استقر في هذه المشاهد التي تتنازعني. . . فما أسرع ما تنتابني السنون. . . وتنثال من أمامي صور كلها كريم. . . عزيز. . . نادر. . . وتنبعث في ذهني لوحات كلها قوى. . . أبي. . . جريء. . . فأحار أين أبدؤ منها، وأين أنتهي فيها، وكيف أستقر عند واحد منها. . . وأتيه بينها. . . كما يتيه الإنسان في النغم الخالد: لا يستطيع أن يفصل أجزاءه، أو يمايز بين مقاطعة، أو يدري سرَّ الخلود فيه. . . لأن الخلود قائم في كل نغماته، منساب في كل ضرباته. . .

فاغفر لي يا سيدي رسول الله. . هذه الجرأة: أن أرتفع ببصري الكليل لأدرك البصيرة المتقدة. . . أن أفتح عينيَّ الضعيفتين لأصوّبهما إلى الشمس. . . فلن أملك بعد إلا أن أغمضهما على الإكبار الذي يخالط الشغاف، والإجلال الذي يستقر في الحنايا. . . والحب الذي يطأطي مني ما لم يطأطأ لإنسان. . .

وسأظل أسير في ركابك يا سيدي الرسول. . . خافض الرأس. . . لأن مهابتك أجل من أن تمتد إليها عيون أو ترتفع إليها نواظر. . . وسأعيش في ظلالك الرحيبة تملؤني فكرتك، وتبهرني دعوتك، ويمضي بي هديك. . . وسأهيم في هذا الهدى، وسأنطلق في أرجاء هذه الدعوة. . . نفساً سئمت كل ما يحيط بها من عوائق، وما يحدها من علائق، وما يربطها من قيود. . . وروحاً مستها أنوارك فألهبتها، وصهرتها، ونقّت جوهرها. . . فعاشت بعد أملاً واسعاً، ورجاءً عريضاً، وشوقاً محرقاً. . .

وستستغفر يا سيدي الرسول. . . لي. . . ولهؤلاء الذين ضلوا من قبل، وسيضلون من بعد. . . هؤلاء الذين فتنتهم المادة، واستهواهم العقل، وزاغت بهم المناهج في بيداء قاحلة مجدبة. . . فعرضوا الذهب على النار كما يعرضون عليها الحديد والتراب. . . فاستبان لهم الهدى، وأنكشف لهم الحق، وظهرت لهم السبيل النيرة فدخلوا جنتك الممرعة. . .

إنها يا سيدي رسول الله إغفاءة الروح التي استيقظت معها المادة، وصدأ النفس الذي . . .

فاقت عليه الغريزة، وخبو الإشراق الذي سعى في ظلمته العقل، وكبر الحدس الذي نشط في خموده الذهن. . . وضلال الأهواء العاتية الذي فترت معه الأحاسيس. . فإذا رؤى الجمال، ومعاني الحق، ومثل الخير لا تنبجس في النفوس إشراقاً، ولا تنبعث في العقول إلهاباً، ولا تلقي في الروع إلقاء. . . وإنما هي في حاجة إلى المقدمات والحجج، وفي ضرورة إلى البيان والشرح!!

لشد ما أبغض أن ألقي جمال الزهرة في تشريح أجزائها ومعرفة أعضائها وتمزيق أوراقها وبتر سوقها، والهبوط بها من عرشها الزاهي. . .! إني لأفضل أن أترك هذا الأسلوب لطائفة غيري من الناس واسأل لهم منه العافية. . . فما يجب لنا أن ننشد

جمال الزهرة في غير عرشها الزاهي، وتوردها الملهم، وساقها القائمة، وانحناءتها الحييَّة، وتفتحها بيد الله. . . لا بيد الإنسان!

فلْتعش سيرتك يا سيدي يا رسول الله. . . انفعالاً حلواً، وعاطفة لذيذة. . . وهيجاناً يذكر بآيات الله، ويقرب إليه، ويدنى منه. . . ولتبق هذه السيرة الكريمة فكرة ومثلاً. . . فكرة سامية نبيلة، ومثلاً عالياً كريماً. . . ولتخفق نفوسنا من حول هذه الفكرة، ولتحوم في ثنايا هذا المثل كما يحوم الحجيج حول البيت المقدس. . . في خشوع الإيمان القوي، وروعة الجلال المهيب، وإطراقة المستغرق الذاهل. . . ولتنطلق. . . وقد انعتقنا من هذه القيود، وبرئينا من هذه الأغلال، وتجردنا عن أوضار المادة وآثام العقل. . لنغتسل في أضوائك الطهور ونتمسح بهديك الرشيد، ونستقي أمواهك الألقة. . . ولنغب في دنياك البريئة عبرْ الفضاء البعيد البعيد. . . أرواحاً صافية صفاء النسيم، نقية نقاء السماء، خالصة خلوص الشعاع. . . لنلتقي في ظلال الروح الأعلى. . .

سأعب من كوثرك الخالد - يا سيدي يا رسول الله - فأنا ظمآن حرَّان. . . وسأقطف من جناتك المترعة، فأنا نهم شره، ولقد طال بي الظمأ، واشتد عليَ الجوع، وضل بي الركب في قافلة تظن الهداية وهي حيرى، وتدعي الهناءة وهي شقية، وتحسب الراحة وهي في عذاب غليظ، وتمضي على الشوك وينفر من جراحها الدم، فلا تدرك لذع الشوك وألم الدم. . . لأنها فقدت في الحياة النفسية أحفل عناصرها بالإحساس واشدها أثراً في التفكير وأقربها خطى من الخير. . . ولا تزال تزعم أنها في سند من جفاف العقل، وفي كفالة من صلابة المادة!

فاستغفر لي يا سيدي الرسول، إني إنسان لا يرى بعينيه ولكنه يحس ببصيرته. . . ولا ينطوي في عقله، ولكنه ينطوي معه في حدسه، ولا يتحجر مع المادة ولكنه يبلّها بعصارة من قلبه: يبعث فيها جانب الحياة، ويثير منها معنى الوجود، كما يبل الطبيب وجه المريض يدفع عنه غفلته، ويصرف عنه إغماءته. .

أدع لي. . . واستغفر لي. . . فما أحوجني يا سيدي يا رسول الله إلى الدعاء والاستغفار. . .!

(القاهرة)

شكري فيصل

صورة من عنت الجاهلية

فرعون قريش

للأستاذ كامل محمود حبيب

(أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى، أرأيت إن كان على الهدى، أو أمر بالتقوى، أرأيت إن كذب وتولى، ألم يعلم بأن الله يرى، كلا لئن لم ينته لنسفعاً بالناصية، ناصية كاذبة خاطئة، فليدع ناديه، سندع الزبانية، كلا لا تطعه وأسجد واقترب)

(قرآن كريم)

يا عجبا! إن الإنسان ليخلو إلى نفسه أحياناً - فينتضي ما يرائي به الناس، ويبدو عارياً عن كل شيء إلا ما اقترف من إثم أو ما اكتسب من خطيئة؛ فيحاسبها وتعاتبه، ويلومها وتؤنبه، ثم يخرج من هذا العراك النفساني وقد فاء وأناب. . . أما الفاجر الفظ فلا يرتدع ولا يتصونَّ، لأن الشر يتدفق في عروقه فيسيطر عليه فيسوَّل له أشياء ليست هي من الإنسانية ولا من الضمير ولا من العقل، ولأن الشيطان أتخذه ولياً فأضله عن سواء السبيل

الليل ساج ساكن والقمر يخفق في السماء يشع نوراً جميلاً يجذب القلب، والقوم منبثون في أرجاء المكان بالعدوة القصوى ليلة سبع عشرة من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة؛ وهم في حركة صامتة يتهيئون لأمر ذي بال قد شغلهم عن كل ما حولهم، لا تسمع إلا صليل الحديد وحنين الإبل، وإلا صهيل الخيل ونباح الكلاب، وإلا همسات فئة يتشاورون في أمر قد أهمهم. . . هذا وفرعون قريش أبو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة جالس وحده في ناحية وبين يديه درع له قد نثلها من جرابها فهو يَهْنئها. وعملت في نفسه الخلوة حين أخذ الناس يتسللون إلى مضاجعهم، فراحت

خواطره تسبح بين ثنايا عمره الغابر. وأطرق فرعون قريش طويلاً فإذا آثامه وأوزاره منشورة أمام عينيه تسخر منه وتهزأ به، وإذا غده الأسود يرنو إليه عابساً مكفهراً وهو لا يدري ما وراء. إنه سيغدو على حرب حطبها رجال من قومه وعشيرته، هم أترابه ورفقاء صباه، وهم علية قومه وساداتهم.

وتمثلت له أفكاره أشباحاً تضطرب في الفضاء اللانهائي تحجب عنه نور القمر البهيج، فانطوى يحدث نفسه حديث فلسفته الجديدة، فلسفة الشك والحيرة، قال:

(رُب يوم قضيت في أمن ودعة، ناعم البال مطمئن الخاطر؛ فما لهذا القمر يبدو كاسفاً حزيناً، وما لهذه الجبال تتراءى معفرة غبراء، ومالي أحس كأن أنفاس الليل الهادئة تهب قاسية لتصدع صدري في غير رحمة ولا شفقة! إن قلبي لتهده الوحشة وأنا بين أهلي. أفيكون هذا لأنني سأغدو على حرب قوم هم مني وأنا منهم؟ لقد صبئوا واعتدوا فحق عليهم عقاب

يا ويلي! أفحقاً ما جاء به محمد؟)

(تاالله إنه لأمر عظيم. لقد عرضنا عليه المال حتى يكون أكثرنا مالاً، والشرف والملك حتى يكون سيدنا ومليكنا، فأبى وتعفف وقال: ما بي ما تقولون. . . فماذا بقي من عَرضَ الدنيا يبتغيه ذو حاجة!

(وتسللت - مرة ومرة - في خفية وحذر أتسمع ما يقول وأرى رأيي فيه - وعندي أنه كان بيننا غلاماً حدثاً غير متهم في قول أو فعل، فغير جدير به أن يتقول علينا بعض الأقاويل بعد إذ بدأ الشيب في صدغيه - فألقيت كلاماً حلواً عذباً ليس بينه وبين قلب اللبيب من حجاب، فصبوت إليه وهفوت نحوه؛ غير أن عنتاً أصابني فقلت للأخنس بن شريق حين سألني رأيي: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف؛ أطعموا فطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا؛ حتى إذا تحاذينا على الركب، وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه

(هذا هذا، يا قلبي!

(وتأججت نار الحسد والبغضاء في قلبي، فاندفعت أريد أن أقتله أو يقتله عصبة منا فما استطاع واحد أن يخلص إليه. يا لقلبي، كيف حيل بيني وبينه؟ لا ريب فهو قد سحرني أو أن خادماً من الجن أزعجني عنه

(كلا، كلا؛ فو الله ما هو بساحر!

(آه؛ لطالما سكنت إلى نفسي فما ودت إثماً قد قارفه، غير أن له رأياً هو جعلني أحمل له ضغناً، فانطلقت أشتط في السخرية منه، أسفه من حمله، وأضع من شرفه، وأعذب صحابته، وأفتنهم في دينهم، لا أرعوي ولا أستقر؛ ومضت الأيام وأنا احتدم احتداماً لا تهدأ لي ثورة ولا ينطفئ غل

ماذا عساه يبتغي؟ لعمري إن أمر هذا الرجل لعجيب)

(الله! نعم، الله!)

وصمت الرجل برهة من زمان يتأمل. . . ثم ثاب إلى نفسه يحدثها مرة أخرى:

(ثم. . . ثم ما اللات والعزى، وما مناة الثالثة الأخرى؟ أفليست بعض هذه الصخور المنثورة حوالي عاثت بها يد إنسان فصورتها آلهة تعبد؟ أفحقاً أن الله يسكنها فيدبر الأمر من ورائها على حين هي ذرات في هذا العالم اللانهائي لا حول لها ولا طول؟ يا لشد جهلي! أاسجد وأقوم واعبد وأقدم القرابين لمثل هذه الصخرة الواهية؟ وما إساف ونائلة؟ أفكانا غير رجل وامرأة أحدثا في الكعبة فمسخهما الله فاتخذناهما إلهين؟

ليت شعري أين العقل والحكمة؟)

(ليتني أستطيع أن أنزل عن كبريائي فأرجع بهذا الناس، فمالي بقتله من أرب، وأذر الرجل يناجي ربه ويعبده ويتهجد له ما شاء، وينشر دينه أنى شاء وكيف شاء! ليته يعبد آلهتنا فنعبد إلهه، ونرجع سيرتنا الأولى قبل أن تستيطر عليه هذه الأخيلة. . . ليتني وليته. . . ولكن؟

(ولكن أفننتظم تحت رايته وما هو بشيء؟ فو الله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه فيكون له الشرف والملك علينا، ونكون نحن في دولته كبعض أراذلنا

(!آه لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم)
وراح الرجل في ضمير الليل يحدث عقله حديث الفيلسوف قد ضربه الشك فلا يستطيع أن يرى الضلالة التي تردى فيها. وخشي الشيطان غب الأمر فصاح من أقصى الأفق صيحة صكت مسمعي الرجل فانتزعته من خواطره، ودوى صوت الشيطان يبدد أخيلته ويطم على ضميره ويناديه بأن ستكون لكم الغلبة فأفق من غرات الشك والتخاذل. غداً تهدأ الثائرة، وينطوي تاريخ هذا الرجل، وتكون أنت. . . أنت يا أبا الحكم السيد المطاع
وهب الرجل من مكانه يجر درعه، في هدأة الليل، صوب مضجعه وقد سكنت كل نأمة. . . ذهب إلى مضجعه لينام فألفى الشيطان هناك ينتظره ليحدثه حديث الكفر والفسوق حتى
مطلع الشمس
وفي الصباح دفعه الشيطان إلى الحومة ليلقى - أول ما يلقى - معاذ بن عمرو بن الجموح فضربه ضربة أطنَّتْ قدمه بنصف ساقه فسقط رأس الكفر يتضرج في دمه، ونظر فإذا الأرض من حوله خلاء إلا من الشيطان يعبث به ويسخر من آلهته، ويقول له: إني بريء منك ومما تعبد من دون الله. وتدفقت الحسرات في قلب الفاسق تأكله فما أنقذه منها إلا عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - فاحتز رأسه وحملها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم
وهو فرعون قريش أبو جهل - لعنه الله - إلى مثوى الكافرين. هوى إلى غضب الله يوم بدر. . . يوم النصر. . . يوم سطع أول شعاع أخاذ من نور النبوة على جزيرة العرب
(المحلة الكبرى الثانوية)
كامل محمود حبيب
القائد الشاب. . .
للأستاذ أحمد فتحي مرسي
لقد بلغني أن قوماً يقولون في إمارة (أسامة) ولعمري لئن)
قالوا في إمارته لقد قالوا في إمارة أبيه من قبله، وإن كان أبوه
لخليقاً بالأمارة وإنه لخليق لها.)
(حديث شريف)
جرى على شفاه القوم في المدينة في ضحوة ذلك اليوم من ربيع السنة الحادية عشرة للهجرة أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - أمر بالعدة لغزو الروم وأمَّر على الجيش (أسامة بن زيد بن حارثة)
ووقع هذا الخبر من الناس موقعين: وقع من نفس قوم موقع العجب والدهشة، ووقع من نفس أقوام موقع التجِلَّةِ والطاعة. وكان الناس في المدينة بين هؤلاء وأولئك. . . فأما الأولون فقد عجبوا كَيف يؤمَّر على جيش يضم صفوة المهاجرين والأنصار شاب حدَثٌ كأسامة لم يَعْدُ العشرين ربيعاً بعد، وكيف ينفرون للغزو وهم لم يعودوا من حجة البلاغ أو الوداع إلا من زمن قريب، ولم يستقر بهم المقام بعدُ في المدينة، حتى وقع في روع بعضهم أنهم سيحيون حياة دَعَة وهدوء، بعد أن نصر الله دينهم، ودخل الناس فيه أفواجاً، ودانت شبه الجزيرة جميعها لدعوة الرسول الجديد. فما بهم حاجة لغزو آخر بعد هذا الجهاد الواصب الطويل، وبعد أن أكمل الله لهم دينهم، وأتمَّ عليهم نعمته، ورضي لهم الإسلام ديناً
ثم إن الروم عدو لا يهون أمره، ولا تلين قناته، فقد قهر الفرس ولم يستطع العرب أن يقهروه، وهو حامي المسيحية، وإن به لشوقاً للقاء هؤلاء القوم الذين أجلو المسيحية عن أوكارها من شبه الجزيرة. . . وهم مازالوا يذكرون غزوة (مؤتة) وكيف خرج لهم الروم من مائة ألف، وكيف ذهبت هذه الغزوة بثلاثة من صفوة قواد المسلمين؛ ولولا مهارة رابعهم خالد بن الوليد في الانسحاب للحق بهم ولفتك الروم بالجيش، وإنهم ليذكرون أيضاً كيف تقاس الناس بعد خبر (مؤتة) عن لقاء الروم في تبوك، حتى قال بعض ضعاف النفوس للناس: لا تنفروا في الحر إلى تلك الأصقاع. فنزل قوله تعالى (وقالوا لا تَنْفِروا في

الحرَّ قُلْ نارُ جَهَنمَ أَشَدَّ حَراً لَو كانوا يَفْقَهُون). . . وحتى ذهب البعض الآخر يتلمس الحجج الواهية ليأذن له النبي في البقاء كما فعل الجدُّ بن قيس حين قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هل لك العام في جلاد بني الأصفر؟) فقال: (يا رسول الله أو تأذنْ لي ولا تَفتِنيَّ فوالله لقد عرف قومي أنه ما من أحد أشدُّ عجباً بالنساء مني. وإنيَّ لأخشى إن رأيت بني الأصفر ألا اصبر) فأعرض عنه الرسول ونزلت فيه الآية (ومنهمْ منْ يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين)

فعدوَّ تلك حاله وحال المسلمين معه، كيف يكون على رأس جيشه غلام حدث كاسامة، وكيف يعقد له اللواء في جيش يضم صفوة الأنصار، وشيوخ المهاجرين الأولين كابي بكر وعمر؟

تلك قصة القوم من ضعاف الإيمان فما خبر المؤمنين؟

لقد قال المؤمنون إن هذا أمر الرسول فعليهم طاعته. ألم يقل الله تعالى: (ومن يُطع الرسول فقد أطاع الله). ألم يقل عز وجل: (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوَلِّهِ ما تولّى ونصله جهنم وساءت مصيراً). ثم إن الغزو جهاد في سبيل الله، وإن المرء لفائز فيه بأحد الحسنيين: الاستشهاد أو الظهور، وما أحدهما إلا خير عند الله من الآخر. . . صحيح إن أسامة شاب لم يعدُ العشرين ربيعاً، ولكن أليس الشباب أنفذ عزماً، وأنهض همه، وأبعث للحمية في النفوس؟. . . ألم يحن الوقت بعد ليحمل الشباب لواء هذا الدين الجديد، وينهض بأمره، ويشترك في تحمل تبعاته الجسام؟ ثم أليس أسامة من خيرة شباب الإسلام: أليس أبوه زيد بن حارثة مولى رسول الله صاحب ثقته، وثاني من آمن به من الرجال بعد علي بن أبي طالب، وأول من استشهد في غزو الروم في مؤتة وبين يديه لواء الإسلام؟ أليس أسامة من استشاره النبي في حديث الإفك عن عائشة وهو صبي صغير؟ إن المسلمين ما زالوا يذكرون يوم دعاه النبي ودعا معه علي بن أبي طالب إلى منزل أبي بكر ليستشيرهما في أمر عائشة وصفوان، وقد استفاض حديث الناس وكثر القول. فأما أسامة فقد قضى أن حديث إفك وبهتان عظيم. وأما عليّ فقد قضى قائلاً: إن النساء لكثير غيرها. وأما الوحي فقد قضى بما قضى به أسامة: (ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم)

أليس أسامة بعد هذا كله حقيقاً بهذه الثقة الغالية؟ إذن فليمض على بركة الله، ولينتقم لأبيه الشهيد، وليضرب للشباب مثلاً يخلد على الدهر

ودعا النبي أسامة فعقد له اللواء وأوصاه أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم في أرض فلسطين على مقربة من (مُؤْتة) حيث قتل أبوه، وأن ينزل على أعداء الله وأعدائه في عَمَايَة الصبح، وأن يمعن فيهم قتلاً، وأن يحرقهم بالنار، وأن يتم ذلك دَراكاً حتى لا تسبق إلى أعدائه أنباؤه، واستوصاه بالنساء والأطفال خيراً، وأمر بأن يخرج إلى الجرف - على مقربة من المدينة - حتى يتم جهاز الجيش. . . وخرج أسامة فضرب لواءه بالجرف، وأقام في انتظار أمر الله وأمر الرسول

وإن أسامة لفي ارتقاب أمر المسير، وإن الجيش لفي جهازه وعدته، وإن الناس لفي حديثهم عن إمرة أسامة على شيوخ الإسلام، إذ مرض الرسول عليه الصلاة والسلام مرضه الأخير بعد جهادين طويلين في سبيل الله: جهاد الروح في الرسالة، وجهاد الجسم في الغزوات والحروب. واشتد به المرض حتى لم يقو على مجالسة أصحابه. . . ولكن يشاء الله أن تبلغ همسات الناس في أسامة آذان ذلك الراقد على فراش مرضه، الذي برحت به الحمى حتى عاد يشعر كأن به منها لهباً، يشاء الله أن يبلغ أذنيه أن الناس يقولون إنه أمَّرَ على جُلّة المهاجرين والأنصار غلاماً حدثاً. فيعز عليه ذلك ويخشى أن تقع الفتنة في الناس، فيطلب إلى أهل بيته أن يُرِيقوا عليه سبع قرب من آبار شتى حتى يذهب الماء ببعض حرارة الحمة. ثم يعصب رأسه ويتحامل على نفسه ويتساند حتى يبلغ المسجد، فيجلس على المنبر فيحمد الله ويصلي على أصحاب أحد ثم يقول:

لقد بلغني أن قوماً في إمارة أسامة، ولعمري لئن قالوا في إمارته لقد قالوا في) إمارة أبيه من قبله - وإن كان أبوه لخليق بالإمارة - وإنه لخليق لها فأنفذوا بعث ثم يقول: (أن عبداً من عباده خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند (أسامة

الله). . . ويدرك أبو بكر والناس ما بهذه العبارة من إيماء فيتأثر الناس ويبكي أبو بكر. . .
ويثقل المرض على المريض بعد ذلك الماء الذي صُبَّ عليه وهو في لهب الحمى، وبعد ذلك الجهد الذي بذله في خطاب الناس فيأمر أبا بكر أن يصلي بالناس، ولا يلبث أياماً حتى يسلم أنفاسه الطاهرة في حجر عائشة وهو يقول هامساً: (بل الرفيق الأعلى من الجنة)
ويبلغ نعي رسول الله أسامة بالجرف، فيهبط وجيشه إلى المدينة ويركز لواءه بباب عائشة. . . ثم تتعاقب الأحداث، ويلي أبو بكر الخلافة، ويعود الناس إلى حديثهم عن إمرة أسامة. . . لقد مات الرسول فما ضرهم لو عاودوا الأمر على أبي بكر لعله يلين حيث صَلُبَ النبيَّ، ويولي أمرهم رجلاً أقدم سناً
ويجتمع الأنصار ويحملون رسالتهم عمر بن الخطاب ويقولون له: (أطلب إلى خليفة المسلمين أن يولّيَ أمرنا رجلاً اقدم سناً من أسامة). ولعل عمر كان يجاريهم هذا الرأي. لعله كان يشق عليه وهو الذي قدمه أبو بكر للخلافة بعد رسول الله في اجتماع السقيفة أن يتأمَّر عليه شاب حدث لم يكن له مثل جهاده في الدين. لعل ذلك حال في ذهن عمر لأنه سارع يحمل الرسالة إلى أبي بكر
ويصل عمر بالرسالة ويبلغها أبا بكر فيغضب أبو بكر ويقول: - (ثكلتك أمك يا أبن الخطاب. . . استأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمر أن أنزعه. . .) ثم يقوم الخليفة الشيخ ويأمر بإنفاذ الجيش، ويخرج يستنهض الناس، حتى إذا تم جهاز الجيش سار يشيعه وهو ماش وأسامة راكب. فيعز على أسامة أن يسير خليفة المسلمين - وهو إذ ذاك شيخ في الستين - وهو راكب إلى جواره فيقول له: (يا خليفة رسول الله والله لتركبن أو لأنزلن). فيرد أبو بكر: (والله لا تنزل ووالله لا اركب، وما عليَّ إلا أن أغبرَّ قدميَّ في سبيل الله ساعة فإن للغازي بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له وسبعمائة معصية ترفع عنه)
ويخرج الجيش إلى الصحراء، وهنالك يدعو له أبو بكر ويطلب إلى إسامة أن يأذن لعمر في البقاء ليشير عليه فيأذن أسامة ويسير الجيش على بركة الله ورعايته
تُرى هل يحقق أسامة ثقة النبي به؟ ترى هل يفلح حيث أخفق أبوه وثلاثة من خيرة قواد المسلمين؟ ترى هل يقهر عدواً لم يقهره أحد من أهل زمانه؟ ترى هل يقطع ألسنة المجادلين المكابرين القليلي الثقة به وبالشباب؟ ترى هل يرفع رأس شباب الإسلام، ويمهد له الاضطلاع بما يثقل من الأعباء؟
. . .تعاقبت شهور وأيام
فمن ذلك العائد إلى المدينة يتخطَّر على ظهر جواده؟ ولمن هذا الجيش المقبل وقد عقد من
خلفه النقع وأثار رمال الصحراء؟ ولمن هذه الوجه المتهللة المزْهُوَّة بالنصر؟
. . .إنه لأسامة، وإنه لجيشه
. . .لقد فاز وسلم وغنم
رحمك الله يا أسامة، وطيب ثراك، وخلّد ذكراك، فقد حققت ثقة النبي في وقت ضعفت فيه الثقة بك، وقهرت عدواً للإسلام عزَّ على غيرك قهره، وضربت لشباب اليوم مثلاً من شباب الأمس
أحمد فتحي مرسي
المحامي
. . .عزاء من الله
للأديب لبيب السعيد
علم رسول الله بالنّازلة الجليلة، فغشيه من الحزن ما لم يستطع ردّه، وشاع في نفسه الهمّ الشديد حتى ليبدو للعيان في صفحة وجهه الوضاء.
إن بينه وبين فقيد اليوم قربة الروح والدين فوق قرابة الدم. . . فالفقيد هو جعفر بن أبي طالب أحد (الرّفقاء النجباء) الذين يعتز بهم ويشيد بفضلهم؛ وفي سبيل دعوته الناشئة آثر الاغتراب في البلد النازح على الإذعان لأعداء الدعوة في أرض الوطن، فتحمل بزوجه إلى الحبشة، حيث جعل الله على يديه إسلام عاهلها ومن تبعه. والفقيد من أبرّ الناس بالمسلمين، و (أبو المساكين) كما هو يكنيه؛ وهو أحرص الناس على

الأخذ بأخلاقه حتى ليبدو أشبه الناس به خُلُقاً إلى كونة أشبههم به خَلْقاً.
. . .وهو بعدُ ابن عمّه
لقد كانت أوبةُ جعفر من مُهَاجره قريبة العهد، فما انقضى عليها غير عام وأربعة أشهر.
ولقد آب يوم فتح الله على رسوله والمؤمنين حصون (خيبر) بعد عراك وجهد، فكان الرّسول صلى الله عليه وسلم في غمرة الأفراح يقبّله بين عينيه، ويلتزمه، ويقول: (ما أدري أيّهما أنا اسّر؟ بفتح خيبر أنم بقدوم جعفر؟) ويقول له كذلك: (أشبهتني خُلُقاً وخَلْقاً) فكانت نشوة الفرح والاعتزاز بهذه العواطف وهذه التشريف تأخذ جعفراً حتى ليرقص من فرط الطرّب والسّعادة.
فوا أسفا! أأقبل جعفر ليدبر؟ أتحقّقت لقلب الرسول رجيّته ليثكلها بعد حين قليل؟ يا رحمتاه لهذا القلب!!
ولقد كان جعفر أمس القريب حين خرج مع السّريّة يكلم رسول الله في ألا يقدَّم عليه زيد بن حارثة، لا إيثاراً لنفسه على زيد، ولكن رجاوة السّبق إلى لقاء المكاره في سبيل دينه. . . واستصغاراً للنّصيب الذي فرض له من أعباء الجهاد؛ ورغبة حارة في أحسن بلاء يتاح لمسلم.
فأين أمس، حين النبيّ يجيبه: (أمض، فأنك لا تدري أي ذلك خير)، وحين النبي في توديعه هو والجيش، وحين المسلمون ينظرون إليه وإلى الغُزاة نظرة الأمل، ويدعون لهم أطيب
الدعاء؟
!!أين أمس؟. . . لقد كان آخر العهد وفرقة الدهر
وجعفر تخطّفه الموت وهو يطاحن مع ثلاثة آلاف من إخوانه المسلمين مأتي ألف جمّعها (هرقل) وزودها بما استطاع من عدّة. . .
ولم يلق جعفر حتفه كما يتَّفق، بل لقيه على نحو سيظل في القرون والأجيال آية مثالية باهرةً، وذكرى مروَّيةً لن تبيد. . .
كان زيد بن حارثة يقاتل براية رسول الله عليه الصلوات (حتى شاط في رماح القوم) فتلقف جعفر الراية، وانطلق يقاتل بها قتال المتشوق لإحدى الحسنيَيْن، حتى إذا ما ألجمه القتال اقتحم عن فرسه، فعقرها، كيلا ينتفع بها العدو، وما برح يقاتل - كما أوصى الرسول يوم هيأهم للخروج - (باسم الله في سبيل الله من كفر بالله)، ولواء النبي الأبيض في يمينه تباهي به ويباهي بها. . . حتى جاءته ضربة أطاحت بهذه اليمين. . .
وكان طَبَيعياً لمن فقد يمينه أن يسُلَّم الراية لغيره - إن قدر على حفظها - ويتخلف بعض الوقت لينظر أمره. . . ولكن جعفراً الذي أعار الله حياته، والذي لا يعرف شيئاً يمنعه عن المضيء في شرف الجهاد، والذي لا يمكن أن يذل في قراع النوائب خذ اللواء الكريم بشماله، وما أنفك يصاول العدو أروع الصيَّال مرتجزاً:
يا حبذا الجنة واقترابها ... طيّبة وباردٌ شرابها
والروم روم قد دنا عذابها ... كافرة بعيدة أنسابها
عليَّ إذ لاقيتها ضِرابها
. . .حتى جاءته ضربة أخرى أطاحت بيساره
أخمدَت لجعفر الصيَّب المنقطع ذراعاه همة؟ أو فُلَّت له عزمة؟ كلا! فهو لم يدع اللواء العزيز المزهوّ يسقط أو يخزى وإنما احتضنه بعضديه، منشوراً لاُ يطوى، كريماً لا يهون، والطعان تتري على جعفر فلا يولّيها دبره، وإنما يتلقاها في استعذاب حتى لتبلغ جراحه بضعة وسبعين كلها فيما أقبل من بدنه. ولا يزال جعفر في المعمعة يهدر بنشيده القوى: (يا حبذا الجنة واقترابها) حتى تتحقق له الشهادة، إذ يجيئه رومي فيضربه ضربة تقطعه نصفين. . .
وهنالك فقط يدع الراية لمسلم ثالث؟
. . .هذا هو الفقيد
وأتى الرسول صلوات الله عليه إلى بيت جعفر يتفقد يتامى تركهم من خلفه خُضراً كأفراخ القطا، ويعزي عن المصاب فيه شريكته المرزّأة: أسماء بنت عميس؛ وإنه ليطلب إليها أن تأتيه ببنيها، وهو يحبس عنها النبأ الفاجع، ويأخذ أطفالها فيشمهم، وينظر إليهم نظرة الأسى المرير. . فيتمثل - إذ يراهم - وجه أبيهم الذي لقي حتفه

في غرب شبابه، ويتمثل حلاوة أخلاقه وأن كان يداً قوية للمسلمين على عدوهم، وقلباً انطوت على حب الله ورسوله والإسلام لفائفه، وأترعت بالإيمان والإخلاص والعزم جوانبه، فتفيض عيناه الشريفتان رحمة وحناناً. . .

وأسماء تستوضحه: (بأبي أنت وأمي يا رسول الله. . .! ما يبكيك؟)

وتصيح من هول ما تسمع. . . ويجتمع إليها النساء، فيعزيها الرسول في حنوٍ وعطفٍ وينهاها: (يا أسماء! لا تقولي: هجرا، ولا تضربي خداً). . . ويتوجه إلى الله ضارعاً: (اللهم قدّمه إلى أحسن الثواب، وأخلفه في ذريته بأحسن ما خلفتَ أحداً من عبادك في ذريته!

كان خطب البيت النبوي في جعفر خطباً أحسوا له جميعاً لوعة متسعرة؛ وانظر كيف تدخل فاطمة على أبيها رسول الله وهي تبكي وتقول: (وأعمَّاه!). . . فيقول والأشجان ملء فؤاده: (على مثل جعفر فلتبك البواكي!!)

ويشاء الله برحمته أن يمسح بيده الآسية على قلب نبيه وآله، وأن يعزِّيهم عن فجيعتهم الحمراء عزاءً فذاً كمصابهم الفذ، فهذا الروح الأمين ينزل على الرسول المحزون، فيبلغه أن الله قد عوض جعفراً عن ذراعيه بجناحين مضرجين بالدماء، يطير بهما مع الملائكة في الجنة. . .

يا بشرى!! وهل يبغي حبيب لحبيبه شيئاً وراء ذلك؟

ثم هذا النبي عليه الصلاة السلام يرفع مرة رأسه إلى السماء فيقول: (. . . وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته!) فيقول الناس: (يا رسول الله! ما كنت تصنع هذا) فيجيبهم: (مرَّ بي جعفر بن أبي طالب في ملأ من الملائكة فسلم عليَّ. . .)

ندى هذا العزاء الإلهي الأكباد القريحة وصرف عنها الجزع ونِعم الأسى آسٍ من روح الله، ونعم العزاء عزاء بقدر البلاء!

(المنصورة)

لبيب السعدي

العذاب!

للدكتور إبراهيم ناجي

أَلَمي مَحَا ذّنْبي إليك وَكَفَّرَا ... هَبْنِي أَسَأْتُ أَلَمْ يَحُزْ أَنْ تَغْفِرَا؟
رُوحي مُمَزَّقَةٌ وَأَنْتَ تَرَكْتَها ... لِمخالِبِ الدُّنْيا وَأَنْيَابِ الوَرَى
رُوحي مُمَزَّقةٌ وَلَوْ أَدْرَكْتَها ... جَمَّعْتَ مِنْ أَشْلاَئها مَا بُعْثِرا
أَوَ لَيْسَ لَي في ظِلِّ عَطْفِكَ مَوْضِعٌ ... أَحْبُو إليه وَأَرْتمي مُسْتَنصِرا
مَا كُنْتُ أَصْبِرُ عَنْ لِقاَئِكَ ساعةً ... كَيْفَ السَّبِيلُ إلى اصْطِبَاري أَشْهُرا؟
مَنْ بَدَّلَ الثَّغْرَ الَجْيِلَ عُبُوسةً؟ ... وَمضَى إلى وَجْهِ السَّمَاءِ فَغَيَّرا؟
يَا هَاتِهِ الأَقْدَارُ! يا كَفاً جَرَتْ ... عَسْرَاء تمْنَعُ أُفْقَها أَنْ يُمْطِرَا
يَا هَاتِهِ الأَقْدَارُ! عَينُكِ لاَ تَرَى ... خَلْفَ الدُّجَى سَأَمَانَ مُمْتَنِعَ الْكَرَى
ظَمْآنَ لَوْ بَاعَ الأَحِبَّةَ قَطْرَةً ... بِالْعُمْرِ والدَّنْيا جَمِيعاً لاَشْتَرَى
أَخْفَى جِرَاحَكِ وَاسْتَعَزَّ بِفَنْكِها ... غِرَّيدُكِ الشَّادِي الْمُحَلَّقُ في الذَّرَى
يَرْنَوُ إليك عَلَى البعَادِ فَيَعْتَلي ... وَيَجُرهُ الْجُرحُ الْممِضُّ إلى الثَّرى
قَدْ عَاشَ وَهْوَ مُعذَّبٌ بإبَائهِ ... وَلَقدْ يُلاَقي حَتْفَهُ مُسْتَكْبرا
جَثَّامَ كِتْماني وَطُولُ تَجَلّدِي ... يَا أَيُّها الْجَاني عَلَيّ وَمَا دَرَى
وَمَتَى الْمَآبُ إلى رِحابِكَ سَاعَةً ... لأرِيكَ جُرْحي وَالدَّماء وَالخِنجَرا
جنتي. . .

للآنسة الفاضلة دنانير

يا جَنَّةً لُذْتُ بأَفْيَائهاَ ... في غَفْوةٍ مِنْ غَفَواتِ الزَّمانْ
لماَّ تَطَوَّفْتُ بأَرْجَائها ... أَلْتَمسُ الصَّفْوَ وَأَبغي الأَمَانْ
رَفَّتْ عَلَى قَلْبِي بأَضْوَائها ... وَظَلَّلَتْهُ بالرضَى وَالَحْنَانْ
يَا قَلْبُ إِنْ تَكْفُرْ بآلاَئها ... فليسَ مَن حَقَّكَ سُكْنَى الجنانْ
آوِى إليها من جحيمِ العذابْ ... ضحى فتلقاني بوجهٍ طليقْ
وتُطفئُ النارَ بِبرد الشراب ... من سَلْسَلٍ عذبٍ شهيِّ الرحيق
كأسِيَ من أوراقِ وَردٍ رطاب ... مكلَّلاتٍ بمذابِ العقيق
كم أنتشي بالنَّفَحات العِذاب ... منها فما أدري متى أستفيق

قلبي في ظِلِّكِ يا جنتي ... قد مَسَّهُ نورُ الهوى فاشتَعلْ
وكنتُ من قبلِكِ في وحشتي ... لا فَرَحٌ يُؤْنِسني أو جَذَل
أهيمُ لا أبصُر في حَيْرتي ... إلا ظلامَ اليأسِ يَغْشَى الأمل
حتى تجلَّيْتِ على ظلمتي ... بالنورِ يُوحي بفنونِ الغزل
يا شِقْوَةَ النَّفس إذا ما انقضى ... عهدٌ مليءٌ بالهوى والفتُونْ
وباتَ عيشي فيكِ حلُماً مضى ... تَهيجُ لي ذِكْراهُ شَجْوَ الحنين
عيشٌ غضيرٌ، حافلٌ بالرَّضى ... يا حسْرة القلبِ له إذ يَبين
يا قلبُ من يمْحُو سطورَ القَضا ... ويَضْمَنُ المقدورَ ألاَّ يكون
هيهاتَ هيهاتَ فلا بدَّ لي ... من ساعةٍ تصدعُ ما بيننا
خيالُها المفزعُ ما يأتلي ... يُساوِرُ القلبَ هُنا أو هُنا
غداً، وَياَ وَيْلِي لما يَنجلي ... عنه غدٌ من مُوجِعاتِ الصَّنى
كيفِ نَجائي في غَدي المقبلِ ... من كأسِ بيْنٍ قدْ أُعِدَّتْ لنا
أهواك أهواك وهذا دَمي ... أوْغَلَ فيه حبُّكِ القاهرُ
كمذا تُراعُ النفس يا ملُهمي ... مما يُسِرُّ القدرُ الساَّخرُ
سأنْثَني عنك وقلبي ظمي ... يُلْهِبِه حِرْمَانه السَّاعرُ
واْسمك في الخاطرِ أو في الفَمِ ... بهِ يلَذُّ الفمُ والخاطرُ
يا ليتَ شعري ما حياةُ القلوبْ ... إن لَمْ يُطَهَّرْهَا جحيمُ الهوى
فَتَمَّحِي آثامُها والذُّنوب ... في لَهَبِ الوجدِ وحرَّ الجوى
ولم تَسِمْها من هَواها نُدُوب ... تَظَلُّ إنْ فَاتَ الصَّبَى وَانْطَوَى
تَنْكَأُ فيها ذكرياتٌ تَؤَوب ... من غابرٍ ماتَ وَمَاضٍ ثوَى
أخشَى وما أخشَى سوى عَوْدتي ... لوحشَتي في عزُلْتي آلنائيَةْ
فلا أرَى بعدك في وحدتي ... سوى صبابتي وآلاميَةْ
وأنت في شُغْلٍ وفي غَفْلَةِ ... عن ذمَّتي الحافظِةِ الوافية
من لي بكأس الموت يا فتنتي ... فهي شفائي يوم تَنْسَانيَةْ
(فلسطين)
دنانير
البريد الأدبي
قلوب تتناجى وأفكار تتلاقى
حفل عدد (الرسالة) الهجري الممتاز بخير ما تجود به أقلام الكتاب، وانفس ما تتمخض عنه قرائح المفكرين، فلاطتْ أحاديثه بكل قلب، وتغلغلت في كل ضمير؛ وأثارت في النفوس المؤمنة شعوراً قوياً من اليقين والأمل والثقة بمستقبل الإسلام وما ينتظره من خير على أيدي رجاله العاملين.
ونحن خليقون أن ننتفع من هذا الشعور، لا أن نكتفيَ بإدراكه وتسجيله؛ فهو الحافز الأقوى إلى التقدم، والسبب الأوثق إلى بلوغ الغاية، وهو أيضاً البشير الأصدق بأننا نسير على الجادة، ونمضي قدماً إلى ما عقدنا العزم عليه من النهوض بأنفسنا، وفي ظل هذا الدين الذي شرَّفنا الله به.
وإذا تجانسَ الشعور العام نحو أمرٍ ما، وتقاربت الأفكار حوله بل تلاقت؛ دل صحةٍ في النظر، وصدقٍ في الوسيلة، وشرفٍ في القصد والغاية. ولا أدلَّ على أن هذه حالنا اليوم، من ذلك الإحساس المتبادل الذي جاشت به قلوب كتابنا، ففاض على أسلات أقلامهم وحياً من الوحي، وآياً من الآي!. لقد هتفوا جميعاً بنداء واحد، ودعوا إلي كلمة سواء، هي أن نقف عند حدود شريعتنا فلا نعدوها، وأن نستغْنَي بقانونها عن كل قانون، ونادوا جميعاً أنظمة الغرب في حل مشاكل الحياة، وهداية البشر إلى طريق الخير والصلاح. . .
فعالج الأستاذ الجليل (صاحب الرسالة) مشكلة الفقر كمرض اجتماعيّ له خطورته؛ وبين ما طبَّ له به الإسلام من ضروب العلاج. ثم ذكر أن هذا العلاج (على إحاطته وبساطته ونجوعه ينهض وحده دليلاً على أفَن الذين يقولون إن دستور القرآن لا يأتلف مع المدنية، وشريعة نابليون أصلح للناس من شريعة الله، ونظام مَرْكس أجدى على العالم من نظام محمد)
وفي كلمة الإمام الأكبر الأستاذ المراغي ما نصه: (لا يزكو بأهل القِبلة أن يولوا

وجوههم شطر المغرب يأخذون عنه من المذاهب والنظم والتقاليد ما أضل به أهله. إنما النور في الشرق مطلع الأديان، والهدى في شريعة الله مُنزل القرآن، والدليل في سنة الرسول صاحب الهجرة، والسبيل ما سلكه السلف الصالح فأوفي بهم على الغاية).

وفي كلام الأستاذ محمد المدني ما يدخل تحت هذا المعنى؛ فقد تحدث عن الفقه وكيف ركدت ريحه، وعن الفقهاء وكيف غلّقوا أبواب الاجتهاد، حتى أعرض عنهم أهل التشريع وأصحاب النفوذ والسلطان، وانقطع ما بينهم وبين المجتمع من أسباب؛ ثم قال: (وكان من آثار ذلك أن دخلت التشريعات الأجنبية على بلاد المسلمين، فأصبحت دستور الحكم، وأساس الإدارة، وقانون القضاء، وعماد النظام في كل ناحية من نواحي الأعمال!)

والأستاذ محمد الغمراوي يحدثنا في (تأملاته) عن المدنية الغربية؛ وكيف جنى بعدها عن الدين؛ ويبين ضرورة الرجوع إلى مبادئ الإسلام والأخذ بشريعة ثم يقول: (أعجب عجباً بعد عجب من قوم. . . يتطلبون الحياة ممن ضل عن روحه ونوره، ويولون وجوههم وقلوبهم لا شطر المدينة الإسلامية التي أقامها الرسول بتطبيق كتاب الله فكانت مثلاً عملياً أعلى للإنسانية كلها، ولكن شطر المدنية الغربية التي ضلت عن ربها وعبدت المال والقوة والجاه فأداها هذا إلى التهلكة التي ترى والتي تحاول التخلص منها فلا تستطيع. . .)

هذا بعض ما نبضت به قلوب قادة الرأي فينا، وما تحركت بتسجيله أقلامهم؛ أفلا يحق لنا أن نطمئن ونستبشر، ونرجو من هذا الشعور المشترك خيراً؟؟

يقول أستاذنا المفتي الأكبر في حديثه المنشور بنفس العدد من الرسالة: (قد اتجهت أفكار المفكرين وآراء المصلحين إلى هذه الشريعة يلتمسون أن تكون نظام حياتهم، وأساس مدنيتهم فلا بد لنا إذن من العمل، ولا بد لنا من تلبية نداء الأمة، وإعداد أنفسنا لهذه المهمة السامية)

وهذا كلام نؤمن عليه مغتبطين، وغاية نبيلة نرجو ألا يقف رجال الإسلام دون . . . تحقيقها؛ والله يكلؤهم برعايته، ويمدهم بعونه وتوفيقه إنه نعم المستعان.

(جرجا)

محمود عزت عرفة

إلى الدكتور عبد الوهاب عزام

الآن وقد وضعت آخر كتاب قرأته لكم: كتاب (رحلات) تجلت لي منكم خلال (عزامية)، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ولمست فيكم تلك الروح الشرقية العربية الإسلامية بأجلى مظاهرها وأسمى حلاها؛ عرفت فيكم ذلك الأستاذ المثقف الذي لم تغره زخارف المدنية الأوربية ووقف عند كل (أثر) إسلامي يناجيه بروح رفاقه وقلب متوثب وعزيمة وقادة. أين موقفك عند مواطن (بغداد) و (الموصل) و (دمشق) و (طرسوس) وحتى (البحر الأبيض) جعلته مثاراً لذكرى الفاتحين المسلمين الأولين. ثم أين موقفك (عند قبر صلاح الدين) وأين كلماتك التي نفثها يراعك الأكرم ثم ختمت مناجاتك وأمانيك عند البيت الحرام والقبة الخضراء الشريفة. فيا لله من مواقف عظام وذكريات فيها الذكر والعبر كما حدثت

وبهذه المناسبة أتقدم إليكم لأستفسر منكم عن موقف من مواقف المتجادلين في هذا العصر، فبينا أخط هذا إذ وردت مجلة الرسالة (الغراء) وفيها فتوى (في مذاهب الصوفية) نقلها كاتب عن (الطرطوسي) وسجل فيها ما سجل من خزعبلات المتصوفة لا الصوفيين بحق؟ على أن هذا لا يعتبر شاهداً على صوفية أو متصوفة هذا الزمن.

ومن مواقفك الحسان في كتاب (رحلات) أنك تركت إخوان (الخيام) لتزور ذلك الصوفي الذي لقيت في سبيل زيارته ما لقيت. على أني وإن لم أكن صوفياً بمعنى الكلمة أكره التجني وأعلم أن هناك أناساً مخلصين يذكرون الله جهراً في حلقات، ثم يتدارسون العلم على يد فقيه عالم فيلقون إليه قيادهم فيبصرهم بأمور دنياهم، ولم يكن هناك نقر على (الدفوف) ولا (جبي ضرائب) ولا (هيولة) معظمة ولا ولا الخ إنما يريدون اخوة في الله، والله لا يرضى عنهم إلا إن كانوا مجدين في عمل الدنيا، وما عليهم إلا (الاستغفار والصلوات على النبي صلوات الله عليه وتكرار اللفظ الأكرم (لا

أله ألا الله) ويقولون لسنا إلا على الشرع. أرجو بيان هذا الموضوع ببيانك المعهود على صفحات الرسالة الغراء

إبراهيم السعيد محمد عجلان

الإسلام دين ومدنية

في العدد الممتاز وقع خطأ في عنوان مقالي فصار (الإسلام دينٌ لا دولة) والصواب (الإسلام دين ومدنية) كما ورد في الفهرس وكما ورد في الأصل قبل أن يصاب بذلك التحريف. وإنما اهتمت بتصحيح العنوان لأنه حين حُرف دلّ على معنىً لا أرضاه للإسلام على الإطلاق، وإن ارتضاه بعض الباحثين

وبعد فهل قرأتم في العدد الممتاز مقال الأستاذ الشيخ محمود شلتوت عن (شخصيات الرسول)

أقرءوا ذلك المقال مرة ثانية لتذكروا أنه متسم بالروح الذي كتبنا به مقالاً في أحد الأعداد الممتازة من الرسالة عن (النواحي الإنسانية في الرسول) وهو مقال سبّب لنا متاعب كثيرة وأستوجب أن تنوشنا المجلات الدينية في مدى يزيد على عامين بلا ترفق ولا استبقاء، مع أننا لم نقل غير الحق

واليوم يستطيع خصومنا أن يوجهوا خصومتهم إلى فضيلة الشيخ شلتوت إن أرادوا، فإن لم يفعلوا ولن يفعلوا فمن حقنا أن نرجوهم هم أن يتريثوا في الحكم على ضمائر الرجال قبل أن يسوقوا التهم الجوارح بلا بينة ولا برهان

هدانا الله وإياهم إلى ما يحبه ويرضاه

زكي مبارك

حول محاضرة الدكتور زكي مبارك

كنت من اشد الناس إعجاباً بهذه المحاضرة القيمة التي ألقاها الدكتور في دار اتحاد الشباب المسلمين بالقاهرة لأنها كانت تعالج موضوعاً خطيراً هو (اتجاهات مصر الأدبية وأثرها الضار أو النافع في مركز مصر في الشرق) إلا أن لي عليها ملاحظتين:

الأولى: أنه حينما ذكر أن مصر في سبيل تعزيز اللغة العربية، وتقوية العلاقات بينها وبين الأمم الشرقية، قد أنشأت قسماً داخلياً في مدرسة دار العلوم لإيواء طلبة الأمم الشرقية فسهَّلت لهم سبيل الثقافة والمعرفة، وهذا عمل مشكور لوزارة المعارف المصرية؛ ولكن أليس من الحق أن نقول أيضاً إن الجامعة الأزهرية قد أسهمت في هذا الموضوع وكان لها فيه القدح المعلي، وأكبر دليل على ذلك أنه لما فكر المرحوم الملك فؤاد الأول في إنشاء أبنية فخمة تضم كليات الجامعة الأزهرية، رأت إدارة الجامعة الأزهرية أن تجعل من بعض هذه العمارات مساكن لطلبة الأمم الشرقية موفورا فيها كل أسباب الراحة؛ وقد جعلت في كل قسم مكتبة علمية لتزويدهم بمختلف الثقافات والمعارف. هذا ما عدا ما في الجامع الأزهر، وما في العمارات الأخرى التي استأجرتها إدارة الجامعة الأزهرية، وهي في أفخم أحياء القاهرة، وكل هذه الأماكن لا تضم أفراداً من العراق والشام فحسب، بل فيها طلبة من السودان وشمال أفريقيا والعراق والشام والهند والأتراك وداغستان والصين وغير ذلك من الأمم الشرقية؛ وقد رتبت لهم المكافآت المالية الكثيرة

الملاحظة الثانية: أنه قال (في مناحيَ) ونطقها بثبوت الياء مفتوحة في حالة الجر ونص على هذا قائلاً إنه هو الصحيح. وإني مع احترامي لرأي الدكتور أرجو أن يدلني على وجه الصحة في هذا، لأن المسموع في أفصح كلم وأبلغه وهو القرآن عدم ذكر الياء مفتوحة في مثل هذه الكلمة، قال الله تعالى: (والفجر وليالٍ عشر). (ومن فوقهم غواشٍ). وأما ما ذكره الدكتور فهو خاص بحالة النصب

وقد أجمع النحويون على معاملة مثل هذا الجمع معاملة قاض. هذا ما أعرفه؛ وللأستاذ مني أصدق التحية

(القاهرة)

عبد المنعم سليمان مسلم

بين أغسطين والغزالي

ذكر العلامة المحقق الدكتور جواد على، وجه الشبه بين اعترافات القديس (أوغسطين) وبين اعترافات الغزالي في كتابه (المنقذ من الظلال)، وقد حار في تعليل هذا التشابه. وقد حملتني بعض الغرائب في أخلاق المتصوفة على دراسة هذا

الموضوع من الناحية الطبيعية السيكولوجية زهاء سبعة عشر عاماً، رجعت في خلالها إلى شتى المصادر العلمية، وخرجت من بحثي بأن التصوف ضرب من الانحراف الذهني يحدث ما يشبه الضغط في بعض مراكز الفكر، وهذا ما يعلل ما يتسم به المتصوفة في كل عصر ومن كل جنس ومن كل دين من الاتفاق في الأفكار الأساسية التي يجمع عليها المتصوفون

وقد عثرتُ أثناء دراستي الطويلة على أمثلة رائعة لهذا التشابه بين متصوفين يفصلهم عن بعض الزمن والثقافة والجنسية والديانة؛ فالحلاج يفكر في مسألة الحلول نفس تفكير القديسة تريزا، ولا يخرج تفكير ابن العربي وابن الفارض في الحب الإلهي عن تفكير سويدنبرج السويدي. وقد كان البسطامي في حدبه على النمل كثير الشبه بالقديس فرنسيس الأسيسي

في مناجاته للطير ونعته بالأخوة.

. . .وأرجو أن أوفق إلى نشر بحثي مع ما فيه مما يخالف المألوف في القريب العاجل

كامل يوسف

عضو بالمعهد الفلسفي البريطاني بلندن

تبرئة القضاء العربي من وصمة

أورد صاحب مقال (التبعة والعقوبة في المجتمع البشري) قصة للحزين الديلي بنى عليها أحكاماً منها أن العرب (أقروا شهادة الحيوان أمام القضاء)، وأن ذلك (بمثابة رجوع العربي إلى المنطق القبلي الذي كان يأخذ الحيوان بالتبعة)

ومن الواجب - وللرسالة مكانتها وتحريها - أن أنبه إلى أن الخبر الذي ذكره الفاضل نقلاً عن الأغاني محرف ملفق، فلا صاحب الأغاني ذكره ولا غيره. وكل ما في الأغاني خبر صغير عن الحزين الديلي خلاصته أن طائفاً وجده سكران فحبسه مع حماره إلى الصباح ثم ضربه الحد وأطلقه والحمار

وأما بقية القصة التي أوردها فممسوخ عن ،(الأغاني 1477) قصة أخرى تذكرها كتب النوادر لأحد المتماجنين لا علاقة لها ألبته بالحزين الديلي. وفي القصتين لا ورود لذكر قاض ولا لمجلس قضاء. وإذاً ينهار كل ما بناه عليهما الكاتب من أحكام. وأرجو أن أفرغ لتفصيل هذا الإجمال.

(دمشق)

سعيد الأفغاني

حول المرحوم معاوية محمد نور

قرأت في عدد (الرسالة) الغراء رقم 445 الكلمة الموجزة التي كتبها الأستاذ محمد أمين حسونة عن أخي المرحوم معاوية؛ وإني نيابة عن أسرة الفقيد أشكر له هذا الشعور الكريم

غير أنه قد وقع فيها بعض الخطأ عن عهد دراسة الفقيد الجامعية إذ قال: إن معاوية بعد أن اكمل دراسته الثانوية بكلية غردون قصد إلى مصر للالتحاق بجامعتها وحالت بينه وبين الجامعة بعض الحوائل ووصل ذلك إلى علم صاحب السمو الأمير عمر طوسون فأرسله إلى الجامعة الأمريكية بيروت على نفقته وهذا الكلام لا يتفق والواقع فإن الحقيقة أن معاوية أمضى دراسته في بيروت على نفقته الخاصة، وعلى نفقة أهله وذويه بالسودان وهم والحمد لله على خير ما يكون العبد الشاكر لنعمة ربه

السبكي خالد

المسرح والسينما

توطئة

قد اتسع أفق الفن التمثيلي في مصر أتساعاً نغبط عليه من حيث هو اتساع فحسب. وقد كثرت الأصباغ الفنية فيه وتعددت الألوان. وما من ريب في أن بعض هذه الأصباغ تؤدي مشاهدتها العين. ومن شأن النقد أن يوجه المنقود إلى السبيل السوي، وأن يبين الحسن في مواطنه ويرشد إليه، وأن يفضح القبح وإن خفي وينفر منه. . .

وإني لأستعين بالله على كتابة هذه الصفحة عن: السينما. والمسرح. والإذاعة. وأحب أن ألفت أنظار أصحاب هذه الفنون والمشرفين عليها إلى أن مجلة (الرسالة) قد

أفسحت صدرها لقلمي الضعيف على رغم إلحاح أزمة الورق للاتجاه بالنقد الصريح إلى ما فيه الخير للفن المصري الشرقي. . . فلينتظر هؤلاء كلمة الحق لهم أو عليهم

كتاب عن السينما

أخرج الأديب الشاب الأستاذ محمد عبد القادر المازني أول كتاب له تحت عنوان: (السينما مفخرة القرن العشرين) وقد جاء كتابه هذا في الوقت الذي تلح الحاجة فيه على قراء العربية أن يعرفوا شيئاً عن فن السينما وتاريخها. فليس أقبح من الجهل بأسرار مظهر من مظاهر الحياة نراه ونلمسه. . . والسينما مظهر قوي من مظاهر حياة البشر في القرن العشرين. فلا مندوحة للناس من أن يلموا بسر هذا الفن؛ ومعرفة المظهر تستدعي معرفة النشأة والتطور

وقد تناول الأديب في كتابه نشأة السينما وتطورها وسرد تاريخها سرداً مجملاً أتى فيه على أهم ما يعني القارئ من أمورها. وهو بهذا العمل الفني الأدبي قد سد نقصاً في الثقافة العربية

الفرقة القومية

قدمت الفرقة القومية في الأسبوع الماضي رواية (صلاح الدين ومملكة أورشليم) مأساة من أربعة فصول ألفها الأستاذ فرح أنطوان وأخرجها الأستاذ سراج منير وقام بتمثيل أدوارها عدد كبير من ممثلي الفرقة القومية. ولقد أحسنت الفرقة في تقديم مثل هذه الرواية التي

تعالج فكرة تاريخية وطنية في ظروف كهذه. وقد نجحت الرواية تأليفاً وإخراجاً وتمثيلاً بالرغم من بعض الهنات التي ظهرت في تكلف بعض الممثلين وفي عدم ملاءمة الإضاءة في مواقف كثيرة. . . ويسرنا أن نشير إلى النشاط الذي بدا على الفرقة وهو يبشر بالانتعاش والحياة. وأحسب أن سر ذلك النشاط راجع إلى الأستاذ سليمان نجيب الذي عين مديراً للأعمال الفنية فيها. وإنا لنرجوا للفرقة وأفرادها ومديرها اطراد التقدم

فرقة ملك

قدمت فرقة ملك على مسرحها الجديد رواية (بنت بغداد)

وهي نوع من الأوبريت ألفها ونظم أغانيها الأستاذ بيرم التونسي. ولا يسعنا إزاء مجهود (ملك) القوي إلا أن نهنئها على هذا الإقدام. ونرجو أن تعمل على استكمال أدوات (الأوبريت) الفنية حتى تستطيع أن تؤدي واجبها الفني على الوجه الأكمل. ولسنا نغفل مجهودها المبذول في التلحين والغناء فذلك شيء مشهود لها به

أفلام جديدة

انتهت شركة أفلام الشباب من عمل فلمها الجديد: (أحب الغلط) الذي أعده للسينما وقام بإخراجه الأستاذ حسين فوزي. وقد اشترك في تمثيله لفيف من نجوم السينما نذكر منهم تحية كاريوكا - حسين صدقي - منسي فهمي وغيرهم. وكذلك انتهت السيدة آسيا من فلم (الشريد) الذي ألفه الأستاذ فتوح نشاطي وأخرجه الأستاذ هنري بركات، وأشترك في تمثيله حسين رياض - زكي رستم - أمينة نور الدين - نادية - وهناك أفلام جديدة أخرى يجري العمل فيها في استديو مصر وغيره من الشركات المصرية سنتحدث عنها في أعداد قادمة إن شاء الله

عبد الفتاح متولي غبن

العدد 451 - بتاريخ: 23 - 02 - 1942

التنجيم والحرب

للأستاذ عباس محمود العقاد

نتكلم بلغة الاقتصاد فنقول: إن التنجيم بضاعة يكثر طلبها في أيام الحروب فيكثر عرضها

لأن الناس يتوقون إلى العلم بالمصير، فيظهر لهم من ينبئهم صادقاً أو كاذباً بما يراه من مصير

ولأن الناس جميعاً يخشون شيئاً ويرجون شيئاً في أيام الحروب، فيحبون من يجلب إليهم الطمأنينة بما يزيل من خشية أو يعزز من رجاء، ويتسع من ثمة مجال التنجيم والاستطلاع

ولأن الناس، ولاسيما الجند، يحتاجون إلى الثقة بالغلب، أو ما يسمونه في الاصطلاح

الحديث بتقوية الروح المعنوية، فيأنسون إلى ما يوافقهم من كلام المنجمين
ولأن الحوادث الجسام توحي إلى كل نفس أن الأمر فوق طاقة الإنسان، وأن أعنة
الأقدار في يد غير يده وعلم غير علمه، فيتجه الذهن إلى عالم الغيب وإلى الذين
يدعون له العلم به والإنباء عنه
ولأن النزاع بين طرفين من شأنه في كل حين أن يشحذ غريزة الرهان والسباق حتى
في الألعاب التي ليس لها عند الناس خطر الحروب، ومتى شحذت غريزة الرهان فقد
شحذت معها غريزة التطلع إلى نجاح هذا وفشل ذاك، أو شحذت معها غريزة
الاستطلاع والتخمين، ومنها التنجيم
هذه بعض الأسباب التي تروج صناعة التنجيم في أيام الحرب كالحرب الحاضرة، ولا
ندري أهو سوء حظ أم حسن حظ ذلك الذي أغرى الصحف الكبرى في حواضر العالم
بأن تتحرى كل ما يروج وتهيئ للقراء كل ما يتوقون إليه من أنباء اليوم والغد، وما
يحصل الآن وما سيحصل بعد حين
ولكن الصحف على أية حال تصنع ذلك ولا تبالي أكان حسناً أم كان سيئاً ما تصنع. ففي
كثير من صحف أوربا الكبرى أبواب يكتبها مخبرون (مستقبليون) غير الأبواب التي
يكتبها مخبرو الوقائع الحاضرة والأنباء الجارية؛ وهؤلاء المخبرون (المستقبليون) هم
أناس يحترفون بالتنجيم ويتخذونه جداً يدافعون عنه كما يدافع العالم عن علمه والتاجر
عن تجارته، وينكرون أنه لعب مصادفات أو أنه تزجية فراغ أشد إنكار
جاءتنا صحف إنجلترا في البريد الأخير وفيها أحاديث شتى عن مأدبة أقيمت للمنجمين
يحاضرون فيها عن صناعتهم ويدفعون فيها ما يتجه إليهم من نقد وريبة، ويذكرون
لقرائهم والمستمعين إليهم شيئاً عن أسرار هذه الصناعة وأسسها، فلم يتفقوا لها على
أسس ولا أسرار
فمنهم من أثبت للنجوم سلطاناً على حوادث هذه الدنيا وأخصها حوادث الحروب
والنكبات، ومنهم من نفى العلاقة بين النجوم وبين الحوادث الأرضية في (علم) التنجيم
الحديث
وقال بعضهم أن التنجيم يصيب ويخطئ كما يقع الصواب والخطأ في أصح العلوم، إلا
أن الخطأ قليل في حساب المنجم الماهر كثير في حساب المنجم القاصر، وقد يقع
الخطأ في خبرين من عشرة أخبار أو في خبرين من أثنى عشر خبراً ولا يقدح ذلك في
صحة الحساب ولا في صحة (العلم) أو صحة الأساس الذي يقع عليه
وقد أطلعنا نحن على طائفة كبيرة من نبوءات الحرب الحاضرة فلم نعثر بينها على
نبوءة واحدة تقطع بصحة (علم) التنجيم وتحوجنا إلى قبول دعوى المنجمين، وكلها
داخل في مستطاع من ينجم ومن لا ينجم ومن يعرف أسرار العلم المزعومة ومن
يجهل تلك الأسرار
فالإنباء بما سيأتي قد يتاح لأناس لهم اتصال بمصادر الأخبار أو لهم نصيب من بعد
النظر، وهم في هذه الحالة يبلغون من الصدق ما لم يبلغه منجم ولا مصطنع نبوءات
فمن أمثلة الاتصال بمصادر الأخبار أن الصحفي الأمريكي ريتشارد بوير كتب في الثالث
من شهر نوفمبر سنة 1940 يقول: (إنهم ينظرون في جميع أنحاء الدنيا إلى روسيا
وألمانيا نظرتهم إلى حليفتين. ومع هذا يبدو من الأمور المفروغ منها في الدوائر النازية
أن ألمانيا ستغزو روسيا في السنة المقبلة. ويرى رجال الحكومة النازية بشيء من
التقية وإن لم يبلغ مبلغ الأسرار المكتومة أن اتحاد السوفييت إما أن يسلم في إقليم
أوكرانيا وإقليم النفط في باكو وولايات البحر البلطي، أو تستولي عليها ألمانيا عنوة
حيثما تسنى لها أن تفرغ من إنجلترا. وقد يزعم بعض الموظفين في الحزب النازي أن
الحرب بين الولايات المتحدة وألمانيا غير ضرورية على خلاف ما تبينته بين كبار
الرؤساء من جزم بضرورة هذه الحرب وأنها واقعة لا محالة. . .)
فهذه أنباء لو اتفقت لمنجم لباهى بها أقرانه واتخذها حجة لصناعته في أساسها،
ولمهارته
هو في كشف خباياها؛ ولكن الرجل الذي أذاعها قبل وقوعها صحفي لا يدعي لنفسه
صفة غير صفة المخبرين الصحفيين ولا يسلك نفسه في عداد المنجمين
وإلى جانب هذا يكتب المنجم المختص بباب النبوءات في صحيفة أنباء الدنيا (أن أموراً
على أعظم خطر سيتفق عليها رأسان من رؤوس الدول الكبار - ولعلهم ثلاثة - فيرتبط

بها خلاص بني الإنسان)
ثم يزعم له مصدقوه أنه أحسن التنجيم لأنه كتب نبوءته في العاشر من شهر أغسطس ووقعت مقابلة الرئيسين روزفلت وشرشل بعد ذلك بأيام فتم فيها الميثاق الذي أشار إليه وربط به خلاص بني الإنسان!
إلا أن إشاعات المقابلة كانت تحوم في الجو كما يقولون قبل نشر النبوءة بثلاثة أيام، فسرى بين الصحفيين نبأ فحواه أن روزفلت وشرشل قد ذهبا إلى آلاسكا لمقابلة ستالين هناك، وكذبت هذه الإشاعة في حينها وهي بلا شك مصدر النبوءة التي أسرع بنشرها منجم الصحيفة ليواجه بها القراء وهم أكبر عدداً من زمرة الصحفيين القلائل الذين تنسموا النبأ على تلك الصورة قبل وقوع المقابلة، ولهذا تردد المنجم في عدد رءوس الدول فجعله بين الاثنين والثلاثة، واستفاد بين ألوف القراء سمعة التنجيم الصادق لأن هؤلاء القراء يجهلون الإشاعات الخفية التي ينفرد بعلمها بعض المخبرين في دوائر الصحافة، فيسهل إقناعهم بأنها سر من أسرار النجوم
وهكذا يقال في كل نبوءة وقفنا عليها من نبوءات الحرب الحاضرة، فهي إما اتصال بمراجع الأخبار العليا، أو صدق نظر في قياس المجهول على المعلوم
إلا أننا لا نريد أن ننكر الشعور بالأمور المقبلة من طريق غير طريق المراجع العليا، أو بعد النظر الذي يدخل في عداد الأقيسة العقلية
فقد يرى الإنسان ما سيأتي على نحو يشبه رؤية العين لأشباح الظلام، ولكنها رؤية لا تقبل التمحيص والمراجعة ولا تدخل في صناعة التنجيم، وهي مع ذلك مما ينقض التنجيم وليست مما يؤيده ويزكيه، لأنها ترد الشعور بالأمور المقبلة إلى الحس الباطن أو إلى الواعية ولا ترده إلى حساب النجوم أو إلى صناعة قابلة للتعلم والتعليم. وقد يقوى هذا الشعور حتى يتضح للعقل فيفسره كما يفسر الأقيسة ومدركات الأفكار
أما الحقيقة التي لا شك فيها فهي أن البنية الإنسانية تحس ما يهددها من الأخطار الدخيلة قبل وقوعها في بعض الأحايين. كما يقول أبن الرومي:
وللنفس حالات تظل كأنها ... بما سوف تلقى من أذاها تهدد
فتحس الأمراض المقبلة والعلل المنذرة، ولا تدري لإحساسها سبباً في كثير من الأحوال، وإن كان هذا الإحساس مقدمة للعلة وعرضاً سابقاً من أعراضها بغير نزاع
وقد يهزأ بعضهم بتطبيق أبن الرومي لرأيه حين يقول:
لما تؤذن الدنيا به من صروفها ... يكون بكاء الطفل ساعة يولد
وإلا فما يبكيه منها وإنها ... لأرحب مما كان فيه وأرغد
ولكنه على ما نعتقد هزؤ ظالم أو مبالغ فيه، لأن الأسباب الطبيعية التي تدعو إلى بكاء الطفل عند ولادته هي مقياس لسنة الدنيا في اقتران كل وظيفة بجهد ناصب، وفي تقاضيها ثمناً لكل فتح من فتوح الحياة. فهي شيء ملازم للبنية الحية، يدل عليه أن أول تنفس للهواء هو أيضاً لون من ألوان البكاء
غير أن إحساس الإنسان بما سيصيب بنيته شيء وإحساسه بما سيصيب الدنيا شيء آخر، ولا سيما ذلك الإحساس الذي يدعيه المنجمون
والمسألة بعد لا تخلو من عزائها وسلواها، فإذا أمتعض أناس منا لما يرونه من تهافت جهلائنا على العرافين والمشعوذين فهذه أوربا تهون عليهم مضضهم بإقبال أهلها (المتعلمين) على لغو العرافة والشعوذة وإقبال صحفها الكبرى على باب من الأبواب مقصور عندنا على منشورات يزهد فيها العقلاء!
عباس محمود العقاد
رسالة الطالب العربي
لصاحب العزة الأستاذ محمد العشماوي بك
لقد قصدت حين اخترت (رسالة الطالب العربي) موضوعاً لحديث أن أتحرر مما تقتضيه المحاضرات من جهد وعمق فلا يرتفع بحثي إلى مرتبة المحاضرة وما تتطلبه المحاضرة من تقدمة وتفصيل وتحليل، وأن يكون سبيلي حديثاً مرسلاً له صفة الحديث، وهي أنه ذو شجون، فأطالعكم بما يعرض للذهن من خواطر وذكريات يطمئن لها خيالي وشعوري حين يجري حديث العرب. وهأنذا في مكاني هذا أذكر مواقف ماثلة أمامي على الرغم من بعد الشقة وتتابع الأحداث. ففي صيف سنة 1937 وقفت على رابية من ربى لبنان الجميل أخطب كشافة العرب: لبنانيين وعراقيين وشاميين

وفلسطينيين، فكنت أبصر بعيني بعض البقاع العربية وأستجمع بخيالي نائي الأقطار والديار، فلا ألمح حدوداً بين بعضها وبعض، إن هي إلا أمة واحدة في رقعة من الأرض واحدة، يؤلف بين أجزائها ماض واحد وحاضر مشترك ومستقبل منشود، ويحفز شبابها المتوثب أمل قوي في تجديد الحضارة العربية، وبعث المجد الذي حفلت به صفائح التاريخ. وكذلك لا أنسى أني وقفت أخطب شباب العراق وأتحدث في مذياع بغداد، فجعلت أسائل نفسي: أفي بغداد أنا أم في القاهرة، وعلى ضفاف دجلة أو على شاطئ النيل السعيد، أغريب أنا في هذه الديار، أم أنعم بين عشيرتي وأهلي؟ والآن أقف في جمع يضم شباب العرب من أقطار شتى في ظلال الجامعة المصرية، فلا أجد في نفسي شعور الغريب يتحدث إلى الغريب، وإنما أشعر حق الشعور بأني أتحدث إلى طائفة من بني قومي ليس بيننا وبينهم من الفوارق غير نأى الدار وشط المزار توثق بيننا أمتن الروابط الثقافية والروحية، ويهدينا إلى المستقبل قبس تلك الحضارة العتيدة التي انتظمتنا في الماضي، فجعلت منا أمة موحدة في عقيدتها وأهدافها من المثل العليا

إن رسالة الطالب العربي هي رسالة الجيل الجديد، وهي رسالة المستقبل القريب، فهذه الجماعة التي تألفت من الطلاب العرب في كلية الآداب لترسم الطريق لتحقيق الرسالة، عليها أن تبدأ بتهيئة نفسها لخوض غمارها، وتستوفي من ألوان الإعداد ما يكفل لها النجاح في مهمتها، فأول ما يجب أن يفكر فيه الطالب العربي هو إعداد نفسه وتكوين ذاته،

وأرباب الرسالات لا يلون مهمتهم ارتجالاً ولا يرقبونها عفواً، وإنما يحققون في أنفسهم قدرة الاضطلاع بالأعباء. ومما لا ريب فيه أن الإعداد الصحيح للطالب العربي يجب أن يتناول الجسم والخلق والثقافة، وهؤلاء فريق من طلاب العرب قدموا مصر ليغترفوا من جامعتها ثقافة وعلماً؛ ومصر حين تقوم نحوهم بواجبها وتفسح لهم صدرها، إنما تؤدي إليهم ديناً في عنقها، فإن علماءهم وأدباءهم دانوها في مفتتح نهضتها وفي ماضي حضارتها، وقد بايعت الأمم العربية اليوم مصر بالزعامة في الأدب والثقافة والاجتماع والسياسة، فمن واجب مصر الزعيمة أن تعرف لهذه الزعامة حقها، وأن تنهض بتكاليفها، وأن تخص الطلاب العرب برعايتها

ولعل مما يحسن أن يتوجه إليه الطالب العربي في الأخذ بأسباب رسالته أن تكون ثقافته كاملة؛ فنحن بنو زمان هيمن فيه العلم على الأدب والقانون وعلى الطب والهندسة ومرافق الحياة كلها في السلم والحرب. فالإعداد العلمي ضروري لمغالبة هذه الحياة. ولن يصلح الآن أن يستقبل المرء حياته معتمداً على التجربة أو متكلاً على الحظ؛ فذلك إن أجدى عرضاً على فرد فلا يجدي على أمة؛ وإن صلح فلا يصلح لهذا العصر الذي يهيمن العلم على كل مرافقه وأوضاعه.

وعلى الطالب العربي وهو يستكمل ثقافته أن يضع ماضي العروبة نصب عينيه؛ فإن كان خيراً ترسمه أجمع، وإن كان الخير فيه مخلوطاً بالشر نفى عنه شره واستبقى الخير، وإن كان قد غلب الشر في حقبة من الزمن وجب اختطاط خطة تقوم على الخير الغالب. وإن وراء العرب لماضياً حافلاً بالمفاخر، وحضارة امتدت إلى ما وراء العمران. وكان سبيل الأولين من أسلافنا أن ينتفعوا بما يستطيعون الانتفاع به من علوم الأمم وفلسفاتها ونظم الحياة فيها، فاتخذوا من مختلف الأخلاط مزاجاً جديداً له روعته؛ وبقى هذا المزاج حتى صار أساساً لحضارة العرب الحديثة، فرده الغرب إلينا غريباً علينا. فمن واجب الطالب العربي أن لا ينسى ماضيه لأنه حلقة الاتصال بالحاضر والامتداد إلى المستقبل، وإذا أهملنا هذا الماضي فقد أهملنا مجداً عظيماً تتقطع بنا الأسباب دونه، ونفقد ما لنا من طابع وروح. وكيف نزهد في ماض ينطوي على المثل العالية في التفدية والجهاد، ويصور لنا عظمة في الخلق، وقوة في العقيدة دانت بها ممالك الدنيا جمعاء؟ فلنتبين سر هذا الماضي،

ولنتعرف كنه هذه الحضارة، ولنتدبر الأسباب التي نقضت هذا الحكم، وهدمت ذلك البناء. وليكن ذلك التدبر وسيلة إلى العظة والاعتبار، فنأخذ من الذرائع ما يكفل النهوض، ونتجنب من العلل ما طوى للعظمة العربية علمها الخفاق.

فإذا عرف الطالب العربي ماضي الأمة العربية بأمجادها ومفاخرها، ووضحت له أسباب تدهورها وخمود جذوتها، وكان قبل ذلك آخذاً من المعرفة بالقسط الأوفى، بدأ يدرس

الحاضر وأدواءه، فالطبيب لا يجدي علاجه إذا لم يكن تشخيصه للمرض صحيحاً، ولن تفيد العقاقير مهما تكن قيمتها شيئاً. وإن كثيراً من المصلحين لتذهب جهودهم هباء على الرغم من قوة عزيمتهم وحسن بلائهم، لأنهم لم يفقهوا البيئة التي حاولوا إصلاحها، ولم يتلمسوا العوامل المؤثرة فيها، ولم يتعلموا كيف توجه الشعوب وكيف تواجه العلل

فليكن هم الطالب العربي أن يدرس العلل الخلقية والاقتصادية التي أثرت في البلاد العربية فردتها عن الصدر، وقد تكون هذه العلل واحدة تشترك في معاناتها سائر أقطار العرب، وقد تكون لكل قطر علته الخاصة به، فعلى كل الطالب أن يتفهم العلل التي ينفرد بها وطنه الأصغر، ثم يتفهم العلل المشتركة التي تصيب وطنه الأكبر؛ فإن كان هناك فرقة استجلي أسبابها ودواعيها، وإن كان هناك جهل أو ضعف خلقي تفحص مصادره وبواعثه، وإن وجد تخلفاً في ميدان الصناعة أو التجارة استهدى إلى بواطن هذا التخلف. ومتى فرغ من هذا الدرس والفحص أمكنه أن يرسم منهاجاً سليماً لنهضة علمية خلقية عملية على أساس قويم.

وجدير بكل طالب عربي أن يتمثل له الوطن الأصغر والوطن الأكبر. فوطنه الأصغر شبيه بالأسرة تضم ما لها من أبناء، ووطنه الأكبر شبيه بالأمة تحتوي سائر الأسر. وإني لأتصور الأمم العربية كلها أسرة كبيرة واحدة لها أب واحد وأم واحدة، فشاء ذلك الأب أن يوفر لبنيه الكثيرين أسباب الاستقلال والنماء ففرقهم في منازل شتى يعنى كل منهم بشأنه، ولكن تبقى بينهم أواصر القربى تجمعهم تحت لواء واحد تؤلف بينهم عند الأحداث فإذا هم كالبنيان المرصوص. والحق أن من يزور الأقطار الشقيقة يحس هذا الشعور وهو يجتاز بلداً إلى بلد، ويتنقل بين أهل وأهل، فلا حدود ولا فوارق، وإنما هو وطن بعيد الأطراف وحدت بين أجزائه المترامية روابط الدين واللغة والثقافة، وألفت بين قلوب أبنائه آمال
متشابهة وأهداف مشتركة.

ولا أظن أن ثمة رابطة أقوى من الرابطة الثقافية في وصل الشعوب بعضها ببعض. فالأمم العربية بخير ما توثقت روابط الثقافة بين شباب العرب لأنها توحد بين الأفكار، وتجمع بين القلوب، ويتسنى بها لكل رابطة سياسية أو اقتصادية أن تجد طريقها إلى القبول. ولا يستطيع أحد أن يتصور أمماً تتفرق بعد أن يتم التوحد بين قلوبها وأفكارها وأمانيها جميعاً.

ومما نوصي به الطالب العربي أن يؤمن إيماناً عميقاً بأن اللغة الفصحى هي أداة الاتصال بين الأمم، وإنه يجب أن يقوم على دعائمها صرح الثقافة العامة، فلقد طوفت في الشام والعراق وغيرهما فما كان يتيسر لي تقارب الفهم والإفصاح عن مكنونات النفس إلا حين اخترت الفصحى أسلوباً لحديثي؛ فإذا تدسست اللهجات أفسدت ما بيني وبين محدثي من تعارف، وأسلمتنا إلى التناكر البغيض. فالفصحى هي التي تجمع شملنا؛ وهي التي تقارب تفكيرنا، فليكن من مهمتنا نحن الدعاة إلى الوحدة العربية أن نحرص على الفصحى، وأن نداني بين الأساليب في شتى الأقطار، وأن نعمل على تيسير هذه اللغة لكي يسهل لنا استخدامها في الثقافة المشتركة بين الناطقين بالضاد

ولقد أشرت في مطلع حديثي إلى ضرورة إحيائنا لماضينا. وقد يقال إن لكل أمة من الأمم العربية ماضياً خاصاً، والواقع أن هذا الماضي مشترك بين أمم العرب لأنها كانت تخضع في حقيقة الأمر لنظام واحد، وتستمد حضارتها وأنماط حياتها وتفكيرها من منبع واحد في الأكثر الغالب؛ فمن أركان رسالة الطالب العربي إحياء ماضي العروبة في التفكير، وعرض هذا التراث الفكري العظيم في إطار جديد. فذلك الماضي يستند إلى دين محكم وضع نظامه ليواجه مشكلات الحياة في كل عصر وكل بيئة؛ ولكن لا بد لنا من أن نتفهم روح الدين السامية على وجهها الصحيح خالصة من البدع محررة من الجمود. فلو استمسكنا بذلك النظام الذي وضع أساسه ديننا القويم لاستطعنا الخروج سالمين من نوائب الزمن التي يرجع مصابنا بها إلى تنكبنا ذلك الطريق المستقيم.

وعلى أن لنا مع ذلك ماضياً تاريخياً يجمل بنا أن نحييه في أنفسنا معتزين به ليكون حافزاً لنا على التوثب والرقي. ولنا كذلك تراث أدبي وعلمي عني به علماء الغرب قبلنا وكان له أثره في اتساع آفاق تفكيرهم الفلسفي والاجتماعي. فيجب أن يكون لنا في هذا التراث مأرب عظيم وأن نعمل على

تجديده وتنظيمه بما يلائم تطور الفكر الإنساني، وأن نقرب موارده للدارسين والباحثين وطالبي المعرفة. فقد طالما طالعتنا الحقائق بأن كثيراً من نظريات آبائنا السالفين في نواحي العلم يؤيدها الفكر الحديث ويحتفل بها العلماء المعاصرون غير أننا مع احتفائنا بذلك التراث العظيم ودعوتنا إلى إحيائه والانتفاع به لا يجوز أن نتعصب له ونطرح ما عداه فنقول إن ثقافتنا كل شيء في الحياة، وأننا نستغني بها عما سواها، بل نعمل كما عمل أجدادنا العرب، وننهج طريقهم في اكتساب المعرفة، فلقد نشدوا العلم من شتى مصادره وفرضوه على كل مسلم ومسلمة، وقربوا إليهم العلماء دون تفرقة بين أصيل ودخيل فانعقد لهم لواء الحضارة في فجر نهضتهم، وسخروه لدولتهم وصولتهم. فلنتزود من العلم الصحيح حيث يكون فالعلم لا حكر فيه لأحد ولا وطن له ولا دين

وإنه من تباشير الخير في الشرق أن يوفد أبناءه ليتلقوا العلم من جامعة مصر. ومن تباشير الخير في مصر أن تفتح جامعتها الأبواب لكل وافد عربي. ولقد كنت أتحدث إلى بعض أولي الأمر في البلاد الشرقية أثناء جولاتي فقلت له في سياق الحديث لم تنشئ كل من سورية والعراق وفلسطين جامعة، وليس إنشاء الجامعات بالأمر الهين ولا يقصد به مجرد المظهر، فقليلاً ما يتوافر العلماء، وقليلاً ما يتيسر المال اللازم للإنشاء؟ ولم لا تكون الثقافة الجامعية في الشرق موحدة فتكون جامعة فؤاد الأول في مصر جامعة الشرق كله يفد إليها الطلاب العرب فيتزودون زاد إخوانهم طلاب مصر العرب

إني كلما أفضت في حديث مشكلة اجتماعية يتملكني عاملان: عامل يأس وعامل رجاء. وهذا هو شعوري بعد أن ألمعت لكم برسالة الطالب العربي؛ فيحضرني عامل الرجاء حين أرى طائفة من شباب العرب فيها مخايل الرجولة الكاملة تفكر في العرب وثقافة العرب ومستقبل العرب، وتكون من أنفسها جماعة تدعو إلى رسالتها، وتنظم المحاضرات في موضوعاتها، فهنا يقوى الرجاء ويبتسم المستقبل. ويحضرني عامل اليأس حين أتفرس في الحياة الاجتماعية التي يحيا العرب في أكنافها، فأرى في بعض ما أرى نوعاً من الانقسام، وألاحظ بلبلة في الرأي، وتباعداً عن فكرة الوطن الأكبر، واشتغالاً بتوافه الأمور عن جلائلها. وهنا يلحقني التردد في الاطمئنان إلى الأمل والرجاء؛ ولكن إذا كانت عوامل اليأس مما تجوز لمن هم على عتبة الشيخوخة أمثالي فإن الشباب يجب أن يمتثلوا أملاً

وطموحاً وثقة بالغد المنتظر، وأن يكونوا رسل إيمان ويقين في المستقبل المنشود، فإنهم بهذه الروح تلين لهم الصعاب وتنفتح لهم أبواب الجهاد لتأدية رسالتهم العظمى رسالة الإنهاض للشعب العربي ورده إلى مكانه في الصدر الأول وإسلامه إلى مستقبل

ميمون الطلعة مبارك النفع إن شاء الله

محمد العشماوي

من دقائق إعجاز القرآن

للأستاذ محمد احمد الغمراوي

قمت أجمع ما تفرق في مكتبتي من أعداد (الرسالة)، فإذا بعدد منها غلافه لم يفض هو العدد (441). فضضته وجعلت أقرأ ما استرعاني من فهرسه، فبدأت بما كتبه الأستاذ احمد صفوان بعنوان (غلطة مفسر كبير)، وإذا المفسر الكبير هو الإمام أبو بكر بن العربي، وإذا به يورد من سورة التوبة آية على غير نصها، فأبدل كلمة مكان كلمة - غير عامد طبعاً - وجعل يفسر الكلمة التي أبدل كأنما هي الكلمة التي أنزل الله. والآية القرآنية هي: (وإن أحد من المشركين استجارك فأجِرْه حتى يسمع كلام الله ثم أبلغْه مأمَنه، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون). فجعل الإمام أبو بكر كلمة (لا يعقلون) مكان (لا يعلمون) وطفق يفسر وعلل لماذا نفى الله عنهم العقل. . . إلى آخر ما روى له الكاتب الفاضل الذي نبه إلى هذه الغلطة الفذة

والغلطة في ذاتها مألوف مثلها في التلاوة حين يتلوا الحافظ غير المتمكن عن ظهر غيب تلاوة من لا يتتبع المعنى ولا يتفقه وهو يقرأ. لكنها غلطة نادرة من مفسر إمام مفروض أنه يستوثق من النص قبل أن يبدأ التفسير. لكن الإمام أبا بكر ابن العربي غفر الله له اعتمد على ذاكرته فيما يظهر فخانته هذه اللفظة، وكان حسن الظن بحفظه فيما يبدو فلم يسترعه أي تفاوت في المعنى يحمله على الرجوع إلى المصحف

للتأكد من النص
والواقع أن أمثال هذه الغلطة من إمام مفسر، وبعد ما بين المعنى على أصله والمعنى بعد تحريفه، من أقوى الدلائل عندي على أن القرآن ليس من عند بشر وأنه من عند خالق البشر، فشتان بين المعنى لو كان النص كما أورده ابن العربي وبينه كما ورد في القرآن الكريم. شتان بين تعليل أمر الله نبيه أن يجير المشرك حتى يسمع كلام الله ثم يبلغه مأمنه بأن المشرك لا يعقل، وبين تعليل ذلك بأن المشرك لا يعلم. فمن المعقول من الحكمة أن يجار المشرك الذي لم تبلغه الرسالة حتى تبلغه على وجهها بسماع كلام الله، ثم من المعقول ومن الحكمة بعد إذ سمع كلام الله أن يبلغ مأمنه ويترك لنفسه ليتدبر ما سمع بعقله غير مروع ولا خائف، ثم هو بعد ذلك وما يختار لنفسه، فإذا دخل في الدين دخل غير مكره، وإذا لم يدخل عن اختيار، ولكل جزاؤه، إن دخل كان أخاً لجميع المسلمين، وإن لم يدخل كان عدواً ينفذ فيه ما أنزلت سورة براءة من أجله. ولكن المهم أن مدار ذلك جعله الله سبحانه على علم المشرك الدعوة أولاً، ثم على إعطائه فرصة لتدبرها في أمن وحرية ثانياً، فالعلم بالدعوة على وجهها كما يدل عليه قوله تعالى (حتى يسمع كلام الله)، وتدبر الدعوة في حرية وأمن كما يدل عليه قوله تعالى (ثم أبلغه مأمنه)، هما ركنان للدعوة الإسلامية يدل عليهما دلالة واضحة العلة التي بنى الله سبحانه عليها أمره في قوله (ذلك بأنهم قوم لا يعلمون)

وإذا عرفت الآيات قبل هذه الآية وما تأمر به من تأجيل المشركين أربعة أشهر يسيحون في الأرض، حتى إذا انسلخت الأشهر الحرم - والسورة العزيزة نزلت وتليت على الناس في الحج وفيه المشرك والمسلم - قتل المشركون بكل وجه وقعد لهم كل مرصد، إلا أولي العهد فيوفى للموفين منهم عهدهم إلى مدتهم: إذا عرفت هذا عرفت الحكمة البالغة الكامنة في ذلك التعليل الإلهي لذلك الأمر الإلهي

إن ذلك التعليل مظهر من مظاهر العدل الإلهي في الدين والرحمة في الدعوة، إذ ما كان الله ليأمر بقتل حتى المشرك قبل أن يدعى إلى الله دعوة مؤثرة. واشد الكلام تأثيراً في نفس العربي هو كلام الله العربي المنزل، لذلك أمر الله نبيه حين أراد تطهير الأرض من الشرك أن يجير المشرك حتى يسمع كلام الله. ثم ما كان المشرك ليقتل حتى يأنس إلى كلام الله، بعد سماعه، مدة قد يجد فيها كلام الله إلى نفسه سبيلاً. وهذا ليس من العدل فقط. بل ومن الرحمة والحكمة؛ وهو في ذاته دليل على أن هذا الأمر للنبي هو من عند خالق النفس وعالم ما هي وما فطرت عليه. فقد علم الله سبحانه بعد ما بين الدعوة إلى الإسلام وبين ما نشأ المشرك عليه، وعلم أنه إن كان في المشركين من أوتي من صفاء العقل ما يدرك به عند سماع الدعوة فضل ما بينها وبين ما هو عليه، فيستجيب لها غير متردد، ويدخل في الإسلام غير مسوف، فإن في المشركين أيضاً الرجل العادي وهو سوادهم: ينفر نفسه مما لم نألف، ونكون له كبوة عند الدعوة مهما بلغ فضلها من الوضوح وبلغت هي من الإشراق. فلو أخذ المشرك بأول رأيه أو شعوره عند سماع كلام الله لكان نصيب أكثر المشركين القتل. لكن الله سبحانه وتعالى أجلهم حتى يأنسوا بكلامه ويتدبروه ويتذاكروه بينهم فعندئذ تكبر فرصة استجاباتهم له بعد أن يزداد فهمهم إياه، ويزول النفور الأول الناشئ عن مخالفة الدعوة لمألوفهم على وضوح خطئه وصوابها، وضعته وشرفها. وفعلاً تحققت حكمة الله ودخل المشركون في دين الله أفواجاً.

والمهم ملاحظة أن المشركين ما كانوا ليدخلوا كما دخلوا في دين الله أفواجاً لو كان المانع لهم من قبول الدعوة أو الأمر قلة العقل بدلاً من قلة العلم، فالعاقل الذي لا يعلم مرجو أن يستجيب للحق إذا زال جهله به، وأعطى فرصة لتدبر ما دعي إليه. لكن لا رجاء في استجابة من لا يعقل، أو من كان على حال من الإصرار والعناد يحول بينه وبين قبول الحق وينزله منزلة من لا يعقل. فالحكمة واضحة في تأجيل من لا يعلم حتى يعلم وحتى يتدبر ما علم. لكن أي حكمة هناك في تأجيل من لا يعقل، وهو مهما علم لن يفقه لأنه ليس لديه عقل يفقه به، وتأجيله إلى أجل طال أو قصر لن يؤتيه ذلك العقل؟ إن الفرق هائل بين قول الله سبحانه (ذلك بأنهم قوم لا يعلمون) وفي موضعها من الآية الكريمة من سورة التوبة، وبين قول ابن العربي في نفس الموضع (ذلك بأنهم قوم لا يعقلون)

والغريب العجيب أن الجملة (ذلك بأنهم قوم لا يعقلون) فهي مما أنزله الله في مواطن أخرى من القرآن. فهي في موضعها من القرآن الكريم من كلام الله سبحانه لها كل ما لكلام الله سبحانه من روعة وجمال وجلال وإعجاز. فلما نقلها الإمام أبو بكر بن العربي خطأ أو سهواً عن موضعها التي نزلت فيه إلى غير موضعها في تلك الآية من سورة التوبة أصبحت من كلام البشر لا من كلام الله، ولم تتلاءم مع بقية الآية التي هي من كلام الله، كالرجل أو العين الصناعية شتان بينها وبين الطبيعة، أو كالعضو المنقول - لو أمكن النقل - إلى غير موضعه من جسم الإنسان

أنظر إليها في موضعها من سورة الحشر في قوله تعالى يخاطب المؤمنين منبئاً عن المنافقين: (لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر، بأسهم بينهم شديد، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون)، هي هنا من كلام الله سبحانه. وهي حيث أقحمها الإمام ابن العربي في آية التوبة غير قاصد ولا عامد من غير كلام الله، بل لقد أفسدت من المعنى. فأعجب إذن لكلام إذا التبس الأمر فيه على الإنسان العاقل العالم فأبدل كلمة أو كلمات مكان أخرى تشبهها فقد صبغته وخرج من حيز الإعجاز إلى حيز غير الإعجاز

ذاك مثال من أمثلة دقة الإعجاز في القرآن. ومن غريب المصادفة أني وجدت في نفس

العدد من الرسالة مثلاً آخر، إذ وجدت غلطة أخرى في آية أخرى لرجل من رجال العربية المحدثين له إيمان ويقين إلا أنه لم يقع في غلطته في معرض تفسير القرآن، فقد قرأت في العدد نفسه من الرسالة مقال أخي عبد المنعم خلاف (الحياة صادقة) وإذا فيه:

إن الحياة هي كلمة الله النافذة إلى القلوب لا يحسها إلا من يحملها بأعبائها ثم يحاول) أن يسلمها لغيره، وقد أودعها الله قلب آدم (فجعلها كلمة باقية في عقبه إلى يوم يرجعون)

والآية ليست بالفاء في أولها ولكن بالواو، لكن لعل الفاء جيء بها لربط الكلام بالمقتبس من الآية فأدخلها الطابع في القوس. إنما موضع النقد الكبير والاستدراك هو ما دخل على آخر الآية، فليست الآية (إلى يوم يرجعون)، ولكن (لعلهم يرجعون). ومن هنا يبدو لأول وهلة الفرق في المعنى بين الصيغتين، ويبدو ذلك بصورة أوضح إذا عرفت سياق الآية الكريمة (وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون) في موضعها من سورة الزخرف

فلنأخذ في الفرق الأول: الأستاذ عبد المنعم خلاف يريد بيوم يرجعون يوم الحشر، فهو يقول إن الحياة باقية في عقب آدم إلى يوم الحشر؛ ومن هنا يظهر بعد هذا المعنى عن الواقع، لأن الحياة كما يعلم الأستاذ ستزول عن عقب آدم قبل يوم الحشر بأمد لا يعلمه إلا الله، فسيشمل الموت بني آدم فترة يغلب أن تكون طويلة كما جرت العادة في أيام الله في الخلق، ثم بعد ذلك يكون البعث ويقوم الناس، والآيات متظاهرة على ذلك، لكن يكفي هنا الاستشهاد بقوله تعالى: (ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا ما شاء الله. ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيان ينظرون)ـ فالحياة ليست باقية في عقب آدم إلى يوم يرجعون في المعنى الذي أورده أخونا عبد المنعم، ولا كلمة التوحيد باقية في عقب إبراهيم إلى يوم يرجعون إذا أخذنا لفظ الأستاذ عبد المنعم وطبقناه على ما أخبرنا به الله سبحانه عن سيدنا إبراهيم في القرآن

إن النص القرآني بتمامه هو:

وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون. إلا الذي فطرني فإنه سيهدين،)

وهنا يتبين أي فرق في المعنى دخل على ،(وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون الآية الكريمة يجعل كلمة (إلى يوم) مكان كلمة (لعلهم). فالمعنى القرآني أن إبراهيم صلوات الله عليه - أو الحق سبحانه، والآية تحتمل المعنيين - جعل كلمة براءة مما يعبد من دون الله

باقية في عقب إبراهيم لعلهم يرجعون عن عبادة ما سوى الله، إن كانت الكلمة هنا هي الدعوة إلى التبرؤ مما سوى الله، أو يرجعون إلى ما تستلزمه كلمة التوحيد من أحكام، وعن كل ما ينافيها من سلوك، إن كانت الكلمة الباقية في عقب إبراهيم عليه

السلام هي كلمة التوحيد. ووجود كلمة التوحيد بين العرب وسائر المسلمين هو من غير شك مناط الأمل وموضع الرجاء أن ينتبهوا يوماً ما إليها وإلى ما تستلزمه من إقامة دين الله، ومن إسلام الوجه والقلب إلى الله، وجعل الصلاة والنُّسك والمحيا والممات (لله رب العالمين لا شريك له) كما أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول: (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين).

فكلمة (لعلهم) فيها ما فيها من الترجي، وفيها ما فيها من التذكير. لكن كل ذلك يتغير ويزول إذا قيل: (إلى يوم يرجعون) بدلاً من (لعلهم يرجعون)؛ إذ تصبح الآية إخباراً عن بقاء الإيمان والتوحيد في ذرية إبراهيم عليه السلام إلى يوم البعث، ولم يخبرنا القرآن بشيء كهذا. أما (لعلهم يرجعون) فتشعر بأنه سيكون من عقبه عليه السلام طائفة غير مؤمنة يرجى أن تعتبر بالطائفة المؤمنة من عقبه وترجع معها إلى الله. لكن أكبر دلالتها - والله أعلم - أن المؤمنين من ذرية إبراهيم سيكون منهم تفريط في توابع الإيمان ومستلزماته، وإن شئت فقل في حقيقة الإيمان، وأن كلمة الإخلاص والتوحيد ستكون دائماً فيهم منذرة ومبشرة وداعية إياهم إلى الله وإلى إقامة شرع الله الذي قام على التوحيد، وأنها ما دامت فيهم فسيرجى لهم ومنهم الخير

فأنظر إلى جيش المعاني هذا الجائش من كلمة واحدة هي كلمة (لعلهم) في موضعها من الآية الكريمة، وإلى التفاوت البالغ الطارئ على المعنى حين اعتمد الأستاذ عبد المنعم على ذاكرته من غير رجوع إلى المصحف للاستيثاق من النص، فأبدلته ذاكرته من (لعلهم يرجعون) (إلى يوم يرجعون). وخرج الكلام بهذا التبديل الطفيف في ظاهره من دائرة الإحكام

هذان مثلان يوضحان مقدار ما أودع الله في القرآن من إحكام يزول إذا امتدت يد أو عقل أو ذاكرة إليه بأدنى تغيير أو تحريف أو تصحيف. ولو تتبع تالي القرآن ما يسبق إلى لسانه من غلطات أثناء التلاوة، وتدبر بعد ما بينها وبين النص كما أنزله الله سبحانه،

لوقف من كل مثل على مثال جديد لإحكام القرآن، وحجة جديدة لإعجاز القرآن

محمد أحمد الغمراوي

للحقيقة والتاريخ

بين آدم وحواء

للدكتور زكي مبارك

كثر الكلام في هذه الأيام عما كان بين آدم وحواء لعهد الجنة وعهد الأرض. وقد تورط صديقنا الأستاذ توفيق الحكيم فأقحم خياله الروائي في شؤون فصل فيها التاريخ منذ أجيال طوال ولم يبق موجب لذلك التورط بعد حكم التاريخ، فهذا الصديق يعرف أن آدم من الأنبياء والتزيد عليه لا يجوز وإن احتال فزعم أنه يكتب باسم الفن لا باسم التاريخ

وهل يستطيع بفنه الروائي أن يخلق من الصور مثل ما سجل المؤرخ شيث بن عربانوس، طيب الله ثراه؟

ولكن ما حديث ذلك المؤرخ المجهول؟

لم أكن أعرف عنه شيئاً قبل سنة 1933، وإنما هداني إليه أستاذنا المرحوم احمد زكي باشا بعد أن انتهى ما كان بيني وبينه من خصومة وصيال

فإن سألتم كيف ابتدأت تلك الخصومة وكيف انتهت فأنا أدونها في سطور ثم أمضي إلى ترجمة شيث بن عربانوس بإيجاز، تمهيداً لشرح آرائه في آدم وحواء بإطناب:

كانت وزارة المعارف قررت إقامة حفلة تأبين للشاعر احمد شوقي، حفلة يشترك فيها أقطاب البلاد العربية، وكان منهاج الحفلة يوجب أن يتكلم الضيوف في الأوبرا الملكية تكريماً لمقدمهم الحميد. أما أدباء مصر فيتكلمون في الحفلات التي تقام بكلية التجارة، وهي حفلات دامت ثلاثة أيام، وكانت أشبه بسوق عكاظ، فقد اتسع فناء الكلية للمئات أو الألوف ممن يسرهم أن يستمعوا كلمات الخطباء وقصائد الشعراء

ومضيت لأشهد الحفلة الأولى بكلية التجارة فهالني أن أسمع خطيباً يتنحنح بعنف، مع أني لم أكن اجتزت عتبة الكلية، فسألت نفسي كيف يصل صوت التنحنح برغم تلك الأبعاد الطوال وبعد لحظة فهمت أن الحفلة أقيم لها ميكروفون، وأقيم لذلك

الميكروفون مسامع في جميع الأركان. فمن السهل أن يسمع صوت الخطيب جميع المارة بشارع (قصر العيني) أو شارع (أفر الأنجال)، ولا تسأل عما تصنع النحنحة وقد ضجت بها مسامع ذلك المذياع؟

ونظرت فإذا الخطيب أحمد زكي باشا. فكيف غاب عنه وهو عالم علامة أن الميكروفون

سينقل إلى الجيران وجيران الجيران نحنحته القوراء؟

أمَا كان في مقدوره أن يدير وجهه أو يدير الميكروفون قبل أن يقترف ذلك الصوت؟

أضحكني أن يقع شيخ العروبة فيما وقع فيه فأخذت أترصد له غلطة أدبية أو تاريخية لأهجم عليه في جريدة البلاغ، ثم اتفق لحسن الحظ قال كلاماً غير صحيح، وهو يتكلم عن مدح الرسول في (نهج البردة)، وكنت يومئذ مشغولاً بتأليف كتاب (المدائح النبوية)

فوجدت عندي من المحصول الأدبي والتاريخي ما يكفي لإفحامه بلا عناء

وما كادت تظهر كلمتي فيه حتى اندفع الرجل لمصاولتي على صفحات البلاغ بأسلوب ساحق ماحق، وكان رحمه الله آية في الكر والفرّ، وكان لا يهجم على باحث إلا تركه كالرفات، بفضل اطلاعه الشامل وذكائه الوهاج

كنت يومئذ بين نارين: نار الخوف من التطاول على شيخ جليل خدم اللغة والأدب والتاريخ، ونار الخوف من الهزيمة أمام القراء، وأنا محرر الصفحة الأدبية بجريدة البلاغ وفي تلك المعمعة قدم الباشا للبحث عني في الجريدة ومعه الأستاذ عبد الرحمن بك

عزام فحدق في وجهي وقال: أما تستحي من شتمي وأنا أستاذك؟

فتماسكت قليلاً ثم قلت: وأنت يا باشا. أما تكف شرك عن تلميذك؟

فابتسم عبد الرحمن بك وقال: لا موجب للجدل بعد هذا العتاب اللطيف!

ولكن زكي باشا لم يسكت عني، ومضى يلاحقني بإيذاء لم يفضه غير الحادث الآتي:

كانت حوادث فلسطين وصلت إلى آلام وجراح، فأرسل زكي باشا إلى الحاج أمين الحسيني برقية مطولة كلفته أحد عشر جنيهاً، وكان ينتظر أن يصل إليه جواب رقيق، ولكنه لم يتلق أي رد من الحاج أمين، فكتب إليه يسأل عن سر ذلك السكوت فكان الجواب أن البرقية وصلت، ولكنها لم تكن بإمضاء (زكي باشا) وإنما كانت بإمضاء (زكي مبارك)!

وامتشق زكي باشا قلمه وأنشأ مقالاً أخذ أربعة أنهر من جريدة الأهرام، وكان في مقاله أن عامل التلغراف حرف الإمضاء، فإن كان من مصر فإلى (الليمان) وإن كان من فلسطين فإلى (البحر الميت) وأعلن زكي باشا أن التحريف مقصود، وكانت حجته أن (زكي باشا) قد تحرف إلى (زكي الابراشي) بسبب (الشين) ولكنها لا تُحرّف إلى (زكي مبارك)

وامتشقت قلمي فكتبت رداً وجيزاً نشرته الأهرام في أول نهر من الصحيفة الأولى، وكان

الرد يتلخص في أن (زكي باشا) هو نفسه الذي أمضى باسم (زكي مبارك)، وحجتي أن الباشا مشغول بمناوشتي على صفحات البلاغ، فأنا ملء قلبه، ومن السهل أن ينسى اسمه ويذكر أسمي؛ ورأى زكي باشا أن التعليل مقبول، فذهب إلى إدارة التلغراف وطلب أصل البرقية، ثم ابتسم حين شاهد أنها باسم زكي مبارك، وبخط الباشا الظريف؟

لم يكن بد من أن يدرك زكي باشا أن الأقدار أرادت أن تطوقه بالخطأ ليكف عني أذاه.

فاتصل بي تليفونياً ليدعوني إلى العشاء وإمضاء عقد الصلح، فأجبت بالقبول

دخلت على الباشا العلام العلامة (العالم حقاً والعلامة صدقاً، فزكي باشا طراز وحيد من العلماء، وليس من السهل أن يجود بمثله الزمان). دخلت على الباشا فوجدته في ثياب البيت وهو يلعب الشطرنج مع الدكتور (أحمد عيسى) فأشار بعد السلام إلى أن انتظر لحظات، فسيغلب الدكتور أحمد عيسى ثم يلتفت إلى واجب الترحيب!

ومرت ساعة وساعة والخلائق تتقاطر بميعاد وبدون ميعاد؛ فعرفت أن العشاء في بيت زكي باشا ليس لمن دعي إليه، وإنما هو لمن تداعوا إليه!

ثم مُدَّ السماط على الطريقة العربية، وأقبل خادم فقدم إلى الباشا ورقة مطوية فمحا الباشا كلمة وأبقى على كلمة. فماذا محا؟ وماذا ثبت؟

كان التفاضل بين نوعين من الشراب: أحدهما عصير الشعير وثانيهما منقوع الخروب.

وقد رأى الباشا أن يكرم ضيفه المتخرج في السوربون فاختار الشراب الأول وهو شراب أصهب يستطاب في ليالي الصيف!

لم أكن دخلت (دار العروبة) من قبل، ولا كنت عرفت كيف ظفرت بذلك اللقب الظريف؛ وكان مبلغ علمي أن صاحبها يتحدث عن العروبة في كل يوم؛ فهي دار العروبة لأنه شيخ العروبة، والألقاب لا تعسر على أحد في هذا الزمان!

وفي تلك الليلة عرفت ما لم أكن أعرف: عرفت أن زكي باشا يسير سيرة العرب القدماء، فبيته مفتوح للجميع، ومن حق أي إنسان أن يحضر وقت الغذاء أو وقت العشاء بدون احتياج إلى استئذان، على شرط أن يترك للباشا حرية التصرف في وقته بعد رفع السماط

والحق أن زكي باشا كان ينوب عن مصر في مهمة من أصعب المهمات؛ فقد كانت داره مثابة الوافدين من الشرق، ولم يكن لأي ضيف أن يتهم مصر بالبخل وزكي باشا موجود.

وإنما نصصت على هذا الجانب من شمائل زكي باشا رعاية للتاريخ، وأملاً في أن يقتدي به من يسرهم إكرام من يفد على مصر من أهل الشرق. فمن العيب أن يذهب السخاء العربي إلى غير معاد وكانت له مواسم في هذه البلاد!

وقد سمعت عن كرم زكي باشا في سره وعلانيته أخباراً لا يصدقها العقل، جزاه الله عما صنع خير الجزاء، وحفظ اسمه بين الكرماء، كما حفظ اسمه بين العلماء

ثم أرجع إلى الغرض من هذا الحديث فأقول: جلست أسامر زكي باشا بعد العشاء تمهيداً للصلح المنشود؛ فقد كنت في سريرة نفسي أومن بأن التطاول على مثل ذلك الرجل قد يعرضني لغضب الله. وأنا أخاف الله أشد الخوف لأنه حماني من أن أخاف أحداً سواه؛ فمن المخاطرة أن أشجع في موطن لا تكون فيه الشجاعة من رضاه.

وكذلك عزمت على أن أتلطف ما استطعت لأظفر من زكي باشا بالصفح الجميل

- هذه أول مرة تأنس فيها (دار العروبة) بزيارة الدكتور مبارك

- ليست هذه أول مرة أتشرف فيها بزيارة (دار العروبة) أعزها الحب!

- ما هذا الكلام؟ وما رأيتك هنا قبل اليوم!

- سمعت أخبار دارك، أيها الشيخ الجليل، وكنت أشعر أني شريك بالقلب لكل من يفد عليها من أهل الشرق، وما غاب عني كرم تؤدي به فرض الكفاية عن بلادنا الغالية

فابتسم زكي باشا وقال:

- ما كان ضرك لو قلت هذه الكلمة وأنت تلاحيني على صفحات البلاغ ليخف عتبي عليك!

- سأقولها يا مولاي لجميع الناس، وسأملأ بها مسامع الأرض والسماء

- أسمع يا مبارك، أسمع، إن أدبك في هذه اللحظة يستأهل جائزة سنية، جائزة تذكرني بها طول حياتك، وقد تكشف لك عن أشياء من غوامض التاريخ القديم، وهو التاريخ الذي أرادت شراستك أن تجعله ظنوناً في ظنون!

- أعظم جائزة أتلقاها من أستاذي هي رضاه عني

- الجائزة العظمى لمن كان في مثل أدبك أن تهدي إليه النسخة الوحيدة من كتاب شيث بن عربانوس. أما رضاي عنك فهو مضمون مضمون

ومضى الباشا لإحضار الهدية، ثم عاد ومعه كتاب في أكثر من خمسمائة صفحة بالخط الكوفي، وهو مجلد على طراز المصاحف المحفوظة بدور العاديات

أقبلت على الكتاب بلهفة وشوق، ثم لاحظت أن منزلتي عظمت في قلب زكي باشا حين رآني أقرأ الخط الكوفي بلا عناء، وعندئذ تذكرت جناياتي على نفسي وعلى مصيري في هذا الوجود

وما تلك الجنايات؟

سأتكلم بصراحة لأخدم قرائي، فقد يكون فيهم من انحرف عن طريق النفع كما انحرفت

يعرف الناس أني مثال الحرص على طلب العلم والأدب وتعرف مكتبتي أني صديق يزورها في كل يوم، ويعرف قلمي أني أخلو إليه في كل ليلة ساعة أو ساعتين فكيف تخلفت مع ذلك الحرص؛ وكيف جاز أن أكون واحداً من الناس، وكفاحي يوجب أن أكون أوحد الناس، لو نجوت من ذلك الانحراف؟

يرجع التخلف الذي أعانيه إلى أني أقبلت على علوم وفنون يقبل عليها أكثر الناس، ويصعب فيها الادعاء، لأن عليها رقباء يعدون بالألوف
أردت التفوق في علوم اللغة العربية فوصلت إلى أشياء، ولكن علوم اللغة العربية مبذولة لجميع الطالبين، وليس من العسير أن يكون لي نظراء في كثير من البلاد
وأردت التفوق في الدراسات الجامعية فنلت إجازة الليسانس مرة وإجازة الدكتوراه مرات، ولكن الدراسات الجامعية لم تعد من الأسرار، فمن السهل أن يكون لي فيها منافسون
وأردت أن أكون من كتاب اللغة العربية وشعرائها وخطبائها فكان ما أردت، ولكن هذا الميدان محفوف بالأخطار في كل صباح وفي كل مساء بسبب نشاط الزملاء
وأردت أن أتفوق في اللغة الفرنسية فبلغت ما أريد، ولكن اللغة الفرنسية يجيدها ألوف أو ملايين، فأين مجال التفرد والازدهار؟
آه، ثم آه!!
كان الرأي أن أقصر جهودي على اللغات الميتة، وهي لغات يدعيها من شاء كيف شاء، بلا رقيب ولا حسيب. ألم تسمعوا أن في الناس من يزعم أنه يجيد عشر لغات من لغات القدماء: كاللاتينية واليونانية والديموتيقية والسريانية والبابلية والحبشية والسنسكريتية
والفهلوية، إلى آخر ما تعرف الأنظمة الجامعية؟!
من الذي يحاسب مدرس اللغة اللاتينية إذا أخطأ؟ ومن الذي يجادل مدرس اللغة الديموتيقية إذا انحرف؟ ومن الذي يراجع مدرس اللغة البابلية إذا حاد؟ ومن الذي يتقدم فيردع من يخلط بين النصوص الحبشية والحميرية؟
عرفت فيمن عرفت رجلاً يعجز عن كتابة صفحة سليمة باللغة العربية، مع أنه من أبوين عربيين، ولم يمنعه ذلك الضعف من أن يكون أستاذ اللغة البابلية في إحدى الجامعات الأمريكية!
وعرفت فيمن عرفت شخصاً يتصدر لتدريس إحدى اللغات الميتة في كلية تحيط بها حديقة بالقرب من نهر له مكانة في التاريخ، وهو لا يجيد لغة قومه الأحياء، فكيف يسهل عليه فهم لغة مات أهلوها منذ أزمان؟
لو أني التفت إلى هذه الناحية لأرحت نفسي من منافسات لا تطاق.
كان من السهل أن أتعلم الأبجدية من إحدى اللغات الميتة، فالأبجدية تكفي للتفوق في اللغات البوائد!!
وهل فُضح فلان لأنه أخطأ عشر مرات في خمسة سطور كتبها باللغة العربية إلى عميد إحدى الكليات بأحد البلاد؟
هو متخصص في اللغة الأكادية، أو اللغة القنقلية، فكيف يطالب بإجادة اللغة العربية؟
وهل يستطيع أحدٌ أن يطالب الدولة بمحاسبة هؤلاء وهو يعرف أن الدولة تريد أن تسامي الأمم الأوربية والأمريكية في الحذلقة الجامعية؟
الدولة على حق والشاهد الآتي يؤكد ذلك الحق:
قال فلان: القنقلون كلمة آرامية، وهي الكنكلون في السريانية، والفنكلون في البابلية، والكنفلون في الآشورية، ومعناها القنقلون، والوصف منها متقنقل ومتكنكل، ومتفنكل، ومتكنفل، على خلاف في صياغة الأوصاف
ومن أجل هذا العلم الغزير تنفق الدولة ما تنفق لإحياء لغات ماتت في بلادها الأصيلة بسبب انعدام الحيوية، وعلينا نحن أن ننفض عنها أتربة القبور، لأننا موكلون ببعث الأموات
الأوربيون يدرسون اللغة اللاتينية واللغة اليونانية ليعرفوا أصول لغاتهم ولينقلوا ما في هاتين اللغتين من نفائس الآداب.
وقد عرفت اللغات الحية في أوربا خير ما أثر عن اللاتينية واليونانية، ونحن لن ننقل تلك الآثار إلى لغتنا إلا عن الفرنسية أو الإنجليزية، فما الموجب لقتل الوقت في درس لغات ميتة لن ننقل عنها أي حرف؟
يضاف إلى ذلك أن الشواهد تنطق بأن الشبان الذين قهرناهم على درس اللغات الميتة قد ضاعوا على مصر وعلى أنفسهم من الوجه العقلية، وأن كانوا أساتذة محترمين، وكيف لا نحترم من يعرف من أسرار القنقلون ما لا نعرف؟

أتريدون الحق؟
الحق أن مصر تبتدئ من حيث انتهى الناس
والحق أن مصر تحاول أن تخلق من الدراسات الجامعية لوحة إعلانات عن قربها من العقلية الأوربية، وكأنها لم تسمع أن أوربا بدأت تنفض يديها من التعصب للأموات لو أن ما أنفق على درس اللغات الميتة كان أنفق على ترجمة ما آثر من تلك اللغات لظفرنا بنفائس تزيد في ثروتنا الذوقية والأدبية، ولكننا أطعنا الوهم فأضعنا أموال الدولة وأعمار الطلبة في شؤون قليلة النفع والغناء، مالي ولهذا؟
أنا أضعت الفرص السوانح في درس أبجديات تلك اللغات، وهي فرص لن تعود، فما تستطيع الأمة بعد اليوم أن تنفق درهماً فيما لا يفيد، إن صح أن الأمة صَحَتْ من غفوتها فأدركت الفرق بين ما يفيد وما لا يفيد!
إن زكي باشا طرب حين رآني اقرأ الخط الكوفي بل اعناء، فكيف يكون حاله لو نظر فرآني أقرأ الخط السنسِكريتي؟
وهل أجهل الخط السنسِكريتي؟
أنا أعرف منه ما لا يعرف فلان، فليجادلني فيه إن استطاع!
افتحوا أعينكم يا بني آدم من أهل هذه البلاد، واعرفوا أن الحذلقة الجامعية لن تنفعكم في كثير أو قليل، وتذكروا جيداً أن العلم الصحيح هو علم هذا الزمان، وستأثم الجامعة المصرية إن شغلت عنه بأوهام التاريخ
اسمعوا قبل أن لا تسمعوا، فأنا أخاف عليكم أشياء لا تخطر لكم في بال، وهذا نذيرٌ من النذر الأولى يصوبه إلى عقولكم كاتب يبغض المداهنة والرياء.
(للحديث شجون)
زكي مبارك
محمد بن عبد الله الجبلي الباطني
للدكتور جواد علي
اتخذت محمد بن عبد الله (أو عبدون) الجبلي موضوعاً لحديثي، لأن الجبلي من الشخصيات الفذة التي يجب أن تدرس ويجب أن تقرأ ويجب أن يذكر عنها شيء، وذلك بالرغم من إهمال المؤرخين والمترجمين شأن هذا الفيلسوف وغضهم النظر عنه؛ فلم يذكروه إلا عرضاً ولم يحفلوا به إلا قليلاً، وبالرغم من إعراض قومه وهم سكان الأندلس وعرب الغرب عنه وإغفالهم أمره لسبب كانوا يذكرونه بمرارة عنه، وحقد قديم كان قد علق في قلوبهم ضد فيلسوفهم؛ ذلك لأنه كان يدين بعقيدة تختلف نوعاً ما عن عقيدتهم، ويقدس فيلسوفاً أعجمياً غريباً تقديساً يكاد يصل حدود الغلو والإغراق؛ وهذا ما كان يزعجهم ويؤذيهم
وكان هذا الفيلسوف الأعجمي الغريب الذي قدسه محمد ابن عبد الله بن ميسرة (مسرة) ابن نجيح القرطبي هو الفيلسوف اليوناني بندقليس أو أبيذقليس أحد فلاسفة اليونان القدماء وأول الفلاسفة الخمسة الذين وضعهم العرب في قائمة الحكماء اليونانيين الممتازين وقد ميز هؤلاء عن بقية الفلاسفة بنعوت تدل على مقدار تقدير العرب لهم وإعجابهم بهم. نعتوهم مرة (بالحكماء الخمسة) ونعتوهم أخرى بأساطين الحكمة). سلكوا في ذلك سبيل اليونانيين ونهجهم. وكان اليونان قد اختاروا قديماً سبعة أشخاص الفلاسفة القدماء لقبوهم (بالحكماء السبعة) وأسبغوا عليهم صفات في العلم والاطلاع والحكمة تكاد ترفعهم من صفوف البشر إلى صفوف سكان السموات
وقد ميز العرب أيضاً بين هؤلاء الحكماء فجعلوا أفلاطون مثلاً رئيساً على الحكماء الإشراقيين. وجعلوا أرسطو زعيماً على رأس الفلاسفة المشائين المعروفين. وأحاطوا هؤلاء الفلاسفة الحكماء بهالة من التقديس والتعظيم، وزادوا على زمان بعضهم أزمنة ليزيدوا على رأيهم في كثير من المسائل التي تستهويهم تعظيماً وفي شانهم شأناً، فقالوا عن بندقليس مثلاً إنه كان في زمان داود النبي، وأنه أخذ الحكمة عن لقمان بالشام، إلى أمثال ذلك من روايات. ولعل مصدر ذلك الكتب التي دونها أتباع مذهب هذا الفيلسوف والتي وجدت لها سبيلاً إلى اللغة العربية، والذين كانوا لا يكتفون بالمبالغات عن زعيمهم بل
نسبوا إلى زعيمهم المعجزات والكرامات والقدسية الإلهية، وقالوا بأن أرواح الآلهة حلت فيه

وكان صاحبنا محمد بن عبد الله الجبلي الباطني كلفا بفلسفة بندقليس دؤوباً على دراستها ملازماً لها مجاهراً بغرامه العلمي هذا، فاتهمه أبناء قومه لذلك بالزندقة والإلحاد، وغضبوا عليه حتى أضطر إلى الخروج إلى المشرق فاراً سنة سبع وأربعين وثلثمائة (958م) ودخل البصرة ومصر ودبر مارستانيهما وتمهر في الطب ونبل فيه، وأحكم كثيراً من أصوله، وعانى صناعة المنطق عناية صحيحة واشتغل بملاحاة أهل الجدل وأصحاب الكلام وأتصل بأساطين هذه المواضيع؛ وهذا ما زاد في قوة علم صاحبنا قوة وفي منطقه فصاحة وبلاغة

ذهب أصحاب بندقليس مذهب الفيثاغورثيين في العدد وفي الرموز والإشارات وتناسخ الأرواح. حولوا الفلسفة من فلسفة ظاهرة واضحة ذات قواعد معينة إلى فلسفة ورموز وإشارات وأسرار دينية فانتقلت هذه الفلسفة من الفيتاغورثيين إلى المسلمين فظهرت فلسفة قائمة بذاتها اعتقدها جماعة من المسلمين حتى العصور المتأخرة واكتسبت صبغة خاصة دينية لدى جماعة (الحروفية) من المسلمين. ونظراً لغموض تعاليمهم الفلسفية هذه أطلق عليهم اسم (الباطنية) أيضاً وهم غير الباطنية المعروفين الذين كان منهم الإسماعيلية، وإلى الباطنية الفلسفية نسب صاحبنا محمد بن عبد الله الجبلي

أتصل محمد بن عبد الله أثناء إقامته ببغداد بشخصية كبيرة من شخصيات العلم في العراق هي شخصية محمد بن طاهر أبي سليمان ابن بهرام السجستاني البغدادي، وهي شخصية كبيرة ذات مركز مهم خطير في عالم المنطق والجدل. فاستفاد الباطني منه كثيراً وتعلم من هذا الأستاذ فن الإقناع والتأثير في الجمهور والقدرة على البحث في شتى المواضيع المتنوعة، وكانت له قابلية عجيبة على التأثير في المستمعين: له لسان خلاب يتوصل به إلى حرارة، وقابلية عجيبة على إبداء الحجج والإقناع. فلما عاد إلى وطنه الأندلس أظهر النسك والورع والتقوى وأغتر الناس بظاهره واختلفوا إليه وسمعوا منه وتكونت له جماعة التفت حوله ودانت بعقيدته وظلت تلازمه وتجتمع به سراً حتى توفي 151)

حمل الجبلي إلى الأندلس منطق السجستاني وقواعد أهل العراق في الجدل والمناظرة، وقد

جدد بذلك ما كان قد بدأ به محمد ابن إسماعيل المعروف بالحكيم، وعبد الرحمن بن إسماعيل بن زيد المعروف بالإقلقدي، وهو صاحب تأليف مشهور لدى أهل الأندلس في اختصار الكتب الثمانية في المنطق، وعلي بن أحمد بن حزم وكان من أهم أركان هذه الحركة في الأندلس فقد انصرف هذا العالم هو وابنه من بعده خاصة إلى المنطق دون سائر الفلسفة إلا أن هذه الحركة لم تكن مستقلة كتلك الحركة التي ظهرت في الشرق ولم تكن قوية. كان عماد منطق أهل الأندلس على منطق أهل العراق وعلى الأخص منطق السجستاني ومنطق متي ابن يونس والفارابي وأمثالهم من زعماء هذه الزمرة

حاول علماء الشرق أن يرفعوا المنطق إلى مصارف علم الفراسة أو علم النفس، حاولوا أن يستدلوا به على معرفة دخائل أمور الفرد وطراز تفكيره، وحاولوا أن يجعلوه سلاحاً ماضياً بأيديهم يسكتون به الخصم، حتى أطلق عليه الرئيس الفيلسوف ابن سينا (علم الفراسة) في رسالته (قصة حي بن يقظان). أما أهل الغرب فكانوا يرون فيه - وعلى الأخص رجال الحكم والسياسة - شيئاً لا يليق بأهل التقي والدين

جواد علي

الديمقراطية ومستقبلها

للأستاذ محمود تيمور

الأصل في الديمقراطية أن يحكم الشعب نفسه بنفسه، لا رئيس ولا مرءوس، ولا قاض ولا محكوم؛ فقد ابتدع بعض مفكري الإغريق هذا النظام كأنه حلم خيالي لتحقيق العدالة، وإيجاد نوع من المدينة الفاضلة، حيث يعرف كلٌّ حقه لنفسه، ويؤدي واجبه لغيره، فيرتفع الظلم، ويعيش الناس أخواناً

وقد تطور هذا المعنى للديمقراطية تطوراً ينزل به من آفاق الخيال، فأصبح رمزاً للنظام النيابيّ، إذ ينتخب الشعب من بين ثقاته نواباً يتولى مجلسهم مراقبة الحكومة فيما تأخذ وما تدع، ويحث الحكام على تحقيق الأغراض التي يدعوا إليها الصالح العام.

وهذا النظام يختلف باختلاف البلاد وخصائص الأمم، فكان في اليونان جمهورياتٍ متعددة بتعدد المدائن، وكان في الرومان يتمثل في مجالس الشيوخ والأعيان؛ وهو في العهد الأخير: ملكية ديمقراطية كما في إنجلترا، وجمهورية ديمقراطية كما في فرنسا، والمدلول في كل هذا واحد، هو أن تكون بيد الشعب مقاليد حكمه، وإليه يصير الأمر في الهيمنة والسلطان

ومما بعث مفكري الأمم وساستها على اقتراح هذا النظام، رغبتهم في أن يدرءوا طغيان بعض الطبقات على بعض، فارتأوا أن النظام النيابي كفيل بضبط الحقوق العامة، وبسط المساواة بين الناس

ونحن إذا نظرنا إلى هذا الأسلوب في الحكم من ناحية تَمَثُّلِه في هيئات نيابية صحيحة، لم يقم شك في أن العرب الأولين لم يعرفوه؛ فلقد كانوا في رحاب الصحراء يعيشون على نظام القبائل، وكانت العصبية والأنفة تحول بينهم وبين الاندماج، فكل قبيلة تتفرد بأبنائها، وتعتز بحرياتها بقدر مالها من سطوة ونفوذ؛ وكل شخص يتفرد بنفسه ويعتز بحريته في حدود ما تفرضه عليه قبيلته من واجبات وتبعات. فلما جمع الإسلام شملهم كان من العسير إخضاعهم لنظام نيابي كالذي شاع عند الإغريق، لأنهم حديثو عهد بالنظام القَبَليّ، وما يزال فيهم من العصبية الجاهلية أثر. وليس يعيب الأمم العربية أنها عدلت عن أسلوب الإغريق في الحكم، واقتربت من أسلوب الفرس؛ فإنما تصطنع الأمم من نظم السياسة ما يلائم البيئة والطبع

ولكن الدول العربية التي لم تتخذ مظاهر الحكم الديمقراطي كما رسمه واضعو هذا النظام، كانت في حقيقتها وجوهرها - في كثير من العهود - حافلة بثمرات الديمقراطية في القيام على صوالح الرعية. فالخلفاء والأمراء الذين حكموا البلاد حكماً قد يعتبر أوتقراطياً في المظهر، كانوا يتبعون تعاليم الإسلام في التشريع والتنفيذ، وهي تعاليم ديمقراطية الروح. ولذلك نعم الناس في ظلال هذا الحكم عهوداً كثيرة بالمساواة في الحقوق والواجبات، وبالحريات الفردية في تصريف الشئون. وكان الحاكم حريصاً على ذلك ابتغاء مرضات الدين، واستجلاباً لتأييد الأمة، عليه من ذمته وضميره رقيب فوق رقابة الرأي العام. فإن أخل بشرائط العدالة، وتجافى عن النزعة الديمقراطية في السياسة، ثارت عليه الأمة حين تُمْكِن الفرصة، واستبدلت به حاكماً يوفر لها حرياتها على النهج القويم

والآن نسأل: هل يصلح النظام الديمقراطي للحكم؟ الحق أن هذا النظام الديمقراطي القائم على أساس الانتخاب النيابي أفضل نظام عرف حتى اليوم لنشر العدالة، ودفع الطغيان الحكومي، ولكنه لا ينتج نتاجه الطيب في الأمم العربية إلا إذا توافر له أمران: الأول قلة الأحزاب، فإن الأحزاب ضرورية للتنافس والمراقبة، ولكن الإقلال منها ضروري أيضاً لما أدت إليه كثرتها من اضطراب وزعزعة في الحكم. والأمر الآخر: تربية الشعب، فلا بد أن يكون على درجة من الثقافة والتربية الخلقية والاقتصادية يتمكن بها من الهيمنة على نفسه، وانتخاب الأكفاء الصالحين للنيابة عنه

ولسنا ننكر أن الإصلاح في ظلال الحكم الديمقراطي بطئ الخطأ، وذلك لخضوعه للرقابة وما تتطلبه من تعدد جهات النظر؛ إلا أنه على أية حال يأتي بالنتائج المرضية، وهو أوفى نظام يقر الطمأنينة في نفوس الأمة على اختلاف طبقاتها. وإذا اجتمعت لتنفيذه أيد رشيدة وقلوب مخلصة كان أحسن نظام لإقرار العدل وإيتاء النفع العام فأما القول بأن الديمقراطية أعلنت إفلاسها في سوق الحكم، فهو قول يلقى على عواهنه في غير تبصر، لأنه حكم الواقع الوقتي بحالته الخاصة. وما الديمقراطية إلا نظام يجب أن تجري عليه سنة التطور؛ ولكن روح الديمقراطية حقيقة صالحة يجب أن تبقى وأن ترعى. والذي أنكرناه قبيل هذه الحرب الراهنة، مما سميناه إخفاق الديمقراطية، كان خليطاً من الأسباب والآثار، منها ما أعقب الحرب الماضية من اضطراب الميزان الاقتصادي، وتزايد

العمال المتعطلين نتيجة تغلب الآلة الأيدي العاملة؛ أضف إلى ذلك تفشي الآراء الخيالية في إيجاد نظام يضمن المساواة الاقتصادية بين عامة الناس. وواضح أن ذلك ليس وليد الفساد في النظام الديمقراطي وإنما نشأ من عوامل عمرانية واجتماعية اقتضاها تطور الحياة

فالديمقراطية لم تستطع إزاء هذه المشكلات أن تحل عقدتها بالسرعة الواجبة لها،

لطبيعة البطء فيما تعالج من حلول. ولم يدركها في ذاتها التطور المنشود حتى تعالج بعقلية جديدة تلك المشكلات الإنسانية الناشبة؛ فانطلقت الطبيعة البشرية ثائرة فائرة، تبغي نظاماً في الحكم يستقيم به الميزان الاقتصادي والاجتماعي، ويرفرف به الرخاء الممكن على مختلف الشعوب

وإذا جاز لنا أن نقدر ما يجئ به الغد المرتقب رجحنا أن تتمخض هذه الثورة العالمية عن المحافظة على الروح الديمقراطي الصالح، مع تجديد في نظام الحكم. ومعنى ذلك أن تتطور الديمقراطية تطوراً يوائم البيئة الجديدة والعقلية الجديدة التي تسود بعد هذه الحرب القائمة. وإننا لنلمح من الآن بوادر هذا التطور في الأمم الديمقراطية العريقة

واليقين أن العالم سيشهد في مستقبله السلمي نظاماً مستحدثاً يمكن للسعادة بقدر المستطاع بين طبقات الشعب، ولكن هذا النظام ستحل فيه روح الديمقراطية دائماً.

محمود تيمور

مطالعاتي حول المدفأة

ساحرة الجبال

للأستاذ صلاح الدين المنجد

نَعِمْت الليلة بزورة من آنستي. فجفوتُ حديقة أبيقور، وكنتُ أرتع فيها منذ ثلاث، وجلست بين يديها؛ فهي كتاب حي كله إبداع وإغراء. وهي بسامّة جذابة، كأن جسمها الأهيف ظَرْفُ فتونٍ وعطور، وكأن ثغرها الحبيب جمرة ترفّ ولهب يفور. ولا سبيل إلى الإنكار فهي حلوة بارعة الجمال

دخلت عليّ تقفز وتضحك، وإذا ضحكت آنستي، فالدلُ الناعم، والنَغْم الجذاب. فرمت قفازها في الأرض، وفراءها الأشقر على نضد الزهور، واقتربت من المدفأة جذلى وهي تقول:

- مررتُ، وأنا آتية إليك، بعجوز. فدفعُتها فانغمست في الطين!

ثم قهقت، فقلت

- أوه. . .! ولم إذاً؟ . . .

- طلبت قرشاً وألحت، ثم أمسكت بفرائي، فزجرتها، فتبعتني، فدفعتُها وأسرعت!

وآنستي لعوب يروقها أن تعبث بالعجائز كلما صادفتهن، فتغمز بهن، وتسخر منهن، كأن ثاراً لا يدرك بينها وبينهنّ.

قلت لها وقد جلست أمامي تجعد شعرها والمقعد يصيح تحتها:

- أراكِ مسرورة، ألا تخافين؟

- هه. . . ومما أخاف؟ . . .

- أن يصيبك - مثلاً - ما أصاب الأميرة التي طردت الساحرة العجوز لماّ سألتْها قطعة من اللحم

- وماذا أصابها. . .

- انقلبت عجوزاً ذات شعور بيض، وأسنان دُرْدْ، بعد أن كانت فتّانة الصبا جذابة الجمال

فضحكت ضحكة طويلة. . . وقالت مستغربة:

- وكيف صارت عجوزاً؟

- قلبتها ساحرة الجبال. . . لأن العجائز مصونات محوطات، ما آذاهن أحد إلا مسّه السوء. . .

- وكيف كان ذلك. . .؟

- لا تسخري، أصغي إلّي، أقرأ عليك قصّتها:

وتناولت كتاباً من جانبي وقرأت: (هاهي ذي تترك كهفها المظلم، مأوى الخفافيش، لتحدر إلى السهل من مهاوي الجبال، وتزور القصور والسفوح.

(إنها قصيرة، قصيرة جداً. تلبس رداء من جلد الذئاب، وتسعى وراء الفلوس والقروش؛ فهي عطشى للمال على رغم غناها. لقد قالوا إن الغيران التي تملكها في الجبال مترعة بأساور من فضة بيضاء، وأن بقراتها ذوات القرون المذهبة ترعى في الأهاضيب الخضر، على شطآن السهول.

(لقد عجب الناس إذ رأوها، وقالوا: ماذا أتت تفعل في السهول، ولِمْ تركتْ كهوف الذئاب. . .؟

(إنها عجوز هَرمة. يا بعد وجهها الأصفر القبيح، الرفاف بالدهون، وأنفها الغليظ النافر، وعينيها الصغيرتين الوامضتين تحت الأوساخ كالجمرات تحت الرماد. . . يا بعد ذلك من صباحة العذارى وحلاوة الفتيات!
لقد زعموا أن لها من العمر مئات السنين، وأنها قادرة على إنزال البَردَ وإيماض البرق. وهي تضلّ القطعان، وتسلّط الذئاب على الخرفان؛ وفي إكرامها الخير والبركة. . . فمن حَقَرَها فجزاؤه أن ينفر الحصان، ويحترق الكوخ، وتعلّ البقرة، وتجن الزوج. . .
(يا ويحها! لَمَ هبطت من ذرى الجبال. . .؟ لِمَ تركت غيران الذئاب. . .؟ ولماذا يصحبها البوم، وترف حواليها الخفافيش، وتخرج الحدآت فيملان الأفق ويغزون الدور والقصور. . .؟
إنها تمشي مطمئنة، لا تخاف شيئاً ولا تفزع من مخلوق، وهل هي ذي تصل إلى قصر الأميرة الشامخ ذي العُمُد البيض والجدران الشواهق
(وداست بحذائها الغليظ المصنوع من قشور الأشجار العتاق مماشي الحديقة المطرَّزة بالأزهار، ثم صعدت السلم إلى الطبقات العُلى
وكانت الأميرة في روشن القصر تتمتع بروعة السماء وأناقة الرياض، وقد حمل لها خادمان قطعاً من اللحم المشوي ذي الرائحة الطيبة. . .
(وبدت العجوز ومدت يدها إلى اللحم. . .
وشدهت الأميرة فنادت:
- ويلك أيتها العجوز السارقة. . . أذهبي. . .
فقالت العجوز:
- أعطيني قطعة لحم. . . أعطيني. . .
- مجنونة. . . سارقة. . . أخرجوها. . .!
- أعطيني قطعة من اللحم الأشقر المشوي. . .
- لا. . . لن أعطيك يا عجوز القبح. . . لن أعطيك فأذهبي. . . أطعمها للخفافيش ولا تذوقين طعمها. . .
واضطربت العجوز، ثم أخرجت قضيبها الأخضر المسحور وتمتمت وبربرت، ثم قالت:
- إذن فلتفترسك الخفافيش!
وكنت أرامق آنستي وأنا أقرأ لها، فرأيتها قد فغرت فمها الصغير، وتورَّدت وجنتاها الريانتان، وحملقت عينيها الناعستين فبدت كالطفل المذعور، فقالت:
- ؟. . . أتمم. . . أتمم. . . ثم ماذا أصابها!
وجمدت الأميرة من الخوف: أرادت أن تضحك فلم تستطع وحاولت البكاء فجمد الدمع. . .!
(وأقبلت خفافيش الغاب، مناقيرهن حمر، يبتغين افتراسها وكن يضحكن ضحكات ملأى بالسخرية. تنشر الذعر وتبعث الخوف!
لقد أسرعت الأميرة إلى مخدعها وأغلقت الباب، ولكن رنين الضحكات واصطفاق الأجنحة كانا يسمعان في كل مكان!
وعاشت الأميرة فلم تر عيناها بعد ذلك اليوم عذوبة الصباح، ومتوع المساء، وفرح الحياة. . . واختبأت في الظلام وراء السُجف الصّفاق خوفاً من الخفافيش
(وأصبحت بعد أيام، وإذا شعورها تبيض، ووجها يتجعد، وإذا هي عجوز
(أين صباحتها الضاحكة، أين شعرها الناعم، أين جسمها الطري. . . أين. . .؟)
ونظرت إلى آنستي، فإذا بها قد اقتربت مني وأمسكن بيدي، وإذا رأسها الجميل الأشقر يميل برفق على كتفي. . . كأنما خدَّرها دفء الهواء، وأفزعتها خفافيش الغاب، وأحزنها دفعها السائلة، فخافت أن يدركها الهرم، ويضحك في رأسها المشيب
نامي آنستي. . . نامي. . . ولا تفزعي، فتلك أساطير وأوهام
(دمشق)
صلاح الدين المنجد
المصريون المحدثون - 24
شمائلهم وعاداتهم
في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الإنجليزي إدوارد وليم لين
للأستاذ عدلي طاهر نور
تابع الفصل السادس - عاداتهم
يقوم الخادمات المصريات بأحقر الأعمال. ويغطين وجوههن في حضرة سادتهن فيسحبن بعض الطرحة على الوجه فلا يظهرن غير عين ويد للقيام بالعمل. وإذا ما أستقبل ضيف في حجرة من حجر الحريم انسحبت النساء إلى حجرة أخرى وبقيت خادمة منتقبة لخدمته
تلك هي أحوال طبقات النساء المختلفة، ويجب علاوة على ذلك أن نصف عاداتهن وأعمالهن وصفاً سريعاً
لا تحرم الزوجات كما تحرم الجواري من امتياز تناول الطعام مع رب العائلة غالباً فحسب، بل يجب عليهن أيضاً أن يقمن على خدمته أثناء طعامه أو عندما يدخن شبكه ويحتسي قهوته في الحريم. وكثيراً ما تشتغل الزوجات كالخادمات فيحشون الشبك ويشعلنه ويصنعن القهوة ويجهزن الطعام أو بعض الأصناف اللذيذة على الأقل. وإذا استطعت الحكم تبعاً لتجربتي الخاصة قلت إن أغلبهن طاهيات بارعات. وكلما أوصي إلي بطبق صنعته زوجة مضيفي وجدته لذيذاً بصفة خاصة. وتهتم السيدات في الطبقات العليا والوسطى بإرضاء أزواجهن وجذب قلوبهم اهتماماً متواصلاً بحيل شتى. ويظهر دلال النساء حتى في مشيتهن العادية عندما يخرجن، بهز الجسم هزاً خاصاً. وتضبط الزوجات أنفسهن عادة في حضرة الزوج قليلاً أو كثيراً. ولذلك يسرهن ألا تتكرر زيارة الزوج للحريم أو تطول أثناء النهار. وكثيراً ما يستسلمن في غيابه إلى ابتهاج صاخب
ولا يختلف طعام المرأة عن طعام الرجل إلا في قلة مقداره ولا تختلف كذلك طريقة تناول الطعام. ويسمح لأغلب النساء أن ينعمن بترف التدخين. ولا يعتبر النساء مهما علا
مركزهن هذه العادة غير لائقة بهن، إذ أن رائحة أنواع التبغ الجيد المستعمل في مصر لطيفة جداً. ويلاحظ عادة أن شبك النساء أرشق من شبك الرجال وأكثر زخرفة. ويكون مبسم الشبك أحياناً من المرجان بدلاً من الكهرمان. ويستعمل النساء العطور مثل المسك وقط الزباد الخ وكذلك الأدهان بكثرة. ويستعملن بضعة عقاقير تؤكل أو تشرب للحصول على بدانة ملائمة وبعض هذه المسمنات تثير الاشمئزاز إلى أقصى حد، لأنها تتكون خاصة من الخنافس المسحوقة. وقد تعود كثير من النساء مضغ اللبان واللادن اللذين يطيبان النكهة، كما تعودن كثرة الوضوء ليكن طاهرات. ولا يبذل النساء وقتاً طويلاً في التبرج، وقلما يغيرن ملابسهن طول اليوم بعد أن يلبسن في الصباح. ويضفرن شعرهن في الحمام ولا يحللنه بعد ذلك عدة أيام
والاعتناء بالأطفال أول ما يهتم به السيدات المصريات، وعليهن أيضاً إدارة الشئون المنزلية؛ إلا أن الزوج وحده في أغلب الأسر يقوم بنفقات المنزل. ويمضي السيدات ساعات الفراغ غالباً في الأشغال بالإبرة، وعلى الأخص في تطريز المناديل والطرح بالحرير الملون والذهب على إطار يسمي (منسج) أنظر شكل 49، وتكسب الكثيرات، حتى في منازل الأثرياء، من تطريز المناديل وغيرها بهذه الطريقة إذ يستخدمن (دلالة) تبيعها في السوق أو في حريم آخر. وكثيراً ما تشغل زيارة حريم لحريم آخر اليوم كله تقريباً. ولا تخرج تسلية النساء عن الأكل والتدخين واحتساء القهوة والأشربة والثرثرة وعرض زينتهن. ولا يسمح لرب الدار في مثل هذه الأحوال أن يدخل الحريم إلا لعمل خاص لابد منه. ويجب عليه في هذه الحالة أن يعلن قدومه، ويترك للزائرات الوقت الكافي للاحتجاب أو الانسحاب إلى غرفة أخرى. وينغمس النساء في المرح والبهجة لاطمئنانهن بالوحدة وعدم المفاجأة، ولميلهن بطبيعتهن إلى الجذل والتبسط. وقد تقوم إحدى السيدات أحياناً بتسلية الجماعة عندما ينضب الحديث العادي بسرد القصص العجيبة أو الفكاهية. وقلما يعلم السيدات المصريات الموسيقى أو الرقص، ولكنهن يتلذذن كثيراً بسماع محترفي الموسيقى والرقص ورؤيتهم. وكثيراً ما يسلين أنفسهن وضيفاتهن بالضرب على (الدرابكة) و (الطار) إذا لم يتيسر وجود العازفين. ويندر ذلك في المنازل التي يستطيع المارة أن يسمعوا منها أصداء الاحتفال. وكثيراً ما يستخدم القيان (العوالم) في أي مناسبة تبهج النساء

كميلاد طفل أو الاحتفال بختان أو عرس الخ. ولكن ذلك لا يحدث عند العائلات الجليلة في المناسبات العادية لاعتبارها إياه مخالفاً للآداب. وقلما يقبل في الحريم الغوازي اللاتي يعرضن رقصاتهن سافرات في الشوارع؛ ولكنهن يرقصن أمام المنزل أو في الفناء في مثل المناسبات السالفة الذكر، وإن كان هذا يبدو للكثيرين غير لائق. ولا يستأجر (الآلاتية) دون غيرهم لتسلية النساء، وإنما يستأجرون خاصة لتسلية الرجال ويعزفون دائماً في مجتمعاتهم، ويسمعون مع ذلك بوضوح داخل الحريم.

يركب نساء الطبقتين العليا والوسطى الحمير عندما يخرجن للزيارة أو لغيرها ويجلسن على براذع مرتفعة عريضة تغطى بسجادة صغيرة (أنظر شكل رقم 50) ويسير في ركابهن رجل واحداً أو اثنان كل منهما في جانب. ويركب نساء الحريم جميعهن معاً الواحدة خلف الأخرى. ويظهرون وهن راكبات بالطريقة الموصوفة في هيئة غريبة جداً، فيبدون غير مطمئنات في جلستهن على هذا الارتفاع. ويطلق على الحمار الذي يجهز بالبرذعة المرتفعة: (الحمار العالي) ولكني أعتقد أن الحال ليست من الصعوبة بحيث تظهر، فإن الحمار قد شد حزامه جيداً ورسخت مشيته فهو يسير ببطء ورهو وحركة سهلة. ويركب سيدات الطبقات العليا كما يركب سيدات الطبقات الوسطى، الحمير المجهزة بهذه الطريقة. ويندر أن يرين فوق البغال أو الجياد. وتكرى الحمير على العموم؛ وإذا لم تستطيع السيدة الحصول على حمار عال تركب آخر مما يركبه الرجال بعد أن يوضع على البرذعة سجادة. وكثيراً ما يفعل ذلك نساء الطبقة الدنيا ونساء الطبقة الوسطى. ولا يمشي السيدات أبداً في الخارج إلا إذا قصدن مكاناً قريباً جداً؛ فيمشين ببطء وارتباك لصعوبة الاحتفاظ بالخف في أقدامهن، ويمسكن أطراف الحبرة الأمامية بالطريقة الموضحة في شكل 27. ويتمتع النساء سواء ركبن أو مشين بالاحترام الزائد عند العامة؛ فلا يشخص إليهن حسن التربية وإنما يحول نظره إلى اتجاه آخر. ولا يرى النساء في الخارج ليلاً أبداً إلا إذا اضطرهن إلى ذلك ضرورة ملحة. والقاعدة العامة أن يعود النساء من الزيارة قبل غروب الشمس. ولا يذهب سيدات الطبقة الراقية إلى الحوانيت أبداً وإنما يرسلن في طلب ما يشأن. وهناك (دلالات) يدخلن الحريم لعرض أنواع الزينة وأمتعة النساء الخ. ولا يذهب أولئك السيدات إلى الحمام العمومي إلا إذا دعين لمرافقة بعض صديقاتهن إذ أن لأغلبهن حماماً في المنزل

أما الحياة المنزلية عند الطبقات السفلى فهي بسيطة إلى حد أنها بمقارنتها بحياة الطبقات الوسطى والعليا التي تكلمنا عنها الآن لا يفيدنا العلم بها شيئاً كبيراً تتكون الطبقات السفلى من الفلاحين، ما عدا فئة قليلة جداً تسكن المدن الكبيرة على الأخص. وأغلب هؤلاء الذين يسكنون المدن الكبيرة والقليل ممن يسكن المدن الصغيرة وبعض القرويين هم من صغار التجار أو أهل الحرف أو ممن يكتسبون معاشهم بالخدمة أو بمختلف الأعمال. وأرباحهم على أي حال طفيفة تكاد تكفيهم. وقد لا تضمن لهم ولعائلاتهم ضروريات الحياة

ويتكون طعام الطبقة السفلى على الأخص من الخبز المصنوع من الدخن أو الذرة، وثم من اللبن والبيض والفسيخ والخيار والشمام والقرع على أنواع كثيرة الاختلاف، والبصل والكراث والفول والحمص والترمس والعدس الخ، والبلح الطازج والمجفف والمخللات، ويأكلون أكثر الخضروات نيئة. ويقطع الفلاحون كيزان الذرة عندما تقرب من النضج ويأكلونها مشوية أو مطبوخة. ولا يدخل الفلاحون الأرز في طعامهم العادي لغلو ثمنه. وقلما يذوقون اللحم. وينعم أغلبهم مع ذلك بترف تدخين تبغ بلدهم الرخيص الذي يجفف ويفرم. ولون هذا التبغ يضرب إلى الخضرة وهو لطيف العطر. وكثيراً ما لا يجد الفقراء غير (الدقة) التي وصفتها في فصل سابق يغمسون فيها خبزهم بالرغم من بخس أثمان الأطعمة المذكورة آنفاً. ومما يثير الدهشة أن يكون الفلاح قوياً صحيحاً مع بساطة طعامه وقلته وما يعانيه من كد

وقلما يحيا نساء الطبقات السفلى حياة الخمول؛ وإن بعضهن ليكد أكثر من الرجال. وأهم أشغال النساء تجهيز الطعام، وجلب المياه، في جرار كبيرة يحملنها على الرأس من الموارد وغزل القطن والكتان أو الصوف، وعمل (الجلّة) أقراصاً مستديرة مسطوحة من روث البهائم المخلوط بالتبن، للوقود، ويقمن هذه الأقراص على حوائط منازلهن أو فوق أسطحها أو على الأرض لتجفف في الشمس ثم يستعملنها لوقود

الأفران ولأغراض أخرى. ويخضع نساء الطبقة السفلى لأزواجهن أكثر من خضوع نساء الطبقات الراقية. ولا يسمح دائماً للمرأة الفقيرة أن تتناول الطعام مع زوجها. وإذا خرجت معه سارت وراءه. والعادة أن
تحمل الزوجة كل شيء إلا الشبك أو العصا. ويفتح بعض النساء في المدينة حوانيت يبعن فيها الخبز والخضر الخ. . . فيساعدن مساعدة الزوج أو أكثر في الإنفاق على الأسرة. ويضع الفقير الذي يرغب في الزواج مسألة المهر موضع الاعتبار. ويكون المهر عادة من عشرين ريالاً إلى أربعة أضعاف هذا المبلغ إذا كان نقوداً فقط، ويقل إذا شمل بعض الملابس كما هو الحال في معظم القطر المصري. وقلما يتردد الفقير في الزواج إذا استطاع أن يقدم المهر، فأي مجهود إضافي يساعده على قوت زوجه وطفلين أو ثلاثة أطفال. ويصلح الأطفال عند سن الخامسة أو السادسة لرعي القطعان، ويساعدون آباءهم في أعمال الفلاحة عندما يتقدم بهم السن إلى أن يتزوجوا. وكثيراً ما يعتمد الفقير في مصر على أولاده الاعتماد التام لمعيشته في سن الكهولة؛ ولكن أغلب الآباء يحرمون من يحرمون من هذه المساعدة؛ فيقضون حياتهم على السؤال أو يموتون جوعاً. وقد حدث من زمن غير بعيد أن ألقى محمد مرساه في قرية على شاطئ النيل أثناء سفر له من الإسكندرية إلى القاهرة، فأسرع إليه رجل فقير وأمسك بكمه بقوة لم يستطيع معها أحد من الحاشية منعه، وشكا إليه أنه كان وقتاً ما في رغد، ثم تحول الأمر إلى عوز تام بتجنيد أولاده في الجيش وهو كبير السن. فخفف عنه الباشا بأن أمر أن يعطي له أغنى رجل في القرية بقرة.
وقد يكون الأطفال مع ذلك حملاً ثقيلاً على والديهم الفقراء، ولذلك لا تجد من النادر في مصر أن يباع الأطفال علناً بواسطة أمهاتهم أو نساء أخريات يستخدمهن الآباء لذلك. ولكن هذا لا يكون إلا في حالة الضيق الشديد.
(يتبع)
عدلي طاهر نور
. .ساعة حب
للدكتور زكي مبارك
(قصيدة يغنيها الموسيقار عبد العزيز محمود عن طريق الإذاعة اللاسلكية)
يا مليكَ الُحسن عزَّتْ دولُتلكْ ... ورَعَت آلهةُ الجبَّ صِباكْ
شِرْعةُ الإسعاد فينا شِرعتُكْ ... وهُدَى الإشفاق والعطف هُداكْ
أنتَ أنقذْت فؤادي من جَوَاهْ ... وسَقيتَ الروحَ أكوابَ الصفاءْ
آن أن يَنْسَى فؤادي ما شجاهْ ... نَسَخ الإقبالُ أيام الشقاءْ
ساعةٌ مرَّت وفي القلب هواكْ ... ساحرَ النَّغَمة خفاَّقَ الجَناح
يَرْشُفُ اللَّثمةَ من كأسٍ لمَاكْ ... في ظِلال الأنس والصَّفو المتُاح
سَكَبَتْ نجواكَ في الروح الأمانْ ... وأراني الوصلُ أسرارَ جمالِكْ
فتمثَّلْت فراديسَ الجِنانْ ... ورأيت الُخلدَ منَضْوُرَ وصالِكْ
وقَفَ النَّجْمُ وَألْقَى بالهُ ... ليَعُدَّ اللَّمحَ من قلبي وقلبكْ
وَيْحَ هذا النجمِ مماّ هاَلهُ ... في ضمير الليل مني حبي وحبَّكْ
غارت الأنجم من قلبيَ الطَّرُبْ ... ما يقول الناسُ لو شامُوا غرامي
أنا بالأفنان فتَّاك لَعُوب ... يزدهيني الغيَّ في تِيِه هيُامي
شُبْهَةٌ في قلبك البِكرْ يَلُوحْ ... طيفها المرُتاَب في إنسان عينكْ
أنا يا مولايَ لو تَعلَمُ روُحْ ... يَهْصِر المطلولَ من مائدِ غُصْنِكْ
تَنْظُرُ الساعة من حينٍ لحينْ ... لَيْتَ شعري ما الذي يَسْتعجِلُكْ
إن هذا الوصل أحلامُ سنينْ ... فاتق الحبّ ودّعْ ما يشَلُكْ
زكي مبارك
بين عهدين
للأستاذ سيد قطب
العش المهجور - 1
طِرْتِ عَنْ عُشَّكِ الَجْمِيلِ فأُوبي ... شَدَّ مَا اشْتَاقَ طَيْرُهُ أن تَؤَوبي!
كانَ دِفئاً وَكانَ مَرْتَعَ صَفْوٍ ... فكَسَاهُ الصِقِّيع ثُوبَ الفُطوب

مُنْذُ غَادَرْتِهِ قَدِا اْنَتَثَرَ الَحْبُّ ... وَطاَحَتْ بهِ رِيَاحُ الْهُبُوبِ
وَتخَلَّتْ عِنَايةُ اللهِ عَنْهُ ... فَهُوَ في وَحْشةِ الغرِيبِ الكئِيب
وَلَيَالِيهِ شاَجيَاتٌ حَيَارَى ... يَتَرَامَيْنَ حَوْلَهُ مِنْ لُغُوبِ
نداء العودة - 2
عُودي إلى الْعُشَّ عودِي ... وَرَفْرِفِي مِنْ جَدِيد
وَرَنِّمي بالأَغَاني ... في جَوِّهِ وَاستَعِيدِي
وَأَدْفِئِي بالأَمَاني ... مَا مَسَّهُ مِنْ جُمُودِ
وَتَمْتِمِي بالتَّعَاوِيذِ (م) ... وَالرُّقَى وَالتَّشِيدِ
وأَطْلِقي فِيهِ لَحْناً ... يَشْدُو لِحُبٍّ سَعِيدِ
وَيَطْرُدُ الْيَأْسَ عنْهُ ... بالشَّدْوِ وَالتَّغْرِيدِ
طَالَ انْتِظاَرُكِ وَهْناً ... في ظُلْمَةٍ وَكنُوُدِ
وَالرِّيحُ تَعْبثُ فيهِ ... بكلِّ غالٍ مَجِيدِ
وَكلُّ خَفْق جِناحٍ ... أَوْ رَجْفَةٍ مِنْ بَعِيدِ
يخاَلُ فِيها مَآباً ... بَعْدَ النَّوَى وَالشرودِ
عُودِي إلى الْعُشَّ عُودِي ... وَرَفْرِفِي من جدَيدِ
أَضْنَاكِ طُولُ الشُّرُودِ ... وَلَذَّةُ التَّصْعِيدِ
عُودِيْ إلى الدَّفءْ فِي عُشَّ ... كِ الأَمِينِ الوَدَودِ
الْعُمْرُ يَمْضي فَهَيَّا ... نُعِيدُهُ لِلْوُجُودِ
سيد قطب
البريد الأدبي
إلى الدكتور زكي مبارك
في أي عصر نحن حتى توجه هذه الكلمات المخزية إلى شخص المرأة وهي التي ولدت العباقر وساعدت على قيام الحضارة؟ وكيف تستطيع هذه المرأة التي وصفتها بهذا الوصف ورميتها بهذا الخلق أن تنشئ طفلاً على الكرامة، أو تطبع أمة على الاستقلال؟ ثق يا أستاذ أن الأمم الشرقية ما سهل عليها تحمل الاستعباد والذل الجيل بعد الجيل إلا لأن الزوجات كن مستعبدات مستذلات. وهل تراني في حاجة إلى أن أذكرك بهند أم معاوية التي لم تخضع لزوجها أبي سفيان زعيم مكة وسيد قريش بل رمته بالحصباء وأغلظت له القول وعيرته وطردته حين آتاها يزف إليها البشرى يوم الفتح أن من دخل بيته فهو آمن. هل تجهل أنها أنجبت خير ملوك المسلمين سياسة، وأكيسهم معاملة: معاوية الذي أنشأ دولة وحكم عشرين سنة استطاع بعدها أن يبايع لابنه الفاسق دون أن يعارض معارض؟ حسبي ما ذكرت؛ ولعلك راجع عما كتب
(سوهاج)
(بثينة)
(الرسالة):
جاءنا في هذا الموضوع كلمات أخرى لبعض السيدات الفضليات فيها كثير من القسوة والعنف. وقد لامت إحداهن الرسالة على أن نشرت هذه الكلمة؛ والرسالة التي تسجل ألوان الأدب الحديث لا تؤدي واجبها لتاريخ الأدب إذا مثل هذا الرأي من آراء كاتب معروف
في المجتمع اللغوي
أجتمع مجلس المجمع اللغوي في الأسبوع الماضي، ونظر في. كثير من الأعمال، وكان في مقدمة ما تناوله بالبحث مسألة الأعضاء الشرقيين والمستشرقين، وهل يمكن دعوتهم هذا العام، ليتسنى عقد المؤتمر السنوي، فعرض المجلس ما يقوم في سبيل ذلك من العقبات، واستقر رأيه على أن يصرف النظر عن عقد المؤتمر، وأن يحاول المجمع ما أمكن لتوثيق
الصلات بينه وبين الأعضاء غير المقيمين بالقطر المصري، كل في مكانه، وذلك باطلاعهم على قرارات المجمع ومصطلحاته وسائر أعماله، والرغبة إليهم أن يوافوا إدارة المجمع بنقداتهم واقتراحاتهم فيما يعود بالفائدة على اللغة العربية، حتى يكون في هذه الصلة بعض العوض عن المؤتمر المتعذر عقده بسبب الظروف الدولية الراهنة

وقد تقرر أن يعقد مجلس المجمع في الثاني والعشرين من فبراير الحاضر ليوالي النظر في الأعمال المطروحة عليه، وفي طليعتها ما أنتجته لجان المجمع المختلفة من المصطلحات في ضروب العلوم والفنون والآداب.

وينتظر أن يفتتح المجلس درسه للمصطلحات بما أتمته اللجنة الطبية من أشتات الكلمات في فروع الطب، وسيتابع المجلس عقد جلساته مرتين في كل شهر.

في مطالعاتي

كثيراً ما يمر القارئ في كتبنا على أغلاط فلا يلقي لها بالاً وهي ذات شأن، ولقد كنت جمعت من ذلك مجموعة ثم أهملتها فما انتفعت بها ولا انتفع الناس، لذلك رأيت أن أبادر بنشر كل ما أعثر عليه من ذلك:

1 - يروى كثيرون هذا البيت المشهور هكذا:

وعدت وكان الخلف منك سجية ... مواعيد عرقوب أخاه (بيثرب)

و (يثرب) هي مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكن جاء في القاموس في مادة ترب ما نصبه: (ويترب كيمنع موضع قرب اليمامة وهو المراد بقوله: مواعيد عرقوب أخاه بيترب)؛ وإذن فالكلمة بالتاء المثناة لا بالثاء

وفي لسان العرب ج1 ص224 قوله: (ويترب بفتح الراء موضع قرب اليمامة؛ قال الأشجعي (وذكر البيت السابق)؛ ثم قال: هكذا رواه أبو عبيدة (بيترب) وأنكر (يثرب)؛ وقال عرقوب من العماليق: ويترب من بلادهم ولم تسكن العماليق (يثرب)).

والميداني في كتابه (مجمع الأمثال) روى البيت بالتاء وذكر بيتاً آخر بالتاء، وقال يروى: (يعني البيت الأول) (بيثرب)

2 - ذكر الكتاب الكبير المرحوم جورجي زيدان في كتابه (تاريخ آداب العرب) الشاعر عبد الله بن الدَّمَيْنة في الشعراء الجاهليين في غير موضع من كتابه، وعند الترجمة له قال:

وبقي جماعة منهم - بعثي الشعراء الجاهليين - لا يجتمعون في باب وهم كثيرون (نكتفي بذكر أشهرهم)

ثم ذكر ابن الدمينة، وهذا الكلام خطأ من وجهتين: الأول أن ابن الدمينة شاعر أموي لا جاهلي؛ والثاني أنه من أكبر شعراء الغزل الرقيق

3 - قال الأستاذ الرافعي في كتابه (تاريخ آداب العرب) عند الكلام على أسواق العرب: (أما عكاظ فهي أعظم أسواقهم اتخذت سوقاً بعد عام الفيل بخمس عشرة سنة (540 للميلاد)) وكنت أظن أن هذا الرقم خطأ مطبعي حتى رجعت إلى دائرة معارف القرن العشرين للأستاذ وجدي فوجدته بنصه

ومعرف أن عام الفيل هو العام الذي ولد فيه النبي صلى الله عليه وسلم، وهو عام 570 للميلاد، كما في تاريخ الطبري وأبي الفداء وكتاب الكامل لأبن الأثير، وكتاب أخبار الدول وآثار الأول وفي العقد الفريد؛ قالوا: ولد صلى الله عليه وسلم عام الفيل لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول وقال بعضهم لليلتين خلتا منه؛ وقال بعضهم بعد الفيل بثلاثين يوماً؛ فهذا جمع ما اختلفوا في مولده

وهذه العبارة الأخيرة من صاحب العقد خطأ، فإنهم اختلفوا في مولده صلى الله عليه وسلم على أقوال كثيرة

وبعد، فجمهرة الكتب على أن النبي صلى الله عليه وسلم ولد عام الفيل، وعلى أن عكاظ قامت بعد الفيل بخمس عشرة سنة، فتكون أقيمت في سنة 585 للميلاد

علي محمد حسن

حول مقال

كنت كتبت في العدد (438) من (الرسالة) الزهراء كلمة صريحة بعنوان: (بين الأدبين المصري والسوري) وبتوقيع (كاتب لبناني) أنعى فيها على الأدباء السوريين واللبنانيين غرورهم وزهوهم اللذين كانا السبب الأول في اقتصارهم على إنتاج ضئيل هيهات أن يقاس بإنتاج المصريين الغزير

ولم يكن من عجب أن تنبري جريدة (المكشوف) الغراء دفاعاً عن الأدب اللبناني من أن يخدش أو يُمس. فكان أن نشرت المقال لتطلعَ عليه القراء اللبنانيين، ولمُ تُعلق علي الكلمة إلا بقولها:

على أننا نشك في أن يكون هذا الكاتب لبنانياً على الرغم من توقيعه؛ فإن بعض) تعابيره (ك) يقرزم وغيرها لا تمتُّ إلى الذوق بصلة، ونلاحظ أن الكمية عنده تفضل القيمة. . .)
وكل ما أملك من قول، هو أنني لن أقسم أنن لبناني، فبحسب (المكشوف) أن ترجع إلى غير عددٍ من أعدادها لترى أسمي الكامل، وبحسبها كذلك أن تعود إلى المقال فتروَّى فيه لتتبين خطأ (ملاحظتها) . . .
بيد أن الذي سرني هو أن (المكشوف) الغراء لم ترفع علم النكير في هذه المرة، فقد أيقنت أن الكلمة التي نشرتها لم تعدُ الحقيقة
(بيروت)
سهيل إدريس
إلى الأستاذ ناجي الطنطاوي
كنت أقرأ في كتاب (كشف الحجاب والران، عن وجه أسئلة الجان) للشعراني، حتى وصلت إلى السؤال (56) وهو:
ما أقرب الطرق إلى دخول حضرة الله تعالى؟ فأجاب بما ملخصه أقرب الطرق كثرة ذكر الله تعالى، فلا يزال العبد يذكر ربه، والحجب تتمزق عنه شيئاً بعد شيء؛ حتى يقع (الشهود القلبي) فإذا حصل الشهود، استغنى عن الذكر بمشاهدة المذكور، فلو ذكر العبد ربه في تلك الحضرة، كان غير لائق بالأدب.
إلى أن قال: وقد أنشدوا في حضرة المشهود:
بذكر الله تزداد الذنوب ... وتنكشف الرذائل والغيوب
وترك الذكر أفضل كل شيء ... وشمس الذات ليس لها مغيب
وختم جوابه بقوله: وأنشدوا في ترك الذكر في حضرة الشهود
فترك الذكر أولى بالشهود ... وذكر الله أولي بالوجود
فكن إن شئت في وجد الشهود ... وكن إن شئت في فضل الوجود
عند ذلك وضح لي معنى البيتين الأوليين وضوحاً لا يحتاج إلى تبيان، وتذكرت ما دار في مجلتنا المحبوبة (الرسالة) حول هذين البيتين في الأعداد 375، 378، 382 بحالة تغاير ما هو مذكور هنا، اضطرت الأستاذ سعيد جمعة إلى تأويل معناهما. ولو أنه شرحهما بحالتهما الراهنة لما احتاج إلى تأويل وعناء وشرح حال.
هذا ما عن لي أن أذكره وفاء لمجلتنا الرشيدة المحبوبة.
(شطانوف)
محمد منصور خضر
نسبة شعر
في أثناء مطالعاتي ما يختص بالأدب العباسي رأيت الكامل للمبرد (ج2 ص254) يورد هذه القصة: (دخل شبل بن عبد الله مولى بن هاشم على عبد الله بن علي وقد أجلس ثمانين رجلاً من بني أمية على سُمُطِ الطعام فمثل بين يديه فقال:
أصبح الملك ثابت الآساس ... بالبهاليل من بني العباس
طلبوا وتر هاشم فشفوها ... بعد ميْل من الزمان وياس
لا تقيلن عبد شمس عثاراً ... واقطعن كل رَقْلَةٍ وعراس
خوفها أظهر التودد منها ... وبها منكم كحز المواسي
إلى أن قال:
نعم شبل الهراش مولاك شبل ... لو نجا من حبائل الإفلاس
فأمر بهم عبد الله فشدخوا بالعمد، وبسطت عليهم البسط، وجلس عليها ودعا بالطعام وإنه ليسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعاً. وقال لشبل لولا أنك خلطت كلامك بالمسألة لأغنمتك جميع أموالهم). وقد عجبت كثيراً بعد أن فرغت من تلاوة هذه القصة؛ إذ أنني أحفظ من قديم هذا الشعر منسوباً إلى رجل آخر غير شبل يخاطب به رجلاً آخر غير (عبد الله). . . فرجعت بالذاكرة حتى اهتديت إلى الكتاب الذي أخذت عنه، وهو (الأغاني) فصاحبة أبو الفرج الذي ينتسب إلى بني أمية يعنون فصلاً في (ج4 ص92 - 96) بقوله (ذكر من قتل أبو العباس السفاح من بني أمية) ويدير أبو الفرج فصله هذا على قصة سديف بن ميمون

الشاعر فيزعم أنه دخل على أبي العباس بالحيرة وعنده بنو هاشم وبنو أمية فأنشده قصيدته:
أصبح الملك ثابت الآساس ... بالبهاليل من بني العباس. . . الخ
ثم قال بعد أن روى الشعر: (فتغير لون أبي العباس وأمر بمن في مجلسه من الأمويين فأهمدوا)
قلت لنفس بعد أن تلوت هذا وذاك. . . إنه لو صحت الرواية الأولى (وهذا ما نعتقده) لوجب أن يغير الحكم على أبي العباس بأنه كان سفاكا للدماء بهذه الصورة المرعبة التي يصوره بها المؤرخون فإنهم لا يكادون يستدلون على فظاعته وقساوته إلا بهذه الرواية
ثم قلت لنفسي أيضاً وأنا حائر بين هذا وذاك: ما أحْوجَ أدبنا العربي إلى غربال دقيق
عبد العليم عيسى
(الرسالة):
لقد نشرت الرسالة في تحقيق هذا الموضوع مالا مزيد عليه، مما كتبه الأساتذة: عبد الحميد العبادي، ومحمود شاكر، وعبد المتعال الصعيدي، فارجع إليه
الكتب
المؤلفات العربية القديمة
وما نشر منها في سنة 1940
للأستاذ كوركيس عواد
(تتمه)
33 - المفاضلة بين الصحابة
لابن حزم الأندلسي (456هـ). نشره الأستاذ سعيد الأفغاني بعد أن قدّم له ببحثٍ ضافٍ في ابن حزم. وقع في 160 صفحة من الكتاب، وذّيله بفهارس متعددة للأعلام والأماكن والشعار. (المطبعة الهاشمية، دمشق، 420ص)
34 - مقدمة تحفة الأحوذي لجامع الترمذي
(الترمذي، صاحب أحد الكتب الستة في الحديث، توفي سنة 279هـ)، نشرته مطبعة دائرة المعارف النظامية بحيدر أباد الدكن في الهند
35 - المكافأة وحسن العقبى
لأحمد بن يوسف الكاتب المعروف بابن الداية (340هـ). حققه وشرحه وصححه الأستاذ محمود شاكر. مطبعة الاستقامة القاهرة، 14 صفحة لمقدمة التي درس فيها حياة المؤلف، و 160ص للمتن والتعليقات والفهارس
36 - المنتظم في تاريخ الأمم
لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي البغدادي (597هـ). المجلدات 5 - 10 نشرتها مطبعة دائرة المعارف النظامية بحيدر أباد الدكن في الهند. المجلدات 1 - 5 ظهرت سابقاً
37 - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة
لابن تغرى بردى (874هـ). المجلد الثامن، نشره القسم الأدبي بدار الكتب المصرية، العناية
بهذا المجلد بادية في التعليقات والشروح والفهارس، كما هو الشأن في المجلدات السابقة (مطبعة دار الكتب المصرية- القاهرة، 342ص) المجلدات 1 - 7 صدرت خلال 1929 - 1938. في هذا المجلد حوادث السنين 690 - 709هـ ـ، وسيليه التاسع
38 - نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية
للشيخ جمال الدين يوسف الزيلعي (762هـ ـ). نشرته مطبعة دائرة المعارف النظامية بحيدر أباد الدكن في الهند، الكتاب في علم الحديث
39 - وثائق تاريخية عن حلب
فيها حوادث حلب وأخبارها، للسنوات 1855 - 865 م أخذاً عن يومية نعوم بخاش وغيرها من المخطوطات، نشرها الأب فردينال توتل اليسوعي، بتعاليق وفهارس، (المطبعة الكاثوليكية بيروت، 234 + 10ص)، ظهرت هذه الوثائق متتابعة في مجلة المشرق، ثم طبعت على حدة
المستدرك على مطبوعات سنة 1939

1 - إغاثة اللهفان في مصايد الشطان
لابن القيم الجوزية (751هـ ـ)، المجلد الأول، نشره الأستاذ أحمد حامد الفقي (مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة 386ص)
2 - الثمالة
لجميل صدقي الزهاوي (1936م) وهي الأشعار التي عملها الزهاوي في أواخر أدوار حياته (مطبعة التفيض الأهلية، بغداد 76ص)
3 - الجامع لأحكام القرآن
لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (671هـ ـ) الجزء التاسع، نشرة القسم الأدبي بدار الكتب المصرية، (مطبعة دار الكتب المصرية، 386ص) الأجزاء 1 - 8 صدرت سابقاً
4 - درة الناصحين
لعثمان بن حسن بن أحمد الخوبوي (فرغ من تأليفه سنة 224هـ)، وهي مجالس مشتملة على تفسير آيات من القرآن وشرح أحاديث في الوعظ أيضاً نشرتها المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة (320ص)، الكتاب طبع قبل هذا
5 - ديوان حافظ إبراهيم
لحافظ بك إبراهيم (1932م)، الطبعة الثانية، أظهرتها وزارة المعارف المصرية ـ ضبطها وصححها وشرحها ورتبها الأساتذة: أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الإبياري، وبمراجعة محمد مختار يونس. (مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة. مجلدان: الأول 47 + 318 والثاني 262ص)
6 - الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة
لأبي الحسن علي المعروف بابن بسّام الشنتريني الأندلسي (542هـ ـ). القسم الأول من المجلد الأول نشرته كلية الآداب بالجامعة المصرية (مطبوع رقم 26)؛ مستعينة بمراجعة السادة: محمد عبده عزام، خليل عساكر، بخاطره الشافعي. وأشرف على عملهم أساتذة الجامعة: أحمد أمين، مصطفى عبد الرازق، عبد الحميد العبادي، عبد الوهاب عزام، طه حسين. وشاركهم في بعض ذلك المستشرق ليفي بروفنسال - (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ي + 416ص) الكتاب مرجع هام في تاريخ الأندلس وشعرائها وبلغائها وكتابها. بقية أقسامه شيئاً بعد شيء
7 - رسائل فلسفية
لأبي بكر محمد بن زكرياء الرازي (320هـ ـ)، مع قِطَع من كتبه المفقودة؛ جمعها وصححها المستشرق (باول كراوس) الجزء الأول، نشرته الجامعة المصرية (القاهرة، ص316)؛ يتألف هذا المجلد من الرسائل التالية:
1 - كتاب الطب الروحاني
2 - كتاب السيرة الفلسفية
3 - مقالة فيما بعد الطبيعة
4 - مقالات في أمارات الإقبال والدولة
5 - من كتاب اللذة
6 - من كتاب العلم الإلهي
7 - القول في القدماء الخمسة
8 - القول في الهيولي
9 - القول في الزمان والمكان
10 - القول في النفس والعالم
11 - المناظرات بين أبي حاتم الرازي وأبي بكر الرازي
8 - شرح ألفية بن مالك
لنور الدين أبي الحسن الأشموني (900هـ ـ). نشرهُ الأستاذ محمد محي الدين عبد الحميد (مجلدات، 532 + 528ص. مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة). ابن مالك صاحب الألفية في النحو، توفي سنة 672هـ ـ.
9 - شرح ديوان امرئ القيس ومعه أخبار المراقسة وأشعارهم
في الجاهلية وصور الإسلام
أشعار امرئ القيس (566م) جمعها ورتبها وشرحها الأستاذ حسن السندوبي، وأضاف

إليها أخبار المراقسة (مطبعة الاستقامة، القاهرة، 192 + 112ص)
10 - شرح ديوان الحماسة
لأبي زكرياء يحيى بن عليّ، الشهير بالخطيب التبريزي (502هـ ـ) حققه وضبط غريبة وعلق حواشيه ووضع فهارسة، الأستاذ محمد محي الدين عبد الحميد (4مجلدات، مطبعة حجازي، القاهرة 464 + 464 + 420 + 440ص). وديوان الحماسة، هو لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي (231هـ ـ)، جمع فيه ما اختاره من أشعار العرب الأقدمين، ورتبه على عشرة أبواب: الحماسة، المراثي، الأدب، التشبيب، الهجاء الإضافات، الصفات، سيرة الملح، مذمة النساء، وقد اشتهر الكتاب ببابه الأول.
11 - الكليات في الطب
لابن رشد الفيلسوف الطبيب الأندلسي (595هـ). نشرته بالتصوير الشمسي، لجنة الأبحاث العربية الأسبانية، ضمن منشورات معهد الجنرال فرانكو. (مطبعة الفنون المصور، بوسكا، العرائش (المغرب)، 30 + 34 + 231ص)
12 - المثل السائر في أدب الكتاب والشاعر
لضياء الدين بن الأثير الموصلي (637هـ ـ). حققه الأستاذ محمد محي الدين عبد الحميد. (مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده) القاهرة. مجلدان، الأول: ز + 429 والثاني 419ص)
13 - مختار الصحاح
لمحمد بن أبي بكر الرازي (620هـ ـ) طبع هذا المعجم على الحجر بحجم صغير للجيب. (مطبعة الترقي دمشق، 641ص)
14 - نزهة الرفاق عن شرح حال الأسواق بدمشق
ليوسف بن عبد الهادي المعروف بابن المبرد) (فرغ منه سنة 883هـ ـ). وهي رسالة نشرها الأستاذ حبيب زيات في مجلة المشرق بيروت (27 (1939) ص 18 - 28) في هذه الرسالة بيان بجملة أسواق دمشق في المائة التاسعة للهجرة التاسعة للهجرة وما يتعلق بها وما كان يباع فيها

هذا ما أمكنني الوقوف عليه حتى هذه الساعة، وإنني موقن أن قد فاتني طائفة منها على الرغم من تتبعي لها، وقد سقت وجه العذر عن هذا التقصير في صدر المقال، ورجائي من القراء أن يتفضلوا باستدراك ما لم أقف عليه، ولهم أخلص الشكر وأطيب الثناء.

كوركيس عواد

المسرح والسينما

محطة الإذاعة

إن محطة الإذاعة وسيلة من وسائل التهذيب والترقي عند الأمم، ولكنها في مصر بوق تنفخ فيه فئة معينة من الناس. واقفة عند حدود بدائية من الفن والفكر. وأبين ما يتضح من هذه الحدود تلك الأغاني الخائرة (معنىً وموسيقى) التي تجأر بها حناجر المطربين فتتناقلها أفواه الناس في سائر الأقطار - صورة من الفن المصري والأدب المصري!

يا ضيعة الشعر والغناء في هذا البلد. . . هل يحسب المشرفون على أمر المحطة أن ما يختارونه ليذاع لا تردده إلا أركان مصر حتى يتساهلوا كل هذا التساهل في توخي الدقة والصلاحية فيما يذاع؟

إن البلدان العربية تعني بالاستماع إلى الإذاعة المصرية فيجب أن نعطيها أمثلة صادقة عن الشعر والغناء في مصر، ولكن المحطة - سامحها الله - تسرف في تنكب الصراط المستقيم ولا يقع اختيارها إلا على الأزجال الرخيصة، والموسيقي المتهالكة، والمطرب الناشئ المضطرب

إن الغناء والشعر غذاء الأرواح في كل بلاد الله. فماذا يمنع محطة الإذاعة أن تقدم شعراً طيباً فيه قوة الشباب وعفاف الهوى العذري بدلاً مما نسمع من لغة ركيكة ومعان مبتذلة ولدينا - والحمد الله - شعراء موهوبون لهم من القصائد ما يبهر القلب، وما لو تغني به المغني الموهوب لأعطى المستمع فكرة سليمة عن الشعر والفن والغناء. ماذا يمنعها؟! أحد أمرين: إما أن المشرفين عليها جهلة، وهذا ما لا نعتقد. وإما أنها المحسوبية العمياء التي تسد الطريق إلى الحق والصواب. نرجو الله أن يوفق أولي أمر هذه المحطة إلى ما فيه الخير

صالات الرقص

إن جبين الحر ليندي خزياً كلما استعرض صالات الرقص في هذه الأيام السود أي مصر! يا بلد الإسلام والمسلمين! كيف يسمح القوم أن تدار في رحابك المواخير علناً باسم الحرية؟! وكيف يرفع المصري وجهه وقد وصمه العار بأبشع ما يوصم به الرجل الشريف؟ لقد آن لنا أن نحارب هذه المباءات المتناثرة في أحضان القاهرة، فنأتي على ما

فيها من أسباب الإجرام

قالوا يوم افتتحوا هذه الصالات: إنها لون من التسلية لا بد منه للبلد الراقي. وكانوا يعرضون فيه الرقص والغناء والرواية الهزلية ثم أضافوا (الفتح) إلى البرنامج، ثم هم يقتصرون الآن على شرب الخمور وارتطام الصدور في الصدور، وامتصاص دماء الرواد. . . فما معنى أن يسمح بفتح هذه المحلات (وهي عمومية) خاصة للشابين الماجنين. لا يدخلها عامر الجيوب إلا ويخرج منه صفر الجيب من المال مفلس الروح من الإيمان.

يخيل إلي أن انصراف الناس عن التمسك بالدين يغرى في نفوس بعض المسئولين نوعاً من أنواع الخمسة الجوعى.

أفلام جديدة

يدور العمل (الآن) بين جدران استديو مصر في صنع أفلام جديدة نذكر منها فلم (محطة الأنس) سيناريو وإخراج الأستاذ عبد الفتاح حسن، وتمثيل: علي الكسار، عبد العزيز خليل، عقيلة راتب، ماري منيب، وغيرهم. وفلم (الستات في خطر) تأليف الأستاذ فؤاد الجزايرلي وإخراج الأستاذ إبراهيم عمارة وتمثيل: فوزي الجزايرلي، مختار عثمان، عبد العزيز خليل، تحية كاريوكا، إحسان الجزايرلي، أمينه فهمي. وقد أوشك الأستاذ (محمد عبد الوهاب) أن ينتهي من فلمه الجديد (ممنوع الحب) الذي أخرجه الأستاذ محمد كريم. وقد انتهت شركة أفلام جلال من فلم (رباب) الذي ألفه وأخرجه الأستاذ أحمد جلال والذي سنشاهد فيه: ماري كويني، ثريا فخري، سميرة كمال، أحمد جلال، عمر جميعي، عبد الحميد زكي. ونذكر بهذه المناسبة أن أحد تجار الحمزاوي يعمل على تأليف شركة سينمائية جديدة اسمها (شركة أفلام عبد الجليل غازي) ولا يسعنا إزاء هذا المجهود إلا أن نرجو الله أن يوفق الجميع إلى ما فيه الخير للفن المصري الشرقي.

عبد الفتاح متولي غبن

العدد 452 - بتاريخ: 02 - 03 - 1942

من صور الريف

على المصطبة

على المصطبة الغبراء وفوق حصيرها الخشن جلس (البك) وفي عينيه نظرة يكسر من طولها الخجل، وعلى شفتيه بسمة يمد في عرضها الملق، وفي يمناه مسبحة يقطر من حباتها الرياء، وفي يسراه صحيفة وفدية لا تزال على طية البريد، وتحت قدميه بقية من وحل الشتاء تهدد حذاءه اللامع، وبين يديه وعن يمينه وعن شماله جلس الفلاحون يسارق بعضهم بعضا نظر المستفهم عن سر هذا التواضع الغريب، وسبب هذا التنازل المفاجئ، ورب الدار يذهب ويجيء في ربكة تبدو دلائلها على حركاته المضطربة، وكلماته المتقطعة، وتحياته المتكررة

صحيح أن صاحب المصطبة رفيع الصوت في القرية، نافذ الرأي في الناس؛ ولكنه منذ أيام قلائل كان في (دائرة) البك فريسة لغضبة هوجاء من غضباته أخذته بالشتم واللطم والسخرية، لأنه جرؤ على أن يسأل (الكاتب) عما له من حساب الإجارة، وأن يعترض على (الناظر) فيما عليه من نفقات الإدارة. ومن العسير على المنطق المحض أن يستخرج هذه النتيجة من تلك المقدمة!

كان البك المالك يرد التحيات الساذجة بالانحناء والإيماء والتحني؛ فكأنما انقلب جانبا معطفه الأسود جناحين رءومين يرفرف بهما على بنيه! وكان أكابر القرية قد تسامعوا بمقدم (مالكهم) على حال من التطامن والتبسط لم يألفوها منه، فأقبلوا على المجلس الذي شرفته سيارته بالوقوف عنده

ومهما يكن البك عيي اللسان كليل الذهن فلابد أن يتكلم ليكشف عن سر قدومه. وقد

استأذنت الشيخ منصور راوي هذا الحديث أن أترجمه بلغة الناس فأذن
قال البك: لم أزركم منذ خمس سنوات لأن أعمال مجلس النواب لم تدع لي وقتا يتسع للاهتمام أسرتي، ولا للتفكير في معدتي، فكنت في أغلب الأحيان لا آنس بأهلي ولا أهنأ بطعامي. . .
فقال الشيخ منصور مقاطعا: ولكننا يا صاحب السعادة لم نقرأ لك كلمة واحدة في محضر من محاضر المجلس.
فقال البك: ذلك لأن في المجلس فريقا يتكلمون وفريقا يعملون؛ وأنا من هذا الفريق
فقال الشيخ منصور بلهجة المستدرك الخبيث: ولكنك لم تفارق العزبة في أكثر الأيام التي ينعقد فيها المجلس!
فقال البك: ذلك لأن الكلام يكون في داخل المجلس؛ وأما العمل فيكون في خارجه
واندلق مالك القرية في الكلام ليأخذ علي الشيخ منصور سبيل الرد فقال: وقد أخذت الحكومة برأيي في كثير من مشكلات التموين وأزمات الحكم، واستفاد النواب من اقتراحاتي واعتراضاتي في (بوفية) المجلس وفي لجانه؛ ولكنني إذا انتخبت هذه المرة فسأوزع مواهبي وجهودي بالعدل بين الحكومة والأمة، وبين القرية و (الدائرة). سأنظر بعين الرحمة إلى ما يكابده إخواننا الفلاحون من الغلاء المرهق، والعناء المعني، والمرض المضني، والجهل المطبق، والعيش الخسيس؛ فأخفض الإيجار، وأردم البرك، وأرمم المسجد، وأعيد المدرسة، وأحمل الحكومة على أن تمدكم بالماء النقي والنور والكهربائي، وأن تخصكم بوحدة طبية أقل ما يكون فيها صيدلية وطبيب.
ولعلي بذلك أكون قد أوفيت لكم بذمتي، للوطن واجب خدمتي، وأديت لله زكاة قدرتي وثروتي
وكانت عين البك لا تنفك تراقب وجه الشيخ منصور، فلما رآه يتحفز للكلام بادره بقوله:
- وأنت يا شيخ منصور! ما هذا الحديث الذي قرأته لك في (الرسالة)؟
- أي حديث تعني يا بك؟
- حديثك عن صحة الفقير وثروة الغني
- لقد قلت شيئاً كهذا ولكنني لم أنشره
- زرني غدا في العزبة فأريك عدد الرسالة وأسر إليك بعض الحديث
قال البك ذلك ونهض فودع الناس ثم ركب سيارته الفخمة وذهب يعيد هذه الأسطوانة نفسها في قرية أخرى!
وأقبل القوم بعضهم على بعض يتساءلون: لماذا يعنى البك نفسه هذا العناء، ويستخذى الناس هذا الاستخذاء، وهو بحمد الله ضخم الثروة فلا يحتاج إلى مكافأة البرلمان، زمن المروءة فلا يصلح بطبعه لخدمة إنسان؟ فقال الشيخ منصور: إن في أربعين جنيها لمضربا، وإن في مزايا النيابة لطماعية. وإن الله الذي فطر بعض النفوس على الأثرة والشح جعل من خصائصها الوضاعة إذا تسامى المطلب، والضراعة إذا تجافى المطمع. وقد رأيتهم هذا الرجل المتكبر المترفع الكز كيف طامن من كبره، ورد من جماحه، وبسط من يده، لتعطوه أصواتكم في الانتخاب، حتى إذا انتخب عاد إلى معاملتكم بالسفه، ومحاسبتكم بالدناءة، واستغلالكم بالشره، ومقاطعتكم بالأنفة. إنه هو وأمثاله لا يرون للفلاح قيمة ولا كرامة إلا الانتخاب. وقد كنا أحرياء ألا نعطي أصواتنا إلا من يعيش عيشنا ويشعر شعورنا ويتألم ألمنا؛ فإن منطق الطبع يقول إن خصمك لا يدافع عنك، وسيدك لا يحب حريتك.
فصاح أحد الحضور: ولم لا ترشح نفسك ونحن نضمن لك أصوات القرية؟
فقال الشيخ منصور: إني - وا أسفاه - لا أحرز من النصاب قيراطا، ولا أملك من التأمين بارة! والنصاب والتأمين عقبتان وضعهما قانون الانتخاب في سبيل الكفايات الفقيرة؛ كأن المال شرط في صدق الجهاد للوطن، وإخلاص النيابة عن الأمة! وإن مثلك في ضمان أصوات القرية واستسهال ما بعدها كمثل السائح الذي لقي في بعض طريقه نعل حصان واحدة فالتقطها ثم ضمها إلى صدره وقال:
آه! وا فرحتاه! بقي ثلاث كهذه وحصان ثم أركب!
(المنصورة)
أحمد حسن الزيات

2 - الحياة صادقة!
للأستاذ عبد المنعم خلاف
وراثة التشاؤم - خطأ في فهم الفكرة الأساسية في الحياة - نتائج خطيرة تتصل بالعقائد الثلاث في الحياة وواهبها والإنسان - الإنسان مبعث أكثر الشر - ضيوف الحياة يسخطون على المضيف! - الحياة جديرة باختيار الخروج إليها من العدم - لا خلط بين عالم الطبيعة وعالم الإنسان - في عالم الكلام كثير مما لا وجود له في الطبيعة - تنقيح سجل الفضائل وسجل الرذائل - الأخلاق (تفاعلات) أرضية وليست منزلة من السماء - إلى الذين يديمون التفكير في الإنسان والطبيعة
قال المتنبي:
صحب الناسُ قبلنا ذا الزمانا ... وعناهم من أمره ما عنانا
وتولوا بغصةٍ كلهم من ... هـ وإن سَرَّ بعضَهم أحياناً
ربما تحسن الصنيعَ ليالي ... هـ ولكن تكدر الإحسانا
وكأنَّا لم يرض فينا بريب ال ... دهر حتى أعانه من أعانا
كلما أنبت الزمان قناةً ... ركب المرء في القناة سنانا!
وهكذا تلقى أكثر الناس ساخطاً على الحياة متبرماً بها، ناقماً على القدر، يستشعر في قلبه غيظاً دفيناً قد يكتبه الإيمان حيناً وقد يبعثه الجحود أحياناً، فيثور حتى يسخط على اليد التي أخرجته إلى الحياة ووضعت في قلبه شعلتها. . . وقد وقر في الصدور أن الحياة محنة وعناء أكثر مما هي فرصة للذات واهتبال الخيرات واكتساب المعارف وخروج من دائرة الجمود والموت والعدم إلى نطاق الإحساس والانفعال والنمو والمعرفة.
وقد ترجم الأدب القديم والأدب الحديث عن تلك الآراء المتشائمة السوداء ترجمة ملأت كثيراً من الصحف، وتوارثها الخلف عن السلف وزاد كل عصر في مجموعها، حتى صارت نظريات مسلمة رضيها أكثر الناس وتدارسوها فيما بينهم وعلموها ناشئيهم قبل أن يختبر هؤلاء الناشئون وجوه الحياة بأنفسهم وتجاربهم، فلونت مناظيرهم بالألوان القاتمة، واستقبلوا الحياة بوجوه عابسة، حتى في أدوار الشباب اللاهي القوي المتفتح الضليع الخليق بحب الكفاح وطلب المجد عن طريق القوة والفتوة، وترصدوا الأقدار على أنها
معادية لهم مريدة الشر دائماً بهم، جاهدة أن تضع في سبيلهم العوائق والعراقيل، كأن رب الأقدار مولع بالتنكيل والعذاب يصبه على من يخرجهم إلى رحاب ملكوته، مغرم بفرض الأوامر والنواهي التي لا معنى لها إلا إظهار السلطان وإرهاق عبده الإنسان! فهم لذلك حريصون على اهتبال اللذات خلسة وجهرة، وعلى الثورة على الأوامر والنواهي تحرراً وانطلاقاً. . .
وقد وقر في الأذهان كذلك أن الدنيا لا احتمال لمكارهها وآلامها وتكليفاتها، ولا طاقة للقلوب البشرية على حمل أماناتها وأعبائها، فاجتزت الأفكار معاني العجز والكسل والتسليم الذليل القاصر الذي لم يحاول شيئاً أمام ما زعموه سلطة القدر، ورددت الأفواه ألفاظ الجزع والهلع والضعف والقنوط والهروب من مواجهة الحياة، وجلس الرجال، نعم الرجال! عنصر الكفاح في الحياة مجالس الأطفال القاصرين العاجزين على التراب يبكون ويئنون ويضمرون الغيظ الأليم من الحرمان، وينظرون إلى السماء نظر الفقد والثكل حتى يوم الإقبار. . .
ومن هذه الفكرة الواحدة الأساسية الأولى ولدت جميع المصائب والمكاره التي ضاعفت سواد الحياة في نظر الناس وجعلتها سلسلة من الآلام، وأخرجتها مخرج المأساة الدامية التي يدور فيها سوط القدر على ظهورهم وسيفه على رقابهم. . .
كانت نتائج هذا الفهم المخطئ والوضع المغلوط لهذه الفكرة الأولى، ذات أثر عميق في مجرى الحياة يتصل بالعقائد الأصلية فيها: وهي العقيدة في الحياة نفسها، والعقيدة في واهبها، والعقيدة في الإنسان. . .
فأما العقيدة في الحياة فقلما تحظى من فكر الفرد أو فكر الأمة أو فكر الإنسانية بما يجب لها من التأمل والفهم قبل البدء بالسير في طريق الحياة. . . أعني عند تفتح المدارك وابتداء عهد الرشد وإدراك النسب الكثيرة بين الأشياء. . .
وإنك إذا سألت أكثر المتعلمين - دع الجاهلين - عن مدى فهمه لحياته وإحساسه بها،

وعن الفكرة الأولى التي بنى عليها معاني نفسه، ووجه إلى قطبها إبرة قلبه، وأدرك أنها هدف الإنسانية جميعها وجدت أكثرهم يتلجلج ولا يكاد يبين؛ لأنه دخل الحياة في ذهول الطفولة، ثم درج إليها في عبث الشباب، ثم أخذته غمرة مشاغل الجماعة في عهد الكهولة، ثم هدمته
عقابيل المرض والانحلال في عهد الشيخوخة، وإذا هو بعد ذلك مدرج في الأكفان، ملقىً إلى ظلمات القبور.
. . .هو في مراحل عمره مشغول بكل شيء إلا ما يجب أن يشغل به أولاً
ولكن قد يصحو أحدهم من ذهول الطفولة أو من عبث الشباب صحوة المحموم
. . .الهادي، فترة قصيرة يرى فيها وجه الحياة، ثم تعاوده أخذة الحمى فينتكس
وقد يدرك أحدهم وجه الحياة وهو في مشاغل الكهولة، ولكن يعز عليه أن يفارق
. . .طريق الجماعة ويبتدئ بناء حياته على ما أدرك فيمضي في طريق القافلة التائهة
وقد يصحو أحدهم الصحوة الدائمة وهو في انحلال الشيخوخة فيعوزه ويؤوده أن يجاهد في سبيل إفهام الناس وإقناعهم بما أدرك فيمضي مغيظاً محسوراً يردد:
أواهُ لو عرف الشبا ... بُ، وآهِ لو قدر المشيب!
ما استقامت قناةُ رأييَ إلا ... بعد أن عوَّج الزمان قناتي
فلا مفر إذاً من ترقب عهد اليقظة وتفتح المدارك عند الطفولة والشباب، لإدخال الفكرة الصحيحة عن الحياة، وغايتها إلى أذهانهم.
والفكرة الصحيحة - في رأيي - عن الحياة هي فكرة التفاؤل الرحب والتأويل الواسع لما عسى أن يكون في الحياة الطبيعية من آلام، وفهم الحياة على أنها فرصة للفرجة والاطلاع على أسرارها، وأنها سفر في مجاهل الكون. ولابد للسفر من بعض المشقة. . . ولكنها ليست مشقة النزاع والخلاف بين الركب المسافر، فإن ذلك جناية الركب وليست جناية الطريق. . .
ومن الهين على العقل أن يهدأ ويستريح لهذه الفكرة متى أدرك أن دخولنا إلى الحياة لم يكن باختيارنا، وأن إنشاء الكون وتهيئة الأرض وإعدادها للسكنى بالحرارة والماء والضوء والغذاء والهواء والإنبات والإنسال ليس لنا أيضاً رأي فيه أو اختيار، فلا مفر لنا إذاً من الخضوع والتسليم والاندفاع مع عجلة الحياة، والاجتهاد في التحري عن قوانين الطبيعة التي وجدنا أنفسنا في نطاقها وإسارها، والتلمس للغايات التي يصح أن تكون أهدافاً لإيجادنا في الحياة
وما أريد أن أستند في تركيز هذه الفكرة إلى دين متوارث أو إلى رأي مأثور، وإنما الاستناد إلى الواقع المحسوس والمنطق الوضعي الذي في الطبيعة.
ولو سألت الإنسانية نفسها: من أدخلني إلى رحاب الحياة وجعلني أحرص عليها مع أني لم أدخلها باختياري؟ والتزمت ما يوحيه الجواب على هذا السؤال إذاً لنبت إيمان كل فرد من قلبه هو قبل أن يقرأ كتاب دين أو يرث عقيدة أمه وأبيه
لأن سر الحياة العميق الملتهب الذي يسكن أجسامنا يحملنا على المحافظة عليه دافع مبهم مجهول عجيب مهما لقينا في سبيل الاحتفاظ به من آلام وعناء. . . ولم يفر من حملة إلا الأقلون من المنتحرين؛ وهم القلة بحيث لا يعتد بهم
هذا الدافع العجيب هو صوت خفي بعيد عن غير (المؤمنين)، وواضح قريب عند المؤمنين. وما يعنينا البحث عن الصوت الواضح عند هؤلاء؛ وإنما يعنينا البحث عن ذلك الخفي البعيد عند أولئك. . .
ونسألهم: لماذا لا يفرون من الحياة وينتحرون ما داموا بها غير مؤمنين؟
لماذا يستمرون في الصراخ والعويل والإزراء على الحياة والأقدار العمياء أو المبصرة، واليد المقدرة أو الصدفة الخابطة. ويصدعون أسماع الناس بالأنين والتشاؤم مع أن الأولى بهم أن يريحوا أنفسهم من عناء الأحوال والأعمال والأقوال فيرجعوا إلى عالم الجمود والموت كما تمنى قائلهم:
ما أطيب العيش لو أن الفتى حَجَرُ ... تنبو الحوادث عنه وهو ملموم!
ونسألهم لماذا يقعد بهم الجبن عن مفارقة الحياة ثم تذهب بهم الشجاعة إلى السباب والسخط على من أدخلهم إليها؟! فأين أدب الضيوف؟!
إن للحياة نبأ عظيما يدركه الفكر المقدر لتلك الأعمال العظيمة التي يدور بها دولاب الفلك في هول واتساع وقوة ورهبة! و (إن في السماء لخبرا) كلمة جاهلية العصر؛

ولكنها لباب العلم في كل زمان
وما يعنيني شخصيتي المحدودة، ما دمت قد حظيت برؤية هذه الدار الهائلة ذات الأعاجيب اللانهائية.
وما تضيرني حوصلتي الضيقة المظلمة الفقيرة ما دمت قد رأيت رحاب الفضاء ومصادر النور وخزائن الغنى والثراء التي ما لها من نفاد
لقد تمتعت على الأقل بأحلام الفاقدين وأنها لمتاع أي متاع! وتطلعت إلى عالم الانطلاق وأنا في القيود. . . وأدركت الباقي الخالد حين أدركت الفاني البائد. . .
وإنها لمعان جديرة أن يخرج إليها الإنسان باختياره من سكون العدم وجموده، ويقتنيها ببعض الآلام والمكاره، ويصطبر على الحياة من أجلها حتى توفى إلى غايتها، ويبالغ دائما في حب من أخرجه إليها. . .
ولكن أفي الحق أن طبيعة الحياة تحمل هذا الجانب البالغ من المكاره التي يزعمها الناس ويتوارثون الحديث عنها ويفيضون فيه شعراً ونثراً وحكماً ووصايا وأمثالاً؟ أم أن تلك المبالغة من جناية الإنسان الظلوم الجهول على الحياة وعلى نفسه وعلى واهب الحياة وبارئ النفس؟
أم إنها من جناية (تجار الكلام!) وحدهم الذين يرسلون زخرف القول غروراً لا يبالون ما فيه من الصدق أو الكذب ما داموا قد عبروا فيه عن حالة من مكارههم وسوداويتهم، وما داموا قد أرضوا غرامهم الفني بحسن الصياغة والإغراب في المعاني والإتيان بغير المألوف وإرسال الخيال في أودية الأوهام والضلال؟
أما اعتقادي فهو أن الآلام الأصيلة في طبيعة الحياة قليلة جدا لا تتعدى ما يتصل بالكوارث الطبيعية والأمراض. وإن كانت الكوارث الطبيعية والأمراض قد تغلبت على الإنسان قديما فهو الآن مستطيع دفاعها والتحصن منها وتقليل آثارها إلى حد كبير، فلا داعي لاجترار أقوال المتشائمين القدماء.
وقلما تصيب الأمم كارثة طبيعية الآن. ولن يبلغ مجموع الكوارث الطبيعية عشر معشار ما كسبت أيدي الناس وما بغى به بعضهم على بعض
فأكثرية آلام الإنسان ناشئة من جناياته هو على نفسه وعلى جنسه، فهو يجني على نفسه بالإفراط في اللذات والشهوات حتى يتهدم جسمه، وبالتفريط في وقايتها من أسباب الأمراض حتى يدب إليه المرض وآلامه ويتسرب منه لذريته
وهو يجني على جنسه بالشره والطمع فيما ليس له، وبالتوزيع الظالم للثروة، وباغتصاب حقوق الضعفاء والعجزة الذين لا يستطيعون حيلة، وبحب الغلبة والتسلط وإهدار الدماء وإهلاك الحرث والنسل في سبيل ذلك، وبتلويث الذرية بالأمراض الخبيثة، وبالنزاع
والخلاف لمجرد الحسد والحقد ومطاوعة الغرائز الدنيا التي يجب أن يحد من شرتها ما دام قد ارتضى حياة المدنية والجماعة المتعاونة المتفاوتة في الكفايات
وإذا نحن تأملنا عالم الشر والألم وجدنا أكثر من تسعة وتسعين في المائة منه ناشئا من جنايات الإنسان، والباقي مرده إلى الأسباب الطبيعية
وصدق قول القرآن: (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا)
وصدقت الخنساء:
إن الجديدين في طول اختلافهما ... لا يفسدان ولكن يفسد الناس
فليس من الإنصاف إذاً في الحكم على الحياة أن نخلط بين الأسباب الصناعية والأسباب الطبيعية للآلام فندخل جنايات الإنسان في نطاق الطبيعة، ونجعل فساده سبباً في إرسال خواطر الشؤم والسخط على الحياة وواهبها. وإنما الإنصاف أن نعمد إلى النفس البشرية فنجعلها في انسجام وتوافق مع قوانين الطبيعة فلا نضيف للطبيعة شراً ليس فيها. . .
ونحن قد حملنا الأقدار العليا أكثر مما تحتمل، فنسبنا إليها ما نقترفه نحن من جرائم، وزعمنا إنها راضية عن حياة الاجتماع الحالية، ووقفنا منها موقف اللائمين. ولو فهمنا الأقدار التي استأثرت بها اليد والأقدار التي خولت الإنسان التصرف فيها، وفهمنا القدرة العجيبة التي للفكر البشري والجهد البشري على تغيير الأوضاع في الأرض، وتأملنا تغير الإنسان وثبات الطبيعة في دوراتها الأبدية الكبرى، وطواعية كل شيء

للإنسان بسلطان العلم والتنظيم، وأخذنا عقائدنا في الحياة وفي النفس مما تسمح الطبيعة لنا بالتصرف فيه، وأدركنا الخطوات السريعة التي خطاها الإنسان في سبيل الانطلاق والسيطرة والتحرر من القيود والقدرة على طرح كثير من القيود على مرافق الطبيعة لتسخيرها، إذاً لكان لنا من ذلك كله رأي جديد في أنفسنا وفي الحياة وفي سلطاننا عليها، ولحملنا ذلك على تلمس النقص والفساد في نفوسنا لإكماله وإصلاحه لا في الطبيعة البريئة من كثير مما تنسبه إليها.

ولكننا مع الأسف الشديد لا نزال نأخذ عقائدنا في الحياة وفي الإنسان من منطق العجزة الأولين الذين كانت الأرض مغلقة الأبواب في وجوههم، وكانت الحياة جديدة عليهم، وكانوا

وسط ألغازها ومشقاتها كأطفال في صحراء، وكانت أكثر علومهم نظرية تجريدية تتخيل، وتفرض وقليلاً ما تجرب وتعمل، وكانت آراؤهم مبنية على ما يأخذونه من الأقوال المأثورة التي هي خواطر ابتدائية لفهم الحياة، وكانت الأرض نفسها مبهمة مجهولة لديهم، والأهوية والأمواه والنباتات والأمراض والنجوم ومواقع البلاد وأجناس العباد والنباتات والحيوان مجهولة العناصر والمناشئ. . .

أما الآن فالناس جميعاً يقرءون أو تقرأ ناشئتهم المثقفة على الأقل كتاباً واحداً هو الطبيعة ذات العلوم (الموضوعية) التي لا تتبدل بتبدل الأمكنة والأزمنة والأجناس فجدير بهم ان يأخذوا عقائد جديدة من الحياة الجديدة. ولاشك إنها ستكون واحدة لوحدة المصدر الذي يأخذونها منه؛ ثم يرتدوا بعد ذلك للعقائد المسطورة في الصحف الموروثة، فما وجدوا فيه مصداقاً لما أخذوه من الطبيعة أبقوه، وما وجدوا فيه خلافاً عليها طرحوه وراءهم ظهرياً، وحاذروا أن يلقنوه الناشئين فيزيفوا عقائدهم.

أجل، في عالم الكلام المسجل كثير من القضايا التي لا وجود لها في الطبيعة. وكل ما في الطبيعة حق يجب الاعتراف به حتى الشر! فهو مخلوق بالحق وللخير: يخدمه ويشير إليه

ولو علم المتكلمون ووارثو الكلام انهم كثيراً ما يقولون ما لي له وجود، وأنهم يخلقون عوالم من الأفكار والآراء لا تمكن الحياة فيها، وأن الأحلام والأماني الكواذب وضباب الأفكار كثيراً ما تسبق إلى ألسنتهم وأقلامهم، إذاً لحرصوا غاية الحرص - إن كانوا أمناء على الحياة - على أن يكون كلامهم وفنهم مرآة للحق الذي في الطبيعة وحده!

إن الطبيعة ثابتة كما نعلم، ولكن النفس فيها طبيعة التغير والتطبع والمرونة تحت تأثير الأفكار، والأفكار أمهات الأعمال

وضلال أكثر النفوس ناشئ من أنها لو توضع في المواضع التي تتسلط عليها فيها عوامل الطبيعة المباشرة ليكون عقلها صورة من التجارب التي فيها، بل وضعت تحت تأثير تلك الأقوال المغلوطة عن الحياة والقدر والعجز الإنساني والأحلام الكواذب فهي تنظر للحياة بما في نفوسها من آثار ذلك وتحكم عليها به

ولو ذهبت أتقصى الضلالات المسطورة في الكتب والموروثة في العقول سواء في الفضائل أم في الرذائل، إذاً لأخرجت عددا من الفضائل ووضعته في الرذائل وعكس ذلك

وكم أود لو أظفرنا باستخلاص الأخلاق الإنسانية الثابتة من الطبيعة وحدها حتى نضع من ذلك قانون الأخلاق للجميع! وإن الأخلاق تفاعلات بين النفس والطبيعة وبين النفوس والنفوس، وليست منزلة من السماء، وإنما الذي ينزل من السماء هو الإرشاد إليها حين يضل الإنسان طريقها.

إن العلم الطبيعي هو أعظم أبواق الحياة في دعوة الناس إلى اللقاء والسير في طريق التعارف والتكافل. والشقاء الحالي الذي تصلي الإنسانية نيرانه ناشئ من إنها لم تستجب لدعوة العلم والخضوع لما يوحيه من وحدة المصلحة والمنفعة والطريق. . .

وفي اليوم الذي تتسع فيه أخلاق الفرد لبني أمته وأخلاق الأمم بعضها لبعض، ويؤمنون بضرورة ضبط النفوس وتوزيع الموارد الاقتصادية - وهي كثيرة كافية في الطبيعة - توزيعاً عادلاً، والتعاون على مكافحة الشر والألم: الشر الذي مبعثه الغضبية والأنانية الفردية والقومية، والألم الذي مبعثه أذى الطبيعة وآفاتها؛ فلا شك يسعدون في جنة موقوتة يجدونها في الأرض قبل الجنة الموعودة في السماء!

قد يبدو هذا الكلام لكثير من الذين لا يدمنون التفكير في الطبيعة والنفس والقضايا العليا للوجود، المغمورين بالمنازعات والشهوات، غير المعنيين بالسؤال عن وضع الإنسان في الحياة، الخاضعين لسلطان الأنانية الفردية والقومية، الجاهلين خطوات سير الإنسان منذ وجوده ساذجاً إلى صيرورته عالماً معقداً، الذين لا يسألون عن ماضي الإنسانية ولا يتساءلون عن مستقبلها، وإنما يدخلون الحياة ويخرجون منها كأنهم أوراق أشجار تجف وتذروها الرياح، أو تحرق في المواقد، أو تطرح في المزابل والعفونات، أو كأنهم ذئاب عاتية خلقت للشر والفتك، أو خرفان بلهاء خلقت للذبح والافتراس، أو ذباب قذر يطير ويحط على الأقذار. . . الذين لم يأخذوا من الطبيعة أسرارها أو يعملوا فيها عملا عظيماً، أو يصافحوا يد الله على بساطها ويأخذوا منها بعض أفانين صنعها. . . الذين يولدون عمياً، ويعيشون عمياً، ويموتون عمياً. . . قد يبدو هذا الكلام لدى هؤلاء بعيداً أو مستحيلاً. . .

ولكن الذين تركوا حماقات الأنفس وضلالات الجهل وتجردوا للحق، واتسعت نفوسهم باتساع الطبيعة، ونظروا لقضايا الوجود نظرة الاهتمام، وعرفوا أن وسائل تحقيق هذه الآمال حاضرة. . . يرون كل أولئك حقا لاشك فيه!

عبد المنعم خلاف

-

للحقيقة والتاريخ

بين آدم وحواء - 2

للدكتور زكي مبارك

أرجع ثانيةً إلى الغرض من هذه الأحاديث فأقول:

كتاب شيث بن عربانوس يؤرخ عهد آدم في الجنة وعهده في الأرض، وكان ذلك لأن المؤلف قريب الزمن نسبياً من هذين العهدين؛ فقد ولد في العام الثاني بعد انحسار الطوفان، وإذا فهو أقدم نسلٍ حفظته الأرض بعد نجاة من نجا من قوم نوح، وأول عقلية علمية في ذلك العهد البعيد، إن صح إنه شخصية حقيقية من شخصيات التاريخ

ولكن ما قيمة هذا الكتاب؟ وما وزن حديثه عن آدم وحواء؟

عرضته على دار الكتب المصرية وعلى مكتبة وزارة المعارف وعلى مكتبة الجامعة المصرية فلم أجد من يعترف بقيمته التاريخية، وإن كان مكتوبا بالخط الكوفي. . . وهل كنت أجهل أن الطعن في صحته من الممكنات؟ إنما كان همي أن أنتفع بثمنه، وأن أمكن الجمهور من الاطلاع على ما فيه من مقاصد وأغراض، ولكن الأمل في الانتفاع بثمنه أمسى خيالاً في خيال، ولو ثبت إنه نسخة قديمة من نسخ الإنجيل، وهل زكتني سفارة غربية أو شرقية حتى أبيع من المخطوطات ما أشاء. . .؟ أنا مصري وآبائي مصريون، فكيف أنتفع من مصر باسم العلم والأدب والتاريخ؟

ألم تسمعوا حديث الأجنبي الذي استمصر في سنة 1937؟

كان أحد الأجانب يدرس إحدى اللغات الحية بالمدارس الأميرية وبالمرتب الذي يتقاضاه الأجانب من المدرسين، ثم لاحت له فرصة للتجنس بالجنسية المصرية، فأسرعت وزارة المعارف وردته إلى (الكادر) الذي تعامل به المدرسين من المصريين، كأنه انتقل من الهدى إلى الضلال؛ وكان الظن أن تراه انتقل من الخوف إلى الأمان!

وإذا كانت المتاعب تلاحق من يستمصر من الأجانب، فكيف تصنع بالمصري الأصيل؟

إلى الله يشكو المصريون شقاءهم وعناءهم من التغاضي عن حقهم في الانتفاع بثمرات البلاد!

إلى الله نشكو الغربة في الوطن الغالي، ومنه نستمد العون على مكاره الزمان!

ما لي ولهذه الخواطر المزعجات؟ وهل قلت المتاعب الجديدة حتى نؤزرها بمتاعب قديمة تأخذ وقودها من الذكريات؟

أرجع إلى الغرض مرة ثالثة فأقول:

قبل الشروع في تلخيص كتاب شيث بن عربانوس أسجل أني غير مطمئن إلى إنه ألف في العصر الذي تلا الطوفان - وما أقول بأن ذلك مستحيل - فقد يكون من الممكن أن ننظر إلى الطوفان من وجهة معنوية، فنعده مرحلة من مراحل الغفوات الروحية في الحياة الإنسانية، ونعد العصر الذي تلاه عصر يقظة ونهضة وإحياء، وعندئذ يصبح من السهل أن نفترض أن ذلك العصر يصلح لما صدر عن شيث بن عربانوس من أفكار

وآراء
ولكن هنالك عقبة تمنع من ذلك الافتراض، وهي إجماع الكتب الدينية على أن الطوفان
وقع بالفعل، وأنه لم يبق من السلالة الإنسانية إلا ما حفظته سفينة نوح. . . ومن
الواضح أن تلك البقايا كانت في شغل بتدبير حياتها المعاشية؛ فمن العسير أن نتصور
أنها عرفت التأليف والمؤلفين إلا أن توغلنا في شعاب الفروض!؟
يضاف إلى ذلك أن المصادر التي تحت أيدينا لم تتحدث عن شيث بن عربانوس؛ ولم
نسمع أن اسمه ورد في كتب المستشرقين - وهم حجة فيما يتصل بمجاهل التاريخ في
الشرق - وقد يعرفون منه ما يجهل الشرقيون!
فأين وجد زكي باشا ذلك الكتاب؟
كان في النية أن أوجه إليه هذا السؤال، ولكن المنية عاجلته فقضت بأن تطول الحيرة
في مصدر ذلك السفر الغريب
وفي الحق أني غير مصدق لكتابٍ لغته العربية مع إنه ألف بعيد الطوفان
وهنا أذكر حادثةً في نهاية من الغرابة، ولكنها وقعت على مسمع من جمهور كبير في
أروقة السوربون يوم أديت امتحان الدكتوراه في الخامس والعشرين من أبريل سنة
1931؛ فقد حاجني المسيو ماسينيون حجاجاً عنيفاً حين رآني أنكر أن تنشأ اللغات
بالتوقيف. . . وإن عادت الدنيا إلى ما كانت عليه ورايت المسيو ماسينيون بعافية
فسأراجعه في هذا الحجاج؛ فما يستطيع ذهني أن يبغ فكرة التوقيف؛ وإنما أعتقد أن
اللغات ظاهرة إنسانية يصنع بها التطور ما يصنع على اختلاف الأجيال
المهم أن أسجل أني مرتاب في كتاب شيث بن عربانوس، ولن أقبل نسبته إلى ذلك
العهد البعيد، العهد الذي تلا الطوفان. وأين نحن من الطوفان وهو صورة حائرة لم يبق
من ملامحها غير أطياف؟
فمتى ألف هذا الكتاب، إن صح ذلك الارتياب؟
إن لغته مزيج من القرشية والحميرية، فهل ألف قبل أن تصير لغة قريش لغة
التخاطب والتأليف في أشتات الجزيرة العربية وفيما خضع لسلطانها الأدبي من
الممالك الإسلامية؟
ألا يكون مؤلفه صنع ذلك عمداً على سبيل التضليل؟
الله وحده هو الذي يعلم ما مر بهذه الوثيقة التاريخية من تمحل واحتيال
المشكلة الأساسية
أترك الكلام عن صحة كتاب شيث، وأنتقل إلى تشريح ما فيه من معاني وأغراض
فأقول:
يقع الفصل الأول في صفحات تصل إلى الخمسين، وفي هذا الفصل نقض للنظرية
التي تقرر أن آدم استكان لحواء، فتركها تعصي الله كيف تشاء، فالمؤلف يقر أن آدم
كان تعب من الإقامة في الجنة، وكان يتمنى لو استطاع أن يخرج منها بأي حال وعلى
أي أسلوب ليتنسم روح الوجود، لا روح الخلود، فقد كان يعرف بفطرته أن الخلود إنما
يأخذ صورته من الوجود
وثورة آدم على الجنة لها أصل: فقد كان يرى إنه لا يليق بالإنسان أن يأكل طعامه بلا
جهاد. وكان يرى من الضمة والمهانة أن يترك المرء بلا متاعب ولا تجارب، وهو لم
يخلق إلا للكفاح والنضال
وزاد في هم آدم أن حواء كانت في الجنة بلا ضرة، فلم تقهرها الغيرة على التسابق
إلى مواقع هواه! بدليل إنها كانت تنساه أو تتناساه عاماً أو عامين، بلا تلهف ولا
تشوف، لأنها تعلم إنه لن يكون لسواها من النساء، ولو أضمر من ضروب الخيانة ما
يريد خياله الحبيس، وإلا فكيف جاز أن تقضي في الجنة أعواماً بلا تبرح ولا اختيال؟
وفي هذا المقام نقل شيث أبياتاً عزاها إلى آدم عليه السلام، وهي من النظم الركيك،
فلا موجب لإثباتها في هذا التلخيص، ويكفي أن نشير إلى معناه لجودته وصدق مغزاه،
وهو يقول بعبارة صريحة إن حواء لم تكن تفرق بين البلادة والعقل، ولم تكن تعرف أن
التودد
إلى الرجل والترامي عليه في رقة ودلال لا ينافي الأدب والحياء
كذلك قال آدم في رواية شيث. وعلى فرض أن الرواية صحيحة فآدم مخطئ - وأنا
أريد آدم الرجل لا آدم الرسول - وإنما أخطأ لأنه تصور أن التلطف يجب أن يصدر أولاً

عن المرأة والتلطف، هنا معناه الفتك وهو من جانب المرأة دلال، ومن جانب الرجل صيال
إذا كانت حواء أجرمت في ترك آدم عاماً أو عامين فآدم أجرم أيضاً بسكوته عن شكل تلك الظبية النفور بشكل من الحب العارم والوجد العصوف
وهنا تظهر مفاجأة من أغرب المفاجئآت، فشيث ينقل عن تأملات آدم خطوات تبدد ما وجهنا إليه من اعتراض
وسأنقل تلك الخطوات بعبارة سهلة تقربها من أذهان القراء بعض التقريب (لأنها في لغة شيث لا تخلو من غموض والتواء) ثم أنقدها برفق رعاية لمكان ذلك الجد الجليل
كان جلوس آدم على شط الكوثر من وقت إلى وقت يوحي إليه أفكاراً في غاية من الطرافة النسبية، لأنه أول إنسان شهد الوجود، على أرجح الفروض
كان يعرف أن الجنة في غاية من العرض والطول، بحيث تتسع لسكان الأرض والسموات فكيف جاز أن لا يكون فيها غير نهر واحد؟
كذلك قال آدم في رواية شيث، وهو قول خاطئ، فوحدة النهر في الجنة لها مغزًى جميل، لأنها ترد أهل الجنة إلى مزاجٍ متقارب في فهم الأشياء. وهل يختلف سكان الأرض إلا باختلاف الطعوم فيما يأكلون وما يشربون؟ لو اتحد مذاق الطعام والشراب بين جميع سكان الأرض لقل بينهم الخلاف. ألم تروا كيف تختلف الطبائع بين الحيوانات اللحمية والحيوانات النباتية؟
إن القط في صورة الأسد، ولكنه ليس في صولة الأسد، لأن معدته لا تأخذ من اللحم إلا عشر معشار ما تأخذه معدة الأسد؛ وهو يروع الكلب الضخم بأقل إشارة، لأن الكلب لغفلته قد يكتفي بالأطعمة المكونة من عناصر نباتية!
وما أقول بأن اللحم أفضل من النبات في جميع الأحوال، وإنما أقرر أن اختلاف الأغذية هو السبب في اختلاف الطبائع. وكذلك أقول في اختلاف الفصول، وهل كان اطراد الجو في الجنة على نسق واحد إلا بشيراً بما سيكون بين أهل الجنة من وفاق وصفاء؟
وكانت غيبة حواء عن آدم توحي إليه التفكير في منافع الأعضاء
كان يتأمل فيرى أن الله خلق للإنسان عينين وأذنين ولساناً واحداً فما سر ذلك؟
يجيب آدم - فيما روى عنه شيث - بأن الله أراد أن يكثر زاد الإنسان من المرئيات والمسموعات، ولا بأس بأن يقل نصيبه من المنطوقات، لأن الرؤية والسماع من ضروب الانتهاب، أما النطق فمن صنوف الإعطاء، والانتهاب هو الشاهد الأول والأخير على قوة الحيوية، أما الإعطاء فهو تسليم وانسحاب
وقد ابتسمت حين قرأت هذا الكلام، فعنه أخذ الشاعر الذي سجل أن المرء يقبض يده عند الولادة ويبسطها عند الموت، وإن جهل التعليل على وجهه الصحيح
وتحرير هذا المعنى أن المرء عند الولادة مقبل على الحياة، فهو يقبض يده ليشير إلى أن وظيفته هي الأخذ والنهب، وهو يبسط يده عند الموت ليشير إلى أن التبذير من صور الفناء
ثم يمضي آدم في تأملاته فيقول: كيف يقنع من رزق عينين باصرتين بوجهٍ واحد: هو وجه حواء؟ وكيف يقنع من رزق أذنين واعيتين بصوتٍ واحد: هو صوت حواء؟
ومن هذا التأمل العارم كان ضجر آدم من وحدته في الفردوس
ويظهر أن آدم كان وهب فكرة الاعتراض والجواب، فقد خطر له أن حواء لها أيضاً عينان وأذنان، وأن من حقها أن تفكر في مثل ما فكر فيه، إن أقيم للعدل ميزان
ثم يجيب آدم بأن تساوى الجوارح بين الرجل والمرأة ليس دليلاً على التساوي في المواهب ولا دليلاً على التساوي في الإحساس. ويبلغ غاية الشوط فيقرر أن المرأة كانت بعينين وأذنين لأنها أخذت من ضلع الرجل فهي من صوره الوجودية، أو هي الشكل الذي يرضيه أن تكون عليه ليتم بينهما الانسجام في حدود الإمكان
وأقول إن هذا الكلام هداني إلى كثير من المعاني:
فالحول يكثر في النساء ويقل في الرجال، ومعنى ذلك أن للذكر مثل حظ الأنثيين، حتى في القوة البصرية
وإذا وجد العور في إحدى السلالات فالطفلة ترثه قبل الطفل
وإذا كان أحد الأبوين غبياً دميماً وثانيهما ذكياً جميلاً فالغالب أن يرث المولود الذكر ما عند

أبويه من الذكاء والجمال ويؤيد هذا أن الديك أجمل من الدجاجة، وأن الجواد أجمل من الفرس، وهذا الحكم مطرد في أكثر المخلوقات، وهو يظهر واضحاً في أشجار التوت، بغض النظر عن ظهوره في سائر الأشياء

وإذا صدقنا رؤية شيث عما كان بين آدم وحواء فلن يفوتنا أن نسجل أن آدم هو الذي نطق قبل أن تنطق حواء، وهل كان لتلك المرأة تاريخ في الجنة غير انصياعها لدسيسة الحية، وعن الأنثى تنقل الأنثى أصول الفساد؟

الظاهر أن للذكورة خصائص لا تصل إليها الأنوثة بأي حال. والظاهر أيضاً أن الرجال لن يزالوا بخير ما فطنوا لمكر النساء. وهل انخدع آدم بحيلة حواء أو حيلة الحية إلا في لحظة من لحظات الضعف؟!

وأستطرد قليلا فأقول:

وقع في هذه الأيام حادث فظيع، هو اصطدام أحد كبار الموظفين بسيارة يقودها أجنبي سكران، وعلق الموظف بمقدم السيارة، ومضى السائق ينهب الأرض لينجو من العقاب. وتنبهت لخطر الفادحة سيدة مثقفة، فمضت بسيارتها في ملاحقة ذلك الجاني الأثيم، ولكنها فوجئت بإشارة المرور فوقفت!!

وهنا الشاهد الذي أريد: فلو كان في سيارتها رجل لداس إشارة المرور في سبيل الواجب؛ ولم يترك ذلك الجاني الهارب بلا اقتناص أو افتراس

هي امرأة وإن نالت إجازة الحقوق، وطاعة إشارة المرور هي في نفسها الصورة الحرفية لطاعة الواجب، أما تشريح هذه الدقائق فهو من خصائص الرجال، والرجل هو الذي يدوس جميع الأنظمة في سبيل الإعزاز لما يؤمن بأنه حق

وجملة القول أن سخرية آدم من مواهب حواء لم تكن طغياناً في طغيان، وإنما اعتمدت على قواعد وأصول. ولم تقع من آدم إلا لأنه كان يستوحي الفطرة والطبع، ولو أن الجنة لعهده كان فيها مدارس وكليات لكان من المرجح أن يكون حديثه عن حواء مغلفا بالرياء!

ثم تجيء عقدة أغرب وأعجب، وهي تفكير آدم في مسألة النسل، وهي مسألة لم يفكر فيها آدم إلا بعد تأمله لما في الجنة من فصائل الطير والحيوان، ولم يكن فطن إلى إنها مسألة تلحق عالم النبات، وقد تمس عالم الجماد

ومن كلام شيث نفهم أن تفكير آدم في مسألة النسل لم يصر من المعضلات النفسية، وإنما كان يعتاده من حين إلى حين، ثم ينصرف عنه بالاشتغال بمداعبة حواء، كأن يرميها بنواة من نوى الجوز، أو يقذف بها في (الكوثر) على حين غفلة، أو يدوس شعرها الذيال

والحق أن عقم آدم وحواء في الجنة يحتاج إلى تأويل

أليس من العجب أن يكون ما في الجنة خصباً في خصب ونماء في نماء، إلا فيما يتصل بآدم وحواء؟

كان الشجر والزهر والنبات والطير والحيوان، كان كل أولئك في حيوية مخصبة لا يعتريها ضعف ولا خمود؟ وكان ثرى الجنة ينبت الأفانين من الألوان في كل يوم: وكان هواؤها يتجدد في كل لحظة بأسلوب يدل على أن الهواء مخلوق له روح، وكانت أسماك الكوثر تجتمع وتفترق بأريحية ودلال. . . كان كل ما في الجنة على جانب من الذاتية، ولو كان من صغار الدواب والحشرات، أو ضعاف الذباب والبعوض، ولجميع الخلائق في الجنة مكان.

ازدهرت الجنة في أغلب مناحيها وأثمرت، وخص بالعقم آدم وحواء، فما هي الأسباب؟

لم يفكر شيث في عربانوس في تعليل هذه الظاهرة الغريبة. ونحاول تعليلها فنقول:

كان سبب ذلك العقم فيما نفترض أن حياة آدم وحواء في الجنة كانت حياة دعة وهدوء واطمئنان وأمان، وهذا اللون من الحياة يخمد الحيوية الجنسية والمعنوية، ويحول الرجل والمرأة إلى حيوانين جامدين لا يفكران في التسلح لدفع عوادي الوجود

والذي يقرأ ما أثر من الآداب الفطرية يلاحظ أن النسل لم يكن يبتغى للزينة، وإنما يبتغى للدفاع والحفاظ؛ ومن هنا كانت قلة النسل من خصائص الأمم التي يقل خوفها من العدوان أو تقل رغبتها في السيطرة والاستعلاء؛ ومن هنا أيضاً كان الناس يفضلون البنين على البنات، لأنهم لا يبتغون من الذرية غير القدرة على مكافحة الباغين والعادين من الخصوم والنظراء.

ولم يكن لآدم في الجنة نصيب من الخوف، فقد كان ينام حيث يريد بكل اطمئنان، وكان يتفق له أن يجعل صدر الأسد الرابض وسادة الرفيق، وقد طاب له مرة أن يطوق (حواء) بعقد مؤلف من أفراخ الثعابين.

ومع هذا لم يكن (آدم) يدرك ما في هذه المظاهر من غرابة وشذوذ، فما كان سمع ولا عرف أن في الوجود أشياء فيها إيذاء.

وأقول: إن ذلك الأمان الموصول هو الذي أخمد عواطف (آدم) وأغناه عن التسلح بالنسل، وحبب إليه طعم القرار والهدوء والخمود. وكذلك صنع الأمان (بحواء)، فغفت عواطفها الجنسية، واستنامت إلى العقم، وهو مرض لم تلتفت إليه إلا حين رأت إحدى الظبيات تباغم رشأها الوليد في بعض غياض الفردوس.

ويؤيد هذه النظرية أن (آدم) لم ينجب إلا حين هبط الأرض، فقد شعر بالخوف، وأدرك أن لابد له من أنصار وأعوان من الأبناء.

ومعنى ذلك أن الذرية ضرب من الفاعلية الحيوانية، وهي تصدر عن الرجل كما يصدر السم عن ناب الثعبان.

وفي هذا المقام نشرح ظاهرةً لم تشرح من قبل، وهي ما يلاحظ من قلة النسل عند العبقريين، فما التعليل الصحيح؟

يرجع السر إلى أن السلاح الماضي في يد الرجل العبقري هو مواهبه الذاتية، فهو يحارب بالفكر قبل أن يحارب بالنسل، وهواه لا يقف عند إخضاع الخصوم من الأهل والجيران، وإنما يمتد إلى إخضاع الألوف والملايين من سكان الشرق والغرب والشمال والجنوب.

والنسل الحسي عند الجاهل سلاح موقوت يخلقه الخوف؛ أما النسل المعنوي عند العالم، فهو سلاح موصول تخلقه الرغبة في السيطرة الدائمة على الأفكار والعقول.

ولهذا السبب كانت ذخائر الأمم من الذرية لا تصل عن طريق العبقريين، لأن هؤلاء لا يشعرون بالانفعال الحيواني شعوراً يكفي لأن تصدر عنهم الأنسال الكثيرة، وإنما يتجه انفعالهم إلى جانبٍ آخر هو الرغبة العاتية في غزو العالم عن طريق الفكر والبيان.

وهل فطن أحد إلى المعنى المطوي في قول كثير:

يُغاثُ الطير أكثرها فراخاً ... وأمّ الصقر مِقلاتٌ نَزُورُ

فما معنى ذلك؟ معناه أن أم الصقر لا تحتاج إلى حماية، فهي لا تكثر من الذرية. ومعناه أن ضعف البغاث يوحي إليها بالإكثار من الأفراخ لتقاوم خصومها بالقوة العددية في حدود ما تطيق.

والمشاهد أن المرأة الدميمة هي في الأغلب ولود، كما أن المرأة الجميلة هي في الأغلب عقيم، وكان ذلك لأن الدمامة تحتاج إلى حماية من الذرية؛ أما الجمال فهو في ذاته قوة وسلطان

وللملائكة في أذهان الناس صور مجردة من النسل، لأن الملائكة مؤيدون بقوة ربانية تغنيهم عن الاعتزاز بالأبناء

والله عز شأنه (لم يلد ولم يولد) لأنه منزه عن الضعف تنزيهاً خالياً من الشوائب، وهذا لا يمنع من أبوته الروحية لجميع ما في الوجود، إن صح التعبير بالأبوة في الدلالة على رفق الخالق بالمخلوق

وصفوة القول أن عقم آدم في الجنة له أصل، فقد كان أكرم من في الجنة، وكان المنطق يوجب أن يعيش بلا أسندة من الذرية بفضل غناه عن الكفاح والنضال

ولكن. . . ولكن الأقدار أرادت غير ما يريد، فنقلته من الجنة إلى الأرض، ليشعر بالخوف، وليحتاج إلى معاصم من الأبناء، وليذوق طعوماً من الأفراح والأحزان لم تكن تخطر له في بال

والواقع أن الله كان أراد بآدم أشياء، حين خلق له حواء، فقد شغلته عن التكبير والتسبيح والتهليل، وزينت له الثورة على ما في الجنة من أنظمة وقوانين

وشيث يحدثنا أن آدم كان صدره ضاق بالجنة بسبب ما لها من أسوار وجدران تجعل من المستحيل أن يسلم من تعقب حواء، وتفرض عليه التفكير في طلب النجاة ولو بالارتماء في أحضان الأرض، مع أن بين الجنة والأرض فراغاً لا يعبره الهابط إلا في أعوام أطول من أعمار الأشجان. وسنرى فيما بعد إنه لم يفق عند هبوط الأرض إلا بعد أزمان وأزمان

هل كان آدم سعيداً في الجنة؟
الظاهر إنه كان من السعداء، ولكن شيث بن عربانوس يحدثنا إنه طفح الدم في الجنة بسبب صحبة حواء. فكيف وقع ذلك البلاء؟!
وقع من عدم التكافؤ الروحي بين الرجل والمرأة، فهما مخلوقان مختلفان إلى أبعد حدود الاختلاف. وزاد في النفرة أن آدم كان يميل إلى طاعة الله. وأن حواء كانت تشتهي الخروج على طاعة الله. وتعليل ذلك سهل: فأسرع الناس إلى المخالفة عن أمر الحق هم
الضعفاء
صبر آدم ما صبر إلى أن وقع (حديث السدرة)، وهو حديث سجله شيث بن عربانوس بأمانة ونزاهة وإخلاص. فما ذلك الحديث؟!
زكي مبارك
في الفلسفة الإسلامية
إخوان الصفاء - 2
للأستاذ عمر الدسوقي
هل هم شيعة باطنية؟
لقد أقر إخوان الصفاء على أنفسهم بالتشييع في غير ما موضع من الرسائل. فمن ذلك قولهم عن السبب الذي حداهم لكتابة هذه الرسائل: (لكيما إذا نظر فيها إخواننا وسمع قراءتها أهل شيعتنا وفهموا بعض معانيها، وعرفوا حقيقة ما هم مقرون به من تفضيل أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنهم خزان علم الله ووارثوا علم النبوات، وتبين لهم تصديق ما يعتقدون فيهم من العلم والمعرفة والفهم والتمييز والبصيرة في الآفاق)
ومنها: (واعلم يا أخي بأن لكل نفس من المؤمنين أبوين في عالم الروح كما أن لأجسادهم أبوين في عالم الأجساد، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي رضى الله عنه: أنا وأنت يا علي أبوا هذه الأمة. وهذه الأبوة روحانية لا جسمانية)
هذا وقد عقدوا فصلاً خاصاً بينوا فيه الطوائف التي تنتمي إلى الشيعة، وقد انتقدوا بعضها واسترضوا بعضها، وأخذوا يتبرءون ممن يدعى التشيع وهو يرتكب المنكرات ويقترف الموبقات، ويحملون على من يقول بأن المهدي المنتظر مستتر من خوف المخالفين، كما أنهم حملوا على من يبكي الأموات من أهل البيت حملة شعواء، وهاك ما يقولون: (إن قوماً من أشرار الناس جعلوا التشيع ستراً لهم عما يحذرون من الآمرين عليهم بالمعروف. . . وإذا نهوا عن منكر فعلوه بارزوا بإظهار التشيع واستعاذوا بالعلوية على من ينكر عليهم أو ينهاهم. لبئس ما كانوا يعملون. ومن الناس طائفة ينسبون إلينا بأجسادهم وهم براء بنفوسهم منا ويسمون أنفسهم بالعلوية وما هم من العلويين، ولكنهم من أسفل السافلين، لا يعرفون من أمرنا إلا نسبة الأجساد. . . فهم أبعد الناس عن أهل ملتنا، وأعدى الناس لشيعتنا، وأغفل الناس عن حقيقة أمرنا وأسرار حكمتنا. . . ومن الناس طائفة قد جعلت التشيع مكسباً لهم مثل النائحة والقصاص لا يعرفون من التشيع إلا التبري والشتم والطعن واللعن والبكاء وترك طلب العلم وتعلم القرآن. وجعلوا شعارهم لزوم المشاهد وزيارة القبور كالنساء الثواكل، يبكون على فقد أجسامنا وهم بالبكاء على أنفسهم أولى. ومن الشيعة من يقول: إن الأئمة يسمعون النداء ويجيبون الدعاء، ولا يدرون حقيقة ما يقرون به وصحة ما يعتقدون. ومنهم من يقول: إن الإمام المنتظر مختف من خوف المخالفين. كلا! بل هو ظاهر بين ظهرانيهم يعرفهم وهم له منكرون كما قيل:
يعرفه الباحث من جنسه ... وسائر الناس له منكر
نرى مما تقدم أنهم لا ينكرون التشيع ولكنهم يريدونه على شكل خاص، وأنهم يبرءون من هؤلاء الذين لوثوا اسمهم وارتكبوا المنكرات والموبقات وادعوا أنهم علويون. فهم بذلك فرقة من الشيعة ترمي إلى تعاليم خاصة. وغايتها إصلاح الطائفة وتهذيبها بالتعليم. ونرى كذلك أنهم يقولون بالمهدي المنتظر وأنه كان موجودا إبان تأليف هذه الرسائل، ولعله أحد من ألفها كما يذهب إلى ذلك بعض المستشرقين. وأنهم كانوا يقولون بأن عليا وصي النبي عليه السلام. وليس في ذلك أصرح من قولهم في باب مخاطبة المتشيعين: (ومما يجمعنا وإياك أيها الأخ البار الرحيم محبة نبينا عليه السلام

وأهل بيته الطاهرين، وولاية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب خير الوصيين صلوات الله عليهم أجمعين)

أما نسبتهم إلى الإسماعيلية الباطنية فلم تثبت بصفة جازمة، بيد أن من يدرس آراء هذه الطائفة وآراء إخوان الصفا يجد تشابها عجيبا، وإن كان الأولون أكثر صراحة من الآخرين. على أن الأستاذ كازانوفا يقول: (لقد وجدت مخطوطة في المكتبة الأهلية بباريس مفقودة الصفحات الأولى والعنوان، وتقرأ على الصفحة السادسة منها ما يلي: فصل من رسائل إخوان الصفا، وفي ابتدائها: القول على السر المخزون والعلم المصون من باطن الرسالة الجامعة من رسائل إخوان الصفا. ووردت فيها الجملة المشهورة: اعلم يا أخي أيدنا الله وإياك بروح منه التي يتكرر ذكرها في كل صفحة من الرسائل). وقد وجد كازانوفا أن هذه الرسالة الجامعة مصطبغة بالصبغة الإسماعيلية، متلبسة بشمول الألوهية، ونظرية الفيثاغوريين في الأعداد. ويقول في ذلك: (ما أراني إلا مصيبا في القول بأن فلسفة الإسماعيلية جميعها مبثوثة في رسائل إخوان الصفا؛ فالقول بالإمام المنتظر الذي سوف يظهر ليعيد السلام إلى العالم يمثل امتزاج نظريات الأفلاطونية الحديثة بالاعتقاد بعودة المسيح)

وقد جاء في أحد أعداد جريدة آسيا فصل هذا عنوانه: (بحث جديد على الإسماعيلية أو الباطنية بالشام المعروفين بالحشاشين). وقد قال كاتبه ما يأتي: (إن سنان بن سليمان الملقب برشيد الدين هو من أجل وأفخم رؤساء الإسماعيلية، وقد خدم في ألموت المقدمين الذين كانوا قبله، وزاول علوم الفلسفة وأطال نظره في كتب الجدل والخلاف، وأكب على مطالعة رسائل إخوان الصفا)

ويقول المحبي في خلاصة الأثر: (وحاصل تلك الرسائل ليس إلا مذهب الباطنية الإسماعيلية، وهم أنحاء شتى، ومعظم القول في هذه الشيعة، من شيعتهم تناسخ الأرواح، وادعاء حلول الباري تعالى في الأنبياء المشهورين من آدم إلى محمد عليهم السلام وفي أئمة آل البيت - وأخرهم المهدي - ويعظمونه على الجميع. والإسماعيلية يوافقون الإمامية في ذلك)

وقد ثبت تاريخياً أن المغول عند فتحهم لقلعة (ألموت) مركز رؤساء الإسماعيلية عثروا على كثير من نسخ رسائل إخوان الصفا. وقد جاء في رسالة الإنسان والحيوان المطبوعة في مصر خطأ تحت عنوان الجامعة: (نحن لسنا السواد وطلبنا بثأر الحسين بن علي عليهما السلام وطردنا البغاة بن مروان. . . ونحن نرجو أن يظهر من بلادنا الإمام المنتظر)

وقد تضافر الكتاب قديماً وحديثاً على نسبة هذه الجماعة إلى الإسماعيلية الباطنية، ومنهم ابن تيمية وابن حجر والألوس وغيرهم، وقد دعاهم إلى ذلك أن نشاط الإخوان في بث تعاليمهم يشبه نشاط الإسماعيلية وجدهم في نشر مذهبهم وتشكلهم بما يلائم مصلحتهم، ولبسهم لكل حال لبوسها، ومخاطبتهم الناس على حب أهوائهم وأمزجتهم، واستعمالهم السحر والطلاسم والرقى والتعاويذ في إقناع الناس بمقدرتهم ومبلغ علمهم. ثم في تكتمهم وشدة حرصهم على ألا يطلع على مذهبهم إلا من دخل في شيعتهم وقولهم بالتقية والإمام المنتظر ووصاية علي رضى الله عنه. . . الخ

تسامحهم الديني

ومما يقوي صلتهم بالإسماعيلية رحابة صدرهم لجميع المذاهب والديانات والعلوم، فقد ثبت أن الإسماعيلية في أوائل دخولهم بلاد الهند كانوا يوافقون البوذيين على عقائدهم حتى يستميلوهم إليهم، ثم يكملون النقص في هذه العقائد بنظرية الإسماعيلية الأساسية، وهي قداسة علي رضى الله عنه وعودته، ثم يجعلون برهما محمداً، ووصنو عليا، وآدم سيفا

أما إخوان الصفا، فكانوا أمام جميع المذاهب والديانات غير متعصبين: (وبالجملة ينبغي لإخواننا - أيدهم الله تعالى - ألا يعادوا علماً من العلوم، أو يهجروا كتاباً من الكتب، وألا يتعصبوا على مذهب من المذاهب؛ لأن رأينا ومذهبنا يستغرق المذاهب كلها ويجمع العلوم كلها)

ويقولون: (واعلم بأن غرض الأنبياء - عليهم السلام - وواضعي النواميس الإلهية أجمع غرض واحد وقصد واحد وإن اختلفت شرائعهم وأزمان عباداتهم وأماكن بيوتهم

وصلواتهم، كما أن غرض الأطباء كلهم غرض واحد في حفظ الصحة الموجودة واسترجاع الصحة المفقودة وإن اختلفت علاجاتهم باختلاف الأمراض العارضة للأبدان).
فالتوراة والإنجيل والقرآن وغيرها من الكتب الدينية، السماوية وغير السماوية، عندهم سواء. وكأني بهم يحاولون أن يستوعبوا الديانات كلها في دين واحد ومذهب واحد.
وليس هناك أوضح من قولهم: (فالله أرسل روحه إلى كل الناس، لا فرق بين النصراني والمسلم وبين الأسود والأبيض)
وقد ثبت أن جمعية بغداد التي هي فرع من جمعية إخوان الصفا، والتي كان يختلف إليها أبو العلاء المعري كما مر بنا، كانت تجمع السني والشيعي واليهودي والنصراني والصابئي والدهري
وقد حدثنا أبو حيان التوحيدي في المقايسات قائلاً: (إن من أعضائها يحيى بن عدي وأبو إسحق الصابي وأبو إسحق النصيبي وماني المجوسي. . . الخ) وهذا دليل واضح على رحابة صدرهم وعظم دعايتهم وتعدد طرق تبشيرهم
(يتبع)
عمر السوقي
مدير كلية المقاصد الإسلامية ببيروت
إذا. . .
قصيدة من الشعر الإنجليزي
إذا احتفظت بصوابك بينا يفقد كل من حولك صوابهم فيتهمونك بما لم تجرم يداك؛
إذا وثقت بنفسك بينا يتردد الرجال في أمرك وحسبت مع ذلك لترددهم حسابه؛
إذا صبرت وانتظرت ولم يضجرك الصبر والانتظار، أو تقولوا عليك ولم تغرك أقاويلهم بأقاويل مثلها تبتدعها؛
إذا كرهوك وملكت نفسك فأمسكت عن كراهتهم، ومع هذا لم تدغل في الظهور بالطيبة أو الثرثرة بالحكمة؛
إذا استطعت أن تحلم ولم تجعل أحلامك سلطانك، وأن تفكر ولم تجعل التفكير كل غايتك، بل قمت تسعى لتحقيق ما انتهيت إليه من رأيك؛
إذا جاءك النصر أو نزلت بك المصيبة، فسويت لهذين الضيفين الختالين المخادعين من نفسك، وعدلت بينهما في النصب من لقائك ومعالجتك؛
إذا استطعت أن تسمع الحق الذي قلت يحرف كلمة أدنياء، ويلوي معانيه سفلة خبثاء، يحفرون به الحفر للوقيعة بله أغبياء، أو أطلقت أن تقف تنظر إلى أشيائك التي أنفقت ساعات حياتك في صنعها تكسر وتحطم، ثم قمت تبنيها بأداة مبروة بالية؛
إذا استطعت أن تكون كل مكاسبك كومة واحدة وتقاس بها فتفقدها كلها مرة واحدة، ثم عدت تبدأ من حيث بدأت أولاً، ولم تخرج أنفاسك بكلمة تنبس بها عن خسائرك؛
إذا قدرت وقد أدبر عنك كل شيء أن تهيب بقلبك وأعصابك وأوتار عضلاتك لترجع لك المدبر وقد فات وتولى بعيدا فتثابر جميعا حين لا شيء فيك يهتف لها بالمثابرة إلا إرادتك؛
إذا استطعت أن تخاطب عامة الناس ودهماءهم وتحفظ على نفسك فضيلتها، أو تسير مع الملوك جنباً إلى جنب ولا تضيع مع ذلك مسحةً تميز عامة الناس ودهمائهم؛
إذا عجز الأعداء الألداء والأحباب والأقربون عن أن ينالوك بأذى؛
إذا اعتمد عليك كل الناس ولم يغلوا في ذلك؛
إذا قضيت الدقيقة القاسية التي لا ترحم من دقائقك بحرية تجريها تدوم ستين ثانية؛
إذا كان ذلك فلك الأرض وما عليها، وأفضل من هذا انك تكون رجلاً يا بني
(زكي)
الأحلام
للعالم النفساني (ألفرد أدلر)
بقلم الدكتور محمد حسني ولاية
يقول فرويد: إن الحلم يمثل رغبات جنسية طفلية لم تستوف بعد. وإن الحالم يشبع رغباته المحرمة في محيط أوهامه على الرغم من التقييدات التي فرضتها المدنية عليه.
إني أرى أن هذا الرأي لا يقوم على أساس، وان تفسير الأمراض النفسية ومظاهر

المدنية على أساس جنسي لا أقره عليه
يقصد الحالم بحلمه تأكيد أهمية الذات ورفعتها. والحلم كالأخلاق والانفعالات والأعراض النفسية قد جهزه الحالم لغرض صمم من قبل.
يكافح الحالم في حلمه لتبرير شخصيته إزاء صعوبات حيوية قائمة. وليحل مشكلاً من مشاكل الحياة يلجأ إلى تصويره تصويراً طفولياً بسيطاً كأن يكنى عن المشكل بالامتحان، وعن فكرة الانتصار بالطيران إلى السماء، وعن الخطر بهوة سحيقة.
زارتني سيدة في الثامنة والثلاثين شاكية من نوبات متكررة من القلق وخفقان القلب وألم في الثدي والمعدة، وقصت علي الحلم الآتي:
رأيتني أهرب من فهدين فصعدت إلى أعلى صدر رجل ثم استيقظت وقد استبد بي (الخوف)
تمخض تحليل الحلم عن سلسلة من الأفكار ترمي إلى تفادي إنجاب طفل آخر. وليس الصعود إلى أعلى صدر الرجل إلا رمزاً للجنوح إلى الذكورة. وكان الخوف والقلق عرضها النفسي الرئيسي الذي يرمي إلى التهرب من وظيفة الأمومة. وقد صورت في الحلم والديها بفهدين كناية عن خطر داهم يهددها فصعدت إلى أعلى لتنجو منهما لأنهما كانا يعارضان في زواجها
ظهرت الأعراض النفسية الأولى عندما كانت في التاسعة عشرة بعد أن خطبت سراً إلى زوجها الحالي. وقد استغرقت خطبتها ثماني سنوات رغم معارضة العائلة؛ وتفتق هذا عن حدوث نوبات ثورية إلى أن تم الزواج، ولكنها عادت مباشرة بعد ولادة ابنتها الوحيدة البالغة من العمر عشر سنوات
وقد أماط التحليل النفسي اللثام عن تكوينها الهستيري عن تلون صفاتها بلون الذكورة إذ كانت كثيرة التحدي محبة للتسلط متكبرة
ابتدعت لنفسها خطة تؤمن حياتها بعد أن تعرفت إلى زوجها باستغلال القلق المستحوذ عليها. وعملت على ترتيب هذه الخطة على نمط هلوسي في سريرتها دون أن تعي.
وأضاف إليها آلاماً في الثدي والمعدة لتجعل كل العلاقات الجنسية غير القانونية مستحيلة. . .
وكانت تعني بالتشنجات الليلية التي أقضت رقاد زوجها إنه من المقلق جداً أن يصحو زوجها على أثر صياح طفل. ولم تكن نوبات ضيق التنفس التي كانت تعتريها إلا تحذيراً لزوجها من احتمال إصابتها بالسل الذي قد ينجم عن الحمل
والآن ننتقل إلى حلم آخر للشاعر (ميتور سيمونيدس) رآه قبل الإبحار في رحلة إلى أسيا:
(حذره شخص من الإبحار في رحلة مقررة)؛ وكان هذا الشخص ميتاً، وقد سبق أن تولى هذا الشاعر أمر دفنه، فعدل حينئذ عن الرحيل
ونحن نفترض أن سيمونيدس كان خائفاً من هذه الرحلة فاستغل الشخص الميت ليخيفه منها ومن نهاية مريرة قد تؤدي إلى القبر لأن الذي حذره منها ميت
رغب الحالم على وجه العموم - كما يتضح من هذا الحلم - أن يضع نفسه في مركز خاص يصل إليه من أحسن الطرق التي تتلائم مع شخصيته وطبيعته وأخلاقه.
(للبحث صلة)
محمد حسني ولاية
صفحة من كتاب
حنين
للأستاذ شكري فيصل
سكن الكون، فما في الكون إلا همسات. . . من حديث النجم أو بث المحبين الشكاة. . . ينفثون الآهة الحرى، ويلقون السهاد. . . وينادون محبيهم فهل يدري محبوهم نداءً؟. . . ويثور الدمع في أجفانهم فيضاً غزيراً. . . أترى يدرك ذلك الذين تطفر الدموع من أجلهم، وتتمتم الشفاه بالحنين إليهم، وينبض القلب بذكرهم المستطاب؟!
سكن الكون، فثارت وحدتي تتلوى. . . وتذكرت العهود الزاهرات النضر. . . وتراءت من أمامي صور من الماضي القريب. ويحها من صور! فتنهدت حزيناً أسفاً، وتمنيت لها منصرفاً؛ وذرفت الدمع هتاناً إذ وجدت في الدمع خفوت السورة، وبرودة الثورة، وبعض

العزاء
وصمت الليل، كأنما كان يعد على الناس أنفاسهم المتصاعدة. . . وقد أووا إلى . . . فرشتهم الدافئة، يجدون فيها الهدوء، وينعمون فيها بالدفء. . . ويحسون أنهم يرتعون في أحضان الأبوة، وفي سماحة الأمومة، وفي جمال القرابة الدانية
ودقت الساعة الثانية عشرة، وانبعثت ضرباتها على صفحة الأفق الساكنة. . . كأنما كانت اثنتي عشرة قطرة من الماء تنصب على قطعة من الصفيح اللامع، فيكون لها بريق متلألئ كهذا الصدى الموغل في جوف الظلام البعيد
وامتد رواق الليل كما يمتد حنين إنسان غريب. . . يدثر الماضي ليجد فيه الذكرى، ويتطلع إلى المستقبل ليفسح فيه فرجة الأمل. . . كذلك كان رواق الليل، لا يحتجزه حد ولا يقهره سلطان، ولا يقف من دونه عائق. . . كما لا يحتجز الحنين سلوى ولا يقهره ضر، ولا تقف من دونه الدنيا بكل صورها وألوانها
إلا هذه النجوم. . . لقد كانت في منجاة ومأمن. . . لكأن عالمها الحلو، وشعاعاتها المتراقصة تكيد لليل وتتحداه. . . وكأنما هي في أنوارها الحنون تبعث في نفوس المحبين الولهى الأضواء الطروب. . .
سيظل هذا الحنين المتصل يهفو حول الأمل الناعم، ويغرد في حفافيه الندية. . . وينثر عليه الورود والرياحين كما تنثر دنيا النجوم من عالمها العلوي ذراتها اللامعة في أجنحة الليل السود
وسكن الكون. . . واستلقى الليل على صدر الدنيا. ونشر عليها أذياله وأردانه. . . كأنما كان يريد أن يكبت فيها الحركة، ويقتل فيها النشاط، ويقطع ما بينها وبين السماء. . . كان كالساعات اليائسة في حياة المحبين. . . مزهقة، مرهقة، ثقيلة الظل شديدة الوطأة، كأنما تحاول أن ترين فتحول بيننا وبين الرحمة. . . ولكن الرحمة القريبة لا تدع السبيل إلى اليأس، والحب القوي لا تقل منه المصاعب، والسماء الكريمة لا تقطع ما بينها وبين الناس. . . إنها تشق ثوب الليل الصفيق لتنبت النجوم النيرة على ظهره وفي أطرافه ومن بين يديه. . . كما تنبت الخزامى في الأرض القفر عطرة الطيب، شذية الروح. . . وأنها لتمزقه في كل جوانبه، وترقمه في كل ثناياه كما ترقم قطرات الماء سطح البحيرة الهادئ بدوائرها المترجرجات
هكذا الحنين. . . أيتها الكريمة الرءوم. . . كهذا الليل. . . تضحك على جوانبه المترعة بالأسى منى، وترق في ساعاته المريرة رؤى. . . وتنتثر في لياليه الكئيبة أحلام بيضاء كهذه النجوم.
واستغرق الكون في سكونه. وأحس الليل ما يقلى من عنت. لقد فرض سلطانه فتمزق. . . ومد رواقه فتخرق. . . ونشر جناحه البهيم فهاض النور جناحه البهيم. . . وغص بالحادثات. . . والنجوم من حواليه ترقص رقصة الظفر، وتنشد نشيد الحياة، وتهزأ هزأ المتحدي. . . وترسم شعاعاتها دعوة كريمة للفجر المستكن.
وارتمى يفكر. . . واستعرض تاريخه الطويل، وبكى مجده المندثر وساعاته الخاليات، وذكر كيف اكتسح الأفق المديد، وغطى الشمس المشرقة. . . ثم جاءت هذه النجوم الصغيرة تعبث به وتهزأ منه، فلم يملك أن بكى. . . وانثالت دمعاته على كل نبتة وفوق كل غصن. وكان بكاؤه هذا الندى الطري الذي اندفع بتلقي بسمة الصباح
وهكذا تتراقص الأماني من حوالينا. . . أيتها الإنسانة الكريمة. . . وتنبثق شعاعاتها . . . الناعمة تخط الفجر الذي نرنو إليه؛ وتنسق ألوانها الزاهية السبع لتنسج بردة الشمس، ولكنها تمضي في هدوء واتزان؛ فلن تمر بنا في كل مرحلة، ولن تقف بنا عند كل لون.
ولكنها ستفجؤنا هالة بيضاء نيرة؛ فهلا وفرت عليك بعض الجهد، وحفظت عليك بعض القوة، وكففت عن ارتقاب المشرق كما أرقب، والتحديق فيه كما أحدق؟!
ولكن لا عليك، لا عليك يا أماه؛ حدقي، وارقبي، إن نظراتنا كهذه النجوم ترقص رقصة الظفر، وتنشد نشيد الحياة، وترسم للقاء دعوة كريمة!
(القاهرة)
شكري فيصل
يوم الزهاوي
للأستاذ يحيى محمد علي
إنه ليوم وإن احتوته لجج الزمن العاتية واستقرت به في أغوار الماضي، فإن له بين

شفاف القلوب الذاكرة للجميل، وفي أعماق النفوس المطوية على الوفاء، أثراً لا أحسب النسيان يقوى على طمس معالمه. إذ امتدت فيه يد القدر من بطون الغيب إلى قلب (الزهاوي) فأسكنته، وإلى لسانه فأسكتته، وبذلك غيضت من مناهل الحكمة منهلاً دفاق الفيض، وأطفأت من مشاعل العرفان مشعلاً وضاء السنا، وقطعت من قيثارة الشعر وتراً رنان الصوت، وتركت في كل فؤاد حسرات تضطرم، وفي كل عين عبرات تختنق!

فكان يوماً لا نملك حين ينساب إلينا من مطاوي كل عام إلا أن نقف فيه وقفة الذاكر المحزون لنحلق بأجنحة الذكرى إلى أجواء رفيعة من النبوغ والعبقرية، وآفاق مترامية من الإبداع والعظمة، تزيدنا إعجاباً بالزهاوي، وإجلالاً لقدره، ويقيناً بأن خسارتنا فيه كانت أعظم مما قدرناه بكثير

ثم لا تلبث الذكرى أن تفتح لنا من أسفار المجد سفراً أفعم (الزهاوي) صفحاته بمآثره ومفاخره لنستمد منه لضلالنا هدى ولمحنتنا تجربة، ولنستوحي كلمة حتى نفرغها في مسامع أولئك الذين بخسوا (الزهاوي) حقه، وأنكروا عليه نضاله المجيد وكفاحه الخالد وما كانوا إلا أنفسهم يظلمون، وستبقى آثار (الزهاوي) لنهضتنا معيناً ثراً لا ينضب سيله الطامي ولا يغور. . .

وحسبنا - ومجال البحث لا يتسع للإطالة والإسهاب - صفحات من هذا السفر نقلبها بين أيديهم، لينعموا النظر فيها، وليحكموا بعقول سالمة من الأهواء، وضمائر خالصة من الأحقاد، على أدب (الزهاوي) وجهاده.

يقول الزهاوي: (. . . غنيت لأبناء وطني أريد إيقاظهم، فلما فتحوا عيونهم شتموني، ثم غنيت، فأخذوا ينظرون إلي شزراً، ثم غنيت فابتسموا لي، ثم هتفوا لي وبقى فيهم من يشتم، وغنيت وسأغني إلى أن يسكتني الموت، وسوف تبقى بعدي كلماتي معربة عن شعوري وما كابدته في حياتي من شقاء واضطهاد، فهي دموع ذرفتها براعتي على الطرس ناطقة بآلامي وهي خليقة بأن تذرف من عيون قارئها دمعة هي كل جزائي من نظمها. .)!

فهو الشاعر الذي عاش لأمته فاستوحاها وأوحى إليها، والذي ما خفق قلبه إلا بحبها، وما توجع واضطرب إلا لمصائبها وهوانها، والذي ما جرى لسانه إلا بذكرها، وما شدا إلا بآمالها وأمانيها

غنى لها، وغنى، ولكنها تجاهلته حينا واضطهدته أحياناً أخرى واهتزت جزعاً وحزناً حين فقدته

غنى لها حين ألفاها سادرة في الضلال تتثبط في رهج الوني والعجز، وتتعثر في دياجير الخمول والفتور، ليوقظها من سباتها العميق ويمهد لها سبل الإفلات من ربقة هذه الغفلة، فهو القائل:

تيَّقظت الأقوام من غفلة لها ... ونحن بحال لم نزل فيه نهجع

والقائل:

أيها الشعب طال نومك فأيقظ ... للمساعي فالليل صار نهارا

وليبعث فيها من الثقة والعزم ما ييسر لها تحطيم أصفاد اليأس ونضو ثياب الذل ومجاراة الأمم التي سبقتها في مضمار التقدم والرقي فقال:

يا قوم قد وعر الطريق أمامكم ... فإذا عزمتم تسهل الأوعار

إن التوقف في زمان حازم ... فيه تقدمت الشعوب، لعار

والقائل:

أمة تكسر الرتاج إذا ما ... وجدت دون ما تريد رتاجا

وغنى حين رأى الجهل يرين على العقول فيكبحها عن الرشاد والسداد ويهوي بها إلى وهدة الزيغ، ليرفع عن مداركها آصار الأفن ويدر أعوادي الطيش ويخفف عرام الأمية فقال:

العلم ثروة أمة ويسار ... والجهل حرمان لها وبوار

وقال:

لا يأمن المدلج الساري تورطه ... ما لم يوطد له من عقله سندا

وقال:
استنيروا بالعلم فالعلم نور ... إنما بالعلوم تنفي الشرور
وليهيب بها للتهافت على ينابيع العلم ونشر التعليم فقال:
أليس الرضى بالعلم أكبر حطة ... أليس ذراع العلم أقدر دافع
خذ العلم إن العلم مال لمعدم ... ورِيٌّ لعطشان وقوت لجائع
وقال:
تشق حياة ما لها من مدرب ... وتشفى بلاد ليس فيها مدارس
ثم غنى لما وجد الرجعية تحدق بالحقائق فتشوهها وتمسخها، وتنأى بالعقائد عن هدفها السامي وغايتها المثلى، فقال حاثاً على التمسك بالحقائق دون الأوهام والتحرر من نير الخرافات والنزوع إلى التجدد ومماشاة روح العصر الذي لم يعد يأتلف وهذه الأوهام
يا قومنا لا نفع في أحلامكم ... فخذوا الحقائق وانبذوا الأحلاما
جهل الذين على قديم عولوا ... إن الزمان يغير الأحكاما
وقال:
أنضو القديم وبالجديد توشحوا ... حتام تختالون في الاطمار
وتملصوا من نير كل خرافة ... خرقاء تلقى الربن في الأفكار
وغنى حينما تبين المرأة ترزح تحت أعباء التقاليد البالية وينوء بها الحجاب، مدافعا عنها، زائدا عن حقوقها السلبية طالباً إنصافها فقال:
غصبوا النساء حقوقهن ... فلا تصان ولا تؤدي
وإذا النساء ردين في ... شعب فإن الشعب يردى
وقال:
. . .طالما قد وقفت أدرأ عنهن الرزايا فيالها وقفلت ثم غنى. . . وغنى وما كان ليفت في عضد الزهاوي أو يثنيه عن عزمه طعن أو ثلب وإعانات أو إرهاق ورائدة نصرة الحق؛ وحسبه ذلك مسيغاً لغصة الجحود، ومخففا لوطأة النكران، وإن قوله:
هي الحقيقة أرضاها وإن غضبوا ... وأدعيها وإن صاحوا وإن جلبوا
أقولها غير هياب وإن حنقوا ... وإن أهانوا وإن سبوا وإن ثلبوا
لأقوى دليل وأنصع برهان على تفانيه في سبيل الحقيقة!
. .هذا هو الزهاوي وهذه بعض مآثره وألحانه
أفليس من حقه على أمته التي حمل نفسه من أجلها علي المعاطب وجوزي منها بالصدود والإغفال أن تعني بأحياء ذكراه براً منها بالأدب واعترافاً بالفضل ووفاء بالعهد؟!
أمثل الزهاوي من يمر يوم ذكراه كسائر الأيام؟!
لطفك اللهم بالأدب. . . فإن ما يلقه من عقوق الناس لعظيم
وأنتم أيها الجاحدون لفضله. . . أليس في كل ما أداه الزهاوي لأمته ما يستدر من مآقيكم دمعة حبسها الغرور ومنعها الحقد؟
حسبك يا جميل أنك القائل:
كنت للحق كل عمري وفيّاً ... وسأبقى حتى أموت وفيّا
وقد أديت رسالتك على الوجه الأكمل ففي ذمة الخلود.
(بغداد - مصرف الرافدين)
يحيى محمد علي
!!. . .لكي تعيش
للأستاذ م دراج
أليس عجيباً أن يتعارض المنطق من القانون؟ إن منطق الحياة ليقول: الحياة تبرر نفسها! ولكن القانون لا يخضع دائماً لمثل هذا القول! (الحياة تبرر نفسها) منطق عجيب حقاً ينسف دعائم الجريمة والعقاب، ومع ذلك فالقانون باق، وسنة الحياة لا تتغير! أجل. . . إن القانون يثور على المجرمين، ولكنه لا يفهم لماذا أجرموا؟ يصليهم العذاب في أركان مظلمة يسميها (دور التأديب والإصلاح)! ولكن هذه الدور تزداد دائماً، وتتسع، وتكتظ، ومع ذلك يصر على إنها ليست للإفساد، لسبب الانحطاط في طبقة ما من الأمة، ويتعلل بتدهور أخلاقها، ثم ينسى التفسير الصحيح لهذا التدهور،

وكيف تسببت أعراضه وتفاقمت، لأنه لا يريد أن يقول: إنه الجوع أو الجهل، أو الحرمان أو الفقر بمعنى أقرب وأوضح. . .

هذه هي القصة، قصة المرأة التي خلقت التاريخ، وبقيت المحور الذي تدور عليه حوادث العالم حتى اليوم. . . رأيتها بالأمس تسير الهوينا إلى جانب الطريق: تتصفح الوجوه صفحة صفحة بعينين لهما منطق مفضوح! لقد طال سيرها على غير هدى، حتى كاد التعب يهوي بفرعها إلى الأرض، فأسندت ظهرها إلى جذع شجرة عتيقة كمن يريد انتظار شيء معلوم. . . فوقفت على بعد منها، لأني لمحت على وجهها سمة التضليل واضحة، ولم يخف عني أنها تنتظر المجهول. . . المجهول الذي يقودها من هذه السوق التي أقامتها مدنية القرن العشرين لتجارة الرق المشروعة، فماذا رأيت؟

رأيت قطعة من جسم الإنسانية، تتمرغ في الوحل، والناس يطربون لهذا المنظر البشع، ويتهافتون على مشاهدته، فبعضهم من ذوي (الرؤوس البيضاء) كانوا يرمقونها بنظرة التهكم والسخرية؛ أما البعض الآخر فمن ذوي الشعور اللامعة والحواجب المزججة، فإنهم يصارعونها النظرات أولاً ثم يفتشون في مظهر الثديين، ثم يهبطون بأنظارهم حتى قدميها، وكثيراً ما كان بعضهم يتعمد المرور من ورائها ليطمئن إلى حكمه الأخير! وهم لا يكفون عن اللف والدوران، وكأنهم جيوش من النحل تطوف حول زهرة من أزهار الربيع. . . إن منظرها على هذا الوضع ليضايقني ويثير في غيرة لا أعرف مصدرها، لعلها الثورة على الإنسانة الذليلة، أو لعلها الأنانية التي لا يخلو من بعضها كائن بشري. . . وجدتني مضطراً إلى الابتعاد، فقد كان يؤلمني أن أكون أحد المتحفزين للدخول في صفقة كهذه. ولم أكد أبتعد خطوتين، حتى أعود فألقي عليها نظرة أخيرة، فأجد سيارة ضخمة لها طنين العظمة والكبرياء تتباطأ رويداً رويداً، ثم نقف عن الحركة، ويتحرك بابها، ولا ينزل منه أحد. . . لقد حجبت عني هذه السيارة منظر الفتاة، فقفزت كذلك خطوتين بعض الشيء، وخيل إلي إنها تسأل عن الثمن. . . وأخيراً تقفز إلى جوار السائق وتندفع السيارة بصيدها الحرام، مخلفة وراءها عثاراً مشيعاً بدخان العظمة والكبرياء. . .

ويضيق صدري، فأمشي مسلوب العاطفة والفكر معاً. أمشي أنا أيضاً على غير هدى، هنا وهناك لا ألوي على شيء. وفجأة أسمع طنيناً بعيد إلى صوابي، فأدرك أن حياتي كانت معرضة للخطر، كنت مهدداً بالفناء من هذه السيارة الماجنة، فقد وقفت مني على بعد أمتار. وألقت صيدها المذبوح إلى الطريق! وعلى غير وعي مني أتبع خطواتها، فهي تسير في نفس الاتجاه الذي يصل بي إلى مسكني. ولكني لا آبه بالوقت، ولا بحاجتي إلى الراحة، وأتابع السير وراءها حتى تعرج على دكانه تبيع (سمكا مشويا) ثم إلى بائع الخبز فتبتاع منه حاجتها. . . وتواصل السير وأنا أتبعها. . . لقد اندفعت اندفاعاً غريباً لأعرف شيئاً عن قصتها. سلكت شوارع مظلمة، وحارات، ودروباً ما كنت أتصور أن القاهرة، هذه المدينة الجميلة الضاحكة. . . ذات القصور والفنادق والملاهي والأحياء التي تضارع أرقى العواصم في الغرب، هذه المدينة التي يسمونها كذباً وتضليلاً عروس الشرق، تضم هذه المباءات القذرة، تلك التي لا تجد لها مثيلاً بين زنوج أفريقيا أو بلاد نيام نيام أو أي أرض شئت

وأخيراً أراها تحيي أمها العجوز، وتنحدر إلى باب مسكنها الغائر في بطن الجبل. فأتذكر المرأة التي أمر بها كل يوم وهي جالسة إلى صندوق القمامة تفتش فيه جاهدة عن شيء يؤكل، والرجل الذي تسلل إلى فضلات طعام إحدى الفرق المعسكرة، فأرداه الجندي صريعاً بالرصاص. والفلاح الذي يأكل الحشائش من الأرض كالحيوان. والعامل الذي يقسره الجوع أن يسرق قطعة من (العجوة) ليبلع بها رغيفه. . . كل أولاء كهذه المرأة هم في العذر والحاجة سواء. لقد فقدوا كل إحساس لأنهم جياع فما يهمهم عرف ولا قانون. وهل في عداد القوانين التي تنظم حياة المجتمع قانون واحد يجنب الفقير عواقب الشطط!! آه. .

لقد تذكرت! هناك السجون! وهل رأيت في السجون إلا فقيراً أو محروماً أو مطروداً؟ هذه السجون بنيت لفريق واحد من الناس، وليس هذا الفريق من الأغنياء!

وعدت إلى داري مهموم القلب، يحتدم بيني وبين نفسي عراك عنيف: إنها ساقطة. . . بغي. . . عاهرة تفسد في الأرض. أثور، وهي تهدئني: (ألا تدري أن صفقة كهذه لا غبار عليها، ما دام الخمر والجوع هما وسيطاها! إن الخمر والجوع كليهما كأس يثمل

شاربها. فكل كأس من الخمر رصيد من العرق أو الدموع! فلم لا ترى مثل هذا يحدث على الشاطئ الغربي من النيل. . . حيث تقوم القصور الشاهقة مطلة على الأكواخ والكهوف لا محل للأسطورة القديمة التي كانوا يسمونها الفضائل، والشرف. والكرامة، والمروءة! كل هذه أكاذيب قد عفت منذ زمن بعيد. إن الإنسانية تتقدم، وتتطور، دائماً، دائماً، حتى في تجارة الرقيق. ولكنها تجارة منظمة. أجل تجارة منظمة تتفق وأسلوب القرن العشرين. . .

لا يا صاحبي، إنها إنسانة لابد لها من القوت لتعيش. ومن يدري؟ ربما أعيتها الحيل في البحث عنه. أذلتها الحاجة. والجواب بغير ثمن ليس من طبيعة هذا العصر، ولا من تعاليمه. فما الكرامة، وما الشرف، وما العرض، أمام الحاجة الملحة للطعام؟ وما دمنا قد رضينا أن يحيا كل إنسان لنفسه، فليس لك أن تلوم المرأة العاطلة، التي لا عائل لها ولا قانون يحميها، إذا انغمست في الظلام تفتش عن شيء أعياها البحث عنه في النور. إن لغة العطف والرحمة لم تعد من مصطلحات هذا الزمن. فالرجل القادر على أن يمنح العطف والرحمة في شكل كسرة تمسك الرمق أو ثوب يستر الجسد قد طغت عليه تكاليف المدنية، فهو يرى أن (جالوناً) من البنزين لسيارته، أو كأساً من الشراب يذهب بصوابه، أو حفلة ساهرة ترمز إلى عظمته، أحق وأولى من معونة لا يطالبه بها القانون، ولا تعترف بوجوبها الدولة!

صدقني إذا قلت لك: إن يد المدنية الحديثة قد قلبت صفحة الزمن، فطوت معها كل أثر للفضائل في العهد القديم. نحن الآن أمام صفحة جديدة، تختلف في تعاليمها ومراميها، وليس من معانيها شيء اسمه الرحمة!!

إن القوة الآلية التي جعلت الثروة تتركز في يد عدد قليل من الناس، وتتزايد بأرقام مخيفة، هي بعينها التي سلبت الكثرة الهائلة النزر الضئيل الذي بيدها حتى باتت تبحث عن الرغيف فلا تجده. فالزيادة المطردة في جانب، والنقص المستمر في جانب، قد أوجدا ميزاناً عجيباً تعلو فيه كفة إلى السماء، وتهبط أخرى حتى تلاصق الأرض. وليس القب الذي يرفع هذا الميزان هو توراة (موسى) ولا إنجيل (عيسى)، ولا هو القرآن الذي بلغه (محمد)، كما أن صنجاته ليست من المروءة أو الكرم أو الزهد، ولكنها من نوع آخر تبيحه المدنية وتشجعه، من الغش، والطمع، والمكر، والاستغلال الشنيع الذي لا يصده حتى عرض فتاة مسكينة تتضور جوعاً!

فكيف إذن تطلب من امرأة ضعيفة جائعة محرومة من شريعة الدين وشريعة المدنية، أن تفهم معنى الكرامة والشرف وقداسة العرض في هذا المعترك الضال؟ الإنسان ظل للنظام الذي يعيش فيه، فكيف يستقيم الظل والعود أعوج؟

كيف؟ كيف؟ لم يعجبني دفاع نفسي عن البغي. رأيت فيه دفاعا عاطفيا لا يجوز على العقل، فاختلفنا. واتفقنا أن نقدم (للرسالة) هذه القضية.

م. دراج

الإمبراطورية اليابانية

للأستاذ أبو الفتوح عطيفة

ليس من شك في أن أنظار العالم في هذه الأيام تتجه صوب ميادين القتال المختلفة: في ليبيا وروسيا وفي الشرق الأقصى، وفي المحيطين الأطلنطي والهادي، وتتلهف إلى استماع أنبائه عسى أن تنفذ أبصارهم إلى غياهب المستقبل فيعرفوا بعض ما ينتظرهم. وليس من شك في أن أنباء القتال في الشرق الأقصى تستأثر في الوقت الحاضر بالجانب الأكبر من اهتمامهم. لقد بدأ المستر تشرشل حديثه الذي أذاعه في مساء يوم الأحد 15 من فبراير سنة 1942 بإذاعة نبأ سقوط سنغافورة في يد اليابانيين. قال مخاطباً شعوب الإمبراطورية: (أتحدث إليكم جميعاً في ظل هزيمة عسكرية شديدة بعيدة المدى. لقد سقطت سنغافورة، واجتيحت شبه جزيرة الملايا كلها)

ومضى يقول: (لقد تعرضنا جميعاً لهجوم شعب محارب يتجاوز عدده التسعين مليونا من الأنفس تسلح بأمضى أنواع الأسلحة) ووصف شجاعة اليابانيين في ميدان القتال، وقوة اليابان الحربية فقال: (وخليق بكل إنسان ألا يقلل من شأن قوة اليابان الحربية وقوتها في الجو أو في البحر أو في ميادين القتال البرية يوم ينازل رجل رجلاً، فقد

أثبتوا أنهم محاربون بواسل حقاً) ولاشك أن الناس يتوقون إلى معرفة الكثير عن اليابان. وهل تستطيع أن تصمد طويلاً في هذه الحرب أم لا. وهانحن في مقالنا هذا نحاول أن نمدهم بما يتسع له المقال من معلومات.

اليابان إحدى الدول العظمى التي ما تزال تحتفظ بالنظام الملكي؛ وإمبراطورها يلقب بالميكادو وله سلطان عظيم على رعاياه. ويطلق على اليابان لقب إمبراطورية مع إنها لم تكن قبل فتوحاتها الحديثة أكبر من فرنسا بل كانت أصغر مساحة من شبه جزيرة اسكندناوة وإن كان عدد سكانها يزيد على التسعين مليونا. ويمتاز اليابانيون بنشاطهم وذكائهم؛ ولكن هذه الصفات لا تساعدهم على أن يجعلوا من طبيعة بلادهم الجبلية حدائق غناء أو مزارع خصبة؛ ومن ثم اضطر اليابانيون إلى الالتجاء إلى الصناعة (كما حدث في بريطانيا) واستبدال مصنوعاتهم بما يحتاجون إليه من مواد غذائية ومواد خام - ويشتغل معظم سكانها بالزراعة، ومع هذا يعتقد كثير من الكتاب إنه لولا التجاء اليابانيين إلى البحر

المجاور طلباً للسمك لما استطاعوا تموين أنفسهم. ولم يشعر اليابانيون بالضغط الناشئ من ازدحام السكان في بلادهم؛ ولعلهم لا يشعرون بذلك لأنهم ملاحون يستطيعون أن ينشئوا علاقات تجارية مع العالم الخارجي ويحصلوا على ما يبتغون من مواد خام ومواد غذائية. وقد كانت اليابان تستورد الأرز من الهند الصينية، والنترات من شيلي، والأخشاب من استراليا.

تتكون اليابان من أربع جزائر كبيرة: هندو، وهكايدو، وكيوشو، وشيكوكو، وعدد عديد من الجزائر الصغيرة. وهي كإنجلترا بمعزل عن القارة الآسيوية يفصلها عنها بحر اليابان؛ وقد أتاح لها فرصة جعلتها تنمو وتنهض وتنشئ حضارة خاصة بها ودولة مستقلة لا تخضع لغيرها. يمتد الأرخبيل الياباني من جنوب شبه جزيرة كمنشتكا في عروض لندن إلى فرموزة في العروض الحارة؛ ومن ثم نجد مناخ أجزائها الشمالية بارداً؛ ويزيد في برودته هبوب الرياح الشمالية الباردة عليه شتاء، وهبوب تيار كوريل البارد، بينما جنوبها حار. على أن معظم أجزائها يقع في مهب الرياح الموسمية الصيفية ويتمتع بكميات كبيرة من المطر، وسطحها جبلي ولذا كانت أنهارها قصيرة تكثر بها المساقط وهذه قد استخدمت في توليد الكهرباء.

الغلات والنباتات

اليابان فقيرة من حيث مواردها الزراعية؛ فثلث مساحتها صالح للزراعة. وأهم ما يزرع به الأرز هو الغذاء الرئيسي للسكان، والقمح والشعير والفواكه والخضر، وفي الأجزاء الجنوبية يزرع الشاي وشجر التوت. واليابان من أكبر الدول إنتاجاً للحرير الطبيعي. وفي فرموزة تنمو الغابات التي من أهم أشجارها الكافور. وفي وديانها يزرع الأرز وقصب السكر ويصدر إلى اليابان الأصلية وتستورد اليابان مقادير كبيرة من المواد الغذائية من بلاد آسيا المجاورة. وتغطي الغابات كثيرا من أرضها وتمدها بالأخشاب اللازمة لصناعاتها

المعادن والصناعة

يوجد باليابان الفحم؛ ولكن المقدار المستخرج منه لا يزيد على ثمن (81) الناتج من بريطانيا؛ ولذا لا تعتبر اليابان من الدول الهامة في إنتاجه ولا ينتظر لها مستقبل صناعي عظيم. وتوجد بها كميات من الحديد، ولكن جل اعتمادها في صناعاتها على ما تستورده من حديد أملاكها الأسيوية. وهي من أكبر دول العالم إنتاجاً للنحاس

وقد تقدمت الصناعة باليابان ولكن ما زال عدد المشتغلين بها من السكان قليلاً. وأهم الصناعات صناعة المنسوجات القطنية والحريرية والورق والخزف واللعب وبناء السفن

واليابان من الدول البحرية الكبيرة ولها أسطول عظيم وقد اضطر سكانها لركوب البحر لصيد السمك. ويبلغ عدد الصيادين حوالي المليون

موازنة بين بريطانيا واليابان

يشبه كثير من الكتاب اليابان ببريطانيا ويطلقون عليها التشبيه صحيح من بعض وجوهه؛ ولكن هناك أوجه كثيرة للخلاف: فاليابان أقرب إلى خط الاستواء من بريطانيا؛

فهي تقع في عروض البحر الأبيض. ويختلف مناخها ومناظرها ومحصولاتها عن نظيراتها ببريطانيا. ويختلف الإنجليز عن اليابانيين في مظهرهم وأخلاقهم وطرق حياتهم. وتعتمد بريطانيا على الصناعة بينما اليابان ما زال أكبر اعتمادها على الزراعة. ويشك كثير من الكتاب في مقدرتها على أن تصبح دولة صناعية. فموارد الفحم بها لا يمكن أن تستمر طويلاً برغم ضآلة المستهلك منها. وتنقص صناعاتها الجودة والإتقان، أما إنجلترا فمواردها وموارد إمبراطوريتها لا تنفد

ويرى كثير من الكتاب أن اليابان يمكن أن تكون موضعاً حسناً للمقارنة بإيطاليا لا ببريطانيا؛ فتركيبهما الجغرافي وعروضهما، وكثافة السكان بكل منهما، وانتشار الزراعة وقلة الممتلكات تجعل المقارنة بينهما ممكنة، بينما لا يمكن تشبيه اليابان ببريطانيا!

(للبحث بقية)

أبو الفتوح عطية

المصريون المحدثون - 25

شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الإنجليزي إدوارد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

تابع الفصل السادس - عاداتهم

كثيراً ما يلجأ الأب والأقارب الفقراء إلى التخلص من الطفل الذي ماتت أمه ولم يفطم عندما لا يستطيعون الحصول على ظئر له. وقد يوضع الطفل أحياناً على باب المسجد ساعة صلاة الجمعة، فيحدث عادة أن تأخذ الشفقة بعض المصلين عند خروجه من المسجد فيحمله إلى منزله حيث ينشأ في أسرته كطفل متبنى لا رقيق. وقد يعتني بعضهم بالطفل حتى يجد له رجلاً أو امرأة تتبناه. وقد حدث من زمن غير بعيد أن عرضت امرأة على سيدة من أسرة يعرفها صديق لي أن تبيعها طفلاً سنة بضعة أيام وجدته على باب مسجد؛ فقبلت السيدة تربية الطفل لوجه الله رجاء أن يحفظ لها طفلها الوحيد جزاء هذا الإحسان.

ثم ناولت المرأة التي أحضرت الطفل عشرة قروش ولكنها رفضت الأجر المقدم. وهذا يبين أن الأطفال يصبحون أحياناً مجرد سلع، ويستطيع من يشتريهم أن يجعلهم عبيداً له يتصرف فيهم كما يشاء. وقد أخبرني أحد النخاسين وأكد لي غيره خبره هذا أن الوالدين قد يبيعان الصغيرات أحياناً باعتبارهن جواري مجلوبات من بلاد أخرى؛ وأن كثيراً من أولئك البنات سلمن إليه بإرادتهن ليبيعهن؛ وقد ألقى في روعهن أنهن سينعمن بالملابس الفاخرة والترف العظيم، وعلمن أن يقلن أنهن أحضرن من بلادهن في سن الثالثة أو الرابعة ولذلك يجهلن لغتهن الأصلية، وإنما يمكنهن التكلم بالعربية فقط.

وكثيراً ما يحدث أيضاً أن الفلاح يضطره الضنك الشديد إلى وضع ابنه - مقابل مبلغ من المال - وضعاً أسوأ بكثير من الرق. وذلك عندما يطلب مجندون أولاد من يقتنون وهؤلاء يستطيعون أن يخلصوا أولادهم من الجندية بأن يعرضوا على الفلاحين الفقراء أن يجندوا

أولادهم بدل مقابل جنيه أو جنيهين لكل ولد. ويفوزون بطلبهم عادة مع إنه حب البنوة سائد عند المصريين بقدر حب الأبناء لوالديهم. ويكره أغلب الوالدين مفارقة أولادهم عندما يجندون خاصة كما يدل على ذلك الوسائل التي يعمدون إليها لمنع تجنيدهم. وقد لاحظت أثناء زيارتي الثانية لمصر أنك لا تكاد تجد في أي قرية شاباً صحيح الجسم ليس بأسنانه كسر (حتى لا يمكنه أن يقرض الفشكة) أو بأصابعه أو بعينيه إصابة أو عمى حتى لا يجند. ويتخذ النساء المتقدمات في السن وغيرهن هذا الأمر حرفة منتظمة، فيدرن على القرى لتنفيذ هذه العمليات؛ وقد يقوم أبوا الولد أنفسهما بهذا الأمر. ويبدو مما قيل آنفاً أن العاطفة ليست وحدها دائماً السبب الذي يدفع أهل الطفل إلى الالتجاء إلى مثل هذه الوسائل حتى لا يحرموا أطفالهم.

ولا يمكن تصوير فلاحي مصر من حيث حالتهم المنزلية والاجتماعية وشمائلهم صورة ملائمة. ويشبه الفلاحون على أسوأ الاعتبارات أسلافهم البدو دون أن ينعموا بكثير من

فضائل أهل الصحراء إلا في درجة منحطة. وكثيراً ما أحدث ما ورثوه عن أجدادهم أسوأ تأثير في حياتهم الداخلية. وقد ذكرنا من قبل أن المصريين انحدروا من عدة قبائل سكنت مصر في عصور مختلفة، واصهروا إلى الأقباط، وان التمييز بين القبائل لا يزال قائماً بين سكان القرى في القطر كله. وقد انشعبت بمرور السنين سلالة كل قبيلة من المقيمين إلى عدة فروع؛ وسميت هذه القبائل الصغيرة بأسماء متميزة أطلقت على القرية أو القرى أو المركز الذي يقيمون فيه. ولم يحتفظ الذين أقاموا طويلاً في مصر بالعادات البدوية الكثيرة، ولم يصونوا نقاوة جنسهم، وإنما اصهروا إلى الأقباط الداخلين في دين الإسلام أو سلالتهم؛ ولذلك تحتقرهم القبائل التي أقامت في مصر بعدهم فيسمونهم ازدراء (فلاحين) بينما يجعلون لأنفسهم تسمية العرب أو البدو؛ ويتزوج هؤلاء الآخرون متى شاءوا من بنات الأولين، ولكنهم لا يزوجون بناتهم لهم؛ ويثأرون للدم إذا قتل شخص من قبيلة وضيعة أحدهم بقتل اثنين أو ثلاثة أو أربعة؛ وقد أشير إلى تلك الشريعة البدوية الوحشية الخاصة بثأر الدم وسيادتها بين سكان قرى مصر في فصل لاحق. فيقتل أحد أقارب القتيل من ذريته أو من سلالة الجد الأكبر لأبيه القاتل، أو أحد الأقارب المذكورين من ناحيته؛ ولذلك كثيراً ما ينشب القتال بين قبيلتي القاتل والقتيل، وقد يستمر أو يتجدد كل حين عدة سنين.

وكثيراً ما يكون الأمر كذلك نتيجة إهانة يسيرة بين شخصين ينتميان إلى قبيلتين مختلفتين. وكثيرا ما يعود الثأر بعد جيل أو أكثر من ارتكاب القتل، بينما كانت الخصومة في ذلك الوقت هادئة، وربما لم يكن يذكرها أكثر من شخص واحد. وهناك قبيلتان في الوجه البحري إحداهما (سعد) والأخرى (حرام) اشتهرتا بهذه الحروب والخصومات الصغيرة، ولذلك يطلق اسمها عادة على أي شخصين أو فريقين عدوين. ومما يثير الدهشة أن يباح في الأيام الحاضرة مثل هذه الأعمال التي إذا ارتكبت في مدينة من مدن مصر عوقب عليها بالموت أكثر من شخص. وقد أباح القرآن الثأر ولكنه قيد تنفيذه بالعدل والاعتدال. وتخالف هذه الخصومات حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: (إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار)، ويشبه الفلاحون البدو في أحوال أخرى؛ فعندما تخون الفلاحة زوجها يقذف بها هذا أو أخوها في النيل بعد أن يربط في عنقها حجر أو تقطع إرباً ويقذف ببقاياها في النهر. وقد يعاقب الأب أو الأخ العذراء التي تتهم بمنكر. ويعتبر أهل المرأة أن جريمتها تمسهم أكثر ما تمس الزوج، وكثيراً ما يحتقرون إذا لم يعاقبوها

الفصل الثامن

عادات المجتمع العامة

يؤدي احترام المسلم للتجارة إلى اتساع دائرة معرفته بالناس على اختلاف درجاتهم اتساعاً عظيماً؛ وينشط قانون انفصال الجنسين حرية المعاملات بين التجار إلى مدى بعيد، إذ يسمح للتاجر أن يشارك غيره - بصرف النظر عن اختلاف الثروة أو الدرجة - دون خشية اقتران شخصين متفاوتين بالزواج؛ وتتمتع النساء مثل الرجال بسعة

المعاملات التجارية مع الغير من جنسهن

ويتكلف المسلمون ويدققون في شمائلهم الاجتماعية إلى أقصى حد؛ ويقوم الكثير من عاداتهم الشائعة على تعاليم الدين، وذلك يميزهم في مجتمعاتهم من كل قوم آخرين.

ومن عاداتهم تحية بعضهم بعضاً بقولهم: (السلام عليكم) فيرد من يحيونه بقوله: (عليكم السلام ورحمة الله وبركاته). ولا يوجه المسلم هذا السلام إلى من يخالفه في الدين ولا بالعكس؛ ويجب على المسلم أن يحيي المسلم بهذه التحية، إلا أن إهمال هذا الواجب لا حرج فيه. ويجب رد التحية على الإطلاق؛ فالتحية (سنة) وردها (فرض). وقد يحيى المسلم مع ذلك خطأ من يخالفه في الدين، وليس على هذا أن يرد التحية. وينقض المسلم تحيته عندما يتبين خطأه بقوله: (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين)؛ وكذلك يفعل أحياناً إذا حيا مسلماً ورفض أن يرد السلام

وأهم آداب السلام كما أملاها الرسول (ص) وكما يتبعها المصريون المحدثون ما يأتي: يبدأ الراكب بالسلام على الراجل، والعابر على الجالسين قلوا أو كثروا، والفئة القليلة أو أحدهم على الفئة الكبيرة، والصغير على الكبير، ولما كان يكفي أن يوجه السلام واحد من الجماعة فكذلك يكفي أن يرده واحد. ويجب على المسلم أيضاً أن يحيي أهل المنزل عند دخوله وخروجه؛ ويجب دائماً أن يبدأ بالتحية ثم يتحدث. وللآداب السابقة

بعض الشواذ فلا يلزم مثلاً في المدينة المزدحمة تحية أكثر هؤلاء الذين قد يمر بهم الإنسان ولا في الطريق حيث يقابل المرء عدة عابرين. إلا أن العادة جرت على أن يحيي الرجل الموسر أو الحسن الهندام أو الشيخ المحترم أو أي شخص وجيه من يبدو إنه رفيع المكانة أو عظيم الثروة أو من رجال العلم ولو كان الطريق حافلاً. وعادة المهذبين أن يضع من يسلم أو من يرد
السلام يده اليمنى على صدره أو يلمس شفتيه ثم جبهته أو عمامته ويسمى ذلك (تيمينة). وتؤدي التيمينة الأخيرة، وهي أكثر احتراماً، لمن علا قدره لا مع السلام فحسب، ولكن أثناء الحديث أيضاً وبدون سلام حينئذ
ولا يؤدي من كان من الطبقة الدنيا السلام إلى العظيم دائماً وعلى الأخص إذا كان تركياً، وإنما يكتفي بأداء التيمينة. ويظهر احترامه لمن سما مركزه بإحناء اليد إلى أسفل ثم رفعها إلى شفتيه وجبهته دون أن ينطق بالسلام. ومن العادات الشائعة أيضاً أن يقبل الرجل يد العظيم، ظهرها وحده أو ظهرها وباطنها أحياناً، ثم يضعها على جبهته لإظهار احترامه الخاص. إلا أن العظيم لا يسمح بذلك في أغلب الأحوال، وإنما يلمس اليد التي تمد إليه فيضع المحيي حينئذ يده على شفتيه وجبهته فقط. وتقبل القدمان دلالة على الخضوع والمذلة لالتماس العفو عن ذنب أو للشفاعة لشخص آخر، أو لطلب إحسان من عظيم. ويقبل الولد يد أبيه والزوجة يد زوجها والعبد والخادم الحر غالباً يد السيد. ويقبل أرقاء العظيم وخدمه كم ملابسه أو طرفها
وعندما يحيي الأصدقاء الخواص بعضهم بعضاً يتصافحون باليمنى، ثم يقبل كل منهم يده أو يضعها على شفتيه وجبهته أو يرفعها إلى جبهته فقط أو يضعها على صدره دون أن يقبلها. ويتعانقون بعد الغياب الطويل وفي بعض المناسبات الأخرى. فيقبل كل منهم الآخر على الناحيتين اليمنى واليسرى. وهناك طريقة أخرى للتحية شائعة الاستعمال بين الطبقات الدنيا. فعندما يتقابل صديقان بعد سفر يتصافحان بعد سفر يتصافحان ويهنئ كل منهما الآخر على سلامته ويتمنى له الهناءة والرفاهية مردداً عبارتي: (سلامات) و (طيبين) على التعاقب ومراراً. وعندما يبدأن هذه التحية التي تدوم وقتاً، وقبل أن يأخذا في الحديث يتصافحان كالعادة المتبعة عندنا، ويغيران وضع اليد كلما يلفظان العبارتين السابقتين فيدير كل منهما إصبعه على إبهام الآخر عندما يردد العبارة الثانية ويعود إلى الوضع عند العبارة الأولى
(يتبع)
عدلي طاهر نور
أغنية
من ليالي الدانوب
للأستاذ أحمد فتحي مرسي
يا ليالي الحبِّ عاد الحبُّ ذكرًى، يا ليالي
يا مَجالي النهرِ أينَ النهرُ مِنَّا، يا مجالي
غابَ عن عيني وما غابَتْ رُؤَاهُ عن خَيالي
وسلام يا مِهادَ الحبِّ يا نْبعَ الجَمال
يا ليالي الحبِّ عاد الحبِّ ذكرًى، يا ليالي
أينَ تحتَ الدَّوْحةِ السكْرَى أماسيُّ اللقاء
حينما أرختْ بنانُ الكونِ أهدابَ المساءِ
أينَ ضفَّاتُكَ يا نهرُ الندِيَّات اللَّوائي
لَقِيْتنَاَ بين ألحانٍ وأزهارٍ وماء
حُلُمٌ من غفوةِ الماضي تراءَى في جلالِ
يا ليالي الحبِّ. . . . . .
حدِّثي يا سرحةَ الوادي ويا خُضْرَ الرحابِ
واذكري يا كأسُ أحلامَ ليالينا العِذابِ
وارو يا نهرُ ترانيمي وأصْغي يا رَوابي
أنا من خلَّفْتُ في واديكَ أيامَ الشبابِ
وانطوتْ صفحةُ أحلامي على تلكَ الرمالِ
يا ليالي الحبِّ. . . . . .

هاهُنا كَمْ صافحَ الزهرُ وندَّى راحَتْيها
والفَراشاتُ إلى الضوءِ تَسَامَى واليْها
ترتجِي الأمواجُ لو فاضتْ فمسَّت قدميها
وتودُّ الكأسُ لو تبقى طويلاً في يديْها
والغُصونُ الخُضرُ ما بينَ سُجودٍ وابتهالِ
يا ليالي الحبِّ. . . . . .
سألتني أترَى النهرَ جميلاً في سُرَاهُ
لِمَ يبدو أزرقَ الصفحةِ يَسْبي من رآهُ
قلتُ يا أنشودةَ القلبِ، ويا حُلْمَ هواهُ
هذه الزُّرقةُ من عَيْنَيْكِ لَصَّتْها المياهُ
وتهادتْ راقصاتٍ بين زَهْوٍ واختيالِ
يا ليالي الحب. . . . . .
أيها الأزرقُ يا مَسبحَ أحلامِ الحسانِ
والَّذي غنَّتهُ قِيثاري شجِيَّاتِ الأغاني
أنا من غنَّت بألحانِيَ أيَّامَ الزمانِ
وشدا كلُّ لسانٍ بالذي يشدُو لساني
وحيُ أيَّامِكَ يا نهرُ وأيَّامِي الخوَالي
يا ليالي الحب. . . . . .
يا ليالي الحبِّ عاد الحبُّ ذكرَى يا ليالي
يا مجالي النهرِ أين النهرُ منَّا يا مجالي
غابَ عن عينِي وما غابتْ رُؤَاهُ عن خيالي
وسلامٌ يا مِهادَ الحبِّ، يا نبعَ الجمالِ
يا ليالي الحبَّ عاد الحبُّ ذكرَى يا ليالي
أحمد فتحي مرسي
المحامي
البريد الأدبي
تواضع الأديب الحق
مما يسترعي الالتفات أحياناً تلك اللغة التي يخاطب بها بعض الأدباء زملاءهم، فتراهم يقولون: (زميلنا أو صديقنا فلان يطلب إلينا كذا، ونحن نقول له كذا، والأجدر به أن يسألنا كذا) إلى آخر هذا الكبر والتكبر في التعبير
هؤلاء قد نسوا من غير شك أو تناسوا أن تكبر الأديب الحق وتعاليه هو في الفكر والتفكير لا في مخاطبة الآخرين. إني أرى شعار الأديب الحق هو: (تواضع في معاملة الناس، وتعال في معالجة الأفكار). لقد آن الأوان لأذكياء القراء أن يقفوا بالمرصاد لكل أديب يحاول أن يتعاظم بالحط من غيره، وأن يرفع قدر نفسه بوسائل لا تتصل بجوهر الرسالة العليا للفكر والأدب
حدث ذات مرة أن تفضل أحدهم فذكرني بقوله: (صديقنا فلان)! فتساءلت: (أهو يريد أن يشرفني بصداقته أم يشرف نفسه بتعظيمها على حسابي)؟!
يقولون إن الذوق شيء ليس في الكتب؛ ولكني أقول إن الذوق شيء ينبغي أن يكون في طبيعة كل كاتب
توفيق الحكيم
على هامش العدد الممتاز
ظهر هذا العدد حافلاً كما تعود القراء بالآراء المنخولة، والعلم المصفى، والأدب الحي، الذي يبعث الحياة قوية في النفوس التي نال منها الجهد. وقد وقفني، وأنا أطالع بعض ما فيه من بحوث كلمات - هي لفتات قوية - جعلتني أكتب هذه الكلمة القصيرة
1 - يقول الأستاذ الجليل الزيات: (إن عمر رضى الله عنه رأى من العدل أن ينال اليهودي الذي عجز عن كسب حياته، من بيت المال ما يمسك نفسه). ذكرني هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد أهل الحيرة في كتابه الذي جاء فيه: (وأيما شيخ ضعف عن العمل، أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه،

طرحت جزيته وعيل من بيت المال وعياله وما أقام بدار الهجرة والإسلام) أين هذا العدل مما نراه
اليوم من ضياع حقوق الفقراء المسلمين عند الأغنياء المسلمين ولدى الحكومة في دار الإسلام!
ويذكر المؤمن حقاً الأستاذ الغمراوي في تأملاته أن الفضيلة جعلت في هذا الزمن - 2
الضال بأهله وسيلة للغلب: فالأمم تتعاهد فان وجدت في الوفاء ربحاً وفت، وإن وجدت الربح في النكث نكثت. هذه الحقيقة المؤلمة أذكرتني كذلك ما جاء في كتاب الفاروق عمر إلى سعد بن أبي وقاص وهو في حربه مع الفرس: (فإن لاعب أحد منكم أحداً من العجم بأمان، أو فرقة بإشارة أو بلسان كان لا يدري الأعجمي ما كلمه به وكان عندهم أمانا، فأجروا ذلك مجرى الأمان. وإياكم والضحك، والوفاء الوفاء!)
هل ترى أنبل من هذا وأشرف! يحض الفاروق على الوفاء بكلمة تبدو من لأعجمي لا يدري معناها ولا يدور بخلده أنها أمان، أما الأمم التي ترى أنها أوفت على الغاية من المدنية والحضارة، والتي يأخذ عنها سادتنا وزعماؤنا ورجالاتنا العادات والتقاليد، فتتعاهد وتحكم العهد، حتى لا تترك فيه لفظة ينفذ منها شك، أو حرف يكون تعلة للبس؛ ثم إذا رأت إحداها أن خيرها في النكث نكثت، إن مكنها هذا ما تملك من حول وطول، ومن قوى الدمار والهلاك!
يا قومنا! يجب أن نعتز بتراثنا وآدابنا وأمجادنا التي تصمد في مقام الاعتزاز والفخر. بذلك تحترمنا الأمم الأخرى، ونسير في طريق المجد. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.
محمد يوسف موسى
المدرس بكلية أصول الدين
إلى الدكتور زكي مبارك
قرأت ما كتبته في العدد (448) من مجلة الرسالة الغراء تحت عنوان (أعدى الأعداء) ولست أقول فيه شيئاً، غير أني أحيلك إلى ما كتبه الدكتور طه حسين بك في العدد (399) من مجلة الاثنين ففيه خير جواب لك
ولعل من الخير أن أذكرك بكلمة قالها الجاحظ في كتابه عن النساء وهي: (لسنا نقول ولا يقول أحد ممن يعقل أن النساء فوق الرجال أو دونهم بطبقة أو طبقتين أو بأكثر) وبما لقلمك من فضل على الأدب العربي الحديث لا يسعني إلا أن أقول: (هداك الله للحق وأبعد كيد الشيطان عنك).
(بنت بغداد)
حول الهجرة وشخصيات الرسول
أولى المجلات عناية بما ينشر فيها بحثاً ونقداً (مجلة الرسالة الغراء) لأنها أصبحت حقا مشاعاً للطبقة الراقية من رجال الدين والعلم والأدب، فلا غرو أن ينتظر القراء منها تحقيق ما ينشر فيها من بحث أو يذاع فيها من رأي. كتب صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمود شلتوت كلمة ضافية في العدد 449 ناشد فيها أمنية له حارة أن يعني العلماء بجمع ما ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وأن يميز من ذلك ما كان بصفته رسولاً وما كان بصفته إماماً أو قاضياً أو مفتياً، بعد أن مهد لذلك بمقدمة نعى فيها على علماء الإسلام حرمانهم النبي صلى الله عليه وسلم من حق الاجتهاد وصورهم كأنهم يرون النبي صلى الله عليه وسلم اسطوانة لجبريل حيث غلبوا صفة الرسالة على صفة البشرية، إلى أن قال فيهم: ومن زعم ذلك فقد لاقى في رأيه من قريب أو بعيد بالذين يقولون (أبعث الله بشراً رسولاً). ومعلوم أن قائلي ذلك هم الكفار
وماذا يقول الأستاذ في أن كتب الأصول من أولها إلى آخرها تقول بصحة اجتهاد الرسول، وأنه إذا أخطأ في الاجتهاد نزل الوحي بتصحيح الخطأ، لأننا مأمورون في القرآن الكريم بالاقتداء به ولا نقر بحال على الاقتداء به خطأ. كذلك نصت جميع كتب الأصول وكتب الشريعة جمعاء على تقسيم أفعاله صلى الله عليه وسلم إلى ما كان منها جبلياً أو من قبيل العادات فلا يكون شريعة ولا نحن مأمورون بالاقتداء به فيها، وإلى ما هو بيان لما جاء في القرآن أو نزل بالوحي فيجب أن يكون تشريعاً عاماً، وتحدثوا عن ذلك بإفاضة حتى مازوا ما يصدر عنه بصفة كونه إماماً، وما يصدر منه

بصفته مبلغاً أو قاضياً أو مفتياً وهي الشخصيات التي أرادها الأستاذ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم هو أول من أمر الصحابة بالتفرقة بين ما يصدر عنه بصفته رسولاً وما يصدر عنه بصفته من البشر. جاء في صحيح مسلم عنه قال: (إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به وإذا أمرتكم
بشيء من رأيي فإنما أنا بشر) وقال: (أنتم أعلم بأمور دنياكم) واتخذ العلماء ذلك قاعدة شرعية بنوا عليها تفصيل الكلام فيما يصدر عنه صلى الله عليه وسلم من تصرفاته، حتى اختلفت الأئمة الأربعة في كثير من المسائل بناء على هذا الأساس نفسه، كما في قوله صلى الله عليه وسلم: (من قتل قتيلاً فله سلبه) حملها بعض المذاهب على إنه تشريع عام ودائم، ورأى مالك إنه تصرف منه بصفته إماما. كذلك ورد (من أحيا أرضاً ميتة فهي له) رأى مالك والشافعي أن ذلك من باب التبليغ والرسالة فهو تشريع دائم، ورأى أبو حنيفة أن ذلك إنما صدر عنه بصفته إماماً. إلى غير ذلك مما هو مذكور في كتب الخلاف

هذا حديث العلماء في القديم والحديث في الفقه واختلافه باختلاف النظر إلى شخصيات الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يصدر عنه من قول أو فعل، بسطوا القول في ذلك ووضعوا له الأبواب والقواعد في كتب الأصول وكتب القواعد وأحكام القرآن والسنة

فأمنية الأستاذ محققة بحمد الله، وأما الخلاف في الفروع الجزئية فهو ضرورة اجتماعية في كل تشريع، ويمتاز التشريع الإسلامي بأنه فيه مصحوب بحسن التفاهم وعمق النظر إلى اختلاف أحوال الأفراد والطوائف مما لا يوجد في التشريع الوضعي.

محمد عبد السلام القباني

المدرس بكلية الشريعة

البراق النبوي وقصة المعراج في التصوير الإسلامي

نشرت مجلة المقتطف في عدد فبراير 1942 مقالاً للأستاذ (عمر حمدي) خريج معهد الآثار الإسلامية عن: (البراق النبوي) كنا ننتظر أن يذكر الأستاذ في ذيله إنه ترجمة لفصل من كتاب (التصوير في لمؤلفه (السير توماس أرنولد)، وهذا الفصل في الكتاب المذكور من صفحة 117 - 122 بعنوان (البراق)

والأجدر بخريج معهد الآثار الإسلامية أن يلجأ في كتابة مقال إلى الطريقة العلمية الصحيحة من إرجاع الفضل لذويه، والاعتماد على المراجع؛ فتلك هي الأمانة العلمية الواجبة، فنحن الآن في عصر زخرت فيه المكتبات بالكتب، وصار فضل كتّاب المقالات، بل فضل المؤلفين أنفسهم هو فضل إسناد الآراء إلى مصادرها الأصلية. ذلك ما يطلب
منهم، إذا لم يكن أن يكون لهم في مضمار العلم فضل الابتكار.

ونأمل أن يتفضل المقتطف الأغر بنشر هذا الاستدراك في عدده القادم.

السيد العجمي

رأي الأئمة في المذاهب الصوفية

بعد أن أطلعت - أيها القارئ الكريم - على فتوى الإمام (الطرطوشي) بالشين في المذاهب الصوفية، يجدر بك أن تسمع رأي أئمة الفقه المجتهدين في هذه المذاهب الصوفية التي ذر قرنها في أواخر القرن الثاني للهجرة، وظهر الشذوذ في المنتحلين لها في القرن الثالث للهجرة

قال الإمام الشافعي الذي توفى سنة 204هـ: إذا تصوف الرجل في الصباح لا يأتي المساء إلا وهو مجنون. وأنكر الإمام أحمد الذي توفى سنة 241هـ بعده على خيارهم، ونهى عن قراءة كتب الحارث المحاسبي على التزامه الكتاب والسنة علماً وعملاً. وروى الخطيب بسند صحيح أن الإمام أحمد سمع كلام المحاسبي فقال لبعض أصحابه: ما سمعت في الحقائق مثل كلام هذا الرجل، ولا أرى لك صحبتهم. وسئل الإمام أبو زرعة عن الحارث المحاسبي وعن كتبه التي ألفها في: أصول الديانات، والزهد على طريق الصوفية؛ فقال للسائل: إياك وهذه الكتب، بدع وضلالات. عليك بالأثر، فإنك تجد فيه ما يغنيك عن هذه الكتب؛ فقيل له: في هذه الكتب عبرة؛ فقال: من لم يكن له في كتاب الله عبرة، فليس له في هذه عبرة - بلغكم أن مالكاً أو الثوري أو الأوزاعي أو الأئمة صنفوا كتبا في الخطرات والوساوس وهذه الأشياء؟ هؤلاء قوم قد خالفوا

أهل العلم. ثم قال: ما أسرع الناس إلى البدع!
ومن خيار الصوفية الوعاظ المتقدمين منصور بن عمار، وقد ذكر بن مفلح في كتاب (الآداب الشرعية) أن الإمام أحمد نهى عن كلامه. وقد أنكر الغزالي في كتاب (الغرور من الإحياء) على المتشبهين بالصوفية، وكان ذلك في أواخر القرن الخامس، فإن الغزالي توفى سنة 505، وكان قد تاب إلى الله من علوم التصوف والكلام وانقطع إلى علم السنة. ثم أن ابن الحاج المالي المتوفى سنة 737هـ تكلم في كتابه (المدخل) على هؤلاء المتشبهين
بالمشايخ من أهل عصره في القرن الثامن وبين ما لهم من المنكرات، وفند ما يدعونه من الكرامات
وبعد، فهذا نموذج من كلام أئمة الإسلام ندعم به فتوى الإمام الطرطوشي في المذاهب الصوفية، وحسبي ذلك وكفى
(كفر المندرة)
أحمد أحمد القصير
مات حتف أنفه
في الطبعة الرابعة لكتاب (إعجاز القرآن) للرافعي رحمه الله ص332 في الكلام عن البلاغة النبوية وتحت عنوان (تأثيره في اللغة صلى الله عليه وسلم) يقول المؤلف: فلا جرم كان صلى الله عليه وسلم على حد الكفاية في قدرته على الوضع والتشقيق من الألفاظ وانتزاع المذاهب البيانية حتى اقتضب ألفاظاً كثيرة لم تسمع من العرب قبله. . إلى أن يقول (وكلها قد صار مثلاً وأصبح ميراثاً خالداً في البيان العربي كقوله: مات حتف أنفه. وقد روى عن علي بن أبي طالب (رضى الله عنه) إنه قال: ما سمعت كلمة غريبة من العرب (يريد التركيب البياني) ألا وسمعتها من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وسمعته يقول: (مات حتف أنفه) وما سمعتها من عربي قبله) ا. هـ
ولكنا نرى في لامية السموأل بن عادياء المشهورة قوله:
وما مات منا سيّد (حتف أنفه) ... ولا طُلّ منا حيث كان قتيل
فكيف توفق بين هذا وذاك؟ . . .
الرجاء أن تطرحوا السؤال على القراء، ليجيب عليه من حضراتهم من يشاء.
(البصرة)
خالد الشواف
العدد 453 - بتاريخ: 09 - 03 - 1942
دروس في الحرب
هل تنسى؟ . . .
للأستاذ عباس محمود العقاد
واحدة. اثنتان. ثلاث. . . ثمان . . .
ومضى صاحبي يعد الفتيات اللائي يعبرن بنا في الظلام واحدة بعد واحدة حتى أربى العد على العشرين، وكلهن يعبرن الطريق منفردات كأنهن رجال، وقل في الطريق من يلتفت إليهن، أو يريهن أنهن أخطأن بالخروج في هذا الليل على انفراد، أو يعجب كما عجب القائل:
ثم قالت وأحسّتْ عَجبي ... من سُراها حيث لا تسري الأسود
لا تَعجّب يا حبيبي فالسرى ... عادة الأقمار والناس هجود
قال صاحبي: لو خرج هؤلاء في ليلة كليلتنا هذه في القرن الماضي كيف كن يخرجن؟
كن يخرجن والمصباح أمامهن في يد الخصي أو الخادم إن كن من ربات الخدم والخصيان، أو كن يتسللن في استخفاء كتسلل اللصوص إن لم يكنّ من ذوات اليسار.
قلت: فإن كانت فتيات اليوم لا يحتمين بحارس ولا مصباح فما أظن العلامة كلها علامة خيرا! من يدريك يا صاحبي لم لا يلتفت إليهن أحد من أولئك المدلجين في الظلام ولم لا يلتفتن إلى أحد؟ لعل كل عابر من أولئك المدلجين ذاهب إلى موعد! ولعل كل عابرة من أولئك المدلجات ذاهبة إلى موعد مثله! ومن لم يكن من الرجال على موعد فلعل الذي يثنيه عن المناوشة والمغازلة علمه أن الفتاة العصرية تجرؤ الابتداء أو على الإيماء والإيحاء ولا تنتظر حتى يجيء الابتداء من الرجال. فإذا رآها معرضة أو جادة في الطريق علم أن ابتداءه بالمناوشة والمغازلة لا يفيد، وأن الأكرم له أن يمضي في

سبيله حتى تبدو له إشارة من إشارات التشجيع.
ليس كله يا صاحبي بخير!
ليس كل هذا من الصيانة بل فيه كثير من الابتذال والهوان، وليست كل شجاعة المرأة خيرا بل حياؤها وجبنها أكرم لها من هذه الشجاعة في بعض الآراء.
وانتقل الحديث من عابرات الظلام إلى الظلام نفسه فقال الصديق: والله لقد ألفناه حتى
استحببناه، ووالله إن الإنسان ليخرج من البيت إلى الطريق كأنه على العكس خارج من الطريق إلى البيت، لأن في الظلام معنى الاستكنان والإيواء، وفي النور معنى العموم والشيوع. فإذا تجاوز أحدنا الباب فكأنه خارج من عالم حافل بالناس والمناظر إلى عالم لا مناظر ولا ناس فيه.
قلت: ما أدري إن عشنا كيف تفاجئنا القاهرة أول ما تضاء كما تضاء في أيام السلم قبل سنوات؟ أخالنا سنحسبها ليلة عيد أو مهرجان؛ وأخالهم لا يصنعون في احتفالهم بالسلم أكثر من إضاءتهم المدن كما كانت تضاء.
قال صاحبي وكأنه خاف على ظلامه الذي ألفه واستراح إليه: أو عائدون نحن إلى تلك الأضواء المسرفة لا محالة؟ لم لا نستفيد من دروس الحرب ونقنع بهذا النصيب من النور الذي يهدينا إلى حيث نشاء؟ فإن لم يقنعنا هذا النصيب فلم لا نزيده بمقدار ما نتقي بعض الأضرار التي نحذرها الآن؟. . . لم لا نقنع بربع ذلك الضوء الذي كنا نسفكه على الأرض أو على الوجوه التي هي شر من الأرض قبل سنوات؟
قلت أداعبه: نعم. أو على الوجوه التي تعدها الآن ولا تراها!! ولو رايتها لما كنت ارتقيت بالتعداد إلى العشرين وما فوق العشرين!
وكان صاحبي جائعا فوقف عند دكان من دكاكين الشطائر وقال: بإذنك يا عضو المجمع اللغوي. . . ألا تأذن لنا في (شاطر ومشطور والطازج بينهما)؟
يريد صاحبي ما شاع على ألسنة العامة من تسمية المجمع للشطيرة أو (السندويتش) بذلك الاسم المطول الذي يدل على وليمة كاملة، لا على لقمة تتناولها الإصبعان.
قلت أداعبه أيضاً أو أنتقم منه: بل في بلغة إن أردت!!
قال: أو هذه تسمية المجمع؟ أو هو تصحيح وترجيح؟
قلت: إنك لأحرى أن تصدق هذه التسمية الصحيحة من تصديقك تلك التسمية التي لا تساغ ولو على سبيل المزاح. والبلغة أخف من الطازج بين الشاطر والمشطور.
ثم ذكر صاحبي أن اليوم من أيام النبات وليس من أيام اللحوم. فعاد إلي يرد انتقامي وسألني:
أو يعجب هذا صاحبك المعري؟. . . ما زلتم تهتفون باسم هذا الرجل حتى أوشكنا أن نقتصر على العدس والتين مثله. فلا تزيدوا بربكم من ذكره لكيلا نلتزم البيوت ولا نرى في الدنيا غير الظلام. . .!
قلت: وما بالك لا تحسبه درسا من دروس الحرب الباقية؟ وما بالك لا تحمد لنا أن ذكرنا المعري حتى أوشكنا أن نرضيه وأن نقتدي به في طعامه؟
وكانت نوبة الاعتبار والاتعاظ مالكة زمام الصديق في تلك الليلة، فأخذ في تفصيل هذا الدرس الجديد، وطفق يقول ويكرر: ولم لا؟ ولم لا؟ إننا تعودنا ونعم العادة ما تعودنا. . فلنمض في ذلك طائعين ننسى غدا أننا مضينا فيه أيام الحرب ونحن كارهون..
وراح يقول: أو ليس هذا ضرباً من الصيام المحمود؟ أليس فيه ما في الصيام من شعور بالمساواة بين الأغنياء والفقراء؟ أليس فيه ما في الصيام من ضبط للنفس وكبح للشهوات؟ أليس فيه قصد ومنفعة؟ أليس فيه صحة وحمية؟ أليس فيه تآزر بين البيت والأمة فلا يأكل البيت إلا بمقدار ما تسمح الأمة؟
قلت: بلى، فيه هذا وفوق هذا
فظن أنني أمزح سأهزأ به فتأهب قائلا: وما فوق هذا؟
قلت: على ربعك! لست أمزح ولا أنوي أن أستهزئ بنوبة عظاتك في هذه النوبة. . .
إن الأيام التي خلت من اللحوم لفيها ما ذكرت وزيادة: فيها الحمية والقصد وضبط النفس والمساواة بين الغني والفقير، وفيها أنها ستبصرنا بمنافع السمك وطالما عجبت لإهمال المصريين إياه.
فمصر يحف بها بحران عظيمان، وفيها بحيرات كبار، ويتخللها النيل وليس هو أغنى

هذه الموارد بالسمك النافع، ولكنه مورد لا نستفيد منه كل ما يستفاد
وقد كانوا في مصر القديمة يستفيدون منه ويأكلون سمكه أيام الفيضان، ويملحونه
ليحفظوه إلى الفيضان المقبل، لأنهم كانوا يجهلون من أساليب الصيد في البحار
وتوليد الأسماك فيها ما نعلمه الآن
أما نحن فعندنا الزوارق البخارية والوسائل العصرية والمعرفة بعلوم الأحياء. فلماذا لا
نستكثر من أكل السمك وهو غذاء صالح للأجسام والعقول؟
فصاح مستفهما: وللعقول؟
قلت نعم. . . وإن أناسا جادين في القول والبحث ليزعمون أن الفلسفة اليونانية مدينة
للسمك بالشيء الكثير، وإن حكماء الإغريق نبغوا على الشواطئ وبين أبناء الجزر،
لأنهم كانوا يستكثرون من أكل السمك وفيه (الفسفور) كما تعلم، وفي الفسفور غذاء
للمخ والأعصاب، وغذاء للعقل والإدراك من هذا الطريق.
ومن فكاهات العصر الحديث ما يؤيد أولئك الباحثين الجادين فيما زعموه. . . أو لم
تسمع بحوار الإنجليزي والاسكتلندي على السمك ومناصب الدولة؟
قال: لا
قلت: فاعلم أن إنجليزياً سأل رجلاً من أذكياء اسكتلندة متعجباً: ما بالكم يا هؤلاء
وليست في بلادكم العاصمة ولا مراكز الدولة، تشغلون أكبر مناصبها، وتستأثرون فيها
أحيانا بالوزارة والقيادة والقضاء؟
فارتد إليه الاسكتلندي مجيباً: أو لا تدري؟ إنه الدماغ، وإنه السمك. . .!
قال الإنجليزي: وما العلاقة بين الدماغ والسمك وأبناء اسكتلندة؟
فقال الاسكتلندي: إن السمك فيه الفسفور وإن المخ لا يعمل بغيره، وإنه كثير في
سمك بلادنا. . .!
قال الإنجليزي: أئذا أكلت من سمك بلادكم رشحت نفسي بعد حين لمنصب من تلك
المناصب الرفيعة؟
قال: بلا جدال
ونقده الإنجليزي جنيهاً وأرسل إليه الاسكتلندي سمكة وعاد بعد أيام يسأله: كيف أنت
واقترابك من المناصب الرفيعة!
فهز الإنجليزي كتفيه وأجابه: كما أنا!
قال: إذن كرر التجربة
وكرر التجربة، وأعطاه الجنيه، وأكل السمكة، وعاد إليه بالسؤال مرتين وعاد إليه
بالجواب عينه، فلما قال له: كرر التجربة إذا بالإنجليزي يقاطعه هذه المرة صائحا:
- أولاً يباع بالجنيه عندكم أكثر من سمكة واحدة؟!
فابتسم الاسكتلندي وربت على كتفيه وهو يقول: هذا معقول السمك قد آذن أن يظهر
يا
صاح!
ومن أين لنا أننا إذا طالت التجربة في مصر، قلنا لمن فهموا بعد أن كانوا لا يفهمون:
هذا مفعول السمك يا هؤلاء، وهذه بركة الأيام التي لا تحمدونها الآن!
دروس من الحرب، وكم للحرب من دروس. . . فهل نذكرها؟ وهل ننساه فيضيرنا
نسيانها!
ويح بني الإنسان! لو أن درساً من دروس جيل ينفع الجيل الذي بعده لما تلاحقت
المصائب عليهم جيلا بعد جيل.
وويحهم مرتين! لو أن الأجيال السابقة تجرب للأجيال التي بعدها وتعيش لها لبطل
عيش اللاحقين وأصبح كالنسخة المكررة من عيش السابقين
فليجربوا أو لا يجربوا، ولينسوا أو لا ينسوا، فما هم بناجين، وما هم عن تكرار التجربة
بمستغنين، ولو كلفتهم السمكة أكثر من جنيه، وأبطأ مفعولها بعد قضاء الثمن مرات.
عباس محمود العقاد
نظرة عاجلة
في ديوان الشبيبي
للدكتور عبد الوهاب عزام
حسبت، وديوان الشبيبي في المطبعة، أني سأسبق الكتّاب إلى الكتابة عنه حين ينجز

طبعه؛ ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه. فقد لبثت حقبة أتربص فرصة بين الأشغال المتتابعة، وأرتقب فترة من المسرعة، وكلما صرفتني الشواغل عن مقصدي أنشدت قول الأنوري الشاعر الفارسي:

أكَر محوّل أحوالِ جهانيان نه قضاست ... جرا مجاري أحوال برخلاف رضاست

ويمكن أن يؤدي معناه في العربية بهذا البيت:

لماذا يخيب رجاء البشر ... إذا لم يكن أمرهم للقدر

وكانت عطلة عيد الأضحى، ودعيت إلى المشاركة في المؤتمر الطبي العربي الذي اجتمع في مدينة أسوان فقلت هي فرصة: أصحب ديوان الشبيبي في القطار كما صحبت ديوان البحتري في سفري من حلب إلى استانبول قبل أربع سنين. ورحم الله أبا الطيب الذي قال: وخير جليس في الزمان كتاب.

عبرت ديوان الشبيبي عبرة وعزمت على أن أبادر بالكتابة عنه حينما أعود إلى القاهرة. ثم سارت الأيام سيرتها، وجرت الأمور مجراها، فإذا شهر ونصف يمضيان من الزمن الطيار الذي قال فيه المعري:

وأصغر كون تحته كل عالَم ... ولا تدرك الأكوانَ جردٌ صلادم

وقال عبد الحق حامد شاعر الترك الأكبر:

كجمز، صانيرم، بوردز كاري ... سر عتيلدر أو لقدرَ كَذارى

(وترجمته:

ويسرع هذا الزمانُ المرورَ ... إلى أن أُرى أنه لا يمرّ)

ثم تسنت لي جلسة خالية مختلسة من بين المشاغل التي تعبدنا وتستبد بعقولنا وقلوبنا فاستطعت أن أخط كلمات قليلة عن ديوان الشبيبي، وما هي إلا نظرة عاجلة غير شاملة حاولت جهدي، حين الكتابة، أن أتجاهل السيد رضا الشبيبي، وأقدر أنني لا أعرفه وأني لا أكن له في نفسي وداً وإعجاباً ليتيسر لي أن أزن الكلام بقيمته لا بمكانة قائله. ولكن كان كل بيت تقع العين عليه يذكر بأن بيت الشبيبي تتمثل فيه الأديب الوقور جالساً جلسته، متحدثاً حديثه؛ فلم أستطع أن أخادع نفسي عن الشبيبي ساعة واحدة أصف فيها الديوان. قلت لنفسي كيف الحكم وقد قال النقاد ينبغي ألا يكون لمعرفة الإنسان وميله أثر في حكمه؟ قالت: قد حكمت ولم تشعر. قلت كيف؟ قالت: ألست تقول إن كلام الشبيبي يذكر به، ويصدق الحديث عنه؟ وخير الكلام ما شف عن صاحبه ومثله لقارئه.

- 1 -

يفيض قلب الشبيبي بحب قومه العرب، وينطق شعره بالغضب لهم والتوجع لما أصابهم والفخر بماضيهم والثقة بمستقبلهم. وحسبك بقصيدته القافية التي يتناشدها أهل الشام:

ببغداد أشتاق العراق وإنني ... إلى الكرخ من بغداد جمُّ التشوق

فما أنا في أرض الشام بمشئم ... ولا أنا في أرض العراق بمعرق

هما وطنٌ فرد وقد فرقوهما= (رمى الله بالتشتيت شمل المفرق)

وشد ما يعجبني ويطربني قوله فيها:

وما الأرض - لولا أربُع عربية - ... سوى عطنٍ بالعبقرية ضّيق

وقد ذكرني قوله في حلوان العراق:

فيا ليتها كانت رباً عربية ... مكرّمة منهن رضَوى وثهلان

بقصيدة أبي الطيب في شعب بوان حينما افتقد وجه العربي ويده ولسانه ثم قال:

ولو كانت دمشق ثنى عناني ... ليبقُ الثرد صينيّ الجفان

وكذلك يذكر بأبي الطيب قوله:

وافت عجائبُ أجيال وأعجبها ... إذا تأملت، جيلٌ عُربه عجم

واقرأ قصيدته: (دمشق وبغداد)، وقف على هذا البيت الذي فاضت فيه أنهر العرب الأربعة:

برَدَى وأودية الفرات ودجلة ... والنيل غصَّ بمائكِ الوُراد

ويتبين الإباء العربي حتى في غزله:

تعفّف بعد العجز قوم فما حكموا ... خلائق أقوام متى قدروا عفّوا

وأشقى الهوى ما كان غاية أهله ... وُعقباهم منه الخلاعة واللهوا
ومن خير ما يقرأ في هذا قصيدته الحب الطاهر.
- 2 -
وأما العراق فقد وهبه الشاعر عقله وقلبه. ما يذكره إلا يجب قلبه ويفيض دمعه، أو تثور نفسه، حزنا لما يرى وطموحا إلى ما يبقى له من العزة والسؤدد والسعادة:
أي دمع يفيض من أي مقله ... لوقوف بين الفرات ودجلة
ما أخال الخرير والماء إلا ... صوت حزن وعبرة مستهلة
يا خليلي إن تشاءا أسعداني ... في شجوني فالخل يسعد خلّه
عللاني بذكر نهضة قومي ... قبل ألا أرى لقلبي تعلّه
أين ذاك العراق؟ أين بنوه؟ ... ليتهم أبصروا العراق وأهله
وقوله:
نظرت بني الدنيا فأصررت أنها ... على الشر لا تنفك تجري النحائت
هم أضمروا حب المظالم فاستوت ... دخائلهم والظاهر المتفاوت
سوائم يرعى بعضها دم بعضها ... شتاتاً وهل تحمى السروح الشتائت؟
- 3 -
وللأستاذ الشبيبي نظرات في الحياة تعرب عن ضيقه بها وانقباضه وارتيابه في الناس، وتذكر أحيانا بأبى العلاء المعري:
من الناس خافي أيها النفس واحذري ... ولا تأمني إن المخافة في الأمن
وكأنك تقرأ للمعري حين تقرأ القطعة التي سماها (من لزوم ما لا يلزم):
حياتي هذه ليل ... إذا متّ غدا يُجلي
وما آسى على شيء ... من الدنيا وإن جلاّ
- 4 -
وللأستاذ شعر فلسفي يسمو إلى النظر العالي في الكون والإبانة عن جلاله وجماله. اقرأ قصيدته على ضفاف دجلة:
يد لدجلة عندي لست أجحدها ... إلا إذا جحدت سلسالَها الهِيمُ
حلقت ليلة تعريسي بشاطئها ... ألا يميل برأسي عنك تهويم
إذ كل زمزمة في الكون هينمة ... بل كل ما فيه تغريد وترنيم
لي في الرياض إذا أَمْرَ عن فلسفة ... وحكمة ملء مرآها تعاليم. . الخ
وبعد فقارئ ديوان الشبيبي يمر بصور صادقة، صور إنسانية عالية وأخرى قومية رائعة. ويرى من آمال الحياة وآلامها، وسعادتها وشقائها، وجمالها وقبحها، ما يحسن الشاعر الإبانة عنه، ويصدق التصوير فيه، حتى تحسب خياله حسا ومجازه حقيقة.
والخلاصة أن شعره يصدق قوله في الشعر:
إذا أنت كابرت الحقيقة عبَّرت ... فصاحة قُسّ عن فهاهة باقل
إذا قلتُ إن الشعر بحر غبنته ... متى يستقيم البحر من غير ساحل؟
قرائحنا منه بحور خضارم ... ومنها - إذا جربت - رشحُ الجداول
وأجمع أقوال الرجال أشدها ... معان كبار في حروف قلائل
ولله ما أبصره بالشعر الحر العالي حين يقول:
ما من بصير بحق الشعر يحفظه ... كن شاعر الوقت أو كن شاعر الزمن
زن قبل لفظك معنى البيت تُنشِئه ... فرُبَّ بيتٍ بمعنى غير مُتزن
ولعل لنا نظرة أخرى شاملة مفصلة في الديوان إن شاء الله.
عبد الوهاب عزام
بين آدم وحواء
حديث السدرة
للدكتور زكي مبارك
كانت حواء تعبت من عقل آدم، وكان آدم تعب من جهل حواء، وكان جو الخلاف ينذر بأن صاعقة ستنقض على رأسيهما بعد حين. . ولذلك الخلاف المزعج تفاصيل في كلام شيث بن عربانوس، فما تلك التفاصيل؟
كانت الأوامر والنواهي ثقلت على آدم وحواء (لحكمة يعلمها الله) وكان آدم مع ذلك يدرع بالصبر الجميل، فيراعي الحدود بقدر ما يستطيع. أما حواء فكانت تتمرد من حين

إلى حين، وان كان شيث يؤكد أن تمردها لم يكن في جوهره إلا فنا من فنون الدلال.
ويظهر من كلام شيث أن حواء لم تكن تدرك أن النعيم قد يزول بالعصيان، فما دار في خلدها أن في الوجود مكانا غير الفردوس ينفى إليه العصاة والمتمردون، ولا جاز في وهمها أن ينقل الإنسان من دار إلى دار بسبب الثورة على الأدب والذوق. وكيف تدرك حواء هذا المعنى وقد ولدت في جنة دانية القطوف، ولم تسمع بأخبار الأرض إلا بعد أن قضى الله في أمرها بما أراد؟
ويظهر أيضاً من كلام شيث أن آدم كان يخاف الله أشد الخوف، وكان يدرك بفطرته أن النعيم قد يزول بالعصيان، وأن لابد من تأديب حواء إن تمادت في الضلال.
كان آدم يفهم جيدا أن الله لا يتأذى بجهل الناس، وإنما يوقع العقاب بالجاهلين لخروجهم على نظام الوجود، وهو نظام يتأثر باليسير التافه من الانحراف، لأنه غاية في الدقة والترتيب، ولا يحتمل الثبات على الاعوجاج.
وكان آدم يقسم لئن رأى حواء ليذيقنها العذاب على ما اعتزمت من قرب شجرة التين؛ ولكنه كان يتخاذل حين تقبل عليه بجسمها الفينان، وثغرها الرشوف، فقد كانت ثناياها أحب إليه من حب الزمان، وكان قدها الرشيق نهاية ما يتصور من روعة الخطرات.
كان آدم يشعر بأن عزيمته تتحلل إلى أوهام حين يرى جسم حواء، وكان يعجب من أن يكون في الأوامر والنواهي ما يضع حدوداً لسيطرة تلك الضبية العصماء.
والظاهر أن الجسد الجميل يزيغ البصائر والعقول، وينقل الرجل من حال إلى أحوال، ويضيف الحليم إلى طوائف السفهاء، ولا عاصم للرجل من فتنة الجمال إلا إن حمته وقاية الله.
وكان قدّ حواء من القدود السمهرية، وكانت لها مشية تزلزل القلب والوجدان، وكان لها في الضوء لون وفي الظل لون، وكانت ظلال الأهداب توهم أن على خديها زغبا يشبه زغب الخوخ، وكان غضبها أحلى من الرضا وقطيعتها أطيب من الوصال، وكان تثنيها وهي تتخطر فوق شط الكوثر غريبة الغرائب في السحر والفتون.
وكان آدم أضعف من أن يقاوم حواء، فقد كان في فورة الشباب، والشباب جهل، وكان أعجز من أن يرجع على نفسه بالتأديب والتهذيب وهو يعاقر الجمال لأول عهده بالوجود، وأخطر الحب هو الحب الأول، ولكل آدم في الدنيا حواء
كان آدم يقسم ويقسم ثم يقسم لئن رأى حواء ليقطعنها إلى قطع صغيرة حقيرة ثم يقدمها إلى ما في أرباض الجنة من ثعالب وذئاب، جزاء بما تقترف من التفكير في قرب شجرة التين، ولكنه كان يصعق حين تشرف عليه بقدها المرهف وطرفها النشوان.
كان يبدأ بالزجر، ثم ينتقل إلى العتاب، ثم ينتهي بالاستسلام، وذلك مصير الغرماء لأمثال حواء
دعاها مرة إلى أحد الأدغال ليقتلها في خفية ويستريح، فحماها منه جسمها المجدول بأسلاك الكهرباء، فارتد وهو هائم حيران، وعرف أن الهوى فرض على من وهبه الله نعمة الشعور بعبقرية الجمال.
كان آدم رجلا وكانت حواء امرأة، وإذا تلاقى الرجل والمرأة فلا مجال لغير الغي والضلال، وقد غوى آدم بطاعة حواء فقضى الله في أمره بما سجل التاريخ.
جسد حواء صنع ما صنع. جسد حواء غفر جهل حواء جسد حواء فعل بآدم الأفاعيل، فزين له الخضوع لهواها الأثيم
كان آدم يضطرب ويرتعد، حين تختال أمامه حواء بقدها المؤلف من الأحلام والأهواء، وكان لا يعرف أين يضع قدميه وهي تساوره بعينين غافلتين عما تصنعان بقلبه المأخوذ، وعقله الموقوذ، وهل يبقى لمن يصارع الجمال قلب أو عقل؟
جسد حواء صنع بآدم ما صنع، ولكنه تماسك في إحدى اللحظات وقد جالسها تحت السدرة
فدار بينه وبينها ما سجل شيث من هذه الأحاديث:
- أين كنت يا حواء؟
- وما أنت وهذا السؤال؟
- من حقي أن أسأل

- وليس من واجبي أن أجيب!
- إذن نفترق؟
- والى أين تذهب، وللجنة أسوار أمنع من الجبال؟
- السور الحصين هو أنت يا شقية، فإذا نجوت منك فقد نجوت من جميع المهالك والحتوف
- أنت تنجو مني يا آدم؟ أنت تنجو مني؟
(ونظرت إليه بعينين نجلاوين فخشع واستكان وهم بأشياء)
- كل ما فيك جميل يا حواء، إلا التفكير في قرب شجرة التين. . .
- والموت أهون من الصدوف عن شجرة التين
- هي محرمة بأمر الله
- وكيف وقد رأيت ظبية تعطو إلى أوراقها منذ لحظات بلا تهيب ولا تخوف ولا احتراس؟
- الظبية حيوان
- ونحن من الحيوان
- ولكن التكاليف تجعلنا أعظم من الحيوان
- وما قيمة التكاليف؟
- التكاليف لا توجه إلا إلى الحيوانات الراقية
- وأنت حيوان راق يا آدم؟
- لأني في صحبة حواء!
(هنا وقع اشتباك بين خلقتين فطريتين لم يؤهلهما التهذيب لمراعاة الأدب في النضال والصيال)
- كان الظن أن تعرف ما نعاني من الظلم في الفردوس
- وماذا نعاني يا حواء؟
- نعاني الخضوع للأوامر والنواهي، وتلك أول مرة أفهم فيها المراد من وصف الله بأنه صاحب العزة والجبروت
- وهل يظلمنا الله يا حواء؟
- انعدام المساواة من صور الإجحاف
- أتريدين أن نكون أشباها لما في الجنة من طير وحيوان؟
- وما المانع من ذلك؟
- المانع أننا ارتقينا؛ وللرقي تكاليف
- وما حظنا من الرقي المقيد بواجبات وفروض؟
- هو حظ عظيم، يا حواء
- وكيف؟
- لأنه يجعل لنا إرادة ذاتية
- ومعنى ذلك إنه يبيحني أن أصارعك فأصرعك؟
(وتصارع آدم وحواء فانصرعت حواء)
- لا تنزعجي من الهزيمة، أيتها الشقية!
- أحب أن أعرف ماذا تأكل حتى صرت أقوى مني
- طعامنا واحد، ولكن الروح مختلف
- يظهر أنك تأكل من شجرة التين
- قوتي الحقيقية ترجع إلي الانتهاء عن أكل شجرة التين، وطاعة الله هي أعظم سلاح يتسلح به الرجال
- والنساء؟
- الطاعة قوة ينتفع بها جميع الخلائق، حتى الشجر والنبات
- نحن إذا خلقنا للمتاعب، فالطاعة لا تتم إلا بجهاد عنيف
- الجهاد الصادق رزق نفيس، يا حواء، ولا يكون إلا بتوفيق، فهو يستحق الشكران
- أتريد أن أجاهد نفسي فأبتعد عن شجرة التين؟
- ليتك تفعلين!
- أسمع يا آدم، فعندي فتوى تنفعك

- أنت تفتين يا حواء؟!
- دع اللجاجة ثم اسمع. . . حدثتني الحية أن النهي عن شجرة التين نهي تنزيه لا نهي تحريم
- وإذن
- وإذن يجوز قرب الشجرة بلا تعرض لغضب الله، وإن تعرضنا للعتاب
- اسمعي يا حواء واعقلي. . . أنا لا أعرف الفرق بين نهى التنزيه ونهى التحريم. إنما أعرف أن الله نهى عن الشجرة، وأعرف أن الطاعة واجبة، وأنا أخشى عواقب العصيان
- . . .قلت لك أن الحية حدثتني
- أنت في نعيم يحتاج إلى حراسة، فاحترسي من الدسائس يا شقية!
- كل شئ جائز، إلا أن تكون في الجنة دسائس، فهذب كلامك يا آدم!
- الدسيسة لا تلاحق غير السعداء بالعيش الطيب والمواهب السامية. وستعرفين يا حواء صدق ما أقول إن استمعت كلام تلك الرقطاء
- قلت لك أن قرب الشجرة لن يعرضنا لغضب الله
- ولا يعرضنا للعتاب؟
- عواقب العتاب هينة، وهو في الأغلب يتوج بالأعتاب
- المهم في نظري أن نقف حيث وقفتنا الإرادة الربانية، بلا تخريج ولا تأويل، فكل خروج على الطاعة يترك في القلب حفرة، والحفرة قد تتحول إلى هاوية، وإذا تذوق المرء أو المرأة طعم الجموح فعلى الأخلاق العفاء
- أنا لا افهم معنى النهى عن شجرة التين، ولها ثمرة معسول
- من حق الله أن ينهى عن الطيبات
- لأي غرض؟
- ليختبر قدرتنا على ضبط النفس، فلا قيمة لترك الأشياء الكريهة، وإنما القيمة في ترك الأشياء الشهية حين يوجه إليها النهي، ولو عن طريق التنزيه، كما أفتت الحية الباغية
- لا تذكر الحية بسوء أن تكون للمرأة صديقات!
- هل يغيظك أن يكون لي في الجنة رفيقة اسكن إليها من وقت إلى وقت؟ أنت إذن لا تحبني
- احبك حباً لا يطاق، ولهذا الحب عواقب ستعملين أنباءها بعد حين!
- قبلني أن كنت تحبني
- ستقبلك الحية فهي أقرب إليك مني!

وفي تلك اللحظة سمع فحيح هو دعوة الحية فجرت إليها حواء، وتركت آدم لمصارعة (ما في صدره من آراء وأهواء)

فماذا قال آدم لضميره وهو يحاوره تحت السدرة بعد انصراف حواء؟

من كلام شيث نفهم أن آدم زلزل بعد ذلك الحوار، فقد تأهبت نفسه لمناقشة الأوامر والنواهي، وصح عنده أن لكل مسالة وجهين، وان من حقه كمخلوق مفكر أن يدرس ما يعرض لذهنه من حقائق وأباطيل

بدا له أولاً أن الطاعة أفضل، وأن الهيام بالتخريج والتأويل قد يكون من نزغات الشياطين؛ ثم رجع فرجح أن النهي قد يكون ضرباً من الإغراء، فليس بمعقول أن تكون ثمرة التين من الخبائث وهي فيما يظهر طيبة المذاق.

والتفت مرة ثالثة فرأى من الحمق أن يخالف الرجل عن أمر الله من أجل امرأة ثم عاد فرأى أن تلك المرأة هي رفيقه الأول والأخير في الفردوس، فما ارتاحت نفسه لرؤية الأشجار والأزهار إلا وهو مأهول الروح بهوى حواء

هي امرأة لا تخلو من هوج وطيش وسخف، ولكنها من ذوات المعاني، فقد كانت تعرف كيف تصيره جذوة من الصبوة حين تشاء، وكان آدم لا يتمتع بإشراق الفكر إلا في لحظات الصبوات.

ومن عجيب أمره أنه كان يتمثلها حين تغيب، فقد كانت ذاكرته تعي الأصوات والألوان والحركات إلى الحد الذي يسمح بأن يعانق حواء وبينه وبينها فراسخ وأميال

ولكن. . . ولكن الله نهاه عن الشجرة، فماذا يصنع؟

توجه إلى الله بهذا الدعاء:
(يا خالق الكوثر، ويا فاطر الأعناب والنخيل، بك استجيرُ ظلم الجمال!
يا مبدع العيون الكحيلة، والخدود الاسيلة، بك استغيث من سحر الفتون!
أنت سويتني بيديك من جسد وروح، وأنا بالروح أطيعك وبالجسد أعصيك، فهل ترى عدالتك أن الحسنات يذهبن السيئات؟
أن كنت ترى أن شجرة التين شجرة مسمومة فاصرف عنها حواء، فلم تعد لي طاقة على مقاومة حواء؛ ولطف صنعتك هو الذي جذبني إلى تلك الهوجاء.
وإن كنت ترى أن الهاوية تترقب من يعصيك فجرد حواء من سحرها الفتان لأملك من أمري ما لا أملك، لأستطيع الصبر عن ثغرها الرشوف، فأنت يا مولاي تعلم أني بها من الهائمين
(أنا عبدك وحواء أمتك، فاقض في أمرنا بما تشاء، يا أحكم الحاكمين
وانتظر أدم أن يغير الله ما بنفسه بعد هذا الدعاء الصادق، ولكن الأقدار سكتت عنه فظل مخلوقا من جسد وروح، أو من طين وماء
وفي لحطة من لحظات الضجر عزم على المعصية ليعرف مكانه من الوجود
في تلك اللحظة ظهرت حواء، فهتف:
- إلى شجرة التين، يا حواء!
- هل غيرت رأيك، يا آدم؟
- بعض الشيء!
- أنت إذن تحبني؟
- ومن أجل هذا الحب أتعرض لمكاره وخوب، فقلبي يحدثني بأننا مقبلون على بلاء!
- لا تحزن فأنا معك
- من موجبات الحزن انك معي، يا حمقاء!
فكيف انتهت بهما الأمور تحت شجرة التين؟
(للحديث شجون)
زكي مبارك
العادات والإصلاح
كيف نعود إلى التشريع الإسلامي
للأستاذ محمد محمد المدني
يشعر كل امرئ منا بأنه خاضع في نفسه، وفي نظام بيئته، وفي دائرة عمله، وفي كل ناحية من نواحي حياته ونشاطه إلى عادات متنوعة تتحكم فيه، وتفرض عليه سلطانها الجبار وإرادتها القاهرة، وتطبعه بطابعها من حيث يريد أو لا يريد.
يشعر كل منا بذلك في نفسه، ويشعر به في الناس من حوله لا فرق فيه بين طبقة وطبقة، ولا بين بيئة وبيئة، ولا يختلف فيه غنى عن فقير، ولا كبير عن صغير، ولا متعلم عن جاهل.
في الطعام والشراب عادات، وفي اللباس والزي عادات، وفي الجلوس إلى الناس والتحدث معهم عادات، وفي البيت عادات، وفي الطريق عادات. . . وهكذا
وإننا لننتهز فرص الأيام والحوادث، والأعياد والمواسم فنتخذ منها مناسبات لعادات شتى نحافظ عليها ولا نتسامح فيها، وربما عددناها من شعائرنا، وحسبناها من تقاليد ديننا!
هذه فطرة في الإنسان لا بد له منها بقطع النظر عن شريف العادات وذميمها. قضت بذلك حكمة العليم الخبير، ليكون الاستقرار والهدوء، ولتتركز شؤون الحياة، ولينجو الناس من الاضطراب والمفاجآت وأخطار التقلب السريع والتطوير العنيف لذلك يجب أن يدخل في حساب كل مصلح ما للعادات من سلطان على النفوس، ورسوخ في الأذهان، واستقرار في المجتمع ولكن بجانب هذه الفطرة في الإنسان طبيعة أخرى هي طبيعة هذه الحياة نفسها، أن الحياة تأبى الركود، ولا يصلح معها الجمود، ولا بد لمن في سبيل الرقي والكمال؛ فإذا ظل الإنسان عبدا لعاداته، رازحا تحت سلطانها، لا يفكر في التحول عن نظامها المفروض قيد شعرة، بل ينقد غيره ويعنف عليه في النقد إذا رآه يفكر في التحويل أو يدعو إليه، ويقف في سبيل دعوات الإصلاح والتجديد لاوياً عنقه، مثيراً المشاكل، فإنه يكون محتقرا لإنسانيته ملغيا لعقله جاهلاً بالحياة وما ينبغي

للحياة!
وإذا أصرت طائفة من الناس على أن نصادر دعوات الإصلاح في دائرتها، أو على أن تقف في طريق الحياة العاملة الناصبة المنتجة المجددة في غير دائرتها لمجرد المحافظة
على العادات والتقاليد الموروثة، فقد عرضت نفسها لعوامل الانحلال والفناء.
هي إذن معركة حامية الوطيس بين طبيعتين متقابلتين: طبيعة الخضوع للعادات والتأثر بسلطانها، وطبيعة الحياة التي تطلب إلى كل حي أن يسايرها ويتدرج معها، ولا بد من تدخل العقل للفصل في هذه المعركة ووضع علاج يوجد به التوازن بين هاتين القوتين الضروريتين للإنسان. لا بد أن نزن كل شيء بميزان العقل، وان نسترشد بنور هداه في كل طريق نسلكه، وأن ننزل على حكمة راضين غير متبرمين
في كل أمة دعاة إلى الإصلاح يقفون منها موقف المرشد الناصح، ويعكفون على مشاكلها ليضعوا لها الحلول، وعلى أمراضها ليصفوا لها العلاج
وكثيرا ما يقع بين الناس وبين هؤلاء الدعاة المنادين بمبادئ الإصلاح خلاف، وقد يؤدي هذا الخلاف إلى إثارة المتاعب ووضع العقبات في طريقهم، بل قد يؤدي إلى التشكك في نياتهم وأغراضهم وانصراف النفوس عن دعوتهم. ولست أرى في ذلك شذوذاً، وإنما هو شيء طبيعي، لأن المصلح الداعي إلى الخير يحاول أن يلفت الناس عما ألفوا. يحاول أن ينتزعهم من أحضان عادات حبيبة إلى نفوسهم، عزيزة عليهم. يحاول أن يصادر الأهواء والنزعات وشهوات النفوس، فلا عجب أن تكون دعواته ثقيلة على الأسماع، كثيرة الخصوم والمستهزئين.
وقديما جاء محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العرب بدين العقل والفطرة والسيادة والعزم والكرامة الإنسانية، فقاوموه ووقفوا في سبيل دعوته استكبارا أن يتركوا ما ألفوا، أو ينخلعوا مما ورثوا، وقالوا: أنا وجدنا آباءنا على أمة وأنا على آثارهم مقتدون! ولم يقفوا عند هذا الحد بل زعموا انهم لا يدركون ما يقول، وان قلوبهم في أكنة مما يدعو إليه، بل رموه بالكذب والافتراء وهم الذين لقبوه من قبل بالصادق الأمين؛ ورموه بالجنون وهم يعلمون أنه أقواهم عقلاً وأعظمهم رشادا.
هكذا قابل الناس دعوة سيد المصلحين، وبمثل هذه الدعاوي والتهم واجهوه. والتاريخ يحدثنا عن كل مصلح بمثل ما حدثنا به عنه، فكم شرد المصلحون وعذبوا، وكم أوذوا واضطهدوا، وكم قذفوا بالتهم، ودبرت لهم المؤامرات، وحيكت من حولهم الاكاذيب، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا، والله يحب الصابرين.
لا بد لدعاة الإصلاح إذن من الصبر وتحمل المشاق، ولكن هذا وحده لا يكفي، لا بد إلى جانبه من اللباقة وحسن التصرف وتقدير الظروف والأحوال حق قدرها؛ وإنما يكون ذلك بالتدرج دون الطفرة. لقد تدرج القرآن بالمسلمين من قبل، فكان ينزل أولاً في بيان العقيدة والاستدلال عليها؛ وكان ينزل بمكارم الأخلاق؛ وكان ينزل في الزراية على العادات الذميمة. ثم جعل - بعد أن استقرت الدعوة - ينزل بتشريع الأحكام شيئاً فشيئاً، حتى أن قوله تعالى: (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا)، لم ينزل إلا في العام الذي توفى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو لم يفاجئهم بالدين كاملا قد استوفى جميع مبادئه وأحكامه، ولو فاجأهم بذلك لفشلت دعوته، وقل أنصاره وحماته!
لقد تناولت هذا المعنى في مقال لي قبل اليوم، وإنما أسوقه الآن ليتخذ منه المصلحون عبرة وليعرفوا ما فيه من موضع الأسوة الحسنة، فيتدرجوا بالأمة كما تدرج القرآن
لقد بدأ هذا الدين غريبا، وهاهو ذا يعود غريبا كما بدأ: أصبحت تقاليدنا غير تقاليد الإسلام، وأخلاقنا غير أخلاق الإسلام، وأحكامنا غير أحكام الإسلام، وقوانيننا غير قوانين الإسلام. أصبحنا نحرص على العادات التي ورثناها عن الآباء والأجداد أكثر من حرصنا على الدين. وإن أحدنا ليثور ويتألم إذا حاول محاول أن يصادره في عادة من عاداته، ولا يثور إذا اعتدى معتد على دينه، زاعماً أن للدين ربا يحميه، وما يريد بذلك إلا تبرير سكوته على العدوان وإيثاره للسلامة!
عندما أبطلت عادة الاحتفال بالمحمل انقطعت العلاقة بيننا وبين حكومة الحجاز، وظل حكامنا ووزراؤنا معنيين بهذا الشأن في كل مفاوضة لإعادة هذه العلاقة، حتى إذا نجح

وزير من وزرائنا في إعادة الاحتفال بالمحمل وإرسال الكسوة عددنا ذلك ظفراً بتبادل الناس التهنئات بالتوفيق إليه، ولكننا مع هذه الغيرة الشديدة على تقليد من تقاليدنا نرضى بهذه التشريعات المجلوبة، والأوضاع المقلوبة، والنظم المستعارة! نرضى بشرائع فرنسا وبلجيكا ونحن أمة القرآن!

يتساءل الناس: ماذا نصنع لكي نعود إلى أحضان الإسلام ونعمل لمبادئ الإسلام؟ ماذا نصنع ليعود التشريع الإسلامي مصدرا للقانون العام في مصر والشرق؟ ماذا نصنع لنستظل بلواء القرآن ونهتدي بهدى القرآن؟

والجواب في ذلك عند الذين بيدهم الحول والطول، ولهم الإشراف على مناصب التشريع والتنفيذ في البلاد: إنهم يرونه بعيدا ونراه قريباً. يقولون: ماذا نصنع وقد أصبح للأمة نظام ثابت متركز، وقانون قد ألفه الناس، ووضع اقتصادي قد سرى إلى سائر معاملاتها ولن تستطيع التخلص منه؟ ماذا نصنع وقد ألفنا في الأحكام والقضاء والعقوبات نظاماً معيناً لا تسمح لنا المعاهدات والقيود الدولية بالخروج عنه؟ يقولون هذا، ويردون به دعوة الدعاة إلى هذه الشريعة، وهم يعلمون أن هذه الشريعة لا تجافي أصول المدنية الحديثة، ولا تنفر من مجاراة النهوض والتقدم، وأن مؤتمرات أوربا قد شهدت لها بذلك وسجلته في قراراتها، وأن ما لا يدرك بالطفرة يدرك بالتدرج وحسن التأتي.

لا نقول لكم: اقلبوا التشريع في البلاد رأسا على عقب، ولا نقول لكم فضوا الشركات والمصارف التي تتعامل بغير ما يقضي به الدين فيما بين يوم وليلة، ولا نقول لكم نفذوا ما جاءت به الشريعة الإسلامية في أحكام القضاء والعقوبات دفعة واحدة؛ وإنما نقول لكم تدرجوا بالأمة في سبيل العودة إلى أحكام الإسلام كما تدرج القرآن بالمسلمين من قبل: خذوا في كل قانون تضعونه منذ اليوم، وفي كل تعديل تقررونه، بمبادئ القرآن، ولا بأس من أن تؤجلوا ما لا تقدرون عليه حتى تعدوا النفوس له، وتقنعوا أنفسكم وتقنعوا الناس به. فإنكم إذا بدأتم السير في هذا الطريق تمهد أمامكم وتيسر لكم، ولم تصادموا به تعهدا من تعهداتكم!

ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون؟)

محمد محمد المدني

المدرس بكلية الشريعة

يحيى النحوي

للدكتور جواد علي

ومن هو يحيى النحوي ذلك العالم الذي يرد اسمه كثيراً في كتب الفلسفة والطب والطبيعيات لدى العرب؟ يرد كمؤلف وكمنتقد لكتب اليونان السابقين، وكطبيب، ويرد كوسيط بين الحضارة اليونانية المسيحية وبين الحضارة العربية الإسلامية فيدخل اسمه بين مؤلفات كثير من علماء المسلمين ويستشهد بأقواله جماعة من أسلافنا العلماء.

قالوا إنه كان يحيى الإسكندراني الأسكلاني تلميذ ساوداي وانه كان أسقفا في بعض الكنائس بمصر ويعتقد مذهب النصارى اليعقوبية، ثم رجع عما يعتقده النصارى في التثليث فاجتمعت الأساقفة وناظرته فغلبهم واستعطفته وآنسته وسألته الرجوع عما هو عليه وترك إظهاره فأقام على ما كان عليه وأبى أن يرجع فأسقطوه وعاش إلى أن فتحت مصر على يد عمرو بن العاص فدخل إليه وأكرمه ورأى له موضعاً. وقد فسر كتب أرسطو طاليس وكتب عن طب جالينوس الشهير.

وقد ذكر الوزير جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي (المتوفى عام 646هـ) في كتابه أخبار الحكماء نفس القصة التي ذكرها ابن النديم بعد أن أضاف إليها أن عمرو بن العاص لما سمع من ألفاظه الفلسفية وحججه المنطقية التي لم يكن للعرب بها أنسة لازمه وكان لا يكاد يفارقه، وأنه نظراً لهذه الدالة التي كانت ليحيي على عمرو طلب منه ذات يوم تسلم بعض ما في خزائن الإسكندرية من كتب لينتفع بها. ولما كتب عمرو إلى الخليفة يستأذنه أمره الخليفة بإحراق ما في الإسكندرية من كتب.

وذكر الوزير قصة أخرى سندها رواية أبي عبيد الله بن جبريل ابن عبيد الله بن بختيشوع الطبيب في كيفية نبوغ يحيى في الفلسفة والمنطق دون سائر العلوم. وهي

قصة وردت في كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة أيضاً؛ وسندها كتاب مناقب الأطباء لعبيد الله بن جبريل على ما يقوله صاحبنا ابن أبي أصيبعة هذا، ويضيف إليها رواية نقلها من تعاليق الشيخ أبى سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني في أن يحيى كان في أيام عمرو بن العاص وأنه شهد الفتح الإسلامي لمصر.

وقد عرف اليونان والسريان هذه الشخصية ولكنهم عرفوها في وقت آخر غير الوقت الذي

حدده المسلمون وسموها اسما يختلف قليلا عن هذا الاسم: سموه يوحنا فيلوبونس ومعناه يوحنا الحريص؛ وسموه أيضاً يوحنا الغراماطيقي أي يوحنا النحوي (يحيى) وقالوا عنه: إنه كان أحد تلامذة أمونياس بن هرمياس. وكان يعلم في الإسكندرية نحو السنة 480 الميلادية وانه كان من رجال القرن السادس. وقال عنه ميخائيل إنه ظهر سنة 550 ميلادية وانه اتبع بدعة المثلثين وأنه ألف كتبا يدافع عنها. فلما عرف به الإسكندريون حرموه كما حرمه رؤساء ذلك أديرة بلاد العرب نحو سنة 573 الميلادية. فأنت ترى من ذلك أن الرجل عاش ومات في عصر لم يكن العرب فيه قد فتحوا مصر بعد؛ ولا يعقل أن يكون قد شهد هذا الفتح أيضاً، فكيف السبيل؟

حاول جرجيس أفندي فيلوثاوس عوض من أقباط مصر وحاول الأب لويس شيخو اليسوعي إيجاد حل معقول لهذه المشكلة التاريخية، فقالا: المعقول أن يكون مقصود العرب من يحيى النحوي هو يوحنا النقوي أو النخوي أسقف مدينة نخو، المعروفة عند اليونانيين باسم نيقيوس أو نيكيو وعند اللاتين باسم أو وإن هذا الاشتباه الذي حصل لدى العرب إنما كان من قبيل التصحيف. وتكاد الظروف التي أحاطت بالأسقف يوحنا النخوي تنطبق مع الظروف والتفصيلات التي تنقلها الرواية العربية المذكورة عن يحيى النحوي، فقد ذكر هذا الأسقف في جملة من حوكم أمام سيمون أسقف الإسكندرية الذي ترأس محاكمة أصحاب البدع عام 683 الميلادية وذكر أنه ألف كتابا في التاريخ باللغة اليونانية ذكر فيه فتح العرب لمصر، عرّبه أحد الأقباط ونقل هذا التعريب إلى الحبشية، وتوجد النسخة الحبشية في جملة مخطوطات المتحف البريطاني. وذكر عنه أيضاً أنه كان صديقا موالياً لقورس بطريرك الإسكندرية وزعيم المنوثلين، وهو الذي يدعوه العرب بالمقوقس، وقد ناصرهم في فتح الإسكندرية. فهذه الصداقة على ما يقوله الأب لويس شيخو قربته من العرب وجعلته من أصدقاء عمرو بن العاص.

وهذا الحل لا يخلو من اعتراضات أيضاً. فالمعروف عن يحيى النحوي أنه كان من الأطباء وأنه كان من الفلاسفة أيضاً، وكتبه تدل على رجل عالم بالطب والفلسفة معاً على رجل ديني فحسب كما هو شأن الأسقف يوحنا النخوي. والمعروف عنه أيضاً إنه كان أسقفاً من أساقفة الإسكندرية، ولم يكن النخوي أسقفاً على الإسكندرية أبداً. على أن الإمام

ظهير الدين أبا الحسن علي ابن أبى القاسم زيد البيهقي (المتوفى عام 565 هجرية) يحدثنا في كتابه (تتمة صوان الحكمة) عن رجل يعرف بيحيى النحوي الديلمي الاسكندراني الملقب بالبطريق، فيقول عنه إنه كان من قدماء الحكماء وأنه كان نصرانياً فيلسوفاً، فأراد عامل علي بن أبي طالب إزعاجه عن فارس وتخريب ديره فكتب يحيي قصة إلى أمير المؤمنين وطلب منه الأمان، فكتب محمد ابن الحنفية له كتاب الأمان بأمر أمير المؤمنين. ويقول مؤلف الكتاب أنه رأى نسخة هذا الكتاب في يدي الحكيم أبى الفتوح المستوفي النصراني الطوسي وكان توقيع علي بن أبي طالب عليه.

ويضيف البيهقي على روايات من تقدمه من المؤلفين قوله إن خالد بن يزيد بن معاوية أخذ الطب عنه، وإن أكثر ما أورده الإمام حجة الإسلام الغزالي في تهافت الفلاسفة هو تقرير كلام يحيى النحوي، وقد وافقه على هذا الرأي الشهرزوري الشهير أيضاً وقد قال إنه ألف كتباً ورد بها وفيها على أفلاطون وأرسطو حين همت النصارى بقتله، ولا يتعرض بعد ذلك إلى حادثة التقائه بعمرو ولا إلى قصة الحريق المزعومة.

ومشكلة المشكلات هي قول الرواة العرب إنه كان أسقفاً على الإسكندرية وانه عاش في زمان عمرو. وعلى كل فالرواية اليونانية السريانية تعارض هذه الرواية العربية ولا تعترف به كأسقف على الإسكندرية أبدا. والرواية العربية على ما يظهر مستقاة بعضها

من بعض؛ فقصة الحريق مأخوذة عن ابن العبري وابن العبري ينقل عن ابن القفطي، وابن القفطي ينقل متن الرواية بدون ذكر حادثة الحريق من الفهرست لابن النديم؛ ولم يذكر ابن العبري نفسه في كتبه السريانية: الكنيسة منها والمدنية، قصة الحريق مما يدل على إنه لم يجد ذلك في كتب السريان.

الحق أننا أمام مشكلة تاريخية فلسفية عويصة، فالرجل مهم جداً في بحث الفلسفة العربية والعقلية الإسلامية، والموضوع معقد لا يعالج في صفحات. ولابد للباحث من تقليب المصادر اليونانية والسريانية والقبطية والعربية أيضاً للحكم بصورة قطعية على شخصية وعصر هذا الفيلسوف الذي هو حلقة وصل بين العقليتين: العقلية اليونانية المسيحية، والعقلية العربية الإسلامية.

(بغداد)

جواد علي

تطور العلوم الاجتماعية

للأستاذ محمد جلال عبد الحميد

يتبين من تاريخ علم الاجتماع إنه لا يزال في دور التكوين. ولعل سبب ذلك يرجع إلى ما يشوبه من نظريات فلسفية أفسدت عليه استقامة عوده، والى عدم استقرار فروعه وتحديد غايتها واستخلاص طرقها.

فنرى تاريخ الأديان مثلا تتنازعه تيارات كثيرة؛ وعلى حسب اختلاف اتجاه تلك التيارات وقوتها تختلف طريقة البحث ونتيجته. وكثير من مؤرخي الأديان الكبرى كاليهودية والنصرانية والإسلام يرون أن للأديان منشأ واحدا لأنها جميعا تعترف بوجود قوة خالقة واحدة لهذا الكون يشعر بوجودها الإنسان حين النظر في أمر تكوينه والبحث عن آثار تلك القوة الممثلة في وجدانه. أخذ هؤلاء العلماء يردون ويفسرون جميع الظواهر الكونية والاجتماعية والنفسية إلى أصل واحد يحيط بها ويعبر عنها بأسلوب لا يأتيه الباطل ولا يتطرق إليه الشك، وهذا الأصل هو الكتب المقدسة وآثار الأنبياء. من أجل ذلك توفرت جهود المؤرخين على جمع وترتيب شتات هذه الكتب وتلك الآثار، وانكبوا على دراستها ليستخرجوا منها أسباب الحوادث والوقائع التاريخية مفسرين كل هذا حسب ما لديهم من اعتقادات راسخة وإيمان ثابت في صحة روايات ووقائع تلك الكتب والأحاديث.

وهناك فريق آخر - وهم الفلاسفة ومن إليهم - يرى أن نشأة الأديان ترجع في أصلها إلى عوامل نفسية لما فطر عليه الإنسان من حب ولما تكون فيه من غرائز، وإن هذين العاملين يتنازعان القوى الروحية للإنسان، وعلى قدر تغلب أحد هذين العاملين على الآخر تتعين طبيعة الدين وقوته. فالدين عند الأمم المحدودة المدنية مثلا هو دين غريزي، لأن أصله غريزة الخوف والتنازع على البقاء. وقد نعته (برجسن) بأنه دين خامد لخلوه من عناصر التطور والتجدد. وأما الأديان الكبيرة كاليهودية والنصرانية والإسلام والبرهمية فإنها تصدر عن عاطفة الحب التي يتميز بها الصوفي في تلك الأديان. ومن أجل ذلك اعتبر موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام أنبياء لتميزهم بحبهم الخالص للعالم كله، وتفانيهم في العمل من أجل سعادته، وقدرتهم على الإشراق والتقمص في قوة الكون ذاتها، ليمثلوها في أجلى مظاهرها وأتم معانيها من خلق وتجديد، وهذه هي الأديان (المتطورة)

ولكن علماء الاجتماع لم يرضهم هذا الرأي أو ذاك، لأن العوامل النفسية والاعتقاد بوجود قوة خالقة ومدبرة لهذا الكون لا يمكن اعتبارها أساساً ومصدراً للأديان، فهناك أديان كبيرة كالبرهمية والبوذية - نشأت وانتشرت ولم تزل تعم جزءا كبيراً من العالم، على رغم إنها خالية من مثل هذا الاعتقاد. ونرى أيضاً أن هناك أدياناً متعددة عند الأمم المحدودة المدنية

- كالقبائل الأسترالية والزنجية وغيرها - لها أوضاع وأسس تشبه في كثير من ظواهرها الأديان الكبيرة، لأنها قادرة على التمييز بين الحلال والحرام وأمر القيام بعبادات منظمة؛ وهذه الأديان أيضاً لم تقم ولم تحدد بمثل ما تتقيد به النصرانية أو الإسلام من ضرورة الشعور بوجود هذه القوة الذاتية؛ وكما إنها لا تشعر الفرد بأن هناك قوة روحية كامنة في الإنسان وخارقة للعادة تدفع الزنجي أو الأسترالي إلى حب غير بني جنسه كما يعمل الصوفي في اليهودية أو النصرانية. فالزنجي أو الأسترالي يتقرب لأبناء

جنسه ويفنى فيهم لأنه لا يرى سواهم حوله، فقبيلته هي كل شيء كذلك حين يقدس هذا الزنجي معبوده (أي توتمه) ويفنى فيه بحبه له، يفعل ذلك، بل وأكثر من ذلك، لأن معبوده هو رمز قبيلته، وأن الفرد والقبيلة هما وحدة لا تتجزأ. وأما الصوفي فحبه الشامل للكون وتفانيه في القوة الخافقة له، لأنه مجبر على الإحساس - دون وعي لحالته - بهذا الشعور، لأن الجماعة التي يعيش فيها تلهمه ضرورة حب غيره من عامة البشر، بل وحب الكون عامة، لأن هذه الجماعة هي خلاصة العناصر المادية والروحية للإنسانية كلها، ولأنها رمز قوة الكون، لذلك كان هم الصوفي أن يسعى ليفنى في هذه القوة ذاتها.

من أجل ذلك يقرر علماء الاجتماع أنه إذا فرض واعتبرت الجماعة البشرية مصدر الأديان مهما اختلفت عصورها وتباينت بيئاتها فقد يكون في ذلك حالة أدعى للطمأنينة وأدنى للصواب حين يعمل الإنسان لكشف حقيقة الأديان وتحليلها إلى عناصرها الأساسية، وفي هذا الاتجاه سار إميل دركيم وتلامذته بفرنسا.

وهذه وإن كانت محاولة جريئة قد تهيئ لنا مجالا أوسع للبحث والتنقيب عن أصل كثير من الظواهر الدينية ومعتقداتنا وأساس إيماننا.

ولم يكن حظ الجغرافيا البشرية أوفر من حظ علم تاريخ الأديان من حيث القدرة على استخلاص قوانينها العامة والاسترسال في تحقيقها. فكثير من الجغرافيين يرون أن البيئة

الاجتماعية - بما فيها من تنوع في النشاط المادي والروحي - هي نتيجة حتمية للتأثيرات والعوامل الطبيعية للمنطقة التي تشغلها تلك البيئة الاجتماعية؛ فإذا أينعت الأرض وعم خيرها وصلح جوها شبعت الجماعة وكثر نشاطها وعم فرحها وتنوعت ظواهرها الاجتماعية وتميزت عناصرها الجنسية.

وهناك فريق آخر من العلماء يقولون إن غاية علم الجغرافيا البشرية هي دراسة العلاقة بين الإنسان وبين البيئة الجغرافية التي يسكنها وأثر كل منهما في الآخر وتحديد ما يتركه هذا الأثر في التكوين الاجتماعي. ويظهر أن هذا هو الرأي الأخير الذي استقر عليه عامة الجغرافيين والاجتماعيين.

وأما علم الأنتولوجيا فإنه لم ينج أيضاً من تلك العقبات الموضعية عند نشأته، فقد اعتبره (كترفاج) أحد فروع الزيولوجيا وجاء بعده (بروكا) وتلامذته (أرنست هامي) (وفرنو) فتوسعوا في فهم هذا العلم ووضعوا أسسه المختلفة، فضموا إليه دراسة المدنيات واللغات، وتسابقت الدول بعد ذلك في إدخال تعديلات وزيادات في مناهجه وأسسه كل منها حسب فهمها له والغاية التي ترجوها منه؛ فبعض هذه الدول كان يتخذه أداة صالحة للاستعمار، وبعضها الآخر يتناوله على أنه علم قائم بذاته له تجارية وأوضاعه؛ وغنى به كثيراً في الفترة الأخيرة في ألمانيا وإنجلترا وفرنسا وأمريكا.

وهكذا حال بقية العلوم الاجتماعية الأخرى مثل علم النفس الاجتماعي وعلم الاقتصادي الاجتماعي وغيرهما لم تكن أثبت وأدعى للطمأنينة فيما سبق من العلوم، لأن ميادين تجاربها لم تتعين إلا قليلا ولم يتنوع العمل فيها إلا يسيرا

وبرغم هذا فإن تطور علم الاجتماع وبلوغه الدرجة التي يقف عندها الآن مدين في كثير منه إلى تلك العلوم، لأنها عملت وما زالت تتعاون فيما بينها على كشف حقيقة عدد قليل من الظواهر الاجتماعية والدينية والاقتصادية. وكثيرا ما استفاد إميل دركيم من البحوث الأثنولوجية التي قام بها (سبنسر وجلن) & على قبائل استراليا؛ وذلك حينما حاول دركيم عام 1912 تفسير الظواهر الدينية لدى الأمم المحدودة المدنية. ونرى كذلك (ليفي برهل) - يرجع دائما إلى نتائج البحوث الأثنولوجية حينما يريد أن يحدد ويحلل عناصر التفكير ووسائل التعبير عنه لدى الأممالمحدودة المدنية. وتجد أيضاً (ومرجان) (ووستر مارك)

وغيرهم من الاجتماعيين لم يتمكنوا من التقدم خطوة واحدة في (ومارسل موس) بحوثهم وتحقيق نتائجها دون الرجوع إلى بحوث الأثنحرافيين.

وإذا أنعمنا النظر يظهر لنا الفرق الحقيقي بين العلوم الاجتماعية من حيث فائدتها لعلم الاجتماع؛ فالأنتولوجيا هو الطريق المباشر الذي يسلكه الاجتماعي للبحث عن اصل كثير من الظواهر الاجتماعية والدينية والاقتصادية بل والمبادئ العلمية نفسها؛ لأننا لم نزل نشاهد في كثير من بقاع الأرض أمماً وقبائل تتبع في طريقة عيشتها وسائل

بسيطة، وتتبع في التعبير عن تفكيرها وشعورها صوراً متناهية في البساطة إلى درجة يمكن اعتبارها إحدى صور الحياة والتفكير للأمم التي سكنت أوربا وغيرها في عصور ما قبل التاريخ. فهي صور خالية من التعقيد والتنوع اللذين تمتاز بهما حياة الأمم الراقية. وإن البحث عن أصل تلك الظواهر وكيفية نشأتها وطريقة تكوينها ثم العناية بترتيبها وتبويبها بطريقة علمية منظمة هو غاية الأثنولوجي؛ وبعمله هذا يكون ثروة علمية لا تفنى لدى العالم الاجتماعي.

وسنبحث في الكلمة القادمة عن أهمية البحوث الأثنولوجية بحوض النيل والعمل على تنظيم تلك البحوث وإدخالها ضمن التعليم العالي بمصر.

محمد جلال عبد الحميد

صور من العصر العباسي

عشق القيان

للأستاذ صلاح الدين المنجد

كان للقيان في العصر العباسي الشأن العظيم والمنزلة العليا. ولم تشغل الحرائر ما شغلته القيان في الأدب والتاريخ والاجتماع، ولم يكن لهن ما كان لأولاء من أثر في تهذيب النفوس وصقل الطباع وانتشار المجانات؛ إلا من أوتيت منهن الإمارة والجاه والسلطان، شبيهات علية وزبيدة والعباسة والخيزران.

وقد خلا الأدب من صور المخدرات، ولكنه رف بكثير من صور هؤلاء الجاريات؛ ففيه عنهن أشاوى حسان، وأحاديث ظراف، وأوصاف بارعات

ولم تبلغ القيان هذه الرفعة وتلك المنزلة إلا بعد الجد والجهد، والتعليم والتلقين، والصقل والتهذيب؛ فكن يتخرجن على المغنين الكبار أشباه الموصلي وابن المهدي، ويحذقن العزف والضرب، ويتفقهن في العربية، يحفظن نوادر الأحاديث وفرائد اللغة، وأمالي المجالس وشوارد الأشعار؛ ثم يبر في إظهار الأناثة والدل، حتى تصبح الفينة مصدر غواية وفتون، ومثار دعابة وفجور، وبهجة الأرواح ومنية النفوس؛ فلا غرو إن أقبل عليهن الشيخان والشبان، ولا عجب إن هن أتقن فن العشق وأصابت سهامهن قلوب الأبعاد والأحباب.

وقد ألفوا عنهن رسائل حسانا، منها رسالة القيان للجاحظ، وكتاب القينات لإسحاق بن إبراهيم الموصلي، وكتاب القينات للمدائني، وكتاب القينات ليونس بن سليمان المغنى، وغيرهن كثار.

على إنه لم يصل إلينا من هذه الرسائل كلها غير رسالة الجاحظ التي ذكر فيها الكثير من أحوال القيان وطبائعهن وميولهن وأخلاقهن وطرقهن في الإغواء. وقد خصهن أبو الطيب الوشاء في كتابه (الموشى) بفصل ممتع عن عشقهن وغرامهن، زاد فيه على ما ذكره الجاحظ وأفاد.

وقد لا تجد في أدبنا العربي صفحة أكثر متوعاً وأبرع وصفاً وأشد دقة من وصف الجاحظ والوشاء لعشق القيان، والحيل التي يتبعنها لاستمالة الشبان، والسبل التي يسلكنها لطردهم إذا نفذت دنانيرهم وأفلسوا. فلقد بلغا في وصفهما الذروة التي لا تسامي، والغاية التي لا تدانى.

لا جرم أن الجاحظ كان أسبق إلى وصف ذلك، ولكنه أجمل وأوجز؛ أما الوشاء فلم يتعد ما قاله الجاحظ إلا قليلاً ولكنه شرح وفصل

والمهم في وصف عشق القيان أن الكاتبين أبانا فيه عن عواطف كامنات، وحيل مكنونات، وطرق مغريات، حتى تشعر وأنت تقرأ أنك اليوم بين يدي غانية من غواني الحانات اللواتي تخرجن في الفتنة والإغواء

فقد قرروا أن القينة لا تكاد تخلص في عشقها، أو تناصح في ودها، لأنها مجبولة على نصب الحبالات والشراك للمتربطين ليقعوا في أنشوطتها. ذلك لأن حبهن كلهن كذوب، وعشقهن متبدل غير ثابت. فهو لطمع وغرض، ولذا كن يقصدن أهل النشب واليسار، ويصدفن عن ذوي الإقتار.

وكان من عادة القينة إذا رأت في مجلس فتى له غنى وكثرة مال وحسن حال، أن تميل إليه لتخدعه؛ فتمنحه بادئ بدء نظرها، وغمزته بطرفها، وأشارت إليه بكفها، وداعبته بالتبسم، وغازلته بأشعار الغناء، فغنت على كاساته، ومالت إلى مرضاته، ثم

تظهر الشوق إلى طول مكثه، والميل إلى سرعة عوده؛ حتى توقع المسكين في حبالها، وتعلق قلبه بحبها، وتطعمه في قربها ثم تحزن لزواجه، وتبكي لفراقه، وتكاتبه تشكو إليه هواها، وتقسم له إنه ضميرها في ليلها ونهارها، وأنها لا تريد سواه، ولا تؤثر أحداً على هواه، ولا تنوي انحرافاً عنه؛ ثم تعزز ذلك بالرسل، وتخبره عن سهرها، وتنبئه عن فكرها، وتشكو إليها القلق، وتخبره بالأرق، وتبعث إليه بخاتمها وفضلة من شعرها، وقلامة من ظفرها، وقطعة من مسواكها، ولبان قد جعلته عوضا من قبلتها، وكتاب قد نمقته بظرفها، ونقطت عليه قطرات من دمعها، وضمنته الشوق والشكوى، وسألته المواتاة على حبها. . . وربما منحته من ريحانها، وأهدت إليه في النيروز سكراً وفي المهرجان خاتماً، وأخبرته إنها لا تمل الدموع إذا غاب، ولا ذكرته إلا تنغصت، ولا هتفت باسمه إلا ارتاعت. . . فلا يشك المسكين في إخلاص حبها، فيميل إليها بوده. . . حتى إذا رأت إنها حوت عقله، وصارت شغله، واستمالت لبه، وسلبت قلبه، وعلمت أنه غريق في بحر حبها. . . أخذت في طلب الهدايا، فتشهت الثياب والأزر والأردية والعمائم والتكك والخفاف. والعصائب المرصعة،
وخواتيم الياقوت، ثم تمارضت من غير سقم، وتعالجت من غير حاجة منها إلى الدواء لتجيئها هدايا ذوي الوجد، من القمص المعنبرة، والغلائل الممسكة، والأردية المرشوشة، ومخانق الكافور، والمسك الأذفر، والعنبر الأشهب، والعود الهندي، والماورد الجوري، والفراريج، والجداء الرضع، والدجاج الفائق، والفراخ المسمنة، والفاكهة والرياحين؛ يتبعها صنوف من الشراب: من العسل والمطبوخ والمشمس، ثم تلحقها الدنانير والدراهم، فلا تزال في هدايا متواترة، وألطاف متتابعة. حتى إذا نفد اليسار وذهب الإكثار، وأتلف المال وجاء الإقلال، وأحست بالإفلاس. . . أظهرت الملل، وتبرمت بكلامه، وضجرت بسلامه، وتفقدت منه الزلل، وتتبعت عليه سقطاته، وأخذت في الجفاء والعتاب والقلى والإبعاد، وصرفت عنها هواه ومالت إلى سواه، فحينئذ يدرك المغرور الندم والأسف.
ولقد كانت القيان ينظرن إلى المال، وكن يحتملن القبح والشيب مع اليسار ويكرهنهما مع الفقر. وهذا شأن الحسان كلهن. . . (فليس للفقر مع الحب عمل)
وربما اجتمع عند القينة من مربوطيها ثلاثة أو أربعة، وعندئذ يتحامون الاجتماع، ويتغايرون عند الالتقاء، فتبكي لواحد بعين، وتضحك للآخر بالأخرى، وتغمز هذا بذاك، وتعطي واحدا سرها، والآخر علانيتها، وتوهم أنها له دون الآخر، وتكتب لهم عند الانصراف كتبا على نسخة واحدة تذكر لكل واحد منهم تبرمها بالباقين وحرصها على الخلوة به دونهم جميعاً.
وبعد، فما رأيت ابرع، ولا أحسن، ولا أرق، ولا أملح، ولا أنفذ في العواطف، ولا أكسب للقلوب من هذا الوصف. حتى لتحسب أنك أمام عالم نفسي لا يدع غمزة ولا إشارة ولا عاطفة ولا حيلة إلا أحصاها. وليت شعري أكان الجاحظ والوشاء عاشقين للقيان لقيا في سبيلهما الجهد والعناء، فثأرا منهن بهذا الوصف؟ وكأني بالجاحظ (وهو الذي عابوه بملك القيان) قد تيمه هواهن، وأذبل غصنه حبهن. . . أو أنه رأى عن قرب ما كن يصنعن.
فقال: (ولو لم يكن لإبليس شرك يقتل به ولا علم يدعو إليه ولا فتنة يستهوي بها إلا القيان لكفاه) ثم يستدرك فيقول (وليس هذا بذم لهن، ولكنه من فرط المدح، وليس يحسن هاروت وماروت، وعصا موسى وسحرة فرعون، إلا دون ما يحسن)
على أن الجاحظ إذا قسا عليهن فقد اتخذ لهن أعذاراً. قال: (وكيف تسلم القينة من الفتنة، أو
يمكنها أن تكون عفيفة، وإنما تكتسب الأهواء، وتتعلم الألسن والأخلاق بالمنشأ، وهي تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها بما يصد عن ذكر الله من لهو الحديث وصنوف اللعب والأخابيث، وبين الخلعاء والمجان، وتروي الحاذقة منهن أربعة آلاف صوت فصاعداً؛ يكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات، إذا ضرب بعضه ببعض يكون عشرة آلاف بيت ليس فيها ذكر الله إلا عن غفلة، ولا ترهيب عن عقاب، ولا ترغيب في ثواب، وإنما بنيت كلها على ذكر الزنا والقيادة والعشق والصبوة والشوق والغلمة؛ ثم لا تنفك من الدراسة لصناعتها، منكبة عليها، تأخذ من المطارحين الذين طرحهم كله تجميش، وإنشادهم مراودة، وهي مضطرة إلى ذلك في صناعتها، لأنها إن جفتها

(تفلتت، وإن أهملتها نقصت، وإن لم تستفد منها وقفت.
تلك صفحة من أدبنا العربي ما أحسب إنها تقل عن أدب كبار الوصافين والنفسيين في الغرب، لأنها صورة حية تشيع منها القوة والصدق، ما نزال نراها كل يوم.
(دمشق)

صلاح الدين المنجد

في الفلسفة الإسلامية

إخوان الصفاء - 3

للأستاذ عمر الدسوقي

رسائلهم

هي موسوعة ضمت بين دفتيها مبادئ العلوم التي كانت معروفة في البلاد العربية حتى القرن الرابع الهجري، ولاسيما تلك التي ترجمت من اليونانية. وقد اعترف إخوان الصفاء بأنهم ألفوها كنماذج ومقدمات للعلوم فلم يتوسعوا في بسط قضاياها. ويقولون في ذلك: (قد عملنا إحدى وخمسين رسالة في فنون الآداب وغرائب العلوم وطرائف الحكم، كل واحدة منها شبه المدخل والمقدمات والأنموذج).

ويظهر أنهم ألفوها للإخوان الأبرار الذين هم أولى طبقات هذه الجماعة، ولم يقتصروا فيها على مبادئ الفلسفة والعلم، وإنما خلطوها بكثير من الخرافات والأساطير؛ وحاولوا أن يوفقوا بين الدين والفلسفة محاولين أن يجدوا من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية ما يؤيد نظريات أفلاطون وأرسطو وأفلوطين وغيرهم. وخير ما قيل في وصفها رأى أبى حيان التوحيدي: (هي مبثوثة من كل فن بلا إشباع ولا كفاية، وهي خرافات وكتابات وتلفيقات وتلزيقات) وذلك أنهم قالوا: (إن الشريعة قد دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية، والمصلحة الاجتهادية)؛ وزعموا: (أنه متى انتظمت الفلسفة الاجتهادية اليونانية والشريعة الإسلامية فقد حصل الكمال)؛ وحشوا هذه الرسائل بالكلمات الدينية، والأمثال الشرعية، والحروف المحتملة، والطرق المهملة.

والواقع يثبت رأي أبى حيان، فالرسائل لا تعمق فيها، ولا نظام يربط بين فصولها، وفيها تكرار وحشو. وعندي أن الرسائل كانت بمثابة موسوعة تبسط فيها المسائل الفلسفية الأولية بأسلوب يوافق عقلية العامة. وحتى لا ينفر هؤلاء من الفلسفة أخذ مؤلفوها يستشهدون بالآيات والأحاديث الكريمة وبأقوال من التوراة والإنجيل، وينسبون أشياء إلى نوح وإبراهيم وعيسى، ويروون قصصاً وأساطير إذا حاولوا البرهنة على مسألة من المسائل

بدلاً من استعمال الأسلوب المنطقي الفلسفي. خذ مثلاً محاولتهم البرهنة على خلود النفس فإنك لا ترى سوى أساطير تحكي عن الأنبياء وآل البيت وسقراط وإبراهيم ونوح وأفلاطون وأرسطو وفيثاغور وما قاله كل منهم وما عمله كل. وتخرج من هذا الموضوع إذا بحثته بحثاً علمياً كما ابتدأت فيه دون أن تقتنع، ولكن عقلية العامة يوافقها هذا الأسلوب تماما.

هذا وقد وضع الإخوان لرسائلهم مقدمة أشبه بالفهرست بينوا فيها بإيجاز عدد الرسائل والموضوعات التي تعرض لها بحثهم: (وهذه فهرست رسائل إخوان الصفا، وخلان الوفا، وأهل العدل، وأبناء الحمد، يجمل معانيها وماهية أغراضهم فيها: وهي اثنتان وخمسون رسالة في فنون العلم وغرائب الحكم وطرائف الآداب وحقائق المعاني من كلام الخلصاء الصوفية، صان الله قدرهم وحرسهم حيث كانوا في البلاد؛ وهي مقسومة على أربعة أقسام: فمنها رياضية تعليمية، ومنها جسمانية طبيعية، ومنها نفسانية عقلية، ومنها ناموسية إلهية). ثم أخذوا يبينون موضوع كل قسم: فالرياضيات تشمل العدد والهندسة والموسيقى والفلك والصنائع والمنطق بمقولاته وعباراته وبراهينه؛ والطبيعيات يتكلمون فيها على الهيولي والصورة والسماء والعالم والكون والفساد وكيفية تكوين المعادن وفي النبات والحيوان؛ والرسائل النفسانية تبحث في المبادئ العقلية وفي البعث والصور والنشور والقيامة؛ والإلهية تبحث في الآراء والمذاهب، وبيان اعتقاد إخوان الصفاء وكيفية أنواع السياسات وماهية السحر والعزائم. ويختمونها بالرسالة الجامعة التي لم تصل إلينا والتي كشف فيها كما يقولون عن كثير من الرموز والكنايات التي امتلأت بها رسائلهم: (وتليها الرسالة الجامعة. . . .

. . المشتملة على حقائقها بأسرارها. . . إذ هذه الرسائل كلها كالمقدمات لها والمدخل إليها والأدلة عليها والأنموذج منها. . . وهي منتهى الغرض لما قدمناه.

ومثلهم في ذلك - على حد تعبيرهم - كمثل بستاني له حديقة لم تر العين مثلها حسناً وإبداعاً، وأراد لكرمه أن يدعو الناس إليها والتمتع بما فيها، فأخذ نماذج من أزهارها ورياحينها وفاكهتها ووقف أمام بابها يعرضها على الناس، حتى إذا تذوقوها وعرفوا مزاياها واشتاقت نفوسهم لدخول البستان أفسح لهم الطريق كي يتمتعوا ما شاءوا ويتلذذوا ويطربوا.

ويختم إخوان الصفاء كل رسالة بنصيحة للأخ البار الرحيم حتى يتفهم غرضها ويعرف أسرارها. ثم إنهم كانوا يكثرون من القصص على لسان الحيوان، ويدلون بأشياء لو صرحوا بها لفضح أمرهم وانكشف سترهم. ومهما يكن الأمر فرسائلهم سهلة الأسلوب خالية من السجع والمحسنات البديعية، واضحة العبارة أحياناً، غامضة في الغالب من حيث المقصد والغاية. وقد ذكرنا في المقدمة أن الغرض من تأليفهم هذه الرسائل بث تعاليمهم السرية وإيجاد طبقة من الشعب مثقفة تقود الرأي العام إلى أغراضهم السياسية وهي قلب نظام الدولة.

آراؤهم الخيالية

لا نريد أن نتعرض في هذا البحث إلى كل ما تناوله إخوان الصفا في رسائلهم من خرافات، وإنما الذي يهمنا أن نضرب أمثلة على إغراقهم في الخيال أحياناً. فأنت تراهم مثلا في رسالة العدد، وعلى العموم في الرياضيات يتبعون الفيثاغوريين، فلا يهتمون في البحث في علم الحساب كما يهتمون بتبيان خواص الأعداد والكلام عن موسيقى الأفلاك. . . الخ؛ وهاك مثلاً على ذلك: (اعلم بأن كون العدد أربع مراتب آحاد وعشرات ومئات وألوف ليس أمرا ضروريا لازما لطبيعة العدد، ولكنه أمر وضعي رتبته الحكماء باختيار منهم، وإنما فعلوا ذلك لتكون الأمور العددية مطابقة لمراتب الأمور الطبيعية، وذلك أن الأمور الطبيعية أكثرها جعلها الباري والبرودة جل ثناؤه مربعات منها: الطبائع الأربع التي هي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، ومثل: الأركان الأربعة التي هي النار والهواء والماء والأرض، ومثل الأخلاط الأربعة التي هي الدم والبلغم والصفراء والسوداء، ومثل الأزمان الأربعة التي هي الربيع والصيف والخريف والشتاء، ومثل الجهات الأربع. . . الخ)

والواحد من الأعداد هو أصل كل الأعداد، وعنه تصدر بالتكرار ويذهبون مذهب الفيثاغوريين في ذلك وهو أن الواحد أصل الوجود وإن حاولوا التوفيق بين الدين والفلسفة: (واعلم أن الباري جل ثناؤه أول شيء اخترعه وأبدعه من نوره جوهر بسيط يقال له العقل الفعال كما أنشأ الاثنين من الواحد بالتكرار، ثم أنشأ النفس الكلية الفلكية من العقل، كما أنشأ الثلاثة بزيادة الواحد على الاثنين؛ ثم أنشأ الهيولي الأولى من حركة النفس كما أنشأ الأربعة بزيادة الواحد على الثلاثة. ثم أنشأ سائر الخلائق من الهيولي ورتبها بتوسط العقل والنفس؛ كما أنشأ سائر العدد من الأربعة بإضافة ما قبلها إليها) ومن ذلك قولهم: (إن منفعة الشكل المتسع تسهيل الولادة إذا كتب على خزفين لم يصبهما الماء وعلقتهما المرأة التي ضربها الطلق)

ويقولون في نشأة علم الفلك: (إن هرمس المثلث الحكمة وهو إدريس النبي عليه السلام صعد إلى فلك زحل ودار معه ثلاثين سنة حتى شاهد جميع أحوال الفلك؛ ثم نزل إلى الأرض فخبر الناس بعلم النجوم، قال تعالى (ورفعناه مكاناً علياً). ويعتقدون بتأثير الكواكب في السعد والنحس (الكواكب السبعة السيارة اثنان منها نيران، واثنان منها سعدان، واثنان نحسان، وواحد ممتزج. أما النيران فالشمس والقمر، والسعدان المشتري والزهرة، والنحسان زحل والمريخ. وأما الممتزج فعطارد)

وأكثر من ذلك خرفة قولهم: (اعلم يا أخي أن كواكب الفلك هم ملائكة الله وملوك السموات، خلقهم الله تعالى لعمارة عالمه وتدبير خلائقه وسياسة بريته، وهم خلفاء الله في أفلاكه، كما أن ملوك الأرض هم خلفاء الله في أرضه) ويعتقدون أن لحركات الأفلاك والكواكب نغمات وألحاناً طيبة لذيذة مفرحة لنفوس أهلها الذين هم الملائكة؛ فإن قال قائل: (لابد إذا أن يكون لهم شم وذوق ولمس) قلنا: (إن هذه حاجة التسبيح، الآكل للطعام والشارب للشراب؛ أما هم فغذاؤهم التسبيح، وشرابهم التهليل،

وفاكهتهم الفكر والروية واللذة والفرح. . . ويقال إن فيثاغور الحكيم سمع بصفاء جوهره وذكاء قلبه نغمات الأفلاك والكواكب، فاستخرج بجودة فطرته أصل الموسيقى ونغمات الأفلاك، وهو أول من تكلم في هذا العلم). ولولا خليفة الإطالة لذكرت كثيرا من هذه الآراء الخرافية، وحسبك أن تقرأ رسالة السحر والطلاسم والتعاويذ، وكيف يحاولون معرفة الجنين وقدوم الرسول ومعرفة الكتاب قبل فضه واللص وماذا سرق ومعرفة الحروب وأسبابها. . . الخ

مراتب الوجود:

اعلم يا أخي أن الله تعالى لما كان تام الوجود كامل الفضائل ملماً بالكائنات قبل) كونها، قادراً على إيجادها متى شاء لم يكن من الحكمة أن يحدث تلك الفضائل في ذاته، فلا يجود بها ولا يفيضها؛ فإذا بواجب الحكمة أفاض الجود والفضائل منه كما يفيض من عين

(الشمس النور والضياء

وقد استمر هذا الفيض فنشأ عنه العالم، وأنت ترى أنهم يأخذون بنظرية الفيض التي ابتدعها الأفلاطونية الحديثة، وأنهم يقولون بالعناية الإلهية التي وضحها ابن سينا فيما بعد بقوله: (لما كان المبدع الأول يعلم ذاته ويعلم لذلك نظام الخير في الوجود المطلق كان علة للخير والكمال اللذين فاضا على الوجود عندما فاض الوجود نفسه، فانتقل بذلك نظام الخير إلى العالم بحسب القدر الممكن لهذا العالم)

والعالم عندهم على الترتيب الآتي:

1 - العقل الفعال: وهو جوهر بسيط روحاني أبسط من النفس وأشرف منها قابل لتأييد الباري تعالى علام بالفعل.

2 - النفس الكلية: وهي جوهرة بسيطة روحانية علامة بالقوة فعالة بالطبع قابلة فضائل العقل بلا زمان، فعالة في الهيولي بالتحريك لها؟

3 - الهيولي الأولى: وهي جوهرة بسيطة روحانية معقولة غير علامة ولا فعالة بل قابلة آثار النفس بالزمان منفعلة لها.

4 - الطبيعة الفاعلة: وهي قوة من قوى النفس الكلية سارية في جميع الأجسام محركة مدبرة لها وتسمى النفوس الجزئية أو الملائكة.

5 - الجسم المطلق: ذو الطول والعرض والعمق وهو الهيولي الثانية.

6 - عالم الأفلاك: وسنتكلم عليه بالتفصيل فيما بعد.

7 - العناصر السفلى: كالنار والهواء والماء والأرض.

8 - المعادن والنبات والحيوان المكون من العناصر السابقة. وقد فاضت كلها من الله، ولكن وقف الفيض بعد الجسم المطلق الذي لم يفض منه جوهر آخر لنقصان رتبته عن الجواهر الروحانية.

عالم الأفلاك:

الأفلاك أجسام كرية شفافة مجوفة، وهي تسعة أفلاك مركبة بعضها في جوف بعض كحلقة البصلة، وهناك كرتان ليستا من الأفلاك، وهما كرة الهواء وكرة الأرض، فيكون المجموع إحدى عشرة كرة. وتقع الشمس في الوسط، وفوقها خمس كرات وتحتها خمس؛ فالتي فوقها

على الترتيب. . . كرة المريخ، المشتري، زحل، الكواكب الثابتة، ثم فلك المحيط، والتي تحتها على الترتيب. . . الزهرة وعطارد، والقمر، ثم كرة الهواء، ثم كرة الأرض التي هي المركز، وليست مجوفة ولكن متخلخلة.

والشكل الكري أفضل الأشكال كلها، وحركته تامة، وأفضل الحركات. والفلك المحيط ألطف الأجسام وأشدها روحانية وأشفها نوراً لقربه من الهيولي الأولى. والأرض أغلظ الأجسام كلها وأشدها ظلمة لبعدها عن الفلك المحيط. والقمر هو السماء الأولى وعطارد السماء الثانية وهكذا حتى تنتهي من السموات السبع التي آخرها زحل. أما فلك الكواكب الثابتة فهو الكرسي الذي وسع السموات والأرض، والفلك المحيط هو العرش العظيم الذي يحمله يومئذ ثمانية.

هل قالوا بالنشوء والارتقاء؟

ذهب بعض الباحثين إلى أن إخوان الصفا كانوا يقولون بنظرية النشوء والارتقاء. والواقع أنهم كانوا بعيدين كل البعد عن هذا، بيد أن لهم نظرية خاصة في تدرج

الأجسام المولدة: (واعلم يا أخي بأن أول مرتبة الحيوان متصل بآخر مرتبة النبات، وآخر مرتبة الحيوان متصل بأول مرتبة الإنسان، كما أن أول مرتبة المعدنية متصل بالتراب والماء. فأدون الحيوان وأنقصه هو الذي ليس له إلا حاسة واحدة فقط كالحلزون والديدان التي تتكون في الطين وقعر النهر. . .
فهذا النوع حيوان نباتي لأن جسمه ينبت كما ينبت بعض النبات، ويقوم على ساقه. ولما كان جسمه يتحرك حركة اختيارية كان حيوانا. (أما رتبة الحيوانية مما يلي رتبة الإنسان فليست من وجه واحد، ولكن من عدة وجوه، فمنها ما قارب رتبة الإنسان بصورة جسده كالقرد، ومنها ما قاربها بالأخلاق النفسانية كالفرس في كثير من أخلاقه، ومنها كالطائر الإنساني أيضاً، ومثل الفيل في ذكائه، وكالببغاء والهزار ونحوهما، ومنها النحل اللطيف الصنائع. . . إلى ما شاكل هذه الأجناس. فهذه الحيوانات في آخر مرتبة الحيوان مما يلي رتبة الإنسان لما يظهر فيها من الفضائل الإنسانية)
ولاشك أن هذه النظرية بعيدة كل البعد عن مذهب النشوء والارتقاء الحديث، إذ جعلوا الفيل والنحل والطائر قريبة الشبه بالإنسان وفي أعلى مراتب الحيوان. ولعلنا إذا أخذنا
رأيهم من الناحية العضوية البيولوجية توجد عندما شبهة للقول بمذهب النشوء، فالحلزون حيوان نباتي، والقرد قريب للإنسان جسمياً. ولكن حتى مع هذا لم يقل إخوان الصفا بأن الإنسان هو والقرد متفرعان من أرومة واحدة. وهم يعتقدون أن النبات متقدم في الوجود على الحيوان لأنه غذاء له، والحيوان متقدم على الإنسان لأن وجوده لخدمته ومنفعته.
(يتبع)
عمر الدسوقي
مدير كلية المقاصد الإسلامية ببيروت
المصريون المحدثون - 26
شمائلهم وعاداتهم
في النصف الأول من القرن التاسع عشر
تأليف المستشرق الإنجليزي ادورد وليم لين
للأستاذ عدلي طاهر نور
تابع الفصل الثامن - عادات المجتمع العامة
للطبقة المهذبة تحيات وتهنئات أخرى متكلفة تتبع السلام. كما أن هناك عبارات خاصة للرد على أكثرها أو عبارتين أو أكثر قد تستعملان في بعض الأحوال. غير أن الرد الذي لم تلزمه العادة قد يعتبر دليلاً على الجهل أو الخساسة. وعندما يسأل رجل صديقه (كيف صحتك) يجيبه الآخر (الحمد لله) ويستدل المستفهم باللهجة التي يرد بها الآخر إذا كان صديقه معافى أو مريضاً، وعندما يقول الواحد للآخر (طيبين) يجيب الآخر عادة (الله يبارك فيك) أو (الله يسلمك)، وعندما يتقابل صديقان لم يلتقيا عدة أيام أو وقتا طويلاً يقول أحدهما بعد السلام (أوحشتنا) فيجيبه الآخر: (الله لا يوحشنا منك). وقد يشغل ذكر التهنئات الفخمة التي يستعملها المصريون عادة صفحات من هذا الكتاب.
ولا يدخل الرجل منزل غيره بدون استئذان لأن القرآن حرم ذلك صراحة، وعلى الأخص إذا كان يريد أن يصعد إلى إحدى الغرف العليا، فلابد في هذه الحالة أن يصيح طالباً الإذن، أو يعلن قدومه عندما يصعد السلم بالطريقة التي وصفتها سابقاً. وإذا لم يجد أحدا أسفل المنزل يصفق بيديه عند الباب أو في الفناء وينتظر نزول الخادم إليه أو الإذن له بالجلوس في حجرة سفلى أو بالصعود إلى غرفة عليا. ثم يحيي رب الدار عندما يدخل الغرفة التي يجلس فيها، فيرد عليه رب الدار ويرحب به بأدب وبشاشة. ويقف رب الدار لمن كان أعظم منه ولأقرانه على العموم، ويتقدم لاستقبال من هم أعلى منه مركزا إلى الفناء أو بين الفناء وغرفة الاستقبال، أو في مدخل الغرفة أو وسطها، أو على بعد خطوة من مكان جلوسه. وكثيراً ما يكتفي عند استقبال أقرانه بأن يتحرك حركة خفيفة كما لو كان يهم
بالوقوف. ولا يتحرك لمن دونه مقاماً. ويقدم رب الدار إلى الرفيع القدر وإلى أقرانه غالبا أفضل مكان في ركن من الديوان على يمين من يواجه (صدر) الغرفة أي طرفها الأعلى، ويعتبر المجلس الممتد بطول (الصدر) أكثر إجلالاً من المجلسين الممتدين

على الجانبين، ويسمي كل منهما (جنبيا)، ولا يجلس من هم دون رب الدار في الصدر أبداً إلا إذا دعاهم إلى ذلك. وكثيراً ما يرفضون هذا الشرف. ويجلس أقران رب الدار واضعين رجلاً على رجل، أو رافعين ركبتهم ومستندين على المساند. وكثيراً ما يجلس من دونه بادئ الأمر على الأقل، على أعقابهم أو على حافة الديوان أو على الحصير أو البساط إذا كان فرق المكانة بينهما كبيراً. وتقتضي دقة الآداب ألا يظهر الزائر يديه عند دخول الغرفة أو عند الجلوس، ويجب أن يسبل كميه عليهما، وألا يمد رجليه عندما يجلس على الديوان، وألا يترك قدميه مكشوفتين، ولكن هذه القواعد لا تراعى إلا في منازل العظماء. وتردد التهاني والتحيات بعد السلام وعلى الأخص عبارتا (طيبين) و (إيش حالكم) مرات عديدة أثناء المحادثة.

وقد يقوم أحياناً خادم الزائر نفسه بتقديم الشبك، فيخرج السيد كيس التبغ من عبه ويناوله الخادم الذي يملأ الشبك منه ثم يطويه ويعيده بعد ذلك أو عند انتهاء الزيارة. وفي غير هذه الحالة يقدم خادم المضيف شبكا إلى الزائر وآخر إلى سيده ثم يتناول القهوة لأن التدخين بدون قهوة الطعام بلا ملح، كما يقول الغرب. ويحيي الزائر رب الدار عندما يتناول الشبك والقهوة بالتمنية فيردها الأخير إليه، وكذلك الأمر عندما يعيد الفنجان إلى الخادم، كما أن رب الدار يحيي ضيفه بالطريقة نفسها إذا لم يكن الفرق بينهما كبيراً. وكثيراً ما يلبث الخدم في الغرفة مدة الزيارة واقفين باحترام عند طرفي الغرفة الأسفل ضامين اليدين (اليسرى في اليمنى) فوق الحزام، وينادي على الخدم عادة بالتصفيق بأصابع اليمنى على راحة اليسرى، ويسمع صوت التصفيق في المنزل لأن النوافذ من الخشب المشبك. ويدور الحديث على الأخبار اليومية وحال التجارة وأسعار المؤن، والدين والعلوم أحياناً، وتروي الحكايات الفكاهية. ويحدث كثيراً أن تسرد القصص والأمثال البذيئة في غير المجتمعات. وقلما يتحدث الناس في المجتمعات الطيبة عن نسائهم، ولكن كثيراً ما يفعل ذلك الأصدقاء الخلص ومن لا يراعي دقة قواعد الأدب بطريقة لا تكون لطيفة دائماً. ويستفسر المهذبون كل عن (منزل) الآخر للاطمئنان على الزوجة والعائلة. وكثيراً ما تشغل الزيارات وقتاً طويلاً، وقد تستمر أحياناً طول اليوم وعلى الأخص زيارات الحريم. ويتكرر حشو الشبك أو تبدل بغيرها كلما اقتضت الضرورة ذلك لأن الزائر لا ينقطع عن التدخين مدة بقائه. ويعاد تقديم القهوة والأشربة أحياناً. وقد سبق وصف طريقة تقديم القهوة والأشربة. وتقدم التهاني نفسها إلى الزائر بعد الشراب كما تقدم كذلك بعد جرعة ماء.

وجرت العادة في منازل الأثرياء أن يرش الضيوف قبل انصرافهم بماء الورد وماء الزهر، ويطيبون ببخور بعض المواد العطرية. وقد أصبحت هذه العادة شائعة في السنوات الأخيرة. وتكون قارورة العطر المسماة (قمقماً) من الفضة الساذجة أو المذهبة، أو من النحاس الدقيق أو من الفخار الصيني أو من الزجاج ولها غطاء به ثقب صغير. أما أداة البخور المسماة (مبخرة) فتكون من أحد المعادن المذكورة ويجهز وعاء الجمر بالجص أو يملأ نصفه، وبغطائه عدة ثقوب لصعود الدخان (أنظر شكل رقم 51). وتستعمل المبخرة بعد القمقم. ويقدمها الخادم إلى الزائر أو السيد فيحول البخور نحو وجهه ولحيته الخ، بيمناه. وتفتح المبخرة أحيانا لإرسال البخور بلا عائق. وأكثر المواد استعمالاً: العود والجاوي وقشر العنبر. ويبلل الخشب العطري قبل أن يوضع على الجمر. ويستعمل العنبر للغرض نفسه ولكن يندر استعماله إلا في منازل الأثرياء لغلو ثمنه. وينصرف الزائر بعد أن يعطر؛ ولكنه لا يخرج قبل أن يستأذن ثم يقرأ السلام ويقدم غير ذلك من التحيات والتمنيات التي يرد عليها رداً موافقاً. ويجب على رب الدار إذا كان الزائر يفضله مركزا ألا يقوم له فحسب، بل يرافقه إلى أعلى السلم أو إلى باب الغرفة ثم يودعه في أمان الله.

ومن المعتاد أن يعطي الزائر قبل انصرافه من الزيارات العظيمة هدية صغيرة قرشين أو ثلاثة قروش أو أكثر حسب الظروف، إلى أحد الخدم أو بعضهم. ويرافق الزائر أحد الخدم إذا كان مطيته على الباب أو في الفناء ليساعده على الركوب، وينتظر هذا الخادم الحسن الالتفات - على الأخص - عطية، وعندما يعطي الزائر الخدم نقوداً فعلى السيد أن يرد المثل تماما عند رده الزيارة.

وكثيراً ما يتبادل الأصدقاء الهدايا تبعا للعادة العامة، ويقدم الأصدقاء الهدايا عند أي

حفل خاص، والقاعدة العامة أن يرد إلى مقدم الهدية واحدة مماثلة أو في قيمتها عند مناسبة
مماثلة. والشائع أن يعبر المهدى إليه في مثل هذا الحفل عن رجائه استطاعة رد الهدية في مناسبة مشابهة، ويعتبر هذا الشكر المصحوب بالإشارة إلى وفاء دين الهدية أدباً وتلطفاً في هذا البلد وإن كان الأوربي الكريم يراه إهانة له. وتلف الهدية في منديل مطرز يعاد إلى الرسول مع منحة مالية صغيرة. ومن الهدايا الشائعة الفاكهة تقدم على أوراق الشجر، والحلوى في طبق أو على صينية تغطى بمنديل ثمين أو بمفرش. وكثيراً ما تقدم الهدية إلى العظيم لأجل الحصول على هدية أثمن، ويفعل هذا غالبا الخادم. وقلما يرفض السيد الهدية، ولكنه يدفع في الحال نقوداً تفوق قيمتها. وليست عادة منح الخدم منحة بعد الزيارة شائعة الآن كما كانت منذ بضع سنوات. إلا أنه لا يزال أغلب الناس يراعون ذلك في الزيارات الكبيرة وعلى الأخص في العيدين، كما يراعى ذلك المدعوون إلى الحفلات الخاصة، وسنصف عادات أخرى مثل العادات الأولى يراعيها المصريون في هذه الحفلات في الفصل السابع والعشرين ويعتبر رفض الهدية إهانة لمقدمها، وتعبيراً عن زوال الحظوة.
وهناك عادات كثيرة يراعيها المصريون، لا في الزيارات الكبيرة، أو في حضرة الغرباء، أو عند مقابلة الأصدقاء العارضة فحسب، بل في العلاقات العادية، فعندما يعطس الرجل يقول: الحمد لله، فيقول كل من الحاضرين حينئذ ما عدا الخدم: يرحمكم الله، فيرد عليهم: يهدينا ويهديكم الله، أو بعبارة مماثلة. وإذا تثاءب يضع ظهر يسراه على فمه، ثم يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم؛ ولا يقال له شيء في هذه الحالة، لأن تجنب ذلك أجدر، إذ المعتقد أن الشيطان يقفز إلى فم المتثائب. والعادة أن يستغفر الله من يخالف قواعد الآداب بدلا من الاعتذار للحاضرين. وهناك عدة عبارات تقال بعد الحلاقة أو الاستحمام أو الوضوء أو الصلاة، أو أي فعل يستحق الثواب، أو عند القيام من النوم أو عندما تشترى ملابس جديدة أو تلبس، وفي عدة مناسبات أخرى، ولتلك العبارات أجوبة خاصة.
والقاعدة أن يكرم المسلمون يمناهم يداً وقدماً، فيستعملون اليد اليمنى للأغراض الجليلة واليسرى للأعمال التي تعتبر على رغم ضرورتها حقيرة، ويلبسون الحذاء الأيمن ويخلعونه قبل الأيسر، ويخطون عتبة الباب بالقدم اليمنى قبل اليسرى.
ويجامل المصريون بعضهم بعضاً إلى أقصى حد. ولتحيتهم وسلوكهم العام رقة ووقار خاصان ومهارة سلسلة تبدو أنها في طبيعتهم لملاحظتها في الفلاحين أيضاً. ويتفاخر أهل
المدن من الطبقتين الوسطى والعليا بحسن الأدب ورشاقة المنهج وقوة الذكاء وطلاقة اللسان؛ إلا أنهم ليسوا أقل خلاعة في أحاديثهم من مواطنيهم الأقل تربية. ويمتاز المصري على اختلاف طبقاته بالبشاشة والأنس. ومن المألوف أن ترى غريبين يتحدثان بحرية كما لو كانا صديقين قديمين في أي مكان، ويقدم أحدهما شيكه إلى الآخر، وليس من غير المعتاد ولا من سوء الأدب أن يستفسر الغريب في أول مقابلة عرضية عن اسم الآخر وصناعته أو تجارته ومسكنه. وكثيراً ما تنشأ في مثل هذه المناسبات صداقة دائمة بينهما. وقلما يسمع في مجتمعات الطبقتين العليا والوسطى ما يمس شعور الحاضرين؛ ولا يجرؤ الخليع مهما كانت خلاعته أن ينطق أي عبارة يقصد بها الهزؤ. ومع ذلك فأغلب الناس من جميع الطبقات هم خلعاء في أحاديثهم ويحبون الدعابة إلى أقصى حد. وحديث المصريين مؤثر حار، ولكن أفراحهم تكون أبداً بلا جلبة تقريباً. وقلما يستسلمون للضحك العالي وإنما يعبرون عن سرورهم بالابتسام أو الهتاف.
(يتبع)
عدلي طاهر نور
نجوى المغني. . .
(مهداة إلى الموسيقي النابغ الأستاذ محمد عبد الوهاب)
للأستاذ محمود عماد
يا نضيرَ العودِ هاتِ ال ... عودَ إني سأُغنِّي
واجلُ لي حسنَكَ إني ... منهُ قد أُلهمتُ فني

كل معنى فيك يوحي ... ليَ لحناً بعد لحنِ
إن تكن ماءً فألحا ... نيَ للماء خريرْ
أو تكن ناراً فمنهِ ... نَّ شهيقُ وزفير
وإذا ما كنت زهراً ... لم يفتهن العبير
مثلما ألقاك تلقا ... ني على العود أغني
فيكَ للشِّعر معانٍ ... غالياتٌ كالجواهرْ
فيك للتصوير ألواً ... نٌ كألوان الأزاهر
كيفَ لا يجلوك لحني ... في مجاليك البواهر
سأغنيك إلى الدّ ... نيا فتروِي ما أغني
يا حبيبي هاتِ لي العو ... دَ وهاتِ الخدَّ هاتِ
رَوِّ عيَّني ورَوِّ ال ... عودَ من ماء فُراتِ
فإذا الألحانُ تَهمي ... حانياتٍ عاطراتِ
كندىَ الوردِ، فَغَنِّ ... بفمي حين أغني
مَن ترَى غيري إن غنَّا ... كَ يا فاتن أبدَعْ
إنني أعطيكَ ما مِن ... زهرِ بستانِك أجمعْ
فأنلني يا حبيبي ... خيرَ ما فيه وأمتع
واصرف الحارسَ عني ... أو فإني لا أغني
محمود عماد
أغنية
ضفاف النيل
للأديب مصطفى علي عبد الرحمن
صفَّق الموجُ وغنَّانا أناشيدَ الجمالِ
ومضى الزورقُ يجري مطمِئناً لا يُبالي
يا ضفافَ النيلِ روّي القلبَ من خمرِ الليالي
جددي عرسي وأفراحي وأُنسي ... واسكبي النشوة في روحي وحسي
ودعيني قبلما تفرغُ كأسي ... وأرَى الدنيا فما تضحكُ نفسي
واجْرِ يا زورق نشوان على نورِ الأماني
حولك الدنيا صفاءٌ وضياءٌ وأغان
ضحك الكونُ وغنى بهوانا الشاطئان
فأعيدي فتنة الماضي إليَّا ... يا ضفاف النيل رَوِّي مقلتيَّا
من ضياءٍ يملأ الأرواح ريَّا ... قد دعا الحُبُّ إلى دنياي هيَّا
نعبرُ الشطآن في ظلٍ من النُّعمى نغني
فابتعدْ يا دهرُ لا تحرمْ فؤاديْنا ودعني
لا تقفْ بين هوى نفسي وآمالي وبيني
أيها النيلُ على صدرِك يجري ... زورقٌ تَحدوه آمالٌ بِصدري
أنت تدري ما بقلبي أنت تدري ... وتعي سِرّي ولا تجهل أمري
كُنْ رفيقاً أيها النيلُ ودعْنا وهوانا
غنِّنا لَحنَ صِبانا، واسقنا وأطفئ صَدانا
واملأ الجو فتوناً وأماناً وحنانا
يا حبيبي هاهي الدنيا أراها ... مثلما أهوى بعيني وتراها
آه لو تغفلُ عنا مقلتاها ... أبد الدهرِ وهل تُغنيك آها!
(الإسكندرية)
مصطفى علي عبد الرحمن
البريد الأدبي
اتجاهات جديدة لرجال التعليم
في الأسبوع الماضي أقيم في القاهرة مؤتمران: مؤتمر التفتيش ومؤتمر تدريس العلوم. وإنما أقيم المؤتمران في أسبوع واحد، لأن (إجازة نصف السنة) هي الفرصة التي تسمح بأن يلتقي المفتشون والمدرسون في القاهرة بلا عناء.
وقبل أن نشير إلى أهمية هذين المؤتمرين نسجل أن (الظروف الحاضرة) لم تمنع

رجال التعليم من أن يشغلوا أنفسهم بشئون لا يطالبهم بها أحد في هذه الأيام، وذلك يشهد بأن النزعة العلمية تأصلت في النفوس، ولم تعد تحتاج إلى بواعث وأسباب. ولو أضفنا إلى ذلك أن مؤتمر تدريس العلوم حضره مندوبان عن وزارة المعارف العراقية: هما الدكتور فاضل الجمالي والدكتور متي عقراوي، لعرفنا أن أصدقاء مصر في الشرق يلتفتون إلى أخبارها العلمية بأسلوب يستحق الثناء.

أقيم الاجتماع الأول لمؤتمر التفتيش في مدرسة فاروق الثانوية، وألقى فيه الأستاذ سامي بك حسونة كلمة ضافية حدد بها الأغراض المنشودة من التفتيش، ثم تفرع المؤتمر إلى لجان تدرس ما يعترض التفتيش من مصاعب ومشكلات.

وأقيم مؤتمر تدريس العلوم بالجمعية الجغرافية، وقد افتتحه سعادة الأستاذ شفيق بك غربال بالنيابة عن معالي وزير المعارف الرئيس الفخري للمؤتمر، وتكلم في اليوم الأول الأساتذة محمد فؤاد جلال وأحمد زكي بك والمستر هملي والدكتور الجمالي والدكتور الكرداني، ثم استمر في الأيام التالية يقوم بدراسات على جانب عظيم من الأهمية حضرها مئات المدرسين.

والمهم هو أن نذكر بصراحة أن الذين حضروا هذين المؤتمرين راعهم أن يشهدوا وثبات فكرية وعقلية تستوجب الإعجاب، وتجدد الثقة برجال التربية والتعليم في هذه البلاد.

وقد لاحظت أن اللغة العربية أصبحت في غاية من المرونة والقدرة على شرح أدق الأغراض، فقد كان الخطباء يتدفقون بأساليب منوعة الألوان، وكان تعبيرهم يشهد بأننا نعاصر (لغة علمية) تعرف كيف تحيط بدقائق المعضلات.

أما بعد فمن حق من شهدوا هذين المؤتمرين أن يرجوا أن تدوم هذه السنة الحميدة، وأن تكون (إجازة نصف السنة) فرصة سنوية لإذكاء الأفكار والآراء في التربية والتعليم، والله بالتوفيق كفيل، وهو القادر على إثابة أهل الصدق والإخلاص.

زكي مبارك

نزع العمائم في دور الخلفاء والأمراء والسلاطين وبحضرتهم

قرأت في باب البريد الأدبي من الرسالة الغراء (العدد429) ص1191) كلمة بعث بها الأستاذ عبد المجيد الساكني من بغداد يسأل فيها الدكتور زكي مبارك عن (البيئة ونزع العمائم) في عرض كلامه عن تأثير البيئة في بعض عادات أهل الأندلس (الرسالة العدد 418؛ ص862: تأثير البيئة)

وقد وقفت أثناء مطالعاتي على ما له صلة بهذا الموضوع أحببت أن أبينه فيما يلي لأنه يرينا ناحية من مناحي الرسوم المتبعة عند الإسلام بشأن العمامة.

قال محمد بن عبدوس الجهشياري المتوفى سنة331 للهجرة ما هذا نصه: (وكان عيسى (بن عبد الرحمن) كاتب طاهر (بن الحسين) لما دخل مجلس الفضل (بن سهل) نزع قلنسوته وجعلها إلى جانبه، ثم فعل ذلك مراراً، فقال نعيم بن حازم ليعقوب بن عبد الله، وكان يعقوب آلفا لعيسى: إن أبا العباس - يعني عيسى - إذا جلس في مجلس الأمير - يعني الفضل - رفع قلنسوته عن رأسه، وهذا استخفاف منه بالأمير، قد أنكره الناس، وتكلموا فيه، فأعلمه ذلك ليمسك عنه فيما يستقبل، فإنه إن عاود دنوت منه ورددتها على رأسه بعنف وإنكار. فقال يعقوب لعيسى ذلك؛ فقال له: بأي شيء رددت عليه؟ قال قلت له: إنه محرور، ولعله قد استأذن الأمير في ذلك، أن كان لا يجهل ما يأتي ويذر. فقال: والله ما بي أني محرور، وما استأذنت، ولكني أريد أن يعلم الفضل أولاً، ثم من حوله إنه أهون علي وأدق في عيني ما دام صاحبي - أعزه الله - حيا، من هذه الشعرة - وقلع شعرة من عرف دابته - ومن فوق نعيم، فضلا عن نعيم، أشد تهيبا للإقدام عليّ بشيء أنكره، فلا يدخلك من قولهم شيء، وعرف نعيم ابن حازم ما قلته)

ونظير هذا النبأ ما أورده هلال بن المحسن الصابي المتوفى سنة448 للهجرة، قال: (وحدثني جدي (أبو أسحق إبراهيم الصابي) أن المكنى أبا الهيثم حضر يوماً في دار عضد الدولة وأخذ عمامته من رأسه ووضعها بين يديه، ورآه بعض أصحاب الأخبار فكتب بما كان منه، وخرج أستاذ دار، فخرق به وشتمه، وأخذ العمامة وضرب بها رأسه حتى

تقطعت قطعاً، ووكل به واعتقله. فسئل فيد عضد الدولة، وقيل: هذا رجل محرور الرأس، ولا يستطيع ترك العمامة على رأسه، وإنما فعل هذا لذاك، لا لجهل بأدب الخدمة. فبعد مراجعات ما. أمر بإطلاقه)

(بغداد)

ميخائيل عواد

إلى الدكتور زكي مبارك

قرأت بمزيد الأسف ما كتبته في رسالة هذا الأسبوع من حديث تهكمت فيه بمن يدرس اللغات الميتة كما سميتها أنت، ونعيت فيه على الجامعة المصرية التي تعنى بإحياء ما اندثر وباد وانقطعت صلته بالحياة، وأنا في هذه الكلمة أضرب صفحاً عما أدخلته في هذه المسألة من جوانب شخصية، فإن هذا لا يعنيني، وإنما أنفذ إلى لب المسألة فأقول:

يؤسفني أن أرى الدكتور زكي مبارك - وهو الرجل العظيم الذي أحبه أشد الحب وأعجب بشخصيته أعظم الإعجاب - يتجرد من ثياب العالم الواسع الأفق والباحث الطويل الباع، وكيف يكون عالماً واسع الأفق وباحثاً طويل الباع من يجهل صلات العربية بهذه اللغة الميتة؟ كيف يكون كذلك من يجهل أن خدمة اللغة العربية خدمة صادقة حقاً تستلزم معرفة واسعة بلغات عاصرتها في أجيال طويلة من التاريخ فأثرت فيها وتأثرت بها؟ بل كيف يكون كذلك من يريد أن يفهم لغة بله أن يدرسها فلا ينظر إلى أخواتها التي تفرعت معها من أصل واحد؟

هل يصح في أذهان العلماء أن تدرس اللغة العربية دراسة لغوية لا تستند إلى مقارنات شتى بينها وبين العبرية والسريانية وسائر الأخوات؟ وهل ينكر أثر اليونانية واللاتينية في قاموس اللغة العربية؟ ثم هل ينكر وجوب دراسة الصلات بين الأدب السريانية والعبرية والأدب العربي، تلك الصلات التي لم أجد أحدا تنبه إليها حتى الآن إلا البعض القليل؟ ثم هل ينكر أثر الوراثة الأجنبية فيما نظمه ابن الرومي وأبو تمام؟

لئن كان الفرنجة يدرسون اللاتينية واليونانية كوسيلة لدراسة لغاتهم، فنحن يجب علينا أن ندرس اللغات السامية أولاً ثم اللاتينية واليونانية ثانيا لدراسة لغتنا العربية التي نتعشقها ونفنى أعمارنا في خدمتها.

السيد يعقوب بكر

حول مقال الأستاذ المازني

يقول الأستاذ في مقاله تحت عنوان (بطولة محمد) في العدد (449) الهجري ما نصه: (فما كان صلى الله عليه وسلم يعنى بالاشتراك في القتال بسيف أو رمح، وكان يشهد المعارك ويصحب رجاله، ولكنه لا ينزل إلى الحومة بنفسه، ولا يخوض المعمعة مع أنصاره، وإن كان يوجههم)

وهذا يخالف الواقع والتاريخ؛ فقد ثبت إنه كر على الأعداء في بعض الغزوات كراً عنيفاً قائلاً متحمساً: (أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب) وثبت أنه كسرت رباعيته وجرح حتى سال منه الدم، فجعل يمسح الدم ويقول: (كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم)؟ وفي تفسير الكشاف الجزء الأول ص (214) في ذكر غزوة أحد ما نصه: (وكان نزوله في عدوة الوادي وجعل ظهره وعسكره إلى أحد، وأمر عبد الله ابن جبير على الرماة وقال لهم: انضحوا عنا بالنبل لا يأتونا من ورائنا)

وفي الجزء الأول من السيرة الحلبية ص (550، 551) في غزوة بدر أنه صلى الله عليه وسلم أخذ ثلاث حصيات فرمى بهن في وجوه المشركين يمنة ويسرة، وحين رمى بذلك قال لأصحابه شدوا، فكانت الهزيمة. وأنزل الله تعالى: (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى). وقاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ بنفسه قتالاً شديداً وقاتل بسيفه. هذا وغيره كثير يدل دلالة واضحة أن رسول الله خاض المعمعة بنفسه

إبراهيم محمد عيسى

إجازة القضاء الشرعي

مات حتف أنفه

تحت هذا العنوان كتب الأديب خالد الشواف كلمة في البريد الأدبي بعدد (الرسالة) الأخير تساءل فيها: كيف يمكن التوفيق بين ما روى عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه من قوله: (ما سمعت كلمة غريبة من العرب إلا وسمعتها من رسول الله صلى

الله عليه وسلم، وسمعته يقول: (مات حتف أنفه)، وما سمعتها من عربي قبله)، وبين ما يروى للسموءل بن عادياء من قوله في لاميته:
وما مات منا سيد حتف أنفه ... ولا طل منا حيث كان قتيل؟
وطلب الأديب الإجابة عن هذا السؤال ممن يشاء من القراء فإليه الجواب:
رويت هذه القصيدة لعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي، وهو شاعر إسلامي شامي من شعراء الحماسة. ولئن اعتمدنا هذه الرواية فلا إشكال. . . على أن البيت في بعض الروايات هكذا: (وما مات منا سيد في فراشه. . . الخ)
قال الخطيب التبريزي تعقيباً على هذه الرواية في شرحه للبيت في الجزء الأول من الحماسة صفحة113، تحقيق الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد: (وهذه الرواية رواية من يجعل القصيدة جاهلية). وعليها فالبيت مني بالتحريف، وكم عدا التحريف البغيض على آثار العبقرية العربية الشاعرة.
ولقد ذهب الأستاذ الزيات في كتابه (تاريخ الأدب العربي) صفحة177 الطبعة السادسة، إلى أن ما روى عن علي دليل على أن قصيدة السموءل منحولة كلها أو بعضها. . .
ولعل في هذا ما يكشف الريب.
محمد فهيم عبيد
عام الفيل ومولد الرسول
في بريد العدد451 من (الرسالة)، يذكر الأديب الفاضل علي محمد حسن في الفقرة الثالثة من كلمته (في مطالعاتي) أن النبي صلى الله عليه وسلم ولد عام الفيل الموافق سنة (570م) وبالرجوع إلى العدد349 من (الرسالة)، نرى الأستاذ البحاثة المرحوم (إسماعيل أحمد أدهم) في مقالة له عنوانها (عام الفيل وميلاد الرسول) يثبت ويؤكد بالأدلة القاطعة، أن عام الفيل كان يوافق سنة (540م)، وميلاد الرسول يوافق سنة (570م). وهذا يدل على أن الصلة مفصومة بين ميلاد الرسول وعام الفيل، وأن محمداً صلوات الله وسلامه عليه ولد بعد عام الفيل بنحو ثلاثين سنة، ويوجه في ختام بحثه أنظار المشتغلين بالتاريخ الإسلامي، وخاصة أساتيذ الجامعة إلى هذه الحقيقة. ورجا أن يكون في (بحثه هذا) تصحيح لما تجري به أقلام الباحثين في العالم العربي، من أن رسول الله ولد عام الفيل.
وبعد. فإلى الأديب الفاضل أقدم هذا البحث القيم للاطلاع عليه في ص450 من العدد 349 في السنة الثامنة من عمر (الرسالة) المديد.
وإلى جمهرة المؤرخين الأفاضل، أرجو بسط هذا الموضوع وبحثه على صفحات (الرسالة) الغراء لحيويته وخطورته بالنسبة لتاريخ مولد سيد العالمين، وحقيقة صلة هذا الميلاد بعام الفيل.
(ديروط)
أحمد محمد فرج
ï» ؟ Error
©ظپططµظٹظ‌طط¯ ط®ط·ط ظپظ‰ ط¹ط±ط¶ ظ‡ط°ظ‡ ظطظ„ط
ï» ؟ Error
©ظپططµظٹظ‌طط¯ ط®ط·ط ظپظ‰ ط¹ط±ط¶ ظ‡ط°ظ‡ ظطظ„ط
ï» ؟ Error
©ظپططµظٹظ‌طط¯ ط®ط·ط ظپظ‰ ط¹ط±ط¶ ظ‡ط°ظ‡ ظطظ„ط
ï» ؟ Error
©ظپططµظٹظ‌طط¯ ط®ط·ط ظپظ‰ ط¹ط±ط¶ ظ‡ط°ظ‡ ظطظ„ط
ï» ؟ Error
©ظپططµظٹظ‌طط¯ ط®ط·ط ظپظ‰ ط¹ط±ط¶ ظ‡ط°ظ‡ ظطظ„ط
ï» ؟ Error
©ظپططµظٹظ‌طط¯ ط®ط·ط ظپظ‰ ط¹ط±ط¶ ظ‡ط°ظ‡ ظطظ„ط
ï» ؟ Error
©ظپططµظٹظ‌طط¯ ط®ط·ط ظپظ‰ ط¹ط±ط¶ ظ‡ط°ظ‡ ظطظ„ط

ï» ؟ Error
©ظپططµظٹظ‌طط¯ ط®ط·ط ظپظ‰% ط¹ط±ط¶ ظ‡ط°ظ‡ ظظ„ط
ï» ؟ Error
©ظپططµظٹظ‌طط¯ ط®ط·ط ظپظ‰% ط¹ط±ط¶ ظ‡ط°ظ‡ ظظ„ط
العدد 454 - بتاريخ: 16 - 03 - 1942

بين ناخب ونائب

بين غداة وعشية أمسى غنينا الطافح عضواً بالتزكية في مجلس النواب. والفوز بالتزكية هنا معناه امتناع المنافس لا انقطاع النظير، وخلو الميدان لا بطولة الفارس؛ ومع ذلك نصب البك السرادق، وقدم الحلوى، وتقبل التهنئات، وسمع بأذنيه الطويلتين القصائد العور والخطب البتر في الإشادة بالكفاية العالية فيه، والثقة الغالية به، والخير المرجو منه. وللريف شعراء وخطباء كعصافير الحصاد: تقع في الجرن ولا تقع في الروض، وتزقزق للحبة ولا تزقزق للزهرة، وتكرر أغرودتها الواحدة ولا تقصد بها معنى غير فرحها هي بسمة البيدر وضخامة العرمة!

ولكن البك وحده هو الذي صدق هذه التفاعيل العروضية فانتفش انتفاش الديك، وراح يعد ويمني، ويعدد ويمن، ويفخر ويفيش، ويزعم أنه باجتهاده وجهاده سيجعل المجلس يبسط الأرزاق، ويطيل الأعمار، ويضمن لكل ناخب في دائرته قصراً في الدنيا وقصراً في الجنة. كان الرجل يتنفخ والناس يجاملون بالاصغاء، ويتجملون بالصبر، إلا صديقنا الشيخ منصوراً فقد قال له في شيء من حدة الصراحة وشدة الحجاج:

- ذلك يا بك كلام من لغة التحيات والمجاملات تردده الألسن بحكم العادة ولا تريد به شيئاً. هو أشبه بقولي: (أهنئك بالفوز) وما كنت أريد انتخابك، أو قول اللص: (السلام عليك) وهو يريد انتهابك. ولو كانت الوعود البرلمانية في آخر الانتخاب، والبرامج الوزارية في أول الدورة، من الكلام الذي يقصد به معناه، لما بقى في صحارى مصر شبر يشكو الظمأ، ولا في مساكين مصر فرد يشكو الجوع! لقد قلتم كثيراً ولم تفعلوا، فحاولوا هذه المرة أن تفعلوا ولا تقولوا!

- أنت يا شيخ منصور كالضرس المخالف في دولاب الساقية! لا يجري كلامك مع الكلام، ولا يقف رأيك مع الآراء! ماذا تريد أن يفعل النائب أكثر من أن يمثل الأمة، ويشرع القوانين، ويبحث الميزانية، ويراقب الحكومة؟

- ذلك هو المفروض يا بك! أما الواقع فهو أن بعضكم متى دخل البرلمان لا يمثل إلا نفسه، ولا يقضي إلا حاجه، ولا يراقب إلا عدوه. ويصوت على القانون في قاعة المجلس بالإقرار، ثم يكون هو أول من يطلب خرقه في ديوان الحكومة بالوساطة!

أن ما يطلب من الحكومة والبرلمان في شؤوننا العامة، لا يزيد كثيراً على ما يطلب من

صاحب العزبة في شؤونه الخاصة: استصلاح الأرض والانتفاع بكل ما فيها؛ ثم تدبير القوت والصحة والمعرفة لكل من يقوم عليها. ليس لنا مستعمرات تقتضي إدارتها النشاط والحكمة، ولا أسواق تجارية تطلب مراقبتها الذكاء والخبرة، ولا سياسة خارجية تحتاج معالجتها الدهاء والقوة. هاهي ذي عشرون سنة مرت على مصر ولها استقلال وفيها برلمان، فهل تستطيع أن تقول أن المصري الآن، اصبح خيراً مما كان؟ أن هذه العشرين سنة غيرت نظماً وخلقت أمما وقلبت الدنيا كلها رأساً على عقب؛ ولكنها مرت على النائمين في الكهف مرور الحلم المزعج، حرك الأجسام بعض الحركة، وترك المشاعر ساكنة كل السكون

- ما هذه الفلسفة يا شيخ منصور؟ هل تستطيع أن تقول لي أنت متى تركوا الحكومة تستقر، وخلوا البرلمان يعمل؟ أن الدستور في الأمة كالمصباح في الصحراء، لا ينشر ضوءه إلا إذا تركته الرياح آمناً

- لو تفلسفت يا بك كما أتفلسف لتبينت أن استقرار الحكومة واستمرار البرلمان لا يكونان مع سياسة الكلام، فإن سياسة الكلام هي سياسة الفراغ، وإذا شغلها شال فهو المراء والمكابرة والمهاترة والخصومة. وكلما علا صوت عل صوت، وظهرت دعاية على دعاية، انقلبت الأوضاع، وتغيرت المكاتب، وتبدلت المناصب، وتعطلت المواهب، وتقوض المبنى، وانتكث المفتول، وتوقف السائر. أما سياسة العمل فتهيئ لكل ذهن ما يشغله، ولك يد ما تعمله. وذا اشتغلت الأذهان وعملت الأيدي، عيت الألسنة فلا

تجادل، وائتلفت القلوب فلا تختلف، وانقطع دابر القوالين فلا تعود الحزبية تجارة ولا السياسة حرفة
- أن الدلائل يا شيخ منصور تبشر بصلاح الحال. وما دام الأمر في يد أهله فانظر إلى المستقبل نظر المتفائل الآمل
- لا تكلني إلى المستقبل يا بك. أن من يضيع يومه لا يجد غده. ومن يفرط في عاجل الشهادة طمعاً في آجل الغيب كان حقيقاً إلا يدرك شيئاً
- وماذا تريد أن اصنع لك الآن؟
- أريد أن تنزل عن مكافأتك النيابية لدائرتك الانتخابية. أنك والحمد لله ضخم الثراء رفيع العيش، فلا أقول أنك طلبت النيابة كما يطلب الناس الوظيفة. وإن أربعين جنيهاً في كل
شهر تقسم على ثماني قرى لا تدع فيها أمياً واحداً قبل انقضاء الدورة. ولا اعتقد أنك تؤدي إلى أمتك في طول نيابتك عملاً ارفع ولا انفع من هذا العمل. أنك تعلم أن في مركزين من مراكز الغربية ثلاث عيلات تملك سبعة وعشرين ألف فدان، وتشغل سبعة كراسي في البرلمان، تكافأ على شغلها بأربعين ألف جنيه في العام؛ فقدر في نفسك يا بك ماذا يجدي على دوائرهم الفقيرة هذا المبلغ وهو لا يقدم في ثرواتهم العريضة ولا يؤخر
- ولكنك تطلب ما لا يطلبه أحد في أمة من الأمم
- وهل تجد في أمة من الأمم فقراء في مثل فقرنا يعطون، وأغنياء في مثل غناكم يأخذون؟ أن النيابة عندهم بذل وتكليف، ولكنها عندنا ربح وتشريف. وإن أكثركم ليسخو بالآلاف في سبيل الدعاية لها والظفر بها؛ فهل يضيركم أن تنزلوا لنا عن هذه العشرات فتحفظوا مهجا من التلف وعقولاً من الجهالة؟
- كلامك يا شيخ منصور سديد ورأيك أسد. وإني أعدك إلا أعارض إذا قبل الآخرون
- أي آخرين تريد يا بك؟ ولم لا تسن أنت هذه السنة الحسنة فيكون لك اجرها واجر من عمل بها إلى يوم يحل المجلس؟
- يحل المجلس؟ قل إلى يوم تنتهي الدورة يا شيخ؟ فأل الله ولا فألك! لقد شغلتنا بثرثرتك عن تحية الناس. ثم أشاح البك عن الشيخ وأقبل على المهنئين يوزع عليهم تحياته الشريفة! فلما أعدناها على ترتيبه خرجت لحسن حظ الأدب منظومة في هذا البيت:

أهلاً وسهلاً، طيبونَ، وحشِتنا ... سَلماتِ، إزَّيّك، وكيف الحال؟

(المنصورة)

أحمد حسن الزيات

بين آدم وحواء:

تحت شجرة التين

للدكتور زكي مبارك

جاهد آدم نفسه في حدود ما يطيق. . . وماذا يطيق المرء وهو يجاهد النفس في أهواء تسوقها امراة؟ سينتهي أمره إلى الهزيمة، إلا أن تؤيده قوة ربانية تصرف عنه السوء وترده إلى الاعتصام بالعقل. ولحكمة يعلمها الله ضعف آدم عن مقاومة حواء، ودعاها إلى التلاقي تحت شجرة التين

وهنا يذكر شيث في كتابه أن حواء تلكأت في الاستجابة لذلك الدعاء، ولزمت مكانها تحت شجرة الطلح، كأنها تريد أن تحمله على الإلحاح فيكون البادئ بالعصيان

ولو تأمل شيث قليلاً لذكر تعليلاً غير هذا التعليل، فالرأي عندي أن حواء توهمت أن لآدم رغبة في شجرة التين، وإن تمنعه لم يكن عن صدق، وإنما كان يريد أن يحملها تبعة العصيان

والحوادث تؤيد هذا الافتراض. فما كاد آدم يخبر حواء بأنه سيسايرها فيما تريد حتى فترت رغبتها في قرب الشجرة المحرمة، وأعلنت اكتفاءها بما احل الله من طيبات الفردوس

فما معنى ذلك؟ وما مغزاه؟

معناه أن حواء تحب أن تسلك في جانب يغاير ما يسلك آدم من الجوانب، فقد أحبت حواء التين حين ثار آدم عليه، ثم زهدت فيه حين رأته من هواه، وإلا فكيف جاز أن

يدعوها فلا تجيب وهي التي قهرته قهرا على أن يذعن لما تريد من قرب شجرة التين؟
وابتسم آدم حين رأى حواء تهدأ بعد ثورة وتلين بعد شماس، ثم حمد الله على انحسار الغمة وانجلاء الضيق، واخذ في الاستغفار من الذنب الذي اقترف. فقد حدثه الضمير بأنه أذنب بالفعل، وإن لم يذق الثمر الممنوع، لأن نية السوء لا تقل بشاعة عن السوء في نظر الأخلاق، وكان آدم يعرف أنه يعامل الله، والله يحاسب على النيات بأقسى مما يحاسب على الأقوال والأفعال، لأنه يحب لعباده أدب الملوك لا أدب العبيد
ثم نظر آدم فلم ير حواء، فأين ذهبت؟
فتش عنها في غياضٍ كثيرة، وسال عنها أسراباً من الطير والظباء فلم يظفر بجواب، فأين
ذهبت؟ وكيف ضاعت؟ وما السبيل إلى مكانها في الجنة الفيحاء؟
أتكون غضبت من طاعة آدم وكانت تحب أن يتمرد؟
لقد خطر لآدم هذا الخاطر، فقد علمته التجارب أن حواء لا تتمتع بالصحوة الجسدية والروحية إلا في أوقات الخلاف. وهل ذاق آدم حلاوة حواء إلا في لحظات الثورة على الأوامر الربانية؟
أمر هذه المخلوقة أعجب من العجب، فهي لا تحلو ولا تطيب إلا عند النضال، وهي تفقد كل قيمتها حين تتناول شؤون الحب في طاعة مجردة من الإحساس، كالطاعة التي تصدر عن فتاة لم تبلغ سن الكيد، وكيد المرأة إثم جميل!
فكر آدم طويلا في غيبة حواء، وانزعج حين خطر له أن تكون حرمت الثورة على ما ترى وما تسمع، وأنها لذلك سكنت العزلة في جنينة مهجورة يسقيها نهير مجهول من رواضع الكوثر وهي رواضع تعد بالألوف
وعاد آدم لنفسه ليعرف حاله في غيبة حواء، فصح عنده بعد التأمل أن العبادة الصحيحة لا تكون إلا بالجهاد، ولا جهاد بدون أهواء
يجب أن يكون في الوجود حرام وحلال، لنشعر بالذاتية في قرب هذا واجتناب ذاك، وإلا صرنا خلائق تواجه الوجود بلا اكتراث، وإذا انعدم الاكتراث فقد انعدمت الأخلاق.
وقد يكون العصيان عن نية افضل من الطاعة بلا إحساس، لأن المهم أن ندان حين عصي، ونثاب حين نطيع، ولا يتم ذلك بغير النية الواضحة فيما نباشر من مختلف الأعمال.
أتكون حواء ترهبت فلاذت بأحد الكهوف؟
ذلك ما خاف آدم أن يكون، فالترهب نذير الموت، وهو يكره لحواء أن تموت.
وكيف يعيش آدم إذا غفا كيد حواء؟
لقد أبدعته إبداعاً وإنشائه إنشاءً، حين تولت إضرام الجمر المكنون في قلبه الوسنان، وآدم رجل، والرجل يحفظ الجميل.
ومر حين وأحيان وأحايين وحواء لا تعود.
وشعر آدم بانعدام أسباب الثورة والهدوء فأيقن بقرب الفناء
وما حياة الرجل إذا خلت من الأحلام والحقائق والأباطيل؟
ما حياته إذا حرم التنقل من ضلال إلى هدىً، ومن هدىً إلى ضلال؟
قيمة الرجل بالجهاد، ولا جهاد بدون أهواء، وقد أمسى صدر (آدم) وهو جلمود أملس لا ينبت الأزهار ولا الأشواك ولا يثبت فوقه تراب ولا ماء
والتفت (آدم) فرأى من الخير أن ينقطع للاستغفار ليتوب الله عليه، وهل أذنب حتى يتوب؟
أن كان كل حظه من المعصية أنه رضى مسايرة (حواء)، وقد ذهبت (حواء) ولم يبق موجب للقنوت والابتهال
الموت افضل من حياة تخلو من مقارعة هوى النفس في كل يوم. والرجل الذي يواجه المعاني بقلبٍ أغلف شبيه بالرجل الذي يطالع سفر الوجود وهو معصوب العينين. وهل كان الموت فناءً إلا لأنه يصدنا عن صنع الخير واجتراح الآثام؟
وما طعم الاستغفار على لسان من لم يذنب؟ وما لون الطاعة في عين من لم يقاوم الأهواء؟
لقد مات (آدم) وهو حي، فلم يعد يدرك ما في الفردوس من سحر وفتون
كان (آدم) يجد لذة في ضرب (حواء)، فأين هي الآن ليتمتع بلطم خدها الأسيل؟!

وكانت (حواء) تجر (آدم) إلى مآزق تشعره بقوة الحيوانية، فأين هو اليوم من تلك المآزق، وأين سبيله إلى الفتك والجنون؟
لقد خلت حياته من جميع المعاني بعد غيبة (حواء)، وما كان يعرف أنها تملك من الروحانية الأثيمة ذلك الحظ العظيم
وانطلق (آدم) يراود معاهد الحب، عله يجد (حواء) مختبئة في بعض ألفاف البواسق، على نحو ما كان يقع في الأوقات السوالف، ولكنه لم يظفر بغير اليأس
أين (حواء) أين (حواء)؟
أين الصبية الجميلة التي أوحت إليه فكرة الثورة على الشرائع؟
أين الحلقة الحلوة التي زينت له طعم العصيان؟
كان آدم يشتهي جميع ما في الجنة من أطايب قبل أن تفارقه حواء، ثم أمسى وهو موقوذ الشهية بسبب الفراق، وهل تطيب الحياة لمن يعيش بلا أنيس موسوم بالصباحة والجمال؟
ذلك نعيم ذهب، وأمل ضاع، فليقتل آدم نفسه أن شاء هي امرأة مخبولة، ولكنها مشتهاة،
والشهوة رزق من الأرزاق، وإن قيل في تجريحها ما قيل
كان آدم يهز الشجرات المثمرات ليطعم حواء، وهو اليوم يرضى بما يسقط من الثمر المعطوب، أن بقي له شيء من نعمة الجوع، والجوع نعمة لا يحسها غير الأصحاء
كان لآدم في الجنة تاريخ بسبب اللجاجة التي كانت تثور عن حواء من حين إلى حين، فما حياته وقد أمسى مغسول القلب والروح والوجدان؟
أيعبد الله بالاستغفار؟ ومم يستغفر وهو مقتول الأهواء؟
أيسبح لله؟ وكيف؟ أن التسبيح تنزيه وهو ممنى لا يدرك بعير القياس؟
لو عادت حواء لاستطاب آدم شجرة التين، ولكن متى تعود؟
لقد اكتفت الشقية بنا تطمئن إلى أنها مصدر ضلاله وهداه؛ وكذلك رأت أن تتركه في حيرة دامية عدداً من الأعوام العجاف؛ وبغي المرأة لا يحتاج إلى برهان
استيأس آدم فرضى بالانزواء في أحد الأدغال، وعند ذلك شعرت حواء بالشوق إلى مصاولته من جديد، والمرأة يؤذيها أن يهدأ الرجل، ولو كان في المحراب
- آدم! آدم!
- حواء؟
- نعم، حواء، إلا تراني؟
- كنت حسبت أنك ذهبت إلى غير مآب
- قبل أن نأكل معاً من شجرة التين؟ هذا مستحيل!
- وهل نعصى الله يا حواء؟
- سترى أن المعصية طيبة المذاق (؟!)
وتنبه آدم فرأى أنه مقبل على خطر جديد، فدار الحوار بأسلوب جديد
(للحديث شجون)
زكي مبارك
النبي المقنع
بقلم الإمبراطور نابليون بونابرت
نقلها إلى العربية عن الترجمة الإنكليزية
الأستاذ إبراهيم عبد الحميد زكي
مقدمة
لا تنحصر أهمية هذه القصة في كونها أثراً من آثار رجل عظيم فحسب، بل تتعدى ذلك إلى ما تكشف للناس عنه من اتجاه نابليون وطموحه قبل أن تتيح له الثورة الفرنسية فرصة إظهار عبقريته ونبوغه في الحرب والقيادة. فقد كان نابليون حتى عام 1789 ضابطاً صغيراً في الجيش الفرنسي، ولم يكن قد ظهر له من المواهب شئ يسترعي الأنظار، وكانت أسرته الكورسيكية قد أخنى عليها الدهر وقضت الأيام بأن تعاني شدائد العسر والضيق المالي، فرأى الشاب أن يحزم أمره ويعقد عزمه على إصلاح شؤونها وتفريج كربتها بالالتجاء إلى الأدب عسى أن يظهر فيه ويذيع اسمه فينال من الشهرة ما يكفل له رواج كتبه وسعة رزقه، فاتجه بجميع قواه نحو تحقيق هذه الغاية، وبذل من

الجهد في هذا الميدان مثلما قدر له أن يبذل في ميدان الحرب والقتال، فوضع كتاباً في تاريخ جزيرة كورسيكا وهذبه على الأقل ثلاث مرات؛ وألف رواية كورسيكية أيضاً وعدة قصص صغيرة وبضع قصائد شعرية ومقالات كثيرة. فعل هذا كله ولم يبلغ سن العشرين، ولكن ذلك لم يجد عليه نفعا ولم يحقق ما كان يطمح إليه، فلم ينشر كتاب التاريخ، وظلت روايته مخطوطة، ولم تر مقالاته ولا قصصه الضوء إلا بعد سنوات كثيرة من تأليفها

ولقد قيل عن قصة (النبي المقنع) أنها محض خيال، وإنها لا تستند إلى شئ من الواقع، ولكن هذا غير صحيح. حقاً أن نابليون لم يتبع الدقة التامة في ذكر التفاصيل، ولكن هذا لا يعني أن القصة لا تقوم على أساس تاريخي صحيح، بل أن المرء يلاحظ أنه عرض حوادثها عرضاً تمثيلياً (دراماتيكياً) قوياً. وقد كتبها نابليون عام 1787، وجرى في تأليفها على أسلوب فولتير ونشرت عام 1821 - أي عام وفاته

القصة

في سنة 776 ميلادية، أي بعد مائة وستين عاماً من هجرة النبي محمد، كان ميكادي خليفة في بغداد؛ وكان أميراً نبيلاً ذا بأس وقوة، فخشيه جيرانه وقدروه وبجلوه. وفي ظل حكمه العادل تمتعت بلاد العرب بالسلم والرخاء. وكان الخليفة راعياً للعلوم والفنون فتقدمت الحضارة في عهده تقدماً سريعاً، إلى أن كدر صفو هذا الهدوء، والتقدم قيام متنبئ جديد. ظهر هذا الرجل واسمه حكيم في مدينة خراسان فتبعه خلق كثير في وقت قصير. وكان طويل القامة فصيح اللسان فادعى أنه صوت الله على الأرض وقال: أن الواجب أن يكون الناس جميعاً من حيث المراتب والثروة سواء. واستهوى هذا القانون أفئدة الدهماء فهرع إليه ألوف من الناس وكان له بذلك جيش عظيم

ولما رأى الخليفة والنبلاء خطر هذه الثورة عقدوا العزم على خنقها في المهد؛ ولكن جيوشهم كانت تلاقي الهزيمة تلو الهزيمة فازداد بذلك أنصار حكيم يوماً بعد يوم وبينما كان هذا النبي في أوج مجده إذا به يصاب بمرض شديد، وكان هذا المرض نتيجة الجهد المضني الذي بذله في المعارك التي خاض غمارها. فلما خفت وطأة المرض ونال الشفاء أيقن أن حسنه قد ذهب، وأنه لم يعد بعد خير رجال العرب وأوسمهم إذ كان قد عمى وخبا إلى الأبد ضوء عينيه الرائع

ولما أحس بأن هذا التشويه الطارئ قد يفقده السيطرة على اتباعه والتأثير فيهم، رأى أن يحجبه عن أعينهم بقناع من فضة وضعه على وجهه. فلما فعل ذلك عاد إلى الاتصال بهم والتجول بينهم يخطبهم ويؤثر فيهم بفصاحته المعهودة، فظل الناس مأخوذين بعذوبة لسانه وسحر بيانه كما كانوا من قبل؛ وكان يعلل لهم إخفاء وجهه عنهم بأنه يخشى عليهم أن يبهر أعينهم ذلك الضوء الفياض الخارق للطبيعة الذي ينبعث منه. إذ تبين له أن الظرف الحالي يقضي عليه بأن يعتمد أكثر من ذي قبل على الحماس الديني الذي أوقد شعلته وأثار كوامنه في نفوسهم

ولكن هذه الحال لم تدم كثيراً إذ أصيب اتباعه فجأة بهزيمة منكرة على أيدي جيوش الخليفة؛ فكانت هذه الهزيمة صدمة عنيفة وجهت إلى صميم هذا الدين الجديد؛ فهجر حكيما كثير من أنصاره، وتراجع هو ومن بقي معه من اتباع قلائل إلى مدينة محصنة محوطة بأسوار عالية؛ ولكنه لم يلبث قليلاً حتى أحدق به جند الخليفة وحاصروه وتبين الآن أن أمام حكيم أحد طريقين: فإما أن يموت، وأما أن يحدث له ما هو أسوأ من الموت وهو الوقوع أسيراً في أيدي اعداه، فجمع أتباعه وخطب فيهم قال: أيها المؤمنون! لقد اختارنا الله ورسوله لإعادة بناء هذه الأمة واسترجاع مجد الإنسان؟ فلماذا إذن يثبط من عزمنا ويلقى اليأس في قلوبنا كثرة أعدائنا؟ أصغوا إلي! في الليلة البارحة والناس نيام سجدت لله طويلاً ودعوته في حرارة قلت: أبتاه! لقد رعيتني وحميتني هذه السنين الطوال فهل أثمت أو أثم أحد من اتباعي حتى تخليت عنا؟ فسمعت صوتاً يجيب: يا حكيم أن اتباعك الذين حافظوا على عهودهم وظلوا معك يناصرونك ولم يتخلوا عنك في ساعة الحرج، أولئك هم الذين سأنجيهم وأنصرهم، وأولئك هم الذين سيقاسمونك غنائم أعدائهم الطغاة وأموالهم. انتظر حتى يبزغ القمر الجدي، فإذا بزغ فأمرهم أن يحفروا خنادق في الأرض كثيرة فيسقط أعداؤهم فيها ويهلكون

ففعلوا ما أمروا به، وحفرت الخنادق وألقى فيها مقادير هائلة من الجير، ووضع على حافاتها أوان من النحاس كبيرة ملئت زيوتاً قابلة للاشتعال
وعندئذ أقام حكيم حفلاً كبيراً دعا إليه أنصاره فأكلوا وشربوا من الخمر الذي قدم إليهم
ولكنهم لم يلبثوا أن وقعوا على الأرض صرعى يألمون اشد الألم من السم الزعاف الذي مزجت به الخمر، ثم فارقوا الحياة. وكان حكيم وحده لم يذق هذه الخمر فاخذ جثثهم وألقاها في الخنادق ليتلفها الجير ثم سكب عليها الزيوت وأشعل فيها النيران؛ فلما تصاعدت أعمدة اللهب والدخان قفز فوق اتباعه فاحترق وكان من الهالكين
وفي اليوم التالي تقدم الخليفة وجيوشه صوب المدينة وأرادوا اقتحامها ولكنهم عندما اقتربوا من أبوابها وجدوها مفتوحة على مصراعيها بغير حراسة، فوقفوا قليلاً وترددوا خشية أن يقعوا في كمين أعد لهم؛ ثم دخلوها بعد قليل فإذ بها خالية من الناس، وإذا بالنبي وأتباعه جميعاً قد هلكوا إلا امرأة واحدة ن حظايا حكيم
قصة يكاد العقل يأبى تصديقها لغرابتها، وهي تبين المدى البعيد الذي يذهب إليه الناس أحيانا طمعا في الشهرة وبعد الصيت
تعليق
هذه هي القصة كما كتبها نابليون وهي تتفق في جملتها مع الرواية العربية التي سنأتي بخلاصتها في الأسطر التالية:
ظهر المقنع كما يقول ابن الأثير في حوادث سنة تسع وخمسين ومائة بمدينة خراسان، وكان رجلاً اعور قصيراً من أهل مرو يسمى حكيما. وكان قد اتخذ وجها من ذهب فجعله على وجهه لئلا يرى، فسمي المقنع وادعى الألوهية، ولم يظهر ذلك إلى جميع أصحابه. وكان يقول بالتناسخ فيزعم أن الله خلق آدم فتحول في صورته ثم في صورة نوح وهلم جرا إلى أبي مسلم الخراساني، ثم تحول إلى هاشم؛ وهاشم في دعواه هو المقنع. وتبعه خلق كثير من ضلال الناس؛ وكانوا يسجدون له من أي النواحي كانوا؛ واجتمع إليه خلق كثير وظهرت المبيضه ببخاري والصفد معاونين له
وكان يعتقد أن أبا مسلم أفضل من النبي صلى الله عليه وسلم فأرسل المهدي إليه أبا النعمان والجنيد وليث بن نصر فحاربوه مرة بعد مرة، ثم انفذ إليه جبرائيل بن يحيى وأخاه يزيد فاشتغلوا بالمبيضة الذين كانوا بنحارى فقاتلوهم أربعة أشهر في مدينة بومجكت فقتل منهم سبعمائة منهزموهم بالمقنع؛ ثم سير المهدي أبا عون لمحاربة المقنع فلم يبالغ في قتاله واستعمل معاذ بن مسلم
وفي سنة إحدى وستين ومائة سار معاذ بن مسلم وجماعة من القواد والعساكر إلى المقنع وأوقعوا بأصحابه وهزموهم، وقصد المنهزمون إلى المقنع بسبام فعمل خندقها وحصنها. ووقع بعد ذلك نفرة بين معاذ واحد القواد وهو سعيد الحرشي فكتب الحرشي إلى المهدي يقع في معاذ ويضمن له الكفاية أن أفراده بحرب المقنع؛ فأجابه المهدي إلى ذلك، فحاصر المقنع وأطال الحصار، فطلب أصحاب حكيم الأمان سراً فأجابهم الحرشي إلى ذلك فخرج نحو ثلاثين ألفاً، وبقي مع المقنع زهاء ألفين من أرباب البصائر. وتحول رجاء بن معاذ وغيره فنزلوا خندق المقنع في أصل القلعة وضايقوه. فلما أيقن بالهلاك جمع نساءه وأهله وسقاهم السم فأتى عليهم، وأمر أن يحرق هو بالنار لئلا يقدر على جثته. وقيل بل احرق كل ما في قلعته من دابة وثوب وغير ذلك؛ ثم قال من احب أن يرتفع معي إلى السماء فليلق نفسه في هذه النار. وألقى بنفسه مع أهله ونسائه وخواصه فاحترقوا. ودخل العسكر القلعة فوجدها خاوية، وكان ذلك مما زاد في افتتان من بقي من أصحابه والذين يسمون المبيضة فيما وراء النهر، إلا انهم يسرون اعتقادهم. وقيل بل شرب هو أيضاً من السم فمات. فأنفذ الحرشي رأسه إلى المهدي فوصل إليه وهو بحلب سنة ثلاث وستين ومائة في غزواته
وقد كانت هذه الرواية وغيرها معروفة على الأرجح في القرن الثامن عشر عند أكثر الأدباء الغربيين فاستهوت أفئدتهم وأثارت أخيلتهم لغرابتها وطرافتها، ولانتحار المقنع هذا الانتحار المروع، فاتخذها بعض الأدباء والشعراء موضوعا لقصصهم وأشعارهم. ولعل أشهر من تناولها بشيء من الاحتفال والعناية في القرن التاسع عشر هو الشاعر الإنكليزي المشهور توماس مور (1779 - 1852) وهو صديق الشاعر الكبير لورد

بيرون وكاتب ترجمة حياته ورسائله. وقد افرد لقصة المقنع الجزء الأول من قصيدته الكبرى فأثنى النقاد على هذه القصيدة ثناء عظيما لدقة وصف الشاعر للبلاد الشرقية وروحها؛ ولكن هازلت الناقد المعروف أنكر شاعريتها ورأى فيها من آثار الصنعة أشياء كثيرة تفوق ما انطوت عليه القصيدة من روح شعرية صافية

إبراهيم عبد الحميد زكي

اختباراتي في الأحلام

للدكتور محمد حسني ولاية

أن الأخذ بنظرية خاصة في تفسير الأحلام لا يؤدي إلى نتائج صحيحة في كثير من الاحوال؛ فمرامي الإنسان كثيرة التشعب وظروفه مستمرة التقلب، وأهدافه تتغير بتغير الظروف والملابسات وتفاوت السن، وتطور العقلية بحيث يكون من الخطأ أن يولي الحالم القبلة التي يرتضيها مفسر الحلم تبعاً لنظريته.

وإني أرى أنه لا توجد نظرية واحدة يمكن تفسير جميع الأحلام بمقتضاها. ونحن لا نستطيع أن نقول: أن كل حالم ينشد إرضاء رغبات طفلية محتبسة في العقل الباطن، أو أنه يسعى إلى توكيد أهمية ذاته في الحلم، كما أنا لا نستطيع أن نجزم بأن الأحلام التي تنشأ مما يسميه يونج (اللاوعي الشامل) تتحدى أية محاولة لتبريرها.

أن ما لا نستطيع تبريره ليس معناه أنه لا يمكن تبريره والتدليل عليه. ولا ينبغي لنا أن نقول: أنه لا يمكن الوصول إلى الحقيقة لانا لم نستطع الوصول إليها؛ فما زال مجال البحث والاستقصاء متسعا، وما زالت العقلية البشرية تسمو نحو الكمال رويداً رويداً على مر الزمن.

على أن هذا ليس من شأنه أن يبخس النظريات التي وضعها علماء النفس حقها، إذ يكفيهم فخراً أنهم فتحوا أذهاننا للبحث، واستكشفوا آفاقاً مجهولة من العقل البشري، وأرسلوا بصيصاً من النور على كثير من الحقائق. ومع ذلك فإن بعض النظريات التي وضعت تصلح لتفسير بعض الأحلام دون البعض الآخر. ومن الممكن أن يفسر حلم واحد على أساس نظريتين أو أكثر نظراً لتعدد جوانب بعض الأحلام وتشعب مراميها.

كثير من الأحلام تافه القيمة من الوجهة النفسية، فهو أشبه بالأحاديث العادية التي يدلي بها الشخص بمناسبة وبغير مناسبة، لأنه لا يستطيع الصمت في اغلب الأحوال، فلابد أن يقول شيئاً أيا كان للتفريج عن الطاقات الفائضة في نفسه.

وقد تعبر الأحلام على وتيرة الأحاديث البادية أو على نمط الرموز البدائية أو على نهج الأفكار والنزعات الطفلية. على أو لبعض الأحلام قيمة المقطوعات الشعرية الرائعة، أو الصور الزيتية الجميلة، أو النغمات الموسيقية الساحرة.

يستفسر بعض الناس عن السبب في كونهم لا يرون أحلاماً إلا فيما ندر؛ ورداً على هذا أقول: أنه قد يكون راجعاً إلى كون الطاقة الكاتبة (الرقيب الحلمي) لديهم قوية بحيث لا تستطيع المنبهات الكامنة في العقل الباطن التعبير عن نفسها، وقد يؤدي احتباسها في السريرة إلى القلق.

ومن الناس من يعبرون في اليقظة عن أفكارهم ووجدانهم وعواطفهم بوسائل تشبه وسائل الرجل الفطري الذي يستعين بالرموز ويعتقد في السحر لأن قواهم الكاتبة ضعيفة، وهذا يؤدي إلى طغيان عقلهم الباطن على عقلهم الواعي، فتبدوا أفكارهم عجيبة لا يهضمها المنطق لكونها مؤسسة على البدوات مفتقرة إلى الانسجام والتماسك. وقد يبلغ بعض هؤلاء ذروة الذكاء ولكنهم مع ذلك يشبهون الأطفال في تصرفاتهم ولا يستطيعون تكييف أنفسهم للبيئة. ولما كان هؤلاء يعبرون باستمرار عما يدور في سرائرهم في حالة اليقظة فهم لا يدخرون طاقات عقلية مستفيضة تسعى إلى التعبير عن نفسها إبان النوم في شكل أحلام.

وهاك بضعة أحلام وتفسيرها بإيجاز:

1 - رأى شاب شارع في الزواج أنه موجود في غرفة بيضاء مستديرة الشكل، وقد دهش في الحلم من طراز الغرفة ولعدم وجود أبواب لها.

وقد قال لي أنه عندما استيقظ فطن إلى أن الغرفة تشبه صندوق الحلوى الذي يوزع على المدعوين بعد تحرير عقود الزواج

وفي نفس الليلة رأى في حلم آخر فريقا من السيدات والرجال والأطفال مجتمعين على شكل دائري، وكان هو خارج الدائرة، ثم ما لبث أن نفذ كالسهم إلى داخلها.

إذا أنعمنا النظر في هذين الحلمين اتضح لنا أن الأول يعني عقد الزواج وما يصحبه من توزيع صناديق الحلوى. كما أن وجوده في غرفة لا أبواب لها يعني أن هذا العقد قيد لا مخرج منه.

ويمثل الحلم الثاني الزواج نفسه، فالدائرة ترمز إلى عضو الانوثة، والاشخاص يمثلون المحتفلين بالعرس، ويعني الدخول إلى الدائرة العملية الجنسية ذاتها

2 - خطبت شقيقة صديق لي إلى شاب ثم ألغيت الخطبة، وقد قص علي الحلم الآتي:

رأيتني في قاعة إلى جانب شقيقتي، وجلس إزائي الأستاذ أحمد بدرخان والسيدة (أسمهان،

وبعد مدة وجيزة اقبل كلبان توأمان ورقصا على نغمات موسيقية)

المقصود من هذا الحلم التحذير من إتمام صفقة الزواج، إذ هو يعني أنه إذا تم الزواج فمصيره إلى الإخفاق مثلما اخفق زواج الأستاذ بدرخان بالسيدة أسمهان. أما الكلبان التوأمان فدخيلان على الحلم. والسبب في رؤية الحالم لهما أنه كان يقرأ موضوعاً عن التوائم في الليلة التي رأى فيها الحلم؛ على أن رقصهما على النغمات الموسيقية يقصد به التعبير عن السرور بالتخلص من خطيب غير مرغوب فيه

3 - طلب شاب منذ عشر سنوات يد فتاة فرفضته فتزوج بفتاة أخرى. وقد رأت الفتاة الأولى على أثر إصابة الشاب بكارثة منذ عهد قريب أنها تلبس حذاء ذا كعب مكسور ثم خلعته وناولته زوجة الشاب

يرمز الحذاء في هذا الحلم إلى الزواج، وتقصد الحالمة به تحقير خطيبها السابق، ويمثل الكعب المكسور الكارثة؛ وكأن الحالمة تقول لخطيبها السابق: (الآن أسلمك للفتاة التي تليق بك فما أنت أهل لي بسبب وقوعك في الكارثة التي تمخضت عنها تصرفاتك الشائنة)

واضح من هذا الحلم أنه يمزج حوادث ماضية بأخرى حديثة، فالعقل الباطن لا يعي الزمن وليس لمحتوياته انسجام ولا ترتيب

4 - رأى شاب أنه يسير نحو هوة سحيقة بمحض اختياره على الرغم من أنه يعلم أن تصرفه يؤدي بحياته. وقد قضى نحبه في اليوم التالي للحلم بأن سار نحو مركبة كهربائية في شبه ذهول فاصطدمت به

وهكذا تغلبت رغبات العقل الباطن على ميول العقل الواعي لأنه كانت مزودة بطاقات انفعالية كبيرة. وقد كان عيشه رغيدا فلم يكن هنالك داع لالتماسه الموت، ولكن الميول المحتبسة في العقل الباطن من زمن بعيد عبرت عن نفسها بطريقة عملية فانتهت حياته إلى هذه النهاية المريرة

5 - رأت فتاة مخطوبة أنها تملأ طبقاً بأوراق من شجرة سلق بدت في الحلم على هيئة شجرة عنب، وقد دهشت من شكلها لعلمها أن السلق ينمو في شكل عشبي

يمثل هذا الحلم الزواج، فالطبق يرمز إلى عضو الأنوثة، والشجرة عضو الذكورة بما تمتاز به من قوة الزحف والتشبث

ولما كان الخاطب أنثوي التكوين مثلته بشجرة السلق، وكانت تريده كشجرة العنب المثمرة، وهي تعني بهذا أنه لا يستطيع إنجاب أطفال

6 - رأت فتاة أنها في قطار يجري بسرعة شديدة بين بساتين دانية القطوف حتى وصل إلى بحيرة جميلة أينعت على صفحتها زهور النبات الطافي، وسبحت فيها قوارب خضراء

يمثل هذا الحلم رغبة الفتاة الدفينة في الزواج وإعقاب الذراري فالقطار يمثل الرجل، والبحيرة ترمز اليها، والقوارب تعني الأطفال

7 - رأت سيدة نفسها ترتدي ثوب الزفاف وتتزين كالعروس. كانت هذه السيدة مريضة بمرض خطير يستدعي إجراء عملية جراحية وكأنها تقول في الحلم: (سأسمح بإجراء العملية الجراحية فإذا شفيت فسأستقبل حياة جديدة)

وقد تحققت نبوءتها، فأجريت لها العملية وشفيت

(البحث الآتي (أحلام اليقظة))

محمد حسني ولاية
حاجتنا إلى معهد أثنولوجي
بجامعة فؤاد الأول

للأستاذ محمد جلال عبد الحميد

نعرض في هذه الكلمة الموجزة لضرورة العمل على إنشاء معهد ومتحف بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول يكون الغرض منهما دراسة الإنسان وجميع عناصر نشاطه المادي والروحي في المجتمعات البشرية المحدودة المدنية. وفي هذا المعهد يعني بوجه خاص بدراسة سكان حوض النيل واثر البيئة الجغرافية في حياتهم

وسنتكلم أولاً عن المقدمات والأسباب التي نشأت عنها فكرة وجود معهد الأثنولوجية وملحقاته، ثم ننتقل بعد ذلك للحديث عن الطرق والوسائل والخطوات التي يمكن اتباعها للوصول إلى تحقيق فكرة وجود هذا المعهد، مراعين في ذلك الحالات المادية والمستوى العلمي بمصر في الوقت الحاضر. وفي النهاية نعرض لبرنامج الدراسة فيه وجمع الأشياء وترتيبها بالمتحف

كيف بدأت البحوث الأتنولوجية بمصر

المؤسسات العلمية بمصر

إذا استثنينا بحوث (جيرارد) أحد أعضاء الحملة الفرنسية ووصفه الشامل لبعض نواحي الحياة المصرية، وألقينا نظرة عامة على تاريخ المؤسسات العلمية بمصر، ثم تصفحنا بحوثها الأتنوجرافية وقسنا مجهوداتها لنلمس ما قدمته من فوائد لعلم الاجتماع بوجه عام، ولإتنوجرافية حوض النيل بوجه خاص، وجدنا أن الجمعية الجغرافية الملكية هي أسبق لك المؤسسات إلى تحديد غايتها من حيث العمل على دراسة البيئة الجغرافية والاجتماعية بحوض النيل، إذ نقرأ في منهجها الموضوع عام 1918: أن (الجمعية ترغب بوجه خاص في توسيع وتهذيب البحوث الأتنولوجية):

وجاء في موضع آخر من هذا المنهج أن (البيئة الجغرافية لا تدرس إلا في الحالات التي تتأثر بها طرق حياة الإنسان):

ولتحقيق تلك الغاية اتبعت الجمعية الجغرافية عدة طرق، منها القيام بعمل بحوث علمية على البيئات الجغرافية بحوض النيل والأمم والقبائل المنتشرة فوقه لتحديد مميزات تلك البيئات ومعرفة اختلاف تلك القبائل والأمم من حيث الجنس والعادات والتقاليد ونوع نشاطها المادي، وأن تتعهد الجمعية بنشر تلك البحوث وإلقاء المحاضرات التي تعالجها. يضاف إلى هذا أنها أنشأت متحفاً بدارها يضم كثيراً من أنواع الحرف والصناعات التي يمكن اعتبارها إلى حد ما من مميزات البيئة المصرية ممثلة في مدينة القاهرة. ولها أيضاً مكتبة غنية بما فيها من كتب ومراجع تاريخية وجغرافية عامة

ولو حاولنا أن نحصي نتائج البحوث العلمية التي قامت بها الجمعية منذ نشأتها إلى اليوم لظهر لنا أن قيمة هذه النتائج محدودة، وخصوصا إذا قيست هذه النتائج بما استنفد فيها من مجهودات في مدة خمس وسبعين تقريباً. إذ أننا لم نر لها بحثاً علمياً كاملاً في أية ناحية من نواحي الحياة المصرية، أو بما له اتصال مباشر بحوض النيل. هذا إذا استثنينا بعض المقالات والفصول التي تظهر بين وقت وآخر في مطبوعاتها؛ فهي أقرب إلى أن تكون إعلانات عن موضوعات يتناولها فيما بعد علماء مختصون يعنون بدراستها دراسة علمية منظمة. ولا تزال تجهل كثيراً من الظواهر الاجتماعية والدينية واللغوية بحوض النيل. ولا تزال تجهل أيضاً كيفية تعليل تلك الظواهر أوضاعها وأما قسم المحاضرات بالجمعية الجغرافية فإنه لم ينهض لتحقيق الغرض الذي أنشئ من أجله، إذا لم يعمل على تنظيم إلقاء المحاضرات العلمية التي تتناول في مجملها دراسة أحد الموضوعات والمشكلات التي هي وليدة البيئة المصرية وغيرها

ولعل سبب هذا الجمود الملحوظ من جانب الجمعية الجغرافية الملكية يرجع إلى أنها هيئة لم تشرف عليها الحكومة إشرافاً فعلياً لتخصص لها العلماء وتنفق عليها الأموال اللازمة لتحقيق غرضها العلمي كما جاء في برنامجها السالف الذكر. وما دام هذا هو شان هذه الجمعية فلا يحق لنا أن نعول عليها كثيرا وأن نحملها ما لا طاقة لها به من العمل على درس وتحليل البيئات الجغرافية والاجتماعية المختلفة الموجودة بحوض النيل، مع بدل الجهود في جمع وترتيب ما اشتملت عليه العناصر المادية لتلك البيئات. فضلاً عما يطلب

إليها من العمل على المساهمة في بناء علم الأتنولوجيا مع المؤسسات العلمية في البلاد الأجنبية

ثروة حوض النيل العلمية

حين يتجول المرء بحوض النيل من منبعه إلى مصبه، ومن شرقه إلى غربه، لا يكاد ينتقل من مكان إلى آخر دون أن يلحظ كثيراً من التشابه تارة، ومن التباين تارة أخرى، بين البيئات الجغرافية والاجتماعية المختلفة. فمن منطقة جبال وغابات وبحيرات في الجنوب، إلى منطقة تلال وصحار في الشمال. وكذلك نشاهد على ضفاف النيل وعلى روافده كثيراً من القبائل الزنجية عراة الأجسام مثل الأشولي والمادي والباري والشلوك والدنكا وغيرهم؛ وفي مناطق أخرى نجد قبائل أفرادها نصف عراة مثل الانجستا والبرتا والتعايشة وما إليهم؛ وفي شمال السودان ومصر نجد العرب والفلاحين وهم خليط من الدم السامي والزنجي وقليل من الدم الآري. ونلاحظ أن كل تلك الجماعات البشرية تختلف كثيراً فيما بينها من حيث التكوين الاجتماعي وعناصر التفكير والشعور واللغة وطرق الحياة؛ وأن من تلك الظواهر ما هو بسيط في تكوينه، ومنها ما هو كثير التعقد والتنوع؛ ولكل من هذه الأمم تاريخ قد يكون حديثاً فيرجع إلى مائة عام أو أقل، وقد يكون قديماً فيرجع إلى آلاف السنين

هذه هي حال الأمم والقبائل التي تسكن الآن حوض النيل. أما رجل ما قبل التاريخ والجماعات التي كونها والآثار التي خلفها فوق هذا الوادي فلا زلنا نجهل حقيقة أمرها. وإن بحوث جاك دي مرجان وهنري دي مرجان وفلندرز بتري وغيرهم تدلنا على أن من الممكن عمل دراسة وافية مقارنة لآثار ما قبل التاريخ بحوض النيل إذا تعددت البحوث وتوفرت الوثائق

من هنا يظهر جلياً ميزة الثروة العلمية الموجودة بحوض النيل، وأنها تفوق بكثير ما عداها من ثروات أوربا وآسيا واستراليا. فنرى مثلاً في أوربا نوعاً واحداً من المدنية هي المدنية الغربية الحالية، وفي استراليا نوعاً واحداً من المدنية كذلك وهي (المدنية المحدودة) وهكذا؛ ولكننا نشاهد بحوض النيل (مدنيات محدودة) عند الأشولي والمادي والأدك وغيرهم، ومدنيات متوسطة مثل مدنية شمال السودان وريف مصر، ومدنيات راقية مثل المدنية

المصرية القديمة. ونشاهد أيضاً أن كثيراً من معالم تلك المدنيات لم تزل باقية على حالتها الأولى برغم ما طرأ عليها من عناصر مدنيات أجنبية مختلفة

وإذا عنينا بدراسة تلك المدنيات وأسرعنا في جمع معالمها وتحديد أوضاعها مناطقها تهيأت فرصة طيبة لعلم الاجتماع وعلم تاريخ الأديان والجغرافيا البشرية واللغات وغيرها من العلوم الاجتماعية الأخرى للاستفادة والاستزادة من الأدلة والبراهين في توضيح نظرياتها وتنميتها

تلك هي الفائدة العامة المرجوة من البحوث الأتنولوجية بحوض النيل؛ أما فائدتها لمصر والسودان فإنه يكون من السهل استخلاص العناصر الرئيسية لمدنية كل منهما مع معرفة اتصال تلك المدنيات ببعضها وأثر المدنيات الأخرى فيها، فضلاً عما يكون لتلك البحوث من أثر واضح في توجيه المصلحين الاجتماعيين والدينيين وغيرهم نحو الغاية المنشودة في جهادهم ونضالهم لرفع مستوى الشعب المادي والأدبي. وإذا تعينت أوضاع كل مدنية وحدودها بحوض النيل سهل على أبناء هذا الوادي أن يؤمنوا بحقيقة قوميتهم

(البقية في العدد القادم)

محمد جلال عبد الحميد

ابن خُرْدَاذبَه

للأستاذ كوركيس عواد

تصدير - 1

كانت مجموعة التصانيف الثمينة، التي طبعها دي غويه المستشرق الهولندي الذائع الصيت، بعنوان (الخزانة الجغرافية العربية)، قد نالت استحسان جمهرة الباحثين، وتقدير كبار العلماء، ولا مراء أن تلك المؤلفات، سطرت لأصحابها اسماً ذهبياً على جبين الدهر وأبقت لهم ذكراً خالداً. وقد كان اهتمام ناشرها العلامة بتصحيحها ومقابلة روايات نسخها، مدعاةً لإعجاب كل من وقف عليها ومجلبةً لإكبار ما عاناه في تحريرها،

ودليلاً على ما اتصف به من علم واسع وصبر جميل
والذي يؤسف له أشد الأسف، أن أكثر مؤلفي هذه (الخزانة) هم من صنف العلماء المغمورين الذين نجهل الشيء الكثير من أمرهم. وحسبك أن تعلم أن أغلب كتب التراجم لم تتعرض لذكرهم، وإن فعلت فبالشح والتقتير! وكان المستشرق المذكور، وقد صرف جانباً من عنايته في التعريف بكل واحد منهم فدوَّن ما وسعه تدوينه؛ ومع ذلك ظلت هاتيك التراجم بحاجة إلى من يتبسط فيها، ويزيل عنها ما هو عالق بها من الاقتضاب. وقام بعد دي غويه من اهتم بهذا الشأن أيضاً، فنشر الأب لامنس ترجمة حسنة للبشاري المقدسي، وتلاه الأستاذ أحمد أمين بك فكتب ترجمة ثانية له. ودوَّن أخي ميخائيل عواد ترجمة وافية لابن حوقل. وهانحن أولاء نعرض على القراء ترجمة (ابن خرداذبه) مستقاة من المراجع الموثوق بصحتها. ومن الله التوفيق
لفظة خرداذبه - 2
اختلفت المراجع القديمة في ضبط لفظة (خرداذبة) أيما اختلاف: فبعضها ضبطها بإسكان الراء، وبعضها بفتحها مع التشديد. ومنها من كتبها بذالين معجمتين بينهما ألف، أو بدالين مهملتين بينهما ألف؛ في حين أن فريقاً آخر جعل من الدال الثانية ذالاً معجمة، وهي الأوفق. فإن الكلمة فارسية على ما تجيء بنا، والدال الواقعة بعد حرف علة تُعْجَم على القاعدة المشهورة. وهناك من أورد الباء مكسورة، أو من أوردها مفتوحة، أو من جعلها
ياء، فقد قال السيد مرتضى الزبيدي: (خرداذيه: بضم الخاء وسكون الراء وفتح الدال بعدها ألف وكسر الذال وسكون الياء التحتية وآخره هاء)
وهنالك اختلافات عديدة غير ما ذكرنا، حصلت من جراء التلاعب بأحرف لفظة (خرداذبه). ونحن على يقين من أن أغلب ذلك إنما جاء على أيدي جهلة النساخ. ومما وقفنا عليه من الصور الممسوخة لهذه اللفظة: جرداذه، وجرداذبه، وجرداويه، وحرادو، وحراذيه، وحردايه، وخرداذبه، وحردازبه، وخراداذبة، وخرداد، وخردادة، وخردادية، وخرداذه، وخرزاد، ودارية!
فهذه اثنتان وعشرون صورة مضطربة مشوشة، جرت على أسل الكتبة والنساخ، وإنما أوردناها بهذا الوجه من التفصيل ليكون القارئ على بينة من أمرها حين مراجعته المصنفات التي نوهنا بها في الحواشي
وفي عجم ريشاردسن الفارسي - العربي - الإنكليزي تفسير لمعنى لفظة خرداذبة. قال: أن معنى (خرداذ) بالفارسية مَلاَك، و (بَه)، والباء موحدة مفتوحة: جيد أو صالح. فيكون مدلول اللفظة: الملاك الصالح
نخرج بالقارئ مما ذكرنا آنفاً، أن أحسن الوجوه وأصحها في كتابة هذه التسمية الأعجمية هو (خرداذبه) بالضبط الذي نقلناه عن صاحب التاج مع مراعاة تصحيح الياء المثناة باء موحدة مفتوحة
من عرف باسم خرداذبة - 3
ويحدثنا التاريخ، أنه نشأ غير واحد ممن عرف بهذه التسمية هدانا البحث إلى أسماء خمسة منهم، ودونك شيئاً عنهم:
الأول - خرداذبة الرازي الراوي: ذكره الطبري في حوادث سنة 31 للهجرة. وهذا لا يمت بصلة ما إلى الأربعة الآخرين الآتي ذكرهم.
الثاني - خرداذبة: جد أسرته الأعلى. وهو رجل فارسي من بلاد خراسان، كان في أول عهده مجوسياً، ثم أسلم على يد البرامكة. وهو أول من أسلم من أفراد أسرته.
الثالث - أبو عبد الله ابن خرداذبة: وهو ابن لخرداذبة المتقدم ذكره. لم نقف على ما يستحق التدوين من أخباره.
الرابع - عبد الله ابن خرداذبة ابن السابق ذكره. وهذا قام بفتوحات مهمة، وأسند إليه منصب كبير في عهد العباسيين، أعني به ولاية طبرستان. فقد روي الطبري، وتابعه في ذلك ابن الأثير، وأبو الفداء، في حوادث سنة 201 للهجرة، أن (في هذه السنة، افتتح عبد الله بن خرداذبة، وهو وآلي طبرستان، اللارز والشرز من بلاد الديلم، وزاهدما في بلاد الإسلام. وافتتح جبال طبرستان، وأنزل شهريار بن شروين عنها، فقال سلام الخاسر:
إنما لنأمل فتح الروم والصين ... بمن أذل لنا من مُلك شروين

فاشدد يديك لعبد الله إن له ... مع الأمانة رأيا غير موهون
وأشخص مازيار بن قارن إلى المأمون، وأسر أبا ليلى ملك الديلم في غير عهد في هذه السنة). انتهى كلام الطبري
وقد تعرض ابن كثير لهذه الحادثة دون أن يذكر ابن خرداذبه وهذا نص كلامه: (وفيها (سنة 201هـ) افتتح نائب طبرستان جبالها وبلاد اللارز والشيرز (كذا). وذكر ابن حزم أن سلماً الخاسر قال في ذلك شعراً. وقد ذكر ابن الجوزي وغيره أن سلماً توفي قبل ذلك بسنين. فالله أعلم) أهـ
وقد أشار إليه الشابشتي بقوله: (فذكر عبد الله ابن خرداذبه، أنه حضر مجلس المأمون يوماً، وقد عرض عليه أحمد بن أبى خالد رقاعاً. . .)
وذكره أبو الفرج الأصفهاني بما يلي: (أخبرني الحرمي قال: حدثنا الديناري قال: حدثنا إسحاق قال: قالت لي زهراء الكلابية: ما فعل عبد الله بن خرداذبه؟ فقلت: مات! فقالت: غير ذميم ولا لئيم. غفر الله لصداه لقد كان يحبك ويعجبه ما سرك. . .)
الخامس - أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبه. وهو الذي عليه مدار كلامنا في هذا البحث
عبيد الله بن خرداذبه - 4
وهذا أشهر من ذكرنا من هؤلاء القوم، وأعظمهم مكانة، وأبقاهم اسماً. كان قد أنيط به منصب (صاحب البريد والخبر) بناحية الجبل بفارس. على أن ما زاد في شهرته وتخليد اسمه في التاريخ، هو المؤلفات التي صنفها، وسيأتي الكلام عليها في موطن آخر من هذا المقال
وكان ابن خرداذبه قد نادم (المعتمد) خامس عشر الخلفاء العباسيين وخص به. وقد ساق المسعودي (المقالة الموسيقية) لابن خرداذبه، ومما جاء في ثناياها قوله:
وذكر عبيد الله بن خرداذبه أنه دخل عليه (على المعتمد) ذات يوم وفي المجلس عدة من ندمائه من ذوي العقول والمعرفة والحجى؟ فقال له: اخبرني من أول من اتخذ العود؟ قال ابن خرداذبه: قد قيل في ذلك يا أمير المؤمنين أقاويل كثيرة. الخ
إلى أن يقول: (قال المعتمد: قد قلت يخاطب (ابن خرداذبه) فاحسنت، ووصفت فأطنبت، وأقمت في هذا اليوم سوقا للغناء وعيدا لأنواع الملاهي. وإن كلامك لمثل الثوب الوشي، يجتمع فيه الأحمر والأصفر والأخضر وسائر الألوان. فما صفة المغني الحاذق؟ قال ابن خرداذبه: المغني الحاذق يا أمير المؤمنين. . . الخ)
ويختم المسعودي الحكاية بقوله:
(فهذه - يا أمير المؤمنين - جوامع في صفة الإيقاع ومنتهى حدوده. ففرح المعتمد في هذا اليوم وخلع على ابن خرداذبه وعلى من حضره من ندمائه، وفضله عليهم، وكان يوم لهو وسرور)
(يتبع - بغداد)
كوركيس عواد
في الفلسفة الإسلامية:
إخوان الصفاء
للأستاذ عمر الدسوقي
- 4 -
النفس الإنسانية
تستعد النفس الإنسانية قوتها من النفس الكلية؛ ومراتب النفوس ثلاثة أنواع: منها مرتبة الأنفس الإنسانية، ومنها ما فوقها وما دونها. والمعروف من هذه النفوس خمس، فالتي فوقها اثنتان: رتبة الملكية، ورتبة القدسية، فرتبة الملكية هي رتبة الحكمة، ورتبة القدسية هي رتبة النبوة. والتي دونها اثنتان: النفس الحيوانية والنفس النباتية
ومن الأخلاق والقوى ما ينسب إلى النفس النباتية الشهوانية، ومنا ما ينسب إلى الحيوانية الغضبية، ومنها ما ينسب إلى النفس الإنسانية الناطقة، ومنها ما ينسب إلى النفس العاقلة الحكيمة، ومنها ما ينسب إلى القدسية. فالمنسوب إلى النباتية: الغذاء، والرغبة في المشروبات، والحرص في طلب الشهوات. والمنسوب إلى الحيوانية الغضبية: الشهوة الجنسية، والانتقام، وشهوة الرئاسة، وكل الغرائز الشهوانية، والمحافظة على بقاء النوع؛ ويشترك في هذه الحيوان والإنسان. والمنسوب إلى

النفس الناطقة: شهوة العلم والمعرفة، والعز والرفعة. والمنسوب إلى الملكية والقدسية: شهوة التقرب لربها والزلفى لديه. والسبب في وجود هذه الغرائز بنفوسنا أنه يوجد في المعلول دائماً شيء من العلة، فإن انعدم في المعلول سبب أو غير ذلك فهي كما في الحيوان والنبات؛ والله الذي هو علة الوجود حي باق لا يعرض له الفناء، ولهذا صارت الموجودات محبة للبقاء كارهة للفناء؛ ولهذه فالسعادة هي أن يبقى كل موجود أطول ما يمكن على أفضل حالاته وأتم غاياته لا ينقصه شئ؛ حتى يكون شبيهاً بالإله

الفضيلة

إذا ظهرت من الطبيعة هذه الشهوات المركزة في الجبلة، وكانت على ما ينبغي في الوقت الذي ينبغي من أجل ما ينبغي سميت خيراً؛ ومتى كانت بخلافه سميت شرا. وإذا فعل الإنسان ذلك باختياره وإرادته على ما ينبغي بمقدار ما ينبغي، من أجل ما ينبغي، كان صاحبه محموداً؛ ومتى كان بخلاف ذلك كان سفيهاً جاهلا وكل نفس خادمة للنفس التي أعلى منها، وصلاحها في امتثالها لأوامرها

قوى النفس

وللنفس الإنسانية قوى كثيرة تساعدها على أن تصير عقلا بالفعل، وأفضلها القوى المفكرة لأنها تؤدي إلى المعرفة، والمعرفة لباب حياة النفس. ونفس الطفل في أولها صحيفة بيضاء لم ينقش عليها شيء، وكل ما تحمله إليها الحواس الخمس تتناوله القوة المتخيلة وتجمعه، ومجرى هذه القوة مقدم الدماغ، ثم تدفعه إلى القوة المفكرة ومسكنها وسط الدماغ، وهي تميز بعضه من بعض وتعرف الحق والباطل، ثم تؤديه إلى الحافظة التي مجراها مؤخر الدماغ. والقوة الناطقة تعبر عما في النفس بالألفاظ للسامعين، أو تقيدها بصناعة الكتابة، فيكون للنفس خمس حواس باطنة تقابل الخمس الظاهرة

الموت والحياة

الإنسان مكون من جسم ونفس روحاني، والجسم يريد البقاء في الدنيا، والنفس الروحانية تريد الرحيل إلى الآخرة؛ وعلى هذا فالموت والحياة نوعان: جسدي ونفساني، والحياة الجسدية ليست شيئا سوى استعمال النفس الجسد، والموت الجسدي ليس شيئاً سوى تركها استعماله؛ كما أن اليقظة ليست شيئاً سوى استعمال النفس الحواس، وليس النوم شيئاً سوى تركها استعمالها، أما النفس فحياتها ذاتية لها، وذلك أنها بجوهرها حية بالفعل علامة بالقوة فعالة في الأجسام والأشكال، وموتها هو جهالتها بجوهرها وغفلتها عن معرفة ذاتها، وذلك عارض لها من شدة استغراقها في بحر الهيولي، فكما أن ولادة الطفل ليست شيئاً سوى خروجه من الرحم، فكذلك ولادة النفس ليست شيئاً سوى مفارقة النفس إياه، والنفس لا تعرف السعادة إلا بعد ما تفارق الجسم، وعلى ذلك فالموت حكمة لأنه سبب لحياة الأبد

وبعد مفارقة النفس الجسد تبقى الشقية هائمة بهمومها معذبة دون فلك القمر، سائحة في بحر الهيولي، هاوية في عالم الكون والفساد مع أبناء جنسها من الأمم الخالية إخوان الشياطين وجنود إبليس أجمعين: (كلما دخلت أمة لعنت أختها) وهذه هي جهنم عند أخوان الصفاء، ونراهم يتابعون فلاسفة اليونان والمسلمين في قولهم يحشر الأرواح دون الأجسام، وإن العذاب عذاب الروح لا الجسد. ولقد رد عليهم الغزالي في تهافت الفلسفة رداً لا باس به

أما النفوس الخيرة عند أخوان الصفاء فتصعد إلى عالم الأفلاك وتصير ملائكة بالفعل، وهذه هي الجنة عندهم؛ والثواب هنا ثواب روحي لا جسدي. ولقد فصل الفارابي هذه النظرية في مدنيته الفاضلة ووضحها ابن سينا في النجاة والشقاء

خلود النفس

يعتقد إخوان الصفاء اعتقاداً جازماً الأجساد حبس للنفوس أو حجاب لها أو صراط أو برزخ، والنفوس تعلم تمام العلم بأن لها وجوداً آخر خيراً وأبقى وألذ وأحسن من هذا الوجود والبقاء الذي مع الجسد، فإذا استتمت الأنفس الجزئية وكملت صورتها ومعارفها، واستيقظت من هذه الغفلة وأحست بغربتها في هذا العالم الجسماني وأنها في أسر الطبيعة تائهة في بحر الهيولى، وعرفت فضيلة جوهرها ونظرت إلى عالمها،

وشاهدت تلك الصور الروحانية المفارقة للمادة، إذا أدركت هذا كله هانت عليها مفارقة الجسد وسمحت بإتلافه وفي هذا سعادتها
وموت النفس هو جهلها بجوهرها وغفلتها عن معرفة ذاتها، والنفوس السعيدة هي التي قطعت أيام الحياة الدنيا بالأعمال الصالحة وسارت سيرة عادلة، وتخلقت بأخلاق جميلة، وبحثت عن حقائق المعقولات وأحكمتها؛ فإذا ما بلغت آخر العمر اشتاقت إلى مفارقة هذه الحياة، فلو لم يكن الموت لما أمكنها الصعود إلى ملكوت السماء ولا الوصول إلى الجنة
وعلى العكس من ذلك نفوس الأشقياء، فإنها بما اعتادته من لذات هذه المحسوسات، وقد منعت الوصول إليها والعودة للجسم نقول: (يا ليتنا نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل) وتبقى متألمة بذاتها معذبة من سوء عاداتها دون فلك القمر
وعلى هذا فالنفوس البشرية الخيرة ملائكة بالقوة، فإذا فارقت أجسادها كانت ملائكة بالفعل. والنفوس الشريرة شياطين بالقوة فإذا فارقت أجسادها كانت شياطين بالفعل
أما يوم القيامة ونهاية العالم فيكون بمفارقة النفس الكلية للعالم ورجوعها إلى الله
الله والعالم
لما كان الله تام الوجود كامل الفضائل عالماً بالكائنات قبل كونها، قادراً على إيجادها متى شاء، لم يكن من الحكمة أن يحبس تلك الفضائل في ذاته فلا يجود بها ويفيضها؛ فإذا بواجب الوجود قد أفاض الجود والفضائل منه كما يفيض النور والضياء من عين الشمس. والله سبحانه لا يباشر الأفعال بذاته، بل يقتصر على الأعمال الكلية، أما التفصيلات فيدعها لملائكته الموكلين (وما أمْرُنا إلا واحدةٌ كلمحٍ البصر)، ويقول تعال كذلك: (وما خلْقُكُم ولا بعْثُكُم إلا كنفْس واحدة). ونسبة الأفعال التي تجري على أيدي عباده إلى الباري سبحانه كنسبة أفعال الملوك إذا قيل بني فلان الملك مدينة كذا، وحفر نهر كذا، فهؤلاء الملوك قد أمروا فقط، أما مباشرة العمل فتركت لغيرهم
وعلم الله تعالى محيط بما يحوي العقل من المعقولات، والفعل محيط بما تحوى النفس الكلية من الصور، والنفس محيطة بما تحوى الطبيعة من الكائنات، والطبيعة محيطة بما تحوى الهيولي من المصنوعات
تأثير أخوان الصفا
قد بينا سابقاً تلك الدعاية المنظمة التي قام بها أخوان الصفا لحمل الناس على الدخول في مذهبهم، وقد أدى نشر هذه الرسائل الآنفة الذكر إلى نشر الفلسفة ومبادئها، واشتغال الناس بها؛ إذ كتبوها بلغة سهلة تناسب عقلية الجمهور، ومزجوها بالدين مقتبسين كثيراً من آي القرآن الكريم حتى لا ينفرون منها، ووضعوا فيها مبادئ عامة من كل فن، فكانت من الوجهة العلمية موسوعة احتذى حذوها كثير من المؤلفين فيما بعد
وقد حملت الرسائل على رجال الدين والفقه، وأدى ذلك إلى اشتغال كثير من هؤلاء بالرد عليهم وتكفيرهم كابن تيمية وابن حجر وغيرهما. ثم أن رسائل إخوان الصفا كانت أول محاولة للتوفيق بين الدين والفلسفة، تلك الخطة التي اقتفاها الفارابي وابن سينا وابن رشد فيما بعد، والتي تأثروا فيها بإخوان الصفا كما تأثر هؤلاء بالأفلاطونية الحديثة بعد أن تنصرت ونقلها السريان إلى لغتهم محاولين أن يتخذوا منها دعامة لتأييد مذاهبهم المتعددة. . .
والرسائل كانت دستوراً لطائفة الإسماعيلية كما رأينا من قبل فيها رموز وإشارات واصطلاحات لا يعرفها إلا الأتباع المخلصون. على أن هناك طائفة ممن اشتهروا بالعلم والفلسفة قد تأثروا بهم ومنهم: أبو حيان التوحيدي، وقد عرفنا أنه كان الصلة بين جماعة البصرة وجماعة بغداد، وقد اتهم بالزندقة من أجل ذلك، حتى جاء في طبقات الشافعية ما يأتي: (زنادقة الإسلام ثلاثة: ابن الراوندي، وأبو حيان التوحيدي، وأبو العلاء المعري)، ومنهم يحيى بن عدي المترجم المشهور والذي كان أحد أعضاء فرقة بغداد، وقد نشرت له مجلة اللغات السامية الأمريكية كتاباً في تهذيب الأخلاق تشبه تعاليمه ما عند أخوان الصفا في كثير من الموضوعات: ومنهم كذلك جماعة بغداد ورئيسهم السجستاني أبو سليمان وقد رأينا كيف أن أبا حيان قد اخذ رسائل إخوان الصفا وعرضها عليه؛ وعرفنا ما قاله أبو العلاء المعري فيهم عند مغادرته بغداد وكيف سماهم إخوان الصفا

نعم أن الغزالي يعرض بفلسفة أخوان الصفا، ويعدها فلسفة العامة من الناس، بيد أنه لا يتحرج من الاقتباس منها، وهو مدين لفلسفتهم بأكثر مما يعترف
(بيروت)

عمر الدسوقي

آثار من أولية الشعر
في الشعر الجاهلي

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

ظهرت في عصرنا دعوى عريضة، يذهب أصحابها إلى إنكار صحة الشعر الجاهلي، وكان من أكبر ما قامت عليه تلك الدعوى أن هذا الشعر على حسب ما روي لنا يخالف سنة النشوء والارتقاء فيظهر أول ما يظهر بالغاً غاية الكمال، لا شئ ينقصه من جهة الوزن، ولا من جهة القافية، ولا من جهة اللفظ، ولا من جهة المعنى، ومثل هذا لا يمكن قبوله، لأن سنة النشوء والارتقاء من السنن الطبيعية التي لا يشذ شيء عن حكمها، ويجب إنكار ما يأتي على خلاف مقتضاها

فإذا قيل لهؤلاء الناس أن هذا الشعر الجاهلي كان قبله شعر قديم لم يصل إلينا، وقد مر هذا الشعر القديم في أطوار تدرج فيها على سنة النشوء والارتقاء، حتى وصل إلى هذا الشعر الجاهلي فجرى أمره على تلك السنة أيضا، ولم يكن فيه شذوذ عنها، يتخذ ذريعة الى إنكار صحته، والطعن في نسبته إلى عصره

إذا قيل لهم هذا قالوا أن هذا الشعر القديم حديث خرافة أيضا، لأنه لو صح وجوده لكانت له آثار ولو قليلة في الشعر الجاهلي، ولم ينقطع أثره هكذا مرة واحدة، لأن هذا يخالف سنة النشوء والارتقاء أيضاً، فهي كما تقضي بالتدرج من غير الأصلح إلى الأصلح، تقضي ببقاء آثار قديمة فيما تتدرج اليه، لتكون شاهدة بهذا التدرج، وهي المعروفة في مذهب النشوء والارتقاء باسم الأعضاء الأثرية

ولاشك أن هذا اعتراض له قيمته، لأنه يقوم على شاهد من العلم، فلا يقوم في وجهه إلا شاهد يعتمد على العلم كما يعتمد ويتفق مع ما يقضي به مذهب النشوء والارتقاء من سنة التدرج ولا يكفي في إثبات ذلك الشعر القديم الإشارة إليه في مثل قول امرئ القيس:

عُوجَا على الطَّلل المحيل لأننا ... نبكي الديار كما بكى ابنِ خذامِ

وقول عنترة:

هل غادرَ الشعراءُ من مُتردَّمِ ... أم هل عرفتَ الدار بعد توُّهمِ

وقول زهير:

ما أُرانا نقول إلا مُعاراً ... أو معاداً من لفظنا مَكرُورا

لأنه لا قيمة لهذه النصوص إذا لم يوجد في الشعر الجاهلي آثار من ذلك الشعر القديم تشهد بوجوده، وتبين بعضاً من حاله قبل أن يصل إلى طور الشعر الجاهلي، لأنه لا يعقل أن يطفر الشعراء كلهم إلى هذا الطور كما طفر مهلهل وامرؤ القيس وغيرهما من القدماء، ولا يوجد بينهم متخلفون قد تبثوا بشيء مما كان عليه الشعر قبل هذا الطور

فذلك الشعر القديم لابد أنه لم يكن مستقيم الوزن، ولم يكن يجري على هذه البحور التي يجري عليها الشعر الجاهلي، فأين أثر ذلك في هذا الشعر؟

وهو أيضاً لابد أن يكون مضطرب القافية، لا يجري فيها على سنن مطرد، ولا يتأنق فيها كما تأنق الشعراء الجاهليون، فأين اثر ذلك في شعرهم؟

فإذا كان ذلك الشعر قد وجد حقاً، فانه لابد أن يبقى اثر من فساد وزنه وقافيته في الشعر الجاهلي، حتى يكون دليلاً ناطقاً بأنه درج على سنة الدرج، ويكون لوجوده فيه دلالة الأعضاء الأثرية على أصلها، وهي دلالة لا تقبل شكا، ولا يمكن أن يجادل فيها أولئك الذين ينكرون صحة الشعر الجاهلي.

وقد عثرت على بعض من هذه الآثار في هذه الأيام، ولا أنكر أنها في كتب متداولة بين الناس، ولكنهم يمرون عليها ولا يعرفون قيمة دلالتها، ولا يلتفتون إلى أنها آثار من ذلك الشعر القديم الذي انطوى عنا خبره، ولا يدركون أن منزلتها في الدلالة على ذلك الشعر، كمنزلة تلك الآثار المطوية في بطون الأرض، في دلالتها على تاريخ آبائنا الأقدمين.

وممن وجد في شعره بعض هذه الآثار عبيد بن الأبرص، وهو شاعر قديم معاصر لمهلهل وامرئ القيس، وقد روي صاحب الأغاني عن محمد بن سلام أنه قال: عبيد بن الأبرص قديم الذكر، عظيم الشهرة، وشعره مضطرب ذاهب لا أعرف له إلا قوله:

أفقرَ من أهله مَلْحوبُ
ولا أدري له ما بعد ذلك

وهذه القصيدة التي ذكرها ابن سلام أشهر قصائد عبيد ابن الأبرص، ولكنها مع هذا مضطربة الوزن، مختلة القافية، ولا يزال علماء العروض مختلفين في أمرها، فمن قائل أنها من البسيط، ومن قائل أنها من الرجز، ومن قائل أنها خليط منهما، وذلك أنك تراه يقول في مطلعها:

أقفر من أهله ملحوبُ ... فالْقُطَبِيَّاتُ فالذّنُوبُ

وهذا من مخلع البسيط، ثم تراه يقول:

أفلحْ بما شئت فقد يُدرَكُ بالض ... عفِ وقد يُخْدَعُ الأريبُ

وشطره الأول من الرجز، وشطره الثاني من مخلع البسيط

ثم يقول بعد هذا في اختلال وزن واضطراب قافية:

لا يعظ الناسُ من لا يعظ الدّ ... هْرُ ولا ينفع التَّلْبِيبُ
إلا سَجِيّاتُ ما لقلوبٍ ... وكم يصيرَنَّ شائنا حبيبُ

وقد ذكر ابن رشيق أن هذه القصيدة كادت تكون كلاماً غير موزون بعلة ولا غيرها، حتى قال بعض الناس: أنها خطبة ارتجلها، فاتزن له أكثرها

والحق عندي أن هذه القصيدة تمثل أولية الشعر العربي خير تمثيل، وتبين أنه لم يكن له أوزان محدودة يتقيد بها، ولا بحور متميزة لا يتعدادها، ولا تجري فيه الحركات والسكنات على لحن مطرد، لا يتغير ولا يتبدل في القصيدة الواحدة، وإن عبيدا في هذا يمثل بين شعراء عصره حال الشاعر المتخلف، لأنه لم يتهيأ له من أسباب النهوض ما تهيأ لهم، فجرى في شعره مجراه الأول، ولم يعبأ بما تقيد به شعراء عصره في أمر الوزن

ومما يروى لعبيد أيضاً من الشعر المختل الوزن قوله:

هي الخمر تكني الطَّلاَ ... كما الذئب يكنى أبا جعده

ومما وقع من هذا الشعر قول علقمة الفحل، وهو شاعر قديم

دافعت عنه بشعري إذا ... كان في الغد أجحد
فكان فيه ما أتاك وفي ... تسعين أسرى مقرنين في صفد
دافع قومي في الكسر إذ ... طار بإظهار الظباة وقد
فأصبحوا عند جفنة في الأغ ... لال منهم والحديد عقد
إذ مجنب في المجنبين وفي ... النكهة عن باد ورشد

فهذه القطعة مما أدخل في جملة شعر علقمة، وهي مختلة الوزن حتى قال بعضهم إنها ليست بشعر

وأما القافية فإنها لدقتها كانت أحكامها تخفي على كثير من الشعراء الجاهليين، فبقي فيها كثير من آثار أولية الشعر كالإقواء والسناد وغيرهما من عيوب القافية، حتى قيل أن الإقواء كان مذهب العرب في شعرهم، ومن ذلك قول امرئ القيس:

أحنظلُ لو حامِيتمُ وصبرتُمُ ... لأثنيتُ خيراً صالحاً ولأرْضاني
ثياب بني عوف طُهارًى نقيَّة ... وأوجههم عند المشاهد غرانُ
عُوَيْرٌ ومن مثل العوير ورهه ... وأَسْعَدَ في ليل البلابل صفوانُ
فقد أصبحوا والله أصفاهم به ... أبَرَّ بأيمان وأوْفَي بجيرانِ

وكذلك كان النابغة الذبياني يقوى في شعره - وهو من متأخري شعراء العصر الجاهلي - وكان لا يعرف أن الإقواء من عيوب القافية، ومن إقوائه قوله في داليته:

أَمِنَ مَيَّة رائحٌ أو مُغْتَدٍ ... عجلانَ ذا زادٍ وغير مُزَوَّدِ
زعم البوارحُ أن رحلتنا غداً ... وبذاك خيرنا الغرابُ الأسودُ

وقوله أيضاً:

سقط النصيفُ ولم ترد إسقاطه ... فتناولته واتقتنا باليدِ
بمُخَضَّبٍ رخْص كأن بَنانه ... عَنَمٌ يكاد من اللطافة يُعْقَدُ
فلما ظهر الإسلام نهض العرب ورق وجدانهم، ولطف ذوقهم، فعرفوا هذه العيوب وتجنبوها، وافتخروا بذلك على الشعراء قبلهم، كما قال ذو الرمة:
وشعرٍ قد أَرْقتُ له طريفٍ ... أجانبه المُسَانَدَ والمحالا
وقال جرير:
فلا إقواء إذ مَرِسَ القوافي ... بأفواه الرواة ولا سِنَادا
وبهذا استقامت قوافي الشعر، واتسقت أوزانه، بعد أن مر في تلك الاطوار، ولم يشذ في ذلك عن سنة النشوء والارتقاء
عبد المتعال الصعيدي
المصريون المحدثون - 27
شمائلهم وعاداتهم
في النصف الأول من القرآن التاسع عشر
تأليف المستشرق الإنكليزي إدوارد وليم لين
للأستاذ عدلي طاهر نور
الفصل التاسع
اللغة والأدب والعلوم
احتفظت القاهرة بشهرتها النسبية التي امتازت بها عدة قرون، أنها خير مدرسة للأدب العربي وعلم التوحيد والفقه الإسلامي. ولا جرم أن التعليم انحط كثيراً عند العرب عامة إلا أنه كان أقل انحطاطا في القاهرة. فشهرة علماء هذه المدينة لا تدانيها شهرة. ولا يزال مسجدها (الجامع الأزهر) يجذب إليه الطلاب من كافة أنحاء العالم الإسلامي.
ويلاحظ أن اللهجة العربية التي يتكلمها أهل القاهرة من الطبقتين الوسطى والعليا أدنى من لهجات بدو الجزيرة العربية وسكان المدن المجاورة مباشرة من حيث النطق وقواعد الصرف والنحو؛ إلا أنها تفضل اللهجات السورية كثيراً، واللهجات المغربية أكثر. وأهم الخصائص التي تلاحظ في نطق المصريين ما يأتي: ينطق القاهريون ومعظم المصريين حرف الجيم جامداً بينما يعطشه عرب الجزيرة وسورية وغيرهما. ولكن يجدر أن نلاحظ أن حرف الجيم ينطق جامداً في بعض جنوب جزيرة العرب وهو منشأ اللغة العربية كما يقال. وينطق حرف القاف همزة حيث يسود نطق الجيم الأول، غير أن المثقفين ينطقونه قافا على حقيقته. وتنطق الجيم معطشة أو قريبة من ذلك في بعض مناطق مصر، كما تنطق القاف جيما. وينطق المصريون جميعاً وكذلك اغلب الشعوب التي تتكلم العربية حرف الثاء تاءً والذال دالاً والظاء ضاداً أو زاياً أحياناً. ومن أهم خصائص اللهجة العربية المصرية من حيث التركيب إضافة حرف الشين للدلالة على النفي، مثل (ما يرضاش) بدلاً من (ما يرضى) و (ما هوش طيب) (ويقول العامة موش طيب) بدلاً من (ما هو طيب)
ووضع اسم الإشارة بعد المشار إليه مثل (البيت ده)، وكثرة استعمال التصغير في الصفات بلا مسوغ مثل (صغير) بدلاً من صغير و (قريب) بدلاً من قريب
ولا يوجد فرق كبير بين اللهجة الدارجة والفصحى كما يفرض المستشرقون الأوربيون. ويمكن وصف اللهجة الدارجة أنها تبسيط للهجة القديمة بحذف حركات الكلام الأخيرة خاصة، وبوجه آخر إهمال التفرقة بين أنواع إعراب الاسم المختلفة وبعض أشخاص الأفعال. كما أنه لا يوجد فرق كبير بين اللهجات العربية في البلدان المختلفة كما يتصور بعض من لم يخالط أهل هذه البلاد. وتتشبه هذه اللهجات أكثر مما تتشابه لهجات بعض مناطق إنجلترا المختلفة. وتفيض اللغة العربية بكلماتها المترادفة، فتجد بعض الكلمات تستعمل في بلد ما وما يرادفها في بلد آخر. فيقول المصريون مثلاً (لبناً) بينما يقول السوريون (حليباً)، ويطلق السوريون (اللبن) على الصريب (اللبن الحامض). وكذلك الخبز يسميه المصريون (عيشاً) بينما يطلق عليه في البلدان العربية الأخرى خبزاً، إلى غير ذلك من الأمثلة العديدة من هذا النوع. ويلاحظ أن نطق المصريين ألطف وأعذب من نطق السوريين وأكثر البلدان التي تتكلم العربية والأدب العربي غني شامل، وأهميته في كمية كتبه أكثر مما هي في كيفيتها. ويبلغ عدد

الكتب التي تبحث في الدين والفقه الربع تقريباً، يتلو ذلك كتب النحو والصرف والمعاني والبيان والفروع المختلفة لعلم اللغة وتشغل كتب التاريخ (وعلى الأخص تاريخ الأمة العربية) والجغرافية المرتبة الثالثة، وأخيراً الشعر. أما المؤلفات الطبية والكيميائية والرياضية والجبرية وغيرها فقليلة جداً بالنسبة لغيرها

ويوجد في القاهرة عدة مكتبات كبرى، ويلحق أغلبها بالمساجد، ويتألف معظمها من كتب التوحيد والفقه ومعاجم اللغة؛ إلا أن هذه المكتبات مهملة إهمالاً يرثى له، وتفنى محتوياتها بسرعة والى حد بعيد لعدم أمانة القائمين بأمرها أو باستعمالها وإهمالهم. ويقتني بعض التجار الأثرياء وغيرهم مكتبات حسنة. ويبلغ عدد تجار الكتب في القاهرة - كما أخبرت - ثمانية فقط. إلا أن حوانيتهم غير مجهزة تجهيزاً حسناً. ويدور الكتبي كلما عثر على كتاب نفيس على حرفائه وهو يكاد يثق بالحصول على مشتر. وقلما تخاط أوراق الكتاب معا وإنما يدرج الكتاب عادة في غطاء مجلد، وكثيراً ما يكون له غلاف خارجي من الورق

المقوى والجلد

وتتكون (الكراسة) من خمس ورقات مزدوجة كل منها في الأخرى، وترتب الأوراق ملازم صغيرة دون أن تخاط فيستطيع أكثر من قارئ استعمال الكتاب معاً، فيتناول كل كراساً، وتوضع الكتب مسطوحة الواحد فوق الاخر، ويكتب عنوان الكتاب على واجهة الغلاف الخارجي أو طرف الأوراق، وورق الكتب غليظ لامع، ويستورد غالباً من البندقية ويلمع في مصر. والحبر كثيف لزج، ويستعمل القلم للكتابة وهو أكثر ملاءمة للخط العربي. وعندما يكتب العربي يضع الورق فوق ركبته أو على راحته اليسرى، أو على (مسندة) تتكون من بعض أوراق قد يزيد عددها عن دستجة وتشد معاً عند الأطراف الأربعة فتكون كالكتاب الرقيق، ويجعل الكاتب الحبر والأقلام في (الدواية) المذكورة في الفصل الأول من هذا الكتاب، ويوضع معهما المقشط والمقطة: وهي آلة من العاج يوضع عليها القلم ليقط. ويسطر الكاتب الورق بالمسطرة: وهي قطعة من الورق المقوى يشد عليه بعرض الورق خيوط ملصقة بالغراء، فيجعل المسطرة تحت الورقة ويضغط على كل خيط بخفة، وتتضمن عدة الكاتب مقصاً لقطع الورق، إذ لا يليق أن يكون أطراف الورق ممزقة. ويعيش الكثيرون في القاهرة على نسخ المخطوطات ويبلغ اجر نسخ الكراسة وهي عشرون صفحة في كل صفحة خمسة وعشرون سطرا بالخط العادي، ثلاثة قروش، ويزيد المبلغ إذا حسن الخط ويتضاعف إذا شكل الكلام ويتلقى الذين يعدون أنفسهم لوظيفة دينية أو علمية دروسهم في الأزهر، ويعلمون قبل ذلك القراءة والكتابة وتلاوة القرآن أحياناً. والأزهر - جامعة الشرق عامة - بنيان واسع الأرجاء، يحيط بفناء مربع فسيح. ويوجد على أحد جوانب الفناء من جهة القبلة مكان الصلاة الرئيسي: وهو رواق فسيح، وعلى كل جانب من الجوانب الثلاثة الأخرى أروقة صغيرة مقسمة إلى عدة أقسام يخصص الواحد منها للطلبة بلد معين أو مديرية خاصة من مديريات مصر. ويقع الأزهر في قلب القاهرة، وعمارته لا تستحق الاعتبار، وإحاطته بالمنازل تخفي خارجه إلا قليلاً. ويسمى من يتلقى العلم في الأزهر (مجاورا)، ولكل رواق مكتبة لاستعمال الطلبة، ويتعلم الطلبة من الدروس التي يلقيها المدرسون ومن محتويات الكتب الموجودة بمكاتب الأروقة

ويتكون برنامج الدراسة من علم الصرف والنحو والمعاني والبيان والعروض والمنطق والتوحيد والتفسير والحديث والفقه والحساب في حدود المسائل الشرعية. وهناك دروس في الجبر والمقابلة والميقات. ويجلس الشيخ على الأرض عند اسفل عمود من الأعمدة، ويتحلق حوله الطلبة. ويقرأ طلبة المذاهب المختلفة كتباً مختلفة. وأغلب الطلبة قاهريون، وهم لذلك شافعيون، وشيخ الأزهر شافعي دائماً. ولا يدافع الطلبة للدراسة في الأزهر أجراً إذ أن أغلبهم فقراء. ويتناول أغلب الأجانب الذين لهم أروقة خاصة راتباً من الطعام يومياً يصرف لهم من إيراد العقارات الموقوفة عليهم. والعادة أن يتناول طلبة القاهرة وما جاورها مثل هذا الرتب إلا انهم لا يتمتعون بذلك طويلاً، خلا شهر رمضان، لأن (محمد علي) استولى على جميع الأراضي الزراعية الموقوفة على المساجد ففقد الأزهر أكبر جزء مما وقف عليه. ولا تنفق الحكومة شيئا غير مصاريف الصيانة اللازمة وأجور المستخدمين الرئيسيين. ولا يتناول المدرسون أجراً. وليس لهم وسيلة منظمة لكسب معيشتهم غير التدريس في المنازل ونسخ الكتب الخ. . . إلا إذا

ورثوا ملكاً أو كان لهم أقارب يعولونهم. وقد يتناول المدرس هدية من الأغنياء.
ويستطيع أي طالب كفء أن يصبح مدرساً بإجازة شيخ الجامع. ويتبع الطلبة غالباً طريقة المدرسين لكسب معاشهم، أو يتلون القرآن في المنازل أو على القبور أو في مكان آخر. وعندما يتقدم الطلبة في دروسهم التقدم الكافي يدخل بعضهم في القضاء أو الإفتاء أو إمامة المساجد أو التدريس في قراهم أو مدنهم أو في القاهرة. ويحترف البعض الآخر التجارة، وقد يستمر بعضهم طول حياته يتلقى العلم مبتغياً الوصول إلى صاف كبار العلماء. وقد نقص عدد هؤلاء الطلبة الذين لا رواق لهم كثيراً منذ الاستيلاء على الأراضي الموقوفة على الأزهر. ويبلغ عدد طلبة الأزهر ما خلا العميان حوالي ألف وخمسمائة كما اخبرني أحد المدرسين.
(يتبع)

عدلي طاهر نور

فوق االحياة

إِنِّي احْتَرقْتُ وَلَمْ تَدَعْ أَشْلاَئِي ... نِيرَانُ تِلْكَ الْحَسْرَةِ الْهَوْجَاءِ
قَدْ أَوْغَلِتْ بِي نَزْعَةٌ مَدْفُوعَةٌ ... نَحْوَ الْكَمَالِ تَمُدُّ في بُرَحَائي
إِذْ أَنَّ مَا يَسْبِي قُلُوبَ النَّاسِ لاَ ... أَلْقَاهُ حَتَّى فِي ذُيُولِ سَمَائي
أَفْبَلْتُ مِلْءَ دَمِي عَلَى الدُّنْيَا وَفي ... قَلْبِي حَيَاةٌ جَمَّةُ الأَهْوَاءِ
وَطَرَحْتُ أَعْوَامِي عَلَيْهَا شَادِياً ... مُتَنَقِّلاً في الرَّوْعِ والصَّحْرَاءِ
وَنَزَعْتُ عَنِّي كُلَّ مَعْنًى كَاذِبٍ ... وَنَشَدْتُ وَجْهَ النُّورِ في الظَّلْمَاءِ
وَتأَمَّلتْ رُوحِي أَسَارِيرَ الدُّجى ... وَتَغَلْغَلَتْ في ذَاتِهِ السَّوْدَاءِ
وَإِذَا الرِّياحُ تَقُولُ لِي فِي نُصْحِهَا: ... قِفْ أَيُّهَا السَّارِي إِلى التِّيْهَاءِ!
مَنْ لَمْ تَشُقْهُ الأَرْضُ وَهْوَ مُكَبَّلٌ ... نَبَذَتْهُ عَنْهَا عِبْرَةَ الأَحْيَاءِ!
تِلْكَ السُّدُودُ أَقَامَهَا فَوْقَ الثَّرَى ... رَبُّ الْوُجُودِ وَضَارِبُ الْجَوْزَاءِ
قُلْتُ اهْدئي يَا رِيحُ مَا أَنَا مُسْرِفٌ ... مُتَطَلِّبٌ في الصَّخْرِ دَفْقَةَ مَاءِ!
وَطَفِقْتُ أَخْبِطُ في الظَّلاَمِ مُنَقِّباً ... عَمَّا وَرَاءَ اللَّيْلِ مِنْ أَشْيَاءِ
حَتَّى بَدَا لِي خَلْفَ أَحْجَارِ الدُّجى ... نَهْرٌ يَعِجُّ بأَعْذَبِ الأَصْوَاءِ
وَنَهَلْتُ مِنْهُ فَاكْتَمَلْتُ كَأَنِنِي ... أَصْبَحْتُ أَسْمَى مِنْ بَنِي حَوَّاءِ
وَتَأَلَّقَتْ مِنْ حَولِهِ لِي جَنَّةٌ ... عُلْوَّيةٌ مَطْلُولَةُ الأَرْجَاءِ
هِيَ عَالَمُ الْمُثلِ الرَّفِيعَةِ صَاغَهَا ... (فَوْقَ الْحَيَاةِ) تَدَفُّقُ الإِيحَاءِ
أَظْلاَلُها فَوْقَ الزُّرُوعِ مَدِيدَةٌ ... وَنَسِيمُها مُتَعَطِّرُ الأَحْنَاء
وَطَيُورُهَا ذَهَبِيَّةٌ مَسْحُورَةٌ ... تَشْدُو فَيَهْتَزُّ الْفَضَاءُ إِزَائي
وَأَخَذْتُ أُرْشِدُ مَنْ أُحبُّ إِلى السَّنَى ... وَمَسَابِهِ، وَالنَّهْلَةِ الْبَيْضَاءِ
وَالْحَقِّ وَالْخَيْرِ الْذِي يَمْشِي عَلى ... رَبَوَاتِ تِلْكَ الْجَنَّةِ الْعَذْرَاء
لَكِنَّهُم ضَجَّتْ بِهِمْ أَرْوَاحَهُمْ ... طَمْأَى إِلى الأَوْحَالِ وَالأَنْوَاء
عَادُوا وَفي أَلْبَابِهِمْ لِي لَعْنَةٌ ... مَكْنُونَةٌ كَالسُّمِّ فِي الرَّقْطَاء
قَالوا لقَدْ عِشْنَا عَلَى الدُّنْيَا كَمَا ... شِئْنَا وَشَاءَتْ رِبْقَةُ الأَحْيَاء
مسُتْعَذِ بينَ قُيُودنَا لاَ تَنْجَلي ... عَنَّا عَمَايَةُ هذِهِ الظَّلْمَاء
تِلْكَ الْحَوَاجِزُ لاَ نُحِبُّ عُبُورَهَا ... نَحْوَ الَّذِي نَخْشَاهُ مِنْ أَجْوَاء
يَا أَيُّهَا الْمَجْنُونُ! إِنَّكَ شَاعِرٌ ... يَقْتَاتُ مِنْ أَوْهَامِهِ الْحَسْنَاءِ
اذْهَبْ فَلاَ كَانَتْ لَكَ الدُّنْيَا وَعِشْ ... في بُرْجِكَ الْمَمْلُوءِ بِالْخُيَلاَء!
لَكِنَّنِي نَادَيْتُ مِنْ عَلْيَائِي ... مُسْتَعْصِما بِالذِّرْوَةِ الْقَعْسَاءِ:
الْبَرْقُ يُكْسِبُنِي الْتِماَعاً إِنَّنِي ... أُفُقٌ فَضِجُّوا في رِحَابِ فَضَائي!
وَالنَّارُ تَمْنَحُنِي حَيَاةً إِنَّنِي ... ذَهَبٌ فَبُثُّوا النَّارَ في أَحْشَائي!

عبد الرحمن الخميسي

غَيران. . .

إذا الفجرُ لاحَ وحيَّا العذارى ... وحيَّتْهِ بابتسامٍ رقيقْ
تلَفَّتَ قلبي له واستطارا ... كأنَّ به سَكرةً لا يُفيقْ
يَغارُ عليكِ إذا الفجرُ لاحْ
وإنْ جِئتِ في خِفَّةٍ تَخْطُرِينْ ... ومالتْ عليكِ غصونُ الطريقْ
فما أشفقَ الغصنَ بالعاشقينْ ... ولكنْ بقلبي زَفيرُ الحريقْ

يغارُ عليكِ إذا الغصنُ مالْ
وإنْ رقَّ بين يدْيكِ النسيمْ ... يُسايرُ ظِلَّكِ مثلَ الرفيقْ
فلا كانَ هذا النسيمُ الكريم ... أَلَمْ يَدْرِ أنَّ فُؤَادي عشيقْ
يغارُ عليكِ إذا الظلُّ سارْ
وإن نطقُوا باسمِكِ الطَّاهِرِ ... وخَفَّ له كلُّ سَمْعٍ طَليقْ
ترامى صَدَاهُ إلى خَاطِرِي ... ولكنَّ قلبَ المُحِبِّ المَشُوقْ
يغارُ عليك إذا الاسمُ ذاعْ
وإن ضمَّكِ البحرُ يا فاتنةْ ... وداعبَ منك القَوامَ الرشيقْ
فيا حُسْنَ أمواجِهِ الساكنهْ ... وقلبي الذي هو دجاهُ عريقْ
يغارُ عليكِ إذا البحر ماج
وإن رقص الليل في راحتيك ... واهديته بسمة من رحيق
فها قد حرمت سنى ناظريك ... وقلبي الذي في دجاه غريق
يغار عليك إذا الليلُ جاءْ

محمد محمود زيتون

البريد الأدبي

التعاون الثقافي بين مصر والعراق

أقامت المفوضية العراقية بالقاهرة حفلة شاي دعت إليها جمهورا كبيراً من رجال التربية والتعليم بمناسبة انتهاء (مؤتمر تدريس العلوم)، وقد اشتركت فيه الحكومة العراقية بإيفاد اثنين من رجالها الفضلاء: هما الدكتور الجمالي والدكتور عقراوي. أما الحكومة السورية، فقد اعتذرت بخطاب كريم نصت فيه على أن ضيق الوقت حال بينها وبين ما تريد من الاشتراك، وتمنت أن يديم الله على رجال العلم في مصر نعمة التوفيق

وفي الحفلة دار الحديث حول نشاط أعضاء المؤتمر فقلت: أن الذي شرح صدري هو أن أرى وزير العراق المفوض يحضر جميع الجلسات وعلى صدره شارة المؤتمر؛ فقال الدكتور عقراوي: هذا اقتداء بالتقليد الذي سنه صاحب سمو الأمير عبد الإله الوصي على عرش العراق، فهو يحضر جميع المحاضرات التي تلقى في بغداد باسم التعاون الثقافي بين مصر والعراق وفي معيته جمهور من الوزراء والنواب والأعيان، وتلك االتفاتة نبيلة تبين لك عظمة ذلك الأمير الجليل

وانتهزت الفرصة فسألت الدكتور عقراوي عن شعوره نحو المؤتمر فقال: دلني هذا المؤتمر على نواحي جديدة من النهضة المصرية، فأنا الآن أومن بأن لرجال التعليم في مصر آراء لا تقل وجاهة عن آراءً رجال التعليم في الأقطار الأوربية والأمريكية والحق أن الصلات العلمية والأدبية بين مصر والعراق قويت جدا بفضل تعاون الأمتين، وبفضل الأساتذة الذين أسسوا ذلك التعاون من مثال: السنهوري والزيات وعزام؛ ولم يبلق إلا أن نفهم أن تلك الجاذبية الروحية تحتاج إلى أسندة من الصدق والإخلاص في كل يوم، لتصل إلى كمالها المنشود

وفي هذا المقام اذكر أن سعادة الدكتور فاضل الجمالي حدثني أن معالي السيد تحسين علي، وزير المعارف العراقية، أوصاه بأن يصحبني معه إلى بغداد، وقد أجبت بأن التشوق سيحملني إلى بغداد على غير ميعاد، ولكن الذي يهمني هو أن يوجد مصريون بعواطف عراقية، وعراقيون بعواطف مصرية؛ وعند ذلك ابتسم سعادة الأستاذ شفيق بك غربال وقال: أنت هنا والجمالي هناك!

زكي مبارك

أولية سوق عكاظ

ذكر الأستاذ (علي محمد حسن) في الرسالة الغراء (العدد 451) تصحيحاً لما في دائرة معارف وجدي إذ جعلت افتتاح عكاظ سنة 540م، قال في خاتمته: (وبعد، فجمهرة الكتب على أن النبي صلى الله عليه وسلم ولد عام الفيل، وعلى أن عكاظ قامت بعد الفيل بخمس عشرة سنة فتكون قد أقيمت في سنة 585)

والواقع أن جمهرة الكتب ذهبت إلى هذا، إلا أنه لا يثبت على التحقيق، بل أن سوق عكاظ ليرتفع تاريخها إلى ما قبل سنة 500 ميلادية لهذه الأسباب:

1 - أجمعت كتب السير على أن رسول الله حضر حرب الفجار بنفسه ويحدد بعضها

سنة إذ ذاك مستنداً على الحديث: (كنت أنبل على أعمامي يوم الفجار وأنا ابن أربع عشرة سنة) وحرب الفجار كانت في عكاظ إبان الموسم، وذلك بعد عام الفيل بأربع عشرة سنة، فكيف يقولون أن عكاظ أقيمت بعد الفيل بخمس عشرة (انظر أسواق العرب ص 146 فما بعد).

2 - تزوج عبد شمس بن عبد مناف امرأة بعد أن طلقها زوجها لبيعها السمن وراحلتين بخمر شربتها في عكاظ. وهذا الحادث قبل عام الفيل بعقود السنين (أسواق العرب ص290)

3 - قالوا أن عمرو بن كلثوم صاحب المعلقة عاش حول سنة (500م)، وعمرو أنشد معلقته في عكاظ بالموسم، فلا شك إذن في أن السوق كانت قبل هذا التاريخ بسنوات.

مما تقدم لأسباب أخرى لنا أن السوق أقيمت قبل التواريخ التي يذكرونها بأزمان وهي على اقل تقدير كانت قبل القرن السادس الميلادي، ومن أراد زيادة في التحقيق فليرجع إلى كتابنا (أسواق العرب في الجاهلية ولإسلام ص294، 295، 146 فما بعد

سعيد الأفغاني

و (إخوان الصفاء) (أبو العلاء)

نقل الأستاذ عمر الدسوقي في العدد (246) من هذه المجلة الرفيعة قول الدكتور طه حسين بك أن (أبا العلاء المعري) قد اجتمع بإخوان الصفاء إبان إقامته في بغداد؛ وقد استدل

الأستاذ الدكتور على ذلك بالبيتين الآتيين:

كم بلدة فارقتها ومعاشر ... يذرون من أسف عليَّ دموعا

وإذا أضاعتني الخطوب فلن أرى ... لوداد (إخوان الصفاء) مضيعا

لورود (إخوان الصفاء) فيهما.

وقد كتب الأستاذ سليم الجندي عضو المجمع العلمي العربي بدمشق مقالاً في مجلة المجمع المذكور: (العدد الثامن، المجلد السادس عشر، 941) بين فيه التناقض الذي وقع فيه الدكتور فيما ذهب إليه، ونفى أن يكون أبو العلاء قد اجتمع بإخوان الصفاء مستدلاً بأمرين:

الأول: أن وقوع كلمة (إخوان الصفاء) في هذين البيتين لا يدل دلالة واضحة على اجتماع أبي العلاء بهم، فقد وردت في شعر كثير من الشعراء الجاهليين والإسلاميين والعباسيين: كالخنساء وأبي حبال البراء بن ربعي الفقعسي، ويسار بن إسماعيل، وعبد السلام بن رغبان، وابن الرومي، وصريع الفواني، وابن المقفع (في كلية ودمنة، باب الحمامة المطوقة)؛ وبدهي أن هؤلاء جميعاً لم يقصدوا بإخوان الصفاء (الجمعية المعروفة)، وإنما أرادوا إخوان المودة الصافية الخالصة

والأمر الثاني: أن معرفة سبب قول هذين البيتين تنفي ما ذهب إليه الدكتور؛ فقد روي ياقوت في معجم لأدباء (ج1 ص175) عن أبي الوليد الدربندي قال: أنشدني أبو العلاء التنوخي في داره عند وداعي إياه (وذكر الأبيات. . .)

هذا، وفي المقال أشياء آخر ذات شان يحسن الرجوع إليها

(دمشق)

صلاح الدين المنجد

في الكتب لا في الصدور

نعم كل شئ في الكتب؛ من يغض في أعماق تلك البحار يجد العب العجاب، ويعثر بالفريد المستطاب، وإن تراثنا العربي لا يمكن أن نهضمه في أعوام ولا قرون، ولا نسيغه بكلمة أو مقال: أنه تراث غني ولكنه مدفون

وما كان الأستاذ الجليل (شلتوت) وهو يتحدث عن (شخصيات الرسول) يجهل أن الذي تحدث به مدفون في بطون الحواشي والمتون، وما كان يجهل أن العلماء أقاموا من أجله العراك والخصام. كان يعلم ذلك، ويعلم أيضاً أن الناس معنيون بالظاهر، واقفون عند القريب، قانعون بالميسور، فأراد أن يضع أيديهم على الداء والدواء ويلفت أعينهم إلى ما خلف الستار والحجاب

وكيف يجهل الأستاذ ذلك وهو أحد مؤلفي كتاب (مقارنة المذاهب)، وهو بحث طريف، وإن كنت أعتب عليه أن يحصر مثل هذا النوع من التفكير بين جدران الكليات، ولا يذاع

ليعرف الناس، وليقول المنصفون!
ولقد قال الأستاذ شلتوت في حديث لي معه: أن صح أن ديننا الحنيف يحتاج إلى شيء فهو حسن العرض والإعلان لنلفت إليه أنظار المفتونين بزخرف الأوربيين، فيروا ما فيه من خبايا ودفائن، وميزات وحسنات. ثم قال: أنريد من الناس أن يلتمسوا الدين من حواشي ابن عابدين، وحواشي القليوبي والأسنوي والمحلي؟ الخ
وقد يكون هذا هو الحافز لأستاذنا الجليل إلى أن يلفت لهذه الناحية الأنظار، وخاصة أنظار الذين عموا وضلوا وحسبوا ديننا الكريم عصبية عمياء، فذهبوا ينالون أحرار الفكر بالإيذاء
السيد جمعة
إيجبت
قرأت في جريدة الأهرام كلمة للأستاذ محمد حسني عبد الله تحت عنوان: (لفظة (إيجبت) ولم سميت بها مصر) ذكر فيها أسطورة يونانية، ثم طلب ممن يعلم شيئاً في هذا الموضوع أن يذكره. والى القارئ خلاصة ما وقفت عليه في مطالعاتي:
أطلق اليونان لفظة اجيبتوس على مصر ولا نعرف تمام تاريخ هذه التسمية، إلا أن مصر لم تكن تسمى دائماً أجيبتوس وإنما عرفت قديما بأسماء مختلفة أهمها: كيمي أو كاميت أو خمي بمعنى الأرض السوداء أي الخصبة؛ ومن هذا الاسم اشتقت لفظة كيمياء؛ وذلك هو الاسم الشائع. وسميت أيضاً نهى بفتح النون أو ضمها وأي بلد الجميز؛ وتوميرا - أي الأرض المغمورة، لفيضان النيل عليها. وأطلق عليها الساميون: عبرانيون وفينيقيون وعرب، لفظة مصر، ولعل أصل هذه التسمية جاء من أن معنى مصر في لغاتهم: البلد
العظيم. أما كلمة اجيبتوس فلا يزال تدل عليه اصلها موضع التخمين والاستنساج، ولم يستطع أحد أن يقطع فيه برأي. وقد رأيت هذه الكلمة في الأوديسة تشير تارة إلى مصر والمصريين، وتارة أخرى إلى نهر مصر أي النيل؛ وقد أطلق فيما بعد على هذا النهر اسم نيلوس وأصله مجهول أيضاً
وهناك رأي يقول أن لفظة إجيبتوس أصلها مصري. ويحاول هذا الرأي أن يرجع هذه التسمية إلى (هاكابتاح - أو (هاكوبتاح وهو الاسم المقدس لمدينة منف في عهد مينا ومعناه (مكان عبادة بتاح) إذ كان بتاح يعبد في هذه المدينة
وأذكر أني قرأت في كتاب أو مقالة أن هاكابتاح ورد في نص من النصوص القديمة بمعنى مصر، لا مدينة منف، وإن هذه الكلمة نقلها الفينيقيون إلى اليونان فجعلوا منها إيجبتوس. ولو صح ذلك لكان مؤيداً للرأي السابق.
وهناك رأي للدكتور أبات باشا ورد في كتابه مصريات: في فصل أفرده لكلمة إيجيبت تحت عنوان: ' يخالف فيه الرأي السابق ويرجعه إلى العالم بروكش إذ يرى أن اليونان انتشروا في مصر في وقت قريب فتر فيه نفوذ مدينة منف العاصمة وعبادة بتاح المعبود، وقوى سلطان مدينة وقد شاركت مدينة فقط مدينة طيبة في علو الشأن وذيوع الصيت لموقعها على طريق البحر الأحمر ومحاجر وقد لعبت هذه المدينة دوراً كبيراً، وأصبحت مركز التجارة بين مصر وبلاد العرب والهند. ولابد أن اليونان الذين جذبتهم روح التجارة إلى (كيمي) أولاً انتشروا في منطقة فقط وجعلوا من اسمها اسما عامة لمصر فقالوا إجيبتوس أي بلد كبتوس. ويحتمل أن يكون أصل القبط من ذلك. وهكذا إجيبتوس فيما بعد محل كيمي التي اقتصر على نقشها في الآثار وكثيراً ما أشارت النصوص القديمة إلى الصعيد باسم وقد ذكر العالم ليسيوس عند الكلام على مصادر الذهب: ذهب الحبشة وذهب بلد كبتوس (وقد يكون أصل تسمية بلاد النوبة بوجود الذهب بها فكلمة تعني الذهب). كما أنه ورد في حجر رشيد كلمتا الواحد ترجمة للأخرى
وإذن تكون أرض فقط، وقد يكون اليونان قد وضعوا مكان الفرعونية، الموصول الحرفي اليوناني الذي يدخل على الكلمة لتوضيحها أو للدلالة على صدارة الشيء
عدلي طاهر نور
القصص
المصابيح السبعة
قصة من القصص الشعبي لسكان جزيرة بورينو

مترجمة عن الإنكليزية
عندما كبر والد الأبناء السبعة وطالت لحيته البيضاء بطول عمر، دعا إليه ثمار بذوره وتحدث إليهم في صوت خافت: (أبنائي! أنني أقف هنا في مكان مظلم وتقفون أنتم حولي ولكن انظروا: هاهي أمامكم سبعة مصابيح عددها كعددكم، فليختر كل منكم مصباحاً يستضيء به ويتبع نوره، ولا يأخذنكم الإعجاب بشدة ضوئها الحالي، فإني أنصحكم أن لا تتخيروا ما قد يبدوا لكم الآن أنه احسن المصابيح وأسطعها ضوءاً. انظروا إليها نظرة فاحصة ثم تخيروا ما شئتم، وإني لكم لنذير بأن اختياركم ذا اختيار نهائي لا رجعة فيه. فتبينوا الأمر قبل أن تقدموا، فإذا أقدمتم وتخيرتم ما استقر عليه رأيكم فلا تتحولوا عنه وأصروا على الاستضاءة به إصراراً، إذ الأفضل أن يؤمن المرء إيماناً تاماً برأي ما ويتبعه في إخلاص وأمانة، وفي ثبات وإصرار - ولو كان هذا الرأي خطا في جوهره - أقول أن هذا أفضل من أن يتبع المرء في تردد وضعف رأياً يؤمن في قرارة نفسه ببطلانه، ولو كان هذا الرأي في جوهره هو الحق والصواب).
فتقدم عند إذ الابن الأكبر ومد يده نحو المصباح الأحمر، ثم تمنطق بسيفه ودرعه وبدا على وجهه إمارات الجشع والطمع؛ ثم صاح صيحة الوداع وانقلب على وجهه مسرعاً ليقضي حياته كلها في السلب والنهب والإجرام.
ورأى الوالد سوء طالع ابنه وفساد رأيه، ولكنه لزم الصمت وأدار وجهه نحو الباقين مكن أبنائه ليرقب ما استقر عليه رأي ابنه الثاني، وكان ضعيف الجسم قوي العقل، فتقدم ببطء وتردد وأخذ يعمل فكره في تؤدة شأن الحكماء من بني الإنسان، ثم ترنح قليلا ومد يده نحو المصباح الأزرق وقبض عليه. فاغتبط الأب بهذا الاختيار أياما غبطة وقال:
(اذهب أنك لمن المبرزين، وإنك سوف تظهر على الناس أجمعين)!
وكان المصباح الأزرق - مصباح الحق - يتلألأ أثناء ذلك
وتقدم الابن الثالث وكان جميل الوجه حسن السمات. . . فأعجبت به النساء وشغفن به حباً، فتخير المصباح الأخضر ذا اللهب الخافق الحائر وأخذه بين يديه، ثم انصرف.
فلما خرج من الباب لمح والده (صاندال) تجري في إثره وكانت هذه المرأة مضغة الأفواه لقبح سيرتها وفساد أخلاقها، فطأطأ الشيخ رأسه وقال: أن الرجل الذي يجعل النساء الجميلات قبيلته وغاية سيعه، فيخضع لهن ويرضى أهوائهن، لهو رجل خاسر، إذ لا يتيسر له أن يتجه وجهة أخرى أو يعمل عملاً آخر
ولم يكن يختفي هذا الابن الذي جعل النساء شغله الشاغل في هذه الحياة حتى سمع الجميع صوت النقود ورنين الذهب، إذ تقدم الابن الخامس وعلى وجهه تعلو سمة المرابي، فاختطف المصباح الأصفر وولى مسرعاً
وجاء الابن الخامس خائفا مسرعا يترقب، يلتفت يمنة ويسرة، ويتقدم رجلاً ويؤخر أخري أصفر الوجه، مرتجف اليد. . . ونظر إلى المصابيح البقية فتخير المصباح الرمادي - مصباح الخوف والجزع - فقبض عليه بيده الحائرة، وتولى من مجلس أبيه وهو يرتجف فرقاً. . .
وتبعه الابن السادس: وكان مدللاً ملحوظاً من يوم ولادته بعناية والديه، فشب أنانياً محباً لذاته، فلم يتردد ولم يتمهل، بل اندفع نحو المصباح الأسمر - مصباح الأثرة والضوء القاتم الخائر وقبض عليه. . .
وأخيرا. . . وقف الابن الأصغر في تواضع وخشوع بين يدي والده، ثم ركع على ركبته واخذ المصباح الأبيض - مصباح الإيمان بالله - وقال: يا أبت. . . لسوف أتبع هذا النور على الدوام في كل مكان وكل زمان، في السراء والضراء. . .
ومرت الأعوام. . . فضمر جسم الوالد، وانحنى ظهره، وطال شعره. . . ولكن ظلت عيناه الحادتان ترقبان - على الدوام - عودة أبنائه السبعة. . .
وقرع الباب يوماً، فلما فتحه الوالد الشيخ وجد أمامه الابن الثالث الذي تخير المصباح الأخضر فقال له: (أبي لقد تبين لي أن النساء مخادعات غادرات. ولقد احترق زيت مصباحي عن آخره. وهاأنذا شريد بائس، ولقد قابلت أخي الذي شغف بجمع المال وطلبت مساعدته، ولكنه أبي على ذلك)
ثم عاد بعد ذلك الابن الرابع صاحب المصباح الأصفر فإذا بمصباحه قد خبأ ضوؤه وهو ما يزال يسعى وراء المال وجمعه؛ وكان هذا هو كل ما حصل عليه. فقال: (يا أبي،

أنني رجعت دارنا لأموت) ثم سقط على الأرض وفارق الحياة
وعاد الابن الخامس ذو المصباح الأسمر وكان سلطان شهواته ورغباته وأثرته لم يبق له خليلاً ولا صديقاً، ولم يجلب له سلاماً أو طمأنينة فرجع إلى أبيه بائسا مسكيناً
وعاد بعد ذلك الابن الخامس ذو المصباح الأخضر فإذا به قد قضى حياته كلها يحيه الخوف والجزع، ذلك فانه لم يؤمن بالله، ولم يعرف أنه أرحم الراحمين، فاحترق مصباحه بين يديه، ونفذ زيته، وأخذه الشك والخوف من كل مكان، وكان نصيبه الوحدة والهزؤ من الناس أجمعين
وأخيراً رجع الأبناء معاً يحمل أحدهم المصباح الأخضر - مصباح الحق - ويحمل الآخر مصباح الأبيض - مصباح الإيمان بالله - فقال للشيخ: (يا أبانا، لقد هدانا المصباحان سواء السبيل فاسترشدنا بهما وسط العواصف والأنواء، وكلما حزب الأمر واشتد الإغراء وجدناهما خير معوان لنا على مقاومة النفس والشر أينما كان. وهانحن أولاء نعود إليك نشكرك ونحييك ونخلص لك)
إبراهيم عبد الحميد زكي
العدد 455 - بتاريخ: 23 - 03 - 1942
الربيع في غير مكانه!
للأستاذ عباس محمود العقاد
الربيع. الربيع. الربيع!
وكررها ما شئت، فما أنت ببالغ من تكرارها بعض ما تراه من اسم الربيع مرقوماً بشتى الحروف، في كل صفحة من صفحات الكون
كل بستان يقول لك الربيع، وكل شجرة في بستان تقول لك الربيع، وكل طائرة غادية أو رائحة بين الزهر والشجر تقول لك الربيع. . .!
وتقول لك الربيع كل عين لامعة، وكل وجفة متوهجة، وكل قلب خافق، وكل حياة نامية الربيع في كل مكان
الربيع في مكانه وفي غير مكانه، ويا رب ربيع في غير مكانه يلقاك بمعنيين لا بمعنى واحد، كما يروعك الحسن غير منتظر، أشد من روعته إياك وأنت في انتظاره، وعلى عهدك باختباره
في مكانه بين الضفاف والأشجار
وفي غير مكانه أين؟ أين نلقاه في أوانه، بعيداً من مكانه؟
سلني وسل من واعدوه مثلي قي مختلف المواعد، فيا طول ما رأيته حيث لا يراه الناس! ويا طول ما ذكرته حيث لا يذكره الناس! ويا طول ما حييته حيث لا يحييه أحد، ولا يأنس إليه
في المقبرة، في السجن، في الصحراء، في وحشة النفوس التي تستعير الموت من المقبرة والضيق من السجن والظمأ من الصحراء
هنالك الربيع في خير أوانه؛ وهنالك الربيع في غير مكانه؛ وهنالك الربيع الذي لا أحب أن أنساه حين يذكر الناس كل ربيع!
كانت الشجرة باسقة ناضرة، وكانت العصافير تملأها قبل مطلع الشمس وبعد مغيبها، ثم لا تزال تغبها طوال النهار شادية صافرة، لاهية سادرة، متلاقية زوجين زوجين أو متعاشرة، ظاهرة بالفرار أو متظاهرة، ثم متلاقية في الصبيحة الباكرة، متلاقية في قيلولة الهاجرة، متلاقية في الظلمة الساترة
وكانت الشجرة على قبر فتاة
وكان القبر بين مئات القبور
وكنت أراها من حجرة قريبة إلى القبور في كل شيء: في الجيرة، وفي المرض الذي أقعدني فيها، وفي الوحشة التي لا يشع خلالها رجاء
وكنا في صحراء الإمام
انظر إلى عصافيرها. عصافير المقبرة على رفات الحسناء
انظر إليها لا ترى فرقاً بينها وبين عصافير روضة على ضفاف نهر في يوم عيد
أتلومها أتحمدها؟
نعم، لك أن تلومها كما قلت يومئذ ألومها:
مغرّدةَ الطير بين الحفَر ... سواء لديك جميع الشجر

أفوق القبور غناء الغرا ... م، وطيب المقام وصفو السمر؟
دعيها لناعبة في الدجى ... وناعقِ سوءٍ رهيب الخبر
ولوذي بأيْكٍ يفيء الهوى ... إلى ظله ويميل النظر
فذاك بصفوك أولى مقا ... م، وأولى بهذا المقام العبر
ولك أن تحمدها كما قلت يومئذ أحمدها:
مغردةَ الطير أنت الأسدُّ ... وأنت الأجدُّ، وأنت الأبر
عرفت الحياة فحييتها ... بحيث نما غصنها وازدهر
ولم تعرفي الموت بين القبو ... ر، وماذا من الموت تحت الحجر؟
ولا موت حيث يضوع الشذى ... ويسري الندى، وتعيش الذكر
فغنِّي فما الأرض إلا حيا ... ة تمر وأخرى تلي في الأثر
وكنت أقولها يومئذ ولا أزال أقولها الآن وأنا أعجب لنا حين ننعى على الموت قسوته، وننسى أن الحياة تواجهه بأقسى من تلك القسوة، حيثما ظفرت ببقاياه
متى حفلت الحياة بالقبور؟
متى هزئ الموت بالأحياء بعض ما تهزأ بالموت زهرة ضاحكة تنمو من جوف قبر، وعصفورة عاشقة على مدفن حسناء، وتغريدة تسمعها من الروضة في يوم مهرجان كما
تسمعها من صحراء الإمام في جنازة عزيز؟
تلك قسوة الحياة. وأقسى ما فيها أنها بحق، وأنها لا تخجل ولا تداري ولا تخال في الأمر موضعاً لخجل أو مداراة.
وفي السجن!
والربيع في السجن يعرف أوانه ولا يعرف مكانه
يعرف أوانه فلا يخطئه في ورقة على فرع شجرة، ولا ينساه في قشاشة منسية على الأرض يلمحها عصفور عابر فيهبط إليها، ليتخذ منها أثاثاً لمهاد غرامه، في موسم الغرام
أهذا أوان الربيع؟
نعم هذا أوانه، وهذه أنباؤه، وهذه سيماؤه!!!
أو هذا مكان الربيع؟
لقد كان ذلك بين الأسوار وراء القضبان، وكل مكان فهو منزل للربيع الطلق غير هذا المكان، في حراسة سجان!
ولكننا تلقيناه فيه، وابتسمنا له، وعرفناه غير متنكر ولا متغير، ومقتحماً علينا المكان أحب اقتحام.
ثم في الصحراء
والصحراء والسجن نقيضان، ولكنهما في غرابة الربيع يلتقيان.
زهرة يفرقها من الزهرة التي بعدها مائة ميل، وكأنها من الأنس بنضرتها في جمهرة من الرياض والآجام. لا تلتفت إلى وحدتها لأنها في حجر أمها وبعين أبيها، وهل لها من أم غير الحياة ومن أب غير الربيع؟
ولكننا نحن الذين نراها بأعيننا فنخلق لها الوحشة من نفوسنا، ونفرق بين مكانها وأوانها، ولا ضير عليها ولا عليهما من افتراق
يذكرنا ربيع المقبرة وربيع السجن وربيع الصحراء أن ربيع العام كله في غير مكانه وإن جاء في أبانه
ربيع يقال له موسم الحياة والرجاء وأنباء الموت فيه أشيع الأنباء!
ربيع يتلاقى فيه محبان هنا ومحبان هناك، ثم يتلاقى فيه مائة ألف من الأعداء ومائة ألف
من الأعداء، يتقاذفون الموت في البر والبحر والفضاء!
ربيع يترقبه طلاب الموت، ويفزع منه طلاب البقاء!
ربيع أقرب منه إلى مكانه كل ربيع في مقبرة، وكل ربيع في سجن، وكل ربيع في صحراء
هذا ربيع العام!
السلامة كل ما يسأل منه، وقد كان بعض سؤله النعمة والغرام

وكنت أسمعها تغرد، وأراها تطفر، وأرثي لها وهي في قفصها، وأحبها وهي لا تباليه، كأنها نقلت الحرية من فضاء الله إلى صدرها الصغير بين أفراخها الصغار
تلك عصفورة الكنار عند صديق من محبي الطير في الأقفاص، وإن كنت لا أحبها في غير فضاء الله
بل رأيتها تولد، ورأيتها تزقو، ورأيتها تترقى يوماً بعد يوم من الزقاء في طلب الحب، إلى التغريد في طلب الحب، إلى التغريد في الغبطة بالبنين
ثم نعاها إلى الصديق ذات صباح، فكان لنعيها تعقيب طال بيننا كما يطول التعقيب في هذه الأيام على أنباء الغزوات
فليعجب من هذا من يستبعد الفارق بين النبأين، كما يستبعد الفارق بين عصفورة واحدة ومائة ألف إنسان
إن كان هذا هو المياس فالفارق جد بعيد، بل هو فارق لا يجوز القياس فيه
لكن المقياس غير هذا وأصدق وأكرم من هذا
المقياس بين موت فيه معناه، وموت أخر فيه معناه؛ وقد يتقابل المعنيان في كفتي ميزان، إذا تجاوزت من مات وما مات وانتهيت إلى ما في الموت من سر واعتبار
في مستهل الربيع ماتت عصفورة الكنار التي نقلت إلينا قبساً من الربيع في زمهرير الشتاء
ماتت وهي في أول أمومة لها تستقبل ربيعها الثاني بخمسة من الأفراخ الضعاف
وماتت شهيدة هؤلاء الضعاف الظالمين، لأنها جاعت لتطعمهم والحب عندها كثير، ونسيت أن تأكل لنفسها لتذكر تلك الأفواه المفتوحة كأنها فتحت لتأكل كل شيء. . .
وماتت لأنها تعطي الحياة ولا تأخذ منها بعض ما تعطيه
ماتت شهيدة الفداء، وماتت وورائها تدبير حكيم أحكمته العناية في مئات الألوف من السنين
وعندما تموت عصفورة فيترجم لنا موتها ذلك التدبير، ويقد لنا ذلك التقدير، لا عجب أن يقترن موتها بموت الجحافل وأنباء المحافل، وهو في قوانين الوجود كفاء ذلك القانون
لا عجب أن نحسب على ربيع العام هذه الشهيدة وأولئك الشهداء، فكلهم في سر الخليقة سواء
عباس محمود العقاد
صلوات فكر
في محاريب الطبيعة
للأستاذ عبد المنعم خلاف
كتب كثير من هذه الخواطر في (الرستمية) بالعراق العزيز،
(فهي مهداة إليه
وما رأيت أرضاً يعنف فيها الشعور بالحياة كالعراق!
فهناك طلاسم مخبوءة في التراب والأعشاب للسحر وتفتح القلب للحياة والحب. . .
وهناك تاريخ البشرية الأولى يحرك في نفس الحي الحس بالزمان. . .
وهناك سحر هاروت وماروت لا يزال يجدد شباب قلب القارة العجوز: آسيا. . .
حيث يفيض الماء دم الحياة غزيراً مدراراً. . .
وحيث يفور النفط نهر اللهب غزيراً مدراراً. . .
فينبت من بينهما إنسان ذو جذوة بيضاء وأخرى حمراء! في جماجم عاتية عمرت الحياة بالنسك والفتك في حياة الهوى وحياة الضلال. . .
وهناك ملتقى الكيد وحرب الأجناس والأجيال في تلك الأرض السوداء، على هامش الصحراء الصفراء، وبين هضبة إيران وجبال كردستان تلتقي الأنواع من إنسانها وحيوانها وحشراتها. . . ففيها من كل جنس شاخص أو طلل. . . هبت على قلبي فيها ريح الشمال من صحارى القرغيز وسهوب سيبريا، وريح الجنوب، من خضم تحمل مواعينه الطيوب والأفاويه، والسحر الأسود من القارة السوداء وجزر الهند؛ وريح النار من أرض الفرس؛ وريح الموت من الهند أرض الاستغراق وفناء الأجساد وجنون الأرواح بالأسرار، وانسلاخ القوى وتجسيم الخيال!
إنها طلعة جبارة من طلعات الطبيعة تطلق أشباحاً ترقص في الأوهام والظنون. . .
فلا عجب إذا وعيت بعد هذا كله من أسرار الحياة ما جعل فكري دائم الصلاة!

11 - أبجد
أبداً أكرر دروس الطفولة فأتهجى أسماء الأشياء حتى لا أنسى. . .
أبداً أحترم الطبيعة البدائية كما يحترم الأطفال كبار القوم. . .
أبداً أسير إلى الأمام وعيني إلى الوراء، حتى لا أضيع طريق العودة إلى أحضان أمي. . .
لي ذهن سحري يزوي لي الأيام الماضية ويحضرها لأعيش فيها فترات ثم يردها إلى مكانها من التاريخ. . .
أسير وفي يدي مهدي الذي ولدت فيه، حتى أصل إلى اللحد الموعود لأراهما معاً يتقابلان. . .
أحتفظ دائماً بوجهي أمي وأبي حين رأيتهما لأول مرة بين الشباب والكهولة من عمرهما. . . ولن أنسى هاتين الصورتين حتى أرى وجه الموت. . . فأقابل بين الثلاثة؟
ولدت في غيبوبة. . . فهل أموت في غيبوبة؟
12 - حماية الطفولة
الطفولة هي موضع عناية الله. . . ألا ترونه يضم كل جنين أو صغير ناشئ بحنان ويشق له بيده طريق الحياة!
فمواضع يده اليقظة الرفيقة هي البراعم المتفتحة والمناطق النامية تلففها بأقمطة وأربطة، وترصد حولها حراساً من الأشواك والمرارة والمواد قاتلة المكروبات والحشرات
إنها تستكثر من البويضات وجراثيم الحياة وتخرجه بالملايين التي تعجز قوى الإفناء عن إتلافها جميعاً لتسلم الحياة وتدوم الأنواع.
إنها تحب ذلك العالم الجميل البريء الذي لم يقبح ولم يتدنس ولم تحتله بعد قوى الشر.
إنهم يدخلون باسمين للنور والطعام واللعب يسألون عن كل شيء
الشمس لهم المرعى والليل، ولهم السعي والعمل والحب في منطقة الخديعة من قلوب الأمهات والأباء
حملان وجراء وأشبال وأفراخ وبراعم وأطفال. أولئك هم الأصدقاء السائرون معاً في وكبةٍ من مواكب الحياة. . .
13 - الدوام
هل رأيت الدنيا تخلو يوماً من أشيائها؟
أبداً ترى عصافير متحدة في الشكل والصوت تطفر على الأشجار والأعالي. . .
وأبداً وترى هذه الدار مأهولة بالشمس والقمر والنجوم. . . نجوم السماء ونجوم الأرض. . .
الأرض دائماً تقرع بالأقدام، والصبح دائماً معه صوت الطير. . .
أبداً فيك يا دنيا شباب متوجون بالطرة السوداء والغرة المشرقة، والشفاه الباسمة. . .
أبداً يلعب الأطفال في أمكنة اللعب ويتصايحون عرابيد مهاراً في الملاعب. . .
أزور دائماً أمكنة طفولتي فأجدها عامرة بالأطفال الذين احتلوا مكاني أنا ورفاق صباي. . .
أتراني أرى دوام هذا الكون العظيم. . . هذا الضياء الغامر الفياض، هذا الليل الرائع الجبار. . . هذه الرياح العاتية الجارفة الزخارة. . . هذا العباب الهدار الرجاف الرجراج. . . هذه الصحراء الطامسة الفاغرة. . . هذه الجبال الراسية الشامخة. . . هذه السماء الرحبة البعيدة المدى. . . ثم أرى ذاتي إزاء هذه العوالم ضئيلاً ضعيفاً فانياً
ثم لا أصرخ في وجهها صرخة تدوي بها هبوات الرياح، وتتلقفها الجبال، وتذهب أصداؤها في الأعماق والأغوار. . . صرخة تتمثل فيها كل معاني إحساسي بفنائي وضعفي وضياعي بينها من غير سند ولا عاصم أعتز به وأطول وأصول؟!
لماذا تبقين وأنا أذهب؟ وتتجددين وأنا أبلى؟ وتبصرين هذا الجمال الدائم وأنا أعمى وأطمس؟ وتسمعين أصوات هذه الحياة العجيبة وضجتها وأنا أصم؟
لماذا تتوجين دائماً بلآلئ الصباح وذهب الضحى ورصائع النجوم، وتتجملين بأصباغ فاتنة من وهج الظهيرة وطفل الأصيل وشفق المساء، وتتعطرين بأنفاس الأزهار. . . وأنا أجرد من حلي وغرتي وطرتي، وتنصل أصباغي، وتتفكك أعضائي، وتحبس روحي عن

هذا الوجود. . . حتى أنتهي إلى أن أنظر الكون من محجري جمجمة يسكنها الفراغ والظلام، وتسكن هي في أعماق حفرة ضيقة تضحك لظلامها بفكين مجرودين مقبوحين حتى تمسها يد البلى فتتركها رفاتاً سحيقاً بعد أن تمل الظلام ويملها؟!
لماذا تمنحين ما أحرم وأنت عديمة القلوب والعيون، وأنا ذو القلب الراقص دائماً على خفق الأدواح وصفق الرياح، الجائع دائماً إلى الأحاسيس والمعاني المعلنة والباطنة، وذو العين الرائدة الباحثة عن الحركات والألوان وسمات الوجوه وأشكال الأجسام!
لماذا يا عدالة السماوات والأرض؟ أفي الحق ذلك؟
كلا! فليست العدالة هي التي قسمت هذا وقالت به. . . وإنما هي العقول السطحية اليائسة القاصرة قالت به. . .
ولكن عدالة الأكوان ومنطق القلوب - أوعية الحياة - هما يقولان ببقاء هذه النفس لهذا الكون ونقلها إلى جمال أكمل وأسمى وأدوم، وعالم من القدرة والتسلط أكثر هولاً وفناً وأعظم، وعالم من الانطلاق والتحرر أرحب وأنعم!
والموت الموعد!
تهافت الغايات إلا غاية واحدة - 14
وإني لأهتف حين تهب على قلبي نسمات خفية تثير فيه حساسيته بالدوام والخلود واللانهائية. . . ثم أرى أمامي كل غايات الحياة الأرضية متهافتةً أمام العقل لا تقنع عشاق الخلود والآملين فيه:
هل لي يا سيد الوجود شيء في ملكوتك الجميل الخالد يبقى وأحوزه لنفسي بعد فنائي ورحيلي من هنا؟
أم أنا ذاهب من كل هذا الجمال ومعاني الآمال كتبنةٍ ذهبت مع الريح، أو ورقة أحرقت في موقد، أو حشرة عمياء صغيرة سحقت تحت قدم. . .؟
وهل يكون نصيبي من ملكوتك هذا الرحب الواسع الغني بمعاني الحياة مكاناً مبهماً في جوف الظلمات وأطواء العدم وسكون الجمود، حيث لا إحساس بهذه الحياة ولا بما وراءها. . . وحيث لا أمكنة لأشياء إذ لا أشياء إلا تلك الصورة المطموسة التي ينقلها الخيال الإنساني من عالمها هنا إلى هناك، حين عجز أن يتخيل الفراغ والعماء؟!
إنني يا سيدي لا أصدق، لأن ضميري قطعة من ضمير الوجود كله. . .!
وكيف أصدق أن ما في عيني من الصور، وما في سمعي من النغم، وما في قلبي من أحاسيس، وما في فكري من قضايا الكون والفساد وأحلام الكمال، تذهب هكذا كأن لم تكن!
إنهم أطفال أولئك الذي يقصر خيالهم عن إدراك المدى الحيوي الباقي للإنسان وراء هذه الحياة الدنيا، كما يقصر خيال الطفولة عن إدراك عالم الرجولة وبلوغ الأشد في دنيا الأجسام. . .
فكل غايات الحياة الأرضية متهافتة فانية أمام العقل، لا عمر لها إلا خطفات زمنية، ولا وزن لها تجاه الأبد الكبير. . . والهادفون إليها فانون، إلا إذا دارت حول غاية واحدة: هي الله والبقاء معه. . .
عبد المنعم خلاف
ين أدم وحواء
شروق العقل
للدكتور زكي مبارك
أفاق أدم من غفوته عند قدوم حواء، وكان المنتظر أن يتلقاها بالضم والتقبيل، ولكنها عاجلته بضربة قاصمة هي تذكيره بشجرة التين، فغام قلبه بعد صفاء، وعاد فانطوى على نفسه كما يصنع الأرقم في ليالي الشتاء.
- آدم، مالي أراك شارد اللب؟
- من الفرح بقدومك بعد طول الغياب!
- أنظر، أنظر، ألا ترى أني صرت أنضر من أزهار التفاح؟
- وأحلي من أثمار التفاح!
- إذا ما هذا الخمود الذي يغالب قواك؟
- ما أنا بغافل عن واجب الترحيب بهذا الجسم الفينان، الجسم البديع الذي أضلني وهداني، ولكني تذكرت (صلاة الشكر) وهي صلاة لا تتم بلا اعتكاف، فإن رأيت أن

. . .تتركيني وحدي لحظة أو لحظتين
- انتهاب الجمال هو في ذاته شكران لواهب الجمال
- أبغض ما تكون المرأة حين تتفلسف، فاتركيني لصلاتي، وإلا مزجت الكوثر بدمك النجيع. انصرفي ولا ترجعي إلا إن سمعت ندائي
وخافت حواء عواقب هذه الغضبة فولت هاربة لا تلوي على شيء وتركت آدم للصلاة، (وهي ترجو أن تكون صلاته أقصر من الأمل في سيادة العدل)
فماذا وقع بعد انصراف حواء؟
هل صلى آدم؟ وكيف تصح له صلاة وقبله يفور، وعقله يثور؟
أخذ آدم يفكر فيما انتهى إليه أمره وأمر حواء، فقد كانا غايةً في الطاعة والخضوع، فما الذي جد حتى أصبحنا غايةً في التمرد والعصيان؟
أيرجع السبب إلى وسوسة إبليس؟
ولكن إبليس كان يوسوس منذ أزمان ولم يصل إلى شيء، فكيف وصل بعد اليأس؟
هنا أدرك آدم أن السر يرجع إلى النمو الملحوظ في جسده وجسد حواء، وأيقن أن اضطرام الأجسام يصنع ما تعجز عنه ألوف الأباليس. . . وهل تنجح الغزوات الخارجية إن لم تصادف قبولاً من الأهواء الداخلية؟
وزاد في اقتناع آدم بهذه النظرية ما كان يلاحظ على فصائل الطير والحيوان؛ فقد كان يشاهد أنها لينة رفيقة في أول عهدها بالوجود، ثم تغلب عليها القسوة والشراسة حين تصير إلى النضج والاستحصاد!
وإذن؟ وإذن يكون تطور الفاعلية الجسدية مصدر التطور في الفاعلية العقلية!
ثم؟
ثم يكون في كل تطور جديد إبليس جديد
وعلى هذا يكون لحواء في طغيانها عذر مقبول
وما ذنب حواء؟ ما ذنبها وقد استحالت إلى دوافع ونوازع وأهواء؟
نظرت مرة إلى نهر الكوثر في لحظة سكون فرأت خيال وجهها الجميل وقد استدار في هالة من السحر والفتون، فقدرت أن سيكون لها تاريخ، وعجبت من أن يتعامى آدم عن حسنها الفتان، كأنها تجهل أن آدم صار ألعوبة في زمامها المخبول
وخلاصة ما قرأت في كتاب شيت أن آدم لا يقيم وزناً لنزعات إبليس، وإنما يرى أن الجسد هو الأصل، وأن ألفافه مكونة من أباليس، وأن ثمر الشجرة المحرمة قد يزيده فورةً إلى فورة، وجموحاً إلى جموح
وهل غاب عن آدم أن ثمرات التين سريعة العطب والفساد؟
لقد تأملها مرة ومرتين ومرات، فعرف أنها معرضة لأخطر الجراثيم، وأدرك أن سمها قد يؤرث ما في الأجسام من السم المكنون فتستشري وتهتاج
وإذا كان آدم عجز عن رياضة حواء وهي صحيحة، فكيف يروضها وهي مريضة؟
خطرت لآدم هذه الخواطر وهو يبحث عن السر في تمرد حواء. . . لقد كانت طفلةً وديعة، فكيف صارت امرأةً خبيثة؟ تطور الجسد صنع بها ما صنع، فأمست وهي أخطر من الحية النضناض، ولن يكون إبليس بأمكر من حواء، بعد أن تبلغ مبلغ النساء
وكان آدم يعرف أنه يحمل الجانب الأخطر من المسئولية؛ فهو السبب الأصيل في تمرد حواء، وبفضل شبابه وصياله ذاقت أفاويق الضلال
والذي ينتظر أن تهدأ المرأة وأمام عينيها رجل، شبيه بالذي ينتظر أن تهدأ النار وقد ألقمت أكداس الحلفاء. . . لقد كان آدم يطرد حواء ثم تعود إليه لتأنس بضربه الوجيع، كما ترجع الفراشة إلى أقباس اللهيب
المرأة تدرك ما في الرجل من المعاني، ولو كان من الخاملين، فكيف تصد عنه وهو من الأنبياء؟
كانت حواء سمعت أن الله لم يخلق آدم إلا بعد أن دار بينه وبين الملائكة حوار طريف، فكيف يفوتها أن تنتفع بشهرته، وهي تعرف أن الهرة مغنم عظيم، وإن اعتمدت على أضاليل وأباطيل؟
وهل تقوم الشهرة بلا أصل؟
إن آدم رجل، والرجولة من أعظم الأرزاق، فما زهدها فيه وهو من أمثلة العزة والجبروت؟ وهل تنسى أنه صرعها فوق شط الكوثر ألوف المرات؟

القوة هي سحر آدم، والضعف هو سر حواء، والوجود يقوم على أسس كثيرة ولكنها ترجع إلى أساسين هما القوة والضعف؛ والعشق العارم لا يقع إلا بين عاشقين مختلفين في العرض والطول، والدمامة والجمال، والقسوة واللين
ومع هذا كان آدم هو البادئ بإعلان شوقه إلى حواء، وكانت حواء تنكر شوقها إليه.
وتفسير ذلك سهل: فأسرع الناس إلى الاعتراف بالحق هم الأقوياء
ويزعم شيت بن عربانوس أن آدم قال وهو يحاور تلك اللعوب:
أما والله لو تجدين وجدي ... لطِرت إليَّ خالعة العذار
وقد فات آدم ان حواء ضعيفة، والضعف يتسلح بالرياء
والقول الفصل أن آدم قد انتهى إلى حقيقة لا تحتاج إلى برهان، وهي صدور الأهواء عن الأجساد قبل صدورها عن الأرواح، لأن الجسد أداة الروح، ولأنه يحفظ قواها كما تحفظ الكأس سر الرحيق
ثم ماذا؟ ثم التفت آدم إلى وحي النبوة فقال:
لم أكن أدرك تكاليف النبوة حين أراد الله أن أكون من الأنبياء، فقد فهمت أول الأمر (أن النبوة لا تصح إلا لمن يقف موقف الراعي من الرعية، وليس في الجنة جنود وأتباع يحتاجون إلى من ينظر في شؤونهم بعين المدبر الحصيف. . . ثم عرفت أن الله جعلني نبياً لحكمة سامية: فحواء شخص فرد، ولكنها مؤلفة من شخوص يعدون بالألوف، بفضل ما يصطرع في جسدها وروحها، وقلبها وعقلها، من أشتات النوازع والأحاسيس. . . هي شخص فرد، ولكن أوقاتي تضيق عن الطب لأهواء ذلك الشخص الفرد، فكيف أصنع لو أضيف إليها أفراد يحملون ما تحمل من أوقار النزق والطيش والجموح؟ إنها تتعبني في الحوار، وأكاد أوقن بأن كل كلمة من كلماتها ترمز إلى شيء، فهذه الكلمة عتاب، وتلك الكلمة اتهام، وهذا اللفظ وعد، وذاك اللفظ إغراء، وذلك اللفظ تجريح. . . ومن عجيب الأمر في سياسة هذه الشقية أن خطبها لا يهون إلا حين تنطق، مع أن المفهوم أن نطقها في أغلب أحواله وعيد مخيف. . . أخطر ما تكون حواء حين تصمت، فعند ذلك أدرك أنها تضمر أشياء، وأنا أخاف أشد الخوف من النذير الصموت. . . لو أن الله جعلني نبياً في أمة كثيرة العدد لخف الخطب وهان، فقد كنت أستطيع الاعتذار بالعجز عن رعاية الألوف من الرجال والنساء، ولكن الله جعلني نبياً على مخلوق تحار في رياضته العقول. . . من أي طريق أصل إلى اكتناه قلب حواء؟ وكيف أؤدي الواجب في تهذيب تلك الشقية؟ وهل نجحت في التخلق بأخلاق النبوة وأنا أروض تلك الفرس الشموس؟ الله يعلم أني لم أقصر ولم أفرط، ولكن ما هذا البلاء الذي أعانيه؟ واجب النبي أن يهدي الجميع في حدود ما يطيق؛ وقد يتلطف الله به حين يعجز عن هداية من يحب، لأنه يعلم أن الأحباب هم في الحقيقة أعداء؛ وهل يعرف مقاتل المحب غير الحبيب؟ كان يكفي أن أعجز عن هداية حواء فأسلمها إلى الشياطين، ولكن البلاء كل البلاء أن هذه المرأة لا تكتفي بنجاتها من يدي، وإنما تريد أن تضلني فآكل معها الثمر الممنوع، وبهذا يصبح الهادي وهو من الضالين! إن نجحت حواء في اختتالي واختلابي فسأكون عبرة لمن يأتي بعدي من الأنبياء. . . وهل أضمن حفظ مكانتي في التاريخ؟ إن تطاول الزمان فسيقول قوم إن آدم شخصية خرافية أريد بها تصوير انهزام الرجال أمام النساء. وهل يؤذيني أن يقال ذلك؟ أنا أول ضحية بشرية إن هزمتني حواء، ومن حق من يجيئون بعدي أن يرتابوا في حقيقتي التاريخية.
فالرجل الذي يعجز عن كبح المرأة لا يستحق شرف الوجود. . . وأنا أعيذ من تصل إليهم هذه الأخبار أن يسيئوا الظن بجدهم المظلوم، فليس عندي أوامر صريحة أتولى بها زجر حواء، ولست أعرف المصير إن عاقبتها بالقتل، فما لي صديق غير هذا المخلوق، والصديق الواحد جدير بالاستبقاء وإن تردى بالعيوب. من أخصب تخير، وأنا في الصداقة مجدب لا مخصب. فهل ألام إذا استجزت المعصية طاعةً لمحبوب لا أجد غيره حين يضيع؟ سأقرب الشجرة رعاية لحواء، وليصنع الله بنا ما يشاء. . . وماذا يريد الله! أيريد أن نشاركه في السمو المطلق؟ أيريد أن نتنزه كما تنزه عن جميع الشبهات؟ أين نحن من الله وهو قوة أزلية لا يعتريها نقص ولا خمود؟ بأمر الله سأعصي الله فأقرب الشجرة مع حواء. سأعصيه بأمره وإن كان نهاني، فهو يعلم أن المخلوق المؤلف من أحلام وأهواء لا يعظم عليه العصيان)

وانخرط آدم في البكاء، فلم يوقظه غير حواء
- آدم، آدم، ماذا بك؟
- حواء؟
- نعم، حواء، هل فرغت من صلاتك؟
- أي صلاة؟
- صلاة الشكر، ألم تحدثني أنك من أجلها أردت الاعتكاف
- لقد صليت صلاة لا تخطر لك في بال
- هل صليت كما تصلي الملائكة؟
- أعظم مما يصلون
- وكيف؟
- ناقشت الله!
- من ناقش الله هلك
- قولي هذا لنفسك، يا حواء!
- أحب أن أعرف كيف تكون المجادلات من ضروب الصلوات؟
- حين تكون شاهداً على شروق العقل
- لا أفهم ما تريد أن تقول
- أريد أن أقول: إن الله يكره لعباده أن يلوذوا بالصمت والجمود
- ومعنى هذا أنه يجب أن نتكلم ونتحرك في كل وقت؟
- إذا أشار العقل
- وما العقل؟
- أن تسكتي إلى الأبد الأبيد!
- أتريد أن تتمتع بنعمة الكلام وحدك؟
- لأنني أشقى بنعمة العقل وحدي، ولأن الله لن يسأل غير (آدم) عن نزق (حواء)
- وما رأيك في شجرة التين؟
- المرأة حين تولع بشيء لا تنفك تدور حوله ولو نهاها عنه الأنبياء
- وأنت نبي يا (آدم)؟ لم يبق إلا هذا الزعم الطريف!
- إن صوت الله قرع أذنيك ولم تنتهي، فهل تسمعين صوت النبي المسكين؟!
- ومتى نهاني الله عن الشجرة؟
- كيف نسيت يا حواء أننا سمعنا ألف مرة هاتفاً يصيح: (لا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين)
- هو نداء موجه إليك
- إلي وحدي؟ وكيف؟
- لأنك رجل!
- وإذن يكون من حقي أن أقرب الشجرة وحدي
- لن تذوق ثمرها إلا من يدي
- وهل أذوق من يديك غير العلقم والصاب؟
- اسمع يا آدم، اسمع: ينظر أنك أغلف القلب، وأنك في احتياج إلى من يزيل الغشاوة عن عينيك. ما هذا التمرد على الله؟ وما هذا العصيان؟ مزيتك أنك رجل، ورجلة آدم رهينة بشهادة حواء، ولن أعترف لك بشيء إلا إن عصيت وغويت
- ويقول الله: وعصي آدم ربه فغوى؟
- ومن أنت حتى تصل إلى أن ينالك الله بالغمز والتجريح؟
- اسكتي، يا حواء!
- لن أسكت قبل أن أزلزل قلبك جزاءً بما احتكرت من دعوى الفضيلة والشرف والنبل؛ كأن سلوكي معك رذيلةٌ وضعةٌ وإسفاف. أنت تصور نفسك دائماً بصورة المظلوم وتنسى أنك في أغلب أحوالك من الظالمين
- ومتى ظلمتك، يا حواء؟
- حين تناسيت فضلي عليك، فأنا أضرم أهواءك لتشعر بعنفوان الرجولة الحق، وستموت حسياً ومعنوياً يوم أعجز عن إغوائك. فيوم ذاك تعرف يا جاهل أن طيش حواء ليس بالمغنم القليل

- كفى. كفى!
- لا، لا، لن أتركك أو تعترف بفضلي عليك
- أمن الفضل أن تزيني المعصية؟
- ما زينت لك شيئاً غير جميل
- وشجرة التين؟
- ما تهمني شجرة التين بالذات فسأحاول هدايتك إن امتنعت عن شجرة الجميز، لأملك نقل قلبك من مكان إلى مكان، ولأطمئن إلى أنك بعافية تجعلك في طليعة الفحول، فما ينجو من كيد المرأة إلا العنين أو المجبوب
- أنت يا حواء شقية!
- وأنت يا آدم جهول!

ومرت لحظات صمت فيها آدم صمت الأموات، ثم ثاب إلى صحوه فأيقن أن نجاته من كيد حواء أمل عزيز المنال. . . ولكنه جمع قواه ليصدها عن الغواية بأسلوب لم يفكر فيه من قبل. فهل يصل إلى ما يريد؟

(للحديث شجون)

زكي مبارك

حاجتنا إلى معهد أثنولوجي بجامعة فؤاد الأول

للأستاذ محمد جلال عبد الحميد

(بقية ما نشر في العدد الماضي)

2 - كيف نبتدئ في تكوين المعهد الأثنولوجي؟

قد يبدو غريباً أن نطالب الحكومة بإنشاء مؤسسة علمية جديدة بجامعة فؤاد الأول في هذا الوقت وخصوصاً وقد أصبح من المتعذر استدعاء العلماء الأخصائيين من أوربا وغيرها، وأنه أصبح من الصعب أيضاً توفير المال اللازم لتنفيذ مثل هذا المشروع، ولكنا إذا توسعنا في التفكير والبحث عن أقرب الطرق وأسهلها مع توخينا البساطة في التنفيذ ظهر لنا الأمر على عكس ما كنا نتوهم

من حيث هيئة التدريس وتكوين أعضائها فإن من السهل انتداب بعض الأساتذة من كليات جامعة فؤاد الأول وغيرها من المؤسسات العلمية بمصر. ففي كلية العلوم مثلاً يمكن استدعاء أستاذي البيولوجيا والفزيولوجيا لمعالجة هاتين المادتين بالمعهد؛ وكذلك يمكن انتداب أستاذ علم التشريح من كلية الطب لمعالجة مسائل الجنس البشري. ومن السهل أيضاً أن يقوم أساتذة علم الاجتماع والتاريخ والجغرافيا واللغات لمعالجة المسائل الاجتماعية وأثر البيئة الجغرافية في تحديد النشاط المادي والروحي للجماعات البشرية المحدودة المدنية؛ ثم البحث عن معالم مدنياتها وآثار ما قبل التاريخ في الجهات التي تسكنها

فكما نشاهد فيما بعد أن المواد الرئيسية التي يتكون منها علم الأثنولوجيا هي ضمن اختصاص جماعة من العلماء لهم معاملهم وتجاربهم وأوضاع بحوثهم المستقلة. ولما كان الغرض الأول من معالجة تلك المواد بمعهد الأثنولوجيا هو رسم صورة عامة للتكوين الاجتماعي والأسس الدينية والأوضاع الاقتصادية، وتحديد المميزات الرئيسية للأجناس البشرية المحدودة المدنية؛ فليس من الصعب أن نبدأ من الآن فنعمل على إنشاء معهد للبحوث الأثنولوجية وأن تكون هيئة التدريس فيه من الأساتذة المصريين والأجانب الموجودين بمصر الآن

وأما مشكلة التجارب الأثنولوجية وكيفية تهيئة المعامل اللازمة لها، فليس فيها تعقيد أو صعوبة لا يمكن تخطيها، لأنه من السهل استدعاء بعض الأطفال والأولاد من المدارس الإلزامية والابتدائية، وأما الرجال والنساء، فيؤتى بهم من بعض وحدات الجيش والمستشفيات والسجون لوصف وأخذ أقيسة مختلفة لأعضائهم وتحليل الدم عندهم لتحديد مجموعاته المختلفة. ويمكن أيضاً إجراء مثل هذه التجارب على الهياكل البشرية التي يمكن الحصول عليها من كلية الطب

ومن ضمن التجارب الأثنولوجية أيضاً القيام ببعض زيارات لمتحف الأثنولوجيا والمتاحف الأخرى الموجودة بمصر للوقوف على كيفية ترتيب المعروضات فيها، ثم القيام بوصف وتحليل بعض هذه المعروضات لمعرفة طريقة تكوينها واستخلاص الأسس الفنية

والغاية التي أنشئت من أجلها
3 - منهج الدراسة
أولا - الدراسة النظرية
تتناول هذه الدراسة نشأة الإنسان ومميزاته الرئيسية والمؤثرات الخارجية المحيطة به واتصال ذلك بنظام تطوره العام، وأبواب هذه الدراسة هي:
(ا) نشأة الإنسان ومميزاته
1 - باليونتولوجيا
نستعين بهذه الدراسة في معرفة آثار الحياة في المخلوقات البسيطة التركيب وغيرها والتي وجدت في عصور جيولوجية قديمة سبقت عهد ظهور الإنسان مع العمل على تحديد المناطق الطبيعية لتلك الحيوانات وتعيين اتجاه هجرتها في تلك العصور، ثم تعيين المناطق الأولى التي ظهر فيها الإنسان
2 -
وعند الإلمام ببعض مبادئ علم الحياة نستطيع أن نعرف التطورات والتغيرات التي تنشأ داخل جسم الإنسان وتعتريه في حياته، ثم العمل على تحديد العوامل الوراثية وأثرها في
انتقال المميزات الرئيسية للجنس البشري
3 - فزيولوجيا
ونقصد من هذه الدراسة الوقوف على كيفية ومدى تأثير البيئة الجغرافية وطرق التغذية ووسائل العمل في اختلاف الأجناس البشرية.
4 - أنتروبولوجيا
يتناول هذا العلم دراسة الصفات الرئيسية لجسم الإنسان وتحديد المميزات المختلفة للأجناس البشرية كلها مع الإلمام التام بتاريخ نشأة كل منها.
(ب) مؤثرات خارجية
1 - البيئة الجغرافية والبشرية:
بعد معرفة العناصر المختلفة للبيئة الجغرافية من حيث الطقس ودرجة خصوبة الأرض والتغيرات المناخية يمكن تحديد تأثير تلك العوامل الطبيعية في التكوين الاجتماعي والنشاط المادي والروحي للأمم المختلفة.
2 - اتصال الأجناس والمدنيات:
إذا تغلبت أمة على أمة أو طغت مدنية على مدنية أخرى فقد يؤثر ذلك في حجم الأمة المغلوبة إما بزيادة عدد أفرادها أو بنقص هذا العدد. وللمدنية الغابة الحق والقدرة على توجيه رأي الجماعة والتعبير عن شعورها وتحديد طرق معيشتها. وعلى هذا فمن الضروري أن نهتم كثيراً بدراسة تأثير المدنيات بعضها في بعض، ومعرفة النتائج المادية والمعنوية للاستعمار البشري والاتصال المدني. ويكمل هذه الدراسة بحوث يقصد منها تحديد مناطق المدنيات وعصورها واتجاهاتها ومميزاتها الرئيسية.
(ج) النشاط الإنساني
1 - علم النفس
يقصد من هذه الدراسة الإلمام بمعرفة الظواهر الأولى لنشأة الحياة الفكرية والإحساس
والشعور وطرق التعبير عنهما لدى الإنسان ومقارنة تلك الظواهر بما تشابهها لدى الحيوانات الراقية
2 - علم اللغة
ونستعين بهذه الدراسة في معرفة القوانين العامة لاختلاف اللغات واللهجات والإلمام بالطرق العلمية لجمع عناصرها ومعالمها بين الجماعات المختلفة
3 - علم الاجتماع
يقصد من هذه الدراسة معرفة الأسس والتعاريف العامة للظواهر الاجتماعية والدينية والاقتصادية
4 - أتنوجرافية
وغاية علم الإتنوجرافيا دراسة الطرق المختلفة التي يجب اتباعها في جمع معالم ولم شتات المدنيات لدى الأمم المحدودة المدنية

5 - علم آثار ما قبل التاريخ
نبغي من وراء هذه الدراسة معرفة المميزات الأساسية للإنسان الأول ومعرفة آثاره المادية والروحية والعمل على جمعها وترتيبها حسب مواطنها وعصورها المختلفة
ثانيا - الدراسة العملية
1 - تجارب أنتروبولوجية
يقوم الطلبة بإجراء تجارب مختلفة، كوصف جسم الإنسان وأخذ أقيسة لأعضائه، وأن تجرى هذه التجارب على الرجال والنساء والأولاد والأطفال؛ وذلك في بيئات وطبقات اجتماعية مختلفة. هذا وأن تجرى نفس التجارب على الهياكل البشرية والحيوانية
2 - تجارب بسيكولوجية
يتمرن الطلبة على استعمال الآلات الحديثة الخاصة بقياس قوة النظر وسرعة الإحساس، مع الإلمام بمعرفة الطرق العلمية المستعملة في قياس قوة الذاكرة
3 - تجارب انتوجرافية
يقوم الطلبة بعدة زيارات لمتحف الأتنولوجيا والمتاحف الأخرى بالقاهرة وغيرها للوقوف على كيفية ترتيب وضع المعروضات فيها ووسائل حفظها والعناية بها. وأن يتدرب الطلبة أيضاً على وصف هذه الأشياء ومقارنتها بنظائرها
4 - رحلات
يقوم الطلبة برحلات وزيارات لكثير من القرى المصرية والسودانية لدراسة نظام تكوين القرية ووصف الحياة فيها ويقوم الطلبة أيضاً بزيارة المناطق التي اكتشف فيها آثار ما قبل التاريخ
وقبل أن أنتهي من الحديث عن منهج الدراسة بمعهد البحوث الأتنولوجية أريد أن ألفت النظر إلى أنه يشترط في طالب الالتحاق به أن يكون من خريجي كليات الآداب والحقوق والتجارة والطب وأن تكون مدة الدراسة فيه سنتين
هذا وإننا نرى أن متحف الأتنولوجيا يكون جزءاً متمماً للمعهد فيجب أن يبدأ في تكوينه مع المعهد
يظهر لنا مما تقدم أن بوادي النيل كثيراً من الجماعات البشرية تختلف عن بعضها من حيث جنسها ونوع تكوينها الاجتماعي ودرجة مدنياتها، وأن البحث عن معالم تلك المدنيات لم يتسع ميدانه ولم تتنوع أبوابه بعد، فيجب أن نشرع في إنشاء معهد ومتحف الأتنولوجيا لنتابع بذلك تقدماً مطرداً في نهضتنا العلمية الحديثة والتي تبغي لها انسجاماً في جميع نواحيها. وإذا نظرنا إلى ماضي نهضتنا على الأخص هذه وجدنا أن في عنقنا ديناً نحو العلم الذي أصبح اليوم يزهق من زفرات أوربا المحرقة والتي شردت العلماء في فيافي الأرض بعد أن تفككت أواصر مجتمعاتهم وانقلبت أوضاع معاملهم، وأن شعورنا بهذا الواجب يحتم علينا أن ننهض ونضحي ونهيئ للعلم وطناً كما فعل السابقون من أبناء هذا الوادي
محمد جلال عبد الحميد
2 - ابن خرداذبه
للأستاذ كوركيس عواد
يؤخذ مما ورد في بعض المراجع - أن ابن خرداذبه هذا - كان وزيراً، فقد ذكر البشاري المقدسي في عرض كلامه على (سد ذي القرنين) ما هذا نصه:
(قرأت في كتاب ابن خرداذبه وغيره في قصة هذا السد على نسق واحد، والفظ والإسناد لابن خرداذبه، لأنه كان وزير الخليفة، وأقدر على ودائع علوم خزانة أمير المؤمنين. . .)
ويؤسفنا أنه لم يشر إلى اسم ذلك الخليفة الذي وزر له، والمرجح عندنا أنه كان (المعتمد)
وقد بحثنا فيما بين أيدينا من تواريخ الدولة العباسية، والمصنفات الباحثة في أخبار الوزراء خاصة؛ فلم نجد بين هاتيك المدونات من ذكر أن ابن خرداذبه كان وزيراً لخليفة من الخلفاء. والذي نذهب إليه أنه كان وزيراً بالاسم فقط، وهذا أمر معروف عند متتبعي أحوال الإدارة في تلك الأزمنة التي كثرت فيها الوظائف، واصطنعت فيها الألقاب!
ومهما يكن من أمر، ففي العبارة التي نقلناها عن البشاري، خير دليل على عظم منزلة

ابن خرداذبه عند الخليفة، وعلى اعتماد ذاك الخليفة عليه في أمور خزانته الحافلة
وقد ذكر ابن خرداذبه نفسه بنفسه، في أوائل كتابه (المسالك والممالك)، ولمح إلي مكانه من الخليفة بقوله:
هذا كتاب فيه صفة الأرض، وبنية الخلق عليها، وقبلة أهل كل بلد والممالك والمسالك) إلى نواحي الأرض، تأليف أبي القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبه، مولي أمير المؤمنين)
والظاهر أن (أمير المؤمنين) هذا، قد كان المعتمد أيضاً، على ما عرف من صلة وثيقة بينه وبين هذا الخليفة
ولعبيد الله ابن خرداذبه أخبار تفرقت في شعر بعض معاصريه فيها ما يسير إلى أصله (الفارسي)، وما يشيد بذكر عائلته العريقة في المجد، وما يدل على سمو منزلته في الدولة
روى أبو بكر الصولي في كلامه على الشاعر أبي الطيب محمد ابن عبد الله بن أحمد بن يوسف أنه قال: (وكتبت إلى ابن خرداذبه، وقد دام المطر (بسر من رأى) وتأخرت عنه:
لعمري لئن سرّ الحيا في مواطن ... لقد ساَءني أن عاقني عن لقائكا
وقد كنتُ مشغوفاً بذاك أريده ... فحالَ قضاءُ الله من دون ذلكا
فَصِفْ لي فَدَتْك النفس أمراً يسرني ... وأحمد فيه الله من حسن حالكا
وحال أحينا أحَسنَ الله صنعه ... وحال فَتاك منعماً في كتابكا
فهذا الشاعر، على ما يبدو من الأبيات المتقدمة، قد كان صديقاً حميما لابن خرداذبه.
ونظيره في هذه الصداقة كان البحتري الشاعر المشهور المتوفى سنة 284 هـ؛ فقد وقفنا في ديوان شعره على قطع له فيه. من ذلك ما قاله في عبدون بن مخلد وقد كتب بها إلى ابن خرداذبه:
أبلغْ لديكُ عبيد الله مألكة ... وما بدَارِ عُبيْدِ الله من بُعدِ
أضحتْ بقطر بّل والدَّيْرُ حَلَّتُه ... ومَا يُجَاوِرُ بيتَ النار ذا العُمُدِ
لم تدر ما بي وما قد كان بَعدَك من ... نفاستي لك في عبدون أو حسدي
أغَرُّ، أحسَبُ نُعْمَاهُ الجليلةَ من ... ذخائري لِصرُوفِ الدهرِ أو عُدَدِي
إذا مضى اليوم لا نلقاه فيه مضى ... سرورنا وترَّقبنا مجىء غدِ
إن فات في السبت أن نزدار سيدنا ... فلا تَفُتْنا لشيءٍ زَوْرَةَ الأحد
وفي القطعة التالية، يوجه البحتري الكلام إلى ابن خرداذبه بعد أن خلع عليهما عبدون بن مخلد. وفي هذه إشارة صريحة إلى ما كان من صلة بين عبدون وابن خرداذبه. قال البحتري:
يا أبا القاسم استَجَدَّ لنا عبدو ... نُ حالاً تمامُها في ضمانِهْ
جمعتنا مَوَدَّة واجتمعنا ... بعدُ في برّه وفي إحسانهْ
قد لبسْنَا ثيابَهُ وتَسايَرْ ... نا بتقريظه على حُمْلانه
وأجزل فائدة من ذلك، ما قاله البحتري في مدح عبيد الله ابن خرداذبه، وذكر صداقته، وتهنئته بخروجه من علة كان فيها ودونك ذلك:
إن ترْجُ طوْلَ عبيْدِ الله لا تخبِ ... أو ترْم في غرضٍ من سيبه تُصب
لم تلقَ مثلَ مَساعيه التي اتصلتْ ... وما تقيَّلَ منها عن أبٍ فأبِ
رأْيٌ صليبٌ على الأيَّام يُتْبعُهُ ... ظِرفٌ متى يَعترض في عيشِنا يطِب
ذاكَ أخٌ أفتديهِ إنْ يُحِسَّ أذىً ... بالنفسِ مما توقَّاهُ وبالنَّشبِ
إذ كان من فارسٍ في بيت سؤددها ... وكنت من طيئٍ في البيت والحسبِ)
فَلم يَضِرَّنا تَنائي المنصبين وقد ... رُحنا نسِيبَيْن في خلُقٍ وفي أدَبِ
(إذا تشاكلتِ الأخلاقُ واقتربتْ ... دنتْ مسافةُ بين العُجم والعربِ
اسلم ولا زلتَ في سترٍ من النُّوَبِ ... وعِشْ حميداً على الأيام والحُقُبِ
ولْيهْنِكَ البُرْءُ مما كنتَ تألمُهُ ... والأجرُ في عقْبِ ذاك الشكوِ والوَصبِ
أوْحشتَ، مذْ غبتَ قوماً كنتَ أنسَهمُ ... إذا شَهِدْتهمُ فاشهَدْ ولا تغِبِ
إلاَّ تكنْ مَلِكاً تُثْنَى تحيَّتهُ ... فإنَّك ابنُ مُلوكٍ سادةٍ نُجُبِ
وإن قصدْتَ ابتغاء البُرْءِ من سَقم ... فقد أرقتَ دَماً يَشْفي من الكلَبِ
وغني عن القول أن ابن خرداذبه، وهو الفارسي الأصل، كان يعرف اللغة الفارسية، ولا

ندري ما إذا كانت له كتابات أو تآليف بهذه اللغة. وإنما وجدناه في كتابه المسالك والممالك يستشهد في موطنين بشعر فارسي
أما سنة وفاته، فلسنا على ثابت منها. وقد وجدنا الحاج خليفة يقول إن ابن خرداذبة توفى في حدود سنة 300 للهجرة، ولعل هذا صحيح، غير أننا لم نقف في كتاب قديم على ما يدعم هذا القول
وقد قلنا إن ابن خرداذبة نادم المعتمد وخُصَّ به. ومعروف أن المعتمد ولد سنة 229، وبويع له بالخلافة سنة 256، وتوفي سنة 279هـ، فيكون ابن خرداذبة قد بلغ أوج عزه خلال هذه الفترة المنحصرة بين 256و279 للهجرة.
وذكرنا ما كان من صداقة بينه وبين البحتري المتوفى سنة 284هـ. إلا أن المراجع التي بأيدينا لا تعيننا على معرفة ما إذا كان ابن خرداذبة قد توفي قبل البحتري أو بعده.
وما قلناه في عبيد الله، نقوله في سائر بني خرداذبة، فإننا نجهل سني وفياتهم، فضلاً عن أن علمنا بسائر أخبارهم وشؤونهم ما زال مقتضباً يسيراً. وحسبك أن تعلم أن الترجمة الوحيدة لعبيد الله ابن خرداذبة، هي التي كتبها ابن النديم في فهرسته، وهي أقل من خمسة أسطر!
5 - مؤلفات ابن خرداذبة
سبقت الإشارة إلى بعض تصانيف ابن خرداذبة، التي خلدت اسمه على كر العصور. وهذه المؤلفات قد تزيد على العشرة، ذكر ابن النديم ثمانية منها، ضاع أغلبها فيما ضاع من
تراث الأقدمين. وإليك الآن أسماءها وما نعلمه من أمرها:
1 - كتاب أدب السماع.
2 - كتاب جمهرة أنساب الفرس والنوافل.
3 - كتاب المسالك والممالك: ضمنه إحصاء جباية المملكة العباسية في أواسط المائة الثالثة للهجرة. وهو من خيرة المراجع القديمة في معرفة الطرق والمسالك، وتعيين المسافة بالفراسخ أو بالأميال بين مكان ومكان، على ما كان معروفاً عند القوم في ذلك الزمان. ولا مراء، إن ابن خرداذبة كان الرجل الثقة في مثل هذه البيانات، لأنه تولى أعمال البريد. ومن المعلوم أنه (لا غنىً بصاحب هذا الديوان أن يكون معه منه ما لا يحتاج في الرجوع فيه إلى غيره، وما إن سأله عنه الخليفة وقت الحاجة إلى شخوصه وإنفاذ جيش يهمه أمره، وغير ذلك مما تدعو الضرورة إلى علم الطرق بسببه، وجد عتيداً عنده ومضبوطاً قبله، ولم يحتج إلى تكلف عمله والمسألة عنه)
ويبدو لنا واضحاً أن ابن خرداذبة لم يؤلف هذا الكتاب إلا بطلب من شخص كبير لم يصرح باسمه ولعله أحد الأمراء. قال في أول كتابه، وفيه ما يوضح غرضه من هذا السفر ما إليك نصه بالحرف الواحد:
(أطال الله تعالى بقاءك يا ابن السادة الأخيار والأئمة الأبرار منار الدين وخيرة الله من الخلق أجمعين، وأدام الله لك السعادة، وكثر لك الزيادة من جميع الخيرات، ووفقك لسبيل الصالحات، وجعلك ممن ارتضى أفعاله وزين أحواله. فهمت الذي سألت، أفهمك الله جميع الخيرات وأسعدك إلى الممات، وأفلح في الدارين سهمك، ووفر فيهما قسمك، من رسم إيضاح مسالك الأرض وممالكها، وصفتها وبعدها وقربها وعامرها وغامرها، والمسير بين ذلك منها من مفاوزها وأقاصيها ورسوم طرقها وطقوسها على ما رسمه المتقدمون منها. فوجدت (بطليموس) قد أبان الحدود وأوضح الحجة في صفتها بلغة أعجمية، فنقلها عن لغته باللغة الصحيحة لتقف عليها، وقد رسمت، رسم لك فوز الحق في جميع مأمولك ومطالبك، ما رجوت أن يكون محيطاً بمطلوبك وآتياً على إرادتك كالمشاهد لما نأى والخبر بما قرب، وصنعته كتاباً افتتحته بالحمد لله ذي العزة المنيعة والنعمة السابغة، الذي أنشأ الخلق على ما أراد، وبين سبيل الحق للعباد، لم تشركه في خلقه الآراء المتوهمة ولا ظنون الرؤيات، تعالى الله عما يشركون، وصلى الله على محمد نبيه، وعلى الأخيار من عترته وسلم كثيراً) أهـ
والمعروف في وقتنا أن لهذا الكتاب ثلاث نسخ خطية، اثنين منهما في خزانة أكسفرد وفيهما خروم
وكان المستشرق باربيه دي مينار أول من نشر هذا الكتاب ونقله إلى الفرنسية

(المجلة الآسيوية الفرنسية، السلسلة 6، المجلد 5، سنة 1865، ص 227 وما بعدها
ثم عني بتجديد طبعه العلامة دي غويه فنشره مترجماً إلى الفرنسية أيضاً (الخزانة الجغرافية العربية، ج 6، ليدن 1889 في 183 صفحة للمتن، و144 للترجمة. ويليه في المجلد نفسه نبذ من (كتاب الخراج وصنعة الكتابة) لقدامة بن جعفر الكاتب البغدادي، المتوفي سنة 310 أو 320هـ، صفحة 184 - 266) وجديرة بالعناية تلك التحقيقات الثمينة والتعليقات الدقيقة والفهارس المتقنة التي تحلى بها هذا الكتاب. وقد اشتملت المقدمة التي كتبها الناشر دي غويه بالفرنسية على فوائد جزيلة، جاءت في 23 صفحة. وصفوة القول أن هذه الطبعة نفيسة، فيها ما يحمل القارئ على الاطمئنان إلى سلامتها من الشوائب

وقد نشر دي غويه أيضاً، قطعة من هذا الكتاب في مجموع بلداني له، كما نشر بلاشر قطعاً أخرى منه في مجموع بلداني له

ومن الدراسات الثمينة التي حظي بها هذا السفر، ما كتبه الرحالة المستشرق موزيل في كتابه (الفرات الأوسط) فقد عمد إلى المسافات والأبعاد التي ذكرها ابن خرداذبه في الطريق من بغداد إلى الرقة، وانتقد ما اعتورها من أوهام. وجدير بمن يطالع المسالك والممالك أن رجع إلى ما كتبه موزيل في هذا الشأن لتتم به الفائدة.

(يتبع - بغداد)

كوركيس عواد

أستراليا

للأستاذ أبو الفتوح عطيفة

بيت القصيد، وميدان القتال الجديد، وما نخال إلا أنها كانت السبب الأول والعامل المهم في دخول اليابان الحرب الحاضرة ضد بريطانيا العظمى - بعد أن حرم على أبنائها سكنى استراليا -

والآن وبعد أن أجهزت اليابان في مدى شهرين أو ثلاثة على الجزائر التي تربط هذه القارة بآسيا، فأنها لا شك متقدمة إليها زاحفة عليها: ولسنا ندري ماذا ستكون نتيجة الصراع القادم بين الأستراليين واليابانيين؛ فالأستراليون محاربون بواسل كان لهم القدح المعلى والنصيب الأوفر في كسب بريطانيا للحرب الماضية، وفي رد العدوان الإيطالي في الحرب الحالية عن مصر؛ وسوف يكون نضالهم عنيفاً من غير شك، فإنهم لن يسلموا بلادهم دون الاستشهاد في سبيلها، وهم يدركون الآن أن الساعة التي تفرض عليهم المقاومة الباسلة آتية لا ريب فيها. وقد جاء من سيدني بتاريخ 9 فبراير سنة 1942 أن الجنرال جوردن بنيت ألقى خطبة في حفلة أقيمت لاستقباله قال فيها: (عندما نقابل اليابانيين في استراليا - وأنا واثق من أننا سنقابلهم - فإني موقن بأن روح القتال في الشعب الأسترالي ستسود الموقف وتقودنا إلى النصر. فيجب علينا أن نقذف بهم في البحر في كل مكان يحاولون فيه تثبيت أقدامهم. إن محاولة غزو بلادنا تعد مغامرة تكتنفها الأخطار، ولكننا لم نعد نقلل من قوة العدو كما أننا لن نقلل من قوتنا وقوة حلفاءنا)

وسنحاول في هذا المقال وصف المناطق الشمالية من استراليا التي ستكون أول ميدان للقتال، ووصف استراليا وصفاً إجمالياً ومقدار ثروتها الزراعية والمعدنية وقدرتها على الإنتاج الصناعي

هذه القارة

أصغر القارات جميعاً وأكبر جزائر العالم. تبلغ مساحتها 54 مساحة أوربا و 51 مساحة أفريقيا و 61 مساحة آسيا، ويتكون شمالها من سهول شاطئيه منخفضة لا يزيد ارتفاعها على قدم. وتتدرج في الارتفاع نحو الداخل. ويمتاز هذا 600 الإقليم بشدة حرارته وغزارة أمطاره في فص الصيف الجنوبي وبجفافه وقلة حرارته نسبياً في فصل الشتاء الجنوبي ،(يناير) وفي اعتقادنا أن ذلك من حسن حظ الأستراليين، لأن .(يونيه) القتال سيدور في جو ملائم نوعاً لهم بعد أن ولى فصل الصيف الشديد الحرارة وأقبل الخريف. أما شرق هذه القارة فتوجد به المرتفعات الشرقية، وهي تتكون من مرتفعات

كوينزلند، وجبال نيوانجلند، والجبال الزرقاء، وجبال الألب الأسترالية؛ تلي هذه المرتفعات السهول الوسطى، وتتكون من إقليم الآبار الارتوازية العظيم وتبلغ مساحته نصف مليون ميل مربع تقريباً، وهو أكبر إقليم من نوعه في العالم، ومن حوض المري ودارلنج. وتنصرف مياه شمال هذا الإقليم في خليج كاربنتاريا. أما في الوسط فتنصرف في بحيرات داخلية أهمها بحيرة أير. وتمتاز أمطار هذا القسم بقلتها وعدم ضمانها؛ ولذا يطلق عليه (قلب استراليا الميت) أما الجنوب فيجري به نهر المري ودارلنج ويطلق عليه (قلب استراليا الحي) ويلي السهول الوسطى الهضبة وأعظم جهاتها ارتفاعاً أجزاؤها الغربية والشرقية

ثروتها المعدنية والزراعية

هذه القارة من أغنى القارات بمواردها الزراعية، فهي تزرع مساحات واسعة من القمح، وتنتج منه مقادير كبيرة تفيض عن حاجتها وتصدرها إلى الخارج. والدقيق الأسترالي مشهور معروف. وفي جنوبها تزرع أشجار الفاكهة من: أعناب وبرتقال وليمون وتفاح ويصنع بها النبيذ. أما شمالها، فتزرع به مساحات كبيرة من قصب السكر وتزرع كوينزلاند وحدها ما يزيد على 150000 فدان، وتصدر الزائد عن حاجتها من السكر إلى بريطانيا العظمى

والمراعي باستراليا عظيمة القيمة، فباستراليا يربى ما يزيد عن المائة مليون رأس من الضأن. وقيمة الصادر من الصوف وحده تزيد على قيمة ما يصدر من محصولاتها جميعاً. وتمتاز كوينزلاند ونيوسوث ويلز بتصدير اللحوم المجففة ومستخرجات الألبان، حيث تربى بهما الماشية. أما الثروة المعدنية، فاستراليا غنية بها، وقد لعب الذهب دوراً هاماً في تاريخها، فقد كانت قبل اكتشافها منفى للمجرمين، ولكن بعد كشفه هرعت ألوف من المهاجرين إلى استراليا واستقرت بها، ونشأت عدة مدن بالقرب من مناجمه مثل بلارات وبندنجو وكلجوري وكلجاردي. ومن أهم المعادن التي تستخرج: الفحم والفضة والرصاص والزنك والقصدير؛ وتعادل قيمة المستخرج من الفحم قيمة المستخرج من باقي المعادن، وهي تصدر الفحم الزائد عن حاجتها

ونظراً لتوافر المعادن والمواد الأولية قامت عدة صناعات أهمها دبغ الجلود وصناعة الآلات من الحديد والصلب والمنسوجات الصوفية وصناعة الأثاث والصابون. والأستراليون يعتمدون على مصنوعات بلادهم ويشجعونها ويؤثرونها على المصنوعات المستوردة وإن غلا ثمنها

السكان

هذه القارة رغم ثرائها قليلة السكان، فإن عددهم لا يزيد على ستة ملايين وثمانمائة ألف. ولعل السبب في ذلك تلك السياسة التي جرت عليها حكومتها من تحريم سكناها على

العناصر الملونة وقصرها على العناصر البريطانية فمنعت الصينيين من دخولها وعملت على حفظها ميراثاً لأبناء العناصر البيض وأحفادهم.

وقد أقلق بال الأستراليين استيلاء اليابانيين عقب الحرب الماضية على جزائر مارشال وكارولين، إذ اقترب اليابانيون من استراليا ألفي ميل. وزاد في قلقهم أن جهات استراليا الشمالية قليلة السكان لعدم ملاءمة مناخها لسكني الأوربيين. ودرءاً لهذا الخطر اتفقت الحكومة البريطانية مع حكومة استراليا على تشجيع الهجرة البريطانية إليها عام 1925، وقد خصصت الحكومة البريطانية لهذا المشروع 000ر83ر70 جنيهاً أما أكثر جهات استراليا ازدحاماً بالسكان، فهي السواحل الشرقية والجنوبية، حيث يسكنها ما يزيد على 80 % من السكان ولكنهم من أنشط العناصر وأبسها والآن اقتربت الساعة ودنا الخطر الياباني من استراليا، وسيتوقف الفوز في المعركة القادمة على عاملين مهمين: أولهما المساعدات التي يقدمها الحلفاء ولا سيما الولايات المتحدة؛ والثاني عزيمة الأستراليين أنفسهم ومقدرتهم على كيل الضربات إلى اليابانيين بصورة أقسى وأشد من الضربات التي يكيلها لهم اليابانيون. وهذه هي الروح التي يجب أن يعتصم بها الاستراليون في هذا الصراع وإنا لشمس الغد لمنتظرون.

أبو الفتوح عطيفة
مدرس العلوم الاجتماعية
بمدرسة الزقازيق
المصريون المحدثون - 28
شمائلهم وعاداتهم
في النصف الأول من القرن التاسع عشر
تأليف المستشرق الإنجليزي إدوارد وليم لين
للأستاذ عدلي طاهر نور
تابع الفصل التاسع - اللغة والأدب والعلوم

يلحق بالأزهر في ركنه الشرقي (زاوية العميان) يعيش فيها الآن حوالي ثلاثمائة ضرير فقير، وأغلبهم من الطلبة، على الأوقاف المحبوسة عليهم. وقد عرف هؤلاء بسلوكهم طريق التمرد والعنف والتعصب. وقد حدث منذ زمن غير بعيد أن دخل سائح أوربي الأزهر وشاع أمر حضوره، فأخذ العميان يبحثون عنه صائحين: أين الكافر؟ سوف نقتله! وجعلوا يتحسسون طريقهم إليه للقبض عليه. بينما لم يظهر غيرهم رغبة ما في مهاجمة الدخيل. وكثيراً ما كانوا ينتهجون، قبل تولي محمد علي الحكم، مسلك الطيش والضجيج كلما حسبوا أنفسهم مظلومين، أو كلما أنقص راتبهم في الطعام، فكانوا يخرجون إلى الشوارع مصطحبين بعض الإدلاء مسلحين بالعصى، يخطفون عمائم العابرين، وينهبون محتويات المتاجر. ولم يكد يعين الشيخ القويسني، أشهر علماء الأزهر الحاليين، شيخاً لزاوية العميان منذ بضع سنين، وكان كفيفاً، حتى أوجب جلد كل ضرير هناك، إلا أن العميان ثاروا عليه وقيدوه ثم جلدوه جلداً أشد بكثير مما قاسوه، وأكرهوه أخيراً على ترك منصبه

وكان التعليم مزدهراً ازدهاراً عظيماً في القاهرة قبل دخول الجيش الفرنسي أكثر منه في السنين الأخيرة. وقد عانى التعليم كثيراً مما أحدثه هذا الغزو من الرعب والهرج. وكان يكفي قبل ذلك العصر أن يقوم الشيخ المتخرج من الأزهر بالتدريس لولدين من أولاد الفلاحين المتوسطي الثروة ليعيش في بحبوحة. إذ أن تلميذيه كانا يقومان على خدمته ونظافة منزله وتجهيز غذائه. فكانا وإن شاركاه الطعام يعتبر أن خادمين له في كل آن. فيتبعانه أينما ذهب، ويحملان نعليه (وكثيراً ما كانا يقبلان حذائه بعد خلعه) عند دخوله

المسجد، ويعاملانه في كل حين معاملة الأمراء. وكان الشيخ حينئذ يلبس الملابس الفضفاضة والمقلة العظيمة. وكثيراً ما كان المارة يسرعون إليه عندما يمر بالطريق راجلاً أو راكباً طالبين منه الدعاء لهم؛ ويعتقد من تحقق رجاؤه أن البركة حلت به. وإذا مر الشيخ بإفرنجي راكب وجب على الإفرنجي أن يترجل. وإذا ذهب إلى الجزار لشراء اللحم (إذ يرى أن الذهاب بنفسه خير من إرسال غيره) رفض هذا أن يتناول الثمن وقبل يده معتبراً طلب الشيخ شرفاً وبركة. أما الآن فقد انحط شأن هؤلاء الشيوخ حتى يصعب عليهم الحصول على معاشهم إن لم تكن مواهبهم منقطعة النظير ولا جرم أن علماء المسلمين يعوقهم الدين عن السير في بعض سبل العلم. وقد تفصل الخرافة في أمور اختلف فيها الناس أجيالاً طويلة. وهناك وسيلة غريبة لحسم النزاع في أي موضوع ديني أو علمي أو في أي حادث، أضرب لها مثلاً. فقد قص على إمام الشيخ المهدي المفتى السابق الحكاية التالية: كان الشيخ محمد البهائي، وهو رجل مثقف يعتبره العامة ولياً من أولياء الله، يستمع إلى درس الشيخ الأمير الكبير شيخ المالكية عندما قرأ هذا حديثاً للرسول من الجامع الصغير للسيوطي وهو (إن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة في الجنة) وأخذ يشرح الحديث بعد أن لخص تاريخ الحسن والحسين ملاحظاً أن لا أساس للرأي القائل بوجود رأس الحسين في مسجده بالقاهرة. وهنا قال محمد البهائي: فتملكني غم شديد لهذه الملاحظة لمخالفتها ما أعتقد وما زلت أعتقد، بوجود الرأس الشريف في هذا المشهد. ولكني ما كنت لأعارض الشيخ لشهرته وسعة علمه.

وانتهى الدرس وخرجت أبكي. فلما جن الليل قمت أدعو الله وأبتهل إليه ولجأت إلى رسوله الكريم (ص) متوسلاً أن أراه في المنام ليخبرني بحقيقة الأمر. فرأيتني أسير إلى المشهد الحسيني. فلما دنوت من القبة أبصرت بها نوراً ساطعاً فدخلت فوجدت

أحد الأشراف واقفاً بالباب. فحييته فرد التحية وقال: (سلم علي رسول الله). فأرسلت النظر نحو القبلة فرأيت الرسول (ص) جالساً على عرش وعلى جانبيه وقف رجلان. فرفعت صوتي قائلاً: (الصلاة والسلام عليك يا رسول الله) عدة مرات وأنا أبكي. فسمعته (ص) يقول لي: (أدن يا بني، يا محمد) فأخذ الرجل الأول بيدي وقدمني إلى الرسول (ص). فحييته فرد التحية وقال: (جزاك الله خيراً على زيارة رأس الحسين يا بني). فقلت: (يا رسول الله هل رأس الحسين هنا؟) فأجاب: (نعم. إنه هنا) ففارقني الحزن وفرحت وثبت جناني وقلت حينئذ: (يا رسول الله سأقص عليك ما أكده شيخي وأستاذي الأمير في درسه). وأعدت عليه قول الشيخ. فأطرق (ص) ثم رفع رأسه وقال: (إن النقلة معذورون). واستيقظت فرحاً سعيداً ولما ينقض الليل بعد. فعيل صبري بطوله وجعلت أترقب طلوع النهار لأذهب إلى الشيخ فأقص عليه الرؤيا. فلما طلع الفجر أقمت صلاتي وخرجت إلى منزل الشيخ وأخذت أطرق الباب بشدة. فأسرع البواب فزعاً يسأل من الطارق؛ فلما عرفني فتح الباب، ولو كنت غيري لضربني. ودخلت الفناء وأخذت أصيح: (سيدي! يا سيدي!) فاستيقظ الشيخ صائحاً: (من هذا)؟ فأجبته: (أنا تلميذك محمد البهائي) فتعجب الشيخ لحضوري في هذا الوقت وقال: (يا الله! ما هذا؟ ما الخبر)؟ فقد ظن أن حادثاً عظيماً نزل بالناس. ثم قال: (انتظر حتى أقيم الصلاة). فظللت واقفاً حتى نزل الشيخ إلى الغرفة السفلي ودعاني إلى الصعود. فصعدت دون أن أحييه أو أقبل يده تحت تأثير الرؤيا، وإنما قلت: (إن رأس الحسين في مشهده بمصر، لا شك في ذلك). قال الشيخ: (وما دليلك على ذلك؟ وإذا كان مستندك صحيحاً فأرنيه). فلقت: (ليس هذا في كتاب). فقال الشيخ: (هل رأيت رؤيا)؟ فرويت له الرؤيا وعرفته أن الرسول صلى الله عليه وسلم أخبرني أن الواقف بالباب هو علي بن أبي طالب، والواقف على يمين العرش أبو بكر وعلى يساره عمر بن الخطاب؛ وأنهم حضروا لزيارة رأس الإمام الحسين). فوقف الشيخ وأخذ بيدي وقال: (هيا بنا نزور المشهد الحسيني). فلما دخل القبة قال: (السلام عليك يا أبن بنت رسول الله. آمنت أن رأسك الشريف هنا بعد الرؤيا التي رآها هذا الرجل، لأن رؤية الرسول في المنام حقيقية؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم: من رآني في المنام فقد رآني حقاً، فإن الشيطان لا يتمثل بي). وحينئذ قال الشيخ: (لقد آمنت أنت وآمنت أنا ولا يمكن أن تكون هذه الأنوار خادعة)

وقد أثار حديث الرسول صلى الله عليه وسلم السابق مناقشات أخرى بت فيها بالطريقة نفسها، أي بالرؤيا. ولا يجرؤ أحد على مجادلة صاحب الرؤيا إذا كان ذائع الصيت في العلم والورع

يفيد ما أشرت إليه في بدء هذا الفصل أن بالقاهرة عدة علماء في وقتنا الحاضر، وأن بغيرها من المدن المصرية بعض العلماء الآخرين. ويعتبر الشيخ حسن العطار وهو شيخ الأزهر الآن أحد مشاهير العلماء المعاصرين. وهو وإن يبلغ في التوحيد والفقه مبلغ بعض معاصريه كالشيخ القويسني خاصة، ضليع في الأدب. وهو مؤلف كتاب (الإنشاء) الذي يعتبر مجموعه فائقة من الرسائل العربية في مختلف الموضوعات، وضعها نموذجاً للأسلوب الإنشائي. وقد طبع هذا الكتاب في مطبعة بولاق. وقد ذكرت أسم هذا المؤلف تنفيذاً لوعد قطعته على نفسي، إذ طلب أن أنوه بمعرفتي له وأن أبين رأيي في علمه ظنا أنني سأنشر في بلدي أحاديث عن أهل القاهرة

وقد أشتهر بحق الشيخ محمد شهاب بجودة أدبه ورقة شعره. وكان أنسه وذكاؤه يجذبان الأصدقاء إلى منزله كل مساء، وكنت أحياناً أشترك في مسراتهم. فكان الشيخ يستقبلنا في غرفة صغيرة مريحة، فيدخن كل منا شبكه، وتقدم إلينا القهوة. وكان حديث الشيخ أعذب ما يقدم لنا. وفي القاهرة أيضاً علماء يتمتعون بشهرة عظيمة في اللغة والشعر. ويستحق الشيخ عبد الرحمن الجبرتي - وهو من مؤلفي القاهرة المتأخرين - أن يشار إليه بصفة خاصة، إذ أنه وضع تاريخاً جليلاً لحوادث مصر منذ القرن الثاني عشر لهجرة. وقد توفي عام 1825 أو 1826 عقب قدومي القاهرة لأول مرة. وتنتمي أسرة الشيخ الجبرتي إلى الجبرت في جنوب شرق الحبشة على شاطئ المحيط، ويدين أهل جبرت بالإسلام، ولهم رواق في الأزهر، ومثل ذلك في مكة المكرمة، وفي المدينة.

لم يعد الشعر الجاهلي يفهم على حقيقته في القرنين أو الثلاثة الأولى للهجرة لغرابة ألفاظه، فمن باب أولى لا نجد الآن من يستطيع شرح هذه النصوص القديمة. غير أن هناك في مصر من تضلع من علوم الصرف والنحو والبلاغة والأدب بالرغم من سيادة التوحيد والفقه في هذا البلد. وقلما عرف علماء مصر تاريخ بلدهم معرفة جيدة، وأقل من ذلك معرفتهم بتاريخ الأمم الأخرى. أما الذين لا يحترفون الأدب من سواد الشعب فمحصولهم الأدبي منحط النوع. ويجيد الكثير من التجار الأغنياء فن القراءة والكتابة، ولكن قل من يخصص أكثر وقته لدراسة الأدب. ويعتبر من حفظ القرآن جميعه أو أكثره، واستطاع أن يتلو قصيدتين أو ثلاثاً، أو يضمن الحديث بعض الأمثال، رجلاً كامل الثقافة. وهناك تجار في القاهرة أميون فيلجئون إلى أصدقائهم ليكتبوا لهم حساباتهم ورسائلهم. إلا أن هؤلاء التجار لا يهتمون بذلك على العموم، فيقومون بعمليات حسابية ذهنية معقدة بسرعة فائقة
ودقة مدهشة.

ويخطئ المسيحيون في أوربا في اعتقادهم أن المسلمين أعداء العلم على اختلاف أنواعه تقريباً. والحقيقة أن العلم في الوقت الحاضر تحده حدود ضيقة، فقل من يدرس الطب والكيمياء والرياضيات وعلم الفلك. وتجد أغلب الأطباء والجراحين المصريين حلاقين يجهلون العلم الذي يباشرونه جهلاً مضراً وتنقصهم المهارة فيما يمارسونه.

ويرجع بعض ذلك إلى تحريم الدين تشريح الجسد. إلا أن بعض المصريين الشبان يتلقون الآن دراسة أوربية في الطب والتشريح والجراحة وعلوم أخرى لخدمة الحكومة. وكثيراً ما يرفض المرضى من المصريين كل مساعدة طبية متوكلين على العناية الإلهية أو معتمدين على السحر. ويدرس في هذا البلد علم تحويل المعادن أكثر من دراسة علم الكيمياء الصرف، وعلم التنجيم أكثر من علم الفلك. ولا يستعمل في مصر من آلات الفلك غير الإسطرلاب والربع المقنطر تقريباً ويندر أن نشاهد مرصد (تلسكوب) هنا. وقلما تستعمل الإبرة المغناطيسية (البوصلة) إلا لمعرفة القبلة. ويصنع لهذا الغرض في دمياط بوصلة صغيرة ملائمة (تسمى قبلية) تبين اتجاه القبلة في المدن الكبيرة للبلاد المختلفة. وأغلب المدن بها مزاول تبين الوقت ظهراً وعصراً في أماكن متعددة وفصول مختلفة. ويجهل هؤلاء الذين يدعون علم الفلك الأصول العلمية الصحيحة ويعتبرون القول بدوران الأرض حول الشمس إلحاداً مطلقاً؛ ويستخدمون علم النجوم في حساب التقويم السنوي
(يتبع)

عدلي طاهر نور

حيلة جديدة

هَلْ دَرَى عَاشِقُوكِ أَني تَجَنيْ ... تُ عَلَيْكِ الذّنوبَ بَعَدَ الذّنوبِ؟
هلْ دَروْا أنني افتريتُ الأكاذي ... بَ وأمعنتُ في اختلاق العيوب
ليثُوروا على هواكِ ويُمسوا ... في رُيوبٍ موصلةٍ بريوب //
وتعُودي لِمُنْيَتِي وَلقلْبي ... أنا وحدي لا لِلْمُنَى والقلوب
كُنْتِ نجوايَ وابتِسامَ حياتي ... في حياةٍ مليئةٍ بالخُطوبِ
تتمنى عرائسُ الشعر لو كُ ... ن لِحَاظاً في طَرْفِكِ المَرْهُوب
وعلى راحتيْكِ رقرقتُ أشوا ... قي صلاةً لحسنِكِ المحبوب
أتحدَّى بشائرَ الكوْنِ والآ ... مالَ طُرّاً بوجْهِكِ المَوْهوب!
حِينَ كنتِ الحياةَ تملأُ عيْني ... ثمَّ كنتِ الحياةَ تملأُ كوبي
ثمَّ كنتِ الْحياةَ في غَوْرِ إِحْسَا ... سي ونفسي وقلبِيَ المَشْبُوب
كَمْ تَمَنَّيْتُ أن أنالَ نصيبي ... وَبِحَسْبِي أن كُنتِ أنتِ نصيبي
كان لي في هواكِ ماضٍ طويلٌ ... وأغانٍ رقراقةُ النَّشبيبِ
أتغني بسحرِ عيْنيكِ ظمآ ... نَ إلى ثغركِ الرقيق الشنيب
فخلقْتُ العشاقَ بالشِّعر والْح ... بِّ وبالدَّمع والضنى والشّحوب
فترامَوْا على هَوَاكِ ظماءً ... كترامي الفَراشِ حول اللهيب
وأحبوكِ أنتِ أنتِ وذاقوا ... حُرَقَ الْحُبِّ حُلوةَ التعذيب
وغدوتِ الحبيب في كلِّ قلبٍ ... وَسَلاَ العاشقونَ كُلَّ حبيب

فَأَصَرَّتْ صبابتي أن تكوني ... لِيَ وَحْدي في فرحتي ونحيبي
وبرغمي أرجفتُ فيكِ فقالوا ... أَنْتِ كالشَّمْسُ آذَنَتْ بغروب
هل درى عاشِقوكِ أني تجنيْ ... تُ عليكِ الذنوب بعد الذنوب
هل دروْا أنني افتريتُ الأكاذي ... ب وأمعنتُ في اختلاق العيوب
لتعودي لمنيَتي ولقلبي ... أنا وحدي لا للمنى والقلوبِ
(كوم النور)
أحمد أحمد العجمي
على عودي الحزين
ليتنا. . .
لَيْتَنَا نَحْيَا سَعِيدَيْنِ هُنَا!
فِي ظِلاَلِ الدوْحِ نَشْدُو لَحْنَنَا!
وَإِذَا مَا هَتَفَ الْمَوْتُ بِنَا!
نَطْرَحُ الزهْرَ عَلَيْنَا كَفَنَا!
صَبَوَاتِي أَنْتَ فِي الدُنْيَا وَأَحْلاَمِي وَفَني
وَسَعَادَاتِي وَصَفْوِي وَتَسَابِيحِي وَلَحْنِي
أَنْتَ فِي قَلْبِيَ يَنْبُوعٌ مِنَ الْخُلْدِ يُغَني
فَجَّرَ اللهُ عَلَى وَجْهِكَ مَا يَمْسَحُ حُزْنِي
فَتَغَنَّيْتُ مَعَ الأَطْيَارِ مَا يُسْعِدُ كَوْنِي
لَيْتَنَا نَحْيَا سَعِيدَيْنِ نُغَنِّي. . . وَأُغَنِّي
أَنْتَ يَا رُوحِي نِدَاءٌ في فَمِي!
وَشُعَاعٌ ضَاحِكٌ في حُلُمِي!
أَنْتَ صَفْوٌ يَتَهَادَى في دَمِي!
كُلَّمَا ضَجَّ بِقَلْبِي أَلَمِي!
هَاتِ مِنْ سِحْرِكَ هَاتِ وَاسْقِني كَأْسَ حَيَاتي
أَنْتَ نَبْعِي وَظِلاَلِي وَدُعَائِي وَصَلاَتي
نَسَجَ الْوَهْمَ عَلَى أُفْقِي طُيُوفَ الظُّلُمَاتِ!
وَبِكَفَّيْكَ إذا شِئْتَ صَفَائِي وَنَجَاتي
أَنَا فِي الدُّنْيَا غَرِيبٌ تَائِهٌ في رَحَبَاتي
فَاسْكُبِ الأَفْرَاحَ في قَلْبِي وَأَسْكِرْ نَغَمَاتي
عبد العليم عيسى
البريد الأدبي
في الأدب التركي
من أنباء اسطنبول أن الدكتور (طازر) سكرتير حزب الشعب اقترح تأليف هيئة تحكيم تختار من الكتاب والأساتذة الأتراك برياسة السيد خالد ضياء أو شكيلجيل لاختيار أحسن رواية تركية نشرت خلال العشرين سنة الماضية، فوقع اختيارهم على رواية (سنيكلي البقال) للسيدة خالدة أديب، وفازت بالجائزة الثانية رواية (يابان) للكاتب (كياسمانجلو) وفازت بالجائزة الثالثة رواية (فهيم بك) للكاتب السيد حيدر.
وتعد السيدة خالدة أديب من أنبغ من جمعوا الثقافتين السكسونية والتركية، وقد ولدت في اسطنبول من أسرة تركية عريقة في النسب، وقضت طفولتها في الأناضول، ثم تلقت دراستها في الكلية الأمريكية للبنات المقامة على ضفاف البسفور
وقامت بعد ذلك بدور هام في الحرب الوطنية التي حدثت في 1918 - 1922 وعملت في الجيش برتبة نفر في فرقة النساء المتطوعات، وقد رقاها الغازي أتاتورك نفسه إلى رتبة جاويش في ميدان القتال لما أبدته من ضروب الشجاعة وإقدام.
وفي سنة 1930 رحلت إلى أمريكا حيث ترجمت عدداً من كتبها ورواياتها إلى الإنكليزية، فصادفت رواجاً واستحساناً عظيمين. ثم ألقت سلسلة محاضرات في جامعة كولومبيا بنيويورك عن (الآراء الحديثة السائدة في الشرق الأدنى).
ورجعت إلى تركيا، ثم عينت قبل أربع سنوات أستاذة للأدب الإنكليزي في جامعة اسطنبول، ولا تزال تقوم بالتدريس في الجامعة. وهي تعد من أشهر وأحب النساء في تركيا، وهي خير مثل لمزج الثقافتين السكسونية والتركية. فهي جريئة لا تتردد في

قبول التبعات وتحملها مهما بلغت. فإذا رأيتها رأيت سيدة وقورة هادئة غير هيابة. وهي خير مثال للأم الحنون وربة الدار الكاملة؛ ولم يمنعها ذلك كله من أن تحمل السلاح وتخوض المعارك حينما أهاب بها الداعي إلى الدفاع عن بلادها، والنضال عن حريتها واستقلالها. وهي وإن كانت كاملة الأنوثة والرقة لم يمنعها ذلك كله من أن تكون مقدامة لا تهاب، وفيها ما فيها من سحر الشرقيات وجاذبيتهن

إلى الدكتور زكي مبارك

قرأت مقالتك الحافلة (تحت السدرة)، وأهنئك بتصوير أحاديث الضمير، هذا التصوير الرائع الطريف؛ ولكني أستميحك في أن أقول لك: لقد ظلمت في هذا التصوير أبانا (آدم)، فصورته خاضعاً مستكيناً لعبقرية الجمال

وأنا أزعم بأن ما حدث من (آدم) من التعرض لمكاره الأكل من (الشجرة)، لم يكن الموحي به جسد (حواء) وحده؛ ولكنني أتهم معه ما ركب في رجولة (آدم) من حب المخاطرة والاستطلاع، والتلذذ باقتحام المكاره والمصاعب!

ولا أكاد أسيغ أن (آدم) قد تلقى أمر الله باجتناب (الشجرة) فلم تحدثه نفسه، ولم يتحدث هو إلى نفسه في هذا الأمر، حتى أتت (حواء) فطوته بدلالها وفتنة جمالها دفعة واحدة، وذهبت به إلى حيث أرادت. وأعتقد أنه لو رزقها الله الصبر ولم تتحدث إلى (آدم) لتحدث هو إليها، ولفعل ما كانت تريد. وليس معنى هذا أن أعفي الأثر الذي أحدثته (حواء)، ولكنني لا أنسب لجمالها كل شيء!

صحيح أن الناحية الأدبية تفقد كثيراً من حرارتها على هذا الوضع، ولكن هذا خير لنا من أن نعطي (حواء) الجديدة الفاتنة مادة جديدة تتطاول بها على (آدم) الحديث

فما رأيك يا دكتور في أن نلقي على كاهل كل منهما تبعته في الخروج من الجنة لتصطرع الأهواء على هذه الأرض ولتحقق الله حكمة تحار في فهمها العقول والأفهام؟

أحمد رضوان حامد

آثار من أولية الشعر

للباحث العالم الأستاذ عبد المتعال الصعيدي آراء في الأدب سديدة، ونظرات في النقد والتحليل عميقة، وقد كتب في عدد (الرسالة) رقم 454 مقالاً بالعنوان الذي يظل كلمتي هذه رأي فيه أن قصيدة عبيد بن الأبرص التي مطلعها:

أقفر من أهله ملحوب ... فالقُطَبِيَّات فالذنوب

تمثل أقدمية الشعر خير تمثيل؛ إذ لا يستقيم لها وزن، ولا تضمها قافية، ومع تقديري لآراء الأستاذ أخالفه في ذلك الحكم لما يأتي:

1 - عاصر عبيد امرأ القيس المعقود له لواء زعامة الشعر، فاضطراب قصيدة شاعر في عصر بلغ الشعر فيه آية الجودة لا يتخذ دليلاً على سنة التطور والارتقاء، وإلا لصح لنا أن نتخذ من محاولات المبتدئين في عصرنا هذا دليلاً كذلك على كيفية نشأة الشعر الأولى، وأحسب الأستاذ يرفضه رفضاً جازماً

2 - سبق عبيدا شعراء كثر خلا شعرهم من ك اضطراب في الوزن والقافية من أمثال دويد بن زيد القضاعي والأفوه الأودي من أصحاب المقطعات، والمهلهل بن ربيعة والحرث بن عباد من أصحاب المطولات

3 - لم يكن عبيد شاعر الطبيعة، فشارحو المعلقات يروون عنه (أن أحد بني ثعلبة هجاه مقذعاً فابتهل عبيد إلى الله بقوله: (اللهم إن كان هذا ظلمني ورماني بالبهتان فأدلني منه)، ثم نام ولم يكن قبل ذلك يقول شعراً فأتاه آت في المنام بكبة من شعر حتى ألقاها في فيه فقام ترتجف هاجيا بني ثعلبة) الشك في القصة لا يرقى إلى أنه لم يكن شاعراً سليقياً، وهذا الجاحظ يستضئل آثاره فيقول: (إن عبيدا وطرفة دون ما قال عنهما إن كان شعرهما ما في يد الناس فقط)

4 - اتخاذ عبيد وعلقمة دليلاً على تطور الشعر يقرب نشأة الشعر عند العرب ويظهرهم أمة جامدة العواطف متحجرة المشاعر آماداً طويلة وهو ما لم يزعمه غير العربي، فضلاً عن العربي المنافح عنها

5 - لأن نتخذ عدم قيام دليل أدبي لتطور الشعر حجة على أقدميته وبعد نشأته أشرف للغة العربية وديوانها من تلمس أدلة لا تقوم على دعائم قويمة؛ لأنه ليس هناك من يشك في أن الشعر ككل أثر أدبي أو علمي مرت عليه أحقاب وآماد حبا فيها وخطا

ينهض حيناً ويكبوا حيناً حتى نما واستحصد وصار فناً له قواعد وقوانين، وابن خذام الذي ورد في قول امريء القيس:

عوجاً على الطلل المحيل لعلنا ... نبكي الديار كما بكى ابن خذام

شخصية مجهولة للقدامى لإيغالها في البعد

6 - لا يغض من قيمة الأدب الجاهلي أنه لم يقيد؛ لأن الأمة كانت تحيا حياة فطرية فهي تعتمد في أدبها على حوافظها وصدورها لا على كتبها ومدوناتها، والشاكون في الشعر الجاهلي لا يشكون فيه جملة وإنما يساورهم الشك في بعضه، ولعل قصيدة عبيد هذه من

دعائم شكهم؛ لأنهم يرون ما فيها من اختلال واختلاط عبثاً من الرواة، وسخرية بالقدامى

تلك نظرة عابرة أرجو أن يعيرها الأستاذ لفتةً فاحصة؛ ليتبين ما فيها من سداد أرجوه.

وله من الأدب وأبنائه التقدير والإكبار

عبد العظيم علي قناوي

ما قول الأستاذ لطفي جمعة؟

قرأت في جريدة (منبر الشرق) الزهراء في عدد 6 مارس عام 1942 مقالة بعنوان: (علي العزبي يمر بمواكب الحياة) للأستاذ محمد لطفي جمعة المحامي فوجدتها مأخوذة بالنص في كثير من مواضعها من كتاب (معالم تاريخ العصور الوسطى) المقرر على السنة الثانية الثانوية هذا العام لمؤلفيه محمد رفعت بك والأستاذ محمد أحمد حسونة، فقول الأستاذ لطفي مثلاً:

(فكانت روما عاصمة الإمبراطورية ترسل إلى كل جهة من يغرس فيها حضارتها بمجرد استعداد البلاد المفتوحة لقبولها، فمتى تم فتح إقليم بدأ صبغه بالصبغة الرومانية، وإذا أخلد أهله للسكينة منحوا حقوقاً مدنية تشابه حقوق أهل روما أنفسهم، حتى أنه على الرغم من الفروق التي كانت تفصل كل ولاية عن الأخرى شاعت بين الجميع مبادئ

مأخوذ بالنص من الفصل الأول صفحة (1) من هذا الكتاب، (التهذيب الروماني الخ

وقوله أيضاً:

(وكان أبناء الأشراف ينضمون من سن السابعة إلى فارس مشهور ينشئون معه ويقومون بخدمته ويتعلمون منه ضروب القتال وآداب المائدة والحديث والاستقبال ويصحبونه في الصيد والحرب وكان السواد الأعظم من القائمين بفلح الأرض وغيره من الأعمال من طبقة الأقنان أو رقيق الأرض وكانوا مرتبطين بالأرض ملزمين بالعمل

مأخوذ بالنص من الفصل الرابع صفحة (في أرض السيد الخاصة نحو نصف الأسبوع الخ

(128) من نفس الكتاب، كما أن قوله أيضاً:

(وكان العرب يعتمدون على الخيل في حربهم فلما قابلهم شارل مارتل في موقعة (تور) عام 722 أعجب بما للخيل من الصفات الحربية فكون فرقاً من الفرسان على

مأخوذ بالنص أيضاً من الفصل (النسق العربي ومن ثم انتشر النظام في أوربا كلها الخ الرابع صفحة

(127) من نفس الكتاب. فإذا كان مراد الأستاذ الاستشهاد بما نقله من الكتاب فلماذا جاء به في سياق كلامه دون أن يضعه بين قوسين علامة التضمين؟ ولماذا لم يذكر المصدر؟ هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى ما دخل المرحوم علي العربي شاعر دمياط في تاريخ العصور الوسطى وأحوالها الاجتماعية وهو رجل عاش ومات في القرن العشرين؟ وما دخل عهد الإقطاع وأحواله في (دراسة تحليلية) الشاعر؟ وما فائدة إقحام العصور الذهبية للأمم في مجال ذكرى أديب

كمال الدين نشأت

القصص

النغم الضائع!

بقلم

(قصة من أدب الحياة الواقعي، طغت فيها التقاليد على قلب)

(فنان عبقري)

للأديب حسين محمود البشبيشي

في يوم من أيام عام 1717م أضاءته شمس الجنوب اللامعة الباسمة، ترنحت عربة

رثة متربة خلال مدخل كابيونيا أحد مداخل نابلي، وقد جلس في داخلها غلام في عامه الثامن، تحمل الرحلة المرهقة القاسية وحيداً من قرية جيزي إلى نابلي. وما كان معه من سند غير بعض كتب التوصية لنفر من البيوتات النابولية الرفيعة.

كان هذا الغلام هو (جيامباتيسنا بورجوليزي)

ولما نزل من العربة تعباً غريباً تائهاً في حياة العاصمة الدوارة الصاخبة، وضعه جنود الحراسة في عربة عامة، وأرسلوا به إلى أحد العناوين التي على كتبه.

تصور طفلاً صغيراً ضعيفاً كصاحبنا خرج لأول مرة من مجتمعه الصغير الحقير في قرية جيزي بالقرب من أنكونا حيث توافقت الأزقة المهجورة وملالة الوجود، وتمازجت حقارة الفكرة وشفافية الحياة، إلى نابلي هذه المدينة الرحبة الصاخبة الماجنة العابثة الغارقة في النور وشهوته، الضاربة في كل فن وكل غريب. . .

تصوره وقد تعلق الأطفال حول العربة كل يريد الركوب، والحوانيت تبين وتغيب، والمطاعم تقدم صحاف المكرونة المعهودة ليلاً ونهاراً في ضجة ومرح، وهناءة وفرح، والجمهور التائه كسرب من الحمام، الصاخب كقطيع من الأغنام، يزيد في صخبه، ويمعن في دورانه، والأسواق متنوعة: أسواق للسمك وأسواق للفاكهة وأسواق للخضر تموج في ضجتها وشدتها، وتضطرب في تقلبها وحركتها، كل ذلك بين أصوات الباعة ترتفع جشاء جوفاء لا انسجام فيها ولا اتزان. . .

مسكين (جيامباتيسنا)! هل كان في حيرته يدور في خلده، إذ ذاك، أن عبقريته ستتوجه يوماً ما في هذه المدينة الدوارة المضطربة بوسائل الفرح، المتقلبة في مظاهر الانطلاق الروحي والحسي!!

لقد ولد في أسرة هي أغنى في عقليتها وتعليمها منها في ماليتها وتقاليدها، وأعظم في ميولها وأحاسيسها منها في أصلها وأعراقها.

ورأت فيه عائلته عن حق ميلاً إلى النبوغ الموسيقي، يتألق أنغاماً روحية تشعها روحه الباسمة وحركاته الراتبة ولفتاته الأنيقة. فأرسلته إلى (نابلي) ليأخذ هناك من نبعها الدافق، ويتعيش فيها بعد منها. ودخل بالتوصية والالتفات والرعاية (المعهد الموسيقي العظيم) حيث تعلم العزف على القيثارة تحت إرشاد الفنان القديم (ديماتيس)، فكان له من طبعه الفني القادر، وروح أستاذه الساحر، أكبر باعث ألهب فيه حيوية الفن واقتباسه. فصقل روحه بكل جديد من الصور، وخلع على قلبه كل فاتن من الأحاسيس، وإن ما كان يتوقعه هذا الفنان (ديماتيس) لتلميذه المتألق المتوثب من مجدٍ دفعه إلى أن أثر على الشاعر العظيم (جريكو) الذي أهتم بهذه العبقرية المتألقة المتطلقة التي لم تزل بعد في أكمامها.

ووجد (برجوليزي) ككل فنان حديث يشعر في قرارة نفسه بحيوية تريد أن تفيض، وأقباس تتطلع للظهور، وألوان تتواثب لتتنسم الحياة؛ وجد فناننا (برجوليزي) من القيود الموسيقية الرثة أغلالاً تجعل أجنحة فنه تحلق في سماء محدودة وأجواء مقيدة، وآفاق لا تشبع الرغبة الجامحة والنزعة الطافرة. وضاق صبره بتلك القيود ولكنه أكره نفسه عليها! حتى غادر مع أستاذه المعهد العظيم في عام 1726 ليجني حراً طليقاً ما يريده من أزاهير، فتفتحت أمامه مبكرة، وتحققت أمانيه؛ فلحن على حداثته قطعاً من الأوبرا ونشيداً رائعاً فاتناً ساحراً هو (سان جيجليلمو) مما كان له مكانه سامية وشهرة عظيمة حتى في هذا الوسط الفني

ورحبت به العائلات الرفيعة التي كان عطفها ورعايتها قبلة فناني القرن الثامن عشر ولا عجب أن رحبت به والتفتت إليه، وهامت بألحانه الساحرة، وما تريد سوى أن يلتف حولها الفنانون. أما هو فقد جملت أثوابه الجديدة الأنيقة من ملامحه الدقيقة الوسيمة، وقد عكس وجهه المضيء الغني وروحه الشاعرة الفتية العامرة بالحساسية!

ووجد ثمرة الإلهام أمامه ناضجة

فقد كان ملك نابلي المتحمس لتشجيع فناني عصره ملاذاً للعلماء والمهندسين والرسامين

والموسيقيين، وأصبحت نابلي إذ ذاك ف أوج مجدها الفني، إذ كانت مركزاً منفرداً للمدنية، انبثق منها إلهام حي سام متألق لجامياتيسنا

لقد كانت الدينة الغنية بفنانيها حقاً. لقد انطفأت شعلة حياة (كوريللي) و (وللي) ولكن

الجمرة التي تركاها تأججت من جديد عندما نفخ فيها سحر (سكارلاتي) ولما قضى هذا الفنان أيضاً لم يكن إلا لفنان قادر سامي العبقرية، متوقد الروح، بعيد مدى الآمال، أن حفظ عظمتها وينهض بها

فكان برجوليزي فتاناً ولم يزل بعد في العشرين وارثاً ملهماً فذاً لهذا الإرث السامي من الفن العظيم. ما أسعده وما أتم نعمة الفن عليه! لقد بلغ المجد الذي تطلع إليه.

لقد سطع عليه القبس الروحي الذي طالما عناه. لقد أصبح الفنان القادر الساحر

ثم خفق فؤاده يوماً ما شديداً عنيفاً عند ما دعي إلى بيت (سبينللي) النبيل الكبير

ثم خفق فؤاده مرة أخرى، ولكنه كان في هذه المرة أشد خفقاناً، حينما انتهت مراسيم التقديم، ووجد نفسه منحنياً أمام غيداء فاتنة. لقد تنازلت ابنة أكبر البيوتات النابولية أرستقراطية عن كبرياء عائلتها، رائعة دقيقة ساحرة، تلك هي ماريا سبينللي التي نظرت إلى الشاب الفنان بورجليزي، وألهبت شرارة حبها نار الوجد في حناياه!. .

. وسواء أكان ذاك لفتنة فيه أم لسحر في موسيقاه فقد باحت بسر الجوى أعين لطاف فجاوبتها عيون! وصفق قلب فأسرع إليه قلب. . . وهكذا فاض روح الحب من النفس الجميلة والنفس الفنانة

ولكن وا أسفاه! لم يكن للقصيدة الأبدية من تمام. لقد كانا في ميعة الشباب وفتنته، يتدفق فيهما الشعور روح الجمال، وتفيض أعينهما إحساساً به، كما كان هناك على آخر ما يصل إليه البصر من نافذة القصر حيث يتصاعد عبير البرتقال قبور، ترفع نصبها في جنون تحت شمس الظهر المرهقة الحارة. أجل لقد كانا في ميعة الشباب، ولكن كان هنالك قبور بالقرب من عش غرامهما!

فلا عجب أن دار قدرهما قوياً قاهراً فعصف بهما عصفاً

تناثرت هنا وهناك الأحاديث! وعرى أرستقراطيو القوم وجوم ودهش. يا عجبا! ابن الشعب ذلك الحقير، يتطلع إلى أن يختلط دمه الأحمر الشديد الحمرة بدم أسرة سبينللي

الأزرق الشديد الزرقة! لتكن عبقريته ما هي، ليكن قدره ما يكون، ليكن مستقبله ما سيكون، ليكن كل شيء

لقد كانوا حمقى! وما كانوا غير ذاك. فإن من اتحاد الأحمر والأزرق يتكون ذلك اللون البنفسجي الرائع الذي يعلوهما!

تلك هي السماء

ولقد كانت الفكرة، بل التفكير فيها أمراً حراماً. . . ابن الشعب يتطلع إلى بنت البيوتات الرفيعة!

ثار أهلها كل الثورة، وحقدوا على الفنان كل الحقد، وبرموا به كل التبرم. وأما أشياعهم من ذوي التقاليد والأشراف ولهم فتيات قد يتطلع إلى إحداهن يوماً ما فنان من أبناء الشعب فقد شاركوهم الأمر، وتنكروا لفناننا برجوليزي

وهكذا تعبث الشهوات الزائلة بجلال الفن، وتعبث الأغراض الدنيئة بجلال الحب، وتفسد التقاليد العتيقة انسجام روحين؛ فما أحقر الإنسان إذا انطلقت فيه نوازع النفس

الترابية وغطت على بصره، فظن أن الحياة مظاهر وتقاليد؛ وما كانت لتكون كذلك

والزهر يعانقه الشوك ويقاسمه أغصان دوحته! أوصدت الأبواب المسرحية، وحبست الوجوه الباسمة، وولت الأقدام المقبلة، وأغلقت. . . وأغلقت تلك الخميلة التي طالما عزف فيها لماريا، وألهمته فيها ماريا

وحجبت عن نظراته الوالهة ابنة أسرة سبينللي

ولم يك يصل إليها إلا على جناحي أنشودة خالدة، وفي ثنايا نسمة عابرة، وبين ألفاف أمنية مستعرة. وثقلت به الحياة وثقل بها فانغمس في ألحانه الباكية، وترانيمه الحزينة، عساها أن تكون له عن دنياه سلوى، كما هي عن جواه

وتدفقت أمامه الشهرة الفارغة الجوفاء. وسجدت نابولي لعبقريته حين قدم لها في عام 1730 قطعته الخالدة بعد نجاتها بأعجوبة من زلزال مروع. ولقد كانت قطعته هذه فريدة حقاً في نغماتها، وحيدة حقاً في ألحانها، فذة حقاً في معانيها، منقطعة حقاً في روعتها. ولقد أدرت عليه كل ما ابتغاه في فجر أيامه، وتمناه في متنفس عمره. أدرت

عليه كل شيء ليضعه تحت قدمي ماريا، ماريا الفاتنة، ماريا ملهمته الفن الساحر القادر. ولكنما قدماها

كانتا مغلولتين بغل من حديد التقاليد
لقد كان محرماً عليها هناك في سجنها الذهبي حتى النطق باسم برجوليزي. فماتت بسمتها المرحة على شفتيها، وانطفأت شعلة في عينيها كانت متألقة باسمة. وجاءها أخوتها الثلاثة يوماً، وقد أخذ الغضب منهم كل مأخذ، وتطاير شرر التقاليد من أعينهم، وأجهر بوق الأرستقراطية أصواتهم، فتدافعوا إلى خدرها، وهددوها وسيوفهم مشروعة بأنها إن لم تتخذ لها بعلاً كفئا لها استقر السيف في قلب هذا الموسيقي الحقير!
فدافعتهم بدورها ولوحت لهم بالقانون منتقماً لحبيبها. فضحكوا؛ فهم حماة الشرف السبينللي؛ ولم تك ليد أن تمتد إليهم إذ ذاك لا أن تمسهم. لقد كان لهم أن يضحكوا؛ فلم يك قولهم إلا حقاً، فما نابلي إذ ذاك إلا مدينة الأشراف؛ ولقد كانوا هم سادة الأشراف!!
ومرت أيام ومضت ليال وجاء أخوتها برجل من أسرة كرافا أثقلته حليه، وجللته عظمته، فأخفت رأسه الفارغ، وكست روحه العارية
لقد كان غنياً أرستقراطياً لا شبهة في ذلك، جاء به أخوتها لترضى به زوجاً؛ ولكن لم تكن ماريا لتفتنها الثروة أو تأخذها الأبهة، وما كانت لتريد رجلاً أياً كان. . . لقد كانت تريد شيئاً غير هذا! شيئاً أجمل من هذا. فخرج الكرافي بوجهه المصقول، وجواهره اللامعة، وتقاليده الرائعة، وانحنى له أخوتها مودعين وقد وضع يده في جيبه بتحسس خاتمه الذي لم يقدر له بعد أن يوضع في مكانه
وأمضت ماريا برفضها الكرافي أمراً القضاء على برجوليزي. ولم تك هناك إلا طريقة واحدة لنقضه. لم يك هناك إلا أن تهب نفسها لله!
فوافق أخوتها. ولأمر ما قرروا أن يرأس برجوليزي العازفين في حفل ترهيبها! يا عجباً! برجوليزي يقدم قلبه لله!
وفي الحادي عشر من مارس عام 1734 في كنيسة سانتاشيرا رأس برجوليزي العازفين وبدأ الحفل فلوح بعصاه يفتتح قبر قلبه فكان لنقراته على حامل الموسيقى صدى، كأنما هو يؤذن برفع الستار عن إحدى المآسي
ورفع الستار عن مأساة مروعة: عذراء تترهب مقدمة شبابها، جمالها، حياتها، قلبها، إلى نسيج حسن لا يرققه ولا يلطفه إلا الإيمان بالله
مأساة أعمق من أن تصل إليها الألفاظ والجمل. لقد كان الرهبان يصيحون: (مرحباً بعروس البيعة)، ورنت أصواتهم في كل أذن سمعتهم. أما أذن العروس، وأما أذن رئيس العازفين فقد سمعتا مأربا كل نغمة تصيح: وداعاً. وداعاً رمى بها الأفق، وداعاً ابتهل بها الرهبان. وداعاً نطق بها دخان البخور وقد صعد يتلوى في زرقته إلى الله. إنه لم يترنم في صعوده برسالة حبيب إلى السماء، بل لقد كان يصيح وداعاً ويتلوى لرسالته من الألم! وتخافتت الأصوات، وسكنت الأقدام ووقف برجوليز وحيداً مرفوع الرأس مديراً بعصاه أنغام العازفين وحركاتهم
لقد كان جديراً حقاً ذلك الحفل بأن يضع على رأسه أكاليل الغار، ولكنه كان مأخوذاً مرعوباً لم يدر شيئاً، ووقف يحترق في لهبه، لقد كان فريسة لأساه، هشيما لنار جواه.
وبكاها برجوليزي إلى العالم ولم تزل حية، لم يبك (الأخت فكتوريا) كما نادوها في الدير، بل بكى الحبيبة ماريا. لقد بكاها وهي في كهفها الضيق ولا من يسمع أناتها. إنك لتقرأ مأساتها كما قرأها من قبلك، وكما سيطالعها إلى الأبد الكثيرون في دمعته المحرقة في دمعته الصارخة ولا عجب أن كانت معجزة فلم يك أبداً فؤاد إنسان ذاك الذي لحنها، ولكنه فؤاد من ذهب روحي خالص نقي صهرته الآلام الملتهبة
لم يتمكن الزمن أن يحدث معجزة النسيان، ولكن لم يك غير الموت شافياً (لماريا). فلم تمض سنة حتى تركت الأخت (فكتوريا) وراءها على الأرض صدفة مرمرية ورسالة إلى من وهبته قلبها. وحمل الرسالة أخوتها إلى (برجوليزي) في روما؛ فقد رحل من قبل عن (نابلي) مثوى أحلامه. أما الرسالة فكانت: (دعوا برجوليزي يدير المحفل الأخير لروحي حتى يتاح لها أن تصعد إلى عالم الخلد على أجنحة المجد)
فترك برجوليزي ما لم يتم من تأليفه؛ وقد كاد أن يتم أوبراه الخالدة (الأوليمبياد) ورحل سريعاً إلى (نابلي) ليجد هناك طعنة جديدة تنتظره؛ فقد كانت القطعة التي سيدير عزفها ليست له ولكنها من تلحين (ليد) الموسيقي القديم. ويحهم! ويحهم! لم يريدوا حتى أن يكون له شرف تأليف لحن جنازتها. لم يريدوا إلا حرمانه حتى ذلك

التأسي الفاني، ولكنه فنان عاشق، ولكنه محب واله، ولكنه. . . لحن في سرعة جنونية يائسة قطعة كل نغم فيها فلذة من حنايا قلبه المضني، من ثنايا أساه البليغ
لم ير شيئاً سوى وجوهٍ كالحة ساخرة مجرمة. وتخافتت الأصداء، وسكنت الأقدام، ولكن أقدام ماريا لم تخفق معها هذه المرة، ولم تندمج في الصف الذي اندمجت فيه من قبل في حفل ترهبها. وهاهي ذي فوق أكتاف الراهبات يحملن منها صدفتها المرمرية الهشة. وهاهي ذي وخزات الآس الدامية ينقلها (برجوليزي) إلى لغة اللحن في أنات طويلة علوية
ولما أوصد الباب للمرة الأخيرة، وانتهت المراسيم الحزينة، تقدم برجوليزي وهبط عن منصته ثم جمع أوراقه التي سطر فيها أساه واحدة فواحدة، وعدها ببطء ودقة. ولما تأكد من أنه لم يترك منها شيئاً. تقدم إلى المذبح. ويحه ماذا يريد؟ وعلى أحد الشموع الكبيرة التي قدمت حياتها قرباناً لتضيء ساحة بيت الله، ألهبت ناراً في عصارة قلبه، في هديته الأخيرة لماريا ملهمته، ولما اسودت الأوراق، وتلوت ثم ترامت في ألم على الأرض، صاح في أسى وحرقة:
لقد لحنتها لماريا! لماريا وحدها. إنها لحني الأخير لموكبها. إنها سلامي الأخير لها، ووداعي الأخير لروحها. ولن تكون إلا لها. دائماً أبداً لن تكون
ولم يعلم أحد هل كانت هذه البقايا المحترقة هي معجزة برجوليزي التي جمعها الراعي في الصباح
لم يعلم أحد هل كانت هذه البغايا المرتعشة في مهب الريح هي (النغم الضائع) أو الوتر المنزوع من قيثارة (جيامباتسنا)
ولم تنتظر ماريا طويلاً. فلم تمض سنة حتى كان جيامباتسنا برجوليزي في قرية بوزيولي، قريباً من نابلي، وقد امتنع عن العزف، وامتنع عن الشكوى والنواح وارتفع إلى السماء ليعزف لها هناك على قيثارة الروح الأناشيد التي وضعها لها على الأرض

حسين محمود البشبيشي

العدد 456 - بتاريخ: 30 - 03 - 1942

من خواطر الحرب

لابد للإسلام من مؤتمر

جلست ذات أمسية إلى المذياع أتنقل فيه بسمعي المرهف بين برلين وباري ولندن وموسكو وطوكيو وباريس وأنقرة، وكلها تذيع باللغة العربية، وتوجه الكلام إلى الأمة العربية. فقلت في نفسي: سبحان الله! ما هذه العناية اليقظة بنا، والاهتمام البالغ بلغتنا وأدبنا، كأننا لا نزال نملك زمام الدنيا ونصرف عنان القدر! ثم أعلن المذيعون أنباء الحرب في ميادينها المختلفة، فإذا هم يذكرون: أفريقية الشمالية، ومصر، وفلسطين، وسورية، والعراق، وإيران، والهند، والصين، والملايو، وسنغافورة، وجزر الهند الشرقية؛ وكلها مواطن الأمم الإسلامية، ومسارح الثقافة العربية؛ وليس من أهلها المغير ولا المدافع؛ وإنما هم كثروة الأرض وعروض التجارة خسارة للمغلوب وربح للغالب. فعدت أقول لنفسي: ما أشبهَ تلك الإذاعات اللينة العطوف بالرُّقَى الساحرة، يسلطها المفترس على أعصاب الفريسة لِتخدَر وتنام، فلا تنشب في حلقه ولا تضطرب في جوفه! وما أعجب ألا تشب الحرب الاستعمارية، وتتصارع الدول القوية، إلا حيث يملك العرب ويعيش المسلمون، كأنما أصبحوا سلباً لكل غازٍ ونهباً لكل غاصب!
ألم يكن هؤلاء الناس أعقاب أولئك الفاتحين الذين نزل على حكمهم الدهر ودخل في ملكهم العالم بضعة قرون؟
أليس هذا الإسلام الذين يؤمنون به اليوم هو إسلام ذلك الخليفة العباسي الذي نظر ذات يوم إلى السحائب الجُون تزجيها الرياح الرُّعن إلى أقاصي الأرض، فقال في لهجة تنم على العزة والجلالة والشكر: (أمطري يا سحائب حيث شئت فإن خراجك لي)!
بلى، هؤلاء أعقاب أولئك، ولكن الدين الذي يعتقدونه لم يعد دين ذلك الخليفة؛ إنما هو بقية من الإسلام الأول حالت ثم آلت إلى صوفية بلهاء لا يفيق الممسوسُ بها من الغفلة، ولا ينشط من الخمود، ولا يبالي أن يبلغ ساحل الحياة مركوباً على ظهره أو مسحوباً على وجهه! والدين والعلم مآلهما في النفوس الضعيفة والعقول الخفيفة إلى

الترهات والأباطيل: فأيلولة الكيمياء إلى البحث عن حجر الفلاسفة، وعلم الفلك إلى التنجيم والسحر، كأيلولة الإسلام إلى هذه العقيدة الملفقة التي زيف فيها الإيمان بالقدر حتى أهمل الناس التوقي
استسلاماً للقضاء، وتركوا السعي اعتماداً على (القسمة). و (إن الله لا يغيّرُ ما بقومٍ حتى يغّيروا ما بأنفسهم، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له، وما لهم من دونه من وال)
ولئن سألتني بعد ذلك: هل بلَّغ العلماء رسالة الله لأقولن لك: (لا) مغلَّظة مكبرة مكررة! وأكبر الظن أنهم لا يؤمنون بأن لهم رسالة وأن عليهم تبعة
رجال السياسة يعملون بحق أو بباطل، ورجال الحكم يتصرفون بعدل أو بظلم؛ أما رجال الدين في ممالك الوطن الإسلامي كله فقد قنعوا باللقب والزي، واكتفوا بالشبع والري، ورضوا أن يكونوا متوناً لذوي الطمع، وحواشي لأولى النعمة، وهوامش على صفحة الحياة!
على أن سلطان الدين أكمل وأشمل من سلطان السياسة وسلطان الحكم؛ فإن هذين لا يتجاوزان بقعة من الأرض ولا أمة من الناس؛ ولكن ذاك ينبسط على كل مكان فيه لله ذِكر، ويهيمن على كل إنسان له في الإسلام فِكر. وعلماءُ الدين هم الطوائف التي نفرت من كل فرقة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم؛ فإذا تفقهوا ولم ينذروا، أنكروا ما خُلقوا له، وعصوا ما أمروا به. وليس الإنذار أن يلهجوا بذكر الحساب والعذاب، وإنما الإنذار أن ينبهوا المخطئ، ويوجهوا الحائر، ويرشدوا الغوي، وينصبوا في مجاهل الأرض أعلام الطريق
لو كان علماء الإسلام يعملون لكان لهم مثل ما للمبشرين والمستعمرين والمستشرقين من المؤتمرات التي تعقد العام بعد العام، في الدولة بعد الدولة. والله قد فرض على المسلمين أمثال هذه المؤتمرات العامة بالحج. وإذا كان وفود العلماء من الأقطار المختلفة إلى إحدى المدن تعوّقه الأهواء والظنون، فإن وفودهم إلى مكة لا يعوّقه غير الشيطان، ورجال الدين والحمد لله في عصمة منه
لا بد للإسلام من مؤتمر يجمع زعماء الرأي في أهله ليجددوا ما دَرس منه، ويوضحوا ما التبس فيه، وينفوا عنه ما غشيه من أساطير القرون وأضاليل النّحل، ويجلوه للناس كما كان صالحاً للحياة، كافلاً للفوز، ضامناً للسعادة
لا نطمع أن يجتمع هذا المؤتمر اليوم، فإن الزلزلة التي لا تنفك آخذة بأقطار الأرض وأفكار الناس تجعل العقاب والسدود من دونه، ولكنا نطمع أن يفكر أولو الأمر فيه ويهيئوا
الأسباب له؛ حتى إذا عادت السّلم وتحلق زعماء الأمم حول الموائد الخضر لإقرار السلام الدائم واختيار النظام الملائم، اجتمع كذلك علماء الإسلام ليعرضوا على العقول الحائرة والأجسام الخائرة نظام الله خالصاً كما أوحاه، صافياً كما أنزله. نعم لا بد للإسلام من مؤتمر يقيم بين البهرج والصحيح حداً من نور الحق يجتمع عليه القطيع الشارد، ويهتدي إليه الركب المضلّل. ولكن ليت شعري من الذي يفكر في هذا المؤتمر ويعمل له ويدعو إليه؟
لقد عقدنا الآمال بالأزهر في كل ذلك، فهل عقدناها بلُعاب الشمس؟
كانت (جماعة كبار العلماء) معقد الرجاء ومناط الثقة؛ وكانت هذه الجماعة في نظامها الجديد عسِيَّة أن تدعو إلى هذا المؤتمر بعد الحرب في العيد الألفي للقاهرة؛ وكان الظن ببرنامج الإصلاح الذي اقترحه شبابها المصلحون، وأقره أقطابها المخلصون، أن يكون نواة الإصلاح ونقطة التحول؛ ولكن جنديّاً باسلاً من جنود الإصلاح الديني كتب إلينا يقول: إن برنامج الإصلاح أدركته أزمة رجعية توشك أن تخنقه في درج المشيخة. فإن عضواً من الجماعة يوجس منه شراً، فهو ينسج حوله الشكوك ويؤلب عليه القُوى، وقد نجح في ذلك!
فهل يجوز في ظن امرئ أن يكون في كبار العلماء من يشتبه عليه الحق والباطل والخير والشر والصلاح والفساد؟ ذلك ما لا نصدقه، ولا نود أن تجري الأمور بما يحققه (المنصورة)
احمد حسن الزيات

بين آدم وحواء
قبل أن تثور القواصف
فوق أثباج الكوثر
للدكتور زكي مبارك

ارتاح آدم إلى كيد حواء بعض الارتياح، وأدرك أن الرجل لا يعيبه أن يُفتن بالمرأة من حين إلى حين، على شرط أن يظل في الحدود التي لا تجرح كرامة الرجال وفطِن إبليس، لعنه الله، إلى أن آدم أخذ يؤوّل كيد المرأة ويقسمه إلى أقسام فيها المكروه والمباح. . . فطن إبليس إلى هذه الثغرة فجدّد من نشاطه واستأنف الوسواس فهتف: (هل أدلكما على شجرة الخُلد؟. . . هل أدلكما على شجرة الخُلد؟. . ألا تسمعان؟)

قالت حواء: سمعنا وسنطيع. وقال آدم: سمعنا ولن نطيع

فغضبت حواء من جواب آدم واتهمته بالزهد في الخلود، وهو زهدٌ دميم، فما يليق بالرجل أن يضيع فرصة تنجيه من الفناء، ولو ارتكب في سبيلها ما لا يليق

وغضب آدم من سفاهة حواء فقال: من أين عرف إبليس أن شجرة الخلد هي شجرة التين؟ وعلى فرض أن كلامه صدق في صدق، فكيف يجوز أن نعصي الله لنظفر بالخلود؟

اعلمي، يا حواء، أن الرزق والجاه قسمان: حرام وحلال، وأنا لا أقبل أن نُرزَق الخلد عن طريق الحرام. . . إن اللقمة المسروقة تقف في الحلق لحظة، ثم تُزدرَد برفق أو بعنف. ومع هذا تبقي لها عقابيل تحزّ في القلب إلى آماد طوال، فكيف نستجيز الظفر بنعمة الخلود عن طريق العصيان؟ وكيف نرضى أن نعيش أبد الآبدين في أسر الحرام الممقوت؟

- آدم، أنت أحمق!

- لأني أزهد في الخلد المكسوب بالعصيان؟

- لا، بل لأنك تجهل أن الخُلد أنفس وأثمن وأعز من أن تُتَقي في سبيله الشُّبُهات

- النص صريح في تحريم هذه الشجرة يا حواء

- التأويل يلحق جميع النصوص

- إذا وُجدت الغاية التي تبيح الممنوع من التأويل!

- وأيُّ غاية أشرف من الخُلود؟

- اسمعي، يا حواء، إن الخُلد غاية شريفة - كما تقولين - ولكني أبغضه أشنع البغض، لأنه يوجب أن أعيش في صحبة عقلك الأجوف إلى ما لا نهاية له من الآباد. . . إني ضَجِرت، ضجرت، مع أن صحبتنا في الجنة قريبة العهد، فكيف أصنع إذا كتب الله عليَّ أن أكون من الخالدين في جوارك يا حواء؟

- تغضب مني يا آدم وأنا أدعوك إلى الخُلد؟

- هو خُلدٌ حرام لا حلال. . . وما يليق بنا أن نعامل الله في كرمه بغير الامتثال

- أتصِفُ الله بالكرم وهو يبخل علينا بشجرة لا يساوي حطبها درهمين؟

- ألم أقل: إن الله يختبر قُوانا النفسية بتحريم تلك الشجرة؟ وإذا عجزنا عن كبح النفس في البعد عن شجرة لا يساوي حطبها درهمين، فكيف يكون المصير لو نُهينا عن شجرة مصوغة من عيون العذارى وخدود الملاح؟ المعصية بغيضة يا حواء، لأنها تضيفنا إلى أهل الكفران، وما يجوز لمن يعيش في مثل هذا النعيم أن يفكر لحظة واحدة في عصيان المنعم الوهاب

- الله منعمٌ وهاب، وهو يبخل بشجرة لا يساوي حطبها درهمين؟

- الآن عرفتُ أنك امرأةٌ سليمة الأعصاب والحواسّ إلى أبعد الحدود

- وكيف؟

- لأنك تنكرين الجميل، والمرأة لا تنكر الجميل إلا حين تكون في عنفوان الصحة والعافية

- وإذن؟

- وإذن أعصى الله من أجلك يا حواء!

- فتأكل من شجرة التين؟

- وأترك طبعات على هذه الخدود المقبوسة من جمر الوجود

- تحبني، يا آدم؟
- أحب المرأة الحلوة الجميلة التي زلزلتْ فؤادي. أحب المرأة التي نقلت قلبي من مكان إلى مكان. أحب الغادة اللعوب بالعقل والروح. أحبك يا حواء حباً أمتنَ من الصدق وأروح من اليقين. أحبك يا حواء حبًّا سيُفسِدُ ما بيني وبين ربي، إلا أن تشاء إرادته السامية أن
أتقرب إليه بعبادة الجمال. . . ولعله يشاء!
- وإذا لم يشأ، فماذا تصنع؟
- آكل من شجرة الخلد، لأحمي هذا الجبين من الأفول
- بالعصيان؟
- هنا المشكلة يا حواء، فما يُسيغ ذهني أن ينهانا الله عن رعاية الجمال
- أراك اهتديت!
- وأراني ضللت!
- أفِقْ، يا نَشْوان
- إن جاز للموقوذ بسكْر الجمال أن يُفيق!
- تحبني يا آدم؟ تحبني؟
- أحب النار التي صهرت روحي، ولن أطمئن إلا يوم أنهشك يا حواء لتعودي نقطة من دمي
- ما هذه الوحشية؟
- أيّ وحشية؟ ألم تؤخَذي من ضلعي؟
- أنا من ضلعك أُخذتُ يا كذّاب؟
- اسألي الملائكة، فعندهم الخبر اليقين
- ولهذا جئت جميلة؟
- وأجمل من الأفعى الملتوية على الشجرة الزهراء!
- أراك تبغضني يا آدم!
- هو ذلك: فأنا أبغض العيون الجوارح، وأبغض الجبين الوضاح، وأمقت القد الرشيق، وأستعيذ بالله من السحر المتموج فوق الثنايا البيض
- ثم ماذا؟
- ثم أكره الصوت الذي يُشبه وسواس الحُلِيّ فوق النحور، والذي يفوق غمغمة الكأس عند فورة الرحيق
- ثم؟
- ثم أثور على التفاتة الجيد عند العتاب
- ثم؟
- ثم أبغض حواء لأنها حواء!

وبعد الأنس بقُبلتين محرقتين مضى آدم لشهود حفلة الطيران، وهي حفلة موسمية كانت تقيمها الحمائم والبلابل والعنادل في (غابة الصنوبر) لتروض أفراخها على النهوض والتحليق. ويحدثنا شيث أن حفلات الطيران هذه كانت تجتذب جميع سكان الجنة بلا استثناء. وقد نص على أن السباع كانت تراها عجباً من العجب، لأنها تشهد بتنوع المواهب، وإلا فكيف جاز أن يقدر الطائر الضعيف على ما يعجز عنه الأسد الصوّال؟

مضى آدم وحده لشهود حفلة الطيران، وهو مبتسم جذلان، فقد أعفى نفسه من الحيرة في قرب شجرة التين، وأسلم مصيره إلى خالق الأنوار والظلمات، فللأقدار أن تصنع به ما تشاء

أما حواء فشعرت بحزن وانقباض حين رأت آدم لا يمانع في قرب الشجرة المحرّمة، ولهذا قّلت بشاشتها لشهود حفلة الطيران، وكذلك آثرت الاعتكاف لتنظر فيما هي مقبلةٌ عليه. . . فما الذي تأذّت به حواء وقد بلغت من ختل آدم فوق ما كانت تريد؟

نظرت حواء فرأت أن الشقاق حول الشجرة المحرمة كان فرصة لشغل آدم بزوجته شغلاً غير مقطوع، والمرأة يرضيها ويسرها ويشوقها أن يعيش الزوج وهو بها مشغول، فكيف تكون الحال بعد أكل الثمرة الممنوعة حين يصبح جميع ما في الجنة حلالاً في حلال؟

ونظرت فرأت أن الجدال حول الشجرة المحرمة ألانَ لسان آدم وعلَّمه الحوار بأساليب لا تخلو من البراعة والظرف، وقد تصل إلى السحر في بعض الأحيان، فكيف المصير إذا تساوت قِيمُ الأشياء واستغنى آدم عن الجدال؟
سيكون الصمت من نصيب آدم حين تنعدم أسباب الخلاف، فكيف تعيش حواء مع رجلٍ صَمُوت؟ وهل قلّ صمت آدم برغم ذلك الخلاف؟ لقد كانت له تأملات طويلة ينسى بها ما حواليه حتى لتحسب زوجته أنه لا يشعر بأن لها من الوجود أي نصيب، فأي بلاء ينتظر حواء يوم تنقطع موجبات اللجاجة مع فارسها الجميل؟
في تلك الحومة كادت حواء تنتقل من المعصية إلى الكفران، والعياذ بالله، فقد جاز لها أن
تعترض على نظام الجنة، وأن ترى أنه لا يخلو من اختلال. والثورة النفسية تحيل النعيم إلى جحيم، وذلك ما وقعت فيه حواء
نظرت فرأت أن الجنة قليلة المحرمات، فهي قليلة الطيبات، وهل يستطيب الناس غير الممنوعات؟
نظرتْ في هذا المعنى ملياً ثم صرختْ:
أرى طِيبَ الحلال عليّ خُبثاً ... وطِيبَ العيش في خُبث الحرامِ
وهمّت باقتلاع شجرة التين لتحوّل الجنة إلى خراب يباب، فما كانت الجنة في نظرها غير تلك الشجرة الممنوعة، وإذا اقتلعت تلك الشجرة فسوف يرى الله أن عنايته بخلق الجنة ذهبت أدراج الرياح!
ولكن شجرة التين التي لا يساوي حطبها درهمين أعجزت حواء فلم تستطع اقتلاعها برغم ما بذلت من الجهد (المحمود) فنكصت على عقبيها وقد نال منها الإعياء ما نال وكان المفهوم أن تخجل من الهزيمة أمام شجرة التين، وأن يزيد حقدها على الله، ولكنها فرحت حين عرفت بالتجربة أن (شجرة الشرّ) قوية الجذور، وأن الأمل في اقتلاعها ضعيف، وتمنّت أن تصبح الجنة وفيها لهذه الشجرة أمثال وأمثال
ذلك ما كان من أمر حواء، فما أمرُ آدم وقد ذهب وحده لشهود حفلة الطيران؟
رأى جميع المتفرجين يتحدث بعضهم مع بعض، وهاله أن يرى الثعلب يناجي أنثاه بجذل وانشراح، كأنه يدرك الدقائق من طيران أفراخ العندليب، ورأى الأفعى تخاطب الأفعوان بعبارات فَهِم منها أن حفر الجُحر في أصل الشجرة لا يقل خطراً عن بناء العش في أعالي الأغصان
أراد آدم أن يتكلم، ولكن مع مَن؟
لو كانت حواء حاضرة لحدثها عن ذكائه في استكشاف ما بين الخشب والماء، فقد اهتدى إلى أن من يمتطي الخشبة لا تهوله أمواج الكوثر في كثير ولا قليل، وهل يكون امتطاء الهواء أوثق من امتطاء الماء؟
لو كانت حواء حاضرة لقال لها وقال، ولكن أين حواء؟
هنا أدرك آدم أن الحياة بلا رفيق لفظٌ بلا مدلول
ألم يكن يجرّد من نفسه شخصاً يحاوره حين يعتكف؟
ألم تكن أشعاره تبدأ بعبارة (يا خليليّ) أو (يا صاحبيَّ) كأنه يرى بضوء البصيرة أنه يحتاج إلى عدد من الأصحاب والخلان؟
ألم يلاحظ أن الله حين اختصه بالنطق قد أوحى إليه أن حياته لن تكون بلا رفيق أو رفاق؟!
أين حواء ليبادلها الأحاديث؟ وأين ماضيه في الطيران بأجواء الحقائق والأباطيل؟
إلى حواء، إلى حواء، إلى حواء!!
فماذا يرى آدم، وماذا يسمع؟
يرى فتاةً خامدة بجوار شجرة التين، ويسمع أنيناً يذيب لفائف القلوب
- حواء!
-. . .
- حواء!
-. . .
- حواء!
- آدم؟

- نعم، آدم، ماذا بك يا حواء؟
- لا شيء، ولكن أين كنت؟
- كنت أشهد حفلة الطيران
- ورأيت عدل الله؟
- فيماذا؟
- في تزويد الطير بنعمة لن نظفر بها أبداً، فهو يطير عن هذه الجنة حين يشاء!
- وهل مللت الثواء بالجنة يا حواء؟
- أي جنة تريد؟ أتريد هذا العيش الرتيب، العيش الذي لا يحرَّم فيه غير طعام واحد؟ العيش المملول، العيش الذي يقدَّم فيه التفاح بلاً حساب؟
- وما عيب هذا العيش يا حواء؟
- عيبه أنه حلال في حلال
- وماذا تريدين؟
- أريد أن يكون لي جموح يُغضب الله
- وماذا تستفيدين من غضب الله؟
- أريد أن أشغله بنفسي
- لك الويل، يا شقية!
- لك أنت الويل، يا بليد!
- حواء، أنت حمقاء!
- الأحمق هو الذي يشهد حفلة الطيران ولا يستفيد
- وماذا يستفيد المرء من شهود حفلة الطيران؟
- ألم تر مئات الأفراخ من الحمائم والبلابل والعنادل والصقور والعقبان وهي مجرَّحة بسبب العنف في التمرين على الطيران
- نعم، رأيت، ثم رأيت!
- تقول إنك رأيت، فهل فهمت أن تلك الجراح هي سرّ القدرة على التحليق؟
- وإذن؟
- وإذن نجرَّح مرة أو مرتين أو مرات. . .
- لماذا؟
- لنطير في أجواء الرشد والغيّ والهدى والضلال
- إن كنت تريدين شجرة التين فلن أقرب شجرة التين
- حدثني أحد الملائكة. . .
- وتحدثك الملائكة يا حواء؟
- وتحدثك أيضاً ولكنك لا تسمع!
- وماذا قالت الملائكة؟
- قالت إن الله أخبرهم أنه سيجعل في الأرض خليفة، وأنهم كرهوا أن يجعل في الأرض من يُفسد فيها ويسفك الدماء
- وبماذا أجاب الله؟
- قال: إني أعلم ما لا تعلمون
- ومعنى ذلك؟
- معناه أننا سنصير إلى الأرض
- بعد هذا النعيم؟
- وهل نحن في نعيم؟
- اتقي الله يا حواء
- اتق الله أنت
- الأرض، الأرض، الأرض!!!
- الأرض، الأرض، الأرض!!!

كذلك دار ذهن آدم وحواء بهذه الكلمات، واشتهى آدم واشتهت حواء رؤية ذلك العالم المجهول

- إلى شجرة التين، يا آدم
- إلى شجرة التين، يا حواء

- ولكن أحذر من أن تقول إني أغريتك!
- لم يغرني غير العينين النجلاوين، والخدين الأسيلين، والثغر المعطَّر بأنفاس الرحيق
- اعترف صراحة بأني ما أغويتك ولا أضللتك ولا زينت لك العصيان
- أعترف بأن حواء لا تُسأل عما يجني قدها الرشيق
- ولا خصرها الأهيف؟
- ولا جيدها الأغيد!
- ولا ثغرها الرَّشوف؟
- ولا طرفها الكحيل!
- ولا تثنيها وهي تتخطر فوق شط الكوثر؟
- ولا سحر اللون الذي يتموج بساقَيْها حين تتمدد فوق الأعشاب!
- ولا بلؤمها حين تثور؟
- ولا بكرمها حين تطيع!
- آدم، آدم، أنت مخلوقٌ نبيل
- معاذ الله أن أكون كذلك، فما يوصف الرجل بالنبل إلا حين يملك ما يأتي وما يَدَع. وقد قلّت حيلتي في رياضتك يا حواء، فأنا بفضل هواك من الهالكين
- لن تهلك وأنا معك
- ولن أهلك إلا لأنك معي، فالرفيق الفاسد يجرّ صاحبه إلى الهلاك
- اللهُ قدَّر أن يكون مصيرنا إلى الأرض، فما خوفُك وتلك إرادته السامية؟
- للجنة أسوار وحدود، وأنا أخشى أن تكون الأرض بلا أسوار ولا حدود
- عند ذلك تستطيع أن تفر مني حين تشاء
- أنا في الجنة مقهور على صحبتك بفضل الأسوار، وسأكون في الأرض مقهوراً على صحبتك بفضل الأهواء، والفرق بين الحالتين بعيد
- لك أن تتحرر من هواي
- لو أصبحتِ تراباً يا شقية لكان من واجبي أن أستاف ذلك التراب
- تحبني يا آدم؟
- أحب اللسان الذي يتلجلج بفم الحية النضناض
- أنت وقح!
- الوقاحة لن تكون إلا من نصيب الجمال النشوان!
- النشوة العارمة لم تعرف إهاباً غير إهابك
- ولهذا أخضع للشهوة وأطيع
- إذن تأكل من شجرة التين
- وأستبيح المعصية في سبيل الجمال
- خذ هذه التينة يا آدم
- ابدئي بنفسك
- هذه واحدة وثانية وثالثة ورابعة وخامسة، فهل وقع شيء؟
- لم يقع شيء!
- وإذن يكون التين من الثمر المباح

عند ذلك مدّ آدم يده فالتهم ثمرة التين وهو يرجو أن يكون مصيره مصير حواء، ولكن الجنة زُلزلت من جميع الجوانب فأدرك أن الله لا يقيم وزناً لغير هفوات الرجال.

(للحديث شجون وشجون)

زكي مبارك

الأدب والعلم

للأستاذ محمد محمد المدني

- كتب إليّ صديق من زملائي على عهد الدراسة كتاباً يقول فيه:

(إني مواظب على قراءة الرسالة بشغف واهتمام، ولست تكتب على صفحاتها مقالاً إلا قرأته لك، وتنسمت فيه روحك، وثارت به في نفسي ذكريات محببة عن أيامنا الجميلة التي كنا نختلف فيها إلى دروس الأدب والبلاغة يلقيها المرصفيُّ وعيَّارة والبطراوي والإسكندري وغيرهم، ونتجاذب فيها أطراف المحاورة، وأهداب المذاكرة، ونتساقى كئوس الشعر والنثر كأنها رحيق مختوم. وقد أذكر زميلنا الذي كان مولعاً -

في كتاباته الإنشائية - برواية أشعار المتنسكين والمتزهدين، وأننا كنا نغرب في الضحك إذا سمعنا أستاذ الإنشاءَ يقرأ طرفاً مما كتب، ويحاسبه على أفكاره العتيقة.
وما لهذا كتبت إليك، ولكني أريد أن أتحدث إليك في أمر كثيراً ما هممت بأن أحدثك فيه:
أنت تعرف رأيي في أسلوبك الكتابي وبحوثك العلمية، وتعرف حبي لك وشديد غيرتي عليك، فهل لي أن أسألك: لماذا تنحو في اختيار موضوعاتك هذه النواحي الأزهرية فتتحدث عن الفقه وأصول التشريع ودراسات الأزهر وأسلوبه في التفكير وما ينبغي له من علو ورفعة شأن، ولا نراك تتحدث عن الأدب والشعر وهما في هذا العصر أنشودة الشُّداة، وأغرودة الحداة، وثقافة المثقفين؟ لو كنت أعلم أنك تخرجت في علوم الشريعة لقلت: رجل مشغوف بما درس، معنيٌ بإشباع نهمه العلمي منه، ولكنك تخرجت في دراستك تخرج الأديب، ونلت شهادة التخصص في علوم البلاغة والأدب، فكيف تجحد حقهما عليك وتنسى فضلهما في تهذيبك وتثقيفك؟ وهل تتحبب إلى الأدب طالباً، وتتنكر له أستاذاً، فتقطع به صلتك، وتزوي عنه وجهك وتنصرف إلى غيره مما ليس منه ولا يمتُّ إليه؟
ما هذا الذي أُغرمت به، وملك عليك نفسك، واستبد بقلمك؟ وأيُّ فرق بينك وبين الزميل المتنسك الذي ألحدْتُ إليه صدر هذا الكتاب؟ ولم إذن كنت تسخر منه، وتُغرب في الضحك عليه؟
لا يا صديقي، ما لهذا يريدك أصدقاؤك، وما لهذا أردت نفسك، وما لهذا أعدتك (شعبة البلاغة والأدب) في تخصص الأزهر. لا تكفر بالأدب ولا تنأ بجانبك عنه، واستغفر لذنبك ودع الفقه والجدال فيه، ودع الأزهر والحديث عنه، والتحرق له والبكاء عليه، فما ذلك بمغن عنك فتيلاً. وسوف يبقى الفقه كما هو، وسوف يبقى الأزهر كما هو، وسوف تضيع صيحاتك وصيحات غيرك في شأنهما هباء كما ضاعت من قبلُ صيحات وصيحات!
عد إلى أحضان الأدب يا صديقي وأسمعنا شدوك عند رياضه وغياضه، وطر إلى آفاقه، وحلّق بخيالك في سمائه، فربما غنيت على قيثارته ألحاناً يرويها عنك الزمان (. . .
هذا كتاب صديقي إليّ، أثبته كما هو لأنه وإن كان كتاباً خاصاً يتحدث عن شأن له ناحية من العموم، ويمثل رأياً ينزع إليه جمهرة من شباب المتأدبين في هذا العصر فهم به مولعون
ولست أرى أني أغاضب الأدب وأجافيه - كما يتصور هذا الصديق - حين أكتب في موضوعات علمية، أو حين أعالج مشكلة من المشكلات الخاصة أو العامة، فإن الأدب ليس محصوراً في دائرة العاطفة والخيال وما يتصل بهما، ولكنه أوسع من ذلك دائرة وأبعد أثراً. وقد أتي على الناس حين من الدهر وهم يظنون الأدب حلية تراد للزينة وتستكمل بها مظاهر الترف، فكانت قصور الملوك والأمراء وذوي اليسار كما تضم الندمان والسقاة والجواري والغلمان، تضم الشعراء والكتاب والقصاص والرواة، قصاراهم أن يكونوا أداة لهو وتسلية تَشرح بهم الصدور وتُنسى الهموم. فلما ترفع الأدباء والشعراء عن تلك المنزلة قصدوا إلى الأدب والشعر بالتكريم فصانوهما عن التبذل في خدمة الأمراء والثراة إلا قليلاً، فأصبح الشاعر يقول ليرضي ذوقه الأدبي، وأصبح الكاتب يكتب ليصف شعوره هو قبل أن يصف شعور الآخرين؛ وبذلك استقل الأدب، ونال الأدباء والشعراء حريتهم، وانطقوا يهيمون في جوهم الصافي، وينعمون بأحلامهم اللذيذة؛ لا يحبون أن يكدرها عليهم مكدر، ولا أن يفسدها عليهم مفسد؛ ولكنهم كانوا من ذلك في شبه غيبوبة عن الحياة العملية المثمرة، لا ينفذون إلى صميمها، ولا يُعنَوْن إلا بحواشيها وأطرافها، ورضوا بالفقر حليفاً، وبالبؤس صاحباً؛ وخيلوا للناس أن الأدب والفقر صنوان، ورضيعا لبان! وأن الأدباء والشعراء هم وراث (أبي الشمقمق) في كل زمان!
أما في هذا العصر، فقد تغيرت المثُل، واستبدل الأدباء بنهجهم في الحياة نهجاً سواه: أصبح الأديب هو الذي ينفذ بقلمه وذوقه إلى دقائق العلوم، ومعضلات الفِكَر والآراء. هو الذي
يجلو الغوامض، ويفتح المغاليق، وييسر المعاسير. ذلك اليومَ هو صميم الأدب، وقصارى الأديب، وذلك هو الوضع الصحيح الذي ينبغي أن تقوم عليه العلاقة بين الأدب والعلم!

من ظن أن الأدب في هذا الزمان إنما هو أنشودة تنشد، أو أغرودة تغرد، أو خيال يسبح في جوه الهائمون، أو وصف لزهرة مشرقة، أو طائر صداح، أو عاشق ولهان، أو قلب خفاق، أو عين باكية، أو ثغر بسام، أو جمال فتان، أو قد ممشوق، فقد ظن عجزاً!

إن ذلك من الأدب حقاً، ولا يستطيع أن ينكر ذلك منكر، ولكنه اليوم ليس المثل الأعلى للأدباء، وإنما هو لون من ألوان غذائهم الروحي يتشَهَّوْنه الفينةَ بعد الفينة، وهو بعد ذلك أقرب ثمرات الأدب إلى يد الأديب وأيسرها منالاً. أما العلوم والمعارف؛ أما مشكلات الحياة وقضايا العقول؛ أما سهر الليالي ومجافاة الجنوب للمضاجع في سبيل التحصيل والتزود من زاد البصائر، فتلك هي الحَلْبة لمن أراد السباق!!

أعيذك بالله - يا صديقي - أن تستخف بأمر الفقه والأصول وأسرار التشريع، أو يثقل عليك القول في إصلاح الأزهر وتقويم ميله، أو يداخلك اليأس حين ترى الداء مستشرياً والطبيب حائراً

إن الشرق الإسلامي قد استفاق من سباته العميق، وإنه يريد أن ينهض وأن يستعيد مجده السالف يوم كان مصدر النور والمعرفة، بل يوم كان مصدر الهداية ومنبت الخير، ولو تأملنا بوادر هذه النهضة وتأملنا إلى جوانبها بوادر الانهيار، بل عوامل الدمار التي تعمل عملها السريع في إهلاك أعداء الشرق وخصوم الإسلام لكان لنا أن نؤمل دورة الفلك، وأن نأخذ في تكميل أنفسنا، وتصحيح أخطائنا، والرجوع إلى قوميتنا استعداداً لما ينتظرنا. وهذه الشريعة الإسلامية هي الشريعة التي نلنا بفضلها أسباب السماء في الماضي، ولم يجد أعداؤنا منفذاً إلينا ونحن متمسكون بها؛ وفقه هذه الشريعة هو فقه الحياة والعمل، هو فقه العدل والرحمة، هو فقه الحضارة والمدنية في أبهى صور الحضارة والمدنية؛ فإذا تكلم في شأنه المتكلمون، ودعا له الكتاب، وعرض الأدباء العاملون بعض صوره على الناس، وخلصوه مما أضيف إليه واختلط به، كل بمقدار ما يستطيع، فإنهم لا يقومون في ذلك بواجب ديني فحسب، وإنما يقومون مع ذلك بواجب قومي وطني لا مناص لأهل العلم والأدب جميعاً من التعاون على حمل أعبائه. ومثل ذلك يقال عن الأزهر: ينبغي أن يلتفت إليه أدباؤنا، وأن يكتب في شأنه كتابنا، لأنه (جامعة الشرق)، ووارث ثقافته، وعنوان مجده، ومعقد آماله!

إنك - يا صديقي - تقول لي في كتابك: (سوف تضيع صيحاتك وصيحات غيرك في شأنهما هباءً كما ضاعت من قبل صيحات وصيحات). وأحب أن أقول لك إنه لم يضع شيء أبداً، وإن الذين صاحوا من قبل قد أثروا بصيحاتهم آثاراً بعيدة المدى في العلم والتفكير والإصلاح. ويمكنك أن ترجع إلى عهد الأستاذ الإمام محمد عبده، لتوازن بين عقلية الأزهر الماضية وعقليته الحاضرة في العقائد والفقه وأحكام المعاملات والأحوال الشخصية، فتلمس الفرق بينهما، وتدرك أن صيحات هذا المصلح الديني لم تذهب هباء ولقد كان الأستاذ الإمام محمد عبده أديباً رائع البيان، وكان له ذوق ممتاز في فهم الشعر والنثر ظهر أثره في تفسيره لما فسر من القرآن، فهل منعه ذلك أن يؤلف في علم الكلام، وأن يفتي في الفقه، وأن يشرع شَبَاة قلمه لتأييد دعوته الإصلاحية الكبرى؟

بل لقد كان الإمام الشافعي رضي الله عنه أديباً عاش في البادية ونزل في هذيل، يقيم معها ما أقامت، ويرحل معها إذا رحلت، ويتعلم كلامها، ويحذق لغتها، ويروي أشعارها، حتى بلغ من ذلك شأواً بعيداً، ولكنه لم يجعل هذا غرضاً، وإنما اتخذه وسيلة إلى علم أكبر، وفضل أظهر، ووقرت في نفسه كلمة الزبيدي الذي لقيه في طريقه، فتحدث إليه فوجده فصيح اللسان، عبقري الذكاء، فقال له: أيها الفتى! يعز عليّ ألا يكون مع هذه الفصاحة وهذا الذكاء فقه تسود به أهل زمانك! وقد أراد الله ذلك، فإذا الشافعي رجل من الرجال العالميين، وإذا اسمه مسجل في سجل الخالدين!

أما بعد، فيا صديقي العزيز: لا تَلْحَني ولكن أَعِنيَّ

محمد محمد المدني

المدرس بكلية الشريعة

خواطر وصور

تثيرها مرحلة من الطريق بين القاهرة وبغداد

(إلى الأستاذ المازني نسوق السؤال)
للأستاذ فخري شهاب السعيدي
كانت مفازة رهيبة!
ولم يكن فيها من آثار الإنسان غير اثنين: هذه الأسلاك النحاسيّة المعلّقة في الهواء على ركائز من الحديد الصابر المتين: تبيّن ما طُوِي من الشّقة، وما ظل ينتظر الطيّ؛ وهذا الطريق الأسود الطويل. . . الذي لا تكاد تدرك العين والسيارة آخر ما يمس الأفق من تعاريجه ومرتفعاته، حتى تتكشّف أمام العين مناظر منه أخرى، وحتى تتبدى للسيارة منه تعاريج وأطوال. . .
وكانت السيارة صابرة على هذا الأسود الممتدّ أمامها، الهازئ بها، الذي يمتحن صبرها بأعاجيب من عنده: فتارة يلتوي لها، وأخرى ينحدر؛ وطوراً ينحني أمامها، وحيناً يستدير. . . وهي لا تعبأ بهذا الهازئ الممتحن، بل تمضي قُدُماً، وصوت شهيقها وزفيرها، وقلبها الخافق، ودمائها الغالية ملء أسماع الركب الذين أسلموها القياد في صبر واضطرار!
وكانت السآمة قد تَغشّتهم جميعاً مما يتدفق أمام عيونهم من مناظر الصحراء، وما كانت هذه لتعدو الرمال والجلاميد، والهضاب العالية والوديان الخالية، وكل ما يمثل الموت والسكون والجمود من آثار الطبيعة. وما أشد صدوف الناس عما يذكرهم بمثل ذلك من آثار!
كان بعضهم يزجي فراغه بالحديث يرفعه عالياً ليغالب زئير السيارة الذي ملأ . . . الفضاء والأسماع، ثم لا يلبث - هذا البعض - أن تتعبه المغالبة فيستنجد بالسكوت. وكان بعضهم يأكل! نعم كان يقتل السآمة بالأكل. وبعضهم كان يقرأ. وكنت أنا من بينهم وحدي الذي طاب له أن يقصر عمله على اثنين: مطالعة هذه الصفحة الصحراوية، الجميل خطّها، المذهب متنها بفعل الرمال، والمفضّضةِ حواشيها بإطار الأفق الجميل؛ والتحدث إلى نفسي والأخذ منها والرد عليها فيما كان يحضرني من أفكار. . . وبين هذين العملين، أو هذين الشاغلين - بكلمة أخرى - كان الوقت يمضي مسرعاً، والسيارة تنهب من الأرض كيلو
متراتها نهباً؛ وكنت وجدت في ذلك لي متعة كان يحظرها عليّ المجتمع لو أنني أضعت هذا الوقت فيه!
وعندي أن الأخذ من النفس والرد عليها، ومحاورتها بألوان الأفكار، ومناقشتها في ضروب من الآراء، مما يرتاح الإنسان إليه - أو أنا على الأقل، فما أدري ما حال الناس غيري - ولقد تمّر عليّ في حال معينة وظرف بعينه لحظات أود لو أني استطعت أن أكون من هذا المجتمع في نجوة لألقي تلك الصديقة المحببة. . . التي هي نفسي، فأجلس إليها وأداعبها وأعابثها وأحاورها، وأسمعها وتسمعني في صنوف شتى من أبواب الجد الهازل أو الهزل الجاد!
أما الصحراء هذه الصحيفة التي تنبسط أمامي جديدة من سفر الوجود، فما كان أجملها، وما كان أروع الجلال الذي كان يشع منها على النفس فيصغر من شأنها، ويقلل من تيهها، ويذلل من كبريائها، ويصهر جوهرها صهراً يصفيه ويطهر الأعراق
كم من البشر - قبلنا - مروا بك أيتها الصحراء؟ وكم ركباً قبل هذا اقتحم مفاوزك هذه، ثقةً منه بنفسه، واعتماداً منه على قدرته، واتكالاً على ما أوتي من علم؟ وكم منهم نجا، وكم كان في الهالكين؟ لم أنجيت من أسرك فريقاً؟ ولِمَ اقتنصت فريقاً، فأطبقت عليهم في غير شفقة ولا رحمة، ولا ذكر لذويهم الذين استودعوك قلوبهم وائتمنوك عليها ثقة منهم بعدلك فإذا أنت تضيعين الثقة وتخلفين الرجاء؟!
كم - أيتها الصحراء - فيك من قوافل تسمع ولا تجيب، وتحتمل وطأنا إياها ولا تئن؟ لم لا تطلقين هؤلاء من أغلالهم، وترديهم إلى أهلهم فتكسبي حبهم وشكرهم وثقتهم، وتعودون - أنت وهم - بعض لبعض أحباباً؟! ألا تعجبك أيتها الصحراء صداقة الإنسان؟!
يا الله!
مالها لا تحير جواباً! لعلها كانت تنطق فلا أسمع وترفع بالإجابة صوتها فتتلقاه أذني دوياً لا تستطيع آدميتي فهمه واستجلاء معانيه!
وعدت أنظر إلى هذه التلال ثانية فإذا هي قد نّمتْ وكبرت وتضَخّمت حجارتها واشتدتْ صلابةً وأيْداً؛ وقد علمت - حين سألتُ عن السر - أننا شارفنا أرض فلسطين!! فالقيعة

- إذا تلبس لباس وقارها وحشمتها لتدخل الأرض المقدسة أرض المعاد! فما بالنا نحن البشر
- لا نلبس لهذه الأرض المقدسة لباسها كما تفعل الأرض ذاتها، ولا نحييها باطراح شرورنا ونبذ ما ران على قلوبنا، كما تصنع هذه الجلاميد؟ ولقد هممت أن أقوم احتراماً، بل لقد قمت فعلاً، فما راعني إلا أن أجلستني السيارة المنطلقة في عنف، طالبة أن أكف عن الاسترسال في هذا الخيال وأنصرف معها إلى ما هي فيه من جد وكد عنيف!

ولم نلبث بين هذه الجلاميد إلا ساعة أو نحوها حتى تبدت الأرض في حلة من وشى جديد، تختلط فيه خضرة العشب الغض بسواد الصخور الصم، فكأن الطبيعة قد أرادت بهذا الجمع بين النقيضين أن تجيء بالبرهان القاطع على أنها لا تعرف هذا الذي تواضع الناس عليه من فصل بين شتى مظاهرها في هذا الكون الذي هو معرض الاتساق!

وكان جميلاً أن يُرى ما كان يحسبه الإنسان من هذه الصخور الجرد مثالاً للقسوة وتمثالاً للجمود ينشئ الحياة الغضة إنشاءً ويخرجها أعشاباً طرية من بين الفرجات الصغيرة التي فيه، ويجمع لها في هذه الشقوق الماء الذي تحتاج إليه لترتاح له وتأنس إليه - في ضمان حياتها - وتطمئن بالمقام عنده.

وكانت الجبال على أتم صلة ببعضها، فلا يفصل بينها شيء إلا صبغته بصباغها الأَحْوى، وعلمته كيف ينساق لمشيئتها في غير تردد ولا بطء: فالجداول الصغيرة، والوديان الفسيحة، وهذا القليل من رحاب الأرض المنبسطة، ومخارم الجبال ذاتها أيضاً، كل أولئك كان طائعاً لتلك الجبال يصل ما بينها ليظهرها أمام العين بمظهر واحد ينم على الألفة المتينة والوداد الجميل.

وكانت هذه المشاهد التي تطغي على القلب والعقل، فتملأ ذاك غبطة وتزيد هذا إيماناً بالعجز أو سدوراً في الضلال، جديدة أمام عيني؛ وكان كل واحد منها جديراً بأن أطيل النظر فيه لنتعارف، ولكن السيارة كانت تأبى، وحسبتْ أن ذلك قد يطول منا فنعتاقها عما هي وراءه من تقريب الشقة أمام هذا الركب الضجر الملول. وجدة المشاهد أمام العين تذكّر بعهد الطفولة حين يخرج الواحد منا من ظلماته الأزلية إلى هذا النور الدنيوي - أو الذي نسميه نوراً وما ندري من أمره حقيقة ولا ندرك كنهاً - فكل ما تقع العين عليه جديد لذيذ، يبعث الفضول ويرهف الحس ويصب على الفكر وابلاً من الأسئلة الخالدة التي تطوف في فكر كل ذي فكر؛ ثم لا يلبث المرء أن تعييه الإجابة فينزل عند حكم المشيئة التي أرادت له مثل هذه الحواس المحدود إدراكها، ومثل هذه القوة العاقلة التي يسرع التعب إليها قبل بدئها في البحث عما هي وراءه من استكشاف المجاهيل!

ونبّهتني هذه الخواطر إلى ما للجهل من فائدة وفضل على الناس، واذكرني هذا بالنظرية التي تقول: إن كل شيء خيّر في الطبيعة إذا وُضِع في موضعه وأُحِلّ في المكان المناسب له. فالجهل مثلاً - وهو موضوعنا - يثير فضول القوى العاقلة لدى الناس، ويعقّد أمامهم مشاكل عويصة يعالجون حلها، فكثيراً ما يضلون وقليلاً ما يهتدون. ولكنهم - وعلى أية حالة كانوا - تفيض السعادة والراحة على قلوبهم حين القصور، وحين البلوغ على حد سواء!!

وأذكر أني كنت ذات مرة في زيارة لخرائب بابل، وكنت وقتئذاك صبياً يحسب العلم وقفاً على المسّنين. فسألت أحد الأدلاء - وكان شيخاً - وكان جاهلاً أميّاً - عما صيّر هؤلاء الآدميين الذين كانوا مثلنا من لحم ودم - حجارة! فأجاب أو أجابت بديهته - فما كان عنده عقل يجيب -: غضب الله! وقد ضللت أعتقد بصحة هذه الجملة التي انطلق بها لسان دليلي العامي حتى دخلت المدرسة فعُلِّمْت غير هذا، ووعيت في حافظتي كلاماً غير كلام الدليل، علمياً منطقياً، تقوم على تأييده والبرهنة على صحته حجج قواطع. فاستسخفت ذلك الساذج، واستسخفتْ نفس ذلك الطفل الذي لم يحاكم القول الذي سمع؛ ولكني أشهد الله (تعالى)، على أن نفسي اليوم لا تستطيب معنى أحلى، ولا جملة أبلغ، ولا فلسفة أعلى مما انطلقت به بديهية الرجل الجهول!! هل ترى العالم المنقّبَ الفاضل حين يدخل خرائب البابليين يَعْمُرُ صدره بالإيمان، وترتفع روحه إلى أجواء من السعادة العلوية، وتتملكه الروعة والجلال كهذا الدليل الجاهل الأمي الجواب عندي (لا)!!

لأني من المؤمنين بأن للجهل نفعاً، وأن شأنه في هذا شأن كل ما أبدعته الكف الصَّناعُ الخالقة الجليلة في هذا الكون الجميل. . . وهنا بانت لنا عن بعد دائرة جوازات السفر على الحدود الفلسطينية فأبدلتنا بأفكارنا غيرها، وتبددت هذه الأخيلة وكان ما كان. . .
فإلى الأستاذ المازني الجليل نسوق سؤالاً عن نفع الجهل؛ فقد كان حدثنا بحديث من ذلك قبل سنين. فإن رأى - أطال الله بقاءَه، وجعلنا من كل سوءٍ فداءَه - ألاّ يبخل بهذه الآراء
على قراء (الرسالة) فعل وله منا ومنهم ألف شكر!

فخري شهاب السعيدي

من أدب القرن التاسع

كتاب (سحر العيون)

للأستاذ أحمد يوسف نجاتي

كنت منذ حين قرأت حديثاً للأستاذ أحمد بك أمين يعرض فيه (كتاب سحر العيون) عرضاً شائقاً - والكتاب مطبوع قديماً بدون أن يذكر في أوله اسم مؤلفه - ورأيت الأستاذ يقول في هذا المقال القيّم: من الأسف أني لم أعثر على اسم مؤلفه. ولكنه في ثنايا الكتاب يقول: (أنشدني صاحبنا الشيخ شمس الدين محمد ابن أبي بكر القادري المولود سنة 824. فمؤلف الكتاب إذاً - من أدباء القرن التاسع الهجري - والظاهر أنه مصري لأنه يروى لنا في ثنايا الكتاب أحداثاً مصرية وأمثال عامية مصرية) فأسفت لأسف الأستاذ، وأردت أن أكتب ترجمة طويلة لهذا المؤلف تكشف الحجاب عنه، وأن أعرض ما أعرفه من مصنفاته عرضاً دقيقاً وأحلله تحليلاً أدبياً مسهباً. ولكن عدت دون ذلك عوادٍ صارفة لا قبل لي بها، وحالت دونه عوائق شاغلة لم يكن أمر نفسي معها بيدي. وطال الأمد على ذلك حتى أنسيت ما كنت قد عزمت عليه؛ وشغلتني أعمالي الكثيرة بغيره، إلى أن سألني اليوم أحد الطلبة الأدباء عن مؤلف هذا الكتاب؛ فذكرني بما كنت قد نسيته؛ ورأيت أن أنتهز هذه الفرصة السانحة فأسعف طلبته بهذه الكلمة الموجزة التي أحررها على عجل. وفي العزم إن شاء الله أن أبسط القول في ترجمة هذا الأديب وترجمة شيوخه وأصحابه ومعاصريه الذين تربطهم به صلة وثيقة كان لها أثر بين في أدبه؛ وأن أطيل الكلام في الأدب المصري والشامي في عصر المماليك عامة وفي القرن التاسع خاصة. وأرجو أن تفسح لي مجلة (الرسالة) الغراء صدرها فعهدي بها مجلة الأدب الرفيع وحلبة ميدانه الذي تجول فيه أقلام فرسانه من الكرام الكاتبين

1 - لقد دل مؤلف (سحر العيون) على نفسه في نحو عشرين صفحة من كتابه، ونادى باسمه (البدري) فيه كثيراً حتى بحّ صوته. وكأني به في ص 188 قال: (من عرفني فقد اكتفى، ومن لم يعرفني فأنا جامعه البدري عفي عنه، مولده في عشية الثلاثاء رابع عشر ربيع الأول من شهور سنة سبع وأربعين وثمانمائة) وسنعرض بعد لسائر الصفحات التي صرح فيها باسمه، ونتناول شعره فيها وفي غيرها بالنقد والتحليل

2 - للبدري مؤلف (سحر العيون) كتاب آخر اسمه: (نزهة الأنام في محاسن الشام) طبع بمصر بالمطبعة السلفية سنة 1341هـ صدر عنوانه في أول صفحة منه بما يأتي: نزهة الأنام في محاسن الشام، تأليف أبي البقاء عبد الله ابن محمد البدري المصري) الدمشقي من علماء القرن التاسع (ولد سنة 847) صاحب الديوان المشهور، وتاريخ (تبصرة أولى الأبصار) و (سحر العيون) اهـ. وقد دل المؤلف أيضاً على نفسه في هذا الكتاب في كثير من صفحاته، وموعدنا بالكلام في هذا الكتاب وسواه قريب إن شاء الله

3 - وفي فهرس الكتب العربية لدار الكتب الملكية بالجزء الخامس المشتمل على فهرس التاريخ في ص 387 ما نصه:

نزهة الأنام في محاسن الشام، تأليف أبي البقاء عبد الله ابن محمد البدري المصري) الدمشقي من علماء القرن التاسع، ولد سنة 847 (وكتب سنة747 غلطاً)، وهو صاحب الديوان المشهور والتاريخ المسمى: (تبصرة أولى الأبصار في انقراض العمر بين الليل والنهار)، (سحر العيون). الخ

وإني أنصح لمن يعنى بالأدب وتاريخه أن يطلع على فهارس دار الكتب، فإنه يعثر فيها على فوائد جمة ويهتدي إلى مراجع قيمة في اللغة العربية وآدابها وتاريخها. وفي

كشف الظنون (نزهة الأنام في فضائل محاسن الشام) لأبي البقاء عبد الله ابن محمد البدري المصري الدمشقي الشافعي
4 - وأبين مما تقدم ترجمة علم الدين السخاوي في كتابه (الضوء اللامع) لمؤلف (سحر العيون). ونحن ننقل هذه الترجمة بنصها، ونشفعها بشرحها ونقدها. قال: (أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن أحمد بن عبد الله تقي الدين بن الجمال الدمشقي القاهري الشاعر الوفائي، ويعرف بابن البدري، ويكنى أيضاً أبا البقاء، ولد في شهر ربيع الأول سنة 847 بدمشق ونشأ بها، وتكرر قدومه مع أبيه للقاهرة ثم قطنها مدة، واشتغل بالبلدين قليلاً. وكتب عن خلق من الشيوخ فمن فوقهم. وتعانى الشعر ومدح وهجا وطارح. وتردد إليَّ فأخذ عني ومدحني فيما كتبته في موضع آخر، وفيه:
جد لي سريعاً بالحديث إجازة ... يا كاملاً دُم وافر الإعطاء
وانتمى لبني الشحنة وتكسب بالشهادة وبالنسخ. فلما ولى الأمشاطي عمل فيه أبياتاً فلم يقابله
عليها، إلى أن تعرض لعبد الرزاق الملقب عجين أمه نزيل القاضي في البرقوقية ونسبه لأمر فظيع الله أعلم بصحته، فبادر لتطلبه فلم يقدر عليه، فصرح بمنعه من تحمل الشهادة فلم يلبث إلا يسيراً. وماتت له زوجة فورث منها قدراً طائلاً بعد فقره فلم أطرافه وسافر لمكة فجاور ثم قطن الشام، ثم جاور بالمدينة سنة 892 وكتب فيهما من تصانيف الشريف السمهودي وغيره، ثم جاور التي تليها سنة 892 بمكة؛ وكان يجتمع عليّ بها، وكتب من تصانيفي مجموعاً، ولازمني في التحمّل رواية ودراية. وأوقفني على مجموع سماه (غرر الصباح في وصف الوجوه الصباح) وقرظه له الشعراء فأبلغوا، وكان من أعيانهم البرهان الباعوني وأخواه، والشهاب الحجازي، والمنصوري، والقادري، وابن قرقماس. وقال إنه ألفه بدمشق سنة 865، والتمس مني تقريظه فأجبته وكتبت له إجازة حسنة، وامتدح قضاة مكة وغيرهم، وليس نظمه بالطائل، ولا فهمه بالكامل. وكتبت عنه من نظمه:
إذا ما كان مجموعي لديكم ... من الدنيا بهذا قد قنعت
وما قصدي سوى هذا وحسبي ... بأني في يديك وما جمعت
وكان يتكسب بالتجارة، وربما جلس بحانوت بمكة في الموسم. تعلل بمكة مدة وسافر منها وهو كذلك في أوائل المحرم سنة 894 في البحر فوصل إلى الطور ثم غزة فأدركه أجله هناك في جمادي منها. وبلغنا ذلك في شوال - عفا الله عنه - وترك ولدين أو أكثر وتركة، وأظن والده في الأحياء. عفا الله عنه وإيانا) اهـ
انتهت ترجمة السخاوي. وهو معروف بأنه قد يتحامل علي بعض معاصريه، ويقذفهم بعبارات تهكم لاذعة وقوارص من الكلم تنطوي على سخرية مريرة، بداعي المنافسة والمعاصرة والازدحام على منهل عذب واحد. وقد قال فيه معاصره (ابن إياس) في كتابه (بدائع الزهور): (إنه ألف تاريخاً فيه كثير من المساوئ في حق الناس). وأنشأ معاصره (جلال الدين السيوطي) مقامة من ضمن مقاماته سماها (الكاوي في رد تاريخ السخاوي) شنع عليه فيها. . . يقول فيها: (ما ترون في رجل ألف تاريخاً جمع فيه أكابر وأعياناً، ونسب لأكل لحومهم خواناً، ملأه بذكر المساوئ وثلب الأعراض، وفوَّق فيه سهاما على قدر أغراضه والأعراض هي الأغراض. وجعل لحم المسلمين جملة طعامه وإدامه، واستغرق في أكلها أوقات فطره وصيامه. . .) والمقامة مخطوطة محفوظة بدار الكتب
الملكية تحت رقم 1510. فينبغي للمنصف أن يقف أمام بعض تراجم السخاوي موقفاً محايداً مروياً
ونحن بعد هذا نشرح ما يحتاج إلى الشرح والتبيان من ترجمة علم الدين السخاوي لأبي بكر البدري، ونشفع ذلك بنقده ونصل القول إلى ما وعدنا به من ترجمة حياة هذا الأديب ترجمة ضافية وترجمة أدباء عصره وأقرانه وشيوخه وأصحابه، ونكشف النقاب عن الأدب المصري في القرن التاسع بل في عصر المماليك عامة بإذن الله
1 - أما بنو الشحنة الذين انتمى إليهم البدري فهم من أسرة شامية من مدينة حلب كريمة الأصل والحسب، عريقة في العلم والأدب. وقد تقلدوا كثيراً من الوظائف العلمية والدينية بالشام ومصر من قضاء وإفتاء وخطابة وتدريب. وكان لبعضهم أثر في الحركات السياسية في ذلك العصر؛ وجدهم الأعلى (محمود) من أصل تركي وهو

الملقب بالشحنة لأنه كان شحنة مدينة حلب (وشحنة البلد من فيه الكفاية لضبطها من جهة السلطان)، فهي وظيفة كأنها وظيفة (الحكمدار) الآن.

ومن أقدم من عرفت من بني الشحنة:

1 - كمال الدين محمد بن محمد بن محمود (الشحنة) بن غازي ابن أيوب، كان من فضلاء زمانه متقناً لعلوم الدين واللسان، واشتغل بالتدريس والقضاء ونشر العلم وإفادته. وتوفى بمدينة حلب في شهر ربيع الأول سنة 776.

2 - وابنه أبو الوليد محب الدين محمد بن محمد بن محمود ولد سنة 749 بحلب ونشأ بها في كنف أبيه وارتحل إلى دمشق والقاهرة للأخذ عن علمائها. وارتحل مرة أخرى إلى مصر سنة 777 بعد وفاة والده فظهرت بها فضائله فولاه سلطانها قضاء بلده حلب سنة 778 فلبث بها حيناً يتقلب بين الولاية والعزل حتى فصله السلطان برقوق سنة 793 فعاد إلى القاهرة وأقام بها نحو ثلاث سنين، ثم توجه إلى بلده وشغل نفسه بالتأليف وإفادة العلم، ثم ولى قضاءها سنة 809، وبعد حوادث عاد إلى القاهرة معزولاً عن عمله فولى بها عدة وظائف في التدريس، ثم عاد إلى وطنه حلب فتوفى بها في شهر ربيع الآخر سنة 815 وكان نابغة في علوم اللغة والدين والأدب والتاريخ، وله مؤلفات مفيدة ذكر منها في كشف الظنون كتاب (أوضح الدلائل والأبحاث فيما تحل به المطلقة بالثلاث) و (روض المناظر في علم الأوائل والأواخر) انتهى فيه إلى سنة 806؛ وبدار الكتب المصرية نسخة منه مخطوطة في مجلد فرغ كاتبها منها آخر شوال سنة 1297هـ نقلها عن النسخة الخطية بخط أبى الحسن علي بن حسن بن علي ابن احمد السروي الأزهري، انتهى من كتابتها في شهر شعبان سنة 873 وهي منقولة عن نسخة بخط القاضي محب الدين أبي الفضل محمد بن محمد بن محمود بن الشحنة ولد المؤلف، أتمها كتابة في شهر رمضان من سنة 825

وكان عاقلاً ذكياً دمث الأخلاق، حلو النادرة، لطيف المحاضرة، قوى البديهة. قال المقريزي: ولقد قام مقاماً عجز أقرانه عنه، وتعجب أهل زمانه منه، وذلك أن الطاغية تيمورلنك لما استولى على مدينة حلب 803 وتسلم قلعتها بالأمان بعد أن استحرَّ القتل والأسر في أهليها، صعد إليها وجلس في إيوانها وطلب القضاة والعلماء لملاقاته فامتثلوا أمره. وكان من عادته أنه إذا فتح مدينة يعقد مجلساً لمناظرة علمائه وإعناتهم، وكأنه يريد أن يريهم أنه على حق في عمله، ويصبغ فظائعه المروعة صبغة شرعية. واتفق هؤلاء العلماء فيما بينهم أن يتولى القاضي ابن الشحنة الإجابة عن الأسئلة التي يوجهها تيمور إليهم ثقة بحذقه وحسن تصرفه. وكان للطاغية إمام من جلَّة المعتزلة هو القاضي عبد الجبار بن عبد الله الخوارزمي الحنفي ولد سنة 770 وتوفي سنة 805 وكان عالماً قديراً بارعاً متقناً لعلوم الدين واللغة والأدب، يجيد اللغات العربية والفارسية والتركية، وكان ذا ثروة طائلة وجاه عظيم ومنزلة رفيعة لدى تيمورلنك حتى انتهت إليه الرياسة في أصحابه. وكان يصحبه معه في غزواته لمناقشة العلماء ومناظرتهم وليكون حلقة اتصال بالترجمة بينه وبينهم. وقد كان القاضي عبد الجبار رحمة للمسلمين، طالما أنقذهم من غضب الطاغية وسخطه، وأطفأ عنهم نار ثورته وحدته. وكان ربما تبرم من صحبة تيمورلنك في نفسه ولكن لا يسعه مخالفته مع ما يرجو في ذلك من ثواب نفعه للناس لدى هذا الطاغية وكف شره عنهم.

عقد تيمور المجلس وأخذ يوجه إلى العلماء الأسئلة بوساطة إمامه، وابن الشحنة يجيب عنها بلباقة، فكان من ضمن هذه الأسئلة أن قال لهم: أي الطائفتين من القتلى هو الشهيد، أمن قتل منكم أم من قتل منا؟ وقد كان هذا السؤال محرجاً لولا مهارة القاضي ابن الشحنة؛ فقد

أجاب قائلاً: لقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مثل ذلك فأجاب: فإنه وفد إليه أعرابي وسأله: يا رسول الله، إن الرجل ليقاتل حمية، ويقاتل شجاعة، ويقاتل ليرى مكانه، فأينا في سبيل الله؟ فقال صلى الله عليه وسلم: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو الشهيد في سبيل الله. . . فراق تيمورلنك هذا الجواب وأحسن إلى ابن الشحنة، وأعجب بدهائه وحسن تخلصه ولطف احتياله وسرعة بديهته، وجعل يؤانس العلماء ويلاطفهم، ووعدهم العفو عنهم حتى أفرخ روعهم؛ وأقبلوا يجيبون على أسئلة تيمور بما عندهم، وكان آخر ما سألهم عنه أن قال: ما تقولون في علي ومعاوية

ويزيد؟ وما الحكم في قتال علي ومعاوية؟ وهل يجوز لعن معاوية وابنه؟ فأجاب القاضي علم الدين القفصي: محمد بن ناصر الدين محمد بن محمد الدمشقي قائلاً: إن علياً اجتهد وأصاب فله أجران، ومعاوية اجتهد وأخطأ فله أجر واحد. فغاظ ذلك الجواب تيمورلنك وأهان العلماء وسبَّ أهل حلب، ورماهم بأنهم يزيديّون يبغضون أهل البيت وشيعتهم، فتدارك ابن الشحنة الأمر بلطفه وقال: إن القاضي علم الدين أجاب بما وجده في كتاب لم يمعن في معناه والغرض منه. فأعجب ذلك الطاغية، وسكت عنه الغضب. وأجاب القاضي شرف الدين موسى ابن محمد بن محمد قاضي حلب المتوفى سنة 803 بأن معاوية لا يجوز لعنه لأنه صحابي؛ فثار الطاغية وسب العلماء، ولولا أن القاضي شفع ذلك بقوله: إنه رأى حاشية على بعض الكتب بأنه يجوز لعن يزيد، ولولا أن الطاغية كان قد وعد بالعفو، ولولا حسن وساطة القاضي ابن الشحنة، للاقى العلماء يومئذ من تيمور شراً مستطيراً.

هذا، ولابن الشحنة نثر ونظم ليس عالي الطبقة، بل هو كشعر الكثير من أبناء عصره ومن ذلك قوله:

كنت بخفض العيش في رفعة ... معتدل القامة ظلي ظليل
فاحدودب الظهر وها أضلعي ... تعدّ والأعين مني تسيل

ومنه:

ساقي المدام دع المدام فكل ما ... في الكأس من وصف المدامة فيكا
فعل المدام ولونها ومذاقها ... في مقلتيك ووجنتيك وفيكا

ومنه:

أَسير بالجرعا أسيراً ومِن ... هَمّىَ لا أعرف كيف الطريق
في منحنى الأضلع وادي الغضا ... وفوق سفح الخد وادي العقيق

هذا وقد كان أبو الوليد بن الشحنة ممدَّحا. وممن مدحه الجمال عبد الله بن محمد بن زريق المعري ثم الحلبي. ولد سنة 775 بالمعرة ونشأ بها ثم قدم مدينة حلب فاشتغل بها وتوفى سنة 827 وكان فاضلاً أديباً ناظماً ناثراً محسناً. . . قال فيه قصيدة مطلعها:

لم أدر أن طُبَى الألحاظ والهدب ... أمضى من الهندوانيات والقضب

3 - وأبو الوليد هذا كان يكنى بابن له اسمه الوليد كان آية في الذكاء أديباً ناظماً ناثراً. توفى شاباً في حياة أبيه حوالي سنة 804هـ

4 - وأخوه فتح الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمود ولد سنة 753 بحلب ونشأ بها. وأخذ عن أبيه أخيه وغيرهما. وقدم القاهرة غير مرة. وناب عن أخيه في قضاء الحنفية بحلب وكان ذا حشمة ومروءة وعناية بالأدب. وله نظم قليل منه:

يا سادتي رقّوا لرقّة نازح ... لفظته أيدي البعد عن أوطانه
والله ما جلتم بخاطر عبدكم ... إلا وفاض الدمع من أجفانه

(يتبع)

أحمد يوسف نجاتي
الأستاذ بكلية اللغة العربية

3 - ابن خُرداذَبهَ

للأستاذ كوركيس عواد

لقد تطرق غير واحد من الكتبة والمؤلفين الأقدمين إلى ذكر هذا الكتاب، والكشف عن محاسنه ومساوئه. من ذلك ما حكاه المسعودي بشأنه، نورده هنا استتماماً للموضوع، وإظهاراً لرأي مؤرخ وبلدانيّ جليل، ارتآه في كتاب ثمين تتداوله الأيدي في يومنا. قال المسعودي:

(وقد ذكر عُبيْد الله بن خرداذبه، في كتابه المترجم بالمسالك والممالك، أن الطريق من موضع كذا إلى كذا مقدار كذا من المسافة، ولم يخبر من الملوك والممالك، ولا فائدة في معرفة المسافات والطريق، إذ كان ذلك من عمل الفتوح وحمال الخرائط والكتب. وذكر أيضاً أن خراج طساسيج العراق كذا وكذا من المال، وهذا ما ينخفض ويرتفع ويقل ويكثر على حسب الأحوال وتصرف الأزمان، وإن جبل العَرْج الذي بين مكة والمدينة متصل ببلاد الشام، إلا أن وصله بالجبل الأقرع من بلاد إنطاكية وإن ذلك متصل بجبل الآكام هذا عجيب من قوله، أما تراه علّم أنّ أجزاء الأرض مماسة بعضها لبعض، متصلة غير منفصلة ولا متباينة مما بين بعضها ببعض إلا أن الأرض ذات وهاد

أهـ. أو قوله الآخر في هذا (وأنجاد وحدب. على أنه أحسن كتاب في هذا المعنى الكتاب:
ومن كتبه النفيسة، كتابه في المسالك والممالك، وغير ذلك مما إذا طلبته وجدته، وإن تفقدته حمدته)
أو قوله الثالث في هذا السفر عينه:
وقد صنف أحمد بن الطيب السرخسي، صاحب يعقوب بن إسحاق الكندي، كتاباً . . .) حسناً في المسالك والممالك والبحار والأنهار وأخبار البلدان وغيرها؛ وكذلك أبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهاني، وزير نصر بن أحمد بن إسماعيل بن احمد ابن أسد صاحب خراسان، ألّف كتاباً في صفة العالم وأخباره، وما فيه من العجائب والمدن والأمصار والبحار والأنهار والأمم ومساكنهم، وغير ذلك من الأخبار العجيبة والقصص الظريفة؛ وأبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبه في كتابه المعروف بالمسالك والممالك، وهو أعم هذه الكتب شهرة في خواص الناس وعوامهم في وقتنا هذا)
وقد أشار ابن حوقل إلى هذا الكتاب إشارة خفيفة بقوله:
ولا يقارب هذا التأليف عنده (عند قارئ الكتاب أو الناظر فيه. والكلام هنا على كتاب) صورة الأرض) كتاب الجيهاني ولا يوافق رسم ابن خرَّاداذَبه. . .)
ولابن حوقل كلمة ثانية بشأن هذا الكتاب، إلى القارئ نصها: (وكان لا يفارقني كتاب ابن خرداذبة وكان الجيهاني وتذكرة أبي الفرج قدامة بن جعفر. وإذا الكتابان الأولان قد لزمني أن أستغفر الله من حملهما واشتغالي بهما عن ما يلزمني من توخي العلوم النافعة والسنن الواجبة. . .)!
ومن الآراء الطريفة التي وقفنا عليها بصدد هذا الكتاب، ما حكاه البشاري المقدسي بقوله، وهو رأي تفرد به: (ومن مفاخر كتابنا (يعني كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) الإعراض عما ذكره غيرنا، وأوحش شيء في كتبهم ضد ما ذكرنا. ألا ترى أنك إذا نظرت في كتاب الجيهاني وجدته قد احتوى على جميع أصل ابن خرداذبة وبناه عليه، وإذا نظرت في كتاب ابن الفقيه، فكأنما أنت ناظر في كتاب الجاحظ والزيج الأعظم، وإذا نظرت في كتابنا وجدته نسيج وحده يتيماً في نظمه)
وكذلك ما ندد به البشاري المقدسي، حين قال:
وأما الجاحظ وابن خرداذبة، فإن كتابيهما (في المسالك والممالك) مختصران جداً . . .) لا يحصل منهما كثير فائدة. . .)
ومع ذلك، وجدنا المقدسي، ينقل غير مرة من كتاب ابن خرداذبة.
ولم يكن المقدسي الوحيد بين الكتبة الأقدمين الذين عرفوا كتاب المسالك والممالك ونقلوا عنه نقولاً مختلفة، بل هناك جماعة فعلوا فعله، نذكر منهم: ابن رسته، وابن الفقيه المهذاني، والمسعودي، وأبا الريحان البيروني، وياقوتاً الحموي، والشريف الإدريسي، والمقريزي، والقلقشندي.
أما ابن خرداذبة نفسه، فقد وجدناه ينقل أحاديث عن بعض معاصريه من ذلك قوله (المسالك والممالك ص 48)؛ وخبرني الفضل ابن مروان، والفضل هذا رجل من أهل البردان بالعراق استكتبه المعتصم وبلغ مقاماً رفيعاً في الدولة، ثم تقلبت به الأحوال بين صعود وهبوط، فذكر الطبري أن المعتصم غضب عليه سنة 220 وحبسه، ثم ذكر أن المتوكل
عزله سنة 234 عن ديوان الخراج، وحكى في مكان آخر أن المستعين عزله سنة 249هـ عن ديوان الخراج
ومما أشار إليه ابن خرداذبة في نقوله هذه العبارة ص 106: فحدثني محمد بن موسى، وعبارته ص 114، وحدثني أبو بكر بن عمر القرشي وعبد الله بن أبي طالب القرشي من كورة تونس بالمغرب قالا. وقوله ص 162 - 170 فحدثني سلام الترجمان، وقوله ص 180 - 181 وحدث أبو الفضل رائض بن الحارث بن أسد، وقد ذكر الطبري أباه الحارث بن أسد في غير موضع من تاريخه وقد يعمد ابن خرداذبة أحياناً إلى إغفال من ينقل عنهم والاكتفاء بالقول ص 178: وحدثني بعض من أثق به، أو ص 181 وحدثني محدث أنه. . .
والآن بعد أن أطلنا الكلام على كتاب المسالك والممالك، نعود إلى بقية مؤلفات ابن خرداذبة

4 - كتاب الطبيخ
5 - كتاب اللهو والملاهي في خزانة الأستاذ حبيب زيات مخطوط عنوانه (مختار من كتاب اللهو والملاهي لابن خرداذبة) ولا ندري ما إذا كان هذا (المختار) للمؤلف نفسه، أم أنه لشخص آخر. وليت صاحب المخطوط، وهو الباحث الكبير المعروف بسعة اطلاعه وبُعد تحقيقه، يعني بنشره، فيضيف بذلك مأثرة جديدة إلى مآثره العلمية الجمة
6 - كتاب الشراب
7 - كتاب الأنواء
8 - كتاب الندماء والجلساء
والغريب أنّ هذه المصنّفات الثمانية باستثناء المسالك والممالك لم نقف البتة على ذكر لها، في ما سوى الفهرست لابن النديم. وهذا كشف الظنون للحاج خليفة، وهو من أوسع المراجع التي تَقِفُنَا على الكتب، لم يتطرق إلى تسمية شيء منها، اللهم إلا المسالك والممالك، وما قاله فيه لا يتعدى كونه رأياً منقولاً عمن سبقه، كما أسلفنا القول في ذلك في موطن آخر من بحثنا
هذا ونحن على يقين من أن لابن خرداذبة تصانيف أخرى، الثمانية المشار إليها أعلاه. فقد أورد المسعودي مقالة ابن خرداذبة في (الموسيقى)، وهي التي قالها بحضرة الخليفة المعتمد
فهل تكون هذه (المقالة الموسيقية) فصلاً أو قطعة من أحد الكتب التي ألمعنا إليها، أم أنها شيءٌ قائم بذاته فات ابن النديم ذكره، فكان نصيبه الخلود على يدي المسعودي؟؟
وقد أثنى المسعودي ثناءً عاطراً على (تاريخ) ابن خرداذبة الذي لا ذِكْرَ له بين الكتب والمنوّه بها آنفاً. وهذا قوله بالحرف الواحد:
(. . .وعبيد الله بن عبد الله بن خرداذبه؛ فإنه كان إماماً في التأليف، متبرّعاً في ملاحة التصنيف، اتّبعه من هذه طريقته وأخذ منه ووطئ على عقبه وقفي أثره. وإذا أردت أن تعلم صحة ذلك فانظر إلى كتابه الكبير في التاريخ؛ فإنه أجمع هذه الكتب جداً، وأبرعها نظماً، وأكثرها علماً، وأحوى لأخبار الأمم وملوكها وسيرها من الأعاجم وغيرها. . .)
وهي لنعم الشهادة يُصدرها مؤرخ جليل ثَبْت كالمسعودي!
وفي مكان آخر لمّح المسعودي إلى (تاريخ ابن خرداذبه). فقال بعد كلام نقلناه في مطاوي بحثنا ما هذا نصه:
(على أنه - أي كتاب المسالك والممالك - أحسن كتاب في هذا المعنى. وكذلك كتابه في التاريخ وما كان من ذكر الأمم الماضية قبل مجيء الإسلام. . .)
(البقية في العدد القادم)
كوركيس عواد
29 - المصريون المحدثون
شمائلهم وعاداتهم
في النصف الأول من القرن التاسع عشر
تأليف المستشرق الإنجليزي ادورد وليم لين
للأستاذ عدلي طاهر نور
تابع الفصل التاسع - اللغة والأدب والعلوم
تتألف السنة الهجرية من أثني عشر شهرا قمريا، ويتأخر التقويم القمري عن التقويم الشمسي سنة في كل ثلاث وثلاثين سنة ونصف تقريباً، ولذلك لا يستعمل هذا التقويم إلا في تحديد الأعياد الدينية والمواسم السنوية؛ فلا يستعمل في حساب الفلك ولا في تحديد الفصول. وإنما يستخدم فيها التقويم القبطي.
وقد ذكرت فيما يلي الشهور القبطية بأسمائها الحديثة مع ما يقابلها من التقويم الميلادي
توت ويبدأ في العاشر أو الحادي عشر من سبتمبر
بابة ويبدأ في العاشر أو الحادي عشر من أكتوبر
هاتور ويبدأ في التاسع أو العاشر من نوفمبر
كيهك ويبدأ في التاسع أو العاشر من ديسمبر
طوبة ويبدأ في الثامن أو التاسع من يناير

أمشير ويبدأ في السابع أو الثامن من فبراير
برمهات ويبدأ في التاسع من مارس
برمودة ويبدأ في الثامن من إبريل
بشنس ويبدأ في الثامن من مايو
بؤونة ويبدأ في السابع من يونيو
أبيب ويبدأ في السابع من يوليو
مسري ويبدأ في السابع من أغسطس
ويلحق بالسنة القبطية خمسة أيام أو ستة تسمى أيام النسيء
والشهر القبطي ثلاثون يوماً، ويضاف إلى كل سنة من السنوات الثلاث المتعالية خمسة أيام، وإلى السنة الرابعة ستة أيام. والسنة القبطية الكبيسة تليها مباشرة سنة ميلادية كبيسة. فالسنة القبطية تبدأ في الحادي عشر من سبتمبر فقط عندما يسبق هذا الشهر سنة قبطية كبيسة أو تلحقه سنة ميلادية كبيسة. ولذلك تتشابه الأيام المتقابلة في التقويمين القبطي والميلادي بعد شهر فبراير التالي. ويبدأ القبط تأريخهم من عصر دقلديانوس سنة 284م
ويقسم المصريون المحدثون السنة إلى ثلاثة فصول كما كان يقسمها أسلافهم وهي: الشتاء والصيف والنيل. ويستعمل الفلكيون تقويم الأبراج القمرية التي اعتاد أهل الجزيرة العربية تنظيم شؤونهم المتعلقة بالفصول عليها
ويبدأ الوقت المدني في مصر وغيرها من البلدان الإسلامية من غروب الشمس إلى الغروب التالي، فيحسب الليل السابق مع النهار التالي، وتسمى الليلة السابقة ليوم الجمعة مثلاً ليلة الجمعة ويوافق غروب الشمس الساعة الثانية عشرة، فتكون الساعة واحدة بعد غروب الشمس بساعة، والساعة الثانية بعده بساعتين، وعلى هذا المنوال يحسب الوقت حتى الثانية عشرة. وبعد الثانية عشرة صباحاً تبدأ الساعة واحدة مرة أخرى، ثم الساعة الثانية وهكذا. ويملأ المصريون ساعاتهم ويضبطونها عند الغروب عندما يسمعون آذان المغرب على العموم، وتضطرهم طريقة حسابهم الو من الغروب، إلى ضبط ساعاتهم كل مساء، إذ أن الأيام تختلف طولاً وقصراً
ويبين الجدول الآتي أوقات الصلاة عند المسلمين مع ما يقابلها من الوقت الأوربي الظاهر عند الغروب على خط عرض القاهرة في بدء كل منطقة من مناطق البروج
غروب
عشاء
فجر
ظهر
عصر
إسلامي
س ق
أوربي
سق
إسلامي
س ق
إسلامي
س ق
إسلامي
س ق
إسلامي
س ق
21 يونيو
1200
74
134
8 6

456
831
21 مايو 22 يوليو
1200
53 6
130
830
57
843
20 إبريل 23 أغسطس
1200
31 6
122
924
529
4 9
20 مارس 23 سبتمبر
1200
4 6
118
24 10
556
924
18 فبراير 23 أكتوبر
1200
537
118
18 11
623
935
20 يناير 22 نوفمبر
1200
515
122
59 11
645
941
21 ديسمبر
1200
4 5
124
15 12
656
943

يطبع في مطبعة الحكومة ببولاق تقويم صغير سنوي، ويشمل هذا التقويم السنة الشمسية منذ بدأ الاعتدال الربيعي إلى نهايته، وأيام الأسبوع والشهور الإسلامية والقبطية والسريانية والإفرنجية مع الإشارة إلى حركات الشمس في منطقة البروج وأوقات الشروق والظهر والعصر. ويصَّدر التقويم بنبذة في أهم المواسم والأعياد الإسلامية والقبطية وغيرهما وبعض الملاحظات والإرشادات المتعلقة بالفصول. ويلحق

بالتقويم نتيجة طبية وزراعية لكل يوم من أيام السنة. ويشير التقويم إلى الخسوف والكسوف كما يشمل أموراً كثيرة تلائم خرافات الشعب وتتضمن آثاراً من التقويم المصري القديم. ويقوم بعمل هذا التقويم قسيس سوري مسيحي أعتنق الإسلام يسمى يحيى أفندي

وليس للمصريين معرفة بالجغرافيا إلا فئة قليلة أكثر ثقافة. ويكاد المصريون يجهلون موقع أكثر البلدان الأوربية الكبيرة جهلاً تاماً لعدم وجود الخرائط الجيدة. وقلما يجرؤ بعض المتعلمين منهم على إعلان كروية الأرض؛ إذ أن أكثر علمائهم على عكس هذا الرأي. والرأي السائد بين المسلمين على اختلاف طبقاتهم أن الأرض مهاد يحيط به المحيط الذي يحده جبال (قاف) كما يزعمون. ويعتقد هؤلاء أن هذه الجبال هي ذروة الأرض السابعة، كما يعتقدون أن السموات سبع طبقات تعلو إحداها الأخرى

فإذا كان هذا هو حال العلم عند المصريين المحدثين، فلا يعجب القارئ إذا وجد بعد هذا الفصل فصلاً ضافياً يصف خرافاتهم. والإلمام بهذه الخرافات لازم ليتبين القارئ أخطاءها وليستطيع أن يفهم طباع المصريين. وإنا لنتوقع لهذا الشعب تقدماً عظيماً من الناحية الفكرية والأخلاقية باقتباس العلوم الأوربية في عهد محمد علي، ذلك الاقتباس الذي قوّم إلى حد ما سلطته الجائرة، ولكن ليس من المحتمل أن يتحقق هذا الرجاء قريباً على مدى واسع

عدلي طاهر نور

. . .هي والربيع

العطر الأسير

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

يَا رَبِيعَ الْكَوْنِ مَا ذَنْبِي إذا قَلْبِي جَفَاكا؟
الْهَوَى لَمْ يَسْقِنِي إلا خَرِيفاً مِنْ رُبَاكا
فَأَنَا أَوْرَاقُ دَوْحٍ ذَابِلَاتٌ في ثَرَاكا
وَأَنَا آهَاتُ طَيْرٍ مُسْتَضَامٍ في ذُرَاكا
وَأَنَا عِطرٌ أَسِيرٌ يَسْأَلُ اللهَ الْفَكَاكا
!أَطْلِقِينِي أَنْتِ. . . إني كِدْتُ أَسْتَافُ الْهَلَاكا
أَطْلِقِينِي وَاسْبَحِي مَا شِئْتِ فِي الدُنْيَا بِفُلْكِي
لاَ تَخَافِي الْغَيْبَ، إن الْغَيْبَ سِرٌّ شَعَّ مِنْكِ
فَإِذَا جَاءَتْكِ أَيَّامِيَ هَوْجَاءَ النَّشَكيِّ
أَحْرِقِي فِي لَهَبِ النَّشْوَةِ إيمَانِي وَشَكيِّ
وَانْسَخِينِي قُبْلَةً تَبْحَثُ فِي جَنْبَيْكِ عَنْكِ
. . .جَذْوَةٌ أَنْتِ وَقَلْبِي حَطَبٌ لِلنَّارِ يَبْكِي
!مَا لِعَيْنَيْكِ وَضَوْءِ الْفَجْرِ نَاحا في خَيَالي
أَأَنَا بَحْرٌ مِنَ الْأَحْزَانِ نَشْوَانُ الضَّلالِ
!كُلُّ مَنْ شَارَفَ مَوْجِي ذَابَ كالْوَهْمِ حِيَالي
أَمْ أَنَا كالْحَبَبِ الْمَشْدُوهِ في كَأْسِ اللَّيَالي
زَالَ كَوْنِي وَتَلاَشَى كُلُّ شَيْءٍ في ظِلاَلي
!!غَيْرَ طَيْفٍ مِنْكِ مَحْزُونِ الْهَوَى بَاكِي الْجَمَالِ

محمود حسن إسماعيل

وجوه طريفة

للأستاذ سيد قطب

طالعيني في كل يوم بوجه ... فلديك الوجوهُ شتى طريفهْ
وَافْجَئِينِي لديكِ باخطر المحبو ... بِ يُجَدِّدْ حياتَنا المألوفه
!بِثُّ أَشتاقُهُ وأَرقُبُ ماذا ... يحملُ اليومُ من أمانٍ مَخُوفه
كلُّ سَمْتٍ أراكِ فيهِ جميلٌ ... كلُّ ظلٍّ أراكِ فيه شَفيفَه
أنتِ ما أنتِ؟ عالَمٌ مُترامٍ ... أَبْدَعَ الفنُّ والمنَى تأليفه
أنت كُنْزٌ فَفِيكِ تَحْيَا طُيُوفٌ ... كل طيفٍ له رُؤَاهُ المُطِيفَه
تارةً أنتِ حَرَّةٌ أَصْطَلِيهاَ ... وإذا أنتِ كالرِّياضِ الوريفه
!وَتَلُوحِينَ قطعةً من حَنانٍ ... وَتَلُوحِينَ بعد حِينٍ مُخِيفه

وأرى فيكِ طفلةً لم تبارحْ ... ملعبَ الطفلة اللَّعوبِ الخفيفه
وإذا أنتِ قَهْرَمَانَةُ دَهْرٍ ... مُوغلٍ في المَسَارِبِ الملفوفه
وإذا ما انطويتِ أمسيتِ سِرًّا ... صَانَهُ الدهرُ مُحْكِماً تَغْليفَه
وإذا ما انطلقت مثلَ شُعَاعٍ ... كنتِ رَفْرَافَةً وكنتِ لطيفه
لكِ طعمٌ أذوقُهُ بل طُعُومٌ ... كُلُّهاَ نَاضِجٌ هَوِيتُ قُطُوفَهْ
هُوَ طَعْمُ الحياةِ في فورةِ النُضْجِ ... شَهِيُّ الْجَنَي خبرتُ صُنُوفهْ
(حلوان)
سيد قطب
البريد الأدبي
التشريع الإسلامي الدائم والمؤقت
كتب صديقي الأستاذ الجليل الشيخ محمود شلتوت مقالاً في عدد الرسالة الممتاز تحت هذا العنوان (الهجرة وشخصيات الرسول) وليس المهم في هذا المقال تقسيم شخصيات الرسول، فذلك أمر يعرفه كل العلماء، وإنما المهم والجديد في هذا المقال ما جاء فيه من توزيع أحكام الشريعة الإسلامية على تلك الشخصيات، ومن جعل التشريع الدائم والمؤقت تابعاً لهذه الاعتبارات، وهذا أمر جديد لم يظهر إلا في عصرنا. وإذا أمكن الاتفاق عليه بيننا أمكن حل مشاكلنا التشريعية، وزالت أكبر عقبة في سبيل وضع تشريع إسلامي يفي بحاجات المسلمين في هذا العصر، ولا يمكن أحداً أن يوجه إليه أي طعن.
وخلاصة ما يرمي إليه هذا المقال أن الذي يعد شرعاً دائماً هو ما يرجع إلى شخصية الرسول من العقائد وأصول الأخلاق والعبادات، وما عدا ذلك مما يرجع إلى شخصية الإمام أو المفتي أو القاضي فليس بشرع دائم، وإنما هو شرع مؤقت يمكن أن يتأثر بالاجتهاد، وأن يترك العمل به لسبب من الأسباب. على أن لي فيه رأياً آخر لا أبديه الآن، لأنا نريد الإصلاح من أي سبيل ينتهي بنا إليه، ويحقق رغبتنا في رفع شأن هذه الشريعة الغراء.
(عالم)
أين علقمة وعبيد بين شعراء الجاهليين
أراد الأستاذ عبد المتعال الصعيدي في مقال له عن الشعر الجاهلي (بالعدد 454 من الرسالة)، أن يدحض آراء بعض أدبائنا المعاصرين ممن يشكّون في نسبة هذا الشعر إلى أصحابه؛ ويزعمون أن بلوغه هذا الحد من الكمال والإتقان مما يخالف سنّة النشوء والارتقاء
وقد رأى - في صدد ذلك - أن يثبت وجود نوع من الشعر السقيم المختل الأوزان، يعتدُّه الخطوة أو الخطوات الأولى التي مهدت السبيل إلى ظهور هذا الشعر القوي الناضج الذي انتهى إلينا من أدب الجاهليين. ووقع اختياره على عبيد بن الأبرص كنموذج للشعراء المتخلفين، أو أصحاب الفطر السقيمة ممن سبقوا بوجودهم أرباب الشعر الرصين، وضرب
المثل في ذلك ببائيته المشهورة - أقفر من أهله ملْحوبُ - فأورد عدةً من أبياتها ثم قال: (والحق عندي أن هذه القصيدة تمثل أولية الشعر العربي خير تمثيل. . . وأن عبيداً في هذا يمثل بين شعراء عصره حال الشاعر المتخلف، لأنه لم يتهيأ له من أسباب النهوض ما تهيأ لهم. . .)
وعجيبٌ حقاً أن نهبط بابن الأبرص إلى هذا الدرك الأسفل من منازل الشعراء، وهو أحد العشرة الذين وقع الإجماع قديماً على تفضيلهم؛ ولا تعد بائيته هذه عاشرة القصائد المأثورة فحسب؛ بل يضعها بعض النقّاد بين السبعة الأولى منها، وهي المعروفة بالمعلقات. ومن هؤلاء ابن قتيبة صاحب كتاب (الشعر والشعراء)
وينفي تهمة التخلف عن عبيد أن جميع شعره - عدا هذه القصيدة - يجري على الأوزان المعروفة في قوة وجزالة تنهضان به إلى مصافّ كبار الشعراء من معاصريه؛ فهو القائل في الافتخار بمكارم خلُقه:
لعمُرك ما يخشى الجليس تفحَّشي ... عليه ولا أنأى على المتودِّد
ولا أبتغي ودَّ امرئ قل خيرهُ ... ولا أنا عن وصْلِ الصديق بأحْيَد
وقد سجل له صاحب (البيان والتبيين) قصيدة كريمة اللفظ والمعنى يقول في مطلعها:

تلك عِرسي غضبي تريد زِيالي ... ألبَيْنٍ تريد أم لدلال؟
إن يكن طبّك الفراق فلا أح ... فِل أن تعطفي صدور الجِمال
ومما أورده له صاحب الأمالي قوله من قصيدة:
يا من لبرقٍ أبيتُ الليلَ أرقبه ... في عارضٍ كمضيء الصبح لمّاح
دان مسفٍّ فويق الأرض هيدبه ... يكادُ يدفعه من قام بالراح
وأورد الخطيب التبريزي في كتابه (شرح القصائد العشرة) - عند تعرضه لذكر عبيد - أن سعيد بن العاص سأل الحطيئة: من أشعر الناس؟ قال الذي يقول:
أفلِحْ بما شئتَ فقد يُبلَغ بالضعفِ وقد يخدع الأريب!
فشاعر هذا شأنه، وتلك منزلته عند النقاد والشعراء، لا ينبغي أن يوصف بالتخلف، . . . أو ينسب إلى الجهل بإقامة الأوزان على نهجها الصحيح. وإنما الأقرب إلى الصواب - وذلك رأي خاص نتقدم به - أن تكون هذه البائية إنما جاءت على وزن أو أوزان هجرتها العرب في أواخر جاهليتها. والأوزان كانت - وما تزال - في تطور مستمر؛ ونحن لا نستسيغ منها إلا ما ألفناه وأكثر الشعراء من القول فيه. وإلا فمن منا يستسيغ هذا الوزن مثلاً، وهي لابن تقي من وشاحي الأندلس:
يا ويح صبٍّ إلى البرقِ له نظرُ ... وفي البكاء مع الورْق له وطرُ
أو من منا يستسيغ قول (المهر بن الفرس) وهو من شعراء الموشحات في غرناطة:
لله ما كان من يوم بهيج ... بنهر حْمص على تلك المروج
. . .ثم انعطفنا على فم الخليج ... نفض مسك الختام
ونعود فنقول: إنه لو كانت بائية عبيد نموذجاً للاختلال كما وصفت، لكان للقدماء عن اختيارها مندوحة. وفي أشعار عبيد مما استقام وصحت طريقته ما يغني عنها ويجزيء، وجميع شعره من هذا النوع كما ذكرنا. والبيت الوحيد الذي أورده الأستاذ - من غير القصيدة البائية - وجعله دليلاً جديداً على قصور الشاعر، هو بيت صحيح الوزن كما سجلته كتب الأدب. وإنما أخل الأستاذ بوزنه حين حذف (التفعيلية) الأولى منه: (وقالوا) - ولعل ذلك سهو منه غير مقصود. وصحة البيت نقلاً عن حياة الحيوان للدميري (باب الذئب):
هي الخمر تكنى الطلا ... كما الذئب يكنى أبا جعدة (وقالوا)
هذا عن عبيد. . . أما علقمة الفحل فلا يقل عن صاحبه شأناً؛ وما احتججنا به للأول نحتج به للثاني، ثم نزيد عليه أن قصة تلقيب علقمة بالفحل - وهي مشهورة متداولة في كتب الأدب - تعدُّ الدليل الأقوى على تبريزه في الشعر؛ حيث يشيرون فيها إلى أنه احتكم مع امرئ القيس إلى امرأته (أم جندب) وأنشدها كل منهما لنفسه شعراً، فحكمت لعلقمة على زوجها. حتى قال امرؤ القيس: ما علقمة بأشعر مني ولكنك له وامق. ثم طلقها فخلفه عليها علقمة؛ وسمي بذلك (الفحل)
إلى هنا أقف الحديث. . . ولعل الأستاذ الفاضل يهتدي إلى (الحلقة المفقودة) من الشعر الجاهلي، في أقوال شعراء آخرين غير عبيد وعلقمة؛ والله أسأل أن يوفقنا وإياه
(جرجا)
محمود عزت عرفه
اقتراح
أرى من واجبي الآن - وقد فرغتم من نشر اللائحة القيمة التي أعدها الأديب (كوركيس عواد) وضمنها ما استطاع الوصول إليه من المؤلفات العربية التي نشرت سنة 1940، البالغ عددها 39 كتاباً - أن أشكر للأديب الفاضل هذه العناية الفائقة، ولمجلتكم الغراء نهجها القويم وحرصها على التراث العربي المجيد
إني أرى أن النهضة الثقافية الأدبية، القائمة في هذا الوطن العربي تستند إلى عوامل منها بعث هذا التراث، واقتباس الملائم النافع من أدب الغرب وثقافته، ثم توليد شيء جديد. ولكن ما هدف هذا البعث وما فائدته، إذا لم تصل الكتب إلى أيدي القارئين؟ وأنى لها أن تصل وهم يجهلون أنها أصبحت ميسورة؟ أما الكتب المدرسية والمترجمة من قصص وغيره، فينتشر خبرها حالما تطبع وأحياناً قبل ذلك، وخاصة إذا تولت طبعها دار للنشر تتبع أساليب الإعلان الحديثة، أو كان مؤلفوها من مهرة التجار
ولذلك كان لا بد أن تتولى إحدى المؤسسات الثقافية في العالم العربي إعداد ثبت

سنوي بكافة ما تخرجه المطبعة العربية في سائر الأقطار. ومما يسهل هذه المهمة أن كل من ينشر كتاباً في أي قطر مكلف بتقديم نسخة واحدة منه أو أكثر إلى المرجع الرسمي المختص بذلك. وأظن أن دار الكتب المصرية هي هذا المرجع في القطر المصري، وأعرف أن دائرة المعارف تمارس هذا الحق في فلسطين

ولما كانت مصر تنتج من الكتب أكثر من غيرها بكثير، فإن دار الكتب المصرية، تسدي إلى نهضتنا المباركة جميلاً تحمد عليه، إذا هي اتصلت بالمؤسسات التي تمارس هذا الحق في سائر الأقطار العربية وغيرها (فيما يتصل بالمطبوعات العربية)، فحصلت على لوائح الكتب التي تصلها، ثم جمعتها وصنفتها ونشرتها وسدت هذه الثلمة في الأساس، وأنارت السبيل للقارئين.

(القدس)

عصام الشريف

نظرة في ديوان الشبيبي

وقع في كلمتي عن ديوان الشبيبي أغلاط مطبعية أرجو أن يكون كثير من القراء قد أدركوا صوابها. وهي:

1 - ولكن كان كل بيت تقع العين عليه يذكر بأن بيت الشبيبي. والصواب: يذكر بأنه. . . الخ

2 - ببغداد أشتاق العراق وهأنا=إلى الكرخ من بغداد جم التشوق

والصواب: أشتاق الشام

3 - وطموحاً إلى ما يبقى له من العزة والسؤدد.

والصواب: ما ينبغي له

4 - ثم الأبيات الثلاثة:

نظرت بني الدنيا فأصررت أنها ... على الشر لا تنفك تجري النحائت. الخ

هذه الأبيات قد وضعت في غير موضعها. وضعت في الكلام على حب الشاعر العراق، وموضعها في الكلام على نظرات الشبيبي في الحياة

عبد الوهاب عزام

وفاة فيكتور مرجريت

توفي الكاتب الروائي الفرنسي المعروف فيكتور مارجريت في بلدة مونيستييه قرب فيشي وهو في الخامسة والسبعين من عمره. وقد ولد في الجزائر سنة 1866. وانتخب في سنة 1906 رئيسا لجماعة رجال القلم وعين في سنة 1914 رئيسا لجمعية فيكتور هوجو، وكان في أثناء الحرب العظمى ضابطا في هيئة أركان الحرب، وأسس جريدة (أنفورماسيون أونيفرسال)

وقد لفتت مؤلفات فيكتور مارجريت عند أول ظهورها نظر البيئات الأدبية الفرنسية لأسلوبها الواقعي الصريح، حتى أنه جرد من وسام (الليجون دونور) عندما نشر كتابه المعروف (لاجرسون) في 1922، ومن مؤلفاته المشهورة: (البغي)، و (فتيات)، و (حدود القلب)، و (الرفيق)، و (جسمك لك)، و (الماشية البشرية)، و (نشيد الراعي)، و (صوت مصر)، وغيرها

بين البشر وتيمور

الدكتور بشر فارس كاتب منِّمق وأديب ضليع، لا تعدم في أسلوبه آبدةً من أوابد اللغة كانت هائمة في المعاجم والأضابير قد أتى بها الدكتور مقيدة مكبلة، فلولا القيد الذي به كُبّلت، والوثائق الذي إليه شُدت، لنفرت شاردة وعادت كما كانت

والمعنى يتناوله الدكتور من جعبته، ثم ينفضه أمامك فجأة فيدهشك تكويره وتحويره وتعجبك طرافته، فهو يتهيأ لعمله الأدبي كما يتهيأ القناصون للخروج للصيد في أحراش أفريقيا، أو طالب الحوت في بحار القطب، فلهم لباسهم الخاص وسلاحهم وعدته وعتادهم، وكلما كانت الرحلة شاقة مضنية كانت الغنائم أعجب وأغرب. وكم في أسلوب الدكتور من طرف هي للقاعدين غرائب!

وهو حين يكتب في الفن ينقاد لملكته بعد أن يكون قد هيأ لها الجو على النمط الذي هفا إليه مزاجه كمن يريد ليلة حمراء فينسرب إلى الغرفة ذات اللون الأحمر والستائر القرمزية والضوء القاني الجريح! وأما حين يكتب في النقد والبحث فهو يحمل تحت إبطه نخبة ما خطه جهابذة الاستشراق (والدكتور بشر سريعهم) وكلما خط سطراً فتح

من آثارهم سفراً يستلهم منه نصاً أو يطوف بنص، وقد تخلَّى عن نافذ بصره وصحصحان بصيرته، وألقى على وجهه بردة سوداء كتلك التي يصطنعها المصور حين يتملى آلته من الداخل ليخرج (العفريته) فأمامه (أي المصوِّر) الشيء مقلوباً، وهو يعلم أنه لكذلك ما دام مالكاً لحسه، أما إذا غفا أو سها فالمقلوب هو الأقوم!

ومن هنا جاءت نقدات الدكتور للأستاذ تيمور في مقتطف مارس 1942 وتقويمه لبعض عبارات عامية وردت في قصة المخبأ رقم 13 يقول الدكتور بشر عن قصة تيمور: (ومن الغريب في هذا الصدد أن يقول ماسح أحذية (صوت فأري) ص8 من القصة وأقرب إلى الدارج (صوت فيراني)، هكذا النسبة إلى الفأر عن السوقة). إلى هنا انتهى كلام الدكتور. ولا شك أن الناقد الفاضل كان يستلهم هنا نصاً لمستشرق جهبذ، فلو نظر بعينه هو وهي نفّاذة نقادة لعلم أن تيمور هو الأصدق والأقوم، (ولكن لعن الله بردة المصورِّ)، لأن المعنى هنا منسوب إلى الفقر لا إلى الفأر كما توهم الدكتور، ولم توجد قط السوقة التي تنسب النسبة التي يزعمها الناقد في مثل هذا الموضع، وإن كان وجودها لا يستبعد في مقبل الأزمان!

ويقول الناقد في موضع آخر من المقال نفسه (ولربما أفلتت العامية من أنامله (أي أنامل تيمور) مثلاً (ساعتين وألا أكثر) وهو يريد ساعتين مش زيادة)، والحقيقة أن العامية هنا لم تفلت من أنامل تيمور، والعبارة مستقرة لا تحاول إفلاتاً كما تشهد بذلك العامة ذاتها، ولكن لم يرها الدكتور كذلك، لأنه كما قلنا استطلع بردة المصوِّر ثم سها. وليس معنا ردّنا أن قصة تيمور خالية من الشوائب ولكن الدكتور بشر قد طعن في غير مطعن

(القاهرة)

محمد فهمي

القصص

من قصص الرأي

. . .عبادة

للأستاذ محمد عنان

كل شيء كان يتعذب. . . الطيور في ظل الأغصان فاغرة أفواهها تلهث، والبهائم في مرابطها تتألم في استكانة وصمت، والزبد يتناثر من أشداقها في لهثات مطردة متقطعة، وأوراق الأشجار متراخية في ركود وإعياء، والحقل متمدد تحت لهب يوليو العنيف يتلوى ويرسل من جوفه أبخرة حارة تشارك السماء في لعنتها على قطيع القرويين الهزيل الجائع الذي كان يروي هذه الأرض بعصير حياته

كانت أبالسة الجحيم تملأ الحقل، والشمس في كبد السماء تصلي الأرض بكل ما فيها من قوة وما في عناصرها من آلام، والهواء يهب ساخناً كاوياً يشوي الحياة ويخنقها، ويدفع العرق غزيراً على الوجوه القروية الكالحة العابسة، والأبدان الفاترة الضامرة، ويطفئ من جذوة نشاط الحركة التي كانت تنتج ما كلفوا القيام به من عمل. وكانوا يجاهدون ويغالبون في صبر وجلد كحيوانات أضناها الجوع تحبو على بطونها إلى طعام بعيد

تحدثوا حتى فرغ كل ما في جعبتهم من حديث. . . اخترعوا حتى نضب خيالهم الجاف. وارتفعت عقيرة إحدى الفتيات بالغناء. . . ردده البعض وآثر الآخرون الوجوم. واشتد ضغط الحياة فتبدد الصوت. . . وانتشر على البوتقة الرهيبة صمت مروع كان فيه احتكاك العمال بالشجيرات هو الصوت الوحيد لعجلة العمل الغشوم وهي تدور في أبشع صورها وتحول في همجية وقسوة خبزاً جافاً إلى ذهب

واخترق الصمت الحزين صوت رفيع يصيح ولا نبرات له. ماء. . . ماء. . . إن حلقي يلتهب. وجاءت إحدى العاملات بالماء من أقرب المصارف آسنا ساخناً، فتجرعوه في نهم وعادوا يعملون كآلات في جمود ورباطة جأش

السماء والأرض، والهواء والماء، والطبيعة والإنسان، كل هذه الأشياء القوية الكبيرة تتآمر على هذا القطيع الهزيل المريض. إنها البربرية وسط هالة من نور!

قالت هذا فتاة في العشرين، لها لون القمح قبيل الحصاد، ورقة زهر القطن في الصباح الباكر، ورشاقة عود الذرة الناضج، وعذوبة ظل التوت في اليوم القائظ. . .

ترتدي ملابس الركوب وتمتطي خيرة خيول القرية، وعلى رأسها قبعة واسعة تخفي قليلاً تاجاً ثميناً من الشعر الفاحم. تتأمل في إشفاق زمرة من الشباب والنساء والأطفال ينقون لطع دودة القطن في ركن قريب من أركان الحقل المترامي كان يبدو عليها أنها ترى الحقل لأول مرة، لأنها ذعرت وهمت أن تناديهم بأن يكفوا عند ما سمعت بكاء خافتاً مجهداً لرضيع بالقرب منها في ظل مظلة من العشب كان في قفص من سعف النخيل مفروش بالقش يحرك يديه وساقيه في عصبية ويبكي.

اندفعت من فوق جوادها في جزع وقفزت في لهفة القناة التي كانت تفصلها عنه تدفعها في ثورة وجموح أسمى عواطف البشر

كان إنساناً ضئيلاً، باهتاً ضامراً، محتقناً في لون الأرض، تفوح من ملابسه الممزقة القذرة رائحة كريهة عفنة، وتغطي الأوساخ وجهه وشعره وأطرافه. وكان يبدو أنه بكى كثيراً حتى أنهكه البكاء

انحنت على الفراش في حنو بالغ كأم وحملته بين ساعديها ونفسها تذوب رفقاً وشفقة همت بالغريزة أن تعطيه ثديها ولكنها تذكرت فانحنت عليه وقبلته.

ورأتها الأم فأسرعت خوفاً من أن يكون في وجوده ما يؤذي. وحارت الدموع في عينيها وهي تعدو توجساً من وقوع هم جديد. ولكن نظرة الفتاة الوديعة، ونومة الطفل الهادئة بين أحضانها رفعت قليلاً كابوس الشر الجاثم على صدرها

فاقتربت متهملة وقالت وهي تنحني مادة ذراعاً تأخذ بها الطفل والأخرى على ثديها محاولة في جهد أن تبتسم:

- العفو يا سيدتي! لسنا في هذا المقام

وتنبهت الفتاة إلى الأم وما هي عليه من إعياء فقاطعتها وهي تحتضنه وتبعده عكس اتجاهها:

- لا. لا. . . دعيه لي الآن. . . اجلسي. استريحي. لا ترضعيه. اتركيه لي. . . إن لبنك الآن في تسمم

فقاطعتها القروية في سذاجة وشفتاها الجافتان تنفرجان عن شبح ابتسامة تائهة:

- إنها طفلة. و. . . صمتت عند ما رأت صورة الهلع التي ارتسمت على وجه الفتاة وهي تعاود بسرعة النظر إلى الوجه الصغير الغارق في الأقذار والدموع

- آه. طفلة!. . . ما أقسى هذا؟ أهكذا تربي الأمهات؟ واستطردت هامسة وهي تمسح على جبين الطفلة بمنديلها الصغير وتزداد بها تعلقاً والتصاقاً:

لماذا أحضرتها في هذا المكان؟ إنه يقتل فيها الإحساس بالعطف الأموي. إنه يصرع أنوثتها ويحولها إلى خانقة أطفال. ثم رفعت رأسها وسألتها في إشفاق وتأنيب:

- لماذا لم تتركيها في المنزل وتظلي في رعايتها؟

فأجابت القروية المشدوهة:

- كيف! والخبز يا سيدتي؟

- وزوجك؟ أليس لك زوج؟

- ولكن أجره لا يكفينا

فقالت الفتاة في حيرة:

- لكن. . .! يجب أن تفعلي شيئاً. . . أي شيء. . . ليكن مثلاً. . . كم يبلغ إيرادك؟

فخفضت المرأة رأسها في حزن. . . أحست بمزيج عجيب من السرور والألم يضطرب في قلبها القاتم، فقد كانت هذه هي المرة الأولى التي تسمع فيها حديثاً يتعلق بحياتها إذا كان لها حياة بالمعنى المفهوم. . . واستيقظت أفكارها الراقدة المظلمة الراسبة في قرارها الحزين. . . وأخذت تصف للفتاة آلامها في نبرة خافتة محرومة من كل صفات الأنوثة والحيوية

أخبرتها أن القرية فئتان: عمال. . . وملاك. وأنها من الفئة الأولى التي تحيا تحت أقدام الأبقار وأطفالها يموتون جوعاً، وأن أجر زوجها يتراوح بين القرشين والثلاثة يومياً، وأنه يعمل ثلثي العام فقط ويقضي الباقي متعطلاً، وأن لها عدا الرضيعة طفلة في الخامسة ذهب الصديد ببصرها، وطفلاً في السابعة مريضاً لا يكف عنه المرض؛ استعرض في عمره الصغير آلام عدة أمراض لا يزال يعاني الآن بعضها؛ ومات لها عدا ذلك ثلاثة أطفال. ولد الأول ميتاً، وقضى الآخران في سن الرضاع. . . وقصت عليها بعض ما تعانيه في سبيل

التوفيق بين مطالب هذه الأسرة الكبيرة القابلة للتضخم وبين الأجر الذي تناله مقابل المجهود المزدوج. . . هذا عدا ما يصيبها من ألوان القسوة وضروب المعاملة السيئة من زوجها. إنها تدرك السبب. وتعرف أنه يثأر لشقائه منها. كما تفرج هي عن نفسها أحياناً بالدموع وأخرى بضرب أولادها. إن حياتها سلسلة طويلة ثقيلة شقية متشابهة الحلقات؛ وإن الرضيعة في قفصها المنكود أسعد حالاً منها؛ فأمامها وقت تستطيع أن تموت فيه طفلة. ثم غلبها التأثر فقالت والدموع تنهمر من مآقيها:

- ما أشد قسوة العيش يا سيدتي! على الأقل بالنسبة إلينا نحن الأمهات العاملات

أنصتت الفتاة إليها في ذهول وصمت. وعندما فاضت عينا القروية بالدموع أحست بجرح ساخن عميق يصيب كرامتها كامرأة. . . وكالنائمة. . . - وأوضاع الحياة تتمرغ أمام عينيها - نفحتها في خجل كل ما معها وعادت تسير بجوادها خبباً وكل ما حولها يتقلب ويلف في رأسها ويدور

وروعت القروية. كان مبلغاً جسيماً جداً باعتباره منحة؛ وأخذت تحدق في الفضة التي تغمر قبضتها في بلاهة وشك حتى أنها لم تجب زميلاتها في التو عندما سألنها في فضول وهن يمددن أعناقهم من بين الشجيرات. بل كشفت عن رأسها وصدرها في انفعال وعصبية ورفعت يديها ووجهها إلى السماء، وفي صوت حار متهدج يمتزج بعبارات تنبعث من مكان عميق في قلبها، عبرات لم تسقط من عينيها من قبل، أخذت تدعو للفتاة بطول العمر والستر وبلوغ المآرب وكل ما يملأ قلبها من أماني الخير

وسرى خبر المنحة في أنحاء الحقل سريان روح الربيع في العود الجاف، فأفاق من جموده قليلاً قليلاً، ونهض ينشد الابتسام في هذا النسيم الرقيق المليء بالحنان والعطف، ويصغي في شغف إلى موسيقى الحادث فتطربه، ويلعب كل على هذا الوتر الرقيق الرفيق ما في أمانيه وأحلامه من ألحان قصصية فطرية أضافت إلى الحقيقة سطوراً شعرية فاتنة

وحار سؤال على الأفواه: من تكون هذه المحسنة الصغيرة الجميلة؟

ولم تدم الحيرة طويلاً بفضل (معوّض الجمال)، وكان يتنقل بين الحقل والقرية ينقل محصول القمح إلى الجرن

أخبرهم وهو يتعالى على ظهر ناقته الضامرة أنها ابنة صديق لحامد بك مثري القرية وسيدها الأول. . . كان هذا الصديق في يوم ما مأموراً للمركز، وهو اليوم أحد كبار موظفي الداخلية، وأنها جاءت بناء على إرشاد طبيبها، وستقضي بينهم وقتاً قد يكون طويلاً. . . و. . . والكثير مما أثبتت الأيام أنه كان من نسج خياله، والنتيجة اللازمة لقلة العرض وإلحاح الطلب

ومن هذا اليوم تعودوا أن يروها عند ما يجب أن تظهر الملائكة في أقسى ساعات العمل، وفي حالات المرض والجوع والعرى التي كانت ترزح القرية تحت أعبائها الثقال، وأصبح من المألوف لديهم أن يروها بينهم في القيلولة، عندما يشتد ضغط الحياة وتتخلى عنهم السماء، تلهو معهم بالعمل وتغني وسطهم وهي تضحك، وتنثر بحيويتها الفطرية زهور الربيع على أطلال خريفهم الكئيب الدائم، وتملأ الحياة من حولهم مرحاً وابتساماً

وكثيراً ما كانت تشاهد في أزقة القرية بين الأطفال تداعبهم في لطف، وتمتحن ذكائهم في براعة، وتثير فيهم حب النظافة بالانتقاد الخفيف والمنافسة الهادئة. أو بين القرويات في دورهن تساعدهن في بساطة وألفة على تنظيم أثاثهن عندما كن يقمن بذلك أثناء زيارتها لهن

وقد كانت تجلس وسط رهط منهن تحدثهن حديثاً عادياً شاملاً وأسنانها البيضاء تسطع من بين شفتيها الخلابتين في ابتسامة مشرقة، وهن من حولها يصغين في انتباه والسرور والإعجاب يملأهن

وكان حنوها البالغ على المرضى من الأسباب القوية التي كانت تقضي سريعاً على اليأس والكآبة والمرض حتى أنه عرف عنها أنها لا تزور مريضاً حتى يشفى

ثم هي تغدق عطفها في سخاء وغزارة منزهين عن الغرض، وشعور صادر عن إحساس عميق صادق تدفعه في حرارة رغبة روحية صافية لا تشوبها ذرة مادية. ومع أن قسوة الحياة وجمود البيئة جعلت من هذه المخلوقات التعسة حيوانات ضارية فإن القلب الكبير وجد له صدى مضاعفاً في القلوب المجدبة. . . وقام هذا القطيع الكبير

المنهك يستظل بحنانها، ويستمتع إلى جوارها بالنور والدفء، ويستمرئ طعم الحياة الحلو الذي فقد مجرد الإحساس بوجودها. . . وقام كل يبحث بين طيات هذه النفس الواسعة عن معنى الخلجات الغامضة التي كانت تملأ نفسه ولا يستطيع إدراكها أو التعبير عنها. . . هذه الرغبة في
. . .عبادة الأكمل التي جعلت من الإنسان حيواناً راقياً
غمرت القرية روح عجيبة غيرت من كل شيء فيها. . . وملأت هذه المخلوقة الصغيرة كل هذا الفراغ المترامي. . . حتى تكونت لهم أخلاق خاصة بها، فخفت الألفاظ البذيئة التي كانوا يتنادرون بها عادة فيما بينهم، وأصبحوا يعدون كل كلمة تفوه بها حجة لا تقبل الجدل وبنداً يضاف إلى بنود دستورهم الأخلاقي الجديد
قالت يوماً لقروية رأت ما عليها طفلها من الإهمال: إن الفقر ليس معناه القذارة، وإن النظافة أقل أسباب الصحة نفقات، وهي من ضروب الاقتصاد التي يجب أن تلازم الفقر. . . فتضاعفت كمية الصابون الواردة إلى القرية بشكل لم يسبق له نظير في تاريخها
وحدث أن هاج ثور من ثيران العمدة وأخذ يغدو ويروح بين الأزقة الضيقة وينطح كل ما يصادفه بقرنيه الشرستين، واتفق وجودها في الشرفة ورأت في جزع حياة المارة المعرضة للخطر. فدفع هذا الجزع قروياً شابا كان مشهوراً بين زملائه بالاستكانة والضعف الجسماني إلى المغامرة بحياته. . . ويقول الذين رأوا الحادث إن الشاب امتلأ فجأة بنور كضوء القمر، والتمعت عيناه كنجمتين وانقض على الثور الهائج معرضاً حياته لموت محقق، وقبض على قرنيه وضغطهما في قوة هائلة جعلت الثور يتراجع ويسقط على قائمتيه؛ ثم ربطه في حبل وقاده إلى مربطه بين الدهشة والضجيج. ومما هو جدير بالذكر أن الفتاة قدمت إليه بهذه المناسبة قطعة فضية ظل يحتفظ بها كوسام برغم الظروف العسيرة التي مرت به
وكان هذا الحادث سبباً في زواجه من فتاة كان يحبها وكانت ترفضه.
وأشد من ذلك غرابة أن قوة الشاب البدنية أخذت من هذا اليوم تزداد، ومظهره أخذ يبدو أكثر نظافة وأناقة. وأنا وإن كنت لا أستطيع تفسير هذه الظاهرة تحليلياً إلا أني لا أشك مطلقاً في أن هذا الحادث كان سبباً لها
تحققت إذن كل خيالات القرية الجائعة في هذا الملاك الشهي واندفعت بكل رغبتها في الخلاص وأملها في التخلص تقيد الشموع وتشعل المباخر في معبد أقامته من الأماني قرباناً للمعبودة السمراء
لقد ارتفعت وارتفعت حتى وصلت إلى مصاف الأنبياء أو فوق مكانة البشر
وكان الحقل يظل عابساً أو كالعابس حتى تمر به كنسمة الحياة في وادي الموت فينقلب عبوسه إلى طرب ووجومه إلى ابتسام وخموله إلى جذوة من النشاط والحركة والمرح
وفي صباح خريفي رأوها كالعادة قادمة في الطريق الضيقة الملتوية التي تصل الحقل بالقرية. تسير كالجدول الرقراق بجوادها الأبيض، يتبعها على جواد آخر شاب نظيف ممتلئ يطفح صحة وبشراً
حدثهم بالروح الطيبة التي اعتادوها فاطمأنوا إليه وازداد تعلقهم وتقديرهم واحترامهم لها عند ما ساعدها في أدب جم (وهو لا يقل نظافة عن وكيل النيابة) على الترجل. وقابلوهما والإشراق والابتسام يملأ وجوههم. ووقفوا في خشوع يعبرون بوجوه صامتة تختلج عن مقدار ما يملأ قلوبهم من الإخلاص والحب؛ وظلت هذه الزيارة تملأ كنسيم العصر حديثهم طول اليوم
وفي المساء عند ما لفظ الحقل بقاياهم دفع الإعجاب الشديد قرويا في سن الحلم إلى أن يلقي نظرة على الفتاة من وراء سياج حديقة المنزل وكان في طريقه ولم يكد يفعل حتى سمر في مكانه واتسعت حدقتاه وشحب، وأخذ يرتعد كالمحموم ويدعو زملاءه في إشارات مجنونة وينصحهم بالصمت والحذر بوضع سبابته الحائرة على فمه المرتعش؛ وكل من كان يأخذ مكاناً إلى جواره كانت تعتريه نفس الحالة. ولم تمض مدة حتى تكونت جمهرة ترتعد وراء السياج
كانت المعبودة السمراء تتمرغ بين ذراعي الشاب الذي رأوه معها في الصباح يغمر وجهها وتغمر وجهه بقبلات حارة فائرة، ويلتصق بها وتزداد به التصاقاً حتى تكاد تفنى

فيه، وبقايا الغروب تلقى عليهما لوناً حيوانياً ساخناً يضيء وجه الفتاة الملتهب ووجنتيها المتقدتين، ويشعل الرغبة العنيفة المنبعثة من عينيها الغارقتين في الأحلام، ويسدل ستاراً كثيفاً على الوداعة الملائكية التي اعتادوها

ولما همت تسير مع الشاب متحاملة بكل جسدها على ذراعه عرت القوم جنة وذهبوا إلى القرية عدواً

وانطلق الخيال الخصب من عقاله، وملأت الإشاعات بشكل مضاعف مجالس السمر، على المصاطب، وفي موارد المياه والمخابز. وملأ الحنق والغضب قلوب القرويين وباتت القرية ترعد من الألم وتعصف بها قوة عاتية، غاضبة، حائرة!

وفي الصباح عند ما قدمت عليهم عرتهم رعدة قوية - على رغم أنهم كانوا ينتظرون هذا القدوم بصبر نافد - وتصبب العرق البارد على أجسامهم في غزارة، وتسارعت دقات قلوبهم وهم يخفون رؤوسهم بين الشجيرات ويراقبونها من وراء الأوراق بأنفاس مكتومة ونظرات مرتبكة. وأخذت تنطلق بين الفينة والفينة أصوات كالفحيح بعبارات ساخطة مبهمة في يأس كالبكاء

ولما حيتهم والدهشة تعقد لسانها أجابها البعض بأصوات مختنقة وهم يغالون في الاختفاء، وصمت أكثرهم شجاعة إمعاناً في الازدراء والاحتقار!

وبعد أن توارت وسط هذه العاصفة الصامتة وقف الشاب الذي قهر الثور وهو يكاد يسقط وقد تهدلت تقاطيعه وعادت إليه في الاثنتى عشرة ساعة الماضية هيئته الذليلة وسيماه الممزق، وصاح منهوكا والدموع تملأ عينيه، والعرق يغطي وجهه المغبر. . . إنه خطيبها. . . أقسم أن زينب الخادمة قالت لي ذلك. . . إنه حلال! حلال! وهي ستتزوجه. إنه زوجها. أقسم بالطلاق أنه زوجها!

وعصر قلبه ألم كبير لم يقدر على مقاومته. ولكن ما قاله برغم تناقضه وجد مرتعاً في النفوس الظامئة المصابة؛ فقد تحدث في الوقت المناسب أثناء تعادل القوى النفسية المتدافعة. وكاد القوم يثوبون ويعدون خلفها يعفرون تحت أقدامها بالتراب وجوههم؛ بل فكر البعض في جعل التقبيل قبل الغروب سنة يجب أن تسنها شبيبة القرية، ولكن زميلاً وقف يهدر وانفجر بصوت قوي كله حقد والشر يتطاير من حوله. . . ليكن خطيبها، زوجها. . . أبوها. . . إنها كانت تأكله! إن عينيها حرقتاني وأنا وراء السياج! لقد كانت تخدعنا هذه الـ. . . وهم أن ينعتها بأحط النعوت، ولكن الكلمات ماتت على شفتيه، وعاد إلى عمله وهو يكاد يضرب نفسه!

وعاد الحقل إلى صمته الحزين الأبدي!

(أبو حمص)

محمد عنان

العدد 457 - بتاريخ: 06 - 04 - 1942

سؤالان متباعدان

للأستاذ عباس محمود العقاد

جاءني في هذا الأسبوع سؤالان متباعدان من طرفين متقابلين: أحدهما من أديب يسأل عن أبي تمام، والآخر من أديب يسأل عن المدرسة الحديثة في التصوير، أو عن المدرسة التي تزعم أنها تعتمد في تصويرها على الوعي الباطن ولا تعتمد على المشابهات المحسوسة

أما الذي يسأل عن أبي تمام وهو الأديب (السيد حسن قرون التونسي بكلية اللغة العربية) فيسرد أسماء الشعراء الذين كتبت عنهم كتباً أو فصولاً في كتب ثم يقول: (ولكن شاعراً واحداً لم يفز منك بالإعجاب أو السخط، ولم يظفر منك بتزيين أو تهجين، وهو أبو تمام. ما الذي أبعدك عنه وما الذي أبعده منك؟ أما أنا فأعتقد صادقاً أو كاذباً أن شعرك وشعره ينبعان من منبع واحد. . .)

ثم يقول: (فأبو تمام الذي احدث ضجة في عصره، والذي كتب عنه الآمدي وغيره، والذي كان مثالاً للشعراء يحتذونه ويقلدونه، لا يظفر في العصر الحديث ببحث أو بكتاب أو بطبع ديوانه طبعة أنيقة. ليس هناك شاعر يمثل عصره تمام التمثيل إلا هذا الشاعر. وليس هناك شاعر يعلم البحث والتفكير والتعمق إلا هذا الشاعر؛ ولكنه ينسى ويقدم المجنون ابن الرومي، ويهمل ويذكر رهين المحبسين أبو العلاء، ويكتب عن بشار وأبي نواس ودعبل ولا يكتب عنه!

أبو تمام حزين ثائر من الأستاذ العقاد لأنه هو الذي إذا تصدى لبحث وفاه حقه، وإذا) كتب عن شاعر شرقي أو غربي أعطاك صورة صادقة ناطقة طبق الأصل. . . مهما ظننت بي الظنون فأنا مطالبك بالكتابة عنه، ومهما اعتقدت بي الفضول فأنا مقتنع بفكري راض بنظرتي. . .)

وأنا يعجبني الإعجاب لأنه دليل حسنٌ على شعور كريم، ولا يعجبني أن يكون الإعجاب بأحد باباً للجور على آخرين

أما جوابي عن سؤال الأديب: لم لم أكتب عن أبي تمام؟ فابدأه بأن أبا تمام في اعتقادي شاعر في طليعة الصفوة من شعراء العصر العباسي وشعراء العربية عامة، وإنه حقيق بكتاب أو برسالة ضافية كغيره من الشعراء الذين كتبت عنهم أو كتب عنهم النقاد السابقون
واللاحقون

ولكنني لم أعرض له لأن الغالب في كتاباتي من هذا القبيل أن ترجع إلى سببين: إنصاف مغبون، أو تجلية ناحية قد نسيها النقاد أو فهموها على وجه آخر

وأبو تمام ليس بالشاعر المغبون ولا بالمجهول القدر في زمانه وبعد زمانه. بل لعله أصاب من الرعاية والاعتراف بالفضل فوق حقه، أو فوق ما أصابه معاصروه على التحقيق

كذلك ليس في أبي تمام ناحية غامضة أو ناحية تتنازعها الأفهام والبدائه الفنية؛ وإن جرى النزاع في معنى من معانيه فهو نزاع لا يتسع حتى يتناول النفس الإنسانية في آفاقها الواسعة، ولا يترتب على البتّ فيه بت في مشكلة عاطفية أو اجتماعية أو عقدة من عقد الحياة
فهو صاحب إجادات وليس بصاحب عالم

يسأل سائل: وما (صاحب عالم) هذه التي تميز بها بعض الشعراء وتجعلها ذريعة إلى الكتابة عن فريق وترك الكتابة عن آخرين؟

فأقول: إن التمثيل هنا لازم لتقريب المقصود بالشاعر الذي (له عالم) والشاعر الذي لا عالم له وإن كانت له إجادات

فالملكة الشاعرية - بل الملكة الفنية عامة - هي أشبه الأشياء بالزجاجة المصورة التي ترسم ما يقابلها فالزجاجة الحساسة الواسعة لا تدع مما يقابلها شيئاً إلا رسمته وجاءت بصورة منه

والملكة الفنية زجاجة مصورة تقابل العالم بأسره، فإن كانت حساسة واسعة جاءتنا بصورة من العالم كله، وأمكننا أن نعرف ما هو العالم كله كما رآه الشاعر في قصيدة

وأن لم تكن كذلك جاءت بقطعة منه، وبلغت ما يتاح لها أن تبلغ في تلك القطعة المحدودة، ولكنك لا تبدل هذه الصورة بالصورة العالية وإن كانت تفوقها في التظليل والتلوين

أن قطعة من مدينة القاهرة حسنة التصوير لتشتري وتقتني ولأمراء، ولكنك إذا أردت صورة المدينة برمتها فهذه الصورة الشاملة أولى بالشراء والاقتناء من كل قطعة محدودة، بالغة ما بلغت من إتقان التظليل والتلوين

وأبو تمام يجيد في هذا المعنى ويجيد في ذلك، ولكنه لا يعرض لك العالم كله في حالة من

حالاته ولا يخرج لك نسخة عالمية تقرنها إلى النسخ الأخرى التي تستمدها أمثال: ابن الرومي والمتنبي والمعري في الشعر العربي، وأمثال: شكسبير وجبيتي وليوباردي في الآداب الأوربية

ابن الرومي له عالم كامل من الحياة الفنية، والمتنبي له عالم كامل من الحياة العملية، والمعري له عالم كامل من الحياة الفكرية والروحية

فالعالم بكل صورة فنية فيه ممثل في ابن الرومي، أو في تلك الزجاجة الحساسة الشاملة التي لا تدع شيئاً مما يقابلها إلا وعته على الطريقة الفنية

العالم بكل صورة عملية فيه ممثل في ملكة المتنبي، كما تمثل عالم الفكر والروح جميعاً في ملكة أبي العلاء

حياة كاملة تعرضها من جانبها كل ملكة من هذه الملكات فنقول: إن نسخة من صور العالم قد زادت في مجموعتنا الأدبية.

أما أبو تمام فلا يعطينا نسخة من صور العالم على نحو خاص به أيا كان هذا النحو في قيمته وفي مرماه
عنده صورة حسنة جداً لمسجد السلطان حسن، وصورة حسنة جداً لقنطرة قصر النيل، وصورة حسنة جداً للهرم؛ ولكن مدينة القاهرة كلها ليست هناك، سواء (حسنة جداً) أو حسنة قليلاً، أو غير حسنة على الإطلاق
وهذا الذي بالشاعر الذي له عالم؛ وهذا هو المقياس الإنساني الصحيح للشاعرية الممتازة في بابها؛ لأن الشاعرية ملكة إنسانية قبل كل شيء، وملكة لغوية أو بيانية بعد ذاك
وما قاله الأديب عن ابن الرومي لا يدل على أن كتاباً ضخماً في شرح أدبه كثير عليه؛ بل يدل على انه لا يزال في حاجة إلى كتب ضخمة إلى جانب ذلك الكتاب، للتعريف بقدره، والتنبيه إلى دقائقه، والوصول إلى فهم الأدب والشعر عن طريق فهمه
فابن الرومي في الملكة الشعرية الفنية قمة لا تطاولها القمم، مثل لا تقاربه الأمثال، طراز ليس له في الدنيا نظير
نعم في الدنيا أقول ولا أقول في أدب العرب أو أدب الفرس أو أدب الروم أو أدب أمة واحدة من الأمم
في الدنيا كلها لا نعرف نظيراً لابن الرومي فيما رزقه الله من ملكة التصوير الفني ومن القدرة الشعرية على استيعاب كل مرئي رآه وكل محسوس أحسه وكل خالجه جرت بين طواياه
في الدنيا كلها نقول ونحن نعني ونعلم ما نقول. ومن لم يفهم هذا فليجتهد في فهمه، قبل أن يجتهد في رفض رأي ليس عنده من أسباب رفضه مثل ما عندنا من أسباب الذهاب إليه، وأسباب تأييده
بيتان اثنان من شعر ابن الرومي يصلحان لتقريب هذه الحقيقة، لأنهما نظماً بمحض الباعث إلى التصوير الفني، ولم ينظما محاكاة للموضوعات التي يتناقلها الشعراء
وهذان البيتان هما قوله في وصف حقل من الكتان:
وجلس من الكتان أخضر ناعم ... توسنه داني الرباب مطير
إذا اطردت فيه الشمال تتابعت ... ذوائبه حتى يقال غدير
بيتان ليس لهما رنين ولا بهرج ولا بارقة من المحسنات وأفانين الأناقة؛ ولكنهما لا يدعان محسوسة واحدة من محسوسات حقل الكتان إلاْ وعياها وسجلاها والتهماها كما يلتهم الفحم الجائع ما يشتهيه
فالصورة المرئية لها عناصرها التي تتم بها من جميع نواحيها: عنصر المنظر كله، وعنصر اللون، وعنصر اللمس، وعنصر الوقت الذي تراها، وعنصر الموقع الذي تقع فيه من المكان، وعنصر الحركة.
ما من شيء يبقى في الصورة المرئية بعد استيعاب هذا، وما من شيء من هذا لم يستوعبه ذانك البيتان
في كلمة (جلس) تمثيل للمنظر كله. اخترها ولم يختر كلمة حقل أو مزرعة أو ما شابه هذه الكلمات، لأنها تمثل المنظر تمثيلاً لا يتفق لسواها
وأخضر تذكرنا اللون، وناعم تذكرنا اللمس، والتوسّن يذكرنا وقت الوسن وشعور الوسن في وقت واحد، وداني الرباب المطير يمثل لنا حواشي المكان حيث تحيط بذلك الكتان، واطراد الذوائب كاطراد الغدير يمثل لنا الحركة على أحسن تشبيه وأصدق محاكاة.
تمت الصورة على هذا النحو لأن كل حاسة من حواس هذا الشاعر الخالد هي في جوعها
إلى محسوساتها كالفم الجائع إلى الطعام الذي تقوم به الحياة
زجاجة حساسة شاملة لا تخطئ شيئاً مما يقابلها، وتصيبه لأنها حية حية بالغة في الحياة، لا لمراعاة النظر ولا لتجويد المحسنات ولا لطرق الأبواب التي تقدم بطرقها الشعراء
إذا قرئ ابن الرومي على هذا النحو عُرف ابن الرومي شاعراً لا نظير له في آداب الدنيا، وإنما الطريق إلى قراءته على هذا النحو أن نحس كما أحس وأن نعلم ما عنده لنبحث عنه ونلتفت إليه ونظفر به حيثما وجدناه

ولمن شاء أن يذكرني ما شاء من أبيات وصفه أبيّن له ما فيها من عناصر الاستيعاب التي لم تتفق لغيره من الشعراء، فإنما وصفه لجلس الكتان نموذج قريب المتناول لسائر الأوصاف

أما الأديب (ح. نظمي) الذي يسألني عن غلاة المحدثين من المصورين فينتظر مني جوابها مسهباً عن مدرستهم ومدارس أمثالهم في سائر الفنون، لأن هذه البدعة قد عمت فنوناً أخرى ولم تنحصر في التصوير

والذي أراه أن الإسهاب هنا فضول لا حاجة إليه، لأن بطلان الأساس الذي قامت عليه هذه المدرسة قد يظهر في بضعة سطور

فالمصورون على مذهب الغلاة المحدثين ينسون قواعد الرسم وينسون ملامح الشبه، وينسون أصول التلوين، ويرسمون الرجل فلا تعرفه بملامحه ولا بظاهر شكله ولا تميز بينه وبين غيره بعلامة تتفق عليها الأنظار، لأنهم يزعمون أنهم يعرضونه لك كما يتمثل في الوعي الباطن أو كما يشعر هو في باطن وعيه، ولا يعرضونه لك كما تراه بالعين والخطأ هنا أن (الوعي الباطن) لم يخلق ليلغي الوعي الظاهر أو يمنعنا أن نرى الدنيا، ولكنه خلق ليظل وعياً باطناً حيث هو في قرارة الضمير، نستدل عليه بعلاماته التي تتفق عليها الأنظار. وما من أحد يبني بيته أو يطبخ طعامه أو يخيط ملابسه أو يحضر دواءه على ما يتصور هذا وذاك وأولئك في وعيهم الباطن المزعوم. فلماذا يتغير وجه الإنسان لأن له وعياً باطناً أو لأن المصور له وعي باطن، أو ما يزعم من هذا الهراء؟ ومن البديه أن التصوير (فن) له أدواته وتحضيراته وملكاته التي لا تشبه ملكات الفنون الأخرى؛ فما هي الدروس التي يتعلمها المصور ليصبح على هذا المذهب مختصاً في صناعته؟ ما هي تلك الدروس إذا نحن ألغينا الرسم والتلوين والملامح والأشباه؟ أهي دروس التنجيم عن الباطن؟ وكيف الاتفاق عليها ولا يوجد اثنان يتفقان على تسمية صورة من متعلمي ذلك التنجيم؟

الواقع أن (الوعي الباطن) له مكان واحد من شؤون هذه البدعة المرضية، ومكانه هو إظهار العلة المرضية التي تكمن في بواطن المصورين المشغوفين بكل بدعة من هذا القبيل

فما لاشك فيه انهم جميعاً قوم (تفهون) تتخطاهم العيون، فهم بين مشوه أو ضئيل أو مهزوم النفس أو عاجز عن لفت النظر أليه؛ فحيلتهم هي حيلة هذا الضرب من الناس في اتخاذ المشاكسة والتحدي والأغراب وسيلة للتنبيه إليه، وهذه هي الحقيقة الواحدة التي لها شأن (بالوعي الباطن) في مذهب هؤلاء الغلاة؛ فهم مصابون في وعيهم الباطن يترجمونه كارهين، ويعرضون على الناس من ثم أعراض مرض لا معارض فنون.

عباس محمود العقاد

صلوات فكر في محاريب الطبيعة

(كتب كثير من هذه الخواطر في الرستمية بالعراق العزيز،

فهي مهداة إليه)

للأستاذ عبد المنعم خلاف

حقول الشوك - 14

أُنظر بعينيك وحاذر أن تَدمَي من مواقع النظر. . . واجمع أطراف ثيابك لا تعلق بها حُماتُ الشوك فتتمزق. . . وناقِلْ الُخطى في حذر وخشية، حتى لا تقع القدم على هذه الأسِنَّة الُمشْرعَة. . .

لا بلابل هنا ولا فراشات، وإنما نمالٌ تسعى في حذر. . . ولا ورق يرقص مع النسمات، وإنما اهتزازاتُ حِرابٍ تُدمِى جسم النسيم!. . .

ومع ذلك فقد مددت يدي وقطفت عِذْقاً. . . فإذا هندسة بارعة، وإذا القلم الذي نسق الزهرة ونسج حريرها ووشَّى أفْوافَها قد صنع هنا كذلك عجباً!

يد الخالق تُدبِّب الشوك ولا تَدَمي، وتَمُطُّ فَم الخنزير ولا تتنجس!

جانيات الشوك - 15

جاء الربيع وأخرجت الأرض نباتها من الزهر والثمر والشوك. . . وخرج كل مالك يقطف ويجني مما يملك من الحقول والبساتين

وخرجت جانيات الشوك إلى الأرض البور التي احتكرتها الطبيعة لنفسها لكي تخططها بالرياح وتسقيها بالسَّيْح والمطر، وتنبت فيها ما تشاء. . .
خرجن يسعين حافيات قد لَفَّفْن سيقانهن بِخِرَقٍ بالية حفظاً للجمال النِّسْوي من الخدش والتجريح. . . عليهن ثياب ممزقة، وفي أيديهن حبال رثة، يوزعن نظراتهن هنا وهناك على أديم الأرض باحثات عن أخصب البقاع بالشوك وأملئها بالعوْسج، فإذا وجدنه أعملن فيه فئوسهن الصغيرة ثم جمعنه وحزمنه وحملنه على ظهورهن وسرن به كالقنافذ! وطفن به في الأسواق فيشتريه بعض الناس بثمن بخس ليوقدوا به حماماتهم ومطابخهم.
ولا يبالين بالأزهار البرية الجميلة التي نبتت بجوار الأشواك، إذ هن مشغولات بجمع ما يجلب ثمن الخبز. . . إن الأزهار لا توقد ناراً فلا وزن لها في أيديهن وأعينهن. . .
هنا أمل وعمل من آمال القلوب وأعمال الأيدي يا أرباب الفكر!
هنا ملمس من ملامس الدنيا يا ذوي العيش الرافه الناعم. يا جامعات الزهور من روضات القصور. صافحن الأيدي الخشنة لأخواتكن جامعات الأشواك بأيديكن الناعمة. . فتلك أيضاً صدقة!.
16 - قذارة عليها طهارة
رأيت قذارة عليها أشعة الشمس! طهارة وصفاء يتنازلان إلى عالم النجاسة والكُدْرَة. . الطهارة تمد يدها إلى النجاسة لتطهرها وترفعها إليها. . . العالي ينظر إلى السافل نظرة راثية مسعدة منقذة ولا يخشى أن يتلوث ويتسفل.
وهكذا النفوس الشمسية: تضيء للمظلمين، وتطهر المتنجسين وترفع السافلين. . .
17 - كما تنظر الحشرات
وضعت رأسي مرة بين الأعشاب مستلقياً، فغطت الحشائش وجهي، ونظرت السماء من خلالها، فرأيت مقطعاً من مقاطع الدنيا في بعض الأحياء الضئيلة القميئة. . .
نظرت الدنيا نظرة حشرة من تلك الحشرات التي تختبئ في الأعشاب. . .
صار كل شيء عظيماً جداً في عيني، حتى هذه الأوراق الصغيرة صارت في زيغ البصر كالجبال الشاهقة التي تناطح السحاب. . . وخيل إليّ أني في غابة هائلة كثيفة مظلمة. . . ورأيت الفرق الهائل بين الدنيا في نظر إنسان والدنيا في نظر حشرة وكل حي له دنيا رهينة بحواسه وهندسةِ وَضْعِه وقامَتِه.
فلو سجد بعض المتكبرين المتغطرسين برءوسهم إلى حيث يضعون إقدامهم لتغير نظرهم للحياة ولأنفسهم وللناس. . .
18 - مفارقات
سقطت فَرَاشةٌ على زهرة؛ وسقط جُعَلُ على بَعْرَة، وسقطت عيناي عليهما!
كان كل منهما في شغل بعالمه عن عالم الآخر، ولكن قلبي كان في شغل شاغل بعالميهما. .
لقد رشفت الفراشة رشفة من رحيق الزهرة ثم شالت عنها إلى غيرها، ولكن الخنفساء لم تبرح مكانها، فرزقها كثير. . . إنها حيث تسير تجد العفونات والقذارات فتأكل وتتناسل أما الفراشة فمجهودة كالرغبات الطائرة. . . تسافر كثيراً حتى تظفر بملء أوعيتها. . .
لا شك أن جامع الخير والجمال من الدنيا يَلقُطُه لقطاً من ثنايا الشر والقبح ويتعب في تحصيله تعب هذه الفراشة المجهودة
19 - الوحوش المحبوبة
كانت عناكب كثيرة صغيرة آمنة في بيوتها تنسج الشباك للصيد. . . فانقضت عليها عصفور صغيرة وابتلعتها واحدة فواحدة أمام عيني. . .
والناس يزعمون أن العصافير وديعة ويحبونها، ولكن من يدرس حياتها يعلم أنها شرسةُ مشاغبة مقلقة كثيرة التصايح من أول النهار إلى آخره، ولها وجه حاد الملامح ومنقارٌ جارح وطباع عصبية. وإنما يشفع لها جمال منظرها ورشاقة جسمها وضآلة حجمها. . .
وكم غَرَّ المنظرُ وفجعَ المْخبَرُ! وكم رحم الناس ضعفاً وهو أقسى على الحياة من الذئب!
20 - غضب الضعفاء
اشتبك عصفوران في عراك، وصارا يتصايحان صياحاً لفتني إليهما، ثم نقر كل منهما

الآخر بمنقاره نقرة، ثم افترقا من غير دم
فقلت لقد فضحتما ضعفكما. . . فما كلن ينبغي لكما أن تقدما على غضب، لأنكما لا تمثلان قوته العنيفة
وينبغي للضعيف ألا يغضب، لأن غضبه يزيده ضعفاً بما ينال من نفسه، وما ينال من هزء الناس به. . .
إن الغضب يحتاج إلى قوة يُفجِّر بها الدم!
21 - شباك العنكبوت
لماذا هذا الترقب والانتظار للختل والاغتيال أيتها العناكب؟
لماذا تنسجين شباكك وتطرحينها في طريق الفراشات والنحل التي تحصل غذاءها بجهودها
لتقنصيها وتشربي دماءها وأنت في مكانك؟
لماذا تقطعين الطريق على العاملات المجهودات أيتها المقعدة الكسيحة؟
بخيط خفي رقيق تلقينه للريح تستطيعين أن تقتنصي أجنحة رفافة عاملة!
تمتصين دماء الغافلات المخدوعات وترصّعين بحطام جثها وأشلائها بيوتك الواهنة التي لم تقم على أساس. . .
ولكن لا ملام عليك ولا تثريب. . . وإنما على أيْدٍ تملك المكانِسَ التي تستطيع أن تبطشَ بكِ وتدكَّ بيوتك وتخلص الضعفاء من أحابيلك، ثم لا تفعل!
22 - الهلوك
وهذا أيضاً نبات طُفَيْلي كسيح الساق لا يضرب بجذْرٍ في الأرض ليقوم عليه ويستغني به عن الاعتماد على الغير. رأيته يمد حباله وشباكه فيصطاد شجيرات من الورد والخشخاش ويقطع طرق غذائها ويسلبه لنفسها ويخنق أطفالها من الأزهار الجميلة ويلف قوام جسمه المتهالك على سيقانها ليعتمد عليها، ثم يزهر ويضحك وينظر إلينا بوقاحة!
لقد أصاب شجيرات الورد بالشلل فلم تزهر وأزهر هو. . . فلم أر بداً أن افصل بين الأصيل والدخيل الغاصب الوقح بضرة فأس وإعمال يد لأخلص أطفال الورد المختنق الجائع المغيظ
. . .أبداً يرصد عالم الشر قريناً من جنود لكل فرد من عالم الخير يعلن عليه حرباً
فعلى إنسان الخير أن يقف دائماً في مكانه من الصف، وأن يعمل فأسه دائماً في بستان الحياة يستأصل بها جذور الشر ويسحق أزهاره وثماره. وإلا لم يجد لنفسه غذاء ولعينه مسرحاً، ويفسد عليه عالم الشر كلَّ إحساس بجمال الحياة، ويسلبه متاعه بمعشوقاته من بنات الطبيعة الفاتنات
23 - السائرات المطرقات
سائراتٌ مكبوباتُ الوجوه الطويلة، تنظر إلى الأرض دائماً كاسِرَاتِ الجفون
كتل لحمية متجلدة ماتت أعصابها من فرط الضرب والحمل والإرهاق ووراثات الاضطهاد. . .
. . .قطع من الصبر والبلادة وموت النفس والهوان والسآمة
عيونها عميقة تنظر بهدوء لما حولها كأنها عيون فلاسفة فرغوا من حل جميع العقد والمشكلات وليس لها دموع تبكي بها وتعلن الشكوى. . .
تريد أن تفرج عن قلوبها فترسل صوتها لترتاح، فتخرج قلوبها مع همومها من حلاقيمها في صوت منكر فيأبى الناس عليها ذلك ويردون أصواتها وهمومها إلى نحورها. . .
اغفروا أيها المالكون للمملوكين إذا تنفسوا
. . .ارحموا الأغبياء المحدودين فإنهم ما خلقوا أنفسهم حتى يعاقبوا أو يعاتبوا
لا البلبل خلق نفسه ولا الغراب يا أولى الألباب!
ترى، متى يشعر الفلاحون والعمال بالرحمة لهذه المخلوقات فيعاملوها معاملة رفقة العمل؟ ولكن الفلاحين والعمال لا يشعر رعاتهم نحوهم برحمة. فهم كذلك لا يشعرون بها لرعاياهم. كَيْلاً بكَيْلٍ. . . والموج دائماً ينحدر من الأعلى للأدنى. . .
متى يأتي اليوم الذي ترتاح فيه هذه المخلوقات وتتخذ للزينة والجمال وحدهما وتقتني في حدائق الحيوان كمخلوقات أثرية تدل على عهد باد من عهود شقاء الإنسان وشقوة سكان الأرض معه؟

هو اليوم الذي تقتني فيه كل فلاح وعامل حاجته من مخلوقات الحديد والفولاذ
عبد المنعم محمد خلاف
أحزان الأسود وأفراح القرود
يوم فضيحة (آدم) و (حواء)
للدكتور زكي مبارك
سارت الأمور إلى ما شاء القدر أن تسير إليه، وذاق آدم لأول مرة لذعة الندم الأليم، فقد كان يملك زجر حواء عن قرب شجرة التين، لو قدرَّ له أن يتماسك فلم يخضع لسلطان حسنها الوهَّاج. . .
وانزعجت حواء لما أصاب الجنة من زلزال، فعرفت من أخطار الخطيئة ما لم تكن تعرف، وأدركت أن المزاح في تفسير الحرام والحلال عَبَثُ أطفال
- آدم، لا تبتئس، فقد عجل الله بالعقوبة، ولم يبق إلا أن نأنس بالاطمئنان
- وما هي العقوبة التي عجل بها الله يا حواء؟
- هي ما أصاب الجنة من زلزال، فقد هدأت العواصف والقوا صف، وعاد كل شيء إلى قراره المألوف
- الزلزال الخطر هو البلبلة التي تثور في صدري، وما احسبني سأستريح، وهل أنت مطمئنة يا حواء؟
- لا، وإنما أردت أن أهون عليك وقع ما نحن فيه، فما زال قلبي يرتعد من هول الصدمة، وليتني مت قبل الخطيئة وكنت نسياً منسياً!
- أرأيت يا حواء عواقب الإصاخة لأقوال المفسدين؟
ألم أنهك عن صحبة الحية؟ ألم أخوّفك من الاستماع إلى إبليس؟
- ليتني أطعتك! ليتني أطعتك!
- وهل تنفع شيئاً ليت؟
- في ليت تعزية للخائبين، فلنتعزّ بها إلى حين!
وفي أثناء هذا الحوار كان آدم يلاحظ أن أسراباً من الطير والحيوان تنظر إليه والى حواء باستغراب ثم تنصرف، فما الذي جد عليه وعلى حواء بعد الزلزال حتى يقع ذلك الاستغراب؟
وحانت من آدم التفاته فرأى سوءة حواء بادية، واطرق فرأى سوأته قد انكشفت والعياذ بالذوق، وكذلك أدرك أن أسراب الطير والحيوان قد هالها أن يمسي آدم وحواء وهما في حال تسر العدو وتحزن الصديق
كانت الفاجعة أعنف مما يتصور الخيال، فقد فُطر آدم على الحياء، ألم يكن أول مخلوق ستر ذلك الشيء؟ أما الكلام عن حياء حواء، فهو حديثٌ مُعاد، فما استطاع أحد من سكان الفردوس أن يتوهم صورة المنطقة المحرمة من جسمها الجميل
- أتصنع المعصية كل هذا يا آدم؟
- وأشنع من هذا، فقد يعاقب العصاة بالقتل
- الفضيحة ابشع من القتل
- أنا لا أراها كذلك، فالقتل اخطر وأعنف
- الرجل يُقتل بالسيف، والمرأة تقتل بالفضيحة، فأنا وحدي المقتولة بعقوبة اليوم
- وما المخرج يا حواء؟
- نخصف على هاتين السوءتين من ورق الجنة، إلى أن يقضي الله في امرنا بما يشاء
لا موجب للإطالة في تصوير جزع آدم وفزع حواء مما صارا إليه، فالوصف لا يحيط بصورة الحزن الذي يساور النفس النقية حين تسقط أول مرة، فهي تتخيل أن شبح الفضيحة يلاحقها في كل طريق، وأن الموجودات كلها عيون تنظر إليها باحتقار وازدراء، ولا كذلك النفس الخبيثة، فهي لا تتأثر بالفضيحة إلا بمقدار ما يتأثر الصخر الأصم بهبوب الريح
كان آدم على فطرته الأولى يوم اقترف ما اقترف، وكان وحيداً في بلواه، فلم يجد من أصدقاء السوء من يهون عليه مصيبته العصيان
وحواء؟ وحواء؟
كانت زهرة نضيرة لم تسمع بأن في الوجود لوا فح ترزا الأزهار بالذبول

وهل كانت حواء تجدّ وهي تدعو رفيقها إلى قرب الثمر الممنوع؟
إن شيث حدثنا أن تمردها على الأوامر الربانية لم يكن إلا فنًّا من فنون الدلال. ولعل هذا هو السبب في أن الجنة لم تصب بأذى بعد أكلها من شجرة التين، وإنما وقع ما وقع حين
هفا آدم، لأنه رزق من العقل ما يكفي للتمييز بين المحرَّم والمباح
وزاد في هم حواء عرفانها بخطورة النزق بعد الذي كان، فصارت تصرخ من وقت إلى وقت صراخاً يصل إلى مسامع سكان الفردوس بأعنف مما يصل صوت المظلوم إلى آذان القضاة العادلين. . . وكذلك لطف الله بحواء، فأمر ورق الجنة أن يكون عندما تريد ليحميها من فضول العيون
لا موجب للإطالة بتلخيص الصفحات التي دوَّنها شيث ابن عربانوس في هذا المقام، فما نطيق ولا يطيق القراء مواجهة ما انطوت عليه من أحزان وكروب، فلننظر كيف تسامع سكان الجنة بفضيحة آدم وحواء في لحظات
في لحظات؟ وكيف؟
كان جمهور أهل الجنة في ذلك الوقت جمهوراً قليل الأهمية من الوجهة العدَدية؛ وللجماهير الصغيرة محاسن وعيوب، فمن السهل أن نكوِّن رأياً عاماً في الجمهور الصغير بخطبة أو خطبتين وأن نروضه على الفضائل المنشودة حين نشاء بأيسر عناء، ولكن من الصعب أن نصدّه تسمّع الأخبار السيئة، فهو يُقبِل عليها بشهية عجيبة، وهو يجد لذة في مضغ أحاديث الإفك والبهتان، وقد يتزّيد فيضيف المآثم إلى الأبرياء ليظفر بالقوت المحبوب وهو الاغتياب، فما يطيب للرجل الحقير أو الجمهور الصغير غير الخوض في الأحاديث التي تشوه أقدار الأكابر من الرجال!
وعلى هذا وصلت أخبار آدم وحواء - أخبارهما المزعجة - إلى جميع سكان الجنة في لمحات معدودات، وصار الحديث عن مصيرهما الفاجع زاد الألسنة في كل مكان
فكيف تلقى الفردوسيون ذلك النبأ الفظيع؟
انقسموا إلى فريقين: فريق الجازعين وفريق الشامتين
فمن الذي جزِع؟ ومن الذي شَمِت؟
جزع الأسود، وفرح القرود، ولذلك حديث يستحق التسجيل:
لم يكد يتسامع الأسود بفضيحة آدم حتى صاموا عن الطعام حزناً لبلية ذلك المخلوق النبيل؛ ثم اجتمعوا في (غابة العَرِين)
ليسمعوا خطبة كبيرهم غَضَنْفَلُوث، وقد خطبهم فقال:
(سُجَرائي وأشبالي)
ترامت أليَّ وإليكم أخبار الفضيحة التي رُزئ بها آدم، وقد جزعتُ لها كما جزعتم، برغم اختلاف الجنس؛ فنحن نمشي على أربع وهو يمشي على اثنتين، وقوتنا بالظفر والناب، وقوّته بالقلب واللسان؛ ولكن هنالك آصرة تجمع بيننا وبين ذلك المخلوق، وهي الكرامة الذاتية، فهو يأبى الضيم كما نأباه، وهو يُزهَي ويختال كما نُزهَي ونختال.
ولست اعرف قيمة شجرة التين حتى احكم له أو عليه، فنحن لحُّميون لا نباتيون، ومن الصعب أن ندرك ما في التين من دواعي الاشتهاء، وقد حلّ به ما حل، وذاق من علقم الفضيحة ما ذاق، وسيقضي الله في أمره بما يشاء، فهل ترون أن الجرأة على الله أن نعلن الحداد لمصيبة آدم المظلوم؟)
أحد الأسود: أنحزنُ لمصيبة مخلوق عصى الله؟
غَضَنْفَلوث: إذا كان مخلوقاً كريماً، وآدم مخلوقٌ كريم، فهو وحده الذي يستتر حين يلامس أنثاه، وما رايته أبداً في موقف ينافي الأدب والحياء
أسدٌ آخر: وكيف نجيب إذا عدّ الله حزننا لآدم ضرباً من العصيان؟
غَضَنْفَلوث: الله أكبر من أن يستظهر على عباده المذنبين بشماتة حيوان
أسدٌ ثالث: العطف على المذنبين إغراءٌ بالذنوب
غَضَنْفَلوث: هنا دقيقة تخفى عليك، وهي أن العطف على المذنب يجتثّ من صدره بذور العصيان، ويضيفه إلى أهل الطاعة والامتثال
أسد رابع: نحن مع الله في التنكيل بالمجرمين
غَضَنْفَلوث: ومن نحن حتى نشارك الله في الجبروت؟
أسد خامس: نحن أسود

غَضَنْفَلوث: والأسود تحفظ الأدب مع الله فتترك له التفرد بالثواب والعقاب
أسد سادس: لا يجوز العطف على مخلوق خدعته أنثاه
وهنا انبرت لَبَوْلوث زوجة غَضَنْفَلُوث فقالت في زئير يوقظ الأموات:
لعلكم تريدون التعريض بحواء، فهل تعرفون حواء؟ اسألوني أخبركم: لقد كانت تجيء) من لحظة إلى لحظة لتداعب الأشبال بأناملها اللطاف. وكنت اقدر أول الأمر أنها تفعل ذلك
بسبب حرمانها من النسل، ثم عرفت أنها مفطورة على الرفق والحنان، وأنها لا تعيش إلا في ظلال الرفق والحنان. . . ويلي عليك يا حواء، فما رأيت ارخم منكِ صوتاً، ولا انضر وجهاً، ولا الطف مِشية! كنت أنظر إلى نهديك الكاعبين فأعجب وأطرب وأشاق، ما اجمل نهديك يا حواء! وما اشد جزعي حين أتذكر انك لم تُرزَقي طفلاً يباغم حَلمَتْيك في جذل وانشراح! وهل أنسى أن حواء أرشق مخلوقة تمشي على اثنتين؟ لقد كان (تثنيها وهي تتخطر فوق شط الكوثر يخلع قلبي
غَضَنْفَلوث: حواء جميلة إلى هذا الدرجة؟
لبولوث: واجمل من الغزال المكحول بمرود السحر والفتون
- عطف الأنثى على الأنثى معروف!
- وتحامُل الذكر على الأنثى لا يحتاج إلى تعريف. . . ويلي عليك يا حواء! أأنت تُفضَحين بين سكان الفردوس فضيحة جديدة؟
- وهل كانت لحواء فضائح قديمة؟
- من يومها وهي فضيحة الفضائح، فمشيتها فضيحة، ونظرتها فضيحة، ونبرتها فضيحة، ودلالها فضّاح فضّاح فضّاح. ويلي عليك يا حواء، ويلي عليك يا أختي!
- يظهر أنك مفتونة بحواء!
- وكيف لا أُفتَن بأنثى تفردت بالجسم الأملس إلا بعض شعرات. ولو جازت الغيرة على مثلي لأصبحت من الهوالك
ثم تعكّر هذا الحوار الرقيق بأصوات غليظة وصل صداها البغيض إلى ساحة العرين، فما تلك الأصوات؟
تلك أصوات القرود وقد شمتوا بآدم وحواء، فكانوا يثبون إلى الأشجار ثم ينزلون، في انجذاب يشهد بأنهم صاروا من الفرح مجانين، ثم بدا لهم أن يضعوا أخشاباً في الكوثر ليركبوها، كما كان يصنع آدم وهو يداعب حواء
وسمع الأسد الأكبر بهذا الضجيج فاقبل يعنف شيخ القرود
- ما هذه الضجة، أيها القرد؟
- نحن نحتفل بعدل الله
- وما ذلك العدل؟
- هو الحكم على آدم بما هو له أهل
- وما خطر ذلك الحكم الذي استوجب أن تقيموا من اجله هذا الاحتفال؟
- لقد كشفت سوءة آدم، ولله الحمد!
- إن سوءة آدم من أمام، فهو يسترها بلا عناء، وسوءتُك من خلف أيها القرد، وستظل إلى الأبد وأنت مفضوح، لأنك شمتّ بآدم المظلوم
- كيف يكون مظلوماً وقد عصى الله؟
- ذلك شرف لن تناله أبداً. لأنك ضعيف
- وهل تحتاج المعصية إلى قدرة؟
- نعم، ولأجل هذا سأعصي الله كما عصاه آدم
- فتأكل من شجرة التين؟
- أي تين يا قرد؟ إن لي في العصيان مذهباً لا يخطر للقرود في بال
- وما هو ذلك المذهب؟
- هو أن ابطش بكم جميعاً في لحظة واحدة فأريح الوجود من وجوهكم القباح
- أنت إذن لا تخاف الله؟
- وكيف أخاف من يسمح بأن تكون للقرود دولة؟ أنا كافر بالله، كافر، كافر، إن جاز عنده أن تقوم دولة للقرود أو أشباه القرود؛ ففضوا هذا الاحتفال السخيف، وعودوا إلى حظائركم صاغرين، وإلا نكلت بكم أشنع تنكيل

وهل صنعنا شيئاً يعاب؟ -
إن الشماتة إثمٌ حقير وخسيس، وهي لا تقع إلا من ألا وشاب فانزووا أيها القرود قبل -
أن يحل عليكم غضبي، فأنتم أحقر من أن تبوءوا بغضب الله، ولعله منحني من
الشراسة ما منح لأؤدب ما يجلّ عن تأديبه من القرود والثعالب والذئاب
حين وقع الزلزال في الجنة نظر رضوان فرأى الحية تزحف بسرعة تفوق المألوف من
زحفها الممقوت، فأدرك أن عليها جانباً من المسئولية، فمنعها من الخروج إلى أن
تنجلي الأمور. ونظر فرأى إبليس يهرول ليقتحم باب النجاة، فرده على عقبيه إلى أن
يأذن الله
بان يكون من الناجين
ثم سمع هاتف يصيح:
ماذا تستفيد يا آدم من الاختباء في تلك الألفاف؟ -
لأنجو من حسابك يا مولاي -
وكيف تنجو من حسابي، وأنت جان أثيم؟ -
لك الأمر من قبل وبعد -
ولهذا أدعوك إلى الوقوف غداً في ساحة العدل، فأحضر من تريد من الشهود، ومن -
تشاء من المحامين، ليرتفع اللبس في تقدير مالك وما عليك
أنت الشاهد وأنت الوكيل، فاقض بعدلك ورحمتك ما أنت قاض -
هو ذلك، ولكني أريد أن أقيم بنفسي أول محكمة في الوجود -
(للحديث شجون)
زكي مبارك
أثر الآداب الأجنبية في الأدب الفرنسي
للأستاذ صلاح الدين المنجد
أن لامتزاج الآداب بعضها ببعض، أثراً بالغاً في ازدهارها ونموها، لما في ذلك من لقاح
مثمر وإحياء باهر، ولما تكتسبه من أناقة في العرض، وطرافة في التصوير، وبراعة في
الخيال، ورهافة في الذوق
ولعل ازدهار الأدب العربي في العصر العباسي آية على فائدة اللقاح في الأدب وطيب
جناه، فقد حليت نغماته، وطرُفت ألوانه، وتدفقت الحياة في صوره وتهاويله، وخرج من
الجمود إلى الحركة، ومن القيود إلى الانطلاق
وقد كان الأدب الفرنسي اكثر الآداب تأثراً بالآداب الأجنبية، ولعل اعظم رائعاته كانت
من وحي البلدان المجاورة وآدابها. على أن هذا التأثير كان يقتصر على الفكرة، لا على
الشكل في اكثر الأحايين
بدأت فرنسا تستمد من آداب الأمم المجاورة مادة لأدبها، منذ أوائل القرن السادس
عشر. فقد كان القصاصان (مرغريت دُ فالوا و (برانتوم ينهجان نهج (بوكاتشيو)
القصصي الإيطالي: حتى إذا كان النصف الثاني من هذا القرن ازداد هذا التأثير واتسع.
فأسست طائفة من الأدباء مجمعاً لبعث الأدب الفرنسي سموه ورأسهم (رونسار)
الشاعر، وكانوا معجبين بالشاعر الإيطالي (بترارك فتتبعوا أشعاره بالدراسة والترجمة
والنشر، ونهجوا نهجه في نظمه وأفكاره. وفي الحقبة نفسها، أي في النصف الثاني
من القرن السادس عشر، قامت في مدينة (ليون) في الجنوب، مدرسة خاصة لتمجيد
آراء ذلك الشاعر الإيطالي وتقليد أشعاره
فلما جاء القرن السابع عشر، عكف (موليير) على المسرح الإيطالي يقتبس منه. وهذا
الاقتباس واضح في ' وغيرها. وكان يحتفظ في أحايين كثيرة، بالنماذج الإيطالية نفسها
وظل تأثير الأدب الإيطالي في الأدب الفرنسي مستمراً. ففي القرن الثامن عشر، أولع
الأدباء الفرنسيون بالآثار الإيطالية المسرحية (كرينار و (لوساج و (ماريفو أما في
الشعر، فكان بعض المحدثين آنئذ، يقلدون (تانسيل ويستقون من (لوتاس
على أن القرن السابع عشر قد عرف أدباً آخر، أثَّر في الأدب الفرنسي؛ وكان ينبوعاً
ارتشف منه الاتباعيون مادة لروائعهم؛ وهو الأدب الأسباني. فقد عبّ منه كثيرون
ومنهم (كورنيل في مأساته (السيد وأعجب الأدباء الفرنسيون (بلوب دُ (آلاركون و
(تيرسو دُ مولينا واقتبسوا من آثارهم، ونقلوا إلى الفرنسية بعضها. وقد استمر هذا
التأثير حتى القرن الثامن عشر؛ فقد اقتبس (لوساج) من المسرح الأسباني فكرة

روايته (الشيطان الأعرج) كما اقتبس (بومارشيه) منه روايته (زواج الفيجارو)
ثم جاء الأدب الإنجليزي يؤثر في الأدب الفرنسي. ولم تؤثر أمة في فرنسا تأثير إنجلترا
فيها. فقد كان أثرها ظاهراً في نواحي شتى: في الأدب، والفلسفة، والسياسة،
والأذواق. وكانت ملجأ لكثير من الأدباء الفرنسيين ومنفى. فقد رحل إليها فولتير،
ومونتسكيو، وبوفّون، وروسّو، وشاتوبريان، ومدام دُستال وغيرهم؛ فأقاموا فيها
وأعجبوا بها. وقد أبان فولتير في (رسائله الإنكليزية عما أحس به في تلك البلاد. وتكلم
ما راق له من الكلام، على الدين والفلسفة والأدب والشعر فيها. حتى انه حاول أن
يقتبس من شكسبير بعض مشاهد رواياته. ثم نقلت روايات و (سويفت و (دُفوا فلقيت
إعجاباً وأثارت حماسة. ودبت الحياة في الشعر الفرنسي التثقيفي مذ قرأ الناس
(تومسون و (جراي وكان شعر (أوسّيان مقدمة للشعر الإبداعي. وأثرت فلسفة (لوك
و (هيوم في رجال الموسوعة الفرنسية. واصبح طراز الحكم الإنجليزي مثلاً أعلى عند
سياسي فرنسة. فلما شبت الثورة الفرنسية، انقطع هذا الاتصال؛ على أنه عاد اشد
قوة، واعظم شأناً بعدها. وانكب الشعراء الإبداعيون آنئذ على روائع (بيرون و (شيلي و
(شكسبير يقلدونها مرة ويستوحونها مرات

وما كاد الهم يدرك القرن الثامن عشر حتى سرب الأدب الألماني إلى فرنسة. وكان
لنقد (ليسنغ أثر بعيد فيها. ثم جاء (جوته) وينشر (فرتر) فألهبت المشاعر والعواطف؛
وهزت الناس، فانتحر منهم عدد كثير تقليداً لفرتر. ثم اخذ الفرنسيون يقلدون (شيلر
وأخذت فلسفة الألمان تحل محل الفلسفات الأخرى. ولعل انطق صورة لهذا التأثير
كتاب (مدام دستال) عن (ألمانية ثم عرّج الناس وأخذوا يتتبعون آثار (جوته) و (شيلر)
و (هوفمان) و (هنري هاين)

وفي أواخر القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين، اتجهت فرنسة نحو الآداب
الاسكندنافية والروسية، فقد استهوى الفرنسيين نجاح الروايات الروسية، كما جذبتهم
الروايات الإنجليزية من قبل، فترجمت روايات (غوغول) و (تورجنيف و (دستويفسكي
حتى ألفها وتناقلها، ونحا بعض الأدباء في رواياتهم نحوها

على أن هذا التأثير قد اتسع منذ أوائل هذا القرن العشرين؛ لسرعة المواصلات،
وانتشار المجلات، وازدهار المؤلفات. وغزت أسواق فرنسة مؤلفات الأمم كلها.
فكيبلنغ ودانونزيو. وسلمى لاجرلوف، وبرناردشو، وأوسكار وايلد، أثروا في الكتاب
المعاصرين وإن لم تظهر آثار هذا التقليد واضحة بعد.

وكذلك بدأت مؤلفات الكتاب العرب تظهر بالفرنسية أيضاً. فقد نقلت لها أعظم آثار
الأستاذين توفيق الحكيم ومحمود تيمور، وبعض آثار الأستاذ الدكتور طه حسين وبعض
مقلات للأستاذ الرافعي

أما في القرون الحالية فقد كان للشرق العربي أثر في بعض مؤلفات شعراء فرنسية
وكتابها، كلامارتين، وبارّيس، ولوتي، ورينان، وجيرار دونرفال، وألاخوين تارود،
ودورجليس، وغيرهم ممن زاروا بلاد الشام ومصر وتمتعوا بما فيها من روعة وجمال
وسحر، فوصفوها وخصوها بالكتب. ولا ننس ما كان لكتاب ألف ليلة وليلة الذي نقل
إلى الفرنسية منذ قرون، من أثر وما كان لكتاب السياحات والرحلات والعجائب التي
نقلت من قبل وتأثير وإعجاب

وهكذا نجد أن الأدب الفرنسي قد استمد كثيراً من آداب الأمم الأخرى، فكان ذلك من
أسباب ازدهاره ونموّه، ورقته وسموّه

(دمشق)

صلاح الدين المنجد

-

من أدب القرن التاسع

كتاب (سحر العيون)

للأستاذ احمد يوسف نجاتي

- 2 -

6 - ومن أولاد أبي الوليد بن الشحنة أوحد الدين عبد اللطيف بن محمد بن محمد بن
محمود: ولد سنة 788 وتلقى العلم ببلده وبالقاهرة، ووّلى قضاء مدينة (صفد) مراراً،
وناب في القاهرة عن قاضيها وتوفي بها بالطاعون سنة 833 هـ. رحمه الله.

وهؤلاء المتقدمون من بني الشحنة أدركهم الموت قبل مولد البدريّ صاحب (سحر العيون)؛ وأما الذين عاصرهم البدري وانتمى إليهم فمنهم:

7 - محب الدين أبو الفضل بن المحب أبي الوليد المتقدم ابن كمال الدين، فهو محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمود وهو من أشهر بني الشحنة وأسيرهم ذكْراً: ولد بمدينة حلب سنة 804، فهو أسنّ من البدريّ بنحو 43 سنة، وسافر مع والده صبيّاً لم يبلغ عشر سنين إلى مصر، ثم قدم إليها مستقلاً بنفسه بعد ذلك، وتلقى العلم بمدن الشام ومصر، وجد في الطلب، وأخذ عن كثيرين من أجلاء عصره بالقطرين، وكان آية في الذكاء وقوة الحافظة حتى قيل فيه:

سمح الزمان بمثله فاعجب له ... إن الزمان بمثله لشحيح
فالأصل زاكٍ والخلال حميدة ... والذهن صاف واللسان فصيح

وفيه يقول بعض شيوخه:

أقسمت إن جدّ وطال المدى ... أروي الورى من بحره الزاخر
فقل لمن بالسبق قد فضّلوا ... (كم ترك الأول للآخر؟)

ولما كملت أداته، ولى الوظائف الجليلة من قضاء وتدريس ونحوهما فولى القضاء الحنفية بمدينة حلب سنة 836 وعظمت رياسته وظهرت كفايته، وانطلقت الألسنة بذكره، وظل في مدة الظاهر جقمق بين رفعة وخفض وولاية وعزل حتى ولى كتابة السر بالقاهرة سنة 857، ولم يلبث أن صرف عنها وبقي بالقاهرة حيناً من الدهر في عيشة غير راضية، ثم

رحل إلى بيت المقدس وأقام بها إلى سنة 862 ثم عاد إلى وطنه حلب. ثم ولى كتابة السر بالقاهرة ثانية سنة 863، فسار فيها سيرة مشكورة واقبل عليه السلطان الأشراف (إينال) إقبالاً عظيماً حتى كان هو المنشئ لعهَده في مرض موته لولده أحمد الملقب (بالمؤيد)، وبقي بعد ذلك بالقاهرة يتقلد وظائف القضاء والتدريس، ولاقي كثيراً من صروف الزمان ومنافسة الأقران حتى توفي بالقاهرة في أوائل سنة 890.

فبان من هذا أن الذي أنشأ عهد (اينال) لولده (المؤيد) هو أبو الفضل المحب الأصغر لا أبوه أبو الوليد المحب الأكبر المتقدم والمتوفى سنة 815، ولكن رأيت في فهرس دار الكتب بالجزء الخامس صفحة 273 ما يأتي:

(عهد للسلطان المؤيد أبي الفتح أحمد بن الملك الأشرف (إينال) تأليف العلامة أبي الوليد قاضي القضاة محب الدين محمد بن محمد بن محمد بن محمود بن غازي بن أيوب الشهير بن الشحنة التركي الحلبي الحنفي المولود سنة 749، والمتوفى بحلب يوم الجمعة الثاني عشر من شهر ربيع الآخر سنة 815هـ أوله: هذا عهد شريف تبسم ثغر ربيعه لما تنسم الخ (نسخة ضمن مجموعة في مجلد مخطوطة بقلم معتاد) 1هـ رقم 59؛ وهذا غير معقول، فإن الملك الأشرف سيف الدين أبا النصر إينال العلائي - وهو الثاني عشر من ملوك الجراكسة - إنما ولي مملكة مصر في شهر ربيع الأول سنة 857: (بعد وفاة أبي الوليد المحب الأكبر والد أبي الفضل المحب بنحو 32 سنة)؛ واستمر الملك الأشرف (إينال) سلطاناً إلى أن خلع نفسه وعقد الولاية لولده الملك المؤيد شهاب الدين أبي الفتح احمد في 14 من جمادي الأولى سنة 865 بعد وفاة أبي الوليد بنصف قرن (فينبغي إصلاح ما في فهرس الدار بنسبة العهد إلى كاتبه، وإنما كان الاشتباه، لان أبني الشحنة هذين الأب وابنه يلقب كلاهما (بالمحب ابن الشحنة)، وإنما يميز بينهما بالكنية؛ فكنية كاتب العهد أبو الفضل توفي سنة 890، وكنية والده أبو الوليد وتوفي سنة 815. هذا، وقد توفي الأشرف (إينال) عقب ذلك بيوم واحد (15 جمادي الأولى سنة 865)، ومكث ولده المؤيد احمد سلطاناً زهاء خمسة أشهر، ثم خلعه أنابكه (مربيه) الملك الظاهر (خشقدم) سيف الدين في شهر رمضان سنة 865 الذي كان سلطاناً بارّاً محبّاً للخير توفي في شهر ربيع الأول سنة 872.

ولقد كان المحب بن الشحنة أبو الفصل عالماً جليلاً أديباً فصيحاً بديع النظم والنثر سريعهما حلو الحديث حسن العشرة يميل إلى النكتة اللطيفة والنادرة الظريفة، عذب الروح رقيق الطبع عليَّ الهمة صبوراً على محن الدهر ورزايا الأيام، ذا شغف بجمع الكتب واقتناء النادر منها. وله مصنفات في الفقه والأصول والحديث والتفسير والتاريخ وغيرهما. وله من مطلع قصيدة وهو بالقدس:

قلب المحب بدار البين مشغول ... كما حشاه بنار البعد مشعول

وطرفه الليل ساه ساهر أرق ... ودمعه فوق صحن الخد مسبول
وله مما يقرأ على قافيتين:
قلت له لما وفي موعدي ... وما بقلبي لسواه نفاق
وجاد بالوصل على وجهه ... حبي سما كل حبيب وفاق
وله يطلب الإجازة في سنة 828 من الأستاذ العلامة احمد ابن حجر المشهور المتوفى سنة 852:
وإذ عاقت الأيام عن لثم تربكم ... وظنٌ زماني أن أفوز بطائل
كتبت إليكم مستجيزاً لعلتي ... ابلّ اشتياقي منكم بالرسائل
ومن مؤلفاته التاريخ المسمى (نزهة الناظر في روض المناظر) وهو تاريخ كبير جعله كالشرح لتاريخ أبيه المسمى
السابق. وله - كما في فهرس الدار - كتاب (روض المناظر في علم الأوائل والأواخر) (الدار المنتخب في تاريخ مملكة حلب) ضمنه تاريخ مدينة حلب وآثارها ومعاهدها وجوامعها ومدارسها وغير ذلك مما يتعلق بشؤون مملكة حلب التاريخية والجغرافية، وجعله ذيلاً على (بغية الطلب في تاريخ حلب). تأليف العلامة المؤرخ كمال الدين أبي حفص عمر بن عبد العزيز بن أحمد بن أبي جرادة العقيلي المعروف بابن العديم الحلبي المولود سنة 586 والمتوفى سنة 660؛ وقد انتهى في تاريخه إلى سنة 650؛ ومنه بدار الكتب 14 جزءاً في متتابعة في ثلاثة مجلدات. وقد رتب المحب بن الشحنة تأريخه على تمهيد وفاتحة وخمسة وعشرين باباً. وقد طبع بمدينة بيروت سنة 1909م، وبدار الكتب الملكية نسخة منه قيمة رقم 2326 تاريخ، وأخرى رقم 2327. هذا وفي كشف الظنون في الكلام
على (بغية الطلب في تاريخ حلب) لابن النديم ما يأتي:
والذيل عليه لأبي الحسن علي بن محمد بن سعد الحلبي الجبريني المعروف بابن خطيب الناصرية المتوفى سنة 843، رتب الأعيان على الحروف وسماه (الدر المنتخب). ولما طالعه الحافظ بن حجر حين قدم حلب سنة 836 الحق به أشياء كثيرة ثمينة وأثنى على صاحبه. ثم ذيل عليه موفق الدين أبو ذر أحمد بن إبراهيم بن محمد الحلبي المتوفى سنة 884 وسماه (كنوز الذهب في تاريخ حلب). ولم يذكر في كشف الظنون أن ابن الشحنة ألف تاريخاً لحلب اسمه (الدر المنتخب) فلعله جمع هذه الذيول قبل وفاته سنة 890 وتصرف فيها ونسبها لنفسه - والله أعلم - أو لعله ألف تاريخاً لحلب مستقلاً واستعار اسمه من اسم تاريخ خطيب الناصرية. وقد يرجع هذا بما ذكره صاحب كشف الظنون في موضع آخر قال
لأبي ذر احمد بن البرهان إبراهيم الحلبي المتوفى سنة (كنوز الذهب في تاريخ حلب) 884 ذيل به (الدر المنتخب في تراجم أعيان حلب). وأقول إذا علمت أن محب الدين بن الشحنة كان زوج السيدة خديجة بنت القاضي علاء الدين علي بن محمد بن سعد المتقدم المعروف بابن خطيب الناصرية مؤلف (الدر المنتخب) هان الخطب ووضح المشكل، على أنه يؤخذ من ترجمته الطويلة في الضوء اللامع أنه ألف تاريخين وذكر له عدة مؤلفات في علوم مختلفة.
(يتبع)
أحمد يوسف نجاتي
الأستاذ بكلية اللغة العربية
أحلام اليقظة
للدكتور محمد حسني ولاية
قص عليّ صبي في الرابعة عشرة من العمر الحلم الآتي:
بينما كنت واقفاً في غرفة الدراسة أجيب على سؤال وجهه إليَّ مدرسي، اختفى عن ناظري التلاميذ والمدرس وجميع مل في الغرفة سوى (السبورة)، وانقلبت أرض الغرفة الخشبية إلى أرض صحراوية، ثم ما لبث أن أطل من خلف أعلى (السبورة) رجل ذو منظر مخيف، عريض الوجه، منبعج الأنف، غريب الخلقة، ذو مخالب كمخالب النمر، مرتد ثوباً أخضر وقلنسوة خضراء، ممسك بطفل صغير في الثانية من العمر، وقد ارتدى ثوباً أحمر وقلنسوة حمراء، وكان الطفل كثير الشبه بالرجل، ولكن أنفه لم يكن منبعجاً، ولم تكن له مخالب

وبعد برهة شطر الرجل الطفل الصغير شطرين بيديه القويتين، فصحتُ من شدة) الجزع بأعلى صوتي. . . ثم سمعت مدرسي يقول: (لا تّخف)؛ ثم أفقت ووجدتني واقفاً (. . .أمام مدرسي كما كنت، وعاد كل شيء إلى ما كان عليه
لاحظت أن الحالم يشبه أمه البلجيكية، وأن أخاه البالغ من العمر ثلاثة عشر عاماً يشبه أباه المصري، وقد كان الأب شديد القسوة وكثيراً ما كان يضربه ضرباً مبرحاً؛ أما أمه، فكانت لينة القلب
أدى تحليل الحلم إلى استكشاف عقدة في عقل الصبي الباطن، مؤسسة على نزعات ترمي إلى التخلص من أخيه الذي كان مريضاً بالحصبة عندما كان في الثانية من العمر، وكان الحالم حينذاك في الثالثة فألبس المريض رداء أحمر وقلنسوة حمراء؛ وقد ظلت هذه العقدة محتبسة في العقل الباطن منذ إحدى عشر سنة، والسبب في نشوء هذه العقدة هو العناية الفائقة التي وجهها الوالدان إلى الطفل المريض، ومن ثم تشبثت بالحالم غيرة شديدة من أخيه
يمثل الرجل الوحشي أب الحالم ويرمز الطفل الصغير إلى أخيه، وقد شوهت هيئة الأب والأخ في الحلم بفعل الطاقة الكاتبة: (الرقيب الحلمي)؛ وكأن الصبي يقول لأبيه: (مزّق أخي بمالك من البطش والقوة، وخلصني منه، ليخلو لي الجو. . .)
قال لي الصبي انه لا يكره أخاه، ولكن نشأت بينهما حزازات، لأن والده يدلل أخاه كثيراً ويغضي عن هفواته، وقد استغل أخوه هذا التحيز من جانب الأب، فلجأ إلى ضربه وسلب الحلوى والنقود منه، فهو في عرفه صورة مصغرة من أبيه
وقد قص عليَّ الصبي حلماً ليلياً يدل على مبلغ استقرار نزعة التخلص من أخيه في سريرته:
رأى منذ عهد قريب صبيّاً في عمر وهيئة أخيه يقود طائرة، ثم وقفتْ الطائرة في) الهواء بجوار نافذة منزله، فاستقلها كراكب فأطلق قائد الطائرة العنان لطائرته، ولكنه بعد مضي زمن قليل أصابته رصاصة لم يعرف مصدرها فصرعته، فما كان من الحالم (إلا أن حل محله وقاد الطائرة بنفسه
يعني هذا الحلم أنه يريد التخلص من أخيه الذي كانت له الكلمة النافذة والسلطة والقيادة في محيط العائلة
ورأى في حلم ليلي آخر أنه يسير في أرض صحراوية انبعثت صخرة من الأرض ومنعته من استئناف المسير؛ وترمز الصخرة هنا إلى أخيه، لأنه واقف له بالمرصاد
محمد حسني ولاية
ابن خُرْدَاذبه - 4
للأستاذ كوركيس عواد
(تتمة)
الخصومة بين ابن خرداذبة وأبي الفرج الأصفهاني - 6
تمهيد (ا)
كان الأستاذ كامل كيلاني قد أحسن غاية الإحسان بنشره بحوثاً طلّية في وصف بعض (الخصومات) أو (المناظرات) الأدبية القديمة التي دارت رحاها بين طائفة من أكابر العلماء، وكان لها شأن في توجيه الرأي الأدبي في تلك الأزمنة الغابرة.
وما من شك في أن هاتيك الخصومات تمثل لنا لوناً من ألوان الثقافة، وتكشف عن منحي من مناحي المجتمع، كما أنها توضح لنا بأجلى بيان ما كان يضطرم أحياناً في نفوس بعض الأدباء من حبٍ للتنافس، وميلٍ إلى الظهور والتصدُّر، وانسياقٍ لعوامل الحقد والضغينة؛ وتفصح لنا عما كانت تنطوي عليه أخلاق بعضهم من كبرٍ أو مكابرة، وعنتٍ أو دهاء. . ومهما يكن من أمر، فإن تلك الخصومات صفحة أدبية رائعة الجمال، إذ شحذ مسطِّروها أذهانهم لإحراز الفوْز، وأفرغوا ما في وسعهم من الأدلة والبينات التي كانت تتجاوب أصداؤها بينهم، وتتدافع تدافع السيل العرم، لتنال مكانها من الظفر!
ولقد وقفنا على شيء يقرب من ذلك، تشب بين اثنين من أشهر الكتبة الأقدمين، وهما ابن خرداذبة وأبو الفرج الأصفهاني.
وإذا تكلمنا على الأول منهما بما مرَّ بك تفصيله، فلنقل كلمةً وجيزة نمهد بها موقفه من الخصومة، فنقول:

أبو الفرج الأصفهاني (ب)

إن شهرة أبي الفرج البعيدة، تغنى عن التعريف به. وكتابه العظيم الموسوم بـ (الأغاني) الذي سلخ في جمعه وتأليفه على ما قال خمسين سنة، لمن أعظم الكنوز الأدبية قيمة، وأحفلها مادة! وكفاه من سمو المنزلة ومزيد الاعتبار أن الصاحب بن عباد - وهو من هو - (كان في أسفاره وتنقلاته يستصحب حمل ثلاثين جملاً من كتب الأدب ليطالعها، فلما

(!وصل إليه كتاب الأغاني لم يكن بعد ذلك يستصحب سواء لاستغنائه به عنها

وكان الصاحب هذا يقول: (لقد اشتملت خزانتي على مائتين وستة آلاف مجلد، ما منها ما هو سميري غيره (أي غير كتاب الأغاني) ولا راقني منها سواه. . .)

وكان عضد الدولة (لا يفارقه في سفره ولا حضره، ولقد كان جليسه الذي يأنس به، وخدنه الذي يرتاح إليه)

ولأبي الفرج كتب عديدة أخرى ذكرها مترجموه ورواة أخباره. ضاع اغلبها، ففاتنا بضياعها من الخسارة بما لا يمكن التعويض عنه.

ولسنا في مقام التبسط فيذكر ترجمته، فذاك أمر معروف مشهور، وإنما اكتفينا بالتنويه بكتابة الأغاني، لما له من الخطر في الخصومة التي أشرنا إليها. أما من أراد الوقوف على أخبار أبي الفرج، فعليه بها مفصلة في (تصدير) المجلد الأول من الأغاني المطبوع في دار الكتب المصرية. ففيها كل الغناء.

وما لا بد من النص عليه، هو أن أبا الفرج توفي في أواسط المائة الرابعة للهجرة (أي في سنة 356 للهجرة)، وهي المائة التي ازدهر فيها الأدب العربي، واستقام أمره، واتسعت مادته

الخصومة (ج)

والخصومة التي سنذكرها، تختلف عن كثير من الخصومات لأنها جرت بين شخصين باعد بينهما الزمن! فقد ذكرنا من قبل أن ابن خرداذبة نادم المعتمد الخليفة العباسي، وخص به، وكانت وفاة المعتمد في سنة 279 هـ. فيكون ابن خرداذبة من أبناء المائة الثالثة للهجرة، ولعله تعداها فعاش بعض السنين من المائة الرابعة

أما أبو الفرج الأصفهاني، فقد وُلِدَ سنة 284 ومات سنة 356 للهجرة. فهل يكون قد أدرك في أوائل شبابه شيخوخة ابن خرداذبة؟ وهل يكون قد حصل بينه وبينه تنافر وتباغض أدى بابي الفرج إلى أن يقف موقفه المريب إزاء زميله على ما سنوضحه؟

فإذا طالعت كتاب (الأغاني) لأبي الفرج، ألفيته يذكر ابن خرداذبة في مواطن عديدة منه، ويستشهد بأقواله ولكنه لا يذكره إلا ليثلبه، ويحيط من قدره، ويجرده من كل حسنة سواء أكان لذلك كله موجب أم لم يكن! وهو لا يروي قولاً من أقواله إلا ليردّ عليه ويضعّفه

ويتعمد تزييفه! فهو على ما يبدو ظاهر التحامل. على أننا لا ندري ما مبلغ الصحة في ما حكاه عن ابن خرداذبة، ولا الدواعي الحقيقية التي حماته على أن يشدّد النكير على صاحبه، لأن مؤلفات ابن خرداذبة التي ندد بها وانتقد أقوالاً منها ضاعت بأجمعها! ولهذا، نُرَ أنا في هذه الخصومة سنصغي - على الرغم منّا - إلى شهادة جانب واحد! وللتاريخ أن يحكم على صحة هذه الشهادة، ولعل الأيام تكشف لنا مصنفات ابن خرداذبة، فنعود نستمع إلى أقوالها، وقد ينجلي الأمر إذ ذاك وتتضح الحقيقة!

واليك أقوال أبي الفرج في خصمه، استخلصناها من أماكن مختلفة من كتاب الأغاني:

قال في (5: 3 من طبعة الساسي، أو 5: 156 من طبعة دار الكتب المصرية) ما هذا بحرفه:

وذكر ابن خرداذبة، وهو قليل التحصيل لما يقوله ويضمنه كتبه، أن سبب نسبته (أي) نسبة إبراهيم الموصلي) إلى الموصل، إذا سكر كثيراً ما يغني على سبيل الوَلَع:

أناجت من طرق مَوْصل ... أحمل قلل خَمْرِيَا

من شارب الملوك فلا ... بُدَّ مِن سُكْرِيَا

وما سمعت بهذه الحكاية إلا عنه؛ وإنما ذكرتها على غثاثتها لشهرتها عند الناس، وأنها عندهم كالصحيح من الرواية في نسبة إبراهيم إلى الموصل، فذكرته دالاّ على عواره) أهـ.

وقال في (1: 18 س، أو 1: 36 د):

وذكر ابن خرداذبة أنه (الكلام على مبعد المغنى) غَنَّى في أول دولة بني أمية وأدرك) دولة بني العباس وقد أصابه الفالج وارتعش وبطل، فكان إذا غنى يُضحك منه ويُهزأ به. وابن خرداذبة قليل التصحيح لما يرويه ويضمنه كتبه. والصحيح أن معبداً مات في أيام الوليد بن يزيد بدمشق وهو عنده. وقد قيل: إنه أصابه الفالج قبل موته وارتعش وبطل صوته. فأما إدراكه دولة بني العباس فلم يروه أحد سوى ابن خرداذبة، ولا قاله ولا أهـ (رواه عن أحد وإنما جاء مجازفة.

ونظير ذلك قوله في (6: 15 س، أو 6: 173 د):

وذكر ابن خرداذبة، أنه (يقصد يحي المكيَّ) مولى خُزاعة. وليس قوله مما يحصل، لأنه) لا يعتمد فيه على رواية ولا دراية)! ومثله قوله (13: 154 س):

ويزعم ابن خرداذبة، أن الصنعة فيه (في بيتين من الشعر أوردهما الأصفهاني) ليزيد) وليس كما ذكر، وإنما أراد أن يوالي بين الخلفاء في الصنعة، فذكره على غير تحصيل، والصحيح، أنه لمعبد. . .)

وشبيه به ما رواه في (10: 115 س):

وذكر ابن خرداذبة، وهو ممن لا يحصل قوله ولا يعتمد عليه، أنه (أي عَلَّوية المغني)) (من أهل يثرب، مولى بني أمية

أو ما قاله في (8: 156 س، أو 9: 276 د):

وممن دونت صنعته من خلفاء بين العباس، الواثق بالله، ولم نعلمه حُكى ذلك عن أحد) منهم قبله، إلا ما قدمناه سوء العهدة فيه عن ابن خرداذبة، فإنه حكى أن للسفاح والمنصور وسائرهم غناء، وأتى فيها بأشياء غثة، لا يحسن لمحصل ذكرها!)

ومما يتصل بها المعنى، ما حكاه أبو الفرج في (8: 144 س أو 9: 250 د):

قال مؤلف هذا الكتاب: المنسوب إلى الخلفاء من الأغاني والملصق بهم منها، لا أصل) لجله ولا حقيقة لأكثره، لاسيما ما حكاه ابن خرداذبة، فإنه بدأ بعمر بن الخطاب رضي الله عنه، فذكر أنه في هذا البيت:

كأنَّ راكبها غصنٌ بمَرْوَحَة

ثم والى بين جماعة من الخلفاء واحداً بعد واحد، حتى كأن ذلك عنده ميراث من مواريث الخلافة أو ركن من أركان الإمامة لا بد منه ولا معدلَ عنه، يخبط (يعني ابن خرداذبة) خبطَ العشواء ويجمع جمع حاطب الليل. . .!)

أو ما سطره في (13: 110 س):

وذكر ابن خرداذبة، أن المهدي اشتراها (اشترى الجارية بصبص) وهو ولي العهد، سراً) من أبيه، بسبعة عشر ألف دينار، فولدت منه عُلَيّة بنت المهدي. وذكرغير ابن خرداذبة، أنه غلط في هذا، وإن الذي صح، أن المهدي اشترى بهذه الجملة جارية غيرها وولدت عُلَيَّة. . .)

فهذه، على ما رأيت، آراء صريحة، طعن فيها أبو الفرج بصاحبه، وضعَّف مرويّاته. وليس بوسعنا أن نبدي فيها رأيا للسبب الذي قدمناه في محل آخر من هذا المقال. ونضيف الآن إلى ذلك، أن عشرات الكتب في الغناء والمنادمة والشراب وما اتصل بهذه الموضوعات من قريب أو بعيد، مما صنفه اقدم الكتبة كإسحق الموصلي، ويحيى بن أبي منصور الموصلي، وعبد الله بن هارون، ويونس الكاتب، وعمر بن بانة، وحسن ابن موسى النصيبي، وأبي حشيشة الطنبوريَّ، وجحظة، وأبي أيوب المديني، وغيرهم، كل تلك الأسفار قد ضاعت وامحي أثرها، ولم يبق لنا منها سوى أسمائها الجميلة التي حفظها لنا ابن النديم وغيره في تصانيفهم

هذا، وقد ذكر أبو الفرج زميله في أماكن أخرى من أغانيه، ونقل عنه أخباراً ومرويات لا فائدة من إيرادها هنا.

غير انه في بعض نقوله كان يمر به دون ما تجريح، ذلك إذا راعى جانب الهدوء والاعتدال في القول، وإلا، فلا أقل من أن يتوج ما ينقله عنه بعبارة (وزعم ابن خرداذبة)، ولا يخفى على اللبيب، ما تنطوي عليه لفظة (زعم)!

فهل كان أبو الفرج في مواقفه النقدية يعتمد الإساءة إلى أقرانه ومعاصريه ممن ألف في موضوع الأغاني وما إليها؟ أم إنه كان على حق فيما فند وزيّف، وقد وقفنا على رأي له في كتاب من هذا القبيل، ننقله إلى القارئ، لما فيه من مغزى أدبي، قال:

وذكره جحظة (الكلام هنا على أحمد النَّصْبِيّ المغنىّ الطنبوري) في كتاب الطنبوريين،)

فأتى من ذكره بشيء ليس من جنس أخباره ولا زمانه، وثلبه فيما ذكره، وكان مذهُبهُ - عفا الله عنه - في هذا الكتاب، أن يَثْلِبَ جميع من ذكره من أهل صناعته بأقبح ما قَدَر عليه، وكان يجب عليه ضد هذا، لأن من انتسب إلى صناعة، ثم ذكر متقدمي أهلها، كان الأجمل به أن يذكر محاسن أخبارهم وظريف قصصهم ومليح ما عرفه منهم، لا أن يثلبهم بما لا يعلم وما يعلم. فكان فيما قرأت عليه من هذا الكتاب أخبار احمد النصبي، وبه صدَّر كتابه فقال:

وحسب القارئ أن يسأل لماذا حمل أبو الفرج على جحظة في موقفه من احمد النَّصبي؛ وندد به لأنه ثلب مَن تقدمه، وهو نفسه لم يطبق هذا المبدأ في موقفه من ابن خرداذبة على ما مر بنا

ختام البحث - 7

رأى القارئ في تضاعيف هذا المقال أن ابن خرداذبة كان إلى جانب مركزه الاجتماعي مؤلفاً في ميادين الكتابة المختلفة، فقد صنف في التاريخ والبلدان والأنواء والأنساب والموسيقى والمنادمة والشراب وغير ذلك. . . وان الكتبة انقسموا بشأنه فريقين: له وعليه. فأفراد الفريق الأول وعلى رأسهم المسعودي مدحوه، وقرضوا كتبه؛ والفريق الثاني، وعلى رأسهم الأصفهاني حملوا عليه حملة شعواء فأوسعوه نقداً وتجريحاً ومن العسير علينا أن نبدي رأياً أو نقول قولاً في هذا الموقف الذي ينقض أوله أخره، ونحن في وقت نتلمس فيه تأليف ابن خرداذبة التي دارت عليها رحى الخصومة، فلا نجد منها شيئاً ما، كما أننا لا نجد اغلب الكتب التي تناظرها في البحث لنتحقق صحة ما قيل فيها، وقد يتاح حينذاك الحكم لها أو عليها!

(بغداد)

كوركيس عواد

الهند. . .

للأستاذ أبو الفتوح عطيفة

هي الدرة اليتيمة في التاج البريطاني! من أجلها حقدت الدولة على بريطانيا، وبسببها تحملت إنجلترا الكثير من الشدائد ونزلت بساحتها الكوارث. إليها رنت أبصار الفرنسيين، وهفت قلوب الألمان، وداعب طيفها اليابان. وهاهي ذي اليوم تستعد للهجوم، وتتحفز للوثوب على الهند.

لقد داعب نابليون طيف الهند! اشتد العداء بين فرنسا وإنجلترا، ورأى نابليون أن خير طريق لقهر إنجلترا هو غزوها في بلادها (وإرغامها على إملاء شروط الصلح في لندن)! حينذاك يسجد للعالم أمام نابليون، وتحت أقدام فرنسا والفرنسيين! ولكن دراسة هذا المشروع ردت نابليون إلى صوابه فعلم أن غزو إنجلترا ضرب من الأوهام والأحلام. إذن أين يوجه الطعنة القاتلة إلى بريطانيا؟ هداه تفكيره إلى أن خير طريق للوصول إلى هذه الغاية إنما يكون بالاستيلاء على مستعمراتها وبخاصة الهند، وكيف يكون ذلك؟ إن ذلك يمكن أن يتحقق إذا تمكن من غزو مصر، فمن مصر يمكن السير براً إلى الهند. ألم يفعل ذلك الاسكندر المقدوني أكبر قواد العصور القديمة؟ لم لا يفعل نابليون بونابرت أكبر قواد العصور الحديثة؟ وعبارة نابليون (لضرب إنجلترا يجب أن نكون سادة مصر) مشهورة معروفة، وفي نفس المعنى قال تاليران: (عن طريق مصر نصل إلى الهند). وتنفيذاً لهذه الخطة قدم نابليون بحملته المشهورة إلى مصر في أول يوليو سنة 1798، وبقى بها سنة وبضعة أشهر، ورأى بعيني رأسه آماله تنهار ومشروعه يفشل، وتحت جنح الليل البهيم غادر مصر في 22 أغسطس سنة 1799 وبعد قليل لحق به جيشه؛ وهكذا فشلت الحملة ولم يستطع نابليون الوصول إلى الهند. ومن اجل الهند وحرصاً عليها خرجت بريطانيا على صداقتها التقليدية للروسيا وناصبتها العداء طوال القرن التاسع عشر لأنها رأت في مطامع روسيا وفي توسعها في آسيا خطراً على الهند، ولكن الخطر الألماني وحد بين صفوف البريطانيين والفرنسيين والروسيين. ومن أجل الهند والمستعمرات البريطانية الأخرى ناصبت ألمانيا إنجلترا العداء. وقد فزعت إنجلترا من تقدم الألمان نحو القوقاز في الصيف الماضي وسارعت إلى احتلال إيران، وكل ذلك لتأمين الهند.

والهند تجذب أنظار العالم اليوم لعاملين:

1 - اقتراب الخطر الياباني منها.
2 - ذهاب السير سترافورد كريبس إليها لحل مشاكلها المتعددة ووضع نظام جديد لحكمها.

مشاكل الهند

ليس هناك دولة في العالم تحاكي الهند من حيث كثرة مشاكلها وتعددها وصعوبة حلها، فهي من ناحية من أغنى بلاد العالم، ومن ناحية أخرى من أكثر جهاته ازدحاماً بالسكان. ومع هذا فإن حكمها ليس بالأمر اليسير الهين، وذلك لتباين ديانتها واختلاف عناصرها وكثرة لغات أبنائها وكراهية طوائفها بعضها لبعض كراهية شديدة

يبلغ عدد سكان الهند 320 مليون نسمة، ومساحتها مليوناً ونصف المليون ميلاً مربعاً، أو قدر نصف مساحة أوربا. على أن بريطانيا لا تهتم بالهند حباً في حكمها، ولكن لأنها سوق عظيمة لمصنوعاتها ومورد للمواد الخام. وقد كانت صادرات بريطانيا إلى الهند في كثير من السنين أعظم من صادراتها إلى دولة أخرى. وقد بدأت الهند تدخل في الدور الصناعي وقد جاء هذا الدور على يد البريطانيين وتحت إشرافهم

ومشكلة الهند أمام إنجلترا تنحصر في أمرين: الإشراف على سكانها البالغ عددهم 320 مليوناً، وترقية التجارة البريطانية مع الاحتفاظ بالسلام. وليس من السهل حكم دولة معقدة كالهند ذلك لان التباين بين سكانها عظيم بدرجة يستحيل معها تحقيق أي وحدة حقيقية بين أجزائها، فلكل إقليم من أقاليمها ولكل دين من أديانها وطائفة من طوائفها أفكارها ومعتقداتها، ويتكلم سكانها 170 لغة، وتنقسم إلى 2400 طائفة. ومن أبنائها 217 مليونا من الهندوكيين و 60 مليوناً من المنبوذين، وهؤلاء هم أحط سكانها، وهم مجرمون من الحقوق المدنية؛ والبراهمة وعددهم 14 مليوناً، والمسلمون وعددهم 66 مليوناً

وبالهند سبعمائة مقاطعة تحقد الواحدة منها على الأخرى وتملك خمس أرضها؛ وعدد سكانها 75 مليوناً، وأكبر مقاطعاتها حيدراباد وسكانها 13. 000. 000 نسمة. وبعض هذه الولايات قديمة التاريخ، وبعضها حديثته

على أن البريطانيين حين قدموا الهند عقدوا معاهدات مع الكثير منها وضمنوا لها استقلالها

الذاتي وأقروا حكمها، وقد احترمت هذه المعاهدات حتى الوقت الحاضر، وهؤلاء الحكّام ليسوا مستقلين ولكن يخضعون لجلالة ملك بريطانيا وإمبراطور الهند ولنائبه الحاكم العام

والهند ما تزال أمة زراعية واهم محصولاتها القمح والقطن، وتعتمد الزراعة في كثير من جهاتها على الري ومعظم أمطارها موسمية؛ وهي في البنغال وأسام وبرما فقط تكفي للزراعة. أما في باقي الأجزاء فتختلف الأمطار من عام لعام مما عرض الهند لكثير من المجاعات التي كانت تقضي على الملايين من أبنائها. وقد خفف التقدم الحديث في وسائل النقل من وطأة هذه المجاعات. وتعنى حكومة الهند الآن بمشروعات الري وبواسطتها أن تزرع 20 , 000 , 000 مليون فداناً

وبتزايد عدد سكان الهند عاماً بعد عام (50 مليوناً في السنين الأخيرة) ولكن عدد المهاجرين من أبنائها مازال قليلاً، ولذلك يتعذر على الكثير من أبنائها الحصول على طعامهم، ويضطر الكثيرون منهم إلى الاستدانة على المحصول الجديد قبل نضجه

موقف بريطانيا

ليست مشاكل الهند الاجتماعية والاقتصادية من خلق بريطانيا ومع هذا يلقى الهنود تبعتها دائماً على بريطانيا ويطلبون منها حلها واشتراك أبنائها في حكم بلادهم. وقد منحت بريطانيا الهنود كثيراً من السلطة الإدارية المحلية عقب الحرب الماضية إرضاء لهم، فتركت لثمان من ولاياتها الكبيرة شئونهم الداخلية الخاصة بالتعليم والزراعة والصناعة والصحة والأعمال العامة، وعينت كثيرين من أبنائها حكاماً لولاياتهم، وأشركتهم في المجالس التشريعية، وأنشأت مجلساً للدولة يرأسه الحاكم العام وعدد أعضائه ستون: منهم 16 من الهندوكيين و11 من المسلمين و3 من السيخ و3 من الأوربيين والباقي من موظفي حكومة الهند البريطانيين، وجمعية تشريعية يرأسها كذلك الحاكم العام وعدد أعضائها 140 منهم 100 منتخبين، ولكن حرمت هذه الجمعيات من بعض الحقوق الهامة فلا تسري قراراتها المتعلقة بالدين العام وبقوات

الدفاع وبالسياسة الخارجية بدون موافقة الحاكم العام
وقد شعر كثير من الهنود أن الحقوق التي نقلت إليهم قليلة الأهمية وبذلك طلبوا من بريطانيا أن تمنحهم الحكم الذاتي وغلا بعضهم فطلب الاستقلال. على أن أي حل لا يرضي مختلف الطوائف سيكون نصيبه الفشل. ويجب أن تنتبه بريطانيا إلى مطالب المسلمين بصفة خاصة وذلك بالنسبة لعظيم عددهم وشدة تمسكهم بمطالبهم.
وقد طار إلى الهند أخيراً السير (سترافورد كريبس) ليحاول حل القضية الهندية (وان ذهابه إليها دليل على أن حكومة بريطانيا وشعبها يعلمان بأن مطالبة الهند بأن تكون أمة قائمة على حق). ونحن نتمنى له التوفيق في مهمته
أبو الفتوح عطيفة
دفين (لا كْرُونيه)
للشاعر الأرلندي تشارلز وولف
بقلم الأستاذ محمود عزت عرفة
لاكرونيه ميناء على الساحل الشمالي الغربي من أسبانيا، ودفينها هو السير (جون) مور) أحد كبار قواد الإنجليز في حرب شبه الجزيرة. وكان قد التقى بالفرنسيين عند هذا الموقع وهو يحاول الارتداد إلى الساحل يوم 16 يناير 1809م فأنتصر عليهم وأوقف زحفهم. . . ولكنه أصيب بقذيفة من مدفع، ومات متأثراً منها في مساء اليوم نفسه. وقد احتفل الإنجليز بتشييعه - في منتصف الليل - احتفالاً صامتاً مؤثراً، ودفن تحت أسوار مدينة لاكرونيه. . .
أمّا تشارلز وولف صاحب هذه القصيدة فهو شاعر أرلندي عاش بين عامي 1791 و 1823م. ولم يعثر من شعره إلا على مقطوعات قلية؛ أهمها وأجودها جميعاً هذه (القطعة التي كفلت - وحدها - لاسمه الشهرة والخلود
. . .مضيناً بجثمانه إلى القبر حثيثاً؛ فما دوَّى لطبل صوت، ولا ارتفع لترنيمةٍ صدى وأودعناه مقرَّه الأبدي في سكينة وهدوء لم يعكرهما جنديٌّ بمقذوف تحية، أو طلقة وداع.
كان ذلك والليل مظلم الرقعة حالك الجلباب؛ فما أضاءتْ لنا فيه إلا خيوط من شعاع القمر واهية، وإلا أقباس متضائلة من مصباحنا الخافت. . .
وقد أضجعناه بثوبه العسكري الذي مات فيه، فبدا كجندي يستجمّ بعد طول جهاد؛ ولم نُرِدْ أن نوشح صدره أو نلفَّ جثمانه في هذه الأسمال البالية التي يسمونها الأكفان. . . كانت صلاتنا عليه قصيرة ومقتضبة، رتَّلناها في تأثر وإيمان؛ أما كلمات الحسرة والألم المألوفة في مثل هذا المقام، فما فُهنا منها بكلمة!!
لقد تعلقت أعيننا في سكون بهذا الوجه الشاحب؛ بينما اتجهت بنا الأفكار إلى الغد المجهول في مرارة وأسى.
كنا نفكر - ونحن نشق له لحده الضيق ونمهد له وساداً من التراب - في العدوِّ الذي سيطأ هذا الرفات الطاهر بقدميه؛ والأجنبي الذي سيمرّ فوقه ثانيَ عِطفِه. . . بعد أن نصبح نحن بمنأى عنه فوق أثباج هذا الخضَم الجائش!
سيتحدثون باستخفافٍ عن روحه الكريمة التي صعدت إلى بارئها؛ وفوق رفاقه الهامد سينبزونه بكلمات ملؤها السخرية والإفحاش؛ ولكن عبثاً يحاولون تحريكه أو إقلاق سسباته في هذا المضجع الذي سوّته له أيدينا بعناية ورفق.
فكَّرنا في كل هذا. . . ثم اقبلنا نواصل العمل في مهمتنا الشاقة المؤلمة، حتى دقّ فجأة ناقوس الخطر مؤذناً بالانسحاب؛ وسمعنا دويَّ المدفع التي راح العدوّ يصب قذائفها من مدىً شاسع. . . وعلى غير هدى. فأضجعناه في أناةٍ وحَزَن؛ ثم انصرفنا وقد أخلينا منه ساحةَ مجده التي ما زالت بدمه مخضوبة. . .
لم نخُطَّ على قبره حرفاً؛ ولم نُقِم فوقه تذكاراً أو نرفعْ نصباً؛ بل خلفناه في مضجعه فريداً مستوحشاً. . . وهيهات أن ينفرد أو يستوحش من كان له المجد جليساً، والخلود صاحباً وأنيساً!
(جرجا)
محمود عزت عرفة
. . .المنصورة
للدكتور إبراهيم ناجي

بِأَيِّ مُعْجِزَةٍ في اُلْحبِّ تَتَّفِقُ؟ ... يا قَلْبُ لاَ يَتَلاَقَى الْفجْرُ وَالْغَسَقُ!
يَا قَلْبُ إِنَّا لَقِينَا الْيَوْمَ جَوْهَرَةً ... تَكَادُ في ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ تَأْتَلِقُ
ظَلَلْتُ أَسْأَلُ نَفْسِي كَيْفَ تَعْشَقُهَا ... بَقِيَّةٌ مِنْ بَقَايَا الْعُمْرِ تَحْتَرِق؟!
وَأَفْيتُهَا وَفُلُولُ النُّورِ دَامِيَةٌ ... تَطْفُو وَتَرْسُبُ أو تَعْلُو فَتَعْتَلِقُ
لمْ أَدرِ حِينَ تَبَدَّتْ لِي إذا شَفَقِي ... أَبْصَرْتُهُ أم عَلَى الْمَنْصُورَةِ الشَّفَقُ
يا مَنْ مَنَحْتِ الأَمَانِي الْبِيضَ مَعْذِرَةً ... إِنِّي بِهذِي الْأَمَانِي الْبِيضِ أَخْتَنِقُ
أَيْنَ الْهُدُوءُ الْمُرَجَّى في جَوَانِبِهَا؟ ... إِنِّي رَجَعْتُ وَلَيْلِي كُلُّهُ أَرَقُ
أَقْبَلْتُ أَنْشُدُ أَمْناً في هَوَاكِ بِهاَ ... فَلَمْ أَنَلْ وَتَوَلَّى قَلْبِيَ الْفَرَقُ
لاَ بِأُقْلوبٍ وَلاَ الْأَرْوَاحِ يَا أَمَلِي ... إِنَّا بِشَيْءٍ وَرَاء الرُّوحِ نَعْتَنِقُ
وَيْحي عَلَى كَفِّكِ الْبَيْضَاءِ إذ بُسِطَتْ ... عِنْدَ السَّلامِ وَوَيْحي حِينَ تَنْطَبِقُ
هَلْ يَسْمَعُ النِّيلُ إذ سِرْنَا بِجَانِبِهِ ... وَالْمَوْجُ مُجْتِمِعٌ فِيهِ ومُفْتَرِقُ
صَوْتاً تَمَاَوَجَ في رُوحِي فَجَاَوَبَهُ ... مِنْ جَانِبِ الْقَلْبِ مَوْجٌ رَاحَ يَصْطَفِقُ
تَضَلُّ تَنْهَبُ أُذنِي مِن أَطَايِبِهِ ... كَأَنَّهَا مِنْ خَفَايَا الْغَيْبِ تَسْتَرِقُ
يَاَ جَنَّةً مِنْ جِنَانِ الله أَعْبُدُهَاَ ... لَنْ تَبْعُدِي وَلدَيَّ السِّحْرُ وَالْعَبَقُ
ناجي

الشعاع الغريب!

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

وَمَا أَنَا إِلاْ شُعاُعٌ غَرِيبٌ ... تَأَلَّقَ بَيْنَ جُفُونِ الصَّبَابْ
لَهُ نَفْثَةٌ مَنْ وَرَاءِ السَّدِيمِ ... تُثِيُر عَلَى الْأَرْضِ حُزْنَ التُّرابْ
لَهُ نَشْوَةٌ في الْأَسَى وَالْعَذَابِ ... أَمَا أَيُّ خَمرٍ بِهذا الْعَذَابْ!
تَوَهَّجَ حَتَّى بَكَاهُ الرَّمَادُ ... وَأَغْفَى فَجُنَّ عَلَيْهِ السَّحَابْ
يَلُومُونَ فِيهِ اشْتِعَالَ الضِّيَاءِ ... وَهَلْ يَمْلِكُ النَّارَ قَلْبُ الشِّهَابْ
تَطَلَّعَ إِشْرَاقُهُ لِلسَّمَاءِ ... فَأَوْشَكَ أَن يَسْتَشِفَّ الْحِجَابْ
وَخَانَتْهُ إِيمَاَءةٌ لِلثَّرَى ... فَلَمْ يَلْقَ إِلاَّ الدُّجى وَالْخَرَابْ
فَظلَّ عَلَى نَارِهِ وَالِهاً ... يُدَمْدِمْ كَالْمَوْجِ بَيْنَ الْعُبَابْ
حَزِينٌ وَتَضْحَكُ أَهَاتُهُ ... شَقِيٌّ وَيُغْرِيهِ سِحْرُ الشَّبَابْ
يَعِيشُ عَلَى الْوَهْمِ في عَالَمٍ ... يُجَسِّدُ لِلطِّينِ وَهْمَ السَّرَابْ!
أَلْيلاي مَاتَ بِقَلْبِي الرَّجَاءُ ... وَأَبْلَتْ حَيَاتِي الْأَمَاني الكِذَابْ
وَتُهْتُ فَلَمْ أَدْرِ أَنَّى الْتَفَتُّ ... إِلَى أَيِّ أُفْقٍ أَسُوقُ الْعِتَابْ!

محمود حسن إسماعيل

البريد الأدبي

شعر لولي الدين يكن لم ينشر

تربطني بأسرة فقيد الشعر والأدب ولي الدين يكن أواصر مودة وصداقة أثناء إقامتي الطويلة بحلوان معقل اليكنيين في العهد الغابر، وقد كتبتُ في الرسالة سنة 1938 عن نجله الشاعر المبدع فولاد يكن الذي لاقت أشعاره الفرنسية إعجاب أدباء فرنسا وقد آلت إلي بعض مخطوطات الفقيد وفيها مقطوعات شعرية لم تنشر بديوانه نظمها وهو يعاني شدة الداء، وكان يشكو من الربو، وهاهي القطع أنشرها خدمة للأدب:

- 1 -

عمرَ الشباب لقد مضيت محبَّبا ... وتركت لي عمراً سواك بغيضاً
أمحى وتثبتني الشقاوة كارها ... مثل الكتاب يكابد التبييضا
عوُدت أمراضي وطول تألمي ... حتى كأني قد ولدتُ مريضاً

- 2 -

ترى مادا وراءك من عجيب ... إذا فُتِّحتَ يا باب المنون
مظاهرك السكون ولكن ... أما وُلد الحراك من السكون
قد استعصى الرتاج على عقول ... وقد سُدَّ الطريق على عيون
قصارانا الضنون فما أجزنا ... مُذِ الإعصارِ ساحات الظنون
وما في دولة الأرواح روح ... دنت من عرش سلطان اليقين

- 3 -

تحيرتُ - كم أهفو وكم تتجنبُ ... وكم أرتضى بالصد منها وتغضبُ

وكم أتلهى (الأمانيُ دونها ... وكم أدّعيها لي هوًى وتكذّب
فهل لي ذنب يصغر العفو عنده ... أما إنه إن لم يكن فسأذنب
علامَ أظل الدهر أحمل هجرها ... تنعّم أيام النوى وأعذبُ
تنام وأبقى ساهراً كل ليلة ... وترتاح من حمل الهموم وأتعب
وتزداد أنساً حين أزداد وحشة ... وتنضر في روض الشباب وأشحب
لئن تك آلت أن تديم تجنباً ... فإني سألو أن يدوم التجنب
لها الخير ما يجزى بمثل ما ... رأيت ولكن سوء حظي المسبب
- 4 -
(للاتحاديين في إحدى نوبات جنونهم)
إن تندموا ليس يفيد الندم ... قد قضى الأمر وجف القلم
الله خلاّق الورى عادل ... فلا يلومن غيره من ظلم
يا أمة يقتلها جهلها ... جهلك لا يُشبه جهل الأمم
كامل يوسف
سرقة أدبية
نشرت مجلة الثقافة في العدد (170) مقالاً بعنوان (عذاب الكاتب) للأديب محمود محمود. . ، وقد قرأته فوقفت عند كل معنى من معانيه موقف المتشكك المتحير، إذ شعرت تواً بأني قرأت هذا الحوار منسوباً إلى غيره، ثم ما لبثت أن أدركت انه منقول بالنص من مسرحية للكاتب الروسي وقد ترجم ترجمة حرفية مع حذف بعض الجمل التي يقتضيها سياق المسرحية من الترجمة الإنكليزية المنشورة في كتاب طبعة من صفحة 83 إلى 86، وليس للكاتب من المقال إلا بضعة اسطر قدم بها هذا الجزء المسروق وتحوير يسير في الخاتمة يحمل نفس المعنى الأصلي
حسين محمد عبد الخالق
آثار من أولية الشعر
قرأت ما كتبه الأستاذ الفاضل عبد العظيم قناوي في العدد (450) من مجلة (الرسالة) الغراء تعقيباً على مقالي
فوجدته يرى أن اضطراب قصيدة عبيد في (أثار من أولية الشعر في الشعر الجاهلي) عصر بلغ فيه الشعر آية الجودة لا يتخذ دليلاً على سنة النشوء والارتقاء؛ مع أن وجود هذه القصيدة في العصر الجاهلي كوجود الأعضاء الأثرية في الإنسان ألان؛ فإذا كانت هذه
الأعضاء تتخذ دليلاً على سنة النشوء والارتقاء في الإنسان مع بلوغه آية الجودة في الخلق، فكيف لا تتخذ هذه القصيدة في الشعر الجاهلي دليلاً على سنة النشوء والارتقاء. ولا يمنع من ذلك بلوغه آية الجودة التي يذكرها الأستاذ، وان كان كثير من الباحثين يرى فيه كثيراً من النقص، ويرى أن تقليد ذلك النقص فيه هو السبب في تأخر الشعر العربي الآن
وقد ذكر الأستاذ أن عبيداً لم يكن شاعراً بسليقته، وان اضطراب شعره يرجع إلى هذه الناحية فيه، وهذا قد أشرت إليه في مقالي حين جعلته من الشعراء المتخلفين في عصرهم، وهم الذين يتشبثون بآثار الماضي، ولا يجارون شعراء الطليعة المجددين ولا يتأثرون بابتكارهم وتجديدهم
أما قياس قصيدة عبيد (أقفر من أهله ملحوب) على محاولات المبتدئين في عصرنا فقياس غير ناهض، لأن قصيدة عبيد معدودة من عيون الشعر العربي، ولم يؤخذ عليها إلا اضطراب الوزن والقافية، ولم يكن إلا بعد أن استقر أمر الوزن في الشعر، وجرى على سنة مطردة لا يشذ أحد عنها. أما في عصر عبيد فلم يؤخذ عليها شيء من ذلك، بل كانت تعد فيه آية من آيات الشعر العربي، وهذا يدل على أن مسألة الوزن لم يكن ينظر إليها في هذا العصر كما نظر إليها بعد، ولا يمكن تفسير ذلك إلا بقرب عهده من عصر كان الوزن لا يراعى فيه مراعاة دقيقة، وكان الشعر فيه أشبه شيء بما نسميه الآن الشعر المنثور. ولعل الأستاذ قناوي يقتنع بعد هذا برأيي في قصيدة عبيد
وقد ظهر رد آخر على رأيي في قصيدة عبيد للأستاذ الفاضل محمود عزت عرفة في العدد (546) من مجلة الرسالة، وهو ينظر إلى تلك القصيدة نظراً يختلف إلى حد بعيد عن الرد السابق، فيبرئها من كل عيب، ويرفع من شأن عبيد في مغالاة ظاهرة، مع

أني لم أطعن في قصيدته إلا من جهة الوزن، وهذا لا يحط قدرها من جهة اللفظ والمعنى، وعيب الوزن فيها معروف لدى جمهور العلماء، ولم يأت الأستاذ عرفة في نقضه بشيء، وقد ذكر أن بيت عبيد المختل الوزن صحته:

وقالوا هي الخمر تكنى الطلا ... كما الذئب يكنى أبا جعده

ولكن هذه الرواية غير متفق عليها، ومن الجائز أن تكون محاولة من بعض الرواة لتصحيح وزن البيت، على أن الأستاذ عرفة يكاد يتفق معي في أن قصيدة عبيد يجوز أن تكون على وزن أو أوزان هجرتها العرب في أواخر جاهليتها

ومما ألاحظه على كلا الردين أنهما لم يتعرضا لرأيي في الإقواء ونحوه من عيوب القافية، والأمر عندي لا يقف في هذه الآثار عند الحد الذي ذكرت، بل يتعداه إلى ما حذفه الخليل عند تدوين العروض من الأوزان الشاذة، فلا شك عندي في أن هذه الأوزان كانت تمثل كثيراً من أولية الشعر، وأنها لو وصلت إلينا لعلمنا منها ما له قيمة كبيرة عن حال هذه الأولية المجهولة

عبد المتعال الصعيدي

النهضة الأدبية في السودان

من ابرز الأشياء التي تبدو للناظر في نهضة السودان الحديثة وتتمثل أمام رواده وزواره هو شيوع الروح الأدبي وازدياد النشاط الفكري، ففي كثير من مدنه وعواصمه عدد من الجمعيات الأدبية يعنى عناية خاصة بدراسة الأدب العربي ومسايرة النهضة الفكرية في العالم العربي المتوثب، وتتبع حركته الأدبية، واستعراض الآراء القديمة والحديثة فيها، ثم بحثها واستخلاص نتائجها. لذلك لم يمضي موسم من مواسم الأعياد الدينية إلا وتقام أسواق الأدب في رحاب الأندية التي لم تخل إحداها من جمعية أدبية حتى الأندية الرياضية بجانب كل منها جمعية آداب. وفي (أم درمان) العاصمة الوطنية وكبرى مدن السودان يتجلى النشاط الأدبي في أروع معانيه وأسمى روحه. و (نادي الخريجين) وهو أكبر أنديتها مسرح لملتقى الأقلام ومعرض لدراسات الآداب العربية، وبه يقام المهرجان الأدبي السنوي العام تستعرض فيه صور من الإنتاج الأدبي في خلال العام، ويستخلص منه ما وصلت إليه العقلية السودانية من بحوث. وقد اشترك فيه بعض كبار الأدباء المصريين في دورته الأخيرة منهم من اشترك بنفسه ومنهم من اشترك بقلمه، فادوا بذلك واجب مصر الأدبي نحو السودان، وما ثقافة السودان إلا قبس من الثقافة المصرية، وما أدب السودان إلا صورة من الأدب المصري.

يقتنص نادي الخريجين كل فرصة ليقيم فيها سوقاً أدبية، والأعياد الدينية هي أهم المواسم

لديه، ففي عيد الأضحى يجتمع المؤتمر السوداني العام لبحث مختلف الشؤون السودانية؛ وفي مقدمة بحوثه الناحية الأدبية. وفي عيد الهجرة الاجتماع الأكبر لجمع أموال التعليم الأهلي وتوجيهاته، وهو سوق عظيمة للأدب لما يقال فيه من شعر ونثر. وفي عيد الميلاد النبوي يقام مهرجان كبير لهذه المناسبة يتبارى فيها الخطباء والشعراء بما تجود به قرائحهم ويجيش في صدورهم. وفي عيد الفطر يقام المهرجان الأدبي السنوي العام الذي تقدم ذكره وهو أشبه بسوق عكاظ. وقد كان منتظراً أن يحضره الأستاذ الزيات، والدكتور زكي مبارك، والدكتور عبد الوهاب عزام، وفاء لما وعدوا به لجنة المهرجان في دورته الأخيرة، ولكن جدت ظروف خالصة حالت دون حضور هؤلاء الأعلام الذين لهم منزلة عظمى في قلوب الشباب السوداني المثقف، فلعل الفرص تسنح لهم ولغيرهم من الأدباء بحضوره

وتعتبر مجلة (الرسالة) من أكبر المصادر الموجهة للشباب السوداني في الناحية الأدبية، وهي واسعة الانتشار يقتنيها كل مثقف، ولصاحبها مكان رفيع في المجتمع السوداني وهو لا يدرك مقدار ما يحمله له الشباب السوداني من حب وولاء، وما يحفظونه له من إجلال وإكبار، إلا بعد أن يشرف السودان فيرى ويسمع ذلك نفسه

عبد الرحمن الصائم

أذاعوا به

كتب إلى الأديب محيي الدين مسلاتي من حلب ما يلي:

جلست إلى المذياع استمع حديثكم القيم من محطة القدس وقد استرعى انتباهي من ذلك قولكم: (وبلغتهم دعوة صاحب (الرسالة) - فأذاعوا بها - وتناقلوها بينهم

سراعاً. . .)؛ وإن ما أعلمه أن يقال: (أذاعوها) لا (أذاعوا بها)؛ فهل لأستاذي الكريم أن يتفضل فيبين ما يستند إليه في هذه الصيغة
وجوابي: أنه ليس هنالك فيصل يحتكم إليه الناس فيما استغلق عليهم من أمر هذه اللغة اصدق من كتاب الله تعالى، وفيه يقول:
(وإذا جاءهم أمرٌ من الأمن أو الخوف (أذاعوا به))
(شرق الأردن)
محمد سليم رشدان
1 - تزوج منها خطأً
تكرر في قصة (العقاقير المخدرة): (العدد 447) استعمال (تتزوج منه، والزواج منه، وأتزوج منك) وهو خطأ؛ قال في (المصباح المنير): زوجت فلاناً امرأة - يتعدى بنفسه إلى اثنين - فتزوجها؛ قال الأخفش: ويجوز زيادة الباء فيقال: (زوجته بالمرأة)؛ وقد نقلوا أن أزد شنوءة تعديه بالباء؛ وقول الفقهاء: (زوجته منها لا وجه له)؛ وفي نسخة من التهذيب: (زوجت المرأة الرجل)؛ ولا يقال: (زوجتها منه)
2 - نصب الراية
قال الأستاذ كوركيس عواد في العدد (451): (نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية للزيلعي - نشرته مطبعة دائرة المعارف النظامية بحيدر أباد الدكن في الهند). والناشر هو المجلس العلمي بدابهيل في الهند، وطبع في القاهرة في 4 مجلدات، وفي صدره مقدمة ضافية للأستاذ الشيخ محمد زاهد الكوثري
محمد أبو البهاء
القصص
الحزن
قصة من القصص الشعبي لسكان جزيرة بورنيو
مترجمة عن الإنجليزية
بقلم الأستاذ إبراهيم عبد الحميد زكي
عندما أراد الروح الأعظم بفضله وكرمه أن يجعل الإنسان على الأرض، ويخلقه على صورته التف حوله الملائكة في غبطة وسرور، وتوسل إليه كل منهم أن يجعل له نصيباً في هذا العمل الجليل. فسر الروح الأعظم لهذا الحب والإخلاص كل السرور وحقق لهم ما يرغبون
ثم حدث ذات يوم أن عم الحبور أرجاء الكون، وتجاوبت أنحاؤه بأصوات الموسيقى؛ وغنت الملائكة أغنيات الفرح وترددت النغمات العذبة في كل مكان: في الأنهار والأشجار والأزهار، وكيف لا يحدث ذلك وقد شاءت إرادة الروح الأعظم في هذا اليوم أن ينفخ نسمة وروح الخلود في قطعة الطين التي اشتركت الملائكة في صنعها على صورته
على أن ملاكاً واحداً - وهو ملاك الحزن - لم يشترك في هذا العمل المجيد ولم يكن له في السرور نصيب. ذلك لأنه قضى أيامه كلها يبكي حسرات على مياه الأمطار التي كانت تتساقط دواماً في البحار. فلما نظر الروح الأعظم إليه وجده غارقاً في دموعه، فأراد أن يخفف عنه فقال له: لا تبك! إن غارقاً في دموعه، فأراد أن يخفف عنه فقال له: لا تبك! إن كنت تود أن يكون لك نصيب فيما خلقت فسأمنحك ذلك. لقد تأخرت قليلاً وهاهو ذا الإنسان قد تم خلقه وتكوينه، ولا يمكن أن نرجع في هذا، ولكن أنظر! إنه ما زال غطاً طرياً؛ فتقدم واجلس إليه، وكن حارساً عليه، وامنع عنه كل ما يشوهه، أو ينقص من كمال صنعه
فابتسم ملاك الحزن لهذا الفضل العظيم، إذ أي فضل أعظم من رعاية هذا الصنع الجميل ووقايته من كل شر وتشويه
وجلس الملاك إلى جانب الطين اللين وقد عرض لأشعة الماتاهارى (عين النهار أي الشمس) ليمتص منها حرارة الحياة ودفئها وأخذ يرقبه في عناية وحذر خشية أن يحدث له
ما يؤذيه
ومر الزمن فأحس ملاك الحزن بالوحشة وآلمته الوحدة فراح يحدث نفسه على هذا النمط: لم يعاملني الروح الأعظم على كل حال معاملة عادلة. لماذا لم ينتظر عودتي

قبل تكوين الإنسان وخلقه؟ وأي فخر وأي مجد يعود على من الجلوس هنا أرقب شيئاً قد تم صنعه وكمل تكوينه؟ وهل يوازن هذا الاشتراك الفعلي فيه كما اشترك إخواني الملائكة الآخرون؟؟

واختفت حينئذ البسمة التي علت وجهه من قبل، ووضع وجهه بين كفيه، وانهمرت دموعه على خديه، ونسى بذلك ما عهد إليه من حراسة الإنسان، فتساقطت الدموع كالمطر على الجسم الذي كان قد بدأ يجف، وعندئذ علق الغبار بمواقع الدموع، واستقرت بها الحشرات فشوهت بها الصنع الكامل الجميل

وجاء الروح الأعظم بعد ذلك بأيام قلائل تحف به الملائكة من كل جانب ليشهدوا مدى التقدم الذي أصابه الخلق الجديد؛ فلما رأوا ما فعل الحزن به لازموا الصمت، إلا ملكاً واحداً هو ملاك العطف والحنان، فإنه لم يكد يرى الفساد الذي أحدثه إهمال أخيه حتى أجهشه البكاء، وأسرع إلى الجسم يزيل ما علق به من غبار، ويرفع ما استقر به من حشرات

وقضى على ذلك أياماً طوالاً يحدوه الحب وتدفعه الرحمة حتى أتم عمله، واصلح ما أفسده أخوه. فناداه الروح الأعظم وقال: ما ارفع مكانك، وما اجل شانك في الخلق! لن يستطيع إنسان قط أن يقدرك حق قدرك. لتكن مباركاً مني. اذهب لتأدية رسالتك، فأبك مع البائسين، وافرح مع السعداء المغتبطين، ومهد الطريق للمجهدين المتعبين، وخفف العبء عن الذين أثقلت كواهلهم مشقات الحياة. أما أخوك ملاك الحزن فلا مكان له في السماء ولا نفع منه في الأرض. . . انظر! ما شوه عملي العظيم إلا هو.

(الإسكندرية)

إبراهيم عبد الحميد زكي

العدد 458 - بتاريخ: 13 - 04 - 1942

على محمود طه

(أرواح وأشباح)

على الضفة الشجراء من مصيف المنصورة عرفت (علي طه)، وعلى هذه الضفة الخضراء من مَرْبعها قرأت (أرواح وأشباح). وكان بين اللُّقية الأولى للصديق وبين القراءة الأخيرة للشاعر إحدى وعشرون سنة

كان حين عرفته في إبَّان شبابه، وكنت حين عرفني في عنفوان شبابي؛ وابن آدم في هذه السن ربيعٌ من أربِعة الفردوس لا يُدرَك بمحدود الشعور، ولا يوصف بلغة الشعر؛ فهو منظور الِخلقة، مسجور العاطفة، مسحور المخِّيلة، لا يَنشد غير الحب، ولا يبصر غير الجمال، ولا يطلب غير اللذة، ولا يحسب الوجود إلا قصيدة من الغزل السماوي يُنشدها الدهر ويرقص عليها الفلك

وعلى ذلك كنا أيام تعارفنا وتآلفنا: هو على حال عجيب من مَواسِّ الهوى وما لا يسها من ألوان وصور، وأنا على عهد قريب من ترجمة (آلام فرتر) وما سايرها من أحلام وذِكَر!

قال لي صديقي (حسين) ونحن عائدان من نزهتنا اليومية في الشقة الخلوية من شارع البحر:

مِل بنا إلى قهوة (متيو) أعرفك بشاب من ذوي قرابتي يرضيك خلقه، ويطربك حديثه، (وقد يعجبك شعره)

وكان شارع البحر كما هو اليوم متنزه المدينة؛ وكان نصفه الغربي لا يزال يومئذ مخطوطاً بين النيل والحقول، فلا ترى على جانبيه غير مَماصِّ القصب، ومشارب الكازوزة، وعريشة من عرائش الكرم وألفاف الشجر تتفيأها هذه القهوة

دخلنا القهوة فوجدنا في باحتها بعض الإغريق، وعلى إحدى مناضدها المنعزلة فتى رقيق البدن شاحب الوجه فاتر الطرف، ينظر في سكون ويقرأ في صمت. فلما رآنا هشَّ بقريبه ورفَّ لي، ثم كان التعارف. وطارحناه طرفاً من الحديث؛ ثم طلب إليه صديقي أن ينشدنا بعض شعره، فنشط لهذا الطلب وارتاح كأنما نفَّسنا من كربه، أو خففنا من عبئه؛ ثم قال في سذاجة الريفي ووداعة الطفل: (نشرت لي جريدة (السفور) هذه القصيدة وقدمتها بهذه الكلمة). ثم أدى المقدمة عن ظهر الغيب وهمَّ بإنشاد القصيدة. وكنت حين ذكر السفور قد

أصغيتُ سمعي وجمعتُ بالي، فلم يكد يفرغ من سرد القصة حتى صحت به:
- أأنت صاحب هذه القصيدة؟
- نعم
- وأنا صاحب هذه المقدمة
- عجيب!!
كان ذلك في سنة 1918؛ وكانت جريدة السفور يحررها يومئذ الأعضاء الأصدقاء من لجنة التأليف والترجمة والنشر؛ وكان النظر فيما يرد على الجريدة من الشعر موكولاً لصديقي الأستاذ الجليل الشيخ مصطفى عبد الرازق، ولي؛ فألقى إلينا البريد فيما ألقى هذه القصيدة غُفلاً من الإمضاء، فقرأناها للاختيار، ثم قرأناها للاختبار، فوجدنا قوة الشاعر الموهوب تطغى على ضعف الناشئ البادئ، فضننا بها على السَّل، وصححنا ما فيها من الخطأ، وقدمت لها ببضعة أسطر تنبأت فيها بنبوغ الشاعر، ونصحت له أن يرفد قريحته السخية بمادة اللغة وآلة الفن، وأخذت عليه أن يُكره قيثاره المرح على النغم الحزين واللحن الباكي وهو لا يزال في روق الشبيبة كما يقول شعره
ثم تتبعت بعد ذلك علياً: تعقبت آثاره، وتعرفت أطواره، وتقصيت أشعاره، فإذا الفراشة الهائمة في أرباض المنصورة ورياض النيل، تُصبح (الملاح التائه) في خضم الحياة، و (الأرواح الشاردة) في آفاق الوجود، و (الأرواح والأشباح) في أطباق اللانهاية! وإذا الناشئ الذي كان يختشب الشعر ويتسَّمح فيه، يغدو الشاعر المحلق بجناح الملك أو بجناح الشيطان، يشق الغيب، ويقتحم الأثير، ويصل السماء بالأرض، ويجمع الملائكة بالناس، ويقضي بين حواء وآدم!
هي ملحمة الرجل والمرأة، وقصة الفن والوحي، وحوار الجسد (أرواح وأشباح) والروح، وأنشودة الشباب والحب. سما فيها الأستاذ (علي طه) إلى غاية من الفن قل أن بلغها شاعر
هي حادث جديد في حياة الشعر المصري لا يزكو بالنقد الأدبي أن يهمل الاحتفال بتسجيلها في تاريخ الأدب. وهي قصيدة من النمط العالي لا تحك معدنها في أية حلقة من سلسلتها إلا ثبتت على المحِك؛ فهي في الصياغة مشرقة البيان منتقاة اللفظ، وفي التفكير واضحة المنهج سديدة المنطق، وفي التخيل بعيدة الغاية قريبة المأخذ. وأشهد أني قليل الاهتزاز
لأكثر الشعر وأكثر الغناء؛ ولكن (أرواح وأشباح) هزت نفسي هزاً شديداً، فكنت أطيل الوقوف عند كل رباعية، وأديم النظر في كل بيت، أتذوق جمال صياغته برفق، وأستجلي سر بلاغته في أناة. وإن (الحية الخالدة) و (الفنان الأول) و (حواء) لمن الروائع التي تطول على مقاييس النقد وتدخل في منتخبات الخلود
على أن أسلوب هذه الملحمة ليس بدعاً من أسلوب علي طه؛ فان الصفات الغالبة إلى أسلوبه كله هي الوضوح والأناقة والسهولة والسلامة. ومرجع ذلك فيه إلى ثقافته الرياضية. وليس كالعقل الرياضي شكيمةٌ للخيال الجموح يُسلس بها ويُصحب. وما دام الخيال في قيادة المنطق طار بالفكرة في جِواء مشرقة لا سحاب فيها ولا ضباب، فتتميز الألوان وتتحدد الخطوط وتتبين الصور. أما الخيال الشعري الجامح، فهو كالحب الصوفي الجامح، لا يجد اللفظ الذي يُسفر، ولا العبارة التي تُبين. إنما هي (شطحات) وراء الفكر لم تتضح في الشعور ولم تستقم في الذهن، يحاول الشاعر أن يعبر عنها بالمجازات البعيدة والرموز الخفية، فيغرب ولا يُعرب، ويشير ولا يَدل
إن من عادتي في هذا المكان من (الرسالة) ألا أجامل في سياسة ولا أدب. وربما كان من الخير في هذه المرة أن أدافع الظنون عن هذه العادة بذكر الحكم مؤيداً بأسبابه. وكان ذلك يقتضي تحليل القصيدة إلى عواملها البلاغية، ولكن أن الكتاب في أيدي القراء، والتنبيه على مواضع الجمال فيه اتهام للأدباء!
(المنصورة)
أحمد حسن الزيات
اجتماع الملائكة في مسجد الفردوس
للتحدث في نكبة آدم الجديد
للدكتور زكي مبارك
سمع الملائكة بما صار إليه أمر آدم، وعرفوا أنه سيقدَّم للمحاكمة بلا تسويف، وترامَى

إليهم أنه قد يتخذ منهم شهوداً على براءته من تهمة العصيان. فاجتمعوا بمسجد الفردوس ليتشاوروا فيما يليق بهم أن يصنعوه إن دُعي فريق منهم للشهادة في ساحة العدل. . . فما الذي دار من الأحاديث في ذلك الاجتماع؟

قبل أن ندون هذا المشهد نذكر أن شيث بن عربانوس يدير كلامه على أساس يخالف ما تعارف عليه جمهور المؤرخين، فهو لا يرى أن آدم صاحب حواء كان أول آدم، وإنما سبقته أوادم تعد بالمئات أو بالألوف. وسنرى كيف يحدثنا أن آدم حين هبط الأرض وجد فيها جماجم بشرية تشهد بأن الأرض سُكنَت قبله بأمم لا يعرف أخبارها غير علام الغيوب

وقد هالني هذا الرأي، فمضيت أستفتي المؤلفات الإسلامية لأعرف حظه من الصحة أو البطلان، فماذا وجدت؟

رأيت من يحكم بأن في قول الملائكة: (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) دليلاً على أنهم رأوا قبل ذلك أجناساً آدمية تفسد في الأرض وتسفك الدماء. ورأيت من يجعل (الخليفة) في قوله تعالى: (إني جاعل في الأرض خليفة) آدم جديداً يخلف الأوادم القدماء

ومع أن هذه الأقوال لا تستند إلى نصّ قطعيّ الثبوت والدلالة - كما قال أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار، رضي الله عنه وأرضاه - فهي تؤيد مذهب شيث بن عربانوس، أو تجعله مذهباً لا يتأثم الباحث من الاعتماد عليه وهو يقص أخبار آدم الرسول

والحق أن عبارة القرآن وعبارة التوراة صريحتان في أن آدم صاحب حواء هو أبو البشر. وعبارة القرآن أصرح في هذا المعنى، فالمألوف في أسلوب القران أنه ينهى كل نبي عن الوقوع فيما وقع فيه من سبقوه. ولو أن آدم كان سُبق بأمم بائدة لقص الله عليه أخبارها كما صنع مع سائر الأنبياء، فلم يبق إلا أن نعدّ شيث بن عربانوس مسئولاً عن القول بان آدم صاحب حواء ليس أول إنسان شهد هذا الوجود

ويظهر أن كتاب شيث كان معروفاً في بعض البيئات الإسلامية قبل أزمان طوال، فقد رأينا

أبا العلاء المعري يقول:

جائزٌ أن يكون آدمُ هذا ... قبلهُ آدمٌ على إثْر آدم

ويقول:

وما آدمٌ في مذهب العقل واحداً ... ولكنه عند القياس أوادمُ

ويقول في شيء من الخُبث:

قال قومٌ ولا أدينُ بما قا ... لوهُ: إن ابن آدمٍ كابنِ عِرسِ

جَهِلَ الناس من أبوه على الده ... ر ولكنه مسمًّى بحرس

في حديثٍ رواه قومٌ لقومٍ ... رهنَ طِرس مستنسَخٍ إثر طرس

ولعل (الطرس) الذي عناه أبو العلاء هو كتاب شيث ابن عربانوس واسمه (تاريخ البشرية) وإن لم نجد فيه ذلك الاستهزاء البغيض

وقد أسرف أبو العلاء في الغض من شأن آدم حين يقول:

قالوا وآدمُ مثلُ أوبرَ، وابنُهُ ... كبناته، جَهِلَ امرؤٌ ما أوبرُ

وهو قول لا يعتمد على بينة ولا برهان. وأسخفُ منه زعم فريق من قدماء الهنود بأن آدم كان عبداً من عبيدهم ثم هرب إلى الغرب، ولم يَعد إليهم إلا حين أثقلته تكاليف الأبناء!

وبهذه المناسبة أقول: كان المرحوم مصطفى كمال زعم أن آدم وحواء من أصل تركيّ، وقد أزعجني هذا الزعم الفظيع، فكتبت إليه خطاباً أثبّت فيه أن آدم وحواء من أصل عربيّ، بشهادة الاشتقاق؛ فآدم على وزن أفعل، من الأُدمة وهي السُّمرة المشَبعة بالسواد، وحواء على وزن فعلاء، من الحُوَّة وهي سمرة الشفتين، ثم رّجحت أنهما من أهل نجد، بدليل ما في أشعار آدم من الإقواء. وقد انتظرت أن يجيبني مصطفى كمال - غفر الله له - ولكنه لم يفعل. فسألت بعض الأتراك المقيمين بالقاهرة فأخبروني أن مصطفى كمال لم يكن يقبل الاطلاع على خطاب مكتوب بالحروف العربية بعد أن فرض على قومه أن يكتبوا بالحروف اللاتينية

ما لي ولهذا؟ إنما أريد أن يعرف قرائي أن كتاب شيث يقوم على أساس القول بأن آدم سبقته أوادم، ليعرفوا كيف اشتجر الملائكة وهم ينظرون فيما صار إليه بعد

العصيان
في مسجد الفردوس
تَنادَى الملائكة للاجتماع في مسجد الفردوس، فحضر فريق وتخلّف فريق، وكانت حجة من تخلفوا أنهم أبدوا رأيهم في آدم قبل أن يُخَلق، فهم لا يحبون التدخل في أمر مخلوق شرس لا يرضيه إلا أن يكون الوجود منادح شقاق ونضال وصيال. وقد خلقه الله برغم رأيهم فيه، فليصنع الله به ما يشاء. فهو المنتقم وهو الغفور!
ورأى الذين حضروا أن يصلّوا قبل الكلام في قضية آدم، لتزداد نفوسهم صفاءً إلى صفاء، فيسلموا من أوضار التطاول والإسراف، فما يجوز أن يجلس أحدٌ مجلس القضاء إلا بعد الصلاة والقُنوت، وبعد التحرر من شوائب الأهواء!
أحد الملائكة - هل ترون أن يكون لهذه الجلسة رئيس؟
ملك آخر - إنما هلك الآدميون بسبب الرؤساء
ملك ثالث - كنت أحب أن تقول بسبب استبداد الرؤساء أو تناحر الرؤساء، فالرياسة مأخوذة من الرأس، وهو في العرف مجتمع العقل، فمن الواجب أن يكون لكل جماعة رئيس!
- ولكن ما حاجتُنا إلى رئيس؟!
- لينظّم الكلام عند اشتجار الجدال
- لا يحتاج المتكلمون إلى رئيس إلا حين تغلب عليهم شهوة الثرثرة. . . إن وجود الرئيس هو في ذاته شهادة بضعف المجتمع الذي يحتاج إليه، ولو أدّى كل مخلوقٍ واجبَه تأديةً صحيحة لتساوتْ أقدار المخلوقين. ولن تنجح أمة إلا حين يصبح كل فردٍ من أفرادها وهو مرءوسُ لعقله ورئيسٌ على هواه. وقد حمانا الله من الأهواء فلن نحتاج إلى رئيس. وعلى هذا أرجو أن يدور الكلام بلا ترتيب ولا تنسيق، على أسلوب الغابات لا أسلوب البساتين
- ماذا تريد؟
- أريد أن يكون كلامنا طبيعيّاً على نحو ما تكون الغابة، ولا أريد أن يكون منسَّقاً على نحو ما يكون البستان، فالفطرة في الغابات أقوى من الجمال المصنوع في البساتين
ثم دار الحديث على الصورة الآتية بلا تمييز بين الآراء:
- أرأيتم كيف صحت فِراستُنا في آدم فعصى ربَّه وغوَى؟
- تريد الرجوع إلى التاريخ القديم يوم حاورنا الله في خلق (آدم)؟
- هذا ما أريد
- ولكن فاتك أن مضغ حوادث التاريخ عملٌ ضائع، فآدم خُلِق بالفعل، وهو شرٌّ موجود، أو خيرٌ عتيد، والمهم هو أن نحدد موقفنا بالنسبة إليه
- نحن من نور وهو من طين
- ولكنه أحدثَ في الجنة زلزلة لن نستطيع مثلها أبداً، وستجعل له مكانةً في التاريخ
- تحسده على ذلك؟
- ومن أحسد إذا لم أحسد آدم؟ فنحن جميعاً موكلون بعدّ ما له وما عليه، مع أنه خُلِق من طين، فهل تكون للطين فاعلية يخَفى علينا سرها المكنون؟
- إن تحقير الطين بدعةٌ أذاعها إبليس اللعين، ويكفي الطينَ شرفاً أنه أصل آدم
- وآدم مخلوقٌ شريف؟
- بالتأكيد
- وبرغم العصيان؟
- أي عصيان؟
- الأكل من شجرة التين
- إنما أراد الله أن يأكل من الشجرة المحرمة لنجد عملاً، ولو نزَّه الله آدم عن المعاصي لبقينا بلا أعمال. وهل يعيش القضاة والمحامون والشهود إلا بفضل انحراف الناس عن سواء السبيل؟
- إن رأسي يدور من هول ما تقول
- وهل قلت غير الحق؟ إن آدم هو مصدر الفاعلية في جميع أرجاء الوجود، ومن اجل ضلاله وهداه تنصب الموازين
- نحن مقبلون على متاعب جديدة بسبب آدم الجديد

- وهل أنت راض عن الراحة التي عانيناها بعد انقراض آدم القديم؟
- شكراً لك، أيها الرفيق، فقد خطر في بالي مرةً أن الله قد يسرّح جيوش الملائكة بعد انقضاء مهمتهم في مراقبة السلالات الآدمية
- أخطأتَ أخطأت، فما كنا جنود شرطة ولا جنود استطلاعات، وإنما خُلقنا للتسبيح والتقديس
- خلقنا للتسبيح والتقديس؟ يظهر أنك لم تفهم السخرية الملفوفة في قوله تعالى: (إني أعلم مالا تعلمون)
- وكيف سِخر الله مّنا بهذه العبارة؟
- حين عقّب بها على قولنا: (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء، ونحن نسبّح بحمدك ونقدس لك) فهو لا يرى التسبيح ولا تقديس أفضل من الإفساد وسفك الدماء، بدليل أنه سكت عما اتهمنا به الطبيعة البشرية
- تأدبْ أيها الملَك، فأنت في غفلة عما يعنيه صاحب العزة والجبروت، ولو قضيت دهرك في الاستغفار لعجزت عن محو هذا التطاول الممقوت
- أريد أن أعرف كيف لا يكتفي الله بالتسبيح والتقديس؟
- وما حاجة الله إلى التسبيح والتقديس من أقوام لا تعتلج في صدورهم معاني الكفر والإيمان، والشك واليقين؟ إنما يرضى الله عن تسبيح من يهتدي بعد ضلال، ويؤمن بعد كفران
- إن رأسي يدور من هذا التخريج
- سَلِم رأسك إن كان لك رأس، أيها الشرطيُّ الذي يريد الإقامة بمنطقة ليس فيها خلائق
- أنفهم من هذا أن البشر أفضل منا؟
- لك أن تذكر أن الله يعاقبهم بالانقراض، ثم يتلطف فيخلقهم من جديد، لحكمة سامية، وكيف يغيب عنك المعنى الذي استوجب خلق آدم الجديد في الفردوس؟
- كنت أحب أن أعرف هذا السر العجيب
- خلقه الله في الجنة ليأخذ فِكرةً عن النظام والترتيب والعدل، وليكون لهْ مَثلٌ أعلى يدور حوله حين يقيم مملكته الجديدة في الأرض. ولو أن الله أنشأ الأوادم القديمة هذه النشأة لقل بغْي بعضهم على بعض وسلموا من آفة الانقراض
- غضبة الله عليهم، فما كانوا إلا وحوشاً في ثياب ناس!
- هل تذكر بعض أعمالهم القباح؟
- أعمالهم القبيحة تفوق العد والإحصاء، ولكني أرجح أن الله لم يعاقبهم بالهلاك إلا حين
عاملوه بما لا يليق
- وكيف؟
- كانوا يضيفون إليه أوامر ونواهي لم ينزل بها وحْي، ولا صَدَرتْ عن شرع، ليسوموا رعاياهم سوء العذاب، باسم الله وهم كاذبون
- كما صنع آدم الجديد؟
- آدم الجديد لم يصل إلى ذلك الدَّرَك، فقد عصى الله عن جهل
- إنما عصاه عن حذلقة
- وما حذلقة آدم الجديد؟
- قال الله: (لا تقربا هذه الشجرة) فترك (هذه الشجرة) بعينها ثم قرب شجرة من ذات الجنس، وهو يتوهم أن في هذه الحذلقة ما ينجيه من العقاب
- إن آدم حيوان لئيم!!
- وبلا عقل، فلو كان يعقل لأدرك أن الله لا تخفى عليه خافية من حِيل الفقهاء، وسنرى كيف يدافع غداً عن إثمه في ساحة العدل
- لا يَبعُد أن يرضى الله عن بلاغته وهو يصوّر الدميم بصورة الجميل
- الجمال في نظر الله هو الحق، وذلَّ من يزعم أنه يستطيع مخادعة الله، هلك آدم القديم بسبب الحذلقة الفقهية، وسيهلك آدم الجديد بسبب الحذلقة الفقهية. وسنقول فيه كلمة الحق والصدق إن دُعينا للشهادة في ساحة العدل
- تذكر أنه صاحب حواء!

- ماذا؟
- آدم الجديد هو صاحب حواء
- لا أفهم ما تريد أن تقول
- أريد أن أقول إن آدم لن يهبط الأرض إلا ومعه حواء
- وتظن أننا نزور الشهادة من أجل حواء؟
- أنا لا أدعو إلى تزوير الشهادة، وإنما أدعو إلى الترفق بمن يملك امرأة جميلة
- بهذا هَلَك بنو آدم الأول، فقد كان فيهم من يحالف أمةً تعدي أمته من أجل وجهٍ جميل،
والجمال سهم يصيب صدر الأسد الرابض في حمي العرين
- وما رأيك في المَلك الذي نظّم باقةً من أزهار الفردوس ليتحف بها حواء؟
- كان ذلك بوحي الله
- إنما كان ذلك بوحي الجمال
- هذا تخريج لا أرضاه
- إنما هو حساب يساق إليك
- الآدميون الأغبياء يهيمون بالجمال، فكيف يعاب علينا أن نهيم بالجمال؟
- ومن أجل الجمال عصى آدم ربه طاعة لحواء، أفلا يستحق العطف؟
- سأنظر في هذه القضية
- العجيب أن تُخلَق بلا شهوات ثم تهيم بحواء، فما حال آدم المظلوم في حب حواء وهو مخلوقٌ موقَر بأوزار الشهوات؟
- نهاه الله عن الانخداع لحواء وما نهاني
- كان الظن أن تفهم أن النهي لا يوجه إلا لمن تغيب عنهم دقائق الأدب الرفيع
- أتتهم الملائكة بالغباوة؟
- أتهمك وحدك
- أنا ملكٌ مِثلك
- لن تكون مثلي إلا حين تعترف اعترافاً صريحاً بأن الجمال يزيغ البصائر والعقول
- ولن أعترف إلا إذا سمح جمهور الملائكة بأن أتهم الله بالغَرَض
- ماذا تريد، يا زنديق؟
- أريد القول بأن الله خصّ حواء بأشياء
- لتحلو في عيني آدم، لا في عينيك
- أمركم عَجبٌ من العجب، أنتم تعرفون أن الجمال في ذاته شريعة أذلية، ولا ينظر إليه إلا أصحّاء القلوب، كالشمس لا ينظر إليها إلا أصحاء العيون، ونحن مطالبون بالنظر إلى جميع ما في الوجود، لنزداد يقيناً إلى يقين، فكيف يجب النظر إلى زهرة نضيرة ولا يباح النظر إلى وجه جميل؟
- اترك هذه الفلسفة وحدِّد رأيك في آدم
- هو من المذنبين
- لأنه غريمك في حواء؟
- غريمي في حواء؟ كيف؟ وهل جُنِنْتُ حتى أهيم بمخلوقة لا تملك غير عينين نجلاوين، ولا تعتزّ بغير قدها الرشيق وأنا أعرف أنها سرقت سواد عينيها من عيون الظباء، ونهبت مرونة قدها من أعواد ألبان؟ أنا أحب مخلوقةً مقتولة اللحظ، مبحوحة الصوت؟
- هي سبب نكبة آدم فلتهبط معه إلى الأرض
- يهبط وحده، وتبقى حواء، فما عددت عليها ذنباً يستوجب العقاب
- هذا ما أردنا أن نصل إليه، فقد زعم خصومك أنك لم تراع الأمانة في عدّ أعمال حواء
- اسمعوا، أيها الملائكة، اسمعوا، هل تظنون أن الله يحتاج إلى من يعدّ على عباده الذنوب؟ إنه عز شأنه يعلم من سرائر القلوب ما لا نعلم؛ وهو لم يوكِّلنا بعدّ الأعمال إلا ليختبر ما نحن عليه من الأدب والذوق، فهو يبغض أن نكون جواسيس، وهو يرجو أن نتخلق بأخلاقه فنتغاضى عن أشياء
- وهل يتغاضى الله عن أشياء!!
- لو حاسبَ الله مخلوقاته بالعدل الحاسم لأهلك طوائف من الملائكة والناس
- من الملائكة؟

- نعم، من الملائكة، الملائكة الذين يتعقبون رفيقاً من رفاقهم فيأخذون عليه أنه قدَّم باقةً من الزهر إلى حواء!
- لا تنس أنهم الملائكة الذين يرجون أن تتناسى ذنب آدم كما نسيت ذنوب حواء!
وهنا وقف أحد كبار الملائكة وصاح:
(أيها الرفاق المصطفَوْن
لا أحب أن نحترب في شأن آدم أكثر مما احتربنا، فلنا مع أسلاف هذا المخلوق تاريخ، وستكون لنا معه تواريخ، وأنا أدعوكم إلى الرفق به إن دعيتم إلى الشهادة غداً في ساحة العدل، فالصدق في الشهادة يُطلب في حالة واحدة، وهي الحالة التي يقضي فيها كتمان الشهادة بضياع الحقوق، والترفق بآدم لن ينتصر به باطل، ولن ينهزم به حق، وأنا أخشى أن يغضب الله علينا إن أدينا الشهادة تأديةً حرفية. وهل يحتاج القاضي العالم بالسرائر إلى شهود؟)
- ونذْنب بالكتمان؟!
- قد يكون الكتمان في بعض الأحوال أشرف من البلاغ!!!
- أوضِحْ، أوضح
- آدم متهم بالعصيان، ولهذه التهمة إن صَّحتْ عواقبُ سود، فعلينا أن نقف في صفه صادقين أو مرائين
- ماذا يقول الله؟
- سيقول إن سَتْر العيوب فضيلة لا يتحلى بها غير الملائكة والأنبياء!
(للحديث شجون)
زكي مبارك
ذكرى ميلاد الرسول
للأستاذ محمد يوسف موسى
كلما خطر بالبال أو جرى على اللسان ذكر مولد محمد صلى الله عليه وسلم تذكرنا الدين الذي جاء به فكان فارقاً بين الحق والباطل، وحدا فاصلاً بين عهود خلت لبستها الإنسانية وأخلقتها بعد أن اجتوتها، وعهد جديد آهل بالعز والكرامة. حقاً لقد كان ميلاد الرسول إيذاناً بانتهاء ما سبقه من أديان كانت مناسبة لمن جاءت إليهم، وباستهلال الإسلام الدين الخالد الصالح للناس جميعاً؛ لا فرق بين بدو وحضر، وسود وبيض، وشرقيين وغربيين، تقدم بهم الزمان أو تأخر
وليس من العجب أن يجيء دين صالح عام بعد دين قاصر خاص، بل كان يكون العجب ألا يكون هذا التدرج الذي عرفه التاريخ. لقد ولدت الجماعة البشرية طفلة، وترقت - شأن كل الكائنات الحية - جيلاً فجيلاً، فمرت من الطفولة للشباب، وانتهت أخيراً لدور الرجولة الرشيدة الكاملة. وكان من حكمة الله اللطيف الخبير أن تتفق الديانات التي تعبّد بها عباده في الأزمان المختلفة، وعقول من أرسلت إليهم ومداركهم وحاجاتهم. لهذا رأينا الرسول يتبع الرسول، والدين يجيء في أثر الدين، وكل له ناسه المحدودين وزمنه الموقوت، حتى بعث المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام يدين الناس جميعاً والإنسانية عامة، فتمت به نعمة الله على عباده وكملت لهم السعادة
ولنعرف قيمة منة الله على العالم بأسره بميلاد محمد وبعثه بتاج الأديان، يجب أن نقلب بعض صفحات التاريخ، ونتذكر قليلاً حالة المسيحية التي كانت لها السيادة قبل الإسلام على جزء كبير من العالم المعروف بالمدنية حين ذاك
لقد ظهرت المسيحية في عصر كان المال هو المعبود من دون الله، وكانت الشهوات حتى الوضيع منها هي التي تأخذ على الناس أمرهم وتوجههم في أعمالهم، طلباً لها وتهافتاً عليها كما يتهافت الفراش على النار. وحسبنا أن نعلم أن مذهب أبيقور، في أوضع ما اتخذ من صور إباحية، كان مذهب الكثرة الغالبة، في بلاد الرومان ميدان نشاط المسيحية بعد مهدها الأول وهو الشام. غلو من اليهود في طلاب المال وجمعه من كل النواحي وبسائر الوسائل، وغلو في الافتتان بالشهوات ومتع الحياة الدنيا. هكذا يمكن تصوير ما كان يسود العالم من
نزعات إبان ظهور المسيحية
من أجل ذلك كان طابع المسيحية زهداً شديداً، ولهذا رأينا المسيح عليه السلام معرضاً

تمام الإعراض عن الدنيا وحاثا حوارييه وأتباعه على التخلص منها ومن أسرها ومفاتنها، ومؤكد أن ملكوت لن يفتح للأغنياء، وأنه سيكون وقفاً على الفقراء. لكن للنفس شهوات يجب أن ترضى في قصد، لهذا كان من الطبيعي ألا يطيق من جاء لهم هذا الدين وصاياه الشديدة، وما يدعو له من زهد وتقشف وترك تام للدنيا؛ (فهب القائمون عليه أنفسهم لمنافسة الملوك في السلطان، ومزاحمة أهل الترف في جمع الأموال، وانحراف الجمهور الأعظم منهم عن جادته بالتأويل، وأضافوا إليه ما شاء الهوى من الأباطيل).

ولعل من الخير أن نذكر شاهداً ودليلاً على ما نقول من تهالك عامة رؤساء الدين المسيحي أنفسهم على الدنيا. روى ابن هشام في سيرته عن ابن إسحاق في خبر طويل أن سلمان الفارسي - وكان في بدء أمره مجوسياً من أهل أصبهان - صبأ إلى المسيحية، إذ أخذ بقلبه ما سمعه من صلوات وتراتيل دينية، فغافل أباه - وكان دهقان قرية - وفر إلى الشام ليأخذ علماً من علم أهل الإنجيل وليتصل برؤساء هذا الدين. ولما وصل إلى تلك البلاد سأل عن أفضل هذا الدين علماً، فدُلّ على أُسقُفْ الكنيسة، فذهب إليه واستأذنه في خدمته ليتعلم منه ويلتمس من فضله. . . وهنا أترك الحديث لسلمان نفسه يقول: (وكان - يريد الأسقف - رجل سوء؛ يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها، فإذا جمعوا إليه شيئاً منها اكتنزه لنفسه ولم يعطه المساكين، حتى جمع سبع قِلال من ذهب وورق، فأبغضته بغضاً شديداً لما رأيته يصنع). ولما مات وقفت النصارى على ما كان يفعل، وأريتهم موضع كنزه فاستخرجوه، وحنقوا على الأسقف وقالوا: والله لا ندفنه أبداً.

ومما يجب أن يلاحظ - وقد بلغنا هذا الموضع من نبأ سلمان - أن النصارى أقاموا بعد الأسقف الذي ذكرنا خبره آخر لم ير سلمان أفضل منه وأزهد في الدنيا، فأقام معه زماناً، ولما حضره الموت طلب إليه أن يوصي به من يرى فيه الخير مثله فقال له: (أي بني، والله ما أعلم اليوم أحداً على ما كنت عليه، فقد هلك الناس وبدّلوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجلاً بالموصل، وهو فلان وهو على ما كنت عليه فألحق به). فعل سلمان وحمد لصاحب الموصل - وقد خبره - دينه وأمره، ولما حانت منيته لم ير من يوصي به إليه إلا آخر بنصيبين، وهذا لم يجد من يوصي به إليه حين أشرف على الموت إلا رجلاً بعمُّورية من أرض الروم، لأنه كما يرى صاحب نصيبين آخر من بقى على الدين المسيحي ونهجه الصحيح حين ذاك. ومعنى هذا أن الناس في ذلك الزمن لم يطيقوا الدين المسيحي، فانسلخوا منه شيئاً فشيئاً لما طال بهم الأمد، وقست قلوبهم فما رعوه حق رعايته وهنا أنفِّس عن نفسي بالإشارة إلى ظاهرة أحسستها من زمن بعيد وجهدت في أن أجد لها تعليلاً: هي أن الغالب على رجال الأديان عامة - حتى المسلمين - في هذا الزمن حب المال وجمعه والاستكثار منه، وعدم المسارعة إلى أفعال البر التي تقتضي البذل والإنفاق! لماذا! لا أدري، اللهم إلا أن يكون معرفتهم بالدين معرفة دقيقة، والإحاطة بما دونه المتأخرون من الفقهاء في تآليفهم، كل ذلك جعل منهم على حبل الذراع تعلات ليست من الحق في شيء، تجعل من الهين عليهم ما نحسه فيهم من إقبال على الدنيا شديد وتخلف في ميادين البذل والإنفاق!

ومهما يكن فقد كانت المسيحية وما تدعو إليه من غلو في الزهد، وكان أهلها وما فتنوا به من حب المال والشهوات وعروض هذه الحياة، ممهداً طيباً للإسلام الذي جاء والإنسانية قد بلغت رشدها فكان ديناً وسطاً قيماً لا عوج فيه، دين عرف للجسم حقه وللروح حقها، فلم يوجب التقشف ولم يحرم التمتع بزينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، ولم يغلق أبواب الجنان دون الأغنياء كما أعلن عيسى عليه السلام، بل إنه رفع الغني الشاكر إلى مرتبة الفقير الصابر وربما فضله عليه، دين نهانا عن الغلو في طلب الآخرة ونسيان الدنيا، وبخاصة وهذه قد تكون من وسائل تلك، قاصاً علينا ما قال قوم هارون له: (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا) دين لم يقل رسوله كما قال المسيح لواحد من أنصاره (بع مالك واتبعني)، بل قال لسعد بن أبي وقاص وقد استشاره - وهو عليل مدنف وذو مال كثير - فيما يتصدق به: (الثلث والثلث كثير! إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس)، وهكذا نجد الإسلام يتناسب وما بلغته الإنسانية من رشد، والدين

الذي استحق أن يكون خاتم الأديان بما يؤدي إلى سعادة الناس جميعاً مهما اختلف بهم الزمن
إذا كان هذا شأن العالم والمسيحية بصفة عامة، وهو شأن كان ينادي بضرورة دين جديد
فلبى الإسلام النداء، فكيف كان حال العرب وهم مهد الإسلام ومنبِته؟ لا أظن المرء يأتي بجديد إن عرض حالة العرب قبل ميلاد الرسول وبعثه بخير دين، فقد كثر في ذلك الكلام، فلْأقتصر إذن على كلمة قصيرة نتبين منها كيف كان العرب يعكفون على ما كانوا عليه من ضلال في الدين، وضلال في التقاليد، وشدة في الخضوع لما كان عندهم من أوثان وأصنام؛ وهي حالة تستوجب الإنقاذ السريع بدين يرد للإنسان شرفه وكرامته بعد أن ألغى عقله وعبد في موطن البيت الحرام بعض ما كان يصنع بيديه!
والحديث قد طال فلنرجئ تمامه إلى العدد الآتي أن شاء الله
محمد يوسف موسى
المدرس بكلية أصول الدين
خُسرو وشيرين
في التصوير الإسلامي
للدكتور محمد مصطفى
خسرو الثاني، بن هرمزد الرابع، بن خسرو أنو شروان العادل، المعروف عند مؤرخي العرب باسم كسرى برويز، أي كسرى المظفر؛ وهو آخر ملوك الدولة الساسانية الكبار، ملك إيران ثمانياً وثلاثين سنة (590 - 628م)، فكان عهده من أطول العهود، مليء بالحوادث العظيمة، والقصص الممتعة، ذات الأثر البليغ في الأدبيين الإيراني والتركي وفي الفن الإسلامي
تولى خسرو برويز عرش إيران والبلاد في حالة ثورة واضطراب عظيم، فقد كان أبوه هرمزد عسوفاً شديد البطش، وكان من آثار سياسته أن ثار به القائد الشهير بهرام جوبين، الذي هزم الترك سنة 588م وقتل ملكهم ساوه شاه وأسر ابنه بعد أن غنم ما يفوق الوصف، فأوغر بذلك صدر هرمزد بالغيرة منه والحقد عليه. ورأى هرمزد في انهزام بهرم جوبين أمام الروم في موقعة عند اللاذقية سنة 589م، فرصة ليحط مقدار القائد العظيم فأمر بإحضار قميص من الشعر، وسراويل أحمر، ومعجر أصفر، ووعاء فيه قطن، ومغزل إلى غيرهما مما يصلح للنساء، وأمر بعض أصحابه أن يحملها إلى بهرام فأقحمه الثورة. وثار الناس بهرمزد ودخلوا عليه القصر ونكسوه من العرش، وكحلوا عينيه وحبسوه، ثم قتلوه بعد ذلك، وأنهى الخبر بذلك إلى خسرو وبرويز، فطار بجناح الركض، وجاء من أرمينيا حيث كان قد فر إليها لما أوقع بهرام جوبين بينه وبين أبيه، فتغير رأي أبيه عليه وأراد أن يقتله. ولكن خسرو برويز لم يفلح في مصالحة بهرام جوبين، وفر ثانية ولجأ إلى موريس إمبراطور الروم يطلب معونته، فزوَّده بجيش استطلاع به أن يقهر بهرام جوبين ويضطره أن يفر فيلجأ إلى خاقان الترك حيث قتل فيها بعد. وكانت لإمبراطور الروم بنت متحلية بالخلال الحميدة والخصال المرضية تسمى (مريم)، وكانت جميلة كالشمس إذا انكشف عنها السحاب، فرأى أن يزوجها من خسرو ليتم بذلك ربط صلات المودة بين البلدين، وقد تزوج خسرو من (مريم)، فولدت له ابنه (شِيروُيَه)
وبلغ خسرو برويز من سعة السلطان مبلغاً عظيماً، فاستولى على مصر والشام وسائر ما
كان يملكه الروم في آسيا الصغرى، حتى عسكرت جنوده على شاطئ البسفور في مقابلة القسطنطينية، ولكن بسطة السلطان هذه انقبضت في آخر أيامه، واستطاع (هرقل) إمبراطور الروم أن يهزم جيوش خسرو بعد حرب طاحنة دامت أعواماً طويلة، فثار الناس به وقبضوا عليه وحبسوه وولوا ابنه (شيرويه) العرش باسم (قباذ الثاني)، فأمر بقتل أبيه (خسرو) وعقد الصلح مع الروم
أما (شيرين)، فقد اختلف الرواة في أصلها، فقال بعضهم - ومنهم الشاعر نظامي - إنها بنت ملك الأرمن، أحبها خسرو حين قُرمن أبيه هرمزد؛ وقال آخرون أنها إيرانية كانت في خدمة أحد الأشراف، وكان خسرو في صباه يتردد على دار هذا الشريف فأحب شيرين وأعطاها خاتماً، فلما علم رب الدار بهذا الحب، أمر أحد خدامه أن

يغرقها، وقد استطاعت شيرين أن تؤثر في هذا الخادم، فألقاها في مكان من نهر الفرات قليل الغور، فنجت من الغرق ولجأت إلى أحد الأديرة. ولما تولى خسرو العرش، سار ذات يوم إلى ناحية هذا الدير، فأرسلت إليه شيرين الخاتم مع أحد عساكره، فذكرها وأخذها إلى قصره في المدائن، فعاشت معه وأخلصت له. وبعد مقتل خسرو رآها ابنه شيرويه، فكانت في نظره ذات وجه كالنهار الشامس، وشعر كالليل الدامس. . . فلما رآها كادت تزهق روحه شغفاً بها. . . فتناولت شيرين السم لتضع حداً لهذا الحب وتبقى على إخلاصها لخسرو

وكان لشيرين عاشق ثالث اسمه (فَرْهاد): كان مثَّالاً إيرانيًّا بارعاً في فنه، اشتهر في عصر خسرو برويز بنحت التماثيل والزخارف. ويقال إنه هو الذي نحت الصور الخالدة لخسرو في (طاق بستان)، وسيأتي ذكر ذلك فيما بعد

وقد نظم الشاعر نظامي الكنجوي قصة (خسرو وشيرين)، وجعلها إحدى منظوماته الخمس، ثم اقتدى به كثير من شعراء الإيرانية والتركية، فنظمها بالإيرانية خسرو الدهلوى، وبالتركية شيخي وعطائي وآهي وغيرهم. ووجد الفنانون في حوادث هذه القصة ومواقفها مادة ليس لها من نهاية يستلهمون منها في رسم صور لا حصر لها، فصوروها في جميع مراحل التصوير الإسلامي وفي مختلف عصوره. وشاء القدر بذلك أن يخلد لأبطال هذه القصة صفحات في كتب التاريخ والأدب والفن

يقول الشاعر نظامي الكنجوي أن خسرو برويز ولد في طالع حسن عند بزوغ فجر أحد الأيام، فكان مولده كشروق الشمس في الأفق من بين الظلمات، تجلب معها النور والخير والبركات والقوة والشباب؛ وإذ مضى عام على ولادة ذلك الطفل وحلت ليلة القدر، قام واقفاً على قدميه، وبدأ لسانه يثرثر بما وعاه من كلمات، فعهد والده بتربيته إلى (بُزُر جُمِيد) الحكيم، وفي رعايته نما ذلك الطفل إلى أن صار شاباً كامل التربية تام التهذيب، وأميراً شجاعاً وبطلاً صنديداً؛ وامتلأ قلب (هرمزد) بالسرور والشكر لله جلت قدرته، الذي وهبه هذا الوريث الشهم السامي الأخلاق، واعتزم أن يحكم المملكة التي سيرثها مثل هذا الابن بعدالة أكثر من ذي قبل، ورسم بعقاب أيما رجل تعدى على أملاك آخر، وقطع أذن وذنب أيما فرس دخل أرضاً مزروعة فأضرّ بها، وصلب من سرق شيئاً

وذات يوم جلس هرمزد في مجلس العدل يحكم بين الناس فدخل إليه بعض القرويين بمظلمة، يشكون من ولده الأمير خسرو أنه حل الليلة الماضية في بيت أحدهم عند مروره بقريتهم أثناء رجوعه من إحدى رحلات الصيد العديدة، التي اعتاد الأمير الشاب أن يقوم بها. ولم ينته الأمر عند هذا الحد، بل إن خسرو أمضى ليلته بأكملها في ذلك البيت، ومعه جماعة من أقرانه وأصحابه يتناولون الجام من المدام بعد الجام، وهم يستمعون إلى نغمات مطرب الأمير، وقد اندفع هو في الغناء فاندفعوا هم في الشرب وأكثروا حتى ثملوا. وما كان هذا كل ما اقترفه الأمير من ذنوب، بل إن فرساً من مراكبه الخاصة جفل من مربطه وانطلق يلهو في حقل رجل فقير فداس شيئاً من الزرع وأضر به. ثم إن أحد أصحاب الأمير رأى عناقيد من الحصرم متهدلة من بعض الكروم في حديقة، فأمر غلاماً من عبيد الأمير بأن يقطع منها عدة ويحملها إليه ففعل. فثار الملك من سخطه على سلوك ابنه الأمير وأمر بالفرس فأعطى لصاحب الحقل الفقير؛ وبالغلام فوهب لمالك حديقة الكروم؛ وبأسلحة الأمير وشاراته، فمنحت لسكان البيت حيث قضى ليلته. وكاد الملك أن يخرق ابنه لولا شفاعة بعض أكابر المملكة، فعفا عنه بعد أن اعترف الأمير بسوء فعلته وفي (الشكل 1) نرى الأمير الشاب خسرو برويز وهو راكع أمام والده الملك هرمزد الجالس على العرش يسلمه أسلحته عقاباً له لمخالفته ما رسم به والده، ووقف على الجانبين بعض كبار المملكة يستعطفون الملك هرمزد ليعفو عن ولده خسرو. وسحن الأشخاص هنا اصطلاحية. وهذه الصورة في مخطوط للمنظومات الخمس للشاعر نظامي الكنجوي. كتبه درويش عبد الله الأصفهاني في سنة 868 هجرية (1463م). والظاهر من الصور التوضيحية التي به أنه قد اشترك في تصويرها غير واحد من الفنانين. ولهذا المخطوط ميزة كبيرة وهي انسجام الصور مع المتن. وهو الآن محفوظ في مجموعة شستر بيتي بلندن

بعد ذلك بمدة قصيرة رأى خسرو في منامه جدَّه العظيم أنو شروان، وقد وقف أمامه في عظمة وجلال، وأخبره أنه سيكافأ بقبوله جزاء فعلته دون تذمر، ولتخليه عن

مطربه وفرسه وغلامه وأسلحته، وأنه سيحصل في نظير ذلك على مطرب بارع في فنه، له صوت عذب حنون، سيكون اسمه (باربُد). وعلى جواد أسرع من فكر الإنسان، سيكون اسمه (شَبْديز). وعلى امرأة لا تضاهي في الحسن والجمال سيكون اسمها (شيرين) وأخيراً على العز والمجد بجلوسه على عرش إيران

وبعد هذه الرؤيا بمدة قصيرة جاء لزيارة خسرو صديقه الحميم (شابور)، وقد كان مصوراً بارعاً، يجيد الرسم والتصوير، ولا يضارعه أحد في هذا الفن، وكان إلى جانب ذلك رحالة بكل قلبه وقالبه، مولعاً بالأسفار، مشغوفاً بالرحلات إلى البلاد البعيدة والغريبة. وفي سياق حديثه مع خسرو، أخبره أنه قدم مرة إلى بلاد جميلة تسمى (أرمينيا) تحكمها ملكة عظيمة اسمها (مهين بانو) مشهورة بين ملوك الدول المسيحية. وأن وريثة هذه الملكة العظيمة هي ابنة أخيها الأميرة (شيرين) وأن هذه الأميرة ذات جمال فريد لا مثيل له، وسحر ملائكي وفتنة تأخذ بمجامع الألباب. وقد اعتادت هذه الفاتنة أن تجوب نواحي المملكة على رأس (قطيع) من ثلاثمائة عذراء، تنافس كل منهن الأخرى في جمال النفس ورشاقة القوام؛ ليس لهن من همّ سوى التفكير في أماكن جديدة بعيدة، يقضين فيها أوقات طويلة في المرح والنزهة والصيد والقنص. وأخبره أيضاً أن الملكة (مهين بانو) تملك فرساً لونه أسود كلون الليل الدامس اسمه (شبديز). وقد عجب خسرو لاتفاق الأسماء فيما رواه له صديقه شابور مع ما حفظه عن جده أنو شروان من أسماء عند ما ظهر له في الحلم، وأخذ يستزيد شابور من أخبار شيرين حتى تأجج قلبه من نيران الهوى، وهام بها هياماً شديداً لمجرد سماع أخبارها؛ وكانت نتيجة ذلك أنه أمر صديقه (شابور) بالسفر في التو واللحظة إلى أرمينيا، وأن يسعى هنالك في ربط الصلة بينه وبين (حبيبته) شيرين

وصل شابور إلى أحد أديرة أرمينيا، حيث علم أن شيرين قادمة بعد قليل مع صويحباتها العذارى، وأنهن سيهبطن للراحة في روضة مجاورة. ووجد شابور في ذلك فرصة مناسبة ليستلفت نظر شيرين إليه، فرسم صورة لخسرو وعلقها على شجرة في مكان ظاهر من تلك الروضة، ثم اختبأ منتظراً ما سوف يحدث. وأقبلت شيرين إلى الروضة ومعها صويحباتها، ورأت الصورة فأعجبت بها، وكأن الشخص الذي تصوره قد أثر في نفسها تأثيراً شديداً فأمسكت بها بين يديها، واسترسلت في البكاء وهي تقبلها. وعند ما تبين صويحباتها شدة انفعالها، عملن على إبعاد الصورة عنها، ومزقنها خفية، , وأفلحن في إقناعها بمغادرة هذه الروضة لأنها مسكونة بالجان، وكانت الصورة سوى عمل من أعمالهم

وفي (الشكل2) جلست الأميرة شيرين في روضة على سجادة تتناول صورة خسرو من إحدى الفتيات، وقد جلس إلى جواريها أربع موسيقيات: الأولى منهن إلى اليمين هي مطربتها الشهيرة (نيكيسا) وفي يدها الجنك، ثم ضاربة للدف، فثالثة تغني وتصفق، ورابعة تعزف على المزمار. وقد وقف حولهما بعض صويحباتها وجواريها وأحد الحراس. وهذه الصورة في مخطوط للمنظومات الخمس للشاعر نظامي، مؤرخ سنة 900هـ (1494م) كتب للأمير ميرزا أحمد علي فارسي أحد أمراء السلطان حسين بيقرا، واشترك في تصوير الصور التوضيحية التي به بعض مشاهير المصورين في ذلك العصر. وهذه الصورة من تصوير الفنان (ميرك خراساني)، وهو إلى جانب ذلك خطاط مشهور. ويقال إنه أحد أساتذة المصور الشهير (بهزاد) وهذا المخطوط محفوظ في المتحف البريطاني

غادرت شيرين ومن معها الروضة الأولى ونزلن في روضة ثانية، وكان شابور قد رأى وسمع من مخبأه هناك كل ما حدث وقيل، فسبقهن إلى الروضة الثانية ووضع صورة أخرى في مكان ظاهر منها. وقد حدث هنا ما حدث في الروضة الأولى وغادرتها شيرين وفتياتها إلى ثالثة، حيث كان شابور أيضاً قد سبقهن وعلق صورة ثالثة، وكانت شيرين قد غلبها حب خسرو لمجرد رؤية صورته، كما غلبه حبها لمجرد سماع أخبارها - والحب كما يقولون يعلم الحيلة والدهاء - فاحتفظت بالصورة هذه المرة، وأرسلت صويحباتها يبحثن عن صور أخرى في الرياض المجاورة، وهي في الحقيقة تود أن تخلو إلى نفسها. ورأى شابور أن الفرصة قد حانت، فخرج من مخبأه وتقدم إليها متنكراً في زي راهب، وبعد أن جعلها تأمر بانسحاب أتباعها، أخبرها أنه مصور هذه الصور وأنها تمثل شخص

الأمير خسرو برويز، وأن هذا الأمير قد تملك فؤاده حبها، وأرسل معه إليها خاتماً كدليل لمحبته لها. وهنا صارحته شيرين بحبها لخسرو، وتوسلت إليه أن يرشدها إلى الطريق نحو المدائن، عاصمة إيران. وبعد أن وصف لها شابور الطريق، انسحب ورجع من حيث أتى.

وفي (شكل 3) نرى أن الأميرة شيرين قد جلست في روضة على العرش وجلس أمامها شابور وفي يده صورة خسرو، وأمام العرش فسقية بها ماء تسبح فيه أوزة، ووقف خلف (شيرين) بعض العذارى من صويحباتها، وحول شابور نرى الأتباع والخدم، منهم الجالس والواقف، وبعضهم يقوم بواجباته من تقديم الطعام والشراب. ولم ينس المصور أن يرسم صورة البستاني وفي يده جاروف يعمل في الأرض. والرجال يلبسون عمائم تخرج منها عصا كانت الزي المتبع في لباس الرأس في عصر الدولة الصفوية. ونرى أن سحن الأشخاص في هذه الصورة تمتاز بما بها من حياة وظهور التأثيرات المختلفة عليها من اهتمام وتفكير وسرور وحزن إلى غير ذلك مما امتازت به صور هذا العصر. وهذه الصورة من تصوير (ميرزا علي) أحد تلاميذ المصور بهزاد، ومن مشاهير الفنانين في عصر الشاه طهماسب، وقد اعتاد هذا المصور أن يصور رجاله وهم ملتحين. وبالرغم من براعة (ميرزا علي) في تصوير هذه الصورة، فإنه فاته أن يمثل مقابلة شابور لشيرين وهما منفردان كما أراد ذلك الشاعر نظامي. وهذه الصورة في مخطوط لنظامي كتب للشاه طهماسب ومؤرخ سنة 946 - 950 هجرية (1539 - 43م)، واشترك في تصوير الصور التوضيحية التي به خمسة من كبار فناني ذلك العصر. وهو محفوظ في المتحف البريطاني.

بعد انسحاب شابور من الروضة، رجعت شيرين ومن معها إلى القصر، وصعدت في ذات الليلة إلى عمتها مهين بانو، وأخذت تحدثها عن رحلاتها للنزهة والصيد، وفي سياق كلامها أبدت رغبتها في الخروج صباح اليوم التالي في رحلة طويلة للصيد، وهي لذلك ترجو عمتها إعارتها الفرس الأسود شبديز، وقد أجابتها عمتها إلى ذلك. وفي الصباح الباكر تمنطقت شيرين بأسلحتها، وركبت الفرس الأسود، وخرجت مع فتياتها لصيد الغزلان. وكانت هذه فرصة لها كي تعدو بجوادها السريع خلف غزال وتغيب معه عن الأنظار،

وعبثاً حاول صويحباتها اللحاق بها أو البحث عنها، فرجعن إلى مهين بانو وأخبرنها بالأمر، فحزنت حزناً شديداً لاختفائها

وبعد أن ركبت شيرين سبعة أيام متوالية، شعرت بالتعب يدب في جسمها، فترجلت ونامت بعد أن استودعت نفسها الله عز وجل ولكنها سرعان ما صحت من نومها على صهيل جوادها، وتبينت أسداً يقترب من ناحيتها، فأخذت سهماً وأطلقته على الأسد فقتلته. ثم تابعت السير حتى وصلت إلى روضة في وسطها بركة جميلة من الماء، فاعتزمت الاستحمام بها لشدة ما نالها من التعب وما كساها من الغبار. وعلى ذلك ربطت شبديز إلى شجرة، وتجردت من ملابسها وأسلحتها وعلقتها إلى جواره، ثم تمنطقت بقماش أزرق حول وسطها ونزلت في الماء تستحم

وإذ هي تستحم قدم شاب إلى هذه الروضة، ورأى شبديز مربوطاً إلى الشجرة، فاقترب منه معجباً به، وعند ذلك رأى الملابس والأسلحة معلقة إلى جواره، وأخيراً رأى شيرين وهي جالسة في بركة الماء تعبث فيه وتداعبه، كأنها حورية جلست لتسحر من يرتاد ذلك المكان، فشخص إليها خسرو - وكان هو ذلك الشاب القادم - وقد ألهاه جمالها الفاتن عن كل ما عداه. وشعرت شيرين بوجود غريب قريباً منها، فالتفتت إلى الخلف. ولما رأت خسرو ارتبكت، فانسحب هو في حياء وانطلاق يعدو بجواده بعيداً عنها، وخرجت هي من الماء وارتدت ملابسها وامتطت شبديز فانطلق بها يسابق البرق. وهكذا التقى الحبيبان لأول مرة دون أن يعرف أحدهما الآخر، ثم افترقا وقلب كل منهما يحدثه أنه رأى حبيبه

وفي (الشكل 4) نرى شيرين وهي جالسة في بركة الماء، وإلى جوارها وقف (شبديز) جوادها الأسود الأصيل، وعلى ظهره غطاء جميل، وهو يصهل كأنه ينبهها لوجود (خسرو) الواقف بجواده على مقربة، وقد وضع سبابته في فمه لشدة ما اعتراه من تأثر عند رؤيته شيرين بجمالها الفاتن، وقد صار وضع السبابة في الفم من التقاليد التي اتبعها الفنانون في تصويرهم خسرو عند رؤيته لشيرين، كما نرى ذلك في صور كثيرة

لهما، وهذه الصورة من تصوير (سلطان محمد) أحد مشاهير مصوري عصر الشاه طهماسب، وهي مخطوط نظامي السابق ذكره المكتوب لهذا الشاه
وقد صور المصور (رضا عباسي) في القرن العاشر الهجري صورة شيرين واقفة وهي تخرج من الماء شبه عارية، وهذه الصورة محفوظة في مكتبة الدولة ببرلين
(له بقية)

محمد مصطفى
أمين مساعد دار الآثار العربية

من أدب القرن التاسع
كتاب (سحر العيون)
للأستاذ أحمد يوسف نجاتي

- 3 -

ولقد أنجب المحب بن الشحنة ورزقه الله ذرية مباركة طيبة منهم:

8 - أثير الدين محمد (وهو سبط العلاء بن خطيب الناصرية، أمه السيدة خديجة بنت العلاء) ولد أثير الدين في شهر صفر سنة 824 بحلب ونشأ بها، وأخذ عن أبيه وغيره، وناب عن أبيه في القضاء بمدينة حلب سنة 1839 وناب عن جده لأمه في خطابة الجامع الكبير بها أيضاً، ثم استقل بالقضاء في أوائل سنة 856 وقلَّد كثيراً من الوظائف الدينية والعلمية، وقدم على أبيه القاهرة غير مرة وحج معه، واتصل بعلم الدين السخاويّ، وفيه يقول كان كثير التودد خيراً من أخيه عبد البر، ولكن ذاك أفضل في الجملة مع سكون هذا وتواضعه وأدبه. وتوفي في جمادى الأولى سنة 1898 بمدينة حلب

9 - سريّ الدين أبو البركات عبد البر الشحنة وهو أنبه أبناء المحب. ولد في أواخر سنة 851 بحلب، وانتقل منها صحبة أبويه إلى القاهرة وتلقى العلم بها عن أبيه وجده وكثير من فضلاء عصره كما سمع ببيت المقدس وغيره، وعرف بالذكاء والفطنة، وقلد كثيراً من وظائف القضاء والإفتاء والخطابة والتدريس بمدارس كثيرة بالقاهرة، وفيه قيل:

دروس عبد البر فاقت على ... أبيه في الحفظ وحسن الجدل
وذاك عند الأب أمر به ... نهاية السّول وأقصى الأمل

وولي قضاء حلب والقاهرة، وارتفعت منزلته حتى كان جليس السلطان الغوري وسميره، ولا غرو فقد كان عالماً أديباً ذا حشمة وفضل وحسن بيان متقناً للعلوم الشرعية والعقلية واللسانية، وقد ترجم له السخاوي ولم يسلم من غمزاته حتى قال فيه: وليس بثقة فيما ينقله ولا بعمدة فيما يقوله، بل هو غاية الجرأة والتقول، ولو تصوَّن وسلك طريق السداد أو تستر أو تأدب مع مشايخ الوقت وفضلائه أو ضبط لسانه عن الوقيعة في الأكابر لكان أخلص له وأقرب إلى محبة الناس فيه. إلى أن قال: وصار أبوه بسببه إلى غاية في الامتهان، وقاسى ألواناً من الذل والهوان؛ ولكن عسى أن يكفر ذلك عنه بعض ما اقترفه، فالولد سر أبيه. . . الخ. أهـ

أقول: يظهر أن عبد البرّ كان عنده شيء من الاعتداد بالنفس والاعتزاز بمكانته وأنه نافس السخاوي مع أنه أكبر منه وأعلم، ولكليهما تآليف في علوم مختلفة. هذا إلى أني لا أنزه ابن الشحنة من بعض ما وصفه به، ولكل جواد كبوة. وكان بمصر في ذلك الحين شاعر هجاء خبيث اللسان جعل لسانه مقراضاً للأعراض اسمه عبيد السلموني؛ فكان من يتقي عرضه من كرام الناس يشتريه منه بالإحسان إليه أو بمداراته. فاتفق أن تعرض للقاضي عبد البر وهجاه بقصيدة في أولها:

فشا الزور في مصر وفي جنباتها ... ولم لا وعد البر قاضي قضاتها

فأدبه السلطان الغوري وعقد له مجلساً بحضرته في مستهل شهر المحرم من سنة 913 وأحضر عبيد السلموني هذا مكبلاً في الحديد، فأنكر أن تكون القصيدة له، فلم ينجه هذا من تعزيره وأليم تأنيبه

وللقاضي عبد البر بن الشحنة مؤلفات كثيرة، منها (شرح منظومة ابن وهبان في فقه أبي حنيفة النعمان) وابن وهبان هو القاضي أمين الدين عبد الوهاب بن أحمد بن وهبان الدمشقي قاضي مدينة حماة توفي سنة 768، ومنظومته قصيدة رائية من بحر الطويل عدتها 400 بيت، ضمنها غريب المسائل في الفقه سماها: (قيد الشرائد ونظم

الفرائد)؛ ثم شرحها في مجلدين وسماه: (عقد القلائد في أصل قيد الشرائد)، ثم شرحها قاضي القضاة عبد البر بن الشحنة شرحاً حسناً قيد فيه ما أهمله الناظم في شرحه وألحق به مسائل أخرى وفروعاً غريبة، وغير ما عسر فهمه من بعض أبياته بأوضح منه، وسمّى شرحه: (تفصيل عقد الفوائد بتكميل قيد الشرائد)؛ وفرغ من تصنيفه في شهر شوال سنة 885، ثم هذبه سنة 895. ومن مصنفاته شرح منظومة جده أبي الوليد المتوفى سنة 815، والتي نظمها في عشرة علوم. ومنها شرح (كنز الحقائق) في فقه الحنفية (ومتن الكنز هو للإمام أبي البركات عبد الله بن أحمد الحافظ النسفي المتوفى سنة 710) وسمى شرحه (الإشارة والرمز إلى تحقيق الوقاية وفتح الكنز) ومنها (تحصيل الطريق إلى تسهيل الطريق) وهو رسالة أولها: (الحمد لله الذي سهل لمن اختار من عباده طريقاً إلى الجنة)، ذكر فيه أن بعض الناس أحدث في طريق القاهرة وحوادث تضر بعامة المسلمين، فألف هذه الرسالة في دفع مثل ذلك في شهر شعبان سنة 886. ومنها: (زهر الروض في مسألة الحوض) تكلم فيه عن حوض دون ثلاثة أذرع وعن حكم الوضوء فيه. وله (الذخائر الأشرفية في ألغاز الحنفية)، وله شرح (جمع الجوامع) المشهور في أصول الفقه لتاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي المتوفى سنة 771 وغير ذلك

وكان القاضي عبد البر شاعراً أديباً ومن شعره:

أأنصار الشريعة لن تراعوا ... سيفني الله قوماً ملحدينا
ويخزيهم وينصركم عليهم ... (ويشف صدور قوم مؤمنينا)

وله مفتخراً ومعدداً مناقبه (وقد كان غير ذلك أولى به):

أضاروها مناقبيَ الكبار ... وبي والله للدنيا الفخار
بفضل شائع وعلوم شرع ... لها في سائر الدنيا انتشار
ومجد شامخ في بيت علم ... مفاخرهم بها الركبان ساروا
وهمة لوذع شهم تسامي ... وفوق الفرقدين لها قرار
وفكر صائب في كل فن ... إلى تحقيقه أبداً يصار

وكان بمصر في ذلك العصر امرأة جميلة مغنية تسمى خديجة الرحابية ذات براعة في الغناء والإنشاد يتعرض لها شبان عصرها وأهل الخلاعة منهم، وكان ممن تعرض لها أحد المنتسبين للعلم المسمى محمد بن سالم بن خليل بن إبراهيم القاهري الأزبكي ولد سنة 855 وتوفي سنة 900. فقال القاضي عبد البر يعرض به:

إن تمنّعت يا مهاة عن الوص ... ل فإني والله حلو الوصال
لست ندلا ولست فظاً غليظاً ... لا ولا في الوجود شيء مثالي

وكانت وفاة القاضي عبد البر بحلب في شهر شعبان سنة 921 رحمه الله تعالى.

ولسرى الدين عبر البر وأخيه أثير الدين أبناء بررة هم أحفاد المحب بن الشحنة؛ ومنهم:

10 - لسان الدين بن أثير الدين أحمد ولد سنة 844 بحلب ونشأ في كنف أبيه وجده، وربي تربية بني الشحنة، وقدم على جده المحب القاهرة، ثم ناب عنه في كتابة السر بها، ثم ولي قضاء الحنفية بمدينة حلب، وحج مع أبيه وجده، ثم فارقهما من عقبة أيلة إلى حلب

لمباشرة وظيفته. وكان عالماً عاقلاً عفيفاً كيساً. قال السخاوي: (. . . مع فتور ذهنه، وله نظم وسط فمنه لما فصل جده عن كتابة السر ليحل محله ابن الدِّيري:

كتابة السر قد أضحت مشوهة ... لما قلاها محب الدين قد هانت
وأصبح الناس يدعون المحب لها ... كيما يرق عليها بعد ما بانت

توفي شهيداً بالطاعون سنة 882 رحمه الله

11 - وأخوه جلال الدين محمد ويكنى أبا البقاء مثل كنية البدري صاحب (سحر العيون): نشأ نشأة سلفه وأهله، وتلقى العلم بحلب وبيت القدس والقاهرة، وولى قضاء حلب سنة 862، وقدم القاهرة غير مرة، ثم أدركته منيته بها بعد علّة طال أمدها في شوال سنة 892 رحمه الله. قال السخاوي: وكان ذا شكالة وهيئة، غير محمود في دينه ولا معاملاته، عفا الله عنه وإيانا

12 - وأخوه عفيف الدين أبو الطيب بن أثير الدين ابن المحب حسين بن محمد ولد سنة 858 وسمع عن جده وغيره، وقدم القاهرة غير مرة، وأخذ عن بعض علمائها،

وكان يتردد بينها وبين حلب، وولي قضاء حلب وكتابة السر بها، ولما عاد إلى القاهرة بعد موت أخيه المتقدم سنة 892 في أيام الملك الأشرف أبي النصر فايتباي أمر بنفيه إلى الواحات، فذهب إليها ولبث بها حيناً حتى شفع فيه فعاد، ثم توفي بالقاهرة مطعوناً في شهر شوال سنة 910 رحمه الله؛ قال السخاوي: وكان مع كثرة اشتغاله جامداً وله اعتناء بالخيول. أهـ

13 - 82 عبد الغفور بن عبد البر توفي في طفولته بالطاعون سنة

14 - عبد البر. وأخوه قاضي القضاة محب الدين محمد بن سري الدين قاضي القضاة عبد البر. ولد بمدينة القاهرة ونشأ بها، واشتغل بالعلم على أبيه وغيره، وولي نيابة الحكم عنده، ثم نيابة الحكم عنه، ثم قدم مدينة حلب عند انقضاء الدولة الجركسية سنة 922 بعد أن حج وجاور بمكة. وكان لطيفاً أديباً حسن البزة جميل المطارحة لطيف الممازحة مقداماً مهيباً دمث الطباع رقيق الحاشية أديباً شاعراً. وتوفي ببلدة حلب في شهر شعبان سنة 951 رحمه الله، ومن شعره:

يا حبيبي صل مُعَنَّى ... ذاب وجداً وغراما
وارحمن صبًّا كساه ... غزل عينيك سقاما
ورماه عن قسّى الح ... اجب اللحظُ سهاما
أنحلته رقة الخصر ... نحولاً حيث هاما
لا يرى إلا خيالا ... إن تقل فيه نظاما
لم يذق من يوم غبتم ... عنه لا أكلاً ولاما
أطلقت عيناه نهراً ... طلقت منه المناما
أوقدت حشو حشاه ... نار خديك ضراما
عجباً للنار فيه ... وبه حزت المقاما
إن بعد الوصل عادت ... بك برداً وسلاماً

(يتبع)

احمد يوسف نجاتي
الأستاذ بكلية اللغة العربية

هل فكرنا في المستقبل؟!

للأستاذ عبد السلام المنياوي

يسألني كثير من الناس: لماذا تعيش في عزلة عن دولة الأقلام؟ ولماذا تقنع بالصمت عن رسالة الدعوة؟ ولماذا لا يرتفع صوتك في مجال الإصلاح والتفكير؟

أطيل الوقفة إزاء هذه الأسئلة، ويمتد بي التفكير أمام هذا الغرض، لا بحثاً عن الجواب ولا تلمساً للسبب، ولكن ألمح في سرعة صور هذا المحيط الذي نعيش فيه، وأتمثل في إنصاف نفثات هذه القلوب المؤمنة في سبيل الدين والوطن والحياة العزيزة أجل أطيل النظر والاستعراض ثم. . . أجيب ولكن إجابة الآسف الملتاع وأخشى أن أقول إجابة اليائس المتشائم، ذلكم لأنني أعتقد أن القلم يجب أن يستريح حيثما يكون تعبه هباء، وأن الدعوة يجب ألا توجه حيثما لا تكون إلا في الهواء، وأن الإصلاح يجب أن ينادي به حيثما يهيأ الجو ويوجد الرجال!

فهل تهيأت القلوب للاستماع؟ وهل آن للضمائر أن تنصت؟ وهل بين المقتنعين من بيده التنفيذ؟ إنا لنلتهب حماسة إلى خير هذا الوطن العزيز، وتنفطر قلوبنا أسى عند ما نذكر هذه المخزيات المصرية، ونرجو في تلهف وطماعية أن تقر عيوننا حيناً من الدهر بما ينال هذا الشعب المجيد، ونهتف من أعماقنا مع أستاذنا المراغي في عقيدة وإيمان: لابد من دين الله لدنيا الناس، كما نضم صوتنا في حرارة وإخلاص إلى الأستاذ الزيات إذ يقول: لابد للإسلام من مؤتمر. . . لسنا صادرين في هذا عن عصبية ولا جمود بل هي عقيدة الفطرة ونطق الواقع وشهادة الأعداء، وإنه ليمتزج بأفكارنا ونفوسنا امتزاجاً أن هذا العالم صائر يوماً لا محالة طوعاً أو كرهاً أو طبيعة إلى هذا الهدى الإلهي الحكيم. . .

ولكن دين الله ومؤتمر الإسلام لابد أن نمتلئ بهما نحن المسلمين! ولابد أن نجاهد من أجلهما عواطف الزعماء! ولابد أن نمكّن لهما في قلوب الشباب! نعم لابد أن نمتلئ وأن نجاهد ونمكن حتى نفيض على هذه الدنيا بما في حيازتنا من كنوز طالما أغرونا بأن نستبدلها بزيفهم، ونعيد إليهم باطلهم بعد ما نكون قد محوناه بحقنا الخالد، وندفع

بالتي هي أحسن السيئة حتى يدركوا وضع الشرق والغرب ويقروا على رغمهم بزعامة الإسلام والمسلمين

ولكن بيننا ربا وخمر ومقامرة، وفينا تبذل وغرور وبغي، ومنا أناس ينكرون - أو يتجاهلون - هذا الماضي المجيد. فماذا نعمل وبلادنا قد عجت بالمشكلات وشعبنا قد تفشته الأدواء؟ ماذا نعمل وقد استعصت هذه (المشكلات) على الحل، وأعيت هذه (الأدواء) علاج ذوي الغيرة من رجال الفكر والإصلاح؟ اللهم لا استعصاء ولا إعياء ولكن يعوزنا الإيمان ويعوزنا الإقدام ويعوزنا النزول على حكم الله (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم)

إن هذا الوقت الذي تمضي فيه (اللجان) إلى العمل، وإن هذا الوقت الذي يكتبون فيه (تقاريرهم) وإن هذا الوقت الذي يجهدون فيه أنفسهم للبحث حرام أن تضيع هذه الأوقات في غير ما ثمرة! وحرام أن تصرف هذه الأموال بلا مقابل! وحرام ألا يجد الناس ما يحميهم من أغوال الفقر وويلات الجهل وخفض المستوى العام بينما لا تبعد عنهم هذه الحماية إلا بمقدار ما يبعد هؤلاء عن معين الإسلام وقانون الإنسانية!!

وإنا لنسمع العالم كله يتحدث عن (نظامه الجديد) ومن خلال هذا الصراع العنيف وفي وسط هذا الدوي الهائل يتردد في الآفاق صدى صوت حبيب منعش هو أنشودة الحرية ورجاء السلام ومنية الاستقرار، فسنة الله أن ينجاب الظلام عن الفجر، وأن يتنفس الصبح بعد إدبار الليل؛ ولابد أن يرتفع المستقبل على أنقاض الحاضر، وقد تواطأت الفِكَر على أن هذا المستقبل مليء بأساليب الهدم حافل بأنواع الإصلاح مشيد من لبنات قوية ليس من ذراتها اطمئنان إلى ترف ولا ركون إلى دعة ولا عزوف عن جد. . . هذا هو الجيل الجديد وهؤلاء هم أبناء العهد الجديد، فعلى أي أساس يكون مستقبل جيلنا المنتظر وعلى أي الدعائم يرتكز عهدنا المنشود؟؟

لقد قال الأستاذ إدوار مونتيه في إحدى محاضراته: (لا شك أن الإسلام يعد من أكبر وسائل تمدين الناس وترقية أحوالهم الاجتماعية والدينية والخلقية والاقتصادية. الإسلام حضارة قائمة بنفسها رغم ضعف المسلمين في فترة من الزمن، وسينتبهون مرة ثانية فينشرون المدنية والرقي في كل أنحاء العالم) وهذا برناردشو يقول: (إني دائماً أحترم الدين الإسلامي غاية الاحترام، لما فيه من القوة الحيوية، فهو وحده الدين الذي يظهر لي أنه يملك القوة المحركة التي تغير صورة الكون، ذلك لأنه يوافق كل جيل، ويتمشى مع مصلحة البشر في كل زمان. . . لاشك أن العالم يقدر تكهنات رجل مثلي: أنا على يقين أن دين محمد سيكون دين أوربا في غد. . . وقد رأى عظماء المفكرين من أهل النزاهة مثل كاريو وغوتي وجيبون في القرن الـ 19 وجرب تقدير وإجلال دين محمد، وقد أحدث رأيهم شيئاً من التغيير في سلوك الأوربيين مع الإسلام، لكن أوروبا هذا القرن (العشرين) قد تقدمت في ذلك تقدماً بعيد الشأو وقد أخذوا يقعون في الهيام بعقيدة محمد، وفي القرن التالي سيكون أهلّ أوروبا أكثر معرفة بفائدة اعتقاد محمد في حل مشكلاتهم، وبهذا يمكنك أن تفهم ما تكهنت به!)

بعد هذا - ولا أحسب نفسي في حاجة إليه، فربما قد رآه من إليهم أوجه الحديث - أحب أن نصل إلى خطة حاسمة في هذا المعترك، وأن نفكر جادين في مستقبلنا مهما تكن الأوضاع؛ ولنُوَلّ وجهنا إلى غير ما اتجهت القافلة، وما دامت هذه المدنيات تنهار وهذه النظم تعلن عن نفسها بالفشل، فمن الخطأ والحمق أن تنتمي إلى التقليد، ولنستبق الزمن بأخذ أساليب الحكم والتشريع والقضاء على نظام إسلامي، قبل أن نفعل تابعين وليس لنا يد. هذا الإسلام يا قوم، اعرضوه على أنه فكرة من الفكر، وكثيراً ما فشلت برامج وأهملت قوانين لم تتفق وهذا القانون السماوي. جربوه. . . جربوه أيها الناس وإلا فقد دللتم على خبايا النفوس ومكنونات الصدور. . . يجب أن نرى أمامنا الفرد المسلم والأسرة المسلمة والحكومة المسلمة والوطن المسلم، ولنعتز بهذا الشرف الذي وضعنا فيه وخوّلنا إياه أحكم الحاكمين: شرف الوساطة بين السماء والأرض، بين الله والناس. . .!

هذا وإن الغرائز البشرية أو جُلّها البارز قد جعلت من الإنسان الذي يبغي كمال الحياة ويتلمس نور النعيم وينشد ذروة المجد، مجاهداً يصارع نفسه، ويجاهد هواه، وينازع فطرته التي تكونت من الأنانية والتكاثر والهلع والعجلة والجبن واللذة الخ. لا أقول كما

قال الشاعر إنها كالطفل، ولكن كما قال النبي إنها أعدى الأعداء، جهادها هو الجهاد الأكبر، والظفر بأسرها هو النصر المؤزر. . .
ألا فانتزعوا أيها الشباب من بين جنوبكم هوى النفس، ومن أذهانكم خمود الفكر، ومن أعماقكم وهن العزيمة، ثم هبوا في إقدام لا يعرف التواني؛ وهنا تسطرون بحق أول من صفحات الجدارة بالحياة!؟
عبد السلام المنياوي
من غزل الملوك
للأستاذ عبد الله مخلص
كنتُ أعددت بعض فصول من كتاب باسم (العاطفة عند العرب) وبينها فصل عنوانه سلطان الحب وحب السلاطين فرأيت أن أنقل شيئاً منه لقراء الرسالة ترويحاً عن نفوسهم المكروبة في هذه الأيام السود. قال سليمان بن الحكم المرواني الملقب بالمستعين وهو من بني أمية:
عجباً يهاب الليث حدّ سناني ... وأهاب سحر فواتر الأجفان
وأقارع الأهوال لا متهيّباً ... منها سوى الإعراض والهجران
وتملكت نفسي ثلاث كالدمى ... زُهر الوجود نواعم الأبدان
ككواكب الظلماء لحن لناظر ... مْن فوق أغصان على كثبان
حكّمت فيهن السلو إلى الصبا ... فقضى بسلطان على سلطاني
فأبحن من قلبي الحمى وتركنني ... في عز ملكي كالأسير العاني
لا تعذلوا مَلكاً تذلّل للهوى ... ذلّ الهوى عزّ وملك ثاني
ما ضر أني عبدهن صبابة ... وبنو الزمان وهن من عبداني
إن لم أطع فيهن سلطان الهوى ... كلفاً بهنّ فلستُ من مرّان
وقال الخليفة هارون الرشيد العباسي يرثي جاريته هيلانة:
فارقت عيشي حين فارقتها ... فما أبالي كيفما كانا
كانت هي الدنيا فلما ثوت ... في قبرها فارقت دنيانا
قد كثر الناس ولكنّني ... لست أرى بعدك إنسانا
وكان للخليفة المأمون العباسي جارية بارعة الجمال ظريفة حاذقة بالغناء ونظم الشعر تدعى عريب وقد كان اشتراها من أخيه المعتصم بمائة ألف دينار ثم أعتقها، وكان المأمون شديد الكلف عظيم الشغف بها فقال مداعباً لها:
أنا المأمون والملك الهمام ... على أنى بحبّك مستهام
أترضي أن أموت عليك وجداً ... ويبقى الناس ليس لهم إمام
فقالت يا أمير المؤمنين والدك أعشق منك حيث قال:
ملك الثلاث الآنسات عناني ... وحللن من قلبي بكل مكان
مالي تطاوعني البرية كلها ... وأطيعهنّ وهنّ في عصياني
ما ذاك إلاّ أنّ سلطان الهوى ... وبه قوين أعزّ من سلطاني
ويرى القارئ أن الرشيد أغار على أبيات ابن الحكم الأموي
وقال المعز لدين الله الفاطمي:
لله ما صنعت بنا ... تلك المحاجر بالمحاجر
أمضى وأقضي في النفو ... س من الخناجر في الحناجر
ولقد تعبت ببينكم ... تعب المهاجر في الهواجر
وقال أيضا:
أطلع الحسن من جبينك شمساً ... فوق ورد في وجنتيك أطلاّ
وكأن الجمال خاف على الور ... د جفافاً فمدّ بالشعر ظلاّ
وقال السلطان سليم - بن السلطان بايزيد العثماني - فاتح مصر:
لولا الإله وحرّ نار جهنمَّ ... لعبدتُه وسجَدتُ بين يديه
وهذه أشعار بعض الأمراءِ والوزراء الذين كانوا ملوكاً بالفعل في إدارة الممالك وعبيداً في دولة الحب
قال الأمير عبد الله بن طاهر بن الحسين من أمراءِ الدولة العباسية:
نحن قوم تليننا الحدق النج ... ل على أننا نلين الحديدا
طوع أيدي الظباء تقتادنا العي ... ن ونقتاد بالطعان الأسودا

نملك الصيد ثم تملكنا البي ... ض المصونات أعيناً وخدودا
تتقي سخطنا الأسود ونخشى ... سخط الخشف حين يبدى الصدودا
فترانا يوم الكريهة أحرا ... را وفي السلم للغواني عبيدا
وقيل إن هذه الأبيات هي لأصرم بن حميد ممدوح أبي تمام
وقال محمد بن عبد الملك الزيات الوزير العباسي:
صغير هواك عذّبني ... فكيف به إذا احتنكا
وأنت جمعت من قلبي ... هوًى قد كان مشتركاَ
وحسن رضاك يقتلني ... وقتلي لا يحلّ لكا
أما ترثي لمكتئبٍ ... إذا ضحك الخِليّ بكا
وقال سيف الدولة علي بن عبد الله حمدان صاحب حلب يصف حجزه إحدى جواريه في قلعةٍ عندما خاف عليها:
راقبتني العيون فيك فأشفق ... ت ولم أَخلُ قطّ من إشفاقِ
ورأيت العدوّ يحسدني في ... ك مجدّاً بأنفس الأعلاقِ
فتمنيتُ أن تكوني بعيداً ... والذي بيننا من الودِّ باقِ
ربّ هجرٍ يكون من خوف هجرٍ ... وفراق يكون خوف فراقِ
وقال طلائع بن رزيك من وزراء الدولة الفاطمية من أبياتٍ:
الناس طوع يدي وأمري نافذ ... فيهم وقلبي الآن طوع يديه
فاعجب السلطانٍ يعمّ بعدله ... ويجور سلطان الغرام عليه
والله لولا اسم الفرار وإنه ... مستقبح لفررتُ منه إليه
عبد الله مخلص
المصريون المحدثون - 30
شمائلهم وعاداتهم
في النصف الأول من القرن التاسع عشر
تأليف المستشرق الإنجليزي ادورد وليم لين
للأستاذ عدلي طاهر نور
تابع الفصل التاسع - اللغة والأدب والعلوم
يعتقد العرب بالخرافات اعتقاداً عظيما. ويعد عرب مصر أكثرهم تعلقاً بهذه الاعتقادات الباطلة. وأكثر هذه الخرافات اعتباراً الاعتقاد بالجن. ويقال أن الجن أصلهم سابق على آدم، وإنهم في خصائصهم العامة طبقة من الكائنات تتوسط بين الملائكة والأنس وتقل عنهما فضلاً. خلقت الجن من نار وتستطيع أن تتشكل بأشكال الأناس والبهائم والوحوش الخيالية وتختفي عن الأنظار كما تريد. والجن يشربون ويأكلون ويتناسلون مثل البشر أو معهم، كما أنهم عرضة للموت وإن كانوا يعيشون أجيالاً عديدة. ويسكن الجن سلسة جبال قاف التي يزعمون أنها تحيط بالأرض جميعها كما ذكر في الفصل السابق. ويعتنق بعض الجن الإسلام، والآخرون كفرة. ويسمى هؤلاء الكفرة أيضاً شياطين ويرأسهم إبليس، إذ أنه تبعاً للرأي السائد، جني مثل غيره من الشياطين لأنه خلق من نار بينما خُلق الملائكة من نور معصومين من الخطأ
ويخشى العرب الجن أخيارهم وأشرارهم كثيراً. ويحفظون لأخيارهم احتراماً عظيماً. وقد جرت العادة عند هذا الشعب عندما يصب أحدهم ماء أو غيره على الأرض أن يصيح أو يدمدم (دستور) مستأذناً أو مستغفراً الجني الذي قد يوجد هناك. ويظن أن الجن ينتشرون في طبقة الأرض الصلبة مثلما ينتشرون في السماء حيث يقتربون من حدود السماء الأولى فيسترقون السمع عن المستقبل ويستطيعون هكذا أن يساعدوا العرافين والسحرة. ويعتقدون أيضاً أن الجن يسكنون الأنهار والخرائب والآبار والحمامات والأفران والمراحيض. ولذلك عندما يدخل أحد مرحاضاً أو يدلي دلواً في بئر أو يوقد ناراً الخ. . . يقول (دستور) أو (دستور يا مباركين). ويتلو الداخل بيت الراحة هذه العبارة مبتهلاً إلى الله أن يحميه من الأرواح الشريرة. إلا أن البعض لا يذكرون اسم الله باعتبار أنه لا يليق به في مثل هذا المكان فيكتفون بقولهم: (أعوذ بك من الشياطين ذكوراً وإناثاً)، وتفسر هذه العادات إحدى قصص ألف ليلة وليلة التي يحكي فيها أن تاجراً قتل جنياً بنواة تمرة كان يأكلها. ويظهر الجني في القصة نفسها وفي غيرها قادماً في زوبعة من الرمل أو

الغبار. والاعتقاد العام عند عرب مصر أن الزوبعة التي تثير الغبار أو الرمال، وتكسح الحقول والصحارى، يسببها تحليق هذه الكائنات ويفوه المصريون عادة عندما تبدو الزوبعة قريبة منهم بتعويذة لإبعادها فيهتف بعضهم: (حديد يا مشئوم) إذ يظنون أن الجن يخافون هذا المعدن كثيراً. ويصيح آخرون: (الله أكبر). ويعتقدون أن الشهب سهم يقذف به الله الشياطين، ويصيح المصريون عندما يرون شهاباً ساقطاً: (سهم الله في عدو الدين) ويسمي العامة الشياطين عفاريت، وقد وردت في القرآن ذلك بهذا النص: (قال عفريت من الجن) وقد ترجم اللفظ: (قال جن هائل)، ويعتقدون أن العفاريت يختلفون عن الجن الآخرين بعظيم قدرتهم ودوام شرهم، ويسمي الشيطان الأقوى ماردا

يرتبط تاريخ الجن بعدة أساطير لم يذكرها القرآن، ولذلك لا يؤمن بها المسلمون العقلاء. ويتفق الجميع على أن الجن خلقوا قبل الإنسان. إلا أن البعض يقولون لطبقة أخرى من الكائنات السابقة على آدم ذات طبيعة مشابهة. ويعتقد العامة أن الأرض كان يسكنها قبل آدم جنس من المخلوقات يختلف عن البشر شكلاً وقوة، وأن أربعين ملكاً من هؤلاء، أو اثنين وسبعين تبعاً لقول آخر، سمى كل منهم سليمان، حكموا هذا الشعب تباعاً. وكان أحد هؤلاء السليمانين يسمى جان بن جان. ويتوهم البعض أن الجن، ويسمون أيضاً جاناً، اشتقوا تسميتهم من اسم هذا الملك. ومن هنا يعتقد البعض أن الجن يشبهون هذا الجنس السابق ولكن البعض يؤكد أن الجن كانوا طبقة من الكائنات مختلفة أخضعها الجنس الآخر.

ويعتقدون أن الجن كثيراً أو دائماً يتشكلون بأشكال القطط والكلاب والحيوانات المفترسة. وقد روى الشيخ خليل المدابغي - وهو من أشهر علماء مصر، وقد ألّف كتباً عديدة في مختلف العلوم وتوفي في سن متقدمة أثناء زيارتي الأولى لمصر - الحكاية التالية: (كان له - كما يقول - قط أسود عزيز ينام عند ذيل كلّته. ففي منتصف إحدى الليالي سمع طرقاً على باب داره؛ فقام القط وفتح مصراع الشباك وهتف: (من؟) فأجابه صوت: (أنا فلان (وذكر اسما غريباً) الجني، افتح الباب). فقال قط الشيخ: (إن المزلاج قرء عليه اسم الله) فقال الآخر: (إذن اقذف لي رغيفين من الخبز) فأجاب القط: (إن سلة الخبز سُمي عليها) فقال الغريب: (حسن. أعطني على الأقل جرعة ماء. ولكنه رد عليه بأن وعاء الماء محفوظ بالطريقة نفسها. فسأل ماذا يستطيع أن يفعل وهو يوشك على أن يموت جوعاً وعطشاً. فأشار عليه القط أن يذهب إلى باب الدار التالية. وذهب هو بنفسه وفتح الباب ثم لم يلبث أن عاد. وفي الصباح التالي غفل الشيخ عن عادة كان يراعيها دائماً فأعطى القط نصف الفطيرة التي كان يفطر بها بدلاً من قطعة صغيرة اعتاد أن يعطيه إياها. ثم قال له: (يا قطي، أنت تعلم أنني فقير، فجئني إذن ببعض الذهب) فاختفى القط في الحال بعد هذا الكلام ولم يره الشيخ بعد ذلك). والحكايات من هذا النوع تستوجب السخرية، لكن من المستحيل أن نقف على حقيقة عقلية الشعب الذي أحاول وصفه دون أن أسرد حكاية أو أكثر

ويؤكد العامة أن أشرار الجن كثيراً ما يعتلون الأسطح والشبابيك ويقذفون بالقراميد والحجارة في الشوارع والأفنية. وقد أخبرت من أيام قليلة بحادثة من هذا النوع أفزعت سكان أهم شوارع في القاهرة أسبوعاً بأكمله، إذ كانت القراميد تقذف بكثرة من بعض المنازل كل يوم طوال هذه المدة، ولم يصب أحد. وقد ذهبت إلى مكان هذه الدعابة الجنية المزعومة للنظر والاستقصاء ولكن قيل لي عند وصولي إن الرجم انقطع. ولم أجد أحداً أنكر قذف القراميد أو شك في أنه من أعمال الجن. وكانت الملاحظة العامة عند ذكر هذا الموضوع قولهم: (الله يحفظنا من شر أعمالهم) وقد أخبرني صديق بهذه المناسبة أنه قابل بعض إنجليز لا يعتقدون بوجود الجن. وقد استدل بذلك على أنهم لم يشاهدوا أبداً تمثيلاً عاماً، وإن كان منتشراً في بلدهم التي سمع عنها منذ ذلك الحين باسم (كوميديا) قاصداً بهذه العبارة التمثيل المسرحي؛ ثم قال بعد أن وجه الكلام إلى أحد مواطنيه، ودعاني لأصدق على حديثه: (منذ زمن قصير وصف لي جزائري منظراً من هذا النوع كان قد رآه في لندن)؛ فقاطعه مواطنه سائلاً: (أليست إنجلترا أم لندن مدينة في إنجلترا؟) أجابه صديقي بتحفظ وهو ينظر إليّ أن لندن عاصمة

إنجلترا، ثم أوجز موضوع المسرح فقال: (لا يمكن وصف الدار التي عرض بها التمثيل: كانت الدار مستديرة صفت على أرضيتها مقاعد عديدة وحولها مقصورات كثيرة الواحدة تعلو الأخرى حيث جلس أفراد الطبقات العليا، وكان هناك فرجة مربعة كبيرة أسدل عليها ستار، وعندما غصت الدار بالمتفرجين الذين دفعوا مبالغ كبيرة للدخول أظلم المكان فجأة وكان الوقت ليلاً، وكانت الدار قد أضيئت بعدة مصابيح، إلا أنها أطفئت كلها تقريباً في وقت واحد دون أن يمسها أحد، ثم رفعت الستارة الكبيرة، فسمع المشاهدين هدير الموج وصفير الهواء، ورأوا دون تمييز في الظلام الأمواج ترتفع وتزيد وتضرب الشاطئ، وسمع في الحال صوت رعد مرعب، ثم أضاء البرق للمشاهدين البحر الهائج، وسقط حينئذ سيل من المطر الحقيقي، وبعد ذلك صفا الجو فظهر البحر بوضوح، وشوهدت باخرتان على بعد اقتربتا ثم اشتبكتا في قتال أطلقت فيها نيران المدافع، وعرضت بعد ذلك مجموعة مختلفة من المناظر الفريدة، وأضاف صديقي: (من الواضح الآن أن مثل هذه العجائب لابد أن تكون من أعمال الجن، أو على الأقل عملت بمساعدتهم)؛ وقد شرحت له هذه الظواهر، ولكني لم أستطع إقناعه بخطأه

ويقال إن الجن يسجنون أثناء شهر رمضان. ومن هنا نرى بعض المصريات يرششن في وقفة عيد الفطر ملحاً على أرض الغرف مبسملات لمنع هذه المفزعات من دخول منازلهن. ويجب أن أشير هنا إلى بقية عجيبة من خرافة مصرية قديمة إذ يعتقدون أن لكل حي من أحياء القاهرة حارساً خاصاً من الجن ذا شكل أفعى

ويعتقدون أن القبور المصرية القديمة والهياكل المظلمة تسكنها العفاريت. وقد استحال علي أن اقنع أحد خدمي بدخول الهرم الأكبر معي لرسوخ هذه الفكرة في ذهنه. وينسب الكثير من العرب بناء الأهرام والآثار المصرية المدهشة جميعها إلى جان بن جان وأتباعه الجن. فهم لا يتصورون أن تقيم هذه الآثار يد بشر

وتطلق عبارة عفريت بالحري على الشيطان، إلا أن أرواح الأموات تسمى أيضاً بهذا الاسم. وينسج من هذه حكايات لا يقبلها العقل كما أنها تلقي في النفوس رعباً هائلاً. إلا أن هناك من لا يخشاها إطلاقاً. وكان في خدمتي طاه مضحك يتعاطى الحشيش أحياناً. وقد سمعته ذات ليلة، بعيد دخوله خدمتي، يدمدم ويهتف على السلم كما لو كان دهشاً لحادثة ما.

ثم قال بأدب (ولكن لم تجلس في تيار الهواء؟ تفضل بالصعود إلى المطبخ وسلني بحديثك قليلاً). ولما لم يرد على خطابه المؤدب كرره عدة مرات حتى ناديت عليه وسألته إلى من يتحدث. فأجاب: (إنه عفريت جندي تركي صعد من البئر وجلس على السلم يدخن شبكه ويرفض أن يتحرك. تقدم من فضلك وانظر إليه). ولما ذهبت إلى السلم وأخبرته أنني لا أرى شيئاً لاحظ أن سبب ذلك صفاء العقل. وقد قيل له فيما بعد إن المنزل ظل مسكوناً طويلاً؛ وقد قرر أنه لم يُخبر قبلاً بهذا الموضوع المزعوم أن جنديًّا تركياً قتل هناك. وقد صرح لي أنه كثيراً ما يرى العفريت بعد ذلك

ويعتقد المصريون وبعض الشرقيين بوجود الغيلان أيضاً. ويحسبون أن هذه الكائنات طبقة من الشياطين. ويقال إنهم يظهرون في أشكال الحيوانات والوحوش وأنهم يسكنون المقابر وغيرها من الأماكن المنعزلة، وأنهم يأكلون الجثث ويقتلون من يوقعه سوء الحظ في طريقهم ويلتهمونه. ومن هنا تطلق عبارة الغول على آكلي لحوم البشر

(يتبع)

عدلي طاهر نور

فرحة الحياة!

للأديب عبد الرحمن الخميسي

أَنا حَيٌّ وَنَعِيمي بالحيَاهْ ... فَرْحَةٌ تَغْمُرُ مِنْ قَلْبِي مَدَاهْ
أَحْتلَي فِي مَوْكِبِ الأيام مَا ... يَبْهَرُ النَّفْسَ وَيَخْفَي مُنْتَهَاه
وَأَرَى تِلْكَ الرُّمُوزَ انْغَلَقَتْ ... في طَوَايَاهَا عَلَى رُوح الإله
وَأَغَنِّى مثْلَمَا غَنَّى عَلى ... جَنَّةِ الْوَهْمِ هَزَارٌ لاَ أَرَاه
أَنَا حَيٌّ! يَا نَعِيمي بِالحَيَاهْ!
بَيْنَ جَنْبَيَّ فُؤَادٌ كُلَّماَ ... نَفَخَ الإحْسَاسُ فِيهِ صَدَحَا
تُرْقِصُ الدُّنْيَا عَلَى أَنْغَامِهِ ... كُلّ مَا فِيهَا أَسَى أَوْ فَرَحَا

وَهْوَ مِرْآةٌ صَفَتْ كَمْ تَرْتَمِي ... صُوَرُ الْكَوْنِ عَلَيْهَا مَرَحَا!
يَا أَنَاشِيدِي تَبَارَكْتِ وَيَا ... بُورِكَ الْقَلْبُ إِلَيهِ قَدْ صَحَا
كُلُّ عِرْقٍ يَتَغَنَّى بِالْحَيَاهْ!
إِنَّنِي الشُّعْلَةُ شَبَّتْ نَارُهَا ... وَسَرَتْ أَنْفَاسُهَا بِاللَّهَبِ
يَا هَنَائِي بِالَّذِي يَأْكُلُنِي ... مِنْ لَهِيبِي وَالَّذِي يُحْرَقُ بِي
يَا لَهذَا الدِّفْءِ مِنْ سِرٍّ جَرَى ... في كِيَانِي مِنْ وَرَاءِ الْحُجُبِ
هُوَ لُغْزٌ خَالِدٌ مُسْتَتِرٌ ... أَزَلِيٌّ قُدُسِيُّ الْأَرَبِ
أَتَشَهَّاهُ وَأَفْنَى فِي لظَاهْ
هذِهِ الرُّوحُ التي تَسْكُنُنِي ... قَبَسٌ مِنْ هَالَةٍ تَجْذِبُنِي
وَلَقَدْ دَارَ بِجِسْمِي نُورُهَا ... بَاعِثاً فِيهِ حَيَاةَ الزَّمَنِ
يَا سُرُورِي بِالَّذِي أَيْقَظَنِي ... مِنْ سُبَاتِ الْعَدَمِ الْمُرْتَهَنِ
وَانْتَشَي بِي وَانْتَشَي فِيهِ دَمِي ... وَشُعُورِي وَالَّذِي أَوْجَدَنِي
أَنَا حَيّ. . . غَنِّ لِي لَحْنَ الْحَيَاهْ!
إِنَّنِي الْبُرْعُمُ قَدْ دَاعَبَنِي ... وَهَجُ الشَّمْسِ وَدَمْعُ السَّحَرِ
فَتَنَفَّسْتُ وَغَشَّتْ وَرَقِي ... نَضْرَةٌ تَسْبِي فُنُونَ النَّظَرِ
يَا شَبَابِي شدَّ مَا أَنْتَ عَلَى ... عُودِيَ الْأخضَرِ عَذْبُ الصُّوَرِ
إِنَّنِي أَرْنُو إلى الْأفْقِ وَفِي ... طَلْعَتِي حَمْدٌ شَذِيُّ السُّوَرِ
لِلَّذِي أَوْرَثَنى هذِى الحَيَاهْ!
عبد الرحمن الخميسي
أين السلام؟. . .
للأديب علي جليل الوردي
قالت وقد لاح عليها السَّقامْ: ... الحربُ طالت أين عهدُ السَّلام؟
كنَّا به في عشيةٍ راضيهْ ... نمرح في أُنْسٍ وفي عافيَهْ
الأرضُ من فرحَتِنا زاهيهْ ... والطيرُ من نَشوَتِنا شادِيهْ
تشدو أغاريدَ المنى والغرامْ ... قد أخرسَتْها الحرب أين السلام؟
عهدٌ به طافتْ كؤوسُ الهنا ... ما بين أيدينا، ورفَّ المنى
فعندليبُ السَّعدِ يشدو لَنا ... ونحن نُبدي للدُّجى سرَّنا
فيا له عهداً كنفح الخزامْ ... أودتْ به الحربُ فأين السلام
أين زمانُ الأملِ الباسمِ؟ ... أين خيالُ الشاعر الحالمِ؟
أينَ هدوءُ الطائرِ الناغمِ؟ ... وأين حُلْمُ العاشقِ الهائمِ؟
أوْدَى بها طرًّا لهيبُ الخصامْ ... فأين أين الأمنُ؟ أين السَّلام؟
أينَ ابتساماتُ زهورِ الربيعْ؟ ... ونايُ راعٍ من وراء القطيعْ؟
وطفلةٍ غنَّت بلَحْنٍ بديعْ ... أهزاجَها، والقلبُ منها وديع
أخرسَها قَسْراً لهيبُ الخصامْ! ... فأين أين الأمنُ؟ أين السَّلام؟
قلتُ وقلبي بالأسى مُفْعَمُ ... ونارُ حُزنٍ في الحشا تضرِمُ
وعبرةٌ من مقلتي تسجُمُ ... أكتمها عنها فلا تُكْتَمُ!
لا تيأَسي فاليأسُ موتٌ زؤام ... لابدَّ من يومٍ يعودُ السلامْ
(الكاظمية - بغداد)
على جليل الوردي
البَريدُ الأدبيّ
إلى الأستاذ توفيق الحكيم
صديقي العزيز!
قرأت لك في (الرسالة) منذ أسابيع كلمةً صغيرة تذكُر فيها أن في مصر كاتباً قال في سياق حديثه: إنه صديقك، وأنك تنكر أن يشرّف الناس أنفسهم بالانتساب إليك. . . ولم يخطر في البال أنى مقصودٌ بتلك الغمزة، لأني أعرف أن منزلتي في نفسك لا تبيح لك أن تقع في مثل هذا الخطأ
ولكنّ ناساً حدثوني أنك تريدني بتلك الكلمة الصغيرة، وقد أردت أن أستوثق من نيتك، فجشّمت نفسي مقابلتك لأعرف رأيك قبل أن أردّ عليك، فكان جوابك أن تلك الغمزة موجَّهة إلى (فلان)، وأن أدبك لا يسمح بأن تُعرَّض بكتابٍ له مثل مكانتي في نفسك

وفي (الرسالة) الصديق
فهل أجد عندك من الشجاعة ما تَقْوى به على التصريح باسم ذلك (الفلان)؟
لا تَخف، يا صديقي العزيز، فإن (الفلان) الذي حدثتني انك تعنيه، لا يملك غير قلمه، والقلم في هذا الزمان يضر أكثر مما ينفع، وهل آذاني غير قلمي؟
أَوضِحْ، أَوضِح، فإن لم تفعل فسأنوب عنك في الإيضاح صَنَع الزمن ما صنع، واستطال الدهر ما استطال، فمن يعزِّيني وقد استباح بعض الناس أن يكتب كلمةً تُوهم أنه أكبر من أن يكون صديقي؟!
زكي مبارك
إنشاء مكتب للتعاون الثقافي بين مصر والعراق
تنوي وزارة المعارف إنشاء مكتب لتنظيم التعاون الثقافي بين مصر والعراق والإشراف على ما يقتضي هذا التعاون، على أن يضم هذا المكتب أعضاء يمثلون البلدان وتكون له اجتماعات منظمة في القاهرة وبغداد
ويجوز لمن شاء من البلاد العربية أن ينضم إلى هذا المكتب بموافقة الحكومتين المصرية والعراقية
إنشاء متحف الحضارة المصرية
كان صاحب الجلالة الملك قد أبدى رغبته السامية في أن ينشأ متحف للحضارة المصرية يضم إليه كل ما يتصل بالعصور المختلفة ابتداء من عصر ما قبل التاريخ إلى العصر الحديث فألفت لجنة من رجال الجمعية الزراعية الملكية ووكلاء بعض الوزارات ومديري المتاحف المصرية المختلفة
وكان أول ما بدأت به اللجنة أعمالها أن طلبت إلى الهيئات المختلفة موافاتها عن طريق الإهداء أو الإعارة بالنماذج التي تمثل العصور المختلفة للحضارة المصرية التي رؤى أن يضمها هذا المتحف، وهي تمثل العصر الحجري القديم والحديث، ومصر القديمة، وحياة المصريين في مختلف الهيئات والحياة الاجتماعية والفنية لمصر القديمة والعصور اليوناني والروماني والقبطي ومصر من الفتح العربي إلى الفتح العثماني والدول الطولونية والفاطمية والأيوبية، والمماليك وعصر الأمراء المماليك من الفتح العثماني إلى الحملة الفرنسية والنهضة المصرية الحديثة من عهد المغفور له محمد علي باشا إلى الآن والسودان المصري
وقد تعددت اجتماعات اللجنة للبحث في مختلف ما يتصل بإنشاء هذا المتحف، وكان ما قررته إقامة نموذج لحوض نهر النيل عن الجزء الذي يتفرع منه الفرعان عن ابتداء الدلتا على أن يكون طوله 14 متراً، لتكوين فكرة عامة عن التكوين الطبيعي لحوض النيل في العصور الجيولوجية ونوع النباتات التي عاشت في مصر في تلك العصور، وإقامة نموذج لإنسان ما قبل التاريخ، والتطورات المختلفة التي حدثت في تركيب جسمه في العصور المتطاولة وتناولت اللجنة بالبحث في اجتماعها طائفة من الشئون المتصلة بكل عصر فرأت أن تؤلف لجانا فرعية تضع كل منها مشروعاً عن كل عصر من العصور المختلفة ابتداء من عصر ما قبل التاريخ إلى العصر الحديث على أن تعرض جميع هذه المشروعات على اللجنة العامة لإقرارها والبدء في تنفيذها
في ديوان ولي الدين يكن
نشر الأستاذ كامل يوسف (بالعدد 457 من الرسالة) أربع مقطوعات شعرية للمرحوم ولي
الدين يكن، مهد لها بقوله إنها مخطوطات للفقيد آلت إليه، ولم تنشر في ديوانه.
ولكني أنبه هنا إلى أن هذه المقطوعات نُشرت جميعها بديوان ولي الدين الذي أصدرته مطبعة المقتطف عام 924م؛ ولا أعرف للشاعر ديواناً آخر غير هذا فحَّبذا لو اقتنى الأستاذ نسخة من ديوان الشاعر الكبير الذي تربطه بأسرته (أواصر المودة والصداقة) كما يقول؛ ثم عرض عليها ما لديه من مخطوط؛ حتى تستبين له حقيقة القطع التي لم تنشر فيتفضل بنشرها. وأن كنا نشكُّ في إمكان حصوله على ما يستوجب النشر؛ لأن جامع الديوان هو أخو الشاعر - ولعله شقيقه - الأديب يوسف حمدي يكن. وهو قد استفرغ جهدَه في إثبات كل ما أمكنه العثور عليه من شعر أخيه، بين مخطوط ومطبوع ومحفوظ، كما يشير إلى هذا في مقدمته، التي أعقبها تحليلٌ دقيق وعرض شامل لحياة الشاعر وخصائص شعره بقلم الأستاذ الكبير أنطوان الجمِّيل

بك؛ وكان الأخير من أصفياء ولي الدين وصفوة أصدقائه وخُلْصانه.
(جرجا)
محمود عزت عرفة
حول (ابن الرومي)
سيدي الأستاذ العقاد
قرأت معجباً ما خطه يراعك الكريم عن شعر ابن الرومي، فنال مني الدهشُ لتعصّبك لهذا الشاعر، ولعل هذا راجع إلى أن الأستاذ قد صاحب (ابن الرومي) أكثر مما كان ينبغي لمصاحبته. لهذا كان طبيعّياً أن يخلع عليه أستاذنا الجليل لقب (شاعر العالم) غير منازع؛ وأن يقول: إن شعره ليس فيه مغمز لغامز، وإن إحساسه مرهفٌ غاية الإحساس، وتصويره آية في الإبداع
فما رأي سيدي الأستاذ في بيتين مشهورين لابن الرومي قالهما في روض سقته السُّحب أو أرضعته فأنبتت ألفي رضيع من بني النضر حيث قال:
سقتْه ثُديّ السُّحْب من مُرْضعاتها ... أفانينَ مما لم تُقَطِّرْهُ مُرْضعُ!
كألْفَيْ رضيعٍ من (بني النَّضْرِ) ضُمِّنُوا ... مَحَاسن هذا الكون، والكونُ أجمعُ. . .
فأي تصوير هذا يا أستاذنا العزيز؟ وأي استيعاب فني فيه قد أحس به الشاعر عندما خالجه هذا المعنى؟
إلا ترى معي أن من شعراء العبقرية المخَّلدين في بطون الكتب وسجلّ الأزمان من أسفَّ أحياناً وسجل له تاريخ الأدب ذلك؟. . . هذا ما أردت أن أذكر به الأستاذ واضعاً بين يديه هذين البيتين إجابتاً لرغبته التي رغب فيها إلى القراء أن يذكروه بما شاءوا من شعره ليدلهم على موضع الحسن فيه؛ فرجاوتي أن ينجز الأستاذ ما وعد، وأن يبين لنا موضع التصوير الفني في هذين البيتين، مشكوراً من الشعر والأدب
ابن درويش
اكتشاف مصل لإطالة الحياة ومعالجة الجروح
من أبناء موسكو الأخيرة أن العالم الروسي بوجود مولتز، الذي يقول بأن مدى عمر الإنسان العادي يجب أن يكون 150 سنة، اخترع مصلاً يتصل بنظريته في إطالة الحياة، وهو الآن يستخدم في معالجة الجرحى الذين ينقلون من الميدان الروسي، وقد أسفر استخدامه عن نجاح
والمعروف أن لهذا المصل أثراً في الخلايا الحية وكان قد صنع في الأصل لمعالجة الشيخوخة الباكرة والاضمحلال الذي يعاجل الأجسام البشرية، ولكن ظهر أنه يدمل الجروح ويرأب الكسور في العظام، وهو الآن لا يستخدم إلا في المستشفيات العسكرية حيث ظهر أثره البالغ في معالجة الجروح والكسور التي تحدثها شظايا القنابل والقذائف
الاستخلاص بمعنى الاستخراج
يقول الأستاذ داغر في كتابه (تذكرة الكاتب): يقولون (الكتب التي اعتمد عليها المؤلف في
تاريخ ذلك العهد) والصوابْ تخليص أو تلخيص (استخلاص)
وجاء في (أساس البلاغة) للعلامة الزمخشري: (والزبد خلاص اللبن، أي منه يستخلص بمعنى يستخرج). فهو إذن استعمال صحيح لا غبار عليه
أنتم أعلم بأمر دنياكم
ساق الأستاذ القباني (في العدد 452 من الرسالة) هذا الحديث بصيغة (أنتم أعلم بأمور
دنياكم) وعزاه إلى الصحيح مسلم، ولهذا الحديث ثلاث صيغ في صحيح مسلم، ليس منها هذه الصيغة، بل منها صيغة (أنتم أعلم بأمر دنياكم) وهذه الإضافة للعهد، يعني أن هذا الأمر الذي هو تأبل النخل أنتم أعلم به، وليس هناك صيغة تفيد النهي عن التأبير، فلا يخل هذا الخبر بعموم قوله تعالى: (فليحذر الذين يخالفون عن أمر. . .) والأمر هنا مصدر مضاف يفيد العموم بخلافه في الحديث فإنه بمعنى الشأن، والمراد بالشأن، الشأن المعهود وهو تأبير النخل. وقوله تعالى: (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى)، نص على أن قوله صلى الله عليه وسلم: (البات وحي منزل) على أن الأحاديث التي رواها مسلم تختلف بمن في أسانيدها من الرجال اختلافاً يوجب النظر

الدقيق في درجاتها.
محمد أبو البهاء
الطلبة الغرباء في مصر
أيها المصريون!
في مصر - ومصر في إكرام الضيف البلد الكريم - طائفة من طلاب العلم وفدوا من جاوة وسومطرة وجارات لهما إلى كعبة الشرق الأزهر الشريف، فمنعت الحرب في الشرق الأقصى عنهم رفد أهلهم وهم أبناء الأسر الكريمة ولهم بين الطلاب وعند أساتذتهم مقام محمود، فأصبحوا من الفقراء الذين احصروا في سبيل الله، يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً
وإنا نهيب بذوي الغير أن يتفضلوا بمنع ذُلِّ السؤال عنهم ويسارعوا إلى خير هؤلاء. وعند الله أجر المحسنين
وقسم الوعظ والإرشاد بالأزهر الشريف - وهو على بينة من ندى أهل وطنه وحميتهم - لا يطيل القول إيماناً منه بدافع الغيرة في نفوس المصريين، وثقة في أن للبر والمعروف بمصر نفوساً تتنافس في الخير فلا يحس النزيل بينهم إلا أنه بين أهله وعشيرته. ولا غرو فالإسلام رحم بين أهله. وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله
وإنا لنذكر بوافر الحمد لسعادة صالح عنان باشا همته التي افتتح بها هذا الاكتتاب الخير ونشكر للمقطم الغراء أن أذاعت دعوته وأيدته وحولت مبلغ تبرعه في هذا السبيل، وقدره
عشرة جنيهات إلى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر، والدال على الخير كفاعله
فإلى الخير الذي أنتم أهله، ومن أحق الناس به، نوجه إليكم هذا النداء وما تفعلوا من خيرٍ فلن تكفروه.
محمد أحمد العدوي
المفتش العام للوعظ والإرشاد
القَصَصُ
النحلة وعروس النيل
قصة من القصص الشعبي لسكان جزيرة (بورنيو)
نقلها عن الإنكليزية
الأستاذ إبراهيم عبد الحميد زكي
أحست مرة نحلة صغيرة جميلة أنها قد جاوزت سن الطفولة وبلغت من القوة حدّاً يسمح لها بالطيران وحدها لتجمع رحيق الأزهار وتصنع منه الشهد. فلما حلقت بالجو حمل إليها الريح أريج زهرة حمراء من عرائس النيل كانت نامية على جوانب الغدير، فاتجهت إليها وكادت تسقط عليها لتمتص ما فيها من حلو الرحيق، ولكن (عروس النيل) أبت عليها ذلك وصاحت بها تقول: (لا! أيتها النحلة، لقد أتيت هنا تريدين أن تشقي لك طريقاً بين أوراقي في عنف وقوة كما هو شأن أبناء جلدتك، وإنك لترغبين أن تمتصي رحيقي بغير مقابل. . . ولكن، لا. . . اعلمي إن كنت لا تعلمين أن عليك قبل ذلك أن تدفعي ثمن ما تطلبين). . . فصعدت النحلة في الهواء قليلاً، وحامت حول الزهرة مرات كثيرة، وعلى أزيز جناحيها علواً كبيراً ثم قالت: وما هذا الذي تطلبين (يا عروس النيل)؟ ألا يكفيك ما أنت فيه من نعيم: فها هو الماء العذب يجري حواليك، وهاهو النسيم العاطر يهب منك واليك. . .؟)؛ فجابت الزهرة: (ما أشد غباءك، وما أضيق ذهنك، أيتها النحلة الحمقاء؟ إن هناك شيئاً ينقصني ولا جدال، فارحلي عني وابحثي عنه، فإذا اهتديت إليه وعثرت عليه، فعودي إليّ. . .)؛ فتملك النحلة الغضب، وعلا أزيز جناحيها مرة أخرى، ثم انصرفت تبحث عما تريد منها (عروس النيل) وبينما هي تطير حائرة مشغولة الفكر لمحت حشرة واقفة إلى جذع شجرة تقرضه، فأسرعت إليها وقالت لها: (أواه أيتها الحشرة! ألا نبأتني بما تريد مني عروس النيل؟)؛ ولكن الحشرة كانت لاهية في نفسها معنية بأمرها فأجابتها: (اذهبي عني. . . ماذا يعنيني من أمرك وأمر عروس النيل؟ ليس لديَّ من الوقت متسع لكما. . . ابحثي عن

غيري!)؛ فصعدت النحلة ثانية إلى الجو، وعلا أزيز جناحيها من جديد، ولكنها رأت عنكبوتاً ينسج
خيوط بيته في ركن تضيئه الشمس بنورها الساطع، فوقفت النحلة إلى جانبه وألقت عليه سؤالها؛ فقال لها العنكبوت: (إنها تريد ذبابة)؛ فأدركت النحلة أنه من أولئك القوم الذين يحسبون أمنياتهم صورة من أمنيات الآخرين، فولت وجهها شطر ناحية أخرى، وراحت تبحث عما تريد منها عروس النيل. . .
ورأيت فوقها سحابة فهرعت إليها وصاحت بها: (أتوسل إليك أيتها السحابة أن تخبريني ماذا اقدم لها؟) فأجابت السحابة (قطرات المطر) فسرت النحلة سروراً عظيما وعادت إلى عروس النيل على جناح الريح وقدمت إليها قطرة من الماء تفوق في حسنها حبة اللؤلؤ، ولكن الزهرة تمايلت على غصنها وقالت: (لا، إن الماء عندي كثير وقطرات الندى تساقط عليّ كل صباح) فنشرت النحلة مرة أخرى جناحيها وعادت للبحث والتنقيب. ورأت أشعة الشمس تداعب أوراق العشب فسألتها فقالت: (إنها تريد الدفء) فالتقطت النحلة إحدى الحباحب ثم عادت إلى الزهرة وقدمتها إليها ولكنها أبت أن تأخذها وقالت: (إن لي في ضوء الشمس الدفء كله. عودي ثانية للبحث)
وشاهدت النحلة بومة فسألتها فقالت لها (إنها تريد النوم فاذهبي إليها وروحي لها بجناحيك حتى تنام). ولكن الزهرة قالت: (وماذا أفعل بالنوم. إن النوم يأتيني كل ليلة فلا حاجة لي به منك) عندئذ كاد اليأس يتملك فواد النحلة فصاحت بصوت عال: (ترى ماذا تريد مني هذه الزهرة المتقلبة الأهواء؟)
وشاء القدر أن يسمع هذه النصيحة العالية راهب عجوز يقطن كوخاً في الغاب فنادى النحلة وقال لها: (ما اشد غباءك أيتها النحلة! أتريدين أن تعلمي ماذا تريد منك عروس النيل؟ إنه هذا) ثم طبع على جناحيها قبلة من أعذب القبلات
فاغتبطت النحلة لذلك كل الاغتباط وطارت بأقصى سرعتها نحو الزهرة وقبلتها في خفة ودلال. وعندئذ أحست الزهرة بالسعادة والهناء، وتفتحت أوراقها واستسلمت للنحلة لتمتص منها ما تشاء من الرحيق
هذه هي قصة النحلة وعروس النيل. . . والقبلة
(الإسكندرية)
إبراهيم عبد الحميد زكي
العدد 459 - بتاريخ: 20 - 04 - 1942
ومن هو ليوباردي؟
للأستاذ عباس محمود العقاد
نعم، ومن هو ليوباردي؟
سؤال كنت أنتظره من كثيرين بعد مقالي السابق عن الشعراء الذين (لهم عالم) من الأوربيين والعرب. وقد سألنيه أكثر من واحد وحق لهم أن يسألوا؛ لأن ليوباردي ضعيف الشهرة من البلاد الشرقية ويوشك أن ينساه القراء الأوربيون على ارتفاع شأنه بين النقاد والمعجبين بالأدب الفحل والأساليب الرصينة والنزعات (الإغريقية) الصادقة في غير اصطناع ولا محاكاة
قلت في مقالي السابق: (إن أبا تمام يجيد في هذا المعنى ويجيد في ذاك، ولكنه لا يعرض لك العالم كله في حالة من حالاته، ولا يخرج لك نسخة عالمية تقرنها إلى النسخ الأخرى التي تستمدها من أمثال ابن الرومي والمتنبي والمعري في الشعر العربي، وأمثال شكسبير وجيتي وليوباردي في الآداب الأوربية) فمن هو ليوباردي هذا؟
هو بالإيجاز ثالث الثالوث الأكبر الذي اشتهر بالتشاؤم في أوائل القرن التاسع عشر: وهم بيرون الشاعر الإنجليزي، وشوبنهور الفيلسوف الألماني، وليوباردي الشاعر الفيلسوف الإيطالي الذي كان أصدق الثلاثة تشاؤماً وأحقهم جميعاً بالتشاؤم، والذي شاء القدر - الرحيم - أن يفارق الدنيا كما فارقها زميله بيرون قبل الأربعين، ولم يشأ له أن يعمر فيها كما عمر الفيلسوف الألماني إلى ما بعد الثمانين
ولد في عصر التشاؤم لأنه عصر الانتزاع من الماضي والشك في الحاضر والتهيب من المستقبل، وابتلى بكل سبب من أسباب التشاؤم ينغص لذة العيش ويرنق صفو الحياة، فاجتمعت عليه عراقة النسب مع الفاقة، واصطلحت عليه الأسقام وضآلة

البنية، ودقة الحس، وفرط الذكاء، وخيبة الحب في مقتبل الشباب، وسآمة البيئة الريفية التي نشأ بينها واضطر إلى البقاء فيها، وأدركه الموت وهو أصم ونصف أعمى ومريض حرض منذ سنين

ومع هذا أي فحولة في الذهن، وأي مضاء في البديهة، وأي أمانة للأدب، وأي صدق في التعبير؟

لكأنما كانت ملكاته الأدبية عوضاً معادلاً لمصائبه الجسدية، وكأنما خلق بنصيب عشرين في الذكاء وفي البلاء على حد سواء

تعلم في صباه ست لغات بغير معلم، وهي الإغريقية والعبرية والفرنسية والإنجليزية والألمانية والأسبانية، فضلاً عن اللاتينية!

والتهم مأثورات الإغريق واللاتين جميعاً وأشربها إشراباً حتى أصبح وكأنه واحداً من أدباء يونان الأقدمين

ولما ضعف بصره طفق يشكو في رسائله إلى أصدقائه ويقول: لا أقرأ اليوم إلا ست ساعات في النهار!

وفجع المسكين حتى في هذا فنهى عن القراءة وعن الإصغاء!

ووجب عليه أن ينفق أيامه في قرية لا يشغله فيها شاغل غير التفكير الذي يحرق رأسه وجسده ويضنيه ولا يريحه. ثم ذهب إلى روما وهو مطبوع على الجد ومعاشرة العقول الكبيرة فضاق بها ذرعاً واحتواها أشد احتواء، وعاب على أهلها أنهم قوم هازلون لا يقرنهم بأهل قريته الذين يعرفون الجد وإن كانوا جهلاء لا يعرفون صورته التي صور الدنيا عليها أشبه شيء بالرسم المظلل الذي لا لون فيه غير السواد، ولكنها مع سواد لونها صادقة في كل شيء ما عدا التلوين: صادقة في خطوطها ومسافاتها وأشباهها وكل لمحة من ملامحها، ولا خداع في نقل شيء منها على الإطلاق لتسويغ رأى أو لمجاراة عقيدة. فهي الأمانة التي لا أمانة بعدها في الشعور وفي الأداء، وهي الفحولة التي تعلو به فوق مصائبه وأشجانه وبلاياه، كأنه لا يتشاءم لأنه محروم من رجاء، بل لأنه يرثي للدنيا وما فيها من رجاء

لهذا العقل المتوهج عذره إذ رأى الحياة شراً ورأى أن الموت ختام لمأساة الحياة لا شر فيه. أو كما قال: (إن الموت ليس بشر لأنه ينجو بنا من جميع الشرور. وإذا أخذ من الإنسان شيئاً حسناً فهو كذلك يأخذ منه الرغبة فيه. إنما الشر الأكبر هو الشيخوخة التي تحرمه كل سرور وتبقي له اشتهاء ما حرمته، ووصب الداء العياء؛ ومع هذا يفرق الناس من الموت ويتوقون إلى الشيخوخة!)

ولهذا القلب البائس عذره إذ رأى كل حسن في الدنيا قريناً للموت زميلاً للفناء. وأي شيء

أبعد عن هذه المزاملة من (الموضة) أو (الجديلة) التي يلهج بها الحسان وغير الحسان؟ أي شيء فيه من مخالفة الموت ما في دكاكين الزينة التي تتجدد فصلاً بعد فصل وموسماً بعد موسم؟

لكن ليوباردي يعقد المحاورة بين المنية والجديلة فإذا هما شقيقتان وزميلتان. لأن الجديلة كالمنية موكلة بالقضاء على كل موجود وتقبيح كل حسن بعد استحسانه، وتغيير كل عادة ألفتها الأبصار والأسماع، وهي في سلطانها نافذة لا هوادة في أمرها، ولا مناقشة لأحكامها، ولا حيلة معها غير الخضوع والتسليم

تنادي الجديلة أختها: يا منية! يا منية! فلا تلتفت إليها المنية ثم تعيد النداء فتجيبها متبرمة معرضة: إليك عني. إني آتية إليك لا محاولة، ولكن حين لا تريدينني ولا تهتفين باسمي. فتفهمها الجديلة أنها أخت شقيقة وليست (بعميلة) أو داعية أو فريسة

وتتفاهم الأختان بعد حوار كأمتع ما يكون الحوار، ثم تتداعيان إلى السباق وكسب الجائزة في مضمار الهدم والتبديل. فتقول المنية لأختها: ساعديني!

وتقول الجديلة لأختها: لقد ساعدتك حتى الآن أكبر مساعدة في مقدوري، وتركت عادة الموت بغير تبديل، وقد غيرت فيما عداها جميع العادات!

وتشفق الأخت الكبيرة أن يجيء اليوم الذي تبطل فيه هذه العادة كما بطلت عادات فلا تدعها أختها الصغيرة على إشفاقها وحذرها، بل تجلب الطمأنينة إلى ضلوعها التي لا قلب فيها، وتشرح لها كيف تساعدها في بإرهاق الأبدان وتسميم العقول وتعويد الجوارح ما يضني ويسقم ويسلب الغبطة بالحياة. بل تقول لها إنها جعلت من

(الموضة) في العصر الحديث أن يعيش الناس لحاضرهم ولا يحفلوا بعد موتهم بالذكر الحسن والخلود المجيد، وقد كان كلاهما حظاً مسلوباً من المنية وقسما تستبقيه الحياة بعد الفناء. فإذا خسرت الحياة هذا القسم النفيس فذلك كسب عظيم للمنية، وتلك هي الهدية التي تبذلها الأخت الصغيرة البرة للأخت الكبيرة التي لا تحفظ الجميل. وعلى ذلك تتفق الأختان

وللشاعر المتشائم محاورات كثيرة على هذا النحو الطريف، يعجب القارئ للعبقرية التي صبغتها بصبغة الفن الجميل وهي غارقة في الحزن والألم والسآمة، وخلقت منها للعقول متعة باقية وهي تنعى على كل متعة وكل بقاء

ولقد كانت قراءة ليوباردي وزميليه في مقدمة القراءات المحبوبة عندي إلى ما قبل الثلاثين. ثم بقيت لها قيمتها الفنية الأدبية وبطل الولع بها والاشتياق إليها. فهي اليوم عندي في مقام التقدير والذكرى، وليست في مقام الاصطفاء والمفاجأة لم هذا؟

لسبب يخيل إلى بعض الناس أنه مناقض للمعقول والمنظور، وهو أن الشباب أميل إلى التشاؤم من الكهولة والشيخوخة، وأقرب إلى الطعن في محاسن الحياة والجهل بتلك المحاسن وهي بين يديه

ولا مناقضة للمعقول في هذا بل المناقض للمعقول أن يكون الأمر على خلاف هذا فالشاب يخرج من بيته إلى معترك الحياة فيصطدم بالشدائد التي لم يعرفها بين الأب والأم والإخوان والأقربين، ويرى أخلاقاً غير ما عهد وألف وانتظر: يرى أناساً ينزعون ما في يده وقد كان يرى أناساً يعطونه ما في أيديهم، ويعلم أن نجاحه يغيظ قوماً يعاشرهم ويعاشرونه وقد كان يعلم أن نجاحه فرحة القلوب وقرة العيون، ويرجو كثيراً ولا يظفر بغير القليل. والمرء إذا انتظر مائة ووصل إلى عشرين ناقم ساخط متبرم، ولكنه إذا انتظر خمسة ووصل إلى عشرة يشكر ويرضى ويستريح

هذا سبب من أسباب الشكاية والتشاؤم في الشباب يزول أو يضعف كلما تقدمت به السن وجاوز أيام الدلال على الحياة

وسبب آخر أن الشباب يلتهم ما يتناوله فلا يفرق بين الطعام الفاخر والطعام المزهود فيه، كالمعدة القوية التي تستخرج الغذاء من كل الطعام، أو كالمعدة الجائعة يتساوى لديها الخبز القفار والمائدة المنتقاة

فهو يظفر بالمتعة ولا يدرى ما هي المتعة ولا يقيس الفارق بينها وبين غيرها بمقياس صحيح

وهذا سبب من أسباب الشكاية يضاف إلى ما تقدم فيغري بالتشاؤم في أوائل الحياة

وسبب غير هذا وذاك أن طول العشرة داع من دواعي الألفة والمودة وإن تباينت المشارب في أول اتصال. فإذا كانت الحياة قرينة ناشزة والشاب قريناً غضوباً في بداية الزواج فقد تطول العشرة فيقل النشوز ويقل الغضب، ويأخذ كل من الزوجين صاحبه على علاته، ويصل بالإرضاء والإغضاء إلى تسويغ الكريه وقبول المرفوض واستكثار القليل

وسبب غير أولئك جميعاً أن تقديرك الشيء وأنت تحس أنك فاقده عما قريب غير تقديرك إياه وهو في قبضة يديك غير مهدد بضياع.

فإذا اجتمعت هذه الأسباب لم يكن عجيباً أن يقل تشاؤم الشيخوخة ويكثر تشاؤم الشباب

ولهذا جنحت إلى ثالوث التشاؤم كله فيما دون الثلاثين، وأحببت ذكراهم الآن كما يحب الإنسان ذكرى شبابه الباكر، وإن يرى بعد غير ما كان يراه

تلك لمحة إلى ليوباردي

بل تلك إشارة إلى صورة العالم الحافل المرسوم بالظلال والظلمات بريشة ذلك العبقري المحروم، الذي لم يحرم الدنيا كما حرمته، متعة لب ونفثة سلوى ورحمة غراء

عباس محمود العقاد

الصوفية

للدكتور عبد الوهاب عزام

سألني الأديب إبراهيم العجلان رأي فيما يثور من الجدال حول الصوفية وعن فتوى الطرطوشي التي نشرت في الرسالة وفيها (مذهب الصوفية بطالة وجهالة وضلال، وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله، وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه

السامري كما اتخذ لهم عجلاً جسداً له خوار قاموا يرقصون حوله ويتواجدون) الخ
وهذا جوابي للسائل الفاضل:
- 1 -
كان في المسلمين منذ شاعت هداية الإسلام عبّاد زهاد لا يتميزون بلباس أو شارة، ولا يفارقون الجماعة في قول أو فعل؛ ثم امتاز منذ أواخر القرن الثاني جماعة من الزهاد باسم الصوفية وحدثت لهم سنن وآداب ميزتهم عن جمهور الأمة، ونشأت بينهم أقوال وأفعال لم تكن معروفة بين المسلمين. ثم نبغ لهم إمام بعد آخر كان لأقوالهم وأفعالهم آثار واضحة في اتجاه الطريقة وحدودها
كان التصوف أول الأمر زهداً، ثم صار معرفة وحباً، ثم صار فناء وخطت سبل لتربية السالكين فصار التصوف طريقة، ونشأت فيه أساليب من النظر واختلط به آراء من الفلسفة فصار له فلسفة أو ما يشبه الفلسفة
وإذا أردت أن تتبع تطور التصوف في تاريخ الرجال فانظر في سير أمثال الحسن البصري وسفيان الثوري ثم أمثال شفيق البخلي وإبراهيم بن أدهم والسري السقطي ومعروف الكرخي، ثم أمثال الجنيد والشبلي وأبي يزيد البسطامي ثم الحلاج والسهروردي المقتول وابن العربي
وليس التصوف مذهباً واضح الحدود بيّن المعالم يجمع كل من دخل فيه على آراء متفقة، وأعمال متشابهة، بل فيه آراء مختلفة وأقوال متباينة، وسير شتى. فيه تصوف الخاصة والعامة وطريقة المقتصدين والغلاة وأقوال الصالحين والسكارى
- 2 -
وقد ظهر في التصوف منذ امتازت معالمه ووضحت رسومه أهل الصحو وأهل السكر؛ الأولون يضبطون أنفسهم ويؤلفون بين أقوالهم وأعمالهم وبين الشريعة، والآخرون يرمون حين يغلبهم الوجد بالكلام المغلق المبهم أو القول لا يوافق الحدود التي حدتها الشريعة للعقائد والأعمال
وأرى أن أوضح مثل لهذين الضربين: الجنيد البغدادي وأبو يزيد البسطامي. كان جنيد وقوراً رزيناً لا يغلبه الوجد على نفسه؛ وأبو يزيد - كالشبلي البغدادي - يرمي بالكلمة بعد الكلمة ينكرها الناس ويضجون منها أو يعجبون لها ويتحيرون، فيجتهد الجنيد في تفسيرها وتأويلها. وفي كتاب اللمع لأبي نصر السراج أمثلة من هذا
وممن التزموا المحجة الواضحة كالجنيد جماعة ألّفوا في التصوف وبينوا حدوده وملاءمته للشرع، مثل أبي القسم القشيري صاحب الرسالة، والسراج صاحب اللمع، وأبي طالب المكي صاحب قوت القلوب، والغزالي
- 3 -
والخلاف بين العلماء أهل الظاهر، والصوفية أهل الباطن، قديم مديد نشأ منذ صار التصوف طريقة واستمر إلى يومنا
وحسبك أن تقرأ ما كتب ابن الجوزي في كتابه (تلبيس إبليس): (العلماء يرمون الصوفية بالخروج على الدين، والصوفية يرمون العلماء بالوقوف على الصور والأشكال، ويرون أن علمهم لا يغني في سبيل الله فتيلاً). وكم سخر الصوفية من أهل الظاهر ووصفوهم بالغلظة والجفاء والقصور عن إدراك البواطن وتذوق المواجد. وليس يتسع المقام لبيان هذا
وقد وجد العلماء في سير بعض الصوفية ما يقوّي حجتهم ويصدق دعواهم. وقد تسمى باسم الصوفية أفراد وطوائف جعلوا التصوف وسيلة إلى مآربهم وشهواتهم؛ كما قال المعري:
لو كنتم أهل صفو قال ناسبكم ... صفويةٌ فأتى باللفظ ما قلُبا
جند لإبليس في بدليس آونة ... وتارة يحلبون العيش في حلبا
والشكوى من الصوفية قديمة نجدها في الرسالة القشيري المتوفى سنة 465. ويقول في مقدمة الرسالة: (ثم اعلموا حكم الله أن المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم ولم يبق
في زماننا هذا من هذه الطائفة إلا أثرهم، كما قيل:
أما الخيام فإنها كخيامهم ... وأرى نساء الحي غير نسائها
وحصلت الفترة في هذه الطريقة، لا بل اندرست الطريقة بالحقيقة. مضى الشيوخ

الذين كان بهم اهتداء، وقلّ الشبان الذين كان لهم بسيرتهم وسنتهم اقتداء. وزال الورع وطوى بساطه، واشتد الطمع وقوى رباطه، وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة، فعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة، ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام، ودانوا بترك الاحترام وطرح الاحتشام، واستخفوا بأداء العبادات، واستهانوا بالصوم والصلاة، وركضوا في ميدان الغفلات، وركنوا إلى اتباع الشهوات، وقلة المبالاة بتعاطي المحظورات، والارتفاق بما يأخذونه من السوقة والنسوان وأصحاب السلطان ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال، وادعوا أنهم تحدروا عن رق الأغلال، وتحققوا بحقائق الوصال، وأنهم قائمون بالحق تجري عليهم أحكامه وهم مُحْو، وليس لله عليهم فيما يؤثرونه أو يؤدونه عتب ولا لوم، وأنهم كوشِفوا بأسرار الأحدية. واختُطِفوا عنهم بالكليّة، وزالت عنهم أحكام البشرية، وبقوا بعد غنائهم عنهم بأنوار الصمدية. الخ)

وقد حدثت بعد القشيري أحداث. ونجمت مذاهب ضج الناس منها، وضيع كثير من حقائق الطريقة وحفظت صورها، وخف على العامة وأشباههم أن يراءوا بأقوالهم الغريبة وأفعالهم العجيبة، إذ قصروا عن إدراك الدقائق؛ وعجزوا عن معرفة الحقائق وفي الصوفية اليوم أهل الورع الصادقون الدائبون في رياضة النفس وتهذيبها وكبحها، وهداية الناس وتهذيبهم في غير عجب ورياء ولا جلبة وضوضاء. ومنهم الجاهلون الذين لا يعرفون من التصوف إلا الأصوات والحركات، والملابس والشارات. ليس لهذا الأمر إلا تحكيم الشرع، والاتفاق على فروضه وسننه وآدابه، وكلهم مسلمون راضون بحكم الشريعة جديرون أن يجتمعوا عليها، ويتآخوا فيها

وسأبين في المقال التالي التصوف الذي يلائم الإسلام والذي ندعو إليه في هذا العصر أن شاء الله

عبد الوهاب عزام

قبل اليوم المشهود

للدكتور زكي مبارك

قضى آدم في صحبة حواء ساعات وهو ينتظر اليوم المشهود في ساحة العدل، وهي ساعات كانت أطول من الدهر وأثقل من الجبال

وزاد في كروب تلك الساعات أن آدم لم يكن في حقيقته إلا خلقة فطريةٌ يعوزها الصقل والتهذيب، فكان يبدي ويعيد في حكاية شجرة التين، بعبارات محمَّلة بُعنجهية الملامة وقظاظة التريث؛ وكانت حوّاء تصبر على أذاه في حين وتثور في أحايين، وكذلك كانت تلك الساعات أعنف وأفظع من الحساب المرتقَب في ساحة العدل

- آدم، هل وصلت إليك الأنباء الأخيرة؟

- أيّ أنباء؟

- لقد اختصم الأسود والقرود

- ثم؟

- ثم اختصم الملائكة المقرَّبون

- وفيم يختصم أولئك وهؤلاء؟

- في أمرنا بعد العصيان

- وما قيمة ذلك؟

- لقد فهمت مما سمعت أن الرأي العام يعطف على قضيتنا كل العطف

- الرأي العام كله؟ كل سكان الجنة ينظرون إلى قضيتنا برفق؟

- ليسوا جميعاً سواءً، وإنما عطف علينا الأكابر من أولئك السكان

- والأصاغر؟

- هم دائماً أصاغر، ولا قيمة لضجيجهم الصخّاب

- ليس في هذا ما يزيل مخاوفي، يا حواء، فما خشيت يوماً أن يصيبني أذىً من أكابر الخلائق، ولا جاز في وهمي أن تَصدُر كلمة الإفك عن مخلوق جمّله الله بالقوة أو بالعقل، وإنما الخوف كل الخوف من الأصاغر، فهم الذين يذيعون الصحيح والعليل من أخبار السوء، وهم الذين يطمسون محاسن الأكابر بالإفك والإرجاف، ليقال إن الوجود ليس فيه

فاضل ومفضول
- لا عليك من هؤلاء، فلن يسمع أحدٌ ما يأفكون. . . وهل ضعُفت العقول حتى تُسيغ أقاويل المرجفين؟
- لو كانت العقول تَنقُد كل ما تسمع، وفي كل وقت، لرجوتُ أن تسقط أراجيف الكاذبين، ولكن العقول لا تَنقُد كل ما تسمع، ولا تنصب ميزاناً لكل ما يقال، وسترين يا حواء أن أصحاب العقول أقلية ضئيلة، وهم مع ذلك لا يشغلون أنفسهم بإنصاف المظلومين، وليس فيهم من يترك أعماله ليرفع الشبهات المفترات من طريق المروَّعين بالبهتان
- ألم تسمع أن الأسود غضبت من تطاول القرود؟
- سمعتّ، ولكني أعتقد أنها غضبة وقتية، فستجد للأسود شواغل تصرفهم عن تأديب أولئك الأنذال
- وقد غضبت البلابل أيضاً
- أعرف ذلك، فقد سمعتها تقول إن آدم هو المخلوق الوحيد الذي يطرب لصوتها الرخيم، وأنه إن خرج من الجنة فلن تهشّ للتغريد. . . ولكن من يضمن أن يدوم هذا العطف؟ نحن شجّعنا البلابل والعنادل على الغناء، وأقمنا لهم دولة، ونبهّنا الخلائق إلى ما يملكون من جواهر السجع والرنين. فهل يذكرون هذا الفضل بعد أن نخرج من الفردوس؟ أنا أخشى أن تصفق لهم الضفادع فيرون النقيق من صور الثناء!
- هل بلغك ما قالت الببغاوات؟
- نعم سمعت أنها قالت (إن مخارج الحروف عند آدم سهلةٌ لينة، وأنها تحاكيه في النطق بلا عناء، فهو بذلك أجمل مخلوق) وأنا من هذا أخاف يا حواء
- وكيف؟
- ستستطيع الببغاوات أن تزعم أنها خلائف
- خلائفُ مَنْ؟
- خلائف الحيوان الناطق
- خلائف آدم؟
- إي، إي، أليست تنطق كما ينطق؟
- ولكنها لا تفقه شيئاً مما ننطق؟
- من حق الببغاوات أن تدّعي لأنفسها ما تشاء، حين يغيب أهل العقل والبيان
- ولكن أهل الجنة سيذكرون دائماً أنك وحدك الشاعر والخطيب
- أهل الجنة لن يذكروا شيئاً، وسوف تعلمين
- خبلتني، خبلتني!
- إن كنتِ في حاجة إلى تزيد من الخبال، أيتها المخبولة الحسناء. . . اسمعي
- إنك تُرعبني حين تقول اسمعي
- اسمعي يا حواء، ثم اسمعي، المجد يحتاج إلى حراسة، والأصدقاء يحتاجون إلى حراسة، وقد تكون رعاية الغنم أسهل من رعاية الأصدقاء، ولن يحفظ عهدنَا أحدٌ حين نغيب
- ولا الظبي الذي ربيناه منذ أسابيع؟
- سيجد ذئباً يرعاه، وسيأنس بالأنياب الحِداد، أضعافَ ما أنِس بالأنامل اللطاف
- هي أناملي، لا أناملُك
- حتى في أوقات الكرب الماحق لا تنسى المرأة أنها مخلوق لطيف!
- ترتاب في جمالي؟
- أستغفر الله!
- ولا تستغفر الحب؟
- وأستغفر الحب وأتوب إليه!
- صِدق، صِدق؟
- وهل كذبتُ عليك يوماً يا حواء؟
- أنا إذاً جميلة وأنت تحبني؟
- ما أحببُتك يوماً، ولا رأيتك جديرة بالحب، لأن عقلك أصغر من عقلي، والحب تفاهم بين عقلين، قبل أن يكون تلامساً بين جسمين، ولكن صوتاً يزعجني يا حواء

- وما ذلك الصوت المزعج؟
- هو الصوت الذي يصرخ بأن لابد لآدم من حواء
- تقول هذا وأنت الذي يُشغل عني بما في الفردوس من شجر ونبات وطير وحيوان؟
- أنا شُغِلتُ عنك بتلك الخلائق؟ هيهات ثم هيهات! كنت أتأمل الأشجار لأعانق الغصن الذي يشبه قدك النشوان، وكنت أداعب الأزهار لأرى فيها شمائل من خدك الوهاج، وكنت ألاعب الأطيار لأسمع سجعاً يذكّر بصوتك المقتول، وكنت أناغي فصائل الحيوان لأعرف أن لك صوراً في عيون الجآذر وأجياد الظباء. حبك يا حواء أذواني وأضناني وأبلاني، وستسمعون من أخباري ما تكرهين
- عَدَتْك العوادي، أيها الفارس الجميل!
- سأصبح فارساً بلا فَرَس
- أنت؟
- نعم، أنا، فقد حدثني أحد الملائكة أن الله لا يقيم وزناً لهفوات النساء، فإن القضاء الذي سيقام في ساحة العدل سيجعلني المدين
- وحدك؟
- وحدي!
- وإذن؟
- وإذن أهبط الأرض وتَبْقَيْنَ في الفردوس
- مع من؟
- مع جميع هذه الخلائق من شجر ونبات وطير وحيوان ومع نهر الكوثر، ومع الملائكة المقرَّبين
- أهذه خلائق؟
- بالتأكيد، وفيها الكفاية لمن يحتاج إلى أنيس
- وأصير كالدَّجاجة الحائرة عند غياب الديك؟
- كيف تحارين وأنت بين المهتدين؟
- هداية حواء في غيبة آدم هي أقبح صورة من صور الضلال
- سيقضي الله في أمرنا بما يشاء
- الله سيقضي بأن تعيش المرأة بلا رجل؟
- سيقضي الله بالعدل، فالرجل أذنب والمرأة لم تذنب، والعقاب لا يحق على غير المذنبين
- تخرج من الجنة وأبقى وحدي بحجة أنك المذنب؟
- بالطبع!
- وهذا عدل؟
- هذا هو العدل.
- والله يريد ذلك؟
- يقال!
- آدم، سترى أنني أشجع منك، وأوفى منك!
- من السهل أن تكوني أشجع مني، ولكن من الصعب أن تكوني أوفى مني
- المرأة لا تعتصم بالدلال إلا في أوقات الصفاء، وهي عند الخطر فداء الرجل من جميع الأسواء. ألم تسمع حديث الصائد؟
- وما حديث الصائد؟
- إذا ساور الصائد أسداً ولَبُؤَة، كان عليه أن يقتل اللبؤة قبل أن يقتل الأسد
- ولماذا؟
- لأن الأسد ينسحب بعد إنصراع اللبؤة، أما اللبؤة فتقاتل بعد انصراع الأسد إلى أن تموت
- وأنا سأجادل الله يا آدم
- وتجادلينه يا حواء؟
- أنا أفصح من جميع المحامين، والمرأة تحارب بالدمع حين تعجز عن المحاربة باللسان
- ولكن الله أكبر من أن ينخدع بدمع المرأة ولسانها

- أنا أعرف الله أكثر مما تعرف
- كل شيء جائز إلا أن تصل المرأة إلى معرفة الله على الوجه الحق
- أنت لا تعرف خطر المرأة حين تصرخ وتولول
- أو ينزعج الله عزّ شأنه بالولولة والصراخ؟
- سترى كيف أصنع، سترى، سترى، سأقيم مناحة في ساحة العدل، وسيبكي معي جميع الإناث من الطير والحيوان
- والنتيجة؟
- النتيجة معروفة منذ هذا الوقت، فسيصفح الله عنك، ليريح أهل الجنة من الولولة والصراخ
- ويقول التاريخ إن آدم نجا من العقاب لأن امرأته بكت في ساحة العدل؟
- ما قيمة التاريخ، وهو لفظٌ بلا مدلول، ولا يعتزُّ به غير الضعفاء؟
- وتقولين كلما اختصمنا إنك سبب نجاتي!
- هل يؤذيك أن تعترف بفضلي عليك؟
- تمنّين علي قبل أن يقع الفضل المزعوم؟ أنت السبب فيما أعاني من البلاء ومع هذا تطالبين بالثمن لدفع نكبةٍ جناها عقلُك المنخوب!
- أنا أعقل منك!
- لأنك أغريتني بالأكل من شجرة التين؟
- وهل في الجنة شيء اسمه شجرة التين؟
- تكذّبين الواقع الملموس؟
- واقع ملموس؟ ما هذا الكلام الأجوف؟
- شجرة التين، يا حواء، شجرة التين
- قلت لك إن الجنة ليس فيها شيء بهذا الاسم الغريب
- ولم نقع في العصيان؟
- أي عصيان؟
- العصيان الذي أوجب أن نفتضح، يا حواء
- وكيف افتضحنا، يا آدم؟
- بظهور السوءتين
- الطير والحيوان لا تعرف ستر السوأتين، فأرح نفسك من هذا العناء
- أترين أن أواجه الله بهذا القول؟
- واجِه اللهَ بما تشاء، ولا تخف غضبه عليك!
- وكيف؟
- لأنه لن يصنع بك اشد مما صنع
- ماذا؟ ماذا؟
- لقد خلق لك ضميراً، ثم خلق لك ضميراً، لتقضي حياتك في عذاب!
- وإذن؟
- وإذن تكفر بالله وتثور عليه
- لأصير. . .
- لتصير حيواناً سعيداً كسائر أصناف الحيوان
- الفضيحة الأبدية، ولا هذا المصير، يا حواء
- ماذا تريد بنفسك يا آدم؟
- أريد أن أكون أول مسئول أمام الله في هذا الوجود
- وما غنيمتُك من هذه المسئولية؟
- هي أن أتشرف بالثواب والعقاب
- الله قد يعاقِب ولا يُثيب
- يهمني أن أَعاقَب ولا يهمني أن أُثاب
- لأنك. . .
- لأني رجل، وسعادةُ الرجولة في احتمال التبعات
- وبهذه العقيدة ستلقَى الله في ساحة العدل؟
- نعم، نعم

وإذن يكون من حقي أن أقول إني في صحبة رجل هو أشجع الرجال وأشرف - الرجال!

(للحديث أفانين)

زكي مبارك

برنامج الإصلاح في جماعة كبار العلماء

. . .أحلام

للأستاذ محمد محمد المدني

كنت يوماً من الأيام راضي النفس، ساكن الجأش، هادئ العاطفة؛ ونظرت فإذا بارقة من أمل تبرق في جو الأزهر فينبثق منها نور وهَّاج تضوء به أرجاؤه، وتصفو له سماؤه، ويشرأب إليه الناس بأبصارهم وأعناقهم متطلعين

كتبت يومئذ في (الرسالة) مقالاً: أما موضوعه، فهو موضوع اليوم (برنامج الإصلاح في جماعة كبار العلماء)؛ وأما عنوانه الذي أوحت به النفس يومئذ، فقد كان كلمة جميلة خفيفة على الأسماع، أعتقد أنها ترجمة واضحة لما كان يدور بالنفوس المستبشرة قبل أن تكون عنواناً لمقال يتحدث عن أعمال (جماعة كبار العلماء)، تلك الكلمة هي (آمال. .)

ولكنني أعترف الآن أنني كنت مغالياً ومسرفاً في الخيال إلى حد بعيد حين اخترت هذه الكلمة عنواناً لمقالي، وأنه كان عليَّ يومئذ أن أذكر تاريخ الإصلاح في مصر بوجه عام، وتاريخ الإصلاح في الأزهر بوجه خاص، لأختار كلمة أخرى غير كلمة (الآمال). ولست أدري: أمن تقاليد (الرسالة) أن تسمح أحياناً لكتابها بتصحيح ما سلف من العناوين؟

ولكن أنَّى ذلك وقد سارت بذكرها الركبان، وانقضى عليها أزمان وأزمان؟

عفا الله عما سلف! وليكن حديث اليوم تصحيحاً لحديث ألامس، ولنجعل عليه عنواناً غير ذلك العنوان، هو (أحلام. . .)

كتب الأستاذ الكبير صاحب (الرسالة) مقالاً خطيراً بالعدد (456) عنوانه (لابد للإسلام من مؤتمر)؛ وقد استعرض فيه حالة الشرق والعرب، وذكر تودد الغرب إلى المسلمين في ظروفهم الحاضرة، ثم عرج بالحديث إلى (العلماء) فقال:

ولئن سألتني بعد ذلك: هل بلَّغ العلماء رسالة الله؟ لأقولن لك (لا) مغلظة مكبرة) مكررة! وأكبر الظن أنهم لا يؤمنون بأن لهم رسالة، وأن عليهم تبعة: رجال السياسة يعملون بحق أو بباطل، ورجال الحكم يتصرفون بعدل أو بظلم؛ أما رجال الدين في ممالك الوطن الإسلامي كله، فقد قنعوا باللقب والزي، واكتفوا بالشبع والري، ورضوا (!أن يكونوا متوناً لذوي الطمع، وحواشي لأولي النعمة، وهوامش على صفحة الحياة

قال الأستاذ الزيات ذلك. ومضى في مقاله البليغ يؤيده بالحجج، ويضرب له الأمثال، ويهز به النفوس، ويثير به كوامن الشجون؛ ثم قال: (لقد عقدنا الآمال بالأزهر في كل ذلك، فهل عقدناها بلعاب الشمس؟ كانت جماعة كبار العلماء معقد الرجاء ومناط الثقة. . . ولكن برنامج الإصلاح الذي اقترحه شبابها المصلحون، وأقره أقطابها المخلصون، قد أدركته أزمة رجعية توشك أن تخنقه في درج المشيخة؛ فإن عضواً من الجماعة يوجس منه شراً: فهو ينسج حوله الشكوك، ويؤلب عليه القوى وقد نجح في ذلك. فهل يجوز في ظن امرئ أن يكون في كبار العلماء من يشتبه عليه الحق والباطل والخير والشر والصلاح والفساد؟ ذلك ما لا نصدقه، ولا نود أن تجري الأمور بما يحققه)

قرأت هذا المقال مثنى وثلاث ورباع، واشتد عليَّ وقعه، وساءني هذا النبأ الهائل الرهيب الذي تضمنه، وقلت لنفسي: هذا يوم له ما بعده! سوف يتكلم الأزهر، وسوف يدفع العلماء عن أنفسهم، وسوف تتحرك الجماعة الموقرة لتثبت للناس أنها سامعة لكل ما يدور حولها، واعية لكل ما يقال عنها، ولكني تلبثت لذلك أسبوعاً، واستظهرت من بعده بأسبوع آخر فلم أجد أحداً من الأزهريين، رسميين أو غير رسميين، يعرض لذلك بتصحيح أو تكذيب، ولم ألمح في جو الجماعة ما يدل على أنها موشكة أن تجتمع لترى في برنامج الإصلاح رأيها. وقد عنيت في أثناء ذلك أن أستمع إلى أحاديث الناس في الأزهر وغير الأزهر عن هذا الشأن الخطير، فسمعت أحاديث عجباً!

هذه رواية تقول: أن أشخاصاً معينين قد ألفوا التعويق عن الخير، والتخزيل عن الإصلاح، قد وقفوا من هذا البرنامج موقف المحارب في السر والعلن، وجعلوا

يصرحون في مجالسهم بان هذه المقترحات لن تتم أبدا، لون تأخذ طريقها إلى التنفيذ!

وهذه رواية أخرى تنقل عن أحد أعضاء الجماعة عبارة يدأب على ترديدها ويرمي بها في وجوه الناس إذا سألوه فيقول: إن هؤلاء الشبان من أعضاء الجماعة يريدون أن يقلبوا الدنيا وأن يغيروا أوضاع العلم في الأزهر. وأن يفسدوا الدين!

وهذه رواية ثالثة تقول: إن مديراً من مديري إدارات الأزهر قد ساءه أن تفكر الجماعة في انتزاع إدارته من يده. فأقسم برأس جدوده من الشراكسة: لن يتم هذا البرنامج ولو كان بينه وبين التمام خطوة واحدة

على أن أثراً آخر من آثار التفكير في هذه المقترحات قد حدث فعلاً، وبرز بروزاً رسمياً. ذلك أن لجنة معروفة في إدارة المعاهد الدينية قد رأى بعض أعضائها في هذه المقترحات مساساً بهم، وتعريضاً بكفايتهم. فاتفقوا على أن يستقيلوا من هذه اللجنة ورفعوا استقالتهم فعلاً إلى فضيلة الأستاذ الأكبر، ولكنه لم يقبلها وأمرهم بالبقاء في أعمالهم!

وتقول جريدة (البلاغ) الغراء في عددها الصادر مساء التاسع من شهر أبريل الحاضر ما نصه:

(قد رددت إشاعات نرجو ألا تكون صحيحة، خلاصتها: أن بعض أعضاء جماعة كبار العلماء مع قبولهم هذا المبدأ وسائر المبادئ التي تحقق الإصلاح وتنظم جهود الجماعة والأزهر والتي انتهت إلى قبولها لجنة بحث المقترحات، لا يرون أن تنفذ تلك الآراء لأن في قبولها وتنفيذها اعترافاً ضمنياً بتقصير الجماعة عن التفكير في ذلك فيما سبق، وهذا موقف لا يرضاه أعضاء الجماعة لأنفسهم)

وهكذا تختلف الروايات تبعاً لتعدد مصادرها. ولكنها كلها تجمع على شيء واحد هو: أن عقبات تقف في طريق هذه المقترحات وتحول بينها وبين النور أن تراه، فهي لذلك حبيسة في (درج المشيخة) وستظل حبيسة في هذا الدرج حتى يأذن الله

يا ويلتا! أيموت هذا المشروع أيضاً كما ماتت من قبله مشروعات؟ وماذا يقول الأزهر بعد ذلك للأمة وقد نادى في أرجائها البشير: أن قد استيقظ العلماء، وهبوا للعمل، وشمروا عن ساعد الجد في خدمة الدين ونصرة الشريعة؟

أهكذا يا مصر تنفرج فيك إلى هذا الحد (مسافة الخلف بين القول والعمل؟). أحين تكون الأعمال فكراً تجول في النفوس، أو مشروعات تكتب على الأوراق، يسمع الناس لها ضجيجاً عالياً، ودوياً صاخباً، ويرون من حولها هيئات تجمع، وجلسات تعقد، وأقلاماً تكتب، وصحفاً تنشر، وبشارات تتوالى، وبخيل بها على الناس أن الأمر جد، وأن الوعد حق، وأن ساعة التنفيذ آتية لا ريب فيها؛ ثم تمضي الأيام، وتتلاحق الشهور والأعوام وهذه المشروعات ساكنة لا حراك بها، يعلوها غبار، ويرهقها قُتار، وتوحشها ظلمات الإهمال أو النسيان

أجل! أجل! و (أيُّ هكذا خلقت!)

ارجع، أيها القارئ، إلى مجموعات الصحف والمجلات والسجلات الحكومية تر العجب العجاب: برامج للتعليم بعضها في أثر بعض، وبرنامج لإنقاذ الفلاح وتحسين حالة الفلاح، وبرامج للشئون الاجتماعية، يطنطن بها الدعاة، وتمتلئ بها المسامع والأفواه، وبرامج حتى للطرق، وتنظيم المدن، وتخطيط الشوارع تتداولها أوامر الإقرار تارة، والإلغاء تارة، والتعديل تارات؛ وهكذا تفيض مصر بالبرامج إلى البرامج حتى لو عنينا بجمعها وترتيبها والتبويب لها لأخرجنا من ذلك كتاباً ضخماً ذا مجلدات! ولكنها برامج لم توضع لتنفذ وتطبق، ولكن لتكون آية يستدل بها الناس على عبقرية واضعيها، ولتكتب عنها الصحف أياماً أو شهوراً فتفيض في تعديد مزاياها، وتطنب في بيان فوائدها وما يرجى من آثرها. وما بي من حاجة إلى دليل أؤيد به ما أقول، فهذا هو التعليم يتعثر في خطاه، وهذا هو الفلاح ما يزال كما كان يشرب الطين المذاب، ويذوق من فقره ودَيْنه ومرضه ألوان العذاب. وهذه هي برامج مصلحة التنظيم يحسب الناس لكثرة ما اعتورها، وشدة الإبطاء في تنفيذها، قد وضعت لتنفذ وينعم بمزاياها سكان البلاد في القرن الثلاثين، لا في هذا القرن العشرين!

فلماذا لا يكون الأزهر أيضاً كهذه المصالح الحكومية؟ إننا معاشر الأزهريين مصريون، ولا أحسب أن المصرية تتمثل بجميع خصائصها في بيئة من البيئات كما تتمثل في

الأزهر، فإذا أراد امرؤ أن يطبق على هذا الخلق الذي سجله أمير الشعراء على مصر حين قال:
(كل شيء فيه ينسى بعد حين)
وجد الأمثال بين يديه حاضرة في الأزهر قبل سواه، فله أن يمثل (بمشروع ترجمة القرآن) لو إن شئت فسمه (مشروع ترجمة تفسير القرآن) وله أن يمثل (بلجان العيد الألفي للأزهر) التي ألفت على الورق، ورصدت في السجلات، ولم تعمل شيئاً، بل لم تجتمع فيما أظن حتى اليوم! وله أن يمثل (بمشروع تنظيم المكتبة الأزهرية العظيمة) الذي اجتلب له خبير فني من المتخصصين في برلين. وله أن يمثل (بمشروع إصلاح مجلة الأزهر) الذي ألفت له لجنة وقد كان الأستاذ الزيات أحد أعضائها، ثم اختنق تقريرها وليداً وما زالت المجلة كما كانت بل أسوأ مما كانت كما يعترف بذلك رجال الأزهر المسئولون. وله أن يمثل (بالبعوث الأزهرية) التي اهتممنا بها مرة في الدهر واحدة ثم لم تعد كأنها بيضة الديك التي يذكرها في بعض شعره بشار!
له أن يمثل بهذا كله مما ذكرنا، وله أن يمثل بغيره مما لم نذكر، فليس الأمر إذن أمر برنامج الإصلاح في جماعة كبار العلماء وحده، وإنما هو أمر الأزهر جميعاً. هو أمر برامج كثيرة حاولها الأزهر، وعنى بها فضيلة الأستاذ الأكبر؛ بل إننا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا: إن هذه المشروعات جميعها إما بتفكير مباشر من فضيلته، وإما بتفكير يستمد من روحه وإلهامه، ويراد به تحقيق غايته في الإصلاح، وتنفيذ رغباته في النهوض بالأزهر، وإعلاء كلمة الله، وقد حظيت هذه المشروعات كلها بكفالته فاحتضنها وأيدها وأبدى رغبته في تنفيذها، فما هو السر إذن في أن هذه المشروعات النافعة تموت في طفولتها، بل تختنق في مهدها؟ ألا إن السر في ذلك لمعروف: إنه يرجع إلى الذين ألفوا أن يعوقوا الإصلاح، ويشككوا في الخير. يرجع إلى المخزلين المثبطين الذين يغشى النور أبصارهم فلا يحبون أن يروا إلا الظلام، ويدوخ الجو النقي الصافي رءوسهم فلا يحبون أن يعيشوا إلا في الفساد. إنه يرجع، يا سيدي الأستاذ الأكبر، إلى الذين مردوا على النفاق، ورضعوا أفاويقه، وتلونوا في كل عهد بلون، ولبسوا لكل حالة لبوسها؛ ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم!
هنا فقط موضع العلة ومكان الداء، وهنا فقط مفصل الدواء، ومقطع العلاج، لمن أراد العلاج!
رباه! ماذا قلت؟ وأي سر كشفت؟ ولكن. . . لا! إن الأمر لم يعد سراً. وهل سرٌّ ما تفيض به المجالس والأندية، وتخوض فيه الصحف والمجلات؟
إنني أتخيل أبناءنا وأحفادنا القادمين وقد أرادوا أن يحصوا لنا أعمالنا ويدركوا مبلغ برنا بوعودنا: أتخيلهم وقد وجدوا في صحفنا، في جرائدنا ومجلاتنا، مشروعات أعمالنا، فجعلوا يتابعون البحث في هذه الصحف عدداً بعد عدد، ومجلداً بعد مجلد، لعلهم يعثرون فيها على خبر التنفيذ كما رأوا أخبار التفكير، لعلهم يرون آثار الأعمال كما رأوا آثار الأقوال. ولكنهم - وا خجلتاه - سيبحثون جاهدين، ثم يوالون البحث صابرين، فلا يجدون لهذه الأعمال أثراً، ولا يحسون منها شيئاً، ولا يسمعون لها ركزاً. فلعل أحدهم يومئذ يضطجع كما يفعل امرؤ أعياه البحث وأضناه التعب ثم يقول:
رحمة الله عليهم أيها الآباء! لقد كنتم تعرفون حقاً كيف تكون الـ (أحلام. . .!)
محمد محمد المدني
المدرس بكلية الشريعة
وهم شائع
موشحة ابن زهر لا موشحة ابن المعتز
للأستاذ طه الراوي
ابن زُهر
آل زهر أسرة إياديّة أندلسّية، برّز كثير من رجالها في العلوم والآداب، وتفرّد منهم جماعة في الطب والفلسفة. وكان إمام جماعتهم وواسطة قلادتهم أبو بكر محمد بن أبي مروان ابن أبي العلاء بن زهر المتوفى سنة 596 هجرية. وقد تميز أبو بكر هذا في علوم كثيرة وآداب وفيرة. وبرع في علم الطب والفلسفة والآداب العربية. وكان حافظاً للقرآن راوياً للحديث، وعانى قرض الشعر، وله موشحات مشهورة يغني بها،

وهي من أجود ما قيل في ذلك. قال بعض من ترجموا له: (لم يكن في زمانه أعلم منه بصناعة الطب. وكان معتدل القامة، صحيح البنية، قوي الأعضاء، صار في سن الشيخوخة ونضارة لونه وقوة حركاته لم يتبين فيها تغير. وكان ملازماً للأمور الشرعية، متين الدين، قوي النفس، محباً للخير، مهيباً؛ وله جرأة في الكلام؛ وكان صائب الرأي، حسن المعالجة، جيّد التدبير. وكان كثير الإبداع في الشعر مع سلامة ذوق وسجاحة طبع، وانسجام أسلوب، وجمال ديباجة. فمن ذلك قوله يتشوق إلى ولده:

ولي واحد مثل فرخ القطا ... صغير تخلّف قلبي لديه
نأت عنه داري فيا وحشتا ... لذاك الشخَيص وذاك الوجَيه
تشوقني وتشوّقته ... فيبكي عليّ وأبكي عليه
وقد تعب الشوق ما بيننا ... فمنه إليَّ ومنّي إليه

ومن ذلك قوله:

إني نظرت إلى المرآة إذ جُليت ... فأنكرت مقلتاي كل ما رأتا
رأيت فيها شيبخاً لست أعرفه ... وكنت أعرف فيها قبل ذاك فتى
فقلت: أين الذي بالأمس كان هنا ... متى ترحّل عن هذا المكان متى
فاستجهلتني وقالت لي وما نطقت ... قد كان ذاك وهذا بعد ذاك أتي
هوّن عليك فهذا لا بقاء له ... أما ترى العشب يفنى بعد ما نبتا

موشحة ابن زهر

قال جماعة ممن ترجموا له: من موشحاته قوله:

أيها الساقي إليك المشتكي ... قد دعوناك وإن لم تسمع

ومن أشهر المؤرخين الذين نسبوا هذا الموشح إلى محمد ابن زهر هو المحقق ياقوت بن عبد الله البغدادي الحموي المتوفى سنة 626 هجرية. قال في ترجمة ابن زهر من كتابه (معجم الأدباء صفحة 216 من الجزء الثامن عشر) ما نصه: (وانفرد ابن زهر بالإجادة في نظم الموشحات التي فاق بها أهل المغرب على أهل المشرق. . . ومن موشحاته قوله:

أيها الشاكي إليك المشتكي. . . الخ

وسرد الموشحة إلى آخرها. ومنهم موفق الدين أبو العباس أحمد ابن القاسم السعدي الخزرجي في كتابه (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) فقد أثبت له هذه الموشحة في جملة موشحات أخرى عندما ترجم له في الباب الثالث عشر من الجزء الثاني من كتابه المذكور

ولا أدري أي شيطان سول لبعض المتأخرين أن ينسب هذه الموشحة إلى عبد الله بن المعتز فتهافت على هذا الخطأ جماعة من المعاصرين الذين أخرجوا للناس مجاميع أدبية فجزموا بنسبة هذه الموشحة إلى ابن المعتز مع أن ابن المعتز نفسه لا يعرف شيئاً عن الموشحات ولا عهد لأهل زمانه بشيء منها، لأن المعروف بين مؤرخي الآداب العربية أن هذا الضرب من الشعر إنما هو من مبدعات متأخري الأندلسيين وعنهم اقتبسه متأخرو المشارقة. قال العلامة ابن خلدون في مقدمته (أما أهل الأندلس فلما كثر الشعر في قطرهم وتهذبت مناحيه وفنونه وبلغ التنميق منه الغاية استحدث المتأخرون منهم فناً منه سموه بالموشح. . . ينسبون فيها (الموشحات) ويمدحون كما يفعل في القصائد، وتجاروا في ذلك إلى الغاية. . . وكان المخترع لها بجزيرة الأندلس مقدم بن معافر الفربري من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني، وأخذ ذلك عنه أبو عبد الله أحمد بن عبد ربه صاحب كتاب العقد. . .) أهـ

ثم ألمع ابن خلدون إلى نبذة من تأريخ الموشحات عند الأندلسيين وأهل المغرب. وذكر أن المشارقة قلّدوهم في ذلك فلم يدركوا لهم شأوا. ومنه يعلم أن هذا الضرب من الصناعة

الشعرية من مخترعات المغاربة، وأن المشارقة أخذوه عنهم بالمحاكاة ليس غير وقد ذكر المقّري في كتابه (نفح الطيب) نحواً مما ذكره العلامة ابن خلدون وعدّ الموشحات من خصائص الأندلسيين ومن مزاياهم التي بذّوا المشارقة

ولا أدري كيف يسوغ لمتأدب أن ينسب إبداع تلك الموشحة إلى ابن المعتز، وابن المعتز نفسه لم يشر ولم يومئ إلى هذا الضرب من ضروب الشعر في كتابه الذي ألّفه في البديع! ولو كان لهذا النوع من أثر في زمانه لفسّح له الصدر من كتابه

ولأوسع فيه الشرح والإيضاح والتنويع والتفريع، ولكان من المتعذّر أن يخفى على أساطين المؤرخين من إضراب ابن خلدون والمقّري وغيرهما
ولا أدري كيف التبست هذه الحقيقة على ناشري بعض المجاميع الأدبية من المعاصرين فجزموا بنسبة تلك الموشحة إلى ابن المعتز مع ما اشتهر، بل استفاض من أنها من نظم ابن زهر الأيادي الأندلسي، ومع علمهم بأن الموشحات من مبدعات المتأخرين من الأندلسيين كما رأيت
ولعمري إن ابن زهر الأيادي ليس بخفي الشأن بحيث يسوغ لمتأدب أن يختلس ثمار أفكاره فيلصقها بغيره، كما أن ابن المعتز أشهر وأظهر من أن تخفى بدائع لبّه على ياقوت وابن أبي أصيبعة وابن خلدون والمقري وإضرابهم من محّققي المؤرخين، ولكن ما الحيلة والتحقيق في الناس قليل لأن مركبه صعب، والتساهل كثير لأن مركبه وطئ وأنا لم أكتب ما كتبت في دفع هذا الوهم إلا لما رأيته فاشياً بين الشداة من المتأدبين الذين يعتمدون على ما تخطه أقلام المعاصرين من غثٍ أو سمين، ولا يكلّفون أنفسهم مؤونة الرجوع إلى الأصول للتثبت من صحة تلك النقول. وهذا داء وبيل تطاير شرره وعم ضرره. وأكبر الظن أن هذا الوهم تسرب إلى المتأخرين من طريق (ديوان ابن المعتز) المطبوع في بيروت المتداول بين الأيدي. ولا جدال في أن الكثيرين من جمعة الدواوين حاطبو ليل، يحشرون شعر هذا في ديوان ذاك، وشعر ذاك في ديوان هذا. والشاهد على ذلك كثيرة مستفيضة، وقد وقفت في هذا الديوان على شعر كثير لا علم لابن المعتز به وإنما هو من نظم من تقدمه أو تأخر عنه
وكان الأقدمون يتلقون نتاج الأفكار وثمار الأقلام من طريق الرواية ويتبارون بتوثيق حلقات الأسانيد وحبك أطرافها بالتحقيق والتروي إلى أن يستوي بيدهم الحق ويستقيم الصدق، فلما ذهب عهد الرواية وأخذ الناس يعتمدون في الجمع على أيديهم دون عقولهم وراح الوراقون يستنّون في ميدان الحشد والتكثير والتحويل والتغيير وضعفاء المتعلمين من ورائهم يلقفون ما يأفكون من غير ما تبصر ولا تدبر - أصبح الحق يتيما والتحقيق غريباً. فعلى من يترفعون عن التقليد الأعمى من أبناء هذا الجيل أن يعتمدوا في تحقيق الحق وتمحيصه على الأصول الأصيلة من دواوين العلم ومجاميع الأدب ولا يصح لهم الاعتماد على غيرها إذا أرادوا أن يكونوا للحق إخواناً ولأهله أعواناً
(بغداد)
طه الراوي

المصريون المحدثون - 31
شمائلهم وعاداتهم
في النصف الأول من القرن التاسع عشر
تأليف المستشرق الإنجليزي ادورد وليم لين
للأستاذ عدلي طاهر نور
تابع الفصل العاشر - (الخرافات)

لا يجوز عقلاً أن تثير هذه الأوهام التي توجد في أذهان شعب جاهل دهشتنا؛ ولكن المصريين لا يظهرون احتراماً خرافياً للكائنات الوهمية فحسب، وإنما يجاوزون ذلك إلى بعض أفراد من البشر مثلهم. وكثيراً ما يكون ذلك التقديس إلى أقل الناس استحقاقاً له. فيعتبرون الأبله أو المجنون مخلوقاً عقله في السماء وجسده يختلط بالبشر. ويعدونه لذلك ولياً. ومهما ارتكب الولي المشهور من الخطايا - وكثير منهم يحالفون الدين - فهي لا تؤثر على قداسته إذا لم تعتبر نتيجة تجرد عقله من الأشياء الدنيوية، فروحه أو قواه العقلية كلها مستغرقة في التقوى؛ ولذلك تُترك شهواته بلا رقيب. ويحبس المجانين الخطرون؛ أما هؤلاء الذين لا خطر منهم فيعتبرون أولياء. وأكثر أولياء مصر المشهورين معتوهين أو بله أو خداعون. ويسير بعضهم عراة تقريباً ويتمتعون باحترام زائد بحيث أن النساء بدلاً من تجنبهم يتكبدن أحياناً الكثير من تصرفاتهم الشاذة في الطريق العام، ولا يشعر العامة بأي عار من هذه الأعمال التي يندر مع ذلك حدوثها. ويُرى آخرون لابسين مرقَّعة مختلفة الألوان تسمى (دلق) وهو مزين بالخراف، ومعممين بعمة بالية وحاملين عصا شبك في أعلاها سبائب نسج مختلفة الألوان، ويأكل بعضهم التبن أو خليطاً من التبن والزجاج المكسر ويلفتون النظر بأعمال غريبة مختلفة.

وكثيراً ما قابلت أثناء زيارتي الأولى في شوارع القاهرة رجلاً زَري الشكل عاري الجسم تقريباً مضفر الشعر طويله، راكباً حماراً يقوده رجل آخر. فيقف دائماً حماره أمامي مباشرة بحيث يقطع عليّ الطريق ويقرأ الفاتحة، ثم يمد يده للسؤال. وقد حاولت أن أتجنبه في أول
مرة؛ إلا أن أحد المارين حذرني ملاحظاً أن الرجل وليّ، وأن عليّ أن أحترمه وأن أمنحه ما يريد حتى لا تصيبني مصيبة. ويتعيش رجال هذه الطبقة على الصدقات التي كثيراً ما يتناولونها دون سؤال. ويسمى القديس المشهور (شيخ) أو (مرابط) أو (ولي)، ويسمى أيضاً على الأصح إذا كان به بله أو جنون أو خَبل (مجذوب) أو (مسلوب). وتطلق عبارة (ولي) بدقة على القديس التقي السامي فقط ومعناها المختار. إلا أنها تطلق عامة على البُله أو المتبالهين، حتى أن بعض الأذكياء جعلوا لفظ الولي معادلاً للفظ (بليد)، ملاحظين أن تينك العبارتين متساويتا المعنى والقيمة العددية للحروف المكونة لكل منها. إذ أن (ولي) مكونة من الواو واللام والياء، وقيمة كل على التوالي 6، 30، 10 أي 46 و (بليد) مكونة من الباء واللام والياء والدال وهي على التوالي 2، 30، 10، 4، وجموعها 46، وكثيراً ما يسمى الغبي ولياً للدعابة.
ويعتقد مسلمو مصر وغيرها من البلدان اعتقادات باطلة عجيبة بالأولياء. وقد حاولت أن أستفهم عن أكثر هذه الاعتقادات غموضاً فكان الرد علي: (إنك تتدخل في أمور (الطريقة)) أي منهج الدراويش الديني. إلا أنني وقفت على كثير من الآراء العامة في هذه الموضوعات. وأظن أن ذلك هو كل ما يطلب تقريره في كتاب مثل هذا. وسأسرد مع ذلك أقوال بعض المتعلمين والدراويش فيما يتعلق ببيان إيمان العامة
وكل من يرتاب في وجود الأولياء يُرمى بالمروق ويتلى للحكم عليه نص القرآن: (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون). ويعتبر هذا النص كافياً للدلالة على أن هناك طبقة من الأفراد متميزة على البشر العاديين. وقد نتساءل من هم هؤلاء الأشخاص أو ما حالهم؟ والرد على ذلك أنهم أشخاص قصروا أنفسهم على عبادة الله واحتفظوا بإيمان صادق، ومن الله عليهم بالقدرة على فعل الكرمات تبعاً لقوة إيمانهم يسمى أقدس الأولياء (قطباً)، ويحمل هذا اللقب - على رأى بعضهم - رجلان، ويقول البعض الآخر أربعة. وتعني عبارة (قطب) محوراً، ومن ثم أطلقت هذه الكلمة على الولي الذي يثق به الناس ويتبعونه، ويطلق هذا اللفظ للسبب نفسه على الحكام الزمنيين أو السادة الإجلاء. وقد أخبرت أن الرأي القائل بأربعة أقطاب خطأ شائع، أصله توالي ذكر عبارة (الأقطاب الأربعة) التي تشير إلى أشهر مؤسسي الطرق الصوفية الرفاعية والقادرية
والأحمدية والإبراهيمية. ويُعتقد أن كلاًّ من هؤلاء كان قطب زمانه؛ وقيل لي أيضاً أن الرأي القائل بقطبين خطأ عام أساسه اسمان: (قطب الحقيقة) و (قطب الغوث)، لا يختص بهما على الأصوب غير شخص واحد فقط. ويطلق الذين يعتقدون بوجود قطب واحد عليه عبارة (القطب المتولي) وهو الحاكم الآن، والذين يعتقدون بوجود قطبين على القطب العامل. ويحكم القطب الذي يراقب الأولياء جميعهم، سواء أكان هناك قطب آخر أم لم يكن لأنه إذا وجد يكون دون الأول، أولياء متفاوتي الرتب يقومون بأعمال مختلفة مثل النقباء والإنجاب والإبدال الخ؛ وهم يعرفون وظائف بعضهم بعضاً، وقد يعرف ذلك الأولياء الآخرون
ويقال أن القطب كثيراً ما يظهر ولكنه لا يعرف. وكذلك أتباعه ذوو السلطة.
ومع أن القطب يختفي دائماً فإن أماكن وجوده معروفة، ولكنه قليلاً ما يظهر فيها. والمعتقد أن القطب يكون فوق الكعبة. وهو يصيح مرتين في جوف الليل قائلا: (يا أرحم الراحمين)، فيردد المؤذنون حينئذ ذلك الدعاء من مآذن الكعبة. وقد سألت حاجاً فاضلاً في هذا الموضوع فأقر لي أنه رأى بعينيه إماماً مرتباً ليصيح هذه الصيحة. ولا يعرف ذلك غير القليل من الحجاج. ويعتقد مع ذلك أن سطح الكعبة مركز القطب الرئيسي. ويفضل هذا المجهول الموقع مركزاً آخر بباب القاهرة المسمى باب زويلة، وهو في الطرف الجنوبي من ذلك القسم الذي يكوّن المدينة القديمة وإن كان في قلب البلد الآن؛ فقد امتدت العاصمة كثيراً نحو الجنوب والغرب. ويسمي العامة باب زويلة (باب المتولي) لاعتقادهم أنه مركز هذا الكائن المجهول. ومن وراء أحد مصراعي الباب العظيم الذي لا يقفل أبدا فضاء صغير يقال إنه مكان القطب. ويقرأ

الكثير من المارين الفاتحة، ويتصدق البعض على سائل يجلس هناك، ويعتبره الرعاع أحد خدام القطب. ويدق المصابون مسماراً في الباب لفك السحر، كما أن المصابين بوجع الأسنان يخلعون سناً ويولجونها في أحد شقوق الباب أو يلصقونها به بأي حال آخر حتى يضمنوا عدم إصابتهم بالمرض نفسه. وكثيراً ما يحاول بعض الفضوليين الاختباء وراء الباب آملين عبثاً اختلاس النظر إلى القطب لعله يظهر هناك. وللقطب في مصر مراكز أخرى أقل شهرة. أحدها في قبر السيد أحمد البدوي بطنطا، والآخر في مدينة المحلة وغيرها. ويعتقد أن القطب ينتقل من مكة إلى القاهرة أو من مكان إلى آخر في لحظة. ولا يقتصر القطب على سكنى أماكنه العديدة المفضلة وإنما يتنقل في أنحاء العالم بين جميع البشر من مختلفي الأديان متخذا شكلهم وملبسهم ولغتهم ويوزع عليهم بواسطة أتباعه الأولياء أحكام القدر نعما ونقما. وحينما يموت قطب يتولى غيره مكانه في الحال

ويروي الكثير من المسلمين أن إلياس، ويخلطه العامة بالخضر، كان قطب زمانه، وأنه يوليّ الأقطاب المتعاقبين إذ يقررون أنه لم يمت ويزعمون أنه شرب من عين الحياة. ويبدو أن اعتقادهم في القطب مأخوذ مما قص علينا في التوراة عن إلياس ورفعه إلى السماء، وانطلاقه من مكان إلى لآخر تحمله روح الله، ومنحه أليسع سلطته الخارقة للعادة وتقليده إياه وظائفه، وخضوع الرسل الآخرين له ولوليه المباشر. وينبذ بعض الأولياء لذات الدنيا وصحبة الإنسان ويعكفون على التأمل في السماء وينقطعون للصلاة متوكلين على العناية الإلهية لسد حاجاتهم، إلا أن خلوتهم تعرف فيحضر العرب لهم الطعام يومياً. وهذا يذكرنا مرة أخرى بقصة إلياس إذا وضعنا كما يرى بعض الناقدين، كلمة (عرب) بدلاً من لفظ (غربان) في الآيتين الرابعة والسادسة من الإصحاح السابع عشر من سفر الملوك الثاني: (وقد أمرت (العرب) أن تعولك)، (وكانت (العرب) تأتي إليه بخبز)

ويقال إن القطب يكلف بعض الأولياء القيام ببعض الأعمال الشاقة حسب قول محدثي، ويقال لهؤلاء الأولياء (أصحاب الدرك)، وقد فسرت لي هذه العبارة، ولا أعلم على أي أساس، بمعنى المراقبين. وقد حكى لي الحكاية التالية لبيان وظائف هؤلاء قال: اشتدت رغبة أحد تجار هذه المدينة الأتقياء في أن يصير ولياً، فتوجه إلى آخر ينتمي لهذه الطبقة المقدسة فتوسل إليه أن يساعده على التشرف بمقابلة القطب. وبعد أن احتمل الطالب امتحاناً صارماً لمعرفة بواعثه طلب منه أن يتوضأ مبكراً في الصباح التالي ثم يقصد مسجد المؤيد حيث يوجد بإحدى زواياه باب زويلة أو المتولي السابق ذكره، فيقبض على أول من يراه خارجاً من الباب الكبير لهذا المسجد. وفعل الرجل ما قيل له، وكان أول من خرج رجل شيخ مهيب المنظر ولكنه رث الثياب يلبس زعبوطاً من الصوف أسمر اللون، وقد دل ذلك على أنه القطب. فقبل الطالب يده وتضرع إليه أن يقبله بين أصحاب الدرك. فقبل القطب التماسه بعد تردد طويل ثم قال: (التزم القسم الذي يشمل الدرب الأحمر وما يجاوره). وفي الحال وجد الطالب نفسه ولياً، ولاحظ أنه يعرف أشياء تخفى على البشر العاديين، إذ يقال إن الله يعلم الولي جميع الأسرار اللازم معرفتها. ويقال عادة إن الولي يعلم الغيب ويبدو هذا مناقضاً لما نقرأه في عدة مواضيع من القرآن إنه لا يعلم الغيب غير الله. إلا أن المسلمين وهم قلما يرتبكون في مناقشة ما، يبينون أن عبارات القرآن يقصد بها معرفة الأسرار بمعناها المطلق وأن الله يطلع الأولياء على مثل هذه الأسرار كلما شاء ذلك

استدراك:

وردت المقالة السابقة تابعة للفصل التاسع، والصواب أنها ابتداء الفصل العاشر: (الخرافات)

(يتبع)

عدلي طاهر نور

شباب الجيل

للأستاذ حسين الظريفي

إن للموطن من شبانه ... كل ساعٍ رافعٍ من شانه

طائرٍ آناً على طائرٍ ... أصبحت في الجوِّ من عُقبانه

وعلى دبابة آونةً ... يتحدى الموت في ميدانه
ومن المدفع في قبضته ... يُرسل الحاصد من نيرانه
في يديه قوة من قلبه ... جازت الممكن من إمكانه
يتلقى الخطب في صدرٍ له ... عامرٍ بالمحض من إيمانه
لم يبت في قلبه من موضعٍ ... لسوى السعي إلى أوطانه
وهو في شرخ شباب ناضرٍ ... يسحب الأذيال من ريعانه
كتب الله لنا النصرَ به ... وجميل الفضل من إحسانه
(بغداد)
حسين الظريفي
الحرب في البحر
للأستاذ عبد الرحمن البناء
رِكبوا الهولَ خيفةً أن يُضاموا ... وَمِن الصعب أن تُضامَ الكرام
أعلنوا الحربَ والمدافعُ ثارت ... بِبَراكِينِهَا وأودى السَّلام
ومشوا تحتَ وابلٍ من حريقٍ ... فوقَ بحرٍ أمواجُهُ ألغام
ثَبتوا كالجبالِ فوق جِبالٍ ... ماخِراتٍ بهم وُهم أعلام
الأساطيلُ والقنابلُ أفنَتْ ... ما بَنَتْهُ السيوفُ والأقلام
إن تَرامَتْ ما بينَها بالمنايا ... ضاقَ ذَرعاً بمن تُصيبُ الْحِمام
أو أرادت إفناء مُلْكٍ عَتِيدٍ ... لم يَحل دون قصدها استحكام
غير أنَ القَضاءَ قادَ إليها ... طائراتٍ قضاؤها إبرام
فرَمى مَخْزِنَ العِتادِ شُواظٌ ... من لَهيب فَشَبَّ فيها ضَرام
غَرِقَت ما نجا من الناسِ إلا ... بعض ركّابها وفي الماءِ عاموا
ومتى تَغْرَقُ النفوسُ ببحرٍ ... من نجِيعٍ ترسو به الأجسام
وَسَفِينٍ تَنُوءُ بِالْجُندِ مَرَّتْ ... وعلى الجندِ هيبةٌ واحترام
كُلُّ فرْدٍ شاكي السلاح قَوِيٍّ ... مِلْءُ فيهِ على العدوِّ انتقام
حَرَسَتْها لدى الوغَى طائِراتٌ ... غير أن الوغى لها أحكام
باغتتها غوَّاصةٌ بشظايا ... لا يفل الحسامَ إلا الحسام
جَنَحَتْ للمغيبِ حيرَى فغابت ... وتدلّى على الضياء الظلام
نَزَلَتْ كالستائرِ بعد فُصولٍ ... مَثَّلَتْهَا لمن وعي الأيام
خطَرُ الغوَّاصات قد زادَ لّما ... غَرِقَتْ في دُموعِها الأيتام
كلما أبحرَت وغاصت لفتكٍ ... غاص منها في البحر جيشٌ لُهام
إن للغواصاتِ في البحرِ حرباً ... وقفَت عند حدِّها الأفهام
غرقٌ عاجلٌ وفتكٌ ذريعٌ ... وصِرَاعٌ دامٍ وَمَوْتٌ زُؤام
هي حوتُ الوغى وفي طرَفيها ... للأساطِيلِ مِعْوَلٌ هدَّام
تلبَسُ الماءَ أن رأتْ رَمْيَ رامٍ ... مثلما يلبسُ الدروعَ الهمام
سُجِّرَ البَحْرُ فهو ميدانُ حربٍ ... فيه للنارِ والحديدِ ازدحام
ملأتْ جوفَهُ البوارجُ ناراً ... وَشَوَتْ لَحْمَ حُوتِه الألغام
حيثُ تُلقى بلاءً ... ما لنفسٍ من البلاءِ اعتصام (الطرابيدُ)
وَدَوِيُّ المدمِّرَاتِ كأن ال ... أرضَ مادت وللجبال اصطدام
وأباة تَذبُّ عن شرفِ النف ... سِ وَيحُلو لنفسِها الإقدام
أسكتوا المدفعَ الثقيل بحزمٍ ... من حديدٍ وهمْ دَمٌ وعِظام
أينما ولَّوُوا الوجوه رمتْهُم ... قاذفاتٌ من الجحيمِ ضِخام
شهدَ الله والتواريخُ أن الحربَ في البحرِ كلُّها إيلام
(بغداد)
عبد الرحمن البناء
البَريدُ الأدبيّ
الصفاء بين الأدباء
كنت قد نشرت في (الرسالة) كلمة أقول فيها: (مما يسترعي الالتفات أحياناً تلك اللغة التي يخاطب بها بعض الأدباء زملائهم. فتراهم يقولون: (زميلنا أو صديقنا فلان يطلب إلينا كذا، ونحن نقول له كذا، والأجدر به أن يسألنا كذا) إلى آخر هذا الكبر والتكبر في

التعبير)
وظاهر من الروح هذه الكلمة أنى أحض على توثيق صلات المودة الصافية بين الأدباء بدعوتهم إلى نبذ الألفاظ التي قد تحدث في نفوس زملائهم شيئاً من الامتعاض ولكن الدكتور زكي مبارك فهم الأمر على وجه آخر فإذا هو يتفضل بزيارتي ليسألني: (أحقاً أنا أنكر أن يشرف الناس أنفسهم بالانتساب إليّ؟) يا للعجب! أهكذا يمكن أن تؤول المقاصد أحياناً بضدها؟!. . . ثم سألني أيضاً فيما سألني عن المقصود بهذه الكلمة. فقلت له: ما من أديب واحد قد عنيته بالذات؛ إنما هي كلمة عامة للنفع العام. ولئن كان لابد من مناسبة أوحت بهذه الكلمة فربما كانت مقالة الأستاذ عباس العقاد التي يشكر فيها للدكتور طه حسين إهداءه إليه
في الحق أنني لم أجد بالمقال الرقة التي كنت أنتظرها، واستأت في .(دعاء الكروان) نفسي من الأستاذ العقاد بعض الاستياء، وأنا الذي يعتقد دائماً أنه يخفي وراء قناع الكبر والتكبر نفساً طيبة تتفجر إذا اطمأنت بأجمل عاطفة وأنبل إحساس. فالذي يستطيع التأثير في نفوسنا بكتاباته الإنسانية عن الكلب (بيجو) لابد أن يحمل نفساً خليقة أن تفيض بالمودة نحو إنسان!
تلك هي المناسبة يا دكتور زكي. ولكنك شئت أن تحمل الكلمة على أنها غمزة مني لك. وأنا أبعد الناس عن الغمزات خصوصاً إذا تعلق الأمر بشخصي. . . فأنا لم أنشر قط يوماً كلمة تعمدت بها إيذاء أديب في شعوره. أنا الذي يجرؤ مهاجمة المبادئ والنظم إلى حد التعرض للخطر. . . لا أجد من اللائق بأديب أن يهاجم أديباً ليخدشه في كرامته. . . لأن الأدب قبل كل شيء مودة ورحمة وصفاء. . . على هذا الوجه فهمت دائماً الأدب. فالأدب هو صنع الجمال. وعلى من يصنعون الجمال أن ينطووا على نفوس جميلة. وأنا الذي لا يختلط بالناس والأدباء إلا قليلاً لما في طبيعتي من وحشة وكآبة أشكو منهما، تجدني مع
ذلك أحب الأدباء وأقدرهم ولا أقول فيهم قولة سوء. . . ولعلك لم تسمع مني غير ذلك. على أنك أيها الصديق العزيز، وأنت تأخذ كلمتي على أنها موجهة إليك قد ذكرت لي أسباب ظنك، فتحريتها بعد انصرافك، فاتضح لي أنك على حق، وأن الكلمة ينبغي أيضاً أن تنصرف إليك، فقد تستعمل أداة التعظيم في مخاطبة الزملاء من الأدباء. فماذا يضيرك أن أشكو منك ومن كل أديب يسهو عن واجبات التواضع والمودة والمحبة التي تؤلف بين نفوس الأدباء جميعاً وتجعل منهم (دولة متحدة مقرها حديقة الصفاء الغناء) وبعد فليسمح لي الدكتور زكي أن أوجه إليه كلاماً وجهته إلى الأستاذ أحمد أمين منذ ستة أعوام، فقد تثمر بهمته ما فيه من فكرة خيرة. لقد قلت وقتئذ: (لا شيء في الوجود أقوى من الابتسامة؛ ولكن. . . من ذا الذي أعطى القدرة على الابتسام الصافي الجميل في كل موقف وفي كل حين؟ أهو الجبار وحده؟ ألا ترى معي أن الجبروت إنما هو الصفاء؟
إذا أردت أن تسلك طريق السلام الدائم، فابسم للقدر إذا بطش بك، ولا تبطش) تلك كلمة لعمر الخيام. أن كنت من رأيي في كل هذا، فإن لي عندك حاجة: . . .(بأحد أن تنثر معي تلك الابتسامة بين الأدباء، فإن الأدب شيء جميل، هو جنة لا صخب فيها، وهو معبد لا تدخله الأحقاد. إن أعجب ظاهرة في أدبنا أنه لا توجد فيه صداقات عظيمة جديرة أن يتحدث عنها تاريخ الأدب، تلك الصداقات التي نراها في آداب الحضارات الكبرى قد أنتجت من الرسائل والأخبار والآثار ما لا يقوم بمال. ما الذي يعوزنا نحن؟ أهو شيء في الخلق؟ أم هو ضعف في النفس؟ أم هو نقص في الصحافة؟ لست أعلم؛ إنما الذي أعلمه: أن الصداقة الخالصة بين رجال الأدب والفكر، هي أظهر دليل على نضوج هذا الأدب وهذا الفكر
توفيق الحكيم
نقص الصفحات في الجرائد والمجلات
تنفيذاً للأمر العسكري القاضي بنقص الصفحات في الجرائد اليومية إلى أربع، وفي المجلات الأسبوعية إلى أربع وعشرين، تصدر الرسالة ابتداء من هذا العدد على الشكل الذي أوجبه هذا الأمر مراعاة لظروف الحرب وما صارت إليه وسائل النقل وإنا لنرجو كتاب الرسالة أن يقتصروا فيما يبحثون على المهم، وفيما يكتبون على المفيد، حتى تنجلي عن العالم هذه الكروب التي غشيت الناس في كل سبيل من سبل العيش،

وفي كل مرفق من مرافق الحياة
من غزل الملوك
طلعت علينا رسالة (أحمد) كعادتها زاخرة بالأبحاث العلمية والطرائف الأدبية، والومضات اللغوية. فكان من بين تلك المباحث مبحث جليل للأستاذ (عبد الله مخلص) جمع فيه نتفاً من سلطان الحب، وحب السلاطين، ترويحاً لنفوس القراء المكدودة في هذه المحن. ونحن مع تقديرنا لهذا اللون من ألوان البحث لا نحب أن يتواضع صاحبه فيلده طفيلياً يعبث به الزمن ولا تستمرئه العقول!
فهات من هذه الناحية بالعجب العجيب. . . فان البحث عنها شاق، والسير فيها مخيف. فهي مبثوثة في بطون الكتب الممزقة الأوصال، مشوهة المراجع، محفوفة الجوانب. . . وليست من أدب المعدة. وإنما هي من أدب الروح.
(السكرية - دار القاياتي)
حسن القاياني
عضو مجلس النواب
لابد للإسلام من مؤتمر
قرأت المقال القيم الذي به افتتحتم العدد رقم (456)، وفيه وصفتم حال المسلمين ودعوتم إلى عقد مؤتمر إسلامي. فقلت: مرحى لهذا الشعور السامي، ومرحباً بهذه الدعوة المباركة!
ولست أكتمكم أن تكراركم القول فيه: أن مسلمي الحاضر هم (أعقاب) مسلمي الماضي، ذكرني أشياء ترددت طويلاً في أمر التحدث بها. لقد ذكرني كيف يحلو للمدخن أن يداعب لفافة التبغ حين تتناولها أنامله أو تطبق عليها شفتاه؛ وكيف يلذ له أن يشاهد عمود الدخان يصّاعد منها رقيقاً أو كثيفاً، قائماً أو لولبياً ويلهو بالنفخ عليه، ليغير وجهته أو يقطع أوصاله أو يشتته كالهباء، وكيف يستسيغ عبوره الفم إلى الحلق أو الخيشوم، ويكاد يتولاه
بالمضغ واللوك ليمتع به حاسة الذوق، فوق ما يسدي به إلى حاسة الشم من فضل ومتعة، ثم ذكرني كيف يعامل لفافته، بعد أن يقضي منها وطره، فتجفوها أنامله إذ تدنو نارها ويلين طرفها، وتنفر منها شفتاه إذ تترطب وتصطبغ، ويمجها ذوقه إذ ترشح منها عصارة، ويمقت خيشومه رائحتها القوية النتنة؛ وكيف يقضي عليها بالخنق في إناء أو بالطرح في الطريق، ويحول عنها بصره مشمئزاً، ثم ينساها كأن لم تكن. ذكرت هذا وذاك حين خطرت ببالي (السبارس) أعقاب اللفافات، وما كنت لأورد هذا التشبيه، لولا أنه جاء عفواً وفرض نفسه عليّ؛ وما كنت لأستبيح لنفسي توجيه هذا النقد، لولا أنه يشملني كمسلم
أما فيما يتصل بعقد مؤتمر إسلامي، فأذكر أنه عقد واحد في القدس قبل عشر سنوات اشترك فيه ممثلون للمسلمين في جميع أقطار المعمور؛ وأنه اتخذ مقررات ذات بال، وأنشأ مكتباً دائماً ظل يعمل بضع سنوات، ومن الضرورة القصوى أن تستمر الدعوة إلى مؤتمر إسلامي دوري، يعقد مرة في كل بضع سنوات في إحدى العواصم الإسلامية. ولست أرى الحرب منعاً لذلك، إذ كل ما فيها أنها تقلل عدد الأقطار الممثلة فيه بعض التقليل. ثم هب أنها تجعل الاشتراك فيه مقصوراً على بلدان الشرقيين الأدنى والأوسط - بل هب أنها تضيق الحلقة أكثر من هذا فتحصره في الأقطار العربية - أليس فيما يبقى من خيراته الشيء الكثير؟ هل من المبالغة أن نقول إن الأقطار العربية قلب العالم الإسلامي ونواته؟ وهل من الخطل أن نحسب الجمع بين رجالات الدين والعلم فيها أمراً قريب المنال، وأن نعد اتفاق كلمتهم على الإصلاح خطوة واسعة نحو العمل الموحد المجدي في سائر أنحاء ذلك العلم؟ كلا، بل هو من واقع الأمور
إنه لمن دواعي الأسف الشديد أن ينجح عضو من جماعة كبار العلماء في (نسج الشكوك حول برنامج الإصلاح الذي اقترحه شبابها المصلحون وأقره أقطابها المخلصون!) - على حد قولكم - ولكن ماذا في هذا البرنامج؟ ألا ينطوي على استعراض لمواطن الضعف، ويوصى بطرق معقولة عملية للعلاج؟ ألا يستنير بهدى الدين، ويبصر بعين العلم؟ فإذا كان كذلك، فمن تكون جماعة (كبار العلماء) تلك التي ترضى لبرنامجها ذاك أن يعطله أحد - صغر - الجهلاء؟!

نحن قوم لم نُرض نفوسنا على التعاون، وعملنا المنفرد أدعى إلى الأمل في النجاح من
عملنا المشترك. فما لنا لا نعمل أفراداً، ريثما نألف العمل جماعات؟ إن المؤتمر الإسلامي الذي سبق أن أشرت إليه لم تدع إليه جماعة أو هيئة. فلم لا يدعو إلى مؤتمر آخر رجل واحد أيضاً؟ من يكون هذا الرجل، وأنّى لنا به؟ أين أنت يا ديوجينس وأين مصباحك؟ هاته وتعال نبحث معاً!
(القدس)
عصام الشريف
التميع في خضم الجماهير
إذا كان طريق إصلاح هذا الدين الحنيف أن نأتي على أسسه القومية وأركانه المشيدة، ونترك الرغبة في إرضاء الجماهير تتحكم فيه وتصرفه كيف تشاء وكما تهوى، فلا كان إصلاح
ولخير للإنسانية أن يظل الناجي على الشاطئ يشهد الغرقى تحوم فوق رؤوسهم طيور الموتى، وتمتد إليهم يد الفناء من أن يمد إليهم يده لينقذهم فيجذبوه هم نحو الفناء، ويمضوا به صوب الأعماق
ولخير للأزهريين ولرجال الدين أن يظلوا في جمودهم وخمودهم من أن يتحركوا حركة المذبوح، وينتفضوا انتفاضة اليائس الذي يحطم كل شيء، ولا يبقى على شيء
وإذا كان سبيل الإصلاح أن ندع التيار يجرفنا في منحدره إلى القرار فلن يكون إصلاح، ولن يكون فلاح، وإنما هي الفوضى وخيبة الأمل
كتب أحد العلماء الإجلاء في أوائل إبريل بمجلة أسبوعية يقر الناس على الكذب، ويحبب إليهم اختلاق الأكاذيب، ويرغبهم في افتراء القصص الوقائع بحجة المرح والسرور، ومن أجل التفكه والدعابة. وكان من اثر هذه الدعوة السيئة أن استجابت لها إحدى صحفنا الصباحية فنشرت عن مناظرة تقام ببناء كلية الشريعة؛ يشترك فيها بعض أعلام الفكر الحديث. وما كاد الوقت يحين حتى توافد الناس إلى الكلية من كل صوب لسماع هذه المناظرة. وإذا بالواقع يروعهم، وبالحقيقة تواجههم، وإذا بها (كذبة إبريل)
فليهنأ الشيخ بنجاح دعوته ونفاذ رغبته!
وليت الأمر وقف عند هذا الحد، بل جاءت ثالثة الأثافي - كما يقولون - إذ نشرت الأهرام تكذيباً للخبر وأردفته بكلمة لأديب أزهري، كان أكثر استجابة لنداء شيخه الوقور وفيه يقول: (وشكراً للأهرام على مداعبتها اللطيفة، وكل (إبريل) والأمة جميعها بخير وسلام)
أيها الذين آمنوا بالله ورسوله الكريم، لن يكون إصلاحاً تميعنا ونسياننا لتعاليم من كان يمزح ولا يقول إلا حقاً، ولن تكون نهضة فقداننا لمقوماتنا وشخصياتنا، فننسى أنفسنا أمام هذه الفتنة القاسية
رويدكم يا دعاة الإصلاح ما دام مركبه سيحملكم إلى شاطئ غير الذي نروم، وسيجعلكم تنحدرون من القمة إلى الهاوية، بدل أن ترفوا الناس إلى المعتصم.
السيد جمعة
من عثرات الأقلام
1 - جاء في مقال (أثر الآداب الأجنبية) (في العدد 457): وتكلم ما راق له الكلام، والصواب: ما راقه الكلام، على ما في مختار الصحاح والمصباح وغيرهما
2 - في بحث (كتاب سحر العيون) في (العدد 456) نسب (الضوء اللامع لأهل القرن التاسع) في موضعين إلى علم الدين السخاوي، والصواب شمس الدين السخاوي المتوفى سنة 902، وأما علم الدين السخاوي فمقرئ مشهور توفى سنة 643
3 - في مبحث (كتاب سحر العيون) (في العدد 457) ثم قدم إليها مستقلاً. والصواب: ثم قدمها مستقلاً. على ما في الأساس والمصباح المنير وغيرهما
4 - في ترجمة (ابن خرداذبة) (في العدد 457): (بحوثاً طلية) والصواب: بحوثاً لها طلاوة
5 - في مقالة (كتاب سحر العيون) - في العدد 458 - واتصل بعلم الدين السخاوى. الصواب: واتصل بشمس الدين السخاوي، وهو المؤرخ الناقد المشهور مفخرة مصر

بل الشرق في القرن التاسع الهجري.
أحمد صفوان
الرسالة الصديق
يقول الدكتور زكي مبارك: (. . . وإن أدبك لا يسمح بأن تعرَّض بكتاب له مثل مكانتي في نفسك وفي الرسالة الصديق. . .) فالكاتب قد أخطأ في وصفه (الرسالة) بصفة (الصديق) وأظنه جرى في أسلوبه هذا على قياس (رجل قتيل. وامرأة قتيل) بتذكير فعيل في المثالين. نعم هذا صحيح إذا كان (فعيل بمعنى مفعول) أما إذا كان (فعيل بمعنى فاعل) فيجب إلحاق هاء التأنيث بفعيل في حالة التأنيث. ولفظ (صديق) هنا بمعنى فاعل. إذن كان من الصواب أن يقول: (الرسالة الصديقة) كما نقول: الرسالة العظيمة، والكتابة البديعة، ولا يصح خلاف ذلك. . .
(القاهرة)
حسين الحوفي
العدد 460 - بتاريخ: 27 - 04 - 1942
الرجل المنتظَر. . .
بهذه الرجفة العظمى تبدد النظام العالمي كله؛ فكأنما اجتمع اللاعبون بأقدار الأفراد ومصاير الأمم وقالوا لهتلر أجرأ العابثين: (بَوِّظ)!!
وهاهم أولاء يتحكمون في قطع اللعب، فيجمعون ثم يفرقون، ويبددون ثم ينسقون، وكل ما ورث الناس أو كسبوا من أديانْ ودساتير وقوانين وأنظمة وسنن قد أصابه الإلغاء أو التعليق. والواقع أن العالم العربي بأجمعه ليس منه في هذه اللعبة العالمية لاعب؛ إنما هو تلك القطع الجامدة التي تُقسّم وتُقدَّم وتُصك ثم تذهب وتجيء بين اللاعبين دواليك حاملة على وجوهها المُلس قِيَمها الكسبية المختلفة من (الدش) إلى (البيضة). فإذا طلبنا أن يكون لنا في الدَّست حساب وليس فينا حاسب، أو يعود علينا من ورائه اكتساب وليس منا كاسب، كان ذلك من خداع النفس بالمجال وتعليلها بالباطل. والمتوقع الذي لا حيله فيه أن نظل كما نحن لعبة تلعب أو نُهبة تُنهب حتى يبعث الله فينا الرجل الذي ننتظر
ولست اعني بالرجل الذي تنتظره الأمة العربية: (المهديَّ) أو (الإمام) أو (المسيح)، فإن ظهور أولئك أحدِهم أو كلهم شرط من أشراط الساعة؛ فانتظار الناس إياهم كانتظار الطامع الممطول راحة الفوت، أو المريض المشفى سكينة الموت؛ وإنما أعني الرجل الذي ينتظره الناس انتظارهم طلعة الشمس، وتنتظره الأرض انتظارها رجعة الربيع! هو كالشمس لأنه يرسل النور والحرارة؛ وهو كالربيع لأنه يبعث الحياة والنضارة. وظهوره كطلوع الشمس ورجوع الربيع سنة من سنن الله في الكون، يجرى بها حكمه كلما شاء للعقول الحائرة أن تهتدي، وللقلوب الشتيتة أن تتحد، وللنفوس العليلة أن تصح
كان هذا الرجل فيما خلا من الدهر يسمى رسولاً؛ فلما خُتمت الرسالة وانقطع الوحي، كان يظهر فترة بعد فترة في صورة ملك أو فاتح أو حاكم أو عالم مفكر، فيبين ما التبس من معاني الحق، ويجدد ما انطمس من معالم الطريق. وكان نجاحه في أو فشله في التجديد والإصلاح أثراً من آثار قوته أو ضعفه؛ فهو بين أصحاب السلطان يكون أسرع نجاحاً وأوسع إصلاحاً منه بين أصحاب الفكر. وقلّما يأبه الناس لدعاة التجديد بالكلام ما لم ينتشر صداه في الأرض ويتسع مداه في الزمن: لأن أصحاب الكلام إذا ملكوا الرأي لا يملكون التنفيذ، وإذا استطاعوا التشريح فلا يستطيعون الحكم. وقطرة القلم قد يفطن لها الفؤاد اليقظ، ولكن وخزة السيف يثور بها الجسد الغليظ. وما كانت الوثبات الاجتماعية التي
خلقت ناساً غير ناس، وأبدلت نظاماً من نظام، وفصلت تاريخاً من تاريخ، إلا نتيجة لدفع المصلحين المسلطين الذين وضعوا الكتاب في يد والسيف في يد، ثم كتبوا دستور الإصلاح بالمداد والدم
ولهذا الرجل الذي تنتظره الأمة العربية آيات تمهد له وتدل عليه: فمن الآيات المهيأة لظهوره انحلال الأخلاق فلا تتماسك في قول ولا فعل، وتتقاطع القلوب ولا تتواصل في وطن ولا دين، واستئثار النفوس فلا تتعفف في صداقة ولا نسب، وجموح الشهوات فلا تنقدع بلين ولا شدة، واستبهام المذاهب فلا تستبين بنجم ولا شمس، وانقطاع الأمة

عن ركب الحياة فلا تتحرك قِبلة ولا دِبْرة
ومن آياته المنبئة بوجوده أن يكون لغيره لا لنفسه، ولأمته قبل أسرته، ولإنسانيته بعد وطنيته. وبهذه الصفة الأخيرة يختلف المصلح القومي عن الرسول. ومصداق تلك الآيات أن تموت (أنا) في لسانه وتحيا في ضميره، ويتحد في ذهنه وجود ذاته بوجود شعبه؛ فهو يحس ألمه لأنه مجتمَع شعوره، ويدرك نقصه لأنه مجتلى عقله، ويملك القيادة لأنه مظهر إرادته. وهو في سمو نفسه ونزاهة هواه قد ارتفع عن أوزار الناس وأقذار الأرض؛ فلا يطمع لأن غرضه أبعد من الدنيا، ولا يحقد لأن همه ارفع من العداوة، ولا يحابي لأن فضله أوسع من العصبية، ولا يقول قولاً أو يعمل عملاً إلا إذا وافق الدين الذي يعتقده، والمبدأ الذي يؤيده، والشعب الذي يقوده
ثم هو في ألمعية ذهبه ورصانة لبه وصلابة عوده وبعد همته يعظم على الأحداث، ويعلو على الحوائل، فلا ينضح رأياً إلا أمضاه، ولا يرمي غرضاً إلا أصابه، ولا يروم أمداً إلا أدركه
هذا الرجل الملهم الموهوب هو الذي ترقب ظهوره كل فرقة، وترصد نجمه كل أمة. ولقد ظهر أمثاله في بعض الأمم وهي على شفا الهاوية فأعادوها إلى الحياة وردوها إلى الجادّة. ولا تزال الأمة العربية تحدق النظر العبران في الأفق الغائم ترجو أن تتشقق الحجب عن نوره. فهل آن يا أرحم الراحمين أوانُ ظهوره؟
أن القطعان المهملة تدخل في عهدة الذئب؛ وإن القوى المتفرقة تُجمع في حساب العدو؛ وإن اللآلئ المبددة إذا لم يضمها سلك لا ينتظم منها عِقد؛ وأن الأمة التي لا تملك يوم الجِد
والفخار إلا أن تقول: كنت وكنت، لا يزيد قدرها على قدر الرماد البارد الذي يقول: كنت فيما مضى جمرَةً متقدة!
رباه لقد امتد بنا التيه في مجاهل الأرض إلى قرون، وفسد في نفوسنا الإيمان بالحياة حتى تحول إلى ظنون. فمتى نخرج من التيه يا رباه خروج موسى، ونتبوأ من صدر الحياة العاملة مكان محمد؟ اللهم إنا نسألك الراعي الذي يطرد الذئب، والنظام الذي يجمع الحب، والدليل الذي يحمل المصباح، والقائد الذي يرفع العَلم، والأستاذ الذي يعلمنا أن نصنع الإبرة والمدفع، ونشق المنجم والحقل، ونوفق بين الدين والدنيا، ونوحد بين المنفعة الخاصة والمنفعة العامة. وكل أولئك يا رباه يجمعهم رجل واحد هو أشبه الناس بالمهدي المنتظَر والإمام المرتَقب والمسيح الموعود!
أحمد حسن الزيات
في ساحة العدل
للدكتور زكي مبارك
قبل أن امضي في الكلام عما وقع في (ساحة العدل) أذكر أن فرصةً جميلة أتاحت لي مقابلة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ (محمد مصطفى المراغي) فتلطف - حفظه الله - وقدَّم إليَّ ملاحظات سديدة على بعض ما مرّ من الآراء في هذه الأحاديث؛ وكان كلامه ما نصُّه بالحرف:
أنت متجه إلى إلقاء تبعة المعصية على حواء، وفاتك أن تذكر أن عدم تماسك آدم هو (السبب في تمرُّد حواء)
والواقع أنى طفت بهذا المعنى في (حديث السِّدرة). ولكن عبارة الأستاذ الأكبر دقيقة جداً، وهي من الإيجاز النفيس. ولعل فيها رداً على من غضبوا جاهلين يوم دعوناهم إلى الحزم في معاملة النساء
سريرة آدم
ضاق صدر آدم بما وقع من قرب الشجرة المحرَّمة، وفاض كرُبه حين تذكَّر أن حديث الله مع الملائكة كان مقصوراً عليه فقد قال: (إني جاعلٌ في الأرض خليفة) ولم يذكر حواء، وكذلك سكتت الملائكة عن حواء، فكيف يفوته أن يلتفت إلى هذا التفرد بالتكليف وهو غاية في التشريف؟
ثم تذكَّر أن الله عرَض الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها؛ وتشجَّع آدم فحملها وهو لا يدري أن شجاعته لم تكن إلا ضرباً من الظلم والجهل لو كان آدم يعلم الغيب لأعلن عجزه عن حمل الأمانة بعد نكوص السماوات والأرض والجبال، ولكن شبابه فَتَنه وأغواه فتوهم أنه يقدر على جميع الأثقال

سيقف آدم في ساحة العدل وهو نادم خَزْيان. . . ألم يضيِّع الثقة بمواهبه السامية؟ ألم ينهزم أمام امرأة أعظم أسلحتها البكاء؟
في ساحة العدل ستحتشد الخلائق من الملائكة والجن والطير والحيوان، وذلك أول معرض يعرفه التاريخ. ولن يكون آدم متفرِّجاً في هذا المعرض؛ ولكنه مع الأسف الموجع سيكون مَسلاة المتفرجين. والويل كل الويل لمن يصبح فُرجةً لأهل الفضول، ولو كانوا من الأشراف، إن جاز لأهل الشرف أن يشهدوا موقفاً يتأذّى به رجلٌ شريف
سيقف آدم متهماً، آدم الذي اصطفاه الله، ولم يسمع فيه أقوال الملائكة المقربين؛ فبأي وجهٍ يقف في قفص الاتهام، وأمام القاضي الذي منَّ عليه بنعمة الوجود؟ جهنم أروح من الوقوف في ساحة العدل بالفردوس
كان آدم يتمثل من لمحة إلى لمحة شماتة الشامتين؛ ثم يخفّ كربه كثيراً أو قليلاً حين يتذكر أن الذين اعترضوا على خلقه هم الملائكة، والشماتة لا تجوز من أصحاب الأرواح النورانية
ولكن الجنة فيها سكان لا يمتّون إلى النور بِعرق، ومن حقهم أن يشمتوا في المخلوق الذي يفوتهم بمراحل ابعد مما بين الأرض والسماء
أتستطيع المعصية وهي حقيرة وخسيسة ودميمة أن تمنح الأنذال فرصة التعالي على الأبطال؟
لو كان آدم يعرف أن المعصية ستجعل من حق الحشرات أن تتسابق في الزحف على البطون لتشهد موقفه في ساحة العدل. . . لو كان آدم يعرف أن إبليس المطرود سيتبجَّح بأنه أغواه بلا عناء. . . لو كان آدم يعرف أن الله يحبه، وأن استهانة المحبوب بأوامر الحبيب من علائم الخذلان. . . لو كان آدم يعرف أن الموت في الطاعة أشرف من الحياة في العصيان. . . لو كان آدم يعرف، لو كان آدم يعرف!!
طافت هذه الخواطر بآدم وهو في الطريق إلى ساحة العدل فكاد يصعق من هول الموقف. وكاد يتمنى لو تحول إلى حيوان أعجم لا يفقه كنه التكاليف. وهل يستطيع مع المعصية أن يقول إنه أشرف من أي حيوان؟
لقد عصى ربَّه فغوى، فما استعلاؤه وقد هوت به المعصية إلى الحضيض؟ المعصية إثمٌ موبق، ولو جازت على الجبل لحوَّلته إلي هباء. عصى آدم ربه فغوى، فليستعد آدم لحمل جريرة العصيان. وكيف يعصى الله من يعرف أنه خالق الأنوار والظلمات؟ كيف يعصى الله من يعرف انه واهب القدرة على العصيان؟ وهل تكون الشهوة الأثيمة أعذب مذاقاً من العلقم الذي يجترعه من يصد نفسه عن الآثام؟ إن حرمان النفس من
أهوائها في سبيل الطاعة له طعم شهيٌّ جداً، فكيف غابت هذه الحقيقة عن آدم؟ وكيف رضى أن يضام بسبب هواه في مسايرة حواء؟ لو كان يملك محو هذه الخطيئة بأي ثمن لكانت روحه أول مبذول ولكنه لا يملك محو ما وقع، وسيؤدي ثمناً أعظم من الروح، هو سمعته بين سكان الفردوس، فسيشهدون جميعاً أنه مَدين، وأن عقله لم يعصمه من الانحراف عن جادّة الرشاد. وسيرى بعينيه وجوهاً لا تعيش إلا من اغتياب الأحرار، وهو الذي قدّم الزاد لتلك الوجوه الشوهاء
جَلجَلتْ هذه المعاني في صدر آدم فجلس يستريح تحت إحدى الشجيرات وهو يتمنى لو ضَّل الطريق إلى ساحة العدل، وخطرت له فكرة الهرب ولكن إلى أين؟ وهل من عدالة الله مهرَب؟
ثم تشجع فجأة لخاطر جميل طاف بنهاه، فما ذلك الخاطر الجميل؟ تذكر آدم أن الله يعاقب مرة واحدة ثم يصفح لأنه عظيم، أما الذين يعاقبون على الهفوة الواحدة مرات كثيرة فهم صغار الخلائق. وما على آدم بأس من عقوبة تمر وتمضي ثم يواجه أعماله من جديد وقد تطهّر بالعقاب
وقاضي اليوم هو الله، والعدل مضمون مضمون، ولا خوف من التزيد والإسراف، فليمض آدم إلى المحكمة وهو ثابت القدم رابط الجأش، فما في كل وقت تكون المحاكم إلي ذلك الجبار الرءوف. . . وفي أثناء الطريق ثارت نفسه فدمدم:
(إن الله لا يحكم على آثم إلا بعد أن يتيح له اللوف من فرص المتاب. فكيف يعاقبني لأول هفوة تبدُر مني؟)

فهتف هتاف: تأدب يا آدم، واذكر نعمة الله عليك، فما عاجَلك بالعقوبة إن كان سيعاقبك إلا ليؤكد كرامتك الذاتية بين الخلائق
- التعجيل بالعقوبة مزية؟
- مزية عظيمة، لو كنت تعرف
- أحب أن أعرف
- العقوبة حكمٌ لك لا عليك
- لم أفهم شيئاً، أيها الهاتف
- ستفهم بعد لُحَيْظات، وستندم على أن لم تأكل شجرة التين بفروعها وجذورها
- أرجعُ فآكلها أكلاً لَمَّا؟
- أحترس ثم احترس، فأنت نبيّ، والأنبياء يراعون ظواهر الشرائع قبل أن يراعوا بواطن الحقائق، ترفقاً بمن يغيب عنهم إدراك اللباب من أسرار الوجود
- إذن كان من حقي . . .
- لا حق لك في شيء، فامض خاشعاً إلى ساحة العدل
- بدون خوف؟
- بأعنف صورة من صور الخوف، لأن الله يبغض الآمنين أشد البغض
- وكيف؟ كيف أيها الهاتف؟
- لأن الشعور بالأمان بداية الخذلان، والله لا يرضى لك أن تسير إلى الانحلال سريرة حواء

رأيت حواء بجزع وارتياع أنها لم تُدع لحضور (ساحة العدل) إلا مع الشهود، فما معنى ذلك؟ معناه أنها ترتق إلى منزلة العقاب، ومعناه أن منزلتها في هذه القضية منزلة ثانوية، ومعناه أنها لم تجترح غير الإغواء، وهو ذنبٌ مقسَّم على ثلاثة شخوص: الحية وإبليس وحواء. . . ثم صرختْ:

- أنا الجانية، أنا الجانية، وآدم لم يأكل ثمرة التين إلا من يدي

فهتف هاتف: لن يُنصَب للمرأة ميزان، وهي التي تفرّق بين الابن وأبيه والأخ وأخيه، ولن يغفر الله للمرأة أنها لا تدخل بيتاً إلا شطرتْه إلى شِيَع وأحزاب، وقد كانت وستكون أول مصدر للنزع والشقاق

- لعلك تريد حواء الأولى، أيها الهاتف؟
- حواء الأولى لم تعرف التبرّج
- وأنا متبرّجة . . . أنا؟؟
- نعم فقد شهدُتك تَنْظِمين من حُبوب البِسَّلة عِقداً تزيّنين به جيدك الأغيد، ورأيتك تعصرين الزهر بين كفَّيْك ثم تمسحين بعصيره أجزاء من جسمك البديع لتظهر عليه خطوط وردية أو عسْجَدِية
- وما العيبُ في ذلك؟
- العيب انك لا ترضَين بما قسَم الله لك من الحظوظ
- وماذا أعطاني الله؟ ماذا أعطاني؟
- كل امرأة تقول هذا القول، وما رضيت امرأةٌ عن نصيبها أبداً
- وما نصيبي؟ وهل كان لي من النعيم نصيب؟
- لك آدم يا حواء
- آدم الذي يريد أن يتمتع وحده بجريرة العصيان؟
- تريدين أن تقاسميه أعباء هذه الجريرة؟
- هي جريرتي وحدي، وأنا صاحبة الحق الأول في الوقوف جانيةً (بساحة العدل)
- وترين موقف الجناية من مواقف التشريف؟
- هو فرصة لأن يصبح الجاني على ألسنة جميع الخلائق
- إن كان هذا ما تريدين فاطمئني، فلن تقع جريمة في شرق أو غرب إلا قيل (فتّش عن المرأة). ولن يتنسّك عابد، أو يترهب زاهد، إلا طلباً للسلامة من كيد المرأة. ولن تخلو شريعة من التحذير المخيف، التحذير من حبائل النساء. ولن يرتفع مرتفع أو ينخفض منخفض إلا وفي خياله أن امرأةً نصحتْه فارتفع، أو خدعتْه فانخفض. ولن يبرع أديبٌ أو فنّان إلا وهو مَدين لمخلوقة سفيهة أو حليمة من بناتك يا حواء. ولن ينبع كاتب أو شاعر إلا بوحي يُوحي إليه من إنسانة عليلة الطرف أو صحيحة الفؤاد. ولن يخلو

كتابٌ من اسم المرأة، ولو كان شريعة تتلقاها الأرض عن السماء
- أرحْتَني، أرحتني، أيها الهاتف
- إنما نريح مصدر التعب لنستريح!
جلسة علنية
صدر القرار بان يحاكم آدم في جلسة علنية يشهدها جميع سكان الفردوس، فكان على الملائكة أن يهيئوا ساحة العدل تهيئة تسمح بان يشهدها أولئك الخلائق بلا عناء وكيف تحضُر جميع الخلائق؟
في الطيور طوائف من الحواضن، والطيور الحواضن لا تترك البيض المحضون ولو تعرّضت للموت من الظمأ والجوع، فمن المستحيل أن تترك أعشاشها لتشهد محاكمة آدم صاحب حواء
وفي الأنعام بهائم تأكل الطعام وهي مطعونة بسهم الموت، فلا أمل في أن تتحرك لشهود القضاء في ساحة العدل
وهنالك الحمير، وهي لا تعلن عن سرورها بغير النهيق، فمن الخير إلا تحضر مجلس القضاء وصوتُها أنكر الأصوات.
وفي الوجود خلائق لها أبصار، وليس لها بصائر، فمن الحزم أن تُراح من شهود جلسة لا يستفيد منها غير أرباب القلوب
ثم اتفقت آراء الملائكة على أن المراد بعلنية الجلسة إعطاء الفرصة لمن يستطيع الحضور، وليس المراد أن تحضر الخلائق جمعاء، وهل يتيسر لأسماك الكوثر أن تشهد محاكمة آدم وهي تُعرَّض للموت أن طال ثواؤها بالعَرَاء؟
والحق أن الملائكة لم يشهدوا في ماضيهم القديم اصعب من ذلك الموقف، فقد كان عليهم أن يراعوا في تهيئة ساحة العدل طبائع الطير والحيوان والحشرات، فمن الطير أنواع تستريح إلى الأرض، أمثال الحَجَل والكروان والهداهد والطيور المائية، ومن الطير أنواع لا تستريح بغير الوقوف فوق أعواد، فكيف تُعَدُّ الساحة لأولئك وهؤلاء؟ أن ذلك لا يتم بغير متاعب، والجلسة مستعجلة، ولا يمكن طلب التأجيل
وعرضتْ للملائكة مشكلتان في غاية من الخطورة: المشكلة الأولى مشكلة النزاع الذي ثار بين الأسود والقرود بعد فضيحة آدم وحواء، وهو نزاع قد يثور من جديد أن قضى الله على آدم بما يشرح صدور القرود
أما المشكلة الثانية فهي الخوف على الطيور المغردة من عدوان الطيور الجوارح، فالصقر يشتهي الطير المغرد شهوة عارمة، ويكاد يتوهم أن لحم الطير المغرد أطيب من خدود الملاح، وتلك الطيور لن تسكت عن التغريد، لأنها مفطورة على حب الغناء، ولو في حضور الشواهين، والجمال قد يَجنِي على الجميل
قال أحد الملائكة: ولكن نحن في الجنة ولا خوف من بطش الأقوياء بالضعفاء فقال له صاحبه وهو يحاوره: كنا في الجنة!
- كنا؟
- نعم، كنا، وما فات مات
- أوضِحْ، يا رفيقي، أوضحْ
- كانت الجنة جنة
- فصارت؟
- فصارت كما ترى، ألا تعرف أن آدم عصى ربه فغوى؟
- وما خَطَرُ ذلك؟
- هو خطرٌ فظيع فظيع، وأنا أخشى أن تكون معصيته قدوة سيئة لجميع سكان الفردوس، فسيقول قائلهم: أن ما جاز صدوره عن الكبار يجب صدوره عن الصغار
- وأدم كبير؟
- هو كبير الكُبَراء، وستعرف صدق ما أقول بعد حين
- وإذن تكون معصيته شراًّ مستطيراً، واغلب الظن أن الله سيطرده من الجنة بلا إمهال
- برغم منزلته العالية؟
- خفضته المعصية، فلينزل إلى الحضيض، إلى الأرض التي لا يعرف فيها السعادة غير الديدان، فهي وحدها التي تُرزَق في الأرض بغير حساب

- والنتيجة؟
- والنتيجة أن جلسة اليوم تحتاج إلى حزم، وهي تجربة قاسية، فلنحاول تقسيم الحاضرين إلى طوائف تَفْصِل بينها حواجز، لنأمن الثورة المرتقبة من هياج الغرائز الغافية في صدور الطير والحيوان. ولهذا اليوم ما بعده يا رفيفي، فان نجحنا في تنظيم هذه الجلسة إلى أن تمر بسلام، فسنكون أهلاً للثقة التي تمنحنا الحق في أن نكون على جميع الخلائق رقباء

اليوم المشهود

كان سكان الجنة تسامعوا بأخبار حواء، ولم يرها منهم إلا الأقُّليون، بسبب احتجازها بين البواسق، وبسبب نفرتها من أهل اللغو والفُضول، وبفضل ما فُطِرت عليه من الدلائل المَدُوف بالكبرياء

والفرصة الوحيدة لأن يروها أجمعون هي حضور محاكمة آدم في ساحة العدل، فمن المؤكد أنها ستحضر لمواساة فارسها الجميل

خفّ سكان الفردوس لمشاهدة حواء، ولم يتخلف إلا من صدَّته الرعاية الواجبة للأفراخ أو الأشبال

من كان يظن أن الأسماك رحَّبت بالموت لتقضي ساعة أو ساعتين في مشاهدة حواء؟

وتقدم غضنفلوث لتمتطي حواء ظهره المنيع، فدخلت الساحة في عزة لا يظفر بمثلها الملوك

فكيف كانت حواء في ذلك اليوم؟

كانت وكانت وكانت:

كان طرفها الكحيل يَعد ويُخلف في اللمحة الواحدة ألوف المرات، وكأنه جذوات تقتتل في هدوء وسكون

وكان أنفها في ملاحته يتموج تموّجاً نورانيًّا في حدود يوحي بها لحنُها الرنان

وكان صوتها - صوت حواء الجميلة - يشهد بأن حناجر البلابل والعنادل أُودعتْ حَلقها الرخيم

وكان نحرُها - نحر حواء - مرمراً ينطق. وما أخطرَ المرمر الذي ينطق!

وكان لثناياها بريق يفوق بريق الحَبب عند فورة الرحيق

وكان لذراعيها استدارة فنية تهتف بأن الله يزيد في الخلق ما يشاء

أما جسم حواء في جملته بلا تفصيل، فهو الوجود في جملته بلا تفصيل

كانت ارقّ من الأزهار في آذار وأعذب من الأعناب في آب

كانت أحلى من وسوسة الأماني في الصدر المكروب، وأشهى من جلجلة المعاني في القلب الموهوب

وكان تثنّيها يوهم بأن قوامها أُلَّف من خطرات تفوق العدَّ والإحصاء

في المكان المحدود من جسمها البديع ألوان وألوان، فكأن كل جزء من أجزاء ذلك الجسم قصيدة تحترب فيها القوافي والأوزان، والألفاظ في الشعر الرائع تشبه الأوصال في الجسم الفينان

كانت حواء في ذلك اليوم. . . كانت وكانت وكانت

فكيف كانت؟ كيف لا كيف، ألم يكف أنها كانت حواء؟

قال الصقر: لو كانت هذه أنثاي لنذرت الصوم عن لحوم الكنار شكراً لله على هذه المنحة الغالية

وقال الأسد: لو كانت هذه أنثايَ لشكرتُ الله بالصفح عن القرود

وقال البلبل: لو كانت هذه أليفتي لابتدعت لحناً يسكر سكان الفردوس

فهتف هاتف: حواء لآدم، وآدم لحواء، وليس في الإمكان أبدع مما كان. فغضُّوا أبصاركم عن حسنٍ هو عزاء آدم في بلواه، وهو حجته في استباحة العصيان

محكمة، محكمة!!

ونظر آدم فرأى جلال الله يسيطر على الموقف، ورأى أنه سيحاسَبُ أمام جميع الخلائق

- رباه، أجِرنِي!

وكيف أُجيرك وأنت مذنب؟
أحب أن يكون الحساب في جلسة سِرية
- لماذا؟
- لأدافع عن نفسي بحرية، فعندي كلام لا أحب أن يسمعه القرود، ولأني أخاف أن تنصعق حواء من شماتة الشامتين، وهي أرقُّ من الوهم الذي يساور القلب الأوّاب
- لك يا مخلوقي الأثير ما تريد على شرط أن تكتم ما سيدور في الجلسة السرية، فأنا أعلم أنك ستفوه بأقوال تزلزل عزائم الآساد في رعاية الأشبال.
زكي مبارك
خسرو وشيرين
في التصوير الإسلامي
للدكتور محمد مصطفى
- 2 -
استطاع القائد بهرام جوبين أن يوقع بين الملك هرمزد وولده الأمير خسرو برويز ويغّير رأيه عليه، فاستحضر هرمزد صاحب سره وسأله أن يدبر الاحتيال لاغتيال خسرو، فخدعوا بعض خواصه بمال وواضعوه على أن يسقيه سّماً يقتله. ولمَّا علم خسرو بذلك أشار عليه معلمه بزرجميد الحكيم، فركب تحت جناح الليل وخرج من المدائن يسوق طرداً وركضاً في طريق أذربيجان - أو كما يقول الشاعر نظامي الكنجوي - في الطريق إلى أرمينية. وكان أن التقى بحبيبته شيرين وهي تستحم في بركة الماء دون أن يعرف أحدهما الآخر، وافترقا وقلب كل منهما يحدثه أنه رأى حبيبه، فواصل هو طريقه إلى أرمينية ليحظى برؤيتها، وتابعت هي طريقها إلى المدائن لتبحث عنه. . .
وكان خسرو - قبل أن يغادر قصره في المدائن حيث كان في انتظار نتيجة مساعي سفيره شابور - قد أخبر رؤساء خدمه وجواريه باحتمال مجيء سيدة جميلة، ذات مقام رفيع، ونزولها ضيفاً عليه، وأمرهم بحسن استقبالها بما يليق بمقامها من الاحترام والإجلال، وشدد عليهم في إجابة جميع رغباتها
وصلت شيرين المدائن، وتوجهت إلى قصر خسرو، كما أوصاها شابور، حيث أظهرت الخاتم الذي أرسله خسرو إليها، فقوبلت بالترحاب، ونزلت هنالك معززة مكرمة مطاعة من الجميع؛ ولكنها لما علمت بغياب خسرو عن القصر، شعرت بالسأم يدب حولها فيه، ورغبت في السكنى بعيداً عنه، فأجيبت إلى هذه الرغبة، وبني لها قصر عظيم بين الهضاب المرتفعة، لعلها تجد فيه من ضروب اللهو والتسلية ما يجلب السرور إلى قلبها، وعرف القصر باسمها، فقيل (قصر شيرين)
وفي (شكل 1) تخطيط لقصر شيرين فيه محاولة لإرجاعه إلى حالته الأصلية نرى فيه ما كان عليه القصر من العظمة واتساع الأرجاء. وتوجد آثار هذا القصر بين الهضاب في
إيران على بعد حوالي عشرين ميلاً من الحدود العراقية في الطريق إلى كرمانشاه.
ويقول ابن الفقيه إن (السبب في بناء قصر شيرين أن الملك أمر أن يبني له باغ يكون فرسخين في فرسخين وأن يصّير فيه من كل صيد حتى يتناسل، ووكل به ألف رجل، وأجرى على كل رجل منهم خمسة أرغفة ورطلين لحماً ودورق خمر، فأقاموا فيه سبع سنين حتى فرغوا منه. . . وسماه باغ نخجيران أي باغ الصيد) ويروي ابن الفقيه عن قصر شيرين أبياتاً منها:
يا ذا الذي غره الدنيا وبهجتها ... وحسن زهرة أنوار البساتين
والدور تخربها طوراً وتعمرها ... باللبن والجص والآجر والطين
أما رأيت صر وف الدهر ما صنعت ... بالقصر قصر أبَرْويز وشيرين
قد صار قفراً خلاء ما به أحد ... إلا النعام مع الوحشية العين
سبحان من خلق الدنيا ودبرها ... وأنشأ الخلق من ماء ومن طين
وصل خسرو إلى أرمينية ونزل ضيفاً على ملكتها مهين بانو، فأخبرته عن اختفاء ابنة أخيها شيرين، ودَعَتْه لأن يمكث في أرمينيا طول مدة الشتاء، فقبل الدعوة. وجاءه شابور بعد ذلك بأيام قلائل، وأخبره بكل ما فعل. فأبلغ خسرو الملكة بوصوله وبما جاء به من الأخبار عن شيرين، واتفقا أن يرجع إلى المدائن ليعود بها إلى أرمينية. وهكذا أمرت الملكة مهين بانو أن يركب شابور على الفرس (جُلْجون) وهو فرس آخر في

حوزتها، كان يضارع الفرس (شَبْديز) في شهرته. ووصل شابور إلى المدائن حيث وجد شيرين قد تركتها إلى قصرها بين الهضاب، فتبعها إلى هناك وأبلغها رغبة عمتها، وأقنعها بالعودة إلى أرمينية حيث ينتظرها خسرو، فركبت شيرين الفرس (جُلْجون) - إذ كانت قد تركت شَبْديز في المدائن - ورحلت إلى أرمينية في صحبة شابور وفي ذات الوقت جاء رسول من المدائن وأخبر خسرو بثورة القائد بهرام جوبين، وأن الثوار قد قبضوا على أبيه الملك هرمزد وسملوا عينيه أرغموه أن ينزل له عن العرش، بعد أن أعلن بهرام جوبين طاعته لخسرو إذا هو تولى الملك. فأسرع خسرو إلى المدائن، حيث توج ملكاً على إيران. وهناك علم أن شيرين قد رحلت مع شابور إلى أرمينية، وأنها قد تركت له الفرس شبديز هدية منها. ولكن سرعان ما ظهرت نيات القائد بهرام جوبين الحقيقية، وأنه قصد بهذه الثورة أن يغتصب عرش إيران لنفسه. وهكذا اضطر خسرو - وقد تبين قوة خصمه - أن يعمل بنصيحة معلمه بزرمجيد الحكيم، ويغادر البلاد بعض الوقت، إلى أن يبدأ نجمه في الارتفاع، فتحين الفرصة لاسترداد حقوقه.

أخيراً تقابل الحبيبان، إذ جاء خسرو إلى أرمينية بعد وصول شيرين وشابور بوقت قصير. وصادف مجيئه خروج شيرين وصويحباتها للصيد، فقابلته في الطريق وعرف كل منهما الآخر، وكاد يطير سروراً بهذا اللقاء، وصحبته إلى عمتها مهين بانو، فاستقبلتهما بما جبلت عليه من لطف وطيبة قلب. وانتهزت هذه العمة الطيبة فرصة انفرادها مرة بابنة أخيها شيرين، وتوسلت إليها أن تحتفظ بوقارها في جميع المناسبات، وأن تناضل في سبيل الدفاع عن شرفها، والمحافظة على طهرها وعفتها، فوعدتها شيرين بذلك. فسمحت لها العمة بالخروج مع خسرو في رحلة إلى الريف، حيث قضيا شهراً وهما يستمتعان بالصيد وضروب التسلية الأخرى.

وفي (شكل 2) خسرو وشيرين وهما يدخلان أحد القصور في أرمينية عند رجوعهما من الصيد، وقد وقف في استقبالهما بعض أكابر الدولة من أفراد الحاشية ومعهم الخدم والجواري. وهذه الصورة في مخطوط للمنظومات الخمس للشاعر خسرو الدهلوي، كتبه محمد ابن الأزهر في هرات سنة 890 هجرية (1485م). وكان مؤرخو الفن الإسلامي ينسبون الصور التوضيحية التي في هذا المخطوط للمصور بهزاد، وذلك لما امتازت به من الدقة في رسم المباني والأشخاص. والظاهر أن بهزاد كان له في ذلك الوقت بمدينة هرات تلاميذ صوروا هذه الصور، وأسبغوا عليها الكثير من روح أستاذهم. وهذا المخطوط محفوظ في مجموعة شستر بيتي بلندن

قضى الحبيبان شهراً وهما يتسليان بالصيد ولعب الكرة وغير ذلك من أنواع التسلية، إلى أن دعا خسرو شيرين لمأدبة أقامها لها في مضرب خيامه. وكانت مأدبة فاخرة استمعا فيها إلى لأغاني (باربُد) مطرب خسرو و (نيكيسا) مطربة شيرين، ومن بين شفاه هذين المطربين كان فيض الهوى يتردد، وكانا يتجاوبان بما يكنه قلب كل من العاشقين للآخر

وفي (شكل 3) جلس خسرو على سجادة في منظرة بحديقة غناء، يستمع لموسيقى مطربه باربد الجالس أمامه إلى جوار الفسقية وبين يديه كبير يحرك أوتاره، بينما جلس بعض أكابر الدولة يستمعون لباربد ويتسامرون (عود) وهم يتناولون الطعام والشراب ووقف في خدمتهم الغلمان والسقاة والخدم، وقد ظهر على وجه كل منهم مبلغ اهتمامه بما يعمل. ونلاحظ في هذه الصورة الدقة في تصوير المباني والأشجار والزهور، وفي رسم الحيوانات على الحائط خلف خسرو، وكذا صورة التنينين في أعلى القبة إلى جانبيها. وهذه الصورة من تصوير (ميرزا على). وترى إمضاؤه في اسفل الصورة إلى اليسار. وهي في مخطوط نظامي المؤرخ بين سنتي 946 و 950 هجرية (1539 - 43م) المكتوب للشاه طهماسب

واشتهر بَارُبد بجمال الصوت وحسن التوقيع والمقدرة على وضع القطع الموسيقية وتأليف الألحان، وصارت ألحانه حجة أساتذة الموسيقى، وكان بارعاً في الضرب على العود. ويروي أبو الفرج الأصفهاني أنه (ضرب يوماً بين يدي كسرى فأحسن فحسده رجل من حذّاق أهل صنعته، فترقبه حتى قام لبعض شأنه ثم خالفه إلى عوده فشوّش بعض أوتاره، فرجع وضرب وهو لا يدري، والملوك لا تصلح في مجالسها العيدان، فلم يزل يضرب بذلك العود الفاسد إلى أن فرغ، ثم قام على رجله فأخبره الملك بالقصة،

فامتحن العود فعرف ما فيه)
وكان بَاربُد محبباً لخسرو برويز ومقرباً إليه، فكان يقصده أصحاب الأمور لعرضها على خسرو إذا خافوا أن يبطش بهم. ويروي ياقوت الحموي انه لنا عرف خسرو برويز بمرض الفرس شَبديز - وكان عزيزاً عليه - قال: (لئن أخبرني أحد بموته لأقتلنه. فلما مات شبديز خاف صاحب خيله أن يسأل عنه فلا يجد بداً من أخباره بموته فيقتله. فجاء إلى البَهلَبَذ مغنيه، ولم يكن فيما تقدم من الأزمان ولا تأخر أحذق منه بالضرب على العود والغناء. قالوا كان لأبرويز ثلاث خصائص لم تكن لأحد من قبله: فرسه شبديز قد نفق ومات وقد عرفت ما أوعد به الملك من أخبره بموته فاحتل لي حيلة. فلما حضر بين يدي الملك غناه غناء روي فيه القصة إلى أن فطن الملك وقال له: ويحك! مات شبديز. فقال: الملك يقوله. فقال زه! ما أحسن ما تخلّصت وخلصت غيرك!. . .) وقد ذكر هذه القصة خالد الفياض في شعره قاله وهو:
والملك كسرى شهنشاه تقنَّصه ... سهم بريش جناح الموت مقطوب
إذ كان لذّته شبديز يركبه ... وعُنج شيرين والديباج والطيب
بالنار آلى يميناً شدَّ ما غلظَتْ ... أن من بدا فنعى الشبديز مصلوب
حتى إذا أصبح الشبديز منجدلاً ... وكان ما مثله في الناس مركوب
ناحت عليه من الأوتار أربعة ... بالفارسية نوحاً فيه تطريب
ورنم البَهلبَذُ الأوتار فالتهبت ... من سحر راحته اليسرى شآيب
فقال مات فقالوا أنت فُهْت به ... فأصبح الحنث عنه وهو مجذوب
لولا البَهلبَذ والأوتار تندبه ... لم يستطع نعي شبديز المرازيب
(له بقية)
محمد مصطفى
أمين مساعد دار الآثار العربي
مرسلات. . .
(هذا عنوان نرجو أن نكتب تحته في الحين بعد الحين كلمات موجزة في معان شتى، وإن في الإيجاز لبلاغاً لقوم يعقلون!)
الضمير
سر غريب، وروح عجيب، أودعه الله الإنسان فجعل منه قوة مسيطرة عليه، متصرفة فيه، لا يملك لها دفعاً، ولا يستطيع منها تخلصاً، ولا يجد من دونها موئلاً!
آمنت بك يا رب! خلقت الإنسان ضعيفاً، وركبت فيه نوازع الشر والخير، ثم قلت له بلسان قدرتك: اعمل ما شئت فقد جعلت عليك رقيباً لن تغيب عنه ولن يغيب عنك، وليس إلى مصانعته أو مخادعته من سبيل!
آمنت بك يا رب! هم ينكرون حسابك في الآخرة وأنت تحاسبهم في الدنيا، وهم يتساءلون: كيف يكون لابن آدم معقبات من بين يديه ومن خلفه؟ وأنت جعلت له معقباً في قرارة نفسه
ولكن يا رب سؤال غير معترض عليك، ولا معقب على حكمك: هل جعلت هذا الضمير أداة عذاب، وكتبت به على فريق من الناس أن يظلوا منه في حرب عوان مع هذه الدنيا الملتوية؟ إن الباطل، يا رب، قد استعلى على الحق، وطغى على الخلق؛ وإن الرجل ليصدع بكلمة الصدق فَيُتخذ سِخريا، ويكون أضحوكة الضاحكين، وأُ ندورة المتندِّرين، وإن الكاذب الخادع ليلتوي ويتخابث فيشق طريقه بين الناس في أمن وطمأنينة وسلام!
لقد أصبح الباطل معمّاً في الناس مُخولا، وأصبح الحق يتيما لطيما! فماذا يفعل امرؤ ذو ضمير يدعوه إلى الإخلاص في عمله والفناء فيه، وهو يرى البيئة الفاسدة عدوّاً له، وحرباً عليه؟ ماذا يفعل إذا استحثه ضميره على السير في طريق الخير قدما وهو يرى القافلة كلها تسير في غير الطريق؟ أيبطل مع المبطلين، ويفسد مع المفسدين؟ وأنّى له ذلك وهو امرؤ ذو ضمير؟ أم يصادم ويقاوم ويثور ويغضب ويجادل ويناضل؟ وكيف يأمن مع ذلك على نفسه وخلقه؟ ومتى يذوق طعم الراحة؟
(ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب!)
محمد محمد المدني

معارج الأحداث
للأستاذ سعيد الأفغاني

ولست أعني بالأحداث من صغرت أسنانهم فقط، وإنما عنيت مع ذلك، أشباههم: ممن صغرت أقدارهم، وضؤلت معارفهم، ورقت عقولهم، وانحطت هممهم وتخلفت أعمالهم. . . ولو جللهم الله المشيب وعلت رؤوسهم النسائج البيض.

ولعمر الله ما أدري لِمَ يُعْرض الكتاب عن طبقة هي إحدى عوائق النهضة الصحيحة لعصرنا، فلا يصفون منها ما يصف الطبيب من الجراثيم وأعراضها وفتكها، ثم ما يكون من سبل الوقاية، وطرق العلاج. وهي طبقة تراها منبثة في الشوارع والأندية والمجامع والمعاهد والدواوين. . . لم يرزقها الله من المواهب ما تستطيع أن تنفع به، وحز في نفسها شعورها بالضعة وسقوط المنزلة، فاندفعت في صفاقة وقحة تدّعي ما ليس فيها، ثم ترامت في الطعن على الناس ذوي الأقدار ليعتقد لهم الجاهل بذلك فضلاً.

فإن كنت تنسب أمر الأطفال الذين يبغون أن يكونوا زبيباً قبل (التخصرم) إلى غرة الحداثة، فماذا أنت ناسب إلي ما أعرض عليك:

هذا أديب حباه الله كل المواهب اللازمة للأدب، وأخذ نفسه بدرس طويل وصبر أطول حتى أخرج للناس أدباً نافعاً وأصبح مشاراً إليه؛ فيطمح فريق من أحداثنا، هؤلاء إلى مثل مكانته، فلا يكلف الأمر أكثر من محاولته جلب الأنظار إليه بالصراخ والغثاثة والدعوى العريضة، فإذا شكا إليك إعراض الناس، ونبهته إلى ما ينقصه من وسائل ومواهب، وأنه يحسن به أن يأخذ للأمر أهبته، رماك - في غيبتك - بالتثبيط، وحمل عنه هذه الفرية من كنت تظن بعقله البعد عن الانخداع.

وهذا يريد أن يكون كاتباً ولما يُحسنْ سبك جملة صحيحة بعد، ولما يستوعب فهم صفحة يقرؤها فيها صحيحاً، يعرض عليك مقاله فتنصحه بالتعليم، فيزورّ عنك محتجاً بتحقير شهاداته العالية ويطوف إدارات الصحف أو المجلات هو ووسطاؤه، فيروعك أن ترى سخطه منشورا، ويروعك أكثر أن تراه أحياناً قصد من لا تشك في إطلاعه وبصره، فيغشه في فترة سأم وإعياء.

وذاك لم يدّع أدباً ولا كتابة، ولكن حلاله أن ينتسب في الباحثين، فسطا على بحث نشر في بلد بعيد، وفقرات من مواضيع في كتابين قديمين، فقطّع ذلك خمسين قطعة، ثم عاد فوصل بين ما قطّع بجمل من عنده، وقدم فيها وأخر، ثم رقَّم هذه الجمل وجعل لكل رقم حاشية تدل على صفحة مصدره - تشبهاً بما فهم من الأسلوب الحديث - فاستوى له بإذن الله ما سماه بحثاً علمياً، فإذا بك تجد كلاماً لا انسجام بين أجزائه ولا تساوق بين أفكاره يلعن بعضه بعضاً، فإذا قلت له: إنه غير مفهوم، أجابك: هذا هو الأسلوب العلمي

وذلك - عافاك الله - لا أديب ولا كاتب ولا باحث، لكنه لغوي يا سيدي، يعني إنه يسود صفحات بالركاكة والابتذال والمط والتطويل والسخف، حتى إذا واتاك صبرك وانتهيت منها قراءة، وقذفت بالمجلة أرضاً، وأغمضت عينيك تستعيد ما مرّ بك. . . إذا كل ذلك: كلام في أن (وابور الزلط) من عامية مصر، أو أن (الجسر) في عامية الشام هو (الكبري) في عامية مصر

وإن كان محاضراً لبث أسبوعين (يبشر) بمحاضرته ويدعو لها ويلقاك في الطريق، أو حافلة الترام، أو عند الوراق، أو حاملاً حاجة، أو منطلقاً عجلان، أو منقلباً إلى دارك. . . فاستوقفك ساعة وحدثك بمحاضرته وما حوت من نكات، وأكثر عليك من حركاته و (تهريجه)، حتى يقتلك قتلاً، فلا يتركك إلا وقد أخذ عليك عهداً: لتحضرنها أنت واهلك وأصحابك وجميع معارفك، فإذا وفيت بعهدك، فويل لك من نفسك، وويل لأصحابك: لقد شبعتم خجلاً من أنفسكم وتهكماً، وأوسعكم المحاضر الكريم غثاثة وثقلاً

وهذا نمط آخر خير مما تقدم: لا أديب ولا كاتب ولا باحث ولا لغوي ولا محاضر ولا شيء من الأشياء مما يبرر أثره إلى الوجود، ولعله يحسن أن يسلخ أهاجي الأموات يهجو بها الأحياء، ولعله يتمدح إلى الموسيقى باطلاعه على التاريخ، والى الكيميائي بباعة في الدين، والى الرياضي بحذقه النحو، والى التاجر بأنه شاعر. . . تطمح نفسه إلى أن يسند دعاواه بالانتساب إلي أي جماعة ذات شأن - ولو رسمَّيا - في العلم أو الأدب أو الصحافة، فلا ترى الجماعات فيه شيئاً يسيغ أن يسلكه في زمرها، فيشتد

على أفرادها بالشتم والهجاء حتى تتحقق رغبته، وما كانت لتتحقق لولا خراب الضمير الأدبي في بعض الأفراد
وآخرون من غير هذه الأنماط: منهم في الشام، ومنهم في العراق، ومنهم في مصر، أهمل
الكتابة في شأنهم الأدباء غفلةً أو تهاوناً، على أن أمرهم سيئ العواقب على
المستقبل: تراهم مبثوثين في كل طبقة كما انبثت الطفيليات في المواد الحيوية، تبقث هي الجراثيم، وعلى ضحاياها تحمل النتائج:
هنا نادٍ ذو غاية نبيلة يعمل بعيداً عن الدسائس، فيندس فيه من لا يظهرون إلا على خراب غيرهم، فلا يزالون به حتى تسودّ بين الناس صحيفته. وهناك صحيفة كانت راقية أخذت تشجع هذه الطفيليات بدل أن تنصحها أو تبعدها، حتى انحط مستواها وكسدت سوقها بين العارفين
فإن رحت تبحث عن بواعث الداء وجدته في فقدان الكرامة وضعف الضمير المسلكي عند القيمين على بعض دور الصحف والمجلات وأندية العلم، ولو أنهم أقاموا لموازين الحق بعض الاعتبار، لحفظوا أقدارهم من السقوط
أفليس من واجب الأدباء أن نرى مثل هذه الألوان في أدبهم، وأن نجد فيه صفة هذه الطبقة والتحذير منها ومن ضررها على الناشئين وعلى سمعة البلاد الأدبية. ومعالجة هذا الداء واجبة، إذ لا يخلو من مرضاه مصر من الأمصار. فهل لي أن أقرأ في هذه المجلة الكريمة لكتابنا الاجتماعيين كلمات شافيات؟
وبعد، فلست متشائماً، ولا أمنع أن يكون فيمن ينتسبون إلى العلم والأدب أناس علماء حقًّا أدباء حقًّا، لهم كرامة وبهم شجاعة؛ لكنني موقن أنهم مشتتون، جهودهم ضائعة غير متضافرة، مع إيثار منهم للراحة والسلامة، فلهؤلاء أقول:
إنكم حقاً في سبيل صون ميادين العلم والأدب عن الأدعياء الأدنياء ستلقون أذىً كثيراً ولكن العاقبة لكم، والغثاء أبدا إلى الاضمحلال. وما بلينا به بلي به من كان قبلنا، ولم يخل عصر من مثل هذه الطبقة التي لا تحسن شيئاً وتستطيل على المحسنين، وما جمع الله لذي كرامة: الصدع بالحق، والسلامة من الناس.
(دمشق)
سعيد الأفغاني
سيلان
للأستاذ أبو الفتوح عطيفة
سيلان أو سرنديب اسم تردد على شفاه معظم المصريين منذ ستين عاماً. في ذلك الوقت كانت الثورة العربية تجتاز آخر مراحلها، فقد كان زعماؤها يحاكمون وحكم عليهم بالإعدام في 3 ديسمبر سنة 1882 وأبدله الخديوي توفيق في الحال بالنفي المؤبد خارج القطر إلى جزيرة سيلان وصودرت أملاكهم وجردوا من ألقابهم. عرف المصريين إذن جزيرة سيلان؛ ولقد خلد اسم هذه الجزيرة في الأدب بما كتبه فيها محمود سامي البارودي باشا من شعر مؤثر في الحنين إلى الوطن والحزن لفراقه.
قال يصف الرحيل عن أرض الوطن:
محا البين ما أبقت عيون المها مني ... فشبت ولم أقض اللبانة من سني
عناء ويأس واشتاق وغربة ... الأشد ما ألقاه في الدهر من غبن
فإن أك فارقت فلي بها ... فؤاد أضلته عيون المها عني
وقد أسبغ النفي والحرمان عليه شارة التضحية والبطولة فكتب شعراً يفيض عظمة وجلالاً قال من قصيدة في منفاه:
علام يعيش المرء في الدهر خاملاً ... أيفرح في الدنيا بيوم يَعُدُّه
عفاء على الدنيا إذا المرء لم يعش ... بها بطلاً يحمي الحقيقة شدُّه
ومن قصيدة أخرى:
لم أقترف زلة تقضي عليَّ بما ... أصبحت فيه فماذا الويل والحرب
فهل دفاعي عن ديني وعن وطني ... ذنب أدان به ظلماً وأغترب
فلا يضن بي الحساد مندمة ... فإنني صابر في الله محتسب
أثريت مجداً فلم أعبأ بما سلبت ... أيدي الحوادث مني فهو مكتسب
لا يخفض البؤس نفساً وهي عالية ... ولا يشيد بذكر الخامل النشب

وقد قضى بها سبعة عشر عاماً، ثم عاد إلى مصر في شهر سبتمبر 1900 بعد أن فقد نور عينيه. أما عرابي باشا فقد عاد في أول أكتوبر 1901. وقد مات بهذه الجزيرة من الزعماء السبعة عبد العال باشا حلمي (في 19 مارس 1891) ودفن بكولمبو، ومحمود فهمي باشا
في (17 يوليو 1894) ودفن بكندي ويعقوب سامي باشا (أكتوبر 1900) ودفن بكندي أيضاً
هذا ما كان منذ ستين عاماً. أما اليوم فإن العالم يذكر هذه الجزيرة بمناسبة اقتراب الخطر الياباني منها؛ فقد كان من أثار تطور الحرب في الشرق الأقصى أن استهدفت هذه الجزيرة للغزو الياباني. وقد كانت وقعت أول غارة جوية على عاصمتها كولمبو في 5 أبريل سنة 1942، وحاول بعض جنود المظلات اليابانية الهبوط بها مما دعا القائد العام إلى أن ينبه السكان إلى وجوب مقابلة هؤلاء الجنود وإلقاء القبض عليهم أولاً بأول. ومنذ ذلك التاريخ بدأت هذه الجزيرة تحتل مكاناً ممتازاً في أنباء العالم
هذه الجزيرة
تقع في جنوب الهند؛ وليس هناك شك في أنها كانت متصلة بها يوماً ما إذ هي تشبهها من عدة وجوه. وشكلها كالكمثري وهي أصغر قليلاً من أيرلندا ومساحتها 25000 ميل مربع، وطولها من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب 270 ميلاً
أما من حيث التضاريس فإن وسط هذه الجزيرة تحتله كتلة جبلية يصل ارتفاعها في بعض الجهات إلى أكثر من 8000 قدم وتحيط بهذه المرتفعات سهول ساحلية واسعة. والسهل الساحلي في الشمال منبسط وتوجد به كثير من أشباه الجزر الرملية، وتبعد شبه جزيرة مانر 22 ميلاً فقط عن أقصى جنوب الهند، وترتبط سيلان بالهند بسلسلة من الشطوط الرملية والصخور تسمى بقنطرة آدم
ونظراً لقرب هذه الجزيرة من خط الاستواء فإنها دائمة الحرارة، ويخفف من حرارتها إحاطة الماء بها. وتسقط بها الأمطار صيفاً على الساحل الغربي نتيجة لهبوب الرياح الموسمية الجنوبية الغربية عليه أما شرقها فتسقط أمطاره شتاء لهبوب الرياح الموسمية الشمالية الشرقية عليه
الغلات والنبات
تغطي سطوح المرتفعات الدنيا غابات كثيفة وقد قطعت وزرع مكانها أشجار المطاط والشاي والكاكاو؛ وفي الوديان يزرع الأرز وأشجار جوز الهند. وتقوم عدة صناعات متصلة بجوز الهند فتجفف حباته وتصدر، وتقوم المصانع بأعداد زيت جوز الهند وتصديره. ومن أهم التوابل التي تصدرها القرفة. وعلى الشواطئ يشتغل الأهالي بصيد السمك
السكان
يسكن هذه الجزيرة أربعة ملايين ونصف مليون من الأنفس، وقد قدموا إليها من الهند في عصور متفاوتة ومعظمهم بوذيون ديناً. وفي كاندي معبد يسمى معبد السنة وهو من اعظم المعابد حرمة وقدسية لدى البوذيين. أما الباقون فيدينون بالهندوكية وقد جاءوا سيلان من الهند قديما كغزات؛ أما اليوم فإنهم يهاجرون إليها كعمال يعملون في مزارع البن والشاي والمطاط. وفي الجهات الجبلية ما تزال بعض القبائل تعيش على الفطرة
وقد كانت هذه الجزيرة تابعة لحكومة الهند، ولكن منذ سنة 1802 فصلت عنها وأصبحت مستعمرة تابعة للتاج البريطاني
كولمبو
عاصمة الجزيرة وتقع على شاطئها الغربي وقد كانت محط أنظار اليابانيين واليها وجهوا أول جهودهم وذلك بالنسبة لما لموقعها من أهمية: فهي محطة للفحم، منها تتزود السفن المحيطية القادمة من أوربا إلى أستراليا والشرق الأقصى، وبها تمر السفن القادمة من شرق الهند إلى غربها تفادياً لمرور من مضيق (بلك) الضحل، فمعنى الاستيلاء عليها تعذر المواصلات بين شرق الهند وغربها وبين بريطانيا وأستراليا، وأضعاف مركز بريطانيا الحربي أضعافاً كبيراً وقد علقت الديلي تلغراف على هجوم اليابانيين على كولمبو وسيلان فأشادت بالنصر العظيم الذي أحرزته القوات البريطانية في دفع العدوان الياباني على الجزيرة ونبهت إلى أهمية موقع الجزيرة قائلة: (ولسنا

نرى في جزيرة سيلان حصناً لحراسة الهند ومواصلات الهند مع الشرق الأوسط وأوربا فحسب، ولكننا نرى فيها أيضاً مركزاً قوياً لتركيز الكرات وتوجيهها إلى خطوط الهجوم اليابانية البعيدة الانتشار)

أبو الفتوح عطيفة

المصريون المحدثون - 32

شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الإنجليزي ادوارد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

تابع للفصل العاشر - (الخرافات)

ولما تولى الولي السابق ذكره أعماله أخذ يتجول في قسمه فرأى بائع فول يبيع لحرفائه كالعادة. فتناول حجراً وكسر بها قدر الفول، فقفز البائع إليه وتناول جريدة بالقرب منه وضرب الولي بها ضرباً مبرحاً. ولم يشك الولي ولم يصرخ وانصرف حين أذن له. وحاول بائع الفول بعد انصراف الرجل أن يلتقط بعض ما تناثر من القدر، وكان قد بقى منها قطعة في مكانها؛ فلما نظر البائع فيها رأى ثعباناً ساماً ميتاً. فصاح مرتاع مما فعل: (لا حول ولا قوة إلا بالله! أستغفر الله العظيم. ماذا فعلت؟ هذا الرجل ولى وقد أتلف الفول الذي كاد يسمم حرفائي). وجعل ينضر إلى كل مار طول هذا اليوم عسى أن يرى مرة أخرى الولي الذي أساء إليه ليستغفره. ولكنه لم يره لأن الولي كان مرضوض الجسم لا يستطيع أن يمشي. وفي اليوم التالي نهض الولي بالرغم من ورم أعضائه وأخذ يعرج خلال قسمه فكسر جرة لبن كبيرة في دكان لا يبعد عن دكان بائع الفول كثيراً، فعامله اللبان معاملة الفوال. وبينما كان يضربه أسرع بعض الناس إليه وأخبروه أن هذا الرجل الذي يضربه ولي ثم سردوا عليه قصة الحية التي كانت في قدر الفول وقالوا اذهب وانظر جرتك فسترى فيها شيئاً ساماً أو نجساً. ونظر الرجل فوجد في بقية الجرة كلباً نافقاً. وفي اليوم الثالث سار الولي في الدرب الأحمر يعرج على عصا متألماً، فرأى خادماً يحمل على رأسه صينية عليها أطباق من اللحم والخضر والفاكهة أعدت لجماعة كانوا ذاهبين إلى النزهة في الريف فوضع الولي عصاه إذ ذاك بين رجلي الخادم فقلبه، وتناثرت محتويات الأطباق في الشارع، فأخذ الخادم يصب على الولي اللعنات ويضربه ضرباً عنيفاً، وتجمع الناس ولاحظ أحدهم كلباً يأكل ثم لم يلبث أن نفق. فسارع إلى منع الخادم من ضرب الرجل وأخبره بالحادث الذي أثبت ولايته. فجعل الخدم يتعذر للولي ويرجوه أن يصفح عنه. غير أن الرجل سئم وضيفته الجديدة فابتهل إلى الله والى القطب أن يعفى منها، وأجيب إلى توسلاته واستردت قدرته الخارقة للعادة. فعاد إلى دكانه وهو أسعد من قبل

هذه القصة يتقبلها القاهريون كأنها حقيقة ومن ثم أدرجتها هنا. لأننا عند الكلام على الخرافات نواجه الآراء أكثر مما نواجه الأفعال. ولست متأكداً أن القصة جميعها كاذبة؛ فقد يكون هذا الولي المزعوم قد أستخدم من يدخل الثعبان أو الكلب في الوعاءين الذين كسرهما. وقد قيل لي أنى أكثر من واحد قد أشتهر بالولاية بمثل هذه الحيل وفي مصر أولياء كثيرون يتقشفون تقشف النسّاك الهنود. وفي القاهرة الآن وليّ طوق عنقه بالحديد، وشد نفسه إلى أحد جدران غرفته وظل على ذلك ثلاثين عاماً، كما يقال، ويزعم البعض أن هذا الولي كثيراً ما شوهد متدثراً كالنائم بملاءة، ثم بعد ذلك مباشرة تزاح الملاءة عنه فلا يجدونه تحتها. ويذكر هذه القصص ويؤمن بها قوم يتمتعون بالعقل الرشيد. والضحك من هذه القصص أو عدم تصديقا يثير السخط الشديد. وقد حكى لي أخيراً أن ولياً قطع رأسه لجرم لم يرتكبه، فتكلم بعد فصل رأسه عن جسده، وأن آخر حز عنقه في أحول مشابهة فخط دمه على الأرض إعلان براءته: أنا ولي من أولياء الله وقد مت شهيداً.

وهناك ظاهرة غريبة في خلق المصريين وغيرهم من الشرقيين وهي أن المسلمين والمسيحيين واليهود يتخذون خرافات بعضهم بعضاً بينما يمقتون العقائد الأصلية. وقد يستخدم المسلمون عند المرض قسس النصارى واليهود للدعاء لهم، وكذلك النصارى واليهود يدعون الأولياء المسلمين للغرض نفسه. ومن المألوف أن ترى المسيحيين

يترددون على الأولياء فيقبلون أياديهم ويسألونهم الدعاء والنصح. ويجزلون لهم المال والعطايا.

وينسب المسلمون إلى الرسول معجزات كثيرة لا يقرها الإسلام. وهم يقولون أن هناك معجزات كثيرة لا تزال تتم إكراماً للنبي وشاهداً على رعاية الله له. ويروي الحجاج الذين زاروا المدينة أنهم يرون كل ليلة شعاعاً من النور الكامد يشع من قبة القبر النبوي إلى ارتفاع هائل إلا أن الشعاع يختفي عن الناظر عندما يقترب من القبر. وهذه معجزة من أكثر المعجزات اعتباراً ويروون أنها تشاهد للآن. وقد سألت أحد أصدقائي الحصفاء عن

صحة هذا الزعم فأيده وجزم أنه كان يرى الشعاع كل ليلة مدة إقامته بالمدينة. وقال: أن ذلك دليل على رضى الله وإكرامه لسيدنا محمد (ص)، ولم أجرؤ أن أستفهم عن حقيقة ما يزعم رؤيته بعينه ولا الإشارة إلى أن أكثر النوار التي تضاء في المسجد كل ليلة قد تحدث ذلك الأثر. غير أني سألت صديقي أن يصف لي بناء القبر وقبته الخ؛ فأجاب أنه لم يدخل الضريح ولا الكعبة لاضطراب أعصابه نتيجة لإعظامه هذه الأماكن المقدسة وخاصة قبر الرسول الذي يؤثر فيه تأثيراً شديداً؛ ولأنه حنفي المذهب لا يليق به أن يسير فوق هذه الأرض المقدسة ويتعرض كل حين لمكاره المشي حافياً، ومن ثم كان عليه في هذه الحالة أن يلبس خفاً داخل الحذاء الخارجي، وهذا مالا يقدر عليه.

ويزعم الحجاج أيضاً انهم يرون دائماً على مسير ثلاثة أيام من المدينة نوراً في اتجاه المدينة المقدسة ويعتقدون أنه ينبعث من قبر الرسول. ويقولون أنهم حيثما يتجهون يشاهدون هذا النور تجاه المدينة. ولهذه الروايات جمال يؤثر في النفوس ويحمل المسلمون، وبخاصة المصريون على اختلاف مذاهبهم، ما خلا الوهابيين، للأولياء المتوفين احتراماً وتقديساً لا سند لهما في القرآن أو الأحاديث، أكثر مما يحملون للأحياء منهم. ويشيدون فوق أغلب قبور الأولياء المشهورين مساجد كبيرة جميلة. وينصبون فوق قبور من هم أقل منهم شهرة بناء صغيراً مربعاً مبيضاً بالكلس ومتوجاً بقبة. ويقام فوق القبر مباشرة نصب مستطيل من الحجر أو القراميد يسمى (تركيبة)، أو من الخشب ويسمى (تابوتاً)، ويغطى النصب عادة بالحرير أو الكتان المطرز ببعض الآيات القرآنية، ويحيط به قضبان أو ستر من الخشب يسمى (مقصورة). وأكثر أضرحة الأولياء في مصر مدافن إلا أن أكثرها يحتوي على آثار قليلة لهم. وبعضها ليست إلا قبوراً فارغة أقيمت تذكاراً للميت. وأكثر هذه المقامات قدسية مقام الحسين إذ يقال أن رأس الحسين الشهيد مدفون به. ومنها أيضاً مسجد السيدة زينب وهو دون الأول قدسية. ومسجد السيدة نفيسة، ومسجد الأمام الشافعي الذي ينتمي إلى مذهبه أكثر القاهريين. وتوجد هذه الأبنية السابقة ما خلى الآخَرَيْن داخل العاصمة. أما مسجد السيدة نفيسة فهو في إحدى الضواحي الجنوبية، ومسجد الأمام الشافعي في المقبرة الجنوبية الكبيرة

ويزور المصريون هذه الأضرحة وغيرها أحياناً أما إجلالاً للميت أو قياماً بأعمال تستحق الثواب لأجل هؤلاء المكرّمين معتقدين أنهم سينزلون عليهم البركات، وأما بقصد التماس

البرء من مرض أو طلب النسل، مقتنعين أن فضائل الميت تكفل قبول دعواتهم قبولاً مرضياً. ويعتبر المسلمون أولياءهم المتوفين شفعاء لهم عند الله ويقدمون لهم النذور. ويحيي الزائر عند وصوله الضريح بالسلام ويسلم عليه أيضاً عند دخوله المدفن. ولكني أعتقد أنه قلما تراعى هذه العادة الأخيرة. ويواجه الزائر رأس الميت، ومن ثم يولي القبة ظهره. ويطوف حول المقصورة من اليسار إلى اليمن ثم يقرأ الفاتحة بصوت لا يسمع أمام باب المقصورة أو أمام جوانبها الأربعة. وقد يتلو بعد ذلك سورة أطول من الفاتحة، كما قد يتلو في هذه الحالة (خاتمة). وتقرأ هذه الأدعية لأجل الولي وان كان يعتقد أيضاً أن الأجر ينعكس على الزائر الذي يتلو الصلاة. ويختم الزائر ذلك عادة بقوله: (أني وهبت ما قرأت من القرآن الكريم إلى من نذر له هذا المكان) أو (إلى روح هذا المولى). ويبقى ثواب ما قرىء للقارئ وحده إذا لم يبين ما سبق أو لم يقصده. ويبتهل الزائر بعد تلاوة هذا إلى الله لاستدرار النعم فيقول عادة: (اللهم أتوسل إليك بالرسول وبمن وقف له هذا المكان أن تهبني هذه النعمة وتلك الأخرى) أو (حملي على الله وعليك يا من كُرّس لك هذا المكان). ويواجه البعض وهو يفعل ذلك

جانباً من جوانب المقصورة. ويقال أن اللائق أن يواجه الإنسان المقصورة والقبلة، ولكني أعتقد أن القاعدة نفسها تراعى في هذه الحالة كما تراعى في السلام؛ وتوضع اليدان أثناء ذلك وضع الابتهال الخاص عقب الصلاة العادية ثم تسحبان بعد ذلك على الوجه. ويقبّل الكثير من الزائرين عتبة باب المقام وجدرانه ونوافذه ومقصورته الخ. . .
إلا أن الشديد المحافظة يستقبح هذا لاعتباره تقليداً لعادة مسيحية. ويوزع الأغنياء والميسورون عند زيارتهم قبور الأولياء المال أو الخبز على الفقراء. وكثيراً ما يمنحون السقاءين نقوداً ليفرقوا الماء على الفقير والظمآن إكراماً للولي. وهناك أيام خاصة في الأسبوع لزيارة بعض الأضرحة. فيزور الرجال مسجد الحسين على الأكثر يوم الثلاثاء، والنساء يوم السبت. ويزورون مسجد السيدة زينب يوم الأربعاء، ومسجد الأمام الشافعي يوم الجمعة. والعادة في هذه الحالات أن يحمل الرجال معهم آساً يضعون بعضه على النصب أو فوق الأرضية داخل المقصورة، ويأخذون الباقي ثانية لتوزيعه على الأصدقاء. ويضع الفقير أحياناً خوصاً، كما يفعل أغلب الناس على قبور الأصدقاء والأقارب، وتضع نساء القاهرة بدل الآس والخوص وروداً وزهوراً وياسميناً.
(يتبع)

عدلي طاهر نور

تحية فلسطين

للأستاذ بشارة الخوري

(ألقاها بالقدس في زيارته الأخيرة)

لست سوى دمعة ... تهادت على بسم حائرة (فلسطين)
تعانقتا فاستحال العناق ... لهيباً على شفة ثائرة
يا حُلم الأنبياء ... ويا خمرة الأنفس الشاعرة (فلسطين)
حملنا لك المهج الظامئات ... وأصدية القبل الطاهرة
يا هيكل الذكريات ... على جبهة الأعصر الغابرة (فلسطين)
مضمخةً بغبار الحروب ... مخضبةً بالمنى الزاخرة
يا جمحات الخيال ... مجنحةً بالرؤى الساحرة (فلسطين)
هناك على شرفات النجوم ... أرى مكة تلثم الناصرة
ألا قطرةً، عرس قانا الجليل ... ولو بين جدرانك الدائرة
ترد إلى الشعر وحي السماء ... فتلهمه الأنفس الكافرة

بشارة الخوري

إلى. . .؟

(للشاعر المجهول)

أبحثُكَ من قلبي نفائسَ عَطْفِهِ ... وحرَّرتُ فيكَ المال من رِبْقَةِ الضَّنِّ
وقلتُ مِثَالٌ من جمالٍ أَصُونُهُ ... فيَسْلَمُ من إفْكِ الزمانِ ويستغني
فلم تَرَ صدري من سهامِكَ في حِمًى ... ولم تَرَ جَيْبي من نِصالِكَ في أَمْنِ
وعِشْتُ يُرينِي الْحبُّ أنكَ حَافِظٌ ... عهودي وأن الْخلْدَ بعضُ الذي أَبنِي
فَلمَّا رأيتَ الوجدَ يَغتالُ مُهجتي ... وأيقنتَ أنى من غرامِكَ في سِجْنِ
مَضَيْتَ إلى غيري جهاراً وَخُنْتَنِي ... فمن أي وَحْلٍ صِيغَ طَبْعُكَ خَبِّرنِي

(للشاعر المجهول)

إلى روح شقيقي (إبراهيم)

ما كان إلا دنيا محببة!

للآنسة فدوى طوقان

لاَ كَانَ عَامٌ ظَلِلْتَ يَا سَكَنِي ... فيهِ وَرَاءَ الْحيَاةِ وَالزَّمَنِ
مُسْتَوْحِشاً في الضريح مُنْفَرِداً ... مُرْتَهَناً بالتّرابِ والكفنِ
وَا حَرَّ صَدْري عَليكَ وا أَسَفي ... أَنْ لَمْ تُمِتْنِي لواعِجُ الْحزَنِ
لِوَ أَنَّني قمتُ بالوفاءِ، أَخِي ... ما ظلَّ روحي يجولُ في بدنِي
أَنَّى تطيبُ الحياةُ بعدَكَ يا ... أَحْسَنَ ما في الحياةِ مِنْ حَسَنِ
قَطَعْتُ عنِّي أَسْبَابَ بَهجتِهَا ... وَصِرْتُ واللَّأعجاتِ في قرَنِ
تَهْجِسُ في خاطري، أَخِي، ذِكَرٌ ... تَظَلُّ مِنهَا الأشجانُ تَطْرُقنُي
كنتَ لعَمَرْي زيناً لمجلِسِنَا ... وفتنةً مِنْ مُحبَّبِ الِفتن

تدفعُ عنَّا الهُمومَ إَنْ نزلَتْ ... بالدّارِ يوماً طوارِقُ المِحَنِ
فكيفَ بالله صرْتَ أكبرهَا ... وكيفَ أَصْبَحْتَ مَصْدَرَ الشَّجَنِ؟
أَوْلَيتَنِي مِنْ لَدُنْكَ عَارِفةً ... آبَتْ بحِفْظِ الجميلِ مِنْ لدُنِي
وَاهاً لها مِنْ يدٍ مُبارَكةٍ ... فيَّاضةِ البِرِّ تَرَّةِ المِنَنِ
ما كنْتُ إَّلا مِنْ غَرْسِهَا فَنناً ... لو لم تُحِطْهُ بالْحِفْظِ لم يكُن
قدْ صُنْتَهُ فاسْتَقَامَ من أَوَدٍ ... لولاكَ لم يستقمْ ولم يُصَن
واليومَ يُودي لَفْحُ السَّمُومِ بِهِ ... بعدَكَ مَنْذَا يَقيه مِنْ وَهَن
لا خفَّفَ الله ما أُكابِدُهُ ... إِنَّ سُلُوِّى عنهُ مِنَ ألأَفَنِ
وإنَّ قَلْباً قدْ كَانَ مَأمَلَهُ ... غيرُ حقيقٍ بالصَّبر أو قَمِن
أيام عُمْرِي تَجَهَّمَتْ كَمَداً ... وكان فيها بشاشةَ الزَّمَن
واهاً لنفسي مِنْ طولِ وَحْشَتِهَا ... ما أَنِسَتْ بعدَهُ إلى سَكَن
أَوْدَعْتَ في القبرِ سيرةً كَرُمَتْ ... يا لِيَ أَمَّنْتُ غيرَ مُؤْتَمَن
أَمَا وَحُبِّيهِ مثلَ سِيرَتِهِ ... ما شامَ طرْفي وَلا وَعَتْ أُذُني
خُلْقٌ كقطْرِ النَّدى صَفَا وَزَكا ... في السّرِ مُسْتَأمَنٌ وفي العلَنِ
نفسٌ كصافي النَّميرِ مَوْرِدُهُ ... ليسَ بذي كُدْرَةٍ وَلا أَسَنِ
مَنْذَا لصِدْقِ الوَلاءِ إنْ طُوِيَتْ ... نفسُ وَلِيٍ يوماً عَلى دَخَنِ
مَنْذَا لِجَزْلِ القَريضِ وَاحَزَنِي ... مَنْذَا لِحُلْوِ الحديثِ واللَّسَنِ
مَنْ للنُّهي إنْ كَبَا الْعَثَارُ بهَا ... والأَمْرُ أَعْيَا عَلَى ذوي الْفِطَنِ
خالصةً مِنْ شَوائِبِ الدَرَنِ ... (ما كان إلاَّ دُنْيَا مُحَبَّبَةً)
أَسْعَى إلى قبرِه يُساوِرني ... شَوْقٌ إليه والدَّمْعُ يَسْبِقُنِي
أَحْنُو عليه أبكيهِ مِنْ أَسَفٍ ... أَسْقِي ثَراهُ بأَدْمُعِي الْهُتُنِ
أَمْسِحُ مِنْ لَوْعَتي بتُربَتِهِ ... مَسْحَ أَكُفِّ الحجيجِ بالرُّكْنِ
لولا عظامٌ لنا مُطَهَّرَةٌ ... في التُّرب لم نحترِصْ عَلَى وَطَنِ
(نابلس)

فدوى عبد الفتاح طوقان

البَريدُ الأدبيّ

الرسالة هي الصديق

كتب الأديب حسين الصوفي كلمة نصّ فيها على أني أخطأت حين قلت (الرسالة الصديق) وساق كلاماً لا ينفع في (فَعيل) بمعنى فاعل و (فعيل) بمعنى مفعول، وسأصحح له هذا الخطأ حين أجد فرصة لا تدعونا فيها (الرسالة) إلى مراعاة الأمر العسكري بتحديد عدد الصفحات!

وأجيب بأن (الرسالة) هي (بُثينة) في قول جميل:

كأن لم نحارب يا بُثيَن لو أنها ... تكشَّف غمَّاها وأنتِ صديقُ

وما وصفتُ (الرسالة) بالصديق إلا وفي خاطري هذا البيت. فهي إلى قلبي حبيب.

زكي مبارك

لمن (رسالة الحج)؟

قبل ثلاثة أعوام قصدت مكة لزيارة قصيرة وكان لابد لي من زيارة الصديق الشيخ عبد الوهاب الدهلوي وكانت في يدي نسخة من رسالة الحج، فسألني الصديق وما تلك بيدك يا حسين؟ قلت هي (رسالة الحج)ـ لدبلوماسي، وإنها لرسالة جميلة في أسلوبها وموضوعها. فقال: الأستاذ الدهلوي: هذه الرسالة لي وضعتها باللغة الأردية وطبعتها في سنة 1352 هـ باسم (أسرار حج) وأهديتها فيمن أهديت إلى أستاذنا الشيخ عبد الله السندي، وأنت تعرف هذا الأستاذ، فله تلامذة نجباء، وقد أعجبته الرسالة فدفعها إلى أحدهم فترجمها إلى الإنكليزية، وبقيت في حوزته. وفي اجتماع ضم الأستاذ عبيد الله والأستاذ حافض عامر قنصل مصر في جدة يومئذ جرى الحديث إلى تلك الرسالة، فأخذ الأستاذ حافظ الترجمة الإنكليزية وعربها وطبعها ووضع عليها أسم (دبلوماسي) ثم توالت السنون وأطلعتنا الصحف المصرية أخيراً على تقاريظ لطبعة ثانية من رسالة الحج تقول أنها للأستاذ حافظ عامر وفيها ثناء عليه أهمه كلمة لفضيلة الأستاذ المراغي في أحد أعداد الهلال

فرأيت أن أقول كلمة ترد الحق إلى نصابه: أن رسالة الحج ليست من تأليف الأستاذ حافظ
عامر ولا من ترجمته. هي من تأليف الأستاذ الشيخ عبد الوهاب الدهلوي بالأردية ولا تزال تطلب منه في مكة. وأما الترجمة فقد قرأنا في كتاب حياة الرافعي للأستاذ العريان ما معناه ونصه: الرافعي وحافظ صديقان بلغ من صداقتها أن الرافعي كان يكتب لحافظ أسلوب المرافعة في الحكم حينما كان الأستاذ حافظ محامياً في طنطا. وقد ظل هذا التعاون الأدبي متصلاً بين الرافعي وحافظ إلى ما قبل موت الرافعي. . .
ثم قال: كان ذلك في صيف 1935، وكان الرافعي يقضي أجازته الإسكندرية ليعاون صديقه السياسي حافظ في إنشاء رسالة دينية. فما رأي الأستاذ حافظ عامر؟
(جدة)
حسين محمد نصيف
تذكير
كان الأستاذ عمر الدسوقي قد وعد قراء (الرسالة) الزاهرة في معرض مقال له أنه سيتولى كتابة يحث في الأدب اللبناني الحديث معتمداً على تعرفه بالأدب السوري اللبناني أثناء الحقبة التي سلخها في لبنان
ولقد تنظّرنا أن يفي الأستاذ بما وعد، ولمّا يفعل
والأدب السوري اللبناني مفتقرٌ الآن إلى مثل هذا البحث لاسيما أنه لم يُوفَّ من التقدير حقه؛ فمن الناس من أشاد به وأطراه بالغ الإطراء، سواءً في الصحف أو في الإذاعة، ومنهم من بخسَه حقه وأنتقص من قدره
والى الآن لم يظهر الرجل الذي يتخذ مذهباً وسطاً، فلا يتبنى الأول وهو مبالغٌ فيه، ولا يتبنى الآخر وهو مبالغٌ فيه كذلك.
فلم يبق إلا أن نرجو الأستاذ الدسوقي أن يعتزم الأمر ثانيةً أن كان تقاعَدَه عنه شغل. ويكون هذا الناقد النزيه، وهذا الباحث العادل البعيد عن التعرُّض، وعساه يوافينا عما قريب.
(بيروت)
سهيل إدريس
(الرسالة الصديق)
جاء في العدد 459 تحت هذا العنوان تخطئة لوصف (الرسالة) (بالصديق)، وأن الصواب وصفها (بالصديقة)؛ وقد ذكرت معاجم اللغة صحة وصف المؤنث (بالصديق) فجاء بالقاموس في مادة (صدق): (وكأمير الحبيب للواحد والجمع والمؤنث وهي بهاء أيضاً)؛ وجاء بالمصباح: (وامرأة (صديق) و (صديقة) أيضاً)
وجاء بالمختار: (والرجل (الصديق) والأنثى (صديقة)، وقد قال للجمع والمؤنث (صديق))
إذا، يصح أن نقول: (الرسالة) (الصديق) و (الرسالة) (الصديقة). . . ولعل صحة وصف المؤنث (بصديق) بناء على ورود هذه المادة متعدية، فقد ورد: (صدق فلاناً الحديث والقتال)؛ ومنه المثل: (صدقني سن بكره)؛ فهي حينئذ (فعيل) بمعنى (مفعول)
فعلى هذا يكون ما ذكره الأديب الفاضل من القياس على (الرسالة العظيمة) و (الكاتبة البديعة) بعيداً. إذ الأولى صفة مشبهة: (كشريف) و (ظريف)؛ والثانية وصف لاسم الفاعل الذي على وزن (مُفْعِلْ): (كنذير) و (سميع) وكلا هاتين الصيغتين يذكر مع المذكر ويؤنث مع المؤنث.
كلية اللغة العربية
على محمود الشيخ
إلى الدكتور حسني ولاية
لك يا حضرة الدكتور الفاضل أبحاث قيمة تتحف بها قراء الرسالة بين الفينة والفينة، فضلاً عما تخرجه المطابع لك بين الحين والآخر من ثمرات بعضها مؤلف وبعضها مترجم. . . وكلها تدور حول (علم النفس) وعلاقته بالمجموع العصبي للإنسان، فهل يتكرم سيدي الدكتور بالإجابة عما يلي: وله الشكر أولا وأخراً
1 - ما هو الفرق بين الأمراض النفسية، والأمراض العصيبة، وهل من الضروري أن

يكون المريض بأعصابه عليلاً بنفسه؟!
2 - ما هو القلق العصبي، وما علاقته بنفس المريض؟
3 - هل نعتبر المجرم مريضاً بأعصابه أم بنفسه . . .
4 - ما تعليل قولهم أن لكل شاعر شيطاناً من الوجهة النفسانية؟
5 - نرى أن بعض مختلي الأعصاب وبعض، المجرمين ينتجون ذرية صالحة جسمانياً وعقلياً والعكس بالعكس. . . فأين قانون الوراثة هنا؟!
وفي انتظار الإجابة أقدم للدكتور العالم جزيل احتراماتي.
(النخيلي)
محمد محمد مالك
إلى الأستاذ العقاد
كثير من الأدباء يتهمون إخوانهم بالأنانية وحب النفس، فأدباء الشيوخ الذين يحتكرون ميدان الأدب لا يبذلون أي جهد في تسديد خطى الشباب الناشئ
ولا أعرف السبب الذي يمنع أديبا مثل الأستاذ العقاد من تأليف كتاب عن الشعراء الناشئين الذين يدل شعرهم على نبوغ وعبقرية ومثلما فعل الشاعر الإنجليزي المعروف (و. ب. يتس) الذي كتب عن (روبرت بودج)، (ولتردى لمار)، (هيلار بيلوك)، (ليونيل جونسون)، (أرنست دوسون) في مؤلفه (كتاب اكسفورد للشعر الحديث).
فشيوخ الأدب في أوربا لثقتهم بأنفسهم، وحبهم لفنهم، وإخلاصهم له يسددون خطى الأدباء الناشئين، ويشيدون بذكر المواهب منهم. فما رأي الأستاذ العقاد في هذا الموضوع؟ وهل يعمل الأستاذ على إخراج مثل هذا المؤلف؟ أنه أن أخرج هذه الفكرة إلى حيز الوجود فسيكون قد أسدى خدمة جليلة للأدب العربي المستحدث بجانب خدماته العديدة التي سبق أن أسداها إليه
كمال الدين نشأت
العدد 461 - بتاريخ: 04 - 05 - 1942
تعليقات وتعقيبات
للأستاذ عباس محمود العقاد
من تعقيبات القراء الأدباء على مقالي في (ابن الرومي) كلمة كتبها الأديب (أبن درويش) في (الرسالة) يقول فيها موجها الخطاب إلى:
نال مني الدهش لتعصبك لهذا الشاعر، ولعل هذا راجع إلى أن الأستاذ قد صاحب (ابن الرومي) أكثر مما كان ينبغي لمصاحبته. لهذا كان طبيعياً أن يخلع عليه أستاذنا الجليل لقب (شاعر العالم) غير منازع، أن يقول أن شعره ليس فيه مغمز لغامز، وأن إحساسه مرهف غاية الإرهاف، وتصويره آية في الإبداع. فما رأي سيدي الأستاذ بيتين مشهورين
قالهما في روض سقته السحب أو أرضعته فأنبت ألفي رضيع من بني (لابن الرومي) النضر حيث قال:
سقته ثُدِيُّ السحب من مرضعاتها ... أفانين مما لم تقطره مرضع
كألفي رضيع من بني النضر ضُمنوا ... محاسن هذا الكون، والكون أجمع
(فأي تصوير هذا يا أستاذي العزيز؟ وأي استيعاب فني فيه. . . ألخ
والأسئلة فيما نرى ضربان: سؤال يوجهه صاحبه وقد أجتهد في أن يعرف غرض الكتاب فهما سائران في طريق واحد. وسؤال يوجهه صاحبه وكأنه أجتهد في نقيض ذلك، ونقيض ذلك هو ألا يعرف غرض الكتاب وأن يتخذ له وجهة غير وجهته وطريقاً غير طريقته، فما مفترقان لا يتقاربان.
واحسب أن الأديب الذي وجه إلى ذلك السؤال لم يجتهد في معرفة غرضي بمقدار اجتهاده في الحيدة عنه، فقوّلني ما لم أقل، واعترض بعد ذلك في غير موجب للاعتراض.
فأنا لم أقل أن ابن الرومي شاعر العالم منازعاً أو غير منازع، وإنما قلت أنه شاعر (له عالم)، وفسرت ذلك بأنه قد نظر على طريقته إلى العالم كله فجاءت له في شعره صورة فنية كاملة. وذكرت له نظراء في تصوير العالم على طرق مختلفات كالمتنبي الذي نرى في شعره صورة للعالم من الوجهة العملية، والمعري الذي نرى في شعره

صورة للعالم من الوجهة الفكرية، وغيرهما بين شعراء الشرق والغرب كثيرون.
وقد ينفرد ابن الرومي بمزية لم يسبقه فيها سابق من الشعراء الأقدمين والمحدثين فلا يكون
معنى ذلك أنه شاعر العالم غير منازع، لان المزية كما يعلم الأديب لا تقتضي الأفضلية، وربما عجز أناس أن يجاروه في مزيته ويسبقوه في مزية أخرى أو جملة مزايا لا تقل في شأنها عما تفرد به وتقدم فيه.
وإذا اعترض معترض على رجحان ابن الرومي في مزية التصوير الفني فسبيله إلى الاعتراض أن يذكر شاعراً آخر له حسنات في هذا الباب أفضل من حسنات ابن الرومي وأدل على الملكة الفنية، وليس سبيله أن يذكر الرديء أو المختلف عليه من كلام ابن الرومي المنسوب إليه.
كذلك لم أقل إن شعر ابن الرومي (ليس فيه مغمز لغامز) لأن العلو في الإجادة لن يمنع الإسفاف في الرداءة، وابن الرومي نفسه يعلم هذا ويعتذر لرديئه بأبياته المشهورة التي يقول فيها:

قولا لمن عاب شعر مادحه ... أما ترى كيف رُكّب الشجر؟
ركب فيه اللحاء والخشب اليا ... بس والشوك دونه الثمر
وكان أولى بان يهذب ما يخ ... لق رب الأرباب لا البشر

وهي الأبيات التي افتتحت بها كلامي عن صناعة ابن الرومي في الكتاب المطول الذي كتبته عنه، لعلمي انه يقول الرديء كما يقول الحسن، وأن المغمز في كلامه لمن شاء غير قليل.
وبعد فمن هو الشاعر الذي يقال فيه أنه شاعر العالم أو أنه الشاعر العالمي إذا كان الإتيان ببيتين من شعر الرديء - على تسليم رداءته - حائلاً بينه وبين التفرد بمزية عالمية؟
من هو الشاعر الذي لا يؤتى له ببيتين بل قصيدتين يمغمزهما الغامز متى شاء؟
فليست الطريقة التي آثرها الأديب (ابن درويش) بطريقة الاعتراض المأثورة فيما أرى، وإنما الطريقة السوية أن نستنفد المحاسن حتى لا نبقي فيها بقية، وأن نقرن بينها وبين محاسن من قبيلها تفوقها وتربى عليها. . . أما ذكر بيتين أو قصيدتين لشاعر من كبار الشعراء فلا يغير الحكم عليه بالغاً ما بلغ الرأي في استهجان البيتين أو القصيدتين.
على أنني لا أذكر أنني قرأت البيتين في ديوان ابن الرومي، ولا أراهما مما يعاب سواء نسبا إليه أو إلى غيره، ولا أعدهما من أبيات الوصف لأنهما أشبه بأبيات التخلص التي يأتي فيها الوصف عرضاً غير مقصود، وإنما عنيت أبيات الوصف فانتظرت (يذكرني من شاء بأبيات وصفه أبين له ما فيها من عناصر الاستيعاب)
ومع هذا اسأل الأديب: لماذا فهم أن إعجابي بابن الرومي راجع إلى أنني صاحبته أكثر مما كان ينبغي لمصاحبته؟
إن ابن الرومي لم يكن له ديوان مطبوع يوم كانت دواوين المتنبي وأبي تمام والبحتري وأبي نواس والشريف الرضي وغيرهم مطبوعة متداولة في أيدي القراء!
فإذا سعيت إلى قراءته مخطوطاً فإنما تكون المصاحبة الطويلة نتيجة الإعجاب وليست هي سبب الإعجاب
فلماذا يكون إعجابي به خطأ لا محالة فلا تفسير له إلا طول المصاحبة؟ ولماذا يكون رأي الأديب فيه هو الصواب لا محالة لأنه لم يطل مصاحبته، أو لأنه أطال مصاحبة الآخرين؟
وهل كان يجب أن أقول أن المتنبي أوصف من ابن الرومي لأكون قد صاحبت المتنبي كما ينبغي أن أصاحبه وأصاحب غيره؟
ولم يجوز التعصب على ابن الرومي بغير سند، ولا يجوز التعصب له بسند مفصل أو قابل للتفصيل؟
أن الرجل لكما قلت بين شعراء العالم أجمع، وأن الذي يمكن مزيته لمطالب بحسنات يثبتها لغيره تربى على الحسنات التي ثبتت له في دواوينه، فإن لم يستطع فما هو بغاض من قدره ولو جاء له بعشر قصائد رديئات، لا ببيتين أو عشرة أبيات.
وكتب إلينا الأديب (حسن محمد عبد الله شرارة) من نبت جبيل بلبنان يقول بعد

مقدمة نشكره عليها: (. . . إلا ترون أن بين ابن الرومي وأبي نواس صلة من الصلات أو وجه شبه كبير أو قليل؟ فالدقة التي تتراءى في شعر ابن الرمي والشمول الذي يبين في معانيه يهينم على خمريات أبي نواس ويشيع فيها. وكذلك الناحية الوصفية والتصويرية التي امتاز بها ابن الرومي قد امتاز بها أبو نواس على ما بين النفسين من تقارب في هذا القلق والاضطراب والتعقيد. فخذوا أية خمرية من خمريات أبي نواس وغيرها أيضاً ترون ما أنا ذاهب إليه من هذه الدقة والسلاسة والعالمية والشمول ثم الإبداع الشعري العظيم. . .)

ورأيي أن أبا نواس وابن الرومي يتقابلان ولكنهما لا يتماثلان ولا يحسبان من (مدرسة) واحدة إذا قسمنا الشعراء إلى مدارس كما يقسمهم النقاد الغربيون.

فابن الرومي حس متوفز، وأبو نواس لذة حسية. ومن هنا يتلاقيان، ومن هنا كذلك يفترقان

فابن الرومي يطلب اللذة الحسية لأنه يطلب كل ما يشغل الحس؛ فهو وأبو نواس في هذا متلاقيان

ولكن أبا نواس لم يطلب الحس لغير اللذة، ولم يشغل حسه بغير المتعة، فهو وابن الرومي في هذا مفترقان بل جد مفترقين.

ماذا يبقى من أبي نواس بعد المتعة الحسية؟. . . لا شيء! وماذا يبقى بعد المتعة الحسية في ابن الرومي؟ يبقى الحس كله، ويبقى ابن الرومي كله، وتبقى لنا نفس إنسانية تعرف والآلام والمتع، وتعرف المحاسن ولو لم تستخرج منها اللذات الممتعات؟

فلولا اللذات لما بالى أبو نواس بأن يحس الحياة. ولكن ابن الرومي يحس الحياة ولو لم تكن فيها لذات، لأن الإحساس عنده هو الأصل الأصيل، وليس هو الواسطة التي تنتهي إلى غايات.

أين القرابة بين أبي نواس وبين القلوب الإنسانية في عالم الألم؟ أين الدنيا وراء مجلس الأنس والشراب؟ أين الشمس؟ أين السماء؟ أين الربيع في غير معارض المنادمة وما إليها؟

لكنك تلغي مجالس المنادمة كلها ويبقى ابن الرومي في دنياه غير منقوص الأداة فهو معك حيث تكون النفس الآدمية، وليس أبو نواس معك في غير مكانه الذي يهواه وإذا تقابلا في الحان يوماً فهي مقابلة طريق لا تطول، ثم يفترقان!

وعندي بعدما تقدم تعليق على كلمة عجيبة سبق إلى كتابتها الأستاذ توفيق الحكيم وهو في قبضة الأديب (الفلاح) الدكتور زكي مبارك. فقال كلاماً لا يحسن السكوت عليه: فماذا قال؟

قال ما معناه أنه (صعب عليه) لأنه لم يجد في شكري للدكتور طه حسين تلك الرقة التي كان ينتظرها.

وما هي تلك الرقة التي كان ينتظرها؟ لا ادري، ولا اعتقد أن الدكتور طه اهتم بان يدري، أو احتاج إلى رقة الأستاذ توفيق الحكيم التي أوشكت أن تُسيل عبراته؛ لمَ، والله لا ادري. . . وقد ادري ويدري القارئ معي بعد قليل!

فعندي قصة صغيرة اهديها إلى الأستاذ توفيق الحكيم لأنه رجل قصاص يجب أن يخاطب بأسلوبه

وهي قصة لا تتجاوز بضعة سطور، ولكنها تفيد

قيل أن الدكتور طه حسين خرج من وظيفته بالجامعة المصرية قبل سنوات؛ وقيل انه أثنى على الأستاذ توفيق الحكيم في بعض ما كتب وهو على جفوة مع رؤساء تلك الأيام؛ وقيل أن الأستاذ توفيق الحكيم أشفق من مغبة تلك الجفوة فكتب يقول إنه لا يريد مدحاً من أحد. وكان رقيقاً جداً فيما قال. . .!

وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح

وقيل في قصة أخرى - لان القصة الأولى قد انتهت والحمد لله - أن الأستاذ توفيق الحكيم يسيل رقة حين ينكر أن الدكتور طه حسين رفع من شأنه بما كتب عنه، لأنه أطنب في وصف أديبة وفي وصف أديب، فلم يرفع من شأنهما على ما يزعم، وهما في الحق أرفع شاناً عند أناس كثيرين من صاحبنا الحكيم!

وأدرك شهرزاد الصباح أو المساء على قصة أخر تُمثَّل اليوم مع العقاد لأن خصومته قد تشبه خصومة الدكتور طه حسين قبل سنوات.

فما الرأي في تمثيلية تشتمل على فصول كهذه الفصول؟ أليس في التمثيل هوى لصاحبنا الحكيم؟

قد يدري القارئ الآن ما أدري وما يدريه الدكتور طه وما يدريه العارفون وأوشك أن يدريه غير العارفين. فلا (يصعب عليهم) كما صعب على مولانا الحكيم!

عباس محمود العقاد

محاكمة (آدم) و (حواء)

في جلسة سرية

للدكتور زكي مبارك

بين المحسوس والمعقول

سنجد في حديث اليوم أن الله ظهر (لآدم) و (حواء) بصورة حسية، وذلك يخالف العقيدة الإسلامية، فكيف نقبل تلك الصورة مع تنزيه الله عن أن تراه الأبصار؟

الحل سهل: فنحن نلخّص كتاب شيث بن عربانوس، وهو كتاب وُضعتْ أصوله في عهود فِطرية لا تُدرك المعقولات إلا عن طريق المحسوسات فهي لا تتمثل الله إلا بصورة حسية تراها العيون.

وما وقع في كتاب (شيث) وقع مثله في النسخة الموجودة بين أيدي الناس من (التوراة)، فعبارة التوراة صريحة في أن الله ظهر لآدم، وأن آدم وامرأته اختفيا بين أشجار الجنة حياءً من ملاقاة الله وجهاً لوجه بعد العصيان.

وعلى فرض أن التوراة الموجودة بين أيدي الناس هي التوراة الحقيقية وأنها لم تصب بتحريف ولا تبديل، فمن الممكن أن نرجع نصوصها إلى الاستعارة التمثيلية، كما صنع المفسرون حين وجدوا في القرآن ألفاظاً لا تساير الروح الإسلامي إلا بعد التأويل.

والواقع أن الإنسانية في عهودها الفِطرية جسَّمت جميع المعاني، فقد جعلت لله وجها ويدَيْن، وصورته بألوان لا نرضاها اليوم، بعد أن ارتقت العقول فصار من السهل أن تؤمن بأن الله ليس كمثله شيء، وأنه فوق ما تتصور الأوهام والظنون.

وما سُقنا هذا التمهيد لقراء (الرسالة) وهم من الخواص، وإنما أردنا أن نحرر الموقف تحريراً يرفع من طريقنا جميع العقبات لنصل إلى الغرض بسلام وأمان.

الجلسة السرية

أنزعج فريق من الذين حضروا الجلسة حين طلب آدم أن يحاكم في (جلسة سرية)، وأخذ منهم الغيظ كل مأخذ حين أجابه الله إلى ما طلب، فقد كانوا يشتهون أن يشبعوا ما انطوت عليه جوانحهم من شهوات الفُضول، وكانوا يتوقون إلى معرفة ما سيدافع به آدم عن نفسه

في ذلك المقام الرهيب، وربما كلن فيهم من تسوقه ثائرة الحقد إلى رغبة التشفي من آدم وهو مأخوذ بجريرة العصيان.

جزع آدم

كان الخوف من شماتة القرود هو الذي حمل آدم على طلب الجلسة السرية، وفاته أن يذكر أن لعلنية الجلسة حكمة عالية، فهي تدعو القاضي إلى التلطف في الاستجواب، ترفقاً بمن يحاسَب أمام جماهير لا تخلو من أعداء وأغبياء، وفاته أيضاً أن يذكر أنه سيقف وحده أمام قاضيه، وللوحدة رهبةٌ تزُيغ البصر وتعقل اللسان.

آدم يقف وحده أمام الله في جلسة سرية؟

وأين المحرّضون على المعصية وهم ثلاثة شُخُوص: إبليس والحية وحواء؟

فإن كان الله يريد إقامة العدل فليطلب حضور المحرضين ليلقوا جزائهم على التحريض

وما كاد هذا الخاطر يطوف بقلب آدم حتى صاح الهاتف:

- آدم لا تجمع بين المعصية والجهل
- أنا من العصاة ولست من الجاهلين
- أن اعتراضك على الله هو الغاية في الجهل
- أنا لا أعترض على الله، ولكني أطلب إقامة العدل
- وما العدل عندك؟

- هو أن يحاسَب المحرضون قبل أن أحاسَب
- ومن هؤلاء المحرضون؟
- الحية وإبليس وحواء. ومهما يكن فلا أقل من أن يحاكم إبليس اللعين
- أترك إبليس في غفوته، يا آدم، ولا توقظ الشر الوسنان
- لابد من محاكمة هذا اللعين على التحريض
- إبليس لعين؟
- بشهادة الله
- وكيف انخدعت بأحابيله وأنت تعرف أن الله شهد بأنه لعين؟
- تلك هفوة أوقعني فيها الجدُّ العاثر
- آدم، لا تجمع بين المعصية والجهل
- أراك تكرر هذه العبارة أيها الهاتف، فماذا تريد؟
- أريد القول بأن الله لم يعلن غضبه على إبليس إلا لحكمة سامية
- وما تلك الحكمة؟
- هي أن يرفع الغشاوة عن أصحاب الغرور والغفلة والانخداع
- أوضح، أيها الهاتف
- أن الله سخر إبليس لامتحانك، يا آدم، وشاءت رحمته بك أن يعلن أن إبليس شيطانٌ رجيم، لتنقطع حجتك في الانخداع أو لتأخذ الحيطة لنفسك فتحترس من ذلك الناصح الظنين. . فإذا استطاع إبليس على سوء سمعته أن يجرّك إلى العصيان، فكيف يكون حالك لو كلف الله بامتحانك أحد الملائكة المقرَّبين؟
- آه، آه، آه، صَعَقْتني أيها الهاتف!
- ما صعقتك، ولكنني نصحتك، فاترك إبليس في غفوته، ولا توقظ الشر الوسنان
- وماذا يقول إبليس لو ألححتُ في محاكمته على تهمة التحريض؟
- سيصمت صمُت الأموات
- لماذا؟
- لأنه على رأس الشُّرطة السَّرية
- هو إذن جاسوس؟
- أن كانت هذه اللفظة تشفي غليلك فإملاء بها مسامع الأرض والسماء!
- أراك تعطف على إبليس مع أنه شاقَّ الله بعناد وكبرياء
- لا يستطيع مخلوق أن يشاق الله، ثم يترك له الله أي فرصة للتمتع بنعمة الوجود
- أيرضى الله عن نزغات إبليس؟
- لو أعلن رضاه لضاعت الفرصة في امتحانك
- أن رأسي يدور من هول هذا المنطق
- كنت أنتظر أن يدور رأسك من هول ما صنعتُ بنفسك
- وما صنعت بنفسي؟
- انخدعت بنصيحة مخلوق كتب الله عليه اللعنة إلى يوم الدِّين، فكيف يكون حالك لو خدعك مخلوق غير ملعون؟ أن إبليس فضح نفسه حين قَصَر دعوته على العصيان، وكان في ذلك ما يكفي لرفع الغشاوة عن عينيك
- آه، آه، آه، صعقتني أيها الهاتف!
- وسأصعقك مرة ثالثة فأقول: أنك شهدت على نفسك بالغفلة والحمق حين انخدعت لمخلوق مفضوح، فقد أعلن على رؤوس الأشهاد أنه سيزّين لك ولذريتك وأنه سيغويكم أجمعين، فما دفاعك عن نفسك وقد صلصل الناقوس بأن إبليس غريمك وأنه سيصرعك حين يستطيع؟ ما دفاعك وقد وضعت قدميك فوق أشواك سمعتْ أخبارها أذناك، ورأتها عيناك؟
- وترى أيها الهاتف أن اسكت فلا اطلب محاكمة إبليس على التحريض؟
- ذلك ما أراه، فأنا أخشى أن يظهر لسكان الفردوس أن إبليس أشرف منك
- اشرف مني؟ وكيف؟
- لأنه خادعٌ وأنت مخدوع، فان لم يكن اشر منك فهو أقوى منك، والقوة من علائم التشريف
- وألقي الله وحدي وجهاً لوجه في هذا المقام الرهيب؟

- كما لقيته وحدك وجهاً لوجه حين عصيته
- أكان الله يراني عند العصيان؟
- ألم تكن تعرف انه يراك؟ أن أوزارك بالجهل أوزارٌ ثقال!
- يظهر أنى سأخسر القضية في ساحة العدل
- لا خسران في ساحة العدل، فستفوز بأعظم ربح وهو التأديب
- أترك الحية واترك إبليس، واكتفي بحضور حواء
- لتحاسَب؟
- لتشهد محاسبتي، فقد يرى كرم الله أن يعفيني من الذل فما تكرم امرأة زوجها إلا إذا كان من الأعزّاء، وما أحسب الله يريد أن أهان يوم الحساب.
- من أنت يا هذا؟
- عبدُك آدم
- وما تلك بيمينك؟
- أَمَتُك حواء
- وفيم حضرتما؟
- لنقول: (ربنا ظلمنا أنفسنا، وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننَّ من الخاسرين)
- من علمكما هذا الأسلوب من المتاب؟
- هو بعض ما تلقينا من فيض هدايتك الربانية
- وما الذي كان يمنع من إعلان هذا المتاب بحضور سكان الفردوس؟
- منع من ذلك الخوف من رفض هذه التوبة على مرأى ومسمع من القرود
- ولكن القرود خلقٌ من خلق، ومن حقهم أن يشمتوا بالآثمين
- هذه بداية مرعبة، وأنا أدعو الله أن يتفضل بإمهالي يوماً أو يومين لاستعد للدفاع
- أمهلتك أسبوعاً

وخرج آدم من الجلسة السرية وهو موقن بان الأمل في نجاته عزيز المنال! فما الذي سيقع بعد أسبوع؟ وهل يفلح آدم وهو صاحب حواء؟ نسأل الله الصفح عن آدم، فما عرفناه إلا فتىً وهّاج الروح والفؤاد.

(للحديث أشجان وشجون)

زكي مبارك

خسرو وشيرين

في التصوير الإسلامي

للدكتور محمد مصطفى

- 3 -

تنقل الحبيبان ومن معهما من أفراد الحاشية والجواري والخدم من مكان إلى آخر، فوق الهضاب المرتفعة وفي السهول وبين المراعي والحقول، وهما في رحلتهما إلى الريف ببلاد أرمينية، يلهوان بالصيد والقنص وأنواع التسلية والملاهي الأخرى، حتى وصلا إلى شاطئ نهر آراس، حيث تنبعث من الأرض رائحة المسك والطيب، ويجلب الهواء معه عطور الورود والرياحين وشذى الزهور والياسمين، فطاب لهما في هذا المكان المقام، وأمراً بضرب الخيام. وهناك أقام خسرو مأدبة ثانية لحبيبته شيرين، استمعا فيها لألحان (باربد) وموسيقى (نيكيسا) وهما يرددان أناشيد الغرام فينطقان بما ينبض به قلب كل من الحبيبين من عواطف ووجد وهيام.

وفي صبيحة اليوم التالي لهذه المأدبة، جلس خسرو إلى جانب شيرين أمام إحدى الخيام، وإذا بأسد جائع ينقضّ عليهما والشرر يتطاير من عينيه، يريد أن ينال من خسرو كأنه يحقد عليه الاستئثار بشيرين الحلوة الجميلة. فقام إليه خسرو وهو اعزل من السلاح، وتهيا ليقابله في معركة حياة أو موت، بينه - وهو ذلك الملك المتوج على شعب إيران العظيم - وبين هذا الأسد الجائع - وهو ملك الوحوش اجمع وسيد الصحارى والبراري - فتلقاه وقد شمَّر عن ذراعيه ليدافع عن حبيبته.

ووهبه الحب قوة على قوته، فامسك الأسد بيده اليسرى من لبدته، ثم هوى على أم رأسه بضربة شديدة من قبضة يده اليمنى كانت هي القاضية عليه. وقد حدث ذلك كله في طرفة عين دون أن يجد الحارس الواقف على مقربة من الخيمة الوقت الكافي

ليهجم على الأسد ويشج رأسه بسيفه. وكانت شيرين قد هرعت إلى باب الخيمة ووقفت به، تنظر إلى (المعركة) واجمة خائفة أن يصيب الأسد خسرو بسوء، ولكنها عندما رأته ينتصر عليه، ازداد إعجابها بحبيبها واعتدادها به.

وفي (شكل1) نرى خسرو وهو واقف أمام خيمته بجوار مجرى ماء، وقد امسك بيده اليسرى لبدة الأسد، وتهيأ ليقضي عليه بضربة من قبضة يده اليمنى، والى اليمين أسرع حارس لمعاونته، وقد قبض بكلتا يديه على سيف امتشقه ليضرب به الأسد، ووقفت شيرين وعلى رأسها تاج في مدخل الخيمة تعض يدها وهي تنظر في لهفة إلى خسرو، وإلى جوارها ثلاث من صويحباتها يرقبن نتيجة (المعركة) ورجل من أفراد الحاشية تقدم لنجدة خسرو. ونلاحظ النقوش الجميلة الواضحة على قماش الخيمة من فروع نباتية وزهور وصور حيوانات وطيور. وهذه الصورة هي في مخطوط لأشعار إيرانية، كتب سنة 813 هجرية (1410م) للأمير إسكندر سلطان حاكم شيراز، وهذا المخطوط محفوظ في مجموعة جلبنكيان.

هكذا مرت الأيام ومضى الوقت والحبيبان يلهوان بالصيد والقنص، وإقامة الحفلات والمآدب، والاستماع إلى الغناء والموسيقى، ويشعران بالسرور والسعادة في قرب كل منهما للآخر إلى أن كان ذات ليلة وقد عصف الهوى بنفس خسرو واستبدّ به الغرام فلم يستطع كبح جماحه، فقرب منها يريد غوايتها، ولكنها صدته، وهي تذكر ذلك الوعد الذي قطعته على نفسها أمام عمتها (مهين بانو) الطيبة القلب، فاستمدت منه الجرأة لتقسو عليه، وتطلب منه أن يسعى لاسترداد عرش أجداده وأسلافه وينتصر على ذلك المغتصب، وهو ذلك الملك القوي، قبل أن يحاول غواية امرأة ضعيفة مثلها.

وكان لهذه الكلمات أثر شديد في نفس خسرو. ففي صبيحة اليوم التالي رحل قاصداً إلى بلاد الروم، وقلبه مليء بالحسرة المريرة لفراقه من حبيبته الجميلة. وفي الطريق مرّ على دير فيه راهب يتنسك، فقرب خسرو من الدير وقال: (أيها الراهب المتنسك، أني رجل من أهل إيران اقصد حضرة قيصر في رسالة، فأخبرني بما يصير إليه حالي، ويؤول إليه عاقبة أمري. فقال الراهب: أنت كسرى برويز وقد هربت من يد بعض عبيدك، وسيزوجك قيصر بعض بناته؛ ويمدّك برجاله وأمواله فتعود ويهرب عدوّك إلى بلاد بعيدة ثم يقتل بأمرك هناك. فقال: لا كان غير ما ذكرت أيها الراهب، ولكن متى يكون هذا؟ فقال: بعد سنة أخرى، إذا مضت خمسة عشر يوماً من السنة الثانية صرت ملك إيران، وتسنمت التخت ولبست التاج)

وكان قد ما تنبأ به هذا الراهب الصالح، وتوجه خسرو إلى الملك موريس إمبراطور الروم، فاستقبله استقبالاً حسناً، ودعاه إلى النزول في (هيروبوليس) فأقام بها. ثم زوجه من أبنته (مريم) وزوده بجيش قوي، تمكن خسرو بواسطته من أن ينتصر على القائد بهرام جوبين، ويلجئه إلى للفرار إلى خاقان الصين، حيث يقتل بأمر خسرو.

وفي (شكل2) نرى الموقعة بين الملك خسرو والقائد بهرام جوبين، وقد جلس خسرو في هودج على فيل كبير، وفي يده قوس يسدد منها سهماً. والى جانبه في وسط الصورة معلمه الوزير بُزرجميد الحكيم، وقد ركب على فرس وفي يده اسطرلاب يحدد به الوقت الملائم لهجوم خسرو على القائد بهرام جوبين ليضربه الضرة القاضية. ونرى المعركة حولهما قائمة على قدم وساق، والمحاربون يحملون الأعلام وهم على ظهور الجياد، يتطاعنون بالحراب والسيوف ويتراشقون بالسهام، وقد سقط البعض منهم صرعى على الأرض، وراحت جيادهم تعدوا هنا وهناك وهي حائرة. ويلاحظ ما هو واضح في هذه الصورة، من الحركة والحياة، وما يبدو على سحن الأشخاص فيها من الاهتمام. وهي تنسب للمصور (سلطان محمد) أحد مشاهير مصوري عصر الشاه طهماسب الأول الصفوي، لما فيها من ميزات أمتاز بها أسلوبه في التصوير وهي محفوظة في المتحف الملكي الاسكتلندي.

وللمرة الثانية توّج خسرو ملكاً على إيران بعد فرار القائد بهرام جوبين إلى خاقان الصين، فأرسل إليه خسرو من اغتاله هناك. ولما استتبت أمور برويز وانتظمت أسباب سلطانه، وأذعنت الملوك طوعاً وكرهاً لأوامره وأحكامه، وأظلت على العالمين سحائب عدله وإحسانه، قسّم الأرض أربعة أقسام، وأرسل إلى كل قسم منها أثنى عشر ألف فارس ممن مارسوا الأمور وكابدوا تصاريف الدهر حتى صاروا أفراد الزمان، وآساد الضرابْ والطعان، وأوصى الكل بالتيقظ والتحفظ وحفظ الممالك،

وضبط المسالك. ثم رزق من زوجته مريم بنت موريس إمبراطور الروم أبناً دعاه بين الناس (شِيرويَه). ولما ممضى ثلاث ساعات من الليل على ولادته، حضر المنجمون عند الملك، فسألهم عن طالع المولود، فقالوا: أيها الملك، أن الأرض تمتلئ من هذا المولود شراً، ولا يحمد أحد سيرته، وهو يمرق عن الدين، ويخرج عن طاعة رب العالمين. وكان ما تنبأ به المنجمون، ولزم شيرويه نحس طالعه، حتى أمر بقتل أبيه خسرو، ثم مات هو بالطاعون كما سيأتي ذكر ذلك فيما بعد.

وفي (شكل3) نرى خسرو في يوم تتويجه ملكاً على إيران وقد جلس على عرش في منظرة بحديقة غنية بأشجار السرو والفاكهة والزهور والورود. ويحيط به بعض كبار المملكة وهم يتحدثون ويتناقشون، ويقدم لهم الخدم والسقاة الطعام والشراب، ووقف حولهم رجال الحرس ومعهم أسلحتهم، وغلمان (البارْدارِيّة) وهم يحملون صقور الصيد. ووقف على سطح المنظرة ستة من أفراد الحاشية يتجادلون ويشيرون إلى أسفل، ويبدو كل منهم أنه يود أن يسبق زملاءه في التعرف على كبار الدولة الواقفين حول خسرو. وهذه الصورة عليها إمضاء المصور (آقاميرك)، ولكن بعض مؤرخي الفن الإسلامي، يقولون أنه لا يمكن التثبت بوجه قاطع من صحة هذه الإمضاء، بالرغم مما هو واضح في هذه الصورة من الدقة في رسم الزخارف والزركشة على الملابس وغير ذلك مما أمتاز به أسلوب آقاميرك في التصوير. ونشأ هذا المصور من أسرة كريمة المحتد في أصفهان، تنتسب إلى آل البيت، ثم رحل إلى تبريز حيث تعلم التصوير على المصور (بهزاد)، وكان آقاميرك من الأصدقاء المقربين للشاه طهماسب الأول، ويقال أنه ما زال يشتغل بالتصوير في بلاط هذا الشاه حتى سنة 957 هجرية (1550م). ويظهر أن المصور قصد في هذه الصورة أن يبّين ما كان عليه بلاط الشاه طهماسب من الأناقة والبذخ والروعة والجلال، وأنه صوّر الشاه نفسه في شخص خسرو الجالس على العرش، كما يتضح ذلك من سطر الكتابة في أعلى بناء المنظرة. وهذه الكتابة تقرأ (اللهم خلد دولة السلطان الأعظم والخاقان الأعدل الأكرم السلطان ابن السلطان بن السلطان أبو المظفر السلطان شاه طهماسب الحسيني الصفوي بهادرخان خلد الله تعالى ملكه وسلطانه والى (كذا!) يوم الدين). وهذه الصورة في مخطوط نظامي السابق الذكر المكتوب للشاه طهماسب بين سنتي 946 و950 هـ (1539 - 43 م) وهو محفوظ في المتحف البريطاني.

(له بقية)

محمد مصطفى

أمين مساعد في دار الآثار العربية

قصة رمزية في فصل واحد

صدى الأجيال

للأستاذ فؤاد البهي السيد

المسرح: خيال الإنسان

الزمن: قبيل النوم في الفترة التي يهوم فيها الإنسان بين اليقظة والحلم

الأشخاص: العقل الواعي. الرقيب. العقل الباطن

النظارة: الإنسان

النفس وعاء ترسب في قاعه مغامرات ونوازع إنسان الغابة الأول، وغياهب المشرئبة إلى الإشباع، وتطفو على سطحه النوازع المهذبة التي تتماشى وروح العصر. وبين العالمين يقوم الرقيب، ليمنع فيض ما رسب في القاع من عناصر العقل الباطن على المنطقة التي خلصت من الشوائب، وسمت صعدا إلى القمة، حيث العقل الواعي. وبين اليقظة والنوم يغفو الرقيب أحياناً فينسل عقل الغابة والفطرة الأولى إلى القمة راقصاً رقصة الدغل، مصوراً أحلام البراري، بينما العقل الواعي يغط في نوم عميق.

صدى الأجيال

الظلام يلف الوجود في شملة كثيفة داكنة، والإنسان قد اغمض عينيه وهجع في فراشه، وصمت في كل شيء من حوله، وسكن الوجود وهدأ.

يقبل النوم عليه خفيفاً لطيفاً كالنسيم، ويتركه ليقظة نائمة، وبين تلك اليقظة وهذا النوم يرتفع حوار العناصر من أعماق النفس.

الرقيب: صه، انك لن تخطو!
العقل الباطن: إنما هي ذكرى الغاب. . . ما أراني أرقص صُعداً نحو القمة، مجتازاً حدودك محطماً أغلالك. إنما أدور حول نفسي. . . تلك سنتي وأنت بها عليم خبير
الرقيب: ما أراك خادعي هذه المرة أيضاً؟
العقل الباطن: وهل تراني خدعتك أبداً؟
الرقيب: لطالما غافلتني وتسللت إلى قمة النفس، وهناك رحت ترعد وتبرق؛ رحت تستعيد
لنفسك ذكرى قد اندثرت وماتت: ذكرى الغاب والدَّغل، ذكرى البراري والفطرة
العقل الباطن: أي هراءٍ هذا؟ أتراني أقوى على مغالطتك. . . لقد كنت تغفوا فأنسل صعداً، وتستيقظ فأنسل هابطاً. أتذكر مرة واحدة خطوت فيها أمامك وأنت يقظ متسنماً قمة النفس - إني لأحترمك ولا أقوى على فعل ما تأباه وأنت يقظ
الرقيب: أنت تخشاني وترهبني فقط. ما اغرب منطقك، انك دائماً تغالط!
العقل الواعي: أرى عراكاً وأسمع صخباً. . . لقد أختلط الوجود حيالي، فلا أكاد أميز شيئاً، من يدري؟ لعله حلم بعيد لم يستكمل نموه بعد
الرقيب: (وقد أقترب صوته واستبان) صه!
العقل الباطن: . . . . . .
العقل الواعي: ما ورائك يا رقيب؟
الرقيب: لاشيء. . . لاشيء. . . إنما كنت أشهد عراك العناصر، عراك الأجيال السجينة
العقل الواعي: ما أراني أفهم عنك
الرقيب: (وقد أخذ صوته يخفت ويبعد شيئاً فشيئاً). . . أحقاب وعصور وأجيال سجينة هناك في الأعماق، تجاهد وتكافح لتصخب وتضج على مسح وجودك لكنها لا تفلح في عبور القناة التي بناها الزمن وأقامتها الحضارة، فتعود لترقص وتدور حول ما يصوره لها وهما أنه الحاضر
العقل الواعي: ما أراني أفهم عنك أيضاً، بل ما أراني أكاد أسمعك
الرقيب: أنه عراك. . . سمه كيف شئت. . . سمه يقظة الماضي، أو سمه حلم الزمن، أو سمه. . .
العقل الواعي: (وقد أخذ يغط في نوم تقطعه يقظة يتلوها إغفاء)
ماذا. . عراك. . . ماضي. . . زمن
العقل الباطن: (مخاطباً الرقيب) ترى ماذا بيني وبينك؟
الرقيب: لاشيء
العقل الباطن: ما كنه هذا العداء الذي تضمره لي؟
الرقيب: من قال إني أعاديك، إني أمنعك فقط
العقل الباطن: ولماذا تحرمني الحرية. . . لماذا تحرمني النور؟
الرقيب: بل قل لماذا أحرمك الظلام، أتراك تحيا في النور أنت ابن الماضي الذاهب في القدم. . . ابن الظلام. . . ابن الكهف والغار. . . أنت ابن. . .
العقل الباطن: ليكن من أمري ما يكون، فلماذا تقف بيني وبين التصعيد؟
الرقيب: لماذا؟ ما أعجب أمرك! طبيعة الحياة الحاضرة. . . الوجود كله يقف الآن بينك وبين ما تريد. . . لقد تبدل العالم وتغير. لقد دار الفلك دورته، وتغيرت الأرض غير الأرض و. . .
العقل الواعي: فلك. . . أرض. . . ما لك تهذي اليوم هكذا؟
العقل الباطن: . . . . . .
الرقيب: دع الفلك والأرض والهذيان. . . هاأنت أوشكت أن تنام. . .
العقل الواعي: أ. . . نا. . . م. . .
الرقيب (لنفسه): ما أقسى الحراسة وكل ما حولي يغري بالنوم والإغفاء والراحة!
العقل الباطن (مخاطباً الرقيب): لقد نام الطفل
الرقيب: بل قل قد نام الجبار
العقل الباطن: جبار (يقهقه ضاحكاً بخشونة) أنه طفل، إنه صنع يدي هاتين. . . أنا الذي منحته الوجود والحياة. . . في البدء تآلفت ذراته وتجمعت ثم خفت فطفت وكانت قشرة، وتركزت فهبطت فكنت القاع واللب

الرقيب قل، صفا وتنقى فطفا: وحملت الشوائب وحدك فرسبت
العقل الباطن: ليكن من أمر خلقه وخلقي وتكوينه وتكويني ما يكون فهو ما فتئ طفلاً وأنا ما زلت جباراً
الرقيب: إذا فما أغربه طفلاً يهيمن على جبار!
العقل الباطن: (يهبط متكثفاً متركزاً نحو القاع)
الرقيب: يرى أين ذهب الجبار، أعني الطفل الذي تمخض عن الجبار
يهفو من بعد صوت مضطرب فيه حدة وفيه لين. . . تستبين النغمات وتنسجم فإذا) دوى طبل وأنة ناي. . .)
لقد راح العقل الباطن يرقص في الأدغال، لعله عاد إلى عالمه :(الرقيب لنفسه)
وماضيه الذي فيه يحيا ويتنفس. . . بل لعله سئم الحوار ويئس من الإقناع
العقل الباطن: (يدور مبتعداً فإذا النغمات صدى يتردد في جوانب النفس من بعيد، وينأى فإذا نغماته وإذا صداه وهدوء وموات. . . يدور ويقترب فتعلو ألحانه ويصخب ضجيجه)
الرقيب (وقد خدرت هذه الألحان أعصابه): أف! ما أقسى الحراسة، وكل ما حولي يغري بالنوم والإغفاء والراحة
(يهوم نائماً، ثم يستيقظ فزعا، ثم يعود ليهوم ويغفو على ألحان الناي والطبل)
العقل الباطن: (تنسل عناصره في خفة ولين وحذر، تخطو متدثرة مستترة في صبغات وألوان وأشكال وخيالات لتموه على العقل الواعي حتى لا توقظه فيطردها. . . تخطو وتطفو صعداً. . . . . .)
وكانت إغفاءة. . . وكان حلم!؟
فؤاد البهي السيد
ذكرى ميلاد الرسول
للأستاذ محمد يوسف موسى
(بقية ما نشر في العدد 458)
يقول ابن إسحاق فيما يرويه ابن هشام في سيرته: أن عبد المطلب جد الرسول قد نذر - فيما يزعمون - لئن ولد له عشرة نفر ثم بلغوا مبلغ الرجولة لينحرن أحدهم لله عند الكعبة. فلما توافى بنوه عشرة وصاروا رجالاً، جمعهم وأخبرهم بنذره ودعاهم إلى الوفاء به، فأطاعوا وقالوا: كيف تصنع؟ فذهب بهم إلى هبل - أعظم أصنامهم وكان مقاماً داخل الكعبة - وأقرع بينهم بالقداح - فخرج القدح على عبد الله أحب بنيه إليه، فأخذ والده إلى إسافٍ ونائلة - وكانا كذلك صنمين - وأخذ الشفرة وهم بذبحه، فقامت إليه قريش وبنوه ومنعوه ما أراد من الأمر الجلل، وانتهى الأمر باستشارة عرافة لعلها تأمر بما يكون فيه من هذه الكارثة مخرج، فأشارت عليهم بأن يقرعوا بين عبد الله وعشر من الإبل - وهي مقدار الدية - فإن خرجت القرعة على الإبل نحروها ونجا عبد الله، وإلا زادوها عشراً ثم عشراً حتى يرضى الله. وأخيراً رجعوا وظلوا بقوامهم يستوحونها وفي كل مرة يخرج القدح على عبد الله، حتى بلغت الإبل مائة، فخرج القدح عليها ثلاث مرات متواليات، فنحروها فداءً عنه، وكان فرح عظيم.
هل نرى سخرية أكبر من هذه؟ كبار العقول والأحلام يحكمون ما صنعوا وأقاموا من أصنام في أنفسهم وبنيهم ودمائهم! (ولقد كان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها فتخذ وربًّا، وجعل الثلاث الباقيات أثافيّ لقدره، وإذا أرتحل تركه، فإذا نزل منزلاً آخر فعل مثل ذلك)
وإذا كان العرب - كغيرهم من الأمم - من الناحية الدينية والناحية الاجتماعية في حاجة إلى دين جديد يخرجهم من الضلال للهدى ومن الظالمات للنور، وينقذهم مما ترددوا فيه من جهالة جعلتهم عبيداً لما يصنعون من أصنام وأوثان. هذا الدين الجديد كان الإسلام الذي يتفق والإنسانية التي بلغت النضج الكامل. جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، فاضطرب لمولده رجال اليهود والنصرانية، إذ رأوا فيه قضاء على ما كان لهم من حول وسلطان.
هذا الدين كان حرياً بنا أن نعثر به ونهتدي بهديه، وقد رأينا كيف جعل من العرب المتعادين المتقاطعين أمة متماسكة متحدة ملكت في سنوات معدودات بلاد فارس والروم، وكيف قدم للعالم مبادئ وتشريعات فيها الصلاح كل الصلاح والخير كل الخير،

وكيف أسس حضارة لا تزال مضرب الأمثال.
نحن - وسائر المسلمين في العالم من أدناه إلى أقصاه - نحتفل كل عام بميلاد محمد صلى الله عليه وسلم، ويلقي في كل ما نقيم من حفلات ما يأخذ بالأسماع والألباب من النثر والشعر، فنظن أننا بهذا قضينا واجب الذكرى بخاتم النبيين الذي كان بعثه بشير رحمة للعالمين. لا، والله، لن نقضي حق هذه الذكرى المجيدة إلا كنا أهلاً لهذا الدين الذي نشرف بالانتساب إليه، وإلا إذا أخذنا بتشاريعه وآدابه وتقاليده. وإن أمة لا تعمل إلا الكلام تنمقّه، والمآثر تعدِّدها، والتاريخ ينقِّر عنه في حسرة وألم، لهي أمة مقضي عليها بالانحلال. لقد صرنا في زمن يعتبر فيه طلب التشريع الإسلامي ضرباً من العبث، والمناداة بتقاليد الإسلام عودة للرجعة. وهؤلاء الذين يرموننا بالعبث والرجعية يرون الخير في أن يأخذوا من تقاليد أوربا وحضارة أوربا التي نشاهد مبلغ ما صارت إليه وما فعلت بأصحابها! وهم مع هذا كله يحتفلون بميلاد الرسول وبهجرته وبكل ذكرياته وأيامه المجيدة، ظانين أنهم بما يلقون أو يسمعون من الخطب قد قضوا ما عليهم من واجب!
لمحمد صلى الله عليه وسلم الذي نتذكر هذه الأيام من كل عام مولده هدْىٌ وسنن في كل نواحي الحياة، وللدين الذي أرسل به تشاريع تناول جميع الشئون، ونجاحنا في هذه الحياة وسعادتنا فيها في الدار الآخرة رهن بإتباع هذا الدين في الجليل من الأمر والحقير، وكرامتنا كأمة لها مقوماتها وخصائصها في أن نلجأ إلى هذا الدين وحده، نأخذ منه ما نحتاج من تشريعات وقوانين وتقاليد هي مجلبة للعز والفخر.
يبدأ الاحتفال وينتهي في القليل من الزمن، ويعود كل المحتفلين إلى داره. فليتذكر كل منا إذن إذا ما خلا بنفسه بعد أن أنفض الحفل: أنه مسلم، وأنه منذ ساعات كان الاحتفال بذكرى ميلاد نبي الإسلام ورسوله، وأن هذا الإسلام - فيما يوصي به - بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأن كان في ذلك غضب الرؤساء وأولي الأمر، وبالرفق بالفقير وإعطائه حقه وبالإخلاص لله في السر والعلن، وبعدم خشية أحد إلا الله مالك الأمر كله، وبعدم استخذاء الإنسان فلا يذل لغيره من المخلوقين مثله، وبالغضب لله كلما أمتهن شيء
من دينه أو ديست شرائعه، وباعتبار الناس جميعاً أخوة لا فرق بين جنس وجنس ما داموا جميعاً تحت راية الإسلام. فإذا تذكر هذا كله، فليسأل نفسه: أين هو من هذا الذي يأمر به الإسلام؟ وهل هو مؤمن حقاً يفهم الدين ويعمل به؟ أم مسلم لأنه ولد في أسرة مسلمة ونشأ في بلد إسلامي؟ بعد هذا إن عرف من نفسه أنه مؤمن حقاً بقلبه وعمله، فليحمد الله وليعلم أنه يحتفل بقلبه وعمله في كل حال بالإسلام ورسوله وبمولد هذا الرسول وبعثته، ما دام يعرف الدين ويعمل به، ويحترم الرسول ويعمل بسنته وهديه. وإن عرف من نفسه غير ما تقدم، فليعلم أنه مراء يظهر الاحتفال يصاحب الإسلام ويمتهن الإسلام ورسوله بالإعراض عما جاء به من هدى وشرائع وسنن وآداب، وليندم وهو في سعة من أمره وليعزم على أن يكون في غده خيراً منه في يومه. هدانا الله سواء السبيل، ووفقنا إلى الصراط المستقيم.
محمد يوسف موسى
المدرس بكلية أصول الدين
. . .مرسَلات
اختلاف الأزهريين
يختلف الأزهريون في آرائهم كما يختلف سائر الناس. واختلاف الرأي أمر لابد منه في قضايا العلم والبحث ولكن الظاهرة الغريبة التي أصبحت شأناً من شئون الأزهر الخاصة، وعلامة من علاماته المميزة، هي التفاوت البعيد في النظر إلى الأشياء والحكم عليها، مع أن القوم يشربون من معين واحد، ويصدرون عن ثقافة ما ترى في أصولها من تفاوت: يرى الرجل منهم أو من غيرهم رأياً فيعلنه للناس فإذا أهل الأزهر فيه فريقا يختصمون: هذا يرفعه إلى السماء، ويصفه بأنه رأى عظيم يرجى منه الصلاح ويرتقب فيه الخير، وذاك يخفضه إلى الأرض ويراه شراً مستطيراً وفساداً يجب أن يوقي الناس خطره ويجنبوا ما فيه من وبال! ولم يغب عن القراء ما كان من أمر جماعة كبار العلماء في (فتوى الأربعاء) ثم في (برنامج الإصلاح). وقد نشر عالم فاضل في (الرسالة) بحثا جيداً عن (شخصيات الرسول) فوقف الأزهريون منه موقفين

متناقضين: قالت طائفة منهم: لم يأت بجديد؛ وقالت طائفة: إنه قال بما لم يقله أحد من قبله! ولو اقتصروا على هذا الخلاف في الشكل لهان الأمر، ولكنهم اختلفوا أيضاً في الموضوع اختلافاً بعيداً، فمنهم من رآه فتحاً في الدين عظيما، ومنهم من رآه شراً مستطيراً، وناراً توشك أن تلتهم الأخضر واليابس!

والأزهريون قوم مؤمنون، والمؤمن سريع الغضب، سريع الر ضا، ولذلك غضبوا على الأستاذ الإمام محمد عبده فرموه بالكفر والإلحاد، ثم رضوا عنه فهو الآن من الأئمة المصلحين. والأستاذ الأكبر المراغي كان خارجاً على الدين وهو رئيس للمحكمة الشرعية العليا، ثم عاد إلى الدين فجأة بعد توليه مشيخة الأزهر! والزيات، وطه حسين، والعقاد، وشلتوت، والزنكلوني، ومبارك، وهيكل، وغيرهم قد ذاقوا من ذلك ما ذاقوا. ولست أدري: أفي الأزهر الآن مشَّرحون لهذا الغضب؟

اللهم حوالينا ولا علينا!

محمد محمد المدني

نحو المحور الإسلامي

للأستاذ صالح جودت

وعبقريٍّ مُبْدِعٍ فنَّهُ ... من عالَمٍ فوق نُهَى الآخرهْ
ما علّموه الشَّعرَ لكنه ... لألأهُ من روحه الشاعرهْ
حديثُهُ السِّحرُ سوى أنه ... من غير وَحْيِ الْجِنَّة الكافره
من العبير القُدُسِ افْتَنَّهُ ... من رُبَى إلهامه العاطره
قام إلى قومٍ عُفاةٍ نيامْ ... بشِرعة الحق ودين السماحْ
ينشر في الأرض لَواَء السلام ... ويمحق الظُّلْم بحق السلاحْ
عقيدةُ الأحرارِ تمحو الظلام ... وتُرسل الروحَ طليقَ السراح
ألاَ لوجهِ المجد هذا القيام ... وفي سبيل الله هذا الكفاح؟
في زُمَرٍ مُختلفات القبيلْ ... قلوبها شَتَّى فلا تلتقي
لم يَكُ للمجد إليها سبيلْ ... ينهض في تاريخها الْمُمْلَقِ
طافت بها مُعجزةٌ للرسول ... تعقد تاجَ الأرض لِلْمَشْرقَ
وتنزع الحقَّ من المستحيل ... بالوحدةِ الزاهرةِ الرونقِ
مَنْ ذلك الأُمِيُّ من (يَعْرُبِ) ... يحلم في الأرضِ بمجد السماءْ
ويبعث الصيحةَ في (يَثْرِبِ) ... فيحشد الأُمةَ حول اللواء
يا عَجباً من سِحْرِ هذا النبي ... العبقريِّ الْفَرْدِ في الأنبياء
كيف مَضَى بالبلد المجدبِ ... لملكوتٍ بين قَرْنيْ زُكاء؟
يا سيرةً من غابر الأَعْصُرِ ... خفَّاقةً خلف حجاب السنينْ
لم تَخْفَ عن كسرَى ولا قيصرِ ... وإن طوتْهَا غَفلةُ الحاضرينْ
عُودي إلى أقوامنا وانظري ... ما تفعل الفُرْقةُ بالهاجرين
لم يبقَ إلا أَمَلٌ ينبري ... ضياؤُه اللماح من (عابدين)
في ناظِرَيْهِ موعدٌ للوفاقْ ... ومن خلال العُرْبِ صدقُ الوعودْ
يُهيب بالشام ويدعو العراقْ ... ويبسط الْكَفِين لابن السَّعود
سِيرُوا إلى ميعاده يا رفاقْ ... وحققوا وحدتكم في الوجود
قد ساد أعداءٌ لنا في الفراق ... وآنَ في وحدتنا أن نسود
لُوذُوا بحبل الله واستعصموا ... بالعُروةِ الوُثْقى ولِمُّوا الشتاتْ
وَلْيَنْتَظِمْكُمْ مِحْوَرٌ مُسلمُ ... تسمو أمانيه بأم اللغاتْ
لا يَثْنِكُمْ يأسٌ فتستسلموا ... له فإن اليأسَ صِنْوُ الممات
إن لم تَفُزْ بالمجد أيديكُمُو ... فلن تنالوا المجدَ بالمعجزات!

صالح جودت

الحرب في البحر

للأستاذ محمود البشبيشي

(لا يمنعني إخفاق هذه القصيدة في مسابقة الشعر العربي من إهدائها إلى جمهرة أهل الأدب، وبخاصة الأستاذان الفاضلان: صاحب (الرسالة) والدكتور زكي مبارك):

يكاد اليم ينتثر انتثاراً ... إذا ما عاصفٌ منها أغارا!
جبالٌ في المحيط تسير هوناً ... وفي الهيجا سهامٌ لا تجارى

وفوق اليم تحسبها قصوراً ... تميس إذا عصوف الريح ثارا
تخب عرائساً، وتخف أسداً ... وتفتك جنة وتشب نارا!
تدك مدائناً عزت وطالت ... فتنسفها وتذروها غبارا
إذا انطلقت تدفعت الدواهي ... وإن دارت رأيت الموت دارا
وإن شامت بوارق من عدو ... مضت للهول ترتقب انتصارا
يحوّم فوقها طيرٌ مريد ... عنيد لا يرد ولا يبارى!
إذا احتدم القتال رأيت جنًّا ... توثب للردى ومضى وطارا!
وفي جوف الخضم لها وليد... يروع البحر فتكاً واقتدارا
تسرب في المحيط أذى وشراً ... وعاث بموجه وبه توارى
مع الحيتان يسبح مطمئناً ... ومن فتكاته الكون استجارا
ويرنو للسفين بعين غدر ... خؤون في الخديعة لا يجارى
وإن يرم السفينة خلت طوداً ... ترنّح ثمت انفجر انفجارا
وكم ليل ببحر الروم كادت ... له الأفلاك تنتثر انتثارا
تقاذفت البوارج فيه ناراً ... فريع النجم وانكدر انكدارا
فلو أبصرتها والليل ساج ... لخلت الشهب تنحدر انحدارا
تراها خرداً عقدت عليها ... قباب الماء تنهمر انهمارا
وآونة ترى أتون نار ... تنفجر صاعقاً ورمى دمارا
يجن الموج من فوق إذا ما ... رأى الأطواد قد طوت البحارا
تقحم لا تهاب كأن بحراً ... من الآساد فوق البحر مارا
تزاور في العباب تروم فتكاً ... كخيل في الوغى شقت غبارا
فطوراً للردى تمضي يميناً ... وطوراً للردى تمضي يسارا
ترى طوداً يغير على سواه ... تأمل ترى طوداً أغارا؟
على جنباتها أسدٌ كبار ... تصاولَ مثلها أسداً كبارا
تحف بها ولائد ضاريات ... كما هيجت أشبالاً صغارا
قذائف تملأ الأعماق رعباً ... وتنسج من شظاياها ستارا
تكر على العدو مدمرات ... وتبعث من جوانحها الدمارا
تمزق ستر حالكة الدياجي ... وتكسو صفحة الإصباح قارا
فرب قذيفة عصفت بليل ... فهب الليلُ يلتمس الفرارا
وتقرْى اليم أكباداً رطابا ... وتودعه النفائس والنضارا
ربيب العلم ويحك بعض هذا ... طويت شرائع الدنيا احتقارا
ألا نفس ترد الحرب سلماً ... وتجعل ظلمة الدنيا نهارا!

محمود البشبيشي

البَريدُ الأدبيّ

من الدكتور عزام

يا أخي صاحب الرسالة

السلام عليكم

كتبت مقالي الأول عن الصوفية آملاً أن أتابع الكتابة في هذا الموضوع الجليل، ثم قضت أمور أستأنف سفري إلى بغداد الذي أزمعته منذ شهرين. فإن انفسح الوقت أرسلت مقالاتي من دار السلام، وإلا فموعدنا العودة القريبة إن شاء الله. وفي مأثور كلام الصوفية: (الصوفي ابن الوقت). وفي هذا يقول جلال الدين:

صوفي ابن الوقت باشد أي رفيق ... نسيت فرد اكفته أزشرط طريق

(يا رفيقي، الصوفي ابن الوقت، ... وليس من شرط الطريق أن تقول غدا)

فنسأل الله أن ييسر لنا الأوقات ويهيئ لنا خيرها والسلام. . .

عبد الوهاب عزام

آفة أدبية فأين أطباؤها؟

أحسن الأستاذ الفاضل طه الراوي في إزالة ذلك الوهم الشائع من نسبة موشَّحة مشهورة إلى ابن المعتز؛ في حين أنها من آثار أحد شعراء الأندلسيين. . . ومثل هذا الوهم كثير الورود في الأدب العربي، ولقد تغاضى عنه الرواة، واستساغه الأدباء على مختلف العصور، حتى اصبح آفة لا مخلص للأدب منها؛ وهي آفة تفرّد بها أدبنا العربي

دون آداب الأمم جميعاً؛ ولم تمنعها شهرة بعض شعرائنا وجريان قولهم على الألسنة من أن تحرمهم ثمار بعض هذه الآثار التي كفلت لأسمائهم الخلود.

فهذا أبو تمام يصف الخمر في إحدى مدائحه بقوله:

يخفي الزجاجةَ لونُها فكأنها ... في الكف قائمة بغير إناء
ولها نسيم كالرياض تنفستْ ... في أوجُه الأرواح بالأنداء

ثم نجد البيتين بنصهما في قصيدة للبحتري؛ فما ندري أنلوم الشاعر على تجرِّيه . . . أم نلوم جامع ديوانه قلَّة تحرِّيه. . . والأبيات المشهورة التي أولها:

قالوا: هجرتَ الشعر قلت: ضرورة ... باب البواعث والدواعي مغْلقُ

ينسبها أدبائنا الأفاضل جامعو (المنتخب) إلى أبى المظفر محمد بن أحمد . . . الأبيوردي؛ في حين يُوردها البستاني في دائرة معارفه منسوبةً إلى أبى اسحق الغّزي الأشهبي. وقد مات أول الرجلين عام 557هـ والثاني عام 524؛ وكلاهما عاش في خراسان، مما قد يشير إلى مصدر هذا الالتباس في آثارهما.

وأعجب من هذا أن قصيدة واحدة يدعيها أكثر من أربعين شاعراً، وهي النونية التي مطلعها:

صاح في العاشقين يا (لكنانهْ) ... رشأٌ في الجفون منه كنانه

هذه أمثلة لدينا عشرات منها، وقد يتجمع لدى بعض الأدباء منها مئات ومئات؛ أفليس من الواجب تطهير الأدب من كل هذا، حتى تستقيم طرائفه، وتتضح معالمه، وتزول عنه آخر سمة من سمات الفوضى والاضطراب؟

نحن أحوج ما نكون إلى هيئة أدبية تشرف على هذا العمل، لأنه مما لا يجتزأ فيه بجهود الأفراد، أو يكتفي في مثله بإشارات الأدباء وتلميحات المتأدبين.

(جرجا)

محمود عزت عرفة

في (دعاء الكروان)

رأيت في قصة (دعاء الكروان) للدكتور طه حسين بك غلطة نحوية أحببتُ نشر تصويبها في (الرسالة) وهاهي ذي: في (ص112س17) قال الدكتور طه: ردتْ عليهم آمنة التي رأت الشر بشعاً والإثم (عريان) والجرم منكراً. اهـ والصواب أنه يقول: والإثم (عرياناً)؛ وانه ليخيل إلى أن كلمة (عريان) التبستْ عليه فظنها غير منصرفة؛ والصواب هو أن (عرياناً) منصرفة لأنها صفة على وزن فعلان وتؤنث بالتاء نحو (ندمان) ومؤنثة (ندمانة)؛ و (عريان) ومؤنثة (عريانة). أما الصفات التي على وزن فعلان ومؤنثها على وزن فعلى فهي التي لا تنصرف نحو عطشان ومؤنثة (عطشى). فهل نسى الدكتور بيت الألفية:

وزائدا فَعلانَ في وصف سلمْ ... من أن يُرى بتاء تأنيث خُتم؟

(بغداد)

ضياء شيت

تناقض

تحدث الدكتور زكي مبارك عن مجلة (الرسالة) الغراء، فقال فيما قال: (الرسالة الصديق)؛ فخطَّأه بعض الأدباء، فرد هو وغيره بأن معاجم اللغة تصوِّب هذا التعبير؛ وكان الأديب الذي أعترض على الدكتور يستطيع أن يجعل نقده في الصميم؛ فيقول: الدكتور زكي مبارك بتعبيره السابق قد ناقض نفسه إذ يذكر القراء أن الدكتور قام منذ حين بحملة لغوية جال فيها وصال على صفحات هذه المجلة لكي نسير باللغة العربية إلى (التقعيد). . . وكان مما قاله أنه لا يرى معني لاتحاد وصف المذكر والمؤنث بصيغة (فعيل)؛ وذهب إلى أن الواجب أن نفرق بينهما فنقول: خادم وخادمة، وعجوز وعجوزة، وصديق وصديقة، وجريح وجريحة، وقريب وقريبة. . . الخ. مخالفاً في ذلك ما يكاد يكون مجمعاً عليه في هذه المسائل؛ فكيف يأتي اليوم ليحتج بأقوال المعاجم؟ وكيف يناقض اليوم ما قاله بالأمس؟

كلية اللغة العربية

(أ. س)

كتابان جديدان

أصدرت حديثاً مطبعة (فتى العرب) في دمشق كتابين للقصاص البارع الأستاذ معروف

الأرناؤط، أولها (طارق ابن زياد)، والثاني (فاطمة البتول)؛ وهما بأسلوبه القصصي الفذ المعروف لدى قرائه، في كتابه (سيد قريش)؛ ولعلي أتحدث إلى القارئ الكريم عن أولهما، أنه يتسع لذلك صدر (الرسالة)، وأغلب ظني أنه سيتسع، فهي مجلة العرب كافة توغل في ديارهم وتحدثه بما يقولون.

(شرق الأردن)

محمد سليم رشوان

القَصْصُ

الآخر. . .

للكاتب القصصي أرثور شنيتزلر

. . .!وحدي!. . . وحدي

أنا جالس إلى منضدتي، والمصابيح تتقد. . . والباب المؤدي إلى غرفتها مفتوح، ونضري يسبح في ظلام الغرفة. . . الأضواء المشعشعة المنبعثة من الدور المقابلة تنعكس على زجاج نافذتي. . . يا الله!. . . كل شيء قد تبدل، وأي تبدل!. . . كانت تسبل بعناية ستائر مكتبي، وتدني بعضها من بعض لتمنع عن تقاربنا، في غيرة لا توصف ضوضاء الشارع والأنوار المجاورة. . .

الساعات تمر، طفت في غرفتي، ثم طفقت أطوف في غرفتها فتمددت على كرسيها الطويل بدون حراك، وأخذت أصوب نظري إلى النافذة، التي تكشف لي عن عالم أصبح بعدها عديم الأهمية. . . ثم وقفت إلى منضدتها، وتناولت بيدي أقلامها الحبرية والرصاصية التي لما تزل تعبق بأريج أناملها. . . انحنيت بعد ذلك على الموقد المطفأ وشرعت أحرك الأوراق والفحم، فكان كل ذلك، وقد استحال إلى رماد، يصر صريراً محزناً، عندما يلامسه المحرك الغليظ الفظ. . .

أذهب كل صباح إلى المقبرة! الخريف المتأخر تنيره شمس باردة، وقحة. . . لا أكاد أبصر الجدار الأبيض عن بعد، حتى أشعر بحرقة في عيني. . . أطوف بين صفوف الأضرحة أراقب الذين يصلون ويبكون، أصبحت أعرف بعضهم، وما يدهشني هذه الطريقة المتشابهة التي تكاد تكون هي هي عند الجميع وتلك الحركات التي يكررها كل منهم كل مرة بدقة فائقة. . . أصبحت أعرف تلك الغادة التي تتهالك عند أقدام ضريح يعلوه صليب، فتجهش في البكاء، وتذرف ذات الدموع، تضع ذات أزاهير البنفسج على الأرض المبللة، ثم تنهض وقد راق لون محياها بعض الشيء، وتنطلق تعدو، حتى تبتعد عن المقبرة بخطوات سريعة، ثابتة. . . أنها تبكي شاباً قضى في الرابعة والعشرين. . . خطيبها بدون شك. . .

ولكن؟. . . كيف تقوى على النهوض؟. . . ومن أي ينبوع تستقي ذلك العزاء الذي يلمع في نظراتها كلما همت بالذهاب؟. . . لشد ما أريد أن أتبعها، وأن أصرخ في وجهها: (لا عزاء أيتها المجنونة البائسة!) ولكن. . . وأنا. . . أنا وقد اعتدت أن أحج كل يوم إلى هنا. . . عم أبحث إذن؟. . .

أولئك النساء ذوات البراقع الحريرية، والقفازات السود، يضايقنني كثيراً. . . لا ريب أني مثلهن، شاحب اللون، منتفخ الأجفان، ولكني وأنا ثمل بشيء سام، منقطع النظير، لا أتحمل هذا التأثر الذي يرتسم على وجود الآخرين، فأنظر بشيء من الحسد إلى كل من تهزه الرعشة التي تهزني. . .

والآن، فإن ثائرتي لتثور لمجرد الافتكار بأن جميع هؤلاء الذين يتيهون بين الأضرحة يفترسهم نفس الألم الذي يفترسني، ذلك الألم الخالد الذي نعجز عن التعبير عنه! أوه! يا للرحمة!. . . جميعهم يتألمون كما أتألم، والأيام تمر، فتجلب أفكاراً جديدة. . . وتبعث آمالاً جديدة. . . وتعيد بصورة أكيدة، ربيعاً ينشر خضرته الصفيقة أمام أبصارنا. . . فيعود الهواء فاتراً، وتعود الأزهار تعطر الجو بأريجها. . . وتعود النساء تبتسم كما كانت تبتسم من قبل. . . فنخدع عن أنفسنا مرة ثانية. . . نخدع عن أنفسنا، وننسى حزننا!!

أقف دائما على بعد بضع خطوات من النجف الذي يواريها. . . عندما يوضع الحجر أستطيع أن أتكئ على درجات الضريح الباردة، وأستطيع أن أنحني على قبرها، وأن أجثو أمامه. . . أما الآن فلا أجرؤ على الاقتراب خشية أن ينهال الحصى على نعشها. . . ورغم ذلك، تنتابني بعض الأحيان رغبة شديدة، لا تقاوم، للارتماء على ذلك النجف، ونبشه بأصابعي. . . إن ألمي لا يعرف الصبر، ولا يجد إلى العزاء سبيلاً. . . إنه

ألم وحشي تصطك له أسناني. . . أصبحت أبغض كل شيء. وجميع الناس وعلى الأخص أولئك الذين يتألمون مثلي!!!

هؤلاء الرجال والنساء، والأطفال، الذين أصادفهم كل يوم يثيرون حفيظتي. . . ليتني أستطيع أن اطردهم. . . إن الحزن ليضيّق علي الخناق وبصورة خاصة، عندما يخطر لي أن أحدهم ربما كان قد زار المقبرة للمرة الأخيرة البارحة إذ أحست بسكون ألمه، ولاحظ أنه يخف من يوم لآخر، وهو يعود من مدينة الأموات فعاد منها لا يتألم. . . واستيقظ مع

الصباح باسماً!. . . آه. . .!

كم أبغض أولئك الذين يستعيدون ابتسامهم!!!

هل يأتي يوم استعيد فيه أنا أيضاً ابتسامي؟. . . وأنسى؟. . . أن ذكرى شبابي لا تكاد تفارقني: إني لأرى نفسي وقد اجتزت الغابة إلى جانبها. . . كان لابد لي أن أكون سعيداً جداً، وقد كنت بالفعل سعيداً جداً. . . ولكن هنالك لحظات تلتهم في أحشائها كل شيء، تلتهم المستقبل والماضي لأنهما الخلود نفسه!

لم اكن قط من أولئك المتنزهين الهادئين الذين يعبرون الطريق، ويتوغلون في الحقول، ويتمددون بلطف في ظلال الدوح، ليستروحوا النسمات البليلة التي ينعشهم بها صباح منوّر كلا! لم أكن من هؤلاء، وإنما كنت أتسلّق الأشجار، لاستكشف آفاقاً أوسع، وكنت أشاهد الطريق إذ ذلك تتوارى في السهول البعيدة، حيث يحتضر الربيع. . .

في هذه الغرفة، وإزاء هذه النافذة ذاتها، التصقت بي ذات يوم، أخذت تعانقني وتقبلني. . . رعشة باردة هزتني. . . الدقائق، الساعات، الأيام، السنون، كل ذلك طفق يهرب مسرعاً، مسرعاً. . . انتهى عهدنا، دب إلينا الهرم. . . أدركتنا النهاية. . . مثل هذه الأفكار كنت ادنّس حبنا، باعترافي بقابليته للزوال والفناء، وهكذا كنت ادنّس ألمي الآن، بتفكيري بأنه قد يأتي يوم استعيد فيه ابتسامي!

ولكن من هو هذا الرجل، ذو الشعور والنظرات الكئيبة؟ ومن يبكي؟. . . انه ليزور كل يوم ضريحاً بجوار ضريح امرأتي. . . وانه ليلفت أنظاري إليه، لأني لم استطع أن أبغضه كالآخرين. . . إنه يأتي كل يوم قبلي، ولا يفارق موقفه حتى بعد ذهابي. . . وقد اكن من الممكن إلا اشعر بوجوده لو لم ألمحه ذات يوم يرمقني بحنان زائد، اربكني وأزعجني. . . فتفرست في وجهه، ولكنه حوله عني شيئاً فشيئاً، ثم راح يبتعد وهو محاذ للجدار. . . من المرجح أنني عرفته قبل اليوم. . . إن وجهه ليس غريباً عني. . . أين رايته إذن؟. . . في سفر؟. . . في مسرح من المسارح أو شارع من الشوارع؟. . . يخيل إلي انه يشعر بحزني بصورة غريزية. ولعل حزناً كحزني يمضه. . . هذا الافتراض يفسر نظراته التي لا أجد إلى نسيانها من سبيل. . . انه شاب وجميل!

ها قد جلست مرة أخرى إلى منضدتي، أزهار ذابلة تكتنف رسم المرأة التي كانت قرينتي،

بل سعادتي، بل دنياي!. . . بدأت افهم الأشياء وأقدرها. . . الأيام التي عشتها أخيراً غشّت على عقلي. . . ولكني انتهيت بأن وجدت نفسي. . .

للمرة الأولى منذ شهر، عزمت على أن اشغل نفسي بشيء، أن التمس مكتبتي، أن أنظر في بعض الأوراق، أن أفكر. . . ولكني لم افعل شيئاً من ذلك. . . بل عدت إلى المقبرة. . . كان الليل قد شرع ينشر أجنحة السوء، ولم يكن في المقبرة أحد. . . للمرة الأولى جثوت على ضريحها، وطفقت اقبل الأرض التي حنت عليها فوارتها بين تضاعيفها. . . أخذت أبكي: نعم بكيت لا صوت. . . لا نأمة. . . صمت رهيب. . . هواء ساكن، بارد. . . ثم نهضت التمس الخروج بين صفوف الأضرحة من جهة الكنيسة. . . لا أحد. . . كان القمر يسكب ضوئه على الصلبان والأحجار بصورة لا يمكن أن يفوتني معها وجود شخص ما. . . فلما هممت بالذهاب، صادفت امرأة في نقاب الحزن، وفي يدها منديل. . . إني أعرف النساء. . . كانت الطريق العريضة المؤدية إلى المدينة بيضاء تحت أشعة القمر، وكنت اسمع وقع خطواتي، لم يكن هنالك من يتبعني، وهكذا بلغت منفرداً أطراف المدينة حيث استقبلتني منازل الضواحي، والفنادق، وتردّدت في أذني أصداء الجلبة والضوضاء. . .

أشعر بشيء من التحسن في حالتي. . . الآن وقد عدت، أحس برغبة ملحة ذهبت عن

خاطري منذ عهد طويل، أحس برغبة قوية لفتح نافذتي، لأسمع جلبة الشارع، بل لأسمع أصواتاً بشرية، ولكن الليل شاخ وصمت. . . وأناملي تكاد تجمد وأنا أخط هذه السطور. . . والضوء يضطرب رغم سكون الهواء. . .

كنت مستنداً إلى جدار المقبرة وكانت تحجبني عنه صفصافة ضخمة، وقد بكّرت كثيراً لأكون الأول، فأدركت المقبرة وفي غرفة الحضار مصباح. . . توافد بعدي كثيرون، نساء على الأخص. . . وفجأة. . . هو. . .!

اقترب بهدوء من المكان المعتاد، بعينيه الواسعتين، الحزينتين، ثم جثا على قدميه، فبذلت قصارى جهودي لأراه جيداً. . . وإذا به يجثو على ضريح امرأته!!!

إنقطعت عن كل حركة. . . وشعرت بأنفاسي تتردد لاهفة، متقطعة!. . . وأحسست بأصابعي تتشنج على أغصان الصفصافة. . . مرت دقائق لم يكن يصلي. . . ولم يكن يبكي. . . وأخيراً نهض وراح يطوف بين الأضرحة بدون وجهة معينة كما كان من عادته أن يفعل. . . فاقتربت من الضريح، ووقفت على مقربة منه مستنداً إلى حاجز حديدي يكتنف ضريحاً آخر، وإذا به يعود من ناحيتي وينظر إليّ بهدوء. . . ثم يستأنف سيره. . . ويمر. . . أردت أن أتقدم منه وان أسأله، ولكني لم افعل بل ظللت أشيّعه بأنظاري زمناً طويلاً إلى أن اختفي وراء الكنيسة. . .

لا أعرف بماذا كنت اشعر، ولا أعرف بماذا اشعر الآن! ولكن سيأتي يوم، ربما كان غداً أراه فيه، وأستفسره وأعرف كل شيء!

آه يا لها من ليلة! لا أجد إلى الرقاد فيها من سبيل! أن الساعة لما تزل دون الواحدة بعد. . . فلماذا لا أعود إلى المقبرة؟ ولكن ماذا أستطيع أن افعل هناك. . . إلا بضع ساعات صبر! بضع ساعات فقط، وجنوني يعرف له حداً. . . ويتضح كل شيء اجل على ضريح امرأتي! هنالك رايته مرة ثانية!

كنت على خطوات ممدودة منه، فلماذا لم انقضّ عليه؟ ولماذا لم اقطع عليه الطريق عندما شاهدته يبتعد؟

أليس من حقي أن أسأله عن اسمَه؟ وممن أستطيع أن استفهم إذا لم استفهم منه؟ حين حاول تخطي الباب تبعته، ولكن يظهر انه أحس بي اجل لست مخطئاً. لابدّ أن أحسَ بي، إذ حث خطاه مسرعاً، فحثثت خطاي أنا كذلك. ولكني عندما أدركت الباب كان قد غاب عن ناظري، ثم لم ألبث أن أبصرته ثانية يستقل سيارة، حتى إذا صعد إليها انطلقت تعدو به مسرعة. . . ولم تكن هنالك سيارة أخرى، فطاردته راجلاً، ولكنه لم يلبث أن بعد عني كثيراً، فوقفت أشيعه بنظراتي مدة غير قصيرة. كانت الطريق مستقيمة، فما زلت أراقبه عن بعد حتى اختفت السيارة، وتوارت عن الأبصار. . .

من هذا الرجل الذي يجثو على ضريح امرأتي؟ ومن يكون لها؟ كيف أعرف ذلك؟ وكيف أراه ثانية؟ آه. . . إن ماضيّ بأسره ليتفكك ويتحدد. . . إن ماضيّ بأسره لتعبث به يد المسخ والتشويه!

هل أنا مجنون؟ أم من الممكن أن لا تكون قد أحبتني؟. . . ألم تكن تقف وراء هذا الكرسي؟. . . وتضع شفاهها على جبيني؟ وتلف ذراعيها حول عنقي؟. . . ألم نكن سعيدين معاً؟ ولكن من يكون هذا الشاب الأشقر الجميل، إذن؟. . . ولماذا بدأ لي أن محياه

ليس غريباً عني؟. . . أنه ليخيل إلي الآن أني شاهدته مراراً في المسارح والمغاني، جالساً تجاهنا، ونظره عالق بامرأتي لا يكاد يحيد عنها!. . . ألم يكن هو الذي وقف ذات يوم عند مرور سيارتنا، وتبعنا زمناً طويلاً بنظراته؟ من هو إذن؟ من هو؟ من؟. . . أيكون عاشقاً (أفلاطونياً) لم تعرفه هي؟ ولن تمل إليه قط؟. . . لو كان الأمر كذلك لعرفته أنا أيضاً، إذ كان لابد له أن يبحث عن وسائل يرانا بها في المجتمعات، ويتحدث إلينا. . . ولكن كلا. . . لعّله كان يحذرني. فتعرّف على امرأتي ولم يتعرف علي، وتبعها في الشوارع وتجرأ على توقيفها. . . كلا!. . . لو جرى شيء من ذلك لكانت أعلمتني به. . . ولكن هل كانت تعلمني به؟. . . أليس من الممكن أن تكون أحبته؟. ولكنها كانت تحبني!. كانت تحبني؟. من أين لي هذه الثقة؟ إلا إنها كانت تقول لي ذلك؟. جميع النساء يقلن ذلك! والخبيثات يسرفن فيه أكثر من الطاهرات أوه! لابد لي من إيجاده والاستفسار منه. ولكن إذا كانت قد أحبته، فبماذا يجيبني؟ أني أزور ضريحها لأني كنت أحبها، ولكنها لم تعرف ذلك قط! وهل أستطيع أن أضطره إلى الاعتراف

بالحقيقة؟ فما العمل إذن؟
وهل أستطيع أن أستأنف الحياة على هذه الصورة؟ لم أشاهده طيلة ثلاثة أيام. كنت أذهب كل يوم ولكنه لم يكن يأتي. . . الحفَّارون يجهلون أسمه، لا يعرفه أحد. . . لعله سافر. ولكنه لابد له أن. . . لابد له أن. . . وإذا كان قد توفي وإذا كان قد توفي؟ لأنه لا يستطيع أن يحيى بدونها! أه. إن هذا الافتراض ليبعث على الضحك، أيكون هنالك رجل أخر لا يستطيع أن يحيا بدونها؟
ليس لي سوى رغبة واحدة، وهي أن أقول له: سيدي المحترم، لا تذهب في تفجعك . . .عليها إلى هذا الحد، إذ من المحقق أنها أحبتني أنا أيضاً!) أريد أن أجعله غيوراً
قذفت برسمها تحت منضدتي. . . هو ذا في وسط الغرفة، على الأرض بين رسائلها المبعثرة، بين تلك الرسائل التي كانت تحفظها في خزائنها وأدراجها. . . فتحتها كلها، ونبشت فيها. . . ماذا وجدت؟. . . رسائل كنت بعثت بها إليها. . . وأزهاراً كنت قدمتها . . .إليها. . . وأشرطة حريرية. . . وتذكارات
لعل بين تلك الأزهار زهرة مقدمة من قبله. . . كيف الوصول إلى معرفة ذلك؟. . . وماذا كنت أبغي العثور عليه؟. . . وهل تحتفظ المرأة بشيء يمكن أن يخونها ذات يوم؟
أفرغت جيوبها. . . قلبت أثوابها. . . باحثاً. . . منقباً. . . عن ورقة رقيقة تكون قد نسيتها سهواً. . . ولكنها لم تكن قد نسيت شيئاً!
لم أعد بعد ذلك إلى المقبرة وأصبحت أرتجف لمجرد التفكير بمشاهدة ذلك الضريح مرة أخرى!
أحيا الآن ساعات أخف وطأة من قبل، لأن الأيام الأولى قد عبرت دون أن يصاب عقلي بخلل، فعليّ أن أمتنع بعدم إمكان معرفة الحقيقة أبداً.
كم أحسد الرجال الذين يعرفون أن نساءهم تخونهم، إذ أنهم متأكدون من مصيبتهم على الأقل! وكم أحسد أولئك الذين إذا أمضهم الشك، استطاعوا أن يراقبوا نساءهم، على رجاء أن تخونهن كلمة، أو نظرة، أو حركة، أو إشارة!
أما أنا فقد قضي علي ألا أستطيع شيئاً من ذلك قط، لأن الضريح أبكم لا يبدي ولا يعيد!
ويتفق لي أحياناً أن أهبّ في الليل من نومي، مذعوراً، يرهقني كابوس هائل لعلني دنست ذكرى امرأة طاهرة، وزوج مخلصة! أه!. . لو أستطيع أن أحب ذكرى تلك المرأة التي منحتني ذلك المقدار العظيم من السعادة!
وأه! لو أستطيع أن أبغض ذكرى تلك المرأة التي خانتني، وعبثت بشرفي وكرامتي! أعدت رسمها إلى منضدتي. رفعته من الأرض ووضعته في مكانه المعتاد. ولكن لماذا لا أستطيع أن أعبدها و. . . أن أجثو أمام رسمها كما أجثو أمام رسم قديسة، وأجهش في البكاء؟
ولماذا لا أستطيع أن أحتقرها؟ وأن أمزّق هذا الرسم؟ وأن أدوسه بنعالي؟
طيلة ليال عديدة لبثت أحدق النظر في هاتين العينين الصامتتين، الباسمتين، المحاطتين بالرموز والألغاز!
ايزاك شموس
العدد 462 - بتاريخ: 11 - 05 - 1942
. . .وهذا كتاب
قال لي صديق منذ شهرين: أن العقاد يخرج كتاباً عن محمد. فقلت له: ذلك ما تتمناه الناس وتوقعناه نحن منذ أخذ العقاد يعالج بعض هذا الموضوع في (الرسالة). ولعل هذا الكتاب يكون الأول في بابه؛ لأن العقاد صاحب جد وصراحة؛ فهو لا يتكلف مالا يحسن، ولا يحسن ما لا يعتقد، ولا يعتقد ما لا يسوغ في المنطق. وإذا كان الذين كتبوا عن محمد إنما كتبوا للدين أو للدنيا أو للأدب أو للهوى، فإن العقاد لم يكتب إلا للعقل. وإذا استراب أكثر الناس بأكثر هذه الكتب لأن صاحب الدين موافق وصاحب الدنيا منافق وصاحب الأدب خدَّاع وصاحب الهوى متعصب، فإن القُراء على اختلاف ثقافاتهم وديانـاتهم سيُخْلدون بثقتهم إلى العقاد لأنه سيكتب غير ما كتب هؤلاء جميعاً.
ثم قدرت في نفسي النواحي البكر التي سيطرقها العقاد من هذا العالم الأعظم فكأنما قدَّرت عن تلقين الغيب: قدَّرت أنه لن يكتب ترجمة ولا سيرة ولا قصة، لأن

الناس في القديم والحديث، وفي الشرق وفي الغرب، لم يكتبوا غير ذلك؛ وذلك الذي كتبوه إنما كان مداره على الوحي والرسالة والمعجزة والدعوة، وإدراك العظمة أو العبقرية في هذه الأمور موقوف على الأيمان بها؛ فلو أن امرأً غير مسلم حاول أن يستشف من خلال ما ينكر من هذه الصور الإسلامية صورة محمد في نفسه، لما وجد فيما بقى على الهامش أو علِق بالإطار ما يقنعه بأن محمداً لو لم يكن أعظم الرسل بدينه، لكان أعظم الأبطال بخلقه.

فصورة محمد في نفسه هي الناحية التي طوّف حولها الرُّوَّاد ولم يدخلوا، وحوَّم فوقها الورَّاد ولم ينزلوا؛ وهي التي قدَّرتها على التخمين في خطة العقاد، ثم قرأتها على اليقين في (عبقرية محمد). وأشهد الله أني لو مضيت على المخيَّل فيما أكتب عن هذا الكتاب لما كذبني الضن، ولا أخطأني الصواب. ذلك لأن العقاد كاتب مؤمن بالعقل والرجولة؛ فإذا درسته أو قرأته على ضوء هذا الأيمان تكتشف لك عن منطق فحل لا يتناقض في الرأي ولا يتعثر في الأداء، ولا يتكثر باللغو، ولا ينزل عن طبقته حتى في المقاصد المبتذلة والمعاني المطروقة. وإيمانه بالعقل والرجولة هو الذي بعثه على أن يكتب كتابين في أدب ابن الرومي وفي سياسة سعد زغلول على كثرة الأدباء والساسة. فإذا كتب عن محمد فإنما يكتب بوحي هذا الإيمان عن عبقريته (بالمقدار الذي يدين به كل إنسان ولا يدين به المسلم وكفى، وبالحق الذي يثبِّت له الحب في قلب كل إنسان وليس في قلب المسلم وكفى)،

(وبالقياس الذي يفهمه المعاصرون، ويتساوى في إقراره المسلمون وغير المسلمين) ليقيم البرهان على أن محمداً عظيم في كل ميزان: عظيم في ميزان الدين، وعظيم في ميزان العلم، وعظيم في ميدان الشعور، وعظيم عند من يختلفون في العقائد ولا يسعهم أن يختلفوا في الطبائع الآدمية)

والحق الذي لا تجوَّز فيه أن كتاب (عبقرية محمد) هو التفسير الملهَم المحكم لقول الله تعالى لنبيه الكريم: (وأنك لعلى خلق عظيم). ولا يدهشنك أن أقول أن شهادة الله لرسوله بعظمة الخلق ظلت مجهولة الغور والمدى والدلالة في التفسير والتاريخ حتى جاء العقاد فصورها بأبعادها وحدودها وألوانها وسماتها كأنطق ما يكون المثال وأصدق ما تكون الحجة. هل تجد معنى من معاني الأخلاق فني في شرحه وتشريحه من الريق والمداد على طول القرون ما فني في معنى الصَداقة والصديق؟ ومع ذلك تقرأه في فصل (محمد الصديق) من كتاب العقاد فتجده معنى من معاني العظمة لم يتمثل في ذهن كاتب من قبل على هذه الصورة. أقرأ قوله على سبيل المثال: (. . . وهنا أيضاً قد تمت لمحمد معجزته التي لم يضارعه فيها أحد من ذوي الصداقات النادرة. فأحدقت به نخبة من ذوي الأقدار تجمع بين عظمة الحسد وعظمة الثروة وعظمة الرأي وعظمة الهمة؛ وكل منهم ذو شأن في عظمته تقوم عليه دولة وتنهض به أمة - كما اثبت التاريخ من سيرة أبي بكر وعمر وخالد وأسامة وابن العاص والزبير وطلحة وسائر الصحابة الأولين - وربما عظم الرجل في مزية من المزايا فأحاط به الأصدقاء والمريدون من النابغين في تلك المزية، كما أحاك الحكماء بسقراط القادة بنابليون بل ربما أحاط الصالحون بالنبي العظيم كما أحاط الحواريون بالمسيح عليه السلام وكلهم من معدن واحد وبيئة متقاربة. أما عظمة العظمات فهي تلك التي تجلب إليها الأصحاب النابغين من كل معدن ومن كل طراز؛ وهي التي يتقابل في حبها رجال بينهم من التفاوت مثل ما بين أبي بكر وعلي، وبين عمر وعثمان، وبين خالد ومعاذ، وبين أسامة وأبن العاص: كلهم عظيم، وكلهم مع ذلك مخالف في وصف العظمة لسواه.

تلك هي العظمة التي اتسعت آفاقها وتعددت نواحيها حتى أصبحت فيها ناحية مقابلة لكل خلق، وأصبح فيها قطب جاذب لكل معدن، وأصبحت تجمع إليها البأس والحلم، والحيلة والصراحة، والألمعية والاجتهاد، وحنكة السن وحمية الشباب.

(تلك هي بلا ريب عظمة العظمات، ومعجزة الأعجاز في باب الصداقات)

ذلك سمو العقاد في المطروق المبتذل، فما ظنك به حين يعالج الأحرار الأبكار من معاني العبقرية المحمدية في السياسة والإدارة والرياسة والبلاغة؟ أما تحليله البراعات الخلقية والنفسية في محمد الزوج والأب والسيد والعابد، ودفعه الشبهات المريضة عن دعوة الرسول وعظمته في تحكيم السيف وتحليل الرق وتعدد الزوجات،

فغاية الغايات في دقة الفهم وشدة الحِجاج وقوة الأسلوب. ولولا أن العقاد أدركه نسيان الإنسان فأراد غار ثور وكتب غار حراء، لقلت أن كتابه قبس من الوحي نزل عليه من السماء!

احمد حسن الزيات

. . .رفع عيسى

للأستاذ محمود شلتوت

ورد إلى مشيخة الأزهر الجليلة من حضرة عبد الكريم خان بالقيادة العامة لجيوش الشرق الأوسط سؤال جاء فيه: (هل (عيسى) حي أو ميت في نظر القران الكريم والسنة المطهرة؟ وما حكم المسلم الذي ينكر انه حي؟ وما حكم من لا يؤمن به إذا فرض انه عاد إلى الدنيا مرة أخرى؟). وقد حول هذا السؤال إلى فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمود شلتوت عضو جماعة كبار العلماء فكتب ما يأتي:

. . . أما بعد، فان القرآن الكريم قد عرض لعيسى عليه السلام فيما يتصل بنهاية شانه مع قومه في ثلاث سور:

1 - في سورة آل عمران قوله تعالى: (فلما أحس عيسى منهم الكفر قال: من أنصاري إلى الله؟ قال الحواريون: نحن أنصار الله آمنَّا بالله، واشهد بأنّا مسلمون: ربَّنا، آمنَّا بما أنزلت واتّبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين. ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين؛ إذ قال الله: يا عيسى، أنى متوفيك ورافعك إليَّ ومطهّرك من الذين كفروا، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة، ثم إليَّ مرجعكم فاحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون): 52 - 55

2 - وفي سورة النساء فوله تعالى: (وقولهم: إنّا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله، وما قتلوه وما صلبوه، ولكن شبه لهم، وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه، ما لهم به من علم إلا اتباع الظن، وما قتلوه يقيناً، بل رفعه الله إليه، وكان الله عزيزاً حكيما): 157 - 158

3 - وفي سورة المائدة قوله تعالى: (وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم: أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟ قال: سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق، أن كنت قلته فقد علمته، تعلم ما في نفسي ولا اعلم ما في نفسك، انك أنت علام الغيوب. ما قلت لهم إلا ما أمرتني به: أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد): 116 - 117

هذه هي الآيات التي عرض القرآن فيها لنهاية شأن عيسى مع قومه، والآية الأخيرة (آية المائدة) تذكر لنا شأناً أخرويَّاً يتعلق بعبادة قومه له ولأمه في الدنيا وقد سأله الله عنها وهي تقرر على لسان عيسى عليه السلام أنه لم يقل لهم إلا ما أمره الله به: (اعبدوا الله ربي وربكم)؛ وإنه كان شهيداً عليهم مدة إقامته بينهم، وإنه لا يعلم ما حدث منهم بعد أن (توفاه الله)! وكلمة (توفي) قد وردت في القرآن كثيراً بمعنى الموت حتى صار هذا المعنى هو الغالب عليها المتبادر منها، ولم تستعمل في غير هذا المعنى إلا وبجانبها ما يصرفها عن هذا المعنى المتبادر: (قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم. إن الذين توافهم الملائكة ظالمي أنفسهم. ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة. توفته رسلنا. ومنكم من يتوفى. حتى يتوفاهن الموت. توفني مسلماً وألحقني بالصالحين)

ومن حق كلمة (توفيتني) في الآية أن تحمل على هذا المعنى المتبادر وهو الإماتة العادية التي يعرفها الناس ويدركها من اللفظ ومن السياق الناطقون بالضاد. وإذن فالآية لو لم يتصل بها غيرها في تقرير نهاية عيسى مع قومه لما كان هناك مبرر للقول بان عيسى حي لم يمت.

ولا سبيل إلى القول بان الوفاة هنا مراد بها وفاة عيسى بعد نزوله من السماء بناء على زعم من يرى انه حي في السماء، وإنه سينزل منها آخر الزمان، لان الآية ظاهرة في تحديد علاقته بقومه هو لا بالقوم الذين يكونون آخر الزمان وهم قوم محمد باتفاق لا قوم عيسى.

أما آية النساء فإنها تقول (بل رفعه الله إليه) وقد فسرها بعض المفسرين بل

جمهورهم بالرفع إلى السماء، ويقولون: إن الله ألقى على غيره شبهه، ورفعه بجسده إلى السماء، فهو حي فيها وسينزل منها آخر الزمان، فيقتل الخنزير ويكسر الصليب، ويعتمدون في ذلك:

أولا: على روايات تفيد نزول عيسى بعد الدجال، وهي روايات مضطربة مختلفة في ألفاظها ومعانيها اختلافاً لا مجال معه للجمع بينها؛ وقد نص على ذلك علماء الحديث. وهي فوق ذلك من رواية وهي بن منبه وكعب الأحبار وهما من أهل الكتاب الذين اعتنقوا الإسلام وقد عرفت درجتهما في الحديث عند علماء الجرح والتعديل.

وثانياً: على حديث مروي عن أبى هريرة اقتصر فيه على الإخبار بنزول عيسى؛ وإذا صح هذا الحديث فهو حديث آحاد. وقد أجمع العلماء على أن أحاديث الآحاد لا تفيد عقيدة ولا يصح الاعتماد في شأن المغيبات.

وثالثاً: على ما جاء في حديث المعراج من أن محمداً صلى الله عليه وسلم حينما صعد إلى السماء وأخذ يستفتحها واحدة بعد واحدة فتفتح له ويدخل، رأى عيسى عليه السلام هو وابن خالته يحيى في السماء الثانية. ويكفينا في توهين هذا المستند ما قرره كثير من شراح الحديث في شأن المعراج وفي شأن اجتماع محمد صلى الله عليه وسلم بالأنبياء وأنه كان اجتماعياً روحياً لا جسمانياً (انظر فتح وزاد المعاد وغيرها) ومن الطريف أنهم يستدلون على أن معنى الرفع في الآية هو رفع عيسى بجسده إلى السماء بحديث المعراج بينما ترى فريقاً منهم يستدل على أن اجتماع محمد بعيسى في المعراج كان اجتماعاً جسدياً بقوله تعالى: (بل رفعه الله إليه) هكذا يتخذون الآية دليلاً على ما يفهمونه من الحديث حين يكونون في تفسير الحديث، ويتخذون الحديث على ما يفهمونه من الآية حين يكونون في تفسير الآية!

ونحن إذا رجعنا إلى قوله تعالى: (إني متوفيك ورافعك إلي) في آيات آل عمران مع قوله: (بل رفعه الله إليه) في آيات النساء وجدنا الثانية إخباراً عن تحقيق الوعد الذي تضمنته الأولى، وقد كان هذا الوعد بالتوفية والرفع والتطهير من الذين كفروا، فإذا كانت الآية الثانية قد جاءت خالية من التوفية والتطهير، واقتصرت على ذكر الرفع إلى الله فإنه يجب أن يلاحظ فيها ما ذكر في الأولى جمعاً بين الآيتين.

والمعنى أن الله توفى عيسى ورفعه إليه وطهره من الذين كفروا. وقد فسر الآلوسي قوله تعالى: (إني متوفيك) بوجوه منها وهو أظهرها (إني مستوفي أجلك ومميتك حتف أنفك لا أسلط عليك من يقتلك؛ وهو كناية عن عصمته من الأعداء وما هم بصدده من الفتك به عليه السلام لأنه يلزم من استيفاء الله أجله وموته حتف أنفه ذلك) وظاهر أن الرفع الذي يكون بعد التوفية هو رفع المكانة لا رفع الجسد خصوصاً وقد جاء بجانبه قوله: (ومطهرك من الذي كفروا) مما يدل على أن الأمر أمر تشريف وتكريم. وقد جاء الرفع في القرآن كثيراً بهذا المعنى: (في بيوت أذن الله أن ترفع. نرفع درجات من نشاء. ورفعنا لك ذكرك. ورفعنا مكاناً علياً. يرفع الله الذين آمنوا) الخ. . . وإذن فالتعبير بقوله (ورافعك إلي) وقوله: (بل رفعه الله إليه) كالتعبير في قولهم: (لحق فلان بالرفيق الأعلى) وفي (إن الله معنا) وفي (عند مليك مقتدر) وكلها لا يفهم منها سوى معنى الرعاية والحفظ والدخول في الكنف المقدس. فمن أين تؤخذ كلمة السماء من كلمة (إليه)؟ اللهم أن هذا لظلم للتعبير القرآني الواضح خضوعاً لقصص وروايات لم يقم على الظن بها فضلاً عن اليقين برهان ولا شبه برهان!

وبعد فما عيسى إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، ناصبه قومه العداء، وظهرت على وجوههم بوادر الشر بالنسبة إليه، فالتجأ إلى الله شان الأنبياء والمرسلين فأنقذه الله بعزته وحكمته وخيب مكر أعدائه. وهذا هو ما تضمنته الآيات (فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله) إلى آخرها، بَّين الله فيها دقة مكره بالنسبة إلى مكرهم، وأن مكرهم في اغتيال عيسى قد ضاع أمام مكر الله في حفظه وعصمته (إذ قال الله يا عيسى أني متوفيك ورافعك ومطهرك من الذين كفروا) فهو يبشره بإنجائه من مكرهم ورد كيدهم في نحورهم، وأنه سيستوفى أجله حتى يموت حتف أنه من غير قتل ولا صلب، ثم يرفعه الله إليه. وهذا هو ما يفهمه القارئ للآيات الواردة في شأن نهاية عيسى مع قومه متى وقف على سنة الله مع أنبيائه حين يتألب عليهم خصومهم،

ومتى خلا ذهنه من تلك الروايات التي لا ينبغي أن تحكم بالقرآن، ولست أدري كيف يكون إنقاذ عيسى بطريق انتزاعه من بينهم ورفعه بجسده إلى السماء مكراً؟ وكيف يوصف بأنه خير من مكرهم مع أنه شيء ليس في استطاعتهم أن يقاوموه، شيء ليس في قدرة البشر! ألا أنه لا يتحقق مكر في مقابلة مكر إلا إذا كان جارياً على أسلوبه غير خارج عن مقتضى العادة فيه. وقد جاء مثل هذا في شأن محمد صلى الله عليه وسلم (وأذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلونك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين)

والخلاصة من هذا المبحث:

1 - أنه ليس في القرآن الكريم ولا في السنة المطهرة مستند يصلح لتكوين عقيدة يطمئن إليها القلب بأن عيسى رفع بجسمه إلى السماء وأنه حي إلى الآن فيها وأنه سينزل منها آخر الزمان إلى الأرض.

2 - أن كل ما تفيد الآيات الواردة في هذا الشأن هو وعد الله عيسى بأنه متوفيه أجله ورافعه إليه وعاصمة من الذين كفروا، وأن هذا الوعد قد تحقق فلم يقتله أعداؤه ولم يصلبوه، ولكن وفاه الله اجله ورفعه إليه.

3 - أن من أنكر أن عيسى قد رفع بجسمه إلى السماء وانه فيها حي إلى الآن وانه سينزل منها آخر الزمان فنها لا يكون بذلك منكراً لما ثبت بدليل قطعي فلا يخرج عن إسلامه وإيمانه، ولا ينبغي أن يحكم عليه بالردة، بل هو مسلم مؤمن، إذا مات فهو من المؤمنين يصلي عليه كما يصلى على المؤمنين ويدفن في مقابر المؤمنين ولا شية في إيمانه عند الله والله بعباده خبير بصير.

أما السؤال الأخير في الاستفتاء وهو (ما حكم من لا يؤمن به إذا فرض انه عاد مرة أخرى إلى الدنيا) فلا محل له بعد الذي قررناه ولا يتجه السؤال عنه والله أعلم.

محمود شلتوت

خصومات أدبية!

للأستاذ توفيق الحكيم

من كان يتصور أن دعوتي إلى الصفاء بين الأدباء تثير خصومات أو ذكريات عن خصومات! فلقد كتب الأستاذ (عباس محمود العقاد) في العدد الماضي من (الرسالة) قصة طريفة أهداها إليَّ. هي الآتية:

(قيل أن الدكتور طه حسين خرج من وظيفته بالجامعة المصرية قبل سنوات. وقيل أنه أثنى على الأستاذ توفيق الحكيم في بعض ما كتب وهو على جفوة مع رؤساء تلك الأيام. وقيل أن الأستاذ توفيق أشفق من مغبة تلك الجفوة فكتب يقول أنه لا يريد مدحاً من أحد. . . وأدرك شهرزاد الصباح أو المساء على قصة أخرى تمثل اليوم مع العقاد لأن خصومته قد تشبه خصومة الدكتور طه حسين قبل سنوات. . .)

والتعليق على هذه القصة الطريفة لا يحتاج إلى عناء. لأن الأساس الذي بنيت عليه وهو شبهة الخصومة بيني وبين العقاد قد أنهار في اليوم ذاته الذي ظهر فيه مقاله. فقد طلع لحسن الحظ عدد مجلة الثقافة في مساء ذلك النهار وفيه تحية مني للعقاد وثناء على كتابه (عبقرية محمد) بما هو أهله.

يضاف إلى ما تقدم أن (ما يدريه العارفون وأوشك أن يدريه غير العارفين) هو أن موقفي اليوم يشبه في كثير من الوجوه موقف العقاد. وأن من بين المجلات والصحف والأقلام ما يعلن تجريحي وخصومتي بمختلف الأسباب لعين الأغراض. بقى بعد ذلك عنصر واحد من عناصر القصة سكت طويلاً عن تجليته ظناً مني أنه لن يؤخذ على سبيل الجد. أما وقد أخذه الأستاذ العقاد على أنه حقيقة، فمن الواجب إذا أن أوضح ولو كان في الإيضاح إساءة للدكتور طه. فإن هذا الوقت هو أحب الأوقات عندي لإساءته لا لإرضائه.

أن حقيقة الخصومة بيني وبين طه حسين في تلك الأيام من عام 1934 كانت خصومة أدبية صرف، ولكن الدكتور طه أراد أن يقحم فيها عنصر السياسة ليظهرني في صورة (يهوذا) ويظهر نفسه في صورة (المسيح). فأخترع تلك القصة اختراعاً ولكن الحقيقة ما لبثت أن ظهرت في اليوم التالي واضحة مبينة.

إلى هنا ينتهي التعليق على هذه القصة. ولكن هنالك قصة أخرى للأستاذ العقاد مهداة إليّ

أيضاً، وربما احتاجت إلى تعليق طويل لأنها تمس قضية أدبية تحدث في جميع الآداب في كل زمان. تلك هي قضية الناقد والكاتب. فقد ذكر الأستاذ العقاد أني أنكر أن الدكتور طه حسين رفع من شأني بما كتب عني. وأنا حقاً أنكر ذلك كل الإنكار ومن يحرص على كرامة الفن لا يسعه أن يقول غير هذا القول. فما من مخلوق على الأرض يرفع أو يخفض من شأني غير فني ولما ترجم هذا الفن أو بعضه إلى لغات أجنبية وجد من أعلام نقادها من يرفع شانه كما وجد في اللغة العربية طه وأمثاله. فألفن هو الذكي يكرم نفسه أو يمتهنها في كل مكان أو زمان يحل فيهما. حقاً أن طه حسين أستقبل كتاب أهل الكهف استقبالاً رائعاً، لكن لا ينبغي أن ننسى غيره. فبمراجعة تاريخ الحوادث يتضح أن أول من نوه بالكتاب تنويهاً جميلاً كان الشيخ مصطفى عبد الرزاق ثم الأستاذ المازني ثم الأستاذ العقاد على هذا الترتيب. ولعل العقاد قد أشار في نقده إلى انتفاع بعض المؤلفين الأوربيين بجوهر الأسطورة (أهل الكهف) تهمة الاقتباس أو النقل عن الأجانب وأظنه فضلها من حيث طريقة التصرف على ما قرأ في بعض اللغات عن فكرة القصة. فلما أطمئن طه حسين إلى آراء هؤلاء أقبل فصاح صيحته المشهورة كأنها صيحة (يوحنا المعمدان) وهو يبشر بالمسيح. فقد قال بهذا النص: (أما قصة الكهف) فحادث ذو خطر، لا قول في الأدب العصري وحده. بل أقول في الأدب العربي كله. وأقول هذا في غير تحفظ ولا احتياط. ولا أقول هذا مغتبطاً به مبتهجاً له. وأي محب للأدب العربي لا يغتبط ولا يبتهج حين يستطيع أن يقول وهو واثق بما يقول أن فناً جديداً قد نشأ فيه وأضيف إليه. وأن باباً جديداً قد فتح للكتاب وأصبحوا قادرين على أن يلجوه وينتهوا منه إلى آماد بعيدة رفيعة ما كنا نقدر أنهم يستطيعون أن يفكروا فيها الآن. نعم هذه القصة حادث ذو خطر يؤرخ في الأدب العربي عصراً جديداً. . . ويمكن أن يقال أنها أغنت الأدب العربي وأضافت إليه ثروة لم تكن له. ويمكن أن يقال أنها قد رفعت من شأن الأدب العربي وأتاحت له أن يثبت للآداب الأجنبية الحديثة والقديمة. . . بل يمكن أن يقال أن الذين يحبون الأدب الخالص من نقاد أجانب يستطيعون أن يقرءوها أن ترجمت لهم، فسيجدون فيها لذة قوية، ويجدون فيها متاعاً خصباً وسيثنون عليها ثناءً عذباً كهذا الذي يخصون به القصص التمثيلية البارعة التي ينشئها كبار الكتاب الأوربيين) وكان لتلك الكلمة أثر قوي ذو دوي لأن طه حسين وضع الأمر كما

رأينا في صيغة التقرير بمذهب جديد. كأنه (سانت بوف) يعلن أمر المذهب الرومانتيكي عند ظهور تمثيليات (هوجو)!! ولنسلم بأن طه حسين هو المشيد الأول بشأن أهل الكهف ومؤلفها. فهل هذا حدث جديد في تاريخ الآداب؟ ألم يصح مثل هذه الصيحة (تورجنيف) عندما استقبل أول أعمال (تولستوي) قائلاً (ظهر كاتب روسيا الأعظم!) أو لم يفعل مثل ذلك (ارنولد بنيت) عندما أشاد بقصة (الدس هاكسلي) بقوله: (هذا كاتب يلحق مباشرة بقصاصي روسيا العظام!) أو لم يصنع هذا (أناتول فرانس) بمذكرات ماري باسكرشيف) عندما أعلن أنها أثر خالد للإنسانية! فإذا هذه الأعمال قد ظهرت ومؤلفوها قد برزوا للعالم بين يوم وليلة. هل أستلزم ذلك التحميل بأثقال الديون والتكبيل بحبال الجميل نحو أشخاص النقاد؟ أو أن الأمر لا يعدو في تلك البلاد أن ناقداً أدى واجبه بأمانة وإخلاص، لا نحو شخص من الأشخاص ولكن نحو آداب وطنه وفن بلاده؟ لم نسمع في غير مصر أن الناقد إذا أثنى على كتاب حسب أنه تفضل على مؤلفه ورفع شأنه من الحضيض. وأن على المؤلف واجباً مقدساً هو أن يشتري من فوره سبحة كيلا ينسى أن يسبح محمداً الناقد أناء الليل وأطراف النهار. شأنه شأن القاضي الذي يصدر حكماً ينقل أحد المتقاضين من الفقر إلى الغنى. فيظل طول يقول في مجالسه. . . أنا الذي أغنيت فلاناً ونقلته من حال إلى حال وخلقته هذا الخلق الجديد. وينسى أنه كان مظهراً لحق هذا الفلان لا أكثر ولا أقل. اللهم أن في هذا لإهداراً لكرامة العدالة وكرامة الفن!

ولكن من الأنصاف أن أقول: أني لا اشك في أن طه حسين كان يصدر حقاً عن عقيدة الناقد الذي يؤدي واجب النقد والفن وحدهما، فلم يكن قد رآني وما كنت قد رأيته، وما كان تصادم الطباع والخصال قد لعب دوراً في تقدير الأمور، وسواء كان طه مخطئاً أو مصيباً في رأيه الذي أبداه، فهذا ليس من شأني ولا من شأن الأشخاص، إنما هو من شئن النقاد ورجال الجامعة والباحثين من هذا العصر ما بعده ممن يعنون بتمحيص

مذهب أستاذ من أساتذة النقد والأدب.
على أني إذا تفرغت للنقد يوماً، فإني أرجو أن أؤدي واجبي بمثل هذه الحرارة والأمانة والقوة نحو آثار طه وغيره من الأدباء؛ وإذا تحقق أملي وأقمت في أوربا بعد الحرب، فسوف يكون من شأني القيام بهذا العمل نحو هذه الآثار في تلك البلاد.
إلى هنا ينتهي ما بيني وبين طه حسين، إذا كانت شؤون الآداب والفن هي حقاً ملك البحث والدرس والزمن والوطن لا ملك الأشخاص.
أما مشاعري الخاصة كإنسان نحو الدكتور طه، فليس الظرف اليوم مواتياً للإطناب في وصفها، وسأختار الزمان والمكان الملائمين للإفاضة بها دون أن يحمل فعلي على غير محمله وأخيراً، أوجه خطابي إلى الأستاذ العقاد قائلاً: (أنك للمرة الأولى تخاطبني بهذه اللهجة التي كنت تخاطب بها (الرافعي) رحمه الله!)
أبهذه السرعة تضع الناس في صف أعدائك؟ لعلك لفرط ما قاسيت من شر الناس، ولقلة ما وجدت من خيرهم، أصبحت مثل (هملت): تستل سيفك لتضرب من خلف الأستار دون الوجوه. فطعنت صديقاً وأنت لا يدري.

توفيق الحكيم

خسرو وشيرين

في التصوير الإسلامي

للدكتور محمد مصطفى

- 4 -

لما رحل خسرو إلى بلاد الروم، ليطلب مساعدة الإمبراطور موريس على بهرام جوبين، ضاق في عيني شيرين ريف أرمينية على اتساع أرجائه، وكثرة ملاهيه، وتنوع ضروب التسلية فيه؛ فرجعت إلى عمتها مهين بانو، حزينة على فراق حبيبها، آسفة لقسوتها عليه، فنشطت عمتها في جلب السرور إلى قلبها، والترويح عن نفسها، وإحاطتها بما ينسيها أحزانها.
وكان خسرو قد نجح - بفضل مساعدة إمبراطور الروم - في استرداد عرش أجداده، وتوّج للمرة الثانية ملكا على إيران، وحكم بالعدل بين رعيته، فصار محبباً إليها. ولكنه لم يجد فيها يحيط بجلال الملك من مباهج الحياة، ما يخفف عنه لوعة الحزن والأسى، التي يشعر بها في قرارة نفسه لغياب شيرين.
وماتت مهين بانو، تلك العمة الطيبة القلب، فصارت شيرين ملكة أرمينية، ولكنها لم تستطع نسيان أحزانها، بل زادت كآبة لما علمت بزواج خسرو من مريم. وأرادت أن تجد العزاء والسلوى في الشعور بقرب حبيبها منها، فرحلت من أرمينية إلى (قصر شيرين) بين الهضاب المرتفعة في إيران، ومعها جمع كبير من صويحباتها وأتباعها، كان بينهم شابور الذي بقى في خدمتها بأمر من صديقه خسرو، يرعاها في وفاء وإخلاص.
ولما وصلت إلى قصر شيرين أرسلت شابور إلى المدائن، بعد أن أوصته ألا يخبر خسرو عن وجودها في قصرها، مخافة أن تعكر عليه صفو حياته الزوجية. ولكن شابور لم يكترث لتحذيرها، وجاء إلى المدائن حيث وجد خسرو فرحاً مسروراً، لتلقيه أنباء مقتل القائد بهرام جوبين، فأخبره بوجود شيرين على مقربة، وزاده بذلك طرباً وحبوراً، ثم رجع إلى قصر شيرين.
وكان لقصر شيرين - بالرغم من كل ما فيه من الاستعدادات العظيمة ملكة أرمينية - نقيصة واحدة، وهي وجود المراعي والأغنام بعيداً عنه، في ناحية الجبل الأخرى، ولهذا السبب لم يكن في استطاعة شيرين أن تحصل على أي مقدار من اللبن. واشتكت من ذلك يوماً ما أثناء وجود شابور، فأخبرها عن مثّال ماهر، واسع الحيلة، كان زميلاً له في أيام الدراسة، اسمه فرهاد، يظن أن في استطاعته أن يذلل هذه العقبة وأن يعمل شيئاً في سبيل إرضاء رغبتها. وذهب شابور فأحضر فرهاد. وما كاد هذا يقف بين يدي شيرين ويتطلع إليها، حتى غمره حبها وتولاه الذهول، فلم يفقه من كلامها شيئاً، واضطر أصدقاؤه بعد ذلك أن يفسروا له رغبتها، وأخذ فرهاد في تنفيذ ذلك بجد واجتهاد، حتى أمكنه بعد شهر واحد أن ينحت في الصخر قناة تخترق الجبل، وتصل بين القصر من ناحية وبين المراعي من الناحية الأخرى. وأخذ رعاة الأغنام يحلبون اللبن ويسكبونه في القناة فيجري فيها إلى القصر، وبذلك صار في إمكان شيرين أن تحصل في صباح كل يوم على ما تحتاج إليه من اللبن الطازج. وأعجبت بهذا العمل الهائل

الذي يفوق مقدرة البشر، فأطنبت في مديح فرهاد، وأرادت أن تكافئه بما يريد من الذهب والأحجار الكريمة، ولكنه أبى أن يأخذ شيئاً، وفر هارباً إلى الصحراء، حيث هام على وجهه كالمجنون.

سمع خسرو بهذا الحب فأرسل من أحضر فرهاد من الصحراء، ولما مثل بين يديه، حاول أن يثنيه عن حبه لشيرين، ولكنه لم يفلح بالوعد ولا بالوعيد أن يزحزحه قيد أنملة بعيداً عن ذلك. وأخيراً عمد خسرو إلى الحيلة، فوعده أن يزوجه شيرين، إذا استطاع أن يشق طريقاً في صخر جبل بيسُتون ظناً منه أن ذلك سيصعب عليه. ولكن فرهاد وافق في الحال، وقبل هذا الشرط، ورحل إلى جبل بيستون، حيث بدأ بنحت لوحة عليها صورة شيرين وخسرو وشبديز، وجعل من صورة شيرين رمزاً لحبيبته، لكي يراها في كل لحظة تطل عليه لترى بنفسها مقدار كده وتعبه وما يبذله من العناء في سبيل الزواج بها، ولكي يلجأ غليها في ساعات فراغه ليبثها غرامه وشقاء قلبه في حبها. وبلغ شيرين ذلك، فجاءت إلى جبل بيسُتون لتسري عن فرهاد، ولكنه عندما فوجئ برؤيتها، كاد أن يفقد صوابه، لفرط ما طغي عليه من سرور، فأشفقت عليه شيرين وأعطته جرعة من شراب، تمكن بها من استعادة صوابه الفاقد، فحدثها عن مبلغ هيامه بها وعن حالته التعيسة.

وفي (شكل1) جاءت شيرين لزيارة فرهاد، وهي راكبة على جواد أصيل، عند ما علمت بما يكنّه لها من الحب المبرح، ونراه هنا - ومعه أدوات النحت - حيث يعمل في الطريق

الذي يشقه بجبل بيسُتون وهو راكع أمامها يرتشف من قَعْب خزفي جرعة من شراب أعطته إياه شيرين لتهدئة ما طغى عليه من الوجدان بتأثير هذه الزيارة المفاجئة. وإلى جوار فرهاد لوحة نحتها في الصخر لتخليد ذكرى فتح هذا الطريق العظيم، وقد نحت في أعلى هذا اللوحة صورة خسرو وهو واقف بين حبيبته شيرين وبين موبذ الموبذان، وفي اسفلها صورته وهو راكب على فرس شبديز. وقد أراد المصور أن يمثل هنا الصورة الشهيرة التي نحتها المثَّال فرهاد في صخور (طَاق بُستان) والتي خلدت لهذا المثال شهرة واسعة.

ونلاحظ في هذه الصورة الغبار الذي يتطاير خلف جواد خسرو .(أنظر الشكل2 القادم) على هيئة السحب الصينية (تشي)، وهذا يدل على مقدار ما بلغه تأثير التصوير الصيني في أسلوب مدرسة شيراز التيمورية في إيران. ومن ميزات أسلوب هذه مدرسة ما نراه في هذه الصورة من الحركة والحياة في رسم المنظر في الهواء الطلق، بخلاف ما كان متبعاً في المدارس السابقة لهذه، من رسم المناظر في داخل المباني وما يقتضيه ضيق المكان من الجمود الذي يظهر في رسم الصور. كما أن رسم الأشجار المورقة المحيطة بالمنظر صار منذ هذا العصر من التقاليد المتبعة في تصوير المناظر الخارجية وهذه الصورة في مخطوط للمنظومات الخمس للشاعر نظامي يمكن تأريخه بين سنتي 813 و823 هجرية (1410 - 1420م)، وهو محفوظ في مجموعة كارتيير بباريس.

وفي (شكل2) النقوش الخالدة التي يقال إن المثّال فرهاد نحتها بداخل كهف الملك خسرو برويز في طاق بستان. ويقع طاق بستان في ناحية الشمال الشرقي من كرمانشاه، في سفح جبل بيستون في مكان ملئ بالخضرة الناضرة والمياه الجارية. ويتألف من عدة كهوف أمر بنحتها بعض ملوك الأكاسرة في صخر الجبل. وينسب أكبر هذه الكهوف للملك خسرو برويز، وفي الحائط لهذا الكهف نحت فرهاد هذه النقوش، فنرى في أعلى الصورة خسرو بين شيرين وموبذ الموبذان، أو كما يقول رأى آخر بين الإلهين هرمز وأناهيب هما يبايعانه بالملك. وفي أسفل الصورة خسرو على جوادهِ شبديز ويذكر أبو عمران الكسروي طاق بستان في الأبيات الآتية

وهم نقروا شبديز في الصخر عبرةً ... وراكبه برويزُ كالبدر طالع
عليه بهاءُ الملك والوافدُ عكّفٌ ... يخال به فجر من الأفق ساطع
تلاحظه شيرينُ واللحظ فاتنٌ ... وتعطو بكف حسَّنتها الأشاجع
يدوم على كر الجديْدين شخصه ... ويلقى قويم الجسم واللون ناصع

ويروي ابن الفقيه أن بعض الملوك اجتاز هناك ونزل وشرب؛ وأعجبه الموضع فاستدعى خلوقا وزعفرانا فخلق وجه شبديز وشيرين والملك فقال بعض الشعراء:

كاد شبديز أن يحمحم لما ... خُلّق الوجه منه بالزعفران
وكان الهمام كسرى وشيري ... ن مع الشيخ موبَذ الموبذان
من خَلُوق قد ضمخوهم جميعاً ... أصبحوا في مطارف الأرجوان
(له صلة)

محمد مصطفى

أمين مساعد دار الآثار العربية

في سبيل إصلاح الأزهر

للأستاذ محمد يوسف موسى

ليس كثيراً على (الرسالة) الغراء وصاحبها الجليل أن يُشغلا بالأزهر وإصلاحه، وليس معنى إفراده بالكتابة ولفته لواجبه أن دون الجامعة فهماً لتبعاته وقياماً بها. ولكن معنى هذا أن الأزهر لمصر وللعالم الإسلامي عامة، كالقلب به صلاحه وقوامه، وكالمنارة تهدي الضال وترشد السفْر بما تبعث من ضوء وهدى. انه الذي يقوم على ثقافة ناشئة الإسلام العالية من الصين في الشرق إلى المغرب الأقصى بأفريقية.

لهذا كان حريًّا بنا إتمام النظر والدرس، والتعمق في التفكير والفحص، لهذه الجامعة التي هي رابطة بلاد الإسلام، لعلنا نقف على الداء ونصيب الدواء، فينهض الأزهر بعد أن طال عليه الأمد وهو وسنان، ويمضي لغايته قُدُماً بعد طوال عثار، ويعود كما كان مصدر العلم النافع والعرفان الذي به ملاك الدين والدنيا.

لا ريب في أن الأزهر تخلف عما يراد عنه، يعرف هذا من اتصل به تلميذاً أو مدرساً، ويشكو منه أبناؤنا وبخاصة غير المصريين الذين تركوا بلادهم خماصاً ليعودوا إليها بطاناً مليئين بالعلوم المجدية، فإذا قلوبهم واجفة خشية أن يرجعوا إلى أوطانهم كما جاءوا إلينا أن أضاعوا زهرة العمر! هذا حق، ولكن ما علة هذا وما أسبابه؟ وهل إذا تبيّنا العلة كان من السهل أن نطبَّ لها ونقتلعها من جذورها؟

اعتقد أنه من الجرأة والمجازفة أن يزعم أحد منا أنه وقف على الداء كله، وعرف له العلاج الشامل الكامل. ومع هذا كان من الواجب أن يدلي كل من تهيأت له الأسباب برأيه، على أن يكون لنا من مجموع هذه الآراء ما يعين على تقويم المعوج ويهيئ السبيل للخير المرجى.

1 - أول ما يلفت النظر فيما نحن بصدده أن طائفة منا تعيش في هذه الأيام بعقلية رجال القرون الوسطى. المدرس لا يعنيه إلا أن يفهم الكتاب المقرر وأن يُفهمه لطلابه؛ فان يسر الله والطلاب له هذا، حمد الله ورأى انه قام بواجبه. ليكن هذا الكتاب مليئاً بالمسائل والمشاكل اللفظية، ومحشواً بغير قليل من الأخطاء العلمية، فذلك لا يغير من وضع المسألة لدى الطلاب وعامة المدرسين، ولا يلفتهم إلى محاولة فهم العلم نفسه والوصول إلى الحق،

سواء أكان في هذا الكتاب أم في غيره!

2 - ثم لا يكاد الكثير منا يحس أن للأزهر رسالة يجب أن يضطلع بها، ودوراً عليه أن ينهض بأعبائه. ولو أننا نفقه رسالتنا ونؤمن بها لما كان في أمورنا هذا الوهن، وفي سُبلنا هذا العوج، ولكُنا اعرف بالإصلاح وأهدى لسبيله، ولأصبنا من النجاح - على الأقل - ما أصاب رجال الجزويت المنبثين في شرق العالم وغربه.

هؤلاء يفهمون رسالتهم التي وهبوها أموالهم وأنفسهم، وهي غرس الدين المسيحي في قلوب من يلون أمر تربيتهم وتثقيفهم، ونشر هذا الدين في جنبات الأرض جميعاً. لهذا يدرسون دينهم دراسة وافية، كما يدرسون الدين الإسلامي كذلك، لعلهم يجدون فيه ثغرة ينفذون منها للدعاية لدينهم. ومع هذه الدراسات الدينية العالية تراهم يشاركون مشاركة طيبة في العلوم الاجتماعية والعمرانية وفي الفلسفة والآداب، ويتوسلون بهذه العلوم كلها ليصلوا إلى ما جعلوه لأنفسهم غرضاً وغاية. وهم في أمورهم عامة مخلصون متفانون، لا يتهيبون عملاً، ولا ينكصون عن تضحية، يأتمرون ويتباحثون ويكيفون أنفسهم ومناهجهم حسب ما توحي به الأيام والمناسبات.

أما نحن معشر الأزهريين فقد جهلنا العالم فأنكرناه ونكرنا، وتجهمنا للعناصر الأخرى التي تتألف منها الأمة فتجهمت لنا، وصرنا نعيش على هامش الحياة لا نحس بالغير ولا يحس بنا، منا من يفهم الدين على إنه شعائر جافة جدية لا وسائل للفلاح والخير! ومن يحذق قواعد النحو وأصول البلاغة، ثم يعسر عليه أن يقيم لسانه بين الناس بأسلوب

فصيح نفاذ للقلوب! ومن يرى الحق فيما قال الغزالي مثلاً وان كان الخطأ فيه بيناً، والإلحاد والكفر فيما ذهب إليه الفلاسفة وإن كان الصواب فيه واضحاً! ومن يعلم الأخلاق ولا يتخلق، والفلسفة ولا يتفلسف، والأصول والفقه ولا يجتهد، وعلم الكلام ولا يستطيع أن يجادل عن الدين خصومه الحاضرين لا من عفت آثارهم الأيام!

وكان من هذا كله، ومن تخلفنا في الطريق، أن تجاهلتنا وزارة المعارف في أمور كان لا يصح فيها التجاهل، وإن أغضينا العين على القذى. اذكر من هذه الأمور ما كان من الوزارة حين الفت لجنة رسمية لتاريخ إعلام الإسلام، في التشريع واللغة والأدب وسائر نواحي النشاط العلمي، فلم يكن فيها أحد من الأزهر! وما يجري هذه الأيام بين سمعنا

وبصرنا من السفارات العلمية بين رجال الجامعة والعراق، دون أن نخطر على البال فيستعان بنا في هذا السبيل! وهكذا صرنا كما قال الشاعر:

ويقضى الأمر حين تغيب تيم ... ولا يستأمرون وهم شهود

أو كما قال الآخر:

مُخلَّفون ويقضي الناس أمرهم ... وهم بغيب وفي عمياء ما شعروا

وثالثة الأثافي توسيد الأمر أحياناً إلى غير أهله، والثقة بمن لا يستحق، ورعاية - 3 جانب الطلاب على حساب العلم. وتفصيل هذا في الكلمة التالية أن شاء الله تعالى.

وإني لأرجو مخلصاً غاية الإخلاص لفضيلة الأستاذ الأكبر الأمام المراغي، وموقناً بأنه خير من يفهم الأزهر ورسالته ويقدر على إصلاحه، والسير به حتى يبلغ الهدف المنشود - أن تكون هذه الكلمة فاتحة لأخريات من إخواني الذين يحسون ما أحس من نقص يجب علاجه وتلافيه وتبعات جسام يجب القيام بها. . . والله الهادي إلى الصراط المستقيم.

محمد يوسف موسى

مدرس بكلية أصول الدين

المدنية والإنسان

(أن المدينة التي لا تصون نفسها من الدمار، لا يمكن أن تصون الإنسان)

للأستاذ حسين الظريفي

كثر الكلام عن عناصر المدنية ومظاهرها، وما لها من فعل وانفعال في كل أبناء الحياة، وكان من البداهة أن يزيد تأمل الإنسان فيما دخل عليه في وسائل معاشه وطرق تفكيره، وفيما وراء ذلك من مظاهر النفس والشعور؛ فالمدنية الحديثة لم تدع شيئاً لم تأخذه بنصيب، من بعيد أو من قريب، فلم تقف عند حد الوسط الذي نشأت فيه، وإنما فاضت عنه إلى خارج الحدود، وإلى ما وراء البحار والجبال وكل حاجز أقامته الطبيعة في قرونها الطوال، ولم تتناول مظهراً واحداً من مظاهر الحياة، وإنما جمعت كل هذه المظاهر ووضعتها في موضع المحو والإثبات، فأخرجت للناس مظاهر جديدة عليها طابع من التفكير الحديث وما يلي التفكير من إرادة ومن عمل، ومن نتائج خطيرة تبطل دونها كل محاولة مقابلة.

على أن صراعاً قام ولم يزل قائماً بين ما وصل إليه العلم الحديث من فهم للحقائق وقيام بالعمل، وبين ما يجر هذا العصر وراءه من تراث عقول خلت منذ أن رأت الأرض أول هلال في الأفق. وما زال الصراع قائماً في حرب تستحرّ هنا وتخف هناك، فتتغير الحقائق وتتبلور ثم تنصب في شكل جديد تؤثر على الناس فيما لديهم من وسائل الحياة، وفيما عندهم من أساليب الفكر والبيان.

لقد كانت تبشرنا المدنية الحديثة بإحلال الرخاء في كافة الأرجاء، وكانت أبلغ كلمة تخرج من أفواهها تلك التي تصور الشعوب في وحدة كاملة شاملة غير متنافرة الأجزاء، تفاهمها دائم، وسعيها وراء الصالح العام.

تلك أمنية تملأ خيال كل مفكر، وتسيل على لسان كل ذي بيان؛ إلا أن مدنيتنا الحديثة كانت تحاول إلهامنا اليقين في قرب حلول الساعة التي يكون فيها الناس أمة واحدة، فشحذت العزائم وانطلقت الجوارح تعمل في هذا الحفل، والجميع يأملون ويعملون.

كان في الإمكان أن يتعارف الناس على غير ما تعارفوا عليه طيلة القرون التي خلت.

فتخرج الشعوب عما رزحت تحت أعبائه من ضيق في ناحية الحقائق وسعة في ناحية الخيال، وتسخر الطبيعة بما فيها من قوى كامنة وساكنة لانتفاع الناس بها بعد أن كانت مصادر الهيلم في وادي الظنون والأوهام.

غير أن المدنية وقد نفذت من المادة إلى داخل النواة فأخرجتها بمظاهر مختلفة فيها منافع للناس، قد وقفت دون المشاعر فلم تأخذهما إلا بطرف يسير، لا تفتأ فيه أن تنقلب إلى ما كانت عليه متى أثيرت في النفوس تلك الغرائز التي تحيا في قاعها، وتعمل على إحياء السيرة التي كان عليها الإنسان في أول عهده بالحياة، فكانت هناك بقية مما يتصل بالروح بعيدة عما هي لصيقة بالمادة، وفي هذه الشقة يضيع التوازن ويحل الاضطراب.

واليوم، وبعد أن قامت الحرب على قدم وساق ولما تزل قائمة تتردد في أسماعنا أصوات الذين أشعلوها وما زالوا يمدونها بالوقود؛ وهي تحمل نغمات الوعد بإحلال السلام بعد إنهاء الحرب وإحراز النصر؛ ولكن فاتهم أن السلام شيء غير مجرد الكلام وأن نزع السلاح لا يضع خيراً ولا يرفع شراً، وأن أصل الداء فيما نحن عليه من عقائد وأفكار وأخلاق تحدث خروقاً كثيرة في مدنيتنا الحديثة.

لقد أردنا من المدنية أن تقينا شرور الطبيعة وأن نجد على راحتها الشفاء من كل داء، ولكن فاتنا أن المدنية التي لا تقدر على حماية نفسها من الدمار لا يمكن أن تصون غيرها مما يخشى الوقوع فيه. وما دامت المدنية لم تكن في تقوى فيه على رد كل يد، تخرج عليها مما حولها ومما عندها، فإن الإنسان ولا ريب غير بالغ ما يريد الوصول إليه من إملاء الحياة بالحياة وطبع الأيام على حد السلام.

إن للمدنية يداً دخلت المواد كلها، ولكنها صنعت فيما صنعت تلك القلاع الطائرة التي تحمل الموت الزؤام، وتلك البروج المتحركة التي ترمي بشرر كالقصر، ومن وراءها ضروب من الوسائل التي تنشر الموت والخراب، ونحن بعد ذلك أولو مدنية وفي تطور إلى الأمام!

أنا لا أنكر أن للمدنية فضلا سابغاً على بعض المرافق وفي بعض الجهات، ولكنه فضل غير جامع وغير مانع لما يظهر من نقص وافتقار. لقد أعطتنا المدنية الحديثة متعة بما ابتكرته من وسائل الترفيه وفنون المسرات، ولكنها لم تنقص من أطراف ما يدخل الناس من هموم وأحزان، وإنما زادتها أضعافاً مضاعفة، وكانت الحياة سلوة أبنائها، لا يشترون

لذائذها إلا بأزهد الأثمان، فعادت وقطوفها مرفوعة وممنوعة إلا أعطى المال غير صاغر وكان من أهل الثراء.

يمكن أن يقال: أن المدنية لم تبلغ بعد شأوها، وإنها ما زالت دون المدى الذي تسعى إليه، ولكنها ولا ريب قد بلغت في مختلف مراحلها حداً لم يعد جديراً بها ألا تحسب لأرواح الملايين من الناس أي حساب، وأن تقيم قوة الحديد والنار في موضع التفاهم وتبادل الآراء، دون أن يمنع التقاتل ما أعدته الطبيعة من حواجز أقامتها بفعل الأجيال، ثم انطلقت قوى الخراب واليباب تفعل فعلها في البر والبحر وعلى متون الهواء، واستحر القتل فاخترقت خطوط الدفاع وتناول الدمار كل مرفق من المرافق. تلك ظاهرة ولا كالظواهر: تبعث في نفسي فكرة الانتقاض على هذه المدنية التي لم تستخدم في شيء بأكثر مما استخدمت في إهلاك النسل والحرث. ولست أشك في أن المدنية الحديثة ذات جروح دامية، وأن داءها في نفسها، وأنها الآن يعز عليها الأساة.

(بغداد)

حسين الظريفي المحامي

من مذكرات قاضي شرعي

من التعليم إلى القضاء - 1

للأستاذ علي الطنطاوي

يسألني كثير من الإخوان، كيف وجدت القضاء؟ إني وجدت القضاء راحة الجسم وتعب بال، وعلو منزلة وقلة مال، واكتساب علم وازدياد أعداء، وحملاً كبيراً نسأل الله السلامة من سوء عاقبته:

أما أنه (راحة جسم) فذلك أني كنت في التعليم أتكلم ولا أسمع، فصرت الآن اسمع

أكثر مما أتكلم. وكنت لا أقدر على السكوت لأني إن سكت تكلم العفاريت (أعني التلاميذ)، حتى أنه ربما أصابني أحياناً أذى في حلقي فجعلني أغص بالماء الزلال، وأشرق بالريق، وأجد للكلمة الواحدة انطق بها مثل حزة السكين ثم لا أستطيع الصمت دقيقة لئلا يفلت من يدي طرف السلكة فينفرط العقد ويبطل النظام. وكنت أدخلْ الصف (الفصل) وأخرج منه خمس مرات أو ستاً في اليوم ولا أقعد على كرسي لئلا يرى الشيطان مني غفلة فيعطس في مناخر التلاميذ فيحدثوا في الفصل حدثاً، وياما أكثر أحداثهم! وأيسرها ضجة كضجة حمام انقطع ماؤه كما يقول الشاميون في أمثالهم العلمية. ثم إذا خرج من الصف لأستريح راحة ما بين الدرسين (الحصتين) لحقني طائفة من الطلاب يسألونني فأقف لهم حتى ينفخ إسرافيل المدرسة في صوره فيحشر الطلاب والمدرسون إلى نار العمل. فأضل آخر النهار بأوله وأنا قائم على أمشاط رجليّ ولساني لا يكف عن الدوران في فمي. . . فغدوت الآن ولا عمل لي إلا القعود على كرسي القضاء أقول الكلمة بعد الكلمة وأسمع سيلاً من الكلام مما له موضع أو ليس له مكان، وإلا كتابة القرارات (أي السجلات في عرف الفقهاء)، وقد كفاني الكتاب (أَحْمَدَ) الله فَعالَه كل ما سوى ذلك من الأعمال، وما ينغص على هذه الراحة إلا خشية ثقل اللسان من كثرة الصمت فلا ينطق بعد كما كان ينطلق، وإن كان ذلك نعمة ترجى، وإن كان لساني هو مصدر أذاي ومن الخير لي أن يثقل أو يكلّ.

أما (تَعب البال) فلأني أحمل على عاتقي حقوق الناس، وأحكم في الأعراض وهي (لعمر أهل المروءة) أثمن من المال وأغلى، فإذا قمت أو قعدت لم أزل مفكراً في هذه القضية وتلك الدعوى، لا لصعوبة فيها أو تعقيد، فطريق القانون واضح لمن كان أكبر همه ظاهر

القانون، وكان دينه عبادة حروفه، بل لأنقذ من خلال الفكر إلى مقصد القوانين وهو إقامة العدل. فأنا أفكر لأعرف المحق من الباطل، وأنضو عن المتقاضيين ثياب التصنع والرياء لتبدو حقائقهم عارية، وما ذلك بالأمر اليسير ولا المطلب الهيّن، وإذا كنت قد وصلت مرة بالفراسة في لحظة خاطفة إلى ما لا يوصل إليه بمرافعة شهود فذلك من فضل الله، بيد أنه لا يدوم، ولابد من الرجوع إلى الحكم بالشهادات التي قد يعلم القاضي أنها شهادات الزور، وأن الشهود فساق لا عدالة لهم ولا تقبل من مثلهم شهادة، وكانت القرائن تقطع بكذبها - والقرائن والإمارات من أسباب الحكم - كما بيّن ذلك ابن قيم المدرسة الجوزية في كتابه الجليل أعلام الموقعين، ولكن لا سبيل لنا إلى الأخذ بها إلا أن تنظر وزارة العدل في دمشق في الاقتراح الذي رفعته إليها في هذا الموضوع وتتخذه أساسا لإصلاح شامل يخلص الناس من شهود الزور الذين صارت لهم جماعات ومراتب وأجور مسعّرة ودخل فيهم من يعتقد الناظر إليه أنه من الأولياء، ويجده مباحثه من العلماء، وهذا شر استطار شروره، وعم الأنام خبره، وشملهم ضرره - فكيف يهدأ بال من يغلب على ظنه أو هو يعلم فساد البيّنة ثم يضطر إلى الحكم بها؟

هذا وقد نجاني الله بما ركب في طبعي من الحدة في الخلق والشدة في الحق من منغصات القضاء، من الوساطات والالتماسات والهدايا والرشوات والولائم والدعوات، وسلمني من ذلك كله أني لا أعرف في الحق لطفاً ولا مجاملة ولا خجلاً ولا فرقاً وأرجو دوام ذلك.

أما (علو المنزّلة) فلأن لاسم القاضي دون الحاكم المدني وإن علت رتبته وزادت وظيفته، له في الأسماع رنة إكبار، وفي القلوب صورة إعظام، وله هيبة وله جلال، خلع ذلك المجد عليه أولئك الأبطال نجوم فلك العدل، ودراريه الهاديات، أفذاذ الدهر وأبكار الزمان، الذين يحق لنا أن نفاخر بهم أمم الإنس والجن، وأن نجعل قضاءنا بهم أول ما نعقد عليه الخناصر إذا عددنا المفاخر، وما زال قضاء كل أمة أول مفاخرها، قضاتنا الأولون شريح وإياس وشريك وأبو يوسف والعز بن عبد السلام ومنذر بن سعيد ومن أذكر الآن ومن لا أذكر ممن يقصر عنه العد، ويضيق الحصر.

ولولا أني عامل على تأليف محاضرة وافية بهذا الغرض ولا يجمل بي إذاعتها بالنشر قبل نشرها بالتلاوة لأفضت في هذا الموضوع إفاضة من وجد مجال القول واسعاً، والمقْول جديداً مسعفاً، والسامع مصغياً متشوقاً متلهفاً - لذلك يعظم الناس اسم القاضي، لأنهم يذكرون به هؤلاء وأمثالهم، وعهداً رحم الله ذلك العهد، كان فيه القاضي قاضياً في كل

خصومة بشرع الله، حاكماً بما أنزل. لم يكن المسلمون يهجرون فيه جواهرهم ولآلئهم لخزيفات يستجدونها من أيدٍ أشحة بها لأنها لا تملك غيرها، ولا يدعون شرع أحكم الحاكمين لشرع بشر من ماء وطين، وكان من مشاغل علمائهم البحث في الحسن والقبح هل هما شرعيان أو عقليان وكثر في ذلك الكلام، فلما صرنا إلى هذه الأيام ذهب ذلك الخصام وحل مكانه الوئام. واصطلح أهل عصرنا من الناشئة والشبان على أن الحسن ما حسن (أولئك. . .) والقبح ما قبحوه، وارتضينا كلنا هذه النتيجة التي انتهينا إليها، وصممنا الوقوف عليها، وسكن الجدال فلا قيل ولا قال، وكفى الله (المؤمنين) القتال، والحمد لله على (كل) حال.

وأما (قلة المال) فلأن أجر القاضي الشرعي في بلادنا أي مرتبه قليل قليل، وهو أدنى من سائر الحكام المدنيين؛ مع أنه يشترط فيه إجازة (ليسانس) الحقوق، والفوز في الامتحان الملكي، وسبق الاشتغال مدة في المحاماة. . . وهذا حديث له مكان آخر.

وأما (اكتساب العلم) فهو النعمة المفردة بين نقم القضاء المتعددة، اللهم بعد نعمة الثواب إذا كان الله يكتبه لمقصر مثلي لا يستحقه بعمله ولم تصف له نيته ولم يتجرد بعد عن حب الشهرة والجاه، وإن ضِعفت رغبته فيهما وهانا عليه - أن المطالعة هي نعمة هذه المحنة في المهنة، لقد كنت أطالع دائماً وأنا معلم، بل أني لا أعرف أنه مرّ عليّ يوم واحد منذ عقلت إلى اليوم لم أقرأ فيه شيئاً، غير أني استفدت من القضاء الأنس بكتب الفقه والاستمتاع بها مثل استمتاعي بكتب الأدب أو قريباً منه. وعندي مجموعة منها صالحة إذا أنا استمررت على النظر فيها رجوت أن أكون يوماً من الأيام من أوعية هذا العلم. ذلك لأني أدأب على القراءة ولا يمنعني من السؤال عما لا أعرف حياء ولا كبر؛ ولأن لي بحمد الله ذاكرة لا تمسك النصوص بحروفها ولا الأرقام ولا الأبيات، غير أنها في حفظ المسائل ومواطن وجودها من العجائب. وما أعهد أنى نسيت مسألة قرأتها أو سمعتها، وما أعهد أني تعرفت بإنسان وحفظت اسمه إلا بعد المخالطة الشديدة الزمن الأطول، ثم إني أنسى اسمه إذا فارقته مع أنى لا أنسى والوجه ولو رأيته مرة واحدة، ولا أعرف تعليل هذا الأمر.

وأما (ازدياد أعداء) القاضي العدل القائم بإحقاق الحق، والموظف النزيه المستقيم، فشيء مشاهد مسلم به لا يحتاج إلى بيان. وإذا كان قد روى عن أبى ذر أنه قال (كلمة الحق ما تركت لي صاحباً) وذلك على عهد الصحابة وفي أفضل القرون، فما بالك بعصرنا؟ وماذا يقول القاضي وما قضية يعرض عليه إلا وفيها اثنان يقضي لأحدهما على الآخر، فمن قضي عليه جعله عدواً له ما عدا النادر الأندر من الناس الذي يرضى بالحق ولو كان على نفسه. وأكبر المصيبة أنه قد يكون المبطل المقضي عليه، أو الشفيع المردودة شفاعته كبيراً في قومه، وجيهاً في بلده، فإذا ألزمته ما يلزمه شرعاً أثار عليك الشعب والحكومة، وافترى عليك الفِرَى، وأساء فيك رأي رؤسائك فآذوك وضروك وأخروا ترفيعك. والمعروف عند أولي الأمر أن الموظف الصالح هو الذي لا يسخط عليه أحداً ولا يثير مشكلة، ولا يكون ذلك لقاض عادل وموظف نزيه، وإنما يكون لمنافق في جيبه ألف وجه في كل وجه مائة لسان، يقابل كلا بالوجه الذي يحبه، ويخاطبه بالسان الذي يرضيه

وخلاصة القول أن القضاء (حمل ثقيل) وهم طويل، ولو أن الله أغناني عنه وكتب لي أن أعيش بقلمي ومؤلفاتي، أو لو أني رزقت مرتبة أهل الورع لما أقدمت عليه ولآثرت التعليم فهو أسلم، ولكني وقعت والله لا يكلف نفساً إلا وسعها. وإن وسعى وغاية جهدي العزم الصحيح وبالله التوفيق على أن لا أحكم في قضية ما لم أعرف حكم الشرع فيها على مقدار طاقتي فأسير عليه، وأن لا أتعمد الزيغ والظلم تعمداً، ولا أنوي الميل مع أحد الخصمين، وأن لا تأخذني في الحق رغبة صديق ولا رهبة ذي سلطان. أما الخطاء فلا املك دفعه إلا بالانتباه، أما الجهل فلا أقدر معه إلا على التعلم والسؤال.

هذا وقد فسروا حديث القاضي والقاضيين أن القاضيين الذين في النار هما قاض يقضي بالجور وقاض يقضي بالجهل. ونحن نسأل الله لنا ولكل محب بالحق أن يوفقنا إلى أتباع الحق، وأن يعلمنا ما ينفعنا ويرزقنا العمل بما علمنا ويزيدنا علماً.

(النبك - سوية)

علي الطنطاوي

نظام الصداقات في الإسلام

للسيد علي حسين الوردي

إن علم المالية العامة علم حديث، ولم يعر الناس التفاتهم إليه إلا في هذه العصور الأخيرة وذلك بعد أن تطورت الحكومات الحديثة وتشعبت وظائفها وانتشرت في الناس مبادئ الديمقراطية.

لقد كانت الشعوب - فيما مضى - لا يعنون بالمالية الحكومة من حيث وارداتها أو مصروفاتها إذ كانوا يعتبرونها مما يخص الملك ومن يلوذ به من الوزراء والعمال. . . وكانت الحكومات القديمة بدورها لا تهتم إلا بتوفير المال لخزينة الملك مستعملة في ذلك كل ما تستطيع من وسائل مشروعة أو غير مشروعة. فلم يكن - كالحكومات الحديثة - توجه قسطاً كبيراً من عنايتها إلى العدل في فرض الضريبة، وفي توزيع عبئها توزيعاً مناسباً بين طبقات الأمة، وإلى إنفاق الواردات العامة فيما ينفع الناس ويزيد الرفاه في المجتمع.

وقد كان الملك - الذي كانت الحكومة القديمة ممثّلة في شخصه - يتبع في إدارة ماليته العامة النظام الفردي إذ كان يعتبر المال المجموع ملكاً خاصاً له يتصرف به ولذا كان يسعى جهده لجباية أكبر كمية ممكنة من المال، وصرف أقل ما يمكن منها، ثم توفير المقادير المتبقّية استعداداً للطوارئ أو إشباعاً لرغباته الشخصية التي لها إذ ذاك المقام الأكبر في إعداد الميزانية العامة. ولقد كان بعض الملوك يصرفون جزءاً مما يجمعون في الأعمال والمشروعات العامة، ولكنهم ما كانوا يعتبرون ذلك حقاً واجباً عليهم إنما هو فضل على الناس ومنه يتفضلون بها عليهم.

ولم تكن الضرائب المباشرة معروفة حينذاك، فكانت الحكومة تعتمد غالباً على الجزية من القبائل المغلوبة أو على أملاك الدولة ومناجمها أو على ضرائب المكس والغرامات والمصادرة. . .

وقد لجاء الأثينيون والرومان أخيراً إلى الضرائب المباشرة وقت الحرب فقط. وأن عبقرية الرومان الإدارية قد أدت بهم إلى ابتكار نظام بديع في جباية الضرائب، ولكن هذا النظام لم يكن يعني بشيء من التوزيع العادل في فرض الضرائب إنما كان موجهاً نحو الكفاءة في
جبايتها فقط.

هذه صورة مختصرة وددنا أن نظهر بها للقارئ حالة الأمم قبيل ظهور الإسلام، من ناحية المالية العامة لكي تتضح له الخطوة الجبارة التي خطتها الدولة الإسلامية في هذا السبيل، ولكي يدرك أيضاً أهمية تلك الخطوة في إرشاد الناس إلى جلالة هذا الموضوع في توجيه العالم نحو هذا الوضع الذي تتمتع بع الأمم الحديثة اليوم في تنظيم ميزانياتها على أساس العدل والمنفعة العامة.

أننا نجد - للمرة الأولى في التاريخ - وذلك على عهد الإسلام تلك العناية الكبرى التي توجه نحو أموال الأمة في جبايتها
وصرفها وفي اعتبارها أنها لا تخص فرداً معيناً، إنما هي أموال الأمة جميعاً ويجب أن تنفق على مصالحها الحيوية بكل دقة.

ولا حاجة بنا أن نذكر هنا ما كان الخلفاء يلزمون أنفسهم به - في العناية بأموال الأمة - من شدة وتقشف. وإن ما يرويه التاريخ عن عمر بن الخطاب أو علي بن أبي طالب أو غيرهما لدليل كاف على عظم تلك الخطوة التي خطاها المجتمع على عهد الإسلام في سبيل التمدن الحقيقي.

لسنا نود التوسع في هذه الناحية فهي أوضح من أن تحتاج إلى توسع، ولكننا نريد أن نبحث في ناحية أخرى من هذا الموضوع، وهي ناحية العدل في توزيع عبء الضريبة على الأفراد إذ هي في الحقيقة من أعظم النواحي شأناً في علم المالية العامة.

إن من الهيّن - نسبة - أن تعُد للضرائب إدارة كفؤة تستطيع بها أن تجهز للأمة ما تحتاج إليه من مال في سبيل مصالحها العامة، ولكن الصعوبة كل الصعوبة هي في فرض الضريبة العادلة التي تنتج خير ما يمكن من الآثار الاجتماعية والاقتصادية. حقاً لقد شغلت هذه النقطة أقلام الباحثين في هذا الزمن أكثر مما شغلتهم أية ناحية أخرى من هذا العلم الواسع.

لقد كان الرأي السائد منذ آدم سميث أن الفرد يجب أن يؤدي إلى الحكومة مبلغاً

يتناسب مع جسامة موارده الخاصة.
يظهر أن في هذا الرأي شيئاً من الحق، إذ من العدل أن يساهم الفرد في مالية الدولة بالنسبة إلى أرباحه أو ثروته التي يتمتع بها في ظل تلك الدولة.
ولكن قد يعترضنا في ذلك رأي له وجاهته: فهل يجوز أن يؤخذ من أولى المكاسب الضئيلة عشر ما يكسبون مثلاً، ويؤخذ العشر كذلك من أولئك الأغنياء والموسرين الذين تأتيهم الأموال سيولاً كل حين. . . أفي هذا عدل؟
وهل إن وطأة الضريبة التي يشعر بها أولئك الكاسبون الضعفاء تساوي أو تقارب ذلك الأثر الذي يكاد لا يحس به الأغنياء عند إعطاء عشر ما يحصلون عليه سنوياً من الأموال الطائلة. . .
اختلف الكتاب حول هذه النقطة الحساسة، ولا يزال حتى الآن ناشباً بعض النشوب، بيد أن معظم الكتاب المحدثين قد أجمعوا أخيراً على أن العدل ألا تكون نسبة الضريبة متساوية على جميع الأفراد، وهي ينبغي أن ترتفع شيئاً فشيئاً كلما زادت أرباح الفرد أو ثروته مائة بعد مائة، وهذا هو ما نجده اليوم مطبقاً في أغلب الأمم الراقية. وقد وصلت النسبة في بعض الدول إلى 8 %.
وإذا رجعنا إلى النظام الذي كان متبعاً على عهد الإسلام، نرى أن المشرع الإسلامي قد فطن إلى هذه النقطة، ونجد أن الدولة الإسلامية قد سارت حسب تلك الطريقة:
يحدثنا أبو يوسف عن الزهري عن سالم عن ابن عمر: (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب كتاباً في الصدقة فقرنه بوصيته ولم يخرجه حتى مات، فعمل به أبو بكر ثم عمر من بعده، فكان فيه: في كل أربعين شاة شاة واحدة حتى تصل إلى مائة وعشرين، فإذا زادت فشاتان عن كل أربعين حتى تصل إلى مائتين، فإذا زادت فثلاث شياة حتى ثلاثمائة، فإذا زادت ففي كل مائة شاة شاة. . .)
هذا مثل واحد نورده للقارئ يتضح له فيه أن هذا النوع من الضرائب قد طبَّق في الإسلام قبل ما يناهز الثلاثة عشر قرنا من تطبيقه أخيراً في الأمم الحديثة.
ويجدر بنا انم نذكر أن النسبة المتصاعدة هذه في فرض الضريبة لم تستعمل إلا حديثاً جداً، وذلك تحت ضغط المبادئ الديمقراطية والاشتراكية التي تغلغلت أخيراً في صميم المجتمع.
ولا تعجب - أيها القارئ - إذا علمت أن من كان يقول بها قبل جيل أو جيلين كان يعتبر من الشيوعيين أو الفوضويين وكان يتهم بأشنع التهم وأبشعها
أجل، ولا يزال بعض الكتاب المشهورين حتى اليوم يؤمنون بوجوب تشجيع الإنتاج والجهود المربحة حيث ينبغي ألا يصادر قسم كبير من الأرباح بهذا النوع من الضرائب.
هذا ولكن الرأي الغالب اليوم والذي يحتمل أن يسود العالم غداً يؤيد تلك الضريبة ذات النسبة المتصاعدة، ويرى من الإنصاف أن تكون الوطأة التي يشعر بها دافعوا الضريبة، متساوية في الثقل لدى الجميع، أغنياء وفقراء، فكلما كان المشرع حريصاً على العدل في توزيع الضريبة، كانت النسبة ذات تصاعد أعظم. ولا يعزب عن البال أن من أهم الضرائب الحديثة هو التقليل من ذلك الفرق الشاسع في توزيع الثروة بين الناس، حيث يموت البعض جوعاً بينما يلعب الآخرون بالمال لعباً.
قد لا نخطئ الحق إذا قلنا إن الشرع الإسلامي كان يرمي إلى نفس الأهداف التي يرمي إليها اليوم المشرعون في هذا الموضوع. ولعلنا لا نغالي إذا قلنا إنه فاقهم في بعض النواحي.
حقاً إن الدولة الإسلامية كانت أول دولة في التاريخ سنت نظاماً في الضرائب ابتغت فيه العدل وتوزيع الثروة العامة على أساس المساواة.
ثم ينبغي إلا ننسى بأن معظم الضرائب كانت - في ذلك العهد - ضرائب مباشرة حيث لا يخفى ما لهذا من الأهمية في تاريخ الضرائب. لقد كانت الضرائب المباشرة لم تفض في الأمم القديمة - كما قلنا آنفاً - إلا نادراً وذلك عند الحرب إذ لم يكن الإدراك السياسي قد وصل إلى تلك الدرجة التي يستسيغون بها فرض الضرائب مباشرة.
والضرائب المباشرة بلا ريب هي المرحة التي توصل إليها المجتمع في تطوره السياسي والاجتماعي
وهناك نواح أخرى في ضرائب الإسلام تتجه في مراميها إلى نفس الهدف الذي ذكرناه آنفاً ألا وهو العدل، وذلك مثل عدم استثناء النبلاء والطبقات الأرستقراطية من

الضريبة، وهو ما كان شائعاً في العالم حتى القرون الأخيرة، ومثل التفريق في نسبة الضريبة على إنتاج المكابدة وإنتاج اليسر. . . الخ. وعسانا نستطيع أن نوفي ذلك حقه في فرصة أخرى.

(بيروت - الجامعة الأمريكية)

علي حسين الوردي

من غزل الملوك

قصيدة للسلطان سليم فاتح مصر

للأستاذ عبد الله مخلص

وقع في الكلمة التي نشرتموها في (العدد 458) من (الرسالة) بعنوان (من عزل الملوك) بعض أغلاط مطبعية مثل (أن الرشيد أغار على أبيات ابن الحكم الأموي)؛ وصوابها (أن ابن الحكم الأموي أغار على أبيات الرشيد). كما أن عجز البيت الأول من أبيات المعز لدين الله الفاطمي: (تلك المحاجر (بالمحاجر)) صوابه: (تلك المحاجر (بالمعاجر))

ورأيت بهذه المناسبة أن أبعث إليكم بقصيدة السلطان (سليم) التي اقتصرت على ذكر بيت واحد منها في تلك الصفحة، وهو ما كنت أطلعت عليه في المصادر التركية في ترجمة السلطان المشار إليه. أما القصيدة كلها، فقد عثرت عليها في مخطوط اقتنيته أخيراً اسمه (بستان العارفين ونزهة الناظرين) جمع الحاج احمد بن حسن الشامي، ويقول: انه شرع فيه وأتمه في جامع السفاحية بحلب المحمية في سنة 1041هـ:

البدر اشرق بالجمال عليهِ
والسلسبيل يسيل من شفتيه
الغصن نال اللين من عطفيه
قمر يصول ولا وصول إليه ... جرح الفؤاد بصارميْ لحظيْهِ
واحلّ في وسط الفؤاد مقامهُ
نشق المحبّ من الوشام خزامه
وافى بوصلٍ والجمال أمامه
ما قام معتدلاً يهزّ قوامه ... إلا تهتَّكتِ الستور عليهِ
يمشي بعجبٍ في غلائل سندس
ألوانها كبنفسجٍ في نرجس
كأسى نديمي والمدامة مؤنسي
يا طيب ليلتنا ونحن بمجلس ... نهض الحبيب لنا على قدميهِ
شقَّ القلوب بورده وشقيقهِ
ونما على عشاقه بعقيقه
وهما على كأساته برحيقه
يسقي المدامة من سلافة ريقه ... ويخصَّنا بالسحر من عينيهِ
نلنا المسرَّة ساعة بجوارهِ
وقد ارتقينا للهنا في داره
وأعّمنا من خمرة بعقاره
عيناه نرجسنا وآس عذاره ... ريحاننا والورد من خدّيهِ
الخال من مسكٍ يفوح بندّهِ
يسطو عليَّ بجزره وبمدّهِ
سعد السعود وفى إليَّ بسعده
كتب المهيمن في صحيفة خدّهِ ... لاماً وعقرب فوقها صدغيهِ
جن الظلام على الضيا فتبسّمَا
والمسك في زهر الرياض تنسّمَا
نمّ العذار بخدّه فتحكّما
ما الْشَعر نمّ بعارضيه وإنما ... أصداغه جارت على خدّيهِ
لمّا أتى بجحافلٍ من جندهِ
فأردت رشف رحيقه من شهدهِ

دبّ العذار على صحيفة خدّهِ
يا شَعر في بصري ولا في خدّهِ ... إني أغار من النسيم عليهِ
ملك يجور على الملوك بظلمهِ
لم يخشَ من جور الزمان وجرمه
ناديتُ من فرط الهيام وغمّهِ
عجبي لسلطان يعمّ بحكمه ... ويجور سلطان الغرام عليهِ
إني بأوصاف المحبّة عائِدٌ
وبباب من أهواه شخصي لائِذٌ
جيش المحبّة في فؤادي واقذٌ
والناس تحت يدي وحكمي نافذٌ ... وأنا وكلّ الناس طوع يديهِ
الطرف منّي في محبّته عَمِي
والدمع يجري في خدودي عندمِ
وعروس مكةَ والحطيم وزمزمِ
لولا الإلهُ وحرّ نار جهنَّمِ ... لعبدته وسجدت بين يديهِ!
البَريدُ الأدبيّ
أجوبة عن أسئلة
وجّه إليّ الأديب محمد محمد مالك في العدد 460 من الرسالة أسئلة تتعلق بالأمراض النفسية نجيب عنها فيما يلي:
1 - الأمراض العصبية
أمراض ناتجة عن التهاب أو انحلال الأعصاب أو النخاع الشوكي أو مركز المخ الحركية والإحساسية والحاسة والتوازنية ويتمخض عنها أنواع مختلفة من الشلل أو إحساسات غريبة أو حركات اختلاجية أو اهتزازية أو تشنجات في العضلات أو اضطراب في الحواس أو اختلاف في التحكم في قضاء الحاجة أو فقدان التوازن، أو تشكيلة من بعض هذه الأعراض.
2 - الأمراض النفسية أو
أمراض تتمخض عن أعراض متولدة من عقد دفينة في العقل الباطن. وكثيراً ما يقلد المريض بها أعراض الأمراض العصبية من غير قصد.
واهم الأمراض النفسية القلق العصبي (أو بالأحرى القلق النفساني) والهستريا والوسواس والخور النفساني (النورستانيا)
والهجس بالمرض
3 - الأمراض العقلية
أمراض تتولد من انحلال خلايا القشرة المخية والألياف المرتبطة بها خصوصاً في مناطق المخ الصامتة
وليس من الضروري أن يكون المريض بأعصابه عليل النفسية ولكن قد تنجم من الأمراض العصبية عقد نفسية مثل عقدة الضعة
وهناك أمراض تحدث أعراضاً عصبية وعقلية معاً كالشلل الجنوني العام الناتج من الزهري فقد يصاب المريض به بهواجس العظمة أو سواها مصحوبة أو متبوعة بشلل في عضلات الجسم واهتزازات في الأعضاء واللسان الخ. . .
4 - القلق النفساني:
هو الخوف من شيء مجهول للمريض ويعرفه فرويد بكونه خوفاً من خطر غريزي، وقد ينتج مثلاً من وجود عقدة الخصي في العقل الباطن. وهذه العقدة وليدة تهديد الأم لطفلها باستئصال أعضائه الجنسية بسبب عبثه بها.
على أن حادث مخيف يعرض للإنسان قد يتسبب عنه القلق في المستقبل باختفاء ذكرى الحادث في العقل الباطن وبقاء القلق متسلطاً على العقل الواعي. ويعزو المريض قلقه عادة إلى أسباب لا تمت إلى السبب الأصلي بصلة.
5 - الأجرام:
يعتبر المجرم مريض النفس أو مريض العقل. وقد سبق أن أرسلت إلى مجلة الرسالة الغراء بحثاً في هذا الشأن.
6 - شيطان الشاعر:

يرى يونج أن العقل الباطن سجل لاختبارات البشر الأزلية؛ فالسحر والشياطين والجن والأصنام والأديان والآلهة والمرأة والرجل إلى غير ذلك ممثلة جميعها في العقل الباطن فيما يسميه النماذج القديمة وعندما تزود هذه النماذج بطاقات عقلية كبيرة يعبر الشاعر عنها تعبيراً تتفاوت درجة غموضه أو وضوحه حسب قوة الرقيب وحين يتناولها العقل الواعي بالصقل والتهذيب تصبح منسجمة ومنطقية في الظاهر.
وتمثل الرموز التي يلجأ إليها الشعراء للتعبير عن أغراضهم لغة الرجل البدائي الكائن في سريرتنا.
وليس شيطان الشاعر سوى عقله الباطن، أو بالأحرى ما يسميه يونج (اللاوعي الشامل) وتبدو قوة هذا الشيطان الهائلة عندما يستحوذ على عقل الشاعر الواعي شيء من الذهول. وهنا تكون المقطوعات الشعرية الشبيهة بالأحلام.
7 - الوارثة:
يرث الإنسان بعض صفات والديه وأجداده العقلية والجسمانية في شكل ظاهر والبعض الأخر في شكل كامن، وهذا هو السبب في كون بعض مختلي الأعصاب والمجرمين ينجبون ذرية صالحة جسمانياً وعقلياً، ولكن هذه الذرية ورثت اختلال الأعصاب والإجرام في شكل كامن بدليل أن الصفات الكامنة قد تصبح ظاهرة في أبنائهم وأحفادهم.
محمد حسني ولاية
جواب
اشكر للأستاذ (عبد الفتاح إسماعيل - بفرشوط) تحيته وحسن استقباله للمرسلات وأجيبه عما اسأل فأقول:
يرويان بالبناء للفاعل والمفعول فهو مُعِمَ مخول بالكسر والفتح (أعم الرجال وأخول) أي كثير الأعمام أو كريمهم، وقد روى بالكسر قول حسان (قبر ابن مارية المعِم المخول) وروى بالفتح قول امرئ القيس (بجيد معَم في العشيرة مخوَل) وفي بعض ما يروى عن اللغويين هنا اضطراب، والمعتمد ما ذكرنا.
المدني
قد يحتاج المرسل إلى قيد
أرسل الزميل الفاضل الأستاذ الشيخ محمد محمد المدني كلمة عن اختلاف الأزهريين وبواعثه التي ليست للحق والله
دائماً - وقد كان موفقاً فيما عرض له في إيجاز وتهكم، إلا إنه أستكثر من ضرب - المثُل للذين أوذوا بسبب تفرق رأي الأزهر فيهم فجانبه للصواب في بعضها. لقد قال: (والزيات، وطه حسين، والعقاد، وشلتوت، والزنكلوني، ومبارك وهيكل، وغيرهم قد ذاقوا من ذلك ما ذاقوا)
اعتقد أن من هؤلاء السادة - الذين أجلّهم جميعاً - من سمت به عظمته ونبل مقصده وجميل توجيهه، عن أن يكون في أمره خلاف بين الأزهريين أو غيرهم. ومنهم من اجمعوا على جلالة منزلته في العلم والبحث، وعرفان حظه من الإخلاص والعاطفة الدينية. ومنهم أخيرا من قعدت به منزلته المحدودة عن أن يكون موضع حديث الأزهريين عامة، بله اختلافهم. والأمر أوضح من أن يكون في حاجة إلى تمثيل أو تعليل!
محمد يوسف موسى
حول العقاد وابن الرومي
تكشّفَ تعقيبُ الأستاذ عباس محمود العقاد على اعتراضي الذي وجهته إلى حضرته على صفحات (الرسالة) الغراء عن ثغرةٍ نفذت منها إلى حاجتي التي قضيتُها بردِّه الكريم عليَّ. . .
أما ما يستأهل التعقيب ويدعو إليه، فهو ما تفتح عنه ردَّه من ظاهرتين خطيرتين: الأولى ما اقتضته الأمانة الأدبية التي في عنقي من أن أصحح نسبة البيتين اللذين قلت عنهما: إنهما لابن الرومي؛ وقال عنهما أدب العقاد: لا أراهما مما يعاب سواء نسبا إليه أو إلى غيره. فأقول: أن هذين البيتين من نظم كاتب هذه السطور، وقد أردت أن اختبر بهما ذكاء العقاد.
والظاهرة الثانية هي ما نضحت عنه معاني هذين البيتين من جنون الفكرة، وطلاء التعبير اللذين عزَب فهمهما على فطنة أديبنا الكبير. فمن هم بنو النضر؟ ومن أولئك

الألفان الرصَّع على التحديد؟
(ابن درويش)
(الرسالة):
ذلك عبث كنا نحب للكاتب وهو من رجال التعليم فيما نظن أن يتكرم عنه احتراماً للرجل الذي يكتب إليه، وللقارئ الذي يكتب له، وللمجلة التي يكتب فيها، وللأدب الذي يعلّمه.
كم ذا؟
ضمني وبعض الأصدقاء مجلس، وتناشدنا أطراف الحديث، فجرى على اللسان . . . قول حافظ:
كم ذا يكابد عاشق ويلاقي ... في حب مصر كثيرة العشاق
وهنالك تضاربت الأقوال في (كم ذا)، وهل يجوز ذلك في لغة العربية؟ فقال قوم كما جاز في ما ومن الاستفهاميتين كأنما يقيسون، وقد قال الآمدي وغيره - من علماء الأصول - أن اللغة لا تثبت بالقياس. . . وقال آخرون: أن ذلك غير معهود في الفصيح الصحيح من
كلام العرب. . . وهكذا أخذنا نقيمها إلى جهة، أو نتلمس لها شاهداً، فلم نجد إلا ما قال المتنبي: (وكم ذا بمصر من المضحكات) على أنها في كثير من طبعات ديوانه وماذا. . . وخيراً آثرنا أن نطرح هذه الأشكال - إن صح أن يكون - على قراء (الرسالة) الغراء علّنا نجد عندهم شفاء الغليل.
إبراهيم علي أبو الخشب
جريدة الإصلاح في عامها السادس
دخلت زميلتنا الإصلاح الأسبوعية في عاما السادس مسددة الخطى مؤيدة العزيمة، وستصدر في خلال هذا الشهر بهذه المناسبة عدداً خاصاً محلى بصور أبناء الدقهلية البارزين من الأدباء والشعراء والفنانين لتكون أداة التعريف بينهم. وقد انظم إلى تحرير هذه الجريدة الرشيدة بعض كبار الأدباء ليساعدوها على تأدية رسالتها في الأدب والإصلاح.
العدد 463 - بتاريخ: 18 - 05 - 1942
احتكار الأدب
للأستاذ عباس محمود العقاد
نشرت (الرسالة) في عدد مضى كلمة موجهة إليّ نعيد نشرها هنا للتعقيب عليها وهي:
كثير من الأدباء يتهمون إخوانهم بالأنانية وحب النفس، فأدباء الشيوخ الذين يحتكرون) ميدان الأدب لا يبذلون أي جهد في تسديد خطى الشباب الناشئ، ولا أعرف السبب الذي يمنع أديباً مثل الأستاذ العقاد من تأليف كتاب عن الشعراء الناشئين الذين يدل شعرهم على نبوغ وعبقرية مثلما فعل الشاعر الإنجليزي المعروف و. ب يتس الذي كتب عن روبرت بردج، وولتر دي لمار، وهيلار بلوك، وليونيل جونسون، وأرنست دوسون، في مؤلفه كتاب أوكسفورد للشعر الحديث
فشيوخ الأدب في أوربا لثقتهم بأنفسهم وحبهم لفنهم وإخلاصهم له يسددون خطى الأدباء الناشئين ويشيدون بذكر الموهوب منهم. فما رأي الأستاذ العقاد في هذا الموضوع؟. . . الخ الخ)
كمال الدين نشأت
وفي هذه الكلمة الموجزة كثير من الخطأ الذي يشيع بين بعض المتأدبين الناشئين ولا ينفرد به صاحب السؤال وحده، كما لاح لي من بعض الرسائل والأحاديث، أو مما تكتب الصحف في هذا المعنى، وهو خطأ يحتاج إلى تصحيح؛ وتعتقد أن تصحيحه هو أنفع وجوه التسديد التي ينشدها صاحب الخطاب.
فمن الخطأ (أولاً) أن يشايعهم صاحب السؤال على دعواهم أن أدباء الشيوخ يحتكرون ميدان الأدب لأنهم يظهرون من حين إلى حين بمقال في صحيفة أو بكتاب جديد يؤلفونه أو يجمعون فيه ما سبق لهم نشره من المقالات
فلا معابة على الأدباء الشيوخ أن يصنعوا ذلك، بل المعابة ألا يصنعوه وهو واجبهم المفروض عليهم. وقد يعاب عليهم مع ذلك أنهم قليلو الإنتاج بالقياس إلى ما ينبغي لهم أو ينتظر منهم. وإنما يعذرهم أناس لأن جمهور قراء الأدب عندنا لا يقبلون على

المؤلفات إقبالاً يملي للكاتب في أسباب المثابرة ومتابعة التأليف، ويلومهم أناس لأنهم يجهلون العقبات التي تحول دون الانقطاع للكتابة الأدبية في بلانا الشرقية.

فالمفروض على أدباء الشيوخ خاصة أن يزيدوا إنتاجهم لا أن ينقصوه؛ ولو أريد من الأديب أن يؤلف في سن المرانة والابتداء، ثم ينقطع عن التأليف بعد النضج والاكتمال، لكان هذا بدعة أخرى من بدع انقلاب الأحوال التي حقت على المتخلفين من شعوب الشرق أجمعين.

وإذا كان الغرض هو الكتابة في الصحف دون التأليف والتصنيف فليس بصحيح أن شيوخ الأدب يحتكرون الكتابة الصحفية أدبية كانت أو غير أدبية بأي معنى من معاني الاحتكار. بل ربما اقترنت بكل مقالة يكتبها أديب مشهور خمس مقالات أو ست أو سبع يكتبها أدباء ناشئون أو غير مشهورين، وتكفي مراجعة قليلة للصحافة اليومية والأسبوعية والشهرية لتصحيح الخطأ في هذا الباب.

أما أن أدباء الشيوخ لا يبذلون جهداً في تسديد خطى الكتاب الناشئين فما هو هذا الجهد المطلوب؟ وعلى من التبعة إن صح أنه دون الكفاية؟

أي جهد يسدد الخطى إن لم يسددها التدريس للطلاب أو الكتابة لمن يقرأ ويستفيد؟

أما التسديد بالمحادثة والمناقشة فما هو الجهد الذي يطلب فيه من أدباء الشيوخ؟

ولماذا نعرض هنا على الأديب الشيخ أن يجتهد ليبحث عمن يسدد خطاهم ولا يفرض على الناشئ أن يجتهد ليبحث عمن يسدد خطاه إذا اتسع له الوقت وساعفته شواغل الحياة؟

إن الكتاب الذي أشار إليه صاحب الخطاب لا يصلح للتمثيل به في هذا الصدد من أي ناحية من نواحيه. فهو كتاب يشمل الشعر منذ خمسين سنة ولا ينحصر في شعر هذه الأيام؛ وهو كتاب ندب الشاعر (يتس) لتأليفه ولم يفرغ لتأليفه ولا كان في وسعه أن يفرغ له لو لم يندب لهذه المهمة معفي من تكاليفها ونفقاتها التي يعجز عنها. وهو بعد هذا وذاك كتاب يشتمل على أسماء أناس لا يعدون من الناشئين سواء من ذكرهم صاحب الخطاب أو لم يذكرهم في خطابه. فروبرت بردج مات قبل تأليف الكتاب وعمره ست وثمانون سنة، وروبرت بروك - إن كان هو المقصود دون روبرت بردج - مات في الثامنة والعشرين وليست له في الكتاب غير قطعة واحدة. وولتر دي لمار كان يدلف إلى السبعين عند ظهور الكتاب، وقد بلغها هلير بلوك في ذلك الحين. وليونل جونسون قد توفي قبل ظهور الكتاب بنحو أربعين سنة وهو في الخامسة والثلاثين، وأرنست دوسون توفي في نهاية القرن الماضي وهو في الثالثة والثلاثين

فليس بين هؤلاء شاعر واحد يعد بين الناشئين، ولم يكن يتس مسدداً لخطاهم لأنهم بين صامد على قدميه مستقل عن الأساتذة والمرشدين، ومفارق للحياة في ريعان الفتوة أو بعد مقاربة الشيخوخة

وليست المسألة هنا مسألة ثقة بنفس أو حب لفن كما اعتقد صاحب الخطاب، بل هي مسألة تاريخ محدود قد طلبت ملاحظته في الاختيار، وأعفى يتس فيه من أعباء المجازفة والانتظار

وفيما عدا هذه الحالة لا نذكر حالة أخرى فرغ فيها شاعر أوربي كبير للتأليف في الغرض الذي يقترحه صاحب الخطاب على أدباء الشيوخ المصريين

وللأدباء الشيوخ العذر كل العذر بين المصريين أو بين الأوربيين إذا اختاروا للتأليف أغراضاً غير هذا الغرض الذي تنعكس به أوضاع الأمور. فان الرجل الذي بلغ الخمسين وجاوزها يحق له أن يقصر مطالعته على المفيد المحقق الفائدة ليثابر على واجبه وعلى الانتفاع بمقروءاته. فليس في وسعه أن يقرأ ست ساعات أو سبع ساعات كل يوم

كما كان يفعل في بواكير الشباب. وليس في وسعه إذا اقتصر على ساعتين أو ثلاث أن ينفقها في البحث

عمن يجربون الكتابة أو يشرعون في تجربتها ليقرأ مائة مقال أو مائة كتاب عسى أن يظفر بينها بشيء يستحق التنويه، ويستغني عن التنويه لا محالة إذا كان له من القيمة والجودة ما يكفل له البقاء

إنما يتيسر التشجيع للأديب الشيخ في عمل واحد وهو عمل الصحافة الأدبية حين يتولى

الإشراف عليها. فهو يقرأ ما يرد إليه من الشعر والنثر ويعني بتنقيحه وتقديمه ونشره ولفت الأنظار إليه، وهذا ما كنا نصنعه في الصحف التي أشرفنا على أبوابها الأدبية، ولو كلفنا الجهد المجهد في القراءة والتصحيح والتنقيح.

أما الرجل الذي تشغله الحياة بمطالبها ويشغله الأدب بمطالبه بين قراءة وكتابة، فتسديده مقصور على من يتصلون به وعلى ما هو مستطيعه. وليس مما يستطيع أن يترك كتاباً يؤلفه جهبذ من جهابذة الفن والحكمة ويضمن نفعه ومتعته ليقرأ خمسين كتاباً لا يضمن

نفعها عسى أن يعثر بينها على شيء مرجو النتيجة بعد تكرار التجربة مرات

هذا ضياع للوقت وضياع للجهد وضياع للأدب، وعبث تستغني عنه الكفاءة المرجوة ولا نفع فيه لمن خلا من الكفاءة، ويمنعه مع هذا كله أنه غير مستطاع

على أن الأمر خطير جد الخطر من إحدى نواحيه التي يدل عليها، وهي ناحية الروح التي ينم عليها شيوع هذه الأماني والتعلات بين طائفة ولو قليلة من الناشئين

فإنها روح تدل على إعفاء النفس من كل واجب، وإلقاء التبعة على كل كاهل، ونسيان كل حق غير حق الأنانية بغير عناء ولا مقابل

يبدأ الناشئ بالكتابة اليوم ويريد أن يشتهر غداً بمقال واحد أو قصيد واحد ولا نقول بكتاب واحد. فإن لم يشتهر فليس اللوم عليه وعلى طمعه فيما لا يكون ولا ينفع الأدب والناس لو كان. . . كلا، بل اللوم على المشهورين الذين كان ينبغي أن يستأصلوا شهرتهم وأن يكفوا عن الكتابة وأن يفرغوا جهودهم وجهود قرائهم لشهرته هو دون غيره من الشيوخ والكهول والناشئين، وإلا كانوا محتكرين للأدب الذي يحق له هو أن يحتكره ولا يحق ذلك لأحد من العالمين!

وهؤلاء الأدباء المشهورين (الشيوخ) ما لزومهم في هذه الدنيا؟ ما لزوم تجاربهم الماضية ودراساتهم الطويلة وجهودهم المضنية وحياتهم التي يعيشون فيها أبداً بين الأذى والإنكار والكنود؟

هل لهم لزوم في نفع أنفسهم ونفع قرائهم ونفع الأدب بالاطلاع على المفيد المضمون؟

كلا. ليس لهذا كله لزوم. . .! وإنما هم لازمون لشيء واحد وهو شهرة من يريد الشهرة العاجلة على شريطة أن يشتهر وحده ولا يشتهر واحد من أنداده في السن والقدرة!!

وهل لهؤلاء الأدباء الشيوخ حق؟ هل لهم فضل يجب الإعتراف به على أحد؟ معاذ الله. . . من أين لإنسان غضب الله عليه فنشأ في الدنيا أديباً شرقياً أن يطمع في حق أو في اعتراف؟

إنما عليه أن يقرأه القارئ الناشئ عشر سنين وعشرين سنة ولا يقول له مرة واحدة أحسنت واستحققت من الكرامة والثناء؛ ولكنه هو عليه أن يقف على باب كل مطبعة ليتلقف منها كل كتاب ألفه كل شاب في العشرين فلا ينام ليلته قبل أن ينفخ كل بوق ليقول

ما يحلو للمؤلف من ثناء وتنويه. فان لم يفعل فيا للاحتكار، ويا للأنانية، ويا للغدر والكفران بالحقوق!

تعس الشرق إن كانت هذه روح الجد في شباب يتولى قيادته الفكرية بعد جيل. ومن رحمة الله بالشرق ألا تسري هذه الروح في غير القليل من المتواكلين

وتجربتي أنا في هذا الميدان قد يعرفها المتعقب لتاريخ الكتابة الحديثة بغير بحث طويل

فما لجأت قط إلى أديب مشهور لأتكئ إلى شهرته وأستفيد من ثنائه، وما استبحت قط في كتاب من كتبي التي أطبعها أن أذيع كلمات التقريظ التي يخصني بها الكبراء ومنهم زعيم مصر (سعد زغلول)

هذه تجربتي مع من تقدموني وسبقوني إلى ميدان الكتابة والشهرة. أما الذين لحقوا بي فإذا استثنيت أفراداً جد قليلين من صحبي - وإن شئت فقل تلاميذي - فلا حق لي عندهم ولهم عندي جميع الحقوق.

قرأوني عشر سنين فما نبسوا بكلمة تقدير واحدة، وتعرضوا للكتابة أياماً فاعتقدوا أنني قصرت غاية التقصير لأنني لم أفرغ نهاري وليلي للثناء عليهم والتبشير بدعوتهم،

. . .ووجب إذن أن أفعل ما يريدون وإلا
وهنا العثرة كما يقول شكسبير!
وإلا ماذا؟ إنني رجل لو جاءني أحد فقال لي عش ألف سنة سعيداً وإلا. . . لأوشكت أن أجيبه بالرفض بعد هذا الاشتراط قبل إتمامه
فإذا جاءتني شرذمة من خشاش الأرض لا يعرفون لي حقاً ويفرضون عليّ أن أنتحل لهم كل حق مصدوق أو مكذوب وإلا حطموني وهدموني وذروا ترابي في الهواء فماذا ينتظرون مني؟ ولماذا يغضبون إذا تركتهم يهدمونني؟ الأنهم لم يستطيعوا هدمي؟ أكان من الاحتكار أيضاً أنني لم أنهدم كما أرادوا فعرفوا أنهم عاجزون وأنهم هارلون؟
إن حق التشجيع في معاملة الناشئين مقرون بحق الأدب والتوقير في معاملة الشيوخ والكهول
بل حق الأدب والتوقير مقدم بحكم السبق في الزمان، لأن الشيوخ والكهول كتبوا قبل الناشئين، وبحكم الحق لأن الأديب الناشئ يستفيد حين يقرأ سابقيه وليس الأديب الكهل أو
الشيخ على ثقة من الفائدة إذا يقرأ للناشئين، وبحكم الاستطاعة لأن القارئ الناشئ قد استطاع أن يقرأ فعلاً ما هو مطالب بتقديره وليس لأحد أن يفرض استطاعة الكهل أو الشيخ أن يقرأ كل ما يكتبه الدارجون في طريق الكتابة
ولكنهم هنا يطلبون التشجيع ويعفون أنفسهم من واجب التوقير. . . ويهددون!
ومن طلب ذلك فما هو بأهل للتشجيع
ومن قبل ذلك فما هو بأهل للتوقير
أما الذين يعرفون الحقوق ثم لا يحتكرونها كلها لأنفسهم فليس عندهم من سبب لاتهام المشهورين أو غير المشهورين بالاحتكار، ولا يلومون أحداً على الاشتهار لأنهم هم يتعجلون الاشتهار
عباس محمود العقاد
. . .مرسلات
ليت أشياخي!
ليت أشياخنا بالأزهر شهدوا الحفل العظيم الذي دعا إليه معالي وزير العدل في قاعة الجمعية الجغرافية ليسمعوا - كما سمع الوزراء والمستشارون والقضاة والمحامون وغيرهم - محاضرة الدكتور عبد الرزاق السنهوري بك عن (مشروع تنقيح القانون المدني)
ليتهم شهدوا هذا الحفل ليشهدوا منافع لهم، وليعلموا أن رجلين اثنين أخلصا لعملهما، وأخلص كل منهما لصاحبه، سهرا الليالي واستعذبا العذاب حتى أخرجا هذا المشروع الخطير!
ليتهم سمعوا هذا المحاضر اللبق يقول في عبارات واضحة قوية: (إن الفقه الإسلامي لجدير بأن يكون أهم مصدر من مصادر التشريع الحديث، وإن على أهله لواجباً أن يخلصوه مما علق به من آثار الجمود والركود، وأن يقربوا للناس سبل الانتفاع به. وإن المشروع المقترح بكل ما فيه من مبادئ وأحكام، إما مستمد من هذا الفقه فعلاً، وإما مستمد من غيره، ولكنه لا يتعارض مع روح الشريعة السمحة)
ليت الذين ملئوا الدنيا دعاء ونداء بالتشريع الإسلامي قد سمعوا هذا المحاضر، ثم سمعوا وزير العدل من بعده، وهما يوجهان الدعوة عالية إلى رجال الفقه والقانون لينظروا هذا المشروع، ويدرسوا ما فيه من مبادئ وأحكام قبل أن يعرض على (البرلمان)
ليت الأزهر، ليت كلية الشريعة، ليت (الجماعة)!
ليت. . .! وهل ينفع شيئاً ليت؟
أيها الأشياخ المكرّمون! واحدة من اثنين: إما أن تكونوا دُعيتم فلم تحضروا، وإما أن تكونوا نُسيتم فلم تُذروا! وأيتهما كانت فهل أنتم متداركون ما فات؟ هيهات! هيهات!
محمد محمد المدني
الحديث ذو شجون
للدكتور زكي مبارك
وإن عدتم عدنا - جوائز وزير المعارف - في سبيل الوحدة

العربية - بين القومية والإنسانية
وان عدتم عدنا
لعل القراء لاحظوا أني انصرفت عن مجادلة من يتعرضون لمقالاتي بالنقد والتجريح في بعض الجرائد والمجلات. ولعل فيهم من توهم أني تعبت من النضال فاعتصمت بالصمت البليغ! والواقع أني أسكت طائعاً عن بعض المجادلين، لأني أومن بأن من حقهم أن يثوروا على آراء دفعتهُم إلى مُحرجاتها برفق أو بعنف، وما يجوز لي أن أتعقب ناقداً بما لا يرضيه، مع أن قلمي هو السبب في إثارته إلى الجدال والصيال ولهذا المعنى سكتُ عن كلمة جارحة نشرتها مجلة الثقافة (عملاً بحرية النشر) كما قالت، وهي كلمة (منسوبة) إلى إحدى أديبات فلسطين، وفيها شفاء لبعض الصدور المراض
ولهذا المعنى أيضاً سكتُ عن كلمة تطاولَ بها أحد محرري (الثقافة) الغراء، لأمنحه فرصة يقول فيها عني ما يريد
ولكن (الثقافة) فيها كاتبٌ اسمه (قاف) وقد أراد هذا الكاتب متفضلاً أن يشغل نفسه بالقصائد التي تنشرها (الرسالة) باسم (الشاعر المجهول). وما يؤذيني أن تُنقَد القصائد التي تنشر في (الرسالة)، لأن مجلة الرسالة لا تنشر من الشعر إلا ما يثير لنفاسته أقلام الناقدين
إن (قاف الثقافة) توهّم أن (الشاعر المجهول) هو (الكاتب المعروف) وساق عبارة دلّ بها قراءه على أنه يَعني الدكتور زكي مبارك
أهلاً وسهلاً!
ولكن هل يعرف (قاف الثقافة) أني سأسوق إليه كلاماً يزلزل (جبل قاف)؟
إن قاف الثقافة بعيد كل البعد عن الذوق الأدبي، وهو لم يتوار في أحد سفوح (قاف) إلا لينجو بنفسه من الرجفات التي تزلزل قمم الجبال
ومن ذلك القاف؟ وما صبرُ مجلة الثقافة عليه وقد زعمت أن عندها علماء من كل صنف؟
أيكون آخر ما عندها من الأصناف؟
إن درس اليوم هو الفَيْصل في معضلات النقد الأدبي، وسيعرف به قاف الثقافة ما لم يكن يِعرف، وسيذكرنا بالخير الجزيل إن كان من الصادقين
وإلى قراء الرسالة أحتكم، وفيهم ألوف من رجال الأدب والبيان. . . قال الشاعر المجهول:
أبحتُك من قلبي نفائس عطفه ... وحِّررتُ فيك المال من ربقةِ الضَّن
وقلتُ مثالٌ من جمالٍ أصونهُ ... فيسلم من إفك الزمان ويستغني
فلم تر صدري من سهامك في حمى ... ولم تر جيبي من نصالك في أمن
وعشتُ يريني الحبُّ أنك حافظٌ ... عهودي وأن الخُلد بعض الذي أبني
فلما رأيتَ الوجدَ يغتال مهجتي ... وأيقنتَ أني من غرامك في سجن
مضيتَ إلى غيري جهاراً وخنتني ... فمن أيّ وحلٍ صيغ طبعُك خبّرني
تلك هي القطعة التي اعترض عليها قاف الثقافة، وقد اخترمها اختراماً ليخفي عن قرائه مقام البلاغة في الكلمة التي ثار عليها عقله الحصيف
فما تلك الكلمة؟ هي كلمة (وحل) فقد رآها كلمة قبيحة لا يجوز ورودها في قصيدة من قصائد التشبيب!
وأقول إن كلمة (وحل) هي أبلغ كلمة في هذا المقام، ولا يستطيع (قاف) أن يأتي بكلمة أقوى منها
وكلمة (وحل) وردت في قول مسلم بن الوليد:
مشينا بها مَشيَ المقيَّد في الوحلِ
فعدَّها القدماء أبلغ كلمة في هذا السياق
وقبل ذلك وردت في قول الأعشى
تدِبَّ كمْشي القطاة القطو ... ف في وَحلَ النَّهى تخشى رقيبا
وأقبح من كلمة (وحل) كلمة (مستنقع) وقد عُدَّت أبلغ كلمة في قول شوقي وهو يذكر ما أنعم به السلطان على الضفادع:

وزاد أن جاد لمستنقَعٍ
وقبل ذلك وردت في قول أبي تمامٍ
فأثبت في مستنقَع الموتِ رِجلهُ
فماذا نصنع في تثقيف قاف الثقافة، وهو لا يعرف الأبجدية من البلاغة العربية؟
لو كان هذا القاف يعرف أسرار البلاغة لأدرك أن الكلمات تأخذ قوّتها وبلاغتها من السياق، وأن الكلمة القبيحة قد تصبح وهي نهاية في الجمال إذا أوجبها مقتضَى الحال
ولكن هذا المتأدب حديث العهد بالدراسات الأدبية، فهو محجوب عن سرائر الألفاظ والمعاني
هو رجل رقيق تؤذيه الأخيلة الجافية، لأنه من أبناء القرن العشرين، فإن لم يكن كذلك فهل يستطيع أن يناقش هذه الأحكام القاسية؟
يا قاف (الثقافة) الغراء:
إذا لم تستطيع شيئاً فدَعهُ ... وجاوزْهُ إلى ما تستطيعُ
وإلا فهل تملك من القدرة ما تجاريني به في ميدان النقد الأدبي؟
ارجع إلى كلمتك في مجلة الثقافة ثم اسأل نفسك، فإن فعلت فسترى أنك وقعت في غلطة ذوقية لا يقع فيها إلا من كان في مثل حالك
ولي أن أوجه إليك هذا السؤال:
كانت مجلة الثقافة تتقي شرّي فتسكت عما أُصوّب إليها من مؤاخذات فكيف استباحت في الأشهر الأخيرة أن تناوشني أربع مرات بلا موجب يفرضه الحرص على خدمة الأدب أو الحق؟
كانت مجلة الثقافة أعلنت على لسان أحد مراسليها أنني كنت البادئ بالعدوان في جميع الأحيان فما عذرها وقد هاجمتني أربع مرات بعد أن رُفع بيني وبينها غصن الزيتون؟
جوائز وزير المعارف
منذ أيام أقيمت حفلة في مكتب وزير المعارف لتوزيع الجوائز على الفائزين في مسابقة الأدب العربي، وهي جوائز تفضَّل بها معالي الأستاذ نجيب الهلالي بك، أما الجوائز الرسمية، فسيظفر بها أولئك الطلبة بعد الفوز في امتحانات القسم الخاص
والظاهر أن بعض المسؤولين في وزارة المعارف قد نظر فيما سيُلقَى أمام الوزير من خُطب وقصائد، فكانت النتيجة أنْ سلمت الحفلة من جميع العيوب، وأن جاءت شاهداً جديداً
على أن الإيجاز من فنون البيان
وقد رأيت أن تكون لي كلمة في تلك الحفلة بعد أن لاحظت أن كبير مفتشي اللغة العربية ومراقب الامتحانات سكتا في خطبتيهما عمن أعان الفائزين إعانة حقيقية حين شرح لهم موضوعات المسابقة في (بعض) المجلات
وعند ذلك قال معالي الهلالي بك: (الحِدِق يفهم)؛ وهي كلمة لم يسمعها جيداً مندوب جريدة (الدستور)، فصاغها من عندياته بأسلوب غير مقبول
والمطالبة بجائزة لمن شرح موضوعات المسابقة الأدبية على صفحات (الرسالة) ليست جديدة، فقد طالبتُ بها الوزير السابق، فوعَد ثم صُرفَ عن الوفاء
أفلا يكون من حق ذلك الباحث أن ينتظر من الوزير الجديد جائزة سنية تشجعه على شرح الموضوعات الآتية لمسابقة العام المقبل؟
لمعالي الوزير أن يختار أحد أمرين: الأمر الأول أن يعدّ معاونة الطلبة على الفوز في المسابقات واجباً على جميع المفتشين؛ والأمر الثاني أن يرى تلك المعاونة تطوعاً يؤديه أهل الحرص الشريف على فوز التلاميذ
وفي كلا الحالين يكون الباحث الذي تفردَّ بشرح موضوعات المسابقة الأدبية في عامين متواليين أهلاً للتفرد بالثناء
فما رأى معاليه في هذا الكلام؟
ومتى تفكر وزارة المعارف في تقدير أتعاب الباحثين؟
في سبيل الوحدة العربية
كنت أتأهب للرد على كلمة نشرت في إحدى المجلات تعريضاً بالدكتور عبد الوهاب عزام، وكان ألقى خطبة في كلية الآداب دعا فيها إلى الاعتزاز بالقومية العربية.

وللدكتور عزام حقوق: لأنه من أفاضل الباحثين المصريين، ولأنه على جانبٍ عظيم من الأمانة والصدق، ولأن اتهامه بالغرض إثمٌ دميم
ثم فوجئت بخبر يشرح الصدر وهو اعتزام (الرسالة) إصدار أعداد خاصة بالأقطار العربية، للتنويه بتلك البلاد، وللتعريف بما عند أهلها من فضائل وآداب
وإذا استطاع أخونا الزيات أن يفي بما وعد، وعلى الوجه الذي يريد، فلن يكون عمله الصالح إلا أداءً لديون طُوِّق بها جيد مصر في مناسبات مختلفات، فقد أشرت في مقالاتي غير مرة إلى الأعداد الخاصة بمصر في مجلات العراق وسورية ولبنان، ودعوتُ إلى أن نجزي أولئك الإخوان وفاءً بوفاء
ولكن هناك صعوبات تعترض هذا المشروع الجليل، وأخطر الصعوبات هو ضعف الإحاطة بخصائص تلك البلاد. ولتوضيح هذا المعنى أقول:
سيبدأ الأستاذ الزيات بإصدار عدد خاص بالعراق، لأنه أقام فيه ثلاث سنين، ولن يجد صعوبة في تمثُّل ما فيه من مواهب ومطامح وآمال، ولأنه سيجد من إخوانه في القاهرة وبغداد من يساعده على إصدار ذلك العدد الخاص
فما الذي سيصنع حين يتأهب لإصدار أعداد خاصة بالأقطار المغربية واليمنية والحجازية والسورية واللبنانية؟
أنا بمشيئة الله حاضر لمساعدته على العدد الخاص بلبنان. فسأزوره في فرصة سعيدة عند اجتماع المؤتمر الطبي العربي في بيروت، فمن أنصار الزيات في غير العراق ولبنان؟
الخطب أسهل مما نتوهم، ولكن. . . ولكن على شرط أن يهاجر الزيات من المنصورة إلى القاهرة ليستوحي من فيها من العارفين بخصائص الحياة الأدبية والاجتماعية في تونس والجزائر ومراكش واليمن والحجاز وسورية وفلسطين
إن استطاعت (الرسالة) أن تصدر عدداً خاصاً بكل قطر من أقطار العروبة فستؤدي للأدب الحديث خدمة معدومة النظير والمثيل
ولكن متى تصدر (الرسالة) عدداً خاصاً بالسودان؟
السودان جزء من مصر، ولكن محاسنه محجوبة عن جماهير المصريين. . . فهل أستطيع أن أقول لأخواني في السودان إن الرسالة ستصدر عدداً خاصاً بالسودان بمناسبة المهرجان الأدبي المقبل؟
بين القومية والإنسانية
وأرجع إلى تفنيد التهمة التي سيقت ظُلماً إلى الدكتور عبد الوهاب عزام فأقول:
إن الذين كَبر عليهم أن ندعو إلى القومية العربية لم يجدوا حجةً تستر غرضهم المعروف غير القول بأن القومية تنافي الإنسانية، لأنهم فيما يزعمون لأنفسهم دعاة التحرر من
الرجعية، والرجعيةُ في أنظارهم هي الوقوف عند حدود الوطن واللغة والدين
ونقول إن حجتنا هي الصحيحة، وإن الأساس لكل إصلاح هو أن تبدأ بنفسك، والذي يعجز عن إقامة بيت في القاهرة لا يستطيع إقامة عش في فيافي اليابان
وقد حدثناكم ألف مرة أن لمصر قومية عربية توجب عليها أن تنظر بعين الأخوة إلى من يفهم عنها وتفهم عنه ولو كان مسكنه فوق أسوار الصين
وحدثناكم أيضاً أن مصر لن تصمّ آذانها عمن يدعوها باسم الأخوّة الإسلامية، ولو كان من سكان المريخ
فيا فلانُ الذي قضى رُبع قرن في تنفير مصر من العواطف العربية والإسلامية باسم الغيرة على الإنسانية، يا فلان مكانك مكانك، فلن يَقبل الله لك عملاً، ولن تُحشر في زمرة المهتدين
وعند الله الجزاء لدعاة البر والخير والإصلاح السليم.
زكي مبارك
السيلو هو السيرة والسير
للأب أنستاس ماري الكرملي
تصدير - 1
زارني ولدي بالروح كوركيس حنَّا عوّاد في 1531942 وقال
لي: (يا أبتِ بينما أنا أتصفّح المجلد الـ 87 من المقتطف

ص 630 وقع نظري على هذه العبارة وهي (ديسنبر 1935):
وقد اصطلح العلماء على تسمية هذه المخازن (مخازن
الطعام) باسم سيلو وأصل هذه الكلمة بحسب أقوال الغربيين،
ويظهر أنها استعملت أولاً في أسبانيا والمغرب الأقصى.
فحبذا لو عُني أحد اللغويين بالبحث عن أصل اشتقاقها. وقد
اصطلح على تسميتها في القطر المصري بالصوامع، لأن
الفلاح اعتاد أن يطلق اسم صومعة على المخزن المبني
بالطين الذي يحفظ فيه غلاله، وكان الكاتب جلال حسين أول
من أطلق عليها هذا الاسم في مقالات له نشرت في المقطم)
انتهى.
ثم زاد ولدي على ما تقدم نقله ما هذا إيراده: (ثم تصفحت ما جاء من أجزاء المقتطف في مجلدته التالية إلى هذا اليوم فلم أجد من تعرض لهذا البحث ولم أوفق في عثوري على معرفة الأصل العربي، فهل لك أن تذكر لنا اللفظة المأخوذة منها الكلمة الغربية؟).
فقلت له: إني قد بحثت عنها في معجمي الكبير (المساعد) ولكن البحث عنها في هذا البحرِ الغِطمّ يحتاج إلى وقتٍ، فمتى ما سنحت لي الفرصة أُحقق الأمنيَّة، وأنقل ما قيدته في دفاتري. واليوم قد ظفرت بهذا الموضوع، فآتي به وأطلع الأدباء عليه بنشره في هذه المجلة.

2 - أقسام مخازن الطعام

تقسم مخازن الطعام إلى قسمين كبيرين: قسم يتخذ فوق الأرض وقسم يتخذ في السراديب أي تحت الأرض وليس للغربيين إلا اسم واحد لهذين القسمين وهو (سيلو) أما العرب، فقد سمو باسمين مختلفين هذين المخزنين: فالذي يبنونه أو يتخذونه فوق الأرض يسمونه السيرة أو السير، وهو الذي نقل إلى (سيلو الغربية كما سترى) وقسم تحت الأرض وهو المسمى عندهم مطمورة.

3 - السيرة والسير

قال صاحب كتاب الرزدقة في ص 143 - 13 وما يليه:
اعلم أن (السيرة) بالكسر و (السَيْر) بالفتح، أن يكدّس الطعام أو الميرة أكداساً وصُبَرا، ثم يجمع بينها وتصومع، ثم تَسيّغ فتصمد دفعاً لعادية الأمطار والثلوج عنها وحفظاً لها من كل ضرر، فان وضع هذا الطعام أو هذه الميرة في حفرة فهي المطمورة) انتهى بنصابه
وقد نقَّرنا عن السيرة والسير في كتب متون اللغة، وهي عندنا كثيرة لا يرى أمثالها عند كثيرين من أصحاب خزائن كتب أبناء يعرب ولا في دور أبناء الغرب فلم نظفر بما يفيدنا هذه الفائدة المطلوبة هنا؛ ولكن لها وجه وجيه في اللغة، فقد جاء في كتبنا عن أحد معانيها: السيرة: الميرة. فيكون مجيئها بمعنى مخزن السيرة من باب حذف المضاف وإبقاء المضاف إليه، ومنه الآية: واسأل القرية. ومعناه: أهل القرية. وفي الحديث: (وإن مجلس بني عوفٍ ينظرون إليه أي أهل المجلس على حذف المضاف. وفي الأساس: رأيتهم مجلساً أي جالسين. وعندنا من الشواهد ما يقع في جزء من أجزاء هذه المجلة لكثرتها وسماعها عن الأئمة الأعلام الإثبات الذين لا يشك في فصاحتهم ولا في بلاغتهم، ولا في عروبتهم المحضة
وأما (السَيْر) بمعنى السيرة والميرة التي وردت في (الزردقة) فلم نجدها في كتاب لغة؛ لكنا
وجدنا في اللسان والتاج وغيرهما (المَيْر) بالفتح بهذا المعنى عينه. وقد رأينا أن (السيرة) بمعنى (الميرة) وردت في كلام الأقدمين ودواوين اللغة، فتكون (السَيْر) للمَيْر من هذا القبيل أي لغة فيها. فتكون (السيلو) من (السير) عن طريق اليونانية، فقد حكى اللغوي العظيم بوازاق في معجمه أصول الألفاظ اليونانية، أن الأغارقة يقولون للسيلو (مخزن الطعام في ص 866 من تصنيفه البديع (بكسر السين) قابلها (بفتح السين) بمعناها فلم يبق شك في أنهما مثل (سِيرةِ) و (سَير) بكسر السين في الأول وبفتحها في الثاني والمعنى واحد، ثم نقلها عنهم أهل الغرب جميعاً فقال اللاتيين

ونقلها عنهم باللام والإنكليز والفرنسيون والإسبانيون فقالوا سيلو أي (باللام)
ولماذا جعلوا اللام في مكان الراء فلأحد سببين: إما لمقاربة مخرج الراء من اللام فأبدلوا إحداهما بالأخرى، وإما لأنهم سمعوها من بعض العرب من قديم الزمان باللام.
فالذين نطقوا بها منذ القديم بالراء جاوروا عرباً يلفظون راءها على أصلها. والذين نطقوا بها باللام كالفرنسيين والإسبانيين والإنكليز جاوروا عرباً يجعلون الراء لاماً. وهذا ما ورد نظائره في كلام السلف الصالح القديم فقالوا: هدر الحمام هديراً وهدل هديلاً، واعرنكس الشَّعر واعلنكس أي تراكم وكثر أصله. والعرجوم والعلجوم، وأربَّ في المكان إرباباً وألب فيه إلباباً: إذا قام به. والشواهد لا تحصى لكثرتها.

الأب أنستاس ماري الكرملي
من أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية

خسرو وشيرين
في التصوير الإسلامي
للدكتور محمد مصطفى

- 5 -

ودّعت شيرين فرهاد بعد أن استرد شعوره، وتركته ونزلت بجوادها الجبل قاصدة قصر شيرين، وإذا بالجواد يكبو وتكاد شيرين أن تسقط من فوقه. فأسرع فرهاد إليها، وقد أراد أن يقوم أمامها بعمل من أعمال الرجولة والبطولة، وحملها هي وجوادها على كتفيه، ونزل بها ذلك المنحدر الشاق، فأعجبت شيرين بقوته الهائلة
وفي (شكل 1) تقدم فرهاد لنجدة شيرين، عندما تعثَّر جوادها الأصيل وكادت تزلّ قدمه، فحملها هي وجوادها على كتفيه ونزل بهما ذلك المنحدر الشاق، وقد ظهرت على وجهه دلائل السعادة لهذا العمل الذي جلب إلى قلبه الغبطة والسرور. ونرى خلفه اللوحة التي نحتها لتمثيل خسرو وهو واقف بين شيرين وموبذَ الموبَذان. وهذه الصورة كانت مع عدة صور أخرى ضمن مخطوط للمنظومات الخمس للشاعر نظامي مؤرخ سنة 868 هـ (1463م). ويمكن تأريخ هذه الصور حوالي سنة 854 هـ (1450م). هذه الصورة محفوظة في مجموعة شستر بيتي بلندن
بلغت مسامع خسرو أخبار تطور العلاقات بين شيرين وفرهاد، من عطفها وإشفاقها عليه، إلى إعجابها به، فخاف أن تبلغ هذه العلاقات بينهما مدى أبعد من ذلك. أضف إلى ذلك أنه علم أن فرهاد قد قرب من إتمام مشروعه الهائل، وإنه على وشك والوصول إلى نهاية الطريق الذي يشقه في صخور جبل بيستون. فجمع خسرو وزراءه وسألهم عن حيلة تعفيه من وعده لفرهاد، فأشاروا بما أملته عليهم قلوبهم الجامدة القاسية، التي لا يعرف الحب إليها طريقاً، والتي ماتت فيها العواطف وتحجرت دماء الشباب. إذ أرسل خسرو إلى فرهاد الشاب المفعم بالحماسة للحياة، امرأة عجوزا قد فرغت من تجارب الزمان، أخبرته في رفق قاتل، وتؤدة خانقة، أن شيرين قد اختارها الله تعالى إلى جواره. . . يا لله!. . . ماتت شيرين!. . . فيالها من حياة تعسة يائسة!. . .
ولكن. . . لا!. . . فإن قلوب المحبين خالدة
لا تموت!. . . وشعر فرهاد كأن روح شيرين ترفرف عليه، وتدعوه ليصعد إلى جوارها، إلى حياة أخرى خالدة هادئة. . . وصعد فرهاد إلى صخرة شاهقة تشرف على ذلك الطريق الذي شقه في سبيل القرب من حبيبته. . . فصار آخر طريق يسلكه ليصل من هذه الدنيا. . . دنيا الخبث والشقاء والبؤس. . . إلى دنيا الصفاء والأحلام والخلود. . .
وعلى سطح هذه الصخرة الشاهقة، سجد فرهاد أمام روح شيرين الطاهرة البريئة. . .
. . .وقد مثلت أمامه، فرآها بعيني بصيرته، وقبَّل لها الأرض في خشوع وخضوع ثم قام وقد افترت شفتاه عن ابتسامة الواثق من مآله، ولاحت على وجهه دلائل الغبطة والسعادة، وألقى بذلك الجسد الفاني إلى الطريق، فصعدت روحه الخالدة إلى السماء، وهي تنظر وراءها، إلى تلك الابتسامة الباقية على شفتيه، فترى فيها ما للموت من جمال. . . وكيف لا يكون للموت جمال. . .؟!
وفي (شكل 2) يرقد فرهاد رقدته الأخيرة، بعد أن ألقى بنفسه من أعلى الصخرة، فسقط إلى جوار أدواته التي كان يعمل بها في نحت الطريق بجبل بيسُتون. وإلى اليمين أسرع رجل إليه، وقد عقلت الدهشة لسانه، فوضع يده على فمه. وانطلقت الغزلان والطيور مبتعدة عن مكان هذه المأساة الموحشة، كأنها تفر من هول القضاء

المحتوم. وهذه الصورة في مخطوط (2) للمنظومات الخمس للشاعر خسرو الدهلوي، كتب في مرات سنة 890 هجرية (1485م) ومحفوظ في مجموعة شستر بيتي بلندن

أفلحت مكيدة وزراء خسرو، ومات فرهاد وهو يعتقد أن شيرين قد ماتت، فأراد أن يلحق بها. وحزنت شيرين على فرهاد حزناً شديداً، فأمرت ببناء قبة فوق المكان الذي مات فيه، لتكون رمزاً للحب الطاهر البريء، وكعبة يحج إليها كل محب صادق في حبه لم يكن حزن شيرين لموت فرهاد إلا لإشفاقها عليه وإعجابها به، فقد كان صادقاً في حبه، عفيفاً أبيّ النفس، وفياً كامل الرجولة. وماتت مريم ابنة إمبراطور الروم، وزوجة خسرو وأم ابنه شيرويه. فأرسل خسرو الرسل إلى شيرين يطلب ودّها، ولكنها رفضت أن تقابلهم، وأصمت أذنيها دونهم. وحاول شابور، صديق الطرفين، أن يوفق بينهما، فبذل في هذا السبيل كل ما أوتي من ذكاء وسعة حيلة، ولكنه لم يفلح. فقد كانت شيرين غضبى لزواج خسرو من مريم، ولقسوته الشديدة على فرهاد. وأراد خسرو أن يسري عن نفسه، فاختار لذ

لك سيدة جميلة من سيدات البلاط، اسمها (سكر) ولكنه سرعان ما سئم صحبتها وتاقت نفسه إلى حبيبته شيرين، فرحل إلى الهضاب المرتفعة في طلب الصيد، وضرب خيامه على مقربة من قصر شيرين. وكانت هي - على مر الأيام - قد بدأت تشعر بالأسف، لمعاملتها رسله بهذا الجفاء، فرضيت أن تستقبله في قصرها. وما كادا يتقابلان في أول لقاء بعد هذه الحوادث، حتى ثارت ثائرتها، وأخذت تعنفه لخيانته وقسوته، ثم صرفته من بين يديها، فرجع كسير القلب حزيناً. وعادت شيرين ثانية تشعر بالأسف لجفائها معه، وأرادت أن تصلح ما أفسدت، فتسللت من قصرها، وتوجهت إلى مضرب خيامه في زي أحد غلمان الملك. وهناك قابلها شابور، فتوسلت إليه أن يخبئها في منظرة، ففعل ذلك. وأغري خسرو حتى أدب مأدبة في هذه المنظرة. وكان شابور قد أخبر نيكيسا بوجود شيرين، فغّنتْ أثناء المأدبة بصوت رخيم تحركت له أوتار قلب خسرو، ورد عليها باريد بأغنية أثارت عواطف الجميع، فلم تتمالك شيرين نفسها دون أن تتنهد، وتفصح بذلك عن وجودها. وهنا رفع شابور الستار عن مخبئها، ورآها خسرو أمامه، وهي ترنو إليه، ولسانها حالها يقول

لا رأى السوء من يراك يد الده ... ر وأحيا الإله من حياكا

أي نور لناظريْ إذا ما ... مرّ يوم وناظري لا يراكا

(له بقية)

محمد مصطفى

أمين مساعد دار الآثار العربية

محاكمة قصاص

للأستاذ عبد الوهاب الأمين

هذا حديث كنت شاهده عرضاً، وكان قد جرى بين صديق لي من القصاصين وبين إحدى الإنجليزيات، لم أشترك فيه إلا بالسمع فقط وإلا بإشارة عارضة أو نظرة تأييد وموافقة عندما كان يفزع إليَّ أحد المتحادثين في غضون الحديث، فكنت اعتصم بالصمت طوال سيره

وقد بدأ هذا الحديث أول ما بدأ تغلب عليه مسحه من التزمت الذي يقتضيه مثل هذا الموقف، ثم أخذ يتحدر شيئاً فشيئاً إلى الكثير من اللجاجة وقليل من قسوة اللفظ كنت أرى أنهما غير مصطفين

وقد سجلت هذا الحديث لأنه يمثل متهماً يدافع عن نفسه في اتهام لا يمكن أن يبرز في غير هذا السياق من الأخذ والرد، ولأنه يمثل مفهوماً للأدب الحديث بين عصرين وحضارتين وجنسين

قالت الجليسة لرفيقي بعد تطور الكلام - وكان في حفلة من الحفلات العامة - الذي بدأ كما يبدأ كل كلام بين غريبين ببعض المجاملات المعروفة:

- علمت أنك تكتب القصص الصغيرة، فهل كان ذلك منك اختياراً، أم أنك كنت تقتفي أثر أحد من الأدباء الذين أعجبت بهم؟

فأجاب صاحبي:

- من المؤكد أنه اختياري الخاص؛ وإن كان قصدك بالاقتفاء (التقليد)، فان القليل عندنا

من أدباء العربية من يكتبون القصص الصغيرة والأقل منهم من يجيدها. وإن كان قصدك اقتفاء سير الأدب الغربي، فأنت تعلمين أن مثل هذا لا يمكن أن يسمى اقتفاء أو تقليداً، لأن جميع الأدباء الغربيين تقريباً يكتبون القصص، بل لعلهم لا يكتبون سواها، فلا يمكن أن يكون كل واحد مقلداً لكل واحد

- أنا لا أفرق بين الاقتفاء والتقليد، وإن كنت في الحقيقة لا أرى في التقليد العيب الذي ترونه فيه أنتم معشر الشرقيين، فالحقيقة أن الابتكار نفسه هو تقليد مضاعف

- قد يكون ذلك حقاً، ولكن رغبة الأديب في القالب الذي يفضله لأداء رسالته الأدبية لا يمكن أن يبت فيه غيره هو. ولا أضن أن هناك من الأدباء الناجحين من سار على طريق مفترح. والحال في هذا كالحال في جميع الأشغال والأعمال، فلا يفرض النجاح لعمل ما إذا كان ذلك العمل غير مرغوب فيه، وإذا لم يكن الإلهام من المجهول هو السائق الأول له

- لماذا فرضت أن يكون العمل غير مرغوب فيه تقليداً؟ قد تجيد عملاً ما ولا تدري أنك تجيده حتى يتضح ذلك بمناسبة ما!

- إن ميلي إلى كتابة القصص الصغيرة ليس من هذا النوع، فإني لم أكتشفه في نفسي اكتشافاً، بل رأيتني مدفوعاً إليه

- وكيف كنت تشعر عندما كتبت أول قصة؟

- لا أذكر أول قصة كتبتها، ولكني أذكر أول قصة لي نشرت، وقد كانت سخيفة!

- لم أكن لأستغرب هذا القول منك، ولن أستغربه إذا سمعتك بعد عشر سنوات تقول عن قصتك التي نشرت أمس سخيفة! أن في كتابة القصص لمجالاً كثيراً للسخف، والغريب أن أول من ينبه إليه بعد فوات الوقت هم كتابه!

رأيت صاحبي يتقبل هذا التهجم بصبر وأناة، ويحاول أن يدور بالحديث غير مداره، ولعلها هي الأخرى أدركت أنها كانت قاسية بعض القسوة في قولها ذاك فأردفته قائلة:

- كنت أقصد أن أقول هذا على سبيل المدح لكتاب القصة لا على سبيل القدح فيهم، فالحق أن الاعتراف لا يكون أكثر تجلياً مما هو عليه لدى أرباب القصة

فقال صاحبي:

- لعلك صادقة في قولك هذا إن (دستوفسكي) مثلاً لم يكن يتسنى له أن يبلغ من الفن تلك الذروة التي بلغها لو لم يكن كما وصفت. وكذلك (ل. هـ. لورنس) - من كتابكم - فهو من عباد الواقع ومن أربابه الذين خدموه

فسألته وتقدمت إلى الأمام قليلاً، وكأنها تريد أن تدعوه إلى معركة:

- هل تحب (لورنس)؟

- كثيراً جداً

- وماذا يعجبك في فنه؟

- إذا طرحنا بيانه الرائع وقدرته الفنية على الأداء جانباً، فإني أعجب، بالإضافة إلى ذلك، باتجاهه الأدبي، ولعلي من الزمرة الذينَ يسمونه بالنبوة بين كتاب جيله!

- لعلك مغرق في تحمسك. . . إن (لورنس) أديب ولاشك، ولكنه ليس كما وصفته. إنه أديب منافق! ولكني لا أريد أن أجادلك في موضوع (لورنس) بل أود أن تشرح لي كيف تكتب قصصك

- إن كان قصدك وصف الكتابة ونوع المؤثر الذي يحدو بي إليها، فإني في الحقيقة لا أقدم على كتابة قصة قبل أن ينزع بي نازع إلى الكتابة. ولا أظن أن وضعي في ذلك يختلف كثيراً عن وضع الشاعر عندما تتكون فيه الرغبة إلى نظم القصيد. وفي أكثر الأحيان أراني أكتب قبل أن يتكون في مخيلتي كيان القصة أو عمودها الفقري كما يصطلحون!

فسألته المحدثة بابتسامة غامزة:

- ألا ترى أنك تخلق من أبطال قصصك مخلوقات مبتسرة! أليس هذا الإنشاء اعتباطاً؟

فأجاب صاحبي القصص وكان قد رفع قدح الشاي إلى فمه فأنزله مسرعاً:

- إني لا أعدو في ذلك ما تصنعه الطبيعة في خلق أبنائها! وأضن أن مهمة الفنان في هذه الحياة هي أن ينوب عن الطبيعة الأم فكأن هذا الجواب أرضاها، فقالت وهي تهز رأسها هزة الموافق:

- ذلك صحيح. . . وماذا عن العقدة

- هنا موضع الخلاف كما يقولون، فأنتم في الغرب تقيمون لها الوزن كل الوزن؛ أما نحن هنا فقليلاً ما نعني بها عنايتكم هذه، وأضن أنك تلاحظين أن آداب الأمم الغربية القريبة إلى الشرق أقل نزوعاً إلى (القعدة) في قصصها منها في الأمم الضاربة إلى الغرب. وأقرب مثال إلى ذلك في نظري هو الأدب الروسي الذي نستطيع أن نقول: لا عقدة فيه

- ولكن أدبكم على ما أسمع ليس فيه ذلك العمق الموجود في الأدب الروسي

- ذلك لأن أدبنا لا يزال في طور التكوين

- وقد كان الأدب الروسي كذلك في بداية أمره، ولكنه لم يكن كأدبكم هذا الذي نسمع به ولا نستطيع أن نراه. إن نقدة الأدب عندنا يرون أن أدبكم العربي المعاصر لا يمكن نقله على صورته إلى اللغات الأخرى، وعلى الأخص منه الشعر، وليس كذلك الأدب الروسي أو غيره

- قد يكون هناك سبب أساسي وهو أن اللغة العربية عميقة الأداء وأن بعض تعابيرها قد تجمدت كما يقولون، ولكن المهم في نظري هو سير لغتنا بقوة الاستمرار فقط مدة طويلة من الزمن لا بقوة الحياة كما كان ينبغي لها أن تسير، ولذلك فإنها تخلفت عما سواها من اللغات في الأداء، وعليها أن تجتاز كثيراً من العقبات قبل أن تستعيد ماضيها الحافل

وهنا حدثت فترة في الحديث واتصل نظر المتحاورين بما يجري في القاعة من أخذ ورد ثم عطفت المتحدثة مرة أخرى إلى صاحبي وساءلته:

- هل تفضل طريقة غير طرية القصص في الأداء والخلق كأديب، أم أنك قانع بفنك؟

فأجابها صاحبي بعد فترة وجيزة بتؤدة:

- كنت أتمنى أن أكون شاعراً ولكن ذلك ليس بيدي، وأظنني لا أعدو الشاعر في وضعي الآن كقصاص، ولكني كما قلت لك لا أفضل على كتابة القصة شيئاً

- ذلك ما ظننت

وبعد برهة وجيزة أخرى رأيت صاحبي ينحاز إليها سائلاً:

هل لي أن أستوضح السيدة أمراً؟

- نعم

- ماذا تفضلين من أنواع الأدب؟

- القصة

- وهل أنت قصاصة؟

فابتسمت المحدثة ابتسامة رطيبة وأومأت إليه برأسها:

- لا أكذبك يا صديقي! إنني أنا أيضاً قصاصة؟

- ففتحت عيني مستغرباً، وكذلك كان صاحبي، فقد جاء جوابها هذا أغرب ما في الحديث!

عبد الوهاب الأمين

-

33 - المصريون المحدثون

شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الإنجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

تابع الفصل العاشر - (الخرافات)

لا تكاد القرية المصرية تخلو من ضريح ولي يزوره الكثيرون ولا سيما النساء في يوم خاص من الأسبوع. ويحمل بعض النساء إلى هنالك خبزاً للعابرين الفقراء وغيرهم. ويضع بعضهم أيضاً قطعاً نقدية صغيرة فوق القبر تقدمه للشيخ أو صدقة لأجله. وقد اعتاد الفلاحون كذلك أن ينذروا لأوليائهم ذبائح. مثال ذلك أن ينذر الرجل للشيخ فلان (المتوفى) ماعزاً أو ضاناً إذا أبل من مرض أو أنجب ولداً أو بلغ مراماً، فيضحي بالذبيحة عند قبر الشيخ إذا قضى حاجته حالته، ويولم بلحم النذر للفقراء. وثواب ذلك يبقى للولي. وكثيراً ما ينذر الجداء الصغيرة لتذبح في المستقبل فيشرم أذنها اليمنى أو يعلمها بعلامة ما. وليس من النادر أن ينذر الفلاح نذراً لا يبتغي منه شيئاً غير البركة.

وقد ينذر أحياناً عجلاً يذبحه حين يكبر ويسمن، فيترك العجل طليقاً يرعى برضاء الجيران في كل مكان حتى حقول القمح. ثم يذبح العجل ويؤدب بلحمه مأدبة عامة. وكثيراً ما ذُبحت ثيران كبيرة بهذه الطريقة

يكرم كل ولي مشهور تقريباً بالاحتفال بمولده فيزور الناس قبره في ذلك اليوم تبركاً، ويستأجرون الفقهاء لتلاوة القرآن على روح الولي. ويقوم الدراويش بالذكر. ويعلق من يسكن بجوار الضريح مصابيح أمام أبوابهم، ويقضون نصف ليلهم في التدخين واحتساء القهوة والاستماع إلى رواة القصص في المقاهي أو تلاوة القرآن والأذكار. وأمام بابي الآن عدة مصابيح علقت احتفالاً بمولد شيخ يجاور ضريحه المنزل الذي أسكنه. وكثيراً ما يعلق المسيحيون المصريون كذلك المصابيح في مثل تلك الأحوال. وتستمر هذه الأعياد بضعة

أيام غالباً. وأشهر موالد القاهرة بعد المولد النبوي مولدا الحسين والسيدة زينب، وقد وصفتهما في فصل لاحق من الأعياد الدورية العامة في مصر. ولا يواصل أكثر المصريين زيارة قبور الأولياء المشهورين للتبرك فحسب، وإنما يواصلونها خشية نزول المصائب بهم إذا قصروا في ذلك. وهكذا يقاسى الآن أحد معارفي مرضاً يعزوه إلى إهماله حضور مولد السيد احمد البدوي في العامين الأخيرين، وقد جاء أوان الاحتفال بأحد موالده. ويكاد ضريح هذا الولي يجتذب زائرين من العاصمة وأنحاء مصر السفلى أثناء الموالد السنوية الكبيرة بقدر ما تجتذب مكة حجاجاً من أنحاء العالم. ويقام للسيد البدوي ثلاثة موالد سنوية إكراماً له. ويقام أحدها حوالي اليوم العاشر من شهر طوبه (17 أو 18 يناير) والثاني في الاعتدال الربيعي أو نحو ذلك، والثالث وهو المولد الكبير يقام بعد الانقلاب الصيفي بشهر تقريباً (أو حوالي منتصف شهر أبيب) عندما يزيد ارتفاع النيل ولم تقطع السدود بعد. ويستمر كل مولد ثمانية أيام، فيبدأ يوم جمعة وينتهي بعد ظهر الجمعة التالية. وتقام في كل ليلة ألعاب نارية. ويحتفل بمولد السيد إبراهيم الدسوقي بعد كل من الموالد السابقة بأسبوع في دسوق على الضفة الشرقية من فرع النيل الغربي. وكان السيد إبراهيم ولياً ذائع الصيت يلي السيد البدوي في الشهرة.

وتعتبر موالد السيد البدوي والسيد إبراهيم الدسوقي أسواقاً عامة فضلاً عن كونها أعياداً دينية، ويقيم أكثر زائري مولد السيد إبراهيم في مراكبهم. ويعرض بعض دراويش السعدية من أهل رشيد ألعابهم بالثعابين، ويحمل بعض هؤلاء ثعابين شد فمها بحلقة فضية وقاية من لدغها؛ ويأكل آخرون بعض هذه الثعابين حية. ولا يزيد الاحتفال الديني في الموالد جميعاً على إقامة الذكر وتلاوة القرآن. وقد جرت العادة أن يقوم المسلمون - كما كان يفعل اليهود - بتجديد بناء قبور أوليائهم وتبيضها وزخرفتها وتغطية التركيبة أو التابوت أحياناً بغطاء جديد؛ وأكثر هؤلاء يفعلون ذلك رياءً كما كان يفعل اليهود

يكثر الدراويش في مصر كثرة عظيمة، ويحترم المصريون - وخاصة الطبقات السفلى - هؤلاء الذين يعكفون على الرياضة الدينية ويعيشون على الصدقة احتراماً كبيراً. ويستخدم بعض الدراويش الحيل المختلفة الاشتهار بقداسة فائقة وقدرة القيام بالكرامات، ويعتبر الكثير منهم أولياء

ويحمل من ينحدر مباشرة من ذرية أبى بكر أول الخلفاء لقب (الشيخ البكري)، ويعتبر ممثل ذلك الخليفة، ويسيطر على جميع طوائف الدراويش بمصر؛ ويعتبر (الشيخ البكري) الحالي، وهو أيضاً من سلالة النبي صلى الله عليه وسلم نقيب الأشراف. ولعمر أيضاً ممثل هو (شيخ العنانية) أو (أولاد عنان)، وهم طائفة من الدراويش سموا هكذا باسم (ابن عنان) أحد شيوخهم المشهورين. وليس لعثمان ممثل، إذا أنه لم يترك خلفاً. ويسمى خليفة على (شيخ السادات)، وهو لقب دون لقب (نقيب الأشراف). ويدعى كل شيخ من هؤلاء الثلاثة (صاحب سجادة) سلفه العظيم. وكذلك (شيخ الطائفة) من طوائف الدراويش يسمى (صاحب سجادة) مؤسس الطائفة. وتعتبر السجادة العرش الروحي. وفي مصر أربع سجاجيد كبيرة وهي لتلك الطوائف الكبيرة التي سأذكرها الآن

أشهر طوائف الدراويش في مصر ما يأتي:

أولاً: طائفة (الرفاعية) أسسها السيد أحمد الرفاعي الكبير. وأعلام الرفاعية وعمائمهم

سوداء، وقد تكون العمائم من الصوف الحالك الزرقة أو الموصلي القاتم الخضرة. ويشتهر دراويش الرفاعية بأعمالهم العجيبة. ودعَّي (العلوانية) أو (أولاد علوان) وهم فرقة من الرفاعية أنهم يغرزون المسامير الحديدية في أعينهم وأجسامهم دون أن يقاسوا ألماً. والظاهر أنهم يفعلون ذلك بطريقة تخدع من يصدق مثل هذه الأعمال. وهم يحطمون أيضاً على صدورهم كتلاً من الحجارة ويبتلعون الحجر والزجاج. ويقال إنهم يخترقون أجسامهم بالسيوف وخديهم بالمسلات دون ألم أو جرح. غير أنه قلما تشاهد هذه الألعاب الآن. وكانت العادة كما أُخبرت أن يقوم الدرويش بتجويف قطعة من جذع النخل ويحشوها بخرق غمست في الزيت والقطران ويشعلها. ثم يحمل هذا الجسم الملتهب تحت ذراعه في موكب ديني وليس على جسده غير سروال فينبعث اللهب على صدره وظهره ورأسه ولا يبدي ألماً. و (السعدية) فرقة أخرى من الرفاعية أشهر من الأولى أسسها الشيخ سعد الدين الجباوي، وأعلامها وعمائم أعضائها خضراء وقد تكون العمائم قاتمة. ويوجد في هذه الطائفة دراويش يمسكون الثعابين السامة والعقارب بلا خوف، ويلتهمون بعضها. إلا أنهم ينزعون أنياب الثعابين حتى يأمنوا شرها. ولاشك أنهم يعدمون العقارب سمها أيضاً. ويركب شيخ السعدية في بعض المناسبات كمولد النبي (صلعم) حصاناً ويسير به على
أجسام بعض دراويشه وغيرهم وهم راقدون على الأرض. ويقرر جميعهم أن وطء الحصان لم يؤذهم ويسمى هذا الموكب (الدوسة). ويعيش الكثير من دراويش الرفاعية والسعدية على إخراج الثعابين من البيوت. وسأتكلم عن براعة هؤلاء المشعوذين في فصل آخر.

ثانياً: (القادرية) أسسها السيد عبد القادر الجيلاني النبيه الذكر. وبيارق القادرية وعمائمهم بيضاء. وأغلبهم صيادون فيحملون في المواكب الدينية شباكاً مختلفة الألوان يرفعونها على دعائم تمييزاً لطائفتهم.

ثالثاً: (الأحمدية) وهم طائفة السيد أحمد البدوي. وهذه الطائفة كثيرة العدد ومحل الاحترام. ورایاتهم وعمائمهم حمراء.

وتعتبر (البيومية) ومؤسسها السيد على البيومي، و (الشعراوية) ومؤسسها الشيخ الشعراوي و (الشناوية) ومؤسسها السيد على الشناوي فرقاً من الأحمدية. ويشترك الشناوية في اليوم الأخير من مولد شفيعهم الكبير السيد احمد البدوي في طنطا بنصيب غريب، إذ يجرون حماراً في ذلك اليوم ويتركونه يدخل المسجد من تلقاء نفسه. فإذا دنا من الضريح حيث يحتشد الجماهير نتف كل من استطاع بعضاً من شعره كتعويذة حتى يصبح جلد الحيوان المسكين عارياً كراحة اليد. وهناك فرقة أحمدية أخرى تسمى (أولاد نوح) كلها شبان يلبسون (طراطير) تعلوها شرابة من قطع الجوخ المختلف الألوان. ويحملون سيوفاً خشبية وسياطاً من الحبال السميكة المجدولة المسماة (فرقلة) ويلبسون عدة عقود من الخرز.

رابعاً: (البراهمة) أو (البرهامية) وهم طائفة السيد إبراهيم الدسوقي الذي سبق الكلام عن مولده. وأعلامهم وعمائمهم خضراء. وهناك فرق أخرى ينتمي بعضها إلى الطوائف السابقة، ومن أشهرها (الحفناوية) و (العفيفية) و (الدمرداشية) و (النقشبندية) و (البكرية) و (الليثية)

والإلمام بكل عقائد الدراويش وقوانينهم وشعائرهم مستحيل؛ إذ أن أكثرها مثل عقائد الماسونية لا تذاع على غير المطلعين على أسرارها. وقد وصف لي درويش أعرفه كيف أخذ (العهد) أي ميثاق التعريف بالسر وهو يكاد يكون واحداً عند الطوائف جميعها. استقبل شيخ الدمرداشية صاحبي هذا فتوضأ وجلس أمامه على الأرض. ثم ضم كل من الشيخ
والمريد يده اليمنى إلى يد الآخر بالطريقة السابق وصفها عند عقد الزواج. وبهذه الحالة واليدان مغطاتان بكم الشيخ أخذ المريد العهد مردداً وراء الشيخ هذا الكلام التالي بادئاً بالتوبة: (أستغفر الله العظيم (ثلاث مرات) الذي لا إله إلا هو الحي القيوم. أتوب إليه وأسأل عفوه وغفرانه وإعتاقه من النار) ثم يسأله الشيخ هل يتوب إلى الله؟ فيجيب المريد أنه يتوب إلى الله ويرجع إلى الله. وإنه نادم على ما ارتكب من المعاصي ويقرر أنه لا يعود إلى غيه. ثم يردد بعد الشيخ أنه يستخير الله العظيم والرسول الكريم. وإنه يولي عليه السيد عبد الرحيم الدمرداش الخلوتي الرفاعي

النبوي محتذياً مثال شيخه ومرشده إلى الله تبارك اسمه وتعالى. وإنه لا يحيد عن تعاليم الطريقة ولا ينفصل عنها، ويشهد الله على ذلك مقسماً بالله العظيم ثلاث مرات. ثم يقرأ الشيخ ومريده الفاتحة معاً. ويختم المريد الحفل بتقبيل يد الشيخ.
وتقوم أعمال الدراويش الدينية على الذكر خاصة، فيصيحون أو ينشدون واقفين في حلقة مستديرة أو مستطيلة أو في صفين متقابلين أو جالسين: (لا إله إلا الله) أو (الله الله الله) أو يرددون أدعية أخرى، ويكررونها حتى تخور قواهم وهم أثناء ذلك يحركون الرأس أو الجسم جميعه أو الذراعين. ويستطيعون لدأبهم على ذلك أن يواصلوا هذه الحركة بلا انقطاع مدة تثير الدهشة. وكثيراً ما يصحبهم من وقت لآخر عازف أو أكثر على (الناي) أو على (الأرغول) وآخرون ينشدون القصائد الدينية. ويستخدم بعض الدراويش أثناء الذكر طبلاً صغيراً يسمى (بازا) أو دفاً. ويقوم البعض الآخر برقص غريب سأصفه مع أشكال مختلفة للذكر في فصول قادمة.

عدلي طاهر نور

-

من التاج

(فاُروقُ أْنتَ هُداها كُلَّماَ عَشِيتْ)

(إلى عزيز مصر (فاروق)، تحية لعيد جلوسه الملكي السعيد)

الأستاذ محمود حسن إسماعيل

!نُورٌ مِنَ اللهِ تَرْعَاهُ العِناَياَتُ ... هاَتُوا أَغَانِيَكُمْ فِي حُبِّهِ هاَتُوا

وَجَلجِلُوا فيِ فَمِ الدُّنْياَ بِعِزَّتِهِ ... فَنَحْن مِنْ دُونِهاَ فِي الأَرْضِ أَمْواتُ

وَرَدِّدُوا فيِ صُحَى الْوادِي بَشَائَرَهُ ... فَماَ لَناَ غَيْرُهاَ لِلمَجْدْ آياَتُ

وَامْشُوا كَماَ خَطَرَتْ مِصْرُ بِساَحَتِهِ ... نَشْوَى تُرَنَّحُ جَنْبَيْهاَ الصَّباَباَتُ

غَدَا هَواهاَ دَمًا يَجْرِي بِمُهْجَتِهِ ... كَماَ جَرَتْ بِحَياَةِ الْبَحْرِ مَوْجَاتُ

حَناَ عَلَيْهاَ كَماَ تَحنْوُ الظِّلاَلُ عَلَى ... ساَرِي هَجِير لَهُ في الدَّوِّ آهاَتُ

حَناَ عَلَيْها كَمَا يَحْنوُ الشُّعاَعُ عَلَى ... مُحَيَّرِ اللَّيْلِ تُشْقِيه المَفَازَاتُ

حَناَ عَلَيْهاَ كَماَ تَحْنُو الْمُنَى فَجَأَتْ ... قَلْبًا تُراَوِعُ جَنْبَيْهِ الْعُلاَلاَتُ

حَناَ عَلَيْهاَ وَسَقَّاهاَ الْعُلا فَمَضَتْ ... وَمَا لَهاَ غَيْرُ مَهْدِ النَّجْمِ غَاياَتُ

مُمَلَّكٌ فيِ شَباَبِ الْعُمْرِ تَحْسَبُهُ ... لِحِكْمَةِ الرَّأْيُ تَحْدُوهُ الْقَدَاساَتُ

أساس مُلْكِ الْوَرَى سَيْفٌ وَصَوْلَجةٌ ... وَمُلْكُهُ الضَّخْمُ تعْلِيهِ الْحشَاشَاتُ

أَحَبَّهُ النَّاسُ حَتَّى لَوْ سَجاَ حُلُمٌ ... بِغَيرِ رُؤْياَهُ تُبْلِيهِ النُّفاَثاَتُ

أَحَبَّهُ النِّيلُ. . . سَلْ أَمْوَاجَهُ تَرَهاَ ... وَمِلءُ أَفْدَاحِهاَ مِنْهُ بَشاَشاَتُ

أَحَبَّهُ الطَّيْرُ. . . حَتَّى قَالَ أَعْجَمُهاَ ... مِنْ نَشْوَةٍ بِالْهَوى: أَيْنَ الرَّباَباَتُ؟

!أَحَبَّهُ الشَّرْقُ. . . حَتَّى صاَرَ قِبْلَتَهُ ... أَنَّى مَشَى خَلْفَهُ تَمْشِي السِّياَساَتُ

. . .أَحَبَّهُ اللهُ. . . إذ أَوْحَى لِكُلِّ هَوًى ... بُشْرَى هَواهُ فَحَقَّقْتْهُ الصَّراعَاتُ

كَأَنَّماَ حُبُّهُ لِلكَوْنِ هاَدِيَةٌ ... مِنَ الشَّرَائِعِ ساَقتْهاَ الدِّياَناَتُ

مُتَوَّجٌ فَوْقَ عَرْشٍ مُنْذُ مَا بَزَغَتْ ... شَمْسُ الْوُجُودِ تُحَيِّيهِ الْبَرِيَّاتُ

شَعَّتْ عَلَى مَفْرِقِ التَّاريخِ صَفْحَتُهُ ... كَأَنَّهاَ لِظَلامِ الدَّهْرِ مِشْكَاةُ

مِنْ عَهْدِ فِرْعَوْنَ مَا زَاَلَتْ عَظاَئمُهُ ... تُتْلَى بِهاَ لِبنَي الدُّنْياَ رِوَاياَتُ

. . .أَهْرَامُ خُوفُو تَهاَبُ الجِنُّ ساَحَتَهاَ ... كَأَنَّماَ هيَ لِلأَقْدَارِ خَيْماَتُ

. . .مُخَيَمَاتٌ وَأَسْرارُ السَّماَءِ بِهاَ ... كَأَنَّماَ هِيَ لِلأَفْلاَكِ جَارَاتُ

وَخَيْلُ (رَمْسِيسَ). . مَازاَلَتْ سَناَبِكُهاَ ... تُلْقي حَديثَ الْوغَى عَنهْاَ الْفتُوُحَاتُ

!وَالسَّيْفُ فيِ يَدِ (إبراهيم) مَا فَتِئَتْ ... لِلنَّصْرِ تُرْعِشُ حَدَّيْهِ الْخياَلاَتُ

وَادٍ أَشَمُّ الْعُلَي مَرَّتْ بِهِ حِقَبٌ ... أياَمهُنَّ بِكَفَّ الدَّهرِ رَاياَتُ

ضِفاَفُهُ مَنْزَهُ الدُّنْياَ وَمَعْبَدُهاَ ... وَنِيلُهُ لِعَذَارَى السِّحْرِ مِرْآةُ

وَللطُّيورِ بِهِ شَدْوٌ كأَنَّ عَلَى ... إيقاَعِهِ مِنْ أَغَاني الخُلْدِ رَنَّاتُ

. . .شِعْرٌ مِنَ النغَمِ الْعاَلِي يُساَجِلُهُ ... مِنْ أَفُرعِ الدَّوْحِ تَسبيحٌ وَإِنْصاَتُ

وَللرَّياَحِ أَباَريقٌ مُخَتَّمةٌ ... بِمِثْلِ صَهْباَئِهاَ لَمْ تَسْقِ حَاناَتُ

!تَجري بأَسْرارهاَ لَمْ يَدْرِ شاَرِبهُاَ ... أَسْرٌ هُنَاَلِكَ أَم للرُّوحِ إِفْلاَتُ. . .؟

. . .دُنْياَ مِنَ السِّحْرِ لَمْ تُكْشَفْ سَرَائرُهَا ... لسَاحِرٍ لَمْ تُكاَشِفهُ السَّمواتُ

سَجَتْ رُباَهَا. . . وَقَلْبُ الأَرْضِ مُضْطَرِمٌ ... تُفَزَّعُ الجِنَّ مِنْ شَكْوَاهُ أَناَّتُ

فَارُوقُ. . . أَنْتَ لَها فَجْرٌ عَلَى يَدِهِ ... تَرقَرقَتْ مِنْ ضِياَءِ اللهِ هَالاَتُ
فَارُوقُ. . . أَنْتَ مَلاَذٌ عِنْدَ حَيَرتِهَا ... عَلىَ يَدَيْكَ لَها تُرْجَى المَناَرَاتُ
. .فَارُوقُ. . . أَنْتَ هُدَاهَا كلمّا عَشِيَتْ ... وَعَصَّبتَهَا عَنِ النُّورِ الضَّلاَلاَتُ
!فَارُوقُ. . . كَمْ رُحْتَ في الْبَلْوَى تُهَدْهِدُهَا ... وَمَنْ سِوَاكَ إذاَ تَطْغَى الْبَلِيَّاتُ؟
كَمْ بَائِسٍ كُنْتَ سُلْوَاناً لِكُرْبتِهِ ... لَوْلاَكَ مِنْ دَمْعِهِ يَرْوَي وَيَقْتَاتُ
!وَكَمْ شَقِيَّ الثَّرَى، عارِي الأَدِيمِ، مَضَتْ ... رَفرَافَةً مِنْكَ تُحيِيهِ السَّعَادَاتُ
وَكَمْ خَرِيفٍ عَلىَ الأَكْوَاخِ أَهْلَكَهُ ... نَدَاكَ فَهْوَ رَيَاحِينٌ وَأَيْكاَتُ
في كُلِّ يَوْمٍ شُعاَعٌ آلِقٌ ذَهَبَتْ ... تَطُوفُ مِنْكَ بِهِ لِلنِّيلِ دَاراَتُ
عَطْفٌ وَبِرٌ وَإحسان وَمرَحْمَةٌ ... يا قَوْمُ مِنْ ههنُاَ تَزكُو العِباَدَاتُ
قَالَ المُصَلُّونَ: مَنْ هَذَا فَقُلْتُ لَهُمْ: ... في كُلِّ بَيْت هُدًى مِنهُ عَلاَمَاتُ
هَذَا الّذي يُرْهِبُ الأيام صَوْلَجُهُ ... للهِ مِنْ نُسْكِهِ تَمْتَدُّ رَاحَاتُ
!!يَقْظَانُ لِلوحَدْةِ الْكُبْرى لَدىَ وَطَنٍ ... كادَتْ تُمَزَّقُ جَنْبَيْهِ الخِلافَاتُ
. . .مَا فَاتَهُ مَثَلٌ أعلى لمِصْرَ، وَلاَ ... لَغْير عِزَّتِهَا مِنْهُ صَبَاباَتُ
فَارُوقُ. . قُدْتَا إلى الأَفْلاَكِ وَامْضِ بِناَ ... شَعْبَاً إلى الْمَجْدِ تَحْدُوهُ الْبُطُولاَتُ
وَاسمَعْ نَشِيدَ الحِمَى. . . مَا في مَقَاطِعِهِ ... إلاَّ قُلُوبٌ إلى (عَبْدِينَ) مُزْجَاةُ
شِعْرٌ ضِيَاؤُكَ يَجْرِي في مَسَابحهِ ... كَمَا جَرَتْ بِضِيَاءِ الطُّورِ (تَوْرَاةُ)
محمود حسن إسماعيل
البريد الأدبي
حول ابن الرومي وصداقات الأدباء
كتب (ابن درويش) في العدد السابق من الرسالة كلمة يقول فيها ما معناه أنه كشف ثغرة نفذ منها إلى ذكائي، وأنه نسب إلى ابن الرومي بيتين ليسا له وإنما هما من نظمه وفيهما من جنون الفكرة وطلاء التعبير - كما قال - ما عزب فهمهما على فطنة أديبنا الكبير، فمن هم بنو النضر؟ ومن أولئك الألفان الرضع على التحديد. . .؟
ويتفق هذا في الوقت الذي يسألني فيه بعضهم: لم لا يسدد الأدباء الشيوخ خطى الأدباء الشبان. . . فهل من حاجة إلى هذا السؤال أو جواب عليه وهذا واحد من الناشئين يستهدي الأدباء الشيوخ على هذا المنوال؟
ونعود فنقول إن الثغرة التي كشفها صاحب السؤال إنما دلت على شيء لا يريده هو؛ وذاك أن العقاد رجل تلهمه البصيرة ما يكشف النيات قبل أن يكشفها أصحابها، فعرف أن صاحب السؤال عابث لا يجد في طلب الفهم وقال: (إن الأسئلة ضربان: سؤال يوجهه صاحبه وقد اجتهد في أن يعرف غرض الكاتب فهما سائران في طريق واحد، وسؤال يوجهه صاحبه وكأنه اجتهد في نقيض ذلك. ونقيض ذلك هو ألا يعرف غرض الكاتب وأن يتخذ له وجهه غير وجهته وطريقاً غير طريقه، فهما مفترقان لا يتقاربان. وأحسب أن الأديب الذي وجه إلي ذلك السؤال لم يجتهد في معرفة غرضي بمقدار اجتهاده في الحيدة عنه. . .)، فهل أراد صاحب السؤال هذا أو هو لا يعرف ما يريد؟
أما الواقع فهو أنه لا يعرف ما يريد؛ لأنني على فرض تصديقي نسبة البيتين إلى ابن الرومي لم يكن في ذلك شيء يستحق الدلالة عليه أو يستحق عناء التلفيق. فليس مطلوباً مني أن أذكر كل بيت في ديوان ابن الرومي المخطوط الذي لا تتداوله الأيدي؛ وليس مطلوباً من ابن الرومي أن يعتصم شعره من بيتين بالغين أدنى الحضيض من مراتب الرداءة والغثاثة؛ وليس من البعيد أن يكونا منسوبين إليه في بعض كتب الأدب ولا من المستحيل أن يكون راويهما شريفاً مستحقاً للتصديق
فلو صدقت أنا نسبة البيتين إلى ابن الرومي لما كان في ذلك عجب، إنما العجب أن أجزم بالنفي فأتعدى أمانة العلم إلى شعوذة المجون. . . فكيف وقد ألممت بالحقيقة وقلت إنني لا
أذكر أنني قرأت البيتين في الديوان؟
أما كلمة (النضر) التي ظن صاحب السؤال أنها كانت خليقة أن تهديني إلى تأليفه للبيتين فسبب ذلك جهله بمعنى الكلمة لا جهلي أنا بمعناها ومدلولها. وهذان هما البيتان اللتان وردت فيهما الكلمة
سقته ثدي السحب من مرضعاتها ... أفانين مما لم تقطره مرضع
كألفي رضيع من بني النضر ضمنوا ... محاسن هذا الكون، والكون أجمع

فلو كانت كلمة النضر بغير معنى كما توهم صاحب السؤال لجاز أن يعاب معنى البيتين ولكن (النضر) هو جد بني هاشم، وبنوه هم بنو هاشم من قريش. وعلى هذا يصح أن يكون معنى البيتين أن بستاناً حافلاً بالأزهار التي رضعت ثدي السحب جمع متفرق الجمال كما يجمع بنو هاشم محاسن الكون وهم رضعاء. . . وهذا معنى كما قلت لا يعاب.

نعم هو معنى لا يمكنني أن أعيبه إلا إذا كنت في جهل صاحب السؤال بمعنى كلمة النضر ولست كذلك بحمد الله

وبعد، فإنني أدع لحضرات القراء أن يصفوا هذا السائل بما يستحقه، وأكتفي بأن أستخرج من سؤاله دليلاً آخر لم يرده حين استباح عبثه المعيب. . . ذلك أننا على حق في معاملة أمثاله بما يشكونه وهم عابثون

ولنا عودة إلى صداقات الأدباء، وما كتبه الأستاذ توفيق الحكيم بصددها في مقال تال.

عباس محمود العقاد

مأساة فرنسا للأستاذ الصاوي

الأستاذ أحمد الصاوي كاتب طريف أنيق: ظريف في اختيار موضوعه، وأنيق في ابتكار عرضه. وطرافته في الأداء والوضع، لا يماثلها إلا طرافته في الإخراج والطبع. والصفة الغالبة أو المزية الفارقة فيما ينتجه الأستاذ الصاوي هي الذوق. والذوق ملكة الفنان ومِلاك الفن. وأجمل ما في أسلوبه من صفات البلاغة الإيجاز والحياة والتنوع، وذلك سر ما يشعر به قارئه من الجاذبية واللذة. ولعل صاحب (إبر النحل) قد وصف نفسه أصدق الوصف بهذا العنوان؛ فهو في رياض الأدب والفن تلك النحلة التي لا تنفك طائفة على الزهر، أو

عاكفة على الرحيق، تلسع أحياناً وتغسل دائماً؛ وهي في لسعها وعَسلها تدافع عن الخير وتنتج الخير

هي كما قال الأستاذ الصاوي وثائق (يمكن مع التسامح أن تعد شبه (مأساة فرنسا) دائرة معارف شائقة لهذه الحرب، تشمل الحوادث الطريفة والأسرار الخفية التي لا تنشرها الصحف من حربية وسياسية واقتصادية ونفسية - إلى أعمال الجاسوسية والدسائس والمنافع والفتن التي تهدم البلدان من الداخل - معروضة بطريقة نزيهة واقعية. وهي ملخصات كتب شهود عدول من أعظم كتاب العالم)

وذلك هو الوضع الصحيح لموضوع هذا الكتاب؛ أما أسلوبه ومعرضه وشكله فتمثيل وتفصيل لما ذكرناه وأجملناه في صدر هذه الكلمة.

الزيات

بين ديكارت وابن يعيش

نعلم كيف أثبت ديكارت وجود نفسه، فقد قال: أنا أشك فأنا أفكر، فأنا إذن موجود.

وبالأمس كنت أقرأ في شرح ابن يعيش على مفصّل الزمخشري فوقفت فيه على قوله: (. . . ألا ترى أنك إذا قلت: عدمتُني، فمعناه علمتُني غيَر موجود. ومحال أن تعلم شيئاً وأنت غير موجود، لأنك إذا علمت كنت موجوداً، وصحته على الاستعارة) ص88 ج 7 ط المنيرية (ولا طبعة مصرية غيرها فيما أعلم).

فأنت ترى أن ابن يعيش المتوفى سنة 643 هـ سبق ديكارت الذي عاش في النصف الأول من القرن السابع عشر (1596 - 1650) إلى الشعور بالفكرة التي قام عليها عمود من أعمدة فلسفة أبي الفلسفة الحديثة.

سبق أبنُ يعيش ديكارت إلى الشعور بهذه الفكرة، ولكن ديكارت جاء بعد ذلك فصاغها في منهج فلسفي متين، فكان هذا الفرق بينهما.

أفلا يوحي هذا بالا نتهم الشرق بقصور عقله وألا نغالي في تمجيد عقل الغرب؟ المنهج وحده هو الذي ينقص الشرق.

السيد يعقوب بكر

رفع عيسى

قرأت في العدد (462) من مجلة الرسالة الغراء فتوى فضيلة الأستاذ الجليل محمود شلتوت في رفع عيسى عليه السلآم، فوجته يذهب فيها إلى ما رآه بعض المفسرين من أن الرفع كان بعد الوفاة، لقوله تعالى (إني متوفيك ورافعك إلي) وقد رأى فيها أن المراد رفع المكانة لا رفع الجسد، ولو حمله على رفع روحه إلى الملأ الأعلى لكان

أولى وأقرب
ولكني أرى مع هذا أنه إذا كان لهذا الرأي ما يرجحه مما جاء في تلك الفتوى، فإن للرأي الآخر المشهور وجوهاً ترجحه أيضاً، لأن الثابت من التاريخ أن أمر عيسى عليه السلام قد انتهى في اليوم الذي وقع فيه الصلب على من شبه به، فإذا كان عيسى عليه السلام قد توفي في ذلك اليوم ولم يرفع جسده إلى السماء، فإن إلقاء شبهه على غيره وصلبه بدله لا يكون مفهوماً من الناحية التاريخية، لأن وفاته تحقق الغاية التي يطلبها خصومه من صلبه، فلا يكون هناك داع إلى ما حصل من ذلك الصلب، بل إن إلقاء الشبه على غيره في هذه الحالة لا يمكن قبوله، لأن موته لا يجعل سبيلاً إلى اشتباه غيره به، وكل هذا على الرأي المشهور ظاهر كل الظهور، وقد أجابوا عن الآية السابقة بأن واو العطف فيها لا تقضي ترتيباً، فمن الجائز أن يكون توفي بعد الرفع، ومن الجائز أن تحمل الوفاة على النوم، كما قال الله تعالى: (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها)
وإني أرى بعد هذا أن الأجدر بنا ترك الاشتغال بمثل هذه المسائل، لأنه لا يضرنا في ديننا أن يكون عيسى قد توفى ولم يرفع جسده، ولا أن يكون جسده قد رفع حياً، فذلك أقرب إلى أن يكون من الغيب الذي استأثر الله بعلمه، لأنه حصل بدون أن يراه أحد، فكان سراً لا يعلمه إلا الله تعالى ومن وقع له.
عبد المتعال الصعيدي
كم ذا يكابد عاشق
قرأت كلمة الأستاذ المفضال (إبراهيم أبو الخشب) بالرسالة يسأل فيها عن حكم (ذا) في مثل هذا التعبير
وأعتقد أنها زائدة على رأى من يجيز زيادة الأسماء وكما قرر الخضري في حاشيته على
ابن عقيل عند الكلام على (ذا) في باب (الموصول) وعليه خُرّج قول الشاعر:
دعي ماذا علمت سأتقيه ... ولكن بالمغيّب خبريني
في أحد قولين
ويجوز أن تكون اسماً موصولاً (على رأى الكوفيين فإنهم لا يشترطون في موصوليتها أن يسبقها (ما) أو (من) كما ورد في الخضري والصبان)
وعلى الوجه الثاني تكون (كم) استفهامية مراداً بها التهويل ويكون الكلام على حذف مضاف والتقدير (كم مقدار ما يكابد. . .) أو لا حاجة إلى التقدير فإن الاسم الموصول (ذا) مدلوله متعدد بقرينة المقام
وعليه يُخرّج قول أبي الطيب:
وكم ذا بمصر من المضحكات ... ولكنه ضحك كالبكا
ولعل في هذا مقنعاً الأستاذ (أبي الخشب)
(المنصورة)
محمود البشبيشي
العدد 464 - بتاريخ: 25 - 05 - 1942
من صور الشريف
. . .لحية بيضاء
ليت شعري ماذا كان يمكن هذا المخلوق أن يكون لو انه تعلم؟ الغالب في الظن انه لو كان تعلم الحقوق لما برع إلا في ابتكار الحيل التي تحمي اللصوص، وتأليف الحجج التي تخدع القضاة، وتدبير الخطط التي تضلل الشرط. ولو كان تعلم الطب لما اشتغل إلا بتركيب السموم، وتزوير الشهادات، وتخدير المدمنين، وإجهاض الحوامل. ولو تعلم الأدب لما نبغ إلا في قصص التجسس والتلصص والائتمار والدعارة. ولو كان تعلم الزراعة لما برز إلا في زراعة التبغ والأفيون والحشيش. ولو كان تعلم الهندسة لما افتن إلا في اختراع المخابئ السرية والمزالق الجهنمية والمفاتيح التي تتحدى كل قفل
ذلك لان كل نزعة للشر أو نزعة للشيطان إنما وجدت أصلها فيه بحكم الطينة ومقتضى الفطرة، فهو قروي أمي فقير وضيع، ولكن غرائزه الشريرة العارمة تندلع من جوانب جسمه كألسنة اللهب أو أرجل الأخطبوط فتجعل له شخصية غريبة فيها لكل ضرر مصدر، ولكل خطر اتجاه!

نشأ بين لِداته من أطفال القرية كما ينشأ الزنبور بين النحل أو الثعبان بين الحمام؛ فكان لا ينفك ضارباً هذا بعصا، أو قاذفاً ذاك بحجر، أو خاطفاً لعبة من بنت، أو سارقاً شياً من بيت! فلما جاوز حد الطفولة دخل في خدمة الفجار والجان، فكان يخدم أولئك في تدبير الجرائم، ويخدم هؤلاء في إعداد الولائم. وهو في غضون هذا العهد (التحضيري) كان لا يفتأ يمرن ملكاته الإجرامية لحسابه الخاص، فكان يسرق من البيوت الآنية والثياب، ومن الحقول القطن والذرة، حتى صار في حد الرجال، فعد من ذؤبان القرى وغربان الأسواق؛ فكل جريمة له فيها يد، وكل سرقة له منها نصيب! وكانت مزيته بين اللصوص التجسس والاحتيال والمفاوضة وإخفاء المسروق وتعمية الأثر، لأنه كان ضئيل الحلقة فلا يرهب بمنظره، ضعيف القوة فلا يغني بعضله. ثم تفاقم شره واستطار أداه، فكان لا يقع إلا على منكر، ولا يتقلب إلا في معصية. غير إن إجرامه ظل من النوع الحقير لضعف بنيته وضعة بيته، فلم يستطع أن يكون رئيس منسر يفرض الإتاوة بالسطوة، ويستغل اللصوص بالنفوذ؛ إنما كان أكبر همه أن يسطو في الليل على أرزاق الأرامل، ويتدسس، في النهار إلى أموال العميان، حتى انقضت شبيبته وكهولته على حال متصلة من الإثم لم تسكن جوارحه في خلالها عن الشر إلا وهو مجروح في مستشفى، أو مطروح في سجن. كل ذلك ولم يدخل في ملكه عقار، ولم يجتمع في جيبه نقد، ولم يبت في داره قوت

فلما قيده الكبر وحطمه، وعممه المشيب ولثمه، أصبح بحكم السن عاجزاً عن نقب الجدران وتسلق الدار، فأرسل لحيته شبراً تحت ذقنه، ثم ضخم العمامة، وبيض الجلباب، وأمسك المسبحة، ومشى في الأزقة الوقار والتؤدة، يتمتم بالأدعية، ويجهر بالتحيات، ويواظب على الصلوات، ويجلس على المصاطب يتحسس الأخبار، ويتسقط الأسرار؛ فإذا وقف على خلاف أو خصومة بين والد وولده، أو بين أخ وأخيه، أو بين صديق وصديقه، أو بين زوج وزوجته، اندس إليهما بالإغراء، وسعى بينهما بالنميمة، وحمل هذا على ذاك، حتى تقع الفرقة أو تحل الكارثة. فإذا انتهى الخلاف إلى المحكمة، وسوس للمتخاصمين أو لأحدهما بالحيل التي تطمس الحق أو توسع الخصومة أو تعرقل القضية؛ لأنه يزعم لنفسه العلم بالقانون والمرافعات لطول ما وقف أمام القضاء وعاش بين البوليس. أما إذا خذله الشيطان وتغلب السلام استفز بالسباب حمية بعض الشباب فيضربه، ثم تكون الترضية أو تكون القضية. فإذا تعذر الدس وتحاماه الناس عمد إلى قطعة متروكة مما يملك الغير فاحتلها واستغلها، فتنشب بينه وبين المالك معركة قضائية لا يصبر فيها صاحب الحق على بطء القضاء وتعقد الأجراء وفحش التكاليف، فيطلب مصالحة الغاصب بالنزول له عن بعض من حقه أو جزء من ماله

ذلك عمله بالنهار؛ أما عمله بالليل فصلاة العشاء حاضرة، ثم إحراق الحشيش جماعة، ثم التهجد طويلاً، ثم الهجود قليلاً. فإذا طلع الفجر الكاذب خرج إلى المسجد يهدج تحت الجدران، وعيناه تبصان في حلك الظلام بصيص الحباب؛ فإذا لقي في بعض الطريق حماراً أو عجلاً أو خروفاً أفلت من الحظيرة، امتطاه أو قاده ثم انطلق به حثيثاً في هوادي الليل إلى أقرب (مركز) من مراكز اللصوص فيتركه هناك ليصرفوه ويضيفوه إلى حسابه. ثم يعود إلى القرية وقد هتك الصباح ستر الظلام، فيأوي إلى بيته ندمان على أن فاتته صلاة الفجر مع الأمام!

وفي ليلة نادية من ليالي المحاق خرج المتعبد القانت على عادته يريد المسجد. وكان الناس قد فطنوا إلى فقد الصغار من مواشيهم فأغلقوا الزرائب وأحكموا الإغلاق. فلما أرسل عينيه الثاقبتين في الخرائب والأجران فلم تقعا على حيوان مهمل أو متاع متروك، أخذ يهود في مشيه ثم وقف يفكر. وكانت نفسه الغوية قد استهواها الظلام والسكون فعض عليها وعصفت بها المغامرة، فرجع إلى داره وأخذ معولاً وعتلة ثم انحط من بعض السطوح على دار العمدة ثم شرع ينقب الجدار عن عجل السامري دهم الشيخ في السحر وسيق في الصباح إلى مركز البوليس فحاول أن يدحض التهمة عن نفسه بانخراع متنه وابيضاض شعره وارتعاش يده فلم يوفق

ودخل المجرم السجن أشوق ما يكون إليه، وبدد الحلاق على أرضه الخشنة الغبراء، خصل لحيته الكثيفة البيضاء؛ ثم لبث فيه ما لبث، وخرج للناس يسلط عليهم النمائم،

ويزرع بينهم الضغائن، ويدير فيهم المكايد، حتى سولت له نفسه بالأمس أن يخزن قمحه قبل أن تأخذ الحكومة نصيبها المفروض منه، فتجاهل السلطة، وتحدى العمدة، وضرب الحارس. ثم بات هو وأهله في سجن (المركز) ثم قدموا في الصباح جميعاً إلى المحكمة العسكرية!

تلك صورة من صور الريف الكريهة قدمناها مصغرة إلى المشتغلين بعلم النفس الجنائي لعلهم ينتهزون هذه الفرصة قبل أن تفوت، فيدرسون هذا الرجل العجيب قبل أن يموت!

(المنصورة)

احمد حسن الزيات

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

ينبوع حلوان، وما أدراك ما ينبوع حلوان؟! - عناد بعض المؤلفين - النواب الجامعيون - مع الدكتور طه حسين - امتحان جديد - يقال ويقال وما أكثر ما يقال؟

ينبوع حلوان

منذ أكثر من عامين فوجئ سكان حلوان بينبوع يتفجر بقوة وعنف، وتسامع بذلك أهل العلم بخصائص الينابيع، فأسرعوا إلى تحليل ماء الينبوع الجديد، ثم عظمت دهشتهم وعظم فرحهم حين وجدوه يغني المصريين عن استيراد المياه المعدنية من الأمطار الأوربية. فأهلا وسهلاً بالنعمة التي يصغر بجانبها صادق الحمد وعاطر الثناء

ولكن هذا الينبوع السعيد هدد بقدومه جماعات المتجرين بالمياه المعدنية، فماذا يصنعون؟ وهل يجوز السكوت عن ثروة تعتز بها مصر على الزمان؟

هداهم الحس التجاري إلى طمر الينبوع قبل أن تلتفت الحكومة المصرية إلى منافعه الحقيقية، فتحرسه من مكايد أهل البغي والعدوان

وكيف يطمر الينبوع؟ وفي أي وقت؟ يطمر بأكياس الأسمنت، وفي غفوة الليل!!

وهنا ترسم صورة قليلة الأمثال، بين صور الخيال

كان الينبوع يغني نشيد الحرية، فقد طال سجنه في غيابات الصخور ألوفاً من السنين.

وهل يعلم إلا لله مقدار الآماد التي قضاها ذلك الينبوع وهو سجين؟

لقد تلقته رمال حلوان بترحيب رنان، وكان في أشد الشوق إلى ذلك الترحيب. ألم يكف ما عاناه من الحبس الطويل في ظلمات الصخور الصماء؟

هو يغني، والمال تغني، وما أجمل الغناء حين يلتقي الحبيب والمحبوب!

كان الليل ليل حلوان، وليل حلوان موحش حين يغيب بدر السماء. . وكان الينبوع حديث العهد بالميلاد، ولا علم له بمتاعب الأحياء، فكان يغني ويغني بلا حذر ولا احتراس

وفي حومة تلك الفرحة الشعرية نظر فرأى جماعات لهم وجوه بشرية، ولهم قلوب حجرية، فأنزعج وارتاع

ماذا يريد هؤلاء؟

ماذا يريدون؟

كان الينبوع يعرف أنه فكرة نقية طاهرة، وأنه لن يسيل فوق الرمال إلا كما يسيل القلم النبيل فوق الأوراق، فما بلاؤه بهذه الوجوه السود في ليلة سوداء؟

أيكون هؤلاء مصريين؟

أيكونون أجانب؟

وما خوف أولئك وهؤلاء من ينبوع سيمحو عللهم الدفينة بلا تفريق بين هذه الديانة أو تلك، وبلا تميز بين هذا الجنس أو ذاك؟

طب. طب، طب!

ما هذا؟ ما هذا؟

تلك أكياس الأسمنت تلقى بغلظة وبوحشية في ثغر الينبوع لتصده عن الابتسام لجمال الوجود

وينظر الينبوع فيرى الرمال أضعف من أن تحميه، ويرى الأمة في غفلة عن قيمته الذاتية، ويرى الحكومة تنتظر آراء الخبراء، لتقرر حراسته من بغي الأعداء، وذلك لا يتم إلا بعد أسابيع طوال!

فماذا يصنع؟

أيخضع ويستكين إلى أن يظفر بتقرير المصير؟
وكيف وفيه قوة عارمة تذيب الألوف من أكياس الأسمنت؟ الرأي أن يدفع الينبوع تلك الأكياس، وأن يهدد بالغرق من ينزلون لتثبيت تلك الأكياس، فكان الينبوع ما أراد فإذا سمعتم أن خلائق ماتت بلا علة فاعرفوا أنها تعرضت لطمر ذلك الينبوع النفيس في تلك الليلة الظلماء
وإن سمعتم أن ذلك الينبوع لم ينقطع عن الغناء، فاعلموا أنه موصول الأواصر بوحي السماء
ولكن ما الموجب للحديث عن ينبوع حلوان في هذا الوقت؟
ليتني أعرف!
عناد بعض المؤلفين
قرأت كلمة الأستاذ محمود عزت عرفة في التعقيب على الكلمة التي نشرتها (الرسالة) لسعادة الأستاذ طه الراوي، الكلمة التي بين فيها أن موشحة (أيها الساقي) ليست لابن المعتز، وإنما هي لابن زهر أحد شعراء الأندلس
وأقول إن هذه الموشحة لها عندي تاريخ، فقد نسبتها إلى ابن المعتز في الطبعة الأولى من كتاب (مدامع العشاق)، ثم ارتبت بعد ذلك في نسبها فأضفتها في الطبعة الثانية إلى (أحد الشعراء) وقد صح عندي أن نسبها إلى ابن المعتز نسب مدخول
وفي سنة 1927 كتبت عن ناظمها الأصيل كلمة في الصفحة الأدبية بجريدة البلاغ تحت عنوان (عرفناه! عرفناه!)
وكان الظن أن تستفيد اللجنة التي ألفت كتاب الأدب للسنة التوجيهية من ذلك التحقيق الأدبي، لكنها خشيت أن يقال إنها استفادت من جهود أحد (أصدقائها) في هذه البلاد!
والآن وقد وصل التحقيق من أحد فضلاء العراق لم يبق ما يمنع من تصحيح تلك الغلطة في مطبوعات وزارة المعارف المصرية!
النواب الجامعيون
كثرت الحفلات في هذه الأيام لتكريم الشبان الذين نجحوا في انتخابات مجلس النواب من أبناء الجامعة المصرية، وهم الأساتذة محمد فريد زعلوك وأحمد قاسم جودة وجلال الدين الحمامصي وحسين شعير وعلي كريم ومحمد مصطفى خليفة ومحمد زكي علام.
فما معنى ذلك؟
أيكون معناه أن الفكرة الجامعية ستسيطر على الحياة النيابية؟
أيكون معناه أن التفكير الحر ستكون له أسندة من أولئك الفتيان؟
ليت ثم ليت!
أيكون معناه أن الحرية الفكرية ستظفر برعاية جديدة تصد عنها عوادي الجهل؟
ليت ثم ليت!
كنت أنظر إلى ما يصنعه النواب والشيوخ الوفديون في عهد الوزارة الماضية فأعجب وأطرب، فقد كانوا يقهرون تلك الوزارة على السماح بنشر ما يمنعه الرقيب، وكان سبيلهم
إلى ذلك أن يثيروا المشكلة في مجلس النواب أو مجلس الشيوخ، فيصبح من حق الجرائد أن تنشر ما تعرض لمنعه الرقيب
فهل ننتظر من النواب الجامعيين مواقف تشبه تلك المواقف في الانتصار لحرية الرأي والفكر والبيان؟
وهل نرجو أن يكون لجهادهم النيابي لون يتسم بالغيرة على الحرية الفكرية؟
كل ما أخشاه أن ينساقوا مع التيارات السياسية لتقام لهم حفلات جديدة باسم الوزراء الجامعيين!
عذركم مقبول، أيها الفتيان، فالأدب الصرف لا يسوق لأصحابه غير المتاعب، ولا يؤهلهم لغير التمرس بمعضلات الوجود
مع الدكتور طه حسين
المعروف أن بيني وبين الدكتور طه (ما صنع الحداد) وإن كنت أجهل المراد من هذه العبارة المصرية، ولكن ما صنع الحداد لا يمنع من لقاء الدكتور طه حسين، لأنه جاري

بوزارة المعارف، والجيران يتلاقون كارهين أو طائعين، وفي ذلك التلاقي يجري الحديث حول محصول الحركة الأدبية في هذه الأيام، وهو يقرأ جميع ما تنشر المجلات ليعرف إلى أي مدى ينتهي جموح بعض الكاتبين!

- أنت يا دكتور زكي تتجاهل أن الدنيا في حرب
- وماذا يصنع الكاتب في أيام الحرب، يا سيدي الدكتور؟
- يكتب ثم يطوي ما يكتب إلى أن تجئ أيام السلام
- وإذا نشر ما كتب؟
- يعاقب بالصمت
- ولكن الكتابات الأدبية كالود الصحيح وهو يطلب في جميع الأوقات
- هنالك أوقات تكون منها الصحة ضرباً من الاعتدال، ويكون الفوز لأهل الأمراض
- وهل وصلنا إلى هذه الغاية يا سيدي الدكتور؟
- لم نصل إلى هذه الغاية، ولكني أخشى عواقب هذه الحال
- وما هذه الحال؟
- هي ضعف الأعصاب عند جميع الناس، بحيث يجوز الضجر من أجمل الأشياء وأشرف المعاني
- ولكن المفكر مسؤول أمام قرائه في كل وقت، وفيهم من يجهل أن الدنيا في حرب
- من واجب المفكر أن يعلم قراءة ما يجهلون
- وهذا ما أصنع يا سيدي الدكتور
- هل علمتهم أن الدنيا في حرب؟
- قصصت عليهم قصة الطائر الغريب
- وما قصة الطائر الغريب؟
- هو طائر يساير الأنوار المبثوثة فوق الشواطئ
- لأي غرض؟
- ليعرف مسابح الأسماك فيهديها سواء السبيل
- الناس يقولون غير ذلك!
- وماذا يقولون؟
- يقولون: إن الطائر يضع المصابيح ليجتذب الأسماك إليه
- وماذا أصنع إذا كانت الطبيعة ترى النور سر الجاذبية؟
- ومن أجل هذا تطالب بحرية الفكر والرأي؟
- هو ذلك!
- اكتم هذا الحديث يا دكتور زكي، ولا تخبر أحداً بأنك حاورتني في الأنوار والظلمات
- سمعاً وطاعة، يا سيدي الدكتور، فلن أنشر هذا الحديث إلا بعد انتهاء الحرب امتحان جديد

تقوم الشواهد في كل يوم على أن الحكم للسيف والمدفع، وأن المعاني الروحية في سبيل الزوال، فكيف نلقي القراء في حدود ما عودناهم لعهد السلام؟ وكيف نناضل لحفظ سلطان الرأي في زمن تضعضعت سلطنة الرغيف؟

هل نترك معالجة المشكلات اليومية وننصرف إلى معالجة المشكلات التاريخية؟ هل نتحدث عن جبل واق الواق في أساطير الأولين؟ لا هذا ولا ذاك، فسترون كيف نخرج

من امتحان هذا الزمان بأمان

يقال ويقال

يقال: إن المؤلفات الأدبية ظفرت في هذه الأيام برواج لم تعرفه من قبل؛ ويقال: إن السبب في هذا الرواج هو نفرة العقول من سخف الدعايات الأجنبية

ويقال: إن الحرب علمت المصريين أشياء وأشياء، ولكنها غفلت عن تعليمهم معنى التضامن الوطني، فجهلوا التعاون في توفير الأقوات

ويقال: إن وزارة الشؤون الاجتماعية قضت أعواماً في تعريف الصناع والزراع بأنهم تعساء، ولم تعلمهم كيف يدفعون التعاسة بشرف النضال في المطالب الحيوية

ويقال: إن في النية فرض ضريبة على النساء اللائى يتباهين بنشر صورهن في بعض المجلات

ويقال أيضاً: إن أزواجاً سيعاقبون على السماح لزوجاتهم بالاشتراك في (المراقص الخيرية)!!
وسمعت ثم سمعت أن الدولة ستحرم الرّياء الاجتماعي تحريماً قاطعاً، وأنها لن تبيح شرف النيابة عن الأمة لمن يسمح لزوجته بإقامة حفلات الاستقبال
وحدثني من أثق بصدق روايته أن الميسر سيكون من المحرمات، وأن السهر في المنازل سيمنع بعد صلاة العشاء
صلاة العشاء؟. . . صلاة العشاء؟
يظهر أنني انتقلت إلى الحديث عن أهواء التاريخ!
زكي مبارك
خسرو وشرين
في التصوير الإسلامي
للدكتور محمد مصطفى
(تتمة)
بعد أن رفع شابور الستار عن مخبأ شيرين، تقدم خسرو إليها، فحرت أمامه ساجدة تقبل الأرض تحت قدميه، وطفقت تشكو إليه بثها وحزنها، وتذري دمعها، وتمري جفنها، فأحضر خسرو موبذ الموبذان وأمره أن يزوجه شرين ففعل. وشاء أن يعم الفرح والسرور قلوب المقربين إليه، فأمر موبذ الموبذان فزوج مطربه باربد، نيكيسيا، مطربة شيرين، وصديقه شابور، همايون، صديقتها، وأجلس شابور على عرش مملكة أرمينيا مكافأة له على مساعيه التي كللت بهذا النجاح. وبعد أن قضى الزوجان الحبيبان في قصر شيرين وقتاً هنيئاً سعيداً، رجعا إلى المدائن حيث أقاما حفلات الزواج الرسمية وتوجت شيرين إلى جانب خسرو ملكة على عرش إيران.
وفي (شكل1) يجلس خسرو وشيرين في إحدى الليالي على عرش فاخر، بمنظرة جميلة، في وسط حديقة غناء. وأمام العرش شموع موقدة تحيط بفسقية تسبح فيها ثلاث أوزات. وإلى اليمين رجال الحاشية ومعهم الخدم والسقاة يحملون الطعام والشراب؛ والى اليسار يجلس فريق من وصيفات شيرين، وهن يروين القصص لتسلية الزوجين الحبيبين. وإحداهن - وهي الجالسة إلى الخلف بجانب المنظرة - لها سحنة أوربية، ويظهر من ملامحها أنها رومية الأصل. وهذه الصورة من تصوير آقا ميرك أحد مشاهير مصوري عصر الشاه طهماسب الأول الصفوي، وهي في مخطوط نظامي السابق الذكر المكتوب لهذا الشاه.
وفي (شكل2) يجلس خسرو في روضة على سجادة جميلة، وقد وضع سبابة يده اليمني في فمه، وهو يتحدث إلى شاب راكع إلى يمينه، بينما يعتمد بمرفقه الأيسر على ركبة زوجته شيرين مولياً ظهره إليها. وإلى اليمين تجلس نيكيسا مطربة شيرين وهي تعزف على (الرباب). ويظللهم جميعاً فرع من شجرة زاهرة، وقف عليه عصفور رشيق له ذنب
طويل، وقد انحنى إلى الأمام كأنه يتأهب لالتقاط قطعة الحلوى التي في يد شيرين. وهذه الصورة مرسومة على (لوحة) من نسج الحرير، كتب عليها من الخلف (عمل أستادان خطاي) فظهرت الكتابة مقلوبة في أعلى الصورة إلى اليمين. وهذه الكتابة تدل على أن مصور هذه الصورة فنان من التركستان الصينية، كما يظهر التأثير الصيني بوضوح في طريقة تصوير فرع الشجرة والزهور، وفي رسم العصفور الواقف عليه.
ويعتقد الدكتور كينل أنها من تصوير فنان صيني أراد أن يمارس التصوير في إيران فرسم موضوع (خسرو وشيرين)، ويظهر أنه رأى صوراً كثيرة لخسرو وهو يضع سبابته اليمنى في فمه علامة لدهشته إذا فوجئ برؤية شيرين الجميلة، فرسمه هنا أيضاً في هذا الوضع، مع عدم وجود ما يبرر الدهشة، إذ تجلس شيرين إلى جواره، ولا يفاجأ برؤيتها. ويؤرخ الدكتور كينل هذه الصورة من الثلث الأول للقرن التاسع الهجري (15م) - وهو الأرجح - بينما يؤرخها الأستاذ (كوماراسوامي) في القرن العاشر الهجري (16م) وهذه الصورة محفوظة في متحف الفنون الجميلة بمدينة بوسطون.
هكذا مضت الأيام وتوالت السنون وخسرو ينعم بالحياة السعيدة مع زوجته الحبيبة، وقد خلبته الدنيا فاسترسل إليها. إلى أن كان ذات يوم وقد جلس في إيوان المدائن، وحوله الحراس الأشداء الأقوياء، وبين يديه رجال حاشيته وبلاطه، تحيط به من كل

ناحية مظاهر القوة والأبهة والجلال، وكانت بيده مرآة صقيلة جميلة، هي تحفة نادرة تليق بمقامه السامي الرفيع، يتطلع فيها إلى وجهه في زهو وخيلاء وغرور. وعلى حين بغتة انتفض هذا الملك الجبار، إذ رأى بين شعور لحيته السوداء المرسلة بعناية فائقة، شعرة بيضاء تتألق بينها، كأنها نجمة بعيدة في ليل دامس الظلام. وبهت خسرو لهذه الظاهرة العجيبة، وأرسل يدعو معلمه بزر حميد الحكيم، ليسأله رأيه في هذا الأمر الغريب. ولما حضر ذلك الرجل الخبير بدواخل الأمور، ابتسم وحاول أن يسري عن الملك، ثم أخذ يشرح له نظام الكون، ومصير الخلق، وأفهمه أن دوام الحال من المحال، وأن مآل كل شئ إلى الزوال

وشب شيرويه بن خسرو من زوجته مريم بنت إمبراطور الروم، وقد تحقق فيه ما تنبأ به المنجمون عند ولادته، ومرق عن الدين، وخرج عن طاعة رب العالمين، فلم يحمد أحد سيرته إذ كان مطبوعاً على الشر والإثم. وصادف أن رأى يوماً زوجة أبيه شيرين، فراقت في عينيه الآثمتين، واشتهاها لنفسه. وهيأت له نفسه الشريرة أن يقتل أباه، فيحصل على العرش، ويستأثر بالملكة الجالسة عليه

وذات ليلة أرسل شيرويه رجلاً من صنائعه، تسلل إلى مخدع الملك، وطعنه طعنة نجلاء أصابته في مقتل، ثم فر هارباً. وصحا خسرو والدماء تنزف من جرحه بغزارة وتبين أنه لا أمل له في النجاة من جرحه القاتل، واشتهى جرعة من الماء يخفف بها آلامه وأوجاعه. ولكنه أبى على نفسه أن يوقظ زوجته الحبيبة شيرين. وبعد أن ملأ من وجه شيرين، أغمض جفنيه، واستسلم للموت، فجاء برداً وسلاماً عليه، وأسلم الروح وشيئاً فشيئاً صحت شيرين ورأت خسرو يرقد إلى جوارها وقد فارقته الحياة، فبكت وتوجعت، ولكنها تمالكت نفسها، إذ علمت أن أمامها واجباً نحو زوجها الراحل يجب عليها أن تؤديه وقامت إلى جثمانه، فغسلته وضمخته بالعطور والزيوت، وأعدته لموكبه الأخير

وفي (شكل 3) تقف شيرين مع إحدى وصيفاتها، وهي تبكي وتندب زوجها الراقد جثمانه على السرير، وفي صدره جرح غائر تتدفق منه الدماء. وإلى اليمين يفر القاتل هارباً من الباب وفي يده سيف مسلول يقطر منه الدم. ونلاحظ الزخرفة النباتية الجميلة في بلاط أرضية الغرفة، وما يظهر على الحائط من نقوش دقيقة من صور آدمية ورسوم حيوانات وطيور. وهذه الصورة في مخطوط للمنظومات الخمس للشاعر خسرو الدهلوي، كتبه الخطاط سلطان علي في سنة 900 هجرية (1496م) وهو محفوظ في مكتبة الدولة ببرلين

بعد أن هيأت شيرين جثمان خسرو لموكب الجنازة، جاءها رسول من قبل شيرويه، يبلغها هيام سيده بها وتظاهرت شيرين بالقبول، ولبست أبهى ملابسها، وتزينت بأجمل زينة لديها، فابتهج شيرويه وظن أنها رضيت به. ولما وصل الموكب إلى القبر، أدخل النعش إليه، وبقيت شيرين بمفردها في القبر إلى جانب جثمان زوجها تحرسه. ولما أقفل الباب رفعت الغطاء عن صدر خسرو وقبلت مكان الجرح، ووضعت خده واستلت خنجراً أغمدته في قلبها، ثم بقيت تحتضن حبيبها بين ذراعيها

خاتمة

يقول صاحب الشاهنامه: ينبغي لمن يطالع أحوال خسرو برويز ويقرأ أخباره أن ينفض ذيله من الدنيا الغرارة الغدارة، فلا يسترسل إليها، فإن سمها يغلب ترياقها، وآمال بنيها تنتج

إخفاقها. وقبيح بالعاقل أن ينوي الإقامة في المراحل، ولو أمكن دفع طارق الحدثان، بالملك والسلطان، والتمكين والإمكان، والأنصار والأعوان، لكان خلقاً بذلك خسرو برويز الذي عم أمره طلاع الأرض، وأطاعته ملوك الشرق والغرب، وكان يحمل إليه خراج الهند والروم والترك والصين؛ وقد جاء خبر موته إلى النبي صلى الله عليه وسلم يوم صلح الحديبية مع أهل مكة

وفي وفاة خسرو يقول الشاعر:

هي الدنيا تقول بملء فيها: ... حذار حذار من بطشي وفتكي
ولا يغرركم حسن ابتسامي ... فقولي مضحك والفعل مبكي
بكسرى بروز اعتبروا فإني ... أخذت الملك منه بسيف هلك

وكان قد استطال على البرايا ... ونظم جمعهم في سلك ملك
فلو شمس الضحى جاءته يوماً ... لقال لها عتواً: أُف منك
ولو زُهر النجوم بغت رضاه ... تأبَّى أن يقول: رضيت عنك
فأمسى بعد ما ملك البرايا ... أسير الموت في ضيق وضنك!
(تم)

محمد مصطفى
أمين مساعد دار الآثار العربية

في الفلسفة الإسلامية
ابن باجه

للأستاذ عمر الدسوقي

لمحة تاريخية

فتح العرب الأندلس في أواخر القرن الأول الهجري على يد طارق بن زياد وموسى بن نصير، وظلت ولاية تابعة للبيت الأموي في دمشق، ولما سقطت دولة بني أمية وأسس بنو العباس ملكهم في بغداد، وأخذوا يضطهدون الأمويين، فر الأمير عبد الرحمن بن معاوية الملقب بالداخل إلى الأندلس في سنة 133هـ، 750م. وقد أفلح في تجديد ملك بني أمية بالأندلس، ولكنه لم يتسم هو أو خلفه بلقب أمير المؤمنين أو خليفة المسلمين، وإنما كان ذلك في عهد عبد الرحمن الثالث الأموي 300 - 350هـ و912 - 960م، وظلت الخلافة قائمة حتى سنة 403 هـ، 1013م حين غُلب الأمويون على أمرهم وانتشرت الفتن في البلاد، وضرب البربرقرطبة، ومن ثمَّ استقل كثير من الأمراء بمقاطعات صغيرة ودعوا بملوك الطوائف: كبني عباد بإشبيلية، وبني الأفطس ببطليوس، وبني ذى النون بطليطلة، وبني هود بسرقسطة، وبني عامر ببلنسية، ومجاهد العامري بجزر البليار

وفي ذلك الوقت قامت في المغرب ثورة تدعو إلى استقلاله عن الأندلس، وانفرد بالحكم فيه المرابطون. وقد حدث أن دعا ملوك إشبيلية المرابطين لنجدتهم في بعض حروبهم ضد الفرنجة، فأعانوهم ثم تغلبوا على بقية الأندلس وظلوا يحكمونها أكثر من نصف قرن حيث ذهب ملكهم في بلاد المغرب على يد الموحدين الذين ورثوا عنهم الأندلس وحكموها مدة قرن من الزمان 1149م - 1232م، وبعد سقوط هذه الدولة عادت الأندلس إلى التفرقة والانقسام، ثم أخذ ملك حكامها يتقلص تدريجياً إلى أن أجلى العرب عن غرناطة آخر حصونهم سنة 1492 م

أما الحالة الفكرية فكان المغرب في أثناء حكمهم الأمويين يعتمد على المشرق في كل شئ تقريباً من الناحية العلمية، وكان يستعد للنضوج الفكري، وقد اجتهد الأمويون ولاسيما في خلافة الحكم بن عبد الرحمن 350 - 366هـ في جلب كثير من الكتب الثمينة التي ألفت

في الشرق، كما كان علماء المشرق الذين ضاقت بهم الحال في بلادهم يجدون في الأندلس سوقاً رائجة لأفكارهم ومعلوماتهم، وكذلك كان كثيرون من محبي العلم في الأندلس يقصدون الشرق واردين العلم من منابعة الأصلية، فيمرون بمصر والشام وبغداد والحجاز وقد يذهبون إلى فارس. على أن الحياة الفكرية لم تبلغ أشدها في المغرب إلا في عهد المرابطين، ثم بلغت أوجها الذهبي في زمن الموحدين حيث ظهر ابن طفيل وابن رشد وابن زهر وغيرهم. ويجدر بنا قبل الكلام عن ابن باجة أن نبدي الملحوظات الآتية:

1 - كان المغرب بعيداً عن المنازعات الدينية العنيفة التي ظهرت في الشرق، فلم يسد فيه إلا مذهب مالك، ولم يكن فيه لا مجوس ولا زنادقة، ولم يظفر فيه كثير من علماء الكلام والجدل. وكان أهم ما يعتني به أهله ولا سيما عصر الأمويين الطب والرياضيات والتنجيم. وكان الناس مشغوفين بالشعر والتاريخ والجغرافيا، ولم تكن موجه التفلسف قد غمرتهم وأفسدت عقولهم كما هو الحال في المشرق. هذه كانت حال الأندلس أول الأمر

2 - ولكن نجد أن المذهب الظاهري الذي يمثله ابن حزم - وهو من أشد المذاهب ضيقاً - يسيطر على الأندلس، حتى نرى كل من يفكر في الفلسفة يضطهد. فلما قدم عبد الله بن مرة القرطبي إلى بلاد الأندلس يحمل الفلسفة الطبيعية (التي يمثلها

الكندي) في عهد عبد الرحمن الثالث أُحرقت كتبه أمام ناظريه ولهذا لم يجد الفلاسفة جواً من الحرية حتى ينشروا آراءهم. ولقد اضطهد ابن باجة وابن رشد من العامة والخاصة على السواء؛ ولهذا أيضاً اتخذ فلاسفة الأندلس النظرية القائلة بأن الفلسفة لا تصلح للعامة وإنما هي وقف على الموهوبين من الخاصة، وسنجد كذلك محاولتهم في التوفيق بين الفلسفة والدين

3 - لم يوجد في الأندلس جماعة يقومون بالنقل والترجمة ويتقدمون بعرض الآراء الفلسفية كاليعاقبة والنساطرة في الشام والعراق؛ أما اليهود الذين ادعى كثير من المستشرقين بأنهم كانوا الواسطة في نشر الفلسفة بين مسلمي الأندلس فأثرهم ضئيل، وهؤلاء كانوا تلامذة للمشارقة فتأثر باخيا بن باقودا بإخوان الصفاء وتأثر ابن جبرول وغيره بفلاسفة المشرق الإسلاميين

وعلى العموم فقد كانت الحياة بالأندلس غير ملائمة لجو الفلسفة، وكان الفيلسوف يشعر بوحشة نوعاً ما لشدة التعصب وضيق العقل

من هو ابن باجة

هو أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ المعروف بابن باجَّه ولد في مدينة سرقسطة في أواخر القرن الخامس الهجري في ذلك الوقت الذي عصفت فيه ريح الانحلال بدولة بني أمية بالأندلس، وشب أبو بكر والمرابطون يحكمون في البلاد، فاتخذه حاكم سرقسطة أبو بكر بن إبراهيم صهر أمير المرابطين جليساً له ووزيراً مما أوغر صدر العساكر والفقهاء ولكن الأحوال في سرقسطة اضطربت وهاجمها الفونس الأول ملك أرجونة فسقطة في يده عام 512هـ و 1118. فرحل عنها ابن باجه، وذهب إلى أشبيلية، واستقر بها وألف فيها بعض رسائله في المنطق كما يقول مونك وقد فرغ من إحداها في شوال سنة 512هـ، وتوجد في مكتبة الأوسكوريال تحت رقم 609. ثم قصد ابن باجَّه مدينة غرناطة وأقام بها مدة، ومن ثم ذهب إلى بلاد المغرب. ولما مر بشاطبة اعتقله الأمير أبو اسحق بن يوسف بن تاشفين كما روى الفتح ابن خاقان بسبب لم يذكر ولعله الزندقة، ولكن ما لبث أن أطلق سراحه بشفاعة والد الفيلسوف ابن رشد -

وروى أن أبا بكر بن يحيى بن تاشفين استوزر ابن باجَّه عشرين سنة، ولكن (مونك) يشك في ذلك لأن الحوادث التاريخية لا توافق هذه الوزارة؛ إذ أن أبا بكر بن تاشفين كان قد فر من فاس سنة 501هـ - 1107م؛ وذلك قبل نزوح ابنه إلى بلاد المغرب فيظهر أن مسألة الوزارة هذه غير صحيحة

مات ابن باجه ولم يعدُ طور الشباب، وقيل إنه مات مسموماً إذ كاد أطباء بلده حسداً منهم وحقداً. وكان ابن باجه قد منى بأعداء كثيرين، وكانت وفاته في رمضان سنة 523هـ - 1138م بمدينة فاس، وكان قبره بجوار قبر القاضي ابن العربي

ومن أشهر أعدائه الذين حاربوه ورموه بالزندقة والكفر والخروج عن جادة الدين الفتحُ بن خاقان الفرناطي صاحب (قلائد العقيان)؛ ومما قاله قادحاً فيه: (إن ابن باجه رمد جفن الدين. وكمد نفوس المهتدين، اشتهر سخفاً وجنوناً، وهجر مفروضاً ومسنوناً، ناهيك من رجل ما تطهر من جنابة ولا استنجى من حدث، ولا أقر بباريه ومصوره. . . نظر في تلك التعاليم، وفكر في أجرام الأفلاك وحدود الأقاليم، ورفض كتاب الله الحكيم، واقتصر على الهيئة (الفلك)، وحكم للكواكب بالتدبير، واجترأ عند سماع النهي والإيعاد، واستهزأ بقوله تعالى: (إن الذي فرض عليك القرآن لرادُّكَ إلى معاد)؛ فهو يعتقد أن الزمان دور، وأن الإنسان نبات له نَوْر، جمامه تمامه، واختطافه قطافه. وانتمت نفسه إلى الضلال وانتسبت، ونفت يوم تجزى كل نفس بما كسبت، فقصر عمره على طرب ولهو، وأقام سوق الموسيقى، فهو يعكف على سماع التلحين، ويعلن بذلك الاعتقاد ولا يؤمن بشيء قادنا إلى الله في أسلس قياد، مع منشأ وخيم ولؤم أصل وصورة شوهها الله وقبحها)

ولاشك عندي وعند كل ذي لب أن هذا كلام متحامل فيه كثير من لغو القول وسخف العقل وتحريض للعامة ضد الفلاسفة

منزلته

يقول ابن أبي أصيبعة عن ابن باجه: (كان في العلوم الحكمية علامة وقته وأوحد زمانه.

وكان متميزاً في صناعة الطب، وكان متقناً لصناعة الموسيقى، جيد اللعب بالعود)؛ وعده ابن خلدون من أكابر فلاسفة الإسلام بالأندلس، وشهد له ابن طفيل في حي بن يقظان بالتقدم والفضل، كما أن ابن رشد أعجب به كثيراً وحاول شرح بعض كتبه؛ وعندنا أن لابن باجه ميزتين:

1 - إنه أول المشتغلين بالفلسفة في الأندلس بعد أن ظلت كتب الفلسفة زمناً طويلاً مطمورة في مكاتب المغرب، ولهذا كانت خطوته جريئة؛ إذ الغلبة الفكرية كانت لرجال الدين، وهذا يعلل لنا ما لاقاه من اضطهاد وعداوة ظاهرة، ويفسر لنا ما قاله الفتح بن خاقان آنفاً

2 - إنه أول فلاسفة الإسلام الذين حاولوا أن يبحثوا الفلسفة مستقلة عن الدين، وأن في إمكان العقل الإنساني أن يصل إلى المعرفة الحقيقية وكشف أسرار الوجود دون ما حاجة إلى التصوف والإجهاد بالعبادة

ومع ذلك لم يستطيع ابن باجه أن يتم مؤلفاته لانشغاله بأمور الدنيا، ولأن المنية اخترمته وهو في ريعان الشباب. واستمع لابن طفيل يقول فيه: (ثم خلف من بعدهم خلف آخر أحذق منهم نظراً وأقرب إلى الحقيقة، ولم يكن فيهم أثقب ذهناً ولا أصح نظراً ولا أصدق روية من أبي بكر بن الصائغ، غير أنه شغلته الدنيا حتى اخترمته المنية قبل ظهور خزائن علمه وبث خفايا حكمته. وأكثر ما يوجد له من التأليف إنما هي كاملة ومجزومة)؛ وقد تأثر

به ابن طفيل في حي بن يقظان تأثراً عظيماً، وما حياة حي بن يقظان نفسه ووصوله إلى المعرفة الحقيقية في جزيرته الخالية من السكان إلا محاولة من ابن طفيل للبرهنة على رأي ابن باجه في تمكن العقل الإنساني من كشف أسرار الوجود وحده

مؤلفاته

ذكر ابن أبي أصيبعة عدداً كبيراً من كتب ابن باجه وأهمها: شرح كتاب السماعى الطبيعي، قول على بعض كتاب الآثار العلوية لأرسطو، قول على بعض كتاب الكون والفساد لأرسطو، ثم كتابيَ الحيوان والنبات لأرسطو، وله تعاليق على بعض المسائل الهندسية؛ أما مؤلفاته فكثيرة منها: كتاب في الاسطقسات: (النار والماء والهواء والتراب) وكلام في البرهان، وكتاب النفس، وكتاب اتصال العقل بالإنسان، ورسالة الوداع وكلام في الغاية الإنسانية، وفصول قليلة في السياسة المدنية، ورسالة تدبير المتوحد. . . إلى غير ذلك من الكتب

وليس لدينا وللأسف من كتب ابن باجه، ولقد أشار (مونك) إشارة موجزة إلى ما تحتويه رسالة الوداع سنذكرها فيما بعد؛ ولخص أيضاً رسالة تدبير المتوحد، أو نقلها عن العبرية رواية عن موسى الأربوني أحد فلاسفة اليهود في القرن الرابع عشر الميلادي، وشارح رسالة حي بن يقظان. وقد ذكر بروكلمن رسالة مخطوطة في مكتبة برلين حاول نشرها الدكتور فروخ، ولم ينشر منها إلا صفحتين هما عبارة عن جمل مقتضبة غير متماسكة. ويظهر إن موضوع هذه الرسالة هو الغاية الإنسانية، كما أن هناك رسالة في المنطق لابن باجة في مكتبة الأسكوريال سبقت الإشارة إليها في أول المقال، وقد كشف أبو ريدة مترجم دي بور جزءاً من رسالة تدبير المتوحد في المكتبة التيمورية بمصر (رقم 290)

1 - رسالة الوداع

كتب ابن باجه هذه الرسالة لأحد تلاميذه وأصدقائه قبيل اعتزامه رحلة طويلة حتى يكون على بينة من آرائه إذا قدر لهما ألا يلتقيا. وأول ما يظهر لقارئ رسالة الوداع رغبة المؤلف في إحياء معالم الفلسفة والعلم. لأنهما في رأيه جديران بإرشاد الإنسان إلى الإحاطة بالطبيعة، وبهدايته بعون الله إلى معرفة ذاته، وبالاتصال بالعقل الفعال الذي يفيض من الله.

ويتكلم فيها عن خلود النفس البشرية، وعن العوامل التي تؤثر في الإنسان وتدفع العقل في سبيل الفكر، وشرح غاية الوجود الإنساني وغاية العلم وهما التقرب من الله عز وجل، وكلامه في خلود النفس مبهم، ويقول باتحاد النفوس، وقد أخذ بهذا الرأي ابن رشد وكان لرأيه أثر كبير عند الفرق المسيحية حتى اضطر القديس توماس وألبرت الكبير للرد عليه في مؤلفات خاصة. هذا وقد عاب ابن باجة الغزالي وقال: إنه خدع نفسه وخدع الناس حين قال في المنقذ من الضلال: إنه يستطيع أن يكشف

العالم الحقيقي والعقلي ويرى الأمور الإلهية بالخلوة ويلتذ التذاذاً كبيراً
ومن هذا نرى أن ابن باجه يهاجم الغزالي بعد أن كان تأثيره عظيماً في بلاد المغرب، وبعد أن أسكت صوت الفلسفة في المشرق، ونراه لا يؤمن إلا بطريق العقل سبيلاً للوصول إلى المعرفة الإلهية

رسالة تدبير المتوحد - 2

ذكر هذه الرسالة ابن رشد في آخر كتابه على العقل الهيولاني حيث قال: (أراد أبو بكر بن الصائغ أن يختط خطة للمتوحد في هذه الأمة، ولكنه لم ينجزها وكثير منها غامض، وسنحاول في غير هذا المكان شرح غاية المؤلف من هذه الرسالة لأنه أول من سار في هذا المضمار ولم يسبقه فيه أحد). بيد أن ابن رشد لم ينجز وعده ولم يبق لنا إلا ما نقله مونك عن موسى الأربوني، وهذا المخطوط الموجود بالمكتبة التيمورية وهو غير كامل

وقد قسم الأربوني هذه الرسالة ثمانية فصول، ويظهر أن غاية ابن باجة فيها هي إثبات قدرة الإنسان المتوحد المنتفع بحسنات الحياة البعيد عن مفاسدها، على الاتصال بالعقل الفعال بقواه الفكرية وحدها. ولا يوصي ابن باجة بالخلوة - كما يفهم من لفظ المتوحد - إنما يرشد الإنسان المشتغل بشئون الحياة إلى سبل الوصول إلى الكمال، وهو يشير إلى إمكان ذلك سواء كان هناك رجل واحد أو عدة رجال في درجة واحدة من الفكر، وقد يستطيع هذا أهل بلد بأسره إذا كان تام النظام. ولم تخف على ابن باجة صعوبة هذا الأمر فأوصى المتوحد بالعيش في أغزر المدن علماً، أي في أقربها إلى الكمال، وأجمعها لأهل الفضل والحكمة. وسنعرض فيما يلي أهم ما جاء بهذه الرسالة نقلاً عن (مونك) مختصرين ما أمكن

الفصل الأول

تكلم ابن باجة أولاً عن لفظ (تدبير) وأنه يدل في أوسع معانيه على مجموعة من الأعمال ترمي إلى غرض معلوم، فلا يمكن أن يستدل به على عمل واحد، بل على جملة أعمال تنجز تبعاً لخطة معينة كالتدبير السياسي والحربي. وينبغي أن يكون تدبير المتوحد على مثال تدبير الحكومة الكاملة، ومن علامات الحكومة الكاملة ألا يكون بها أطباء أو قضاة؛ لأن أهل هذه المدينة لا يتناولون من الغذاء إلا ما يوافقهم، وبذا تختفي الأمراض الناجمة من الغذاء، وأما الأمراض التي تصيبهم بسبب عوارض خارجية فتزول بنفسها. ولما كانت العلاقة بين أهل المدينة بعضهم مع بعض أساسها المحبة امتنع الخلاف فاستغنى عن القضاة. والحكومة الكاملة تكفل للفرد أن يبلغ فيها أرقى منزلة من الكمال؛ لأن الكل يفكرون بأعدل تفكير، وينظرون أدق نظر، ويطيع كل فرد ما تأمر به القوانين، لأنه يكون عالماً بها، وبذلك تخلص أعمال الإنسان من الخطأ والهذر والختل فلا يكون الناس بحاجة إلى الطب الأخلاقي وهو ما لا غنى للجمهوريات الناقصة عنه

(البقية في العدد القادم)

(بيروت)

عمر الدسوقي

مرسلات. . .

الغيرة

إني لتدركني الشفقة أحياناً على هذه الكلمة المفردة، كما يشفق امرؤ ذو قلب على عزيز قوم ذلّ، وغني قوم افتقر. إن أحداث الزمان قد جارت عليها، وإن الدهر القلب الذي يتنكر لكل شئ قد تنكر لها. إنها كالموظف المعزول الذي لم يعد يظهر في ديوان عمله، أو كالعقد الثمين المتألق الذي لا يجد صدراً يزينه. إنها كالقلادة الرفيعة التي مات صاحبها وبقيت في (مخلفاته) تندبه في صمت، وتذكر به كلما رمقتها العيون!

لقد كانت (الغيرة) معنى مشرقاً في صدور الرجال، فأصبحت رسماً باهتاً في بطون الكتب؛ وكانت (مادة) ملموسة بارزة الأثر في حياة الناس، فأصبحت (مادة) قابعة في قواميس اللغة!

لقد فتشت عنها في نواح كثيرة من نواحي الحياة، فلم أجدها

كنت أحب أن أجدها: لم أجدها في البيت لأني وجدت (المرأة) تحكم (الرجل)، فلا يغار على حقه المغصوب، ولا يألم لسلطانه المسلوب؛ ولم أجدها في الطريق، لأني وجدت

المخازي تعرض على قارعته في صور مألوفة، وأشكال معروفة، فلا يغضب عليها غضب ولا يحمي بها صدر مغيار! ولم أفتقدها بين سمار الليل في النوادي الآثمة والمجتمعات المتهتكة، لأني أعلم كيف تصرع هناك الفضيلة ويصفع الحياء! ولم أحدها في (مكاتب الموظفين)، لأني وجدت الأعمال فيها مهملة، والأوراق مكدسة والناس على أبوابها يستصرخون ولا من يجيب الصريخ!

وأخيراً، فتشت عنها عند الذين يتنادون (بالإصلاح)، ويتحلون (بالفضيلة) فلم أجدها: لم أجد من يغار على البرامج المعطلة، والأمانة المضيعة، والوعود المهملة، والفساد الذي استشرى، والنار التي تومض من حلال الرماد!

فأين - يا رب - أجدها؟ أين (الغيرة)؟!.

محمد محمد المدني

السيلو هو السيرة والسير

للأب أنستاس ماري الكرملي

(تتمة ما نشر في العدد الماضي)

السيرة أو السير لمخزن الميرة في بعض لغات الشرق - 4

الأولى

ذكرنا بعض الألفاظ المقابلة لهذه الكلمة في اليونانية، واللاتينية والإنكليزية والفرنسية والإسبانية، فيحسن بنا الآن أن نذكر لها مقابلات في بعض اللغات المبثوثة في الشرق الأدنى. ففي التركية يسمى هذا المخزن (كندوج) بالفتح وقد نقلوها من الفارسية (كندو) بالفتح. (شئ يبني كهيئة الدن، فيجعل فيه الدقيق وغيره، وهي في التركية الكنجاكية. وأما الترك الصميم فيقولون: كَنْدُك، بفتح الكاف وإسكان النون وضم الدال المهملة وفي الأخر كاف. وقد توسعوا في معناها حتى أطلقوها على كل صبرة عظيمة من الطعام يصومع ويصمد حتى يظهر للناظر إليه كأنه دن كبير موضوع على وجه الأرض، فسبب التسمية واضح، فما الكندوج أو الكندك الآدن كبير أو كما يسميه الغربيون (سيلو).

وقد قال صاحب محيط بهذا الصدد ما هذا نصه بأصله: (الكندوج (وقد ضبطها ضبط قلم بالضم) شبه محزن من تراب أو خشب توضع فيه الحنطة ونحوها. معرب كندو بالفارسية) انتهى.

وهو ترجمة نص فريتغ ترجمة غير مضبوطة وهذه عباراته بحروفها اللاتينية:

(كندو , , , كندوج)

ومعناها على ما يبدو لي: الكَندوج بناية على هيئة مخزن فيها (الآنية وسائر الأشياء) انتهى. فالظاهر من هذا الكلام أن فريتغ لم يفهم كلام صاحب القاموس، فأساء فهماً وأساء نقلاً ثم أخطأ كل من جاء بعده نقلاً عنه. وعلى أثره أخطأ جميع اللغويين المحدثين من العرب وجماعات المستشرقين النقلة، وليس لنا متسع لإظهار شوائبهم ومعايبهم فهي أكثر من أن تحصى. فتكتفي بما نقله الشرثوني في أقرب الموارد.

قال: الكُندوج (وضبطها) بالضم جرياً على القياس اللغوي لا على السماع والنقل على حد

ما فعل صاحب المصباح وهو ليس حجة يعتمد على لغته الفصحى لأن لغته عربية فقهية وهي عثرة في طريق المحققين: شبه محزن من تراب أو خشب توضع فيه الحنطة ونحوها (معرَّب) وفي المصباح: (ويطلق على الخزانة الصغيرة)

وقال صاحب البستان: الكندوج (وضم الأول أيضاً): شبه مخزن من تراب أو خشب تحتكر فيه الحنطة دخيل (5 - قلنا وقوله: نحتكر تغيير لقول الشرثوني (توضع فيه) وهذا هو الصواب لأن الغاية من وضعه في الكندوج حفظه من الآفات الجوية لا الاحتكار وهذا وهم منه، فأراد أن يغير عبارة الشرثوني في نصها ويحسنها ليبين تفوقه عليه أو اختلافه عنه فاضر نفسه إذ لم يخف على أحد نقله وفساد معناه.

وورد في معنى مخزن الطعام في الكردية: جال وجالو وجاله. ونكتفي بهذا القدر.

المطمورة بمعنى مخزن الطعام - 5

نظن أننا وفينا موضوع (السيرة) و (والسير) حقه من البحث. بقى علينا أن نعالج موضوع (المطمورة) وقبل أن نعرفها، نقول للواقفين على مقالنا هذا: إن المطمورة وردت بمعنيين: معنى ذكرته كتب اللغة ومعنى أهملته، فنبدأ بذكر الأول فنقول:

المطمورة على ما ورد في القاموس: (الحفيرة تحت الأرض) وزاد في التاج: يوسع أسافلها، تخبأ فيها الحبوب. والجمع المطامير. وطمرتها أنا: (ملأتها) - والكلمة قديمة في لغتنا الشريفة وهي في العراق من أقدم الألفاظ على ما نعهد. وقد ذكرها الليث في عينه فقال: (المطمورة: حفرة يطمر فيها الطعام أي يخبأ (ج) مطامير. وكل من جاء بعد الليث وألف كتاباً في اللغة نقل هذه العبارة ولم يعزها إلى قائلها الأول وهي نفس العبارة التي أخذها عنه الزمخشري في كتابه (مقدمة الأدب) في ص23 من نسخته المطبوعة وهذا نصها: (المطمورة: جاء. غلّه وفي النسخة المحفوظة في الخزانة البدليانية في مدينة اكسونية زيادة هي: المطمورة حفرة يطمر فيها الطعام أي يخبأ. ج: مطامير) 51

وأهل العراقُ يُسمون بالمطمورة كل ما يتخذ لحفظ الطعام فيه، إن كان في بطن الأرض، وإن كان على وجهها، فهي كاللفظة الإفرنجية تتخذ للدلالة على المعنيين أي بمعنى السرداب في بطن الأرض والمخزن الذي يبنى على ظهرها. وهي عامة الاستعمال في شمال العراق إلى جنوبيه، ولا ينطقون بغيره، فإذا كان لحفظ الغلة في بطن الأرض كان

الموطن مهيأ دائماً. أما إذا كان فوق الصعيد فإن أصحابه يجعلونه جرة عظيمة، ثم يسنمونها على هيئة مخروط ثم يسيّعونها ويصمدونها، حتى إذا نزلت بها نوائب الجو من مطر وثلج وبرد ورياح قاومتها أحسن مقاومة ودفعت أضرارها على أتقن وجه وأسدّه

فتسمية أبناء الرافدين هذين الضربين من مخزن الطعام لا غبار عليه وإن اختلفت هيئتهما لأن أصل التسمية صار يقع على معنى (المخزن) الحافظ للغلة، أياً كان شكله. ولهذا فالعراقيون يحتفظون بهذا الاسم لقدمه عندهم، ولصحة عربيته، ولبقاء الأسماء على مسمياتها وإن اختلفت صورها وأشكالها وكيفية اتخاذها

وأهالي شمالي العراق يسمون مخزن الطعام على وجه الأرض اللوث، وتلفظ بالفتح أي ويجمع على ألواث على ما أفادني ولدي بالروح (ميخائيل حنا عواد) وهو من نوابغ الشبان، ويصنع بأن تحفر دائرة في الأرض عمقها بين 10 و 15 سنتمتراً تسع الكمية الموجودة عند صاحب الطعام، ثم تكدس الغلات شيئاً على شيء من تبن أو شعير أو حنطة وتجمع على هيئة مخروط ويُسيع خارجها ويصمد، حتى إذا جاءت الأمطار وانحدرت عليها ولت في وجهها بسرعة من غير أن تبقى فيها أثراً. والذين يكدسون الأطعمة على وجه الأرض من حنطة أو شعير يكونون أرباب حول وطول، ولهم نواطير أقوياء يذوبون عنها اللصوص والسراق. وأما الذين لا نواطير لهم فيجعلونها في جالأت (جمع جال) يحفرونها في الأرض ويقيدونها بالقار الحسن منعاً لتسرب الماء والرطوبة إليها وجال (ويقال جاله وجالو) كردية معناها هذه الحفيرة واللوث من أصل عربي فصيح معناه في أصل وضعه: القوة والشدة لأن جمعك الشيء على الشيء الآخر تعصبه وتشده، ومن هذا أيضاً قولهم: هذه ناقة ذات لوثة إذا كانت كبيرة الشحم واللحم معصوبة مشدودة ولا يمنعها ذلك من السرعة فهي صفة حسنة لها وقد ذكر لي ولدي ميخائيل أن بعض المزارعين في أنحاء بغداد يسمون (المطمورة) التي تقام على سطح الأرض (جبراية) والجمع جباري. وأما أهل ديار المنتفق في جنوبي العراق فينطقون بها على أصلها الفصيح بالميم، أي أنهم يقولون (جمرية) وهي من مادة جمر أي جمع شيئاً على شيء، ورفع رأس المجموع. وهذا التحقيق من وحي المؤرخ المحقق الأستاذ يعقوب نعوم سركيس حفظه الله ورعاه

ومما ذكره لي ولدي بالروح ميخائيل عواد أن لأهالي تكريت ومن في أنحائها لفظاً آخر لهذه المطمورة هي (اللود) وتلفظ وتجمع على ألواد، والهمزة لا تكاد تلفظ وكأنك تلفظ وكأنك بإسكان اللام وهي عندهم غرفة مستطيلة أو مربعة يخزن فيها التبن وأحياناً الحنطة والشعير ولا تكون مسقوفة في أغلب الأحيان، وتكاد تكون أرضها بمستوى سطح ما يجاورها من الأرضين أو ما أنخفض عنه بقليل. و (اللود) يعرفها بهذا اللفظ وهذا المعنى أعراب شمر من عشائر العراق وتشبه كل الشبة (اللوث) المار ذكرها والمستعملة في الموصل وأرجائها. ولعلها لغة فيها، وقد ورد مثل هذه اللغة عند كثيرين من الأقدمين فقد قالوا: مدد الخبز ومرثه. وقالوا: الشيث تعريب الفارسية شود وقد قلبت الواو ياء والدال المهملة الفارسية ثاء مثلثة

6 - المطمورة بمعنى السجن والمطبق
وأشرنا إلى أن للمطمورة معنى آخر، لم يرد في معاجم اللغة وكان معروفاً في القرون الوسطى أي في عهد العباسيين، بموجب التعبير العربي. وهذا المعنى هو السجن المظلم يسجن فيه المحكومون عليهم بالحبس الأبدي وورد أيضاً بمعنى جب عميق مغطى بغطاء ينقلب للحال بمن يطأه تخلصاً منه بسقوطه فيه وموته فيه حياً جاء في تاريخ الرسل والملوك للطبري في 2207: 3 في طبعة الإفرنج ما هذا نقلة: (وفي يوم الثلاثاء لثمان خلون من جماد الأولى، دخل المكتفي إلى داره بالحسنى، فلما صار إلى منزله أمر بهدم المطامير التي كان أبوه اتخذها لأهل الجرائم). انتهى
وفي مروج الذهب (8: 215 من طبعة الإفرنج): (وأمر بهدم المطامير التي كان المعتضد اتخذها لعذاب الناس وإطلاق من كان محبوساً فيها، وأمر برد المنازل التي كان المعتضد اتخذها لموضع المطامير إلى أهلها وفرق فيهم أموالاً)
ويخيل ألي أنه كان في العراق وديار الشام ووادي النيل وسائر البلاد الشرقية مطامير مختلفة العدد وقد اتخذت في قرى عديدة حتى أن بعض القرى بقى أسم المطامير عليها لاشتهارها بها وإن زالت عنها. وقد جاء في معجم البلدان لياقوت: (مطامير جمع مطمورة، وهي حفرة أو مكان تحت الأرض وقد هيئ خفياً يطمر فيه الطعام أو المال، اسم قرية بحلوان العراق، وذات المطامير بلد للثغور الشامية له ذكر في كتاب الفتوح. ويقال له: المطامير أيضاً غير مضاف) . .
وفي كتاب الأنساب للبلاذري بعد أن ذكر إلى أي ضيعة نسب أبو محمد المطاميري قال: (وتوفي في جمادي الآخرة سنة 163 هـ، وكان فتوحها على ما قال الطبري (2 - 1667) سنة 121هـ على يد مسلمة بن هشام بن عبد الملك) فيظهر من هذا أن العرب كانوا يعرفون المطامير واتخاذها للطعام وللسجن قبل الإسلام، على ما يرى في استعمالها لتلك الأسماء
ولما مر ابن بطوطة في المائة الثامنة للهجرة=14 للميلاد بنذربار من ديار الهند رأى أن كل مسلم يشرب الخمرة يحد ثمانين جلدة ويسجن في مطمورة ثلاثة أشهر لا تفتح عليه إلا حين طعامه) (راجع رحلة ابن بطوطة طبع الإفرنج 4: 52)
من يطالع في معجم دوزي ما جاء علي المطامير منقولاً عن المسافرين والكتبة بتحقيق أن المطامير كانت في جميع ديار الشرق الأدنى لغايات مختلفة فلتراجع فيه إذ قد ضاق بنا الموطن عن هذا البحث الجليل
أما من يحب أن يتابع في تصانيف الإفرنج هذا الموضوع فعليه بمطالعة ما جاء باسم الإنكليزية وبعنوان بالفرنسية فيقع على حكايات وتفاصيل في غاية الغرابة والعجب والاستفادة. ثم كتب عديدة تبحث في هذا الموضوع
7 - مترادفات المطمورة وما يقابلها في لغات الأمم الشرقية
رأينا العراقيين لا يستعملون إلى لليوم إلا لفظة واحدة هي (المطمورة) والآن أخذ بعضهم ينبذون استعمال هذه اللفظة ظناً منهم أنها عامية وأخذوا يستعملون في مكانها (الهُرْى) ويحمعونها على (أهراء قلنا: أنهم في ضلال مبين، لأن المطمورة وردت في جميع كتب الفصحاء التي تكلمت على أمثال هذه المخازن ولم تهملها. وثانياً لأنها صحيحة الاشتقاق من لغتنا المحضة وثالثاً لأن المطمورة استعملت لمخزن الطعام الذي تحت الأرض، ولما فوق الأرض. قال في النهاية في مادة (ط م ر) (وفي حديث مطرف: من نام تحت صدف مائل وهو ينوي التوكل فليرم نفسه من طمار وهو ينوي التوكل: طمار بوزن قطام: الموضع المرتفع العالي. وقيل: هو اسم جبل، أي لا ينبغي أن يعرض نفسه للمهالك ويقول: قد توكلت. انتهى كلام ابن الأثير فهنا نص واضح على أن مادة طمر تفيد الدفن والحبس وتفيد أيضاً العلو والارتفاع، فصحت إذن المطمورة للاستعمالين.
ورابعاً أن الهرى يقابل الإفرنجية والإنكليزية فهو إذن غير المطمورة.
خامساً أن الهرى ليست عربية بل لاتينية ومعناها كما هو في العربية أي البيت الكبير يجمع فيه طعام السلطان فليست أذن في المطمورة وهل نبدل الصحيح الفصيح بالدخيل القبيح؟ وقد ذكرنا سابقاً ما يقابل مخزن الطعام في الأرض في الفارسية والتركية والكردية. وأما في الإرمية (السريانية والكلدانية) فالمطمورة تسمى (مطمورتا) وتجمع على (مطمورياتا) كما هو مدون في معاجمهم المعتمدة ومعناها

المخبأة أيضاً
خلاصة هذه المقالة وزبدتها - 8
خلاصة هذه المقالة وزبدتها: أن اللفظ الغربية (سيلو من أصل عربي هو (سير) بالفتح، أو (سير) بالكسر، ثم نقل إلى الأوربية باللام، على لغة كانت لبعض قدماء العرب ينطقون بالراء لاماً في كثير من الألفاظ. ولا نزال نسمع مثل هذا الإبدال إلى عهدنا هذا، ولاسيما في ديار العراق
ولقد وجدنا أحسن لفضة تستعمل اليوم بمعناها هي (المطمورة) لأنها خالية من معنى ثان يشوهها، ولأنها عربية صميم لا غبار عليها ولأنها مستعملة في العراق منذ عهد العباسيين، بل قبل وجودهم فيه، ولان كل كلمة سواها كثيرة المعاني تفسد المعنى الرئيسي الأصيل، ولأن (الصومعه) وجمعها (صوامع) لا ينجلي لأبصار الأدباء إلا بمعنى مسكن الراهب أو ما يشبهه. فما بقي علينا إلا أن نتبع الفصيح الممتنع الذي قاوم الأدهار، وصبر على فساد الأشرار، وبلغ إلينا سالماً من كل الأخطار!
(بغداد)
الأب انستاس ماري الكرملي
البريد الأدبي
حول غزل السلطان سليم
قرأت في عدد (الرسالة) الأخير قصيدة غزلية للسلطان سليم الأول فاتح مصر نشرها الأستاذ عبد الله مخلص، وقد سبق أن رأيت هذه الأبيات في مصادر أخرى غير التي استقى منها الأستاذ، وهي مباينة لما نشره الأستاذ منها، أما المصدر الذي تحت يدي فهو (عثمانلي تاريخ وأدبيات مجموعة س) بتاريخ 30 نيسان سنة 1334
وقد اطلعت على القصيدة أيضاً في (خلاصة الأثر في أعيان. القرن الحادي عشر). وهناك خلاف في نسبة هذه القصيدة فقد جاء في (دائرة المعارف) أنها للسلطان أحمد خان الأول، وجئ مكان البيت السادس ببيت آخر لطلائع ابن رزيك الوزير الشاعر العربي المتوفى سنة 556، وقيل إن البيتين الأخيرين مع بيت المقطع لأبن رزيك وغزل ابن رزيك موجود في وفيات ابن خلكان وهو عبارة عن سبعة أبيات، وهو خلاف غزل السلطان سليم المنشور في عدد (الرسالة) 462، وهو برمته للسلطان نفسه أما سبب الأخطاء التي وقع فيها صاحب خلاصة الأثر ودائرة المعارف، وبعض المجاميع الأدبية لتي تقول إنه للسلطان أحمد أو إن بعض أبياته لأبن رزيك فيرجع إلى أن غزل السلطان فيه تشابه مع أبيات ابن رزيك في الوزن والقافية.
ثم إن القصيدة التي بين سبعة يدي سبعة أبيات لا غير، أما التي جاء بها الأستاذ مخلص فأحد عشر بيتاً. هذا إلى أن الشطرات والمصاريع الموجودة بين الأبيات الكاملة غير موجودة فيما قرأت من المصادر. فما رأى الأستاذ في هذا؟
ثم هناك تباين بين نصي القصيدتين، فقد جاء في البيت الأول في القصيدة المنشورة بالرسالة (قمر يصول. . .) وعندي (ظبي يصول) ثم في البيت الثاني: (ما قام معتدلاً يهز قوامه) وعندي (وهز) إلى غير ذلك
والأبيات 6، 7، 9، 10 المذكورة في (الرسالة) غير موجودة أصلاً في المصادر التي أشرت إليها.
فإلي الأستاذ مخلص، والى جمهور قراء الرسالة من الباحثين أقدم هذه المشكلة لعل أحدهم يستطيع أن يلقي ضوء نستنير به
إبراهيم أحمد أدهم
السلطان (سليم) والشعر
قرأت الشعر الذي أورده الأستاذ الفاضل عبد الله مخلص منسوباً إلى السلطان سليم العثماني؛ وأنا لا أجزم بتزوير هذا الشعر على السلطان؛ ولكني أقول: إنه (تخميس) لقصيدة في الغزل، من تلك (التخميسات) التي لهج بها شعراء العصر التركي.
ويستطيع القارئ أن يستخرج القصيدة الأصلية من ثنايا الشعر، وأولها:
قمرٌ يصول ولا وصول إليه ... جرحَ الفؤاد بصارمي لحظيه
فيجدها ملتئمة اللفظ، متسقة المعنى، بعد حذف هذه الإضافات الظاهرة بها، والتي استوجبها فن (التخميس)
فهل ينسب للسلطان أصل القصيدة أم تخميسها؟ أم هو صاحب الأصل والتخميس

معاً؟ ذلك ما نسأل عنه الأستاذ المخلص على أن السلطان سليم لم يشهر بإجادته اللغة العربية، فضلاً عن نظمه الشعر فيها؛ وإن كان بعض المصادر يشير في معرض الحديث عنه إلى كثرة مطالعته للتواريخ وتفرسه في اللغتين: الفارسية والرومي (أخبار الأول للاسحاقي)

فإذا أضفنا إلى ذلك شهرة هذا السلطان التي قد تغري بعض الشعراء بنظم أشعار ينسبونها إليه، ويذكرون فيها (الملك والسلطان) تمويهاً على الرواة والناقلين - جاز لنا أن نشك في نسبة هذه القصيدة إليه، كما نشك فيما يذكرونه من أنه خط بيده على مقياس الروضة - حيث كان ينزل أثناء مقامه بمصر - هذين البيتين، وهما:

الملك لله، من يظفر بنيل مني ... يُردّ فقراً وينزلْ بعده الدركا

لو كان لي أو لغيري قدر أنملةٍ ... فوق التراب لصار الأمر مشتركا!

ولا يبعد أن يكون هذا من قبيل ما ينسب من الشعر إلى (آدم) أبي البشر، والى إبليس وبعض (الهواتف) من الجان. . . مما كان يتخطفه الرواة والناسخون، لطرفة مصدره، وغرابة مخبره

(جرجا)

محمود عزت عرفة

لمن رسالة الحج

طلبت إلى الأستاذ حافظ عامر بك أن يكشف الغموض الذي ضربه بعضهم حول بعضهم حول تأليفه (رسالة الحج) فقال:

أتيح لي أن أؤدي فريضة الحج أيام كنت سفير مصر في جدة عام 19311935 فجمعتني المناسبات بالفيلسوف الهندي الشيخ عبيد الله السندي ومريده الدكتور سيد فيروز زيدي فتحدثت إليهما عن أسرار الحج وفلسفته حديثاً حرصاً على حفظه لما له من الأهمية

ولقد نعيت فيه على قادة الرأي الإسلامي إهمالهم قاعدة إسلامية أساسية ألا وهي حج بيت الله الحرام. ثم انفض موسم الحج وأخذت طريقي إلى جدة مقر عملي الرسمي في القنصلية المصرية. وما كاد يستقر بي المقام حتى لحق بي الدكتور فيروز زيدي موفداً من قبل أستاذه الشيخ السندي لأخذ مذكرات لشتى أحاديثي عن الشئون الإسلامية عامة ورسالة الحج خاصة، ولم يكن لدي من الأحاديث المدونة غير نقاط دونتها في مذكرتي، فاستبقيت الدكتور فيروز حتى أتممت له رسالة في أسرار الحج وفلسفته، وطلبت من الدكتور أن يكتب ما أمليته عليه من صورتين بالآلة الكاتبة، وأخذ الدكتور صورة للأستاذ الفيلسوف الهندي واحتفظ بالصورة الأصلية. ثم سافر الدكتور فيروز وهو يقول: (لقد أهديت إلى يا سيدي كنزاً ثميناً من التعاليم السامية التي لا تشترى بالذهب وهديتني بتوفيق الله ووجهتني توجيهاً صحيحاً نحو الإسلام الخالد الصالح لكل زمان ومكان)

وحدث أن زار حافظ بك مصر وطنه فانتهز هذه الفرصة لطبع الرسالة ونشرها في العالم الإسلامي وكذلك فعل فكانت الطبعة الأولى من رسالة الحج، ولقد كان نصيب الشيخ عبد الوهاب الدهلوي من رسالة الحج لحافظ بك أن أهديت إليه نسخة من الطبعة الأولى في أثناء تجواله ببغداد، فهل ترد الهدية بعد بضع سنين بالتجني على مهديها؟

سيد عثمان المراغي

كم ذا من جديد

طلبت إلى حضرات القراء - في شئ من الرجاء - أن يدلوني على شاهد من الصحيح الفصيح وردت فيه (كم) مقترنة بـ (ذا) حتى يكون ذلك هو الفيصل بيني وبين إخواني الذين اختلفت معهم في بيت (حافظ) - كم ذا يكابد عاشق ويلاقي - فإني لم أعثر على بيت (المتنبي) - وكم ذا بمصر من المضحكات - وهو مما لا يصح الاستشهاد به من ناحيتين:

. . .الأول: أن (أبا الطيب) لا يعتبر فيمن يؤخذ عنهم الفصيح الصحيح

. . .الثاني: أن الرواية متضاربة، فتارة: (كم ذا) وأخرى: (ماذا)

ولكن الأستاذ البشبيشي أبي إلا أن يشرفني بالرد، فراح يعرب ويخرج ويؤول. . . فهل

يتفضل (من جديد) بإعادة النظر، لعله يأتي بما يقنع؟. . . فإني أرجو أن يكون (أبا حسن) هذه القضية. . .

إبراهيم علي أبو الخشب

في الفن الإسلامي

كتب إلى قارئ فاضل يسألني أن أكتب في ناحية معينة من (الفن الإسلامي)، وشاء أن أجيبه على صفحات (الرسالة الصديق) وإني إذ أشكر لحضرته ما غمرني به في خطابه من كلمات طيبة، أرجو أن تتيح لي الظروف قريباً إجابته إلى سؤله

محمد مصطفى

جريدة الوفاق في عامها الخامس عشر

استقبلت جريدة الوفاق عامها الخامس عشر من عمرها المديد؛ وهي تعالج الأدب والسياسة والاجتماع، ولم يفتها - وهي التي تصدر في غير العاصمة - أن تعني بالناحية الإخبارية فضربت في هذا المجال بنصيب

القصص

قصة مصرية

واصلون ومنبتّون

للأديب لبيب السعيد

لم يكن يرى شيئاً من هذه المناظر الجميلة المتنوعة التي يمّر بها القطار، ولم يكن يسمع شيئاً مما يدور حوله من أحاديث الناس. كان في دنيا الماضي يجوس خلالها، ويقف على بعض مشاهدها وقفات طويلة مفكرة. هو ماضي أليم، ولقد كان نجح بعد جهود مرّة في إسدال الستار عليه، وفي نسيان ما فقد فيه من آمال عزيزة قرّح فقدها قلبه قبل جفنه، ولكن هذا الماضي انبعث الساعة أقوى وأوجع ما يكون!

كان يرتقب قطار الإسكندرية الذاهب إلى مصر، فما راعه إلا ضابط كبير من رتبة (قائمقام) يربت على كتفه في بعض العنف قائلا: (مجاهد! من أين وإلى أين). ولقد ذعر مجاهد أول الأمر إذ وجد صاحب اليد التي تربت على كتفه ضابطاً كبيراً لا يعرفه ولا يذكره، ولكنه ما لبث أن ملك نفسه حين تبسم الضابط ضاحكاً وهو يقول: (ألا تعرفني؟ ألا تذكر محمد رأفت زميلك في مدرسة القربية الابتدائية في مصر؟ ما أضعف ذاكرتك وأقل وفاءك! ألست تذكرني حقيقة؟ وهل نسيت ثالثنا إبراهيم عثمان؟ إني أذكر بيتكم في القربية، كم لعبنا فيه أنا وأنت وإبراهيم! وأين إبراهيم يا مجاهد؟ وأين مستقرك أنت الآن؟) وأجاب مجاهد في انكسار واختصار: (إبراهيم لا أعرف عنه شيئاً. إن خمسة وعشرين عاماً ليست قليلة يا بك. فأما أنا - وألقى بطرفه إلى الأرض خجلاً - فمدرس هنا في طنطا في شمس المعارف الأهلية. . .)

وجاء القطار، فتصافحا وافترقا: الضابط إلى عربات الدرجة الأولى، ومجاهد إلى عربات المؤخرة. . .

كان هذا اللقاء الشّرر الذي سعّر الوجد في صدر مجاهد، ليس من حقد على زميله الذي ابتسم له الزمان فسار إلى غايته، ولكن حقداً على الزمن الذي كاد له فرده خلف الصفوف. . .

ما أمض أن يتطلع إنسان فيرى رفاقه تقدموه على حين يرى نفسه منبتّاً فاقد الأمل!

لقد كان مجاهد أذكى لداته لبّا وأقواهم للتعلم استعداداً. . . ومحمد بك رأفت هذا الضابط العظيم الذي تنبئ شاراته النحاسية عن رتبته. كان أحد التلاميذ الكثيرين الذين كانوا يرنون دائماً إلى مجاهد معجبين، وادّين من كل قلوبهم لو يكون لهم بعض تفوقه وبعض رضاء المعلمين عنه. وآباء التلاميذ وأمهاتهم في حي القربية لم يكونوا يعرفون أنموذجاً ينبهون أبناءهم إلى احتذائه غير مجاهد. نعم، مجاهد! الذي يعمل الآن مدرساً أهلياً في مدرسة فقيرة، والعطل من حلية الدبلوم! والذي يتقاضى راتبه منجما من نصف جنيه ومن ريال!

كان مجاهد قد أحرز البكالوريا والتحق بمدرسة الحقوق، وكان جده وذكاؤه يسوقان له البشرى ويضيئان بين يديه مناهج الأمل، ولكن ظروفا ألمت بآله، فوجد نفسه يوماً مضطراً إلى العمل كيفما اتفق ليعول أسرة فيها بنات وبنون كالفراخ الزغب. . .

ولم يبح لأحد من لداته بأمره، ولم يفعل سوى أن مرّ بردهات المدرسة وأفنيتها جميعاً كأنما يأخذ لعينه الزّاد من منظرها وانطلق وراء أسرته في موطنها الأصلي، وهو

. . .ممسك بقلبه خشية أن يتصدع
وحين بصر برفاقه الطنطاويين في إجازة العيد توارى منهم خجلا، وإشفاقاً من أسئلتهم المحرجة عن أسباب انقطاعه عن الدراسة، ولكن الحظ السيئ مع ذلك أوقعه فيهم غير مرّة، فعانى أسئلتهم، وأجاب والحزن يمزّقه والكلمات تحتضر على شفتيه، أنه يعمل مدرساً في مدرسة شمس المعارف. وتلقى من سخريتهم وضحكاتهم ما شاءوا وشاءت له الظروف. . .
وحين كانوا يقبلون على البلد صيفا، كان يلتقي ببعضهم أحياناً، فكانوا - وهم لم يتجاوزوا بعد عهد الطالب - يتكلمون إليه تكلم من تعلم لمن لم يعرف من العلم شيئاً. . . يتحدثون فيسرفون في الإساءة إليه من حيث يشعرون أو من حيث لا يشعرون، قال أحدهم مرة وهو ضاحك: مجاهد هذا يصلح وكيلاً لمكتبي حين أكون محامياً، فهو خير من يجمع لي عناصر الدفاع؛ وأردف آخر: ولكني لن أدعه لك فإني سآخذه في بطانتي حين أكون وزيراً. لقد كانوا يتحدثون منذ شبابهم الباكر حديث الحكام، فكانت لهجتهم الشامخة العابثة تدمي قلبه لم يكن وطّن للمصائب. ولقد كان يملأ نفسه الرقيقة العزيزة أنهم كانوا يفيضون أحياناً في الحديث عن موضوعات في القانون كان هو قد اطلع عليها قبل فراقه المدرسة وبدأ يشغف بها
كانت أياماً سودا. . كان يعرف أنه في عمله الضئيل يعيش بلا أمل. وكان يتنبأ بأنه لن يبتسم لنفسه البتة؛ فإن فعل فستكون بسمة غير بسمته المعهودة: بسمة أخرى هي بنت الكآبة وأخت الدمعة الحارة. لقد استبعد يومها أن يكون هو مجاهد صاحب الآمال المرسلة بالأمس، وود الموت صادقاً، وما منعه أن يقبل عليه غير خوف على أعزاء له صارت إليه أزمة أمورهم، وفي رقبته باتت مسؤولية رعايتهم
وهاهي السنون لم تنصف السبّاق المنبت، وتركته مردود الجماح مكفوف الطّماح، يريد التقدم فلا يستطيع. إنه منذ عمل مدرساً وهو يلوك منهج السنة الثالثة الابتدائية في الحساب والجغرافية والتاريخ. . . يشقى بتلاميذ لا يبدو فيهم النابغ إلا نادراً: مظهرهم لا يشرح صدراً، وعيونهم تنّم عن أنهم جياع، وملابسهم تنم عن أن أهليهم يعانون في معاشهم مصاعب شداداً. . .! وأبناء الميسورين منهم يذيقونه بعبثهم واستهتارهم عذاباً شديداً، فإن نهر واحداً منهم جاءه الناظر يقول حانقاً: تصرفاتك تنفّر التلاميذ وآباءهم من المدرسة وتحيلهم إلى مدرسة التاج التي تنافسنا!! ويتيه الناظر فيحتمل مجاهد، ويقول فيسمع، ويأمر فيطيع. . .
وهاهم بعض تلاميذه قد سبقوه أيضاً: نالوا حظ التعليم العالي، ثم تخرجوا إلى الحياة شباناً ناجحين. . . وبقى هو وحده خلف هؤلاء، وهؤلاء جميعاً، لا يصل أن يكون مرؤوساً للكثير منهم!
ما برح مجاهد في عمله الشاق يصحح أكداس الكراسات ويغدو على الصبيان الشياطين نحو ثلاثين حصة في الأسبوع، فيخلع من شبابه وصحته برداً بعد برد. . . وهو مع ما يبذل من جهود لا يتقدم ولا يزيد إلا ضنى كذبالة تضيء للناس وهي تحترق!
لقد كان يوشك أن يموت كمداً وألماً كلما ذكر أنه لا يحمل إلا شهادة يحملها الصبيان ويتقدم لها في العام أكثر من خمسة آلاف طالب. إن المفتش والناظر والمعلمين والطلاب لا يقيسون كفاية المعلم إلا بمقياس واحد: (الشهادة). . . وهو، سطا به الدهر سطوة حرمته هذه (الشهادة). . . فسلام على الحياة الرغدة، وعلى التقدم، وعلى الأمل. . .! وويل لابنه
!. . .من الخجل الشديد حين يسأله زملاؤه عما يحمل أبوه من شهادات
هذه الآلام التي ظلت تعبث به سنين طويلة استطاع اليأس ولا شيء غير اليأس أن يواريها انكشفت اليوم حين التقى مجاهد برأفت بك. . . فهي تلذعه لذعاً أليماً، وتعيد له مأساته جديدة
أين أيام مدرسة القربية حين رأفت وإبراهيم عثمان لا يتركانه إلا لماماً، حين كانت الحياة لينة الأعطاف عليهم جميعاً، وكان هو أذكاهم وأقواهم! خفض الزمان الثقيل ورفع الخفيف!! هذا رأفت وصل يقيناً، فكيف بإبراهيم وهو كان أنشط من رأفت وأذكى وألمع؟. . . كيف وهو منذ طفولته أبعد مطمحا وأكبر لبانة؟ هو لا بد الآن يتسور المجد. . . حكم الله! اثنان يركضان دراكا وثالثهم يزحف زحف الكسيح! واضطراب

كيان نفسه. . . وفاضت عيناه بالدمع الغزير. . . كأنما كان معه في القطار ميت عزيز!
والتفت فرأى أناساً يرقبونه في تعجب، فاستحى أن يبدو أمامهم فيّاض الشؤون،
وأحب أن يكذب ظنهم، فوقف في نافذة القطار ليدع للهواء تجفيف الدمع بدل المنديل. . .
أّنى لمجاهد بالعزاء وهو من بين أترابه الحي الميت؟ ما أشوق مجاهد إلى الانفراد بنفسه ليتعاطى البكاء دواء يشفى دائه الثائر!؟ ولكنه لا يستطيع حتى هذه اللذة، لأن السافرة كثيرون، والفضال كثير!
وحملق في السماء ضارعاً يشكو بثه وحزنه إلى الله، ولكنه ذكر أن الله عليه غضبان، فهو منذ خاطت له الأيام محنته يغسل أشجانه في الكأس المحرّمة، فأرجع بصره إلى الأرض خاسئاً ذليلاً حيران. . .
وخفف القطار الجاهد من سيره وهو داخل محطة بنها، وأقبل الباعة على السفر يصيحون: التين! الكازوزة! خبز وبيض! سجاير! كانت نداءاتهم عالية مسرعة ملحة كأنما يستنجزون بها المسافرين صدقة! وفي زحمة العربات وغمار اللغط، كان صوت عال مسرع ملح كسائر أصوات الباعة يرن أسود خاشعاً: الكتب! النتائج! القصص! طوالع الملوك. . . ونظر مجاهد إلى صاحب الصوت مأخوذاً. . . إنه رجل ترهقه ذلة ناطقة ويحوطه انكسار يروع. . . إنه رجل مشتعل الرأس شيباً وعلى صفحته خطوط تتكلم بما يؤوده من أوقار الدهر وبما يظلم عليه من شعاب الحياة. كل ما بين ذراعيه عدد من الكتب الرخيصة التي
لا تروج إلا عند العوام وأشباههم وليس ثمنها يبالغ مهما بلغ عشرين قرشاً. هذا البائع المسكين يهيج موضع الإشفاق والحب والرحمة في مجاهد. ما أشبهه بإبراهيم عثمان في جملة سمته، ولكن هذا البائع بادي البؤس، وإبراهيم وهو ابن الأسرة الغنية يتفيأ ظلال النعمة. . . ولكن هذا البائع مكتئب وكأن الدموع في عينيه تضطرب، والعهد والظن في إبراهيم أنه مملوء الوجه بنضارة الحياة، منفرج الثغر دائماً عن بسمة لا تغيض. . . ولكن هذا البائع يزحف إلى الستين، وإبراهيم وهو في سن مجاهد لما يقتحم الأربعين
إن قلب مجاهد لينازعه إلى إبراهيم صديق الطفولة والصبا. يا رب يوم أمضياه في مرح لا تشوبه شائبة، ويا رب أقاصيص تبادلاها على صفاء ومحبة!
ليت مجاهداً يرى إبراهيم ليحيى وإياه ذكريات صباهما السعيد. ليته يراه فلقد يجد فيه متنفساً لصدره الضيق وروحاً لقلبه المحرور كما كان يجد فيه عوناً على مشاكله الصغيرة أيام الحداثة. . . بل ليته لا يراه مد العمر حتى لا يزداد قلبه احتراقاً حين يرى نفسه خلف الزحام وتربه في مقدمة الموكب. . .
يا ويلتا! أشرب أحد من لداته كأس البؤس مريرة كما شرب؟ لقد حادت عن قصدها أحلامه وصدعه وحده ريب الزمان!
ودنا البائع من مكان مجاهد يتخطى أمتعة المسافرين في عناء، ويرفع من نداءاته كأنما يسترحم بها وبنظرات عينيه سفاراً سيتركونه في جزيرة مهجورة. . . دنا من مجاهد، وما التقت عينيه بعينيه حتى هرع إليه: مجاهد؟ مجاهد أفندي. . . أإنك لأنت مجاهد!!
- نعم، هو أنا؛ وأنت؟ أتكون إبراهيم عثمان؟
وتعانق الصديقان القديمان. . . ولكن صفير القطار لم يمهلهما حتى يعرف كل منهما شيئاً عما كان في حياة صاحبه. . .
وانطلق القطار بمجاهد. . . هبط إبراهيم. . .
(المنصورة)
لبيب السعيد
العدد 465 - بتاريخ: 01 - 06 - 1942
صداقات الأدباء
للأستاذ عباس محمود العقاد
لو تكلم القدر لأسمعنا العجب من ظلم الناس، وهم يحسبون أنهم المظلومون لأنهم يطلبون ولا يجابون، ولا يسألون أنفسهم مرة لماذا يحال بينهم وبين ما يطلبون!
فربما طلبوا ما لا يكون، وربما طلبوا شيئاً وهم يريدون غيره بل يريدون نقيضه، وربما طلبوا الشيء وتوسلوا إليه بغير وسيلته، ثم يعرفون خطأهم فلا يطلبونه بعد ذلك

بوسيلته المثلى
والأستاذ توفيق الحكيم أراد الصفاء بين جميع الأدباء؛ فهل أراد شيئاً يكون في هذه الدنيا؟ وهل أراد حقاً؟ وهل توسل إليه بالوسيلة المثلى؟
إن ثلاث (لاءات) مفخمات غير أصدق جواب على هذه الأسئلة الثلاث
فالصفاء بين جميع الأدباء معناه الصفاء بين جميع الناس، وليس هذا بميسور ولا هو بلازم للأدب ولا للأدباء
فلماذا تصفو العلاقات بين جميع الأدباء وهي لا تصفو بين جميع الآدميين؟ إن الصفاء قد يتحقق بين طبيب ومهندس ولا يتحقق بين مهندسين أو طبيبين. وقد يتاح لرهط من الأدباء كما يتاح لرهط من أبناء الصناعات المختلفة، ولكنه لن يتاح لجميع الأدباء في وقت واحد، ولن يتاح لجميع الناس من صناعات شتى ولا صناعات متفقة. وليس تخصيص الأدباء هنا بالمطلب المفهوم إلا إذا عممنا الطلبة للأدباء وغير الأدباء، ورفعنا الكدر من جميع الأحياء. وهذا ما ليس بكائن، ولا نراه مما يكون
فالأستاذ توفيق الحكيم هنا يطلب شيئاً يجاب
ولكننا نعود فنسأل: هل طلبه حقاً؟ وهل اجتهد في تحقيقه فتوسل إليه بوسيلته المثلى؟
إن الذي يطلب الصفاء لا يبحث عن أسباب الكدر بملقاط ليخلقها خلقاً بين رجلين على أحسن ما يكون من الصفاء؛ بل هو يمحو منها ما وجد إن كان له أثر محسوس، ولا يوجد منها ما ليس له وجود ولم يحسه أحد ولا توهمه، ولا وقع في ظن من الظنون
فماذا صنع الأستاذ توفيق الحكيم؟
حمل ملقاطه ووضع مجهره على أنفه وراح ينبش ما بين السطور وأطال النبش بينهما ليصيح بعد ذلك: وجدتها! وجدتها!. . . هنا سبب من أسباب الكدر كامن بين السطور لعله لا يظهر على وجه الكلام ولكنه مستور هنالك لمن يبحث عنه ويجري وراءه، وهو لهجة تعالٍ في الشكر، أو لهجة يخيل إلى من شاء التخيل أنها تشف عن التعالي ولا تبرئ الشكر من الجفاء
ثم يصيح برجلين يفهمان ما يقولان وما يقال لهما: أرأيتما؟ أليس خليقاً بكما ألا تصفوا؟ أيليق بكما أن تصفوا وبينكما هذا الذي أراه مانعاً للصفاء!
ذلك ما صنعه الأستاذ توفيق الحكيم
فهل في وصفه مبالغة؟ وهل صورناه بغير صورته القريبة التي تعرض نفسها لكل من ينظر إليها؟
أهدى إلي الدكتور طه حسين قصته (دعاء الكروان) فجعلت هذا الإهداء موضوع مقال من أعماق النفس في معنى الكروان ودعاء الكروان وذكريات الكروان، وقرأه كثيرون من الأدباء فحدثوني عنه حديث رضى وسرور، وفي مقدمتهم الدكتور طه مهدي دعاء الكروان
أما الأستاذ توفيق الحكيم فماذا صنع؟
لم يرضه ما أرضى الدكتور طه ولا ما أرضى الأدباء ولا ما أرضى كثرة القراء، وراح يتحدث ويكتب ليقول: هنا صفاء. . . فكيف بالله يليق هذا الصفاء؟
لو كان الأستاذ توفيق الحكيم يطلب الصفاء ويتوسل إليه بوسيلته المثلى لكانت له ندحه مما صنع ولو لم أكتب ذلك المقال عن دعاء الكروان.
نعم كان في وسعه أن يقول بينه وبين نفسه: لعل واجب الشكر قد أُدي في رسالة أو في مقابلة، أو سيؤدَّى في سانحة أدبية يأتي أوانها في حينها، أو لعلي أعرف الحقيقة إذا عنيت بالسؤال عنها عند أهلها.
هذا ما كان في وسع طالب الصفاء أن يصنعه ولو لم أكتب مقالي في (دعاء الكروان) ولكن الأستاذ الحكيم لم يصنعه، ولم يزل يحمل ملقاطه ويضع مجهره على أنفه، ليخلق الكدر من شيء يبحث عنه بين السطور، ولا يراه على ظاهر السطور
أهذا هو طلب الصفاء والسعي إليه؟
فماذا يكون السعي إلى خلق الكدر والإشفاق من دوام الصفاء؟
كانت المناقشة بين الأستاذين زكي مبارك وتوفيق الحكيم قائمة يوم لقيت الأستاذ توفيقاً في إحدى المكتبات وفيها صديقنا الأستاذ على أدهم. فجرى ذكر تلك المناقشة وصارحت الحكيم فيما أراه فقلت له: إنك لم تبحث عن أسباب الإنصاف بعض بحثك

عن أسباب الجفاء؛ لأنني لا أعرف ولا أذكر أنني قصرت في حق زميل إبان اشتغالي بالصحافة وتولّي فيها صفحةً للأدب ودراسة المصنفات. فكل أديب أرسل إليَّ كتاباً في هذه الأثناء فقد نوهت به وكتبت عنه، ولكنني أنا أرسلت كتباً إلى زملاء يعرضون للمصنفات في المجلات فلم يذكروها ولم يشيروا إلى صدورها. فلماذا نسيت هذا وحاسبتني على ما تقول إنه شكر لم يبلغ ما تتخيله من الرقة والنعومة؟ لماذا تحاسب من يكتب ولا تحاسب من يهمل؟ ما الذي يعفي أولئك الزملاء من عرفان حقي، ويوجب عليّ أنا أن أبلغ الغاية التي يتخيلها كل متخيل من عرفان الحقوق؟

وتكلم الأستاذ الحكيم عن أولئك الزملاء فقلت له: إنني لا أفردهم بالملاحظة ولا أستثنيك أنت منها. فقد كتبت عنك مرتين أو ثلاثاً فكم كتبت عني؟ وما الذي يعفيك من هذا الواجب الذي لا أذكرك به إلا لمناقشة رأيك لا لأنني أطلبه أو أحتاج إليه؟

ثم بينت له موقفي من تقريظات العظماء الذين يثنون على كتبي فأشكر لهم ثناءهم ولا أنشره فيما أطبعه من كتبي، وإن كان في نشره فخر أعتز به كما يعتز به سائر المؤلفين

بينت له ذلك لكي لا يقع في روعه أنني أطالبه بواجب الكتابة أو أتقاضاه حقاً من الحقوق. فلو أردت ذلك لعمدت من قبل في عشرات السنين الماضية إلى نشر الكتابات التي وصلت إلى يدي وهي مما يسمح بنشره في جميع البلدان

ثم افترقنا ولم أسمع من الأستاذ الحكيم في تلك المقابلة ما يذهب بدهشتي من سعيه إلى الصفاء بذلك الأسلوب، ومن محاسبته إياي على الوهم بين السطور وهو يرى أناساً يسهون كل السهو عن حق الأدب وحق الزمالة، فيغضي عن الحقيقة الماثلة، وينسى السطور وما بين السطور

وفارقني تلك الليلة ولا أدري ما في نفسه، ولعله كما علمت بعد أيام قد تبين صواباً فيما قلت أو في بعض ما قلت فعدل إليه وكتب مقاله المشكور عن كتابي (عبقرية محمد) فقدمه بكلمات يقول فيها: (وقد سمحت لنفسي بالسبق إلى أداء هذه التحية، لأني فطنت إلى أني المتخلف دون غيري عن أداء الواجبات، وليس لي من عذر إلا انصرافي عن باب النقد منذ أول الأمر). وهو موقف بار أحمده له كل الحمد وأعتقد أنه قد حُسب له عند القراء كما حسب له عندي في عداد الخلائق المرضية والفضائل الخلقية. ثم وجه إليّ بعد أيام أخرى خطاباً يقول فيه:

إنك للمرة الأولى تخاطبني بهذه اللهجة التي كنت تخاطب بها الرافعي رحمه الله.) أبهذه السرعة تضع الناس في صف أعدائك؟ لعلك لفرط ما قاسيت من شر الناس، ولقلة ما وجدت من خيرهم، أصبحت مثل (هملت) تستل سيفك لتضرب من خلف (الأستار دون تبين الوجوه. فطعنت صديقاً وأنت لا تدري

ولا أظن أنني أشبه (هملت) في كثير من خصاله وفعاله؛ ولكني إذا سئلت لم صنعت صنيع (هملت)؟ أفلا يجوز لي أن أسأل: ولم الوقوف وراء الأستار، وأولى من ذلك الخروج إلى وضح النهار؟ أليس هنالك بعض اللوم على من ينصت خلف الستر ليسمع ما لا يُسمع، أو ليقول ما لا يقال؟!

وبعد، فما العبرة من كل أولئك في تاريخ الأدب ونقده وسلوك الأدباء مشهورين كانوا أو غير مشهورين؟

العبرة من أولئك (أولاً) أن الأستاذ الحكيم يقول بعد الإشارة إلى ثناء الدكتور طه عليه منذّ سنوات: (. . . لم نسمع في غير مصر أن الناقد إذا أثنى على كتاب حسب أنه تفضل على مؤلفه ورفع شأنه من الحضيض، وأن على المؤلف واجباً مقدساً هو أن يشتري من فوره سبحة كيلا ينسى أن يسبح بحمد الناقد أناء الليل وأطراف النهار. . .)

كذلك يقول الأستاذ الحكيم اليوم. فليذكر مقاله الأدباء الناشئون الذين يؤمنون بكفاءة تشبه كفاءته الفنية، ليذكروا أنهم يطلبون شيئاً ينكرونه جاهدين بعد بضع سنوات: يطلبون التشجيع ثم ينكرون التشجيع، وكان أحرى بهم ألا يطلبوه وألا ينكروه، فما سمعنا في غير مصر أن الأدباء المشهورين مسئولون عن شهرة كل أديب ينشأ بعدهم ولا يعرف لهم حقهم، وإلا كانوا هم الملومين المقصرين

وعبرة أخرى أن الأستاذ الحكيم يذكر التعالي في موقف الكاتب وينسى أنه اختار لأدبه

عنوان (البرج العاجي) وهو عنوان الأدب المصطلح على وصفه بالتعالي بين نقاد الغرب
وشعرائه. فليترك برجه العاجي إذن أو فليتركنا نحن نتعالى ونتواضع كما نشاء
وعبرة ثالثة أن الأستاذ يحن إلى صداقات في الأدب المصري كالصداقات التي أثرت عن كبار الأدباء الغربيين
وأن أناساً لتأخذهم السمعة البعيدة في زمانها أو البعيدة في مكانها فليلحقونها بعالم الخيال وعالم المثال ويسهون عن الواقع الذي لا يقبل المحال
وأعيذ الأستاذ أن يكون من هؤلاء
فتاريخ الآداب الأوربية بين يديه يستطيع أن يرجع في كل ساعة إليه، ويستطيع أن يعلم بعد المراجعة أن في الأدب العربي حديثه وقديمه صداقات تضارع تلك الصداقات مع حسبان الفارق في البيئة والزمن والمناسبة
فهل يعني الأستاذ صداقة شعراء البحيرة في أنجلترا؟ هل يعني صداقة شلي وبيرون هناك؟ هل يعني صداقة جيتي وشلر بين شعراء الألمان؟ هل يعني صداقة تولستوي وتورجنيف وديستفسكي بين عظماء الأدب العالميين من الروسيين؟
إن كان يعني هؤلاء وأمثال هؤلاء فهو واجدٌ في الأدب العربي الحديث صداقات من طراز تلك الصداقات، وواجدٌ من هناتهم في الغرب نظائر لما يشكوه من هنات الزملاء المصريين والشرقيين
والطبيعة البشرية واحدة في كل مكان. . . تلك أصدق حكمة عن الناس قالها إنسان.
عباس محمود العقاد
الخطاب الذي احترق بسعير الأنفاس
(للكاتب المجهول)
هو خطاب تلقيته من (فلانة) في سنة 1919
فما صبرُ القلب على غرام مشبوب يدوم ثلاثة وعشرين عاماً هي كألف سنة مما تعدّون؟ ما صبر القلب على (فلانة) وفي مثلها قال المجنون:
وشاب بنو ليلى وشبّ بنو ابنها ... وأعلاق ليلى باقياتٌ كما هيا
كان الدهر سمح في غفلة من غفلاته بأن ألقاها بعد طول الفراق، ثم استيقظ الدهر فعرفت ما لم أكن أعرف، عرفت أني لن ألقاها بعد ذلك ولو انتظرت إلى أن تشيب ناصية الزمان
فمن يبيعني مثقالاً من الصبر الجميل عساني أتناسى أحزاني وأشجاني؟
وهل يباع الصبر في هذه البلاد؟
وهل ترك الاتجار فيها بما تحدث عنه القرآن من عدس وبصل وفول مجالاً للاتجار بالصبر الجميل؟
خذوا أملاكي وخذوا حياتي في سبيل لحظة واحدة أقضيها في حضرة (فلانة) لأجدد التوبة من ذنوبي، ولأجدد العهد، إن كانت ترتاب فيما بيني وبينها من عهد
أكان ذلك اليوم آخر أيامي؟
أفي الحق أني لن ألقاها بعد الوشاية اللئيمة التي نفرتْها مني؟
دنيا من الأحلام تقوّضت في لحظة أو بعض لحظة بفضل كلمة نقلها أو اختلقها نمامٌ
أثيم، فما ذنبي ولم أقل في (فلانة) غير الصدق؟
ما ذنبي ولم أقل إلا أنها كانت على تطاول الأيام أحب إلى قلبي من سائر عرائس الشعر والخيال؟
ما ذنبي ولم أوجه إليها في حياتي كلمة واحدة تجرح الذوق؟
إنما الذنب ذنب من ائتمنته فخان، وكنت أحسبه أهلاً لتلقي سرائر الروح الزين، وهل كنت أول عاشق خدعه الواشون والرقباء؟
الله يعلم كيف انخدعت، فقد حسبت أن طهارة القلب تُعدى، وظننتُ لجهلي أن في الدنيا ناساً يتذوقون أخبار الحب العفيف، ولم أكن أدري أني أكتب لنفسي صحيفة الاتهام وأنا
بريء، وكم في السجن من أبرياء!
لن أرى ذلك الوجه الأصبح بعد اليوم لأن صاحبته لا تريد أن تراني
وكيف أراها وهي تصدر أمرها المطاع بأن أرد إليها الخطاب الوحيد الذي طلّت به قلبي

سنة 1919؟
ومن يصدق يا فلانة أننا كنا رفيقين في ذلك التاريخ؟
هو خطاب أحرقته أنفاس الوجد ولم يبق منه غير أطياف، فما حرصك عليه وهو خيال في خيال؟
سأردّ ذلك الخطاب بلا تسويف
لا، لا، لن أرد ذلك الخطاب ولو قُطِّعت أوصالي، فهو الوثيقة الباقية على أنك كنت رفيقة صباي، يا مثال الشرف والطهر والعفاف
سيوضع ذلك الخطاب في كفني يوم أموت، فانبشي قبري وخذيه إن عرفت طعم الحياة بعد موتي، يا قريبة العذول الذي أفسد ما بينك وبيني، وهي أول مرة عرفت فيها عن تجربة أن الدخان القريب يُعمي العيون
ولو كنت فاجراً لعرفت ذنبي واسترحت
وهل يكون الفجور أشنع مما وقعت فيه؟
أنا أسلمت زمام أسراري لمخلوق توهمته يدرك شرف الحب، فكان منه ما كان، فمن يصلح ما بيننا وقد ضاق في وجهي صدرك الرحب، ونقلك الغضب إلى الوقوف في صف الزمان
أنا حزين، حزين، حزين
وما أحزن على نفسي، فقد شبعت من الزمان وشبع مني، ولم يبق لي ما أخاف عليه بعد أن عانيت في دهري ما عانيت، وإنما أحزن لارتيابك في أمانتي، وعنك تلقيت دروس الأمانة والصدق والوفاء
فإن فقدت عطفك فقداً أبدياً فقد خسرت بجانبه مودة ذلك العذول، وكنت أحسبه أشرف الناس، وهو لك قريب، وظلم ذوى القربى أشد من وقع الجراز المصقول كما قال بعض القدماء
الوداع، يا رفيقة صباي، وداع الزهر الظامئ لقطرات الغيث. . . أما الخطاب فقد أحرقته
أنفاسي، وأما العذول فسيحل عليه غضب الله ولعنة الحب، ولن يلقى في دهره غير الشتات، وسيكون هو وأهله ومن يحيط به طعاماً لنيران الوشايات والأباطيل
الوداع، يا رفيقة صباي، وداع الطفل لأمه الرءوم، وداع الموجة المتكسرة على شاطئ الأمين، وداع الوليد للحياة وقد أعجله الموت في يوم الميلاد!!
لقيتك بعد يأس، يا رفيقة صباي، فكاد يقتلني الجنون. . .
فما الذي سيجني الواشي وقد أفسد ما بينك وبيني بكلمة أقصر من ومضة البرق وأطول من كيد الزمان؟
ومن أعجب العجب أن يكون ذلك الواشي أنضر من طلعة الصباح في عين الشريد الذي طال شقاؤه بظلمات الليل
فما معنى ذلك؟
هو الحية الملساء التي تسربت إلى رياض الفردوس لفتنة أبينا (آدم) وأمنا (حواء)
هو السم المدُوف في طيات (البرشام) الملفوف
هو العذول الذي استعاذ من شره أقطاب الصبابة والوجد والحنين
لن أراك، يا رفيقة صباي، بعد اليوم، لأن قلبك أرق من أن يحتمل فظاظة الأراجيف، ولأن لك زوجاً يؤذيه أن يكون لزوجته في العشق تاريخ
الوداع، وداع القلب الخائف لأطّياف الأمان
الوداع، وداع الجسد للروح
الوداع، وداع الشاعر لديوان من أشعار الوجدان أكلته النار في يومٍ عاصف
الوداع، وداع المحب للمحبوب على غير أمل في اللقاء
الوداع، وداع المحكوم عليه بفراق الأهل إلى أن يموت في غيابات السجون
لن نلتقي بعد اليوم، يا رفيقة صباي، إلا في الفردوس
وأين أنا من الفردوس؟
وهل لمن باح بأسرار الحب أملٌ في الجنة والرضوان؟
زعم الإنسان أنه أعظم من سائر الحيوان بفضل النطق، وبالنطق هتكت أسرار الحب، فضاعت مني رفيقة صباي، فمتى أعرف فضل الصمت؟

الوداع، الوداع، وداع الكاتب لبياض الورق وسواد المداد
الوداع، الوداع، وداع الشاعر لعباب النيل في ليلة قمراء من ليالي الصيف، وإلى غير ميعاد. . .
(الكاتب المجهول)
الحديث ذو شجون
للدكتور زكي مبارك
أغرب ما قرأت - نهاية فلان - بين الكفر والإيمان
أغرب ما قرأت
في بعض الأحيان نقرأ أشياء تلفت النظر لسبب أو أسباب، ثم نراها أهون وأصغر من أن يجري القلم فيما تنطوي عليه من غرض بعيد أو قريب
وآفة الأدب العربي لهذا العهد أنه لا يلتفت إلى الجزئيات، بحجة أنها في الغالب من توافه الشؤون، مع أن الحوادث الصغيرة قد تضمر في طياتها متاعب خطيرة، ومع أن العقل يوجب أن ندرس جميع الأشياء دراسة نقد وتشريح
وأنا اليوم أسوق خبراً تافهاً جداً، وإن كنت أعتقد أنه أغرب ما قرأت، فما ذلك الخبر التافه الغريب؟
للشركات الأجنبية في مصر أسلوب ظريف في اختيار اللغة التي تعامل بها الجماهير، فهي تكتب باللغة العربية في حال، وبإحدى اللغات الأوربية في أحوال، فإن كان ما تكتبه نوعاً من الإعلان جعلته باللغة العربية ليفهمه الجمهور بلا عناء، وإن كان ما تكتبه متصلاً بالعقود جعلته بلغةٍ أعجمية، لتخفي دقائقه على أكثر الناس!
هذا هو الخبر، فهل ترونه من التوافه؟ وهل ترون أنه على تفاهته يستحق الالتفات؟
نهاية فلان
هو كاتبٌ فصيح يعرفه قراء اللغة العربية من أعوام طوال، ثم تحوّل فجأةً إلى كاتبٍ عاميّ اللغة والمذهب، فما سببُ هذا التحول المزعج؟
كان في بداية حياته الأدبية يرتاب في قدرته على الإنشاء الفصيح، فكان يبحث عمن يقومون عباراته، ويرفعون عنها آصار العُجمة والتهافت، وبهذه الخطة كانت ثقته بنفسه تضعُف من يوم إلى يوم، ثم رأى أن يتحرر من سيطرة المراجعين والمصححين فأعلن أن اللغة العامية أحسن اللغات وأنه سيجعلها لغته المختارة إلى أن يقضي الله في أمره ما هو قاض.
كان فلان ولن يزال من أهل الرأي وأصحاب الخيال، وكذب من ادعوا أنهم قولوه ما لم يقُل وأنهم مصدر الوحي لأدبه الجميل
فهل نرجو أن ينظر فلان من هذه الكلمة الخالصة لوجه الأدب والحق، فيكتب اللغة الفصيحة على سجيته وفي حدود ما يطيق ليصبح بعد قليل وهو من أساطين البيان؟
فلان شخصية كريمة الجوهر، وضياعُها على الأدب الفصيح ضربٌ من الخُسران، فهل يرفق بنفسه فيروضها رياضةً جديدة على أساليب الفصحاء بلا تكلف ولا افتعال؟
القليل من وحي الطبع أجدى وأنفع من الكثير المصنوع، فارجع إلى طبعك يا فلان، وانتفع بما فيه من ثروة أصيلة، قبل أن يصعُب انتشالك من هُوّة مذهبك الجديد، صانك الله وحَماك!
بين الكفر والإيمان
قِيل وقيل: إن الأدب سيجوز فيه ما يجوز في جميع الصناعات، فيحترفه من يشاء حين يشاء، ولو كان صغير الرأس أو نحيل الوجدان
وأقول: إن الأدب شريعة ربانية لا يصلُح لها غير المصطفَين من أرباب القلوب، فمن العسير أن يضاف إلى أهل الأدب من لا يخطُ حرفاً إلا وهو مَسُوقٌ بإرادة خارجية، على نحو ما يصنع الفارس الذي رسمتْه يد البهلوان في أحد الأشرطة السينمائية
الأدب إيمانٌ وثيق لا يعرف الأشخاص ولا الأزمان ولا الظروف، فليس بأديب من يفرح لأن صدراً يحتضنه بلؤم أو بشوق، ليجعل من أنامله أداةً يلتقط بها الأشواك، وليس بأديب من تخدعه الخوادع الوقتية، فيتوهم أن الخلود نعمةٌ يجود بها أهل الفناء
الأدب فوق ما يتوهم الأصاغر من طلاب المنح الذواهب، الأدب قوةٌ ذاتية يتوحّد بها صاحبها توحد الليث، فليس منا من يرى الحياة أو الجاه في التشرف بخدمة هذا المخلوق أو ذاك، وليس منا من يعقّ إخوانه ليظفر بالزاد المأدوم بالزور والبهتان. . .

الأدب الحق منحة ربانية يجود بها الله على أرباب القلوب
زكي مبارك
رسالة الطالب
(مهداة إلى طلاب العرب في جميع الأقطار)
للأستاذ سعيد الأفغاني
سلمني طالب في طريقي كتاباً باسمي ففضضته فإذا هم يطلبون مني أن أجيب كتابة) على هذا السؤال: ما هي السبل التي ترونها ناجعة فيتجه إليها الطلاب ليكونوا الجيل الجديد: عماد البلاد الحقيقي؟ وقد آثرت نشره هنا في مجلة العرب تعميما للفائدة، وسلكت في الإجابة طريق التبسيط والمثل، متجافياً عن القواعد والنظريات، وكل ما يحول دون فهم الطلاب لها الفهم الجيد)
أراد أحد كبار المحدثين أن يختصر الطريق على طالب يتخرّج عليه في الحديث، فحفَّظه مدة عشر سنين أربعمائة ألف حديث بأسانيدها. فلما أتقن الطالب الحفظ وودع أستاذه قبل سفره إلى أهله، لم ينس هذا الأستاذ أن يخبره: أن هذه الأحاديث أربعمائة الألف كلها موضوعة لا تصح. فأسقط في يد الطالب وقال: (أضعتَ يا سيدي عمري في حفظ ما لا يصح. أساغ في ذمتك إهدار عشر سنين هن أنضر العمر؟).
فابتسم الأستاذ، وهدَّأ من حزن تلميذه قائلاً: (لم يضع شيء، الآن يا بني أبصرت الطريق، وصرت آمناً عليك كل تدليس، مطمئناً إلى دخولك غمار هذا المجتمع الزاخر بالوضع والكذب والتلفيق، ولن تعجزك بعد هذا معرفة الصحيح)
أعجبتني طريقة هذا المحدث، ووضحت لي حكمة الأصوليين القائلين: (درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة). والخير في أن نحكم الوسائل السلبية لكل أمر قبل العناية بوسائله الإيجابية، وأن نعني بدفع الضار أضعاف ما نعني بجلب النافع. فهل من حرج علي إذاً، إن أنا عدلت عن بيان ما يجب لبناء الجيل الجديد إلى بيان أسباب إخفاقنا نحن أبناء الجيل الحاضر فلعل أول النجاح لأبناء المستقبل أن يتوُّقوا ما ارتطم فيه مَن قبلهم
تسألون - أيها الطلاب - عن السبل الناجعة في تكوين الجيل الجديد؛ ألا فاعلموا أنها سبيل واحدة فقط، خطوتها الأولى أن تتجنبوا ما تورطنا فيه نحن أبناء الجيل الحاضر، من عبودية لكل تقليد ضار في أخلاقنا وعاداتنا ونظمنا وتعليمنا. ولقد كان من أعظم الأسباب في إخفاقنا أمور ثلاثة: خلق منحل تستره دعاوٍ عريضة من الكمال والفضيلة والوطنية؛
وعلم مزيف كاذب خير منه الجهل الصريح؛ وفقر في وسائل كسب العيش من طرقه الشريفة، هو أحد المظاهر في فقدان الرجولة. لم يثبت لنا - ولا حكم للنادر - أثر نافع في باب من أبواب الجد، ولم نستطع أن نحرر مما غرسوا في أفكارنا فأكثرنا مقلدون ببغاوات.
فإن رأيتمونا بعد هذا - والعالم من حولنا يجدّ - أحلاس الملاهي والمقامر والحانات، مبددين فيها دم الشعب وثروته، نصف نهارنا ومعظم ليلنا، حاملين لأنظاركم أخنث الهيئات و (أميع الموضات) من تلميع وجوهنا وأحذيتنا وتصفيف شعورنا حتى إطالة أظافرنا. . . إن رأيتمونا كذلك فاغفروا لنا هذه الإضاعة وهذا الانتحار، فلعلنا ضحايا خطط خفية محكمة
لا تمقتونا على إهانة الخلق وتبديد الثروة وقتل الوقت ووأد الكرامة والرجولة، فما ينتظرنا من مقت الله والوطن أكبر من مقتكم.
لا تقلدونا، فإنكم مخلوقون لزمان غير زماننا، لزمان صعب كله جد، لا مكان فيه لغير المجدين العاملين. . . وما كان زماننا لعباً، ولكنا طبعنا على غرار واحد: أن نكون أطفالاً كباراً عالة في كل شيء، لا نهتف إلا بما يوحي إلينا، معطلين عقولنا وضمائرنا، أبواق دعايات نموهها بالعلم أحياناً، وبالنهوض بالوطن والدين أحياناً، ثم نروغ إلى حيث نؤدي الحساب ونأخذ الأجر ونتلقى التعليمات لنعيد تمثيل الدور كرة أخرى
منا الذين ورثوا الثروات الطائلة، ولم يكن آباؤهم قد أخذوهم بتثقيف ولا تهذيب اعتماداً على غناهم، فلما آلت إليهم الثروة كانوا على جهل تام بطرق تنميتها وحفظها فوكلوا أمر تدبيرها إلى مرتزقين خانوهم، وانصرفوا إلى حاناتهم ومقامرهم ومحال رذائلهم فما زالوا بها حتى خرجوا عن آخر قرش منها؛ وألحت الرذيلة، ولم يكن بدٌ من كسبٍ

ما بعد أن ركبتهم الديون، وكان هناك من يحتاج إلى أسماء أسرهم الفخمة فباعوه ضمائرهم ومصالح وطنهم وكانوا شر قدوة لمن دونهم

ومنا الذين آلت إليهم الضياع الواسعة والقرى الغنية، فأنفوا المكوث فيها ومباشرة الأعمال الزراعية، والزراعة لا تدر خيرها إلا على من يمنحها جهوده كلها، وهؤلاء استكبروا أن يكونوا (فلاحين) كآبائهم وأرادوا أن يعيشوا (بكوات) فما زالت زراعتهم تخسر حتى رهنوا القرى والضياع في مصارف أجنبية، تخلق بيدها الرهن، ثم صاروا إلى مآل أرباب الثروات

ومنا الذين أرسلتهم أممهم ليأتوها بعلم الغرب وثقافة الغرب ومحاسن الغرب؛ وأنفقت عليهم من أموال فقرائها ومساكينها، ولم يمنعها فقرها من السخاء بالإنفاق، رجاء أن يعوضوا عليها بعلمهم وخبرتهم أضعاف ما خسرت. . . ثم رجعوا. . . فإذا بعضهم عمى عن ذلك كله، وأتانا بمفاسد الغرب وانحلال الغرب وأزياء الغرب وخموره ورقصه. . . وأنا أقسم غير متحرج، أنك لو طفت الغرب كله لما رأيت من يعكف على الملاهي والقمار والخمور عشر الوقت الذي يعكفونه. . . وهؤلاء - كما تعلم - أرباب أعمال لو قاموا بواجباتهم لما فرغ أحدهم لغير طعامه يلتهمه التهاماً، ونومه يقطعه تقطيعاً

ومنا الذين أخفقوا في أن يعرف لهم أثرٌ ما في علم أو أدب، وأصر عليهم من منحهم الوظائف والشهادات أن يذكروا بشيء من الأشياء، فراموا شهرة من أخصر طريق. وهل أخصر من أن ينكر امرؤ الوحي حتى يسمى بيننا مفكراً، ولو جهل أين ولد الرسول، وأين تقع مكة من الشام؛ أو أن ينتقص من النبي والخلفاء فيكون مؤرخاً، ولو اعتقد أن فاتح بغداد هو عمر ابن الخطاب؛ أو يشتم الدين فيكون حر الأفكار. . . فيشتغل بعض الطلبة بالرد عليه في الصحف، فيشغل الناس بأمره ولو ساعة من نهار

ومنا الذين إذا كانوا في وظيفة لم يفهموا ما يفهمه كل موظف في العالم المتمدن من أن الموظف أجير لأرباب المعاملات، إذا قصر في الواجب عليه كان خائناً كالأجير الذي يسرق الوقت المأجور عليه. . . فهم لا يفهمون الوظيفة إلا كرسياً ينتفخون عليه مصعرين خدودهم، بأيديهم لفائفهم يدخنون ويتماجنون، وأرباب المصالح وقوف يتألمون!

ومنا المتبطلون المأجورون لكل دعاية أجنبية: يروجون لها ويؤلفون لها الجمعيات والأحزاب. . . فمنا بحمد الله دعاة الفاشية والشيوعية والديمقراطية والدكتاتورية والإباحية، وما شئت من مذاهب ونحل ودول. . . كل ذلك يجد من يخدمه ويتعصب له وينافح عنه؛ فإذا رحت تبحث عمن يخدم قضية بلاده خالصة، رجعت خجلاً من ضآلة عددهم في هذا الخضم الزاخر!

ومنا الذين خرجوا من حيث يدرسون، تحلقوا حلقاً في حانات موبوءة، وخيمة الهواء، منتنة الريح، إلى جانب مدارسهم، على مرأى من طلبتهم، يلقنونهم بذلك أقبح المثل وأحط الأخلاق وأبذأ الوقاحات. . . حتى إذا كان للمعارف يوماً من الأيام وزير قوي الخلق غيور ذو نخوة، وأذاع على موظفيه بلاغاً يحظر فيه رجال التعليم ارتياد مباءات السقوط، أمضى هؤلاء البلاغ، وهرعوا من فورهم سراعاً إلى حاناتهم تلك، فشربوا نخب البلاغ معربدين معطعطين، وأصابت فيهم الوقاحة المتسفلة أحط دركاتها أجل. . . أيها الأعزاء. . . منا كل ذلك، ومنا شر من ذلك مما لا أستطيع التصريح به. . . فإن كنتم لا تتوقعون من هذه الجراثيم الطفيلية خيراً، لا لأنفسهم ولا لبلادهم ولا لأمتهم، فهذا هو الذي وقع، وإن قدّرتم أنهم يأتون على أمتن القواعد من أساسها، فهذا ما أريد منهم، وهذا ما عصف ببنائنا من قواعده. وإن عزوتم ما في البلاد من كرامة وفضيلة إلى غمار الشعب وطلبته المعصومين وبعض خاصته المهذبين فأنتم على صواب

وإياكم أن تظنوا أن هذه السموم التي حملناها - شاعرين أو غافلين - هي محصول وطنكم، أو أن بلدكم مما ينبت هذه الرذائل، وفي فطنتكم غنىً عن التصريح، وصدق الله العظيم

وبعد، فاحسبني عددت - بأوجز لفظ - بعض الأسباب في إخفاق جيلنا، مما تسمح به

الظروف، وعسى أن ينفّس الله الخناق فأعود ببعض التفصيل لما أجملت؛ فإن وقاكم الله - أيها الطلاب - هذه الشرور، وحمى جيلكم من هذه الآفات وتوابعها، كونتم بأيسر سبيل عماد البلاد الحقيقي قوياً سليماً

وإن كان لا بد من نصيحة إيجابية بعد ما تقدم، فهي في أن تأخذوا من مدينة الغرب أسباب القوة المادية كلها: في العلم والتنظيم والصناعات. . . أما غذاء أرواحكم وقانون أخلاقكم، فانشدوهما في تراثكم المجيد. . . وحذار حذار أن تخدعوا عما مدت لصرفكم عنه الأحابيل، وتنوعت المكائد، ولطفت الحيل، ودقت الأساليب، وخفيت الحظوات. . . ألا وهو: دينكم وثقافتكم؛ عُضُّوا عليها بالنواجذ، ففيهما - أيها الناشئون - كل قوتكم وعماد سلامتكم، أفراداً وجماعات. . .

لا تحيدوا عن سماحة القرآن وسمّو الإسلام وتعاليمه قيد شعرة، وكونوا في ذلك رجالاً كل الرجال

وتضلعوا جهد طاقتكم من تاريخكم المجيد ولغتكم الكريمة، ساميين عظيمين كما خلقهما الله،

لا كما ينشرهما أبواق الدس من الجاهلين الأدنياء. . . وإن آنستم من بعض مرشديكم انتقاصاً لأبطالكم، أو تزهيداً في تاريخكم، أو تحقيراً لكريم تقاليدكم، أو تهويناً للغتكم، فانبذوا إليه على سواء، واعلموا أنه مأجور جاهل، فلا تهتموا به، فإنه يزاد أجره، ويعلى مقامه على قدر ما يحدث من فتنة أو ضجة. . . دعوه يمت بدائه، واعكفوا أنتم على دراسة تاريخكم ولغتكم ودينكم في دور الكتب منقبين ممعنين فلكم على ذلك أجر المجاهدين الصابرين

ثم لا تسمحوا لأي كان، مهما عظمت مكانته أو طغت سطوته، أن ينال من هذه الثلاث: كرامتكم ورجولتكم وعروبتكم. . . فإنه لا خير لنا ولا لبلادنا في شاب: لا كريم ولا عربي ولا رجل!!

وكل ما أسأل الله: أن يعزكم ويعز وطنكم بكم، وأن يجعلكم ممن قال فيهم: (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا، وإن الله لمع المحسنين)

(دمشق)

سعيد الأفغاني

في الفلسفة الإسلامية

ابن باجَّه

للأستاذ عمر الدسوقي

(تتمة ما نشر في العدد الماضي)

الفصل الثاني من تدبير المتوحد

تكلم ابن باجَّه في هذا الفصل عن أعمال الإنسان، والفرق بينها وبين أعمال الحيوان. أمّا الأعمال البشرية المحضة الخاصة بالإنسان فهي الصادرة عن الإرادة المطلقة: أي الإرادة المصحوبة بالاختيار والروية والتفكير الحر، لا عن غريزة ثابتة في الإنسان ثبوتها في الحيوان. وقد يشارك الإنسان الحيوان في بعض أفعاله كأن يهرب من مفزع أو يكسر عوداً خدشه، لأنه خدشه فقط، فهذا عمل حيواني، أمّا أن يكسره لئلاّ يخدش غيره أو عن روية توجب كسره فذلك عمل إنساني.

فالعمل الحيواني إذاً هو الذي يصدر عن انفعال نفساني وغريزة ثابتة كالغضب والخوف، أمّا العمل الإنساني فهو الذي يوحيه الفكر سواءٌ تقدم الفكر انفعالٌ نفساني أو مؤثر غريزي أم أتى بعده، وسواء كانت الفكرة يقينية أو مظنونة. ويندر أن تكون أعمال الإنسان حيوانيةً على الإطلاق - لأنها على الأقل يصحبها التفكير في تنفيذها - أمّا الأعمال الإنسانية البحتة فقد توحد، وإذا تعاونت الغريزة والفكر كان النهوض للعقل أقوى.

وأمّا من يفعل الفعل لأجل الرأي والصواب، ولا يلتفت إلى ما يحدث في النفس البهيمية ففعله أولى أن يسمى إلهياً لا إنسانياً

ولهذا وجب على المتوحِّد أن يكون فاضلاً حتى إذا قضت النفس الناطقة بأمرٍ لم تعاند فيه النفس البهيمية، لأنها إذا عاندت وضعت العراقيل والصعاب، وكان حدوث العمل بكرهٍ وعسر. والرجل الذي تتغلب فيه النفس الحيوانية على الناطقة أقل من الحيوان لأن الحيوان يسير على طبيعته وسجيته، أمّا هذا النوع من الرجال الذي يملك الفكر

الإنساني، ويمكنه أن يتقن العمل ويتقاعد عن ذلك فهو أقل من الحيوان؛ لأنه مع ذكائه ووقوفه على الخير والشر تراه يتبع الحيوان، ومثل الذكاء في هذه الحال مثل الغذاء الشهي يعطي لبدن
سقيم.
إن الجماد يتحرك إلى أسفل بالطبيعة، وليس له قصد في حركته، والعمل الحيواني في النفس كالغذاء والتولد والنمو يتم بدون قصد أي يتم بالطبيعة والغريزة. أمّا العمل الإنساني فهو يصد دائماً عن تفكير وإرادة منَّا ولذلك كان في قدرتنا التحكم فيه، وعلى هذا فالغايات والعلل النهائية لا تعين ولا تحدّد إلا بالأعمال الإنسانية التي هي مدار البحث.
الفصل الثالث
بعد أن تكلم على الأعمال الإنسانية التي تحدد الغاية، وأن الغاية التي يجب أن يتوخاها المتوحد هي النفاذ إلى المعقولات أخذ يفرق بين الروح والنفس، وليس للمؤلف رأي خاص، وإنما يردد ما ارتآه الفلاسفة ثم يتطرق إلى العالم الروحاني ويرى ابن باجة أنه أربعة: العقول الفلكية، والعقل الفعّال، والعقل الهيولاني، والجزء المفكر من النفس الإنسانية بما يشتمل عليه من قوى كالغنطاسيا والخيال، والذاكرة والمفكرة. . . الخ.
أما العقول الفلكية فلا علاقة لها بالمادة، وأما العقل الفعال فهو الذي يشكل المادة ويظهرها في صور مختلفة، وأما العقل الهيولاني فهو الذي يشمل الأشياء المادية المعقولة
الفصل الرابع
في غايات أعمال الإنسان، فأعمال تخدم البدن، كالأكل والشرب واللبس، وغايتها التمتع المادي، وإتمام الشكل الجسماني ولا ينبغي إهمالها، وأعمال غايتها خدمة الروح وتشكيلها (الروح بما فيه الجزء الحيواني والمفكر) وتلك الأعمال تختلف باختلاف طبيعة الأشياء التي نقصد إليها نبلاً وخسة: (أ) فمنها ما يلذ للحس الباطني كغرور بعض الناس بارتداء الثياب الجميلة في الظاهر وهم يهملون الملابس الداخلية (ب) ومنها ما يلذ الخيال كأن يتسلح الإنسان في غير أوقات الحرب (ح) ومنها ما يقصد به التسلية والسرور كاجتماع الأحباب والألعاب، والعلاقات الشريفة بالمرأة والترفه والسكن الجميل، واقتناء الأثاث والبلاغة والشعر (د) الأعمال التي غايتها كمال العقل والفكر كأن يدرس رجل علماً لذاته كي يكمل عقله لا ليعود عليه بنفع مادي، أو كأن يقدم على الأعمال الشريفة الكريمة بدون ترقب نتيجة معينة
الفصل الخامس
إن من يقتصر على الأعمال الجسمانية يضع نفسه في صفوف الحيوان، ومن يهمل الوجود الجسماني ألبته يعمل ضد القانون الطبيعي، هذا لا يجوز إلا في حالات استثنائية حيث يكون احتقار الحياة فرضاً على الإنسان كأن يموت في سبيل الدفاع عن الوطن أو الدين، ولا يمكن أن يصل الرجل المادي إلى السعادة
وعلى المتوحد ألا يتناول من الأعمال الجسمانية إلا ما كان وسيلة في مدِّ أجله، وعليه ألا يقدم العمل الجسماني على الروحاني أبداً؛ ثم لا يأخذ من أرقى أنواع الأعمال الروحانية إلا ما كان ضرورياً للمعقول؛ ثم يتعلق في النهاية بالمعقول المطلق؛ لأنه بالعمل الجسماني يكون مخلوقاً إنسانياً، وبالروحاني يكون مخلوقاً أرفع، وبالمعقول يصير معقولاً سامياً إلهياً.
فالفيلسوف إذاً إنسان سام إلهي على شرط أن يختار من كل نوع من الأعمال صفة، وأن يختلط بأهل كل طبقة من الناس لأجل أسمى ما في كل واحد منهم من الصفات، وأن يميز نفسه عن الجميع بأعماله المتناهية في الرفعة والمجد، فإذا ما وصل الإنسان إلى الغرض النهائي، أي عند ما يفقه العقول البسيطة والعقول المفارقة يصير واحداً منها (يظهر أن هذا في الحياة الدنيا وفيه مخالفة للفارابي، ويمكن أن يسمى مخلوقاً إلهياً بحق وجدارة
الفصل السادس والسابع والثامن
على الرغم من أن الفكرة التي يرمي إليها ابن باجه في هذه الفصول غامضة كما صرح بذلك ابن رشد، وعلى الرغم من أن الفصل الثامن والأخير وجد في النسخ ناقصاً فإنا نستطيع أن نوجز ما يريده ابن باجه فيما يأتي:

إن الهيولي لا يمكن أن توجد مجرد عن صورة ما، أما الصورة فقد توجد مجردة عن الهيولي، وإلا لما استطعنا أن نتصور إمكان أي تغير، لأن التغير إنما يكون ممكناً بتعاقب الصور الجوهرية، وهذه الصور من أدناها وهي الصورة الهيولانية إلى أعلاها وهي العقل المفارق - العقل الفعال - تؤلف سلسلة والعقل الإنساني يجتاز في تكامله مراحل تقابل تلك السلسلة حتى يصير عقلاً كاملاً

وفي النفس الإنسانية قوى مختلفة فمنها ما يدرك المحسوسات ومقره (الغنطاسيا) أو الحس المشترك، ومنها القوة المتخيلة التي تظهر في الميل الطبيعي ' والشهوة، وهذان مشتركان في الإنسان والحيوان، ومنها القوة الفكرية. وهناك نوعٌ موهوب من الناس عنده قوة أخرى لا تحتاج في إدراك الأشياء إلى برهان أو دليل، وإنما يكون ذلك بطريق الوحي والإلهام والرؤيا الصادقة، وهذان النوعان الأخيران خاصان بالإنسان ولأجل أن يدرك الإنسان كماله يدرك أولاً الصور المعقولة للجسمانيات، ثم تصورات النفس المترددة بين الحس (القوة القوة المتخيلة)، ثم العقل الإنساني في ذاته، ثم العقل الفعال، الذي فوقه، وينتهي إلى إدراك عقول الأفلاك المفارقة، ويترقى الإنسان في هذا السلم ويصل إلى ما هو فوق طور العقل وإلى ما هو إلهي

ويقول المؤلف: (إن العقل الفعال لا ينقسم أي لا يتجزأ، وكل نوع من الكليات يوحد في العقل الفعال كوحدة، وعلى هذا فعلم هذا العقل المفارق واحد وإن كانت موضوعاته مختلفة بتعدد الأنواع، وإنما كانت متعددة لأنها تظهر في مواد مختلفة. وفي إمكان العقل بالفعل أن يقرب هذه الكليات منه ويدركها ولأجل هذا كان الإنسان أقرب المخلوقات إلى العقل الفعال. فالعقل الإنساني يصل إلى معرفة الكلي بشروق نور العقل الفعال، وكل إحساس أو تخيل غير معرفة الكلي فهو معرفة خادعة. إن العقل الإنساني يصل إلى كماله بالمعرفة العقلية لا بالخيالات الصوفية الدينية التي لا تبرأ من شوائب الحس. والنظر العقلي هو السعادة العظمى لأن غايته المعقولات كلها. وإذا كان الكلي بهذه المثابة فلا يمكن القول ببقاء العقول الإنسانية بعد هذه الحياة)

أما النفس التي تدرك الجزئيات بتخيلها لها على نحو يجمع بين الإحساس والتعقل والتي يتجلى وجودها في شهوات متعددة وأفعال متنوعة كما مر فقد تستطيع البقاء بعد الموت وتلقى الثواب والعقاب. إن العقل أو الجزء المفكر في النفس واحد في كل عاقل، وعقل الإنسانية في جملتها هو وحده الأزلي وذلك باتحاده بالعقل الفعال. وقد تأثرت الأفكار المسيحية بنظرية وحدة النفوس هذه إبان القرون الوسطى وعرفت بنظرية ابن رشد

ويقول مونك: (إن ابن باجه لا يوضح بجلاء الطريق التي تتم بها تلك الحركة السامية، وكيف يتصل العقل الإنساني والعقل الفعال العام، وقد رأينا في رسالة الوداع أنه مضطر إلى إدخال قوة فوق الطبيعية لإتمام هذا الاتصال) هي إشراق نور العقل الفعال على العقل الإنساني.

المتوحد

والواضح عند ابن باجه هو ذلك الطريق الخلقي الذي رسمه للمتوحد والذي ينصحه فيه ألا يرتبط بالرجل المادي ولا بالرجل الذي ليس له إلا غاية روحانية نفسانية (التي تتردد بين الحس والعقل)، ولو في أرقى أنواعها، وواجبه أن يرتبط بالفلاسفة والحكماء، ولما كان هؤلاء يوجدون بقلة في بعض الأمكنة وتخلو منهم أمكنة أخرى، وجب على المتوحد أن يبتعد عن الناس قدر الإمكان، ولا يختلط بهم إلا لأجل الضروريات بمقدار ضروري، كما يجب عليه أن يعطي نفسه بأكمله لتعليمه الإلهي، وأن يضيء لمن حوله كالنور، ويهب نفسه سراً لإدراك علم الخالق كما لو كان ذلك أمراً معيباً، وعليه أن يرتاد الأماكن التي بها العلماء والحكماء إن وجدهم، وأن يجتنب الشبان القليلي الخبرة. ولا يرى ابن باجه في هذا التوحد مناقضةً لعلوم السياسة التي تقول: إن مجانبة الناس خطأ؛ ولا العلوم الطبيعية التي تقول: بأن الإنسان مدني بالطبع؛ لأن هذين المبدأين صحيحان نظرياً إذا تملك الرجال كمالاتهم الطبيعية، ولما كان هذا بادراً وجب على المتوحد الابتعاد عن المجتمع.

(بيروت)
عمر الدسوقي
بمناسبة مرور أربعين عاما على وفاة
السيدة عائشة عصمت تيمور
للأستاذ اسحق شموش
في مثل هذا الشهر (مايو) من عام 1902، فجع الأدب العربي بوفاة الأديبة الكبيرة عائشة عصمت تيمور، التي جدّدت في العصر الحديث عهد ربات الخدور بالأدب، وساهمت في النهضة النسائية العصرية بنصيب وافر وقسط عظيم
وهي تم إلى الدوحة التيمورية الكريمة التي منحت العربية ما لم تمنحه أية أسرة مصرية أخرى، لغويين وشعراء، وكتاب، وقصصيين، نهضوا بلغة الضاد وآدابها نهضة جبارة، وسعوا لرفعهما إلى مصاف سائر اللغات والآداب الراقية سعياً يبعث على التقدير والإعجاب
فالسيدة عائشة هي كريمة رب السيف والقلم إسماعيل باشا تيمور، وشقيقه اللغوي القدير أحمد باشا تيمور، وعمه القصصي الأستاذ محمود تيمور الذي يعد بحق خير خلف لخير سلف
وقد ولدت في مدينة القاهرة سنة 1256 هجرية الموافقة لسنة 1840 ميلادية، وأبدت منذ نعومة أظفارها ميلاً قوياً للدراسة، وشغفاً عظيما بالمطالعة، فتعلمت العربية، والتركية، والفارسية، وأجادت الكتابة والنظم في كل منها إجادة غير يسيرة؛ إلا أن والدتها حاولت صرفها عن الأدب إلى التطريز والنسج، ولكن بدون جدوى، فنشأ عن ذلك نزاع بينهما، وصفته عائشة في مواضع مختلفة من مؤلفاتها:
(لما تهيأ العقل للترقي، وبلغ الفهم درجة التلقي، تقدمت إليَّ ربة الحنان والعفاف، وذخيرة المعرفة والإتحاف، والدتي تغمدها الله بالرحمة والغفران، بأدوات التّطريز والنسيج، وصارت تجد في تعليمي، وتجتهد في تفطيني وتفهيمي، وأنا لا أستطيع التلقي، ولا أقبل في حرفة النساء الترقي، وكنت أفر منها فرار الصيد من الشباك، وأتهافت على حضور محافل الكتاب بدون ارتباك، فأجد صرير القلم في القرطاس أشهى نفحة، وأتحقق أن اللحاق بهذه الطائفة أوفى نعمة، وكنت ألتمس من شوقي قطع القراطيس، وصغار الأقلام، وأعتكف منفردة عن الأنام، وأقلد الكتاب في التحرير، لأبتهج بسماع هذا الصرير، فتأتي والدتي
(وتعنفني بالتكدير والتهديد؛ فلم أزد إلا نفوراً، وعن صنعة التطريز قصوراً
وعلى نقيض ذلك كان والدها يشجعها على دراسة الأدب وممارسته: (فبادر والدي تغمَّد الله بالغفران ثراه وقال لها: دعي هذه الطفيلة للقرطاس والقلم)
وقد كررت الإشارة إلى تشجيع والدها بصورة أوضح في مقدمة ديوانها التركي الفارسي، فوضعت على لسانه وهو يخاطب والدتها العبارات التالية:
(ما دامت ابنتنا ميّالة بطبعها إلى المحابر والأوراق، فلا تقفي في سبيل ميلها ورغبتها، وتعالي نتقاسم بنتينا: فخذي (عفت) وأعطني (عصمت)؛ وإذا كان لي من (عصمت) كاتبة وشاعرة، فسيكون ذلك مجلبة الرحمة لي بعد مماتي).
وقد تحقق رجاء إسماعيل باشا تيمور، فكانت (عصمت) مجلبة رحمة له، بل ومجلبة شهرة وفخر كذلك
وتزوجت (عائشة) باكراً جداً في الرابعة عشرة (1854 - 1271) من محمد بك توفيق الاسلامبولي، ورزقت منه بـ (محمود) و (توحيدة)، غير أنها رزئت بفقد هذه الأخيرة قبل أن تتجاوز الربيع الثامن عشر، فبكتها أحر بكاء، إلى أن كلَّ بصرها، وأصيبت برمد شديد لبث يختلف عليها إلى آخر حياتها
وقد رثت (توحيدة) بقصيدة رائعة، مطلعها:
إن سال من غرب العيون بحور ... فالدهر باغ والزمان غدور
وربما كان أجود ما فيها البيت التالي:
لو بث حزني في الورى لم يلتفت ... لمصاب قيس، والمصاب كثير
وقد جمع شعرها العربي في ديوان (حلية الطراز) كما جمع شعرها التركي والفارسي في ديوان (شكوفه). ومن آثارها النثرية مجموعة قصص على نمط (ألف ليلة وليلة) دعتها (نتائج الأحوال في الأقوال والأفعال)، وأبحاث اجتماعية معروفة ب (مرآة التأمل

في الأمور)
ويتسم شعرها بالنزوع إلى القديم نزوعاً قوياً، ولا سيما في تشبيهاته واستعاراته وكناياته، فاللحاظ سيوف، والخدود ورود، والقدود غصون، والأسنان درر، وباب الممدوح كعبة أولى السجود، وليس الممدوح سوى كوكب يتألق في سماء العز والمجد، أو بدر يلمع في ليالي
الشقاء والبؤس. . . الخ
والميزة البارزة في شعرها التي تجعل له قيمة أدبية، هي الصدق في التعبير عن عواطفها، وهذا الصدق أكثر ما يتجلى في مراثيها التي تبكي فيها أعز الناس لديها، وأحبهم إليها
وقد قصرت شعرها، أو كادت تقصره على أغراض ثلاثة:
1 - (المدح): ويشكل قسماً كبيراً من شعرها، ويكاد ينحصر في خديو مصر الذي يمثل لديها الزعيم السياسي والديني معاً، الجدير بالطاعة العمياء والإعظام الذي لا يقف عند حد
ومما لا ريب فيه أنها كانت صادقة الولاء في مدحها، ولم تتخذه أداة للكسب كما كان يفعل كثير من شعراء عهدها
غير أنها أسرفت كثيراً في مدح الخديو حتى أنها لم تتورع عن رفعه إلى مصاف الملائكة، ونسب أكبر مقدار من أكرم الصفات والمزايا إليه:
لو قيل للشرف اختر قال خدمته ... أو قيل للدهر سابق عزمه افتضحا
فالنصر عونك، والزمان مطاوع ... والسعد عبد، والكمال صديق
ولا فرق عندها بين خديو وآخر، إذ أن مدحها للخديوية نفسها لا لشخص الخديو، وهذا هو السر في كونها مدحت الخديو سعيد والخديو إسماعيل، كما مدحت الخديو توفيق والخديو عباس؛ كأنما كل من يتسنم أريكة الخديوية يصبح أهلاً للمدح، وأي مدح!
2 - الرثاء: وقد توفرت على الرثاء بقدر ما توفرت على المدح، وكما قصرت مدحها أو كادت تقصره على الخديو، قصرت رثاءها أو كادت تقصره على أفراد أسرتها والمقرّبين إليها، فرثت ابنتها، ورثت شقيقتها ورثت والدها ووالدتها وأستاذها الشيخ إبراهيم السقا الخ. . .
وفي رثائها أيضاً لم تتحرّج من الغلو والإسراف
عزّ العزاء على بني الغبراء ... لما توارى البدر في الظلماء
أو:
إني ألفت الحزن حتى إنني ... لو غاب عني سآءني التأخير
وقد برعت في هذا الضرب من الشعر براعة فائقة، ووفقت إلى تصوير لوعتها وحزنها عندما كانت تحد بها المصائب توفيقاً عظيماً مما يدل على أنها كانت ترثي عن حرقة حقيقية لا أثر للتكلف والتصنع فيها.
3 - الغزل: وأكثره من الغزل الصوفي الذي يكاد يكون مقصوراً على النبي العربي محمد بن عبد الله، وقد مهدت له ب (قالت مستغيثة) أو (قالت توسلاً) وما أشبه
ومن أروع قصائدها في هذا الغزل الديني ميميتها التي مطلعها:
أعن وميض سرى في حندس الظلم ... أم نسمة هاجت الأشواق من أضم
حيث تقول:
روحي الفداء ومن لي أن أكون له ... هذا الفداء وموجودي كمنعدم
وما هي الروح حتى أفتديه بها ... وهي البغاث بغاء الظلم والظلم
وتتخلل بعض قصائدها أبيات قليلة، فيها عن نفسها حديث لا يخلو من فخر وتحدٍ:
ولقد نظمت الشعر شيمة معشر ... قبلي ذوات الخدر والأحساب
وخصصت بالدر الثمين وحامت ال ... خنساء في صخر وجوب صعاب
كما لا يخلو من إشارة مزهوة إلى فضلها على سائر النساء اللواتي إن نظرن في المرآة فللتجمل والتزين، وأما هي:
فجعلت مرآتي جبين دفاتري ... وجعلت من نقش المداد خضابي
كم زخرفت وجنات طرسي أنملي ... بعذار خط أو إهاب شباب
ومع أنها شاعرة لا ناثرة فقد لجأت إلى النثر أحياناً لمعالجة بعض القضايا النسائية كقضية السفور والحجاب مثلاً التي أثارها في عهدها المصلح الاجتماعي الكبير قاسم

بك أمين، إلا أنها لم تبد في هذه القضية رأياً صريحاً كما أنها لم تثبت على رأي واحد بصددها، فقد يفهم أنها حجابية من الأبيات التالية:

بيد العفاف أصون عز حجابي ... وبعصمتي أسمو على أترابي
ما ساءني خدري وعق عصابتي ... وطراز ثوبي واعتزاز رحابي
ما عاقني خجلي عن العليا ولا ... سدل الخمار بلمتي ونقابي
عن طي مضمار الرهان إذا اشتكت ... صعب السباق مطامح الركاب

كما يفهم أنها سفورية من الجملة التالية:

وأنا بين جدران الخدر كقطاط سجنها المطر، وعاقها عن الانسياب برق يخطف البصر)

وأما موقفها من قضية المرأة المسلمة، فهو موقف المحافظات المسرفات في المحافظة، ولا أدل على ذلك من بحثها (مرآة التأمل في الوجود) حيث تصطنع لسان فقهاء الإسلام لمعالجة مواضيع على جانب كبير من الخطورة:

الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم.)

فالرجل يقوم بأمر الزوجة مجتهداً في حفظها وصيانتها وأداء كل ما تحتاج إليه؛ ثم إن الحق لم يكتف بالحكم حتى بين السبب بقوله بما فضل الله يعني بأمور لها وفرة في العقل والدين، ولذا جعل لهم الولاية والإمامة، وجعل فيهم الخلفاء والأئمة، وميزهم في الشهادة بين الأمة، فقال في آية أخرى: فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى)

إن الرجال أسود عزت رفعة ... تسطو على روض العلا وتصول
لهم النضير بكل غصن مثمر ... وسواعد للساميات تطول
حازوا المكارم تحت عزة فضلهم ... وشهودهم بين الأنام عقول

وهي تخلص من ذلك إلى استنكار بحث الشبان حين الزواج (عن الحلي والحلل والضياع والعقار، لا عن النسب والتدين والعفة والوقار وتصب جام غضبها على الرجال الذين يتركون سلطتهم تنتقل إلى زوجاتهم، وتضرب لهم المثل التالي:

وهو أن أسداً تكاسل عن الصيد، وغله الجبن بالقيد، فأمر لبوته أن تنوب عنه، وتأتي بالفريسة بدلاً منه، فانقادت لأمره، وسارت على ما عهدته من سيره، واستمرت مدة على هذا الحال. فلما طال الشرح عليها صارت تصطاد وتأكل ما اشتهت من أطايب اللحوم ولذائذ الأكباد، وتلقي إليه من فضلات ما بقي. فاستشاط الأسد غيظاً ورأى أن ذلك إهانة لوقاره، ومجلبة لعاره، فقال لها خزيت يا لكاع، كيف تأتيني بسقط المتاع، وتجسرين على أكل المطايب قبلي، وتخفضين رفعتي وتنسين فضلي؟ إن كان غلب الشره عليك، واستحيت أن تأكلي بحضرتي، فأعدي لي أطايب الطعام، وقدميها إليّ أولاً كما جرت به العادة في سالف الأيام. فضحكت اللبوة منه، وقالت قد أخطأ وهمك، وغلظ فهمك، إني لم أنس فضلك، ولم أجهل قدرك، ولكن كان ذلك مذ كنت أنت أنت وأنا أنا؛ وأما الآن فقد انعكس الحال وصرت أنا أنت، وأنت أنا، فلك علي ما كان لي عليك. فأفحم الأسد، ورجع

على نفسه باللوم رجوعاً، وآل على نفسه ألا يستعين بها على الصيد ولو مات جوعاً

وهذا المثل كالأمثلة النثرية التي تقدمته - يدل دلالة واضحة على أن صلة نثرها بالقديم وثيقة، كصلة شعرها، إن لم تكن أقوى وأشد، إذ جرت فيه على نسق المقامات وكليلة ودمنة، فأغرقته في فيض من المحسنات البديعية، اللفظية منها والمعنوية، وأفعمته بالأمثلة على ألسنة الطيور والحيوانات

وعلى كل فمما لا ريب فيه أن تأثيرها فيمن تتلمذ عليها من ذوات الحجال كان عظيما، ولا سيما في الأديبتين النابهتين أمينة نجيب وباحثة البادية (ملك حفني ناصف) اللتين برّزتا على أقرانهما، ونعمتا بشهرة أدبية واسعة

ونحن إذ نذكر اليوم السيدة عائشة تيمور، فإننا نذكر أول من رفعت لواء الأدب من ربات الخدور في النهضة الحديثة، وأول من لجأت في العصر الأخير لبيان بنات أفكارها إلى روائع النظيم والنثير.

ايزاك شموش
أستاذ الأدب العربي الحديث بالجامعة العبرية

هناك شعائر درويشية كأشكال الدعاء، وطرق الذكر لا يراعيها غير طوائف خاصة، كما توجد شعائر أخرى تقوم بها الطوائف المختلفة. ونذكر من هذه طقوس (الخلوتية) و (الشاذلية) وهما فرقتان كبيرتان لكل منهما شيخ. والفارق الرئيسي بينهما أن لكل منهما أسلوبه الخاص في الأدعية التي يرددونها صباح كل يوم، وأن السابقين يتميزون عن الآخرين بالخلوة أحياناً، ومن ثم سموا خلوتية. وهؤلاء يتلون دعاءهم قبل الفجر ويسمى (وِرْد السحر) أما دعاء الشاذلية فيقرءونه بعد الفجر ويسمى (حزب الشاذلي). وقد يعتكف الخلوتي أربعين يوماً وليلة في خلوته صائماً، من بزوغ الفجر إلى غروب الشمس طول هذه المدة. ويعتكف جماعة منهم أحياناً في خلوات مسجد الشيخ الدمرداش شمال القاهرة ثلاثة أيام وليال بمناسبة مولد هذا الولي، ولا يتناولون أثناء ذلك غير قليل من الأرز وكوبة من الشراب عند المساء. ويشغلون أنفسهم بقراءة أدعية لا يعرفها غيرهم؛ ولا يخرجون من الخلوة إلا للصلاة جماعة في المسجد، ولا يجيبون أبداً من يكلمهم إلا بقولهم: (لا إله إلا الله). ويتبع هذا النظام تقريباً أولئك الذين يعتكفون مدة الأربعين يوماً فيقضون الوقت مرددين الشهادة سائلين العفو حامدين الله.

يكاد دراويش مصر جميعهم أن يكونوا تجاراً أو صناعاً أو مزارعين. وهم لا يحضرون طقوس بعضهم إلا مصادفة؛ غير أن بعضهم لا عمل له غير الذكر في الموالد والحفلات الخاصة والإنشاد في الجنازات. ويطلق على هؤلاء لفظ (فقير)؛ ومعنى ذلك المعوز عامة، إلا أنه يطلق على الأتقياء المساكين خاصة. ويعتاش البعض من تقديم الماء إلى المارة في شوارع القاهرة وزوار الأعياد الدينية. فيحملون الماء على ظهورهم في أباريق من الفخار أو من جلد الماعز. والقليل منهم يسلكون حياة التجول ويعيشون على الصدقات بلجاجة ووقاحة شديدتين. وبعض هؤلاء يميزون أنفسهم على طريقة الأولياء المشهورين بلبس (الدلق) أي السترة المرقعة، وحمل العصا المعلق في أعلاها قطع النسج المختلفة الألوان، ويلبس البعض الآخر ملابس غريبة مختلفة الألوان ويتخذ بعض الرفاعية ممن لا يحترفون إخراج الثعابين من المنازل، حياة التجول في بلاد القطر مستفيدين من خرافة مضحكة أذكرها الآن: كان سي داود العزب وهو ولي مبجل من بلدة تفاهنه في الوجه البحري يملك عجلاً يقوم على خدمته. فتعود بعض الرفاعية منذ وفاته تربية العجول في بلدة هذا الولي أو مدفنه وتمرينها على صعود السلم والاضطجاع عندما تؤمر بذلك، ثم يذهب كل منهم وعجله متجولاً في البلاد لجمع الصدقات. ويسمى العجل (عجل العزب). وقد دعوت مرة أحد هؤلاء الدراويش إلى منزلي. وكان العجل - وهو الوحيد الذي رأيته - جاموساً يتدلى منه جرسان، أحدهما في طوق حول عنقه، والآخر في حزام حول جسمه. وقد صعد السلم جيداً، إلا أنه أظهر ضعف مرانه من كل الوجوه. ويعتقد العامة أن عجل العزب يجلب إلى المنزل لبركة الولي الذي سمى هذا الحيوان باسمه

وفي مصر دراويش جوالة من الترك والفرس، والى هؤلاء الدراويش تنسب صفة اللجاجة والوقاحة أكثر مما تنسب إلى القلائل من المصريين الذين يعيشون معيشتهم. ويحدث كثيراً في شهر رمضان خاصة أن يذهب درويش أجنبي إلى مسجد الحسين الذي يتردد إليه كثير من الترك والفرس، وقت صلاة الجمعة فيمر بين المصلين عندما يخطب الخطيب ويضع أمام كل امرئ قصاصة من الورق كتب عليها بعض كلمات تحث على الصدقة. وبهذه الطريقة يتناول من المصلين كلهم أو غالبهم قطعاً من ذوات الخمسة فضة أو العشرة فضة أو أكثر. ويحمل الكثير من دراويش الفرس في مصر ملعقة خشبية وطاسة مستطيلة من جوز الهند أو من الخشب أو المعدن حيث يتناولون الصدقات ويضعون الطعام. ويلبس أغلب الدراويش الأجانب ملابس خاصة تبعاً

لطوائفهم. وأهم ما يميزهم لباس الرأس، وأكثر أنواعه شيوعاً ما صنع من اللبد على شكل قالب السكر المخروطي. وتتكون ملابسهم الأخرى من صدرية وسروال واسع أو آخر ضيق، أو قميص وحزام، وعباءة غليظة.

ويتظاهر الفرس هنا بأنهم سنيون. ويعتبر الأتراك أكثر الطائفتين إزعاجاً ولجاجة. وأذكر هنا خرافة أخرى هي اعتقاد المصريين والعرب عامة بأن للطيور والحيوانات لغة تتفاهم بها وتسبح بحمد الله

ومن أهم المميزات في خرافات المصريين المحدثين اعتقادهم بالتمائم والاحجبة التي يستند أكثرها على السحر، ويشتغل بكتابة هذه التعاويذ أحياناً جميع مدرسي الكتاتيب القروية تقريباً. على أنه قلما يدرس من يقوم بهذا العمل شيئاً من السحر أكثر من الحصول على بعض صيغ من الاحجبة يتألف معظمها عادة من آيات قرآنية وأسماء الله مع أسماء الملائكة والجن والرسل، أو الأولياء المشهورين يختلط بها تركيبات عددية وأشكال هندسية ويتوهم الناس أن ذلك كله خاصية خفية عظيمة

وأكثر الاحجبة اعتباراً مصاحف القرآن، وقد جرت العادة أن يحمل أتراك الطبقتين الوسطى والعليا وغيرهم من المسلمين مصحفاً صغيراً في غلاف من الجلد المزركش أو المخمل يعلقونه على الجانب الأيمن بخيط من الحرير يمر فوق الكتف الأيسر. غير أن هذه العادة لم تعد شائعة كثيراً. وقد لاحظت أثناء زيارتي الأولى أنه قلما يرى تركي فاضل من السلك الحربي لا يحمل الغلاف السابق ذكره، مع أنه كثيراً ما لا يحوي حجاباً؛ ولا يزال النساء يحملن المصحف وغيره من الاحجبة، فيضعنها في أغلفة من الذهب أو من الفضة المذهبة أو الساذجة. ويعزو المسلمون إلى المصحف وأكثر الاحجبة قوة كبيرة، ويعتبرونها حافظة من المرض والسحر والحسد وغير ذلك من البلايا

وهناك كتاب أو دَرج يجيء بعد المصحف مكانةً به سور قرآنية تكون في العادة سبعاً كسور: الأنعام والكهف ويس والدخان والرحمن والملك والنبأ أو غيرها. ويوجد حجاب آخر يوضع عادة داخل غطاء الرأس، ويعتقد أنه يقي حامله من الشيطان ومن كل جن شرير. وهذا الحجاب قطعة ورق كتبت عليها الآيات التالية: (ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم): (سورة البقرة آية 255)؛ (فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين): (سورة يوسف آية 64)؛ (يحفظونه من أمر الله): (سورة الرعد آية 11)؛ (وحفظناها من كل شيطان رجيم): (سورة الحجر آية 17)؛ (وحفظاً من كل شيطان مارد): (سورة الصافات آية 7)؛ (وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم): (سورة يس)؛ (والله من ورائهم محيط بل هو قرآن مجيد

في لوح محفوظ): (سورة البروج الآيات 20، 21، 22). وكثيراً ما تكتب أسماء الله التسعة والتسعون، في ورقة يحملها الشخص، فتجعله كما يعتقد محلاً خاصاً لرعاية هذه الصفات الكريمة جميعها. ويعتقد كذلك أن كتابة أسماء الرسول التسعة والتسعين على أي شيء تكون حجاباً كما روى الإمام علي عن النبي (ص) يبعد كل مصيبة ووباء ويحفظ من الضعف والحسد والسحر والحريق والدمار والقلق والحزن والضيق. ويضيف المسلم بعد ذكر كل من هذه الأسماء قوله: اللهم صل وسلم عليه. وتنسب مثل هذه الخصائص إلى حجاب يتضمن أصحاب الكهف واسم كلبهم. وتنقش هذه الأسماء أحياناً في قاع طاسات الشراب، وغالبا على صينية الطعام المستديرة من النحاس المبيض. وهناك حجاب آخر يظن أن له تأثيراً مماثلاً. ويتألف هذا الحجاب من أسماء مخلفات النبي وهي تتألف من سبحتين ومصحف في أجزاء غير مرتبة، ومكحلة وسجادتين ورحا وعصا وسواك وحلة والإبريق الذي كان يستعمله النبي صلعم للوضوء، ونعل وبردة وثلاث حصر ودرع ورداء طويل من الصوف، وبغله الأبيض (الدلدل) وناقته (العضباء). وتكتب أيضاً بعض الآيات القرآنية على قصاصات من الورق يحملها الناس وقاية من الشرور، واستشفاء أو اكتساباً للحب والصداقة الخ. ويحمل الكثير من المصريين المحدثين رجالاً ونساء وأطفالاً هذه الاحجبة وغيرها من أغلفة من الذهب أو الفضة أو القصدير أو الجلد أو الحرير الخ.

ومن الشائع أن ترى الأطفال المصريين يحملون احجبة ضد الحسد داخل غلاف مثلث الشكل يعلق في أعلى غطاء الرأس. وكثيراً ما يعلق على الجياد معلقات مماثلة. ويتقي المصريون الحسد بشتى الاحتياطات ويسعون قلقين لدفع نتائجه الوهمية عنهم.

وقد يعبر البعض عن إعجابه بشيء إعجاباً يعتبر غير لائق فيعنفه من أزعجه هذا بقوله: (صلي على النبي) فإذا امتثل الحاسد وقال: (اللهم صلي عليه) لا يخشى شر. ومن غير اللائق أيضاً أن يعبر الشخص عن إعجابه بآخر أو بأي شيء لا يملكه بقوله: (يا سلام) (ما أجمله) ويستحسن في مثل هذه الأحوال أن يقول: (ما شاء الله) التي تشير إلى الإعجاب والخضوع لإرادة الله أو الرضا بها. فكثيراً ما يكون الأجدر بالمبدي إعجابه أن يقول ما شاء الله ويصلي على الرسول.

وقد بينت في الفصل الثاني من هذا الكتاب خوف نساء مصر من أثر الحسد على أولادهن.

والعادة في هذا البلد أن يقول من يحمل ولد غيره بين ذراعيه: بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم صلي على سيدنا محمد، ثم يقول ما شاء الله. والشائع أيضاً أن يقول المصري عندما يبدي إعجابه بصبي: (أعوذ برب الفلق لأجلك) مشيراً إلى سورة الفلق التي تنتهي بالتعوذ من شر الحسد. وقد ينظر بعض الناس إلى طفل أو يلوح أنه يحسده فيعمد الوالدان أحياناً إلى قطعة من أطراف ملابسه فيحرقانها مع قليل من الملح. ويضيف البعض إلى ذلك الكزبرة وحجر الشب الخ ويبخران الطفل بالدخان ويذران عليه الرماد، ويجب عمل هذا على ما يقال قبيل الغروب عندما يحمر قرص الشمس

ويستعمل المصريون الشب كثيراً لمنع أثر الحسد، فيضعون على الجمر قبيل الغروب قطعة منه بحجم الجوزة تقريباً حتى تنقطع عن الفوران، ويتلو من يقوم بهذا العمل أثناء احتراق الشب الفاتحة والسور الثلاثة الأخيرة ثلاث مرات. ويبدو كما قيل أن الشب عندما ترفع من النار تتخذ شكل الحاسد، ثم يسحقها ويمزجها بقليل من الطعام يرميه إلى كلب أسود ليأكله. وقد شاهدت هذه العملية يقوم بها رجل ظن أن امرأته نظرت إليه نظرة حاسدة. وقد اتخذت قطعة الشب وقتئذ شكلا يشبه شكل النساء كثيراً فقرر الرجل أنه وضعٌ خاص تعودت عليه امرأته. إلا أن الشكل الذي يتشكل به الشب يكاد يتوقف على ترتيب الجمر ومن الصعب أن يكون هذا الشكل بحيث لا يرى فيه الخيال بعض الشبه بالإنسان - وهناك طريقة أخرى يتوهم الناس أنها تدفع تأثير الحسد وهي أن توخز قطعة من الورق بإبرة ويقول المواخز هذه عين فلان الحاسد. ويعتبر الشب حجاباً ناجعاً ضد الحسد. وقد يعلق الناس أحياناً قطعة من حجر الشب مسطوحة ومزينة بشراريب في أعلى غطاء رأس الطفل. وتستعمل الأصداف والخرز بالطريقة نفسها وللغرض نفسه. وهناك أصداف صغيرة تعتبر واقية من الحسد خاصة تعلق في عدد الجمال والجياد وغيرها من الحيوان وعلى غطاء رأس الأطفال أحياناً. ولاشك أن هذه المعلقات يقصد بها جذب العين فتمنعها من رؤية الشيء المراد حفظه من الحسد

عدلي طاهر نور

نعمة السلم

للأستاذ عبد اللطيف النشار

أكان خداع النفس للنفس أن أرى ... جميع عباد الله أهلاً وإخوانا
أنعمة سلم تلك أم تلك نقمة ... تَطَامُنُ إنسان يصاحب ذؤبانا
فإن تبؤ الحرب الضروس بشرها ... فيا رب خير جره الشر أحيانا
عرفنا العدى لا بارك الله في العدى ... وحسبك أن تتعاض بالجهل عرفانا
فيا نعمة للحرب باركت أنعماً ... لسلم جدير أن يعمر دنيانا
ودون الرضى أن يسلم الجسم وحده ... إذا المرء لم يسلم ضميراً ووجدانا
نعيم لعمري قد فقدناه إذ غدت ... بقاع الثرى والماء والجو ميدانا
ودونك فلتغرس سياجاً يحوطه ... من الشر إن أنشأت للخير بستانا
نعيم لعمري جلستي بين صبيتي ... أحادث أزهاراً وأنشق ريحانا
وأدني إلى النعمى يقينيَ أنني ... سألقي غداً هذا الجميع كما كانا
فلا سلم حتى يعرف المرء أنه ... يرد إذا ما شاء ختلاً وعدوانا
أيا خضرة الزرع النديَّ تألقي ... لهيباً وكوني يا شجيرات نيرانا
إذا ما عدا عادٍ عليك فإنما ... تعود القوى حسناً عليك وإحسانا
كذلك نعمى السلم يُحمد عُقَّا ... تذكُرُها شوقاً إليها وتحنانا

إذا صوح الروض النضير ذممته ... فهلا حمدت الروض إذ كان ريانا
ولولا انصراف النفس عن خُدَع المنى ... لكان نعيماً أن نصادق أعدانا
فتوسيع آفاق المحبة مطلق ... من النفس أحقاداً تسوء وأضغانا
أسفت على الإنسان ليس بقادر ... على الحب إلا أن يعاديَ إنسانا
فقدنا نعيم السلم من طول حرصنا ... عليه وحبَّا أن نوسع دنيانا
متى نستعده نستعده وحكمة ... فنعطيَ كلاً مثلما كان أعطانا
وفي القصد إبقاء على كل نعمة ... فلست بمعطي الود غير الذي صانا
أمِنَّا فساوينا الأحباء بالعدى ... فيا ليتنا ننسى العدو وينسانا
حليفتنا، مدى اليمين وجددّي ... مواثق قد ضمتك أمس وإيانا
صوالحنا في الحرب والسلم قاربت ... عقولاً وأدنى حافز الحب وجدانا
ألست التي أخلاقها جُلُّ مجدها ... وما أجمل الأخلاق للملك بنيانا
ونحن بني البرديِّ أقلامنا جرت ... وما كان في دنيا الكتابة إلّانا
سننا العهود والمواثيق سنة ... وما كان أولانا بذاك وأحرانا
فنحن بني الشرق المضيء بنوره ... طلعنا على الدنيا يقيناً وإيمانا
ولن يخفر الشرقيَّ عهداً وذمة ... وقد خلق الشرقي للناس أديانا
عبد اللطيف النشار

سلميون محاربون

للأستاذ حسين الظريفي

رعا الله فتيان البلاد فإنهم ... نسور هبوبٍ، أو ليوث وثوب
وأنهمو لا ينثنون عن المدى ... وليسوا بهيّاً بين كل هيوب
إذا دخلوا الهيجاء يوم كريهة ... فهم بين طعَّان وبين ضَروب
وقاذف نار من حديد كأنها ... رجامُ سماءٍ من بنات شَعوب
يطير بجنح الطائرات إلى المدى ... بكل طلوع، أو بكل غروب
ويركب متن السائرات، وما له ... بها من ونى في جَيْئَةٍ وذُهوب
مصفحة الأطراف مضبورة القَرا ... تمج لهيباً موصلاً بلهيب
وليس بهم إن أوجب السِلم نفسَه ... سوى كل داعٍ بينهم ومجيب
يحيّون بالريحان كل مسالمٍ ... يخالص ودٍّ لم يكن بمشوب
وما فيهُم إلا أخو كل برَّةٍ ... وكل طليق الراحتين وهوب
لقد كتبوا تاريخهم بدمائهم ... على كل يومٍ بالجهاد عصيب
صحائف نصرٍ بالدماء خضيبةٌ ... وراء حروبٍ أوصلت بحروب
وساروا على أشلائهم لرجائهم ... ففازوا بنصرٍ من لدنه قريب
هم النبع لطفاً والحجارة شدةً ... ونعجز أن تأتي لهم بضريب
حسين الظريفي

البريد الأدبي

مذهب الشك قبل ديكارت

وردت كلمة للأستاذ (السيد يعقوب بكر) في العدد (463) من الرسالة يقارن فيها بين ديكارت في قوله: (أنا أشك فأنا أفكر فأنا موجود) وابن يعيش في كلمة له: (إنك إذا قلتُ: عدمتني، فمعناه علمتني غير موجود، لأنك إذا علمت كنت موجوداً وصحته على الاستعارة)

وقد أورد ابن يعيش هذه الكلمة في شرحه على مفصل الزمخشري في قواعد اللغة العربية - أوردها عرضاً وهو يناقش تركيباً من حيث معناه، ثم تركه ومضى فيما يعنيه من شرح القضايا الأخرى

فابن يعيش لم يكشف مذهباً فلسفياً، بل لم يجل بفكره أن يقف عند هذه القضية قليلاً ولا كثيراً، فكيف ينتظر منه أن يسايرها إلى غايتها ويتخذها أساساً لمنهج فلسفي؟

فليس الفرق أن هذا لم يصغ مع أنه السابق وذاك صاغ مع أنه اللاحق؛ ولكن الفرق هو أن ابن يعيش يناقش تركيباً عربياً من حيث معناه ثم يتركه إلى غيره، وديكارت درس طويلاً مختلف المذاهب الفلسفية التي تقدمته فرأى الفلاسفة عاجزين عن حل ما تصدوا لحله من المشاكل العقلية فتركهم يائساً (ألا يطفئ غلته من جداولهم). ولجأ إلى الشك بعد أن لج به اليأس، فشك في كل رأي وعقيدة في طريقي المعرفة:

العقل والحواس، حتى لشك في وجوده فإذا هو مضطر أن يعترف بحقيقة لا شك فيها وهي أنه يشك أي يفكر فهو لابد أن يكون موجوداً، فوضع قاعدته: (أنا أفكر فأنا موجود) وهو لم يثبت بذلك وجود جسمه ولا نفسه بل ذاته المفكرة ثم مضى في تفكيره على هذا الأسلوب حتى شاد فلسفة رفيعة تضيء الطريق لأصدقائها وأعدائها على السواء.

إن كان أحد قد سبق ديكارت بشيء من فلسفته - فيما أعلم - فليس ابن يعيش الذي عاش في القرن الثالث عشر الميلادي متقدماً نحو أربعة قرون على ديكارت الذي عاش في النصف الأول من القرن السابع عشر (1596 - 1650) بل فيلسوف آخر عاش في القرون الوسطى الأوربية في عصرها الأول الذي يسمى في تاريخ الفلسفة (عصر آباء الكنيسة وقد سبق ديكارت بأكثر من أثني عشر قرناً، وهو القديس (أورليوس أوغسطين فيلسوف المسيحية. وقد ولد عام 353م في (تجستي في شمالي أفريقية لأب وثني وأم مسيحية ملؤها الإخلاص والحماسة لدينها فنشأ وثنياً على ملة أبيه، ثم اعتنق المسيحية في الرابعة والثلاثين من عمره، فصار فارسها الأوحد الذي يناضل عنها بكل ما أوتي من قوة وبراعة؛ ورأى فيه المسيحيون إمامهم الذي إليه يرجعون في مشاكلهم فلا يذكر اسمه في مجال خلافي حتى ينحسم الخلاف في رضا واستسلام فهو الفيصل الذي لا معقب له.

قرر أوغسطين - وهو يفصل رأيه في المعرفة - أنه إذا جاز للإنسان أن يرتاب فيما تمده به الحواس من معلومات فلا يجوز له الريب فيما يزوده به العقل؛ لأنه حق ثابت، إذ الشك لا يمتد إلى شعور الإنسان باحساساته الباطنة، كما أن الشك في الاحساسات الخارجية يتضمن الاعتراف بوجود ذات تشك، لأني إذا كنت أشك، فإني أعلم بشكي أني موجود؛ فالشك إذن يتضمن الاعتراف بوجود المفكر من غير شك ولا خطاء، فإذا تشككت في كل شيء، فلن أخطئ إذ لا بد أن يكون المخطئ موجوداً.

وهكذا يمضي الفيلسوف في فلسفته فيثبت وجود الله وقدرة العقل على تحصيل المعرفة التي مصدرها الله ويبين الكيفية التي خلق الله بها العالم، ويفصّل رأيه في الروح والمادة والأخلاق وطريق الاتحاد بالله والسعادة الأخروية. وقد توفي عام 430م.

ومن مفكرينا المسلمين اثنان شكا كديكارت في كل شيء وإن ينتهيا إلى ما انتهى إليه من خلق فلسفة شاملة تفيض باليقين والإيمان من طريق العقل: أحدهما فيلسوف المعرة أبو العلاء الذي انتهت به قسوة الحياة وآلامها الملحة إلى الشك بالتشاؤم فلم يبق له إلا الإيمان بالألم كما يرى ذلك من قرأ له لروملياته ورسائله إلى داعي الدعاة ورسالة الغفران. وثانيهما حجة الإسلام الإمام الغزالي الذي انتهى الشك إلى الإغراق في التصوف كما يرى ذلك من قرأ كتابه (المنقذ من الضلال). ومما هو جدير بالالتفات هنا تشابه القديس أوغسطين والإمام الغزالي في كثير من آرائهما وحياتهما ومنزلتهما في الدين، فأوغسطين في المسيحية هو الغزالي في الإسلام، وكل منهما اضطرته ظروفه المحيطة به، والتي كانت تهدد دينه أن ينبري ليدافع عنه أعداءه فوفق في دفاعه كل التوفيق

(سمالوط)

محمد خليفة التونسي

من محام شرعي إلى قاض شرعي

حضرة الأستاذ علي الطنطاوي المحترم

السلام عليكم ورحمة الله. . . جاء في مذكراتكم المنشورة في العدد (462) من (الرسالة) المجيدة ما نصه:

(ولا بد من الرجوع إلى الحكم بالشهادات التي قد يعلم القاضي أنها شهادات زور، وأن الشهود فساق لا عدالة لهم، ولا تقبل من مثلهم شهادة، وكانت القرائن تقطع بكذبهما - والقرائن والإمارات من أسباب الحكم - كما بين ذلك ابن قيم المدرسة الجوزية في كتابه الجليل (أعلام الموقعين)؛ ولكن لا سبيل إلى الأخذ بها إلا أن تنظر (وزارة العدل) في (دمشق) في الاقتراح الذي رفعته إليها في هذا الموضوع، وتتخذه أساساً لإصلاح شامل يخلص الناس من شهود الزور. . . فكيف يهدأ بال من يغلب على ظنه؛ أو يعلم فساد البيئة، ثم يضطرون إلى الحكم بها)

ألا فليهدأ الأستاذ بالاً، وليطمئن قلباً، وليقر عيناً. . . فليس في الأرض - أو على الأقل - ليس في بلاد من بلاد الإسلام قانون شرعي أو وضعي يجبر القاضي على الحكم ببينة يعلم أنها زور، لاسيما إذا كانت القرائن تقطع بكذبها، بل حتى إذا كانت القرائن توجب الشك فيها، أو تجبره على قبول شهادات الفساق الذين لا يقبل من مثلهم شهادة. ويكفي في تعليل إبطال هذه الشهادات وعدم العمل بها أن يقال: (لم تطمئن المحكمة لهذه الشهادات فردتها)؛ وإن استؤنف هذا الحكم فسيصدق (مائة في المائة)، إذ لا تملك محكمة الاستئناف القوة على جبر القاضي بالعمل بما يراه باطلاً

وانظر - رحمك الله - كم بالغ الفقهاء في وجوب تحري القاضي وبحثه عن أحوال الشهود، حتى لو ظهر كذبهم بعد التزكية لم يعمل بشهاداتهم. فهذا من جهة الشرع؛ وأما القوانين الوضعية، فقد جعلت تقدير الشهادات عائداً لضمير القاضي وألغت التزكية - وهي بحالها الحاضرة جديرة بالإلغاء -

إذن، لا يتوقف التخلص من شهادات الزور على نظر وزارة العدل في الاقتراح الذي رفعتموه إليها للأخذ بالقرائن والإمارات في هذا الموضوع

إنما الأخذ بالقرينة والأمارة موضعه فيما تنعدم فيه الشهادة فيكون الحق عرضة للضياع إذا لم يؤخذ بالقرينة والأمارة

ولو أن الأمر على ما ذكر الأستاذ من أن القاضي مضطر للحكم بشهادات يعلم أنها زور، لكان هذا هو الظلم الذي ليس بعده ظلم، ولما جاز للمسلمين أن يسكتوا عنه لحظة واحدة، حتى تبدل الأرض غير الأرض. . . وكيف يكون كذلك وهم - في محاكمهم الشرعية - يعملون بشريعة الإسلام. وهي وهذا ضدان مفترقان؟

نعم، بعض قوانيننا التي يجري العمل بها في المحاكم الشرعية - فيما سوى مصر - تحتاج إلى نظر وتعديل، ولكن ليس فيها هذا الظلم

وتعقيب آخر: قلتم في آخر مقالكم: (وقد فسروا حديث القاضي والقاضيين أن القاضيين اللذين في النار هما. . . الخ)؛ وهذا ليس تفسيراً للحديث، وإنما هو من صلب الحديث بلفظ آخر؛ ولفظة (في الجامع الصغير): (قاضيان في النار، وقاض في الجنة: قاض عرف الحق فقضى به، فهو في الجنة؛ وقاض عرف الحق فجار متعمداً، أو قضى بغير علم، فهما في النار)

(اللد - فلسطين)

(داود حمدان)

العدد 466 - بتاريخ: 08 - 06 - 1942

الصفاء بين الأدباء أيضاً

للأستاذ توفيق الحكيم

كانت دعوتي إلى الصفاء بين الأدباء خالصة لوجه الأدب. فأدباء مصر البارزون الدائبون على الإنتاج لا يتجاوز عددهم العشرة مع التسامح الشديد، بينما نظراؤهم في بلد كفرنسا يبلغون أكثر من مائتين من المشهورين المنتجين، ومع ذلك نطلع على صحفهم الأدبية فلا نرى غير تكاتف وتساند على أداء رسالة الأدب والفكر. إن الفن الطويل والحياة قصيرة، وكان الأجدر بنا نحن العشرة أن نوجه صراعنا لا إلى بعضنا البعض، بل إلى الفن ومصاعبه وأسراره. إن (جوته) حتى وهو مستشار للدولة ما كان يستغني يوماً عن صديقه (شيلر) وهما يعملان في عين الفرع من الأدب التمثيلي، فكانت بينهما مراسلات لا تنقطع طول النهار على قرب الديار، جمعت في مجلدين يرى المطلع عليهما كيف أنهما كانا يتشاوران في تفاصيل القّصص الذي كانا ينشئان ويتحاوران في أمر بناء الوقائع ورسم الأشخاص، بل وفيما ينبغي أن يختار لذلك القصص من اسم وعنوان. . . كنت أحب لأنفسنا مثل هذا الصفاء الذي يخرج في جوه الفن الصافي.

ولكن الأستاذ عباس محمود العقاد في مقاله (صداقات الأدباء) رد يقول إن صاحب الدعوة إلى الصفاء هو الذي بحث عن أسباب الكدر بملقاط ليخلقها خلقاً بين رجلين على أحسن ما يكون من الصفاء! فإذا صح هذا الزعم كان حقاً مما يدعو إلى الأسف بل إلى السخرية! وربما كان ظاهر الوقائع يدل على ذلك؛ ولكن هل كانت تلك حقيقة المقاصد والنوايا؟ ليس مَن واجب الأستاذ العقاد فيما أرى أن يبحث خلف أستار الظاهر، وليس من حقي أن أطالبه بالنفوذ إلى أعماق النفوس، فليكن الله وحده إذن شهيداً على ما أضمرت. وقد رأى الأستاذ العقاد أن يجزي واحدة بواحدة، فلم يفته في

ختام مقاله أن يدس هو الآخر سبباً من أسباب الكدر بيني وبين الدكتور طه حسين بقوله: (إن الأستاذ الحكيم يقول بعد الإشارة إلى ثناء الدكتور طه عليه منذ سنوات: لم نسمع في غير مصر أن الناقد إذا أثنى على كتاب حسب أنه تفضل على مؤلفه ورفع شأنه من الحضيض الخ الخ). ومضي يصورني في هيئة الناكر للجميل، والأستاذ العقاد ولا شك قد فهم أني ما قصدت بإيراد هذه العبارة وأمثالها إلا مجرد إظهار الإساءة لطه حسين وهو في أوج نفوذه. فلقت ما نصه: (إن هذا الوقت هو أحب الأوقات عندي لإساءته لا لإرضائه. . . وأما مشاعري الخاصة كإنسان نحو الدكتور طه فليس الظرف اليوم مواتياً للإطناب في وصفها؛ وسأختار الزمان والمكان الملائمين للإفاضة بها دون أن يحمل فعلي على غير محمله). لكن. . ما دام الأمر قد حمل على غير وجهه وسجل عليّ سبباً من أسباب الكدر المانعة من الصفاء، فهل أحجم عن العمل على إزالة الأكدار؟ وإذا كانت الظروف هي التي شاءت أن تختار الزمان والمكان الملائمين للإفاضة بما عندي، فماذا يجب أن أصنع أمام مشيئة الأقدار؟ فلأتكلم إذن ولأقص القصة كما رأيتها وعشتها. . .

الحقيقة أنها كانت قصة انتهت مع الأسف بانهيار صداقة من أعظم الصداقات التي عرفها أدبنا المعاصر. لقد كان مبدأ ظهوري في الجو الأدبي كما هو معلوم نشر (أهل الكهف) عام 1933، ولم تكن هذه الرواية بالطبع بدايتي الأولى في هذا اللون من التأليف، بل كانت ثمرة تجاريب عشرة أعوام أو يزيد سابقة على الشروع في وضعها؛ فلقد كنت قبل ذلك أكتب للمسرح المصري روايات مما يلائم جمهور تلك الأيام. فمثلت لي أربع قصص وعهد بالخامسة إلى المرحوم سيد درويش ليضع ألحانها ولكنه اختلف مع المسرح على الأجر المطلوب. وكانت هنالك فيما أذكر سادسة وسابعة لست أدري ما حدث لهما. وإني وإن كنت أوثر نسيان هذه الروايات الأولى إلا أني لا يجب أن أنكر فضلها على تكويني الفني الأول، فلقد كانت هي خير مران لي على ممارسة الحوار، ثم اتسعت آفاقي باتساع نطاق مطالعاتي في أصول هذا الفن في الآداب الأجنبية. وضاقت بي مصر فرحلت إلى فرنسا بعد أن كنت قد سجلت اسمي في جدول المحامين ومهدت أمري لحياة مجدية. ولكن أي شيطان في أعماق نفسي كان يدفعني إلى إضاعة حياتي وراء فن لم يكن له بمصر أي احترام؟ وهنالك في فرنسا قرأت كثيراً وكتبت بالفرنسية نحو أربع روايات تمثيلية مزقت الواحدة تلو الأخرى تمزيقاً عقب الفراغ منها واطلاع بعض أرباب ذلك الفن عليها. فلم أكن قد اهتديت بها إلى شيء يذكر. ولبثت في هذا الجهاد زمناً لا أجد في آدابنا العربية مرجعاً لهذا الفن ولا مصدراً محترماً يجعلني أبدأ منه أو أضيف إليه. إنما كان عليَّ أنا أن أخلق البداية خلقاً. وكتبت بعد ذلك عدة روايات من بينها (أهل الكهف) دون أن أدري أنها موفية بالغرض بعض الشيء أو قريبة من الهدف الذي أسعى إليه. وقد اشتغلت بالقضاء فأنساني

هذه (الخزعبلات) ودفنت مخطوطاتي في حقائبي طويلاً أتنقل بها من بلد إلى بلد ومن قرية إلى قرية، حتى وقعت مخطوطة (أهل الكهف) ذات يوم في يد قاض مثقف من زملائي كان يذكر أيامي الماضية في مسارح القاهرة. وانتقل بالمخطوطة إلى العاصمة، ومن هناك أرسل إليَّ يقول إنه ساع في طبعها. فتملكني الدهش. ما معنى الطبع؟ ولماذا؟ وماذا يحدث إذا طبعت غير خسارة المصاريف؟ فلما أصر أصررت على ألا يتجاوز عدد المطبوع مائتين من النسخ. وهو أكبر عدد يمكن توزيعه على المعارف والإخوان. أما أكثر من هذا فلا أعرف ما أصنع به، وليس لدي مكان أخزن فيه هذه الأكداس من الورق.

ونشرت (أهل الكهف) وحدث ما يعرفه الناس. فقد قام الدكتور طه حسين يعلن في (الرسالة) بصراحة وقوة أن الأمر ليس فقط أمر كاتب وكتاب، إنما هو (باب أدبي جديد فتح في الأدب العربي. . . الخ الخ) وظلت تلك عقيدة طه حسين يناضل عنها حتى عندما عارضته بعدئذ بقولي إن الحوار الأدبي عرفه الجاحظ ووجد منه كثير في كتاب الأغاني، فقد أبى الاعتراف بذلك وأصر على اعتبار (أهل الكهف) مبدأ ظهور (الحوار الأدبي التمثيلي) باباً من أبواب الأدب العربي كما هو مقرر في الآداب الأجنبية باباً من أبوابه. ولقد كان طه حسين مخلصاً في مذهبه إلى حد اغضب الكثيرين وإلى حد استطاع معه أن يقنع صفوة من المفكرين، أذكر منهم (لطفي السيد) الذي

استقبلني بعد نشر (شهرزاد) بقوله: (أنت شيخ طريقة. . . أقصد في الأدب. وطه حسين على حق. وطه بخيل وهو لا يصر هذا الإصرار إلا إذا اقنع)
تساءلت فيما مضى وأتساءل الآن مرة أخرى: هل كان في طاقتي أو طاقة إنسان فرد أن يشكر طه حسين على كل هذا؟! في الحق أن عمله كان أجل وأضخم من أن أتولى أنا وحدي شكره. لقد كان على الأدب العربي ممثلاً في رجاله وهيئاته أن يقوم بذلك. ولعل التاريخ يصنع هذا لو ثبت له أن طه مصيب
على أني في حقيقة الأمر لست أذكر ما اعتراني من شعور في ذلك الوقت، وأغلب الظن أني شغلت عن الأدب العربي وأبوابه ومذاهبه بشيء أجمل بكثير من كل هذا: هي صداقة طه حسين نفسها. فقد بعثت إليه ببرقية، وأنا لا أعرفه، غداة ظهور مقاله المشهور، أشكره فيها شكراً حاراً. ثم تركت إقليمي الذي كنت فيه وكيلاً للنائب العام وجئت مصر فلقيت طه
حسين ونشأت بيننا مودة كانت أرفع وأجمل من أن تعيش طويلاً. لقد لبثنا شهوراً وكأن أحدنا قد عثر على شيء ثمين بعثوره على الآخر. إن طه شخصية عظيمة باهرة. إنه من شخصيات التاريخ بلا جدال. والتاريخ فيما يخيل إليَّ فنان، يتخير أشخاصه بيده ويطبعهم بخاتمة حتى قبل أن يلبسهم أدوارهم ويدفعهم إلى مصائرهم العظمى! لقد كان حديث طه يسحرني، وشئونه تعنيني. . . لقد كان مجرد اسمه يذكر أمامي يجعل نفسي تتفتح مبتهجة كأنها زهرة مر عليها نسيم! وربما كنت أنا أيضاً أنزل من نفسه بعض هذه المنزلة. فقد كتب ذات مرة يقول: (إني أسمع اللوم لأني أحب توفيق الحكيم، وأقرأ الشتم لأني أكبر توفيق الحكيم، وأنا أبسم للوم اللائمين وأضحك لشتم الشاتمين. لأني لم أحب هذا الكاتب إلا لأنه ألهمني الحب، ولم أعجب بهذا الكاتب إلا لأنه ألهمني الإعجاب!)
لكن. . . وا أسفاه! لقد تغلب أولئك الشاتمون واللائمون آخر الأمر، وفازوا بمأربهم وأشعلوا نار الوقيعة بيننا، واضعين أيديهم على مواطن الضعف فينا، وضعف الفنان هو عزته وكرامته وإن شئت فقل غروره. . . وهكذا لم يستطع طه حسين أن يحتفظ طويلاً بابتسامه وضحكه أمام الساعين بالسوء؛ ولم أستطع أنا أن أحتفظ باتزاني، فأنقذ المودة الصادقة، وأضحي بالعزة الكاذبة. . . وبهذا حطمنا تلك الجوهرة التي منحتنا إياها السماء. . . من أجل. . . من أجل ماذا؟
لست أدري ما حدث بعد ذلك، فذاكرتي الآن لا تسعفني، كل ما أذكر أننا حاولنا أن نرم ما تحطم. . . ولقد أقمنا معاً بعض الصيف في جبال الألب. . . فضحكنا كثيراً، ولهونا طويلاً، بل لقد ألّفنا معاً هناك كتاباً. . . ولكن. . . ولكنها مع ذلك لم تكن الصداقة الأولى. . . لماذا؟ لعل شيئاً في نفسينا لم يكن صافياً كل الصفاء، أو في نفسي أنا على الأقل. . . إني أعترف، لقد كنت أمتنع عن كل ما يؤخذ علي أنه ملق أو زلفى. . . لقد كان طه حسين وقتئذ كما هو الآن شخصية ذات نفوذ، وأنا أكره إرضاء أصحاب النفوذ
أنا الذي كان ينبغي له أن يهدي إلى طه حسين كثيراً من كتبه، أو على الأقل (أهل الكهف). . . كنت أتردد في كل طبعة تصدر لهذا الكتاب أو غيره، ولم أجد في نفسي الشجاعة أو القوة على القيام بهذا الواجب الضئيل. . . لماذا؟ لأن طه من أصحاب النفوذ! هذا أيضاً ما جعلني أصمت عن التنويه بآثاره وأنا أقدر الناس على فهم ملكاته وهباته. . .
ولكني الآن وقد وضعت بين تهمتين: الزلفى أو نكران الجميل. . . فإني أوثر التهمة الأولى: فلقد سبق أن اتهمت بها في مجال السياسة، فلم تلبث براءتي أن ظهرت، فمن السخف أن أقيم لمثل هذه الأشياء بعد اليوم وزناً. . . لقد كادت تضيع بسببها أيضاً صداقتي (بمحمد العشماوي)، فلقد تجنبته عن عمد بلا جريرة يوم عين وكيلاً لوزارة المعارف منذ أعوام، لكنه فطن إلى الأمر، فما زال يظهر لي من المودة أضعاف ما كان يظهر من قبل، حتى اطمأنت نفسي، وأيقنت أنها صداقة حقيقية بين عقلين وروحين، لا شأن فيها للنفوذ، ولا دخل للمناصب
إن الخلق العظيم حِمل لا يقوم به غير العظماء. . .! هم وحدهم الذين أعطوا الشجاعة والقوة على أن يسيروا قدماً نحو الجميل النبيل من الأخلاق دون أن يلتفتوا يميناً أو يساراً، ودون أن يصغوا إلى همس الهامسين وتأويل المؤولين!!

والآن، لعلي قد رددت على كلمة الدكتور طه حسين التي نشرها في (الأهرام)، ولعله اقتنع بأن الأمر لم يكن جحوداً ولكنه تردد، وهذا لا يغير من الموقف كثيراً، ولكن هذا خلقي، فليساعدني على علاجه أصدقائي!!

أنا الذي لا ينام الليل إذا استدان قرشاً حتى يوفيه، هل كنت أستطيع أن أنام طويلاً على دين مثل هذا الدين؟!

وبعد. . . فليسمح لي الدكتور طه أن أداعبه قليلاً: إنك - أيها الدكتور العزيز - قد شهرت أمري للناس هذه الشهرة الواسعة. . . ولكن. . . هل ترى وقد مضى على ذلك نحو عشرة أعوام - أن الأدب العربي قد أفاد حقّاً من ذلك شيئاً يستحق هذا العناء؟ قد تجيبني بابتسامتك الساخرة: (وما لنا وللأدب العربي؟ حسبك أنك أنت قد انتفعت يا توفيق الحكيم!)

آه. . . أيها الدكتور العزيز. . . هنا تجدني أجيبك بابتسامة حزينة: إني لم أنتفع بقدر ما أضعت، فإن الشهرة قد جاءتني حقيقة ببعض المال. . . ولكن، هل كنت محتاجاً إلى ذلك المال؟ إني لم أكن معسراً ولا فقيراً. أجاءتني بالمركز الاجتماعي؟ كلا. . . قد كنت قبلها من رجال القضاء المحترمين، ولو أني بقيت كذلك، ولا شيء غير ذلك، لظفرت بالحياة الهانئة الهادئة النافعة - على الأقل - للعدالة والناس، ولتزوجت الزوجة الصالحة، وأنجبت الأولاد البررة المفلحين. . .

ولكن الشهرة وما يحيط بها من الإشاعات والأقاويل والأباطيل قد حالت بيني وبين ذلك الخير؛ فبعد أن كانت تسعى إلى طلبي الأسر وأنا في القضاء تحوطني الثقة والهيبة أصبحت تنفر مني اليوم ويحملني الجميع عبء الإثبات لأقنعهم بأني محل ثقة واطمئنان! لقد جاوزت الأربعين وما أبصر بعدُ في الأفق طيف واحة مورقة في صحراء حياتي المحرقة. ما قيمة الشهرة بغير سعادة؟ وفيم الأدب والفن بغير هناء؟ إن أردت الحقيقة أيها الصديق فإن خير ما أعطيتني كانت صداقتك الأولى التي دامت شهرين. . . ثم. . . ثم إذا كل شيء بعد ذلك يتحول إلى كلمات في كلمات وهباء في هباء. . . والسلام.

توفيق الحكيم

الدكتور طه حسين يتحدث عن:

الحب الضَائع

للدكتور زكي مبارك

حين تلطّف صاحب العزة الدكتور طه بك حسين فأهدى إليّ نسخة من (دعاة الكروان) لم يفته أن يقول إنه سيعدي إليّ بعد أسابيع نسخة من (الحب الضائع)

وقد التفت ذهني إلى مدلول هذا القول، فمن عادة الدكتور طه أن يتظاهر بالتواضع، وأن يعلن أنه لا يعني ما يقول، وأن الناس لا يقبلون على مؤلفاته إلا متفضلين، فكيف حرص هذه المرة على التبشير بكتابه الجديد؟

وزرته بعد ذلك في مكتبة بوزارة المعارف لشأن من الشؤون التعليمية فأدركت من سياق كلامه أنه سيرسل إليّ كتابه الجديد يوم الخميس، فما هذا الكتاب الذي يحدثني عنه الدكتور طه مرتين قبل أن يظهر في أسواق الورّاقين؟

ثم جدّت شواغل صرفته وصرفتني عن التلافي نحو أسبوعين، فلم يُهد إليّ كتاب (الحب الضائع) إلا يوم أهديت إليه كتاب (ملامح المجتمع العراقي)، والجروحُ قِصاص!

كان من همي أن أعرف ماهيّة الكتاب الذي بشرني به الدكتور طه مرتين قبل أن يظهر في الأسواق، فكانت النتيجة أن أقرأ منه خمسين صفحة في الطريق، وأن أستأنف قراءته في العصرية لأفرغ منه قبل أن ينتصف الليل

فما جزاء المؤلف الذي يفرض علينا أن نقرأ نحو 224 صفحة في يوم واحد؟

جزاؤه أن نسوق له الحمد والثناء بغير حساب، فما تسمح الظروف بأن نجد في كل يوم كتاباً يجذبنا إليه بهذا السحر الغريب.

وما (الحب الضائع)؟

هو كتابٌ يصوّر العواطف الطبيعية في الريف الفرنسي لعهد الحرب الماضية. والكتاب ليس بجديد، لا في الروح ولا في الأسلوب، فله أمثال تعدّ بالعشرات أو بالمئات، ومع هذا فلن يقول الفرنسيون حين يُترجَم إلى لغتهم (هذه بضاعتنا رُدّت إلينا) لأن طه حسين حين يقتبس لا يفوته أن يضفي ثوب الابتكار على الاقتباس.

والمهمّ هو تنبيه القراء إلى قيمة هذا الكتاب، فمن المؤكد أن فيهم من تغيب عنه مراميه
على وجهها الصحيح، وقد يكون فيهم من يتصور أنه كتابٌ في الحب، والحبُّ عند الغافلين عبثٌ ومزاح!
هو كتابٌ في الحب، على نحو ما يتصور أديبنا العظيم طه حسين، والحبُّ عند من يكون في مثل حالته العقلية آصرةٌ معقّدة إلى أبعد الحدود، فهي تمسّ الآباء والأمهات قبل أن تمسّ البنين والبنات، وهي تقلقل المجتمع قلقة لا يعرف مداها غير المشغوفين بدراية أهواء العقول وأحلام القلوب
والمؤلف يُجري الحديث على لسان فتاة تؤرّخ حياتها من مساء إلى مساء، بعبارات فطرية قليلة التنميق والتهويل، وهو في أثناء ذلك يُنطق الفتاة بأقوال تفصّل من العُقد النفسية أشياء وأشياء
والمتأمل يرى في الكتاب دقائق يمسها المؤلف برفق، لأنه لا يريد أن يجعل فتاته كثيرة الأستقصاء، وإن زعمت لنفسها نية الاستقصاء، وهذه إحدى النواحي الطريفة في هذا الكتاب الطريف.
فالآنسة مادلين لم تلتفت إلى دفتر اليوميات إلا بعد عصرية قضتها مع صواحب ألِفن كتابة اليوميات، ومن هذا نعرف أن المؤلف يريد النص على أن النساء ينقلن عن النساء أكثر مما ينقلن عن الرجال
ثم نمضي مع صاحبة اليوميات فنعرف أنها تعيش بين أهل جعلت فواجعُ الحرب أيامهم بؤساً في بؤس، ومع هذا يحتال المؤلف فينطق الفتاة بكلمات نعرف منها أن للشباب أحلاماً تُنسي أصحابها فواجع الحرب، فقد رأينا مادلين تداعب خيال العيش المقبل من وقت إلى وقت، برغم ما يعاني أهلها من متاعب وكروب
وكلام المؤلف في تصوير عواطف الأبوّة والأمومة عند الفرنسيين غاية في الصدق، وهو يسوق كلامه على قلم الفتاة بأسلوب حزين، يلائم الحياة في ذلك البيت الحزين.
والواقع أن (عاطفة السَّكن) قوية عند الدكتور طه إلى أبعد الحدود. والسكن هو الكلمة العربية التي تماثل الـ في اللغة الفرنسية، فهو حين يدور حول هذا المعنى يفصِّله أجمل تفصيل، وبلا تكلف ولا افتعال
ولم يكن بدٌّ من الحديث عن الوطنية الفرنسية لعهد الحرب الماضية، فهل ينشئ المؤلف
خطبة على لسان تلك الفتاة؟
يكفي أن يشير إلى أن تلك الأسرة ظهرت فيها ظاهرة من جنون، وهي تطوُّع الأخ الأصغر للخدمة العسكرية قبل أن يبلغ سن الحرب، فقد كان يقول:
(صُرع أحد أخويَّ وجُرِح الآخر، وما ينبغي أن تخلو ميادين الحرب من أحدنا). وهي عبارة في غاية من القوة، وقد ساقها المؤلف في بساطة توهم أنه لا يعني ما تنطوي عليه من مقاصد وأغراض.
وهنالك نظرية أخلاقية تعرض لها المؤلف في عدة مواقف، وهي النظرية الخاصة بمواجهة الحياة، ومن رأى المؤلف أنه لابدَّ للأحياء من أن يعيشوا، وأن اجترار الأحزان مرض يجب دفعه بلا إمهال
ولا يفوت المؤلف أن ينص على ما يقع من المضارّة بين الأخ والأخت، ولا يفوته أن يجسِّم النفاق الذي يقع في البيوت عند تبادل الاستغفال بين الجيل القديم والجيل الجديد
وأقول مرة ثانية إني أريد تنبيه القراء إلى قيمة هذا الكتاب لأنه كُتِب بطريقة يغلب عليها الرمز والإيماء، وإن كان غاية في الصراحة والوضوح، عند من يساير المؤلف في أشواطه الطوال
وهل فيمن قرءوا هذا الكتاب من تنبَّه إلى نظرية دقيقة ساقها المؤلف في أسطر معدودات بالصفحة الثامنة والستين؟
في تلك الأسطر يشير المؤلف إلى أن الحيوان المتوحش يحتلّ صدر الإنسان المتحضر، ولم يفته إلا النص على أن الحضارة سلاح جديد يزيد التوحش ضراوة إلى ضراوة واستذآباً إلى استذآب
وهنالك صفحة عجيبة غريبة تذكِّر بأدب أبي حيّان التوحيدي في تشريح العواطف، وهي

الصفحة الخاصة بالشوائب التي تفسد الوداد، ومن تلك الصفحة تعرف كيف جاز أن يتعرض الدكتور طه لتقلبات في المودَّات والصداقات يستفظعها منْ لا يعرف ما فُطِر عليه من توهج الإحساس

تلك الصفحة تفسر ما يقع فيه الدكتور طه من وقت إلى وقت، فهو يقطع ما بينه وبين أصدقاء لا يجود بأمثالهم الزمان، وهو قد يصل أقواماً لا يمتُّون إلى روحه بسبب قريب أو

بعيد، ولعله أكثر الناس ابتلاءً بالمخادعين والمرائين، لأنهم أحرص على مراعاة الظواهر من المصافين والموافين، والكاذب يسبق الصادق إلى امتلاك القلوب الخواضع لخوادع الوداد

وتلك الصفحة غاية في القوة من الوجهة الأخلاقية، فالجهل يصدنا عن مراعاة الواجب في معاملة الأصدقاء، فتنوهمهم يقبلون منا كل شيء، ويغفرون لنا جميع الذنوب، ولو عقلنا لأدركنا أن الصديق ينتظر أن يسمع منا ما يحب في كل وقت، ويرجو أن نرى سيئاته أشرف من الحسنات، وأن نعدَّه أعظم مخلوق جادت به على الأرض السماء ومن يُسمع الصديق كلمة اللطف إذا بخلنا بها عليه؟

وما حاجة الصديق إلينا إذا صارحناه بعيوبه كما نصارح الأعداء؟

آفة الصداقة أن نعاملها كما نعامل العداوة، باسم الحرص على الشجاعة الأدبية، مع أن للصداقة حقوقاً أيسرها التغاضي عن هفوات الصديق

ونحن في الغالب نلاطف الأعداء ليصيروا أصدقاء، ونتناسى حقوق الأصدقاء، لأن ودهم مضمون، ثم تكون النتيجة أن يعدّنا الأعداء من أهل الرياء، وأن يعدنا الأصدقاء من أهل العقوق

والدكتور طه لا يلتفت إلى ما يفسد الصداقة عن عمد وإصرار، لأنه أوضح من أن يحتاج إلى التفات، وإنما يلتفت إلى الشوائب التي تصدر عن نبرات الصوت، وحركات الجسم، ولحظات الطرف، وهي (أشياء يسيرة تحسُّ وتُلحظ، ولكنها لا تكاد تثبُت للتصوير والتعبير. هي أيسر من ذلك وأدق. هي تنفذ من أعماق النفوس إلى أعماق النفوس، لا تكاد تمر على الألسنة، ولا تكاد تستقر في العقول، ولا في مظاهر الحس والشعور، وهي من أجل ذلك مؤذية مهلكة شديدة الخطر على الحب والود، وعلى ما بين الناس من صلات، هي أشبه بهذه الجراثيم التي كانت تفتك بحياة الناس وتذيع فيهم ألوان الوباء والموت دون أن يحس لها الناس وجوداً، أو يستطيعوا منها احتياطاً. ولكن العلم قد كشف هذه الجراثيم، وأخذ يعلّم الناس كيف يعرفونها وكيف يدرسونها وكيف يتقونها. . . فمتى يستكشف العلم هذه الجراثيم المعنوية التي تفسد الود وتفتك بالحب وتقطع أمتن ما يكون بين الناس من صلات؟)

وهذا كلامٌ نفيس جداً، وهو غرة هذا الكتاب النفيس

ثم تكون المشكلة الأساسية، وهي زعزعة الحب في قلوب الأزواج، وفي هذه المشكلة يتحدث الدكتور على لسان مادلين حديث الخبير بدقائق هذه الشئون، فيرينا أن عاطفة الحب تحتاج إلى رعاية موصولة، وأن المرأة قد تفقد قلب زوجها حين تُشغل عنه بشاغل شريف مثل تربيب الأبناء

وأقول: إن لهذه المشكلة جوانب مختلفة، فالذرية قد تقوّي الحب بين الزوجين، وربما جاز القول بأنها تخلِّد ذلك الحب، ولكن على شرط أن يَسلم الزوج من الفتن الخارجية، وهي فتن لم ينج منها زوج مادلين

والحق كل الحق أن المرأة لا تُشغل عن زوجها بشيء، وهي لا تحب أطفالها إلا لأنهم مظهر الصلة بالزوج، فإذا استطاعوا أن يصدوها عنه بسببٍ قريب أو بعيد، فهم لها أعداء

أما بعد، فلقصة (الحب الضائع) ذيول يضيق عنها هذا الحديث، وسيلّم بها القارئ في أناة وهدوء، فيدرك مقاصدها الصحاح، ومن المؤكد أنه سيعترف بقيمة هذه القصة من الناحية الأساسية، وهي تجسيم العُقد النفسية، وقد تكون هذه القصة فاتحة لفن جديد في أدب الدكتور طه حسين

فإن لم يكن بدٌّ من توجيه بعض المؤاخذات إلى المؤلف، فأنا أوجه إليه مؤاخذتين اثنتين: الأولى لفظية والثانية معنوية:

أما المؤاخذة الأولى، فأمرها هيّن، وهي الخطأ في بعض الأفعال، والتكلف في بعض

التعابير؛ فهو قد استعمل الفعل (آويت إلى. . .) مرات كثيرة بهذه الصورة، وذلك يشهد بأنه ليس غلطة مطبعية، وإنما هو خطأ وقع فيه المؤلف؛ والصواب (أويت)، لأنه مجرد لا مزيد. . . وهو قد أكثر من عبارة (هاأنا هذه)، وهي عبارة ثقيلة لا تستحق غير الموت أما المؤاخذة الثانية، فهي خطيرة، ولكن كيف؟

قصة (الحب الضائع) تسير في الطريق الذي يسميه الفرنسيون فهي قصة تشرح نظرية أو نظريات، والمؤلف نفسه حدثنا أن راوية الحديث ديكارتية العقل، فهل كان الأمر كذلك؟

الدكتور طه هو المنشئ الأول، فهو المسئول عن خطأ مادلين في التشريح والتعليل، ومادلين تنظر إلى المشكلات من جانب واحد، مع أن لكل مشكلة جوانب

قد يجيب بأنه يسوق الحديث على لسان امرأة، والمرأة ترتكز عواطفها في ناحية واحدة، فلا ترى ما عداها من النواحي، ولو بلغت الغاية في التدقيق والاستقصاء

إن أجاب بهذا فسنقول: إنه أضاع فرصة النص على أن مادلين ضلّت سواء السبيل وهي تشرح ما تعرّضت له القصة من علل وأسباب، وكان هذا النص سهلاً على المؤلف لو التفت إليه، فهل يلتفت حين ينشئ قصة ثانية على هذا النحو من الإنشاء؟

بقيت ملاحظة أخيرة، وهي ملاحظة أراها على جانب من الأهمية، وإن تمثلت في صورة جنسية، ولا حياء في الأدب ولا في الدين:

في (دعاء الكروان) جرى الحديث على لسان امرأة، وفي (الحب الضائع) جرى الحديث على لسان امرأة، فما هذا البِدع في حياة رجل من أكابر الرجال؟

وهل يمضي الدكتور طه في إيثار هذا الوضع المقلوب؟

الرأي عندي أن يسير على السُّنة الطبيعية، فيشرح في أقاصيصه أهواء الرجال، ومتاعب الرجال، وأن يترك أهواء النساء ومتاعب النساء لإحدى بنات حواء

ثم أما بعد، فقد شغلت نفسي بالدكتور طه وكتابه سهرتين كاملتين، فمن حقي عليه أن يراعى ما نبهته إليه، وله مني خالص التحية وصادق الثناء

زكي مبارك

(أرواح وأشباح)

تحفة فنية

للأستاذ محمد توحيد السلحدار بك

خلقها صاحبها الأستاذ علي محمود طه الشاعر الملهم، فسواها صنيعاً شائقاً يمتع الأدباء أفئدتهم وألبابهم بجماله، ويكبرونه لطرافته وما فيه من أسرار الفن والشعر. . . فما هي هذه الأسرار؟

إن هذا الصنيع منظومة أنافت على أربعمائة بيت في شأن يعني الإنسانية بأسرها، لأنه يتعلق بالفطرة البشرية؛ استوحى الشاعر فيها أساطير الإغريق الشعرية، وسيرة (آدم) و (حواء)، ومعنى هبوطهما من الملأ الأعلى، وخبرة الفنان في حياة الإنسان؛ وفاض شعره من نفس جياشة ومخيلة قادرة أرته أبطاله كأنهم أحياء يسمع أصواتهم؛ وجادت قريحته في تصويرهم، حتى كان من سحر فنه أن جعل قراءه يرونهم ويسمعون حديثهم، كما رآهم في خياله

بهذه المميزات مجتمعة استحق الصنيع اسم ملحمة، وعظم شأنه في الأدب العربي

ليست ملحمة حماسية، بل هي قصة الروح والجسد في محاورة موضوعها تجاذب الرجل والمرأة وأثر الغريزة في الفن بينهما؛ وهذا موضوع جدّي بعيد الغور، أحسنَ معالجته شاعر مثقف

. . .فما هي عناصر الشعر في هذه الملحمة؟ إنها أثمار المخيّلة والشعور وهِزَّة الإلهام

إن الشاعر تخيّل الروح في عالم الأرواح، مجرّدةً يقظي لفضيلتها الملائكية؛ وَتخيّلها - . . .على الأرض - ناعسة في طيفها منذ أمَّها وتضمَّنها ضعيفاً تصوّنها في الإنسان

وتصوّر أرواحاً نزيهة تتحادث في الفن الرفيع بين الرجل والمرأة، وفي الجمال والشهوات والأهواء، وفي الخطيئة وتبعتها على الرجل هي أم على المرأة؟

واختار لهذه المحادثة روح فنان شاعر حان بعثه في الأرض، وأرواح شخصيات من عهد الآلهة والفنانين الذين تصفهم أساطير الأولين، ليدور الحديث بينها في الموضوع على المتبيِّن من سيرة الإنسانية منذ نشأتها حتى اليوم؛ وجعل رمزاً إلى القدرة سمَّاه:

(صوتَ السماء)، ليهديها إلى حقيقة المقدور؛ وفرض أن حرم النزاهة والطهر في السماء مسرح
فسيح الأرجاء، يقع فيه ما تصوّر من انطلاق تلك الأرواح في سحرها، ومن حركاتها وإشاراتها ودلالات ملامحها في محاورتها، ومن مرور الفنَّان بها وهو في صحبة ملّك يجوب به أجواز السماء، ومن اشتراك الثاني في المحاورة، ثم الأول إلى لحظة بعثه. . .
ذلك هو الخيال الأصلي في الملحمة؛ أما فروعه وحواشيه، فهي الخيالات البلاغية في الأسلوب، وقد زان الأصل والفرع من هذا الخيال، وزاد مزيته أعلاق فكرية تتعلّق بالغريزة والنفس والجمال وبالحياة الاجتماعية، ولطائف أدبية كالإشارة إلى مانا وفنون هاواي، وإلى خروج موسى ببني إسرائيل من مصر، وقصته في أرض مدْين فهذه مخيِّلة قادرة اقتطفت من معارف لشاعر، وغيّرت ما كان بين المقتطف وغيره من أوضاع العلاقة والمناسبة، وأنشأت بذلك معاني وصوراً ومشاهد مثالية، أي لم توجد مجتمعة في الحقيقة وإن عُرفت أقسامها متفرقةً؛ وأحيت أبطالاً خياليين فكأنك تراهم في مُتحدّثهم، وتداخلك حساسات وخوالج من مَحضرهم؛ وأودعت الملحمة أثمار فروعها من الألمعيّة والبديهة وغيرهما. . . فمن الألمعية في تشبيهات جديدة قوله:
على مذبح الحب من قلبها ... سراج يسبّح مَن لألأه
. . . . . .
وتمشى الحياة علي نوره ... وما نوره غير عين امرأة
أهلّ بقلب كفرخ القطا ... يرفرف تحت جناح القدر
هو المرح الشارد المستهام ... شرود الفراشة عند المساء
ومن الألمعية في إدراك ما لا يُرى في الشيء أول وهلة وهو على الحقيقة فيه:
هو الحب؟. . . لا. . . بل نداء الحياة ... تلبيه أجسادنا الظامئة
ومن الألمعيّة في توحيد المتضادين:
هنالك (في الأرض) حيث تشبّ الحياة ... وحيث الوجود جنين العدم
. . . . . .
وحيث السعادة بنت الخيال ... ولذتها من معاني الألم
سلا مجده الضخم في قبلة ... تذل وتسعد مَن ذاقها
ومن البديهة كلمة تاييس، حين وصل الشاعر في وصفه حواء إلى هذا البيت:
فيا لَكِ من طفلة فذّة ... ورحماك سيّدة العالَم!
وقالت بليتيس: يحاول بالشعر إغراءنا:
هو الموقف الضنك ما يتّقيه ... كما يتّقي باشق صائده
فجاءت بأبلغ ما يخطر للموافق ويناسب المقام.
أما الشعور فأثماره ما خامر الملحمة من الوجدانيات؛ وهي عنصر أساسي في كنه الشعر كالخيال: لأن الحب والبغض، واللذة والألم، أمور توجد في صميم الشهوات والأهواء والخوالج الإنسانية جميعاً، أيّا كان باعثها وكان الاسم الذي تسمى به؛ والأصل أن خاصَّة التلذذ والتألم والحب والبغض، وطلبِ كل جميل ونفع وخير، وتجنّبِ كل قبيح وضر وشر، هي خاصة في البشر أجمعين. ولذا فإن كل حسَّة تعرو نفس إنسان ويصفها وصفاً صادقاً تجدلها صدى في القلوب. وشاعرنا الملهم صادق الوصف في ملحمته. وحسبنا شاهداً وقع هذه الأبيات من وصفه حواء:
وكم ذكريات لها عذبة ... أعيش عليها وأحيا بها
. . . . . .
يسائلني القلب عن أمرها ... وأسأله أنا عن سرها
ويعطفني في الهوى ضعفها ... وأنسى بأني في أسرها
. . . . . .
أحاول أفهمها مرة ... فأعيا بها وبتفكيرها
ومن وصفه استنكار بليتيس في غضبتها على الفنان:
تأثّم بالفن حتى غوى ... وما الفن بالمرأة الخاطئة
. . . . . .
ألم ينسم الخلد من عطرها ... ألم يعبد الحسن في زهرها؟

ومن وصفه هوى الانتقام في بليتيس إذ تقول:

أدلّه هذا الفتى ... .

وأغرس في قلبه زهرة ... من الشر راوية نامية

. . . .

إذا استافها الرجل العبقري ... تحول كالحيوان الوخِم

تضج البلاهة من حوله ... وينظر كالصنم المبتسم

وإذا ما تضاعفت نشاط الذهن والمخيلة، وزادت يقظة الشعور حتى تناهى نشاطهما ويقظته معاً، فذلك فوران النفس الشحوذ في الشاعر الموهوب فوراناً يضطره إلى الإفضاء بما يخامرها، فيتبعّث منها الشعر؛ وذلك هو شيطان الشاعر في حسَّة تجليه؛ وتلك هي الملكة أعظم ما تكون حرية وانطلاقاً، وأرفع ما تكون سمواً، وهي بعينها هِزَّة الإلهام الذي ابتدع هذا الصنيع الباهر

ولقد كملت صفاته الشعرية بما عليه من مسحة عقلية، لا من العقل الفلسفي الهادئ، بل من العقل الذي جعل الملحمة مشابهة للحقيقة، إذ خلت من التناقض في مواقف أبطالها وفي نفوسهم الظاهرة أحوالها من كلامهم على ما شاءت لهم الفطرة والأقدار واستقام في خيال الشاعر.

ومما زاد الملحمة مشابهةً للحقيقة إتقان المحاورة بين أبطالها، إتقاناً جعلها حية، طبيعية، شائقة، فقد أبدى كل منهم رأياً وعرض حججه، وفي كل من آرائهم شيء مقبول، أو على ظاهر من الحق؛ وكان كلامهم سؤالاً يستدعي جواباً، أو قولاً يجلب اعتراضاً أو تحذيراً؛ واستيقافاً يسلّم صاحبه جدلاً، أو يبدي تحفظاً؛ وبياناً يحوز موافقة، أو يثير دهشة أو إعجاباً

ثم إن هذا الموضوع خرج في وحدة سالمة من الاضطراب ومن النظام الرتيب، إذ له مدخل شعري لطيف الإشارة إلى الغرض منه، ووسط يشرحَه، وخاتمة يحسن السكوت عليها؛ وأجزاؤه مرتبة ترتيباً يوثق العلاقة بينها، ويشد فيه بعضها بعضاً، ويجمع بينها ارتباط قويّ.

ومن صفات هذه الملحمة وضوح موضوعها لأن وقائعه مختارة بذوق سليم، مسلسلة سلسلة طبيعية معقولة، خاصة من كل تفصيل لا طائل وراءه، ومن كل حادث أو موقف ليس يوافق شرح هذا الموضوع أو ليس بسبيله.

وزد أن الملحمة كلها شائقة جد شائقة بما بين أجزائها من تناسب موفّق، وبما فيها من إشارة - عن بصيرة وفي قصد - إلى الأسباب في أقوال أبطالها وفي حركاتهم، ومن تشويق إلى الوقوف على الحكم في آرائهم الشائقة في ذاتها، وإن كانت لا تحول حيلولة

دون تمكين البصير من حَزَره قبل الأوان؛ وأيضاً أن عنصر الوحدانيات داخل في المواضع الملائمة من الكلام المزدان - على اعتدال - بخواطر نيّرة، وعبارات أنيقة وإشارات بارعة. ومن إشارات:

دعي الوهم سافو ولا تحقري ... بليتيس معجزة الشاعر

فما نتّقيه بحيّاتنا ... إذا هو ألقى عصا الساحر

ومنها:

رأى جسم (حواء) فاشتاقه ... فهاجت به النزوة المسكرة

. . . .

سما جسمها وتأبّى عليه ... فجرَّد في وجهها خنجره

هذه ملحمة شائقة أيضاً بأسلوب من الفصاحة والبلاغة لاءم موضوعها، وتلوَّنت لهجته تبعاً لطبيعة ما تضمن من خواطر وجدانيات؛ وهو أسلوب محكم الصياغة دقيق، إن أضيف إليه شيء - بغض النظر عن ميزان الشعر - أضعف المعنى فيه، وإن حذف شيء منه أحدث الحذف غموضاً؛ سليم من التصنع لخلوّه من مخالفة طبائع الأشياء بالغلو والإغراق في المعنى، أو بالمجازات والاستعارات البعيدة، أو بفرط المحسنات، أو بكل أولئك؛ أسلوب واضح من ذلك الوضوح الذي يكون في طبيعة ذهن المنشئ قبل أن يكون في معانيه، ويكون في معانيه قبل أن يكون في كلماته وكلمه، منسجم في ائتلاف شامل وجرس مطرب

ذلك هو الشعر المتدفق من ملكات طليقة حرّة، ومن عقلية مثقفة، في أسلوب عربي

مبين، عليه طابع من الوضوح والأناقة، معتاد من صاحبه؛ وليس كشعر يتقطّر من ملكات طغت عليها الحافظة، ويقال في موضوعات لم يؤثر شيء منها في نفس الناظم، وإن كثرت في النظم كلمات ومعان يغلب وجودها في الشعر

وتلك أسرار الشعر والجمال والفن الرفيع في كتاب: (أرواح وأشباح): الذي جمع من المميزات ما جعله تحفة فنية بديعة ضُمَّت إلى كنز الأدب العربي الخالد، وبرهاناً على فضل المجدد والتجديد.

محمد توحيد السلحدار

الزكاة

هي التأمين الاجتماعي من الفقر والجوع

للأستاذ عبد العليم رزق الدهشان

إن الله فرض على أغنياء المسلمين في أموالهم قدر الذي يسع فقراءهم، ولن يجهد الفقراء إذا جاعوا وعروا إلا بما يصنع أغنياؤهم. ألا وإن الله يحاسبهم حساباً شديداً ويعذبهم عذاباً أليماً (حديث)

ما هو (التأمين الاجتماعي)؟ (2) أساسه (3) الفرق بينه وبين الإعانة (4) تطور (1) فكرته واتساعها (5) التأمين ضد البطالة (6) الفكرة قديماً وحديثاً (7) المشرع الإسلامي أول من حقق الفكرة بفرضه (الزكاة) (8) مقارنة سريعة بين الزكاة وبين التأمينات الاجتماعية عامة (9) حاجتنا اليوم لضريبة خاصة تفرض لصالح الفقير.

1 - (التأمين الاجتماعي) تعبير حديث يطلقه المتشرعون على نظام من التأمين يقصد به حماية (الجماعة) ضد أخطار الطبيعة والاقتصاد التي لا يد لها فيها ولا حيلة لها لدفعها: كالموت والشيخوخة والبطالة. . . الخ. ويقصدون (بالجماعة) هنا مجموعة الأشخاص الذين اضطرتهم ظروفهم المادية إلى تكوين طبقة اجتماعية خاصة؛ ويخصصونها عادة لطبقة (العمال) لأنها الطبقة التي لا تستطيع - لفقرها - أن تدرأ عن نفسها وطأة هذه الأخطار

2 - وفكرة التأمين الاجتماعي هي فكرة التأمين العادي، فأساس كليهما الأقساط الدورية التي تدفع لضمان التعويض عن خطر متوقع. غير أن التأمين الاجتماعي يمتاز عن التأمين العادي بأنه ليس تأمين فرد لمصلحته الخاصة، ولكنه تأمين جماعة لصالح أفرادها. فهو مبني على فكرة التضامن بين أفراد الأمة، فيساهمون جميعاً - كل على قدر سعته - في دفع أقساط هذا التأمين، وتتولى الدولة جمعها منهم على شكل ضريبة أو رسم. فيصير التأمين بذلك التزاماً اجتماعياً عاماً كالخدمة العسكرية، والتعليم الإلزامي، والالتزامات الصحية وغيرها. وبهذا لا يتحمل المؤمن لمصلحته تكاليف التأمين الاجتماعي، بل يتحملها أفراد الجماعة القادرون، برغم عدم انتفاعهم بهذا التأمين

3 - ويختلف التأمين الاجتماعي عن (الإعانة) في أنه حق للعامل، له أن يطالب به بمقتضى نصوص القانون، دون أن يكون في هذا مساس بكرامته أو امتهان لآدميته، في حين أن الإعانة ليست إلا هبة لا حق له فيها؛ فهي صدقة تمنح أو تمنع بحسب رغبة المحسن، ولو كان هذا المحسن هو الدولة

4 - لهذا. . . أخذت التشريعات الحديثة بفكرة التأمين الاجتماعي، وطبقتها على كثير من أخطار النشاط الاقتصادي. وكان أول هذه المخاطر عناية منها (مخاطر الحرفة)، فأوجبت نوعاً من التأمين يقوم بدفع أقساطه أرباب الأعمال والدولة لصالح العمال ضد (حوادث العمل)

ثم اتسعت فكرة التأمين الاجتماعي، وشملت نواحي أخرى كثيرة، فظهر تامين ضد (المرض) يعطي العامل الحق في نفقات العلاج وتعويضه عما يخسره مدة مرضه؛ وتأمين ضد (العجز) يعطيه الحق في التعويض عما يفقده من قوته أثناء العمل، وتأمين لمصلحة (الأرامل والأيتام) ضد وفاة عائلهم، وتأمين ضد (الشيخوخة) يعطي لمن بلغ سناً معينة إيراداً سنوياً

5 - ولم تقف فكرة التأمين الاجتماعي عند هذا الحد، بل اتسعت غايتها واتجهت حديثاً نحو نوع هام من التأمين، هو التأمين ضد (البطالة) ذلك الخطر الاقتصادي الذي يلحق بالعامل فيحرمه عمله، مصدر قوته، وعماد حياته، رغماً عنه، وبدون خطأ منه. . . فليس من العدل ولا من المنطق أن يوجد نظام للتأمين ضد أخطار وقتية، كالإصابة

والمرض، دون أن يفرض نظام للتأمين ضد هذا الخطر الفادح. وخاصة بعد ظهور النظريات الإدارية الحديثة التي جهرت بأن وظيفة الحكومات لم تعد قاصرة على الدفاع عن البلاد وضبط الأمن في داخلها، وإنما عليها - إلى جانب هذا - واجب هامٌّ هو: (الإسعاف الاجتماعي) لحماية الشعب من التفكك والانهيار. و (البطالة) من أهم عوامل الاضطراب الاجتماعي، لأنها تخلق في نفوس العمال وفي الأمة بأسرها روح عدم استقرار، كما أنها تعطل قوى الدولة المنتجة وتزيد فيها نسبة الجرائم لهذا - وبرغم الاعتراضات الكثيرة التي ووجه بها هذا النوع الجديد من التأمين - اضطر بعض الدول - أخيراً - إلى الأخذ به حماية للعامل المتعطل من مفاسد الفقر والجوع، وحماية لكيانها من انتشار الأفكار المتطرفة الهدامة. وكانت إنجلترا أسبقها جميعاً في هذا المضمار، ففرضته بقانون 16 ديسمبر 1911 بينما لم تأخذ به ألمانيا إلا عام 1927. وقد قدر ما دفعته إنجلترا على هذا النوع من التأمين وحده في مدة عشر سنوات من 1920 إلى 1930 بمبلغ 640 مليوناً من الجنَيهات.

والتأمين ضد (البطالة) هو أسمى ما وصلت إليه فكرة التأمينات الاجتماعية من الرقي؛ وتحمل مزاياه - التي يجنيها العامل والدولة معاً - على الاعتقاد بوجوب تعميمه بين كافة أفراد الأمة ممن هم في حاجة إليه. على أن هذا الاعتقاد لا يعدو - حتى الوقت الحاضر - طور الفكر والخيال عند الدول التي أخذت بهذا النوع من التأمين، فما زالت هذه الدول تقصره على بعض طوائف العمال في بعض الصناعات، ولم تجرؤ أكثر الحكومات مشايعة للعمال على تعميمه لأن الحكومات تراه عبئاً على الميزانية، وإثقالاً لكاهل دافعي الضرائب من الأغنياء. . .

6 - دع ذلك. . . ففكرة تعميم هذا النظام التي تشغل الآن عقول الدول، كانت قد شغلت قبلهم منذ أقدم العصور، عقول الاقتصاديين والفلاسفة.

ففكر (أرسطو) في وجوب التعاون بين أفراد الشعب أغنياء وفقراء في نظريته: (النقود لا تلد النقود). وتكلم (سان توما داكان) على وجوب التعاون بين الطرفين على إيجاد معيشة هادئة، في نظريته (الثمن العادل) وأخرج (لا سال) نظريته عن (الأجر الحديدي) قاصداً بها هذا المعنى. وتعتبر أفكار (سيسموندي) أساساً لفكرة التأمين الاجتماعي عندما تكلم عن وجوب تدخل الدولة لحماية العمال من المرض والبطالة. كما يعتبر (لبلاي) صاحب مذهب الإصلاح الاجتماعي، لأنه فكر تفكيراً جدياً في وجوب بناء الجماعة على أساس من الأخلاق والدين، لا على المادة وحدها، وقال بأن وظيفة الدولة بالنسبة لأفرادها، ووظيفة رب العمل بالنسبة لعماله، يجب أن تكون هي وظيفة رئيس العائلة بالنسبة لأفراد أسرته. كذلك نادى (البرت دي من) بوجوب الاحتفاظ بكرامة الإنسان، فلا يصح اعتباره آلة يركن إليها وقت الحاجة فقط. وقال (ليون بورجوا) بوجوب التضامن بين أفراد الدولة بناء على نظريته (شبه العقد)؛ فالإنسان يولد مديناً للمجتمع بعمل الأجيال السابقة، ووفاء دينه لا يكون إلا بمساعدته بقية أفراد الأمة. وظهرت حديثاً نظرية (الفائض الاجتماعي) لـ (أفتاليون) وفيها يقول بوجوب تدخل الدولة لتفرض على الأغنياء القيام بالتضحية لصالح الفقراء، لا على سبيل الصدقة أو الإعانة، ولكن لأن الملكية الخاصة نوع من الامتياز تمنحه الهيئة الاجتماعية للأفراد بناء على فكرة المصلحة العامة. وعند (برناردشو) في كتابه (رأس المال) أن الذهب المودع في المصارف إنما هو قيمة معادلة لما زاد على حاجة الغنى من أرغفة الخبز وقطع الجبن واللحم، وعليه إعادة بعضها لأخيه الفقير ليستعين بها على القيام بالعمل المنتج.

7 - هذه هي فكرة التأمين الاجتماعي وما بلغته من رقي، وتلك هي أحلام الفلاسفة والاقتصاديين عنها؛ فهل جحدها المشرع الإسلامي أو وقف منها موقف العاجز؟ . . .!

الحق الذي لا مراء فيه أن المشرع عندما فرض الزكاة ركناً من أركان الإسلام الخمسة، منذ ألف وثلاثمائة وستين عاماً قد حقق بها أحلام هؤلاء الفلاسفة، وأوجد في حيز الإمكان والعمل ما عجزت عنه - حتى اليوم - أحدث الحكومات. بل إنه قد سما بالفكرة إلى درجة التقديس، وأنزلها منزل العقيدة والإيمان، وذكرها مقرونة بالصلاة في اثنتين وثمانين آية من القرآن، فجعل إعطاء الفقير والبائس والمحروم، ما يحتاجون إليه من غذاء وكساء ومأوى. . . عبادة لله. . .

8 - ولا شك أن (الزكاة) تأمين اجتماعي عام إجباري ضد الفقر والجوع:
(1) فهي (تأمين): لأنها مبنية على فكرة دفع أقساط حولية، لضمان التعويض عن خطر متوقع، أو واقع هو الفقر.
(ب) وهي تأمين (اجتماعي): لأنها مبنية على فكرة التضامن بين أفراد الأمة، فيساهم الأغنياء - كل بحسب ثروته - في دفع أقساطها لصالح الفقراء
وقد حدد الشرع فيصلاً بين الغنى والفقر بأشياء خمسة: منزل للسكنى، وملابس عادية ضرورية، وغذاء يوم كامل؛ وقال البعض شهراً: ودابة للركوب، وسلاح للجهاد. . . فمن زاد ماله على هذه الخمسة فهو غني تجب عليه الزكاة فيما زاد، ومن نقص ماله عنها، فهو فقير تجب له الزكاة
(ج) وهي تأمين (عام): لأنها لم تفرض لصالح فئة معينة أو طبقة معينة، ولكنها فرضت لصالح كل شخص اضطرته الظروف فأحوجته، سواء أكان عاملاً أم غير عامل.
(د) وهي تأمين (إجباري): لأنها واجب محتم على الأغنياء لصالح الفقراء، وعلى الحكومة
أن تتقاضاها طوعاً أو كرهاً، حتى قال عنها الخليفة الأول (أبو بكر): (والله لو منعوني غفال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه)؛ وقد قاتلهم فعلاً. . .
وبهذا تمتاز عن التأمينات الاجتماعية الحديثة التي بقيت اختيارية في كثير من الدول فرنسا. . .!!
(هـ) وهي - أخيراً - تأمين ضد (الفقر والجوع): فهي لا تقتصر على نوع معين: كالإصابة، أو المرض، أو العجز، أو الشيخوخة؛ ولكنها تشمل هذا جميعاً، كما تشمل (البطالة) كسبب أساسي للفقر والجوع، بل وتمتد إلى الأخطار الطارئة، حتى تشمل من خانته الظروف، فأصبحت ثروته مثقلة بالديوان!!
ومن انقطعت به الطريق أثناء السفر فلم يجد ما يعينه على بلوغ الغاية أو الرجوع. . .
9 - هذه هي (الزكاة): تأمين الإسلام ضد الفقر والجوع، وركن من أركانه الخمسة، فهل فكر فيها ولاة الأمور - في دولة دينها الرسمي هو الإسلام - كحل حاسم لما يعانيه الشعب الآن من عنت وضيق وحرمان؟ أو هل فكر فيها ولاة الأمور، لا على أنها زكاة، فليست العبرة بالأسماء، ولكن بالمسميات، بل على أنها قانون يجب أن يُفرض لصالح الفقير، كما فرض في بلاد العالم المتمدينة التي تعمل حكوماتها لصالح الشعب، لا لصالح طبقة المترفين؟!
نذكر أنه في أواخر شهر مارس من العام الماضي، وجه أحد النواب سؤالاً إلى رئيس الوزراء عن (إلزام الأغنياء بدفع زكاة أموالهم. . .)؛ فأجابه دولة سري باشا بأن: (الحكومة ترى أن نظام الضرائب المتبع في مصر لا يخرج عن أن يكون صورة من صور الزكاة. . .)!! وقد قابل النواب هذه السؤال بضجة، اختلط فيها الضحك بالاحتجاج!! (هكذا): الصفحة الأولى من (أهرام) أول أبريل سنة 1941
أما ضحك نواب الأمة على هذا السؤال فإنما يذكرنا بقول المتنبي:
وكم ذا بمصر من المضحكات ... ولكنه ضحك كالبكا
وأما نظام الضرائب المتبع فليس صورة من صور الزكاة في شيء. فهذه التي تجبى، لا حق للفقير فيها، ولكنه حق الدولة تتقاضاه لتصرف منه على شئونها. . . ولا يوجد لصالح الفقير، في مصر، قانون ينظم له إعانة أو يفرض له حقاً. . بل على العكس يعتبر القانون
طالب الإعانة متسولاً، والمتعطل ومن لا مأوى له متشرداً ومشبوهاً، ولا جزاء ولا صلاح لهؤلاء إلا السجن! وإعانة الحكومة - إن وجدت - فهي اختيارية، ويقتصر أكثرها على مكافحة الأمراض بإنشاء المستشفيات. فليس للفقير - في هذه الدولة أيضاً - أن يرغم الدولة على أن تبنى له مستشفى!
هذا. . . في حين أن (الزكاة) هي (تمليك مال معلوم لشخص معلوم) ذلك لأنها (تأمين) لا يصرف إلا للمؤمن له فحسب، أي للفقير. وقد قال أبو حنيفة: (لا يجوز أن تصرف الزكاة في بناء مسجد أو مدرسة أو في حج أو جهاد أو في إصلاح طرق أو سقاية أو قنطرة، أو نحو ذلك من تكفين ميت. . . الخ وكل ما ليس فيه تمليك لمستحق الزكاة). ذلك لأن التمليك ركن من أركانها. . .
فما أوسع الفرق إذن بين (الزكاة) وبين الضرائب الحالية في مصر!!

وبعد. . لقد سمعنا، أخيراً، رئيس الحكومة يتحدث عن (العدل الاجتماعي) ويقول: (إن مصر ملك مشاع لجميع المصريين) و (أن هناك حداً أدنى لمطالب الحياة يجب على المضطلعين بتبعات الحكم أن يوفروه للفقراء. . .)

وسمعنا من مدير الجمعية الزراعية - في الاجتماع الزراعي - أنه يعمل شخصيّاً في مزارعه الخاصة على أساس من الإصلاح الاشتراكي مستلهماً في ذلك أحكام القرآن الكريم؛ كما سمعنا مدير التفتيش الزراعي يتساءل قائلاً: (لماذا لا نسن قانوناً يحمي العامل عند الضعف أو الشيخوخة، كما يحمي من يتركهم بعده من ذرية ضعاف. . . .؟!)

سمعنا هذا إلى جانب ما سمعناه من صيحات دعاة الإصلاح، ومنهم الدكتور الهراوي الذي اقترح لعلاج مشكلة الفقر في مصر فرض نظام التأمين الاجتماعي (!!) الذي فرض في أوروبا منذ سنة 1880

هل معنى هذا الاتجاه الحديث أن النور بدأ يتسرب إلى قلوبنا وأن الإيمان سيصل حتماً إلى ضمائرنا. . . وإننا سنؤمن. . . قريباً بما آمن به الأوائل منا، والمحدثون في أوروبا وأمريكا، من أن الله قد فرض على الأغنياء في أموالهم قدر الذي يسع الفقراء. . . وأنه لن يجهد الفقراء إذا جاعوا وعروا إلا بما يصنع الأغنياء؟!!

عبد العليم رزق الدهشان المحامي

على هامش كتاب عبقرية محمد

في مجلس الأستاذ

(أبي الوفاء الشرقاوي)

(مهداة إلى الأستاذ الكبير (عباس محمود العقاد))

للأستاذ محمد حسنين مخلوف

آذنت الشمس بالمغيب ونحن في حضرة الأستاذ أبي الوفاء الشرقاوي يحدثنا فننعم بسحر البيان، وعذوبة النغم الموسيقي ينبعث من قلبه المطمئن، ويتنقل في أبراج الفكر كما تجري الشمس في مسارها المقدر منذ الأزل وإلى الأبد، رتيبة الحركة، رصينة الخطوة، فيبعث في القلوب حرارة الإيمان، ويهبها نفحة من سر الوجود، ويضفي عليها من نعيم الأمل أشعة مضيئة قوية. وأشرقت نفسه العالية، وانطلق لسانه الفصيح، وضاء جبينه الأسمر العريض، بنور العقل القوي النادر، وراح يترسل ويتبسط وهو يمد يده لِلصَّفِّي الحبيب يتناول الكتاب الجديد. ودار الحديث حول المؤلف الموهوب صاحب القلم الجبار، عدة العقل الشرقي وذخره في ميدان المنطق والبيان.

قلت: لقد كان دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: (اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين) . . .وإن لهذا الكتاب في النفس فرحة، كفرح المسلمين بعمر بن الخطاب

قال الإمام: - بعض هذا. ولنجعل كتابه فيصلاً - أرأيتم قصة شيخ جليل كان يرشد ويعلم، وكان له تلاميذ ومريدون، وكان من أحبهم إليه شاب صاحب علم وقلم، وفلسفة وبلاغة، كتب في قصة آدم عليه السلام رسالة لطيفة، حتى إذا أتمها مضى بها إلى الشيخ يستأذنه في قراءتها، فأذن له. . . وجلس الشيخ يسمع والمؤلف يقرأ. . . وكانت العبارة عالية، والأسلوب خلاباً. ومضت آيات الإعجاب الشديد تتدفق من فم الشيخ عند كل مقطع. فهو لا يخفي سروره ولا يكتم طربه من قوة السبك وإشراق الديباجة، ويهز رأسه ويدق كفاً بأخرى وهو يقول: (الله الله يا شيخ علي) وكان هذا اسم المؤلف (إن من البيان لسحراً يا شيخ علي) (هكذا العلم يا شيخ علي) واتصلت حلقة الإعجاب وتدفق الشيخ علي يتابع فصول الرسالة تلاوة حتى جاء ذكر الشجرة والثمرة. . . فوصف الأمر بأنه معصية من آدم عليه السلام - وكان هذا يخالف ما يراه الشيخ الجليل - فإذا به يستمر في هز رأسه هكذا وفي دق كفيه هكذا ويصيح: (كفرت يا علي)

. . .وطوى الشاب رسالته وعاد بها إلى حيث لا يعرف الرواة مصيرها

وقام الإمام من المجلس وبقينا نحن لنقضي السهرة، وكتاب العقاد سميرنا المؤنس، نستروح نسمات الروح الأمين من ثنايا السطور والكلمات. وقد تحلقنا حول الشعلة الوهاجة المنبعثة من (عبقرية محمد) عليه السلام.

وأيم الحق لقد كانت براعة العقاد بما صورت من عظمة العبقرية المحمدية في بلاغة معجزة، ومنطق قوي، وعلم غزير. تأخذ بمجامع القلوب وتتكشف عن شخصيته الفذة

ولما كنا من غدنا لقينا الإمام في مجلسه وقد عاد يحنو على (عبقرية محمد) عليه السلام وتبددت في وجهه الوسيم تباشير الرضا. وعدنا نصل حديث الأمس فقلنا: وكيف حال صاحبنا؟! قال الإمام: لقد جاوز الشجرة والثمرة. . . وإذا كان للقصة أن تعود (فالله الله يا عقاد!)

قلنا: لقد جعل المؤلف فساد المجتمع ـ والبيئة والخلق وطغيان الشهوات واستشراء الضلال وانحلال الوشائج، كل أولئك إلى لهفة العقول على مخرج من ظلام الجاهلية وانحطاط الوثنية وشعوذة الكهان. . . مدعاة لتوقع رسالة نبي، أو هي إرهاص بمقدمه. . .

قال الإمام: إنه لحق. وإنه لنظر سديد ومنطق سليم. كان التوفيق رائد العقاد في تصويره وعرضه. وإنه ليحاصر شرود العقل بقوة الحجة ـ ويأخذ عليه المسالك ببراعة خلابة، كمهندس عبقري يوافيه السيل بالماء العمم فلا يزال به يجمعه ويركزه ويشق له المجرى العميق المستقيم، فيسيطر عليه ويحقق آية الله في إرساله. لقد بلغ المؤلف هنا غاية الروعة العقلية، وذروة القوة المنطقية

قلنا: أو نقيس فساد الماضي بفساد الحاضر؟ وضلال العقل الوثني الذي كلن يعبد الحجر والحيوان ويهيم في فيافي الظلام بين شهوة وقوة وفتنة. . بضلال العقل الوثني اليوم الذي يقدس الشهوة، ويتعبد بالرذيلة، ويهيم في فيافي الظلام بين مادية وقسوة وفتنة؟!

قال الإمام: إذا أغفلنا الفارق الجوهري بين الحالين جاز لنا أن نعقد القياس بينهما. . . ولكن إذا كانت البصيرة مشرقة والمحاجة بريئة والفهم مستقيما لم يقع هذا. . . فهم في الماضي كانوا في حيرة مرهقة. . . مرضى ينقصهم طبيب ودواء؛ ولكنهم اليوم مرضى لديهم الطبيب والدواء. وإنما ينقصهم عقل رشيد وإدراك سليم

قلنا: وهل لنا أن نسأل: (وأين النبي المنتظر؟!)

قال الإمام: كيف السؤال؟! عندما كان النهر يجري دافقاً سيالاً يحمل الخصب والنماء، تركوه ينحدر إلى البحر ويتلاشى بين أمواجه. فلما تكشفت عنهم غاشية الجهل، واستيقظت فطرة الإدراك، عرفوا نظام الري والزراعة؛ ولما تدرجت فطرة الإدراك في مراقي الكمال عرفوا كيف يستغلون مساقط المياه في توليد قوة الكهرباء؛ فاتسعت آفاق النفع وتعددت صوره وأشكاله. فإذا جئنا اليوم لنهرنا هذا - وأشار إلى النيل - وأردنا أن نفيد منه كما أفاد المتحضرون من أنهارهم، ترانا نبحث عن المخترع الذي يجري التجارب، ويفني العمر ليبتكر لنا نظام توليد الكهرباء من الماء؟! أم ترانا نعمد إلى ما وصلوا إليه هناك في الغرب من نتائج في هذا السبيل؟!

قلنا: إذا كتب لنا التوفيق فنحن نطبق ما علمناه منهم

قال الإمام: كذلك أمر الرسالة المحمدية ـ . . كانت البشرية في فساد يتطلب علاجاً. . . فجاءت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم علاجاً، وجاءت رسالته دواء، فشرعت نظاماً وحققت نفعاً، وقررت للعمران دستوراً مكيناً، وأضاءت الشعلة المقدسة الباقية على الزمان، وتركتها في أمة الإسلام سراجاً منيراً، ونظاماً قويماً، تسعد ما استضاءت بنورها، وتمسكت بعروتها؛ وتشقى ما بعدت عنها وجاوزت حدودها. وظلت هي على الدهر وهاجة النور خالدة الضياء. . . فإذا فسد أمر البشرية اليوم واختل نظامها وعادت إلى وثنية منحطة، وضلت في ظلام الرذيلة والشهوة والقسوة. . . لم تكن في حاجة إلى نبي جديد. . . بل في حاجة إلى عقل كهذا - ولوح بالكتاب - يعود بالناس إلى حيث يجدون الطبيب والدواء. وإلى ذهن خصيب موهوب يحسن مخاطبة العقول، وإلى رأس يحسن الفهم والتقدير ويملك البيان بمثل هذه الروعة في (عبقرية محمد). . . نبي جديد؟! لعمر الحق أتسألون جادين أم هازلين؟!

قلنا: معاذ الجلال في مجلس الإمام! إنما هي قولة أرسلها قلم في إحدى المجلات. . .

قال الإمام: خلوا عنكم هذا. . . وخذوا فيما أنتم بسبيله من هذا الجد الرصين. فإنما أنتم بصدد (عبقرية محمد) صلى الله عليه وسلم يصورها لكم (عباس محمود العقاد)

ونهض الإمام من مجلسه فقد آذنت صلاة العشاء

(نجع حمادي)

(لها بقية)
محمد حسنين مخلوف
بعض ما نحب وما نكره
للأستاذ حسين الظريفي
لكل منا ما يحب وما يكره من الأشياء والأشخاص لغير علة ظاهرة لديه. وقد تمتلئ النفس بهذا الشعور إلى حد يبعث فيها الرغبة بالبحث عن العلة، فلا يكاد يجد لها وجهاً تحمل عليه، ويظل يحمل في طيات نفسه ما تنفعل به من الحب أو الكره لهذا أو ذاك، وهو في حيرة من أمر ما يملك عليه وعيه وما رواء وعيه من دفائن الشعور.
ولا يقف الشعور عند حد امتلاء النفس به، وإنما قد يفيض على اللسان ويظهر بأعمال الجوارح، فتندفع بقواه المجهولة، إلى استحسان أو استهجان ما لولاه لما بدا لنا رأي فيه. وقد نصدع أو ندع لمجرد إشباع تلك العاطفة العمياء، فتحدث لنا من المشاكل ما نحن في غنى عنه
ويظل أحدنا طول الحياة، وهو رهين حبه لهذا أو كرهه لذاك، وما حبه وكرهه إلا وليد نظرة عابرة، هي أجدر بأن تولد وتموت ولا تعقب. وقد يحاول الخلاص من هذا الشعور الخاص ولا يجد السبيل إليه
وقد يكون لهذا الشعور من الأثر في سلوكنا ما نظل رازحين تحت أعبائه مدى الحياة، فتسوء علائقنا بهذا، لا لشيء إلا لأن أول نظرة ألقيت عليه كانت وحياً بالنفرة منه. وقد يكون من الخير لنا أن نصل به ما انقطع، ولكن ذلك الشعور الغامض يأبى إلا أن يرى الشر فيه، وقد تكثر مظاهر هذا الشعور في ناحيتيه الإيجابية والسلبية، فتزداد به متاعبنا في الحياة، ونريد الخلاص ولات حين خلاص. ذلك لأن فيما وراء هذا الشعور باعثاً تطاول عليه الزمن ومحاه من الذاكرة، ولكنه بقي حياً فيما وراء الوعي، ولا يكاد يجد فرصة الظهور حتى ينساب إلى مجرى الشعور وبوقع أثره الخاص.
ويخطئ أولئك الذين يعللون هذا الانفعال بفعل الغريزة، فليس في الأمر شيء مما يتصل بالفطرة، وإنما هو من فعل التجارب الماضية. تلك التي حدثت لنا في فجر الحياة فأحدثت في نفوسنا هذا الانبساط أو الانقباض. ثم جللها الزمن برداء الصفاء من ساحة العقل الشاعر فانحدرت إلى ما وراءه واستقرت في قاع العقل الباطن حية فتية ولكنها لا تهز النفس إلا بيد ذات قفاز، ولا تظهر إلا بوجه مستعار. وذلك هو موضع الخطأ الذي وقع فيه
أولئك الذين قالوا بأن هذا الحب أو الكره وليد الفطرة أو الغريزة وأنه لا يمكن أن يعلل بشيء آخر
ولا ريب في أن تجارب الماضي من الكثرة بحيث لا يمكن أن تعد أو تحد، وهي بالقياس إلى هذه الكثرة تحدث في نفوسنا مظاهر الانفعال بالسرور أو خلافه، ما قد يكون له الأثر البالغ في أسلوب تفكيرنا وفي اتجاه إرادتنا في الحياة. غير أننا مما لا ريب فيه أيضاً لا نقتصر في نفوسنا على جذوة هذا الحب أو الكره الذي يبعثه ما جوزينا به على تجاربنا الماضية من خير أو شر، فإن لنا من الحب ما هو ربيب رفقة وتصاف، وما هو وليد تصافح في المصالح، وإن من الكره ما تنشئه تجربة غير ذات علاقة بتجربة بعيدة
هنالك أمر له خطره في تحليل هذه الظاهرة النفسية، هو أن عامل انبعاث هذه الظاهرة، وأعني به الحدث الماضي الذي ارتبطت به وانبعثت عنه، قد يظل كامناً وراء حاجز من الزمن فلا تمتد يد الذاكرة إليه، ولكنه لا يندر أن يبعثَ أحدنا في عامل هذا الشعور الغامض فيقع على مصدره في تجربة ماضية شبيهة بهذه التجربة الجديدة، ويرجع وملؤه الاقتناع بأن رابطة التناظر كانت علة هذا الشعور الذي امتلأت به النفس بعد أول نظرة ألقتها العين. فإذا كان في المنفعل بهذا الشعور الجديد المفاجئ من قوة التذكر وبعد النفوذ إلى ما وراء الشعور، ما يمكن به الوصول إلى موضع التجربة الماضية من قاع النفس، وأخرجها إلى عقله الواعي، فقد أمكن له التغلب على عاطفة حبه أو كرهه الهوجاء، واستطاع أن ينظر إلى الشيء بنظرة حرة مستقلة، وأن يوليه ما يستحقه من رغبة فيه أو ميل عنه. وبتحديد موقفنا الجديد من الأشياء والأشخاص نريح أنفسنا من كثير من المتاعب
هنالك أمثلة كثيرة مما نحب متأثرين بالماضي الذي أحييناه وبالتجارب السارة التي

خلت فيه. فنحن نحب الربع الذي وهبناه طفولتنا ومنحناه أيام صبانا، ونحب المنزل الذي عرفناه وألفناه، وقد تتطور بنا الحياة فننتقل إلى ربوع جديدة وديار جديدة هي أمثل وأكمل من تلك التي تركنا عليها أيام الشباب، ولكنا نظل حَمَلةً لأرقى عواطف الحب والولاء لذلك الوطن الأول. لأنا نرى فيه ظل ذلك الصبا الذي خلعناه، ولأنه يذكرنا بما كان لنا فيه من تجارب سارة. فكأنما نحن وإياه مزيج واحد

كذلك نحن نحب رفيق صبانا، لأن لصحبته ارتباطاً بكثير من تجاربنا السارة الماضية؛ فإذا نحن لازمناه بعد دور الشباب، كانت ملازمتنا إياه عاملاً في بعث كثير من صور الماضي الذي خلا. . . تلك الصور التي أحييناها بغفلات الشباب وملأناها بمسراته. . . فإذا هي انبعثت - ولو في الذاكرة - من جديد، كان في انبعاثها إعادة لذلك الشعور الذي رافقها أول مرة. . . وفي ذلك رجوع بالنفس إلى زمن الصبا عن طريق إثارة ما وعاه.

ونحن نحب أيضاً قراءة الكتب التي سبق أن قرأناها في فجر حياتنا وفي أيام دراستنا، لا لأنها من المعنى والمبنى ما تستحق عليه الإعادة، ولكن لأنها ترتبط في الذاكرة بسلسلة ما حدث لنا في شبابنا من الحوادث السارة، بحيث يصح الادعاء بأنا قد ننسى لحظتنا الحاضرة لنعود إلى الماضي ونحيا فيه، فنستمتع بذات اللذة التي تمتعنا بها لأول مرة، ونحيي نفس الشعور الذي أحييناه في ذلك الماضي البعيد

إن هذه الظاهرة النفسية - ولا ريب - تثبت لنا بقاء ما يحدث لنا في أيام الحياة؛ فالتجربة لا تفنى وإن تكن قد تنسى مهما ثقلت عليها وطأة الزمن في روحاته وغدواته، وإنما تنزوي في ركن قصي من أركان باطن العقل، حتى إذا حدث ما يرتبط وإياها برباط من التناظر، تحركت وهي في قاع النفس، ومدت يدها إلى رفيقها الجديد، فأوحت له بما عندها من معنى، وأحدثت في نفس صاحبه ما تفرضه عليه من شعور خاص

تلك هي العلة في أنا قد أحببنا هذا لأول لقاء، وأنا قد كرهنا ذلك بعد أول نظرة؛ فما ذلك الحب وهذا الكره إلا وليد تجربة سارة وأخرى غير سارة. فقد يكون وجه من أوليناه الحب شبيهاً بوجه رفيق لنا سبق أن أجبناه، وكان هذا علة في هذا الحب الجديد. وقد يكون صوت من كرهناه مضارعاً لصوت مربية لنا غير محبوبة، وكانت هذه المضارعة في الصوت باعثاً على نشوء كرهنا الحادث

إن في نفس كل منا كثيراً من التجارب السارة والمؤلمة، وهي تحدث في نفوسنا من المشاعر ما يتفق وإياها في جليل أو قليل، فنحب ونكره لعوامل دفينة في طيات النفس، وقد تبقى في أكثر الأحيان غير معروفة، ولكن ليس كل ما نحب وما نكره من هذا القبيل

(بغداد)

حسين الظريفي المحامي

قبل الرحيل

!!نشيد الأغلال

(!!. . .إلى ذات الرداء الجازع)

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

!سَئِمْتُ عَذَابَ الْحبِّ! فَلْيَمْضِ عِطْرُهُ ... وَسِحْرُ أَغَانِيهِ إلى غَيْرِ رَجْعَةِ

سَقَانِي بِمَا لَمْ يُسْقَ مِنْهُ مُحَيَّرُ ... عَلَى الْأَرْضِ. . . يُسْقَى الْمَوْتَ في كُلِّ خُطْوَةٍ

!وَقَيِّدَ أَيَّامي بِنَارٍ حَمَلْتُهَا ... مُقَيَّدَةَ الْأَنْفَاسِ حَوْلَ سَرِيرَتي

. . .وَأَلْقَى شَبَابِي فِي هَشِيمٍ مُفَزَّعٍ ... يُبَاغِتُهُ الإعْصَارُ مِنْ كُلِّ وِجْهَةِ

فَيَا مَنْ أُنَادِيهَا. . . فَيَأْتِي جَوَابُهَا ... أَنَاشِيدَ أَحْزَانٍ تُفَتِّتُ مُهْجَتِي

وَيَا مَنْ أُوَافِيهَا وَقَلْبِي مُرَفْرِفٌ ... فَيَرْتَدُّ مَخْنُوقَ الْأَسَى كالذَّبِيحَةِ

وَيَا مَنْ أُغَنِّيهَا فَيَنْسَابُ دَمْعُهَا ... كأَنَّ أَغَارِيدِي مَعِينُ الْبَلِيَّةِ

!وَيَا مَنْ يُحِبُّ الْقَلْبُ. . . دُنْيَاكِ طَلْقَةٌ ... فَخَلِّي بَقَايَا الْحُبِّ تُبْلِي بَقِيَّتِي

هَبِينِي انْطِلَاقَ الرُّوحِ. . . إِنَّ صَبَابَةً ... مِنَ الْأُفُقِ الأَعْلَى تُنَادِي حُشَاشَتِي

. . .عَبَدْتُكِ حَتَّى لَمْ أَدَعْ لِمُتَّيمٍ ... عَلَى هذِهِ الدُّنْيَا خَيَالاً لِنَشْوَةِ

سَلَي الْعُشْبَ. . . هَلْ خَمْرُ الأَصِيلِ تَدَفَّقَتْ ... لِغَيْرِ خُطَانَا فَوْقَهُ كُلَّ زَوْرَةِ؟

سَلِي الرِّيحَ. . . كَمْ مَرَّتْ بنَا وَهْيَ زَامِرٌ ... يُرَنِّحُ بِالْأَنْفَاسِ نَايَ (الْجَزِيرَةِ)؟

لَهَا زَجَلٌ دَامِي الرَّنِينِ كأَنَّمَا ... تُذِيعُ شِكاَيَاتِ الزَّمَانِ الْخَفيَّةِ
أَدَارَتْ كُؤُوساً أَتْرَعتْهَا بِحُبِّنَا ... غَرَاماً، وَطَارَتْ لِلصِّفَافِ الْبَعِيدَةِ. . .
هَبِينَا رِيَاحاً يَا رِيَاحُ! وَسَافِري ... سِرَاعاً بِنَا نَحْوَ الْمَغَانِي السَّعِيدَةِ
شَقِينَا عَلَى الدُّنْيَا فَلَمْ نَرَ فَوْقَهَا ... سِوىَ خُطُواتٍ حَائرَاتٍ التَّلَفُّتَ
!!أَلاَ لَيْتَ هذَا الْعُمْرَ كأساً، وَحُبَّنَا ... رَحِيقاً، فَنَحْسُو الْحُبَّ حَتَّى الثُّمَالَةِ
. . .هَبِينِي انْطِلاَقَ الرُّوحِ. . . إِنِّي مُصَفَّدٌ ... يُجَرَّعُ مِنْ وَهْمِ الْهَوَى وَهْمَ خَمْرَةِ
أَدُورُ بِعَيْنَيْ تَائهٍ فَأَرَى الصِّبَا ... ظَلاَماً شَقِيَّا فِي لَيَالٍ شَقِيَّةِ
!!وَأَسْكَرُ. . . لاَ مِنْ أَيِّ خَمْرٍ! وَإِنَّمَا ... غَرَامُكِ وَالأَشْعَارُ أَذْهَلْنَ يَقْظَتِي
أَرَاكِ فَيَهْتَاجُ الأَسَى في سَرِيرَتِي ... كَمَا هَاجَتْ الذِّكْرَى بِنَفْسٍ حَزِينَة
بِعَيْنَيْكِ مَعْنىً لَسْتُ بَالِغَ سِرِّهِ ... وَلَوْ قَادَ نُورُ الْغَيْبِ أَسْرَارَ نَظْرَتِي
رَحِيقٌ بِكأْسٍ؟ أم سُكُونٌ بِوَاحَةٍ؟ ... وَرُؤْيَا بِفَجْرٍ؟ أم صَلاَةٌ بِكَعْبَةِ؟
وَفِي وَجْهِكِ النَّشْوَانِ عِطْرُ صَبَابَةٍ ... يُذَكِّرُ أَحْلاَمِي بِطُهْرِ النُّبُوَّةِ
وَصَوْتُكِ أم ذِكْرَى حَنِينٍ مُرَجَّعٍ ... يُدَنْدِنُ فِي قَلْبٍ غَرِيبٍ مُشَتَّتِ؟
أُحِسُّ بِهِ فِي كُلِّ فَجٍّ بِخَاطِرِي ... صَدَى قُبْلَةٍ حَيْرَى إِلَيَّ تَهَادَت
رَفِيفٌ بِأَيْكٍ؟ أَمْ نَشِيدُ عَلَى فَمٍ ... إِلَى الْيَوْمِ لَمْ يَخْفِقْ صَدَاهُ بِنَبْرَةِ؟
سَرَقْتِ حَيَاةَ الْمَوْجِ، طَوْراً وَدِيعَةً ... كَحُلْمِ حَزِينٍ، أو تَبَسُّمِ طِفْلَةِ
!وَطَوْراً هَدِيرُ الْبَحْرِ مِنْكِ ارْتِعَاشُهُ ... كأَنَّكِ بَحْرٌ مِنْ شَبَابٍ وَفِتْنَةِ
وَصَدْرُكِ لَوْ يَدْرِي الْهَوَى وَهْوَ قَاتِلِي ... أَمَانٌ لِرُوحِي مِنْ رِيَاحِ الْمَنِّيةِ
نَشيدٌ بِهِ لْحَنَانِ مِنْ قَلْبِ مِزْهَرٍ ... يَدُ اللهِ كانَتْ فِيهِ أَقْدَسَ رِيشَةِ
وَطَيْرَانِ فِي أَيْكٍ زَوَى الْخُلْدُ عِطْرَهُ ... فَحُرِّمَ لاَ يَسْرِي بِهِ طَيْفُ نَسْمَةِ
!وَحُلْمَانِ. . . لَكِنْ مِنْ لَهِيبٍ وَنَشْوَةٍ ... غَرِيقَانِ فِي الرُّؤْيَا بِأَطْهَرِ غَفْوَةِ
وَذَائُكِ فَجْرٌ فِي لَيَالِيَّ هَائمٌ ... يُبَارِكُ بِالأَنْوَارِ مِحْرَابَ عُزْلَتِي
تنزَّهَ عَنْ قَيْدِ الزَّمَانِ، فَعُمْرُهُ ... خُلُودٌ مُضِيءٌ فِي الضُّحَى وَالْعَشِيَّةِ
وَثَغْرُكِ يَا وَحْيَ الأَنَاشِيدِ رَحْمَتِي ... إِذَا طَمَأَ الإِلْهَامُ أَشْعَلَ غُلَّتِي
غِنَائي، وَخَمْرِي، وَانْتِعَاشِي، وَسَكْرَتِي ... وَسِحْرِي، وَشِعْرِي، وَابْتِهَالِي، وَسَجْدَتِي
!تَمَنَّعَ حَتَّى كَادَ لَوْ خَطَرَتْ بِهِ ... بَنَانُكِ يِسْقِيهَا عِتَابَ الْقَدَاسَةِ
كأَنِّي بِهِ نَبْعٌ مِنَ النُّورِ وَالْهَوَى ... تَحَيَّرَ لِلْحِرْمَانِ أَمْنَعَ ذِرْوَةِ
. . .هَبِينِي شُعاَعاً فِي الضُّحَى رَفَّ حَوْلَهُ ... وَصَلَّى وَلاقَى اللهُ فِي خَيْرِ بُقْعَةِ
سَلاَماً نَجِيَّ الرُّوحِ يَا طَيْفَ رُوحِها ... إذا هِيَ أَشْقَاها هَوَانَا فَمَلَّتِ
تَظَلُّ تُصَافِينِي إذا صَدَّ نُورُها ... وَتَحْنُو إذا ازْوَرَّتْ دَلالاً وَتَاهَتِ
أُرِيدُ لأِنْسَاها. . . فأَلْقَاكَ في دَمِي ... نَبِيّاً مِنَ الذِّكْرَى عَتِيَّ الرِّسَالَةِ
. . .تُشَغْشِعُ بِالأَحْلاَمِ رُوحِي وَفي الْكَرَي ... تُفَجِّرُ مُوسِيقَا الْحَنَانِ الشَّجِيَّةِ
!سَلاَماً حَبِيبَ الرُّوحِ. . . يَا طَيْفَ رُوحِها ... أَغِثْ شَجَنِي، وَارْحَمْ شَبَابِي وَعَلَّتِي
أَعِنِّي عَلَى نِسْيَانِهَا. . . وَامْضِ طَائِراً ... يَعِيشُ عَلَى ذِكْرَى الْهَوَى في الْخَمِيلَةِ
تَرَكْتُ لَكَ الْماَضي رَبِيعاً مُقَدَّساً ... فأَيَّانَ تَطْرِقْ فِيهِ تَسمَعْ تَمِيمَتِي
فَفِيهِ جَلاَلٌ مِثْلماَ فِيكَ خَالِدٌ ... وَفيهِ كما فِيهَا عَوَالِمُ هَيْبَةِ
وَفِيهِ رُبىً خُضْرُ الظِّلاَلِ عَوَارِفٌ ... بِسِرِّ هَواناً في شَذَى كلِّ زَهْرَةِ
فَطُفْ مِثْلَمَا طُفْنَا زَماناً بِساَحِهِ ... وَذُقْ فِيهِ طَعْمَ السِّحْرِ مِنْ كلِّ ذَرَّةِ
وَنَاجِ طُيُوراً لَمْ يَزَلْنَ بِأُفْقِهِ ... يُرَتِّلْنَ تَوْرَاةَ الْهَوَى كلَّ لَيْلَةِ
وَحَوِّمْ عَلَى غُذْرَانِهِ تَلْقَ عِنْدَها ... أَمَاسِيَنَا سَكْرَى عَلَى كلِّ ضِفَّةِ
وَعَلِّمْنِيَ السُّلْوَانَ إِنْ كُنْتَ سَالياً ... فإِنِّيَ عَنْهُ في عَماءٍ وَضَلَّةِ
!ظَلَلْتُ عَلَى نَاري أُرَاوِدُ طَيْفَهُ ... فَيَخْفَي وَيَرمِيني بِنَارٍ جَدِيدَةِ
فيَا رَبَّةَ الأَحْلاَمِ فُكِّي وَثَاقَها ... وَلا تَحْسِبِيها غَيْرَ رُؤْيَا جَمِيلَةِ
!تُريدِينَ أَسْرِى في الْهَوَى، وَأَنَا الَّذِي ... تُحَطِّمُ أَغْلاَلَ الزَّمَانِ سَكِينَتِي
أَلاَ أَطْلِقِينِي للسَّماءِ، وَخَلِّقِي ... إذا شِئْتِ في دُنْيَا خَيَالي الرَّهِيبَةِ
. . .غَدَوْتُ رُمَاداً أَنْتِ سِرُّ انْطفَائِهِ ... وَأَنْتِ به سِرُّ يُخَلِّدُ جَذْوَتي
!أَلاَ مَنْ لِطَيْرٍ في رَوَابيكِ هَائمٍ ... وَيَشْتَاقُ لِلْحِرْمَانِ فِي كل لَحَظَةِ
!هَبِيهِ لِصَحْرَاءِ الأَسِى، فَلَرُبَّماَ ... يُضِيءُ مِنَ الأَحْزَانِ نُورُ الْحَقِيقَةِ

محمود حسن إسماعيل

البريد الأدبي
صاحب اللحية البيضاء
1 - سيدي الفاضل رئيس تحرير الرسالة الغراء
صورت لنا في عدد الرسالة الماضي بقلمك الممتاز صورة صادقة حية لمجرم بالطبع الذي نادى بوجود أمثاله العبقري الفذ لمبروزو إذ يقول إن عدداً كبيراً من المجرمين معرضون حتماً لارتكاب الجرائم إذ يولدون وتولد معهم غرائز سيئة تحول بينهم وبين المعيشة الصالحة، وما يستطيعون لنزعات الشر مقاومة. ويتميز هذا المجرم بصفات خَلقية وخُلقية: فهو قصير القامة كذي اللحية البيضاء، صغير الجمجمة؛ ضيق الجبهة، ناتئ عظام الخدين، دقيق الشفتين، غائر العينين، مفرطح الأذنين، كبير الفك الأسفل، بليد الحس الأدبي
ولئن فشلت نظرية هذا الجهبذ فما كان ذلك إلا لأنهم خشوا منها على الأخلاق، فما دام المجرم يعلم أن الجريمة مقدرة عليه كقسمة الأرزاق، مات ضميره واندفع كالتيار العرم يكتسح أمامه كل شيء، ولا يصبح لكلمات العدالة والجزاء والقصاص قيمة ما، ومعنى ذلك الفوضى المطلقة. على أن علماء الوراثة بما قاموا به من دراسات فنية وإحصائية قد أقاموا الدليل على وراثة صفات الإجرام من جيل لجيل تذكيها فساد البيئة وانحطاط الوسط الاجتماعي
فليتك يا سيدي المحترم ترشدنا نحن أعضاء معهد الدراسات الجنائية العليا إلى هذه الشخصية النادرة. فما وجدنا طيلة دراستنا بالسجون المصرية والإصلاحيات إلا إجراماً مكتسباً؛ فلعلنا نجد في ذي اللحية البيضاء ما يؤيد نظرية العالم الإيطالي
عباس فهمي محمد بدر
بالمعهد الجنائي
(الرسالة):
الصفات التي ذكرها الكاتب الفاضل تنطبق على ذي (اللحية البيضاء)، وهو الآن سجين بمركز طلخا، ومن الممكن زيارته فيه
2 - سيدي الأستاذ الكبير رئيس التحرير
وبعد فأمر صاحب (اللحية البيضاء) موضوع حديثكم الشيق في الرسالة الماضية ليس بخاف على أهل العلم، فهذا الرجل يشكو إغراقاً في تعويض نقص، وهو علة نفسانية تنشأ مع من تجوهلت شخصيته في طفولته بتحكم الوسط الذي نشأ فيه فحد ذلك من التمتع بالقوة في كافة مظاهرها، وهي غرض كل كائن حي، ونتيجة هذا الحد أن القوة النفسية المحرومة من العمل تلجأ إلى الإغراق في إظهار كيانها لإثبات وجودها المنكور عليها. فالإجرام في ضوء علم النفس الحديث هو تعويض نقص تعويضا مغرقاً
وكان رأي لمبروزو في أوائل هذا القرن أن الإجرام استعداد وراثي، ولكن علم النفس الحديث لا يميل للأخذ بهذا الرأي الآن؛ ويرى أن التربية في سني حياة الطفل الست الأولى مصدر كثير من العلل النفسانية والاجتماعية
على أن هناك تعويضاً طبيعياً: فالأصم الذي تقعده أذنه عن إدراك ما يناله غيره تراه ينزع إلى تعويض هذا النقص بالنشاط في ناحية أخرى. وهنا يكون النبوغ عادة
قال أناتول فرانس مرة: إن نابليون كان متهماً في رجولته، فأشعل الحرب في كل أوربا إعلاناً لرجولته. ومثل هذا القول يقال في كل إنسان حدت ظروفه من ممارسته حقه الطبيعي من القوة
كامل يوسف
عضو المعهد البريطاني الفلسفي بلندن
مراكز الثقافة العربية في القاهرة ودمشق وبغداد
تقدمت المباحثات بين وزارة المعارف وبين الهيئات التعليمية المختصة في كل من العراق وسورية وفلسطين ولبنان في سبيل إنشاء مكتب التعاون الثقافي ين هذه البلاد وإيجاد وحدة ثقافية عربية تجمع الشباب العربي تحت علم هذه الثقافة
وقد علمنا أن النية متجهة إلى إنشاء مراكز لهذه الثقافة العربية الموحدة في كل من القاهرة ودمشق وبغداد يمكن من طريقها تبادل الآراء وإلقاء المحاضرات العلمية والأدبية التي يتردد صداها على نطاق واسع في هذا المحيط

والمفهوم أن الأقطار العربية الشقيقة قابلت مشروع التعاون بينها وبين مصر بارتياح كبير
. . .كم ذا
1 - أشكر للأستاذ الفاضل إبراهيم أبي الخشب دقته وأدبه، ولكني أعجب من إنكاره على سلوك مذهب التخريج والتأويل والإعراب. . . في الحكم على (حافظ وأبي الطيب) حين استعملا هذا التعبير (كم ذا. . .) فقد أراد الأستاذ في كلمته الأولى إقامة هذه العبارة إلى جهة أو التماس شاهد من كلام يحتج به
فأما إقامتها إلى جهة فما أظنها تؤدي معنى غير تخريج العبارة على وجه من وجوه النحو والبلاغة، وهذا ما ذهبت إليه في كلمتي السابقة؛ وكنت ولا أزال أنتظر من الأستاذ أن ينظر في وجوه التخريج التي أخذت بها
وأما المشاهد الذي يتمسك به متابعة للآمدي وأمثاله من علماء أصول اللغة فلا يزال يعوزني، ولعل هذا التعبير من أوليات (أبي الطيب) وعهدنا به مبتدعاً جريئاً. وإني لحسن الظن به وإن غضب (ابن خالويه). والسلام
محمود البشبيشي
2 - قرأت إجابة أستاذنا الجليل البشبيشي؛ ثم عدم اقتناع الأستاذ (أبو الخشب) بما جاء فيها، فرأيت أن أدلي برأيٍ أعتقد أن فيه شفاء الغلة.
(ا) أرى أن بيت المتنبي (كم ذا بمصر من المضحكات. . .) على هذه الرواية، وعلتي في ذلك أن المتنبي كانت له ألفاظ يكثر استعمالها في شعره، ومن هذه الألفاظ (ذا) (راجع يتيمة الدهر ج1 ص137 طبعة الصاوي) وقد تابع حافظ المتنبي في مثل هذا التعبير.
(ب) لم أجد شاهداً من أشعار العرب، ولا من مأثور كلامهم على مجيء (ذا) بعد كم على طول ما بحثت، وإن كان هذا لا يمنع من جواز وجوده.
(جـ) مثل هذا التعبير لا يتنافى مع قواعد اللغة، ومن السهل تخريجه بأعراب ذا منادى حذف منه حرف النداء. وكم خبرية حذف تمييزها.
(د) قد يعترض على هذا التخريج من يقول إنني ارتكبت من أجله حذف تمييز كم الخبرية وحذف حرف النداء من اسم الإشارة. وردي على مثل هذا المعترض هين فأما حذف تمييز كم الخبرية فإن النحاة قالوا إنه غير حسن، ولم يمنعوه (راجع ابن يعيش ج4 ص129 المطبعة المنيرية) وإذا راعينا ما أبيح للشعراء من جواز الجري على الآراء غير الحسنة لم نجد في ذلك قبحاً. وإذا نحن احتكمنا إلى معنى البيتين وجدناه رائعاً
وأما حذف حرف النداء من أسم الإشارة فجرى فيه المتنبي على رأي الكوفيين الذي استدلوا على جواز ذلك بقوله تعالى: (ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم).
ومن المعروف أن المتنبي نشأ في الكوفة، فلا عجب إذا جرى على آرائهم في كثير من شعره مما عده العلماء - جهلاً منهم - خطأ من المتنبي. وهذا هو يقول:
(هذى برزت لنا فهجت رسيسا)
فحذف حرف النداء من اسم الإشارة مصداقاً لما ذهبت إليه.
(منيل الروضة)
راتب خليفة
العدد 467 - بتاريخ: 15 - 06 - 1942
مساجلات
للأستاذ عباس محمود العقاد
لقيني كاتب معروف يتشيع للبدع الحديثة حتى تقدم فيتركها ويتشيع لغيرها فقال لي:
إنك أنكرت (الوعي) الباطن في التصوير، وأخذت على غلاة المحدثين أنهم يعتمدونه في صورهم، مع أنك ترجع إليه في شعرك وترسم بالقلم نظائر لما يرسمونه بالريشة
قلت: مثل ماذا؟
قال: مثل قولك في وصف قبة الفضاء إحدى الليالي:
كأنها الهاوية المقلوبة
كأنها الجمجمة المنخوبة
تهمس فيها الذكر المحبوبة

وهذا من صور الوعي الباطن وليس من صور العيان
والذي قاله الكاتب المعروف يخالف الواقع ولا يؤيد المدرسة الغالية من المصورين، أو مدرسة (السريالزم) على وجه من الوجوه
فأنا، من جهة، لم أنكر الوعي الباطن ولا موجب لإنكاري إياه، وإنما أنكرت أن يكون وجود الوعي الباطن ملغياً للوعي الظاهر وللمشاهدة الحسية والمرئيات العيانية، وأنكرت أن يكون الوعي الباطن ملغياً لقواعد التصوير قديمها وحديثها، فلا تبقى للمصور مزية على الجاهل بفن التصوير، لأنهما على حد سواء يهملان التلوين والمشابهة وأصول الرسم والتمثيل، وأبيت أن أعتقد كما يعتقد الواهمون أن (الوعي الباطن) شيء جديد في هذه الدنيا، وهو هو تلك الملكة الراسخة في قرارة النفوس قبل ظهور التصوير والمصورين، فلم يكن رسوخها هذا حائلاً بين المصورين الأقدمين وبين رؤية الأشياء كما يمثلها العيان
إن الوعي الباطن ليس من اختراعات هارتمان ولا فرويد، ولا من مصنوعات القرن العشرين، ولكنه ملكة إنسانية وجدت في مصوري روما وهولندة وإسبانيا كما توجد في المصورين المحدثين؛ فلماذا نلغي العيون اليوم ولا نرى الأشياء إلا بالتنجيم والتخمين؟
ومن الذي قال إن حامل الريشة هو المتخصص في تنجيمات الوعي الباطن دون المعلم والمهندس والطبيب والكاتب والشاعر وسائر المثقفين وغير المثقفين؟
هذا كلامي عن (الوعي الباطن) لا يدحضه الشعر الذي ذكره الكاتب المعروف وأراد أن يسلكني به في عدد أولئك المنجمين
على أن الشعر الذي ذكره الكاتب المعروف يعطي العيان حقه ويعتمد على الحس ولا ينسى المشاكلة ولا المشابهة من جانبها الظاهر ولا من جانبها الباطن أقل نسيان
فالتجويف ملحوظ في قبة الفضاء وفي الجمجمة المنخوبة؛ وهمس الذكر يقترن بالرأس ويقترن بالسماء في لياليها المرهوبة، وإذا تسربلت السماء بسربال الرهبة، فالشعور الذي توحيه إلى النفس أقرب شيء إلى شعور الإنسان أمام الرؤى التي أحاط بها عالم الفناء والأبدية
فالمشابهة الحسية والمشابهة المعنوية متوافرتان هنا كل التوافر، وليس في (السريالزم) أثر للمشابهات ولا للتوافق في الرسم والتصوير.
على أننا نذهب مع الكاتب المعروف إلى أقصى مداه ونفرض أن وصفي الفضاء في إحدى الليالي المرهوبة بالجمجمة المنخوبة وعي باطن ليس فيه من الوعي الظاهر كثير ولا قليل
نفرض أنني رجعت إلى (الوعي الباطن) في بيت أو بيتين أو عشرة أبيات من عشرة آلاف بيت. فأين هذا من إلغاء الحس والعيان كل الإلغاء وتطليق العيون والأسماع إلى آخر الزمان؟ إن تسلل الوعي الباطن مرة في كل ألف مرة لهو احتمال جائز موافق لطبيعة السوانح الباطنية. أما الوهم الذي لا يجوز ولا يوافق طبيعة من الطبائع، فهو أن نصبح كلنا وعياً باطناً وأن تصبح الدنيا كلها موعية باطنية لا تستخدم فيها عين ولا أذن كما يستخدمهما خلق الله في المسكن والملبس والطعام والشراب والدرس والتخيل والتفكير
هذا الذي ننكره وينكره كل ذي عينين وكل ذي وعي باطن مستقر في مكانه كما خلقه الله. أما المصورون الذين يقذفون بالألوان والرسوم إلى عرض الطريق ليحدثونا باسم (الوعي الباطن) فأول ما ينبغي أن يسمعوه منا أنكم يا هؤلاء لستم بأصحاب الاختصاص في هذه الأسرار. فإذا فشلتم في حمل الريشة وخلط الألوان فقد فشلتم في وظيفتكم المعترف بها وادعيتم لأنفسكم وظيفة لا يعترف لكم بها إنسان، ولا حاجة بالناس إليها لأنهم جميعاً أصحاب (وعي باطن) مثلكم وزيادة. . . فما حاجتهم إليكم وإلى غيركم من أدعياء هذه الكهانة المعروضة عليهم في ثوب التصوير؟
ومن المساجلات التي نُبهت إليها كلمة لأديب يكتب في (الثقافة) بتوقيع (محمد مندور) قال فيها عني في صدد الكلام على أبي العلاء ورسالة الغفران:
(. . . والعقاد يبدأ فيؤكد - فيما يعلم - أن فكرة أبي العلاء في هذه الرحلة إلى العالم الآخر لم يسبقه إليها أحد غير لوسيان في محاوراته في الأولمب والهاوية. وهذا قول عجيب يدخل في سلسلة تأكيدات الأستاذ العقاد التي لا حصر لها في كل ما كتب، والتي كثيراً ما تدهشنا لجراءتها؛ ففكرة الرحلة إلى العالم الآخر قديمة قدم الإنسانية،

(عرفها اليونان قبل لوسيان، وعرفها العرب قبل أبي العلاء
!لا يا شيخ
!العالم الأخر قديم قبل لوسيان، والجنة والنار قديمتان قبل أبي العلاء
سبحان الله! كنا نظن غير هذا. . . كنا نظن أن الجنة والنار خلقتا بعد المعري بثلاث أربع سنوات! وأن لوسيان ظهر على الأرض فظهر معه الجحيم السفلي الذي تحدث به اليونان
أما وصاحبنا المدهوش من جرأتنا يؤكد لنا أن الأمر على غير ذلك فلنرجع إذن عن توكيداتنا الجريئة، ولنعلن التوبة بين يديه لنقول له: صحيح. صحيح والله. . . الجنة والنار كانتا معروفتين قبل أبي العلاء، والعالم السفلي كان معروفاً قبل لوسيان. . . ولندن. . . لندن نعم لأجل خاطرك كانت موجودة قبل رحلات المسافرين إليها، وكذلك والله باريس، وكذلك والله القاهرة، وكذلك والله الهند والصين وبلاد تركب الأفيال، أو بلاد تمشي على الأرض ولا تركب حتى النعال
أفادك الله يا مولانا الذي يتربع على الكرسي العريض لينكر على المساكين من أمثالنا توكيداتهم الجريئة ويعلمهم كيف تكون التوكيدات من آخر طراز
وأي توكيدات؟
توكيداته التي لا جرأة فيها هي أننا نحن المساكين، أو أن أحداً من خلق الله أجمعين، يجهل أن أبا العلاء قد تكلم عن شيء معروف حين تكلم عن الجنة والنار، وأن لوسيان لم يكن أول من سمع بالعالم السفلي بين قدماء اليونان
فنحن بعد الاستئذان في قليل من الجرأة التي يدهش لها صاحبنا نجترئ مرة أخرى فنقول له إننا لم نجهل معرفة الناس بالجنة والنار وهبوط الملائكة وصعود الشياطين قبل أبي
العلاء، وأن أحداً من القارئين لم يجهل هذا، ولا يسحن بأحد أن يرمي أحداً بجْهله. فهذا تحصيل حاصل مفروغ منه، وليس أدعي إلى الدهشة من مجازف يجترئ على توكيده. . . ولكننا إذا تكلمنا عن الآثار الأدبية التي تتخذ من الرحلة بين الجنة والنار موضوعاً لها، فهذا كلام آخر يجمل به أن يصغي إليه؛ وإذا جمعنا بين المعري ولوسيان في هذا الصدد فذلك مبحث يصح النظر فيه والاستفادة منه؛ أما أن يتربع متربع على كرسي الفتاوى ليحدث قراءه بوجود السماء والأرض والملائكة والشياطين قبل الكتابة عنهم والرحلة إليهم، أو بوجود لندن وبرلين قبل كتب السياحة والرحالين، فلا يستغرب أن يجترئ بعض القراء، ويا له من اجتراء، فيزحزح له كرسيه قليلاً إلى الوراء!
بل لا نظن أن القارئ يكتفي بزحزحة الكرسي قليلاً إلى الوراء إذا كان ممن يعلمون أن (العقاد) قد سبق إلى كتابة هذا، فقال قبل عشرين سنة عن رحلة أبي العلاء: (أي شيء من هذه الأشياء لم يكن من قبل ذلك معروفاً موصوفاً؟ وأي خبر من أخبار الجنة المذكورة لم يكن في عصره معهوداً للناس مألوفاً؟ كل أولئك كان عندهم من حقائق الأخبار ووقائع العيان. . .)
ثم قال: (فهي رحلة قديمة كما قلنا ولكنه أعادها علينا كأنه قد خطا خطواتها بقدميه وروى لنا أحاديثها كأنما هو الذي ابتدعها أول مرة. . .)
ومن يدري؟ فقد يكون من اجتراء العقاد أنه اختلس هذه الحقيقة قبل عشرين سنة، ولم ينتظر الإذن قبل اجترائه على الاختلاس والإدعاء!
ولا شك أن (المندورين) في هذا البلد كثيرون مع اختلاف في الأسماء والعناوين. . . فمنهم ذلك الذي تسمي في إحدى المجلات باسم (مصطفى) ليستر ما في مقاله من سوء النية وهو يتكلم عن النبي العربي، ويتميز غيظاً لأننا عرضنا لتعدد زوجات النبي في كتابنا (عبقرية محمد) فرددنا أسبابه إلى مصلحة الدعوة الإسلامية ولم نتخذ منه ذريعة لتلويث السمعة كما فعل المتعصبون من المبشرين والمستشرقين. وليس هذا بالعلم ولا بالمنطق في رأي أذناب الاشتراكية الرعناء. . . إنما العلم والمنطق أن تلوث كل عظيم في تاريخ بني الإنسان، لأن مقاصد الاشتراكية الرعناء لا تستقيم لأصحابها وفي الدنيا عظمة شريفة تستحق التبجيل والولاء. وكفى بحقارة مذهب لا يستقيم إلا بتلويث كل عظيم!
قال ذلك (المصطفى) المزعوم إننا دافعنا عن محمد فقلنا: (إنك لا تصف السيد المسيح بأنه قاصر الجنسية لأنه لم يتزوج قط؛ فلا ينبغي أن تصف محمداً بأنه مفرط

الجنسية لأنه تزوج بتسع نساء)
ثم قال ذلك المصطفى المزعوم معقباً على كلامنا: (ولكن ما رأي العقاد لو قال الناقد: إني أرى المسيح قاصر الجنسية وما أنفي عنه هذه الصفة)
ورأي العقاد أن الناقد لن يقول ذلك لأنه كان من أساطين المبشرين. فإن أعْدته الاشتراكية الرعناء بسوء أدبها فجوابه إذن أن نرده إلى تاريخ النبي كما فعلنا فنريه بما يفقأ عينه أن الرجل الشهوان يجمع بين تسع زوجات من الأبكار الحسان وهو قادر على ذلك كل القدرة ولا يختار زوجاته كما صنع النبي من المسنات المتأيمات اللائى لم يشتهرن بالجمال، ثم تكون البكر الوحيدة منهن بنت أبي بكر الصديق التي يرجع التزوج بها إلى أسباب المصلحة الإسلامية قبل كل اعتبار
فهل (تنبسط) الاشتراكية بهذا الجواب أو يملأها سم البغضاء وصديده لأن في العالم الإنساني رجلاً باقياً بغير تلويث!
وقال ذلك المصطفى المزعوم: إن العقاد (يقيم الحجة على نبوة محمد باضطراب الأحوال وقت نشوئه في بلاد العرب. . . ترى أين يكون إقناع العقاد لو انبرى مسلم - قبل أن يتصدى من لا يدين بالإسلام - وقال: إن الأحوال الحاضرة أشد قساوة مما مضى في عهود الإنسانية جميعها. . . وإذن فالحال المعاصرة تستلزم نبياً ينشر الخير والعدل. فأين هذا النبي ممن عرفهم العالم حالياً. . .)
والعجيب أن يسألني هذا المصطفى المزعوم عن رأيي وقد بينته صريحاً في الكتاب نفسه حين قلت: إن العالم حائر في طلب العقيدة أو (طلب المسوغ للوجود. لأن الوجود وحده لا يكفي الإنسان إلا أن يكون على طبقته مع الحيوان. فالإيمان للمستقبل، وعسى أن يكون المستقبل للإيمان. . .)
قلت ذلك في ختام الكتاب وجعلته خلاصة الرأي فيه وموضع العبرة منه، ولا أزال أقول كما قلت دائماً إن خلاص العالم مرهون بالإيمان. وإن حياة الناس بغير عقيدة نبيلة هي حياة حشرات
ولكن الإيمان الذي يحتاج إليه العالم لمن يكون إيمان المعدات والأمعاء، لأن الإنسانية لن تحتاج إلى رسل وحكماء ليعلموها عبادة الطعام والشراب، وإن أحقر حصان معلق في مركبة نقل ليعلم من هذه الفلسفة ما يعلمه كارل ماركس ولنين وإخوان هذه لعصبة أجمعين
إنما يحتاج العالم إلى إيمان يليق بأبناء آدم، ولا يحتاج إلى إيمان يزعم أنه يخلصه من ضرورات المعدة بعبادة هذه المعدة في الصباح والمساء، وفي ساعة العمل وساعة الرياضة، وفيما يدير عليه تجارب العلم ومطالب الفن وأشواق النفس وعقائد الضمير.
قبّحت عقيدةٌ كهذه العقيدة إن قضى بها النحس على أمة من الأمم. فهي عقيدة لن تخلص الناس من ضرورات المعدة وخسائسها بل تفرض عليهم عبادتها وتسجل عليهم الخضوع لرهبة الجوع إلى آخر الزمان. وقبّح من رسل أولئك الرسل الذين لا جديد عندهم يعلمونه الناس وراء ما علمته الحشرات قبل ملايين السنين. وأبى الله أن (تنبسط) الاشتراكية الرعناء إن كان تحقير عظماء الإنسانية وتحقير الإنسانية كلها فرضاً لزاماً لمن يسترون شرورهم بأمثال هذه الدعوات.
عباس محمود العقاد
الحديث ذو شجون
للدكتور زكي مبارك
عبد القادر حمزة باشا - موسم الامتحانات في المدارس المصرية - أحزان (توفيق الحكيم) ونفوذ (طه حسين) . . .
عبد القادر حمزة باشا
فاتني في العام الماضي أن أشهد مأتم الأستاذ عبد القادر حمزة - طابتْ تُربتُه، وكَرُمتْ ذكراه - ولم يفتني أن أشهد المأتم الذي أُقيم في هذا المساء بجوار دار (البلاغ)، تحيةً لروح ذلك الشهيد، شهيد القلم الحرّ، والرأي الصريح
وأقول: إني ما شعرت بحزن أو لوعة حين تجددت الصورة لموت ذلك الصديق، فهل خمد أسفي عليه وما قدُم العهد؟
أشهد أني لم أجد في نفسي استعداداً للتحسر والتفجع، كما ينبغي أن يقع في مثل هذا الظرف، وإنما توجهتْ نفسي إلى معنىً آخر هو نقد الأسلوب المتبع في إقامة

الذكريات لهذا الطراز من الرجال
وأشرح هذا المعنى فأقول: إن عبد القادر لم يمت إلا بعد أن أقام ألوف البراهين على أن للقلم دولة في هذه البلاد، وبعد أن أقام ألوف الشواهد على أن الذاتية السليمة تصل بصاحبها إلى أشرف الغايات، وترقم أسمه في صحيفة الخلود
فما الذي يمنع من أن تكون الحفلة التي تقام لذاكره حفلة فرح وابتهاج؟
كنت أحب أن يتنادى من اشتركوا في تحرير (البلاغ) - وهم يعدُّون بالعشرات - إلى إقامة سهرة طريفة على متن النِّيل في ليلة قمراء، تحيةً للكاتب العظيم الذي أرَّخ مجد النيل أعظم تأريخ
كنت أحب أن نتنادى لإقامة حفلة بهيجة في (معبد الكرنك)، وهو المكان الذي أوحى إلى عبد القادر أن يكون إماماً في تاريخ مصر القديم، ولعله أول مؤرّخ جعل الإيمان بعظمة مصر عقيدة عقلية، وعقيدةُ العقل أعظم من عقيدة الروح
لو سمحت شواغل الحياة بأن يتنادى أصدقاء (البلاغ) لتكريم صاحب (البلاغ) لكان لهم في
تكريمه أسلوب لا يخطر لأهل هذا العصر في بال
لن نبكي على شيخ الصحافة المصرية، وهل مات حتى نبكي عليه؟
وما البكاء على كاتب لم يفارق دنياه إلا بعد أن ملأ صريرُ قلمه مسامع الزمان؟
الواجب أن نفرح لأن مصر أنجبت كاتباً سياسياً يندُر وجود مثله في الأقطار الأوربية والأمريكية. وأعيذ القارئ أن يتهمني بالمبالغة والتهويل، فالمصاعب التي قهرها عبد القادر لو صادفت أكبر كاتب في أعظم بلد لأضافته إلى المدحورين
الواجب أن نفرح لأن جو مصر سمح بأن يكون أحد أقطاب الصحافة من أكابر المؤلفين، وتلك إحدى الأعاجيب.
الواجب أن نفرح، لأن جو مصر سمح بأن يكتُم كاتبٌ بلاءه بأعدائه نحو ثلاث سنين، ليلقاهم بعد ذلك في ميدان لا يخرجون منه سالمين
كان عبد القادر كما وصفت، وفوق ما وصفت، فكيف تحيي ذاكره بالحزن والانقباض؟
ومتى نفرح إذا تناسينا اعتزاز الأقلام بتاريخ ذلك الشهيد؟
كان عبد القادر يحب جريدته أكثر مما يحب نفسه، ولهذا كان يستكتب رجالاً بينه وبينهم ضغائن وحقود، ليبرئ ذمته من حق جريدته عليه
وكانت البراعة القلمية هي الخصيصة الأساسية فيمن يعرف من الكتّاب، ولو كانوا من خصومه الألدَّاء
وكان لا يسمح بنشر كلمة تؤذي أحد محرري (البلاغ) من قرب أو من بعد، وقد اتفق لي أن أرجوه نشر مقال أرسله المرحوم مصطفى صادق الرافعي في إيذائي، لأقيم الدليل على تشجيع الحرية الفكرية، ولكنه رفض، وكانت حجته أن سماحي بنشر مقال الرافعي لا يعفيه من حقي عليه
عبد القادر!
هل تعرف أن قوماً زعموا أنك مت؟
كذَبوا، فما يموت من تحيا ذكراه على سنان قلمي!
موسم الامتحانات
وزارة المعارف في نظر المنصف أعظم الوزارات حيوية، بدليل ما نشاهد من كثرة التغيرات والتقلبات، وهل يتغير أو يتقلب غير الأحياء؟
ولكن هذه الوزارة التي تفكر في كل شيء، وتشغل بأخبارها جميع الناس، تنسى شيئاً في غاية من الأهمية، وهو تعديل مواعيد الامتحانات
ما الذي يوجب أن تكون تلك المواعيد في وهج لصيف؟ أيكون ذلك نقلاً عن الأمم الأوربية؟ هو ذلك، ولكن أين جو مصر بالقياس إلى الأجواء الأوربية؟
أعصاب التلاميذ في شهر يونيه لا تحتمل أي جهاد، ولو شئت لقلت إن التلاميذ يعانون التعب قبل يونيه بشهرين، فكيف تجود قواهم بالمحصول الذي يعيِّن منازلهم من الفوز أو الإخفاق! وهل سمعتم حديث المصحِّحين؟
التصحيح نوع من القضاء، ولا يجوز للقاضي أن يحكم إلا وهو سليم الأعصاب، فكيف تكون مصاير التلاميذ بأيدي مصححين لم تبق منهم متاعب العام الدراسي غير أشباح؟
يجب أن تكون الامتحانات في شهر مارس، أو يجب أن تكون أهم مواد الامتحان في

شهر مارس، لنجد تلاميذ ومصححين، ولنطمئن إلى العدل في سلامة الحكم على أبناء الجيل الجديد
فإن عزَّ على وزارة المعارف أن تترك خطةً سارت عليها عشرات السنين فلتجعل التصحيح في أيدي رجال خُفِّف عنهم عناء العام الدراسي بعض التخفيف، ليراجعوا الأوراق بعناية والتفات، أو ليكونوا في حال غير الحال التي نعرف، فأكثر من يُدعَون إلى التصحيح يعتذرون، لأنهم لا يلقون الصيف إلا بعد طول العناء بالتدريس والتصحيح
أما بعد فقد أعلنت هذا الرأي مرات في الأعوام الماضية، ولم أجد من يسمع، فهل يكون من حظ هذا الرأي أن يضاف إلى الآراء التي يدرسها وزيرنا الحصيف؟
أحزان توفيق الحكيم
لم أكن أنتظر أن يكون عتْبي على الأستاذ توفيق الحكيم فرصة لمجادلات ومساجلات يجري بها قلمه مع الكاتبين العظيمين عباس العقاد وطه حسين
وعلى قلة ما يجشّم أخونا الزيات نفسَه في مراسلة أصدقاء الرسالة من مهجَره الجميل، فقد كتب إليّ يخبرني أنه خفّف كلمتي في عتب الأستاذ توفيق الحكيم، لأنه لا يقبل أن يفسُد ما بيني وبين توفيق لشبهة نفاها توفيق.
وأحسنَ أخونا الزيات فيما صنع، فما أدري كيف كنت أثبُت أمام ضميري لو نُشرت كلمتي كاملة ثم ظهر أن أخانا الحكيم يطوي صدره على تلك الأحزان السّود.
لطف الله بي فنجاني من هول هذا الموقف بفضل حكمة (المهاجر الرفيق)، فله الحمد، وعلى المهاجر الثناء.
ولكن يظهر أن أحزان توفيق الحكيم لن تنجيه من (الوقوع في قبضة الأديب الفلاح) فسأسمعه اليوم كلاماً يسرّه في حين ويحزنه في أحايين، وفقاً لحالته النفسية وهو يقرأ ما أقصّه عليه بلا تخويف ولا ترهيب.
دار الأستاذ الحكيم في رده على الأستاذ العقاد حول (نفوذ) الدكتور طه حسين، فماذا يريد أن يقول؟
هل يتوهم أن (نفوذ) الدكتور طه تميمةٌ تعيذه شر أقلامنا إذا رأيناه أنحرف عن المقبول من شريعة الأدب الرفيع؟
وما احتياجُنا إلى (نفوذ) الدكتور طه حسين، ونحن نعرف أن ذلك النفوذ بلاء عليه، لأنه يبعده منا ويقرّبه إلى سوانا، وفردوس الأدب هو النعيم الباقي على الزمان.
يستطيع الدكتور طه بكفايته العلمية أن يكون أكبر موظف في الحكومة المصرية، ولكنه لا يستطيع الزعم بأن سلطان القلم يفوقه أيّ سلطان.
لقد أبيت أن أهنئ الدكتور طه بمنصبه الجديد في وزارة المعارف، لأني كرهت أن يقاس الفوز بمقياس الوظائف، ثم سارعتُ فهنأته بكتاب (الحب الضائع) لأغريه بالمضي في هذه الطريقة من طرائق التأليف، ولأُفهمه أني لا أقيم وزناً لغير محصول الأقلام الجياد.
الدكتور طه رجلٌ ضرَّار نفَّاع، ولكن من العيب على حامل القلم أن يرجوه أو يخشاه، فما هذا الذي تقول يا عمّ توفيق؟!
أترك هذا وأنتقل إلى مشكلة أساسية، وهي مشكلة قد تخرج الأستاذ الحكيم من فردوس الأدب الرفيع
صديقنا توفيق يتألم ويتوجع، لأن شهرته الأدبية أبعدته من الانخراط في سلك رجال القضاء. فما معنى ذلك؟
معناه أن هذا الرجل يعيش بين رجال الأدب عيش الغرباء، وإلا فهل يجوز لكاتب له عقيدة
أدبية أن يتوهم أن في الدنيا حظاً أعظم من حظوظ أرباب الأقلام؟
وصديقنا توفيق يقول بعبارة صريحة إنه لا يجد أسرة تعطف عليه، فتزوِّجه بُنية يسكن إليها وتسكن إليه، لأن الشهرة الأدبية أضافته إلى المشبوهين!
غضبة الأدب عليك، يا توفيق! فما أوذيَ الأدب بأقبح ولا أبشع ولا أفظع مما جرى به قلمك الأهوج
وبمن تثق الأسر الكريمة إذا لم تثق برجال الأدب الرفيع؟
ولأي فارس تخضع المرأة النبيلة إذا فاتها الخضوع لأحد فرسان البيان؟
أتقول هذا الكلام يا توفيق في مجلة مثل الرسالة وهي عنوان الفحولة الأدبية، ثم

تنتظر أن نراعي أحزانك فلا ترد عليك؟
وأرجع إلى الموازنة بين حال القاضي وحال الكاتب فأسألك: أتعتقد مؤمناً بأن القاضي يخدم العدالة بأكثر مما يخدمها الكاتب؟
قضاة مصر جديرون بالاحترام والتبجيل، فالشكوى من الفوضى مست أكثر الهيئات ثم استحيت فلم تمس رجال القضاء
ومع هذا فلا يسيغ ذهني أن يكون القاضي العادل أشرف من الكاتب الصادق، إلا أن يتبذل الكاتب فيقترح زواج هتلر من أم كلثوم لتنتهي الحرب!
أيهون الأدب على أهله إلى هذا الحد من الهوان البغيض؟
أيكون اليأس من الاقتران بامرأة لها سيارة وعمارة باعثاً على الضجر من صحبة الكتاب والخطباء والشعراء؟
أيكون (نفوذ) طه حسين شيئاً يُخاف فتُحبر فيه المقالات الطوال العراض؟
آه ثم آه!!
لو كان بيدي شيء من الأمر لقضيت بنفي توفيق الحكيم إلى جزيرة واق الواق، ليغرق أبناؤنا وتلاميذنا أن للأدب سيطرة سماوية تبغض التأدب مع غير صاحب السماء
أنت في جماعتنا دخيل، يا توفيق، لأنك تقدِّم علينا رجال القضاء، ولأنك تتهيّب أصحاب النفوذ، وبين النفوذ والنفوس جناس معلول، إن كنت تذكر المبادئ من علم البديع
مقالك الحزين كاد يبكيني، يا توفيق، ولكني تجلدتُ وتماسكت، فراراً من الرثاء لك والبكاء
عليك.
أبعدَ عشرين سنة خدمت فيها القلم، على حد ما زعمت لنفسك، تعود فتمنّ على الأدب بأنك أضعت من أجله أشياء وأشياء؟!
نفيناك، نفيناك، ولن نلتفت إليك بعد اليوم، إلا أن تُستتاب فتتوب.
الخلوة إلى القلم نعمةٌ لا يدركها من يرى السعادة في الخلوة إلى امرأة.
وسواد المداد في بياض القرطاس أجمل من الخيلان السود في الخدود البيض، وهذا كلامٌ لا يفهمه الأدباء الدخلاء.
لا تؤاخذني، يا توفيق، في القسوة عليكَ فأنا أحاول رجعك إلى فردوس الأدب الرفيع، فهل ترجع؟ وهل تعود؟
عندنا (نفوذ) لا يقاس إليه النفوذ الذي تعرف
عندنا أرواح وقلوب. عندنا نار تصهر روحك حين تريد
فهل ترجع إلى عشك، أيها العصفور من الشرق؟
زكي مبارك
. . .مثال
رأي الأزهريين في لبس القبعة
للأستاذ محمد محمد المدني
كتبت في إحدى (مرسلاتي) كلمة موجزة عن (اختلاف الأزهريين) سجلت فيها ظاهرة غريبة ربما عدت شأناً من شئون الأزهر الخاصة، وعلامة من علاماته المميزة: تلك هي التفاوت البعيد في النظر إلى الأشياء والحكم عليها مع أن القوم يشربون من معين واحد، ويصدرون عن ثقافة ما ترى في أصولها من تفاوت، وقد اختصرت في ذلك بعض الأمثلة، ولم أعرض لذكر الأسباب فكتب إليّ كاتبان فاضلان من قراء (الرسالة) يسألني أحدهما أن أذكر بعض المثل واضحة مفصلة، ويسألني الأخر أن أبين الأسباب التي تفضي بالأزهريين إلى هذا الخلاف في الحين بعد الحين. ولست أحب أن أعرض لذكر الأسباب كما يريدني أحد هذين الكاتبين، فأنه ليعلم أن القول في ذلك مؤلم موجع في بعض نواحيه، وفي الأزهر نفوس لا نحب لها أن تألم، وجنوب عزيز علينا أن تُقض، فحسبنا أن نذكر بعض المثل الواضحة في هذا الشأن تبصره وذكرى لعلهم يرجعون:
المثال الذي اخترته ليس فكرة من الفِكَر التي تشغل الناس اليوم وإنما هو فكرة تاريخية قد تداولتها عهود، ومرت بها أطوار تبتدئ من أواخر القرن الهجري الماضي: ذلك المثال هو (رأي الأزهريين في لبس البرنيطة). وقد اشتغل الأزهريون بهذا الموضوع أربع مرات: اشتغلوا به لأول مرة في عهد الشيخ محمد عليش مفتي السادة

المالكية المتوفى سنة 1299هـ، وقد سجلت (الرسالة) رأي هذا الشيخ فيما نشرته (للناقد الأزهري) (بالعدد 416 ص813 من السنة التاسعة)، وقد جاء في ختام هذا الرأي ما نصه:

إنه تقرر في شريعة المسلمين أن حكم هؤلاء - يقصد لابس البرنيطة - أمرهم بالتوبة) والرجوع إلى دينهم، والتزيي بزي المسلمين، وإمهالهم لذلك ثلاثة أيام، فإن فعلوا ذلك قبلت توبتهم، وخلى سبيلهم؛ وإن تمت الأيام الثلاثة ولم يتوبوا قطعت رقابهم بالسيف، ولا يغسلون، ولا يصلى عليهم لموتهم على الكفر. . .)

واشتغل الأزهريون بهذا الموضوع مرة ثانية في عهد الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه وأرضاه، حينما سأله الحاج مصطفى الترنسفالي في أنه يوجد أفراد في بلاد الترنسفال تلبس البرانيط لقضاء مصالحهم وعود الفوائد عليهم فهل يجوز ذلك؟

فأجابه بفتواه المختصرة التي أقامت الأزهر يومئذ وأقعدته. وهذا نصها كما جاء في محفوظات دار الإفتاء المصرية (رقم 190 - 6 شعبان 1321هـ): (أما لبس البرنيطة إذا لم يقصد فاعله الخروج من الإسلام والدخول في دين غيره فلا يعد مكفراً. وإذا كان اللبس لحاجة من حجب شمس أو دفع مكروه أو تيسير مصلحة لم يكره كذلك لزوال معنى التشبه بالمرة)

ثم عرض الأزهر لهذا الموضوع مرة ثالثة فقيل إن جماعة كبار العلماء أو لجنة منها بحثته وأصدرت فيه رأيها وهو يقضي بعدم جواز لبس البرنيطة. ولم أطلع على سند هذا الرأي لأنه ليس للجماعة مكتب ولا سجل منظم تقيد فيه بحوثها، وتسجل آراؤها. وقد أردت في العام الماضي أن أطلع على بعض الرسائل العلمية التي تنال بها عضوية الجماعة فتدافعني الموظفون في الإدارة العامة واحداً إلى واحد، ثم لم أهتد إليها ولم يبح لي أحد بسرها!

وأخيراً عرض لهذا الموضوع رجل الفقه والإفتاء الأستاذ الكبير الشيخ عبد المجيد سليم، وقد سأله مفتي مدينة كوملجنة بتراقيا الغربية بما خلاصته: (إنني بصفتي الرسمية لا أقر لمن يلبسون القبعة في بلادي ببدعتهم هذه، ولا أوقع على وراثتهم من المسلمين، ولا على زواجهم من المسلمات، فيسخطون عليّ، ويتخذونني شكية عند الناس وعند الحكومة، وفي اعتقادي أني لا أحكم فيهم بغير ما حكم به الشرع الإسلامي، فإن كنت على حق فساعدوني رحمكم الله وأيدوني بكلمتكم الفصل؛ وإلا فدلوني على ما هو الحق الحقيقي بالأتباع)

ولم يكن فضيلة الأستاذ الكبير عضواً بجماعة كبار العلماء حين صدر الرأي الذي أشرنا إليه، وإنما أسند إليه منصب الإفتاء وعين عضواً بالجماعة بعد ذلك، فماذا قال؟ إني أثبت هنا نص فتواه التي هي فصل الخطاب في هذا الباب، لما فيها من فقه جيد، ولما أرشدت إليه من مبدأ عام في الحكم على الناس بالكفر أو الإيمان:

نص الفتوى

أما بعد فاعلم - هداني الله وإياك إلى الحق ورزقنا اتباعه وجنبنا الزلل في القول . . .) والعمل - أن علماءنا قالوا إن الكفر شيء عظيم فلا نجعل المؤمن كافراً متى وجدنا رواية أنه لا يكفر، فلا يكفر مسلم إلا إذا اتفق العلماء على أن ما أتى به يوجب الردة، كما أنه لا يكفر مسلم متى كان لكلامه أو فعله احتمال ولو بعيداً يوجب عدم تكفيره، فقد روى الطحاوي عن أبي حنيفة رحمه الله وأصحابنا أنه لا يخرج الرجل من الإيمان إلا جحود ما أدخله فيه، ثم ما يتيقن بأنه ردة يحكم بها له، وما يشك بأنه ردة لا يحكم بها إذ الإسلام الثابت لا يزول بشك مع أن الإسلام يعلو. وينبغي للعالم إذا رفع إليه هذا ألا يبادر بتكفير أهل الإسلام مع أنه يفضي بصحة إسلام المكره، وقد قال صاحب جامع الفصولين بعد نقله هذه العبارة ما نصه: (أقول: قدمت هذه لتصير ميزاناً فيما نقلته في هذا الفصل من المسائل فإنه قد ذكر في بعضها أنه كفر مع أنه لا يكفر على قياس هذه المقدمة) أهـ

وقالوا أيضاً: إن مناط الكفر والاكفار التكذيب أو الاستخفاف بالدين، فقد نقل صاحب نور العين على جامع الفصولين عن ابن الهمام في المسايرة أن مناط الاكفار هو التكذيب أو الاستخفاف بالدين. وقد قال في جامع الفصولين ما نصه: (شد زناراً على

وسطه ودخل دار الحرب للتجارة كفر. قيل في لبس السواد وشد الفائزة على الوسط ولبس السراغج ينبغي ألا يكون كفراً، استحسنه مشايخنا في زماننا، وكذا في قلنسوة المغول إذ هذه الأشياء علامة ملكية لا تعلق لها بالدين) أهـ

إذا علمت هذا علمت أن مجرد لبس البرنيطة ليس كفراً لأنه لا يدل قطعاً على الاستخفاف بالدين الإسلامي ولا على التكذيب لشيء مما علم من الدين بالضرورة حتى يكون في ذلك ردة. نعم إذا وجد من لابس القبعة شيء يدل دلالة قطعية على الاستخفاف بالدين أو على تكذيب شيء مما علم من الدين بالضرورة كان ذلك ردة فيكفر. وعلى ذلك يكفر كل من حيذ أو أستحسن ما هو كفر إذا وجد منه ما يدل على ذلك دلالة قطعية، وإذا لبسها قاصداً التشبه بغير المسلمين ولم يوجد منه ما يدل على الاستخفاف بالدين ولا على التكذيب لشيء مما علم من الدين بالضرورة كان آثماً فقط لما روى أبو داود في سننه: حدثنا عثمان بن أبي شيبة. حدثنا أبو النضر - يعني هاشم بن القاسم - حدثنا عبد الرحمن ابن ثابت. حدثنا حسّان بن هطية عن أبي جنيب الجرشي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من تشبه بقوم فهو منهم) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وهذا إسناد جيد، وبين ذلك في كتابه (اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم) ومعنى قوله عليه الصلاة والسلام (فهو منهم) أنه كافر مثلهم إن تشبه بهم فيما هو كفر كأن عظم يوم عيدهم تبجيلاً لدينهم، أو لبس زنادهم، أو ما هو من شعارهم قاصداً بذلك التشبه بهم استخفافاً بالإسلام كما قيد به أبو السعود والحموي على الأشباه، وإلا فهو مثلهم في الإثم فقط لا في الكفر كما في الفتاوى المهدية. وإنما شرطنا في الإثم قصد التشبه لأن في الحديث ما يدل على ذلك إذ لفظ التشبه يدل على القصد؛ ومن أجل ذلك قال صاحب البحر ما نصه: (ثم اعلم أن التشبه بأهل الكتاب لا يكره في كل شيء، فأنا نأكل ونشرب كما يفعلون، إنما الحرام هو التشبه فيما كان مذموماً وفيما يقصد به التشبه. كذا ذكره قاضيخان في شرح الجامع الصغير)

وكتب ابن عابدين في حاشيته على البحر تعليقاً على هذا ما نصه: (أقول: قال في الذخيرة البرهانية قبيل كتاب التحري. قال هشام: رأيت على أبي يوسف نعلين مخصوفين بمسامير فقلت: أترى بهذا الحديد بأساً؟ قال: لا. فقلت: إن سفيان وثور بن زيد رحمهما الله تعالى كرها ذلك لأن فيه تشبهاً بالرهبان: فقال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس النعال التي لها شعر وإنها من لباس الرهبان. فقد أشار إلى أن صورة المشابهة فيما تعلق به صلاح العباد لا تضر، وقد تعلق بهذا النوع من الأحكام صلاح العباد، فإن الأرض مما لا يمكن قطع المسافة البعيدة فيها إلا بهذا النوع) أهـ

وعلى هذا فهؤلاء الناس الذين لبسوا القبعة آثمون إذا قصدوا من لبسها التشبه بالكفار. أما إذا لبسوها غير قاصدين التشبه بهم كأن، كان لبسهم إياها لدفع برد أو حر أو غير ذلك من المصالح فلا إثم. وهذا كله إذا لم يوجد منهم ما يدل دلالة قطعية على استخفافهم بالدين أو تكذيبهم لشيء مما علم من الدين بالضرورة وإلا كانوا كفاراً مرتدين يحكم عليهم بأحكام المرتدين، من عدم صحة أنكحتهم وعدم توريثهم من الغير (إلى غير ذلك، والله سبحانه وتعالى أعلم

أما بعد. فهذا مثال نذكره لينتفع به من يريد الانتفاع، وليعلم الذين يعجلون بالحكم على آراء الناس أن الريث أولى بهم وأجدر أن يهديهم سبيل الرشاد، فإن قوماً منا قد اقترنت بعض الفِكر العلمية في أذهانهم بقداسة تجعلهم ينفرون ممن يعرض لها بوزن أو تمحيص ولو زيف أدلتها، وبين ما فيها من خطأ، فتراهم يجزعون لما يصيب هذه الفِكر ويضطربون، وتراهم يسفون أحياناً ويتزيدون، وربما أضافوا إلى الباحثين ما لم يقولوا، أو أولوا في كلامهم ما لم يقصدوا؛ ذلك بأنهم لا يرجون علماً، ولا يقصدون حقاً، وإنما يريدون أن يثيروا كلاماً في مقابلة كلام ليقول العامة الذين لا يفقهون: لقد رد فلان على فلان! وآية ذلك أن كلامهم لا يصبر على البحث، ولا يثبت أمام النقاش العلمي، فتراه يتخاذل ويتهالك ويذوب كما يذوب الثلج تحت حرارة الشمس، ولو شئنا لضربنا في ذلك الأمثال، ولكنا نضن بأنفسنا وبقرائنا أن نشتغل بأكثر من هذا المثال

محمد محمد المدني
المدرس بكلية الشريعة

التفاحة. . .
للأستاذ راشد رستم
عادل - أحبك يا (سهام)
سهام - تحبني!!
- نعم أحبك. . . وهل في الأمر غرابة؟!
- لا. . .
- ثم إني أحبك لأنك تحبينني
- ألهذا السبب أنت تحبني؟
- طبعاً لا. . . ومع ذلك لماذا لا؟. . .
سهام - ولكن كيف عرفت أنني أحبك؟
عادل - هذا سر. . .
- سر. . . وهل بين المحبين سر؟!
- وأيُّ سر. . . إن بين المحبين سر الأسرار، بل ليس بين غير المحبين سر مثل سر المحبين
- سر الأسرار أم لا أسرار!!
- إذا لم يكن بين المحبين سر، فإنه يجب عليهما أن يخلقا لهما (سرا) سرا. . .
- دعني من فلسفة الأسرار. . . أريد أن أعرف السر!!
- أي سر؟
- السر الذي تدعي الآن أنه سرك
- كيف. . . ألا تعرفينه؟
- إذا كنت أعرفه ما كنت سألتك عنه
- وما دمت لا تعرفينه فلا داعي لذكره
- بالعكس. . . يكون الحال أدعى لمعرفته
- لا أظن ذلك، فإنه شيء يدرك ولا يشرح
- ولكن أنت قلته الآن منذ قليل
- إذن أنت تعرفينه
- وهل في هذا شك. . . بل ومنك عرفته
- إذن لماذا تحاورينني هكذا؟!
- لكي أمتحنك
- تمتحنينني! ولماذا تمتحنيني؟ وفي أي شيء؟ دعينا من هذا الكلام. . . ليس هذا هو سبب المحاورة. . . أفصحي. . . أفصحي
- ماذا تعني؟
- أعني أنه يهمك جداً أن تعرفي كيف. . .
سهام - اسمع يا (عادل)، أنت تحبني ما في هذا شك، ولكن، ألا تدري أنه يسر المرء أن يعرف كيف ولماذا أحبَّه غيره. . . ثم هل في هذا عيب؟!
عادل - كلا. . . ولكن عليه أن يبحث فيتعب فيعرف فيرتاح. . . وليس عليه أن يجلس فيسأل فيجاب فيرتاح. . .
- ألا تحب لي الراحة؟
- ليس في هذا شك. . . ولكن، أليس التعب في سبيل الحب راحة؟
- بالله لا تتعبني واختصر الطريق
- اسمعي يا (سهام)، أنا لا أريد تعبك ولا الإطالة عليك، ولكن الذي أحب هو الذي يعرف كيف أحب
- لا، أنت غلطان، إن الذي أحبَّ لا يعرف كيف أحب، ولكنه يعرف فقط أنه أحب
- إذن، لماذا تتعبينني؟!
- اتق الله، من الذي يتعب الآخر. . . ومع ذلك، فإن التعب في سبيل الحب راحة. أليس كذلك؟ ثم إن الذي أريدك أن تفهمه هو أن المحبوب يفرح ويفرح جداً إذا عرف كيف ولماذا أحبه حبيبه
- ليس من السهل الإجابة على هذا السؤال

- ولكنك أحببتَ فجربتَ فعرفتَ
- وأنت يا سهام، ألم تحبي قبل هذه المرة؟
سهام - أولاً، ما معنى هذه المرة؟
عادل - أريد أن أقول. . .
- لا تقل شيئاً. . . سأُريحك. . . نعم، كنتُ ظننت أنني أحببتُ قبل هذه المرة!!
- ولكن. . .؟
- ولكن لم أحب. . .
- والآن؟
- والآن. . . والآن. . . وقد أوقعتني. . . فماذا عساي أن أقول!!
- أولاً، لست أنا الذي أوقعك، ثم لا تنسى أن من حفر بئراً لأخيه وقع فيه!!
- وهل الحب يا عادل بئر؟
- بئر. . . وأيّ بئر!! إنه بحرُ. . . بل هو محيط. . .!!
- أعوذ بالله. . . إنه إذن مخيف!!
- إذا كان مخيفاً، فلماذا أوقعت نفسك فيه؟!
- يا ظالماً! حقًّا إنك مغالط كبير. . . هل أنا وقعت فيه، أم أنك أنت الذي أوقعتني فيه؟!
- أنا أوقعتك. . . أم أنت التي وقعت؟!
- أتريد أن تقول إنني أنا التي أوقعت نفسي وانك، لم تقع معي؟
- لا. . . أنا لا أريد أن أقول هذا. . . ثم كوني وقعت معك أو لم أقع - هذا شيء، وإنك وقعتِ أو لم تقعي - هذا شيء آخر. . . ومع ذلك، هل وقعت أنا معك؟
- هذا سؤال لا يوجه إليَّ. . . أنتَ الذي تجيب عليه!
- أنا لم أر أحداً أوقع غيره
- كيف. . . مع أنك وقعت مع الواقع!!
- هذا اعتراف آخر
- وهل أنت في حاجة إلى اعترافات؟
- لا. . . ولكنك أنتِ تحبين الاعتراف
- أنا. . .!!
- نعم. . . بدليل أنك تصرحين بها. . .
- إنك أنتَ الذي تجعلني أصرِّح
- الأمر على العكس، أنا لم أطلب منك تصريحاً، فإنني مقتنع بأنك تحبينني. . . كما أنني أحبك. . .!!
- هكذا. . . هكذا. . .!!
عادل - وهل عندك شك في هذا. . . ألم أذكره في أول حديثي في صراحة يعجب لها الكثيرون. . .
سهام - يعجب لها الكثيرون! ولماذا؟
- لأن أغلب الرجال لا يميلون إلى الابتداء بالاعتراف. . .
- وهل تظن أنك بدأت واعترفت!؟
- من غير شك. وقد قلت ذلك في أول كلمة لي معك. . .
- أتحسب هذا اعترافاً؟
- كيف لا؟ وإلا فما هي هذه الصراحة النادرة في مثل هذا الموقف بين رجل وسيدة؟
- عجباً. . . ما هذا التجني على المرأة؟ وهل محرَّم على الرجل أن يبادر ويبوح بحبه؟
- لا. ولكن بالله لا تخرجي عن الموضوع. . .
- إنني أتكلم في صميم الموضوع. . . أليس الحب هو شريعة البشر جميعاً. . . الرجل والمرأة على السواء؟
- نعم
- إذن لماذا هذه التفرقة. . . ألا تعلم أن المرأة والرجل يكمل بعضهما بعضاً؟
- هذا صحيح، ولم ينكره أحد، ولكن ما هي نسبة تكملة الواحد منهما للآخر؟
- سؤال غريب. . . إن الاثنين يتممان وحدة؛ وأما نسبة الواحد إلى الآخر في تكميل الوحدة فهي مسألة ثانوية. . .

- هذا القول يذكرني بأسطورة التفاحة. . .
- أسطورة التفاحة؟!
عادل - نعم. يولد أبن آدم فتقطع له تفاحة، يعطى نصيبه منها، والنصيب الآخر يعطى لمن ستكون شريكته في الحياة، وعندما يتلاقيان ينطبق النصيبان ويلتصق الجنبان
سهام - ولكن هيهات أن يجد المرء الجزء الآخر من التفاحة نفسها بسهولة. . .
- إذ كتب له أن يجدها فإنه واجدها ولو كانت هي القشرة. . . ولو كانت كذلك في الطرف الآخر من العالم. . .
- ألهذا الحد تهزأ بالجزء الآخر من التفاحة؟
- يعلم الله ما أنا بهازيء، ولكني أقرر الحقائق وأنا آسف
- إذن على هذا الأساس يجب أن يفسح للحب المجال، فإنه هو عنصر التعارف والتقارب وهو عامل الانطباق والتوفيق
- هذا صحيح، ولذلك لست أرى حرجاً على الرجل في أن يبدأ فيبوح بحبه، فقط يبوح لمن؟
- لمن؟ وهل في هذا خلاف؟ طبعاً يبوح به إلى من احب
- إذن لماذا تنكرين على ما صرّحتُ به لك في أول الحديث؟
- وهل تظن أن هذا اعتراف منك؟
- وإلا فما هو؟ . . .!!
- في الواقع لا أرى فيه إلا أنه خطة منك لتأخذ مني أنا الاعتراف. . .
- وهل تظنين يا سهام أنك اعترفت لي بشيء؟
- أتريد مني بهذه الطريقة اعترافاً آخر؟ ألم يكفك سرورك باعترافي السابق، أو بتعبير أصح بوقعتي التي وقعت فيها!. . .
- الواقع أنني مسرور جداً. . .
- أمر عجب!!
- حقاً، إنني مسرور جداً، لأنها حالة أنت ذاتك مسرورة منها. . .
- عجباً. . . ومن أدراك بأنني مسرورة و. . . جداً؟
- أنت. . .
- أنا. . .!
- نعم أنت. . .
- سبحان الله. . . وكيف. . .؟
- بنظراتك. . .
- نظراتي!!
- أظنك ستقولين إنها خطة أخرى. . .
- ولكن هل تثق أنت بنظراتي؟
- ثقتك أنت بنظراتي
- . . .!!
- انظري في عينيَّ. ألا ترين عينيك فيهما!
- . . .!!
- إنها وحدة الوجود. . .
- وهي لذة الوجود
راشد رستم
حنين مسلتين
'
للشاعر الفرنسي تيوفيل جوتييه
للأستاذ أحمد أحمد بدوي
بعد أن تغادر حدائق التويلري المغروسة أمام متحف اللوفر ترى ميدان الكونكورد أجمل ميادين باريس. وفي وسط هذا الميدان الفسيح الحي تنهض إحدى المسلات المصرية، وقد أقيم قريباً منها على الجانبين فوارتان. وإذا وقفت أمام هذه المسلة رأيت عن يمينك المعبد وعن يسارك مجلس نواب فرنسا مطلاً على نهر السين، وأمامك طريقاً يصل إلى غابة بولونيا

منذ زهاء ثلاثة وثلاثين قرناً أنشأ هذه المسلة وأختها إمبراطور مصر رمسيس الثاني، حيث أقامهما عند باب معبد الأقصر، وقد ظلت المسلتان معاً واقفتين أمام هذا المعبد الضخم حتى القرن الماضي حينما أهدى محمد علي الكبير إحداهما إلى ملك فرنسا لويس فيليب، وهي القائمة الآن بميدان الكونكورد، وأما المسلة الثانية فظلت حيث أنشئت وحيدة

أنشأ الشاعر الفرسي تيوفيل جوتييه قصيدتين إحداهما على لسان المسلة الغريبة بباريس، والأخرى على لسان المسلة المقيمة بالأقصر. وتيوفيل جوتييه من أدباء القرن التاسع عشر، ولد في أوائله وبدأ حياته رساماً، ثم ترك ريشة المصور إلى قلم الأديب؛ غير أنه ظل في الأدب رساماً كذلك؛ وهو يرى أن من حق الأدب أن ينافس الفنون الأخرى كالرسم والتصوير والحفر، فيما تتناوله من الموضوعات، وقد حقق فكرته في ديوانه فموضوعاته تصوير لما تراه العين قبل أن تكون تصويراً للإحساس والشعور؛ فتراه يصور لك مثلاً تمثالاً في متحف، أو آنية مزخرفة، أو باريس تغطيها الثلوج، إلى غير ذلك من صور. وهو الذي أذاع نظرية الفن للفنّ؛ فأهم شيء عنده هو الجمال الفني والأسلوب، أما الفكرة والأخلاق ففي المرتبة الثانية. وهو ممن حلّ الشعر من قيود الشخصية، وكان قدوة لغيره في استخدام الأساليب الدقيقة المصورة. ولعلنا نوفق يوماً إلى دراسة مذهبه في

الفن، ونقد هذا المذهب

ولم يقتصر تيوفيل جوتييه على قرض الشعر؛ بل له قصص قصيرة، وروايات مطولة، منها رواية كتبها عن مصر، تسمى قصة المومياء، وصف فيها مصر القديمة، حياتها ومجدها. وقصيدتا المسلتين بديوانه الذي تحدثت عنه، وهأنذا أنقلهما إلى اللغة العربية، محافظاً كل المحافظة على ما قصد إليه الشاعر من صور وأفكار

مسّلة باريس - 1

في هذا الميدان أتضجر، أنا المسلة المبعدة عن أختها. الجمد والصقيع والرّذاذ والمطر، برّدت جنبي الذي علاه الصَّدأ

وقمتي المدببة العتيقة التي كانت محمرة في أتون سماء ذات لهب ارتدت الشحوب من حنينها إلى الوطن في جو لا يزرق أبداً

لِمَ لا أقف الآن قريبة من أختي ذات اللّون الورديّ، أمام التماثيل الضخمة العابسة، وأعمدة بيبان الأقصر، غامسة في الزّرقة الدّائمة رأسي الهرمي القرمزي، وكاتبة خُطى الشمس بظلي فوق الرمال.

رمسيس! كاد الخلود يوماً ما يتصدع حين تدحرج جسمي الجميل مقتلعاً كعود من عشب، باريس تتخذه لعبته.

الديدبان الصخري حارس الآثار الضخمة، يقف بين معبد كاذب قديم، وبين مجلس النواب.

فوق مقصلة لويس السادس عشر، أقيم صخر نسي مغزاه، وفيه سرّي الذي نسي منذ خمسة آلاف عام.

العصافير الطليقة تدنس رأسي الذي كان يطير مسرعاً حوله اللقلق الوردي، والصقر ذو الريش الأبيض، والمناسر الذهبية.

نهر السين الأسود، مأوى مياه الطرقات، النهر القذر، المكون من صغار الجداول، دنَّس قدمي التي كان يقبلها عند فيضانه النيل أبو الأنهار.

النيل العملاق، ذو اللحية البيضاء، المحفوف بنبات اللوتس والخيزران، والذي يصب منبعه المنحدر تماسيح بدل صغار الأسماك

العجلات الذهبية المطقمة بأصداف كالنجوم، عجلات الفراعنة العظام الأقدمين، كانت تمرّ

بجانبي، أنا المجروحة الكبرياء، برؤية عربة الكراء، مقلة آخر ملوك فرنسا

قديماً أمام حجري العتيق، كان الكهنة الأبرار، وقلانسهم على جباههم، يتمشون في المحراب المقدّس الخفيّ ذي الرّموز المصوّرة المذهبة.

أما اليوم فأنا عمود ليست له قداسة الدين، أقيم بين فوارتين، وتمر بي بنت الهوى صريعة في مركبتها.

أرى طول العام مواكب الموسرين، وأتباع صولون ذاهبين إلى دار النيابة، والفجرة

منطلقين إلى غابة بولونيا.
أفّ! في مائة عام أيّ هياكل عظمية قبيحة، سيصير إليها هذا الشعب الماجن المجنون الذي يرقد من غير لفائف، في ناووس يغلقه مسمار!
ليس له تحت الأرض مقابر في مأمن من الفساد، تلك المراقد التي ينام فيها الموتى جيلاً بعد جيل.
أيتها الأرض المقدسة، أرض الهيروغليف، وأرض الأسرار الكهنوتية، حيث آباء الهول تشحذ مخالبها على زوايا قواعد التماثيل
وحيث النواويس ترن تحت الأقدام، وحيث العقبان تبني عشاشها. إنني أبكيك يا مصري القديمة بدموع من جرانيت.
مسلة الأقصر - 2
هأنذي أسهر حارساً وحيداً لهذا القصر الكبير الخرب في وحدة أبدية وأمام اللانهاية، تنشر الصحراء تحت الشمس المحرقة ملاءتها الصفراء إلى أفق لا يحده شيء، أفق مجدب صامت لا نهاية له
وفوق الأرض العارية تبدو السماء - وهي صحراء أخرى زرقاء - نقية تامة النقاء لا تسبح فيها قطعة واحدة من السحاب
النيل ذو المياه الكدرة التي ينعكس الضوء فوق أديمها، كأنما هو قشرة رصاصية - يلمع تحت أضواء عمودية شاحبة، مكسر الصفحة بفرس النهر
والتماسيح الشرهة إلى الأقتناص، تكاد تنضج في جلودها فوق الرمال الملتهبة، تغرب في الضحك، وتخالها ترسل الزفرات
واللّقلق: منقاره إلى حوصلته، ساكن فوق قدمه النحيلة يقرأ على قاعدة بعض الأعمدة الألقاب المقدسة للمعبود (توت)
والضبع يضحك، وابن آوى يموء، والصقر كأنه فاصلة سوداء في صفحة السماء النقية - جائع يصرصر، راسماً دوائر في الهواء
ولكن ضوضاء هذا القفر يحجبها تثاؤب تماثيل أبي الهول متعبة من احتفاظها السرمدي بالسكون
ضجر خلقته الأشعة البيضاء، تنعكس فوق الرمال، والشمس المتلألئة على الدوام، وأي ضجر يشبه ما يبعثه نور الشرق الحزين!
هنا الهواء لا يجفّف يوماً دمعة في عين السماء الجامدة، والزمن متعباً يتكئ على هذه القصور الصامتة
ليس عندي ما يغيّر وجه السرمدية، فمصر في هذا العالم الذي يتغير فيه كل شيء، تتربَّع فوق عرش الثبوت
عندما يساورني الضجر، أتخذ الفلاحين والموميات التي عاصرت رمسيس رفقاء وأصدقاء
هأنذي أرى عموداً مائلاً، وتمثالاً ضخماً بلا وجه، وزوارق ذات قلاع بيضاء صاعدة هابطة في النيل
كم أتمنى أن لو كنت كأختي، قد نقلت إلى باريس العظيمة وغرست هناك في ميدان، قريبة منها لأتسلى!
إنها ترى هناك شعباً حيّاً واقفاً يتأمل نقوشها وخطوطها المقدسة التي يسبح الفكر لدى قراءتها في عالم الأحلام. . .
الفوَّارتان المقامتان بجانبها تقذفان رذاذهما الملوَّن بألوان قوس قزح على غبار صخرها القرمزي الذي عاد إليه الشباب. . .
لقد نحتت مثلي من الصخور الوردية بأسوان، غير أنني بقيت في مكاني القديم. إنها حية. . . أما أنا. . . فقد مت!!
(حلوان)
أحمد أحمد بدري
غزل الملوك
والقصيدة المنسوبة إلى السلطان سليم
للأستاذ عبد الله مخلص
أراني مديناً بالشكر للأديب الموهوب الأستاذ حسن القاياتي عضو مجلس النواب

لاهتمامه وعنايته بالصفحة التي ملأتها من غزل الملوك بالرسالة الغراء. وكنت أتمنى لو أن أعمالي الطويلة العريضة تمكنني من النزول على رأي الأستاذ الكبير والغوص في بحار الغزليين من الملوك والأمراء والتقاط دراريهم اللامعة، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك جله

وأشكر للأستاذين الفاضلين إبراهيم أحمد أدهم ومحمود عزت عرفة ملاحظاتهما القيمة على القصيدة المنسوبة إلى السلطان الدالة على رغبتهما في استكناه الحقائق وخدمة الآداب فأقول:

إن السلطان سليما الأول الملقب بـ (ياوز) هو ابن السلطان بايزيد الثاني وحفيد السلطان محمد الفاتح، وهو تاسع السلاطين العثمانيين وفاتح مصر والشام وبلاد العرب في آسية وأفريقية، وهو الذي نقل الخلافة الإسلامية من بقايا العباسيين في مصر إلى السلطنة العثمانية فجمعت بينهما من أيامه. وقد توفي هذا السلطان العظيم سنة 926 الهجرية الموافقة لسنة 1519 الميلادية

ويقول من ترجم له من المؤرخين إنه كان يقرض الشعر في اللغتين الفارسية والتركية ويأتون على ذلك بشواهد من شعره

إلا أن أحمد بن يوسف بن أحمد الشهير بالقرماني المتوفى سنة 1019هـ 1610م يقول عن السلطان إنه كان يجيد اللغة العربية أيضاً وينظم نظماً بارعاً حسناً

ومن هؤلاء المترجمين نامق كمال المعدود من أعاظم الأدباء والمجددين في الأدب التركي في أوائل القرن الرابع عشر الهجري المتوفى سنة 1305هـ 1887م

فقد قال عن السلطان سليم في صدد إيثاره المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، وتفضيله اختيار الضرر الخاص في سبيل النفع العام ما تعريبه:

إن السلطان ضحى بنديمه يوسف الذي كان أعز عليه من نفسه، والذي أعلن حبه له) وافتتانه به بالأشعار الرائقة التي نظمها فيه ومنها:

لولا الإله وحرّ نار جهنم ... لعبدته وسجدت بين يديه

ضحى به في سبيل مقاصده بعد ما أحبه حباً يقرب من العبادة، وأظهر من بعده الصبر الجميل

فهذا البيت المفرد من القصيدة هو الدائر على الألسنة إلى الآن، وهو الذي حملني على نسبة القصيدة بتمامها إلى السلطان سليم

أما المخطوط الذي نقلتها منه فهو ينسبها إلى السلطان أحمد، ومن واجب الأمانة أن أنقل هنا عنوانها وهو: (ومما نظمه المرحوم المغفور السلطان بن السلطان السلطان أحمد خان)

أما السلطان احمد الأول بن السلطان محمد الثالث فقد كان من السلاطين الذين دافعوا عن البلاد وذادوا عن حياضها، وقد كان ينظم الشعر في اللغتين العربية والفارسية وقد توفي سنة 1026هـ - 1617م

وإذا اعتبرنا أن المخطوط الذي نقلنا منه القصيدة قد أُلف في سنة 1042هـ أي بعد وفاة السلطان (أحمد) بستة عشر عاماً فيكون مؤلفه أقرب إلى الزمن الذي عاش فيه صاحب القصيدة؛ ويجب علينا أن نقرّه على نقله وأن نقول: إن هذه القصيدة هي للسلطان احمد لا للسلطان سليم ما دمنا لا نجد مستنداً لمدعانا سوى البيت الذي استشهد به نامق كمال. وهذه هي القصيدة التي نسبها محمد المحّبي المتوفى سنة 1111هـ 1699م إلى السلطان أحمد:

ظبي يصول ولا اتصال إليه ... جرح الفؤاد بصارميْ لحظيه
ما قام معتدلاً وهزّ قوامه ... إلا تهتكت الستور عليه
يسقي المدامة من سلافة ريقه ... ويخصّنا بالغنج من جفنيه
عيناه نرجسنا وآس عذاره ... ريحاننا والورد من خديه
يا شعر في بصري ولا في خده ... إني أغار من النسيم عليه
عجبي لسلطان يعزّ بعدله ... ويجور سلطان الغرام عليه
لولا أخاف الله ثم جحيمه ... لعبدته وسجدت بين يديه

وأنت ترى أن هذه القصيدة تتألف من سبعة أبيات بينا القصيدة التي نقلناها من المخطوط ونشرت في العدد 462 من الرسالة الغراء هي أحد عشر بيتاً مخمّساً.

أما قصيدة طلائع بن رزيك الملقب بالملك الصالح من وزراء الدولة الفاطمية بمصر

المتوفى سنة 556هـ 1160م فهي:
ومهفهف ثمل القوام سَرَت إلى ... أعطافه النشوات من عينيه
ماضي اللحاظ كأنما سلت يدي ... سيفي غداة الروع من جفنيه
قد قلت إذ خطّ العذار بمسكةٍ ... في خدّه ألفيه لا لاميه
ما الشعر دبّ بعارضيه وإنما ... أصداغه نفضت على خديه
الناس طوع يدي وأمري نافذ ... فيهم وقلبي الآن طوع يديه
فاعجب لسلطان يعمّ بعدله ... ويجور سلطان الغرام عليه
والله لولا اسم الفرار وإنه ... مستقبح لفررتُ منه إليه
وسواءً أكانت القصيدة للسلطان سليم كما ظن قبلاً أو للسلطان أحمد كما ترجح معنا الآن، فإن معانيها مقتبسة من قصيدة الملك الصالح، بل إن الرابع والخامس والسادس من أبيات هذه القصيدة قد نقلت بالحرف تقريباً، فلا وجه لاعتبار ذلك من قبيل توارد الخاطر ووقع الحافر على الحافر.
وبإضافة تلك الأبيات الثلاثة مع البيت القائل:
يا طيب ليلتنا ونحن بمجلس ... نهض الحبيب لنا على قدميه
إلى القصيدة الأصلية أصبحت أحد عشر بيتاً.
بقي علينا معرفة الذي خمس القصيدة وزاد فيها تلك الأبيات. وجواب هذا السؤال وارد في المخطوط من أنها للسلطان أحمد فيكون هو نفسه قد خمّسها بعدما زاد عليها تلك الأبيات وبينها أبيات الملك الصالح الثلاثة
أما القول بأن السلطان سليماً لم يؤثر عنه نظم الشعر بالعربية ففيه نظر؛ لأن المؤرخين يذكرون أنه عندما عاج بحماة الشام في طريقه إلى مصر وحل ضيفاً مكرماً في الزاوية القادرية ارتجل بيتين من الشعر في مدح بني الكيلاني من أحفاد عبد القادر وكتبهما في جدارها. ثم إنه عندما سمع خرير مياه نهر العاصي وصرير أخشاب النواعير التي تنتشل ماء النهر كأنها تئن نظم بيتين آخرين البيت الثاني منهما هو:
وإني على نفسي لأجدر بالبكا ... إذا كانت الأخشاب تبكي على العاصي
أما البيتان اللذان خطهما بيده على مقياس الروضة، فهما ليسا له، بل هما من قصيدة لأبي العلاء المعري هي:
الموت ربع فناء لم يضع قدما ... فيه امرؤ فثناها نحو ما تركا
(والملك لله من يظفر بنيل غنى ... يردده قسراً وتضمن نفسه الدركا)
(لو كان لي أو لغيري قدر أنملة ... فوق التراب لكان الأمر مشتركا)
ولو صفا العقل ألقى الثقل حامله ... عنه ولم تر في الهيجاء معتركا
إن الأديم الذي ألقاه صاحبه ... يُرضى القبيلة في تقسيمه شُركا
دع القطاة فإن تقدر لفيك تَبِت ... إليه تسري ولم تنصب لها شَركا
وللمنايا سعي الساعون مذ خلقوا ... فلا تبالي أنصَّ الركب أم أركا؟
والحتف أيسر والأرواح ناظرة ... طلاقها من حليل طالما فُركا
والشخص مثل نجيب رام عنبرة ... من المنون فلمَّا سافها بركا
في حين أن قطب الدين الحنفي المتوفى سنة 990هـ - 1582م يقول:
ورأيت بيتين بالعربي بخطه (أي خط السلطان سليم) الشريف كتبهما في علو المقياس في الكوشك الذي أمر ببنائه لما افتتح مصر وسكن الروضة قد انمحى لطول الزمان مداده، ومال إلى لون البياض سواده، وكان هذا الكوشك محترماً مقفلاً لا يصل إليه أحد لعظمة بانيه، ولا يتبذل بالدخول إليه لعظمة راعيه، فدخلت إلى مصر في سنة 943، وكان يوم كسر النيل السعيد ففتحوا هذا الكوشك لبكلر بكى مصر يومئذ خسرو باشا وكنت مصاحباً لمعلم مولانا عبد الكريم العجمي، فطلع وأطلعني معه في صحبة خسرو باشا المذكور، فرأيت على الرخام الأبيض كتابة خفية لا تكاد تظهر إلا بتأمل هذين البيتين:
الملك لله من يظفر بنيل مني ... يردده قسراً ويضمن من بعده الدركا
لو كان لي أو لغيري قدر أنملة ... فوق التراب لكان الأمر مشتركاً
وكتبه سليم بذلك الخط والقلم. ولعمري إن كان هذان البيتان من نظم المرحوم فهما غاية في البراعة، ونهاية في التمكن من الصناعة، فيدل على تمنكه - رحمه الله - في

اللسان العربي أيضاً، لأنهما من أعلى طبقات الشعر العربي البليغ المنسجم؛ وإن كان قد تمثل بهما وهما لغيره، فهذه أيضاً مرتبة علية في حسن التمثيل وحسن الاستحضار وفهم الأشعار العربية وذوقه لها، وهذا القدر يستكثر على علماء الروم (أي العثمانيين)، وعلماء العجم
المكبين على علوم العربية فضلاً عن سلاطينهم المشغولين بضبط الممالك وفتحها؛ والفائقون في ذوق الشعر العربي وحسن آدابه من العلماء والموالي في غاية القلة معدودين منهم، ولا يُعدّ هذا نقصاً فيهم، لأن فهم الشعر العربي على وجهه كما ينبغي قليل أيضاً في علماء العرب، إلا من توغل منهم في الأدب، وتعب في تحصيله ودأب
ويقول القرماني:
ولما كان (أي السلطان) بمصر كتب على رخام في حائط القصر الذي سكن فيه بخطه فقال: ونقل البيتين السابقين وقال محمد عبد المعطي بن أبي الفتح بن أحمد بن عبد الغني بن علي الاسحاقي المتوفى سنة 1032هـ 1622م ما قاله قطب الدين الحنفي وكأنه نقله عنه.
أما نامق كمال المتقدم ذكره فيقول عن هذين البيتين ما تعريبه:
لما ولي السلطان سليم الملك أنشد القطعة الشعرية التالية وهي من بنات أفكاره، وسجد أمام العظمة الإلهية معلناً عجزه ومسكنته فقال:
الملك لله من يظفر بنيل مني ... يرد قهراً ويهوى نفسه الدركا
لو كان لي أو لغيري قدر أنملة ... فوق التراب لكان الأمر مشتركا
وقد نقلنا البيتين المذكورين لوجود بعض المباينة في البيت الأول بين قول أبي العلاء المعري وبين ما نقله قطب الدين الحنفي والقرماني ونامق كمال.
هذا ما استطعت الإلمام به من أمر القصيدة المنسوبة إلى السلطان سليم بسطته للقارئ الكريم، وفوق كل ذي علم عليم
عبد الله مخلص
أكذبيني
للشاعر الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد
اكذبيني مرة أو فاكذبيني مرتين
ألفُ ألفٍ من أعاجيبك في غش ومين،
لن تُبيد الفارق الخالد يا قرة عيني
والسموات التي بينك في اللب وبيني
اكذبيني واكذبيني ... كلما شئت اكذبيني
ما غناء اللب عندي ... إنْ أَبَى أن تخدعيني؟
أنا في ثروةِ وفرٍ ... منه مهما تسلبيني
أنقصيها. . . أي ضيرٍ؟ ... درهماً أو درهمين!!
عباس محمود العقاد
اجتماعيات
الحسن المبتذل. . .
للأستاذ حسن القاياتي
لقد أبدعَ الْحُسنُ حتى مَلكْ ... وَرَقَّ لَهُ الطَّهْرُ حتى هلكْ!!
تَسَامَى إلى الغيدِ كلُّ الْعُيون ... كأَنَّ الجمال بدا من فلكْ
مَضَى الْجَهْلُ يَقْرِي غَوِيَّ الْجَمَالْ ... كضيفِ الجراثيم عند الحلكْ
بَنَاتُ الْهوى ما بناتُ الهوَى ... حَلِيٌّ يُبَاعُ وَلاَ يَمْتَلَكْ!!
بِمَنْ أَنزل السحرَ سحرَ الجفونِ ... بعينيكَ يا بدرُ مَنْ أنزلكْ؟!
تُبيحُ الغريرةَ بذلَ الضنين ... فتحنُو عليك بما ليس لكْ
سَلِ الْغُصْنَ مَالَكْ بِهِ الْمُصْيِبَاتُ ... أَلَمْ تأسَ للزَّيْغِ إذ مَيَّلَكْ؟!
فَدَيْتُكَ يَا غُصْنُ أَنَّي هَويتَ ... وَبالله يا زهرُ مَنْ أَذْبلكْ؟!
إذا قمتَ يا وردُ في العابثين ... تلهَّى ببذلك مَنْ قَبَّلَكْ. . .
إذا فُجعت حُرَّةٌ في العفاف ... فقيلَ: البغيُّ لطُهْرِ الْمَلَكْ!
هُوَ الْحُسْنُ يُلْنَمُ لَثمَ الْكؤوس ... ويؤْكل بالعذل أو يُعْتلَكْ
أَعصرُ الْهَوَى مَثْلَكَ الْفَتَاةُ ... فَمَالُكَ تُزْرِي بِمَنْ مَثُلَكْ؟!

إذا كنتَ يا نبتُ صُنْعَ الزَّمانْ ... تَبَنَّاكَ لِلْغَيِّ أو عَدَّلَكْ
يَذُمُّ الغَوِيُّ سَبايا الغواة، ... نَبِيَّ الطهارة مَنْ أَرْسَلَكْ؟!
أَتبكي عَلَى الْحُسنِ إذ يَسْتَبِيكَ ... وَتُنْحِى عَلَى الْحُسْنَ إِذْنَوَّ لَكْ؟!
بِوُدِّكَ أَنَّ الْهَوَى كالْهَوَاءِ ... تَرِفُّ بِهِ الرُّوحَ أَنَّى سَلَكْ!
أَبِيعَ الْهَوَى فاستباحَ القلوبَ ... تباركْتَ يا حُسْنُ ما أَعْدَلَكْ؟!
جمالَ الأَبِيَّاتِ كم تَسْتَطِيلُ ... تَحنَّنْ رَعَاكَ الذي عَدَّلَكْ!
بنفسِيَ ما أجمل التائهات ... وإن قلتُ: يا وَصْلُ ما أجملك!
شكاةُ الخرائد أَسْرُ الحجال ... فِدَاؤك يا حُسْنُ مَنْ عَطَّلَكْ!
إذ مُلِكَ الْحُسْنُ هَدَّ الْفؤادَ ... مَلالاً ويا طيبه إنْ مَلكْ!!
القاهرة: السكرية
حسن القاياتي
العودة إلى مسقط الرأس
(للامرتين)
للأستاذ علي شرف الدين
نعم عدتُ يا دَاريَ الغاليهْ ... ومهد طفولتيَ الخاليهْ
أعيشُ بظلِّك ما قد حييتُ ... لأقضِيَ أياميَ الباقيهْ
بعيداً عن المدن الصاخبات ... فثروتُهَا خُدعةٌ فانيهْ
نشأتُ من المهْدِ بين الرُّعاةِ ... أحِنُّ إلى الغنم الثَّاغِيهْ
وأتبع في السهل ضِلَّ الخراف ... على هَدْى آثارها الباديه
أتابِعُهَا خُطْوَةً خُطْوَةً ... إلى النجم في القبة الحاليهْ
ولي مِثلهُمْ في رَوَاح القطِيع ... أغانِيُّ هاتفةُ شاديه
وأَغْسِلُ من بيض أصوافِهَا ... على ضفَّةِ البركة الجاريه
وأَصْبُو إلى هَزَجاتِ المساءِ ... تُبدِّدُهَا ريحُهُ السَّارِيَهْ
وأصغي إلى عرباتِ الحقول ... فأسمعُ ضجتَهَا النَّائيه
قسا حِمْلها فوق أعطافِها ... فناحَتْ بأجمالها القاسيه
أَحبُّ الرَّنينَ الأصمَّ الجميلَ ... لأِجْراسِ حُمْلانها الراعيه
تصلُّ هُناكَ بأعْناقها ... من الغاب، أو ذِرْوَةِ الرابيه
فيا وطني، لا عَدَتْني بكم ... ظِلالٌ مقدَّسةٌ واقيه
وصفصافة كلَّلَتْ بالنَّدى ... فتشهد أغْصانَهَا باكيه
بكَتْ تِرْبَهَا حينَ طال الغيابُ ... فجادَتْ بأدْمُعِهَا شاكيه
فيا سَرْحَتِي هَوِّني من شجاكِ ... وَأَحْنِى مِنَ الْغُصُنِ العاليه
على غائبٍ كنتِ تبكينَهُ ... فعادَ لأوطانه ثانيه!!
علي شرف الدين
البريد الأدبي
عدد الرسالة الخاص بالعراق
تُحسن (الرسالة) غاية الإحسان بما تتهيأ له من إصدار أعداد خاصة عن الأقطار العربية الشقيقة؛ فتلك لعَمري أجل خدمة تؤديها هيئة أو فرد، لنصرة هذه اللغة الشريفة، وإذكاء روح الوحدة والتعاون بين شعوبها التي ناء بها الضعف، وأذهب ريحَها التفرقُ والخذلان.

و (الرسالة) أقدر (هيئة ثقافية) على الاضطلاع بهذا العمل الذي تعرضت له؛ بل لا نغالي في الزعم بأنها تبلغ من هذا أضعافَ ما قد تبلغه (هيئة سياسية) تقيِّدها الرسميات، وتحوط عملها العراقيل الظاهرة والخفية. . . وشتان ما بين القوتين: قوة الأدب في صراحته ونفوذه وسلامة مقصده، وقوة السياسة في التوائها وتنكرها وتستر أغراضها ومراميها. . .

على أننا نحب - وعدد العراق بسبيل الإعداد - أن نوجه أنظار أدبائنا الأفاضل ممن سيتاح لهم الاشتراك في تهيئة هذا العدد إلى وجوب الإطناب في تاريخ العراق الحديث حتى يتهيأ لكل عربي طَلَعةٍ أن يعرف عن حياة العراق الاجتماعية والسياسية والأدبية والاقتصادية والعمرانية. . . ما فيه الغَناء. نحب أن نعرف عن بغداد فيصل وغازي مثل ما نعرف عن بغداد أبي جعفر وهرون، إن لم يكن أكثر؛. . . ولتكن محاسن نهضة

العراق الحديثة موضعَ كلام كثير؛ ولكن لتذكروا لنا أيضاً بعض المساوئ التي قد تأخذها العين؛ ففي ذلك نفع للعراق وخدمة للعرب جميعاً.

ولا نحب بذلك أن ترك الماضيَ إلى هذا الحاضر الحافل المتشعب، فماضي العراق وتاريخ دُوَله مما تلذّ لنا قراءته في كل وقت؛ لأنه تاريخنا جميعاً: تاريخ حضارتنا وديننا ولغتنا وقوميتنا؛ وصورةٌ من مجدنا الذي نصبو إليه مخلصين، ونهفو إلى استعادة ذكرياته والتأسي بعبَرة، حتى تأذن لنا الأيام بأن نستعيد مفقوده ونحيي موءوده.

فلنقرأ من خير هذا الماضي وشره ما يعيننا على إدراك حقائق الحاضر حتى . . . . نعرف فيه طريقنا ونتميز موقفنا. . .

وأخيراً نسأل أدباءنا، ولتكن أجوبتهم على ذلك في العدد الخاص: أين من يعقد لنا مقارنة بين بغداد القديمة والحديثة (مع خريطتين لهما)؟

أين من يحدثنا عن آثار العراق الباقية إلى اليوم، والتي قد تُتاح مشاهدتُها لمن يزوره؟

أين من يذكر لنا مشاهده المأثورة وقبوره المشهورة؟

أين من يذكر لنا لهجاته القديمة والحديثة؟

أين من يصف لنا أزياءه وما مرت به من أطوار وتغيرات؟

أين من يحدثنا عن خصائص شعبه في غير تمويه، وعن أنظمة حكومته في غير تعقيد، وعن جميع مواهبه ومقوماته في غير تحيُّف ولا مغالاة؟

أين من يطوي بنا المكان والزمان إلى حاضر العراق وغابره فنراهما ونعيش فيهما، ونتحدث عنهما حديث الواثقين العارفين؟

أين من يفعل ذلك كله؟

أين؟ أين؟. . . كما يقول الدكتور الجليل زكي مبارك، الذي نقترح عليه أن يحدثنا عن كل شيء في العراق سوى (ليلى المريضة). . . فقد آن لها - وحق أدبه الرفيع - أم تشفى!

(جرجا)

محمد عزت عرفة

رجع إلى ديكارت وابن يعيش

قرأت في العدد 465 من الرسالة كلمة قيمة للأستاذ (محمد خليفة التونسي) استهلها بالرد عليّ فيما قلته في العدد 463 من أن أبن يعيش سبق ديكارت إلى الشعور بالفكرة التي بنى عليها أبو الفلسفة الحديثة منهجه الموصِّل إلى اليقين بعد الشك، ومن أن ديكارت عمل ما لم يعمله ابن يعيش فصاغ هذه الفكرة في منهج فلسفي فكان هذا الفرق بينهما.

استهل الأستاذ كلمته بالرد عليّ فيما قلته؛ فقال إن ابن يعيش لم يكشف مذهباً فلسفياً، لأنه كان يناقش تركيباً عربياً من حيث معناه، ولأنه لم يجُلْ بفكره أن يقف عند هذه القضية قليلاً ولا كثيراً، فليس الفرق أن ديكارت صاغ وابن يعيش لم يصغ وأنا أشكر للأستاذ عنايته بتمحيص ما قلت، ولكنني أرى أنه فهم كلامي على غير الوجه الذي قصدتُ، ومال به إلى غير الطريق الذي نهجت، فظن أنني أريد أن أقول إن ابن يعيش كشف مذهباً فلسفياً.

ففي الحق أنني ما أردت أن أقول ذلك، وما خطر لي ذلك ببال، فابن يعيش رجل نحوي قبل كل شيء، وهو في قوله لم يحاول مطلقاً أن يثبت وجود نفسه لأنه ما شك مطلقاً في وجود نفسه، وإنما كان - كما يقول الأستاذ - يناقش تركيباً عربياً من حيث معناه.

إنما أردت أن أقول إن الفكرة التي بني عليها ديكارت مذهبه وهي أن في تفكيره المرء برهاناً على وجوده قد شعر بها ابن يعيش مجرد شعور فقال في عرض كلام له عن تركيب عربي إن في علم المرء برهاناً على وجوده.

ففكرة ديكارت قريبة الشبه من فكرة ابن يعيش وأن لم تكن هي ذاتها. وذكره لها في عرض كلامه النحوي معناه أنه لم يصغ هذه الفكرة في منهج فلسفي. وما كان غرضي مما قلت أن أهزّ مؤرخي الفلسفة هزاً عنيفاً لينتبهوا إلى أن ابن يعيش سبق ديكارت في منهجه الذي انتقل به من الشك إلى اليقين، وإنما قصدت إلى أن أعرض مثالاً طريفاً لتوارد الخواطر بين الشرق والغرب.

فهذا تفصيل ما أجملت، لعله يوضح ما أنبهم ويفسر ما استسر

على أنني لا أود أن أترك القلم قبل أن أنبه الأستاذ إلى أن ابن يعيش - كغيره من النحويين المتأخرين - كان يعيش في بيئة فلسفية كلامية، فتأثر - كما تأثر هؤلاء - بهذه البيئة في منهج تفكيره وفي عرض تفكيره، وهذا يتضح لمن يقرأ في شرحه على المفصل.

وقصدي من هذا الكلام أن أنص على أنني وإن لم أحمل كلامه السابق على أنه كلام فلسفي إلا أنني أشم فيه رائحة فلسفية وألمح فيه مخايل التفلسف.

فهذا ما جوز لي قرن ديكارت بابن يعيش

وللأستاذ مني تحية صادقة.

السيد يعقوب بكر

إلى من يعنيهم الأمر في وزارة المعارف

لفت نظري أثناء مطالعتي ما جاء بالجزء الرابع من كتاب المقرر تدريسه لطلبة السنة الرابعة بالمدارس الابتدائية تأليف , و , المطبوع في مصر في 4 أغسطس سنة 1936 بالصفحة رقم 121 أثناء كلامهما عن الإسكندرية) قولهما: إن عمراً (بن العاص) عندما وصل إلى الإسكندرية على رأس جيشه الذي سلمه قيادته الخليفة عمر بن الخطاب في سنة 642 عمد إلى تخريب كثير من مبانيها كما أحرق مكتبتها في ثلاثة وثمانين ومائة يوم. وهو ما يأتي بنصه:

641 , , 183

واتهام عمرو بإحراق مكتبة الإسكندرية لم يكن سوى فرية قررها بعض المؤرخين لم تعدم من المنصفين من يفندها ويظهر زيفها. وإنه ليصعب على المرء أن يصدق هذه الفرية التي افتراها بعضهم على عمرو والعرب مع ما اشتهر عنهم من حبهم للعلوم وترجمتهم لآداب وفنون كثير من الدول الأجنبية عنهم والمخالفة لهم في اللغة والدين والجنس

وما دامت هذه الفرية لا تزال تتأرجح بين الإثبات والنفي والتقرير والتكذيب، فقد كان من الواجب حذفها من الكتاب خشية رسوخها في أذهان صغار الطلبة الذين يأخذون مثل هذا الكلام المرسل على عواهنه قضية مسلمة ويحسبونه من الحقائق الثابتة وهو محض اختلاق؟

هل تراجع مثل هذه الكتب في وزارة المعارف مراجعة دقيقة، أم أن المسئولين في وزارة المعارف لا يرون في مثل هذه الكتب ما يستحق عناء المراجعة والاهتمام؟

(الإسكندرية)

أحمد عبد اللطيف الحضراوي

الأدب بين الشيوخ والشبان

أذكرتني تلك الكلمات الرصينة التي تدبجها براعة الأستاذ الزيات في صدر رسالته، كما أكرتني كذلك ثورة الكاتب الكبير العقاد على الشاب الأديب الذي كتب إليه يقول له: (إنكم لا ترشدوننا، ولا تأخذون بأيدينا). . . بذلك العنوان

والخصومة بين الشيوخ والشبان، أو الشبان والشيوخ، خصومة قديمة يرجع تاريخها إلى عهد بعيد

وكان الظن إذا ثارت خصومة أدبية بين (الشبان والشيوخ) أن تكون على شاكلة تلك الخصومة التي كانت بين (الهمذاني والخوارزمي) والتي انكشف القناع فيها عن أن (الهمذاني) هذا شاب جدير بإكبار الشبان واحترام الشيوخ، إلا أن شبابنا - كما يقول (شوقي) قُنِّعَ لا خير فيهم. . .

وأحب أن ألفت الذهن إلى أن الشيوخ كذلك قضت عليهم الزمانه، وقتلهم حب الظهور، فاكتفوا من الأدب بطنين اللقب وناموا إلى ذلك. ولا يعنيهم - حين يكتبون - أصابوا أم خابوا، ما دام لهم شهرة، ولقلمهم رواج

إبراهيم علي أبو الخشب

إلى الأب أنستاس الكرملي

بمناسبة ما سجله العلامة الفاضل الأب أنستاس الكرملي بمجلة (الرسالة) العدد (464) عن كلمة (المطمورة) العربية الخالصة يجدر بنا أن نقول: إن استعمال هذه الكلمة لم يختص به أهل العراق فحسب، وإنما ينطق بها أهل السودان أيضاً وأهل السودان لا يعنون بها (ما يتخذ لحفظ الطعام إن كان على وجه الأرض أو كان

على خارجها)، كما يفعل أهل العراق، وإنما يقصدون بها إلى المعنى الذي نصت عليه قواميس اللغة وهو: (المطمورة: حفرة يطمر فيها الطعام: أي يخبأ (ج) مطامير) أما ما يتخذ لحفظ الطعام خارج الأرض، أو ما يكاد يعبر عنه قول الأب الفاضل: (أما إذا كان فوق الصعيد، فإن أصحابه يجعلونه جرة عظيمة، ثم يسنمونها على هيئة مخروط ثم يسيفونها ويصمدونها حتى إذا نزلت بها نوائب الجو من مطر وبرد وثلج ورياح قاومتها أحسن مقاومة، ودفعت أضرارها إلى أحسن الوجوه)؛ فإن أهالي السودان يعبرون عنه بكلمة (السِّوَيبهْ)

وعلى ذكر هذه الكلمة (السويبه)، نتقدم بها إلى الأب الفاضل راجين منه أن يتفضل ويرشدنا: هل لهذه الكلمة أصل في اللغة العربية بما يفيد هذا المعنى الذي يقصد إليه بها أهل السودان، أو ما يقرب منه؟

(الأبيض - سودان)

عبد الرحمن أحمد سعد

العدد 468 - بتاريخ: 22 - 06 - 1942

مثل المصرية الحديثة

- 1 -

لا تزال السيدة و. . . على العهد بها طاهرة القلب حاضرة اللب ساحرة الحديث حرة الفكر، لا تختلف وهي عقيلة تدبر البيت وتدير المزرعة، عنها حين كانت معلمة تسوس الفصل وترأس المدرسة، ولا يزال بهوها الجميل يستقبل في مساء الخميس من كل أسبوع نفراً من خليط الخاصة فيهم الأديب والطبيب والمحامي والجندي والفلاح والواعظ، وكلهم إما قريب أو صديق أو صهر

والسيدة و. . . مثل صادق للمصرية الحديثة حين تراها في ثوبها الأنيق، المحكم على قدها الرشيق، تتخذ من البهو مكان القلب، فترسل الدم بالحياة والنشاط والرغبة والبهجة إلى كل عضو من أعضاء المجلس

جمال السيدة فاتن؛ ولكن جلال الحشمة فيه يكف عنه النظر الشهوان فيقف على حدّ الإعجاب به

وأدب السيدة رائع؛ ولكن روعته آتية من قوة الذكاء لا من سعة الإطلاع؛ فهي ترى الرأي في بعض معاني الأدب فتحسبه من إلتماع الذهن فيه عالي النمط، وهو في حدود الوسط

وعلم السيدة دون الكفاية؛ ولكنها ترفده بقليل من الدعوى المقبولة، فترفعه المبالغة منها والمجاملة منك إلى المستوى اللائق بالمرأة المثقفة

وذوق السيدة رفيع؛ ولكنه ذوق الأنوثة الموهوب لا ذوق الحضارة المكتسب؛ أرهفته بالقراءة، وصقلته بالمران، حتى أوشك أن يكون من خلالها الأصيلة يصدر عنه ما يصدر عن الطبع السليم من حسن الاختيار وجمال التنسيق وصحة المواءمة.

وزوج السيدة طبيب؛ ولكنه يعمل في عيادته عمل المنهوم بالعلم والمال؛ فهو لا ينفك طول يومه بين تفريق (التذاكر) وجمع النقود ثم لا يعلم من دنياه شيئاً بعد ذلك. فهي التي تدبر المنزل وتدير العزبة وتربي الأولاد وتنمي الثروة وتراجع البنك وتعامل الناس، ثم تجعل من بيتها ومكتبتها وحديقتها جنة يسكن إليها زوجها المكدود وولدها المجهود وقريبها

المكتئب وزائرها المتطلع

قد يكون لمزاولتها التعليم في شباب العمر بعض الأثر في تكوينها على هذه الشيمة من حسن الإدارة وحب النظام وبراعة الحيلة ولطف المداخلة؛ ولكن المرأة المصرية على الجملة تبذ الرجل في هذه الخلال متى سلمت فطرة الله فيها من بطر النعمة وزيف التربية وسوء المحاكاة

زرت ندَّيها في يومها المختار فوجدته حافلاً بمن يندون إليه في العادة من الأقارب الأدنين والأصدقاء الخلَّص؛ وكانت هي حين أخذت مجلسي تناقل المحامي حديث السياسة، وزوجها يساجل الواعظ حديث الدين، وكان الضابط البطين والفلاح البدين يلقيان السمع إلى هذين مرة، وإلى ذينك أخرى تبعاً لارتفاع الصوت واشتداد الجدل. وكان محضر السيدة في الصالون، ورشاقتها في الإشارة، ولباقتها في الحديث، وتجلي

ذوقها وروحها في طراز الأثاث، وطرافة ألوانه، وانسجام قطعه، وحسن توزيعه، كان كل أولئك قد غمر الجالسين بشعور من السمو لم يألفوه، فرقت الأصوات، واتَّأدت الحركات، واتزنت الكلمات، وسما كل شيء في كل نفس. وللزي الذي ترتديه، وللمكان الذي تجلس فيه، وللرجل الذي تتحدث إليه، أثر في نفسك يصدر عنه الفعل مطابقاً للحال التي أحدثته

قالت لي السيدة وقد ترامى بنا الحديث إلى أثر المرأة في الإصلاح ومكانها في الأدب:

- ما بال فلان وفلان يحبان أن يُذكر بمعاداة المرأة وما أظنها وقعت في حياتهما موقع العائق عن إنتاج أو إصلاح أو سعادة؟

فقلت لها: ذلك في رأيي ضرب من الحب ونمط من الغزل! أما دعوة أحدهما إلى استعبادها فلأنه شقي في الحصول عليها، فهو ينتقم منها انتقام الصائد الأرعن من الطائر المسحور. وأما دعوة الآخر إلى استعبادها فلأنه يئس من الوصول إليها، فهو يزهد فيها زهد الفأر الأبتر في قدرة السن. والمثّلان معروفان!

فقالت: إذن لو كان نصيبهما من المرأة خيراً مما كان، لأصبحت حواء خيراً من آدم، ولكانت المرأة المصرية خيراً من المرأة الأوربية! وهنا ابتدرني الواعظ إلى الكلام فقال:

- لا يجوز في الدين ولا من العقل أن تكون حواء خيراً من آدم. ذلك أنها خلقت من ضلع أعوج، فمن طبيعتها ألا تستقيم. وما لا يستقيم لا يصدر عنه استقامة ولا عدل. ولو أن الله أراد لها غير ذلك لخلقها من رأس آدم فهيمنت عليه، أو من إحدى جوارحه فسعت معه

فقالت السيدة: ولم لا يكون لخلقها من ضلع آدم حكمة أخرى يا أستاذ؟ أليس في خلقها من أحناء صدره تعيين لوظيفتها وتوجيه لرسالتها؟ إن حنوها على الزوج والولد، كحنو الضلوع على القلب والكبد. والأسرة التي تشبل عليها المرأة هي العضو الرئيسي في جسم الأمة، كما أن الأجزاء التي تشبل عليها الضلوع هي الأعضاء الرئيسية في جسم الإنسان

قال الطبيب: معنى ذلك أن عمل المرأة لا يتعدى المنزل

فقالت السيدة: وهل ذلك يسير؟ إن المنزل عالم أصغر ينطوي فيه العالم الأكبر. وإذا كانت الأمة هي الأسرة مكرَّرة، والوطن هو الدار مكبَّرة، فإن المرأة القائمة على شؤونهما لتحتاج من الثقافة والحصافة ما يحتاجه رجل الدولة. إن في البيت حجرة طعام، وغرفة نوم، وبهو استقبال، وقاعة مكتبة، وحديقة زهر، ولكل مكان من هذه الأمكنة ثقافة خاصة لابد للمرأة الصالحة أن تحذقها جميعاً

ومضت السيدة في حديثها العذب تفصِّل هذا الأجمال، والطبيب والمحامي يصغيان إصغاء الإعجاب، والضابط والفلاح ينظران نظر العجّب؛ أما الشيخ فقد كان همه كله من هذا الحديث، أن يرقب اتفاقه أو اختلافه مع القرآن والحديث

(للحديث بقية)

أحمد حسن الزيات

طلائع هجوم الصيف

رجال الأدب ورجال القضاء

(ما رأي الأستاذ الزيات والأستاذ العقاد في موضوع هذا الحديث؟)

للدكتور زكي مبارك

أشرت فيما سلف إلى خطأ الأستاذ توفيق الحكيم حين (منَّ) على الأدب بأنه هجر من أجله القضاء، فقد كان (وكيل نيابة)، وكان يستطيع بقليل من الصبر أن يصير من القضاة المحترمين، على حدّ تعبيره الجميل!

ولو أن هذا (المنّ) صدّر عن رجل غير توفيق الحكيم، لكان من السهل أن نضيفه إلى العامية الفكرية، والأفكار كالناس فيها عوام وخواص، فلم يبق إلا أن نحكم بأن ذلك (المنّ) هفوة قلم وقع فيها توفيق الحكيم وهو يحاور طه حسين

وقبل أن أواجه موضوع هذا الحديث، أسجِّل أن رجال القضاء في مصر أقاموا ألوف البراهين على أنهم من أرباب الفكر المُشرق، وأن نزاهتهم فوق الأوهام والظنون ولكني مع هذا لا أقبل القول بأن رجال القضاء أرفع منزلةً من رجال البيان، وما يسيغ

ذهني أن يكون في خلق الله من يتفوق في الرفعة والشرف على صاحب القلم البليغ
ثم أواجه الموضوع فأقول، على أي أساس يقوم القولّ بأن رجال القضاء أعلى من رجال البيان؟!
أيكون الأساس هو الفرق بين تكوين القاضي وتكوين الأديب من النواحي العقلية والذوقية والروحية؟
إن كان ذلك هو الأساس، فنقضُه أسهل من السهل، والقضاة أنفسهم يعرفون أن تكوين الأديب من أخطر المعضلات، وأن الله قضى بأن تكون دولة القلم إلى أحاد، ولو كانت تلك الدولة في أمة يعد أفرادها بمئات الملايين
إن من حق كل متخرج في كلية الحقوق أن يكون من رجال القضاء، وليس من حق كل متخرج في كلية الآداب أن يصير من رجال البيان، لأن للأدب شرائط أساسية، ومن تلك
الشرائط أن يكون المرشح للأهلية الأدبية له قلب وذوق وروح، وكلية الآداب هي التي تنطق بهذا الحكم، لأنها تريد أن يكون ميزانها أدق الموازين، ولأنها تعرف أن الأدب غايةٌ عزيزة المنال
ومهمة القاضي أسهل من مهمة الأديب، لأن القاضي يحكم وفقاً لقانون مكتوب، ولا يطالَّب في كل يوم بالاجتهاد
هل سمعتم حديث عبد العزيز باشا فهمي؟ إن لم تكونوا سمعتموه فاسمعوه:
حين عُيِّن عبد العزيز باشا فهمي قاضي القضاة حكم على نفسه بالعزلة القاسية، فكان لا يذهب إلى المحكمة إلا في عربة (مقفولة)، وكان يرفض أن يستقبل أحد الزوَّار في البيت، ليسلم من جميع المؤثرات الخارجية
فهل ترون الأديب يملك هذا الحق من اعتزال الناس؟
هيهات، ثم هيهات!
واجب الأديب أن يدرُس جميع الخلائق، وأن يطلَّع على المستور من الطبائع، وأن يشارك العابدين في المساجد، واللاهين في الفنادق، ليعرف دخائل النفوس والقلوب، وليكون على بينة من تطور الأذواق والعقول
الوجود كله كتابٌ مفتوح ينظر فيه الأديب صباحَ مساء والقاضي لا يحس الوجود كما يحسه الأديب، إلا أن يكون قاضياً أديباً، وفي القضاة أدباء تدل عليهم البوارق الفكرية من حين إلى حين
الأديب يتلقى وحي الحياة في كل وقت، وهدَف الأديب هو استجلاء الغوامض من السرائر، وقد يتسامى فيحاول قراءة المسطور في صحائف الغيوب
وظنُّ الأديب في بعض الأحوال أصدق من اليقين، لأن فطرته تخضع في كل لحظة إلى التقويم والتثقيف، فهو أعظم الناس روحانية بلا نزاع ولا جدال
قد يُصدر القاضي عشرات الأحكام أو مئات الأحكام بقليل من الجهد، حين تتقارب أو تتماثل موضوعات الخصومات، ثم تظل منزلته الرسمية في أمان، لأنه لا يطالّب بالابتكار في القضاء، ولو شئت لقتُ: إن الابتكار قد يحرَّم عليه في بعض الأحيان
فهل يظفر الأديب بمثل هذا الحق فيعالَج الموضوع الواحد بأسلوب واحد بضع مرات؟
وهل يستطيع كاتبٌ مثلي أن ينشر في مجلة (الرسالة) مقالاً نشره من قبل في جردية (البلاغ) مع شيء من التبديل والتعديل؟
حرفه الأدب فظيعة فظيعة، فهي تقضي بأن يكون مصير صحبها مرهوناً بأقرب مثال أو أحدث قصيد، ولكل إنسان أن يكتفي بماضيه إلا الأديب، فهو مسئول أمام قرائه عن يومه الحاضر، وقد يُسأل عن جهاده في المستقبل البعيد!
فأين القاضي من هذه المتاعب؟
ومن يَسأل القاضي عن يومه أو غده، وهو عن ماضيه غير مسئول؟
بعد ثلاث دقائق من المدة المقررة لاستئناف الحكم لا يجوز للمظلوم أن يرفع شكواه إلى غير المساء
أما الأديب فيُسأل عن أحكامه بعد الأعوام الطوال، ومن حق كل مخلوق أن يتزيد عليه كما يريد
قولوا الحق، أيها القضاة العادلون
أفيكم من يشقى بحرفته كما يشقى الأديب؟

القانون يحميكم من عبث الجاهلين والسفهاء، فلا تُكتب عنكم كلمة مدخولة، ولا يتطاول عليكم أفّاك، ولا يعترض سبيلكم أبناء السبيل
ومن أجل هذا أقول بعبارة صريحة إن جهادنا في دنيانا أخطر من جهادكم في دنياكم، وإن تأهبنا لفهم معضلات الوجود أقوى من تأهبكم لفهم تلك المعضلات
فاعترفوا - غير مأمورين - بأن تكوين القاضي لا يقاس إلى تكوين الأديب
ثم ماذا؟ ثم يكون أساس المفاضلة أن القاضي يخدم العدالة، وهو الحظ الذي ضاع على الأستاذ توفيق الحكيم حين أغراه الدكتور طه حسين بأن يُحشر في زمرة الأدباء، وتلك أول مرة يحشر فيها (المؤمن) مع من يبغض!
وأقول إن خدمة العدالة من أهم أغراض الأديب، فهو أقدر الناس على وزن المعاني، وهو الفيصل في تقدير المناقب والمثالب، وعن قلم الأديب يأخذ القضاة دقائق المحاسن والعيوب وفي صدر كل قاض حاسة أدبية تهديه حين يوَّفق إلى الأحكام الصِّحاح
القاضي لا يتعرض لأي تعب حين يحكم بالعدل، وإنما يثاب على الحكم بالعدل، أما الأديب
العادل فيقضي دهره في مكاره لا تطاق
إن حكم الأديب بالعدل في قضية الفن فهو ماجن، وإن حكم بالعدل في قضية الفكر فهو زنديق، وإن عادى الزعماء فهو من الخوارج، وإن صادق الزعماء فهو من الوصوليين، ولا تقع محنة في أي انقلاب إلا على رءوس رجال البيان
كل حكم يقابل بالرضا المطبوع أو المصنوع إلا حكم الأديب، لأن الجمهور يعرف أنه مؤزَّر بالقُوى الرسمية، وهل يهاب الناس القاضي إلا لأنهم يعرفون أنه يستطيع (حبس) من يشاء حين يشاء؟
الأديب يملك الحكم ولا يملك التنفيذ، والقاضي يملك الحكم والتنفيذ، فهو في نظر الدهماء أعظم من الأديب، وهو كذلك في نظر توفيق الحكيم!
نحن - رجالَ القلم - خدَّام العدالة في نصابها الحق، ولو خلت الدنيا من أسّنة أقلامنا لأضحت وهي أقفر من الجنة بعد خروج آدم المظلوم
بأقلامنا تصور الغرائب من أوهام العقول وأحلام القلوب، بالعدل والقسطاس. وعنا يأخذ القضاة أصول الحكم السليم من شوائب الأغراض
ومزية الأديب - مزيته الحقيقية - أن الشعوب لا تعرف قدره الصحيح إلا حين ترتفع، ولعل هذا هو السبب في أن قضاة المسلمين لأيام عزهم كانوا من رجال القلم البليغ
ما مجد وما سلطانها في العصر الحديث؟
أكان القضاة هم الذين سَموْا بها إلى تلك المكانة العالية؟
ما ارتفع من قضاة مصر غير الأدباء من أمثال سعد زغلول وقاسم أمين، ومن والاهم من كتَّاب التشريع بأسلوب الأدب الصحيح
العدالة عندنا - رجالَ القلم - وما نبغ نابغٌ إلا بوحي تلقَّاه عن أدبنا الرفيع. عندنا اللهب المقدَّس، عندنا الروح الأمين. فأين من يزعم أنه عرف فكرة العدل قبل أن يأخذ عنا فكرة القسطاس بين الألفاظ والمعاني؟
إن قيل إن لغة القانون أدقّ من لغة الأدب أجبنا بأن القانون لا تكون له لغة إلا حين يكون المؤلفون فيه من أدباء المشرّعين.
ومن الذي يعلِّم الناس دقائق الفروق في التعابير الفقهية والاقتصادية والديبلوماسية؟ عِلْم ذلك عند أصحاب الأقلام الجياد، وما جاز لمشرّع أن يوازن بين لفظ ولفظ، وبين عبارة وعبارة، إلا وهو مسيَّر بقوة أدبية تدله على ما في الألفاظ والعبارات من أعصاب وأحاسيس، والألفاظ تقتتل وتصطلح كما يفعل الأحياء.
إن رجال القضاء لا ينسون أبداً أن أحد أقطاب الأدب الفرنسي كان يقرأ صفحات من (القانون المدني) قبل أن يشرع في الإنشاء، وهم يذكرون هذه القصة كلما بدا لهم أن يفضّلوا اللغة القضائية على اللغة الأدبية، فكيف غاب عنهم أن القانون المدني أنشأه رجلٌ أديب؛ وكيف فاتهم أن الدقة والوضوح لا يصدُران إلا عمن تمرّس بالإنشاء البليغ عدداً من السنين؟
وما يقال عن (القانون المدني) يقال عن (الفقه الإسلامي) فرجال الفقه في الشريعة الإسلامية كانوا من أقطاب الأدباء، وكان جهادهم في تحرير الألفاظ والمعاني يفوق

جهاد أبي تمام والبحتري والرضيّ، وإن تناساهم تاريخ الأدب فلم يذكر لهم ذلك المقام المحمود.
وأرجع مرة ثانية إلى كميّة الإحساس بالوجود عند القاضي وعند الأديب فأقول:
القاضي لا يلتفت إلى إشكال إلا حين يُدعى إليه، فهو في أغلب أحواله من المحايدين، بدليل أنه لا يُفتى إلا من يستفتيه، وقديماً قيل:
(لو أنصف الناس استراح القاضي)
فهل يكون الأمر كذلك بالنسبة إلى الأديب؟
الأديب لا ينتظر قدوم المستفتين من الشرف أو الغرب، وإنما يمضي فيشرّح آلام الناس قبل أن يحسوا تلك الآلام، أو قبل أن يقهرهم استفحالها على الأنين والصراخ.
والأديب يدرس الوجوه بأعمق مما يدرسها الطبيب.
ومن غرائب الأديب أنه يعرف أعمار الأصوات والملامح والعيون، فإذا حدّثه محدّث عن طريق الهتّاف أدرك عُمر ذلك المحدّث وتبيَّن ملامح وجهه ولفتات عينيه، وإن لم يره من قبل
ومن هنا كان الأديب أول من يدل أمته على المخوف من الحوادث والخطوب؛ ومن هنا أيضاً كان الأدب أسبق من الطب ومن القضاء، لأنه فطره وجودية عاصرتْ أقدم عهد من عهود التاريخ.
ولو كان القاضي يحسّ الوجود بمقدار ما يحسه الأديب لانتفع أعظم الانتفاع من الوجهة الأدبية بما يشاهد كل يوم من اصطراع النوازع والأحاسيس في ساحات القضاء، ولكن الواقع يشهد أن محصول القضاة في الأدب قليل قليل، بالقياس إلى الفرص المتاحة لدرس نزعات النفوس وأهواء القلوب.
والإنصاف يوجب أن نقرر أن القاضي منهيٌّ عن تعقّب الناس، فلا يجوز له أن يمرّن قلمه بتصوير ما يُعرض عليه من آثام وذنوب، وقد يحرم عليه أن يحكم قبل استخبار البينات والشهود، وإن كان يعرف كيف يفصِل بأدلة نفسية في بعض الأحايين.
القاضي لا يطالَب بما يطالَب به الأديب، والناس أنفسهم يكرهون أن يعرف القاضي سرائرهم، ولكنهم يحبون أن يُفصح الأديب عما يضمرون، لأن علم القاضي بسرائرهم أخطر عاقبةً من علم الأديب، والإنسان حيوانٌ لئيم!
وإعفاء القاضي من تعقب الناس أراحه من درس مشكلات النحائز والطبائع، إلا في الشؤون القلائل، فهو بين أهل الفكر من السعداء.
أما الأديب فهو كلَّ يوم في حال أو أحوال.
على الأديب أن يحدثك عن نفسك بما تجهل من نفسك، وعليه أن يدخل فيما لا يَعنيه فينشر المطويّ من أخبار بيتك، وإن لم (يتشرف) بزيارة ذلك البيت.
الأديب مسئول عن تقديم صورة صحيحة لكل فضيلة، ولكل رذيلة، ولكل وهم، ولكل وسواس، وهو مع ذلك مطالبٌ بالتصوّن المطلَق، فلا يجوز له أن يعرف من يشاء من طبقات المجتمع، ولا يُقبل منه أن يتعرف إلى أولئك أو هؤلاء، وإلا تعرض للمرذول من إفك السفهاء.
أما القاضي - وما أسعد القاضي! - فهو لا يحكم إلا بعد أن يشتجر في حضرته المحامون والشهود، ليعرف خفايا القضايا بأيسر عناء، ولا مُعقّب لحمه حين يحكم، وهو نفسه لا يملك الرجوع في قضائه حين يريد.
وفي هذا المأزق تظهر قيمة المسئولية الأخلاقية في حياة القاضي وحياة الأديب
القاضي ينفض يديه من كل مسئولية بعد الحكم المؤَّيد بالبينات والشهود
أما الأديب فيستفتي ضميره فيما قضاه، ولو طال الزمان، وقد يتعرض لأقبح السخرية حين
ينتقل من رأي إلى رأي، وما يعرف مخاصموه أنه لا يرجع عما رآه في الأمس القريب أو البعيد إلا لعرفانه بأنه المسئول الأول عن رعاية العدل
ومن الأسباب التي توجب أن يكون إحساس القاضي بمعضلات الوجود أقل من إحساس الأديب أن التنافس بين رجال القضاء لا يقاس إلى التنافس بين رجال البيان
القاضي في إحدى محاكم الإسكندرية لا يعرف شيئاً عن زميله بإحدى محاكم القاهرة أو المنصورة أو أسيوط، لأن (سِرية القضاء) مبدأ مصون
أما الأديب في القاهرة فأحكامه وأخباره منشورة بين جميع الناطقين بالضاد، وقد

تنوشه أقلامٌ أجنبية لا يعرف ما ترمي إليه من خبيث المعاريض
لو تعرضتْ أحكام القضاء لنقد العلانية، كما تتعرض أحكام الأدباء لنقد العلانية، لعرفَ قومٌ أن أعصاب الأدباء الكبار صِيغتْ من الفولاذ، وأن الأديب لا يسيطر على زمانه إلا بعد أن يعجز عن هدمه أبناء الزمان
بقيت مشكلة خطيرة في الفرق بين مكانة القاضي ومكانة الأديب
للقاضي نظامٌ تضع رسومه كلية الحقوق، فما النظام المرسوم للأديب؟
أيكون الأديب من يظفر بدرجة جامعية تمنحها كلية الآداب؟
وكيف وكلية الآداب تنكر هذا الحكم، كما أشرت من قبل؟
إذن يكون من حق كل مخلوق أن يدّعي الأدب حين يشاء، وهذا هو الواقع بالفعل، وهو السبب في أن مِلكية الأدب المدّعاة صارت أعرض من الصحراء، فكيف يحفظ الأديب الموهوب مكانته في الوجود؟ وكيف يرفع العقبات التي يضعها في طريقه (كبار) الأدعياء؟
الجهاد الموصول هو سناد الأديب الحق، وما استطاع أديب أن يظفر بمكانة عالية إلا بعد جهاد يدوم عشرين سنة أو تزيد، وهي مدة كافية لموت الطفيليات
فليس بأديب من يقول: (خذوا بيدي) كما يقول الضعفاء
وليس بأديب من ينتظر العون من هذا الحزب أو ذاك
وليس بأديب من يتشبث بأذيال أحد النوابغ ليضمن له الرزق الحرام أو الحلال، كالرزق الذي يُضْمن للمستأدب المجهول حين يتصل بالأديب المعروف
الأدب الذاتيُّ هو شخصية ذاتية، وما يضيع أديبٌ إلا حين يَقْبل أن يكون من المحاسيب
ألكم خصومٌ أموات كالخصوم الذين نعرف، أيها القضاة المحترمون؟
يخاصمكم من يخاصم وهو مدَّرع بعلوم الشرائع؛ ويخاصمنا من يخاصم وهو (لِبلاب) يعتصم بهذا الجِذع أو ذاك
أما بعد فهذه كلمة أردنا بها وجه الحق في إعزاز الأدب الرفيع، ومن موجبات الفوز أن يكون الطرف الثاني في القضية هم رجال العدل، وعليهم نعوِّل في تأييد ما قدمناه من البينات، ومنهم ننتظر إنصاف الأدب من القضاء
مضت أزمان وأزمان والأدب في محنة بسبب تخلف أهله عن الميادين الرسمية، أو بسبب تودد أهله إلى الميادين الرسمية، فمن واجبنا اليوم أن نرفع راية الأستقلال، وأن نعتزّ بالقلم الذي أقسم به ذو العرش المجيد
تستطيع كل أمة أن تخلق من الطبقات ما تشاء، ولكن الأمم مجتمعةً تعجز عن خلق أديب واحد، لأن الأدب منحة ربانية تفوق هبات الممالك والشعوب
فمن طاب له أن يمنّ علينا بأنه هجر من أجل الأدب هذه الطبقة أو تلك، فليعرف اليوم أننا أصحاب الحق في أن نمنّ على من نمنحه متفضلين لقب الزميل، أو لقب المُريد
الأدب شريعة من الشرائع، ومن واجب كل شريعة أن تنفي من يؤمن بها على حَرف
وصدق الله العظيم حين قال (وما على الرسول إلا البلاغ)
زكي مبارك
الشخصية الهستيرية
للدكتور محمد حسني ولاية
قال وصف كريبلين الشخصية الهستيرية:
1 - لم يعثر على أي نقص في ذكاء 164 من المرضى بالهستريا إذ لم يكن هناك اضطراب في الإدراك أو قوة التدليل، بل الهستيري كثير التقلب فيما يفكر فيه، وتستحوذ عليه بدوات وأوهام قوية الحيوية، فإن أمانيه غير منظمة وسطحية ولو أنها متسعة النواحي والأرجاء، ومقدرته على تكييف نفسه لأي ظرف فائقةً ولكن ينقصه الثبات وقوة الاحتمال. ويمتاز بانقياده إلى كل شيء جديد، فإذا استعرضنا حوادث التاريخ وجدنا أن أول المناصرين وأكثر المحاربين حماسة لبلوغ الأهداف المعجزة هم الهستيريون
يدس الهستيري أنفه في شؤون الناس لاستنشاق أسرارهم والوقوف على أحوالهم، ويلذ له أن يكون ماثلاً في عيون الجماهير وأذهانهم فلا يفتأ ينقب عن وسائل جديدة للوصول إلى هذه الغاية

2 - إن الارتباطات العقلية سطحية في الهستيري الذي يمتاز بكونه متسرعاً ومركزاً اهتمامه في نفسه فقط. أما حكمه على أمر من الأمور فرهين أول أثر يتركه هذا الأمر في نفسه بما يتمشى مع نزواته الشخصية. وعلى الرغم من أنه شديد العناد، لا تلين له قناة، فإنه يغير مبادئه بسرعة لأنها لم تكن قط متغلغلة في أعماق نفسه.

وإن الميل إلى حلم اليقظة وثيق العلاقة بالخيالات والبداوات الممتلئة حيوية، فهو يتوهم نفسه في مواقف لا تمت إلى الحقيقة بصلة، ويحيك حول هذه المواقف خيالات متشعبة مترامية، فقد يرى نفسه بطل حوادث نظرية مختلفة أو ضحية هجمات أعداد وهميين. ومما يزيد الطين بلة أنه يترجم أوهامه وبدواته إلى لغة الحقيقة فيتمادى في اختلاق حوادث متصلة بالواقع يدعمها ببراهين تبدو قاطعة

3 - ذاكرة الهستيري واهية لا يعتد بها لأنها رهينة عوامل انفعالية شتى فهو ينسى الحوادث التي لا تروق له ويعلي من شأن ماضيه ويشوه حقائقه ليكون وفق رغباته الشخصية

4 - الهستيري ناري الانفعالات لا يستطيع أن يتحكم في أعصابه، متطرف في حبه وكرهه، يرتجف الناس خوفاً من غضباته وعنف هياجه، فهو شديد التقلب في سلوكه دون مقدمات ولا سابقة إنذار. وهو إما راتع في الفرح أو غارق في الهم

وتقترن بهذه الثروة الكبيرة من الانفعالات صفة الصلابة والعناد وعدم المبالاة التي تدعو الهستيري إلى الاختيال على جثث الموتى، وقد ارتسمت على فمه ابتسامة. أما السبب الذي يفسر هذا السلوك المتناقض المتنافر، فهو عدم التناسب بين الانفعال والتعبير عنه.

5 - لا يفكر الهستيري إلا في نفسه. وإن تقديره المبالغ فيه لنفسه متعطش دائماً إلى الإقرار والتثبيت، ويسره دائماً أن تتجه أنظار جميع الناس إليه. أما أمانيه فلن تقف عند حد.

ومما يحدوه إلى المجازفات، التنقيب عن كل شيء يمتاز به على الآخرين. وهو يعرف جيداً كيف يتحكم في بيئته ليكون طاغيتها بكل الوسائل الماثلة لديه.

ومن الطرق التي يلجأ إليها الهستيري في كفاحه لنيل تقدير الجماهير إنكار الذات (ظاهراً) والفدائية، واستعذاب العذاب في سبيل تحقيق المبادئ السامية، وهو يتشدق بأنه يضحي بنفسه في سبيل مساعدة الفقراء وخلاص المعوزين، وبأن حياته رهينة كل غاية تفيد الإنسانية، فليعترف له جميع الناس بفضله وتضحيته. وما حب الهستيري للعذاب إلا لكسب أهمية خاصة في أعين الناس. على أنه يلذ له أن يكون غامضاً غير مفهوم.

6 - يمتاز الهستيري بقوة فائقة على انتحال أعراض المرضى الآخرين وبإطالة مرضه عن طريق الإيحاء الذاتي - ويفيض سيل وحيه على الأشخاص الموالين له أو المقربين إليه.

وإن النفوذ الذي يستمتع به الهستيريون والجاذبية الشخصية التي تقود إليهم الناس أفواجاً مبنية على طبيعة قوة إيحائهم.

7 - على الرغم من وفرة الانفعالات السطحية تظل الغرائز الطبعية في سبات عميق؛ فالهستيري لا يبالي الجوع والتعب والأرق وحرمان غريزته الجنسية من الاستمتاع؛ فهو إما أن يكبتها أو يدعها تتخذ مظهراً شاذاً. وكثيراً ما يلجأ الهستيري إلى التهديد بالانتحار، وهذا يدل على المستوى الأدبي الدنيء الذي انحطت إليه شخصيته.

دكتور محمد حسني ولاية
طبيب بصحة بلدية الإسكندرية

من وثبات العبقرية

نظام الزكاة في الإسلام
وهل روعي فيه العدل

للسيد علي حسين الوردي

ذكرت في مقالي السابق أن الضرائب المباشرة لم تكن معروفة لدى الأمم القديمة إلا نادراً، إذ أن النضوج السياسي لم يكن قد وصل بالناس إلى تلك الدرجة التي يستسيغون فيها دفع ذلك النوع من الضرائب

لم يكن الفرد، في الزمن القديم، يعتبر الحكومة تمثله أو تمثل مصلحته العامة؛ إنما

كان على العكس يرى فيها عدوه الأكبر الذي لا هم له إلا ابتزاز أمواله وامتصاص دمه من غير منفعة محسوسة تأتيه من وراء ذلك، ولهذا فقد كان الفرد يعتبر الضريبة عبئاً ثقيلاً ينبغي التهرب منه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. ولم يكن جباة الملك يجرءون إذ ذاك أن يفرضوا الضريبة المباشرة على أموال الناس أو إنتاجهم حيث تجبي منهم حقاً مشروعاً كما هو الحال في هذا العصر، فجل ما كان الجباة يعملونه هو أن يقفوا عند مدخل البلد ليقتطعوا من التجار والفلاحين جزءاً مما يحملون على أنها حصة الملك جزاء حمايته إياهم أو سماحه لهم بتكسبهم في البلاد التي هي تحت سيطرته

هذا ولا ريب في أن في مثل هذه الضريبة غير المباشرة ظلماً لا شك فيه، إذ أن دافع الضريبة يستطيع عادة أن يحول عبئها إلى عاتق غيره، فإذا دفع التاجر مثلاً جزءاً من بضاعته إلى الحكومة أدخل ذلك غالباً في حساب تكليف البضاعة وأضافه إلى سعر البيع ليتحمل المشترون عبء الضريبة. وفي هذا يتمثل الظلم، لأن معظم الضريبة تقع حينئذ على كواهل الفقراء إذ أنهم هم معظم المستهلكين للبضائع ملابس وطعاماً. . .

هذا بينما يدفع الأغنياء قسطاً ضئيلاً من الضريبة لا يتناسب مع ثرواتهم الطائلة. ولا مراء في أن ما نراه من تعسف في هذا النوع من الضرائب، لا يوجد إلا قليلاً في الضرائب المباشرة، لأن النسبة فيها تؤخذ ضخمة من الأغنياء، صغيرة من الكادحين، وحيث يعامل فيها كل فرد حسب مقدرته وظروفه الخاصة. وقد يُعفى منها كثير من الناس الذين كانوا يدفعون

الضرائب غير المباشرة وهم لا يشعرون

ولكن الضريبة غير المباشرة، رغم هذه المساوئ، ظلت مستعملة طيلة القرون الماضية، ولا تزال مستعملة إلى اليوم في كثير من الأمم الحديثة، وذلك لسهولة جبايتها وقلة التكاليف فيها، إنما أخذت في الواقع تفقد أهميتها شيئاً فشيئاً، إذ بدأت الضرائب المباشرة تحتل مكانها، وهذا بلا شك سمو من المجتمع في أخلاقه السياسية

هذه نبذة موجزة من تاريخ الضرائب وددت أن أبين بها للقارئ شيئاً من مجرى التطور فيها حيث سار المجتمع في طريقه الطبيعي من غير تنكّب أو طفور. لكنّا إذا رجعنا إلى نظام الضريبة في الإسلام نجد ثم وثبة بذّت مجرى ذلك التطور وسارت في سبيل الكمال خطوات

لقد فرض الشارع الإسلامي أغلب صدقاته بنسبة معينة على ثروة الفرد أو إنتاجه تؤخذ منه مباشرة بعد النظر في ظروفه الخاصة وبعد استثناء حد أدنى من غير زكاة

لسنا ننكر أن من الصعب وضع حد فاصل يميز بين الضريبة المباشرة من غير المباشرة، فكثير من الضرائب التي نحسبها مباشرة لأول وهلة هي في الحقيقة غير مباشرة، لأن دافعها قد يستطيع بعد زمن تحويل عبئها إلى عاتق غيره. ولكنا على كل حال نستطيع أن نقول بأن الإسلام قد شرع في هذا الشأن شرعة جديدة لا شك في صلتها بالعدل والخير، إذ جعل الضريبة حقاً واجباً على الفرد يجب أن يؤديه للدولة بصفته عضواً فيها، وإذ أمر كذلك بأن تختلف نسبة الضريبة بين شخص وآخر نظراً إلى ما عليه الشخص من عسر أو يسر في وضعه الاقتصادي أو في إنتاجه

وهنا نصل بالقارئ إلى نقطة جوهرية من هذا الموضوع ألا وهو التفاوت في فرض الضريبة حسب تفاوت الناس في أرزاقهم وحظوظهم في الحياة. إذن يجب علينا أن نفهم أهمية ذلك في النظام الحديث إذ يعني به كتاب اليوم عناية كبرى لما له من مساس بالعدل الذي هو أحد الأركان الأربعة للضريبة المثالية، وأهم تلك الأركان على الإطلاق

لقد كانت الضريبة في الزمن القديم تجبى على السواء من جميع الناس إلا الذين يستثنيهم الملك من رجال دين أو نبلاء، فلم تكن الحكومات تعني إذ ذاك بما تعني به الحكومة الحديثة - كما ذكرنا - من تفريق في نسبة الضريبة أو إعفاء منها حسب ما يمليه العدل

أو مصلحة الأمة

لقد وضع الكتّاب المعاصرون لهذا الغرض في مسألة التفريق والإعفاء أربع قواعد فيما يخص دافع الضريبة أو ثروته:

فالقاعدة الأولى: مصدر الثروة - إذ يميز فيها بين الثروة التي تأتي صاحبها نتيجة للعمل والمكابدة، وبين التي تأتي صاحبها وهو في بحبوحة من الراحة والنعيم

هذان فلاحان مثلاً، أحدهما يملك الأرض الخصبة أو يسقي زرعه ديماً أو سيحاً، والآخر لا ينتج إلا في أسوأ الظروف من أرض ضعيفة وماء بعيد. فهل من العدل أن تفرض الضريبة بنسبة واحدة على إنتاج هذا وإنتاج ذلك؟ لابد إذن من تفريق

والقاعدة الثانية: طبيعة الثروة - إذ يميز فيها بين الثروة الصالحة التي تفيد الأمة والتي ينبغي تكثيرها، وبين غيرها من الثروات؛ وقد يفرَّق مثلاً بين إنتاج الخضر والفواكه التي يسرع إليهما الفناء، وبين إنتاج الحبوب التي يمكن خزنها وادخارها

والتفريق في هذا ضروري في العهد الذي تصعب فيه المواصلات وتقل فيه وسائل الخزن المبرَّدة، حيث يجب على زارع الثمار أن يبيع ثماره في أوانها المناسب، وإلا خسر مجهوده وخسر فوق ذلك الضريبة التي دفعها إذا كانت مفروضة عليه

والقاعدة الثالثة: مآل الثروة ومصيرها - هل تصرف في إطعام العائلة والضيوف وفي الإحسان، أم تبذَّر هنا وهنالك على موائد الخمر والميسر، أو تكدس قناطير مقنطرة من غير تنمية أو إنتاج؟

والقاعدة الرابعة: هي أن ينظر إلى حالة الشخص (دافع الضريبة نفسه): أمتزوِّج هو أم أعزب؟ أمدين أم دائن؟. . . الخ

هذه هي الأسس التي وضعها الكتاب المحدثون في تحري العدل والصالح العام عند فرض الضريبة إذ يفرَّق بين إنتاج وإنتاج وبن ثروة وثروة. ولكن يجب ألا يغرب عن بالنا أنه لم تصل اليوم أية دولة على وجه الأرض إلى تطبيق هاتيك الأسس جميعاً تطبيقاً تاماً، إذ أن ذلك يقتضي جهداً هائلاً ويصادف كثيراً من العقبات العملية التي تحول دون النجاح التام فيه أو التي قد تنتج من المساوي ما هو أعظم مما كان يخشى منه

إن التفريق في الضريبة خير لا مرية فيه، ولكن من أين لنا العبقري النزيه الذي يضع لكل

حالة نسبتها العادلة. كذلك ما أعظم الصعوبة التي تعانيها الإدارة إذ ذاك - ارتباكاً وتعقيداً، وهؤلاء الطامعون الماكرون من موظفين في الضريبة أو دافعين سيجدون في هذا الوضع المعقد أعظم الفرصة لغشهم أو تهربهم من دفع بعض الضريبة أو كلها.

ويظهر من هذا أن المشرع الحديث أصبح بين نارين بين سوء الظلم في عدم التفريق، وبين الصعوبة والارتباك في إدارة الضرائب عند التفريق إذ يكثر الاختلاس والروغان.

وبذا يتضح السبب في قلة اندفاع القوم في هذا السبيل، إذ نجد التفريق مهملاً في الأمم الحديثة أحياناً

هذا مجمل الوضع كما نراه اليوم في العالم المتمدن، أما إذا رجعنا ببصرنا إلى الدولة الإسلامية فقد تأخذنا الدهشة لما نرى فيها من اهتمام جدي بهذه المسألة فقد ميز الإسلام إنتاج الأرض التي تسقى عذباً أو سبحاً من إنتاج الأرض التي تسقى بالدلو والقرب والساقية، حيث جعل العشر على الأولى بينما فرض نصف العشر على الأخرى وذلك لمؤونة القرب والساقية والدلاء

أما التفريق في الضريبة حسب خصوبة الأرض وكلفة الإنتاج فقد ألمح إليه محمد بن الحسن وأبو يوسف وغيرهما إذ قالا: لا يحسب العشر على نفقات البقر، أو أجرة العمال العاملين في الإنتاج

ومن هذا نستنتج أن زارع الأرض الضعيفة يؤدي زكاة أقل من غيره لأنه يخصم من إنتاجه نفقات البقر والعمال، وهي أكثر من نفقات الأرض الخصبة في ذلك طبعاً.

ويقول أبو يوسف: إنه إذا أطعم رب الأرض غيره من مزروعه أو أكل هو فليس على ذلك عشر.

وقد جعل بعض الفقهاء ربع العشر على ما تكثر مئونته من المعادن المستخرجة من باطن الأرض، أما التي تقل فيها المؤونة ففيها الخمس.

وعن علي بن أبي طالب أن الخمس في المعادن المستخرجة من أرض خراج أو عشر.

ولا خمس في الفيروزج الذي يوجد في الجبال ولا في اللؤلؤ أو العنبر وكل حلية تخرج من البحر لأنها متعبة كبيرة الكلفة.

وعن أبي حنيفة في رجل مر على العاشر بمال فقال أصبت منذ شهر أو عليّ دين أو قال أديت الزكاة إلى عاشر آخر أو أديت زكاته أنا وحلف على ذلك فهو صادق.

ولا تجب الزكاة عند الشافعي إلاّ فيما زرعه الآدميون قوتاً مدخراً؛ أما البقول والخضر التي ليس لها ثمرة باقية فلا زكاة فيها

أما المواشي فلا زكاة فيها إلا إذا كانت سائمة ترعى الكلأ فتقل مئونتها ويتوفر درها ونسلها، فإن كانت عاملة أو معلوفة لم تجب فيها زكاة. وبعدُ أليس في هذا كله تفريق؟. . .

وقبل أن نختم المقال يجب ألا يفوتنا ذكر النصاب الذي يحتم الفقه الإسلامي الوصول إليه حيث تؤخذ الضريبة متصاعدة بعده، ولا ضريبة على ما دون النصاب في جميع الممتلكات والثروة. وقد جعل الإسلام لكل شيء من ذلك نصابه المعلوم، فنصاب الغنم مثلاً أربعون، والبقر ثلاثون، ومحصول الزرع خمسة أو ست، والذهب عشرون مثقالاً، والفضة مائتان. . . الخ

ولا ريب أن في هذا عدلاً، إذ يستثني به كثير من الفقراء عن دفع الضريبة، ويقع معظم ثقلها على عاتق الموسرين المترفين

لعلي بهذا قد عرضت على القارئ صورة لما كان يراعَى في ضرائب الإسلام من العدل، ولكن تذكر يا سيدي القارئ، ما قلت لك آنفاً، من أن العدل ليس وحده هو ما يلزم للضريبة المثالية من أركان، فثمة، على الأقل، ثلاثة أركان أخرى، كما وضع آدم سميث، لازمة للضريبة المثلى هي:

(1) الإنتاج (2) والملاءمة (3) ثم اطمئنان الحكومة والدافعين إلى ما يؤخذ أو يعطى. . . ولكن يا ترى هل كان الإسلام معنيّاً بجميع هذا الأركان في صداقاته؟ أجل. . . ولعلي أستطيع أن أفي ذلك بعض حقه في فرصة أخرى

علي حسين الوردي
بالجامعة الأمريكية
ببيروت

على هامش النقد
كتب وشخصيات
للأستاذ سيد قطب

1 - عبقرية محمد. . . . . للعقاد
2 - بيجماليون. . . . . لتوفيق الحكيم
3 - دعاء الكروان والحب الضائع. . . لطه حسين

تمهيد:

أردت أن أجمع بين هذه الكتب وهؤلاء الكتاب؛ لا لأنها تتفق في فكرة أو اتجاه، ولا لأن بينهم - في هذه الأيام - مصافاة أو مجافاة!. . . ولكن لأن كلاً منهم يجري في كتابه هذا على منهجه ويستخدم أفضل قواه

خطر لي مرة أن أكتب مقالاً أو مقالات تحت عنوان: (لا يعرفون أنفسهم!) وفي مقدمة من كنت أعنيهم بهذا العنوان ثلاثة من الكتاب: طه حسين، وتوفيق الحكيم، وأحمد أمين!

من المبادئ الاقتصادية الأولية أن يستخدم الفرد أحسن مواهبه؛ وهؤلاء الكتّاب لا يستخدمون أحسن مواهبهم في كثير من الأحيان، فلو كنت أملك الحجر على الناس في بعض التصرفات، لحجرت على هؤلاء الثلاثة في بعض الاتجاهات! تحقيقاً لهذه القاعدة الاقتصادية، وتحقيقاً لمصلحتهم ومصلحة الأدب على السواء

فأما الدكتور طه حسين، فهو لا يعرف نفسه حقاً حين يحاول أن ينشئ أدباً غير ذلك الاستعراض الحلو لخطرات النفس وخلجات الضمير، وغير ذلك اللمس الخفيف الرفيق للانفعالات والوجدانات. الاستعراض هو فن طه حسين الأصيل الذي يجيده في (الأيام) و (على هامش السيرة) و (مع أبي العلاء في سجنه)، ثم في (دعاء الكروان) وفي (الحب الضائع) في هذه الأيام

فأما حين يسرف في استخدام مواهبه، حين يستخدم مواهب الصف الثاني لديه - إذا استعرنا الاصطلاحات الحربية - في مثل (الأدب الجاهلي) و (مع المتنبي) وفي نقد الكتب أو كتابة المقدمات. . . فإنما يسرف على نفسه أولاً وعلى مواهبه، ويسرف على الأدب ثانياً وعلى قرائه، أولئك الذين يريدونه في خير حالاته؛ وإن لم يكن في حالاته الأخرى من المتخلفين

وأما توفيق الحكيم فإنه لا يعرف نفسه أصلاً، حين يحاول أن ينشئ أدباً غير القصة،

وغير الحوار بشكل خاص. الحوار هو فن توفيق الحكيم الأصيل، فما هي إلا كلمة خاطفة من هنا وجملة عابرة من هناك حتى تستوي الفكرة التي يعالجها حية شاخصة، أشبه شيء بالخطوط السريعة في تحديد ملامح الوجوه
وقد اهتدى إلى أحسن مواهبه في أهل الكهف وشهرزاد وبيجماليون في ناحية. . . وفي نهر الجنون) و (سر المنتحرة) و (الخروج من الجنة) في ناحية أخرى، عل تفاوت في الطاقة والاتجاه. . .
فأما حين تسوّل له نفسه أو يسوّل له بعض الصحفيين أن يكتب أشياء مما يكتب في شتى الصحف والمجلات؛ وحتى حين يكتب قصصاً غير الحوار وغير معالجة مشكلة فكرية في هذا الحوار، فإنه يجني على مواهبه ويجني على قرائه على تفاوت الجناية في هذين الاتجاهين، ويستحق الحجر الذي يضرب على المسرفين في الجهد أو في المال!
وأما أحمد أمين فقد ظهر أول ما ظهر بكتابه (فجر الإسلام) ثم تابع السلسلة في (ضحى الإسلام) بأجزائه الثلاثة، فقلنا: رجل متزن يهتدي إلى خير مواهبه فيستخدمها أحسن استخدام.
ثم صدرت (الثقافة) فاستهوته المقالة، وهنا خانه الاهتداء إلى أفضل ما فيه، واستمرأ هذا الجهد الوقتي المتقطع فكثرت مقالاته، وكثرت إذاعاته، وجمع هذه المقالات فيما أسماه (فيض الخاطر) على ثلاثة أجزاء.
هذا (الفيض الخاطر) هو اللفتة الخاطئة في حياة أحمد أمين الأدبية، وهو الانحراف عن الطريق السوي الذي خلق له، وهو التعطيل للوظيفة الأساسية التي انتدبته لها المكتبة العربية.
ولو أنه سار في الطريق، فوضع لنا - بدل الأجزاء الثلاثة من (فيض الخاطر) - ثلاث حلقات جديدة في سلسلة تاريخ الأدب العربي، ولو أنه تابع هذه السلسلة إلى عصر النهضة
الحالية، لأدى للمكتبة العربية أجل الخدمات.
ولكنه استهواء الصحافة، وتوزيع الجهد، والإسراف على النفس وعلى القراء!
في الكتب الثلاثة أو الأربعة التي اخترت أن أجمع بينها في هذا الحديث يهتدي مؤلفوها إلى أفضل مواهبهم ويستخدمونها على أفضل الوجوه. فكل منهم يجري في ميدانه الأصيل، ويجري على أصول الجري في هذا الميدان؛ وهي - من هنا - تمثل أصحابها خير تمثيل، وترسم مناهجهم في الأداء وفي التفكير.
فأما العقاد فهو أبداً مهتد إلى مواهبه لم يضل في تقديره واحدة منها، وهي مواهب متنوعة ولكنها جميعاً أصيلة وتكاد أن تكون متكافئة، فإذا شئنا الاختيار والمفاضلة، فأفضلها فيما يبدو (دراسة الشخصيات)
وقد انساق العقاد منذ نشأته الأدبية تقريباً في هذا السياق عامداً أو غير عامد، فهو أكثر كتابنا المحدثين دراسة للشخصيات: الأدبية والفكرية والسياسية والإنسانية. كتب عن: المتنبي وابن الرومي وأبي العلاء وجيتي وتوماس هاردي وطاغور، وكثيرين من أمثالهم قدامى ومحدثين. كما كتب عن: كانت ونيتشه وماكس نوردو وشوبنهور، وكثيرين من أمثالهم. وكتب كذلك عن: هتلر ومصطفى كمال وسعد زغلول. وعن: محمد عبده وغاندي.
ثم هاهو ذا يكتب عن (محمد) كتابه الأخير
وليست كثرة الشخصيات التي كتب عنها (العقاد) هي التي تجعله دارس شخصيات، فكثيراً ما يكتب الكاتبون عن عشرات الشخصيات ومئات الأعلام أوصافاً لهم وحوادث في حياتهم، ثم يخرج القارئ من هذا كله بأوصاف ومعلومات لا يتبين منها ملامح شخصية واحدة من هذه الشخصيات
إنما ميزة (العقاد) الفذة أنه مصور ملامح، ومشخص هيئات، وراسم صور حية من اللحم والدم والصفات والسمات والهواجس والأفكار. . . لديه لكل شخصية يدرسها مفتاح يدير به اللولب، فإذا أنت أمام هذه الشخصية، وإذا أنت تملك هذا المفتاح، وإذا أنت تستطيع تفسير الحوادث التي ألمت بحياة هذا الإنسان، كما تملك تفسير استجاباته لهذه الحوادث

كل إنسان كتب عنه (العقاد) تستطيع أن تعرف (من هو)، وإن لم تعرف كل ما وقع له من أحداث
تلك هي الموهبة المتفردة التي تجعل (العقاد) دارس شخصيات، لأنه هو نفسه شخصية واضحة المعالم والسمات
وفي هذا الكتاب الأخير (عبقرية محمد) تتجلى هذه الموهبة على أتمها وأكملها، وينضج نضجها واستواؤها على فصول الكتاب وجمله وفقراته. فهو من هذه الناحية أدل ما يكون على اكمل موهبة من مواهب (العقاد). فأما تفصيل ذلك، فعند الكلام عن الكتاب وأما (بيجماليون) فيستوي فيه كذلك توفيق الحكيم على نهجه في (أهل الكهف) و (شهر زاد) بعدما بعد بنفسه طويلاً عن هذا النهج: حوار، حول مشكلة من مشاكل الفكر الإنساني. . . كم بلغ في هذا الحوار من الإجادة، كم خطا فيه إلى الأمام أو إلى الوراء؟ هذا ما يتبين في الحديث الخاص عن هذا الكتاب
وأما (دعاء الكروان. وعلى هامش الحب) فجدولان جديدان في إنتاج الدكتور طه حسين، ولكنهما ينبعان من نفس المعين الذي نبعث منه (الأيام). إلا أنهما مقدرة جديدة في هذا الاتجاه. فقد كنت أعجَبُ - ولكن لا أرى عجباً - في أن يكتب الدكتور (الأيام) فيصور خلجات نفسه وهواجس ضميره، ويتلمس وقائع حياته ويلم بحوادث أيامه. أما أن يصور خلجات نفس أخرى وهواجس ضمير آخر، وأما أن تكون تلك النفس نفس امرأة، وهذا الضمير ضمير امرأة - بل امرأتين بل امرءات! - وأما أن يطرد هذا التصوير بنفس القوة والعذوبة والوضاحة التي في (الأيام) فهذه هي المقدرة الجديدة التي سيبين عنها المقال
وأترك القارئ الآن وقد علم لماذا اخترت أن أجمع بين هذه الكتب وبين هؤلاء الأشخاص. وفي الأسبوع القادم سآخذ في الحديث الموضوعي إن شاء الله
سيد قطب

دجلة يطغى

(بمناسبة فيضان دجلة هذا العام)

للأستاذ حامد مصطفى

أرأيت هذا الخلق العجيب الذي لم ينل منه مرّ الدهور ولا تقلب الحدثان. . . تمضي الحوادث وتتصرّم الأجيال ونحن نعتقد أن الإنسان إنما يجري لأجل ويسعى إلى أمد، ولكن كرّ الأيام واعتراض التجارب تكاد تجعلنا نوقن بأن البشر إنسان واحد منذ وجد إلى أن تقوم قيامته. . . وما هو ذلك الفارق بين إنسان اليوم وإنسان الماضي وإنسان المستقبل؟ ألسنا نوعاً واحداً ذا طبيعة واحدة وآمال متماثلة؟ خلق متماسك الحلقات متصل الوجود يسعى بعضه إلى خير باقيه؛ زرع أوله فحصد أخره، وبني ماضيه فتوطن حاضره، وجرب سلفه فأفاد الخلف؟
هذا دجلة يصخب؛ يزخر عبابه، وتزُم أمواجه، ويصمّ هديره، يمر ببغداد اليوم وقد مرّ بها من قبل أيام الرشيد، واخترق دولة بابل وآشور، وجرى قبل ذلك كله في أمم قد خلت لا يعلمهم إلا الله. فهل تغير الناس أم تغير دجلة؟ وهل كانت مياهه في تلك الأحقاب غيرها في أيامنا هذه. . . أم أن الناس اليوم هم غيرهم في تلك الأيام؟ ليس من البعيد أن يكون دجلةُ الماضي دجلةَ الحاضر بمائه وهديره وطغيانه؛ أما إنسان دجلة اليوم فلا يبعد أيضاً أن يكون هو إنسان دجلة الماضي. وما الذي يدرينا أن الحياة على وجه هذه الربوع لم تدُر وتتكرر كما دارت مياهها وتقلبت. ألم تسمع قول الماضين:
كالبحر يمطره السحاب وما له ... فضل عليه لأنه من مائه
وقولهم:
خفف الوطء ما أظن أديم الأ ... رض إلا من هذه الأجساد
زُمَّ يا دجلة بمائك واصخب وتهدّد فلن نفهم من لغتك حرفاً كما لم تفهم منها القرون الأولى شيئاً. الناس يحيون على شاطئيك ويمر بهم العيش ألواناً وأطواراً وهم لا يكادون يبدلون ولا يتبدلون: فظالم متمادٍ في ظلمه، وضال متفانٍ في ضلاله، وذو مال لم تشبعه الدنيا فتحيل لها شتى وجوه الحيل يبتغي الرفاه والمزيد، وشعوب رزحت في أطواق الذل والجهل وناءت بأغلال الاستضعاف فلم تتململ في أقفاص الهوان. . . لقد خدع جمال

الحياة ولذة الدنيا وركود النعمة أقواماً لو غالبتهم على المال ما غلبوا، أو جاريتهم على كسب الحطام ما وهنوا

لقد ثار ثائر دجلة اليوم كما ثار ثائه من قبل فأقض على الناس المضاجع وهلعت طوله قلوب أهل الريف؛ أولئك يخشون على أنفسهم وأموالهم وأولادهم، يخيل إليهم أن ما هم فيه من نعيم مقيم وعيش رغيد وآمال باسمة وحياة حالمة سيكون مآله مآل ثراء قارون ومدينة بابل. وأولاء يرون بين الأمواج القضاء النازل على ما بذروا وزرعوا وما أعدوا لنيل العيش وسد الجوع واتقاء الآفات. هذا شأن الناس على شاطئ دجلة والفرات وروافدها كل عام في مثل هذه الأيام

لقد استطاع سكان العراق القدماء اتقاء هذا البلاء الذي تناهب نفوس المعاصرين، فكانوا ينامون آمنين مطمئنين لا يخافون على نفس ولا مال، حتى لقد هزئوا بطغيان النهر ولم يغلبهم الصِّرْى وكانت القنى تنهب الماء نهباً فتملأ به رحاب العراق فتنقلب صحراؤه جناناً خضراً وحدائق غلباً حتى لقد كان الطير ينتقل بين الرقة والأُبَّلة قرب خليج البصرة فلا يجد إلا ظلاً ظليلاً وماء سلسبيلاً، ويجري الأرنب بين الأشجار فيستريح إلى جانب النهر ولا يقف به خببه حتى يدرك غايته لا يشتكي عناء ولا لغوباً، ويجري ساعي البريد بين بغداد والشام لا يرى شمساً ولا زمهريراً. لقد كان (السواد) جنة الدنيا وقلب الأرض تجبى إليه ثمرات كل شيء، وتجتمع في سرته الدنيا؛ كل ذلك بهذا الفضل من الماء الذي يهددنا في هذا الشهر من كل عام، والذي صرنا نخافه ونخشاه ونتقيه ولا نكاد نملك في صده ودرء عاديته سوى جهد ضئيل لا يكاد يوازي جهد البغاث في دفع الطير الكاسر

يقولون إن في الهند والصين أنهاراً يتقرب إليها الناس بالارتماء في مياهها والغيبة بين أمواجها حتى لتتكاثر الجثث على شواطئها فما يزيد ذلك عابديها إلا رغبة في إرضائها وتزاحماً على الموت في أجوافها. وليس ذلك بالعجب الكبير؛ فإن القوم تمثلوا القوة في أعظم شيء في أعينهم فترضوه وخافوه وافتدوا منه الأجيال بعدد يسير من الضحايا ليس مصيرهم في عقيدتهم إلا نعيماً مقيماً؛ إنما العجب من قوم رقت عقائدهم ودقت إفهامهم ونضجت معارفهم ثم هم يرون الخلود لأجسادهم ولا يرونه لأرواحهم، فماتت قلوبهم وذلت نفوسهم. أما مادتهم فهي وارفة وأجسامهم فهي ناضرة يصح فيهم قوله تعالى: (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم). أولئك تقربوا بالدنيا إلى الآخرة وبالأجسام إلى الأرواح، وهؤلاء تقربوا وأضاعوا الدنيا والآخرة، وزهدوا في الخير الدائم ونعيم الأجيال وحرية الأرواح ولم يروا شيئاً أن تكون لهم المادة ولا يكون لهم شيء من المعنى

لقد كان للناس عبرة في مظاهر الطبيعة وتقلبات الحوادث، وكان لهم عظات تتكرر وتقسو في التنبيه والإرشاد، وكان للناس أجمعين في كل ما يتقلبون فيه ويعانون تجارب يكفي أدناها لليقظة والاعتبار. . . ولكن هيهات، فإن الناس لا يفهمون من لغة الطبيعة وتضافر الآيات إلا عوارض لا رأي لها ولا غاية؛ وما الشمس في مجراها والقمر في دورته والأرض في حركتها وانسلاخ النهار من الليل وجري الأنهار وهديل الأطيار إلا ألوان من اختلاف المادة، واتصال الطبيعة لا شأن لها ولا غرض إلا خدمة الإنسان وتعرضها له بالمتعة والانتفاع. . . وكأن الطبيعة أدركت من الإنسان ذلك الهزؤ وتلك المهانة فأخذت تتحداه وتتعرض له بالنكبات تلو النكبات وبالمصائب بعد أمثالها؛ وكلما تقدم في المعرفة والعمران وازداد غروره في تملك ناصية الطبيعة والتمكن منها كانت هذه تجد الفلتات فتتسرب إليه من حيث اطمأن وتنوبه من حيث أمن؛ فتجد المصنع يتفجر، والمنجم يثور، والسفينة لا تنقذها مهارة ربانها، أو البركان يعصف بالأرض ومن عليها، وربما لا تجد يوماً يمر دون أن تفلت الطبيعة من يد الإنسان فتبدد آماله وتبدل خططه.

لقد مرت على دجلة القرون والأحقاب وهو يجري بمائه إلى البحر فيلقي فيه بالكنوز وبالقوة، ولم يحظ أهله منه إلا بالنزر اليسير من الحظ الكبير حين كان الناس جهالاً وحين كانت الطبيعة أقوى من الإنسان. إن في دجلة من الخير والقوة ما لا ينضب معينه ولا تنفد مادته. ولقد قعد ابن دجلة يتمطى على جانبيه عصوراً طوالاً حتى أدركه هذا العصر عصر القوة والابتداع فوجده قاعداً وقد قام الناس، وفقيراً وقد استمتع

بالثراء كل ذي نأمة. أفلا تمتد الأيدي إلى مصدر الغنى وينبوع القوة فتجعل من الفقر غنى ومن الضعف قوة؟. . . أفلا يجدر بنا أن نكف من غرب دجلة بالآلة ووسائل الإنتاج الحديثة بدل أن نتعهد شاطئيه كل عام بالأيدي والمساحي و (الهزات) ثم نحن لا نصد من عادية النهر قليلاً ولا كثيراً، ولا يعود علينا ذلك بإصلاح دائم ولا بتقوى شاملة. . .؟

ألم يأنِ للذين يخشون طغيان دجلة

كل عام أن يفكروا بالانتفاع من طغيانه فيكون لهم مورد خيرات ونعمة وجاه بدل أن يهتموا موسم كل فيضان بكفكفة ضفتيه خوف البلاء واتقاء الغرق؟ لقد ملأنا أنفسنا خوفاً من دجلة ورعباً من أمواجه، فقد تواردت علينا السنون ونحن لا نفكر في شيء من أمر الرافدين إلا أن نصد البلاء وندفع النكبة حتى خيل إلينا أن ليس في النهرين إلا الشر، وأنهما لا يحملان بين أمواجهما إلا الرعب، حتى صار لفظ (الطغيان) في إفهامنا مرادفاً للغرق. . . أتعجز ونحن في العصر العشرين عما عجز عنه قدماؤنا قبل الأدهار البعيدة والأزمنة السحيقة؟

تعاقب علينا يا دجلة بالطغيان بعد الطغيان، وخاطب المعاصرين كما خاطبت القدماء؛ فإن الناس لا يفهمون لغة الأمواج ولا يعقلون نداء النُّذُر، ولن تزال شواطئك صحارى يابسة ومنازل خاوية حتى تستبدل بالمسحاة (الحراثة) وبالهزة (الكراكة)، وحتى يكون الطغيان أملاً ورجاء، لا خوفاً وبلاءً.

حامد مصطفى

ليسانس في الآداب وفي القانون

المصريون المحدثون - 35

شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الإنجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

تابع الفصل الحادي عشر - (الخرافات)

يستعمل كثير من المصريين - والنساء غالباً - (الميعة المباركة) لإبطال الحسد. والميعة مزيج من عقاقير مختلفة ستذكر فيما بعد، وتجهز وتباع في الأيام العشرة الأولى من شهر محرم فقط. وكثيراً ما نرى حينئذ بائعي الميعة يتجولون في شوارع القاهرة صائحين: (يا بركة عاشورا المبارك، أبرك السنين على المؤمنين يا ميعة مباركة) ويحمل بائع الميعة فوق رأسه صينية مستديرة يغطيها بقصاصات من الورق المختلف الألوان، ويضع عليها المزيج الثمين؛ ويتوسط الصينية كوم كبير من ثُفل مادة قاتمة الحمرة تستعمل للصبغة، وتمزج بقليل من الميعة والكزبرة، والحبة السوداء. ويحيط بالكوم الكبير أكوام أصغر، أولها من الملح الملون الأزرق والنيلج، وثانيها من الملح الملون الأحمر، وثالثها من اللون الأصفر، ورابعها من الشيح، وخامسها من تراب اللبان. وتلك هي مواد الميعة المباركة. ويدعو المشترين عادة البائع داخل المنازل، فيضع الصينية أمامه، ويتناول صحناً أو قطعة ورق حيث يضع من الميعة بقدر رغبة المشتري. فيأخذ من كل صنف قليلاً ويضيف إليه مقداراً آخر المرة بعد المرة منشداً أثناء ذلك دوراً طويلاً يبدأ هكذا: (باسم الله وبالله، ولا غالب إلا الله، رب المشارق والمغارب، كلنا عبيده، يلزمنا توحيده، وتوحيده جلاله) وبعد أن يثني على فضائل الملح يقول: (أرقيك من عين البنت، أحمي من الخشب، ومن عين المره، أحمي من الشرشرة، ومن عين الولد، أحمي من الزرد، ومن عين الراجل، أحد من المناجل. . . الخ) ثم يروي كيف أبطل سليمان حسد العين، ويعدد بعد ذلك الأمتعة التي لا يخلوا منها المنزل على الأرجح فيرقيها جميعاً من الحسد. واكثر عبارات هذه الرقية مضحكة جداً، إذ هي ألفاظ أدخلت للسجع فقط. ويحتفظ المشتري بالميعة المباركة التي تباع الحفنة منها بخمسة فضة طول العام التالي فيحرق قليلاً منها كلما خشي حسد العين بحيث يتصاعد الدخان إلى المحسود

جرت العادة عند طبقات القاهرة العليا والوسطى أن يعلقوا في احتفالهم بالعرس القناديل في الطريق أمام منزل العريس، وكثيراً ما يحتشد الجمهور حول قنديل كبير جميل لمشاهدته، فالعادة حينئذ أن يُلهوا المشاهدين بكسر جرة كبيرة، أو بحيلة أخرى حتى لا تسبب عين حاسد سقوط القنديل. وكثيراً ما تحدث حوادث تؤيد إيمان

المصريين بخرافاتهم المتعلقة بالحسد. ومثل ذلك ما رواه صديق لي: من مدة قصيرة رأى جملاً يحمل جرتي زيت كبيرتين فصاحت امرأة أمام الجمل: يا سلام! يا لهما من جرتين عظيمتين! ولم يقل الجمّال: صلي على النبي؛ فلم يلبث الجمل أن سقط وكسرت رجله وكسرت الجرتان. وقد أخبرني أحد أصدقائي القاهريين بشكوى أسردها هنا توضيحاً لما قررت. قال صديقي: (لما عدل الباشا عن احتكار بيع اللحم منذ أيام أصبح الجزارون يذبحون الحيوانات ويبيعونها في حوانيتهم. ومن المزعج تماماً أن ترى الخروف الجميل معلقاً أمام عين الجمهور كاملاً بذيله وأعضائها فيشتهيها كل سائل يمر بجانبها فكأنما يتناول المرء سماً) وقد شكا إلي طاهٍ الشكوى نفسها فكان يفضل أن يكلف نفسه مشقة الذهاب إلى دكان جزار لا يعرض اللحم على أنظار المارة ولو كان بعيداً.

يضع الكثير من تجار العاصمة وغيرها من المدن المصرية على واجهة حوانيتهم ورقة كتب عليها اسم الله أو اسم الرسول أو الاسمان معاً أو الشهادة أو البسملة أو حديث نبوي أو آية قرآنية مثل: إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً (سورة الفتح الآية الأولى) نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين) (سورة الصف آية 13) أو ابتهال إلى الله مثل (يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم). وكثيراً ما ينطق التاجر بهذا الابتهال عندما يشرع في فتح حانوته صباحاً، وكذلك الباعة المتجولون كبائعي السلع الصغيرة والخبز والخضر الخ. عندما يخرجون لجولاتهم اليومية. والعادة أيضاً أن يضع الرجل من الطبقة السفلى أول نقد يتناوله على شفته وجبهته ثم في جيبه

وكثيراً ما نرى في القاهرة غير الكتابات التي تعلق على الحوانيت هذا الدعاء (يا الله) ينقش على أبواب الدور الخاصة والعبارتين: (الخلاق العظيم هو الباقي) أو (هو الخلاق العظيم الباقي) ترسمان بأحرف كبيرة على الباب كحرز وتذكرة لرب الدار أنه بشر يتوفاه الله وكثيراً ما تكتب هذه الكلمات على باب الدار إذا كان صاحبه السابق أو أغلب سكانه السابقين أو جميعهم قد توفوا

إن أفضل الوسائل لإبعاد العلل والأمراض كتابة آيات من القرآن في وعاء من الفخار يصب فيه قليل من الماء. ويرج حتى تزول الكتابة ثم يشرب المريض الماء المنقوع فيه هذا الكلام المقدس وهو ما يلي: ويشف صدور قوم مؤمنين (سورة التوبة آية 14). يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور (سورة يونس آية 57). فيه شفاء للناس (سورة النحل آية 69). وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين (سورة الإسراء آية 82). فإذا مرضت فهو يشفيني (سورة الشعراء آية 80). قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء (سورة فصلت آية 44) ومن هذه الآيات أربع لا تشير إلى أمراض الجسم وإن استعملت لذلك، بل تشير إلى أمراض العقل. وتشير الآية الثالثة إلى فضائل العسل. وقد سألت شيخي أن يبين لي موضع هذه الآيات من القرآن فرجاني عندئذ ألا أترجمها بلغتي لأن ترجمة القرآن بغير ذكر النص الأصلي محرمة، لا لأنه خجل من جريان العادة باستعمال هذا الكلام طلسما فكره أن يعرف مواطني ذلك. وقد أوضح لي اعتقاده التام في تأثير هذه الآيات حتى على المريض الكافر وأظهر ثقته التامة بقوتها. وقال ملاحظاً: (إن الرسول (صلعم) قال: لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً). وقد هدأت وسواسه في ذلك بإخباره أن للقرآن ترجمة إنجليزية

ويعطى للمريض أحياناً لشفاء الأمراض وإزالة أثر السموم جرعة ماء في طاس معدني نقش بداخله آيات قرآنية ورسوم وأشكال طلسمية. وقد أهدى إلي أخيراً في القاهرة طاسة مثل هذه أعجب بها أصدقائي المسلمون كثيراً. وينقش أيضاً خارج الطاسة كتابات تعدد فضائلها، وتشير إلى خواصها من إبطال السموم، والحسد وشفاء الأمراض والعلل والموت. وقد رأيت هنا طاسة أخرى كالسابق وصفها تماماً، غير أن نقوشها زالت قليلاً ويعتقد أن أسرار القرآن كثيرة جداً. وفي ذات يوم رفضت أن أتناول طعاماً خشية الضرر فنصحني بقراءة سورة قريش إلى آخر (الذي أطعمهم من جوع) وأن أردد هذه العبارة الأخيرة ثلاث

مرات. وقد جزم لي أن في هذا وقاية أكيدة من كل سوء أخشاه

عدلي طاهر نور

. . .مرسَلات
الإصلاح
ما من رئيس أو وزير أو حاكم أو مدير في هذا البلد إلا وهو يتغنى بأُنشودة (الإصلاح)، ويضرب على وتيرته، ويومض للناس ببريقه الخلّب، ويلمهم حواليه باسمه الجذاب. . . ولكن دعوات (الإصلاح) تبدأ عندنا بَدأة سارَّة، ثم تنتهي إلى نهاية محزنة: تبدأ عالية مدوية يرتج لها الوادي من بطاحه ورعانه، ثم لا تلبث أن يأخذها الضعف شيئاً بعد شيء، حتى تعود همسات خافتة لا تكاد تسمعها الآذان، ثم تسكت بعد قليل سكتة الموت!
ولو أن امرأً عني بعرض ما ينشر في الصحف عن الإصلاح منذ النهضة الوطنية إلى اليوم، ولاسيما إبَّان تغيير الوزارات، وتقليد الرياسات، وافتتاح المجالس، وتأليف اللجان؛ لرأى في الخطب الطنانة، والأحاديث الرنانة، والمذكرات المحبرة، وعوداً بالعمل تتلوها وعود، وبشارات بالإصلاح تردفها بشارات. . . ولكن أعمار الرياسات المختلفة تنقضي - طال بها الزمان أو قصر - وشيء من ذلك لم يتحقق، ثم تتبدل الرجال غير الرجال، والعهودُ غير العهود، فيعود الناس كرة أخرى إلى الخطب والوعود!
أين (المصلح) الصادق الذي يخلص لفكرة (الإصلاح) أكثر مما يخلص لشيء سواها؟ إن الرجل ليضع بنفسه خطة النهوض، ويرفع بيمينه شعلة التجديد، حتى إذا اجتذب بها القلوب، ووجه إليها النفوس، ونال منها ما يصبو إليه من عرض هذا الأدنى، تركها في مهب العواصف الجامحة من رغبات أو شهوات، تتولاها شياطين الإفساد، وهو عنها نائم. ولعمري لو مُس هذا (المصلح) في شخصه من قريب أو من بعيد، لثار لنفسه ما لم يثر لفكرته، ثم لثار له عشرات من أوليائه ومن خادميه لا يسألونه: لم ثار؟
محمد محمد المدني
البريد الأدبي
الصفاء بين الأدباء
صديقي الزيات
حتى أنت قد خاب أملي فيك! أنا الذي دعا إلى (الصفاء بين الأدباء) كما رأيت، وبذلت في ذلك ما بذلت، ورددت الحقوق إلى أصحابها، وأديت الواجبات على تمامها، وأزلت من النفس أسباب الكدر، وطهرت القلم من أدران الشر؛ فإذا كل هذا يسفر عن كلمة سمحتَ أنتَ بنشرها في العدد الأخير من (الرسالة) كلها إيذاء لشخصي دون مبرر، كلمة لم تدع إليها مساجلة أدبية، ولم ينتفع بها الأدب والفكر؛ لكن دعت إليها شهوة الهجوم والتجريح لمجرد الزهو والخيلاء بالهجوم عليَّ وتجريحي. ولعل السبب الوحيد في ذلك أني رجل هادئ الطبع كما تعرف، نزَّاع إلى الخير، ينزه القلم عن أن يستخدم هراوة للبطش. . . وكنت أحسب الشجاعة الحقيقية هي في احترام أصحاب هذه المبادئ والنزعات؛ ولكن صدّمني حقاً ما رأيت من أن الأدباء في مصر - مع الأسف - لا يحسبون حساباً لغير الكاتب الذي يبرز مخاليه، ويكشر عن أنيابه، ويتهيأ دائماً للوثوب. . . أنا الذي أراد من الأدب أن يكون حديقة غنَّاء سياجها (الصفاء)، إذا بي أراه حرشاً من الأحراش المأهولة بالضواري. . . ما هي في واقع الأمر رسالة الأدب إلى البشر؟ أهي شيء آخر غير ترويض كواسر الناس وإفهامهم أنهم أرقى من الحيوان؟ إن الأدب الرفيع هو الذي يثير المشاعر الرفيعة، بما فيها من حق وحب وخير وجمال. . وإن الأدب الوضيع هو الذي يهيِّج فينا الغرائز الحيوانية بشهواتها للفتك والبطش والعدوان. . . كنت أظن - يا صديقي الزيات - أن تلك هي رسالتك، وأن عملك في مجلتك هو توجيه الأدب إلى هذه الغاية الفضلى، حتى ينشأ جيل سليم فاضل يرى الأدب على حقيقته: جنة سامية طاهرة، لا مكان فيها لمن يبطش بالقلم، ولكنها مكان .من يعلّم بالقلم، يعلّم الإنسان ما لم يعلم!. . .
خاب أملي فيك - أيها الصديق - لا لأني متألم من كلمة نابية نشرت، فما أكثر السهام التي يرشقني بها الناس في كل ظرف ومناسبة! فما من أحد مثلي يؤذي كل يوم ويشوه عمله وقصده وفكرة تشويهاً بما يكتب عنه وما يوضع على لسانه وضعاً. ومع ذلك فأنا أمام كل هذا من أكثر الكتاب احتمالاً وأقلهم احتفالاً، ولعلي من أشد الناس رسوخاً في عقيدتي: (لا

ينبغي للأديب الفاضل على أي حال مقابلة القبيح بالقبيح، بل يجب عليه المضي قدماً في سبيل نثر الجميل النبيل من المشاعر في كل القلوب!). . . إنما الذي خيَّب أملي فيك هو أني رأيتك قد حدت قليلاً عن رسالتك في (الرسالة)، وفي هذا خطر على شرف الغاية التي عاهدت نفسك والناس عليها. . . قد أغتفر لك أهدارك حق الصداقة والزمالة؛ أما هذه، فلا. . . هنا ونفترق. . . وليكن اليوم آخر عهدي بك و (بالرسالة) والأدباء. . . لن أكتب شيئاً لك، ولن أذكر بعد اليوم أديباً بخير ولا بشر. . . سأصمت عن أشخاصهم صمت القبر، لأنصرف إلى الإنتاج وحده من حيث هو إنتاج، ماضياً في إصدار كتبي لقرائي الأوفياء. . . فلا حلم في صفاء، ولا أمل في مودة بين أدباء. على أني قبل ذلك أحب أن أنوه بحق لك عندي وفضل لا أود أن أنساه: لست أعني الآن فضل (الرسالة) المعروف في شهرتي الأدبية، بل فضلاً آخر لعلك تجهله أنت حتى الساعة: أتذكر يوم أعلنت إليَّ عزمك على إصدار مجلة (الرواية) واعتمادك عليّ فيها كل الأعتماد؟ لقد كنت أنت الذي اقترح عليّ فكرة تدوين ذكرياتي المنسية عن عهد اشتغالي بالقضاء، فخرج كتاب (يوميات نائب في الأرياف). ربما لولاك ما أتجه ذهني إلى هذا الأمر، ولضاعت إلى الأبد معالم تلك الأيام. . . أسجل لك مع الشكر هذا الصنيع، وليشكرك عليه كل من أحب هذا الأثر، واستودعك الله. . .

توفيق الحكيم

(الرسالة):

جوابنا عن رسالة الصديق العزيز في العدد القادم

التاريخ وشعر الملوك

لم يأت الأستاذ الفاضل عبد الله مخلص بما ينفي الشك فيما يتعلق بشعر السلطان سليم؛ وقد اتضح الآن أن بيتَيْ المعزِّي (المُلك لله من يظفر بنيل غنىً. . . الخ) منسوبان خطأ إلى السلطان سليم في الكتب الأربعة التالية:

1 - الإعلام لقطب الدين الحنفي

2 - أخبار الدول للقرماني

3 - أخبار الأول للاسحاقي

4 - أوراق بريشان لنامق كمال

فهل لنا أن نثق الآن بهذه المصادر بعد أن وقعت جميعها في هذا الخطأ البيِّن؛ ودلت على أنها تتوارث الأغلاط كما يتوارث الناس المرض الدسيس؟. . .

هذا شيء. . . والشيء الآخر أن هذه الأبيات الغزلية تتردَّد في نسبتها بين السلطانين: أحمد وسليم تبعاً لاضطراب الروايات واختلافها؛ ثم هي مسروقة - أو جزءٌ منها على الأقل - من أبيات للملك الصالح طلائع بين رزيك، كما يشير إلى ذلك مقال الأستاذ. . . فأي هذه الأقاويل أولى منا بالتصديق؟ بل أيها أبعد عن تهمة الكذب والتلبيس؟

أخيراً يجيبني الأستاذ عن مسألة التخميس بقوله: (جواب هذا السؤال وارد في . . . المخطوط من أنها للسلطان أحمد فيكون هو نفسه قد خمسها بعد ما زاد عليها تلك الأبيات، وبينها أبيات الملك الصالح الثلاثة) وأنا ما علمت قبل اليوم أن شاعراً يخمس لنفسه شعراً!

والأبيات بعد كل هذا ليست مما يستحق طول النقاش أو دقة التحري؛ فلا هي من جيد الشعر ولا من متوسطه، وإنما هي إلى المتكلَّف أقرب وفي باب المصنوع أدخل. وإذا كان لنا أن نخرج بثمرة من كل ذلك، فلتكن هذه الثمرة في اعترافنا بأن كتبَ التاريخ القديمةَ عندنا في حاجة إلى تحليل دقيق وتمحيص وافٍ نتميز بهما غثها من سمينها؛ وإلا فالكفُّ عن قراءتها وتركُ الاعتماد عليها أولى وأحرى. . .

ولنشكر أستاذنا الفاضل عبد الله مخلص الذي أتاح لنا ببحثه القيم، أن نسوق مثلَ هذه الكلمة الصريحة.

(جرجا)

محمود عزت عرفة

1 - حول لبس القبعة، نصوص نواهض

قرأت الفتوى التي نشرها الأستاذ المدني في العدد 467 من مجلة الرسالة، فرأيت أن أذكر القارئ بما أورده الإمام البيضاوي في تفسير: (وإنما عد ليس الفيار - أي الشعار

- وشد الزنار ونحوهما كفراً لأنها تدل على التكذيب، فان من صدق الرسول صلى الله عليه وسلم
لا يجترئ عليها ظاهراً، لا لأنها كفر في أنفسها) اهـ. وبما قاله العلامة السعد في شرح المقاصد: (لو كان الإيمان هو التصديق لكان كل مصدق بشيء مؤمناً، وعلى تقدير التقييد بالأمور المخصوصة لزم ألا يكون بغض النبي صلى الله عليه وسلم وإلقاء المصحف في القاذورات وسجدة الصنم ونحو ذلك كفراً ما دام تصديق القلب بجميع ما جاء به النبي عليه السلام باقياً، واللازم منتفٍ قطعاً. وأجيب بأن من المعاصي ما جعله الشارع إمارة عدم التصديق تنصيصاً عليه أو على دليله، والأمور المذكورة من هذا القبيل، بخلاف مثل الزنا وشرب الخمر من غير استحلال) أهـ
وحديث (من تشبه بقوم فهو منهم) قال الحافظ بن تيمية من كلامه فيه في كتاب اقتضاء السراط المستقيم: (وهذا الحديث أقل أحواله أن يقتضي تحريم التشبه بهم، وإن كان ظاهره يقتضي كفر المتشبه بهم) اهـ. ووقع خطأ في سنده بتصحيف (أبي منيب) إلى (أبي جنيب)
أبن بندار - 2
قرأت قطعة من أوائل كتاب المعرب للجواليقي فرأيت مصححه الأستاذ أحمد شاكر يقول في ترجمة المؤلف ص28 - 29: (وقد حدث الجواليقي في المعرب عن شيخين لم أعرفهما: أحدهما ابن بندار، والثاني عبد الرحمن بن أحمد، روى عنه عن الحسن بن علي. . . وشيخه (الحسن بن علي) هو أبو محمد الجوهري الشيرازي مات سنة 454)
أقول: أما ابن بندار فهو أبو المعالي ثابت بن بندار المعروف بابن الحمامي ولد سنة 416 وسمع أبا الحسن بن رزمة وأبا بكر بن البرقاني وأبا علي بن شاذان في خلق كثير. قال ابن الجوزي: حدثنا عنه أشياخنا. توفي سنة 498
وأما الثاني فهو عبد الرحمن بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن يوسف، سمع ابن المذهب والبرمكي وغيرهما وكان ثقة. . . قال ابن الجوزي: حدثنا عنه أشياخنا. توفي سنة 511
أحمد صفوان
القصص
مرسى مطروح في شتاء عام 1938
عاصفة. . .
للأستاذ فؤاد البهي السيد
يوم عاصف. . .
وسماه مُربدة سوداء. . .
وريحٌ مجنونة هوجاء، تضج وتصخب في عنف وقوة، فتكاد تجتث الأشجار والأحياء. . .
وبحر ثائر، وأمواج مزبدة غاضبة، كأنما يعول فيها ألف مارد وشيطان.
تباً لهذه الصحراء من حرباء. . .
وبغضاً لهذا البحر من منافق. . .
لطالما كنت أحب هدوءهما، وأنعم بالسكينة في جوارهما، ولم أك أدري أنّ وراء هذا الهدوء كل هذه البراكين التي تقذف بالحمم واللهب، ولم أك أعلم أن وراء هذه السكينة كل هذه الزلازل التي تحطم وتخرب. إنها الطبيعة انطلقت سافرة، ونضت عنها قناعها، وبان منها الناب والظفر. . .
أويت إلى داري، وأوصدت عليّ أبوابها ووقفت وراء زجاج النافذة أشهد عراك العناصر وانطلاقها، فإذا السماء ترجمني ببرد كالصخر، وإذا الزجاج يتحطم عن يميني وعن شمالي، وتتناثر شظاياه وتملأ أرض القاعة، وكأنما ساء الطبيعة أن تراني أتأمل وجهها الغاضب والغضب يمسخ الوجوه، ويضفي عليها ألواناً بغيضة، وهي لا تحب للإنسان أن يرى سوأتها وقبحها
صافح سمعي قرع خفيف على باب الدار فقلت لنفسي وأنا أشعل لفافتي، وأتأمل لهب الثقاب حتى لكأنما عزّ عليّ أن تخلوا هذه الثورة كلها من لهب ونار؟!
- ما خطب هذه الرياح التي ما تفتأ ترجمني، فما أنا بإبليس، وما داري بالعقبة وما تلك بشهور الحج. . . وما. . .

وعاد القرع قوياً شديداً، فنهضت لأستقبل طريد العاصفة، فإذا هو زنجي عملاق، ابتلت منه
الثياب، واصطكت منه الأسنان، وامتدت منه اليدان ترجوان مأوى وملجأ، قلت في حيرة:
- تفضل
قال وهو يوصد الباب وراءه:
- شكراً
قلت أحاوره:
- ما دفعك على السير والعاصفة في نشوتها سكرى تحطم وتخرب؟
قال:
- إنما كنت في طريقي إلى دار مولاي السيد السنوسي
السنوسيون
. . .إني أعرفهم وإن لم أكن قد رأيتهم بعد
عرفتهم في مجدهم وإيمانهم وسحرهم الذي بسطوه على هذه الصحراء، فإذا كل ضارب في أرجائها ودروبها، وكل سار في لياليها وأمسياتها صديق لهم أو رفيق أو تابع
عرفتهم من هذه الصورة الحلوة التي رسمها لهم رحالتنا الكبير أحمد باشا حسنين (في صحراء ليبيا)
وعرفتهم مما كتبته عنهم (روزيتا فوربس) في مغامرتها في الصحراء الغربية مع رحالتنا، حينما ضلا طريقهما وظلا بين الحياة والموت أياماً كانا فيها كالمشرق على هاوية، يروعه عمقها وترعبه ظلمتها، وهو على حافتها، يهتز ويتأرجح في فزع مميت، ولقد نجت ونجا صاحبها، وأهدت كتابها إليه
وعرفتهم من أحاديث رفاقي عنهم بعد أن تركوا ديارهم، واحتموا بمرسى مطروح من عذاب الاستعمار وشره
وعرفتهم مما كتبت عنهم الصحف في قتالهم للمغتصب الفاتك
وعرفتهم في احتمالهم الأذى، واصطبارهم عليه وتجملهم له وعرفتهم بعد ذلك، ولقيتهم وصحبتهم طويلا. . .
صاح رفيقي وكأنما هو يقرأ كل ما يدور بخلدي:
- أتعرفهم
فابتسمت له وأنا أقول:
أأنت تعرفهم. أعني أصحبتهم طويلاً؟!
فنظر إلي وهو يقول:
- أأعرفهم؟!
ثم ابتسم الرجل ابتسامة حزينة واستطرد قائلاً:
- لقد ولدتني أمي في دارهم، وعشت صباي وشبابي في واحتهم الكفرة، ثم رحلت عنها فيمن رحل لا ظاعنا لأعود ولكن طريداً فقد الدار والأهل، والله وحده يعلم ماذا حل بالأم والزوجة والأطفال من بعدي. لقد أسرعت إلى بعيري ورمحي، لكن ماذا يجدي البعير والرمح والرفاق من حولي يموتون من حيث أرى ولا أرى، ولقيت ابني الصغير يهيم على وجهه باكياً صارخاً فمددت له يدي وأردفته ورائي وأسرع بي البعير يعدو، وأحسست بالطفل يسقط فأمسكته من رجله وظل معلقاً هكذا ساعة أو بعض ساعة، وأنا أعدو به وهو يبكي، وأنا لا أكاد أسمع صراخه وبكاءه وسط هذا الصخب وتلك الضجة
ثم صمت الرجل ودوى صوت الرعد رهيباً قاسيا، وثارت الطبيعة من حوله ومن حولي، وعلا صوت ارتطام الأبواب والنوافذ ودقات قطرات المطر المتلاحقة السريعة على الزجاج. . .
واستطرد يقول وكأنما هذه الطبيعة الغاضبة لا تعنيه:
- وافقت لنفسي على تأرجح البعير وهو يمشي الهوينا، وقد صمتت الأصوات من حولي، وابتلعت الصحراء صوت كل صارخ فيها وهاتف، ونظرت لطفلي فإذا هو ثابت الإحداق، وأحسست ببرودة بدنه كبرودة البئر في ليالي الشتاء، فاحتضنته وأنا أبكي بكاء لم ابكه من قبل، وسار بي البعير في دروب لا أعلمها وضللت في الصحراء طويلاً،

ونفق البعير ودفنته مع الطفل وسرت وحدي كمخلوق معتسف ضال يهيم على وجهه ظامئاً ككلب يلهث. . .
وصمت الرجل ولعله كان يجاهد عبرة تتألق في محجريه، وتنهدت وأنا أقول له:
- ما اسمك؟. . . قال:
- فرحات. . . فرحات يا سيدي، وإن كنت لم أنعم بهذه الفرحة التي وسموني بها قط!. . .
ولعلهم كانوا يتشاءمون من مصيري فسموني بهذا الاسم، كما يسمون اللديغ سليما
وهو يعاني نفثة الأفعى أو سم العقرب
وفي الصباح علمت بما فعل السيل ودمر
فلقد صعق رجل وجمل بالجبل!
واجتاحت السيول سيارة براكبها فأغرقته وهو في طريقه من السلوم إلى مرسى مطروح
وبعد أيام زارني فرحات، وتوثقت بيننا الألفة وظل عاماً معي
ولم أك أدري أن هذا العملاق الكبير يحمل بين جنبيه هذا القلب العطوف الحنون. . .
لقد كان وديعاً كحمل طاهر بريء!
ما أظن يا فرحات أني سألقاك وقد ناءت بنا الديار
من يدري؟
أتهيم الآن في صحرائك ضالاً معتسفاً؟ أم عدت إلى واحتك؟ أم فاضت روحك. . .؟
الله وحده يعرف أين ألقت بك العاصفة. . . . . .؟!
فؤاد البهي السيد
العدد 469 - بتاريخ: 29 - 06 - 1942
الحب الضائع
للأستاذ عباس محمود العقاد
تكلم سان بيف - إن صدقتني الذاكرة - على أدب المذكرات الخاصة الذي شاع بين القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر في طائفة المثقفين والمثقفات من أهل فرنسا فعلل شيوع هذا الأدب بحب الظهور أو حب التحدث عن النفس والعكوف عليها. وقال ما فحواه: إننا نحن الفرنسيين نحب أن يتحدث عنا الناس وأن نتحدث عن أنفسنا فكتبنا. فأن عز علينا ذلك في المحافل والأندية خلونا إلى أنفسنا فكتبنا عنها في مذكراتنا الخاصة وجعلنا من سيرتنا موضوعاً يشغلنا كأننا أبطال المسرح ونظارته في وقت واحد. وهذا هو عنده - إن صدقتني الذاكرة مرة أخرى - تعليل أدب المذكرات الذي شاع قبيل عصره بين الفرنسيين والفرنسيات
وصاحب هذا التعليل لم يوفّ السبب الصحيح كل التوفية فيما نراه
فإن المذكرات الخاصة لم تشع بين الفرنسيين وحدهم في تلك الفترة، ولكنها شاعت كذلك بين الإنجليز وبدأت عندهم على الأرجح قبل ابتدائها عند الفرنسيين. فأثرت عنهم اليوميات من أوائل القرن السادس عشر إلى أيام الثورة الفرنسية، وكانت لهم فيها أفانين لا تنحصر في نوع واحد من أنواع الملاحظة والتدوين
والأغلب في اعتقادنا أن كتابة المذكرات الخاصة عادة سرت إلى أبناء فرنسا وإنجلترا معاً من عادة الاعتراف التي دان بها التابعون للكنسية الكاثوليكية زمناً في كلتا الأمتين. فكان إفضاء الكاتب بأسراره إلى دفتره المكنون ضرباً من الاعتراف بين يدي الكاهن بالخطايا والذنوب وخفايا النيات، وأصبحت كتابة المذكرات هي باب الاعتراف الوحيد الذي ظل مفتوحاً لمن تحولوا عن الكنيسة الكاثوليكية وعدلوا عن الاعتراف بين أيدي الكهان
وربما أضيفت إلى هذا السبب أسبابٌ أخرى نفسية كمزاج البوح والمكاشفة الذي يطبع عليه بعض الناس، وأسباب أخرى سياسية واجتماعية كاضطرام الفتن واختلاف العادات، وصعوبة المفاتحة بالأسرار بين أناس متدابرين مستريبين فيما يضمر كل منهم من العقائد والميول
والدكتور طه حسين قد جمع بين حسن الإلهام وحسن التعليل حين عرض لهذا الأمر في

الصفحات الأولى من روايته الجديدة (الحب الضائع) فقص لنا قصة الفتاة التي انتقلت من الاعتراف للقسيس إلى الاعتراف للدفتر وقال لنا بلسانها: (إني لأفكر في هذا فأذكر مواقف وقفتها في عهد الطفولة ولا أزال أقفها إلى الآن وقد كدت أبلغ العشرين من العمر. وهي مواقفي من القسيس. . .)

إلى أن تقول: (. . . فأخترع الخطايا اختراعاً وألقيها إلى القسيس متكلفة غالية في التكلف. فيقبل القسيس مني حيناً ويرفض حيناً آخر. حتى انتهى به الأمر ذات يوم إلى أن كلفني أن أعترف له بكل ما أثقلت به نفسي من هذه الأكاذيب والأباطيل ونبهني إلى أن الكذب عليه كذبٌ على الله، وإلى أن هذه الخطيئة الساذجة في ظاهر الأمر قد تستحيل إلى خطيئة مهلكة لأنها تعودني الكذب، وتغريني بالتكلف، وتدفعني إلى النفاق، وتنشئ بيني وبين الآثام صلات قد تنتهي بي إلى الشر. فأقلعت منذ ذلك اليوم عن انتحال الخطايا وتكلف الآثام للقسيس، ولكني ألاحظ الآن أني قد جلست إلى هذا الدفتر لأنتحل الأحاديث وأتكلف الأسرار وما في نفسي من حديث وما لضميري من سر. . .)

فها هنا طفلة أحبت الاعتراف لأنها أحبت أن تتشبه بالفتيات الناميات ولو في انتحال الخطايا واختلاف الذنوب، ثم حال القسيس بينها وبين الاعتراف الكاذب فرجعت إلى قسيس صامت لا يمنعها أن تعترف بما تشاء ولو لم تكن فيه مدعاة اعتراف، وهو الدفتر الذي تطويه عن الانتظار وتجد عنده مزيجاً من متعة البوح ومتعة الكتمان

هذا مزاج الاعتراف واتخاذ الدفاتر الخاصة معاً قد مثل لنا على صورته الجلية الصادقة في أطوار هذه الفتاة التي يحدثنا عنها مؤلف (الحب الضائع)

ولعلنا نلمس في هذه الحقيقة طابع الصدق الفني والصدق الواقعي الذي اتسمت به الرواية في سرد حوادثها ورصف نسائها ورجالها

تأخذ في قراءة هذه الرواية وتعبر منها صفحة بعد صفحة فلا يزال يرتفع في خلدك شعور بالسؤال: مني كنت هنا قبل الآن!

أو لا تزال تشعر كشعور الرجل الذي رأى وجهاً عرفه ولا يذكر أين رآه أول مرة، أو كشعور الرجل الذي رأى مكاناً تخيله ووصف له وظن أنه نزل به يوماً ولا يذكر متى كان ذلك اليوم

ثم تعرض مقروءاتك من بعيد وقريب فيتراءى لك من بينها اسم (فرتر) الذي لا ينساه طويلاً من عرفه بعض حين

أي نعم هو (فرتر) بعينه. . . هو فرتر لا مراء

أفمعنى ذلك أن رواية الحب الضائع تشابه رواية فرتر في وقائعها؟

أفمعناه أنها تشابهها في سياقها أو أسلوب كتابتها أو طريقة في فن القصص أو مواقف الأبطال الموصوفين فيها؟

كلا. لا تشابه من هذا القبيل بين الروايتين، وكل ما بينهما من التشابه أنهما تتحدثان لنا عن حب يائس انتهى بامرأتين صديقتين إلى الموت. وهذا في الحقيقة موضوع عام تشترك فيه روايات لا تحصى، ثم لا تذكرك واحدة منها بالأخرى

إنما التشابه في جو الطيبة والوداعة الذي يغمر القارئ وهو يتقدم في قراءة الروايتين وليس هذا كل ما هنالك وكفى!

بل هي طيبة لا تشبه كل طيبة في لبابها، لأنها طيبة جادة تعرف كيف تستسلم وكيف تجمح وكيف تنطوي على نفسها وكيف تقبل الحياة بشرائطها هي لا بشرائط الحياة وهي كذلك طيبة لا تحسها من مصدر واحد في الرواية، فلا تحسها من الزوجة وحدها ولا من الزوج وحده ولا من الصديقة التي خانت فقتلت نفسها ولا من الأسرة التي فرقها الموت أو جمعتها الشيخوخة والأسى

بل هي طيبة الجو كله، وإن برزت فيه الخيانة كما تبرز الشياطين في حظيرة الملائكة العلويين

وهي طيبة العلاقات والأواصر التي تخلق البيئة وتشمل من فيها، فإذا هم كلهم طيبون يريدون ذلك أو لا يريدون

فتاة تتزوج بخطيبها الذي اختاره لها أهلها وقد فجعتهم الحرب في أعز الأبناء. ثم تحب هذا الزوج وتخلص له وترزق منه صبياً يؤكد هذا الحب بينهما، ثم تساق إلى الأسرة صديقةٌ فجعت في قرينها فيلقاها الزوجان بالحفاوة والمودة والمؤاساة، ثم تنشأ بين

الصديقة والزوج علاقة لم يحسبا لها حساباً، وكان ينبغي أن يحسبا لها بعض الحساب، فتهرب الصديقة من خطر الخيانة إلى مكان بعيد، وتعالج المقاومة ما استطاعت حتى تعجز عنها وعن الصبر
فتعود، ولكنها لا تطيق مقام الخيانة بين الزوجين فتحتال هي وعاشقها على اللقاء في مزار معهود. ويكبر على ضمير الرجل إثم الخيانة فيسوغه بالفلسفة التي يراها خيراً له من مصارحة نفسه بخيانة زوجة تخلص له ولا تفكر في غير الإخلاص ولو على سبيل القصاص. أما الفلسفة التي أهتدي إليها، فهي القول بتعدد الزوجات واستطاعة القلب أن يوفق بين حب اثنتين في كثير من الأوقات، أو كما قال الدفتر الذي تكتبه الزوجة لنفسها ونعلم منه وقائع القصة مروية بلسانها حيث تقول: (. . . كما نسمر في بيتنا كما تعودنا أن نفعل مع جماعة من الأصدقاء الذين تعرفينهم، وكنا نتجاذب الحوار في موضوعات مختلفة كما تعودنا أن نفعل، فانتهينا إلى الحب وانتهينا إلى الوفاء، وأفضنا في ذلك حتى عرض مكسيم لعادة تقرها بعض الجماعات المتحضرة: عادة تعدد الزوجات، وإذا مكسيم يدافع عن هذه العادة دفاعاً حاراً ويذود عنها ذياداً عنيفاً، وأنا أسمع ذلك ضاحكة منه أول الأمر، ثم منكرة للغلو فيه، ثم دهشة لهذه الحماسة التي يظهرها مكسيم، ثم منتبهة لما كان يرد به فيليب من ألفاظ لا تخلو من تلميح وتعريض، ثم نتفرق وقد وقر في نفسي من هذا الحوار شيء لم يخل من تنغيص لما كان بيني وبين مكسيم من صفو. . .)
.هرب الرجل من ألم الضمير إلى الفلسفة كما يفعل الرجال في معظم الأحوال
أما المرأة، فقد هربت من ألم القلب إلى ملاذ آخر لعله أهون عليها من فلسفة الرجال، وهو الموت!
نعلم ذلك من الأسطر الأربعة التي هي كل ما نبأنا بها المؤلف بلسانه بعد ختام الدفتر على نحو من الاقتضاب كأنما هو اقتضاب القطع بالسكين. . . (وأصبح الناس ذات يوم وقد قرءوا في صحف الإقليم نعي سيدتين أهدت كل واحدة منهما نفسها إلى الموت، وجعل الناس في المدينة إذا لقي بعضهم بعضاً يلمون بهذا النبأ ويقول بعضهم لبعض: يا عجباً! كأنما كانت على ميعاد!)
هنا مظهر الطيبة القوية كلها أو مظهر القوة الطيبة كلها فهنا صدمة طاغية تودي بحياتين ويوشك أن تودي بثالثة، أو هي قد أودت فعلاً بما هو مساك تلك الحياة وهو الاطمئنان وسكينة الضمير
تمت هذه الخاتمة القاصمة دون أن تنفرج الشفاه بكلمة واحدة تبعثر آلام الصدور في آذان
من يعنيهم الأمر ومن لا يعنيهم من الفضوليين
ولو كانت طيبة سخيفة لاستنفدت نفسها في اللجاجة والثرثرة والقال والقيل في غير طائل
ولو كانت قوة تخلو من الطيبة لما خلت من الإجرام والفضيحة والتنغيص الذي لا يطاق
ولكنها الطيبة التي قلنا إنها تعرف كيف تستسلم وكيف تجمح، وتعرف كيف تحب وكيف تموت. ومن عجائب الدنيا أنه لا يعرف كيف يحب وكيف يموت إلا من هو أحق الناس بالحياة
والسؤال الذي يخيل إلى أنني سامعه من كل لسان في هذا الموقف هو: أفي العالم اليوم مثل هذا الحب! وإن كان في العالم أفي أوربا؟ وإن كان في أوربا أفي الديار الفرنسية؟
وهنا الكشف الذي يستحق أن تكتب من أجله الروايات والمصنفات، لا الرواية الواحدة ولا المصنف الواحد
فحب النزوات ما استغرق قط نفوس بني الإنسان في هذا الزمان ولا في غير هذه النزوات
وفرنسا ليست ببدع في ذلك بين أمم العالم الحديث. فليست فرنسا كلها باريس ولا باريس كلها بأحياء السهر والمجون، بل هناك فرنسا أخرى كتب عنها العارفون واختبرها الناقدون الملهمون الذين لا يكذبون، وبسطوا للناس من أوصافها ما يأذن بحب كهذا الحب، وجدٍّ كهذا الجد، وطيبة كهذه الطيبة، وكرامة كهذه الكرامة، وإن كثرت من فوقها الفقاقيع التي تحجب القاع، وتخدع فيه الأبصار والأسماع

وضمان هذه الحقيقة أن القلب الإنساني حيث كان يفقد قابلية العيش إذا هو فقد قابلية الحب الذي يعز عليه أن يضيع، والذي يؤثر أن يضيع الحياة ولا يضيعه وهو باق بعده بين الأحياء
إذا فني من قلب الإنسان في أرجاء الدنيا هذا المعين المقدس فهي الدنيا الفانية أو هي الأسطورة التي يستحمقها الخيال قبل أن تستحمقها العقول
وهذا هو الكشف الذي من أجله وحده تستحق رواية (الحب الضائع) أن تقرأ وتحفظ، وفيها غير ذلك ما تستحق من أجله القراءة والحفظ والتأمل الطويل
وقد اشتمل غلاف الرواية على توابع أخرى من القصص الصغار التي تنتهي الواحدة منها في بضع صفحات، تختلف في نمط التأليف وفي سرد الحادث وصور الأبطال، ولكنها
تتفق في مزية واحدة تحمد للمؤلف الكبير، وهي مزية الجد في تصوير العاطفة التي هانت على ألسنة الناس وعلى نفوسهم في مجالس أهل الفضول. فليس الحب الذي تحكيه هذه القصص الصغار نزوة جسد، ولا مشغلة فراغ ولا لعبة عازلين، ولكنه كما يجمل بالإنسان كأس تصلح أن يملأها الموت كما تصلح أن تملأها الحياة، وتغترف من معين كامن فيما وراء الطبيعة كما تغترف من معين يسطع عليه نور الشمس وتخفق عليه نسمات الفضاء.
عباس محمود العقاد
الحديث ذو شجون
للدكتور زكي مبارك
علاج النفس - الخادع المخدوع - مداخل الشيطان - صورة إسلامية - المنافق الجميل
علاج النفس
كتب إلينا حضرة (. . .) الموظف بوزارة المالية خطاباً يذكر فيه أنه يعاني أزمات نفسية تتمثل في تجسيم الخلاف الذي يثور بينه وبين أهله وأصدقائه من حين إلى حين، وهو يستحلفنا بالله أن ندله على طريق الخلاص من هذه الأزمات السُّود
ونحن من جانبنا نستحلفه بالله أن ينظر في الصور آلاتية:
1 - رجلٌ صائم يشعر بأن الصيام قد يحمله على سرعة الانفعال، فهو يتجنب الاصطدام بالناس، لئلا يؤذيهم بغير حق
2 - رجلٌ ترك التدخين بعد طول العهد بالتدخين، فهو يعرف أنه في الأيام الأولى محتاج إلى التصبُّر، ومضطر إلى البعد قليلاً عن المجتمع، لئلا يحمله ضيق النفس على الوقوع في محرجات لا تليق
3 - رجلٌ مأزوم يخفي كربه عن زوجته وأبنائه، فهو يبتعد عامداً عن الحديث في المطالب المعاشية، لئلا تلوح فرصة يثور فيها كربه فتنفرج شفتاه عن بعض الألفاظ الغلاظ في إيذاء الزوجة والأبناء
4 - قاض ينسحب من الجلسة وقد أحسّ بنوبة مَرضية خوفاً من الإضرار بالمتقاضين، لأنه يعرف أن العلة ولو كانت خفيفة تعرّض أحكامه للاعتلال
5 - مدرس غاضب على أحد التلاميذ، وهو لحرصه على النزاهة يرفض امتحان ذلك التلميذ، لئلا يؤثر غضبه في تقدير الدرجات، وهو نوع من القضاء
6 - غريب يشعر بالضجر من أحد البلاد، فيمنعه العقل من اغتياب ذلك البلد، إيماناً بأن الغربة قد تلوِّن أحاسيس المغتربين بالحزن والانقباض، فهم يرون الدمامة ويعمَوْن عن الجمال
7 - خصمٌ شريف يعرف أن الخصومة قد تُفسد أحكام الرجال على الرجال، فهو يحاسب نفسه قبل أن ينطق بكلمة تسيء خصمه اللدود
فما رأيك في هذه الصور السبع، ولها أمثال تفوق الإحصاء؟
إن كان حكمك على هذه الصور يوافق أحكام أولئك الرجال فادرس نفسك وزمانك لتعرف أنك معرض لآفات نفسية تفرضها عليك الظروف في هذه الأيام (البيض) أحترس كل الاحتراس من نفسك في هذه الأوقات، واعلم أن سلامة الأعصاب تعرضتْ لمصاعب لا تطاق، ومن النادر أن تجد رجلاً يساير الحياة بقلب سليم، وقد قضت متاعب الحرب بأن يصير الناس جميعاً مجنَّدين، ولو كانوا من سكان المغاور والكهوف

يومك الحاضر متعب، ولا تمر فيه لحظة بلا منغصات، ولذلك أرجوك أن تسارع فتتهم نفسك قبل أن تتهم الأهل والأصدقاء عند اشتجار الخلاف
ومن المؤكد أن (مرض العصر) لا يمسك وحدك، لأنه وباء، والوباء لا يقتصر شره على الأفراد، فهو يمس الجميع بلا استثناء
فهل تكون عند حسن الظن بك فتقف موقف الطبيب من مرضاه؟
ومع من تجسَّم الخلاف؟
إنك تعامل أقواماً ضعُفت أعصابهم أقبح الضعف، بسبب المضجرات التي ساقتها أعوام الحرب، فهم في حقيقة الأمر مرضى لا أصحاء، والعاقل لا يطالب المريض بما يطالب به الصحيح
وأنا مع هذا أنصحك بما لا أنصح به نفسي، فأنا أكتب هذه الكلمات في أعقاب ثورة نفسية قضت بالقطيعة بيني وبين صديق لا ذنب له غير العيش في أيام تُجسَّم فيها أشباح الهفوات
وما جاز عندي أن أنصحك بما لا أنصح به نفسي، إلا لأني أرجو أن تكون قدرتك على نفسك أكبر من قدرتي على نفسي. . . وليتك تتأدب بأدبي، فأنا لا أنفض يديَّ من صديق إلا بعد الصبر عليه عدداً من السنين الطوال، ثم لا يكون عقابه غير الهجر الجميل
!!لطف الله بي وبك، وهداني وهداك
الخادع المخدوع
هو من يوهمه اللؤم أو توهمه الحماقة أن صداقات الرجال تُنال بالرياء، وأن لُطف المحضر يغني عن صدق المَغيب
الصديق الحق هو الذي يستطيع أن يغزو قلبك بأشعة روحانية توحي إليك أنه أنيسك في النعماء، وحليفك في الضراء، وأن وداده الصحيح هو القبس الذي تستضيء به عند اعتكار الظلمات
الصديق الحق هو الذي يدرك بوضوح أن الصداقة تفرض عليه أن يكون سنادك في جميع الأحايين، وأن يؤاخي من آخاك ويعادي من عاداك، ولو كنت على ضلال. وهل يستطيع الصديق أن يرى في صديقه غير كرائم المناقب وروائع الخصال!
ليس بصديق من يرى عيوبك، أو يسمع فيك أقوال مبغضيك. وليس بصديق من يجوز عنده أنك واحد من الناس يقترب إليه باسم الصداقة، ويبتعد عنه باسم العقل. وليس بصديق من لا يراك في جميع أحوالك أشرف الرجال
إن استباح الصديق أن يتعقب صديقه بالملام، في جد أو في مزاح، فهو عدو يلبس ثوب الصديق
قال الرسول عليه السلام: (أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً)
وقد أوَّل قومٌ هذا الحديث فقالوا إن نصر الأخ الظالم هو نهيه عن الظلم
وأقول إن هذا الحديث الشريف يرمى إلى غاية لم يفطن إليها أولئك المؤولون، وهو عندي دعوة إلى العصبية الأخوَّية، وهي الغاية في شرف الإخاء، وتلك العصبية توجب أن نكون في صفوف الإخوان ولو كانوا ظالمين، لأن الوداد الصحيح هو الاشتراك الوثيق في المحاسن والعيوب
أقول هذا وأنا أعلم أن في خلق الله من يثور على هفوات صديقه ليتسم بالنزاهة والعدل، ولو عقل لأدرك أن مؤاخذة الصديق - ولو بحق - هي أقبح ألوان الظلم والجور والإجحاف
مداخل الشيطان
إن جاريت العقائد الدينية فالشيطان مخلوق يوسوس لك بلا انقطاع ليضلك عن سواء السبيل. وإن جاريت المذاهب الفلسفية فالشيطان هو هواك، وأنت بين هذين الفرضين مسئول عن مقاومة هذا الهوى أو ذلك المخلوق، لأنه في حاليْة مشئوم مشئوم
ينزع الشيطان فيقول: لك أن تختار بين إيثار صديقك وإيثار الحق
وعند هذه الفكرة المضللة تلتفت فترى الحق أجدر بإيثارك فتثور على الصديق
ثم تلتفت مرة ثانية فترى ناساً يُعجبون بشجاعتك ونزاهتك لأنك آثرت الحق على الصديق
وتلتفت مرة ثالثة فتراك وُصفتَ بأوصاف لطاف هي منحة الشيطان لمن يثور على

الصديق
ثم تلتفت مرة رابعة فتراك مسئولاً عن تبرير ثورتك على الصديق، ولا يتم ذلك بغير مآثم يكون منها أنك أشرف من صديقك، ولا يقول رجلٌ إنه أشرف من صديقه إلا حين يُشرف على هاوية الانحطاط!
إن الإفك في محاربة عدوّك أشرف من الصدق في محاربة صديقك، ولك أن تقول إني أفضّل الإفك على الصدق في بعض الأحيان
عِرضُ الصديق هو عِرضُك، ولن تكون رجلاً إلا حين تفرح بضلال صديقك قبل أن تفرح بهُداه
كن صديقاً صدوقاً، ثم تجرّدْ من سائر الفضائل إن شئت، فما يقيم الله وزناً لغير أعمال الصديق الصدوق
اسمع كلامي، يا غافل، إن كان لك سمعٌ أو قلب، اسمع ثم أجبْ:
هل تعرف لأي سبب قلّت الصداقات في هذه السنين العجاف؟ وأساعدك على الجواب فأقول:
قّلت الصداقات، لأنها جواهر نفيسة وكريمة، ونحن في زمن لم يرتفع فيه غير ثمن الرغيف المخلوط بالتراب. . . وما أحب أن أزيد!
صورة إسلامية
في أحد أيام سنة 1938 - وكنت ضيف العراق - أطلعني السيد صادق الوكيل رحمه الله على قصة صدرت في بيروت تسمى (خطيئة الشيخ) أو (توبة الشيخ) فما أذكر اسمها بالضبط، ولعل إحدى المكاتب ترسلها إليّ بالثمن محوّلاً على البريد فأعرف ما فيها من مقاصد وأغراض
أخذ السيد صادق الوكيل يقرأ من تلك القصة صفحات معيّنة، وهي الصفحات التي يشرح فيها المؤلف كيفية الوضوء وكيفية الصلاة، بصورة مُزِج فيها القَصص بالتعليم، ثم عقّب فقال: ترضيني هذه الطريقة، فأنا أخشى أن يجيء يوم ننسى فيه كيفية الوضوء وكيفية الصلاة!
وفي صيف سنة 1939 قضيتُ أياماً في الإسكندرية لأستكمل الصور المنشودة لكتاب (أدب الشواطئ) وهو كتابٌ صرفتني عنه صروف الحرب، أو صرفني عنه إقفار الشواطئ من احتراب العيون والقلوب، وسأرجع إلى إتمامه ونشره يوم يرجع الأمان إلى صدر الزمان
وأواجه الغرض من هذه الكلمة فأقول:
في ساحة الفتون بالشاطئ الإسكندري لقيني الشيخ محمد أبو العيون، وهو أزهريٌّ طيب القلب جداً، وقد تهمّ حين تراه بأن تسأله الدعاء، على قلة هذا النوع في هذا الجيل، وإني لأرجو أن يتفضل فيذكرني بالدعوات الصالحات حين أخطر في البال
كنت أمتع عينيّ بأحد ملاعب (التِّنِسْ) في الشاطئ حين لقيني الشيخ محمد أبو العيون، ولملاعب التنس فوق الشاطئ الإسكندري جاذبيه تفوق الوصف، ولكن قدوم هذا الشيخ الصالح صدّني عن ذلك النعيم، وأشعرني أن للتقوى جاذبية رائعة، وأن النظر في وجه الرجل العابد يوحي من اشعر ما لا يوحيه النظر في طلعة البدر الوهاج ولم يكن بدٌّ من صحبة هذا الشيخ في ذلك الوقت، وكانت الشمس تتأهب للاستحمام، وهي تستحم في البحر كل يوم قُبَيل الغروب، ولعل هذا هو السبب في أن جسمها خالد الإشراق!
- هل يضايقك أن نتعشى معاً، يا حضرة الدكتور؟
- أنا لا أتناول طعاماً بالليل، ويكفي أن أكون في ضيافتك الروحية
- تعال معي إلى الفندق، فهنالك مشكلة ينفع في حلها تعاون الرفاق
- وما تلك المشكلة؟
- خادمٌ بالفندق يرفض أن يتعلم كيفية الوضوء وكيفية الصلاة، مع أني عرضت عليه خمسة قروش، ولو أنه استزادني لزدته، ولكنه يرفض
مضينا معاً إلى الفندق لحل تلك المشكلة، وأنا أبتسم ابتسامةً تخفي على الشيخ، فمن (المضحك) أن يُفكر روّاد الشواطئ في تعليم خدّمّة الفنادق كيفية الوضوء وكيفية الصلاة

ونظرتُ إلى الخادم فرأيته فتىً تشهد ملامحه بأنه مسلمٌ لفظاً لا معنىً، وأن طول عهده
بخدمة الفنادق والقهوات راضه على اليقين بأن المصطافين ليس فيهم من يذكر الله بصدق وإخلاص. . . وهل تزار الإسكندرية في الصيف لأداء الصلوات؟
عَرض الشيخ من جديد خمسة قروش، وعرضتُ عشرة قروش فقبِل الخادم (وهو يضحك ضحكة السخرية) أن يطيعنا فيتعلم كيفية الوضوء وكيفية الصلاة
أخذ الشيخ يعلِّم الفتى كيفية الوضوء بإيجاز، وكان الموقف في جملته من غرائب المضحكات، لأن قروش الشيخ وقروشي جعلت الفتى من المأجورين المأزورين، ولا قيمة لعبادة يكون جزاؤها بأيدي الناس!
كان الفتى يضحك ويلعب، ثم تغيَّر وجهه فجأة فصار في خشوع النسّاك، واحتجزّنا ساعتين لنعلِّمه سائر الفروض الإسلامية، ولم يَفُته أن يردَ القرَوش التي أخذها من الشيخ والقروش التي أخذها مني، برغم الإلحاح في قبول الهدية، وكانت حجته أنه قضي في صحبتنا لحظات هي أثمن وأنفس من أطايب الأموال
وفي الأسبوع الماضي زرت الإسكندرية لبعض الشئون، فراعني أن أجد فتى يهجم على يدي فيقبّلها بحرارة وشوق، ثم يسألني الدعاء، وهو الفتى نفسه، الفتى الذي علّمناه كيف يصلي وكيف يصوم
خُذ علمي وأعطني إيمانك، أيها الجاهل السعيد، فلا حياة للعلم بدون إيمان المنافق الجميل
هو شجرة الخِلاف أو الصَّفصاف، وهي شجرة غرستُها بيدي عشرات المرات، قبل أن أهاجر من سنتريس إلى باريس
لا يدوم جمال هذه الشجرة غر سنتين أو ثلاث، ثم تُخّوَّخ، والتخويخ في عُرف أهل مصر هو أن تعتلّ الشجرة بعلة الجوف، فيكون لها ظاهرٌ صحيح، وباطنٌ عليل، على نحو ما تكون شجرة الصفصاف بعد أعوام قصار، وعلى نحو ما تكون ضمائر الأصدقاء المزيّفين بعد أيام طوال!
رجال القلم هم أطباء النفوس والقلوب والعقول، والطبيب بلا مَرَضى كالمحامي بلا قضايا والمدرس بلا تلاميذ
ومن أجل هذا أحبك، أيها المنافق الجميل، لأن وجودك فرصة لدرس الغرائز والسرائر والأهواء
أدامَ الله عليك نعمة الغدر، وأدام عليَّ نعمة الوفاء.
زكي مبارك
التصوير عند العرب
للمرحوم أحمد تيمور باشا
للدكتور محمد مصطفى
خيل إليَّ وأنا أقرأ كتاب (التصوير عند العرب) أنني أجلس في (الخزانة التيمورية) أراقب صاحبها - رحمة الله عليه - فأراه يقوم إلى أحد الرفوف ويتناول كتاباً معيناً، من بين الكتب الكثيرة المرصوصة بعناية فائقة، ليقرأ فيه ويسجل على حواشيه ما يخطر له من آراء وأفكار. وأكاد أرى هذا الكتاب وهو يهتز بين يديه طرباً وسروراً، بل أكاد أسمع هذا الكتاب وهو يتغنى بمديح صاحبه ويفخر بين الكتب الأخرى بما خط على جوانب صفحاته من ملاحظات ترفع من قيمته في أعين العارفين. نعم. . . إن الكتب ترقص وتغني إذا هي وجدت من يعني بأمرها ويرعاها في عطف وحنان. ولو تركت (الخزانة التيمورية) وشأنها - وما فيها من عشرين ألف مجلد - لملأت جو القاهرة وضواحيها بما تتغنى به من أناشيد، تشيد فيها بذكرى صاحبها الراحل الكريم، ولكانت تجلب السلوة والعزاء إلى قلوب الكثيرين من سكان هذا القطر والأقطار الشقيقة، بل إلى قلوب أناس عديدين عصفت بهم الشدائد في تلك النواحي النائية البعيدة، ولكانت تكف عن هذا الصراخ والعويل الذي ينبعث من (قبر) شاءت الأحوال أن تظل حبيسة فيه، بعيدة عن عشاقها ومحبيها
حقاً كان المرحوم أحمد تيمور باشا صاحب (الخزانة التيمورية) ومؤلف كتاب (التصوير عند العرب) من أولئك الذين أسعدهم الدهر بأن يولدوا في وسط عائلي مولع بالأدب وقرض الشعر، فهو الذي قالت في ولادته أخته عائشة التيمورية من أبيات:

لاح السعود وأسفر التوفيق ... وتلا لنا سور العلا توفيق
وكان قد سمى عند ولادته (أحمد توفيق) ولكن لقب العائلة غلب عليه. وقامت أخته عائشة على تربيته بعد وفاة والده إسماعيل تيمور باشا، فتلقى علوم اللغة والمنطق والقراءات على فطاحل أساتذة ذلك العصر أمثال رضوان محمد وحسن الطويل والشنقيطي الكبير، وظل مثابراً على الدرس ومجالسة العلماء والأخذ عنهم، حتى أصبح الحجة في اللغة من بعدهم. وكانت داره بدرب سعادة منتدى يؤمه شيوخ الأدب واللغة للبحث والمناقشة أمثال: أحمد مفتاح، وطاهر الجزائرلي، ومحمد عبده، ويحيى الأفغاني، وغيرهم كثيرون من علماء
وأدباء الشرق والغرب. وفي هذا الوسط شب على حب جمع الكتب والتفنن في اختيارها واقتنائها، حتى بلغ ما جمعه في خزانته 15. 000 كتاب في نحو 20. 000 مجلد أكثرها من المخطوطات. ويؤكد الأستاذ حسن عبد الوهاب - وقد كان على اتصال به - أن (هذا العدد من الكتب قد اطلع عليه رحمة الله وعلق عليه ملاحظات له، ما بين وفاة مؤلف أو بيان ذيول وضعت على الكتاب، أو الإشارة إلى قوة المؤلف والاعتماد عليه في النقل) مما يدل على سعة اطلاعه وحبه للآداب والعلوم والفنون.
وكان رحمه الله دقيقاً في بحوثه العلمية، متوفر النشاط، يكثر من الكتابة والتأليف. وله مقالات كثيرة في اللغة والأدب والحضارة العربية والتاريخ الإسلامي، نشرها في جرائد ومجلات عديدة: كالمؤيد والضياء والمقتطف والمقطم والأهرام والهلال والهندسة والزهراء والهداية الإسلامية. أما ما ألفه من كتب فكثير، ولم ينشر بعضها بعد، وإني أذكر البعض مما نشر منها مثل: تصحيح لسان العرب، تصحيح القاموس، نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الأربعة وانتشارها، أبو العلاء المعري، تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر، قبر الإمام السيوطي وتحقيق موضعه، وأخيراً كتابه الفذ التصوير عند العرب
وناشر هذا الكتاب - الدكتور زكي محمد حسن - غني عن التعريف، فقد تسنى لي أن أنشر على صفحات هذه المجلة حواراً علمياً بيني وبينه، قابله بما نعهده فيه من ترحاب وسعة صدر! والمؤلف والناشر يتشابهان في بعض الصفات كل على طريقته الخاصة وطريقة عنصره. فكلاهما من هواة جمع الكتب، الأول صاحب الخزانة الشهيرة في الشرق والغرب، والثاني كوَّن لنفسه مكتبة في الفن الإسلامي يتمنى الكثيرون - ومنهم كاتب هذه السطور - اقتناء مثلها. وكلاهما واسع الاطلاع، الأول يحفظ بالذاكرة ويدون ملاحظاته في (كراسات) للرجوع إليها، والثاني يعتمد في بحثه العلمي على طريقة (جذاذات الورق) - وإني أفضل الجمع بين الطريقتين. وكلاهما معتد بنفسه وبمركزه العلمي، الأول في تواضع، والثاني فيما تفرضه مقتضيات عصره من كبرياء لا ذنب له فيها
ولا غرابة إذن أن يقول الناشر في تصدير الكتاب: (إن المؤلف كان حجة في اللغة والأدب، واسع الاطلاع على كتب التاريخ والبلدان، نافذ البصيرة، دقيق الملاحظة. فكان طبيعياً أني لم أجد في متن الكتاب ما يحتاج إلى تقويم أو تصويب من الناحيتين الأدبية والتاريخية، ولكن دراسة الفنون والآثار الإسلامية لم تكن ناضجة في مصر حين كتب فصول هذا الكتاب ولم يكن المؤلف - رحمه الله - أخصائيا وثيق الصلة بالدراسات الفنية في الغرب، فدفعني هذا كله إلى الإقبال على التعليقات والدراسات الفنية مع توضيح الكتاب بالصور)
والحق يقال إن القارئ لا يدري هل هو تواضع المؤلف الذي يطغى على هذا الكتاب مع ما نراه من غزارة مادته في ناحيتي الأدب والتاريخ، أم كبرياء الناشر وما أظهر من سعة الإطلاع في تعليقاته ودراساته الفنية. وما الأدب والتاريخ سوى دعامتي الفن الإسلامي، بهما يثبت قوامه، وبدونهما تتقوض أركانه
وإني لا أجد لتوضيح ذلك أقوى مما قاله المؤلف في صلة الشعر بالفن، فهو يقول في مقدمة الكتاب: (وقد اعتمدت في كثير مما ذكرته على الشواهد الشعرية، لأني وجدت الشعر أصدق قيلاً وأفصح بياناً في هذه المواضيع، فالشاعر إذا وصف فإنما يصف شيئاً موجوداً وقع عليه نظرة فرواه لنا كما رآه، ولأنه يجتهد في تقريبه للأذهان فيصور من دقائقه في شعره ما لا تصوره عبارة أخرى، لا يقصد منها إلا رواية خبر ربما لا يهم راويه إلا ذكر جملته دون تفصيله)

وبدأ المؤلف كتابه بأنواع التصوير فذكر منها ما كان على الجدران والثياب والستور والأقداح والأواني والمصابيح والأثاث والسلاح والنقود والشارات والبنود، وفي الكتب والصحف والألواح. ثم أتبعها بذكر التماثيل على أنواعها من ثابتة ومتحركة ومصوتة بأنواع الحيل وتماثيل الحلوى والزهر والحقول واللعب وتماثيل الصبيان، وأتى بعد ذلك على ما عثر عليه من أسماء المصورين. ويقول في ذلك: (وفي هذا الفصل ما يدحض قول القائلين بقصور العرب في هذا الفن البديع)

ويقع هذا القسم من الكتاب في 114 صفحة هي متن الكتاب الذي حرره المؤلف مع الحواشي التي خطرت له. وليست قيمة هذا القسم في قلة عدد صفحاته أو كثرتها، بل فيما تحتويه هذه الصفحات من بيانات ونصوص، تدل على ما بذله المؤلف من جهود كبيرة ليجمعها من بطون الكثير من الكتب المطبوعة والمخطوطة. وليس أدل على ذلك من قول المؤلف في مقدمته: ثم لا يخفى على من عانى أمثال هذه المباحث أعتياص هذا الموضوع،

والتواؤه على محاوله، لتشتته بين تضاعيف الأسفار بعد ذهاب ما كتب عنه، وجمع فيه. فلا غرو أن يعد صغيره كبيراً، ويسيره كثيراً، وألا يُستهان بما يظفر به منه، فإنه إن لم ينقع غُلَّة، ويصرح عن المحض، فلا أقل من أن يتخذ أسًّا يبنى عليه)

وقد تحققت نبوءة المؤلف هذه واتخذ الكتاب أسًّا وبُني عليه، وجاءت تعليقات الناشر ودراساته الفنية متممة لهذا (الصغير الكبير، واليسير الكثير) فرد النصوص إلى مصادرها، ووضح الكتاب بالصور، وعمل على إعداد فهرس هجائي طويل لمتن الكتاب وما كتبه من تعليقات وما رجع إليه من مصادر، وإني أشاركه رجاءه في أن يقبل المؤلفون على عمل مثل هذا الفهرس فيما يكتبون وينشرون

ولعل الناشر ظن أن ذكرى مؤلف الكتاب لا تزال حية في قلوب أفراد الجيل الحاضر، فرأى أن ذلك قد يعفيه من الترجمة له، على غير المألوف في نشر المخطوطات. وقد كنا نود لو أن الناشر كان قد افتتح هذا السفر الجليل بترجمة وافية لمؤلفه - رحمه الله - يجمع فيها شتات ما قيل وكتب عنه، لتبقى ذكراه خالدة مع كتابه، لنا وللأجيال القادمة. وإني أرجو أن يحقق الناشر هذه الرغبة إذا أُتيح له أن ينشر من هذا الكتاب طبعة ثانية

وتكلم الناشر في تعليقاته (ص 119 وما بعدها) عن موضوع (حكم التصوير في الإسلام) وأراد أن (يفند الحجج التي يسوقها أصحاب القول بأن التصوير لم يكن مكروها في فجر الإسلام). فحلل هذه الحجج تحليلاً علمياً ورد عليها. وقد تكون لي عودة لمناقشة هذا الموضوع في مقال آخر

وقد توخى الناشر الدقة التامة في تعليقاته وفي توضيح ما نشره من الصور؛ وليس أدل على ذلك من صورة لشخص على دعامة وجدت مدفونة تحت قاعة العرش في قصر الجوسق بمدينة سامرا، وصفها الناشر: (ص 143 وحاشية 1) بأنها لامرأة (تحمل على كتفيها عجلاً)؛ ثم قال في الحاشية: إن (أكبر الظن أن هذا الرسم توضيح لقصة فتنة محظية بهرام جور) وبعد أن سرد هذه القصة اختتم الحاشية بقوله: (ويرى القارئ صورة لهذا المشهد العجيب في مخطوط من المنظومات الخمسة للشاعر نظامي، كتب في تبريز للشاه طهماسب)؛ وقد بدا للناشر بعد ذلك أن يغير رأيه في شرح هذه الصورة فقال: (ص 253 وحاشية 1) إن هذا النقش (قد يمثل سيدة تحمل فوق كتفيها عجلاً، فيكون ذلك توضيحاً

لقصة فتنة محظية بهرام جور)؛ وبعد أن تكلم باختصار عن هذه القصة قال: (ولكن الحق أننا لا نستطيع أن نجزم تماماً بأن الرسم يمثل سيدة وليس رجلاً، وبأن الحيوان المحمول عجلاً لا خروفاً؛ وإذا كان من المحتمل جداً أن يكون المقصود رسم رجل يحمل خروفاً فإن المنظر لا يكون من قصة محظية بهرام جور، بل يكون منظراً مسيحياً يمثل قصة الراعي الصالح)؛ وفي الحاشية روى هذه القصة وجاء بمراجع قيمة لبعض صور الراعي الصالح

والحق يقال أنه لا يمكن للقارئ أن يجزم بأي شيء من هذه الصورة وهي في حالتها الراهنة، والناشر على حق في كلا التفسيرين، ولكن إذا تأملنا الرسم الذي حاول فيه الأستاذ هرتزفلد (شكل 65 ص 88 من المرجع الذي ذكره الناشر) أن يرجع هذه الصورة إلى أصلها مع مقارنتها بمثيلاتها على جدران قصر الجوسق بسامرا، أمكننا أن

نتبين أنه لامرأة تحمل على كتفيها عجلاً، وأن نستبعد قصة الراعي الصالح البيزنطية الأصل، لما نراه في الصورة من التأثير الساساني الشديد، ولمشابهة صورة المرأة فيها من حيث الرسم والملابس لصور الآلهات على تيجان أعمدة قصر الملك خسرو الثاني الساساني. وكذلك لم يذهب الناشر بعيداً في ظنه أن هذه الصورة تمثل الراعي الصالح إذ لا يبعد - كما أثبت الأستاذ هرتزفلد ذلك في ص 89 من المرجع السابق - أن تكون الصورة البيزنطية للراعي الصالح وعلى كتفيه الخروف قد أوحت للفنان الساساني أن يستبدل بالرجل امرأة وبالخروف عجلاً، فيمثل في صورته هذه (فتنة) محظية بهرام جور، وهي تحمل العجل على كتفيها، كي تتفق الصورة مع القصة الساسانية

ولاشك أن مراجع (الفن الإسلامي) التي ضمها الناشر لما ذكره المؤلف من مراجع الأدب والتاريخ، قد جعلت لهذا الكتاب ميزة خاصة به، فصار وافياً في الغرض الذي كتب من أجله

محمد مصطفى

أمين مساعد دار الآثار العربية

شعر علي بن أبي طالب

للأستاذ السيد يعقوب بكر

هل كان شاعراً؟

لعلنا في حاجة قبل كل شيء إلى أن نصل إلى رأي في هذه المسألة: وهي هل كان علي شاعراً أم لم يكن؟ ذلك لأنه قد ثارت حول هذه المسألة مجادلات؛ فذهب قوم إلى أن علياً كان شاعراً، وذهب آخرون إلى أنه لم يكن كذلك، وإنما كان كاتباً وخطيباً. أقول إننا في حاجة إلى أن نصل إلى رأي في هذه المسألة قبل كل شيء. والواقع أننا لسنا في حاجة إلى شيء بعد ذلك لأننا قد وصلنا إلى رأي في هذه المسألة: هو أن علياً كان من الشعراء. ولقد وصلنا إلى هذا الرأي بعد أن خطونا ثلاث خطوات:

1 - وجود الموهبة الشعرية عند علي

ونقصد بالموهبة الشعرية هنا تلك الموهبة التي تولد مع الشاعر وتنمو بنموه وتنضج بنضوجه، وتدفعه إلى قول الشعر ونظم القصيد. نقصد بها ذلك الاستعداد لقول الشعر واصطناعه وسيلة من وسائل التعبير عن النفس والتصوير لخلجات الوجدان ونوازع القلب

هذه الموهبة الشعرية يكفي في الدلالة عليها حياة النفس، ويقظة القلب، وتنبه الضمير، والتأثر السريع العميق بما من شأنه التأثير السريع العميق. يكفي في الدلالة عليها اتقاد العواطف وحرارة الانفعالات

ولقد كان علي بن أبي طالب موهبة شعرية على هذا الأساس. فلقد كان حي النفس، يقظ القلب، مُتنبِّه الضمير، يتأثر تأثراً سريعاً عميقاً بما من شأنه التأثير السريع العميق؛ ولقد كان متقد العواطف حار الانفعالات

ويكفي في التحقق من ذلك قراءة ما صح من خطبه وكتبه، ففي هذه الخطب والكتب نلمس الشعور الفياض ونحس به سارياً في أثناء الكلام. فنحن إذا قرأنا الخطبة الشقشقية شعرنا بما يضطرم في صدر علي من الألم لظفر أبي بكر ثم عمر ثم عثمان بالخلافة دونه، مع أنه - في نظره هو - أحق منهم بها لقربه من الرسول وتحدره من بيته. وهذا الألم الذي يضطرم في صدر علي ألم قوي شديد، ينفث في الكلام مرارة يستشعرها القارئ، وشكوى

مفعمة بالأسى، وظلالاً من الشعور بالحرمان

ونحن إذا قرأنا جوابه عن كتاب معاوية إليه شعرنا بإيمان صاحب الحق بما له من حق، وحرصه عليه، وثورة نفسه على من يسعى لاغتصابه منه أو حرمانه إياه أو الاستئثار به دونه

وهكذا تنتظم خطب علي وكتبه نفسه الحماسية ووجدانه الثائر وعواطفه الجياشة، وتقوم دليلاً على أنه شاعري الروح عظيم الحظ من الموهبة الشعرية

ولقد أحسَّ بروكلمان هذه الموهبة الشعرية عند علي فقال في خلال حديثه عن الديوان المنسوب ج1 ص43: (ليس من شك في أن علياً كان ذا ملكة شعرية. . .)

2 - نسبة أشعار إليه في بعض المراجع العربية المعتمدة

(1) جاء في عيون الأخبار لأبن قتيبة (ج 3 ص 5 ط دار الكتب): (وقال علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه:

أخوك الذي إن أحوجتك ملمّة ... من الدهر لم يبرح لها الدهرَ واجما
وليس أخوك الحقُّ من أن تشعّبت ... عليك أمور ظل يلحاك لائما

(ب) جاء في معجم الأدباء لياقوت (ج 5 ص 263 ط مرجليوث): (قرأت بخط أبي منصور محمد بن أحمد الأزهري اللغوي في كتاب التهذيب له قال أبو عثمان المازني لم يصح عندنا أن علي بن أبي طالب تكلم من الشعر غير هذين البيتين:

تلكم قريش تمناني لتقتلني ... ولا وَجدِّك ما بروا ولا ظفروا
فإن هلكت فرهنٌ ذمتي لهم ... بذات روقين لا يعفو لها أثر
قال ويقال داهية ذات روقين وذات ودقين إذا كانت عظيمة

وجاء فيه أيضاً (ج 5 ص 266): (وما يروي أن معاوية كتب إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أن لي فضائل: كان أبي سيّدا في الجاهلية وصرت ملكاً في الإسلام، وأنا صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم وخال المؤمنين وكاتب الوحي. فقال أمير المؤمنين عليه السلام أبا الفضائل تفتخر على يا ابن آكلة الأكباد؟ أكتب إليه يا غلام:

محمد النبي أخي وصهري ... وحمزة سيد الشهداء عمي
وجعفر الذي يضحي ويمسي ... يطير مع الملائكة ابن عمي
وبنت محمد سكني وعرسي ... مشوب لحمها بدمي ولحمي
وسبطا أحمد ولداي منها ... فأيكم له سهم كسهمي
سبقتكم إلى الإسلام طراً ... صغيراً ما بلغت أوان حلمي

فقال معاوية أخفوا هذا الكتاب لا يقرأه أهل الشام فيميلوا إلى ابن أبي طالب

(ج) جاء في مقاتل الطالبين لأبي الفرج الأصفهاني (ص 14 ط المطبعة الحيدرية بالنجف الأشرف): وكانت فاطمة بنت أسد أمُّه لما ولدته سمته حيدرة فغير أبو طالب اسمه وسماه علياً. وقيل إن ذلك اسم كانت قريش تسميه به. والقول الأول أصح، ويدل على ذلك خبره يوم خيبر وقد برز إليه مِرْحب اليهودي وهو يقول:

قد علمت خيبر أني مرحب ... شاكي السلاح بطل مجرَّب
إذا الحروب أقبلت تلهَّب

فبرز إليه علي عليه السلام وهو يقول:

أنا الذي سمتني أمي حيدرهْ ... كليث غاب في العرين قسورهْ
أكيلكم بالصاع كيل السندرهْ

(د) جاء في العمدة لأبن رشيق (ج 1 ص 14 ط الخانجي):

ومن شعر علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكان مجدداً قال له يوم صفين يدكر) همْدان ونصرهم إياه

ولما رأيت الخيل ترجم بالقنا ... نواصيها حمرَ النحور دوامي
وأعرض نقع في السماء كأنه ... عجاجة دجن ملبس بقتام
ونادى ابن هند في الطلاع وحمير ... وكندة في لخم وحيّ حذام
تيممت همدان الذين همُ همُ ... إذا ناب دهر جنتي وسهامي
فجاوبني من خيل همدان عصبة ... فوارس من همدان غير لئام
فخاضوا لظاها واستطاروا شرارها ... وكانوا لدى الهيجا كِشرب مدام
فلو كنت بواباً على باب جنة ... لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

وهو القائل بصفين أيضاً:

لمن راية حمراء يخفق ظلها ... إذا قلت قدمْها حصين تقدما
فيوردها في الصف حتى يَرِدْ بها=حياض المنايا تقطر الموت والدما

(هـ) جاء في ديوان الحماسة للبحتري (ص 61 ليدن): وما يروى عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه:

من أي يوميَّ من الموت أفرْ ... أيوم لم يقدر أم يوم قُدِرْ

وقال عليه السلام أيضاً:

أعليَّ يقتحم الفوارس هكذا ... عني وعنهم خبروا أصحابي
اليوم تمنعني الفرار حفيظتي ... ومهنَّد بالكف ليس يناب

آلي ابن عبد حين شدَّ أليَّة ... وحلفت فاستمعوا من الكذاب
ألا يصد ولا أهلل فالتقى ... بطلان يضطربان كل ضراب
فصددت حين تركته متجدلاً ... كالجذع بين دكادك وروابي
وكففت عن أثوابه ولو أنني ... كنت المجدَّل بزني أثوابي

جاء في الكامل للمبرد (ص 544 من الطبعة الأوربية): (ومن شعر علي بن أبي (و) طالب - رضي الله عنه - الذي لا اختلاف فيه أنه قاله وأنه كان يردده أنهم لما ساموه (يعني الخوارج) أن يقر بالكفر ويتوب حتى يسيروا معه إلى الشام؛ فقال: أبعد صحبة رسول الله عليه السلام والتفقه في الدين أرجع كافراً:

يا شاهد الله عليَّ فاشهد ... أني على دين النبي أحمد
من شك في الله فإني مهتدى

جاء في العقد الفريد لابن عبد ربه (ج 3 ص 123): (. . . ومن قول علي كرَّم الله (ز) وجهه بصفين:

أمن راية سوداء يخفق ظلها ... إذا قيل قدمها حصين تقدما
فيوردها في الصف حتى يردَّها ... حياض المنايا تقطر السم والدما
(جزى الله عني والجزاءُ بكفه ... ربيعة خيرا ما أعف وأكرما

فهو غير قليلاً في ألفاظ البيتين اللذين ذكرهما ابن رشيق، وزاد بيتاً ثالثاً

هذه جملة أشعار وجدناه منسوبةً إلى علي في هذه المراجع العربية المعتمدة، وهي بطبيعة الحال ليست كل ما في هذه المراجع، فإننا لو بحثنا فيها أكثر مما بحثنا، لوجدنا جملة

أخرى من الأشعار المنسوبة إلى علي؛ ولكننا نستطيع أن نقول واثقين: إن هذه الأشعار التي وجدناه هي معظم ما في هذه المراجع من الشعر المنسوب إلى علي، وهي تكفينا على كل حال في هذا البحث

3 - هذه الأشعار مما يمكن صدوره عن علي وفي عصر علي

هي مما يمكن أن يصدر عن علي، لأنها تشف عن شخصيته وتصور ما ألم به من الأحداث. فأنت إذا قرأت البيتين المذكورين له في عيون الأخبار طالعتك صورة الحكيم المجرب الذي يرى أن صداقة الصديق لا تكون إلا إذا حزن لحزنك وبكى لبكائك ووجم لوجومك ومن ينكر أن علياً كان حكيماً مجرباً؟ وكذلك إذا قرأت البيت المذكور له في ديوان الحماسة طالعتك صورة العاقل الذي يرى ألا فرار من الموت في أية حال من الأحوال، ومن ينكر أن علياً كان عاقلاً؟

وأنت إذا قرأت الرجز المذكور له في مقاتل الطالبين، والأبيات الستة المذكورة له في ديوان الحماسة، طالعتك صورة الشجاع المغوار الذي يعمل جاهداً في نشر الإسلام بالسيف بعد أن لم تُجدِ الحجة؛ ومن ينكر أن علياً كان شجاعاً مغواراً؟

وإذا قرأت الأبيات الخمسة المذكورة له في معجم الأدباء، طالعتك صورة صاحب الحق يدلِّل على ما له من حق، وكذلك كان علي طيلة حياته، فقد كان يشعر بمقر هذا ويألم لإغضاء أبي بكر وعمر وعثمان عنه ثم لتنكر معاوية آخر الأمر له.

فهذه الأبيات كلها تشف عن شخصيته، وتصور نوازعه وخوالجه وروحه. ثم إنك إذا قرأت سائر الأبيات وجدت فيها صوراً من الأحداث التي ألمت به؛ فالبيتان المشهوران المذكوران له في معجم الأدباء يصوران رغبة قريش في قتاله وقتله، تلك الرغبة التي ظهرت في سير طلحة والزبير وعائشة إليه ووقوع وقعة الجمل بعد ذلك. والرجز المذكور في الكامل على قِصَره يعطينا صورة عن خروج الخوارج عليه واعتقادهم كفره ثم استتابتهم إياه. والأبيات التي قالها في صفين تصور هذه الواقعة أجمل تصوير وأقواه

فأنت ترى إذن أن هذه الأبيات التي وجدناها له مما يمكن صدوره منه لأنها تصور شخصيته وحوادث عصره

ثم هي أيضاً مما يمكن صدوره في عصره، ونقصد بذلك أنها تتسم بالطابع الذي يطبع آداب هذا العصر وهو طابع القوة والصدق. فنحن نعرف أن هذا العصر عصر عربي خالص لم تشبه بعدُ شوائب العجمة، فهو إلى البداوة أقرب منه إلى الحضارة. ونحن نعرف أيضاً أن الروح العربية الخالصة روح قوية صادقة لم يُغَشِّها شيء ولم يلبسْها

شيء. ولذلك وجدنا آداب هذا العصر العربي الخالص متسمة بهذه الروح العربية الخالصة بما فيها من قوة وصدق. وليست هذه الأشعار التي نقرأها لعلي ببعيدة عن هذا الطابع الذي يطبع آداب هذا العصر الذي عاش فيه علي. ويمكن لكل ذي ذوق أن يحس ذلك إحساساً واضحاً

هذه هي الخطوات الثلاث التي خطوناها فأدت إلى الرأي الذي قدمناه في أول هذا القسم من البحث وهو أن علياً كان من الشعراء. وليست الخطوة الواحدة من هذه الخطوات بقادرة وحدها على أن تؤدي بنا إلى هذا الرأي، وإنما هي تؤدي بنا إليه إذا تعاونت مع أختيها وانضمت إليهما

ونحن نحب بعد أن أثبتنا رأينا هذا أن نعود إليه فنقويه بأقوال بعض المؤيدين لنا من المتقدمين:

1 - يقول السيوطي (تاريخ الخلفاء ص 70 ط الميمنية): (وأخرج عن الشعبي قال كان أبو بكر يقول الشعر وكان عمر يقول الشعر وكان عثمان يقول الشعر وكان علي أشعر الثلاثة)

هكذا يقول الشعبي وهو ثقة، ثم هو أيضاً من المتقدمين فقد كان معاصراً للحجاج وعبد الملك ابن مروان

2 - يقول ابن عبد ربه (ج 2 ص 123): (وقال سعيد ابن المسيب كان أبو بكر شاعراً وعمر شاعراً وعلي أشعر الثلاثة)

فسعيد بن المسيب يقول قول الشعبي، وهو ثقة فقد كان أحد الفقهاء السبعة بالمدينة، ثم هو متقدم فقد كان معاصراً لعبد الملك وتوفي بالمدينة سنة 98هـ

(للبحث بقية)

السيد يعقوب بكر

على هامش النقد

كتب وشخصيات

للأستاذ سيد قطب

1 - للعقاد (عبقرية محمد)

العقاد رجل متعب بالقياس إلى النقاد وبخاصة في كتاب (عبقرية محمد)، فالناقد لا يحس بلذة عمله إلا حين يجد مجالاً لمشاركة المؤلف في عملية الإنشاء والخلق. حين يجد مجالاً لمناقشة الفكرة، والزيادة عليها في بعض الأحيان، أو التعرض لها من زاوية غير التي تعرض لها المؤلف. . . وبالإجمال حين يجد له عملاً آخر بجانب المؤلف غير مجرد الاستعراض

والعقاد - وبخاصة في كتابه الأخير - يحرم الناقد هذه اللذة، ويكاد يقعده عن الكتابة. . . وما جدوى أن يكتب الناقد ليقول: (هذا جيد. . . وهذا جيد كذلك. . . وهذا كذلك جيداً أيضاً!) حتى ينتهي من صفحات الكتاب وفصوله، وهو يكرر جملة واحدة أو ما في معناها؟ إنها إذن تحية وليست نقداً كما يشاء النقاد!

الرجل موهوب - هذا ما لا شك فيه - ثم هو لا يقنع بهذه الهبة الضخمة - كما يقنع مع الأسف كثير من شبابنا المتطلعين إلى الشهرة في هذه الأيام لمجرد إحساسهم بنوع من الهبة الطبيعية - إنما هو كذلك قارئ عظيم، وقارئ يعرف كيف يقرأ وكيف يفيد من هذه القراءة؛ قارئ يحس أن القراءة وظيفة له في هذه الحياة، لا يجوز أن تعوقه عنها وظيفة أخرى، حتى وظائف كسب العيش، ووظائف الخدمة العامة

ومن الموهبة الضخمة والقراءة الكثيرة، كان هذا الذي يلاقيه الناقد من العنت والتعب حين يتعرض لأدب العقاد ولنثره خاصة، فشعره لإجماله ولأنه تعبير عن النفس الإنسانية، فيه مجال للشرح والتحليل واستخلاص ملامح النفس من خلاله، وفي هذا كله إرضاء لشعور الناقد، وإشعار له بأنه يعمل شيئاً بجوار الشاعر!

جالت في نفسي هذه الخواطر وأنا أقرأ كتاب (عبقرية محمد) للمرة الثالثة، عسى أن أجد ما أقوله غير (هذا جيد، وذاك جيد؛ وذلك كذلك جيد. . .) ثم عدت لأرى أن الاستعراض أسلم طريق.

ما موضع هذا الكتاب في مكتبة (محمد) وما وظيفته التي يؤديها ولا تؤديها المؤلفات الكثيرة والأخبار المروية، عنه عليه السلام؟

موضع هذا الكتاب أنه خلاصة لهذه المكتبة ولكنها خلاصة (مكيَّفة) تكاد أن تكون شيئاً آخر غير ما استخلصت منه (خلاصة ماهر) والعقاد يقول في أحد أبياته:

ليست خلاصة كل شيء غنية ... عنه وإن كانت خلاصة ماهر

ولكنها في هذه المرة خلاصة تغنى من يريد أن يعرف من هو محمد على وجه التحقيق، لأن فيها من التعليقات والتوضيحات والتحليلات ما يجعلها غنية وافية كل الوفاء، وليس بالقليل أن تستعيض من مكتبته كتاباً

ووظيفته التي يؤديها وينفرد في أدائها، أن كل من عرف (محمداً) من قبل في جميع الروايات والسير والأسانيد والشروح وكل من لم يعرفه كذلك، كلاهما في حاجة أن يعرف (محمداً) مرة أخرى في هذا الكتاب! وأن يرى صورته في هذه المرآة الوضيئة، وإنه لواجد حتماً في الصورة عامة، وفي كثير من جزئياتها جديداً لم يره من قبل في أية مرآة. . . وسينظر ويتأمل ثم يقول المرة بعد المرة: ويْ. . . إن هذا القسم من الصورة لم يكن هكذا في ضميري؛ أو يقول: نعم. . . كنت أعرف ذلك ولكن ليس على هذا النحو الذي أره الآن!!

ومع هذا وذلك، فليس في (عبقرية محمد) خبر غير مروي من قبل، ولا حادثة لم تكن كذلك معروفة، ولا جزئية واحدة لم يتعرض لها الرواة والمحدثون؛ وهذا ما يجعل البعض يقول لأول وهلة: كل ما في الكتاب معروف! وما قد يجعلهم يحسون بالسهولة واليسر في الجهد الذي بذله المؤلف!

والحقيقة أن هذا شعور خدَّاع، وأن عبقرية العقاد ونضوجه في هذه الأيام هما اللذان يهيئان ذلك؛ وإنها لعبقرية - لاشك - ونضوج أن تصنع من المادة الميسرة للجميع شيئاً لم يتيسر من قبل للجميع!

وإن العقاد لمحق حين يرى في مقدمة الكتاب أن الثلاثين عاماً التي مضت بين مولد هذه الفكرة في نفسه وبين تنفيذها، كانت لازمة لفسح نفسه، حتى تستطيع أن تستوعب انفساح

وإن في الكتاب للفتات نفسية وفكرية لا تتيسر لكل إنسان، ولعلها . . .(عبقرية محمد) لم تكن تتيسر للعقاد نفسه قبل هذا الزمان. . . وإنه ليقول:

أين كنا قبل تلك السنين الثلاثين؟)

إنها مسافات في عالم الفكر والروح، لو تمثلت مكاناً منظوراً، لأخذ المرء رأسه بيديه) (من الدوار، وامتداد النظر بغير قرار

والذين يعرفون طبيعة العقاد وانفساحها وتوفزها والتهامها لكل جديد، وتجددها حيناً بعد حين، وازدحامها بالخواطر عدد الثواني واللحظات، هم الذين يعرفون حقيقة هذه المسافات في عالم الفكر والروح، ويعرفون أنه يعني ما يقول حين يقول: (لو تمثلتْ مكاناً منظوراً، لأخذ المرء رأسه بيديه من الدوار)!

قلت في التمهيد لهذه الكلمات: إن العقاد دارس شخصيات وإن كل إنسان يدرسه العقاد تستطيع أن تعرف (من هو) وإن لم يستوعب كل صفاته وكل ما وقع له في حياته؛ وهذا ما تجده في (عبقرية محمد) في نضج واستواء؛ وإنه ليبدأ بعد المقدمة مباشرة في ص 16 فيرسم بخطوط سريعة التصميم الأولى للصورة تحت عنوانات: (عالَم. أمة. قبيلة. بيت. أب. رجل). . . فتحس بعمل الريشة الماهرة المتيقظة لما تريد، العليمة بقواعد التصميم والتلوين؛ فإذا انتهى إلى ص 26 أحسست أن التصميم كله قد تهيأ على اللوحة، وأن صورة محمد وعصره ووظيفته في هذا العصر قد برزت من خلال هذه الخطوط السريعة، فلم يبق للريشة المدربة إلا التلوين، وملء الفجوات، وتوضيح القسمات، وذلك هو بقية فصول الكتاب!

وسنحاول أن نعرض هنا بعض لمسات هذه الريشة المدربة في تخطيط التصميم الأولى السريع:

يقول في ص 26 و27: (عالم يتطلع إلى نبي، وأمة تتطلع إلي نبي، ومدينة تتطلع إلى نبي، وقبيلة وبيت وأبوان أصلح ما يكونون لإنجاب ذلك النبي. . . ثم ها هو ذا رجل لا يشركه رجل آخر في صفاته ومقوماته، ولا يدانيه رجل آخر في مناقبه الفضلى التي هيأته لتلك الرسالة الروحية المأمولة: في المدينة، وفي الجزيرة، وفي العالم بأسره نبيل عريق النسب، وليس بالوضيع الخامل فيصغر قدره في أمة الأنساب والأحساب)

فقير وليس بالغني المترف، فيطغيه بأس النبلاء والأغنياء، ويغلق قلبه ما يغلق القلوب) من جشع القوة واليسار
يتيم بين رحماء، فليس هو بالمدلل الذي يقتل فيه التدليل ملكة الجد والإرادة) والاستقلال، وليس هو بالمهجور المنبوذ الذي تقتل فيه القسوة روح الأمل وعزة النفس وسليقة الطموح وفضيلة العطف على الآخرين
خبير بكل ما يختبره العربي من ضروب العيش في البادية والحاضرة: تربى في) الصحراء وألف المدينة، ورعى القطعان واشتغل بالتجارة وشهد الحروب والأحلاف، واقترب من السراة ولم يبتعد من الفقراء
فهو خلاصة الكفاية العربية في خير ما تكون عليه الكفاية العربية، وهو على صلة) بالدنيا التي أحاطت بقومه، فلا هو يجهلها فيغفل عنها، ولا هو يغامسها كل المغامسة فيغرق في لجتها.
اصلح رجل من أصلح بين في أصلح زمان لرسالة النجاة المرقوبة على غير علم من) الدنيا التي ترقبها
(. . .ذلك محمد بن عبد الله عليه السلام)
وذلك جانب من التصميم الأولي للصورة البارعة التي تأخذ هذه الريشة المدربة بعد ذلك في ملئها وتلوينها بما هو أبرع من هذه البراعة، وبما يتفق للألوان المنتقاة وللريشة الدقيقة في اليد البصيرة من الإبداع
وليس من المستطاع بطبيعة الحال أن أنقل هنا أكثر من هذه الفقرات، فهنالك أشياء أخرى لا بد أن تقال
قلت: إن كل الحوادث والأسانيد والروايات التي وردت في (عبقرية محمد) مروية معروفة وليس فيها من جديد. إنما الجديد هو عرضها واستخدامها واستخلاص النتائج منها. وهو اختيار الحادثة المناسبة في موضعها المناسب. ومن هذا كله تبدو الحوادث والروايات والنصوص في مواضعها وكأنها جديدة هناك، يطالعها القارئ لأول مرة، ويخطر له من معانيها في مواضعها هذه ما لم يخطر له قط وهو يراها من قبل مرة ومرة.
فسرية عبد الله بن جحش وأخبارها معروفة مكرورة ولكنها هناك تدل على (عبقرية محمد
العسكرية) كأحسن ما تكون الدلالة بغير تعسف ولا عنت. وعهد الحديبية وأخباره معروفة كذلك مكرورة، ولكنها هناك تبرز بوضوح ويسر (عبقرية محمد السياسية) كأوضح ما تكون العبقرية السياسية بأي ميزان وزنتها به في جميع الأزمان. وقصة الإفك مذكورة في كل كتب السيرة والتفسير مشهورة عند المسلمين وغير المسلمين ولكنها هناك تصور (سماحة محمد) وتلمس النفس الإنسانية فتدرك حقيقة هذه السماحة ومداها الرفيع. وقصة المتاع وأزواج النبي التي ترويها الآية: (يأيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها. . . الخ) متداولة في السيرة والتفسير ولكنها هناك دليل نفسي وعقلي لا يرقى إليه الشك، ولا يجادل فيه إلا المكابرون على كذب ما افتراه المفترون من استغراق لذات الحس لمحمد عليه السلام
وهكذا وهكذا من حسن الاختيار ووضوح العرض، وبراعة التعليق، وعبقرية التحليل، ووضاحة التدليل.
(البقية في العدد القادم)
سيد قطب
مطالعات في الأدب الغربي
عقليات الشعوب في معادلات رياضية
للأستاذ علي كمال
أعظم الكتاب الصينيين المعاصرين، وهو من أشهر مفكري القرن (لن يوتانج) العشرين وكتبه من أوسع الكتب الحديثة انتشاراً، أكتسب شهرة واسعة لتوفقه في فهم طبيعة العقل الغربي ومقارنته بأعرق العقليات الشرقية قدماً وهو العقل الغربي ومقارنته بأعرق العقليات الشرقية قدماً وهو العقل الصيني. وكتابه (أهمية الحياة) يعتبر أهم كتبه وقد أعيد طبعه في أمريكا أكثر من عشر مرات في نحو من سنتين. وفي هذا الكتاب فصول قيمة ننقل إلى القارئ منها خلاصة فصل طريف ضمنه دراسة

لعقليات الشعوب حاول رسمها بمعادلات رياضة
يظهر أن الجنس البشري يقسم إلى طائفتين: الواحدة مثالية والأخرى واقعية. . . .)
والمثالية والواقعية هما القوتان العظيمتان اللتان تتجاذبان التقدم الإنساني. فطَفْل
الإنسانية قد صار ليناً مرناً بماء المثالية. . . إن هاتين القوتين المثالية في طرف
والواقعية في طرف آخر تتجاذبان في جميع حقول النشاط الإنساني، والتقدم الحقيقي
ممكن فقط بمزج هذين العنصرين بنسب موافقة حتى يظل الطين ليناً مرناً، فلا يشتد
طبعه فيصعب تدبيره، ولا يلين قوامه فيصبح وحلاً. فالشعب الإنجليزي وهو أحكم
الشعوب قد مزج الواقعية والمثالية بنسب موافقة فلم يترك المزيج قاسياً يصعب على
الفنان تدبيره وتناوله، ولم يتركه مرقاً فلا يقوى على حفظ شكله وقوامه
وبعض الأمم في ثورات متتابعة، ذلك لأنه قد حقن في طينتهم الأصيلة بعض السائل
من مثاليات الأمم الأجنبية التي لم تتمثل بعض في طبيعتهم، لهذا لم تقو طينتهم
الأصيلة على حفظ شكلها
لقد فكرت في معادلات يمكن بواسطتها أن نعبر عن التقدم الإنساني وعن التغيرات
التاريخية وهذه هي:
الحقيقة - الأحلام=كائن حيواني
الحقيقة + الأحلام=صداع القلب (يسمى عادة: المثالية)
الحقيقة + روح النكتة=الواقعية
الأحلام - روح النكتة=التعصب
الأحلام + روح النكتة=الوهم
الحقيقة + الأحلام + روح النكتة=الحكمة
وعلى ذلك فالحكمة أو أرقى أنواع التفكير تتألف في ربط أحلامنا بروح الفكاهة والنكتة
ودعمها بالحقيقة نفسها
ولعل المعادلات التالية تفصل ما وصلت إليه من دراسة عقليات الشعوب، والمجال
واسع لمعارضتها ونقدها
إذا رمزنا للحقيقة أو الواقع بالحرف (ق) وللحلم بالحرف (ح) ولروح النكتة بالحرف
(ن) وللعاطفة بالحرف (ع)، ثم استعملنا الأعداد 4، 3، 2، 1 لندلل على نسبة حظ
الشعوب من هذه العناصر بنفس الطريقة التي تسلك فيها العناصر والمركبات
الكيميائية في تفاعلها. وما دمنا لا نستطيع أن نخلق اصطلاحات كالمستعملة في علم
الكيمياء مثلاً فلنا أن نعبر عن هذه المركبات بمقادير ذرية كأن نقول 3 ذرات في
الحقيقة حق 3، وذرتين في الحلم ح 2 وهكذا
حق3 ح2 ن2 ع1=الإنجليزي
حق2 ح3 ع3=الفرنسي
حق3 ح3 ن2 ع2=الأمريكي
حق3 ح4 ن1 ع2=الألماني
حق2 ح4 ن1 ع1=الروسي
ح2 ح3 ن1 ع1=الياباني
ح4 ح1 ن3 ع3=الصيني
ولست أعلم عن الإيطاليين والأسبانيين والهنود ما يمكنني من وضع مثل هذه
المعادلات لهم، وأنا واثق بأن هذا القليل الذي وضعته سيكفي لفتح سيل عرم على
رأسي من النقد
ولابد من الملاحظة على هذه المعادلات، فمنها يظهر أن الفرنسيين أقرب الناس إلى
الصينيين من حيث روح النكتة والعاطفية، كما يتضح ذلك في كيفية كتابة الفرنسيين
لكتبهم
وأكلهم وطعامهم. ولكن طبيعة الفرنسيين المتبخرة ناتجة عن مثالية أوسع تأخذ شكل
الحب للفكر المجرد
واليابانيون والألمان متشابهون جداً في فقدانهم لروح النكتة والفكاهة، وما دام من غير
الممكن وضع صفر كدرجة لهم في هذا العنصر من مركبهم العقلي فأنا أضع (1)
وأعتقد بأنني محق في ذلك. غير أنني أعتقد بأن اليابانيين والألمان قد قاسوا كثيراً في
حياتهم السياسية ويقاسون الآن بسبب إخفاقهم في امتلاك روح نكتة وفكاهة ملائمة.

وعندما وضعت ح3. لليابانيين عنيت بذلك ولاءهم التعصبي لإمبراطورهم ولدولتهم
الذي ما كان ممكناً لو أن في عقليتهم بعض الشيء من روح النكتة
إن هنالك تجاذباً طريفاً في أمريكا بين المثالية والواقعية وكلتاهما متمثلتان بقوة . . .
كبيرة، وهذا يفسر لنا النشاط والقوة التي يتصف بها الأمريكيون. إن الكثير من مثالية
الأمريكيين نبيل بمعنى أن الأمريكيين يلبون بسهولة دعوة نبيلة محقة، ولكن البعض
من مثاليتهم يتصف بروح الأساطير
والإنجليز كما يظهر لي إجمالاً هم أحكم الشعوب، فإن (حق3 ح2) تنطق بالثبات
والاتزان، وهي أقرب المعادلات للمعادلة المثالية في نظري، وهي (حق3 ح2 ن2 ع2)
التي قصر الإنجليز عن بلوغها بدرجة واحدة في العاطفة
من دراسة عقليات الشعوب نخرج بهذه النتيجة: في الصين يعيش الرجل حياة أقرب
إلى الطبيعة وأقرب إلى الطفولة، حياة تمارس فيها الغرائز والعواطف بحرية تامة،
وتؤكد هذه الحياة بقوة ضد الفكر. وعلى هذا ففلسفتهم في الحياة توصف بما يلي:
أولاً: رؤية الحياة تامة في الفن، ثانياً: رجوع واعٍ للبساطة في الفلسفة، وثالثاً: (مثال)
من التعقل في الحياة. وخلاصة هذه الفلسفة جميعها هي عبادة الشاعر والفلاح
والمتشرد)
علي كمال
. . .يا سواقي
(إلى التي ترعرع على غدرانها شبابي)
فَرَّقَ الدهرُ بيننا (يا سواقي) ... ومضى بي لغُربتي واشتياقي
أين للقلب لحظةٌ من ليالي ... ك وصفُو الحياةِ في إشراق
كان لي في رحابك الخُضْر دنيا ... من نعيم ومن أغانٍ رقاقِ
والمنى عذبةٌ كإشراقةِ الوص ... لِ بروح المعذّبِ المشتاقِ
والصبا جنَّةٌ على ضفةِ الخل ... د ونورٌ يضيء في آفاقي
ولقد كنتِ للشباب سُلاَفاً ... ونديماً جلوَ الحديثِ وساقي
كنتِ لي كوثراً يطهّر نفسي ... فَنَمَتْ منه عَفَّةً أخلاقي
يا (سواقي الفيوم) طال غيابي ... وفؤادي يذوب في الأشواق
كنتِ دنيا من فتنةٍ وخيالٍ ... وجمالٍ من الطبيعةِ راقِ
كنتِ سلوى لمهجةٍ قد تلظت ... في جحيم من جَفْوَةٍ وَشِقاقِ
كنتُ أبكي فتحبسين دموعي ... بعزاءٍ كم فيه من تِرياق
كم حَلاَلِي في نَبْعَتَيْكِ اصْطِباحِي ... وَصَفَا لِي من رَاحَتَيْكِ اغْتِبَاقِي
كنتِ نِعْمَ الصديقُ إن عَبَسَ الده ... رُ وَنِعْمَ الْمُجِيرُ ممَّا أُلاقِي
ذقتُ طعمَ الوفاءِ من كُوبك الحل ... وبريئاً من خدعةٍ أو نفاق
عاش فكري مع الحياةِ أسيراً ... كَبَلْتْهُ بِشَرّهَا الدَّفَّاق
ورأى عندكِ البشاشةَ والصف ... وَفَغَّى فِي فَرْحَةٍ وَانطِلاَق
حال بيني وبينك اليوم عيشٌ ... لم يَنْلِني منه سوى الإرهاق
أين موجٌ من (بحرِ يوسفَ) يسري ... والأغاني تسيلُ من أبواقي؟
ورياضُ (الفيوم) رَنَّحَهَا الحسر ... نُ فَلاَحَتْ كَجنةِ الْعُشَّاقِ؟
وغرامي الذي نما عند شَطَّي ... كِ وباركتِهِ بماءٍ مُرَاقِ؟
وحبيبي الذي تلَهَّى به العي ... شُ وما فيه من كؤوس دِهاق؟
خَدَعَتْ روحهُ الزحارفُ في الأر ... ضِ فأَعْشَى من سحرها البرَّاق
كم بعثتُ الرجاَء شعراً فعادت ... همساتي بالعَجْزِ والإخْفاقِ!
نسيَ الْحُبَّ والسَّواقي وصبَّا ... لم يزل سائراً على العهد باق
ذكراكِ تَغْشَى كياني ... فاحفظيني في روحِك الْخَفَّاقِ (يا سواقي)
وخذيني من قبضة الفكر يوماً ... إنَّ عودي بناره في احتراقِ
صنتُ في مهجتي هواك فَصُوني ... عهدَ طِفْلٍ رَبَّيْتِهِ (يا سواقي)!
(سلاح خدمة الجيش الملكي)
أحمد إسماعيل المليجي
البريد الأدبي
الصفاء بين الأدباء

صديقي (الحكيم)
لو لم يكن النسيان عرَضاً ملازماً لك يا صاحب (أهل الكهف) لذكرت أن أسمي (الزيات) لا زكي مبارك؛ وأنك لسانٌ لحرية الفكر، لا عينٌ في رقابة النشر؛ وأنك رسول الله إلى الأدباء، لا سفيرُ الشيطان بين الأصدقاء. ولو أنك ذكرتَ واحدة من أولئك لما كان منك ذلك الكتاب، ولا كان مني هذا الجواب
تستطيع أن تقول إنك حين كتبت ذكرتني وأردتني، لأن الناشر شريك الكاتب؛ وتستطيع كذلك أن تقول إنك تقدس حرية الفكر لو كان ما نُشر عنك في الرسالة قد انتفع به الفكر؛ ولكنك لا تستطيع أن تنكر أنك كفرت بنفسك وكذبت برسالتك؛ لأن الرسول الصادق لا ينذر بالكدر وهو يبشر بالصفو، ولا يبادر إلى القطيعة وهو يدعو إلى الصلة، ولا ينفض يده من الدعوة لأنه سمع بعض الإنكار ولقي بعض العَنت!
لم يكفر برسالتك إلى الأدباء غير (العقاد)، ولا شك في إخلاصك للأدب غير (المبارك)، فما بالك يا توفيق تئن قبل التعذيب، وتَلقى بيديك ورجليك إلى الصليب، وتفضح بهذا الجزع نبوة الأديب، وتقطع آياتك وبركاتك عن المؤمنين والكافرين على السواء؟!
تقول (إنني حِدت قليلاً عن رسالتي في (الرسالة)؛ (وقليلاً) هنا معناها زكي مبارك. وزكي مبارك يا توفيق لون من ألوان الأدب المعاصر لابد منه ولا حيلة فيه. هو الملاكم الأدبي في ثقافتنا الحديثة. والرياضة كما تعلم ضرورة من ضرورات الحياة لسلامة الجسم والعقل. أما عنفه وشِماسه فهما الصبغ المميز للونه. فلو شئت أن تجرد هذا الملاكم المبارك من عنف الهجوم وخشونة المِراس لما بقي منه غير توفيق الحكيم وأسلوب الحكيم و (حمار الحكيم)
على أنه هو نفسه أول الشاهدين على أن صفارتي قد بُحَّت من طول ما أهابت به وهو في قفازه السنتريسي يهدر في المجال بين الحبال مغضياً بعض الإغضاء عن قواعد الملاكمة
وزكي مبارك بعد ذلك سليم الصدر، صريح القلب، رياضي الروح، لا يتحرج أن يطلب إلى (صديقه) في مقال هذا العدد أن ينصره ظالماً أو مظلوماً في حدود تفسيره الخاص!
ثم تقول: (إن الأدباء في مصر - مع الأسف - لا يحسبون حساباً لغير الكاتب الذي يبرز مخالبه، ويكشر عن أنيابه، ويتهيأ دائماً للوثوب)؛ فهل مصداق ذلك يا توفيق أنك أدرتَ ظهرك لخصمك وحملت عليّ؟ ولكنني يا صديقي أهشّ لإقبالك عليَّ ولو بالهجوم، إن كَشْرتك في نظري بسمة؛ وإن زأرتك في سمعي نغمة؛ وإن عقدتك معي أيسر حلاًّ من الأنشوطة!
أما قطعك الأسباب بينك وبين الرسالة والأدباء، فأمره يهون ما دمت تخرج كتبك إلى قرائك الأوفياء
وإذا جاز لي أن أوجهك مرة أخرى فإني أنصح لك يا توفيق أن تؤمن برسالتك كما آمن ذوو الفضل من الكتّاب، وأن تصبر على أذاها كما صبر أولو العزم من الرسل.
والسلام عليك من صديقك المخلص.
أحمد حسن الزيات
أحزان توفيق الحكيم
لم يبق ريب في أن صديقنا الأستاذ توفيق الحكيم حزين، وإلا فكيف جاز له أن يقول إنه لن يكتب في (الرسالة) بعد اليوم، مع أنّ الرسالة صديق لجميع أرباب الأقلام، ولا يرضيها أن ينقطع ما بينها وبين أصدقاءها القدماء من صلات؟
الرسالة لا تترك أصدقاءها أبداً، ولن يتركوها، لأن الصلة بين الرسالة وأصدقائها صلة روحية لا تقطعها ثورة لحظة أو لحظين بعد قراءة كلمة نابية أو قاسية. والأدب كالحياة فيه كدر وصفاء. وسيشتاق الأستاذ الحكيم إلى (الرسالة) كما يشتاق الأليف إلى الأليف
ولكن ما الذي أغضبَ هذا الصديق حتى استباح ذلك الوعيد؟
كنت أنتظر أن يتلطف فيشكرني، بعد قراءة الكلمة التي وجهتها إليه، لأني أردت بها إعزاز الذاتية الأدبية. فما يرضيني ولا يرضيه أن تكون في الدنيا منزلة أشرف من منزلة رجال البيان، وإن قضت المقادير بأن يظل القلم مضطهداً في جميع العهود

والأستاذ توفيق الحكيم هو الذي أعلن الندم على الانتظام في سِلك الحياة الأدبية، وكان في مقدوره أن ينخرط في سِلك الحياة القضائية، فهل يغضبه أن نعترض عليه فنقول: إن رجال الأدب يؤدون لأوطانهم خدمات تفوق ما يؤديه رجال القضاء، وإن القاضي لا يستطيع القول بأنه أعظم من الأديب؟

إن الأدب جعل من توفيق الحكيم شخصية يتكلم عنها الزيات والمازني والعقاد، فهل كان يظفر بمثل هذا الحظ لو أصبح من رجال القضاء؟

وقد عِبتُ عليه أن يبديء ويعيد في الكلام عن نفوذ طه حسين، وكانت حجتي أن الأديب يقتل نفسه بيديه حين يفرح بالمناصب الرسمية، لأن المنصب الحق للأديب هو الفناء في خدمة المعاني الروحية والعقلية. فماذا يملك الدكتور طه لنفسه حتى نرجوه أو نخشاه، إلا أن نكون في إيمان الرجل الذي وضع في سيرة الرسول (رواية تمثيلية)، وهو رجل يعرفه هذا الصديق الغضبان؟!

وعِبتُ على الأستاذ توفيق الحكيم أن يعلن أن العائلات صدفتْ عن عرض بناتها عليه بعد أن صار من الأدباء، فهل سمع الناس في الشرق أو في الغرب أن الأديب الفحل يُعجزه أن يقترن بمن يشاء من كرائم الملاح؟

على رِسْلك، أيها الأديب الحزين، فنحن أول طبقة تثق بها الأمة المصرية، وسنظل برعاية الله وسلطان الأدب في أعظم مكان.

زكي مبارك

لوبيا والبلاد العربية

فكرة صائبة ورأي سديد هذا الذي انتهى بتفكير الأستاذ الزيات بإصدار أعداد خاصة من مجلة الرسالة الغراء بالأقطار العربية تنويهاً بفضلها وتعريفاً بأهلها. وليست هذه الفكرة بجديدة على أستاذنا الكبير فقد سبق أن تنبهت إليها الرسالة في سنتها السابعة ولكن شاءت الظروف أن يمهل تنفيذها إلى أن بعثت من جديد؛ وقد وجدت ترحيباً من قراء العربية. وإنا ندعو الله أن يوفق الرسالة في خدمة البلاد العربية وبإصدارها لهذه الأعداد.

على أن الذي لفت نظرنا نحن معشر اللوبيين بهذه البلاد المناسبة هو ما كتبه الأستاذ الدكتور زكي مبارك سواء في ذلك عدد الرسالة 315 أو 463 فقد قال في العدد الأول مخاطباً الأستاذ الزيات: (ما رأيك إذا اقترحت عليك أن تصدر الرسالة أعداداً خاصة عن الحواضر المشهودة في البلاد العربية مثل تونس والجزائر ومراكش واليمن والحجاز. .)، وقال في العدد الآخر مشجعاً الأستاذ الزيات على تنفيذ فكرته هذه (الخطب أسهل مما نتوهم ولكن. . . ولكن على شرط أن يهاجر الزيات من المنصورة إلى القاهرة ليستوحي من فيها من العارفين بخصائص الحياة الأدبية والاجتماعية في تونس والجزائر ومراكش واليمن والحجاز وسورية وفلسطين. . .)

فالأستاذ الدكتور قد ذكر بلاد أفريقية الشمالية قطراً قطراً وتناسي جيرانه الليبيين وبلادهم فأخرجهم بذلك من زمرة البلاد العربية، واستكثر عليهم أن تعنى مجلة الرسالة ببعض أخبارهم وسواء قصد هذا الأستاذ الدكتور أم لم يقصد فإنا لا نستطيع تفسير إغفاله لبلادنا في هاتين العبارتين اللتين كتبتا في وقتين متباعدين إلا بهذا المعنى.

ومما يؤسف له أن كثيراً من قادة الرأي والفكر في البلاد العربية عامة، وفي مصر خاصة، قد شاركوا الأستاذ الدكتور في فكرته هذه فكثيراً ما كتبوا عن الحلف العربي والوحدة العربية، وتجاهلوا لوبيا قصداً أو عفواً مما كان له أثره السيئ في نفوسنا

هذه كلمة صغيرة أردت بها دفع مظلمة عن وطني العزيز، طالما جرحت نفوسنا، خصوصاً وأنها قد بدرت من رجال لهم في قلوبنا كل احترام وتبجيل، وموعدنا إن شاء الله العدد الخاص فسيكون خير حكم على عربية لوبيا وأهلها.

مصطفى بعيو الطرابلسي

كلية الآداب - القاهرة

ألف مصطلح طبي يقررها المجمع اللغوي

أعلن المجمع اللغوي انفضاض دورته هذا العام، وقد بلغت جلساته التي عقدت خلال هذه الدورة ست عشرة جلسة، أما اللجان الفرعية التي تمهد عمل المجلس فقد بلغت عدتها خمسين جلسة أو أكثر. والمصطلحات التي عنى المجلس بدرسها في هذا العام هي مصطلحات الطب في علم الرمد والباثولوجية وغيرهما.

ويبلغ عدد المصطلحات التي أقرها نحو ألف مصطلح، وستوضع لها تعريفات علمية لغوية تشرح معناها وتبين الصلة بين وضعها اللغوي ومدلولها العلمي
والمنتظر أن يتخذ المجمع ما يرى من الوسائل لنشر هذه المصطلحات في أنحاء البلاد العربية لاستخدامها في محيط الطب العربي.

1 - السناد في الشعر

أخطأ الأستاذ محمود حسن إسماعيل في صوغ قوافي قصيدته (نشيد الأغلال) المنشورة بالعدد 466 من (الرسالة)؛ فهو قد أردف في بعضها بحرف الياء قوله: سريرتي، البعيدة، الخميلة، جديدة. الخ، وأسس في بعضها الآخر، بجلْبه ألف التأسيس في مثل قوله: حشاشتي، الثمالة، تهادت، الرسالة الخ. . . في حين اكتفى بحرف الرويّ (وهو التاء) في سائر أبياتها مثل: وجهة، رجعة، وسجدتي، فملّت. . .

ومثل هذا الخلط بين أحرف القافية يسمى (سناداً)؛ وهو من أبرز عيوب الشعر، فما كنا نحب للأستاذ أن يقع فيه. . .

2 - أبيات لولي الدين

كنت رددت على أديب فاضل أورد في الرسالة شعراً لولي الدين يكن وقال إنه لم يسبق نشره؛ فبينت أن هذا الشعر مطبوع بديوان الشاعر الذي صدر عام 1924م. ولكني عثرت - من جهتي - على ثلاثة أبيات لم ترد في هذا الديوان حقاً؛ فأحببت إثباتها لتلافي ذلك إن أمكن في الطبعات التالية. والأبيات واردة في العدد الصادر بتاريخ 15 يناير سنة 1909م من (مجلة سركيس) الأدبية التي كان يصدرها المرحوم سليم سركيس. وها هي بنصها مع عنوانها:

لولي الدين بك يكن تحية للأحرار مرتجلاً:

سلامٌ على أبطال قومٍ تجمَّعوا ... ورائدهم حقٌّ وناطقهمْ فَخْرُ
أقاموا على ضَيْمٍ ثلاثين حِجَّةً ... ولكن سيحييهم - برغم العدا - النصر
يقولون: هذا الدَّهرُ رَبٌّ تقلُّبٍ ... نعم صدقوا، قد قُلِّب التاج والصرُ!

(جرجا)

محمود عزت عرفة

العدد 470 - بتاريخ: 06 - 07 - 1942

مثل المصرية الحديثة

- 2 -

قالت السيدة. و. . . تفصل ما أجملت من رأيها في معنى لفظ البيت الجدير بأن يكون بيت أسرة، وفي حقيقة معنى المرأة الجديرة بأن تكون ربة بيت:

قد تكون الزوجة أبصر النساء بفنون الطبخ وشؤون المطبخ وأصول المائدة، ولكنها تكون أجهلهن بما يجب لمهد الطفل وسرير الزوج ومدفأة الأسرة وبهو الضيوف، وإذن لا تعدو أن تكون طاهية

وقد تكون الزوجة أقوم على رعاية الطفل والزوج، واضبط لحساب الدخل والخرج، وأحزم في سياسة العمال والخدم، ولكنها تكون عامية الفكر خشنة الجانب مبتذلة الهندام فلا تعدو أن تكون قهرمانة

وقد تكون الزوجة بطبيعتها ولوداً فتتوزعها الآلام والأسقام والشواغل في الحمل والوضع والرضاع والفطام والترتيب والتهذيب والتمريض فلا يبقى من جهدها طاقة للبيت، ولا من وقتها ساعة للناس، ولا في قلبها مكانة للزوج، فلا تعدو أن تكون والدة

وقد تكون الزوجة أجذب أنوثة من كليوبطرة، وأعذب حديثاً من شهرزاد، وأفتن رشاقة من بنات هليوود، ولكنها تكون خرقاء لا تجيد العمل، حمقاء لا تحسن التدبير، فلا تعدو أن تكون خليلة

وقد يقتصر مدلول البيت في ذهن السيدة على غرفة الزينة وقاعة المطالعة وصالون الاستقبال، فهي ترقب الحديث من الثياب، وتقرأ الجديد من الكتب، وتناقش الطريف من الآراء، ولكنها تعيش على هامش الأسرة عيش الترف والظهور والحذلقة، فلا تعدو أن تكون أدبية

وليست المرأة الصالحة لملكوت البيت واحدة من أولئك، إنما هي هن جميعاً: هي مخلوقة من نوادر ركبها الله من مجموع ما تشتت من الفضائل في هؤلاء النسوة، كما ركّب الإغريق (فينوس) من جملة ما تفوق من الجمال في مختلف الحسان

قال الطبيب الزوج: كأنك يا عزيزتي تنقلين عن نفسك صورة هذه المرأة. وأقسم لقد تعلمت في بعض بلاد أوربا تقلبت في بعضها الآخر فلم أر صاحبة بيت تفوقك فيما سردت من
مزايا الزوجة الصالحة
فقالت الزوجة: قد يكون في شهادة الزوج لزوجه بعض الهوى الذي يميل ميزان الحكم، أو بعض الرضا الذي يُزيغ بصر الناقد
قال المحامي: ربما كان الهوى والرضا من شوائب الحكم في غير الزوج! فإن الغالب أن يُتهم الزوجان بعد طول العشرة، ودوام الخبرة، وسأم الخلاط، بقسوة العدل أو برقة الظلم في حكم أحدهما على الآخر. على أن صديقنا الدكتور لم يعدُ ما في نفوسنا جميعاً؛ وإنما المسألة الصريحة التي تطلب الجواب الصريح هي أنني عرفت من النساء من هن أوسع ثقافة وأرفع بيئة وأضخم ثروة وأكرم أسرة، ولكني لم أجد فيهن ما وجدت فيك من خلال الزوجة المرجوة التي تجمع حنان الأم وإخلاص الزوجة وبراعة القهرمانة ومهارة الطاهية وأناقة الحبيبة وثقافة الأديبة. فإذا لم تكن الثقافة أو البيئة أو الثروة أو الأسرة هي التي تكوِّن الفتاة على هذه المزايا فمن ترينه يكون؟
فقالت السيدة: إن أغلب في هذا الضرب من النساء أن يكون وليد الفطرة وربيب الطبيعة. وهو يكثر حيث يشتد التماسك ويقوى التضامن في الأسرة؛ لذلك تراه في القرى أكثر منه في المدن، وبين العامية أظهر منه بين الخاصة، وما دامت القسمة الطبيعية قائمة بين الشريكين الدائمين على أن يكون للزوجة البيت وللزوج ما وراءه، فإن هذه الخصائص الفطرية تنشأ في المرأة بحكم الضرورة، وتقوى بفعل المران، وتحكم بسلطان العادة. وليس التعليم والتمدين إلا ثقافاً وصقالاً لهذه الخصائص يقومانها ويرفعانها إلى المستوى الذي بلغه المجتمع. فإذا وجدت امرأة تجردت من هذه الشمائل كلها أو بعضها، فلا تشك في أن طبيعة الأنوثة قد فسدت لسبب من الأسباب، فغدت من شواذ الخَلق كالجمل المستنوق أو الناقة المستجملة
قال الفلاح: لقد كنت أتمثل في ذهني المرأة القروية حينما كنت تصفين ربة البيت. ولكني لم أستطع إقحامها في الحديث لأنها في رأي الجمهور عنوان الجهالة حتى سمعتك تقررين أن الزوجة الصالحة تكثر في القرية. والحق الذي يؤيده العيان أن الفلاحة تقوم على شئون البيت، وتنهض بأمور الأسرة، على المنهج الأعلى الذي رسمتِه في قولك واتبعِته في فعلك. والفرق بين القروية والمدنية هو الفرق بين بيت وبيت، وبيئة وبيئة، وحياة وحياة.
وتجانس العقلية في المجتمع القروي يجعل مكان المرأة فيه أرفع، وسلطانها عليه أوسع، لتميزها عن الرجل في قوة النشاط ولطف الحيلة ويقظة الرأي
فقالت السيدة: ذلك يؤيد ما قلت من أن ربة البيت هي من صنع الضرورة والطبيعة، لا من صنع المدرسة والبيئة؛ والضرورة هي وجود البيت، والطبيعة هي توزيع العمل على حسب الاستعداد والقدرة. ولا أعني بالبيت المسكن، وإنما أعني به الأسرة. وللأسرة في النظام الاجتماعي مفهوم قلما يتضح في أكثر النفوس؛ فلا تظنوا أن قصور الخاصة بيوت تسكنها أُسر، إنما هي فنادق ينزلها أفراد. فللزوجين والأولاد غرف لا يدخلونها إلا وقت النوم، ومائدة لا يرونها إلا ساعة الأكل، وصالون لا يزورونه إلا يوم الاستقبال، ومرافق لا يعرفونها إلا عند الحاجة. أما القصر وما فيه ومن فيه ففي ذمة القهارمة والخدم. ومن المحال أن ينشأ في مثل هذه الجماعة المنتثرة سيدة تصلح لبيت، أو آنسة تصلح لزوج، وفي اعتقادي أن الكتّاب الذين يعادون المرأة المصرية بين رجلين: رجل أحبها ويريد بعدائها أن تتحدث عنه فهو خادع، ورجل كرهها لأنه عرفها في البيئات الممسوخة فهو مخدوع.
احمد حسن الزيات
الحديث ذو شجون
للدكتور زكي مبارك
- أزمة المجلات الأدبية - خطر العلانية على الأدب الصحيح
أين الأمة العربية - خطاب جميل - الجيش المرابط في الميادين الفكرية
أزمة المجلات الأدبية

إنشاء مجلة في مصر أو في غير مصر عمل لا يعرفه إلا من يعانيه، وتزيد متاعب هذا العمل إذا أريد أن تكون المجلة مقصورة على الأدب الصِّرف، بحيث لا تكون لها موارد غير عواطف القراء، والقارئ لا يدفع قرشاً في مجلة أدبية إلا إذا وثق بأنه من الغانمين، ولا تظفر المجلة بثقة القارئ إلا بعد جهود تفر من حملها الجبال

وقد كنت فيما سلف من الأيام أثني على حصافة الأستاذ الزيات، كنت أقول إن العقل هداه إلى أن الضمير المصري لا بدَّ له من مجلة لا تهتم بغير الأدب الصِّرف، ولا تقبل مواجهة الجمهور بغير الفِكر المُشرِق في الأسلوب الجميل

ثم جدَّت شواهد أقنعتني بأن روح التضحية هو الأصل في إنشاء المجلة الأدبية، وإن كان الله عزّ شأنه تفضّل فجعل (الرسالة) مصدر خير لصديقنا الزيات، فقد قيل - ولله الحمد - إنها صيرته من الأغنياء بدليل سيطرته على بعض الشواطئ من (بحر شبين) وهو النهر الذي يسقي سنتريس!

فيا ساكني أكناف دجلة كلكم ... إلى القلب من أجل الحبيب حبيبُ

يكون أُجاجاً دونكم فإذا انتهى ... إليكم تَلقَّى طيبكم فيطيبُ

ومع هذا فأنا أشعر بقيمة التضحية حين أكتفي بالكتابة في الشؤون الأدبية، ولتفصيل هذه اللمحة أذكر النكتة الآتية:

فلانٌ رجلٌ كريمٌ جدّاً، وهو حين يراني يطيب له أن يحييني فيقول: (لقد قرأت مقالك في مجلة الرسالة)

واكن هذا الرجل الكريم لا يُلقي هذه التحية إلا بلهجة المتصدِّق!

فهل يكون الحال كذلك لو كنت أكتب في الشؤون السياسية وأستبيح إيذاء الناس بغير حساب، كما يصنع بعض الكتاب السياسيين؟

الصحافة الأدبية مسيَّرة بالضمير الأدبي، وهو يأبى على أصحابه أن يتزيدوا على الناس طاعة للأهواء، أو طاعة للأحزاب، فما خوف الناس منا ونحن لا نملك غير الصدق، ولا نصاول حين نصاول إلا في حدود الأدب والذوق؟

المجلة السياسية تصل إلى أيدي الوزراء قبل أن تصل إلى أيدي الجمهور، لأن الوزراء يحبون أن يعرفوا ما يقال فيهم بحق أو بغير حق، فهل تَلقي منهم المجلة الأدبية بعض هذا الاهتمام الطريف؟ وكيف وهُم من ظُلم المجلات الأدبية في أمان؟

ثم أثب إلى الغرض من هذه الكلمة فأقول:

أين معالي وزير التموين؟

لقد قرأت خطبته في الرد على الاستجواب المعروف، فرأيته تحدث عن جميع ضروب التموين، إلا الورق، ورق المجلات الأدبية، أما ورق الجرائد اليومية والمجلات السياسية فالمفهوم بداهةً أن الحكومة ستعرف ما تصنع إذا بخل به صنائع الجشع من الوراقين!

أنا لا أعرف وزير التموين معرفة شخصية حتى أحكم له أو عليه، ولكني أعرفه معرفة معنوية، وهذه المعرفة توجب أن أذكره بالواجب في رعاية أقوات العقول والإفهام والقلوب، فمن العقوق لمصر أن يقال إنها لم تُمتحن إلا بأزمة الرغيف، مع أن مصر أقدم أمة كان أكبر زادها العلم والأدب والبيان

أكتب هذا وأنا أخشى أن يقال بعد أسابيع: إن مجلة (الرسالة) عجزت عن الوصول إلى قُوتها من الورق. . . وأي قوت؟ ومن يعرف أن مجلة (الرسالة) لا تملك تزويد الأسواق الأدبية بما تحتاج إليه تلك الأسواق؟ من يعرف أن التضامن الصحفي أصبح في حكم العدم، وأن من العسير أن تقول أية مجلة: إن من حقها أن تعتمد على أريحية (نقيب الصحفيين)، وعنده فيما سمعت أكبر كمية من الورق المخزون؟

إن مجلة مثل (الرسالة) تقدم للجمهور شواغل نبيلة بالحديث عن العلوم والآداب والفنون، ولو التفتت الحكومة لأدركت أن انتشار مثل هذه المجلة يريحها كثيراً - أو قليلاً - من شيوع الأكاذيب والأراجيف، فهل من الإسراف أن نطالب الحكومة بإعانة أمثال هذه المجلة

على الظفر بحاجتها من الورق، لتنهض الحجة على أن متاعب هذه الأيام لا تُنسي الحكومة واجبها في رعاية الأذواق والعقول؟

سأنظر كيف يجيب وزير التموين، إن تفضل بالجواب؟

خطر العلانية على الأدب الصحيح

من الآفات التي تعوق الأدب في هذا العصر أن الكتاب والشعراء لا يصبرون على طيّ

ما يكتبون وما ينظمون، وإنما يبادرون إلى النشر في الجرائد والمجلات، ثم تكون النتيجة أن يُضطروا إلى مراعاة الجماهير في أكثر الشؤون، فيخلو أدبهم من الصراحة، ويغلب عليهم ما يُشبه الرياء من أمراض الكتمان

أهمَ المصاعب التي يعانيها الأدب أنه صار من الوسائل الشريفة لكسب الرزق الحلال، ومن الخير للأدب أنْ صار كذلك، ليعرف من لم يكن يعرف أن القلم نعمة من النعم السوابغ، وأنه خليقٌ بأن يفتح لحامليه كرائم الآفاق

ولكن من الشر للأدب أنْ صار كذلك، فقد أصبح أهله أسارى للمجتمع من قُرب أو من بُعد، وأصبح من المحتوم أن يراعوا طوائف من الرقباء، بغض النظر عن الرقيب الذي تفرضه أيام الحرب، لأنهُ رقيب لطيف، لا يثور إلا في أندر الأحايين؛ وأنا بهذا الكلام أترضَّاه ليتغافل عني تغافل الكرماء قصَّر الله عُمر الحرب لأشفي غليلي من ذلك الرقيب اللطيف!!

الرقباء الحقيقيون هم القرَّاء، ومداراة القارئ مرضٌ قديم في الصحافة المصرية، وتلك المداراة هي علة العلل في جسم الأدب الحديث، ونحن نحارب هذه العلة بلا هوادة، ولكن في حدود يغلب فيها الترفق، ومعنى ذلك أننا شجعان جبناء، والعياذ بالذوق!

تلك الدنانير التي يجود بها الأدب على أصحابه ستَحرم الأدب أعظم صفاته من الصراحة والصدق، وقد تورثه عقابيل يعز منها الشفاء

وهنالك علةٌ أخطر وأفظع، هي علة الأديب الموظف: فالعُرف في الشرق لا يعترف بتعدد الشخصيات للرجل الواحد، ولا يسوغ في ذهن هذا العُرف البليد أن يكون للرجل شخصية حين يباشر عمله الرسمي في الديوان، وشخصيات حين يخلو إلى القلم، إن كان من رجال البيان

وأعجب العجب أن يرائي هذا العُرف نفسه بلا تأثّم ولا تحرّج، فهو يشتهي أن تكون في الدنيا أقلام تحدثه عن سرائره المطوية، وهو مع ذلك يكره أن يكون هذا الفضل من نصيب هذا الكاتب أو ذاك، وذلك عُرف الجمهور الذي نداريه كارهين، ولم يبق من البلايا إلا أن نتقي شر من نخدمهم بنزاهة وإخلاص. . . وعند الله، عند الله وحده الجزاء!

أقول هذا وقد مزَّقت خمسة أحاديث قبل هذا الحديث، فقد تحدثت فيها عن أشياء لا يجوز نشرها في هذا الوقت، وإن كانت في الصميم من دخائل النفس الإنسانية؛ فقد يقول عاقلٌ أو جاهل: إننا في أيام لا تتسع للحديث عن سرائر النفس كأن الضمير الأدبي يخضع لظرف الزمان وظرف المكان، وكأن العبقرية الروحية تعرف الرسوم والحدود، وكأن مخاطر الحرب ومتاعب البؤس ومصاعب التموين تصد الروح الظامئ عن هواه في ورود ينابيع الوجود

أين الأمة العربية؟

عند الأمم الأوربية تقليد أدبية تستأهل التسجيل، فهنالك يؤمن الكاتب بأمته فيؤلف كتاباً في مئات أو ألوف من الصفحات ليُنشر بعد موته بأعوام طوال

فما معنى ذلك؟

معناه أن الكاتب يثق بأن الضمير الأدبي في بلاده سيعيش ويعيش إلى أن ينصفه من زمانه ولو بعد حين

ومعناه أن الكاتب يؤمن بالخلود

ومعناه أن الكاتب يشعر بنائرة الحقد بعد أن يموت

ومعناه أيضاً أن الكاتب يعرف كيف ينتقم وهو في غيابة الفناء، أو حصانة البقاء

فأين الأمة العربية لنودعها دفائن صدورنا منى أبناء هذا الزمان؟

وأين من يفتش في دفاترنا بعد الموت، ليرى ما سطرناه في أخلاق هذا الجيل؟

جهادنا في خدمة القلم أضيع من الضياع، ولولا الإيمان بأننا نؤدي خدمة قومية لقصفنا القلم بلا رحمة ولا إشفاق

وعند الله، عند الله وحده الجزاء

خطاب

هو خطاب جميل، ولكنه ليس في جمال الخطابات التي أتلقاها من الشاعر أحمد العجمي، وإنما يرجع جمالة إلى أنه يؤكد نظرية أخلاقية يَكثُر كلامي عنها في هذه الأحاديث، وأنا لا أملّ من نقد مسالك في معاملة الأصدقاء

هو إذن خطاب من صديق لا يعرف أدب الصديق مع الصديق، فقد شاء هواه أن يتوهم أن الصداقة تبيحه أن يخاطبني بما لا أحب، كأن الصداقة تعفيه من رعاية الذوق، وكأن المودّة تمنحه التحرر من قيود الآداب

إن في الناس من يتهمني بمحاباة أصدقائي، وإن فيهم من يقول إني أختلق الفرص لأتحدث عن أصدقائي بما يحبون في مقالاتي ومؤلفاتي، وأقول إن تلك التهمة صحيحة وإن هذا القول حق: فأنا أتحيّز لأصدقائي في السر والعلانية، وأحب من يحبهم، وأعادي من يعاديهم. وأنا أنكر على أهل هذا العصر أن يعيبوا تغضي الصديق عن عيوب الصديق، بحجة الحرص على سلامة المجتمع من العيوب

ومن يتعصب لأصدقائنا إذا لم نتعصب لهم؟ وإلى من يطمئنون إذا عرفوا أننا نتّعقب ما يجترحون من هفوات؟

أكتب هذا وقد تلقيت من أحد أصدقائي في بغداد خطاباً يعيب عليّ فيه أن أثبت في كتابَ (ملامح المجتمع العراقي) كلمة في الثناء على السيد عبد القادر الكيلاني، فهل يعرف ذلك الصديق لأيّ غرض أثبتّ تلك الكلمة الطيبة لوجه الله، ولوجه الحق؟

أثبتُّها لأني علمت أن السيد عبد القادر الكيلاني سيحاكم أما المحكمة العسكرية في بغداد، بعد زمن قصير أو طويل، والعراق الذي عرفته وعرفه التاريخ لاُ يصدر حكما إلا بعد سماع أقوال الشهود العدول، وأنا شاهدُ عدل في قضية هذا الرجل، ومن واجبي أن أسارع إلى كلمة الحق فيه، قبل أن يقف في ساحة القضاء. وكتمان الشهادة حيادُ يأباه قضاةُ بغداد

وأقول بصراحة إني كنت أخشى أن يُمنع كتاب (ملامح المجتمع العراقي) من دخول العراق، لأني تحدثت فيه عن رجال تغيّر فيهم رأي العراقيين، ثم ظهر أن العراق لا يرضيه أن يصادر كتاباً أملاه الصدق والإخلاص، وتنزه مؤلفه عن المداجاة والرياء

فهل أتهم الصديق اللائم الظالم بأن نسبه إلى العراق يحتاج إلى برهان؟

أعزّ الله العراق، وحماه من جميع الأسواء

الجيش المرابط في الميادين الفكرية

هو جيش الأدباء الصابرين على مكاره الحياة الأدبية، وهي حياةُ لا يصبر على مصاعبها الثقال، إلا من تقهره الفطرة على الأنس بالأدب في جميع الأحوال

وقد شهد التاريخ واعترف بأن الأمم لا يقام لها ميزان إلا يوم يثبت أن لها حظاً من الروحانية الفكرية والأدبية، لأن الفكر والأدب لا يكونان من أنصبة الشعوب، إلا بعد النضج المنشود في العقول والقلوب

فما بالُ قومٍ يزعمون أن اشتغال بعض المصريين بالشؤون الفكرية والأدبية في هذه الأيام دليلُ على أن مصر لا تشعر شعوراً صحيحاً بالمتاعب الدولية؟

هذا كلامُ قيل في بعض المجلات، وأضيفَ إليه أن فلاناً لا يعيش في زمانه، لأنه نسى أن الدنيا في حرب، فشغل نفسه بالحديث عن الفروق بين رجال الأدب ورجال القضاء

وأقول للمرة الأولى بعد الألف إن الأديب المفكر ليس أجيراً لزمانه، وليس أجيراً للوطن ولا للمجتمع، فمن توهَّم أن الأديب المفكر مسئول أمام قوة غير قوة الضمير فهو من أكابر الجاهلين!

نحن نخدم الوطن بأقلامنا خدمةً لا يعرفها المتحذلقون من عبيد الشواغل اليومية، تخدمه صادقين لا كاذبين، ولا ننتظر منه أي جزاء، لأن خدماتنا تجلّ عن الجزاء

وماذا يملك الوطن حتى يكافئ المجاهدين من أرباب الأقلام؟

أيمنحهم الألقاب؟ أيمنحهم الأموال؟

وأيّ لقبِ أفخم من لقب الأديب؟ وأي ثروة أعظم من روح الأديب؟

أستغفر الله، وأعتذر إلى الوطن الغالي

فجزاء الأديب من وطنه مضمونُ مضمون، لأن الوطن لا يتحدث بأفراحه وأتراحه إلا الأديب، ولا يجود بسرائره الروحية لغير الأديب، ولأن الوطن يأبى أن يكون أساته من طبقة غير طبقة الأوفياء من الأدباء

خدّام الوطن في غير ميدان الأدب يُجْزَون بالألقاب والأموال، لأن خدماتهم تحتاج إلى تشجيع من ألوان الجزاء، أما خّدام الوطن في ميدان الأدب فهم أعزّ وأشرف من أن تصدهم عن الواجب عوادي النكران والجحود

وهل نخدم الوطن أو نحبه طائعين، حتى نمنّ عليه بالخدمة والحب؟
هيهات ثم هيهات!
إنما نحبّ مصر الغالية مأخوذين بسحرها الأّخاذ، ومفتونين بجمالها الفتّان وهل في الدنيا أكرم أو أجمل من مصر؟
إن مصر لم تبخل بالعيش على من يحارب الأدب والبيان، ولو شئت لقلت إن مصر تكرم أعداء الفكر والعقل تأسّياً بكرم الله، والكريم يُفِضل على الطفيليين بأغزر مما يفضل على المدعّوين
الدنيا في حرب، والقتال تدور رحاها حول الحدود المصرية، ومجلة الرسالة لا تجد قوتها من الورق إلا بشقّ النفس
وبالرغم من هذا وذاك فجذوة الفكر في اشتعال، وصوت مصر الأدبيّ في ارتفاع. والعاقبة للصابرين
الآن عرفتُك، يا وطني، عرفتُك
لا تستطيع الخطوب أن تُخرس بُلبلاً يغرّد في رياضك الّغناء، ولا يملك الدهر أن يُسكت صرير القلم في صحائفك البيضاء وطني
لو ظهرتْ أشراط الساعة، نذيراً بقيام القيامة، وخرست الألسنة وجفّت الأقلام، وشُغل المرء عن أخيه، وزوجته وبنيه، لرأيت من واجبي أن أرفع القلم لصوتك وقلمك، وأن أجعل آيتك في البيان خاتمة آيات الوجود
وطني
أنت أقدم وطن وأعظم وطن خطّ بالقلم، وسطّر مآسي الأرواح، ومصاير القلوب، فإليك اللأواء أهب سنان قلمي.
وطني
إن جهلت مَن أنا، فإني أعرف مَن أنت، والحياة صراعُ بين الجهل والعلم، واليأس والرجاء، وسأعرف كيف أجزيك على فنائي فيك
زكي مبارك
المستوى الجامعي في مصر بين الجامعة والأزهر
للدكتور محمد البهي
لجامعة فؤاد الأول بالقاهرة دعاة ينادون بلا ملل وفي تكرار يشبه الإلحاح بمنزلة (الجامعة) وبالقداسة الجامعية وباستقلال (الجامعة) وبمنحها سلطة مطلقة ليست في البحوث العلمية فحسب، بل أيضاً في التعليم المدرسي والتثقيف الشعبي
وللأزهر من رجاله وأبنائه من يكثر الحديث عن الأزهر وعن تقصيره وعن المسافة التي يبتعد بها الأزهر في سيره العلمي عن المثال الجامعي
وبقدر نموّ سيطرة الدعاة لجامعة فؤاد الأول على الرأي العام المصري، بقدر ما يفقد الأزهر بمن يكثرون الحديث عن بطئه أو جموده في السير الجامعي، من سلطان كان له على الرأي العام الإسلامي وكسبه لمنزلته من العقيدة ومن الثقافة الشعبية
وربما كان هناك غلو فيما ينادي به دعاة جامعة فؤاد الأول، وربما كان هناك غلو أيضاً فيما يصوره بعض الكاتبين الأزهريين يحول بين الإنسان الذي تؤثر فيه الدعاية، إيجابية أو سلبية؛ وتتحكم فيه العاطفة، وبين معرفة الواقع. والرأي العام هو ذلك الإنسان في صورة مكبرة
وربما كانت مبالغة دعاة الجامعة لأنهم من رجال العصر، وربما كانت مبالغة بعض الكتاب الأزهريين لأنهم من رجال العهود السابقة وهي عهود قريبة إلى الطبيعة الساذجة التي لم تلتو بعد
ولكن وراء الداعين من رجال جامعة فؤاد الأول، ووراء المتحدثين عن الأزهر من رجال الأزهر حقيقة تدرك وتتضح في الإدراك، وتصور وتتضح كذلك في التصوير، مدركها من غير هؤلاء وهؤلاء، وهو المؤرخ وبالأخص مؤرخ الحياة العقلية والعلمية لشعب من الشعوب. ومصورها من غيرهم أيضاً، وهو معالج الظواهر الخاصة بأمة من الأمم.
ما هو المثال الجامعي الذي إذا وجد كان للجامعيين دولة هي دولة العلم والفكر، وكان للجامعة قداسة هي قداسة الإرشاد الواضح في النواحي المختلفة لحياة الجماعة الخاصة ثم للإنسانية؟ المثال الجامعي يكون إذا تجردت البحوث عن العوامل

الشخصية؛ عن الطائفية وعن الحزبية وعن الدعاية. يوجد المثال الجامعي إذا خلصت البحوث للعلم - بقدر ما
يمكن - وبعبارة أخرى إذا غلبت الحكمة على العاطفة والغريزة وسيطر العقل على النفس.
هل حققت جامعة فؤاد الأول هذا المثال الجامعي كما تعطيه دعاية الداعين؟ وهل يبتعد الأزهر كثيراً عن هذا المثال الجامعي كما يفرضه تصوير المتحدثين عن تقصير الأزهر من الأزهريين؟
جامعة فؤاد الأول حوَّلت المدارس العالية لوزارة المعارف في سنة 1925 إلى كليات. وجعلت داخل الكلية الواحدة أقساماً مختلفة حسب مواد الدراسة. وألحقت بكل قسم مكتبة خاصة به فوق المكتبة العامة. وعينت أساتذة مصريين وغير مصريين، ومساعدين للأساتذة، ومدرسين، ومعيدين. أي أنها أتمت النظام الجامعي.
والأزهر الذي أراد أن يكون جامعة منذ عشر سنوات تقريباً حولّ الدراسة العالية فيه إلى كليات وألحق بها أقساماً للدراسات العالية، وأوجد بكل كلية مكتبة خاصة بها غير مكتبته العامة. وانتدب أساتذة من رجال الجامعة، ورجال وزارة المعارف بجانب مدرسيه
والفرق في هذا فقط أن جامعة فؤاد الأول أغدق عليها من مال الدولة - وربما تحت تأثير الدعاية - فكانت لها أبنية فخمة؛ وأنشئ بها كراسي متنوعة للأساتذة ومساعديهم وجلبت لمكتبتها الكتب الحديثة والفنية. وأن الأزهر - ربما لإظهاره بمظهر المقصر في رسالته أو اضعف شيوخه - لم تقتنع الدولة بالزيادة السخية في ميزانيته، ولم يتضح لها من المبررات ما يزحزحها عما تعتقد من أنها متفضلة على الأزهر إذا هي تركت له ما اعتاد إنفاقه سنوياً. والزيادة في الإنفاق في العصر الحديث تكون لزيادة المقابل من منفعة عامة أو خاصة. والأزهر في أوقات كثيرة صور نفسه أو قبل أن يُصور بأنه يُمنح ولا يعطى
هذا الفرق لا يكسب جامعة فؤاد الأول قربها من المثال الجامعي، كما لا يصور الأزهر بعيداً عن هذا المثال، لأن هذا الفرق يتعلق بالشكل، ولأنه نتيجة لقوة سلطان وضعف سلطان آخر ليس سلطان العلم وليس سلطان البحث
رجال جامعة فؤاد الأول أخرجوا كتباً وألفوا. أخرجوا على الطريقة الجامعية كتباً مفهرسة حسنة التبويب والتنظيم، روعي في التعليق عليها إثبات الفروق بين الروايات المختلفة، والتعريف بما ورد فيها من مصادر متعددة. وألفوا كذلك كتباً؛ وألفوا في الفلسفة والتاريخ والأخلاق. ولكن الكثير من هذه الكتب المؤلفة يلازمه الغموض في التعبير عن الفكرة،
وتندر أو تنعدم فيها شخصية المؤلف. والغموض في التعبير يدل غالباً على عدم نضوج الفكرة أو عدم هضمها عند المعبر، وضعف الشخصية في التأليف أو انعدامها يدل على سيطرة الروح المدرسية وضعف الروح الجامعية. فإخراج جامعة فؤاد الأول إخراج يسير على النهج الجامعي في العرض، وتأليف رجالها لم يخرج بعد عن النطاق المدرسي؛ وإذا كان للإخراج قيمته في تكييف المستوى الجامعي، فالمقدِّم الأول لهذا المستوى هو التأليف العلمي الذي تبدو فيه شخصية المؤلف واضحة، وليس هو جمعاً لمنثور الفكر أو تنظيماً لمشتت الآراء
فجامعة فؤاد الأول تسير بلا شك في الطريق الجامعي، وقطعت فيه شوطاً لا بأس به، ولكن دونها والوصول إلى المستوى الجامعي خطوات أخرى يشق فيها السير ويكثر فيها التعثر، وهي خطوات الشخصيات العلمية الجامعية
الأزهر أخرج في نطاق ضيق، وألّف في نطاق ضيق كذلك، لأنه ابتدأ منذ وقت قريب فقط يدرك أنه في حاجة إلى إخراج، وفي حاجة إلى تأليف، وفي حاجة كذلك إلى ترجمة بعد أن كان لا يستطيع أن يتصور أنه في حاجة إلى غير المتوارث من كتب والى غير المألوف من نمط في إخراجها لضغط التقاليد على العقلية فيه، وكما تندر الشخصية أو تنعدم في تأليف جامعة فؤاد الأول، تندر أو تنعدم كذلك في تأليف الأزهريين. ولعل سبب هذه الظاهرة هنا وهناك هو قرب عهد مصر بالنهضة العلمية وقرب عهد المؤلفين - على الخصوص - بالاستقلال الشخصي. ولعل الرغبة في كسب الرأي العام - وهو على ما به من شدة الولع والحرص على التقاليد - من أسباب عدم

الاستقلال أو من أسباب عدم الجرأة في الاستقلال
لا أنكر إذا على جامعة فؤاد الأول أنها بدأت العمل الجامعي، كما لا أنكر على الأزهر ذلك الآن؛ ولا أنكر على جامعة فؤاد الأول أن خطواتها في السير الجامعي أسرع من الأزهر، وأنها ستحقق المستوى الجامعي قبل الأزهر، لا لضعف في العقلية الأزهرية، بل لأن للأزهر من مهمته الأولى وهي الدين والمحافظة عليه - ويتبع ذلك التقاليد، وما أشق الفصل بينها وبين الدين - ما يقلل من سرعته في السير، ويعلل بطاه في الوصول إلى المستوى الجامعي، ولكنه سيصل
هل لنا الآن - إنصافاً للواقع - أن نطالب الطرفين بالاعتدال في الدعوة لجامعة فؤاد الأول وبالاعتدال في التحدث عن تقصير الأزهر؟ أم لنا أن نطالب الكتاب من الأزهريين في الدعوة إلى أزهرهم بأن يحتذوا سنة رجال الجامعة، إذ ربما يكون هؤلاء أحسن خبرة بالنفسية المصرية وعقلية الرأي العام المصري؟ فالتهويل لم يزل بعد من أخص مظاهر الحياة الشرقية، ولم يزل كذلك سبباً قويًّا من أسباب النجاح في حياتنا المصرية!
محمد البهي
مساجلات
جورجياس المصري
للأستاذ محمد مندور
كتب الأستاذ العقاد في العدد 476 من (الرسالة) تحت عنوان (مساجلات) يقول: (نبهت إلي كلمة لأديب يكتب في (الثقافة) بتوقيع (محمد مندور) قال فيها عني بصدد الكلام عن أبي العلاء ورسالة الغفران: (والعقاد يبدأ فيؤكد - فيما يعلم - أن فكرة أبي العلاء في هذه الرحلة إلى العالم الآخر لم يسبقه إليه أحد غير (لوسيان) في محاوراته في الأولمب والهاوية؛ وهذا قول عجيب يدخل في سلسلة تأكيدات الأستاذ العقاد التي لا حصر لها في كل ما كتب، والتي كثيراً ما تدهشنا لجرأتها، ففكرة الرحلة إلى العالم الآخر قديمة قدم الإنسان: عرفها اليونان قبل لوسيان، وعرفها العرب قبل أبي العلاء).
وأنا أحمد الله إذ نبه الأستاذ إلى كلمة محمد مندور هذا، فالعقاد رجل لديه ما يشغله عن (الثقافة) وعن محمد مندور، وهو منهمك في قراءة أمُّهات كتب الأدب التي وجد فيها أن (فكرة أبي العلاء في هذه الرحلة إلى العالم الآخر لم يسبقه إليها أحد غير لوسيان في محاوراته)؛ فأنى له بقراءة (الثقافة)، وما هي بشيء إلى جوار عيون الأدب؟ ومن هو محمد مندور، ليقرأ له وهو مأخوذ بسحر لوسيان؟
و (محمد مندور) يسره أن ينبه العقاد قبل أن يبدأ في مناقشته إلى تتمة جملته كما هي بالثقافة عدد 176 (والكل يعلم ما في أساطير اليونان من وصف لنزول أورفيوس إلى العالم الآخر ليسترد منه زوجه أوريديس؛ والكل يعلم وصف هوميروس لرحلة أوليس، ووصف فرجيلوس شاعر الإلياذة لرحلة أينوس بذلك العالم، كما نعلم جميعاً أشعار المتصوفة في أحلام يقظتهم ونومهم، ومن تلك الرحلات الرائع الجميل كوصف الحارث بن أسد المحاسبي في (التوهم) الذي نشره المستشرق آبري وصدر له الأستاذ أحمد بك أمين؛ وفي عصر مقارب لعصر أبي العلاء كتب ابن شهيد رسالة التوابع والزوابع المنشورة بكتاب (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) (ج1 ص210) وهي شديدة الشبه برسالة الغفران؛ ومع ذلك يؤكد العقاد أن فكرة رسالة الغفران لم يسبق أبا العلاء إليها غير لوسيان)
وهذا فيما أظن كلام لا يستطيع العقاد ولا غير العقاد أن يدفعه، فهو يؤكد أن أديباً لم يسبق
أبا العلاء في وصف رحلة إلى العالم الآخر غير لوسيان، ونحن نقول له: بل سبقه هوميروس وفرجيليوس. . . و. . . فما الرأي إذن؟ وهل يقبل الأستاذ العقاد - وهو العالم بكل تراث الإنسانية الروحي المقدر لقيمته - أن نمحو من الوجود كل هؤلاء الفطاحل ليصح ما أكده؟ ألا ليتنا نستطيع ذلك لنرضي كبرياء العقاد وإن كان قد وضعه في غير موضعه.
وبعد فليس يضير العقاد أن يجهل وصف هوميروس أو فرجيليوس لرحلة كهذه، إذ لو علم العقاد بكل شيء لفقد أهم صفة يتميز بها جميع البشر بله الأدباء منهم وهي صفة الإنسانية، ونحن جميعاً نجهل أشياء كثيرة ولم أضفنا أعماراً إلى عمرنا ولو بذلنا جهد

الرهبان في التحصيل، وإنما يضير العقاد ككاتب يجب أن يحترم كرامة العقل أن يصدر في محاجته للغير عن منهج معيب.

لم يرد العقاد على ما وجهته غليه بل نقل الحديث إلى وجود الجنة والنار قبل أبي العلاء وقبل لوسيان (على نحو ما يرى أن لندن كانت موجودة قبل رحلات المسافرين إليها). وهذه سقطة ما كان يليق برجل كالعقاد أن يلجأ إليها في كبرياء المتعالي؛ فموضع الجدل ليس وجود النار والجنة، بل ولا علم الناس بهما، بل وصف الرحلة إليهما وفيهما وصفاً أدبيًّا فذًّا على نحو ما فعل هوميروس وغيره ممن ذكرنا ولقد كان العقاد يستطيع أن يغالط - كما كان يفعل جورجياس كبير السفسطائيين عند اليونان على نحو أرقى من هذا النحو. ألا ليته قال مثلاً إن اللغة كانت موجودة قبل وضع نحوها، وأن الطبيعة كانت قائمة قبل استنباط قوانينها، وأن العقل كان يعمل قبل صياغة المنطق، وأن المنطق أقدم وأصدق وأنبل من السفسطة. ولو أنه فعل لوجدنا في مغالطاته جلالاً، وأما أن (لندن وباريس وبلاد الأفيال) كانت موجودة قبل الرحلات إليها فهذه حقيقة مغالطة تافهة كنت أود أن يترفع عنها العقاد

أسرف العقاد إذن على نفسه وعلى القراء عندما أكد أن فكرة الرحلة إلى العالم الآخر لم يسبق أبا العلاء إليها غير لوسيان، وهذه المسألة لا تقبل الدفع

فلنتركها إذن لما هو أهم وهو منهج العقاد في التفكير كما يطالعنا من رده وتلك مسألة يضطرنا العقاد إلى أن نثيرها لا بصدد حديثه عن أبي العلاء فحسب بل بوجه عام

سمعت العقاد يوماً يناظر في الأثر الذي يمكن أن تحدثه الثقافة الأجنبية فينا فيقول: (إن الكتاب الأمريكي لا يمكن أن يجعلنا أمريكيين وإلا لجعلتنا الثقافة الأمريكية أمريكيين) وهذا مثل لكل ما كتب العقاد، فسبيله دائماً هو (المغالطة) ثم (القياس الفاسد)

ألا تراه كيف ينقل الحديث من الرحلة الأدبية في العالم الآخر إلى وجود ذلك العالم وتصور الناس له، وهذه هي (المغالطة) ثم ينتقل إلى قياس وجود العالم الآخر في الواقع أو في خيال البشر وجوداً مستقلاً سابقاً على وصف ذلك العالم في الأدب، بوجود باريس ولندن وبلاد الأفيال وجودا مستقلاً سابقاً على رحلة المسافرين إلى تلك البلاد وهذا هو (القياس الفاسد)

ووجه الفساد في كلا القياسين هو انعقاد بين أشياء مادية وأخرى روحية؛ فالتفاحة ليست كتاباً وإلا لكانت عقولنا معدات؛ ولندن ليست الجنة ولا باريس النار والسفر إليهما ليس وصفاً أدبياً للعالم الآخر نزوره بخيالنا

وهذه ليست إلا مجرد أمثلة؛ ففي كل صفحة مما كتب العقاد، بل في كل سطر نفس المنهج. وفي الحق أني لا أعرف عيباً في التفكير أخطر من هذا.

أما المغالطة فخطرها بين؛ ومن نافلة القول أن نقف عندها.

بقى القياس فاسداً وغير فاسد؛ ومن الثابت أن المنطق الشكلي كله لا القياس فحسب لا يمكن أن يوصل إلى الكشف عن حقيقة جديدة، وإنما تعمل الأقيسة في الحقائق المعروفة؛ فإذا كان القياس صحيحاً انتهى إلى إقحام مناظرنا، ولا أقول إلى إقناعه، لأن الإقناع إحساس وتسليم قلبي، وأما الإفحام فانعقاد اللسان أو شلل العقل وهذا هو الجدل. وإذا كان القياس فاسداً فتلك هي السفسطة التي لا تقنع ولا تفحم ولا تليق بالإنسان على أي نحو.

وإنما تكتشف الحقائق بالخيال والقلب، وتلك ملكات لا أحس لها بوجود فيما يكتب العقاد.

أنظر إليه في رده كيف يقول: (إن الجمع بين المعري ولوسيان مبحث يصح النظر فيه والاستفادة منه) وتلك لعمري مقارنة عجيبة، وأنا لا أرى أصلاً أي شبه بين أبي العلاء ولوسيان، بل ولا بين أبي العلاء وأي كاتب آخر؛ وذلك لإيماني بأن النفوس لا يمكن أن تتشابه أصالتها؛ وقد بينت ذلك في الثقافة، ولن أعود إليه.

واتجاه العقاد الخاطئ واضح في كل مقارناته. والذي أفهمه من المقارنة هي أن تكون إما

نبغي منها إيضاح أخذ كاتب عن آخر، والمنهج الصحيح في هذا هو أن (مقارنة تأثر) نثبت قراءة هذا الكاتب لذاك وتأثره به تاريخياً، إذ لا يكفي مجرد التوافق على فكرة أو صورة؛ والجمع بين أبي العلاء ولوسيان لا يمكن أن يكون على هذا النحو. أو (مقارنة

فهم) وذلك بأن نجمع بين كاتب وآخر لنفهم كليهما على ضوء ما اختلفا فيه تبعاً لاختلاف منحاهما النفسي رغم وحدة الموضوع الذي يتحادثان فيه أو المصدر الذي يأخذان عنه. وهذا ما لم يفعله العقاد؛ وإنما فعل وفعل دائماً أن حاول التماس أوجه شبه بين أناس وأشياء من السذاجة أن نجمع بينها، فهو طوراً يقول بأن أبا العلاء قد كان اشتراكياً، وطوراً أنه قد أخذ بمبدأ النشوء والارتقاء وبقاء الأصلح (الفصول). وهذه محاولات باطلة؛ فأبو العلاء لم يحلم بشيء من هذا؛ ومذاهب الاشتراكية والنشوء غير بيت من الشعر أو جملة منثورة. وإنه لتعسف باطل أن يرج العقاد بتلك الكلمات الضخمة في معرض الحديث عن شاعر مسكين كأبي العلاء

وشاء العقاد إلا أن يختم حديثه بتذكيرنا بقوله عن رسالة الغفران: (أي شيء من هذه الأشياء لم يكن من قبل ذلك معروفاً موصوفاً؟ أي خبر من أخبار الجنة المذكورة لم يكن في عصره معهوداً للناس مألوفاً؟ كل أولئك كان عندهم من حقائق الأخبار ووقائع العيان. . .)

وهذا كلام لا علاقة له أصلاً بموضع المناقشة فهو لا يدل في شيء على (أن فكرة الرحلة إلى العالم الآخر لم يسبق أبا العلاء إليها غير لوسيان (وإنما يدل على أن فكرة الجنة وأوصاف الجنة كانت معروفة عند الناس كما وردت في الديانات والكتب المقدسة. وأما أنها تستخدم الأدب قبل أبي العلاء إلا عند لوسيان فهذا ما لم يرد عليه العقاد

ثم إن هذه الجملة في ذاتها تأكيد آخر من تأكيدات العقاد الغير مقبولة، فأبو العلاء لم يعرف الجنة كما كان الناس يعرفونها أو يتصورونها؛ والجانب الهام من جنته هو دنيانا أو على الأصح دنيا العرب، إذ أنه قد نقل الدنيا إلى الآخرة وقد جمعت تلك الدنيا بتاريخها الطويل في صعيد واحد، فهناك ترى الهذلي يحلب ناقته، وابن القارح محمولاً زقفونة على السراط، وابن عدي يصيد، والأعشى في عينه حور، وكل أولئك أشياء لم يكن يعرفها أحد عن الجنة بل ولا يتصورها مجرد تصور، وما هي من الجنة كما وصفها القرآن في شيء

ويضيف العقاد تذكيرنا بقوله: (إنها رحلة قديمة ولكن أبا العلاء أعادها علينا كأنه قد خطا

خطواتها بقدميه وروى لنا أحاديثها كأنما هو الذي ابتدعها أول مرة. . .) وموضع البحث هو كما قلت وأكرر أن نعرف مدى قدم تلك الرحلة ومن سبقه إليها، أهو لوسيان فقط أم لوسيان وغير لوسيان ممن ذكرنا

والآن لم يبق لدي إلا أن أترك للقاري الحكم على طريقة الأستاذ العقاد في توجيه الخطاب من (لا يا شيخ!) إلى أمثال ذلك مما أمسك قلمي عن الرد بمثله، فهذا أمر سهل ميسور لكل إنسان.

محمد مندور

مرسلات

ملق!

أعلنت الصحف ذات يوم أنَّ فلاناً سيتحدث ساعة كذا من المساء حديثاً علمياً، وفلان هذا رئيس مرجوّ مرهوب، يمتد سلطانه إلى الأقاليم، حيث ينبث له في أرجائها عمال ومرءوسون. . . فحدثني صديق من أصدقائي أنَّ كثيراً من هؤلاء المرءوسين قد فرغوا لهذا الحديث، واحتشدوا له حول (المذياع) ثُبات ثُبات: منهم من ينشد العلم، ومنهم من يتزود للملق والنفاق، وأزف الموعد. . . فلو ترى إذ خشعت الأصوات، وأرهفت الأسماع، والليل ساجٍ لا تسمع فيه إلا دقات (الاستراحة) تنبعث متقطعة من (المذياع)، كأنها دقات قلب مضطرب على موعد للقاء. . . ثم نطق المذيع:

سيداتي، سادتي: لم يتمكن حضرة الأستاذ (. . .) من الحضور، وسنذيع عليكم بعض (الأسطوانات!)

ورجَّع المذياع بعد ذلك رنيم (ليلى) وشدو (أم كلثوم) حتى انقضى وقت الحديث!

وزرت هذا الرئيس بعد يومين في مكتبه لشأن من الشئون، وكنت عرفت سر تخلفه عن موعده، فما راعني إلا كتاب يلقيه إليَّ ويطلب مني أن أقرأه، فإذا هو من شخصين مرءوسين له في بلد قريب من القاهرة؛ وإذا هما يقولان فيه: (أما والله لقد أجدت في حديثك ليلة كذا إجادة ما نحسب أن أحداً وفق إلى مثلها؛ ولقد كنا نستمع إليك في

جمع من أصحابنا مزهوَّين بك، والقوم من حولنا في نشوة. . . فلما انتهى حديثك لم يبق أحد إلا حيَّاك على البعد ودعا لك، ثم انثنوا إلينا يُلقُّوننا عنك التهنئات. . . فهكذا فلتكن الأحاديث!)

قلت وقد أخذتني الدهشة: أيَّ حديث يريدان؟ قال: هذان شخصان مَلِقان تعوَّدا أن يلقياني في كل مناسبة بمثل ما ترى، وقد حسبا أنِّي ألقيت الحديث!

محمد محمد المدني

على هامش النقد

كتب وشخصيات

للأستاذ سيد قطب

للعقاد (عبقرية محمد)

(تتمة ما نشر العدد الماضي)

للعقاد منطقه القوي في كل ما يكتب، فقد كان مهيأ أن يكون رياضياً لو لم يكن أديباً. وتلك علامة الطبع المستقيم. إلا أن منطقه في كتاباته الأولى كان منطقاً وئيداً متمهلاً فيه أيد وصرامة. فأما في (عبقرية محمد) فهو المنطق الجارف المتطلق المتحدر عن غير طريق من طرق الإقناع. مع وضاءة شفافة وإشعاع لطيف.

وفي الكتابة لمسات بارعة من المنطق العميق، أدق ما يصورها قول العوام (ضربة معلم!) وهي كثيرة متناثرة في الكتاب نكتفي منها ببعضها:

يقول قوم: إن الإسلام أستهوى من أسلموا باللذائذ الحسية وبالتخويف من السيف. فما إن يعرض لهذا القول حتى يجهز عليه بلمسة تهتدي إلى موضع الإقناع، أو (بضربة معلم) بارعة في الصميم وإذا هو يقول في موضع: (لم يكن أبو لهب أزهد في اللذة من عمر) ويقول في موضع آخر: (وما يقسم الطائفتين أحد فيضع أبا بكر وعمر وعثمان في جانب اللذة والخوف ويضع الطغاة من قريش في جانب العصمة والشجاعة) فيدرك القارئ أنها الضربة المجهزة التي لا تدع مجالاً للتعقيب، ويعلم كيف ينتفع المؤلف بالواقع المعروف على هذا الوجه الفريد.

ويعيب قوم على الإسلام التجاءه إلى السيف ويسمونه بميسم الإكراه على الدين. فما إن يعرض العقاد لهذه الفرية حتى يجهز عليها في لمسات متتالية أبرزها وأجدّها: (أن الإسلام إنما يعاب عليه أن يحارب بالسيف (فكرة) يمكن أن تحارب بالبرهان والإقناع. ولكن لا يعاب عليه أن يحارب بالسيف (سلطة) تقف في طريقه وتحول بينه وبين أسماع للإصغاء إليه. لأن السلطة تزال بلا سلطة ولا غنى في إخضاعها عن القوة. ولم يكن سادة قريش أصحاب فكرة يعارضون بها العقيدة الإسلامية، وإنما كانوا أصحاب سيادة موروثة وتقاليد لازمة لحفظ تلك السيادة في الأبناء بعد الآباء. . . الخ) وعندئذ يبلغ العقاد بهذه اللمسة موضع الاقتناع من كل ذي طبع مستقيم

ويعيب بعض المتعصبين على النبي - عليه السلام - إقراره لقتل كعب بن الأشرف، ولم يكن وقت قتله محارباً بالسيف ويشبهون هذا بما عيب على نابليون من اختطاف الدوق دانجان. فما إن يعرض العقاد لهذا الاعتراض حتى يأخذه بضربة معلم فيقول: (الفارق عظيم بين الحالتين. لأن حروب الإسلام إنما هي حروب دعوة أو حروب عقيدة، وإنما هي في مصدرها وغايتها كفاح بين التوحيد والشرك أو بين الإلهية والوثنية، وليس وقوف الجيش أمام الجيش إلا سبيلاً من سبل الصراع في هذا الميدان. فليس في حالة سلم مع النبي إذن من يحاربه في صميم الدعوة الدينية، ويقصده بالطعن في لباب رسالته الإسلامية، وإن لم ينفر الناس لقتاله ولم يحرضهم على النكث بعهده. وإنما هو محارب في الميدان الأصيل ينتظر من أعدائه ما ينتظره المقاتل من المقاتلين. . . الخ) فتبلغ هذه اللمسة موضع الاقتناع ممن يقتنعون!

ويتحدث قوم عن قسوة محمد لأنه راح ينظر القتلى في ساحة الحرب بعد موقعة بدر، فيضرب العقاد ضربته على هذا الحديث بمثل هذه القوة في صفحات 97، 98، 99، 100 وخلاصتها (أن الرجل الذي يرى الدم في المدنية العصرية غير الرجل الذي يرى الدم في حروب البادية على الإجمال. ونعني بها حياة الرعاة التي تتكرر فيها إراقة الدم كل يوم، وحياة القبائل التي كانت تغزو وتغزي في كثير من الأيام). . . وأنه كذلك (كان على أولئك الناقدين أن يشهدوا بدراً لينظروا بعين النبي إلى عواقب هذه الوقعة

التي أوشكت أن تصبح الوقعة الحاسمة في تاريخ الإسلام)
وتلوك ألسنة أن محمداً كانت تستهويه لذائذ الحس ويتحدثون في هذا عن تعدد الزوجات. فيعرض العقاد لهذا بضربة من ضربات المعلم حين يقول: (حب المرأة لا معابة فيه. هذا هو سواء الفطرة لا مراء. وإنما المعابة أن يطغي هذا الحب حتى يخرج عن سوائه، وحتى يشغل المرء عن غرضه، وحتى يكلفه شططاً في طلابه، فهو عند ذلك مسخ للفطرة المستقيمة يعاب كما يعاب الجور في جميع الطباع فمن الذي يعلم ما صنع النبي في حياته، ثم يقع في روعه أن المرأة شغلته عن عمل كبير أو عن عمل صغير؟)
ثم يقول: (وأعجب شيء أن يقال عن النبي إنه استسلم للذات الحس وقد أوشك أن يطلق نسائه أو يخيرهن في الطلاق لأنهن طلبن إليه المزيد من النفقة وهو لا يستطيعها) ثم يقول: (ولو كانت لذات الحس هي التي سيطرت على زواج النبي بعد وفاة خديجة لكان الأحجى بإرضاء هذه اللذات أن يجمع النبي إليه تسعاً من الفتيات الأبكار اللائى اشتهرن بفتنة الجمال. . . الخ) فينتهي الجدل عند المنصفين وهكذا. . . من مثل هذا المنطق المتطلق الوضيء السريع
وللعقاد في (عبقرية محمد) لفتات نفسية وفكرية جديدة، هيأه لإدراكها انفساح في النفس وغنى في الشعور وحيوية في الطبع والضمير
من ذلك قياسه الجديد لعظمة محمد بمقدار ما استحقت من صداقات وبمقدار ما استجابت به لكل من هذه الصداقات: (تلك هي العظمة التي اتسعت آفاقها وتعددت نواحيها حتى أصبحت فيها ناحية مقابلة لكل خلق وأصبح فيها قطب جاذب لكل معدن، وأصبحت تجمع إليها البأس والحلم والحيلة والصراحة والألمعية والاجتهاد وحنكة السن وحمية الشباب)
وقياسه لهذه العظمة في موضع آخر بما انفسحت له من العطف على الصغير والتقدير العظيم، لأن إنصاف العظيم جميل كإنصاف الصغير
وقياسه لهذه العظمة في موضع ثالث بما انفسحت له من الجد والنهوض بعظائم الأمور مع تقبلها للفكاهة وعطفها على المتفكهين
وقياسه لهذه العظمة في موضع رابع بما انفسحت له من طبيعة العبادة وطبيعة التفكير وطبيعة التعبير الجميل وطبيعة العمل والحركة
ولولا الانفساح الكبير في طبيعة العقاد ما تهيأ لإدراك هذا الانفساح العظيم في مثله العليا في هذه النفس الرحيبة، ولما التفت إليه هذا الالتفات وصوره هذا التصوير
ومن هذه اللفتات التي لا محيص من ذكرها - وإن ضاق المقام - التفاته إلى تسمية النبي صلى الله عليه وسلم لبعض أدواته وأسلحته بأسماء الأعلام وما فيها من (معنى الألفة التي تجعلها أشبه بالأحياء المعروفين ممن لهم السمات والعناوين، كأن لها شخصية مقربة تميزها بين مثيلاتها كما يتميز الأحباب بالوجوه والملامح وبالكنى والألقاب)
لقد تحدث المتحدثون عن عطف النبي وحدبه فذكروا حوادث بره بالناس وبالحيوان. وممن
كتبوا في ذلك حديثاً الدكتور هيكل في كتاب (حياة محمد) ثم تحدث العقاد فعرض بأسلوبه وطريقته مظاهر هذا العطف على الناس وعلى الحيوان، ثم تجاوزه إلى هذه اللفتة المشرقة. والزيادة هنا ليست لقصد الزيادة، ولا لمجرد الاستقراء، ولكنها تزاد لنوع جديد من الدلالة لا يدرك ما فيه من طبيعة الألفة والمودة لأول وهلة، ولا تدركه إلا بصيرة نافذة ونفس عطوف وحس شفيف
ويبلغ العقاد قمة اللفتات النفسية البارعة عند تحليله لعقوبة (الهجر في المضاجع) ويتجاوز الظواهر إلى حقيقة البواعث ومكامن الطبائع، وتبدو الخبرة بطبيعة المرأة واليقظة لسيكلوجيتها الصميمة. ولن يتسع المجال هنا لعرض هذه اللفتة، فهي هناك في الصفحات ما بين 214، 218 يرجع إليها من يريد
وفي (عبقرية محمد) بعد هذا كله قصائد إنسانية رفيعة، وإشراقات نفسية وذهنية وضيئة
فأما القصائد فهي هناك في مواضع متفرقة، ولكنها تروع وترفرف في ص26 حين يتحدث عن (عبد الله) فيقول: لكأنما كان بضعة من عالم الغيب أرسلت إلى هذه الدنيا

(لتعقب فيها نبياً وهي لا تراه. ثم تعود. . . الخ
وحين يتحدث عن (مولد إبراهيم وموته) في فصل (الأب) فيقول: (ولد الطفل الذي نظر إليه أبوه يوم مولده فأمتد به الأمل مئات السنين بل ألوف السنين، وتخير له الاسم الذي وراءه أعقاب كأعقاب جده الأعلى ليكون أباً ويكون له أحفاد ويكون لأحفاده من بعدهم أحفاد. . .
ثم مات ذلك الطفل الصغير)
(ومات ذلك الأمل الكبير)
ثم يمضي في هذه القصيدة وفي تلك فتحس خفق قلب إنساني عطوف على مصاب قلب إنساني كبير وتلمح رفرفة نفس شفيفة على نفس لطيفة من وراء الآباد والقرون وأما الإشراقات النفسية والذهنية فهي هناك في مواضع متفرقة، ولكنها تروع وتعجب عند الكلام على محمد (العابد) وهناك صفحات في الإيمان والتفكير كانت خليقة أن يكتبها أحد (الواصلين)! فلعلها محسوبة للعقاد عند جمع درجات الحساب في الكتاب المكنون، ولعله واصل بهذه الدرجات إلى عليين!!
وفي عبقرية محمد تقويم صحيح لطبيعة العبقرية، ولطبائع كثير من المواهب والحقائق، عني فيها العقاد دائماً بتوكيد الباعث المكنون في الضمير وإيثاره على ظواهر الأمور (فالعبقرية قيمة في النفس قبل أن تبرزها الأعمال ويكتب لها التوفيق، وهي وحدها قيمة يغالي بها التقويم). . . (ولقد فتح الإسلام ما فتح من بلدان لأنه فتح في كل قلب من قلوب أتباعه عالماً مغلقاً تحيط به الظلمات. فلم يزد الأرض بما استولى عليه من أقطارها، فإن الأرض لا تزيد بغلبة سيد على سيد، أو بامتداد التخوم وراء التخوم. ولكنه زاد الإنسان أطيب زيادة يدركها في هذه الحياة فارتفع به مرتبة فوق طباق الحيوان السائم ودنا به مرتبة من الله. . .)
وبعد فإن الجديد في (عبقرية محمد) هو ضخامة الطاقة النفسية التي تستطيع أن تلم بنفس (محمد) هذا الإلمام. هذه الطاقة هي التي لم تتهيأ من قبل لأيٍّ ممن كتبوا عن (محمد). وهي التي تشيع في جو الكتاب كله، ويتعذر لمسها في نقط خاصة منه إن (نفس) محمد العظيمة هي التي يصورها هذا الكتاب أبرع تصوير ويجلوها أحسن) جلاء. وتلك هي (عبقرية العقاد) في (عبقرية محمد) على وجه الإجمال

سيد قطب

المصريون المحدثون - 36

شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الإنجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

تابع الفصل الحادي عشر - (الخرافات)

هناك أشياء مختلفة يعدها المسلمون كالاحجبة، مثل تراب القبر النبوي وماء زمزم المقدس وستار الكعبة الأسود. ويقدر المسلمون ماء زمزم كثيراً لأنه يُرش على الأكفان. وسمعني أعرابي كنت أعطيته في الصعيد أثناء زيارتي الأولى لمصر دواء (أفاده) أسأل عن قليل من ماء زمزم إذ أن الكثير من المراكب الغاصة بالحجاج العائدين من مكة كانت نازلة في مجرى النيل. وربما ظن الرجل لسؤالي هذا أنني مسلم تقي، ومن ثم منحني ما كنت أحاول الحصول عليه ليعبر عن امتنانه. فذهب إلى منزل صديق له وعاد إلى مركبي حاملاً ربطة صغيرة فتحها أمامي قائلاً: (هاهي ذي أشياء أعرف أنك ستقدرها تقديراً عظيماً. هاهما علبتان من القصدير ملآنتان بماء زمزم، إحداهما لك تحتفظ بها لترشها على كفنك. وهذا سواك غُمس في ماء زمزم فتقبله مني ونظف به أسنانك فلن تؤلمك ولن تتلف أبداً). وأضاف قائلاً، وهو يظهر لي ثلاث كعكات من التراب الأشهب صغيرة مستطيلة مسطحة طول كل منها قيراط تقريباً وقد طبع عليها: باسم الله، تراب من أرضنا، مزج بريق بعضنا. وهذه صنعت من تراب فوق قبر الرسول صلعم، وقد اشتريتها بنفسي عند عودتي من الحج، وإني أعطيك إحداها وستجد فيها شفاء من كل داء. وسأحتفظ بالثانية لي. أما الثالثة فنأكلها معاً. وعلى ذلك كسر إحدى الكعكات نصفين وأكل منا نصيبه. وقد وافقته على أنها لذيذة وقبلت هداياه مسروراً. وقد أمكنني فيما بعد أن أزيد ما عندي من تحف عن مكة

ومن ذلك قطعة من ستار الكعبة أحضرها الشيخ إبراهيم (بركهارت) من مكة وأعطاني إياها وريثه عثمان. وتوضع الكعكة أحياناً في غلاف من الجلد وتحمل كتعويذة، وتصنع أحياناً أقراصاً على شكل الكمثري الصغيرة وبحجمها وتعلق على الستر المحيط بمقام الأولياء أو على المقام ذاته أو على نوافذ المقام أو بابه.

والأحجبة التي يستعملها المصريون لجلب السعادة أو منع الشقاء كثيرة؛ والعادات الخرافية التي يمارسونها لهذه الأغراض مختلفة بحيث لا يكفي لوصفها مفصلة مجلد كبير. وتسمى هذه الأساليب التي لا يكون أساسها الدين أو السحر أو التنجيم (علم الرُّكَّة) إشارة إلى سخافتها، ولأن النساء يعتمدن عليها غالباً. ويعتبر البعض هذه الكلمة تحريفاً علمياً لعبارة (علم الرُّقْية) أي علم السحر. ويرى البعض الآخر أنها حلت محل العبارة الأخيرة بطريق التورية. وقد ذكرت عرضاً بعض العادات مما وصفته، وسأذكر بعض أمثلة أخرى.

من الشائع كثيراً أن يعلق القاهريون عود الند فوق أبواب المنازل الجديدة خاصة. ويعتبر هذا حجاباً يكفل للسكان عمراً مديداً وحياة سعيدة وللمنزل بقاء طويلاً. ويعتقد النساء أيضاً أن الرسول يزور المنزل الذي يعلق فيه هذا النبات. ويبقى العود معلقاً هكذا بدون طين أو ماء سنوات عديدة. ويزهر أيضاً. وقد سمى لذلك (صبراً) وعلى الأصح (صبّارة) إذ أن كلمة (صبر) تطلق عامة على العصير.

وجرت العادة عندما يُخشى إنسان أن يكسر خلف ظهره وعاء من الفخار. ويُفعل هذا أيضاً لقطع كل علاقة أخرى مع مثل هذا الشخص.

ويعمد الجهلاء في مصر حيث ينتشر الرمد إلى الكثير من العادات الخرافية المضحكة لمعالجة هذا المرض فيأخذ البعض قطعة طين من جسر النيل عند بولاق أو بالقرب منها ثم يعبرون النيل ويضعون القطعة على الجسر الآخر عند (امبابه) وحسبهم هذا لضمان الشفاء. ويعلق آخرون للغرض ذاته في غطاء الرأس فوق الجبهة أو العين المريضة قطعة ذهبية (بندقي) ذات وصف خاص متقابلة النقشين غير أنه يعتقد أن دخول المرء، حاملاً في جيبه بندقيا أو ريالاً على المريض بالرمد أو بحمى مما يزيد المرض. والاعتقاد العام أيضاً أنه دخل لمرء غير طاهر على مصاب بالرمد يشتد المرض عليه وتظهر نقطة في إحدى عينيه أو في كلتيهما. وأعرف رجلاً أصيب بالرمد فحبس نفسه في غرفته ثلاثة شهور مدة المرض خوفاً من ذلك، فلم يسمح لأحد بالدخول عليه، وكان خادمه يضع الطعام خارج الغرفة عند الباب؛ وأصيب مع ذلك بنقطة على إحدى عينيه

وكثيراً ما يقوم النساء بعادة أخرى شديدة الغرابة تتقزز منها النفس منعاً للعقم تعد ساحة الرميلة الكبرى غربي القلعة مسرحاً لإعدام المجرمين. وكان فيما مضى يكاد يضرب عنق المحكوم عليهم بالإعدام في العاصمة دائماً في هذا المكان من المدينة. وجنوبي هذا المكان بناء يسمى (مغسل السلطان) حيث توضع جثة المضروب عنقه على مائدة حجرية لغسلها قبل الدفن. وتتجمع المياه في حوض لا يفرّغ أبداً فيظل ملوثاً بالدماء كريه الرائحة. فيذهب الكثير من النساء إلى ذلك المكان للبرء من الرمد أو للحصول على النسل أو لتعجيل الولادة في حالة الحمل المتأخر. فتمر المرأة صامتة، والصمت لازم إطلاقاً، تحت المائدة الحجرية متقدمة بالقدم اليسرى، ثم تمر فوق المائدة سبع مرات وتغسل بعد ذلك وجهها بالماء الدنس. وتعطي كهلاً وزوجه يلازمان هذا المكان خمس فضة أو عشرة ثم تنصرف وما زالت صامتة. وكثيراً ما يفعل ذلك المصابون بالرمد من الرجال. ويقال إن هذا المغسل بناه بيبرس الشهير قبل أن يصبح سلطاناً عندما لاحظ جثث المحكوم عليهم ترفس وتدفن دون أن تغسل. ويخطو بعض النساء جثة المعدم سبع مرات صامتات ليصحبن حبالى. ويغمس البعض الآخر، مدفوعاً بالرغبة نفسها، قطعة من القطن الزهر في الدم ويستعملها فيما بعد بطريقة يجب ألا أذكرها

وهناك عادة مضحكة يمارسها المصريون لعلاج بثرة تظهر على حافة الجفن ويسمونها (شحَّاتة) ومعنى هذه الكلمة الحرفي سائلة. فيذهب المصاب إلى سبع نساء تسمى كل منهن فاطمة في سبعة بيوت مختلفة؛ ويسأل كلاًّ منهن قطعة خبز. ويتكون الدواء من هذه القطع السبع. وأحياناً يخرج المصاب في حالة متشابهة وللغرض نفسه قبل طلوع الشمس إلى المقابر يدور حولها صامتاً من اليمين إلى اليسار بعكس الطريقة

المعتادة. وهناك طريقة وهمية أخرى للعلاج وهي أن يثبت المصاب قطعة قطن على طرف عصا ثم يغمسها في أحد الأحواض التي يشرب منها الكلاب في شوارع القاهرة ويمسح العين بها. ويهتم المريض هكذا بوقاية يده من الماء المدنس عندما يوشك أن يضع منه على موضع آخر من جسمه

ويعلق بعض المصريات المسلمات في رقابهن إصبعاً مجففة فصلت عن جثة مسيحي أو يهودي متوهمات أن ذلك يعالج الحمى المتقطعة (الملاريا). وتدل هذه العادات دلالة تستحق

الاعتبار على مفعول الخرافة المنحط وتأثيرها القوي على العقل، إذ أن المسلمين على العموم يدققون في مراعاة الفروض الدينية التي تأمرهم بالامتناع عن كل دنس أو قذر

جرت العادة عندما يعجز الطفل عن المشي بعد أن يدرك السن المناسبة أن توثق أمه قدميه بسعف تعقدها عقدات ثلاث وتضعه على باب مسجد أثناء صلاة الجمعة، وتسأل بعد الصلاة أول الخارجين وثانيهم وثالثهم أن يحل كل عقدة من السعف، ثم تحمل الطفل إلى المنزل مؤمنة أن هذا العمل سوف ينتج الأثر المراد عاجلاً

من العقاقير من يزعمون أنه ترياق أو شاف لبعض الأمراض. وقد يكون لهذه الأدوية بعض التأثير ولكن الخرافة تنسب إليها فضائل لا تُصدَّق. ويرى المصريون حتى غالبية المتعلمين والمهذَّبين في الخاصيات المفيدة أو المضرة لمختلف المواد النباتية والحيوانية أسخف الآراء. إذ يؤيدها في بعض الأحوال أحاديث تروى عن النبي ويدعمها اعتبار حكمائهم المشهورين. ويستعمل البادزهر ترياقاً يحكه مع قليل من الماء في طاس تملأ بعد ذلك ويشربها المصاب. ويستعمل لذلك أيضاً وبالطريقة نفسها قدح من قرن الخرتيت يدعك بقطعة من المادة نفسها. ويعالج الكثير من أهل القاهرة مرض اليرقان بالشرب من ماء (بئر اليرقان) وهو بئر تمتلكها عجوز وتجني منها فائدة كبيرة؛ فللبئر فوهتان أسفل إحداهما وعاء جاف للأشياء التي تقذف بها. فتطلب العجوز ممن يرغب استعمال الماء الطبي أن يسقط خلال هذه الفوهة ما تحتاج إليه من سكر وبن الخ

يلجأ المسلمون إلى عادات خرافية شتى يستشيرونها عند التردد في عمل ينتوون فعله أو تركه. فيستخدم البعض جدولاً يسمى (زائرجة). وهناك جدول من هذا النوع ينسب إلى إدريس أو أخنوخ. ويقسم الجدول إلى مائة خانة صغيرة يكتب في كل منها حرف. ويتلو من يستشير الجدول الفاتحة والآية التاسعة والخمسين من سورة الأنعام (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) ثلاث مرات. ويضع بعد ذلك إصبعه على الجدول دون أن ينظر إليه ثم يعاين الحرف الذي يشير إليه إصبعه ويدونه، ثم يدون الحرف الخامس اللاحق للأول، فالخامس التابع للثاني، وهكذا حتى يعود إلى الحرف الأول. ويكون من مجموع هذه الحروف الجواب

ويعمد البعض إلى القرآن لحل مشكلاتهم، ويسمون هذا (استخارة)، فيرددون الفاتحة وسورة الإخلاص والآية السابقة ثلاثاً، ثم يتركون المصحف يسقط مفتوحاً أو يفتحونه عرضاً، ويستخرجون الجواب من السطر السابع في الصفحة اليمنى، وكثيراً ما لا يحمل الكلام جواباً صريحاً، إلا أنه يعتبر إيجابياً أو سلبياً حسبما يدل معناه على الخير أو الشر، كأن يشير إلى وعد أو وعيد. ويعد البعض بدلاً من قراءة السطر السابع عدد الحرفين الخاء والشين في الصفحة كلها، فإذا غلبت الخاءات كانت النتيجة مناسبة: فالخاء تمثل الخير والشين الشر

(يتبع)

عدلي طاهر نور

حماسيةٌ لا سياسية

لمعالي الأستاذ رضا الشبيبي

أَلا في سَبيلِ اللهِ وَالْوَطَنِ الْعَانِي ... سُهَادِي إذا جَنَّ الظَّلاَمُ وَأَشْجَانِي
وَفي ذِمَّةِ الشَّعْبِ المُضَيَّعِ حَمْلَةٌ ... مِنَ الدَّهْرِ أَلْقَاهَا - وَحِيداً - وَتَلْقَانِي
وَسَوْمِيَ نَفْسِي في الْكِفَاحِ رَخِيصَةً ... وكنتُ فتىً إنْ سَامَني الدّهْرُ أَغْلاَنِي
وَنَفْثِيَ مِنْ صَدْرِي شُواظاً تَضَرَّمَتْ ... بهِ وَسَرَتْ في فَحْمةِ اللَّيْلِ نيراني

وَرَدِّيَ كَيْدَ الكَائِدِينَ عَلَيْهُمُ ... وكان قِميناً أن يضعضِعَ أركاني
إذا كادَ أَنْأَى النَّاسِ عَنِّيَ كِدْتُهُ ... وَإِنْ كادَ أَدْنى النَّاسِ مِنِّيَ أَعْيَاني
رِجَالٌ لَهُمْ في الْعرْبِ دَعْوَى كما ادّعَى ... (بِآلَ زِيَادٍ) قَبْلَهُمْ (آلُ سُفْيَانِ)
لهم ما استقامتْ قَطُّ عندي طريقةٌ ... وناهيك فيهم من وجوهٍ وألوانِ!
تَعَسَّفَ قَوْمٌ بالعِراقِ وَسَاوَمُوا ... عَلَى وَطَنٍ مَا سِيمَ - يَوْماً - بَأَثْمَانِ
هُمُ احْتَقَبُوا الأَوْزَارَ يقترِفونها ... وقالوا: جَنَى عَمْداً وما هو بالجاني!
هُمُ استعجلوا اللذاتِ يَنْتَهِبُونَهَا ... وَهُمْ بَدلَوا بالجَوْهَرِ الْعَرَضَ الفاني
وقد تُنْكِرُ الحُرَّ العِرَاقِّيِ أَرْضُهُ ... فَيَنْأَي ليدنو منه من ليس بالداني!
(بغداد)
رضا الشبيبي
معركة (بلنهايم)
للشاعر الإنجليزي روبرت سوثي
بقلم الأستاذ محمود عزت عرفة
(بلنهايم قرية في بافاريا الغربية على ضفاف الدانوب الأعلى)،
انتصر عندها الإنجليز وحلفاؤهم من الأوربيين بقيادة
مارلبورو (وهو جون تشرشل جد ونستن تشرشل الحالي)،
يعاونه الأمير أوجين صاحب سافوي. . . على جيوش
الفرنسيين والبافاريين بقيادة المارشال تالارد؛ وكان ذلك في
13 أغسطس 1704 م
(وقد أنشأ روبرت سوثي - وهو أحد شعراء البحيرة الثلاثة قصيدته هذه عام 1798)
كانت أمسيَّة من أمسيَّات الصيف الرائعة؛ وقد أنهى (كَسْبَار) العجوز عمله في مزرعته، ثم احتبى أمام باب كوخه يرقب الشعاع الغارب في سكون. . . بينما انطلقت حفيدته (ولْهِلْمِينا) تلهو بجانبه على المرج الأخضر
وبعد هنيهة أقبل أخوها (بيتركين) يقلب في يده كرة بيضاء مستديرة، عثر بها وهو ينبش الأرض إلى جانب الجدول القريب. . .
وراح الصغير يتساءل في لهفة عن هذه الكرة المستديرة الملساء؛ فتناولها منه الجد وأقبل يفحصها بيده وبصره؛ بينا وقف أمامه الصغيران ينتظران جوابه في لهفة واشتياق
هزَّ الشيخ رأسه في أسف؛ وتنهد تنهيدة حرَّى ثم قال: (هذه جمجمة أحد أولئك المساكين الذين سقطوا صرعى يومَ الانتصار الكبير. . . لقد طالما عثرت بمثلها وأنا أنبش الأرض: في الحديقة. . . وفي المزرعة. . . وفي كل مكان. وكم من مرة ارتطمت سكة محراثي بجمجمة كهذه، حتى لأصبحت وما أكاد أحفِل بها أنّي أجدها. نعم؛ إن آلافاً وآلافاً من الرجال البواسل طحنتهم رحى القتال فلم تبق منهم إلا أشلاء مختلطة؛ في يوم هذا النصر
الذي ارتفع ذكره ودوى صداه!
فهتف (بيتركين) في دهشة: ولكن. . . قل لي يا جدي علام اصطرع هؤلاء الرجال. وفيم استباحوا لأنفسهم أن يَحْضَأوا نار هذه الفتنة المبيرة، ويتساقوا بأيمانهم كؤوس المنية دهاقاً؟. . .
وأصغتْ ولهلمينا إلى الجواب في لهفة، وقد حدقت في وجه جدها بعينين مستطلعتين
قال الشيخ الهرم: هذا سؤال لا يحضرني جوابه؛ ولكني سمعت الجميع يقولون: إنه كان انتصاراً رائعاً تردَّد صداه في كل مكان. . .
كان أبي يقيم يوم ذاك في (بِلِنْهايم) خلف هذا المجرى القريب؛ ولقد أضرم المتحاربون النار في بيته حتى تداعت أركانه وانهار بنيانه؛ فلاذ بأذيال النجاة، وشرد هائماً في السهل العريض، مع زوجة مكروبة، وطفل مزءود، يطاردهم الموت أنى ذهبوا، وتسد عليهم كوارث الحرب كل مسلك. . . فما يملكون لها دفعاً، ولا يجدون لهم من دونها موئلا. . .
لقد فعل الحديد والنار فعلهما في هذه الأنحاء، وانبثت نذر الهلاك والدمار فيها طولاً وعرضاً؛ حتى لذهلت كل مرضعة عما أرضعت، ووضعت كل ذات حمل حملها. ولكم من شيخ مات إعياء وضعف؛ وطفل اخترم جزعاً وخوفاً. . . ولكن أشياء كهذه تحدث

دائماً - كم تعلمان - عند كل انتصار كبير!
إنهم ليتحدثون في ارتياع وذهول، عن بشاعة المنظر الذي كانت تقع عليه العين يوم انجلى غبار المعركة عن أكداس فوق أكداس من أشلاء ممزقة، وهامات مفلقة؛ قد صهرتها حرارة الشمس، ودب فيها دبيب البلي. ولكن هكذا الشأن في كل نصرة: مسرة تحفها الآلام، ونعمة يعاتقها الشقاء، وتسد سبيلها الكوارث والمفجعات. . .
لقد طوقت هذه الحرب (دوقَ مارلْبوردُ) بهالة من المجد والفخار، وأكسبه صدق بلائه فيها محبة وثيقة من كل قلب، وثناء رطيباً على كل لسان. وكذلك حظي أميرنا المحبوب (أُوجين) بقسط من الحمد عظيم، ونصيب من الثناء وافر. . . فاعترضت ولهلمينا تقول: عجباً! وفيم كل هذا؟ لقد ارتكبا والله شناعة، وأتيا أمراً إدًّا.
قال الشيخ في حدة: كلا، كلا يا فتاتي العزيزة؛ إنه لانتصار رائع وفوز مبين؛ وإن الجميعَ ليثنون على الدوق الشجاع الذي بلغ بمقدرته تلك الغاية، وسجل هذا النصر الأغر. . .
وهنا عنَّ لبيتركين أن يسأل بدوره فقال:
ولكن حدثني يا جدي عما أفاده الناس من هذه المعركة الطاحنة، ذات الحوادث الرهيبة!
فأحس الشيخ بالحرَج. . . وكأنما قد فرغ رأسه بعد أن نفض عنه كل ما يعلم، فقال في لهجة من يختتم الحوار:
لا أستطيع يا بني أن أقول في هذه المعركة شيئاً، سوى أنها كانت نصراً حاسماً تردَّد صداه في كل مكان!!
(جرجا)
محمود عزت عرفة
البريدُ الأدبي
محاولة قديمة جريئة في الفقه الإسلامي
كنت أعتقد إلى إطلاعي على هذه المحاولة أن عصرنا هو الذي يمتاز بهذه المحاولات الجريئة في الفقه الإسلامي، لأنه يمتاز على ما سبقه من العصور بما جد فيه من ظروف وأحوال انتهت بإبطال العمل بهذا الفقه في قسم المعاملات، فكان هذا سبباً في تلك المحاولات الجريئة التي يقصد منها تطويع هذا الفقه لمجاراة الظروف والأحوال، وإيثار العمل بروح الشريعة السمحة على الوقوف عندما تقضي به النصوص والألفاظ
ومن تلك المحاولات ما ذهب إليه بعضهم من أن الإسلام كغيره من الديانات لا يراد منه إلا تهذيب الروح، فلا يكون من صميمه إلا قسم العبادات؛ أما قسم المعاملات، فهو قسم دنيوي يقبل التغيير والتبديل، ولا يثبت على حال واحد كقسم (العبادات)
ومنها ما ذهب إليه بعضهم في مجلة (الرسالة) الغراء من تقسيم الإسلامي إلى دائم ومؤقت، وجعل قسم المعاملات من التشريع الثاني، لأنه صدر عن النبي صلى الله عليه وسلم بشخصية الإمام المجتهد، لا بشخصية الرسول المبلغ عن الوحي، وهذه المحاولة هي المحاولة الأولى بعينها في ثوب جديد وتمتاز عليها بقوة الأساس الذي بنيت عليه، وأنه كان بحيث لم يسع بعض المنكرين لتلك المحاولات، إلا قبوله بدون قيد ولا شرط.
أما تلك المحاولة القديمة، فقد ذكرها أبو جعفر النحاس في كتابه - الناسخ والمنسوخ - وجعلها مذهباً لبعض المتأخرين في النسخ، وهو يعني بالمتأخرين من جاء بعد الصحابة والتابعين؛ فقد ذكر لهم مذاهب في النسخ منها ما ذهب إليه بعضهم من أن يكون في الأخبار والأمر والنهي؛ وقد قال في رده: وهذا القول عظيم جدًّا يؤول إلى الكفر، لأن قائلاً لو قال: قام ثم قال: لم يقم؛ ثم قال: نسخته لكان كاذباً
ومنها هذا القول الذي يتضمن تلك المحاولة، وهو أن الناسخ والمنسوخ إلى الإمام ينسخ ما شاء، ولا شك أن المحاولتين السابقتين إنما تقصدان إلى هذه الغاية، وترميان إلى إعطاء الإمام هذه الحق؛ وقد قال أبو جعفر في رد ذلك القول: وهذا القول أعظم، لأنه النسخ لم يكن إلى النبي صلى الله عليه وسلم إلا بالوحي من الله؛ إما بقرآن مثله على رأي قوم، وإما بوحي من غير القرآن؛ فلما ارتفع هذان بموت النبي صلى الله عليه وسلم ارتفع النسخ.

(أزهري)
غطاء الرأس والأزياء
أجابت لجنة الفتاوي الأزهرية على سؤال وجه إليها من جمعية المشروعات الخيرية الإسلامية ببيروت في صدد غطاء الرأس والأزياء، بأن (الدين الإسلامي لم يفرض على الناس زياً خاصاً، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد لبس الملابس العربية التي كانت في وقته، والملابس غير العربية التي وصلت إليه، غير أن الإسلام استثنى من ذلك ما كان خاصاً بالطقوس الدينية أو كان مميزاً لطائفة من الطوائف غير الإسلامية، وإذ أن الطربوش والمعطف والسترة والبنطلون والبيجامة، ليست ملابس خاصة بطقوس دينية فإن لبسها للرجال جائز. أما البرنيطة فلم تعد زياً خاصاً لفريق من الناس، فيجوز لبسها في الأقطار التي تعد البرنيطة من الملابس الشائعة دون الأقطار التي تعدها من الملابس الخاصة بغير المسلمين)
أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً
يقول الدكتور زكي مبارك في إحدى كلماته: (قال الرسول عليه السلام: أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً. وقد أول قوم هذا الحديث فقالوا: إن نصر الأخ الظالم هو نهيه عن الظلم. وأقول إن الحديث الشريف يرمي إلى غاية لم يفطن لها أولئك المؤولون، وهو عندي دعوة إلى العصبية الأخوية، وهي الغاية في شرف الإخاء، وتلك العصبية توجب أن تكون في صفوف الإخوان ولو كانوا ظالمين، لأن الوداد الصحيح هو الاشتراك الوثيق في المحاسن والعيوب)
وهذا القول من شطحات الأديب الكبير، فإن النبي (ص) لما قال هذا الحديث سأله صحابته: قد علمنا أننا ننصر أخانا مظلوماً فكيف إذا كان ظالماً؟ فأجاب الرسول ما معناه: نصرته إذا كان ظالماً تردوه عن ظلمه. وهذا ما ذكر المحدِّثون عند رواية هذا الحديث؛ ولكن الدكتور عفا الله عنه أتى على صدر الكلام وتناسى عجزه.
وقال بعضهم إن هذه الكلمة قد أثرت عن العرب في الجاهلية ولكنهم قالوها على مذهب شاعرهم القائل:
لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... في النائبات على ما قال برهانا!
والقرآن والسنة يا دكتور لا يقال فيهما: (وهو عندي. . .) خصوصاً إذا سدت الرواية والأسانيد السبيل أمام الظنون والآراء، ورضى الله عن أبي بكر الصديق إذ يقول: (أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني، إذا قلت في كتاب الله برأيي!)
(البجلات)
أحمد الشرباصي
ذكرى الشاعر عبد الحليم المصري
حفل مسرح الأزبكية في الأسبوع الماضي بجمهرة من الأدباء والشعراء ورجال القلم احتفلت بذكرى الشاعر الكبير المرحوم عبد الحليم المصري برياسة صاحب المعالي نجيب الهلالي باشا وزير المعارف. وقد تفضل حضرة الجلالة الملك فأوفد صاحب العزة محمود يونس بك التشريفاتي لحضور هذا الاحتفال. وقد تعاقب الخطباء على منصة الخطابة فألقوا كلمات وقصائد عددوا فيها ما كان لهذا الشاعر من آثار على دولة الشعر والأدب في مصر. ثم اختتمت الحفلة بكلمة ألقاها اليوزباشي عصام حلمي المصري عن أسرة الفقيد شكر فيها للمحتفلين شعورهم
وقد عاش المرحوم عبد الحليم المصري فيما بين سنة 1887 وسنة 1922 ومات في منتصف العقد الرابع من عمره، وقرض الشعر في سن الثالثة عشرة. وأخذ نجمه في الشعر والأدب يصعد وهو في سن السابعة عشرة. وقد أفرد لمنشئ مصر الحديثة المغفور له محمد علي الكبير ديواناً خاصاً. وقربه المليك الراحل وعينه أميناً للمكتبة الملكية، ومات في اليوم الثاني من شهر يوليو سنة 1922، وكان يجري في الشعر على مذهب حافظ
الفدائية
ذكر الدكتور محمد حسني ولاية في مقاله (الشخصية الهستيرية في الرسالة: ومن الطرق التي يلجأ إليها الهستيري في كفاحه لنيل تقدير الجماهير إنكار الذات (ظاهراً) والفدائية، واستعذاب العذاب في سبيل تحقيق المبادئ السامية
فهل للدكتور الفاضل أن يتفضل فيبين لنا المبادئ التي كانت تعمل من أجلها جماعة

الفدائيين، وهل كانت هذه المبادئ من السمو بحيث يضحي الفدائي نفسه في سبيل كل غاية تفيد الإنسانية، أم أن الدكتور الفاضل أراد بذكرهم في مثاله مجرد التشبيه فقط، باسترخاصهم النفس في سبيل غاياتهم.

وأنى لرد الدكتور الفاضل لمنتظر، فقد تعددت الآراء، وتضاربت الروايات بشأن هذه الجماعات. وللدكتور الفاضل خالص الشكر ووافر الامتنان

مصطفى عبد المجيد جابر

حول ترتيب القرآن

لا شك في أن ترتيب السور في القرآن الكريم الذي بأيدينا قد بُني على قاعدة معقولة مما أرضت جميع المسلمين على اختلاف طبقاتهم. . . فما هي هذه القاعدة التي رُتبتْ السور القرآنية بموجبها؟ أروعي في ترتيبها كبر السورة أم سبق النزول، وكلا الأمرين - كما هو ظاهر لم يراع في ترتيبها

فيا حبذا لو التُفتَ لهذا الموضوع الجليل وأُعطي ما يستحقه من العناية على صفحات (الرسالة) أسوة بالمواضيع الخطيرة التي تتناولها

قضاء الهندية - العراق

عيدان رشيد الكاتب

المهرجان الأدبي الرابع

يعتزم نادي الخريجين بالخرطوم إقامة المهرجان الأدبي الرابع في عيد الفطر المبارك المقبل وقد شكلت لهذا الغرض لجنة خاصة وهي الآن في حركة دائمة ونشاط متواصل وبدأت عملها بتوجيه الدعوة بالصحف السيارة لحملة الأقلام وقادة الفكر ليتأهبوا لهذا الحدث الأدبي الهام، وشفعت نداءها ببرنامج شامل للموضوعات التي ينبغي أن تلقى في تلك السوق الأدبية الحافلة

واللجنة وطيدة الأمل أن يساهم الأدباء المصريون الأعلام وغيرهم من أدباء الأقطار العربية الشقيقة في هذا العيد الأدبي بإرسال ما تجود به قرائحهم الوقادة برسم سكرتير (المهرجان الأدبي الخريجين بالخرطوم)

وفق الله الجميع لإعلاء كلمة الأدب والنهوض بلغة الضاد

حيدر موسى

من هيئة السكرتارية

كتاب (ديكارت) للأستاذ عثمان أمين

هذا الكتاب كسب للمكتبة العربية، ومذهب جديد في دقة البحث وحسن العرض. وما ظنك ببحث يعرض لك نوع الحياة التي عبرها لتقف على بواعث فكره الأصلية، ويبين لك كيف تفتحت هذه البواعث عن أفكار كملت واستقامت؛ ويريك كيف اقترع ديكارت منهجه الجديد ومذهبه الفلسفي، كل أولئك مع حيوية دافقة في بيان مواضع الخلاف بين ديكارت ومن سبقه من الفلاسفة، وإبداع في مناقشته تأويلات الفلاسفة لمذاهب ديكارت وأخلاقه. . . في أسلوب جلي واضح يقرب أغراضه من الفهم ولا ينبو عن الغرض. إن كتاباً يكون هذا منهجه ويكون موضوعه فلسفة ديكارت لهو كتاب حقيق أن يوفى حقه وواجب أن يحسن استقباله

وبعد فما نخالف المؤلف الفاضل إلا في ناحية واحدة لا تذهب بجلال البحث وهي قوله بأن تخلف ديكارت عن نصرة (غاليلي) لم يكن عن خوف وإنما كان عن رغبة في الهدوء!

ونحن نقول إنه كان عن خوف عارم، فقد كان الرجل شديد الحرص على أفكاره قوي الدفاع عنها. وإن مناقشاته الكثيرة مع ناقديه لتنهض دليلاً على ذلك، فهو كان يخشى أن تعارضه الكنيسة، فلا يستطيع أن يصاولها فتسكت! والسكوت عند من يتوهج غيرة على أفكاره أمر شديد وجيع. . . وإذن فقد آثر ديكارت السكوت عن نصرة (غاليلي) خوفاً على فلسفته ورهبة من الكنيسة

ولو كان ديكارت كشف عن رأيه في موقف الكنيسة من غاليلي لضاعت تلك الفلسفة التي وضعت للنفس روحية ثابتة، وقررت بفيزيقيتها (اليقين العلمي) و (الوجود الكوني)

حسين محمود البشبيشي
لحم اصطناعي
حلت بنا أزمة اللحوم ومحنة حظر اللحوم فماذا أوحت إلينا؟ لقد أشعرتنا بالحاجة إلى بديل للحوم يشبهها من جميع الوجوه ويغني عنها: أي لحم اصطناعي. وسيزداد شعور العالم في المستقبل بهذه الحاجة لا بسبب الحروب بل بسبب تطور المدنية. نعم سوف ترهف مشاعر الإنسان فيشعر باحتجاج صامت من الحيوان الأعجم على سفك دمائه، وستنمو غريزة الشفقة وتطغى على البشر فلا يعودون يرون أن ذبح الحيوان يختلف عن ذبح الإنسان. ستسود المحبة والتآخي بين الإنسان والحيوان وتنسى الطيور غريزة الخوف من الإنسان فتراها لا تطير مدبرة إذا أقبل عليها بل تستقبله هاشة باشة مغردة بالتحية. وستتضح للناس أضرار صحية وخلقية لأكل لحم الحيوان، وغن من أكل لحم الحيوان قد تسربت إلى الإنسان ميول حيوانية وتفكير حيواني. وسينتصر العلم في إنقاذ الموقف باختراع لحم اصطناعي أشهى وأفضل من لحم الحيوان. وليس في هذا القول بدعة، فقد سار العالم فيه شوطاً ليس بالقصير، وانتشرت المطاعم النباتية في عواصم أوربا وتأسست فيها جمعيات لمكافحة أكل الحيوان، وصارت المصانع تخرج كل يوم أنواعاً جديدة من مستحضرات غير حيوانية تستعمل بدل اللحوم في شكل خلاصات لها طعم اللحوم أو دجاج أو السمك. حتى محار البحر أمكن تقليده. وعمد البعض إلى تقليد ألياف اللحوم لتقطع بالسكين على المائدة كأن عملية القطع بالسكين في حد ذاتها لذة

وأُسجل مع الأسف أن مطاعم القاهرة لم تظهر تفنناً كافياً في مقابلة نظام حظر اللحوم، ولم تبتكر أي طعام جديد خلاف الأطعمة العتيقة المشهورة. وذلك على رغم توفر الخضر والفواكه واللبن والبيض في بلادنا. حقاً لقد تجلت حاجتنا إلى إنشاء معهد للأغذية

دكتور علي عبد السلام

العدد 471 - بتاريخ: 13 - 07 - 1942

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

تأريخ عصر النبوة

قرأت في مجلة (الثقافة) مقالاً جيداً للأستاذ محمد مندور عن اتجاه رجال الأدب في العصر الحديث، فرأيت أن أخصه بشيء من التعقيب، عساه يلتفت إلى تحرير آرائه بعض الالتفات فهو صديقٌ عزيز وله علينا حقوق. واكتفى بالتعقيب على العبارة الآتية: ما بالُ معظم كتّابنا قد انتهوا بالكتابة عن (محمد)؟ أهو إيمان من يشعر باقترابه من اليوم الآخِر؟ ذلك ما نرجوه. ولكن ثمة أمرٌ لا شك فيه، وهو أننا قد وصلنا من التزمت حدّاً نبرّئُ منه كل الأديان على السواء)

ومعنى هذه الفقرة أن الكتابة عن الرسول ضربٌ من المتاب، وأنها دليل على ابتلاء الجمهور المصري بالتزمت والجمود.

وأقول إن هذا التصور المنحرف ليس بجديد، فقد سبقته أوهامٌ تزعم أن الحديث عن الرسول بابٌ من الرجعية، وأن الاشتغال بأخبار النبي وأصحابه فنٌّ من التودد إلى الجماهير، وهي تحب الإفاضة في أمثال هذه الشؤون (؟!)

والحق أن عصر النبوّة الإسلامية يحتاج إلى دراسات كثيرة، وأن ما كُتب فيه لهذا العهد ليس إلا تباشير لدراسات تستغرق مئات المجلدات، لأن ذلك العصر كان مطلع نهضة إنسانية تركت أعظم الآثار الروحية والعقلية في المشرق والمغرب، وصبغت التفكير الإنساني بألوان تحتاج إلى من يدرسون عناصرها الجوهرية بتعمق واستقصاء

وإذا جاز اتهام المهتمين بتأريخ عصر النبوة بالغايات الدنيوية أو الأخروية، فلن يجوز القول بأن ذلك العصر قد وضّح في أذهان الجماهير وضوحاً يغنيهم عن التأليف الكاشف لما فيه من أسرار وآيات

ولو نظرنا في ما كتب الأوربيون في مدى عشرين سنة عن شاعر من شعراء الأساطير مثل هوميروس لوجدنا عنايتهم به تفوق عناية العرب بتأريخ حياة الرسول في مدى أجيال، مع العلم الوثيق بأن الرسول العربي ترك في الوجود آثاراً تفوق آثار من سبقه من الأنبياء، بّلْه الشعراء

لم يقلْ أحد إن هيكل كان رجعيّاً حين ترجم لجان جاك رُوسُّو، ولم يقل أحدٌ إن العقاد كان رجعيّاً حين ترجم لابن الرومي، ولا قال قائل برجعية طه حسين حين ترجم لأبي العلاء، ولكن الرجعية أصابت هؤلاء الأساتذة حين شغلوا أنفسهم بتأريخ عصر النبوّة، لأنه مصدر من المصادر الدينية، وأهل هذا الزمان يرون الحديث عن الديانات من المبتذلات!

أنا أبغض الرياء كل البغض، وأنا أسأل الله أن يصبّ جام غضبه الماحق على المرائين، ولكن ذهني لا يسيغ أن يكون ما كتب هيكل وطه والعقاد عن الرسول ضرباً من الرياء، لأن كتاباتهم في هذا الموضوع كتابة أصيلة، والكتابة الأصيلة لا تصدُر إلا عن ذوق وروح وإيمان

وقد حدثتكم مرة أن الدكتور طه حسين ليس له من (هامش السيرة) غير قصة الراهب في الجزء الأول. والأمانة توجب أن أحدثكم أن ناساً في العراق أخبروني أن في الجزء الثاني فصولاً أفاضت عيونهم بالدمع، فهل يبكي القارئ قبل أن يبكي المؤلف؟

أرجوكم أن تذكروا أن في الأدب العربي المصري لهذا العهد أصالة روحية وذوقية تستحق الإعجاب، ولو أعفتنا الخطوب مما يعوّق النهضة الأدبية في مصر لرجونا أن يكون للبيان العربي عصرٌ جديد يفوق في روعته أجمل ما أُثِر عن عصر بني أُمية وبني العباس، ونحن قد تفوقنا بلا ريب، ومحصولُنا الأدبي وصل إلى غاية من الروعة لم تخطر لأحد من القدماء في بال

وخلاصة القول أن تاريخ عصر النبوة لم يأخذ من عنايتنا كل ما يستحق، لأنه ليس مصدر ثروة روحية فحسب، وإنما هو مصادر لثروات أدبية واجتماعية وتشريعية. وتاريخنا الأدبي أجاز أن تؤلف رسالة في إعراب (جاء زَيْدٌ) فكيف يُنكَر أن تؤلف رسائل في حياة الرسول؟

وهنا مَلْحَظٌ آخر: هو صدور المباحث الدينية في هذه الأيام من رجال ثقافتهم مدنية. فما معنى ذلك؟ معناه أن الإسلام بريء من الصبغة الكهنوتية، وأن كل مسلم مسئول عن شرح أغراض الدين الحنيف، ولو جهل موقع البلد الذي تقوم فيه إدارة الأزهر الشريف

حدثني أستاذنا الشيخ المراغي قال: (الإسلام خسارة في هؤلاء المسلمين). وهي كلمة هزّت قلبي حين سمعتها من هذا الرجل العظيم، فلو كان الإسلام دين أمة مثل الأمة الإنجليزية أو

الأمة الألمانية لاستقلّ أتباعه أن يُنشر عنه في العام الواحد عشرات المجلدات

بين الأزهر والجامعة المصرية

نشرت (الرسالة) كلمة للدكتور محمد البهيّ عن المستوى الجامعي في مصر بين الأزهر والجامعة المصرية، وهي كلمة تؤكد المعنى الذي أراده أحد الشعراء حين قال: اقتلوني ومالكاً ... واقتلوا مالكاً معي

فقد أراد أن يحكم بالعُقم على الأزهر وهو من أبنائه ليسهل عليه الحكم على الجامعة المصرية بالإفلاس!

والحق أن الجامعة أدخلت في الحيَواتَ الأدبية والعلمية والتشريعية فنوناً جديدة متسمة بالقوة والإشراق. ومن الظلم أن يقال: (إن الكثير من مؤلفات الجامعيين يلازمه الغموض في التعبير عن الفكرة، ويندر أو تنعدم فيه شخصية المؤلف)، فهذا القول يشهد على قائله بالبعد عن مسايرة النشاط الجامعي في الميادين الأدبية والعلمية والتشريعية، ويضيفه إلى المتجنين على الجامعة بلا بينة ولا برهان

نحن لا نقول بأن كليات الجامعة المصرية وصلت إلى الكمال المطلَق، ولكننا نرفض القول بأنها خدعت (عقلية الرأي العام المصري) كما قال هذا الباحث المفضال، فقد صدرت عن الجامعة المصرية مؤلفات وأبحاث ودراسات لم تشهد مثلها اللغة العربية منذ أجيال طوال؛ والمنصفون من رجال الأزهر الشريف لا ينكرون ذلك المحصول النفيس

ليت وهل ينفع شيئاً ليت؟

ليت المنافسة العلمية تثور بين الأزهر والجامعة المصرية!

ليت الأزهريين يجارون الجامعيين في البحث والتأليف، وفي السيطرة الفكرية على

شباب هذا الجيل؟
لو استطاع الأزهر أن يصاول الجامعة لضمنتُ للفكر الجديد جذوةً كريمة الروح، ولكن الأزهر مكتف بمكانته في التاريخ، والموت من نصيب من يكتفون بالتاريخ
الجامعة المصرية هي اليوم صوت مصر في الشرق، وهي التي تشرع المبادئ للمعاهد العالية في الأمم الشرقية، فليأخذ الأزهر من يدها هذا الصولجان إن استطاع، فهل يستطيع؟
ليت ثم ليت!! وهل ينفع شيئاً ليت؟!
روح الغزالي ينتقم
إن كان في قراء (الرسالة) من يرضى عن مقالاتي في هذه الأيام فأنا عن تلك المقالات من الساخطين، لأنها بعيدة عما أريد أن أقول، ولأنها تصورني بصورة من لا يشعر بما في الدنيا الحاضرة من هموم وأرزاء
وقد نظرت فعرفت أم روح الغزالي ينتقم مني، فقد جاء في (كتاب الأخلاق عند الغزالي) ما نصَّه بالحرف:
بينما كان بطرس الناسك يقضي ليله ونهاره في إعداد الخطب وتحبير الرسائل لحث) أهل أوربا على امتلاك أقطار المسلمين، كان الغزالي غارقاً في خلوته، منكبّاً على أوراده، لا يعرف ما يجب عليه من الدعوة إلى الجهاد. ويكفي أن نذكر أن الإفرنج قبضوا على أبي القاسم الرملي الحافظ يوم فتح بيت مقدس، ونادوا عليه ليُفتَدى فلم يَفده أحد، ثم قتلوه وقتلوا معه من العلماء عدداً لا يحصيه إلا الله، كما ذكر السبكي في الطبقات. . .
وما ذكرنا هذه المأساة إلا لنعدّ القارئ لفهم حياة الغزالي، ولنقنعه بأنه ليس من الحتم أن يكون الرجل الممتاز بعلمه صورةً لعصره، فإن كُتب الغزالي لا تنبئنا بشيء عن تلك الأزمة التي عاناها المسلمون حين ابتدأت الحروب الصليبية. . . ومن الخطأ أن نقصِر الأخلاق على سلوك المرء كفردٍ مستقلّ عن الحياة الاجتماعية، فلكل ظرفٍ واجباتُه، ويتعسر وجود حالة لا تقضي فيها الأخلاق)
كذلك قلتُ في التثريب على الغزالي بلا ترفق ولا استبقاء، فأين أنا اليوم؟ وما صلة ما أكتب بظروف هذه الأيام؟ وماذا يقول الإخلاف إذا نظروا فرأوا أن مقالاتي في سنة 1942 خَلتْ من الحديث عن معترك المطامع الأوربية في الأقطار الإسلامية؟
هل يوجد في الإخلاف المنتظرين من يعتذر عني فيقول إن الأدب الصِّرف كان في سنة 1942 باباً من أبواب الجهاد، وإنه كان يجوز للأديب أن يصم أذنيه عن أصوات المدافع ليتسمّع صرير الأقلام؟
لو اعتذرتُ عن الغزالي لوجدت من يعتذر عني. وكما يدين الفتى يُدان!
تقاليد مصرية
لم يبق ريبٌ في أني مفتونٌ بوطني أعظم الفتون، ولهذه الفتنة أسبابٌ أهمُّها الشعور بأنه وطنٌ يمجد الذاتية، ويعين أهل الكرامة على الظفر بشرف الحرية والتفرد والاستقلال
وآيةُ ذلك أني قضيت من عمري ما قضيت في التمرد على أهل زماني، ولم أسمح لأحد بأن يأخذ بيدي في أي وقت، ولا رضيت بأن يكون زمامي في يد أي مخلوق، فكيف كانت العواقب؟
لم يضع مني شيء، ولا أُغلق في وجهي باب، ولا استجاز أحدٌ أن يتناسى أنني استغنيت بالله عن الناس. . . وهل أموت يوم أموت إلا بسبب الإفراط في الطعام والشراب؟
العزَّةُ لله ولرسوله وللمؤمنين، وقد أكرم الله مصر فجعل للروح المصري خصائص لم يَهَبْها لأحدٍ من الشعوب
ولتوضيح جزئية من جزئيات هذا المعنى الكليّ أقول:
كانت مصر أول أمة انتفعت بالإذاعة اللاسلكية بين أمم الشرق، وقد رأت مصر أن يكون (القرآن) فاتحة إذاعات الصباح، وريحانة إذاعات المساء
فماذا وقع؟
رأت جميع الأمم الإسلامية أن تلاوة (القرآن) شرطٌ في صحة الإذاعة اللاسلكية
ثم ماذا؟
ثم رأى الإنجليز والألمان والطليان والفرنسيين أن إذاعاتهم العربية لا تصح إلا إذا

افتُتحت بالآيات القرآنية
فما معنى ذلك؟!
معناه أن (مصر) وضعت شريعة للإذاعة اللاسلكية باللغة العربية
ومعناه أن مصر هي صوت العروبة والإسلام في الشرق والغرب
وطني. . .!
إن سنبلة القمح في أرضك أعظم من أختها في أي أرض!
وإن لوزة القطن في أرضك أعظم من أختها في أي أرض!
وما سطعت الشمس في سماء بأقوى مما تسطع في سمائك، ولا ازدان رأس بأكاليل المجد الأصيل كما ازدان رأسك، ولا ضُربَ المثل بالحلاوة والمرارة قبل المأثور من حلاوة
نهرك، ومرارة بحرك. . .
وطني. . .!
إن المسيحية تؤرِّخ في كل أرض بميلاد المسيح، وفيك وحدك تؤرَّخ المسيحية بعذاب الشهداء، لأنك وطن المعاني!
وفي الإسلام مذاهب لا تجتمع في بلد إلا ذاق بعضها بأس بعض، وفيك وحدك تلتقي جميع المذاهب الإسلامية بلا بغي ولا عدوان، لأنك وطن الإخاء!
وطني. . .!
إن جنى أحدٌ على نفسه بالغباوة والدمامة، فجنايتك على نفسك هي ذكاؤك وجمالك، يا معترَك الذكاء والجمال في كل عصر وفي كل جيل
وطني. . .!
ماضيك أعظم وأضخم وأشهر من أن يحتاج إلى بيان، فما أنت في حاضرك، وهو ما أعرف وتعرف؟!
هل استطاعت الخطوب الثقال أن تطفئ أنوارك، أو تخمد نيرانك، أو تذبل ازهارك، أو تغيض أنهارك، أو تصدّك عن التحليق في سموات العلم والفكر والبيان؟
لو عانت كبار الشعوب معشار ما عانيتَ، يا وطني، لشالت كفتها في ميزان التاريخ، فكيف استطعت أنت برغم ما عانيت أن تظل مصدر العقل في الشرق، وأن تهتدي بنورك في اللغة والدين مئات الملايين؟
لا إله إلا الله ولا وطن إلا مصر!
ذلك نشيدي في حبك يا وطني، ولن تراني إلا حيث تحب، ولن يراني أعداؤك إلا حيث يكرهون، ولو زعموا أنهم في طهر ملائكة السماء!
الدول تحترب من أجلك، فكيف لا أحترب من أجلك؟ وكيف أهادن خصمائي فيك، وأنت صرحُ أقام أساسه واهب الخلود؟!
في يدي حسامٌ هو قلمي، وفيه الحتف لأعدائك يا وطني، ولو استظهروا بجيوش البر والبحر والهواء. . . اللهم أعني على الوفاء بالعهد للوطن الغالي
زكي مبارك
جيل وجيل
حيوية الفكر
للأستاذ محمود البشبيشي
- حيوية الفكر وليدة الفطرة - تكوين الشخصية والحيوية
- الاتزان مع البيئة - الحيوية في الأدب - عبقرية محمد
الأستاذ الزيات - آدم وحواء والدكتور مبارك - الحيوية في
- الشعر - وأرواح وأشباح
نصل حوارنا اليوم بفيض من الفكر، ينساب انسياب الطبيعة الحية في كل شيء، ويتألق تألق الشعاع اللماح يبيد غياهب الظلمات وتفتر مباسمه عن أنوار من الطفرات العقلية الطيبة الغاية، المأمونة العثار؛ فليس أحب إلى الكاتب المفكر من أن ينشر ما اضطرب في صدره من الخواطر، وجال في خاطره من المعاني. وحديث اليوم حديث الحيوية في الفكر
قلت لولدنا حسين: لنصل اليوم ما انقطع من حوارنا ففيه مسرح يروق عيني، ومستروح يبهج نفسي، مع ما في ذلك من مصابرة لمكاره الفكر المستغلقة، ومعالجة

لأسرار الأمور. ولنرجع إلى حديث الحيوية الذي حدثني عنه في أول الأمر، فقد جدت أمور حركت ما كمن، وبعثت ما خمد

قال: أما العودة إلى الحوار فإني لأجد فيها من مباهج الفكر، ومراقي الإدراك، وفواتن المعاني. . . ما يسكن نفسي النفور، ويطرب قلبي المتطلع إلى مطالع المعرفة. وأما حديث الحيوية فأنا مشتاق إليه بما طبعت عليه نفسي، وانطوى عليه حسي، واضطرب به فكري. . . ولعلني اليوم أجد ما يثبت ما قلت بالأمس من أن الحيوية في كل شيء هي سر البقاء، وأن الرجل الحق من خلع على الحياة صور نفسه، وأخذ من صور الحياة ما يتجانس معه، ويساير حقيقته، ويلابس حدود حاجته

ولكن الحيوية يا سيدي الوالد وليدة الفطرة، مهما اختلفت صورها، وتباينت مناهجها، وتنافرت مقاصدها. وإن الحيوية الفكرية خاصة لأبعد من أن تنال بالاعتياد والدربة وان من ظن ذلك فقد قرنها بالصنعة، وفرق بين الطبيعة والصنعة. أما الطبيعة ففيض من الروح ونور من الإلهام، وأما الصنعة فألفاظ مرصوصة وصور منحوتة. وهيهات أن يصل كاتب حرم حيوية الفكرة إلى مراتب الكمال، فإن ذلك أبعد من تحقيق حلم الخيال.

وفي مصر كثير من صناع الألفاظ، ونقلة الأفكار. وإنك لترى العجب كلما قلبت مجلة من المجلات؛ فهنا كاتب بلغ الغاية فاطمأن وظن أن على القارئ أن يقرأ كل ما يكتب ولو كان من عبث العابثين. وهناك كاتب انسلخ من ماضيه وساير ركب الحياة الضارب في كل متاهة ومضلة

قلت: حق هذا يا بني؛ بل إن الحيوية الفكرية لتكسب الكاتب شخصيته، وشخصية الكاتب في أسلوبه، وطريقة عرضه لأفكاره، ونقده لأفكار غيره، ونظرته وتأمله إلى كل ما يضطرب حوله من صور الحياة. فهذا كاتب اختصت حيويته بالنظرة النافذة، والرأي العميق، والفكرة الفلسفية. . . فتراه في كل مظهر من مظاهر إنتاجه قد ساير طبعه، وجانس حيويته. إن من الأفكار ما يكون باقياً على الدهر، يتنافس الرواة في حفظه ونقله، وتلهج الألسنة بترديده والتمثل به، ولا يزيد على الأيام إلا جدة وقوة؛ لأنه وليد مشاعر حية إنسانية، وعصير قلوب ذابت فجرت نغما. ذلك النوع من الفكر هو ما قام على قواعد من الحيوية، تحس في كل لفظ من ألفاظه حياة لا تقيدها الكلمات، ولا تتحكم فيها العبارة؛ هذا النوع من الفكر يساير الحياة لأنه وليد الحياة، ويضرب في نواحيها المتباينة فيكون منطقه فصلاً، وحكمه نافذاً. . . لا يسأم الإنسان من تكراره، ولا تنفر الآذان من سماعه، لأنه نغم القلب وصدى الروح

قال: إذا صح أن الحيوية تكوِّن الشخصية. . . فإنه يصح أيضاً أن تكون الحيوية الأساس الأول للاتزان مع البيئة. وأقصد بالاتزان مع البيئة مسايرتها وملابستها أصدق المسايرة والملابسة. . . فترى الكاتب المفكر الذي يخضع لحيوية قوية يحس مواضع القول، ويجيد اختيار المناسبة؛ ولاختيار المناسبة موضع وحدود، وليس من الحيوية أن يتخطاها الكاتب أو يعجز عن إدراكها. . . فقد تتواري السحب وراء الأفق البعيد فيظن الكاتب الذي تعود أن يرسل نفسه على سجيتها أن السماء صادقة في صفوها فيندفع وراء ما يحس هو لا ما يحس غيره، ويجري وراء ما يراه هو لا ما يراه المجتمع. . . فإذا به يقف أمام الحقيقة

المرة، وإذا به يرى أن الأفق لم يك في صفائه صادقاً، وإذا به يطوي صفحة أفكاره وفي النفس حسرة وفي القلب ألم. . . ما الذنب الذي جنى؟ وما الشر الذي اقترف؟ الذنب الذي ارتكبه أنه لم يدرك معنى الاتزان مع البيئة فترك الأرض ليبحث في السماء. وما علم أن على الأرض من يجزع ويحقد على كل من يحاول الخلاص من قيود التراب الأرضي!!

قلت: هذا كلام يشعرني بأنك تريد أن تقول شيئاً وراء اللفظ، أو أنك تميل يا بني إلى توجيه القول لكاتب كبير فاضت حيويته وضاقت بقيود الأرض وكل ما يتصل بمعانيها. أكاد أشعر بهذا ولي الحق في أن أشعر به، بل أكاد ألمس غضبك كلما تذكرتَ اختناق تلك المعاني الرائعة التي انطلقت في غفوة من الزمن من روح هذا الكاتب الكبير. ولكن هذا الكاتب الكبير يعلم حق العلم أن الحيوية تفرض عليه الاتزان مع البيئة فلا محل للومه هو. . . بل اللوم كل اللوم لحيويته الدافقة التي ضاقت بالأرض فانطلقت إلى السماء. . .

الحيوية يا بني لها أكبر الخطر في الأدب. فالحيوية الفكرية ليست حبساً على غزارة

مادة الكاتب أو الشاعر، ولا هي رهن بمقدار ما يروى عنه، وإنما هي سر من أسرار النفس والفطرة. يودعه الكاتب أو الشاعر قوله فيضمن له على الدهر الخلود. فإن من الشعر ما تزداد فيه الحيوية حتى لا تقف به عند حد الخلود، بل إنه ليضفي الحياة على ما يمسه من الموضوعات، ويكاد يبعث من طواهم الثرى من الناس بعثاً يختلف قوة وضعفاً، ويتباين سعادة وشقاء. فمن لا يذكر سيف الدولة كلما ذكر المتنبي؟ ومن لا يذكر كافوراً كلما تناول شعر أبي الطيب؟ ومن لا يذكر حرب البسوس كلما جال بخاطره رثاء مهلهل لأخيه كليب؟ ومن لا يذكر مالك بن نويرة كلما قرأ شعر أخيه متمم؟ ومن لا يرثي لمقتل (صخر) كلما سمع نواح الخنساء عليه؟ ومن لا يذوب أسى كلما ذكر قصيدة شوقي طيب الله ثراه في رثاء (مقدونية)؟ ولقد يكون من الشعر ما يُقوِّى عناصر الحياة حتى في الحقائق العلمية والاجتماعية، ومن حكم المتنبي ما هو أصدق شاهد على ما نقول، وليس بأقل منه قول شوقي في قصيدته (نهج البردة) يدفع عن الإسلام دعوى أنه قام على أعضاد السيوف:

قالوا: غزوت ورسل الله ما بعثوا ... بقتل نفس ولا جاءوا لسفك دم

جهل وتضليل أحلام وسفسطة ... فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم!

قال: ومن حيوية الكاتب العبقري أن يخلص من قيود الحياة المضطربة الثائرة فينطوي على نفسه يراقبها ويحقق أغراضها، ويساير ميولها مهما كانت الظروف التي تحيط به. وخير دليل على هذا ما فعله الكاتب العبقري الأستاذ العقاد. . . إذا استطاع في مثل هذا الجو المضطرب بأحاديث الحرب، المرتعش في مهب المقادير. . . أن يبعث من نفسه صوراً حية تتناول أكبر شخصية حية تفخر بها الإنسانية وتعتز بها البشرية. . . أجل إن كتاباً روحياً صادقاً يخرج إلى الحياة في مثل هذه الأيام العجاف لهو كتاب جدير بالتأمل والإعجاب. بل إني لأرى في خروجه في مثل هذه الأيام لحكمة تصور صدق حيوية الأستاذ العقاد. فليس من شك في أنه أراد أن يقدم للإنسانية أروع المعاني الروحية تتألق حيوية في شخص الرسول. . . في زمن جنت فيه العقول، وتكلم لسان الدمار:

جنوا وعيَّ لسانهم فتفجرت ... لسن الدمار قنابلاً وبرودا

قلت: هذا حق يا بني، فكتاب عبقرية محمد كتاب تعتز به العربية في دقة الفهم، وروعة العرض، وسلامة النسج، وإني لأطرب يا بني كلما ذكرت أن في مصر كتاباً يكتبون في سيرة أشرف الخلق. فكم هزني إعجاباً كتاب (محمد المثل الكامل) للأستاذ محمد جاد المولى بك، ففيه تحقيق العالم الخبير، كما غمرني طرباً كتاب (على هامش السيرة) للدكتور طه ففيه سهولة وطلاوة. . . وإني لأنتظر من صديقنا الدكتور مبارك أن يكتب في هذه الناحية الشريفة النبيلة، كما آمل أن يعرج عليها صاحب الرسالة بما عهد فيه من دقة وروعة. ولو سمحت لنا الظروف ولم تقطعنا الشواغل لقمنا بهذا الواجب الروحي الجليل في أقرب فرصة يسمح بها الزمان يا بني. . .

ومن حيوية الفكر يا بني أن يساير الكاتب المجتمع ويلابسه أصدق الملابسة حتى يصيب الهدف ويبلغ الغاية، ويكون مثابة حق ومنار وهداية. وما كان قصور بعض المصلحين إلا من شأن عجزهم عن إدراك معاني الاتزان مع البيئة. فحقيق بالمصلح المتأمل والكاتب الاجتماعي أن يعقد القلب على إدراك أسرار هذا القانون الطبعي، فتتيسر له أسباب الأمور، وتسهل أمامه الصعاب. وإن الأستاذ الجليل الزيات لصورة صادقة لمسايرة الكاتب للمجتمع وأحواله، وما يضطرب فيه من ألم وفرح. فما من مقال له إلا وهو يرمي إلى هدف مقصود، وغاية معلومة؛ وما من رأي له إلا وهو يعالج حالة خاصة، ويدل على مذهب خاص. . . ولعلك يا بني تذكر كيف غلبته حيويته الاجتماعية فتفرد بالكتابة (في عدد الهجرة الخاص) في (مشكلة الفقر وعلاجه)، وكيف أسرع وكتب في (مشكلة الرغيف)، وكيف كان أول من كتب في الانتخابات وصورها تصويراً رائعاً. . .؟!

قال: و (آدم) و (حواء) يا والدي. . . إنها لأروع صورة لحيوية الفكرة المنطلقة التي لا تتقيد بشيء إلا بالحقيقة والضمير الحي. . . (آدم) و (حواء): بحث نابض بالحيوية، بل هو أعظم ما كتب الدكتور مبارك، فقد كانت الفكرة فيه تخرج في ثوب من الإيمان بالرأي والعقيدة، وفي لون من الفن الرائع لست أغالي إذا قلت إنه منقطع النظير في آداب العربية. . . وقرأتها لأول مرة، فابتسمت وقلت: إن الدكتور سيفترع فنًّا جديداً

يسد نقصاً كبيراً في أدبنا. . . وإني لأقول في صراحة إنني كنت أعتقد أن صاحب هذه الأفكار لا بد أن يكون من أبناء هذا الزمان، ولا بد أن يكون قرأ - على الأقل - فلسفة القرن التاسع عشر، ولا بد أن يكون في مثل حيوية دكتورنا المبارك، وليس في مثل حيوية (شيث)!

وإني لأذكر للدكتور المبارك أني جزعت كل الجزع عندما قرأت (ينبوع حلوان)! فقد أدركت منه ما لم يدركه غيري، وأحسست أن الفكرة التي انطلقت من الأرض قد قيِّدت!!

قلت: والحيوية في الشعر يا بني أن يكون في الشعر تجويد في اللفظ والمعنى. فإن ما يصدر عن الشاعر الموهوب العظيم لا بد أن يترك في النفوس آثاراً عظيمة، وما يصدر عن الشاعر الماجن الواهن الضعيف النفس، المستهتر بالملاهي، لا بد أن يحمل في طياته عناصر فنائه، وإن أغتر به صاحبه، وتناقلته أفواه الرواة الماجنين. إن النفس لتطرب بالنثر البليغ فهي بالشعر الجيد أشد طرباً. ولقوة الشاعرية، وغزارة المادة، وسعة الثقافة، وسلامة المنطق، أثر بعيد الغور في سلامة تفكير الشاعر، وجنوحه إلى الأسلوب المنطقي، وسوق القضايا في مساق الاستدلال كلما زاول معنى من المعاني، فهو لا يكتفي باللمحة العجلى يرسلها على المعنى فيجيء غامضاً فاتراً، أو يصل إلى النفوس قلقاً مضطرباً. فإذا قرأت للشاعر الحي شعراً رأيت لوناً واضحاً من الفكرة يسود القصيدة كلها، أو ينصّب على كل معنى من معانيها

قال: ما ظنك (بأرواح وأشباح) للأستاذ علي محمود طه. . . إنها لصورة لسعة الثقافة، وغزارة المادة، وسلامة المنطق والتغلغل في أسرار المعاني، افتن فيها الشاعر فجاءت فتنة، تصور الوجد اللاعج، والجوى المستعر، وانطلاق الشهوات من قيودها، وعبثها

بروعة الفن وقداسته. ذهب فيها الشاعر مذهباً جديداً من الفن الشعري، عرض فيه لسلطان الشهوات الكامنة، والنزعات الدفينة، والأحاسيس الملتهبة. وهو في عرضه لها صاحب نظرة صادقة لا يأخذ الحياة كما هي، بل يخلع عليها من إشعاع روحه ما يكيفها التكييف الذي يريد. . .

قلت: ومتى وصلت الحقائق والأخيلة إلى النفس على تلك الصورة المحكمة، وراضها بيان طيع، وصاغها شاعر ملهم، كان لها في النفس مستقر ومقام. وإنك لتدرك ذلك من نفسك فيما يقع لك من شعر بعض المعاصرين، فقد تقرع أذنك قصيدة أخاذة المظهر، رائعة العنوان، فلا تجد لها عاضداً من فكرة متحدة، ولا ضابطاً من منطق متماسك، فلا تنتهي منها حتى تصير عرضاً لفظياً يذهب مع الهواء، ولا يجد لنفسك مدخلاً. وقد تقع لك أبيات قليلة أو قصيرة فيها فكرة وفيها تماسك، فتحل من نفسك في الضمير، ولا يعييك أن تحتفظ بمعناها، بل لا يستعصي عليك متى (شئت) استظهارها

محمود البشبيشي

شعر علي بن أبي طالب - 2

للأستاذ السيد يعقوب بكر

على أننا وقد ذكرنا أقوال بعض المؤيدين نحب أن نعرّج على أحد المعارضين وهو الأب لامانس فنناقش مقالته وننقصها ليتم لنا بذلك وجه البرهان على الرأي الذي رأيناه.

فقد كان أنكر في كتابه (ص58) أن علياً كان شاعراً، واستشهد على ذلك بما ذُكر في الأغاني (ج4 ص137 ط دار الكتب) من أنه (كان يهجو رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة رهط من قريش: عبد الله بن الزبعري، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعمرو بن العاصي؛ فقال قائل لعلي بن أبي طالب رضوان الله عليه: أهج عنا القوم الذين قد هجونا؛ فقال علي رضى الله عنه: إن أذن لي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فعلتُ؛ فقال رجل: يا رسول الله، ائذن لعلي كي يهجو عنا هؤلاء القوم الذين قد هجونا؛ فقال: (ليس هناك) أو (ليس عنده ذلك).

ثم إن المستشرق الإيطالي الدكتور عارض الأب لامانس في رأيه هذا في بحث نشره بمجلة (مجلد 4 ص536 - 547). فقد ذهب إلى أن معنى النص المذكور في الأغاني هو أن محمداً رأى أن هجاء قرشيّ كعلي لقريش ليس من الأمور التي يتطلّبها الهجاء ليكون نافذاً لاذعاً مؤثراً، فإن هجاء غير القرشي لقريش يكون شديداً عليها ذا واقع

كوقع السهام أو أشد. واستدل هذا المستشرق الإيطالي على ما ذهب إليه في هذا النص بأن الشعراء الذين كانوا ينافحون عن الرسول ودعوته ويدفعون عنه عادية شعراء قريش كانوا كلهم من المدينة أي من الأنصار مثل: حسان بن ثابت وكعب بن مالك.

فردّ عليه الأب لامانس رداً طويلاً تجده في مجلة: (مجلد 7 سنة 1921، ص320311)، وكذلك في أول كتابه: (ص1 - 7). ونحن سننقض هنا هذا الرد؛ ولكننا قبل هذا نورد خلاصة كلام قدمه بين يدي رده ونقول رأينا فيه، وذلك لأنه يتصل بموضوعنا من قريب يبدأ الأب لامانس كلامه هذا بأن يقول: إن مكة لم تنجب قبل الهجرة أي شاعر ملحوظ المكانة ذائع الصيت، وإن هذه الحقيقة تقوم دليلاً على زيف ما في سيرة ابن هشام من أشعار كثيرة، كهذه الأشعار المنسوبة إلى عبد المطلب جد علي بن أبي طالب وإلى أبي

طالب أبيه ثم إلى علي نفسه

ثم يقول بعد ذلك إن الشعراء كانوا في الجاهلية الحكماء وأصحاب الرأي، وإن الشعر كان فيها من الصفات اللازمة للرجل الكامل حتى يدعى كاملاً، وإنه قيل على هذا الأساس إن الخلفاء الأربعة الراشدين كانوا شعراء أو كانوا على الأقل أصحاب علم بالشعر العربي القديم. ولقد عنى أهل السنة بالنص على علم عمر الواسع بالشعر، وكان عمر منافساً لعلي ومنازعاً له، فكان أن قال الشيعة بعلم علي بالشعر وحاولوا تصويره لنا في مستوى عال جداً أو على الأقل في مستوى مساوي لمستوى منافسه الخليفة الثاني

ولقد أظهر علي أثناء حياته السياسة جهلاً تاماً بأساليب السياسة أو قل بأساليب الحياة، وجاء في الحديث وصفُه بأنه محدود، ووصفه معاصره غير المتشيعين له بأنه تلعابة

وعلى الرغم من ذلك كله، فإن الشيعة لم يدخروا جهداً في إطراء علم علي. ولقد كان أهل السنة يمجدون عمر ويرون فيه الرجل المطلق، والمتمم العبقري لعمل محمد، والخليفة الذي لا تأخذه الأحداث على غرة؛ ولذلك وجدنا الشيعة يصورون بطلهم مخرجاً لعمر من حيرته وحرَج موقفه في الوقت المناسب بحصيف رأيه وصادق نظره. وكان الشيعة يدَّعون أن الله حبا عليًّا بتسعة أعشار العلم الإنساني، وقد بثُّوا هذا الإدعاء في حديث وضعوه، وادعوا أيضاً أشياء أكثر من هذا

هذه خلاصة الكلام الذي قاله لامانس قبل رده على المستشرق الإيطالي؛ ورأينا فيه أنه كلام متهافت لا يسند أوله آخره ولا آخره أوله، ونبين هذا فيما يلي:

1 - يشك لامانس في الشعر المنسوب إلى عليَّ في سيرة ابن هشام لما هو معروف من قلة شعراء مكة قبل الهجرة؛ ونحن إن قبلنا هذا الشك، فإننا لا نقبل الأساس الذي بُني عليه؛ وذلك لأننا نعرف أن علياً نشأ بنشأة الإسلام وترعرع في ظله فلم يكن وليد الجاهلية. وإنما كان وليد الإسلام. وعلى ذلك فإذا شككنا في الشعر المنسوب إليه في سيرة ابن هشام، لزم ألا يكون شكنا مبنيًّا على هذا الأساس الذي بنى لامانس عليه شكه، وإنما لزم أن يكون مبنيًّا على أساس آخر، كأن يكون مبنيًّا مثلاً على أن ابن اسحق الذي يروي عنه ابن هشام ممن لا يوثق بروايتهم للأشعار، أو يُعتمد عليها

2 - يرى لامانس أن الخلفاء الأربعة الراشدين إنما زُعم إنهم شعراء، أو - على الأقل - أصحاب علم بالشعر، لأن الشعر كان في الجاهلية من مستلزمات الكمال؛ وهذا الرأي لا أساس له، لأن الحياة العربية اختلفت مُثُلها في الإسلام عنها في الجاهلية، فأصبح العرب لا ينظرون إلى الشعر كما كانوا ينظرون إليه من قبل، وبعد أن كان الشعر من مستلزمات الكمال، أصبح وقد تحرّج من قوله كثير من الشعراء مثل لبيد

3 - مهما قيل من أن الشيعة أضفوْا على عليّ أثواباً من الكمال والحكمة وقوة العقل والقدرة على حل المشكلات، فلسنا نستطيع أن ننفى عن عليّ صفات الرجل العاقل، إذ يكفيه ليكون كذلك أن يربَّى في حجر محمد ويشبّ في كنف الإسلام. فمحاولة لامانس تجريده من العقل الحصيف محاولة غير ناجحة، فضلاً عن أن النصوص التي يستند إليها في محاولته هذه مما لم تثبت صحته

بعد هذا التفنيد لكلام لامانس، نعرِّج على ردِّه على المستشرق الإيطالي، فنأتي بخلاصته ثم نقول رأينا فيه

يقول لامانس إن العبارة التي وردت في الأغاني وهي (ليس هناك؛ أو ليس عنده ذلك) مكونة من جزأين، فالجزء الأخير منها هو الأدلّ على المعنى والأعمق في الأثر، وليس الجزء الأول منها إلا مؤكداً له ومقوِّياً. وهذا الجزء الأول أوجز وأكثر إمعاناً في البداوة من الجزء الثاني

وبعد ذلك يورد لامانس العبارة التي وردت في أسد الغابة وهي (إن علياً ليس عنده ما يراد من ذلك)، ويبين كيف أنها تؤكد ما فهمه هو من عبارة الأغاني

ثم يأخذ في محاولة تحديد معنى عبارة (ليس هناك) المرادفة لعبارة (ليس عنده ذلك)؛ وذلك بالرجوع إلى استعمالاتها الواردة فيما يرويه صاحب الأغاني. وقد استخلص من هذه الاستعمالات أن عبارة (ليس هناك) تشير حين يكون المدار حول الشعر إلى عجز من تقال فيه عن قول الشعر ونظمه

وأخيراً ينهي لامانس رده بأن يقول إن أي مستشرق لا يمكنه قبول الأشعار المنسوبة إلى علي، وإن الأقدمين أنفسهم أحسوا بانتحال هذه الأشعار أو خامرهم الشك فيها، ومنهم أبن هشام ويونس بن حبيب

هذه خلاصة رد لامانس، ونحن نرد على هذا الرد فيما يلي:

1 - صحيح أن عبارة (ليس هناك) تشير حين يكون المدار حول الشعر إلى عجز من تقال فيه عن قول الشعر ونظمه، ولكن لا يمكن أن تشير إلى ذلك إذا كانّ المدار حول فن من فنون الشعر كالهجاء وحده أو المدح وحده، فإنها تشير حينئذ إلى عجز من تقال فيه عن هذا الفن وحده دون سواه. وهذه هي الحال بالضبط في القصة التي يرويها أبو الفرج، فإن رجلاً سأل الرسول أن يأذن لعلي كي يهجو قريشاً فقال له الرسول: (ليس هناك) أو (ليس عنده ذلك) أي ليس هو بالقادر على الهجاء

ويؤيد رأينا هذا أننا لا نجد في الصحيح من شعر علي بيتاً واحداً في الهجاء ثم إنه لو لم يكن علي شاعراً حقاً لما سأل هذا الرجل الرسول أن يأذن لعلي بهجاء قريش، لأن سؤاله هذا مبني على علمه بأن علياً شاعر قادر على نظم القصيد.

2 - إذا كان بعض الأقدمين شك في الأشعار المنسوبة إلى عليّ، فليس يمكن أن يكون هذا الشك حجة للامانس، لأن بعض الأقدمين أيضاً قال بأن علياً كان من الشعراء كما سبق أن بيّنّا

فعليّ إذن كان شاعراً، ولكن لا يمكن القول بأنه كان مكثراً، فهو كان في أغلب الظن مُقلاً، بدليل أنه لم يُرْو له شعر كثير في المراجع العربية المعتمدة؛ ولكننا على كل حال لا نسلم بأنه لم يقل غير بيتين كما يذكر ياقوت فيما سبق لأن نقلناه عنه وكما يذكر السيوطي فيما سبق أن نقلناه عنه كذلك. ونحن لا نسلم بهذا لأن المراجع العربية المعتمدة روت لنا أكثر من بيتين لعلي.

(للبحث بقية أخيرة)

السيد يعقوب بكر

كتاب الإمتاع والمؤانسة

الجزء الثاني

للأب أنستاس ماري الكرملي

توطئة

كان وقع بيدي الجزء الأول من كتاب الإمتاع والمؤانسة، لأبي حيان التوحيدي، فألفيتُهُ من أجلّ المصنفات لأنه اجتمع في صاحبه مزيتان، لم تجتمعا في الرجُل الواحد إلاّ نادراً، وهما: عُلُوّ النَّفَس والتفكير، وسمو النفس والتحرير، وفي مطاوي المطالعة، بدت لي بَدَوَاتٌ، أحببتُ إيداعها المَهارق، قائلاً في نفسي: لعلها تفيد بعض الفائدة، مَنْ يقف عليها، أو لعلَّ المطالع ينبهني على غفلاتي، فيهديني إلى الصواب، فيكسب بعملِهِ الأجر والثواب، فبعثت بها إلى مجلة المقتطف، فنشر بعضها في المجلد 100: 245 إلى 250 ثم في 341 إلى 347 وبقي القسم الكبير منها، إلى أن يحين الوقت لنشره.

والآن وقع بيدي الجزء الثاني من الكتاب المذكور، فطالعته مسرعاً لأصِلَ بَدَوَاتي بعضها ببعض، من غير أن تفتر هِمَّة المطالع، ولإنشاطه فجئت بهذه النظرات، لعلَّ فيها بعض الفائدة، إن كان ما أبديه يستحق هذا الاسم؛ فأقول:

1 - ملاحظات عامة

قبل أن أتعرض لما أراهُ في الكتاب مَا يُخالف نظري، أقول بعض كلماتٍ هي عامّة،

تتعلق بطبع فصولهِ، أو مسامراتهِ من تحسين وتزيين:
وأول كل شيء، كان يحسن بالناشرَيْن أن يجعلا تحت كل عنوان من عناوين المسامرات فحواها. مثلاً أن يجعل تحت عنوان الليلة السابعة عشر: (ما يحفظ من تَفْعال المفتوح وتِفْعال المكسور).
وثاني الحسنات: أن يُكتَبَ في صدر الصفحة اليمنى: الإمتاع والمؤانسة. وبازائها في صدر الصفحة اليسرى: المسامرة الأولى، أو الثانية، أو نحو ذلك.
وثالث الحسنات: أن يجعل في آخر الكتاب فهرس المسامرات
والرابع، أن يجمع في معجم صغير، الألفاظ الخاصّة بالمؤلف وهي كثيرة.
والخامس، كان يحسن بهما أن يعارضا ما يجدانهِ من النصوص في هذا الكتاب بما يجدانهِ منقولاً في بعض الكتب. ففي هذا الجزء مثلاً نصوص منقولة في ابن القفطي، وابن أبي أصيبعة، وابن خلكان، والدميري، وقد نقل بعضاً منها الأمير شكيب أرسلان ونشره في مجلة المقتبس وشرح بعض الألفاظ.
والسادس كان يليق بالناشرين أن يهملا أغلب ما جاء من المسامرة في الليلة الثامنة عشر، فإن ما علقاهُ في الحاشية في ص50 (ولولا الأمانة العلمية والإخلاص للتاريخ لحذفنا أكثرها، واكتفينا بما لطف ودق، ولم ينب عنه الذوق) قلنا: (هذا عُذْر أقبح من ذنب) لأن أمانة العلماء والمخلصين للتاريخ هي أعظم في حفظ الآداب بين القراء من بث سمومها، وفحشها، ووبائها، فإذا لم يكن آداب، وحميد أخلاق في الناس، فالفحش مفسدة لها، ومهلكة. فالعلماء مكلفون بالمحافظة على مكارم الأخلاق، أكثر من المحافظة على الأمانة في نشر المجون وسخف الأقوال وسموم الآداب. هذا ما يتطلبه هذا العصر، وأهلوه ولو عاش التوحيديّ في هذا العهد، لما نطق بكلمة من هذه المُنْدِيات، المخزيات، المهلكات، المزيلات للأمم.
هذا رأينا، ولكل رأي خاصٍ به.
الأوهام في الأعلام - 2
جاء ذكر العوفيّ - بالفاءِ - في ص5 س1، لكن أُصلح في ص25 من الفهارس بقوله العوقي - بالقاف - والذي رأيناهُ في تاريخ الحكماء لابن القفطي ص83 من طبع الإفرنج العوفيّ بالفاء. ومثل هذا الضبط ورد في مجلة المقتبس 1؛ 572، ومثل هذا التحقيق ورد في مجلة المنار لرشيد رضا في كلامه على إخوان الصفا، ولا أتذكر السنة، ولا الصفحة، لأن مجلة خزانتنا سرقت في سنة1917، ولم يبق منها شيء، وإن كنا الآن اشترينا كتباً ومطبوعات جديدة غير التي كانت عندنا.
والعَوْفيّ لم يدخل في فهرست أعلام الكتاب، ولا العوقي وتجهل السبب.
وورد في ص14 (ابن الخمّار) وقد ضبط بتشديد الميم، وكذلك في ص38 و83 وجاء في ص25 من الفهارس؛ والصواب: ابن خمار بدون تشديد أي كسَحَاب
وقيل هناك: وكذلك يصحح ما جاء في ص38 و83. والذي ورد في ابن أبي أصيبعة، وابن القفطي: ابن الخمار بتشديد الميم وبأل التعريف
ومن الأعلام التي لم نهتد إلى تحقيقها مقاريوس الوارد في ص37 ثم قيل مَنْقَاريوس، ثم مقاريوس، فاختلف اللفظ الواحد بين سطرين وسطرين، ولا جرم أن منقاريوس بميم ونون لا يعرف عند الأقدمين، لكن الثاني لم يصحح في الآخر، وهناك اسم آخر أعجمي ورد في ص37 و38 هو (ذيموس)، وفي كل صفحة ورد مرتين، ولم يذكر لنا الناشر إن ما يدلنا على زمنه ووطنه
ومن الأعلام التي صحفت قليلاً فقط: الصابئ، فإنه مهموز الآخر، ولا يجوز ترك همزه لئلا يخرج صاحبه من دينه ويجعله من أهل الصبا، لا من المنتمين إلى الصابئة
وليس من أعلم أتعبنا كل التعب مثل تيودسيوس وكنْتُسْ الواردين في ص153 و154 والأخير أُصلح في ص9 من الفهارس بقوله: (أيقوس الشاعر الإغريقي). وفي حاشية ص153 علّقَا تعليقاً على يتودسيوس في (ا) قومودوس وفي (ب) تودورس؛ والصواب ما أثبتناه نقلاً عن كتب التاريخ). انتهى
قلنا: لم نجد في كتب التاريخ التي بأيدينا - وهي كثيرة - ملك يوناني اسمه تيودوسيوس. نعم كان للروم (وهم غير اليونانيين) تيودسيوس أول، وثان، وثالث، لكن التوحيدي يذكر أن ثيودسيوس هو ملك يونان (ص153) ثم كتب هذا الملك إلى كُنْتس الشاعر) وصحح بايقوس الشاعر الإغريقي. . . ونحن لا نعرف شاعراً إغريقياً باسم

كنتس، ولا باسم أبقوس؛ إنما نعرف معلم خطابة اسمه هيرودس أتيقوس أو أَتّقِس وهو روماني لا يوناني، فإذا كان الناشران يعرفان شيئاً ثبتاً عن ثيودسيوس الملك اليوناني، وأبقوس الإغريقي، فليذكرا لنا اسميهما بالحرف الإفرنجي، والعصر الذي عاشا فيه. والأسماء الإفرنجية يحسن أن تكتب بحروف الرومان، ليتمكن القارئ من مراجعة النصوص الإفرنجية عند محاولة تحقيق ما ينسب إلى أصحابها.

وجاء في ص 155 ذكر رجل اسمه أبو الحسن الفرضي، وصحح العرضي في ص26 من الفهارس والعرضي بضم العين، ويلي الاسم علامة الاستفهام أي (؟) كأنه يشك في صحة هذا العلم، والذي رأيناه في دواوين القوم: أبو الحسن أو أبو الحسين العروضي من العلماء الكبار وكان في أيام علي بن سينا؛ وآخر اسمه أبو الحسن المغربي، وكان معاصراً لويْجَن بن رستم، وكان من العلماء المشاهير أيضاً. أما أبو الحسن الفرضي أو العرضي، فلم نسمع بشهرته هذه

ورد في ص 180 اسم كبل البقال. وجاء في الحاشية: (كذا ورد هذا الاسم في كلتا النسختين ولم نتبين وجه الصواب فيه بعد طول المراجعة)؛ والذي سمعناه في العراق مما يشبه هذا الرسم: كتل (بالفتح)، وكُتَيْل (بالتصغير)؛ وهذا ورد في التاج، وكتيلة وهو اسم والي صُور، وقد ذكر ابن الأثير في الكامل في 10: 180 من طبعة الإفرنج نرد على ذلك أن في نعت هذا العلم بالبقال تصريحاً بصحة كلمة (البقال) خلافاً لقول اللغويين أنه يقال (البدَّال)، مع أنه لم يقل أحد من اللغويين (بدَّالاً) حتى من منع استعمال الأولى فقد جاء في القاموس: والبقَّال لبيَّاع الأطعمة عامية، والصحيح (البدَّال)

قلنا: ليس هذا من كلام العوام بل من كلام العلماء الخواص فلقد فسر اللغويون، وبينهم المجد نفسه، الكاسور والرُّدْحي بقولهم: بقال القرى ولم يقولوا بدَّال القرى ووردت البقال في كتاب الحيوان للجاحظ 1: 376 من طبعة البابي، وقال اللغويون في شرح الكديح: الحانوت: الدكان أو متاع حانوت البقال. وقالوا في (فوم) الغامي: البقال وممن أثبت البقَّال في تصانيفه السمعانّي، صاحب كتاب الأنساب، فقد قال في مادة البقال ما هذا نقله: (البقال بفتح الباء الموحدة، وتشديد القاف، وفي آخرها اللام: هذه الحرفة لمن يبيع الأشياء المتفرقة من الفواكه اليابسة وغيرها. والمشهور البهاء أبو سعيد بن المرزبان البقال، مولى حذيفة بن اليمان، وكان أعور من أهل الكوفة. . .) اهـ زد على ذلك أن البقال نسبته إلى البقل نسبة قياسية كالحنَّاط والتّمار والطّحان إلى غيرها. وأما البّدال فإلى أي شيء ينسب؟ قال صاحب التاج: (والبدَّال كشدَّاد، بياع المأكولات من كل شيء منها. هكذا تقوله العرب. قال أبو حاتم: سمى به لأنه يبدل بيعاً بيَبْع، فيبيع اليوم شيئاً وغداً شيئاً آخر. قال أبو الهيثم: والعامة تقول: (بقَّال) انتهى

قلنا: لو صدق أبو حاتم في تعليله لقيل لكل من يبدل بيعاً ببيع بدال. وليس الأمر كما قال. والصواب أن البدال هنا هو البقال. والبقال، هو الأصل، والبدّال هو من كلام العوام، لأنهم قلبوا القاف دالاً، وهذا هو من لغة بعض العرب الأقدمين. فقد قالوا مثلاً في المِنقل: المِندل، وفي الممعوق: الممعود. وفي القنقورة: الفندورة، وفي احقوقف الرمل: احْدَوْدَبَ، وفي نَقَلَه:

نَدلَهُ إلى نظائرها. هذا فضلاً عن أن الأقدمين لم ينسبوا (رجلاً) إلى البدال. فليدون كل ذلك. وهذا كله نقلاً عن معجمنا الكبير المسمى بالمساعد.

(للبحث بقية)

الأب أنستاس ماري الكرملي
من أعضاء مجمع فؤاد الأول
للغة العربية

أحِبَّني لوجه الحُب

للشاعرة اليزابث باريت براوننغ
زوجة الشاعر الإنجليزي المشهور براوننغ
بقلم الأستاذ صفاء خلوصي

إذا كان لا بد أن تحبني فليكن حبك خالصاً لوجه الحب
لا تقل: (إنني أحبها من أجل ابتسامتها، أو من أجل نظراتها، أو من أجل أسلوبها

الظريف في الكلام، أو من أجل اتفاق بين فكرينا، أو من أجل أشياء جلبت لي الشعور باللذة والراحة يوماً ما).
لأن هذه الأشياء وإن كانت محبوبة لذاتها فقد تتغيّر تغيّراً جوهرياً أو تغّيراً بالنسبة إليك؛ والحب الذي يبدأ هكذا قد ينتهي بمثل الصورة التي بدأ بها.
لا تحبني من أجل عاطفة مسح الدموع المنحدرة على خديّ. إذ قد ينسى المخلوق الذي ذاق الرفاه الذي تيِّسره له، معنى البكاء، وبذلك تنقطع صلة الحب بينكما! ولكن أَحِبَّني لوجه الحب حتى تستطيع أن تحب على الدوام بكل ما في الحب من خلود وأزلية.
(بغداد)
صفاء خلوصي
بدرجة الشرف في الآداب (.ب. ع)
من جامعة لندن
المؤلفات العربية القديمة وما طبع منها في سنة
1941
للأستاذ كوركيس عواد
نشرنا في هذه المجلة ثبتين بما تيسر لنا الوقوف عليه من المصنفات العربية القديمة التي تم طبعها في سنة 1939و1940، وهانحن أولاء نواصل ما بدأنا به، ذاكرين ما أتصل بنا من منشورات عام 1941، وقد رأينا أن نلحق بذلك أسماء بعض الكتب المطبوعة سنة 1940 مما لم نظفر به في حينه
أولا: مطبوعات 1941
1 - الأمالي في الفقه: لمحمد بن الحسن الشيباني (187هـ) جزء منه نشرته مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن في الهند (70ص)
2 - إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع: لتقي الدين المقريزي (845هـ) - الجزء الأول طبع على نفقة السيدة قوت القلوب الدمرداشية، بتصحيح وشرح الأستاذ محمود محمد شاكر مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة (686ص)
3 - الإيضاح في علم النكاح: لجلا الدين السيوطي (911هـ) كتب على غلافه أنه طبع بمصر (38ص)
4 - التاريخ الكبير: للإمام البخاري (256هـ) - الجزء الرابع، نشرته مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد (440 + 12ص) وهو يحتوي على 1916 من تراجم المحدثين مرتبة بحسب الهجاء، يبدأ هذا المجلد بمادة عباس بن عبد المطلب عم النبي، وينتهي بمادة مخلد بن هلال - سائر أجزاء الكتاب لمّا تطبع
5 - ديوان ابن الفرض: لعمر بن الفارض (632هـ)، نشره الكتبي محمود توفيق (القاهرة 120 ص) ويبدو أن هذه الطبعة التجارية منقولة عن طبعة سبقتها أغفل الناشر الإشارة إليها
6 - رؤيا اليمن: وهي الرحلة التي قام بها المستشرق يوسف هالوي (1828 - 1916) في بلاد نجران سنة 1870م. ألَّفها دليله حَيِّيم حبشوش باللهجة العربية الصنعانية، وكتبها بحروف عبرية. وقد نشرها بهذه الحروف مصدَّرةً بمقدَّمة إنكليزية مطّولة ومعجم الألفاظ العامية الواردة فيها: المستشرق غوتين بعنوان (مط الجامعة العبرية بالقدس 138 + 102 ص)
7 - السلوك لمعرفة دول الملوك: للمقريزي (845هـ). القسم الأول من الجزء الثاني، نشره الدكتور محمد مصطفى زيادة (مط لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة س + 305ص) في هذا المجلد حوادث السنين 804 - 728هـ. وهو نظير الأقسام المنشورة سابقاً (1934 - 1939) في التحقيق الواسع والعناية الفائقة
8 - شرح أسماء العَقَّار: للشيخ الرئيس أبي عمران موسى بن ميمون الإسرائيلي القرطبي (605هـ). صححه ونشره الدكتور مكس مايرهوف في المجلد 41 من مذكرات المجمع العلمي المصري مع ترجمة ومقدمة فرنسيتين وفهارس (مط المعهد الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة)
9 - كتاب الأمصار والعمران: وهو الباب الرابع من مقدمة ابن خلدون (808هـ). قدم

له وضبطه وشرحه الأستاذ محمد سعيد العريان (طبع في القاهرة)
10 - كتاب في علل اختلاف الناس في أخلاقهم وسيرهم وشهواتهم واختياراتهم: لقسطا بن لوقا البعلبكي (المتوفى نحو سنة 311هـ). نشره الأب بولس سباط في مجلة المجمع العلمي المصري ونقله إلى الفرنسية
11 - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: للحاج خليفة المعروف بكاتب جلبي (1067هـ). صححه على نسخة المؤلف، الأستاذان محمد شرف الدين بك يالتقايا، ورفعت بيلكه الكليسي. القسم الأول، فيه أسماء الكتب المبدوءة بالحروف من الألف إلى الراء، طبعته وكالة المعارف التركية في مطبعتها، في مجلد كبير قوامه 1008ص. وتمتاز هذه الطبعة عما تقدَّمها من طبعات لهذا الكتاب بمحاسن؛ منها أنَّ أسماء الكتب طبعت بحرف أكبر حجماً مخالف للمتن، ومنها أن كل كتابٍ فيه جعل في راس سطر
12 - كليلة ودمنة: لعبد الله بن المقفع (143هـ) أخرجته مطبعة المعارف ومكتبتها في مصر، تذكاراً لعيدها الخمسيني الذهبي في شهر إبريل سنة 1941م. وهي طبعة نفيسة
فاخرة نُقلت عن نسخة كتبت في أوائل المائة السابعة للهجرة وهي أقدم النسخ المعروفة لهذا الكتاب في وقتنا. وقد تولى درسها والتعليق عليها الدكتور عبد الوهاب عزام، وبها تصدير للدكتور طه حسين بك، وفيها 13 صورة ملونة رسمها ستريكالفسكي
13 - مجالس السلطان الغوري: وهي صفحات من تاريخ مصر في المائة العاشرة للهجرة. اختار موادها الدكتور عبد الوهاب عزام من كتابين وهما:
الأول: نفائس مجالس السلطانية في حقائق أسرار القرآنية (كذا) لحسين بن محمد الحسيني (المائة 10 هـ)
الثاني: الجزء الأول من الكوكب الدري في مسائل الغوري: فرغ منه مؤلفه سنة 919هـ. (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 303ص)
14 - مجموعة الوثائق السياسية في عهد النبي (ص) والخلفاء الراشدين: تضم جميع الوثائق والمعاهدات والمراسلات التي صدرت من الرسول والخلفاء الراشدين للقبائل والملوك والعمال وغيرهم. جمعها الدكتور محمد حميد الله الحيدر أبادي وقدم لها بمقدمة وأوضحها بتعليقات وشروح للألفاظ اللغوية وفهارس وتسع خرائط تبين مواقع الخرائط وخريطتين تبينان الأنساب العدبانية والقحطانية (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة 23 + 407ص)
15 - نزهة الألباء في طبقات الأدباء: لأبي البركات الأنباري (577هـ). طبعة الأستاذ علي يوسف طبعاً تجارياً في القاهرة (9 + 277). وقد تصرف الناشر بالعنوان فسماه (تاريخ الأدباء والنحاة)
المستدرك على مطبوعات سنة 1940 - 2
1 - الإكليل: للحسن بن أحمد بن يعقوب بن الحائك الهمداني اليمني (334هـ). الجزء الثامن في وصف آثار اليمن وبقايا أبنيتها وقصورها وسدودها التي شاهدها المؤلف. نشره الأستاذ نبيه أمين فارس، بمقدمة وتعليقات وفهارس، مستنداً إلى الطبعة السابقة بعد معارضتها ببعض النسخ الخطية
وكان الأستاذ النبيه قد نقل هذا الجزء إلى الإنكليزية سنة 1935 وأرفقه بحواشٍ تاريخية وبلدانية ولغوية (مطبعة جامعة برنستين بالولايات المتحدة الأمريكية 12 + 247)
2 - حيّ بن يقظان: لابن طُفَيل الأندلسي (581هـ) قدم له بدراسة وتحليل الدكتوران جميل صليبا، وكامل عياد (الطبعة الخامسة، مطبعة الترقي بدمشق، 196ص).
3 - الرعاية لحقوق الله (تصوّف): للحارث بن أسد المحاسبي (234هـ). النص العربي (نشرته مع تمهيد ومقدمة بالإنكليزية، مرغريت سمث لندن 19 + 343ص).
4 - العقد الفريد: لابن عبد ربه (328هـ) المجلد الثاني نشر بعناية الأساتذة أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة 587ص).
5 - نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر (882 - 904هـ) أو تسليم غرناطة ونزوح الأندلسيين إلى المغرب: أستخرجه من عدة مخطوطات، ونشره الأستاذ ألفريد

البستاني، ونقله إلى الإسبانية المستشرق كارلوس كيروس (منشورات مؤسسة الجنرال فرنكو للأبحاث العربية الإسبانية في طنجة، السلسلة الثانية، الرقم 2 مطبعة الفنون المصورة، بوسكا العرائش (المغرب) 186ص).

تعليق

1 - نشكر الأستاذ محمد أبو البهاء على تصحيحه المنشور في العدد 457 من الرسالة، لما أوردناه في لائحتنا السابقة عن كتاب (نصب الراية)

2 - نثني الثناء العاطر على اقتراح الأستاذ عصام الشريف في العدد 456 من الرسالة، بأن تتولى إحدى المؤسسات الثقافية في العالم العربي، إعداد ثبت سنوي بكافة ما تخرجه المطبعة العربية في سائر الأقطار، وهو اقتراح حسن نرجو أن يتحقق يوماً ما (بغداد)

كوركيس عواد

رسَالة العلم

قلوب النجوم

للأستاذ خليل السالم

الكون كما يرى (إينشتين) قرص متحدب كحجر الطاحون، الشمسي قريبة من مركزه، وفي هذا القرص انتثرت النجوم دون نظام أو ترتيب، إلا أنك إذا نظرت في اتجاه أطراف الحجر تكون المسافة التي تنظر خلالها أكثر بعداً، فترى العدد الأكبر من النجوم المحتشدة في المجرة، وهذا سرها. أما إذا نظرت في اتجاه عمودي على الاتجاه الأول، رأيت تخلخلاً طبيعياً في عدد النجوم، ذلك لأننا ننظر خلال مسافة أقصر من الأولى، فيكون عدد النجوم أقل من العدد الأول. وليس نظامنا المجري هو كل الكون، فهناك عوالم أخرى من السدم المختلفة الأشكال والأحجام، وكل هذه تشغل حيزاً يتسع حتى لا يتسع له الخيال، فقطر القرص 180. 000 بليون ميل، وسمكه حوالي 30. 000 بليون ميل. وكل هذه أيضاً تشعرنا بضآلة الإنسان وحقارة شأنه، كما ترمز إلى جبروت عقله الذي يستوعب مثل هذه الأرقام الضخمة، ويتسع لهذه الصورة الزاخرة

أقرب النجوم إلينا نجم (رجل قنطورس) وبعده عنا 41 4 من السنوات الضوئية، أي أن النور الذي يقطع 300. 000 ك.م. في الثانية، في الزمن الذي يمضي بين ثلثي الساعة مرتين، هذا المقدار العجيب يستغرق من الوقت 41 4 من السنوات حتى يصل إلينا من أقرب النجوم في هذا الكون الشاسع الأبعاد

عدد النجوم كما يقدره الفلكيون يبلغ نحو 30 , 000 مليون نجم من كافة المقادير، وقد توزع هذا العدد الضخم في ذلك الحيز المتسع البعيد الغور، بحيث أصبحت أبعاد النجوم عن بعضها كبيرة جداً. ولتأخذوا عن هذه الأبعاد فكرة، أعطيكم مثلاً بسيطاً ورد في أحد كتب العلامة الإنجليزي المشهور السر جيمز جينز قال: لو أطلقنا في جميع المحيطات التي على الأرض أربع سمكات، وسبحت هذه كيفما اتفق، لكانت النسبة بين أبعادها تعادل مع

الفارق الطبيعي أبعاد النجوم عن بعضها

وهذا العدد الكبير من النجوم توزع إلى أنواع عديدة: فهناك النجوم الكبار، والنجوم الجديدة، والنجوم المزدوجة، والنجوم المتغيرة، والنجوم القيفادية، والأقزام البيض، والعمالقة الحمر، والنجوم المجتمعة؛ ولكل من هذه الأنواع خواص تتميز بها وتختلف بها عن غيرها من النجوم

أكثف النجوم نجم فان ماتن، ومن أكثفها رفيق الشعري اليمانية، فكثافته تعادل كثافة الماء 53 , 000؛ وهو نجم مشهور كثير ما يرد ذكره في أبحاث الفيزيفا النظرية الحديثة؛ وقد استخدم في إثبات أحد قوانين النسبية، أعني قانون ميل الطيف نحو اللون الأحمر عندما ينبعث النور من جسم ثقيل. وسنأتي على تعليل هذه الكثافة العجيبة بعد قليل

لعلنا قد خرجنا عن الصدد فلنعد إلى موضوعنا الأصيل أعني قلوب النجوم. ولا يخفى أن الوسيلة الوحيدة في درس هذه المصابيح الجميلة إنما هي تلك الرسائل التي يحملها منها إلينا النور، وهذه الرسائل مكتوبة بلغة خاصة واضحة طوراً وغامضة طوراً

آخر؛ فنلجأ إلى المرقب والمطياف والمطياف المصوِّر والمجهر وغيرها من الأجهزة الدقيقة فنستعين بها على فك تلك الطلاسم والألغاز.

وقبل أن نعني بهذه الرسائل حق العناية لا بد لنا من الاطلاع على بعض الحقائق والمبادئ الأساسية التي أثبتها المختبر، وانطبقت تمام الانطباق على الظواهر الطبيعية التي تجري في الكون على اتساعه وكثرة أنماط المادة فيه. وسنبدأ بعلم الحل الطيفي.

علم الحل الطيفي

مما يؤثر عن الفيلسوف الألماني الشهير (كانت) قوله: ليس ثمة أمور لا بد من أن للإنسان يبقى جاهلاً حقيقتها مثل معرفة تركيب الشمس والأجرام السماوية من الناحية الكيميائية. ولا يستنكر من الفيلسوف العظيم تورطه في هذا الحكم الذي أثبتت الأيام بطلانه، فقد كان يعلم وهو من يقدر الحواس حق قدرها أننا لا نستطيع أن نفهم المادة إلا عن طريق الحواس؛ ونحن طبعاً لا نستطيع أن نلمس النجوم أو نذوقها أو نشمها أو نسمعها، وليس لنا إلا حاسة النظر العاجزة عندما ننتقل إلى دراسة النجوم البعيدة دراسة عميقة دقيقة. إلا أن الإنسان عمد إلى الحيلة، وبدل أن يصعد إلى النجوم قربها إليه بأجهزته وصورها وكبّر

تلك الصور ودرس الأطياف طبقاً لقوانين الحل الطيفي، تلك القوانين التي أثبتها المختبر، والتي ندين لها بكل التقدم العجيب في علم الفلك الحديث.

ورواية هذا العلم الجديد - أعني علم الحل الطيفي - ممتعة مدهشة. وسأذكر بإيجاز أشخاص المسرحية وملخص أدوارهم: أول ما يظهر على المسرح نيوتن الخالد الذي كانت اكتشافاته ولا تزال العامل المشترك الأعلى في جميع العلوم. ظهر على المسرح فأدهش الناس حين عرض عليهم نور الشمس وقد تحلل إلى ألوانه البديعة السبعة، تلك الألوان التي تبديها الطبيعة في أجمل مناظرها: قوس قزح. وتلاه في التمثيل العالم ولستن فأثبت أن لكل غاز طيفاً خاصاً وخطوطاً خاصة يتميز بها عن غيره من الغازات. هنا عرفنا أن بعض العناصر الموجودة على الأرض موجودة في السماء. ولعل الدور الحاسم كان دور فرنهوفر فقد دخل المسرح والناس قد اشرأبت أعناقهم لتتبع أحداث الرواية اللذيذة فاكتشف خطوط فرنهوفر التي تظهر في طيف الشمس وهي خطوط سوداء لا تتغير مواضعها، وسببها - كما عللها العالم الإنجليزي ستوكس - أن الغازات الموجودة في الشمس تمتص الأشعة الخاصة بها، فبدل أن تبدو خطوطها لامعة كما في طيفها المستقل تبدوا أماكن تلك الخطوط مظلمة سوداء. وهكذا تسنى للعالم كيرشوف أن يدرس الشمس في المختبر بعد الآن. وماذا كان عليه إلا أن يحلل النور القادم على متن الأثير ويقيس الأمواج ويقارنها بالأمواج التي يحصل عليها في المختبر من الشرارات الكهربائية والقوس الكهربائي والأنابيب المضيئة. ومن هنا أمكن كلا من العالمين (لُكير) و (جونسون) أن يكتشفا في وقت واحد غازاً جديداً في الشمس أسمياه باسمها (الهليوم)، وأثبتت الأيام صحة دعواهم فاكتشف الكيميائي رمزي غاز الهليوم على الأرض، وتبين أن له نفس الخواص الطيفية التي تنبأ العالمان لكير وجونسون من قبل باتصافه بها

بعدئذ أو بعد منتف القرن التاسع عشر إذا أردنا أن نعرف أين نحن من مر السنين، بدأت دراسة أطياف النجوم والأجرام السماوية دراسة واسعة النطاق. فقد فحص الأب أنجلو سيشي ما يقرب من أربعة آلاف نجم. وأحسن الدراسات الحديثة لأطياف النجوم وأعمقها وأكثرها شمولاً تمت على يدي الآنسة آني كانون فقد صنفت نحو ربع مليون نجم بحسب ترتيب خواصها الطيفية. وقد أسفر هذا التصنيف بكثير عن الحقائق عن تركيب النجوم ونشوئها. ولا يتسع لي المقام لبحث هذه النتائج، ولكنني بإيجاز أورد هنا خط التصنيف من دون تعليق:

الأصناف

رموزها بالإفرنجية

لونها

الخطوط الطيفية التي تقوى فيها

درجة حرارتها

الصنف الأول

زرقاء بيضاء
الهليوم المتأين
30 , 000°
الصنف الثاني
زرقاء بيضاء
الهليوم الحيادي
20 , 000°
الصنف الثالث
بيضاء
الهيدروجين (الشعري اليمانية نجم منه)
11 , 000
الصنف الرابع
وسطى
تزيد خطوط الهيدرجين قوة
7 , 500
الصنف الخامس
صفراء
المعادن، الهيدروجين، الكالسيوم (الشمس)
6 , 000
الصنف السادس
برتقالية
المعادن الحيادية
4 , 200
الصنف السابع
حمراء
عصبة أكسيد التيتانيوم
3 , 000
الصنف الثامن
حمراء
عصبة خطوط الكربون
3 , 000
عالم الذرة
لا بد لما من معرفة بسيطة لتركيب الذرة لما لأبحاث الذرة الجديدة من علاقة وثيقة بعلم الفلك على وجه العموم، وقلوب النجوم على وجه الخصوص
عالم الذرة الذي انحصر في أصغر جزء من المادة عالم زاخر مملوء بالرؤى والأخيلة الواسعة. وهو معقد بشكل لا نستطيع معه أن نلم بدقائقه فلنرسم لهذا العالم صورة خاطفة سريعة لتفي بغرضنا الذي نتوخاه
الذرة نظام شمسي، النواة فيها تقوم مقام الشمس، والكهارب (الإلكترونات) تمثل دور السيارات، فتدور حول النواة بسرعة غريبة جداً، وتدور كالسارات في أفلاك أهلجية وربما في أفلاك دائرية، ولكن لا ضابط لهذا الدوران، فأنت لا تستطيع أن تعرف مكان الكهيرب وسرعته في آن واحد، كما تستطيع أن تحسب مكان الأرض مثلاً وسرعتها بحيث تتنبأ بوقت خسوف أو كسوف لأقل من عشر الثانية. أقول لا تستطيع أن تعرف سرعة الكهيرب ومكانه في آن واحد؛ فإن عرفت السرعة تعذر تعيين المكان، وإن عرفت المكان تعذر تعيين السرعة. ومن هنا تسرب إلى العلم الحديث مبدأ عدم التثبت أو مبدأ الاحتمال. فلا تزيد القوانين الطبيعية - التي كان العلماء يتشدقون بدقتها وضبطها وأحكامها - أن تكون احتمالات كبيرة فحسب. واضطر العلماء إلى رسم صورة جديدة لذرة بوهر التي نصفها. وتم التعديل على يدي العالمين شرودنجر وهيزنبرج
الذرة متعادلة كهربائياً. قطر البروتون أقل جداً من قطر الذرة، فيكاد يكون الفراغ في

الذرة قدر المادة (100. 000) مرة وعل ضوء هذه الحقيقة سريعاً ما نحكم أن المادة بصورتها المألوفة فراغ كبير، فلو خطر ببالك أن تزيل الفراغ بين (100) طن من القمح مثلاً لوفرت على نفسك المخزن المتسع الذي يتطلبه هذا الحجم الكبير، ولما شغل الباقي من المادة أكثر من قبضة يدك وأستطيع أن أضع في يدي مليون طن من المادة المحشوكة حشك النواة في الذرة

أبسط الذرات ذرة الهيدروجين؛ فهناك كهيرب واحد يدور حول بروتون واحد، وهو يدور على أبعاد مختلفة من النواة تتناسب مع مربعات الأعداد البسيطة أعني 1، 4، 9، 16 الخ. . . يكون مرة في الفلك الأول، ثم يقفز إلى الثاني فالرابع، ثم إلى آخر، ثم يعود وهكذا. فإذا ما امتص الكهيرب قدراً من الطاقة تهيج وتفلت من المدار الذي يدور فيه وقفز إلى مدار أبعد، ومقدار هذا البعد يعتمد على مقدار الطاقة التي امتصها وإذا سقط من مدار أبعد إلى آخر أقرب منه أطلق إشعاعاً خاصاً يدلك على المسافة التي

سقط فيها. والدخول في تفاصيل هذا الموضوع ينقلنا حتماً إلى نظرية الكم وهي نظرية جديدة في علم الفيزيقا لا تكفيها مقالات مسهبة لشرح قواعدها ومقرراتها.

بقى علينا أن نقول إن عدد الكهيربات حول النواة يكون في الفلك الأول اثنين، ثم ثمانية في كل فلك آخر، وفي الفلك الأخير يعين عدد الكهيربات تكافؤ العنصر كما تعلم في علم الكيمياء.

ماذا يهمنا من عالم الذرة؟ يهمنا أن درجة الحرارة تهيج الكهيرب فيبتعد عن النواة، ويبتعد كلما قويت الطاقة المؤثرة حتى إذا زادت عن قدر مخصوص ترك الذرة مطلقاً.

ويهمنا أن نعلم أيضاً أن إشعاع الذرة يعتمد على مقدار التهيج ونوع الذرة كاملة الكهيربات كانت أو ناقصتها. وما دمنا في صدد الكلام عن الإشعاع ودرجة الحرارة فيجب أن نشير إلى قانون ستيفان - بولتزمان الذي ينص على أن إشعاع أي جسم يتناسب تناسباً طردياً مع القوة الرابعة لدرجة الحرارة المطلقة.

والآن ما هي الحقائق التي نستخلصها من رسائل النجوم البعيدة على ضوء هذه المعلومات الجديدة؟

(البقية في العدد القادم)

خليل السالم

من الدرجة الأولى (ب. ع)

في الرياضيات

ظُلم

عشقتُ فما كنت إلاّ المُنَى ... تلوحُ بأنوارها الباسمة
وما كنتِ إلاّ ازدهار الصِّبا ... ترعرعَ في جَنَّتِي الساهمة
وما كنتِ إلاّ جُنون الغرام ... تَغَلْغَلَ في صبْوتي العارمة
رنوتُ إلى سحركِ العبقري ... بعين مسَّهدةٍ هائمة
فما انطفأَتْ غُلَّتي من نواك ... وما انتعشتْ مُهجتي الحالمة
تُرَاني أَحِب لألقي العذاب ... وَأَنتِ مُدَلَّلَةً ناعِمَة؟
ويمشي فؤادي وراء الخيال ... يُمَنِّيه بالنَّشوة الواهمة
وهل يرسلُ النورَ بدرٌ بدا ... جميلاً. . . وآفاقُه غائمة؟
إذا لم يَهَشَّ لعيني الصباحُ ... فأنواره ظلمة قاتمة
كرهتُ من الناسِ طُغْيَانَهم ... وأَحْبَبْتُ ظُلْمَكِ يا ظالمة

سلاح خدمة الجيش الملكي

أحمد إسماعيل المليجي

أشعار صينية

- 4 -

ورقة الصفصاف

للشاعر الصيني وان - تسي

(؟ م - 314)

ورقة انفصلت عن صفصافة. وهي الآن تسبح فوق الماء.

وبقلبي، أيضاً، صنع الزمن ما صنع. فصلت عن سيدة جميلة أحبها كثيراً، وهأنذا أنتظر

مصيري في سلام
هأنذا أرقب ورقة الصفصاف. آه! إن الموج قد أعادها نحو الغصن الذي انفصلت عنه
- 5 -
أغنية مسافر
لشاعر صيني مجهول
(عاش حوالي عام 325 م)
عندما تملأ النسمة ثوبيك من الحرير، تشبهين ربة ترتدي بالسحاب
عندما تمرين، تتشمم عبيرك أزهار التوت. عندما تحملين الزنبق الذي جمعتِه، يرتعش في يديم من الفرح
حلقات من الذهب تربط عقبيك. أحجار زرقاء تلمع حول خصرك. عصفور من اليشم قد
صنع عشه في شعرك. ورود خدودك تتراءى في حبات عقدك الكبيرة
عندما تنظرين إليّ، أرى نهر ليين يجري
عندما تخاطبيني، أسمع موسيقى الريح بين الصنوبر في وطني
عندما يلقاك فارس، عند الشفق، يعتقد أن الفجر هناك، ويوقف فرسه في قوة
عندما يلحظك ساغب، ينسى جوعه
- 6 -
في الجبل - عند نبع الربيع
للشاعر الصيني رانج - بو
(550 - 618م)
الحزام منحل، الرداء مفتوح للريح الرطبة، كنا نصعد في الطريق الوعرة الضيقة التي توصل إلى نبع الربيع
جلسنا على الحصير التي بسطها لنا الخدم قرب النبع، وأنصتنا أولاً إلى هدير أشجار الصنوبر. رائحة الزنبق تعطر الخمر الذي يجري في غزارة
،عندما تطول الظلال وعندما تبدأ ظلمة الليل تتأرجح بين الأشجار، يفرغ حينذاك حديثنا ذلك لأن ناي الرعاة يتجاوب غناؤه في الجبل.
م. وهبة
عازفة القيثارة
للشاعر الإنجليزي ادموند وولر
(1605 - 1687)
مثل هذه الأنغام الشجية تثيرها لمسة خفيفة كهذه
!لا تهمها هي في شيء أبداً، ولها في نفوسنا أبلغ الأثر
- فأي فن هذا الذي يستطيع - بمثل هذه الضربات البسيطة
أن يملأ نفوسنا غبطة، ويستولي على مشاعرنا؟
،حول أصابعها تزدحم الأوتار وهي ترتعش معبرة - عالياً - عن فرحها لكل قبلة
قوة بسيطة تجعلها ترتعد هكذا
ومن ذا الذي لا تمسه هذه اليد، ولا يرتعش هو أيضاً؟
هنا يرابط إله الحب. وبينما تطرب هي السمع يفرغ هو كنانته على المستمع العزيز
هكذا فعل الموسيقى في الحس. ترهفه وتجرده من سلاحه حتى لا يستطيع أن يقاوم سهماً
واحداً
وهكذا تحتفل المستبدة الحسناء بغنيمتها
ممثلة لنفسها انتصار عينيها
كما كان نيرون ينظر إلى روما المشتعلة، والقيثارة في يده
وبينما كانت تحترق كان هو يعزف
عبد الحليم البشلاوي
البريد الأدبي
الصداقات بين الأدباء
جاء في آخر مقال (الصداقات بين الأدباء) للأستاذ العقاد المنشور في عدد الرسالة

رقم (465) ما يلي:
فهل يعني الأستاذ - يعني الأستاذ توفيق الحكيم - شعراء البحيرة في إنجلترا؟ هل) يعني صداقة شلي وبيرون هناك؟ هل يعني صداقة جيتي وشلر بين شعراء الألمان؟ هل يعني صداقة تولستوي وتورجنيف وديستفسكي بين عظماء الأدب العالميين من الروسيين؟)
وقد وجدنا في هذه النهاية استرسالا يتجاوز الحقيقة نفصله فيما يلي:
1 - لم يكن اللورد بيرون من شعراء البحيرة في إنجلترا. وكانت المدرسة الأدبية التي دعيت نسبة إلى منطقة البحيرة والتي أسسها الشاعر (وردز ورث) لوجود بيته في تلك المنطقة تضم (سوثي صموئيل تيلور كوليردج دي كوينزي
2 - لم يكن شلي أيضاً من شعراء البحيرة، وإنما كان له اتصال غير مباشر بسبب وجود مسكنه في تلك المقاطعة، وكان بذلك مثل (سكوت، وكارليل، ومسز هيمانز، ومتيو أرنولد، وإدوارد فتزجرالد، وتنسون، وجري، وشارلس لامب)
3 - إذا كان يعني الأستاذ العقاد بقوله (هناك)، أي (بإنجلترا) دون تحديد لمنطقة البحيرة، فهذا يتجاوز الحقيقة أيضاً؛ ذلك لأن الشاعرين بيرون وشلي لم يتفق لهما الالتقاء في أي مكان بإنجلترا، ثم لم يقم بينهما أي اتصال أدبي أو مراسلة تشير إلى معرفة أو صداقة. وما قدِّر لهما الالتقاء إلا في سويسرا أول مرة وذلك في شهر مايو سنة 1816، عندما كان بيرون قد ترك إنجلترا للمرة الأخيرة. وكلاهما لم يعد إلى وطنه بعد ذلك التاريخ. ذلك أن شلي توفي في إيطاليا سنة 1822، واللورد بيرون توفي في اليونان سنة 1824
والقضية الثانية تتعلق بما أورده عن صداقات تورجنيف وتولستوي ودستيوفسكي من مشاهير الأدب الروسي. وهذه الصداقة لا تنطبق على الواقع، بل لعلها أقرب إلى العداء بين بعضهم
1 - لم تكن هنالك صداقة بين تولستوي وتورجنيف. ولم يتجاوز الأمر إعجاب تورجنيف تولستوي. غير أن تولستوي لم يبادله إعجاباً بإعجاب بل كافأه عليه بالإهمال والكره، ولعل
في العبارة التي كتبها تولستوي إلى (فث والتي قال فيها: (إني أحتقر الرجل) - يشير إلى تورجنيف ما يبدد أي زعم بقيام صداقة بينهما
2 - وفي ناحية أخرى لم تقم أي صداقة بين ديستوفسكي وتورجنيف، بل وجد بينهما عداء لم تسبقه صداقة ولم تتله صداقة. وفي كتاب ديستوفسكي نراه يصف تورجنيف بجميع نقائصه بأسلوب شديد المبالغة، ثم يقول عن تورجنيف بأنه من أولئك الكتاب الذين يؤثرون علي في جيل واحد، ولكن مصيرهم مناظر رواية تمثيلية على الرف
3 - وأخيراً لم تقم صداقة بين تولستوي وديستوفسكي، وليس ما يشير في تاريخ الأدب الروسي إلى التقاء هذين الأديبين. والفرصة الوحيدة التي أتاحت لتولستوي قضاء مدة طويلة في موطن ديستوفسكي - سان بطرسبورج، لننجراد الآن - كانت عندما ذهب تولستوي وهو شاب يدرس الحقوق في جامعتها، وصادف ذلك نفي ديستوفسكي مع جماعته إلى سيبريا
على أن ذلك لم يمنع إعجاب تولستوي بإنتاج ديستوفسكي، وليس في مقدورنا اعتبار الإعجاب صداقة، خصوصاً إذا كانت ذات طرف واحد.
(القدس)
علي كمال
حول إصلاح الأزهر
كنت آخر من تحدث في (الرسالة) عن الأزهر وإصلاحه بكلمة صريحة أغضبت بعض الناس، وقدّرها قدرها مفكرو الأزهر من المدرسين وغير المدرسين، وانتظروا أن تتبعها أخواتها حتى يتم الحديث. واليوم قرأت في الرسالة كلمة للزميل الفاضل الدكتور محمد البهي دفعه إليها فيما أعتقد عامل نبيل، إلا أني رأيت فيها عبارة أرسلها دون تحديد فلم تعبر فيما أظن عما أراد. إن حضرته يصف بعض الكتاب الأزهريين بالمغالاة (لأنهم - فيما يقول - من رجال العهود السابقة وهي عهود قريبة إلى الطبيعة الساذجة التي لم تلتو بعد)
للأستاذ الزميل رأي في الأزهر - يجهر به ولا يخفيه - لا يختلف عن رأينا، كما لا

نختلف أيضاً في تقدير الجامعة وجهودها ومبلغ ما أصاب رجالها من حظ من النجاح في تأدية الرسالة الجامعية العلمية، فلا أفهم بعد هذا كيف يكون من يكتب عن الأزهر مشخصاً لداء واصفاً الدواء مبالغاً ساذجاً من رجال العهود السابقة! لعل الزميل الفاضل لو وصف هؤلاء الكاتبين بالشجاعة والصراحة والرغبة في الإصلاح والعمل له لكان مصيباً. ليست السذاجة في تعرف الداء ليتأتى أن نطبّ له بل في كتمه حتى يصير معضلاً. وكم كان حكيماً (كونفشيوس) حينما جعل من أسس منهجه الفلسفي (تحديد الألفاظ) حتى لا يكون ضلال في الأحكام!

محمد يوسف موسى

مجمع فؤاد الأول للغة العربية

انتهت وزارة المعارف من إعداد مشروع قانون بإنشاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية، بدلاً من المرسوم الحالي الخاص به

وترجع الحكمة في إصدار القانون الخاص بالمجمع إلى جعله مؤسسة مستقلة ذات شخصية معنوية

وينص المشروع على بقاء أغراض المجمع على ما كانت عليه مع إضافة مهمة جديدة هي تشجيع الإنتاج الأدبي العربي الحديث وإقامة المسابقات الأدبية وتقدير الجوائز لها

وقد حدد عدد أعضاء المجلس بثلاثين لا يزيد الأجانب منهم على عشرة

ونص المشروع على أن يكون لوزير المعارف حق تعيين رئيس للمجمع من بين ثلاثة يرشحهم أعضاؤه لمدة ثلاث سنوات وينتخب له وكيل مصري لمدة سنة

وقد منح وزير المعارف وحده سلطة إصدار القرارات التي تمس مادة اللغة العربية وجوهرها.

التعاون الثقافي بين مصر والعراق

رفعت وزارة المعارف إلى مجلس الوزراء مشروعاً بإنشاء مكتب للتعاون الثقافي بين مصر والعراق تكون مهمته وضع الأسس لمعاهدة ثقافية بين البلدين، والدعوة إلى عقد مؤتمرات ثقافية تمثل فيها البلاد العربية المختلفة.

وسيعهد إلى هذا المكتب بإطلاع كل من وزارتي المعارف المصرية والعراقية على ما يحدث في الأخرى من تطور في شئون التربية والتعليم من حيث الأنظمة والقوانين والمناهج والكتب الدراسية وغيرها

ويبحث المكتب كذلك تبادل الطلبة والأساتذة الكتب والمطبوعات، ووضع نظام ثابت لذلك

وسيدعو المكتب إلى عقد مؤتمرات ثقافية عربية ويكون مقره متنقلاً بين القاهرة وبغداد وبالتناوب، ويرأسه وزير المعارف في البلد التي يكون بها، وأعضاء المجلس أربعة غير الرئيس، على أن يكون اثنان منهما عن كل بلد

وحين يتم عقد المعاهدة الثقافية بين البلدين يعهد إلى المكتب بتنفيذها.

وسيباح للبلدان العربية الانضمام للمكتب بعد موافقة الوزارتين المصرية والعراقية على ذلك

القصص الفائزة في مسابقة وزارة المعارف

وافق مجلس مجمع اللغة العربية الملكي على قرار لجنة مسابقة القصة لوزارة المعارف، وقدمه إلى معالي وزير المعارف فوافق عليه

وكان المقرر منح ثلاث جوائز: أولى وثانية وثالثة، ولكن اللجنة رأت العدول عن ذلك واختارت خمس قصص منحتها الجوائز دون مراعاة الأولية نظراً لامتياز كل منها من ناحية.

أما القصص الفائزة فهي: ملك من شعاع، للأستاذ عادل كامل؛ وزينات، للأستاذ حسين عفيف؛ وجهاد أو وا إسلاماه، للأستاذ علي أحمد باكثير؛ وعودة القافلة، للأستاذ يوسف جوهر؛ وكفاح طيبة، للأستاذ نجيب محفوظ

مسابقة الشعر العربي

أعلنت محطة الإذاعة المصرية أن الأستاذ محمد الأسمر الشاعر المعروف، قد فاز بالجائزة الأولى في مباراة الشعر العامة التي أقامتها محطة الإذاعة البريطانية.

العدد 472 - بتاريخ: 20 - 07 - 1942

غراب وطفل!

حادثان وقعا في نهار يوم وليلِه، لَها بهما من لَها، وتفكر فيهما من تفكر؛ وبات أثرهما الباقي يعمل في نفسي وفي رأسي ما يعمل الهم إذا جاش، والألم إذا برَّح، حتى أصبحت فإذا بي لا أجد في ذهني ما أكتبه إليك، غير أني أقص نبأ هذين الحادثين عليك.

نشب جناح أحد الغربان في مشتبك الغصون من أعالي (الكافورة)، وجهد الطائر الأسير أن يخلص جناحه بالاضطراب والاجتذاب والخفق فما استطاع. وكان قد حط بالقرب منه غراب فهبّ ينعب نعيب المستغيث، ثم حاول أن يجتذب بمنقاره الجناح الناشب فأعياه ذلك، فارتد يثب من حوله صاعداً هابطاً وهو ينعب، حتى أقبل على صوت الاستغاثة غرابان، فحوّما هنيهة فوق أخيهما المصاب، ثم أطلقا في الفضاء نعيقهما المنذر. فلم تكن غير لحظات حتى تتابعت الغربان فكان منها على ذوائب الدوحة الفينانه عصابة، وعقدت هذه العصابة مناحة، وظلت هذه المناحة بقية النهار لا ينقطع لها صوت، ولا تفتُر بها حركة. وكأنما كانت الغربان تضرع إلى الناس أن يسعفوا أخاها المسكين بحيلهم البشرية؛ ولكن الناس كانوا قد تجمعوا على طِوارَئْ الشارع تجمع البَلَه، لينظروا إلى الحادث العجيب نظر الفضول! وقلما تجد بين البَلَه والفضول مكاناً للمروءة!

فلما دنا الليل واستيأست الغربان انصرف بعضها وبقي بعضها الآخر. ولم تقصِّر الأغربة الباقية في مواساته والترفيه عنه، حتى لقد زعم بعض أصحابنا أنه رأى غراباً يزقُّه بالحب والماء. وانصرفنا نحن كذلك عن القهوة بعد موهن من الليل، وليس في نفسي غير هذا المظهر الأخوي الرائع في نوع من الطير لم يرسَل إليه رسول، ولم تُنشأ لتربيته جامعة؛ وما كنت رأيت ولا قرأت ولا سمعت من قبل ما يشبه ذلك في عالم الحيوان.

لم أكد أسكت المذياع بعد إعلانه الأنباء الأخيرة حتى سمعنا صراخ طفل حديث الولادة ينبعث في سكون الشارع على حال غير مألوفة. فأطّلعت من النافذة فإذا الصراخ يتتابع من ركن مظلم أمام حانوت جارنا النجار. فظننت أول الأمر أن إحدى الوالدات جلست تسترفه من التعب، أو تستدني أكف المارة. وكانت امرأة من سواد الناس تمر في تلك اللحظة فعاجت بحكم غريزتها على الطفل الباكي، وجعلت تجسه بعينها ويدها، ثم صاحت تقول في ارتياع وحسرة:

الله يلعنها في كل كتاب! زِنّي وقتل؟!

ثم اندفعت المرأة في طريقها تهرول وتدمدم كأنما تريد أن تنجو بنفسها عن موطن الشبهة!

ووقف عليها على الوليد المنبوذ كل سائر. وكان كل واقف يشعل ثقاباً وينظر إلى محيا الطفل البريء ثم يحوقل وينصرف.

وكان الطفل على ما فهمت من وصف الواصفين (الواصفين من الواقفين أزهر اللون جميل الصورة قد وضعته أمه (الحنون) في قفة جديدة من الخوص ملفوفاً في خرقة بالية من قماش مهلهل النسج لا نقش عليه ولا خيط فيه! ولعلها خشيت، إذا هي ألبسته بعض الثياب أن يستدل الشّرط بها عليها! والاحتياط لسلامة الخدر المصون من سوء السماع ومض الملام فوق كل اعتبار!!

كان المارة يتجمعون على جوانب المهد الخشن والطفل يضطرب فيه بيديه ورجليه، ثم يتفرقون ولا يجرؤ أحد منهم أن يسبل غطاءه عليه، أو يمد يده إليه، كأنما هو في ذاته لعنة مجسدة تغلق بمن يمسها وتلحق بمن يقربها! والواقع أن اللقطاء أو أبناء السكك والدهاليز كما يسميهم الشرفاء، أشقياء بالولادة. وقد تشتمل الرحم الفاجرة على الشقي والشقاء في وقت معاً. فاللقيط وهو جنين يكون خطراً لا ينفك مهدداً بالعار إذا استمسك، وبالموت إذا سقط. فإذا سلم على طعن البطن باليد، وتسميم الرحم بالعقاقير، وُلد في الخفاء، وغمر بالظلام، وأحيط بالسكون، وأصبح في حجر أمه جريمة مولودة تطفئ نور البصر، وتذوي شباب القلب، وتقطع خيط الرجاء، فتحاول أن تتنصل من هذه الجريمة الواحدة، باقتراف جرائم متعددة! فإذا على سوء الولادة وجفاء المهد وقسوة الهجر، عاش موسوماً بالخزي، موصوفاً بالمهانة، لا يرتفع به بيت، ولا يشرف به منصب

يا حسرتا على اللقيط من بني آدم! يمر الإنسان بالمتروك أو الضال من جِرَاء الكلبة،

أو خنانيص الخنزيرة، أو حملان النعجة، أو فراريج الدجاجة، فيؤويه إليه حتى يجد صاحبه؛ ثم يمر بالمتروك من جنسه فيشيح بوجهه وينأى بجانبه؛ لأنه إذا ضمه إليه اتهمته زوجه، وإذا أظهر العطف عليه اتهمه الناس. ومن ينكره أهله لا يعرفه أحد! ومن ضاق ذرعه بابنه لا يتسع صدره لمتبنّاه، لذلك كان الناس يمرون بالقفة المتروكة، وفيها ثمرة الحب يتضور ويبكي، فلا يجودون عليه لا بنظرة حنان، أو كلمة رثاء، أو إشارة إعجاب، أو لعنة انتقام. وخفت أن يبيت الطفل على قارعة الطريق فدعوت من حمله إلى مركز البوليس.

وأصبح الصباح فقيض الله للغراب من عالج جناحه بعود طويل من الخشب حتى خلص، وانطلق الأسير في رفاقه الأوفياء يرفه عن الجناح العليل في العشّ الناعم والفضاء الحر والإخاء الوثيق. وذهب صديقنا علي يسأل رجال الشرطة عن مصير الطفل فقيل له: منحناه اسماً من الأسماء، ونحلناه أباً من الآباء، وسجلناه مجهول الأب والأم؛ ثم أرسلناه إلى الملجأ ليعيش عمره الطويل أو القصير من غير أسرة ولا كرامة ولا ثروة ولا رجاء!

أما بعد فذلك غراب وهذا طفل! أما الغراب فلم يتركه قومه حتى أنقذوه وأخذوه؛ وأما الطفل فقد تركه أبوه لأمه، وتركته أمه للناس، وتركه الناس للقدر! فمن ذا الذي يقول بعد ذلك إن ابن آدم خير من ابن آوى، وإن بنت حواء أفضل من بنت اللبون؟ إن جد هذا الغراب هو الذي علم قابيل جد هذا الطفل أن يوارى بالدفن سوءة أخيه المقتول! وهل تجد أبلغ في تسجيل العجز على الإنسان من قول قابيل حين رأى الطائر يبحث في التراب: (يا ويلتا! أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب؟)

(المنصورة)

أحمد حسن الزيات

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

انتخاب بطرك الأقباط - أسئلة وأجوبة توضح المشكلة القبطية

بين الصنعة والطبع - موقعة العلمين - اختيار لون الموت -

يدل على حيوية الذوق

انتخاب بطرك الأقباط

البطريرك كلمة يونانية الأصل، أو لاتينية الأصل. ومن الطريف أن نذكر أن كازيميرسكي يجعل البطريق (بالقاف) من اللاتينية، ويجعل البطرك (بالكاف) من اليونانية، برغم تقارب مدلول الكلمتين. وأنا أترك تحقيق هذه المسألة لحضرة الباحث المفضال الأب أنستاس، فهو بها من الخبراء.

والذي يهمني هو أن أشرح لقراء الرسالة مشكلة تثور اليوم في البيئات القبطية، وشرحها لا يخلو من نفع، لأنها تنطوي على دقائق اجتماعية وأخلاقية، ولأن من الخير أن يعرف قراء المجلات الأسبوعية حقيقة ما يُنشر بلا شرح في الجرائد اليومية. فإن وقع في كلامي شيء من الخطأ فليتفضل بتصحيحه أحد المطّلعين من أفاضل الأقباط.

وأواجه الغرض فأقول: الأصل أن يُنتخَب البطرك من الرهبان، وقد سارت الأمور على هذا الأصل في جميع العصور الخوالي، ثم انحرفت عند انتخاب البطرك السابق، فقد انتُخب وهو مطران، وبانتخابه على ذلك الوصف ضاع أعظم حق من حقوق الرهبان.

والذين قرءوا ما نشره سعادة الأستاذ توفيق باشا دوس في جريدة لابورس يدركون أن المشكلة ستثار من جديد، مشكلة المفاضلة بين الراهب والمطران في انتخاب الرئيس الديني للأقباط. . . فما حجج الفريقين؟

حجة القائلين بأن يُنتخب البطرك من الرهبان تقوم على أساس متين، وهو سلامة الانتخاب من المؤثرات المالية، لأن الرهبان لا يملكون شيئاً على الإطلاق، فمن المستحيل أن يشتروا أصوات الناخبين، وإذن يكون مرجع المفاضلة بين راهب وراهب هو الشهرة بالتقوى والورع والقنوت.

وحجة القائلين بأن ينتخب البطرك من المطارنة تقوم أيضاً على أساس، فهم يرون أن المطارنة قد يعرفون من شؤون المجتمع ما لا يعرف الرهبان، بغض النظر عن تعرّض الانتخاب لمؤثرات مالية أو اجتماعية.

وهنا يسأل القارئ عن المصادر التي تجعل المطارنة أغنياء، بحيث يتناضلون بالقُوى

المالية عند الانتخاب.
ونجيب بأن البلاد المصرية من الوجهة القبطية مقسَّمة إلى أبرشيات (والأبرشية كلمة يونانية معناها الإقليم) ولكل أبرشية مطران، فيقال: مطران المنوفية، ومطران البحيرة، ومطران جرجا، ومطران أسيوط، إلى آخر التقاسيم.
ولكن كيف يغتني المطران؟
يغتني من (العوائد) وهي جمع عادة، كما تُجمع حاجة على حوائج، ولك أن تجعل مفردها عائدة، إن تناسيت العُرف، وهو من أهم الأسندة اللغوية. فما تلك العوائد؟
حين يتلطف المطران بزيارة أحد البيوت يكون على أهل ذلك البيت أن يتلطفوا بتقديم (العادة) وهي مبلغ من المال يقلّ أو يكثر تبعاً لقدرة أهل البيت، فيكون جنيهاً أو جنيهين، وقد يصل إلى عشرين. ومن هذه العوائد تتكون ثروة المطران، وهي ثروة مستورة لا تتعرض لرقيب ولا حسيب، وإن كان المفهوم أنها تُجمع لإسعاف المرضى ومواساة المحتاجين، وهي بالفعل مصدر خير لأولئك وهؤلاء.
بعد هذا الشرح نفهم كيف يخاف الراهب صولة المطران عند الانتخاب، فالراهب يتقدم بالدين، والمطران يتقدم بالدين والمال. وقد سمعت أن للمال سلطاناً على أصوات الناخبين، وسمعت أيضاً أنه يزيد الأتقياء جلالاً إلى جلال. وهذا وذاك يؤكدان خوف الراهب من مناضلة المطران.
أسئلة وأجوبة
س - هل من الحتم أن ينتخَب بطرك الأقباط من هيئة دينية؟
ج - يجوز انتخابه من هيئة مدنية إذا قلَّت الصلاحية لهذا المنصب في الهيئات الدينية، لأن الغرض هو إقامة راعٍ موصوف بالصدق والعدل، ولو كان من المدنيين
س - هل فكَّر أقباط مصر قبل اليوم في انتخاب بطرك من الهيئة المدنية؟
ج - بعد موت البطرك الأسبق كان من بين المرشحين لهذا المنصب رجلٌ مدنيٌّ هو الأستاذ سابا حبشي؛ ويقال إنه نال كثيراً من الأصوات؛ وهذا يدل على استعداد الأقباط لتشجيع العقلية المدنية في الحياة الدينية
س - إذا توفرت الشروط في الرجل المدني، فما الواجب لإيثار الرجل الديني؟
ج - يرى الأقباط أن منصب البطرك هو مصدر الحياة للدير، فمن الخير أن تبقى لسكان الديارات آمال في السيطرة الروحية على الجمهور القبطي، وهي تُعرَّض للزعزعة إن ضاع منهم ذلك المنصب المرموق
س - وما الخطر من زعزعة مركز الدير؟
ج - الخطر عظيم، لأن الدير هو أكبر الخصائص في المسيحية؛ وضعضعة الدير تضعضع هيبة الرهبان
س - وما الموجب للإبقاء على الرهبانية؟
ج - الرهبانية مفروضة على البطرك، ولو انتُخب من بين المدنيين
س - ألا تظنَّ أن رهبنة المدنيّ أرقّ وألطف؟
ج - أقباط مصر يقولون بغير ذلك، وهم يرون أن الرهبنة لا توصف بالرقة ولا باللطف، وإنما توصف بالتقشف والزهد والقنوت
س - هل ترى أن البطرك القادم من سجن الدير يصلح لمقابلة الوزراء والسفراء؟
ج - أقباط مصر لا يطلبون البطرك لمقابلة الوزراء والسفراء، وإنما يطلبونه لمواساة اليتامى وهداية الأشقياء، ولا يكون كذلك إلا حين تغلب عليه الهيبة الدينية
س - وإذا صَلَح الرجل المدني لتأدية هاتين الوظيفتين؟
ج - يكون أصلح الرجال على شرط أن ينتخَب من طريق لا تعترضه الشبهات
س - وما الشبهات التي تعترض ذلك الطريق؟
ج - هي الشبهات التي ألمعتُ إليها في مطلع هذا الحديث
أما بعد فهذه صورة لما يعتلج في صدور أقباط مصر بعد موت البطرك، وإني لأرجو أن يُكتب لهم التوفيق في اختيار البطرك الجديد، فهم مواطنون أعزاء، واطمئنانهم إلى رياستهم الدينية يقع من أنفسنا موقع الجذل والارتياح
وسبحان من لا يقع في مُلكه إلا ما يريد
بين الصنعة والطبع
إذا كتبت خطاباً في المساء فأتركه بلا تظريف، لتَسهُل مراجعته في الصباح، ولتبقى

فرصة للحذف منه أو الإضافة إليه، فمن المؤكد أن للرأي موجات تختلف باختلاف الأوقات. وقد تُنكر في بياض الصبح، بعض ما كتبت في سواد الليل. وأنت عن تموُّجات رأيك مسئول.

كذلك أصنع في خطاباتي ومقالاتي لهذا العهد، ولم أكن أصنع ذلك من قبل. وإن زمناً يكفُّ من جموحي لهو ألأم الأزمان!

ما كنت أعرف الفرق بين التسويد والتبييض، ولا كنت أستبيح معاونة الصنعة على مبالغة الطبع، وكنت أعجب حين أسمع أن في الكتّاب من ينسخ مقاله مرات قبل أن يطمئن إلى صلاحيته لمواجهة القراء.

كان رأيي أن جري القلم في القرطاس هو جري الجواد في الميدان. . . وللقلم أن يتلفت قبل إصابة الهدف، إن كان للجواد أن يتلفت قبل بلوغ الغرض. . . ومن المحال أن يتلفت الجواد حين ينطلق في ميدان السباق، أو ميدان القتال.

وهذا المذهب في رياضة القلم هو الذي عرَّضني لكثير من الجراح، لأني لا أملك صده حين ينطلق، وهل يملك الجواد مجانبة العثرات حين ينطلق؟

فما بال الأقدار تروضني بعد الجموح، وتفرض عليَّ أن أتلّفت ذات اليمين وذات الشمال وأنا أجري في ميدان البيان؟

وما هذا الذي أعاني من زماني؟

أليس من المزعج أن أصبح من مخاطر القلم في أمان، لأن الظروف توجب أن يراعي قلمي أشياء لا يراعيها الجواد حين ينطلق في الميدان؟

وما قيمة الحياة الأدبية إذا خلت من المخاطر والمهالك والحتوف؟

أنا لا أعدّ الكاتب فارساً إلا إذا استطاع بكل سطر، أو بكل حرف، أن يعرّض قراءه إلى الاشتباك في حروب مع معاني والآراء والأهواء.

فأين أنا مما أريد؟

وأين الفرص التي تسمح بأن أجرّد من قلمي مِشرطاً يرفع الغشاوة عن أعين أبناء الزمان؟

أنا اليوم أضمن السلامة من جرائر قلمي، كارهاً غير طائع، لأن النظام في هذه الأيام يصدّ الأقلام عن عنت الجموح والطغيان

قلمي

كيف مرّت شهور بلا جراح يُدميها سنانُك؟

وكيف أمِنتُ شرَّك، ونجوت من طغيانك؟

كيف وكيف؟؟

بيني وبينك ميعاد وميثاق، والأحرار لا يخلفون المواعيد، ولا ينقضون المواثيق.

موقعة العلمين

العَلَمين اسم بقعة في الطريق بين الإسكندرية ومرسى مطروح، وهي مثنّى عَلَم، وقد صارت بفضل حرب الصحراء الغربية أشهر من نار على عَلَم أو على عَلَمين!

والذي يراجع أخبار الصيال بين قوات الحلفاء وقوات المحور في الصحراء يعرف أن تلك القوات لم تقف وقفة أطول من وقفتها في العلمين، فهل كانت المقادير أرادت أن يكون لتلك التسمية هذا المصير فتكون تلك البقعة مكان الصراع بين العَلم المهاجم والعَلم المدافع؟

اللهم حوالَيْنا ولا علينا!!

ألوان الموت

لك أن تقول ألوان الموت، كما تقول ألوان الطعام وأصناف الشراب، ومن حقك أن تختار لون الموت، لأنه فنٌّ من الفنون، أو صنفٌ من الصنوف، أو (ضربٌ) من الضروب، ولعل من واجبك أن تفكر في اختيار لون الموت، لأن ذلك يشهد بأنك من الأحياء. وهل يفاضِل المرء بين لون ولون إلا وهو في حيوية ذوقية أو روحية تضيفه إلى أكابر الفنانين؟

ولتوضيح هذا المعنى أسوق الحادثة الآتية، وقد وقعت في مساء اليوم السادس من هذا الشهر الميمون:

قُبَيْل الغروب هبّت عاصفة عنيفة، عاصفةٌ كادت تنقل إلى داري جميع رمال الصحراء، جزاءَ بما صنعتُ من التغنّي بإشراف داري على الصحراء!

وفي ثورة تلك العاصفة يترنم الهتَّاف، فأسمع صوت المسيو دي كومنين يدعوني إلى سهرة
تدور فيها أكواب الحديث، وهو لا يقدِّم لأضيافه غير أكواب الحديث، لأنْ العقَل نهاه عن الشراب قبل أن ينهاه الطبيب.
وما كادت العاصفة تسكن حتى سلكت الطريق إلى ذلك الصديق، وهو لا يسلكه عابر في ليله ظلماء إلا إذا كان على مع حبيب
كان المسيو دي كومنين في توحد الليث، فقد قضت ظلمات الأيام الأخيرة بأن يقرّ الناس في بيوتهم، فلا يسمر صديق مع صديق. . . ولا تسأل كيف طابت نفسي حين عرفتُ أنني السمير الوحيد في ذلك المساء، مع رجلٍ صِيغَ روحه من لباب الضياء.
كانت غابة الليسيه في تلك الليلة تكابد الشوق إلى من يتنقل بين أشجارها من وقت إلى وقت، ليُشعرها بأن في الوجود أرواحاً لم تشغلها مزعجات الحوادث عن الاستماع للأغاريد المطوية في ضمير الحفيف. . . وهل تصمت أشجار مصر عن التناجي بالحفيف في أي زمان؟
تحدثنا بجانب كل شجرة، وسلَّمن على كل مكان، حتى المكان الذي أوصى المسيو دي كومنين بأن يدفن فيه، بعد العمر الطويل العريض.
وطال الحديث حتى استغرق أكثر من خمس ساعات، فأستاذنت في الانصراف، بعد أن شكرت للمسيو دي كومنين لطفه البالغ في إمتاع روحي وعقلي بذلك الحديث.
ويهتف هذا الصديق بالسائق ليوصلني بالسيارة إلى داري، فلا يجده، وينادي الحارس ليصل جناحي بضع خطوات، فيعرف أنه يرابط في ناحية نائية، فيعلن أسفه على أني أسير وحدي في ذلك الظلام المحفوف بالحتوف، ولكني أطمئنه فأقول: إني لا أعرف ولا أصدِّق أن في الدنيا رجلاً أقوى مني، فليجرب اللصوص حظهم في مصاولتي، إن كان في (مصر الجديدة) لصوص غير سُرَّاق القلوب، وأنا قد نجوت من المعاطب الوجدانية في مصر الجديدة، فما خوفي على جيبي وقد نجا قلبي؟!
كان الطريق موحشاً أعنف الإيحاش، وكان الليل كأنه الليل!
طاخ، طاخ، طاخ!!!
وألتفت فإذا المدافع تنطلق من كل صوب، ولم يسبقها نذيرٌ من صفارة أو بوق، وأنظر فأرى لهيبها ودخانها يثوران فوق رأسي، فأسرع بالدخول في بيت بلا أبواب، بيت لا يزال
في مهد البناء، والمصريون لا يكفّون عن البناء ولو ارتفعت تكاليفه إلى عشرات الأضعاف.
طق، طق، طق!!!
وألتفت مرة ثانية فأرى الأخشاب التي تحمل السقف مهددة بالسقوط، فأقفز إلى الفضاء، وقد اخترت لون الموت، وللموت ألوان: رأيت الموت بشظية مِدفع أفضل من الموت بسقوط تخشيبة، كما أن الموت بالبِطنة أفضل من الموت بالجوع!
ثم نظرت فرأيت الضرب ابتعد، فهو ضرب طيارة إنجليزية تطارد طيارة ألمانية، وقد أفلح الضرب فسقطت الطيارة المطارَدة عند الكيلو رقم 3 بطريق السويس، وكفى الله رأسي شر الهلاك، وضاعت الفرصة على أعدائي، فلم يحبّروا المقالات الطوال في: (مصرع الملاكم الأدبي)، والمستميت لا يموت، كما قال الحكماء!!
أفي هذه الأيام نقرأ ونكتُب، ونحاسب هذا الشاعر، ونصاول ذلك الكاتب؟!
نعم، ثم نعم. . . فليحاول الدهر بأحداثه وخطوبه زعزعة الفكر الثاقب والقلم البليغ!
محمد زكي مبارك
شعر علي ابن أبي طالب
للأستاذ السيد يعقوب بكر
(تتمة)
هل علي حقاً صاحب الديوان المنسوب إليه؟
لعلّنا ملزمون، بعد أن انتهينا إلى أنه كان من الشعراء، بأن نصل إلى رأي في هذه المسألة: وهي هل علي حقاً صاحب الديوان المنسوب إليه؟ ولقد وصلنا فعلاً إلى رأي في هذه المسألة، ولكننا نحب قبل أن نذكره أن نذكر آراء بعض العلماء فيها:
فهناك رأي للأستاذ بروكلمان ذكره في كتابه سالف الذكر حيث يقول (ح1 ص 43):

(ليس من شك في أن عليّا كان ذا ملكة شعرية، ولكن المشكوك فيه كثيراً وجود قصائد صحيحة له في ديوانه؛ وإلى جانب ذلك فإن هذه القصائد تحمل طابعاً من انتحال شيعي بلغ من البدوّ للعيان حدّا جعل النقاد من أهل السنة فيما مضى يدركون زيْفها)

وهناك رأي آخر للأستاذ هداية حسين ذكر الأستاذ بروكلمان في ملحق كتابه السابق؛ فقد قال (ح1 ص 73) إنه - أي هداية حسين - وصل إلى أن ناظم الديوان هو قطب الدين سعيد بن هبة الله الراوندي (توفي 573 - 1177).

وهناك رأي أخير للأستاذ مستقيم زاده ذكره (هيار) في كتابه حيث يقول (ص 252): (وأكد الشارح مستقيم زاده أيضاً أنه (الحديث عن الشريف المرتضي) الناظم الحقيقي للديوان المنسوب إلى علي الذي لم يكن يستحيل عليه شيء).

فهذه آراء ثلاثة ذكرناها لنصوّر ذلك الاختلاف الشديد حول الديوان ونسبته، ولنخرج من هذا الاختلاف الشديد إلى رأي لنا في هذه المسألة نحن نستريح إليه ونرجو أن يستريح إليه القارئ أيضاً:

لا يمكن القول أن جميع ما في الديوان ليس لعلي؛ فهذه دعوى ينقصها من أساسها أنه قد ورد في هذا الديوان الشعر الذي وجدناه في تلك المراجع العربية المعتمدة سالفة الذكر والذي كان وجد إننا له فيها مما حملنا على التسليم بصدق نسبته إلى علي.

فالبيتان المذكوران في عيون الأخبار تجدهما في الديوان ص 58 مع تغيير بسيط، والأبيات المذكورة في معجم الأدباء تجدها ف ص32 وص 63 مع بعض الزيادة والتغيير، والرجز المذكور في مقاتل الطالبيين تجده في ص33 مع زيادة وتغيير كثيرين، والأبيات المذكورة في العمدة مذكورة في ص 64 وص 65 مع زيادة وتغيير كثيرين، والأبيات المذكورة في حماسة البحتري تجدها في ص 30 وص 12 مع بعض الزيادة والتغيير، والرجز المذكور في الكامل تجده في ص 18 مع بعض الزيادة، والأبيات المذكورة في العقد الفريد تجدها في ص 65 مع زيادة وتغيير غير قليلين.

وإذن فالصواب هو أن بعض ما في الديوان لعلي، وبعضه الآخر ليس له. وهذا البعض الآخر إنما نستدل على أنه ليس لعلي بعدّة أشياء:

1 - أن بعض المتقدمين نبّه على أن بعضه ليس لعلي:

(ا) يقول ابن هشام في سيرته (ج2 ص 635 - 636 ط جوتنجن): (قال ابن اسحق وقال علي ابن أبي طالب رضوان الله عليه قال ابن هشام قالها رجل من المسلمين في يوم أحد فيما ذكر لي بعض أهل العلم بالشعر ولم أر أحداً منهم يعرفها لعلي رحمه الله:

لا هُمَّ إن الحارث بن الصَّمَّهْ ... كان وفيّا وبنا ذا ذمّه
أقبل في مهامةٍ مُهِمَّهْ ... كليلة ظلماء مذلهمّهْ
بين سيوف ورماحٍ جَمّهْ ... يبغي رسول الله فيما ثمّه

وهذه الأبيات مذكورة في الديوان ص 66 مع تغيير كثير.

(ب) ويقول ابن هشام أيضاً (ص 656 - 657): (قال ابن إسحاق وقال علي ابن أبي طالب رضي الله عنه يذكر إجلاء بني النضير وقتل كعب بن الأشرف قال ابن هشام قال رجل من المسلمين غير علي ابن أبي طالب فيما ذكر لي بعض أهل العلم بالشعر ولم أر أحداً منهم يعرفها لعلي رضي الله عنه:

عرفت ومن يعتدل يعرفِ ... وأيقنت حقاً ولم أصدفِ
الخ).

وهذه القصيدة مذكورة في الديوان ص 42 مع تغيير بسيط

(جـ) ويقول الطبري (الجزء الثالث من القسم الأول، ص 1426 ط ليدن): (وزعموا أن علي ابن طالب حين أعطى فاطمة عليهما السلام سيفه قال:

أفاطم هاك السيف غير ذميم ... فلست برعديد ولا بُمليم
لعمري لقد قاتلت في حبّ أحمد ... وطاعة رب بالعباد رحيم
وسيفي بكفي كالشهاب أهزّه ... أجُذّ به من عاتق وصميم
فما زلت حتى فضَّ ربي جموعهم ... وحتى شفينا نفس كل حليم

والأبيات مذكورة في الديوان (ص 65) مع زيادة فيها وتغيير كثير.

2 - أن بعضه يحمل طابعاً شيعياً:
فمن هذا البعض القصيدة التي في (ص 3) من الديوان، والتي مطلعها:
وما طلب المعيشة بالتمنِّي ... ولكن أَلق دلوك في الدِّلاء
فإنها تنتهي بهذا البيت:
وهذا العلم لم يعلمه إلا ... نبيّ أو وصيّ الأنبياء
وغير خاف ما في (وصي الأنبياء) من دلالة.
ومنه القصيدة التي في (ص 48) وهي:
بُنيَّ إذا ما جاشت الترك فانتظر ... ولاية (مهديّ) يقوم فيعدل
وذلَّ ملوكُ الظلم من آل هاشم ... وبويع منهم من يلدَّ ويهزل
صبيَّ من الصبيان لا رأي عنده ... ولا عنده جِدْ ولا هو يعقل
فثمَّ يقوم القائم الحقُ منكم ... وبالحق يأتيكم وبالحق يعمل
سمَّي رسول الله نفسي فداؤه=فلا تخذلوه - يا بَنيَّ - وعجلوا
فغير خاف ما في القصيدة من حديث عن المهدي المنتظر.
3 - إن معاني بعضه أو أسلوبه مما لا يمكن صدوره عن علي أو في عصر علي:
فالقصيدة الواردة في (ص 4) من الديوان والتي مطلعها:
لبيك لبيك أنت مولاه ... فارحمُ عُبَيْدا إليك ملجأه
مما لا يمكن صدوره عن علي؛ ففيها تصوير لحديث بين علي والله ولا شك أن عليًّا يتحرَّج من مثل هذا، وأغلب الظن أن مثل هذه القصيدة من وضع أحد متصوفي الشيعة.
والبيتان الواردان في (ص 4) أيضاً وهما:
دع ذكرهن فما لهن وفاء ... ريح الصبا وعهود دهن سواء
يكسرن قلبك ثم لا يجبرنه ... وقلوبهن من الدواء خلاء
مما لا يصدر عن علي، إذ هما في الغزل، والغزل مما يتحرَّج منه عليَّ
وكذلك الأبيات الواردة في ص 18 وهي:
جنبي تجافى عن الوساد ... خوفاً من الموت والمعاد
من خاف من سكرة المنايا ... لم يدر ما لذة الرّقاد
قد بلغ الزرع منتهاه ... لا بد للزرع من حصاد
لا تصدر عن علي؛ إذ أن مثله لا يخاف الموت أو المعاد.
وهناك قصائد تظهر فيها ركة الأسلوب بحيث لا يمكن القول بأنها صدرت في عصر علي. ونضرب مثلاً لذلك القصيدة الواردة في ص 3 - 4 من الديوان ومطلعها:
وكم ساعٍ ليثري لم ينله ... وآخر ما سعي لحق الثراء
والبيتين الثلاثة الواردين الثلاثة في ص 7 وهما:
الدهر يخنق أحياناً قلادته ... عليك لا تضطرب فيه ولا تثب
حتى يفرجها في حال مدَّتها ... فقد يزيد اختناقاً كل مضطرب
والأبيات الواردة في ص 15 وأولها:
قد رأيت القرون كيف تفانت ... درست ثم قيل فكانت
والبيتين الواردين في ص 24 وهما:
أغض عينا على القذى ... وتصبَّر على الأذى
إنما الدهر ساعة ... يقطع الدهر كلَّ ذا
والأبيات الواردة في ص 25 وأولها:
عسى منهل يصفو فيروي ظمية ... أطال صداها المنهل المتكدِّر
ثم هناك قصيدة على نمط ألفية ابن مالك في آخر الديوان، لا شك في وضعها، لأن ذلك النمط من القصائد لم يكن موجوداً في عصر علي وإنما جاء في عهود متأخرة.
ثم إننا نعتقد اعتقاداً جازماً أن هذه الأشعار الموضوعة لم يضعها شخص بعينه؛ وبذلك لأنها متفاوتة الأسلوب، ففيها القويُّ الرائع وفيها الضعيف الركيك. وإنما الذي نراه أن هذه الأشعار قد وضعها أناس مختلفون معظمهم من الشيعة، ونسبوها إلى علي حبا فيه ورغبة
منهم في إسناد فضلهم في نظم هذه الأشعار إليه. ثم جاء جامع الديوان، فجمع كل ما عثر عليه من الشعر المنسوب إلى علي دون أن يميز بين صحيح النسبة وباطلها،

ودون أن يفرِّق بين المصادر التي ذكرت فيها هذه الأشعار فينتقل عن الوثيق منها ويضرب صفحاً عن المتهم. فهذا إجمال رأينا في الديوان.
دراسة شعره الصحيح
هذا القسم الثالث من البحث لا بد منه لكي يتمَّ هذا البحث ويستكمل فروعه. غير أننا لسنا في حاجة الآن إلى تناوله؛ فقد سبق أن قلنا في الخطوة الثالثة من البرهان على أن علياً كان من الشعراء، ما يصلح أن يوضع هنا.
(تم البحث)
السيد يعقوب بكر
من أدب الحرب
عندما يعود السلام!
عندما يعود السلام
سوف أضيء كل مصابيح منزلي
وسأفتح كل نافذة فيه على مصراعيها
وستنعكس الأنوار على صفحة البحر فيبدو منظرها الرائع فاتناً فوق الأثباج، ويتراقص ضوءها اللامع فوق الأمواج
سوف أعود ثانية فأضيء الأنوار في جميع جنبات الدار
عندما يعود السلام
عندما يعود السلام
سوف أسير في القمراء فوق الغبراء، وقد أشرقت بالضياء،
وسأنظر إلى القبة الزرقاء، وهي في سكون وصفاء
وسأعود إلى عشق الليالي المقمرة من جديد، وأنا جد سعيد،
عندما يعود السلام
عندما يعود السلام
سوف أتملى محاسن الكون وجمال الوجود
وسأمتع ناظري برؤية الغابات والتلال وقد كساها الجليد.
وسوف أسيح في الأرض حتى أبلغ التخوم والحدود!
وسأزور الدول الحرة مرة أخرى
عندما يعود السلام
عندما يعود السلام
سوف ألقى الناس جميعاً بعد طول الفراق، وأطفئ بلقائهم نار الأشواق
سوف ألتقي باخوتي وأصدقائي وأحبتي
سأقابل من ظل باقياً على قيد الحياة
وسأبكي على من قضى بكاء الحزين بالدمع السخين!
عندما يعود السلام.
(عن الإنجليزية)
أحمد عبد اللطيف الحضراوي
كتاب الإمتاع والمؤانسة - 2
الجزء الثاني
للأب أنستاس ماري الكرملي
أوهام علم الحيوان - 3
جاء في حاشية ص 31: (الأفلاء جمع فِلو بكسر الفاء. وهو المهر الذي لم يبلغ الفِطَام). والمشهور في لغة العراقيين، وهو كذلك في اللغة الفصحى: أن الفلو: المهر إذا فطم، أو بلغ السنة.
وورد في نص تلك الصفحة وفي نحو آخر سطر منها: كما أن الأفعى تأخذ السمَّ من الأصِلَّة (وضبطت الأصِلَّة بهمزة القطع، وكسر الصاد، وشد اللام، وفي الآخر هاء. وهو لفظ لا وجود له في لغتنا الفصحى، ولعلَّ الناشرَيْن توهما أن الأصلة جمع الصِلَّ بكسر فشد اللام. قلنا: هذا لا يمكن أن يكون عقلاً، ولا نقلاً؛ أما أنه لا يكون عقلاً، فلأن الأفعى لا تأخذ سمها من عدة أصلال، بل من صِل واحد. وأما أنهُ لا يكون نقلاً، فلأن صِلاًّ لا تجمع على أصِلَّة - كأهِلَّة - إنما تجمع على أصلال. وأما الأصلة هنا فزنتها قصبة؛ وهي

حية صغيرة، أو عظيمة، قيل: تهلك بنفخها. وهي في نظرنا تعريب (باصلة) اليونانية ومعناها ملكة الحيات؛ وحذفت الباء من أولها ظناً أن الباء زائدة للجرِّ. ولهذا قال التوحيدي: كما أن الأفعى - وهي كل حية سامة - تأخذ السم من الأصلة. كأنه يقول: تأخذ سمها من الأفعى الملكة، كما أن الوالي، أو العامل، يأخذ سطوته وقوته من الملك أو السلطان، وحذفت الباء كما حذفت من فاندلس فقالوا: أندلس.

وفسر الكودن، الوارد في ص 59 بقول الناشرين في الحاشية: الكودن (البغل) قلنا: هذا من باب التوسع لا من باب التحقق، وإلا فالكودن - على ما في ديوان الشارح - الفرس الهجين، والبغل، والبرذون الرومي، إلا أن المسعودي استعملها لهذا الحيوان الهجيْن المتولد من الحصان والأتان، وهذا ما يجب أن نعرفه وندقق النظر في تحقيقه، لأننا أصبحنا في عصر نحتاج إلى هذا التمييز.

وقيل في ص 104: (إن العلماء بطابع الحيوان ذكروا أن الفيلة لا تتولد إلا في جزائر البحار الجنوبية) اهـ وكان يحسن بالناشرين أن يقولا: وقد ثبت اليوم أن الفيلة تكون في بلاد الهند، من غير أن يَحْصرا القول بقولهما: في جزائر البحار الجنوبية لأنها تكون في أفريقية.

وقال المؤلف في ص 14 أيضاً: والزرافة لا تكون إلا في بلاد الحبشة. قلنا: والذي أجمع علياء العلماء بطابع الحيوان أنها تكون في فلوات أفريقية وصحاريها.

وقال المذكور في تلك الصحيفة عينها: (والسمور وغزال المسك لا يكونان إلا في الصحارى الشرقية الشمالية).

قلنا وكان يحسن أن يعلق في الحاشية ما يصحح هذه القالة. فالسمور يُرى في شماليَّ أوربة، وآسية، ويعيش في كمنشكة وألاسكة. وغزال المسك يعيش في جبال آسية الشرقية، ويوجد منه في الصين، والتُبَّت، وبنغال، وديار التَتَر، والتَنْكينَ، كما ذكره علماء الحيوان.

وقال أيضاً في تلك الصفحة: (والعقاب والنعام لا تفرخ إلا في البراري والقفار والفلوات). وجاء في الحاشية: (في ب التي نقلت عنها هذه الزيادة وحدها: (والعطاف)، ولعل صوابه ما أثبتنا (أي العقاب) إذ لم نجد العطاف فيما راجعناه من كتب الحيوان. وفي كتاب (حياة الحيوان): إن من أنواع العقاب ما يأوي إلى الصحارى) أهـ.

قلنا: (لا يمكن) أن يكون الصواب ما أثبته الناشران، فلو فرضنا أن بعض أنواع العقاب يأوي إلى الصحارى، فمن المحال أن يفرخ فيها، لأن العقاب لا تفرخ إلا في أعالي الجبال وشواهق الهضاب. والتوحيدي يوجه النظر إلى أن هذا الطائر الذي يذكر اسمه يتخذ أفحوصَه في البراري والقفار والفلوات، ولا يكون إلا لنوع من القطا وهو الغَطَاط، بالغين المعجمة والواحدة غطاطة. وفي نسخة من حياة الحيوان: يرى العَطَاط بعين مهملة وفتحها كالغطاط بالمعجمة.

وقال المؤلف في تلك الصفحة أيضاً: (والوطواط والطيطوى وامثالهما في الطير لا تفرخ إلا على سواحل البحار وشطوط الأنهار والبطائح والآجام) اهـ

قلنا من معاني الوطواط: الخفاش لضرب من خطاطيف الجبال. وكل منهما لا يفرخ على سواحل البحار ولا على شطوط الأنهار ولا على شواطئ البطائح والآجام. فيجب أن نأتي باسم طائر يشبه لفظ الوطواط ويعشش في المواطن المذكورة وهذا الطائر يسمى اليوم في

أنحاء البطائح في العراق البيبط أي

وتلفظ البيبط بكسر الباءين ومن الغريب أن هذا اللفظ معروف بهذا الضبط في فلسطين على ما صرَّح به القانوني تدسترام في ص 402 من كتابه. وذكره أيضاً دنبي وكذلك دوماس وذكره شربونو بصورة بيبيط بياء زائدة قبل الآخر. وسماه الدكتور حنا أبقاريوس بوطيط وغناج في ص 588 من معجمه الطبعة الثالثة. وسماه الكبتن هـ. ف. س امرى في معجمه الإنكليزي العربي في ص 204 هدهد (كذا). وسماه الأب بلو اليسوعي في معجمه الكبير الفرنسي العربي: طائر طويل الرجلين (كذا). وفي معجم الدكتور سعادة الإنكليزي العربي: نباح وطاتويت وفي معجم ج. ج. مارسيل الفرنسي العربي: بيبط بكسر الباء الأول وفتح الثالث.

قلنا والأصل هو بيبط مشتق من البط لأنه مغرم بالطين والتردد إليه، وسكناه الآجام

والمستنقعات وهو يبطبط فيها: أي يدخل منقاره فيها وفي أوحالها وأطيانها، ويبحث فيها عن طعامه من دود وحشرات مسمعاً صوتاً يحكي: بط بط بط، ومنه اسم البط أيضاً واسم هذا البيبط. وأما أبو طيط وبوطيط في لغة عوام بعض الشاميين فهو من تصحيف البيبط. ونحن لا نشك أن الطيبط هو اللفظ الذي كان معروفاً في أنحاء البطائح منذ عهد العباسيين، وهو أيضاً اللفظ الذي عرفه التوحيدي.

وجاء ذكر الذر في حاشية ص 105 عند قول الناشرين: الذر النمل الأحمر الصغير. قلنا ونحن العراقيين نعرف الذر إلى يومنا هذا ونريد به صغار النمل بغض النظر عن لونه؛ وهو بهذا المعنى ورد في كلام اللغويين والبلغاء والكتاب الحذاق والأدباء البصراء.

وقيل في ص 108: (وكذلك اللُك فإنه (طل) يقع على نبات مخصوص ينعقد عليه) قلنا: والمشهور أن اللك ليس طلاً بل هو صمغ، أو راتينج، أو كما يقول علماء العرب: لثيً يسيل من بعض الأشجار في الهند كالتَّيْن الهندي، والتيْن الدَّيِّن، والعوسج العُنابي، ونظائرها، ويخرج بعد أن تجرحه أنثى حشرة نصفية الجناح أسمها الحبة اللكية فإذا ثحن هذا اللثي، تبيض فيه الهامة وتفرخ.

وفي تلك الصفحة عينها: (وكذلك الدُرُّ فإن طل يرسخ في أصداف نوع من الحيوان البحري، ثم يغلط ويجمد وينعقد فيه) - والمشهور اليوم عند المحققين أن الدرة إفراز يحدث

أثر خدش تخدشهُ دُوَيْدَة، أو هي حبة رمل تقع في صَدَفَة حيوان هلاميَّ فتنحبس فيها، فتتحول درة، وليست بطلٍّ، ولا بندًي كما كان يظنه الأقدمون. فيجب أن تصحح آراء الأقدمين بعد تحقيق العلماء العصريين لها ولا تبقى على حالتها الأولى.

وفسر الناشران قول التوحيدي في حاشية ص 164 (ينكز) بقولهما: من النكز: وهو لسع الحية بأنفها، ومعلوم اليوم أن الأفعى لا تنكز بأنفها كما هو رأي الأقدمين، وإنما تنكز بناب في أعلى مقدم فمها؛ أما إذا أريد بالأنف هذه الناب، فالتعبير صحيح، وإلا فيجب أن يعدل عنه إلى ما يوافق تقدم العلم وتحقيقات المتخصصين فيه.

ومما يتعلق بعلم الحيوان، وبتعبير أصح، بعلم المواليد ما جاء بخصوص الماس. فقد ورد في ص 109: (ويقال: لا يوجد الماس إلا في معدن الذهب في بلد من ناحية المشرق) - قلنا: إنه يوجد في رمال الذهب في الهند، والبرازيل والأورال، فكان يجب أن تزاد هذه الكلمات.

(بغداد)

الأب أنستاس ماري الكرملي

من أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية

ترتيب القرآن

للأستاذ أبو طالب زيان

في العدد 470 من (الرسالة) سؤال الأستاذ عبد الله رشيد الكاتب عن القاعدة التي رتبت السور القرآنية بموجبها. أو روعي في ترتيبها كبر السورة أو سبق النزول. والأديب يوّجه الأدباء والمفكرين لبحث هذا الموضوع الخطير أسوة بالمواضيع الفذّة التي تتناولها الرسالة الغراء. ونحن مع تقديرنا لصاحب الرسالة نرجو أن يتسع المجال لمناقشة هذا الموضوع، والاهتداء إلى نتائجه القويمة عليها الباحث الفطن، وتأخذ الناشئة إلى البحث النبيل والطريق المستقيم.

ولا بد لنا من لمحة يسيرة حول ترتيب الآيات قبل الخوض في ترتيب السور ليستبين للقارئ الغرض الذي يرمي إليه الباحث. فقد أجمعت الأمة على أن ترتيب آيات القرآن الكريم على النهج الذي نراه اليوم في المصاحف كان بتوقيف من النبي صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى. ولا مجال للرأي والاجتهاد في هذا، فقد كان جبريل عليه السلام ينزل بآيات القرآن منجمة فيوحيها إلى النبي عليه السلام ويدله على موضع كل آية من سورتها، فكان عليه السلام يبلغها للصحابة، ويأمر كتاب الوحي بكتابتها ويقول: (ضعوا هذه الآية في المكان الذي يذكر فيه كذا وكذا. وكان جبريل يعارضه بالقرآن في رمضان من كل عام مرة، فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقرؤه في مدارسته له مرتب الآيات على النحو الذي نراه اليوم في المصاحف، حتى إذا تم نزول القرآن كانت كل آية مرتبة في سورها، وقد حفظها عنه الصحابة بترتيبها. فلما كان زمن أبي بكر وأراد جمع القرآن لم يكن عمله متناولاً لترتيب الآيات، وإنما كان مقصوراً على جمع

القرآن بين دفتي مصحف واحد خشية عليه من التفرق والضياع إذا استمر القتل في حفاظه، ثم نسخ المصحف من عهد عثمان إلى عهدنا هذا مرتب الآيات كما تلقاها الصحابة عن الرسول صلوات الله عليه. وقد نقل الإجماع عن هذا كثير من العلماء منهم الزركشي في البرهان، وأبو جعفر ابن الزبير في مناسباته. وروى ابن وهب عن مالك قال: إنما ألف قرآن على ما كانوا يسمعون من النبي صلى الله عليه وسلم. ويؤيد هذا الإجماع ما ورد من النصوص الدالة على أن ترتيب آياته توقيفي، تفصيلاً وإجمالاً.

فمن هذه النصوص ما رواه أحمد بإسناد حسن عن عثمان ابن أبي العاص قال: كنت جالساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ شخص ببصره ثم صوبه ثم قال: أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى) إلى آخرها. فهذا الحديث صريح في أن جبريل علمه موضع هذه الآية من سورتها وكذلك كان دأبه في كل آية.

ومنها ما أخرجه البخاري عن ابن الزبير قال: قلت لعثمان ابن عفان (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً) نسختها الآية الأخرى فلن تكتبها أو تدعها. قال: يا ابن أخي لا أغير شيئاً من مكانه. فهذا الحديث صريح في أن إثباتها في مكانها من سورتها توقيفي، وأن عثمان وجدها مكتوبة في المصحف المنقول مما كتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يغيرها من مكانها لأن هذا أمر لا مجال فيه للرأي. ومنها ما رواه مسلم عن عمر قال: بإصبعه في صدري وقال: تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء. فهذا الحديث يدل على أن آيات السور كانت مرتبة معلومة الترتيب في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان معلوماً ما هو مقدم منها وما هو مؤخر؛ ولذلك قال النبي لعمر: تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء فعين موضعها من السورة. وتلك الآية هي قوله تعالى: (يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة. . . الخ) ويدل على أن ترتيب الآيات توقيفي أيضاً ما ثبت في السنن الصحيحة من قراءته عليه السلام لسور عديدة كسورة البقرة وآل عمران والنساء، وما ورد في البخاري من قراءته سورة الأعراف في صلاة المغرب. وروى النسائي أنه قرأ سورة قد أفلح المؤمنون في صلاة الصبح. وقد كان عليه السلام يقرأ هذه الصور مرتبة الآيات بمشهد من الصحابة فتلقوا عنه ترتيب الآيات. وما كان الصحابة ليرتبوا القرآن ترتيباً مخالفاً لترتيب الرسول وهم أحرص الناس على أتباعه. فثبت بهذه النصوص أن ترتيب الآيات توقيفي لا مجال فيه للرأي وعلى ذلك انعقد الإجماع، فليس لأحد أن يغير في ترتيب الآيات فيقدم بعضها على بعض فإن ذلك بدعة ضالة لا يجوز الإقدام عليها.

أما ترتيب السور وتقديم الطوال منها، تم تعقيبها بالمئين، ثم بالمثاني، ثم بالمفصل، فهذا هو الذي وقع فيه الخلاف بين العلماء؛ وأشهر مذاهبهم في ذلك ثلاثة:

الأول: أن ترتيبها كان باجتهاد من الصحابة. وقد مال إلى هذا الرأي الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة، والقاضي أبو بكر في أحد قوليه.

الثاني: أن ترتيبها كان توقيفاً من رسول الله صلى الله علية وسلم ما عدا الأنفال وبراءة، فإن وضعهما في موضعهما كان باجتهاد عثمان رضي الله عنه ووافقه عليه الصحابة. ومن ذهب إلى ذلك البيهقي المحدث المشهور في كتاب المدخل، والسيوطي في كتاب الإتقان.

الثالث: أن اتساق السور كاتساق الآيات والحروف كان بتعليم النبي عليه السلام. وقد ذهب إلى ذلك جمع كبير من العلماء منهم أبو بكر بن الأنباري، والكرماني، والطيبي، وأبو جعفر النحاس وآخرون غيرهم. . .

استدل القائلون بأن ترتيبها كان باجتهاد الصحابة بأن مصاحف السلف من الصحابة كانت مختلفة في ترتيبها؛ فمنها ما رتبت فيه السور على حسب نزولها فجعل أوله سورة اقرأ، ثم المدثر، ثم نون، ثم المزمل. وهكذا إلى آخر السور المكية، ثم السور المدنية على حسب نزولها كالمصحف الذي نسبوه إلى علي رضي الله عنه. ومنها ما رُتِّب على خلاف ذلك كمصحف ابن مسعود الذي جعل أوله البقرة ثم النساء ثم آل عمران، وكمصحف أبي بن كعب. ولو كان ترتيب السور توقيفاً لما كان بينها اختلاف في ذلك.

وهذا الاستدلال ضعيف من وجهين: الأول. أنه قد ورد في الأحاديث الصحيحة ما يدل

على أن ترتيب بعض السور كان معلوماً في حياة النبي. الثاني: أن زيد بن ثابت الذي أسند إليه عثمان رياسة الجمع الذين رتبوا مصاحفه ونسخوها قد شهد العرضة الأخيرة للقرآن، وعلم ترتيب السور من رسول الله صلى الله عليه وسلم. وليس من المعقول أن يحدث من عنده ترتيباً للسور غير ما علمه من رسول الله لأن ذلك لم يكن من عادتهم، فلا بد أن يكون ترتيبه للسور هو عين ما سمعه من رسول الله، ولذلك لم يرتض المحققون هذا الرأي.

واستدل أصحاب المذهب الثاني على أن ترتيب السور ما عدا الأنفال وبراءة كان توقيفاً بما رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن حيان والحاكم عن ابن عباس قال: قلت لعثمان ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني، وإلى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما، ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتموها في السبع الطوال؟ فقال عثمان كان رسول الله تنزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول: (ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا) وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من أواخر القرآن نزولاً، وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها فقبض رسول الله ولم يُبَيّن أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتهما في السبع الطوال. فهذا الحديث صريح في أنه وضع الأنفال وبراءة في موضعهما من المصحف كان باجتهاد عثمان، لأنه نسب وضعهما إلى نفسه ولم يسنده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - وأما ما عداهما من بقية السور فلا بد أن يكون عثمان قد أتبع فيه ما علم من الرسول صلوات الله عليه.

وقد نازعهم أصحاب المذهب الثالث في الاستدلال بهذا الحديث. أما من جهة سنده فقد قالوا إن الترمذي - وهو أحد رواته قال فيه إنه أحسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عوف عن يزيد الفارسي عن ابن عباس: 1هـ: والجزء الحادي عشر من تهذيب التهذيب لابن حجر يقول: إن المحدثين اختلفوا في يزيد هذا هل هو يزيد بن هرمز المشهور بأنه ثقة أو هو غيره؟ ثم قال والصحيح أنه غيره. وقد قال علي بن المديني: ذكرت ليحيى بن سعيد قول ابن مهدي إن يزيد الفارسي هو ابن هرمز فلم يعرفه. وكفى بذلك دليلاً على جهالة حاله. وقال أبو حاتم فيه لا بأس به أقول؛ ومثل هذا الرجل الذي لم يعرف حاله لا يصح الاعتماد على حديثه الذي انفرد به في ترتيب القرآن.

وأما من جهة متنه، فإن التمسك به يثير غبار إشكالات نحن في غنى عنها، لأنه يدل على أن آخر الأنفال لم يكن معلوماً بيقين؛ وكذلك أول براءة، بدليل أن عثمان ظن أن براءة من الأنفال، ولذلك لم يضع بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم. وهذا يفتح باباً واسعة لشبهة فرقة جوزت الزيادة والنقصان في القرآن، وذلك باطل باتفاق السلف والخلف. ويبعد جدًّا إلا يبين الرسول آخر الأنفال وأول براءة. ويضعف التمسك به زيادة عما سبق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عارض جبريل بالقرآن في آخر سنة من حياته مرتين، فأين كان يضع هاتين السورتين في قراءته؟ فالتحقيق إذاً أن وضعهما في موضعهما توقيفي وإن فات ذلك عثمان أو نسيه؛ وإن بسم الله الرحمن الرحيم لم تكتب في أول براءة، لأنها لم تنزل معها كما نزلت مع غيرها من بقية السور.

واستدل جمهور العلماء على أن اتساق السور كاتساق الآيات كلاهما توقيفي بأنه ورد في أحاديث كثيرة أن ترتيب بعض السور في عهد رسول الله هو عين ترتيبها في المصاحف التي نسخها زيد بأمر عثمان. . . منها ما رواه البخاري عن ابن مسعود يقول في بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء: أنهن من العتاق الأول، وهن من تلادي؛ فذكرها نسقاً كما أسفر ترتيبها في المصحف.

وروى البخاري أن عليه السلام كان إذا أوى إلى فراشه جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ (قل هو الله أحد) والمعوذتين، فذكرها مرتبة كما هي في المصحف. وروى مسلم أن صلى الله عليه وسلم قال اقرءوا الزهراوين: البقرة وآل عمران. فهذه الأحاديث وما شاكلها تدل على أن السور المذكورة فيها كان ترتيبها مسنداً إلى الرسول، فإذا أضفنا إلى ذلك أنه عليه السلام قرأ القرآن كله بمشهد من زيد بن ثابت، وأن زيداً اختاره أبو

بكر لجمع القرآن لقوة الثقة به، وكذلك اختاره عثمان رئيساً لمن نسخوه في المصاحف، تبينا أن هذا الترتيب الذي عمله زيد هو ما علمه رسول الله. . . وهذا ما يطمئن إليه القلب، وهو ما جنح إليه جمهور العلماء. . .

(للكلام بقية)

أبو طالب زيان

المصريون المحدثون - 37

شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الإنجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

تابع الفصل الحادي عشر - (الخرافات)

هناك طريق استخارة أخرى، وهي أن يمسك المستخير حبتين من حبات السبحة بعد أن يتلو الفاتحة ثلاث مرات، ثم يعد ما بينهما من الحبات قائلاً عند الأولى: سبحان الله؛ وعند الثانية: الحمد لله؛ والثالثة: لا إله إلا الله؛ ويردد هذه العبارات على التوالي حتى الحبة الأخيرة. فإذا وقعت العبارة الأولى على الحبة الأخيرة، كان الجواب إيجابياً ومناسباً. أما العبارة الثانية، فلا تدل على شيء والأخيرة نافية. ويمارس الكثيرون هذه الطريقة

وكذلك يلتمس البعض عندما يرقدون ليلاً أن يوجههم الله في المنام فيجعلهم يرون شيئاً أبيض أو أخضر أو ماء، إذا كان العمل المنتوي يستصوب، أو إذا كانوا يتوقعون توفيقاً قريباً، وإلا جعلهم يرون شيئاً أسود أو أحمر أو ناراً، فيقرءون لذلك الفاتحة عشر مرات ولا ينقطعون عن ترديد هذه العبارة (اللهم صل على سيدنا محمد) حتى يغلبهم النعاس

يؤمن المصريون بالأحلام إيماناً عظيماً. وكثيراً ما ترشدهم الأحلام في بعض أمور حياتهم المهمة. ولديهم في تفسير الأحلام مؤلفان كبيران لابن شاهين وابن سيرين. والأخير تلميذ السابق. ويستشير المصريون حتى المتعلمون منهم هذين الكتابين بثقة كاملة. وعندما يقول شخص لآخر: لقد رأيت رؤيا، يجيبه الآخر: خير، أو خير إن شاء الله. وقد جرت العادة عندما يرى أحدهم رؤيا سيئة أن يقول: اللهم صل على سيدنا محمد؛ ويبصق من فوق كتفه اليسرى ثلاث مرات لمنع كل شر.

ويوجد في مصر، كما يوجد في أكثر البلدان الأخرى، خرافات تتعلق بأيام الأسبوع فيعتبر بعضها سعيداً والآخر نحساً. ويعتبر المصريون يوم الأحد مشؤوماً بسبب الليلة التي تليه.

إذ يعتبر المسلمون ليلة الاثنين منحوسة لأنها ليلة وفاة الرسول (صلعم): غير أن البعض يراها سعيدة للدخول بالعروس خاصة، وإن لم تعتبر موافقة لهذا الأمر بقدر ليلة الجمعة. ويعتبر البعض أيضاً اليوم التالي يوماً سعيداً والبعض الآخر يراه مشؤوماً. أما الثلاثاء فيعتقدون أنه منحوس ويسمى (يوم الدم). إذ يقال إن عدة شهداء أفاضل قتلوا في هذا اليوم، ولذلك يعتبرونه يوماً مناسباً للفصد. والأربعاء لا يدل على شيء. ويسمى الخميس (المبارك) ويستمد بركته خاصة من الليلة واليوم التاليين. ويعتبرون مساء الجمعة سعيداً جداً وخاصة للدخول بالزوجة. والجمعة أبرك الأيام إذ هو يوم الراحة عند المسلمين ويسمى (الفضيلة)، أما السبت فهو أنحس الأيام. ويرون من الخطأ العظيم أن يسافر المرء في ذلك اليوم. ويمتنع أكثرهم عن حلق الذقن أو تقليم الأظافر فيه. وكان أحد أصدقائي متردداً في رفع قضية على خصمين في مثل ذلك اليوم المنحوس. وقرر أخيراً أن ذلك اليوم هو خير أيام الأسبوع لرفع القضية، لأن النحس لا بد واقع على أحد طرفي الخصومة فقط. ولا شك أنه سيقع على خصميه لأنهما اثنان وهو واحد. وهناك أيام من السنة تعتبر ذات حظ كبير من اليمن مثل أيام العيدين الفطر والأضحى. والبعض الآخر يعتبر يوم الأربعاء من الأسبوع الأخير من شهر صفر نحساً، فيعمد الكثيرون إلى البقاء في منازلهم لاعتقادهم أن المصائب تقع على الإنسان في ذلك اليوم. ويستدل بعض الناس على الخير والشر من الأشياء التي يرونها عند خروجهم من المنزل صباحاً؛ فعلى حسبها يكون اليوم سعيداً أو نحساً. ويعتبرون الأعور علامة سوء وخاصة من فقد عينه اليسرى.

الفصل الثاني عشر
السحر والتنجيم والكيمياء
لو صدقنا ما يقصونه في مصر عادة لظهر لنا أن بهذا البلد في هذه الأيام سحرة لا يقلون مهارة عن حكماء فرعون وسحرته الذين تتحدث عنهم التوراة.
ويخلط عقلاء المصريين بين نوعين من السحر: (الروحاني) و (السيميا). والضرب الأول سحر روحي يعتقدون أنه يحدث عجائبه بفعل الملائكة والجن وأسرار بعض أسماء الله ووسائل أخرى خارقة للعادة. والضرب الآخر سحر احتيالي غير موحى به، ويعتقد أقل
المسلمين تصديقاً أن أهم عامل في ذلك هو تأثير بعض العطور والعقاقير في البصر والمخيلة تأثير الأفيون تقريباً. ويظن البعض أن الأفيون يستخدم في أعمال هذا السحر الأخير.
وينقسم السحر الروحاني الذي يعتبره المصريون عموماً سحراً صادقاً، إلى (علوي) و (سفلي) أو (رحماني) نسبة إلى الرحمن إحدى صفات الله، و (شيطاني). ويقال إن السحر العلوي والرحماني علم يستند على عون الله وملائكته والجن الصالحين وعلى أسرار شرعية أخرى، وأنه يستخدم دائماً لأغراض طبية وأنه لا يدركه ويمارسه غير الصادقين الذين يتعلمون من الحديث أو القراءة أسماء هؤلاء العاملين الذين يفوقون الطبيعة البشرية، وأدعية تكفل إجابة رغباتهم. وتتصل كتابة الاحجبة لغرض صالح بهذا الفرع من السحر والتنجيم وعلى أسرار الأعداد. وأقصى ما يدرك في السحر العلوي هو معرفة (الاسم الأعظم) وهذا هو أعظم أسماء الله الذي يعتقد المتعلمون أنه لا يعرفه إلا الأنبياء والرسل. ويقال إن من يعرف هذا الاسم يستطيع بمجرد النطق به أن يحيي الميت ويميت الحي وينتقل على الفور حينما يشاء ويأتي بأي معجزة أخرى.
ويظن البعض أن أفاضل الأولياء يعرفون هذا الاسم. ويعتقدون أن السحر السفلي يقوم على عمل الشيطان وأشرار الجن، وأن أشرار الرجال يستعملونه لأغراض خبيثة. وإلى هذا الفرع ينسب علم السحر الذي يطلقه العرب على الرقية الشريرة فقط.
ويعمد هؤلاء الذين يمارسون (ضرب المندل)، وسأسرد أمثلة له، إلى تنفيذه بواسطة الجن أي باستخدام علم الروحاني؛ إلا أن هناك رأياً آخر في هذا الموضوع سأذكره تواً. وقد بينت إحدى الوسائل التي يعتقد بعضهم أن الجن يساعدون بها السحرة في الفقرة الثانية من الفصل العاشر.
ويرى المتعلمون أن (السيميا) علم كاذب وفن احتيالي ينتج آثاره المدهشة بتلك الوسائل التي ذكرت سابقاً ويعتبرون أن (ضرب المندل) تابع للسميا بسبب استعمال البخور في إجرائه.
ويدرس الكثيرون في مصر علم النجوم والتنجيم. ويستخدمونه على الأخص لحساب المواليد وتعيين أوقات السعد الخ ولمعرفة أي البروج يخضع له الشخص، ويتم ذلك بحساب القيم العددية لحروف اسم الشخص واسم أمه. وكثيراً ما يكون ذلك في حالة إقدام اثنين على الزواج للتحقق من توافقهما. وقد أخبرت أن (علم الرمل) يسند غالباً على التنجيم. ويزعم القائمون به أنه يكشف الماضي والحاضر والمستقبل بواسطة علامات يرسمونها عرضاً على الورق أو الرمل ومن هنا سمي هذا العلم.
(يتبع)
عدلي طاهر نور
الإرادة والطريق
قطعة رمزية لوليم بليك
سألت لصًّا أن يسرق لي ثمرة شهية،
فنظهر هنا وهناك بين البساتين. وسألت
فتاة جميلة أن ترقد وتهبني أعذب أماني
الحب بلطف وقدسية، فبكت. وحينما
ذهبت هبط ملاك، فنظر إلى اللص
بغضب، والتفت إلى الفتاة بابتسام،
ودون أن ينطق بكلمة سرق لها
ثمرة حلوة وناولها إياها. وبين الجد

والدعابة استمتع بها ومضى. . .
(بغداد)
صفاء خلوصي
رسالة العلم
قلوب النجوم
للأستاذ خليل السالم
(تتمة ما نشر في العدد الماضي)
ارتأى كين - طبيعي أمريكي - منذ سنة 1870 أن النجوم كتل جبارة من غازات مشتعلة، ولكن رأيه بدا سخيفاً لأول وهلة لأن الفلكيين لم يجدوا نجوماً كثافتها غازية، ولكن هذه العقبة زالت عندما عثروا في النجوم على كثافات تقل جداً عن كثافة الغازات. وهذه الكتل المستعرة من الغاز تحافظ على شكلها في أكثر الأحيان. وتشذ عن هذا القانون النجوم الجديدة التي تلمع في صفحة السماء دون أن يكون لها وجود من قبل. وتعني محافظة النجم على شكله الخاص به أن القوى المؤثرة عليه في توازن مستمر وهذه القوى هي:
1 - قوة الجاذبية بين مختلف أجزاء النجم كقوة التجاذب على الأرض، وهذه القوة تتجه نحو المركز دائماً ولذا فهي تسعى لتجمع أجزاء النجم وتدمج بعضها في بعض، ومن ثم تحشك أجزاءه حشكاً قوياً وتزيد قوة التجاذب على سطح النجوم بحيث يكون وزن الرجل العادي هناك نحو (250) ألف طن، ويبلغ من شدة هذا الجذب على الرجل أن يسقط على السطح وينبسط وتتحطم أعضاؤه كما لو سقطت عليه إحدى ناطحات السحاب.
2 - ضغط الغازات الذي ينتج من حركة الغازات المستمرة واصطداماتها القوية، ويربو ضغط الغازات في النجوم على أربعين ألف مليون ضغط جوي على الأرض؛ والضغط يزيد بازدياد درجة الحرارة، وهذه القوة الناتجة عن الضغط تدفع الغازات المتحركة عن المركز، أي أنها تعاكس فعل الجاذبية وتباعد أجزاء النجم وتمدده.
3 - والقوة الثالثة هي قوة الضغط الإشعاعي، فقد ثبت أن للنور ضغطاً وقوة لم يكونا معروفين قبل السنوات الأخيرة، فقد كان الأستاذ ليبديو في موسكو أول من قاس ضغط الضوء في سنة 1901. وقد تنبأ بوجود هذا الضغط الرياضي الإنجليزي المشهور كلارك مكسويل كما تنبأ بوجود الأمواج الكهرطيسية التي تنقل لنا أعذب أنغام الراديو. وهذا الضغط قوي في القلب إذ من هناك مصدر النور والطاقة. ماذا نعني؟ نعني أن النجوم
ليست غازات مشتعلة كما يخيل للبعض بمعنى أن النور والحرارة القادمين منها يحدثان نتيجة ذلك الاحتراق العادي. كلا. إنما ينتج النور والحرارة من تحطم الذرة في قلب النجم، وهذا التحطم وإن لم يدخل ضمن تحقيق المختبر إلا أن بعض الظواهر المكتشفة حديثاً عززت هذا الرأي وإن لم تقطع بصحته. وهذا التحول عفوي ذاتي، كما أن إشعاع الراديوم عفوي ذاتي لا ينتظر مؤثراً خارجياً ليتم بفصله. وهذا الفناء يحدث بعد تصادم الكهيرب المتحرك بسرعة عظيمة مع النواة فيمسك كل منهما الآخر بعد الاصطدام، ويتعادلان كهربائياً وينطلق الفوتون أو وحدة الضوء كمظهر جديد لطاقة الكهيرب والنواة السابقة. هذا الفوتون ينطلق من المركز وتكون موجته قصيرة فيجاهد ويجاهد لينفذ إلى السطح، ولا يتسنى له المخرج إلا بعد جهد لطول موجته بعدهما. ولكثرة الفوتونات في القلب وشدة محاولتها الانطلاق والانبعاث يكون ضغط الضوء الإشعاعي أضعافاً مضاعفة للضغط على السطح، ويبلغ هذا الأخير في بعض النجوم (170000) طن على البوصة المربعة، ويزيد الضغط بازدياد درجة الحرارة أيضاً، واتجاه محصلة قوته عكس اتجاه قوة الجاذبية إي إنه يدفع المادة عن المركز ويفرقها كما يفعل ضغط الغازات الآنف الذكر
بقى أن نشير إلى حرارة النجوم في بواطنها. ولا يسعني بادئ ذي بدء إلا أن أحمد الله على أن اختار لنا هذه الشمس لنستمد منها نورنا وحياتنا، فلو قدر أن يكون نجم كالشعري اليمانية مثلاً مكان شمسنا، لزال في لحظة واحدة كل أثر للحياة على الأرض، ولجفت الأنهار وتبخرت المياه وذهبت الأرض والتهبت ذراتها شذر مذر. فالحرارة على هذا النجم عجيبة لا يتسع لها أوسع الخيال. ومثله كثير من النجوم لا تقل

درجة حرارتها عن 40 مليون درجة مئوية، وفي بعض النجوم الحمر تنقص عن هذا المستوى العالي. وقد اكتشف الدكتور هتزلر الراصد الأمريكي مؤخراً نوعاً من النجوم لا تزيد درجة حرارته عن ألف درجة مئوية؛ وهذه النجوم مظلمة لا تشرق، إلا أنه تمكن من تصويرها بأشعة الحرارة لا بأشعة الضوء، فبعض الألواح الفوتوغرافية تحس بحرارتها. ويخيل لكثيرين أن قبة الفضاء مملوءة بمثل هذا الصنف من النجوم تصل حرارة النجوم في قلوب الأقزام البيض إلى ألف مليون درجة مئوية، ولكي تدرك معنى هذه الأرقام أورد مثلاً ضربه العلامة جينز في أحد كتبه قال: لو أخذت شلناً أو قطعة

من الحديد بحجم الشلن وسخنتها إلى درجة تقرب من 40 مليون درجة مئوية، فإن الحرارة المنبعثة من هذه القطعة المعدنية الصغيرة تكفي لأن تصعق جميع الحيوانات الحية الموجودة على الأرض. وهذه الحرارة العالية في النجوم لا تترك للمادة أن تتمتع بحالاتها الثلاث: الصلبة والسائلة والغازية، بل تحول الجرم كله إلى غاز ملتهب. ولا تكتفي بهذا، فتعمد إلى ذرات الغازات وتهيج الكهيربات المطوَّقة حول النواة وتفك الأربطة التي تشدها إلى المركز وتقذف بها من أفلاكها الخارجية، فتترك الذرة مؤنية مكهربة. وكثيراً ما تطرد كل الكهيربات بحيث لا تبقى إلا النوى المجتمعة. وهذا ما حدث فعلاً في النجوم الثقيلة، إذ انعدم الفراغ بين النوى وبين مشتت المادة، بحيث أصبح وزن البوصة المكعبة 620 طنًّا، أي أن الرجل العادي يستطيع أن يحمل من هذه المادة حجماً لا يزيد على رأس الدبوس المفرطح. ولو وضعت في يدك قطعة بحجم الجوزة وسقطت على الأرض لأحدثت انفجاراً مروعاً كما تفعل القنابل الثقيلة، وتغور في الأرض كما تغيب قطعة من الرصاص سقطت من عل في لجة الماء

والخلاصة أن قلوب النجوم نابضة بالحياة مفعمة بالحركة ترف كقلوب العذارى.

وأجمل تصوير لها وقفت عليه كان بريشة الفنان العظيم أدنفتون في كتابه النجوم والذرات & قال: إن باطن النجوم حشد (مهوَّش) غير منتظم من الذرات والكهيربات والأمواج الأثيرية، وهذه الدقائق تتحرك بسرعة 100 ميل في الثانية، فتفقد ذلك النظام الجميل من الكهيربات. أما هذه الكهيربات المضاعة فإنها لا تجد مكاناً تخلد فيه للحركة والسكون، فتبقى تدور بسرعة (100000) ميل في الثانية؛ وفي كل فترة قصيرة من الزمان تصطدم بإحدى الذرات فتدور عقيب الاصطدام في منعطف أكثر انحناء؛ وبعد كل اصطدام يزداد الانحناء حتى إذا بلغ عدد الاصطدامات حوالي ألف تحدث كلها في جزء من ألف مليون جزء من الثانية يعمل هذا السلوك المحموم غايته فتمسك إحدى الذرات بذلك الكهيرب. . . ولكن شعاعاً سينياً يعكر عليه أمنه وصفوه الجديدين فلا يكاد الكهيرب يستقر به المقام حتى يخرجه ذلك الشعاع عن طوره ويقذف به بعيداً عن النواه، فيطوف من جديد مبتدئاً رحلة جديدة ومخاطرة جديدة . . .

(شرق الأردن)

خليل السالم

من الدرجة الأولى في الرياضيات (ب. ع)

البريد الأدبي

باي تونس الجديد

قست الحوادث على الصحف المصرية فشغلتها عن وصف ما وقع في تونس الخضراء بموت الباي السابق وقيام الباي الجديد، فرأيت أن أكتب كلمة وجيزة أشرح بها لقراء (الرسالة) جانباً من حياة اليوم في ذلك القُطر الشقيق، نقلاً عما وعته أذناي من إذاعة تونس العربية، وهو يصور بعض خواطر الناس هناك

الباي الجديد اسمه (محمد المنصف) ولقبه (المنصور بالله) وكان أبوه يلقَّب بالناصر، (ومن كان أبوه الناصر فهو المنصور) كما قال أحد خطبائهم في الاحتفال الذي أقيم بقاعة العرش

وسياق الخطب والقصائد يجعل الباي (صاحب الجلالة الملك) وهذا اتجاهٌ جديد فيما أفترض، وإن كان لقب (الباي) قد احتفظ بقدسيته في الأغاني والأناشيد

ويظهر بوضوح وجلاء أن نظام (البيعة) روعيت أصوله من الوجهة الشكلية، فالباي ورث أباه على العرش، ومع ذلك رأى التونسيون أن يقيموا البيعة بعد توليته بأيام، رعاية للتقاليد الإسلامية، وإن كان الأصل أن تكون البيعة أسبق من الولاية، لأنها بمثابة

الترشيح الذي يسبق الانتخاب، وإلا فهي ضربٌ من المُلك العَضُوض
والطريف في هذه القضية أن المبايعين يفِدون من أسبوع إلى أسبوع بنظام وترتيب، فيكون لكل إقليم يوم، ويكون المبايعون من أعيان البلاد في الإقليم، البلاد التي لها شأن في القديم والحديث، وهذا المعنى يشار إليه في الخطب والقصائد بإجمال، ولكنه يذاع على الجمهور بالتفصيل. ولو كانت لنا سياسة عربية صريحة لرأت الإذاعة المصرية أن تسجل ما روته الإذاعة التونسية في هذا الموضوع، ففيه تفاصيل عن الأقاليم التونسية تستحق التسجيل. ولكن أين من يسمع؟!
ومما يجب النص عليه أن الخطب والقصائد التي أُلقيت في المبايعة تمتاز بميزتين:
الأولى سلامة اللغة من اللحن والتحريف، وذلك يشهد بأصالة العروبة هنالك
الميزة الثانية هي الحرص على القومية الإسلامية. فأكثر الخطب تُختم بعبارة دينية لطيفة، كأن يقول هذا الخطيب: (جعل الله غرر أيامك لائحة، بِسرّ الفاتحة)، وكأن يقول ذلك الخطيب: (حفظك الله في الذهاب والإياب، بجاه النبيّ الأوّاب، وبسرّ فاتحة الكتاب)، وقد
التفتّ إلى كلمة (سرّ الفاتحة) فوجدتها وردت في جميع خُطب المبايعين.
وغنَّى المغني في تهنئة الباي قصيدةً حفظتُ منها هذين البيتين:
أضاءت بك (الخَضْرا) فأشرق نورُها ... فأنت عماد الدين ليس يزول
مددتَ علي الإسلام أكناف نِعمةٍ ... بأعطافها ظلٌّ عليه ظليلُ
والخضراء لقب تونس، وبه توصف في الأشعار الشعبية المنظومة على لسان الزناتي خليفة وأبي زيد الهلالي. وهما شخصان حقيقيّان، لا خرافيان كما يتوهم جماعة من الخلائق
وإنما نصصت على الناحية الإسلامية، لأن الإسلام في تونس كان أكبر عقبة في طريق الاحتلال الفرنسي. ومع ذلك أن حكومة باريس كانت رأت تشجيع التونسيين على التجنس بالجنسية الفرنسية ليصيروا إلى ما صار إليه الجزائريون، فقرر أهل تونس أن من تجنس بالجنسية الفرنسية فلا يجوز دفنه في مقابر المسلمين، وبهذا صار الخروج على الجنسية التونسية بمثابة الخروج على الدين الحنيف.
وبالرغم من الدعايات الأجنبية في تونس فقد ظل التونسيون غاية في الوفاء بالعهد للعروبة والإسلام، وتلك مزية يشاطرهم فيها اللوبيون والجزائريون والمراكشيون، مع اختلاف قليل في لون العصبية قضت به ظروف لا تخفى على اللبيب.
وإذا تذكرنا أن فتح الأندلس يرجع في الأغلب إلى شهامة العرب في أفريقيا الشمالية أدركنا قيمة تلك البقاع في الحيوية العربية والإسلامية، ولن يمر زمن طويل قبل أن يكون لأولئك الأقوام تاريخ جديد.
وإذا تذكرنا أن (البحر الشامي) كما يسميه التاريخ العربي وهو الذي يسمَّى خطأً (بحر الروم) والذي أسميه (بحر العرب) إذا تذكرنا أن هذا البحر خدم العروبة والإسلام بفضل أبنائه من المصريين والفلسطينيين واللبنانيين عرفنا أنه لن يستغني عن خدمات أبنائه من اللوبيين والجزائريين والتونسيين والمراكشيين، وما أحسبه سيسكت عن ضياع لبنان الثاني وهو الأندلس، وستعرفون صدق هذه النبوءة بعد أزمان قصار لا طوال.
(وقُل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون)
زكي مبارك
الفدائية
ردّاً على حضرة الأديب مصطفى عبد المجيد جابر أقول:
حين يضحي الإنسان بنفسه إنما يقصد التضحية بموضوع كان خارجاً عن نطاق الذات ثم انطوى عليها فإذا رمى الموضوع أصابه سهمه
ابنة عم الانتحار، وكلا الفدائية والانتحار يمتان إلى الماسوشية بأوثق (الفدائية) الصلات.
إن الباعث على النزوع إلى الفدائية عقد نفسية زودت بطاقات وجدانية كبيرة تحت تأثير ظروف خاصة.
والواقع أن الإنسان أناني على وجه العموم سواء ضحى بنفسه أو بسواه، وليس هناك من هو أوفر أنانية من الهستيري.

إن السمو - الذي يعنيه العرب - غريب عن (الفدائية)، بل ربما كان غريباً عن (البشرية)!

محمد حسني ولاية

مساجلات

أطلعت في مجلة (الرسالة) الغراء على مقال تحت هذا العنوان بتوقيع الأستاذ محمد مندور، وقد أخذتني الدهشة لما وقع نظري عليه من اجتراء الكاتب وإنكاره الحقائق الواضحة فيما كتب الأستاذ العقاد بصدد رسالة الغفران.

إن الأستاذ العقاد لم ينكر فيما يكتب أن أناساً قبل لوسيان سبقوا المعري إلى فكرة الجنة والنار، حتى يعود الأستاذ محمد مندور فيؤكد ذلك.

وإنه لما يخجلني حقًّا أن أعيد هنا ما كتبه الأستاذ العقاد أو أن أشير على الكاتب بأن يعيد قراءته ليتبين أنه كانت لديه مندوحة عن هذا الرد الجاف.

ولكنه أراد أن يرد على الأستاذ العقاد، فكان له ما أراد، وإن كان لم يأت في كلامه بجديد غير ما أكده الأستاذ العقاد في أكثر من مقال، ثم عاد فأكده للأستاذ المندور على صفحات (الرسالة).

وإذا كان ما كتبه الأستاذ العقاد لم يكن مفهوماً لحضرة الكاتب - بعد كل هذا - فليس الذنب في ذلك بواقع على العقاد

إن الرحلة إلى العالم الآخر معروفة قبل المعري وقبل لوسيان كما قال الأستاذ العقاد في كلام واضح لا لبس فيه؛ وليس موضوعها بحاجة إلى من ذكرهم الأستاذ مندور لتوكيده

وإن كان هذا لا يمنعنا أن نقول إن لوسيان كان أول من كتب رحلة إلى العالم الآخر، يصح أن يجمع بينها وبين رحلة أبي العلاء من حيث الطريقة والحوار، لا من حيث إنها رحلة إلى الجنة والنار كما ظن الأستاذ مندور

فإذا كان لدى الكاتب شيء غير هذا فليرشدنا إليه

أما حكمه على أدب العقاد فلنترك الحكم عليه للقراء، ما دام صاحبه لم يستطع ولن يستطع أن يدعمه بالحجة والبرهان.

(دمياط)

الجبلاوي

مؤلف في التاريخ العام تنقله وزارة المعارف إلى العربية

روت وكالة الأنباء العربية أن وزارة المعارف تعتزم القيام بأكبر عمل أدبي لم يسبق لها القيام بمثله. وذلك بنقل المؤلف القيم العظيم الذي وضع بالإنجليزية، ليكون مرجعاً لرواد التاريخ بعنوان التاريخ العام - إلى العربية. ويشتمل هذا السفر الفذ على مليونين ونصف مليون كلمة

وقد تحدث السير جون هامرتون ناشر الكتاب إلى وكالة الأنباء العربية في هذا الشأن؛ فقال إن السير والتر مونكتن كان له كبير الفضل في تيسير هذا العمل وتذليل مهمته

والمعروف أن السير جون هامرتون ومعاونيه قضوا أكثر من عامين في وضع هذا المجلد الضخم الذي ساهم في كتابة فصوله مائة وخمسون كاتباً من الكتاب المبرزين

وقد قال خلال حديثه السالف الذكر: لم يكن يسعني عند وضع هذا الكتاب وجمع فصوله، إلا الشعور من جديد بالإعجاب والاغتباط بذلك النصيب الكبير الذي ساهم به العقل العربي في تأسيس ثقافة العالم الإنساني وتكوين حضارته. وإني لفخور بأن جمهور قراء العربية في مصر والشرق الأوسط سوف يجدون في هذا المؤلف الضخم خير شاهد على جهود الإسلام في بناء الحضارة الإنسانية والتقدم العلمي. وإن إصرار وزارة المعارف على نقل

الكتاب برمته دون الاكتفاء بترجمة مختصرة له لدليل رائع على أن الغذاء الروحي لم يستغن عنه في هذا العهد الذي يسوده الهدم والتخريب

طيلسان ابن حرب

جاء في ديوان إسماعيل صبري باشا ص 96 ما نصه: (طيلسان ابن حرب يضرب به المثل في القدم والبلى؛ وسبب ذلك أن ابن الرومي الشاعر المعروف كان قد مدح ابن حرب فخلع عليه طيلساناً بالياً، فقال في ذلك الطيلسان شعراً كثيراً حتى صيره مثلاً لكل ما بلى ورث. فمن ذلك قوله:

يا ابن حرب كسوتني طيلساناً - رقّ من صحبة الزمان وصدا
(طال ترداده إلى الرفو حتى ... لو بعثناه وحده لتهدى
وليس من شك في أن هذا القول لا نصيب له من الصحة؛ فالذي نعرفه أن محمداً بن حرب أهدى إلى الحمدوني طيلساناً خلقاً، وكان الحمدوني يحفظ قول أبي حمران السلمي في طيلسانه الذي يقول فيه:
إذا ارتداه لعيد أو لجمعته ... تنكب الناس لا يبلى من النظر
فجارى الحمدوني أبا حمران حتى بلغ ما قاله في طيلسانه حوالي مائتي مقطوعة منها:
يا ابن حرب كسوتني طيلساناً ... مل من صحبة الزمان وصدا
طال ترداده إلى الرفو حتى ... لو بعثناه وحده لتهدى
ومن ذلك نتبين أن البيتين للحمدوني وليسا لابن الرومي كما زعم الأستاذ شارح الديوان. ولعل اختلاط الأمر على الأستاذ جاء من أن ابن الرومي كان ممن قالوا شعراً في هذا الطيلسان نفسه
(المياسرة)
عوض الدحة
أين أخبار حافظ
شُغلت منذ حين بدراسة الناحية الفكاهية في حياة شاعر النيل المرحوم حافظ بك إبراهيم، إذ كان أعجوبة في مرحه ولهوه ودعابته، واقتضى ذلك البحث أن أجمع ما يمكن من الملح
والطرف التي نسبت إلى هذا الشاعر الضحوك، فماذا كان من شأني؟ . . .
تعددت مني الأسباب وتنوعت الأساليب، وراجعت شتى المصادر ومختلف الكتب والصحف، فجمعت من طرف حافظ، بعد اللتيا والتي، عشرات وعشرات؛ ولكن بعض أصدقائه يؤكد لي أن طرفه تزيد على مئات ومئات، فأين أجد هذا الزاد الأدبي النفيس؟ . . .
لقد حسبت أن أصدقاء حافظ القدامى يعرفون من أخباره وأسراره ما لا يعرف أبناء هذا الزمان، فسألت شاعر القطرين مطران بك عما يعرفه فأجاب؛ إني نسيت! وسألت الدكتور مبارك فأجاب إني مشغول! وسألت الأستاذ البشري فما أجاب! وسألت الأستاذ عبد الله عفيفي بك، فأحالني على مجموعة قصاصات المرحوم محمد مسعود بك، ففزغتُ إليها لدى ولده الدكتور يحيى مسعود فاعتذر بأنها لم ترتب بعد، وأن الاطلاع عليها لن يتيسر قبل شهور! وسألت الدكتور منصور فهمي بك، فأحالني على فريق من أدباء دار الكتب الذين عاشروا حافظاً، فوجدت عندهم طرفة من هنا وطرفة من هناك، ثم. . . ثم اعتذار ببعد الشقة وداء النسيان! ثم سألت كثيرين غير هؤلاء فما تحقق لي رجاء! فأين أجد أخبار (حافظ) - أيها الناس - وقد مات في عام 1932، فهو لم يمض عليه أكثر من عشر سنوات؟ أين أجد أخبار حافظ، وقد كان بالأمس القريب ملء الأسماع والأبصار والقلوب؟. . . وماذا يكون حديث الأجيال القادمة عن حافظ وإخوانه من الأدباء والذين عاشروهم لا يعرفون عنهم ما يخف في الميزان أو يثقل؟. . . وماذا عندكم أيها الأدباء؟
(البجلات)
أحمد الشرباصي
العدد 473 - بتاريخ: 27 - 07 - 1942
الحديث ذو شجون
الوفاء للوطن الغالي
للدكتور زكي مبارك
عند هذه الكلمة ترنَّم الهتَّاف بعد انتصاف الليل. . . فمن الهاتف؟
هو أديب من قراء (الرسالة) أراد أن يستفهم عن معنى القول بأن المسيحية توَّخ في كل أرض بميلاد المسيح، وتؤَّرخ في مصر بعذاب الشهداء
وما كدت أنتهي من شرح هذا المعنى، حتى هتف ذلك الأديب داعياً أن يجعل الله الوطنية من عقائد الشباب في هذا الجيل
فمن أنت أيها الفتى؟

وما قيمتُك في نفسك وفي نفس إخوانك؟
هل تعرف وهل يعرفون أن اهتمامك بكلمة في تمجيد وطنك هي الشاهد على أنك مصريٌّ أصيل؟
أنا أدعو لك بطول العمر مع العافية، أيها الفتى الوطني، حرسك الله وحماك!
اسمع يا صديقي ثم اسمع:
في كل أرض يكون للشجر والنبات موسم يقظة وموسم خمود، إلا مصر فاليقظة فيها دائمة في جميع الأحايين.
وفي كل أرض يوجد الماء في مكان وينعدم في مكانات، إلا مصر، فالماء موجود في كل مكان. وأين من يصدّق أن سكان جبل المقطم يستقون الماء من بئر هناك؟!
وفي كل بلد تجاهد الأرض في الزراعة موسماً، ثم تستريح موسمين أو مواسم، إلا مصر، فأرضها تصلح للإنبات مرتين في العام الواحد أو مرات
وطنك، يا صديقي، جميلٌ وثمينٌ ونفيس
كان وطنك محور التوازن الدولي قبل أن يعرف بنو آدم ماهية التوازن الدولي، وكان وطنك أول وطن تنبه إلى أن الله واحد بلا شريك، وفي سبيل هذا المعنى الدقيق جاهد إخناتون الشهيد. . .
وكان وطنك، يا بنيَّ، أول وطن حارب السماء عن علم أو عن جهل
وهل من القليل أن يكون الطغيان المصري أخطر طغيان حاربه القرآن؟
وطنك، يا صديقي، مذكورٌ بمحاسنه ومساويه في جميع البلاد، وستُنسى أمم وشعوب، ولا يُنسى وطنك، لأنه معتَرك الرشد والغي، والهدى والضلال، في جميع الأجيال
وطنك هو الوطن، وبلادك هي البلاد
وطنك هو الميزان في القضاء، قضاء الأمس وقضاء اليوم، والنصر لمن يظفر بقلبك، فلمن قلبك؟
قلبك لوطنك، وعقلك لوطنك، وهواك لوطنك. فلا تشرك به أحداً، ولا يخطر في بالك أن في الدنيا جمالاً أنضر من جماله، أو حمَى أعزَّ من حماه، وإن تناوشه الطامعون من كل جانب، فسيظل وطنك وحدك، ولن يكون لأعدائه غير العذاب في ميادين القتال، وبئس النصيب!
أدر المذياع إلى أية جهة من جهات الأرض، فستسمع اسم مصر. . . وسائلْ شركات البرق في أي بلد من البلاد، فستخبرك عن مبلغ اهتمامها بأخبار مصر. . . واستطلع المكنون من ضمائر الزعماء والملوك، فسترى أن مصر مُنْيَة الجميع، وبين المُنْية والمَنِيَّة صِلات
هل تعرف الحكمة التي تقول: رُبَّ أكلة مَنعت أكلات تلك الأكلة في مصر، فما طمع فيها طامع إلا قصمت ظهره. ولا دخلها غاضب إلا كانت وبالاً عليه، ولو استفتيت التاريخ لأفتاك ثم أفتاك
كنت أشارك المنفلوطي في السخرية من قول مصطفى كامل: (لو لم أكن مصريًّا لتمنيت أن أكون مصريًّا)
واليوم أعرف أن المنفلوطي كان من المخطئين الخاطئين، وأن كلمة مصطفى كامل أصدق من الصدق وأصوب من الصواب
ذلك بأن مصر غنية من جميع النواحي، وعظيمة من جميع الجوانب، وليس فيها شبرٌ إلا وهو مبعث حياة أو مصدر تاريخ
وما اقتتلت الأهواء، ولا اشتجرت الآراء، ولا اعتركت القلوب، ولا انتضلت العقول بأقوى وأعنف وأخطر مما يثور فوق الأديم الصحيح لهذه البلاد
يوم كان السلطان لأهل الشرق كانت مصر أول أمة تقاوم طغيان الشرق
وحين كان السلطان لأهل الغرب كانت مصر أول أمة تحارب طغيان الغرب
وهل ينسى التاريخ أن عزَّة مصر هي التي جعلت واليها عَمْراً أول والٍ يخالف عن أمرِ الخليفة العادل عمر بن الخطاب؟
وهل ينسى التاريخ أن السلطنة العثمانية في أيام عزها المأثور عجزت عن تتريك الأمة المصرية؟
وهل ينسى التاريخ أن الإنجليز الذين سيطروا على كثير من ممالك الأرض عجزوا عن مقاومة العزة المصرية؟

نحن برعاية الله وكرامة مصر أعزَّاء وأعزاء وأعزاء.

النور أسرع من الضجيج

على حين غفلة أضاءت آفاقُ مصر الجديدة، وأضاءت ثم أضاءت ثم أضاءت؛ فقلت لصاحبي: في هذه اللحظة أُطلقت ثلاثة مدافع؛ فقال: ومن أين عرفت؟ فقلت: من هذه الومضات؛ فقال: ولكني لم أسمع ضجيج المدافع؛ فقلت: ستسمع بعد لُحَيْظات، وستؤمن بأن النور يسبق الضجيج

فيا ناشدي الشهرة باسم الأدب والحياة بلا قلب وبلا روح وبلا نور، فلن يكون له من مجد الأدب وشرف الحياة نصيب ولا خَلاَق

النور أسرع من الضجيج، لأنه أرقّ وألطف، وأقوى وأغلب، فاستعينوا بحرارة أرواحكم، قبل أن تستعينوا بجهارة أصواتكم، واعلموا أن النور وليد النار، وأن جوهر القبَس المتألق فيه أصالة حيوية لا يدرك مَداها غير أرباب القلوب

ومن أجل هذا كان الاضطهاد أعجز من أن يخمد حيوية الأديب، لأن الأدب نور، ولأن الاضطهاد ضجيج، والنور أقوى وأسرع من الضجيج

ثم ماذا؟

إن وضعت أصابعك في أذنيك، فقد حَجَبْتَ عن سمعك ما تحبّ وما لا تحبّ من الأصوات، وإن أغمضتَ عينيك، ثم عصبتهما بمنديل سَميك، فستحسّ النورَ عيناك، برغم ذلك الحجاب، أو برغم ذينك الحجابين، لأن النور أقوى وأسرع من الضجيج

فيا أعداء الأدب، متى تعقلون؟!

ستضيء قُبوركم إن اعتصمتم منا بظلمات القبور، لأن من واجب النور أن يمزّق الظلمات. . . وسوف تعلمون!

أسرار وسرائر

في الحوار الذي دار بين الأستاذ محمود البشيشي وابنه النجيب حسين، مرّت إشارةٌ لطيفة إلى كاتب يجمجم ولا يفصح، وهو (كاتب من الكتَّاب) كان (حسين) - حرسه الله - كتب إليه يدعوه إلى ترك الإيماء والتلميح فيما يتناول من المعاني والأغراض

وأتولى الإجابة عن ذلك الكاتب فأقول:

لقد نشأ - يا بُنيَّ - في عصر من عصور الانقلاب، وفي مثل هذا العصر تكثرُ الأكاذيب والأراجيف، ويقلّ الفهم لدقائق المعاني، فهل يلام الكاتب إذا فرَّ من التصريح إلى التلميح؟

قد تقول: إن التلميح أخطر من التصريح، لأنه يفتح أمام المغرضين أبواب التفسير الخاطئ والتأويل المريب

وأقول: إني أحب أن يظلمني قومي عن شبهة لا عن يقين، فأنا أساور أهدافي بأسلوب يُعفي ظالميَّ من ربقة الظلم المبين؛ وإلا فمن يتوهم أن أغراضي تخفى على قرائي وهم من أولى الألباب؟

بين مصر والعراق

في هذا الأسبوع أنِستُ بلقاء جمهور من الأساتذة المنتدبين للتدريس في العراق، وهم جميعاً ألسنةٌ تلهج بالثناء على الأريحية العراقية والذكاء العراقي. ومن كلام الدكتور راجح والدكتور غالي والأستاذ قنديل عرفت أن دار المعلمين العالية بلغتْ من التفوق مبلغاً يشرح صدور المؤمنين بعظمة العقلية العربية في العراق، وطن الأهل والأحباب.

ولكني تأذيت حين عرفت أن بعض المدرسين لا يريدون أن يعودوا لخدمة العلم في الوطن الشقيق، بحجة الخوف من تقلب الظروف، أو بحجة الشوق إلى الاستقرار في وطنهم الأول، وما دَرَوْا أن الاستقرار ضربٌ من ضروب الموت!

لو قلتُ الصدق كل الصدق لصرّحتُ بأن من يريدون قطع صلتهم العلمية بالعراق ليسوا إلا شباناً تعوزهم القدرة على فهم السرائر من الروحانية العراقية، فهم يعيشون هنالك عيش الغرباء بالفكر والروح، في بلاد قام كيانها على الفكر والروح.

في هؤلاء من يعتذر بأن العراق مهدّد بالغلاء في هذه الأيام، فهل يكون فيهم من يدرك أن في تمرة أو تمرتين كفاية لمن يدعوه الواجب للقيام بخدمة علمية؟

وفي هؤلاء من يقول: إن مصر تنساه حين تطول إقامته بالعراق فلا ينال حظه من الترقيات

وأقول إن هذا لن يقع بعد تنظيم التعاون الثقافي بين مصر والعراق.
كيف يصبر من عرف العراق على فراق العراق؟
أنا أخشى أن يكون مفارقوه لم يعرفوه. وهل يغيب عني أن في العراقيين أنفسهم من يجهل المحاسن الأصلية لوطنه الجميل؟
لقد عجب قومٌ من وفائي للعراق، وظنُّوني أستهديه منحةً من المِنح الذواهب، ثم انقضى عجبهم حين عرفوا أن وفائي للعراق وفاءُ القلب لا وفاء الجيب، ولكن عجبهم سيُبعث من جديد حين يعرفون أن في عنقي ديوناً للعراق، هي أكرم الأطواق، فما تلك الديون؟
رأيت العراق يكرم مصر في جميع مذاهبها العلمية والأدبية والتشريعية، ورأيته يفرح حين نفرح، ويلتاع حين نلتاع، ورأيت أنه بحق وصدق أخٌ شقيق.
مصر مسطورة الملامح فوق كل مكان في العراق، فما جزاءُ من يحبونها هذا الحب؟
وما جزاء من يعرفون من أقدارنا الأدبية أكثر مما نعرف؟
تلك معانٍ يجهلها من يبحث عن وظيفة توزن قيمتها بالدراهم والدنانير، وهي معانٍ يعرفها من يؤمن بأن الفناء في سبيل العروبة بابٌ من أبواب الخلود.
زكي مبارك
أطوار الوحدة العربية
للأستاذ نسيب سعيد
اغتبط قراء (الرسالة) - وما أكثرهم - للنبأ العظيم الذي
أذاعته عليهم في أعدادها الأخيرة من تخصيص بعض أعدادها
لخدمة الوحدة العربية، والقضية العربية، وقديماً عرفت
بخدمتها لرسالة العروبة وفضلها الجزيل على الثقافة (الرسالة)
العربية، مما جعل لها المقام الأول في قلوب أبناء العرب في
سائر الأقطار، وجعل صاحبها محبباً إلى القلوب جميعها،
كريماً على النفوس كلها. أدامه الله للعرب فخراً وللإسلام
ذخراً. . .)
القضية العربية
البحث عن (القضية العربية) طريف، والحديث عن العروبة ذو شجون وبخاصة في هذا العصر، عصر القوميات. ونحن نريد اليوم في حديثنا الأول نبحث للقراء في تاريخ الفكرة العربية الحديثة، ونستعرض لهم أدوار هذه الفكرة وأبطالها في التاريخ المعاصر، ثم ننتقل بهم بالحديث عن الخدمات الجلي التي قدمها العراق للوحدة العربية وعن أثره في القضية العربية الأخرى، وبخاصة عن المعاهدة العربية الأولى التي عقدها العراق عام 1936 مع المملكة العربية السعودية؛ وقد كانت هذه المعاهدة نواة الوحدة العربية، ثم كيف سافر جميل بك المدفعي رجل العراق من بغداد إلى صنعاء بطريق القاهرة في شهر أغسطس سنة 1937، وأشرك دولة اليمن السعيدة في معاهدة الوحدة، فأصبح الحلف العربي ثلاثياً بعد أن كان ثنائياً، وترك الباب مفتوحاً لسائر الدول العربية للدخول في هذه الوحدة، والانضمام إلى هذه المجموعة العربية، كما دخلها: العراق والحجاز واليمن.
حلم محمد علي الكبير
وإذا أردنا الحديث عن فكرة الوحدة العربية والبحث عن الدولة العربية الموحدة في العصر الحديث، فلا بد لنا من الانتقال إلى الوادي السعيد، إلى ضفاف النيل، فمصر العزيزة هي البلد الأول الذي فكر في الدولة العربية الكبرى؛ وللقطر العربي قصب السبق في بعث فكرة الوحدة العربية الأولى، وخلق الوعي القومي. ولغريزة محمد علي الكبير الفضل الأول في إيجاد الفكرة، ولكن أكثر الناس لا يعلمون!
كان ذلك في القرن الماضي يوم ظهر محمد على الكبير مؤسس البيت المالك المصري في وادي النيل، وسعى لتأسيس دولة عربية جديدة، وفكر في قلب المملكة المصرية إلى إمبراطورية عربية إسلامية كبرى تستطيع الظهور بين الدول الأوربية الحديثة. كذلك حارب الوهابيين في الجزيرة ليبسط نفوذه على سائر بلاد العرب، ويحقق حلمه الذهبي الجميل، ثم استولى على بلاد الشام وأعاد إلى سورية الإخاء والرخاء والخيرات، ومنع الجيش المصري الباسل قبائل البدو من الاعتداء على القرى

والمزارع، ووضع حداً للصراع الذي كان لا ينقطع بين الدروز والمسيحيين في ديار الشام.

فالنتيجة التي نستطيع أن نقررها إذن، هي أن محمد علي الكبير عزيز مصر هو أول من فكر في الوحدة العربية، وأول من حلم بتأسيس دولة عربية جديدة مكان الرجل المريض أمين الدولة العثمانية، تعيد إلى دنيا العرب ذكريات الأمويين والعباسيين والفاطميين؛ ولكن الظروف السياسية القاهرة، والعوامل الدولية المختلفة، وقفت في وجهه، واضطرته إلى الانسحاب من سورية، فاقتصر حكمه بعد عام 1840 على مصر وحدها كما حدث التاريخ، وتبدد ذلك الحلم الذهبي الجميل في مصر.

كلمة إبراهيم باشا

وعلى كل حال فإننا لا نرى قبل القرن التاسع عشر ما يشير إلى قومية العرب، والتفات إلى دنيا العرب، أو إلى أي فكرة عربية؛ فقد كانت تلك القومية في سبات عميق، وفكرة العروبة كسراب خادع، وأول من حاول إيقاظها وتأسيس دولة عربية مركزها القاهرة محمد علي الكبير، وقل كذلك ابنه إبراهيم باشا. ولئن كان المشروع لم يتم فإن النواة قد وضعت

في الأرض، وترك للزمن إنباتها وإحياؤها، وكيفما كان الأمر فإننا لا نرى في الشرق العربي منذ أيام إبراهيم باشا المصري حتى أواخر القرن التاسع عشر حركة جديدة للانفصال عن السلطنة العثمانية والاستقلال بكيان عربي منظم سوى تلك الحركة المباركة التي انبعثت في وادي النيل السعيد؛ لأنه ما من شك في أنه لم يكن لقطر عربي من الأسباب المهددة لظهور فكرة قومية عربية ما كان لمصر في القرن التاسع عشر؛ فهي أسبق البلاد العربية إلى إنشاء وحدة إدارية ذاتية، وحكومة شرعية صحيحة؛ بل هي أول تربة بعثت فيها الروح العربية الاستقلالية القدسية، بل روح العزة والكرامة والمجد كما يستدل عليه من سياسة إبراهيم باشا التي كانت ترمي إلى فصل بعض الأقطار العربية عن جسم الدولة العثمانية واستقلاله بها، فقد صرح (للبارون بوال كونت) بقوله: (ما أنا بتركي، بل أنا ابن مصر. إن شمسها قد غيرت دمي فجعلتني عربياً قحاً. . .).

وقد سارت مصر بعد ذلك بخطى ثابتة في ذلك السبيل فتأسست فيها عدة جمعيات عربية، ومنظمات سياسية تعمل للعروبة وللوحدة الكبرى؛ منها (الجمعية القحطانية) التي تأسست عام 1909، (والجامعة العربية) التي أنشئت سنة 1910، و (حزب اللامركزية) الذي تأسس في سنة 1912. وكذلك يجب إلا ننسى (جمعية العهد) التي أنشأها في الأستانة عزيز علي المصري يوم 28 أكتوبر سنة 1913 فقد خدمت القضية العربية كثيراً، وسنتحدث مفصلاً عن فضل مصر على القضية العربية وعن أثرها في الوحدة العربية يوم تخصص (الرسالة) الكريمة الكلام عنها ولكل حادث حديث.

المنظمات العربية

وكما تأسست في القاهرة جمعيات عربية تعمل للعروبة كذلك أنشئ في كل عاصمة من عواصم العرب: في العراق، والشام، والحجاز، واليمن، وفي كل بلد من بلدانهم ناد يضم الصفوة المختارة من أبناء العروبة. وكذلك على أثر إعلان الدستور العثماني سنة 1909 يوم تغير الحال غير الحال في البلاد العثمانية فأطلقت الألسنة من عقالها والأقلام من سجنها.

والواقع أنه لم يكن اغتباط العرب بالعهد الدستوري الجديد يقل عن اغتباط الترك؛ فقد ملئوا الجو هتافاً وصياحاً في بغداد والشام وغيرها، ونظم شعراؤهم القصائد، وحبر كتابهم

المقالات، في التغني بمزايا العهد الجديد، وانضم رجالهم ومفكروهم من عراقيين وسوريين وحجازيين إلى الاتحاديين موالين ومؤيدين لاعتقادهم أن دولتهم ستجدد شبابها وتسترد مقامها، وأن الأمة العربية ستنصف، وكرامتها ستصان.

ولكن حينما بدرت بوادر الخلاف العنصري بين العرب والترك تحول الحال، إذ ظهر أن الاتحاديين يسيرون على سياسة قومية سداها ولحمتها تعزيز الجامعة الطورانية وتأييدها، وأن الفكرة العربية قد عفا أثرها؛ لذلك أقفرت أنديتهم وتفرق أنصارهم، وضعف نفوذهم، كما تخلى عنهم نواب البلاد العربية المؤمنون بالعروبة وأنشئوا كتلة مستقلة اتحدت مع النواب المعارضين للاتحاديين؛ وختم هذا الدور بإعلان الحب

البلقانية في خريف عام 1912؛ وتألفت في خلال هذه الفترة جمعيات عربية عديدة كما قلنا، في مصر، وبغداد، ودمشق، وبيروت، والآستانة، لحمل مشعل الفكرة العربية، وتأدية رسالة العروبة، وتعزيز شأن العرب، وبعث الوعي القومي العربي، فأثرت هذه الجمعيات أثراً بليغاً في تكوين (الرأي العام العربي) وإليها يرجع معظم الفضل في إنشائه وإعداده بالتعاون مع الصحافة العربية في مصر والعراق والشام والآستانة؛ فقد ساعدت على تنمية الشعور القومي وإيقاظه وبعثه، كما ساعد الشعراء العرب بقصائدهم الحماسية والكتاب والخطباء بدررهم النثرية على خلق النهضة الوطنية العربية الجديدة.

وأهم تلك المنظمات العربية التي تأسست يومئذ هي: جمعية الإخاء العربي، المنتدى الأدبي، الجمعية العربية، (الفتاة)، الجمعية القحطانية، العلم الأخضر، حزب اللامركزية، جمعية بيروت الإصلاحية، جمعية العهد، مؤتمر باريس العربي، الجامعة العربية، النادي الوطني في بغداد، وجمعية البصرة الإصلاحية. ونتحدث اليوم عن هاتين الأخيرين فقط لأنهما نشأ في العراق وعملا فيه

الجمعيات العراقية

أما المؤسسة العربية الأولى في العراق فهي النادي الوطني في بغداد فقد أنشئ في الزوراء عام 1913 على أثر تأسيس حزب اللامركزية في مصر ليكون فرعاً له، وكان رئيس هذا النادي مزاحم الباجة جي صاحب جريدة النهضة العراقية أول جريدة في العراق خدمت القضية العربية الكبرى. وانتسب إلى هذا النادي كثير من الشباب العراقي المثقف، فنشر

المبادئ القومية العربية وعززها. وكان يستظل بظل الزعيم العراقي حينئذ السيد طالب النقيب رئيس جمعية البصرة الإصلاحية الذي نشطه لإصدار جريدة النهضة فكان يصدرها مزاحم نفسه، فلما عطلها الاتحاديون الترك ولم يصدر منها سوى (12) عدداً وأمروا بالقبض على صاحبها فَرّ إلى البصرة ودخل في حمى السيد طالب النقيب والمؤسسة العربية الثانية في العراق هي جمعية البصرة الإصلاحية التي أنشأها السيد طالب في مدينة البصرة، وقد كان يومئذ نائبها في مجلس النواب العثماني وأحد زعماء حزب الائتلاف، فانضم إليها عدد من كبير من رجالات البصرة وشبابها الناهض، كما انضم إليها أحرار العراق وزعماؤه المخلصون، فأصدرت جريدة النهضة في بغداد لتكون لسان حالها ولكنها لم تعش طويلاً كما قلنا. وحينما عقد مؤتمر باريس يوم الأربعاء في 18 يونيو عام 1913 في منتصف الساعة الثالثة بعد الظهر أبرق إليه في تلك الساعة السيد طالب الزعيم العراقي مؤيداً ومشجعاً، فخاف الترك العاقبة، ولذلك انتدبوا أحد رجالهم وهو القائمقام فريد بك وعينوه قائداً للبصرة، وناطوا به مهمة اغتيال السيد طالب؛ فجاء البصرة ومعه حاشية كبيرة فأسرع هذا وأرسل إليه من اغتاله. فرأى الترك أن من أرسل مصلحتهم الجنوح إلى المسالمة، فاستمالوا السيد طالب وأرسل إليه طلعت بك وزير الداخلية التركية يومئذ برقية مفرغة في قالب المجاملة، فأذاع على الأثر البيان التالي: (أعلن بكمال الفخر إلى عموم أهالي العراق (الولاية والملحقات) بأننا قد اتفقنا في أمر تشريك المساعي وكأننا روح واحدة، وجسد واحد، لأجل رفع شأن وشوكة حكومتنا السنية التي قدرت صداقتنا رسمياً، ولم يبق خلاف بيننا بأي صورة كانت، وقد زال ما كان من سوء التفاهم زوالاً قطعياً، وصرنا كتلة واحدة نعمل على سعادة دولتنا العلمية، ونسعى في محافظة وحدتنا العثمانية بكل قوانا حتى لا يبقى من فرد واحد، وللبيان حررت الكيفية وأعلنت في 7 ربيع الأول سنة 1332).

إلى هنا اكتفي اليوم بالبحث عن تطور (الفكرة العربية) وعن الجمعيات العراقية، وسأحاول في حديثي المقبل تصوير رجالات العراق الذين خدموا قضية العروبة، وحملوا رسالة (الوحدة العربية) وخاصة أولئك الذين اشتركوا في الثورتين: ثورة العراق وثورة الحجاز؛ وعملوا في الدولتين: دولة بغداد ودولة الشام، مع أقوالهم والوثائق والمستندات التاريخية التي تؤيد ذلك؛ فإلى اللقاء . . .

(دمشق)

نسيب سعيد
المحامي
جيل وجيل
الحيوية الفكرية
للأستاذ محمود البشيسشي

تعدد المواهب والحيوية - الحيوية تحدد الاتجاه - جناية الحيوية على أربابها - إسحاق الموصلي - الحيوية الفكر التي تسبق الزمن وتقرر المستقبل - الشاعر البدوي عبد المطلب والرواية الشعرية تبعث إلى التأمل في أحوال المجتمع - حيوية الفكرة الدينية - حيوية الفكرة في الفنون.

نصل حوارنا اليوم في حيوية الفكرة ليكمل البحث، ويتم الغرض، ويستقيم المعنى، ويدرك الهدف. فليس أقبح من أن يجعل المرء بالحكم قبل استيفاء الحجة، ويبرم القضاء قبل امتحان الشهادة. وإن الاقتضاب في معالجة الأمور مدرجة الضلالة، والإسراع في الكشف عن منبهم الأسرار طريق العماية. . . وخير الباحثين من نهج سبيل التأني والاستقراء ليعقل ويفهم ويدرك تفاصيل ما يعالجه، وتراكيب ما يعرض له. . .

قال ولدنا حسين: عرفنا من أسرار الحيوية الفكرية شيئاً وبقيت أشياء. فقد تتعدد المواهب وتكثر الاتجاهات للشخصية الواحدة؛ كأن يكون المرء شاعراً ضرب في الشاعرية بسهم وافر، وناثراً طلع في القدرة على بيان أفكاره مطالع عالية، وخطيباً بلغ من عبقرية الفصاحة الغاية التي تتقطع دونها الأعناق. . . ويكون له في مذهب من هذه المذاهب المتعددة المتباينة جودة واستواء، وموافقة وكمال، ورونق وعذوبة، واستيعاب وفهم.

فما كان الحيوية هنا؟ وهل تكون في كل ناحية على قدر معلوم؟ وهل لصاحبها القدرة على توجيهها والسيطرة عليها أو يكون موقفه منها موقف الأرض من الغيث. . . لا تستطيع إلا أن تنتظر وروده!

قلت: أما تعدد المواهب يا بني فأمر قد يكون إلى الفطرة أقرب منه إلى الاعتياد والدربة. على أن المواهب مهما تعددت ألوانها، وتشعبت مذاهبها، لا يمكن أن تكون في كل ناحية ومذهب على نسق واحد من القدرة، وفي قوة واحدة من الحيوية. . . ولا بد يا بني من تدفق الحيوية قوية عاتية في ناحية دون أخرى، وحينئذ يكون لها وحدها تقدير المصير،

وتحديد الشخصية، وبيان موضع صاحبها وفنه الأصيل في معترك الحياة الصاخبة الدوّارة. فأنت يا بني تدهش من تعدد مواهبك، وتعجب من تباينها، وتحار في تعليل ميلك إليها، وتوفرك على أسبابها؛ ولكن الأمر لا يحتاج إلى أكثر من التأمل في منابت هذه الاتجاهات وأصولها، فأنت تميل إلى الرسم وتمارسه، وتجيد الشعر وتطرب له، وتندفع وراء العمق في الفكرة جرياً وراء الفلسفة وطلباً لمنبهم الأسرار. . . وكل أولئك لو تأملت يا بني من مصدر ومبعث واحد يرجع إلى حساسية الشعور، وشفافية الوجدان، ويقظة التفكير. على أنك لو تأملت طويلاً لرأيت أن هناك حيوية خاصة غالبة على كل هذه الاتجاهات. . . تلك هي عمق الفكرة والجنوح إلى التأمل العميق. وإنك لتجد الصدق هذا القول صوراً من الشخصيات في مطاوي الزمن. فقد كان إسحاق الموصلي متعدد المواهب بعيد مدى الآمال، متباين الميول. وكان إذا ناظر أهل الكلام انتصف منهم، وإذا تكلم أو عالج الفقه أحسن وقاس واحتج وبلغ في قياسه واحتجاجه الغاية. وإذا أخذ بأسباب الشعر واللغة فاق وارتفع، ولكنه كان في الغناء أكثر حيوية، وكان الغناء أدنى ما يوصف به وإن كان الغالب عليه. على أنه كان أكره للاشتهار بالغناء والتسمي به!

قال: إن في نفور إسحاق يا والدي من الغناء وهو ما اشتهر به وذهب له صيت ذكر، لطرافة وموضعاً للتأمل.

فإن للحيوية جناية كبرى على أربابها. ولقد أصاب إسحاق من الحيوية ألم عظيم وضياع للفرص السوانح؛ فقد كان المأمون يقول: لولا ما سبق لإسحاق على ألسنة الناس، وشُهر به من الغناء عندهم لوليته القضاء، فإنه أولى به، وأحق وأعف، وأصدق تديناً وأمانة من هؤلاء القضاة. . .! فما أشد ألم إسحاق لضياع ما كان يتطلع إليه! وما أخطر

جناية الحيوية على أربابها! ولعل الهدف الأول لجناية الحيوية هو صاحب الفكر الحر من أنصار العقيدة، وأرباب المذاهب الفكرية. فكم رجل من حر العقيدة، صادق الإيمان، دفعت به حيوية الفكرة التي يعتنقها، ويتمسك بأسبابها، ويناضل في سبيلها إلى الخوض في مرابط الهلكة. . . لا تمنعه رهبة، ولا تقطعه هيبة، ولا يدركه نصب، ولا يتداخل جهاده تردد، فإذا رأيت في حياتك رجلاً قد طوقته الشرور، وترامت عليه النقم، وأقصى عن مواطن النعم، وحرم كل ما هو في متناول غيره، فلا تتردد في أن تنسبه إلى رجلين: رجل انسلخت حقيقته من معاني الإنسانية، فهو شر على نفسه وشر على غيره؛ ورجل ارتفعت حقيقته بمعاني الإنسانية إلى مرتبة عالية سامية ترقب العالم بعين الضمير الحي الذي لا يقيم وزناً للمظاهر الكواذب، ولا يحفل بالقوة إذا لم تقم على قواعد من الحق، وأسس من العدل. فهو بما طبعت عليه نفسه من حيوية الفكرة والعقيدة والحق عدو الباطل والقوة، وطريد الرياء والقسوة

قلت: وإن الحيوية يا بني لتقرر المصير، وتحدد الغاية، وتشير إلى مستقبل صاحبها من قبل أن يتأهب لغايته من الحياة وينتظرها، ومن قبل أن تستقر به الأيام، وتطمئن به الأسباب، وتصبح له يد باسطة في الناحية الأصلية من مواهبه واتجاهات شخصيته. فإنك لتلمح في طفولة الفنان العبقري بوارق من حيوية الفن والفكرة فيما يعرض له في سلوكه وأحواله ورغباته وآماله. فهو أبداً يميل إلى كل فاتن من الصور ورائع من الألوان. ويجد في الخيال المجنح نشوة تخفف على قلبه، وتتصل بروحه الفنية، وتقربه من غايته التي لم تزل في أكمام الغيب تناديه من وراء حجاب؛ ويجد لها في قرارة نفسه حنيناً لا يملك القدرة على بيان خصائصه في جلاء ووضوح، وإشراق وصفاء. ولكنه على رغم هذا يحس بدافع يسوقه إلى السير وراء كل ما هو أدنى بالقبول، وأحظى بطلاوة الفن، وأعلق بقلب الفنان. . . على أن صاحب الحيوية قد يدرك الغاية التي يسعى لها، وتدفعه حيويته إليها، وهو حينئذ يقصد أنبل المقاصد ولا يرهب أخطر المهالك، ويجد في نفسه الإيحاء الذي يقول في قوة وحيوية: هذا أمل واجب أن يكمل، وحقيق أن يوفى حقه، وليس يتحقق أبداً إلا بأن يتطلع المرء إلى أجل الأغراض مكاناً. والرجل الحي من كان في قوله وفعله كأنما أطلع على إرادة قومه وإرادة حيويته، فرمى عن قوس عقيدتهم وعقيدته

فقال: إذن فالحيوية الفكرية يا ولدي تسبق الزمن، فتحقق في التخيل والتصور ما يتمخض عنه الزمن بعد أجيال متعاقبة. فكم من مخترعات تفتَّق عنها زماننا وكانت في ألفاف الخيال سجينة من أزمان طويلة. فقد جالت فكرة الطيران بخلد الإنسان منذ تنف فجر الفكرة الحية في الإنسانية. وكم من أفكار كانت فطرية ساذجة ثم أصبحت مع الزمن فنوناً مع النظريات والعمليات الخالدة. . . أجل هذا حق لا يتداخله شك، ولا يشوبه إفراط. ومن طرائف هذه الحيوية التي تسبق الزمن ما عرض لي أثناء مطالعاتي يا والدي. . . فقد رأيت أن الشاعر البدوي الجليل (عبد المطلب) كان قد عالج الرواية الشعرية علاجاً استكمل شرائط الفن، واستوفي أوصاف الحيوية التي طالعتنا من فنون أمير الشعراء. . . فقد ألف عبد المطلب عدة روايات شعرية تمثيلية. وكان هذا منذ (29 عاماً) فعبد المطلب بذلك يتفرَّد وحده بفضل السبق في هذه الناحية الخطيرة من الفن الأدبي. فقد افترع هذا اللون من الشعر الروائي افتراعاً قبل أن تتفتح عنه عبقرية أمير الشعراء. ولا نسوق هذا القول من غير دليل ينهض شاهداً على صدقه؛ فإن الشاعر (البدوي) عدة روايات تمثيلية يوجد بدار الكتب منها روايتا (امرئ القيس) و (المهلهل): وقد قام - رحمه الله - بتأليف رواية اسمها (ليلى العفيفة) نشرت مجلة (المعرفة) جزءاً منها دليلاً على سبقه في هذا الفن. والمتأمل في هذه الرواية يرى كيف استطاع الشاعر أن يقنعنا بأنه كان مطبوعاً، حسن التصرف قد أغناه عفو قريحته عن التكلف، وبعد به عن التصنع. . . هذه بعض آثار الحيوية الفكرية يا والدي، وإنها لتدفع الناس إلى التأمل في حالهم، وربط ماضيهم بحاضرهم، والتطلع إلى مستقبلهم؛ وهذا التأمل والربط والتطلع، يجيء من بعده الرغبة في التقدم، والمطالبة بالحرية، والسعي وراء المجد. ويظهر هذا الأثر الأخير في حيوية الفكرة الدينية، وخاصة في حيوية الفكرة في الدين الإسلامي المجيد، فقد كانت الحقيقة المؤمنة تتطلق عزمة، وتتوهج رغبة. . . تنظر إلى أحابيل

الشيطان نظرة القدرة القادرة، وتتأمل أضاليل الباطل بثقة الحكمة النافذة، فكان لها النصر المبين. بعثت حيوية الرسول في قلوب المؤمنين القوة التي قهرت الباطل، وبددت سحب الشيطان، وأقامت على أطلال الشرور والرياء والنفاق والفرقة والضلال مجداً عظيماً: قويّاً بالإيمان، ثابتاً بالعقيدة، صادقاً بكلمة السماء، خالداً بخلود الفضيلة والحق. وحيوية الفكرة في الفنون - يا والدي - هي دلالتها على زمنها، وعقلية أصحابها، وما يموج بأحاسيسهم، ويضطرب في ميولهم، ويختلج في صدورهم، ويساير نهضة علومهم وعقليتهم، ويلابس حقيقة مجتمعهم، ويرمي إلى مثلهم العليا في مفاتن الجمال، وروائع الحسن، وبدائع الفن، ومحامد الأخلاق. . . وحيوية الفن إذا اتسعت آفاقها، وعظم خطرها، بسطت حيويتها على فكرة وأمل وغاية، وخلعت على صاحبها أو الأمة التي نضجت فيها، لوناً خاصاً يحدد مكانها من عالم الفن. . . بل إنها لتجعل صاحبها يبعث روحه في كل ما يكتسبه من العالم الخارجي ويطبعه بطابعه الخاص. . . وهذه هي

رسالة الحيوية الحق في الفن!

قلت: ما أحوجنا - يا بني - إلى هذه الحيوية، حتى لا نضرب في ظلمات التقليد الأعمى لكل ما هو غربي، من غير أن نعمل التأمل في أسبابه وغاياته وملابسته لأحوالنا، ومسايرته لميولنا وأحاسيسنا وتقاليدنا!

محمود البشبيشي

قصة اجتماعية في رسالة

زوجة الأب

مترجمة عن الإنجليزية

بقلم الأستاذ محمود عزت عرفة

عزيزتي هيلين. . .

لا ريب أنك ترتقبين البريد في لهفة كل يوم، على أمل أن يحمل إليك من أبيك خطاباً؛ بل إني لأكاد أتخيلك وأنت تشيعين الساعيَ بنظرة ملؤها الدهشة والألم معاً، في كل مرة يمضي فيها دون أن يترك لك هذا الخطاب المنشود. ولعل دهشتك ستكون أبلغ حينما تتلقِّين هذه الرسالة من (زوجة أبيك). وإني لا أستطيع أن أسمعك وأنت تقولين لصديقتك إيدنا:

- أبلغ من تأثير هذه المرأة عليه ألا يخاطبني إلا عن طريقها؟! على أني ألتمس إليك أن تبادري بتدارك هذا الوهم الذي تقعين فيه؛ فلم يسألني أبوك أن أكتب إليك، بل إنه ليجهل أني بعثت إليك بهذا الخطاب؛ ولعله لو عرف لغضب. وهو في الحقيقة لا يكاد يذكر اسمك أمامي، من يوم أن عدنا إلى المنزل فألفيناك قد هجرته غضبى. فكل ما أفعله إنما هو بإرادتي ومن محض تفكيري. . . وما أشك في غريزة حب الاستطلاع ستدفعك إلى قراءة كتابي حتى آخر كلمة فيه؛ فإن من غير المستساغ أن ترسل زوجة أب بخطاب مطول صريح اللهجة إلى ابنة زوجها الوحيدة، ولما تمض على نهاية رحلة الزواج أيام. . .!

ولكن. . . ماذا أنا قائلة لك؟ وكيف أوضح موقفي بحيث أستطيع - وحسبي هذا - ألا أزيد الأمور بيني وبينك تعقيداً؟

اعلمي أولاً أني لن أتوجه إليك بأدنى لائمة؛ بل إني لأقدر - بعطف بالغ - هذه الاحساسات التي دفعت بك إلى الرحيل، وأدرك أنك تنظرين إلى العلاقة بين زوجة أب وفتاة متحررة في التاسعة عشرة من عمرها، كأمر يصعب الاحتفاظ به؛ ولو كنت في موضعك لما وسعني إلا أن أتمرد مثلك، ولكن ليس بهذا الأسلوب الذي اصطنعت. . .! واسمحي لي أن أذكرك - وملئ نفسي الأسى البالغ والأسف المرير - بأنك قد تصرفت تصرفاً انطوى على أبلغ القسوة وأشد الإهانة لي ولأبيك. وصدقيني حين أقول لك إني لا أشكو مما أصابني شخصياً؛ فقد كان عملك لطمةً موجهة إليَّ، ولكنها كانت أشد ما يكون وقعاً على والدك المسكين. . . لقد أمضه الألم وأمرضه الحزن حتى لاذ بالصمت؛ وبالتالي وجدتني متألمة لألمه. . .

واعترف لي بأني لم أكن أتوقع منك تصرفاً فجائياً مؤلماً كهذا. ففي مرحلة تعارفنا الأولى كانت تربطنا مودة صادقة؛ ولما بدا احتمال اتصالنا برباط أوثق عن طريق أبيك،

استحال إخلاصك وثقتك السابقان إلى نفور مزاجه التأدب والتحفظ؛ وكان ذلك أمراً طبيعياً. . .
ولقد بدا لي أني أستطيع متى أظلنا سقف بيت واحد، أن أجعلك تفهمين مقصدي وحقيقة شعوري.
كنت ولا أزال أحبك كثيراً؛ أحبك لشخصك ثم لأنك ابنة (أبيك)! ولقد شجعني تصرفك قبل الخطبة وبعدها على الأمل في أن لأحل وإياك المشكلة التي طالما سببت المتاعب للأسر جميعاً: مشكلة العلاقة بين الأبناء وزوجات الأب. وعلى هذا الأمل قضيت (شهر العسل) في وافر من الغبطة والسعادة.
ولكن. . . أي استقبال هذا الذي أعددته لنا!
ليتك تعلمين يا هيلين كم كان أبوك يشتاق إلى لقائك طوال مدة رحلتنا!
لم نرك في انتظارنا على المحطة كما كنا نتوقع. قلنا: حسناً، إنك في المنزل بلا ريب تترقبين عودتنا؛ وقد أعددت لنا عشاء شهياً ينسينا مشقة سفرنا الطويل. ولما اقتربنا نفوس أبوك في نوافذ المنزل علّهُ يراك؛ ولكنا لم نلمح غير السجوف المرخاة في عناية، وأطراف هذه الستائر الفرنسية التي شذبتها يداك منذ عام. واخترق والدك الممر وثباً. ثم فتح الباب بمفتاحه الخاص وهو يهتف في قلق:
. . .!هيلين، هيلين. . . أين أنت؟
وانفتح أحد الأبواب، وأطلت منه الخادم وعلى وجهها سمات الذعر؛ فبادرها بالسؤال: أين مس هيلين؟. . .
وكانت الحقيقة أروع من أن تعترف بها الفتاة، فاضطربت وهي تغمغم بأنها لا تدري. . . ثم انزوت عن وجهه سريعاً.
أسرع أبوك إلى غرفتك (الاستديو) وفتح بابها؛ فدله المنظر الذي أماه على ما حدث بأتم وضوح. كان كل ما يخصك أو يهمك في الحجرة قد اختفى، فلم يكن ينقصه - ليعرف ما صنعت - أن يقرأ هذه الرقعة التي تركتها على رف الموقد بعد أن خططت عليها كلمتك القصيرة:
ومع ذلك فقد أطال أبوك (لقد انتقلت عن هذا البيت لأقيم مع صديقتي إيدنا كوري) التحديق في هذه الوريقة وهو يوليني ظهره، ثم استدار إليَّ بعد حين فالتقت أعيننا وأعتقد أننا تبادلنا في هذه اللحظة كل ما نستطيع التعبير عنه بالكلام.
وأخيراً مس ذراعي بيده مترفقاً وهو يقول: تستطيعين أن تهيئي طعامنا الآن. . . كان يتكلف الهدوء ويتظاهر بعدم المبالاة؛ فعجلت بالانصراف من أمامه قبل أن يتبين في وجهي أني أدرك حقيقة شعوره. وعندما التقينا بعد ذلك على مائدة الطعام كان يتصرف كما لو أن شيئاً هاماً لم يحدث! ولقد جاريته في رغبته؛ ولم يكن يتسنى إلا لمثلي ومثلك ممن يعرف خبايا نفسه أن يلحظ هذا الألم الذي يعصف في صدره. وإني لواثقة من أن أباك لن يلتمس إليك العودة بحال؛ وأنت الذي ورثت كبرياءه تدركين لم لا يفعل ذلك. أما من جهتي، فلن أطلب إليك شيئاً كهذا لعلمي أن أيسر ملتمس مني جوابه الرفض. وإنما سأخاطبك في وضوح. وسأحاول أن أبين لك أن زوجة الأب على رغم سمعتها السيئة تستطيع أن تكون أحياناً صادقة الرغبة في تفهم وجهة نظر ابنة زوجها، بل هي قد تقبل التضحية البالغة من جانبها في سبيل أن تخيم السعادة على الجميع. وما خطابي هذا إلا دليل ملموس على ذلك. قد لا تفهم فتاة مثلك لماذا يرغب أبوها في الزواج مرة أخرى؛ ويبدو لها طلب أبيها لزوجة جديدة أمراً شاذاً غريباً كما لو راحت هي تلتمس لنفسها أماً أخرى! وهي ترى أن كائناً من كان لا يستطيع أن يملأ الفراغ الذي خلفته أمها؛ وبالتالي لا تكاد تصدق بوجود المرأة التي تملأ من أبيها فراغ الزوجة. ومن المشاهد أن تطفُّل امرأة أخرى - بعد ذهاب الأولى - من الأمور غير المرغوب فيها؛ حتى ولو كانت الأولى قد قصرت في أداء مهمتها كزوجة أو أم. فكيف يكون الحال مع امرأة فضلي كأمك جديرة بكل حب من زوجتها وطفلتها؟
لا ريب أن موضعها سيبقى شاغراً إلى الأبد!. . . لست أطالبك بأن تنظري إلى المسألة كما أنظر إليها، أو تضعي في ذهنك أن أباك هو أول من أحببت، وأنه عندما سألني

الاقتران به أحسست بسعادة لم أكن أحلم بها. فستقولين - وأنت محقة - إن هذه أمور لا تعنيك في شيء؛ وعليه فلنجعل الأساس المشترك بيننا سعادة والدك، فعند هذه النقطة قد يلتقي سهمانا. . .

ولو أنك فكرت في الأمر قليلاً لوجدت أن مزايا والدتك وفضائلها، هي التي لجأت أباك إلى التزوج مرة أخرى. وقد يبدو لك هذا الكلام متناقضاً أو قائماً على الوهم؛ ولكنه في الواقع ينطوي على نتيجة طبيعية يفضي إليها منطق مستقيم. فإن الزواج إذا انفصمت عروته بالموت يترك من الفراغ والوحشة بقدر ما حقق من سعادة ونعيم. . .

وأنت - نفسك - لن تستطيعي الادعاء بأن حبك لوالدك بعد وفاة أمك، قد شغل أكثر من ركن صغير، وصغير جداً، من هذا الفراغ الذي خلفته وفاتها! وكذلك الحال مع الأب، فما حبه لطفله إلا تتمة حبه لزوجه. والعلاقة بين الأب وابنته تختلف - كما وكيفاً - عن علاقة الزوج بزوجه. وأنا لست أدعي في لحظة ما أني قد ملأت هذا الفراغ تماماً؛ ولكني أردد صادقة أني اكتسبت محبة أبيك وثقته، وأني أسعدته بحبي له سعادة لم يكن لينالها - على الأقل - بغير حب المرأة. . .

وما أخالك تنكرين أنه قد اختارني بمحض إرادته؛ وليس لمجرد دافع يسير، بل لحاجة ماسة إلى تجديد هذه العلاقة الوثيقة التي افتقدتها بموت والدتك. فإذا أنت أدنتِني فقد أدنتِ أباك، وبحكمك هذا يبدو مبلغ قصورك في إدراك حقيقة الطبائع البشرية وقد تبدو نظريتك معقولة من فتاة غير متزوجة تفيض نفسها بالوفاء الخالص والطيبة الساذجة، ولكن لن يقاسمك هذه النظرة أي رجل ممن خبر الحياة وعرفها على حقيقتها.

والآن. . . دعيني أتقدمْ بك خطوة أخرى:

لا بد لك أن تسلمي - إن عاجلاً أو آجلاً - بأن أباك هو صاحب الحق المطلق في تقدير قيمة هذا الزواج الأخير الذي ارتبط به؛ ولكنك قد تحتجين بأن هذا التسليم لن يغير شيئاً من شعورك نحوي. ولعلي لا أكون مخطئة إذا قلت إنك قد قلبت هذه المسألة من جميع وجوهها مع صديقتك (إيدنا) فرثت لحالك وأقرتك على موقفك. وإني لأستطيع - متى شئت - أن أسرد عليك كل ما دار بينكما من حديث؛ أو بالأحرى كل ما أقمته من (حجة) وعقبتْ عليه من (تأييد). وأنا واثقة من أنك قد قلت الشيء الكثير مما كنت أقوله لو كنت في مثل هذا الموقف. كنت أقول إني أطلب حياة مستقلة لا تعترض سبيلي فيها امرأة أخرى كائنة من كانت؛ وكنت أذكر مبلغ حنيني إلى هذه المعيشة الحرة التي أنفقت فيها عاميَّ الأخيرين، أغدو وأروح في حرية تامة، وأختار أصدقائي وفق ما أشتهي، وأدبر شئون بيتي بأسلوبي الخاص؛ مستمتعةً بهوايتي، أرسم حيث أريد ومتى أشاء؛ أقضي أوقات فراغي في خمول إن أحببت، أو أدعو أصدقائي إلى تناول الشاي والرقص والحفلات التمثيلية الخاصة، آخذة من كل متعة بنصيب دون أن أجد من يعترض سبيلي أو يقول كلا. . . لست أرى لك ذلك يا عزيزتي.

كنت أرفض رفضاً باتاً كل تدخل - أو تهديد بالتدخل - بيني وبين هذه الحرية النفسية؛ وكنت أرى بالبداهة أن دخول زوجة الأب المنزل إنما هو قضاء عاجل محتوم على كل هذه المناعم والملاذ. . .

ألم أصور لك نفسك في جلاء؟. . . ألم تقولي كل هذا لصديقتك إيدنا فدعتك إلى هجر بيت أبيك والإقامة معها: ترسمين بـ (الباستيل) كما تشتهين، وتكتب هي القصص القصيرة على طريقة (موبسان)؛ فتقضيان حياة بوهيمية رائعة؟. . . لست متيقنة من قدرتي على إقناعك بالخطأ الذي بنيت عليه هذا القرار المفاجئ بالرحيل عنّا، وهذا مما يزيدني شفقة عليك وعطفاً. قلت لك إنك أخطأت في الحكم علي، وسأوضح لك ذلك الآن فإن مما يؤلمني كثيراً أنك لم تقدري صعوبة تلك المهمة التي تكلفت بها، ولم تعامليني معاملة تدل على تقديرك لمشاعر المرأة التي تخيرها أبوك زوجة له. كنت قد وطنت نفسي - متى أظلني وإياك سقف بيت واحد - على أن أترك الأمور تسير في مجراها ما وسعني ذلك؛ فلا أتعرض لك في شيء ولا أحول بينك وبين تحقيق رغبة. . . كنت قد وطدت عزيمتي على أن أعاملك كما أعامل أختاً لي صغيرة، على أن أتخلى - مع ذلك - عن حق الأخت الكبرى في التوجيه وإسداء النصح، ما لم تطلبي إليَّ شيئاً من هذا. بل كان يرضيني أن تقومي على شئون المنزل دوني إذا سرك هذا وأرضي

أباك؛ وأنت تعلمين مبلغ تضحيتي في ذلك، لأنك تدركين كما أدرك أباك كبرياء المرأة وشدة اعتزازها بالسيطرة على مرافق بيتها. لم أكن أريد أن أنتزع شيئاً من اختصاصاتك إلا ما أوجبه لي حق الزوجية، من ألا تحتفظي بأبيك خالصاً لك من دوني! ولقد ساغ لي هذا التفكير لأني أقرب في نشأتي من أبناء جيلك مني إلى أهل الجيل الماضي؛ فأنا متوسطة بين الجيلين، ولست متقدمة في السن كما قد تتصورين يا عزيزتي هيلين. ولقد ربِّيت منذ طفولتي على هذه الحرية التي تذوَّقتِ أنت حلاوتها، ولكني تخليت عن كل ذلك لأبيك وأنا راضية مختارة لأن ثمة في الحياة ما هو أثمن من الحرية؛ وإني لأرجو لك أن تتخليْ مثلي عن حريتك، في اليوم الذي يلقاك من يستأهل منك هذه التضحية. . .

شكوى أولاً وأخيراً أنك حكمت عليّ قبل التجربة، وجعلتني هدفاً لهذا التحامل الذي مُنيتْ به (زوجات الآباء) منذ بدأت الحياة!

وأنا لا أود أن تطول بنا هذه الحال، وأعترف لك بأن حجرة رسمك المهجورة ومخدعك الخالي قد أوحشا بعدك وحشة لا يسعني التعبير عنها. أما تأثير ذلك على أبيك فإني أترك لك تقديره

وإذا كان يهمك أن تتأكدي من مبلغ صدقي وصراحتي في كل ما ذكرته لك، فما أشك في أنك تمنحيني الفرصة التي أدلل لك فيها على ذلك؛ وكل ما أتمناه أن تنزعي ثوب (التحامل) وتعودي - ولو إلى فترة محدودة - حتى يتبين لك كل شيء. ومن المحتمل أنك لن تتأثري كثيراً بما أعرضه عليك من صداقتي، أو لعلك تعدين من الحماقة أن تأمل زوجة الأب - اللفظة القاسية - احتلال ركن من قلب ابنة زوجها؛ وقد يكون كل ما عرضته عليك أموراً سلبية: لن أصنع كذا. . . لن أقول كذا. . . على أن أدلتي الإيجابية كلها تلتقي عند أبيك؛ فكلتانا - لو علمت - تعيش له أكثر مما تعيش لنفسها. وأنا أعترف لك بأني لا أستطيع أن أملأ فراغ غرفتيك، مهما يكن ما بذلته أو سأبذله وثمة أمر آخر يزعجني؛ فمنذ عودتنا لم تمس يد حجرتيك بتهوية أو تنظيف، إذ لم أردْ أن يلمس أشياءَك أحد سواك. وتركُ الحجرتين بهذه الحال إلى مدًى طويل مما لا يرضي ربَّة بيت. . . ولكنك تريْن من هذا مبلغ جهادي في سبيل الاحتفاظ بأشيائك على حالها

وقد يكون من غرائب المصادفة، إن لم يكن من الفأل السيئ، أن أخط اسمي الجديد لأول مرة (تعني لقب الزوجية) في ذيل مثل هذا الخطاب الذي تُلْجِئني إلى كتابته ظروف كتلك التي نحن فيها. . . وتقبلي تحيات صديقتك المخلصة:

(مرجريت كنيدي)

(جرجا)

محمود عزت عرفة

كتاب الإمتاع والمؤانسة - 3

الجزء الثاني

للأب أنستاس ماري الكرملي

أوهام التأويل والتفسير - 4

جاء في حاشية ص6 تفسير قول المؤلف: (دونه حدد أي دفع ومنع). والصواب ما قاله الأمير شكيب أرسلان في حاشية الصفحة 573 من مجلة المقتبس، المجلّد الثامن: أي الممتنع الباطل

وورد في ص13: (ولا تحضّ على الدينونة بها. وضبطت بفتح الدال وضم النون؛ ثم وردت الدينونة في ص178 بفتح الدال والنونين، في هذه العبارة وهي: (والدينونة لمذهبك المستقيم). والذي نعرفه ان الدينونة من مصطلحات النصارى، وهي غير فصيحة، والصواب: (الدِّين) بكسر الدال؛ لأن الفعلولة في الأجوف خاصة باللازم في أكثر الأحيان، وعلى ذلك يقال: الذيعوعة، والشيعوعة، والصيرورة، والقيلولة، والبينونة، والديمومة، مصادر الأفعال اللازمة: ذاع، وشاع، وصار، وسار، وقال، وبان، ودام إلى نظائرهن

وفي ص59: (الجاثليق من رؤساء النصارى، معروف) قلنا: ولا نظن أن أحداً يعرف الجاثليق حتى أغلب النصارى، وما قاله الشارحان مُثَبت في كتب اللغة. ومثل هذا الشرح لا يرضى به أهل هذا العصر، وكان يجدر بهما أن يشرحاه شرحاً يخرجه من هذا

القول الذي لا يستفاد منه فائدة صريحة، والأحسن أن يقال: الجاثليق رئيس الأساقفة عند النصارى الشرقيين، واليوم ليس له وجود، ويسمى بالفرنسية فكيف يقول الشارحان: معروف؟ وممَّن معروف؟ وعند من معروف؟

وفي ص60: (ويا قَصراً بلا مِسْنَاه) وضبطت الكلمة الثانية بكسر الميم، وإسكان السين، وفتح النون، وفي الآخر هاء. وفي الحاشية: المسناة المرقاة، من السناء بالمدَّ وهو العلو والرفعة) - قلنا: لا وجود لهذه الكلمة بهذا الضبط، وهذا المعنى في لغة الضاد، فمن أتيا بها، وعمن نقلا هذا الشرح، أو هذا التخريج، أو هذا التأويل والتفسير. والمشهور عند العراقيين: أن للقصر مُسَنَّاة، وهي بضم الميم، وفتح السين، وتشديد النون، يليها ألف فهاء

منقوطة، وهى العَرِم أي ما يبني بين يدي القصر الواقع على النهر ليرد الماء عنه. وفي الصفحة المذكورة، فسرت البواري بتشديد الياء: ضرب من الحصر تعمل من البرديِّ معروفة بمصر إلى اليوم. اهـ.

والبواري عندنا في العراق تطلق على الحُصُر التي تتخذ من القصب. وفي الحديث: إنه كان لا يرى بأساً بالصلاة على البواري. قالوا: هي المعمولة بالقصب. راجع النهاية لابن الأثير والشارع في بور.

وفي ح ص65: (مبرسم: أي به برسام، وهو علة يهذي فيها) - قلنا: وهذا الشرح عام يصدق على كثير من الأمراض الذي يهذي فيها المريض. والصواب أن البِرْسام، على ما في بحر الجواهر - وهو معجم طبي قديم - وَرَمُ في الحجاب الحاجز نفسه، وهو الحجاب المعترض الذي بين القلب والمعدة، وأما الحجاب الحائل الذي بين المعدة والكبد، فمما لم يقل به أحد من الفضلاء غير الطبري) اهـ.

وفي ص51 و66 جاء ذكر السِكْباج. وفي ح51 قيل: (السكباجة: مرق يعمل من اللحم والخل. وهو فارسي معرَّب، وفي ح66 مثل هذا الكلام. وفي ح51: (الهُلام: مرق السكباج يبرَّد ويصفى من الدهن) - قلنا: وكل من السكباج والهلام طعام. فالهلام في كلام الشاعر طعام من لحم عجل بجلده، وله معنى آخر فرعي هو مرق. . . إلى آخر ما هناك. والسكباج: (لحم يقطع أوساطاً، ويجعل في القدر، ويغمر ماء، ويرمى فيه كسْفُرَة خضراء وعود دارصيني قدر الحاجة، وإذا إلى تخرج رغوته وزَبدُهُ بالمغرفة وترمى. . .)، (راجع كتاب الطبيخ لمحمد بن الحسن بن محمد بن الكريم الكاتب البغدادي - ص9 من طبعة الموصل بعناية الدكتور داود الجلبي).

وفي ص76: ولكن لما ضعف الدين وتحلحل ركنه. . . وفي الحاشية تحلحل ركنه أي تزعزع وزال عن موضعه. ونحن نظن أن الكلمة هي تجلجل بجيمين. قال اللغويون وفي رأسهم المجد الفيروزابادي: تجلجل الشيء تحرك وتضعضع. يقال: تجلجلت قواعد البيت أي تضعضعت.

ومن أغرب ما قرأته من التأويلات ما جاء في ح ص110 إذ قيل: القِلْيُ ويقال فيه قِلًى كالي: هو شب العصفر ويتخذ من حريق الحمض. فما الذي أراده الناشران بشب العصفر،

وهو للعصفر شب؟ إنما الوارد في بعض كتب اللغة: وهو حب يشبب به العصفر بمعنى يزين ويحسن لونه، وهو من التشبيب؛ فأين الشب من التشبيب - يا سيديَّ الأكرمين - وهل الشب والتشبيب شيء واحد؟

وقال الناشران في ح ص136: الطنطنة: حكايات صوت الطنبور وشبهه؛ وصحيح التفسير هو: حكاية النقرات، فالهزج مثلاً هو الذي تتوالى فيه نقراته نقرة نقرة وهذا رسمه: طَنْ، طَنْ، طَنْ، طَنْ، طَنْ، طَنْ، طَنْ. ومنهم من يقول: مَنْ بالتاء المثناة الفوقية في مكان الطاء المثالة وهو الأشهر في كتب القوم (راجع كتاب (مفاتيح العلوم) من 245 من طبعة أوربة).

وورد في ص146: وهكذا مصاريع أبيات الشعر، فإنها تختلط بالنثر متقطعة وموزونة ومنتثرة ومنضودة؛ والصواب عندنا وموضونة من وضن الشيء أي نضده.

وفي ص148 ورد هذا المثل: البطنة تذهب الفطنة. وذكره التاج بصورتين. فقد في مستدرك أف ن: البطنة تأفن الفطنة. وهي الرواية المشهورة التي سمعناها ونحن أطفال. وذكرها في مادة ب ط ن: البطنة تذهب الفطنة. وهذه الرواية دون تلك شهرة.

وفي نص ص167: (ويُرْقي بهَيَا شَراهِيا. وعُلّق عليها في الحاشية: (هياشراهيا كلمة عبرانية مناها يا حي يا قيوم كما في المصباح. وفي القاموس مادة شره: أشَرْءِهْيا، بفتح الهمزة والشين: كلمة يونانية معناها، الأزلي الذي لم يزل. والناس يغلطون ويقولون: أهياشراهيا، وهو خطأ على ما يزعمه أحبار اليهود) اهـ.

قلنا: لو رجع الأستاذ أحمد أمين بك إلى أحد معلمي العبرية في الجامعة المصرية في لفظ هذه العبارة، وفي أي لغة هي، وما معناها، لقال له: وردت هذه الفقرة في سفر الخروج في 14: 3 بهذه الحروف: أهْيا أشر أهيا أي أنا هو الذي أنا أو: أنا هو الكائن. ويقابلها باللاتينية وباليونانية أو الإغريقية فهذه هي الفروق بين هذه اللغات الأربع، إذن الصواب أنها العبرية ويجب أن تكتب كما كتبناها، وما سواها فخطأ في خطأ والمعنى كما أعطيناهُ وهو يرجع إلى أن المراد من ذلك: أنا الموجود الذي لن أزال موجوداً.

وورد في ص168 هاتانِ الكلمتان: (وكُمَّيهِ المفَدَّرين) ونحن نرى أن الصواب هو (المفزَّرين. بمعنى المشقوقين، وشق الأكمام شقاً واسعاً أمر معروف إلى اليوم في العراق،

وهو أمر يكاد يزول في العراق، لاتخاذ الناس الثياب الإفرنجية، لكنا رأينا هذا الأمر شائعاً في وادي الرافدين قبل نحو خمسين سنة.

على أن رأينا الأخير هو أن صواب العبارة: (وكُمَّيْهِ المُفَرْوَزَيْن، وزان المُدَحْرَجَيْنِ) والمُفرْوَز من الثياب ما كان محلى بالفرواز وهو هدْب منقش تزين به الأكمام والثياب ويسمى بالفرنسية والكلمة في الفارسية (بَرْوَاز) بالياء المثلثة المعقودة بهذا المعنى واشتق السلف منها فعلاً فقالوا: فَرْوَزَ الثوب أو الكم أي زيَّنه بالفرواز. وكان يتخذه أكابر الناس والعلماء في العهد العباسي. واستعماله باقٍ إلى اليوم عند أكابر شيوخ العرب وهو على شفا الزوال. ويزينون به أكمامهم إذا كانت طويلة واسعة مدخل اليد.

(يتبع)

الأب أنستاس ماري الكرملي

أحد أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية.

سر المهنة في التزوير الخطي

للأمير عبد القادر الشهابي

التزوير عمل إجرامي يقصد به جر مغنم أو دفع ضرر، وهذا يصح في عرف العلماء على وجوه ثلاثة هي:

الأول - خلق شيء لا وجود له كوضع توقيع.

الثاني - زيادة شيء من تاريخ أو رقم أو ما يماثل ذلك.

الثالث - حذف شيء، وهذا يتأتى الحك أو الطب الدقيق أو الإذابة أو الحل أو إزالة اللون بعرض الأشعة أو الأحماض أو بأي وسيلة أخرى. وخير وصف يطبق على هذا العمل الجنائي هو أن يقال: (إنه الإتيان بعمل لم يكن موجوداً). وله أركان لا بد من توفيرها:

1 - جلب النفع أو دفع الضرر.

2 - ألا يكون للشخص المجني عليه علم به.

3 - هناك عنصر دقيق نص عليه كثير من الفقهاء الفرنسيين والبلجيكيين والإيطاليين وفطنت له محكمة النقض والإبرام التركية في أحكام لها ما بين سنتي 1912 - 1916 وهو أن يشترط في التزوير تحقق ركن المحاكاة والمتشابهة، فإذا أريد تزوير ختم فلا يمكن أن يكون الشيء الذي يدعى تزويره ختماً مستطيلاً، بل ينبغي أن يكون مستديراً. وإذا كان الختم ذا زوايا فيجب أن يكون الختم مراد وصمه بالتزوير ذا زوايا. وهكذا يجب أن يتحقق عنصر المحاكاة والمتشابهة. فإذا فقد هذا الركن زال عنصر التزوير من أساسه.

على أن المشابهة والشكل لا يؤثران في الكتابة والإمضاءات بل في مواقع أخرى تختلف عن غيرها، إذ أحياناً لا يلزم استكتاب المتهم بحال وجود أوراق رسمية سابقة معترف بها تكون مداراً للتطبيق. ومن المهم حينئذ إلمام الخبير بروح الكتابة أي بمعنى (سر المهنة) وما زاد عليه من المشابهة والتناسب وتباعد النقط والأحرف فهذا شيء ثانوي بالنسبة للخبرة التامة بروح الكتابة، وهي بالأحرى سر المهنة لما ذكر؛ ويكفي الاستدلال بالسابق دون ما عداه مما يحدث أثناء التحقيق مثلاً، لأن السابق على

التحقيق يعطي الخبير الملم صورة صادقة لنفسية الكاتب الطبيعية وحالته النفسية بأجلى مظاهرها دون أن يسيطر عليه الجزع أو الفزع أو تؤثر فيه عوامل التحوير والتصنع، فلا يكون إعطاء التقرير في حالة
كهذه وفي جانب العدالة أقوى مما لو كان في حالة الهدوء الطبيعية السابقة.
كذلك لو وجدنا إمضاء مطابقة للأخرى في حجمها وشكلها وأبعادها حينئذ تعتبر إحداهما مزورة بلا نزاع.
ولا يمكن إعطاء تقارير عن صورة فوتوغرافية، ولا بد أن نلفت حماة العدالة إلى هذا، إذ كثيراً ما ينطوي تحته أمور أقل ما فيها وضع لثام كثيف على عيوب وجنايات تهضم بها الحقوق، فيجب ألا تعتبر الصور الفوتوغرافية، بل يلزم أن يجري التطبيق على نفس الأوراق الأصلية المطعون فيها مهما كانت الأسباب.
أما التزوير، فخير ما يقدم في موضعه الرجوع إلى ما ذكره غير واحد من أولئكم الفقهاء وهو قولهم أن كل فرد يستوحي غريزته حين العمل مهما كانت حاذقاً في مزاولته جريمته، ولا بد من أن تطل غريزته من إحدى جزيئات أعماله، فالكاتب الذي يبتدئ السطر أو الكلمة أو الحرف أو المقطع أو زاوية الحرف، أو اعتاد أن يرسمها، أو يحدث بها تعريجاً، أو يظهر منه اضطراب، لا بد وأن ينكشف أمره وتتغلب عليه عادته، ولهذا لجأ القضاة والخبراء إلى أن استكتاب المتهم المجني عليه في أغلب الأحيان، حتى قال بعض الباحثين الأمريكيين أن الخبير إذا كان حاذقاً ما استطاع أن يعرف الجاني فحسب، بل استطاع أن يغرف نفسيته والظروف التي كانت تسيطر عليه حين الكتابة؛ ولذلكم كان على الخبراء أول ما يبادرون إليه بعد استكتاب المتهم الجمل والكلمات والأحرف أن يدققوا في روح الكتابة. ومعنى هذا معرفة سر المهنة، وأن ينظروا في تلكم الزوايا ويدققوا فيه وفي مبادئ الكتابة وانتهائها، فإنها المظاهر التي يمكن أن تفضح الجاني. ولقد ارتقى فن كشف التزوير الخطي بارتقاء فن التزوير تبعاً لناموس الارتقاء العام. وأصبحت هنالكم الأشعة والأحماض والتلوينات ووسائل التحليل وما شابه ذلكم من فحص حياة المكروبات الموجودة في المادة التي كتب الخط بها لمعرفة عمر تلكم المواد والمقايسة بين هذا وبين تاريخ المستند أو الخط. وهكذا أصبح لدى العلم وسيلة كيميائية لا تكذب؛ فمثلاً إذا ادعى تزوير سند مؤرخ من ثلاثة أعوام، وأمكن فحص المداد الذي كتب به ذلكم المستند، وظهر أن عمر هذا المداد لا يتجاوز السنة، هنالكم يكون الإقناع التام بحدوث التزوير. وهكذا في كل شيء يمكن أن يستفاد بالعلم لكشف الجريمة. وقد قال بعض الباحثين يكفي أن يكون الخبير خبيراً بالخط
بصيراً بفنونه وبالتصرف فيه فقط، بل ينبغي أن يكون عالماً، ولو على جانب لا بأس به من علم النفس والإحاطة بمقتضيات المجتمع الذي انتدب لفحص الخط المدعي تزويره فيه.
وهنالكم اعتبارات كثيرة ينبغي ألا تكون طبيعة فاحص الخط كطبيعة الإقليم الذي حدثت فيه عملية التزوير. فمثلاً البلاد المصرية وهي بلاد حارة قد يكون مرور بعض من الزمن فيها مؤثراً أضعاف مرور جزء من الزمن في بلاد أخرى. كذلكم تعاقب فصول متكررة من صيف بعد صيف على وقوع تزوير لا يمكن أن يمر دون أن يترك أثراً في تطور الخط فيما يمكن أن يعرض له من التطورات. على أنه في غضون خبرتنا وممارستنا للخطوط لاحظنا أن المداد العربي الأسود القديم الذي كتبت به المصاحف القديمة وغيرها كان أثبت على الزمن من غيره؛ وإن كان آخرون يرون أن العين المجردة قد لا تستطيع ما تستطيعه الآلات العلمية الحديثة من اكتشاف التطورات مهما كانت بسيطة ومحدودة. على أن هنالكم أنواعاً كثيرة من المواد المحدثة ضعيفة الثبوت تتنافى مع مستلزمات الأحوال؛ بل يكفي مرور يسير من الزمن لحدوث تغير فيها، بل إن تعرضها للنور والهواء أو لمؤثرات أخرى قد يكون سبباً في كشف حقيقتها.
بقي الشيء الوحيد الذي يمكن إخفاؤه والذي لا يهتدي إليه إلا بالاستكتاب ألا وهو الكتابة بالآلات الكاتبة؛ فهذا الضرب من الكتابة قد يكون من الصعب اكتشافه لأن المصنع الواحد يخرج الآلات الكثيرة وكلها على غرار واحد، فمن العسير، بل من المعتذر معرفة الحقيقة، إذ يمكن أن تتشابه تلكم الآلات ولا يكون هنالكم مجال إلا لفحص المداد الذي كان في الآلة الكاتبة أو الشريط الذي يكتب به أو ما شاكل هذا.

وما دام العلم قائماً وما دامت الغرائز البشرية واقعة تحت تأثير عبادة المال فسيظل الصراع عنيفاً بين العلم والإجرام حتى يعين الله العالم والعلم على وضع حد من نزوات الغرائز البشرية الجامحة هدانا الله إلى الحق وأذاقنا حلاوة اليقين.
(القدس)
الأمير عبد القادر الشهابي
أضعنا العمر. . .
(. . .إلى نشوة قمرية راحلة)
للأستاذ محمود حسن إسماعيل
تعَالَىْ نَسْمَعِ اللَّيْلَ ... عَلَى الشَّطِّ يُنَادِينَا
وَفي كَفَّيْهِ خَمْرُ الْحُبِّ ... تَسْقِيهِ وَتَسْقِينَا
فَكَمْ دَارَتْ بِنَا الأَيَّا ... مُ لَمْ تَسْكَرْ لَيَالِينَا
وَكَمْ طَافَتْ بِنَا الأَحْلاَ ... مُ لَمْ تَرْقُصْ أَغَانِينَا
تَعَالَى. . . فَالْهَوَى حَيرَا ... نُ يَبْكي في مَغَانِينَا
أَضَعْنَا الْعُمْرَ عُشَّاقاً ... وَضِعْنَا في أَمَانِينَا
فَهَيَّا يَا غَرَامَ الرُّوحِ ... نَنْسَى كُلَّ مَاضِينَا
وَهَيَّا نَسْكُبُ الأَشْوَا ... قَ نَاراً فَوْقَ وَادِينَا
هُنَا الدُّنْيَا تُنَادِينَا ... هُنَا الْحُبُّ يُغَنِّينَا
تَعَالَىْ. . . فَدُمُوعُ اللَّيْلِ ... ذَّابَتْ في مَآقِينَا
وَخَلِّى الْغَيْبَ مَهْمَا ... يَأْتِ بِالأَسْرَارِ يَأْتِينَا
إِذَا أَسْعَدَنَا الْحُبُّ ... فَمَا في الْكَوْنِ يُشْقِينَا؟
تَعَالَىْ. . . قَبْلَمَا نَغْدُو ... وَرِيحُ الْمَوْتِ تَطْوِينا
فَلاَ سِحْرٌ، وَلاَ خَمْرٌ ... وَلاَ كَأْسٌ بِأَيْدِينَا. . .
هنا القاهرة. . .
للأستاذ عبد اللطيف النشار
يقول (هُنا) كلٌ ويعني كأنه ... فهل (لنا) في اللفظ معنى مشاركُ؟
كقول (أنا) أو (أنت) أو كل لفظةٍ ... ألاَ (أنَّ) كلاً في المجاهل سالكُ
وأخدع نفسي إذا أحدث سامعي: ... متى اختلفت أغراضنا والمدارك؟
وقد بان وجه الخُلْفِ لو أنَّ بيناً ... من الكون شيء وهو أسود حالك
ولكن أمراً فاته الخلف وحده ... وذلك أن الكون أجمع هالك!
سجين الأغصان
للأديب حسين محمود البشبيشي
كان لي حظ مشاهدة الغراب - السجين بين أغصان الكافورة)
الشجراء، وكانت لي فرصة التأمل في مقال أستاذنا الكبير
الزيات: (غراب وطفل). . . فصغت هذه القصيدة نفحة من
سحر مقال صاحب (الرسالة)
(حسين)
غمرته أوهام الحياة وفرحة الوكر الجميلْ
فمضى يصفق طائراً للعش والدوح الضليل
في قلبه أمل الحياة شدا بأنغام البقاء
وبثغره نغم الطبيعة رنَّ في أفق السماء
وبروحه من بهجة الدنيا نشيدٌ ونغم
وجناحه الجبار يسخر بالرياح وبالألم
وبعينه يتدفق الإيمان بالأمل القريب
يبدو وراء الأفق بساماً ومن خلف الغيوب!
فغدا يصفق في الفضاء يهيم بين ظنونهِ
يا ليته قد كان يعلم ما وراء حنينه!
غمرته آمال اللقاء وفرحة الدوح الحبيب
فمضى يجاهد طائراً. . . يا لهفة الطير الغريب!
أشجته أصداء العهود ترنّ في أفق الفضاء

أصداء أنغام الربيع تعيد أيام الصفاء
أصداء تغريد البلابل في تلافيف الغصون
كثرت عليه الذكريات فجن من فرط الحنين
قد حنّ للوكر الجميل وللأزاهر والطيور
للفجر أقبل حالماً ليذوب في ثغر الزهور
للنجم. . . للنجم الشريد تبددت ألوانه
للنيل فاض على الضفاف وصفقت شطئانهُ
للزورق الفنان يرقص على ترانيم الوداع
هزّته أوتار الرياح سرتْ يداعبها الشراع!
. . .كثرت عليه الذكريات فجن من فرط الحنين
. . .فإذا به بين الغصون تكاد تقتله الغصون!!
عجباً. . . أتأسرك الغصون وكنت سر جمالها؟
غرَّدت في جنباتها ورتعت بين ظلالها
علمتها لحن القلوب جرى بثغرك وانسجم
وسكبت في أزهارها خمر الهناءة والنغم
لهفي عليك. . . بأي عين تبصر الدوح الخئون
وبأي قلب في القلوب تُحس آلام السجين
ماذا جنيت؟. . . وما جنيتَ سوى المحبة والوفاء!
. . .للوكر والدوح الظليل وللأزاهر والإخاء!.
البريد الأدبي
مثالان
على ذكر مقال فضيلة الأستاذ محمد محمد المدني وفتوى صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير عبد المجيد سليم قرأت في مخطوطة بعنوان (مثير الغرام بفضائل القدس والشام) تأليف الإمام أبو محمود أحمد بن محمد بن إبراهيم بن هلال بن تميم بن سرور المقدسي. قال: (وروينا في سنن ابن ماجة قال: حدثنا أحمد بن سنان حدثنا (أبو) معاوية عن خالد بن أياس عن يحيى بن عبد الرحمن ابن خاطب عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: أول من أسرج المساجد تميم الداري.
وروى أبو القاسم مكي بن عبد السلام الحافظ بسنده إلى أبي الحسن البراد قال: قدم تميم الداري من الشام إلى المدينة وحمل معه قناديل وحبالاً وزيتاً وسبحة حتى قدمنا المدينة وكانوا إذا حضرت العتمة أوقدوا سعف النخيل؛ فلما أمسينا أمرني تميم فعلقت الحبال بالسواري وعلقت فيها القناديل وصببت فيها الماء والزيت ووضعت الفتل، فلما أمسينا أمرني أن أوقدها فأوقدتها؛ فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: نورت يا تميم نور الله عليك! أما إنه لو كانت لي ابنة لأنكحتها. قال نوفل بن الحارث بن عبد المطلب إن لي ابنة فأفعل فيها يا رسول الله ما رأيت؛ فأنكحه إياها.
قال أحمد بن الحسن: ودعي تميم جدي أبا الحسن البراد فأعقبه على المكان وأقمنا فلما كان يوم الجمعة خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس قائماً؛ فلما انصرف قال له تميم: يا رسول الله إني قد رأيت بالشام شيئاً يضعونه في كنائسهم لأساقفتهم يسمى المرقاة؛ أفلا أعمل لك مرقاة تقوم عليها؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اعملها يا تميم. فخرج تميم إلى السوق فاشترى خشبة ونشرها وعمل منها ثلاث درجات المنبر ففضل من الخشب فضله فعملها تابوتاً فهي عندنا إلى اليوم نضع فيه نفاقاتنا وتتبرك به.
(بيت المقدس)
أحمد سامح الخالدي
إلى قراء الرسالة
طالعت في كتاب تأليف طبع سنة 1938 ما يأتي بالمقدمة (1):

,
,
,

فمن هو جلال الدين بن مكرم هذا؟ وما هو الأصل الشعري لما ترجمه كاتبنا فورستور؟
مصطفى الشهالي
مدرس الآداب بالناصرية
جاء في كتاب عيون الأخبار (طبعة دار الكتب المصرية سنة 1930) بالجزء الثالث (2) في الصحيفة ذات الرقم 20 ما نصه:
وقال أكثم بن صيفي: أحق من يشركك في النعم شركاؤك في المكاره. أخذه دعبل) فقال:
إن أولى البريا أن تواسيه ... عند السرور لمن آساك في الحزن
إن الكرام إذا ما سهلوا ذكروا ... من كان يألفهم في المنزل الخشن
وجاء في ديوان أبي تمام (طبعة محمد صبيح سنة 1941) وفي الصحيفة ذات الرقم 255: ما نصه
أولى البرايا حقاً أن تراعيه ... عند السرور الذي آسأك في الحزن
إن الكرام إذا ما أسهلوا ذكروا ... من كان يألفهم في المنزل الخشن
فلأي من الشاعرين البيتان؟ وما صحة رواية البيت الأول؟
موسى حقي
الجنس الرشيق
أهدي إلى الأستاذ محمود يوسف كتابه (الجنس الرشيق) فتوقعت أن أرى فيه دفاعاً بحق وبغير حق عن المرأة في كل حالاتها، من كاتب ضالع في الحركة النسوية اختار لأول مؤلف له هذا الاسم. إلا أني وقد قرأته رأيت أني كنت مسرفاً في سوء الظن. لقد عرض المؤلف لكثير من المسائل المتصلة بالمرأة في حذق ومهارة وبصراحة وجرأة جعلته شديداً بحق على من أساء من الفتيات وأولياء أمورهن فهم المرأة ورسالتها، وما يجب أن تكون عليه من الآداب الرفيعة الحازمة، ولم ينسى أن يلقي التبعة في كثير من الحالات على الرجال وأشباه الرجال من الذين يغررون بالمرأة ويزجون بها في حفلات هي مزالق للرذالة زاعمين أنهم يجمعون للبر. . .
لنسمع له يقول في حفلة الطفولة المشردة الآثمة: (أفهم أن في مصر طفولة مشردة، وأفهم أنه يجب أن يعمل على إنقاذ هذه الطفولة البريئة، وأفهم أيضاً أن للمرأة نصيباً كبيراً في هذا الإنقاذ؛ ولكني لا أستطيع أن أفهم مطلقاً أن وسيلة هذا الإنقاذ تكون مساهمة للمرأة مع الرجل في التهتك العلني والدعارة الممقوتة والتبذل الخليع من سهر الليل حتى الفجر. . . كل ذلك تلقاء قروش لا تسمن الطفولة المشردة ولا تقيها من جوع. لعمري إن مثل هذه الحفلة الراقصة. . . هي ويا للأسف معمل لتفريخ طفولة مشردة. . . موعدنا منها بعد تسعة شهور من تلك الحفلة الخيرية!).
هذا الكلام الحر الجريء نجد له أمثالاً كثراً في مناسبات عديدة بالكتاب الذي يجب أن يقرأه الشبان والشابات والأزواج والآباء، على ما فيه من آراء لا أتفق مع الأستاذ الكاتب فيها. من ذلك رأيه في أن المرأة نظير الرجل في الدين والدنيا. أفي كل الشئون؟ وإن من السهل أن توفق المرأة بين عمل وتكوين أسرة، ومطالبة بحق النيابة لها.
وللأستاذ الفاضل المؤلف خالص تحياتي.
محمد يوسف موسى
المدرس بالأزهر
تأبط شرّا
كتب الأستاذ أحمد أمين في مقاله (فارس كنانة) في العدد 184 من الثقافة ما نصه: (ثم يذكرون له من اشتهر بالفتك في الجاهلية، كثابت بن جابر، والبراض، وتأبَّط شرّا)
ومدلول هذا الكلام يقضي:
1 - بأن تأبَّط شرّا من شعراء الجاهلية.
2 - أن تأبَّط شرّا فاتك آخر غير ثابت بن جابر وفي كلتا القضيتين نظر، كما يقول الأزهريون.
أما الأولى: فقد حكى شراح الحماسة أنه كان ربيب أبي كبير الهذلي، ونص التبريزي

على أن أبا كبير أدرك الإسلام.
وإن كان صاحب بلوغ الأرب يقول: إنه من فحول الجاهلية وفرسانها، فلعله حكم عليه حكمه هذا باعتبار أنه أدرك طرفاً من الجاهلية فَنَسَبَهُ جاهلياً كما يجري على ذلك بعض المؤلفين.
وأما الثانية: فقد نصت كتب التراجم وكتب اللغة واتفقت على أن تأبَّط شرّا هو أبو زهير هو أبو زهير ثابت بن جابر من بني فهم ولم يحك أحد منهم في ذلك خلافاً - اللهم إلا ما حكاه صاحب بلوغ الأرب ج 2 ص143 قال:
(وزعم بعضهم أن اسم الشنفري ثابت بن جابر وهو غلط) اهـ.
ولعلَّ لدى الأستاذ الجليل سنداً لكلتا القضيتين.
كامل السيد شاهين
1 - تصويبات
جاء في العدد (469) من (الرسالة) الغراء في مقال الأستاذ السيد يعقوب بكر (شعر علي ابن طالب).
محمد النبي أخي وصهري ... وحمزة سيد الشهداء عمي
وجعفر الذي يضحي ويمسي ... يطير مع الملائكة ابن عمي
والصواب (ابن أمي) كما في معجم ياقوت جـ14 ص48 ط دار المأمون، والسيرة النبوية ج1 ص177 ط المطبعة الأزهرية وديوان أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب ص 58 المطبعة العلمية.
وقد جاء في معجم ياقوت بعد قوله: (سبقتكم إلى الإسلام طرا. . . الخ)
وأوصاني النبي على اختيار ... ببيعة غداة غدٍ برحم
فويل ثم ويل ثم ويل ... لمن يلقي الإله غداً بظلم
وفي الديوان:
وأوجب لي ولايته عليكم ... رسول الله يوم غد برحم
أنا البطل الذي لم تنكروه ... ليوم كريهة وليوم سلم
وقد ذكر الأستاذ صاحب المقال بيتاً آخر للإمام علي هكذا:
من أي يوميّ من الموت أفرْ ... أيوم لم يقدر أم يوم قُدِرْ
والبيت على هذا الوضع لا يتفق مع ما جاء بعده لأنه من بحر الرجز وقد جاء في ديوان الإمام علي هكذا:
أي يوميَّ من الموت أفر ... يوم ما قدَّر أو يوم قدر
يوم ما قدر لم أخش الردى ... وإذا قدِّر لم يفن الحذر
وهما من الرمل، على أنه إذا صح أن ديوان الحماسة لم يذكر غيره فإنه يكون مكسوراً، لأن (لم) تقتضي الجزم وهو لا يتمشى مع الوزن.
2 - حول السناد في الشعر
وجاء في نفس العدد (البريد الأدبي) كلمة الأستاذ محمود عزت عرفة بعنوان (السناد في الشعر) خطَّأ فيها الأستاذ محمود حسن إسماعيل، حيث قال:
أخطأ الأستاذ محمود حسن إسماعيل في صوغ قوافي قصيدته (نشيد الأغلال) المنشورة بالعدد466 من الرسالة فهو قد أردف في بعضها بحرف الياء كقوله:
(سريرتي، البعيدة، الخميلة، جديدة. . . الخ).
وهنا لا يوجد ردف إذ أن الردف هو حرف مد قبل الروى كقول الشاعر:
طما بك قلب في الحسان طروب ... بعيد الشباب عصر حان مشيب
كم جاء في متن الكافي، وفرق بين مشيب وسريرتي وما دام قد التقى الردف فقد انتفى السناد. . . (وإذا كان ثم سناد فمن أي أنواع الخمس؟)
أحمد يوسف محمد
العدد 474 - بتاريخ: 03 - 08 - 1942
سجينة الزهرية
(. . .كلمة تفصل ألواناً من أوهام العقول وأحلام القلوب)
للدكتور زكي مبارك
الزهرية إناء صغير مختلف الأشكال، فيكون حيناً لحفظ الزهيرات أياماً بتغذية الماء، ويكون حيناً لحفظ الشجيرات أعواماً بتغذية الطين، وباختلاف ما يحفظ يختلف شكله

بعض الاختلاف
وحديث اليوم عن شُجيْرَة حُفظَتْ في زَهرية، فظلت كيومها الأول في النمو والنضارة بضع سنين، مع أن أختها المنقولة إلى وعثاء الأرض في الريف بلغت مبلغ الدوحة الباسقة في أقصر زمن وبأيسر عناء
هل كان يغيب عني السبب في تفاوت الحظ والمصير عند هاتين الأختين؟ لا. . . وإنما أردت أن أعرف من أحوال (سجينة الزهرية) أكثر مما أعرف، فدار بيني وبينها الحوار الآتي ذات صباح:
- كيف حالك، أيتها الشجيرة الغالية؟
- حال من يعيش تحت حماية القوانين!
- أنت إذاً سعيدة؟
- سعيدة جداً، ألا ترى أن وجهي لم يتغير منذ التعارف الأول؟!
- وإلى أي عهد يرجع ذلك التعارف السعيد؟
- أنت تعرف التاريخ، فقد كنت أنا وأختي هديتين لك من حديقة الصديق (. . .)، ثم كانت السعادة من نصيب أختي، وكانت الشقاوة من نصيبي!
- ألم تقولي: إنك سعيدة؟
- حسُبتك فهمتَ مرادي حين أخبرتُك أن وجهي لم يتغير منذ التعارف الأول!
- وهل تكون السعادة في غير الثبات على نضارة الشباب؟
- أهذا هو فهمك للسعادة، أيها الآدمي الحصيف؟
- وما فهمُكِ أنتِ للسعادة، أيتها الشجيرة الحمقاء؟
- أخرجني من سجن القانون لأملك الرد عليك!
- أي قانون؟
- قانون الزهرية
- وما عيب قانون الزهرية؟
- إنه يحبسني في تربة قصيرة المجال
- ولكنه لا يحبسك عن السماء، وهي أرقُ من الأرض وأنفس!
- السماء للفروع، والأرض للجذور، ولا فرع لشجرة لم يثَبتْ أصلها في الأرض، فأمكِنْ جذوري من الأرض، لأطاول السماء بفروعي، كما صنعت مع أختي
- لستُ مسئولاً عن تدليل الأخوات!
- ولست مسئولة عن إمتاعك بدوحة تصدُ الهجير عن دارك.
- أفصحي، أيتها الشجيرة، عما تريدين
- أنت فرقتني بيني وبين أختي، ثم أنصفتها وظلمتني!
- قولي غير هذا القول، فقد حفظتُكِ بداري في مصر الجديدة، وأرسلتها إلى داري في سنتريس، وداري هنا تنال من رعايتي أكثر مما تنال داري هناك. فما شكواك، أيتها البلهاء؟!
- شكواي من القانون!
- أي قانون؟
- قانون الزهرية
- وما عيبُ قانون الزهرية؟
- إنك تتجاهل تجاهل العارف
- ولعلني أتعالم تعالم الجاهل!
- حوشيتَ من تعالم الجاهلين! وهداك الله إلى إخراجي من سجن القوانين!
- أوضحي يا بُنَيَتي
- اخلع نعليك أوضح لك!
- يا سفيهة؟
- لست بسفيهة، وإنما أحبُ أن تحدثني عن السبب في طول قدميك
- كان ذلك لأني كنت في طفولتي وحداثتي من الشياطين، والشياطين لا يلبسون النعال، فطالت قدماي!
- وهنا الشرح لقول العرب (فلان ثابت القدم) فالقدم لا تَثبُت إلا بعد اتصافها بالعَرض والطُول

- تلك عبارة مجازية
- العبارة المجازية فرعٌ عن العبارة الحقيقية، فالقدم لا تطول إلا بفضل التحرر من القيد. والنعل قيد، وإن زعموا أنه يقي القدمين متاعب الحفاء، وهو يصنع بالأقدام بعض ما تصنع الزهريات بالشجيرات
- أوضحي، يا حمقاء!
- الزهرية حفظتْ عليَّ شكلي الأول، فأنا كما عهدتَ منذ سنين، والمخلوقُ الذي لا يتغَّير ميِّتٌ ميت، لأن الحياة تجدُّدٌ وتغيُّرٌ وتبديل، وذلك حظ أختي التي حُرِّرت من قانون الزهرية فألقيت في أحضان الأرض البَرَاحِ بسهول سنتريس
- أوضحي، ثم أوضحي!
- عند التحرر من سجن الزهرية يكون من حق الشجرة أن تساور ما في الأرض من زادٍ طيّب أو خبيث، فتكون لها طعوم مختلفات، ويكون لها في كل يوم لون أو ألوان، وكأنها الأديب الذي يقرأ في لغات مختلفة لحكماء مختلفي الأفكار والأذواق
- أوضحي، أوضحي!
- خلصني أول من سجن القانون
- أي قانون؟
- قانون الزهرية
- ولكن هذا القانون هو الذي حماك من التغير والتلون، وحفظ عليك هذا الشكل الجميل؟
- الجمال الذي لا يتغير ولا يتلون هو جمال التماثيل، وأنا شجرة لا تمثال
- أيجوز أن أساعدكِ على التغيُّر والتلوُّن والتقلُّب؟
- ليكون من حقك أن تقول إنك تتأدب بأدب الله، وهو عز شأنه قد أفتنّ أعظم الافتنان في إبداع الألوف والملايين والبلايين من الملامح المختلفات في اللغات والطباع والأحاسيس.
وإذا كان رقم الديشيليون صورة وهمية فهو في أفعال الله صورة تقريبية، لأنه قد يعرّض الفرد الواحد من عباده لآراء وأهواء تفوق الدشالين
- وتريدين أيتها الشجيرة أن تكوني أن تكوني كذلك؟
- خلِّصني أولاً من سجن القانون
- أي قانون
- قانون الزهرية!
- يظهر أننا لن ننتهي من هذا الحوار السخيف!
- أمِن السخف أن أطالب بحقي في الحرية؟
- أية حرية؟
- حرية الجذور في اعتصار أمواه الأرض
- وفي تلك الأمواه ما هو خبيث
- الحياة لا تعرف الفروق التي يعرفها الآدميون في تقسيم الأشياء
- ماذا تقولين؟
- أقول إن الحياة مزاجٌ من الحُلو والمُر، والطيِّب والخبيث، وهي نفسها لا تلتفت إلى هذه التقاسيم، ولعلها تجهل الفرق بين الريح الصَّرصر والنسيم العليل
- وإذن؟
- وإذن لا يكون الخير كل الخير لشجيرةٍ مثلي أن تكتفي بشرب الماء المقَّطر، وأن تعيش في تربة ضيقة الحدود، وإن كانت غاية في النقاء، ولا ينفعني بشيء أن تتلطف فتحييني في غدوك ورواحك مرة بالعربية ومرة بالفرنسية، كأنني إحدى بنات الجيران!
- ألم يثمر فيك الجميل، يا شقية!
- أيَّ جميل؟ خلِّصني من سجن الزهرية لأمتصَّ ما في الأرض من عذوبة ومُلوحة، ولأصاول ما فيها من أسباب النعيم والشقاء، فما تضخم شجرة، ولا تستفحل فِكرة، ولا يستحصد عقل، إلا بمكابدة ما في الوجود من أطايب وصعاب
- وما جزائي على الصنيع المنشود؟
- هل تجهل أني سأصير دوحة تصدُّ الهجير عن دارك؟

- لا أجهل، ولكني أخاف عليك عواقب الطول والإبراق
- ما تلك العواقب؟
- أنتِ اليوم في أمان لأنك صغيرة محبوبة، فإذا ضخُمت وطُلت وعَظُمتِ فقد صار من حق كل سفيه أن يرجمك بالحصيات الغلاظ لتجودي عليه بشهي الثمار، أو لينتفع بأوراقك في تغذية الدوابّ
- الشجرة الكريمة تجود بالثمر والورق، قبل السؤال
- هذا كلام في كلام!
- خلِّصني من سجن الزهرية، ثم أختبر أخلاقي في البخل والجود
- أنا أعرفك أنكِ من سلالة بخيلة
- البخل عن إرادة بابٌ من أبواب العقل، ومهما بخلتُ فلن أبخل عليك، فلن يغيب عني أنك تملك إروائي وإظمائي، وإنك قد تصّيرني حَطباً حين تريد، فأنا مقهورةٌ مقهورة على مسايرة هواك
- ما أنت شجرةً، إن أنتِ إلا روحٌ جريح
- نعم، فقد تقدَّم أترابي وتخلفتُ، بفضل الحياة تحت حماية القوانين
- قولي كلاماً غير هذا، فبفضل قانون الزهرية عشتِ في أمان، من الغربان
- لأني بقيْتُ صغيرة محبوبة أتلقّى التحيات الآدمية في الصباح والمساء؟
- هو ذلك!
- أنت إذن تجهل فرح الدوحة العظيمة بأن يكون عَرَقُها غذاءً للسمَّال، وبأن يكون أعاليها ملاذاً لكل خائف، وبأن تكون ثمارها منية كل جائع، وبأن تكون عرضة في كل الأوقات لتطاول الأوباش والسفهاء
- وما الموجب لهذه المتاعب؟
- العظمة في جمع الخلائق من جماد ونبات وحيوان وإنسان لا يتصورها الوهم أو الحس أو العقل إلا محفوفة بالمكاره والصعاب. وليست السعادة بالميزان الذي نعرف به الأقدار الصحيحة لمختلف الخلائق، وإنما الميزان الحق هو الشقاء بالخلق وقد سمعت أنه أشرف ما ظفر به الأنبياء
- إن كان الشقاء هو ما تبتغين فقاسميني حظي، يا شجيرتي الغالية
- أنا أطلب الاستقلال
- حتى في الشقاء؟
- حتى في الشقاء، لأشعر بقوة الذاتية
- وهل تضعف الذاتية حين يتساقى المحبون كأس العذاب، شفةً إلى شفة، وقلباً إلى قلب؟
- أنت تحبني؟
- وأي حبّ؟ ألا تذكرين أنني سقيتك مرات كثيرة من دموعي؟
- متى كان ذلك؟
- إن ذلك يقع في كل يوم، وفي غفلة الجنّان، فأنت وليدة الحب والدمع، لا سليلة الماء والطين
- وكيف خصصتني بهذا البِرّ النفيس؟
- جمع بيننا اليتم القاسي، فأنت يتيمة في صحراء مصر الجديدة، وأنا يتيم في بيداء الوجود، ولن تظمأي ولن تجوعي وأنت في ضيافة قلبي وروحي، وما حبستك في سجن الزهرية إلا رغبة في أن يطول نعيمُك بالطفولة الغافية، أيتها اليتيمة العصماء. . . خذي حياتك أيتها الشجيرة من عطفي وحناني، فما لك بعدي أبٌ ولا أخٌ ولا صديق، أنا نصيبُك من دنياك كما كنت نصيبي من دنياي، وضلوعي هي زادك من القُوت إن عزّت الأقوات
- أكنتُ حقّاً نصيبك من دنياك؟
- أنت الصديق الذي لم يتغّير في مدى سبع سنين، فأوراقُكِ أوراقك، ومَرآك مرآك، بفضل القانون
- أي قانون؟
- قانون الزهرية، يا بلهاء، فهو الذي حفظ عليك نعمة الشباب
- وتريد أن أظل يتيمة طول حياتي؟

- لا يوصَف باليتم غير الأطفال، فإن أبحتُك مُلوحة الأرض فلن تظفري بعد اليوم بملوحة دمعي، لأن الأرض ستصيرك بعد قليل مرأةً شمطاء
- سعادة القاصرين لا تقاس إلى شقاوة الراشدين
- أوضحي، يا حمقاء
- قد أوضحتُ، ثم أوضحت، فأتمم جميلك وامنحني الحرية والاستقلال
- منحتك الحرية والاستقلال
- كنت بالأمس راعياً وأنت اليومَ صديق، وما أبعد الفرق بين الراعي والصديق
زكي مبارك

كتاب الإمتاع والمؤانسة - 4

الجزء الثاني

للأب أنستاس ماري الكرملي

قيل في نص ص169: (وغرَّق نفسه في كِرْدَاب كلواذي) وجاء في الحاشية: (والجرداب كلمة فارسية معناها دوامة الماء، وهي وسط البحر ولجته التي يدوم عليها الموج؛ وهي بالجيم. ولعل العرب كانوا ينطقونها بالكاف) قلنا: الكلمة الفارسية هي كرداب بكسر الكاف الفارسية أو المعقودة. ويعرب العرب هذه الكاف مرة بالجيم، وتارة بالقاف، وأخرى بالكاف العربية. أما هنا فلم يعربوها إلا بالكاف العربية. أما قول الناشرين في الحاشية: الجرداب. . . معناها دوامة الماء وهي وسط البحر ولجته التي يدوم عليها الموج) فتعبير غريب لم نجد نظيراً له، لأن دوامة الماء قد لا تكون في وسط البحر، بل في أعمق مكان من النهر، كما هو متعارف في دجلة واللجة غير الدوامة، وغير وسط البحر. وأما قولهما: (يدوم عليها الموج) فمشهور التعبير هو (يدوم فيها الماء) لا الموج. راجع ما قالوه في تعريف (الدُرْدُوْر) وهو يقابل الجِرْدَاب الفارسية.

وفي ص170: (ولعمري من غُلّطَ غَلِط) وعندنا أن الصواب هو من غَلّط (بصيغة المعلوم) غُلّط. (بصيغة المجهول من باب التفعيل).

وجاء في ص173: (وتفتلت وتقتلت) والصواب وتقلبت

ورد في ص175 (إن صرَّحت له كَنَى وإن كَنيْتَ له صرَّح) وعندنا الأحسن أن يقال: إن صرَّحت له كَنَّى وإن كنيت له صرح ليكون الفعلان من باب التفعيل، فيحسن وقعهما في السمع، ويكون أيضاً من باب المزاوجة في الوزن. هذا فضلاً عن أن التكنية شائعة كالكناية.

وشرح الناشران في ح ص180 الفقاع بقولهما: شراب يتخذ من الشعير. فهذا كلام اللغويين، وكنا نود أن ينقلا المصطلحات العلمية ومعانيها عن أهل الفن، ولا يكتفيا بتعريف اللغويين، لأن خاصية هؤلاء الأفاضل شرح معنى الكلمة من باب الإجمال لا من باب التخصيص؛ وذلك أن اللغويين شرحوا بشراب يتخذ من الشعير كلاًّ من الألفاظ الآتية: الفقاع، والمِزر والجعة. ولا جرم أن السلف ميزوا كل لفظ عن أخيه حتى لا يهيم القارئ

في هيماء الضلال. فقد شرح التميمي الفقاع بقوله: يتخذ على ضروبٍ. وذلك أن منه ما يتخذ من دقيق الشعير المجفف المطحون المخمر بالنعنع والسذاب والطرخون وورق الأُترُجّ والفلفل. . . وأما المتخذ من الخبز السميد المحكم الصنعة، والكرفس ودقيق الحنطة المنبتة، أو من دقيق الشعير المنبت فإنه أقل ضرراً من الأول. . . وقد يتخذ منه ساذجاً بماء خبز السميد المحكم الصنعة مُروَّقاً، ونقيعة المسك والمصطكي فقط، مع قلب نعنع في كل كوز، وقلب طرخون فقط. . . وأما ما يتخذ من الحنطة والشعير والجاورس، المنبتة، من الشراب المسكر المسمى بِمْصر المِزْر، فإنها أنبذه (تُسَكر إسكاراً شديداً غير أنها تبتعد عن قُوَّتهِ ومنافعهِ بُعداً شديداً

ذكرنا بعض هذا الكلام مع طوله لنبين للقارئ أن الفقاع أضْرُبُ، وليعتمد على أهل الفن والصناعة في الأوضاع العلمية، ولا يكتفي بأقوال اللغويين

وجاء في ص196: وقال الوزير (أدام الله أيامه). . . قلنا: هذا دعاء بالخير لا يتحقق ألبته. والأحسن، أو الأقرب إلى الفعل، أن يدعو الإنسان بما يتحقق، فيقولا مثلاً: أطال الله أيامه!

وقال الناشران في ح ص 198: إذ المطرَّي هو المقلوب إلى مُطَّيرٍ فالمطَّير مقلوب

إليه. ولعل الصواب: إذ المطري هو مقلوب مطّير فالمطير مقلوبة
وفي ح تلك ص: وعدة أبياتها أربعة وثلاثون بيتاً فيها. ولعل الأصوب أن يقال: وعدة أبياتها أربعة وثلاثون أو أبياتها أربعة وثلاثون، أو وعدة ما فيها أربعة وثلاثون بيتاً، أو نحو هذا التعبير
وفي ح ص199 في كلتا النسختين: يعين من لا يعين وهو تصحيف والتصويب عن شعر. . . والأحسن أن يقال: والتصحيح ليكون المعنى وتصحيح التصحيف، أما قولهما والتصويب، فيكون معناه وتصويب التصحيف. فيكون التصحيف صحيحاً لا خطأ، لأن اللغويين يقولون صوَّب فلاناً قال له أصبت وصوب رأيه، وقوله حكم له بالصواب. وقد جاءت التصويب مرتين في تلك الحاشية
وورد البيت ال 11 في ص 200 هكذا:
تكفيهُ حزَّة فِلذانٍ ألمَّ بها ... من الشواء ويكفي شربهُ الغمرُ
وفي الحاشية الحزة القطعة من اللحم تقطع طولاً، والفلذان جمع فلذة وهي القطعة من الكبد واللحم. قلنا هنا خطأ غريب بل خطآن غريبان: الأول أنهما قالا الفلذان جمع فلذة وفِعلة بالكسر لا تجمع على فعلان بل فعل مكسور وبلا هاء في الآخر؛ والخطأ الثاني الغريب هو أنهما قرآها فلذان مع أن الصحيح هو فلذةِ كبد (بفتح الكاف أو كسرها) إن، كما قرأها أول مرة في ص198 س1. فيا للعجب لهذه القراءة ولهذا التأويل ولهذا الخطأ، إذ جعلا كلمة واحدة ما هو في كلمتين!
5 - أوهام التعبير والإنشاء والفكر
جاء في ح ص 27: (أو لعله كتبها واكتفى بإرسالها إلى الوزير). والصواب: (واكتفى بالإرسال بها إلى الوزير. (راجع شرح الطرة عن الغرة طبع في دمشق سنة 1301 ص 156)
وفي ص39 (وهاهو بين يديك) والصواب: وهاهو ذا بين يديك (راجع مجلة المجمع العلمي العربي 17: 234و235)
وفي 42 (وقال السيد المسيح: إن استطعت أن تجعل كنزك لا يأكله السوس ولا تدركه اللصوص - فافعل - المشهور هو هذا: (لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يفسد السوس والآكلة وينقب السارقون ويسرقون، لكن اكنزوا لكم كنوزاً في السماء حيث لا يفسد سوس ولا آكلة ولا ينقب السارقون ولا يسرقون (متي 6: 19 و20)
وفي 123 (وقال عيسى بن مريم: ما ينفع الأعمى ضوء الشمس ولا يبصرها) نحن لم نجد هذا القول المنسوب إلى عيسى بن مريم، فهل يتمكن الناشران من أن يدلانا على محل وروده من الإنجيل.
وفي ص127 (وقال عيسى - عليه السلام - يا بن آدم اعتبر رزقك بطير السماء لا يزرعن ولا يحصدن وإله السماء يرزقهن. فإن قلت لها أجنحة فاعتبر بحمر الوحش وبقر الوحش ما أسمنها وما أبشمها وأبدنها!)
والذي نعرفه شبيهاً بهذا القول من أقوال السيد المسيح ما يأتي (انظروا إلى طيور السماء، فإنها لا تزرع ولا تحصد، ولا تحزن في الأهراء، وأبوكم السمائي يقوتها، أفلستم أنتم أفضل منها (متي6: 28وما يليها)
وفي ص 55 (لو كلمني عدوي لعقدت شعر أنفه إلى شعر. . .) والمشهور (شعر أنفه بشعر)
6 - أوهام الضبط والتقييد
وورد في ص2: (فلم يكن لهم فيها مَطْلع)، ونظن الصواب: مُطلّع، وزان محمد
وفي ص6: (المِجَسْطِي) وضبطت بكسر الميم، وفتح وإسكان السين، وكسر الطاء وفي الآخر ياء خفيفة. قلنا: هذا الضبط مخالف للاسم المعرَّب عنه وهو اللاتينية المولدة المركبة من (ال) العربية وهي أداة التعريف واليونانية: أي الأعظم. فيكون معناها العمل الأعظم. وفي ديوان الشارح في مادة (مجسط): المَجَسطي، بفتح الميم والجيم، اسم لعلم الهيئة (كذا) وبه سُمِّي الكتاب الذي وضعه بطليموس الحكيم، وُعرِّب في زمن المأمون. أهـ
وفي ص20: (أولوا) والصواب حذف الألف من الآخر. وفي تلك الصفحة: (دَهْرِيّين)، وضبطت الدال بالفتح، والمشهور ضبطها بالضم
وفي ص46: (علم مَقْبَرةُ) بضم الهاء والصواب بتثليث الباء وفتح الراء وكسر الهاء

وفي ص67: (أسكرُّجة) والمشهور أنها بلا ألف في الأول
وفي ص83 (وكذلك؟): الموسيقى، بكسر القاف والياء الخفيفة. والمشهور الموسيقى، بضم الميم، وكسر السين، وفتح القاف. قال نصر الهوريني في تعليقه على كلمة الربابي الواردة في القاموس في مادة (ر ب ب) في كلامه على ممدود ابن عبد الله الواسطي الربابي، الذي يضرب به المثل في معرفة الموسيقى بالرباب ما هذا نصه: (قوله الموسيقى. هكذا في النسخ بكسر القاف. وهو اشتباه سَبَّبه رسم الكلمة بالياء. وصوابه فتح القاف. كما هو في اللغة الرومية (أي والعامل بتلك الآلة يقال له موسيقار، بزيارة راء في الآخر، كأن هذه الزيادة عندهم كالنسب في جمال وحمار. اهـ
(البقية في العدد القادم)
الأب أنستاس ماري الكرملي
أحد أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية
أشهر الكتاب الاجتماعيين العراقيين في القرن الرابع الهجري
القاضي التنوخي
للأستاذ يوسف يعقوب مسكوني
يسرني أن أبدأ لك - أيها القارئ العزيز - بسرد حياة هذا القاضي الحجة، الكبير الهمة، الشاعر الفحل، والمحقق العدل، والأديب الأريب، العالم ابن العالم ابن الحسب والنسب من آل تنوخ الكرام
أما الذين ترجموه من العصور المتأخرة، فقد رووا عنه أخباراً جميلة وعددوا مؤلفاته التي لم نحصل منها - ويا للأسف - إلا على ثلاثة: أولها كتاب (الفرج بعد الشدة)، ذلك السفر المشحون بأخبار الأولين وكلها أقاصيص وحكايات واقعية تنبئ عن المآثر التي خلدت في عز العرب والإسلام. ترجمه إلى التركية لطف الله بن حسن التوقاني المقتول سنة 900هـ. وقد طبع الكتاب طبعتين: الأولى طبعة الهلال للمرحوم المؤرخ جورجي زيدان سنة 1903م. والثانية طبعة المكتبة العلامية بجوار الأزهر بمصر لصاحبها عبد القادر علام سنة 1938م. وأما ثانيها، فهو كتاب (جامع التواريخ) المسمى (نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة)، وهو أحد عشر مجلداً على ما رواه ياقوت في معجم الأدباء اشترط فيه أنه لا يضمنه شيئاً نقله من كتاب. كل مجلد له فاتحة بخطبة. وقال غرس النعمة محمد بن هلال الصابي العلامة المؤرخ المشهور: صنف أبو علي المحسن كتاب (نشوار المحاضرة) في عشرين سنة أولها سنة ستين وثلاثمائة. وقد ذيله غرس النعمة بكتاب سماه كتاب (الربيع) قال: ابتدأته سنة ثمان وستين وأربعمائة. هذا ولم يحصل عالم الطبع منه إلا على جزئين وبعض جزء ثالث. فالأول قام بطبعه المستشرق العلامة مرجليوث، وطبع الجزء الثامن منه بدمشق سنة 1348هـ (1930م) بإرشاد الأستاذ مرجليوث. قال بعد أن سرد ترجمة التنوخي نقلاً عن معجم الأدباء لياقوت الحموي: (وأول مجلد منه نشرناه في سنة 1921م عن نسخة في مكتبة باريس العمومية. وبذل البحاثة الشهير أحمد باشا تيمور جهده في تفسير ما ورد فيه من الغريب، فنشر ثمرات أفكاره في المجلدين الثاني والثالث من مجلة مجمعنا العلمي العربي في دمشق، وقد أخبرنا أن عنده نسخة من الجزء الثاني). ونشر بعض الثالث في مجلة المجمع العلمي العربي بعد نشرها الثامن. هذا، وقد ذكره بعنوان (نشوان المحاضرة وأخبار المذاكرة) - ابن خلكان. ونقل عنه هذه اللفظة صاحب شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي في حوادث سنة 384هـ، وهي سنة وفاة التنوخي. ونقل عنهما الحاجي خليفة في كشف الظنون تلك اللفظة، إذ وضع اسم الكتاب في مادة النون. والكتاب الثالث هو كتاب المستجاد من فعلات الأجواد، لم يذكره سوى ابن خلكان، ونقل عنه صاحب شذرات الذهب. وقد طبع الكتاب حديثاً طبعة حجرية نشره ليوبولي في شتتجارت سنة 1939، طبقاً للمخطوطة الأصلية في 215 صفحة فيها الفهارس كاملة زيادة على ست وعشرين صفحة للمقدمة الألمانية. وقد علمت بأن نسخة خطية منه يملكها المنلا صابر بكركوك. وقد طالعت طائفة من أخباره فوجدته بديعاً لا يقل أسلوباً عن الكتب الأخرى المذكورة آنفاً والشائعة بين القراء والمتتبعين. إن أول من ترجم التنوخي على ما يستوجب

سياق التاريخ هو هلال بن المحسن الصابي في تاريخ بغداد الذي وصل به تاريخ ثابت بن سنان، ثم الثعالبي صاحب يتيمة الدهر المتوفى سنة 429هـ حيث قال عنه بعد أن تكلم عن أبيه: (هلال ذلك القمر، وغصن هاتيك الشجر، والشاهد العدل لمجد أبيه وفضله، والفرع المثيل لأصله، والنائب عنه حياته، والقائم مقامه بعد وفاته. . . وله كتاب (الفرج بعد الشدة)، وناهيك بحسنه، وإمتاع فنه وما جرى من الفأل بيمينه، لا جرم أنه سير من الأمثال، وأسرى من الخيال. . . أخبرني أبو نصر سهل بن المرزبان أنه رأى ديوان شعره ببغداد أكبر حجماً من ديوان شعر أبيه، وأن بعض العوائق حال بينه وبين تحصيله، حتى فاته واشتد الأسف عليه، ولو تقدر له استصحابه كسائر الدواوين البديعة، لكنت أتفسح في الانتخاب منه. ولكني الآن مقل من شعره، وسيقع لي ما أتكثر به، وألحق المختار منه بمكانه من هذا الباب بمشيئة الله تعالى وعونه، وفيه يقول أبو عبد الله بن الحجاج:

إذا ذكر القضاة وهم شيوخ ... تخيرت الشباب على الشيوخ
ومن لم يرض لم أصفعه إلا ... بحضرة سيدي القاضي التنوخي

وذكره بعدهما الخطيب البغدادي المتوفى سنة 463هـ في كتابه تاريخ بغداد، عده محدثاً ببغداد وعدد نسبه وحدد تاريخ مولده ووفاته إذ قال: (المحسن بن علي بن محمد بن أبي فهم أبو علي التنوخي القاضي بن القاضي، ولد بالبصرة وسمع بها من واهب ابن يحيى المازني وأبي العباس الأشرم ومحمد بن يحيى الصولي والحسن بن محمد بن عثمان النسوي وأبي بكر بن داسة واحمد بن عبد الصغار وطبقتهم ونزل بغداد وأقام بها وحدث بها إلى حين وفاته. وكان سماعه صحيحاً أديباً شاعراً أخبارياً. أخبرنا عنه أبنه أبو القاسم علي، أخبرنا التنوخي حدثنا أبي - من لفظه وحفظه ومن أصله - حدثنا واهب بن يحيى بن عبد الوهاب المازني البصري - بها من حفظه - قال التنوخي وحدثنا إدريس بن علي المؤدب؛ ورفع الإسناد إلى مسلمة بن مخلد قالْ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة. ومن فك عن مكروب فك الله عنه كربة من كرب يوم القيامة. ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته) قال لي التنوخي قال قال لي أبي: مولدي سنة سبع وعشرين وثلاثمائة بالبصرة. قال وكان مولده في ليلة الأحد لأربع بقين من شهر ربيع الأول وأول سماعه في سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة. وأول ما تقلد القضاء من قبل أبي السائب عتبة بن عبد الله بالقصر وبابل وصور (كذا) في سنة تسع وأربعين. ثم ولاه المطيع لله القضاء بعسكر مكرم وإيذج ورامهرمز. وتقلد بعد ذلك أعمالاً كثيرة في نواح مختلفة، وتوفي ببغداد في ليلة الاثنين لخمس بقين من المحرم سنة أربع وثمانين وثلاثمائة). أما من ذكره بعدهم فمنهم أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي صاحب المنتظم في تاريخ الملوك والأمم المتوفى سنة 597هـ، فذكر نسبه ومولده وسماعه وتحديثه وأول سماعه الحديث وتقليده القضاء كما أسلفنا، ثم ذكر أيضاً وفاته كما ذكر سلفه الخطيب البغدادي. وقد ذكره ابن الأثير في كتابه الكامل في حوادث سنة 371هـ. ونقل أن عضد الدولة قبض عليه وألزمه منزله وعزله عن أعماله التي كان يتولاها، وذكره أيضاً في وفيات سنة 384هـ. وهي سنة وفاته سارداً تاريخ مولده أيضاً. قال وكان فاضلاً. وقد ذكر التنوخي في كتابه (الفرج بعد الشدة) أنه كان على العيار في دار الضرب بسوق الأهواز سنة ست وأربعين وثلاثمائة. وذكر بعد ذلك بقليل أنه كان على القضاء في بجزيرة ابن عمر. وذكر ابن تغري بردي صاحب النجوم الزاهر المتوفى سنة 874هـ أنه تقلد القضاء بسر من رأى يشبه سوراً. قال: وكان أديباً شاعراً والذي عرفنا - أسباب توليته القضاء وعزله - ياقوت الحموي في كتابه المعروف بإرشاد الأريب في معرفة الأديب - أعني - معجم الأدباء وذلك بإسهاب يصعب علينا استيعابه فنختصره ونقول: (قال بعد ذكر نسبه ومولده سنة تسع وعشرين وثلاثمائة بخلاف ما ذكره الخطيب البغدادي وابن الجوزي صاحب المنتظم وهما أسبق من ياقوت وذكر وفاته أيضاً من دون خلاف، وذكر تآليفه كما ذكرناه آنفاً: ولي القضاء بواسط وكان بها متولياً سنة ثلاث وستين وثلاثمائة. وقال في موضع آخر من كتابه نشوار المحاضرة: حضرت أنا مجلس أبي العباس أبي الشوارب قاضي القضاة إذ ذاك وكنت حينئذ أكتب له على الحكم والوقوف بمدينة السلام مضافاً إلى ما كنت أخلفه عليه بتكريت ودقوقا وخانيجار وقصر ابن هبيرة

والجامعين، وسوراء وبابل والإيغاريين وخطرنية وذكر قصة. وذكر في موضع آخر - جاء قبلاً منقولاً عن الخطيب البغدادي - أنه كان يتقلد القضاء بعسكر مكرم في أيام المطيع لله، وعز الدولة بن بويه. وقد ذكر أبو الفرج الشلجي أنه تقلد القضاء بالأهواز نيابة عن القاضي أبي بكر بن قريعة. قال أبو الفرج: وحدثني أبو علي التنوخي القاضي قال: لما قلدني القاضي أبو بكر بن قريعة قضاء الأهواز خلافة له كتب إلى المعروف بابن سركس الشاهد، وكان خليفته على القضاء قبلي كتاباً على يدي وعنوانه: إلى المخالف الشاق، السيئ الأخلاق؛ الظاهر النفاق، محمد بن إسحاق. وقال ياقوت أيضاً: قرأت في كتاب الوزراء لهلال بن المحسن: حدث القاضي أبو علي قال: نزل الوزير أبو محمد المهلبي السوس فقصدته للسلام عليه وتجديد العهد بخدمته، فقال لي: بلغني أنك شهدت عند ابن سيار قاضي الأهواز قلت نعم. قال: ومن ابن سيار حتى تشهد عنده وأنت ولدي وابن أبي القاسم التنوخي أستاذ ابن سيار؟ قلت: ألا أن في الشهادة عنده مع الحداثة جمالاً - وكانت سني يومئذ عشرين سنة - قال وجب أن تجيء إلى الحضرة لأتقدم إلى أبي السائب قاضي القضاة بتقليدك عملاً تقبل أنت فيه شهوداً (قلت ما فات ذاك إذا أنعم سيدنا الوزير به، وسبيلي إليه الآن مع قبول الشهادة أقرب. فضحك وقال لمن كان بين يديه: انظروا إلى ذكائه كيف اغتنمها؟ ثم قال لي أخرج معي إلى بغداد. فقبلت يده ودعوت له. وسار من السوس إلى بغداد. ووردت إلى بغداد في سنة تسع وأربعين وثلاثمائة، فتقدم إلى أبي السائب في بما دعاه أن قلدني عملاً بسقي الفرات. وكنت ألازم الوزير أبا محمد وأحضر طعامه ومجالساته. واتفق أن جلس يوماً

مجلساً عاماً وأنا بحضرته وقيل: أبو السائب في الدار، قال: يدخل. ثم أومأ إلي بأن أتقدم إليه، فتقدمت ومد يده ليسارّني فقبلتها، فمد يدي وقال ليس بيننا سر، وإنما أردت أن يدخل أبو السائب فيراك تسارّني في مثل هذا المجلس الحافل فلا يشك أنك معي في أمر من أمور الدولة فيرهبك ويحشمك ويتوفر عليك ويكرمك فإنه لا يجيء إلا بالرهبة، وهو يبغضك بزيادة عداوة كانت لأبيك، ولا يشتهي أن يكون له خلف مثلك. وأخذ يوصل معي في مثل هذا الفن من الحديث إلى أن دخل أبو السائب. فلما رآه في سرار وقف ولم يحب أن يجلس إلا بعد مشاهدة الوزير له تقرباً إليه وتلطفاً في استمالة قلبه، فإنه كان في ذلك الوقت فاسد الرأي فيه. فقال لأبي السائب يجلس قاضي القضاة، وسمعه الوزير فرفع رأسه وقال له أجلس يا سيدي، وعاد إلى سراري وقال لي: هذه أشد من تلك؛ فامض إليه في غد فسترى ما يعاملك به. وقطع السرار وقال لي ظاهراً: قم فامض بما أنفذتك فيه وعد إلي الساعة بما تعجله، فوهم أبا السائب بذاك أننا في مهم. فقمت ومضيت إلى بعض الحجر وجلست إلى أن عرفت انصراف أبي السائب فكاد يحملني على رأسه وأخذ يحادثني بضروب من المحادثة والمباسطة وكان ذلك دهراً طويلاً

(البقية في العدد القادم)

يوسف يعقوب مسكوني

ترتيب القرآن

للأستاذ أبو طالب زيان

(تتمة ما نشر في العدد 472)

اتفق العلماء على أن هذا الترتيب إنما يجب التزامه في كتابة المصاحف. أما في القراءة فليس بواجب يدل على ذلك حديث عائشة في البخاري حيث قالت للعراقي الذي سألها عن تأليف القرآن: (لا يضرك أية قرأت). وقد حمله جمهور المحدثين على أنه في القراءة بأية سورة أراد دون أن يلتزم الترتيب. قال ابن بطال: لا نعلم أحداً قال بوجوب ترتيب السور في القراءة لا داخل الصلاة ولا خارجها، بل يجوز أن يقرأ الكهف قبل البقرة والحج قبل الكهف. وأما ما جاء عن السلف من النهي عن قراءة القرآن منكوساً، فالمراد به أن يقرأ من آخر السورة إلى أولها. وكان جماعة يصنعون ذلك في القصيدة من الشعر مبالغة في حفظها، وتذليلاً للسان في سردها؛ فمنع السلف ذلك في القرآن فهو حرام فيه. اهـ

والآن أعود إلى سبق النزول فأقول: لست في حاجة إلى أن أكرر أن القرآن ابتدأ نزوله من ليلة اليوم السابع عشر من رمضان للسنة الحادية والأربعين من ميلاده عليه

الصلاة والسلام حيث أوحى إليه في غار حراء الذي كان يتعبد فيه الليالي ذوات العدد، وأن أول آيات القرآن نزلت على النبي الكريم وهو بالغار، وأن آخر آية نزلت يوم الجمعة، يوم عرفة، عام حجة الوداع. يدل على هذا ما رواه البخاري بسنده عن طارق بن شهاب عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه أن رجلاً من اليهود. قال له: يا أمير المؤمنين، آية في كتابكم تقرؤونها لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. قال أي آية؟ قال اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً. قال عمر: قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي صلى الله عليه وسلم وهو قائم بعرفة يوم جمعة. ولقد روي البخاري هذا الحديث في عدة مواضع من صحيحه. ورواه أصحاب السنن إلا أبا داود. . . ولم ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم بعدها شيء من الفرائض ولا تحليل شيء ولا تحريمه. ولم يعش النبي صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية إلا إحدى وثمانين ليلة

عن ابن عباس ومجاهد أن سورة (اقرأ) أول ما نزل من القرآن إلى قوله تعالى: (علم الإنسان ما لم يعلم) ثم نزل باقيها بعد. والجمهور على أن (الفاتحة) أول ما نزل ثم سورة (القلم) وسورة (الضحى) نزل منها أولاً إلى قوله تعالى (ولسوف يعطيك ربك فترضى) ثم نزل باقيها بعد، ولم ينزل من السور الطوال سورة بتمامها إلا سورة (الأنعام). فقد روي كثير من المحدثين نزولها جملة عن غير واحد من الصحابة والتابعين لأنها مشتملة على دلائل التوحيد والعدل والنبوة والمعاد وإبطال المذاهب التي كذبت القرآن ولم يؤمن أصحابها بالبعث والنشور. وهي من المقاصد الأساسية للدين الحنيف التي لا يتوقف نزول آياتها على السؤال والحوادث أو الأسباب التي تقتضي الإنزال

ولقد رجح هذا المذهب الإمام الرازي في تفسيره الكبير والقرطبي وغيرهما من علماء التفسير، كالكشاف، والنسفي. ولم يضعفه إلا الأستاذ الألوسي في كتابه (روح المعاني) فقد أنكر نزول هذه السورة جملة وقال: كيف يمكن حينئذ أن يقال في كل واحدة من آياتها أن سبب نزولها كذا. . . ولكن إنكار الأستاذ. . . ضعيف لأن ما ذكره الجمهور في أسباب نزول آياتها بعضه لا يصح والبعض الآخر لا يدل على نزول تلك الآيات متفرقة لأن غاية ما قالوه أن تلك الآية نزلت في كذا وكذا أو في قول المشركين كيت وكيت. فإذا صح كان معناه أن تلك الآيات نزلت بعد الوقائع؛ وهذا لا يتنافى ونزولها دالة على ذلك في ضمن السورة. . .

ولقد نزل كتاب الله في تلك الفترة بين مبتدأ الوحي ومنتهاه مفرقاً إلى أجزاء كل جزء منها يسمى نجماً؛ وربما نزلت الآية المفردة وربما نزلت آيات عدة إلى عشر كما صح عند أهل الحديث فيما انتهى إليهم من طرق الرواة. فقد نزلت عشر آيات في قصة الإفك جملة، ونزلت عشر آيات من أول المؤمنين جملة، يدل على نزولها جملة ما رواه الإمام أحمد بسنده عن عمر بن الخطاب قال: كان إذا نزل على رسول الله الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل فلبثنا ساعة فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال: (اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا) ثم قال: لقد أنزل الله علي عشر آيات من أقامهن دخل الجنة. ثم قرأ: (قد أفلح المؤمنون) حتى ختم العشر. . . وصح نزول (غير أولي الضرر) وحدها، يدل على ذلك ما رواه البخاري في كتاب الجهاد من حديث البراء بن عازب قال: لما نزلت (لا يستوي القاعدون من المؤمنين)

دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم زيداً، فجاء بكتف فكتبها. وشكا ابن أم مكتوم ضرارته فنزلت (لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر).

وفي هذه الرواية إبهام وضحته الرواية التي رواها البخاري أيضاً بعدها عن سهل بن سعد الساعدي، وفيها التصريح بأن الذي نزل غير أولي الضرر وحدها.

ومن السور القصار ما كان ينزل جملة ومنها ما كان ينزل مفرقاً. ولقد كان هذا التنجيم مثاراً لعجب المشركين ومنشأ لاعتراضهم على القرآن، فقد سمعوا أن الكتب السماوية السابقة كانت تنزل على الرسل جملة واحدة كما نزلت التوراة على موسى في الألواح مرة واحدة فقالوا إذا كان القرآن قد نزل على محمد من عند الله كما يدعي فما باله لم ينزل عليه جملة واحدة كما نزلت التوراة على موسى وما باله تنزل منه الآية أو الآيات تلو الآية أو الآيات في أزمنة متطاولة؟ أليست سنة الله في إنزال

الكتب واحدة؟
ألا يكون مجيئه هكذا مفرقاً دليلاً على أن محمداً صلى الله عليه وسلم يصطنعه، ثم يدعي أنه من عند الله؟
نعم!! ليست هذا الشبهة بأولى جهالاتهم؛ فقد قالوا في القرآن ما هو أبشع من هذا، وغالطوا حسهم وعقلهم وكابروا وجدانهم؛ فقالوا: (إن هذا إلا أساطير الأولين)؛ وقالوا: (أساطير الأولين اكتتبها، فهي تملي عليه بكرة وأصيلا)؛ وقالوا: (إن هذا إلا أفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون)؛ وقالوا: (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات، قال الذين كفروا للحق لما جاءهم: إن هذا إلا سحر مبين)؛ وقال الوليد بن المغيرة: إن هذا إلا سحر يؤثر، إن هذا قول البشر: (وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا أفك قديم). وهكذا شأن كل جهول يحكم على الأشياء بجهله، وبما يوحيه إليه فساده واستبداده، وتصوره له سخافة فكرة ولقد جهل المشركون أن نزول القرآن منجماً أمر اقتضته حكمة الله التي سمت عن عقولهم، وضلت عنها أفكارهم؛ وأنه لولاه لما أحدث القرآن الكريم في الأمة العربية ذلك الانقلاب الخطير الذي تسري أثره في الأمم؛ فكان حداً فاصلاً بين عهدين: عهد طفولة النوع البشري، وعهد بلوغ أشده، واستكماله خصائصه التي ميزه الله بها على كثير من خلقه؛ وقد حكى الله تعالى شبهتهم هذه في سورة الفرقان بقوله: (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة)؛ وفندها ورد عليهم بقوله: (كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا، ولا
يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا). فبين أن حكمة تنجمه هي تثبيت فؤاد النبي عليه السلام في مواطن اللجاج والخصومة بينه وبين المكابرين من أعدائه، واقتصر في بيان حكمة التنجيم على هذه الحكمة لمناسبة المقام؛ فإن المشركين كانوا يظنون أن هذه الشبهة الواهية التي شنعوا بها على القرآن كافية في هدم دعائم الدعوة المحمدية، فعكس الله عليهم ظنهم وبين أن تنجيمه من أقوى العوامل في تثبيت قلبه، وتقوية شوكته، وإحكام دعوته. واقتصار القرآن على هذه الحكمة لا ينافي أن لتنجيمه حكماً أخرى يجتلي البصير نورها إذا تأمل في المناسبات التي نزل القرآن لأجلها، والغرض المنشود من إنزاله كله، والظروف التي أحاطت بالرسول والمسلمين حين نزوله، وإلى الباحث البيان:
الأول: أن نزوله منجماً كان بحسب الوقائع والحوادث التي كانت تحصل في المجتمع الإسلامي على عهد نزول التشريع والأسئلة والمقترحات التي كانت توجه من المسلمين أو غيرهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، والشبه التي كانت تدور في قلوب المشركين ويظهر القول بها على ألسنتهم ومما تقتضيه حالة المسلمين في أوقات السلم من تقرير عقائد الدين وشرائعه وفضائله، وقوانينه العامة التي يراد بها تنظيم المجتمع الإسلامي وتكوين أمة فتية متمتعة بكل خصائص الأمة الحية، وحالتهم في أوقات الحرب من الحث على الجهاد والغرض الذي يجب أن يقصد به، وبيان الأحكام المتعلقة به. كتقسيم الغنائم والفرد وحكم الأسارى وغير ذلك.
الثاني: أنه نزل تدريجياً ليكون أبلغ في التحدي وأظهر لإعجاز القرآن
الثالث: أنه نزل كذلك للتدريج في تربية الأمة العربية تربية دينية وخلقية واجتماعية وإعدادها لمنزلة الخلافة في الأرض ولقيامها مقام المصلح لما فسد من عقائد الأمم وما تسفل من أخلاقها وعاداتها وتقاليدها وما اختتل من أحوالها العامة ونظمها الاجتماعية
الرابع: وليسهل حفظه وفهمه والعمل به على المسلمين وامتزاجه بدمائهم حتى يصير جزءاً من نسيجهم العقلي ليمكنهم أن يضطلعوا بأعباء الدعوة المحمدية بعد رسول الله على بصيرة وهدى وأن يسيروا في هداية الأمم على نهج واضح، ولا تبعد عنهم الغايات التي ندبوا لتحقيقها في العالم الإنساني
الخامس: وليثبت الله تعالى به فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم في مواطن الخصومة: (كذلك
لنثبت به فؤادك) رداً على قول المشركين (لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) فالآية صريحة في نزوله منجماً كان المقصود منه تثبيت فؤاد النبي عليه السلام ليتفرغ لتبليغ الدعوة المحمدية بعزيمة قوية وهمة متقدة وقلب مطمئن لا تساوره الأحزان ولا تحتل ساحته الهموم والأكدار التي تكسر شوكة العزيمة وتضعف قوة إرادة وتطفئ جذوة

النشاط الملتهب وتقيد الإنسان عن السير إلى المثل الأعلى الذي يتوخاه في عمله، خصوصاً في مثل المهمة الكبرى التي يراد بها صقل طبائع النفوس وتهذيب الفطر الإنسانية وإصلاح ما فسد من أحوال الأمم، وتوجيه العالم البشري في طريق الهدى والرشاد ليصل إلى سعادة الدنيا والآخرة

والخلاصة أنك ترى مما تقدم ذكره أن تنجيم القرآن الكريم مع كونه مقتضى الحكمة الإلهية كان ضرورة حتمية لا محيص عنها، وأنه لو أنزل جملة واحدة ما أتى بالنتيجة المطلوبة منه في تلك الأمة التي كانت عريقة في الجهالة والهمجية

أما بعد فلعلي بهذه العجالة ألقيت ضوءاً على هذا البحث الذي ألفيته من المباحث الشاقة في التنقيب، الوعرة في المسالك، فجاريته على سرعته. وصادقته على علاته فطرقت حكم التنجيم، لأنها منه كالتكملة والذيل والعلة للمعلول. ولعل من الباحثين من يبحثه بحثاً غير ما بحثت، ويحرره تحريراً غير ما حررت؛ ولنا في ثقافتهم آمال كبار.

أبو طالب زيان

المصريون المحدثون - 38

شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الإنجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

تابع الفصل الثاني عشر - السمر والتنجيم والكيمياء

يدرس الكثيرون في مصر الكيمياء أيضاً. وهنالك فئة تنعم بمواهب يستطيعون أن يبلغوا بها شهرة أفضل مما يدركونه من هذه المهنة. ويواصل هؤلاء جهدهم العقيم حتى يبلغوا الكبر بالرغم مما يلاقون من سخرية حصفاء الرأي وذم الذين يغررون بهم عن غير قصد. ومع ذلك فقد يحصلون على معلومات كيميائية وافرة بدراسة هذا العلم الكاذب. والاهتمام بالكيمياء في حالة الانحطاط العلمي الموجودة الآن بمصر يبرهن على العقلية المصرية الرفيعة

وهناك أو كان هناك مصري يدعى الشيخ إسماعيل أبو الروس من مدينة دسوق، ذاع صيته في السحر الروحاني. ويتحدث المصريون حتى أكثرهم علماً ورزانة عن مهارته السحرية أحاديث لا تصدق. فيتحدث بعضهم مؤكداً زواجه بجنية، وآخرون عن استخدامه جنياً يستشيره ويأمره في الباطن دون أنه يستعمل طلسماً ما مثل مصباح علاء الدين. ويقال إن الشيخ كان يستخدم دائماً قوته الخارقة في أغراض طيبة أو بريئة، وأن محمد علي - كما يقول البعض - كان يكرمه ويستشيره كثيراً. وقد أخبرني أحد أصدقائي المسلمين الأذكياء في القاهرة أنه زار أبا الروس في دسوق بصحبة الشيخ الأمير بن الشيخ الأمير الكبير شيخ المالكية، فسأل صاحب صديقي مضيفهما أن يبين لهما بعض ما يدل على براعته في السحر، فأجابه إلى طلبه. فقال الشيخ الأمير: قدم إلينا القهوة في فناجين أبي الموجود بالقاهرة. وانتظرنا قليلاً ثم أحضرت القهوة فنظر الشيخ الأمير إلى الفناجين وظروفها وصرح أنها طقم أبيه بلا شك. وبعد ذلك قدم الشراب في قلل أبيه. ثم كتب رسالة إلى أبيه وأعطاها لأبي الروس طالباً الحصول على الرد. فأخذها الساحر ووضعها وراء وساد الديوان، وبعد قليل رفع الوسادة وأراه أن رسالته اختفت وحلت محلها أخرى أخذها الشيخ الأمير وقرأها فوجد فها ردًّا كاملاً على ما كتبه بخط صرحَّ بأنه خط أبيه، وأخباراً عن عائلته تبين له صحتها التامة بعيد عودته إلى القاهرة. وقد وقع أثناء زيارتي الأخيرة لمصر حادث سحري عجيب تدخلت فيه الحكومة وكان محل حديث الناس وتعجبهم في العاصمة كلها. وسأروي هذه الواقعة تماماً كما قصها عليَّ الكثيرون في القاهرة دون أن أحذف منها المبالغات التي دبجوا بها حديثهم، لا لأنني جاهل مبلغ صحتها فحسب، بل لأبين إلى أي حد عظيم يؤمن المصريون بالسحر

عُزل مصطفى الدجوي كبير الكتاب في مجلس القاضي من وظيفته، وحل مكانه آخر يسمى مصطفى كان صيرفياً. فأرسل الأول إلى الباشا التماساً لإعادته ثانية، إلا أنه مرض مرضاً شديداً قبل أن يصله رد. فاعتقد أن ذلك نتيجة سحر استخدمه مصطفى الصيرفي بكتابه شعوذة تسبب موته، ولذلك أرسل إلى الباشا مرة أخرى يتهم الصيرفي في بهذه الجريمة. فأحضر المتهم أمام الباشا فاعترف بفعله ودل على

الساحر الذي استخدمه. ولما قبض على الساحر لم يستطيع إنكار التهمة، فسجن حتى ينجو الدجوي أو يموت، وأودع في حجرة صغيرة يتناوب حراستها حارسان - وهنا يبدأ القسم العجيب في القصة - عندما جن الليل، وبعد أن نام أحد الحارسين سمع الآخر صوت همهمة غريبة، فنظر من خصاص باب الحجرة، فرأى الساحر جالساً وسط الغرفة يدمدم ببعض كلمات لم يستطيع فهمها، وفي الحال انطفأت الشمعة التي كانت أمامه، وظهر في الوقت نفسه أربع شمعات أخرى في كل ركن من أركان الغرفة الغرفة، ثم وقف الساحر تجاه أحد الحوائط وضربة بجبهته ثلاثاً، وفي كل مرة كان الحائط ينفرج عن رجل يبدو أنه يخرج منها. ولم يلبث هؤلاء أن اختفوا بعد أن حدثهم الساحر قليلاً، وكذلك اختفت الشمعات الأربع، وعادت الشمعة الأولى وسط الغرفة مضيئة كما كانت قبلاً، ورجع الساحر إلى جلسته، وساد السكون. . . وهكذا أبطلت التعويذة التي كانت معدة لقتل الدجوي. ففي الصباح التالي شعر المريض بتحسن كبير بحيث توضأ وأقام صلاته. ومنذ ذلك الوقت تم شفاؤه سريعاً، وأعيد إلى وظيفته السابقة، ونفي الساحر من مصر. وقد نفى ساحر آخر بعد أيام قليلة لكتابته حجاباً جعل بنتاً مسلمة تصاب بحب قبطي حباً جامحاً.

وقد أثار فضولي في موضوع السحر بعيد قدومي إلى مصر حادث قصة عليّ مستر صولت قنصلنا العام؛ فقد سرقت من منزله أمتعة أتهم بسرقتها أحد خدمه. فاستدعى ساحراً مغربياً شهيراً ليحمل المذنب، إذا كان أحدهم مذنباً، إلى الاعتراف بذنبه. وحضر الساحر وقال إنه سيبين صورة اللص بحيث تبدو كاملة لأي صبي لم يبلغ سن المراهقة؛ وطلب من رب الدار أن يحضر أي ولد يختاره، وكان هناك عدة أولاد يعملون في حديقة مجاورة للمنزل، فدعي أحدهم لهذا الغرض. فرسم الساحر بالقلم على راحة يد الولد اليمني شكلاً هندسياً صب في وسطه ليلاً من الحبر؛ وطلب من الولد أن ينظر في الحبر بعزم؛ ثم حرق بعض البخور وعدة قصاصات من الورق كتب عليها تعاويذ؛ واستدعى في الوقت نفسه أشياء مختلفة تظهر في الحبر. وأعلن الولد أنه رأى هذه الأشياء وصورة المتهم أخيراً. فوصفه بقامته وهيئته وملبسة، وقال إنه عرفه، ونزل مباشرة إلى الحديقة وقبض على أحد العمال الذي اعترف أمام السيد بجرمه

وقد شوّقني الحديث السابق إلى مشاهدة حادث كهذا. ولكن لجهلي أسم الساحر ومكانه كنت عاجزاً عن الوصول إليه. على أنني علمت بعيد عودتي إلى إنجلترا أن هذا الساحر أشتهر بين السياح المتأخرين في مصر، وأنه يقيم في القاهرة، وأنه يسمى الشيخ عبد القادر المغربي. وقد أحضره جاري عثمان مترجم القنصلية البريطانية، بعيد قدومي الثاني إلى مصر. فضربت له موعداً ليثبت مهارته التي اشتهر بها. وحضر الساحر في الموعد المعين، قبل الظهر بساعتين تقريباً، ولكن كان يلوح عليه القلق وتطلع إلى السماء مراراً، ثم لا حظ أن الجو غير موافق. وكان اليوم عابساً كثير الضباب عاصف الهواء. وكانت التجربة قد عملت مع ثلاثة صبيان على التوالي، ولكنها لم تنجح تماماً مع أولهم وفشلت مع الآخرين. فقال الساحر إنه لا يستطيع أن يقوم اليوم بأكثر من ذلك، وأنه سيحضر مساء يوم ثانٍ. وقد حافظ على وعده وقرر أن الوقت ملائم؛ وأخذنا ندخن الشبك ونحتسي القهوة وهو يحدثني أحاديث مختلفة منتظرين جاري عثمان ليشاهد التجربة. والساحر جميل الشكل طويل القامة قوي البنية، وجهه أقرب إلى البياض، ولحيته شديدة السواد، رث الثياب أخضر العمة كبيرها، لانتسابه إلى النبي (ص) لطيف الحديث بلا تكلف. وقد أخبرني أنه يباشر أعماله العجيبة بواسطة الأرواح الطيبة، ولكنه قال لآخرين أن سحره شيطاني

وطلب الساحر أولاً قلماً وحبراً وقطعة ورق ومقصاً ليعد تجربة مرآة الحبر السحرية التي تسمى، مثل بعض الأعمال المشابهة الأخرى، ضرب المندل. ثم قطع قصاصة ضيقة كتب عليها بعض أدعية علاوة على تعويذة أخرى يعتقد أن التجربة تتم بها. ولم يحاول أن يخفي ذلك. ولما طلبت نسخة منها قبل بسهولة وكتبها في الحال موضحاً لي في الوقت نفسه أنه يبلغ غايته بفعل الكلمتين الأوليين (طرش) و (طريوشٌ) وهما أسماء تابعيه الجنيين. وقد قارنت النسخة بالأصل فوجدتها مطابقة تماماً. وهذا نصها:

طرْشٌ طريوشٌ انزلوا انزلوا، احضروا إلى مذهب الأمير وجنوده، إلى الأحمر الأمير وجنوده

احضروا يا خدام هذه الأسماء.
وهذا الكشف، فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد صحيح صح.
وبعد أن كتب هذه الكلمات، فصل الأدعية عن التعويذة وقطع الأولى إلى ست جذاذات. ثم شرح لي أن القصد من التعويذة التي تتضمن جزءاً من الآية الحادية والعشرين من سورة الكف، هو فتح عين الصبي بطريقة غير عادية وجعل بصره حاداً يرى مالا نراه
وكنت قد أعددت بإرشاد الساحر قليلاً من اللبان، والكزبرة ومجمرة بها جمر. فوضعت كل هذا في الغرفة مع الصبي الذي أعد لإجراء التجربة، وكانوا قد دعوه من الشارع بناء على طلبي من بين بعض الصبيان حين عودتهم من أحد المصانع. وكان الصبي يبلغ من العمر ثماني سنوات أو تسعاً. وعندما سألت الساحر أن يبين لي من يستطيع النظر في مرآة الحبر السحرية أجابني: الصبي دون البلوغ، والبنت العذراء، والجارية السوداء، والمرأة الحامل. ووضع الساحر المجمرة أمامه، ثم أجلس الصبي على كرسي وأمر خادمي أن يضع في المجمرة بعض لبان وكزبرة. ثم أمسك يد الصبي اليمين ورسم على راحته مربعاً سحرياً نقلت نسخة منه هنا (شكل رقم 53) ويتضمن هذا الشكل أرقاماً عربية ثم صب في وسطه قليلاً من الحبر وطلب من الصبي أن ينظر فيه ويخبره إذا كان يمكنه رؤية وجهه معكوساً فيه. فأجاب الصبي إنه يرى وجهه جلياً. فقال الساحر وهو يمسك بيد الصبي طول
الوقت أن يظل محدِّق النظر وألا يرفع رأسه
ثم أخذ الساحر إحدى قصاصات الورقة المكتوبة عليها الأدعية وأسقطها في المجمرة على الجمر والبخور الذي كان قد ملأ الغرفة بدخانه. وبينما كان يفعل ذلك أخذ يدمدم دمدمة لم تنقطع طول العملية إلا حينما كان يوجه للصبي سؤالاً أو يعرفه ما يجب قوله. ووضع في مقدمة طاقية الطبي الورقة المكتوبة فيها الآية القرآنية. وسأله عند ذلك إذا كان يرى شيئاً في الحبر، فأجابه بالنفي؛ ولكنه لم يلبث أن قال وهو يرتعش ويبدو أكثر خوفاً: (أرى رجلاً يكنس الأرض) فقال الساحر أخبرني بعد أن ينتهي من الكنس. فقال الصبي في الحال (لقد فعل). فقطع الساحر إذ ذاك دمدمته مرة أخرى ليسأل الصبي إذ كان يعرف ما هو البيرق؛ فلما رد بالإيجاب أمره أن يقول: (هات بيرقاً). ففعل الصبي ذلك ولم يلبث أن قال: (لقد أحضروا بيرقاً). فسأله الساحر (على أي لون هو؟). فأجاب الصبي أحمر. فقال له أطلب بيرقاً آخر. فلم يلبث أن قال إنه رأى بيرقاً آخر، وأنه اسود اللون. وبالطريقة نفسها قال الساحر للصبي أن يطلب ثالثاً ورابعاً وخامساً وسادساً وسابعاً. فقال الصبي إنها أحضرت على التوالي وأنها أبيض وأخضر واسود وأحمر وأزرق. فسأله الساحر حينئذ (كم بيرقاً أمامك الآن؟) فأجابه (سبعة). ووضع الساحر أثناء ذلك ثاني القصاصات المكتوبة عليها الأدعية وثالثها في المجمرة. وإذ كان يضيف لباناً وكزبرة مراراً فقد أصبح الدخان يؤلم العين. وعندما أخبره الصبي أن البيارق السبعة ظهرت له أمره أن يقول: (أحضر خيمة السلطان وانصبها) ففعل ذلك وقال بعد لحظة: (لقد أحضر بعض الرجال الخيمة وهي خيمة كبيرة خضراء وهم ينصبونها) ثم أضاف تواً (لقد نصبوها) فقال الساحر: (الآن مر الجنود بالحضور وبنصب معسكرهم حول خيمة السلطان) ففعل الصبي كما أمره وقال على الفور: (أرى عدداً عظيماً من الجنود بخيمهم. لقد نصبوا خيمهم). فقال له حينئذ أن يأمر الجنود بالاصطفاف. ولم يكد يأمرهم حتى قال إنهم اصطفوا. ووضع الساحر رابع القصاصات في الجمر وسريعاً ما ألحق بها الخامسة. وقال تواً: (قل للبعض أن يحضروا ثوراً) فاصدر الصبي الأمر وقال: (أرى ثوراً أحمر يسحبه رجال أربعة ويضربه ثلاثة) فقال له أن يأمرهم بذبحه وتقطيعه ووضع لحمه في أوعية وطهيه. ففعل كما أمره ووصف هذه العمليات كما تمت حسب الظاهر أمام عينه. فقال الساحر: (قل للجنود يأكلون) ففعل الولد
وقال: (إنهم يأكلون. لقد أكلوا وهو يغسلون أيديهم) فقال له الساحر إذ ذاك أن يدعو السلطان ففعل الولد وقال: (أرى السلطان ممتطياً جواداً أشهب وعلى رأسه قلنسوة مرتفعة حمراء. لقد ترجل عند خيمته وجلس داخلها) فقال الساحر: (مرهم بتقديم القهوة للسلطان وبتأليف المجلس) فاصدر الصبي هذه الأوامر وقال إنها نفذت. وكان الساحر قد وضع آخر القصاصات الست في المجمرة. ولم أميز من همهمته شيئاً غير

ألفاظ الدعاء المكتوب التي رددها مراراً ماعدا مرتين أو ثلاثة سمعته يقول: (إذا استعلموا أخبرهم. وكونوا أنتم صادقين) إلا أن أكثر ما ردده كان غير مسموع. ولما لم أسأله أن يعلمني عِلمه فلا أدعي الجزم بأني أعرف تماماً أدعيته

عدلي طاهر نور

مطالعات في الأدب الغربي

مقدمة في الفن

لأسكار وايلد

بقلم الأستاذ علي كمال

أسكار وايلد أعظم من أن يعرف بغير ما كتب. وقصته)

العظيمة التي اشتهر بها تعتبر سفراً فنياً عظيماً،

ومقدمتها القصيرة تلخص نظرات هذا الفنان في الفن، وهي

تضع قواعد جديدة في النقد الفني لا تسر المحافظتين من

(أصحاب المدرسة الأخلاقية في النقد

الفنان هو خالق الأشياء الجميلة

إظهار الفن وحجب الفنان هما غرض الفن

الناقد هو الذي يستطيع أن ينقل إلى صورة أخرى أو مادة أخرى تأثراته بالأشياء الجميلة

إن الذين يجدون معاني قبيحة في الأشياء الجميلة، إنما هم فاسدون مجردون عن الجمال

لطائفة مختارة تعني الأشياء الجميلة الجمال فقط

ليس هناك كتاب أخلاقي أو غير أخلاقي. الكتب إما أن تكتب كتابة جيدة أو رديئة، وهذا كل شيء

كره القرن التاسع للواقعية هو غيظ (كالبان) لرؤيته وجهه في الزجاج

وكره القرن التاسع عشر للرومانتيقية هو غيظ (كالبان) لعدم رؤيته وجهه في الزجاج

حياة الرجل الأخلاقية تكون جزءاً من مادة الفنان، غير أن أخلاق الفن تتألف من الاستعمال التام المادة ناقصة

ما من فنان يرغب في برهنة أي شيء. كل شيء تمكن البرهنة عليه حتى الأشياء الصادقة

ليس للفنان عواطف أخلاقية. والعاطفة الأخلاقية في فنان تأنق في الأسلوب لا يغفر له

لا يمرض الفنان أبداً. الفنان قادر على التعبير عن كل شيء

الفكر واللغة للفنان أداة للفن

الرذيلة والفضيلة عند الفنان مادة للفن

مثال جميع الفنون من ناحية الشكل هو فن الموسيقى، وحرفة الممثل من ناحية الشعور هي المثال

الفن كله سطحي ورمزي. فالذين يذهبون إلى ما دون السطح يخاطرون بذلك على حسابهم. . . والذين يقرأون الرمز يخاطرون بذلك على حسابهم

المشاهد لا الحياة هو في الحقيقة ما يعكسه الفن

اختلاف الرأي في عمل فني يظهر أن العمل جديد حي معقد

عندما يختلف الناقدون يكون الفنان على وفاق مع نفسه

يمكننا أن نسامح الرجل الذي يصنع الأشياء المفيدة ما دام لا يعجب بها. والعذر الوحيد لصانع شيء غير مفيد هو إعجابه به بشدة

الفن بأجمعه لا فائدة منه أبداً. . .

علي كمال

هنا القاهرة. . .

للأستاذ عبد اللطيف النشار

- 1 -

سَبَقَ المذيعُ إلى الهتاف بها ... أَوَعى المذيعُ جلالَ ما هتفا؟

أأقولها وأحس عن كثب ... دنيا فتنت بحسنها شغفاً

ما زرتها إلا على عجل ... إن قلت أقبل موعدي أزفا!
كالطير روحته وغدوته ... صنوان ما افترقا ولا اختلفا
طيف ألمُّ بها ولم يرها ... ورأته طيفاً دقَّ بل لطفاً
يا من (بمصر) وعندهم أملي ... أيُحال دون لقائكم جنفا؟
تأبى إطاعةَ هاجس ثقتي ... بالله، فهو وكيلنا وكفى!
- 2 -
متى يا تُرى أدعو دعاَءكَ صادقاً ... بأنَّيَ قد أصبحت في (مصر) ثاويا؟
دعا الشاعر (العقاد) قبلَي دعوةً ... أجيبت، فهل رد الإلهُ دعائيا؟!
(أيا مرجع الأيام من حيثما ابتدت ... أعِدْ لي أيامي (بمصر) كما هيا)!
أجيبَ دعائيَ ومْضَةَ البرق، لا أرى ... سحاباً، ولكن أسمع الرعد داويا
ألا يا غدي، ماذا تخِّتبئ يا غدي؟ ... أأسكت، أم أفضي إليك شكاتيا؟!
سكت، فقد عاهدت ربيَ قبلها ... بالا يراني آخر الدهر شاكياً!
- 3 -
نفسي المقولة في خطابكمو ... لا شيء في لفظي سوى نفَسي
شعراء (مصرٍ) في حناجركم ... وتَرٌ يضخم اضعفَ الجرْس
يا ليت فيً أسماعكم وتراً ... أقوى فيسمع بينكم همس!
- 4 -
علمان في (العلمين) يقتتلان ... يا (مصر) ما (العلمين) ما العلمان؟
لا ابتغي غيظ النحاة ولم أمل ... (للأين) إذ يرضى النحاةَ (الآنِ)
يا نصف نحوي يجادل كله ... ليت العوالم كلها كلساني!
قل مخطئا واسمع مقالة مخطئ ... لا يحسن التصويبُ كل أوان
الجد ليس يريح من يمُنى به ... فتنقلوا - يا قوم - بالهذيان!
عبد اللطيف النشار
فلسفة الحب
للشاعر بيرسي شيلي
إن الجداول تمتزج بالأنهار، والأنهار
بالبحار، والبحار بالمحيطات، ونسائم
الفردوس يمتزج إلى الأبد بعضها
ببعض بعاطفة عذبة. ليس في الكون
شيء منفرد بذاته؛ فكل شيء يمتزج
حسب قانون مقدس بشيء ثان.
فلماذا لا تمتزجين بي وأمتزج بك؟
انظري الجبال تقبل السماء العالية،
والأمواج تحتضن الأمواج، وليس
هناك من زهرة يمكن أن تعذر إذا بقيت
بمفردها محتقرة أختها الوردة، ونور
الشمس يحتضن الأرض، وأشعة القمر
تقبل وجه البحر؛ فما قيمة كل هذه
القبلات إذا لم تقبل شفتاك شفتي؟
(بغداد)
صفاء خلوصي
البريد الأدبي
توثيق العلاقات الثقافية بين مصر والعراق
أقر مجلس الوزراء في جلسته الأخيرة مشروع وزارة المعارف بتأليف مكتب لتوثيق العلاقات الثقافية بين مصر والعراق. وفيما يلي مذكرة معالي الأستاذ الوزير ننشرها لقيمتها التاريخية
بتاريخ 30 أكتوبر سنة 1941 عرض وزير المعارف السابق على مجلس الوزراء فكرة الدعوة إلى عقد مؤتمر تعليمي للبلاد العربية؛ وقرر مجلس الوزراء تأجيل البت في هذا الأمر إلى أن تقدم إليه وزارة المعارف الموضوعات التي سيتناولها المؤتمر ومبلغ ما

يحتاج إليه عقده من اعتمادات
وقدمت وزارة المعارف بتاريخ 11 ديسمبر سنة 1941 بياناً إلى مجلس الوزراء بما طلب من الموضوعات التي سيتناولها المؤتمر ومبلغ الاعتماد الذي سيحتاج إليه، فوافق مجلس الوزراء على عقد هذا المؤتمر في الخريف المقبل
ولما تألفت الوزارة القائمة، أعيد درس هذا الموضوع، وتبين أن وزارة المعارف لم تستشر لجنة المؤتمرات ولا وزارة الخارجية في عقد هذا المؤتمر؛ وقد انتهزت وزارة المعارف فرصة وجود مندوبين من وزارة المعارف العراقية في القاهرة في الشتاء الماضي لحضور مؤتمر تدريس العلوم، وهما الدكتور فاضل جمالي مدير التعليم العام بالعراق، والدكتور متي عقراوي مدير دار المعلمين العليا ببغداد، فتحدثت إليهما في موضوع عقد المؤتمر، وفي موضوع أهم منه، وهو تنظيم التعاون الثقافي بين مصر والعراق.
وانتهت هذه المحادثات الأولية إلى ضرورة إنشاء مكتب مشترك بين وزارة المعارف المصرية ووزارة المعارف العراقية، لتنظيم شئون التعاون الثقافي بين البلدين والإشراف عليها
واقترح أن يؤلف هذا المكتب من ممثلين لوزارتي المعارف في مصر وفي العراق، وأن يكون للبلاد العربية الحق في أن تشترك فيه إن أرادت، وأن يعقد المكتب اجتماعات دورية منظمة في كل عام لتبادل الرأي في الأغراض الثقافية والتعليمية التي تحدد؛ على أن يكون من بين المسائل التي يدرسها ويرفع من شأنها اقتراحاته إلى الحكومتين المصرية والعراقية
الموضوعات الآتيان:
(أ) وضع الأسس لمعاهدة ثقافية بين مصر والعراق، على أن يكون لغيرهما من البلاد العربية الانضمام إليها
(ب) الدعوة إلى مؤتمرات ثقافية تمثل فيها البلاد العربية.
وفي الواقع أن بين مصر والعراق تعاوناً مستمراً. فالحكومة العراقية تطلب إلينا الأستاذة والمعلمين في كل عام، كما تطلب إلينا معونات أخرى تتصل بالكتب والأدوات الدراسية
ونحن نفعل ما نستطيع لإجابة الحكومة العراقية إلى ما تريد في حدود ظروفنا الخاصة.
ولكن هذه الأمور تجري على غير نظام ثابت واضح، وتعمل فيها المصادفات أكثر من أي شيء آخر؛ والوسيلة العملية لتنظيم الصلات الثقافية القائمة بين البلدين وتوثيقها هي إنشاء هذا المكتب الدائم الذي يتولى هذه الشئون.
مشاكل التموين في الزمن القديم
تستفحل مشاكل التموين في أوقات الأزمات والحروب، حتى ليستعصي حلها على كثير من الدول ما لم تصطنع لها من وسائل الدقة وحسن التنظيم وكفاية التوزيع ما يستغرق أكبر مجهود ويقتضي أوفر عناية.
وقد يخيل إلى بعضنا أن توزيع المؤن والأقوات على مقتضى البطاقات وشبهها، من الأنظمة التي توصل إليها الغربيون قبلنا فنقلناها عنهم. ولكن الواقع يثبت غير ذلك؛ إذ قد عرفت حكومة الشرق الإسلامية هذه الوسائل منذ عهد بعيد؛ وقد التُجئ إليها حين أشتد القحط وشحت الأقوات في بلاد الهند، وقت زيارة الرحالة ابن بطوطة لهذه الأصقاع في النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي، على عهد السلطان أبي المجاهد محمد شاه صاحب دلهي وابن السلطان غياث الدين تُغْلُق شاه . . .
وقد ذكر ابن بطوطة أن ثمن المنَّ من القمح بلغ حينئذ ستة دنانير - والمن وزن يبلغ رطلين - فأمر السلطان بإعطاء جميع أهل دلهي نفقة ستة أشهر من المخازن؛ قال: (فكانت القضاء والكتاب والأمراء يطوفون بالأزقة والحارات، ويكتبون الناس ويعطون كل أحد نفقة ستة أشهر، بحساب رطل ونصف من أرطال المغرب في اليوم لكل واحد. . .) وقد كان الرطل المغربي يعادل رطلاً وربعاً من الوزن المصري
ثم لما اشتدت الضائقة وبلغت المجاعة من الناس، وزع السلطان مساكين بلده على الأمراء والقضاة ليتولوا إطعامهم. قال ابن بطوطة - وكان يتولى قضاء دلهي: (فكان عندي منهم خمسمائة نفس. فعمَّرت لهم سقائف في داري وأسكنتهم بها، وكنت أعطيهم نفقة خمسة أيام فخمسة أيام)

ولعل أشبه شيء بالمطاعم الشعبية عندنا اليوم، وأقومه بمثل خدمتها، ما أشار إليه الرحالة ابن بطوطة بقوله: (وكنت في تلك المدة أطعم الناس الطعام الذي أصنعه بمقبرة السلطان قطب الدين على ما يُذكر، فكان الناس ينتعشون بذلك والله تعالى ينفع بالقصد فيه. . .)

وقد كان السلطان أوقف ثلاثين قرية على الإطعام فوق هذه المقبرة، وجعل تدبيرها بيد ابن بطوطة على أن يكون له العُشر من فائدتها كما هو المتبع عندهم

(جرجا)

محمود عزت عرفة

عادة وعوائد

قرأت الجملة الآتية من مقال الدكتور زكي مبارك بالعدد 472 من (الرسالة):

(يغتني (أي المطران) من العوائد وهي جمع عادة كما تجمع حاجة على حوائج، ولك أن تجعل مفردها عائدة إن تناسيت العرف وهو من أهم الأسندة اللغوية. . .) اهـ

هذه عبارتك الصرفية يا سيدي الدكتور ليس فيها ما يدنيها من مقال (الحديث ذو شجون) من قريب أو بعيد إلا أن أردت أن تجمع إلى ما تقدمه لإخواننا الأقباط الأكرمين من ضوء رأيك في انتخاب المطران ما يغير نوع الحديث تنبيهاً للفكر كما تقدم بعض أصناف الطعام تنبيهاً للمعدة، أو أن نجمع إلى ما تسوقه للأمة من تحقيق مسألة تاريخية طرفة صرفية يأبى إعظامك للغة وتكريمك أهلها إلا أن تتحفهم بها. غير أنه استبهم عليك الجمع وما قسته به وما حكمت على العرف لأنه من أهم الأسندة اللغوية. واستبهم عليَّ كل ذلك لأني أقرب منك عهداً بتعلم لغة العرب ولأقل تنقيباً في كتبها؛ فما وصل إليه معلومي أن كلمة (عادة) لا تجمع على عوائد، وأن صيغة فواعل ينحصر اطرادها في ثمانية أنواع أو سبعة على الخلاف ليس منها ما أوردته وقد اختلف في نوع من أنواعها (فاعِل) بكسر العين وصفاً للمذكر غير العاقل، فقيل بشذوذه وقيل بغلطه وقيل بصحته، وما عدا ذلك شاذ إجماعاً؛ وقد حصروا الشاذ فلم يكن منه عوائد جمعاً لعادة، فهو منكور قياساً، ولم يسمع شذوذاً حتى جنبت ذكره المعاجم. وقد استساغ ابن منظور أن يورد في بحره الزاخر (لسان العرب) بعد ما ذكر ما ورد من جموعها كلمة عيد جمعاً لعادة، ونسبها إلى صاحبها تأكيداً لاستضعافها وعدم رضايته عنها؛ ولم يذكر عوائد جمعاً لعادة، وإن أورد الشرتوني في معجمه (اقرب الموارد) بعد أن أورد ما سمع من جموعها: العوائد جمعاً لعادة. غير أنه أردفه بقوله وكأنه جمع عائدة. ثم التبس عليَّ قياسك عوائد على حوائج، لأنه قياس ينبو عما قرأنا في كتب أصول النحو، ولم اسمع من أمثال سيدي الدكتور - حفظه الله - من جعل الشاذ مقيساً عليه لمخالفته الإجماع؛ لأن القياس - ومن شروطه ألا يقاس على الشاذ - هو حمل غير المنقول على المنقول، وليست كلمة الحوائج المقيس عليها منقول لنبوها عن القاعدة ولكنها مسموعة، على أنه مطعون في صحتها جمعاً لحاجة قال الدماميني:

(سمع في هذا المفرد حائجة فيجوز أن يكون حوائج جمعاً لها واستغنى عن جمع حاجة) اهـ

وقد أنكر (حقي) في فروقه وابن خالويه في كتابه (ليس في كلام العرب) جمع الحوائج على حاجة؛ وكذا الحريري في (درة الغواص)، واستشهد بخير ما يستشهد به لصدق دعواه، وإن أظهر الشهاب الخفاجي في شرحه على الدرة جنوحاً عن رأي الحريري، ولكنه سار في غير مسار

(بثينة)

الفدائية أيضاً

طلبت من الدكتور الفاضل محمد حسني ولاية بعد أن ذكر (الفدائية) في مقاله (الشخصية الهستيرية) أن يتفضل فيبين لنا المبادئ التي كانت تعمل من أجلها جماعة الفدائيين، وهل كانت هذه المبادئ من السمو - كما ذكر الدكتور الفاضل - بحيث يضحي الفدائي نفسه في سبيل كل غاية تفيد الإنسانية، أم أن الدكتور الفاضل أراد بذكرهم في مثاله مجرد التشبيه فقط، باسترخاصهم النفس في سبيل غاياتهم فلم أصل برد الدكتور الفاضل لغرضي الذي عنيته، فقد خرج الدكتور الفاضل عن اتجاه السؤال، وأخذ في تفنيد نظريات علمية مسلم بها، كالعقد النفسية والتضحية للغاية

الخ. . .
فإلى الدكتور الفاضل، وإلى جمهرة الباحثين من الكتاب والأدباء أرجو أن يتفضل أحدهم بالكتابة عن جماعة الفدائيين ومبادئهم، خصوصاً وقد كثر في هذه الأيام ذكرهم فكثيراً ما أسمع من يقول - هذا شخص فدائي - وكأن يقال في الصحف - وسيقوم جيش الفدائيون بكيت وزيت - فهل هذا مجرد التشبيه فقط، أم لتماثل مبادئ هؤلاء وهؤلاء

مصطفى عبد المجيد جابر

جلال الدين بن مكرم وأبياته في الإسكندرية

سأل الأستاذ مصطفى الشهابي بعدد الرسالة رقم 473 عن النص العربي لأبيات ترجمها (فورستر) إلى الإنجليزية في كتابه عن الإسكندرية. والأبيات مذكورة في الخطط المقريزية (ج1 ص262) وهذا نصها:

نزيلُ سَكندرية ليس يُقويَ ... بغير الماء أو نعت السواري
ويُتحف حين يُكرم بالهواء ال ... ملاتن والإشارة للمنار
وذكر البحر والأمواج فيه ... ووصف مراكب الروم الكبار
فلا يطمْع نزيلهمُ بخُبزٍ ... فما فيها لذاك الحرف قاري

وقد نسب المقريزي هذه الأبيات إلى جلال الدين مكرم ابن أبي الحسن بن أحمد الخزرجي ملك الحفاظ. وهذا الاسم يتفق تماماً مع أسم ابن منظور صاحب لسان العرب، إلا أن كنيته (جمال الدين) لا (جلال الدين)، وأغلب الظن أن ذلك عن سهو من المقريزي أو من ناسخ الكتاب. وقد أخطأ المترجم في كتابه (مكرم) والحقيقة أنها بتشديد الراء المفتوحة، وهي بغير شكل في كتاب المقريزي

عبد القادر حسن القط

هما لأبي تمام

تساءل الأستاذ موسى حقي عن صاحب البيتين الذين نسبهما صاحب عيون الأخبار إلى دعبل مع أنهما منسوبات إلى أبي تمام في ديوانه وهما:

إن أولي البرايا أن تواسيه ... عند السرور لمن أساك في الحزن
إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا ... من كان يألفهم في المنزل الخشن

ثم تساءل عن صحة البيت الأول

أما البيتان فهما لأبي تمام ونسبتهما إلى غيره وهم، وهما من قصيدة طويلة في مدح أبي الحسن على بن اسحق لما تولى دمشق؛ وقد ذكرها كلها الشيخ يوسف البديعي قاضي الموصل المتوفى سنة 1073هـ ـ في كتابه (هبة الأيام فيما يتعلق بابي تمام) وقال عن هذين البيتين ما نصه: (والبيتان الأخيران من هذه القصيدة نسبهما بعض المؤرخين لإبراهيم بن العباس الصولي وهو وهم، ويدل على أنهما لأبي تمام ما قاله أبو بكر الخوارزمي من رسالة كتبها كاتب خوارزم شاه، ثم ذكر نص كتاب أبي بكر الخوارزمي وفيه البيتان منسوبان إلى أبي تمام (هبة الأيام ص 125 - 126) وذكرهما ابن عبد ربه في العقد ونسبهما إلى أبي تمام أيضاً (ج2 ص40) ط العريان وأما صحة البيت الأول منهما فهو كما جاء في هبة الأيام والديوان مطبوع حديثاً:

أولى البرية حقاً أن تواسيه ... عند السرور الذي آساك في الحزن

وفي الديوان (تراعيه) بدل (تواسيه)

ورواية العقد في البيت الأول هي:

وإن أولي الموالي أن تواسيه ... عند السرور لمن واساك في الحزن

برهان الدين الداغستاني

العدد 475 - بتاريخ: 10 - 08 - 1942

سفارة (الرسالة)

للأستاذ عباس محمود العقاد

أعجلني السفر - وابتغاء القرار بعد السفر - أن أكتب إلى الرسالة في موعد كتابتي إليها. وقد فاتني أن أكتب إليها، ولم يفتني أن أذكرها؛ فليس بيدي ذلك وكل من لقيت مذكري بها، حتى في وعثاء الطريق.

برح القطار القاهرة، فلم يمض غير قليل حتى أثار علينا من العثير ما يملأ الخياشيم ويوشك أن يملأ الصدور؛ ووجدتني مرة أخرى في حياتي أوازن بين منفذ مفتوح وغبار

ثائر، وبين منافذ مغلقة وجو رائق. ولا صعوبة في الموازنة إذا كان الجو الذي يثور فيه الغبار جو تفكير وشعور وارتياء، فالغبار الثائر هنا أرحم وأدنى إلى الاختيار.
ولا صعوبة في الموازنة كذلك إذا كان الجو الذي يثور فيه الغبار جو خياشيم وصدور؛ فالجو الرائق هنا هو الأرحم والأدنى إلى الاختيار، وإن ضاقت الصدور بالحر والحرج؛ فضيق الصدور في الواقع أهون من ضيق الصدور في المجاز.
أغلقت النافذة واسترسلت في نسق من هذا التفكير أدرى كيف بدأ ولا أدري كيف أنتهى، لأنني ختمته في عالم الأحلام، ونمت والضجة من حولي وقد كان النوم عصياً ومن حولي السكينة والقرار.
ثم مضى القطار لا أسأله أين مضى ولا يسألني أين مضيت؛ حتى أشرقت الشمس على معالم الإقليم القنائي الذي يصح أن أعيد فيه ما قاله ابن الرومي:
فإذا تمثل في الضمير رأيته ... وعليه أغصان الشباب تميد
لأنني قضيت فيه أوائل عهدي بالخدمة الحكومية، ولبثت فيه زمناً أنتظر التثبيت فيحول بيني وبينه عيب واحد يا له من عيب! وهو أنني دون الثامنة عشرة بسنتين.
وأطلت أنظر الثامنة عشرة التي انتظرتها هنالك فترة من تينك السنتين، وأطلت النظر في مكاني. وحسبني بعض الرفقاء في القطار: هل من خدمة؟ ثم أسرع قائلاً: لا تؤاخذني أن أتطفل عليك بالسؤال فإنني لست بمتطفل في الحقيقة! لأنني أعرفك منذ عهد بعيد: ألست فلاناً؟ إنني ليسرني يا سيدي أن أؤدي لك بعض الخدمة التي أستطيعها، فهي دَينٌ لك علينا أجمعين.
قلت: يخيل إلي أنني أنا أيضاً أعرفك. ألست من برقة؟
قلت ذلك لأنني علمت أن في القطار نخبة من سراة برقة وأدبائها، وعرفت بلده من لهجته التي يسهر تمييزها بين لهجات مغربية عديدة لطول ما تحدثت إلى أبنائها في الصحراء.
فقال: نعم!
وبدأ الحديث في الأدب
وعطف بعد هنيهات إلى الرسالة وموضوعاتها وكتابها، فإذا صاحبي ملم بأدب مصر في هذا العصر إلماماً يندر بين شبان من المصريين. ولحق به أصحاب من قومه يكبرونه سناً ويشبهونه كياسة وأدباً، فإذا هم ملمون بشئون مصر العامة أحسن إلمام يتاح لغريب عنها، وإن كان اهتمامهم بالقادة والرؤساء أوفر من اهتمامهم بالكتاب والشعراء.
وإذا في برقة وطرابلس أحزاب لأدباء مصر وأحزاب لقادتها السياسيين، ومساجلات وفكاهات لا نسمع بمثلها في مصر، وهي أحق شيء أن نستمع إليه.
ولم أشأ أن يكون الحديث كله عن مصر وأدبائها، فسألته عن برقة وأدبائها، وما فيها من شعائر الحركة الأدبية، ولا سيما بعد احتلالها.
فراعني أن أسمع شعراً حسناً ينضج بالشاعرية المطبوعة، ويجري في صيغة عربية سائغة، وما سمعت بأسماء قائليه قبل ذاك وإنهم لأولى بالذكر من كثيرين.
أنشدني قصائد شتى لشاعرهم رفيق المهدوي، فاستزدته وقلت له: إنكم لعلى حق أن تفخروا به وأن تذكروه باسم (شاعرنا) كلما ذكرتموه، فرب قصيدة من هذه القصائد التي سمعتها هي أنفع في التعريف بكم والإصغاء إلى قضيتكم من دعاية الساسة الذين يجهلون الدعوة ولا يوجهونها إلى أحسن الأسماع وأصدق القلوب.
ومما أنشدنيه له قصيدة على وزن جديد يقرب من الوزن الذي اختاره الزهاوي لقصيدته:
ويلا يا ويلا! ... ما أقوى السيلا
ليلى سلِّيني ... سليني ليلى!
فقال في وصف الشاعر:
كالنحلة في الروضة تعبث بالنوار
إن رفرف كالواقف أو حوَّم أو طار
لا يقنع بالورد ولا زهر النسرين
فيميل من السرو إلى شجر المرسلين
كالظامئ يتلهف واظَمَأ المسكين!

لم يرو صدى الغلة من نُطفِ الأزهار
ما لاح له زهر إلا وتمناه!
كم صادف ما يحذر من خادع مرآه
(يحذَره حيناً ويعود فيهواه)
قل واهاً للشاعر من واه محتار!
كالنحلة في الروضة تعبث بالنوار
وأنشدني أبياتاً له فيها مداعبة وشكاية، وقد نفي من وطنه وكتب إلى بعض أخواته:
بعد السلام وتقديم احتراماتي ... أهديك يا سيدي موسى تحياتي
إلى أن يقول:
والله ما باختياري أن أفارقه ... لو لم ينغصه حكم الظالم العاتي
فارقت موطن آبائي على مضض ... مما تجرعت من هم وويلات
تأثرتني عيون القوم ترصدني ... تحصي خطاي فتحصيها خطيئاتي
وما جنيت سوى إنكار منكرهم ... بمذودي فتغالوا في معاداتي!
وظل ينشدني للمهدوي وزملائه وأستزيده، لأعرف ليبيا حقاً، وقد عرفتها حقاً، وقلت لأصحابي: إن ليبيا حية وفيها من يعبر عنها هذا التعبير. فاستوصوا بشعرائكم خيراً، فأنهم لأدل عليكم وعلى قضيتكم من جميع ما عرفناه عنكم
وعبر القطار بأسوان عاجلاً، فإن كنت قد أطلت النظر عند (قنا) لأرى الثامنة عشرة وما دونها، فقد أطلت النظر إلى أرباض (أسوان) لأرى السادسة والخامسة وما دونهما. فرأيت حتى استوفيت . . .
وتبيت الباخرة على النيل بين الشلال وحلفا ليلتين.
ففي تينك الليلتين كان السمر إلى هزيع من الليل عربياً في كل فن من فنونه، فما أحسب أن أمراً يهم العرب قاطبة قد تركناه في سمرنا فلم نعرج عليه ولم نطل الوقوف عنده.
ولم يرعنا مما ينغصنا إلا صوت طفل صغير من الليبيين يتكلم الإيطالية، لأنهم فرضوها على الصغار وأبعدوا ما بينهم وبين التمكن من العربية بمسافات وآفاق.
فعدنا إلى حياة اللغة العربية، وإلى مهمة أدباء العرب وصحافة العرب، ولا سيما الصحافة الأدبية.
ثم وصلنا إلى ما قبل حلفا وانتظرنا في الباخرة إنجاز مراسم الدخول والحيطة الصحية. فإني لأنظر من باب المقصورة إلى النيل إذ أقبل نفر من الفتيان الذين يلوح عليهم أنهم طلبة وموظفون. فسألوني: أأنت فلان؟ قلت: نعم. كيف عرفتم؟ فابتسموا وقالوا: لا تؤاخذنا إن قلنا من صور المجلات، ولا سيما الفكاهية!
قلت: يا أصحابي إن هذا لا يرضيني أو لا (يملقني) كما يقول الأوربيون. . . أو ترون الشبه قريباً بيني وبين تلك الصور إلى هذا الحد؟ قال قائل من الواقفين حولنا ليرضيني أو يملقني على حسب ذلك التعبير: بل هي مبالغة الرسامين في بعض معارف وجهك المميزة لك قد دلتهم عليك.
وما هو إلا أن فرغنا من شأن الباخرة وانتقلنا لقضاء الليل في مركبة القطار حتى كان أول حديث طرقه هؤلاء الفتيان ومن صحبهم بعد ذلك حديث الرسالة وآخر المساجلات الأدبية فيها. وبدأ لي في الخرطوم كذلك أن هذه المساجلات تعقد حولها حلقات مختلفات من المتشيعين لهذا الفريق أو لذاك، وبدا لي منذ أول الطريق أن أدباء ليبيا والأقطار العربية والسودان يأخذون علينا أنهم يعرفوننا ولا نعرفهم، ويتتبعون أخبارنا ولا نتتبع أخبارهم، وأن الأديب منهم يستطيع أن يحدثنا عن جميع كتابنا وشعرائنا ولا يستطيع أحد منا أن يحدثهم عن كتابهم وشعرائهم، وإن كانوا جدراء بالحديث.
وهذا كله صحيح ولكن السبب الذي يردونه إليه غير صحيح. فالمصريون لا يفوتهم ما يفوتهم من أدب ليبيا والأقطار العربية والسودان لأن اهتمامهم بالعرب أقل من اهتمام العرب بمصر، كلا وأقولها عن يقين، وإنما يفوتهم ما فاتهم لأن صحف مصر تصل إلى كل مكان في بلاد العربية، ولا يصل إلى مصر من صحف تلك البلاد إلا القليل.
ويخطر لي في هذا الصدد أن صديقنا الأستاذ الزيات قد فكر في تخصيص أعداد لكل أمة من أمم الضاد يحيط فيها بشئون تلك الأمة أدباً وثقافة ومرافق أخرى؛ فإذا مضى في تحقيق

تلك الفكرة فقد أتم سفارة الرسالة فأصبحت لها السفارة المزدوجة بين مصر وجاراتها وأخواتها، فتسفر للمصريين عندهم، وتسفر لهم عند المصريين، وتعمل في وحدة العرب ما لا يرجى أن تعمله السياسة، لأنها تفرق ولا تؤلف، وتلتوي ولا تستقيم.

هذا بعض حديث تلك (السفارة) في رحلة عاجلة بين القاهرة والخرطوم. ولو شئت لطال وطال، لأنه حديث موصول يتجدد كل أسبوع، بل كل يوم اجتمع فيه ندى من القراء والأدباء، وهم يجتمعون هنا عامة الأيام.

لكني أختمه الآن بما لا يخرج عنه من مساجلات الرسالة أيضاً؛ فقد سئلت هنا رأيي في مناقشات بعضهم لي حول رسالة الغفران وصداقات الأدباء.

فأما رسالة الغفران والشبه في محاوراتها بين ما كتبه أبو العلاء وكتبه لوسيان فلست أنوي أن أعود إليه وقد أغناني عن العودة إليه ما كتبه الأديب الجبلاوي حين سأل المعترض أن يذكر أحداً غير لوسيان تقدم المعري بذلك الحوار. أما رحلات الجنة والنار فنحن قبل عشرين سنة قد ذكرنا وأكدنا إنها ليست بالشيء الجديد.

وأما صداقات الأدباء فالمناقشات فيها أعجب وأطرب! نحن نأخذ على الأستاذ الحكيم أن يضرب لنا المثل بصداقات الأدباء في أوربا لأنها لا تخلو من العلات، فيجيئنا من يعترض فلا يكون اعتراضه إلا تكريراً لما قلناه، وهو أن صداقات الأدباء الأوربيين ليست على المثال الذي تصوره الأستاذ الحكيم!

وأعجب من هذا وأطرب أن نشير إلى صداقات الأدباء في إنجلترا ونذكر بيرون وشيلي فيكون الاعتراض أنهما لم يتقابلا في إنجلترا بل تقابلا في إيطاليا. . . فهما إذاً قد أصبحا من أدباء الأمة الإيطالية وخرجا من عداد الأدباء في الأمة الإنجليزية!

مثل هذا المحال لا نرد عليه، ولا ننوي بعد اليوم أن نرد عليه. وحسبنا أننا لم نلق من قارئ هنا إلا وقد رد على ذلك الاعتراض بالإعراض.

الخرطوم

عباس محمود العقاد

شبان اليوم الجديد في مصر المحروسة

للدكتور زكي مبارك

من عادة المربين والمصلحين أن يكثروا من اللوم والتثريب على أبناء الجيل الجديد، ليصوروا عيوبهم تصويراً يخوفهم عواقب التهاون والتفريط في حقوق الأدب والأخلاق وتلك وسيلة صحيحة من وسائل التهذيب ورثناها عن الأسلاف، ولا بأس بالاعتماد عليها من حين إلى حين، إذا سلكنا في الدعوة إلى الأدب والأخلاق مسلك الترهيب، وهو مسلك مطروق منذ أجيال طوال

ولكن التجارب علمتني أن الترغيب أنفع من الترهيب، ومن تلك التجارب عرفت أن التنبيه إلى القوى الغافية في صدور الشبان قد يدلهم على حقائق أنفسهم فينقلهم من حال إلى أحوال

والحق أن الشاب المصري خلق ليكون رجلاً عظيماً، ومهما أسرفنا في سوء الظن بشبان مصر، فمن المؤكد أنهم بالإضافة إلى أمثالهم في الشرق والغرب أفضل وأشرف، ومن النادر أن تجد شاباً مصرياً بلا آمال تضيفه إلى أكابر الرجال، ولذلك شواهد يعرفها من يتصل بشبان (مصر) عن طريق الصحافة أو التأليف أو التدريس الشاب المصري يبحث في كل لحظة عمن يدله إلى طريق المجد، ولو نشرت الصحف إعلاناً عن كتابين يختص أحدهما بوصف حياة الهزل والمجانة، ويختص ثانيهما بوصف حياة الجد والرصانة، لكان الكتاب الثاني هو الكتاب المنشود، لأن شبان هذه البلاد مفطورون على احترام الأدب السليم من شوائب الأمراض

وآية ذلك أن الذاتية الأدبية تجد أنصاراً من الشبان في كل وقت، وهم يتحمسون لها تحمساً لا يخطر في البال، وقد يتسامعون بمقالة جيدة، فيجدون في البحث عنها جداً يشهد بأنهم من أكابر أهل الأذواق والعقول

أكتب هذا وقد فاضت عيناي بالدمع حين تلقيت خطابات كريمة تصور فرح الشبان بالحديث عن أمجاد مصر المحروسة في القديم والحديث، وهم شبان كان التاريخ المغرض حدثهم أن مجد مصر ليس إلا أسطورة من أساطير الأولين

وآه ثم آه من التزوير في التاريخ!!

. . .يا بني الأعزاء، تذكروا - غير مأمورين - ثم تذكروا
ومن حبات دمعي أنظم عقد الحديث فأقول:
في جميع الكنائس بالشرق والغرب تجدون صورة (العذراء) تحتضن (المسيح) وهو صبي في المهد، فهل تعرفون كيف عللت تلك الصورة الرمزية؟
عللتها منذ أعوام بأنها تصوير لحنان الأمومة الرقيقة، وجاز عندي القول بأن النصارى من اليونان هم المبدعون لذلك الرمز الدقيق. وهل ينكر أحد فضل البراعة اليونانية على الديانة المسيحية؟
لا جدال في أن من ابتكر صورة المسيح تحتضنه العذراء كان أعظم مبتكر في تاريخ الأخلاق. ولا جدال في أن تلك الصورة كان لها تأثير عظيم في عطف الآباء على الأبناء.
ولا جدال في أن تلك الصورة لم تعرف قبل ميلاد المسيح، وقبل أن تتصل مأساته بتاريخ اليونان والرومان، كما كنت أقول، وكما كان يجب أن سأقول، لو طال جهلي إلى آخر الزمان!
ولكن الله لطيف بعباده، أراد أن يطب لجهلي برفق ولطف، لأني طالب علم، وطالب العلم لا يخطئه التوفيق!
فكيف اهتديت بعد ضلال؟
رأيت صورة في الجزء الثاني من (التاريخ المصري القديم) لأخي وصديقي، وصاحب الفضل الأعظم على أدبي وبياني، عبد القادر حمزة باشا، وهي صورة تغافل عنها عامداً متعمداً، لانتفع بمغزاها بعد أن يموت، وكان يعرف أني لن أرثه إلا بالفكر والروح، وذلك أشرف المواريث
عبد القادر الوفي أراد أن يمنحني فرصة من فرص التحليق في سماء الفكر والخيال، فأثبت في الجزء الثاني من كتابه صورة أعفاها من التفسير والتأويل، عن علم لا عن جهل، لأقول فيها ما أشاء.
فما تلك الصورة الرمزية؟
هي صورة (إيزيس) وهي ترضع أبنها (حوديس)
وإذا عرفنا أن عبادة إيزيس كانت عقيدة اليونان والألمان والطليان والأسبان والفرنسيس
والإنجليز أكثر من خمسة قرون أدركنا أن صورة (العذراء) وهي تحتضن (المسيح) ليست إلا صورة (إيزيس) وهي ترضع (حوريس)
وإذن؟
وإذن تكون مصر هي التي أبدعت فكرة الأمومة في الصور المسيحية. ثم؟
ثم تكون مصر صاحبة الفضل على ما أبدعت صور العذراء من فنون.
عبد القادر لم يلتفت إلى الصورة التي وضعها في الجزء الثاني من كتابه النفيس، لأن الموت صرفه عما يريد أن يقول، أو لأنه أراد أن يترك تفسير المراد من تلك الصورة لأحد أصدقائه الأعزاء
والنتيجة أنه لا توجد صورة للعذراء في شرق أو في غرب إلا وهي مستوحاة من صورة إيزيس وهي ترضع حوريس.
ألم أقل لكم إن مصر هي وطن المعاني؟
من كان يصدق أن مصر هي الوطن الأصيل للصورة التي يخضع لصولتها الفرنسيس والإنجليز والأسبان والطليان والألمان؟
لم يكفر أحد بأقبح مما كفر المصريون، ولم يؤمن أحد بأوثق مما آمن المصريون، لأن مصر هي غاية الغايات في التعصب للكفر والإيمان.
وهل كفرت مصر في أيامها الخوالي حتى نجعل الكفران طوراً من أطوارها في التاريخ؟
إن القول بتعدد الآلهة كان في إحدى مراحل الإنسانية صورة من صور الهداية، وهو لم يصدر عن عناد، وإنما صدر عن يقين، ولله حكمة عالية في تنشئة الإفهام على نظام تنشئة الأبدان. فهو يسمو بها رويداً رويداً بترفق وتلطف، إلى أن تقوى وتستحصد، ثم يتركها لتصارع وتجالد في ميادين الزيغ والارتياب.
وتاريخ مصر يشهد بأنها فطرت على إيثار الجد في تناول المعاني، فكانت في عصر الوثنية أعظم أمم الوثنية، وكانت في عهد النصرانية أول أمة أرخت بمصارع الشهداء،

فلما هداها الله إلى الإسلام كانت الحافظة الواعية للأمجاد العربية والإسلامية، ولو قال قائل بأن مصر هي التي وقت العروبة والإسلام من تطاول الغرب وتخاذل الشرق لكان أصدق الصادقين.

اسألوا العلم قبل أن تسألوا التاريخ يحدثكم أن ضياء الشمس في مصر لا نظير له في أي أرض، حتى قيل أنه السبب الأول في كثرة أمراض العيون بهذه البلاد. واسألوا العلم أيضاً يحدثكم أن الخصب في أرض مصر يفعل بأهلها ما لا يفعل الجدب، لأن أبناءها يموتون بالبطنة، على حين يموت غيرهم بالجوع.

فما قولكم في أمة لا تعاني غير كثرة الزاد وقوة الضياء؟

أكتب هذه الفقرة من هذا المقال في منتصف الساعة الخامسة من صباح اليوم الثلاثين من يولية، بعد قضاء نحو ساعتين تحت أزيز الطيارات وضجيج المدافع، وكان القمر - القمر المصري - يغمر الليل بنور وهاج يسمح بنظم الخيط في الإبرة بلا عناء.

أنا لا أبالغ، فقد بدا لي أن أجرب ذلك في قمر هذه الليلة، ولم أفهم كيف تحرم وزارة الوقاية إضاءة المصابيح وقت الغارات في الليالي المقمرات، وهي تعلم أن اللئام المغيرين يهديهم القمر بأقوى مما تهديهم المصابيح؟

وهذا الطيران الذي يهدد مصر بوقاحة ونذالة وسفاهة هو نفسه والطيران المدين أثقل الدين لجو هذه البلاد.

هل نسيتم ما حدثتكم به على صفحات الرسالة قبل عامين؟ كنت حدثتكم أن الطائر المصري المسمى بالحدأة - وهو طير جارح لا ينجبه غير جو مصر، وإن وجد بقلة في بعض الديار الشامية - كنت حدثتكم أن الحدأة هي المعلم الأول لعلم الطيران، وبها استهدى (مويار) المسكين، الذي ظل على سرير الموت ثلاث أيام بإحدى الغرف السطحية في شارع الموسكي بالقاهرة، ولا أنيس لجسمه الميت غير أسراب من الحدأة تراوحه وتغاديه في حسرة والتياع، إلى أن تنبه لموته الجيران

في ليلتي هذه عانت (مصر الجديدة) من صراع الطيارات المغيرة والمدافعة ما عانت، مع أن مصر الجديدة هي الوطن لتمثال مويار، مويار الذي نقل عن (الحدأة المصرية) علم الطيران

فيا رب الأرباب، ما الذي بقى مما طويت عن أوربا من أعاصير الغدر والعقوق؟

إن الأمم الأوربية تحترم حياد الديار السويسرية، فهل تعرفون لأي سبب يحترم ذلك الحياد، في تلك البلاد؟

هل كانت سويسرا مهد موسى أو عيسى أو محمد؟ هل نشأ فيها بوذا أو كونفشيوس؟ هل كانت ملاذ آدم حين هبط الأرض؟

لا هذا ولا ذاك، وإنما يحترم زعماء أوربا حياد سويسرا لتكون تلك الديار خزائن أمينة لما يدخرون من نفائس الأموال، فهم يتضامنون تضامن الجشع لا تضامن الوفاء

فما ضرهم لو أعفوا مصر من صيال الطيارات، لأنها الوطن الذي أنجب علم الطيران؟

ما ضرهم لو تذكروا دين مصر في أعناقهم، وهي أول أمة وضعت التقويم الشمسي، فعلمت أمم الأرض مواعيد الزرع والحصاد؟

ما ضرهم لو تذكروا أن الفلاحين الذين سخروا لحفر قناة السويس ملئوا جيوب الأوربيين بالملايين والبلايين من قطع الذهب الفتان؟

ما ضرهم لو تذكروا أننا ما بغينا عليهم، وأن الفضل يرجع إلينا في نقد علومهم وآدابهم إلى أقطار الشرق؟

ما ضرهم لو تذكروا أن اليونان الذين علموهم لم يكونوا إلا تلاميذ المصريين؟ وما ضرهم لو تذكروا أنهم لم يفكروا في تخليد عظيم من عظمائهم إلا بوحي من علم قدماء المصريين؟

سويسرا تتمتع بالحياد الدائم، لأنها مستودع ذخائرهم وكنوزهم، أما مصر فليس لها في أذهانهم غير الصور التاريخية، والويل كل الويل لمن يكتفي بمجد التاريخ!

ولكن مصر، لو عقلوا، صاحبة الفضل على أبنائهم في العصر الحديث؛ فقد أغنت منهم الألوف وألوف الألوف، والضيم المخوف على مصر لن يعفي أولئك الأبناء، ولن تصاب مصر بأعنف مما يصابون، فليجرب الأوربيون حظهم في اضطهاد هذه البلاد، ليروا أن مآلهم إلى الخسران

هل تذكرون قصة (هيس) أحد زعماء الألمان؟

كان أول من فكر في الصلح بطريقة جدية فامتطى طيارته من أرض الألمان إلى أرض البريطان، ليتفاهم مع صديق له هناك، ثم شاء الحزم الإنجليزي أن يحتاط فأوثقه بالقيود لئلا يكون في دعوته من المحتالين

فكيف نشأت فكرة الصلح عند (هيس)؟

تلك فكرة نقلها عن الروح المصري، وقد ولد في مصر، ونشأ في مصر، محوطاً بالرعاية

من جيرانه المسلمين، ولعله حفظ الآية التي تقول: (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله) فكان من أخباره في الاصطدام بالأثرة الأوربية ما كان. وسنعرف جلية هذا الخبر بعد زمن قصير أو طويل؛ ولكن المؤكد أن نشأة هيس في مصر التي فرضت عليه الشوق إلى الصفاء

أما بعد فأين أنا مما أريد أن أقول؟

هذا مقال غيرت عنوانه مرتين، فقد كتبت شطره الأول في صدر الليل، وكتبت شطره الثاني حين كانت (نجمة الفجر) توهمني أنها مصباح أرسلته الطائرات المغيرة لاستكشاف ضمير العداء

وكان لي مع نجمة الفجر تاريخ سجله (الموال) المعروف:

يا نجمة الفجر طُلِّي وارجعي روحي ... وسلِّمي لي على اللِّي عندهم روحي

كنت أراعي نجمة الفجر بسبب الحب، فصرت أراعيها بسبب الحرب، وإن شقائي ليتمرد كلما تذكرت أن موقفي موقف المشاهدين لا موقف المحاربين

ليس في نيتي أن أمحو حرفاً من هذا المقال، لأني لا أريد أن ارجع إليه بالتغيير والتبديل، فكيف كان البدء حتى ينسجم مع الختام؟

لعلني قلت إن صورة إيزيس وهي ترضع حوريس هي التي أوحت صورة العذراء وهي تحتضن المسيح. ولعلني قلت إن مصر وجهت العالم كله إلى فنون من معاني العظمة والخلود. ولعلني قلت إنها هدت بني آدم إلى فكرة الطيران في سماء الواقع بعد أن هدتهم إلى الطيران في سماء الخيال

وطني!

أنت كما أعرف، وفوق ما أعرف، ولو أن الله لم يبدع خلقاً سواك لكنت وحدك الآية الباقية على أنه الخلاق الوهاب

وطني!

في سبيل الظفر بآلائك ولألائك سهرت عيون وشقيت عقول، فكيف أمن عليك بليلة لم يكن فيها سهد عيني وجهد عقلي، إلا هتافاً بمجدك في حاضرك وماضيك، يا آية الله في هذا الوجود

وطني!

أنا أسبح لله الذي أنشأك على خير مثال، فكانت فيك الخصائص الأصيلة لجميع الأوطان، من أنهار وبحار وصحراوات، ومن آلام وأمال

وطني!

قال العلماء إنك اختصصت بالسمك المدرع بالكهرباء، فهل يقولون أيضاً إنك اختصصت بالقلب المدرع بالوفاء

زكي مبارك

سيكولوجية إدلر

تلخيص وتبسيط

للأستاذ محمد أديب العامري

نظرة عامة

يرى الفرد إدلر أن اتصال الإنسان - ذكراً كان أو أنثى - بالحياة والناس يقوم على دعائم ثلاث: العمل والحب والعلاقة الاجتماعية. هذه عنده هي وظائف الفرد في الحياة؛ فإذا كان الفرد مطمئناً فيها جميعاً كان إنساناً سوياً هانئاً، وإلا فإنه لا ينجو حين تنقصه الحياة إحدى هذه الصفات الثلاث من أن يكون هدفاً لانحراف عصبي.

ولإدلر نظرية قائمة بذاتها في علم النفس مركزها فكرة (النقص). ويظهر من تجارب الناس في الحياة أن فلسفة إدلر النفسية تقوم على شيء من الصحة، إن لم تقم على الصحة كلها، بالرغم من النزاع العنيف بين أتباعه وأتباع فرويد.

ونظرية إدلر الأساسية في علم النفس بسيطة. وقد وضعها هو في عبارات وشروح سهلة تجعل كثيرين ينظرون إليها مرتابين أول الأمر، خشية أن تكون هذه الفكرة قولاً عادياً لا طائل وراءه. والذي قرب نظرية إدلر من الأذهان أمران: أولهما نزعته العنيفة إلى التبسيط، وثانيهما طواعية أمثلة كثيرة من الحياة لتكون شواهد عليها، وشعور كل إنسان بشيء منها في نفسه. والنظرية تؤول بعد إلى دعوة إصلاحية عامة ذات مساس شديد بمصالح الناس وهنائهم. ولا عجب في ذلك فإدلر يعتقد مع وليم جيمس (أن العلم الحقيقي ليس إلا العلم الذي يتصل بالحياة اتصالاً مباشراً).

وفلسفة إدلر في علم النفس تدعى (السيكولوجية الفردية). وهو يذكر أن هذه السيكولوجية إنما نتجت معه من دراسته لدوافع الحياة الخلاقة، أي الدوافع الخفية التي تحدو بالأحياء إلى الرقي والتطور، بالرغم من أي عائق يعوقها. ولذلك يرى أن الكائن البشري وحدة تستهدف غرضاً معيناً في اندفاعها نحو الرقي والتكامل. إن للنفس البشرية طابعاً خاصاً يتكون في الصغر. والنفس تحب أن تتكامل فتسد ما بها من نقص أو تندفع إلى الأمام نحو هدف ثابت للرقي.

وإدلر قد لاحظ أن الجسم البشري تتساند جميع أعضائه لتحفظ الجسم وتسعده. بل هو يلاحظ أن أجزاء الجسم تحاول أن تسد أي نقص يطرأ عليه. فالجسم يجرح مثلاً فتعمل سائر أعضائه على تغذية المكان المجروح ووقايته حتى يلتئم ويذهب الألم والتشويه الناتجان من ذلك: (الحياة تحاول دائماً أن تستمر، وقوى الحياة لا تخضع قط لأي عائق من الخارج يحول دون استمرارها من غير أن تجهد نفسها في التغلب عليه. وأن حركة النفس لشبيهة بحركة الحياة العضوية)

وهذا معناه أن النفس البشرية كذلك تتعاون أجزاؤها في سبيل إسعاد النفس كلها ودفعها إلى الأمام في طريق السمو. فالنفس البشرية لها هدف أو مثل أعلى، وهي تحاول أن تتخطى الحالة التي تكون عليها. فلو كانت منقوصة حاولت أجزاؤها الأخرى أن تسد النقص. أما هذا الهدف فإنه يتكون في أول عهد الطفولة الباكر في السنوات الأربع أو الخمس الأولى من حياة الطفل. ويتركز الهدف الذي تستهدفه النفس حول نقص تحس به من جراء عضو مفقود أو مشوه. فالطفل ينقصه هذا وهدفه الذي تستهدفه نفسه من جراء هذا النقص يكون وحدة كاملة يسميها إدلر (النموذج الأول). .

- وهذا النموذج الأول للطفل يظل هو في أساسه لا يتغير مدى حياة الطفل، وإنما يمكن تعديله وتوجيهه وجهات حسنة، وهذه هي فائدة السيكولوجية الفردية. وخير وقت لهذا التعديل والتوجيه هو في فترة العمر الباكرة، التي يتكون أثناءها النموذج الأول وليس من الضروري أن يتشكل الشعور بالنقص من جراء فقدان عضو أو تشوهه، ولكن حرمان الطفل من مميزات الحياة، وخاصة بالنسبة إلى غيره من الناس، يولد فيه الشعور بالنقص. فالتربية الناعمة المرهفة (المدللة) للطفل التي تحفه بعناية زائدة لا حاجة إليها، أو الكره الشديد الذي يحس معه الطفل حرج مركزه بالنسبة إلى غيره، هي من الأمور التي تزرع فيه الشعور بالنقص من ناحية أخرى. إن الطفل المدلل يتعود الاعتماد على أهله، فإذا نما لم يستطع مقابلة الحياة، وإنما يطلبها على الشكل الذي كان يطالب به أهله وهو صغير؛ وبالطبع لا يجد من الحياة التلبية التي كان يجدها من أهله، فتتغلب عليه الحياة وتهزمه، وينحرف بذلك إلى نواحي الحياة الضارة. فالحياء الشديد، والادعاء، والقعود عن العمل، والإجرام، والجنون والإدمان على الخمر. . . الخ: هي مظاهر مما تؤول إليه حالة الطفل إذا نشأ غير سوي، واستولى عليه شعور بالنقص

وعندما يلخص إدلر نظريته يقول: (لا مندوحة من الاعتراف بأن طريقة السيكولوجية الفردية تبدأ وتنتهي بمشكلة النقص. . . فالنقص هو أساس الجهاد البشري والنجاح. غير أن الشعور بالنقص هو أساس جميع مشاكلنا النفسية. إن الفرد لم يجد هدفاً من الرفعة تعرض لشعوره بالنقص، وهذا الشعور يقوده إلى مخرج يخلصه من مواجهة الحياة، هذا المخرج هو الذي يدعى (مركب العظمة)؛ ولا يزيد هذا المركب عن كونه هدفاً عابثاً غير مفيد، يوهم بالرضا الذي يناله الإنسان من نجاح خيالي. . .)

وما دام الشعور بالنقص هذا هو أول ما تنحل إليه نظرية إدلر النفسية وآخره، فجدير بنا أن نبحث هذا الشعور بشيء من التفصيل:

الشعور بالنقص

فكما قد أسلفنا من قبل يبدأ الشعور بالنقص في الطفل من نقص أو ضعف في التركيب الجسماني، ومن الحرمان النفسي مهما كان نوعه. ويتوقف نوع الشعور على نوع الضعف أو على نوع الحرمان. ويشمل ذلك عوامل البيئة التي نشأ فيها الطفل، وخاصة طبائع الوالدين والناس المحيطين به وجميع الذين يؤثرون في تربيته أو الوضع الاقتصادي الذي ينشأ فيه

ومن البين المهم أن الطفل لا يقوى على العيش وحده حين يولد، ولذلك كان لا مناص له من أن يعتمد على غيره - عائلته - في مطلع حياته

واعتماده هو مبدأ إحساسه بالحاجة إلى غيره. وهذا الإحساس يستمر معه في الحياة؛ فمتى كبر وأضحى مستقلاً كان موضعه بالنسبة إلى المجتمع كما كان موضعه بالنسبة إلى عائلته وهو صغير؛ وبعبارة أخرى تنتقل حاجة الفرد إلى جماعة أكبر. ومن هنا يشعر الكبير بحاجة إلى الناس. وشعوره بالنقص يحمله على مواصلة العلاقة بالمجتمع. (فمبدأ الحياة الاجتماعية)، كما يقول إدلر (هو ضعف الفرد؛ واستمرار ضعفه بالنسبة للمجتمع يلزمه أن يكون اجتماعياً). وهذه الملاحظة مهمة من ناحيتين: أولاهما إشارتها إلى أن الإنسان اجتماعي بالطبع، والأخرى الإلماع إلى أن طمأنينة الفرد في المجتمع الذي يعيش فيه من أحق علاقات الشعور بالنقص كما سيجيء

(البقية في العدد القادم)

محمد أديب العامري

كتاب الإمتاع والمؤانسة

الجزء الثاني

للأب أنستاس ماري الكرملي

(تتمة)

وفي 85: وإن التذ بالدستنبان فلن يعد موسيقاراً؛ والصواب التذ بالدستان، والدستان أسم لكل لحن من الألحان المنسوبة إلى باربد. أما الدستنبان، فلم ترد في كلام العرب، ولا في كتب اللغة وجاء في ص 90: فإن الصانع لا يقدر على عمله الذي كان يعمله إلا أن يتخذ دكاناً آخر، وآلات جدداً أخر. وضبطت جدداً بضم ففتح. والصواب جُدُداً كعنق لأنها جميع جديد؛ لكن الذي غره هو سماعه الدائم للآية (ومن الجبال جدد بيض). فهنا جدد بضم ففتح لأنها جمع جُدّة كغرفة أي طريقة ظاهرة، وأما في نص التوحيدي فهي جمع جديد

وورد في ص 99 في الحاشية: الإسطام مسعار النار وهي الحديدة التي تسعر بها، والأحسن تحرك بها

وفي ح ص 105: هذا أوان الرطب بضم الراء؛ والصواب بضم الراء وفتح الطاء

وفي ص 110: ويجعلها (أي يجعل الأحجار) ملساء، وضبطت كحمراء؛ والصواب ملساً بضم الميم، وإسكان اللام، وفتح السين، لأن جمع أملس وملساء مذكراً ومؤنثاً ملس (راجع فساد قول القائل صخور ملساء في مجلة المجمع العلمي العربي 17: 233 و 234)

وفي ص 87: الشُريان، وضبطت بضم الشين والصواب بفتحها وكسرها، لكن لا بضمها، لأن الضم غلط وفي تلك الصفحة نفسها (من الأربع)؛ والصواب الأربعة، لأن الاسطفس مذكر

وفي ص 110: فمثل النُوشاذر؛ والذي ورد في كتاب عجائب المخلوقات للقزويني المطبوع على حاشية حياة الحيوان من تأليف الدميري ص 327 النوشادر بالدال المهملة، والكلمة فارسية وهي في هذه اللغة بالدال المهملة؛ إلا أن هناك قاعدة عند المعربين أن كل دال مهملة فارسية قد تقلب ذالاً معجمة عند تعريبها، إذا سبقها حرف عليل ساكن؛ ومع ذلك فقد اشتهرت دال النوشادر بلا نقطة

وفي ص 111: القلعي (وضبطها بالتحريك) قريب من الفضة في لونه؛ وصواب الضبط بفتح القاف وإسكان اللام، كما في معجم ياقوت في مادة (القلعة)، وكما في القاموس أيضاً وتاج العروس وجميع كتب اللغة التي يعتمد عليها

وفي تلك الصفحة: والزرقة للزهرة والبياض للقمر؛ وضبطت هاء الزهرة بالسكون، إذ لا حركة عليها، وضبطت ميم القمر ورائه بالفتحة والصواب للزهرة بالضم ففتح ففتح وصوابه للقمر، بفتح القاف والميم وكسر الراء

وفي ص 158: (قال: نعم وكرامة) - والصواب: قال: نعم، حباً وكرامة. هذا هو المشهور عندنا في العراق، وعند الأدباء الحذاق. ففي القاموس في مادة (ح ب ب): الحب (بالضم): الجرة، أو الضخمة منها، أو الخشبات الأربع توضع عليها الجرة ذات العروتين، والكرامة: غطاء الجرة. ومنه: حُبّاً وكرامة انتهى.

وفي ص 162: (وأما البركة فهي السماء والزيادة والرفع) والصواب: والرفع بغين معجمة في الآخر، وهو السعة والخصب

وفي ص 187: (وهاأنا آخذ في نشر ما جرى) والمشهور عند الفصحاء: (وهاأنذا آخذ. . .)

7 - أوهام الطبع والرسم

صفحةسطرخطأصوابه

تنبيهات4الجزآنالجزءان

2719يقرؤهايقرأها

294طيءطيّئ

353ملآىملأى

438مماثلةًمماثِلةً

4614العالالعالم

46: 7 الرآسة: الرئاسة: 5 و184: 12و 149 و

483استطاعة الاستطاعة

495الشَهَويةالشَهْوية

571وضوئيوضوءي

60 قبل السطر الأخير رآى رأى

63 قبل السطر الأخير ثماني أوافي ثماني أواقيّ

7514رءوساًرؤوساً

8113ثمان سنين ثماني سنين

1165فِكَّرٌفِكَرٌ

118 الجزأينالجزءين و168 و194

12013أسئلهأسأله

1273مسكنمسكن بكسر الكاف هو الأفصح

1272المَرّيّالمُرّيّ

130 آخر سطر وأولى بالبراعة؟؟ - لا نفهم سبب وضع علامتين للاستفهام فهذا مخالف لما وضعه أرباب الرسم الذين أوجدوه

13713الشسعرالشعر

13717 والعلماء؛ استعمل الناشران أربع مرات علامة الاستفهام والهتاف؛ و18؟! واضعو هاتين العلامتين لا يستعملونهما معاً في آخر العبارة الواحدة، بل يستعملون سمة الاستفهام مرة واحدة إذا كان ثم ما يشعر بالاستفهام؛ وسمة الهتاف إذا كان ما يشعر بالألم أو نحوه، أما استعمال العلامتين معاً في آخر العبارة الواحدة فما لم يجر على قلم كاتب أو أديب منهم

185في قلب الصفحة هذا القسط؟! لا معنى لهاتين العلامتين معاً

139في قلب الصفحة: الأخفِش: الأخفَش (بفتح الفاء)

1621وشُؤِموشُئِم

1622ومشئومومشؤوم

1663أقحَوانأقحُوان (بضم الأول والثالث)

16810باهتةمبهوتة

17621تتبيننتبين

1995أخطأ نوأها أحوى نوءها

1996من ليس في خيره شر من ليس في خيره من

1998اجلوّذ السفر اخرّوط السفر

2003لا يصعب الأمر لا يضعف الأمر

وفي ص 200 س21: (والصفر. زعموا أنها دويبة مثل الحية تكون في البطن تعتري

من به شدة جوع)
كنا نود أن يقال: الصفر في زعم الأولين دويبة. . . وهو وهم منهم. والصواب أن مواد نسج الجسم الغذائية تضعف فيشعر مجموع الأعصاب بما ينتشر من ذلك الضعف في البدن كله، فتظهر الحاجة إلى ما يعوض عن ذلك الضعف
وفي ص 203 ص 9 يبدءوا والصواب يبدءوا
ومن الأغلاط الشائعة في مصر وتستحق أن يشار إليها إشارة خصوصية، ما يأتي:
ص 23 س 18 أصواب هو أم خطأ. . . أم خطأ وزان سحاب لضد الصواب، على ما في كتب اللغة
ص 42 س 10 وبالجاذبة تجذب برفع الباء (يجزمون حيث لا موجب للجزم) والصواب تجذب برفع الباء
ص 81 س 14 بثمان سنين: بثماني سنين
ص 110 س 15 البَوْرق: البورق بضم الباء
ص 110 س 13 النوشاذر. لم ترد هذه الكلمة مضبوطة في كتب اللغة القديمة كاللسان والقاموس، ولا في تاج العروس مع حداثته، لكن الزمخشري ذكرها مضبوطة ضبطاً تاماً محكماً في كتاب مقدمة الأدب في ص 59 س 19 ووزن نوشاذر فوعالل الذي هو مد فعالل كجلاهق وعجاهن وسرادق. وليس في العربية فعالل بفتح ما قبل الآخر، ولهذا نستغرب ضبط نوشاذر بفتح الذال، إذ لا مثال له ولا لنشاذر، فضبط الأديبين الضبط الذي اعتمداه لا يدل على وقوفهما على أسرار العربية. زد على ذلك أنه ليس بالضبط الفارسي كما يتصوره القارئ.
8 - مقابلة النص ومعارضته بما جاء منه في الكتب المنشورة
كنا نود أن نذكر في ختام هذه الكلمة معارضة نص هذا الكتاب المنشور حديثاً بما ورد مطبوعاً من الكتب التي صنفها الأقدمون، ممن كان في عصر المؤلف أو جاء بعده، فرأينا أن ما جاء مثبتاً في هذه النسخة من الزيادات، وبعض الأحيان من الحذف والنقص، ومعارضتها بعضها ببعض ينشئ في صدور القراء مللاً وضجراً، فعدلنا عن هذا القصد إلى الإشارة بمراجعة كتاب ابن القفطي في كلامه على مؤلفي كتاب إخوان الصفاء في ص 82 من طبعة الإفرنج؛ ثم مراجعة ديوان الأعشيين طبع أوربة في ص 198، ليتأكد القارئ أنه كان من اقدس الواجبات على الناشرين أن يراجعا هذين السفرين وغيرهما من المطبوعات، وإلا فعملهما هذا جاء خداجاً، ويحتاج إلى إعادة النظر في ما طبعاه، ومقابلته بما ذكرناه لهما
وعلى كل، فإننا نشكرهما كل الشكر على ما قاما به من إخراج هذه الدرة الثمينة من مكمنها، وعرضها على الناطقين بالضاد بهذه الحلي البديعة، والوشي الجاذب للأنظار، والمشوَّق لاقتنائه، ووضعه في مصف كنوز الأقدمين، ورفع منزلتهم بين علماء الأقوام المختلفة وكتابهم العظماء، ومصنفيهم البلغاء.
ونحن نتوقع أن يكون طبع المجلد الثالث بعناية أعظم وتحقيق بالغ أقصى المنى، ومنه تعالى التوفيق
(بغداد)
الأب أنستاس ماري الكرملي
من أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية
. . .شجون ودروس
للأستاذ إسماعيل حمدي
في مطلع العدد 471 من (الرسالة) العزيزة، وفي (شجون) قريعها الدَّارع الدكتور زكي مبارك، درس قيَّم تفضل به على من كتب في (اتجاه رجال الأدب في العصر الحديث) وأحب الدكتور أن يكون في هذا الدرس على إيجازه بلاغ لمن يتورط في الكتابة والنشر وهو مفتقر إلى محض سلامة النظر، فضلاً عن قوتها وحدتها واستوائها جميعاً
والدكتور رغم كفاية الفطنة والخبرة لديه من طول (ما ابتلى بزمانه وأهل زمانه) لا يزال - بمعجزةٍ ما - يطمع في أن يعترف متورطٌ بتورطه، أو يتعلم مخطئ من خطئه، وخاصة في هذه الديار!

لا يا سيدي، عد إلى آلاف العقائد التي لا تستطيع أن تحصيها. . . آلاف العقائد التي كونتها ولا ريب عن الناس منذ احتككت بهم، وعالجت من حقهم وباطلهم، ورشدهم وسفههم، فأنت واجد فيها ما يردك إلى اليأس المطلق من هذا الطمع الذي طمعت، إلا إذا ضربت بلا رحمة، وانهالت ضرباتك على المقاتل فوجد صريعك مسَّ الأذى وفرط الألم، وبات بين فرار الهارب وصراخ التائب، وأيهما اختار فحسبْنا لتستأنف القافلة المسير، ويبلغ الكتاب أجَلَه

نعم. فما ينبغي أن نتسلَّى بالاقتراح على أحد أن ينحني على منطقة فيضع شيئاً مكان شيء، ويتخير مادة دون مادة؛ فحسب الطفل لكي يمتلئ رأسه الضئيل بالعناد أن نقترح عليه تغيير اللعبة التي في يده؛ فإن ذلك أحرى أن يزيده تشبثاً بها وتوهماً فيها، وشروداً في أخيلته حولها

ولا نودُّ المضي إلى بعيد في العتب على الدكتور، فقد يجد الناظر إلى درسه الموجز ما يشغله بشئون أخر:

ذلك أنه يرى التودُّد إلى الجماهير تهمة ظالمة يبرأ منها كرام الرجال الذين كتبوا في الإسلام ونبيه، ويستظهر لبراءتهم بما في الدراسات الفذة التي قدموها من روح يضطرم بالشعور والذوق والإيمان وسائر الذخائر التي لم يألف تجار (الزُّيوف) أن يتعاملوا بها مع (الجمهور)

إن في إحساس الدكتور بضرورة التبرئة لأولئك الأساتذة الكرام هفوة أخرى - ويبدو أنني رجعت إلى عتابه - إذ كان إحساسه هذا ينطوي بداهة على التسليم بأن التودد إلى الجماهير تهمة! وما يتفاقم الغرور عند الصغير بأكثر من أن يكتشف في منطق الكبير نحواً من الموافقة على بعض أوهامه، ولن يتواضع هذا الغرور بعد ذلك حين يفزع الدكتور إلى واجب التبرئة لزملائه وفاء لهم وللحق العظيم في دينه وتراث قومه ولسنا ندري لم يكون التودد إلى الجماهير - إذا افترضنا وقوعه - تهمة تثير الأنفة، وتحرَّض على المقاومة، إلا أن يكون هذا خوفاً في موطن الأمن، وخجلاً في مقام الزهو، لا يجملان بالقلب الكبير والجبين الفخور!

سوف لا نحاكم الدكتور إلى غير (شجونه) في نفس العدد من (الرسالة)، فليقرأ في آخرها هذه الكلمات من نشيده في حب وطنه: (ولو عانت كبار الشعوب ما عانيت لشالت كفتها في ميزان التاريخ، فكيف استطعت أنت برغم ما عانيت مصدر العقل في الشرق، وأن تهتدي ينورك في اللغة والدين مئات الملايين؟. . . لن تراني إلا حيث تحب، ولن يراني أعداؤك إلا حيث يكرهون، ولو زعموا أنهم في طهر ملائكة السماء).

ما معنى هذا؟ معناه أنها وقفة شريفة لابن شريف بين يدي شعبه الذي لا يزال يقود شطراً ضخماً من العالم في اللغة والدين، والفكر، وطراز الحياة جملة؛ فهو يعلن العصبية في زمن العصبية الآكلة، ويجدد البيعة في زمن الإخاء في السلاح أن يكون لقومه قرة أعين، ولأعدائهم هولة حلم، ثم ماذا؟ ثم معناه أن الضلال القديم الذي طالما اغتال عقولاً في هذه البلاد فذهبت تفتري في الأدب مذاهب، وترتجل في الفكر طرائق، مهما نبا ذلك عن روح الشعب الحقيقية، ومهما تمزقت بذلك روابطنا بمن يحبوننا، ويصطفُّون من حولنا، من الأمة العربية الكبرى، والكتلة المسلمة العظمى؛ هذا الضلال ينبغي أن تنقشع بقاياه توًّا والى غير رجعه، ومن شاء أن يقول، ومن يشاء أن يفكر، ومن شاء أن يعمل فليأخذ مكانه الطبيعي تحت هذه الراية والسلام عليه ورحمة الله وبركاته؛ وإلا فهو خائن يطوَّق بعاره، ومجرم يشار إلى سيماه، وعدو لا نسلم عليه تسليماً، وإنما نثأر منه ثأراً وندسه في التراب، وننفض من غباره الأيدي

كأنَّ الدكتور يخطبنا هذه الخطبة تماماً حين هتف بذلك المقطع الذي نقلناه من نشيده، فكيف

إذن نقبل منه التسليم بأن في التودد إلى الشعب ما يزرى، وهو لا يرى إلا أن يكون رجل الفكر والأدب (رجل الشعب) أولاً: في رأسه من خواطره، وفي صدره من عقائده، وفي ضميره من أشواقه. . .

فإذا كانت أشواق هذا الشعب الروحية والثقافية والاجتماعية ظاهرة ظهوراً صارخاً، بحيث لا تخطئها إلا العين المغلقة، ولا يمر بها ظرف أو مناسبة مواتية، إلا أثبتت بظهورها ذاك أنها ليست موجودة ومعروفة فحسب، بل وأصلية ونامية معاً، لأنها تنفجر من تاريخ ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن، بملء ما في هذا التاريخ من أقدارٍ كبيرة،

وأطوار عميقة، لم تكن قط خرافة يزيِّفها لفظ، ولا سامراً يفضَّه صوت، ولأنها تدور مع الدم في أجساد الملايين الذين تضرب ظلالهم شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً، على قارتين، وثلاثة بحار، وعديد من الأنهار، وتقع جباههم منذ هذا العمر المبارك على تلك الربوع والبطاح العريضة، ساجدة لله في كل يوم خمس مرات. . . نعم، وإذا كانت هذه الأشواق هي التي تملي قواعدها الخاصة لنهضة هذا الشعب بنفسه وبالصفوف الرائعة المتراصة من حوله، وهي التي تعيّن الأفق الذي يترامى إليه نظر الشعب قويَّ التحديق، شديد الحماليق. . . إذا كان ذلك كله كما نحس، وكما لا نشك، فما بد من أن يصطلي كل أديب، وكل مفكر، وكل منتج، بقبس من تلك الأشواق الحارة الخالدة.

فهذا القبس وحده هو الذي يمده بالصواب في تصوره لنوع النهضة المنتظرة والمحتومة معاً، ويمده بالقدرة على المشاركة الفذة في إقامة الصرح وتأثيله، وبدونه لا يكون إلا متعسفاً حائراً، لا يبرح في حيرة وتعسف، يدور حول نفسه، ويكذب أبداً على نفسه، حتى تكبّه عثرة، أو تلقفه هاوية، وبدونه لا يكون نسبة في أدباء الشعب ودعواه العمل باسم الشعب، وعيشه على مرافق الشعب، إلا تزويراً ونفاقاً وسرقة، وما لا تُعِدُّه اللغة للتشريف، ولكن للسباب

ثم ما هو الأدب؟ أليس هو: كالعلم، والفن، وكالاقتصاد نفسه، قوة من القوى المختلفة في الحياة العامة، ينبغي أن تهدف كلها صوب غايات الشعب العليا؛ وفي خلال سيرها تلقاء هذه الغايات، ينبغي أن تستفتي حاجاته الحقيقية، وتستعين بأحلامه الروحية على ضمان النجاح، وسرعته أيضاً؟

هذا الذي نقرره من بدائة كل إصلاح وكل نهضة، وليس من فنهما المعقد، ولا من كهانتهما

الغامضة، حتى يكون ثم موضع للجدل أو الحذلقة

فمن يحاول عزل (الأدب) عن كافة القوى الأخرى المتضامنة في الحياة العامة، ويشككه في واجب تضامنه مع تلك القوى، وارتكازه أبداً إلى ضمائر الشعب وأحلامه القدسية، ويزعم أن في عودة الأدباء بقلوبهم الشريدة إلى وطنها المأنوس بين قلوب قومهم بعد طول انتظار للوفاء والبرد والنبل ما يثير شهوة الفضول والعجب الأبله، لا يفهم الأدب إلا فهماً بوهيمياً، ولا ينتج فيه إلا ضرباً من الكلام ينهمك فيه الطابع، والمصحح والناشر، والناقد، ليعالج به أخيراً ملل تافه . . .!

إن هذا الذي كتب في اتجاه رجال الأدب في العصر الحديث لا نتهمه بالمغالطة حين زعم ثانية أن تأريخ عصر النبوة رجعية، إذ كانت المغالطة مطوية على ذكاء وفهم في الواقع وإن لم يكن ذكاء شريفاً، وإنما نتهمه بالغلط الذي لا يرادف التجاهل ولكن يرادف لفظاً آخر. ما معنى الرجعية؟ أليست هي الانتكاس والتقهقر، وإيثار الأدنى على الأعلى؟ فأي سمو وقع دونه الرجال الذين يؤرخون عصر النبوة؟ وأية فكرة أو حقيقة تكشفها دراسة هذا العصر تنحط مرتبة عما تكشفه دراساتهم الأخرى في موضوعات أخرى؟ وأي شر تبتلي به حياتنا العقلية - ودع عنك حياتنا الوجدانية التي هي محور كل عمل أدبي - إذا أضيفت هذه الدراسة إلى سائر الدراسات التي استبدت بأقلام الكتاب منذ كانت لهم أقلام؟ ألا تجد عقولنا فيها من عافية الفكر وأريحيته ما يتلمسه الضمير الإنساني في كل ثقافة كائنة ما كانت ليصح به ويترعرع ويزكو؟!

هذه أسئلة لا تطلب جوابها من أحد، ولا تستجديه، فهو ملء كل نفس تفهم (الأدب) ولا نزري بقدره. لا، بل إنه إذا كان كل شيء في الحياة يتشكل ويتطور، لكي لا ينبو عن طبيعة جوه، ومقتضيات بيئته، فما بد من أن يتحدث الأدب في كل عهد بلغته، ويتوخى من هذه اللغة ما يشوق الأذن الماثلة، ويجاوب الحنين الساري، ويجعل البعث المرتقب، ونحن نعيش في حقبة من تاريخنا لا يصلح لها إلا هذا، فلو اشتغل الأدب بما يبعد كثيراً أو قليلاً عن هذا النهج لكان ملتوياً على روح الشعب، جامداً عن مجاوبته، وتلبية حاجته، ومثله في هذه الحالة - وفي المنطق البوهيمي - كمثل اللحن الناعم النائم تعزفه لجنديّ راحل إلى الجبهة . . .!

فأي غلط بعد غلط يتعفن به منطق فرح به صاحبه فرحاً مضحكاً وهو يناقش (العقاد) في بعض ما كتب! نعم لقد كان يبدو في سياق فرحه ذاك أن منطقه لا يثقبه الرصاص نفسه!

كم اشتغل المستشرقون بتأريخ عصر النبوة، وهذه حقيقة معروفة نود أن نوجه إلى

منطق صاحبنا سؤالاً خاصاً بها، وهو سؤال أخير نضيفه إلى تلك الأسئلة المخيفة التي وجهها إليه الدكتور في خلال درسه القيم، والتي تتضمنها هذه الفقرة بالذات: (لم يقل أحد إن هيكل كان رجعياً حين ترجم لجان جاك روسّو، ولم يقل أحد إن العقاد كان رجعياً حين ترجم لابن الرومي، ولا قال قائل برجعية طه حسين حين ترجم لأبي العلاء، ولكن الرجعيات أصابت هؤلاء الأساتذة حين شغلوا أنفسهم بتاريخ عصر النبوة!! لأنه مصدر من المصادر الدينية الخ) أإذا اشتغل المستشرقون بهذا الموضوع ومثله؛ وكتب فيه كتاب أوروبيون - وكم حدث ويحدث - يكون ذلك أيضاً (رجعية) و (تودداً للجمهور المصري)؟! أم ينعت ذلك عند صاحبنا ومنطقه العتيد بالفحولة العقلية، والثقافة الإنسانية، وما إليهما من النعوت التي تكبر على الرجعية، أو الرياء أو اللغو الذي تكرمنا عن مناقشته والذي سماه إيمان المقترب من اليوم الآخر؟!

ندع الآن المنطق العتيد يحصى قائمة الخسائر التي نزلت به، ونحن - فينفس الوقت - على استعداد لكي نضيف إلى هذه القائمة أرقاماً أخرى، نقول له ذلك قبل أن يتعجل فينشر مقالاً أو بعبارة أخرى - بلاغاً يزعم فيه أن الخسائر طفيفة!!

وبعد، فلم يفرغ درس الدكتور من نواح أخرى ذات بال، فحسبنا ذلك اليوم، وإلى فرصة قريبة.

(الأقصر)

إسماعيل حمدي

ابنة الطحان

للورد الفريد تينيسون

إنها ابنة الطحان، وقد نمت وتطورت
حتى غدت محبوبة فتانة. فيا ليتني جوهرة
في القرط الذي يرتجف معلقاً في أذنها،
لأنني إذ ذاك وأنا في حلقة من ذهب
أمُسّ رقبتها البيضاء الدافئة ليل نهار.

أو ليتني النطاق الذي يحيط بخصرها الدقيق
الرشيق فأحس بضربات قلبها في ساعات
الحزن وأويقات الراحة، وأعلم ما إذا
كانت الدقات متئدة منتظمة، وأحيط بها
من جميع أطرافها ضاغطاً عليها بحنان!

أو ليتني حلي معلقة في رقبتها فأرتفع وأهبط
بانتظام على صدرها البض، مع تصاعد ضحكاتها
وزفراتها، وأستقر في مكاني هادئاً جداً
بحيث لا تخلعني حتى عندما تذهب لتنام!

(بغداد)

صفاء خلوصي

القاضي التنوخي

للأستاذ يوسف يعقوب مسكوني

(تتمة نشر في العدد الماضي)

وأما أسباب عزله فتلخص بما يأتي: قال الرئيس أبو الحسن هلال: وفي شهر ربيع الأول سخط عضد الدولة على القاضي أبي علي المحسن بن علي التنوخي والزم منزله وصُرف عما كان يتقلده. وكان السبب في ذلك ما حدثني به أبو القاسم علي بن المحسن التنوخي قال حدثني أبو علي والدي قال: كنت بهمذان مع الملك عضد الدولة فاتفق أن مضيت يوماً إلى أبي بكر بن شاهويه رسول القرامطة والمتوسط بين عضد الدولة وبينهم، وكان له صديقاً ومعي أبو علي الهائم وجلسنا نتحدث، وقعد أبو علي على باب خركاه كنا فيه وقدم إليه ما يأكله، فقال لي: اجعل أيها القاضي في نفسك المقام في هذه الشتوة في هذا البلد. فقلت لِمَ؟ فقال إن الملك مدبّر القبض على الصاحب أبي القاسم بن عبّاد، وكان قد ورد إلي حضرته بهمذان؛ وإذا كان كذلك تشاغل بما تتطاول معه الأيام. وانصرفت من عنده؛ فقال أبو علي الهائم قد سمعت ما كنتما فيه وهذا أمر ينبغي أن تطويه ولا تخرج به إلى أحد ولا سيما إلى أبي الفضل بن

الشيرازي. فقلت أفعل، ونزلت إلى خيمتي، وجاءني من كانت له عادة جارية بملازمتي ومواصلتي ومواكلتي ومشاربتي وفيهم أبو الفضل بن أحمد الشيرازي، فقال لي: أيها القاضي أنت مشغول القلب فما الذي حدث؟ فاسترسلت على انس كان بيننا وقلت أما علمت أن الملك مقيم وقد عمل على كذا في أمر الصاحب وهذا دليل على تطاول السنة. فلم يتمالك أن أنصرف واستدعي ركابياً من ركابتي وقال له: أين كنتم اليوم؟ فقال عند أبي بكر بن شاهويه. قال: وما صنعتم؟ قال: لا أدري إلا أن القاضي أطال عنده الجلوس وانصرف إلى خيمته عنه ولم يمض إلى غيره. فكتب إلى عضد الدولة رقعة يقول فيها: كنت عند القاضي أبي علي التنوخي فقال كذا وكذا وذكر أنه قد عرفه من حيث لا يشك فيه وعرفت أنه كان عند أبي بكر ابن شاهويه وربما كان لهذا الحديث أصل؛ وإذا شاع الخير به وأظهر السر فيه فسد ما دُبّرَ في معناه. فلما وقف عضد الدولة على الرقعة وجم وجوماً شديداً وقام من سماط كان قد عمله في ذلك اليوم على منابت الزعفران للديلم مغيظاً، واستدعاني وقال لي: بلغني أنك قلت كذا وكذا حاكياً عن أبي بكر بن شاهوية فما الذي جرى بينكما في ذلك؟ فقلت لم أقل من ذلك شيئاً، فجمع بيني وبين أبي الفضل بن أبي أحمد وواقفني وأنكرته، وراجعني وكذبته؛ وأحضر أبو بكر بن شاهويه وسئل عن الحكاية، فقال: ما اعرفها، ولا جرى بيني وبين القاضي قول في معناها. وثقل على أبي بكر هذه المواقفة وقال: ما نعامل الأضياف بهذه المعاملة. وسئل أبو علي الهائم عما سمعه فقال: كنت خارج الحركة، وكنت مشغولاً بالأكل وما وقفت على ما كانا فيه. فمد وضرب مائتي مقرعة؛ وأقيم فنفض ثيابه. وخرج أبو عبد الله سعدان - وكان لي محباً - فقال لي: الملك يقول لك: ألم تكن صغيراً فكبرناك، ومتأخراً فقدمناك، وخاملاً فنبهنا عليك، ومقتراً فأحسنا إليك؟ فما بالك جحدت نعمتنا وسعيت في الفساد على دولتنا؟ قلت: أما اصطناع الملك لي فأنا معترف به، وأما الفساد على دولته فما عملت أنني فعلته! وجلست مكاني طويلاً، وعندي أنني مقبوض عليَّ، تم حملت نفسي على أن أقوم واسبر الأمر، وقمت وخرجت من الخيمة، فدعا البوابون دابتي على العادة، ورجعت إلى خيمتي منكسر النفس منكسف البال؛ فصار الوقت الذي أدعي فيه للخدمة، فجاءني رسول ابن الحلاج على الرسم، وحضرت المجلس فلم يرفع الملك إلي طرفاً، ولا لوي إلي وجهاً؛ ولم يزل الحال على ذلك خمسة وأربعين يوماً، ثم استدعاني وهو في خركاه وبين يديه أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف، وعلى رأسه أبو الثناء شكرٌ الخادم فقال: ويلك! أصدقني عما حكاه أبو الفضل بن أحمد؛ فقلت كذبٌ منه؛ ولو ذكرت لمولانا ما يقوله لما أقاله العثرة؛ فقال: أو مِنْ حقوقي عليكم أن تسيئوا غيبتي وتتشاغلوا بذكري؟ فقلت: أما حقوق النعمة فظاهرة، وأما حديثك فنحن نتفاوضه دائماً. . . ثم قال عضد الدولة: عرَّفنا ما قاله أبو الفضل. قلت: هو ما لا ينطق لساني به؛ فقال: هاته. . . وكان يحب أن تعاد الأحاديث والأقاويل على وجهها من غير كناية عنها ولا احتشام فيها. فقلت: نعم؛ قال: (وذكر له بعض النقائص فقربها). . . ثم قال: وقد ذكر هذا الأستاذ وأومأت إلى أبي القاسم وأبي الريّان وجماعة الحواشي فقال: ما قال في أبي القاسم؟ قلت: قال: إنه ابتاع من ورثة ابن بقية ناحية الزاوية من رازان بأربعة آلاف درهم بعد أن أستأذنك استئذانا سلك فيه سبيل السخرية والمغالطة، واستغلها في سنة واحدة نيفاً على ثلاثين ألف درهم، وأنه أعطى فلاناً وفلاناً ثمانية آلاف درهم على ظاهر البضاعة والتجارة، فأعطاه نيفاً وستين ألف درهم. فمات أبو القاسم عند سماعه ذلك، وأوردت ما أوردته مقابلته - أي معارضته - على ما ذكرني به. وحضرت آخر النهار المجلس في ذلك اليوم على رسمي، فعاود التقريب لي والإقبال عليَّ. ثم رحلنا عائدين إلى بغداد، فرآني الملك في الطريق وعليَ ثياب حسنة وتحتي بغلة بمركب وجناغ جواد؛ فقال لي: من أين لك هذه البغلة؟ قلت: حمَّلني عليها الصاحب أبو القاسم بمركبها وجناغها، وأعطاني عشرين قطعة ثياباً، وسبعة آلاف درهم؛ فقال: هذا قليل لك مما تستحقه عليه. فعلمت أنه أتهمني به وبأني خرجت بذلك الحديث إليه، وما كنت حدثته به

وذكر غرس النعمة بن هلال قال: حدثني بعض السادة الأصدقاء، وأنسيته وأظنه أبا طاهر محمد بن محمد الكرخي قال: كانت بنت عضد الدولة لما زفت إلى الطائع بقيت

بحالها لا يقربها خوفاً أن تحمل منه فتستولي الديلم على الخلافة، وكان الطائع يحبها حباً شديداً زائداً موفياً. . . . . وتقدم عضد الدولة إلى أبي على التنوخي في أواخر أيامه بأن يمضي إلى الطائع ويطارحه يناظره. . . في المعنى. . . بأسباب يتوصل إليها وأقوال يصفها، ويومئ إلى الغرض فيها. . . رتبها عضد الدولة ولقنه إياها وفهمه قال التنوخي بعد قدومه إلى بغداد مع عضد الدولة فحكى لي أن الطائع لله متجاف عن ابنته المنقولة إليه. . . فثقل ذلك عليه وقال لي: تمضي إلى الخليفة. . . ويعود الأمر إلى ما يستقيم به الحال ويزول معه الانقباض فقد كنت وسيط هذه المصاهرة، فقلت: السمع والطاعة. وعدت إلى داري لألبس ثياب دار الخلافة، فاتفق أن زَلِقَتْ وَوَثِئَتْ رجلي، فأنفذت إلى الملك أعرفه عذري في تأخري عن أمره فلم يقبله وأنفذ إلى منْ يستعلم خبري، فرأى الرسول لي غلماناً رَوَقَةً وفرشاً جميلاً، فعاد إليه وقال: هو متعال وليس بعليل. وشاهدته على صورة كذا وكذا والناس يغشونه ويعودونه. فاغتاظ غيظاً مجدداً حرك ما في نفسه مني أولاً، فراسلني بأن الزم بيتك ولا تخرج عنه، ولا تأذن لأحد في الدخول عليك، فيه إلا نفرا من أصدقائي استأذنت فيهم فاستثني بهم. ومضت الأيام وأنفذ إلى أبو الريان فطالبني بعشرة آلاف درهم وكنت استلفتها من إقطاعي فأديتها إليه، واستمر عليّ السخط والصرف عن الأعمال إلى حين وفاة عضد الدولة. ثم قال غرس النعمة: فقال التنوخي السمع والطاعة، ومضى إلى بيته ولمُ يقدم على الطائع، وخاف عضد الدولة إن خالف ما رسمه له، فأظهر مرضاً أصدقاؤه وعاده منه واعتذر به إلى عضد الدولة، فوقع لعضد الدولة باطن الأمر وأمر بعض الخدم الخواص بالمضي إلى التنوخي لعيادته وتعرف خبره، وأن يخرج من عنده ويركب إلى أن يخرج من الدرب، ثم يعود فيدخل عليه هاجماً فإن كان على حاله في فراشة لم يتغيرَّ له أمر، أعطاه مائتي دينار أصحبه إياها لنفسه وأطهر أنه عاد لأجلها لأنه أنسيها معه؛ وإن وجده قاعداً أو قائماً عن الفراش قال له: الملك يقول لك لا تخرج عن دارك إلينا ولا إلى غيرنا وانصرف. قال الخادم: فدخلت إليه وهو في فراشه وعليه دثاره وخاطبته عن الملك وأعاد جواباً ضعيفاً لم أكد أفهمه، وخرجت ثم عدت على ما رسم الملك فهجمت عليه فوجدته قائماً يمشي حول البستان، فلما رآني اضطرب وتحيرَّ فقلت له: الملك يقول لا تبرَح دارك إلينا ولا إلى (غيرنا، وخرجت فبقى على ذلك إلى أن مات عضد الدولة

نقول وذكره من بعد هؤلاء ابن خلكان؛ ولم يزد على ما ذكره المؤرخون ممن ذكرنا هنا سوى كتاب (المستجاد من فعلات الأجداد) وقد نوهنا به وأشرنا إلى أمره آنفاً في غير هذا. وقد نقل ابن خلكان عن الثعالبي والخطيب البغدادي

أما شعره فإننا نذكر منه هنا ما ذكره المؤرخون استطراداً في ترجمته وما اختاروه من شعره لما كان ديوان شعره من الدواوين المفقودة، لعل فيه شيئاً من الفائدة. ومن السابقين إلى رواية شعره الثعالبي قال: ومما علق بحفظ أبي نصر سهل بن المرزبان وأنشدنيه للقاضي أبي علي قوله وهو معنى طريف ما أراه سبق إليه:

خرجنا لنستسقي بيمن دعائه ... وقد كاد هدب الغيم أن يبلغ الأرضا
فلما أبتدأ يدعو تقشعت السما ... فما تم إلا والغمام قد انفضّا

وأنشدني غيره له وأنا مرتاب به لفرط جودته وارتفاعه عن طبقته:

أقول لها والحي قد فطنوا بنا ... وما لي على أيدي المنون براح
لما ساءني أن وحشتني سيوفهم ... وإنك لي دون الوشاح وشاح

قال الثعالبي ومما أنشده لنفسه في كتاب الفرج بعد الشدة:

لئن أشمت الأعداء صرفي ورحلتي ... فما صرفوا فضلي ولا ارتحل المجد
مقام وترحال وقبض وبسطه ... كذا عادة الدنيا وأخلاقها النكد

وسنذكر بقية الأبيات من مقدمة ناشر كتاب (الفرج بعد الشدة). ولقد وجدت قطع لمؤلف الكتاب عينه مدرجة في الفصل الأخير من بحوثه تلائم مقاصد المؤلف لكتاب الفرج بعد الشدة. ومن أولى هذه القطع ما يأتي:

أصبر فليس الزمان مصطبراً ... وكل أحداثه فمنقشعه
كم من فقير غناه في شبع ... قد نال خفضاً في عيشه ودعه
ومن جليل جلت مصائبه ... ثم تلافاه بعد ما وضعه

فعاد بالعز آمناً جذلاً ... وعاد أعداؤه له خضعه
والقطعة الثانية:
متى تصفو لك الدنيا بخير ... إذا لم ترض منها بالمزاج
ألم تر جوهر الدنيا المصَفّى ... ومخرجه من البحر الأجاج
ورب مخيفة فجأت بهول ... جرت بمسرة لك وابتهاج
ورب سلامة بعد امتناع ... ورب مثقف بعد اعوجاج
والقطعة الثالثة، قال مؤلف الكتاب وفي محنة لحقتني فكشفها الله تعال فقلت:
هوّن على قلبك الهموم فكم ... قاسيت هماً أدنى إلى الفرح
ما الشر من حيث تتقيه ولا ... كل مخوف يفضي إلى الترح
والقطعة الرابعة:
لئن عداني عنك الدهر يا أملي ... وسل جسمي بالأسقام والعلل
وشت شمل تصافينا وألفتنا ... والدهر ذو غير والدهر ذو دول
الحمد لله حمد الشاكرين على ... ما شاء من حادث يوهي قوي الأمل
قد اشتكت بصروف الدهر والتحقت ... على فيك غواشي الحزن والوجل
واعتضت منك بسقم شأنه خلل ... ومن وصالك بالهجران والملل
وبعد أمني من عذر ومثنية ... عذراً يسرح بالألفاظ والرسل
ومن لقائك لقي الطب أرحمهم ... قسط وأرفقهم يدنى إلى الأجل
فلست آيس من رجع الوصال ولا ... عود العوافي ولا أمن من السبل
والقطعة الخامسة من قصيدة في محنة لحقته:
أما للدهر من حكم رضى ... يدال به الشريف من الدني
ويستعلي الرؤوس من الذنابي ... وينتصف الذكي من الغبي
ومن عاصاه دمع في بلاء ... فليس بكاء عيني بالعصي
وما أبكي لوفر لم يفده ... زمان خان عهد فتى وفي
ولا آيس على زمن تولى ... بعيش ناضر غض نديّ
وما تلقي الحوادث إن ألمت ... سوى قلب عن الدنيا سخي
وصبر ليس تنزحه الليالي ... كنزح الدلو ضافية الركي
وليس بآيس من كان يخشى ... ويرجو الله من صنع قوي
أما القطعة السادسة فقد قال ناشر الكتاب: وله عند صرفه من تقلده القضاء بالأهواز وقبض ضيعة من ضياعه وحضوره إلى بغداد وقد نقلنا منها آنفاً بيتين مطلعهما: لئن أشمت الأعداد الخ
وما زلت جلداً في المهمات قبلها ... ولا غر وفي الأحيان أن يغلب الجلد
فكم ليث غاب شردته ثعالب ... وكم من حسامَ فلّه غيلة غمد
وكم جيفة تعلو وترسب درة ... ومنحسة تقوي إذا ضعف السعد
ألم تر أن الغيث يجري على الربا ... فيحظى به إن جاد صيّبه الوهد
وكم فرج والخطب يعتاد نيله ... يجيء على يأس إذا ساعد الجد
لقد أقرض الدهر السرور فإن يكن ... أساء اقتضاء فالقروض لها رد
فكم فرحة تأتي على أثر ترحة ... وكم راحة تطوى إذا اتصل الكد
وكم منحة من محنة تستفيدها ... ومكروه أمر فيه للمرتجي وفد
على أنني أرجو لكشف الذي غدا ... مَليكاً لَهُ في كل نائبه وفد
فيمنع منا الخطب والخطب صاغر ... وتمس عيون الدهر عناهي الرمد
ونعتاض باللقيا من البين اعصرا ... مضاعفة تبقى ويستهلك البعد
والقطعة السابعة هي:
قل لمن أودى به الترح ... كل هم بعده فرح
غالط الأحداث مجتهداً ... كل ما قد حلّ منتزح
لا تضق ذرعاً بنازلة ... وارمها بالصّبر تنفسح
وأزح بالراح طارقها ... فجلاء القربة القدح
ألق بالمزاج المريح أذى ... حدها إن شئت تنشرح
هذا ما تمكنت من العثور عليه عند مطالعتي لهذا الكتاب الجميل، ولعل له مقطوعات من شعره لم نعثر عليها بعد؛ وقد تحقق الأيام من ذلك شيئاً فنعود إلى ذكر ما تركه

هذا الشاعر الفحل والكاتب البليغ والمؤرخ الثقة
قال الثعالبي ومما ينسب إليه قوله لبعض الرؤساء في التهنئة بشهر رمضان:
نلت في ذا الصيام ما ترتجيه ... ووقاك الإله ما تتقيه
أنت في الناس مثل شهرك في الأ ... شهر بل ليلة القدر فيه
هذا وقد أورد ياقوت في معجم الأدباء أخباراً في ترجمته في نقد الشعر الذي يغني به عضد الدولة البويهي بحضرته ومجالس أنسه وصحة قائليه وناظميه وذلك ما يدل على قوته في نظم الشعر وحفظه أيضاً لمنظومات الشعراء الذين سبقوه، فكان خير حكم للتميز بين الغث والسمين منه؛ هذا علاوة على قوته في النثر، فقد أتبع أسلوب يكاد يكون خاصاً به لم يصل إلى مجاراته فيه أهل عصره
هذا ما تيسر لي جمعه من الأخبار عن نابغة القرن الرابع الهجري العباسي في القضاء والتأليف والشعر والأدب والاجتماع عسى أن أكون قد قمت بقسط مما يستحقه هذا العلم الفرد، وسنواصل بحول الله تعالى البحث عن غيره ممن كانت لهم المنزلة العظمى في دولتي العلم والأدب لذلك العهد العباسي الزاهر.
(بغداد)
يوسف يعقوب مسكوني
غراب وطفل
(مهدأة إلى أستاذنا الكبير أحمد حسن الزيات)
للأستاذ محمد يوسف المحجوب
نَشِبَ اَلْجناَحُ وَضَلَّ في الأَغْصاَنِ ... فإِذَا الْغُرَابُ يَخِرُّ لِلأَذْقَانِ
حَيْرَانَ يَلْتَمِسُ النَّجاَةَ فَلاَ يرَىَ ... قَلْباً يَرقُّ بِذلِكَ اَلْحيْرَانِ
جَهِدَ الأَسِيرُ لِكْي يَفُكَّ جَنَاحَهُ ... بِاَلْخفْقِ آوِنَةً وَبالدَّوَرَانِ
لم يُغْنِ عَنْهُ كِفاَحُهُ فَأَثاَرَهاَ ... شَعْوَاَءِ تُسْمِعُ جَلْمَدَ الآذَانِ
وَرَأى غُرَابٌ صِنْوَهُ في أَسْرِهِ ... فَمَضَى وأَسْرَعَ لِلأَسِير الْعاَنِي
وَهَوَى يحُاَولُ جَذْبَهُ. . . وَإِذَا بِهِ ... هُو والأَسِيرُ لِدَى الرَّدَى صِنْوَانِ
أَعْياَهُ إِنْقاَذُ الرّمِيلُ، فَطاَرَ في ... فَزَعٍ يُناَدِي شِيَعَةَ الْغِرباَنِ
وَإِذَا غُرَابٌ، ثُمَّ ثَانٍ، خَلْفَهُ ... مِنْ قَوْمِهِ زُمَرٌ. . . أَتَتْ لِتَوَانِ
وَتَجمَّعَ الْغِرْباَنُ في الدَّوْحِ الذي ... ضَمَّ الأَسِيرَ تَجَمُّعَ الْفرْساَنِ
عَقَدَتْ عَصاَئِبُهاَ عَلَيْهِ مَناَحَةً ... وَبَكَتْ لَدَيْهِ بِدَمْعِهاَ الْهَتَّانِ
وَكأَنَّماَ كاَنَتْ تَضَرَّعُ لِلْوَرَى ... أَنْ يُسْعِفُوا ذَاكَ الْمَهِيضَ الْفاَنِي
وَأَتَى بَنُوا الإنسانِ فاحْتَشَدُوا عَلَى ... بَلَهٍ. . . زَرَافَاتٍ بِلاَ وجْدَانِ
وَتَجَمَعَّوُا شِيَعاً لِكيْ يُهْدُوا لَهُ ... نَظَرَ الْفُضُولِ، وَلَمْحَةَ الْمُجَّانِ
وَإِذَا الْبَلاَهَةُ وَالْفُضُولُ تَجَمَّعاَ ... لَمْ تَلْقَ لِلأَخْلاَقِ أَيَّ مَكاَنِ. .
وَأَتَى الظَّلاَمُ. . . وَلَفَّ في أَحْشَائهِ ... هذَا الْوُجُودَ. . . فَمَا تَرَى عَيْناَنِ
وَاسْتَيْأَسَ الْغِرْبْاَنُ فَانْصَرَفُوا عَلَى ... مَضَضٍ، وَلَمْ يَنْسُوا فَتَى الأَغْصاَنَ
تَرَكُوا لَهُ بَعْضَ الرَّفاقِ تَزُفُّهُ ... بِاَلْحبِّ تَحْتَ رَعَايَةِ الرَّحمنَ
حَتَّى يَجِئَ الصُّبْحُ في أَعْطَافِهِ ... فَرَجُ الْكُرُوبِ وَجَلْوَةُ الأَحْزَانِ
. . . ياَ لَلْوَفاَءِ وَلْلإِخَاءِ نَرَاهُماَ ... بَلَغَاَ الذُّرَا في عَالَمِ اَلْحيَوَانِ
لَمْ تَفْرُغِ الْغِرْباَنُ مِنْ أَشْجاَنِهاَ ... وَاللَّيْلَ مَهْدُ غَرَائِبِ الأَشْجاَنِ
وَإِذَا صُراخٌ مِنْ وَليدٍ قَدْ بَدَا ... في اَلْجوِّ يَبْعَثُ كاَمِنَ التَّحْناَنِ
ياَ لَلشقاَءِ وَلِلتَّعاَسَةِ. . . جُمَّعاَ: ... هُوَ ذَا (لَقِيطٌ) لُفَّ في أَكْفاَنِ!
قَذَفَتْ بِهِ (الأُمُّ اَلْحنُونُ) جَرِيمَةً ... وَرَمَتْهُ في رُكْنٍ مِنَ اَلأَرْكاَنِ!
وَتَسَلَّلَتْ طَيَّ الظَّلاَمِ، وَلَمْ تَخَفْ ... عِنْدَ اَلْجرِيمَةِ نِقْمةَ (الدَّيَّانِ)!
وَتَحدَّثِ الرَّاءُونَ فِيماَ أَبْصَرُوا: ... أَنَّ اللَّقِيطَ كَزَهْرَةِ الْبُسْتاَنِ!
مَرَّتْ بِهِ أُنْثى، فَصاَحَتْ - بَعْدَمَا ... جَسَّتْهُ - صَيْحَةَ رَحْمَةٍ وَحَناَنِ:
ياَ لَعْنَةَ اَلْجبَّار: لُفَّي أُمَّهُ. . . ... أَزِنًي وَقَتْلٌ ياَ بَنِي الإنسان؟!
. . . وَمَضَتْ تُهَرْوِلُ في الظَّلاَمِ كأَنَّماَ ... تَبْغِي النَّجاَةَ، وَمَا لَهاَ كَفَّانِ
وَتَجَمَّعَ السَّاَرُونِ حَوْلَ مِهاَدِهِ ... وَالطِّفْلُ مُضَّطَرِبٌ: يَداً لِلساَنِ
كُلٌّ يُحَوْقِلُ، ثُمَّ يَرْكُضُ هَاَرباً ... فَكأَنَّهُ مِنْ لَعْنِةَ الشَّيْطاَنِ!
تَرَكُوهُ خَوْفَ الْعاَرِ يَذْوِي عُودُهُ ... وَيَعيشُ في جَوٍّ مِنَ اَلْحرِمْاَنِ!

وَأَتى الصَّبَاحُ فَقَيَّضَ الرَّحمنُ مَنْ ... نَجَّى الْغُرابَ، وَفَازَ بالطَّيَرَانِ
. . .وَمَضَى الأَسِيرُ مَعَ الرَّفَاقَ مُمَتَّعاً ... بالْعَيْشِ في صَفوٍ وَفي خِلاَّنِ
وَمَضَى اللَّقِيطُ لِمَلْجَأٍ يَلْقى بِهِ ... عَيْشَ الْهَوَانِ عَلَى مَدَى الأَزْمَانِ
لاَ أم رَاعِيَةً، وَلاَ أَبَ عَاطِفاً ... فَلْيَحْيَ بَيْنَ مَذَلَّةٍ وَهَوَانِ
. . .تَتَنَكَّرُ الدُّنْيَا لَهُ، وَتُذِيقُهُ ... هُوناً بِلاَ عَطْفٍ وَلاَ تَحْنَانِ
!يَا لاَبْنِ (آدَمَ): عَاشَ فَي أَقْوامِهِ ... فَظاًّ بِرَغْمِ الْعِلْمِ وَالْعِرفْانِ
!يَا لَلطُيُورِ: تُرِيكَ مِنْ أَخْلاَقِهَا ... مُثُلاً بِهَا تَسْمُوَ عَلَى الإنسانِ
لَمْ تَحْظَ بِالتَّعْلِيمِ، أو يُبْعَثْ لَهَا ... رُسُلٌ، وَلَمْ تَسْتَهْدِ بِالأَدْيَانِ
!مَنْ عَلَّمَ الإنسانَ دَفْنَ سَمِيَّهِ؟ ... شَتَّانِ بَيْنَ الإنْسِ وَالْغِرْبَانِ
يَا لَيْتَ لِي خُلُقُ الطُّيُورِ، وَجَوَّهَا ... وَصَفَاءَهَا. . . فأَعِيشَ في اطْمِئْنَانِ
مَنْ صَوَّرَ الْمأْسَاةَ أَبْرعَ صُورَةٍ؟ ... مَنْ صَاغَهَا لِلنَّاسِ سِحْرَ بَيَانِ؟
الْكَاتِبُ الْفَذُّ الأَدِيبُ هُوَ الَّذِي ... أَضْفَى عَلَيْهَا بَاهِرَ الأَلْوَانِ
وَتَمَثَّلَتْهَا رُوحُهُ، فَبَدَتْ لَنَا ... سِفْراً يُرَدِّدُ آيَةُ الْمَلَوَانِ
أَذْكَتْ لَهِيبَ الْقَوْلِ بَيْنَ جَنُودِهِ ... وَمَضَتْ تُحَرِّكُ رَاقِدَ الأَذْهَانِ
!كَمْ مِنْ فُؤَادٍ كَانَ شَاهِدَ أَمْرِهَا ... مَا اهْتَزَّ أو نَطَقَتْ لَهُ شَفَتَانِ
رَبَّ الرِّسَالَةِ: أَسْمِعْ الدُّنْيَا كَمَا ... شَاءَ النُّبُوغُ رَوَائِعَ التِّبْيَانِ
هَذِّبْ شُعُورَ النَّاسِ وَاسْمُ بِرُحِهِمْ ... فَالنَّاسِ قَدْ جَارُو مَدَى الطُّغْيَانِ
مِنْ كُلِّ عَابِرةٍ أَنِلْهُمُ عِبْرَةً ... فَلأَنْتَ فَارِسُ ذَلِكَ الْميدَانِ
. . .صغْ مِنْ دُمُوعِكَ آي وَحْيِكَ إِنَّهَا ... ذَوْبٌ لأَكْرَمِ مُهْجَةٍ وَجَنَانِ
. . .حَسْبُ الْكُرَامِ الْكَاتِبينَ مَثُوبَةً ... مِنْ دَهَرِهِمْ شُكْرٌ بكُلِّ لِسَانِ

البريد الأدبي

الأستاذ العقاد في السودان

لا يزال الأستاذ الجليل عباس محمود العقاد منذ نزل الخرطوم موضع التكريم والتجلة من أهله. وللسودان الكريم أريحية للأدب ورجاله هي نصيب المصرية منه وسر العروبة فيه. وقد تعشت الروح الأدبية في القطر الشقيق بزيارة الأستاذ له؛ فحفلت الأندية، ونشطت الصحافة، وكثرت المآدب، وافتنت الأحاديث، وتلاقت الآراء، وتجاوبت المشاعر، وبان من كل أولئك فضل الأدب على السياسة والاقتصاد في إبلاغ الرسالة وإحسان السفارة؛ لأن رجال الأدب هم أهل الرأي والتوجيه، فليس بعد اتفاقهم خلاف، ولا بعد اهتدائهم حيرة. وقد نشرنا في هذا العدد أولى رسائل الأستاذ من الخرطوم؛ وستكون هذه الرسائل ولا شك طُرفاً من الأدب الرفيع كان يتمناها قراء الرسالة وأصدقاء السودان وعشاق الأدب. ومن طرائف هذه الرحلة المباركة أن العقاد أرسل إلى جريدة النيل هذه الأبيات تحت هذا عنوان:

من جزيرة القاهرة إلى مقرن الخرطوم

تفسير حلمي بالجزير ... ة وقفتي في المقرن
حلمان حظهما خيا ... لاً دون حظ الأعين
ما دمت بينهما فما ... أنا سائل عن مسكني
وإذا التذكر عاد بي ... عطف الجديدُ فردني
يا جيرة (النيل) المبا ... رك، كل نيل موطني
وله سميُّ في الصحا ... فة معرب لم يلحن
حييت فيه سميه ... وحمدت فيه مأمني

(الخرطوم)

عباس محمود العقاد

فأجابه الأستاذ المبارك إبراهيم أحد محرري النيل بهذه الأبيات:

يا من نزلت أعالي الوا ... دي حميد المأمن
أهلاً، فمنزلك القلو ... ب وفي سواد الأعين
ولأنت يا بن النيل با ... قعة البيان الأرصن
فتغن في الخرطوم ما ... شاء التغني وافتن

فالنيل في أرض الكنا ... نة مثله بالمقرن
(وله سميٌّ في الصحا ... فة معرب لم يلحن)
لهج يرمز العبقر ... ية أو بديع الأزمن
(دارة جريدة النيل بالخرطوم)
المبارك إبراهيم
أعداد الرسالة الخاصة
كبنا وما زلنا حريصين على أن يكون أكثر ما يُكتب في أعدادنا الخاصة بأقطار العروبة، لأقطاب البيان المسئولين في كل قطر يصدر عنه العدد. وكان هذا الحرص سبباً في هذا البطئ الملحوظ في إعداد هذه الأعداد، لأننا لم نتلق من العراق حتى اليوم ما طلبناه من المقالات والصور. وقد يكون للأحوال الحاضرة أثر في هذا البطء، ولكنه الأثر الذي لا يستطيع أن يتغلب على إرادة أمة تريد أن تتعارف أن وتتآلف وتسير في جهادها المشترك على هدى وعلم.
وإنا مع تكرار الرجاء لإخواننا الأدباء أن يستجيبوا لما طلبت الرسالة، نعلن إليهم أننا لم نكلف أحداً بجمع المقالات والوثائق غير الأستاذ فخري شهاب السعيدي في بغداد؛ أما في الأقطار الأخرى فلم يقع اختيارنا على أحد بعد.
وفاة السير وليم فليندرس بتري
توفي مساء اليوم الثامن والعشرين من شهر يوليو بمستشفى الحكومة بالقدس السير وليم فليندرس بتري، عالم الآثار المصرية عن ستة وثمانين عاماً
وكان الفقيد من العلماء الثقات في تاريخ مصر القديم وتاريخ الغابرين في القسم الشرقي من حوض البحر المتوسط. وهو الذي وضع قواعد علم الآثار في مصر، واستخدام الآثار المدفونة في الكشف عن أسرار الحضارات القديمة
ومما كان يقوله، إن الخزف والجواهر من أهم موارد العلم له، وأن الأبنية كانت ترشيده إلى كل ما يريد الوقوف عليه، وإن لم يكن هناك شيء مكتوب عليها
وقد ولد السير فليندرس في 3 يونيو 1853 ببلدة (شابلتون) بجوار جرينوتش، وكان والده مهندساً، وجده لأمه ضابطاً بحرياً
ولما بلغ الثامنة من عمره كان يتكلم أربع لغات. وفي سن الخامسة عشرة كان طالباً مجداً في القسم المصري بالمتحف البريطاني
وفي السابعة والعشرين من عمره، قدم مصر حيث بدأ حياته العملية
وكان إلى جانب إلمامه التام باللغات القديمة، رياضياً من الطراز الأول، ومهندساً ومصوراً بارعاً
وأمضى السير وليم فلندرس العامين الأولين، من أعوام إقامته في مصر، وهو يقيس الأهرام والمعابد، ثم درب على ذلك جماعة من العمال المصريين، وبدأ أعمال التنقيب عن الآثار. وظل يقوم بهذه الأعمال وكتابة المذكرات عن استكشافه حتى سنة 1914
وقد ألف أكثر من مائة كتاب استغرق في كتابة أحدها وهو (تاريخ مصر) 19 عاماً، إذ بدأه في سنة 1894 وانتهى منه سنة 1923
وكذلك أنشأ مدرسة إنجليزية لتدريس الآثار في مصر ولبث يقوم بالتدريس فيها حتى سنة 1934، إذ غادرها إلى القدس، حيث بدأ أعمال الحفر في صحراء سينا وسورية
من أي يومي من الموت أفر
جاء في العدد 473 من (الرسالة) تحت عنوان (تصويبات) في مقال للأستاذ أحمد يونس محمد تعليقاً على البيت الآتي الذي ذكره الأستاذ السيد يعقوب بكر للأمام علي:
من أي يوميّ من الموت أفر ... أيوم لم يقدرَ أم يوم قُدر؟
أن البيت على هذا الوضع لا يتفق مع ما جاء بعده لأنه من بحر الرجز، وقد جاء في ديوان الإمام علي هكذا:
أيّ يوميّ من الموت أفر ... يوم ما قدر أو يوم قدر
يوم ما قدر لم أخش الردى ... وإذا قدر لم يغن الحذر
وهما من الرمل، ثم قال: على أنه إذا صح أن ديوان الحماسة لم يذكر غيره، فإنه يكون مكسوراً، لأن (لم) تقتضي الجزم، وهو لا يتمشى مع الوزن. انتهى كلامه
فالشق الأول لا اعتراض لي عليه. أما قوله بكسر البيت، فهذا خطأ، لأن الرواية بفتح راء يقدر، كما بسطت في كتب القواعد كالأشموني والمغني منسوبة للحارث بن منذر

الجرمي؛ فقد زعم اللحياني أن بعض العرب ينصب بلم كقراءة بعضهم (ألم نشرح لك صدرك)؛ وقول الشاعر:
في أي يوميّ من الموت أفر ... أيوم لم يقدرَ أم يوم قدر؟
وخُرجا على أن الأصل نشرحن ويقدرن، ثم حذفت نون التوكيد الخفيفة، وبقيت الفتحة دليلاً عليها. وقال أبو الفتح: الأصل يقدر بالسكون، ثم لما تجاورت الهمزة المفتوحة والراء الساكنة، أبدلوا الهمزة المحركة ألفاً، كما تبدل الهمزة الساكنة بعد الفتحة (إعطاء للجار حكم مجاوره)؛ ثم أبدلت الألف همزة متحركة لالتقائها ساكنة مع الميم وأقرب للقياس أن يقال: نقلت حركة همزة أم إلى وراء يقدر، ثم أبدلت الهمزة الساكنة ألفاً، ثم الألف همزة متحركة لالتقاء الساكنين، وكانت الحركة فتحة إتباعاً لفتحة الراء، كما في (ولا الضالين) فيمن همزه
قال الدماميني: ويمكن أن تكون الحركة حركة إتباع، وإن كان في كلمة
فعلى هذا يكون البيت موزوناً، حيث لا ضميمة إليه من أبيات أخر
علي حسين محمد
المدرس بمعلمات أسيوط
سير النبلاء للذهبي
تذييلاً لما نشر الأستاذ الفاضل كوركيس عواد في العدد 471 من الرسالة، نشير هنا إلى أن الأستاذ سعيد الأفغاني نشر جزءاً في 40 صفحة من سير النبلاء للحافظ الذهبي بدمشق سنة 1941 وطبع بمطبعة الترقي. وهذا الجزء خاص بترجمة الإمام ابن حزم الظاهري مع مقدمة ضافية في حياة الذهبي بقلم الناشر، نسخ له من خزانة إمام اليمن صاحب الجلالة يحيى حميد الدين. وسير النبلاء كتاب ضخم للذهبي في عشرين مجلداً، وفي الخزانة المذكورة منه بضعة مجلدات.
وقد كتب وجيه الحجاز الشيخ محمد نصيف إلى الأستاذ الأفغاني يبشره أن جلالة الإمام يحيى أمر أن يبحث عن بقية المجلدات في أطراف المملكة اليمنية كما أمر بالشروع في نسخ المجلدات الموجودة لترسل النسخة إلى دمشق وتهيأ للطبع. وفي ذلك بشرى لأهل العلم والتاريخ في إحياء سفر نفيس يتفرد بمزايا ليست في مرجع آخر مطبوع ولا مخطوط كما يظهر ذلك من مقدمة هذا الجزء المطبوع.
(مطلع)
كم ذا
قرأت في العدد (462) من مجلتكم الغراء كلمة بعنوان (كم ذا) يستوضح فيها الكاتب عن مدى صحة قول حافظ رحمه الله:
كم ذا يكابد عاشق ويلاقي=في حب مصر كثيرة العشاق
واطلعت على بعض الردود التي لم تنه الموضوع، لذلك أحببت الإدلاء بهذه الكلمة إكمالاً لما سلف أن نشر
إن (كم) في البيت استفهاميه ومميزها محذوف تقديره (كثيراً) أو ما هو معناه:
إلى كم ذا التملق والتواني ... وكم هذا التمادي في التمادي
و (ذا) في بيت حافظ في محل نصب مفعول مقدم لـ (يكابد) وهو مما أضعف التعبير إلى حد كبير وكان مثار استيضاح الكاتب. وسبك الشطر منثوراً يكون هكذا: (كم كثيراً يكابد عاشق مصر هذا الألم)، و (يلاقي) زائدة جئ بها للوزن وللقافية. على أن في البيت غلطة نحوية باستعمال لفظة (كثيرة) فهي إن نصبت على الحالية لم يستقم المعنى، لان كثرة
عشاق مصر لا يكون حالاً من المكابدة. وإن جرت على الصفة احتاجت إلى التحلية بال المعرفة. وبذلك ينكسر الوزن. وعليه يكون من الضرورة استبدال لفظة (الجمة) بلفظة (كثيرة) ليستقيم الوزن والمعنى معاً. وفي هذا الكفاية.
حسين الظريفي
العدد 476 - بتاريخ: 17 - 08 - 1942
الصدق في الأدب
الصدق هو جُمَّاع الصفات الجوهرية للأدب الصحيح. هو مطابقة الخبر للواقع، ومجانسة الشيء للطبيعة، ومشابهة المثال للأصل، ومجاوبة العمل للعقيدة، وموافقة الأسلوب للقاعدة، ومناسبة الكلام للمقام، وملاءمة اللفظ للمعنى، ومواءمة الموضوع للكاتب.

فلو ذهبت تتقصى أسباب ما تجد في العمل الأدبي من النقص أو الخطأ أو العبث أو الزيف أو الفساد أو التعمّل، لما وجدتها في غير الإخلال بالصدق في واحد أو أكثر من مدلولاته التي ذكرتُ. فالصفة التي لا تدل على شيء من حقيقة الموصوف، والكلمة التي لا تقع في وضعها من المعنى ولا في موضعها من الجملة، والصورة التي لا تتألف من خطوط الحاضر وألوان البيئة، والصناعة التي لا تقوم على أساس من الطبع والذوق، والحِلْية التي لا تساعد الأسلوب على التأثير والإبانة، والموضوع الذي لا يسفر عن جانب من الجمال أو الحق أو الخير، والكاتب الذي لا يقف عند ما يحسن من فنون القول؛ كل أولئك تزوير على الطبع، وافتئات على الفن، وتلفيق من الهراء لا يدخل في الأدب ولو دفعوه دفعاً في أوسع أبوابه

إذا حكَّمت الصدق في رأيك أمِنتَ التناقض؛ فلا يخالف ظاهرك باطنَك، ولا يعارض آخرك أولك. وإذا حكمتَ الصدق في أسلوبك أمنت الفضول؛ فلا تؤدي معنى بغير لفظه، ولا تضع لفظاً في غير موضعه. وإذا حكمت الصدق في نيتك أمنت النفاق؛ فلا تقول ما لا تعتقد، ولا تعتقد ما لا تؤمن بصحته. وإذا حكمت الصدق في كفايتك أمنت المجازفة؛ فلا تعالج ما لا تعلم، ولا تنقد ما لا تفهم، ولا تدَّعي ما لا تثبت. وإذا استحالت مراعاة الصدق في بعض فنون الأدب كالقَصص المتخَّيل، وجبتْ عليك مراعاة احتماله على ذلك أسوق إليك إذا سمحت جملة من إحدى افتتاحيات الرسالة لأطبق عليها شرط الصدق في الشكل والموضوع والغرض. ولم أختر هذه الجملة لأنها من نوابغ الجمل، ولكنني اخترتها لغرض لا يشق عليك أن تلحظه فيما بعد

موضوع الجملة طفولة مجرم بالغريزة لم تفارقه نية الإجرام منذ درج إلى أن أكتهل. نشأ هذا الطفل في (قريتنا) وفي (حارتنا)، فأنا أصف حاله كما كان، وأقص أمره كما وقع. الحارة ساحة فسيحة تستدير عليها البيوت، فكأنها صحن دار كبيرة. والأطفال - وأنا منهم - يلعبون في بُهرتها شتى الألعاب في مرح وبهجة؛ فإذا طلع عليهم هذا الصبي الشرير من

داره انقطع اللعب وخبّأ كل طفل لعبته ثم لا يلبث الشجار أن ينشب بينه وبين الأطفال بنين وبناتٍ بغير رفق؛ فالقوي يثبت له فيضربه، والضعيف يفر منه فيقذفه، والبنت ترتاع فلا تدفع عن لعبتها يده. والبيوت على الحارة مفتحة الأبواب لا يحرس أمتعتها غير الأمانة؛ ولكن المجرم الصغير ينتهز غفوة الأمانة في نفسه فيدخل هذه البيوت ليسرق حبلاً أو وتداً أو كرة صبي أو بيضة دجاجة. فلما أيفع دخل (صبياً) في خدمة (جدعان) القرية؛ وهم في الريف كالفتوات في المدن، دأبهم الشجار والسرقة والفجور. كان لهؤلاء الجدعان ليال مذكورة بالسطو واللهو؛ فكانوا إذا فرغوا من تدبير الجريمة وتنفيذها، أقاموا لزملائهم (وعملائهم) ولائم يكثر فيها اللحم والخمر والحشيش، ويقوم عليها أحداث المجرمين مقام الخدام والنُّدُل، كما يقومون في تدبير الجرائم مقام الطلائع والرُّسل. ولا أطيل عليك فقد صغَّرت هذه الصورة في هذه الجملة:

نشأ من لِداته من أطفال القرية كما ينشأ الزنبور بين النحل أو الثعبان بين الحمام؛) فكان لا ينفك ضارباً هذا بعصا؛ أو قاذفاً ذاك بحجر، أو خاطفاً لعبة من بنت، أو سارقاً شيئاً من بيت! فلما جاوز حد الطفولة دخل في خدمة الفجَّار والمجَّان، فكان يخدم أولئك في تدبير الجرائم، ويخدم هؤلاء في إعداد الولائم. . .)

فأنت ترى هذه الجملة على إيجازها قد صورت نشأة هذا الطفل على الإجرام بالمعنى الذي لا تزيد فيه، وباللفظ الذي لا بد منه، وبالبيان الذي لا بأس به؛ وإذا سلمت الجملة الفنية من اللغو والخطأ والغثاثة سلم فيها عنصر الصدق وهو جوهر الأدب

ولكنك مع ذلك لا تعدم ناقداً يزعم أنه يضع (الميزان الجديد) للنقد في (الثقافة)، ثم يجازف باستخدام علمه بالأدب الغربي، في الحكم على أساليب الأدب العربي، فيعتسف الرأي اعتسافاً لا يتسع له فيه عذر. فهو ينكر منطق العقاد، ويظلم شعر علي طه، ويغمز أسلوب طه حسين، ويحكم على سائر الأساليب المعروفة بمجافاة (الموسيقى والإيحاء والطبيعية)

هذا الناقد الفاضل قد اختار الجملة التي اخترتها ليبرهن بها على كذب الأسلوب لا على صدقه! فهو يقول أن أسلوبها أشبه بأسلوب (المقامات) (كذا والله!) وأن القارئ يقرأها (فلا يتصور أن مثل هذا الرجل موجود) ودليله على ذلك أن وجوده لو كان ممكناً

ما سألني القراء عن حقيقته. والواقع أن الذي سأل في الرسالة طالبٌ في المعهد الجنائي، وما كان
سؤاله إلا عن مكان المجرم لا عن حقيقته. ثم يمضي الناقد على أن القطعة من الأدب المصنوع فيقول: (يا لله! ولم لا يخطف لعبة من ولد وهو مجرم كبير؟ (كذا!) ولم لا يسرق من جامع وذلك أيسر من السرقة من بيت؟ وهل هو حقيقة لم يخطف إلا من بنت؟ ولم لا يسرق إلا من بيت؟. . . وهو يخدم المجرمين بتدبير الجرائم، ولكن لم لا يخدم المجان بأعداد المقاصف؟ وهل الوليمة أشهى من المقصف؟) فالناقد لا يرى بأساً في أن نضع الولد بدل البنت، والجامع بدل البيت، والمقصف بدل الوليمة، لأننا في ظنه لم نقصد إلى معاني هذه الكلمات وإنما قصدنا إلى المزاوجة والسجع! هذا النقد أعوزَه الصدق فصدر عن هوَى أو جهل. وأي الآفتين كانت المصدر فإنها ورَّطت الرجل في نقد كلام لا يصدُق نقده إلا على افتراض الكذب فيه!!

أحمد حسن الزيات

أوهام تخلق متاعب

للدكتور زكي مبارك

في صدر هذه الليلة عانيتُ متاعب كادت تقصهم ظهري، وكدت أخشاها على حياتي، ثم لطف الله فتبددت بعد ساعات كانت أطول من الآبادَ

فما تلك المتاعب؟

هي متاعب خلقتها أوهام في غاية من السخف، ولكن النص عليها واجب لمنفعة القراء، فقد يكون فيهم من تعتريه مثل تلك الأوهام في بعض الأحوال

التفتّ بغتةً فرأيت نفسي تراجع طوائف من الذكريات الموصولة بمعاملاتي مع جماعات من المعارف والأصدقاء، فانقبض صدري أشد الانقباض، وتجسمت أمام خيالي ألوان الأوهام بصورة لم أشهد مثلها من قبل، صورة مروَّعة قاسيتُ منها ما تقاسي النار من الريح العَصُوف

وفي فورة تلك الكروب جاء لطف الله فرأيتني أقول: ومَن أولئك وهؤلاء حتى أعاني في العتب عليهم مثل هذا العذاب؟ إذا غدر بك القريب فليس بقريب، وإذا تجنى عليك الصديق فليس بصديق، ومن واجبك أن تحفر قبراً تدفن فيه من لا يرعى حق القرابة، ولا يحفظ عهد الإخاء. ما اهتمامُك بمن يرضيهم أن تَشقَى نفسك؟ وما عتبُك على من يسرهم أن تزلّ قدمك؟ وما حزنُك على ضياع مودّة كان يجب أن تضيع لأنها في رعاية الضائعين؟! أمن أجل خلائق مِراض القلوب تُمرض نفسك؟ أمن أجل إخوانٍ غَدَرة تؤذي قلبك؟ أهؤلاء وأولئك يستحقون أن تفكر فيهم ساعةً من ليل؟ وهل أكرموا أنفسهم حتى يكرموك؟ وهل أعزوا حياتهم حتى يُعزوك؟ إن حزنك لما صنعوا معك دليلٌ على أنك دائم الإشفاق عليهم، وقد نصحك الشاعر صادق رستم حين قال:

شرُّ البليَّة إشفاقٌ على فئةٍ ... لو كنت تؤكل ما عفُّوا ولا شبعوا

تبيتُ تبكي لَصرف الدهر يفجعهم ... ولو رأوك على الأعناق ما دمعوا؟

لا تشفق عليهم، وأشفق على نفسك أيها الغافل عن حقائق الخلائق؛ فلو أنك استبقيت ما أنفقت من الوقت في صحبتهم لتنفقه في تربية الخنازير، لكنتَ اليوم من كبار الأغنياء. . . وقد نصحك المثل المصري فما انتصحت، المَثل الذي يقول: (كلُّ ما تزرع ينفعك، إلا ابن

آدم تزرعه فيقلعك)! وهؤلاء يحققون صدق هذا المثل أفظع تحقيق، فهم يقوّلونك ما لم تقل، ويذيعون عنك أغرب الأحاديث، وقولهم فيك مسموع، لأنهم عرفوك، ومن حق من عرفك أن يقول فيك ما يشاء

وما ضرَّني إلا الذين عرفتُهم ... جَزى الله خيراً كلَّ من لست أعرفُ

ما جزعك من غدر صديق؟ وما حزنُك من لؤم أليف؟ أنتَ أنتَ، ولن يكون بلاؤك بأولئك وهؤلاء غير سحابة صيف، ثم ترجع إلى إسباغ نعمائك على الجاحدين

تذكر يا غافل فضل الله عليك. تذكر أنه عصمك من الجحود حين أغناك عن الناس، والجحود رذيلة لا يتعرض لها غير المبتَلَيْن بتقبل إفضال المفضلين من أهل الكرم المطبوع أو المصنوع

أنت تتحدث كثيراً عن التأدب بأدب الله، فهل تأدبت بذلك الأدب الجميل؟

إن الله يسبغ نِعمه على الكافرين بعزته السامية. إن الله يعطي الملحدين أضعاف ما

يعطي المؤمنين، كما يفعل الأب الرحيم حين يؤثِر الابن السقيم على الابن السليم، فما أنت وذلك الأدب الرفيع؟
وأراك تبدي وتعيد في أحاديث البر بأصدقائك، ولو ناقشوك لأفحموك، فما قبِلوا برِكِ إلا حين اطمأنوا إلى أنك رجلٌ كريم، والكريم غير منَّان
وما الوقت الذي تقول إنك أغدقته على الجاحدين من إخوانك؟ لقد دفعوا ثمن المعروف أضعافاً مضاعفة، لو كنت تنصف، دفعوه تحيات وابتسامات، وهي معان تفوق كرائم الأثمان، ودفعوا ما هو أعظم، لو كنت تعقل، فقد أشعروك بلسان المقال أو لسان الحال أنك رجلٌ نفَّاع، وذلك أعظم ما يوصف به أكابر الرجال
أنت تمن على أصدقائك؟ فماذا أبقيت للمتجرين بالأخلاق؟!
. . .كان الظن أن تنسى جميلك إن كنت من أصحاب الجميل، ولكنك
وهنا أفقتُ قليلاً فسألت نفسي عن سبب التفوه بذلك المن السخيف:
ماذا أكلت اليوم من الطعام؟ ومن لقيت من الناس؟
يجب أن أعرف ما وقع في يومي هذا، لأعرف سبب السخف الذي وقعت فيه حين مننت على معارفي وأصدقائي
في عصرية اليوم - وهو الخامس من شهر آب - كنت أهنئ فلانة بعيد ميلادها السعيد، وفي لحظة من لحظات الصفاء حدثتها أني ولدت في مثل هذا اليوم، فهتفت بحماسة مصحوبة بالحنان:
نعم، يا سيدتي، وثمرات الأعناب في شهر آب
ثم قُلقِلتْ نفسي قلقلة عنيفة حين تذكرت أني لا أحتفل بعيد ميلادي كما يحتفل أكثر الناس، وكيف يتيسر ذلك وأنا أخلَق في كل لحظة خلقاً جديداً، باعتبار ما يَرِدُ على عقلي وروحي من شتيت الآراء والأهواء؟
وسألتني عما أستظرف من هدية الميلاد فأبيت الإفصاح عما أريد، وإن كنت أشرت إلى أني معجب بدالية مسلم بن الوليد!
وغفلة فلانة عن مدلول هذه الإشارة لم تزعجني، لأنها قليلة المعرفة بقصائد صريع الغواني!
فما السبب الأصيل لاضطرابي وانزعاجي في هذا المساء؟
لعل السبب يرجع إلى أني قضيت صباحية اليوم بوزارة المعارف، وهي مملوءة بالمراوح، ولتفصيل ذلك أقول:
في مكاتب كبار الموظفين بوزارة المعارف مراوح كهربائية تدور من جانب إلى جانب، ليقلَّ خطرها فيما يقال، وأنا رجلٌ يؤذيه البرد الطبيعي أشد الإيذاء، فكيف يتحمل البرد الصناعي وهو ثقيلٌ ثقيل؟
أنا لا أخاف المراوح الثابتة، لأن تجنب تيارها مستطاع، وإنما أخاف المراوح الدوارة، المراوح التي تغزو الصدور والمفاصل برغم التحرز والاحتراس
وهذه المراوح كثيرة في وزارة المعارف، وأنا منها في شقاء وعناء، ولا سيما المروحة الجاثمة بمكتب تفتيش اللغة العربية، ومن أجل هذا أوصي زائري بمقابلتي في مكتب الأستاذ علي أدهم سكرتير الرجل النبيل شفيق بك غربال، لأنه مكتبٌ مضنونٌ عليه بالمراوح ليساير الطبيعة في أمان
وآه ثم آه من المراوح في وزارة المعارف!
إنها تخلق تيارات عنيفة الإيذاء، وهي السبب في بلبلة بالي في هذا المساء
وأعجب العجب أن المراوح الدوّارة تحتل جميع المكاتب الحكومية، وكأنها النمائم المبذولة بغير حساب، فأين من يرجمنا من تلك الرياح الباغية؟ وأين من يعرف أن القيظ في أحر أحواله أروح من البرد؟
عرفتُ بالضبط والتحديد سبب اعتكاري في هذا المساء، فما عن لؤم أو حقد غمزت معارفي وأصدقائي، وإنما هي جناية المراوح بوزارة المعارف، وسيأتي يومٌ قريب أو بعيد تُرفَع فيه تلك الآصار الثقال
إن قوماً يعجبون من ثورتي على الناس والزمان، فهل يعرفون أن المراوح تلفح وجهي في كل مكان؟
لو صفا دهري لصفوت، ولو عدل زمني لعدلت، واختلال الموزون يُخلْ الميزان
بمن أثق؟ وعلى من أعتمد؟ وما اطمأننت إلى صديق إلا رأيته بعد حين أو أحيان

وصولياً عديم الروح والوجدان
ومع هذا أصفح عن أبناء زماني، لأنهم أبناء الزمان
ومع هذا أيضاً أبتسم حين يلقاني فلان وعلان
فضحتكم يا جماعة المنافقين، فالتمسوا قلباً غير قلبي، وجيباً غير جيبي، وانتظروا غضب الله على جميع المرائين
ثم ماذا؟
ثم أشير إلى غربتي في وطني بالفكر والروح، غربة قاسية لا ترحم ولا تلين، غربة أتوحَّد بها توحُّد الليث في العرين.

زكي مبارك

سيكولوجية إدلر

تلخيص وتبسيط

للأستاذ محمد أديب العامري

(بقية ما نشر في العدد الماضي)

مجتمعنا اليوم في الشرق قلما يضع الفرد في موضعه المناسب في الحياة. ولذلك يلازم المرء شعور الوحشة مما يجده في نفسه من نقص ومما يجده في المجتمع من عدم إفساح الطريق له ليعوض بالبروز في ناحية منه شعوره بالنقص. وليس المجتمع في الغرب أحسن بكثير مما هو في الشرق؛ ولكن إدلر يرى أن المجتمع الراقي لا يتخلف عن إسداء كل فرد منه ما يستحقه بالنسبة لكفايته. وهذا يفسح المجال للمواهب. فإذا فحصنا عباقرة التاريخ وجدنا في كل واحد منهم نوعاً من النقص. فضعف البصر ضعف شائع في العظماء. وبعض العظماء والناس ضعفاً في معدهم وأمعائهم. وفي الأطفال والناس من يكون أيسر فلا يستطيع أن يستعمل يده اليمنى، ومنهم من يكون غبياً يتلعثم، ومنهم من يكون بالغ القصر الخ. . . كل هذه عوامل تولد الشعور بالنقص

فإذا أثر النقص في الإنسان تأثيراً شديداً تولد فيه (مركب النقص)، وظهرت لذلك بوادر كثيرة مختلفة. فبعض الناس تراهم في حركة دائمة، فإذا مشوا ضربوا الأرض بأرجلهم، وإذا تحدثوا رفعوا أصواتهم ليسمعهم الناس، ولهم أمزجة حادة وانفجارات عاطفية فجائية. ومن الناس من يتناقض في آرائه وأعماله، ومنهم من يتردد تردداً عظيماً، فلا يستطيع أن يحزم في أمر. كل ذلك من علائم المرء وقد أصيب بشعور بالنقص. ومما يدل على شعور النقص في إنسان، الوقوف المعتدل المتوتر الذي يدفع المرء فيه برأسه إلى الأعلى على شكل ملحوظ، أو طأطأة الرأس إلى الأرض أثناء المشي، أو الاعتماد المستمر على الطاولة أو الجدار أو العصا حين الوقوف. والطفل الذي يحب الاستناد إلى أمه أو يخاف من مواجهة الناس فيظل متهيباً منفرداً طفل يحس بالنقص. والرجل الذي يتجافى عن المجتمع ويتحاشاه إنما يفعل ذلك في الغالب لأنه يتملكه شعور بالنقص. والخوف صفة من هذا القبيل كذلك. وهنالك نوع من الجرأة لا يختلف عن الخوف، فالإنسان أحياناً يتملكه تهور فجائي نادر يدفعه إلى الهلاك

ويرى إدلر أن الخوف والشجاعة مرتبطان بالإيمان بالقضاء والقدر. وهو يقول: (أن الإيمان بالقضاء والقدر مخرج يخلص به الإنسان من الجهاد والبناء المفيد في الحياة. إن هذا الإيمان دائماً دعامة واهية يستند إليها الإنسان)

والغيرة باعتدال صفة عادية معروفة، ولكنها إذا اشتدت كانت من علامات الشعور بالنقص. أما الحسد فدليل مركب نقص شديد عميق. ويوافق علم النفس الفردي على أن (الحسود لا يسود) وأنه لا يمكن أن يكون الحسد مفيداً على أي شكل من الأشكال.

التحليل النفسي

تصبح بذلك طريقة التحليل النفسي عند إدلر واضحة. إن هذه الطريقة تعتمد على فهم الشخصية الإنسانية المحللة، وترمي بشكل خاص إلى النفاذ إلى هدف هذه الشخصية في الحياة، وعلى أساس من ذلك يوصف العلاج النفسي. وللوصول إلى هذا يجب أن يفهم (طراز الحياة للإنسان المحلل. وأن تدرس التذكارات القديمة، والأحلام التي يحلمها. (وطراز الحياة) هذا هو الشكل الذي تكون شخصية المرء قد استوت عليه بعد نموها خلال السنوات الأولى. ويمكن أن يفهم هذا الطراز من دراسة أوضاع الإنسان

وخاصة في حالاته غير الطبيعية؛ فالإنسان السوي هو الإنسان الذي يستفيد المجتمع منه، والذي يكون له من الإقدام والجهود ما يتقوى به على مشكلات الحياة. إن الرجل الذي ينحرف عن هذا لا يكون سوياً، ويمكن مراقبته ومعرفة دائه، ومن ثم معرفة طريقة إصلاحه

ويروي إدلر حكاية رجل كان من صفاته أنه خجول شديد الشك في أصدقائه. فمثل هذا الرجل لا يمكن بشكه أن يكون ذا أصدقاء، ولا يمكن لشدة خجله أن يخالط الناس. ثم إنه كان شديد الخوف من الفشل في عمله؛ فحمله ذلك على شدة العمل حتى أنهك نفسه. ويعتبر هذا الرجل فاشلاً في علاقاته الاجتماعية كما يعتبر فاشلاً في عمله. إنه يحس إحساساً عميقاً بالضعف. وقد لوحظ أنه في مشكلة الحياة الثالثة - الحب - كان شديد التردد. فإنه كان يتنقل في حبه من فتاة إلى أخرى، ثم لم يتزوج قط. وكان هذا الرجل بكر أبويه. وبكر أبويه في نظر إدلر يتعرض في الغالب للحرمان كله أو بعضه من جراء العناية بالطفل الثاني التي يشاهدها البكر. وهذا الحرمان يولد في نفسه الشعور بالنقص. ومثل هذا الرجل

إذا أردت أن تمكنه من أن يتغلب على شعوره بالنقص وجب أولاً أن توضح له أنه يقدر نفسه دون ما تستحق، كما يجب أن توضح له تزمته في ملاقاة الناس ووجه خطئه في تخوفه من أن يفضل عليه أحد من الناس

وأما عن ذكريات الإنسان القديمة، فإن المرء يتذكر ما له أهمية في نفسه. ولا عبرة بأن تدل ذكريات الإنسان على نموذجه الأول الذي تقدم ذكره)، لأنها تشير إلى ما وقع من أمر هام، وإلى ما يقع على أمثاله، لأن شخصية الإنسان الأساسية لا تتغير. ويصلح هذا الموضوع للمقارنة بما اكتشف عن الإنسان بوسائط أخرى. وللحصول على الذكريات القديمة يطلب إلى الإنسان أن يرتد بذاكرته إلى حداثته وأن يتذكر من حداثته وأن يتذكر من ذلك ما يتذكره

وقد يجد المحلل صعوبة في هذا، لأن المريض قد يقول إنه لا يذكر شيئاً. ولكن الإلحاح عليه يثمر دائماً ثمرة طبية، فيذكر المريض شيئاً. إن ما يذكره الآن له أهمية لأنه يدل على وصفه الأول - الحالة التي نشأ عليها. والذاكرون من الناس يذكرون أشياء كثيرة مختلفة بالطبع، ولكن براعة المحلل تردها إلى أصول محدودة

فبعض الناس مثلاً يقول إنه يذكر أنه سمع صوت قاطرة، وبعضهم يذكر أنه أكل أكلة لذيذة، وبعضهم يذكر أشياء تتعلق بأمه وأبيه، وبعضهم يذكر حالات مرضية أصابته، وبعضهم يذكر شيئاً يتعلق بملابسه أو أنه خرب أو حرم. . . الخ فوظيفة المحلل هنا أن يرد هذه الأشياء إلى أصولها، ليجد منها شخصية المرء الأولية وليربط ذلك بشخصيته الحاضرة على اعتبار أن شخصية الإنسان لا يتغير بتقدم السن

يذكر الإنسان مثلاً من قديم ذكرياته أن أمه ضربته وعنفته حتى فر منها هارباً، وضل الطريق حتى خاف على نفسه الموت. فمثل هذه الذكرى تشير إلى عامل قوي من عوامل التخوف، لا بد وأن يكون قد دخل في تكوين شخصية الإنسان، وهذه الحالة تقرب من الواقعية، فإن صاحبها حين دخل الجامعة ليتعلم ظل خائفاً من الرسوب في الامتحانات الجامعية بالرغم من ذكائه. فلما تخرج قتل نفسه اجتهاداً في الحياة لئلا يفشل فيها، فهو يلعب في حياته من حيث الأساس دور الرجل الخائف، وهذا هو شعور النقص الأساسي في نفسه

ونموذج الحياة الأول للإنسان يظهر منه شيء في الأحلام، فالحلم عند إدلر لا يخرج عن كونه قسماً من طراز الحياة. والنموذج الأول دائماً منطو فيه. ومن هنا كانت معرفتك لإنسان مؤدية إلى معرفة نوع أحلامه، ومعظم أحلام الناس أحلام خوف، لأن النوع البشري جبان. ويحلم المرء أحلاماً مخيفة، لأنه في يقظة، دائماً يتوجس من الفشل، ويحاول أن يتخلص من الحياة بالهرب من مشاكلها. هو يبحث عما يجنبه متاعبها، هذا هدفه، والحلم يؤيد له هذا الهدف، ولا فاصل عند إدلر بين النوم واليقظة، فإن طرف أحدهما منساب في طرف الآخر، فنحن في النوم نسمع ونفكر ونحس احساسات عامة، وتستهدف أحلامنا - على العموم - هدفاً من العظمة يخلصنا مما نحس به من شعور بالنقص، ولكن في الأحلام نوعاً من التشويش أو الغش والتمويه على النفس؛ ولذلك فالذين يفكرون تفكيراً منطقياً ويواجهون حقائق الحياة لا يحلمون إلا قليلاً، أو لا يحلمون قط. إن المرء يضع أحلامه، فأحلامه تتجه في محتوياتها إلى ما

يتجه هو إليه في الحياة، ومن أحلامه يتضح لك شيء من هدفه فيها
فأنت تستطيع إذن بمختلف هذه الأساليب أن تتصل بمعرفة (النموذج الأول) الذي ينشأ
عليه الإنسان و (طراز الحياة) الذي يتبعه. ونستطيع من ذلك أن نعرف النقطة
المركزية التي يدور عليها شعوره بالنقص، والطريقة التي يحاول أن يعوض بها عن هذا
النقص. وإن النقطة المركزية على كل حال نوع من النقص. وهذا الضعف نفسه يحمل
المرء رجلاً، كما حمله طفلاً على التزام جانب المجتمع والشعور بحاجته إليه.
فطريق الإصلاح الأساسي لأي إنسان أصبح شعوره بالنقص مركباً أنه يؤثر في حياته
فيدفع به إلى نواح غير مفيدة، هو تعديل مركز الفرد في المجتمع وتسويته. ومرة
أخرى يتلخص هذا التعديل في تحسين موقف المرء من الناس ومن مهنته ومن مسألة
زواجه
ولا أقصد أن أطيل أكثر مما قد فعلت؛ فالطريقة التي يمكن أن ينشأ بها طفل لكي
يكون إنساناً سوياً هي أن يعامل بعدل واحترام. ولكن الشاب الذي يتم تكوين طراز
حياته على صورة معوجة يجب أن يدرس وأن تعرف مزاياه وأن يوجه نظرة إليها.
فإدلر يعتقد أن (كل إنسان يصلح لكل شيء). فإذا فتحت للشاب آفاق جديدة وسوعد
في التغلب على ضعفه، اندفع في الحياة من جديد. وقد عولجت عملياً حالات كثيرين
من المرضى
العصبيين ومن حالات قريبة من الجنون على هذا الأساس فنجحت طريقة العلاج
أما في ناحية المهنة فيحذر إدلر من الاستعلاء الذي يجده كل شاب في نفسه حين
يعمل مع غيره. هذا الاستعلاء يحمله على الفوضى وعدم الطاعة للرؤساء. وليس من
السهل إيجاد عمل لمبتدئ لا يرأسه فيه أحد. فإذا لم يعرف كيف يتلقى الأمر من
رئيس له لم يقدر على التقدم. وإذا لم يحسن التصرف مع الناس على اعتبار أنه رجل
اجتماعي فلا سبيل إلى نجاحه ولا يعني إدلر فيما اطلعت عليه من كتاباته إلى اليوم،
بمظالم عميقة تقترفها البشرية في حق نفسها ولا تفيد فيها نصائحه، ولكنا نغض النظر
عن ذلك الآن
وحل مشكلة الحب عند إدلر يدخلنا في بحث يختلف عما تثيره حياتنا الاجتماعية في
الشرق من مشكلات في هذا السبيل. ولكن مما لا ريب فيه أن الرجل المصاب بداء
الشعور بالنقص قد يحجم عن الزواج خوفاً من تبعات الحياة الجديدة. وضعف الإنسان
عامة عن مواجهة إنسان من الجنس الآخر ينتج عن إحساس بالنقص يحمل صاحبه
على التردد والحياء
(السلط)
محمد أديب العامري
شعر علي بن أبي طالب
للأستاذ محمد محمود رضوان
تمهيد
وفق الأستاذ السيد يعقوب بكر في بحثه الذي نشرته الرسالة عن شعر علي بن أبي
طالب أحسن التوفيق. والحق أن هذه المسألة من المسائل المشكلة الكثيرة التي
تحتاج إلى البحث والتمحيص في أدبنا العربي، وقد سبقنا المستشرقون إلى هذا النوع
من البحث فجلوا كثيراً من الحقائق، وكشفوا كثيراً من الشبهات. ولولا ما يلبس
آراءهم في كثير من الأحيان من تعصب تمليه النعرة الدينية، وما يحرمهم من شنآن
تزكية العصبية الجنسية، لكان لبحوثهم شأن غير هذا الشأن.
وهذه المسألة - شعر علي بن أبي طالب - كتب فيها المستشرقون، وقد ناقش الأستاذ
بكر في بحثه آراءهم ومن ثم اهتدى إلى رأيه الأخير. وعندي أنه أقرب إلى الحق
والمعقول، وأعني به أن علي بن أبي طالب كان يقول الشعر وإن كان مقلاً، وأن بعض
ما نسب إليه في المراجع العربية صحيح، وأن أكثر ما في ديوانه من الشعر مكذوب
مصنوع.
لسنا نخالف الأستاذ إذن فيما وصل إليه؛ ولكن عنت لنا في بحثه بعض آراء ومآخذ
نجملها فيما يلي:
الشعر المنسوب لعلي
ذكر الأستاذ جملة أشعار منسوبة إلى علي في عيون الأخبار ومعجم الأدباء ومقاتل

الطالبين والعمدة وحماسة البحتري وكامل المبرد والعقد. ثم قال: (نستطيع أن نقول واثقين إن هذه الأشعار التي وجدناها هي معظم ما في هذه المراجع من الشعر المنسوب إلى علي) اهـ

وأقول إن ما رواه الأستاذ - وهو لا يعدو ثمانية وعشرين بيتاً - أقل من كثر مما نسب في المراجع العربية المعتمدة إلى علي، ولو أحصي لكان أضعاف ما روى. وأذكر على سبيل المثال ما رواه صاحب تاج العروس (ج7 ص85) أنه قال يوم خيبر:

دونكها مترعة دهاقا ... كأساً زعافاً مزجت زعاقا

وما رواه ابن هشام في المغنى. وقال السيوطي في شواهده (عزاه المصنف لعلي ابن أبي طالب):

فلما تبينا الهدى كان كلنا ... على طاعة الرحمن والحق والتقى

وغير ذلك كثير مما تجده في مروج الذهب والعقد وتاج العروس ونهاية الأرب، وشرح المضنون، وتاريخ ابن عساكر وكامل المبرد والتحفة الناصرية وجمهرة ابن دريد واللسان وغيرها.

ويلحق بهذا المأخذ فساد الاستدلال الذي بناه الكاتب على وجود هذه الأشعار في المراجع العربية إذ استدل بوجودها فيها ووجودها في ديوان علي على صدق نسبتها إلى علي.

أقول إن هذا استدلال فاسد إذ من البدهي أن الذي وضع ديوان علي أو جمعه قد نقل ما في المراجع العربية جميعاً منسوباً إلى علي ولعله زاد عليه. . . فليس في هذا دليل.

من أسباب الخطأ في نسبة الشعر إليه

ويرى الكاتب أن هذه الأشعار قد وضعها أناس مختلفون معظمهم من الشيعة وأنهم نسبوها إلى علي حباً فيه. . . ثم جاء جامع الديوان فجمع كل ما عثر عليه من الشعر المنسوب إلى علي الخ

وأنا مع موافقتي على هذا الرأي أرى أن هناك سبباً آخر غير مقصود في عزو كثير من هذه الأشعار لعلي، وذلك أن علياً رضي الله عنه كان كثير التمثل بشعر العرب. ومن ثم ظن الرواة أنه قائل الشعر الذي تمثل به فنسبوه له خطأ:

1 - خذ مثلاً قول الشاعر:

أفلح من كانت له مزحّة ... يزجُّها ثم ينام الفحَّة

ذكره صاحب اللسان فقال: (وفي حديث علي رضي الله عنه. . . أفلح. . . البيت) (اللسان ج4 ص10) وعبارة ابن الأثير (وفي حديث علي. . . أفلح. . . البيت) (النهاية ج 3 ص187)

فأنت ترى أن البيت ورد في حديث لعلي، ومن ثم ظن الرواة أنه قائله فنسبوه إليه. . . ففي المزهر (ج2 ص206) ما نصه: (وقال ابن دريد: روي عن علي رضي الله عنه. أفلح. البيت). والذي رواه البطليموسي في (الاقتضاب ص383)

أفلح من كانت له قوصرَّة ... يأكل منها كل يوم مرَّة

قال الشارح: (يروي هذا الرجز لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه) ثم ذكر البيت الذي معنا على أنه مثل هذا البيت

2 - وقال المبرد في (الكامل ج2 ص15 طبعة التجارية) (وأحسن ما سمع في هذا ما يعزى إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقائل يقول هو له، ويقول آخرون قاله متمثلاً، ولم يختلف في أنه كان يكثر إنشاده:

فلا تفش سرك إلا إليك ... فإن لكل نصيح نصيحا

وإني رأيت غواة الرجا ... ل لا يتركون أديماً صحيحاً

فأنت ترى تشابه القول على الرواة فيما كان يتمثل به

3 - وأبلغ من هذين الشاهدين ما نقله العيني عن البيت المنسوب لعلي:

أي يومي من الموت أفر ... يوم لم يقدر أو يوم قدر

أن ابن الأعرابي قال: (هو للحارث ابن المنذر الجرمي وليس لعلي رضي الله عنه، ولكنه تمثل به) (المقاصد النحوية بهامش خزانة الأدب ج4 ص447)

الزيادة فيما صح من شعره

وثم طريق آخر سلكه المزيفون على علي رضي الله عنه من الشيعة وغيرهم. ذلك أنهم عمدوا إلى البيت أو الأبيات اشتهرت نسبتها لعلي فزادوا عليها - قبلها أو بعدها - وتستطيع بقليل من النظر أن تتبين الزيادة من اختلاف النظم والأسلوب وتهافت المعنى

خذ مثلاً بيتيه اللذين أجمعت كتب الأدب على أن علياً قائلهما، بل إن المازني - وصوبه الزمخشري - لم يكن يصحح نسبة الشعر لعلي إلا هذين البيتين وهما:

تلكم قريش تمنَّاني لتقتلني ... فلا وربك ما بروا وما ظفروا

فإن هلكت فرهن ذمتي لهم ... بذات ودقين لا يعفو لها أثر

ثم ارجع إلى شرح شواهد المغنى ص176 تجد قبلهما ثلاثة أبيات وبعدهما ثمانية أبيات لا تشك بعد أن تقرأها أنها مصنوعة وترى فيها أثر الصنعة والتشيع والحديث عن المهدي المنتظر

وسوف يبعث مهدي بسنته ... فينشر الوحي والدين الذي قهروا

وسوف يعمل فيهم بالقصاص كما ... كانوا يدينون أهل الحق إن قدروا

وغير ذلك كثير نمسك عن ذكره خوف الإطالة

رأي آخر في شعر علي

وثم رأي آخر أرادوا به التوفيق بين ما قاله المازني والزمخشري ويونس وغيرهم أن علياً لم يقل من الشعر إلا البيتين السالفين، وبين ما ذكره الآخرون من شعره

وقد وجدت هذا الرأي للزبيدي في تاج العروس (مادة خيس) فقد روي أن علياً بنى سجناً سماه المخيس فقال فيه:

أما تراني كيِّساً مكيَّساً ... بنيت بعد نافع مخيَّسا

باباً حصيناً وأميناً كيِّسا

قال الزبيدي: (قال شيخنا تبعاً للبدر: وهذا ينافي ما سيأتي له في ورق أنه لم يثبت عنه أنه قال شعراً. . . الخ)؛ قلت: (ويمكن أن يجاب أن هذا رجز ولا يعد من الشعر عند جماعة)

وأنت ترى أنه تخريج تافه، لأن كثيراً مما روي لعلي من الشعر، وإن كان له بعض الرجز. والبيتان اللذان سلف القول في صحته نسبتهما له من الشعر لا الرجز. هذا علاوة على أن الرجز من الشعر كما صححه جلة العلماء

تصويبات في الشعر المنسوب له

1 - نقل الأستاذ عن العمدة لابن رشيق أبياتاً لعلي قالها يوم صفين يذكر همدان ونصرهم إياه، منها:

ونادى ابن هند في الطلاع وحميراً ... وكندة في لخم وحي جذام

قلت: يلوح لي أن في هذا البيت تحريفاً كبيراً؛ وأرى أن صوابه:

ونادى ابن هند ذا الكلاع وحميراً ... وكندة في لخم وحي جذام

و (ذو الكلاع): رجل من حمير قاتل مع معاوية في صفين أخرجه معاوية حين أخرج علي سعيد بن قيس الهمداني سيد همدان؛ وأخرج معاوية أيضاً عبيد الله بن عمر بن الخطاب في حمير ولخم وجذام: (راجع مروج الذهب ج2 ص20)؛ وقد قتل ذو الكلاع في صفين

2 - ونقل عن العمدة أيضاً من شعر علي في صفين:

لمن راية حمراء يخفق ظلها ... إذا قيل قدِّمها حصينُ تقدَّما

فيوردها في الصف حتى يرَدْ بها ... حياضَ المنايا تقطر الموت والدما

قلت: في هذا الشعر تحريف في موضعين: الأول في حصين والصواب: (حضين) بالضاد المعجمة، وهو تحريف واقع في أكثر كتب الأدب: كالعمدة والعقد ومروج الذهب والبيان والتبيين والتصويب عن الأمالي (ج2 ص158) وسمط اللآلي ص817، وابن عساكر ج4 ص374، وتاج العروس ج7 ص80. قال البكري في سمط اللآلي: (هو حضين بالحاء المهملة والضاد المعجمة ابن المنذر بن الحارث الرقاشي يكنى أبا ساسان، وكان رئيس بكر وحامل رايتهم يوم صفين وله يقول علي بن أبي طالب: لمن راية، البيت)

وفي تاريخ ابن عساكر ترجمة له قال فيها: (ولا أعرف من يسمى حضيناً بالضاد المعجمة والنون وغيره)

والتحريف الثاني في (حتى يرد بها): وهو ظاهر لأنه لا عامل يجزم الفعل
والبيت ورد في (العقد الفريد) ثلاث مرات: ثنتان منهما (حتى يزيرها) وواحدة (حتى يردها)؛ وكل ذلك تحريف؛ والصواب: ما في تاريخ ابن عساكر من أبيات خمسة تختلف روايتها قليلاً: وفيها (حتى يقيلها)؛ وهي كذلك أيضاً في (تاج العروس) من أبيات أربعة ج7 ص85
هذا، ورواية العمدة (راية حمراء) أصح الروايات خلافاً لسائر كتب الأدب التي ترويها (راية سوداء)، لأن راية علي بصفين كانت حمراء لا سوداء
3 - ونقل عن حماسة البحتري لعلي - رضي الله عنه -:
من أي يوميَّ من الموت أفر ... أيومَ لم يقدرَ أم يوم قُدِرْ
قلت: الرواية كذلك في مروج الذهب (ج2 ص25)
وهذا البيت من شواهد الأشموني والمغني، والنحاة يستشهدون به في باب الجوازم على النصب بلم في لغة؛ ولهم في تخريجه كلام كثير وروايتهم له (في أي يومي الخ. . .)
والبيت كما ترى من بحر الرجز، ولكن كتب الأدب تذكر معه بيتاً ثانياً من بحر الرمل وتحرف في الأول بعض التحريف لإخراجه من الرجز إلى الرمل ليتفق البيتان، فرواية العقد الفريد (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر 1 - 123، وطبعة العريان 1 - 83)
أي يوميّ من الموت أفر ... يوم لا يقدر أم يوم قدر
يوم لا يقدر لا أرهبه ... ومن المقدور لا ينجي الحذر
وهي شبيهة بالرواية في ديوان علي
ولم يشذ عن ذلك - على ما أعلم - إلا النويري، فقد ذكر البيتين من الرجز فقال (نهاية الأرب 3 - 227)
من أي يومي من الموت أفر=أيوم لا يقدر أم يوم قدر
فيوم لا يقدر لا أرهبه=ثم من المقدور لا ينجي الحذر
ثم نعود إلى نسبة هذا البيت لقائله؛ فبعضهم ينسبه لعلي رضي الله عنه، وآخرون ينسبونه للحارث بن منذر الجرمي، ومن هؤلاء العلامة الأمير في حاشيته علي المغني (1 - 217) والسيوطي في شرح شواهد المغنى (231)، ويظهر أنهم نقلوا ذلك عن ابن الإعرابي الذي نسب له العيني هذا الرأي فيما ذكرناه آنفاً. أما العيني فيقول (أقول: قائله هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه، كذا قاله أبو عبادة البحتري في حماسته)
وقد أخطأ السيوطي، فذكر في شرح شواهد المغنى البيت - من الرجز - ثم قال إنه أول مقطوعة للحارث بن منذر الجرمي وذكر بعده أبياتاً منها
إن أخواليَ من شقرة قد ... لبسوا لي عمساً جلد النمِر
وهذه الأبيات من الرمل كما ترى. والبيت كما تذكره كتب النحاة ومنها المغنى من الرجز، فلا يكون مطلعاً لها إلا إذا رجحنا رواية العقد الفريد وديوان علي التي ذكرناها آنفاً

(بني سويف)

محمد محمود رضوان
المدرس بالمدرسة الابتدائية

طلعت حرب
ورسالته الأدبية
لمناسبة الذكرى الأولى لوفاته
للأستاذ مصطفى كامل الفلكي

أشاد الكتاب بالناحية العامة من حياة فقيد الوطن (طلعت حرب) وهي الناحية المتصلة بالرسالة العظمى التي أداها لبلاده، رسالة الاقتصاد وتدبير المال وانتشال مصر من وهدة الخراب التي عمل الأجانب على سوقها إليها بإقبالهم على استثمار مرافقها جميعاً بحيث لم يدعوا لأبناء البلاد سبيلاً
وتلك هي الناحية العظمى في حياة الرجل الفذ، ولو أننا أنصفنا لحددنا هذه الناحية بأنها هي الغالبة عليه عند الناس لظهورها وبروزها
والواقع أن طلعت حرب كان ذا رسالة أدبية خاصة، فإن الأديب لا بد أن يكون ملماً بجميع أحوال أمته وأطوارها وعاداتها وتقاليدها مستخلصاً لنفسه فكرة عن إصلاح

المعوج من أمورها، وذلك هو (طلعت حرب) في جميع أدوار حياته، فهو صاحب فكرة في الإصلاح القومي العام، ظل يدعو إليها من بدء حياته حتى وفاته
فقد عرفه الناس لأول مرة وفي صدر شبابه مؤلفاً تخرج له المطابع ثمرات ناضجة من تفكيره وشجونه، وتحتشد أنهار الصحف برائع مقالاته ودراساته، وله من الكتب كثير، منها:
المرأة والحجاب
وفصل الخطاب في المرأة والحجاب
وقناة السويس
وعلاج مصر الاقتصادي وإنشاء بنك للمصريين
وله رسالة في الإسلام، ورسالة أخرى باللغة الفرنسية في الرد على مسيو هانوتو الوزير الفرنسي المعروف حين هاجم المسلمين والإسلام.
هذا وغيره من إنتاج طلعت حرب نعرف نضوج الرأي والغيرة على ملته وقوميته، وتلمس
فيه قوة الروح وشدة العارضة في إيراد الحجج والاعتماد على المنطق وحكم العقل ودراسات العلماء، فهو لا يرسل القول إرسالاً دون بيان، ولا يعتمد على الرجم بالظن، وإنما قوله كله تحقيق وتدقيق، وتأليفه توفيق في توفيق. وفضلاً عن هذا فإن خطبه الضافية العظيمة تعتبر مرجعاً من أهم المراجع للباحثين في الاقتصاد وفي أحوال المجتمع المصري، فكلها حافلة بالمعلومات، مليئة بالأفكار الناضجة والتعاليم الوطنية الرائعة، تشف عن قلب مفعم بحب بلاده، وعقل حاشد بأهم ما ينبغي لرجل العمل أن يعرفه وأن يلم به. على أنك حين تطالع هذه الكتب وتلك المقالات والخطب والأحاديث والرسائل تخرج منها بنتيجة في غاية العجب، إذ ما من رجل أشتهر بعلم أو شغل بعمل استطاع أن يجمع إلى علمه أو عمله قوة في البيان أو بلاغة في الأداء
ولكن طلعت حرب استطاع أن يفعل هذه الأعجوبة ويحقق ذلك المقصد البعيد المنال فأنت حين تقرأ له لا تشعر أنك تقرأ لعالم كل همه إيراد علمه، وإنما تعتقد أن أديباً كبيراً أو منشأ بليغاً يسوق إليك هذه المعلومات والبيانات ويعرض عليك ألواناً من المعرفة، وأشتاتاً من الثقافات
ولو أننا جمعنا الكتب والمقالات التي أنشأها طلعت حرب لكانت أسفاراً عديدة، فإذا أضفنا إليها الأحاديث الصحفية التي أدلى بها في شتى المناسبات، وما كتب من خطابات، لكان منذ ذلك مكتبة من أرقى وأضخم المكتبات، وهذا كله شيء معترف به، ليس في حاجة إلى إثباته، لأن الجميع يعرفونه ولا ينكرونه، فإعادته والإشارة إليه تكرار ليس ما يدعوا إليه
والآن وقد مر العام على وفاة طلعت حرب الأديب فماذا فعل الأدباء لتخليد ذكراه وقد كان نصير الكتاب والأدباء والصحفيين؟
لقد وعد الدكتور زكي مبارك أن يكتب أو أن يؤلف عن طلعت حرب الأديب فأين وعده؟
يا شباب مصر اذكروا طلعت تذكروا مجدكم، وتفخروا بما فعله لتمجيدكم.
مصطفى كامل الفلكي
الفن
ليس من خصائص الإنسان أن يعرف الجمال الطبيعي ويحبه فحسب،
بل خلق مزوداً بالقدرة على إنتاجه أيضاً. فحين يرى جمالاً طبيعياً،
سواء أكان جمالاً فيزيقيا أم خلقيا، فإنه يحسه ويعجب به ويتأثر به،
فينجذب نحوه، وتتملكه عاطفة الجمال وتسيطر عليه. فإذا كانت تلك
العاطفة فعالة مثيرة ونشيطة، فإننا نميل إلى رؤية ما سبب لنا تلك اللذة
وإلى إحساسه ثانية، ونرغب في تحقيقه وإحيائه، لا كما هو عليه في
الخارج، بل كما تصوره لنا مخيلتنا، حتى تظهر فيه ذاتية خاصة،
وهذا هو الفن
فالفن إذن إنتاج حر للجمال، يصدر عن قوة كامنة في الإنسان هي ما نسميه العبقرية ويلزم لذلك الإنتاج الحر للجمال قُوى، هي نفس القوى اللازمة لمعرفته وإحساسه. فالعبقرية هي الذوق السامي، مضافاً إليه عنصر آخر هو القدرة على الإبداع. والذوق

ملكة مركبة يدخل فيها ثلاث قوى، هي المخيلة والعاطفة والعقل. هذه القوى الثلاث لازمة بالضرورة للعبقرية، ولكنها ليست كافية، فإن الذي يميز العبقرية عن الذوق، إنما هو القدرة الخالقة، أو القدرة على الابتداع والابتكار. فالذوق يحس ويحكم ويناقش ويحلل ولكنه لا يبتكر، والعبقرية مبدعة وخالقة قبل كل شيء. والعبقري إنما يكون عبقرياً بواسطة رغبة مشبوبة لا يمكن مقاومتها للتعبير عما يحس به من عواطف وانفعالات وصور وأفكار تضطرم في صدره. وقد قيل: إنه لا يوجد رجل عظيم بدون بذرة من الحماقة فيه، هذه الحماقة هي الجزء الإلهي من العقل، وهذه القوة الخفية سَّماها (سقراط): (شيطانة)؛ وأسماها (فولتير): (بالشيطان في الجسد)، وهي التي تلهم العبقرية وتثيرها حتى تبوح بما أضناها. وعلى ذلك، فهناك شيئان يميزان العبقرية: حيوية الرغبة في الإنتاج، ثم القدرة على الإنتاج، لأن الرغبة بدون القدرة ليست إلا مرضاً.

فالعبقرية بالضرورة هي على العمل والإبداع والخلق، بينما يختص الذوق بالملاحظة والإعجاب. والعبقرية الزائفة - أعني المخيلة المشبوبة العاجزة معاً - تضني في الأحلام المجدبة، وتفنى دون أن تنتج شيئاً ذا أهمية. وقد لا تنتج شيئاً على الإطلاق؛ ولكن العبقرية هي التي يمكنها أن تحول تصوراتها إلى خلق وإبداع جديدين

وإذا كانت العبقرية تخلق، فإنها إذن لا تقلد، ولذا قد يظن أنها أعلى من الطبيعة ما دامت لا تقلدها، والطبيعة من صنع الله، فالإنسان بذلك منافس لله؛ ولكن ليس ذلك بصحيح فإن الطبيعة تفسر الأشياء وتنتجها حسب طبيعتها الخاصة، كذلك العبقرية الإنسانية تنتجها حسب طبيعتها هي. . . ولنقف لحظة أمام تلك المسألة التي أثيرت مراراً، وهي: هل الفن ليس شيئاً آخر إلا تقليد الطبيعة؟

الفن من جهته تقليد بدون شك، لأن الخلق المطلق لا يمكن أن يعزى لغير الله، والعبقرية لا تأتي بالعناصر التي تعمل عليها إلا من الطبيعة. . . ولكن، هل تقتصر العبقرية على إخراجها مثلما صنعتها الطبيعة؟ وهل هي ليست إلا مجرد نسخ ونقل للواقع؟ إذا كانت العبقرية كذلك، فإن ميزتها الوحيدة تكون هي الأمانة في النسخ والنقل، وإذا كان الأمر كذلك كان الفن عاجزاً، مثله مثل طالب كسول بليد، لا يفعل شيئاً إلا أن يقلد كل ما يفعله جاره، وينقله منه بكل أمانة

والفنان الحق يحس ويعجب بالطبيعة إحساساً وإعجاباً عميقين ولكن ليس كل ما في الطبيعة باهراً ومدهشاً بدرجة واحدة. وفي الطبيعة شيء ما تتخطى به الفن إلا مالا نهاية، أعنى الحياة؛ ولكن الفن يتخطى الطبيعة ويفوقها حين لا يقلدها تقليداً دقيقاً. وكل ما هو طبيعي لا بد أن يكون معيباً من ناحية ما مهما كانت درجة جماله. وكل ما هو واقعي لا بد أن يكون ناقصاً. وعلى ذلك نجد الشناعة والقبح مختلطين بالسمو والجلالة من ناحية، ونجد الظروف والرشاقة بعيدين عن العظمة والقوة من ناحية أخرى، وهكذا. وخطوط الجمال منفصلة بعضها عن بعض؛ فإذا اتحدت اتفاقاً وبدون قاعدة ينظم بمقتضاها هذا الاتحاد أخرجت لنا المسوخ. ولكن السماح بوجود قاعدة للنظام يعني السماح بوجود مثال يخالف جميع الأفراد. هذا المثال هو ما يؤلفه الفنان حين يدرس الطبيعة والواقع فيحكم عليهما وينازلهما به

والمثال موضوع تأمل عاطفي للفنان. فالتأمل الدائم الهادئ العميق الذي تحييه العاطفة يوقظ العبقرية ويثير فيها تلك الرغبة الملحة لرؤية ما يرغب فيه متحققاً وحياً؛ ولذلك تأخذ العبقرية من الطبيعة كل المواد التي يمكن أن تساعدها، وتضفي عليها يدها القوية مثلما

فعل ميكلانج مثلاً بإزميله على الرخام الخام. فتخرج منها أعمالاً ليس لها نماذج في الطبيعة؛ أعمالاً لا تحاكي شيئاً آخر إلا المثال المتصوَّر؛ أعمالاً هي من ناحية خلق آخر أقل من الأول بالفردية والحياة، ولكنها من جهة أخرى أعلى منه بالجمال العقلي والخلقي

والجمال الخلقي أساس لكل جمال حقيقي، وهذا الأساس مغطى محجوب قليلاً في الطبيعة والفن يطلقه ويظهره. وغاية الفن هي التعبير عن الجمال الخلقي بمساعدة الجمال الفيزيقي، فهذا الأخير ليس إلا رمزاً لذاك، وهو مظلم غير واضح في الطبيعة، والفن حين يوضحه يصل إلى أعمال لا تنتجها الطبيعة دائماً. نعم إن الطبيعة قد تسبب سروراً وانشراحاً أكثر لأنها تحوز الحياة وتملكها، ولكن الفن يثير أكثر لأنه في تعبيره

عن الجمال - وبخاصة عن الجمال الخلقي - يصل مباشرة إلى منبع الانفعالات العميقة. فالفن بذلك قد يكون ابعد تأثيراً من الطبيعة، والتأثير هو علامة الجمال ومقياسه وطالب الفن ودارسه يجب عليه أن يعرف - في بدء دراسته - الواقع والمثال ويدرسهما معاً لا أحدهما أولاً. والطبيعة نفسها لا تقدم الجزئي بدون الكلي ولا الكلي بدون الجزئي، فالواقع والمثال شرطان من شروط الفن، والعبقري يعرف كيف يوحد بين المثال والواقع، بين الصورة والفكرة. وهذا الاتحاد هو كمال الفن. والأعمال الفنية الكبرى تقتضي هذا الثمن، ولكن يجب التفرقة والتميز بينهما ووضع كل منهما في مكانه الصحيح، فإنه لا يوجد مثال حقيقي بدون صورة معينة، ولا توجد وحدة بدون اختلاف، ولا نوع بدون أفراد؛ ولكن أساس الجمال هو الفكرة ' والذي ينتج الفن هو تحقيق تلك الفكرة لا تقليد الصورة الجزئية.

في بدء القرن التاسع عشر، عقد المجمع الفرنسي مسابقة عن أسباب كمال فن النحت القديم، وعن عوامل انحطاط ذلك الفن. وكان الفائز في هذه المسابقة إمري دافيد الذي قرر أن دراسة الجمال الطبيعي هي التي قادت وحدها الفن القديم نحو الكمال، وبالتالي تقليد الطبيعة هو الطريق الوحيد للوصول إلى الكمال. ولكن كاترمير دكانسي هاجم نظرية دافيد ودافع عن الجمال المثالي، وبين أن الفن عند الإغريق لم يعتمد على تقليد الطبيعة ولا على نموذج واقعي لأن النموذج ناقص مهما كان جميلاً، بل كان يعتمد في الحقيقة على الجمال المثالي الذي لا يوجد في الطبيعة. وكان دافيد قد ادعى أن كلمة

تعني عند اليونان - بفرض أنهم كانوا يعرفها - (الجمال المرئي)، لأن (الجمال المثالي) (المثال يأتي من اليونانية وهذه تعني - في رأيه - (الصورة المرئية - ولكن دكانسي أتى بأثرين رد بهما على دافيد: أحدهما من طميادس حيث بين أفلاطون بوضوح كيف يكون الفنان الحق أعلى من الفنان العادي، والآخر من (الخطيب) حيث يشرح شيشرون كيفية عمل الفنانين العظام ممثلاً لذلك بعمل فيدياس أعظم أستاذ في أكمل عصر فني. فهو حين كان يصنع تمثالاً ما لم يضع تحت ناظريه نموذجاً معيناً يعكف على تقليده، ولكن كان يوجد في نفسه صورة أو مثالاً تام الجمال. وطريقة فيدياس هذه هي نفس طريقة رفائيل التي وصفها في خطابه إلى بقوله: (لما كان ينقصني نماذج جميلة استخدمت مثالاً معيناً صنعته بنفسي)

هناك نظرية تجعل من الوهم غاية للفن، وهي نظرية ترجع الفن إلى التقليد بطريق غير مباشر. فالجمال المثالي للنفس مثلاً هو وهم العين وخداعها، ومنتهى الفن في قطعة مسرحية هو أن تقنعك أنك أمام الواقع. وكل ما في هذا الرأي من حقيقة هو أن العمل الفني لا يكون إلا إذا كان حيا. ففي الدرامة مثلاً يجب ألا تأتي بأشباح الماضي الشاحبة، بل بشخصيات مستعارة من المخيلة أو من التاريخ، ولكنها شخصيات حية وعاطفية، تتكلم وتعمل كما يعمل الناس لا كما تعمل الأشباح. ولكننا لا يمكن أن نجعل الغاية من الفن هي الخداع والإيهام؛ فإننا لو جعلنا ممثل دور بروتس نسخة منه وألبسناه ملابسه وأعطيناه نفس الخنجر الذي طعن به بروتس قيصر، لما مس ذلك الخبراء الحقيقيين إلا مسا رفيقاً. والمغالاة في الخداع تجعل عاطفة الفن تختفي لتظهر مكانها عاطفة طبيعية صرفه، فإن كنت أتوهم أن أفيجينيا على وشك أن يذبحها أبوها على بعد عشرين خطوة مني، فإنني قد أخرج من صالة المسرح مرتعداً من الخوف

وقد يقال رداً على ذلك إن غاية الشاعر هي إثارة الشفقة والخوف مثلاً. هذا صحيح، ولكن إلى حد، وبعد ذلك يخلط بذلك عاطفة أخرى تعدَّل منهما أو تمحوهما وتكون لها غاية أخرى. فإن كان الغرض من الدرامة هو إثارة الشفقة والخوف والحزن فقط بدرجة كبيرة، فإن الفن يكون بذلك غريماً عاجزاً للطبيعة، وأي مستشفى أكبر امتلاء بالشفقة والرعب والحزن من كل مسارح العالم. ونحن حين نعجب بمنظر عاصفة أو حادثة غرق، فإن

إعجابنا ليس ما يثيره هذا المنظر من شفقة أو رعب؛ بل هناك سبب آخر هو استيقاظ عاطفة الجمال والسمو التي هاجتها عظمة المنظر وامتداد البحر واصطخاب الأمواج المزبدة وقصف الرعود المدوية، ولكننا لا نفكر لحظة في أن هناك بؤساء يقاسون ويألمون وقد يموتون وإلا صار المنظر فظيعاً لا يمكن احتماله

وهناك نظرية أخرى تخلط عاطفة الجمال بالعاطفة الخلقية، والعاطفة الدينية، وتضع الفن في خدمة الدين والأخلاق، وتحيل غايته أن يرفعنا نحو الله ويهذب من أخلاقنا.
وهنا يجب أن نذكر تفرقة ضرورية: إذا كان كل جمال يحوي جمالاً خلقياً، وإذا كان المثال يرقى دائماً نحو اللانهاية، فإن الفن المعبرَّ عن الجمال المثالي يطهر الروح ويرفعها نحو اللامتناهي أي نحو الله. فالفن يؤدي إذن إلى كمال الروح بطريق غير مباشر. والفيلسوف الذي يبحث عن المعلولات والعلل يعرف المبدأ الأخير للجمال ومعلولاته الحقيقية والبعيدة، ولكن الفنان فنان قبل كل شيء، وما يحييه هو عاطفة الجمال، وما يريد إيصاله إلى القلوب هو نفس العاطفة التي تملأ قلبه هو. هذه العاطفة هي رباطٌ بين العاطفة الخلقية والعاطفة الدينية، توقظهما وتحفظهما، ولكنها متميزة عنهما. والفن المؤسس على تلك العاطفة هو استطاعة غير حرة، فهو يشارك بطبعه في كل ما يعظم الروح في الأخلاق والدين، ولكنه لا يرقى إلا بنفسه. وحين يسترد الفن حريته وكرامته وغايته الذاتية، فإنه لا يمكن فصله عن الدين والأخلاق والوطن، لأن الفن يقتبس إلهاماته من هذه المنابع العميقة، كما يقتبسها من الطبيعة. والفن والوطن والدين قوى لكل منها عالمه الخاص، وبينهما اتحاد متبادل، فإذا ابتعد أحدها عن الآخرين ضل السبيل. ولكن ذلك لا يجعل الفن خاضعاً لقوانين الدين والوطن وإلا فقد سحره وجماله بفقدانه حريته
واتحاد الفن والدين والوطن لا يضر باستقلال كل منها، ونتأدى من ذلك إلى أن الفن نوع من الدين. فالله يتضح لنا بواسطة فكرة الحق وفكرة الخير وفكرة الجمال، وهي ثلاث فكرات متساوية فيما بينهما، تؤدي كل واحدة منهما إلى الله لأنها تأتي منه. والجمال الحقيقي هو الجمال المثالي، وهذا الأخير انعكاس اللامتناهي، وعليه فالفن يعبر في أعماله عن الجمال الأبدي. وكل عمل فني، إذا كان جميلاً سامياً، تمثالاً كان أو أغنية، أو غير ذلك، يلقى بالروح في حلم عظيم يحملها نحو اللامتناهي. واللامتناهي هو الحد المشترك
الذي تتوق إليه الروح على أجنحة الخيال والعقل بواسطة الجمال والحق والخير
أحمد أبو زيد
كلية الآداب
المصريون المحدثون - 39
شمائلهم وعاداتهم
في النصف الأول من القرن التاسع عشر
تأليف المستشرق الإنجليزي ادورد وليم لين
للأستاذ عدلي طاهر نور
تابع الفصل الثاني عشر - السحر والتنجيم والكيمياء
تحدث الساحر إليّ وسألني إذا كنت أرغب في أن يرى الصبي شخصاً ما غائباً أو متوفى. فذكرت اللورد نلسون؛ ومن الواضح أن الصبي لم يسمع عنه أبداً لأنه نطق اسمه بصعوبة كبيرة بعد محاولات. وأمر الساحر الصبي أن يقول للسلطان: (إن سيدي يحيك ويطلب منك إحضار اللورد نلسون. أحضره أمام عيني حتى يمكنني رؤيته سريعاً) فقال الصبي ذلك وأضاف في الحال: لقد ذهب رسول وعاد وأحضر رجلاً يلبس ملابس أوربية سوداء والرجل فقد ذراعه اليسرى. ثم وقف لحظة وقال وهو ينعم النظر عن قرب في الحبر: لا، إنه لم يفقد ذراعه اليسرى وإنما وضعها على صدره. وقد جعل هذا الاستدراك بيان الصبي أكثر تأثيراً مما لو كان بدونه، لأن اللورد نلسون كان يعلق كمه الخالي إلى صدر سترته، ولكنه فقد ذراعه اليمنى لا اليسرى. فسألت الساحر دون أن أبين أنني أتهم الصبي بالخطأ، إذا كانت الأشياء تبدو في الحبر كما لو كانت أمام العين فعلاً أو كما لو كانت تنعكس في المرآة التي تظهر اليمين يساراً. فأجابني إنها تبدو كما في المرآة. فجعل هذا وصف الصبي صحيحاً.
وكان ثاني من دعوتهم مصرياً أقام في إنجلترا بضع سنوات فاتخذ الملابس الأوربية. وكان المرض قد ألزمه الفراش طويلاً قبل إبحاري لمصر، فرأيت أن أسمه وهو شائع في مصر، قد يحمل الصبي على الخطأ في وصفه؛ مع أنه حدث في زيارتي السابقة للساحر أن وصف صبي آخر هذا الرجل ذاته بأنه يلبس ملبساً أوربياً مثل ذلك الذي

رايته به آخر مرة. أما الآن فقد قال الصبي لها هو ذا رجل لف في ملاءة وجيء به على نعش. ويدل
هذا الوصف على أن الشخص المذكور لا يزال ملازماً فراشه أو أنه مات. وقال الصبي
إن وجهه مغطى، فقال له الساحر أن يأمر برفع الغطاء. ففعل ثم قال (إن وجهه شاحب، وله شاربان ولا لحية له) وهذا صحيح.
وقد استدعيت عدة أشخاص آخرين على التوالي ولكن أوصاف الولد لهم كانت ناقصة وإن لم تكن جميعها غير صحيحة. فكان كل وصف يبدو أقل وضوحاً عن السابق كما لو كان بصره يغشى شيئاً فشيئاً. فكان يلبث برهة أو أكثر قبل أن يستطيع أن يصف من يراهم. فقال الساحر إن من العبث إجراء التجربة معه؛ فجئ بصبي آخر ورسم المربع السحري على يده إلا أنه لم يستطيع رؤية شيء؛ فقال الساحر إنه فوق السن المناسبة.
أدهشتني هذه الأعمال تماماً، غير أنها خيبت ظني قليلاً لفشلها مرات في حضور بعض أصدقائي ومواطني. وقد سخر منها في إحدى هذه المناسبات إنجليزي من الحاضرين وقال: لا شيء يقنعه غير وصف صحيح لهيئة أبيه إذ كان على يقين من أن أحداً من الجالسين لا يعرف عنه شيئاً. فدعا الصبي والد الإنجليزي باسمه، ثم بين أنه يلبس الملابس الإفرنجية ويضع يده على رأسه، ويلبس منظاراً ويقف على قدم واحدة ويقيم الأخرى وراءه على نحو ما يفعل النازل من المقعد وكان الوصف دقيقاً من كل الوجوه. فقد كان وضع اليد على الرأس ناشئاً من صداع دائم، ووضع القدم من تصلب الركبة لسقوط الرجل عن ظهر حصانه أثناء الصيد. وقد أكد لي الحاضرون في هذه الجلسة أن الصبي أحكم الوصف في كل دعوة. ووصف الصبي مرة شكسبير شخصه وملبسه وصفاً دقيقاً. ويمكنني أن أضيف إلى ذلك عدة أحوال أخرى أثار فيها الساحر ذاته دهشة معارفي الرزناء من الإنجليز. وفي يوم آخر جهز الساحر، بعد أن قام بالتجربة بواسطة الصبي كالعادة، المرآة السحرية في يد إنجليزية شابة، فلم تكد تنظر فيها لحظة حتى قالت إنها ترى مكنسة تكنس الأرض دون أن يمسكها أحد. وتملكها الفزع فرفضت استئناف النظر
قررت هذه الوقائع بعضها من تجاربي الذاتية والبعض الآخر مما وصل إلى علمي عن قوم محترمين. وقد يظن القارئ أن الصبي كان يرى في كل مرة صوراً تنعكس في الحبر، أو أنه كان متفقاً مع الساحر، أو أنه يرشد بطريق الأسئلة. كل ذلك لم يكن. أما أنه لم يكن هناك اتفاق فقد تحققت من ذلك تحققاً مرضياً باختيار الصبي الذي قام بالعمل من بين
المارين بالشارع، علاوة على رفضه رشوة عرضتها عليه فيما بعد لحثه على الاعتراف بأنه لم ير حقاً ما كان يقرر رؤيته. وقد امتحنت صدق صبي آخر في مناسبة لاحقة وبالطريقة نفسها، فكانت النتيجة واحدة. وكثيراً ما تخيب التجربة تماماً، ولكن عندما يصيب الصبي القائم بالعمل مرة يستمر في النجاح على العموم، وعندما يخطئ بادئ الأمر يصرفه الساحر تواً قائلاً إنه كبير السن. وقد يفترض البعض أن البخور أو الخيال المتأثر أو الخوف يؤثر في نظر الصبي؛ ولكن لو كان الأمر كذلك لما أبصر تماماً ما كان يطلب من أمور لا يمكن أن يكونّ عنها معلومات خاصة سابقة. ولم استطع أنا ولا غيري اكتشاف طريق ما ينفذ بنا إلى السر. ورجائي من القارئ إذا كان مثلنا عاجزاً عن إيجاد الحل ألا يدع البيان السابق يثير في ذهنه ريبة فيما يتعلق بأجزاء الكتاب الأخرى.

الفصل الثالث عشر
الأخلاق

إن طباع المصريين المحدثين تتأثر إلى درجة كبيرة بالدين والشرع والحكومة، كما تتأثر بالمناخ وأسباب أخرى. ومن ثم يصعب جداً أن نكون رأياً صحيحاً عنها. غير أنه يمكننا أن نقرر بثقة أن المصريين يمتازون أكثر من الشعوب الأخرى ببعض الصفات الذهنية العظيمة، وبخاصة سرعة الإدراك وحضور الذهن وقوة الحافظة. وهم في حداثتهم موهوبون على العموم بهذه الصفات وبقوى عقلية أخرى. غير أن العلل السابقة الذكر تحط منها تدريجاً
وليس في أخلاق المصريين الأصلية ما يستحق الاعتبار مثل الكبرياء الدينية. فهم

يعتبرون كل من خالفهم في الدين هالكين. وقد ذكر القرآن في سورة المائدة في الآية الحادية والخمسين: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى بعضهم أولياء بعض، ومن يتولهم منكم فإنه منهم)

ومن بواعث الأدب أو الصالح الذاتي أن يتحدث المسلم أحياناً إلى المسيحي، وخاصة الأوربي، بلهجة كريمة، وقد يصرح بصداقته وهو يضمر الازدراء له. ولما كان المصريون المسلمون يحكمون على الفرنج بمقتضى ما يظهر من الذين يسكنون مدنهم، وأكثرهم من شذاذ الآفاق ونفاية البلاد، فمن الصعب لومهم على ازدرائهم. ويعامل أهل مصر المسيحيين مع ذلك بلطف فالمسلمون قد عرفوا بالتسامح كما اشتهروا باحتقار الكفار.

ويعتقد المسلم أن التقي يرفع صاحبه، إلا أن رغبة الظهور بالتقوى تفضي بالكثيرين إلى الرياء. وكثيراً ما يلهج المسلم ببعض الأدعية إذا لم يكن مشغولاً بعمل أو تسلية أو حديث، وإذا أقلقته فكرة أثيمة أو ذكرى شر أرتكبه يصيح متنهداً (استغفر الله العظيم).

وكثيراً ما يشغل التاجر نفسه في حانوته بتلاوة القرآن أو بالتسبيح إذا فرغ من مساومة حرفائه أو من تدخين شبكه

(يتبع)

عدلي طاهر نور

الساقية الجافة

للأديب محمود عماد

برغميَ أيتها الساقية ... وقوفكِ صامتة صاديه
وبالأمس كنت تروَّين تلك ... الحقول بأمواهك الجاريه
فتجرى النضارة في زرعها ... وفي أهلها البِشْرُ والعافيه
وكم قد أغارت عصافيرَها ... أهازيجكِ العذبة الصافيه
فأين تحوَّل عنكِ الغديرُ، ... وأين الهراوةُ والماشيه؟
وأضراسُكِ الصامداتُ الشَّدادُ ... هي اليوم من سوسها ما هيه؟
وصفصافك الغض كيف استحال ... عِصيًّا منكّسةً جافيه؟
يمرّ النسيم بها لا تميل، ... وكانت تراقصه حانيه!
وتَلقى العناكبُ منها سَدىً ... متيناً لِلُحْمتِها الواهيه
كأنكِ في نسجها جثة ... تردّت بأكفانها الباليه
وأنَّ طنين الذباب ترا ... تيل تزُجَى إلى روحكِ النائيه
فنحن أمام وفاةٍ. . . أجل ... وفاة تعِزّ على الناحيه
وإنَّ حياةً اليوم ماتت ... بموتكِ أيتها الساقيه
أليس دليلَ الحياةِ الكلامُ، ... فكم قد خطبت على الرابيه؟
وهل بعد موتٍ سوى وحشةٍ ... أرى وحشةً لكِ تغُرَى بيه
ألا أيها السالكان إلى الحيّ ... أقصَى الطريق، أَصيخا ليه
وقولا لزوَّارِ مقبرةِ الحيّ ... للحيّ مقبرة ثانية
تثير الشجون بإيحاشِها ... وأطيافِ أيامها الخاليه
فحيُّوا ثراها بِحَفْنِة ماء ... زلال وريحانةٍ ناديه

محمود عماد

ذكريات. . .

للأديب مصطفى على عبد الرحمن

أَشرقي في نفسِيَ الحيرى مُنىً تُذْهِبُ ما بِي
من أسى دهري وما ألقاهُ من مُرَّ العذابِ
ودعيني أملأ العينين من نورِ الشَّبابِ. . .
فنِداء الحبَّ يدعو خافِقَيْناَ ... أَيْنَ ماضٍ من حُمياهُ انْتَشَيْنَا؟
قد مَلأناهُ غَرامًا ... ورشفناهُ مُداما
وسعتْ في نورِهِ ... الدُّنيا إلينا
ذَاع أَمْري. . . آهِ من أمري ويا لي ... من هوى قلبي ومن كيد الليالي!
طالت الشكوى ولكن من يبُالي ... بشكاتي وعذَابي، من بُالي؟
يا عزاء النفْسِ إن جلَّ العزاء

هلْ لنا من حُرْقَةِ الوجدِ ارتواءُ؟
أيْنَ وَلى الأمس والدنيا هناءُ؟
. . .ونعيمُ العمرِ نُعْمَى ولقِاءُ
ورجاءُ شاعَ في ظلَّ الوصالِ ... وصفاء ذَاع فَي كلّ مجالِ
. . .كلمات مرت ببالي ... هام قلبي بين شكي وضلالي (ذكرياتٌ)
يا ليالي. . . أَيْنَ أياميَ أينا. . .؟
أنا أَشْقى فإلاما ... لا ترى عيني الْمَنَامَا
!ونداءُ الحبَّ يدعو خافقينا ... والمنى والسحر مِلْكٌ لِيديْناَ
وشبابي لم يزل يَنْدَي بأنداءِ الشبابِ
وشراعي يتغنَّى بأمانينا العِذابِ
فتعالىْ. . . كأسُناَ نَشْوى وملأى بالشرابِ
مصطفى علي عبد الرحمن
البريد الأدبي
السويبة هي الصوبة أو الصوبة
سأل حضرة الأستاذ الفاضل عبد الرحمن أفندي أحمد سعد عن أصل (السويبة) في العربية، وعن دلالتها على معنى يقارب معنى المطمورة التي على وجه الأرض فنقول قبل الجواب - هذه الكلمة -:
زارني أحد أدباء البغداديين، بعد أن وقف على كلمة (المطمورة) المدرجة في العدد 464 من الرسالة فقال: (بأي لغة كتبت يا سيدي مقالتك على (المطمورة)؟) قلنا له: باللغة المالطية، وسبب هذا الجواب أني لاحظت في طبعها أغلاط طبع كثيرة، حتى كان يصعب علي معرفة ما كتبتُ. ولولا عناية خاصة من الله لما تمكنت من فهم ما جاء فيها. ولم أبعث بتصحيح ما جاء فيها من الأوهام، لبعد المسافة بين بغداد ومصر، ولكثرة ما كان فيها من الأوهام. ولهذا اكتفيت بأن خططت خطاً أزرق تحت كل زلةٍ وردت فيها، تنبيهاً للقارئ لا غير، وذلك في نسختين فقط.
وبعد أن نبهت هذا التنبيه العام أقول:
ورد في سؤال الأستاذ الأبيض الوارد في 632: 10 (ثم يسيفونها) والصواب (ثم يسيعونها) وقوله (ويصمدونها) والصواب (ويصومعونها).
والآن نجاوب على سؤاله فنقول:
إن (السويبة) من أفصح كلام العرب وأحسنه بعد إزالة التصحيف عنه. والصواب أن يقال (الصويبة) مصغرة، أو (الصوبة) مكبرة. وبكلا اللفظيين ينطق بعض أعراب العراقيين. قال الشارح:
والصوبة، بالضم: كل مجتمع عن كرابح، أو الصوبة: الجماعة من الطعام. والصوبة:) الكدسة من الحنطة والتمر وغيرهما. والصوبة: الكبشة من التراب، أو غيره. عن ابن السكيت: الصوبة: الجرين، أي موضع التمر، وحكى اللحياني عن أبي الدينار الأعرابي دخلت على فلان، فإذا الدنانير صوبة بين يديه، أي كدس مهيلة. ومن رواه فإذا الدينار، ذهب بالدينار إلى معنى الجنس، لأن الدينار الواحد لا يكون صوبة. هكذا في لسان العرب؛ غير أني رأيت في الأساس قولهم: والدنانير صوبة بين يديه، مهانة. فلينظر انتهى. قلنا:
قوله (مهانة) من خطأ الطبع. والصواب (مَهيلة) من هال التراب أو نحوه: إذا صَّبهُ فأنت ترى من هذا أن أهل السودان متفقون وأهل العراق على اتخاذ هذه الكلمة، إلا أن أبناء الرافدين يستعملونها مكبرة ومصغرة على السواء من غير تفضيل صيغة على صيغة، إنما يأتون بها بحسب ما يمر بخواطرهم، ويفعلون مثل ذلك بكثير من الحروف ثم إن نقل الصاد إلى السين كما في (الصُوَيْبة) و (السويبة) لغة قديمة معروفة عند العرب، فمنهم من كان يرقق الصاد فيجعلها سيناً، ومنهم من كان يفخم السين فيجعلها صاداً. والشواهد لا تحصى. والأمور جارية هذا المجرى إلى عهدنا هذا. ونحن نذكر بعض الشواهد من كلام الأقدمين فقد قالوا:
الخِرس كالخِرص. والخربسيس والخربصيص والسويق والصويق. قال ابنُ دُريد في) كذا في تاج) (الجمهرة: وبالصاد، أحسبها لغة لبني نميم، وهي لغة ابن الغبر خاصة العروس. وهو خطأ أيضاً والصواب: (وهي لغة بني العنبر، إذ لا وجود لابن الغبر)

والتاج كثير أغلاط الطبع، ويجب أن يطالعه القارئ بكل تحفظ وتحرز وقد صححت فيه أوهاماً لا تحصى، ولو طبعت لجاءت في مجلد كبير، وكذلك يقال في لسان العرب، فإن مطبوعان مصر القديمة كانت تجئ بأقبح حلة وأسوأ حالة.

وأنتهز هذه الفرصة لأقول: إني لم آت على ذكر جميع مترادفات المطمورة أو ما يجالس معناها من الألفاظ المستعملة في العراق. فقد نسيت مثلاً الصوبة والصويبة. والمنثر، وزان المِنبر وهي مستعملة في ديار المنتفق وأرجائها، وهو مخزن الطعام في الصحراء ويسمى صاحبه الجَّبان بجيم مفتوحة، يليها باء موحدة تحتية مشدَّدة، فألف، فنون

والمنثر، غير واردة في معاجم اللغة، وقد وردت في (كتاب عمدة الطالب، في أنساب آل أبي طالب)، وصاحبه من أنباء المائة التاسعة للهجرة

هذا ما تيسر لنا جمعه. وهو الهادي إلى الصواب

(بغداد)

الأب أنستاس ماري الكرملي

من أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية

كم ذا

يرى الأستاذ الظريفي في العدد (475) من الرسالة الغراء أن الموضوع لم ينته بالردود التي قرأها في الأعداد السالفة، ثم بغُفل بيت أبي الطيب ويتناول بيت حافظ رحمه الله بالنقد القاسي تارة وبالتجريح تارة أخرى. ولنا أن نتناول كلمته بالنقد الهادئ تقريراً للحق ودفاعاً عن شاعر النيل. وإنا لنوجز البحث فنقول: ذهب الأستاذ إلى أن (كم) في بيت حافظ استفهامية ومميزها محذوف تقديره (كثيراً) أو ما هو في معناه؛ ثم أورد بيتاً لا ندرك تماماً صلته بالموضوع وهو قول أحد الشعراء:

إلى كم ذا التملق والتواني ... وما هذا التمادي في التمادي

فأما كون المميز (كثيراً أو نحوه) فلا نفهمه، والوَجْه أن يكون المميز (شدةً أو شوقاً مبرحاً) أو لفظاً مجروراً بمن مناسباً للمقام؛ وإذا فقول حافظ:

كم ذا يكابد عاشق ويلاقي ... في حب مصر كثيرة العشاق

يحمل على الصورة التالية (كم شدةً أو كم من الشدائد والأشواق المبرحة يكابد عاشق ويلاقي في حب مصر)؛ أما أن يكون المعنى (كم كثيراً يكابد عاشق مصر هذا الألم) فلا نكاد نسيغه.

وظاهر أن (ذا) في البيت الذي أورده الأستاذ اسم إشارة وليس بها رائحة الاستفهام بقرينة الاستفهام في الشطر الثاني. ثم يرى الأستاذ الظريفي أن (ذا) مفعول مقدم ليكابد؛ وقد يكون في هذا تعسف لا داعي إليه؛ وقد بدا اثر ذلك فيما أورده من تأويل. ويرى أن كلمة (يلاقي) حشو أريدَ به تكملة الوزن والقافية، ومثل هذا القول يفهم في مثل هذا القول يفهم في مثل قول الشاعر (وألقى قولها كذباً وميْنا) أما فرضه على قول حافظ فقسوة بالغة، فإن لكلمة (يلاقي) معنىً يزيد البيت قوة والمعنى روعة؛ فالشاعر يكابد في حب بلاده ما يكابد، ويلاقي كل يوم شوقاً وعنتاً جديداً في سبيل ذلك الحب. والقول بأن في البيت غلطة نحوية لا يقل عن سابقه قسوة. نعم إن إضافة (كثيرة) لا تكسبها تعريفاً فلا تصلح وصفاً لكلمة (مصر) وهي معرفة، ولكن من المكن قراءتها منصوبةً على الحالية من (مصر) لا من (يكابد) كما جاء في كلام الأستاذ.

وقديماً قالوا: إن الحال وصفٌ لصاحبها قيدٌ في عاملها

وصف لمصر قيد في المكابدة والملاقاة؛ كما يمكن حملها على أنها (فكثيرة العشاق) منصوبة بعامل مقدر مناسب للمقام، وقد يقع مثل ذلك للمدح (كما هنا) وللدم أو الترحم أحياناً. وإذا فلا موجب لتصويب البيت بالصورة التي رآها الأستاذ الظريفي بعد ما استقر في النفوس وتنقلت روعته في قلوب الأدباء جيلاً بعد جيل

وبعد، فقد أغفل الأستاذ بيت أبي الطيب (وكم ذا بمصر من المضحكات. . .) وقد أصبح شطراً ذا خطر في موضوع البحث، ولا أدري أهو مُسلَّم به، وإذاً ففيم قوله: إن الردود لم تنه الموضوع؟ أم هو لا يزال منه في ريب وإذا فما رأيه؟ على أني أعود فأقول: إن أبا الطيب جارٍ في بيته على عرف أهل الكوفة الذين أجازوا زيادة الأسماء ومنها (ذا) وجوزوا وقوع أسماء الإشارة أسماء موصولة ومنها موضوع النزاع. وفيم العجب والرجل واسع الثقافة متأثر بآراء مدرسة الكوفة، ثم هو بعد من دعائم الشعر ومفاخر

العروبة؟!
غفر الله لك يا أبا الطيب؛ طالما عَنَّيْتَ حُسَّادك وأنصارك! وكأني بروحك اليوم تطل على هذا الخلاف، ثم تبتسم وتومئ إلى قولك الخالد:
أنام ملء جفوني عن شواردها ... وتسهر الخلق جرَّاها وتختصم
(المنصورة)
محمود البشبيشي
حول الردف والسناد
ردّاً على كلمة الأديب الفاضل أحمد يونس محمد أقول: إن علماء العروض نصوا حقيقةً على أن الردف هو حرف مدٍّ قبل الروي؛ وعليه فتكون الياء في مثل: سريرتي والخميلة، ليست من قبيل الردف، لعدم وقوعها قبل حرف الروي مباشرة. . . ولكني أضيف إلى هذا أن الشعراء قد أجمعوا من قديم على التزام مثل هذه الياء - إذا وردت - في سائر الأبيات، حتى لتوهموها من الردف وأضافوها إليه؛ هم محقون في ذلك، لأنها لا تستساغ في الواقع إلا ملتزمة مع سائر الأبيات. . .
وقد بلغ من إجماعهم على اعتبارها ردفاً، واحترازهم من الوقوع في (سناد الردف) بإهمال التزامها، أن نص ابن رشيق على هذه الشبهة في كتابه (العمدة)؛ فقال في باب القوافي (ص 106 من الجزء الأول):
وقد يلتبس بالمردف ما ليس بمردف، فيجتنبه الشعراء مثل (فيهم) مع (منهم) وهو (أي أن ياء (فيهم) لم :(جائز، لأن الهاء ليست رويًّا فتكون الياء ردفاً، وإنما الروي الميم تقع قبل حرف الروي (الميم) مباشرة، بل فصلت بينهما الهاء؛ فالياء هنا ليست ردفاً بسبب ذلك الفصل. . .
ونحن لم نضف هذه الياء إلى باب الردف إلا أخذاً بإجماع الشعراء، وهم إدراكاً لدقائق العروض من (العروضيين) أنفسهم. ولئن كان ابن رشيق شاعراً أيضاً، إلا أنه اصدر حكمه هذا وهو لا بس ثوب (العروضيين) ومتحدث بمنطقهم؛ وما نظن أنه أتى في شعره بمثل الذي أجازه هنا. . .
ثم إننا نحاسب الأستاذ محمود حسن إسماعيل باعتباره شاعراً مرهف الإحساس. . . لا نظّاماً ولا عروضيّاً
على أن قصيدته إن خلت من الردف ومن سنادِه، وفقاً للقاعدة العروضية فهي لم تخل من التأسيس - في بعض أبياتها دون بعض - كما أشرنا إلى هذا في كلمتنا السابقة؛ وعليه فيكون السناد الذي تطوق إليها، وهو سناد التأسيس دون غيره من (أنواع السناد الخمسة) التي يتساءل عنها الأديب صاحب الكلمة
(جرجا)
محمود عزت عرفه
في كتاب (الإمتاع والمؤانسة)
أُصحح للأب الفاصل أنستاس ماري الكرملي خطأ وقع فيه وهو قوله إن (هيردوس . . . أتيقوس) روماني لا يوناني؛ فهذا ابعد في الخطأ من استنكاره أن يعتبر (تيودسيوس) يونانياً، وذلك لأن (أتيقوس) هذا أي (الآتيكي) نسبة إلى (آتيكا) مقاطعة آتينا (معلم خطابة)، أو على الأصح (معلن بلاغة) يوناني صميم ولد في ماراتون سنة 101 بعد الميلاد وكان أبوه (آتينا) صميماً تولى القنصلية أيام (نرفا)، ولقد مات (أتيقوس) سنة 177م، ونحن نعرف عنه أنه أنفق شبابه في (آتينا)، وأنه درس بها الفلسفة آخذاً بمذهب
(أفلاطون)، أنه أتى إلى (روما) ليشرف على تربية الإمبراطور الفيلسوف مارك أوريل وأخيه في التبني (نرفوس) وأنه بعد أن صار قنصلاً، وبعد أن جمع ثروة ضخمة، عاد إلى (آتينا)، حيث بنى عدة مبان هامة، لا يزال قائماً منها إلى اليوم (أوديون أتيقوس) الشهير بسفح (الأكروبول) وإذا، (فأتيقوس) يوناني، ولغته هي اليونانية
وإذا ذكرنا أن (كومودوس) هو ابن (مارك أوريل) وأن (أتيقوس) قد أشرف أيضاً على تربيته، كما اشرف على تربية أبيه، وإذا كان من الممكن أن يكون (قومودس) إمبراطور روما كتب إلى (أتيقوس) باللغة اليونانية يطلب إليه كتباً وأشعاراً، وأن العرب قد علموا بذلك - مترجماً عن اليونانية - ترجمة لا نعلم مبلغ دقتها فأي غرابة في أن

يكونوا قد جعلوا من (أتيقوس) شاعراً يونانياً، ومن (قومودوس) ملكاً لليونان، ما دام مصدرهم كان يونانياً وما دام (التوحيدي) يورده علي سبيل الرواية؟ وهل العرب كانوا يعرفون شيئاً دقيقاً عن الشعراء اليونان ومعلمي البلاغة عندهم، حتى نستبعد أن يخلطوا بين الشاعر ومعلم البلاغة، أو أن يستنتجوا من يونانية النص أنه تبودل بين يونانيين؟

وأما قصة (الكراكي)، فقصة لا اثر لها فيما عثرت به من كتب اليونان، فهي خرافة لا نعلم عن نسبتها إلى قومودوس وأتيقوس شيئا، وإن يكن هناك احتمال في أن تكون من بين الأساطير الكثيرة التي راجت عن وفاة الشاعر اليوناني الكبير لوسيان المعاصر لقومودوس وأتيقوس

وهكذا يتضح أن القراءة التي نظمها أقرب ما تكون إلى الصحة، هي قومودوس وأتيقوس اللهم إلا أن تكون عند الأستاذ كرواس معرفة خاصة بأبقوس الشاعر اليوناني، وذلك ما ننتظره منه إن تفضل فجاد بعلمه الغزير

ولعل في هذه القراءة ما يطمئن إليه - ولو مؤقتاً - الأب الفاضل إلى أن يقترح غيرنا قراءة أصح

محمد مندور

مدرس بكلية الآداب

العدد 477 - بتاريخ: 24 - 08 - 1942

أبو سمبل

للأستاذ عباس محمود العقاد

أمسينا في جو مفعم بالزجر والعيافة، مغلف بالأحاجي والأسرار؛ يتكلم المتكلم فإذا هو عائف أو زاجر من حيث يريد ولا يريد، وإذا هو معرض عما بين يديه وتحت عينيه لينظر إلى عالم الغيب ويستعجل العلم بغده المحجوب، وبالذي يجري في ساعته تلك على مدى الألوف من الأميال

وحق للناظر تلك الليلة أن يعرض عما بين يديه وتحت عينيه! فماذا كان في الحق بين يديه وتحت عينيه؟

منظر واحد يتكرر ثم يتكرر ثم يتكرر في غير تبديل!

هضاب ورمال، ثم هضاب ورمال، ثم هضاب ورمال. . . ثم نيل ينتظمها ويجري في خلالها، ليزيد التشابه بينها ولا يزيدها شيئاً من التبديل أو التنويع

فإذا طالت نظرة العين إلى تلك المتشابهات فهي كالعين المنوَّمة التي حدجت بالنظر شيئاً واحداً حتى غاب عنها وغابت عنه، فاستسلمت لما يوحي إليها من الأنباء، وما يكشف لها من الأسرار

هنالك علمنا منشأ الزجر والعيافة من قديم. فلا يزجر الزاجر ولا يعيف العائف إلا وبه نقص من حظ العيان، وحاجة إلى العلم بالفهم والسماع

وكنا في مثل تلك الحاجة ليلة الزجر والعيافة

فتركنا معركة العلمين ناشبة في بدايتها ونحن لا نسمع كثيراً ولا قليلاً عنها، وانقضى الليل وطرف من النهار ولا خبر ولا رواية، ولا إشاعة كتلك الإشاعات التي يخترعها المرجفون ولها صبغة من الخبر والرواية

وما معركة العلمين في تلك الليلة وفي كل ليلة تأتي بعدها إلى أقاصي التاريخ؟ هي معركةٌ سماها القدر ولم يسمها الجيشان ولا صحف الأنباء أو مطلقو الأسماء على معارك القتال

هي معركة علمين اثنين تتلخص فيهما جميع الأعلام التي تظل المتقاتلين اليوم في كل ميدان

علم الحرية وعلم الطغيان!

علم الدفاع وعلم الفتوح والغارات

وأي العلمين ارتفع في تلك المعركة ففيه مصير عالمين وخافقين ومشرقين، وفيه ابتداء زمان وانتهاء زمان

وتلك تلك المعركة التي انقطعنا عن أخبارها ليلة وطرفاً من نهار. ثم بلغنا الشلال، فعلمنا أننا سنقضي في الباخرة نيفاً وأربعين ساعة، لا نحن بالعالم متصلون، ولا العالم بنا متصل، حتى تستأنف الصلة به عند تخوم السودان

نيف وأربعون ساعة بغير أخبار!
وفي الباخرة مع ذلك طائفة من رجال الصحافة ورجال الأعمال تعودوا عشرين سنة على الأقل ألا تنقضي عليهم أربعون دقيقة بغير خبر جديد، عن أمور بالغ ما بلغ شأنها فهي من سفساف الحديث إلى جانب الحديث عن العلمين
فمن لم يتعلم الزجر والعيافة في تلك الليالي المحجبات فما هو متعلم، وقد تعلمناهما فأحسنَّا العلم بهما من درس واحد لم تسبقه دروس. . .
أقبل الليل فألقت الباخرة مراسيها عند الشاطئ إلى الصباح.
وخرجنا من المقاصير نتنسم الهواء جادين ونتنسم الأخبار متفكهين، وذهب كل منا يسأل صاحبه مازحاً: ما أحدث أنباء المساء؟ فيجيبه: أي مساء؟ الجمعة أو الخميس أو الأربعاء فكل أخبار هذه الأيام سواء
وإنّا لكذلك إذ انحدر أمامنا مركب سريع موقر بالأبقار السمان. . .
فصاح صائح: بشارة خير!
وصاح ثان: نعم، وأي خبر! فهي أبقار لا تذهب إلى مصر لتموين الأستاذ روميل وأصحابه بطبيعة الحال!. . . ولا تصل إلى القاهرة قبل ثلاثة أيام. .
وانطلقت الفكاهة والجد أي منطلق في ذيول هذه العجماوات؛ فمن قائل: إنها تكلمت وسكت الناس؛ ومن قائل: إن بقرات يوسف عليه السلام كانت سبعاً وكانت في المنام، وهذه سبعون وفوق السبعين تراها في اليقظة رأى العين. أحسن البشارة وما أصدق التعبير!
وكان صاحب القدح المعلى في تلك العيافات والتعبيرات طبيباً لوذعياً يسخر من الخرافات
فقلنا: وقد تمت المعجزة بحمد الله، واصطلح الطب والسحر لحظة في هذه الليلة بفضل الجهل بالأنباء. . . وللجهل فضله الذي لا ينكر في بعض الأحايين
ثم توالت الأنباء من هذا الطراز: كل مركب منحدر يعبر عن شئ كثير، بغير سؤال وجواب، وبغير اعتساف في التأويل والتعبير
وأسفرت ليلة الزجر والعيافة عن صباح مشرق كأوضح ما يكون صباح وتشرق شمس في سماء
ونظرنا. . . فماذا رأينا؟
عجيبة من عجائب التوفيقات: فقد رأينا على الشاطئ قبالتنا هيكل الصباح المشهور بين الهياكل المصرية، ورأيناه في اللحظة التي بُني لها، وأعدت محاريبه للقائها والامتلاء بشعاعها وضيائها: وهي لحظة الشروق
هذه مطالع هاتور
هذه محاريب أبي سمبل، وهذه تماثيلها الأربعة الفخام لا تسأم النظر إلى الدنيا في مجلسها، ولا تسأم الدنيا من النظر إليها
وهذا هو الوادي الذي قدسوه قبل ثلاثة آلاف سنة، وجعلوه حرماً لربته هاتور، ولأرباب كثيرين
فهي إذن ظلال الهيكل الساحر التي شملتنا في جو الزجر والعيافة منذ ألممنا بواديها ونحن لا ندري
وهي إذن بقية من كهانات سبقت جميع الكهانات، وأخذ منها الوادي أو هي قد أخذت من الوادي بنصيب
وكان تمام التوفيق أن نبيت الليل في جوارها ثم لا نطلع عليها إلا مع طلوع الصباح، وقد فضت له مغالقها وكشفت له محاريبها، وعانقته هنيهة عابرة في لجة من النور وعبرنا صامتين
وأنصتنا وأطلنا الإنصات، لأننا نختلس السمع من وراء ثلاثة آلاف عام. وماذا يمنعنا أن ننصت فنسمع؟. . . ثلاثة آلاف عام لا تنأى بنا عن السمع في ذلك السكوت
كانوا يقولون في تلك اللحظة من وراء الجدران الضخام، ومن وراء جدران أضخم منها وأفخم، وهي جدران الدهور:
(أتيت أيها البصر الهادئ وتمزقت الظلمات ورجعت الأشباح إلى ظلماتها، واهتزت الأرض بالبشائر، وافترت الثغور!
تحيات يا رائد السماء، إنّا لك خاشعون)

وإن الحياة لتبتسم بك يا كريم. وإن الماء ليتنفس بك يا واهب الأنفاس، وإن الزهرة) لبك تزهر، وإن الوردة لبك تعطر، وإنها لتحيات إليك يا رائد السماء، وإنا لك لخاشعون!
صورت نفسك فما لك مصور، وكذلك صورت في ملكك أول نهار، وخلقت نفس) الصباح، ونفس الإنسان، وكل ما نماه عالم الإنسان
حجبت سرك في النور الأعظم فلا يستشفه بصر مبصر، وإنا لنحييك يا رائد السماء،) وإنا لك في سرك لخاشعون!
يأيها الوليد القديم لكل نهار جديد، نستقبلك فنرقص فرحاً في كرامتك، ونحنو لك) خاشعين(!
كانوا ينشدون هذا النشيد من وراء الجدران
كانوا ينشدونه بكل لسان، ويرسلونه إلى كل سمع، فلا يضيرهم أن يخذلهم لسان واحد في تلك اللحظة، وهو اللسان الذي لا يقول بعد الموت، ولا يخترق حجاب القبور
إيه أيتها التماثيل الضخام! فيم تتحدثين في تلك الجلسة وقد طالت بك آلاف السنين؟ كم قلت؟ وكم لم تقولي؟! وكم رأيت وكأنك ما رأيت؟ وكم غمرتك الرمال وأنت لا تحفلين، وغمرتك الأنوار وأنت لا تحفلين، وغمرتك الأنظار المستطلعات وأنت لا تحفلين. . . فيم احتفالك! وفيم صبرك وانتظارك؟ وإلام تجلسين؟ إلام إلام تجلسين؟!
قلت لأصحابي: هذه جلسة تاريخية ليس لها قرار، لأنها كلها قرار!
قال قائل منهم: طوبى لها قرارها! وطوبى لها هذه الجلسة التي اطمأنت إليها: لا حروب ولا أشجان، ولا أهواء ولا أضغان، ولا اكتراث للإنسان ولا لعالم الإنسان
قلت: على رسلك يا صاح. . . لو استطاعت أن تبتسم لكلامك لامتلأت أفواهها بالابتسام، ثم جلجلت بالضحك حتى ارتجت لها الهضاب والآكام.
أهذه التماثيل الضخام بمعزل عن الحروب والأشجان، وعن الأهواء والأضغان، وعن الاكتراث للإنسان وعالم الإنسان؟
هي حديث حرب، وهي حديث حب، وهي حديث شجن، وهي حديث إنسان يتكلم من وراء الزمن إلى إنسان
وخطوة واحدة وراءها تريك رمسيس في مركبة الحرب يقلب الصفوف على الصفوف، ويرسل الحتوف وراء الحتوف، ويفخر بالنجاة وهو مارق من بين ألوف
وخطوة أخرى وراءها تريك الفاتنة (نفرتاري) وهي كالغصن الريان بهواه وهوى عاشقيه
وخطوة أخرى وراءها تريك المطامع والأهواء؛ تلعب بالكهان والرؤساء، وتزدلف إلى السطوة والثراء، وتنطق بالهجر والمراء
كلا. يا صاح! هي الحرب في هذا المكان والحرب في كل مكان، وهي الأهواء الآن والأهواء في كل آن، وهي الصخور الصلاب تسكت سكوتها فتسمع منها لجب الفرسان، ونجوى الحسان، وسعاية الأقران والأعوان
هي حرب ينبئنا بها حجر، وحرب ينبئنا بها بقر، وحرب ينبئنا بها كل قائل وأعجم، ولا يعوزه ترجمان
عباس محمود العقاد
غرام (سعد زغلول)
للدكتور زكي مبارك
دَرجتُ في الأعوام الأخيرة على كتابة مقالة سنوية في (الرسالة) بمناسبة ذكرى (سعد)، رعايةً لفضل هذا الرجل في بعث الحياة الأدبية عند اختلافه مع زملائه الذين شاطروه أعباء الثورة المصرية، لا رعايةً لمقامه الوطني (وهو مقام محفوف بالإجلال عند جمهور المصريين والشرقيين)؛ وإنما أحترس هذا الاحتراس لأن حقدي على (سعد) كان يفوق الوصف، ومقالاتي في الهجوم عليه كانت أقوى مما كتبت في صدر شبابي، فقد كانت مبادئ الحزب الوطني غزت قلبي غزواً عنيفاً
أكتب هذا والحزن يعصر قلبي، فقد انقضى ذلك العهد، وخمدت النار التي كانت تتأجج في صدري، ولم أعد أقبل الانضمام إلى أي حزب من الأحزاب السياسية
كانت لدينا مبادئ نقتتل في سبيلها اقتتال المجاهدين الصادقين، وكنا نرحب من أجلها بالسجن والاعتقال طائعين فرحين، مبادئ سليمة تفرق بين الابن وأبيه، والأخ وأخيه، في غير بغي ولا عدوان، فعلى عهدها الكريم ألف تحية وألف سلام!
ولو لم يكن هذا الحديث متصلاً بذكرى (سعد) الذي عانى ما عانى من بلايا النفي

والاعتقال لطويته بلا تردد، مراعاةً لظروف هذه الأيام، فلتكن هذه السطور فناً من الإحياء لذكراه بين أبناء هذا الجيل
حديث اليوم عن (غرام سعد زغلول)، وهو حديثٌ لم يُفْضِ به إلا لأفراد قلائل، فما ذلك الحديث؟
أذكر أولاً أنني لن أجترح إثماً، ولن أسنّ سنّة سيئة، حين أتحدث عن غرام رجل عظيم شرَّق صيته وغرّب، فمن المحال أن تخلو قلوب العظماء من صبوات وأهواء
يضاف إلى ذلك أنني سأتحدث يوماً عن (غرام مصطفى كامل)، الغرام الذي جعله من كبار الخطباء بلغة الفرنسيس، والذي فرض عليه أن يهتف هتاف الشوق إلى هواه، وهو يعاني سكرات الموت. . .
وأذكر ثانياً أن الدار التي سيجري أسمها في الحديث عن (غرام سعد) لن تتألم ولن تتأفف، لأن سعداً أحبها وأحب أهلها حب الشرفاء، ثم أرتدّ عنها بحسرة دامية لم يخف كربها إلا
بعد سنين تزيد على الخمسين
فكيف كان (سعد) حين استعر في يصدره ذلك الحب؟
كان طالباً في الأزهر الشريف، وكان طلبة الأزهر في العهود السوالف على جانب كبير من التوقر والاستحياء
ولو شئت لقلت: إنه كان من الصعب على أي فتىً مصري أن يتخيل كيف تكون المرأة وهي عارية؛ ولو شئت لقلت أيضاً: إن التصون كان مما يتباهى به الفتيان، في ذلك الزمان، قبل أن تصاب الدنيا بأوضار التمدن الجديد
وكان (سعد) أزهرياً عفّ القلب، ولم يكن يعرف من نعيم الحواس غير اللحظات التي يقضيها مع زميله إبراهيم الهلباوي متربِّعَيْن على الرصيف بجانب المحكمة المختلطة لمشاهدة الرائحات والغاديات في عصرية كل خميس
فهل تكون تلك العصريات علَّمتْ سعداً معانيَ الغزَل الملفوف؟
هل تكون أوحت إليه أن قلب الفتى قد يتوهج من حين إلى حين؟
حين قصَ علينا الهلباوي بك - رحمه الله - تلك الحكاية لم يشأ أن يطنب في الشرح والتعليق، فقد كان في المجلس رجال يؤذيهم التبسط في مثل ذلك الحديث ولم أكن أنا أعرف أني سأتكلم عن غرام سعد بعد حين أو أحايين
المؤكد أن سعداً قضى شبابه في تصون وعفاف، ولولا ذلك لكان من العسير أن يظل في نشاطه المعروف إلى أن يجاوز السبعين
ومن هنا نعرف كيف اصطلى بنار الوجد في صباه، فالشاب المصون يعاني من الغرام لذعات أحر من لذع النار، لحرمانه من التصعيد الذي يجود به الحب الأثيم
فأين كان حب سعد، حبه السليم من آفات العبث والمجون؟
أطل يوماً من غرفته فرأى في دار الجوهري فتاةً كحيلة العينين مُشرقة الجبين، ثم غضّ بصره بسرعة حين تذكَّر أن ما زاد على النظرة الأولى حرام لا حلال
وما احتياجه إلى نظرة ثانية وقد رُسمت صورة الفتاة على ألفاف قلبه رسماً جعلها أقرب إليه من متن الألفية، وأوضح من شرح أبن عقيل؟
هل يُطلْ من النافذة فيراها مرة ثانية ليتأكد من التماثل بين الصورة والأصل؟
لا بأس، ولكن الفتاة لم تكن تظهر في صحن البيت إلا عند الأصيل، وهو الوقت الذي يعود فيه فتحي أفندي من المدرسة، وهو شقيقه الذي صار فيما بعد فتحي باشا زغلول، وكان الشيخ سعد يراعي فتحي أفندي، ويتعمد الظهور أمامه بصورة الناسك المتعبد، ليصرف عنه سوء التلفت إلى النساء، فقد كان يعرف أن التلاميذ (الأفندية) معرَّضون من هذه الناحية لأخطار تزلزل رواسي الجبال
النظر إلى المرأة حرام، فما حكم الشرع في سماع بُغام الملاح؟
وإنما عرضَ له هذا الخاطر الطريف، لأن مناغاة الفتاة لأترابها كانت تداعب أذنيه من وقت إلى وقت، وكان شديد العجب من أن تكون لفتيات الحواضر أنغام لم يسمع مثلها من بنات الريف، أنغام تصنع بلُبّه ما تصنع الراح بألباب الشاربين
ما حكم الشرع في هذه القضية؟ أيستفتى أشياخه بالأزهر الشريف؟ أيرجع إلى مطولات الفقه بالكتبخانة الخديوية؟
لا هذا ولا ذاك، وإنما اكتفى بوضع القطن في أذنيه عند سماع ذلك البُغام إلى أن

يقضي الله في أمره ما هو قاض
كان يتمنى أن تتاح النظرة الأولى مرة ثانية، النظرة التي يرمي بها الفتى من غير عمد، وهي حلال على أرجح الأقوال، ولكن آبائنا قبل ستين سنة لم يكونوا يسمحون لفتاة بالخروج من البيت حين تصبح وهي في نضرة الغصن الفينان، فمن المستحيل أن يظفر الشيخ سعد بنظرة بريئة من تلك الفتاة عند الخروج لدروس الصباح، أو عند الرجوع لتناول الغداء
وهل كان الفتى الأزهري الذي يصلي ويصوم يستبيح التطلع إلى بنات الجيران؟ هيهات ثم هيهات، فقد حلف على المصحف ليصيرنَّ إلى آخر حياته وهو في طهارة القانت المنيب
ثم يضطرم قلب سعد أعنف الاضطرام، ويزداد بلاؤه بهواه المكتوم، من يوم إلى يوم، والفتاة لا تعرف أن بجوارها فتىً يدعو الله في أعقاب الصلوات أن يجعلها نصيبه من دنياه، أو يجعلها على فرض الحرمان نصيبه من الحُور العين
ويمضي فيقلب كتب النحو والفقه والتوحيد ليحفظ ما فيها من الأشعار الغزلية، ولا يكتفي بذلك، بل يمضي فينسخ ديوان أبن القارض، ليتخذ منه سميراً يؤنس وحشته حين تخفت
الأصوات في دار الجيران
إن سعداً فلاّح وابن فلاّح، والفلاحون يخمدون نار الصبوة بالزواج، فما الذي يمنع من أن يسلك مسلك الفلاحين الشرفاء، فيطلب القرب من أهل تلك المليحة الحوراء؟
وهنا تثور مشكلة من أقبح المشكلات، مشكلة اجتماعية يعانيها الحي الأزهري في جميع الأزمان، وهي إصرار سكانه من كبار التجار على أن الأزهريين غرباء
لا جدال في أن الأزهريين هم شرايين الحياة في ذلك الحي، وبفضلهم تحيا متاجر وتقوم أسواق، ولكن هذا الفضل مجحود، لعله يحار في فهمها اللبيب. وقد كانت كلمة (مجاور) كلمة مدح، لأنها منقولة عن مجاورة الحرم النبويّ الظاهر، ثم صارت كلمة هجاء، بسبب التحامل على الأزهريين، فاعجبُ لكلمة ينقلها سوء المعاملة من مدلول إلى مدلول، بلا موجب معقول!
ومع أن الشيخ سعد زغلول كان يعرف أن حيّ الأزهر حيٌّ غادر ختّال، فقد قهره الهوى على أن يطلب يد ابنة الجوهري، ليسلم من وَقّد هواه، وليعرف كيف يُقبل على دروس الأزهر بعناية والتفات. وهل من المحال أن يفي ذلك الحيّ مرة في العُمر لمشرِّفيه من فتيان الريف؟
تشجّع الشيخ سعد فطلب يد ابنة الجوهري، فردّهُ الجوهري برفق، وهو يجهل ما ينتظر عمامة سعد من سيطرة أدبية وسياسية على أبناء هذه البلاد
ورجع سعدٌ حزين القلب، كاسف البال، وقد خاب أمله في هواه إلى آخر الزمان، ثم نظر فرأى أن الفرار من الحيّ الأزهري واجبٌ مفروض، لينجو من غمزات الذين شهدوا ردّهُ الأليم عن مناسك هواه. وأبناء الريف تؤذيهم ثرثرة السفهاء
لابُدّ من ترك الحيّ الأزهري، ولكن إلى أين؟ وماذا يصنع؟
إن أباه كان يرجو أن يصير من علماء الأزهر الشريف، ومن أئمة الدين الحنيف، فكيف يخلف ظن أبيه بلا تهيُّب ولا استحياء؟
ثم بدا له أن الكرامة الذاتية من مقاصد الكرامة الدينية، فخلع العمامة والجبة والقفطان، ولبس الحُلة الإفرنجية واحترف المحاماة، فأصبح وهو الأفوكاتو سعد أفندي زغلول، بشارع عابدين، وأمسى مكتبه سامراً يلتقي فيه كرام الرجال
ولكن لوحة صغيرة كانت تُثير جواه حين يدخل ذلك المكتب، لوحة رُقِشَ في صدرها الأبيض هذا البيت:
وإذا دُعيتُ إلى تناسي عهدكم ... ألفيت أحشائي بذاك شِحاحا
ولم يكن بدٌ للقلب المجروح من دواء، وهل يُداويَ القلب المفطور بغير العمل الموصول؟
مرَّ عامٌ وعامٌ وأعوام، وسعدٌ يجاهد في سبيل المجد ليعرف من ردُّوه جاهلين أنهم أضاعوا (جوهرة) لن يرى (الجوهريُّ) مثلها ولو أضاع العمر في البحث والتنقيب
ثم استجاب الله لدعوات الوالدَين الصالحين، فاقترن سعدٌ بِفتاة كريمة العم والخال هي بنت مصطفى باشا فهمي رئيس الوزراء في ذلك العهد، وهي اليوم صفية زغلول

أم المصريين، أسبغ الله عليها نعمة الصحة والعافية، إنه قريبٌ مجيب
وجاءت أيام في أثر أيام، وتنقل سعدٌ من حال إلى أحوال، إلى أن نفاه الإنجليز في سنة 1919 بسبب قضية الاستقلال
ثم سمح الإنجليز بأن يسافر من مالطة إلى باريس ليقنع (مؤتمر السلام) بعدالة القضية المصرية إن استطاع
وعجز سعدٌ وأصحابه عن الوصول إلى قصر فرساي، فرجع إلى مصر وهو آسف غضبان
فماذا رأى بعد الرجوع؟
أقيمت له حفلتان في الحيّ الأزهري، أولاهما في دار البكري، وقد فرح بها فرحاً عظيماً، فقد كان يظن أن خذلانه في الوصول إلى (مؤتمر السلام) قد يصرف عنه قلوب المصريين وفي تلك الحفلة هُتف عند دخول عدلي باشا بعبارة (تحيا وزارة الثقة) وهُتف لسعد باشا بعبارة يحيا (الشيخ سعد)
أما الحفلة الثانية فكانت. . . أين كانت؟
كانت في دار الجوهري، الدار التي ردَّت سعداً خائباً قبل أعوام تزيد على الخمسين وجرى الهتاف لسعد: (يحيا الشيخ سعد)
والتفت سعد باشا ذات اليمين وذات الشمال، فرأى أنه في أمان من ثرثرة السفهاء، وأن الشيخ القديم لن يغلب الباشا الجديد، وأن من حق الأزهريين أن يفتخروا به مشكورين
ثم التفت الرجل مرة ثانية ذات اليمين وذات الشمال، وسمح لعينيه بدمعتين محرقتين، هما التحية لهواه الذي ذهب إلى غير معاد
هذا سعد باشا خليفة الشيخ سعد، ولكن أين بنت الجوهري؟ وأين مكانها في هذا الوجود؟ أغلب الظن أنها ماتت وإلا فكيف صبرت عن خلع العذار لتقبِّل الحبيب الذي أنتصر على مكايد الزمان؟
وأقام سعد في (بيت الأمة) يتلقى تهنئة الوفود بعودته سالماً من باريس، وكان يمد يده فينزع اللثام عن كل امرأة تعتصم بالحجاب، وكانت حجته أنه يؤيد رأي صديقه الحميم قاسم أمين
ولعله كان يرجو أن يطلُع عليه القمر الجوهري، لو كان للقمر الآفل طلوع
لقد حدثتني النفس بزيارة دار الجوهري قبل أن اسطر هذا الحديث، ولكني خفت أن أضاف إلى المجانين
كان لي فيك هوىً، يا دار الهوى، فأين غرام سعد وأين غرامي؟
إن أعتدل الميزان فسنكتب على بابك العالي سطراً يقول:
(هنا تهاوتْ أحلام وقلوب)
وأين دار الجوهري؟ لا تسألوها عن مكانها ولا تسألوني، فقد ناب عني وعنها أبو تمام حين قل:
لا أنتِ أنتِ ولا الديار ديارُ ... خفَّ الهوى وتقضَّت الأوطارُ
وأنت، يا سعد باشا، ما رأيك في هذا الحديث؟ ألا ترى أنه من أشرف ما يتصل بتاريخك الجميل
زكي مبارك
من معهد الإسكندرية
إلى جامعة فاروق الأول
للأستاذ محمد محمد المدني
أيتها الجامعة الناشئة:
سلام الله ورحمته وبركاته عليك، وهنيئاً لك هذا البدء السعيد لحياة أرجو أن تكون طويلة مباركة حافلة بالعمل والنشاط والإنتاج إن شاء الله!
أتدرين ممن تلقين هذا الكتاب؟ إنه من أخ لك لم تلده أمك الشابة الحسناء، المشرفة على ضفاف النيل بالجيزة الفيحاء، ولكن ولده عمك أو جدك (الأزهر)! ذلك الشيخ العجوز الرابض تحت سفح المقطم منذ ألف عام. . . أريد أن أهنئك من قلب مخلص صادق لم يداخله الحسد، ولم يكدره التعصب، بما تلقينه من عناية بك، واهتمام بأمرك. . . ثم أشكو إليك ما أتجرع أنا من غصص الضعف، وما أذوق من ذل الغربة وويل

الشتات!
أنت الآن - أيتها الأخت - في فترة من الزمان تغبطين عليها: لم تبتدئي بعد عامك الدراسي الأول، وأرى الدنيا عليك مقبلة، والأيام عنك راضية، والدولة إليك دائلة!
أنت كالعروس المدللة الأثيرة عند أهلها: يعدون لها، ويتطلعون إلى يوم جلوتها، ولا يدخرون وسعاً في سبيل إرضائها، وتهيئة الحياة السعيدة المترفة الناعمة لها. . .
وأهلك أغنياء كرماء قد عرفوا الحياة وأدركوا أسرارها، ومرنوا على السير فيها بخطوات ثابتة جريئة متوالية، حتى احتلوا المكان الأول، ونالوا الحظ الأوفر، وتركوا الخاملين المتخلفين من ورائهم، يكادون يتميزون غيظاً ويموتون غماً!
هذه وزارة المعارف كثيرة الحركة دائبة النشاط: قد حشدت قواها، وعبأت رجالها: تجتمع لجانها، وتنعقد مجالسها، وتكتب تقاريرها، وتؤلف فيها الهيئات الفنية وغير الفنية، ويسهر وزيرها، ويدأب في السعي مستشارها، وتشتغل الصحف والمجلات ودار الإذاعة بأمرها. . . وكل ذلك من أجلك أنت - أيتها الأخت - السعيدة! ومن قبل شغل المجلسان في دار الندوة بهذا الأمر: تقبلاه بقبول حسن، وأقراه في مثل لمح البصر، وأوسعا له في البذل والعطاء، ولم يضنا عليه بالحر من المال، والعالي من المناصب، والرفيع من الدرجات. . . فأسعدي - يا أخت - بهذا العطف، واهنئي بهذه الرعاية، واستمتعي بمجد آلك،
واستطيلي فخراً بأسمائهم، واستظلي مما عقدوه عليك بلواء من الأمن والطمأنينة والرضا، واسلكي سبل العلم، وفجاج البحث، ذللاً لا أشواك فيها، ولا عقاب تعترض من دونها!
سيري يا أختاه بجنان ثابت ونفس مطمئنة وصدر لم تفسده الوساوس، ولم تحوم حوله الشكوك، فقد وفتك الدولة حقك، وكفتك ما يهمك، وجعلتك في يمنى يديها حين جعلت غيرك في يسارها ومن وراء ظهرها!
معاذ الله - أيتها الأخت الناشئة - أن أتطاول إلى مثل مقامك، أو أمني النفس بمثل منزلتك، فإنما أنا معهد ثانوي صغير لا يزيد على هذه المدارس الكثيرة التي تعمل في خدمتك، والتي ستمدك كما مدت أمك الرءوم من قبل بالبنين والبنات؛ ولست قريباً لك ولا نداً لخطابك، ولكني أشاركك فقط في معنى واحد، به أكتب إليك وبه أجترئ عليك: أنا معهد الإسكندرية وأنت جامعة الإسكندرية، ولقد كنت مثلك يوم نشأت منذ ثلاثين عاماً: كنت معهداً من المعاهد العليا عنيت به الدولة يومئذ كما تعني بك الآن، واحتفلت به الأمة كما تحتفل بك الآن، وأسندت إدارته إلى رجل عبقري حازم لم تزل آراؤه وإصلاحاته وهمته ونشاطه مسك الأحاديث وعطر المجالس، هو المغفور له الشيخ محمد شاكر، وقال الناس عني كلاماً كثيراً، قالوا: هذا معهد الإسكندرية عاصمة مصر الثانية، هذا هو (أزهر) الدولة المحمدية العلوية سينافس أزهر الدولة الفاطمية، وقد حققت بي الأيام بعض هذا الظن، فكنت نموذجاً في أساتذتي، وكنت نموذجاً في طلابي، وكنت نموذجاً في دراساتي ونظامي، وخرجت رجالاً أئمة يكادون يستأثرون بالفضل في كل ناحية من نواحي الأزهر الحاضر: في العلم، في الخلق، في الإدارة، في الحزم، في الشجاعة، ولكن الزمان صدمني مرتين: فأما إحداهما فيوم بدا لرجال الأزهر أن يجعلوني معهداً كمعاهد الأقاليم فأصبحت معهداً ثانوياً كمعاهد طنطا وشبين وقنا، أعد أبنائي، وأجد في تعليمهم وتثقيفهم وتهذيبهم وتقويم أخلاقهم؛ حتى إذا سويتهم فتيان علم وعمل وخلق كريم دفعت بهم إلى الأزهر فغرقوا في لجته وضلوا في تيه. والأزهر كما ينبئ عنه التاريخ قوة خارقة غلابة تحيل الأشياء ولا تحيلها الأشياء: كم من رجال تأبوا عليه ثم خضعوا له من حيث لا يشعرون، وأرادوا له صيداً فكانوا هم المصيدين! وكم من علوم لم تهضمه ولكنه هضمها، ورامت منه فأخضعها وأذلها! وكم من أخلاق فيه تبدلت وملكات ثابتة تأرجحت! فماذا عليهم لو يتركوني كما أنشأوني معهداً عالياً نموذجياً ولم تمتد أيديهم إلي، إذاً لكنت اليوم جديراً أن أكون قريناً لك بل منافساً شريفاً يحاول أن يسبقك في ميادين العلم والبحث والإنتاج!
وأما صدمتي الأخرى فقد أصابتني قريباً، وكانت صدمة عنيفة زلزلت مكاني، وقوضت أركاني، وشطرتني شطرين رمت أحدهما إلى العاصمة الغربية فزحمت به معهد طنطا، واحتفظت بأيسر الشطرين في دمنهور فأقامته في (كتّاب) لجمعية تحفيظ القرآن ثم قالوا عن هذا (الكُتّاب) وأنا أكاد أذوب خجلاً: هذا معهد الإسكندرية

لقد أنزلوك على الرحب والسعة إحدى دورهم الفسيحة الأرجاء العالية البناء، ولن تمضي عليك بضع سنوات حتى تكون لك مدينة جامعية في رمل الإسكندرية تشرق على بحر الروم كما تشرق مدينة الجامعة الأولى على نهر النيل، أما أنا فقد قضيت حياتي في مكانين متباعدين في مدينة الإسكندرية شمالاً وغرباً: أحدهما زقاق غير نافذ من أزقة السيالة تكتنف البيوت فيه داري، ويعلو الباعة المتجولين في كل صباح ضجيج من حولي؛ والآخر دار بنوها، وكأنما كان مهندسها ينظر في ضمير الغيب إلى ما حدث الآن فبناها على نظام ثكنات الجيوش. نعم بنوها، ولكن في أي مكان؟ في (القباري) موطن المصانع ومستودعات البترول و (مغالق) الخشب، ومخازن السكك الحديدية وطريق الإسكندرية كلها إلى (السلخانة) ومدابغ الجلود!

الأستاذ الأكبر المراغي في أن يبني لي داراً تليق بمكانتي، فأمر رجاله أن (وفكر) يرودوا الإسكندرية وضواحيها مكاناً مكاناً فرادوها، وقيل للناس أنهم قد انتخبوا مكاناً فيها، ثم انتهى الأمر بالمشروع إلى هذا الحد فكتبت فيه تقريرات أضيفت إلى سجل التقريرات عن سائر المشروعات!

وليتني بقيت في الإسكندرية حيث كنت، ولكنهم حفظهم الله قد خافوا الغارات، وقذائف الطيارات، ففروا بي من قضاء الله إلى قضاء الله. فهذه هي صدمة الأخيرة التي حدثتك يا أخت عنها، فإذا بدا لك أن تسأليني: كيف جاز لمعهد أزهري أن يفر من الإسكندرية قبل أن تفر مدارسها الابتدائية بل مدارسها الإلزامية ورياض أطفالها، فإني أجيبك على البداهة بأن لنا معاشر الأزهريين فلسفة خاصة في القضاء والقدر والصبر على النوازل والثبات للشدائد؛ فلسفة تقضي علينا أن ننصح الناس بالرضا عن ذلك كله، واحتمال ذلك كله

وننسى أنفسنا، وأن نبالغ في نهي الناس عن الجزع والفزع ثم نخالفهم إلى ما ننهاهم عنه! وقد يكون في الأمر سر آخر لا أعلمه ولا أعتقد بأنك حريصة على أن تعلميه، وربما علمه فضيلة شيخي الجليل الناشط الأستاذ الشيخ أبي العيون. وبهذه المناسبة أذكر لك أن هذا الشيخ الناشط لا يباشر عمله في إدارتي الآن منذ عام أو يزيد، لأن الأزهر رأى أن ينتفع بنشاطه في منصب من مناصب التفتيش (في إدارته العامة) فيا لله لمعهد قسمه الثانوي في طنطا وقسمه الابتدائي في دمنهور، وشيخه ومدير أدارته في القاهرة بين المفتشين!

أيتها الأخت السعيدة: هنيئاً لك، وعزاء لي.

أخوك

معهد الإسكندرية

جمعية المحافظة على القرآن الكريم بدمنهور (بطرف)

(طبق الأصل)

محمد محمد المدني

المدرس بكلية الشريعة

من وثبات العبقرية

نظام الضرائب في الإسلام

وهل روعي فيه الوضوح والملاءمة

للأستاذ علي حسين الوردي

لقد وضع الاقتصادي الأشهر آدم سميث، كما سبق ذكره، أربع قواعد يجب أن تتوفر في الضريبة الصالحة: هي العدل والاقتصاد والوضوح والملاءمة.

أما وقد انتهينا في مقالاتنا السابقة من بحث قاعدتي العدل والاقتصاد في الضريبة، فقد بقي علينا أن نأتي إلى موضوع الوضوح والملاءمة فيها.

قاعدة الوضوح

يريد العلماء بالوضوح في الضريبة أن تكون الضريبة معينة في مقدارها وزمان جبايتها ومكانها، بحيث يكون الناس على علم من ذلك كله فلا يبقى إذن مجال للزيادة والنقصان والتقديم والتأخير، مما يؤدي إلى إساءة الاستعمال والاختلاس والإرهاق، إذ يغتنم الجباة فرصة جهل الناس فيستخلصون منهم ما لاحق لهم به

والحكومات الحديثة تحرص على اتباع هذه القاعدة كل الحرص، فنجدها تنشر على الناس الميزانية العامة في رأس كل عام، وتحاول بكل وسيلة أن يطلع المكلفون على

ما فرض عليهم من ضرائب لكي يعدوا أنفسهم وأعمالهم وأموالهم في سبيل ذلك، ولكي يعلموا بشيء من اليقين ما تزيد به الضريبة على كلفة الإنتاج وما ينبغي لهم من تقرير الأسعار وتهيئة العرض حسب الطلب المقبل.

ولقد قيل بهذه المناسبة إن القديم الخبيث من الضرائب خير من الطيب الجديد. ويريدون بهذا القول: أن الضريبة القديمة، مهما كانت سيئة، فقد عرفها الناس وتعودوا عليها منذ زمن طويل، ثم اطمئن المنتجون إلى آثارها فهم ينتجون بعد أن يضعوا مقدارها في حسابهم واضحاً معيناً. وإذا كان السعر من جرائها مرتفعاً علم المنتجون بما يستطيعون بها من بيع وما يأتيهم بعد ذلك من أرباح. وعلى هذا يكون ميزان العرض والطلب في الميدان الاقتصادي هادئاً، ومحتملاته المقبلة على شيء من الوضوح

أما إذا وضعت الحكومة ضريبة جديدة، اختل هذا الميزان طبعاً وأخذ يترجح يمنة ويسرة، لأن المنتجين تفاجئهم الضريبة فيضطرون إلى تحملها في أرباحهم أو إلى زيادة أسعارهم بها، وفي كلا الحالتين يطرأ الارتباك على سوق البضاعة: لقلة في العرض ناتج عن ضآلة الأرباح، أو لقلة في الطلب ناتج عن ارتفاع الأسعار

هذا هو ما دعا الحكومات الرشيدة إلى الإبطاء في تبديل نظام الضرائب الجاري في بلادها وقصر التعديلات فيه على أقل حد ممكن، لأنها تعلم خطر التغييرات المتعاقبة على النظام الاقتصادي المستقر على حالة راهنة

وإذا نظرنا إلى الإسلام نجد ضرائبه على قسط كبير من الوضوح والاستقرار، ولعله قد فاق كل نظام في هذا المضمار، إذ أن رسول الله قد وضع نظاماً ثابتاً للصدقات لا يتغير على مدى الأيام، وهاهو ذا جزءاً من الفقه يتدارسه المسلمون جيلاً بعد جيل، وعندما حدثت في الإسلام أوضاع جديدة احتاجت إلى أنواع أخرى من الضرائب كما حدث في عهد عمر، وضع الفقهاء كما بينا سابقاً ضرائب جديدة أثرت من بعدهم واتبعت اتباعاً طويلاً

وكأن الإسلام قد شعر بما يشعر به علماء اليوم من أن الضريبة القديمة ليست ضريبة فشرع للناس شرعة الضرائب الثابتة، وهي ما كانت الأمم القديمة لا تعرفه ولا تهتم به فلا ريب في أن الملك في الزمن القديم كان يبغت الناس بين كل آن وآخر بضريبة جديدة، تبعاً لما كان يشعر به من حاجة إلى مال، أو رغبة في ادخار

وبهذه المناسبة نود أن نطلع القارئ على طريقة في الجباية كانت مستعملة في الزمن القديم، ولا تزال بعض الدول اليوم تعتمد عليها أحياناً، تلك هي طريقة التوزيع ويلاحظ فيها أن الحكومة لا تعين نسبة الضريبة في قانون ثابت، حيث تؤخذ من الفرد كل سنة كما تقتضي قاعدة الوضوح إنما تعين الحكومة مقدار حاجتها من المال في رأس السنة المالية ثم تقسم هذا المقدار على الولايات لتؤدي كل منها حصتها المتناسبة من الضريبة العامة. وحاكم الولاية بدوره يفرض على أفراد ولايته ما يشاء من وزيعة، إذ هو مسؤول على وفاء ما تطلب منه الحكومة المركزية بكل وسيلة

حقاً، إن هذه الطريقة سهلة الإدارة واضحة المعالم بالنسبة للحكومة، لكن فيها ظلماً وفيها غموضاً بالنسبة لدافع الضريبة، ذلك لأنه لا يعرف مقدار الوزيعة التي تؤخذ منه كل سنة،

فهي تختلف عاماً بعد عام

فإذا كانت حاجة الحكومة كبيرة في إحدى السنين، أرهق الفرد في دفع حصته من ذلك من غير اهتمام كبير في ما ينتج الفرد أو يستطيع؛ ولذلك يبقى حائراً في كل حين، لا يدري مقدار الوزيعة التي ستفرض عليه، ولا يقدر إذن أن يتضح أثرها الاقتصادي في تكاليفه المقبلة وأسعاره

أما الإسلام، فلا نعلم أنه لجأ مرة إلى مثل هذه الطريقة، وكل الذي نعرفه في هذا الموضوع، هو أنه كان يوصي عمال خراجه وصدقاته دائماً بالرفق والعدل من غير اكتراث بالمقدار الذي يستحصلونه بعد ذلك. وقد قال أحد العمال لعلي بن أبي طالب عندما أوصاه بالرفق: يا أمير المؤمنين، إذن أرجع إليك كما ذهبت من عندك (يعني من غير جباية)؛ فأجابه علي: وإن رجعت كما ذهبت. . . ويحك! إنَّا أمرنا أن نأخذ منهم العفو (يعني الفضل)

وقاعدة الوضوح هذه تكون واجبة أشد الوجوب عندما تجبى الضريبة بطريق الالتزام،

لأن الملتزم الذي يتقبل جباية الضريبة على مقدار معين من المال، يرغب دائماً في أن يستفيد من غموض الضريبة، أو جهل الناس بها، وهو قد يتوخى تعمية الأمر ليتسع له مجال ابتزاز المال منهم تحت ستار من القانون!

وفي الحقيقة أن الحكومة مهما حاولت توضيح الضريبة للناس، فلا بد أن يبقى ثمة كثير من البلهاء الجاهلين

وهذه السيئة هي التي جعلت الحكومات الحديثة تتجنب - جهد الإمكان - منح الجباية إلى الملتزمين

هذا، والالتزام - فضلاً عن ذلك - مخالف لقاعدة الاقتصاد في الضريبة:

فلقد قلنا فيما مضى: إن الفرق بين ما يخرج من جيوب الدافعين، وما يدخل إلى خزينة الدولة، يجب أن يكون أقل ما يمكن، لكي يتوفر في الضريبة عنصر الاقتصاد

وفي جباية الضريبة عن طريق الالتزام، يحاول الملتزم أن يجبي لنفسه أكبر مقدار ممكن، لكي يوفر لجيبه الفرق العظيم بين ما يؤدى للحكومة وما يجبى من الناس، ونجده لذلك يعذب الناس باسم الحكومة ويرهقهم إرهاقاً

وقد تضحك يا سيدي القارئ إذا علمت بما صنع عبد الله ابن العباس برجل جاء إليه فقال: أتقبّل منك الأبُله بمائة ألف. فضربه ابن عباس مائة وصلبه حياً

من هذا نعلم إن الإسلام كان يبغض الالتزام كل البغض، ويحرمه كل التحريم. وإليك ما قال أبو يوسف في هذا الشأن يوصي به الخليفة هرون:

(ورأيت ألا تقبل شيئاً من السواد ولا غير السواد من البلاد فإن المتقبل (الملتزم) إذا كان في قبالته فضل عن الخراج عسف أهل الخراج وحمل عليهم ما لا يجب عليهم. وظلمهم وأخذهم بما يجحف بهم ليسلم مما دخل فيه. وفي ذلك وأمثاله خراب البلاد وهلاك الرعية. والمتقبل لا يبالي بهلاكهم بصلاح أمره في قبالته. ولعله أن يستفضل بعد ما يتقبل به فضلاً كثيراً، وليس يمكنه ذلك إلا بشدة منه على الرعية، وضرب لهم شديد، وإقامته لهم في الشمس، وتعليق الحجارة في الأعناق، وعذاب عظيم ينال أهل الخراج بما ليس يجب عليهم من الفساد الذي نهى الله عنه. إنما أمر الله أن يؤخذ منهم العفو، وليس يحل أن يكلفوا فوق طاقتهم . . .)

قاعدة الملاءمة

ويسميها بعض المؤلفين قاعدة الرفق والسهولة. يقول فيها آدم سميث: تجب جباية الضريبة في الزمان والمكان وبالطرق الأكثر ملاءمة للمكلف

وهذه القاعدة لم يكن معنياً بها كثيراً لدى الأمم القديمة، ذلك لأن علاقة المصلحة بين الحكومة والفرد لم تكن متبادلة

أما الحكومة الحديثة فقد بدأت تشعر بأهميتها في حياة الأمة، وبأثرها في الإنتاج العام.

واليوم ينصح علماء المالية بأن الجباة يجب أن يذهبوا بأنفسهم إلى حيث يجبون الضريبة في الأماكن التي يختارها المكلف، وليس بجائز أن يتخذوا لهم المكان المطمئن ويأمرون المكلف بجلب الأموال إليهم وهم ناعمون . . .

والإسلام قد نظر في الأمر نفس هذه النظرة، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا جلب ولا جنب ولا شغار في الإسلام، ولا تؤخذ صدقات المسلمين إلا على مياههم وبأفنيتهم)

يقول الإمام القاسم بن سلام المتوفى سنة 224 هجرية في شرح ذلك: (. . . لا ينبغي للمصدق (الجابي) أن يقيم بموضع ثم يرسل إلى أهل المياه ليجلبوا إليه مواشيهم فيصدقها، ولكن ليأتهم على مياههم حتى يصدقها هناك، وهو تأويل قوله على مياههم وبأفنيتهم)

أما وقت الجباية فيجب أن يكون في الحين الذي يستسهل فيه المكلف دفع الضريبة أو عندما تتوفر لديه النقود بعد حصاد زرعه أو بيع بضاعته

سأل عمر واليه على حمص سعيد بن عامر بن حذيم: ما لك تبطئ بالخراج؟ فأجابه أمرتنا ألا نزيد الفلاحين على أربعة دنانير فلسنا نزيدهم على ذلك ولكنا نؤخرهم إلى غلاتهم. فقال عمر: لا عزلتك ما حييت

قال الإمام أبو عبيد القاسم: (لم يأت عن رسول الله أنه وقت للزكاة يوماً من الزمان معلوماً، إنما أوجبها في كل عام مرة. وذلك أن الناس تختلف عليهم استفادة المال، فيفيد الرجل نصاب المال في هذا الشهر، ويملكه الآخر في الشهر الثاني، ويكون

للثالث في الشهر الذي بعدهما. ثم كذلك شهور السنة كلها. وإنما تجب على كل واحد منهم الزكاة في مثل الشهر الذي استفاده فيه من قابل. فاختلفت أوقاتهم في محل الزكاة عليهم لاختلاف أهل الملك. فكيف يجوز أن يكون للزكاة يوم معلوم يشترك فيه الناس. . .)

حقاً لقد كان الإسلام رفيقاً بدافعي الضرائب كل الرفق موصياً بهم من أجمل الإيصاء. أنظر إلى علي بن أبي طالب يوصي عامله على مصر في أهل الخراج: (. . . فإن شكوا ثقلاً أو علة أو انقطاع شرب أو باله أو إحالة أرض اغتمرها غرق أو أجحف بها عطش، خففت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم. ولا يثقلن عليك شئ خففت به المؤونة عنهم فإنه ذخر يعودون به في عمارة بلادك، وتزيين ولايتك مع استجلابك حسن ثنائهم، وتبجحك باستفاضة العدل فيهم، معتمداً فضل قوتهم بما ذخرت عندهم من إجمامك لهم والثقة منهم بما عودتهم من عدلك عليهم في رفقك بهم. . .)

تلك تعاليم سامية بلا ريب وهي مطابقة لما تملي قاعدة الرفق والملائمة ولما يلح على إتباعه علم المالية العامة إلحاحاً.

ولا مراء في إن الإسلام قد شرع للناس شريعة الضرائب الصالحة في الزمن الذي أنغمر فيه العالم في دياجير الظلم، وانحطت فيه الروابط الاجتماعية والاقتصادية انحطاطاً عظيماً. وكأن الإسلام قد جاء بتجربة اقتصادية كبرى برهنت للناس بالبرهان الحي على أن العدل

أساس الملك حقاً، وإن الرفق أولى بإنماء الجباية من التعسف والتكالب. فقد يأخذنا العجب حين نرى الجباية قد بلغت - على عهد الإسلام - مبلغاً لم يحلم به القياصرة والأكاسرة، وهم الذين كانوا يستنزفون أموال الناس بالباطل، وهم على زعمهم غانمون. بلغت الجباية على عهد المأمون - حسب قائمة أبن خلدون التي أوردها في تاريخه - ما يناهز الأربعمائة مليون درهم عدا الحيوانات والسلع والعروض، وهي أموال طائلة لا يجوز مقارنتها بعملة اليوم لأن الدرهم كان حينذاك ذا قوة شرائية كبرى.

ولا يخفى أن هذا المبلغ كان حصة الخزينة المركزية الخاصة بالخليفة، حيث تأتي إليه خالصة بعد الإنفاق على إدارة الحكومات المحلية وإعانة الفقراء فيها. هي حصة الخليفة وحده يتصرف بها كما يرى في تدبير الشؤون العامة. فيا ليت شعري كم هو مجموع الجباية العامة إذاً قبل الإنفاق!

هذا مع العلم أن أقصى ما وصل إليه مجموع الجباية العامة عند الرومان في عنفوان مجدهم لم يتجاوز الأربعمائة مليون درهم، وهم الذين كانوا في دقة القانون وبراعة الإدارة مشهورين.

أليس في هذا حجة بالغة على أن العدل أساس الملك، وأن الرفق أولى من التعسف في إنماء الجباية

كاظمية - عراق

علي حسين الوردي

المساهمة والشركة في مصر

بمناسبة ذكرى وفاة (طلعت حرب)

للأستاذ عبد الله حسين

في يوم الخميس 13 أغسطس أحتفُل بالذكرى الأولى لوفاة الزعيم الاقتصادي الكبير المغفور له محمد طلعت حرب باشا، المؤسس الأول لبنك مصر وشركاته المساهمة المعروفة. ولقد كان مما يتفق وطبائع الأمور، أن يعرض المحتفلون بهذه الذكرى، والمعزون والجماهير التي عرفت (طلعت)، أو استمعت إلى أحاديثه وخطبه، أو وقفت على آثاره وأعماله وتصرفاته، إلى بنك مصر وشركاته، وما يتصل بها من خطط، وما تعرضت له من أزمات؛ وكان من الطبيعي أيضاً أن يكون للفقد - شأن كل عظيم وعصامي ومبرز - الأصدقاء والحساد والأعداء. . . والخصومة للعظيم - وخاصة لمن بلغ منزلة (طلعت) - لا تغض من مكانته، بل لعلها تزيده منزلة، وتُجلّى على الأيام فضائله وشمائله. ذلك أن النقد وحده هو الذي يستطيع أن يكشف عن اللؤلؤة الصحيحة من دفائن المعادن

لست أريد أن أتناول هنا ترجمة حياة الفقيد، ولا أن أقوم ببحث في شؤون الشركات الوطنية؛ وإنما حسبي أن أعرض لأشياء تحدث بها أناس منذ أعوام ثلاثة، وكان من

وراء هذه الأحاديث ذلك القانون الذي صدر في العام الماضي بدعم بنك مصر وتقوية الروابط بينه وبين الحكومة

كانت هذه الأشياء من المسائل التي بالغ حساد (طلعت) وخصومه في الخفض من مكانته، والغض من شأوه، وفاتهم بادئ ذي بدء، أن (طلعت كان رجلاً، وكان مجرباً، وكان بادئاً، وكان بشراً، وكان يعمل في بيئة لم تُتّعهد من قبل. . . كل هذا قمين أن يدعوا إلى شيء من الخطأ والتراخي والتشاؤم. ولقد كنت أشفق من هذا الأشياء، وكنت أخشى أن تعدو من جرائها العوادي على البلاد والمشروعات الوطنية

غير أنني بعد أن هدأت العاصفة، وقضي (طلعت)، راجعت نفسي، وشئت أن أكون في منزلة القاضي، يفصل بالحق، ويورد في حيثيات حكمه الأسباب التي يتألف منها اعتقاده، والمقدمات التي انتهت إلى رأيه

أراد (طلعت - حين فكر وحين مضى يحقق ما فكر فيه - أن يستعين في مشروعه بالعناصر التالية:

1 - (الأعيان): للإفادة من أموالهم في الاكتتاب برأس المال، ثم يجذبهم إلى نقل مودعاتهم من البنوك الأجنبية إلى البنك الوليد

2 - (الحكومة): بوزاراتها ووزرائها وكبار موظفيها. لكي تكون يداً مع المشروع وما تفرع عنه من الشركات، وذلك بأن تودع أموالها البنك، وبأن توصي بتفضيل منتجات شركاته وما إلى ذلك من مزايا

3 - (الصحافة): للدعوة والدعاية والتخفف من المهاجمة أو النقد، إذ أن المشروع جديد ومالي يتأثر بالنقد السريع

4 - بالجمهور - عامة، وخاصة - الطلبة والشباب:

فإذا كان قد حدثت أشياء غير صالحة، فإن منجم ذلك هو العيوب التي نشهدها في تصرفات الأعيان والحكومات والمصالح الأميرية وبعض الصحافة والجمهور. ذلك أن كل عنصر من هذه العناصر، حسب أن له حقاً على طلعت أو على البنك، بأن يترخص وأن يتسامح فيما لا يجوز الترخيص والتسامح فيه. فإذا وقف طلعت موقف الحزم، غضب طلاب المنفعة؛ وإذا تسامح - وهذا ما كان يؤثر طلعت دفعاً للكيد - استتبع هذا ألواناً أخرى من التسامح، بالاستزادة من الإقراض والتراخي في الأداء. والرجل يريد أن يرضي جميع الحكومات خشية أن يقال إنه حزبي. على حين أن مشروعاته مستقلة وواجب أن تكون مستقلة عن الأحزاب السياسية والتجارية والشخصية.

وعندي أنه إذا شئنا أن نتقي ما حدث من الأزمات والأخطاء، أن نمضي قدماً في علاج شئوننا، فنعرف أين يبدأ حقنا وأين ينتهي عند حق غيرنا من بنك أو شركة أو مساهمة أو مصلحة عامة. علينا أن نفرق بين منافعنا الخاصة وبين المصالح العامة. بل علينا أن نعرف كيف نضحي منافعنا الخاصة لنصلح شئوننا العامة. فالمجاملة والتسامح (سياسة معلهش) والتراخي والاستغلال الحقير للنفوذ هذا كله مرجع العيوب في مشروعاتنا ومساهماتنا وشركاتنا. فإن أصلحنا، صلحت أداتنا المالية والاقتصادية. وأدركنا أن الداء فينا وعلاجه بين ظهرانينا، وأنصفنا الموتى من الأحياء

عبد الله حسين

نحن في صراع دائم

للأستاذ حسين الظريفي

كان يعتقد في العقل أنه ليس إلا ما تمليه علينا تجارب الحياة؛ فالطفل يولد ولا عقل له، حتى يأخذ عن الوسط ما هو فيه، ويظل رهين شروط حياته الخاصة والعامة بلا حد ولا أمد، ومن شب عن الطوق وتفرد عن المجموع فقد أوتي حظاً كبيراً

تلك كانت نظرة العلم إلى العقل من حيث يظهر ومن حيث يتطور. غير أن فقهاً تمخضت عنه بداية القرن الحديث، نظر إلى هذا العقل الذي يولد بعد الولادة ويظل محدود في نموه وسموه بين المهد واللحد؛ فأحاط به ثم تجاوزه إلى ما وراءه فأيقن أن هناك عقلاً باطناً يكمن وراء عقلنا الظاهر أورثتنا إياه قرون تتصل بأول الخليقة؛ فهو ميراث ماضينا من حيث يبدأ إلى حيث يتصل به حاضرنا الذي نحن فيه، ولا تزيد الأحقاب إلا شداً ومداً

وقد أسفرت بحوث العلم عن إثبات ما لهذا العقل الكامن من الأثر البالغ، في تلوين النزعة والفكرة والإرادة واقتيادها إلى حيث يريد، على غير شعور منا بما نفعل ومالا

نفعل
إن موضع القوة في هذا العقل قائم وراء ما له من مظهر الخفاء؛ ففي غفلة عما نعيه ونسترعيه من شئوون عقلنا الشاعر، يقوم العقل الباطن بعمليات التفاعل حتى تنبعث من أعماقه كلمته الآمرة أو الزاجرة فتدين لها الجوارح. ونحن لا نعي ما يدبر ويقرر إلا ذلك الأثر الذي نقوم به، غير شاعرين بالبواعث
إن قوة العقل الباطن آتية مما يبطن في فعله وانفعاله، في ذات نفسه وفيما وراءه من عقل واع تحيط به الظروف والوقائع. فالرغبة فيه خفية يضغط عليها ما تواضع عليه الناس من عرف وتقليد. والحركة فيه قائمة دائمة ولكنها في قعر غير قريب، وما أقول باستحالة الوصول إلى قاعه البعيد. ولكن دون ذلك أهوال
هنالك حيث لا يصل سمع ولا بصر، إلا ما ندر، تزدحم الرغائب وتتصادم، ويعلو بعضها على بعض درجات وطبقات، وكل رغبة منها تريد بلوغ القمة والخروج من الزاوية إلى النافذة، لتلقى النور، وتعرب عن نفسها بأعمال الجوارح؛ ولكنها لا تكاد تصل السلم حتى تجد عليه رقيباً عتيداً يدفع بها إلى الحضيض. وهكذا تبقى الرغائب حية في القبر تتنازع وتتصارع والرقيب يأبى عليها إلا أن تنحدر إلى ما وراء مجرى الشعور، مهما أستحرَّ
هناك القتل وطال عليه الأمد. وما ذلك الرقيب إلا الضمير
فالرغبة الجامحة تصدم بقوة الضمير، فيضغط عليها حتى تنحدر إلى قاع النفس وتستقر فيه، غير قانطة من بلوغ منطقة الوعي من العقل وفرض نفسها عليه، وتحريك الجوارح به وفق ما تريد.
وما دامت الرغائب محجوراً عليها في قرارة النفس، فأنها تبقى في نزاع لا يهدأ، تستنفذ فيه ما هي بحاجة أليه مما نملك من طاقة. ونحن إن لم نشعر بجلبة هذا الصراع في داخل النفس فأن تأثرنا به ولا ريب كبير. وقد تبلغ شدة التنازع بين الرغائب إلى حد تبتلع فيه كل نشاطنا، حتى نظهر وكأنا لا نملك شيئاً من قوة الاندفاع إلى العمل وتجللنا مظاهر التردد والخمول.
إن الرغبة المقموعة تريد حرية التصرف فيأبى عليها العرف الاجتماعي إلا أن تقهر، حتى إذا كثرت الرغائب المقهورة واستطال عليها الزمن بلغ التنازع فيما بينها ذروته وأصبحنا ونحن من أنفسنا في ساحة حرب تضيع فيها الجهود سدى. ذلك لأن من طبيعة الرغبة أن تملك حرية الاستمتاع بالإرادة، فإذا هي قهرت وانحدرت إلى ما وراء الشعور، اتخذت لنفسها هناك موقفاً عدائياً لكل رغبة فيه، تليدة أو جديدة؛ حتى إذا ازدادت الرغائب وتمادت على ما هي فيه من تكالب على الظهور، نشأ عندنا ما يعبر عنه بالقلق الداخلي أو النفسي، ونحن في مثل هذه الحالة لا نشعر إلا بذلك الشعور الغامض العميق الذي تسودنا فيه بلبلة الفكر فلا نعرف ما ينبغي أن يدرك أو يترك. وبهذه الحرب الدائرة بين مختلف الرغائب نستهلك الكثير مما نملك من طاقة عصبية وذهنية، فيبدو احتياجنا إلى مثل هذه الطاقة في أعمال وعينا الأخرى، ونظهر وكأنا عاجزين.
إن مجهودنا العصبي محدود بقدر، فإذا نحن لم نحسن التصرف فيه ونضعه في موضعه الذي يجدي ظهر عجزنا عما خلقنا قادرين عليه. وما استنفاد هذا المجهود في صراع الرغائب إلا كذلك الجيش الذي اقتتل أفراده قبل منازلة العدو فأبيد بأيديه، والفارق هنا أن قتال الرغائب لا يزال ولا يفتر وإنما تزيده الأيام حدة وشدة، ويختلف مصير المصاب به باختلاف قوة احتماله لهذا العبء الثقيل.
والرغبة لا تقل مهما استطال زمن جهادها وجلادها في سبيل استعلائها على أخواتها من
الرغائب، ولا يدركها الفناء مهما امتد بها عهد المكوث في باطن النفس، حيث لا يصل وعي ولا شعور، وإنما تبقى في القاع تفعل فيما فيه وتنفعل به، حتى تنفجر من النفس فتثور وتظهر بأعراض قد تصل إلى حد الجنون، أو تحتال على الوعي، بالرمز تارة وبالمظهر مرة أخرى، وتخدعه عن نفسه وتظهر فيه
كل أولئك يفصح لنا عن مدى صراعنا، ويبعث فينا الرغبة في الوقوف على تطورات هذا الصراع وما يستخدم فيه من معدات النزال والقتال، ويود كل امرئ لو يعجل ببدء المعركة الفاصلة، وانتصار التفريج فيها على القمع والإرهاب

ونشير إلى أن لنا من صراع الرغائب في عقلنا الواعي مثالاً متناهياً في الصغر قد يفصح - ولو من طرف خفي - عن هول المعارك التي تدور في منطقة العقل غير الواعي، وتلقي خافت النور على ما لها من مركز ثقل فيما ندرك وما نترك. وفي الواقع أن الرغائب المتناقضة لا يندر وجودها في ساحة العقل الشاعر، فقد تتنازعنا الرغبة في الراحة وفي الاستمرار على المطالعة، ونقف لحظة قد تطول وقد تقصر بين هاتين الرغبتين حتى تتغلب الواحدة على الأخرى فنجيب تلك دون هذه؛ غير أن الشأن في صراع العقل الباطن يصل إلى مدى يضيق عن تصوره خيال الشاعر العبقري؛ ونحن بعد ذلك لا ندري من أمره شيئاً إلا من أوتي حظاً غير قليل من علم النفس الحديث

حسين الظريفي

كتاب الإمتاع والمؤانسة

حول نقد الأب أنستاس الكرملي

للأستاذ محمود البشبيشي

قرأت ما كتبه العلامة الأب أنستاس في (الرسالة) الغراء ناقداً طبعة كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي، وقد دفعني حب الإنصاف والغيرة على الحق والرغبة في تمحيص المسائل اللغوية إلى كتابة هذه الكلمات مخالفاً فيها الأب أنستاس في بعض ما أورده من النقدات؛ ويقيني أنه لا يضيق صدراً بها، فهو من رجال البحث الذين لا يبغون من وراء بحثهم إلا الحقيقة وحدها:

1 - رسم الحروف

خطَّأ الأب أنستاس كتابة (رءوساً. يبدءوا. مشئوم) بصورتها الحاضرة، ورأى أن الصواب أن تكتب هكذا: (رؤوساً - يبدأوا - مشؤوم) والقاعدة المأثورة تنص على أن (كل همزة بعدها حرف مدّ من جنس حركتها ترسم مفردة كما في (رءوس ويبدءوا) أو على نبرة إذا لم يمكن فصل ما بعدها عما قبلها كما في (مشئوم). وهذا ثابت في كتب الإملاء (رسم الحروف)، وقد يكون فيها رأي آخر، ولكن صحة رسمها على الصورة التي خطأها أمر لا شك فيه

2 - اللغة

خطَّأ قولهم (نعم وكرامة) ورأى أن الصواب أن يقال: (حباً وكرامة) والعبارتان صحيحتان، ولكن الجهة منفكة كما يقولون؛ فقد ورد في المحيط (افعلُ هذا وكرامةً لك)، وفي الأساس كذلك على معنى (وأكرمك إكراماً) فالكرامة هنا مصدر، وفي قولهم (حباً وكرامة) أسم ذات؛ فكل منهما في موضعه صحيحة

3 - الصرف:

خطَّأ (المسكَن) بفتح الكاف ورأى أن الصواب الكسر مع أن القياس الفتح والمحيط والمصباح ينصان على جواز الفتح والكسر معاً. وخطَّأ ضبط الدال الأولى من (جُددٍ) جمع جديد بالفتح والقياس يساعده ولكن ورد في المصباح ص959 الطبعة السادسة لسنة 1925

بالمطبعة الأميرية بالقاهرة قوله: (بعض بني تميم يخفف الجمع في نحو سُرُر وذُلُل بفتح العين (الحرف الثاني) وَطَرَدَ بعض الأئمة ذلك في الصفات فيقال: (ثياب جُدَد). ولا أدعى أن الفتح كثير، ولكني أراه وجهاً أقره بعض الأئمة للتخفيف ونطق به من يوثق بعربيتهم فالتخطئة المطلقة هي محل الخلاف

4 - الرواية

خطأ رواية بعض أبيات لأعشى باهلة في رثاء أخيه المنتشر فقال ما معناه: الصواب أن يقال: (أحوى نوءُها المطر) بدل (أخطأ نوءَها المطر) وأن يقال: (لا يضعف الأمر) بدل (لا يصعب الأمر. . .) ولتمام الإيضاح نورد البيتين كما أوردهما الشيخ حمزة فتح الله في المواهب الفتحية (الجزء الثاني) ونصهما:

ينعى أمراً لا تغيب الحيَّ جفنته ... إذا الكواكب أخطا نوءها المطر

لا يُصِعب الأمرَ إلا ريث يركبه ... وكل أمر سوى الفحشاء يأتمر

وظاهر من سياق الكلام أن رواية المواهب صحيحة وقد أخذ بها الناشران وإن المعنى لا غبار عليه؛ وإذا فلا معنى لهذه التخطئة

5 - النمو

لا يزال الأب أنستاس مصمماً على وجوب جمع (أفعل وفعلاء) إذا كانا وصفين على (فُعْل) ولهذا خطأ قول الناشرين (حجارة ملساء) وأوجب أن يقال (حجارة مُلس). ولنا أن نطلب إلى حضرته نشر خلاصة رأيه الذي أوده في (مجلة المجمع العربي) ليمكن أن يبحث في روية. ونحن مع تسليمنا بأن هاتين الصيغتين لم تردا في الفصيح إلا مجموعتين على (فُعْل) نستطيع أن نحكم بجواز استعمال الوصف بهما مفرداً قياساً على قولهم: (إن الجمع بمعنى الجماعة فيجوز وصفه بالمفرد) ولذلك شواهد لا تحصى، والأصل عدم المنع إلا بنص قاطع؛ فهل عند الأب أنستاس ذلك النص؟
إني لأذكر ما دار بينه وبين الدكتور زكي مبارك حول هذا الموضوع في مجلة (أبولو) وأعلم رأي الأستاذ الجليل الشيخ عبد القادر المغربي في تخريج عبارة أبي العباس التي وردت في (الكامل) وتمسك بها الأب أنستاس، ولكني أرجو أن يزيد الرأي إيضاحاً،
والحقيقة بنت البحث.
وخطأ الأب أنستاس هذه العبارة من الأستقُصات الأربع جارياً على أن (الاستقصى) مذكر فيجب تأنيث العدد بالتاء خضوعاً للقاعدة المشهورة (تذكير العدد مع المؤنث وتأنيثه مع المذكر). وهنا أكتفي بإيراد نص عبارة توارد عليها (الصبان والخضري) في باب العدد وهي:
(محل وجوب هذه القاعدة إذا ذكر المعدود بعد أسم العدد، فلو قُدمّ وجعل اسم العدد صفة له جاز إجراؤها وتركها كما لو حذف. تقول مسائل تسع ورجال تسعة وبالعكس ثم يقول الشيخان فاحفظها فإنها عزيزة النقل ،(كما نقله النَّووي عن النحاه
وبعد فإني من المقربين للأب أنستاس بسعة العلم وغزارة الفضل.
(المنصورة)
محمود البشبيشي

عدنا. . . والتقينا
للأستاذ الكبير عباس محمود العقاد

التقينا!
والتقينا
عجباً كيف صحونا ذات يوم فالتقينا
بعد ما فرّق قطران وجيشان يدينا!
فتصافحنا بجسمينا وعدنا فالتقينا
بعد عصر
أيّ عصر
والنوى تجري وسر الحب في الأكوان يجري
ثم نادانا تعالوا فاهبطوها أرض مصر
قُضى الأمر كما شاء، فعدنا والتقينا
كم بكيتِ؟
واشتكيتِ
ثم أُلهمتِ على الغيب فأصغينا وقلت:
قلت في السابع والعاشر من شهر سيأتي
هاهنا سوف تراني، فرأينا والتقينا!
يوم ذكرى
هو أحرى
بالتقاء كلما دار به الحول وأسرى
في سماء تعبر الشعرى وتدني كل شعرَي
كيف يلقانا وحيدين غدٌ فيه التقينا
قبل عامٍ
ثم عامٍ
كان يومٌ، أيّ يوم، في صفاء وابتسام
يوم لاقى الحبُّ لحظينا على عهد الدوام
فتعاهدنا وقلنا: كلما عاد التقينا

. . .وتدانى
وكلانا
زائغ الطرف يناجي الأفق قلباً ولساناً
!ثم ماذا؟ ثم كنْ يا بُعْدُ لي قرباً، فكانا
واستعان الحب بالداء حليفاً، فالتقينا
كم غرام
وسقام
عرفا الحلف على غير سلام ووئام
فإذا ما اجتمعا فانتزعاني من مقامي
فبحسبي منهما أناَ شكونا فالتقينا
يا فتاتي
يا حياتي
لا تُراعى بعد هذا من فراق أو فوات
قَدَر الله كفيلٌ لك في ماض وآت
!. . .كلما فرّق شملنا دعانا فالتقينا
عباس محمود العقاد
البريد الأدبي
الأب أنستاس ماري في عيد ميلاده
احتفل الشيخ الجليل الأب أنستاس ماري الكرملي في 5 آب بعيد ميلاده السادس والسبعين، منزوياً في صومعته الهادئة، منصوفاً إلى العمل الذي وقف عليه حياته إن سيرة الأب الكرملي مثال حي للفكرة التي تتسلط على ذهن الإنسان فتعلق بشغاف قلبه، وتغدو جزءاً من أجزاء نفسه؛ وأية فكرة هذه التي ملكت لب الأب وهيمنت على جوارحه منذ حداثة عهده؟
هي اللغة العربية، وأكبِرْ بها فكرةً ينزع إليها العقل، وتروَى عنها النفس، تراءت له وهو فتى لم يكد يبلغ أشده، فبهره منها الحسن والسناء، وقطع لها راضياً عهد المودة والوفاء. وهاهو ذا بعد ستين سنة أو تزيد لا يزال وفيّاً بالعهد، متحمساً للغة الضاد حماسة الشباب الفوَّار، مخلصاً لها إخلاص الشيخوخة المحنكة الحكيمة
كانت اللغة العربية مذ وجدت - ولن تزال - وسيلة للخطاب والتفاهم، تحمل الأفكار من ذهن إلى ذهن، وتنقل الأخبار من جيل إلى جيل، حتى قرَّبت بين الناس، ووصلت بين الأزمنة الغابرة والحاضرة. وإذ أصبحت بعد تهذيب أطرافها وتنميق أسبابها أداة الآداب الرفيعة، لم تخرج عن كونها وسيلة لا غناءَ فيها إلا بما اتخذت له من غاية الإفصاح والتبيان. لكن لكلماتها وتراكيبها - مع ذلك - جِرْساً في الأذن، ورسماً على القرطاس حببها أحياناً إلى النفوس، وقربها من الأذهان بصرف النظر عن مدلولها ومؤداها
ولقد أشار إلى ذلك أناتول فرانس في كتابه: (الحياة الأدبية) عند الكلام على معجم جديد ظهر في اللغة الفرنسية، فقال إن بودلير كان يقرأ معجمات اللغة، ويبتهج بقراءتها، وأن تئوفيل غوتييه كان مولعاً بالكلمات يحبها حباً جماً، وأن جوزه ماريادي هريديا كان يجهر بان مطالعة المعجم تستشيره وتدخل على نفسه من اللذة والسرور ما لا تدخله قراءة رواية (الفرسان الثلاثة). وأضاف أناتول فرانس قائلاً بأسلوبه الساحر: (أما أنا فلا أجد عادة للكلمات معنى يفوق المعنى الذي تجعله لها المصطلحات، فقد كنت في أغلب الأوقات أهيم في معاجم كبيرة، كأنها الرياض الملتفة. وسبب ذلك أني أرى أن الألفاظ إنما هي صور، وما المعجم اللغوي سوى عالم قد رتب بحسب ترتيب حروف الهجاء. وإذا نظرنا إلى الأمور نظرة صادقة فإننا نجد أن معجم اللغة إنما هو الكتاب الذي لا يفوقه كتاب، فإنه يشتمل على التصانيف بأجمعها، فما عليك إلا أن تستدرجها منه. . . وإني لأشعر في قلبي بحنوّ عظيم إزاء كل كلمات اللغة. إني اشعر برأفة كبيرة أمام طائفة التعابير البسيطة والفخمة. إني أحبها كلها، فهي تستميلني وتستفزني، وإني لأمس الكتاب الذي يضمها مساً شديداً ينم على مبلغ تأثري وارتياحي)
غير أن هذه الوسيلة التي يستعملها الناس في خطابهم، ويستعين بها الأدباء في أداء

رسالتهم، قد أصبحت غاية في حد ذاتها للعلماء الذين انقطعوا إلى دراستها، ووقفوا حياتهم على استجلاء غوامضها.

فلا عجب أن نهج لغوينا العربي نهج من سبقه من علماء اللغة الأعلام، من أبي منصور الأزهري صاحب التهذيب، وأبي نصر الجوهري صاحب الصحاح، ومجد الدين الفيروزابادي صاحب القاموس، إلى البستاني، والشدياق، والشرتوني، وسواهم من المحدثين، وأن ترسم خطى من سلف من أئمة التدقيق والتحقيق من أمثال جونسن ووبستر، وأميل لِتْره، فاتخذ من اللغة غاية ما بعدها غاية، يكب على نقد مفرداتها نقد الصيرفي

وما أشبه لغوينا من بعض الوجوه بزميله الإنجليزي ضموئيل جونسن الذي سبقه بنيف وخمسين ومائة سنة! فغيرة الأب على اللغة العربية تشبه غيرة جونسن على لغته الإنجليزية، وأسلوب الأب المتين اللاذع يعدل أسلوب جونسن (وأن يكن هذا الإنجليزي الصميم لم يرض قط أن ينزل إلى ميدان المساجلات والمناظرات بالرغم عن الحملات التي كثيراً ما حملت عليه.) ومجلس الأب شبيه بالمنتدى الأدبي الذي أنشأه الدكتور جونسن وصحبه وحضره مؤرخه بُوزْول، فسجل مباحثاته ومداولاته.

ومقام لغوينا العراقي بين أقطاب العربية معروف مرموق، وجهاده في سبيل الفصحى مرئي مسموع، ورأيه في التمسك بأهدابها مقبول متبوع. ولنا عليه أن يكلل مساعيه الموفقة في خدمة اللغة الشريفة بإخراج معجمه الكبير الذي وسمه (بالمساعد)، فيتفرغ لإنجازه وتنقيحه وتبيضه، فهو عصارة سعيه وخلاصة جهده.

(بغداد)

مير بصري

(سعد زغلول من أقضيته)

لم يكن الأستاذ عبده حسن الزيات ينتظر أن أكتب كلمة عن كتابه الجديد (سعد زغلول من أقضيته)، لأنه يعرف أني فرطت في التنويه بمؤلفاته وأبحاثه التي ظهرت من قبل، وإن كان يعرف مع ذلك أن ثقتي بفضله وكفايته لا تحتاج إلى دليل

الكتاب يُعرَف من عنوانه، كما يقال، وعنوان هذا الكتاب غاية في الدقة والتحديد؛ ومن غريب ما وقع لهذا العنوان أن الخطاط الذي كتبه - وهو حسني - قد استطاع أن يبرزه في أبهى حلة من حلل الجمال، مع أنه يقع في أربع كلمات يصعب الربط بينهما برباط الانسجام والاتساق؛ وما اذكر أني رأيت الكتاب معروضاً في أية مكتبة، إلا وقفت أمتع ذوقي بخط العنوان. فإلى (حسني) الخطاط تحية خالصة لا يشوبها غير الحرص على إعزاز الفن الجميل

ثم أتحدث عن الكتاب بإيجاز، فأذكر أنه من أقوى الشواهد على حصافة المؤلف، وعلى مبلغ فهمه للدراسات الجدية، وعلى أنه جدير بثقة الذين كرَّموه عند ظهور هذا الكتاب النفيس

وأذكر أيضاً أنني ما تحدثت عن الأستاذ عبده حسن الزيات إلا وصفته بصدق الوطنية، فهو عندي من الشبان النوادر الذين يفهمون الوطنية على وجهها السليم، وقد جاء كتابه تأييداً لهذا الوصف: فهو خدمة صادقة لمصر، ممثلة في إبراز جوانب من الفقه والعدل عند أفراد من رجال القضاء، على رأسهم (سعد)، وهذه الخدمة تؤكد ما أشرنا إليه غير مرة من أن رجال القانون في مصر جعلوا لمصر المقام الأول بين الأمم الإسلامية في شرح القوانين باللغة العربية؛ ولو أن الأقدار كانت بخلت بأن يظفر (سعد زغلول) بذلك المجد الضخم، المجد الوطني والسياسي، ثم جاء كتاب الزيات يحدد نفسيته وعقليته من أقضيته، لكان كافياً في جعل (سعد) من أعاظم الرجال

هذا الكتاب جيد جداً، فليس من الإسراف أن نرجو عميد كلية الحقوق أن يؤلف لجنة تنظر فيه، تمهيداً لمنح المؤلف درجة جامعية، وإغراءً لأمثاله من الشبان بالتعمق والاستقصاء

وإذا كانت (ذكرى سعد) هي التي حدت المؤلف في بعض السنين الماضية على التفكير في موضوع كتابه الجليل، فأنا أرجو أن تكون كلمتي عن كتابه فنّاً من الاحتفال بذكرى (سعد)، سعد القاضي على أعدل ما تكون فكرة القضاء

فإن لم يكن بدٌّ من النص على السرّ في التوفيق الذي يحالف الأستاذ عبده حسن

الزيات، فأنا أرجح أنه يرجع إلى البر بالوالدين، كتب الله له دوام التوفيق. . . والسلام
زكي مبارك

تصحيح

نشرت (الرسالة) في العدد (475) كلمة للأستاذ الفاضل حسين الظريفي عن بيت حافظ:

كم ذا يكابد عاشق ويلاقي ... في حب مصر كثيرة العشاق

جاء فيها (على أن في البيت غلطة نحوية باستعمال لفظة (كثيرة) فهي إن نصبت على الحالية لم يستقم المعنى، لأن كثرة عشاق مصر لا يكون حالاً من المكابدة، وإن جرت على الصفة احتاجت إلى التحلية بأل المعرفة، وبذلك ينكسر الوزن، وعليه يكون من الضرورة استبدال لفظة (الجملة) بلفظة (كثيرة) ليستقيم الوزن والمعنى معاً) ا. هـ

أقول: وهذه غفلة عجيبة فإن (كثيرة) تصلح أن تكون حالاً وأن تكون صفة، فإذا كانت حالاً فهي حال من مصر، والعامل فيها ليس يكابد كما توهم الكاتب؛ بل هو لفظ (حب) المضاف؛ والمعنى يكابد العشاق في حب مصر حال كونها كثيرة العشاق أي حبهم لها في هذه الحال

وعلى أنها صفة تجري على الرأي القائل إن إضافة الصفة المشبهة محضة أي إضافة معرفة، وعلى ذلك فكثيرة معرفة

علي محمد حسن

في الشعر التمثيلي

كتب الأستاذ البشبيشي في العدد 473 من الرسالة يقول: (فقد رأيت أن الشاعر البدوي الجليل عبد المطلب كان قد عالج لرواية الشعرية علاجاً استكمل شرائط الفن واستوفى أوصاف الحيوية التي طالعتنا من فنون أمير الشعراء. . . فقد ألف عبد المطلب عدة روايات شعرية تمثيلية. . . وبذلك ينفرد وحده بفضل السبق في هذه الناحية الخطيرة من الفن الأدبي، فقد افترع هذا اللون من الشعر الروائي افتراعاً) وكل ذلك لم يكن؛ فعبد المطلب وإن عالج الشعر التمثيلي ومشى فيه خطوات لا تحمد ولا تذم، لم يكن السابق ولا المفترع، وإن كان له فضل الاستجابة السريعة لتلك الموجة الجديدة بين شطآن أدبنا العربي الحديث؛ وإنما السابق إلى ذلك؛ الشاعر خليل اليازجي كما يحدثنا أستاذنا المرحوم محمود مصطفى في الجزء الثالث من أدبه العربي حيث يقول ص 413 (وعلى ذكر روايات شوقي التمثيلية نذكر أن أول من حاول جعل الرواية العربية كلها شعراً هو المرحوم الشيخ خليل اليازجي في رواية (المروءة والوفاء) وقد مثلت في الشام، ويذكر المرحوم جورجي زيدان أنه شاهدها في بيروت 1878م) ولا شك أن حادثة كهذه بلقاء في الأدب قد وصلت إلى سمع الشيخ عبد المطلب، وعلى فرض أنها لم تصل إلى سمعه فقد ملأ الشعر التمثيلي في القرن التاسع عشر أرجاء أوربا، هذه واحدة؛ أما الثانية فعبد المطلب على فضله لم يستكمل شرائط الحيوية التي طالعتنا من فنون أمير الشعراء. فهذا القول أقرب إلى الغلو منه إلى شيء آخر؛ فشعر عبد المطلب في هذا الباب لا يصح أن يذكر بجانب شوقي وفحولته. فهما وإن اشتركا في الجنس فقد اختلفا في النوع أيما اختلاف، وإنك لن تستطيع أن تتم قراءة تمثيلية لعبد المطلب إلا بعد حمل على النفس وإعنات لها وإجهاد. حاشا شوقي فإنه يطير بك فلا تشعر أن لعقلك أو لقلبك منازعة معه، وإنما هي الفحولة الشعرية تفرض عليك أن تطير معها حيثما تطير

عبد الرحمن عيسى
خريج كلية اللغة العربية

من نوادر الخواطر

كتب (قاف) في العدد 188 من الثقافة تحت عنوان (شخصية العامل وعمله) ما يلي:

تعودنا منذ قريب أن نقول كلما عرضنا للحديث عن شخص من رجالنا العامين، وحاولنا الموازنة بين عمله وبعض شئونه الخاصة - تعودنا أن نقول معتذرين من بعض سلوكه (هذه مسائل شخصية)

وهو يضرب لذلك الأمثلة ثم يقول: (مستحيل أن يكون الرجل رجلين: رجلاً في الشارع

والبيت، ورجلاً في الديوان. إن الرجل الذي هنا هو الرجل الذي هناك وإن اختلف الزي والشارة.

فهل يعلم (قاف) أن هذه الفكرة ذاتها قد وردت في مقال الأستاذ عبد المنعم خلاف تحت عنوان (مقتول يبكي على قاتله) في العدد 371 من (الرسالة) الصادر في 12 أغسطس سنة 1940 حيث قال الأستاذ:

إن هذا التفريق بين السلوك السياسي والسلوك الروحي قد صار أمره عجباً من أعاجيب الحياة الأوربية! وقد بات خطراً على الحياة الإنسانية الشخصية، لأنه تسرب إلى موازين الحكم على الأفراد، فهم يحترمون الذكي ويقدرونه ولو كان شيطاناً شريراً مفسداً ويقولون هناك حياة خاصة يحل للإنسان فيها ما يحرم عليه في الحياة العامة حتى تعددت الشخصيات. ثم يقول بعد ذلك: هذا كذب وتدليس على الطبيعة كما أرادهما الله فاحذروه. (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه) لي آخر المقالة

فهل يرى (قاف) أن هذا من توافق الخاطر؟

أحمد بدران

العدد 478 - بتاريخ: 31 - 08 - 1942

الحديث ذو شجون

عواطف عربية

للدكتور زكي مبارك

في خطاب من حضرة الأستاذ سعيد العيسى إشارة صريحة إلى أننا لا نهتم بالحديث عن الحياة الأدبية في (فلسطين)، وفي خطاب من حضرة الأستاذ رشاد المغربي عبارة تقول: إن مجلة (الرسالة) لم تنوه بروايته الجميلة (خطيئة الشيخ)؛ وفي مقال حضرة الأستاذ عباس العقاد أن جماعة من اللوبيين يأخذون على مصر سكوتها عن الأدب في وطنهم المحبوب.

وهذا العتاب ليس بجديد، وهو يعاد من يوم إلى يوم، وما دخل أديبٌ مصريٌ بلداً عربياً إلا سمع ألواناً من هذا العتاب، فهل أستطيع الجهر بكلمة الحق مرة واحدة، ليعرف الإخوان هنالك أن عليهم تبعات فيما يُنسب إلينا من تقصير وإهمال؟

ولشرح هذه الكلمة أقول:

أعلنت مجلة (الرسالة) أنها ستصدر أعداداً خاصة بالبلاد الأدبي لتلك الأعداد من أقلام كبار الباحثين بتلك البلاد، وأنها ستبدأ بالعراق.

فما الذي يُنتَظر لتحقيق هذا المشروع النافع؟

أتستطيع (الرسالة) إيفاد مندوبين إلى كل بلد لتحقق هذا الغرض على أكمل الوجوه؟ الجواب عند (خزينة الرسالة) إن كانت تستطيع، ولعلها تستطيع لأنوب عنها في زيارة بغداد أو دمشق أو بيروت بضعة أسابيع!

فلم يبق إلا أن نقترح خطة سديدة لتنفيذ الاقتراح بلا عناء.

والخطة سهلة جداً، فماذا نصنع إذا أردنا إصدار عدد خاص بالسودان؟

يقوم (نادي الخرّيجين) بواجبه: فيجمع الموادُ بعناية رجاله، ثم يرسلها إلى مجلة (الرسالة) قبل انعقاد مؤتمرهم السنوي بأكثر من أسبوعين؛ وعندئذ يسر مجلة (الرسالة) أن تشترك اشتراكاً فعلياً في ذلك المهرجان.

وماذا نصنع إذا أردنا إصدار عدد خاص بالعراق؟

يقوم (نادي القلم العراقي) بواجبه: فيجمع الموادُ بعناية رجاله، ثم يرسلها إلى مجلة (الرسالة) في الوقت الذي يريد، فيكون هو المسئول أمام قراء (الرسالة) في (العراق)، وهو بحمل هذه المسئولية خليق.

وفي العدد الخاص بسورية، يقوم رجال (المجمع العلمي) بواجبهم: فيصورون ما في وطنهم من أفكار وآراء وآمال. . .

وفي العدد الخاص بلبنان يُلقَى العبء على كاهل إحدى الجمعيات الأدبية هناك. . . وكذلك يقال في سائر البلاد!

تلك هي الخطة السديدة، ومن توهم أن مجلة (الرسالة) تصدر أعداداً خاصة بلا اطمئنان إلى هيئات تحمل المسئولية، فهو يهيم في بيداء الخيال. . .

وللأستاذ سعيد العيسى أن يتأمل في هذه لكلمة إن كان يجب أن نؤدي خدمة صحيحة لوطنه العزيز فلسطين.

العدد الخاص بالسودان

أنا أرجو من أخي الأستاذ الزيات أن يتفضل فيترك لي حرية التصرف في إعداد العدد الخاص بالسودان، لأستطيع القول بأني صدقت فيما وعدت به إخواني هناك، فإن سمح فأنا أرجو نادي الخريجين أن يشير على أعضائه بدرس الموضوعات الآتية:

1 - تحديد التاريخ الذي أشرق فيه الإسلام بآفاق السودان.
2 - المذاهب الفقهية والصوفية بالسودان.
3 - التيارات الفكرية الحديثة في الحواضر السودانية.
4 - اللهجات العربية في السودان.
5 - قيمة السودان من الوجهة الإقتصادية.
6 - الأساطير السودانية.
7 - منزلة السودان في تاريخ الأدب العربي.
8 - المعاهد المصرية في السودان.
9 - شعراء السودان وكتّابه وخطباؤه في القديم والحديث.
10 - مبلغ انتفاع الطلبة السودانيين بالحياة في المدارس المصرية.
11 - المكتبات العمومية والخصوصية في السودان.
12 - الأغاني الشعبية ودلالتها على العواطف السودانية.
13 - تأثير الأدب المصري الحديث في الجيل الجديد بالسودان.
14 - آراء السودانيين في الروابط العربية والإسلامية.
15 - الفكاهة السودانية في الأشعار والأقاصيص.

تلك خمسة عشر موضوعاً تستحق اهتمام نادي الخريجين، وأنا لا أفرض وإنما أقترح، فقد تكون لديهم موضوعات أعظم من هذه الموضوعات، والمهم هو المبادرة إلى تحقيق الاقتراح بإرسال المواد قبل انتهاء الأسبوع الثاني من شهر رمضان.

إن وصلنا إلى إصدار عدد عن السودان بهذا الروح فلن يقول السودان إن مصر تنساه أو تتناساه، ولن يقول أبناؤه عادلين أو ظالمين إن أشقاءهم في مصر لا يحفظون عهد الإخاء.

وإلى الفتيان من أعضاء نادي الخريجين أعهد تحقيق هذا الأمل الجميل.

أراني الله وجوههم بخير وعافية، إنه قريبٌ مجيب.

مطلع قصيدة

كان نقاد الأدب من العرب ينصون على مطالع القصائد، كأن ينوهوا بهذا المطلع:

إنا محيُّوك فاسْلَمْ أيها الطللُ

فهل في مطالع القصائد لهذا العهد ملامح تذكِّر بتلك المعاني الصِّحاح؟

نعم، ثم نعم، فقد نظم الدكتور رشيد كرم قصيدة ليلقيها في المؤتمر الطبي العربي الذي سيُعقَد في بيروت، وكان سيُعقد في هذه الأيام، لو سمحت هذه الأيام!

ابتدأ قصيدته فقال:

متى كانت لنا (سينا) حدودا

وأنا أسأل السؤال نفسه فأقول:

متى كانت لنا (سينا) حدودا

ومتى ترفع الحواجز الجمركية بين الأمم العربية والإسلامية؟

إلى بعض الناس

إن شقاءكم بأنفسكم طال وطال ثم طال، ولن نملك إبراءكم من ذلك الشقاء، لأنه أخطر من أن يطب له أطباء النفوس والقلوب.

لن تنفعكم الدسائس في كثير ولا قليل، فقد كانت الدسائس ولن تزال أسلحة الضعفاء.

استعينوا بالقوة مرةً واحدة، وحاربوا الحق بسلاح الظلم، لا بسلاح الإسفاف، فقد يعفو الله عن الظالمين الأقوياء، ولا يعفو عن الآثمين الضعفاء.

لن أفرِّط في تعليمكم أصول الأخلاق، فكونوا ظلامين، ولا تكونوا دساسين، لأن الظلم قوة، والدسيسة ضعف، وباطل الأقوياء أشرف من حق الضعفاء.

وطني وبلادي

إلى الفتيّين العظيمَيْن (م. ن. ج) و (ع. ع)

وما اكتفيت بالتلميح إلا لأنني لم أستأذنهما في النص على أسمهما بالتصريح - إلى - هذين الفتيّين العظيمَيْن أوجه القول:
إن بلادنا لن تُضام أبداً، ولن تكون لغير أهليها، ولو تألبت عليها جيوش البر والبحر والهواء.
بلادنا باقية باقية، في عزة وعافية، ولن تنال منها المطامع الدولية إلا بقدر ما ينال النسيم المعلول من قمم الجبال.
بلادنا طوّقت جميع البلاد بأغلال الديون العقلية والروحية، ولن يتنفس بلدٌ في شرق أو في غرب إلا وهو مدينٌ لمصر بديون ثقال.
لا تنسوا أن بلادكم دانت الفكر والعقل والروح ألوفاً من السنين؛ ولا تنسوا أن أكبر مجد يظفر به الأوربيُّ المثقَّف هو أن يحل رمزاً من رموز آبائكم الأولين.
كان الخط المصري القديم إشارات من ملامح الطير والحيوان، فما تفسير ذلك؟
يقول الجاهلون إنه دليل على الطفولة التاريخية.
وأقول أنه دليل على العبقرية المصرية، لأنه يجعل كل حرف كائناً حياً من طير أو حيوان، والحروف خلائق حية عند من يعقلون.
ثم ماذا؟
ثم أذكر أن بلادنا هي التي صدّت المغول الوافدين من الشرق، وهي التي صدت الصليبيين الوافدين من الغرب، فكنّا الميزان لأبناء ذلك الزمان.
ومن نحن اليوم؟
برغم قسوة الظروف قد استطعنا أن نقول نحن، وأن نفي بالعهد؛ لأن مصر لا تكذب ولا تخون.
لن تضام مصر أبداً، لأنها وطن الرجال، ولأنها أول وطن غلب الدهر الخوَّان.
أحبك يا وطني، أحبك يا بلادي، حُبّاً لا ينتظر أي جزاء، لأنه أعظم من أي جزاء!
زكي مبارك
أطوار الوحدة العربية
الصراع بين العرب والترك
للأستاذ نسيب سعيد
حدثنا في مقالنا الأول عن مراحل الوحدة العربية، وكيف تطورت فكرة العروبة في التاريخ، فبعد أن كانت حلماً ذهبياً جميلاً في مخيلة محمد علي الكبير عزيز مصر خرجت إلى الوجود وأصبحت حقيقة واقعة؛ فالمرحلة الأولى إذن انقضت والوحدة العربية لا تزال حلماً من الأحلام، أما المرحلة الثانية فقد طبعها الجهاد في سبيل تحقيق هذا الحلم بطابعه الخاص. وقد استهل هذا الجهاد العربي المبين بالنضال بين أبناء العروبة الأبرار وبين الأتراك وانتهت هذه المرحلة من سلسلة تاريخ القضية العربية عام 1918 وتشمل حوادث الفترة الممتدة من إعلان الدستور العثماني سنة 1908 حتى دخول الجيش العربي إلى دمشق في أول أكتوبر سنة 1918، وإنشاء الحكومة الفيصلية في ربوع الشام.
ولئن ذهب بعض المؤرخين المعاصرين من الشرقيين والغربيين إلى اعتبار ما حدث في العهد الحميدي التركي من حوادث فردية لا انسجام بينها ولا ارتباط كصدور كتاب أم القرى وطبائع الاستبداد، ونشر كتاب يقظة العرب في آسية التركية بالفرنسية في باريس عام 1905 من مقدمات الحركة العربية وطلائعها، أو إنشاء الجمعية السرية التي أنشئت في بيروت خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فالنهضة العربية المادية الحقيقية لم تبدأ إلا بعد إعلان الدستور سنة 1908 وقد قامت على دعامتين جديدتين: حرية الكلام، وحرية الاجتماع، فقد كفلها النظام الحكومي الجديد لسكان تلك المملكة، فانطلقت الألسنة والأقلام، وارتفع الضغط عن الأفكار، وانتشرت العلوم، فساعد هذا الانقلاب وهو خطير الشأن على إيقاظ العرب، فأدركوا أنهم كمية مهملة في العالم، وأن لهم حقوقاً يجب أن ينالوها، وكرامة يجب أن تصان، ومجداً يجب أن يعملوا لإحيائه وتجديده.
وصدرت صحف عربية عديدة في ظل النظام الدستوري الجديد في دمشق وبيروت والقدس وبغداد والبصرة وغيرهما من بلاد العرب، وفي الآستانة نفسها، وإلى هذه الصحف، وبصورة خاصة إلى الصحف العربية التي كانت تصدر في القطر المصري

الحبيب، يعود معظم الفضل في تكوين (الرأي العام العربي) وإنشائه، وبث الروح القومية بين طبقاته.

ولم يغتفر لها الترك ذنبها يوم نصبوا الميزان في عالية لمحاكمة أحرار العرب، فكان الصحافيون أكثر الطبقات ضحايا، فقد استشهد منهم في هذه المرحلة الكثيرون، وحكم في هذا الدور بالإعدام غيابياً على فريق من رجال الصحافة في مصر؛ ويأتي رجال الجمعيات والأحزاب السياسية بعد الصحافيين. ولئن كان ضحايا هؤلاء أقل من أولئك، فما ذلك إلا لعجز الترك عن اكتشاف أسرار الجمعيات السرية لما تذرع بها رجالها من تكتم شديد خلال التحقيق والمحاكمة. ومن تحصيل الحاصل القول بأن المنتدى الأدبي في الآستانة كان أكثر الجمعيات العربية ضحايا، لأنه كان أشهرها وأهمها، ولأنه كان مقر الدعاية العربية في الآستانة؛ فانتقم الترك من مؤسسيه انتقاماً مريعاً. ويأتي حزب اللامركزية بعد المنتدى الأدبي العربي، فقد فتك الترك بكل ما استطاعوا القبض عليه من رجاله، كما حكموا على المقيمين بمصر كافة بالإعدام. ثم يأتي بعد ذلك عنصر الضباط العرب في الجيش التركي، فكانوا يرسلونهم إلى خطوط النار في ميادين الحرب، وقد استشهد كثيرون منهم على هذا المنوال.

ولا بد لنا من القول بأن (القضية العربية) مرت في هذه المرحلة بثلاثة أدوار:

1 - يبدأ الدور الأول بإعلان الدستور سنة 1908، وينتهي بإعلان الحرب العظمى عام 1914، فقد نهج العرب في خلاله نهج الأمم المناهضة العاملة للحرية والاستقلال، فألفوا الجمعيات السرية، وأصدروا الصحف، ونظموا القصائد الحماسية القومية، وأنشئوا الأحزاب السياسية، وعملوا على التنظيم الداخلي، وانشئوا الروابط بين لجانهم وجمعياتهم وأنديتهم، واستعدوا للعمل الكبير الذي وضع نصب أعينهم القيام به، تحقيقاً لحلم عزيز مصر العظيم محمد علي باشا

ولا يسع الباحث في أعمال هذا الدور إلا الإعجاب بما يشهده من انتظام وتضامن وتعاون بين أبناء العرب في جميع الأقطار والأنحاء

2 - أما الدور الثاني، وهو دور الإرهاب والظلم، أو دور مطاردة رجال (القضية العربية) وأحرار العرب ومفكريهم، فيبدأ من أوائل عام 1915، أي من زمن وصول جمال باشا السفاح إلى دمشق وإصداره أمره بإلغاء كتيبة الضباط العرب الشباب من خريجي المدارس العليا؛ وكانوا يمرنونهم في دمشق ويعدونهم ليكونوا ضباطاً، على أثر ما سمعه من أناشيدهم

القومية؛ فأرسلوا إلى ميادين القتال في شتى الجهات، وهلك معظمهم. وينتهي هذا الدور بإعلان الثورة العربية الكبرى رسمياً يوم 10يونيو سنة 1916

على أن أقطاب الاتحاديين قرروا في شهر يناير عام 1914، أي قبل وصول جمال باشا إلى سورية بسنة تقريباً اتخاذ تدابير متعددة للقضاء على الحركة العربية، وتتريك العرب، إلا أن تأثير هذه التدابير ظل محدوداً، لأنها سلبية في طبيعتها لا تتعدى المقاومة الخفية. ولقد تحول الحال حينما أعلنت الحرب العظمى عام 1914، وبسطت الأحكام العسكرية، ونصبت المحاكم العرفية وأوقف البرلمان، ووضعت المراقبة، وعطلت الصحافة، وانطلقت أيدي الاتحاديين في البلاد العربية يفعلون ما يشاءون، لا رقيب ولا حسيب. ويلوح لنا أن اختيار جمال باشا لمنصب القائد العام في بلاد العرب - وهو المعروف بشدة الشكيمة، والميل إلى سفك الدماء - وتحويله إلى سلطة لا حد لها، ليس من قبيل الصدف، بل هو نتيجة خطة أحكم الترك تدبيرها، وأرادوا من ورائها الفتك برجال العرب ومفكريهم وشبابهم الذين أشربوا الروح القومية أملاً بأن يخرجوا منصورين من الحرب الكبرى، وكانت الدلائل تدل في سنيها الأولى على أن النصر سيكون في جانبهم، فينفذون سياسة التتريك، ويقضون على كل نغمة عنصرية، وينشئون إمبراطورية طورانية تحيي مجد جنكيز خان وتيمورلنك، وبقية عهد الذئب الأغبر

لا تلحق تبعة ما جرى في ذلك العهد الدموي جمالاً وحده، بل تشمل أقطاب الاتحاديين الذين كانوا مسيطرين على البلاد العثمانية وفي مقدمتهم أنور باشا وزير الحربية ووكيل القائد العام والدكتاتور الحقيقي؛ فقد كان مصدر كل سلطة في الدولة. وقد استمد نفوذه من سيطرته على الجيش، ولو أراد لوضع حداً لتلك الأعمال، ولكنه تغاضى عنها ومنح جمالاً كل ما طلبه من سلطة، ووضع تحت تصرفه كل ما أراد من

قوى. على أن سير الحوادث، وقد جرت على غير ما يشتهونه جعل أنور يعدل عن تلك السياسة فيضيق اختصاص صاحبه ويسلبه ما كان منحه إياه، يؤيد ذلك ما جرى حين النظر في قضية خان الباشا بالشام والحكم على أحرار العرب، فهو لم يجسر على إعداد الذين ألح بإصدار الحكم بإعدامهم بل أرسل الإعلام إلى ديوان التمييز العسكري لفحصه عملاً بالأوامر الجديدة، وقد سلبت منه اختصاصاته فعاد منقوضاً يقول إنه لا وجه لإقامة الدعوى على أحد لأن الجرم
الذي حوكموا لأجله لم يدخل في حيز التنفيذ
وينقسم العمل السياسي في خلال هذا الدور إلى ثلاث حلقات:
(ا) فالحلقة الأولى تبدأ من إعلان الحرب العظمى أي من شهر أغسطس عام 1914 حتى شهر أغسطس 1915 وقد انضم العرب في خلال هذه الفترة إلى الدولة قلباً وقالباً وأيدوها رغم ما كان بينهم وبين الاتحاديين، ورغم ظهور دلائل تدل على سوء نية هؤلاء وترقبهم دوائر السوء بالعرب لأنهم أدركوا أن الاحتلال التركي أهون من الاحتلال الأجنبي مهما كان الحال وأقل شراً، ولأنهم اعتقدوا أنهم لا يعدمون وسيلة للتفاهم مع أوليائها حينما تضع الحرب أوزارها، وتنقشع غمامتها. وأطمع هذا العطف الاتحاديين كما غرهم ما كانوا ينعمون به من قوة ومن سلطان عظيم لم ينالوا مثله في غابر أيامهم فقالوا إنها فرصة ثمينة لا يجود الدهر بمثلها، فأقدموا على تصفية حساب الحركة العربية، ونصبوا الميزان في عاليه كما نصبوه من قبل في أشقودرة يوم أرسلوا شوكت طورغود إلى ألبانيا في سنة 1911 للقضاء على الحركة الألبانية القومية فعجلت أعمالهم تلك في إخراجهم من ألبانيا وطردهم من البلقان، كما عجلت حركة عالية على إخراجهم من بلاد العرب وطردهم منها.

ولا يسع المؤرخ النزيه إلا التنويه بإخلاص العرب للدولة في هذه الفترة، وإذا اضطروا إلى الاتصال بأعدائها بعد ذلك وتعاونوا معهم على هدمها أو القضاء عليها، فالذنب ذنب الترك أنفسهم قبل أن يكون ذنب العرب والتبعة لاحقة بهم وحدهم، فلو جزوا العرب على إخلاصهم بإخلاص، وصافحوا اليد الممتدة إليهم، وتغاضوا عن كل حادث في الماضي وهو ما جرى العرف أن يحدث في الشدائد، وأي شدة أعظم من تلك الحرب، لما وقع ما وقع ولما كان ما كان

(ب) وتبدأ الحلقة الثانية بعد إعدام الرعيل الأول من شهداء العرب ومجاهديهم الأبطال، فقد كشر (جمال) السفاح عن أنيابه وتنكر للعرب، ولبس ثوب الأسد بعد ما نزع ثوبه الجميل، وأخذ ينادي بأنه لا بد من عقاب الخونة، والخونة في عرفه واصطلاحه هم أحرار العرب، والناهضون المجاهدون من رجالهم، مع أنه دعا هؤلاء في الخطبة التي خطبها في النادي الشرقي شهر يناير عام 1915 إلى إحياء شهامة العرب، وإعادة مجد العرب. ولا بد لنا من الاعتراف بأن العرب فوجئوا بأعمال جمال السفاح مفاجأة، فتشتت رجال الجمعيات في كل
ناحية من أنحاء السلطنة العثمانية بعضهم منفي، وبعضهم سجين، وبعضهم مقتول، وأرسل آخرون إلى ميدان الصراع العالمي وجند آخرون في الجيش، وفر غيرهم. أضف إلى هذا أن الصلة كانت مقطوعة بين الشام وبين العراق والحجاز من أقطار العرب فضلاً عن العالم الخارجي لصعوبة السفر والانتقال في تلك الأيام العصيبة السوداء، ولوجود مراقبة شديدة على المراسلات. والحقيقة أنه لم يبق خارج القفص في تلك الأيام سوى عدد ضئيل جداً كان يقيم في دمشق على حذر ووجل يترقب القبض عليه من ساعة إلى ساعة، ويودع أهله وأسرته عند خروجه من المنزل في الصباح لأنه قد لا يعود إليهم في الظهيرة، وكذلك يودعهم في الأصيل لأنه ما كان واثقاً من الرجوع إليهم في الغسق. فهذه الفئة القليلة كان بقاؤها في الفيحاء بفضل عوامل محلية خاصة؛ فبعضها أقام بضمانة الوالي خليص بك والي الشام كالمرحوم الدكتور شهبندر، وبعضها أقام في جلق لأن الوحدة العسكرية المنسوب إليها كانت تقيم فيها كالدكتور احمد قدري، ويسن الهاشمي وغيرهما، نقول أن هذه الفئة هي التي اتصلت بالأمير فيصل عند مروره من دمشق في غدوه إلى الآستانة ورواحه منها. وهي التي أطلعته على ما يقاسيه العرب من الترك، فنقل شكايتها إلى رجال الدولة، وعمل على تعديل هذه السياسة في دمشق فلم يوفق. وهي التي نفخت فيه روح الثورة، وكان معروفاً في إعلان الحرب العظمى بمصافاة الترك قائلاً بعدم الخروج عليهم مهما كانت

الظروف. وهي التي أقنعته بوجوب العمل لإنقاذ العرب من خطر محقق؛ فضم جهوده إلى جهود أخيه الأمير عبد الله، وكان متصلاً بالبريطانيين فتقررت الثورة ووضعت أسسها. ومما لا ريب فيه أنه كان للعامل المحلي والشخصي يد لا تنكر في إعدادها وتكوينها

(ج) وتبدأ الحلقة الثالثة بمؤتمر الطائف في خريف سنة 1915 وقد قرر إعلان الثورة العربية، وإعداد معداتها في الداخل، والاتصال برجال بريطانيا العظمى في الخارج. وقد سارت الأمور على أفضل ما يرام، فأقام الأمير علي في المدينة يستميل القبائل الضاربة في تلك البطاح، وأخذ عليها العهود والمواثيق، كما انصرف الأمير عبد الله من ناحية إلى جمع كلمة قبائل العرب في الطائف وإعدادها لليوم العصيب

أما الأمير فيصل، فكان يقيم في دمشق يفتل خيوط الرأي ليجد مخرجاً يخرجه من معتقله،

فقد استبقاه الترك رهينة يهددون بها والده، ويغلون يده عن كل عمل، ولولا تخلصه منهم بكل لباقة وإفلاته من قبضتهم الحديدية لتأخر إعلان الثورة ولسارت الأمور في غير هذا الاتجاه. وامتدت المكاتبات بين الحسين أمير الحجاز يومئذ والإنجليز سنتين وأشهراً، وانجلت عن تلك العهود التي بذلها السر هنري مكماهون للعرب باسم حكومة صاحب الجلالة البريطانية وبالإضافة إليها

(د) ويبدأ الدور الثالث بإعلان الثورة العربية الكبرى رسمياً، ونزول العرب إلى ميدان الصراع والنضال وينتهي بإرسال الحسين أمير الحجاز يومئذ بلاغه الشهير إلى الدول العظمى يوم 30 أغسطس عام 1918 مما سنفصله في حديثنا المقبل فقد ضاق النطاق اليوم، فإلى اللقاء. . .

(دمشق)

نسيب سعيد المحامي

مفاوضات الفتح العربي لمصر

للأستاذ السيد يعقوب بكر

(هذا البحث قسمناه قسمين: ففي القسم الأول حققنا هذه المفاوضات من الوجهة التاريخية ووصلنا إلى التسليم بصحة وقوع بعضها ونفي وقوع البعض الآخر. وفي القسم الثاني حاولنا أن نتلمس الروح المسيطرة على طرفي كل مفاوضة صح عندنا وقوعها)

القسم الأول

(ا) المفاوضة الأولى

1 - ذكرها أبو المحاسن في النجوم الزاهرة (ج1 ص13 - 24ط دار الكتب) نقلاً عن ابن كثير في تاريخه المسمى بالبداية والنهاية. قال: (لما استكمل المسلمون فتح الشام، بعث عمر بن الخطاب عمرو بن العاص إلى مصر. وزعم سيف: أنه بعثه بعد فتح بيت المقدس، وأردفه بالزبير بن العوام وفي صحبته بُسر بن أبي أرطاة وخارجة بن حذافة وعمير بن وهب الجمحي، فاجتمعوا على باب مصر، فلقيهم أبو مريم جاثليق مصر ومعه الأسقف أبو مريام في أهل النيات، بعثه المقوقس صاحب الإسكندرية لمنع بلادهم.

فلما تصافوا قال عمرو بن العاص: لا تعجلوا حتى نعذر إليكم. ليبرز إلى أبو مريم وأبو مريام راهبا هذه البلاد فبرزا إليه، فقال لهما عمرو: أنتما راهبا هذه البلاد فاسمعا: إن الله بعث محمداً بالحق وأمره به وأمرنا به محمد، وأدى إلينا كل الذي أمر به، ثم مضى وتركنا على الواضحة، وكان مما أمرنا به الأعذار إلى الناس، فنحن ندعوكم إلى الإسلام، فمن أجابنا فمثلنا، ومن لم يجبنا عرضنا عليه الجزية وبذلنا له المنعة. وقد أعلمنا أننا مفتتحوكم وأوصينا بكم حفظاً لرحمنا منكم، وإن لكم إن أجبتمونا بذلك ذمة إلى ذمة؛ ومما عهد إلينا أميرنا: (استوصوا بالقبطيين خيراً) فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصانا بالقبطيين

خيراً لأن لهم ذمة ورحما

فقالوا: قرابة بعيدة لا يصل مثلها إلا الأنبياء، معروفة شريفة كانت ابنة ملكنا وكانت من أهل منف والملك منهم، فأديل عليهم أهل عين شمس فقتلوهم وسلبوهم ملكهم

.وأغربوا، فلذلك صارت إلى إبراهيم عليه السلام. مرحباً به وأهلاً وأمناً حتى نرجع إليك
فقال عمرو: إن مثلي لا يخدع، ولكني أؤجلكما ثلاثاً، لتنظرا ولتناظرا قومكما، وإلا
(. . .ناجزتكم؛ قالا: زدنا، فزادهم يوماً؛ فقالا: زدنا، فزادهم يوماً؛ فرجعا إلى المقوقس
فواضح من هذا الكلام أن هذه المفاوضة وقعت عند باب مصر بين عمرو بن العاص
من جانب وأبي مريم جاثليق مصر والأسقف أبي مريام من الجانب الآخر
وذكرها ابن الأثير (ج2 ص440 - 441ط ليدن). قال: (فأخذ المسلمون باب اليون - 2
وساروا إلى مصر فلقيهم هناك أبو مريم جاثليق مصر ومعه الأسقف بعثه المقوقس
لمنع بلادهم. فلما نزل بهم عمرو قاتلوه فأرسل إليهم لا تعجلونا حتى نعذر إليكم،
وليبرز إلى أبو مريم وأبو مريام فكفوا وخرجا إليه فدعاهما إلى الإسلام أو الجزية
وأخبرهما بوصية النبي (ص) بأهل مصر بسبب هاجر أم إسماعيل عليه السلام؛ فقالوا:
قرابة بعيدة لا يصل مثلها إلا الأنبياء. آمنا حتى نرجع إليك. فقال عمرو مثلي لا يخدع؛
ولكني أؤجلكما ثلاثاً لتنظرا وأمر بمناهدتهم)
فواضح من هذا أن ابن الأثير متفق مع ابن كثير في مكان المفاوضة وطرفيها
وذكرها ابن خلدون (ج2 ص114 - 115 ط بولاق). قال: (ولما فتح عمر بيت - 3
المقدس استأذنه عمرو بن العاص في فتح مصر فأغزاه، ثم اتبعه الزبير ابن العوام،
فساروا سنة عشرين أو إحدى وعشرين أو أثنين أو خمس فاقتحموا باب اليون ثم
ساروا في قرى الريف إلى مصر. ولقيهم الجاثليق أبو مريم والأسقف قد بعثه
المقوقس. وجاء أبو مريم إلى عمرو فعرض الجزية والمنع وأخبره بما أوصى به رسول
الله صلى الله عليه وسلم في شأنهم وأجلهم ثلاثاً ورجعوا إلى المقوقس)
فواضح من هذا أن ابن خلدون متفق مع ابن كثير وابن الأثير
وذكرها الطبري (مجلد 5 ص2584 - 2589 ط ليدن). قال: (خرج عمرو بن - 4
العاص إلى مصر بعدما رجع عمر إلى المدينة حتى انتهى إلى باب اليون واتبعه الزبير
فاجتمعا فلقيهم هنالك أبو مريم جاثليق مصر ومعه الأسقف في أهل النيات بعثه
المقوقس لمنع بلادهم. فلما نزل بهم عمرو قاتلوه فأرسل إليهم: لا تعجلونا لنعذر
إليكم وترون رأيكم بعد؛ فكفوا أصحابهم وأرسل إليهم عمرو أتى بارز فليبرز إلى أبو
مريم وأبو مريام؛ فأجابوه إلى ذلك وآمن بعضهم بعضاً. فقال لهما عمرو: أنتما رهبا
هذه البلدة فاسمعا. . .) ويذكر بقية الحديث بما يوافق ما ذكره ابن كثير تماماً
فواضح من هذا أن الطبري متفق مع المؤرخين الثلاثة في طرفي المفاوضة، ولكنه
يختلف عنهما في مكان المفاوضة، فيقول أنها كانت عند باب اليون ويقولون أنها كانت
.عند مصر
نترك الآن المؤرخين العرب وننتقل إلى كتاب حنا النقيوسي المؤرخ القبطي المشهور
فلا نجد فيه ذكراً لهذه المفاوضة
ويقول الأستاذ بتلر في كتابه (فتح العرب لمصر) (ص190 من الترجمة العربية) بصدد
هذه المفاوضة: (والظاهر أن قصة بعث المقوقس باثنين من الأساقفة وهما أبو مريام
أو (أبو مرتام) وأبو مريم لمفاوضة العرب لم تكن سوى قصة بعث بها الوهم. فلم يكن
بين الأساقفة أحد بتلك الأسماء، ولعل تلك القصة لم تنشأ إلا من الخطأ العظيم الذي
وقع فيه مؤرخو العرب عندما قرءوا أخبار هذه الحوادث، وقد اختلط فيها حوادث
التاريخ بالخرافات اختلاطاً فاحشاً، ومسخها الناسخون عند نقلهم منها منذ لم يتحروا
فيها الدقة. ولكننا مع ذلك نستطيع أن نقول إنه قد جاءت جماعة عليها أحد الأساقفة
وإنهم فاوضوا عمراً في ذلك الوقت)
والأستاذ بتلر يقول هذا القول أثناء حديثه عن سير العرب الفاتحين إلى بلبيس، مما
يفهم أنه يرى أن هذه المفاوضة كانت في بلبيس لا في مصر كما يقول ابن كثير وابن
الأثير وابن خلدون. ثم هو يرى بعد ذلك أنها لم تكن بين عمرو من جانب وأبي مريم
ومعه أبو مريام من جانب آخر؛ بل كانت بين عمرو وجماعة عليها أحد الأساقفة
ونحن لا نملك رفض ما يقوله الأستاذ بتلر؛ فنحن لا نملك رفض قوله بحصول المفاوضة
في بلبيس، لأن اتفاق ابن كثير وابن الأثير وابن خلدون على أنها حصلت عند مصر
وتفرد الطبري بأنها حصلت عند حصن بابليون مما لا يمكن التعويل عليه لما عرفناه
ولمسناه من خلط مؤرخي العرب في كلامهم عن حوادث الفتح. أضف إلى ذلك أن
جعل

المفاوضة عند بلبيس أكثر ملاءمة لسير حوادث الفتح من جعلها عند مصر. والقارئ لحوادث الفتح يدرك هذا تمام الإدراك. ونحن بالطبع ليس لنا أن نطالب الأستاذ بتلر بالمصدر الذي اعتمد عليه في القول بأن المفاوضة حصلت في بلبيس، وذلك لأنه لم يعتمد في ذلك على مصدر ما وإنما قال به توفيقاً منه بين حوادث الفتح العربي التي تعرضت لشيء كثير من الخلط والتشويه في معظم المصادر العربية وغير العربية هذا من ناحية مكان المفاوضة، وأما من ناحية طرفيها فنحن لا نستطيع رفض قوله في ذلك أيضاً، لأننا لا نملك على ذلك الرفض قدرة علمية، ولا سيما أنه عاد في الملحق الثالث من ملاحق كتابه فأكد قوله وقواه. قال (ص450 - 452): ((2) أبو مريم. وصف الأستاذ (لين بول) هذا الشخص بأنه جاثليق مصر، وأنه انضم إلى جيش عمرو. ولفظ جاثليق لا معنى له إلا (بطريق)، وأول من ذكره من مراجعنا الطبري، فقد جعلته معلوماته الفارسية يذكر ذلك اللفظ على أنه اسم كبير أساقفة مذاهب النسطوريين والأرمن. ويكثر ذكره في كتب سيبيوس وسواه، ويعرفه المعرفة. والحقيقة أن الطبري نفسه يفسر ذلك اللفظ بأنه كبير أساقفة النصارى، ولكنه يقول بعد ذلك عبارة محيرة وهي أن اسمه كان (أبن مريم). ويمكننا أن نسلم بأنه قد كان في مصر رئيسان للأساقفة أو بطريقان في وقت الفتح وهما قيرس وبنيامين؛ ونزيد على ذلك أنه قد يجوز أن بطريقاً ثالثاً كان موجوداً عند ذلك وهو بطريق مجهول (للجايانيين)، ولكن ذلك غير مهم فيما نحن فيه. وابن مريم لا يمكن أن يكون هو (فيرس)؛ ولكنه قد يمكن أن يكون المقصود به (بنيامين). ونرجو أن نستطيع البرهان على أن ذلك هو المقصود؛ فإنه في مدة ابن الأثير كان الاسم قد حرف إلى (أبو ميامين)، في حين أن أبا المحاسن يذكر - وهذا طبعاً صحيح - أن الأسقف القبطي في الإسكندرية كان اسمه بنيامين. ويذكر السيوطي أن الأسقف القبطي هو (أبو ميامين) وليس على المرء إلا أن يقرن هذه الحقائق بعضها إلى بعض فيرى لأول نظرة أن من أسهل الأمور تحريف اسم (أبا بنيامين) إلى (أبو ميامين) ثم إلى (أبو مريم)، في حين أن (ابن مريم) يجوز أن يكون تحريفاً للاسم بنيامين؛ فإن كتاب العرب كانوا يعرفون أن اسم مريم اسم يجله النصارى إجلالاً عظيماً، فأخطئوا في لفظ (أبا) فظنوا أنه اللفظ العربي (أبو)، في حين أنه نزع من الجزء الأول من (بنيامين) وهو (بن) وخلط باللفظ العربي (ابن) ونشأ من ذلك الخلط أسماء عجيبة زادها تحريف النساخ خطأ فذهبوا إلى تسمية الأسقف باسم (أبو مريم) و (ابن مريم).

ونستطيع الآن أن نستبعد اسم (أبو مريم) ونحن واثقون من أن ذلك الاسم لم يكن، وكذلك أسماء (أبو مرتم) و (ابن مريم) و (وأبو ميامين)؛ وأن نجعل مكان هذه الصور الغريبة اسم (بنيامين) الذي كان كبير أساقفة القبط في الإسكندرية. غير أنه لا يكفي أن نستبعد هذه الخيالات فإنا إذا سلمنا أن الشخص التاريخي المقصود هو بنيامين فإنه من المحال أن نقبل ما قيل عنه من أنه اشترك مع عمرو أي اشتراك فيما ذكر عنه، فلم يحاربه ولم يفاوضه. وأما ما ذكره الطبري ومن اتبعه كابن الأثير عن بنيامين فإنه قول سخيف. فقد جعلوه قائداً حربياً تحت حكم المقوقس. وقد سعى الطبري إلى جعل حبره مقبولاً لا تناقض فيه فجعل المقوقس أميراً للقبط؛ ولكن كل الأدلة المستمدة من المؤرخين المصريين تدل على أن هذين الرأيين غير صحيحين (وكان الطبري غريباً عن مصر، ولكنه زارها).

فالمؤرخون المصريون مجمعون على أن بنيامين بقي مختفياً في الصعيد مدة عشر سنوات قبل الفتح العربي، وثلاث سنوات في مدة الفتح. ولو لم يكن لدينا غير ما كتبه ساويرس (حياة بنيامين) لكان ذلك كافياً للبت في هذا الأمر. غير أن كل المؤرخين من حنا النقيوسي إلى ما بعده متفقون في هذا الرأي. فكيف إذن نستطيع أن ندرك علة ما يعزوه مؤرخو العرب إلى بنيامين من الاشتراك في الأمور عند الفتح؟ والتعليل هو ما يلي: أنهم وجدوا في الأخبار القديمة أو الروايات السابقة أن زعيم المدافعين والرئيس الذي فاوض في شروط الصلح مع الفاتحين هو كبير أساقفة الإسكندرية، ووجدوا بعد الفتح وفي التاريخ القبطي أن كبير الأساقفة في الإسكندرية المعترف به هو بنيامين؛ وفوق ذلك لقد كان بنيامين هو الذي جاء إلى عمرو وصالحه في وقت الفتح الثاني للإسكندرية عند ثورة منويل؛ فاختلط هذا الخبر بالصلح الذي كان مع قيرس؛ وعلى ذلك اختلط الشخصان وعزي إلى بنيامين ما فعله قيرس عند الفتح)

فبقي علينا إذن أن نأخذ برأي الأستاذ بتلر في هذه المفاوضة
(للبحث تتمة)
السيد يعقوب بكر
نذر مقبول
للأستاذ الكبير عباس محمود العقاد
أرأيتِ حين نذرتِ؟ ... ودعا (النوى) فدعوت؟
من ذا الذي لبّاك؟ ... من ذا أجاب مُناك؟
قدّيسةٌ عطفت على المكنو ... ن من نجواك
ووعدتها فوفيتِ
قدّيسة سمعت لنا ... وسعت لتجمع بيننا
من ذا يعيب هواك؟ ... من ذا إذن يلحاك؟
والعذر عذر صبابتي ... والحق حق صباك
كذبوا إذن وصدقت!
بالشمع كم أغريتها ... أتراك أنت خدعتها؟!
كلا. وما أقواك ... في خدعة وشباك!
فالنور لب غذائها ... والنور صفو رضاك
شُغفتْ به وشُغفت
عباس محمود العقاد
مشاركة الأدب الإنجليزي
في الدراسات العربية
نقلاً (عن برنارد لويس)
للأستاذ عبد الوهاب الأمين
العصور الوسطى - 1
كان رأي الباحثين مجمعاً منذ مدة على أن أولى الاتصالات الثقافية المهمة بين الإسلام والفرنك كانت نتيجة الحروب الصليبية. وفي الحق أن الحروب الصليبية هي الفرصة الأولى التي اجتمع فيها الشرق العربي بالغرب المسيحي اجتماعاً قريباً، وجعلت من جراء ذلك مبادلات ثقافية؛ غير أن الدراسات التاريخية المتأخرة أبانت أن هذه المبادلات كانت محدودة من ناحيتي المجال والمفعول؛ وهو أمر يجب أن يكون منتظراً بسبب سيطرة الناحية العسكرية في ذلك الدور. ولقد وصل الفكر العربي عن طريق آخر إلى الغرب بصورة عامة، وإلى إنجلترا بصورة خاصة
لقد دخل العرب المنتصرون إلى أوربا بعد غزوهم شمال أفريقية، واستعمروا منطقتين في حوض البحر الأبيض المتوسط لمدة طويلة هما: أسبانيا وصقلية، وأنشئوا لهم مدينة بالغة التقدم ما لم يكن يوازيه أي تقدم آخر في الأراضي المسيحية في ذلك الحين. ذلك التقدم الذي لم يعجز عن التأثير على معاصريهم من المسيحيين، حتى أنه بعد أن استعاد المسيحيون تلك البلاد ظلت التعاليم العربية مزدهرة مدة طويلة. وكان الملوك المسيحيون يتكلمون العربية، ويؤازرون العلماء العرب، وبقيت الثقافة العربية العالية نافذة في بلاد الفرنك، وأصبح المسيحيون الذين يتكلمون في أسبانيا واسطة مهمة لبسط النفوذ، كما أن اليهود الذين ينطقون بالعربية في أسبانيا وصقلية - والذين كانت لهم لغة عامة هي العبرية - مع مشاركيهم في الدين من الفرنك، كانت لهم يد طولى في نشر الثقافة العربية في الغرب. وينبغي أن نشير في هذا المقام بصفة خاصة إلى الفيلسوف الأسباني اليهودي (إبراهام بن عزرا) من مدينة طليطلة الذي زار لندن في سنتي 1158 - 1159، واشتغل بالتعليم هناك مدة؛ كما أن الإنجليزي (توماس براون) ولي القضاء في صقلية، ويذكره العرب في كتاباتهم باسم (القائد برون)
وفي القرن الثاني عشر أخذ العلماء يفدون من الشمال، وعلى الأخص من إنجلترا، لزيارة الجامعات العربية في أسبانيا في سبيل تحصيل العلم، وكان أول كبير من هؤلاء هو الإنجليزي (أديلارد) من مدينة (باث) أحد رواد الثقافة العربية في الغرب وقد ساح (أديلارد) في الربع الأول من القرن الثاني عشر في أسبانيا وسورية ودرس اللغة والعلوم العربية، وترجم كثيراً من الكتب العربية إلى اللاتينية لفائدة معاصريه من

المسيحيين، واشتغل في عودته ترجماناً للملك هنري الثاني - ولم يصر بعد ملكاً - وكان قد أهدى إليه أحد كتبه أيضاً. ويتألف أهم كتبه وهو (القضايا الطبيعية) من حوار بينه وبين قريب له درس في الجامعات الفرنكية بينما درس (أديلارد) بين العرب. وعلى ذلك فأن الجدل الذي يقوم بين الاثنين يتطرق إلى المقابلة بين الدراستين، وقد قال في مقدمة كتابه هذا: (إني سأدافع عن قضية العرب، لا عن قضيتي) وشدد في نهاية كتابه على تفوق الطريقة العربية كما ساعد بنفوذه على نشرها في الغرب، فترجم عدداً من الكتب العربية في علم الهيئة والرياضيات وبذلك مد في نشر هذه العلوم في أوربا.

وقد اقتفى أثر (أديلارد) كثيرون من الإنجليز. فقد درس (روبرت) - وهو من أهالي جستر - في القرن الثاني عشر أيضاً، الرياضيات وترجم الكتب العربية. وهناك شخصية طريفة هي شخصية (دانيل مورلي) الذي يحدثنا عن نفسه أنه كان برماً بالجامعات الفرنكية فذهب إلى إسبانيا (في طلب أحكم الفلاسفة على وجه الأرض) على حد تعبيره، وقد عاد إلى إنجلترا بمجموعة كبيرة من الكتب التي لقيت جمهرة كبيرة من القراء. (وميخائيل سكوت) الذي درس - في القرن الثالث عشر - في صقلية وأتقى اللغتين العربية والعبرية، وترجم كتب أرسططاليس من اللغة العربية، وكان كثير منها قد تلقاه الغرب لأول مرة، كما أنه ترجم التعقيبات العربية على فلسفة أرسططاليس، وألف عدة كتب في علم التنجيم والكيمياء

ولقد كان عمل هؤلاء وغيرهم من الإنجليز المغامرين الذين زاروا بلاد العرب كبير الفائدة من الناحية الثقافية، فبفضل أعمالهم ذاعت آثار العرب الفلسفية والعلمية العظيمة في إنجلترا والغرب، وتقدمت الثقافة الأوربية خطوة كبيرة إلى الأمام. وكان التأثير الذي تركته كتبهم المترجمة والموضوعة عظيماً. وفي وسعنا أن نضع الفيلسوف الإنجليزي العظيم

في عداد الذين تأثروا تأثراً عميقاً بالثقافة العربية، وكذلك الشاعران (روجر باكون) (شوصر) و (ليد كيت). ومن المهم ذكره في هذا المجال أن أول كتاب طبع في إنجلترا وهو كتاب (آمالي وأقوال الفلاسفة) (سنة 1477) وقد وضع على أساس كتاب عربي هو كتاب: (مختار الحكم ومحاسن الكلم) الذي صنَّفه في سنة 1053 الأمير المصري (مبشر بن فاتك)، ولم يطبع النص العربي، ولكن هناك نسخة خطية منه لا تزال موجودة في هولاندة، وهو مجموعة أمثال وأقوال حكيمة، وكان كثير الشيوع مدة من الزمن في الشرق وقد ترجم إلى لغات أوربية

إن الدَّين الذي تدين به أوربا في العصور الوسطى لمعاصريها من العرب ومترجميهم لهو دَين مضاعف، ففي الدرجة الأولى كان العرب هم الذين نشروا القسم الأكبر من ميراث الفكر والعلم الإغريقي الذي كان الغرب قد أضاعه، واحتفظ به العرب وأذاعوه؛ وفي الدرجة الثانية أن أوربا قد تعلمت من العرب طريقة جديدة في الدراسة، تلك الطريقة التي وضعت العقل فوق السلطة، ودافعت عن البحث العلمي الحر، وقد كان هذان الدرسان هما اللذين لعبا أكبر دور في إعطاء نهاية للعصور الوسطى، وبعث النهضة (الرينسانس) وولادة أوربا الجديدة، كما أن العلماء الإنجليز ساهموا بدور كبير في نقل هذه الدروس. وإن من مآسي التاريخ الآن أن العرب ينسون في هذا الوقت الأشياء التي علموها هم لأوربا، وأن يقوموا بدراستها مرة أخرى بعد مضي عدة عصور ونود أن نختم هذا الفصل بالرجوع إلى أقوال (إديلارد) نفسه في حديثه مع قريبه عن الطريقة التي تعلمها في أسبانيا؛ ورأيه هذا قد سجل منذ ثمانمائة سنة:

إنني، والعقل دليلي، قد تعلمت أمراً واحداً من أساتذتي العرب. أما أنت فعلى خلاف ذلك قد تلجمت بلجام من المظهر الخارجي للسلطة - وبماذا نصف السلطة إلا بأنها لجام؟ - على شاكلة الحيوانات المتوحشة، فإنها تساق إلى حيث يشاء المرء بدون أن نرى لماذا وإلى أين تساق، بل تتبع المِقْود الذي توقف به، وكذلك الكثير منكم قد رُبطوا بقيود وسلاسل من التسليم المنحط، وسيقوا إلى الخطر بسطوة الكتاب. . . لقد منح العقل للأفراد لكي يكون هو الحكم الرئيس للتفريق بين الحق والباطل. . . فيجب أن نسعى بداءة ذي بدء إلى البحث عن العقل، فمتى وجد قبلت حينئذ السلطة إذا أريد إضافتها إليه، فإن السلطة

في حد ذاتها لا يمكن أن توحي بالثقة إلى الحكيم، ولا ينبغي لها أن تستعمل لهذه الغاية)
والذين يعرفون كتابات العرب سيؤيدون رأي (إديلارد) هذا على الفور، أما الذين يعرفون علم الغرب فسيدركون مغزاه حالاً

عبد الوهاب الأمين

أرواح وأشباح

للأستاذ خليل هنداوي

لقد صدق حدسي! وهاهي تمر كرجع الطرف تزورنا فيها مواكب جديدة لهذا الشاعر المبدع من (أرواحه وأشباحه) والحق أن هذه القصيدة الجديدة تعد بذاتها فاتحة (للشعر العربي الحديث) الذي آن له أن يخلع تلك الثياب الرثة التي بالغنا في ترقيعها وتزويقها، حتى نصلت صبغتها، وبليت جدتها! ومما يزيد في قيمة هذه القصيدة أنها أول قصيدة تلدها مصر من الشعر الصحيح، ولا نستطيع القول أنها مبتكرة بأسلوبها وغرضها، لأن بعض السوريين سبقوا إلى هذا النوع من القصائد الواحدة التي يختلف وزنها وقافيتها، ويبقى غرضها واحداً. وأعرف من هذه القصائد (المواكب) لجبران خليل جبران، و (بساط الريح) لفوزي المعلوف، وعبقر (لشفيق المعلوف) و (إرم ذات العماد) لنسيب عريضة، ولكن قصيدة شاعرنا (الملاح التائه) قصيدة وحدها بميزاتها وغايتها، لأن صاحبها اتجه بها شطر الفن الخالص، وجردها من أي غرض يرمي بها إلى الأبتدال، اعتقاداً منه بنظرية (الفن الخالص للفن الخالص) بينما نجد قصيدة (المواكب) تزحف في جو ثقيل مرهق بالفلسفة الشاكة الحائرة، وقصيدة (على بساط الريح) ترمي إلى غرض فلسفي أخرى توجهه العاطفة، وقصيدة (عبقر) تكاد تكون أكثر تجرداً للفن؛ أما قصيدة (إرم ذات العماد) فهي أشواق صوفية هائمة على رمال الوجد والحنين. وأصحاب هذه القصائد جميعها ثائرون على ماضي الشعر العربي وأسلوبه الضيق الموروث، ولذلك تجردوا من قوالبه، وانطلقوا من غاياته، وانقادوا إلى عوالمهم الذاتية المجردة، ولكل غايات استقبلها وبلغها بمقدار ما هامت نفسه، وسما فنه. ولعل أبرز ما في (هذه القصائد) هذه الوحدة في الغاية، تنطلق معها من فاتحتها إلى خاتمتها. وإنا لنجد هذا النوع غريباً في أدبنا، لأن الأدب العربي لم يسجل مثله، في حين أن الآداب الغربية طافحة بهذا النوع الذي يدل على امتداد الفن، وبعد الغرض، وسمو التحليق. وهنالك دواوين قائمة بنفسها لتوحي إليك بفكرة واحدة، على طرائق مختلفة، كهذا الذي فعله الشاعر الفرنسي - فرناند جريك - في ديوانه جمال الحياة، فجمال الحياة فكرة تفاؤلية تسيطر على نفس الشاعر، والشاعر في كل مظهر من مظاهر الكون يتوسم هذا الجمال، ويتغنى به، ومهما يكن من شيء، فإن هذا يدلنا على أن الشاعر الحقيقي يعتنق رسالة أو فكرة يجمعها من مزاجه الخاص يحاول أن يبثها ويبشر بها

كانت هذه القصيدة بيدي فتناولها صديق لي أديب فما لبث أن أبدى نفوره منها واستنكاره لهذا الضرب من الشعر لأنه خالٍ - بحسب اعتقاده - من الغاية والغرض؛ وما كنت بلوَّام لمثل هذا الصديق على اعتقاده، لأن المدرسة الشعرية العتيقة لا تزال على اعتقادها في أن الشعر خاضع للغاية ينزع إلى الحكمة أو إلى القومية، أو. . . أما هذه القصيدة فما نزعتها؟ وما غايتها؟ إننا نحب أن نعتق شعرنا من هذه التقاليد، ونرفعه من هذه الأغراض الدانية، لنتوجه به شطر الفن الخالص. إذ أن الشعر العالي لا يتجلى في هذه العواطف الصافرة التي تؤز فوق الرؤوس، ولا في هذه الأصباغ الكثيفة غير المتناسقة؛ وإنما الشعر هذه اللمحات الفنية الهادئة والرعشات الوديعة التي تذكرك برعشة الطبيعة حين يقظتها. ومن عجب الدهر أننا نتخطى تعاليم المدرسة القديمة، ونلمس نقائصها، وننفي أكثر شعرها، ثم نرى من لا يزال يتحمس لها، ويناضل من أجلها الآن نستطيع القول - إزاء هذه المقطوعة - أننا إزاء قصيدة شعرية بلغت من السمو والفن والدقة ما لم تعرفه قصيدة عربية من قبل. ولكي يستطيع الشاعر أن يبث لمحادثة الفنية لم يجد إلا جوَّاً يونانياً. والعلة في ذلك أن الجو العربي نفسه محدود الشاعرية، محصور الخيال، ليس فيه هذه الوثبات التي توحي للشاعر المطلق أن يحلق في جو مطلق، فليس في هذا الالتجاء نفسه ما يعيب الشاعر أو القصيدة، لأن الجو اليوناني - في اعتقادي - برئ من كل غرض، يملكه الفن وحده ولا يجد الأدباء

الغربيون حرجاً في الرجوع إلى هذه المملكة الغنية بشوارد الفن، على رسوخهم وغناهم. ولأدبائنا الحق في تفهم الأدب اليوناني والفن اليوناني. بعد أن درس العقل العربي العقل اليوناني، كانت بينهما صلات متينة، وجولات مشبعة بروح الصداقة.
والفن اليوناني - على اعتقادي - أشد ضرورة للعرب من الفلسفة اليونانية
أشخاص هذه القطعة أشخاص يونانيون لهم محلهم في الفن اليوناني والجمال اليوناني. وقد أحسن المؤلف صنعاً في الإعلان عن كل شخص في مقدمته. ومن هؤلاء (سافو) الشاعرة الإغريقية، وتاييس الراقصة الأثينية، وبلتيس صاحبة الشاعر الإفرنسي (بيرلويس). أما الحديث فيدور حول روح شاعر يبعث بعثاً جديداً يزف إلى الأرض كالشبح العابر. أو الوهم مثله الخاطر. تعرفه إحدى الحوريات أو الأرواح - تاييس - وتقوله لسافو إنه (فتى
تملأ ألحانه الأرض غداً). وبلتيس يؤلمها أن يمر متكبراً، وقد أصابته لوثه أهل الفنون فليمض شقياً! أما تاييس فهي أكثر إشفاقاً عليه. لا تلومه لأنه (كف عينيه برق الحياة) فتحاول بيلييس أن تثير حقد صاحبتها فتذكر لها ما صنع أترابه الشعراء من قبل يوم أغووا حواء ولدات حواء. والمرأة - دائماً - حديث الفن!
أنالته أجمل أزهارها، ... فأهدى لها شر أزهاره!
ولعل هذه الأزهار تذكرنا بأزهار بودلير!
وهنا نستشهد بيلتيس بقصيدة (الحية الخالدة) التي قدم لها صديقنا الأستاذ الكيالي بأن المرأة هي الحية الخالدة التي يشتهيها الفنانون والشعراء رغم لدغاتها. وفي هذه القصيدة يهبط الشاعر بمعشوقته من المنزلة العالية التي تصورها فيها إلي المنزلة الدانية التي تضج بها الشهوة الجائعة؛ وتصبح فيه المرأة كتلة من لحم يثير الدماء بعد أن كانت جمالاً صور من نقاء - فانحدرت المرأة وانحدر بانحدارها الرجل لأنه أصبح شيئاً ككل الرجال، وأصبحت هي شيئاً ككل النساء
. . .أما بيليتس فلا تحب أن تعتقد بخطيئة المرأة؛ لأن الرجال
. . .وكم في الرجال سعار الوحوش ... إذا لمسوا الجثة الدافئة
!. . .أما المرأة
ألم ينسم الخلد من عطرها ... ألم يعبد الحسنَ في زهرها
ألم يقبس النور من فجرها ... ألم يسرق الفن من سحرها
شفت غلة الفن حتى ارتوى ... وإن دنس الفن من طهرها
وهامت على ظمأ روحها ... وكم ملئوا الكأس من خمرها
والمرأة تبقى بعد هذا أحجية الفن.
(وإغراؤها الفرح المفتقد) ... (خطيئتها قصة الملهمين)
لقد قربت جداً عارياً ... وقلباً يضن بأسراره
ثم تنتقل هذه الغواني من حديث الشعر إلى الفن الممثل في - تمثال جميل - فلا تجد سافو الفنان أعلى روحاً من الشاعر لأنه كمثله.
غداً يستغل غرام الحسان ... سبيلاً إلى الشهرة الذائعة
يصيب بهن خلود اسمه ... وهن قرابينه الضائعة
ولكن بيليتس تريد أن تنتقم لنفسها ولأترابها، وتطلب النزول إلى الأرض.
لنشرب من دم هذا الفتى ... مصفى الرحيق بأكوابنا
ونجعل من حشرجات الرجال ... تحية شاد لأنخابنا
ولكن تاييس تدرك أن الجمال والحب يضيع عالمهما بدون الشعراء والفنانين فتقول:
إذا خلت الأرض من طيرهم ... فمن ذا يحي الجمال القسيم؟
فتغضب بيليتس وتعود إلى حبها المعروف، كما أوحته (أغاني بيليتس)، هذا الحب الذي ليس به حاجة للرجال!!
وهنا تستعر المشادة بين وتاييس وبيليتس، هذه تميل إلى كل هوى بين أثنين، وتلك تمثل هوى المرأة المتعلق بالرجل، وترى هذا الهوى ضرورة لا مناص منها لحياة الفنون. والجمال وحده هو الذي يهذب قلب الرجل، وينيم فيه الشرس المستخف!
وبعد محاورة تختلف ألحانها بين هؤلاء، يعود الإله - هرميس - الذي ترك الشاعر على أفق الأرض، فيرى حورياته في غضب وثورة، فيصف لهن هذا الفنان الذي ساء أمره عندهن، وفي وصفه أروع ما وصل إليه فنان وهو يتحدث عن الفن. . .

. . .الفنان عنده
يسف إلى حيث لا ينتهي ... ويسمو إلي قمة لا ترام
ويُسقى بكأس إلهية ... مرنقة بالهوى والأثام
هو المرح الشارد المستهام ... شرود الفراشة عند المساء
ولعلك تلمس معي هذه القطعة المزدحمة باللمحة الفنية التي تظن أنها لا تنزل إلا على الشعراء الملهمين
أرته السماء أعاجيبها ... وروته من كل فن بديع
فضن بلألاء هذا الجمال ... وخاف على كنزه أن يضيع
أبي أن يبدده ناظراه ... فأطبق جفنيه ما يستطيع
فإن شارف الأرض نادت به ... ففتح عيناً كعين الربيع
أتستطيع أن تحدد لي عين الربيع هذه؟ ألمست معي هذه الدنيا من الرفيف والألوان والأعاجيب؟
ولا يزال - هرميس - يصف لحورياته هذا الفنان حتى يستل من أفئدتهن كل سخيمة ويعدن راضيات عنه، مؤنسات بفنه، مغضيات عن عثراته. لأن عثرات الفنان بشائر للفن، والفنان نفسه يعبد المرأة - على ما تحمله إليه - لأنه كما يقول:
وكانت حياتي محض اتباع ... فصارت طرائف من فنها
وكان شبابي صمت القفار ... ورجع الهواتف من جنها
فعادت ليالي الصبا والهوى ... أرق المقاطع في لحنها
وأفرغت بؤسي في حضنها ... وأترعت كاسي من دنها
وهكذا تنتهي القطعة برحيل الشاعر، بعد أن ترك في حورياته نظرات العطف والابتسام
هذه هي القصيدة التي أهداها الشاعر خالصة لوجه الفن، سلسة التعبير، لينة القوافي، هائمة الألوان، ولن يغني عن قراءتها شيء من هذا الموجز المشوه الذي ذكرته، لأن القطعة الفنية لا تنقل
والذين يتذوقون الشعر المجرد، ويحبون الفن المجرد، سيستمعون في هذه القطعة خير لحن يجاوب ألحانهم، ويتذوقون منها أصفى سلسال يروي ظمأهم
حقاً إن هذه القصيدة طليعة تلك المواكب الجديدة الهائمة في تيه المرح والعذاب والحب، وستتلو هذه الأرواح أرواح، وهذه الأشباح أشباح، ما دامت هنالك قيثارة صافية النغم، ومخيلة مجردة الخيال، هي قيثارة ومخيلة ملاحنا التائه.
(الحديث) - (حلب)
خليل هنداوي
المصريون المحدثون - 40
شمائلهم وعاداتهم
في النصف الأول من القرن التاسع عشر
تأليف المستشرق الإنجليزي ادورد وليم لين
للأستاذ عدلي طاهر نور
تابع الفصل الثالث عشر - الأخلاق
كثيراً ما يقسم المسلم بالله وبالرسول وبرأس مخاطبه ولحيته. وعندما يخُبَر أحدٌ بخبر يثير دهشته وعدم تصديقه يصيح: والله؟ فيجيبه الآخر: والله. وكما أن العادة أن يبسمل المسلم قبل الطعام والشراب، يفعل ذلك أيضاً عندما يتناول دواءً أو يكتب شيئاً أو يبدأ مشروعاً مهماً، ثم يحمد الله بعد البسملة
وعندما يتعاقد اثنان يتلوان الفاتحة معاً. والعادة عندما يتجادل البعض في عمل أو رأي أن يصيح أحد الطرفين أو آخر يود فض النزاع أو تهدئة المتخاصمين: (الصلاة على النبي)، أو (صلوا على النبي) فيقولان بصوت منخفض: (اللهم صل عليه) ثم يستأنفان المجادلة ولكن باعتدال على العموم.
كثيراً ما يُسمع في المجتمع المصري العبارات الدينية تعترض الحديث في الأمور الحقيرة والخليعة أيضاً. وقد يكون ذلك أحياناً بطريقة تحمل من يجهل أخلاق هذا الشعب على أن يظنه هزؤا بالدين. ويكرر المصريون أسم الله في الكثير من أغانيهم الماجنة من غير قصد للإهانة طبعاً، وإنما يفعلون ذلك لاعتيادهم إقحام اسم الله في

كل ما يدعو إلى الدهشة أو العجب، فيعبر الماجن عن انفعاله بالجمال عند رؤيته فتاة فاتنة بقوله أثناء كلامه الفاحش:
(تبارك الذي خلقك يا بدر)
وسأورد المقطوعة الأخيرة من أحد الموشحات مثالاً للطريقة الغريبة التي يختلط بها الفجور والدين في الأدب العامي المصري:
قابلني الرشيق بعد البعد والاحتجاب. فقبلت ثناياه وخده، ورن الكأس في يده، وفاح المسك
والعنبر من محبوب أرشق قواماً من غصن البان. وبسط سريراً سندسياً، وقضيت الوقت في سعادة متصلة. لقد استبعدني ظبي تركي
والآن أستغفر الله ربي من كل خطاياي ومن كل ما هجس في نفسي. إن أعضائي تشهد عليّ. ومتى قهرني الحزن فأنت أملي يا ربي في كل ما يحزنني. أنت تعلم ما أقول وما أنوي. أنت الكريم الغفور. إني ألوذ بحماك فاغفر لي.
وقد زارني أحد أصدقائي المسلمين بعد كتابة الملاحظات السابقة توا فقرأت عليه القصيدة وسألته أيليق أن يمزج الدين بالخلاعة هكذا؟ فأجاب: (نعم، يليق كل اللياقة. فهذا رجل يذكر خطاياه ثم يستغفر الله ويصلي على الرسول). فقلت: (ولكن هذه قصيدة قيلت لتسلية هؤلاء الذين ينهمكون في اللذات المحرمة. ثم لاحظْ أن الصفحة التي تصف الفسق تقابل التي تذكر أسماء الله عندما أطوي الكتاب فيكون وصف الملذات الأثيمة فوق ذكر الاستغفار). فأجاب صديقي: (ذلك عبث. اقلب الكتاب جاعلاً أسفله أعلاه ينعكس الحال فيغطي الغفران المعصية. وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز: قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، وإن الله يغفر الذنوب جميعاً وهو الغفور الرحيم) (الآية 52 من سورة الزمر). وقد ذكرتني إجابته ما لاحظته كثيراً من أن غالبية العرب - وهم شعب كثير التناقض - يستمرون في مخالفة الشرع اعتماداً على أن عبارة: (أستغفر الله) تمحو كل خطية. وكان بين يدي صديقي نسخة من القرآن فوجدت فيها عند بحثي على الآية المقتبسة ورقة عليها كلمات من الكتاب الكريم، وكان الرجل على وشك أن يحرقها لئلا تسقط فتداس. فسألته: أيجوز ذلك؟ فأجاب: إما أن تحرق وإما أن تلقي في مجرى ماء. والأفضل حرقها، إذ أن الكلمات تصعد مع اللهب فتحملها الملائكة إلى السماء. ويستشهد المسلمون حتى أشدهم تُقي بالقرآن عند المزاح. وقد حدث مرة أن طلب أحدهم أن أهدي إليه ساعة فأوعز إليَّ بهذه العبارة الملتبسة: إن الساعة آتية أكاد أخفيها (الآية 15 من سورة طه)
وكثيراً ما يشاهد المرء في المجتمع المصري ناساً يتلون آيات وأحاديث تتناسب المقام، ولا يعتبر مثل هذا الاقتباس - كما هو الحال في مجتمعنا - نفاقاً أو مملاً، وإنما يثير إعجاب المستمعين ويصرفهم عن تافه الحديث إلى جده. ويشغف مسلمو مصر وغيرها من البلدان،
على ما أعتقد، بالحديث الديني. وتُحَي أكثر الحفلات عند الطبقتين الوسطى والعليا في القاهرة بتلاوة (خاتمة) أو إقامة (ذكر). وقلما يجرؤ أحدهم على التصريح بتفضيل الموسيقى على الخاتمة أو الذكر اللذين لا جرم يبتهجون بهما. والحق أن الطريقة التي يرتل بها القرآن أحياناً حسنة جداً ولو أن سماع الخاتمة كلها قد يُمل غير المسلمين يدهشني شدة تمسك المسلمين بدينهم على الدوام؛ غير أنني أعجب لقلة محاولتهم دعوة الغير إلى الإسلام. وكثيراً ما عبرت عن دهشتي لتغافلهم عن نشر دينهم مخالفين أسلافهم في صدر الإسلام فكانوا يجيبوني: (أي فائدة في هداية ألف كافر؟ هل يزيد ذلك عدد المؤمنين؟ أبداً. لقد قدر الله عدد المؤمنين ولا يستطيع الإنسان أن يزيده ولا أن ينقصه). ولم أخاطر بالرد خشية أن يؤدي أعترض إلى جدال لا حد له.
وقد سمعتهم يدافعون عن إهمالهم إدخال الناس في دينهم بذكر الآية السادسة والأربعين من سورة العنكبوت: (ولا تجادلوا أهل الكتاب) دون أن يذكروا العبارة التالية مباشرة: (إلا بالتي هي أحسن، إلا اللذين ظلموا منهم، وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد). ولو كان المسلمون عملوا بهذه الوصية لأدى جدلهم إلى تحرير أفكارهم وترقية معارفهم
يقدس المسلمون المحدثون الرسول غاية القداسة ويقسمون كثيراً باسمه ويلتمس

شفاعته المتعلمون والجاهلون على السواء. ويتأثر الحجاج من زيارة القبر النبوي أكثر مما يتأثرون بقيامهم بالشعائر الأخرى. وهناك فئة لا تأتي عملاً لم يتقرر قيام الرسول به فيمتنعون خاصة عن أكل ما لم يأكله ولو ثبت إباحة تناوله. وما كان الإمام أحمد بن حنبل يأكل البطيخ لأنه مع علمه أن الرسول أكله لم يستطيع أن يعرف ما إذا كان يتناوله بقشره أو بدونه أو إذا كان يكسره أو ينهشه أو يقطعه، كما أنه نهى امرأة جاءت تستفهمه عن الغزل ليلاً على ضوء مشاعل الغير أثناء مرورهم في الشارع، لأن الرسول لم يذكر شرعيتها ولا يعرف عنه أنه انتفع من ضوء غيره بدون إذن. وقد أعجبتُ مرة بمنافض جميلة ينفض فيها رماد الشبُك؛ فسألت صانعها لماذا لا يسمها باسمه؟ فأجاب: معاذ الله! إن اسمي أحمد هو أحد أسماء الرسول فهل تريد أن أضعه في النار؟ وقد سمعت شكوى الناس من الباشا لأنه وسم جمال الحكومة وجيادها باسمه (محمد علي). وقال الذي ذكر لي هذا الحادث: إن الميَسم الذي نقش عليه هذان الاسمان الواجب احترامهما، اسم الرسول (ص) واسم ابن عمه رضي الله عنه، توضع في النار وهذا منكر، ثم يوضع على رقبة الجمل فيسيل الدم النجس فيدنس الاسمين المقدسين على الحديد وعلى جلد الحيوان. والمحتمل عندما يندمل الجرح بل المحتم أن يضع الجمل وهو راقد رقبته على شيء قذر ويبعث مثل هذا الشعور المسلمين على أن يعترضوا على طبع كتبهم. ويندر أن يكون لهم كتاب لا يتضمن أسم الله، ولا أذكر أني رأيت كتاباً خلا منه. فالقاعدة أن يصدر الكتاب بالبسملة وتبدأ المقدمة بحمد الله والصلاة على الرسول. ويخشى المسلمون أن يدنس المداد الذي يطبع به أسم الله، أو الورقة التي يطبع عليها. ويخشون أيضاً أن تصبح كتبهم عند طبعها رخيصة الثمن فتقع بين أيدي من لا يصونها. وفكرة استعمال فرجون من شعر الكلب، وكانت تستعمل أولاً هنا، لوضع الحبر على أسم الله أو على كلامه تكدرهم كثيراً. ومن ثم لم يطبع الكتب في مصر حتى الآن إلا الحكومة؛ غير أن أثنين أو ثلاثة استأذنوها في طبع بعض الكتب في مطبعتها فأذنت لهم. وأعرف كتبياً هنا رغب طويلاً في طبع كتب كان يثق بعظيم ربحها ولكنه لم يستطع أن يتغلب على تردده في شرعية هذا العمل

(يتبع)

عدلي طاهر نور

من صور اليوم

فُسْتَانٌ قَصير

للأستاذ علي شرف الدين

بَالَغْتِ في التَّقْصِيرِ يَا غَانِيَةْ ... خَلِّي قَصِيرَ الثَّوْبِ لِلْجَارِيةْ
ثَوْبٌ بخيلُ الذَّيلِ تمشِي بِهِ ... فَرَّارَةٌ مِنْ خدرِهَا نَائِيَةْ
كالبائع الجوَّالِ في يومِهَا ... لم تخلُ من تَجْوَالِهَا نَاحيةْ
وتزرَعُ الأرضَ بريداً سرَى ... كأنها في شَعبه سَاعيةْ
رِعايةُ الأطفالِ قد أصبحتْ ... - فيما تراهُ - عادةً باليةْ
وَتُرْسلُ الضَّحْكَاتِ إنْ أبصرَتْ ... سيدةً في بيتهاَ طاهيةْ
تَهَشُّ للناسِ وفي بيتهاَ ... عباسةٌ صخَّابةٌ عاويةْ
تمشي (كَبَلْقيسَ) وقد شمرتْ ... في القَصْرِ عن سيقانِهاَ العاريةْ
والجودُ في الثوبِ دليلُ التُّقى ... وآيةٌ للعفّةِ الواقيةْ
جودي على ثوبك يا هذه ... جودي له بالفَضْلةِ الباقيةْ
إني - على فقري - كفيلٌ بها ... رخيصةً - في السعر - أو غاليةْ
مَنْ جاد بالجسم - على قدسه - ... ما بخلهُ باللبسةِ الفانيةْ؟!
مَنْ جَاوَزَتْ عِشرينَ أولى بها ... أن تلزمَ المنزِلَ في عافيةْ
يا ربَةَ المنزلِ ما بالهُ ... تصدّعتْ أركانهُ العاليةْ؟
في البيتِ مُلْكٌ أنتِ في عرشِهِ ... مَليكةٌ في شَعبها راعيةْ
عُودي إلى خِدْرِكِ واستأنفي ... سعادةً كانتْ به ماضيةْ
لا ينقضُّ إلا على ... (حمامةٍ) عن وكرِهاَ نائيه (فالنسرُ)
وإنما يفتكُ ذئبُ الوَرَيِ ... - في وثبه - بالنجعةِ القاصيةْ

علي شرف الدين

مفارقات
للأستاذ عبد اللطيف النشار
كل ما في (مصر) يدعو للعجب! ... طالب الطب شغوف بالخطب
والحقوق بتدليل الدُّمَى ... والزراعي بأخبار الأدب
وبنو الأزهر صاروا ساسةً ... وبنو الآداب أعداء الكتب
والغواني رائحات غاديات ... في (عماد الدين) من غير سبب
ورجال الحكم للنرد خلوا ... وحديث الحكم يقضي في (الكُلُب)
ويد الضيف وما نجحدها ... تنبع الفضة منها والذهب
والسويسري بآثار اللغى ... والفرنسي بآثار العرب
وخطونا خطوة واحدة ... رحمة الله على قبر ابن حرب
عبد اللطيف النشار
البريد الأدبي
كم ذا؟
ما كنت أعلم - حين تفضلت الرسالة بنشر كلمتي الأولى عن (كم ذا) هذه - أني أثير عاصفة يدوي صوتها في آذان هؤلاء القراء الكرام أمثال الأستاذ الكبير (البشبيشي) الذي تناولها بالرد والمناقشة أكبر من مرتين. . . ولا أزال آخذ عليه وعلى غيره أن المناقشة لم تذهب إلى ما نريد. . . وأنهم جنحوا إلى الإعراب والتخريج، وهو مطلب غير مطلوب، وبحث غير مرغوب. . . وقد طلب إلي بعض الأصدقاء أن أحسم النزاع في (كم ذا يكابد عاشق ويلاقي). . . فلم أجد أحسن من هذا الرأي القائل: (إن اللغة العربية - وإن كانت تعتمد على السماع والنقل - لا تحتم استعمال لفظ إلى جانب لفظ، أو كلمة إلى جانب أخرى، اللهم إذا اقتضاها المقام، أو دعت إليها المناسبة. فمثلاً اختص الفعل المضارع بالسين وسوف لأن معناها التنفيس والتسويف. . . وذلك لا يناسبه غير المضارع لوقوعه فيه. فلا نقول سَقُمتُ ولا سوف قام. وعلى هذا فلا مانع من دخول (كم) على (ذا) في التراكيب العربية وسواء لدينا كونها للاستفهام أو الإشارة أو الموصولية أو الزيادة، فإن هذا يرجع إلى الإعراب وهو لا يتأبى شيئاً، ولا يضيق عن تأويل
إبراهيم علي أبو الخشب
شعر علي بن أبي طالب - 1
أطلعت على مقالات الأستاذ السيد يعقوب بكر في تحقيق شعر علي بن أبي طالب رضى الله عنه، ثم قرأت ما عقب به الأستاذ محمد محمود رضوان (في العدد 469 من مجلة الرسالة وما بعده)
وإن من المصادر الوثيقة التي أوردت ذرواً من شعره كتاب (معجم الشعراء للمرزباني) وفيه زيادات أبيات في بعض القطع التي نشرها الأستاذ يعقوب، واختلاقات في بعض كلماتها، وبيان لرواتها:
قال المرزباني في الصفحة 279: أمير المؤمنين أبو الحسن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. يروى له شعر كثير، منه قوله يوم خيبر لما خرج مرحب يقول:
قد علمت خيبر أني مرحب ... شاكي السلاح بطل مجرب
فقال علي رضي الله عنه:
أنا الذي سمتني أمي حيدره ... كليث غابات كريه المنظره
وله في رواية سعيد بن المسيب:
أفاطم هاك السيف غير ذميم ... فلست برعديد ولا بلئيم
لعمري لقد جاهدت في نصر أحمد ... ومرضاة رب بالعباد عليم
أريد ثواب الله لا شيء غيره ... ورضوانه في جنة ونعيم
وله:
يا شاهد الله عليَّ فاشهد ... آمنت بالخالق رب أحمد
يا رب من ضل فإني مهتد ... يا رب فاجعل في الجنان مقعدي
إلى غير هذا مما أورده المرزباني في معجمه المذكور
تخطئ - 2
مررت على تصحيح الأب الكرملي للجزء الثاني من (الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان

التوحيدي) في مجلة الرسالة، فرأيت فيه (في العدد 474): وفي ص67 (أسكرّجة)، والمشهور أنها بلا ألف في الأول
أقول: أغفل الأب تصحيح ضبط الراء. وفي المعرب للجواليقي: (السُّكُرُّجة بضم السين والكاف وفتح الراء وتشديدها فارسية معربة، وترجمتها: مقرب الخل، وكان بعض أهل اللغة يقول: الصواب أسكرَّجة)
وفي شفاء العليل للخفاجي: (الصواب فتح الراء المشددة)
محمد غسان
تصحيح بيتين
ورد في مقال (أوهام تخلق متاعب) للدكتور زكي مبارك بالعدد السابق من الرسالة بيتان للشاعر صادق رستم
هذا نصهما:
شر البلية إشفاق على فئة ... لو كنت تؤكل ما عفوا ولا شبعوا
تبيت تبكي لصرف الدهر يفجعهم ... ولو رأوك على الأعناق ما دمعوا!
أما النص الذي جاء به الشاعر في قصيدته (أخلاق العصر) بالعدد الثامن من مجلة الثقافة فهو:
رأس الحماقة إشفاق على نفر ... لو كنت تؤكل ما عفوا ولا شبعوا
تبيت تبكي لصرف الدهر يدهمهم ... ولو رأوك على الأعناق ما دمعوا!
هذا ومع أن النص الأول لم يحد عن المعنى الذي أراده الشاعر فإن من واجب الكاتب الحرص على أمانة الرواية والنقل مهما بلغت قدرته على توليد الألفاظ وتشقيق الجمل ومهما وصلت خبرته بأوزان الشعر وتفاعله خصوصاً، وإن البيتين المذكورين من الشعر الحديث الذي لم يغبر عليه الزمن، ولم يتقادم به العهد، ولم تختلف فيه الرواة.
محمود محمد حسن
المدرس بمدرسة البلينا الأولية
أغلاط
1 - كان سيدنا عبيد الله بن عباس جواداً وله قصص في الجود مذكورة في الكتب، وقد ظن كثيرون أن هذا الجواد هو سيدنا عبد الله الراوية المشهورة، وبالرغم من أن الكتب تذكره بصيغة التصغير، فإن بعض الخاصة لا يزالون يعتقدون أن الجواد هو عبد الله. وقد ترجم بعض الكاتبين لسيدنا عبد الله فساق هذه القصص، وجهدت جهدي لإقناع أحد أساتذتي بهذا الخطأ فما استطعت، وادعي أن غاية ما في الأمر أن الاسم ذكر مصغراً، وأخيراً في النوادر لأبي علي العالي فصلاً يذكر فيه أبناء العباس بن عبد المطلب فيقول: وعبد الله الحبر مات بالطائف وعبيد الله الجواد مات بالمدينة (رضي الله عن الجميع) فهو صريح في أنهما شخصان لا واحد ذكر مرة مكبراً ومرة مصغراً
2 - تعرض المرحوم الرافعي في كتابه (تاريخ الأدب العربي) للهجات العرب، فذكر أن هذيلا تقلب ألف المقصور ياء حين إضافته لياء المتكلم وتكسر ما قبل الياء قال شاعرهم:
سبقوا هوِىَ وأعنقوا لهواهم ... فتخرموا ولكل جنب مصرع
وضبط هوِىّ بكسر الواو، وما هكذا تنطق هذيل، وإنما ينطقون بفتح الواو فيقولون (هوَىّ). . . قال العلماء: لمّا كان من الحتم كسر ما قبل ياء المتكلم، وهو غير ممكن في هذا، لأن الألف لا تقبل الحركة، قلبت هذيل الألف ياء، إذ الياء أخت الكسرة فذهب على الرافعي - رحمة الله - إلى ما إليه قصد العلماء، فظن أن الكسرة قبل الياء المشددة لازمة؛ فليصحح ذلك من عنده نسخة من القراء
علي محمد حسن
في (عبقرية محمد)
هذا الكتاب جليل في بابه، زاد مكانة العقاد وسموه في الأدب والتفكير، وقد وقفني منه أمران:
1 - في ص144 يذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم (كان يتمثل بشطرات من أبيات يبدل وزنها كلما أمكن تبديله: فكان يقول مثلاً: (ويأتيك بالأخبار من لم تزود)، لأنها لا تقبل التبديل، ولكنه إذا نطق بقول سحيم عبد بني الحسحاس (كفى الشيب والإسلام للمرء ناهياً) قدَّم كلمة الإسلام فقال: كفى الإسلام والشيب للمرء ناهياً)

وفي ص145 يورد الحديث هكذا: (كما تكونوا يولّ عليكم) - 2
وتقسيم ما يتمثل به الرسول عليه الصلاة والسلام إلى ما يمكن تبديله لم يورد - 1
المؤلف ما يؤيده ويقتضيه. والمثال الذي ذكره لما لا يمكن تبديله غير صحيح؛ فإن تبديله ممكن، وقد روى أن الرسول عليه الصلاة والسلام تمثل به هكذا: (ويأتيك من لم تزود بالأخبار. راجع السيرة الحلبية في باب الهجرة إلى المدينة
والمعروف في رواية الحديث: كما تكونوا يوليّ عليكم. وحذف النون في تكنوا - 2
للتخفيف على حد لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أو لحمل ما المصدرية على أن في نصب الفعل بها، وروى كما تكونون يولي عليكم. راجع الجامع الصغير، والمغني قبيل ختامه والسلام.
محمد النجار
من صميم الواقع
الحياة على المسرح تجري حارة في أوصال مضحكاته ومبكياته، رغم أنها فِكَرٌ مركزة، وصور مصغرة لما يجري في دنيانا، فماذا بنا إذن لو شاهدناها حقيقة واقعة على مسرح الحياة؟
!!إنها لمأساة وأية مأساة
هو اجتماعي زعيم نبض قلبه بحب الناس فوقف عليهم العمر دائباً يشتغل بحل عقدهم، فكم أنجى وأشقى. كان رحمة لم تحرمها أسرةٌ. أرشد وهدى، وهو في شغله وكدحه راض لسعيه، لا يطمع في غير جزاء الله الحسن، لكن الله اختار له سعادة الآخرة لا الأولى، فقاسى في حياته ما قاسى، مما يذيب النفس أسًى عليه وإشفاقاً.
سيق سَوقاً إلى جحيم الحب فاكتوى بِحَرِّهَ
لَبى نداء زوجته وراح ينقذ أختها. كانت تصغرها، وكان لها خطيب منذ صغرها شَبَّ فاجراً فسَّاقاً، وراح ينفق على قانصته من بنات الهوى باليمين وبالشمال. لكن أمَّهُ التي هي أصل جاهه ومصدر ثرائه، تريد خطيبة الصغر له زوجاً، وهو إن خالف أمه، فقد المالَ الذي من أجله يحُب، ومن أجله يحُترم. وإذ شكا الأمر إلى رفيقته الفاجرة، خشيت أن يفلت منها ذلك الصيد الثمين، فكادت ودبرت، وعمل هو بكيدها، فأقنع أمه بما جعلها هي نفسها ترجع عن تحقيق ذلك الزواج
لقد استغلا رقة عود تلك الخطيبة البريئة، وأشاعا عنها أنها مريضة بذلك المرض الذي تنفر الدنيا ممن يصاب به. . . السل. . . حرمت المسكينة إذن كل خطيب وفقدت الثقة بنفسها كانسان صحيح. وفقدان الثقة فيما يتعلق بهذين الأمرين هو اصل عقدة نفسها، واصل توهمها أنها مريضة، ذلك التوهم الذي خلق بالفعل علّتها.
لجأت الأخت الكبرى في ذلك إلى زوجها الإنساني الرحيم، مستنجدة متوسلة، عسى أن يفعل شيئاً لإنقاذ أختها البائسة التي تذوي سريعاً قبل أن يكمل ازدهارها. وعقدتها مزدوجة، وعلتها مشتركة. فحرمانها من الرجل في المرتبة الأولى وإن كان في تتابع الحوادث في المرتبة الثانية. لقد أرهقها فأضناها وهي الرقيقة التي لا تحتمل الضنى. أرهقها، فأعلها، بما ساعد على انتشار الإشاعة الخبيثة وزكاها. فالرجل داؤها، والرجل لا غير دواؤها.
المرأة كالعود الرطب، يينع وينضر ويفرع إذا ما تُعِهد فُغذَّى ورُوَّى بالأمل، وساقي ذلك الأمل هو الرجل، يسكبه في عبارات التقدير والإعجاب، ويفيضه من عيون البث والوجدان، فمن لهذه العطشى بساق يُرويَى، فيجري الحياة ويُحيي الموات؟!
شاء القدر ألا يكون غير الزوج الوفي، والمصلح الاجتماعي، فأقنعته زوجته بأن يمثل دور العاشق مع أختها
راح يقوم بدوره بإخلاص وبراءة. ومرت الأيام على تلك الحال، فما أعجب ما حدث للأختين! تعافت الصغرى، فاعتلت الكبرى! أجل. إن رشفة الحب الأولى حلوة ومسعدة، وجرعة الغيرة الأولى مرة ومجهدة. . .
وفي أثناء ذلك، كان يرنو القدر إلى ذلك المخلوق المُسَيَّر إلى هاوية شقائه، رُنوَّ طفل على فمه ابتسامة درجت معه تنمو ما نما، وتكبر ما كبر، وتشيب ما شاب، فإذا ما أخضرت على الشجرة ورقة، واصفرت أخرى، ونضج الثمر الشهي، وحان القطاف، خرجت البسمة العجوز عن صمتها، وأرسلها الكهل الرهيب قهقهة ساخرة مدوية، أثارت عاصفة هوجاء، وزعزعا نكباء، زلزلت في شبوبها أسس السعادة، فلم تبق ولم

تذر غير مجد في الأثر
ناء الجسد بحمل ذلك القلب الكبير، وماد بذلك الصراع الجبار بين العاطفة والواجب، ففزع إلى أمه الأرض فاحتضنته
مات. . . لكنه عاش مجسداً في كل أثر من آثاره الطيبة، وعمل من أعماله الجليلة.
عاش مخلداً في قلوب الناس وأفواههم يجتمعون كل عام حول نصبه التذكاري الذي أقاموه له، يتغنون بحمده والثناء عليه، وتتصاعد الأنغام تترى مستبقة إلى تمثاله العالي، فإذا ما بلغت مواطئ قدميه، ارتمت ركعاً سجداً.
عباس يونس
بين الفلسفة اليونانية والأدب اليوناني
ورد في مقال الأستاذ خليل هنداوي وهو يبحث الصلات الفنية اليونانية في قصيدة شاعر الحب والجمال (علي محمود طه) صاحب ملحمة (أرواح وأشباح) نص هذا الاقتراح:
أكان خيراً للعرب تناولهم الفلسفة اليونانية كما فعلوا، أم أن يتناولوا الأدب اليوناني) والفن اليوناني؟
1 - ما هي الفوائد التي اجتناها العرب من الفلسفة اليونانية؟
2 - ما هي الفوائد التي كان بإمكان الأدب العربي أن يجنيها لو انكب على الأدب اليوناني وفنه؟
3 - أية فوائد ترجع للعرب؟
والمجلة تحمل هذا الاقتراح على أدباء الشباب ليتناولوه بالبحث والدرس، ومجلة (الحديث) الحلبية تمنح جائزة أدبية لأحسن مقال يعرض لهذا الموضوع عرضاً شاملاً.
العدد 479 - بتاريخ: 07 - 09 - 1942
. . .كَررَي
للأستاذ عباس محمود العقاد
وما كَررَي؟
شئ من الشرق أو من الغرب، ويشار إليه بضمير المذكر أو ضمير المؤنث، وقديم هو أم حديث؟ كثير من الناس لا يعلمون! وكان ينبغي أن يعلموا ولو بعض العلم، لأنه شئ متصل بما نحن فيه، وبما العالم كله فيه، ولو بعض الاتصال
اسم كَررَي متصل بتاريخ مصر والسودان في العصر الحديث.
ومما لا شك فيه أنه على اتصال بالحرب العالمية الحاضرة في جملة أسبابها البعيدة التي توارت الآن وراء أسبابها القريبة. فإن كانت للحرب العالمية الحاضرة، وللحرب العالمية التي قبلها أسبابٌ لها سنوات، فاسم كَررَي لا ينفصل من أسبابها الأولى أقل انفصال؛ لأن علاقته بالأطوار الأوربية أواخر القرن الماضي كأوثق علاقة تكون.
كَررَي كان له شأن في تحول المآرب الاستعمارية عند كثير من الدول التي أثارت الحرب العالمية الماضية، وعادت فأثارت الحرب العالمية الحاضرة
كان له شأن في سياسة (بين القاهرة ورأس الرجاء)، أو (بين القاهرة والكاب) وكان له شأن في اندفاع الألمان إلى القارة الأفريقية، وفي موقف فرنسا من مراكش وأفريقية الشمالية، وفي ظهور إيطاليا على شواطئ البحر الأبيض بعد شواطئ البحر الأحمر، ثم فيما تلا ذلك في تجدد الأحلام بالدولة الرومانية
ومتى اتصل شأن كَررَي بهذا، فقد اتصل بجميع ما يخوض فيه العالم اليوم، وكان له من قبل ذلك اتصال بمصر والسودان.
كرري هو الوادي الذي انهزمت عنده جيوش الخليفة عبد الله، ودخل وادي النيل من جرائه في تاريخ جديد، ولك أن تقول: بل هو العالم كله قد دخل من جرائه في طور جديد.
وقفتُ على ساحة (كرري) في مثل الوقت الذي جرت فيه وقعته الفاصلة
كانت زيارتي للوادي في أوائل أغسطس، وكانت الوقعة في أوائل سبتمبر، قبل أربع وأربعين سنة
فالمنظر الذي رأيته هو منظر الوادي يوم الوقعة بغير كبير اختلاف: هو النهار الضاحي، وهي السحب التي تبشر وتنذر: تبشر بالمطر وتنذر بالصواعق، وكانت وما يبالي بها أحد صبيحة يومه المشهود، لأنهم كانوا يرجون ما هو أرجى من المطر، ويرهبون ما هو

أرهب من الصواعق، ويستقبلون مشرقاً يعرفون ما يستقبلهم من مغربه إذا انتصروا، وما يستقبلهم منه إذا انهزموا: مجد أو موت، والفاصل بينهم وبين واحد منها بضع ساعات
وكم تصنع بضع ساعات في تواريخ الأمم؟
هناك التلال المتجهمات للشمس، أعلاها لا يعلو فوق مائة متر في الفضاء
وهناك الحجارة والحصباء، أحدث أخبارها التي تتحدث بها إليك غضبة بركان قديم!
وهناك الأخدود الذي كانوا يتوارون فيه من المستطلعين فيواريهم ويخفي آثارهم، لأن مطية الهواء لم تكن في ذلك العهد مما يكشف ذلك الخلاء، ولا أي خلاء
وهناك السكون ثم السكون ثم السكون. سكون اليوم، وسكون أمس، وسكون عام مضى، وسكون أعوام، ما عدا ذلك اليوم في ذلك العام
ولو أنك سألت (كرري) ماذا صنعت يا كرري؟ أو ماذا صُنع فيك؟ فيم تراه يجيب؟
أكبر الظن أنه يستعيدك السؤال مرات! ماذا صنعت؟ ماذا صنعت؟ لا أدري!
لا بل صنعت كثيراً (يا كرري). . . أفلا تذكر؟ ألم يبق في ذكراك غير هذا السكون؟ ثم هذا السكون، ثم هذا السكون؟
- غضبة بركان قديم لم يغضب منذ آلاف السنين؟ أتسألني عن هذا وتلك آثاره تنبئك بغير سؤال؟
- لا. بل غضبة بركان أقرب من ذاك جداً إلى ذاكرة من يذكر، ولا أثر له فيك يغني عن سؤال! ألا تعرفه؟ ألا تعرف تلك الحمم؟ ألا تعرف تلك النيران؟
- تلك براكينكم يا صاح تسألون عنها أنفسكم وتصلون منها بحممكم ونيرانكم، وتحتفظون بآثارها وآثاركم، وتسمونها الأسماء، وإن هي إلا هواء يعبر بي كهذا الهواء
وكرري لا يقول غير هذا لسائله، إذا قال
لكن (كرري) جماد مسكين لا يعلم إلا ما يعلمه الجماد المسكين، ولم يدخل قط في علم الجماد المسكين أن براكينه صرخة في فضاء ما لم يتصل بهذا المخلوق الضئيل الذي هو نحن الآدميين! وأين غضبة ذلك البركان الذي تنبئنا به حجارة كرري من براكين هذه
الأيام؟ وأين هو من معقبات ذلك اليوم الذي تقدم قبل أربعة وأربعين عاماً في خلاء أم درمان؟
ذلك بركان غضب ولم يعرف كيف يغضب. ذلك بركان حليم جد حليم. ذلك بركان يعرف نار الأرض ويعرف نار الصاعقة ولا يعرف النار التي يجمعها الإنسان في أوعية صغار، كل وعاء منها كأنه جبل من نار!
أو هو قد عرفها فمرت به كما يمر كل شئ بالجماد، وبالإنسان الذي فيه قرابة من الجماد
وغمضة العين هنا هي أولى بالنظر من فتحها في سطعة هذا الضياء، فلن ترى إن فتحت عينك في الوادي إلا يومك الذي أنت فيه، وقد تغمضها فترى أعواماً وراء أعوام
وكأني رأيت الوادي يموج بالعمائم البيض والطرابيش الحمر والقبعات الصفر والوجوه التي فيها من اختلاف الألوان كل ما في العمائم والطرابيش والقبعات
وكأني رأيت النصر يدور بين المعسكرين، فلا يدنو حتى يبتعد ولا يبتعد حتى يدنو، ولا يزال بين إقبال وأدبار، وبين طلوع وأفول في سحابة نهار
لقد كان في الميدان جيشان من الماضي والحاضر، ولم يكن به جيشان من عصر واحد. فحكم الزمن بمصير المعركة قبل أن يلتقي الجيشان
كانت الحضارة والمدفع الرشاش والأسطول الصغير في أحد الجانبين
وكانت البداوة في الجانب الذي يناضله، وليس معها من سلاح غير الحراب أو راميات بالنار تشبه الحراب، وكل أولئك من عمل الحضارة نفسها في أوان فات
وقيل إن السيف الذي شهره المهدي كان سيفاً لبعض الفرسان التيوثون في الحروب الصليبية عليه طابع شارل الخامس ثم انتقل إلى سلاطين دارفور، وهو تاريخ فيه من الحق أكثر مما فيه من الأساطير
فهذا السيف كان رمز القوة التي أعتز بها الخليفة عبد الله، فلم يزد عليه من العصر الحديث ما هو أقوى منه بكثير، إلى جانب المدفع الرشاش
لقد حارب بعد زمانه بسبعمائة عام، فأحرى ألا يصيب في غده ما لم يصيب في أمسه،

وهو إذ ذاك أمضى سلاح
وأما الشجاعة فلا شجاعة فوقها، يتمناها لجيشه كل قائد في كل قتال
وأما النظام فيخطئ من يحسبه لغواً في جيش الدراويش لأنهم كانوا على نظام في الحركة لا يخرج من زمام القيادة، وإن كانت القيادة نفسها مضللة الزمام
وأما الحيلة فهي ليست في ذلك الجيش بالقليلة، بل لعلها كانت وشيكة أن تفلح في يومها، لو لم يتأخر الموعد ببعض القادة عن الهجوم في حين الحاجة إليه
إنما كانت الغلبة لزمن على زمن، ولغد على أمس، وكل معركة فيها الغد والأمس قرنان متصاولان فالغد صاحب الغلبة فيها لا مراء
وكنت أقرأ عن حروب عمر بن الخطاب وأنا أطوف بين بيت الخليفة وكرري وأذكر هذا الصراع إلى جانب ذلك الصراع
أكان القدر هو الذي ساقني في تلك الفترة إلى كرري، أم هو الذهن يشتغل بالشيء في حين من الأحيان فيرد كل ما يراه وكل ما يسمع به إليه؟
ليكن هذا أو ذاك. فقد علمت شيئاً من (كرري) وأنا أنظر في حروب الفاروق مع دولتي الفرس والروم، ولم أكن لأجمع بين العبرتين لولا أن وقفت بكرري وعرضت فتوح عمر وأنا واقف هناك
إن العقيدة لتظفر بما تريد وهي مع الغد على وفاق، ولا تظفر بشيء ذي بال وهي مع الغد على عداء
ولم تكن العقيدة ناقصة في جيش الخليفة عبد الله، بل كان له حظ منها كأوفى الحظوظ، وكان الرجل من الدراويش يهجم على النار بغير سلاح ولا يبالي الموت، فقصارى جزائه من هذه الشجاعة كان أن يموت
وكانت العقيدة زاد المسلمين في جيوش عمر فشجعوا وظفروا وعاشت عقيدتهم بعد من ماتوا، لأنها كانت عقيدة يحارب معها الغد وتجري في طريق التقدم، فلا تتصارع العقيدة والغد إلا كان النصر للغد على العقيدة، ولا يتفقان ويغلبهما غالب كائناً ما كان حظه من الجند والسلاح.
عباس محمود العقاد
منهاج الذاتية الأدبية
للدكتور زكي مبارك
صديقي . . .
كتبت إليّ تسأل عن المراد من (الذاتية الأدبية) وهي كلمة يكثر ورودها على سنان قلمي، ثم تدعوني إلى رسم المنهاج، إن كان لها منهاج
وأجيب بأن الذاتية الأدبية هي أن تكون أنت أنت فيما تكتب وفيما تقول، بحيث يشعر من يقرأ لك، أو يستمع إليك، أنك تنقل عن قلبك وضميرك، وأن لك خصائص ذاتية لا يزاحمك فيها سواك، وأنك لو نشرت مقالاً بدون إمضاء لتم عليك الروح قبل أن يتم عليك الأسلوب، فإن الأساليب قد تتشابه في كثير من الأحايين تشابهاً يسمح بإضافة آثار كاتب إلى كاتب، أو شاعر إلى شاعر، أو مؤلف إلى مؤلف، عند طيّ الأسماء أما التشابه في الأرواح فهو نادر الوجود، ولعله لا يقع إلا عند ضعف الأرواح، كما تتشابه الغرائز أو تتماثل عند صغار الطير والحيوان
ولتوضيح هذه النظرية أذكرك بمعلقة امرئ القيس ومعلقة لبيد، فمعلقة امرئ القيس يمكن أن تضاف إلى غيره من الشعراء، ويمكن لأي شاعر أن ينظم مثلها بلا عناء، أما معلقة لبيد فهي شعر لبيد، ولن يحاكيه فيها شاعر، ولو قضى العمر في رياضة النفس على الاقتداء
وبفهم هذه النظرية تتضح مشكلةٌ عجز عن حلها من تحدثوا عن المتحول من الشعر الجاهلي، لأنهم يبنون أحكامهم على الأساليب لا على الأرواح؛ فرقّة الأسلوب هي عندهم خَصيصة حضرية، وجزالة الأسلوب خَصيصة بدوية، وعلى هذا يقاس، كما صنع سعادة الدكتور طه بك حسين
الروح هو الأصل في تقدير القيم الأدبية، وعن الروح يتفرع الأسلوب. ولو شئت لقلت إن لكل كاتب أساليب تختلف باختلاف مقامات الإنشاء، كما تختلف نظرات العيون باختلاف مقامات الحديث، وكما تختلف نبرات الأصوات لمثل تلك الأسباب، ثم يبقى الروح الذي يدل على صاحبه في جميع الحالات بلا استثناء

فانظر أين أنت من هذه الحدود: أينم عليك روحك؟ أينم عليك أسلوبك؟ أتنم عليك التبعية
الذليلة في الروح والأسلوب لأحد الكتاب أو أحد الشعراء
أنظر أين أنت، فأنا أحب أن أعرفك بالروح قبل أن أعرفك بالأسلوب، وافهم جيداً أنه لا قيمة لأديب بلا روح، روح أصيل تعرفه بسيماه، ولو أقبل عليك ملثّماً مع ألوف من الأرواح
هل قرأت سورة يوسف؟
في تلك السورة الكريمة آيةٌ صريحة في أن يعقوب وجد ريح يوسف قبل أن يصل القميص، وأنه شُفِي من عماه عند وصول القميص
فهل تفهم المراد من هذا الرمز الطريف؟
هل تفهم كيف يدرك الأعمى أشياء بطريق لا سمع فيه ولا لمس؟
هذا هو الروح الذي أحب أن تلتفت إليه في حياتك الأدبية؛ الروح الذي يدل عليك من أول سطر، أو من أول حرف، قبل أن يرى القارئ اسمك في خاتمة مقالك، فإن وصلت إلى هذا فأنت من أصحاب الذاتية
ولكن كيف تصل؟
هنا يبدأ الحديث عن المنهاج:
يجب أولاً أن تحرر عقلك وقلبك وروحك من جميع الأوهام والأباطيل والأضاليل. ومعنى هذه الوصية أنه يجب أن تنظر في جميع الأشياء وجميع المعاني نظرة استقلالية منزهة عن الخضوع لنظرات من سبقوك ولو كانوا من أعاظم الرجال، لأن الغرض هو أن تصبح روحك جارحة من الجوارح، وهي لا تصير كذلك إلا إن عودتها الفهم والإدراك بلا وسيط. وهل تكون الروح أقل قيمة من الرِّجل، يا بني آدم، والرجل لا تمشي إلا إن عودناها المشي؟
وإذا كان علم السباحة لا يُعّرف بالوصف، وإنما يُعَرّف بالتدريب على مغالبة الماء في أيام أو أسابيع، فعلم الروح لا يدرك بالوصف، وإنما يدرك بتدريب الروح على التذوق والتفهم في أعوام أو أزمان
أراد سابح عبور النيل فغرق، وأراد سابح عبور المانش فنجح، مع أن السباحين توأمان. فكيف نجح هذا وغرق ذلك؟ يرجع الفرق إلى اختلاف التمرين والتدريب. وما يقال في القوة الجسمية يقال في القوة الروحية. فعاود روحك بالتمرين والتدريب في كل وقت، واحفظها من الغفلة عن إدراك دقائق الفروق بين الأشياء والمعاني، وعودها التفكير في جميع ما ترى عيناك، وما تسمع أذناك، وما يهجس به الخاطر في اليقظة أو في المنام، فالنوم كلمة سوقية وليس له مع حياة الروح وجود
إن عملت بهذه الوصفة عاماً أو عامين ظفرت حتماً بالحاسة الذوقية، وهي مفتاح الظفر بالذاتية الأدبية، فتوكل على الله وابدأ من هذا اليوم
ويجب ثانياً أن توطن النفس على الغربة الأبدية ولو كنت في دارك وبين أهلك، فالمفكرون في جميع العصور غرباء
لن يكون لك ظهير غير قلمك، ولن يكون لك نصير غير روحك، فاعرف أين تضع قدمك قبل أن تخاطر بنفسك فتصحب رجال القلم البليغ
إن صحبتنا متعبة ومضنية ومؤذية، لأن طريقنا أشواك من تحتها أشواك، وقد رحبنا بالظمأ والجوع، وبما هو أفتك من الظمأ والجوع، في سبيل الذاتية الأدبية، فانظر كيف تصنع إذا ضَعُفتَ عن السير في بداية الطريق، أو في منتصف الطريق، طريق الموت أو الخلود
أنا أرحمك فأنهاك عن الاحتراق بنار الأدب، وليتني وجدت من ينهاني قبل أن أحترق!
إن صريع الأمواج يجد من يمدّ له يد الإنقاذ والإغاثة، أما صريع النيران فلا منقذ له ولا مغيث، ونحن صرعى النيران لا الأمواج
إن اللصوص يتعاطفون فلا يشهد بعضهم على بعض، ولا يكيد أحدهم لأخيه، ولسنا لصوصاً حتى نعِدك ونمنّيك، وإنما نحن أدباء يكتب أحدنا لزميله صحيفة الاتهام، بلا تورع ولا استحياء
ارجع قبل أن تحترق، أيها الخاطب لما يسمونه الأدب الرفيع
ولو أني أملك الرجوع لرجعت، فارجع أنت قبل أن يصعب عليك الرجوع، وقبل أن

تصير الاستغاثة فوق ما تطيق
كان شيخنا العظيم (عبد الحميد بن يحيى الكاتب) زودنا بنصائح تحفظ كرامة رجال الأقلام، فهل سمعنا وأطعنا؟ هيهات ثم هيهات!
لا يخدعك السراب الخداع فتتوهم أن احتراف الأدب أنفع من الاتجار بالتراب، ولا تُطِع المضللين من أدعياء الأدب إلا إن ارتضيت إطاعة الشياطين
لقد نصحتك ونصحتك ثم نصحتك، فإن رأيت أن هذا النصح لم يؤثر في نفسك، ولم يصّدك عن عزمك، فأقبل ثم أقبل على الاحتراق باللهب المقدس، لهب الأدب، فنحن وحدنا الأحياء، ونحن وحدنا الخالدون، ولأعدائنا الموت والفناء!
إن كَلمةً تُضَمُّ إلى كلمة في ذكاء ولوذعية أشرف وأعظم وأنفع من كنوز تضاف إلى كنوز؛ وإن جود الله بالفكر والروح على من يصطفيهم من عباده، لهو أطيب الهبات، وأكرم الأرزاق
أقسم الله بالقلم ولم يقسم بالمال، ونحن بالله مؤمنون!
هل رأيت الله تخلى عن أديب سليم القلب قوي الروح؟
لقد خرج المتنبي هارباً من مصر في ليلة عيد، فكم ألوفاً من الدنانير أنفقت في مصر في تعليم أبنائها حكمة المتنبي؟
وقد مات محمد عبده بعلة أورثه إياها عقوق معاصريه، فكم ألوفاً من النفوس حاولت التشرف بأنها رأته قبل أن يموت؟
وعانى مصطفى كامل الكاتب والخطيب أشتات التهم الأواثم، ثم كان من خصومه وحاسديه ومبغضيه من اشترك في صنع التمثال
ومرت آلاف السنين، والناس جميعاً يستوحشون من الليل، فكان غناء المصريين: يا ليل. . . يا ليل!!
صديقي:
أتراني شرحت المراد من الذاتية الأدبية، ثم رسمت لك المنهاج؟
هذه ومضة من ومضات، وسأرجع إلى إرشادك بالتفصيل، حين أطمئن إلى أنك أحد الأوفياء بالعهود.
زكي مبارك
مهمة التعليم الجامعي
لمناسبة إنشاء جامعة فاروق الأول
للأستاذ عبد الله حسين
لعل من أمارات التوفيق أن يتاح لمصر إنشاء جامعة جديدة شاملة مختلف الكليات، وهي جامعة فاروق الأول في الإسكندرية التي ستفتتح في العام الدراسي الجامعي القريب. فقد حقق هذا أمنيةً طالما جاشت في الصدور؛ وسيكون من علائم التوفيق أيضاً أن يتاح لأبناء الصعيد جامعة في عاصمته (أسيوط)، وأن تتوالى بعدئذ الجامعات، فتصبح مصر موطناً صادقاً للثقافة في الشرق الأوسط، وتستعيد مصر حضارتها العلمية القديمة، حيث تخرج الأساتذة للعالم الشرقي العربي، وإن شئت للعالم كله
غير أن إنشاء الجامعات لا يحقق وحده هذه الأماني، متى كان الأمر مقصوراً على الصور والهياكل والأشكال. كما أن إنشاء البرلمانات وإقامة الدساتير ذات المواد الكثيرة، لا يحقق بذاته المعنى النيابي التمثيلي المنشود، مهما تتألف هذه البرلمانات من مجالس الشيوخ والنواب، بما تضمه من مكاتب ولجان؛ ومهما يكن للنواب من الحق في تقديم الأسئلة وتوجيه الاستجوابات وحق طرح الثقة، ما دام أن النواب لم يستطيعوا أو لا يستطيعون بالفعل، لا بعمل الدستور، أن يسقطوا الوزارات؛ بل إن من الوزارات ما يستطيع أن يسقط المجالس النيابية، ويلغي الدساتير، ويستبيح كل ما حرمته
ليس من شك في أن كل أمة تشغل بالعرض عن الجوهر، ويصرفها الشكل عن الموضوع - لن تظفر بما تبتغي من الأغراض، إذ أن هذه الأغراض ستظل أمنية وخيالاً بديعاً وحلماً جذاباً
من أجل هذا، نرجو أن يتاح لجامعة الإسكندرية ما لم تتح الملابسات لجامعة القاهرة. فإن هذه الجامعة لا تزال جامعة شعبية أو في حقيقتها مجموعاً من المدارس العالية، غايتها عقد امتحانات وتوزيع شهادات، وانصراف حملتها بعدئذ إلى الوظيفة.

لم يتهيأ لجامعة القاهرة إلى اليوم أن ينصرف أساتذتها وطلبتها إلى البحث العلمي كغاية أولى للجامعة. ذلك أن نشأة الجامعة الأولى بجمع المدارس العالية التي كانت قائمة يومئذ تحت اسم الجامعة، والوقت السياسي، والتيار الحزبي الذي قامت فيه الجامعة، وفترة
التحول من السيطرة الأجنبية على التعليم إلى الحكم التعليمي الوطني، وتشبع الكثيرين من رجال الجامعة وطلبتها بالطموح السياسي، والحفاوة بالأعمال الإدارية التي تطغي على القائمين بها لوناً من الجاه الحكومي؛ كل هذا قد صرف الأذهان كثيراً عن التجرد للبحث العلمي دون سواه من الغايات المادية والسياسية
وحسبنا أن نشير إلى ذلك العدد الكبير من رجال الجامعة الذين غادروا مقاعد التدريس إلى مناصب الدولة الأخرى، وتطلع من خلفوهم إلى هذه المناصب ذاتها
فإذا استطاعت الجامعة الوليدة، جامعة الإسكندرية الجديدة، أن تحقق المعنى الجامعي، بأن يقف أساتذتها وطلبتها جهدهم على المساهمة في البحوث العلمية، وأن يشاركوا في المجهود الذي تقوم به الجامعات الأخرى، حققنا الغاية من إنشاء الجامعة، على أن ندع لجامعة القاهرة مهمتها الشعبية من حيث تخرج حملة شهادات للتوظف، تاركين للزمان أن يهيئ لها تحولاً صادقاً إلى المعنى الجامعي الحقيقي.
كان المعنى الجامعي متحققاً في الأزهر في أشد الأزمات التي نزلت به، ذلك أنه كان هناك شيوخ وطلبة تجردوا عن المادة والجاه، للعلم الأزهري، يدرسونه في الأزهر والمسجد والدار وعلى قارعة الطريق وفي الأفراح والمآتم: كان الشيخ يتحدث إلى الناس في كل مكان جاعلاً علمه شائعاً لا يبغي من وراء ذلك جزاءً أو شكراً. أما إذا كان شيوخ الأزهر لم يوفقوا يومئذ في المساهمة العامة للبحث العلمي الإنساني، فإن مرجع هذا إلى الأحوال السياسية وفساد الحكم والحكام وعدم التشجيع.
فالتجرد للعلم والانصراف عن المادة أو توجيهها لخدمة البحث العلمي - هو العنصر الأول للجامعة لكي لا تكون اسماً أو رمزاً لا يدل على حقيقة
نريد علماء لا نشغلهم بالتقليب ولا يشغلون أنفسهم بالدرجات والرتب والأوسمة واتخاذ التدريس وسيلة إلى الجاه الحكومي على صورة من الصور. علماء يحج الناس من مختلف البقاع للتشرف بالاستمتاع إليهم والمباهاة بلقائهم واتخاذ مؤلفاتهم مصابيح للاهتداء ومراجع للاقتداء
وعندي أن هذا سيكون ميسوراً لجامعة الإسكندرية أكثر من جامعة القاهرة؛ حيث تتجمع فيها أندية السياسة والصحافة والأحزاب والألقاب وألوان الجاه، لن تفتأ تجلب إلى جاهها
رجال الجامعة والتعليم. أما الإسكندرية فهي بمنجى عن هذا الجاه. في الإسكندرية الهدوء والصفاء وزرقة السماء والماء - الأمر الذي ينشده العلماء ولا يجدونه في القاهرة الصاخبة المتقلبة الضخمة
فعلى رجال الدولة - والأمر كما أوضحنا - أن يهيئوا الجامعة الإسكندرية ذلك الجو الجامعي، وتلك البيئة العلمية الحقة، لكي تستعيد مفاخر جامعة الإسكندرية القديمة
عبد الله حسين
مشاركة الأدب الإنجليزي في الدراسات العربية
نقلاً عن (برنارد لويس)
للأستاذ عبد الوهاب الأمين
بداية الاستشراق - 2
لقد رأينا كيف ذهب العلماء الإنجليز في القرون الوسطى إلى أسبانيا وصقلية لتلقي العلوم من العرب، وكيف نشروا ما اكتسبوه من عودتهم إلى إنجلترا. وسنتطرق الآن إلى تطوير جديد في الدراسات العربية، وهو ظهور ما ينبغي أن يسمي أوائل المستشرقين بالمعنى الذي تؤديه كلمة الاستشراق في العصر الحاضر. فقد حدثت تغيرات كبيرة في خلال السنين التي مرت على الزمن الذي مر بين الدور الذي درسناه في حديثنا السابق، والدور الذي سنأتي إليه الآن. فتقدمت أوربا تقدماً ذا شأن في العلم والمعرفة، وفقد العرب تفوقهم القديم، ولم يعد من الضروري للدارسين من الأوربيين أن يتطلعوا إلى مدرسين من العرب، ليتلقوا منهم العلوم العامة، وأخذنا نشاهد نوعاً جديداً من الاستشراق، وهو ذلك النوع الذي يعتبر أساً للاستشراق الحديث؛

فقد أخذ الباحث الإنجليزي يدرس العربية لا لتحصيل ما يمكن أن يأخذه من العالم العربي من فلسفة وعلم، بل من أجل الثقافة العربية نفسها. وللمرة الأولى شرع الإنجليز في دراسة اللغة العربية والآداب العربية دراسة جدية. وكان عملهم - كعمل المستشرقين المحدثين - ذا نفع للعرب بقدر نفعه للفرنك، وهو ينطوي على جمع القواميس العربية والنحو والصرف ونشر المخطوطات العربية - قبل أن يتم طبعها في الشرق بزمن طويل - والبحث العلمي في تاريخ العرب وآدابهم، وغير ذلك من مظاهر النشاط التي تدخل في هذا المضمار. وقد بدأت هذه الحركة في القرن السابع عشر، وفي هذا القرن أنشئ منصب أستاذية اللغة العربية في جامعتي أكسفورد وكامبردج؛ وأخذ الأساتذة الإنجليز يدرسون اللغة العربية لعدد من المتشوقين لها من الطلاب، وطبعت أوائل الكتب العربية في إنجلترا. وعلينا أن نأتي بشيء من التفصيل لحياة بضعة أفراد من ذوي المشاركة في هذه الأعمال:

إن الرجل الذي يعرف بصورة عامة بأنه (أبو الدراسات العربية) في إنجلترا هو (وليم بدويل) (1561 - 1632) وله مقالة طريفة يؤكد فيها أهمية اللغة العربية وضرورة تعلمها، وهو يصفها بكونها (لغة الدين الوحيدة، واللغة الرئيسية للدبلوماسية والأعمال من الجزر السعيدة إلى بحار الصين).

وتكلم عن نفعها في الآداب والعلوم. ولقد كان لبدويل بعض الشهرة في عصره، وعرف في جميع أوربا بأنه عالم بالعربية، وكان أهم أثاره معجماً عربياً في سبعة مجلدات لم يطبع لسوء الحظ.

وفي وسعنا أن نذكر في بعض كتبه بعض الأصول العربية التي طبعت في إنجلترا، وبعض الدراسات عن القرآن، ومعجما للألفاظ العربية المستعملة في اللغات الغربية من العهد البيزنطي إلى عهده هو

وهناك شخصية أخرى هي شخصية (أدموند كاستل) (1606 - 1658) وهو أحد أوائل أساتذة كامبردج في اللغة العربية، وقد كان الأثر الذي أفنى فيه حياته هو (قاموس اللغات السامية)، استنفد تصنيفه منه ثمانية عشر عاماً، وطبع لأول مرة في سنة 1669. ويتكلم مؤلفه في مقدمته عن (الإثني عشرة عاماً التي انقضت في العمل المستمر لما يزيد على 16 أو 18 ساعة في اليوم - ونادراً في ما قل عن هذا المقدار - من السهاد، وضنى الجسم، وضياع المال). وقد كان هذا القاموس - وهو الأول من نوعه - عظيم لأهميته وأعيد طبعه عدة مرات في إنجلترا وأوربا. ونذكر من جملة آثار كاستل الأخرى عجالة عن أهمية اللغة العربية، وتعليقاً على أبن سينا، ومجلد أشعار عربية مهدي إلى الملك شارلس الثاني ملك إنجلترا

ومنهم (جون كريس) (1602 - 1652)، وهو أحد الرياضيين المشهورين. وكان وقتاً ما أستاذ علم الهيئة في جامعة أكسفورد. وكان كثير الأسفار إلى الشرق الأدنى وعلى الأخص إلى مصر، ودرس اللغة العربية والفارسية دراسة جدية، واقتنى مجموعة كبيرة من المخطوطات العربية والفارسية، والنقود والجواهر، وطبع أجرومية صغيرة للغة الفارسية. وكان اهتمامه الرئيسي في الناحية الرياضية من أدب المسلمين فنشر عدة نصوص ودراسات في هذا الموضوع، وكان أخوه (توماس كريفس) يعرف العربية أيضاً والفارسية ونشر بضع مقالات

ونذكر من جملة العلماء في العربية الآخرين في القرن السابع عشر (إبراهام ويلوك) وهو أول أستاذ للغة العربية في جامعة كامبردج؛ و (ساموبل كلارك) صاحب عجالة في القريض العربي ومفردات بعض أسماء الأماكن العربية؛ و (بريان والتون) الذي طبع الإنجيل بعدة لغات شرقية؛ و (وددلي لوفتس) وهو أحد علماء وفقهاء القانون الإرلندي.

وقد لعب (جون سلدان) (1584 - 1654)، السياسي القانوني دوراً مهماً في الحياة الإنجليزية في ذلك العهد، وكان يعرف عدة لغات شرقية منها اللغة العربية فضلاً عن معلوماته الأخرى. وقد نقح ونشر بعض النصوص التاريخية، وترك وراءه مجموعة من المخطوطات الشرقية

ولقد كان أعظم العلماء بالعربية في ذلك الحين بلا منازع هو (ادوارد بوكرك) (1604 - 1691) الذي كان أول من شغل منصب أستاذ اللغة العربية في جامعة أكسفورد، وأول المستشرقين الأوربيين الذين قاموا بأعمال من الدرجة الأولى حقاً؛ فقد بدأ بوكرك دراسته للغة العربية في أوائل عمره؛ وكان وليم بدويل يرعاه، كما قام (ماثياس

باسور) - وهو أحد النازحين من ألمانيا بسبب الاضطهاد - بتعليمه مدة من الزمن في جامعة أكسفورد. وذهب في سنة (1630) إلى حلب حيث قضى هناك خمس سنوات أتقن في خلالها اللغة العربية كتابة ولفظاً، واقتنى مجموعة من نفيسة من المخطوطات العربية جاء بها معه عند عودته إلى أكسفورد، وبذلك أنقذها من التلف الذي كان من المحتمل أن يحل بها، وأنشأ لنفسه صداقات مع كثير من الحلبيين وعلى رأسهم (الشيخ فتح الله) أحد العلماء الذين درس عليهم، وقد بقى صديقاً له مدى حياته.

وفي سنة 1636 عندما عاد بوكرك إلى إنجلترا عين في المنصب الذي أنشئ حديثاً للغة العربية في أكسفورد، حيث حاضر في الأدب العربي وقواعد اللغة العربية، وبدأ فصوله تلك بمحاضرة عن أهمية اللغة العربية والأدب العربي. وشرع في سلسلة محاضرات يدرس فيها أقوال الإمام علي.

وفي سنة 1637 زار مصر للمرة الثانية بغية الحصول على معلومات جديدة ومخطوطات جديدة، وقد عاد إلى أكسفورد في سنة 1641 وخصص أيام حياته الأخيرة للعمل المنتج في إنجلترا، وكان (جون كريفس) الرياضي قد صاحبه في رحلته الثانية.

وفي خلال إقامته الطويلة في أكسفورد - حيث كان يجلس في ظل شجرة التين التي جاء بها معه من سوريا، والتي لا تزال موجودة إلى الآن، وهي أقدم شجرة من نوعها في إنجلترا - أخرج بوكرك عدداً كبيراً من الكتب المهمة نذكر منها ما يلي:

1 - (نموذج من تاريخ العرب): وهو نصوص من تاريخ أبي الفرج، مردفة بسلسلة من الدراسات المستفيضة عن النواحي المختلفة لتاريخ العرب، وعلومهم، وآدابهم، ودينهم. وهذا الكتاب من أهم آثار المستشرقين، وظل يحيل هذه المنزلة لدى العالم مدة طويلة. طبع في أكسفورد سنة 1649 وأعيد طبعه في سنة 1806

2 - لامية العجم: وهي طبعة انتقادية لقصيدة الطغرائي الخالدة، وقد أوقفت بترجمة وشروح وملاحظات، وطبعت في أكسفورد سنة 1661

3 - المختصر في تاريخ الدول: وهو النصر الكامل لتاريخ أبي الفرج مع ترجمته.

لقد وسم (بورك) بحياته وأثاره دوراً من أدوار الدراسات الأوربية الشرقية بميسمه، وكان ذا شهرة مستفيضة في زمنه، ويدين له جميع أنحاء العالم الذين خلفوه بدين كبير. وكان العلماء في جميع أنحاء أوربا والشرق يكتبون إليه طالبين المعونة والإرشاد، ويفد إليه العدد الكبير من الطلاب من البلاد القصية - كرومانيا مثلاً - إلى أكسفرد، لدراسة اللغة العربية على يد أعظم أساتذتها الأحياء في أوربا. ولقد وصفه قرينه في معرفة اللغة العربية المستشرق الهولندي كوليوس أستاذ اللغة العربية في جامعة ليدن نفسه بأنه (لا يدانيه أحد في عالم الاستشراق). وقد ترك زيادة على الكتب التي مر ذكرها عدداً من الدراسات الأخرى ومجموعة من (420) مخطوطة اقتنتها بعد موته مكتبة أكسفورد ولا تزال هناك حتى الآن، وهي تكون جناحاً ذا قيمة من القسم العربي من تلك المكتبة.

ولقد خلف ستة أبناء كان أكبرهم - واسمه إدوارد بوكرك أيضاً - (1684 - 1727) قد تابع خطة أبيه واعتنق الدراسات المشرقية، وقام بطبع عدة كتب من ضمنها الطبعة التي لم تكمل لتاريخ مصر لعبد اللطيف، وترجمة لإحدى خوالد ابن طفيل الفلسفية وعلى ذلك كان القرن السابع عشر دور تطور عظيم في تاريخ الدراسات العربية في إنجلترا. ويمكن إرجاع سبب الاهتمام الجديد بالدراسات المشرقية إلى عدة عوامل يأتي العامل اللاهوتي في أولها ولا شك، فقد كان من المفهوم في ذلك الحين أن اللغتين العربية

والعبرية متقاربتان كل التقارب. ومن المؤمل أن تؤدي دراسة اللغة العربية إلى إلقاء ضوء جديد على (العهد القديم). وأوغل من ذلك في الأهمية هو الإدراك الجديد لمنزلة اللغة العربية والتاريخ العربي من الوجهة الثقافية. ولقد شهد العصر المتقدم عهد إحياء جديدة للدراسة على أوسع معانيها؛ فشملت الاهتمام الجديد باللغات والدراسات الكلاسيكية، وكان من الطبيعي أن يدرك طلاب التاريخ البشري والمدنية أهمية اللغة العربية العظمى بين تواريخ الإنسان، وأن يعملوا على طلب المزيد من معرفتها. وقد كتب كل من بدويل وكاستل وبوكوك جميعاً مقالات عن أهمية اللغة العربية بصورة عامة، والحاجة إلى أن يدرسها رجال أكفاء

وينبغي أن نذكر أخيراً العلاقات المستجدة في التجارة والسياسة بين إنجلترا والشرق الأدنى، وما أطلقته من مصالح ومناسبات، فبفضل تلك المناسبات أتيح لبوكوك أن يقوم برحلتيه المثمرتين إلى الشرق، وكانت تلك المصالح متسعة الأرجاء ولم تقتصر على رئيس الأساقفة (لور) ولم يكن هو الوحيد الذي اهتم بنشر الدراسات العربية في إنجلترا، والمتبرع بالكرسي الأدبي للغة العربية في اكسفرد

وبالرغم من الاضطرابات التي أحدثتها الحرب الأهلية في نهاية القرن السابع عشر، فإن هذا العصر كان جديراً بالاعتبار، فقد تألفت فيه مراكز للدراسات العربية في اكسفورد وكامبردج، وطبع عدد كبير من الكتب، وأنشئ عالم جديد أنتج فيما تلا ذلك من العصور عدداً متتابعاً من الباحثين المشهورين الذين زادت آثارهم في ثروة الميراث الثقافي لكل من العرب وأوربا، وسنتكلم عنهم فيما يلي من هذه الفصول.

عبد الوهاب الأمين

ضرورة الإفصاح عن الرغائب

للأستاذ حسين الظريفي

كان مما تناولناه في مقال لنا سابق عن الرغائب، تلك القوة الديناميكية التي تتمتع بها الرغبة، وتندفع إلى الظهور؛ وما تلك القوة إلا وليدة ذلك الرباط الذي تربط به بالغريزة. والغريزة لا ريب تراث ذلك الماضي الطويل الذي يظل يتقهقر ويتقهقر حتى يتصل بأول الخليقة؛ فليس مما يقع في الإمكان أو يتصور في الأذهان، أن تبطل هذه الغرائز، أو ينعدم ما تتمخض عنه من الرغائب، ونحن لم نزل في ظروف وبين وقائع إن لم تكن مثل تلك التي احتضنت الإنسان الأول فإنها لها مقاربة. وما كان لبشر أن يحيا مجرداً عن الرغائب، وهي التي تشعره بوجوده وتدفع في طريق الأمل والعمل والحقيقة التي يدور عليها مركز ثقل الموضوع في هذا المقال، هي أن الرغبة لا تخلو إما أن تكون تطوراً لغريزة، أو عوضاً عنها. فنحن كنا نعيش بالغريزة العمياء، حتى إذا أبعدت الحياة في مراحل التقدم، أخذت بعض الغرائز تستحيل إلى رغائب بحيث لا يبقى لها من اثر فيما استحالت إليه، إلا ذلك المعنى الذي يدفع أو يمنع. ونحن إنما نطوّر الغريزة إلى رغبة، أو نستبدل هذه بتلك، بذلك العامل الفكري الذي تمتع به الإنسان منذ عهده الأول فحدا به إلى التقليد تارة وإلى التجربة مرة أخرى، حتى انتهى به المطاف في مراحله الكثيرة إلى أن اصبح مجموعة رغائب بقدر ما كان مجموعة غرائز

وأخذت الرغبة من أمها الغريزة ما لها من قوة وفتوة، وأصبحت في نفس الإنسان مظهر قلق من هذا، وعامل إقدام أو إحجام من ذاك، ولكنها على كل حال تأبى إلا أن تدُرك مالا يُترك، وإلا بقيت في النفس شغلاً شاغلاً أو علة دفينة. فنحن لا يمكن أن نشعر بالسعادة ولو كانت محدودة في النوع وفي الزمن، ما دامت إحدى رغائبنا القوية لا تصل إلى ما تريد الوصول إليه. تلك هي العلة في شكوى أكثرنا مما يقع لهم في الحياة، حتى تكاد تضيق بهم على الرغم ما لها من سعة وما فيها من متعة. فتيار هذا الشعور إنما يرجع إلى مصدره في أعماق النفس ولا شأن له مع الخارج

غير أن قضاء هذه الرغبة وحده لا يكفي في إيجاد الشعور بالسعادة، وإنما يجب أن يرى هذا القضاء على شكله النافع لمن قامت هي عنده ولغيره من الناس. فالرغبة في ذاتها لا

تمثل خيراً ولا شراً، وإنما تضر أو تنفع بالقياس إلى طريق إشباعها من جوع وإروائها من ظمأ؛ لذلك أمكن أن نتخذ من الرغبة مهما كان نوعها أو لونها، عامل نصر في معركة الحياة

إن في طيات النفس ضروباً من الغرائز إحداهن غريزة المقاتلة، غير أن هذه الغريزة لم تَعُد تفصح عن نفسها في أوساط الحضارة وفي أغلب الأحيان، كما كان يفصح عنها الإنسان الأول في بيئته المتأخرة وإدراكه المحدود؛ فبعد أن كان الأوائل من أهل القرون الموغلة في القدم لا يكتفون في إشباع هذه الغريزة بغير القتل والتمثيل، أصبح لنا من وازع الضمير ومن قوة القانون ما يحول دون الإفصاح عن الغريزة بلغتها الأولى، فقد تثور في داخلنا الرغبة في القضاء على الخصم، إلا أن مانعاً يقيمه الضمير، أو رهبة تبعثها العقوبة، أو هذه وذاك مجتمعين، يحولان دون تلبية الرغبة الأولية بذلك اللسان القديم، فنختار طريقاً آخر في أمين حاجة النفس إلى إيذاء العدو، فنتعقب

عيوبه ونعلنها للملأ أو نريه أنَّا له مهملون
إن من طبيعة الغريزة أنها لا تظهر إلا بما هي فيه وعليه من غير تلوين أو مراوغة. ذلك لأنها خلوة من التبصر والتدبر، فلا تعرف معنى لاختيار الأصلح في الهدف وطريقة الوصول إليه. ثم هي لا تقيم وزناً لقوة الظروف وماهية الوقائع، وإنما تتجه إلى الغاية في ذات الطريقة. لا تتلف ولا تتكلف. ولكن بظهور حياة التمدن وتقُّيد هذه الحياة بآداب الوسط الجديد وبأحكامه الآمرة أو الزاجرة، وجد المرء نفسه بحاجة إلى تعديل ما في بعض غرائزه الفطرية وإلى الاستعاضة عن بعضها الآخر بما دعوناه بالرغائب. وكانت هذه التطورات والتغيرات المتلاحقة على الغريزة أثراً لتلك المراحل الطويلة التي قطعها الإنسان في سبيل التقدم، وصدى لذلك الصوت العميق المنبعث من أعماق الضمير
يتضح من كل ما تقرر أن الخلق ليس إلا مظهراً لرغبة تقيم في العقل، ما أعلن منه وما أبطن، فإذا نحن أردنا استبدال خلق بآخر أو إجراء تعديل فيه، فلا مندوحة لنا عن التعرف بتلك الرغبة التي صدر عنها ذلك الخلق، ومن ثم إشباعها بصورة حميدة تقضي على شذوذ في السلوك. أما إذا نُظر إلى الخُلق وحده، وأهملت الرغبة التي تكمن وراءه، فإن كل مسعى في إصلاحه يذهب سدى
وأفضل ما يضرب به المثال في هذا المجال، ذلك الباعث الأول والدافع الأصيل في النفس وأعنى به (الغريزة الجنسية) فإن إشباعها وإرواءها مما لا مفر منه ولا محيص عنه. فإذا اصطدمت هذه الغريزة بما حال دون الإفصاح عنها، واضطرها إلى التواري من مجرى الشعور إلى ما وراءه - أبت وهي في قاع النفس إلا أن تضطرب وتلتهب وترسل في وسطها المظلم تيارات خفية من الأوامر والنواهي، تظهر على المصاب عند تلبيتها بمظاهر الشذوذ
فنحن نبدو عاجزين عن معالجة العليل إذا فصلنا الشذوذ عن الرغبة الغريزية التي تحيط به وتغذَّيه؛ فالإصلاح يجب ألا يتناول الخلق ذاته، وإنما يجب أن يتجاوزه إلى ما وراءه من بواعث خفية هي ولية الأمر في كل شذوذ عن المجموع، وفي كل ظاهرة تمر، وأخرى قد تصل إلى مرتبة الجنون، أو تؤدي إلى ارتكاب الجريمة
وقد ظهر أن هذه الغريزة قد تستفيد طاقتها وتستفرغ وسعها في صور شتى هي خلاف اجتماع الذكر بالأنثى، كالانصراف إلى الرياضة، والاشتغال بالفنون الجميلة؛ فإذا نحن عرفنا مصدر الشذوذ في الخلق وأرجعناه إلى ظمأ هذه الغريزة، كان في مكنتنا تسوية هذا الشذوذ بإزالة ذلك الظمأ. . . تلك هي الطريقة الصحيحة في تقويم ما أعوج وبناء ما انهدم من جوانب أخلاقنا واتجاهاتنا وأهدافنا في الحياة. والأمر أهون مما يُظن متى كشف عن دخيلة النفس، واستجيبت دعوة تلك الرغبة بما يرفع عنها الضغط ويعلو بها القاع
حسين الظريفي
التصوير عن العرب
كتاب المرحوم أحمد تيمور باشا
للأستاذ صلاح الدين المنجد
كان أحمد باشا تيمور، أمة في النبل والعلم والأخلاق؛ وركناً من أركان العربية في الشرق؛ وكان نقابة بحّاثة متتبعاً. ما طرق موضوعاً إلا محص وحقق وجلّى، وما ألف إلا جمع وأطرف واستقصى. ثم مضى، يرحمه الله، وخلّف ما يدل على سعة اطلاع، وغزارة علم وَفِرَة مطالعة. وما خزانته النادرة إلا دليل فضله وآية قُرارته وعلمه كان، رحمه الله، إذا ألف أتى بما يعجز الكثيرون من المتتبعين والمحققين والجماعين عن إدراكه وجمعه. ولقد ترك لنا كثيراً من التواليف النوادر الحسان، منها كتاب (التصوير عند العرب) هذا. ولقد عنيت في الأيام الخوالي بهذا الموضوع، فلم أعرف أحداً بلغ فيه، من دقة الاستقصاء، وجودة الانتقاء، وندرة المنتخب، وحسن التبويب والترتيب، ما بلغة العلامة المؤلف. فقد جعله على خمسة عشر باباً؛ فساق ما جمعه عن التصوير على الثياب والستور، والأقداح والأواني، والمصابيح والسلاح، والنقود، والشارات والبنود، والكتب والصحف والألواح. ثم بحث في التماثيل، منذ أيام الجاهلية إلى عصور المتأخرين الثابتة منها والمتحركة، الصامتة والمصوَّته، وتماثيل الصبيان، وتماثيل الزهر، والحلوى؛ وختم الكتاب بفصل نادر ذي شأن عن المصورين العرب

وقد خص الدكتور زكي محمد حسن هذا الكتاب الثمين بعنايته، فرد نصوص الكتاب الثمين بعنايته، فرد نصوص الكتاب إلى أصولها وصفحاتها، وألحق به تعليقات وشروحاً وتفصيلات بلغ في بعضها الذروة من حيث التحقيق والتمحيص وجمال البحث، ككلامه على التصوير عند المسلمين

وقد بدت لي، أثناء مطالعتي هذا الكتاب، ملاحظات من مآخذ وإضافات أردت نشرها تباعاً في هذه المجلة الغراء

1 - ساق المؤلف خبر بساط أم المستعين الذي صُوّرت عليه صورة كل حيوان ص 29؛ فقال الأستاذ زكي محمد في التعليقة ذات الرقم (136): لم نقف على المرجع الذي أخذ هذا الخبر منه. وقد وجدنا نحن هذا الخبر في كتب شتى؛ كعيون التواريخ (مخطوطة المكتبة الظاهرية بدمشق) وكالمستطرف في كل فن مستطرف. فقد جاء في المستطرف، وهو لا يختلف عما ذكره ابن شاكر في عيون التواريخ ما يلي: (قال أحمد بن حمدون النديم: عملت أم المستعين بساطاً على صورة كل حيوان من جميع الأجناس، وصورة كل طائر من ذهب، وأعينها يواقيتُ وجواهر)

ويستدل من تتمة الخبر أن بعض هذه الصور كان تماثيل، وربما كانت كلها تماثيل. . . فقد جاء بعد ذلك (. . . وأنفقت عليه مائة ألف ألف دينار وثلاثين ألف دينار، وسألته أن يقف عليه، وينظر إليه، فكسل ذلك اليوم عن رؤيته. قال ابن حمدون: فقال (يعني المستعين) لي ولأترجة الهاشمي اذهبا فانظر إليه. وكان معنا الحاجب، فمضينا ورأينا؛ فوالله ما رأينا في الدنيا شيئاً أحسن منه، ولا شيئاً حسناً إلا وقد عمل. فمددت يدي إلى غزال من ذهب عيناه ياقوتتان، فوضعته في كمي. ثم جئناه فوصفنا له حسن ما رأينا. فقال أترجة الهاشمي يا أمير المؤمنين إنه قد سَرقَ منه شيئاً، وغمز على كمي. فأريته الغزال. فقال بحياتي عليكما أرجعا فخذا ما أحببتما. فمضينا، فملأنا أكمامنا وأقبيتنا) واقبلنا نمشي كالحبالى فلما رآنا ضحك ضحكاً وسَر سروراً عظيماً .. .)

2 - نقل المؤلف عن النويري وصف قصر المتوكل (البرج) فقال:

وكان فيه صور عظيمة من الذهب والفضة، وبركة عظيمة غشى ظاهرها وباطنها بصفائح الفضة وجعل عليها شجرة من ذهب فيها طيور تصفر سّماها طوبى .. .)

قلت: وفي كتاب الديارات للشابشتي الذي فرغت من تحقيقه تتمة للوصف لها علاقة بالبحث. قال الشابشتي: (وعُمل له سرير من الذهب كبير؛ عليه صورتا سبعين عظيمين، ودرج عليها صور السباع والنسور وغير ذلك مما يوصف به سرير سليمان ابن داود عليه السلام. وجعل حيطان القصر من داخل وخارج ملبسة بالفسيفساء والرخام المذهب)

3 - أضف إلى ما ذكره المؤلف في باب التصوير على الجدران ما يلي:

وقد وجُد على جدران قصر الحير الغربي (وهو القصر الذي كان لهشام بن عبد الملك،) واكتشف أخيراً في بادية الشام بين تدمر والقريتين؛ ونقل إلى دمشق، وأعيد تركيب أجزائه) أقول: وجدوا على جدرانه وأرضه كثيراً من الصور والزخارف الملونة؛ من أعظمها ما عُثر عليه داخل غرفتين فيه، رُصَّفتْ أرضها بالجصَّ المصور. تمثل الأولى سماوة امرأة تحمل بين ذراعيها سلّة فيها ثمار، وقد التف حول عنقها ثعبان، وفوقها صورة (قنطورسين) بهيئة رَجُلين نصفهما الأسفل ثعبان له مخالب سبع. ورسم في أرض الغرفة الثانية مرزبان على جواده يطارد غزلاناً يرميها بالسهام. وصورة قينتين، الأولى تنفخ بمزمار، والثانية تضرب بمرهب الخشب على عود ذي خمسة أوتار. وحجم هذه الصورة يعادل حجم الإنسان ويزيد عنه في بعضها، وهي متقنة الصنع، زاهية الألوان، ساذجة الخطوط طبيعية الحركات)

4 - أضف إلى ما ورد في باب التماثيل ما يلي:

ومما وجُد على قصر الحير المنوه به في الفقرة السابقة، تمثال امرأتين كانتا في مدخل القصر إحداهما جالسة، والثانية مستلقية على ظهرها تشبه صنعتهما التماثيل التدمرية المعروفة. وكأنهما نقلتا عن صورة الجاريتين اللتين مر بهما أوس بن ثعلبة فاستحسنهما وأنشد فيهما:

فتاتئ أهلُ تدمر خبِّراني=ألمَّا تسأما طول المقام

قيامكما على غير الحشايا=على جبل أصمَّ من الرُّخام

5 - أضف إلى الباب نفسه (التماثيل) ما ذكره البيروني في الجماهر (طبع كرنكو حيدر آباد الدكني) (أن زبيدة اشترت لعبد الله بن المخلوع قضيباً من زمرد قدر ذراع بأربعة وثمانين ألف دينار، ليلعب به يوم أعذاره. وكان على رأسه طائر من ياقوت أحمر وعيناه من الجوهر)

6 - ذكر المؤلف نقلاً عن طبقات الشافعية للسبكي ص 86 أن أبا علي الروذباري (اشترى أحمالاً من السكر، فصُنع له منه جدار عليه شرفات

قلت: وفي ربيع الأبرار للزمخشري خلاف هذا، قال: (أشترى رجل أحمالاً من السكر، وأمر باتخاذ مسجد من السكر ذي شَرفَ ومحاريب وأعمدة منقوشة. ثم دعا الفقراء فهدموه ونهبوه)

7 - وثمة خبر آخر عثرت عليه في هذا الباب. قال صاحب ذيل زهر الآداب عند كلامه على وليمة العباس بن الحسين ابن. . . لأحمد بن بويه (واصطنع في البستان الأعظم على البركة التي يجتمع بفنائها دجلة والفرات، قصراً مبنياً من السكر على أربع طبقات، بأبواب

تدور به، وأبواب تغلق عليها، من فوقها طبقة فطبقة، تطلع تلك الأبواب صور من السكر على هيئة الجواري والغلمان، بصنوف الملاهي، في أحسن الملابس والحلل؛ وجعل على شرفاتها وطبقاتها وحناياها صور أنواع الطير والحيوان والوحش. وجعل من ورائها رجالاً تنفخ بالبوقات والمزامير، كل صنف يخرج منه صوت يليق بصورته، وكل ذلك من السكر المموه بصنوف الصباغ والنقوش والذهب)

8 - أضف إلى باب التماثيل، ما ذكره التنوخي في نشوار المحاضرة، وهو يدل على أنهم كانوا يصنعون تماثيل على هيئة الفاكهة. قال من قصة طويلة يصعب تلخيصها (. . . وأدخلنا إلى فازة لطيفة من ديباج (وهي مظلّة كبيرة تمد بعمود على قول الجوهري، أو بعمودين على قول الفيروزابادي)؛ وفيها صندل محلاة بفضة؛ فيها دُسُت ديباج وُحُصر طبرية. ونحو ثلاثين طاولة مسبكة بالذهب كلها، عليها تماثيل العنبر على هيئة الأترج والبطيخ والدستبو. . .)

9 - أضف إلى ما ذكره المؤلف الفاضل عن تماثيل الأندلس ص 70 ما قاله ابن حمديس أيضاً في تماثيل أسود علي أبواب دار بناها المنصور بن أعلى الناس:

وإذا الولائد فتَّحت أبوابه ... جعلت ترحِّب بالعفاة صريرا

عضَّت على حلقاتهن ضراغم ... فغرب بها أفواهها تكبيرا

فهو يصف حلقات الأبواب، وكانت مصنوعة بحيث تعض عليها تماثيل اسود فاتحة أفواهها كأنها تكبر الله

10 - أضف إلى باب التصوير على الجدران. . . ما يروونه من أعمدة جامع قرطبة. قال المقري صاحب النفخ عند كلامه على جامع قرطبة نقلاً عن صاحب نشق الأزهار: (وفيه ثلاثة أعمدة من رخام أحمر، مكتوب على الواحد اسم محمد، وعلى الآخر صورة عصا موسى، وأهل الكهف، وعلى الثالث صورة غراب نوح عليه السلام) وإن كان المقري يشك في ذلك

هذا ما رأيت إضافته إلى ما ساقه العلامة المرحوم تيمور باشا أما ما أخذته على الدكتور محمد حسن في تعليقاته فسيأتي

(دمشق)

صلاح الدين المنجد

من الأدب التركي

الدرويش العازف

للأستاذ محمد يوسف المحجوب

في غُروبِ الشَّمْسِ، في ٱلأفْقِ الْبَعِيدْ ... رَبْوَةٌ لاَحَتْ لِعَيْنِ النَّاظِرِ

مَنْ تُرَى يَمْشِي لَهاَ الْمَشْيَ الْوَئِيدْ؟ ... يا لَهُ تَحْتَ الدُّجَى مِنْ عَابِرِ

صاَعِداً. . . في كَفِّهِ قِيثاَرُهُ ... يَمْلأُ ٱلآفاَقَ بِاللَّحْنِ ٱلْحنُونَ

مُفْرَداً. . . قَدْ عَافَهُ سُمَّارُهُ ... وَرَمَاهُ النَّاسُ طُراً بِٱلْجنُونْ

يا لَشَيْخٍ هَدَّلَتْ مِنْ شَعْرِهِ ... فَوْقَ فَوْدَيْهِ أفاَعِيلُ السَّنينْ

اللَّياَلِي قَوَّسَتْ مِنْ ظَهْرِهِ ... وَالْعَوَادِي غَضَّنَتْ مِنْهُ الْجبِينْ

يَتَرَاءى كُلَّ يَوْمٍ فيْ ٱلأَصِيلْ ... في الْمُرُوجِ ٱلْخضْرِ. . . في الْوَادِي ٱلْخصِيبْ

يَصْعَدُ الرَّبْوَةَ لِلْكوخِ الضَّئِيلْ ... حَيْثُ يَأْوِي عِنْدَ مَا يَأْتِي الْغُرُوبْ
سارَ يَشْدُو لحْنَهُ الْحلْوَ الْبَدِيعْ ... وتبعتُ الْخطْوَ كالظِّلِّ الثَّحِيلْ
. . .وَالْمُرُوجُ الْخُضْرُ تُصْغِي وَالْقَطِيعْ ... وَالدُّجَى نَشْوَانُ بِالْعَزْفِ الْجميلْ
وَبَدَا الْكُوخُ. . . فَوَلَّى فَجْأَةً ... وَاخْتَفَى فِيهِ، وَغَطَّاهُ الظَّلاَمْ
وَسَمِعْتُ اللَّحْنَ يَسْرِي خَافِتاً ... كأنِينٍ مِنْ فُؤَادٍ مُسْتَهَامْ
كانَ صَوْتاً هادِئاً يُبْكِي الْقُلُوبْ ... صِيغَ مِنْ بُؤْسِ اللَّيالِي وَالدُّمُوعْ
رُحْتُ أُصْغِي، وَهْوَ يَشْدُو في لُغُوبْ ... يَسْكُبُ الألْحَانَ مِنْ ذَوْبِ الضُّلُوعْ:
(يا حُطَامَ الْمُنَى ... في الظَّلاَمِ الرَّهِيبْ)
(جِئْتُ أَشْدُو هُنا ... فاسْتَمِعْ لِلْغَرِيبْ)
(في يَدِي قِيثَارَةٌ مِنْ ذَهَبِ ... حَطَّمَتْها كَفُّ دُنْيايَ الْخئُونْ)
(لَمْ أَجِدْ الدَّهْرِ مَنْ يَحْفِلُ بِي ... قَدْ رَمَوْنِي - لَهْفَ نَفْسِي - بِالْجنُونْ)
(في يَمِينِي عَازِفٌ يُمْتِعُنِي ... رَغْمَ مَا يَلْقَاهُ مِنْ فِعْلِ اللَّيالْ)
(لاَ أَرَى في النَّاسِ مَنْ يَسْمُعنِي ... حِينَ أَشْدُو، فاسْمَعِي لِي يا جِبالْ):
(يا طُيُورَ الرُّبا ... يا عُيُونَ الزَّهَرْ)
(يا نَسِيمَ الصَّبا ... يا غُصُونَ الشَّجَرْ)
(اسْمَعِي عَنِّي أَغارِيدَ الْحياهْ ... اسْمَعِيها قَبْلَمَا أَلْقَى الْمَنُونْ)
(اسْمَعِيها فَهْيَ لِلْوَادِي شَذَاهْ ... وَارْسِمِي عَنْها نُفاثاتِ الشُّجُونْ)
(فَوْقَ هذِي الأرْضِ أَلْفا شاعِرٍ ... لَفْظُهُمْ زَيْفٌ وَنَجْوَاهُم هَوَاءْ)
(هَلْ لَهُمْ لَحْنٌ كلَحْنِي السَّاحِرِ ... وَأَنا الْمَجْنُونُ مَنْبُودُ الْعَرَاءْ؟):
(مَعْشَرٌ تاجُهُمْ ... فَوْقَهُمْ زَائِفُ)
(بَيْنَما بَرْقُهُمْ ... خُلَّبٌ خَاطِفُ)
(مَعْشَرٌ: إنْ يَكْتُبُوا بالْقَلَم ... فَأَنا الشَّادِي بأَوْتارِ الْفُؤَادْ)
(هَلْ لَهُمْ أَنْ يَخلُقُوا لِلنَّغَم ... مِنْ هَوَاءِ الْكُونِ، أو دُنْيا الْجماَدْ؟)
(هَلْ لَهُمْ أنْ يُخْضِعُوا مِثْلِي الْقَطِيعْ ... عِنْدَ مَا يَمْشِي بِلاَ رَاعٍ يَصُونْ؟)
(أَيْنَ صَوْتُ الْخلْقِ مِنْ صَوْتِ الضُّلُوعْ؟ ... أَيْنَ رَجْعُ الْقَوْلِ مِنْ شَدْوِ الْغُصُونْ؟)
(يا بَقايا الْمُنَى ... حَوْلَ كُوخِي الصَّغِيرْ)
(أَنْصِتِي. . . إنَّنا ... قَدْ حُرِمْنا السَّمِيرْ)
(أنصِتِي لِي، وَاسْمَعِينِي يا جِبالْ ... وَاحْفَظِي الألْحَانَ عَنِّي يا نُجُومْ)
(إنَّ قِيثارِي فَرِيدٌ في اللَّيالْ ... وَهْوَ في يُمْنَايَ سُلْوانُ الْهُمُومْ)
(كُلُّ مَا في الأرضِ مِلْكِي: مِنْ هَوَاءْ ... أَوْ جَمَادٍ، أو دُمُوعٍ، أو زُهُورْ)
(سَوْفَ أَشْدُو، فإذا جَلَّ الْقَضَاءْ ... لَمْ أُفَكِّرْ أَيْنَ تَطْوِينِي الْقُبُورْ. . .؟)
وَانْتَهَى الْعازِفُ مِنْ أَلْحَانِهِ ... وَتَلاَشَى الصَّوْتُ في جُوفِ الْقَضَاءْ . . .
!وَانْطَوَتْ رُوحِي عَلَي أَحْزَانِهِ ... وَبَكَتْ عَيْني لَهُ دَمْعَ الْوفَاءْ
!يا لَشَادٍ لَفَّهُ هذَا الظَّلاَمْ ... لَيْتَ شِعْرِي: كَيْفَ يَحْظَى بالرُّقادْ؟
أَتُرَاهُ ذائِقاً طِيبَ الْمَنامْ؟ ... أَمْ سَيَقْضِي اللَّيْلَ مَوْصُولَ السُّهادْ؟
أَيُّها الْعازِفُ في الْكُوخِ الضَّئِيلْ: ... أَنْتَ أَسْمَى مُلْهَمٍ في ذَا الْوُجُودْ
كَيْفَ تَأْسى - أَيُّها الشَّادِي الْجمِيلْ - ... وَنَصِيبُ الْفَذِّ في النَّاسِ الْجحُودْ؟
عِشْ عَلَى الدُّنْيا كَمَا شاءَ الصَّفاءْ ... وَاصْطَبِرْ إنْ رُحْتَ تَرْمِي بالْجنُونْ
مَنْ يَسَعْ في قَلْبِهِ هذَا الْفَضَاء ... لَمْ يُنَغِّصْ عَيْشَهُ الدَّهْرُ الْخئُونْ
البريد الأدبي
مسابقة كتب الدين للمدارس الابتدائية
إلى الأستاذ (قاف)
كتبت في عدد الثقافة الأخير كلمة عن المسابقة التي أذاعتها وزارة المعارف بشأن كتاب في الدين للمدارس الابتدائية. وقد قرأت كلمتك هذه بعجب وإعجاب. أما العجب فمن أنك تنعى على الوزارة اليوم ما كنت تتمناه عليها بالأمس؛ فلعلك تذكر - وما أظنك إلا ذاكراً - مجلسنا في أحد النوادي العلمية منذ قريب، وما كنا نتناوله فيه من أحاديث شتى أسلمتنا إلى تقرير الكتب وكيف تقرر لا لجودتها ولا لرسوخ قدم مؤلفها في مادتها بل لجاهه ونفوذه حتى احتكرها أصحاب الجاه والنفوذ وصارت وقفاً أهلياً عليهم - على حد تعبيرك - لا يغل إلا لكبار موظفي الديوان العام ومن إليهم من

المراقبين والمفتشين الأوائل: ولعلك لم تنس كذلك ما قلته أنت في تلك الليلة - بل ما كتبته في الثقافة منذ شهر أو يزيد قليلاً من أن أولئك المؤلفين الكبار أو كبار المؤلفين لم يكن لهم في الحق والواقع من التأليف إلا تشريف الكتاب باسمهم ومداليد لتناول نصيبهم والوقوف في الميدان لمطاردة من تحدثه نفسه باقتحامه واتخاذ كل وسيلة شريفة وغير شريفة لإقصائه. لقد كنا سبعة نتعاور الكلام في هذا الموضوع وكنت - أنت - أصرحنا كلاماً وأبسطنا لساناً وأغزرنا استشهاداً حتى لقد ضربت بنفسك المثل وذكرت أنه قد طلب إليك أن تكون جندياً مجهولاً يصرع في الميدان ليرتفع القائد على أشلائه، فتأبيت على المريد. كل هذا عجيب، وأعجب منه أن تقترح على الوزارة في كلمتك الأخيرة ترك المدارس أحراراً في التأليف وفي اختيار ما يشاءون من الكتب لتلاميذهم. يا لله! أي حرية أو في من أن تدعو الوزارة رجالها جميعاً للتباري وتكافئ السباقين فيهم ولا تجعل الأمر احتكاراً أو وقفاً أهلياً على جماعة منهم؟ وأي حرية أسمى من أن تسوى في هذا الميدان بين المتسابقين جميعاً ولا تنظر إليهم من حيث الجاه والمنصب، وإنما تنظر إليهم من حيث البراعة والمقدرة والكفاية، وبهذا ترد إلى رجال التعليم اعتبارهم العلمي وتشجعهم على الإنتاج وتثبت فيهم روح الإقدام على التأليف الذي يهابونه لذاته أو للمحتكرين له! على أن للمسابقة فضلاً آخر أرشدت إليه المسابقات الماضية هي أنها تكشف عن بعض الأفذاذ المجلين الذين يعملون في وزارات أخرى غير
وزارة المعارف، فليست الكفاية والبراعة والمقدرة وقفاً على هذه الوزارة الحق أنه ليس لمنصف نزيه حصيف الرأي أن ينقد هذه الطريقة المثلى العادلة التي تقضي على القالة والقيل وتسد الطريق أمام الريب والشكوك. على أن الوزارة لم تلجأ إليها إلا بعد دراسة وبحوث وعقد لجان واستشارة مجربين فانتهى الأمر بهم جميعاً إليها

وأما ما يقوله الأستاذ (قاف) من ترك المدارس والمدرسين أحراراً في اختيار ما يشاءون من الكتب لتلاميذهم فحسبي في الرد عليه أن أردد له ما كان يقوله تلك الليلة من أنه جريمة رسمية تفسد الخلق والعلم، وأن المدارس - بالرغم من تحريمه ومحاربة الوزارة إياه محاربة لا هوادة فيها ولا لين - كانوا يتخذونه وسيلة دنيئة تقرب إلى ذوي الجاه من المؤلفين الرسميين وهؤلاء يستغلونه استغلال وضيعاً تأباه كرائم النفوس، فقضت على هذه المفاسد كلها طريقة المسابقات. ذلك عجبي. أما إعجابي فبقدرة الإنسان - وهو الذي حارت البرية فيه - على الدفاع عن رأيين متناقضين يدلي بأحدهما وهو يعمل في المدارس، وبالآخر وهو يعمل في الديوان حيث اختيار الأعضاء للجان التأليف.

(سمير)

استدراكان لغويان

في تصحيحات العلامة المحقق الأب الكرملي للجزء الثاني من كتاب الإمتاع والمؤانسة مواضع تحتاج إلى بيان، أعرض على الأب الفاضل منها موضعين في العدد (475) من الرسالة الغراء:

1 - قال: وفي ص 110 ويجعلها (أي الأحجار) ملساء، وضبطت كحمراء، والصواب مُلساً بضم الميم. . . (راجع فساد قول القائل صخور ملساء في مجلة المجمع العلمي العربي 233: 17 و 234) اهـ

وقد رجعنا إلى الموضع المذكور فلم نجد للأب مستنداً في إنكاره، لأن نص سيبويه قاصر على بيان أن جمع التكسير لأفعل فعلاء هو فعل بضم العين، وما أظن أن كيفية تكسير هذه الصيغة كانت محل خلاف، وليس فيها شاهد على خطأ قولهم صخور ملساء.

وإنما كان الأب بحاجة إلى نص صريح يستثنى فيه هذه الصيغة من القاعدة العامة التي جرى عليها كلام العرب وذكرها النحاة وهي: أن نعت جمع التكسير يكون بالفرد المؤنث وبالجمع على السواء، فلك أن تقول: أشهر محرمة وأشهر محرمات، و (أياماً معدودة) و (أياماً معدودات) كما في القرآن الكريم وغيره، فما الذي يفرد صيغة واحدة بين جمع صيغ النعت بحكم خاص؟ هذا ما يحوج الأب الإبراه عليه. أما استقراؤه الشخصي وطلبه من مخالفة الإتيان بشاهد فلا يردان حجة، لأن المقيس لا يلزم له

شاهد.
وقال: ومن الأغلاط الشائعة في مصر وتستحق أن يشار إليها خصوصية ما يأتي: - 2
ص 23 س 18 أصواب هو أم خطأ. . . أم خطاء وزان سحاب لضد الصواب، على ما
في كتب اللغة. اهـ
وقد كتب الجمة الأولى بخط عريض مذيل بخط أفقي زيادة في لفت الأنظار. ولم يبين
أي كتب اللغة هذه التي حرمت أن يقال خطأ لضد الصواب؛ وقد تصفحت بعض كتب
اللغة فإذا هي تتفق جميعاً على أن الأب المفضال مخطئ كل المخطئ في ذلك وإليك
الشواهد:
في لسان العرب: الخطأ والخطاء ضد الصواب
تاج العروس: الخطء والخطأ ضد الصواب
المصباح المنير: والخطأ مهموز بفتحتين ضد الصواب، ويقصر ويمد
الصحاح: الخطأ نقيض الصواب وقد يمد. . . الخ
فأنت ترى أن الخطأ قدمت على الخطاء في جميع هذه النقول، وأن أعلى هذه
المصادر وهو الصحاح ضعف الحرف الذي ذكر الأب أنه هو الصواب دون غيره.
هذا ما أحببت عرضه على العلامة المحقق المفضال، وله إعجابي وتحيتي.
(دمشق)
سعيد الأفغاني
في الشعر التمثيلي
تعقيباً على ما نشر بالرسالة في عدديها 473 و 477 للأستاذين الأديبين البشبيشي
وعبد الرحمن عيسى - لا جدال في أن واضع الحجر الأول في بناء الرواية الشعرية في
الأدب العربي الحديث هو المرحوم الشيخ خليل اليازجي في روايته (المروءة والوفاء)
وقد طبعت
أكثر من مرة بمطبعة المعارف بالفجالة. ومن حق الأدب والتاريخ أن يعرف المتتبعون
لهذه الناحية الجميلة من الفن الأدبي أن المرحوم الشيخ نجيب الحداد أول من ترسم
خطى خاله المرحوم الشيخ خليل في معالجته الشعر التمثيلي قبل المرحومين شوقي
وعبد المطلب في روايته (صدق الوداد) وقد طبعت من زهاء ثلاثين عاماً في مطبعة
غرزوزي بالإسكندرية وقل أن يظفر أحد بنسخة منها الآن لكثيرة ما كان من الإقبال
عليها ونفادها بمجرد ظهورها. والروايتان لا تقلان عن روايات المرحوم أمير الشعراء
بلاغة وروعة وحسن سبك، وشعرهما يتدفق سلاسة وطبعاً وعذوبة
ولعلي أوفَّق في فرصةٍ أخرى إلى نشر شواهد من شعر الروايتين إذا اتسعت له
صفحات (الرسالة) الغراء وآنست من قرائها الأدباء ترقباً وارتياحاً
يوسف كركور
تعقيب
جاء في بريد (الرسالة) الأدبي من العدد الـ (476) للأب الفاضل أنستاس الكرملي في
بحث السوبية ما نصه: قال ابن دريد في الجمهرة: (وبالصاد (أي الخِص) أحسبها لغة
لبني تميم، وهي لغة ابن الغبر خاصة) كذا في تاج العروس. وهو خطأ أيضاً والصواب:
(وهي لغة بني العنبر، إذ لا وجود لابن الغبر) اهـ
وقد يقال: عدم الجزم بهذه التخطئة أولى، فبنو الغُبَّر لهم وجود. جاء في القاموس
المحيط في (فصل الطاء وباب اللام): وككتاب (أي طحال) كلب وع لبني الغبر. راجع
القاموس المحيط ففيه شاهد يليق ذكره
(اللد - فلسطين)
داود حمدان
حوائج
رداً على الكاتبة الفاضلة (بثينة) أقول إن هذه الكلمة (حوائج) وردت في الحديث
الصحيح والشعر الفصيح. فقد روى عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أنه قال:
(إن الله عباداً
خلقهم لحوائج الناس يفزع الناس إليهم في حوائجهم أولئك الآمنون يوم القيامة) وقال
الشماخ:
تقطع بيننا الحاجات إلا ... حوائج يعتسفن مع الجري

وقال الفرزدق:
ولي ببلاد السند عند أميرها ... حوائج جمات وعندي ثوابها
إبراهيم السعيد عجلان
على هامش السيرة
لفت نظري وأنا أقرأ الجزء الثاني من كتاب (على هامش السيرة) للمرة الثالثة عبارة وردت في الحديث عن (راعي الغنم) ص 185 هذا نصها: (والغريب أن الخواطر التي كانت تملأ نفسها - يعني أبا طالب وخديجة - همَّاً وحزناً وتفعم قلبهما خوفاً وقلقاً، هي بعينها تلك الخواطر التي كانت تملأ نفس عبد المطلب بن هاشم وآمنة بنت وهب، وتشغل قلبيهما منذ ستة عشر عاماً حين سافر عبد الله مع العير إلى الشام في التجارة لأول مرة ولآخر مرة أيضاً)
وهذا القول يناقض الحقيقة ويتعارض مع عبارة أخرى وردت في ص 161 وفيها يقول الدكتور: (ولكنه - يعني أبا طالب - كان يستحي أن تقول قريش: ضعف أبو طالب وجزع على فتى قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره)
والمعلوم أن رحلة عبد الله كانت بعد زواجه بأيام وكان محمد عليه السلام لا يزال جنيناً في بطن أمه، في حين أن الرسول صلوات الله عليه كان قد أوفى على الخامسة والعشرين أو كاد يوم أن رغبت إليه خديجة في أن يصحب تجارتها إلى الشام. وإذن تكون الفترة بين رحلة عبد الله ورحلة محمد عليه السلام حوالي خمسة وعشرين عاماً لا ستة عشر كما ذكر الدكتور، ولعله يكون أقرب إلى الصواب لو أنه قال ستة وعشرين عاماً
وذلك ما تكاد تجمع عليه كتب السيرة
عوض الدحة
استدراك
في الحلقة السابقة من ترجمة كتاب (المصريون المحدثون)، وقع تحريف في الآية الكريمة: (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعاً، إنه هو الغفور الرحيم). فوجب نشرها صحيحة
عدلي طاهر نور
القصص
الشيخ الأعزب
للأديب لبيب السعيد
في صدر أيامه لم يطاوعه طموحه على الزواج من ابنة عمه؛ بداله يومئذ أنه خليق بالفرار من بيئته إلى بيئة أعلى وأقدر.
ولما قيل له: بنت فلان أشهر تاجر في الحي مهذبة وجميلة، رأى أن آماله أسمى أيضاً من هذه البنت وأبيها، ورأى قدْرته أجدرَ أن تُنيله نسباً أجلَّ . . .
وأحس أن آمال كثيرات من صبايا الحيّ وذويهنّ تترامى إليه، لأنه موظف في الحكومة بخمسة عشر جنيهاً، والموظفون الماثلون من أبناء الحيّ آحاد، فزهاه ذلك وسره، ولكنه ظل على طموحه وعلى اعتقاده في إمكان إحراز زوجة غنية جداً من أسرة بارزة جدّاً، يتسامى بها في الوظيفة، ويواري في غناها فقره، ويجبر بجاه أبيها وذويها صدعة. . .
كان يأمل في زواج الغنية ذات الجاه دنيا سعيدة: دنيا خالها يرف عليها الروح والريحان، وتنتشر على مدارجها الزهور الضواحك
ومضت من عمره أربعون سنة. . .
وعرف عندئذ الهدف الذي ينبغي له - فيما يعتقد - الرمي إليه. . . عرف (حنيفة) بنت (أمجد باشا)، فعرف فتنةً ضلْ في تيهها فكرة. . . لقد رأى زواجه منها معراجاً إلى كل الغنى والشرف، وحلم سريعاً في قهر أعدائه من الأقارب وزملاء الديوان، ومواجهتهم بأنسباء يشرّفون، واستحضر في خاطره ما سيلقي من سعادة حين يذكر اسمه إلى جانب اسم (أمجد باشا) وود من كل قلبه لم تمت الخِطبة حالاً، ونُشر اسمه واسم الباشا معاً ولو في إعلان وفاة!
وترقرق في صدره الأمل، فأذاع بالأمر لبعض خاصّته، وشاع لوضوعه ذكر.
ولكن (أمجد باشا) استمهل معتذراً، ثم ماطله غير مكترث، ثم ترامى عنه أنه يأبى هذا

الزواج، لأن (أميناً) ليس من طبقته، ولأنه لم يستوف طَلِبَةَ فتاته من الغنى والمنزلة والوسامة.
وصدم هذا الفرض (أميناً)، ولكنه رأى أن لا بد من عدم التخاذل، وعزم ليستأسرن من أيَّ
معقل مَن تعادل (حنيفة) نشباً ونسباً. ولكن - واخيبتاه - إن سنة الصاعدة، وراتبه المتواضع خيَّبا مطمحه وأعجزاه عن منيته
واليوم - وما أسرع كرّ الغداة ومرَّ العشى! - ذرَّف أمين على الخامسة والخمسين، فهو يطامن كثيراً من جماح آماله، ويتطلع راضياً إلى الأسر التي على شاكلته، ولكن مرضه الظاهر يصرف عنه النظر، وهو يعْدُ غادٍ قريباً على أمر شديد كريه: المعاش!
كل شيء يشعر أميناً أن الأيام تقف به على ثنية الوداع، ولكنه مع ذلك متشبث بالأمل. . . إنه ينشد زوجة تخلص له الحبَّ، وتأسو الجراحات، وإنَّ طيف هذه الزوجة المجهولة ليراوحه ويغاديه! لقد نهل في سني عمره الذاهب من كل شيء ولكنه يشكو الأوام. . .
فهو يريد لقلبه الكسير قلباً يروَى من رحمته؛ يريد مثابة ينفض لديها شكاياته ونجواه؛ يريد لنفسه المعنَّاة تسليةً وتأسيةً وولاءً. . . إن به حنيناً مبرَّحاً إلى جناح يكنفه في شيخوخته، ولكنَّ الحقيقة الممضة: حقيقةَ صحته التي تحيفَّ منها السنُّ والمرض، حقيقة معاشه المحدود الذي لا يكفل العيش الرافع لعروس تساق إلى شيخ، وطفل سيغشاه اليتم في مطالع حياته. هذه الحقيقة كانت تدفع ذلك الطيف في عنف، وتؤكد لأمين أن أمانيه فوق ما يجوز له تمنيه، وأنه يحاول العَدْوَ وراء فائتٍ ليس يُلْحق
ويرى (أمين) رجلاً وزوجته يسيران في طريق، أو يجلسان في طنف، فيغبط الرجلَ على نعمة الشريكة، ويبديء يُعيد فيما تريق الأليفة لأليفها من العطف، وتبذله من العون، وتطعمه من الحنان. . . ويسبح في خيالات ما لها قَرَار . . .
ويدعي (أمين) إلى حفلات الزواج، فتهفو مناظرها بروحه إلى الزوجة، وتصيب كلمات المأذون في فضل الزواج الوتر الأرنَّ من قلبه، وتطلق عاطفة الأبوة الحبيسة، وتزيده شعوراً بالوحشة
ويسائل (أمين) نفسه: أَلَمْ يأن لي أن أقعد هذا المقعد الحبيب: مقعد (عريس) من والد عروس، وأن أقوَل وأسمع هذه الصيغة العذبة: صيغة القرآن؟ أمات الأمل في أن يتجه إلى يوماً جمع من هذه الجموع بتلك العبارة العذبة: (مبروك، مبروك، يا عريس)؟ وينثني أمين وطرفه غارق في الدمع
ويزور أمين صديقاً مريضاً فيغبطه - مع ما يشاهد من كربات المرض - أشد الغبطة، لأنه
يرى زوجته تحدب عليه، وتحتمل مشقة تمريضه، ولأنه رأى صبياً يافعاً يقود الطبيب إلى المنزل، ويجري إلى الصيدلية محزوناً، ويرى طفلاً مبغوم الكلام يخطر لا هياً أمام سرير أبيه المريض، فتأنس به نفس الأب وتُشْرق
هذه البسمات التي يراها في ثغور الأطفال لا بد أنها تنير لآبائهم سبل الحياة وتكشف عنهم غواشي اليأس! ليت له مثلها في دنياه التي لا شية فيها من النور!
ويرى أمين الآباء أشقياء مُملقين من كثرة الإنفاق على بنيهم، فيتمنى من كل قلبه لو شقي شقاءهم وأملق إملاقهم. إنه يؤمن بأن الآباء هم كل السعادة وهم كل الغنى، وأن في كلمة (بابا) وحدها كنوزاً يهون في سبيلها كل عزيز!
ويسائل نفسه أيضاً: هذا الكدَّ الذي أبذل، ما جناه؟ فينثني مسلوب اللُّبَّ حين تجيبه: لا شيء! وغداً تموت، ولكن لا كميتة الناس، فهم يَحْيَوْن في بنيهم، وأنت ستموت كأقسى وأوفى ما تعني اللُّغة بلفظة الموت
بمن يتأسّى في أشجانه؟ الظاهر والبؤس فيما حوله هم كتبة الدرجة الثامنة والخارجون عن الهيئة وخدم المطعم ونُدُل القهوة، ولكنه أشقى من هؤلاء جميعاً. إنهم سَيحْيَوْن بعد مماتهم. . . وإن الفرد منهم ليجد آخر اليوم قسيمة لحياته، يطرح لديها أثقاله. فأما هو - فباويح له - محرومٌ يبثُّ شكاته جدراناً لا تسمع، وينشد الحنان والألفة هنا وهناك فلا يجد غير قسوة الحياة وظمأ الروح وشقوة الضمير
ما أشد عوزه إلى يد رقيقة يمسها وتمسه!! في صدر (أمين) فيوض من الحنان تريد الانسياب فليت له من يتلقاها! ألا قلوب تنبض مع قلبه نبضات واحدة بشعور واحد!؟
ويعالج (أمين) مع ذلك كله البسمات، ويتكلف جاهداً المظهر الشاب، ويحاول أن يدفع

عنه الوهن، ولكن البسمات أماتها الزمان، والمظهر الشاب غطى عليه الجهد الثقيل والعمر اليأس؛ والوهنَ. . . أحتلَّ بَدَنَ أمين في غير اكتراث!

حدثني عن (أمين) معارفه القدماء، فجلوا لي كثيراً من ماضيه. وكنت وإياه أخيراً منتدبين في الإسكندرية، وكنا في فندق واحد، فخلا إلى ذات مساء، وأفضى إلى بكل قصته. كان يتحدث بلهجة مذنب يريد أن يثأر لضميره من نفسه. . . وكان كطفل بيّن السذاجة لا يعمى على سامعه شيئاً من وصف مشاعره وسرائره؛ وكان يسرق الدمع حياءً؛ وكانت له زفرات وجيعة.

وأخرج فجأة من جيبه صورتين، فأطلعني عليهما. كانت إحداهما لفتاة رائعة الجمال، وكانت الأخرى لطفلين كلهما عذوبة. وسألته مستغرباً وأنا أرى من نظراته أنه جدَّ حفي بأصحاب هاتين الصورتين: ما شأن هؤلاء؟ فأجاب، والبراءة في وجهه: (اخترت صورهم من محل بيع الصور. . . أعجبوني. . . أنظر. . . ما أحسن هذه زوجة تجمل بها الحياة! وما أحسن هذين ولدين ينضران العيش!)

أوجع أمين قلبي تلك الليلة!

وانقطع عن التردد عليَّ وعلى زملائنا أمسيتين على غير عادة، وسألناه في الصباح عن السبب، فأجاب في اختصار: أمر خاص

واستحينا أن نستجليه هذا الأمر فسكتنا

وأتى صبي إلى الفندق في الأمسية التالية يسأل عن الأستاذ (أمين) المقيم بالحجرة رقم 8، وكنا نحن زملاء أمين في بهرة الفندق جالسين نسمر، فسألنا: لم؟ فقال: لأعطيه صورة عائلته، فهو يتعجلها. وعجبنا، فأمين حقيقة ينزل في الحجرة رقم 8، ولكنه لا عائلة له. وسأل أحدنا الغلام: أية عائلة؟ ربما كنت تقصد أميناً آخر. فقال الغلام وهو يناوله الصورة: أريد الأستاذ أمين المرسوم هنا. وضحك صاحبنا ضحكات تمتزج فيها السخرية بالدهشة، وقام يطلعنا جميعاً على الصورة، والجمع يضج بالضحك. ونظرت فيها فوجدت أميناً بعينه، وقد جمع الرسام بينه وبين الصور التي سبق أن أبدى لي إعجابه بها: صورة الفتاة الرائعة الجمال التي يستحسنها زوجة، والطفلين العذبين اللذين يستحسنها ولدين. لقد أتخذ من هذه الصور المختارة أسرة طيبة يبدو هو فيها كأنه أب آمن السرب، له من أهله قرب وأنس، وله فيهم رجاء!

وأقبل أمين والصورة في أيدينا، فحاول الابتسام أولاً، ثم انطفأ وجهه مرة واحدة، ثم ارتمى في أقرب مقعد يبكى وينشج.

(المنصورة)

لبيب السعيد

العدد 480 - بتاريخ: 14 - 09 - 1942

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

تخطيط القاهرة - فكاهات هندسية - النور القدير على تمزيق الظلمات - أبناء دار العلوم بوزارة المعارف

تخطيط القاهرة

أيام هذا الصيف آذتني أعنف الإيذاء، بسبب صعوبة المواصلات، الصعوبة التي خلقها الازدحام في الترام والاتوبيس في أكثر الأوقات، ولا سيما وقت انصراف الموظفين، فكنت أقطع الطريق على قدميَّ في حرِّ الظهيرة من وزارة المعارف إلى باب الحديد، وكانت الظروف قضت بأن تكون محطة المترو في باب الحديد بضعة أسابيع.

وقد غنمت من هذه الظروف غنيمتين: الغنيمة الأولى هي لفح الوجه بوهج الشمس، فما رآني صديق إلا توهم أني قضيت على شواطئ الإسكندرية شهراً أو شهرين. وليت الأمر كان كذلك، فقد سمعت بعد فوات الوقت أن شواطئ الإسكندرية كانت فتنة العيون والقلوب في هذا الصيف!

أما الغنيمة الثانية، فهي أغرب وأنفع، لأنها هدتني إلى أفكار تستحق التسجيل، أفكار متصلة بتخطيط القاهرة، عاصمة الشرق بلا نزاع، وأعظم مدينة دينها الإسلام ولغتها العربية.

هداني السير على قدميَّ في حرِّ الظهيرة إلى القول بأن القاهرة لم تجد مهندسين

يراعون أصول الانسجام والتنسيق.
وقبل أن أفصِّل هذا القول، أرجو من زار القاهرة أن يتمثل شارع محمد علي فهو الشارع الوحيد الذي روعيت فيه أصول الانسجام والتنسيق، بحيث يجوز لك بعد مراعاة الأدب مع الله أن تقول إنه بين شوارع القاهرة واحدٌ بلا شريك.
تقف على رأس هذا الشارع من ميدان العتبة الخضراء (ميدان الملكة فريدة) ثم تنظر فتروعك منارة جامع السلطان حسن ومنارة جامع الرفاعي، مع أن بينك وبين هاتين المنارتين مسافات طويلات.
فما أسم المهندس الذي خط هذا الشارع منذ أعوام طوال؟
وأين قبره لننثر عليه زهرات الإقحوان المقطورة على التنسيق؟
وفي ميدان العتبة الخضراء يبدأ شارع حديث العهد، شارع أنشأناه بعد أن كثر عندنا المهندسين، وهو شارع الأزهر الشريف.
وهنا أيضاً أرجو من زار القاهرة أن يتمثل واجهة الأزهر وما يصحبها من منارات رشيقات. . . ليعرف كيف كان من الجناية على تخطيط القاهرة أن تحجب واجهة الأزهر عمن يقف متطلعاً إلى محاسن القاهرة في ميدان العتبة الخضراء.
وما يقال في شارع الأزهر يقال في شارع الأمير فاروق، فقد كان يجب أن يستقيم هذا الشارع بحيث تمكن رؤية ميدان فاروق، وعلى ناصيته سيل أم عباس، لمن ينظر فيه من ميدان العتبة الخضراء.
فما اسم المهندس الذي خطط هذين الشارعين قبل بضع سنين لنغري به أحد المستجوبين في مجلس النواب؟
أنا لا أدعو إلى أن تكون جميع الشوارع بريئة من الانحراف إلى اليمين أو إلى الشمال، فذلك تكليف بما لا يطاق، وإنما أدعو إلى مراعاة الذوق في إبراز محاسن القاهرة عند التخطيط، ولتوضيح هذه الفكرة أقول:
أجمل واجهة في قصور القاهرة هي واجهة قصر عابدين، فهل يرى تلك الواجهة من يمرَّ بميدان الإسماعيلية، مع أنه منها قريب؟
ومن الواجهات الجميلة واجهة محطة باب الحديد، فهل يراها من يقف في ميدان إبراهيم؟
وعلى من يرتاب في صحة القول بأن مدينة القاهرة لا تجد من يفكر في الانسجام والتنسيق، على من يرتاب في صحة هذا القول أن يزور حيّ الأزهر في أحد الأيام ليرى العجب العاجب في تعمد الخروج على الذوق، فهنالك قامت بناية عالية في العهد الحديث، بعد إكتهال الزمان وبعد الشعور بقيمة التنسيق في التخطيط، فكانت حجاباً كثيفاً يفصل بين واجهتين جميلتين: واجهة الجامع الأزهر وواجهة جامع الحسين.
إن الذوق من أطيب الأرزاق، فهل يتفضل الله فيزيد مهندسي القاهرة ذوقاً إلى ذوق؟
فكاهات هندسية
حين زرت البصرة في سنة 1938 تلّطف معالي السيد تحسين علي فمضى بي في سيارته لنزهة جميلة تخترق غابة النخيل في طريق أسمه (طريق أبي الخصيب) وهو طريق كثير الاعوجاج بلا موجب معقول، فلما سألت معاليه عن سبب ذلك الاعوجاج ابتسم وقال: (كان المهندس الذي شق هذا الطريق يحب المال بعض الحب، فاعوج الطريق بعض الاعوجاج!!) فأدركت أن أصحاب الأملاك كانوا أصحاب الرأي في تخطيط ذلك الطريق.
وفي السنة التالية زرت الدير المحرَّق فرأيت في الذهاب إليه طريقاً كثير الاعوجاج بلا موجب معقول، فلما سألت عن سبب ذلك الاعوجاج كان الجواب أن المهندس الذي شق الطريق عُرف بشراهة الجيب فكان يراعي خواطر أصحاب الأملاك.
فليحذر من يشق طريقاً معوَّجاً في أي بقعة بعد اليوم، فقد يُتَهم بأنه من سلالة المهندس الذي شق طريق الدير المحرَّق، أو المهندس الذي شق طريق أبي الخصيب.
النور القدير على تمزيق الظلمات
هو نور الله، النور الغَّلاب القَّهار الذي لا يصده حجاب، ولو كان في كثافة أنفس المحجوبين عن كرم واجب الوجود.
وما تمر بنا لحظة من لحظات الكدر أو الغيظ إلا كانت شاهداً على أن إيماننا بالله

إيمانٌ مدخول.
ولا تمر بنا لمحة نعتمد فيها على هذا المخلوق أو ذاك إلا كانت بعض دليلاً على أن ثقتنا بالله مزعزعة الأركان.
فما بالُ قومٍ تطير نفوسهم شَعاعاً حين يهدَّدون بغضب بعض الخلائق؟ وما بال قوم لا يستطيبون النوم إلا حين يطمئنون إلى أنهم تحت حماية بعض الخلائق؟
لا يجوز لمن يخاف الناس أن يرجو الله، فإنه عز شأنه لا يسبغ نعمته الصحيحة إلا على المؤمنين، والمؤمن لا يخاف الفانين.
وماذا يملك بنو آدم حتى يرجوهم من يرجو، أو يخافهم من يخاف؟
الأمر كله لله، ولا أمر لمخلوق، وإن زيّن الوهم للمخاليق أنهم أقوياء.
جرْب الثقة بالله، إن كنت لم تجرِّبها من قبل، فسترى أن الأنس بالله يرفع عنك آصار الثقة بالناس، وما أعتمد أحدٌ على خلق الله إلا باء بالخذلان.
كن رجلاً مؤمناً في جميع أحوالك، والرجل المؤمن ينظر إلى الناس كما ينظر الأسد إلى
النمال.
تواضَعْ لله وحده، ولا تتواضعْ للناس، فهم بحكم فنائهم أذلاّء.
تواضع لله أدباً لا خوفاً، فهو يحب أن يراك في أخلاق السادة لا أخلاق العبيد.
لا تعامل باللطف والرفق إلا أهل اللطف والرفق، ثم أمنح ظلمك وعدوانك لمن تحدثهم النفوس الأواثم بالتطاول عليك.
نَزِّه نفسك عن الكفر بالله، ومن صور الكفر الموبق أن تقيم وزناً لمخلوق لا يؤمن بفكرة العدل، ولا يجعل هواه من هواك في الاحتكام إلى صاحب العزة والجبروت.
إن زمانك قد أصيب باختلال الموازين، ولم يبق من أهله من تحدثك ملامح وجهه بالخوف من الظلم والكذب والافتراء، فكن أوحد زمانك في الفرار من تلك الأخلاق السُّود، ولا عليك أن تعيش عيش الفقراء، فما يغتني في أزمان الانحطاط غير التجار السفهاء.
وما أوصيك إلا بما أوصيت به نفسي، فما يستطيع ابن أنثى أن يقول أني استعنت به في جليلٍ من الأمر أو دقيق، ولا خطرٍ في بال مخلوق أن ينال ودادي بغير الصدق في الوداد.
دنياكم سخيفة يا بني آدم، وأنتم منها أسخف، وسبحان من تجاوز عنها وعنكم فأمدّها وأمدّكم بالشمس والقمر، والماء والهواء!
لست منكم، ولستم مني، فبينيَ وبين الله عهد وثيق، وإلا فكيف جاز أن تحاربوني عشرين سنة، ثم لا تكون شكواي إلا من متاعب الغنى والثراء؟
آمنت بالله، آمنت، آمنت، وإني لأكاد أصافحه بيمناي.
ومن أنت يا ربي؟ أجبني، فأنني ... رأيتك بين الحُسن والزهّر والماءِ
في كلية الآداب
كتب إليَّ طالبٌ لا أسميه (إشفاقاً عليه من بعض المصاعب) كلمةً يقول فيها إن المحصول الأدبي في مجلة الرسالة قد استهواه فنقله من قسم اللغة الإنجليزية إلى قسم اللغة العربية، فماذا أقول في توجيه ذلك الطالب الأديب؟
أقول أن قسم اللغة الإنجليزية مطالبه أسهل من مطالب قسم اللغة العربية، وإليه البيان:
المتخرجون في قسم اللغة الإنجليزية لا يطالبون بالتفوق الذي يسمح بأن يكونوا من شُرَّاح الأدب الإنجليزي في مناحيه العقلية والاجتماعية، ولا يراد منهم إلا أن يكونوا أساتذة
صالحين لتدريس اللغة الإنجليزية في المدارس الابتدائية والثانوية.
أما المتخرجون في قسم اللغة العربية فهم مطالبون بالتفوق المطلق، التفوق الذي يسمح بأن يكونوا من أئمة الأدب العربي في هذا الجيل.
يضاف إلى ذلك أن كلية الآداب شحيحة بالرجال، فمنذ إنشائها في سنة 1908 إلى اليوم لم يبرز من أبنائها غير آحاد، لأن المثل الأعلى في تصور كلية الآداب لا يسمح بنبوغ العشرات والمئات. ومن حسن الحظ أنها كانت كذلك، ليظل النبوغ الأدبي بعيداً من أوضار النسبة العددية، ولتظل كلية الآداب كلية آداب.

والحياة الجامعية في مصر تؤرخ بنشأة هذه الكلية، فهي النواة الصحيحة للجامعة المصرية، وهي الفيصل بين عهدين: عهد المحاكاة وعهد الإبداع.

وكان قسم اللغة العربية أساس كلية الآداب، كما كانت كلية الآداب أساس الجامعة المصرية، وهي عصارة الأماني الوطنية، فقد أنشئت لأسباب ما أظنها تخفى عليك، إلا أن يجب العلم بالتاريخ القديم مع جواز الجهل بالتاريخ الحديث!!

وكليتنا الغالية موسومة بقوة الروح، فما ذكرت الحياة الجامعية إلا كانت أول ما يخطر في البال، ولا جاز الاضطهاد إلا على أبنائها الأوفياء، لأنهم سبقوا زمنهم بأزمان.

فإن وجدت من قوة العزيمة ما يساعد على أن تكون من أساطين قسم اللغة العربية فأقبل غير هياب، حرسك الله ورعاك!

أبناء دار العلوم بوزارة المعارف

أمضى معالي الأستاذ أحمد نجيب الهلالي باشا قراراً بترقية جماعة من كبار الموظفين بوزارة المعارف إلى الدرجة الأولى الفنية وعلى رأسهم الأستاذ جاد المولى بك كبير مفتشي اللغة العربية، فالتفت الذهن إلى نصيب أبناء العلوم من الترقيات بوزارة المعارف، وقد طالت شكواهم من الإغفال والإهمال عدداً من السنين الطوال.

والظاهر من البحث الذي بذلته في درس هذه القضية أن أبناء دار العلوم لم يفز منهم بالدرجة الأولى قبل جاد المولى بك غير رجلين أثنين: عاطف بركات وعبد العزيز جاويش.

ومع هذا فالطعم مختلف كل الاختلاف: فالمغفور له عاطف بركات رقَّته وزارة الحقانية لا

وزارة المعارف، لأنه كان ناظر مدرسة القضاء الشرعي، وكانت تلك المدرسة تحت إشراف وزارة الحقانية، وكان مفهوماً أنها تملك في إنصاف الرجال ما لا تملك وزارة المعارف.

أما الشيخ عبد العزيز جاويش فلم يراع في منحه الدرجة الأولى أنه من أبناء دار العلوم، وإنما روعيت شخصيته العظيمة الفخيمة، وكان رجلاً ملء العين والقلب، وكان يتكلم الإنجليزية والألمانية والتركية بسهولة تستوجب الالتفات، وكان له في خدمة الوطنية تاريخ طويل عريض، فصار من الصعب أن تجعله وزارة المعارف في منزلة أي كبير من كبار الموظفين.

فكيف ظفر جاد المولى بك بالدرجة الأولى، وهو رجل لا يعرف غير عمله الرسمي وعمله الأدبي في هدوء وسكون، ولم يعرف عنه التقرب إلى هذا الحزب أو ذاك، ولو شئت لقلت إنه ضعيف الحيلة إلى أبعد الحدود؟ كيف ظفر بهذه الدرجة؟ كيف؟ كيف؟ وهو لا يرى وزير المعارف إلا إن دعاه للتشاور في بعض الشؤون، ولا يعرف من أندية القاهرة غير القهوة التي يَسمُر فيها مع بعض المفتشين بميدان الإسماعيلية في مساء كل خميس؟. . . تلك إلتفاتة نبيلة من الهلالي باشا أراد بها إعزاز اللغة العربية، ولعلها كرمٌ أضفاه الله على رجل يصلي ويصوم، في زمن جُهلت فيه آداب الصلاة والصيام عند بعض الكبار من الموظفين زاده الله فلاَحاً إلى فلاَح.

زكي مبارك

تاريخ التاريخ

للدكتور محمد مصطفى صفوت

مدرس التاريخ الحديث بكلية الآداب

كان التاريخ أول أمره قصصاً يختار القصاص من أنبائه ما بهرهم وما يستثير إعجاب الجمهور، وكان يدور حول حوادث الآلهة والأبطال فكان عند اليونان مصوغاً شعراً قصصياً يرتل وينشد، شعراً يتغنى بمجد اليونان، ويشيد بما كان لأبطالهم من بلاء في الحروب؛ وأول أثر تاريخي وصلنا في ذلك القالب شعر (هوميروس).

ومثل ذلك كان موجوداً عند الشعوب التي لم تبلغ بعد حظاً من الحضارة، تاريخها قصص يتناقله الرواة ومركزه الأبطال. ظهر ذلك عند العرب في الجاهلية، وعند الترك قبل دخولهم المسيحية، وعند الفرس القدماء وغيرهم. ويغلب في ذلك النوع من التاريخ الأسطورة أو الأخبار، لأن العنصر الشخصي ظاهر فيه من ناحية الشاعر والناقل والقاص، فكل منهم ينتقي ما راقه - في الغالب - دون نقد أو تفكير، ثم يضيف إليه ما يضيف، أو ينقص منه ما شاء أن ينقص. فأمثال هوميروس ينسبون إلى أبطالهم

وآلهتهم ما شاءوا من أعمال لا يستطيع العقل تصديقها، وسبح بهم الوهم والخيال. . .
ولم يخف ذلك على بعض عقلاء اليونان من أمثال (أيزوكراتيس الذي يقول: (فلم ينسبوا إليهم - أي إلى الآلهة والأبطال - الوقوع في أسر من يموت ويفنى، ولكنهم يمثلونهم آكلين أطفالهم، معذبين آباءهم، ومقرنين أمهاتهم في الأصفاد).
وأول من أهتم بالتاريخ وبذل جهداً لجمع الأخبار بنفسه، ويهتم بالناحية الجغرافية في دراسته، ويعرض الآراء المختلفة أمام جمهرة قارئيه أو سامعيه ليختاروا منها ما شاءوا.
ولكن هيرودتس كان قبل كل شئ قاصاً إخبارياً، يجمع ما له قيمة في نظره وما يلذ جمهوره فهو في الواقع أب المؤرخين القاصِّين الإخباريين.
وتمت المرحلة الثانية في البحث التاريخي على يد ثيوكيديدز مؤرخ حرب البلبونيز - انتقد ذلك الرجل سرعة الناس إلى التصديق، وعدم تمييزهم ما بين الصحيح وغير الصحيح ولذا فهو يهتم بتنظيم حقائق هذه الحرب حتى يبين الحوادث؛ وهو يعني بنقد حقائقه ويقول: (إنني ما وصفت شيئاً رأيته، أو سمعته، ولم أحققه بكل تدقيق وعناية).
ويختلف في مرماه عن هيرودوتس فهو يرمي إلى غرض تعليمي وإلى إعطاء دروس في السياسة حقيقية.
ولم تهتم حكومة في القديم بتدوين أخبارها مثلما اهتمت الحكومة المصرية. فعنى الملوك والأمراء والعظماء بتسجيل أعمالهم، وتدوين حوادثهم، ووصف نواحي حياتهم المختلفة: الحياة السياسية والدينية والاجتماعية، وحاولوا إعطاء الخلف صورة واضحة عن حياة السلف. وكانت فلسفتهم التاريخية الاستعداد في هذه الحياة الدنيا للحياة الآخرة، فالحياة الدنيا ليست دار قرار ولا دار عدالة. وكما أهتم المصريون القدماء بتدوين أخبارهم حاولوا تشويه معالم تاريخهم. فكانت هناك محاولات فردية قام بها بعض الملوك لطمس معالم تاريخ من سبقوه. ولكن لحسن الحظ لم تنجح مثل هذه المحاولات نجاحاً تاماً.
وقد ظل مظهر القصص والسياسة يغلبان على دراسة التاريخ مدة طويلة في العصر القديم. ومن بعد عهد المؤرخين الرومان من أمثال سالوست وليفي وتاكيتوس أصبح التاريخ فرعاً من فروع الأدب وانحطت دراسته. ولقد أغفل المؤرخون القدماء ما نسميه الآن بالتاريخ العام فما كانوا يعترفون بغير الإغريق والرومان؛ وما عداهم من الأمم فكانوا (متبربرين).
ثم جاءت المسيحية ونمت، فلم يعد المؤرخون يهتمون بأنباء الوثنية أو بالماضي الوثني، وإنما اهتموا بالمسيحية ذاتها. وكان للمسيحية فلسفتها التاريخية الخاصة بها، فحوادث هذا العالم - كما ترى - سائرة وفق نظام إلهي لتمهيد الطريق لظهور المسيح؛ وعلى فكرة ظهور المسيح يتوقف تاريخ ما قبل المسيح وما بعده، فبعده تقاسي الإنسانية أنواع العذاب إلى يوم القيامة. وقد وجدت هذه الفلسفة أحسن تعبير لها في كتاب القديس أغسطين (مدينة الله). وقريب من هذا فلسفة المسلمين التاريخية في العصور الوسطى إذ يرون العالم سائر وفق نظام وضعه الله له إلى يوم القيامة، وفي ذلك اليوم يجزي الله الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى.
أما نظرية التطور والتقدم فلم تظهر واضحة في العصور الوسطى، وإن كانت مبادؤها قد وضعت في الماضي الإغريقي. لأن الفكرة المنتشرة في أوربا في هذه العصور كانت فكرة الخطيئة الأولى، خطيئة آدم وحواء وليس هناك مجال للتقدم والتحسن.
ويغلب على التاريخ
في ذلك الوقت نوع الجوليات، يضعه في الغالب رجال الدين الذين يهتمون بانتقاء المعجز والغريب من الأخبار، وربما كان خير مثل لهؤلاء جريجوري التوري. أما في الشرق عند المسلمين فكانت الحالة قريبة الشبه فكان الاهتمام (بالنقل) هو الظاهرة البارزة، وكانت النزعة الدينية غالبة، أما روح النقد الحقيقي كما نعرفه في الوقت الحاضر فما كانت موجودة إلا عند القليل.
سادت فكرة تفوق القديم بصفة عامة في العصور الوسطى، بل كانت مسيطرة على عقول عدد كبير من رجال النهضة. فكانوا يعتقدون في تفوق الإغريق والرومان فهم أرباب العلم والأدب والفن فما وصلوا إليه هو درجة الكمال لا يمكن الزيادة عليه.
ولكنه بالرغم من ذلك بدأت تظهر فكرة التقدم واضحة في عصر النهضة نفسه.

فكميافلي لا يرى الانسانية سائرة في طريق التقهقر - بدأت تظهر فكرة التقدم واضحة عندما أخذ الإنسان يشعر بأنه حر الإرادة يستطيع تحديد مستقبله إلى حد كبير.
فبودن وهو من أعلام المؤرخين يرى أن التاريخ يعتمد على مشيئة الإنسان، ففي كل وقت تظهر قوانين وعادات ونظم جديدة كلها من صنع الإنسان، ويلاحظ قانوناً عاماً هو أنه ليس هناك انحطاط مستمر بل رقي تدريجي.
نشبت إذن معركة بين القدامى والمحدثين، بين الذين يقولون بتفوق الماضي وبين الذين يقولون بتفوق الحاضر، وظهر الإيمان بنظرية التقدم على يد فونتنل في القرن السابع عشر. يقول فونتنل: (ليس هناك فرق بيننا وبين أجدادنا إلا أنهم سبقونا في ميدان العلم فكانوا المخترعين الأول، ولو كنا محلهم لقمنا بمثل ما قاموا به، ولو كانوا محلنا لعملوا مثل ما نعمل، فنحن نجلهم أكثر مما ينبغي كما سيجلنا أبناؤنا فيما بعد).
وجاءت ثورة ديكارت الفكرية التي أعلنت استقلال الإنسان في أعماله مؤيدة فكرة التقدم. ويضيف ليبنتز فيقول: (وعلى ممر الأيام سيصل الإنسان إلى درجة من الكمال لا نتصورها اليوم).
ازدادت العناية بالتاريخ في العصور الحديثة لحركة النهضة وللكشف الجغرافي. درس الانسانيون التاريخ، لأنه يفسر لهم العالم الإغريقي والروماني القديم، وكان في نظرهم خادماً للأدب، ولما قامت حركة الإصلاح الديني زادت أهمية التاريخ إذ وجد فيه المصلحون أسلحة قوية ضد ادعاءات البابا؛ واهتم به المفكرون الاجتماعيون لأنه يفسر في
نظرهم نظرية التقدم والنمو. فلا عجب إذا عنى المؤرخون بجمع الوثائق وتنظيمها. والاهتمام بالعوامل الجغرافية في دراسة التاريخ.
ولقد جاء منتسيكو وفلتير وقالوا بقيمة العوامل الطبيعية في تسيير التاريخ (فليست الصدف هي التي تحكم العالم في نظر منتسيكو، فالظواهر السياسية كالظواهر الطبيعية لها قوانينها العامة) ويرى أن الأخلاق تعمل على رفع الشعوب وأن العوامل الجغرافية والمناخية تؤثر في مجرى الحياة الإنسانية. أما فلتير فقد اهتم بتاريخ الشعوب ففي كتابه (عصر لوي الرابع عشر) أعلن أن غايته ليست وصفاً لعمل فرد وإنما لعقل الأفراد وللروح التي تسيطر عليهم. ولقد نحا نحوها الطبيعيون أو الفيزيوقراط وقالوا أن الإنسانية ولو أنها ترتكب كثيراً من الأخطاء إلا أنها سائرة في طريق التقدم، وأن الناس يعملون بوحي قوانين إلهية لا يستطيعون النكول عنها، هذه القوانين ترمي إلى صالح الفرد وإلى صالح الجماعة.
وكان للثورة الفرنسية فلسفتها التاريخية، فكوندرسيه يرى أن التاريخ يوضح نظرية التقدم ويساعد على تعيين اتجاهها في المستقبل، وحوادث التاريخ في اعتقاده تدل على أن الطبيعة لم تضع حداً لنمو الإنسان، وأن رقيه نحو الكمال رهين ببقاء العالم، وأن تقدم الإنسان بطئ تارة وسريع تارة أخرى، ويستطيع الإنسان التكهن بالحوادث إذا عرف القوانين العامة للظواهر الاجتماعية، ويمكن معرفة هذه الظواهر من دراسة التاريخ.
ومن القرن الثامن عشر لم يعد الاهتمام التاريخي مقصوراً على دراسة الأشخاص والشعوب، بل أخذ يمتد إلى دراسة الحضارة أو ما يسميه الألمان وقد زاد الاهتمام بدراسة التاريخ في القرن التاسع عشر على يد نيبور رانكه المؤسس للمدرسة التاريخية الحديثة، فزادت العناية بالرجوع إلى المصادر الأصلية للتاريخ وإلى دراسة نواحيه المختلفة وامتد نفوذ هذه الدراسة إلى بقية أجزاء أوربا وأمريكا.
(البقية في العدد القادم)
محمد مصطفى صفوت
مفاوضات الفتح العربي لمصر
للأستاذ السيد يعقوب بكر
- 2 -
المفاوضة الثانية (ب)
ورد لنا عنها روايتان:
الرواية الأولى
1 - ذكرها أبو المحاسن (ص 9) نقلاً عن ابن عبد الحكم في كتابه فتوح مصر قال:

(ودخل عمرو إلى صاحب الحصن فتناظرا في شيء مما هم فيه؛ فقال عمرو: أخرج وأستشير أصحابي؛ وقد كان صاحب الحصن أوصى الذي على الباب إذا مر به عمرو يلقي صخرة فيقتله، فمر عمرو وهو يريد الخروج برجل من العرب فقال له: قد دخلت فانظر كيف تخرج. فرجع عمرو إلى صاحب الحصن فقال له: إني أريد أن آتيك بنفر من أصحابي حتى يسمعوا منك مثل الذي سمعت. فقال العلج في نفسه قتل جماعة أحب ألي من قتل واحد؛ فأرسل إلى الذي كان أمره بما أمره من أمر عمرو ألا يتعرض له رجاء أن يأتيه بأصحابه فيقتلهم؛ فخرج عمرو).

فواضح من هذا أن المفاوضة كانت في حصن بابليون نفسه بين عمرو وصاحب الحصن (وهو المقوقس بدون شك؛ لأن ابن عبد الحكم يقول قبل ذلك فيما نقله عنه أبو المحاسن (ص 8) إن المقوقس كان حاضراً الحصن حين حاصره المسلمون).

2 - وذكرها المقريزي (الخطط ج 2 ص 65 ط النيل) نقلاً عن ابن الحكم أيضاً.

3 - وذكرها السيوطي (حسن المحاضرة ج 1 ص 64 - 65 ط إدارة الوطن) نقلاً عنه أيضاً.

4 - وذكرها الواقدي (فتوح الشام ومصر ج 2 ص 30 - 32 ط اليمنية). قال: (. . . وإذا برسول أرسطوليس قد قبل وقال: يا معشر العرب إن ولي عهد الملك يريد منكم أن تبعثوا له رجلاً منكم ليخاطبه بما في نفسه فلعل الله أن يصلح ذات بينكم. . . فلبس عمرو ثوباً من كرابيس الشام وتحته جبة صوف، وتقلد بسيفه، وركب جواده، وسار معه غلامه

وردان، وسار الثلاثة إلى قصر الشمع. . . فدخل عمرو وهو راكب حتى وصل إلى قبة الملك، ورأى السريرية والحجاب وقوف والبطارقة وهم في زينة عظيمة، فلما رأى ذلك عمرو تبسم وقرأ: (فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خيراً وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون). . . فأمروا عمراً أن ينزل عن جواده، فنزل وترجل، وجلس حيث انتهى به المجلس، وأمسك عنان جواده بيده ويده اليسرى على مقبضة سيفه، ونظر إلى زينتهم وزخرفة قصرهم فقرأ: (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون، ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون، وزخرفاً وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين) ثم قال: أعلموا أن الدنيا دار زوال وفناء، والآخرة هي دار البقاء. أما سمعتم ما كان من نبيكم عيسى وزهده وورعه؟ كان لباسه الشعر ووساده الحجر وسراجه القمر. وقد قال نبينا صلوات الله عليه: إن الله أوحى إلى عيسى أن نح على نفسك في الفلوات، وعاتبها في الخلوات، وسارع إلى الصلوات، واستعمل الحسنات، وتجنب السيئات، وابك على نفسك بكاء من ودع الأهل والأولاد، وأصبح وحيداً في البلاد. وكن يقظان إذا نامت العيون، خوف من أمر لابد أن يكون. فإذا كان روح الله وكلمته فخوف بهذا التخويف، فكيف يكون المكلف الضعيف؟ وأول من تكلم في المهد قال: إني عبد الله، فإذا كان أقر لله بالعبودية فلم تنسبون إليه الربوبية؟ تعالى الله ما اتخذ صاحبة ولا ولدا، ولا أشرك في حكمه أحدا، جل عن الصاحبة والأولاد، والشركاء والأضداد. لا صاحبة له ولا ولد ولا شريك له ولا وزير، ليس لأوليته ابتداء، ولا لآخريته انتهاء، ولا يحويه مكان، ليس بجسم فيمس، ولا بجوهر فيحس، لا يوصف بالسكون والحركات، ولا بالحلول والكيفيات، ولا تحتوي عليه الكميات، ولا المنافع ولا الضارات. ثم إنه (يعني عمراً) قرأ (إن كل من في السموات والأرض إلا أتى الرحمن عبداً، لقد أحصاهم وعدهم عدا، وكلهم آتاهم يوم القيامة فردا). فقال له الوزير: أصح عندكم معاشر العرب أن المسيح تكلم في المهد؟ قال: نعم. قالوا له: فهذه فضيلة قد انفرد بها عن جميع الأنبياء. فقال عمروا: قد تكلم في المهد أطفال منهم صاحب يوسف وصاحب جريج وصاحب الأخدود وغيرهم. فقالوا يا عربي، أتكلم نبيك بغير العربية؟ قال: لا، قال الله في كتابه: (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء

ويهدي من يشاء). قالوا: أبعث الله منكم أنبياء غير نبيكم؟ قال: نعم. قالوا: من؟ قال صالح وشعيب ولوط وهود. قال: فلما سمعوا كلام عمرو وفصاحته وجوابه الحاضر قالوا بالقبطية للملك: إن هذا العربي فصيح اللسان جريء الجنان ولا شك أنه المقدم على قومه وصاحب الجيش، فلو قبضت عليه لانهزم أصحابه عنا. قال وغلام عمرو

وردان يسمع ذلك. فقال الملك أنه لا يجوز لنا أن نغدر برسول لا سيما ونحن استدعيناه إلينا. فقال وردان بلسان آخر ما قالوه، ففهم عمرو كلامه. ثم أن الملك قال: يا أخا العرب، ما الذي تريدون منا وما قصدنا أحد إلا ورجع بالخيبة؟ وإنا قد كتبنا إلى النوبة والبجاوة، وكأنكم بهم قد وصلوا إلينا. فقال عمرو: إننا لا نخاف من كثرة الجيوش والأمم وإن الله قد وعدنا النصر وأن يورثنا الأرض، ونحن ندعوكم إلى خصلة من ثلاث: إما الإسلام وإما الجزية وإما القتال. فقالوا: أننا لا نبرم أمراً إلا بمشورة الملك المقوقس، وقد دخل خلوته، ولكن يا أخا العرب ما نظن أن في أصحابك من هو أقوى منك جناناً ولا أفصح منك لساناً. فقال عمرو: أنا ألكن لساناً ممن في أصحابي، ومنهم من لو تكلم لعلمت أني لا أقاس به. فقال الملك: هذا من المحال أن يكون فيهم مثلك. فقال: إن أحب الملك آتيه بعشرة منهم يسمع خطابهم. فقال الملك: أرسل فاطلبهم. فقال عمرو: لا يأتون برسالة وإنما إن أراد الملك مضيت وأتيت بهم. فقال الملك لوزرائه: إذا حضروا قبضنا عليهم، والأحد عشر أحسن من الواحد. ووردان يفهم ذلك. ثم أن الملك قال لعمرو: امض ولا تبطئ علي. فوثب عمرو قائماً وركب جواده، فقال الملك بالقبطية، لأقتلنهم أجمعين. فلما خرج من مصر قال له وردان ما قاله الملك. فلما وصل إلى الجيش أقبلت الصحابة وسلموا عليه وهم يقولون: والله يا عمرو لقد ساءت بك الظنون. فأقبل يحدثهم بما وقع له معهم وبما قالوه وبما قاله وردان فحمدوا الله على سلامته)

فواضح من هذا أن الواقدي متفق مع ابن عبد الحكم في مكان المفاوضة، ولكنه يختلف عنه في أحد طرفي المفاوضة؛ فبينما يقول ابن الحكم إنها كانت بين عمرو وصاحب الحصن المقوقس، يقول الواقدي إنها كانت بين عمرو وارسطوليس؛ وأرسطوليس هذا هو - فيما يحدثنا الواقدي (ص 25 - 30) ابن المقوقس، وقد قتل أباه لما أدركه من ميله إلى الإسلام ورغبته في أن يسلم ملكه للعرب، ثم قام مقامه والناس جميعاً يظنون أنه يقوم مقام أبيه

أثناء غيبته تلك التي اعتاد أن يتغيبها طول شهر رمضان من كل سنة

ولا يرد ما يؤيد هذه الرواية في كتاب حنا النقيوسي

وإذا صح ما ترويه هذه الرواية العربية من وقوع مفاوضة في ذلك الوقت في حصن بابليون، فليس من شك في أنها كانت بين عمرو من ناحية، والمقوقس من ناحية ثانية كما يقول ابن الحكم، لا بين عمرو وأرسطوليس كما يزعم الواقدي. ونحن نرفض ما يقوله الواقدي لسببين جوهريين: الأول أننا لم نلتق بهذا الاسم (ارسطوليس) فيما قرأناه من سائر الكتب التي تتحدث عن وقائع الفتح. والثاني أن المقوقس توفي في 21 مارس 642 (بتلر ص 313) في حين أن الحصن سلم للعرب في 9 إبريل سنة 641 (بتلر ص 328)، فليس صحيحاً إذن أن المقوقس قتل قبل تسليم الحصن. ويخيل إلينا أن الواقدي قال بوقوع المفاوضة بين عمرو وأرسطوليس لا المقوقس، لأنه كان يعتقد في حب المقوقس للعرب، وإيمانه بدعوتهم، وتصديقه لرسولهم، صلوات الله عليه ونقده لما جاء به بولص (الواقدي ص 24 و27) فلا يكون من طبائع الأشياء إذن أن يحاول اغتيال عمرو قائد العرب، وإنما يلزم أن يكون غيره هو الذي دبر هذه المكيدة.

على أن الأستاذ بتلر يرفض هذه الرواية فيقول (تعليق 3 ص 223): (ولا تشك في تكذيب هذه الرواية ووصفها بأنها اختلاق ووهم، ونقول هنا إن هذه القصة نفسها قد ذكرها (ابن بطريق) عن غزة في فلسطين)

ونحن، اعتماداً على ما يلقيه الأستاذ بتلر على هذه الرواية من ظلال الشك، نرفض هذه الرواية كذلك أو نشك فيها على الأقل، وواضح جداً أن القصة التي تقصها إنما وضعت للتدليل على دهاء عمرو وسعة حيلته.

(للبحث بقية)

السيد يعقوب بكر

سقوط بولندة

للشاعر (توماس كامبل)

للأستاذ محمود عزت عرفة

انطوت ثلاثة أعوام كوامل على حادث اجتياح (بولندة) الذي اندلعت بسببه نيران هذه

الحرب القائمة؛ وفي الواقع أن بلداً من البلدان لم يُمَن بمثل ما مُنيتْ به (بولندة) من عدوان جاراتها المتتابع عليها. . . ففي منتصف القرن الثامن عشر - وكان نظام الإقطاع إذ ذاك يفتك بعوامل الاستقرار والهدوء فيها - أحست الدول الطامعة في امتلاكها - لأول مرة - بسنوح الفرصة التي طال ارتقابها؛ فاقترح فردريك الأكبر ملك بروسيا على كل من النمسا وروسيا الاشتراكَ معه في اجتياح هذه البلاد. وتم ذلك في عام 1772م، حيث اقتسم الجميع ثلث مساحتها، في حين وضعوا لسائرها استقلالاً اسميًّاً، وتركوا السلطة الحقيقية في يد معتمد روسي يقيم في (وارسو).

وبعد عشرين عاماً من هذا التاريخ، اتجهت أنظار أوربا جميعها إلى فرنسا وثورتها العارمة؛ واختلس الروس هذه الفرصة فاجتاحوا بقية بولندة واحتلوا عاصمتها عام 1792م.

وقد لاذ الوطنيون البولنديون بأذيال الفرار، حيث تجمعوا بإقليم سكسونيا (في شمال بوهيميا)، وكونوا حزباً سياسياً قوياً برياسة كوشيسكو.

وكان هذا الأخير ممن تعلموا في فرنسا، وتغلغلت في نفوسهم روح الحرية منذ طفولتهم؛ وقد اشترك في حرب الاستقلال الأمريكي انتصاراً منه للروح الوطنية أنى وجدت. . . فكان في الواقع خير من يقود مثل هذه الحركة!

وقد بدأ بتأليف جيش قوي تربص به حتى اندلع لهيب الثورة في بولندة عام 1794م، فدخل البلاد منتصراً، واحتل (وارسو)، حيث أنشأ حكومة وطنية حرة. . . وهنا استنجد الروس بالبروسيين، وتمكنوا متحدين من هزيمة الوطنيين واحتلال وارسو مرة أخرى عام 1795م.

وقد وقع (كوشيسكو) يوم ذاك أسيراً، وجرت مذبحة رهيبة عند جسر مدينة براغة (شرقي وارسو) راح ضحيتها عدد وفير من الوطنيين البولنديين. . . واتفقت حينئذ كلمة روسيا وبروسيا والنمسا على محو بولندة نهائياً من مصور أوربا السياسي! فكانت تلك أشنع

صورة للطغيان يسجلها تاريخ القرن الثامن عشر؛ وقد ضجت أوربا والعالم المتحضر جميعاً لهذا الحادث الذي بدا فيه مبلغ استهتار القوة المسلحة بحقوق الأعزل الضعيف!

وفي هذه القصيدة يصور لنا (توماس كمبل) - وقد عاش بين سنتي: 1777م، 1844م - مأساة (بولندة) في عام 1795م.

وهو يبدو فيها معبراً عن شعور الوطنيين ومحبي الحرية في العالم جميعاً، ممن آسفهم هذا الحادث وأرمض نفوسهم. . . ولسنا هنا بسبيل ذكر كفاح بولندة لتخليص استقلالها طيلة القرن التاسع عشر، أو إيضاح ما تلا ذلك من أحداث انتهت باحتلالها الأخير في أول الحرب الحاضرة؛ فلكل ذلك مواضعه من أبحاث التاريخ؛ وإنما تختم هذه المقدمة الضرورية بقولنا: إن قصيدة (سقوط بولندة) نشرت - لأول مرة - في عام 1799م - أي بعد مأساة السقوط بأربع سنوات - ضمن ديوان للشاعر عنوانه (مباهج الأمل). . . وهاهي ترجمتها:

أيتها الحقيقة المقدسة! لقد تخلى عنك النصر، ولكن إلى حين، وفارقتْ أخاكِ (الأملَ) ابتسامتُه أسفاً عليك. . . عندما توجه الظلم الغاشم بجحافله إلى معترك الشمال، وتحركت فرسانه من العُتاة أولى القوة، ومشاته من (البندوريين) ذوي السبال والعثانين: خافقة أعلامهم الرهيبة مع نسمات الصباح مدويةً طبولهم في دقات كهزيم الرعد، مرتفعاً رنين أبواقهم في شبه العويل. . .!

إنه الفزع الأكبر في ضجيجه وعجيجه، يتحدَّر مع طلائع الشر منذراً بولندة والعالم كله بالويل والثبور!

أشرف بطل فارسوفيا الأخير من مربأه العالي على سهول ألم بها الخراب . . . واجتاحتها جوائح الدمار، فصاح من قلب منكوء:

يا أهلي، ضمد جراح وطني الكليم. . . أما ثمة يد قوية تشد أزر الأبطال المجاهدين؟ ولكن. . . لِتعْثُ في أرضنا شياطين الفناء، ولتُنْجم عليها سحائب المنايا. . . فالوطن حي برغم ذلك باق؛ وباسمه الرهيب نشهر أسيافنا البواتر. . . فانهضوا يا رفاق؛ وأقسموا جميعاً أن تعيشوا من أجله أو تموتوا فداءً له!

قال البطل هذا، ثم انكفأ إلى رجاله البواسل ينظمهم صفوفاً خلف الأسوار الحصينة. . .

فئة قليلة لا ينقصها الإيمان ولا تعوزها النجدة. . . قوة متماسكة مرهوبة السطوة، تخطو في ثبات وفي أناة معاً: مترفقة كأنها النسيم العابر، متدفقة كأنها العواصف الهوج!

وانتقلت الأصوات خفيضة هامسة تموج مع الهواء موج البنود، مرددة شعارهم . . . الذي به يتعارفون: (الانتقام. . . أو الموت)؛ ثم ارتفع الضجيج عالياً قوياً يستلب النهى، وطنّت نواقيس الإنذار تعلن الخطر الداهم، وتبلغ التحذير الأخير!

ولكن. . . يا للأسف! عبثاً أيتها القلة الباسلة أن تنثال قذائفك مدوية كالرعد بين الصفوف. . . إنها لأشنع صورة وأدماها يسجلها التاريخ في سِفر الأيام! (سَرْماتْيا) تسقط صريعة في غير جرم، فما تُبكَى عليها عينٌ بقطرة من دمع. . .!

. . .واهاً لها! لم تجد الصديق كريماً ولا العدو رحيماً!

لم تسعفها القوة وهي في سلاحها وعدتها، ولا أبقت عليها الرحمة وهي في محنتها وبلواها. . .

هو رديُّها العسْال من يدها الواهنة قِصَداً، وأغمضت عيناها الوامضتان ببريق الحياة، وناءت بكاهلها أثقال الطغيان، فما أطاقت النهوض.

هاهو ذا الأمل يقرع سمع الدنيا بكلمة الوداع مولياً عنها إلى حين؛ والحرية تعول صارخة إذ ترى (كوشيسكو) يهوى من عليائه. . .

انحدرت الشمس إلى مغربها وما وقف سيل الدماء الموائر، وبدد ضجيج القتل والقتال سكون الليل الغارق في غفوته، وألقت لُهب الدمار ظلالها على قناطر (براعة) الفخمة؛ وتحدرت المياه من أسفلها مخضوبة بالدم القاني. ثم أعولت العاصفة فطغت على صرخات الجزع وصيحات الوهل المتصاعدة؛ بينا أفسحت الحصون الصماء للغزاة طريقاً مهادها الأشلاء.

ألا أصيخوا. . . إن الأبنية المحترقة لتنهار في دوي يصم الآذان؛ ومئات الأصوات الواهنة تجأر في طلب الرحمة والغوث وهي يائسة منهما؛ حتى لكأنما الأرض تزلزل زلزالها، والسماء ترمى من رجومها بكل شهاب ثاقب. . .!

إنها الطبيعة وقد أدركت هول الفاجعة تضطرب من أعماقها؛ والكون بأجمعه يهتز جزعاً لهذا البكاء والإعوال.

أيتها الأرواح الذواهب. أرواح الأبطال الكماة وكل ذوي النجدة من الهالكين. . . يا من استنزفوا دماءهم ولفظوا آخر أنفاسهم في ساحات القتال من مراثون ولكترا. . . يا حلفاء العالم وأصدقاء الإنسانية جميعاً: أشهروا سيوفكم من جديد لأجل (الإنسان)؛ حاربوا في سبيل غايته المقدسة؛ وقودوا طلائعه إلى النصر. ثم كفروا بالدم الصبيب عن دموع (سرماتيا) التي تحدرت وهي بالنجيع مخضوبة؛ واجعلوا لها من العتاد والعدة كما جعلتم لأوطانكم. . .

آه لو يرتد إلينا الزمن برب الوطنية وربيبها (تيل). . . أو بالملك الفارس (بروس) بطل (بانكبرن). . . إذن لكان للحرية بهما قوة؛ ولأوى الحق منهما إلى ركن شديد!

(جرجا)

محمود عزت عرفة

في معبد الشاعر المصري

للأستاذ إبراهيم صبري

مترجمة بقلم الأستاذ عثمان علي عسل

إبراهيم صبري شاعر موهوب من شعراء اللغة التركية، وهو يعيش في مصر في غربة متصلة أكثر من عشرين عاماً، يعيش في داخله لا أنيس له إلا شيطان شعره. شاعر يترنم أو ينوح لنفسه. شعلة تتوهج لا يراها إلا الظلام الدامس، يا للعجب!

ثم انتقل الشاعر إلى جو جديد من الشعر بين صحابة يعيشون في بلادهم في غربة كغربته. استمع الشاعر التركي إلى أنين الشعر العربي الذي تناثر في جو (المعبد)، وأصغى إلى الترنم الحزين الذي اشتركت في إيقاعه نفوس تحن في غربتها، وتلقف روح الآلام العربية فعانقها بشوق وصبابة

احترقت النفوس في نار الغربة المستعرة، وحول دخانها العطري طافت أشباح الصحابة: (الشاعر محمود حسن إسماعيل الذي تهدي إليه هذه القصيدة، ويحيى. . . وسعيد. . .، وعبد السلام. . .، وعبد الرحيم. .، والشاعر التركي إبراهيم صبري،

ومحمود. . . وعثمان. . .). وفي معبد الغربة المحترقة أقيمت شعائر الألم المتوهج، والأحزان المنصرمة، وانبعثت روح العطر تتصاعد من نار غريبة متأججة، ومن هذا الجو المشتعل قبس الشاعر التركي لأشعاره ناراً خالدة أضاء بها زاوية من المعبد قد نامت فيها ساعة من الزمن فرت إليه من جنة الخلد.

(عثمان)

ذات يوم حوم الشيطان شعري في جو حياتي، وحدثني حديثاً من الشعر، قال:

(لقد اتخذت من أودية الحقيقة مسكناً وبقيت فيها إلى الآن، فليكن هدف جناحك الذي يسف بك إلى الأرض جواً جديداً متعالياً. ولا ريب أن السموات الحرة لا تشبه منفاك الضيق، فليرافقني يراعك محلقاً في سماء الخيال، ليطلع على المعنى الخفي في (ديوان) الفلك، فيكتب أشعاراً اسطورية

دع عنك هذه الأفكار التي صورت بها هذه الأرض البالية، وليكن لون أشعارك من لون الفجر والشفق، ولتكن أنغام نظمك من وزن نظام النجوم)

وإذا بقوة سحرية قد تسلطت على سمعي وخيالي فعرجت إلى السماء كأني في غيبوبة، واحترقت روحي بلهيب لا يرى، وتصاعدت كالبخار حتى انتهت إلى السحاب. وكانت نظرتي هي صلتي الأخيرة بالأرض التي احتجبت وراء الغيوم. لا أدري كم مكثت في الظلام حين وجدت نفسي في ساحة معبد التقيت فيه بشيطان شعري؟ وبدا لي أن هذا المكان الذي يسمى (المعبد) كأنه يحتوي على الدهر: قبته رأس شاعر عبقري شيد عرشه السامي في مملكة الخيال، وقد بسط سلطانه على دولة الشعر، اشتعلت نار العبقرية في رأسه كالبركان فتألق جو المعبد بأضواء هذه النار. وبعد لحظة ترددت في المعبد أنغام وألحان، وتقدمت لاستقبالنا حور أمسكن بأيديهن مجامر البخور، فانتقلنا إلى عالم خرافي يفوح بالعطر، وقد تربع الشاعر منزوياً بغير اكتراث في زاوية الصمت، وأمامه موقد النار قد وضع على حجر سحري. من نظر إلى هذه النار خيل إليه أنها صيغت من الشمس لأنها تتوهج بضياء كأنه احتوى على لآلاء النجوم. وكأن الشاعر قد أذاب العلوم وألقاها في سعيرها فتصاعد دخان براق يتمثل فيه الذكاء. أنشأ في الجو قوساً متموجاً تخال أمواجه مصقولة من لجين وعسجد، فاعتلى الشاعر هذا القوس وبيده لآيات شعره، بينما رقصت أشباح أبدعت في الرقص وغنت بألحان لا تسمع، كأن في حلقات الدخان معاني مبهمة أحاطت بالنفوس فأثارت فيها عاطفة سامية غير بشرية تكاد تشبه السكر، لو أن السكر يأتلف مع العبقرية. كان بريق النظرات وهاجاً بينما كانت الأجسام خامدة كأنها احترقت بطلسم، تاركة الروح وحدها.

رقص الشاعر مع شيعته كأنهم يتهادون في الفضاء، وأقام شعائر المعبد، ثم أطرق كأنه يسجد. ولو أقامها كاهن مجوسي لما أبدع كما أبدع، ولما اهتزت له أركان المعبد كما اهتزت للشاعر، وكأنما الشاعر يستمد إلهامه من الهند والصين، فهو ينشر في جوه من محرابه خيالات تتضوع بالعطر، فتسري في نظمه قوة سحرية تجعل قوافيه تتجلى في صورة بوذا

اجتمعت بالشاعر في ساحة المعبد، وتآلفت روحي مع أعماق سريرته. لمحت في يده يراعاً قد أمسكه بقوة سحرية شيطانية؛ هو يصور العالم بهذا اليراع. إن شاء استرسل في وصف

العشق فأبكى القلوب الميتة كما بكى هو من الهجر والضنى، وإن شاء أودع الرياح أسراراً تحملها إلى سوالف حبيبته. إن البحار صورة حية للحرية، لكنها تبدو له أحياناً كأنها أسرى مقيدة بسلاسل أمواجها؛ وإنه ليستنشق النسيم فيتحول في صدره إلى زفرات تترنم بالأنين. لو شاهدت ألهامه لرأيت عالماً آخر. العالم بلا حبيبة هو - عنده - عالم لا وجود له! ومن هي حبيبته؟ وماهي. سر مجهول!! في عينيه ظلال لا تزول حتى في الظلام. نظراته غاسقة كأنها ممتلئة بألوان حسناء سمراء. وهو يرسل هذه النظرات إلى النيل فيخيل إلى غرامه غارق في لجه، فهو يبقى على ضفافه ساهراً ساهداً لعل الحباب يتحدث بغرامه؛ والدموع تنحدر من مقلتيه في محاذاته كأنها تسيل وراء شعر حسناته المسترسل في مجراه. . .! لقد اتخذ وادي النيل معبداً لعبقريته، كأنه أفق يشرف على حدود الدهر المطلقة، والقارئ أمامه كذرة لا يدري ما هو هذا العالم، ولا يدرك ما هي هذه الأفلاك؟

عثمان علي عسل

حق الإمام في نسخ الأحكام

لعالم فاضل

نشرت مجلة (الرسالة) الغراء كلمة قصيرة تحت عنوان (محاولة قديمة جريئة في الفقه الإسلامي)؛ وقد ذكر في هذه الكلمة أن من الفرق الإسلامية من يعطي الإمام حق نسخ الأحكام، وأن الإمام أبا جعفر النحاس في كتابه (الناسخ والمنسوخ)؛ ولا شك أن ما تذهب إليه من تلك الفرقة - إن صح - هو الوسيلة الوحيدة لما يراد الآن من تطويع الفقه الإسلامي لمجاراة الظروف والأحوال، حتى لا يجد المسلمون في العمل به حرجاً في أي زمن من الأزمان؛ وقد قال الله تعالى: (وما جعل عليكم في الدين من حرج)؛ وقال أيضاً في بيان الغاية من بعثة النبي صلى الله عليه وسلم: (ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم). فالدين الذي جاء لرفع ما كان في الأديان قبله من أغلال، لا يمكن أن يقر أغلالاً على أتباعه في أي زمن، لأن هذا لا يتفق مع غايته، ولا تتحقق معه تلك الميزة التي امتاز بها على الأديان قبله

وإنما كان ذلك هو الوسيلة الوحيدة لتطويع الفقه لمجاراة الظروف والأحوال، لأن ما يذهب إليه بعضهم في ذلك من جعل وظيفة الإسلام روحية بحتة، لا يتفق مع حقيقة هذا الدين، فقد جاء بعد أديان بعضها يغلب جانب الروح على المادة، وبعضها يغلب جانب المادة على الروح؛ فعمل على الموازنة بينهما، وجعل من غايته إعطاء كل منهما حقها، حتى لا تطغى إحداهما على الأخرى، ليتم بها نظام العمران، ويتلاءم الدين مع طبيعة الاجتماع البشري، لأن كل دين لا يتلاءم مع هذه الطبيعة، يكون غلا عليها، وتكون تكاليفه فوق طاقتها؛ وقد قال الله تعالى: (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها)

وكذلك ما ذهب إليه بعضهم من تقسيم التشريع الإسلامي إلى دائم ومؤقت؛ فهو لا يبقى أيضاً بتطويع الفقه الإسلامي لمجاراة الظروف والأحوال، لأن جعل التشريع المؤقت ما صدر عن النبي صلى الله عليه وسلم بشخصية الإمام المجتهد، وجعل التشريع الدائم ما صدر عنه بشخصية الرسول المبلغ عن الوحي، ومن يدرس التشريع الإسلامي يعرف أنه من المتعذر تمييز ما صدر عن النبي صلى الله عليه وسلم بهاتين الشخصيتين، ويرى أنه مع إقرار الوحي لأحكام الاجتهاد، لا يكون هناك فرقاً بينهما وبين الأحكام الصادرة عن

الوحي الصرف، وهذا إلى أن ما يراد الآن هو تطويع الفقه الإسلامي لمجاراة الظروف والأحوال ولو لم يكن مصدره شخصية الإمام المجتهد، حتى يكون تطويعاً شاملاً كاملاً، ولا يوجد فيه ما يعوق هذا الفقه عن مسايرة أي زمن؛ وهذا لا يمكن إلا بما تذهب إليه تلك الفرقة من إعطاء الإمام حق نسخ الأحكام؛ ولهذا قلنا: إنه هو الوسيلة الوحيدة لتطويع الفقه الإسلامي لمجاراة الظروف والأحوال

ونريد بعد هذا أن نبين أن الإمام أبا جعفر النحاس لم ينصف في عرض مذهب تلك الفرقة في إعطاء الإمام حق نسخ الأحكام لأنه لم يعن بالرد عليها، ولم يبين ما استندت عليه في إعطاء الإمام ذلك الحق، مع أن كل عاقل لا يمكن أن يصدر في أحكامه عن الهوى، بل لا بد له من سند قوي أو ضعيف يعتمد عليه في أحكامه، ويحمله على مخالفة غيره؛ وقد فاته أيضاً أن يبين كيف يستعمل الإمام هذا الحق عند تلك الفرقة؟ أيستعمله كما يشاء ويهوي، فيكون الحكم في ذلك للهوى المذموم ولمصلحة الإمام دون مصلحة الرعية؟ أم يستعجله للمصلحة العامة، ويحكم فيه بالاجتهاد منه ومن أهل الحل والعقد في الأمة؟ ولا بد أن هذه الفرقة لا تعطي الإمام حق نسخ الأحكام بحسب الهوى، فيكون عرضه لسوء استعماله، واستخدامه فيما يضر الرعية ولا ينفعها

وإذا كان الإمام أبو جعفر النحاس قد فاته بيان مستند تلك الفرقة، وجرى في ذلك على عادة فقهائنا في العمل على إماتة كل مذهب يخالف المذاهب المشهورة، حتى فقدنا بذلك ثروة فقهية لا يستهان بها، وكانت تنفعنا في كل أزمة تشريعية تحصل لنا، كالأزمة التشريعية التي نعانيها في عصرنا، إذا كان قد فاته ذلك فإنا نحاول أن نبين هنا ما يمكن أن يكون مستند تلك الفرقة فيما ذهبت إليه، بدون أن نحمل أنفسنا تبعة ما نسوقه ونحكيه، لأن من يحكي ما يمكن أن يكون مستند القول من الأقوال لا يصح في أدب المناظرة تحميله تبعته، وإنما هو كناقل لا يلزم إلا بتصحيح النقل

فمما يمكن أن يكون مستند تلك الفرقة أن الله تعالى ذكر في كتابه الكريم أنه شرع

لنا من الدين ما وصى به نوحاً والأنبياء من بعده، فشريعة الله إذن واحدة لا تقبل التغيير والتبديل، وليس الإسلام في صميمه إلا تلك الشريعة الثابتة من عهد نوح، أما تلك الفروع التي تضاف إليها فإنها ليست من صميمها، ولهذا تخلف فيها الأنظار، وتقبل التغيير والتبديل
بحسب الظروف والأحوال

ومما يمكن أن يكون مستند تلك الفرقة أن الله تعالى ذكر تشريع النصارى للرهبنية بعد عيسى عليه السلام، فلم يدم تشريعها منهم، بل أقر ابتداعهم بقوله تعالى: (ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها) فلا بأس إذن في كل تشريع حسن بعد الأنبياء، والإسلام في ذلك مثل غيره من الأديان

ومما يمكن أن يكون مستند تلك الفرقة أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطى المسلمين حق التشريع بعده، وذلك بقوله: (ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن)، وبقوله أيضاً: (من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر فاعلها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر فاعلها إلى يوم القيامة)

ومنها أن أهل الصدر الأول لم يتحرجوا من التغيير والتبديل في الأحكام على ما اقتضته المصلحة العامة في عصرهم، فأبطل عمر التغريب في الزنا حين فرَّ بعض من غرَّبهم إلى بلاد الروم فتنصر، وقد طلب منه نصارى تغلب أن يجعل جزيتهم صدقة كالمسلمين على أن يدفعوا ضعفها له فقبل ذلك منهم، وكذلك زاد عثمان في أذان الجمعة حين كثر سكان المدينة في خلافته، واسقط معاوية حد السرقة عن قوم أشراف سرقوا في عهده، وقدم مروان بن الحكم خطبة العيد على صلاته حين رأى الناس ينصرفون بعد الصلاة ولا يجلسون للخطبة

فهذه كلها وجوه يمكن أستناد تلك الفرقة عليها، كما يمكن أيضاً ردَّها عليهم، ولو أن الأمام أبا جعفر ذكر ما تستند عليه لأغنانا عن تكلف تلك الوجوه، وقضى بذلك حق الإنصاف والتاريخ

(ع)

الفن والحياة

فهم الشيء رؤيتُه في موضعه الحقيقي بين سائر الأشياء. ولا يقف العلم عند الجزئي أو عند الفرد إلا لكي يكشف عن القوانين التي تربط ذلك الجزئي أو ذلك الفرد بباقي العالم. ولكن إذا نظرنا إلى الأشياء من الناحية الجمالية، فإن كل شيء يبدو لنا كأنه كلٌّ متميز تام ومحدد، ونحن لا نتمتع بصورته إلا لأنها تمثل لنا شيئاً متميزاً له خصائص تعريفية خاصة. ولما كنا نحن - وحدنا - عاجزين عن خلق مثل تلك العورة، فإن الفن يسارع لمساعدتنا.

وتنتمي العاطفة العقلية إلى طائفة العواطف الوجدانية مثلها في كل ذلك مثل العاطفية الجمالية ولكن العاطفة الجمالية تتجلى فيها المشاركة الوجدانية أكثر مما يتجلى في العاطفة العقلية، لأن هذه الأخيرة تحددها علاقة الأشياء فيما بينها أكثر مما تتحدد بعلاقة الشيء الجزئي نفسه بماهيته الخاصة. كذلك تنتج العاطفة الجمالية مما نبحث عنه لنوحد به بيننا وبين الأشياء حياتها وندخل عنصر المخيلة في حياتنا الخاصة. وهناك لذة جمالية تنتج من استخدامنا لأعضائنا استخداماً حراً، أي أنها ترجع إلى اللعب الذي نقلد فيه أعمالاً يباشرها الإنسان بحكم العادة من أجل غايات هامة وعملية. ويمكن أن نسمى كل فن لعباً ما دام يقدم لنا صورة ما، أعني إنتاجاً مثالياً للحياة الواقعية كلها أو أجزاء منها.

وتتخذ العاطفة الجمالية في نموها وانتشارها مظهراً خلقياً هاماً، فحين تسيطر على الإنسان تجعله ينسى نفسه أمام قيمة الأشياء، فلا يعود يفكر في نفسه ذلك النوع من ذلك النوع من التفكير الأناني المبتذل. ويتضمن الجمال الحقيقي قوة تجبرنا على تذكره وإرادة رؤيته الأشياء ثانية الجميلة، مثل من ينظر إلى الأعمال الفنية أو أعمال الطبيعة من وجهة النظر الجمالية، يحس ميلاً نزيهاً نحوها (أي غير أناني) وفي نفس الوقت تتيقظ فيه قوى الحدس والانتباه والإنتاج قوية متسقة ويضاف إلى ذلك عنصر مثالي آخر.

عرف أرسطو التراجيديا بأنها تقليد حدث عظيم يثير الشفقة والخوف في الإنسان ويظهرهما. وما يقال عن التراجيديا يمكن أن يقال عن كل ألوان الفن المختلفة.

فاللعب (وكذلك الصورة) يثير نفس ما يثيره الأحداث الواقعية التي يمثلها من عواطف، ولكن بشكل آخر تستخفي فيه العناصر المؤلمة والأنانية في تلك الأحداث. والحوادث الواقعية تفاجئنا وتقع مباغتة، فلا نتمكن من كشف ما بينها من الارتباط والاتصال، ولذا يبدو لنا

أنها تحدث بمقتضى الاتفاق والصدفة فقط، وهذا هو السبب في أنها تقدم لنا أشكالاً متعددة ومختلفة تثير عواطف متعددة ومختلفة. ولكن الأمر على عكس ذلك في الغد؛ فكل شيء هنا له غرض معين هو إثارة انفعال كلي واحد يتناسب مع خطوط الشيء أو الحدث الضرورية والتعريفية المميزة. ويستخرج الفن سماته الضرورية من صورة الشيء الفردية دون أن يذهب إليها، وبذلك نتخلص من التنافر ونستقبل تأثيراً واحداً معيناً، فيكون من السهل أن نندمج ونتوحد بعواطفنا في الشيء الممثل، وهذا هو سبب أن الإنتاج الفني يجعلنا نفهم الأشياء فهماً أحسن، وإن كان لا يقدم لنا طبعاً شرحاً علمياً. ولكن إذا كانت التراجيديا تثير الشفقة والخوف وتظهرهما، فإن الكوميديا تطهر عاطفة القوة والعاطفة الشخصية؛ وما تثيره من ضحك ليس في الحقيقة تهكماً أو استهزاء، ولكنه عاطفة تحرر وخلاص، تأتي من رؤيتنا الصغائر والدنايا والمتناقضات والشرور ظاهرة عارية ساخرة، على معرفتنا في نفس الوقت أنها جزء من الحياة وقد بحث كثيرون في علاقة الجمال بالأخلاق، وإلى أي حد يتفق العمل الجمالي أو الظاهرة الجمالية مع مطالب الأخلاق، وتساءلوا هل الصور والنقوش المحسوسة وغيرها جائزة ومباحة ولا تتعارض مع الأخلاق أم لا؟ وفي الحقيقة ليس هناك محل لمثل هذا التساؤل؛ ففيما يختص بمادة العرض وشكله لا يوجد أي اختلاف أو تنافر بين ما يقتضيه الجمال في الواقع وما تسمح به الأخلاق، فكل ما له قيمة جمالية لا بد أن يكون متفقاً مع التعاليم الأخلاقية. وفي صلة الفن بالبيداجوجيا نجد أنه لا يمكن السماح بوضع كل قصيدة، ولا أي قصيدة، بين أيدي الأطفال فيتداولونها فيما بينهم. ولكن ذلك لا يتصل بالقيمة الجمالية ولا يحط منها، فإن الذي تهيج نزعاته الحسية أو الشهوية من اثر نقش مثلاً إنما يحدث له ذلك لأنه لم ينظر إليه من الناحية الجمالية فلم يتطهر ميله وهواه، بل جاء الأمر على العكس وهاجاً بشدة وذلك الشاب الذي يحدثنا عن لوسيان أنه أغلق على نفسه معبد أفروديت وقضى فيه ليلة يعتنق تمثالها، لم تدفعه إلى ذلك في الواقع العاطفة الجمالية بل شيء آخر

وعليه، إذا كان الفن يعني حياة مثالية، فإن القيمة الفنية يجب أن تطابق القيمة وتناسبها. وبالتالي قيمة العمل الفني لا ترتكز فقط على النبوغ أو العبقرية، بل على الحياة التي يمثلها كذلك. ويجب على الفنان القيمي أن يصارع في سبيل سيادة وجهة نظره نحو الأشياء حتى

يقبلها الناس. ويرجع سيادة وجهه نحو الأشياء حتى يقبلها الناس. ويرجع جزء كبير من المعارضة ضد الواقعية الجمالية الحديثة إلى أن الناس يبحثون في الفن عن اللهو أو الراحة فقط، فهم لا يحبون أن يواجهوا مرارة الحياة وأحزانها، ولا يريدون أن يثيرهم الخوف والشفقة؛ قد اعتادوا على تذوق التراجيديا القديمة والإعجاب بما فيها من ضربات القدر القاسية، ولكنهم لا يمكنهم احتمال تراجيديا حديثة مثل تراجيديا (إبسن) مثلاً المسماة (أشباح). والواقعية الحديثة في الأعمال الكبرى لم تصنع شيئاً إلا أن جعلت النظر إلى الحياة الواقعية أعمق من ذي قبل. فالفن إذن يباشر عملاً تربوياً إذ يفتح ويقوي مشاعرنا وأنفسنا لمقابلة الحياة وجدَّها، ويهيج وجداناتنا ضد ما فيها من شرور، ويرينا كيف أن الحياة الإنسانية مغلولة ومسجونة في سجن سحيق بعيد. فالشاعر مثلاً يمكنه أن يعلمنا ويهيئنا لتقويم الأعمال أحسن من أي فلسفة خلقية وبالرغم من عِظَم المكان الذي يشغله الفن في الحياة، فإنه لا يمكن أن يقوم مقامها. ولا يمكن أن ينظر الفنان الحق إلى الحياة الواقعية كشيء فني بسيط. فهو في فنه يبحث عن العمل أكثر مما يبحث عن التسلية، وينظر إلى فنه كعمل جِدَّي اجتماعي. وَمثل الفنان مَثَل العالم يرى الحياة فيحاول أن يريها للآخرين مثلما رآها هو. ولكن الهواة يرون الحياة لعباً حتى إن شيللر يقول: (إن الإنسان لا يكون إنساناً إلا حين يلعب) فهو يرى أن العيش في دنيا الخيال واللعب هو عمل الإنسان الذاتي، ويجب أن يكون للإنسان قلب حر كيما يتخلص من ضغط الواقع وسيطرته ويذهب إلى الحياة المثالية والواقعية في الفن - مثلها في ذلك مثل الرومانتيكية تماماً - تجعلنا نعيش في

عالم خيالي أغراباً عن الواقع. فالواقع حقيقة غارق بدوره في الخيال كالمثالي؛ وخطر ذلك أعظم على الواقعي منه على المثالي، لأن المثالي المعتدل يعيش في عالمين: عالم الأحلام المثالي، والعالم السفلي الوضيع، فهو يتهكم من هذا الأخير، ولكنه بالرغم من ذلك يعرف كيف يقبله ويراه على ما هو عليه، فلا يكون الاستهواء الجمالي عليه كبيراً مثلما هو عليه عند الواقعي الذي يريد إشباع مخيلته من المؤثرات الواقعية نفسها

وليس الفن عملاً صغيراً بسيطاً يختص به بعض الناس دون غيرهم، أو ينفرد به عصر دون غيره من العصور. بل الفن شيء عام لكل أمة ولكل عصر منه حظ مقسوم. فلا بد أن

يكون لكل أمة فنها الخاص، ولا بد أن يكون لكل عصر فنه الذاتي. ومن العسير أن تكتفي أمة من الأمم بفن غيرها دون أن يكون لها فن خاص بها، لأن كل أمة لا تعرف تماماً إلا نفسها وما يمكن أن يؤثر فيها من مظاهر حياتها تأثيراً جمالياً. والفنان يعكس تلك المظاهر الجمالية انعكاساً كاملاً، لأنه يعيش فيها وقد أدمجت عواطف بها. وعلى العموم يمكن أن يُقال إن هناك أساساً مشتركاً من الفكر والحساسية لكل شعب وكل عصر يمثله فعل هوميروس، ودانتي، وشكسبير، وجوته، وغيرهم. إذ عرفونا تمام التعريف - خلال آثارهم وأعمالهم - بالحياة العقلية الإنسانية عند الأوربيين.

أحمد أبو زيد
كلية الآداب - جامعة فاروق الأول

بجماليون

تحية للكاتب وعرض للكتاب

للأستاذ فخري شهاب السعيدي

جاء كتاب توفيق الحكيم الجديد في شكل حوار لأبطال بعثهم من أساطير اليونان، وابتداع لهم من خياله الخصب عبارات ذلك الحوار، وهيأ لهم رمزًّياً يصلح لهم، وتتناوبهم فيه العواطف والمشاعر

ما الحياة، وما الفن، وما ميزان الحكم عليهما؟ وما المرأة، وما الرجل، وما وجه المفاضلة بينهما؟ وما فكرة الآلهة والمخلوقات وما مقاييس الأحكام على الأمور عندهما؟ ما الخلود، وما الفناء؟ وما العقل، وما الجنون؟! ما هي الحكمة؟ وكيف توصف وتعرف وتقدر، وما البطش بالقياس إليها، وكيف يكون اتقاؤه والحذر من التورط فيه، وهل إلى ذلك من سبيل؟؟

وما هو الجمال وما هو الحب؟ وما مقدار لصوقهما بالحياة واتصالهما بها، وهل هملا وقف عليها؟!

تلك - ومثلها أكثر منها - أسئلة البشرية الخالدة التي مرت بكل فكر، وطلب أجوبتها من كل حكيم. . . وما دام البشر محدود القوى بالنقص والفناء، فإنه سيفتنّ في التسآل والأجابة، وفي الأخذ والرد، والإقناع والاقتناع، كل هذا تطميناً لفضول القوى العاقلة التي تثيرها في نفس مشاهد الكون!

أما عن الفن والحياة، فهما لدى توفيق الحكيم فكرتان إحداهما تتمّ الأخرى لإبداع . . الكمال المطلق الذي يتخيله في أذهانهم أرباب المثل العليا في الحياة، وهما من أجل إيجاد هذا الكمال ينبغي أن يكونا متلازمين يضيق عنه إدراك البشر المحدود؛ ومن هنا تبدأ عقد القصة الفلسفية في الظهور: فصانع التماثيل (المثال) (بجماليون) رجل فني نزاع إلى الكمال المطلق، ولكن نزوعه هذا نزوع يكتنفه الغموض، لأنه لا يدري به ولا يدري كيف يستقيم له هذا الكمال: هو يريد الحياة، لأن في أعماق نفسه شعور الإنسان الحي الذي إذا رنا إلى غاية نفسه الحية ألفاها متمثلة في الجسم النابضة عروقه بالحرارة والحياة. . . وهو يحب الفن لأن في طبيعته قبساً من عبقرية الخالقين المبدعين. . . وفي سريرة نفسه

الصافية التي مزجت قوة الإبداع بجمال الحياة، استطاع أن يجمع بين النقيضين؛ وإلى ذلك توصلت روحه؛ ولكن عقله - وهو بشري محدود - لم يهتد إلى سر التوفيق بين ما يقع تحت فهمه من تناقض ظاهر في فكرتي خلود الفن وزوال الحياة، وبين طمأنينة روح (بجماليون) ونفسه إلى هذا التنافر البين الواضح. . .؟ وفي هذه المرحلة من القصة، تصل الفكرة الفلسفية إلى أبعد أغوارها، وتبدو عقدة الرمزية فيها رائعة

الجمال، تمثل أبرع تمثيل وأصدقه ما يقوم من خلاف بين العقل في حدوده المادية من جهة، وبين الروح والنفس في جوهرهما المتجانس الموحد من جهة أخرى. وعلى قدر سعة اختلاف النظرتين، وبمقدار قصور العقل عن فهم ما تشمله الروح من آفاق، وما تصل إليه النفس من حقائق، يشتد الغموض على المثال البطل، ويشتد كرب نفسه، وتغشاه هموم العماء والعيش في المجهول. . ولا يدرك هذا الألم النفسي الهائل الناشيء بين العقل والروح عن اختلافهما في الفهم واختلاف طبيعتهما في شمول الأشياء والنفوذ إليها، إلا عبقري كالبطل المثال، أو عبقري كالبطل الكاتب الحكيم! وإذا عرفنا بعد هذا أن العقل هو الحكم في هذه الخصومة التي بينه وبين الروح عرفنا شقاء هذا البطل الشاب (بجماليون) ومقدار الحيف الذي لحق روحه الشاعرة وقواه المبدعة وصفاء نفسه الجميل!

قال: (قوة الفن! وما قوة الفن تلك التي يستطيع بها الهالك أن يخلق الخالد!)

وقال الفن: (ردوا عليّ عملي. . . ردوا عليّ (جالاتيا) كما كانت تمثالاً من عاج. . . أيها الآلهة، دعوني وشأني، لنفسي ومخلوقات نفسي، وما أنا إلا صنوكم ونظيركم؛ بل إني عليكم سموت، وعلى قدرتكم تفوقت، فأنتم ما فعلتم غير أن أفسدتم الجمال الذي أقمت. . أفسدتم جمالي الخالد، أفسدتم جمالي الخالد).

وقالت الحياة كلاماً كثيراً ولكن على غرار ما نطقت به قولها: (نعم! المودة والرحمة. . أشياء تعطيها الحياة، ولا يستطيع أن يعطيها الفن!) .

وقال المثال كلاماً أطول من كلام الحياة ولكن كلمتين صدرتا منه أدين بهما في هذه الخصومة، وهما قوله في موقف المقارنة بين (جالاتيا) صنماً و (جالاتيا) امرأة: (كل ما فيك محدود وكل ما فيها غير محدود) وقوله في معرض الاعتراف بانكساره وخطيئته: الخطيئة التي كُتِبَ على كل فنّان أن يحمل وزرها. . الافتتان بالنفس، الافتتان بالذات! ولولا صدور هذين الاعترافين لما حُكِم على (بجاليون) المثال العبقري الحي أن يموت وعلى آيته (جالاتيا) الخالدة أن تحطم تحطيماً!

تلك هي الفكرة الرئيسة التي تقوم القصة عليها؛ ولكن ليس معنى ذلك أن الأفكار الفلسفية الأخرى أقل منها روعة أو اضعف شاناً؛ ففكرة الرجل والمرأة والمفاضلة بينهما، وتمييز الرجولة بشهامتها على الأنوثة بضعفها ومكرها، وحبها الإطراء وانخداعها به، وولوعها بالمكابرة ورغبتها في الانتقام، فكرة واضحة تامة الوضوح في تصرفات الآلهة (فينوس) وفي هباتها وكلامها وكل دورها الذي قامت به في المسرحية

أحب بعد هذا أن أشير إشارة شريعة إلى فكرة أحسبها أسمى الأفكار الرمزية التي وفق إليها الأستاذ في هذا الجهد الرائع الجديد، تلك الفكرة التي أزال بها الحجاب بين الحي والجماد، وسما إلى نوع من الرمزية الحلولية الروحية التي لم تُقم للفارق العقلي الذي يأبه الناس له وزناً في التفريق بينهما. بل اعتبرهما جدلين لا يلبثان أن ينصبَّا في خضم الوجود العظيم، وهما إذا نمَّا عن شيء فعن وحدة متجانسة ينضم إليها كل ما في الكون والوجود. وإنك لترى ذلك واضحاً متمثلاً في مخاطبة الجماد بأسلوب الأحياء، وإنطاقه بما يعرب عن مثل أحاسيسهم ومشاعرهم. على أنه في هذه المحاولة الناجحة لم يخرج عن كونه جاء بصورة أخرى للعذاب الذي لقيه المبدع البديع (بجماليون) حين تعذر عليه أن يمزج جمال الفن الخالد الذي أنطق الجماد به، برقة الطبيعة الحية الفانية التي تمثلها جلايتا امرأة سوية الخلقة رائعة التكوين. ولكن الفرق بين العبقريين: العبقري المثال، والعبقري الكاتب الأديب، أن الأول أطاع عقله واحترام مقاييسه المادية، أما الثاني فقد استعار الحلول وسيلة إلى إظهار ما يريد بمظهر يصدق الاعتماد عليه

أكتفي بهذا المقدار لأسمع رأي الناقدين في هذا الأثر الخالد المجيد. وإذا أذن الصديق في سماع تحيتي وقبول تهنئتي فليسمع ذلك إذاً متجلياً في قولي إن أثره هذا وإن آثره وإن يكن مصدره الغرب، سيرتد بعد أن اتشح بوشاح من عبقرية شرقية إلى مصدره بعد قليل على قلم ناقل أو أسلة مترجم معجب محب!

فخري شهاب السعيدي

أشعار صينية

أغنية (لو - فوه)

لشاعر صيني مجهول
(عاش حوالي عام 600م)
إذا ما برزت الشمس من الأفق، أضاءت مسكننا، مسكننا المنير في أقليم تسان
في إقليم تسان فتاة جميلة، فتاة جميلة تسمى لو - فوه لو - فوه فاتنة وعاقلة، لو -
فوه التي ترعى دائماً دود القز، تسير أشواطا بعيدة لتجمع له أوراق التوت
ولكي تذهب لجمع أوراق التوت، تلبس لو - فوه عصابة يابانية، تعلق أحجاراً مستديرة
في أذنيها، ترتدي ثوبين: أحدهما أصفر، والآخر وردي، وتحمل سفطاً صغيراً مضفراً
بالحرير الأزرق. . .
وفي ذات يوم قابل حاكم المقاطعة لو - فوه في طريق الغرب، فأوقف أفراسه
الأربعة، وخاطب رئيس حراسه: (سل هذه الجميلة ما اسمها وكم عمرها؟)
أجابت أو - فوه: (في إقليم تسان فتاة جميلة تسمى لو - فوه لم تتعد العشرين، ولكنها
لم تعُد صغيرة فقد جاوزت السادسة عشرة)
خاطب حاكم المقاطعة رئيس حراسه مرة أخرى: (اذهب واطلب إلى هذه الجميلة إذا
كانت تريد أن تصعد إلى عربتي؟)
أجابت لو - فوه وعيناها إلى الأرض: (أليس للحاكم زوجة يحبها؟ للو - فوه في إقليم
تسان خطيبها)
- 8 -
زهرة الخوخ
للشاعر الصيني نسيه - تيه (643 - 706م)
قطفت زهرة خوخ حمراء، وهديتها إلى حبيبتي، التي فمها صغير أيضاً كزهرة الخوخ،
أحمر مثلها
أحضرت (سنونو) ذا أجنحة سود من عشه، وأهديته إلى حبيبتي التي حاجباها يشبهان
جناحي السنونو
وفي الصباح، كانت زهرة الخوخ قد ذبلت، وطار السنونو من النافذة التي تطل على
الجبل الأزرق
ولكن فم حبيبتي ظل دائماً أحمر، وحاجباها بقيا سوداوين
- 9 -
سري ليلة صيف
للشاعر الصيني لي. تين. يو (702 - 763م)
إنا نبتعد عن الجبل الأزرق، والقمر يتبعنا. الندى قد أثقل أكمام أثوابنا. إنا نعود ثانية
قبل أن يطاول بنا السير، لكن ضباباً أبيض قد غطى القرية
اليد في اليد وقد اقتربنا من حاجز مسكننا القديم، حيث ينتظرنا أصدقاء
والآن نحن نسلك طريقاً على جانب الغاب الذي يمسنا مساً خفيفاً في سيرنا
نحن جميعاً مؤتلفون. أية سعاد! النبيذ المعطر يصب لي وأنا أغني أغنية الريح بين
الصنوبر. البلابل تردد معي، والضفادع والحشرات كلها أيضاً
- 10 -
أمنية
للشاعر الصين هنج. سو. فان (1812 - 1861م)
أيها الليل الفاتر، يا نور القمر، يا رائحة أشجار التوت، هبوا حبيبتي حلماً لذيذاً. اجعلوها
لا تطيق الصبر عن رؤيتي، يأتي عند الفجر تدق بابي. يا رائحة أشجار التوت، يا نور
القمر، أيها الليل الفاتر، ستدفئني قبلاتها، إذا استمعتم إليّ
(بور سعيد)
محمد وهبة
البريد الأدبي
في ديوان صرَّدُر
اطلعت أخيراً على نسخة من ديوان (صرَّدُر) الذي أشرفت دار الكتب المصرية على
طبعه، فأخرجته منقحاً مضبوطاً بالشكل مع شروح وتعليقات مفيدة. ولكن يبدو لي أن
هذه العناية لم تحل دون وقوع أخطاء بَيِّنة ينبغي النص على أمثلة منها. وأنا مثبت هنا
بعض ما عرض لي في القصيدة الأولى؛ وهي السينية التي قيلت في مدح الخليفة

القائم بأمر الله، والتي مطلعها: (كما قُلتُما، بُرءُ الصبابة في اليَاسِ)
يقول صرَّدُر:
جيوشٌ من الأقدارِ تُفْني عداتِه ... بلا ضَرب إيتاخٍ ولا طعْن أشناسِ
وقد جاء في شرح هذا البيت: (إيتاخ وأشناس: كذا بالأصل، ولعل الأولى (أثباج) جمع ثبج وهو ما بين الكاهل إلى الظهر، والثانية لم نوفق إلى مراد الشاعر منها)!
وأقول إن الصواب في ذلك أن إيتاخ وأشناس اسمان لقائدين تركيين من اشهر قواد الخليفة المعتصم بالله العباسي: أشترى أولهما عام 199هـ - وكان غلاماً خَزَويا طباخاً - فرفع شأنه ورشحه لأخطر المناصب، حتى كان رأس إحدى الفرق الثلاث التي دخلت بلاد الروم لفتح حصن عمورية عام 223هـ. وكانت حاله عند الواثق كحاله عند أبيه وقد قتل في أول عهد المتوكل عام 235هـ
أما اشناس فكان غلاماً تركياً اشتراه المعتصم ورباه، حتى نبوأ رفيع المراتب؛ وقد توجه ووشحه في احتفال مشهود عام 225هـ؛ وجدد الواثق من كرامته والاصطناع إليه سنة 228هـ وبعد عامين من ذلك التاريخ توفي وهو في أوج عظمته. . .
ويقول صردر بعد هذا ببيتين:
وقد عَلم المصريُّ أن جُنودَه ... سِنُو يوسفٍ منها وطاعون عَمواسِ
أحاطتْ به حتى استراب بنفسه ... وأوجسَ منها خفيفةً أيَّ إيجاسِ
وجاء في التعليق على كلمة (المصري): يشير الشاعر إلى الغلاء الذي حصل في مصر أيام المنتصر العباسي الخ. والغريب أن هذا الخليفة الذي يذكره الشارح حكم في بغداد بين عامي (623 - 640هـ) في حين توفي صردر عام 465هـ؛ وتوفي ممدوحة القائم عام 467هـ
أي قبل وفاة المستنصر العباسي بقرن وثلاثة أرباع القرن. فكل ما ذكره إنما هو خلط بين الحوادث ووهم في تبين مراد الشاعر: والذي يبدو لي أن صردر يشير في بيته إلى حادث تاريخي هام، أوجزه فيما يلي:
قبيل منتصف القرن الخامس الهجري تضعضع شأن آل بويه في بغداد وآذنت دولتهم بالزوال. وقد نجحت وقتئذ فتنة أبي الحارث أرسلان المعروف بالبساسيري (نسبة إلى بَسا: مدينة بفارس)؛ وهو غلام تركي من مماليك بهاء الدولة البويهي كاتب الخليفة المستنصر العلوي بمصر وعرض عليه الدخول في طاعته والقضاء على خلافة العباسيين في بغداد. ولما علم الخليفة القائم بذلك أستنجد بسلطان السلجوقين طُغرل بك الذي انتهز هذه الفرصة فدخل بغداد وقضى على بقية ملك البويهيين (أوائل عام 447هـ) ثم خرج بعد حين لقتال أخيه لأمة (إبراهيم ينال) الذي خانه بإغراء بعض المصريين ومكاتباتهم، فتمكن البساسيري في أواخر عام 450 من اقتحام بغداد؛ واستقام له الأمر فيها عاماً كاملاً لاذ الخليفة أثناءه ببعض من تكفلوا بحمايته من العرب.
ولما رجع السلطان من حربه عجز البساسيري عن الصمود له؛ فخرج بجيشه إلى الشام وتبعه طغرل بك إلى هنالك حيث أوقع به وقتله وحمل رأسه إلى بغداد
فالشاعر يشير بقوله: (وقد علم المصري أن جنوده الخ. . .)؛ إما إلى إبراهيم ينال الذي انتقض بتحريض المصريين، وإما إلى أبي الحارث البساسيري الذي كاتب خليفتهم ودخل حاضرة العراق باسمه، كما أنه لا يبعد أن تكون الإشارة إلى الخليفة المستنصر (العلوي) نفسه. ويكون ضمير (جنوده) في كل ذلك راجعاً إلى ممدوح الشاعر الخليفة العباسي القائم بأمر الله.
(جرجا)
محمود عزت عرفه
في الشعر التمثيلي
ردّاً على كلمة الأستاذ عبد الرحمن عيسى خريج كلية اللغات العربية - التي وجهها إلى والدي الأستاذ محمود البشبيشي وكان الصواب أن يوجهها إلى، لأن كل ما يدور على لساني في حوار (جيل وجيل) فهو لي صياغة ومعنى - نقول إننا لسنا ممن يعتسفون الأحكام اعتسافاً، وإنما استندنا في حكمنا إلى قراءة واستيعاب وإلى مقال نشرته مجلة (المعرفة، ثم إننا لم نرد غير التاريخ لشعراء مصر والاعتراف بفضل شاعر كبير منهم ولكن الأستاذ سكت طويلاً ثم وقف على الكنز الدفين فطلع على قراء (الرسالة)

الغراء بحكم عام يصب النفي صباً على كل ما قررت، وقد أبث عليه ثورة الفكرة واعتلاج الرأي في صدره إلا أن يستعير صيغة عموم السلب المعروفة فيقول: (كل ذلك لم يكن) ولقد كان أليق بالأستاذ أن يقول: (لم يكن كل ذلك) وإذاً لها الخطب، وهو بحمد الله جد يسير، فأي منصف يكابر في أن عبد المطلب عالج الروية الشعرية؟ وأي منصف ينازع في أن لعبد المطلب حيوية شعرية دفعت به إلى أن يسبق غيره من فحول شعراء مصر في هذه الناحية؟. . . أما إقحام الأستاذ لانتشار الشعر التمثيلي في القرن التاسع عشر في أرجاء أوربا فلا نجد له مكاناً فيما ذهبنا إليه من الكشف عن اثر الحيوية في شعراء العربية بمصر فحسب. وفرق كبير بين الأدب العربي وألوربي!. . . وأما قوله: (ولا شك أن حادثة بلقاء كهذه قد وصلت إلى سمع عبد المطلب. . .) فنحن لا ننكر أن يكون شيخنا الجليل قد سمع بها، لأننا نعترف بصدق حيويته وسعة إطلاعه. ولكنا ننكر كل الإنكار توهم الأستاذ أننا قررنا حكمنا من غير أن نعلم (حادثة اليازجي البلقاء. . .) فإنا لم نرد غير التاريخ للشعراء المصريين

وأخيراً هل يتفضل الأستاذ فيذكر لنا أي شرائط الفن تنقص روايات عبد المطلب؟!. . . لسنا في مقام المفاضلة بين (عبد المطلب وشوقي) طيب الله ثراهما حتى نوازن بين شرائط الفن عند كليهما، ولكنا نعرض في حوارنا لحيوية الشاعرية ونثبت أنها تدفع بصاحبها دفعاً إلى أبعد الغايات. وهذا ما ظفر به عبد المطلب في مصر مهما تكن قيمة إنتاجه. ولن أندفع اليوم إلي ما ليس له صلة بموضوع الخلاف ويكفي أن نسجل على الأستاذ قوله: (إنهما اشتركا في الجنس) ولا يعنينا أن يكونا (مختلفين في النوع) - على حد تعبير الأستاذ -

وبعد، فما من شك عندي فيما قرره المرحوم الأستاذ محمود مصطفى. ومن حقي أن أقول إن المقام يحدد مجال البحث، وأنا إنما بحثت في حيوية عبد المطلب شاعراً مصرياً افترع فن الشعر التمثيلي بين شعراء مصر فلا يضيرني أن تنسب للشيخ اليازجي رواية مثلث أو

طبعت في سنة (1878) أو قبلها

(المنصورة)

حسين محمود الشبيشي

الخطأ والخطأ

وقف (في العدد 479 من مجلة الرسالة) على استدراك الأستاذ الأفغاني على الأب الكرملي في تسرعه إلى تخطئة استعمال كلمة (الخطأ) وزعمه أن الصواب هو (الخطاء) بالمد.

وإليكم فرقاً دقيقاً بين (الخطأ والخطا) حققه الإمام أبو هلال العسكري في كتابه (الفروق اللغوية) حيث قال في الصفحة 40: (الفرق أن الخطأ هو أن تقصد الشيء حسناً، مثل أن يقصد القبيح فيصيب الحسن فيقال أخطأ ما أراد وإن لم يأت قبيحاً. والخطأ: تعمد الخطأ فلا يكون إلا قبحاً، والمصيب مثل المخطئ إذا أطلق لم يكن إلا ممدوحاً، وإذا قيد جاز أن يكون مذموماً كقولك مصيب في رميه قبيحاً. فالصواب لا يكون إلا حسناً والإصابة تكون حسنة وقبيحة. والخاطئ في الدين لا يكون إلا عاصياً لأنه قد زال عنه لقصده غيره، والمخطئ يخالفه لأنه قد زل عما قصد منه، وكذلك يكون المخطئ من طريق الاجتهاد مطيعاً لأنه قصد الحق واجتهد في إصابته)

محمد غسان

العدد 481 - بتاريخ: 21 - 09 - 1942

ما يمكن تبديله

للأستاذ عباس محمد العقاد

في عدد مضى من (الرسالة) تعقيب على كتاب (عبقرية محمد) يستدعي التعقيب عليه، لأن الكلام فيه باب من الكلام في الأدب والتأريخ

ونريد به ملاحظة الأديب (محمد النجار) على ما كتبناه عن رواية النبي عليه السلام للشعر إذ يقول: (. . . في ص 144 يذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتمثل بشطرات من أبيات يبدل وزنها كلما أمكن تبديله. فكان يقول مثلاً: (ويأتيك بالأخبار من لم تزود) لأنها لا تقبل تبديل، ولكنه إذا نطق بقول سحيم بني الحسحاس (كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا) قدم كلمة الإسلام فقال: (كفى الإسلام والشيب للمرء ناهيا)

ثم يعقب الأديب فيقول (وتقسيم ما يتمثل به الرسول عليه الصلاة والسلام إلى ما يمكن تبديله لم يورد المؤلف ما يؤيده ويقتضيه. والمثال الذي ذكره لما لا يمكن تبديله غير صحيح، فإن تبديله ممكن، وقد روي أن الرسول عليه الصلاة والسلام تمثل به هكذا (ويأتيك من لم تزود بالأخبار). راجع السيرة الحلبية في باب الهجرة إلى المدينة) والذي نعقب به على تعقيب الأديب هو الكلام فيما يمكن تبديله من الشعر والنثر وكل ما له معنى من القول

فإذا كان المقصود بالتبديل هو نقل كلمة في موضع كلمة بغير نظر إلى المعنى والسياق فالتبديل ممكن في كل كلام بلا استثناء؛ إذ ليس للكلام قوة مادية تمنعك أن تقدم فيه وتؤخر كما تشاء، وفي وسع كل قارئ أن يعمد إلى كتاب من الكتب فيقرأه عكساً وطرداً ومن أسفله إلى أعلاه ويضع الأول في موضع الوسط والوسط في موضع الأول، ثم يعود فيصنع به مثل ذلك إلى غير انتهاء، فلا يستعصي عليه عصى ولا يحول دونه حائل

وليس هذا بالبداهة هو التبديل المقصود حين نقول بإمكان التبديل أو استعصائه، وإنما المقصود هو التبديل مع بقاء المعنى وبقاء المزية الكلامية أو المزية البلاغية التي من أجلها كان الشعر أو النثر مستحقاً لروايته والاستشهاد به

وكثير من المعنى ومن المزية البلاغية يتوقف على تقديم كلمة إلى موضع أخرى حتى في العبارة التي لا تتجاوز كلمتين أو ثلاث كلمات

فالعالم زيد غير زيد العالم، وما اختلف منهما إلا تبديل موضع الكلمتين لأن (العالم زيد) قد تقيد أنك تخص زيداً بالعلم وتنفيه عن غيره، وليس هذا مستفاداً من (زيد العالم) على هذا الوجه

وقد شرح علماء البلاغة دلالة التقديم والتأخير وعرض لها الإمام الجرجاني فقال مما قال في دلائل الإعجاز: (. . . إنه قد يكون من أغراض الناس في فعل ما أن يقع بإنسان بعينه ولا يبالون من أوقعه، كمثل ما يعلم من حالهم في حال الخارجي يخرج فيعيث ويفسد ويكثر به الأذى، إنهم يريدون قتله ولا يبالون من كان القتل منه ولا يعنيهم منه شئ، فإذا قتل وأراد مريد الأخبار بذلك فإنه يقدم ذكر الخارجي فيقول: قتل الخارجي زيدُ: ولا يقول قتل زيد الخارجي، لأنه يعلم أن ليس للناس في أن يعلموا أن القاتل له زيد جدوى وفائدة فيعنيهم ذكره ويهمهم ويتصل بمسرتهم، ويعلم من حالهم أن الذي هم متوقعون له ومتطلعون إليه. متى يكون وقوع القتل بالخارجي المفسد وإنهم قد كفوا شره وتخلصوا منه. . .) إلى أخر ما قال

على أن الحكمة في التقديم والتأخير معنى من معاني العقل والمنطق وليست بقاعدة من قواعد اللغة وحسب

ولهذا ينص عليها في جميع اللغات ولا يقتصر التنبيه إليها على لسان دون لسان فالإنجليز مثلاً ينبهون إلى الفرق بين معاني العبارات إذا تغير موضع كلمة واحدة فيها، ويمثلون لذلك بأمثلة كثيرة منها هذه الأمثلة الأربعة

1 - أنا (فقط) أتحدث بهذه القصة إلى فلان

2 - أنا أتحدث فقط بهذه القصة إلى فلان

3 - أنا أتحدث بهذه القصة فقط إلى فلان

4 - أنا أتحدث بهذه القصة إلى فلان فقط

فالفرق بعيد جداً بين كل عبارة من هذه العبارات وبين سائرها لتغير الموضع الذي توضع فيه كلمة واحدة

لأن العبارة الأولى معناها أنني وحدي أتحدث بهذه القصة إلى الشخص المذكور والعبارة الثانية معناها أنني أتحدث فقط ولا يصدر مني شيء غير الحديث، وقد يتحدث به غيري كذلك

والعبارة الثالثة معناها أنني أتحدث بالقصة فقط إلى فلان، ولا يتعدى التخصيص ذلك، فكل ما عدا هذا التخصيص فهو عام لا تقييد فيه

والعبارة الرابعة معناها أن المتحدث إليه هو فلان فقط وليس إنساناً غيره، ولا تخصيص للقصة ولا للمتحدث ولا للحديث

وتبديل الموضع الذي توضع فيه كلمة فقط ممكن جداً لكل من أراده، ولكن المهم هو

المعنى الذي يترتب على هذا الإمكان. فإن كان المقصود أن نحافظ على معنى لا يتغير فالتبديل مستحيل أو كالمستحيل، وإن لم يكن هنالك معنى مقصود فبدل وقدم وأخر كما تشاء

ونأتي إلى الأبيات التي نطق بها النبي عليه السلام فننظر ماذا كان يترتب على التبديل في مواضع كلماتها؟

إن منها لأبياتاً يتغير منها شيء غير الوزن كالبيت الذي أنشده عليه السلام حين قال للعباس بن مرداس: أأنت القائل: أصبح نهبي ونهب العبيد بين الأقرع وعيينة؟ فإن البيت موزون على قول الشاعر:

وأصبح نهبي ونهب العبي ... د بين عيينة والأقرع

ولا فرق بين الوضعين إلا كالفرق بين قولك إن طنطا واقعة بين القاهرة والإسكندرية، وقولك إنها واقعة بين الإسكندرية والقاهرة، أو كالفرق بين قولك إن زيداً يجلس بين بكر وخالد، وقولك إنه يجلس بين خالد وبكر

فهل الفرق بين قول الشاعر (ويأتيك بالأخبار من لم تزود) وقولنا (ويأتيك من لم تزود بالأخبار) هو فرق من هذا القبيل؟

إن كان الفرق من هذا القبيل فالتبديل ممكن، وإن لم يكن كذلك فهو مستحيل أو كالمستحيل

والمفهوم الذي لا يغيب عن سيد الفصحاء هو أن المعنيين مختلفان.

فالمفهوم من قول الشاعر أن الأخبار هي المقصودة، وأن الشاعر يورد قوله على سبيل الاستغراب أو التحدث بالغريب الذي لا ينتظر في الأغلب الأعم أن يكون: تسمع الخبر الذي تنتظره من مسافر لم تودعه ولم تحفل بسفره ولم ننتظره إيابه، وهذه هي الغرابة! وهذا موقع التنويه والاستشهاد

أما قولنا: (ويأتيك من لم تزود بالأخبار) فهو شيء آخر في معناه، أو هو شيء لا يستشهد به في الموقع الذي عناه الشاعر

فنحن لا نزود التاجر المسافر بزاد، ولكنه يعود إلينا من السفر بالبضائع والتحف ولا نستغرب ذلك، إذ لا وجه للغرابة في أن يسافر المسافر ولا تزوده ثم يعود إليك بشيء من الأشياء. أما أن عنيت غرابة الأمر، وعنيت الأخبار خاصة فلابد من التقديم ومن إظهار ما يفيد هذه الغرابة

وهذا فضلاً عن التباس آخر في قولنا: (ويأتيك من لم تزود بالأخبار)

إذ يحتمل أن يفهم السامع أن المقصود: (من لم تزوده أنت بالأخبار) ثم ينتظر تتمة الكلام

ولا وجه لهذا الالتباس إذا لم يتبدل موضع الكلام

فتبديل مواضع الكلمات ممكن إذا نحن لم نحفل بهذا الالتباس وممكن إذا نحن تركنا المعنى الذي من أجله نظم البيت واستحق أن يروى في مقام الاستشهاد، وممكن إذا صرفنا النظر عن كل معنى وكل مقصد

ولكنه مستحيل أو كالمستحيل إذا أردنا المحافظة على معناه0 وهو فرق واضح لا يغيب عن سيد الفصحاء كما أسلفنا، ولهذا رجحنا الرواية الغالبة ولم نكترث لغيرها من الروايات، ولهذا كان ينبغي للأديب المعقب أن يتريث طويلاً قبل أن يجزم ويتحقق أن قولنا (لا يمكن تبديله غير الصحيح) فغير الصحيح هو ما قال وما قالته كل رواية توهم أن محمداً عليه السلام قد غاب عنه الفرق الواضح بين الروايتين

وما دمنا بصدد التعقيب على كتاب (عبقرية محمد) فلنذكر تعقيباً سمعناه من المذياع لطالب نجيب من طلاب الجامعة كان يتحدث عن هذا الكتاب؛ فقد أشار إلى كلامنا عن موت إبراهيم بن النبي عليه السلام حيث نقول: (مات ذلك الطفل الصغير ومات ذلك الأمل الكبير: مات كلاهما والأب في الستين. . . أي صدمة في ختام العمر؟ أي أمل في الحياة؟ الدين قد تم وهذه الآصرة قد انقطعت، فليس في الحياة ما يستقبل وينتظر: كل ما فيها للإشاحة والإدبار)

ثم عقب الطالب النجيب بما فحواه أن هذا يأس يتنزه عنه مقام الأنبياء

وكل ما نجيب به أن هذا ليس بيأس يتنزه عنه مقام الأنبياء، وإنما هو علم بأن الحياة قد

أصبحت للإشاحة ولأدبار، ومحمد عليه السلام كان يقول إن (معترك المنايا بين الستين والسبعين) فلا يأس في انتظاره أدبار الحياة بعد الستين
إنما اليأس الذي يتنزه عنه مقام النبي أن بيأس من أداء الرسالة التي بعث بها إلى الناس، وهذه قد تمت يوم مات إبراهيم، فلا يأس فيها ولا حرج أن يقبل النبي بعدها على أخراه. وما قلنا عن محمد عليه السلام بعض ما قاله بلسانه الشريف حين قال إن ما به موت إبراهيم ليهد الجبال. ثم استرجع. وما يكون الاسترجاع إلا أن يذكر الإنسان في كل عمر أنه تارك الحياة وراجع إلى الله!

عباس محمود العقاد

تحية الأزهر في عيده

للأستاذ محمد محمد المدني

مرت بالأزهر في هذا الأسبوع ذكرى فريدة، لم يسجلها (التاريخ لجامعة سواه: أتم ألف عام من عمره المبارك في اليوم السابع من هذا الشهر الكريم (رمضان سنة 1361هـ)، وقد أثارت هذا الذكرى في نفس الكاتب ألواناً من المعاني رأى أن يسجل بعضها في هذا الكتاب ويجعله تحية العيد)

أيها الشيخ الوقور:

يرفع هذا الكتاب إلى مقامك العظيم - في أدب واحترام، وإكبار وإجلال - واحد من أبنائك أنعم الله عليه وأنعمت عليه، إذ بسطت له جناحك غلاماً، وتعهدته برعايتك ناشئاً، ومددت له من ظلالك كهلاً، فأنت مولاه ذو الطول عليه، وهو غرسك وسقيك وثمرتك. يحبك ويحسب لفرط حبه أنه أبر الناس بك، وأوفاهم لعهدك، ويغار عليك فيحمل نفسه ما حملته وما لم تحمله من أعبائك، ويرى حقاً عليه أن يشاطرك - بروحه وقلبه وقلمه - أفراحك وأحزانك، فيشيد بأيامك، ويرثي لآلامك، ويكافح عنك، ويسهر الليالي ضنياً بك، مفكراً فيك، يود لو يمتد به العمر حتى يراك وقد عاد لك سابق مجدك، واجتمع إليك ما تفرق من أمرك!

واليوم، وهذه ذكرى من ذكرياتك المجيدة، يقف هذا الابن البار بين يديك خاشعاً مطرقاً، يفضي حياء من مهابتك، وينحني إجلالاً لماضيك، ويزجي إليك التهنئة فخوراً بك، ويحي فيك مهد العلم، ومهبط الحكمة، ومنبت الأدب، وحصن الدين واللغة، ومطلع الكواكب اللامعة من سماء مصر ينبعث بها النور في الشرق والغرب يفيد منه أصدقاؤك وأعداؤك، ويهتدي به من آمن بك ومن صد عنك!

هذا عيدك الألفي الفريد، ذكرى لم تعرف مثلها الدنيا، ولم يشهد مثلها الناس: ألف عام تقف من البشرية الحيرى موقف الرسل الهداة، تحمل على الجهل وتبدد ظلامه، وتنصر العلم
وتحمي أعلامه

ألف عام تغالب الأهواء والنزعات، وتختلف عليك الدول والنظم والسياسات، ويبتسم لك الدهر حيناً، ويعبس في وجهك أحيانا؛ ومرة تحتضن فأنت العزيز المقرب، وأخرى تضطهد فأنت الشريد المطرح، ولكنك في جميع أحوالك ثابت كالطود الشامخ، تتكسر السهام حواليك، وتتفرق الأعاصير على جانبيك

أنت تلقيت ميراث الإسلام يوم خلت الأرض كلها ممن يتلقى هذا الميراث الكريم. تلقيته فصنته، وحفظت أمانته، ورعيت حقه، ووقفت دون العبث به والكيد له: هذا كتاب الله بين يديك: تتلى آياته، وتجوَّد لهجاته، وتروى قراءاته، وتفسر معانيه، وتستنبط أحكامه، وتدرس أسراره!

وهذه هي السنة المطهرة قد أينعت بك ثماراً، وتباركت آثاراً، وزكت أصولاً وفروعاً! وإليك صار علم المدينة، وفقه العراق، ونحو البصرة، وأدب الكوفة، وتصنيف بغداد، وفن قرطبة، وما كان من فلسفة المتفلسفة، وكلام المتكلمة، ونزعات المتصوفة! وبك وقى الله المسلمين عوادي الفتن، فلم ترُج عندك شبهة، ولم تدخل عليك نحلة، ولم تخدع عن عقيدة، ولم تستدرج إلى الهوى، ولم يطمع فيك من المبطلين طامع! أنت حملت شعلة العلم عالية السناء، وهاجة الضياء، حين كان العالم في أكثر بقاع الأرض سابحاً في الأوهام

ألف عام! ياله من ماض طويل، في جهاد نبيل! فما لي إذن أراك وقد انفردت في

موقفك يوم عيدك الفريد؟ أين مهرجانك؟ أين مهنئوك؟ أين الوفود تفد إليك من الشرق والغرب لتجعل على مفرقك التاج؟ أين المستشرقون المستعربون ليضفروا لك أكاليل الغار؟ أين كتابك؟ أين شعراؤك؟ بل أين (لجانك) التي ألفوها لهذا العيد تحضر له، وتخط برنامجه، وترتب نظامه؟ أباقية هي؟ فأين أعمالها؟ أم حلت؟ فمن ذا الذي أشار بحلها؟ أم أدركها (داء اللجان) من قبلها ومن بعدها فقضى عليها في مهدها؟!

أيها المعهد العتيق:

لقد ختمت بأمس ألفاً، وبدأت اليوم ألفاً، ولكن ما أبعد الفرق بين أمسك ويومك: كأني أرى حلقاتك العلمية تحفها السكينة، ويزينها الوقار! عرفتها قبل أن تعرف أوربا نظام المدرجات الجامعية، وأجريت فيها العقل على سجيته حراً كما خلقه الله، نافذاً كما يجب أن يكون: يقول الشيخ ما يريد أن يقول، ويناقش الطالب ما يرى أن يناقش، وتجلى الغوامض على هينة، وتحل العقد في صبر وتؤدة، لا وقت يعجلهم، ولا شغل يشغلهم، ولا رقيب عليهم إلا من ضمائرهم! فأين منك اليوم هذا المجالس العلمية الجادة؟ لقد أبدلك الزمان منها فصولاً دراسية متفرقة على نظم مقلدة غر أولياءك ظاهرها الجميل فاكتفوا به، وتغافلوا عما وراءه، ولو فتشوا عن العلم في هذه الفصول المبعثرة لما وجدوا إلا ألفاظاً وكلمات تلاك ولا تستساغ، وأطرافاً من أوائل الكتب ومقدمات العلوم تمس مساً ما رفيقاً في كل عام!

كأني أرى علماءك الأولين، وقد عكفوا على المكتبة العربية يدرسون نوادرها، ويقلبون صحفها، ويكشفون عن أسرارها، ويشتارون للناس جناها، ويعتصرون من ثمارها وثمارهم شراباً صافياً سائغاً للشاربين! فأين من هؤلاء علماؤك الحاضرون، وقد ذكروا أنفسهم ونسوك، واشتغلوا بشئونهم وتركوك؟ أليسوا إلى اليوم عالة على كتبك التي ألفها سلفهم الناشط، لولاها لضلوا في البحث والدرس سواء السبيل؟ بلى، وإن أحدهم على ذلك لو ألف كتاباً أو نشر بحثاً لتجدنه يملأ الدنيا صياحاً، وينفخ أوداجه كبراً، ويحسب أنه أتى بما لم يأت به أحد من الأولين والآخرين!

ما أبعد الفرق - أيها المعهد العتيق - بين يومك وأمسك! لقد كان طلابك مُثلاً عُليا في الجد والإقبال علي العلم، ينقطعون إليك، ويؤثرونك على أوطانهم وأهليهم، ويرتشفون من مناهل علمك، ويغترفون من بحار فضلك، تدفعهم الرغبة المخلصة، وتغريهم اللذة العلمية، وكانوا مثلاً عليا في الخلق والاستقامة وحسن الطاعة، لا يشارون ولا يمارون، ولا يصيحون ولا يصخبون، ويخفضون رءوسهم لأساتذتهم متأدبين، ويستمعون إلى رؤسائهم طائعين، أما اليوم فقد جرأهم الأساتذة ولحظهم الرؤساء، وشغلتهم عن العلم المطالب والرغاب، وأصبحوا لا يعملون إلا لاجتياز عقبة الامتحان: يسألون في ورقات معدودات دورين من لم يفز في أولهما كان في الآخر من الفائزين!

أيها المعهد العتيق

لقد كان الشعب كله: أغنياؤه وفقراؤه، حكامه ومحكوموه، ريفه وحضره، ينظرون إليك نظرة الإجلال والإكبار، ويرفعونك إلى مرتبة التقديس، ويمنحون أساتذتك ألقاب التكريم، وأوصاف التعظيم: فهم (العلماء) من بين أهل العلم أجمعين، وهم (أصحاب الفضيلة) من بين سائر الفاضلين، وهم أعلام التقى، ومثل الهدى، وأهل الرأي، وقادة الفكر، وحماة الدين، ورعاة الخلق! وكان (رجل الدين) إذا أهل بطلعته على أهل حي عظموه وأجلوه، والتمسوا بركته، ورجوا خيره. وكان إذا تكلم في قوم أصغوا إلى ما يقول في خشوع وخضوع: أمره الأمر، وحكمه الحكم، ورأيه في المعضلات هو الرأي!

أما اليوم فأنت ورجالك على هامش الحياة:

أنت سليب حريب. نقصوا أطرافك وعدوا على اختصاصك، واستباحوا حماك، وأغروا بك المنافسين، يمدونهم بالمال والمناصب، ويؤيدونهم بالجاه والسلطان، ويحاسبونك على النقير والقطمير، بينما يكيلون لغيرك بالشمال وباليمين!

ورجالك! وا لهف نفسي على رجالك! لقد احتواهم المجتمع، ونكرهم الناس، وهانوا حتى على أنفسهم، وفقدوا أو كادوا يفقدون مجدهم القديم، وكأني بهم الآن يقفون وراء الصفوف في معترك هذه الحياة، ينظرون بعيون كسيرة، وقد وضعوا أيديهم على قلوبهم، واحتبسوا أنفاسهم في صدورهم، خائفين وجلين لا يدرون متى تعصف

العاصفة أو ترجف الراجفة!
أيها الأزهر:
بين ماضيك وحاضرك! أحدهما يثير الفخر والإعجاب، والآخر يثير الهم والاكتئاب! وإني مع ذلك أهنئك بالعيد، ولا أحب لك أن تيأس (فإن مع العسر يسراً، إن مع العسر يسراً) وإن الله الذي رفع لك ذكرك، سيضع عنك وزرك، الذي أنقض ظهرك. سلام عليك في الأولين، وسلام عليك في الآخرين!
ابنك البار
محمد محمد المدني
المدرس بكلية الشريعة
الحديث ذو شجون
للدكتور زكي مبارك
فرحة الأديب بالأديب - عصا إلياس - مع الأستاذ علوبة باشا
هلال شعبان وهلال رمضان - تقليد جميل - آداب إسلامية -
فرحة الأديب بالأديب
عبارة (فرحة الأديب بالأديب) تعد من مبتكرات ابن الرومي من حيث الصورة والمعنى، برغم كثرة النظائر والأشباه في تصوير هذا الخاطر الطريف. ومع أن أدباء هذا الزمان لا يفرح بعضهم بلقاء بعض إلا في أندر الأحيان، فأنا أفرح من أعماق القلب حين يصل إلى سمعي أن أحد الأدباء بسم له الدهر بعد عبوس، وقد أطيل الشكر لله حين يظهر كتاب يشرف أحد الباحثين، كالذي صنعت حين ظهر كتاب (عيد الأزهر الألفي) للأستاذ محمد عبد الله عنان، وكالذي سأصنع كلما ظهر كتاب جيد، ولو كان مؤلفه من ألد خصومي، فقد قضيت أعواماً وأعواماً في الحديث عن الحب إلى أن فاض القلب وامتلأ فلم يبق فيه لناثرة الحقد مكان
ولكن ما سبب هذه الخاطرة الوجدانية؟
كان ذلك بعد قراءة مقال في مجلة الجمهور البيروتية، مجلة الأستاذ (ميشال أبو شهلا) وهو أديب مر بمصر مرة فرأى الأستاذ الزيات أن يكرمني بمعرفته في مسامرة أدبية، وكان الزيات يقيم بالقاهرة (في ذلك الزمان) وكانت أسمارنا لا تنقطع، فقد كنا نتلاقى روحاً إلى روح في كل مساء عن طريق الهتاف، وإن لم نتلاق وجهاً إلى وجه إلا لحظة واحدة في كل شهرين
متى يرجع الزيات إلى القاهرة؟ متى يرجع؟
المقال الذي أنار هذه الخاطرة الوجدانية هو مقال نشره الأستاذ (إلياس أبو شبكة) وهو أديب تحرش بي عدة مرات ولم أغضب عليه لأنه حقاً أديب، والأديب الحق مغفور الذنوب
وما أثارني هذا المقال إلا بفضل ما فيه من الدلالة علي حيوية الأريحية العربية في الديار
السورية، فقد ذكرني بماضينا الغالي، يوم كان الأديب لا يتألم إلا تألمت له أقطار وديار وشعوب، ثم ذكرني بحاضرنا المزعج، الحاضر المثقل بالعقوق، الحاضر الذي يقضي بأن يعيش الأستاذ أحمد علام أسابيع وهو معصوب العينين بعد عملية خطيرة، ولكنها بإذن الله مرجوة النجاح، ثم لا نقرأ في إحدى المجلات الأدبية كلمة يتوجع كاتبها لفنان كانت عيناه أجمل ما رأت العيون
لقيني الأستاذ أحمد علام مرة بعد فراق طال، فاعتذرت عن تقصيري بكثرة الشواغل، فابتسم ابتسامة العاتب ثم قال: سيكون نصيبي منك نصيب الأستاذ محمد السباعي، فلا تؤدي حقي من الوفاء إلا بعد أن أموت!
ولقيني مرةً بعد ذلك فقال: كيف تشيد في مجلة الرسالة بمواهب الأستاذ إبراهيم الجزار في إنشاد الشعر ثم تنساني؟
فقلت: إن إبراهيم الجزار مات، ولم يبق له غير وفائي
فقال: عيب الدكتور مبارك أنه يذكر الأموات وينسى الأحياء
ومنذ يومين كنت أسير في شارع فؤاد فهتف هاتف والترام يعدو به عدواً: دكتور، دكتور، دكتور! فالتفت فإذا الأستاذ عباس فارس، فقلت: نعم، نعم، نعم! فقال: هل زرت الأستاذ أحمد علام؟

ومضيت إلى ما أريد قبل أن يمضي الترام إلى ما يريد، فلن أرى أحمد علام إلا بعد أن يرفع العصائب عن عينيه الساحرتين. فهل يكرمني الله فيبرئ هذا العليل النبيل لأزور مع شواطئ النيل قبيل الغروب، ولنقول معاً بصوت الشكران للواهب المنان: هنا وقفنا قبل عشرين عاماً أو تزيد!

أنا أقدم جائزة لمن يثبت ولو عن طريق التلفيق أن الأستاذ أحمد علام نكث بعد عهد، أو خان بعد وفاء

ذلك روح لا تجود بمثله الأقدار إلا في القلل من الأحايين

فارفع العصائب عن عينيك يا أحمد لتقرأ هذه الكلمات، ولتعرف أن أخاك لا ينساك، ولتفرح (فرحة الأديب بالأديب) يا أجمل أمثلة الأدب في هذا الجيل

عصا إلياس

هي عصا شعرية، وإليها يرجع الفضل في تذكيري بالواجب نحو الأستاذ أحمد علام، عصا سوداء ورثها الأستاذ إلياس أبو شبكة عن أبيه، ثم أوحت إليه هذه الأبيات اللطاف:

عروسٌ تزيتْ بزِيَّ الدُجُنهْ ... ولقَنها ساحِرُ اللّيل فنهْ
تناهتْ إلى والدي من أبيه ... وأورثنيها عجوزاً مُسِنهْ
لئن كثرت في الدُجى عن بريق ... أخافت طيوف الظلام وَجِنَّهْ
إذا هَبطَ الليلُ أرخِي لها ... على حَصَبات الطريق الأعَنَّهْ
فيَسمع من صُلبها العاشقون ... وقد أرقوا رنْةً إثْر رَنهْ
أنينٌ سَرَى من عروق إليها ... فرَنَ بها كصَليل الأسِنَّهْ

ثم وقع أن أخذ أبو شبكة إلى دار الشرطة بتهمة التجمهر في أحد الأيام السود، ولم ينج من السجن إلا بعد أن سمع بخبره وزير الداخلية، وردت إليه الشرطة كل ما أخذت منه إلا عصاه، فصرخ: هاتوا عصاي! فقال أحد الرؤساء: عصاك التي قلت فيها شعراً؟ فأجاب: نعم، عصاي التي قلت فيها شعراً. ولم تعد العصا برغم هذا الصراخ، فكتب في جريدة المعرض يقول:

أيها الجندي الذي خطف عصاي من يدي، من أنت؟ ومن تكون؟ وأي شأن لك بعصاي، (عصاي التي قلت فيها شعراً؟)

وبعد أسبوع تبارى اللبنانيون بالهدايا، هدايا العصي إلى الشاعر الذي فقد عصاه الشعرية، وسرى الخبر إلى اللبنانيين في المهاجر فتلقى عصاً من الأرجنتين وعصاً من البلجيك، وبهذا كان أعظم شاعر (مضروب) في هذا الزمان

أكرم الله أهل لبنان، فما يزالون من أمثلة الأريحية العربية!

مع الأستاذ علوبة باشا

الحديث ذو شجون، كما يقال، فليس من الإسراف أن أستطرد فأقول:

منذ عامين لقيت الأستاذ الجليل محمد علي علوبة باشا بقصر عابدين وفي صحبته الأستاذ أنطون بك الجميل، فدعاني برفق ليسر إلي إحدى نصائحه الغالية، فاشترطت أن يسمع الأستاذ الجميل خشية أن يستوحش من إبعاده عن حديث هو منه قريب

علوبة باشا - أنا أقرأ مقالاتك بإعجاب

زكي مبارك - يشرفني أن يكون معالي الباشا من قرائي

- ولكن. . .

- من حق القراء أن يعلقوا على مقالاتي بألف (لكن) لأني أكتب في كل يوم، ولا يسلم المكثار من العثار، فما (لكن) عندك يا معالي الباشا؟

- لكني أراك كثير الشكاية من زمانك

- هذا صحيح، و (لكن) هل يذكر الباشا أنه كان وزير المعارف؟

- أذكر ذلك، فما تريد أن تقول؟

- أريد أن أقول: إني لم أكن أملك الدخول عليك بدون استئذان، ولهذا صحت نيتي على أن لا أرى وجه وزير إلا إن دعاني

- أنت مسرف في سوء الظن بالوزراء، فلهم شواغل لا تخفى عليك

- هذا الاعتذار مقبول، إذا كان الزائر رجلاً من أصحاب المطالب، وأنا رجل نفضت يدي من الدنيا ومن الناس، فما حجة الوزير الذي لا يرى أن أراه بدون استئذان؟

- الوزراء مشاغيل

- والأديب غير مشغول، يا معالي الباشا؟ إن للأديب شواغل وجدانية وروحية وعقلية وفلسفية لا تخطر لبني آدم في بال، وهو مسئول عن رعاية وطنه في حاضره وماضيه، فيعادي من يعادي ويصادق من يصادق في سبيل الوطن الغالي، ثم يكون جزاؤه أن يعتذر أحد الوزراء عن مقابلته بحجة أنه مشغول
- أنت مزعج، يا دكتور مبارك!
- المزعج هو الذي يطالب بالإنصاف، وأنا لم أطلب من أحد إنصافي، وإنما أسأل كيف يسرني أن استصيح بوجه أحد الوزراء فلا يتم ذلك بدون استئذان؟
- إن رجعت إلى الوزارة فسأبلغ من إنصافك ما تريد
- وإن رجعت إلى الوزارة فلن تراني ولن أراك!!
- ما هذا الذي تقول؟
- أنظر ثم انظر إلي ذلك الجانب تر (معالي. . . باشا)، فهل تراني هرعت للتسليم عليه؟
- أنت مخطئ، فهو رجل جليل
- ولكنه وزير أديب!
- وما عيب الوزراء الأدباء؟
- عيبهم أنهم كانوا معنا فطاروا عنا، وأنهم لا يحفظون حق الأديب على الأديب
- وهل تحفظ حق إخوانك إذا صرت من الوزراء؟
- حقق الله نبوءتك ليكون لي إخوان!

ثم نظرت فرأيت وزير المعارف السابق قد انصرف (بدون استئذان)، ورأيتني أهتف بقول أبن درَّاج:

سلامٌ على الإخوان تسليم يائس ... وسقياً لدهرٍ كان لي فيه إخوانُ
مضى عيشهم بعدي وعيشي بعدهم ... كأنيَ قد خنتُ الوداد وقد خانوا

هلال شعبان وهلال رمضان

في الأشعار الشعبية التي تقص أخبار الزناتي خليفة وأبي زيد الهلالي يوصف الوجه الجميل بأنه كهلال شعبان، وقد التفت إلى هذا المعنى مرات كثيرة فرأيت هلال شعبان يبدو غاية في الإشراق، بصورة تميزه عن سائر الشهور، وتجعله هلال شعبان بلا جدال، فهل يتفضل الفلكيون بتعليل هذه الظاهرة الطبيعية، وقد أدركت الجماهير آثارها منذ أزمان، ودونوها في أشعارهم الشعبية بدون تفكير في علتها الأساسية

أما هلال رمضان فهو في أغلب أحواله نحيل، وينبني على نحوله أن تراه عيون، ويغم على عيون، بحيث يجوز أن يصوم المصريون في يوم الأحد، ويصوم العراقيون في يوم الاثنين، والتونسيون في يوم الثلاثاء، كالذي وقع منذ بضع سنين

فما الحكمة في نحول هلال رمضان؟

إن راعينا الحساب الذي يجريه الفلكيون فالهلال يولد في وقت واحد، بلا تفريق بين هذا القطر أو ذاك؛ وإن راعينا (الرؤية) فهي تختلف في القطر الواحد، وقد صمنا مرة ثم افطرنا ثم صمنا، وكان لذلك حديث بين الشيخ سليم البشري والسلطان حسين، وهذا شاهد على نحول هلال رمضان

وفي حل هذه المشكلة رأى قوم أن نعتمد على الحساب لا على الرؤية، لنتقي شر الخلاف حول بداية الصوم، وهو في بعض مظاهره من المضحكات

ولكن الحساب في هذه السنة كان محرجاً، فهو يقول بأن هلال رمضان يمكث دقيقة واحدة بعد غروب شمس التاسع والعشرين من شعبان

وما دقيقة واحدة فيها الهلال بعد الغروب ثم يغيب؟

أمن أجل دقيقة واحدة نقطع ما بين الفجر والمغرب صائمين بدون تكليف من الشرع الشريف؟

لا، الرؤية هي الأساس، وهي أيضاً الشاهد على أن الإسلام يبني قواعده على أصول لا تحتمل الشك والامتراء، أصول يستوي في إدراكها العوام والخواص

وهنا تظهر الحكمة الحقيقية لاشتراط الرؤية في ثبوت هلال رمضان

تقليد جميل

قالت إحدى الجرائد أن المحكمة الشرعية جرت على العادة التقليدية في ثبوت الرؤيا

فصنعت كيت وكيت
وأقول إن هذا تقليد جميل، ويعز على أن تضعف مظاهره من عام إلى عام، فلا نرى (موكب الرؤية) في الفخامة التي شهدها الآباء والأجداد
هذا الموكب هو (التهيؤ لاستقبال شهر الصيام، وهذا التهيؤ هو في ذاته قربان من أعظم القرابين، وهو يعد النفوس لروحانية هذا الشهر الجليل
أتذكرون اختلاف الفقهاء في صحة الصيام لمن فاته أن ينوي الصيام؟
هذا دليلٌ على أن النية هي الأساس في جميع الأعمال الأخلاقية، والنية رياضة تقوى بها عضلات النفوس. والنفوس كالأجسام لها جوارح وعضلات وأعضاء، ولكن أكثر الناس لا يفقهون
آداب إسلامية
إن من يقرأ كتب الفقه الإسلامي يعجب من ترفق الإسلام بالصائمين، فهو لا يفرض الصوم على من يتأذى بالصوم لسبب من الأسباب، ثم يفتح له باب التحرر من تلك الفريضة بتعويض خفيف تقدر عليه أكثر الجيوب، وهو الجود بصدقات ينتفع بها بعض الفقراء
والمساكين
فإن عجزت عن الصوم فتصدق، وأنا أومن بأن الله يجزي المتصدقين أضعاف ما يجزي الصائمين، لأن الجود بالمال يحتاج إلى عزيمة دونها عزيمة الإمساك عن الطعام والشراب
ومع هذا، فلا يجوز لك الخروج على آداب الصيام بحجة الاعتصام بالصدقات، فما يخرج على آداب الصيام غير السفهاء
وإن استطعت إن تصوم وتتصدق، فتلك غاية لا يتسامى إليها غير عظماء المؤمنين المهم هو أن تكون لك نية في جميع أفعالك، فتصوم عن نية، وتفطر عن نية. المهم هو أن تحفظ أدبك مع الله الذي ترفق بك فلم يكلفك ما لا تطيق، كن رجلً في إيمانك ليجعلك الله أحد عظماء الرجال!
زكي مبارك
تاريخ التاريخ
للدكتور محمد مصطفى صفوت
مدرس التاريخ الحديث بكلية الآداب
(تتمة ما نشر في العدد الماضي)
هل التاريخ علم؟
يرى بعض المفكرين أن للتاريخ قوانينه الطبيعية، وقامت محاولات للوصول إلى معرفة هذه القوانين، وتوالت نظريات مختلفة: فهناك النظرية الدينية التي سادت العصور الوسطى، وهناك نظرية التقدم والنمو، وهناك محاولات باتستا ومنتسكيو وغيرهما، وهناك نظرية كارليل التي تقول بأن الأبطال وحدهم هم الذين يغيرون مجرى التاريخ؛ ونظرية هجل التي تجعل الدين مفتاح التطور والنمو، فاليهودية - في نظره - تمثل الواجب، والكونفيوشية تمثل النظام، والبوذية الصبر، والمسيحية الحب، والإسلام العدالة
ولقد تعرض أوجست كنت لتفسير قوانين التطور، فقال: إن التاريخ تفسره الأفكار؛ فالإنسان مر خلاله في ثلاث مراحل، المرحلة الأولى مرحلة تفسير الظواهر الطبيعية بأنها ناشئة من عمل آلهة خياليين؛ ثم مرحلة تفسير هذه الظواهر بمعنويات مجردة، والأخيرة محاولة فهمها بالطرق العلمية، بالملاحظة والتجريب
ولما وضع كارل ماركس نظريته المادية في تفسير التاريخ قال: إن تطور الجماعة متوقف على الظروف الاقتصادية وحدها. ولقد بني ماركس نظريته على أساس فكرة كفاح الطبقات في سبيل الرقي المادي، ذلك الكفاح الذي ينتهي، في نظره، بانتصار الطبقة الأكثر عدداً والأسوأ حالاُ على طبقة المثرين القليلة العدد. ويسمى ماركس ذلك قانون التطور الاجتماعي، ويظل ذلك التطور مستمراً حتى يتلاءم نظام الملكية مع نظام الإنتاج، أي إلى ذلك الوقت الذي تصير فيه الملكية اشتراكية وتنصر فيه طبقة العمال انتصاراً حاسماً. ولقد سبق كارل ماركس إلى الإشادة بأهمية العوامل

الاقتصادية آدم سميث وأتباعه من أمثال ريكاردو
وجاء (بكل في كتابة (تاريخ التمدن في إنجلترا) ينحني باللائمة على المؤرخين لأنه لم يجد أحداً منهم اهتم بإيجاد وحدة مترابطة من حقائق التاريخ. وهو يرى أنه في كل ميادين البحث قد صار للتعميم قيمة عظمى، وبذلت جهود للخروج من حيز الحقائق الجزئية إلى المعاني العامة بينما لا يرى أثراً لذلك في التاريخ، فهم المؤرخين في نظره هو سرد الحقائق، ولذا يرى أنه أصبح من السهل على كل مكسال لا يحسن التفكير قراءة بضعة كتب ليصير مؤرخاً. ويرى (بكل) أن أعمال الإنسان ما زالت ترسف في أغلال القوى الروحية، فلا يمكن وجدان سبب أو نتيجة؛ ويقول لقد وجدنا في ناحية مهمة من الإعمال الإنسانية قوانين طبيعية، لا سيما في ميدان الاقتصاد السياسي، فقد فسرت لنا قوانين الاقتصاد الأزمات التي كانت تقع في الماضي. ويتساءل (بكل): لماذا لا نجد قوانين لأعمال الإنسان الأخرى. يرى أن هناك عوامل كالمركز الجغرافي والجو والتربة والوسط الاجتماعي تحدد أعمال الإنسان، ويعزو تقدم البشرية إلى العقل لا إلى العاطفة والأخلاق
ومن أهم من قال بوجود قوانين للتاريخ فسيولويوجي أمريكي (دريبر ففي تاريخه (نمو أوربا العقلي) يمثل المجتمع بالفرد ويرى أن التقدم الاجتماعي خاضع لقوانين طبيعية كالنمو الجسمي، فحياة الفرد ما هي إلا تصغير حياة الشعب. والاثنان لهما طفولتهما وشبابهما وكهولتهما وهرمهما
هذه المحاولة من جانب المؤرخين لوضع في التاريخ في مصاف العلوم، ناشئة عن أن الاستقراء والتجريب قد شملا كل العلوم الطبيعية في القرن التاسع عشر. والاستقراء والتجريب لا يمكن تحقيقهما في التاريخ، لأن العلم الطبيعي يبحث في أشياء هي في متناول الإنسان يستطيع أن يقلبها على وجوهها المختلفة ويجري تجاربه كما يريد. فالعلوم الوصفية والطبيعية دقيقة لأن البحث فيها موضوعي صرف. أما التاريخ فهو من العلوم الإنسانية، وكل العلوم الإنسانية غير دقيقة لأن حياة الإنسان لا يمكن قياسها ولا وصفها بنفس الدقة التي نستطيعها في العلوم الوصفية، فنحن لا نستطيع قياس عقلية الإنسان ولا عواطفه ولا معلوماته قياساً دقيقاً. بل وأكثر من هذا أن كلا منا لا يستطيع أن يتعرف ما نفوس الذين يشاركونه المعيشة، فنحن كما يقول برسي نان في كتابه: (التربية. . .) كجزائر منعزلة يفصلها بحر لا يمكن عبوره، وأن وسيلة التفاهم بيننا وهي اللغة غير كافية، فشتان بين ما يجده الإنسان في نفسه وبين ما يصنعه للغير. فكيف إذن يعرف
الإنسان ما في نفوس الناس الذين مضوا، وكيف يقدر الدوافع لأعمالهم والظروف التي قامت فيها هذه الإعمال. ثم إن الإنسان من جهة أخرى يفسر أعمال الناس وفق شخصيته ومزاجه وثقافته لا يرى في الأشياء إلا ما يحب أو ما يستطيع أن يراه فيها. فقد يرى المؤرخ في عمل ما العظمة وما هو بعظيم، وذلك لتأثره بطريقة لا شعورية بشخصية من قام بذلك العمل. ومن جهة ثالثة هل لدنيا مقاييس ثابتة نحكم بها على أعمال الناس؟ هل نقيس هذه الإعمال بحب الشخص لذاته أو بحبه للآخرين أو برغبته في أداء الواجب. الواقع ليس هناك مقياس متفق عليه. وكيف نفسر الحوادث بمنطق العقل أم بمنطق الجموع أم بمنطق الدين؟ ثم بعد ذلك هل من الممكن في تقدير أعمال الناس في الماضي أن نفصل بين ما ورثه الإنسان من آبائه وأجداده وبين ما اكتسبه من بيئته؟
التاريخ يدرس حقائق الإنسانية الماضية، هذه الحقائق ليست في متناول أيدينا، وهي لن تعود مرة أخرى. ثم هي مجرد آثار ومخلفات تعطينا فكرة عامة، وعلينا نحن تكميل التفاصيل باستعمال الخيال. فهناك فعلاً حلقات مفقودة في التاريخ. وكثير من الحقائق المهمة قد عفا دون أن يترك وراءه أثراً. ثم من الذي كتب أو أنشأ هذه الآثار؟ أليسوا من بني الإنسان لهم ميولهم وأغراضهم الخاصة! ومصادر التاريخ فوق ذلك لا تستلزم معرفة بالتاريخ فحسب، بل معرفة تامة باللغات وطرق الكتابة والسياسة والاقتصاد والاجتماع مما جعل البحث في التاريخ عسيراً.
ويظهر أن محاولات بعض المفكرين لوضع قوانين للتاريخ لم تنجح تماماً، فالنظريات مختلفة، حتى نظرية التقدم لا زالت طائفة محترمة من المفكرين ترفضها لا سيما في النواحي الروحية. والديانات تحدثنا بأن الإنسان خرج من حياة نعيم دائم وعيش موفق

إلى حياة كلها تعب وشقاء لا ينتهي. ثم ما الذي يدرينا أن العالم لا يزال في شبابه أو هو في طريق الفناء. وكثير من حوادث التاريخ بعد ذلك قائمة على الصدق لا دخل لإرادة الإنسان فيها ولا يمكن تعليلها.

ويرد على هذه الاعتراضات بالقول إن هناك ظروفاً تقع فتغير الموقف وليس للإنسان دخل فيها. ولكن بالرغم من ذلك هناك تطور وتقدم في الحياة لا يمكن مدافعته. وكما يرى جيبون بأن لكل عصر قيمته في زيادة ثروة الجنس الإنساني وسعادته ونواحي فضائله: فالإنسان

في القديم عاري الجسم والعقل لا يعرف قانوناً ولا فناً ولا أفكاراً. ثم تحسنت حالته فعمل في الأرض وطوف في أرجاء المحيط واستثمر قواه الجسمية والعقلية كما استثمر قوى الطبيعة وذلك لنفسه. ثم إن كثيراً من الصعوبات السابقة قائمة على النقص وعدم الكمال الإنساني. ويجب ألا نبالغ فيها، فكثرة الناقدين والباحثين قد أظهرت إلى حد كبير ما هو صحيح وما هو خطأ، أو هي على الأقل تحاول ذلك. ولذلك لا محل للاعتقاد بأن التاريخ ما هو إلا جملة خرافات أجمع الناس على تصديقها. والواقع أننا نجد لمعظم عصور الماضي آثاراً خالدة مادية وروحية لا يمكن الطعن فيها. ومنها ما هو في أنفسنا وثقافتنا وعقائدنا وتقاليدنا.

التاريخ فن وعلم وفلسفة: فهو فن من حيث أنه يستلزم من المؤرخ معرفة واسعة بنواحي الثقافة وبأمور العالم، وقدرة على اللغة والتعبير والتصوير. فالمؤرخ كالمصور أمامه الحياة الاجتماعية وعليه هو وضع صور لها. وكما أن المصور يصور الناحية الطبيعية التي تروقه بالطريقة التي يرضاها، فكذلك المؤرخ. والتاريخ علم من حيث أنه قائم على أسس صحيحة في البحث والتفكير في المصادر الأصلية والوثائق ومقارنتها ومناقشتها والحكم عليها. وطريقة البحث في التاريخ ولو أنها علمية إلا أنها في ذات الوقت فنية وشخصية، لأن دراسة التاريخ ليس معناها كشف الماضي فحسب وإنما تقدير الماضي، فلا بد من إحساس بني الإنسان بشعور خاص عند دراستهم للإنسان. فهل هم إلا أبناؤه وورثته!

محمد مصطفى صفوت

طلاب الالتحاق بالجامعة

للأستاذ عبد الله حسين

في ختام كل عام دراسي، تقترن بنتائج الامتحانات العامة صيحة تنادي بوجوب إنصاف الطلبة، حين يقدر الممتحنون الدراجات على الإجابة، أو بضرورة الرفق بحال الطالب لأسباب تبسط من أمثلتها صعوبة الأسئلة، أو ملابسات أحاطت بالطلبة ينبغي وزن آثارها في استذكارهم!

وفي مستهل كل عام دراسي ينادي الناس بوجوب فتح أبواب الكليات لجميع من يطلبون الالتحاق بها، حرصاً على مستقبلهم وتوطيداً لأركان التعليم الجامعي، أو استجابة لأسباب أخرى!

وقد روت إحدى الصحف اليومية - في معرض المباهاة والاغتباط - أن الذين طلبوا الالتحاق بالكلية الحربية بلغ عددهم حوالي الألفين. ثم عقبت الصحيفة على هذه الراوية بأن مدلولها يبرهن على أن الروح العسكرية قد أصبحت تملأ نفوس طلبتنا، بعد أن كان الالتحاق بالجندية أمراً لا يرتاح إليه الكثيرون منذ عهد غير بعيد

وثمة أنباء أخرى عن حركة الكليات وكثرة طلاب الالتحاق بها، وعن الجهد الذي يبذله المشرفون على التعليم، والقائمون على شؤون الجامعة في سبيل تيسير التحاق الطلبة بالكليات، وخاصة بعد أن وسع جامعة فاروق الأول في الإسكندرية أن تقبل ما يزيد على حاجة جامعة فؤاد الأول في القاهرة

وما من ريب في أن اطراد الزيادة في طلاب الالتحاق بالكليات والمعاهد أمر جدير بأن يقابل بالارتياح حقا من الوجهة النظرية

أما من الجهة العملية، فإن من بواعث الأسف حقا، أن يتبن أن طلاب الالتحاق بالكلية الحربية، لا يصدرون في طلبهم هذا عن رغبة صادقة في الجندية وفي المساهمة في ذلك الجهد الوطني الأول - وهو الدفاع عن البلاد بالتضحية بالذات وهو أعز ما يملك الإنسان - وإنما وجهتهم في هذا الطلب، أن يكفلوا لأنفسهم مستقبلاً ثابت الدعائم موفور الرزق والترقية المطردة، بأن يعين الطالب حين يتخرج من غير شفاعة شفيع

ولا وساطة وسيط، وبأن يرقى سلم الترقي، فيبلغ أعلى رتب الجيش وهي الآن (الفريق)، وفي المستقبل غير البعيد (المشير) أو (المارشال)

كذلك مما يدعو إلى الألم والإشفاق أن يكثر طلاب الالتحاق بكلية التجارة، مع أنهم حملوا على هذا، لأن درجات نجاحهم لا تيسر لهم الالتحاق بكليات أخرى، دون الاستجابة إلى أية رغبة في العلوم التجارية، ودون التهيؤ السابق للنهوض بالأعمال الاقتصادية والحسابية

ومما يبعث على الأسف أيضاً، أن يكثر طلاب الالتحاق بكلية الزراعة، على حين أنهم لم يعدوا أنفسهم أو لم تعدهم دراستهم وطبائع نفوسهم، أو بيئتهم أو ثروتهم لمزاولة الأعمال الزراعية.

في كل أمة مهما تبلغ من الرقي ومهما تبلغ الذروة في الحضارة القائمة، فريقان من الناس: الفريق الأول وهو الأكبر أيضاً، هو الذي تعول عليه الأمة في العمل المأجور في الزراعة والصناعة، وهذا لا غنى لكل أمة عن استخدامه في سن مبكرة، لكي تستفيد من شبابه ونشاطه ومنته البدنية، ولكي يسعه أن يبادر إلى إعفاء ذويه الفقراء أو الدولة نفسها من نفقات تربيته، لأن ميزانية أية دولة في العالم لا يسعها أن تدفع نفقات مراحل التعليم كلها بالمجان إلى الجميع، حتى سن الثلاثين مثلاً

أما الفريق الثاني فهو الفريق الأقل عدداً وهو الذي لا غنى للدولة عن أن تتيح له أن يتفرغ لشئون الحكم وإرادة الأعمال والبحوث العلمية المنوعة

هذان الفريقان قائمان في كل أمة مهما يكن نوع نظام الحكم: فهو قائم في روسيا السوفيتية لأن المساواة النظرية فيها تقوم على إلغاء الرأسمالية لا على إلغاء نظرية التفوق العقلي الطبيعي، وفي البلاد الديكتاتورية ذاتها. أما في البلاد الديمقراطية فقيام الفريقين فخر من مفاخرها

ولما كانت الحضارة القائمة، هي حضارة صناعية أي مؤسسة على التقدم الصناعي الآلي، كان التخصص في كل فرع من فروع الحضارة ركناً من أركانها وظاهرة من ظواهرها

وعلى هذا أصبح لزاماً على القائمين بأمور التعليم الجامعي أن يتعرفوا مدى جدارة الطالب بدراسة العلوم التي اختصت بها الكلية التي طلب الالتحاق بها، لكي يتحقق المعنى الجامعي، وهو الرغبة الصادقة في متابعة دراسة هذه العلوم في الجامعة وبعدها وإلى ما يشاء الله، ولكي تحقق الأمة ما تطلبه من الكفاية الفنية الدقيقة في أبنائها البررة.

ومن أجل هذا ينبغي أن يوجه المحبون للفنون العسكرية إلى الكليات الحربية، وأن يتجه المعدون للشئون الهندسية إلى كلية الهندسة وهكذا. . .

ومتى وفقنا إلى هذا، أي إلى رد الأمور إلى مستقرها الطبيعي وتوجيه كل طالب إلى ما يصلح له - حق لنا أن نبدي ما نشاء من الاغتباط. أما قبل هذا فليس يسعنا إلا أن نبدي الأسف والإشفاق ونطلب من الله الرحمة والمغفرة.

عبد الله حسين

المحامي

مفاوضات الفتح العربي لمصر

للأستاذ السيد يعقوب بكر

- 3 -

الرواية الثانية

1 - يذكر أبو المحاسن (ص10 - 16) نقلاً عمن لا يسميه. ونحن نورد خلاصة ما قال:

لما حاصر المسلمون حصن بابليون وجدوا في فتحه خشي من في الحصن - وكانوا جماعة من الروم وأكابر القبط وعليهم المقوقس - أن يظهر عليهم المحاصرون، فلحق المقوقس وجماعة من أكابر القبط بالجزيرة تاركين وراءهم في الحصن جماعة لقتال العرب. ومن هناك - أي من الجزيرة - أرسل المقوقس إلى عمر رسلاً يحملون هذه الرسالة: (إنكم قد ولجتم في بلادنا، وألححتم على قتالنا، وطال مقامكم في أرضنا، وإنما أنتم عصبة يسيرة، وقد أظلتكم الروم وجهزوا إليكم ومعهم من العدة والسلاح، وقد أحاط بكم هذا النيل، وإنما أنتم أسارى في أيدينا فابعثوا إلينا رجلاً منكم

نسمع من كلامهم، فلعله أن يأتي الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب وينقطع عنا وعنكم القتال قبل أن يغشاكم جموع الروم فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه، ولعلكم أن تندموا إن كان الأمر مخالفاً لمطلبكم ورجائكم فابعثوا إلينا رجالاً من أصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به من شيء). فرد عمر على المقوقس رسله بعد يومين كاملين ومعهم هذا الجواب: (إنه ليس بيني وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال: إما أن دخلتم في الإسلام فكنتم إخواننا وكان لكم مالنا، وإن أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون، وإما أن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين)

فلما رجع الرسل أتخبرهم المقوقس عما وجدوه من حال العرب، فأخبروه أنهم قوم يؤثرون الموت على الحياة والتواضع على الرفعة، وأنهم لا رغبة لهم في الدنيا ولا نهمة، وأنهم في معيشتهم سواء: وضيعهم كرفيعهم وسيدهم كعبدهم وأميرهم كواحد منهم، وأنهم لا يتخلفون عن صلاة. فلما سمع المقوقس من حال العرب ما سمع أيقن أنه إن لم يغتنم صلحهم وهم محصورون بالنيل فلن يغتنمه حين تمكنهم الأرض. فرد رسله إلى عمرو يقول له: (ابعثوا

(إلينا رسلاً منكم نعاملهم ونتداعى نحن وهم إلى ما عساه يكون فيه صلاح لنا ولكم فبعث عمر عشرة نفر جعل عليهم عبادة بن الصامت، وأمره ألا يجيب المقوقس إلى شيء غير هذه الخصال الثلاثة سالفة الذكر

وكان عبادة أسود طويلاً موغلاً في السواد والطول، فلما دخل على المقوقس هابه هذا وسأل النفر العرب الذين جاءوا معه أن ينحوه عنه ويقدموا غيره للكلام. فقالوا جميعاً إن عبادة أفضلهم رأياً وعلماً، وإن أميرهم قد أمره عليهم فهم لا يخالفونه في رأي أو قول. فدهش المقوقس وأظهر لهم عجبه من أن يفضلهم رجل أسود. فأجابوه بأن السواد لا ينكر فيهم، وأنه لا يضع لصاحبه رفعة هو قَمن بها أو يغمط له حقاً هو جدير به

فقال المقوقس لعبادة: (تقدم يا أسود وكلمني برفق، فإنني أهاب سوادك وإن اشتد كلامك علي ازددت لك هيبة). فتقدم إليه عبادة فقال: (قد سمعت مقالتك، وإن فيمن خلفت من أصحابي ألف رجل كلهم مثلي وأشد سواداً منى وأفظع منظراً، ولو رأيتهم لكنت أهيب لهم مني. وأنا قد وليت وأدبر شبابي، وإني مع ذلك بحمد الله ما أهاب مائة رجل من عدوي لو استقبلوني جميعاً، وكذلك أصحابي، وذلك إنما رغبتنا وهمتنا الجهاد في الله واتباع رضوانه، وليس غزونا عدونا ممن حارب الله لرغبة في الدنيا ولا حاجة للاستكثار منها، إلا أن الله عز وجل قد أحل ذلك لنا وجعل ما غنمنا من ذلك حلالاً. وما يبالي أحدنا أكان له قناطير من ذهب أم كان لا يملك إلا درهما؛ لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعته ليلته ونهاره، وشملة يلتحفها؛ وإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه، وإن كان له قنطار من ذهب أنفقه في طاعة الله تعالى. . . لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم ورخاءها ليس برخاء، إنما النعيم والرخاء في الآخرة، بذلك أمرنا الله وامرنا به نبينا وعهد إلينا ألا تكون همة أحدنا في الدنيا إلا ما يمسك جوعته ويستر عورته، وتكون همته وشغله في رضاء ربه وجهاد عدوه)

فلما سمع المقوقس ذلك منه قال لمن حوله: (هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط؟ لقد هبت منظره وإن قوله لأهيب عندي من منظره إن هذا وأصحابه أخرجهم الله لخراب الأرض، وما أظن ملكهم إلا سيغلب على الأرض كلها). ثم أقبل المقوقس على عبادة بن الصامت فأقره على ما وصف به نفسه وأصحابه، ثم حاول أن يخوفه ويصرفه عن الهدف الذي

يقصد إليه العرب فقال له: (وقد توجه إلينا لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصى عدده، قوم معروفون بالنجدة والشدة ممن لا يبالي أحدهم من لقي ولا من قاتل، وإنا لنعلم أنكم لم تقووا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم. وقد أقمتم بين أظهرنا أشهراً وأنتم في ضيق وشدة من معاشكم وحالكم، ونحن نرق عليكم لضعفكم وقلة ما بأيديكم. ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين ولأميركم مائة دينار ولخليفتكم ألف دينار، فتقبضونها وتنصرفون إلى بلادكم قبل أن يغشاكم ما لا قوة لكم به). فقال عبادة: (يا هذا، لا تغرن نفسك ولا أصحابك. أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وأنا لا نقوى عليهم لعمري ما هذا بالذي

تخوفنا به ولا بالذي يكسرنا عما نحن فيه، إن كان ما قلتم حقا فذلك والله أرغب ما يكون في قتالهم وأشد لحرصنا عليهم. . . وإنا منكم حينئذ على إحدى الحسنيين: إما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا. . . وأما قولك إنا في ضيق وشدة من معاشنا وحالنا فنحن في أوسع السعة، لو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا منها لأنفسنا أكثر مما نحن فيه. . .). ثم يخير عبادة المقوقس بين هذه الخصال الثلاث التي عهد بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسلمين وأمر أمير المؤمنين عمراً بها ثم تلقاها عبادة عن عمرو: إما الإجابة إلى الإسلام الذي يوحد بين معتنقيه ويكف بعضهم عن بعض، وإما جزية مقدرة يؤديها القبط والروم للعرب في كل عام ولهم في مقابل أدائها أن يقتل العرب عنهم من يناوئهم ويعرض لهم في شئ من أرضهم ودمائهم وأموالهم، وإما الاحتكام إلى السيف

فيقول المقوقس: (هذا لا يكون أبداً، ما تريدون إلا أن تتخذونا عبيداً ما كانت الدنيا). فيجيبه عبادة: (هو ذلك فاختر ما شئت). فيسأل المقوقس: (أفلا تجيبوننا إلى خصلة غير هذه الثلاث الخصال؟). فيرفع عبادة يديه ويقول: (لا ورب هذه السماء ورب هذه الأرض ورب كل شيء، ما لكم عندنا خصلة غيرها، فاختاروا لأنفسكم)

فيلتفت المقوقس حينئذ لأصحابه ويسألهم رأيهم؛ فيجيبون بأنهم يأبون ترك دين المسيح بن مريم إلى دين لا يعرفونه، وانهم يرون الموت أيسر لهم من أن يذعنوا للعرب ويسلسوا لهم القياد ويملكوهم منهم الرقاب، وأنهم يرضون أن يضاعفوا للعرب من المال حتى يتركوهم ويتولوا عن ديارهم.

ويخبر المقوقس عبادة بما انتهى إليه رأي أصحابه، فيقوم هذا وأصحابه. وهنا يقول المقوقس لصحبه: (أطيعوني وأجيبوا للقوم إلى خصلة واحدة من هذه الثلاث، فوالله ما لكم بهم طاقة؛ ولئن لم تجيبوا إليها طائعين لتجيبنهم إلى ما هو أعظم كارهين) فيسألونه: (وأي خصلة نجيبهم إليها؟) فيجيب: (إذن أخبركم أما دخولكم في غير دينكم فلا آمركم به، وأما قتالهم فأنا أعلم أنكم لن تقووا عليهم ولن تصبروا صبرهم، ولا بد من الثالثة). فيقولون: (فنكون لهم عبيداً أبداً؟). فيقول: (نعم، تكونون عبيداً مسلطين في بلادكم آمنين على أنفسكم وأموالكم وذراريكم خير لكم من أن تموتوا عن آخركم وتكونوا عبيداً تباعون وتمزقون في البلاد مستعبدين أبداً أنتم وأهلكم وذراريكم). فيقولون: (فالموت أهون علينا)

فواضح مما لخصناه عن أبي المحاسن أن المفاوضة كانت في جزيرة الروضة بين المقوقس وعبادة بن الصامت.

2 - ويذكرها المقريزي (ص 65 - 70) نقلاً عن كتاب ابن عبد الحكم بما لا يخرج عما ذكره أبو المحاسن.

3 - ويذكرها السيوطي (ص 65 - 69) نقلاً عن كتاب ابن عبد الحكم بما لا يخرج عما ذكره أبو المحاسن ايضاً

4 - ويشير إليها القضاعي فيها لخصه في كتابه (الخطط من قصة فتح مصر)؛ وذلك فيما ينقله عنه السيوطي (ص77) يقول القضاعي: إن العرب لما ظفروا بالحصن (حصن بابليون) لحق المقوقس وأهل القوة بالجزيرة، وتحصنوا هناك والنيل حينئذ في مده، فسأل المقوقس في الصلح، فبعث إليه عمرو بعبادة ابن الصامت، فصالحه المقوقس على القبط والروم، على أن للروم الخيار في الصلح إلى أن يوافي كتاب ملكهم، فإن رضي تم ذلك، وإن سخط انتقض ما بينه وبين الروم؛ وأما القبط، فبغير خيار. . .

فواضح أن القضاعي متفق مع من ينقل عنه أبو المحاسن، وكذلك مع ابن عبد الحكم في مكان المعاهدة وطرفيها، ولكنه مختلف عنهما في وقتها، فهو يقول: إنها كانت بعد سقوط (حصن بابليون)؛ وهم يقولون إنها كانت قبل ذلك

ولا يرد في كتاب حنا النقيوسي شيء من ذلك

والأستاذ بتلر لا يجد ما يشككه في هذه الرواية، فهو يسلم بها ولا يرفضها؛ وهو ينقل إلينا

في كتابه (ص223 - 277) طرفاً من هذه المفاوضة، وهو يتفق مع ابن عبد الحكم، ومن ينقل عنه أبو المحاسن في أن المفاوضة كانت قبل سقوط الحصن

ونحن نسلم بما يراه الأستاذ بتلر بصدد هذه الرواية، ولكننا لا نظن بعد ذلك أن الحديث

الذي دار في المفاوضة هو نفس الحديث الذي نقلته إلينا تلك المراجع التاريخية العربية؛ إذ يظهر أن يد أديب صناع قد امتدت إلى هذا الحديث الذي دار في المفاوضة فنمقته ووشته وهذبت حواشيه وخرجت به عن صورته الأولى الساذجة، إلى صورة أخرى أدبية، لا نشك في روعتها وجمالها. . . نقول: إننا لا نظن أن الحديث الذي دار في المفاوضة هو نفس الحديث الذي نقلته إلينا المراجع التاريخية العربية؛ ولكننا - مع ذلك - لا نظن أن الحديثين يختلفان في الروح المسيطرة عليهما المنبثة فيهما

(للبحث بقية أخيرة)

السيد يعقوب بكر

رمضان

للأستاذ يحيى محمد علي

بعد جهاد مضن في سبيل الحياة والبقاء، ونضال منهك من أجل القوت والعيش، تعود النفوس رازحة لاغبة ضارعة قد أرهقها النصب فوهنت وتراخت، وهدها الإعياء فتثبطت وتوانت، وفدحها الإخفاق فقنطت وتخاذلت؛ لتنعم في ظل رمضان بالراحة التي تجدد قواها المكدودة، والرجاء الذي يرهف عزمها الكليل، والرشاد الذي يقيها مغبة الضياع في مجاهل الغواية

وبعد خصام ملث على المال المدنس، ونزاع متواصل على الجاه المزيف، تعوج القلوب مرمضة صادية قد غمرها الإثم فصدها عن الخير، وغشيها الجشع فصرفها عن الإحسان، وتألب عليها الغرور فكبحها عن التواضع؛ لتستمد من وحي رمضان الإيمان الذي يقر في مطاويها فورة البغى، والقناعة التي تسكن في أعنائها سورة الشره، والإباء الذي يخمد في ثناياها جذوة الحسد

وبعد صراع عنيف على المجد الزائل، وتهافت شائن على السطوة الكاذبة، واندفاع يائس وراء الظنون والأوهام، تدلف العقول جائرة مفتونة حائرة قد ران عليها الباطل فحجب عنها ضوء الحق، ووطئها الغي فجنحت للطيش، ولازمها الحرص فزين لها الصلف والزهو والعجب، لتقتبس من قدسية رمضان اليقين الذي يبدد لها دجى الشكوك والريب، والهدى الذي يرفع عنها آصار المروق والزيغ، والحلم الذي يكفكف فيها غلواء الجهالة والنزق

فلا يلبث ذلك الإنسان السادر في المعصية والجامع في الشر والمصر على المنكر أن يدرك أسرار الوجود فيرق ويلين، ويترفق ولا يتمرد، ولا يتجبر ولا يتكبر، ويعرف قيمة الحياة فيتعفف عن الرذيلة ويتصون عن الرجس ويترفع عن الغش والخداع ولا يخضع لسلطان الهوى ولا يخنع لطغيان الشهوة ولا يصغي لهمسات الشيطان، ويفهم معاني الإنسانية فلا يتغلظ ولا يقسو ولا يظلم، وتتيقظ في أعماقه أحاسيس الرحمة والشفقة فيعطف ويحسن ولا يسيء، وتتفجر في أغواره منابع البر والرأفة فيرفد ويتصدق ولا يبخل

. . .هذا هو رمضان أيها المسلم

ترويض للنفس على الكفاح والمجالدة والاحتمال، وتدريب للقلب على الصبر والثبات والمثابرة، وسمو بالعقل إلى الصلاح والسداد والتبصر، وتقويم للطباع وردع للأهواء وهو يلوح لنا من أفق الزمن هذا العام والكون مغتلم الأمواج صخاب اللجج عصوف الريح يكاد سيله العاتي يطم ويطغى فيجتاح ما ظل من آثار الحضارة المنكوبة، ويكتسح ما بقى من أطلال المدينة المحروبة، والإنسان المجنون محمول على غوارب اللجج وقد غلبه الجزع فأفقده وسيلة النجاة، وملكه الذهول فضيع عليه معالم الطريق، فلم يعرف كيف يتفادى العاقبة المؤلمة ولم يدر كيف يتقي الغب المر.

فلا ريب أن حاجة المسلمين اليوم إلى التعاون والتقرب والتضامن أشد منها بالأمس. فليكن رمضان وازعاً للتعاون وسبباً للتقرب ودافعاً للتضامن

ولا ريب أن المصاعب التي تعانيها الطبقة الفقيرة الآن أعظم منها في أي وقت مضى. فليكن رمضان سبيلاً لتخفيف وطأة هذه المصاعب عن كاهل هذه الطبقة.

تذكر أيها الغني المترف المتقلب في الرخاء والمتمرغ على الذهب والديباج أولئك المعوزين الذين جار عليهم الدهر، وأغار عليهم الإملاق، وأناخ عليهم الداء، وقعد بهم العجز، وادرء عنهم بالصدقة عرام الفاقة.

وتذكر أولئك اليتامى الذين نكبهم القدر فحرمهم عناية الأم ورعاية الأب وحنان الناس،

وأجهدهم السغب فسلبهم الدعة والاطمئنان، وطاردهم التشرد فضن عليهم باللقمة التي تسد الرمق، والسمل الذي يستر الجسد، والمأوى الذي يلوذون به من الحر والقر، وكن لهم الردء والمساعد والمعين.

فقد يمن الله علينا بعد خلاص النفوس من الأهواء، وصفاء القلوب من الأحقاد، وتجرد العقول من الأوهام؛ بالسلامة من أوار هذا الجحيم المتأجج وخطر هذه النكبة البشرية المروعة!

وإن العقبى للصالحين.

(بغداد)

يحيي محمد علي

شهداء المعلمين

للأستاذ علي الجندي

(كثر في السنوات الأخيرة موت المعلمين فجأة في أثناء تأدية واجباتهم، كما فشا فيهم مرض الذبحة الصدرية والفالج وضغط الدم! حتى لفت ذلك أنظار الناس! وسر هذا البلاء معروف لا يجهله أحد، وهأنذا أرفع صوتي بهذا الشعر الباكي لعله يصل إلى أسماع القادرين على تخفيف الضر عنهم)

مَا غَالَهُ الْمَوْتُ، بَلْ أَوْدَى بِهِ الْعَمَلُ ... كَيْفَ الْحَيَاةُ وَلاَ سَلْوَى وَلاَ أَمَلُ!

قَالُوا: هُوَ الأَجَلُ الْمَحْتُومُ؛ قُلْتُ لَهُمْ: ... لَوْ لَمْ تَخُنْهُ الْمُنَى مَا خَانَهُ الأَجَلُ

يَأْسٌ وَبُؤْسٌ يَضِيعُ الْعُمْرُ بَيْنَهُماَ ... كِلاَهُماَ شَرٌ مَا يُمْنَى بِهِ رَجُلُ

أَغْرَتْ بِهِ الْمَوْتَ أَعْبَاءٌ تَحَمُلَهاَ ... لاَ يَشْتِكي. . . بَعْضُهاَ يَعْياَ بِهِ الْجَبَلُ

أَمَانَةٌ تُثْقِلُ الأَعْناَقَ مَا بُعِثَتْ ... إِلاَ لَهاَ أَنْبِياَءُ اللهِ وَالرُسُلُ

قَالُوا: بِهاَ انْهَضْ وَسِرْ فَوْقَ الْقَتاَدِ وَلاَ ... تَمْشِ الْهُوينَى! لِمَنْ جَاءَتْ بِكَ الْهَيلُ؟

هُوَ الشَّهِيدُ وَإِنْ لَمْ تَرْوَ مِنْ دَمِهِ ... بِيضُ السُّيُوفِ وَلاَ الْخَطِّيةُ الذُّبُلُ

تَمْضِي السُّنُونُ وَلاَ يَفْتَرُّ مَبْسِمُهُ ... وَلاَ يُرَنِّحُ مِنْ أَعْطاَفِهِ الْجَذَلُ

وَلاَ يَخَفِّ - عَلَى الأيام - مَحْمَلُهُ ... إِنَّ الشَّقِيَّ بِهِ الأَرْزَاءُ تَتَّصِلُ

مَشَى بَنُوهُ إلى غَاياَتِهِمْ، وَمَشَتْ ... بِهِ إلى قَبْرِهِ الأَوْصاَبُ وَالْعِلَلُ

ساَعٍ إلى دَرْسِهِ وَالضُّرُّ يُثْقِلُهُ ... كماَ مَشَى يَتَكَفَا الشَّارِبُ الثَّمِلُ

تَكَادَ تَعْرِفُهُ مِنْ فَرْطِ صُفْرَتِهِ ... كأَنْ مِنْ وَجْنَتَيْهِ يَطْلُعُ الأَصُلُ

مَا جَازَ سِنَّ الصِّباَ وَالْوَجْهُ مُكْتَهِلٌ ... وَالرَّأْسُ مُشْتَمِلٌ بِالشَّيْبِ مُشْتَعِلُ

وَالنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِ. . . كلٌّ لَهُ شُغُلٌ ... عَنْ هَمِّهِ. . . وَلَهُ مِنْ هَمِّهِ شُغُلُ

ساَرُوا عَلَى نُورِهِ الْهاَدِي، فَبَانَ لَهُمْ ... قَصْدُ السَّبِيلِ، وَسُدَّتْ دُونَهُ السُّبُلُ

وَخَلَّفُوهُ سِرَاعَ الْخَطْوِ، وَهْوَ لَقَي ... كِماَ تَخَلَّفَ في دَارِ الْبِلى الطَّلَلُ

وَلَمْ تَضِقْ بِهِمو في عَيْشِهِمْ حِيَلٌ ... تُدْنَى الأَمَاني. . . وَقَدْ ضاَقَتْ بِهِ الْحِيَلُ

في كلِّ يَوْمٍ لَناَ صَرْعَى نُشَيِّعُهُمْ ... إِلَى الْقُبُورِ، وَفي أَكباَدِناَ شُعَلُ

قَدْ عَاجَلَتْهُمْ مَناَياَهُمْ فَماَ فَزَعوا ... إِلَى طَبِيبٍ، وَلاَ أَوْصَوْا بِمَنْ نَجَلوا

أَنْضاَءُ حَرْبٍ مَفاَلِيلٌ وَلَيْسَ لَهُمْ ... عَلَى بَلاَئهِمو غُنْمٌ وَلاَ نَفلُ

لَهفْي عَلَيْهِمْ ضَحاَياَ لاَ يُحسُّ بِهاَ ... فِيمَنْ أَقاَمُوا مِنَ الأَحْياءِ، أو رَحَلُوا!

الصَّابِرِينَ عَلَى الضَّرَّاءِ مَا نَبَسُوا ... يَوْماً بَشكْوَى، وَلاَ مَلُّوا، وَلاَ تَجلُوا

وَالْقاَنِعينَ مِنَ الدُّنْياَ بِقُوتِهِمو ... وَغَيْرُهُمْ بِغِناَهُ يُضْرَبَ الْمَثَلُ!!

وَالسَّاهِرِينَ عَلَى الأَوْرَاقِ مَا عَرَفَتْ ... طَعْمَ الْكَرَى في الدَّجَى السَّاجِي لَهُمْ مُقَلُ

إِنْ أَحْسَنُوا لَمْ يُجاَزُوا بِالَّذِي صَنَعُوا ... وَإِنْ أَساءُوا فَذَنْبٌ لَيْسَ يُحْتَمَلُ!!

هِيَ الْحَياَةُ. . . فَمَوْلُودٌ أَتِيحُ لَهُ ... (سَعْدُ السُّعُودِ) وَمَوْلُودٌ لَهُ (زُحَلُ)!

كَمْ دَائِبٍ في نَوَاحِيهاَ قَضَى سَغَباً ... وَقَاعِدٍ جَاءهُ بِالنِّعْمَةِ الْكَسَلُ؟!

لَوْ أَنْصَفَتْ باَتَ كلٌّ عِنْدَ رُتْبَتِهِ ... فَلَمْ يَنَلْ نَهْلَةً مِنْ وِرْدَهاَ الْوَكِلُ

كَيْفَ احْتِياَلُكَ في دُنْياَ يَطُولُ بِهاَ ... عُمْرُ الْجَباَنُ، وَيَلْقَى حَتْفَهُ الْبَطَلُ

لاَ يَجْتَنِي صاَبَهاَ إِلاَّ أَخُو كَرَمٍ ... وَلِلَّئِيمِ سُلاَفُ الرَّاحِ وَالْعَسَلُ

صَبْراً عَلَى نُوَبِ الأيام، عَلَّ لَكُمْ ... أَوَاخِراً عِنْدَهَا تُنْسَى بِهاَ الأُولُ

الدَّهْرُ: أَنْعُمُهُ ظِلٌّ وَأَبْؤُسُهُ ... وَالظِّلُّ يَسْجوُ قَلِيلاً ثُمَّ يَنْتَقِلُ

(التوفيقية)
علي الجندي
صرخة الألم!
للأديب عبد العليم عيسى
أَأَناَ الَّذِي رَدَّدْتُ أَلْحَاني عَلَي ... قِيثاَرَتي السَّكْرَى طَروباً حَالماً؟
أَأَناَ الَّذِي ضَحِكَتْ عَلَى كَوْني الرُّؤَى ... فَمشَّيتُ مِطرَاباً عَلَيْهِ هاَئماً؟
أَأَناَ الَّذِي وَهَبَ الْعَذَارَى رُوحَهُ ... وَوَهَبْنَهُ أَرْوَاحَهنَّ بَوَاسِمَا؟
أَأَناَ الَّذِي دَفَنَتْ يَدَايَ كاَبتِي ... وَمَضَيْتُ وَضَّاحَ الأَسْرَةِ ناَعِماً؟
أَناَ غَيْرُ هذَا كلِّهِ. . . أناَ لَمْ أَكُنْ ... إِلاَّ جَحِيماً مُسْتَفِزاً عاَرِمَا . . .
!ياَ بَحْرُ كَمْ غَنَّيْتُ فَوْقُكَ ساَبِحاً ... لاَ أَعْرِفُ الأَشْجاَنَ إِلاَّ وَاهِماً
!ياَ زَهْرُ كَمْ رَشَفَتْ جَمَالَكَ مُهْجَتي ... وَاسْتَلْهَمَتْ مِنْكَ النشِيدَ الْباَسِمَا
!ياَ لَيْلُ كَمْ فَجَّرْتُ فيكَ مَلاَحِني ... وسَهَرْتُ فِيكَ مُساَمِراً وَمُناَدِمَا
. . . كاَنَتْ لِقَلْبي في دُجَاكَ مَلاَعِبٌ ... سَكَبَتْ بِهِ نَغَماً يَهُزُّ الْعاَلَماً
!أَسْياَنُ. . وَالدُّنْياَ تَموجُ بِحُسْنِها ... فَعَلاَمَ أَنْكِرُ حُسْنَهاَ مُتَشَائماً
!ظَمْآنُ. . . وَالأَقْدَاحُ تَطْفَحُ في يَدي .. فَعَلاَمَ أَسكبها حَزيناً وَاجِماً
!مَالي أَسِيرُ عَلَى اللَّهيبِ مُجَرَّحاً ... وَأُعَانِقُ الْهَوْلَ الْمُحَطِّمَ سائماً
!وَأَناَ الذي عَبَرَ الْحَياَةَ كأَنَّهُ ... طَيْرٌ عَلَى الأَغْصاَنِ يَهْتِفُ دَائماً
!وَا حَرَّ أَشْوَاقي لفَجْرٍ ضاَحِكٍ ... يَمْحُو ضَباَباً في وُجُودي قاَتِماً
عبد العليم عيسى
البريد الأدبي
العيد الألفي للجامع الأزهر
هذه ألف سنه طوتها يد الدهر على أقدم جامعة باقية في العالم كما يطوي الخيال أغشية النور على كوكب النهار. وكان المقدر أن يحتفل العالم الإسلامي كله بالذكرى الألفية للجامع الأزهر في يوم السابع من شهر رمضان لولا أن الحرب التي لا تزال تزلزل الأرض قد أذهلت الناس عن كل شيء وأعجزتهم عن كل أمر، فانتهى العزم بالقائمين على إعداد هذا الاحتفال أن يفعلوا مأدبة الخليفة الفاطمي يوم افتتاحه. وعلى ذلك تقرر أن يؤدي صلاة الجمعة فيه صاحب الجلالة المعز لدين الله فاروق الأول يتبعه كبار حاشيته ورجال دولته، وان يستمع إلى درس ديني يلقيه الأستاذ الأكبر عقب الصلاة، وأن يتفضل جلالته فيشرف العلماء والطلاب بدعوتهم إلى الإفطار على موائده الكريمة، وأن تصدر لجنة من كبار العلماء مختصراً في تاريخ الأزهر يوزع على الناس. وقد نشرنا في هذا العدد كلمة قيمة للأستاذ المدني تعبر أصدق التعبير عما يعتلج من الآلام والآمال في نفوس المصلحين البررة من أبناء الأزهر الحديث. وفي العدد القادم سنصف هذا الاحتفال وما قيل فيه.
تاريخ الجامع الأزهر في العصر الفاطمي
كان صدور هذا الكتاب القيم في هذه الأيام تحية طيبة قدمها صديقنا الأستاذ محمد عبد الله عنان إلى الأزهر المعمور في عيده. والأستاذ عنان من الكتاب القلائل الذين توفروا على دراسة مصر الإسلامية وخدموها بالتأليف والبحث. وكان الظن به أن يضع للأزهر تاريخاً كاملاً في نواحيه شاملاً في عصوره (ولكن ظروف الوقت العصيبة واضطراب الأذهان وافتقاد المراجع، حالت كلها دون تحقيق هذه الأمنية). فاكتفى الأستاذ بأن قدم تاريخ الأزهر في العصر الفاطمي موصولاً ببعض الفصول التكميلية استعرض فيها أحوال الأزهر منذ العصر الفاطمي إلى هذا العصر بإيجاز. والكتاب حسن الطبع جيد الورق. يباع في المكاتب الشهيرة باثني عشر قرشاً.
مكتبة المستشرق المجري جولد زيهر
في سنة 1921 توفي المستشرق المجري أغناطيوس جولد زيهر أول من كتب من المستشرقين في الإسلام كتابة علمية دقيقة، وخلف وراءه مكتبة نفيسة تحتوي زهاء 6000 مجلد جمعها من مختلف الأقطار الغربية والشرقية، وبخاصة من القطر المصري الذي نزح إليه لإتمام دراسته في الأزهر الشريف
وهذه الكتب جليلة القدر عظيمة النفع لأنها تكاد تشتمل على جميع المؤلفات الأساسية في الفقه الإسلامي، والفلسفة الإسلامية، والغة العربية، والأدب العربي، وما إلى ذلك

من الموضوعات. ومما يجعل لها قيمة خاصة تلك التعليقات الهامة التي علقها جولد زيهر على هوامشها لإبداء ما يخطر له من ملاحظات، وانتقادات، وتصحيحات، وإشارات

وإلى جانب هذه الكتب، تحتوي مكتبة جولد زيهر على طائفة كبيرة تبلغ الألف من نسخ الأبحاث التي كان يرسلها إليه المستشرقون مما ينشرونه في الصحف والمجلات العلمية عن الشرق والإسلام والعرب، وهي مطبوعة على حدة

فلما توفي جولد زيهر آلت هذه المكتبة إلى دار الكتب الوطنية والجامعة في القدس الشريف

مقدمة أسكار وايلد في الفن

اطلعت - متأخراً مع الأسف - على ترجمة الأستاذ علي كمال لمقدمة أسكار وايلد الخالدة في الفن في عدد الرسالة (474) فلاحظت على ترجمته المشكورة أنها خلت من بعض الفقرات المهمة من النص الأصلي، كالفقرة المختصة بفن الترجمة مثلاً حيث يقول وايلد:

(إن أرفع أشكال النقد - كأحطها - هو نمط من فن الترجمة). وكذلك فإني رأيت التسلسل في الترجمة مبتوراً فقد جاء فيها: (إن الذين يجدون معاني قبيحة في الأشياء الجميلة إنما هم فاسدون مجردون من الجمال)

وهي على هذا الشكل مبتورة كما أسلفت. فقد أعقبها وايلد في النص بقوله:

(إن أولئك الذين يجدون معاني جميلة في الأشياء الجميلة مهذبون. والأمل فيهم) كما أنه ترجم كلمة بمادة في قولة:

(حياة الرجل الأخلاقية (؟) تكون جزءاً من مادة الفنان غير أن أخلاق الفن تتألف من الاستعمال التام لمادة ناقصة.

وهي ليست كذلك وإنما هي وسيلته. وجرى على هذا الأسلوب من التصرف في النص وذلك شائع في الترجمة.

وقد أسقط منها ما هو بالغ في الأهمية بالنسبة لفكرة وايلد الأصلية في الفن والنقد كقوله مثلاً:

(. . .الفن كله سطحي ورمزي)

وهو ترجمة النص التالي:.

وترجمتها على هذا الشكل فيها إغفال تام لكلمة فإن القصد من هذا القول تأكيد كون السطحية والرمزية متلازمين ولم تظهر الناحية في الترجمة.

وكم كنت أود - كما يود غيري من المعجبين بهذه المقدمة وبفن أسكار وايلد - أن تكون ترجمتها أكثر دقة

(بغداد - العراق)

عبد الوهاب الأمين

البطريرك

قرأنا في الرسالة الغراء العدد 472 في (الحديث ذو شجون) للدكتور زكي مبارك قوله (البطريرك كلمة يونانية الأصل، أو لاتينية الأصل: ومن الطريف أن نذكر أن كازيميرسكي يجعل البطريق (بالقاف) من اللاتينية، ويجعل البطريك (بالكاف) من اليونانية، برغم تقارب مدلول الكلمتين)

والذي نعرفه أن البطريرك تعريب للفظ رومي معناه أبو الأسرة أو رب البيت. فقد جاء في كتاب التنبيه والأشراف للمسعودي أنه بالرومية بطرياركس تفسيره رئيس الأدباء ثم خفف. وقد سماه المسعودي والإسلاميون بطريرخ ثم بطريرك ثم خفف في الاستعمال فصرنا نقول بطرك ونكتبها بطريرك، كما نقول بيه ونكتب بك، وكانوا قبلنا يقولون جنبية ويكتبون جنباواي وجنبوية، ويقولون أبشيه وأبشاي ويكتبون أبشواي وأبشويه.

رضوان العوادلي

(شعاب قلب)

مجموعة من الأقاصيص التحليلية أصدرها الأستاذ حبيب الزحلاوي، وقدم لها بهذه الكلمة الأستاذ العقاد:

من المزايا التي يحسن أن تتوافر للكاتب القصصي أن تكون حياته صالحة لموضوع

قصة أو قصص كثيرة، سواء في مساعيه الخارجية أو تجاربه النفسية
وهذه مزية قد توافر منها النصيب الوافي لصديقنا الكاتب الفاضل صاحب هذه
المجموعة منذ نشأته الأولى، فعرف الجهاد في سبيل الوطن، كما عرف الجهاد في
سبيل العمل، وتمرس بالناس كما تمرس بنفسه، واختبر حياة الأسرة وملابساتها، كما
اختبر حياة المجتمع الشرقي وملابساته، وزار - مع هذا - بلاداً غير بلاده الشرقية،
فسنحت له فرص شتى للمقابلة والموازنة والاستفادة من هنا وهناك
وليس أيسر على القارئ من أن يلمس هذه الحقيقة في صفحات هذه المجموعة
القصصية. فهي ترجمة الأديب كاتبها موزعة بين قصة وقصة وبين صفحة وصفحة، يكاد
من له ولع بالمشابهات والتوفيقات أن يستخرجها ويجمعها في نسق واحد، فإذا هي
قصة واحدة، وإذا هي ترجمة حياة
توخى الأستاذ حبيب أساليب شتى في سرد الوقائع وإبلاغها إلى نفس القارئ، ووفق
في جميع هذه الأساليب إلى التشويق الذي ينبغي أن يكون غرضاً من أوائل أغراض
الكتابة القصصية على خلاف مذهب الطائفة الأخيرة من متحذلقة العصر الحاضر، التي
تنكر التشويق أو تعجز عنه، كأنما تنفير القارئ غرض من الأغراض في اعتقادها يقابل
ترغيب القارئ فيما اتفق عليه القصصيون والكتاب على الإجمال
وشاعت في ثنايا الوصف أو السرد عبارات متفرقة في مواضعها الملائمة لها، تشتمل
إلى بلاغة وحسن تمثيل، كقوله في وصف لحظة انتظار: (تمضي الثواني والدقائق
والساعات، بل العمر كله يمضي في طريق الزمن، والزمن لا ينفك من الأزل، وسيبقى
مدى الآباد يسر بنظام محكم الضبط، فعلام اختل اليوم نظامه، وهدأت دورته، وتركني
وحدي أنا: الشاذ المضطرب، الصاخب والهادئ، المفكر المبلبل. . . أنا السعيد الحزين،
والباكي الضاحك. . . علام تركني في أرض يلوح لي الآن أنها تدور دورة معكوسة. . .)
أو كقوله على لسان البطلة في قصة مع الريح: (قلت له مرة، هل تستمد الوحي من
أغصان الشجر أو من أفواه النيل الجارية؟ إنك دائم ترويح النظر بين هذه وتلك. وكأني
به ارتاح إلى ملاحظتي فابتسم ابتسامة رقيقة: من القلب وحده يستمد الإنسان وحيه)
أو كقوله على لسان تلك البطلة تخاطب أختها: كتبت لي تعنفني على استرسالي في
معاشرة ذاك الشيخ الذي توسل بوعد الزواج بي للوصول إلى غاية تنفى نبالة القصد
من الزواج فتنبهت. اطلقني ملامك الصارخ من البحر الخضم فصيرني كالضفدع أقفز
على اليابسة ولا أجرأ على الابتعاد من المستنقع الآسن. . .)
وهكذا في أمثال هذه التعبيرات الموفقة في معارض شتى تتخلل الأقاصيص التي
اشتملت عليها المجموعة
ولا حاجة بالكاتب إلى سبب يرجع إليه وهو يقدم قصته لقرائه بعد أن يكفل لهم
المزيتين اللازمتين في كل كتابة لا في كتابة القصة وحدها وهما: صدق الرواية عن
الحياة وحسن التمثيل لما رواه
وكلتا المزيتين بينة في قصص الأستاذ حبيب على ما نلاحظ خلالهما من هفوات لغوية
تعهد في العصر الحاضر عند كتاب كثيرين، وتشفع لها هنا حسنات تميل إلى الرجحان
ويخرج منها القارئ وهو رابح الميزان
العدد 482 - بتاريخ: 28 - 09 - 1942
من عجائب الناس
لعل ابن آدم هو المخلوق الوحيد الذي يرى الشيء الواحد بعينيه
الاثنتين أبيض تارة وأسود أخرى على حسب الصبغ الذي يلونه به
الهوى؛ فقد يتحد الشيء في ذاته وصفاته، ولكنه يختلف وا عجباه في
نظره أو في رأيه، فيكون حسناً وقبيحاً، أو خيراً وشراً، أو حلالاً
وحراماً، أو نافعاً وضاراً، لا باعتبار حقيقته في نفسه، ولكن، باعتبار
ما تقتضيه الحاجة أو الأثرة أو الرياء أو المحاباة. وبفضل هذه الميزة
العجيبة في الإنسان تعددت مقاييسه، وتضاربت أهواؤه، وتناقضت
أحكامه، وتباينت عقائده، وتفرقت سبله
ذلك كلام لا نكير فيه ولا لبس فلا أحلل ولا أعلل، وبحسبي أن أدع الحوادث تحدث
والأمثلة تمثل
أذاع راديو (باري) منذ ليلتين أن فريقاً من الطلاب الهنود تظاهروا في بمباي

فاعترضتهم فئة من الشرط الإنجليز فتفرقوا في شوارع المدنية أباديد بعد أن نفر منهم بجروح. ثم عقب المذيع على هذا الخبر بأن الاعتداء على المتظاهرين بالضرب ينافي المدنية، ويجافي الخلق، ويصم الذين ارتكبوه بالقسوة والوحشية والبربرية الأثيمة. وفي هذه الإذاعة نفسها أعلن هذا المذيع نفسه أن مليوناً من جنود المحور قد اقتحموا بالدبابات الثقيلة والطائرات المنقضة والسيارات المدرعة منازل (ستالينجراد) على الروس وفيهم النساء والأطفال والشيوخ والمرضى، فدكوا كل بناء، وسحقوا كل حي، وركموا أشلاء القتلى في الحجرات والطرقات على صورة لم يرها الراءون ولم يروها الراوون. ثم أخذ هذا البوق البشرى يهذي بفضل هذا النصر على المدنية، وينوه بعظيم أثره غي مستقبل الإنسانية!

كان لكاتب من كبار المصلحين حصة مأكولة في وقف أهلي، فظل يكتب وجوب حل هذا النوع من الوقف حتى نضب مداده، ويخطب في جشع النظارة وإهمال الوزارة حتى جف ريقه. وتداول الناس مما كتب وخطب جملة من البراهين الملزمة والنصوص الصريحة والوقائع الثابتة لا تدع لوجود الوقف الأهلي مبررا ولا للدفاع عنه حجة. فما هو إلا أن

آلت النظارة على هذا الوقف إليه حتى بلع لسانه فلم يخطب، وكسر قلمه فلم يكتب، وفرغ لاستغلال الوقف والاستبداد بريعه فلم يقبل رقيباً عليه، ولم يقابل مستحقاً فيه!!

ذكرت بهذا الكاتب المصلح ذلك الاشتراكي المفلس الذي كان يرى الرأسمالية وبالاً على المجتمع، والرأسماليين كلا على الناس. وكان يسوغ في سبيل اشتراكية الإرهاب والإضراب والمصادر والقتل، حتى ورث عن أحد أقربائه الأباعد قطعة من الأرض، فنصب على كل جهة من جهاتها الأربع لوحة كتب عليها بالخط العريض: (ممنوع المرور)!

وكان خطيب من خطباء المساجد عليه سمات التقى والزهد لا ينفك يقرع آذان المصلين بالعظات الزاجرة عن احتكار السلع وإفحاش الأسعار وإرهاق الناس في هذه السنين العجاف.

فإذا فرغ من الوعظ وخرج من المسجد جلس في حانوته الصغير يسبح لله ويقسم لطالب السكر أو الزيت أو الرز أن دكانه من كل أولئك خلاء. فإذا مجد الضعيف المضطر أعطاه بالسعر المضعف والكيل المطفف بعض ما يطلب! وهيهات أن تنفذ إليه عيون الحكومة من وراء الحجب الأربعة التي ضربها عليه من وظيفته وعمامته ولحيته ومسبحته!

هذا الشيخ يحسب أن حدود الدين لا تتعدى حدود المسجد، فإذا عالج شؤون الدنيا عالجها على النهج الذي سنه الشيطان لأوليائه؛ فهو كالتلميذ الذي يحسب أن قواعد النحو لا تتعدى (حصة) اللغة العربية، فإذا كتب في التاريخ أو في الكيمياء كان مطلق الحرية في إنشائه. ذلك أحسن الفروض، فإذا كان يعتقد أن الدين طعم الدنيا وشرك المال، كان كذلك الصوفي الهرم الذي زعموا أنه كان يركب الترام كل صباح إلى ضريح الشافعي فكلما أقبل عليه (الكمساري) يطلب أجر الركوب أدبر عنه وشغل لسانه بالذكر ويده بالتسبيح حتى ينصرف إلى غيره. ففي ذات يوم ألح المحصل على تغافل الشيخ وسأله عن (التذكرة) فلم ير بدا من أن يدفع هذه المرة ويقول في هيئة المفجوء ولهجة الذاهل: (معذرة يا بني! فقد شغلت بالله عن كل شيء)

كبير من الكبراء له في الصوم مذهب جديد؛ فهو يصوم الصوم (الصحي) الذي يفيد الجسم ولا يفسد الروح: يتعاطى كل ساعتين كوباً كبيراً من عصير العنب أو الليمون أو المانجو، ثم يمسك عن التبغ في النهار وعن الخمر في الليل، ويصر على أن تساقط أصابعه الثلاث

حبات المسبحة منذ أذان العصر، وأن يفطر على أشربة رمضان وآكاله عند أذان المغرب. فإذا بلغه أن أحد مرءوسيه غفل عن آداب الصيام، في النظر أو الكلام، أخذه أخذاً شديداً (بتعليمات الوزارة)

أستاذ من أساتذة الأدب لا يحاضر إلا في الدين ولا يجادل إلا في الخلق، له في الحرية الشخصية مذهب فضفاض يسحب أطرافه السابغة على كل معروف من الدين والخلق. ثم لا يعوزه أن يجد لكل رغيبة من رغائب نفسه الشهوانة سنداً مما يسميه هو الدين والخلق. فمثله كمثل ذلك الفقيه الثقة الذي تبحر في القانون وتقصى في الإفتاء

حتى لا تند عن ذهنه مسألة، ولا تعزب عن براعته حيله. فلما تولى أمور الناس وجد لكل مأزق من مآزق الضمير مخرجاً من مخارج الرأي لا يضيق عن أمر من الأمور في أي غرض من الأغراض!

هذه أمثلة من الواقع المشهود تؤيد شقاء الإنسانية بين العقل والهوى. ولو طاوعت القلم لسردت عليك ما هو أعجب؛ ولكن. . .

قالت الضفدع قول ... ردَّدته الحكماء

في فمي ماءٌ وهل ين ... طق مَن في فيه ماء!

أحمد حسن الزيات

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

مكانة الأديب في الجهاد - أدب المعاش - نفحة سودانية

مكانة الأديب في الجهاد

اقترح أحد النواب المحترمين إحياء ذكرى (شوقي) بإقامة تمثال له في أحد شوارع القاهرة، وتلك التفاتة لطيفة تدل على قيمة الشعر في أنفس بعض النواب

ولكن أديباً فاضلاً تعقب هذا الاقتراح في جريدة (الدستور) فقال: يجب أولاً إقامة تمثال لمحمد فريد، وتمثال لمحمد عبده، وتمثال لقاسم أمين، قبل أن يقام تمثال لأحمد شوقي أو حافظ إبراهيم

ولا بأس بهذا الكلام، ولكن الأديب الفاضل علله فقال: نحن في عصر السيادة فيه للشجاعة والبأس، والعبادة فيه للبطولة والأبطال، لا للفن والجمال، وكل مقتحم ميداناً، وداك سوراً، ومنتزع نصراً، مقدم على من يجلس فوق رابية آمنة، ليرسل من قيثارته ألحاناً مشجية

ومعنى هذا التعليل أن أمثال محمد عبده ومحمد فريد كانوا جماعة من المجاهدين، وأن أمثال أحمد شوقي وحافظ إبراهيم كانوا جماعة من المغنين!!

ومن يعش في مصر ير العجب، وإلا فكيف يجوز القول بأن صورة الشاعر هي صورة (من يجلس فوق رابية آمنة، ليرسل من قيثارته ألحاناً مشجية)؟ وكيف يجوز القول بأن الشعراء ليسوا إلا جماعة يسبحون للفن والجمال، ولا صلة لهم بالبطولة والأبطال؟

إن هذا الناقد لا يعرف كيف يحيا الشعراء، ولا يفهم من الشعر إلا أنه غناء، والأدب عنده متعة ذوقية يلهو بها الفارغون من أهل العبث والمجون

فمتى يعرف أهل مصر أن حامل القلم هو الوطني الأول، والمجاهد الأول، وأن معاني البطولة تعتلج في صدره قبل أن تعتلج في صدور القادة والزعماء؟

وما أساس البطولة الحقيقية عند أمثال: محمد فريد ومحمد عبده وقاسم أمين؟

أساسها الفكر والبيان، ويجب حتماً أن نضيف هؤلاء إلى الأدباء قبل أن نعدهم زعماء، فما ارتفعوا إلا بالفكر المشرق والبيان الجميل

وحكاية دك السوار واقتحام الميادين وانتزاع النصر تحتاج إلى شرح:

فهل من الحق أن الأديب لا يدك أسواراً ولا يقتحم ميادين؟

إن الأديب يقضي عمره في جهاد ونضال وعراك مع الدنيا والناس، ومع الأوهام والأباطيل والأضاليل، وما شرق مشرق أو غرب مغرب في دعوة وطنية أو اجتماعية إلا على هدى من وحي الأديب؛ ولا استبسل جبان، أو استقتل شجاع، إلا بتحريض من عبارة فاه بها شاعر أو كاتب أو خطيب

في أعقاب الحرب الماضية ظهر كتاب فرنسي اسمه: وهو كتب أقيم على أساس القول بأن الوحشية الألمانية ترجع إلى إيحاء من شعراء الألمان ومفكريهم في القرن التاسع عشر، وأن السيوف تتلقى الوحي عن الأقلام في تلك البلاد

وقبل هذه القولة الفرنسية في تعليل الوحشية الألمانية، قال أسلافنا منذ أزمان طوال: إن أبياتاً من شعر عمر بن أبي ربيعة نقلت قلب هرون الرشيد من مكان إلى مكان، فصنع بالبرامكة ما دونه التاريخ بإسهاب

وإلى الأدب العربي يرجع الفضل في تأريث البطولة العربية وكذلك حظ جميع الآداب في جميع الشعوب

حين تزاور الرؤساء من الإنجليز والأمريكان بعد انتصار الحلفاء في الحرب الماضية لم يجدوا عبارة تفصح عن الألفة بين الأمتين أفضل من العبارة التي تقول بأن لغة

شكسبير هي الرباط الوثيق بين الإنجليز والأمريكان
فهل سمعتم أن شكسبير دك أسواراً واقتحم ميادين؟
ومنذ أسبوع نقلت البرقيات أن المسيو هريو رد وسام (اللجيون دونير) إلى المشير
بتان - وكان تلقاه من كليمنصو العظيم - لأن حكومة فيشي منحت هذا الوسام
لضابطين يحاربان في صفوف الألمان، فعمن تلقى هريو هذا الوحي الرائع، الوحي
الذي يأبى على الضمير الفرنسي أن يستبقى وساماً يهدي إلى من يحارب في صفوف
الأعداء، ولو أصبحوا بحكم الضرورة حلفاء؟
هذه التفاتة أدبية لا سياسية، والأدب يوحي معاني تنفر منها السياسة، بحيث يجوز
الحكم بأن الأدباء أشجع من السياسيين، وما مدح سعد زغلول بأفضل من النص على
أنه كان
خطيباً وطنياً لا سياسياً، كما قال الأستاذ كامل بك سليم
التفاتة المسيو هريو التفاتة أديب، وكان هريو في مطلع حياته أستاذ الأدب الفرنسي
بجامعة ليون، وكان يعاب عليه الإشراف في شرح أصول الغزل والتشبيب، فلم يكن
يرتاد محاضراته بجامعة ليون غير عرائس ليون
ثم تحولت العواطف الوجدانية عند المسيو هريو إلى عواطف وطنية، وهل كانت خطبه
في مجلس النواب الفرنسي إلا روائع من الأدب المضمخ بعبير الروح؟
ولم يقف الأدب بالمسيو هريو عند الوطنية المحلية، بل سما به إلى رعاية اللغة
الفرنسية في البلاد الأجنبية، فرأس جمعية المسيو لاييك رياسة حقيقية لا صورية،
وأمدها بما استطاع من الوقت والمال
عتب عليه المسيو بينار في المؤتمر الذي عقد في يوليه سنة 1933 خلف الوعد
بحضور افتتاح الليسيه فرانسيه في حلب، فأعتذر بأسلوب لن أنسى وقعه في نفسي،
اعتذر بأنه يبيت في القطر ثلاث ليال من كل أسبوع، ثم أعلن استعداده لدفع النفقات
التي توجبها الدعوة لنشر اللغة الفرنسية في البلاد الأجنبية
فهل تصدر هذه الأريحية إلا عن أديب؟
وفي ذلك اليوم دعوته لزيارة القاهرة فقال في حماسة: سنلتقي هنالك يا صديقي
وقد بر بالوعد فحضر لافتتاح الليسيه فرانسيه بمصر الجديدة في سنة 1938، ولكني
ما رأيته ولا رآني، فقد كنت في بغداد، عليها أطيب التحيات
وخلاصة القول أن الأدب عماد الوطنية، ولا قيمة لوطن ليس فيه أدباء
وإذا تحذلق متحذلق فادعى أن الأدباء لا يحسنون غير التغريد فوق أفنان الجمال،
أجبناه قائلين بعزة وخيلاء:
إن الجمال وهو أعظم نعم الله في هذا الوجود، ولا يعيب التغني بالجمال غير مرضى
الأذواق والقلوب. . . الأمم العظيمة هي التي تتغنى بالجمال، كما يصنع الإنجليز
والألمان، وكما صنع العرب في شباب الزمان. . . فمن بدا له أن يغض من شعرائنا
لأنهم يتحدثون عن الجمال، فليبادر باستشارة أحد الأطباء
أدب المعاش
لا جدال في أن الأدب العربي الحديث قد سما سموا عظيماً في كثير من الفنون،
ولكني مع ذلك أراه تخلف أقبح التخلف في دعوة الناس إلى تدبير المعاش، وأنا أقترح
أن يكون عندنا أدب يسمى (أدب المعاش) وهو الأدب الذي يعلم الناس كيف
يقتصدون، وكيف يدخرون، وكيف يواجهون مطالب الحياة في الشباب والمشيب،
بجيوب سليمة من مرض الإفلاس، فما يذل الرجال غير الفقر، أعاذنا الله وأعاذ جميع
الأحرار من رؤية وجهة البغيض
ولتوضيح هذا النقص في اتجاهاتنا الأدبية أسوق الفكاهتين الآتيتين: لقيني الشاعر
حافظ إبراهيم يوماً فقال:
- هل رأيت ما صنع شوقي؟
- ماذا صنع شوقي؟
- نظم قصيدة في (بنك مصر) مع أنه لو اختلف مع هذا البنك على مليم واحد لساقه
إلى ساحة القضاء!
- ومعنى هذا أنك لا ترى أن تقال في (البنوك) قصائد؟
- القصائد لا تقال إلا في الأزهار والرياحين

ولقيني الشاعر عباس العقاد يوماً فقال:
- قد نفيناك عن فردوس الأدب
- وما سبب هذا النفي، يا حضرة الأستاذ؟
- لأنك بنيت بيتاً في مصر الجديدة، والأدب لا يعرف مثل هذا الثراء
وقد اعتذرت للأستاذ العقاد بعبارة لطيفة، عبارة تقول بأن شهرتي بالأدب هددت سمعتي المالية، فكان من واجبي أن أبني بيتاً ولو بالتقسيط، لتحسن سمعتي في سنتريس
والحق أن أدباءنا قد انصرفوا عن تعليم أنفسهم وتعليم قرائهم فكرة المعاش، ولو شئت لقلت إنهم يتباهون بالتبديد لما يملكون. وهذا خطر يجب التحذير من عواقبه السود، وأنا أنبه نفسي وأنبه تلاميذي وقرائي، فلأسمع وليسمعوا، ولعل فيهم من يعي كلامي بأكثر مما أعي كلامي
لا يعاب على الأديب أن يقص بعض وقائعه الغرامية، فمنذ عهد امرئ القيس إلى اليوم والشعراء يتباهون بحوادث الضم والعناق والوصال، والأمر كذلك عند شعراء الأمم الأجنبية، ولكن يعاب على الأديب أن يقص بعض مسالكه في تدبير المعاش وما وقع من ذلك لم يقابل بغير السخرية والاستهزاء
وأخرج على هذا التقليد فأقول: إني جريت منذ أعوام على الادخار في حدود الاعتدال، فلا أحرم نفسي ولا أحرم أبنائي نعمة العيش المقبول، ولكني لا أسمح لنفسي ولا لأبنائي بتبديد ما يسوق الله من الرزق الحلال
وعند اشتغالي بالتدريس كنت أسأل تلاميذي عما يدخرون ولم يفتني أن ألقي درساً في الادخار على تلاميذي في بغداد، راجياً أن يلقوه على تلاميذهم في جميع أرجاء العراق
ومهنتي اليوم لا تتسع لأمثال هذه الدروس، ومع ذلك يغلبني حب الخير فأسأل المدرسين الذين أتشرف بتوجيههم إلى المناهج الصحيحة في التدريس، اسألهم عما يدخرون، لأطمئن إلى صلاحيتهم لمهنة التعليم؛ فالمعلم الحق في نظري هو الذي يروض نفسه ويروض تلاميذه على تدبير المعاش. ولا يمكن لمدرس يبدد مرتبه في الأسبوع الأول من الشهر أن يجد عقله في الباقي من الأسابيع
وتدبير المال في الحدود المعقولة يشهد بالقدرة على ضبط النفس، وضبط النفس هو أوثق صور الأخلاق، وما يجوز لمبذر أن يتوهم أنه يصلح لشيء من جلائل الأعمال
أكتب هذا وأنا اعرف أن في بني آدم من يطيب له أن يتهمني بالشح والبخل، لأنهم ألفوا وصف المدخرين بالشح والبخل؛ ولأن الشعر القديم صور لهم التبذير بصورة السخاء من أن أكثر المدائح كانت تمائم أريد بها انتهاب ما يملك الخلفاء والملوك
ومهما نهيتكم عن الإسراف فلن أنهاكم عن البر بالفقراء والمساكين. ولي هنا غاية تجارية: فقد عرفت بالتجربة أن الله يعوض ما ننفقه على المعوزين أضعافاً مضاعفة، ومن الواجب أن نستغل كرم الله أجمل استغلال في حدود ما نطيق
وأنا بعد هذا أرجو من يؤلفون كتب المطالعة لتلاميذ المدارس أن يكثروا من الحث على الادخار، ليساعدوا على إنشاء جيل جديد، جيل متماسك لا يتباهى أبناؤه بالسرف والتبديد، وإنما يتباهون بالبر والإفضال
نفحة سودانية
كان من توفيق الله أن نلتفت إلى الأدب في السودان بعض الالتفات، فبه أتيحت فرصة
للتعرف إلى ما هناك من روائع لو نشرت لبهرت شعراء مصر والشام والعراق
أقول هذا وأمامي قصيدة للشاعر محمد سعيد العباسي، قصيدة خفيفة الروح، حن فيها إلى أيامه بمصر فقال:

ولو كان لي عِلمُ ما في غدٍ ... لما بِعتُ مصر بسودانيهْ
عدتنيَ عن طِيب ذاك الثواء ... نَوىً قَذَفٌ خيلُها عاديهْ
فودّعتُها أمسِ لا عن قِلًى ... ولم تكن النفسُ بالساليه
إلى بلدٍ عشتُ فيه غريباً ... بعيداً عن الناس في ضاحيهْ
أقيم بها من صدور المطىّ ... للمرخ تُحدَى وللصافيهْ
لعلي أصيبُ بتلك البطاح ... صبَاي وذاهب أياميهْ

فلله كم جَنَت الحادثات ... علي وأودت بآماليهْ
رعَى الله مصرَ فكم للأديب ... بها ثَمَّ من عيشةٍ راضيه
وأحيب بأيامها الذاهبات ... على ما بها وعلى ما بيهْ
قضيناً بها غَفَلات الشباب ... بأحلى مذاقاً من العافيهْ
تولّت سراعاً فيا لينَها ... تعود لنا مرةً ثانيهْ
ويا قِبلة الخير لا تبعدي ... وحُيِّيتِ زاهرة زاهية
ويا برقُ زُرها بوطف الغمام ... وحُلّى عزاليك يا ساريه
وإن تبخلي إن لي مُقلةً ... هي المزن هامعةً هاميه
بني مصر حيَّاكم ذو الجلال ... بعَرف تحياته الزاكيه
وأسدى بإحسانه منعماً ... لكم كلَّ صالحةٍ باقيه
بكم غدت اليومَ أم اللغات ... كحسناء في بُرُدٍ ضافيه
حَمَلتم بمصرَ وبالمشرقَيْن ... رسالةَ آدابها العاليه
أجلْ وشأوتم بسحر البيان ... عباقرة الأعصر الخاليهْ
بيانٌ هو البدر في تِمِّهِ ... يشقُّ حَشا الليلةِ الداجيه
وكالورد يعبق مطلولهُ ... أو المسك أو جونة الغاليه
بَلوْنا الكرام فكانوا البناء ... وكنتم به حَجَر الزوايهْ

فما رأى قراء (الرسالة) في هذا الكلام النفيس؟ ما رأيهم في شاعر سوداني يحن إلى مصر هذا الحنين؟ وما جزاؤه على هذا التلطف النبيل؟

نحن لا نملك الجزاء على مثل هذا الوداد، فهو فوق الجزاء، ويكفي أن نقول إنه شاعر من السودان، السودان المصري، أعزه الله ورعاه وحماه من جميع الأسواء

وداد مصر للسودان وداد صحيح، فليعرف السودانيون أننا لا نقبل أن يكونوا أوفى منا بأي حال، وسنعارض هذه القصيدة بقصائد، وسنريهم أن مصر تجزيهم صدقاً بصدق، وإخلاصاً بإخلاص

أيها الأرواح الشوارد بأعالي النيل، أيها الحافظون لأمجاد الإسلام بالوادي السحيق، هل تعرفون مكانتكم في أنفس المصريين؟

لذلك حديث وأحاديث، فانتظروا قليلاً، فسأقص من أخباركم ما تجهلون

أيها الشاعر الذي حيا مصر، حياك الله وحياك ثم حياك، فقد طوقت جيد مصر بقلائد صيغت من حبات القلوب

أهذا شعر أم سحر؟

هو فوق الشعر وفوق السحر، هو إلهام جادت فطرةٌ كريمة الأصل، في بلاد أبناؤنا أصلاء

وإلى الأستاذ عبد العزيز عبد المجيد تحيتي وثنائي، فهو الذي حمل إلي هذا القصيد، كما يحمل النسيم رسائل المحبوب إلى الحبيب

زكي مبارك

مفاوضات الفتح العربي لمصر

للأستاذ السيد يعقوب بكر

(تتمة)

مفاوضة ثالثة (ج)

يحكى لنا الواقدي (ص25 - 28) أن أرمنوسة ابنة المقوقس كانت في طريقها إلى قيسارية لتزف إلى فلسطين (يقصد قسطنطين) بن هرقل، فلما علمت أن قيسارية قد حاصرها العرب، عادت إلى مصر بما كان معها من الخدم والمال، فما وصلت إلى بلبيس، حتى جاءتها جيوش عمرو وحاصرتها. ثم يقول الواقدي: إن العرب اقتحموا المدينة وأسروا أرمانوسة، ولكن عمراً إلى أبيها المقوقس، اعترافاً منه بحسن صنيعه (أي صنيع المقوقس)، حين أتته منذ سنين عدة رسالة النبي صلى الله عليه وسلم، يحملها إليه حاطب بن أبي بلتعة. أرسل عمرو أرمانوسه إلى أبيها مع قيس ابن سعد، فيصل هذا ويدور بينه وبين أبيها حديث طويل يسجله لنا الواقدي (ص28 - 29). ونحن يعنينا هنا الجزء الأخير من هذا الحديث (ص29): (فقال المقوقس لقيس ابن سعد: يا أخا العرب، أرجع إلى أصحابك وأخبرهم بما سمعت وبما رأيت، وانظر فيما يستقر عندكم وبينكم؛ فقال قيس: أيها الملك، لابد لنا منكم، ولا ينجيكم منا إلا الإسلام أو أداء

الجزية أو القتال. فقال المقوقس: أنا أعرض ذلك عليهم، وأعلم أنهم لا يجيبون، لأن قلوبهم قاسية من أكل الحرام)

فهل نعد ذلك الحديث مفاوضة؟ لا شك في ذلك. ولكننا نعتقد اعتقاداً جازماً أن هذه المفاوضة لم تكن، وذلك لسببين: الأول أن قصة أرمانوسه نفسها موضوعة؛ فالأستاذ بتلر يقول فيها (ت3 ص191): ولا حاجة بي إلى إضاعة الوقت في تفنيد هذه القصة، فإن مجرد العلم بأن المقوقس كان بطريق الإسكندرية كاف لدحضها. . . ويجدر بنا هنا أن نذكر أن أبا صالح قال: إن (أرمنوسه) هي الاسم المصري القديم لمدينة أرمنت (ص279). وقد ذكر ابن عبد الحكم بغير دقة أنها امرأة المقوقس، وذكر كرماً كان لها أغرقته فصارت منه بحيرة مريوط. وإنه مما يؤسف له أن هذه القصص التي يمليها خيال ألف ليلة وليلة مما يجب علينا إبعاده من التاريخ)؛ والثاني أن المقوقس لم يكن هو الذي

تسلم رسالة النبي عليه الصلاة والسلام وإنما الذي تسلمها هو (جرج) الذي سمى (بالمقوقس) في (الرسالة) خطأ، وهو حاكم الإسكندرية ونائب الملك في مصر (بتلر ص125)

مفاوضة رابعة (د)

يحكى لنا الواقدي (ص35 - 39) ما فعله العرب الذين كانوا سائرين لنصرة عمرو - مع العرب المتنصرة الذين كانوا سائرين لنصرة أرسطوليس وكيف أن أرسطوليس هذا استهدف لمكيدتين: مكيدة عمه أرجانوس الذي أدرك مقتل أخيه على يد ابنه (أي ابن أخيه)، ومكيدة العرب المسلمين الذين انبثت طائفة منهم في معسكره متظاهرة بأنها جماعة العرب المتنصرة الذين جاءوا لنصرته؛ ثم كيف هزم بسبب هاتين المكيدتين أمام الحصن وفر إلى الإسكندرية. وبعد ذلك يقول الواقدي (ص39): ((قال ابن إسحق) حدثني من أثق به أنه قتل في تلك الليلة من عسكر القبط خمسة آلاف، وغنم المسلمون أثقالهم وما كان فيها من الأموال. فلما أقبل الصباح اجتمع خالد بالمسلمين وسلم بعضهم على بعض وهنوهم بالسلامة، ودخلوا مصر وملكوا ديارها وأحاطوا بقصر الشمع. فأشرف عليهم أرجانوس بن راعيل أخو المقوقس، وقال لهم: يا فتيان العرب، اعلموا أن الله قد أمدكم بالنصر، وقد فعلت في حقكم كذا وكذا، ولولا حيلتي على ابن أخي لما انهزم منكم، وقد ظفرتم الآن، ونحن نسلم إليكم على شرط أنكم لا تتعرضون لنا ولا تمدون أيديكم لنا بسوء، ومن أراد منا أن يبقى على دينه يؤدي الجزية، ومن أراد أن يتبعكم يتبعكم. فقال له معاذ بن جبل: قد نصرنا الله على الكفار بصدق نياتنا وصالح أعمالنا واتباعنا للحق، وإنا ما قلنا قولاً إلا وفيناه، ولا استعملنا الغدر ولا المكر، وأنتم لكم الأمان على أنفسكم وأموالكم وحريمكم وأولادكم، ومن بقى منكم على دينه فلن نكرهه ومن اتبع ديننا فله ما لنا وعليه ما علينا. فلما سمع أرجانوس ذلك نزل إليهم بالمفاتيح، فأمنوه وأمنوا من كان معه في القصر، وجمعوا كابر مصر ومشايخها. . .)

فهل نعد ذلك مفاوضة؟ لا شك في ذلك. ولكن القصة كلها من أولها إلى آخرها موضوعة ليست فيها أثارة من صواب فقد قلنا من قبل إن المقوقس لم يمت في ذلك الوقت، وإن اسم أرسطوليس لم يرد غير كتاب الواقدي؛ ونقول الآن إن اسم أرجانوس لم نجده كذلك عند

غير الواقدي. وليست بنا حاجة لتنفيذ هذه المفاوضة إلى القول بأن قصة العرب المنتصرة موضوعة وإننا لم نجدها في غير كتاب الواقدي

فخلاصة القسم الأول من البحث انه لم يصح عندنا إلا وقوع مفاوضتين: الأولى عند بلبيس بين عمرو وجماعة عليها أحد الأساقفة، ولم يرد إلينا نص ما دار في هذه المفاوضة. والثانية في جزيرة الروضة أثناء حصار حصن بابليون بين المقوقس وعبادة ابن الصامت، وقد ورد إلينا ما يقول مؤرخو العرب إنه دار في هذه المفاوضة، ولكننا لا نظن أن الذي نقله إلينا هؤلاء هو ما دار في هذه المفاوضة بالضبط، وإن كنا لا نشك في أنه لا يختلف عنه من حيث الروح المسيطرة على الطرفين المتفاوضين

فلنشرع إذن في القسم الثاني من البحث في تلمس هذه الروح في ما نقله إلينا مؤرخو العرب وتنسمها منه

القسم الثاني

كان عبادة بن الصامت وأصحابه تسيطر عليهم تلك الروح التي كانت تسيطر على العرب جميعهم في ذلك الوقت: الانصراف عن الدنيا وأعراضها وملذاتها، تلك الدنيا التي طلقوها ونبذوها وخلفوها ظهرياً؛ ثم السعي إلى لقاء الله تعالى والاستشهاد في سبيله والظفر بجنته ونعيم آخرته

وكان عبادة بن الصامت وأصحابه لا يجدون ما يصلح أساساً للمفاوضة بينهم وبين المقوقس وأصحابه غير هذه الثلاث الخصال: إما الإسلام وإما الجزية وإما القتال. ذلك لأنها الأساس الوحيد الذي يرضى به المسلم المعمور القلب بالإيمان الخالص الضمير من أعراض الدنيا الموطن النفس على الاستشهاد

أما المقوقس فكان في أول الأمر تسيطر عليه نزعتان: الأولى هي خوف العرب وخشيتهم. والثانية هي الحرص على سلطان هرقل من أن يزول عن مصر. ولذلك وجدناه يصطنع الحيلة لصرف هؤلاء العرب عن البلاد؛ فيأخذ في تخويف عبادة وصحبه من جموع الروم التي تتجمع للقائهم وتوشك أن تنقض عليهم فلا يستطيعون لها ردا، ويأخذ في إظهار شفقته على هؤلاء العرب الذين يقاسون شظف العيش وضيق الحياة، ثم يأخذ أخيراً يقول: (ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين دينارين ولأميركم مائة

(دينار ولخليفتكم ألف دينار

ولكن عندنا ما يدرك أن العرب قوم ليسوا كالأقوام وأناس ليسوا كالأناسي، وأنهم قد طلقوا الدنيا فلا يرضيهم منها إلا شظف العيش وضيق الحياة، وأنهم يتمنون لقاء الروم الذين يوشكون أن ينقضوا عليهم ليظفروا بالشهادة إن غلبوا أو ليعلوا منار الإسلام إن غلبوا، عندما يدرك ذلك تغلب عليه نزعة الخوف والرهبة، وينصح لأصحابه أن يسلموا البلاد للعرب ويدفعوا الجزية

ولكن أصحاب المقوقس كانوا قوماً لا يرضون الخروج من دين ابن مريم إلى دين لا يعرفونه، ولا تطيب نفوسهم بأن يذلوا ويهونوا، ولا يرون إلا القتال سبيلاً لهم. لذلك رفضوا نصح المقوقس وعادوا إلى القتال

هذه هي الروح المسيطرة على الطرفين المتفاوضين. ولكنا لا نحب آن نختم البحث قبل أن نقول إنها الروح المسيطرة على العرب والروم؛ فقد كان المقوقس رومياً (بتلر، الملحقان 3 و7 من كتابه)، وكان أصحابه روماً. أما القبط فلم يكن لهم اشتراك في سياسة البلاد ومفاوضة الغزاة، فقد كان المقوقس (قيرس) لا يزال على عهده العدو الأكبر لمذهب القبط (بتلر ص220، 221)

(تم البحث)

السيد يعقوب بكر

. . .زواج الأدباء

للمغفور له الأستاذ مصطفى صادق الرافعي

أما احتراف الأدب، والكتابة في الصحف، ومعالجة الشعر، فهذه في الشرق . . . ضروب من الفقر - كما هي ضروب من الحرفة - غير أنه فقر عاقل مميز يذهب بنفسه إلى السمو، وينزع إلى الحق، ويستنكف أن ينحط إلى منزلة الفقر العامي الجاهل. . .!

فالحوذي، والكناس، والمتسول، وأمثالهم من هؤلاء الذين يضطربون في معاشهم اضطراب الكرة الأرضية، يقطعون كل أربع وعشرين ساعة دورة حول أنفسهم. . . هؤلاء يتزوجون إذ لا يتورعون أن يظلموا المرأة، وأن يزيدها من فقرهم فقراً، ومن قلتهم قلة؛ ثم هم لا يبالون حاجتها من الحياة، ولكن حاجتهم منها هي. . .

فالمرأة عندهم وظيفة حياة طبيعية لا يشترط فيها إلا شرط الغريزة والعادة الاجتماعية. وفي طبقاتها في النساء من لا يصلحن إلا لهم؛ وقد أعدتهن رحمة الله إعداداً طبيعياً، وأمدتهن بنفوس صابرة قوية. . . فلها أن تعمل وترضى وتنقاد إذ الرجل عندهن هو الجواد الأخير في عربة الحياة. . . ومتى فرشت دار الفقير بحصير فهذا هو بساطها وسجادها الفاخر!

بيد أن الشاعر والأديب وكاتب الصحف لا يرون على فقرهم إلا البساط والسجاد الفاخر والحشايا. . .!

فهؤلاء فقرهم هو الفقر، ما دام لأنفسهم، فإن اتصل بالمرأة التي تصلح زوجة لهم - أو

تكون قريبة من أن صلح - لم يكن فقراً فحسب، بل فقراً وظلماً وبلاءً إنسانياً أسود. . . ومن ثم لا يتزوجون. وهذه ناحية من العدل في ذلك الفقر العاقل المميز الذي يحترف الأدب والشعر والفلسفة والكتابة في الصحف. . . فليس هنا طبيعة عبقرية ولا شعر، وإنما ذاك عمل النفس الطيبة لا غير. . . !

ولكنك واجد منهم من ينتحل العبقرية، ويقلد الشاعر الفحل والعبقري الكريم. وهذا شخص مضحك فإن الملك لا يكون بالتمثيل على خشبة المسرح. أما الشاعر الحق والعبقري الصحيح، فكلاهما واحد من ثلاثة:

الأول - أن يكون من مؤنثي الرجال، قد خلق كذلك، أو عرضت له آفة تنقص الفحولة فيه أو تمحقها محقاً. . . وهذا معه عذره البين

والثاني - أن يكون رجلاً قد طغت فيه الحياة طغيانها العصبي الشديد المجتاح، ثم يكون الفن طاغياً فيه طغيانه الخيالي العنيف التمرد - وهذا لا يصلح زوجاً ولا تصلح الزوجة له؛ فإنه إنما يرد المرأة المغلة، كأنها ضيعة من الفن الحي تغل عليه من ريعها وثمراتها. . . وقد أبى الشيطان لعنه الله أن يكون المرأة المغلة في الفن إلا امرأة محرمة. . . ومتى كان الشيطان في الأمر استطاع أن يجعل لكل امرأة فنا على حدة. . . !

ومن ههنا فسوق الكتاب والكثرة من العباقرة. وهذا سر تعزبهم وانصرافهم عن الزواج أو انصراف الزواج عنهم. وهؤلاء بركة على الفن، ولكنهم بلاء على الدين، وعلى الفضيلة، وعلى النسل، وعلى الإنسانية كلها. . . ومن سخرية الحياة بهم أن يكون العبقري العظيم فيهم هو من ناحية أخرى الحيوان العظيم. . . ! وليس إبليس مغفلاً ولا أحمق فيتخذ له أدوات من المساجد والكنائس، ويشتغل ببيع السبح والتعاويذ للمصلين، بل هو كما يتخذ المرأة من المومسات في موضعها. . . يتخذ الرجل من أولئك في موضعه أيضاً. وهذا شأن ظاهر

أما الثالث - ففي رأيي أنه خير الزواج جميعاً - ولن تجد المرأة خيراً منه وهو العبقري إذا كان تام الفحولة، وكان ذا دين يمسكه وضمير يردعه، فهذا يكون الحيوان الذي فيه قيده، ويكون شذوذه كالليل الممتاز في ليالي الشهر يأتي ظلامه وفيه البدر

نعم إن هذا العبقري قد يخسر أشياء من وسائل الفن، ولكنه مستعيض عنها بخياله، ويشعر بها محروماً أكثر مما لو نالها. ثم إن الفن ليس في جميع أدواره وأغراضه تخنيثاً للحياة ولا تفككا وخلاعة ورقاعة

هناك ما هو أسمى من كل أعمال العبقري. . . هو إيجاد فضيلة عبقرية. . . !

مصطفى صادق الرافعي

من وثبات العبقرية

نظام الضرائب في الإسلام - 5

للأستاذ علي حسين الوردي

خراج الأرض وجزية الرؤوس

اختلف علماء المالية حول ضريبة الأرض فمنهم من استحسن فرض المبلغ المعين على الوحدة من مساحة الأرض ليؤخذ من غير زيادة ونقصان عاماً بعد عام

يقول أنصار هذه الرأي بأن تمسح الأراضي - في أول الأمر - مسحاً عادلاً متقناً، ثم تصنف بعد ذلك على أنواع حسب خصوبة التربة، أو طريقة سقيها ونوع الزرع فيها؛ ثم توضع الضريبة على كل نوع من هذه الأنواع، فيكون مقدار الضريبة كبيراً أو صغيراً تبعاً لما اعتادت الأرض أن تعطي من ريع ضخم أو ريع ضئيل

ومن العلماء من يخالف هذا الرأي كل المخالفة ويدل بالحجج على بطلانه أو المضرة التي تنتج عن اتباعه

ومن رأى هؤلاء ألا ينظر إلى مساحة الأرض بشيء من الاهتمام، إنما الواجب - على قولهم - هو أن تؤخذ الضريبة نسبة محدودة من إنتاج الأرض كل سنة

وإنهم بهذا يفندون الرأي الأول، إذ يرون من الظلم أن يفرض المقدار الثابت على جريب الأرض سنة بعد سنة، بينما نجد الزراعة لا تنتج مقداراً ثابتاً على توالي السنين؛ فقد يأتي المحل على أرض في موسم، ثم يأتي جباة الحكومة - وفيهم الغاشمون والطامعون - ليأخذوا نفس المبلغ الذي كانوا يأخذونه في أيام الرخاء. أو قد يأتي -

على العكس - عهد الخير والإنتاج الوفير، ثم لا تستطيع الحكومة أن تجبي منه مبلغاً كبيراً، فهي تجبي المبلغ المعين على جريب الأرض، سواء أكان الإنتاج في تلك السنة قليلاً أم كثيراً

وما دامت الزراعة تتبع في إنتاجها تقلبات الطبيعة من رياح وحرارة وأمواه، فليس من العدل إذن أن تفرض الضريبة ثابتة متساوية في جميع السنين

أما أرباب الرأي الأول فهم لا يردون هذا الاعتراض القوي، وكأنهم يعترفون بصحته ضمناً، أو لعلهم لا يستطيعون له رداً؛ ولكنهم مع ذلك يقولون إن الضريبة الثابتة لها من المحاسن ما يوازن تلك السيئة أو ينيف عليها؛ خصوصاً إذا كانت الأرض منتظمة الخصوبة تابعة لنظام محكم من الري أو عناية مستمرة من الحكومة، إذ يكون الإنتاج آنئذ متناسق المقدار في اغلب السنين

ومن حسنات الضريبة الثابتة، كما يقولون، أنها تشجع الإنتاج، وتحرض أصحاب الأراضي على الزراعة

فهم يعتقدون أن بعض أصحاب الأراضي من الأغنياء قد يتقاعسون عن زراعة أرضهم حباً للراحة أو ضيقا من الضريبة إذا كانت الضريبة مفروضة على الإنتاج. وقد يجرؤ كذلك بعض من يملكون الأراضي في المدن وضواحيها. فيتركونها بوراً سنوات عديدة، احتكاراً لها وانتظاراً للأسعار العالية فيها

أما إذا وضعت الضريبة على مساحة الأرض، سواء زرعت أم لم تزرع، فسيضطر أولئك المالكون المترفون إلى عمارتها أو بيعها، هرباً من دفع الضريبة كل عام عبثاً، وبذلك يزداد إنتاج الأمة وتتقدم اقتصادياتنا تقدماً مبيناً

هذه خلاصة ما قام حول ضريبة الأرض من جدال. وقد يستغرب القارئ إذا علم أن هذا الجدال كان له مثيل في عهود الإسلام الأولى، ولعله سيعجب حين يرى أغلب البراهين التي يدلي بها علماء اليوم في تأييد كل من ذينك الرأيين، قد سبق ذكرها في كتب فقهائنا الأقدمين رضى الله عنهم

ولهذه المسألة في الإسلام قصة شيقة نلخصها فيما يلي:

عندما فتح المسلمون أرض العراق جمع عمر لجنة من أولي الرأي، منهم علي بن أبي طالب، وعثمان، وطلحة. . . للتشاور في أمر الأراضي المفتوحة

وقد قر الرأي أخيراً على مسح الأرض. فأرسل عمر عثمان ابن حنيف لمساحة أرض الفرات، وحذيفة بن اليمان لمساحة جوخى فيما وراء دجلة

وكان عثمان عالماً بالخراج فمسحها مساحة الديباج، أما حذيفة فقد لعب به أهل جوخى في مساحته إذ كانوا قوماً مناكير

وجعل عثمان على جريب العنب عشرة دراهم، وعلى جريب النخل ثمانية دراهم، وعلى جريب القصب ستة، وعلى جريب الحنطة أربعة، وعلى جريب الشعير درهمين

ووقف عمر على عامليه قبيل وفاته فقال لها: لعلكما حملتما الأرض ما تطيق؟

فقال عثمان: حملت الأرض أمراً هي له مطيقة ولو شئت لأضعفت أرضاً. وقال حذيفة: وضعت عليها أمراً هي له محتملة وما فيها كثير فضل. فقال عمر: انظرا لا تكونا حملتما الأرض ما تطيق. . .

وجرت سياسة الإسلام على هذا المنوال من فرض الخراج الثابت على كل جريب مزروع أو غير مزروع، حتى عهد الخليفة هرون الرشيد. فلقد سأل هذا الخليفة الفقيه أبا يوسف عن أمر الخراج، وكان من رأي أبي يوسف العدول عن الخراج الثابت إلى خراج المقاسمة في الإنتاج وهو ما يقول به الرأي الثاني من الرأيين اللذين سلفا. وقد رد أبو يوسف على ما يقول به الفريق الأول من أن الخراج الثابت يزيد إنتاج الأمة ويدعو الزراع إلى عمارة الأرض الغامرة: (. . . فأما ما تعطل منذ مائة سنة أو أكثر وأقل فليس يمكن عمارته ولا استخراجه في قريب ولمن يعمر ذلك حاجة إلى مؤونة ونفقة لا تمكنه، فهذا عذرنا في ترك عمارة ما قد تعطل، فرأيت أن وظيفة الطعام - كيلاً مسمى أو دراهم مسماة توضع عليهم مختلفاً - فيه ضرر على السلطان وعلى بيت المال، وفيه مثل ذلك على أهل الخراج بعضهم من بعض)

ثم يبدأ أبو يوسف بانتقاد الخراج الثابت على ما سبق ذكره من اختلاف المواسم: (أما وظيفة الطعام، فإن كان رخص فاحش لم يكتف السلطان بالذي وظف عليهم ولم يطب نفساً بالحط عنهم، ولم يقو بذلك الجنود ولم تشحن به الثغور. وإن كان غلاء

فاحش لا يطيب السلطان نفساً بترك ما يستفضل من أهل الخراج من ذلك. والرخص والغلاء بيد الله تعالى لا يقومان على أمر واحد. وكذلك وظيفة الدراهم مع أشياء كثيرة تدخل في ذلك تفسيرها يطول. . .)

ورأيت أبقى الله أمير المؤمنين، أن يقاسم من عمل الحنطة والشعير من أهل السواد) جميعاً على خمسين للسيح منه؛ وأما الدوالي فعلى خمس ونصف، وأما النخل والكرم والرطاب والبساتين فعلى الثلث، وأما غلال الصيف فعلى الربع، ولا يؤخذ بالخرص في ؛ إنما تكون المقاسمات في الثمرة عندما يباع من التجار، أو يقوم ذلك (شيء من ذلك قيمة عادلة، ثم يؤخذ منهم ما يلزمهم فيه

جزية الرءوس

استعملت هذه الضريبة قديماً في جميع الدول، فلقد جباها الفراعنة واليونان والفرس، ثم الرومان والعرب من بعدهم. وهي لا تزال تجبى اليوم على نطاق مصغر في بعض البلاد المتمدنة، أو هي قد اتخذت في أغلب الأمم الحديثة شكلاً جديداً أو اسماً غير اسمها القديم. ومؤيدو هذه الضريبة يقولون بوجوب فرضها على جميع الناس، لكي يشعر كل فرد من الأمة بأنه عضو فعال في دولته، وأن عليه مسؤولية نحوها كمسؤولية عضو الأسرة نحو الأسرة.

وهؤلاء المؤيدون يرون أن قسما كبيراً من الشعب لا يؤدون إلى الحكومة ضرائب مباشرة، وهم لذلك لا يشعرون بشيء من الصلة التي تربطهم بالدولة ارتباط الضرورة الاجتماعية

وعلى هذا ينبغي وضع الضرائب مباشرة على كل رأس ليتم بذلك الترابط الاجتماعي المنشود

وليس من العدل كذلك أن يشترك في حكم البلاد كل الأفراد، ثم لا يؤخذ من بعضهم قسط من النفقات اللازمة لتدبير الأمور العامة

إن مشروعية الجزية مستندة إلى حماية الحياة التي هي أهم وظائف الدول وأكثرها حاجة إلى الإنفاق. إذ يجب حفظ الأمن العام، الداخلي والخارجي، وعقاب المجرمين والمعتدين

ولا يزال بعض المؤلفين المحدثين يدافعون عن جزية الرءوس بقولهم: (ما دامت الحكومة الديمقراطية يشترك في إدارتها كل ناخب، فيجب إذن أن يفرض على جميع الناخبين جزية مباشرة، مهم كانت صغيرة، إذ لا يمكن أن تضطلع بأعباء الضرائب طبقة من الناس بينما تضطلع بالحكم طبقة أخرى)

وهاهي ذي بعض ولايات سويسره والولايات المتحدة الأمريكية، قد فرضت ضريبة يسيرة على الرؤوس لتكون بدلاً عما أعطى الفرد من حق التصويت أو الانتخاب

وفي الحقيقة أن الجزية لها من المزايا ما جعلها محببة إلى الجباة في كل حين. ذلك أنها سهلة في إدارتها كل السهولة، وافرة المحصول هينة الجباية. وما هي إلا أن يختم على رقاب الناس أو تسجل أسماؤهم، ثم لا يترك الشخص كل عام حتى يدفع ما عليه من ضريبة وهو من الصاغرين

وفي هذه المناسبة، يجب إلا ننسى أن التجنيد الإجباري للمتبع اليوم في جميع أنحاء العالم، ما هو إلا صورة من صور الجزية حيث يقدم الفرد عوضاً عن الضريبة النقدية ضريبة من الخدمة البدنية والمخاطرة بالنفس. ولذا سمى التجنيد (بضريبة الدم).

تؤخذ الجزية على أنواع مختلفة: منها أن تكون متساوية المقدار على الجميع، لا فرق فيها بين غني وفقير، أو بين ذكر وأنثى. وحجتهم في هذا الرأي أن الحكومة مكلفة بحماية الأرواح وأرواح الناس جميعاً ذات قيمة واحدة، فمن قتل نفساً فكأنما قتل الناس جميعاً، ولذلك تؤخذ الجزية متساوية من المجتمع

وعلى رغم ما في هذه النظرية من رونق خاص، فإنها بعيدة عن العدل بعداً لا يخفى على اللبيب، ولذا فضلت عليها الطريقة الثانية التي يميز فيها بين شخص وآخر حسب مقدرته أو غنائه

وهذه الطريقة هي التي أتبعها الإسلام في أهل الذمة إذ فرض ثمانية وأربعون درهما على الغني، وأربعة وعشرين على الوسط، ثم أثني عشر على الحراث أو العامل بيده مثل الخياط والصباغ والإسكاف والجزار. ولم تؤخذ الجزية من النساء والصبيان ولا من المسكين الذي يتصدق عليه، ولا من الأعمى والمزمن والمقعد إذ كانوا لا يملكون

حرفة ولا يساراً
وأيما شيخ من أهل الذمة ضعيف عن العمل أو أصابته آفة، أو كان غنياً فافتقر. . . طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين
وبعد فيجب ألا يغرب عن ذهن القارئ أن الجزية والخراج اللذين ذكرنا من أمرهما شيئاً، لم يضعهما الإسلام إلا على الذميين، وهم أهل الكتاب والمجوس وغيرهم من الذين وقعوا تحت الإسلام ثم آثروا البقاء على دينهم.
وهنا نعرض لمسألة خاض فيها الباحثون طويلاً وذهبوا فيها كل مذهب:
إذا دققنا في أمر الضرائب هذه التي فرضت على أهل الذمة، وقارناها بالضرائب التي فرضت على المسلمين - أي الزكاة - وجدنا ثمة فرقاً كبيراً. إذ إن الزكاة كانت خفيفة جداً بالنسبة لما فرض على غير المسلمين. فالإسلام كان يأخذ من أتباعه ما يقارب ربع العشر على ما بأيديهم من أنعام وأموال وزراعة، بينما أخذ من الذميين الثلث والربع إضافة إلى
الجزية على الرءوس.
فهل في هذا عدل من الوجهة العلمية الحديثة؟
إن الحكومة الحديثة تفرض الآن على الناس جميعاً ضريبة الدم، وهي في الحقيقة أضخم وأكبر تضحية من جميع الضرائب. والإسلام كذلك أوجب الجهاد على أتباعه واستوفه منهم تلك الضريبة الهائلة التي ليس لها مثيل. فإذا علمنا بأنه استثنى الذميين من تلك الضريبة وأمر أتباعه أمراً مؤكداً (بأن يوفي لهم بعدهم ويقاتل من ورائهم وألا يكلفوا فوق طاقتهم)، فليس إذن من العجب أن نراه يعاملهم في الضرائب الأخرى معاملة أخرى. ولعل الإسلام لم يرغب في أن يفرض ضريبة الدم على غير أتباعه، كما فعل كثير من الدول قديماً وحديثاً، وكأنه كان حريصاً على أن تكون ضريبة الدم وغيرها من الضرائب الأخرى مدفوعة بعامل من رضا النفس وارتياح الضمير.
(الكاظمية - العراق)
علي حسين الوردي
البيئة العلمية
للأستاذ خليل السالم
يشيع التفاؤل والأمل في نفوسنا كلما نجد الباحثين يشيرون إلى المشكلة العلمية في البلاد، ويحضون على نشر الثقافة العلمية وتنظيمها التنظيم المنتج. والحس الجديد بخطورة العلم وأثره في كيان الأمة وليد التأثر بروح العصر، ونتيجة الإدراك الواعي لنزعات النهضة العالمية الحاضرة التي يرفع العلم عمادها، ويكيف وجهاتها بصرف النظر عن النكسات التي تمنى بها المدنية، والتي لا يمكن أن يعد العلم مسئولاً عنها بأي شكل كان. وهذا الشعور بالنقص العلمي، والفوضى التي نتخبط فيها سيحفزنا دون ريب لاستعجال العلاج، ولبذل الجهد الأكبر لحل مشكلاتنا حلاً سريعاً حاسماً.
هل العقم في الاختراع والابتكار والاكتشاف متأصل في العقل العربي، أو هو وليد ظروف قاهرة إن زالت تفرد هذا العقل في التفكير والأداء؟ لماذا نحجم عن ارتياد الأبحاث العالية التي تملأ كتب الغرب ومجلاتهم، ونكتفي بالتغلغل الأدبي في بواطن الأمور؟
كيف نكون رأياً علمياً هاماً وفلسفة قومية شاملة؟ هل في بلادنا من الإمكانيات العلمية ما لو انتقل من حيز القوة إلى حيز الفعل رفعها إلى مصاف الأمم الراقية كإنجلترا وألمانيا وروسيا مثلاً؟ هل تصلح بلادنا ليترعرع فيها العلم في تربة خصبة، وجو مناسب، وعوامل طبيعية صالحة؟ ما هي أخصر الوسائل لخلق مثل هذه البيئة العلمية؟
هذه مسائل أساسية أذكرها دون ترابط فيما بينها لأقول إن الخوض في مثلها واجب مفروض على كل متخصص يستطيع الإجابة الوافية المطلوبة. وبحثي هذا محاولة سريعة لشرح الدعائم التي ترتكز عليها البيئة العلمية. وأنا إن قصدت في هذا البحث وجهة خاصة فذلك ما يفرضه الوسط العلمي الموبوء الذي نعيش فيه، والصورة المثالية للوسط العلمي السليم الذي ننشده.
وقبل أن أبدأ أجدني مضطراً لذكر ملاحظة قد تكون من تحصيل الحاصل؛ ولكن لابد منها لنمحو بعض ما علق بنفوس مريضة بداء الشعور بالحقارة، فتنكر على الأمة كل كفاية علمية، وتكفر بماضيها المجيد، ومن ثم لا تؤمن بمستقبلها أي إيمان. مثل هذه

الفئة من الناس يجب أن تفهم بأن العلم لم يكن ولن يكون وقفاً على أمة بعينها بحيث تعدم الأمم
الأخرى كل القوى الخلاقة في الاستنباط والاستكشاف والتفوق؛ فالتراث العلمي العالمي مزيج متآلف العناصر لكل الأمم شأن عظيم أو صغير في تقديم هذه العناصر أو تكييفها بشكل ما. إن مشعل العلم ينتقل من أمة إلى أخرى، وإذن لا يكون من الأمانة التاريخية أن تدعى أمه من الأمم السبق والفضل في أحد ميادين المعرفة. نحن لا ننكر أن الأمة العربية في القرون الأخيرة لم تحمل قسطها من الواجب العلمي، ولكن هذه الحقيقة لا تمنعها من أن تنشئ لها من جديد حضارة علمية مستقلة الطابع، وافرة الإنتاج.
تقف الصناعة في طليعة العوامل الرئيسية التي تفعل في خلق البيئة العلمية، فحيثما كانت الصناعة تجد العلم ربيباً لها في طور، ورائداً لها في طور آخر. وتطور الصناعة يرافقه دائماً تطور في العلم وارتقاء في سبل الاختراع والاكتشاف، كما أن تقدم الصناعة مظهر من أقوى مظاهر تقدم العلم. وبمعنى آخر، يعتمد العلم والصناعة كل على الآخر كالدوال الجبرية، أي زيادة في قيمة التغير الأول تزيد في قيمة التغير الآخر والعكس بالعكس
قد نرى أن كثيراً من الأبحاث الرائجة اليوم لا تحمل في ذاتها طابع النفعية والاستثمار، ولكننا لا نحكم عليها حكماً نهائياً بذلك، فربما تؤدي أخيراً إلى تطبيق عملي واسع، وتخدم الإنسانية خدمة مخلصة. فمن كان يدري مثلاً أن أبحاث فراداي النظرية المحض حول علاقة الكهرباء بالمغناطيس ستقود إلى اكتشاف المحرك والمولد؟ حتى عندما ما لا تدخل هذه الأبحاث في نطاق التطبيق فيكفيها أنها تزيد المعرفة، وتفتق ضروباً جديدة من الفهم لأسرار الكون وحقائقه
ولما قدرت الصناعة أثر العلم الكبير في تقدمها وكمالها، روجت بضاعة العلم. فالمصانع تشتري العلماء، وتبني لهم المخترعات الواسعة وتجهزهم بالآلات الدقيقة، وتبذل في سبيل البحث أموالاً طائلة، سواء كان البحث مقصوداً لذاته، أو مقصوداً لمنفعة المصنع. وبذا خلقت عدداً من العلماء الأفذاذ الذين يعود التقدم الصناعي إلى مهارتهم ونباهتهم وقوة ابتكارهم. يقول الأستاذ هكسلي ما معناه: (إذا استطاعت الأمة أن تبتاع رجلاً مثل (وط) أو ديفي أو فراداي بمائة ألف جنيه كان عملها صفقة رابحة)
إلا أن الصناعة العربية لم تقف على قدميها بعد، وهي متلمسة طريقها بيديها، فلا يمكننا الاعتماد إذن على هذا الركن الأساسي في خلق البيئة العلمية الصالحة. وعلى النقيض
نؤمن بأن على العلم أن يشجع الصناعة وينير أمامها السبل، ويخلق الوسط الصناعي الخصب، فإمكانيات البلاد الصناعية واسعة النطاق ومواردها موفورة الغنى وإنما تعوزها القرائح الكبيرة تستغلها بشكل علمي دقيق وعلى نظام اقتصادي مثمر
لا يقل أثر الدولة في تأمين البيئة العلمية عن أثر الصناعة إن لم يزد عليه. وقف البرنس ألبرت زوج الملكة فكتوريا يقول في خطبة الرياسة للجمعية الملكية سنة 1859 (قد يحق لنا أن نرجو أننا بانتشار العلوم التدريجي وتزايد الاعتراف به كجزء جوهري من ارتقائنا الوطني - نجد رجل الحكومة والجمهور بنوع عام يعترفون أن العلم حقيق باهتمامهم فسيترفع عن التسول ويخاطب الحكومة كما يخاطب ولد عزيز والده واثقاً أنه يجيبه إلى ما فيه نفعه؛ وأن الحكومة تجد في العلم ركناً من أركان قوتها وفلاحها، وإن مصلحتها الذاتية تضطرها لتعزيزه)
وقال الرئيس هوفر (إن علماءنا أغلى مقتنياتنا القومية التي نملكها، وكل مبلغ ضئيل إزاء عمل هؤلاء الرجال. إننا لا نستطيع أن نقيس ما عملوه لترقية العمران بكل أرباح البنوك في جميع أنحاء المعمورة)
بمثل هذه الروح يجب أن تبدأ الدولة نضالها في سبيل نشر الثقافة العلمية العالية. وواجب الحكومات عندنا ثقيل باهظ، لأن الجمعيات العلمية ومعاهد التعليم والشركات الصناعية ورجال الإحسان يساهمون بقسط وافر من التعضيد والتشجيع في بلاد الغرب، أما حكوماتنا فتقف وحدها في هذا النضال لا معين لها من الخارج
على الحكومة أن ترصد الأموال راضية مغتبطة دون أن تؤذيها خسارة ما، فكل البذر لا ينمو، لأن من الحب ما يقع على الصخور أو يلتقطه الطير، ولكن أغلبه يلقى في التربة

الصالحة. وإذا ما وكل هذا الإنفاق لرجال الاختصاص فلا شك أنهم يركزون عنايتهم في النواحي المفيدة الواضحة الأثر، لأنهم سيعلمون حق العلم أن مواردنا لا تتحمل الإسراف والترف

على الحكومة أن تنشئ المختبرات في الطبيعة والكيمياء وعلم الحياة والطب، وعلوم الهندسة المدنية والكهربائية والميكانيكية. . . الخ؛ وتجهز هذه المختبرات بالآلات العلمية الدقيقة التي أصبحت ضرورتها كضرورة العقل العلمي نفسه، ثم تسلم هذه المختبرات إلى

العلماء المختصين المشهود لهم من الجامعات الغربية والقومية بالتفوق والنبوغ وتستطيع الحكومة أن تنشئ جمعية علمية خاصة بها تضم العلماء الذين قدموا للعلم والإنسانية خدمات كبيرة تعترف بها المجامع العالمية؛ وتساعد تشكيل الجمعيات العلمية الأخرى، وتمدها في أول عهدها بالمال اللازم لحياتها وطراد تقدمها. ولعل من أقوى مظاهر التنظيم أن يكون المجمع اللغوي واقفاً على كل المصطلحات الجديدة، قامعاً من فوضى الترجمات المتباينة ومشجعاً على نقل الكتب الحية من لغاتها الأصلية إلى اللغة العربية، وناشراً هذه الكتب بأثمان لا تبهظ المثقف العادي

بيد الحكومة إرسال البعثات إلى الجامعات الكبرى، وبيدها قضية تبادل الأساتذة والعلماء، وبيدها الاشتراك في المؤتمرات العلمية والثقافية، وهذه أسباب قوية في تطعيم الثقافات وبعث روح جديد في الوسط العلمي

وهي ترسم الخطط لترويج الثقافة العلمية في المدارس على الوجه الأخص وفي الأمة على الوجه الأعم. ولعل هذا الجهد أجدى ما يمكن أن تقدمه الحكومة لمساعدة العلم، وفي الوقت نفسه لا يكلف خزانتها ثمناً باهظاً. فهي تستطيع أن تعدل المناهج وتقرر الأصول، وترشد إلى أنجع الطرق التربوية التي تشوق الطلاب وتصرفهم إلى حياه علمية قبل أن تلقنهم الحقائق العلمية. تستطيع كل هذا دون أن تضيف إلى الميزانية شيئاً جديداً. أما بين أفراد الأمة، فإننا لا نستطيع أن نؤمن بالوسط الصالح إلا إذا أقبل الرأي العام على العلم بشغف ونهم؛ والمجلات العلمية المتزنة، والمحاضرات المجانية في قاعات الجامعات والمدارس ومن وراء المذياع تعجب الجمهور، لأن العلم يتسع لكثير من المحاضرات التي تتملق الرأي العام وتثير في ذهنه مشاكل نهائية حيوية، لا يصبر عقله عن البحث الطويل لفهم حلولها وتفسيرها

وقصارى القول أن تعزيز السلطة للعلم واحترامها للعلماء يبعثان في الجمهور تقدير العلماء وإكبارهم دون تعليق على قيمة أبحاثهم سواء كانت سياحة في أعماق الفضاء، أو استنطاقاً لأسرار الذرة.

وتبقى شخصية العالم لتكون دعامة ثالثة قوية في خلق البيئة العلمية، فكما نجد كثيرين من العلماء خلقهم الظرف الحازب، نجد عدداً كبيراً من العلماء خلقوا الظرف الملائم، والوسط

المناسب لانتشار آرائهم وذيوع أفكارهم. ولا يعوزنا الدليل بأن العربي موفور الذكاء مستعد بفطرته للاستنباط والتفوق إذا ما تساوت الأشياء، وأمنت السبل.

سواء علينا أن نعتنق الفكرة الرأسمالية التي ترى أن الدوافع المادية القوية تخلق العلماء، أو نعتنق الفكرة الاشتراكية التي ترى أن الرجال القادرين على الخلق والابتكار والتجديد ينفذون مآربهم بأي ثمن كان ويعملون بجد وحزم دون أمل في مغنم أو خشية مغرم؛ فإننا لا نستطيع إلا أن نحكم بأن تفكير العالم في خبزه وحياته يعطل تفكيره ويشل إنتاجه. فمقدار التضحيات المبذولة في سبيل العلم - مهما عظم هذا المقدار - لا يحملنا على الظن بأن رجال العلم رجال تضحية دائماً ولا يسعون من أجل المادة والمتاع الدنيوي. ولما كان حق الحياة وحق الحصول على مقوماتها متوقفين على خدمة الجماعة، فأولى بالمسؤولين أن يضمنوا للعالم حياة راضية لأنهم أول من يقدر خدمة العالم للجماعة

لا يكون هناك شيء غريب في أن يلقى العالم بعض المضايقات هنا، فتاريخ العلم مفعم بمثل هذه المضايقات. لقد دمرت الغوغاء مختبر بريستلي، وحرم جول من إجراء تجاربه لأن صوت الآلة كان يزعج أحد جيرانه، وجن العالم ماير لأن الناس سخفوا آراءه الصادقة. وكم أصيبت حرية الفكر بصدمات عديدة نتعب ونتعب إن حاولنا تقصيها وذكرها. ولكن جهد الحكومة المثمر سيقلل من هذه المضايقات، ويهيئ للعالم

جواً رحباً تكون آفاق التفكير فيه واسعة مشرقة
نحن في فجر عصر يحملنا على التفكير السياسي، والتفكير الاقتصادي، والتفكير العلمي، والتفكير الأخلاقي، وبقدر ما نفكر ونستعد بقدر ما نستطيع أن نؤكد ذاتنا في المعترك الأدبي
اخلقوا لنا بيئة علمية راقية تزيلوا بذلك أمراضاً كثيرة تنخر في أجسامنا وتهدم من كياننا.
خليل السالم
المصريون المحدثون - 41
شمائلهم وعاداتهم
في النصف الأول من القرن التاسع عشر
تأليف المستشرق الإنجليزي ادورد وليم لين
للأستاذ عدلي طاهر نور
تابع الفصل ثالث عشر - الأخلاق
يثير احترام المسلمين للقرآن الدهشة؛ فهم يحصرون على ألا يكون المصحف أدنى الصدر سواء أكان محمولاً أم معلقاً. ويودعونه مكاناً مرتفعاً طاهراً ولا يضعون فوقه كتاباً ولا شيئاً آخر. ويقولون عادة عند الاقتباس منه: قال الله تعالى في كتابه العزيز. ويعتبرون غير لائق أن يلمس المصحف نصراني أو يهودي أو غير مؤمن بتعاليمه، ولكن البعض يدفعه الجشع، وإن ندر ذلك، إلى بيعه إلى هؤلاء. ومن المحرم أيضاً أن يلمس المسلم القرآن ما لم يكن على طهر شرعي. ولهذا كثر ما يطبع قوله تعالى: (لا يمسه إلا المطهرون) فوق الغلاف. وتنطبق هذه الملاحظات عينها على أي شيء يكتب عليه كلام من القرآن. ومما يستحق الاعتبار مع ذلك أن ينقش على أكثر النقود العربية القديمة كلمات قرآنية أو الشهادة مع أنها سكت ليستعملها اليهود والنصارى مثل المسلمين. ولكني سمعت أن هذا الإجراء ملوم بشدة
وقد سألت مرة صديقاً مسلماً هل يعتبر التين موافقاً للصحة في مصر؟ فأجاب: ألم يذكر التين في القرآن؟ إن الله أقسم به في قوله: والتين والزيتون
لا شك أن المسلمين المحدثين أتقياء إلى حد الحماسة وإنما يعوزهم الثبات ونبذ الخرافات، ويندر - على ما أعتقد - أن يوجد فيهم ملحدون حقا. وهؤلاء لا يجرءون على إظهار إلحادهم خوفاً على حياتهم. وقد سمعت عن اثنين أو ثلاثة منهم ارتدوا عن دينهم بمخالطتهم الأوربيين مخالطة طويلة وثيقة. وقابلت ملحداً واحداً كانت له معي مناقشات طويلة. وقد ذكرت عرضاً في الفصول السابقة عادات كثيرة تبين الشعور الديني السائد بين مسلمي
مصر. ويستعمل المتسولون في هذا البلد نداءات دينية سأذكر أمثلة منها فيما بعد. ويشبه هذه النداءات صياح باعة الخضر وغيرها. وقد أدهشني هتاف حارس الليل في الحي الذي سكنته أثناء زيارتي الأولى: (سبحان الملك الحي الذي لا ينام ولا يموت)؛ ويصيح الحارس الحالي في الحي ذاته: (يا رب يا دائم). ويمكنني أن أضيف أمثلة كثيرة أخرى توضح تدين الشعب الذي أحاول وصفه، إلا أنه ينبغي أن أقرر هنا أن التدين ضعف كثيراً بين المسلمين، فإنك لا تنفك تسمع منهم أثناء الحديث معهم مثل قولهم: (إنها نهاية الدنيا! لقد تردى العالم في الكفر). ويعتقدون أن حالة المسلمين الآن تدل إلى قرب النهاية. ويبين ما ذكرت في بعض عقائد الوهابيين على أنها عقائد المسلمين الأولين إلى أي حد كبير حاد المسلمون عن تعاليم القرآن كما بلغت أولاً.
يظهر الرجال - تحت تأثير إيمانهم بالقضاء والقدر - في أوقات الابتلاء صبراً مثاليا، وبعد الحوادث المفجعة استسلاماً وتجلداً عجيبين يكادان يقربان من البلادة؛ ويعبرون عن أسفهم بقولهم متنهدين: (الله كريم). أما النساء، فهن على النقيض يبدين حزنهن بالإسراف في البكاء والصراخ. وبينما يلوم المسيحي نفسه بحق على كل حادث مكدر يظن أنه جلبه على نفسه أو كان يمكنه تجنبه، يتمتع المسلم عند تقلبات الزمان وصروف الدهر بهدوء بال عجيب، ولا ينفك مستسلماً عند دنو أجله فيصيح: (إنا لله وإنا إليه راجعون). ويجيب من يستفسر عن حاله: (الحمد لله. . . الله كريم). ولا يمنع الإيمان بالقضاء والقدر المسلم مع ذلك من السعي إلى تحقيق غايته؛ فإيمانه بالقدر ليس مطلقاً، ولا هو يجعله يهمل تجنب الخطر، إذ حرم القرآن ذلك بقوله: (ولا تلقوا

بأيديكم إلى التهلكة). غير أنه في بعض الأحوال كانتشار الطاعون وغيره من الأوبئة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين ألا يدخلوا مدينة موبوءة وألا يخرجوا منها. ويختلف المسلمون في جواز الحجر الصحي، إلا أن عمومهم يرونه غير ملائم ويجعل الإيمان بالقدر المسلم مجرداً من الادعاء بمعرفة أعماله المستقبلة أو أي حادثة آتية، فلا يتحدث أبداً عما ينوي عمله أو يتوقع حدوثه دون أن يقول: (إن شاء الله)؛ وكذلك عندما يروي واقعة سابقة غير محققة، يقدم كلامه أو يختمه بقول: (الله أعلم)

يتمتع المصريون بفضيلتي الجود والإحسان - اللتين يبثهما الدين في قلوبهم - إلى درجة

عالية. ولكن يبدو من تصريحهم أن انتظار الثواب في الآخرة يحرضهم على الصدقة بقدر ما تحرضهم الشفقة ببني جنسهم أو الرغبة المنزهة في القيام بما يأمر الله. ويمكن من بعض الوجوه أن نعزو كثرة المتسولين في القاهرة إلى ميل السكان إلى الإحسان.

ومن آثار هذه الفضيلة أيضاً إقامة السبل الجميلة التي نراها في هذه المدينة، والسبل الوضيعة في القرى والحقول. كان يسرني كثيراً أول اختلاطي بالمصريين أن أشاهد شفقتهم في معاملة الحيوان وأن أرى البعض يجمع أطراف ثيابه المرسلة ليتحاشى لمس الكلب، ثم يقذف للحيوان الدنس قطعة من الخبز الذي يأكله. وكانت جرائم القتل والسرقة وغيرها نادرة حينئذ. ولكني أجد اليوم أغلب المصريين قد انقلبوا إلى الأسوأ في شفقتهم نحو الحيوان وبني جنسهم. ويبدو لأول وهلة أن شدة الحكومة المفرطة قد أوجدت في الشعب البغي والميل إلى الإجرام، إلا أنني أميل إلى الظن بأن سلوك الأوربيين أفضى كثيراً إلى هذه النتيجة، إذ لا أتذكر أنني رأيت قسوة في معاملة الحيوان إلا حيث يسكن الفرنج أو حيث يترددون مثل الإسكندرية والقاهرة وطيبة. ويتقزز المرء من رؤية حمير النقل التعسة في القاهرة، فأكثرها مصاب بجروح قرمزية كالياقوت الجمري، وتعقرها على الدوام حبال غليظة من مسد تربط بظهر البرذعة. وكثيراً ما يضرب الأطفال والرجال الكلاب في الشوارع لمجرد اللهو. وكثيراً ما رأيت أطفالاً يلهون بمضايقة القطط التي كانت محبوبة كثيراً قبلا. وكانت جرائم السرقة والقتل تحدث أسبوعياً تقريباً أثناء الشهرين أو الثلاثة التالية لقدومي الثاني. وكان الحكام الترك يجورون على الفلاحين ولكن بعض هؤلاء منذ خلفوهم على الحكم فاقوهم في الطغيان. والرأي العام أنهم ألعن من الأتراك

ومع أني أشاهد الآن على التوالي الكلاب الشريدة تضرب في شوارع القاهرة وهي هادئة لا تضر، فلا أزال أرى بعضهم يطعمونها وأغلبهم فقراء. ويوجد في كل حي من أحياء المدينة أحواض صغيرة تملأ يومياً للكلاب. ويؤجر أصحاب الحوانيت في شارع واحد سقاء لرش الشارع وملء أحواض الكلاب. ويوجد أيضاً حوض للكلاب عند كل دكان لبيع الشراب. ويمكن أن نذكر هنا أن كلاب القاهرة، وقلما يكون لها صاحب، تكون جماعات منظمة مختلفة تقصر كل منها نفسها على حي تطرد منه كل كلب دخيل. وهذه الحيوانات تكثر جداً في القاهرة. وهي تحرص على العموم أن تتجنب الإنسان كما لو كانت تعلم أن

أغلبية السكان تنبذها، ولكنها كثيراً ما تنبح عندما ترى أحداً يلبس الملابس الإفرنجية. وتضايق المارة ليلاً، وهذه الكلاب مفيدة لأنها تأكل سقط الذبائح التي يرمي بها من حوانيت الجزارة والبيوت، كما أن الكثير منها يتردد على أكوام الزبالة حول العاصمة فتقتات مع الصقور من رمم الجمال والحمير التي تنفق في المدينة. وأغلب الكلاب صهب اللون، والظاهر أنها تماثل بنات آوى شكلاً وميولاً.

ولا يمنع رأي المسلمين في الكلاب من الاحتفاظ بها للحراسة وأحياناً للتدليل. وقد حدث من زمن قصير حادث غريب من النوع الأخير، فقد اتخذت امرأة وحيدة في هذه المدينة، كلبا يؤنسها في وحدتها. فاختطف الموت هذا الأنيس الوحيد، فعزمت المرأة لحزنها وعطفها عليه أن تدفنه كأي مسلم في قبر لائق في مدافن الإمام الشافعي المقدسة. فغسلت الكلب طبقاً للقواعد المرعية عند وفاة المسلم وكفنته في كفن جميل ووضعته في نعش، واستأجرت نادبات وأقامت مأتماً حقيقياً. ولم يتم ذلك دون أن يثير عجب الجيران الذين لم يستطيعوا معرفة المتوفى ولم يتدخلوا لأنه لم يكن

بينهم وبينها ألفة قط. ثم استأجرت المرأة مرتلين ليتقدموا الجنازة وتلاميذ لينشدوا ويحملوا القرآن أمام النعش. وسار الموكب في نظام مهيب، وتبعت المرأة والنائحات النعش وهن يملأن الجو بصراخهن؛ غير أن الموكب لم يسر كثيراً إذ اجترأت إحدى الجارات وسألت السيدة الحزينة: من المتوفى؟ فأجابتها: (إنه ابني المسكين) فكذبتها السائلة فاعترفت الثكلى بأنه كلبها ورجت جارتها الفضولية أن تكتم السر؛ إلا أن احتفاظ المرأة المصرية بالسر، وبسر مثل هذا، مستحيل. فأذيع الخبر في الحال، وسرعان ما تجمع جمهور غاضب أوقف الجنازة. وصب المرتلون والمنشدون غضبهم على مستخدمهم، حالما استخلصوا منه نقودهم، لأنه مكر بهم. ولو لم يتدخل الشرطة لذهبت المرأة على الأرجح ضحية هياج الشعب

والعجيب أن القطط الشريدة في مصر تطعم على نفقة القاضي. فيوضع في الساحة الكبرى أمام المحكمة عصر كل يوم مقدار من سقط الذبائح وتدعى القطط معاً لتأكل. وقد وقف السلطان الظاهر بيبرس على القطط، كما علمت من كبير كتاب القاضي، حديقة تسمى (غيط القطط) بجانب مسجده شمالي القاهرة. ولكن هذه الحديقة باعها الأمناء عليها ومشتروها على التوالي. وقد باعها السابقون بحجة أنها خربة فلا تصلح للإنتاج إلا بعد

نفقات كثيرة. وتستغل الحديقة الآن حكراً بخمسة عشر قرشاً سنوياً تنفق في إطعام القطط المتروكة. ومن ثم ألقيت نفقة القطط كلها على القاضي بحكم منصبه الذي يجعله حارساً على الأوقاف الخيرية، فعليه أن يتحمل إهمال سلفه. ومع ذلك أهمل واجب إطعام القطط أخيراً. ويتخلص الكثيرون في القاهرة من القطط بإرسالها إلى بيت القاضي وإطلاقها في الساحة الكبرى

ذكرت قبلاً مؤانسة المصريين بعضهم لبعض. وهم يخاطبون الأجانب الذين لا يوافقونهم في الشمائل والعادات، ولا يذهبون مذهبهم في التفكير بأدب يشوبه الجفاء والحذر. وكثيراً ما يظهر المصريون نحو الأجانب وفيما بينهم أيضاً فضولاً وقحا. وهم يخشون كثيراً أن يجعلوا لهم أعداء فيدفعهم خوفهم هذا إلى أن يؤيد كل منهم الآخر ولو كان في ذلك جرم. ويعتبر السرور صفة ظاهرة من الشعب المصري. ويظهر البعض احتقاراً كبيراً للتسلية التافهة. ولكن الكثيرين يجدون فيها بهجة. ومن المدهش أن ترى المصريين يتسلون بأقل شيء، فهم يبتهجون حيثما يوجد حشد وضجة وحركة. وتخلوا حفلاتهم العامة مما يسلي الرجل المثقف. ويبدو أن الطبقات السفلى تسعد كثيراً بالجلوس في المقهى للتدخين وشرب القهوة بعد العمل اليومي.

عدلي طاهر نور

أشعار صينية

للأستاذ محمد وهبة

- 11 -

منذ أن رحلت

للشاعر الصيني (نو - فو)

(715 - 774م)

لا تجلبوا إلي أزهاراً، أنا أريد أغصان السرو أغرق فيها وجهي

عندما تختفي الشمس وراء الجبال، سأضع على منكبي عباءتي الزرقاء ذات الأكمام الخفيفة، وأذهب لأنام بين عيدان الغاب التي تحبها

- 12 -

الشاعر في السجن

للشاعر الصيني (لو - بن - وانج)

(عاش حوالي عام 650م)

كم يحزنني غناء الصرصور الذي يعلو هناك. . .

أرى هذه الحشرة الضعيفة، مثقلة بالندى، لا تستطيع الطيران، وتغني. . .

وروحي أيضاً أعياه الأسف، لا يقدر أن يعلو إلى القمم، حيث لا تصل إليه نبال الغادرين

في العاصفة التي هدمتني، أكتب وأنا أبكي، أشعاراً صافية

- 13 -

الشاعر يفكر في حبيبته
للشاعر الصيني (يانج - كي)
(عاش حوالي عام 1400م)
ستمطر السماء. الريح أدمت أزهار الياسمين، ونقلت أوراق الفاويا التي تغطي الدغل. . . أهاجت ستائر النوافذ، وأثارت شعور الفتيات الجميلات. . .
إني حزين، أفكر في حبيبتي: السماء زرقاء، والبحر أخضر، والجبال البيض تفصل بيننا. . . آه لو تستطيع هذه العصافير أن تحمل إلى حبيبتي الرسائل التي كتبتها إليها. . . لو يستطيع هذا الجدول أن يحمل إليها أوراق الفاويا. . .!
أزهار الماجنوليا تلمع في الظلام. . . وأنا لا أستطيع أن أتناول عودي. . . إني أحدق في القمر الذي يشبه زهرة الماجنوليا. . .
لن أغني، لن أعزف، أريد أن أركن إلى أحزاني. . .
- 14 -
رحلة طويلة
للشاعر الصيني. لي. تين. بو
(702 - 763م)
أنا لا أستطيع أن أسترجع الفرح الذي عرفته صباح أمس. . . أنا لا أستطيع أن أطرد الكآبة التي عرفتها هذا الصباح
الطيور تقطع السماء. . . تصارع ريح الخريف. . . أنا أملأ قدحي وأحدق بعيداً
أنا أحلم بشعراء كبار، لم يوجدوا بعد. أذكر أشعارهم، وأردد أنني كنت يوماً - أنا أيضاً - قادراً على أن أصنع أشعاراً عالية، لو أنني استطعت أن أحوم في السماء بين النجوم عبثاً أشرب لأغرق أحزاني. هنا عندما لا تسير الأشياء، حيث ترضى رغباتنا، يجب أن أطرح نفسي في مركب، تاركاً شعري للريح مهاجراً في البحر.
(بور سعيد)
محمد وهبة
البريد الأدبي
ذكرى الأستاذ الزنكلوني
منذ عامين مضيا، وفي النصف الأخير من شهر رمضان، اختار المغفور له الأستاذ الشيخ علي سرور الزنكلوني جوار ربه بعد عمر طويل مبارك كان فيه مثال العالم العامل، والمفكر الحر الجريء يقول ما يعتقد، ويدافع عما يعتنق، ويجهر بآرائه في صراحة نادرة المثال. والذين يعرفون الأستاذ الشيخ الزنكلوني كثيرون في الأزهر وفي خارج الأزهر، وإنك لتستمع إلى الرجل منهم يحدثك عن إيمانه بربه، وقوة يقينه، وصفاء نفسه فتأخذك الروعة، ويملكك الإعجاب، ولكنك تبحث عن رجل واحد من أصدقاء هذا الفقيد العظيم قد اهتم بأن يؤرخ له، أو يرسم صورة ولو مصغرة لحياته، أو يجلو للناس بقلمه ناحية العظمة فيه فلا تجد
وإذا كان غير الأزهر بين أصدقاء الفقيد وعار فيه قد شغلوا عن ذلك بأعمالهم، أو انصرفوا عن القيام بمثل هذا الواجب إلى ما هو أشبه بهم فما عذر الأزهريين؟ إن الأستاذ الزنكلوني - رضي الله عنه - رجل من رجالات الأزهر في عهده الأخير، له ذكريات ماثلة في حركته الفكرية وتطوراته العلمية، وله إلى ذلك أثره النافذ في شئون الأزهر على عهد شيخه الحالي، فقد كان يجله ويحترمه ويستعين برأيه في كل ما يعرض له من مشكلات الأزهر، وكان - رحمه الله - ناصحاً أميناً لا يعرف المداورة، ولا يماري في الحق ولا يجامل، فكيف يمر عامان كاملان على مثل هذا الرجل العالم الجريء المجاهد ولا يذكره أحد من أبنائه أو أصدقائه؟
لو أن اسم الأستاذ الزنكلوني لمع في بيئة غير هذه البيئة، لكان لذكراه شأن غير هذا الشأن، ولكنه الأزهر مما قعد به أنه يقف دون المصلحين في حياتهم، وينسى ذكراهم بعد مماتهم وكأنه يريد من الناس أن يذكروا هم أبطاله، وأن يتحدثوا هم عن رجاله، وحسبه أن يشترك في ذلك قارئاً أو سامعاً! بل إنه ليغفل حتى عن ذلك، فلو أنك فتشت في دار نابه من الأزهريين عن أي أثر من آثار المؤلفين المحدثين يتصل بالأزهر أو بمسألة من مسائل الأزهر العلمية أو التاريخية، لأعياك البحث دون أن تجد!
وإذا كان الأستاذ الزنكلوني قد أدركه إهمال الأزهر إلى هذا الحد المعيب، فأصبح بين

أصدقائه وتلاميذه نسياً منسياً، فإن أخاً له من قبل قد أدركه من إهمال الأزهريين مثل ما أدركه وهو المغفور له الأستاذ الإمام محمد عبده!!

أليس من العجيب أن يكون من أبناء الأزهر من بعث إلى أوربا باسم محمد عبده، ثم لا يكون الأزهر معنياً بتاريخ محمد عبده وأفكاره محمد عبده؟!

كأني بالسنين تطوى عاماً بعد عام، ثم يزول هذا الجيل ويأتي جيل آخر، فيتساءل أبناؤه: ماذا فعل محمود شلتوت، ومحمد عبد اللطيف دراز، بل ماذا فعل الأستاذ الأكبر المراغي من أجل ذكرى الزنكلوني، وعلم الزنكلوني، وأفكار الزنكلوني؟ ثم يتساءلون: ماذا فعل الدكتوران الفاضلان ماضي والبهي وغيرهم من أبناء الأزهر من أجل ذكرى محمد عبده وتاريخ محمد عبده؟

إننا نرجو بهذه الكلمة مخلصين للأزهر ولمكانة الأزهر ولشيخ الأزهر وأبناء الأزهر أن يكون لهم شأن غير هذا الشأن، ولا سيما في أمثال هؤلاء الأبطال

وإننا لمنتظرون

(. . .م)

من خليل مطران إلى علي طه

أشار بعض النقاد إلى الكتاب البليغ الذي بعث به شاعر القطرين خليل مطران إلى الشاعر الكبير علي محمود طه عن ديوانه الأخير (أرواح وأشباح) وإنا لننشر هذا الكتاب فيما يلي: (. . . واتتك السليقة السليمة، وأمدك الاطلاع الواسع، فجئت بالطريف من المعنى في الصريح الشائق من المبنى. ولئن كانت المصادر التي استنزلت منها الوحي غريبة في أصلها عن المصادر العربية، لقد وفقت إلى إبراز روائعها، وتقريب أبعد مغازيها، بما نفى عنها الغربة وكشف آفاقاً غير محدودة لطلاب التجديد والإبداع من حملة الأقلام بين الأدباء الناطقين بالضاد

وكان عزيزاً على غيرك أن يذلل ما ذللته من الصعاب، ويبلغ ما بلغته من الإجادة، ولكن فضل الله يؤتيه من يشاء، وفضل العزيمة التي لا يفل غربها والأناة التي لا يدرك حدها

إن في مطالعة (الأرواح والأشباح) لمتعة فكرية ولذة فنية قد غنمت منهما ما اشتهت النفس

(. . .في ساعات لن أنسى طيبها بين ما أعانيه من آلام العلل في ساعاتي الأخر

1 - حول نسخ الأحكام

تعقيباً على مقال (حق الإمام في نسخ الأحكام) المنشور في العدد 480 من مجلة (الرسالة) أقول: إن أبا جعفر النحاس لم يعز القول بإعطاء الإمام حق نسخ الأحكام إلى فرقة إسلامية، ولا إلى جماعة من فقهاء الإسلام؛ بل قال: (وقال آخرون بأن الناسخ والمنسوخ إلى الإمام ينسخ ما يشاء؛ وهذا القول أعظم، لأن النسخ لم يكن إلى النبي صلى الله عليه وسلم إلا بالوحي من الله إما بقرآن مثله على قول قوم، وإما بوحي من غير القرآن، فلما ارتفع هذان بموت النبي عليه السلام ارتفع النسخ) وإنما قال (أعظم) لأنه ذكر قبل ذلك قولاً يراه يؤول إلى الكفر، فيكون هذا أشد إمعاناً في الكفر في نظره. وهو يريد بقوله (وقال آخرون) الإسماعيلية الباطنية الذين يجعلون النسخ للأمام (أنظر فضائح الباطنية للغزالي)

2 - في كتاب الإمتاع والمؤانسة

قرأت مواضع من (الجزء الثاني من هذا الكتاب فلمحت أغلاطاً فات الأب الكرملي ذكرها، منها:

1 - في ص78 (وهذا لفظي) وفي الحاشية كذا ورد هذا اللفظ في كلتا النسختين ولم نجد فرقة بهذا الاسم، فلعله يريد بها الظاهرية الذين يأخذون بظاهر اللفظ والصواب أنها نسبة إلى فرقة تسمى (اللفظية) لقول المنتمي إليها: (لفظي بالقرآن مخلوق). وقد ألف الإمام ابن قتيبة في هذا الموضوع كتابه (الاختلاف في اللفظ) المطبوع بالقاهرة سنه 1349. وفي كتاب (شروط الأئمة الخمسة) قال الحاكم: سمعت أبا الوليد يقول: قال أبي: أي كتاب تجمع؟ قلت: أخرج على كتاب البخاري، قال عليك بكتاب مسلم فإنه أكثر بركة لأن البخاري كان ينسب إلى (اللفظ). يشير إلى ما وقع بين البخاري وشيخه الذهلي حين قدم البخاري نيسابور سألوه عن اللفظ فقال: (القرآن كلام الله غير مخلوق وأعمالنا مخلوقة) قال الشرقي: سمعت الذهلي يقول:

القرآن كلام الله غير مخلوق؛ ومن زعم (لفظي بالقرآن مخلوق فهو مبتدع لا يجلس إلينا ولا نكلم من يذهب بعد هذا إلى محمد بن إسماعيل
يعني البخاري - فأنقطع الناس عنه إلا مسلم ابن الحجاج واحمد بن سلمة. وقال - الذهلي لا يساكنني محمد ابن إسماعيل في البلد، فسافر البخاري. والحق في ذلك مع البخاري. ومن أشرف على سير المسألة بعد محنة الإمام احمد رأى مبلغ ما اعترى الرواة من التشدد في مسائل يكون الخلاف فيها لفظياً، مما سبب امتلاء كتب الجرح بجروح لا طائل فيها كقولهم: فلان من الواقفة الملعونة، أو من اللفظية الضالة. . . الخ
في ص133 (ومن شرفه - أي النثر - أن الوحدة في أظهر) وقيدوا (الوحدة) بفتح - 2 الواو وتكررت كذلك مرات في هذه الصفحة وغيرها. والصواب (الوحدة) بالضم على ما في تاج العروس.
في ص177 (وأبو عبد الله المرزباني شيخنا). تكرر في الكتاب مرات كذلك. - 3 والصواب (أبو عبيد الله) كما في شذرات الذهب وتاريخ بغداد والموشح ومعجم الشعراء وغيرها. وجاء محرفاً كذلك في الإعلام والنثر الفني. وهو إمام كبير لا يسوغ إغفال الخطأ في كنيته.
صلاح الدين شفيق
العدد 483 - بتاريخ: 05 - 10 - 1942
الحق المجرد
للأستاذ عباس محمود العقاد
عجب صديقنا الأستاذ الزيات لابن آدم (المخلوق الوحيد الذي يرى الشيء الواحد بعينيه الاثنتين أبيض تارة وأسود أخرى على حسب الصبغ الذي يلونه به الهوى)
وضرب لذلك أمثلة شتى، منها أن راديو باري أذاع منذ ليلتين أن فريقاً من الطلاب الهنود تظاهروا في بمباي فأعترضهم فئة من الشرط الإنجليز فتفرقوا في شوارع المدينة أباديد بعد أن أصيب نفر منهم بجروح. ثم عقب المذيع على هذا الخبر بأن الاعتداء على المتظاهرين بالضرب ينافي المدنية، ويجافي الخلق، ويصم الذين ارتكبوه بالقسوة الوحشية والبربرية الأثيمة. ثم أعلن المذيع في هذه الإذاعة نفسها أن مليوناً من جنود المحور قد اقتحموا بالدبابات الثقيلة والطيارات المنقضة والسيارات المدرعة منازل ستالينجراد على الروس وفيهم النساء والأطفال والشيوخ والمرضى، فدكوا كل بناء، وسحقوا كل حي، وركموا أشلاء القتلى في الحجرات والطرقات على صورة لم يرها الراءون ولم يروها الراوون. ثم أخذ هذا البوق البشرى يهذي بفضل هذا النصر (على المدنية، وينوه بعظيم أثره في مستقبل الإنسانية
وأتى الأستاذ بأمثلة متعددة في هذا المعنى تؤيد شقاء الإنسانية بين العقل والهوى وإنه لشقاء باق لن يزول أبداً، ولن يزال الهوى يرينا الشيء شيئين واللون لونين ما دمنا نحس ونرى، وقد
أعيا الهوى كل ذي عقل فلست ترى ... إلا صحيحاً له حالات مجنون
وقد تناوله صديقنا الزيات من هذه الناحية فأبرزه في صور الحياة اليومية التي لا يخطئها من يرقبها
فهل هو نقص لا يوازنه جانب كمال؟ وهل هي آفة لا عزاء فيها لبني آدم؟ وهل نغير ما طبعنا عليه من هذه الخليقة بما طبعت عليه سائر المخلوقات من توافق وتشابه حالات؟
مصيبتنا أننا لا نستطيع!
لأن الإنسان لا ينقص إلا من حيث يزيد. فهو يعرف الخطأ لأنه يعرف الصواب، ويختل في هندسته من حيث يتقن تنحل هندسته كل الإتقان، لأنه أعلم بالهندسة من النحل لا لأنه
أجهل منه بفنونها وأنواعها. . . فهو يشتري الخطأ بثمن، لأنه لا يشتري الصواب إلا مخلوطاً به، مضافاً إليه
نحن نرى الشيء أشياء لأننا نرى
أما سائر المخلوقات فهي لا ترى إذ تنظر بعينيها. وإنما الأصح أن يقال إنها تلمس الأشياء بالعين على نحو من اللمس بالأيدي، فلا تقبل عندها التعدد والاختلاف وهكذا الآدميون الذين يشبهون تلك المخلوقات

إنهم يلمسون الأمور بأعينهم كما يلمسونها بأيديهم، ولكنهم لا يرونها متعددة الحالات، متعددة الألوان، متعددة الوقع في الخواطر والأهواء؛ وإن تعددت عندهم قليلاً فهو أقرب تعدد إلى التوحيد

كنت أقول لبعضهم والألمان يدخلون باريس: إنهم سينهزمون

وكنت أقول لبعضهم والألمان يتقدمون الأراضي الروسية: إنهم سينهزمون

فكانوا يقولون: ولكننا نرى أنهم سينتصرون لأنهم منتصرون. . فأقول لهم: ما هذا برأي. هذا لمس بالعين. هذا ما تبصرونه كما تبصره كل عين حيوانية تفتح أجفانها، وإنما الرأي غير هذا. الرأي ما يبصرك بالانهزام وأنت تنظر إلى النصر الملموس. فإن لم يفدنا الرأي هذه الفائدة فلا خير فيه، ولا حاجة بنا إليه مع وجود العيون والأجفان. إذ حسبنا بالعيون والأجفان أن تفتحها فنلمس بها، ثم لا نفكر ولا نرى خلاف ما تبديه

وهكذا يبصر الإنسان وجوه الرأي لأنه لا يرى الشيء على حالة واحدة ولا يستوفيه كله في صورة حاضرة

فهو يبصر الوجوه الرأي في الضرب مثلاً لأنه يحسه لذيذاً في حين ومؤلماً في حين ولا يحسه في بعض الأحايين

يحسه لذيذاً حين يكون هو الضارب، ويحسه مؤلماً حين يكون هو المضروب، وليس يحس له لذة ولا ألماً حين لا يكون ضارباً ولا مضروباً ولا شأن له في الحالتين

ومن العسير عليه جداً أن يعرف ما هو الضرب إذا عرفه على وجه واحد، ولم يعرفه على شتى الوجوه

ومن البعيد جداً أن يراه بالحق إن لم يره بالهوى على اختلافه، فيحبه ويبغضه وينظر إليه

بين الحب والبغض، و (يراه) بعد ذلك مستجمعاً بجميع هذه الوجوه

وهذا هو باب الكمال في تعدد الأهواء وتعدد الحكم على العمل الواحد إذ نعمله نحن وإذ يعمله الخصوم، وإذ يعمله من ليس من الخصوم ولا من الأصدقاء

وكل صورة من صورة هذه تمام لغيرها، ولا سبيل إلى التمام فيها بغير هذا التعديد

يقولون في الصعيد: إن نواتياً سمع مضغاً قوياً في مخزن الخبز الخاف من سفينته، فأشفق من نفاذ المؤنة في الطريق وصاح مغضباً: من هذا الذي يقضم في الخبز قضم الحمار؟

فقيل له: ابنك حسن!

قال: اسم الله عليه! أهو الذي يقرش هكذا قرش الفوير؟

والرجل قد صدق بعض الصدق فيما سمع من قضم حمار ومن قرش فوير، فإن أكل ابنه من الخبز يسره ولا يؤذيه، وإن انطلاق الغريب عليه يؤذيه ولا يسره. ويبقى أن يسمع المسافر الذي لا يسمع حماراً ولا فويراً، ولكنه يسمع الصوتين على حسب ما عنده من الزاد

وما أعجز الإنسان أن يتبين حقيقته بهذا الصغر وبهذه البساطة ما لم يسمع من جانب مخزن الخبز صوت حمار وصوت فأر وصوت إنسان

هذا نقص في خليقة بني آدم يؤدي إلى تمام

وإنما هو نقص دائم إذا وقف حيث هو ولم تجتمع صوره الكثيرة في صورة واحدة هي أدنى إلى الصدق وأبعد من الهوى وأوسط في الرأي بين مختلف الآراء

وذلك هو النقص الذي يحبه جماعة من أصحاب المذاهب الاجتماعية ويفرضون دوامه ويحضون على الاقتداء به في فهم التاريخ، ونريد بهم الشيوعيين

فهم يجعلون الهوى فرضاً لزاماً في معالجة كل حقيقة من حقائق الحياة

ويكتبون التاريخ فيذمون من لا يستحق الذم، ويثنون على من لا يستحق الثناء، لأنهم يستوحون المصلحة الشيوعية، ويعلنون أن الخروج من هوى المصلحة في تقدير الأمور مستحيل

فأما أنه مستحيل فلا، لأن الإنسان يعرف الفرق بين صوابه وهواه، وإن أحب هواه وآثره على الصواب

فإذا كانت له قوة خلق تصحب المعرفة غلب الهوى بالجمع بين معرفته وقوة خلقه، وأصبحت مصلحته تابعة لما يلزمها من جادة قويمة في رأيه

ولكن الشيوعيين لا يغلبون هوى المصلحة، لأن الخروج منه مستحيل، وإنما يغلبونه لأن

تغليبه نافع لهم فيما يقدرونه ويفسرون به الأمور
ولا نقول: إن الشيوعيين وحدهم يغلبون الهوى في تفسير التاريخ وتصوير الحقائق، فهذه خليقة شائعة بين جميع الناس ملحوظة بين أصحاب المذاهب بلا استثناء
ولكننا نقول: إن الشيوعيين وحدهم هم الذين جعلوا ذلك فرضاً لا مناص منه، ولم يجعلوه عيباً يصححونه ويخجلون من إعلانه
وهذا هو الفارق الكبير بين الرأيين
فعلينا أن نعترف بالهوى ولا نجهل صنيعه في أفاعيل الأمم والأفراد، ولكن علينا أن نغالبه ما استطعنا كلما عرفناه واقتدرنا عليه
وهذا هو الواجب في كل عيب من العيوب، أياً كان سببه وأياً كان الناظر إليه
فأذكر أن (برتراند رسل) الفيلسوف الرياضي الباحث الاجتماعي الكبير قد أشار في بعض كتبه بإباحة العلاقات بين الفتيان والفتيات (بغير بنين) ليتم لهم اختبار الحياة الجنسية قبل الاضطلاع بتبعاتها، ولأن المنع رياء ما دامت الإباحة قائمة فعلاً وإن سترت عن أعين المجتمع والشريعة
فأما اختيار الحياة الجنسية فليست الإباحة سبيله الوحيد، وليس الزواج بعلاقة جنسية وكفى فيكون اختباره من طريق ذلك الانطلاق
وأما أن الإباحة مطلوبة ما دامت حاصلة، فهذا الذي يشبه عندنا مذهب الشيوعيين أن الهوى مفروض ما دام من عادات بني آدم
فالسرقة موجودة ولا نعالجها برفع العقوبة عنها، والسقم الذي يأتي من الطعام موجود ولا نعالجه بتسويغ الطعام المسقم للأبدان؛ وإنما وجود هذه الآفات هو الذي يدعونا إلى محاربتها واستئصالها؛ إذ نحن لا نحاربها وهي معدومة غير مكروهة الوجود
هو الهوى إذن نقص في طبيعة الإنسان تميز به بين المخلوقات لأنه طريقة إلى التمام فلا نرميه ولا ندخره، ولكننا نتناوله بضاعة للاستبدال كلما تسنى لنا أن نبدل به بعض الصواب
وهوى واحد لا يصلح تمناً مقبولاً في هذه التجارة
ولكن خمسة أهواء متقابلات هي أصلح الأثمان للمقايضة فيها، فليس أقمن بأضعاف الهوى من تعدد الأهواء
أيشقينا ذلك التبديل والاستبدال؟
نعم لا مراء. . . ولكن من الذي قال إننا خلقنا لنسعد؟ ومن الذي قال إن السعادة في استئصال الأهواء؟ لم يقل ذلك أحد؛ وإن قاله لم يحفله سامع. ولم تزل دنياه ماضية في شقائها وسعادتها وهواها.
عباس محمود العقاد
الحديث ذو شجون
للدكتور زكي مبارك
منظر لن أنساه - شعراء مبدعون - فكاهة عراقية - الحرية
شيطنة مصرية - مسابقة الأدب العربي لطلبة السنة - التوجيهية
منظر لن أنساه
في صباح يوم الجمعة الماضي توجهت مبكراً إلى سنتريس. فلما وصلت السيارة إلى القناطر الخيرية هالني أن أرى جماهير كثيرة معوّقة عن المسير. ونظرت فرأيت (هَوِيس الرياح التوفيقي) مفتوحاً، وهي فرصة يومية لمرور السفائن إلى الشمال وإلى الجنوب
ونزلت إلى الشط للتفرج فرأيت ثلاث سفن يصدها التيار عن دخول الهويس صد بلغ الغاية من العنف، فقدرّت أننا سنعوّق عن المسير زمناً غير قليل. عند ذلك بدا لي أن أرجو أحد الملاحظين إنزال الجسر الخشبي لحظات إلى أن يستطيع البحارة تسديد هذه السفن الثلاث، وفي هذا إنقاذ للمسافرين من الانتظار، ولأكثرهم شواغل تستوجب الاستعجال. فأجاب الملاحظ بأن الجسر يُفتح نصف ساعة لمرور السفن بأمر وزارة الأشغال، وقد بقى من الوقت عشر دقائق، فإن عجز هؤلاء البحارة عن تسيير هذه السفن قبل انقضاء الوقت المحدد فسيُرد الجسر ويمر الطريق، ولا يظفرون بغير الانتظار المملول!

فرجعت إلى الشط مرة ثانية لأشهد أعظم معركة معاشية رأتها عيناي
ما كان أولئك البحارة ناساً، وإنما كانوا من مردة الجن!
لم يكن بدٌّ من مصارعة تيار عنيف عنيف، تيار يُسمع هديره من مسافات ويُنذر من يصاوله بأفدح الخطوب
كانت المقاذيف بأيدي الملاحين، كالسيوف بأيدي المحاربين، وكانت القلوع تُطوى وتُنشر في اللحظة القصيرة مرات في اتجاهات مختلفات، وكانت الحبال تُرمى هنا وهناك فيتلقفها المتلقفون بأمضى وأسرع من نظرة البرق اللماح
وعلى الشط وقف أشخاص يصيحون صيحات الإرشاد والتوجيه بنبرات تقرُب من الصراخ
دار رأسي من هول المنظر، وفكرت في مساعدة هؤلاء المجاهدين، ولكن ماذا أملك ولم أتلق في علم الملاحة أي درس؟
وطاف بالخاطر أطياف من ماضي الجهاد في هذه البلاد، الجهاد في سبيل الرزق الحلال، فهؤلاء الملاحون هم الذرية الباقة من رجال كانوا أسبق الآدميين إلى اتخاذ الأنهار وسائط لنقل المنافع من أرض إلى أرض، وكان لهم في الملاحة مهارة راعت القدماء. . . ألم يحدثنا ياقوت في معجم البلدان عن بُحيرة مصرية كان الملاحون فيها ينتفعون بالريح أغرب انتفاع، فيسيّرون السفائن إلى الشرق بمئونة ريح تتجه إلى الغرب!
ثم نظرت فرأيت على إحدى السفن حصيرة منشورة، فوقها أرغفة صغيرة تشبه أقراص (البتاو) والبتاو كلمة مصرية قديمة معناها الرغيف
ومن أجل هذا (البتاو) يجاهد أولئك الملاحون
المعركة لا تزال دائرة، ولم يبق من الوقت غير ثلاث دقائق، فكيف تمر السفائن الثلاث في دقائق ثلاث؟
والعمال فوق الجسر ينتظرون انتهاء الوقت ليعيدوا قوائم الطريق إلى ما كانت عليه، فأسير ويسيّر المسافرون إلى النحو الذي نريد!
ولكني أنسى نفسي وأنسى طريقي، فما يهمني إلا أن ينتصر الملاحون على التيار ليدخلوا (الهويس) بسلام آمنين
هِيلا هُب، هِيلا هُب، هِيلا هُب!!!
وانتصر الملاحون قبل ثواني ثلاث يحل بعدها الميعاد
وفي تلك اللحظة شعرت بفرح لا نظير له ولا مثيل
تباركت أسماء الله! فهو النصير لمن يتوكل عليه في مقاومة التيارات
شعراء مبدعون
يقال ويقال إن الشعر قل في مصر، فلم يبق فيها من الشعراء غير آحاد، ومع هذا رأيت في موقفي ذاك بقنطرة الرياح التوفيقي عشرين شاعراً على جانب عظيم من الإجادة والإبداع في الترنم والغناء
هنالك عشرون شاعراً، أو يزيدون من الطراز النفيس
فمن هؤلاء الشعراء؟
جماعة من العصافير اللطاف بَنَت أعشاشها في فجوات نقرتها نقراً بدخائل ذلك الجسر الصخاب الضجاج
كان المنظر في غاية من الروعة والجلال: على يميني بحارة يقاتلون الأمواج ليدخلوا (الهويس) قبل الوقت الذي حددته وزارة الأشغال، وعلى يساري صحابة من العصافير تقاتل لتنتصر في ميدان العواطف، فترف من هنا إلى هناك، رفيف الروح من القاهرة إلى بغداد
لن أنسى أبداً تلك العصافير بتلك الزقزقة الشعرية، ولن أنسى أنها فطنت إلى مأوى يصد عنها شر الآدميين
العصافير تأوي إلى أعشاشها قُبيل الغروب، ولا تخرُج من أعشاشها إلا بعيد الشروق، وهي تُهد هدّاً بقدوم الليل.
فما صبر عصفور على النوم ساعات طوالاً وحول أذنيه هدير يصفُر بجانبه هدير (سَدَّة الهندية) في سمع الفرات؟
هو عصفور شاعر يطيب له أن يهدأ على ضجيج الأمواج

لو بحث هذا العصفور عن مكان هادئ لوجد ملايين من القلوب الهوادئ، وبعض القلوب تهدأ فتسكن سكون الموت، فلا يأوي إليها غير البوم النعاب
،في ضمائر (القناطر الخيرية) شعراء من العصافير اللطاف
. . .وقد يكون لهذه العصافير نظائر بقناطر أسيوط وقناطر أسوان
مصر وطن الشعر والفن والجمال، وهي الغُرة اللائحة في جبين الوجود

فكاهة عراقية

وبمناسبة الملاحة النهرية أسوق فكاهة عراقية ما خطرت في بالي إلا ابتسمت. وخلاصة تلك الفكاهة أن أحد المسافرين سأل ملاَّحاً في دجلة عن أجر الركوب من بغداد إلى البصرة؛ فأجاب الملاح: عشرة دراهم مع جر الحبال، وعشرون درهماً بدون جر الحبال. ففكر المسافر قليلاً، ثم رضي بالحال الأول مراعاة للاقتصاد!

فكاهة في غاية من العذوبة، ولكنها تحتاج إلى شرح، فأكثر القراء لا يعرفون حكاية جر الحبال.

أظنهم يعرفون، فلنُعف هذه الفكاهة من الشرح، لئلا تَبُوخ!

الحرية، الحرية!

وقف (المترو) ظهر اليوم عند مدخل مصر الجديدة، ثم طال به الوقوف، فنزلت لأعرف السبب، فرأيت قطارات كثيرة يعاني ركابها مثل ما نعاني من التعطيل، وكان السبب أن قطاراً أُصيب بعطب فعطَّل جميع القطارات

والتفت فرأيت الأستاذ سعد اللبان ينتظر مع المنتظرين، فوجهت نظره إلى الفرق بين (المترو) و (الأوتوبيس)

- أتريد يا دكتور أن تستغل هذا المنظر لكلمة في مجلة (الرسالة)؟

- أنت تعرف يا صديقي أني أنتفع من جميع مشاهداتي!

- وماذا ترى في هذا المنظر مما ينفع؟

- سأقول لقرائي وأقول. . . سأقول: إن (المترو) حين يُعطِّب منه قطار تُعطَّل جميع القطارات، ولا كذلك الأتوبيس

- أوضح ما تعنيه بعض الإيضاح

- المترو يسير في طريق مرسوم تحدده هذه القضبان، فهو في حقيقة الأمر مسجون؛ أما (الأتوبيس)، فيسير في الطريق كيف شاء، وهو لا يعطل أخاه إن أُصيب بعطب في الطريق

- وإذن؟

- وإذن تكون الحرية أساساً لكل فلاح

- ثم ماذا، على حد تعبيرك؟

ثم تكون الأخلاق الفردية والقومية مما يتأثر بالتفاوت في مثل هذا النظام؛ فالرجل الذي يسير على منهاج واحد طول حياته يُعطَّل عن المسير من وقت إلى وقت، والأمة التي تلتزم خطة واحدة في حياتها السياسية والاقتصادية تعطل عن الانتفاع بما يجد في الدنيا من تطورات وتغيرات

- أنت إذن لا تقول بالثبات على المبدأ

- المبدأ هو الغاية، وهي لا تختلف، والوسائل هي الطرائق، والطرائق تختلف من يوم إلى يوم باختلاف الظروف

- ولكن الناس لا يفرقون بين الوفاء للغايات والوفاء للوسائل!

- وهل فهم الناس جميع الدقائق في الأخلاق الفردية والقومية؟

. . .ثم سار المترو فانقطع الحديث

شيطنة مصرية

تغربت عن وطني عدداً من السنين، وعرفت الناس من جميع الأجناس، فما رأيت أذكى من المصريين. ولو دُوِّن ما يتندَّر به السامرون بالأندية المصرية في أسبوع واحد لكان ثروة أدبية تقتات بها أجيال وأجيال

وأذكر شاهدين اثنين يتصلان بشخصي، وفيهما الكفاية لمن يريد إدراك بعض الجوانب من الشيطنة المصرية:

1 - تفضلت حكومة العراق فمنحتني وسام الرافدين، فكتبت الجرائد كلمات لطيفة بينت فيها أن الحكومة العراقية أرادت أن تثيبني على ما بذلت من الجهود في توكيد

الصلات بين مصر والعراق؛ ولكن إحدى المجلات اهتدت إلى السبب الصحيح فقالت: إني مُنحت ذلك الوسام جزاء بالرحيل عن بغداد!!
وتلك نكتة أدق من السحر الحلال!
2 - الأستاذ الزيات يحرص على أن أكتب في (الرسالة) بدون انقطاع. وكان المفهوم عندي أن الأستاذ الزيات يراني من أمراء البيان، ولكن إحدى المجلات قد اهتدت إلى السبب الصحيح فزعمت أن الأستاذ الزيات قال أنه يستغني بمقالي عن صحيفة اللطائف والطرائف!
والحمق المصري أجمل من العقل، ومجانين مصر هم الغاية في لطف الذوق وخفة الروح
والمأمول أن يكون هذان الشاهدان من فنون المزاح، فلا يحق ما يترتب عليهما من أحكام لها في ساحة الظلم مكان
مسابقة الأدب العربي
احتفلت وزارة المعارف بتقديم الجوائز إلى الفائزين في مسابقة الأدب العربي، وكان احتفالاً في غاية من الرواء والبهاء
وكنت في الحفلة الماضية قد استهديت معالي الوزير جائزة، لأني شرحت مواد المسابقة على صفحات (الرسالة) في عامين متعاقبين، فقام أحد الطلبة في هذه الحفلة وطالبني بتقديم جوائز من مؤلفاتي لحضرات الفائزين. وقد ابتسم الهلالي باشا لهذا الاقتراح اللطيف، كأنه يظن أني سأعفيه من جائزة على الجهد الذي أبذله في هذه الدراسات. ولا يضيع حقٌّ وراءه مطالب!!
أترك هذا وأذكر أني سأستعين الله في دراسة المواد الجديدة لمسابقة العام المقبل، بعد انتهاء شهر الصوم، راجياً أن يتفضل أساتذة السنة التوجيهية بمعاونتي، فقد تكون المؤلفات المقررة فوق ما أطيق
سنلقي مرة ثالثة على صفحات الرسالة مع الطامحين من أبناء الجيل الجديد، وسيكون للقلم ميدان أو ميادين في تشريح الكتب المقررة على المتسابقين
(اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً، ولو شئت لجعلت الحزن سهلاً)
بهذه العبارة كان يبدأ درسه أحد العلماء فيظفر بالتوفيق، وبها نبدأ ما نقبل عليه من الدروس، والله وحده هو المستعان، وبه التوفيق
زكي مبارك
المنتحرة
الدكتور محمد حسني ولاية
كانت في الخمسين من العمر عندما انتحرت بإحراق نفسها في آخر نوبة من نوبات الملانخوليا ولما كانت هذه النوبة خفيفة، فقد تمكنت بالإرادة الباقية لديها من وضع حد لحياتها. على أنها حاولت في إحدى النوبات المتوسطة في الشدة من أن تحنق نفسها بلف شعرها حول عنقها
بدأت حياتها في ظل عيش رغيد، وتولدت لديها نزعات ذكرية بعد أن أنجبت أمها عدة أطفال ذكور. ولما كانت العناية التي كانت موجهة إليها قد انتقلت إلى اخوتها، فقد نشأت عندها الرغبة في تحديهم وتحدي الذكورة بوجه عام. ومن مظاهر هذا التحدي أنها عندما بلغت العاشرة من عمرها كانت تقلد الذكور بإطارة طائرات مصنوعة من الورق الملون والبوص، وكثيراً ما كانت تصيد طائرات الأطفال بطائراتها التي كانت تعني بصناعتها أكبر عناية
وفي نحو العشرين من سنها تزوجت، ثم أنجبت من زوجها عدة أطفال، ولكن زواجها لم يكن موفقاً، لا لسبب سوى أنها كانت تنشد السيطرة وتشعر بغضاضة لقيامها بدور امرأة.
وقد انتهى أمرها إلى أن أحبت امرأة أخرى، فكانت تدللها وتعاملها معاملة الرجل للمرأة، وقد أعدت لها كوباً من الفضة نقشت عليه اسم خليلتها، ولا تسمح لأحد أن يشرب منه سواها، كما أنها طرزت اسم هذه الخليلة على الوسائد والفرش، ثم مهدت السبل لكي تزوج زوجها من هذه المرأة، فعاش الثلاثة في منزل واحد وفي شبه وئام.
وقد حققت بهذا الزواج أهدافها بالتخلص من زوجها، على الرغم من أنها بقيت في عصمته، وفي الوقت نفسه قربت منها خليلتها

وعندما بلغت سن اليأس تشبثت بها نزعات سادية فكانت تضرب خادمتها ضرباً مبرحاً.
وكثيراً ما كانت تجز شعرها وتكوي جسدها بسيخ محمي في النار، كما استبدت بها
ميول ذكرية حملتها على السفر بمفردها إلى الأقطار الشقيقة وإلى تبذير أموالها
تبذيراً شديداً. وما لبثت أن انتابتها نوبات ملانخولية متفاوتة في الشدة
بدأت عوارض مرضها بحدوث خفقان في القلب ورهبة من الموت وخوف من عقاب الله،
ثم أخذت تتجاذبها الهواجس السود فكانت تعتقد أنها قضت نحبها، ثم توسلت إلى الله
أن يغفر لها خطاياها. وكانت إذا سمعت الحاكي (الفونوغراف) تصورت أن روح أحد
أقاربها تقمصت في القرص المدار فلا يفتأ يصعد أنينه ويبث شكواه كلما وخزته إبرة
الحاكي الحادة. وإذا رأت أحداً يهش الذباب خيل إليها أنه يشير إلى سفاح ليقطع رقبة أحد أقاربها
وكان في منزل المريضة زهريات برنزية صغيرة في كل منها وردة صناعية حمراء،
فكانت تعتقد أن تلك الزهريات ما هي إلا يأجوج ومأجوج حاملين مضلات حمراء ليتقوا بها جمرات تتساقط عليهم من جهنم.
وتصورت ذات يوم أن سريرها سفينة نوح وأن أفراد أسرتها مشرفون على الغرق،
فجعلت تناديهم ليتعلقوا بالسفينة طلباً للنجاة ولكن دون جدوى.
وكانت تمتنع عن تناول الكاكاو لاعتقادها أنه ليس إلا دماً مسفوكاً. وطالما امتنعت عن
الاغتسال ظناً منها أن الماء ما هو إلا بول الفيلة.
ومن أطراف الهواجس التي كانت تنتاب المريضة عندما كنت أغذيها صناعياً بإدخال
اللبن المعدي إلى معدتها أنها كانت تعتقد أن المقصود بهذه العملية تشويه خلقتها ونقل
أعضائها الجنسية إلى مكان فمها ونقل فمها إلى مكان تلك الأعضاء لتكون أعجوبة العالم.
ومن الهواجس التي تدل على رغبتها في أن تكون رجلاً أنها كانت تتصور أحياناً أنها
رجل أو أن نصفها لرجل والنصف الآخر لامرأة، وحين تسعفها لمحة من لمحات الإدراك
وتنظر إلى رجليها فتراهما متماثلين تقرر أنها إما أن تكون رجلاً وإما امرأة
وعلى الرغم من أنها كانت تتصور في أثناء مرضها أنها مذنبة وأن الله سينزل بها أشد
العقاب، وإنها مخلوق دنيء لا يستحق دخول الجنة فإنها كانت أحياناً تعوض عن هذا
نوعاً ما بتصورها نفسها ابنة ملك الفرس ولكنها وضعت في أحد المتاحف الأثرية لتكون فرجة للناس.

محمد حسني ولاية
طبيب بصحة بلدية الإسكندرية

أيبيقوس
للأب أنستاس ماري الكرملي

توطئة - 1

طالعنا في الرسالة (10: 812) النبذة التي قلّد بها جيد هذه المجلة، الأستاذ محمد
مندور، أحد المدرسين في كلية الآداب في مصر القاهرة الزاهرة، وحالما وقع طائر
بصرنا عليها، وعلى اسم كاتبها، استبشرنا وقلنا في نفسنا:
إذا جاء موسى وألقى العصا ... فقد بطل السحر والساحر
ولما استهل الكاتب نبذته بقوله: (أصحح للأب الفاضل أنستاس ماري الكرملي خطأ
وقع فيه) - قلنا في نفسنا: وما هذا التصحيح؟ - فإذا هو يبيع لنا بضاعة عرضناها نحن
على القراء بكل تحرز وتوق، إذ لم يسبقنا أحد إلى عرضها. إذن لم يأتنا بشيء جديد؛
وإذن لم نفهم كيف ساغ له أن يقول: (أصحح) . . .
ومن الغريب، أنه ألح على أن الشاعر المبحوث عنه في (الامتناع والمؤانسة) هو
(أتيقوس) أي الأتيكي، وهو يوناني صميم. . . إلى آخر ما قال وجال وصال!
ولم يشر أبداً إلى أننا كنا أول من أشار إلى هذا الرجل إشارة خفيفة، من غير أن نلح
على أنه هو المطلوب في هذا المبحث. وقد ذهبنا إلى ذلك لمقاربة بين لفظة
(أتيقوس) و (إيقوس)، ولم يكن ذلك من باب التأكيد؛ فإذا الأستاذ مندور المدرس
بكلية الآداب، يتمسك بهذا (الخاطر الضعيف)، ويعده (رأياً) ويأخذ به، ويدافع عنه
مدافعة الأبطال، كأنه من وضعه، أو من فكره

ولكن من بعد أن تنصر لهذا الرأي، ونافح عنه أبدع منافحة، قذفه فجأة من يده في مهاوي الرذل، كأنه عقرب حاولت لسعه، فأراد التخلص منها على هذا الوجه المبارك النتيجة، إذ قال: (وإذا ذكرنا أن (كومودوس) هو. . . وإذا كان من الممكن أن يكون . . .(قومودس) إمبراطور روما. . . فأي غرابة في أن يكونوا

فيا سيدي الأستاذ، المدرس بكلية الآداب في القاهرة، لقد هدمت بإذا. . . وبإذا (مكررة)

وبمن الممكن أن يكون. . . ما بنيته، أي صرحك الممرد، فوقع عليك وسحقك سحقاً، وأنت تُري للناس أنك لم تشعر به وهم قد شعروا به كل الشعور. أما أنك تري للناس أنك لم تشعر به، فذلك لأنك قلت في الختام: (وهكذا يتضح أن القراءة التي (نضنها) أقرب ما تكون إلى الصحة، هي قومودوس وأتيقوس؛ اللهم إلا أن تكون عند الأستاذ كراوس معرفة خاصة بأبقوس الشاعر اليوناني، وذلك ما ننتظره منه، إن تفضل فجاد بعلمه (الغزير)

فلو كنت، يا سيدي المدرس بكلية الآداب، واثقاً بما تقول لما قلت هذا القول، ولما التجأت إلى غيرك، لأنك بهذه المحاولة نسفت صرحك نسفاً حتى أسسه

يا سيدي الأستاذ، المدرس بكلية الآداب، إن التاريخ لا يبني على (إذا)، ولا على (إذا كان من الممكن أن يكون كذا وكذا) ـ إن التاريخ، يا سيدي الأستاذ المدرس بكلية الآداب، رواية وقائع، ونقل أحداث تنقل إلى السلف على ما رووه، ولا دخل فيه لـ (إذا) و (من المكن) فمثل هذا الكلام يرد في المنطق والفلسفة والصرف والنحو واللغة والحديث وأمثالها، التي يصح فيها التخريج؛ أما التاريخ فبعيد عن التأويل والتفسير. فالظاهر أن حضرتك مهرت في التخريج حتى رسخ في نفسك كل الرسوخ، فصرت تستعمله في كل ناد وواد، في ما يجوز استعماله، وفي ما لا يجوز، فآذيت نفسك من حيث تدري ولا تدري

2 - كيف وجدنا ضالتنا

جرت لنا عادة أن نرحب بأصدقائنا، وأحبائنا، وأدبائنا في كل صباح جمعة من الأسبوع، وذلك منذ سنة 1911، فيجتمع في نادينا الكتّاب والصحفيون والشعراء والمؤرخون، ووصاف البلدان، ويختلف عددهم بين العشرين والثلاثين، فتلقى الأسئلة، وتجري المحاورات والمطارحات على أحسن وجه، وأسلم طريقة، بشرط ألا يلقى سؤال في الدين ولا في السياسة. وإن وقع شيء من هذا القبيل، ينبه صاحبه على أن مثل هذا الأمر ممنوع، فيسكت بكل حشمة ووقار وأدب من غير أدنى امتعاض

ويوضع بين أيدي الأدباء جميع جرائد المدينة، وما يأتي إلينا من الصحف والمجلات والكتب الجديدة الواردة من العراق وخارج العراق، فيطالعها المنتمون إلى هذا الديوان المتواضع. ويتفق لنا أن نخط خطاً أزرق تحت كل غلط نقع عليه فيما نقرأه فيأتي بعدنا من يقف عليه فيعرف ما فيه من الزلل والخلل. ولما طالعنا نبذة الأستاذ (مندور) المدرس

بكلية الآداب خططنا خطوطاً زرقاً تحت بعض الألفاظ، وأشرنا بعض الأحيان بالنص إلى ما فيها من الأغلاط بكلمات وجيزات، ولا سيما أشرنا إلى قوله: (إن هيرودس أتيقوس) روماني، لا يوناني، فهذا أبعد في الخطأ من استنكاره أن يعتبر (ثيودوسيوس) يونانيا. . .) استحسنها الجميع واستصوبها الكثيرون

بقي علينا أن نعرف الاسم الحقيقي للشاعر اليوناني (إبقوس) أو (إتقوس) أو (إنقوس) أو (إيقوس)؛ إذ كل هذه الروايات وردت مصحفة للاسم الحقيقي المصحف، فتذكرنا أننا لما كنا ندرس اليونانية في جامعة بيروت اليسوعية، إن أحد معلمينا ذكر استطراداً اسم شاعر يوناني مشهور سماه (إيبيقوس)، وكان قد ذكره من باب العرض، من غير أن يتصدى له تصدياً مقصوداً، فبقي اسمه هذا مطبوعاً في ذاكرتنا، وكان عمرنا يومئذ 21 سنة: (أي كان ذلك في سنة 1887م)

فسألنا أحد الحاضرين في الجمعة التي وقعت في 28 أغسطس (آب) من هذه السنة المستشرق الإيطالي سيريني والأستاذ مير بصري منشئ مجلة (غرفة تجارة بغداد): أتعرفان شيئاً عن (إيبيقوس)؟ فقالا: وكيف يكتب هذا الاسم بالحرف الروماني؟ فقلنا: لعله فقال الأستاذ سيريني: سأنظر غداً السبت في المعلمة البريطانية وأفيدك عنه الإفادة الصادقة، وكذلك قال الأستاذ مير بصري

وفي اليوم الثاني - بعد أن مضت أربع وعشرون ساعة على سؤالنا - هتف الأستاذ بصري قائلاً: وجدتُ ضالتكم في المعلمة البريطانية، ويكتب العلم هكذا لا كما كتبتموه ثم قال: وهأنذا أنقل إليكم بالعربية ما ورد في المعلمة المذكورة، وأبعث به إليكم في هذه الساعة. وبعد عشر دقائق، ورد إلينا تعريب الموضوع، وهو ما ننقله إلى القراء بحروفه عن المعلمة البريطانية بقلم الأستاذ مير بصري:

3 - ايبيقوس هو اسم الشاعر اليوناني على التحقيق

إيبيقوس من أبناء ريجيوم من أعمال إيطالية، شاعر غنائي، يوناني، معاصر لأناكريون) وقد طوي بساط أيامه في المائة السادسة (ق. م.) وقضى حياته متنقلاً، ولازم زمناً بلاط يولقراطس طاغية ساموس وقد قص بلوطرخس أسطورة وفاته قال: هاجمه لصوص، فناشد سرباً من الكراكي أن يأخذ بثأره. وحدث بعد ذلك أن أحد اللصوص شاهد كركياً في

مسرح كورنتس فصاح: انظروا إلى أصحاب ثار إيبيقوس؛ فنم بذلك على نفسه؛ فذهبت كراكي إيبيقوس مثلاً

وقد نظم إيبيقوس سبعة كتب في الشعر الغنائي، منه في التصوف، ومنه في الغزل) انتهى نقله تعريباً.

ثم بحثنا عن إيبيقوس في سائر المعاجم التاريخية، من فرنسية وإنجليزية، وإيطالية وغيرها، فرأيناها جميعاً تذكر هذا الشاعر اليوناني، وعصره، والكراكي التي استشهدها على قتله. ولاروس الكبير - وهو معجم ضخم في أكثر من عشرين مجلداً - تكلم عليه أكثر من جميع المعاجم. ومن أراد التوسع في هذا الموضوع فعليه به؛ فإنه في غاية الإفادة التاريخية، ونحب بنوع خاص أن يطالعه حضرة الأستاذ (محمد مندور) المدرس بكلية الآداب في مصر المحمية، من كل شر وبلية

4 - الكراكي المندورية

قال جناب الأستاذ المكرم: (وأما قصة الكراكي، فقصة لا أثر لها فيما عثرت به من كتب اليونان، فهي خرافة لا نعلم عن نسبتها إلى قومودس وأتيقوس شيئاً؛ وإن يكن هناك احتمال في أن تكون من بين الأساطير الكثيرة التي راجت عن وفاة الشاعر اليوناني الكبير لوسيان المعاصر لقومودوس وأتيقوس) انتهى

يا سيدي الأستاذ، لا يقول كلامك ولا مثله أرسخ المؤرخين قدماً في أخبار اليونان، من أقدمين ومحدثين. فقولك. (فقصة لا أثر لها فيما عثرت به من كتب اليونان). فهذا كلام يدل على أنك وقفت على جميع مؤلفات أصحابنا اليونان. فهذا ادعاء لا يسلم لك به تلاميذك؛ ولو كان صادراً عن حسن نية! بل لا أظن أن تلاميذك وكلهم ـأذكياء نجباءـ يقبلون منك هذا الإنكار العام العظيم، فكيف يقبله قراء مجلة (الرسالة)، وفيهم كبار المؤرخين، وأساتذة التعليم وأعاظم جهابذة الأخبار وأرسخ العلماء قدماً في النقد وتزييف الأقوال والآراء

وصاحب الإمتاع لم ينسب هذه الكراكي إلى لقيانس، ولا إلى أتيقوس، بل قال، وهذا كلامه بحروفه منقولاً عن 153: 2 من الإمتاع: (حكى لنا أبو سليمان أن تيودسيوس ملك يونان، كتب إلى كنتس الشاعر أن يزوده بما عنده من (كتب) فلسفية. . .) فالكراكي منسوبة هنا إلى (كنتس) الشاعر والذي أثبتنا أنه إيبيقوس فما ذكرته يا سيدي لم

يذكره أحد فمن أين تأتينا بالوحي؟

وزدت الطين بلة، إنك ذكرت اسم شاعر آخر وهو لسيان (أي لقيانس). هذه كلها أمور تزيد في المعضلات ارتباكاً، وفي العقد عجزاً.

ثم يا سيدي، أن لقيانس وقومودوس وأتيقوس كانوا من أبناء المائة الثانية بعد المسيح، ونحن رأينا أن إيبيقوس كان من أبناء المائة السادسة قبل المسيح، فكيف نقلتنا فجأة من عصر إلى عصر، كأنك تسير في جو التاريخ سير الطيارات العصرية في أجواز السماء، في عهدنا هذا؟ أتجهل يا سيدي أن الطيارات لم تكن يومئذ معروفة عند مختلف الأمم؟ أفتأذن يا حضرة الأستاذ أن تطير هذا الطيران السريع في تلك العصور القديمة؟ كل هذا يدهشنا لأنه صادر من مدرس بكلية الآداب

إذن الكراكي (المندورية) غير كراكي الشاعر اليوناني إيبيقوس، وهذه الكراكي ذكرها جميع من تكلم على هذا الشاعر الكبير، من إنجليز وفرنسيين وإيطاليين وألمان وروس

وإسبانيين وأمريكيين وغيرهم، أفيكذبهم جميعاً كذلك كراكيك ولا نعلم إلى من ننسبها إلى لقيانس أم قومودوس، أم أتيقوس؟
(البقية في العدد القادم)
الأب أنستاس ماري الكرملي
من أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية
من أدباء الصعيد في القرن السادس
الرشيد الأسواني
للأستاذ محمود عزت عرفة
في عام 549 هـ قتل الخليفة الفاطمي الظافر بأعداء الله في دار وزارته بالسيوفية؛ وعهد بالأمر من بعده لأبنه الفائز (عيسى)؛ وقد أقيم وقتذاك بقصر الخلافة حفل كبير لتأبين الخليفة المقتول، أمه شعراء الدولة من كل أقليم، فأنشدوا مراثيهم حسب مراتبهم؛ ثم نهض في أخرياتهم رجل تتخطاه العيون، أسود الإهاب، عليه أطمار رثة، وطيلسان من صوف؛ فأنشد قصيدة أولها:
ما للرياض تميل سُكراً ... هل سقيت بالمُزن خمراً؟
ولما وصل منها إلى قوله . . .:
أفكَرْبَلاءُ بالعرا ... ق وكرْبلاءُ بمصرَ أخرى؟!
كان التأثر قد بلغ من الحاضرين مبلغه، فجاشت قلوبهم بزفرات من الأسى، وترددت أصوات من البكاء والإعوال هنا وهناك. . . وظل الحزن معتلجاً في النفوس حتى فرغ الشاعر من إلقاء ما تهيأ له، فغادر منبره وقد شجي وأشجى وكان أن رمقته العيون بنظرات الإعجاب والإكبار، وانثالت عليه العطايا من الأمراء والحاشية والخدم وحظايا القصر؛ وحُمل إليه من قبل الوزير - طلائع بن رزيك - حملة من المال؛ ثم قيل له في شبه اعتذار: لولا أنه العزاء والمأتم لجاءتك الخلع!
ذلكم هو شاعر الصعيد أبو الحسين أحمد بن علي بن إبراهيم ابن الزبير الغساني (الأسواني) الملقب بالرشيد، وصفه ياقوت في معجمه فقال: (كان على جلالته وفضله، ومنزلته من العلم والنسب، قبيح المنظر، أسود الجلدة، جهم الوجه، سمج الخلقة، ذا شفة غليظة وأنف مبسوط كخلقة الزنوج، قصيراً)
وترجم له كثير من المصنفين غير ياقوت: كالعماد الأصبهاني (صاحب الخريدة)، وأبى الطاهر أحمد السُلفي، وابن خلكان وكمال الدين الأدفوي.
على أن واحداً من هؤلاء لم يذكر لنا سنة مولده على وجه التحديد، وإن كانوا قد أجمعوا على أنه توفي عام 563 هـ
نشأته وأخلاقه
كان أبو الحسن من أهل الفضل والنباهة والرياسة، ينتمي إلى بيت كبير واسع الثراء من بيوتات الصعيد، وكان يداخل نفسه شيء من الكبر والأنفة والطموح، وقد لازمته هذه النزعة طيلة حياته، بل جنت عليه أكثر من مرة، وأذاقته مرارة الكره والشماتة من نظرائه، والتحيف والعسف من ولاة بلده وحكامه
وما من شك في أن مصرعه الرهيب على يد شاور وزير العاضد - كما سيأتي - مما يمت إلى هذه الصفات التي غلبت عليه بسبب قريب أو بعيد
لقد وصفه الشيخ الحافظ زكي الدين المنذري فقال: كانت في نفسه عظمة! وقال عنه ابن شاكر الحموي في مشيخته: كان الرشيد عالي الهمة، سامي القدر، عزيز النفس، يترفع على الملوك ويرقى بنفسه عنهم
وذكره ابن أبي المنصور في كتاب البداية فقال: كان قد اجتمعت فيه صفات وخلائق تعين على هجائه، منها أنه كان أسود، ويدعى الذكاء، وأن خاطره من نار
ولقد ضمه ليلة - مع جمع من الفضلاء - مجلس للملك الصالح بن رزيك، فألقى عليهم مسألة في اللغة عجزوا جميعاً عنها، حتى أتى هو بفصل الخطاب فيها. فلما أبدى الملك الصالح إعجابه قال الرشيد مفتخراً: ما سئلت قط عن مسألة إلا وجدتني أتوقد فهماً. . . فقال محمود بن قادوس الشاعر وكان حاضراً:
إن قلتَ: من نارٍ خُلِقْ ... تُ وفُقْت كلَّ الناس فهما
قلنا: صدَقْتَ فما الذي ... أطفَاكَ حتى صرتَ فحما؟
ومما قاله فيه ابن قادوس أيضاً، وكان به مغرى:

يا شِبْه لقمان بلا حكمةٍ ... وخاسراً في العلم لا راسخاً
سلخت أشعار الورى كلها ... فصرت تدعى (الأسود السالخا)!
ويبدو أن الرشيد لم يكن يخلو - مع هذا - من حب المفاكهة، والميل إلى التندر والمداعبة. ولقد كان مما قصه عن نفسه لبعض أصحابه أنه مر ذات يوم بموضع في القاهرة، فإذا امرأة شابة صبيحة الوجه تنظر إليه نظر مُطمع في نفسه، وتشير بطرفها، قال: (فتبعها وهي تدخل في سكة وتخرج من أخرى، حتى دخلت داراً وأشارت إليَّ فدخلت؛ ورفعت النقاب عن وجه كالقمر في ليلة تمامه، ثم صفقت بيديها منادية: يا ست الدار! فنزلت إليها طفلة كأنها فلقة قمر. فقالت لها: إن رجعت تبولين في الفراش تركت سيدنا القاضي يأكلك! ثم التفتت وقالت: لا أعدمني الله إحسانه، بفضل سيدنا القاضي أدام الله عزه! قال: فخرجت وأنا خزيان خجلاً لا أهتدي إلى الطريق)

ثقافته الأدبية والعلمية

كان الرشيد كاتباً شاعراً، فقيهاً نحوياً لغوياً، منشئاً عروضياً مؤرخاً، منطقياً مهندساً، عارفاً بالطب والموسيقى والنجوم متفننا

وقد ذكر صاحب الجريدة أن رسالة (أودعها من كل علم مشكلة، ومن كل فن أفضله) قال الأدفوي: (وقد وقفت أنا على رسالته، وهي تدل على جودة معرفته بالفقه والنحو واللغة والتصريف والأنساب والكلام والمنطق والهيئة والموسيقى والطب وأحكام النجوم وغير ذلك. . .)

وقال محمد بن عيسى اليمني: كان الرشيد أستاذي في الهندسة. ويعتبر كتابه (جنان الجنان ورياض الأذهان) أهم مصنفاته وأشهرها. وهو يشتمل على مختارات جيدة لشعراء مصر ومن طرأ عليهم. وله غير هذا الكتاب مؤلفات أخرى أورد ياقوت في معجمه منها:

كتاب (منية الألمعي وبغية المدعي). كتاب (الهدايا والطرف). كتاب (شفاء الغُلة في سمث القِبلة).

مجموعة رسائل وديوان شعر. . . ومن شعر الرشيد قوله معاتباً بعض أصحابه:

لئن خاب ظني في رجائك بعدما ... ظننتُ باني قد ظفرتُ بمنصف
فإنك قد قلدتني كل منَّةٍ ... ملكتَ بها شكري لدى كل موقف
لأنك قد حذَّرتني كلَّ صاحب ... وعلمتني أن ليس في الأرض من يفي!

ومن قوله في الافتخار بنفسه:

جلَّت لديَّ الرزايا بل جلَتْ هِمَمى ... وهل يضر جلاء الصارم الذكر؟
غيري بغَّيره عن حُسن شيمتِهِ ... صرفُ الزمان وما يأتي من الغَير
لو كانت النار للياقوت محرقةً ... لكان يشتبه الياقوت بالحجر
لا تُغرِيَنَّ بأطماري وقيمتها ... فإنما هي أصداف على دُرر
ولا تظن خفاَء النجم من صغر ... فالذنب في ذاك محمول على البصر

وروى عنه أبو الطاهر السلفي (في بعض تعاليقه) ما أنشده إياه لنفسه وهما بالإسكندرية:

سمحنا لدنيانا بما بخلتْ به ... علينا، ولم نحفل بِجُلِّ أمورها
فيا ليتنا لما حُرمنا سرَورها ... وُقِينا أذى آفاتها وشرورها

رحلة إلى اليمن

سافر الرشيد الأسواني إلى اليمن رسولاً، داعياً للخليفة الفاطمي. ويبدو أنه قوبل هناك بحفاوة سرَّته، وطاب له المقام حيناً، حيث تقلد منصب القضاء والأحكام ولقب بـ (قاضي قضاة اليمن وداعي دعاة الزمن). . . ويقول ياقوت أن نفسه طمحت وقتذاك إلى رتبة الخلافة. . . (فسعى فيها، وأجابه قوم، وسلم عليه بها، وضربت له السكة. وكان نقش الكتابة على الوجه الواحد: قل هو الله أحد الله الصمد، وعلى الوجه الآخر: الإمام الأمجد أبو الحسين أحمد).

(للمقال بقية)

محمود عزت عرفة

العبقرية

ليست العبقرية ملكة بسيطة، بل هي في الحقيقة مجموعة قوى أو

ملكات متحد بعضها ببعض. هذه القوى والملكات يمكن إرجاعها إلى ثلاث رئيسية هي:

(ا) مخيلة حية تثيرها للعمل حساسية شديدة أو عاطفة مشبوبة متقدة. . .

(ب) عقل قوى مفكر ناضج. . .

(جـ) إرادة قوية حازمة

ونحن لا يمكننا أن نعرف الفكر الخالق إلا خلال ما يصدر عنه من أعمال، ولا يمكن أن تنفصل العبقرية عن القوة الخالقة التي توجد بالضرورة في الإرادة القوية هذه العناصر السيكولوجية لازمة بالضرورة للعبقرية، ولا بد أن توجد كلها عند كل عبقري، ولكنها تختلف في واحد عنها في آخر، بمعنى أنها توجد بنسب متفاوتة باختلاف العباقرة وإن وجدت فيهم جميعاً، فليس هناك عبقري ينقصه أي عنصر منها بل تتحد كلها فيه وإن ساد عنصر من تلك العناصر على بقية العناصر الأخرى عند عبقري معين، وساد عنصر آخر عند عبقري آخر وهكذا، فهي لازمة كلها لإنتاج الأعمال العظيمة التي تحتاج إلى عبقرية خاصة، سواء أكانت تلك الأعمال إنتاجاً فنياً أم اكتشافاً علمياً أم صناعياً أو غير ذلك.

وهناك نهاية معينة يدركها الذهن القوي الراقي، وهي نهاية أو غاية أسمى وأعظم من أن تتصورها الأذهان الشعبية العامة غير المستنيرة أو ترقى إليها. هذه النهاية نسميها تصور أو إدراك العبقرية هذا التصور أو الإدراك موجود، ولكن يجب إيجاد وسائل تحقيقه، أي يجب أن نعرف كيف نحقق تلك النهاية أو الغاية. إن المخيلة الحية والعاطفة المشبوبة تجعلاننا نتصور تلك النهاية ونحسها ونرغب فيها بشدة، وتقدمان لنا ما وسعهما من وسائل، ولكنها وسائل مضطربة في الحقيقة غير مرتبة ولا منظمة. فالمخيلة والحساسية والعاطفة لا يمكن للإنسان أن يعمل بها وحدها شيئاً ذا أهمية إن لم يتدخل العقل الآمر الناهي في الأمر فيختار الأحسن ويترك ما لا يصلح ويربط بين ما يختار ويرتبه وينظمه. فعمل العقل - في كل شيء - هو الاختيار والترتيب والربط. ثم يجيء بعد ذلك دور الإرادة، فإنها هي التي تتم العمل المدرك المتصور بتحقيق تلك الوسائل المرتبطة في الذهن. والعالم مليء بالأذهان التي لا تنقصها المخيلة ولا الانفعال، حتى ولا ملكة الترتيب والتنظيم والربط، ومع ذلك فهي أذهان مجدبة لا تنتج شيئاً بل تعيش هي وحدها فيما تتصور وتحلم به؛ وقد تكون تصوراتها جميلة، ولكنها لا تخرجها للناس، لأنها تفتقر إلى الإرادة والصبر، وهما عنصران هامان في الإنتاج. وهناك عنصر أخير هو الإلهام يقدمه لنا في الحقيقة الحساسية - طبيعية أو مكتسبة - والمخيلة، ولذلك لا يمكن للإنسان أن ينتج بالإلهام وحده شيئاً خالداً باقياً.

ولابد للعبقري من الصبر والمجالدة والصراع، حتى يتوصل إلى ما يصبو إليه. وقد قال بيفون إن العبقرية صبر طويل ويمكن أن نمثل لذلك بالعالم الرياضي الكبير نيوتن، فهو - باعترافه - لم يصل إلى تلك النتائج العلمية المدهشة إلا بصبره وطول أناته وقوة إرادته. وقد سئل كيف أمكنه اكتشاف الجاذبية الأرضية؟ فقال: بطول تفكيري فيها دائماً. ويستلزم الصبر إرادة قوية. ووجود الإرادة كعنصر في شيء ما يعني وجود الحرية بالضرورة، فلا إرادة إن لم تكن هناك حرية اختيار، وما دامت الإرادة عنصراً في العبقرية فإن هذا يبعدنا عن النظريات التي تجعل من الرجل العبقري نتاجاً ضرورياً أوجدته الظروف والبيئة، كما تنتج النبات والحيوان، أي أنها تجعل منه شيئاً أوجدته القوى الطبيعية بالصدفة السعيدة فقط، وتعتبره غير مسؤول عن أفعاله وإنتاجه إلا كما يعتبر حصان جميل مسئولاً عن جماله، أو شجرة عالية مشذبة عن علوها وتشذيبها، والواقع عكس ذلك تماماً، فهناك إرادة، وهناك بالتالي حرية

ولكن إذا كانت كل تلك العناصر تدخل في تكوين العبقرية، أفلا يمكن أن يكون للتربية أو التعليم أثر في تكوينها كذلك؟ إن القول بأثر التربية في تكوين العبقرية يبدو لأول وهلة غريباً وشاذاً لأن العبقرية هبة طبيعية، ويظهر أنها أولية وسابقة على كل اكتساب، ومستقلة عن كل تربية مقصودة. والواقع إن الجانب الطبيعي في العبقرية هو الأكبر، فالمخيلة والحساسية والعقل والإرادة كلها هبات طبيعية، ولكن ذلك لا ينفي أن يكون للتربية أثر في هذه الملكات. فيمكن توجيه المخيلة مثلاً نحو الخير والشر بالتربية

والتعليم والقراءة وغير ذلك. كذلك تنمو الحساسية وتزيد في هذه الناحية أو تلك تبعاً لما يصادفنا من
الظروف والملابسات المختلفة والمشاركات الوجدانية والنفور؛ كذلك يقوي العقل والإرادة بالعمل والتمرين. فالتربية إذن لا يمكنها - أن تخلق العبقري؛ توقظ فيه جرثومة عبقرية وتساعده على الوصول إلى مبتغاه. وليس هناك - قبل كل شيء - هوة عميقة تفصل بين النبوغ والعبقرية، وإن تعليماً وتربية صحيحين وكاملين يمكنهما أن يخرجا للأمة عدداً من القيم العليا والأذهان القوية في جميع أنواع النشاط العقلي، أكبر مما ينتج لو تركنا أمر تكوين الشخصية للصدفة أو الاتفاق فحسب. وتضطلع الأمهات بأكبر نصيب من التربية؛ فإن أثرهن كبير جداً على أطفالهن. والمشاهد إن معظم العباقرة - إن لم يكن كلهم - كانت أمهاتهم نساء ممتازات ذوات قلوب كبيرة وحنان بالغ ووجدانات حارة توقظ في الأطفال قواهم النائمة الخامدة، وتضيء ما أظلم من نفوسهم. وقد شبه أحد الكتاب الإنجليز فعل الأم على طفلها بفعل أشعة الشمس على الفاكهة
هناك نقطة أخيرة يجب الإشارة إليها وهي تتعلق بتشبيه بعض المفكرين العبقرية بالجنون، وعلى رأس هؤلاء المفكرين ليلى فقد يرى ليلى أن العبقرية ضرب من الجنون، وحاول أن يطبق نظريته هذه على سقراط وبسكال، فكان يرى في سقراط رجلاً معتوهاً مدعياً للوحي؛ وأن الشيطان الذي كان يسمعه في سجنه إنما هو صوت خيالي ابتدعه الفيلسوف نفسه من عندياته، فليس ثمة وحي في الحقيقة أو شيطان. ولكن يمكن الرد على ليلى بأن شيطان سقراط إنما هو العناية الإلهية نفسها تخاطب نفس الفيلسوف وضميره، ثم شخص هو هذا الصوت الباطني كي يقربه إلى أذهان تلاميذه
نعم لا شك أن بعض العناصر التي تدخل في العبقرية تدخل أيضاً في الجنون، فالمخيلة الفياضة مثلاً إذا اعتَبَرت تخييلاتها وهذيانها وأحلامها حقائق واقعة كانت هي الحماقة نفسيها، فهناك في الواقع صلة بين العبقرية والجنون، وهذه الصلة ترجع إلى الدور الذي تلعبه الحساسية الشديدة التهيج والمخيلة المتقدة المشبوبة في العبقرية إذا لم يسيطر عليهما العقل. فمن السهل إذن أن تختلط معالم العبقرية بالجنون إذا غفا العقل وغفل عن القيام بمهمته في الرقابة، ولكن من السهل أيضاً التمييز بين الجنون والعبقرية؛ ففي الناحية الأولى تسيطر العناصر السفلي: المخيلة والإحساس، بينما ترجع في الناحية الأخرى السيطرة إلى الملكات العليا السامية: العقل والإرادة
أحمد أبو زيد
كلية الآداب - جامعة فاروق الأول
رسالة الشعر
من ديوان (السلوى)
. . .عزة
للأستاذ علي متولي صلاح
أتحسبُ أني أحمل الذل في الهوى ... وأن الجمال الفذَّ منك شفيع؟
تعذّب من نفسي وترضي مهانتي ... وذلك إثم - لو علمت - شنيع
حملتُ الهوى صدّاً ودلاً وحرقةً ... وإني سميع في هواك مطيع
حسبتَ رضائي ذلةً وحقارةً ... رويدك حصني في الغرام منيع
. . .رويدك. . . وأعلم أنني أرفض الهوى ... إذا خالطتْه ذلّةً وخضوع
فإن كنت لا ترضى بغير مهانتي ... كأني عبدٌ تشتري وتبيع
وإن كنت تأبى لي مكاني ومنزلي ... وما كان من حقّي لديك يضيع
!إذاً. . . فاتَّخذ غيري خليلاً وصاحباً ... ودعْني. . . فإني في هواي رفيع
علي متولي صلاح
الأمل المنشود
الوَحدةُ العربيةُ
(إلى شباب العرب أسوق الحديث)
للأستاذ علي شرف الدين
دَعَوْتُ بَني عَمِّي بِلَيْلٍ فَلَمْ يَصْحوُا ... وَنَامُوا، وَقَالوا: كلُّ لَيْلٍ لَهُ صُبْحُ

فَمَرَّتْ بِهِمْ لَيْلاَءُ مَرْهُوبَةُ الدُّجَى ... بَعِيَدةُ نُورِ الفَجْرِ أوحَشَهَا جُنْحُ
وَلَوْ أَجْمَعُوا فِي ظُلْمَةِ الخَطْبِ أَمْرَهُمْ ... لَكَانَ لَهُمْ فِيماَ يُرَجُّونَهُ نُجْحُ
تَغَنَّوْا بِمَاضِيهِمْ. . . فَقُلْنَا: صَحِيفَةٌ ... مِنَ الْمَجْدِ جَلَّتْ أَنْ يُطَلوِ لَهَا المَدْحُ
وَلَكِنَّماَ طُولُ التَّغَنِّي تِجَارةٌ ... إِذَا طَالَ فِيهاَ الْقَوْلُ أَخْطَأَهَا الرِّبْحُ
وَماَ يَنْفُعُ الماَضِي المُغَنِّى بِمَجْدِهِ ... إذاَ لَمْ يَكُنْ فِي إِثْرِهِ السَّعْيُ وَالْكَدْحُ
وَقَالُوا: غَدَاً تَحْوِي العُرُوبةَ وَحْدَةٌ ... فَخَفَّتْ قُلُوبٌ كَادَ يَقْتُلُهَا الصَّرْحُ
أَفَاضُوا بِهَا دَرْساً وَشَرْحاً مُنَمِّقاً ... وَمَا أَبْعَدَ الْجَدْوَى إِذَا كَثُرَ الشَّرْحُ
لئِنْ كَانَ حَقاً فَاتْرُكُوا الْقَوْلَ وَاعْمَلُوا ... وَخُطُّوا إِلَى الْعَلْيَاءِ نَهْجَكُمُ وَأَنْحُو
أَفِيقُوا - بَنِي عَمِّي - لَقَدْ طَال نَوْمُكُمْ ... وَلَيْسَ لدى التَّارِيخُ عَنْ نَوْمِكُمْ صَفْحُ
وَضُمُّوا عَلَى البُعْدِ الصُّفُوفَ وَجَاهِدُوا ... فَقَدْ يَنْجَلِي عَنْ ظُلْمَةِ الْغَسَقِ الصُّبْحُ
وَكُونُوا صُرُوحاً لِلْعَوَادِي دَرِينَةً ... إِذَا هَانَ صَرْحُ قَامَ مِنْ دُونِهِ صَرْحُ
تُرَجِّعُ مِصْرُ لِلعِرَاقِ شَكَاتَهُ ... وَيَحْنُو عَلَيْهَا الشَّامُ إِنْ مَسَّهَا قَرْحُ
فَنَحْنُ عَلَى بُعْدِ المَوَطِنِ اخْوَةٌ ... تُؤَلِّفُنَا الشَّكْوَى وَيَجْمَعُنَا الْجُرْحُ
وَتَنْظِمُنَا (الفُصْحَى) رِبَاطاً مُقَدَّساً ... وَيَشْمَلُنَا اَلإِخْلاَصُ وَالْخُلْقُ السَّمْحُ
لَوِ أصطَعْتُ ألغَيْتُ الحُدُودَ فَلَمْ تَعُدْ ... لِتَفْصِلَكُمْ عَنْ مِصْرَ (سِينَا) وَلاَ (رَفْحُ)
ذَكَرتُ لَكُمْ عَهداً جَمِيلاً وَمَاضِياً ... هُوَ الرَّوضُ لَمْ يَهْدَأْ لِرَيحانِهِ نَفْحُ
وَأَيَّامَ كَانَتْ لِلْعُرُوبَةِ رَايَةٌ ... يُؤَيِّدُها العُصْبُ اليَمَانِيُّ والرُّمْحُ
يُحِيطُ بِهَا الصِّيدُ الجُدُودُ بَوَاسِلاً ... وَيَمضِي بِهَا النَّصْرُ المُبَارَكَ وَالفَتْحُ
يُطَوِّقُ أَعْطَافُ (الفُرَاتِ) عَمُودُهَا ... وَيَشْهَدُهَا خَفَّاقَةٌ فَوْقَهُ (الطَّلْح)
أإخوَتَنَا بِالشَّرْقِ رُدُّوا نِدَاءَنَا ... وَفِي النَّهْضَةِ الكُبرَى لأوْطَانِهُمْ ضَحُّوا
عَلَى النَّيلِ مِنْ سيفِ الجَزِيَرةِ شَاعِرٌ ... يُحَيِّيكُمُ وَالدَّمْعُ فِي جَفْنِهِ سَفْحُ
وَمَجْنُونَةٍ بِالدُّمعِ تَنْضَحُ قَلْبَهُ ... أَضَرَّ بِهَا دَمْعِي وَأَثْلَفَهَا الفَّضْحُ
أُحِبُّ بَنِي (عَدْنَانَ) حُبَّ عِبَادَةٍ ... وَمَا حِيلَتِي إلا الشَّكَايَةُ وَالنُّصْحُ!

علي شرف الدين

البريد الأدبي

حول نسخ الأحكام

نشرت (الرسالة) الغراء تعقيبا على مقال - حق الإمام في نسخ الأحكام - جاء فيه أن أبا جعفر النحاس لم يعز القول بذلك إلى فرقة إسلامية، ولا إلى جماعة من فقهاء الإسلام، وأن الذي قال ذلك إنما هم الإسماعيلية الباطنية

فأما أن أبا جعفر لم يعز القول بذلك إلى فرقة إسلامية فليس بصحيح، لأنه ذكر قبل ذلك أن العلماء من الصحابة والتابعين تكلموا في الناسخ والمنسوخ، ثم اختلف المتأخرون، فمنهم من جرى على سنن المتقدمين فوفق، ومنهم خالف ذلك فاجتنب، فمن المتأخرين من قال ليس في كتاب الله عز وجل ناسخ ولا منسوخ، وكابر العيان، واتبع غير سبيل المؤمنين الخ وهذا ظاهر كل الظهور في أن هؤلاء المتأخرين فرق إسلامية، ولا يهم بعد هذا رأي أبي جعفر فيها، لأن فيه مجازفة ظاهرة في تكفيرها. وإذا صح أن هذا القول لفرقة الإسماعيلية، فهي من فرق الشيعة المعدودة في الفرق الإسلامية، ومنها كان الفاطميون الذين أنشئوا أكبر جامعة إسلامية نعتز بها الآن، ونشروا بمصر كثيراً من آثار الإسلام

(. . .)

الشيخ خليل الخالدي

في عاشر رمضان من السنة الماضية توفي بالقاهرة الأستاذ العالم الجليل خليل الخالدي عن 78 سنة رحمه الله. ولم يكتب شيء عن وفاته في (مجلة الرسالة) مع أنها عنيت بنشر نبذ من أخبار وأماليه في حياته (في السنة السابعة وقبلها) بقلم الدكتور عبد الوهاب عزام. فكتبت هذه الكلمة الموجزة إيجاباً لبعض حقه:

ولد الفقيد في القدس، وأخذ مبادئ العلوم عن مشايخ العلم هناك، ثم ارتحل إلى الآستانة ولازم الأستاذ الشيخ محمد عاطف شارح المجلة، ووكيل الدرس الشيخ أحمد عاصم، إلى أن تخرج عليهما. ثم التحق بمدرسة القضاء الشرعي حتى أحرز شهادتها. وقدم مصر وحضر دروس كبار علمائها فأجازوه. ثم تولى القضاء في كثير من أقضيه

روم إيلى (رومالي) إلى أن ولى قضاء ديار بكر. ثم اختارته المشيخة الإسلامية عضواً في مجلس
تدقيق المصاحف والمؤلفات. وفي أواخر الحرب العامة السابقة عاد إلى بيت المقدس فأسندت إليه رياسة الاستئناف الشرعية.
وكان له علم بالمخطوطات العربية ومؤلفيها ومواضعها من دور الكتب في أكثر البلاد الإسلامية التي ارتحل إليها حتى الأندلس، وله مذكرات عنها لم تنشر بعد.
وكانت شهرة بيتهم قديماً بالديري ثم اشتهروا بالخالدي، وهو بيت علم قديم تولى عدة منهم قضاة القضاة بمصر من عهد الملك المؤيد، كالشمس الديري والمسعد الديري، وتراجمهم مبسوطة في (الضوء اللامع للسخاوي) و (الأنس الجليل) وغيرهما.
ودفن الفقيد - برد الله مضجعه - في باب النصر أمام مدفن أحمد بك عفت.
محمد غسان
فرحة الأديب بالأديب
جاء في العدد السابق من مجلة الرسالة الغراء تحت عنوان (الحديث ذو شجون) للدكتور زكي مبارك ما نصه:
(عبارة (فرحة الأديب بالأديب) تعد من مبتكرات ابن الروي من حيث الصورة والمعنى)
وأقول إن هذه العبارة ليست إلا من مبتكرات أبي تمام من حيث الصورة والمعنى أيضاً، فقد قال في وصف السحب:
لما بدت للأرض من قريب ... تشوفت لوبلها السكوب
تشوف المريض للطبيب ... وطرب المحب للحبيب
= وفرحة الأديب بالأديب. . . . . .
وقد ذكرها الديوان كما ذكرها الشيخ يوسف البديعي في كتابه (هبة الأيام).
أعرض هذا على الدكتور وله تحيتي وإعجابي.
(جرجا)
فؤاد الزوكي
رواية (فاطمة البتول) لمعروف الأرناؤوط
يضطلع الشام الآن بحصة وافية من النهضة الأدبية العربية على الوجه الذي يحمل بتاريخه العريق
ومن أدباء الشام المبرزين في هذه النهضة الأستاذ معروف الأرنؤوط صاحب رواية (فاطمة البتول)، التي نحن بسبيل الحديث عنها
يسرد المؤلف في روايته قصة الحسين بن علي منذ تلفت إلى الخلافة لفتة الأمل إلى أن قضى في سبيلها نحبه. ويبث المؤلف في جنبات القصة سيرة الحسين، وأشتاتاً من أخلاق جده النبي صلى الله عليه وسلم وأمه الكريمة وآله الطيبين، معتمداً على المراجع التاريخية العربية المعتادة، مسترفداً أحياناً من أمهات كتب الأدب العربي.
وعلى حوافي قصة الحسين وآله قصة زوجين عذريين هما نموذج فذ للتعاطف والتحاب، أدناهما الزواج بعد عشق مبرح، فجاءا البلاد المقدسة يباركان حبهما، ويريان إلى نور النبي في وجه سبطه. . . وهناك يلقيان ليلى الكندية أخت حجر بن عدي، فتزين للزواج أن ينفر إلى العراق ليكون يداً للحسين على أعدائه، فيستجيب لهذه الدعوة ابتغاء المجد وطاعةً لعواطف الشباب، ويودع زوجته الحبيبة التي تعود إلى وطنها في وادي القرى، ويمضي هو إلى العراق ليحقق مطامحه المخلصة، فيذهب هناك ضحيتها. . . ويضني الشوق زوجته، ويطول عليها الانتظار، فتبخع نفسها حزناً!
تلك خلاصة الرواية، لا يزيد حظ فاطمة منها على حظ أغلب شخصياتها الأخرى؛ لذلك كان غريباً أن تحمل اسمها الكريم، فلئن جاز ذلك لأن الرواية تضمنت شيئاً عنها، لكان الأولى أن تحمل أسم النبي صلى الله عليه وسلم، أو اسم الحسين ابن علي، أو عمرو ابن الحويرث، أو هند زوجته، أو ليلى بنت عدي، أو يزيد ابن معاوية، فلكل من هؤلاء في الرواية ذكر أطول
والمؤلف إذ يتحدث عن عواطف الزوجين الحبيبين وهما يقطعان الصحراء الموحشة إلى مكة في الغلس الرهيب، وبين غضبات الطبيعة، وإذ يذكران صباهما في وادي القرى، وإذ يختلفان في الميل: عمرو يريد العراق، وهند لا تريده، وإذ يشقيان بعد

بالنوى والوجد. . . المؤلف إذ يتحدث عن هذا كله يأتي بالمعجب المطرب، فما ينفك قارئه بين رقة تراوحه وتغاديه، وفتنة تلقاه من كل جانب. . .
وفي حديثه عن الحسين الطفل، ومنزلته لدى جده العطوف، وعن الرباب زوجة الحسين الوفية، وعن شديد حب الناس للحسين شعور دافق وبيان فاتن، لولا أن القول عن طفولة الحسين تكرر كثيراً فطامن ذلك من بهائه
والعبارات التي أجراها المؤلف على لسان ليلى الكندية في حض عمر على المضي إلى العراق، تسترق اللب بما حوت من عاطفة وحصافة ودقة
فأما الصفحات التي ألم فيها بعواطف النبي نحو ابنته فاطمة وأطلعنا فيها على الحسين في البقيع حيال قبري أمه وأخيه، وفي وادي العقيق حيال قبر (حمزة)، وحين يسأل الله للطيور الأمن والسكينة. . . هذه الصفحات هي من أحفل صفحات الرواية بالجمال والشعر
وأما وصف المعركة التي استشهد فيها الحسين وذووه وهم بين شيخ فان وامرأة ضعيفة وصبي لا يريش ولا يبري فوصف بارع جلى فيه الكاتب أحسن جلاء صبر الحسين وشجاعته وإيمانه ونبالته، وفصل القول في ما أبدى أهله وأصحابه من النصر له والموت بين يديه في إخلاص عبقري
وقصة موت يزيد بن معاوية قصة هي الأخرى مشجية وبارعة
وفي الرواية لفتات تعجب القومية العربية، فالمؤلف يشير إلى أن الدماء التي أريقت في صدر الإسلام (أريقت في سبيل عروبة الشام والعراق)، و (رفات عبد الله بن جعفر طوتها قيعان كتب قومه على حجارتها قصة الحرية في الشام)، وهذه الدنيا العربية ستجدد شبابها كلما فتحت عينيها على نور ذلك اليتيم المقدس)
ولكننا نلاحظ أن المعاني الفرنجية تدسست إلى الرواية، فهند مثلاً تذكر أن على حواشي الأحراج وأطرافها أشجاراً كبيرة كتبت هي وحبيبها على لحاءها قصة القلب!! وهي تحزن فتمرض فتسعل دماً!! كما يقع تماماً للأوربيات في كثير من القصص الحديث
وكثرة الاستعارات في الرواية تسترعي الانتباه. وقد احب الكاتب ألفاظاً وعبارات بعينها فما تكاد صفحة تخلو منها؛ نذكر منها: العرف، والينبوع، والنشيج، وألمانع، والعمر الجني الطري، والتيه الراعب، والنهر الهادر، والنفوس الحادبة، ويميد، ويفيح، ويلذ، ويتدفق، ويرف، ويهدر، ويدغدغ، ويهدهد. . . هذه الكلمات تتكرر على نحو ممل، مع أن العربية لغة المترادفات. والمؤلف يميل إلى استعمال صيغ المبالغة؛ فالعين سحور، والسيل جراف،
والريح جفول؛ والظن أن لا ضرورة لهذا في جل المناسبات، فالمعاني قد تركب اللفظ القريب فتدرك به غاية المراد البعيد.
وثَم ألفاظ لا يسيغها في مواضعها كل مزاج، فمن ذلك (استخذاء) الحسين لفتنة الليل، وكونه أمام (المرأة) التي لاعبها محمد ورق لها وبارك لها (يعني أمه فاطمة بنت الرسول)، وتلاحق صور الوطن على قلب هند (المريض).
وقد يكرر المؤلف المعنى الواحد في أكثر من فصل، ولا يعني بالتسلسل الواجب بين الفصول، فلو غيرت موضع بعضها لخفي ذلك. وهذا دليل أن الرواية تعوزها الوحدة الصحيحة.
وأغلب أشخاص الرواية مرهفو الإحساس دقيقو الشعور، على شاكلة ليست في الطبيعة.
فأما طبع الكتاب فيؤسفنا أنه دون ما نرجو، فكأين من غلطة مطبعية في صفحاته كان من الميسور تحاشيها.
وبعد، فهذه الهنات على كل حال لا تغشى على حسنات الكتاب الكثيرة.
(المنصورة)
لبيب السعيد
العدد 484 - بتاريخ: 12 - 10 - 1942
الإحسان الاجتماعي
للمغفور له الأستاذ مصطفى صادق الرافعي
أنا أعجب أشد العجب من أمر واحدٍ هو في الحقيقة الأمر كله: ذلك هو فشل . . .

الجمعيات الخيرية في بلادنا. ولا أدلّ على هذا الفشل من قلتها، ولا دليل على هذه القلة كانفراد الجمعية التي نحن اليوم في احتفالها وذهابها بمجد التأسيس بين السوّريين. وأن السابقة في الخير والاتحاد والثبات والإحسان وإخلاص النية إنما هي لها وحدها

ووجه العجب أننا إما أن نكون قد تجردّنا من حب الخير فلا نجتمع، وإما أن نكون لا نحس عمل الخير فلا نجتمع عليه. لا مناص البتة من إحدى الخصلتين أو من كلتيهما. وقد نعلم أن قوام كل عمل بنظامه وتصريفه على أصوله الطبيعية التي من شأنه أن ينصرف فيها؛ فإذا كان جمع المال يجرى على أصول اقتصادية محضة، فإن إنفاقه كذلك يجرى على فعل هذه الأصول، وما يجمع المرء إلا ما يفضل عما ينفقه. والإحسان إنما هو وجه من وجوه الإنفاق، وليس كالشرقي رجل مفطور على حب الإحسان، لأن تأريخه في كل أرض مملوء بالنكبات والجوائح التي تعلمه كيف يحسن، ودينه في كل صبغة مملوء بالعظات والآداب السامية التي تعلمه ما هو أسمى وأشرف من الإحسان، وهو كيف يتأدب في إحسانه. فإذا كان كل ذلك وكان ذلك كله صحيحاً لا ريب فيه كما هو الواقع، فما الذي يمنعنا - نحن الشرقيين - من أن نكون محسنين بالمعنى الحق، حتى تظهر ثمرة الإحسان، فتشبع بطون خاوية، وتكسى أجساد عارية، وتصلح عقول بالية، وتشفى جراح في جسم الإنسانية دامية، ويكون كل شيء عاملاً في تكوين الأمة تكويناً صحيحاً، حتى هذا الذي يقال إنه أصل الرذائل كلها ويقال فيه ما قيل فيها جميعاً، ويقال له الفقر!

ليس يذهب بإحساننا ضعفه وقلته، فالقليل لو أجتمع لصار كثيراً؛ ولا يخفى ثمرته أنه هو نفسه غير ظاهر، فإن كل شيء يؤتى نتائجه الطبيعية ظهر أو خفي. وما الإحسان إلا ضرب من ضروب الإصلاح الاجتماعي؛ ولكن الذي جعل الصحيح فاسداً، والموجود ضائعاً، والمثمر منقطعاً، وجعل كل أمر في أيدينا يكاد يكون عبثاً من العبث، إنما هو شيء واحد، وهو جهلنا كيفية الإحسان

لا ريب أننا اليوم أمة، وأننا نتبع الأصول الاجتماعية في كل أمورنا العامة، وأننا نرى بأعيننا تسخير الطبيعة، ونستخدمها لأنفسنا، ولا ريب أننا مجتمع من المجتمعات المتمدنة، ولنا وصف طويل في علم الشعوب، وأن بلادنا ذات لون واضح في خريطة الأرض، ولكن مع هذا كله لا نزال في طريقة إحساننا كأننا في منقطع العالم، أو في رءوس الجبال، وكأننا لا نزال في معركة الاجتماع الطبيعي التي يكون الإنسان فيها جيشاً، والحيوان جيشاً يقابله

نحِسن إحساناً طبيعياً صرفاً، من الفرد للفرد، كيف اتفق وحيث اتفق. نعطى الدرهم بكَسَل لمن يأخذه، لا لكي يعمل به، ولكن ليكون ثمرة من ثمار كسله. . . في العصور الطبيعية تخرج الأرض أثمارها بعد أن تكون العناصر كلها قد اجتمعت على إنضاجها وعملت فيها أعمالاً كثيرة، فيأتي الإنسان ليمد يده، ولا يعمل عملاً أكثر من أن يمدها. وعندنا تخرج أيدي المحسنين دراهمها، فيأتي بعض الناس ليمد يده، ولا يعمل كذلك عملاً أكثر من أن يمدها. نحسن مثل هذا الإحسان الذي يذهب به وقته، فلا ننتفع به في إصلاح الأمة، ولا ينتفع به الفقير نفسه، لأنه في الأكثر يُفسدهُ ولا يُصلحه. ولا يوجد اليوم في أيدي الناس درهم من دراهم الخرافات، يصلح أن يكون رأس مال، ولا في خبزهم رغيف من رغفان المعجزات التي تشبع الجماعات الكثيرة. والفقير متى أكل بالدرهم الذي يُحسَن به إليه، فقد شبع من جوع، وتهَّيأ لجوع جديد، فيذهب الإحسان والدرهم كما هما، ويبقى الفقير والجوع كما هما أيضاً!

من أجل ذلك وما يتصل به، فشلنا وذهبت ريحنا، وركدنا والناس طائرون. ومن أجل ذلك أراني أحب هذه الجمعية المباركة، وأكرم رجالها والقائمين بها، وأمدحهم وأعتدُّهم من العظماء

فالجمعية صندوق أموال، وهي نفسها صدر يخفق في قلب الإنسانية. والجمعية سبب من أمتن أسباب الإحسان، وهي نفسها طريقة أفضل من طرق التربية الاجتماعية، وأكبر فضلها أنها من هذه الأمة كالظل في الرمضاء، والرقعة المخصبة في الجدب العريض، وأنها مجتمع صحيح في أمة متبدَّدة يمزِّقها كل شيء، حتى الأديان التي تعلم أن الناس أخوة من أب واحد. وحتى السياسة التي تجعل أفراد كل أمة أعضاء من

أسرة واحدة. وحتى الأدب الذي يضرب مثل الإنسان للإنسان، بمثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى

مجتمع صحيح من هذه الأمة العجيبة التي بهرتها الأمم بمعجزات الوطنية والاتحاد والإنسانية والعلم والأدب والاختراع، وأعجزت هي الأمم كلها في قاعدة حسابية غريبة، وهي أنها أفراد ولكن ليس لها مجموع في (الحساب)!

ليست العظمة بظهور المرء كما يظهر الممثل أمام المتفرجين في خلقة مزوّرة من رأسه إلى قدمه، ولا في هذه الأخيلة الذهبية التي تملأ رءوس الأغنياء كأنها أرواح الذهب، ولا في نحو ذلك من السخافات (العظيمة) التي ملأت الشرق كله. ولكن العظمة أحد شيئين: علم منتج، أو عمل مثمر. العظمة خلق إنساني يوجده العلم أو يوجد هو العمل الإنساني العظيم. فإن لم يكن علم صحيح، ولا عمل صحيح، فاجمع بين الماء والنار قبل أن تجمع بين النفس والعظمة. وقد أرى الرجل من عظمائنا وهو من تعاظمه لغناه أو لمنصبه أو لجاهه أو لحسبه، كأن رأسه صندوق من صناديق الموسيقى، وكأن كل حركاته وكلماته إنما توقع توقيعاً منتظماً مع (النفخة) التي تخرج من هذا الصندوق، ومع ذلك فلا أكرمه ولا أجد له في نفسي من المنزلة، ولا أحفل بتلك العناصر الأربعة التي أنشأت عظمة من الغنى أو المنصب والجاه والحسب، إلا كما يكون في نفسي لبعض قطع من الخشب والحديد والمعدن والنحاس، وهي العناصر التي تصنع منها الأدوات الموسيقية

العظيم ذات مبنية على مبدأ، وما دام كذلك فهو عظيم في خلقه وفي عمله، ولا يسلب هذه العظمة منه إلا الموت. على أن التاريخ يقوى على الموت فيستلبها منه، ويحفظها لصاحبها العظيم، ثم ينفض عليها صبغة الخلود، فإذا هي حياة ثانية لاسم من الأسماء الخالدة التي لا تموت إلا حين يموت الموت! وإذا كانت الذات مبنية على مبدأ، فيستحيل أن يسقط الرجل العظيم وذاته قائمة

وعلى هذه الجهة أتفاءل بمستقبل جمعية الاتحاد المباركة لأنها مظهر من مظاهر الأخلاق الفاضلة في نفوس القائمين بها؛ فهي بناء من الأبنية الراسخة، ولكن انظر إلى أحجارها الخالدة، فإن كل حجر إنما هو المعنى الإنساني الذي تنطوي عليه نفس الرجل العظيم

عندنا رجال كثيرون، ولكن ليس عندنا مبادئ ثابتة. فالذي ينقصنا إنما هو المبدأ. والرجل إذا لم يكن على مبدأ، فهو من يوم يولد إلى يوم يموت، إنما يتسكع في طريق الأقدار ليقطع مسافة ما بين مهده ولحده. وقد تكون هذه المسافة طويلة أو قصيرة، ولكنها على كل حال،

ليست إلا طريقاً من طرق الموت. ثم يذهب من الدنيا وكل ما بقى له فيها حجر من الأحجار، إذا وجد من ينظر فيه وجد من يعرف أنه كان في هذه الدنيا رجل اسمه فلان وهذا قبره

الحياة شيء أسمى من قطع العمر كله في إيجاد قبر من القبور يكون له اسم ولقب وتاريخ. كل منا حين يعتزي يقول عن نفسه كذباً: إنه سوري أو مصري؛ فما الذي صنع هذا القائل لمصر أو سوريا؟ ألا إن البلاد لا تعرف الناس بأسمائهم وطبيعة الإقليم لا تميز بين أناسها وحيواناتها؛ فمن الحمير والبغال وصنوف الحيوان ما يقال فيه سوري ومصري أيضاً. ولكن الأوطان تعرف أهلها بأعمالهم؛ وطبقة الفرق بين الإنسان والحيوان إنما هي طبقة تاريخه لا غير

قولوا في الشرقي على العموم إنه من بني آدم فقط. ومتى وجدتم رجل المبدأ الذي يظهر مبدأه في عمله والذي لا يعمل إلا ليتم تاريخ أمته، وليكون صفحة من كتاب مستقبلها، والذي لا يخرج من الدنيا حتى يترك من فضائله المنسوبة إليه شخصاً معنوناً يسمى باسمه، ويلقب بلقبه، ويؤرخ بتأريخه؛ متى وجدتم هذا الرجل، فقولوا فيه حينئذ، بل دعوا بلاده تقول: إنه مصري أو سوري. من أكبر عيوبنا أننا لا نعرف الخلق العام الذي يجانس بين أفراد كل أمة، ولا نجده إلا في أفراد قليلين منا، وهو الذي تقوم عليه الوطنية. ومن أجل ذلك، ليست لنا أمة اجتماعية، ومن أجل ذلك لا نتحد. فقدنا الخلق العام أو المبدأ الاجتماعي الذي يرمي لإنشاء المستقبل، وترقية الحاضر، وحفظ الماضي، فصارت الصلة بين الفرد والفرد من الأمة الواحدة، صلة لفظية لا معنى لها. أو لستم ترون أننا - كما هو مشهور عنا - يرائي بعضنا بعضاً حتى في الحق، ويجامل

بعضنا بعضاً حتى في الواجب. وليس منا من يقدر أن يقول دائماً للباطل (لا) وللحق (نعم)؟ أقول (دائماً)، ولا أريد معناها الصحيح، لأن قيمة كل شيء تعلو وتنزل عندنا بحسب الأحوال حتى الكلمات التي لا تعلو ولا تنزل. فإن شئتم، فاعتبروا معنى قولي (دائماً) غالباً أو بعض الأحيان لأن الشرقي قد فقد الخلق الثابت، فلا ثبات له على شيء، ولا ثبات بشيء معه. ولولا أن أسماء الفضائل من اللغة، وأن هذه اللغة ثابتة في كتبها التي تحفظها، لكانت أكثر أسماء الفضائل اليوم عندنا هي نفس أسماء الرذائل!

انظروا إلى الرجل الإنكليزي الذي هو نتيجة التاريخ الحاضر: إنه لا يثق بثلاثة أرباع الأرض التي تملكها دولته، كما يثق بقدر أنملة في باطنه. فالأرض كلها وهي تدور على محورها، وتتقلب بالتاريخ أجيالاً ودولاً، ليست في عين الإنكليزي أكبر من قلبه الذي يخفق بين جبينه، والأرض لا تحفظ له فضيلة، ولكن فضيلته تحفظ له الأرض.

كل إنكليزي قد يراه الناس مصبوباً من معادن بلاده حتى الفحم الأسود. ولكنه يرى نفسه إنكليزياً، ولا يبالي ما وراء ذلك. ترونه كالحديد المصمت لا ينبعث له صدى، لأنه للعمل والحمل والثبات والاستمرار. وإذا كان الشرقي حديداً أيضاً. . . فهو كالجرس سواء كان في الأعلى أم في الأسفل، ليس إلا أن يهتز ويصيح بالأصوات الرنانة من جوفه الفارغ. . . يعمل الواحد منا عملاً ضئيلاً، أو عملاً لا قيمة له، فيملأ الدنيا كلاماً، ويملأ ما ضِفَيْه فخراً، ويملأ رأسه بهذا النوع الذي يسمونه جنون العظمة. وما ذلك من جهلنا لقيمة كل عمل، ولكن من عجزنا عن أكثر الأعمال النافعة، ومن مجازفتنا بالأوصاف رياءً ومجاملة. وقد ذكر الرواد الذين ضربوا في مجاهل الأرض أنهم رأوا قبيلة من قبائل الزنوج كان أجمل وسام تسطع عليه الشمس في صدر ملكها علبة فارغة من علب السردين!

هي علبة من علب السردين الفارغة التي يطرحها أفقر الناس في الطرقات، وهي قطعة من الصفيح قد لا تكون لها قيمة، ولكن ذلك لا يمنعها أن تكون وساماً في صدر الملك الزنجي، ومتى قلنا (الملك الزنجي) فكأننا قلنا (الزنجي) فقط، لأن أوصاف المتوحشين متوحشة أيضاً، فلفظ الزنجي يأكل لفظ الملك، وكذلك أوصاف الضعفاء، وكذلك أعمال الشرقيين.

لا تظنوا أني أنتقص الشرق وأهله وتاريخه. كلا، ولكني أصف عيوباً لا يجعلها من المحاسن أنها عيوبنا. ولو سئل أفضل رجل شرقي عن أحسن فضيلة فيه، لقال إنها شرقية. ولو سئل أرذل رجل شرقي عن أقبح رذيلة فيه، لقال أيضاً إنها شرقية. فهذا الشرق الذي هو مهد التاريخ، هو كذلك مهد الأديان ومبعث الفضائل. لكن أهله قد أضاعوا أنفسهم وأضاعوه. فإذا رأوا الفضيلة قالوا غربية، وإذا رأوا الرذيلة، قالوا شرقية، وأحالوا بكل ذنب على الشرق، كأن الأرض تنبت الرجال، وتهيئ لهم العمل، وتوحي إليهم المخترعات! وكأننا نريد أن تكون هذه الأرض مثلنا في التقليد. فالبحر يهز أمواجه، ويجب على الأرض أن تهز أهلها ليتخبطوا على ساحل الحياة.

ما تقدم الغربي وجرى مسرعاً لأن أرضه من المطاط، ولا تأخر الشرقي وجرى متعثراً لأن أرضه من الصمغ؛ ولكن أكبر رذائلنا أننا لا نتحد، لأننا نجهل التربية الاجتماعية. وقد تخلقنا بالأخلاق الفردية فصار الألف منا وأكثر من الألف لا يحسنون عمل اثنين متحدين. . . الجبل تصعد عليه مائة قدم شديدة الوطأة فلا تؤثر فيه ما تؤثر فيه ما تؤثر النحلة؛ وتتناوله مائة ألف ساعد قوية فتزيله عن مكانه، لأن طبيعة الأقدام غير طبيعة الأيدي. فإن لم نجتمع، ونأخذ أنفسنا بأصول التربية الاجتماعية فلا تنتظروا من الشرقي أن يعمل عملاً.

مصطفى صادق الرافعي

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

اتجاه جديد في الحياة المصرية - أخيلة ريفية تساور الكتاب المصريين - تاجوج المريضة في السودان - فرصة لن تضيع - نقد الشعر على أساس وحدة البيت - قصة أدبية - شاعر يتحدى جميع الشعراء

اتجاه جديد في الحياة المصرية

التاريخ الأدبي والعلمي لمصر يشهد بأن المصريين كانوا يعتزون بالريف كل الاعتزاز، فينتسب الأديب واللغوي والفقيه إلى بلده الذي ولد فيه بأسلوب يفصح عن ارتياحه لذلك الانتساب. وفي رجالنا العظماء من عرفوا بالنسب إلى بلادهم، بحيث صارت تلك النسبة هي العلم الأصيل، وبحيث صار الاهتداء إلى أسمائهم الأولى يحوج الباحث إلى مراجعة كتب التراجم والتاريخ

الأشموني النحوي، والشنشوري الفرضي، والباجوري الفقيه، والدميري المحيط: أمثال هؤلاء لا يعرفون بغير هذه الأنساب، وهي غاية في التعريف، وعلى مثلها يقاس في الأعلام المنسوبة إلى قرى الريف بمصر الشمالية ومصر الجنوبية

ومن غريب ما لاحظت أن النسبة إلى العواصم كانت قليلة، فلا يقال القاهري أو الفسطاطي إلا في أندر الأحايين!

ولعل السيوطي حين انتسب إلى سيوط لاحظ أن بلده ليست إلا دسكرة من دساكر الريف، وإن الانتساب إليها يميزه عن القاهريين

وأكثر من تولوا رياسة الأزهر منسوبون إلى بلادهم، من أمثال: البشري والمراغي والظواهري؛ وهذه الظاهرة أوضح من أن تحتاج إلى استقراء

ولكن، ما الذي أفدناه من الانتساب إلى قرى الريف؟

الفائدة تفوق الوصف، فقد أضفت على القرى المصرية لمحات روحية، وزادت في قيمها

المعنوية، وربطت أهلها برباطٍ وثيق، وأطمعتهم في معاني المجد والخلود

ومن الذي يمر على أشمون أو شنشور أو الباجور أو إسنا أو ملوي أو أسيوط أو منفلوط، ولا يتذكر أن هذه البلاد كانت منابع لعبقريات حفظ فضلها التاريخ؟

ولكن الحال تبدلت فيما بعد، وصار الانتساب إلى الريف لا يقع من الأنفس موقع القبول. وزاد الخطر بتوهم أهل الريف أن لا قيمة للحياة في غير الحواضر، وأن الريف لا يصلح مقاماً لغير العاجزين عن الانتفاع بثمرات التمدن الحديث، وصار من حق الفلاح أن يودع المسافر إلى القاهرة بهذا النشيد:

(ليلتك سعيدة وسعيدة يا رايح مصر)

ثم لطف الله بالمصريين فوصلوا قراهم بعد القطيعة، وآنسوها بعد الإيحاش، وأصبح من المألوف أن تجد فتى من حملة الإجازات العالية يحدثك عن متاعبه في البحث عن أدوات الحرث والحصاد، وصار من السهل أن تجد في الوزراء السابقين من يستغل نشاطه في استئجار الأراضي الواسعة بالريف

وأظهر أمراء مصر عناية بمزارعه هو صاحب السمو الأمير عمر طوسون، فقد سمعت أنه يعرف أملاكه قطعة قطعة، وأنه يراقب الأسعار مراقبة الخبراء. وهذا هو السر في أن الله حفظ عليه نعمة اليسار العريض

أخيلة ريفية

والذي يهمني من هذا كله هو انتفاع الأدب الحديث بعودة المصريين إلى الريف، فقد لاحظت أن في كتابنا من تساورهم الأخيلة الريفية، وهي أخيلة على جانب من الجمال، وستغذي الأدب الحديث بألوان وألوان

ولتوضيح هذه الفكرة أذكر أني كنت ألوم الأستاذ الزيات على طول مقامه بالريف، ثم تمنيت أن يقيم بالريف إلى آخر الزمان حين رأيته يقول:

(وفي الريف خطباء وشعراء كعصافير الحصاد، تزقزق للحبة، ولا تزقزق للزهرة)

وهذا كلام عجيب غريب، أعني أنه من النفاسة بمكان

وفي صباح اليوم قرأت كلمة للدكتور سعيد عبده في (مجلة الساعة 12) كلمة من جنس كلام الأستاذ الزيات في الاستفادة من الأخيلة الريفية، فالتفت ذهني إلى هذا المعنى من جديد،

فما كلمة ذلك الدكتور الفلاح؟

تكلم عن المعارضين في مجلس النواب فقال (إن عددهم أقل من عدد الدحريج في القمح النظيف)

أي عبارة هذه؟ وما الذي فاتها من خصائص التشبيه الدقيق؟

ولو نظرنا في تذييل هذه العبارة لوجدناها أعجب وأغرب، لأن التذييل كان لمحة من

النقد اللاذع لما صرنا إليه من الوجهة المعاشية، ويكفي أن أقول إنه قيد القمح النظيف بالقمح الذي كان قبل سنة 1939

تاجوج المريضة في السودان

في قصيدة الشاعر محمد سعيد العباسي جاءت هذه الأبيات:

فيا ابن المباركِ عِش سالماً ... وبُورِكَ في زَندك الواريهْ
تغنيتَ حيناً بليلى العراق ... فأحللتها الرتبة الساميهْ
فمُد لنا فضل ذاك العِنان ... عنانَ يراعتك الطاغيهْ
وألممْ بتاجُوجَ واحفِلْ بها ... فتاجوجُ جوهرةُ الباديهْ
وعلِّقْ على جيد تاريخها ... دراريَّ أبحرك الطاميهْ

فمن تاجُوج؟ من تاجُوج وما تحدث عنها أحد من الذين قصوا أخبار العشاق؟

هي فتاة جميلة عفيفة، أحبها فتى جميل عفيف، وكانت لهما أخبار تشبه ما كان بين ليلى وقيس، ولعشاقها أشعر لا تقل روعة عن أشعار المجنون، عليهم جميعاً رحمات الذي خلق ثمرات النخيل والأعناب!

سمعت أول مرة بأخبار تاجوج وأنا في بغداد، من خطاب فتى سوداني عز عليه أن تشغلني ليلى عن تاجوج، فرمى سهم العتاب من الخرطوم إلى الزوراء

سهمٌ أصابَ وراميه بذي سَلَمٍ ... من العراق لقد أبعدتَ مرماكِ

ثم اتفق بعد رجوعي إلى مصر أن أبحث عن أخبار تاجوج فرأيتها مسطورة في رحلة سمو الأمير يوسف كمال إلى السودان في أقل من صحيفتين، فعاهدت الله والحب أن أكتب أخبارها في مئات الصفحات

ولكن متى؟

قلبي يحدثني بأن الله لن يبخل علي بتحقيق هذا الحلم الجميل

كانت (تاجوج) تعيش في (عروس الرمال)

فما عروس الرمال؟

سترون وصفها بعد حين أو أحايين

فرصة لن تضيع

في العام الماضي أرسلت إلى المهرجان الأدبي في السودان بحثاً عن (الطريق عن الوحدة العربية) وهو أول وحي جاد به السودان على قلمي. وفي هذا العام تفضل رئيس المهرجان فوجه إلي دعوة كريمة لإرسال كلمة أو قصيدة تلقى في المهرجان، فرأيت أن أرسل إليه قصيدة عن مصر الجديدة. ولكني عرفت أن آخر موعد لتقديم الكلمات والخطب والقصائد هو اليوم العشرون من رمضان، فماذا أصنع؟

سأنشر قصيدتي في العدد المقبل من (الرسالة) مهداةً إلى نادي الخريجين، وبذلك لا تضيع فرصة الاشتراك في ذلك المهرجان، فالمهم هو تعاون العقول، وتآخي النفوس، وتناجي القلوب. وقد يتفضل الله فيسمح بالفرصة المقبلة، فرصة المؤتمر الذي يعقد في عيد الأضحى، وللمؤتمر هنالك معنى يختلف عن المهرجان باختلاف الموضوعات الأدبية والقومية والاجتماعية

ولعل الأقدار تسمح بأن يكون لنادي الخرجين في السودان قوة الجمعية الطبية المصرية، فيومذاك ينتفع بما سنت من التقاليد فلا يكتفي بالتنقل بين مدائن السودان عند إقامة المهرجانات والمؤتمرات، وإنما يتنقل بين المدائن العربية فيكون مرة في الخرطوم ومرة في القاهرة ومرة في دمشق ومرة في بيروت ومرة في بغداد

وبهذه المناسبة أقول: هل أقامت الجمعية الطبية المصرية أحد مؤتمراتها في الخرطوم أو أم درمان، مع أنها زارت أكثر الحواضر العربية وفكرت في زيارة طهران؟ أجب عن هذا السؤال، يا معالي الدكتور علي باشا إبراهيم!

نقد الشعر على أساس وحدة البيت

من رأي بعض القدماء أن الشعر لا ينقده غير الشعراء، وحجة ذلك البعض أن الشاعر هو الذي يدرك الدقائق الشعرية، ويعرف ما يباح وما لا يباح من التأنق والابتذال والظاهر أن ابن الرومي هو أول شاعر نص على أن الجودة المطلقة لا تشترط في كل بيت، ولكن هذه النظرية لم تتضح في ذهن ابن الرومي كل الاتضاح، بدليل أنه ساقها مساق الاعتذار، حين قرر أنه ليس أعظم من الله، والله يخلق الشجرة وفي أغصانها القوي والضعيف

ولو أن هذه النظرية كانت اتضحت في ذهن ابن الرومي لترك جانب الاعتذار واعتصم بجانب الاحتجاج. وتفسير ذلك أن جمال الشجرة مجمل لا مفصل، فهي جميلة في مرأى العين، بغض النظر عما فيها من أغصان ضعاف، ولعل جمالها لم يكمل إلا بفضل تلك الأغصان الضعاف

وأوضح هذه النظرية بعض التوضيح فأقول: في كل وجه جميل ملامح تكميلية تؤكد ما فيه من جمال، ولكنها منفردة لا توصف بالجمال

وفي الزهرة الجميلة أوراق يعوزها الحسن، ولكن جمال الزهرة يحتاج إليها كل الاحتياج والأرض الجيدة لا تستوي أبداً، وعدم استواء الأرض الجيدة هو الذي يتيح لها فرصة الانتفاع بالشمس والهواء

وما يقال في المحسوسات يقال في المعقولات، فالنبوغ الفائق هو في ذاته لون من الانحراف، لأنه صورة من طغيان بعض المواهب على بعض، ولو استقامت المواهب الإنسانية استقامة مطلقة في جميع الناس لكان من المستحيل أن يتفوق الإنسان على الحيوان

تفوق جارحة على جارحة أو ملكة على ملكة، وهو أساس النبوغ والعبقرية، ولكن وجود الجارحة الضعيفة أو الملكة الضعيفة شرط أساسي في تكوين ما يقوى من الجوارح والملكات، كما أن الغصن الضعيف سناد للغصن القوي في تكوين الشجرة الفرعاء والقصيدة كالشجرة، يستبد فيها البيت القوي بالبيت الضعيف، وعلى أساس القوة والضعف ينهض بناء الوجود

وإذن؟

وإذن يخطئ من يجاري القدماء في نقد كل بيت من القصيدة على حدة، وإنما الرأي أن تكون أبيات القصيدة كمسامير السفينة، مسامير السفينة تختلف باختلاف مواطن الرباط والوثاق

ولو نظر القدماء هذه النظرة لأعفونا من أبحاث كان فيها نقد الشعر قائماً على وحدة البيت لا وحدة القصيدة، فكان مثلهم مثل من يعيب الغابة الشجراء، لأنه عثر فيها على شُجَيرة عجفاء

قصة أدبية

وهذا الكلام ساقته قصة أدبية تلخصها الأسطر الآتية:

بدا لي أن أقرأ (قصيدة مصر الجديدة) على الدكتور طه حسين، فاعتذر بالسفر إلى فلسطين. وأردت عرضها على الأستاذ خليل مطران، فحدد موعداً، ولكني تخلفت عن الموعد ساعة وبضع دقائق، فانصرف قبل أن يلقاني مع الأسف، فقد كنت أرجو أن أنتفع بنقده الدقيق. وعند خروجي من مكتب الأستاذ خليل مطران لقيت الأستاذ محمد هاشم عطية فدعوته لسماع القصيدة عساه يعطي رأياً في تنقيح بعض الأبيات؛ ثم كان رأيه أن هذه القصيدة يفسدها التنقيح، فعرفت من جديد أنه ذلك الأديب الفنان

ما هذا الكلام؟ أتروننى أعتذر عما سيقع في قصيدتي من ضعف كما اعتذر ابن الرومي؟

هيهات ثم هيهات! فقصيدتي هي القصيدة، ولن يستطيع شاعر أن يجاريني في أي ميدان؟

راية الشعر يحملها المصريون، ولن تنزع هذه الراية من أيدينا، ولو سهر ليل الإخوان الأعزاء في سائر الأقطار العربية

قد تقولون: ما هذا الغرور؟ وما هذا الادعاء؟

وأقول إني سألقى عليكم قصيدة تلقف ما تأفكون، وسأقهركم على الإيمان بعبقرية مصر الشعرية في هذا الزمان

زكي مبارك

المحاباة ومصدرها الاجتماعي

للأستاذ عبد الله حسين

في يوم صائف من أيام عام 1940 كنت مع بعض زملائي المحامين في غرفتهم في دار محكمة استئناف مصر الأهلية، وانتظمنا جماعة نعرض لشئون الدنيا العامة والخاصة بشتى فنون الحديث وألوان التخريج والتأويل، ونترصد لها بالنقد والتأميل. فبدهنا الزميل المحترم عبد الرحمن الرافعي بك، وهو من هو في أمثال هذه

المعالجات والبحوث، بكلام في المحاباة:
تحدث الزميل مستغرباً متسائلاً: ما بال حكومات مصر قد بليت ببلية المحاباة، كأنها أساس من أسس الحكم، لا يستوي على حال مرضية إذا لم تكن في حساب الحكام؟ ثم سأل بعدئذ: أليس هناك علاج لهذه العلة الفاشية؟
وقد سارعت يومئذ إلى الإجابة على هذين السؤالين قائلاً عن السؤال الأول: إن المحاباة ليست خلقاً لحزب بذاته أو بلية ابتلى الله بها عهداً دون عهد أو حكماً دون آخر؛ بل إنها تستند إلى ما ورثنا من عادات. ذلك أن الأمة هي الصورة الكبرى للأسرة؛ وما دمنا نعمد في أسرتنا إلى إيثارها بالغنم والخير ولو كان هذا على حساب أسرة أخرى أو جميع الأسر الأخرى، فليس لنا أن نشكو ظاهرة المحاباة في الأسرة الكبرى: الأمة.
إن عاداتنا وأخلاقنا لتقتضينا أن نعني بشئون أبنائنا وأبناء عمومتنا وخؤولتنا وأصهارنا، فإذا قام منا سيد أو حاكم، وزيراً كان أو غير وزير، اقتضته الشهامة أن يؤثر ابنه على ولد أخيه، وولد الأخ على ولد العم، وهذا على من كانت صلته بعيدة. فإذا اطمأن الحاكم أو السيد على الخير قد وصل إلى أحد من هؤلاء على الترتيب والتعاقب، وكانت هناك فضلة من هذا الخير، لزمه أن يؤديها إلى الصديق أو المواطن في الفرية ذاتها أو إلى ابن حزبه
أما إذا تغشى صاحب الكلمة والنفوذ وهم من تلك الأوهام، أو رجس من تلك الأرجاس، التي ينعتونها على أسلات الأقلام أو منابر الخطابة والوعظ والدعوة السياسية، بالنزاهة التامة والعدالة الحق، فحدث ما شئت عما يصيب هذا الرجل من ألوان التشهير، فهو - عند ذويه وأصهاره وبنى قريته وبين صُدقانه - الخارج على الأسرة، المارق من المروءة، الجاحد للفضل، المختلس لثقة ناخبيه إن كان منخوباً لعضوية إحدى الهيئات، الضعيف
الرأي، الأناني، الخائر العزيمة؛ بل لقد يتمادى الطاعنون في طعنهم، فيرمونه بالخيانة لأن من ينكص عن خدمة ذويه وأصدقائه وأسرته، لا يرجى منه خير لوطنه وأمته. أو بأنه في حقيقته لم ينحدر من صلب آله وقومه!
فمن منا - من المصريين يرضى أن يدرج مع الساقطين في المروءة والوطنية؟ فهذه المحاباة - والأمر كما أوضحنا - ليست شيئاً مستغرباً وليست حادثة موقوتة يرجى علاجها إذا ما ولى عهد وخلفه آخر، أو إذا ما سقط سيد وقام بالأمر بعده سيد آخر، مهما يختلف مداها سعة وشططاً وعلة وتعليلاً
إنها ليست بحدث الأحداث كما يغلو بعض الكاتبين، وليست بطارئ ظهر في هذا الزمان
بل أن المحاباة - وهي من خلق الإنسان منذ الخليقة - تقع في الصدر من أخلاقنا وتستقل بالصميم من عاداتنا
إنما الجديد فيها أننا نهضنا نهضة سياسية جديدة، فأصبح لنا أحزاب سياسية ذات أنصار وأنصار للأنصار، وأصبح لنا برلمان ونواب وشيوخ، ولابد لمجيء هؤلاء من الناخبين، ولا سبيل إلى الفوز بالأصوات إلا بخدمة المصوتين أو بذل الوعد لهم بتأديتها
ومن ثم انتقلت المحاباة من ميدان القرية، حيث يشتد النزاع حول العمديات والشياخات وتقديم أنفار القرعة وحول الميراث وحدود الأطيان وما يجب لها من ري وصرف - إلى الحكومة، فكان ما شهدنا ونشاهد، وما من أجله تناول الناقدون ما تناولوا من الإنحاء على المحاباة والمحابين
أما الإجابة على السؤال الثاني، وهو كيف نعالج هذا الداء، ونبرأ من هذه العلة - فإن الواجب أن نعمد إلى تقوية الرأي العام، فإن رأينا العام ضعيف، أو قل إنه قوي حيناً، ضعيف أحياناً. . .
أعني بتقوية الرأي العام، تقوية المعنى الوطني، أي أن تقوم تربية النشء على تقديم مصلحة الوطن والدولة على مصالح الأفراد التي تتعارض مع تلك المصلحة
هذه واحدة؛ وواحدة أخرى علينا أن نبذل ما نستطيع لكي نجعل الانتخابات في جميع صورها وأن نجعل ألوان التأييد للحكومات والثقة بها بمعزل عن الوظائف والتعيين فيها والترقية إليها. . .

وأني لا أقدر في أسف شديد وألم عميق، أن أجيالاً قد تمضي قبل أن نستطيع أن نقضي على هذا الداء قضاء تاماً، وأن كل ما نطمح إليه يجب أن يكون مقصوراً على تخفيف ويلاته، والحد من مضاعفاته. وفوق كل ذي علم عليم.

عبد الله حسين

من أدب العراق الشعبي

مم وزين

فاجعة كردية خالدة

للأستاذ عبد المسيح وزير

عنوان قصة فاجعة غنائية كردية خالدة يتغنى بها مغنون اختصاصيون من (مم وزين) كرد وغيرهم في العراق وفي باقي الأقطار التي يستوطنها العنصر الكردي كسورية وتركية وإيران. ولا أزال اذكر كيف كنا ونحن أطفال نلتف مع والدينا وأقربائنا وأصدقائنا الذين كانوا يزوروننا بدعوة خاصة حول موقد النار أو (الكرسي) في ليالي شتاء ماردين القارس محيطين بمغني (مم وزين) مصغين في صمت عميق إلى غنائه الابتدائي البسيط بصوته الجافي الذي لا رخامه فيه ولا فن. وكان المغني في فترات الاستراحة من الغناء يقص علينا القصة باللغة العربية. وكان الغناء والقصة يستغرقان ساعات الهزيع الأول من الليل ويزيد. وكنا بعد الغناء ننام ونحن نحلم بشقاء الحبيبين وحياتهما الغرامية المرة التي انتهت بموت كليهما

وعندي أن قصة (مم وزين) لا تقل شأنا عن فواجع الإغريق القدماء فيما لها من اللذة والمتعة باعتبارها قصة خيالية شائقة تسترعي سمع الكبار وتخلب لب الصغار فيسهرون مصغين إليها بلا ملل

وهذه الفاجعة من جملة فواجع كردية أخرى مثل (درويش عبدي) و (جامي مازي) و (فليت قطو) التي لما ينشر منها شيء حتى الآن سوى فاجعة (مم وزين) المنشورة باللغة الكردية وحدها؛ فهذه هي المرة الأولى التي تنشر فيها خلاصة (مم وزين) بغير اللغة الكردية، وبذلك تكون مجلة (الرسالة) الغراء السابقة إلى نشرها على ما أعلم وقد طالعت في كتاب (ألف ليلة وليلة) قصة مختصرة فيها بعض الشبه بقصة (مم وزين). أعتقد أن جامع قصص (ألف ليلة وليلة) اقتبسها من (مم وزين) التي كانت شائعة في ذلك العهد في المناطق الكردية شيوعها في هذه الأيام

وأؤمن أن يتاح يوماً لهذه القصة الفاجعة شاعر عظيم عربي، أو أعجمي، ينظمها في مسرحية شائقة، أو قصيدة علواء، نظماً ساحراً يذيع صيتها في الدنيا الأدبية على ما فعله الشاعر الإنكليزي (فتزجرالد) بنقله رباعيات (عمر الخيام) إلى اللغة الإنكليزية، فيضيف بذلك إلى متاحف الأدب العالمي درة يتيمة جديدة من كنوز الآداب الشرقية المكنونة في العراق

(ع. و)

القصة

في مدينة نائية قائمة على نجد خصب بين قنن الجبال في بلاد الكرد حكم أمير شاب اسمه (مم) اشتهر بكرم أصله وجلال قدره وهيف قده وجمال صورته ومتانة خلقه وعلو همته وندرة بطولته. وكان الأمير أعزب لم يفكر قط في أمر الزواج، لأنه لم ير في مملكته أميرة حسناء تضاهيه في الحسب والنسب ليقترن بها

ففي ذات يوم فاتحه وزراؤه في أمر الزواج فلم يحر جواباً. ولما انفض مجلسه ذهب إلى فراشه لينام فأرقه التفكير في أمر الأميرة التي يختارها زوجاً فتلد لعرشه وارثاً. ولما أعياه التفكير غلبه النعاس فاستغرق في نوم عميق، فرأى نفسه مجتمعاً بالأميرة (زين) الغادة الحسناء بنت أمير الجزيرة تلك المدينة الجميلة الراكبة على نهر دجلة. وبعد سمر سعيد طويل ثمل فيه الأميران بخمرة الحب الخالص والغرام البريء تعاهد (مم) و (زين) على الزواج على أن يخطب الأمير الأميرة إلى اخوتها الأمراء (جَكُّو) و (حَسُّو) و (قره تاج الدين)؛ لأن والدها الأمير كان قد توفى. ورمزاً إلى عهد الحب والزواج تبادل الأميران خاتميهما، فوضع (مم) خاتمه في إصبع (زين)، ووضعت (زين) خاتمها في إصبع (مم)؛ ثم اضطجع العاشقان للنوم في فراش واحد، فانتضى (مم) حسامه ومده بينه وبين (زين) المضطجعة بجانبه رمزاً إلى صيانة عفاف العذراء وشرفها وعهداً منه على ألا ينال منها وطراً قبل الزواج شرعاً بإذن الله وأوصيائها

أفاق الأمير (مم) على تغاريد الأطيار التي نقلها نسيم الصباح إلى أذنيه، فقال في نفسه: (ما ألذ حلم هذه الليلة! ليتني لم أفق من النوم) وحانت منه التفاته إلى أصابعه فوجد أن الخاتم الذي في إصبعه غير خاتمه. فتفرس فيه فقرأ اسم الأميرة (زين) بنت أمير الجزيرة منقوشاً
في ذلك الخاتم. فحار في أمر وعلم بأن ما كان في ليلته البارحة لم يكن حلماً بل حقيقة. أما صورة الأميرة الحسناء فلم تبرح ذهنه
وكذلك كان أمر الأميرة (زين) فإنها لما استيقظت من نومها على خرير دجلة حسبت حادث الليلة البارحة حلماً في النوم؛ ولكنها لما وجدت خاتم (مم) في إصبعها اعتقدت أن في الأمر أعجوبة، لأن ما رأت كان حقيقة لا حلماً. وكانت صورة الأمير (مم) الجميل مطبوعة طبعاً ثابتاً في مخيلتها
أما حقيقة الخبر، فهي أنه في الليلة التي فكر فيها الأمير (مم) في الزواج أوقعه الجن في سبات عميق، ثم حملوا إليه (زين) من خدرها وجرى ما جرى بين الأميرين في تلك الليلة. وقبيل انفلاق الصبح أوقعه الجن مرة أخرى في سبات عميق هو وحبيبته وعادوا بالحسناء (زين) إلى خدرها في الجزيرة بغير شعور منها
لما أفاق الأمير (مم) من سباته ووقف على جلية الأمر قطع على نفسه عهداً ألا يتزوج غير الأميرة (زين) بنت أمير الجزيرة. فنهض من فوره وارتدى ملابسه وحمل سلاحه وامتطى جواده وخرج من المدينة بغير علم رعيته قاصداً الجزيرة ليخطب بنت أميرها التي حملها إليه الجن في الليلة البارحة السعيدة. وبعد سفرة طويلة شاقة وصل الأمير (مم) إلى تلك المدينة فذهب تواً إلى قصر الأمراء المطل على دجلة وحل ضيفاً على اخوة (زين) الثلاثة الذين اكرموا وفادته. فنعى خبر قدومه إلى الأميرة (زين) فحملها الشوق الشديد إلى رؤيته على ركوب كل مركب في سبيل الوصول إليه. فتحينت كل فرصة سانحة للاجتماع به غير آبهة لعذل العذال ولا مكترثة لنميمة النمامين. وطفقت تجتمع به سراً حين يخرج أخوتها الأمراء إلى الصيد والقنص، إذ كان (مم) يتخلف عن الذهاب معهم بحجة يختلقها كل يوم فيتذرع بها للبقاء في القصر وحده لكي يتاح له الاجتماع بحبيبته.
وكان في القصر وزير اسمه (بكو عوان) من دأبه إيقاع الأذية بالناس ولا سيما أولئك الذين كانوا موضوع حسده. فحقد هذا الوزير على الأمير (مم) وطفق ينتهز الفرص للإيقاع به. فبث العيون والأرصاد ليأتوه بأخبار (مم) و (زين). فعلم بأمر اجتماعهما، ووقف على ما كان يجري بينهما، وأخذ يدس للعاشقين عند الأمراء أخوة (زين)، ولكن أولئك الأخوة لم يعيروه أذناً صاغية.
واتفق يوماً أن (مم) تخلف على عادته عن الخروج إلى الصيد مع الأمراء بحجة المرض. فاجتمعت به (زين). وبينما كان الحبيبان يتباثان لواعج الهوى إذا بالأخوة يدخلون القصر راجعين من الصيد ومعهم (بكو عوان). فأسرع (مم) إلى إخفاء (زين) تحت عباءته الواسعة المنسوجة من المرعز، ولكنه نسى أن يخفي إحدى ضفائر شعر (زين) الطويل فبرزت من العباءة دون أن يشعر بذلك (مم). فدخل الأخوة الأمراء ودخل معهم بكو عوان الديوان الذي كان فيه (مم) فلم ينهض (مم) لهم بحجة مرضه.
ولم يشاهد ضفيرة الشعر الخارجة من العباءة أحد سوى (بكو عوان). فأسر (بكو عوان) في أذن الأخ الأكبر (جكو) قائلاً: (ما أوقح هذا الضيف! أرأيت كيف أنه لم يقم إجلالاً لكم وأنتم الأمراء بل ظل جامداً في مكانه كأن الداخلين من عامة الناس أو من خدمه وحشمه؟) فأجاب (جكو) قائلاً:
(تباً لك من وغد ذميم! إن عدم قيام (مم) ليس تكبراً بل ذلك عجز منه لأنه مريض).
فقال بكو معترضاً: (كلا، ليس السبب مرضه، وقد لا يكون عدم قيامه لكم لتكبره، إلا أنني أرى سبباً آخر يمنع الأمير الضيف من القيام)
قال هذا وأشار بيده إلى ضفيرة شعر الأميرة البارزة من العباءة
فلما وقعت عين جكو على الضفيرة، استشاط غيظاً فطرد أخته زين من الديوان، وأمر بزج مم في غياهب السجن، وكان السجن حبساً ينزل إليه بأربعين دركة
فظل مم في السجن أربعين يوماً وليلة وهو يقاسي أشد آلام البين. وما انفكت زين في خلال تلك المدة تسعى لدى أخوتها لإطلاق سراح مم بدعوى أنه خطيبها جاء ليخطبها من أخوتها. وأخيراً تمكنت زين من التغلب على دسائس بكو عوان، فأقنعت

اخوتها بالإفراج عنه
وفي موعد إخراج الأمير مم من سجنه بعد مضي أربعين يوماً على حبسه، لبست زين أفخر ملابسها، وتحلت بأثمن حليها وسارت مع أربعين فتاة عذراء من أجمل بنات المدينة إلى السجن لتخرج منها حبيبها السجين في موكب العذارى. . . ولما وصلت إلى رأس السلم نادت مم بصوتها العذب. . . فنظر إليها نظرة ولهان لم يصدق ما يشهده، فرأى زين في غاية الجمال الفتان. . . أما زين، فخيل إليها أنه غاضب عليها وعلى اخوتها فخاطبته تقول:
(أمم. . . إذا كنت لا ترضى بي عروساً بعد الذي جرى فاختر لك من هؤلاء الحسان زوجاً تليق بك!)
فوقع كلام زين وقع الصاعقة على مم، لأنه اعتقد أن زين قد نفرت منه فلا تريده بعلاً لها. . . فخرجت حينئذ من أنفه نقطة دم واحدة، وسقط جثة هامدة!
أما زين، فرجعت في موكب العذارى خائبة كئيبة ونفسها حزينة حتى الموت. . . وبعد مدة قصيرة توفيت هي أيضاً هماً وكمداً على فراق حبيبها، وأوصت بدفنها في البقعة التي دفن فيها مم!
بعد أربعين يوماً خرج الأمراء (جكو) و (حسو) و (قره تاج الدين) ومعهم وزيرهم (بكو عوان) إلى الصيد والقنص على سابق عادتهم. وفي أثناء الصيد مرت الخيل بفرسانها بالقرب من البقعة المدفون فيها جثمان العاشقين فغارت قائمة جواد (جكو) في حفرة وكان (بكو عوان) راكباً إلى جانبه. فنظر الأمير إلى الحفرة فوجدها ضريح (مم) ووجد جثة (زين) ممددة بجانب جثة (مم) وقد تعانق الحبيبان. فقال (بكو عوان) للأمير:
(أنظر تر هذين العاشقين الخبيثين لا يزالان يرتكبان المنكر حتى في مماتهما!)
فاستشاط الأمير غيظاً من هذا الكلام المنكر واستل سيفه وضرب عنق (بكو عوان) وقال وهو ينهال عليه ضرباً:
(أذهب إلى حيث ألقت، أيها اللعين! ألا ترى أن الله يجمع ما يفرقه الإنسان الخبيث مثلك؟)
فسقط (بكو عوان) ميتاً في تلك البقعة فدفن في مكان بعيد عنها، إلا أن تلك البقعة المقدسة ظلت ملوثة بدمه النجس. وبعد مدة زار الأخوة تلك البقعة فرأوا زهرة جميلة عطرة نابتة على قبر كل من العاشقين وقد برز بين الزهرتين الجميلتين شوكة قبيحة سامة أنبتها دم (بكو عوان)
وإلى اليوم يزور العشاق مرقد ذينك الحبيبين ليمطروا ثراه بالرحمات الواسعة (بغداد)
عبد المسيح وزير
إيبيقوس
للأب أنستاس ماري الكرملى
(تتمة ما نشر في العدد الماضي)
5 - كنا نود أن يرأف الأستاذ مندور بأجداده العرب
قلت - يا سيدي الأستاذ - ما هذا نصه، وقد ورد في ص812 من (الرسالة): وإذا ذكرنا أن كومودوس هو أبن مارك أوريل، وأن إتيقوس قد أشرف أيضاً على تربيته كما أشرف على تربية أبيه، وإذا كان من الممكن أن يكون قومودس إمبراطور روما قد كتب إلى إتيقوس باللغة اليونانية يطلب إليه كتباً وأشعاراً، وأن العرب قد علموا بذلك - مترجماً عن اليونانية ترجمة لا نعلم مبلغ دقتها؛ فأي غرابة في أن يكونوا قد جعلوا إتيقوس شاعراً يونانياً، ومن قومودوس ملكاً لليونان، مادام مصدرهم كان يونانياً، ومادام التوحيدي يورده على سبيل الرواية؟ وهل العرب كانوا يعرفون شيئاً دقيقاً عن الشعراء اليونان ومعلمي البلاغة عندهم، حتى نستعبد أن يخلطوا بين الشاعر ومعلم البلاغة، أو أن يستنتجوا من يونانية النص أنه تبودل بين يونانيين؟
انتهى كلام الأستاذ مندور المدرس بكلية الآداب في مصر
فيا سيدي، أهذا هو إكرامك للعرب أجدادك وأنت تنشئ تلاميذ عرباً ليقدروا أجدادهم أحسن تقدير؟ فكيف تتمكن بعد ذلك من تعليمهم احترام أسلافهم بعد أن قلت عليهم أنهم ما كانوا يميزون بين الشاعر ومعلم البلاغة، حتى أنهم كانوا يخلطون الواحد بالآخر؟!

ذلك ما لا نقبله منك، ونلتمس من حضرتك بعد هذا أن تكرم بني مضر الإكرام اللائق بهم، لأن الدقة في التعريب بلغ منهم أبعد مبلغ، حتى أن المستشرقين المعاصرين يدهشون مما جاء به هؤلاء الدهاة الذين لا يشق لهم غبار! فنحن يا سيدي نحتج عليك وعلى قولك هذا، ونرجو منك ألا تعود إليه ولا إلى مثله، وتعوض عنه بما يغفر لك سيئتك هذه!!

نتيجة الأستاذ الجليل - 6

- ختم الأستاذ نبذته - ويا ليته لم يكتبها! - بقوله: (ولعل في هذه القراءة ما يطمئن إليه ولو مؤقتاً - الأب الفاضل، إلى أن يقترح غيرنا قراءة أصح) انتهى

قلنا: لم نطمئن إلى هذا المقال دقيقة واحدة. والدليل عل ذلك، وعلى أننا لم نقبل منه رأياً واحداً من جميع تلك الآراء كثرة ما ورد فيها من التشويش والارتباك وعدم بقائه في قرار مكين

وكيف نطمئن إلى ما ذهب إليه وهو نفسه لا يطمئن إليه؛ إذ قال في آخر آرائه: (ولعل في هذه القراءة. . . ولو مؤقتاً. . . إلى أن يقترح غيرنا قراءة أخرى.

فهذه كلها أقوال هدامة، ناسفة لكل ما أورده من الآراء والقراءات، حتى اضطررنا إلى أن نمعن في البحث كل الإمعان لنجد ضالتنا، فوجدناها والحمد لله في الأول والآخر.

من كان ملك يونان الذي طلب ايبيقوس؟ - 7

هذه مسألة في نهاية الغموض؛ فإن هذا الملك لم يكن ثيودسيوس، كما قال الناشران في 153: 2، ولا قومودس، كما ذهب إليه حضرة أستاذنا الذكي المدرس بكلية الآداب في مصر الزاهرة، ولاتودورس، على ما ورد في حاشية ص153. وسبب كل هذا الإنكار أن هؤلاء جميعهم كانوا روماً لا يونانيين خلافاً لما يذهب إليه أستاذنا المدرس. ولعله يفعل هذا تحقيقاً لقولهم: خالف تذكر؛ ولأنهم لم يكونوا جميعاً من المائة السادسة قبل الميلاد. وكفى بذلك دليلاً على أنه لم يكن أحد منهم الملك الذي طلب إيبيقوس.

إذن من عسى أن يكون هذا المنشود؟. إننا نظن أن الاسم تيودوسيوس وغيره من قومودوس ولاتودورس من وضع النساخ، لا من وضع الناطق به لأول مرة، أي أبو سليمان المنطقي السجستاني. وكثيراً ما كان النساخ يضعون في مواطن الأسماء المجهولة، أو الأعجمية، أو الصعبة القراءة أو النطق بها، ألفاظاً مشهورة مألوفة سهلة التلفظ بها، إن في الأعلام، وإن في المصطلحات العلمية، بل في الأحاديث النبوية نفسها

فمن الأول قولهم في الهيودروموس البذروم (راجع كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبه ص109 من طبعة أوربة سنة 1306). وقد قال ناشره في الحاشية: وسماه ابن رسته: البذرون والبيدرون واليبذرون. ونشر الأستاذ الجليل الشيخ عبد القادر المغربي في المقتطف 101 ص274 وما يليها مقالة قال فيها: إن العَلَم (ناصف تحريف ولدته اللهجة التركية عن نصوح) - وحضرته يعتقد هذا الأمر حاق الاعتقاد. أما نحن فلا نسلم به، بل

نظن أن من كان اسم واحد ممن اتصل بالترك ناصفاً، كان اسمه أيضاً (نصوحاً)، فكان يعرف (بناصف نصوح) معاً، كما قالوا: محمد علي، ومحمد حسن، ومحمد حسين، إلى نظائرها، ثم تُرِك العلم الأول وأُخِذ العلم الثاني، وهو كثير عندهم فقالوا: (نصوح) أو (نصوحي). أما أن يكون (ناصف) تصحيف (نصوح) أو بالعكس فبعيد عندنا

ومن الثاني قولهم: الشكار والبتكار في التنكار. والرجات والزاحات في الزاجات. والراوندي والرموندي والرواندي في الزراوندي لنوع من البورق. والمحّوض والمحوَّض والمجوَّص والمخصص في المخوص، لنوع من التوتيا (راجع مفاتيح العلوم طبعة فان فلوتن ص210 و211)

ومن الثالث، ما ذكره أبو عبد الله حمزة بن حسن الأصفهاني المتوفى سنة 367 هـ في كتابه (التنبيه على حدوث التصحيف): (إن كثيراً من رواة الحديث يروون أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: تختموا بالعقيق؛ وإنما قال: تختموا (بمعنى تعمموا) بالقيق. وهو اسم واد بظاهر المدينة. وروى آخر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان يسحب العسل يوم الجمعة، وإنما هو يستحب الغسل في يوم الجمعة. ورووا: غم الرجل، ضيق أبيه، وإنما هو عم الرجل صنو أبيه، أي شبهه. وقال عليه السلام: خراب بصرتكم بالريح، وإنما قال بالزنج) انتهى

وبعد هذا البسط الوجيز الذي لا بد منه في هذا المقام، لوقوع التصحيف والتحريف في الكتب المخطوطة، نظن أن اسم الملك الذي طلب الشاعر اليوناني إيبيقوس هو أحد هؤلاء الأربعة:

فأما أن يكون (بولقراطس وهو طاغية ساموس (من سنة 535 إلى سنة 542 ق م. وكان محباً للعلوم والآداب، واجتذب إليه أنا كريون، كما ذكرته المعلمة البريطانية) وفريقيديس وشاعرنا إيبيقوس. وكان قد أنشأ خزانة كتب ثمينة

وأما أن يكون (بيستراتيدس وكان طاغية آثينة، ومن قرابة صولون. وكان قد ساعد على ازدهار الصنائع والفنون والحراثة والزراعة، وحسن آثينة، وأمر بإعادة النظر في قصائد أوميرس وعمم نشرها بالنسخ والنقل وهي التي أصبحت أمّا لجميع ما نشر منها بالطبع بعد ذلك. وكان من أبناء المائة السادسة

وإما أن يكون ابنه (هبياس الذي خلف والده على كرسي الملك في سنة 528 ق م، مع أخيه هبرخس فاجتذب إلى بلاطه الشاعرين (أنا كريون) و (سيمونيدس وأنشأ خزانة كتب عامة، وإنما أعمال أبيهما في ما يتعلق بأشعار أوميروس وتصحيحها وإبرازها بحلة موشاة أحسن وشي

وإما أن يكون (برياندروس وهو طاغية كورنتس من سنة 621 إلى سنة 584 ق م. وكان قد خلف ولده قبسيلوس ووضع بعض أقوال حكمية اشتهرت فعد بين حكماء اليونان السبعة. وكان محامياً للعلوم والآداب والفلسفة، فاجتذب إلى كورنتس كليون وأنا خرسيس هؤلاء هم أشهر ملوك يونان المعروفين بحبهم للعلوم والآداب، وجذب العلماء والشعراء إلى بلاطهم، فكانوا يشركونهم في مجالس أنسهم وطربهم وشربهم ومآدبهم. وربما كان هناك غير هؤلاء الأربعة الذين ذكرناهم لكننا نجهلهم لجهلنا تاريخ اليونان وشعرائهم وأدبائهم

ولعل الأستاذ (محمد مندور) يهدينا إليهم أو إلى بعض منهم لأنه يظهر - على ما يبين من كلامه - أنه وقف على كتب اليونان التي لم يصب فيها قصة الكراكي، مع كل توغله في مطالعة أسفار تواريخهم وآدابهم، فجاءنا بكراكي مندورية، وغابت عنه الكراكي الأيبيقوسية

الخاتمة والخلاصة - 8

ظهر لنا، ولكل محب للتاريخ الحقيقي المبني على أخبار الأوائل، لا على الأوهام، لا على الأقاويل الأباطيل الفارغة، أن الشعر اليوناني الشهير الذي طلب من سرب الكراكي أن ينتقم له، كان (إيبيقوس)

أما اسم الملك الذي كتب إليه يستقدمه فلا يعرف على التحقيق، ولعله كان أحد هؤلاء الأربعة: (بولقراطس) أو (بيسستراتيدس) أو (هبياس) وأخوه هيرخس أو (برياندروس) وكانوا معاصرين جميعهم (لايبيقوس)، والله أعلم.

الأب أنستاس ماري السكردلى
من أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية

من أدباء الصعيد في القرن السادس
الرشيد الأسواني
للأستاذ محمود عزت عرفة
(تتمة ما نشر في العدد الماضي)

دعواه الخلافة في اليمن

آلت هذه الدعوى بالرشيد إلى القبض عليه وتجريده، ثم إنفاذه مكبلاً إلى قوص وسجنه بها، وكان حاكمها (طرخان) ممن يسرون له عداوة قديمة؛ فشهره في الاسواق، ولم يقصر في إضعاف العقوبة له، ولكن سرعان ما ورد الأمر من قبل الملك الصالح بإطلاق سراح الرشيد، ولما يمض على اعتقاله أكثر من ليلتين (وكان الصالح إذ ذاك والياً على منية ابن خصيب)

ومن الغريب حقاً أن يكون هذا كل ما ينال الرشيد من عقوبة على دعواه الجريئة؛ وما من ريب في أن التهمة - بهذا الوضع - مبالغ فيها، ولا سيما إذا ذكرنا أن بعثته إلى اليمن وقعت في عهد الخليفة الحافظ لدين الله، والد الخليفة الظافر الذي رثاه الرشيد أول مقدمه إلى القاهرة

وقد حدد موعدها الأدفوي بعام تسع وثلاثين وخمسمائة - أي قبل وقفته في رثاء

الخليفة الظافر بعشر سنوات - فهو لم يكن وقت هذه البعثة على شيء من الجاه أو النفوذ، يكفل له النجاة من عواقب دعوى جريئة، كتلك التي نسبت إليه، إن كان يجدي في مثل هذا نفوذ أو جاه!

نعم، قد يكون لسعي أخيه (المهذب) الذي كان عظيم الحظوة لدى الملك الصالح أثره في العفو عنه. . . ولكن، هل يتفق مع نوع هذه التهمة أن يأمر الصالح - بعد ليلتين من وصول الرشيد - بإطلاق سراحه والإحسان إليه، فيحضره والي قوص من سجنه مكرماً - كما يذكر ياقوت -؟

التهمة ولا شك مبالغ فيها - كما ذكرنا - وغير مستبعد أن تكون قد دست عليه في جملتها وتفصيلها، ثم تبينت براءته منها بوجه لم يدع إلى مؤاخذته سبيلاً. ويؤيد هذا الرأي عندنا

أن الأدفوي (صاحب الطالع السعيد) يؤكد براءته من تهمة دعوى الخلافة بدليل يمكن أن نعده قاطعاً. فقد ذكر أنه ذهب إلى اليمن داعياً للخليفة الحافظ، متلقباً بعلم المهتدين، حتى قال فيه بعض شعرائهم من قصيدة بعث بها إلى صاحب مصر:

بعثت لنا علم المهتدين (م) ولكنه علم (أسود)!

ثم قال: (وقد وقفت على محضر كتبه باليمن، فيه خط جماعة كثيرة، أنه لم يدع الخلافة، وأنه مواظب على الدعوة للخليفة، رأيت المحضر بأسوان)

ويذهب ابن خلكان في تعليل الغضب عليه واعتقاله مذهباً آخر - دون أن يشير إلى قصة ادعائه الخلافة - فيذكر أن الرشيد كان قد مدح جماعة من ملوك اليمن، منهم علي بن حاتم الهمداني الذي قال فيه:

لقد أجدبت أرض الصعيد وأقحطوا ... فلست أنال القحط في أرض قحطان
وقد كفلت لي (مأرب) بمآربي ... فلست على (أسوان) يوماً بأسوان
وأن جهلت حقي زعانف خندفٍ ... فقد عرفت فضلى غطارف همْدانِ

قال: فحسده الداعي في عدن على ذلك، وكتب بالأبيات إلى صاحب مصر، فكانت سبب الغضب عليه

المهذب أخو الرشيد

كان من أسباب تعجيل العفو عن الرشيد ما سعى به أخوه المهذب (حسن بن الزبير) لدى الملك الصالح؛ وكان لديه أثيراً وبه مختصاً

والمهذب شاعر معروف، مجيد في نظمه وفي نثره. ذكره العماد الأصفهاني، فأجزل في الثناء عليه ثم قال: هو أشعر من الرشيد، والرشيد أعلم منه. ومن شعره قوله:

هْمُ نصبُ عيني أنجدُوا أم غاروا ... ومُنى فؤادي أنصَفوا أو جاروا
وهموا مكان السِّر من قلبي وإنْ ... بعُدتْ نوى بهمو وشطَّ مزارُ
تركوا المنازل والديار، فما لهم ... إلا القلوبَ منازلٌ وديار
واستوطنوا البيد القفار فأصبحت ... منهم ديار الأنس وهي قفارُ

وله أيضاً هذا البيت الذي يستشهد به علماء المعاني كثيراً، في باب الإطناب:

ومالي إلى ماءٍ سوى النيل غُلةٌ ... ولو أنهُ - أستغفُر الَله - زمزمُ

وهو من قصيدة يمدح بها كنز الدولة ابن متوج أولها:

بأيِّ بلادٍ غير أرضي أخيمُ ... وأيَّ أناسٍ غيرَ أهلي أيِّممُ

ومن أشهر شعر المهذب قصيدة له تسمي (النواحة) كتب بها إلى داعي اليمن يمدحه ويستعطفه على أخيه، ويقول فيها:

يا ربعُ أين ترى الأحبة يَّمموا؟ ... هل أنجدُوا من بعدنا أم أتهموا؟
رحلوا وقد لاح الصباح وإنما ... يسرى إذا جُنَّ الظلامُ الأنْجمُ
وتعوضت بالأنس روحي وحشةً ... لا أوحش لله المنازل منهمو!
لولا همو ما قمتُ بين ديارهْم ... حيرانَ أستافُ التراب وألثِم

وقد أجاب الرشيد على هذه القصيدة بميمية من وزنها قال فيها:

رحلوا فلا خلتِ المنازلُ منهمو ... ونأوْا فلا سلتِ الجوانحُ عنهمو
وسرَوْا - وقد كتموا الغداةَ مسيرهم - ... وضياء نور الشمس ما لا يُكتَم
وتبدَّلوا أرضَ العقيق عن الحمي ... روَّت جفوني أيَّ أرض يمموا!
ما ضرهم لو ودَّعوا من أودعوا ... نار الغرام، وسلَّموا من أسلموا
هم في الحشا إن أعرقوا أو أشأموا ... أو أيمنوا أو أنجدوا أو أتهَموا

في غمرة السياسة

خرج الرشيد من معتقله موفور الكرامة، ممتلئ النفس بالآمال الجسم؛ وقد انتقل بعد حين إلى القاهرة فاحتل مكانه مومومقة بين أدبائها.

وكانت أبواب المناصب أمامه مفتوحة، وسبله إليها معبدة. ولكن همته كانت أبعد من أن تفق من ذلك عند غاية، وقد اختير في عام 559 هـ ناظراً على الدواوين السلطانية في ثغر الإسكندرية، فكان ذلك على كره شديد منه؛ ولعله كان أشد اهتماما وقتئذ بما جرى في مصر من أحداث سياسية، اجتذبه تيارها - بعد حين - فخض غمرتها في جرأة وطموح كفاه حياته

وتفصيل ذلك أن أبا شجاع شاور بن مجير - وكان والياً على الصعيد الأعلى - قصد القاهرة بعد مقتل الملك الصالح عام 556 هـ وتمكن من قتل العادل وزير الخليفة العاضد (آخر خلفاء الفاطميين)، واحتلال مكانه من الوزارة. ثم لم يلبث أن خرج عليه أبو الأشبال

ضرغام بن عامر فطرده من القاهرة وتولى الوزارة بعده.

وقد ذهب شاور إلى الشام مستنجداً بالملك الصالح نور الدين محمود زنكي أمير حلب، الذي أمده بجيش يقوده أسد الدين شيركوه (عام 559هـ) فانتصر على ضرغام وتبوأ منصب الوزارة من جديد.

ولكن ما عتم أن تنكر لحلفائه وخان عهد من نصروه، واستعان بملك الإفرنج صاحب بيت القدس على محاربتهم وطردهم؛ وبعد مناوشات وحرب وحصار انسحب شيركوه مرتداً بجيشه إلى الشام.

وفي أثناء هذه الحوادث كان يبدو ميل الرشيد إلى نصرة شيركوه، وقد جرت بينهما مكاتبات انتهى أمرها إلى شاور فحنق عليه حنقا شديداً وجد في طلبه ولكنه اختفى. . . واعتقل شاور المهذب - أخا الرشيد - لنفس التهمة. ولم يجد لديه ما استعطفه به من رقيق الأشعار، حتى التجأ إلى ابنه أبو الفوارس شجاع ابن شاور - وكان كريم النفس خيرا - فتقبل منه مدائحه التي بعث بها إليه من معتقله، وعنى بأمره أبلغ عناية، حتى تمكن من إخراجه من محبسه، ثم ضمه إليه ورفه من حاله واصطنعه. . . ولم يمتد حبل الحياة بالمهذب بعد هذا طويلاً فمات في ربيع الثاني من سنة 561 هـ

وفي عام 562 هـ عاد شيركوه إلى مصر فاستولى على الجيزة وهزم الإفرنج في الصعيد، ثم مضى إلى الإسكندرية فافتتحها، وجعل عليها ابن أخيه صلاح الدين يوسف. ولما عاد شيركوه إلى الصعيد حاصرت عساكر الإفرنج والمصريين مدينة الإسكندرية؛ وقد جاهد صلاح الدين في سبيل الاحتفاظ بها ثلاثة أشهر. وظهر أثناء ذلك أبو الحسين الرشيدي بعد أن طال اختفاؤه، واقبل يقاتل بين يدي صلاح الدين بسيفه؛ ولم يزل معه حتى تم رفع الحصار باتفاق أجراه الطرفان إثر عودة شيركوه، وبذلك تم انسحاب عسكر الشام

القبض على الرشيد ومقتله

لم يمض غير يسير على الحوادث حتى وقع الرشيد في قبضة شاور وكان حقده عليه بالغاً. قال ياقوت: (اتفق أن ظفر به على صفة لم تتحقق لنا، فأمر بإشهاره على جمل، وعلى رأسه طرطور، ووراءه جلواز ينال منه) وقد رؤى على هذه الحال الشنيعة وهو ينشد:

إن كان عندك يا زمان بقيةٌ ... مما تهين به الكرام فهاتها

وشنق الرشيد وهو على حال عجيب من التجلد وفرط الاحتمال؛ وقد ظل يتمتم بآيات من القرآن الكريم حتى فاضت روحه، وكان ذلك في المحرم من سنة 563 هـ ورواية المنذري عن مقتله تقول: (دخل مع الناصر الإسكندرية وكتب في أمور، فأخذه شاور وعذبه عذاباً شديداً. فبلغه أنه قال: (الهوان والعذاب من الملوك في طلب الملك ليس بعار. فأمر به فضربت عنقه)

وقد دفن الرشيد في الموضع الذي صلب فيه؛ ثم نقلت رفاته بعد عام أو أكثر إلى مقبرة خاصة في مدافن القاهرة.

(جرجا)

محمود عزت عرفة

الأثر المصري
في نهضتنا الأدبية الحاضرة
للأديب بشري السيد أمين

قبل فتح السودان الأخير الذي تم للحكومتين المصرية والإنجليزية في سنة 1898 بقليل، كان الأدب والعلم بمعناهما المعروف في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين محصورين في فئة قليلة من الناس. فلما أراد الله، ولا راد لإرادته، وقضى، ولا ناقض لما قضى، أن يتم فتح السودان الأخير على المصرين والإنجليز، كان غنماً لنا بدل أن يكون غرماً علينا، وعاد علينا بأحسن الفوائد وأبركها بدل أن ينزل على رؤوسنا الويل والثبور وعظائم الأمور. وهذا من أعجب ما يبعث في النفوس العجب؛ إذ كان المنظور أن تأتي النتائج بعكس ذلك؛ وهذا طبعاً لا ينفي القول الكريم بأن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة. فانتشر العلم، وذاع الأدب، وشاع في السواد الأعظم من شباب مدننا لكثرة ما أنشأ السادة الحاكمون من المدارس في مدن السودان الكبيرة وعواصمه، وما اهتموا به من شأن العلم والتعليم، وما أنشأوا من صحف وطبعوا من كتب. هذا إلى جلبهم مطابع لهذا الغرض وفت به كل الوفاء، وجعلت مدن السودان وأقاليمه القاصية، مرتبطة بالدانية منها، كالسلسلة الواحدة، لا يفصمها إلا بعد المسافة. وحتى هذه ذللت تذليلاً حال استقرار الحكم للمصريين والإنجليز بالبلاد، بإنشاء الخطوط الحديدية العديدة في كثير من أنحاء السودان وقد تولى التعليم في مدارس السودان أكفاء من خيرة الأساتذة المصريين، المشهود لهم بالعلم الغزير والأدب الكثير، فأداروه على خير الوجوه وأحسنها، وتصرفوا في شؤونه تصرفاً هو الغاية لمن يريد الإحسان، فكان عهد المصريين الأول من خير العهود التي مرت بالسودان في جميع أدواره الثقافية

وإني لأذهب إلى القول الآن غير متحفظ أن نهضتنا الأدبية الحاضرة ما هي إلا وليدة تلك الروح العلمية الأدبية السامية التي سرت إلينا من إخواننا المصريين الذين تولوا تعليم ناشئتنا في المدارس التي أنشأوها، والتي وجهتنا بعد ذلك فأحسنت التوجيه

ولا يفوتني أن أذكر - وأنا أكتب عن الأثر المصري في الأدب السوداني - ما للمحاضرات والمساجلات والمسامرات التي كان يتولى شؤونها أساطين البلاغة وجهابذة

القول من المصريين في مجتمعاتنا وأنديتنا الأدبية بمهارة لا يشركهم فيها غيرهم، ولباقة لا يدانيهم فيها سواهم، من أثر لا يمحى، ولا زال واضح الصبغة، مشرق اللون في بعض أدبائنا على الخصوص، وفي أدبنا على العموم وفهمنا

للأدب ومعناه، وللعلم وجدواه، لا يعود الفضل فيها إلا إلى الأساتذة المصريين الذين تولوا تربيتنا وتثقيفنا بصفة مباشرة، أو غير مباشرة.

فنحن مدينون لهم بالفضل، ومقرون لهم بالجميل، فلولاهم، ومن يدري، لظللنا إلى الآن نسبح في ظلامين دامسين من جهلنا ولوننا: ظلام جهلنا الذي لا زال يبدده هذا الصبح الواضح لذي عينين، صبح العلم والمعرفة؛ ونسأل الله أن يأتي على بقاياه في زمن قريب. أما ظلام ألواننا، فهو آية من آيات الله الشاهدة فينا بقدرته وإعجازه، لأن الصبح بدل أن يجلوه يزيده إظلاماً!

إذ أضفت، إلى ما تقدم شغف شبابنا المثقف بما تخرجه الصحف، وتطلع به الكتب كل يوم من روائع الأدب المصري على أنواعه في الأغراض، وألوانه في الأساليب، أدركت في يسر سر انطباع أدبائنا على هذه الأنواع في الأغراض والألوان في الأساليب، لأن مثل هذا السحر في البيان العربي الممتاز مما لا يقوى على رده ومقاومته الأدباء الراسخون في الأدب وصنعة البيان، فكيف بمن هم حديثو عهد بالأدب ومزاولة الكتابة؟

ولأدركت في يسر كذلك أن هذه الثمرة من تلك الشجرة، ولتنبأت لنهضتنا الأدبية المباركة هذه بعاقبة تصير الهلال قمراً، والفجر صبحاً، والليل نهاراً. أو لم تسر النهضة الأدبية المصرية في بدايتها على مثل هذه الدرجات من التقدم حتى وصلت إلى ما وصلت إليه الآن من مكان ملحوظ ومجد باهر في عالم الأدب؟ فكذلك سيكون شأننا نحن في المستقبل القريب إن شاء الله.

ويتجلى لك بوضوح تام شغف شبابنا المتأدب بالأدب المصري المعاصر في تأثر بعضهم بأساليب بعض أئمة البيان هناك تأثراً تنم عليه أساليبهم وتفضحه ألسنتهم مفتخرة!

فمنهم من يقلد الدكتور هيكل، ومنهم من يحاكي الدكتور طه، والأستاذ الزيات، والأستاذ المازني، ويشغف بأدب هؤلاء وغيرهم، حتى لا يجد غضاضة أن يفخر على غيره بأنه يملك القدرة التي تمكنه من تقليد أسلوب أحد المذكورين أو غيره في ما يكتب للصحف والمجلات. ولو سكت - عفا الله عنه - لدل من نفسه الفرع على أصله من غير تنبيه أو لفت نظر!

على أن هذا ليس فيه لفاخر فضل، بقدر ما فيه من عيب واضح، وضلال فاضح.

ولا أنسى بجانب هذا أن أذكر أن لنا أدباء بالمعنى الصحيح، وأن لهؤلاء الأدباء أقداماً راسخة في الأدب على ألوانه وأوضاعه، وأنهم قد أوتوا من حسن البيان وسحره، وقوة التعبير وفصاحة الأسلوب وخلوصه من الشوائب قدراً يخلوهم الوقوف مع كبار أدباء العربية في العالم العربي، وإن آثارهم التي تطالعنا بها صحفنا المحلية كل يوم، أو الكتب التي أخرجوها للناس - وهي قليلة - من بضع سنين إلى اليوم، تشهد بهذه الحقيقة الواقعة، وتشهد فوق ذلك بأنهم لا يقلدون غيرهم، ولا يتأثرون سواهم في أسلوب أو تعبير أو فكرة، إلا إذا جاء ذلك عن غير قصد، لأنهم يريدون لأدبهم حياة، ولأمتهم بقاء ومكاناً ملحوظاً تحت الشمس، ولا يتأتى لهم ذلك، إلا إذا كانوا كذلك، والفضل في ذلك راجع إلى حسن توجيه الأدب المصري ورسمه لنا الطريق التي يجب على أدبائنا سلوكها كي تكون نهضتنا الأدبية نهضة بالمعنى الصحيح لقيامها على أمتن الدعائم، وأقوى الأسس التي يشاد عليها بناء نهضة أدبية لأمة متيقظة طامحة إلى المجد متطلعة إلى العلاء.

وبعد، فإن الأثر الأدبي المصري في الأدب السوداني المعاصر أثر واضح لا ينكر أو يخفي على ذي بصيرة وبصر للأسباب المذكورة آنفاً، وهي أسباب قوية حرية أن توجهنا توجيهاً رشيداً نحو العلم والأدب إن أحسنا الاسترشاد بها والتهدي بهديها، ولكن لابد للطفل من أن يقلد أباه بادئ ذي بدء حتى يكبر فيرسم لنفسه طريقاً في الحياة ليسير عليه، ولعلنا نجتاز الآن - في ثبات وهدى من أبصارنا وبصائرنا - هذه المرحلة

(السودان: الجزيرة أبا)

بشري السيد أمين

أحلام (المنصورة)

للأستاذ صالح جودت

آه مَّما بي، وهل تدرين ما بي؟ ... يومَ وَدَّعْتُكِ وَدَّعْتُ شَبَابِي!

أين أحلامي على تلك الروابي؟ ... ذابت الأحلامُ في قلبي المذابِ

لي حبيبٌ فيكِ أفْدِيه بعُمري

سُمْرَةُ النيل على خديّه تجري

هو إبهامي وأحلامي وشعري

ونعيمي بين عينيه وسُكري

كان عند الليلة الظلماء بدري

وله نجواي في دُنيا اغترابي ... يا ترى يذكرني بعد الغيابِ؟

آه مَّما بي، وهل تدرين ما بي؟ ... يومَ وَدَّعْتُكِ وَدَّعْتُ شَبَابِي!

يا عروس النيل والبحر الصغيرِ

حَدِّثي عن مَلِكِ الغرب الغرير

يومَ أنْ جاءكِ في ذُل الأسير

لِفتىً من آل أُبَّ أمير

ذكْرُهُ لا زال نفَّاحَ العبير

وَهَبَ النصر إلى الأُسْدِ الغِضَابِ ... مِنْ بَنِي (المنصورة) الغُرِّ الأوابي

آه مَّما بي، وهل تدرين ما بي؟ ... يوم ودعتك ودعت شبابي!

يا مُنَى الشرق وباريسَ الجَنُوبِ

مَنْ كأبنائِكِ في غَزْوِ الشعوب

شهداء المجد أبطال الحروب

وكغاداتك في غَزْوِ القلوب

بالعيون السُّودِ واللحظ اللَّعوب

المنى بَعْدَكِ مِنْ وَهْمِ السَّرَابِ ... والصِّبي في غير لُقْياكِ تصابى
آه مَّما بي، وهل تدرين ما بي؟ ... يوم ودعتك ودعت شبابي!
قد صحبتُ النيل من فجر الصعيدِ
لرشيد وإلى أخْتِ رشيد
ما وعى لحني ولا غنى نشيدي
غيرَ غاداتك في الخطو الوئيد
حين يَخْطرْنَ على النيل السعيد
بالوجوه السُّمْح كالنور المذاب ... يَتَهادَيْنَ بمعسول الدُّعَابِ
آه مَّما بي، وهل تدرين ما بي؟ ... يوم ودعتك ودعت شبابي!

البريد الأدبي

ما لم ينشر من أدب الرافعي

في العدد الماضي من (الرسالة) قطعة ممتعة للمرحوم الأستاذ مصطفى صادق الرافعي، فات الأستاذ العريان أن يضمها إلى مقالات الرافعي التي جمعها في الجزء الثالث من كتاب (وحي القلم)؛ والرافعي - طيب الله ثراه - كان أديب العربية الذي لا يلحق في صوغه وغوصه؛ لذلك كان كل ما يخطه قلمه تحفة فنية غالية، يجب أن يحرص عليها الأدب العربي

كما قال الأستاذ الزيات بحق؛ فهل من ،(!لقد كان الرافعي في الكتابة طريقة وحده) عجب أن يعد الباحث الذي يعثر على مقالة ضائع له، أو قطعة مفقودة من وضعه، كالذي عثر على كنز أو ثروة!؟

إن الأستاذ العريان قد أدى للأدب العربي خدمة جليلة، حين شغل نفسه بجمع آثار الرافعي التي لم يسبق نشرها مجتمعة في كتاب واحد؛ وهو بإصداره الجزء الثالث من كتاب (وحي القلم)، قد أطلعنا على كنوز مخفية، أو ضائعة، طالما تاقت نفوسنا إلى الاطلاع عليها. . . يقول الأستاذ العريان في تصديره للجزء الأول من (وحي القلم): أما الجزء الثالث، فهذه طبعته لأولى؛ كان قصاصات من صحف، وصفحات من كتب ومجلات، فعاد كتاباً بين دفتين. . . وقد جمعت ما قدرت عليه بعد، فأضفته إلى ما جمع المؤلف، ورتبت كل ذلك وهيأته للمطبعة؛ فإن كان قد فاتني شيء مما ينبغي إضافته إلى ذلك الجزء. . . فمعذرة إلى قارئه؛ ولعلني - بمعونة القراء - أستدرك في الطبيعة الثانية - إن شاء الله - ما فاتني في الأولى)

وقد عثرت - عرضاً - على قطعة للرافعي عن (الإحسان الاجتماعي) المنشورة في صدر هذا العدد، فرأيت أن ألفت إلى ذلك نظر الأستاذ العريان، حتى يضمها إلى الجزء الثالث من (وحي القلم) في الطبعة الثانية إن شاء الله؛ وهذه القطعة قد ألقيت في سبتمبر سنة 1914. وعلى الرغم من أن الرافعي كان يومئذ - لا يزال - أديباً ناشئاً في مقتبل العمر - إذ كان لا يتجاوز الرابعة والثلاثين - إلا أننا نلمح في هذه القطعة روح الرافعي وطريقته في الكتابة بشكل ظاهر. وهذا يدلنا على أن طريقته في الإنشاء قد استقامت له منذ زمن بعيد!

وقد أرفقت هذه القطعة بكلمتي هذه، حتى يطلع عليها قراء لرسالة الغراء، ورأيت أن أحذف منها قطعة صغيرة بدأ بها الرافعي كلامه، مبيناً الظرف الذي دعاه إلى الكلام

(مصر الجديدة)

زكريا إبراهيم

زواج الأدباء للرافعي

أرسل إلينا الأديب نعمان أحمد عسكرية يقول: إن مقال (زواج الأدباء) الذي بعث به إلينا ونشرناه في (العدد 482)، قد عثر عليه مصادفة في مجلة كانت تصدر في القاهرة باسم (الإشاعة) وهو جواب الرافعي عن استفتاء وجهه محررها إلى رجال الأدب

حول نسخ الأحكام

أقول رداً على المقال المنشور في العدد 483 من مجلة الرسالة بعنوان (حول نسخ الأحكام): إن الإمام أبا جعفر بن النحاس يرى أن القول بشمول النسخ للأخبار يؤول إلى الكفر، وأن القول يجعل النسخ إلى الأمام أشد كفراً - كما في نصه المنقول في

تعقيبي السابق وهو موضع البحث - فيثبت بالضرورة أنه لم يعز القول بجعل النسخ للأمام إلى فرقة إسلامية عنده، لظهور أن فئة يذكرها بأشد الكفر لا تكون فرقة إسلامية في نظره. فقول كاتب المقال: (فأما أن أبا جعفر لم يعز القول بذلك إلى فرقة إسلامية فليس بصحيح) - مع اعترافه بأن أبا جعفر ابن النحاس يكفر تلك الفرقة - يكون من قبيل إنكار النتيجة بعد التسليم بالمقدمتين

ذلك وقد أطبق أصحاب كتب الملل والنحل على أن الإسماعيلية الباطنية ليسوا بمسلمين وإن تظاهروا بالإسلام على ما يظهر من كتاب الرد على الباطنية لابن رزام، والفهرست لابن النديم، وكشف الأسرار للباقلاني. والفرق بين الفرق. وكتاب أصول الدين لأبي منصور البغدادي، والفصل لابن حزم، والتبصير لأبي المظفر الاسفراييني، وفضائح الباطنية للغزالي، واعتقادات فرق المسلمين والمشركين للفخر الرازي، وغيرها فليتفضل كاتب المقال بذكر واحد من أهل هذا الشأن يعدهم من فرق المسلمين غير الداخلين في فرق

الكفر فنعذره بعض عذر في حسبانه الباطنية الإسماعيلية من فرق الإسلام لو وجد سبيلاً إلى ذلك، وليس بواجد

على أن من الظاهر كل الظهور أن جعل نسخ الوحي المنزل من حكيم حميد بين شفتي شخص بعد انقطاع زمن الوحي لا يعقل أن يصدر ممن يدين بدين الإسلام، فثبوت بطلان مثل هذا الرأي لا يحوج إلى أكثر من تصور طرفي الحكم من داع لما يقال له

وكون الدولة الفاطمية من الإسماعيلية الباطنية لا يزيدهم إلا سوء مخبر. وبناء القائد جوهر الأرمني الصقلي للجامع الأزهر لا يبرئهم من نحلتهم الإلحادية المكشوفة. ثم إن الجامع الأزهر إنما نعتز به كجامعة إسلامية منذ تولى أمره ملوك الإسلام وحماة السنة الغراء من عهد الظاهر بيبرس، وكان قبل ذلك محشداً للإسماعيلية ذكورهم وإناثهم يجتمعون فيه للعن الصحابة علناً جهاراً لنشر دعوتهم الإلحادية ليلاً ونهاراً؛ ولم يكن الأزهر في زمنهم جامعة، بل كان يحلق فيه فقهاء مذهبهم بين الظهر والعصر من يوم الجمعة في عهد الوزير بن كلس لإلقاء عظات في مذهب الرفض والباطنية. ويقول الإمام الباقلاني عنهم في كشف الأسرار: (هم قوم يظهرون الرفض، ويبطنون الكفر المحض) وفي المنتظم لابن الجوزي، والبداية والنهاية لابن كثير، وتاريخ ابن الوردي صورة ما أصدره القضاة والأشراف وعلماء المذاهب ببغداد في تبيين أن هؤلاء أدعياء ليس لهم نسب صحيح، وأن والد عبيد الله الذي تنتمي إليه العبيدية كان يهودياً صباغاً بسلمية حمص، وأنهم زنادقة أعداد للإسلام. وفي (اللمعات البرقية لابن طولون) ذكر نماذج من إلحادهم وزائف نسبهم. ونجد في كشف أسرار الباطنية للحمادي عند الكلام في تدرج الداخل في عودتهم ما نصه (قالوا له قرب قرباناً يكون لك سلماً ونجوى ونسأل لك مولانا (الإمام المعصوم) أن يحط عنك الصلاة ويضع عنك هذا الإصر، فيدفع أثنى عشر ديناراً، فيقول ذلك الداعي: يا مولانا إن عبدك فلاناً قد عرف الصلاة ومعانيها، فاطرح عنه الصلاة، وضع عنه هذا الإصر وهذا نجواه اثنا عشر ديناراً، فيقول: أشهدوا أني قد وضعت عنه الصلاة ويقرأ له (ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم) فعند ذلك يقبل إليه أهل هذه الدعوة يهنئونه ويقولون: الحمد لله الذي وضع عنك وزرك الذي انقض ظهرك. . .) وهكذا. وقد أفاض المقريزي في خططه في بيان المجالس التي يعقدها الداعي للذكور والإناث، ومنازل الدعوة، وعدد النطقاء إلى السابع الذي ينسخ الشرائع، وهو صاحب الزمان محمد بن إسماعيل ابن جعفر وهو سابع الأنبياء النطقاء في نحلتهم، ونبيناً فخر الرسل عليه الصلاة والسلام سادسهم عندهم، إلى غير هذا مما تضيق مجلة الرسالة عن بسطه الآن

صلاح الدين شفيق

العدد 485 - بتاريخ: 19 - 10 - 1942

أفعالهم من أمثالهم

للأستاذ عباس محمود العقاد

من مؤلف الأمثال؟

تلك الآيات القصار من موجز البلاغة من صائغها ومنتقى ألفاظها ومودع الحكمة في خلالها؟ إنها أسلوب غير أسلوب الفرد في كلامه، ولكن الأمم لا تجتمع للتأليف

والصياغة فيقال أنها من تأليف أمة في أجيالها المتعاقبة. وهي بلا ريب لم تؤلف نفسها ولم تكن قولاً بغير قائل. فأصدق ما يقال فيها إنها كلام فرد صقلته الأمم جيلاً بعد جيل، وإنها وحي الإنسانية أجرته على بعض الألسنة وتعهدته بعد ذلك بالتنقيح والمراجعة فليست هي لغة فرد ولا صياغة أمة، ولكنها مساهمة من كل بما يستطيع فيها. فالفرد يستطيع أن يصوغ الكلام، والأمة تستطيع أن تقبل أو ترفض حتى يستقيم لها القول على ما تحب، ومن هذا وذاك تتجمع الأمثال

وقد اتفق في أمثال الأمم أمران عجيبان كأنهما متناقضان لا يتفقان فأمثال الشعوب تتشابه في مغزاها، وتتوارث في محصولها ومؤداها، حتى يصح أن يقال في هذه الناحية إن الأمثال إنسانية عالمية يتفق فيها جميع الناس.

لكن أمثال الشعوب مع هذا قومية وطنية تدل على أهلها وتنم عن خلائق ملة بعينها، فلا تقرأ أمثال العرب دون أن تعرف منها شيئاً عن العرب لا تعرفك مثله عن الفرس أو الترك أو الروم، ولا تقرأ نخبة من أمثال الأوربيين إلا فرقت بينها وبين نخبة من أمثال الآسيويين أو الأمريكيين. فهي تكشف لنا الإنسانية لأن الأمم كلها من بين الإنسان، وتكشف لنا كل أمة على حدة لأن الناس يختلفون كما يتفقون، ولا تناقض بين الأمرين

ظهر في العهد الأخير كتاب إنكليزي عن الأمثال الروسية من أوفى ما كتب عن هذه الأمثال. فأوجز ما يوصف به إنه يلقي لك ضياء على كل حادث عظيم في تاريخ هذه الأمة ماضيها وحاضرها، منذ جلت عن سهوب آسيا إلى أن وقفت في حربها مع الألمان موقفها المجيد الذي قلت نظائره في تاريخ الحروب!

تقرأ هذه الأمثال فتوقن أن الروس والجرمان لا يعيشون في السلم والوئام إلى زمن طويل. وأول هذه الأمثال قولهم: إن (ما ينفع الروسي هلكة للألماني). . . ومصداق ذلك في

الحرب الحاضرة غير بعيد

ومن تلك الأمثال وفيها الدلالة على الحرب التي يحسنها الروسيون، أن البحر جميل من الشاطئ، وأن البعيد عن البحر بعيد عن الأحزان، وأن الموت أخ للجندي الروسي، وأن امرأة هذا الجندي ليست بزوج ولا بأيم، وأنه (ما كل رصاصة تصيب عظمة في الجسد؛ فقد تصيب الرصاصة الفراغ!)

وقلما دخل الروس حرباً إلا تركوا بعدها أمثالاً تنبئنا ببعض أنبائها. فمن بقايا حرب نابليون مثلهم القائل: (ما أسعد الفرنسي بغراب!) لأن جنود نابليون كانوا يتصيدون الغربان التي تأكل قتلاهم فيطبخونها وهم هلكى من الجوع!

ومن بقايا حروبهم مع الترك ذلك المثل الذي يفيض بالسخرية والشهادة لشجاعة الخصمين: (يتساقط الترك، ولكننا والحمد لله صامدون في الميدان. . . بغير رؤوس!) ولعلنا لا نعرف جهاد الروس في طلب الحرية من بضع كلمات كما نعرفه من الكلمات القليلة التي يجمعونها في قولهم: (تبحث عن شجاع. . . اذهب إلى السجن!)

فقد مضى على الروس حقاً ذلك الزمن الذي كانت فيه السجون أجدر الأمكنة أن تبحث فيها عن الرجل الشجاع، وذلك زمن الثورات، أو زمن الجهاد في طلب الحرية، أو زمن التمرد على السلطان الذي لا خير فيه

ويذكر القراء أن قياصرة الروس كانوا من أكبر الدعاة إلى السلم في عهدهم الأخير، وأن حكيم الروس الكبير - تولستوي - كان أكبر دعاة السلام في أوائل القرن العشرين. ولكن الروس وحدهم هم الشعب الذي سجل خيبة الأمل في السلم كما تمناه منهم الرؤساء والمصالحون، فقالوا في أمثالهم: (إن السلم الدائم ليدوم. . . ولكن إلى أول حرب مقبلة. . .)

وهكذا أوحت الحكمة إلى ألسنة الدهماء، ما لم توحه إلى الساسة ولا إلى الحكماء وكل خلائق الروس ظاهرة في أمثالهم الشعبية، وليست خلائقهم في حروبهم وثوراتهم وكفى؛ فهم معروفون بالتواكل والاستسلام للقدر فيما ينوبهم من عثرات الجدود، وذلك ظاهر في قولهم: (إذا طرق بابك الجد العاثر فافتحه له على مصراعيه). . . يريدون أن الجد غالب على أمره؛ فكل حذر في اتقائه لا يفيد

وهم معروفون بالمداورة بين القادرين المسيطرين عليهم، وذلك ظاهر في قولهم: (صل لله ولكن لا تهيج الشيطان!)

وهم معروفون بالحذر الدائم، وهو ظاهر في قولهم: (للخوف عيون واسعة) وقولهم: (من الحياة نخاف لا من الموت!)
وهم يتباطئون عن الجد كما يظهر من مثل الفلاح القائل: إلى الغيط. . . ما آلم هذا المغص في الأحشاء! إلى ألحان. . . هاتي المعطف يا امرأة، وعجلي!)
وتواكلهم مع معيشتهم في البيوت تظهر من أمثلة كثيرة في معارض شتى، منها: (إذا أقدمت على الزواج فلا تطيلي همك. . . ستعلمين متى يحين الموعد المقدور للبكاء ساعة يضربك زوجك!)
ومنها: (تزوج كبراهن وانظر إلى أمها وأبيها، أما الصغرى فلا تتزوج بها إلا وقد نظرت إلى أختها الكبرى)
ومنها: (زوجي سيئ أخافه، ولكني أكون معه فلا أخاف من أحد غيره!)
ومنها: (سأحفظ حكايات الخرافة متى رزقت الأحفاد)
وبسبيل من هذا وإن ظهرت فيه مناقضة للتواكل قولهم: (حسبما تهيئ فراشك يكون رقادك!)
وقولهم: (عش كما يتاح لك، ومت كما تتمنى!) أو قولهم: (من لم يكن صحيحاً في العشرين، عاقلاً في الثلاثين، غنياً في الأربعين، فلا أمل له في الصحة والعقل والغنى، حتى يموت)
ويقولون وفيه دليل على سوء الظن بالدنيا: (نرفع عقائرنا بالغناء فيسمعنا الناس، ونرفع عقائرنا بالعويل فليس للناس آذان)
ويقولون: (إن كان لابد من غرق فالبحر اللجي خير من البركة الآسنة) وفيه مشابهة لقول المتنبي:
إذا غامرت في شرف مروم ... فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت في أمر حقير ... كطعم الموت في أمر عظيم
ويقولون وفيه صدق الغرض وإن لم يكن فيه صدق التاريخ: (موسكو أحرقتها شمعة بدرهم)
فشمعة بدرهم قد تحرق موسكو حقاً، وإن لم تكن أحرقتها في حرب نابليون
ومن أبرع أمثالهم قولهم: (يولد الإنسان ليموت، ولكنه يموت ليحيا)
ومنها في فضل الوقاية: (يخاف الهواء الأصفر ممن يخافه) ومنها في المساواة والفوارق بين الناس: (عيوننا تملأها شمس واحدة، وبطوننا لا يملأها طعام واحد)
ومنها: (من سكن بجوار المقابر لم يحزن على كل فقيد) ومنها: (راقب الجدي من أمام، وراقب الحصان من وراء، وراقب الشرير من كل جانب) ومنها في رشوة الحكام: (من باب الطريق صد ومن باب السر ترحيب)
وعلى الجملة يندر أن نعرف الروس من كتاب واحد كما نعرفهم من هذا الكتاب الذي جمع لنا المئات من أمثالهم المنتقاة
ونعتقد أن هذا هو شأن الأمثال في كل أمة وفي كل طبقة وفي كل جيل، وربما أغنتنا ثلاثة أمثال أو أربعة عن قراءة سفر مطول في أخلاق بعض الأمم خلال فترة من الفترات
فأي كتاب يدلنا على أخلاق المصريين في القرن الماضي كما يدلنا عليها مثلهم القائل: (أردب ما هو لك لا تحضر كيلة، تتعفر دقنك وتتعب في شيله) أو مثلهم القائل: (اللي يجوز أمي أقول له يا عمي) أو مثلهم القائل: (إن عبدوا تور حش وارمي له) وما شابه هذه الأمثال
فثلاثة أمثال من هذا القبيل تلخص لنا تاريخ الاستبداد في ذلك القرن وما أحدثه في مصر من التفكك واجتناب التعاون ومداراة الظلم والإذعان لكل آمر والعجز عن كل مقاومة
ومئات منتقاة من هذه الأمثال في شتى المعارض تجمع لنا من الأخلاق القومية والدلائل التاريخية ما يتفرق في كتب مختلفات تتكلم عن الأخلاق ولكنها لا تعرض لنا تلك الأخلاق عرضاً مجسماً كما تعرضها الأمثال
ولا يفوتنا هنا أن نلاحظ قلة التمثل بالأمثال في هذه الأيام سواء بين المصريين أو بين الأمم الأخرى

فأبناء العصر الحاضر لا يحفظون أمثال أمتهم ولا يكررون ما يحفظونه منها، وليس هذا بعجيب إذا نظرنا إلى الخلق الغالب بين أكثر المحدثين
فقل في أبناء عصرنا من يقتدي بالسلف أو يحب أن يقال عنه أنه ممن يقتدي بهم في المعيشة والسلوك. ولا معنى لسرد الأمثال ما لم يكن ديدن السلف حجة مقبولة بين القائلين والسامعين
إنما الخلق الغالب في عصرنا أن يباهي الرجل في يومه بمخالفة أمسه، وأن يجري في كل حين على بدعة لم يسبقه فيها سابق قبل حينه، وأن يتهالك على الجديد ولو لم تكن له مزية غير الجدة العابرة. وهذه حالة من الحالات النفسية لا توائمها متابعة الأمثال، أو تحريها في الأقوال والأعمال؛ بل هي تستدعي كلاماً يناقض المثل في لبابه ومرماه، وهو الارتجال المقتضب الذي لا يتعدى ساعته إلى ما وراءها، ولا يصلح للتكرار والاستشهاد
ولهذا تسنح الفرصة اليوم للحرص على ذخائر الأمثال، والاستزادة من مجموعاتها التي يخاف عليها النسيان والإهمال؛ فإنها لموصولة يوماً لا محالة، وإن طال عهد الانقطاع والارتجال.
عباس محمود العقاد
مشاركة الأدب الإنجليزي في الدراسات العربية
نقلاً عن (برنارد لويس)
للأستاذ عبد الوهاب الأمين
القرن التاسع عشر - 3
تقدمت الدراسات العربية في القرن التاسع عشر تقدماً عظيماً في جميع الأقطار المهمة في أوربا. ولقد كان من نتائج حملة نابليون في مصر أن أصبح الشرق الأدنى العربي في مقدمة الأمور السياسية الأوربية، وأن استعيد الاتصال بين العرب والفرنك بعد انقطاع دام قروناً عديدة، فشرع الكثيرون من الرحالين الأوربيين يزورون الشرق، ودخل عدد كثير من الطلاب المصريين في جامعات أوربا الغربية لدراسة ثقافة الغرب وفنه، واستثارة اهتمام جديد بالثقافة العربية بين الغربيين
وقد بدأ العلماء الفرنسيون الذين رافقوا نابليون الحركة العلمية الجديدة في الاستشراق الأوربي. والعلماء الفرنسيون هم من أبرز المشتغلين باللغة العربية في مطلع القرن التاسع عشر. وقد أنشأ المستشرق الفرنسي العظيم (سلفستر دي ساسي) جيلاً كاملاً من العلماء من جميع الجنسيات
وكذلك نجد في إنكلترا مجموعة منظمة ذات شأن من المشتغلين بالعربية، فكان إنشاء كرسي جديد للغة العربية في جامعة لندن - وكانت قد أنشأت حديثاً - وتكوين (الجمعية الآسيوية الملكية)، وهي مجمع مستشرقي الإنكليز، مما أثر في الاندفاع الجديد نحو الأبحاث الاستشراقية. وأصبح العلماء الإنكليز في الهند وهم الذين يدرسون لغة الإسلام ومدنيته للهنود يجدون أنفسهم ملزمين بدراسة اللغة العربية التي هي مصدر جميع الثقافات الإسلامية في كل اللغات. واكتسبت آثار المشتغلين بالعربية في القرن التاسع عشر ميزة وفائدة جديدتين نتيجة للتقدم الحاصل عند العرب أنفسهم. ففي خلال القرن التاسع عشر دخلت الشعوب التي تنطق بالعربية في دور بعث ثقافي وطني. وقد كابدوا في بداية الأمر مشقة من جراء قلة الكتب العربية المطبوعة، وقلة المطابع أيضاً، ولذلك كانت الطبعات الأنيقة العديدة للمؤلفات العربية الخالدة التي نشرت في أوربا - وقسم كبير منها في إنكلترا
ذات فائدة عظمى للجيل العربي الجديد من القراء، ومكنتهم من الحصول على مادة - لم يكن الحصول عليها ممكناً من غير ذلك المصدر. وفي آخر الأمر، عندما أنشئت المطابع في الشرق وبدئ بطبع الكتب محلياً، كانت الكتب تطبع وفق النصوص العربية، وبذلك قام المستشرقون بدور مهم في إعادة ثقافة العرب إليهم، وقضوا دين عرب القرون الوسطى الذين نقلوا كتب الإغريق إلى الغرب
وليس في وسعنا في هذا المجال أكثر من أن نذكر بعض الشخصيات البارزة من بين المشتغلين بالعربية من الإنكليز. ونقتصر على أشخاص مثل (ج. هـ. هندلي) وهو أحد العلماء البارعين في الفارسية والعربية، ومن جملة مؤلفاته ترجمة ودراسة - في الإنجليزية - عن الشاعر العربي أبي الطيب المتنبي. و (م. لمسدن) الذي كان أستاذ

اللغتين العربية والفارسية في كلية (قلعة وليم) في الهند. وقد ألف أجرومية عربية كانت كثيرة التداول في القرن التاسع عشر في أوربا والهند كليهما. ومما يجب ذكره أن أولى المحاولات الإنجليزية لتنظيم التعليم في الهند كانت تشمل اشتراط دراسة اللغة العربية من مسلمي الهند، وكان (لمسدن) أحد الإنكليز الكثيرين الذين ساعدوا على إنجاز هذا الأمر، وكان في كلية (قلعة وليم) - وهي أولى الكليات الإنجليزية في الهند - كرسيان للغتين العربية والفارسية.

وكان أعظم الشخصيات الإنجليزية - بل الأوربية أيضاً - بلا مراء في مطلع القرن التاسع عشر هو المستر إدورد وليم لين (1801 - 1876).

اهتم (لين) مزيد الاهتمام بالدراسات الاستشراقية منذ فجر شبابه وعلى الأخص بمصر، وسافر في يوليه سنة 1825 إلى الإسكندرية في زيارته الأولى لمصر، وكان السفر في البحر الأبيض المتوسط وقتئذ لا يزال كبير الخطر، ولم تخل رحلته تلك من مخاطر، فقد أصاب السفينة إعصار، وعجز قائدها عن إدارة دفتها، ولم يكن على ظهرها من يحسن القيادة، وبالرغم من أن (لين) لم يركب سفينة قط في حياته، فإنه أخذ الدفة بيده، واستطاع أن ينقذ السفينة من التحطيم بفضل معلوماته الرياضية. وحدث بعد ذلك أيضاً أن قامت في السفينة ثورة كادت تودي بحياته. وبعد سفر شهرين وصل (لين) إلى مصر حيث بقى إلى خريف سنة 1828 وقضى معظم الوقت في القاهرة. ومع أن رغبته الأصيلة كانت دراسة المصريين القدماء، فإنه سرعان ما وجد أحفادهم المحدثين أحق منهم بالدراسة بكثير، فشرع

تو إقامته، في دراسة واسعة للغة العربية فحذقها حذقاً تاماً كتابة ولفظاً. وقد أفادته تلك الرحلة إلى الشرق - وهي الرحلة التي كان يتحرق شوقاً إليها - خبرة معنوية عظيمة. وقد قال في مذكراته:

عندما نزلت إلى الأرض لأول مرة داخلني شعور طاغ يشبه شعور عريس على أهبة رفع القناع عن وجه عروسه التي لم يرها من قبل. ولقد كان تأثره بعد ذلك بما رأى عميقاً، وامتلأ إعجاباً عظيماً بكل ما يمت إلى الإسلام بصلة

وعندما عاد إلى إنجلترا، كان قد درس مصر وشعبها ولغته دراسة عميقة، وكتب وصفاً مسهباً مخطوطاً عن الحياة في مصر. فلما طلب إليه أن يقوم بنشره أصر على الرجوع ثانية إلى مصر قبل طبع الكتاب استجابة لولوعه بالدقة العلمية التي كانت إحدى ميزات آثاره، فخصص رحلته الثانية في سنة 1833 - 35 لدراسة دقيقة عن الحياة في القاهرة. وكان من عادته في مصر أن يرتدي اللباس الذي يرتديه المصريون، وأن يقتصر في علاقاته على المصريين المسلمين. وقد اتخذ لنفسه داراً في القاهرة وعاش العيشة المعتادة التي يحياها أديب مصري من جميع الوجوه. وكانت هذه الأمور، مضافاً إليها طلاقة نطقه العربي وصحته، وشيء من السمة الشرقية في تقاطيعه، قد مكنته من أن يعيش كمصري بين المصريين، وأن يختلط بالمجتمع القاهري اختلاط الصديق والند. وكان يعرف في مصر باسم (منصور أفندي)

وعند عودته للمرة الثانية إلى إنجلترا نشر كتابه المشهور (وصف شمائل وعادات المصريين المحدثين) في جزءين فقوبل في الحال كأثر خالد، ونفدت الطبعة الأولى منه في أسبوعين، ولحقتها أخريات عديدات، كما أنه طبع في ألمانيا وأميركا واعتبر من مخلدات الأدب الإنجليزي، وهو يحتوي على وصف الحياة القاهرية وعاداتها، قبل أن يحل بها هذا التغيير الذي جعل منها مدنية حديثة. ولذلك فإنه سجل صحيح لعصر يكاد يكون غابراً، بدقة في الوصف فائقة، وهو مستند تاريخي ذو أهمية عليا لا يستغني عنه جميع الطلاب في مصر حتى الآن.

(للموضوع بقية)

عبد الوهاب أمين

راقصة. . .

للأستاذ علي محمود طه

سَرَتْ بين أعينهم كالخيالْ ... تعانقُ آلهةً في الخيالْ
مُجَرَّدةً حسبتْ أنها ... من الفنِّ في حَرَمٍ لا يُنَال
فليستْ تُحِسُّ اشتهاءَ النفوس ... وليستْ تُحِسُّ عيونَ الرجال
وليستْ ترى غير معبودها ... على عرشه العبقريِّ الجلال

دعاها الهوى عنده للمثول ... وما الفنُّ إلا هوىً وامتثال
فخفَّتْ له شِبْهَ مسحورةٍ ... عَلَتْ وجهها مَسْحَةٌ من خَبال
وفي روحها نشوةٌ حلوةٌ ... كمهجورةٍ مُنِّيَتْ بالوصال
تراها وقد طوَّفَتْ حوله ... جلاها الصِّبَى وزَهاها الدلال
تضمُّ الوشاحَ وَتُلْقِي به ... وفي خَطوها عِزَّةٌ واختيال
كفارسةٍ حضنتْ سيفها ... وألقتْ به بعد طول النضال
تمدُّ يديها وتثنيهما ... وترتدُّ في عِوَجٍ واعتدال
كحوريَّةِ النبع تطوي الرِّشاءَ ... وتجذبُ ممتلئاتِ السجال
مُحَيَّرَةَ الطيف في مائجٍ ... من النور يغمرها حيث جال
تُخَيَّلُ للعين فيما تَرَى ... فراشةَ روضٍ جَفَتْهَا الظلال
وزنبقةً وَسْطَ بَلورةٍ ... على رفرف الشمس عند الزوال
تَنَقَّلُ كالحُلمْ بين الجفون ... وكالبرق بين رؤوس الجبال
على إصبعيْ قَدَمٍ أَلْهَمَتْ ... هبوبَ الصَّبا ووثوبَ الغزال
وتُجْرِي ذراعيْنِ منسابتين ... كفرعين من جدولٍ في انثيال
كأنهما حولها تَرْسُمَانِ ... تقاطيعَ جسمٍ فريدِ المثال
أبَتْ أنْ تَمُسَّاهُ بالرَّاحتين ... ويَرْضى الهوى ويريد الجمال
ومن عَجَبٍ وهي مفتونةٌ ... تُرِيكَ الهوى وتُرِيكَ الضلال
تَلَوَّى وتسهو كلُهَّابةٍ ... تَرَاقصُ قبل فناءِ الذُّبال
وتعلو وتهبط مثل الشِّراع ... تَرَامَي الجنوبُ به والشَّمال
وتعدو كأنَّ يداً خلفها ... تُعَذِّبُهَا بسياطٍ طوال
وتزحفُ رافعةً وجهها ... ضراعةَ مستغفرٍ في ابتهال
وتسقط عانيةً للجبين ... كقُمْرِيَّةٍ وقعتْ في الحبال
تَبِضُّ ترائبها لوعةً ... وتخفِقُ لا عن ضَنىً أو كلال
ولكنه بعضُ أشواقها ... وبعضُ الذي اسْتَوْدَعَتْهَا الليال!!

علي محمود طه

من ملاحق كتاب (رسوم دار الخلافة)

دّنيَّةُ القاضي

في العصر العباسي

للأستاذ ميخائيل عواد

الدنية وتجمع على الدنيات، قلنسوة بشكل الدَّن (وهو الحب عند العراقيين له عسعس)، محدودة الأطراف، طولها نحو شبرين تتخذ من ورق وفضة على قصب (عيدان)، وتغشى بالسواد، وتزين أحياناً بشنائق صفر طوال تتدلى على الصدر كان يلبسها القضاة عامة، في العصور الإسلامية السالفة، كما يلبسها الخطباء والأكابر أحياناً

قال الشريشي في شرح المقامة التاسعة للحريري: إن أصل الدنية: الدنينة كسفينة. . . وليست من كلام العرب، إنما هي من الألفاظ المستعملة في العراق. . . إه. والصواب: أن الدنية عربية منسوبة إلى الدن وليست بالدنينة والغريب أن هذه اللفظة وردت في (النجوم الزاهرة) باسم (المدينة) وهذا تحريف ظاهر

وكان من أهم ماجريات سنة ثلاث وخمسين ومائة للهجرة، أن (أبا جعفر المنصور أمر أصحابه بلبس السواد وقلانس طوال تدعم بعيدان من داخلها، وأن يعلقوا السيوف في المناطق، ويكتبوا على ظهورهم: (فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم). فدخل عليه أبو دلامة في هذا الزي، فقال له أبو جعفر: ما حالك؟ قال: شر حال! وجهي في نصفي، وسيفي في لستي، وكتاب الله وراء ظهري، وقد صبغت بالسواد ثيابي. فضحك منه وأعفاه وحده من ذلك، وقال له: (إياك أن يسمع هذا منك أحد). قال أبو الفرج الأصفهاني: (ونسخت من كتاب لابن النطاح، فذكر مثل هذه القصة سواء وزاد فيها:

وكنا نُرَجِّي من إمام زيادةً ... فجاد بطول زاده في القلانس
نراها على هام الرجال كأنها ... دنان يهود جللت بالبرانس

والظاهر أن الرشيد لم يحب هذا التغيير الذي أحدثه المنصور من قبله، فقد حكى

الجاحظ أن العماني الراجز (دخل على الرشيد لينشده شعراً وعليه قلنسوة طويلة وخف ساذج، فقال: إياك أن تنشدني إلا وعليك عمامة عظيمة الكور وخفان دمالقان. . فبكر من الغد وقد تزيا .بزي الأعراب فأنشده . .)

ثم جاء المعتصم فأعاد لبس القلانس الطوال تشبهاً بملوك الأعاجم، فلبسها الناس اقتداء به، وسميت المعتصميات.

ومما ذكره الجاحظ في اختلاف الناس في صنوف اللباس قوله: (. . . وهل ذلك إلا كتعظيم كور العمامة، واتخاذ القضاة القلانس العظام في حمارة القيظ، واتخاذ الخلفاء العمائم على القلانس! فإن كانت القلانس مكشوفة زادوا في طولها وحدة رءوسها حتى تكون فوق قلانس جميع الأمة. . .)

ولم يكن لبس الدنيات قاصراً على قضاة العرب، بل تعداهم إلى غيرهم من الأمم، فهذا الاصطخري الرحالة البلداني يقول في عرض كلامه على صور أهل فارس وزيهم: (وأما قضاتهم فإنهم يلبسون الدنيات وما أشبهها من القلانس المشمرة عن الأذنين، مع الطيالسة والقمص والجباب، ولا يلبسون دراعة ولا خفاً بكسرة، ولا قلنسوة تغطي الأذنين. . .)

وكان القضاة يتفردون بلبس هذه القلانس الطوال أينما وجدوا، وقد يدفعهم الأمر إلى منع كافة الناس من لبسها. فقد أنبأنا الكندي في نحو سنة 230هـ بقوله: (كان زي أهل مصر وجمال شيوخهم، وأهل الفقه والعدالة منهم لباس القلانس الطوال؛ كانوا يبالغون فيها، فأمرهم ابن أبي الليث (القاضي) بتركها ومنعهم لباسها وأن يشبهوا بلباس القاضي وزيه فلم ينتهوا. قال ابن عثمان: فجلس ابن أبي الليث في مجلس حكمه في المسجد واجتمع أولئك الشيوخ عليهم القلانس؛ فأقبل عبد الغني ومطر جميعاً فضربا رؤوس الشيوخ حتى ألقوا قلانسهم. قال: وأخبرني محمد بن أبي الحديد قال: حدثني عتبة بن بسطام قال: رأيت قلانس الشيوخ يومئذ في أيدي الصبيان والرعاع يلعبون بها، وكانوا بعد ذلك لا يدخلون إلى ابن أبي الليث ولا يحضرون مجلسه في قلنسوة

وأنشدنا إسماعيل بن إسحاق بن إبراهيم بن تميم للجمل:

وأخفت أيام الطوال وأهلها ... فرموا بكل طويلة لم تقصر
ما زلت تأخذهم بطرح طوالهم ... والمشي نحوك بالرؤوس الحسَّر
حتى تركتهم يرون لباسها ... بعد الجمال خطية لم تغفر
يتفزعون بكل قطعة خرقة ... يجدونها من أعين ومخبِّر
فإذا خلا بهم المكان مشوا بها ... وتأبطوها بالمكان الأعمَرِ
فلئن ذعرت طوالهم فلطالما ... ذعرت ومن برؤائها لم يذعرِ
كانوا إذا دلفوا بهن لِمفْضَلٍ ... أمضى عليه من الوشيج الأسمر
كم موسرٍ أفقرته ومفقَّرٍ ... أغنيته من بعد جهد مفقرِ
ما إن عليك لقيت منهم واحداً ... أوفى العجاج مدججاً في مغفرِ
لبسوا الطوال لكل يوم شهادة ... ولقوا القضاة بمشية وتبخْتُرِ
ما بي أراهم مطرقين كأنما ... دمغت رؤوسهم بحمى خيْبَرِ

أخبرنا ابن قديد عن يحيى بن عثمان قال: لما عزل ابن أبى الليث ترك الكثير من الشيوخ لباس القلانس؛ منهم أبو إبراهيم المزني سمعت كهمس بن معمر يقول: لما أمر ابن أبي الليث بطرح القلانس لم يثبت على لباسها إلا محمد بن رمح فلم يعارض أخبرني إسماعيل بن إسحاق بن إبراهيم بن تميم أن النيل كان توقف؛ فاستسقى أهل مصر وحضر بن أبي الليث الاستسقاء، فوثب المصريون بسبب غلاء القمح؛ وأخذوا (قلنسوته فلعبوا بها بعدما فعل قلانس أهل مصر بثمانية أيام

والظاهر أن الدَّنِيَات كان قد ضعف شأنها، وقل استعمالها في بغداد، في المائة الخامسة للهجرة، فقد أشار إلى ذلك هلال ابن المحسن الصابئ (المتوفى سنة 448هـ) في عرض كلامه على جلوس الخلفاء وما يلبسونه في المواكب، وما يلبسه الداخلون عليهم من الخواص وجميع الطوائف. قال: (. . . فأما العباسيون من أرباب المراتب، فزيُّهم السواد بالأقبية المولدة والخفاف، ولهم منازل في شد المناطق والسيوف وتقلدها؛ اللهم إلا أن يكون منهم من قد ارتسم بالقضاء، فله أن يلبس

الطيلسان. وأما قضاة الحضرة ومن أهل للسواد من قضاة الأمصار والبلاد؛ فبالقمص والطيالسة والدنيات والقراقفات، وقد تركت الدنيات والقراقفات في زماننا وعدل إلى العمائم السود المصقولة)

وكانت الدنيات تبرز في أيام مواكب الخلفاء في بغداد؛ إذ يحضر صنوف الناس على مراتبهم ورسومهم. قال هلال الصابئ: (وإذا اتفق يوم الموكب حضر حاجب الحجاب بأكمل لباسه: من القباء الأسود المولد، والعمامة السوداء، والسيف، والمنطقة، وقدامه الحجاب وخلفاؤهم، وجلس في الدهليز من وراء الستر، وحضر الوزير وأمير الجيش،

ومن له رسم في حضور الموكب؛ فإذا تكامل الناس راسل الخليفة بذاك، فإن أراد أن يأذن الإذن العام، خرج الخادم الحرمي الرسائلي فاستدعى حاجب الحجاب ودخل وحده حتى يقف في الصحن، ويقبل الأرض، ثم يرسم له إيصال القوم على منازلهم، فيخرج ويدعو ولي العهد، إن كان في الوقت ولي العهد، وأولاد الخليفة، إن كان له ولد، ثم يدخل الوزير، ويمشي الحجاب بين يديه إلى أن يقرب من السرير. . . وأدخل بعده أمير الجيش. . . ثم أصحاب الدواوين والكتاب، وأوصل القواد يقدمهم خلفاء الحجاب على مراتبهم ودعوهم، ووقفوا يميناً وشمالاً على رسومهم، ونودي ببني هاشم ومن يلبس الدنيات ويتقلد الصلوات، فيقدمون إلى أول البساط ويسلمون ويقفون مفردين

للدنية أخبار طريفة كانت في أكثرها مدعاة للسخرية منها، والتمثيل بها. فقد روى أبو الفرج الأصفهاني حكاية قال فيها: أخبرنا محمد بن خلف وكيع، قال: كان الخليجي القاضي واسمه عبد الله (بن محمد) ابن أخت علوية المغني، وكان تياهاً صلفاً، فتقلد في خلافة الأمين قضاء الشرقية؛ فكان يجلس إلى اسطوانة من أساطين المسجد، فيستند إليها بجميع جسده ولا يتحرك، فإذا تقدم إليه الخصمان أقبل عليهما بجميع جسده وترك الاستناد حتى يفصل بينهما ثم يعود لحاله، فعمد بعض المجان إلى رقعة من الرقاع التي يكتب فيها الدعاوى فألصقها في موضع دنيته بالدبق وتمكن منها. فلما تقدم إليه الخصوم، وأقبل عليهم بجميع جسده كما كان يفعل؛ انكشف رأسه وبقيت الدنية موضعها مصلوبة ملتصقة، فقام الخليجي مغضباً وعلم أنها حيلة وقعت عليه فغطى رأسه بطيلسانه وقام فانصرف وتركها مكانها حتى جاء بعض أعوانه فأخذها.

وقال بعض شعراء ذلك العصر فيه هذه الأبيات:

إن الخليجي من تتايهه ... أثقل باد لنا من طلعته

ما إن لذي نخوة مناشبة ... بين أخاوينه وقصعتهِ

يصالح الخصم من يخاصمه ... خوفاً من الجور في قضيته

لو لم تدبقه كفّ قابضة ... لطار منها على رعيته

بغداد - (البقية في العدد القادم)

ميخائيل عواد

إلى المعترضين علينا

للأب أنستاس ماري الكرملي

اعترض علينا في (الرسالة) 10: 869 حضرة الأستاذ اللغوي سعيد الأفغاني وغيره على أن جمع أفعل ومؤنثه فعلاء، غير مستند إلى نص صريح! (كذا) كأن قول سيبويه غير موثوق به! وذلك، (لأن نص سيبويه قاصر (كذا)، على أن جمع التكسير لأفعل فعلاً هو فعل العين (كذا). وما أظن أن كيفية تكسير هذه الصيغة كانت محل خلاف؛ وليس فيها شاهد على خطأ قولهم: صخور ملساء

وإنما كان الأب بحاجة إلى نص صريح يستثني فيه هذه الصيغة من القاعدة العامة،) وهي: أن نص جمع التكسير يكون بالمفرد المؤنث وبالجمع على السواء؛ فلك أن تقول: أشهر محرمة، وأشهر محرمات؛ وأياماً معدودة، وأياماً معدودات؛ كما في القرآن الكريم وغيره. فما الذي يفرد صيغة واحدة بين جميع صيغ النص بحكم خاص؟ هذا ما يحوج الأب الإبراه عليه. أما استقراؤه الشخصي، وطلبه من مخالفة الإتيان بشاهد، فلا يردان حجة، لأن المقيس لا يلزم له شاهد انتهى. . .

قلنا: إننا لا نحتاج إلى نص صريح تستثنى فيه هذه الصيغة لأن قاعدة جمع أفعل فعلاً، قاعدة قائمة بنفسها، وليس لها صلة بالقاعدة العامة، إذ هي قاعدة خاصة بهذا الوزن،

والآيات القرآنية، والأحاديث النبوية الصحيحة الرواية؛ والمسموع من كلام فصحاء العرب وبلغائهم هي أحسن شاهد، بل أحسن قاعدة لما نريد أن نثبته، ولا يهمنا بعد ذلك ضوابط النحاة، وقواعد الصرفيين، وآراء اللغويين، وتحكمات المتأولين، وأرباب الأحكام العربية، لأنهم لم يستقروا جميع قواعد اللغة المضرية. وبيدنا شواهد لا تحصى تدل على نقصان ضوابطهم وتتبعاتهم واستقراءاتهم، وربما ذكرنا شيئاً منها في فرصة مناسبة

ولهذا لا نعتمد في أغلب الأحايين على قواعد النحاة ولا على ما يقوله اللغويون، إلا إذا اتفق كلامهم وما ورد في الآي القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة، وما سمع من كلام فصحاء الأقدمين الصادق النسب إليهم، فإن لم يتفق، لا نحفل بكلام الخليل، ولا بأقوال سيبويه، ولا بآراء تفطويه، ولا بنص عفطويه. فلقد رأينا في الآيات البديعة نعوتاً مختلفة واردة مفردة مؤنثة لموصوفات أو منعوتات مجموعة، كما قال حضرة أستاذنا الكريم النابه

الأفغاني، ونحن تبعناها في جميع ما نكتب، وكتبنا. . . فقد جاء مثلاً في سورة الحج: (والقاسية قلوبهم)؛ وفي سورة الإنسان: (ودانيةً ظلالها)؛ وفي سورة الهمزة: (في عمد ممددة)؛ وفي سورة التوبة: (والمؤلفة قلوبهم) . . .

لكننا لم نر مرة واحدة صفة مفردة مؤنثة لموصوف مجموع جمع مكسر كقول أحدهم: كريات حمراء؛ مع إننا وجدنا أمثلة مختلفة وكثيرة لقولهم: أياماً معدودات، وأياماً معدودة؛ وأشهر محرمات، وأشهر محرمة، ولم يستعمل الوجهان، مرة هذا، ومرة هذا، لا لجواز النطق بهما؛ فلماذا لم يأت أمثالها في الآي الفصيح، بل جاءت كلها على فُعل؟ ذلكم - يا سادتي - لأن القول بفعلاء في مثل هذا الموطن لا يجوز البتة، ولأنه غلط شنيع فظيع، تلعنه الإنس والجن، وملائكة السماء، وأهل النار جميعاً!!

وكيف يجوز لك أن تقول: رجال سوداء، ونساء سمراء، ونهارات غراء، وليال سوداء. . .؟ إني أعد ذلك كفراً وبسلاً ولعنة وتحقيراً للغة الضاد!!

وفي المائة والأربع عشر سورة، سبعة وسبعون ألف كلمة، وتسعمائة وأربع وثلاثون كلمة، وليس فيها شاهد واحد على ما يدعي هؤلاء المساكين! وفي تلك السور من لغات القبائل خمسون لغة، وقد استخرجناها من تفسير الطبري الكبير، الواقع في عشرين مجلداً، ومن كتاب الإتقان السيوطي، ودونك أسماء تلك القبائل مرتبة على حروف المعجم:

1 - لا بنو الغُبَّر، كما وهم أحدهم) 8 - بنو فُجَاءَة 9 - تغلب 10 - تميم 11 - ثقيف 12 - جُذام 13 - جُرْهُم 14 - حضرموت 15 - حمير 16 - خثعم 17 - خزاعة 18 - الخزرج 19 - سبأ 20 - سدوس 21 - سعد العشيرة 22 - السكاسك 23 - طيّيء 24 - عامر بن صعصعة 25 - عذرة 26 - العمالقة 27 - عُمان (وزان غراب) 28 - عنز 29 - عنس 30 - غامد 31 - الغثاة 32 - غسان 33 - غطفان 34 - الغوث 35 - غيلان 36 - فرحان 37 - قريش 38 - قيس 39 - كنانة 40 - كندة 41 - لخم 42 - مدين 43 - مَذْحِج (وزان مجلس) 44 - مُزَيْنَة 45 - النمر 46 - نمير 47 - هُذَيْل 48 - هُوَازِن 49 - اليمامة 50 - اليمن

على أن الحقيقة هي: أن لغات قبائل العرب تنيف على المائة، لكني لم أبوبها إلى الآن. ثم

قد يكون في القبيلة الواحدة لغتان ما عدا اللغة الفصحى، وإذا طالعت في تاج العروس ما جاء على الأنفحة في مادة (ن ف ح) تصدق ما نقوله لك.

هذا ما عدا ما ورد في القرآن الكريم من الكلم اليونانية والرومية والفارسية والأرمية (السريانية)، والحبشية والبربرية، والعبرية والقبطية. وقد طالعنا (القرآن) مراراً لا تحصى ولم نجد فيه كلمة واحدة تؤيد مدعاهم. وطالعنا (النهاية) لابن الأثير، وهي في أربعة مجلدات، وتحوي أصدق الأحاديث النبوية الصحيحة ولم نجد شاهداً واحداً على ما يفتئتون. وكذلك لم نجد حرفاً واحداً في شعر الأقدمين، ولا في كلام فصحائهم المفوهين، ولا في (القاموس) وهو في أربعة مجلدات، ولا في (لسان العرب) وهو في عشرين مجلداً، ولا في (تاج العروس) وهو في عشرة مجلدات ضخام كبار، ولا في (الفائق) للزمخشري وهو في مجلدين كبيرين إلى غيرها (كصحاح) الجوهري و

(الكليات) لأبي البقاء و (ديوان الأدب) للفارابي، وقد خططنا بالحمرة تحت كل كلمة، علامة على أنا طالعنا تلك المصنفات حرفاً حرفاً وبكل تدبر وترو، وذلك للمرة الثالثة أو الرابعة على كل تقدير، ومن يشك يراجعنا في الأمر.

فإذا كان النحاة والصرفيون لم ينتبهوا إلى هذه الحقيقة الناصعة البيان، أفهذا ذنبنا يا سيدتي الكرام؟

ثم إن أكبر نحاتهم غلط أغلاطاً كثيرة، كبيرة، قعيرة تكاد تكون جريرة، أريد بهذا الإمام سيبويه. فقد ألف (الكتاب) فنقده أبو بكر الزبيدي في (كتاب الأبنية والزيادات على ما أورده فيه مهذباً) وعنى بطبعه المستشرق الإيطالي إغناطيوس جويدي، وطبعه في روما سنة 1890م

وقد وجدنا نحن أغلاطاً كثيرة للخليل بن أحمد الفراهيدي أستاذ سيبويه، وليس الآن محل ذكرها هنا. ومثل ذلك قل على عدد جم من القدامى. أمل لغة القرآن والأحاديث الصحيحة والمسموع من كلام بلغاء العرب كالوارد في البيان والتبيين، وكتاب الحيوان، وكلاهما للجاحظ، وكالوارد في الكامل للمبرد، وكالمذكور في الأغاني، وما كان من هذا القبيل فهو كالإبريز النقي الذي لا عيب فيه

فكيف نصدق بعد هذا أقوال هؤلاء الأئمة ومن أتبعهم من غير أن تحقق أقوالهم ويبحث عما فيها من الوهن والفهاهة؟ فهل أوتوا التنزيل من السماء حتى لا يجسر أحد على تخطئتهم، أو التعقيب عليهم، أو الاستدراك عليهم؟ وهل أوصد باب الاجتهاد في لغة الضاد، كما أوصد بعضهم باب الاجتهاد في الدين؟ - إن الله مع الصابرين!

شروط جمع أفعل فعلاء على فعل

لهذا الجمع القائم بنفسه ستة شروط وهي:

(الأول) على أن يدل على (لون) ويكون (نعتاً) صرفاً لا منقولاً إلى الاسمية أو الموصوفية، ولهذا تجمع أسود على أساود للحية الكبيرة فيها سواد، وأجدل على أجادل للصقر، وأدهم على أداهم للقيد، إلى نظائرها. ومن النعوت الدالة على لون أو شِيَةٍ وهي على فُعْل ما جاء في سورة المرسلات: (كأنه جمالة صُفْر). وفي سورة طه: (ويوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً). وفي سورة فاطر: (ومن الجبال جدد بيضٌ وحمرٌ مختلف ألوانها وغرابيب سود). وفي سورة الكهف: (ويلبسون ثياباً خضراً من سندس). وفي سورة الإنسان: (عاليهم ثياب سُنْدس خُضْرٌ). إلى غيرها وهي كثيرة. ومما سمع عن فصحاء العرب قولهم: حُدُلٌ ككتب جمعاً لأحدَل وحدْلاء. قالوا: هذا شاذ لأن أفعل وفعلاء من الألوان والعيوب والشيات يجمعان على فُعْل بالضم والسكون. إنما ثقل بعضهم طائفة من الألفاظ من هذا القبيل على لغة لبعض قبائلهم، فإنهم يثقلون ما هو مخفف من باب الشاذ، ولا تقس عليه إذ لا يحق لك أن تفعله

(الثاني) أن يدل على (عيب) إلَّمْ يدل على (لون) كما في سورة البقرة (صم بكم عمي فهم لا يرجعون)

(الثالث) أن يدل على (حلية أو زينة) إلَّمْ يدل على عيب أو لون. كقولك: رجل أهيف، وامرأة هيفاء، ونساء هيف ورجال هيف، ورجل أحور، وامرأة حوراء، وقوم حُوْر، ونساء حور. ومنه في سورة الرحمن: (حور مقصورات في الخيام). وفي سورة الطور: (وزوجناهم بحور عين)

(الرابع) أن يكون للنعت المذكر نعت مؤنث يقابله ومن لفظه، وبالعكس، فإن لم يكن كذلك، لم يُجز تكسيره على فُعْل، بل على وزن آخر سمع منهم. تقول في جمع حسناء: حسان لأنه ليس لها مذكر من لفظها على وزن أفعل. ومنه في سورة الرحمن: (فيهن خيرات حسان). وفيها أيضاً: (متكئين على رفرف خضار وعبقري حسان)

وتقول في جمع الصقلاء، وهي المنهضمة الخصر الصقال للسبب المذكور. وقالوا: أعوام عُوَّم، كسكر، ومفردها عام أعوم ولم يقولوا سنة عوماء. قال القجاج:

من حرِّ أعوام السنين العوَّم

(الخامس) إذا أشير إلى الجمع المكسر بضمير مفرد مؤنث لكونه لغير العاقل، أو جاور (فعلاء) وصف مفرد مؤنث يصح أن يكون للمفرد وللجمع على السواء، فأنت مخير في أن تنعته بفعل أو بفعلاء، وإذا كان اللفظ في الشعر والوزن يقتضي (فعلاء) فلا تخف من أن تزن اللفظ هذا الوزن. وكذلك يقال على الجمع المكسر لغير العاقل، فيصاغ

نعته على (فعلاء) إذا كانت هيئة ذلك الاسم المجموع بهيئة نعت مفرد مؤنث تقول: قنا خطية ملد، وقنا خطية ملداء، لأنك نصف تلك القنا بأنها (خطية) وبأن هذه (الخطية) ملد، أو ملداء.

وما عدا ذلك لا يجوز لك أن تنعت الاسم المكسر بنعت مفرد مؤنث، ولاسيما إذا كان الاسم المنعوت مجموعاً جمعاً مؤنثاً سالماً، فلا نقول قط كريات بيضاء.

(يتبع)

الأب أنستاس ماري الكرملي
أحد أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية
بغداد في 2691942

المصريون المحدثون - 42
شمائلهم وعاداتهم
في النصف الأول من القرن التاسع عشر
تأليف المستشرق الإنجليزي ادورد وليم لين
للأستاذ عدلي طاهر نور

تابع الفصل الثالث عشر - الأخلاق

إن الضيافة فضيلة في الشرقيين تثير الإعجاب الحق للغاية. ويستحق المصريون من أجلها كل ثناء. ويطلق عادة على الزائر أو الضيف في مصر كلمة (مسافر). وقل في مصر من يفكر في تناول طعامه وفي بيته غريب دون أن يدعوه إلى مؤاكلته إلا إذا كان المدعو من طبقة دنيا فيدعى إلى مائدة الخدم. ويعتبر امتناع المسلم عن الأمر بإعداد المائدة في الوقت المعتاد لأن زائراً دخل عرضاً، مخالفة فاضحة للآداب. ويتناول أفراد الطبقة الوسطى عشاءهم أحياناً أمام أبواب دارهم عندما يعيشون منفردين، فيدعون كل عابر جليل الهيئة ليأكل معهم. ويفعل هذا عادة أفراد الطبقة الدنيا. والاستضافة في المدن نادرة لأن فيها وكالات أو خانات يستطيع الغرباء المبيت فيها. كما أن الحصول على الطعام فيها أمر هين. أما في القرى فكثيراً ما يضيف المسافرين شيخ القرية أو غيره من السكان؛ وفي العادة أن يقدم الضيف من الطبقتين العليا والوسطى عطية إلى خدم المضيف أو إلى المضيف نفسه. ولكن يندر أن تقبل عطية الضيف في البادية. وللمسافر أن يستقري، بموجب السنة، من يستطيع أن يقريه ثلاثة أيام. وتقدم لنا التوراة في قصة إبراهيم وإضافته الملائكة الثلاثة صورة كاملة للطريقة التي يستقبل بها الشيخ البدوي الآن الوافدين على مخيمه. فهو يأمر زوجه أو نساءه بعمل الخبز في الحال، ثم يذبح نعجة أو غيرها ويطهيها على عجل، ثم يحضر لبناً أو أي طعام آخر مهيأ فيقدمهما لضيوفه مع الخبز واللحم الذي أعده. ويقف البدوي بين أيدي عظماء الضيوف أثناء تناولهم الطعام كما فعل إبراهيم في القصة المشار إليها. ويكاد أغلب البدو يؤثرون الضيم على أن يرضوا بالإساءة إلى ضيوفهم مدة الضيافة

كان من المعتاد أن ترى في القاهرة طوائف من (الطفيليين) الذين يستفيدون من ضيافة مواطنيهم، فيعيشون على التطفل. إلا أن هذه الطائفة نقص عددها أخيراً. وكان من المؤكد تقريباً أن يوجد بعض هؤلاء الأبطال حيث تولم وليمة، ولا يمكن التخلص منهم إلا بنفحة من النقود. وهم يتجولون أيضاً في البلاد دون أن يملكوا فلساً واحداً، فيتطفلون على المنازل الخاصة كلما احتاجوا إلى طعام، ويسعون إلى ذلك بمختلف الحيل. وحكي لي أن طفيليين عزما على الذهاب إلى مولد السيد البدوي في طنطا، وهي على مسيرة يومين ونصف يوم من القاهرة سفراً هيناً، فسار الطفيليان الهوينى حتى بلغا قليوب في نهاية اليوم الأول وتحيرا في الحصول على عشاء، فذهب أحدهما إلى القاضي، وبعد أن حياه قال: يا مولانا القاضي. . . أنا في طريقي من الشرقية إلى مصر، ومعي رفيق في ذمته لي خمسون كيساً يحملها معه ويرفض أن يعطيني إياها، وأنا في حاجة إليها الآن. فقال القاضي: أين رفيقك؟ فأجاب المدعي: هنا في هذه المدينة. فأرسل القاضي من يحضر المتهم، وأمر في أثناء ذلك بإعداد عشاء طيب، إذ كان يتوقع رسماً كبيراً في قضية كهذه، وهذا ما كان يفعله قضاة الأرياف في مثل هذه الظروف. ودعا القاضي الخصمين إلى العشاء والمبيت قبل النظر في القضية. ونظرت الدعوى في الصباح، فسلم المتهم بوجود الخمسين كيساً معه وقال: إنه مستعد لردها

لأنها تتعبه، فهي ليست غير أكياس الورق التي يباع فيها البن؛ ثم قال: نحن طفيليان. فطردهما القاضي غاضباً

إن اعتدال المصريين في الطعام والشراب مثالي. فقلما رأيت منذ قدومي الأول مصرياً في حالة سكر ما لم يكن عازفاً في سامر أو راقصة أو عاهرة من السفلة. ويبدي المصريون احتراماً عظيماً للخبز باعتباره سند الحياة. ولا يجيزون البتة التبذير في أصغر قطعة منه إذا استطاعوا تجنب ذلك. وكثيراً ما لاحظت بعضهم يرفع قطعة الخبز إذا سقطت عرضاً في الطريق إلى فمه وجبهته ثلاث مرات، ويفضلون وضعها على جنب لكي يأكلها كلب على أن يدوسها المارة. وقد روى لي كثيرون الحادث التالي الذي يدل على احترام المصريين للخبز إلى حد غير معقول؛ ولكن ينبغي القول أن هذه الرواية يصعب تصديقها: كان خادمان يتناولان طعامهما جالسين لدى باب سيدهما عندما أبصرا مملوكاً يتجه نحوهما

راكباً في جمع من رجاله. فقام أحد الخادمين احتراماً للقادم العظيم؛ فصاح القادم غاضباً: أيهما أحق بالاحترام: الخبز أم أنا؟ ثم أشار بيده إلى المذنب إشارة معلومة دون أن ينتظر منه جواباً، فضرب عنقه في الحال

يراعي المسلمون المصريون من الطبقتين العليا والوسطى النظافة بدقة. وتعتبر الطبقة الدنيا في مصر أكثر اعتناء بالنظافة من غيرها في أغلب البلدان الأخرى. ولعل المسلمين ما كانوا يهتمون بالنظافة إلى هذه الدرجة لو لم يأمر بها الدين. ويبدو مما سبق ذكره في الفصل الثاني من هذا الكتاب أن الواجب ألا نحكم على المسلمين، نظراً لنظافتهم، من تركهم أطفالهم في حالة قذرة. ولا شك أن الوضوء أمر حكيم؛ فالصحة لا تكون في البلاد الحارة إلا بالنظافة. ويحرص المصريون حرصاً خاصاً على تجنب كل ما قرر الدين قذارته ونجاسته؛ فيمتنع المسلمون عن شرب النبيذ لعدة أسباب أحدها أنه نجس. وأعتقد أنه يندر حمل مسلم على تناول قطعة من لحم الخنزير. وقد تحدثت مرة مع مسلم في موضوع الخنزير فقال إن الفرنج شعب يفتري الناس عليه كثيراً؛ فلا شك أن المعروف عنهم أنهم يأكلون الخنزير، ولكن بعض المفترين هنا يؤكدون أنهم لا يأكلون لحم هذا الحيوان النجس فحسب، بل يأكلون جلده وأحشاءه والدم ذاته أيضاً. فلما اعترفت له بصدق التهمة انفجر يلعن الكفار ويدعو عليهم بالدرك الأسفل من النار

يدين أكثر القصابين الذين يبيعون اللحم إلى أهل القاهرة المسلمين باليهودية. وقد اشتكى منذ سنوات مضت أحد العلماء الكبار إلى الباشا من هذا الأمر والتمس وقفه. وسمع بذلك عالم آخر فتبعه وألح أمام الباشا في أن هذا العمل لا يخالف الشرع. فقال المشتكي: قدم دليلك. فأجاب الآخر: دليلي قوله تعالى: (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه). فاستدعى حينئذ رئيس القصابين اليهود وسأله هل يقول شيئاً قبل ذبح الحيوان؟ فأجاب: نعم. نحن نقول دائماً مثل المسلمين: باسم الله الله أكبر. ولا نذبح الحيوان إلا بحز نحره. فصرف المشتكي حينئذ

ذهب رجل منذ أيام قليلة إلى خباز ليشتري فطيرة، فرآه يسحب من الفرن طبقاً به لحم خنزير كان يشويه لإفرنجي. فاستدعى الرجل في الحال شرطياً من أقرب قسم لأنه يعتقد أن من الممكن أن تكون الأشياء الأخرى لامست اللحم النجس فتلوثت. وألزم الشرطي قيادة

الخباز إلى الضابط. فلم يجزع الخباز واحتج بجهله أن اللحم كان خنزيراً. واعتبر الضابط الحادث مهماً يستدعي رفعه إلى ديوان الباشا. فرأى رئيس الديوان أن الأمر خطير يصعب الحكم فيه فأرسل المتهم إلى المحكمة. فاستفتى القاضي المفتي فأفتى أن كل طعام لا يكون نجساً في أصله تطهره النار مما يلوثه. فيعتبر طاهراً أي طعام وجد في الفرن ولو لامس الخنزير.

واستقدم الباشا من أوربا منذ مدة قصيرة لديوان حريمه طقماً من الحشايا والوسائد حشيت بشعر الخيل. ففتحت السيدات إحدى الوسائد ليتحققن من المادة التي تجعلها وثيرة على هذا الشكل اللطيف. فلما رأينها من شعر الكلاب تقززن أشد التقزز وأصررن على طرح الديوان بأكمله

واستخدم الباشا منذ سنوات قليلة رجلاً فرنسياً لتكرير السكر. فاستعمل هذا الأخير الدم لهذا الغرض. ومنذ ذلك اليوم قل من يجرؤ من المصريين على استهلاك السكر

الذي يصنعه هذا الإفرنجي. فاضطر الباشا إلى تحريم استعمال الدم في مصانعه واستبدل به زلال البيض. وقد رأى بعض المصريين أن السكر الأوربي يفضل السكر المصري فاستعملوا الأول على اعتبار أن ما كان طاهراً في الأصل يمكن أن يطهر مرة أخرى بعد تلوثه. ولكني مضطر إلى استعمال السكر المصري غير المكرر في عمل الشراب لضيوفي إذ أن البعض يناقشني طويلاً في هذا الموضوع.

جرت العادة أن يصب المصريون على ملابسهم بعد غسلها ماءً نقياً ناطقين بالشهادتين. وقد ذكرت عند الكلام على الدين عادات أخرى في النظافة يراعي المصريون أغلبها. ولكن المصريين بالرغم من هذه العادات والمبادئ في الطهارة وتعودهم الاستحمام لا يغيرون ملابسهم الداخلية كثيراً بقدر ما تفعل بعض الشعوب التي تعيش في أقصى الشمال والتي لا تحتاج إلى ذلك كثيراً، ويذهب المصريون إلى الحمام مراراً في ملابس قذرة يلبسونها بعينها ثانية بعد استحمام تام.

يتبع

عدلي طاهر نور

قصيدة مصر الجديدة

(مهداة إلى نادي الخرجين في السودان، وإلى جميع أصدقاء هناك (الرسالة))

للدكتور زكي مبارك

(حدثت الأستاذ الزيات أني سأنشر قصيدة أتحدى بها جميع الشعراء، وأقول أن هذا الزهو لم يخطر في البال وأنا أنظم هذا القصيد، فقد أوحته روحانية لا تسيطر على النفس إلا في أندر الأحايين، فجاء كما يراه أقباساً من الأشواق العواصف بالقلب والوجدان

وفتنة الشاعر بشعره مرض عرفته جميع الأجيال، فليس من الغريب أن أقول إني مفتون بهذا القصيد، وأن أزعم أني قبسته من جمر الوجود

أنا أكره أن تبيت قلوب وعيون بلا قرار ولا منام، فكيف جاز أن أزلزل قلوباً وأؤرق عيوناً بهذا القصيد؟

كان ذلك لأني أريد أن يعرف أبناء هذا الجيل حقوق الشعر البليغ، وأن يفهم قوم أن الكاتب الذي يعرفون هو الشاعر الذي يجهلون، إن كان فيهم من لم يقرأ قصيدة (الإسكندرية أو قصيدة بغداد)

تناسيتُكم عمداً كأني سلوتكم ... وبعض التناسي العمد من صور الود
إذا اشتدَّ إظلام العقوق تبلجتْ ... مآثِرُ تذكي نار معروفكم عندي
أمِثلَي يَنسى؟ آهِ مما اجترحتمُ ... على الهائم الحيران في حَوْمة الوِردِ
أأن خِفتُ عذَّالي فأخفيت لوعتي ... تظنوني صبَّا أفاق من الوجدِ؟
غرامي بكم لم يُبقِ قلباً بلا جوىً ... وحبي لكم لم يُبق عَيناً بلا سُهدِ
خلعتَ عليكم من هُيامي وصَبوتي ... غلائلَ لم تُخلع على ساكني الخُلد
مضى ما مضى، هل يرجعُ الدهرُ ما مضى؟ ... وهل تتقون الحبَّ أو سالف العهدِ؟
معاهد في (مِصرَ الجديدة) أصبحتْ ... رسوماً من الأشجان أحرسها وحدي
أنسري معاً فيها كما كان عهدنا ... وعهدُ الهوى أشهى مذاقاً من الشهد؟
أنقرأها حرفاً فحرفاً كأنها ... رسائلُ من ليلى المريضة أو هند؟
تعالَوا نُعدْ ليلاتِها الغُرَّ حسبةً ... لحبٍ قبضتمْ روحه وهو في المهد
تعالوْا تعالوْا قبل أن يُمسيَ الهوى ... تواريخَ لا تُغني المحبَّ ولا تُجدي
تعالوْا. . . فلن ألقى سَناً مثلَ نوركم ... ولن تستطيبوا جَنةٍ الحبِّ من بعدي!
. . .تعالوْا. . . ففي (مصرَ الجديدةِ) ما بها ... منَّ النرجس النعسان والفُلِّ والوردِ
مَثابةُ أحلامي ومهوى مآربي ... ومنسكُ روحي في الملامةِ والحمد
إذا جُلت فيها جولةَ الفتكِ أسلمت ... مفاتحها فيما تُسرُّ وما تُبدي
وإن غبت عنها بعض ليلٍ تلفتْت ... تُسائل عن سرِّ القطيعة والصد
شوارعها عند الأصيل مشارعٌ ... لكلِّ محبّ من حبيبٍ على وعدِ
وأنفاسها بالليل كالمسكِ نفحةً ... وظلماؤها كالخال في صفحة الخد
فلا تذكروا نجداً أو الخيف بعدها ... تسامتْ مغانيها عن الخيف أو نجد

ولا تطلبوا نِدّاً لها في جمالها ... فما لجمال الشمس في الكون من ندِّ
أباريسُ أو برلينُ تحوي فُتُونها ... إذا ازدهرت بالحسن كالكوكب السَّعدِ؟
أفي لَنْدَنٍ شِبهٌ لها في صِيالها ... إذا صفّتِ الأرواح جنداً إلى جندِ؟
تَجمعَ فيها الحُسن من كلِّ أمةٍ ... كبغدادَ بين العُرب والفُرس والكُرد
ورفَّتْ بها الأنفاس شتَّى غرائباً ... من الورد والريحان والضال والرَّند
هديرُ الأماني في الفؤاد هديرُها ... إذا جَدَّ جِدُّ (السَّبق) بالركض والشَّد
وروَّادها في الصبح والعصر زادُهم ... إذا ما استضافوها فنونٌ من الوجد
تَشابهَ فيها الليل والصبح فاعجبوا ... لصحراء أضحت وهي من جنة الخلد
يجسَّد نور البدر فيها مُفضَّضاً ... فتحسبه درّاً يُساقَطُ من عِقد
بكل مكانٍ أو بكل ثَنيَّةٍ ... بأرجائها سحرٌ يُثار بلا عمد
وما بدرها بدر السموات وحده ... ففيها بُدورٌ قد تجلَّ من العدَّ
خذوا وصفها عني فلي في ضميرها ... مكان الضريم الحر يكتنُّ في الزنَّد
ولا عيبَ فيها غير أنَّ نسميها ... يزيد سعيرَ القلب وقداً إلى وقد
يُحِدُّ شعوري بالوجود فاغتدى ... أحدَّ سماعاً من قُوى آلة الرَّصد
أسجل فيها ما أشاء من المنى ... ومن خطرات الروح للشاعر الغِرْد
وأنقل عنها في ضُحاها وفجرها ... أفانين أشتاتاً من الهزل والجِدِّ
إذا اجتمع السُّمار فيها رأيتهم ... ملائك توصي بالوثيق من العَقد
وإن طَربوا ليلاً وللقلب حقهُ ... حسبتم جنّاً أقيلوا من القِدِّ
هُيامي بها لم يُبق للعقل من شدىً ... بلألائه في غمرة الوجد استهدى
مدينةُ من هذي؟ مدينةُ ساحر ... يرى طيبها النفَّاح أذكى من النَّد
مدينة من هذي؟ مدينة ناسك ... يُسر من الإيمان أضعاف ما يبدي
أرى الله في مصرَ الجديدة كلما ... رأيت بها الأزهار تنظم في عقد
أرى الله فيها ما أردتُ ومن يعشْ ... كعيشي بها يقرُب من الصمد الفرد
حُلوليةٌ تزدار قلبي وخاطري ... فيحيا بها عقلي ويقوى بها عَقدي
أكان الحلوليون يرأوْن ما أرى ... من الحسن في قرب من الله أو بعد؟
أمرَّ زمان فيه (مصرٌ جديدةٌ) ... بها فارس يأوي إلى فرس نهدِ
أحبُّك يا مصر الجديدة فاسمعي ... نشيدي ولا تصغي إلى شاعر بعدي
تعالوْا تروْا قلبي على ما عهدتمُ ... وفاءً إلى غدر وصفحاً إلى حقدِ
أنا العيلم العجّاج بالرفق والأذى ... أضل أحبائي إذا شئت أو أهدي
بقايا من الرُّوح المريد تعودني ... فأرتدُّ صبّاً جائر الرأي والقصد
أُحبكُم؟ ماذا أقول؟ لقد صَحَا ... فؤادي وأبصرتُ الطريق إلى الرُّشد
عواطف جالت في ضلال كأنها ... بوارق في جُنح من الليل مسودّ
عشقتكم؟ قد كان ذلك وانطوت ... صحائف خطتها يد العبث المردى
فلا تذكروا عهدي بسخطٍ ولا رضاً ... تناسيت أو أنسيت ما كان من عهدي
أضاليل أزجيها لنفسي عُلاَلَةً ... عسانيَ أطفئ ما تَضرَّم من وجدي
وكيف التناسي كيف؟ ما أكذَبَ المنى ... إذا حدثتني بالخلاص من القيد
أحبُّكم حبّاً أحرَّ من الوغى ... تؤجج في سهل إلى الموت ممتد
أحبُّكم طوعاً وكرهاً وإنني ... لأخشى الذي تخشون من ذلك الإد
برغم الذي ألقاه من جور حكمكم ... ألوذ بكم عند الخصام واستعدي
ملاعب من لهو أثيم تمرَّدتْ ... فأمست كأقسى ما يكون من الجد
أروني باباً للنجاة أروده ... فقد ضقت ذرعاً بالضلالة في الرَّود
وكيف نجاتي كيف؟ هيهات فالذي ... سقيتم به روحي سيسرع في هدِّي
دعاني الهوى ماذا أراد بي الهوى ... لقد حدّ من عزمي وقد فل من حدي
إذا رُمت أسباب المتاب تعرضت ... نسائم رياكم فأقلعت عن هَودي
أأنتم نسيتم كيف كنا ولم نَدَع ... مآربَ من قبل تراد ولا بعد؟
غرامي بكم كان الغرامَ ومحنتي ... بكم صيرتني في الأسى أمّة وحدي
سلوا الليل في مصرَ الجديدة هل رأى ... على عهده بالحب أصدق من عهدي
وهل أبصر البدر المنير بأرضها ... أصحَّ أديماً من ضلالي ومن رشدي
وهل عرفت ظلماؤها في سهوبها ... أحبَّ إليها من هيامي ومن سهدي

لقد كنت ألقاها وللشمس ميلةٌ ... إلى الغرب تستهدى النعاس وتستجدي
فأملأها وحياً وشعراً وصبوةً ... إلى أن تفيق الشمس من نومةِ الخود
أتلك ليالٍ لا تعود ولم أزل ... بحمد الهوى في صوْلة الأسد الورد
جهلتكَ إذا كنتم تظنون مهجتي ... سَتَجنْحُ يوماً للسلام وللبَرْد
هواي هو الجمر الذي تعرفونه ... وللجمر سلطان على الحجر الصَّلْد
سأرزأكم بالهجر والصد فارقبوا ... بلايا تُغاديكم من الهجر والصدّ
أكان غرامي غرّكم فظننْتُم ... بأن ليس للإسراف في الحب من حد
هو القول ما قلتم فإن صبابتي ... ستبلغ ما لا يبلغ الجمر من وقد
سنون تقضت في اضطرام وحبنا ... يصاول بالعذْل المحمل بالنَّأد
فهل أفلحَ العذّال يوماً وفيهمُ ... وفيون يؤذيهم خباليَ في سهدي
مساويكم تبدو لقلبي محاسناً ... فواتنَ تُجزَي بالثناء وبالحمد
فمن أيِّ وادٍ للفُتون تفجرت ... ينابيع هذا الحسن مرهوبة الوردِ
أمرُّ بها ظمآن والجوُّ قائظٌ ... فأسمع همساً من وعيد ومن وعد
تلوِّح بالإشفاق عينٌ مريبةٌ ... لها ما لهذا الدهر من خاتل الكيد
وهل يعرف الحيران ضل طريقه ... بنحس رمى التلويح بالرفق أم سعد
أرى بيتكم مني قريباً وتارة ... أراه وأدني منه أبنية السند
على قدر ما نلقي من الوصل والجفا ... يقدر ما نلقى من القرب والبعد
أذلك بيت أم كناس يهابه ... ويرهب غزلاناً به أفتك الأسد
فأيان أيان السلامة منكمُ ... وليس لطغيان الملاحة من صد
أعوذ بربِّ الجنِّ منكم وإنني ... لأعلم أن لا عوذ من سَورة الوجد
شفى وكفى أني مُحِبٌّ محسَّدٌ ... يساق إليه الإفك في صورة النقد
قضى حبكم أن أجرع اللوم طائعاً ... وأن أحسب التهيام فنّاً من المجد
إذا صرت في غي الهوى ورشاده ... إماماً فقد تمت أياديكم عندي
أجيبوا: أكان الحب حلماً تبددتْ ... أشعته عند الآفاق من الرَّقدِ؟
أكان صفاكم لمحةً جاد بارقٌ ... بلألائها في الليل يُفجَع بالرعد؟
سأنساكمُ يوماً وللقلب رجعةٌ ... على جهله للراجحات من الجد
سأنسى هُيامي ثم سأنسى غوايتي ... وكلَّ ضرام في الغرام إلى خمد
أجيبوا فلي رأيٌ يقرُّ إلى مدىً ... قرار الجراز العضب في سُدف الغمد
أأنتم رضيتم أن تصير حياتُنا ... أفانينَ من نسك يكفنُ في زهد؟
لكم ما أردتم، فاذهبوا ثمةَ اذهبوا ... إلى الوهد من وادي الخمود أو النجد
ولي ما أراد الحبُّ والحبُّ حاكم ... نرى جوره فينا أبرَّ من القصد
بلادةُ أقوامٍ تُعَدُّ رزانةً ... بكل زمانٍ عن هدَى الحب مرتدِّ
جمال التماثيل الحسان جمالكم ... وليس لغادات التماثيل من رفد
فحتامَ حتامَ الوفاءُ لصبوةٍ ... رددتم إليها سؤلها أقبح الردِّ
أحبايَ ضاقت بي بلادي وآدني ... زماني فأولاني من الكرب ما يُردي
إذا قلت أيام الشقاء إلى مدىً ... تعاقبنَ بالأنواء والبرق والرعد
وإن ظمئت روحي إلى الصفو صدّني ... عن الصفو أقوامٌ جبلنَ على الحقد
ثلاثون عاماً أو تزيد قضيتها ... جواداً ببذل الروح للوطن الفرد
فما نلت حظاً من جداه سوى الذي ... يمنُّ به أهل الوشاية والكيد
أمن أجل هذا عشت ما عشت صابراً ... على وثبات العزم في الزمن الجعد؟
بلادي بلادي، أنت ما أنت؟ إنني ... أجرَّع فيك الصاب ينعت بالشهد
أأنت بلادي أنت؟ صدَّقت، فاصدُقي ... وعودك يوماً للفتى الصادق الوعد
تسابقني فيك الأماني خوادعاً ... كواذب لا تورى بحل ولا عقد
أساهر في ليلي كتابي ولا أرى ... لنفسي حظ الساهرين على النرد
فماذا دها الدنيا وماذا أصابها ... أسفّت فأمست وهي في خسة القرد
إلى من أسوق الشكوَ والدهرُ ما أرى ... تماثلَ فيه شامخ القُور بالوهد
إلى الوطن الجاني شكوت كما شكا ... لديغٌ إلى الصم المؤرَّقة الرُّبد
أمثليَ يؤذي بالعقوق ولم يكن ... له غير حفظ العهد في الحب من وكد؟
بلادي، وما هانت عليَّ مواطن ... أبي كان منها في الذؤابة أو جدي

أيشقى الثرى بالماء حتى يعودَه ... أطباء علامون بالجزر والمدّ
وأظمأ وحدي فيك والنيل ثائرٌ ... يروز الجسور الشمَّ بالمزق والقدّ
بلادي، أمن جرم جنيت تحولت ... حياتي إلى وجه من العيش مرمدّ
لئن كان لي ذنب فذاك تولّهي ... بشرح الذي زُوِّدت في الدهر من مجد
ستمضي الليالي ثم تمضي ولا يرى ... جمالك أقوى من غرامي ولا وجدي
بلادي، أكان الحب نوراً تطاولت ... عليه غيوم من عقوق ومن جحد
توحدت مقهوراً فما لي أخوةٌ ... ولا صحبة يقوى برفقتهم زندي
توحدت لا خِلٌّ أبثُّ شكايتي ... إليه ولا حبٌّ يؤرقه سهدي
إذا آدني الدهر اللئيم بجفوة ... تحوَّل أهلوه إلى عصبة لُدِّ
توحدت؟ لا، فالأسد يؤنسها الأسى ... بوحشتها في ظلمة الكثُب الجُردِ
ليصنع زماني ما أراد فلن يرى ... سوى ساعد يلقاه بالبأس مستدّ
بناني الذي يبني الجبال شواهقاً ... وليس لحصنٍ شاده الله من هَدّ
فما بال أقوامٍ تهاوت حلومهم ... يعادون بَنّاء الجبال بلا عند
يعدُّون أجناداً لحربي بواسلاً ... وقد جهلوا أني سألقاهمُ وحدي
إذا اعتز بالله القدير مجاهدٌ ... أذل ألوف الظالمين من الجند
أحباي في (مصر الجديدة) ما الذي ... دعاكم إلى تكدير ذيّاكم الورد
به جاد دهرٌ لا يجود فكنتمُ ... أضنَّ من الدهر المبخل بالرِّفد
سقاكم فروَّاكم غرامي ولم أجد ... على عثرات الدهر والوجد من يعدي
تُمر ليالٍ أو أسابيع لا أرى ... على شغفي إلا مواعيدَ لا تُجدي
عذرت أحبايَ الذين تصدُّهم ... فيافٍ سحيقاتٌ عن البر بالوعد
عذرت الألى بالكرخ شطت ديارهم ... فليس لهم عن عصمة الصبر من بُدّ
فما صبركم أنتم وبيني وبينكم ... خطًى هيناتٌ قد يقدَّرن بالعد
إذا صلصل الهتّاف أصبحت عندكم ... وإن وسوس الهتاف أمسيتم عندي
بخمسة أرقام تدار أراكم ... وترأونني، أهونْ بذلك من جهد
تعالوْا، ولا تُصغوا لأقوال ناصح ... يسوق الكلام الحرَّ عن خاطر عبد
نصيحةُ بعض الناس غشٌّ مقنَّع ... وإشفاق بعض الناس ضرب من الحقد
عرفت زماني في بنيه ومن يُقمْ ... بمسبعةٍ يسبق فلاسفة الهند
أنسمع لغو الحاقدين ولا نعي ... هدير حميّا الحسن ينصح بالوجد؟
هو الحسن فليأمر بما شاء ولتكن ... مشيئته، إنَّا له أطوع من الجند
سمعنا، ومن يهتف به الحسن يستمع ... ألا إنَّ همس الحسن لحنٌ من الخلد
تعالوْا فأوقات الصفاء ذواهبٌ ... وليس لوقتٍ قد أضعناه من ردّ
تعالوْا سراعاً، لا تقولوا: إلى غدٍ ... غدٌ عند صدق الشوق دهر من البعد
وإلا ففي (مصر الجديدة) أنجمٌ ... زواهر ترجو أن يكون لها ودِّي
أبغداد في عهد الرشيد تأرَّجتْ ... بأطيب من أنفاسها وهي في عهدي

زكي مبارك

البريد الأدبي

حول نسب الفاطميين

جاء في العدد (484) من مجلة (الرسالة) الغراء كلمة تحت عنوان (حول نسخ الأحكام) تأثر فيها كاتبها بأقوال خصوم الفاطميين السياسيين من بني العباس ومن كان ينتمي إليهم من العلماء، ولو أنه رجع إلى أقوال المنصفين فيهم كشيخ المؤرخين ابن خلدون لخفف شيئاً من غلوائه في أمر هؤلاء الفاطميين، ولعلم أن نسبهم صحيح إلى إسماعيل بن جعفر الصادق رضي الله عنهما، وقد يكون الطعن في دينهم كالطعن في نسبهم، أثراً من آثار السياسة التي تبيح كل شيء في سبيل أغراضها، وتذهب إلى أن الغاية تبرر الواسطة، فتذيع الكذب بين الناس وتنصر الباطل على الحق والظاهر بعد هذا كله أن القول بإعطاء الإمام حق نسخ الأحكام كما حكاه أبو جعفر النحاس، غير ما يحكى عن بعض الإسماعيلية في الإمام السابع الذي ينسخ الشرائع، لأن نسخ الشرائع يدخل فيه أصولها كالصلاة وغيرها، أما نسخ الأحكام فالظاهر أنه خاص بالأحكام الجزئية التي تتأثر بالظروف والأحوال، وتدعو الحاجة إلى نسخها بالاجتهاد لسبب من الأسباب. . .

(. . .)
كرملة الكرملي
أعود فأصحح للأب أنستاس ماري الكرملي أخطاء أخرى وقع فيها؛ والأمر في هذه المرة أخطر، فقد جمع إلى الأخطاء التاريخية أخطاء روحية؛ ولقد قال (ربليه) قدس الله روحه: (إن علماً بلا ضمير خراب للنفس)؛ فما بالك إذا كان العلم زيفاً حمله الرافدان؟
لو أن الأب أنستاس ماري الكرملي العالم النحرير والروحاني المتواضع زف إلى ما يقول (كرملة) يستسيغها الذوق لقبلتها، ولكن كرملته حصرم تمجه النفوس. إن في نفسي إيماناً بأن العلم والروحانية لا ينزلان بنفس إلا هذباها، ونحن كلما ازددنا توغلاً نحو آفاق المعرفة ازددنا دنواً من حدودها وإحساساً بتلك الحدود، فتهدأ جوارحنا ويسكن غرورنا. وأنا قد أقبل من رجل أن يعتز بماله إن كان صانعاً أو تاجراً، وأما العالم فالزهو منه ممقوت
إن روح العلم الصحيح لا تعرف نغمات الكرملي. العلم تواضع كما أن الدين محبة؛ وأين هذا من كلام الأب؟ أنا لا أعرف التأكيد في أي شيء ولذا قلت - أيها الأب أنستاس ماري الكرملي - إذا صح هذا أو ذاك. والأب الجليل العالي الكعب في كل أمر لابد قد قرأ أفلاطون، ولابد أن أستاذه قد قال له سنة 1887م إن موضع الجمال في أسلوب أفلاطون موضع السحر، موضع السمو، كثيراً ما يتركز في الحرفين اللذين يضافان إلى الأفعال اليونانية لينقلا التأكيد إلى الاحتمال، والأب الخطير يستطيع بلا ريب أن يترجم ب إذا صح الخ . . .
ثم إنني أيها الأب أنستاس ماري الكرملي لم أستنجد بعلم الأستاذ كراوس كما أني لم أغتصب منك أسلابك العلمية الثمينة، وإنما الذي حدث أن مجلة الرسالة لم تنشر مقالي كاملاً كما تستطيع أن تلاحظ ذلك من ابتدائه بنقط، ولو أنها نشرته كاملاً لرأيت أني سلمت لك بأنك تعرف أسماء أتيقوس وتيودسيوس وغيرهما ممن لا يعتبرون إلا قطرة في بحرك الملح الأجاج. ولو أنها نشرته كاملاً لعلمت أني لم أنشر هذا المقال رداً عليك وأنا لا صبر لي على قراءة تحقيقاتك التي تبعدها عني روحك الوديعة الطاهرة، وإنما أردت أن أحاج الأستاذ كراوس لأننا اختلفنا في هذا النص قبل أن ينشر الكتاب. وأنت أيها الأب أنستاس ماري الكرملي لا ريب مرهف الحس لطيف الذوق فكيف غاب عنك أن قولي: (اللهم إلا أن يكون لدى الأستاذ كراوس علم آخر. . . الخ) لا يفيد طلب النجدة
سلمت إذن للأب الكبير بأنه قد عرف اسم أبيقوس، ولكنني أنكرت عليه أن يعرف عنه أكثر من ذلك بدليل أنه زعم أنه روماني وهو يوناني. ولقد فطن إلى هذا الأب نفسه عندما راجع دفاتره وراجع العلماء الأفاضل الذين يجتمعون معه فوضعوا خطاً - كما يقول - تحت جملتي التي تحمل هذا المعنى، ووضع الخط هذا وتأمين الأب على وضعه هو طريقة العالم الفاضل في الاعتراف بخطئه. وإذن فقد كنت محقاً في أن أصحح له هذا الخطأ
بقيت مسألة الكراكي التي لم أعثر بها فقلت (إنها خرافة لا نعلم عن نسبتها إلى قومودس وأتيقوس شيئاً). وهذا حق، فأنا لم أعثر بها في حياتهما؛ وأعود فأكرر أنني لم أعثر بها ولا أقول لم أعثر عليها - كما يقترح اللغوي الكبير الأب الكرملي - لأن المعنى الذي أريد أن
أعبر عنه هو أنني لم أعثر بها، أي لم أقع عليها. وللأب الفاضل أن يظهر علمه - إذا أراد - في غير هذه التوافه، وأن يتفضل بأن يترك للكاتب الحق في أن يتصرف في اللغة وفقاً للمعنى الذي في قلبه
وأما مسألة أبيقوس ونسبه الكراكي إليه، فهذا لن يفيد الأب الكرملي في شيء، لأن النص يقول: (إن تودورس أو قومودس ملك يونان كتب إلى أينقس الشاعر أن يزوده بما عنده من كتب فلسفية). . . وإذا كان من الثابت أن قومودس قد عاش في القرن الثاني بعد الميلاد، وأن أبيقوس الذي فرح الأب باكتشاف أحد أصدقائه لوجوده قد عاش في القرن السادس قبل الميلاد، فإنه يكون بين الرجلين ثمانية قرون. أيريد الأب الشيخ أن يطير في طائرة عصرية ليجمع بين العصرين!
لم يكن لي أن أتجه نحو أبيقوس ما دمت قد رجحت كومودس

هذا ما يستحق الرد في كلام أوفى كرملة الكرملي، وأما ما دون ذلك، فالعلم منه بريء.

محمد مندور

مدرس بجامعة فاروق الأول

القضاء العشائري في العراق

كتاب قيم ألفه الشيخ فريق المزهر آل فرعون عضو البرلمان العراقي ورئيس عشائر الفتلة، يبحث في الأصول والقواعد العشائرية والعادات المألوفة لدى القبائل العراقية، ويتناول تدوين تلك الأحكام المرعية والعادات المتبعة التي ساروا عليها منذ ثمانمائة سنة، كما ضمنه عادات العشائر العراقية وآدابهم وتقاليدهم وأساليبهم وسائر شؤون حياتهم الاجتماعية

والحق أن للقبائل والعشائر العراقية تاريخاً حافلاً بالعادات والتقاليد المتوارثة، يحرصون عليها ويتواصون بالتمسك بها وعدم التفريط فيها؛ ومن هذه التقاليد المرعية يتألف قانون غير مدون له قدسية سائر القوانين المدنية وحرمة بقية الأنظمة الاجتماعية، يرجعون إليها فيما يتعلق بخلافاتهم وأحكامهم ومشاكلهم العديدة وفيما يخص سائر أمورهم الاجتماعية والشرعية والاقتصادية، ولهم فيما يتفرع من هذه النواحي وفيما ينجم عنها من ملابسات،

أحكام وآراء وحلول تنطوي على البراعة والمهارة والطرافة بقدر ما تنطوي عليه من صرامة وشدة وقوة مستمدة من ذكاء وقاد وإحساس مرهف، وحرص شديد يبلغ حد العصبية على محافظة العنعنات والنزعات العربية الخالصة

ولم يتهيأ إلى الآن من يعنى بدراسة هذه التقاليد والسنن، وما تكون منها من أحكام ومن أصول أصبحت على مر الزمن قانوناً مرعياً نافذاً صارماً، فيؤدي بذلك إلى التاريخ العربي خدمة كبيرة، ويوسع مجالاً للحياة القبلية العربية في العصر الحاضر، أن تأخذ مكانها في التدوين إلى جانب الحياة المدنية، حتى انبرى لها الشيخ فريق المزهر آل فرعون، وهو من هذه القبائل العربية الضاربة على ضفاف الفرات، فسد فراغاً في خزانة الأدب والتاريخ العربيين، بما قام به من وضع سجل تاريخي حافل في هذا الصدد، وهو كتاب (القضاء العشائري) الذي بحث فيه (نظام دعاوى العشائر)، وهو القانون الوحيد الذي يسير عليه القضاء الإداري في العراق؛ وقضايا الحق المنازع فيه قسمان: قضايا موضوعية، وقضايا أصولية، أو شكلية؛ وقد وضع (العرف العشائري) قواعد خاصة لكل من الحالين، وقد كانت هذه القواعد معمولاً بها في العراق لفض المنازعات بين القبائل منذ أقدم الأزمنة إلى الآن.

العدد 486 - بتاريخ: 26 - 10 - 1942

الراية المصرية

لكاتب كبير

هي راية الفكر والرأي والبيان، وهي أول هبة منٌ بها الوهاب على هذه البلاد، ولعلها أول هبة جاد بها الله على هذا الوجود

مصر بطبيعة الفطرة أمة سليمة الروح والوجدان، ومن أجل هذا المعنى كان فقراؤها أغنى من الأغنياء، وكان جهلاؤها أعلم من العلماء، فما عرف الناس في شرق ولا غرب بلداً يعيش على المواهب الطبيعية كما يعيش هذا البلد، ولا سجل التاريخ أمجاداً أشرف من أمجاد هذا البلد، ولا كان في الدنيا نهر أوفى وأكرم من نهرها الفياض بمعاني الخصب والثروة والشعر والخيال

عاصرت المدينة المصرية مدنيات كثيرة في القديم والحديث، فهل انهزمت أمام إحدى المدنيات؟ وهل خضعت لعبودية الروح في أي وقت، وإن جاز الزمن فنال من استقلالها السياسي في بعض العهود؟

صنع الدهر بمصر ما صنع في عهود الطغيان من الوجهة السياسة، ولكن الدهر عجز عن غزوها في الميادين الأدبية والروحية والعقلية، فظلت آية الآيات في سمو الفكر والرأي والبيان

إن مصر لم تخضع ولن تخضع لأي سيطرة تعتمد على الاستبداد، وهل كان من العبث أن تعرف مقابر من سيطروا على هذه البلاد، ثم تختفي مقبرة الإسكندر المقدوني، فلم يهتدي إليها منقب ولا باحث، مع أن صاحبها كان من أعاظم الرجال؟

كانت مصر لأبنائها، ولن تكون إلا لأبنائها، وستمضي أجيال وأجيال، وأزمان وأزمان، قبل أن يجوز في الوهم أن الذاتية المصرية معرضة لاستعباد الجهل والبغي والطغيان. في عصور الجاهلية الجهلاء كانت مصر مناراً يهدي اليونان والرومان، وفي عصر الإسلام كانت ملاذاً للعلوم الإسلامية، والحضارة العربية، وفي العصر الحديث كانت مصر درعاً يقي الشرق من طغيان الغرب، وستظل مصر إلى الأبد مصدر النور ومنبع الإشراق.

أكتب هذا وفي قلبي أشجان تعجز عن إثارة دموعي، فقد قيل وقيل أن أيام الحرب تصد العقول عن الرأي، وتمنع الأقلام من البيان

هيهات ثم هيهات، فالينبوع القاهر يفتك بالحواجز والأسداد، والقلم العارم يصنع ما يصنع النور في تبديد الظلمات

لن تضام مصر، ولن يضام أهلوها، ولن تجف أقلامها، ولن يكون لها بين المظلومين مكان

لا أقول أن مصر باقية ما بقي النيل، ولكني أقول أنها باقية ما بقى الوجود

مصر شرعت لجميع الأمم مذاهب الفكر والرأي والبيان وستظل بإذن الله مصدر الفكر والرأي والبيان

قال الزعيم النبيل مصطفى كامل: (لو لم أكن مصرياً لتمنيت أن أكون مصرياً) وأقول إني أكره الافتراض الذي يبيح التخيل بأني لم أكن من المصريين

إن الظلم الذي يلاحقني في وطني لا ينسيني جمال وطني لأنه عندي أعز من روحي ونفسي

أنا أرفع الراية المصرية حيثما توجهت، ولن تضام مصر ولها أسندة ودروع من أبنائها الأوفياء

وكم تمنيت أن أكون أول من هتف بهذه الآراء، ليكون لي فضل الابتكار والإبداع، ولكني أشرح آراء جادت بها عقول كان لها فضل السبق في إحياء المواهب المصرية والعربية والإسلامية، من أمثال: أحمد زكي باشا، ومحمد بك مسعود، والشيخ محمد عبده، والسيد جمال الدين

هي آراء بشر بها ودعا إليها أولئك الجهابذة الأعلام، ولكنها حلت من نفسي محل اليقين، فصرت أهتف بها هتاف المبدع الأصيل، والمريد الصادق لا يقل إيماناً عن أساتذته النبلاء نحن لا نعمل لليوم الحاضر وحده، وإنما نعمل للمستقبل القريب والبعيد، وستظل سواعدنا قوية ولو احتواها الفناء

نحن لا نهاب الرجعية الممثلة في أوهام الفنانين، ولا نهاب مصالحنا وهي جديرة بأن تهاب، وإنما نهاب الحق، ونراعي الوطن، ونخاف الله، وتلك معان توجب أن نظل أوفياء لكرامة العقل، وسماحة الروح، وشجاعة الوجدان

سنقف كراماً حيث يقفنا الواجب، ولن نرضى أبداً بأن يعرض الفكر في بلادنا للخمود وستذكر مصر طائعة أو كارهة أن في أبنائها من وفوا بالعهد، في أيام ألهت جماهير الناس

عن الفكر والرأي والبيان. . .

(كاتب)

مسابقة الأدب العربي لطلبة السنة التوجيهية

حديث عيسى بن هشام - 1

للدكتور زكي مبارك

فاتحة البحث - فوضى مزعجة - جنتمكان - الأمير - سبب الفوضى - تاريخ الكتاب - المويلحي الكبير والمويلحي الصغير - أصل الشبهة - سجين الفاقة والبؤس - الأديب المضطهد لنسبه وغناه - عصارة الشدائد - أغراض المؤلف - عقلية المويلحي - طبعات الكتاب

فاتحة البحث

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على جميع الأنبياء والمرسلين. . .

أما بعد، فهذا بحث في كتاب (حديث عيسى بن هشام) المقرر للامتحان التحريري في مسابقة الأدب العربي، والمرجو - إذا وفق الله - أن يكون فيه ضمانة مؤكدة للنجاح في ذلك الامتحان، على شرط أن ينظر الطلبة في الكتاب نظرة جدية بعد قراءة هذا

البحث، لأن الغرض من أمثال هذه البحوث هو التوجيه إلى الإطلاع عن بصيرة ويقين. ويخطئ من يظن أننا ننوب عنه في قراءة ما يريد من الكتب، وفي استخلاص ما يشاء من الحقائق، ليواجه الامتحان وهو لا يملك غير ملاحظات لم يسهر له فيها جفن، ولم يقلق وساد!

هذه أبحاث نقدية، والنقد فن من التوجيه، وليس ضرباً من التحصيل؛ فليفهم أولئك الشبان هذا المعنى، وليقرءوا الكتب التي ننقدها قراءة فهم واستقصاء، بعد أن يستوعبوا ما فيها من المعاني والأغراض

فوضى مزعجة

هي الفوضى المحيطة بكتاب (حديث عيسى بن هشام)، فما يكاد القارئ يعرف في أي عام ألف، ولا يكاد يتصور أي مجتمع يصور، لولا عبارات تنطق بأنه كتب بعد موت (جنتمكان محمد علي): الجد الأكبر للملك فاروق، رحم الله الجد، وحرس الحفيد. . .

جنتمكان

وما (جنتمكان) التي ترد في الكتاب من صفحة إلى صفحات؟

لقد استبهمت عليَّ أول الأمر، وعجزت عن الاهتداء إلى نطقها الصحيح، ومدلولها الأصيل، ثم عرفت بعد لأي أنها كلمة تركية ركبت تركيباً مزجياً من كلمتين عربيتين: هما (جنة) و (مكان)؛ وإذن يكون: (جنتمكان) هو ساكن الجنان؛ وهي العبارة التي تذكرها الجرائد حين تتحدث عن كبار الأسلاف من البيت المالك؛ والظاهر أن (جنتمكان) كانت مفهومة عند تأليف الكتاب، فتركها المؤلف بلا شرح؛ وهل كان يخطر في باله أن معناها سيغيب عن رجل في مثل حالي؟

اللهم إني أسألك السلامة من الجهل، فهو أخطر الأعداء!

الأمير

الألقاب نظمت في هذا العهد بطريقة واضحة الرسوم، فصرنا نعرف الفروق بين طبقة الأمراء وطبقة النبلاء من الوجهة الرسمية

فلنذكر أن كلمة (أمير) في عهد مؤلف الكتاب لم تكن تدل حتماً على أن الموصوف بها من أعضاء البيت المالك، وإنما كان الأمير هو الغني، ولو كان أجداده أبعد الناس من دماء الملوك

حدثني الشاعر عبد المحسن الكاظمي قال: كان محمود سامي البارودي أميراً بكل ما لهذه الكلمة من معاني

وقد توهمت في بعض ما سطرت من البحوث أن (إمارة) البارودي كانت رسمية أو شبه رسمية، لأن أجداده كانوا من أمراء المماليك، فالآن أعرف أن الإمارة في مصر كانت من نصيب أصحاب الثراء في جميع الأحوال

والكاظمي عراقي استمصر، وقد هال الرصافي أن يبكيه العراقيون بعد الموت فقال:

فيا عجباً بكتْك وأنت مَيْتٌ ... بلادٌ ضَّيعتْك وأنت حيُّ

سبب الفوضى

وسبب الفوضى التي يعانيها من يقرأ (حديث عيسى بن هشام) أنه خلا خلواً فظيعاً من التواريخ، وهل يوجد أعجب من أن تكون رسالة السيد جمال الدين الأفغاني إلى المويلحي بدون تاريخ؟

أستغفر الله، فالنص الزنكوغرافي ينص على أنها في 19 ربيع الثاني

ولكن من أي عام هذا الربيع الثاني، يا سيد جمال الدين؟

تاريخ الكتاب

يقول المؤلف إن كتابه مجموعة مقالات نشرت في (مصباح الشرق)؛ ومن السهل على المقيم بالقاهرة أن يراجع تلك الجريدة في دار الكتب المصرية، فما الذي يصنع المقيم بمدينة دمشق أو مدينة بغداد؟

في الصفحة الرابعة والثمانين نجد المؤلف يقول: (إنها أبدع نكتة في آخر القرن) فنعرف أن الكتاب ألف في آخر القرن التاسع عشر للميلاد

المويلحي الكبير والمويلحي الصغير

عرفت اللغة العربية في العهد القريب كاتبين عظيمين باسم المويلحي، ثانيهما محمد وأولهما إبراهيم، وكانت لإبراهيم مخاطرات سياسية دونها على صفحات (الرسالة) أحد أحفاده منذ سنين، فليرجع إلى تلك الصفحات من شاء، عساه يعرف كيف كانت

مناورات ذلك الكاتب في ختل السلطان عبد الحميد
والمهم هو أن أسجل أن إبراهيم كان الكاتب الكاتب الكاتب، وإليه تنسب بالباطل أو بالحق رسائل ابنه محمد في (حديث عيسى بن هشام)، فقد مرت أزمان والناس يعتقدون أن محمداً ابن أبيه في كل شئ، حتى ذلك الحديث
أصل الشبهة
ولهذه الشبهة أصل، فقد سكت محمد بعد موت أبيه سكوت المريب، فتقول عليه الناس الأقاويل، وظنوا أدبه من الصنف المدخول.
وقوى الشبهة أنه استغضب فلم يغضب، ولو كانت التهمة باطلة لثار وهاج، وفعل بخصومه الأفاعيل.
سجين الفاقة والبؤس
في سنة 1924 تفضل الدكتور منصور بك فهمي فوصلني بالمؤرخ الكبير أحمد باشا شفيق، وكانت مهمتي أن أدون مذكرات شفيق باشا بأسلوب مقبول. ثم جاء رمضان فدعاني الباشا لطعام الفطور مع جماعة منهم الكاتب العظيم محمد بك المويلحي، فكيف رأيت المويلحي؟
كان يلبس الردنجوت من غير موجب، وقد قضى الوقت كله في صمت، فصح عندي أن أدبه لا يخلو من تزييف
وفي صبيحة اليوم التالي واجهت أحمد باشا شفيق برأي في محمد بك المويلحي، فسكت لحظة ثم قال: هل تعرف كيف يعيش هذا الرجل وكان ابن ذوات؟
- كيف يعيش؟
- أتجهل كيف يعيش؟
- وهل أعلم الغيب؟
- إن محمد بك المويلحي يقضي الأيام والأعوام وليس له زاد غير الخبز والملح والماء، فهو أعظم من داوى الفقر بالتجمل في هذا الزمان
- أيعيش المويلحي هذا العيش؟
- هو غني افتقر، ولا تصلح هذه الهامة العالية لاستجداء الناس، ولو كانوا من الأمراء والملوك
الأديب المضطهد لنسبه وغناه
نشأ محمد المويلحي نشأة المياسير، فكان من حقه أن يستكبر على الناس كما يستكبر من يكون في مثل غناه، ولكن سليقته الأدبية فرضت عليه أن يدرس جميع الطبقات الاجتماعية بلا تفريق بين المرتفعين والمتضعين، فكان يغشى أماكن السوقية كما يغشى أماكن الأمراء
وفي ذات ليلة تطاول عليه سفيه في إحدى الحانات فضربه كفاً، كالذي يقع في أماكن الشبهات والظنون
فكيف كانت العواقب؟
أقام السخفاء من أدباء مصر موسماً سموه (عام الكف) عليهم غضبات صاحب الجبروت.
ومن العجب العاجب، والسخف الساخف، أن يكون شاعرنا إسماعيل باشا صبري أحد المشتركين في الشماتة بالأستاذ محمد المويلحي مع أنه مدح الشيخ أحمد الزين!
فيا بني آدم من أهل هذه البلاد، متى تعقلون؟
متى؟ ثم متى؟
عصارة الشدائد
تصدر عني من وقت إلى وقت آراء في غاية من الغرابة والشذوذ في نظر الناس، ثم تجئ الشواهد التي تؤكد أني لم أكن من المخطئين
ومن آرائي الشاذة في نظر الناس قولي بأن الأديب الغني أقدر على فهم الحياة من الأديب الفقير، وأشد إدراكاً لما في الحياة من مكاره وصعاب
وكان ذلك رأيي لأني أومن بأن الأغنياء تقع في حياتهم تعقيدات لا يعرفها الفقراء، وما يسيغ ذهني فكرة القول بأن الفقير يدرك معنى البؤس على الوجه الصحيح، لأن الفقر عصمة من مواجهة (الخطوب الثقال)، وقد نعرف بعد حين أن الفقراء هم الأغنياء
أقول هذا وقد صح عندي أن براعة المويلحي في كتابه أخذت مددها الأصيل من

اضطلاعه بمتاعب الحياة في وقت مبكر، مع الاعتراف بأنه كان لا يزال في رعاية أبيه، ولم يكن عرف طعم القوت الدائم بالخبز والملح والماء
ومن حظ الأدب أن المويلحي لم يؤجل تسطير ملاحظاته إلى أن يشرب الصبابة من كأس البؤس، فما يستطيع بائس معدم أن يتبين ما يريد أن يقول
كان المويلحي في عافية حين سطر تلك الأحاديث، ثم عم الغم وطم، فأثر الانعزال إلى آخر الزمان
لم يعرف الأدباء الفارغون من أصحاب الجرائد الهزلية أن الأديب الحق لا يتوقد خاطره في كل حين، ولم يفهموا أن البلبل لا يغرد إلا وهو جذلان، فعدوا سكوت المويلحي بعد موت أبيه دليلاً على أن أدبه من ضروب الأدب المنحول، ولو عقلوا لفهموا أن الرجل أصابته بموت أبيه كوارث معاشيه تزلزل رواسي الجبال
إلى من يتوجه المويلحي وقد عادى جميع الطبقات باسم الأدب والبيان؟
وهل كان خصماؤه قبل عشرين سنة إلا كتبة مأجورين يأكلون النار طائعين أو كارهين؟
لقد مات المويلحي وظلوا أحياء، فمن الحي ومن الميت؟
تبارك من جعل الأدب الصحيح مهر الخلود!

أغراض المؤلف

للمويلحي من كتابه أغراض أدبية واجتماعية وتاريخية، فهو يريد اولاً أن يقدم للأدب صوراً من البيان الوهاج، وقد فاز من هذه الناحية فوزاً مبيناً، بغض النظر عما يقع من تكلف السجع في بعض الأحايين. ولا جدال في احتواء هذا الكتاب على صفحات يتمناها كبار الكاتبين
وهو يريد ثانياً أن يصور المجتمع، فهل أفلح في تصوير المجتمع؟
لقد وصل إلى أبعد الغايات في تصوير الطبقات العالية من وزراء وعلماء وتجار وقضاة ومحامين وأعيان وأوشاب، وللأوشاب في مصر مكان، ولكنه غفل عن تصوير الطبقة التي تمد الحياة المصرية بالغذاء السليم من الآفات، وهي طبقة الزراع والصناع.
وعذره في هذه الغفلة واضح، لأنه عاش عيشة لا تمكنه من التعرف إلى هؤلاء الناس
أما ملاحظاته التاريخية فهي من التفاهة بمكان!

عقلية المويلحي

عقلية هذا الرجل سليمة إلى أبعد الحدود، ولكنها تجود بالضحكات في بعض الأحيان، كأن يتحدث عن سور بابل فيقول: هو عدة أسوار متداخلة بعضها في بعض يتسع محيطها للإحاطة بسبع مدائن مثل مدينة باريس، وكان ارتفاعه ثمانية وأربعين متراً، وعرضه سبعة وعشرون متراً، ومن حوله خندق عميق، وعليه أبراج متعددة، وله مائة باب من حديد
يقول المويلحي هذا الكلام المضحك مع أنه نص على أن حدائق بابل المعلقة كانت في اتساع أربعين فداناً، ومع أن من المستحيل أن تسمح ثروة العراق بإقامة سور له ذلك الطول وذلك العرض، وفي محيط يسع سبع مدائن مثل مدينة باريس، باريس التي يسكنها نحو خمسة ملايين، مع اتساع الشوارع والميادين، ومع ابتلاع نهر السين

طبعات الكتاب

ظهرت الطبعة الأولى سنة 1907، وظهرت الطبعة الثانية سنة 1912، والطبعة الأخيرة هي الرابعة مع الرحلة الثانية، وهي موضوع الدرس، وعليها المعول في الامتحان، وقد عني المؤلف بتنقيحها قبل أن ينتقل إلى عالم الخلود
وكلمتي هذه تمهيد وجيز يحتاج إليه المتسابقون بعض الاحتياج أو كل الاحتياج، أما البحث المقبل فأنا أرجو أن يكون عندما أريد، إن تفضل الله بالتوفيق.
زكي مبارك

عودة إلى تحفة الأستاذ علي طه

أرواح وأشباح

للأستاذ محمد توحيد السلحدار بك

- 1 -

اطلع الأستاذ توحيد بك على نقد في (الثقافة) لـ (أرواح وأشباح)، فحرك ذلك نشاطه لاستئناف البحث في هذه الملحمة الرفيعة تحليلاً لمغزى القصيدة، وتعقيباً على رأي الناقد.

(الرسالة)
هي الأرواح والأشباح المائلة في البشر أجمعين، ويمثلها أبطال يحييهم في المخيلة فن الشاعر المبتكر في تحفته العربية. ولا بأس بالعودة إلى الحديث في موضوعها: فإن التحف الفائقة من شأنها أن تحرك الخواطر والخوالج في كل وقت على الدهر، فيكثر الكلام عليها من كل وجه. فلننظر المرة فيما قدم إلينا هذا الشاعر المفلق من صنيع كما هو:
هو قصة الروح والجسد في محاورة مدارها السر في تجاذب الرجل والمرأة، وأثر الغريزة في الفن بينهما. وهذا موضوع جدي بعيد الغور، أحسن معالجته شاعر مثقف، وبناه على أساس متين من وجدانيات وفكر جديرة بالنظر
والفكرة الرئيسية في الموضوع، هي أن بين الروح والجسد تفاعلاً، وبين القيم الأخلاقية والغريزة تدافعاً؛ وإن هذا التفاعل وهذا التدافع هما العاملان الخفيان المسيران للحياة البشرية.
وهذه الفكرة الأصلية مستحكمة في صلب الصنيع، مرفرفة على كلامه من أوله إلى آخره؛ وهي لذلك أس الوحدة الجامعة لأطرافه، يؤيدها سائر الأسباب المتممة لهذه الوحدة المتينة.
أما خلاصة المحاورة فيما يتعلق بأثرالغريزة في الفن بين الرجل والمرأة، فهي أن المرأة تلهم الفنان بجمالها الجسدي وجمالها الروحي فيراها دمية صورت من نقاء، ويرى فيها ما لا تحد النهى، كأنها معنى وراء الخيال. غير أن الشهوة الجائعة فيها، بل الغريزة العاتية فيهما، توقعهما في الخطيئة؛ فالفنان يستلهم الشر سحر البيان، وتصير الفنون رمز الآثام. وتلك حال الآدمية، يريد الفن أن يعلو بها، فيقعدها الجسد بغرائزه. على أن أهل الفن منهم
من يحتمل سعير الحياة فتقوى روحه، ومنهم من يعشو بنور هذا السعير فتغلبه الغريزة:
شفت غُلَّة الفن حتى ارتوى ... وإن دِنس الفن من طهرها
خطيئتُها قصة الملهمين ... وإغراؤها الفرح المفتقَد
بأرواحهم يرتقون الخلود ... على سُلَّم من متاع الجسد
وما الفن إلا سعير الحياة ... وثورتها في محيط الأبد
لهيب إذا الروح مرَّت به ... تضاعفتْ الروح في ناره
يُطيق القوى لظى جمره ... ويعشو الضعيف بأنواره
وما الآدمية بنت السماء ... ولكنها بنت ماء وطينّ
يريد لها الفن أفق النجوم ... فيقعدها جسم عبد سجين
كلام في الفن والفنانين، تتحدث به في السماء أرواح أسماؤها إغريقية مستعارة من الأساطير؛ ولكن هذه الأرواح رموز إلى الآدميين؛ والفنانون بشر على كل حال؛ فحديث الغريزة العاملة فيهم يعني معهم سائر البشر. ولذا جاء الكلام في الفن وسيلة فنية شعرية إلى إبداع ملحمة في شأن الإنسانية منذ نشأتها، ومن أقدم عصور اليونان، ومن أيام السامري وبني إسرائيل وموسى في أرض مدين؛ وتعني البيض وغيرهم، حتى زنوج هاواي؛ وتقص طبيعة البشر وأثر الغريزة في الرجال والنساء طرًّا:
نعم، أنت هن. . . نعم، ما أرى؟ ... أرى الكل في امرأة واحدة
لقد فنيت فيك أرواحهن ... وها أنت أيتها الخالدة
أأبغض (حواء) وهي التي ... عرفتُ الحنان لها والرضى؟
ورثت هواها فرمت الحياة ... وحبَّب لي العالم المبغضا
هو الرجل القلب، لا غيره ... فأودعنه القبس المضرما
إذا ما اقتحمتّن هذا السياج ... فقد خضع الكون واستسلما
(على الأرض)
هنالك حيث تشبَّ الحياة ... وحيث الوجود جنين العدم
وحيث الطريدان شجَّا الكؤوسَ ... ومجَّا صُبابتها من قِدم
(في الزنوج)
وما أخطأ الطيف ألوانه ... ولكنه اللهب الأحمر
لهم أعينٌ تتملى الجمال ... وأفئدة بالهوى تشعر

تفَّرد فْهمُ بالخفاء ... وصيغ بفطرتهم واتسم
له بأس (مانا) وإيحاؤه ... إذا اضطربت روحه بالألم
ورقت (هاواي) في شدوها ... إذا جاش خاطرها بالنغم
هم الناس لا يعشقون الخيال ... إذا لم يكن حافزاً للطماع
هم الناس لا يعبدون الجمال ... إذ لم يكن نهزة للمتاع
هم الناس لا يألفون الحياة ... إذا لم تكن معرضاً للخداع

هذا، إلى أن المقدمة الشعرية والملحمة ذاتها تدلان دلالة واضحة على أن الشاعر قد طافت خواطره المجنحة في أحوال البشرية منذ أقدم القدم إلى حاضرها؛ وإن مخيلته الخصبة، وقلبه الفياض، قد تأثرا من عقائد راسخة في نفسه. . . نفسه المستنيرة بأدب جم وبمأثور في الإنسانية؛ وإن هذه النفس الحية، عرتها هزة الإلهام، فتبعث منها هذا الشعور الصادق المشرق الآسر:

(من المقدمة الشعرية)

إلى قمة الزمن الغابر ... سمت ربة الشعر بالشاعر
يشق الأثير صدى عابراً ... وروحاً مجنّحة الخاطر
وأوفت على عالَم لم يكن ... غريباً على أمسها الدابر
نمت فيه بين بنات السديم ... وشّبت مع الفلك الدائر
مشاهد شتى وعتها العقول ... وغابت صُواها عن الناظر
وجود حوى الروح قبل الوجود ... وماض تمثّل في حاضر
تبدَّى لها فأنجلي شكها ... وثابت إلى وعيها الذاكر
وأصغت فمرّت على سمعها ... رواية ميلادها الغابر
على مذبح الحب من قلبها ... سراج يسِّبح مَن لألأة
وتمشى الحياة على نوره ... وما نوره غير عين امرأة
هو الحب؟. . لا. . بل نداء الحياة ... تلبيه أجسادنا الضامئة
يخفّ دمي لصداه الحبيب ... وتدفعني القدرة الهازئة
قلوب تلذّ بتعذيبها ... غرائز عانية عارمة
صحت من خُمار ملذاتها ... تعنِّف أهوائها الآثمة
هو ابن السماء. ولكن ... من النقص تركيبه والتمام
صناع الطبيعة بل صنعها ... فمنا دمامته والوسام
يسفّ إلى حيث لا ينتهي ... ويسمو إلى قمة لا ترام
ويسقى بكأس إلاهية ... مرنَّقة بالهوى والأثام

(من الخاتمة)

غدا تدرج الروح في طيفها ... وما الطيف للروح إلا قناع
سترقد في غورها الذكريات ... وتوقظهن السنون السراع
وتمشي لحاضرها في الحياة ... بمصباح ماض خفي الشعاع
وكم نبأت كالحديث الجديد ... وما هو إلا القديم السماع
من الخير والشر إلهامها ... مقادير تجري بهن اليراع

ما أحب هذا الشعر وأسرعه إلى القلب واللب! وما أنفسه في الأدب! ثم إنه قريب إلى المعقول على نظريتي الحياة في الفلسفة العلمية: النظرية الروحية والنظرية الآلية!

فقد فطر الإنسان على غريزتين أصليتين، تعمل أحدهما على حفظ الفرد وتعمل الأخرى على حفظ النوع، وهذه هي علة التجاذب القاهر بين الرجل والمرأة، ولو بطل عملها لا نقرض النوع

والجسد مكمن الغريزة، أما الروح فهي مجمع الملكات السامية من المخيلة والشعور أو الوجدان والعقل والإرادة؛ وهي مبتدعة القيم الأخلاقية العالية والشعر وجميع الفنون والإنسان يسف بغرائزه الحيوانية، ويسمو بملكاته الروحية؛ وقد تدرج بها إلى إنسانيته الحاضرة في مراقي أطوار غابت معالمها في غياهب الدهارير. ولاحظ الآدمي في حين من الدهر طواه الماضي السحيق أن هذه الملكات التي يتفوق بها على الحيوان تذهب مع الروح، وإن من فارقته روحه بقي جثة هامدة من اللحم والدم لا تلبث أن تنحل؛ ولذا قيل

إن الروح هي الأصل السماوي، وما الجسد إلا شبح تقمصته عند هبوطها من العالم العلوي
والملكات الروحية تؤثر في الجسد وغرائزه، كما أنها تتأثر منها. وما هذا التفاعل مختلف الأثر باختلاف عوامل شتى، كالوراثة والعادة والمعيشة والبيئة؛ مختلف الأثر في كيان كل شخصية، وفي شعورها بالذات والألم؛ وهذان هما سبب الفضيلة والخير، والرذيلة والشر جميعاً؛ والفضائل والرذائل خلال في البشر على نسب متفاوتة؛ فمنهم من هم أدنى إلى الحيوان، ومنهم من هم أدنى إلى الإنسان المثالي. وفي سورة (الشمس): (ونفسٍ وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها، قد افلحَ مَنْ زكاها، وقد خاب من دساها)
تؤثر الملكات في غريزة حفظ النوع التي هي علة التجاذب القاهر بين الرجل والمرأة، فتلطف من حدتها وتهذبها بقيم أخلاقية هي قوام الحياة الاجتماعية؛ ولكن هذه الملكات لا تكف الغريزة عن العمل. ولذا فهي تخفي فعل الغريزة وراء أستار من المعاني والخيالات والأسماء الشريفة، إذ تسمي الجاذبية في الذكر والأنثى جمالاً، وسلطان الغريزة حباً؛ وتسمى اللذة من وصف الجمال والحب، أو من تصويرهما، فنا. بيد أنها لن تستطيع منع السنة الفطرية إن تبلغ غايتها في حفظ النوع. فإذا كان تغلب الغريزة خطيئة آدم وحواء، فهي خطيئة يذوق الإنسان مرغماً مر عواقبها وحلوه، ولن ينال الغفران وإن كفر عنها ما استطاع بفضائله
وفي ذلك حقائق كشفها الإنسان بخبرته وعلمه
وقد نظر الشاعر الملهم في ماضي الإنسانية البعيد وحاضرها، وأرادت خواطره المجنحة سيرة البشر، ثم عرض بفنه الجميل ما جنت من يانع الثمر، في ملحمة من كنه الشعر وسحر البيان.
(البقية في العدد القادم)
محمد توحيد السلحدار
يوم من أيام دمشق الخالدة
وفاة الإمام ابن تيميه
في 20 ذي القعدة سنة 728 هـ
للأستاذ أحمد رمزي بك
قنصل مصر العام في سورية ولبنان
(في شهر أغسطس الماضي أم دمشق الأستاذ أحمد رمزي بك قنصل مصر العام في سورية ولبنان، فزار فيما زار قبر الإمام ابن تيميه، ووقف عليه مستحضراً سيرته، مستذكراً نبوغه، ثم كان من وحي هذه الوقفة الشاعرة هذا المقال القيم)
في سحر ذلك اليوم نعى المؤذن بمنارة القلعة شيخ الإسلام ابن تيميه وتناقل نداء ذلك الحراس على أبراجها فأذاعته المآذن من الجوامع والمساجد الأخرى، فأصبح الناس في اليوم التالي وقد سرى هذا النبأ بينهم، وغمرت المدينة موجة حزن وأسف عندما سمعوا بنبأ هذا الخطب الجسيم الذي أصابهم بفقدان العالم الإمام المجاهد الفقيه الحافظ الزاهد العابد القدوة شيخ الإسلام تقي الدين أبي العباس أحمد ابن تيميه.
وكان الشيخ محبوساً بالقلعة التي أمر نائبها بفتح أبوابها، وجلس في حجرة الوفاة يتقبل المعزين وقد اجتمع بها خلق من أصحاب الشيخ ورجال الدين وغيرهم من أعيان البلد. أما جماهير الشعب فقد أحاطت بالقلعة ووفدت عليها من أحياء الصالحية ومن جهات الغوطة والمرج بعد أن أقفلت المدينة أسواقها.
ويطنب المؤرخون في وصف ذلك اليوم وكيف تلقى الناس أخباره، وكيف ساروا في جنازة الشيخ عشرات الآلاف، وكيف اقتحموا باب القلعة ودخلوا زرافات على الشيخ يقبلون وجهه، وكيف امتلأت أرجاء قلعة دمشق وضج الناس بالبكاء والنحيب عليه والثناء والدعاء والترحم له.
فقالوا إن يوم جنازة ابن تيميه كان يوماً مشهوداً لم تر مثله دمشق في تاريخها، إلا أن يكون ذلك في أيام بني أمية حينما كانت قلب العالم المتمدين.
ولما أريد الصلاة عليه بجامع أمية خفت الجماعات إليه حتى امتلأت الرحبات والصحن وجيء بالجند لحراسة النعش؛ ولما صُلي عليه صاح صائح يقول: (هكذا تكون جنائز

أهل السنة!) وخرجت جنازته من باب الجامع إلى مقابر الصوفية مارة بباب الفراديس وباب النصر وباب الجابية والقوم حولها خاشعون.

من هذا الشيخ الذي ارتجت له الشام بأسرها ونعته مآذن مصر، وأقيمت له كبرى جنائز أهل السنة بدمشق، ورفعته الجماعات إلى مصاف الأبطال برغم كونه سجين السلطة الحاكمة؟ ومن الذي ألقى الناس المناديل والعمائم على نعشه؟ ومن كانت تخشاه الدولة في الشام ومصر، ثم مات وعلى رأسه عمامة بيضاء بعذبات مغروزة وقد علا بعض رأسه الشيب؟

من هذا الذي فاضت روحه وقد تمتمت شفتاه بالآية الكريمة: (إن المتقين في جنات ونهر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر) فكانت نهاية ثمانين ختمه لكتاب الله بدأها عند دخوله المعتقل، وبدأ الحادية والثمانين فأسلم الروح وهو يتلو هذه الآية الكريمة؟

لاشك في أنه من أولئك الذين بذلوا أنفسهم في سبيل الله، والدعوة إلى الله، والعمل بما أمر به الله - هو صاحب دعوة قام بها مخلصاً وجهه لله وحده، له مذهبه وآراؤه.

ولسنا نعرض لها فإن ما كتب فيها كثير، ولله الحمد، وهو متداول ومعروف، ولكنا نعرض لهذه الشخصية الإنسانية الفذة التي جمعت من الصفات والمزايا ما يضعها في مصاف عظماء الرجال من كل عصر

كان ابن تيميه شخصية فيها من الإيمان والقوة والإخلاص والجرأة والصلابة في الحق ما يجعله عالماً وحده. كان ابن تيميه صاحب رسالة من أولئك الذين بعثوا لينشروا بين الناس تعاليم وأفكاراً ومبادئ تهدم القديم الرث البالي، وتصور لهم المتناقضات السائدة في أوساطهم وتدعوهم إلى كلمة سواء، ثم ترسم لهم قيماً جديدة أخذها الشيخ من كتاب الله وسنة رسوله وهديه والعودة إلى السلف الصالح الذي كانت ترتجف لعزائمه الدنيا. واتخذ له نبراساً لا يحيد عنه هو تصفية العقيدة وتوجيهها إلى التوحيد والخضوع للذات السرمدية

الأحدية التي تسيطر على هذا الكون وتقوده إلى الخير الصرف إن تعاليم ابن تيميه خالدة بين الناس، وهي لا تزال تشغلهم وسوف تشغلهم في المستقبل القريب والبعيد، ولكن شخصيته وعمله وبطولته أمور لا تزال خافية على الكثيرين، ولذلك سنحاول أن نعرض لبعض نواحيها. ويسرني أن أكون قد أديت بعض الدين لصاحبها

ولمدينة (دمشق) التي ضمت رفاته، ولها في قلبي ونفسي أروع وأسمى مكان ودمشق إذا افتخرت بتاريخها الخالد وأيامها الغر وآثارها التي نحج من مصر وغيرها لرؤيتها؛ وإذا افتخرت بدولها ورجالها وأبطالها، فمن حقها أن تفخر بابنها البار الإمام ابن تيميه الذي عرض حياته للموت من أجلها، والذي جاهد أكمل جهاد، وذاق مرارة السجن، وتحمل كيد الكائدين، فهو جدير بأن تقام باسمه مدرسة، أو ينشأ باسمه ميدان، أو أن يفرغ لذكراه يوم أو بعض يوم

ابن تيمية المجاهد المرابط ضد التتار

يموج وسط عجيج الناس في دهش ... من نبأة قد سرى في الحي سأريها

(من عمريه حافظ)

كانت سنة 699 هجرية سنة مهولة على البلاد، إذ قصد التتار تحت قيادة قازان الأراضي الشامية، ولم يكن هناك بيبرس أو قلاوون ليحميها أو ليخلق من الهزيمة نصراً كما حدث قبل ذلك في عين جالوت أو مرج حمص

كان التتار يغزون وهم على دين آبائهم؛ أما هذا العام فقد جاءوا واسم سلطانهم محمود، وهم يظهرون الإسلام ومعهم المؤذن والقاضي والشيخ والإمام، ليؤمهم في أوقات الصلاة.

جاءوا إلى الشام، وقد اختل أمر مصر والشام، وانضم فريق من أمراء البلاد إليهم، فسلمهم الجزء الشمالي من سورية بغير قتال

وصلوا النبك، واحتوا القطيفة، وانكفأ جيش مصر والشام إلى البقاع وبعلبك، وفتحت دمشق أبوابها عدا قلعتها العتيدة التي أبت أن تستسلم

وكان ابن تيميه في التاسعة والثلاثين من عمره في حركة دائمة، لا يستقر ولا يهمد، لم يقبل أن تترك دمشق بغير أمن، فذهب مع أعيان البلد وقابلوا عاهل التتار، واحتج عليه قائلاً: (أنت تزعم أنك مسلم، فلماذا أتيت إلينا غازياً وأنت عاهدت فغدرت، وقلت فما وفيت؟!)

واشتد اللجاج بينه وبين قازان وقطلوشاه وبولاي. وأتوا للوفد بطعام، فأكلوا منه إلا ابن تيميه. فقيل له: ألا تأكل؟ فقال: كيف آكل من طعامكم وكله مما نهبتم من أغنام الناس، وطبختموه مما قطعتم من أشجار الناس؟!

قيل وطلب إليه عاهل التتار الدعاء فقال في دعائه: (اللهم إن كان عبدك محمود هذا إنما يقاتل لتكوم كلمتك هي العليا، وليكون الدين كله لك، فانصره وأيده وملكه البلاد والعباد. وإن قام رياءً وسمعة وطلباً للدنيا ولتكون كلمته هي العليا وليذل الإسلام وأهله فاخذله وزلزله ودمره واقطع دابره) قال هذا وقازان يؤمن على كلامه. ولما خرج الوفد من حضرة العاهل التتري التفت بعضهم إليه قائلاً: كدت أن تهلكنا وتهلك نفسك. والله لا نصحبك من هنا.

والغريب في أمره بعد هذا أن يتبرك به جند التتار ويلوذون به فيدخل دمشق وفي ركابه ثلاثمائة منهم!

كان وقتاً شديداً على الناس، فتحت فيه السجون وخرج منها الأشرار ينهبون، وامتلأت القرى بالجنود، وكثرت المصادرات وراجت الأراجيف والإشاعات؛ كل هذا والشيخ لا ينفك يرأس الوفود ويفك الأسرى ويواسي المرضى

وفي يوم من الأيام رحل جند التتار عن البلاد وانسحبوا إلى عقبة (دمر) ومنها غادروا المدينة تاركين بها أحد الأمراء من الذين انضموا إليهم نائباً عنهم. كل هذا والقلعة صامدة وابن تيميه يدور كل ليلة على الأسوار يحرض الناس على الصبر والقتال ويتلو عليهم آيات الجهاد والرباط

وأخيراً انكشفت الغمة بقدوم عسكر مصر وفتح لهم باب الفرج مضافاً إليه باب النصر. وجاء عسكر الشام وعلى رأسه نائب دمشق جمال الدين الأفرم وكان دخولهم في تجمل زائد الوصف.

ابن تيميه يلازم عسكر الشام في تنقلاته

نفخت روح الجهاد في نفسه نشاطاً جعله يختلف عن غيره من شيوخ عصره؛ فهو بمجرد

عودة عسكر دمشق لا يتركهم بل يلازمهم في تنقلاتهم وفي ركابه خلق من أهل حوران يدعو إلى الهدى؛ فمر ببعلبك والبقاع وجبال الجرد والكسروان يخطب ويهدي؛ فتاب كثيرون على يديه وحسن معتقدهم، وكان كثيرون لا يحرمون ما حرم الله ورسوله.

وحينما عاد أمير دمشق وقد رأى من عمل الشيخ وفتوته ما رأى أمر لأول مرة أن يتعلم الفقهاء الرمي بالنشاب وأن يستعدوا بتعلم الفروسية وطرق القتال المختلفة ليواجهوا العدو إن حضر، ولا ريب في أن للشيخ يداً في ذلك الرأي السديد.

(البقية في العدد القادم)

احمد رمزي

مشاركة الأدب الإنجليزي في الدراسات العربية

نقلاً عن (برنارد لويس)

للأستاذ عبد الوهاب الأمين

القرن التاسع عشر - 3

(تابع)

خصص (لين) نفسه في السنين التي أعقبت عودته مباشرة لتحضير ترجمة إنجليزية لكتاب (ألف ليلة وليلة). وكانت الترجمات الأولى منه سبق أن ظهرت واكتسبت شهرة كبيرة ولكنها كانت غير دقيقة وغير علمية، فأخذ (لين) على نفسه أن يقوم بترجمة تحتفظ في غير الوقت بمعنى وجود النص الأصلي.

وقد أرفق ترجمته تلك بملاحظات وشروح عن العادات الإسلامية في العصور الوسطى وطبعت بعد ذلك منفصلة بعنوان:

(الحياة العربية في العصور الوسطى).

وكان في خلال ذلك الوقت يفكر في تصنيف قاموس عربي إنجليزي واسع، فقد كانت القواميس الأوربية السابقة للغربية - كقاموس جوليوس وفريتاغ وغيرهما - ذات نفع من بعض الوجوه؛ غير أنها وضعت على أساس غير دقيق، وهي ناقصة من عدة وجوه. فكانت فكرة (لين) أن يقوم بعمل منظم في القواميس العربية القديمة كتاج العروس

وغيره، وعلى أساس ذلك العمل يقوم بإعداد معجمه، وفي يوليو سنة 1420 سافر للمرة الثالثة إلى مصر حاملاً هذه الفكرة، وشرع يعمل من سنة 1842 إلى سنة 1844 في القاهرة من 12 ساعة إلى 14 ساعة يومياً بصورة اعتيادية، ونادراً ما كان يغادر داره، وفي الأخير، عندما جمع المادة اللازمة من القواميس العربية - ويجب أن لا ننسى أنها لم تكن قد طبعت بعد، وأن الحصول عليها لم يكن ميسوراً - عاد إلى إنجلترا وقضى السنين الخمس والعشرين الأخيرة من حياته في إكمال هذا المعجم.

ولقد كانت المهمة شاقة؛ فإن دراسة اللغة العربية - وهي في ذاتها مجهود كبير - لم تكن إلا بداية له، فيبقى من ورائها الغربلة والتحضير والتصنيف، أي - بالاختصار - يبقى العمل الشاق المضني لصنع معجم منظم منسق على الطريقة الأوروبية من بين المادة المشوشة التي كانت تحت يديه. ولم يكن العمل - حتى تاريخ وفاته في سنة 1876 - قد أنجز، غير أن الأجزاء العديدة التي كان قد نشرها تشكل جزءاً ثميناً من الدراسة الشرقية، وهو يعتبر بصورة عامة جزءاً لا يمكن الاستغناء عنه من المؤونة التي يتزود بها طالبو العربية الجدد. ومنذ ذلك الحين حتى اليوم بقي معجم (لين) الأول من نوعه كما أنه كان الأساس لمعظم القواميس العربية المتأخرة باللغات الأوربية.

وقد ظل (لين) طيلة حياته (أستاذ الدراسات العربية العظيم) كما نعته بذلك أحد العلماء المشتغلين بالعربية من الألمان، وقدرته الجمعيات الثقافية في عدة عواصم أوربية.

أما (إدوارد هنري بالمر) - وهو أحد العلماء الإنجليز المعروفين في القرن التاسع عشر - فربما كان أكثر اشتهاراً في الشرق باسم (الشيخ عبد الله). وقد ولد في كامبردج في سنة 1840 وتوفي في مصر سنة 1882 وهي السنة التي قامت فيها ثورة عرابي باشا. وأظهر منذ طفولته قدرة كبيرة على تعلم اللغات فأجاد الفرنسية والإيطالية بطلاقة. ولما بلغ العشرين من عمره تعرف إلى شخص يدعى (سيد عبد الله) وهو أحد المسلمين الهنود، وكان حينذاك محاضراً باللغة الهندستانية في جامعة كامبردج، واكتسب منه الاهتمام بالدراسات الشرقية؛ فقام بنشاطه المعهود بدراسة اللغات العربية والفارسية والأردية في آن واحد، ولم يمض عليه زمن طويل حتى شرع ينقل الشعر الإنجليزي إلى (لغته العربية المفضلة) وينظم بالفعل شعراً عربياً أصيلاً. وبعد ذلك مبشرة قرر أن خير طريق لتعلم اللغة العربية هو أن يتعلمها من العرب أنفسهم، فنراه يتصل بصلة قريبة بأعضاء عديدين من الجالية العربية في إنجلترا - وكان أحدهم وهو سوري من حلب يدعى (رزق الله حسون الحلبي) الذي أصبح صديقه المقرب، والذي كان له تأثير في مؤلفات بالمر وخلقه، فدرسه دروساً كثيرة، وكان بالمر يحترمه كثيراً - وبعد ذلك بقليل دخل (بالمر) جامعة كامبردج وواصل دراساته الشرقية بصورة أكثر تنظيماً، وكان يطمح منذ زمن بعيد أن يزور بلاد العرب ويتعرف شخصياً تلك الأمة التي كان يعجب كثيراً بلغتها وآدابها. وفي سنة 1869 أتيحت لفه تلك الفرصة؛ ففي تلك السنة والسنة التي تلتها، قام (بالمر) برحلتين إلى الشرق الأدنى، بالنيابة عن (جمعية كشف فلسطين)؛ وبذلك أتيحت له الفرصة الأولى لكي يدرس عن كثب الثقافة العربية واللهجات العربية، تلك الفرصة التي انتهزها كلها.

وبعد أن عاد إلى إنجلترا بقليل عين أستاذاً للغة العربية في كامبردج، وقسم عمله عدة سنين بين العمل الأكاديمي والعمل الصحافي، وأصدر بضعة كتب مهمة. وفي سنة 1882، زار مصر مرة أخرى، وقام برحلة جريئة على ظهور الخيل في شبه جزيرة سيناء، وهي تلك المنطقة التي يعرفها جيداً من رحلاته السابقة. وقد أصبح ركوب (الشيخ عبد الله) في الصحراء يذكر الآن كما تذكر الأساطير، وكانت خاتمته فاجعة، فقد كان ذلك الوقت زمن اضطرابات في الشرق الأدنى؛ ولذلك كانت الأسفار فيه أكثر من مخاطرة اعتيادية، فقتله قطاع الطرق من البدو في عودته من رحلته في الصحراء، وانبتت تلك الحياة الحافلة عن عمر مبكر يناهز42 عاماً

ربما كان (بالمر) فريداً بين المستشرقين الأوربيين باعتبار أنه لم يقتصر على اكتساب المعلومات الأكاديمية للغة العربية فحسب، بل تعمق في روح الأمة العربية ولغتها. وكان من القليلين من المستشرقين الأوربيين الذين كانوا يستطيعون الكتابة باللغات الأجنبية بطلاقة ودقة، وبعض كتاباته باللغة الأردية تقرأ في الهند كثيراً. ويعتبر وصفه

بالأردية لزيارة الشاه الإيراني لإنكلترا من الخوالد. وكان يكتب وينظم بالعربية والفارسية كلتيهما. ومن الطريف ذكره في هذا المجال، أنه عندما كان يكتب إلى زملائه المستشرقين خطاباته الخاصة، يجد أنه لا يستطيع الأداء عما في نفسه بصورة محكمة باللغة الإنكليزية، فيندفع كاتباً بالعربية. وقد ذكر عنه أحد أصدقائه وزملائه ج. ف نيكول أستاذ اللغة العربية في أكسفورد ما يلي: (لقد كان (بالمر) غير مستقر في رسائله التي كان يكتبها بالإنكليزية، فكان ينفجر تحت تأثير احساسات طارئة، أو بقصد النقد ذاكراً بعض النثر أو النظم الفارسي أو العربي).

ويمكن اعتبار القطعة التالية نموذجاً لشعر بالمر العربي:

ليت شعري، هل كفى ما قد جرى ... مذ جرى ما قد كفى من مقلتي؟
قد برى أعظمُ حزن أعظمي ... وفنى جسميَ حاشا أصغري

وبالرغم من قصر عمر بالمر، فإنه خلف قائمة كبيرة من الكتب المطبوعة، نجتزئ بذكر المهم منها فيما يلي:

لقد قام قبيل وفاته بطبع النص الكامل لديوان البهاء زهير المصري مصحوباً بترجمة منظومة وشروح مقدمة. وفي السنة التي تلتها نشر أجرومية للغة العربية بالإنكليزية، وهي على خلاف الأجروميات السابقة قد وضعت على الطريقة التقليدية التي كان النحويون العرب يتبعونها، وحاول أن يقدم النحو العربي إلي الطلاب الإنكليز بالشكل الذي كان العرب أنفسهم يدرسونه. وقد ظهر هذا الكتاب في طبعته الثانية موسعاً في السنة التي تلت وفاته. وأهم من ذلك نوعاً ما كتابه عن حياة هارون الرشيد الذي قدم فيه (بالمر) صورة زاهية من العاصمة العباسية في عصر أشهر الخلفاء، كما أنه نشر عدة ترجمات شعرية من العربية والفارسية، وقاموساً فارسياً، وفهرساً انتقاديًّا للمخطوطات الشرقية في كامبردج، ووصفاً لرحلاته في شبه جزيرة الطور. وقد حزن لوفاته أصدقاؤه الكثيرون. والمعجبون به في جميع أنحاء العالم، وظهرت مراثٍ له فيما لا يقل عن الخمس عشرة لغة منها اللغة العربية

وهناك عالم آخر من الدرجة الأولى في الأهمية وهو (وليم رايث)، (1840 - 1889) وهو ابن ضابط إنكليزي في الهند، وقد ولد في ذلك القطر، وكانت أمه ضليعة في عدة لغات شرقية، فشجعته على أن يعتنق الدراسات الشرقية من باكر عمره، فدرس العربية في الجامعات الإنكليزية وفي القارة، وأشتغل مدة في ليدن على المستشرق الهولندي العظيم (راينهارت دوزي)، وكان أستاذ العربية في لندن ودبلن وكامبردج على التعاقب. وقد كتب إلى صديق له - وكان في الثانية والعشرين من عمره - انه اختط لنفسه خطة يهب فيها حياته لدراسة اللغة العربية. وكانت تلك الخطة طموحة، ولكن ما أعجب ما وصل (رايث) من المدى في تحقيقها في السنين التي تعاقبت بعد ذلك! كان من أهم أعماله للأدب العربي عملان: أحدهما طبعته لرحلة ابن جبير، والآخر طبعة لكتاب المبرد المشهور (الكامل) واشترك مع دوزي في طبع تاريخ الأندلس للمقري. ونشر كذلك عدة نصوص عربية أخرى. ولا يزال كتابه عن النحو العربي (في مجلدين) من خيرة الكتب في هذا الموضوع، ويستعمله جميع الطلاب المتقدمين في البلاد التي تنطق الإنكليزية

وقد خلف (رايث) على كرسي اللغة العربية في كامبردج (روبر تسون سمث) (1846 - 1894)، وهو إسكتلندي من (أبردين)، درس العربية في جامعة تلك المدينة وفي القارة، وسرعان ما اكتسب الشهرة، فقدم له جماعة من المعجبين به في سنة 1881 مجموعة من الكتب والمخطوطات العربية هدية تقدير، وقام بعدة رحلات إلى الشرق الأدنى بين سنتي 1879 و1881، وساح كثيراً في فلسطين ومصر وسورية، حتى الجزيرة العربية، حيث تغلغل إلى جدة والطائف. وتشمل كتبه المطبوعة دراسات عن: (القربى والزواج عند العرب القدماء)، ونواحي أخرى من تاريخ العرب قبل الإسلام. وكان محرر (الموسوعة البريطانية)؛ ولذلك فإنه يعتبر الشخص الوحيد الذي قرأ هذه الموسوعة كلها قراءة إمعان

ولقد كان ذا اطلاع عجيب، وكثيراً ما كان يستشير استغراب أصدقائه بعمق معلوماته وتشعبها في جميع أنواع الموضوعات. ولقد قيل عنه إنه أملى محاضرة كاملة عن تاريخ إنكلترا في العصور الوسطى، وهو في شبه غيبوبة، وعلى فراش الموت!!

ونذكر في الأخير (سر وليم موير) (1819 - 1907) وهو أحد المشتغلين بالعربية من الإسكتلنديين، وكان ذا سيرة حافلة كإداري في الهند وكعالم في جامعة أدنبرة. وقد نشر عدة كتب بالإنجليزية عن محمد صلى الله عليه وسلم، وعن التاريخ الإسلامي. ولا يزال عدد من هذه الكتب يستعمل أصولاً في الجامعات الإنجليزية والهندية، وأحقها بالذكر السيرة الكاملة لحياة النبي محمد صلى الله عليه وسلم: ذلك الكتاب الذي خلا من الغرض خلوًّا تاماً. ولا يزال كتابه عن تاريخ الخلافة الذي وضعه على أساس المصادر العربية - وكان الكثير منها في ذلك الحين مخطوطاً - خير الكتب في هذا الموضوع بالإنكليزية.

(بغداد)

عبد الوهاب الأمين

من ملاحق كتاب (رسوم دار الخلافة)

دَنِّيَّةُ القاضي في العصر العباسي

للأستاذ ميخائيل عواد

(تتمة ما نشر في العدد الماضي)

كان ببغداد قاض يعرف بالجذوعي، واسمه محمد بن محمد ابن إسماعيل بن شداد أبو عبد الله الأنصاري (المتوفى سنة 291 هـ) حكى بن الجوزي قصة وقعت للجذوعي هذا مع غلام من متقدمي غلمان الموفق، وكان أميراً يوم ذاك، ومدار القصة دنية الجذوعي القاضي. قال أبو الفرج: (. . . فقال المعتمد من هذا؟ فقيل له الجذوعي البصري، قال وما إليه؟ قالوا ليس إليه شئ؛ فقيل مثل هذا لا ينبغي أن يكون مصروفاً فقلدوه واسطاً؛ فقلده إسماعيل وانحدر، فاحتاج الموفق يوماً إلى مشاورة الحاكم فيما يشاور في مثله، فقال استدعوا القاضي، فحضر وكان قصيراً وله دنية طويلة، فدخل في بعض الممرات ومعه غلام له، فلقيه غلام كان للموفق، وكان شديد التقدم عنده، وكان مخموراً؛ فصادفه في مكان خال من الممر، فوضع دنيته حتى غاص رأسه بها فتركه ومضى، فجلس الجذوعي في مكانه، وأقبل غلامه حتى فتقها وأخرج رأسه منها وثنى رداءه على رأسه وعاد إلى داره. وأحضر الشهود، فأمرهم بتسليم الديوان، ورسل الموفق يترددون، وقد سترت الحال عنه حتى ذكر بعض الشهود لبعض الرسل الخبر، فعاد إلى الموفق فأخبره بذلك؛ فأحضر صاحب الشرطة وأمر بتجريد الغلام وحمله إلى باب دار القاضي وضربه هناك ألف سوط. وكان والد هذا الغلام من جلة القواد، ومحله محل من لو هم بالعصيان لإطاعة أكثر الجيش، فلم يقل شيئاً. وترجل القواد وصاروا إليه وقالوا مرنا بأمرك، فقال إن الأمير الموفق أشفق عليه مني، فمشى القواد بأسرهم مع الغلام إلى باب دار الجذوعي فدخلوا إليه وضرعوا له، فأدخل صاحب الشرطة والغلام وقال له لا تضربه، فقال: لا أقدم على خلاف الموفق. قال: فإني أركب إليه وأزيل ذلك عنه، فركب فتشفع له وصفح عنه)

ومن ظريف الترادف قول بديع الزمان الهمذاني حينما كتب إلى القاضي أبي القاسم علي بن أحمد، يشكو أبا بكر الحيرى (. . . ثم يلبس دنيته، ليخلع دينيته، ويسوى طيلسانه،

. . .ليحرف يده ولسانه)

وفي بعض أخبار الظراف والمتماجنين إن سعد بن إبراهيم الكاتب قال يوماً لعبادة المخنث: (يكون مخنث غير بغاء؟ قال: نعم. ولكن لا يكون مليح: يكون مثل قاضي بلا دنية)

ولقد تقاذفها الشعراء في هجوهم. فمن قائل في حث متحكم على إعطاء رشوة إلى قاض:

يا خليّلي يا أبا الغيث درك ... نصب القاضي لكَ اليوم شركً

طلب البرطيل فأبذلهُ لهُ ... يسكت القاضي وإلاّ ذكرك

لا يهولنك دَنِّيَّته ... أعطه من رشوة ما حضرك

وعلى ذكر إعطاء الرشوة للقاضي، وكان أمرها مشتهراً يوم ذاك، قال عمارة اليمني (المتوفى سنة 569 هـ) في ترسلاته: (. . . وقاضي مصرك، قدمتا على الوالي، فأدلى القاضي بالدنيه، وأدليت أنت بالهدية. . .)

وكان أبو الحسين محمد بن محمد بن لنكك البصري مولعاً بهجو كلاب بن حمزة

العقيلي أبي الهيذام اللغوي. فمن أهاجيه التي تعرض فيها للدنية قوله:
نفسي تقيك أبا الهيذام كل أذى ... إني بكل الذي ترضاه لي راضي
ما كان أبدى فقيهاً إذ ظفرت به ... فكيف ألبسته دنية القاضي
وهذا شاعر آخر من المائة الرابعة يسخر منها؛ فيذكرها مقرونة بغراب نوح؛ فيقول:
كأنّ دنّيَّة عليها ... غراب نوح بلا جناح
وقال آخر:
ترى قلانسهم كالرمح طعنّها ... تخفي جراحاتها في جنب مغرور
وقال الصابئ:
وفوقه دنّيَّة ... تذهب طوراً وتجي
وكانت بعض النساء يفزعن من رؤية القاضي بدنيته ولحيته الطويلتين. فقد ذكر متن نقلاً عن الذهبي أنه: (كان ببغداد في سنة 368 للهجرة، قاض يعرف بأحمد بن سيار، وكانت له هيئة وجثة مهولة (كذا؛ والصواب: هائلة)، ولحية طويلة، فقدم إليه امرأتان ادعت إحداهما على الأخرى. فقال: ما تقولين في دعواها؟ قالت: أفزع؛ أيد الله القاضي. قال: ماذا؟ قالت: لحية طولها ذراع، ووجه طوله ذراع، ودنية طولها ذراع؛ فأخذتني هيبتها. فوضع القاضي دنيته، وغطى بكمه لحيته؛ وقال: قد نقصتك (كذا؛ والصواب: نقصت منك) ذراعين. أجيبيني عن دعوتها)
وقد بالغ الناس في درجة استهزائهم بالدنية واحتقارهم لها. فمن ذلك ما حكي عن أبي الظاهر الذهلي الذي ولي قضاء مصر في شهر ربيع الأول من سنة 348 للهجرة أنه (كان في خلافة المطيع يلبس السواد، ويضع على رأسه دنية طويلة تزيد على الدماغ (كذا؛ والصواب: الذراع)، فتحاكم إليه زوجان؛ فبدر من المرأة في حق زوجها كلام، فقال لها: اسكتي هذا القاضي هو أبو الظاهر؛ متى زدت من هذا المعنى نزع الخف الذي على رأسه وقطعه على دماغك. فقال أبو الظاهر: قم يا كذا إلى لعنة الله! من أين لك أن هذا خف؟. . .)
هذه باقة أخبار في لطائف دنية القاضي تناثرت هنا وهناك، وكانت في جميعها مدعاة والسخرية، فكم جلبت تلك الدنيات من الأذى والألم لكثير من القضاة! وكم جرت عليهم من الويلات! وكم من دنية غاصت برأس صاحبها، وكم منها تعاورتها أيدي الصبيان والرعاع وتقاذفتها أرجلهم، وكم من قاض ترك عمله بسببها
فلا غرو أن هذا الملبوس الدخيل على العرب لم يرق لهم، ولم تستأنس عيونهم برؤيته فوق هام القضاة، فما أنفكوا يعرضون به ويستهجنون شكله حتى خف استعماله شيئاً فشيئاً على مر العصور، ثم زال من الوجود منذ عهد بعيد
(بغداد)
ميخائيل عواد
إلى المعترضين علينا - 2
للأب أنستاس ماري الكرملي
حل المعضلات - 3
إننا لم نفكر يوماً، بل دقيقة، بل لحظة عين، أن نعت جمع التكسير يكون مفرداً مؤنثاً، أو جمعاً على السواء، والمطبوعات التي عنينا بنشرها - من تأليف ومقالات - مما طبع ولا نزال نتولى طبعه في المجلات والجرائد والكتب، نشهد شهادة تفقأ في العين حصرماً، وتذر فيها رماداً، في الوقت عينه بأننا عملنا - ولا نزال نعمل - بهذه الضابطة المطردة؛ ومن نسب إلينا الخلاف، فهو أعمى أو يتعامى، ولا يهمنا أمره، إنما إنكارنا كان لما كان على أفعل فعلاء وجمعهما على فعل لا غير؛ إذ لا يوصف الجمع المكسر والصحيح بغير هذه الصيغة الأخيرة؛ فإنك لا تقول البتة: رجال سوداء، ولا نساء سمراء؛ ولا نهارات زهراء، ولا ليلات بيضاء؛ حتى أن العوام لا تنطق بها. وكذلك لا تقول: كريات بيضاء، ولو علقت برجليك تلك الكرى دهوراً وعصوراً، توبة وندامة على ما سلف من أغلاطك، وعلى ما فرطت في حياتك
فالذي أنكرناه إذن - ولا نزال ننكره - هو قولك: كريات بيضاء. . . فهذا كفر نحوي عربي لم تنطق به العوام، ولا الأعاجم ولا الأروام!!
وقال أحد المعترضين المعاندين الذي لا يريد أن يهتدي إلى سواء السبيل: وبحسب

قاعدة الكرملي، لا يجوز نعت المنازل بالأخرى ولا بالأولى، كما جاء في قول المتنبي:
هذى منازلك الأخرى نهنئها ... فمن يمر على الأولى يسليها!
لكن، هل يستطيع هذا المخالف أن يقول لنا: أين رأى كلامنا هذا؟ أليس هذا كذباً منه وبهتاناً وافتئاتاً؟! فهل في (أولى) (أخرى) لون، أو عيب، أو حلية؟ وهل تجمعان على (أول) و (أخر) بضم أوليهما؟ أفليس هذا مخالفاً للشرط الرابع؟ فما هذا التعامي والعمي أجارنا الله منه؟
وأما قول الخصم: إن (المتنبي) قال:
(وبستانيك الجياد وما تح_مل من سمهرية سمراء)
فالسمهرية هنا مفردة والسمراء كذلك. والمفردة هنا منكرة تدل على جمع، فهي من قبيل
وضع الواحد موضع الجمع، وهذا معتاد في وضع الأجناس. قال هذا علي في المخصص 1 :68.
وقال هذا المعترض المسكين المغرور: السماع يؤيد القياس في هذا الشأن، فمن السماع قول طرفة:
ويوم رأينا الغيم فيه كأنه ... سماحيق ترب وهي حمراء حرجف
قلنا: (حمراء) هنا مجاورة (لهي)، وهي مفردة مؤنثة فحمراء صحيحة لما أشرنا إليه في الشرط الخامس
وقال المعترض أيضاً، محاولاً بكل قواه أن يضع رأيه الجامح موضع رأي ناجح، وذلك من العبث، فقال: (ومن ذلك قول الفند الزماني معاصر المهلهل)
(بقيت بعده الجليلة تبكي ... والخدود العيطاء تدعو لحاحاً)
ثم قال: (هكذا جاء في روضة الأدب (ص185)، وشعراء النصرانية (ص243) انتهى.
قلنا: وحسناً فعل حين قال: (هكذا جاء في روضة الأدب وشعراء النصرانية، لأن سليقته تقول له: ليس هذا العجز من العربية في شيء، إنما هو باللغة الشويرية، ولم تكن هذه اللغة يوماً لغة فصيحة، بل خليطاً من العربية، والرومية، واليونانية، والزعفرانية، والجلجلوتية!
زد على ذلك أن صاحب روضة الأدب اسكندر آغا أبكاريوس وهو أرمني فاسد الذوق العربي، فهو غثاء سيل؛ وصاحب شعراء النصرانية شيخو، وكان رحمه الله - حاطب ليل، على ما اشتهر عنه في سورية والعراق وديار النيل، فوقعنا بين غثاء سيل وحاطب ليل، لكن لا عتب على الأب شيخو، لأنه نقل أبياته الزمانية عن الأرمني المذكور، وهذا الرجل يكتب الأرمنية بحروف عربية، ويتوهم أنه يكتب المضرية، وإلا فما معنى قول الفند: (الخدود العيطاء)، وهل كانت أو تكون أو ستكون، أو سوف تكون، يوماً، الخدود عِيطاً (بكسر العين وإسكان الياء). فالعيطاء مؤنث الأعيط، والأعيط على ما في معاجم اللغة: (الطويل الرأس والعنق، والأبي الممتنع) فما معنى العيطاء وكيف تتفق مع الخدود؟ اللهم إلا أن يكون معناها غير هذا في إحدى اللغات الثلاث: المالطية والوقواقية، أو الشنقناقية؛ لكني أقر معترفاً أني أجهلهن كلهن. ولعل حضرة المجادل يفهمهن، فيفسر لنا الكلمة في موقعها هنا!
ثم لو فرضنا أن لها معنى غير مدون في كتب متون اللغة فليس ذلك دليلاً على أنها وردت في كلام الشاعر الأصلي، إذ البيت ظاهر الوضع وليس من كلام الأقدمين.
ثم لو فرضنا ثانياً أن لها معنى حسناً يناسب المقام هنا، فإن الفند الزماني كان من ربيعه بن نزار، والعربية الفصحى لم تنقل إلا عن قريش، وأسد، وتميم، وقيس، وكلهم من مضر، فكيف يستشهد بكلام من هو من ربيعه؟
ثم لو فرضنا ثالثاً - وهو أمر قريب من المحال - أن المجادل وجد لنا عشرة أبيات شعر ممن يستشهد بكلامهم وفيها ما يثبت دعواه، فليس ذلك بشيء، لأن شواهده ليست من القرآن، ولا من الأحاديث النبوية، ولا من كلام الفصحاء، والبلغاء، الإثبات، إذ لا يكون الكلام ممن يوثق به إلا إذا جاء منقولاً عمن أخذت عنهم العربية المضرية الفصحى.
ثم لو فرضنا رابعاً أنه أتانا بعشرة شواهد ممن يوثق بعربيتهم من قريش، وأسد، وتميم، وقيس، فعشرة شواهد غير كافية لوضع قاعدة.
ثم لو فرضنا أن العشرة شواهد التي جاءنا بها من فحول شعراء مضر ومن عشرة

منهم، فإننا لا نقبل الشعر في اتخاذ القياس، لأن النظم يتحمل ضرائر لا يقبلها النثر، فنحن لا نرضى إلا بنثر رصين يذكر مثل تلك الكلمة أي الكريات البيضاء، وإلا فنصيب تلك الشواهد سلة المهملات، أو سلة المحترقات

فليتدبر حضرة مخالفي هذه الأقوال كلمة كلمة، ثم يتعرض للرد عليّ رداً معقولاً يفهمه الناطقون بالضاد لا أبناء الشوير فقط

وقال أيضاً المعترض: (ورد في كتب النحاة كشروح ألفية ابن مالك، وفي المعاجم كالقاموس والتاج: جاءوا الجماء الغفير، أي يقال: جاء العلماء الجماء الغفير)

لله درك يا سيدي من عالم بارع ولغوي عظيم! إننا لم نجد في التأليف التي تشير إليها ما تقول. ففي أي طبعة من طبعاتها؟ وفي أي بلد من البلدان طبعت تلك المصنفات؟ وفي أي سنة من السنين نشرت؟ إنك لم تقل لنا كل ذلك. أما في الكتب التي بأيدينا فإنها لا تقول ما تدعي. وكيف يكون كلامك صحيحاً وفيه من الخطأ ما ارتعد له الملأ الأعلى، وأهل الأرضيين السفلي!

كيف يكون معنى جاءوا الجماء الغفير: جاء العلماء الجماء الغفير؟ ففي أي لغة تتكلم، وهل تفهم ما تقول يا سيدي اللغوي القدير! أما نحن فنخالفك؛ فقد يقال: جاءوا الجماء الغفير من غير أن يكونوا علماء؛ إذ قد يكونون عوام وسوقة، فأين وجدت ما تقول؟ إننا نرى في تاج العروس في باب (جمم) ما هذا نقله: (وجاءوا جماً غفيراً، والجماء الغفير) أي (بأجمعهم) قال سيبويه: (الجماء الغفير من الأسماء التي وضعت موضع الحال، ودخلتها اللام والألف، كما دخلت في العراك من قولهم: أرسلها العراك) اهـ.

المقصود من إيراده وهنا كلام القاموس وكلام التاج أيضاً؛ فالذي بين هلالين هو للقاموس وما بقي هو للتاج على ما هو مقرر في هذا الديوان اللغوي

فيا سيدي وأستاذي العزيز، على من تريد أن تعبر عباراتك وآراؤك؟ وقراء هذه المجلة كلهم يفهمون ما تكتب وما تحاول أن تعبره عليهم من الأحلام والمنامات، وما شابه هذه الترهات والخزعبلات وأضغاث الأحلام

وقال حضرة سيدي وأستاذي الجليل: (وفي شرح الزوزني القاضي قول الحارث اليشكري: (وله فارسية خضراء) يقول: (وله دروع فارسية خضراء) فهذا كلام لا غبار عليه، لأن خضراء هنا مجاورة لفارسية، وفارسية كلمة مفردة مؤنثة وإن كان معناها يدل على جمع لأنها عائدة إلى (دروع). فراجع الشرط الخامس لتفهم سبب هذا القول، وإن كان يجوز لك أن تقول أيضاً: (وله دروع فارسية خضر) وهذه أفصح من تلك.

ثم من هو الزوزني، أبو الزوزني، وجد الزوزني بجانب نص القرآن، والأحاديث النبوية الصحيحة، وفصيح كلام البلغاء من العرب؟. أنسيت، يا سيدي وأستاذي، أن الزوزني قال هكذا في شرح بيت اليشكري: (يقول: ثم قابلنا بعد ذلك حجر بن أم قطام، وكانت له (كتيبة) فارسية خضراء لما ركب دروعها وبيضها من الصدأ. وقيل: بل أراد: وله دروع فارسية خضراء لصدئها) اهـ

فلو قال: أراد: وله (دروع خضراء) لما جاز لكنه قال: (وله دروع فارسية خضراء) فجاورت خضراء فارسية فجاز له هذا التعبير. ولا تنس انه قال في أول شرحه: (وكانت له (كتيبة) فارسية خضراء - فافهم يا سيدي، وتأمل وتدبر وترو إلى أن تروي من ماء الحقيقة ونميرها. والله المعين

(البقية في العدد القادم)

الأب أنستاس ماري الكرملي

أحد أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية

بغداد في 2691942

البريد الأدبي

1 - الحدية اللغوية!

أخذ الأب أنستاس ماري الكرملي على الأستاذ محمد مندور خطأً لغوياً وقع فيه حين قال: (وأما قصة الكراكي، فقصة لا أثر لها فيما (عثرت به) من كتب اليونان)؛ وذلك لأن وجه الصواب أن يقال: عثرت (عليه) لا عثرت (به)، والعثور بالشيء غير العثور عليه. وقد أراد الأب الكرملي أن يبين للأستاذ مندور - في تضاعيف كلامه - معنى

قوله: (عثرت به)؛ فقال: (. . . ولعله أراد أن يقول: فيما عثرت (عليه) من كتب اليونان، (أقاله الله من كل عثرة)، وإن الجواد قد يعثر). ولكن الأستاذ لم يلتفت إلى هذه الإشارة المقصودة؛ لذلك رأيناه في تعقيبه على كلمة الأب أنستاس يعود فيقول: (. . . إنني لم أعثر بها، ولا أقول: لم أعثر عليها - كما يقترح اللغوي الكبير الأب الكرملي - لأن المعنى الذي أريد أن أعبر عنه، هو إنني لم أعثر بها، أي لم أقع عليها؛ وللأب الفاضل أن يظهر علمه - إذا أراد - في غير هذه التوافه، وأن يتفضل بأن يترك للكاتب الحق في أن يتصرف في اللغة، وفقاً للمعنى الذي في قلبه)!

ولو أن الأستاذ مندور توخى الحق في تعقيبه، لما انساق إلى هذا الرد؛ إذ إن غرض الأب الكرملي - فيما أعلم - أن يرشد الكاتب إلى التعبير الصحيح المتفق مع اللغة التي يكتب بها؛ وأي إنسان يجهل الفرق بين عثرت (به) وعثرت (عليه)؟

ثم أريد أن ألفت نظر الأستاذ إلى أن ما يسميه (توافه)، ليس كما يتوهم: وسبب ذلك أن اللغة العربية - على الرغم من رحبها وسعتها - لغة دقيقة، تتميز بالعمق وبعد الغور؛ فأي اختلاف في حرف الجر الذي يجيء بعد الفعل يترتب عليه اختلاف في المعنى قد لا يفطن إليه الكاتب الذي لا يتوخى الدقة في التعبير. . . وأما الحرية اللغوية التي يطالبنا بها الأستاذ، فهي حديث خرافة. لا أضن أحداً من المخلصين للغتنا العربية يقبل أن يسمعه، ولأ أعرف واحداً من كتاب الغرب يدعيه لنفسه. فأنا أفهم أن تكون هناك حرية في التعبير وتخير الألفاظ، وصوغ أساليب جديدة؛ وأما الحرية في اللغة نفسها بحيث يكون للكاتب الحق في أن يقول: (عثرت به) حين يكون يريد (عثرت عليه)؛ فهذه حرية لا أفهمها، ولا يفهمها أحد، لأنها فوضى لغوية لا تباح إلا حين يكون لكل منا أن يخترع لغة جديدة تلائم حريته!!

تعريب الأسماء الأعجمية - 2

لاحظ الأب أنستاس الكرملي في كلمة الأستاذ مندور أخطاء كثيرة (وأصر على تسميتها أخطاء) في تعريب بعض الأسماء الأعجمية. فهو يقول مثلاً: (لوسيان) و (مارك أوربل) والصواب: (لقيانس) و (مرقس أوراليوس). وقد وقع بين يدي - بعد قراءة هذه الملاحظة - كتاب (المجمل في التاريخ المصري): (وهو من تأليف بعض أساتذة التاريخ بالجامعة المصرية)، فوجدت فيه أخطاء كثيرة من هذا النوع: فالكاتب مثلاً يسمى يوليانوس جوليان (ص101)، ويسمى كيرلس (وهو اسم شاعر شائع بمصر خاصة، فقد كان البطريرك الأسبق يسمى كيرلس الخامس): (سيرل ويسمى ديوقلديانوس (ديوكليشان)، ويسمى هباتيا (هباشيا)، ويسمى ثيودوسيوس (ثيودوزيوس)، وأثناسيوس (أثنازيوس) ومرقيانوس (مارسيان) ص102، ويوستنيانس (جوستينيان) ص104 الخ.

وسبب هذه الأخطاء كلها رجوع الكاتب إلى الاسم في لغة غير لغته الأصلية - كالإنجليزية والفرنسية - حتى لقد سمى بعضهم سقراط (سوكراتيز)، أو (سكرات)!

والواجب (أن نعود إلى لفظ الأعلام كما ينطق بها أصحابها): (كما قال الأب الكرملي في مقاله، وكما قرر مجمع فؤاد الأول للغة العربية). وذلك لأن الاسم الأصلي كثيراً ما يختلف عن الاسم الموضوع باللغات الأجنبية؛ والعرب لم يترجموا الأسماء إلا عن لغتها الأصلية، ومن ثم نجد اختلافاً كبيراً بين الأسماء العربية التي وضعوها نقلاً عن اللغة الأصلية نفسها، والأسماء العربية التي يضعها بعض الكتاب نقلاً عن الإنكليزية أو الفرنسية. وهذا الاختلاف كثيراً ما يضيق به الطالب الذي يرجع إلى المؤلفات التاريخية العربية، مع أن الألفاظ التي يجدها في كتب العرب هي الأصح، لأنها أقرب إلى الأصل من الألفاظ التي ألف استعمالها عن الإنكليزية والفرنسية

ومن الغريب أن بعض أساتذة الجامعة يصرون على استعمال طريقة النقل عن هاتين اللغتين في تعريبهم للأسماء الأعجمية0 وأني لأذكر أن أحد أساتذتنا في الجامعة - وهو يدرس لنا الفلسفة المسيحية - نطق باسم فرده طالب من بيننا قائلا له: الاسم بالعربية هو (أمبروسيوس)؛ ولكن الأستاذ أبى أن يأخذ باللفظ العربي، مع أن الاسم في لغته الأصلية

ينطق بالسين لا بالزاي (كما يقال أيضاً فيلسوف لا فيلوزوف). ولا يفوتني أن أذكر في هذا الصدد أنني قرأت مقالاً في هذا الموضوع للفريق أمين باشا المعلوف، يتضمن بعض الأصول التي يجب التزامها في تعريب الأسماء الأعجمية (عن اللاتينية أو

اليونانية)؛ فإلى هذا البحث أوجه نظر الأستاذ مندور - وغيره من أساتذة الجامعة المدققين - حتى يعم النطق الصحيح بين الطلاب، ولا يجد أحدهم صعوبة في تذوق اللفظ العربي الذي يعثر عليه في كتب التاريخ العربية.

(مصر الجديدة)

زكريا إبراهيم

مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال

لم يكن لنا إلى ما قبل عشرين سنة أو ما حولها تاريخ مفصل لنهضة البلاد الوطنية يضمه كتاب، ولا سند صحيح لحركتها القومية يحتويه سفر، وإنما كان هذا التاريخ مطموس المعالم مبهم الحدود، حتى لو أراد دارس أن يقف عليه أو يلم به لأعياه السعي ولعميت عليه السبل، إذ لا يجد مهما جد في البحث وأمعن فيه إلا أنباء مبعثرة هنا وهناك بين صفحات أسفار لا يبلغها الحصر، ولو هو ظفر بشيء منها لوجده مما لا يشبع نهمه ولا يروي غليله. ومن الغريب أن يظل جهادنا لوطننا وكفاحنا في سبيل تحرير بلادنا، بغير تاريخ يبين أطواره، ويسجل أدواره، ويكشف عن نصيب كل جيل منه بما أنفق فيه من جهد وما قدم له من عمل!

وقد ظل هذا النقص بادياً في تاريخنا إلى أن قيض الله له مؤرخاً محققاً، وقانونياً كبيراً، وسياسياً محنكاً، ومجاهداً مخلصاً، هو الأستاذ الجليل عبد الرحمن الرافعي بك. توفر حفظه الله على دراسة هذا التاريخ والبحث عن تفاريقه الممزقة بين مئات الأسفار، واستقل بأعبائه وحده يؤلف بين هذه التفاريق ويجمع أشتاتها، مستنفداً ما وسعه من جهد في سبيل تمحيصها واستخلاص الحق منها، باذلاً في سبيل إحسان عمله كل نفيس من نفسه وماله، مما لا يكاد يستطيع فرد أن ينهض وحده به، حتى أخرج لنا في أصدق صورة وأبلغ بيان عملاً ضخماً، وعلى إنه ملأ مما عمل لهذا التاريخ تسعة أسفار كبار فإنه قد بقى منه أجزاءً أخرى ستظهر إن شاء الله

كان الذي بعث عزيمة المؤلف على هذا العمل أنه كان يريد أن يضع (تاريخاً لفقيد الوطن العظيم مصطفى كامل علي مثال كتاب (بول دشانل) عن (جامبتا) خدمة للقضية الوطنية وأداءً لواجب الوفاء نحو من تلقى عنه مبادئ الوطنية الأولى) ولكنه وجد أن تاريخ هذا الزعيم يستتبع (الكلام عن مبدأ ظهور الحركة القومية بمصر والتطورات التي تعاقبت عليها) فجعل همه أن يدرس هذه الحركة (من بدء ظهورها إلى اليوم) ذلك بأن مصطفى كامل إنما كان (يمثل دوراً من أدوار الحركة القومية سبقته أدوار وتلته أخرى، ولا تكون دراسة الحركة القومية وافية إذا اقتصرت على عصر واحد من عصورها، بل يجب أن يتناولها البحث بأجمعها)

ولما أنشأ يدرس الأدوار التي تقدمت عصر مصطفى كامل لكي يصل إلى مبدأ هذه الأدوار، وجد بعد مواصلة الدرس ومطاولة البحث إن (للروح القومية التي بدأت تظهر في أواخر القرن الثامن عشر - يجب أن يرجع مبدأ الحركة القومية المصرية؛ وإن أول دور من أدوارها هو عصر المقاومة الأهلية التي اعترضت الحملة الفرنسية في مصر) ولم يقف به البحث عند دراسة الحركة القومية، بل وجد إن تاريخ هذه الحركة يدعو إلى (دراسة نظم الحكم التي تخللت أدوارها، ذلك إن سياسة الحكم وأساليبه كانت في مختلف العصور والبلدان الرئيسية لظهور الانقلابات والحركات القومية كما إن لهذه الحركات أثراً فعالاً في تطور نظام الحكم)

ولما استوت له هذه الطريقة ووضع لها المعالم وأحكام الحدود، أخذ يؤرخ هذه الأدوار على ما قدمنا، ثم زاد عليها ما يلابسها وما يتصل بها من دراسة الحركات العلمية والفكرية والاقتصادية مما هو كمال لها، وتمام عليها، بما في ذلك من ترجمة رجال هذه الحركات كلها

ولقد كنت أود أن أفصل القول في وصف هذا العمل العظيم الذي يعد بلا ريب من أعظم الأعمال التي يقوم بها المجاهدون المخلصون في سبيل أوطانهم، وإن أبين شيئاً مما جاء في هذا التاريخ الزاخر الذي أوفى فيه مؤلفه الجليل على غاية ليس فوقها مرتقى لهمة، ولا وراءها مذهب لذي إحسان، حتى يعرف القارئ الكريم مقدار هذه المعلمة الوطنية ويقف

على هذا النهج الفريد من التأليف الذي يجمع بين عف القول وصدق اللهجة وبين بلاغة العبير وتقرير الحق، ثم ما وراء ذلك من وزن الأمور بمعيار الدقة والنزاهة وهو ما اتصف به مؤلفنا الجليل سواء كان ذلك في أقواله وأفعاله أو في جهاده وتأليفه كنت أريد ذلك كله أو بعضه، ولكن ما أصاب الصحف في هذه الأيام من ضيق الصفحات وقلتها يضطر الكاتب إلى أن يلزم القصد في القول والإيجاز في التعبير من أجل ذلك أراني مرغماً على الوقوف عند الكلام على هذا الجزء الذي عقدت من أجله هذه الكلمة ولكن بعبارة موجزة لا تعدو بضعة سطور. تكلم المؤلف الفاضل في هذا الجزء عن تاريخ مصر القومية مدى عشر سنوات (من سنة 1882 إلى سنة 1892) وهي السنوات الأولى للاحتلال وفصل القول في جميع ما جرى للبلاد في هذه الفترة من كل النواحي تفصيلاً لا يوجد مثله في كتاب. وبحسبك إنه قد جاء على غرار ما سبق من الأجزاء من حيث التحقيق والاستيعاب، فلم يدع صغيره ولا كبيرة إلا أحصاها، ولا ترك ناحية من نواحي هذه الفترة من تاريخنا إلا بينها وجلاها. فجزاه الله بما قدم من عمل صالح لبلاده خير الجزاء، ووفقه بعنايته وفضله إلى إتمام ما بقي لهذا التاريخ من أجزاء، إنه سميع الدعاء.

(المنصورة)

محمود أبو ريه

العدد 487 - بتاريخ: 02 - 11 - 1942

أمثال أخرى وأفعال

للأستاذ عباس محمود العقاد

بين الروسيين والصينيين مشابهة محسوسة وهي اشتراك كل من الأمتين في الاتصال بالمغول من طريق المجاورة والمعاشرة والمصاهرة، واقتباس كل من الأمتين كثيرا من عادات المغول ومأثوراتهم في القصة والمثل والجديلة. فمن قرأ القصص والأمثال الصينية لم يعدم بينها وبين أمثال الروسيين وقصصهم مشابهة ظاهرة في الأسلوب والمزاج، ولم يكد يتخيل بين الأسلوبين فارقا بعيدا في غير الحواشي والتفصيلات. أما الجوهر فواحد أو يكاد أن يتوحد كما يتوحد الاقربون والصحبة المتلازمون فإذا استحضرت أمثال الروسيين وتخيلت قائلها رجلا واحدا خيل إليك أنه إنسان صبور رصين مستسلم يعرف الدنيا معرفة هادئة، ويتحدث عنها تحدث سخر ممزوج بالآلفة والمحبة، وهذه هي الصورة التي تبدو لك من قراءة القصص وألا مثال الصينية مع فارق يسير تلمحه في جملة الأمثال وقد تخطئه في المثل الواحد والمثلين، ونريد به أن صقل الحضارة أظهر في أمثل الصينيين، وأن خشونة البداوة والفلاحة أظهر في أمثال الروسيين، ويتفرع على ذلك أن الصيني أقرب إلى السلم، وأن الروسي أقرب إلى الحرب، وان كانا يتلاقيان في خصلة متماثلة وهي أنهما يباشران الحرب دفاعا فيصبران عليها ويستبسلان فيها، ويباشرانها هجوما وعدوانا فلا يتحركان طويلا للهجوم ولا يحتفظان كثيرا بحماسة العدوان

وقد ظهر هذا جميعه في حرب الصين واليابان وفي حرب الروس والألمان، فظهرت شجاعة الصينيين وصبرهم كما ظهرت شجاعة الروسيين وصبرهم، ولم يعهد للأمتين قبل الآن مثل هذه الشجاعة ومثل هذا الصبر في حروب الهجوم والعدوان

وقد تحولت من أمثال الروسيين إلى أمثال الصينيين كما تتحول اليد من فاكهة إلى فاكهة مثلها على شجرتين متقاربتين في بستان واحد، فلم أشعر أنني أبعدت النقلة بين القطفتين وان كان لابد من خلاف بين ثمرة وثمرة وان قطفتا من شجرة واحدة والصينيون أولع أمم العالم قاطبة بالمثل السائر والنادرة المنجمة على حسب العبر والوقائع. وليس هذا بعجيب مع ما هو معلوم من محافظة القوم على شعائر السلف وتبجيلهم لذكرى الآباء والأجداد ورجوعهم بالحكمة كلها إلى عظات الأقدمين. وفي ذلك تأييد لما أسلفناه في ختام مقالنا السابق عن أمثال الروسيين

قلنا في ختام ذلك المقال أن إهمال العصريين لرواية الأمثال غير عجيب إذا نظرنا إلى الخلق الغالب بينهم، (فقل في أبناء عصرنا من يقتدي بالسلف أو يحب أن يقال عنه انه من يقتدي بهم في المعيشة والسلوك، ولا معنى لسرد الأمثال ما لم يكن ديدن السلف حجة مقبولة بين القائلين والسامعين)

والصينيون يستحدثون اليوم ما يستحدثون في عادات المعيشة وآداب السلوك ولا

يزالون على ديدنهم القديم من تقديس الآباء وتوقير السنن المأثورة عنهم، فلا جرم يحرصون على الأمثال حرصا لا نعهده بين المحدثين وطلاب الاستحداث في أنحاء العالم، ولا جرم يودعون في أمثالهم من روح الشعب ما هو أبلغ في الدلالة عليهم والإبانة عنهم من الأسفار والموسوعات

قال دكتور هنري هارت في مقدمة منتخباته من الأمثال الصينية: (كل إنسان في الصين يتمثل الأمثال. . . وقد سمعتها من لسان الإمبراطور كما سمعتها من لسان الخادم الوضيع، فهي عندهم العملة الجارية في اللغة، والدرب المختصر في المحادثة، وكثيرا ما تغنى عن الناقشات الطويلة وتحل العقد الشائكة. فيشوق المشاهد أن يصغي إلى المعارك الكلامية التي لا تني تتردد بين أهل تلك البلاد، إذ يعرض الخلاف الصغير فيزدحم حوله الجمع الكبير من الكسالى والمستطلعين، وإذ يحتدم المختلفان قليلا قليلا وكلهم مولود على استعداد للتمثيل، فيلوح للمشاهد أن العنف واقع لا محالة وان لم يكن الصينيون مشهورين بالملاكمة وقليلا ما يعتدي أحدهم باليد على أخيه، ثم يتفق فجأة يتقدم أحد الواقفين - ويغلب أن يكون من الكهول أو الشيوخ - فيتكلم ويأتي بمثل موجز موافق للمقام، فكأنما تلك الكلمة النافذة المحبوكة هي الكلمة التي كان ينتظرها الطرفان المتشاجران، فتنحل العقدة المعضلة، ويتراجع الخصمان، ويتخافت صوتاهما العاليان، وترتفع ابتسامة في مكان العبوس، وتنتهي المشاجرة على خلاف ما يود المشاهدون من طلاب الضجيج والعجيج)

وهذا المشهد الذي وصفه المؤلف قد نراه في مصر ونذكر الكلمات التي تفض بها مشاجرات الطريق، فهي في الغالب أمثال شائعة، وفي الأغلب عظات من الكتاب والسنة

النبوية، ولكنها في القرى أعم منها في الحواضر الكبيرة، ولحكمة السلف ومقام الشيخوخة فيها أثر غير قليل

ولكنك لا تقرأ مئات الأمثال عندهم ومئات الأمثال عندنا حتى تلمح الفارق بين الأمتين وان اتفقنا على بعض العادات والخطرات

فأول ما يبدهك من جملة أمثالهم أنهم أبيقوريون يحبون الترف المريح، ويألفون الدعة الفلسفية التي تسكن إليها النفس كما يسكن إليها الجسد، ويؤثرون الترشف من النعيم على الغرق فيه، ويقنعون بتجزئة السعادة إذ لا سبيل إلى السعادة الكاملة التي تدوم ولا يخشى عليها زوال

ومن أبدع أمثالهم التي تنم على هذا المزاج قولهم: (من عاش يوما خاليا عاش يوما خالدا) وقولهم: (ألف ريال لا تشتري ضحكة واحدة)؛ وقولهم: (الأمراض تدخل من الفم والمصائب تخرج منه)؛ وقولهم: (البركة قلما تقبل أزواجا، والمصائب قلما تقبل فرادى)

وقد أوردنا للروسيين مثلا يعبر عن الفوارق الاجتماعية يقولون فيه: (أن عيوننا تملأها شمس واحدة وبطوننا لا يملأها طعام واحد). وهو شاهد بارع من شواهد الطبيعية يقاربه في معدنه قول الصينيين: (الصيف للجميع والشتاء على حسب الكساء)

وأوردنا للروسيين مثلا لرشوة الحكام إذ يقولون: (من باب الطريق صد ومن باب السر ترحيب) ويشبهه عند الصينيين في موضوع الرشوة وفعل المال في قضاء الحاجات قولهم وهو مختلف بعبارته متفق بمؤداه: (عشرة ريالات تحرك أرباب الهيكل ومائة ريال تحرك السماء نفسها!)

والقوم معروفون بقدم العهد بالدماثة المدنية وحسن الحفاوة في الاستقبال، وهو ظاهر من تعويلهم في التجارة على الابتسام إذ يقولون ما فحواه: (إن الذي لا ينفرج فمه بابتسامة لا ينفرج له باب دكان) ومن استعظامهم داء الجلافة إذ يقولون: (إنها داء ليس له عند الطبيب دواء)

ومن قولهم فيما يشبه ويتصل به: (إن فتح دكان لسهل، وإنما الصعوبة أن يظل مفتوحا. . .)

ومن أمثالهم التي تدل على الطبيعة الحذر فيهم أو تدل على نصحهم بالحذر والاحتراس:

و (الجمال لا يوقع (أحمل مظلتك والسماء صاحية، وادخر مئونتك وجوفك شبعان) الرجال في الشرك، إنما هم الذين يقعون فيه) و (لا تشتم امرأتك في المساء وألا

نمت وحدك!) و (المرأة الشائهة والخادمة الغبية كنزان لا يقومان) و (لا ترسل الباز حتى تبصر الأرنب) وهكذا في عشرات من الأمثال
وربما كان الصينيون في طليعة الأمم التي هانت فيها أقدار المقاتلين وعظمت أقدار الحكماء والنساك، ولهذا تتواتر عندهم الأمثال التي تدل على نفاسة الحكمة وصعوبة الحصول عليها من قبيل قولهم: (الذهب له ثمن والحكمة بغير ثمن) وقولهم: (طالب العلم كالصاعد في وجه التيار إن لم يتقدم فهو منحدر)
وقولهم: (خذ الخمر قطرات والحكمة جرعات!) وقولهم: (المعرفة كنز يتبع صاحبه حيثما ذهب) وقولهم: (العلماء ذخائر الأمم) وقولهم: (من علمني يوما فهو أبي مدى الحياة)
وقد اشتهروا كذلك بالسكن إلى حياة الأسرة وجيرة الوطن، فحفلت أمثالهم بالتغني بالبيت والوطن؛ واجتمع أفضل ما قالوه حول هذا الغرض في مثلين نموذجين أحدهما قولهم: (لا يخلو البيت من راحة ولا خارج البيت من تعب) وقولهم: (لتكن حسناء أو شوهاء فهي بلادي. وليكن قريبا أو غير قريب فهو أبن وطني!) وربما زادنا علما بقوام البيت عندهم قولهم: (الزوجة لفضيلتها والخليلة لجمالها)
ومن نماذج السخرية المطمئنة في أمثالهم قولهم: (بائع البطيخ يقول أنه حاو!) وقولهم: (كلب ينبح على شيء، وألف كلب تنبح على نباحه) وقولهم: (نولد ولا نحضر معنا شيئاً، ونموت ولا نذهب بشيء) وقولهم: (الغراب أسود هنا وأسود في كل مكان) وقولهم: (إذا خلقت السماء آنسانا فله طلب لا محالة!)
وهم قديرون كالروسيين أو قديرون كعامة الشرقيين، فليس أكثر في أمثالهم من التسليم للقدر وقلة الجدوى في خلافه على تعدد في اللفظ وتوحد في المعنى، كما يقولون، وفيه شيء من سخريتهم: (يقول الإنسان هكذا هكذا وتقول السماء ليس كذلك ليس كذلك!) أو يقولون: (ما يبرمه القضاء لا ينقصه إنسان) أو يقولون: (من خلق للسعادة فلا يعجل وراءها) أو يقولون (كل كأس وكل لقمة مقتدرتان لفم، لا يأخذهما غيره)
ولا نهاية للمواضع والمناسبات التي يستشهد فيها ببعض هذه الأمثال الصينية التي يخطئها
الإحصاء
إلا أن الشاهد الأكبر فيما نحن بصدده هو هذا الاهتمام من قبل الأمم الغربية بكل جانب من جوانب البحث في البلدان التي تلتفت إليها أنظار الناس على أثر الحوادث الحربية أو السياسية التي تقع فيها. فما مضت أشهر على اشتغال الصحف بقضية الصين حتى امتلأت رفوف المكتبات بالمجلات والرسائل والمجلدات عن كل شيء يعرف - أو ينبغي أن يعرف - من أحوال تلك البلاد، فهذا يكتب عن النهضة الصينية، وذاك يكتب عن زعماء الصين، وغيرهما عن تاريخ السياسة الأوربية في الشرق الأقصى، وغيرهم يكتب عن فن الصين أو أغاني الصين أو عقائد الصين أو محاسن الصين، إلى أشباه ذلك مما يقترن بالصين وأبنائها ولو من بعيد
ومثل هذا حدث في اهتمامهم بروسيا بعد ثورتها الاجتماعية أو بعد حربها الأخيرة مع النازية، ويحدث مثله كذلك حول كل مسألة من المسائل القومية أو العالمية التي ترتبط ببلد من البلدان، حتى ليصح أن يقال إن الحرب عندهم ليست شرا محضا يجلب الخراب وينزل بالبلاء ثم ينتهي أثره عند ذلك، لأنها في الواقع سبيل من سبل المعرفة وباب من أبواب التعارف، وطريق إلى كشف الظلمات عن مجاهل العالم قاضية ودانية.
عباس محمود العقاد
مسابقة الأدب العربي لطلبة السنة التوجيهية
حديث عيسى بن هشام - 2
للدكتور زكي مبارك
تأريخ المجتمع ونقد المجتمع - جريمة أدبية - سريرة المويلحي - التحرش بالأزهريين - صفحات تعليمية - كلمة إنصاف
تأريخ المجتمع ونقد المجتمع
المجتمع أسمه الجمعية في لغة المويلحي وفي لغة من عاصروه، فهو يقول الجمعية

الإنسانية ويعني بها ما نسميه المجتمع الإنساني.
وقد لاحظنا فيما سلف أن (الجامعة المصرية) معناها في كتابات لطفي باشا السيد (الرابطة المصرية) وأن الجامعة بمعناها الجديد كانت تسمى الكلية، وقد وردت بهذا النص في مجلة المقتطف عند الكلام عن إنشاء الجامعة المصرية. وبعض جرائد الشام لهذا العهد تذكر (الجامعة البشرية) وهي تعني الرابطة الإنسانية. فليلتفت الطلبة إلى أن في كتابات المويلحي ألفاظا هجرها كتاب اليوم، أو نقلوها من وضع إلى وضع، وللألفاظ أعمار وأزمان!
ثم أذكر أنه يجب أن نلاحظ الفرق بين تأريخ المجتمع ونقد المجتمع، ففي الكتاب فقرات تؤرخ المجتمع من غير قصد، فنعرف منها بعض أحوال القاهرة منذ نحو خمسين عاما، كأن يصف المؤلف دارا بالعزة والرفاهية فيذكر أنها تضاء بالكهرباء.
ونحن اليوم لا نقول ذلك، لأن الأغلب في القاهرة أن تضاء الدور بالكهرباء، وان لم يكن أهلها أغنياء. وكأن يذكر المؤلف أن محكمة الاستئناف في حي الإسماعيلية وأنها لم تكن تستقر في مكان. وكأن يقول: أن سكان مصر عشرة ملايين. وكأن ينص على أن المحامين أمام المحاكم الأهلية لا يعرفون اللغات الأجنبية، وكأن يشير إلى متحف بولاق ومتحف الجيزة، وليس عندنا اليوم غير متحف قصر النيل. وكأن يذكر أن كتاب المحكمة الشرعية تنتظرهم حميرهم وبغالهم على الأبواب،
وكأن يجعل سدنة (الدفتر خانة) أشياخا يحملون الدوي النحاسية في أحزمة القفاطين. وكأن
يقول التشخيص وهو يريد التمثيل. وكأن يذكر في القانون الجنائي أشياء لا يعرفها قضاة هذا الزمان
التأريخ المقصود
وقد يقصد المويلحي إلى تأريخ بعض تطورات المجتمع في الزمن الذي سبق تأليف الكتاب، كأن ينص على (سر الليل)، فمن هذا (السر) نفهم أن القاهرة كانت تغلق أبوابها بالليل فلا يدخلها أحد إلا بإشارة يفهم منها الشرطة أنه في غنى عن الاستئذان وهنالك تأريخ معاني النقد، كأن ينطق (الباشا) بعبارات ندرك منها أن النزعة التركية كان لها في زمانه مكان.
ففي ص 24 يعجب الباشا من أن لا يكون لأمير على مصري أمر. وفي ص 27 ينكر الباشا (أن يحكم الناس فلاح وينوب عنها حراث). وفي ص 43 يعجب الباشا من أن (يتعدى المصري على الجندي). وفي ص 48 يصرح الباشا بأنه
عاش دهوره لا يعرف أن السجن يكون في عقاب الكبراء والأمراء، وإنما يكون في عقاب السفلة من العامة والغوغاء من الناس!
ثم ينفجر المؤلف في ص72 فيقول في الأتراك كلاما لا يقال اليوم، لأن هذه النزعة قد اختفت أو ماتت،
بغض النظر عن الحادث الذي وقع منذ بضع سنين
النقد المقصود
يجري قلم المؤلف بعبارات نقدية خفيفة من صفحة إلى صفحات، ثم يعمد إلى النقد عمدا فيسهب ويطيل. ولعل المحامين والقضاة والأعيان لم يصابوا في سمعتهم بأذى ولا أوجع مما رماهم به المويلحي في غرامة نادرة المثال
هل كان المجتمع المصري قبل خمسين سنة على النحو ما صوره ذلك القلم الفاتك؟ وهل كان يغلب أن يكون القضاة من الفتيان الأماليد؟ وهل كانت المحاماة نصباً في نصب وخداعاً في خداع؟ وهل كان (العمدة) الذي تعقبه المويلحي نموذجا في ذلك الزمان؟
جريمة أدبية
هي جريمة المويلحي في تصوير المجتمع المصري، فقد أهتم بتجسيم العيوب تجسيما بلغ الغاية في القسوة والعنف، وسكت عما في المجتمع المصري من محاسن أصيلة
هي سر بقائه في صحة وعافية، برغم ما أصاب هذه البلاد من كوارث وخطوب
وعذر المويلحي أن نقاد المجتمع لعهده كانوا جميعا متشائمين، ولو شئت لقلت أنهم كانوا يجدون لذة في التذمر والتقزز والتفجع، ولهذا الاتجاه شواهد نجدها في كتابات توفيق البكري، وفي قصائد حافظ ابراهيم، وفي تلك البيئة ظهر المنفلوطي

فكان أدبه من صور القلق والانزعاج
وما أقول بأن أمثال هؤلاء الكتاب يفترون على المجتمع، لا، فقد صوروا بيئات موجودة بالفعل؛ وقد لا تنقرض، فلن تخلو الدنيا من محام نصاب، أو قاض كسلان، أو تاجر غشاش؛ وانما أنكر التعميم في الأحكام النقدية، التعميم الذي يضم المجتمع في جميع طبقاته بالتفكك والانحلال، مع أنه في الحقيقة لا يخلو من تماسك يضمن له البقاء وانما عددت هذا المذهب جريمة أدبية لأنه ينتهي إلى التعجيز والتيئيس، ولأن أثره في تقويم المجتمع أثر ضئيل
يضاف إلى ذلك، أصحاب هذا المذهب لا يضعون النماذج للمجتمع المنشود، وان فعلوا فلن يكون المجتمع الصالح في نظرهم إلا بيئة خيالية لا يعرفها سكان الكرة الأرضية
سريرة المويلحي
حديث عيسى بن هشام يشهد شهادة صريحة بأن المويلحي قد ارتطم في حياته بمشكلات ومعضلات خلقتها معاملاته مع الناس. والظاهر أنه عرف المحاكم المصرية من مختلطة وأهلية وشرعية، عرفها مدعيا ومدعى علية. والظاهر أيضا أنه أبتلى بمزعجات الأوقاف. ولا جدال في أنه عانى الغدر من بعض الأصدقاء، فله في الأصدقاء كلمات سارت مسير الأمثال. ويظهر كذلك أنه أتصل اتصالا وثيقا بالملاعب القاهرية في مكايدها الليلية، ثم يظهر أنه بادل الصحفيين من معاصريه ظلما بظلم، وعدوانا بعدوان
أقل هذا لأدفع تهمة وجهت إلى المويلحي من أديب عظيم هو أخونا الأستاذ الزيات الذي
يرى في (الرحلة الثانية) شاهدا على أن الرحلتين ليستا لكاتب واحد، لأن الفرق بين الرحلة الأولى والرحلة الثانية بعيد بعيد
والحق أن الرحلة الثانية ضعيفة كل الضعف، بالقياس إلى الرحلة الأولى، ولكن ما سبب ذلك الضعف، مع تقارب الأسلوب في الرحلتين تقاربا يشهد بأن الكاتب هنا هو الكاتب هناك؟
يرجع السبب إلى أن المويلحي لم يعرف من أوربا غير فرنسا، ولم يعرف من فرنسا غير باريس، ولم يعرف من باريس غير ظواهر سطحية لا تقلقل الخاطر، ولا تبلبل الوجدان، فكيف جاز أن يدعي القدرة على تصوير المدنية الغربية؟
المويلحي لا يعرف باريس، وان زار باريس، ولو أنه عرف تلك المدينة في حياتها الحقيقية (كما عرف القاهرة في حياتها الحقيقية) لقال فيها كلاما غير الذي قال، ولكان من الجائز أن يفردها بكتاب يشرح ما تعاني من اصطراع المذاهب والآراء، فقد زار باريس وهي في عنفوان الفتوة، وفي اتصال وثيق بأمم الغرب والشرق، ومع هذا لم يستطع أن يدون حيواتها غير بوارق مهددة بالخمود
بدا لي أن أعرف ما ألف عن الحي اللاتيني، فجمعت نحو ثلاثين كتابا، منها كتاب يصور ما يعاني طلبة السوربون من اليهود المربين
وبدا لي مرة ثانية أن أحصي المكتبات القائمة بالحي اللاتيني وهو مهد الفكر الحر، فهالني أن أجد فيه مكتبة لا تبيع مؤلفات رينان بحجة أنه زنديق
وبدا لي مرة ثالثة أن أعرف إلى أي مدى تتصل باريس بأساطير الأولين فجمعت من ذلك أشياء وأشياء. . . فأين المويلحي من ذلك التعقيد العنيف؟
وخلاصة القول أن إخفاق المويلحي في تصوير الحياة الباريسية يرجع إلى أنه لم يعان فيها مشكلات تزلزل العقل أو تثير الوجدان، فجاء حديثه عن تلك الحياة أضعف وأضعف من أن يسامي حديثه الأول في وصف الحياة المصرية. . . والأدب يأخذ قوته من التجارب والمشاهدات، لا من الحدس والتخمين. وكذب من ادعوا أن الأدب أوهام وظنون
ومن الواجب أن نسجل أن المويلحي نظر إلى المدنية الغربية بالعين الشرقية، فلم يحاول إبراز ما فيها من خصائص إيجابية، كما حاول إبراز ما فيها من خصائص سلبية. وهو مع
ذلك محمود الصنيع، فقد جاهد في حدود طاقته جهاد الرجال، ومن كان كذلك فهو جدير بكل ثناء.
التحرش بالأزهريين

والمويلحي لا يكف عن التنديد بالعقلية الأزهرية، فما تعليل هذه النزعة عند ذلك الأديب؟

يرجع السبب إلى أن انقسام المتعاملين إلى معممين ومطربشين كان في عهد المويلحي فتنة تثور بين طبقتين. . . كان المطربشون يرون أنفسهم طلائع الجيل الجديد، وكان المعممون يرون أنفسهم حماة الدين الحنيف. . . وكانت الدولة نفسها لا تسند المناصب الإدارية لغير المطربشين، بحجة أنهم أعرف بالأنظمة المدنية وأقدر على سياسة الناس. . . وهل ننسى أن منصب الوزير عرض على الشيخ محمد عبده فرفضه بأباء، لأن من عرضوا عليه ذلك المنصب دعوه إلى خلع العمامة ولبس الطربوش؟

كانت الفتنة قائمة بين هاتين الطبقتين، وكان من العسير أن توجد بينهما صلات خالية من شوائب التحاسد المستور أو المكشوف. ولتلك الفتنة عقابيل باقية إلى اليوم ولا موجب للتفصيل!

هذا هو السبب في حرص المويلحي على التنديد بالأزهريين، وهو أيضا السبب في أنه هادنهم بعد انقطاع أسباب الشقاق. ولكن كيف؟

قلت أن الطبعة الأخيرة هي الطبعة الرابعة، وأنا لم أقرأ هذا الكتاب إلا في الطبعة الثانية، وقد ظهرت منذ أكثر من ربع قرن، ومع هذا بقيت في ذاكرتي منها أشياء لم أجدها في الطبعة الأخيرة. وبرغم ضيق الوقت عن مراجعة الطبعة الأولى أو الثانية فأنا أذكر جيدا أن (عيسى بن هشام) مضى مع (الباشا) لزيارة الأزهر الشريف، وأذكر انهما سمعا الأزهريين يتحاورون ويتجادلون في بدعة إصدار الجرائد والمجلات، وانتهى الرأي إلى الأزهري يستطيع أن يكون صحفيا إن أراد، وقرأ أحدهم مقالة نشرها أحد الأزهريين. وهي مقالة افتعلها المويلحي، فقد كانت فيما أتذكر غاية في الركاكة والإسفاف، على نحو ما صنع وهو يفتعل ما يلقى في الأعراس من الخطب الرنانة والقصائد الجياد!!

فكيف استجاز المويلحي أن ينال كتابه بالتعديل فيما يتصل بحياة الأزهريين؟

كان ذلك لأنه أراد أن يقرر كتابه للمطالعة في المدارس الثانوية، وكان يعلم أن المفتشين

الذين يحكمون لكتابه أو عليه هم في الأصل أزهريون، ومن الحزم أن يتقي شرهم بحذف ذلك الحديث. . . وآفة الأدب ان يعرض للمنافع، وأن تراعي فيه خواطر بعض الناس

وأذن يكون من الحزم - ونحن نؤرخ الحياة الأدبية والاجتماعية - أن نقرر أن الطبعات القديمة من هذا الكتاب هي الأساس في تصوير ما سماه المويلحي (فترة من الزمن)، بدون مبالاة للمجاملات اليومية على حساب التأريخ.

صفحات تعليمية

في الكتاب صفحات أريد بها التعليم، أعني أن المؤلف أراد بها شرح ما جد في مصر من الأنظمة واللوائح والقوانين، فما منهاجه المختار في الشرح؟

هو يشرح وينقد، يشرح أمورا وينقد أمورا كانت لعهده تحتاج إلى إيضاح مصحوب بالاعتراض، كالذي وقع في الصفحات 41 و42 و43، وهو يفصل أنواع المحاكم بهذه البلاد

يحدثنا المؤلف أن مفتي نظارة الحقانية - وزارة العدل - أقسم الأيمان المغلظة أن القانون الفرنسي غير مخالف للشرع الإسلامي، مع أنه لا يعاقب على الفسق أن تجاوز عمر المفسوق به الثانية عشر بيوم واحد ومع أنه ومع أنه لا يعاقب من يزني بأمه إذا هي رضيت وكانت غير متزوجة، ومع أنه يعد الأخ مجرما جانيا إذا تعرض للمدافعة عن أخته، ولا يعطي حق الدفاع لغير الزوج، ومع أنه يقبل شهادة المرأة الواحدة على الرجل، ولا يعاقب الزوج إذا سرق من امرأته ولا المرأة من زوجها ولا الولد من أبيه ولا الأب من أبنه

ويتكلم المؤلف عن المجالس التأديبية، فنعرف منه أنها خاصة بعقاب الموظف يخل بتأدية وظيفته، وأنها في الغالب تتألف من رؤسائه الذين يتهمونه ظالمين أو عادلين أما حكم المؤلف على المحاكم القنصلية فلا يخففه غير الاطمئنان إلى ذهاب عهد الامتيازات الأجنبية

كلمة إنصاف
كان المويلحي فيما يظهر مفطورا على حاسة العدل، وهي حاسة تميل من الوجهة التشكيلية
إلى تجسيم العيوب، وتغفل أو تتغافل عن مكافأة من يتهمون وهم أبرياء
أعظم ما يجازى به المتهم البريء هو الحكم بأنه بريء، ولم نسمع أن متهما بريئا جازاه قاضيه بجائزة تذهب عنه أفاك المرجفين
لا رجاء في الدنيا ولا أمل في الناس، أن لم يأت يوم يكون فيه حكم البراءة بشيرا بالرفاهية والرخاء
فأين المويلحي من هذه المعاني؟
ظلمه معاصروه فظلم معاصريه، والظلم بالظلم بغي وعدوان كان المويلحي ابن زمانه، فلم يهتد إلى فكرة العدل الصحيح، ولو أنه عقل لأدرك أن المظلوم لا ينبغي له الوقوف في صفوف الظالمين
لو كان للمويلحي نصيب من الروحانية الصوفية لأدرك أن اضطراب المجتمع المصري عقوبة فرضها التفريط الذي توارثته أجيال عن أجيال، وعجز عن طبه الدهر والزمان
ونحن في مصر، ومصر أمةآذت وأوذيت، وقاتلت وقوتلت، وهي إلى الأبد في عراك وقتال وصيال
ليت المويلحي أدرك هذه المعاني، وليته فهم أننا نجرجر تاريخا له في ضمير الإنسانية جذور وجذوع وفروع.
لو عقل المويلحي لقال في مصر كلاما غير الذي قال
ولكنه معذور، لأن (العدل الرسمي) ساقه إلى أن يقول ما يقول
وفي الكلمة الآتية فصل القول في ذلك الأديب الفنان.
زكي مبارك
عودة إلى تحفة الأستاذ علي طه
أرواح وأشباح
للأستاذ محمد توحيد السلحدار بك
- 2 -
فرض الشاعر بمخيلته القادرة أن الأرواح المجردة تتكالم، في السماء، عن البشر وغريزتهم في الأرض. وهذا يعتبر فرضا فنيا يزيد في فهم القارئ وضوح الفرق، في تكافح الروح والجسد، بين نزعتها العلوية السماوية ونزعته السفلية الأرضية. وهو أيضا خيال أدخل في الصنيع البديع عنصرا مخففا من عناصر الملاحم: لأن أيجاد الخوارق فيها - بإدخال كائنات فائقة قوى الطبيعية في حوادثها - كان أمرا جوهريا، ثم أصبحت الخوارق محسنا اختياريا يرعى فيه احتمال الذوق العصري. وكأن هذا الخيال اتفاق أدبي مضمر بين الشاعر وقرائه، كالاتفاق الروائي الضمني في الروايات، بين المؤلف والنظارة: كأنهم اتفقوا معه على التسليم بالفرض الأول في روايته، ليضحكهم أو يبكيهم بما بنى عليه من مواقف، وبنا أنطق فيها أبطاله من كلام
واختار الشاعر من أسماء الأساطير الإغريقية أسماء لأبطاله؛ وهو اختار موفق لما تشير أليه هذه الأسماء - بتداعي المعاني في ذهن القارئ - من أن القصص يصف غريزة الإنسان وأخلاقه من ماض بعيد؛ ولأن أسماء أهل الفنون أليق بملحمة فيها كلام على الفنان وعلاقته بالمرأة. وفي اختيار تلك الأسماء القديمة مزية أخرى: فقد حسن وجودها في هذه الملحمة من حيث أن العتيق أشعر من الحديث، كالسيف مازال أحب في الشعر من المدفع. فما ظنك بمن لم يجد أسماء عربية تجمع مزايا تلك الأسماء الإغريقية، وتحسن حسنها إن حلت محلها في الملحمة، فود لو أن الشاعر تبدل بها أرقاما في شعره ولم يضيع دلالتها على شخصيات معروفة في الأساطير أو التأريخ!
واتهم شاعرنا بالغريزة في الأشباح، وبرأ الأرواح المجردة. فالأرواح ذوات الأسماء الإغريقية تتكلم في العالم العلوي طليقة من قيود أشباحها، تتكلم قبيل بعثها بما يصف سجايا الفنانين الآدميين وغرائز الإنسان؛ وفي كلامها أنها حين تهبط في أشباحها إلى الأرض،
سيعروها ما عرا أرواح البشر:
لنا مثلهم في غد غشيه ... إذا ما حللنا رحاب الثرى

وإذا قال ناقد أن لتلك الأرواح أسماء تلازمها دلالاتها على شخصيات أصحابها المعينة في الخرافات أو الأساطير أو في التأريخ، وان الشاعر أهمل في قصيدته هذه الدلالات -، لأنه لم يدرس الأساطير الإغريقية كما يجب ولم يتفقه اليونانيات
فان هذا القول اللطيف ليس يمنع أنها أسماء أناس كانوا من البشر، ما عدا هرميس (هرمس)، ولم يكونوا من أنصاف الآلهة ولا من الآلهة اليونانيين الذين خلقهم البشر؛ ولا يمنع أن منطق هذه التحفة يقتضي ألا تظل أرواحهم في السماء على حالها في حياتهم الأرضية الغابرة من الانقياد الكلي للغريزة والشهوات الحسية.
ومع أن هذه الملحمة - في رأينا إنسانية لا إغريقية، فان كلام أبطالها متصل بدلالة أسمائهم المعروفة. فهرميس الذي يقود الأرواح، في الأساطير، يقود هنا روح الشاعر. وروح بليتيس، البريئة في السماء، لا تكون بحالها يوم كانت حبيسة في شبحها على الأرض، أو بحالها يوم تبعث؛ لكن تنم ذكريات من ماضيها الأرضي وماضي سافو في مثل قولها:

حمت رقة الجنس رباته ... فليس بها حاجة للرجال
لكل اثنتين هوى واحد ... تَلاقي على سرّه مهجتان

وفي إجابة تاييس:

حديثك أن لم يكن بدعة ... فحلم جرى في قديم الزمان
وصيحة مخفقة في الهوى ... معربدة الروح سكرى اللسان

أما غضب بليتيس وصاحبتها من أن روح الشاعر مر أمامهن ورآهن فأعرض عنهن (ولم يحي السماء)، فهو غضب ليس يعد من (كبرياء النساء) في شيء، والكبرياء عظمة وتجبر، وانما هذا الغضب ثورة على إهانة. وان امرأة ما من أقل النساء عفة وأكثرهن استهتارا واستسلاما للشهوات، وانهماكاً في الملذات، لتغضب من تغافل رجل عنها، وقد تتظاهر بالأعراض عن رجل لتوقعه في شركها. وروح تاييس ألهمتها الذكريات الأرضية اعتراضها على صاحبتيها اعتراضا يشف عن حقيقة أمرهن جميعا بقولها في الرجال:

إذا خلت الأرض من طيرهم ... فمن ذا يحي الجمال القسيم
ومن يطلق الحب من وكره ... على خطرات الغناء الرخيم
وفيمَ نرقّش هذا الجناح ... ونصقله ببنان النعيم

بقيت سافو (سفون)؛ فهل كانت حسية بالمعنى الشائع؟ أليس في مؤلفات الذين استوعبوا دراسة اليونانيات رأي آخر أوفي تحقيقا؟ بلى، وهذه هي خلاصته:
أن سافو اتهمت في أخلاقها، لكن يبدو أن أخلاقها كانت سليمة. ويجب أن نلاحظ أنها من قوم ايوليين، كان نساؤهم كنساء الدوريين أكثر حرية من نساء الايونيين الذين كانوا يحجروهن في الحريم: فان هذه المغايرة تعلل ما لمؤلوفي الملاهي الأثينيين من دعابات سيئة القصد، وتعلل تلك الأقاويل المنحولة في سيرة سافو. ويجب أيضا ألا يغرب عن الخاطر أن الإغريق في ذلك العهد ما كانوا وصلوا إلى معرفة التمييز في الأدب بين الهوى الحسي والهوى العذري؛ ولكن لا صلة بين اللذة الحسية التي يصفها الشعر المنسوب خطأ إلى أنا كريون وبين لاعج الغرام الذي تعبر عنه سافو في القليل الموجود من شعرها
وبالنظر إلى هذا الرأي، أن لم يكن بالنظر إلى أن الملحمة إنسانية لا إغريقية، وأن أحوال أبطالها تختلف في السماء عنها في الأرض، جاز لشاعرنا أن يجعل روح سافو في السماء أهدأ منها في تلك القصة المأثورة عنها، ولا غرابة في أن تقول:

رأيت الرجولة كل الجمال ... هو الرجل الفرد في المزدحم
ويحدو العذارى إلى دراهن ... حيَ الخطى موسوي القدم

كلا، أن الشاعر لم يهمل تلك الدلالات التي يغلو بإيجاب مراعاتها المغالون في الإعجاب بمبلغ دراستهم لليونانيات.
فأولئك حوريات في السماء غصبن على الشاعر فاتهمنه في غريزته وفنه. لكن هرميس اله البلاغة ومبتكر الفنون عطفهن معتذرا عنه بأنه رآهن في قلبه، وحيا بقلبه وأطبق ناظريه على ما فيه ضنا بلألاء جمالهن. ودنامنهن روح الشاعر في شبحه قبيل بعثهن فأعجبن بالرجل: استلمت بليتيس صدره وجبينه مستجملة سائلة: أمن حمأ الأرض هذا الجبين؟ فأجاب هرميس: دعى طيفه وانظري روحه. فسألت متجاهلة: هل

الرجل الروح؟ فأجابت تاييس: انه محيا وعينان! فقالت سافو: ما في الرجال سوى كل أصيد سبط القوام:
ذراعاه تستدرجان الخصور ... وفي شفتيه حديث الغرام
فصاح هرميس مسيئا بهن الظن: تنزهت عالمي! أينطق فيك روح بهذا الكلم! لقد سبى السحر أجمل أرواح السماء! فقال صوت السماء: بل البعث آذنهن الغداة، وهي الآدمية طافت بهن، فلا تلحهن ولا تلم. وغضب الحوريات حيلة من ناظم الملحة جعلتهن يظهرن شرفهن أو سموهن الروحاني، وينعين على الفنان غريزته وأثرها في فنه أو انحطاطه الجسدي؛ وهي حيلة أثبتت مهارة الشاعر الفنية، ولا سيما أنه نجح بها أولا في شغلهن بمحاورة وصفت ما أراد. شغلهن حديث الفن في السماء، وكان الفن يشغلهن في حياتهن الأرضية. وغضبن على الفنان الرجل، لكن ما لبثن أن رضين عنه وتهافتهن عليه في نزعة إلى الحسيات، فلم تضع الصلة بينهن وبين تلك الدلالات الغريزة، وبدا طبعهن في حالي السخط والرضى، وأثرهما واحد في كل البشر وان اختلفت درجاته، فهو لا يضر وحدة الشخصية في ذوات الأسماء الإغريقية، لأنهن في الحقيقة يمثلن النساء لا الملائكة
وعندنا أن الشاعر لم يتخذ من الأساطير مادة شعره، وأن اختار منها أسماء، وانما نحت شعره كله من صميم الحياة الإنسانية بالروح والجسد والغريزة جميعا على ما تبين في صنيعه، فلم يكن عليه أن يتقيد بدلالة تلك الأسماء
وتقرير هذه الحقيقة، بعد ما تقدم ذكره هنا وفي المقالة السابقة، تقرير واجب، إذ ليس يجوز التساهل في فهم المادة التي صدر عنها خيال الشاعر
ما القول أذن في البياناتالنثرية الوجيزة الواردة قبل القصيدة عن أصحاب تلك الأسماء؟
الجواب قريب: فهي في نظرنا بيانات تذكر بأنهم كانوا من أهل الفنون، ليكون كلام أرواحهم في الفن وأهله، والقلب وشأنه، والإنسان وغرائزه وخلاله، أحسن وقعا في النفس. وجمالك أيها القارئ الكريم ألا تخدع نفسك بهذه البيانات. أما الذين يتبحرون في العلم بالأساطير واليونانيات فقد يأخذهم الوجد بها حتى يصبح هجيراهم التشبث بدلالة تلك الأسماءكلما صادفتهم في أدب أيا كان وجهه
والبيانات النثرية الأخرى أيضا تذكر بمضمونها لكي يسهل فهم الإشارة في الملحمة إلى السامري وموسى، ومانا وهاواي، وغير ذلك؛ وذكر آدم وحواء في القصيدة فيه كذلك إشارة ضمينة إلى براءة الروح لبراءتهما قبل الخطيئة في الجنة وهو رمز إلى الرجل
والمرأة وخطاياهما في كفاح الأرواح والأشباح البشرية، ولم يذكرا لإيراد قصتهما المعروفة الحبيسة في المعتقدات الدينية
(البقية في العدد القادم)
محمد توحيد السلحدار
الأزهر والإمام محمد عبده
للدكتور محمد البهي
أليس من العجب أن يكون من أبناء الأزهر من بعث إلى أوربا باسم محمد عبده، . . . ثم لا يكون الأزهر معنياً بتاريخ محمد عبده وأفكار محمد عبده؟ . . .
إحدى الملاحظات التي ساقها الأستاذ الفاضل (م. . .) في عدد الرسالة 482 الصادرة في 17 رمضان سنة 1361 هـ تحت عنوان ذكرى الأستاذ الزنكلوني
أن الأمام محمد عبده والأستاذ الزنكلوني لم يكونا للأزهر وحده ولا شك؛ وان الأزهريين لم يعرفوا محمد عبده والزنكلوني وامثالهما ولاشك. ولهذا إذا لم يذكروا محمد عبده ولم يذكروا الزنكلوني لا يعود عدم ذكرهما إلى إهمال أو إلى نكران الجميل.
الأزهريون لم يعرفوا محمد عبده، لا لانهم لم يريدون أن يعرفوه، أو لأنهم أو لأنهم أرادوا أن يعرفونه فخفي عليهم، بل لأنهم دفعوا إلى عدم معرفته ودفعوا أيضا إلى استمرارهم على عدم معرفته. فقد شاع عن محمد عبده أنه شاذ وأنه خارج. . . وأخيرا شاع عنه أنه حر. وشاع كل هذا عن محمد عبده لأنه كان يكتب، وكان يفكر، وكان يتفلسف، ولأنه أراد أن يكون من الأمة، وأراد أن تسمع الأمة لأزهره وأن تسترشد

بإسلامه في قضائها، في تثقيفها، وفي تسوية مشاكلها الاجتماعية والقومية، بينما كان الأزهريون في وقته يقرءون فقط، ويقلدون فقط، ويتبعون فحسب، وبينما كانوا يؤثرون العزلة ويؤثرون المحافظة على الأوضاع التي سبقوا بها في القضاء والتهذيب على رغم تجدد الزمن وتعقد مشاكل الإنسان تبعا لعوامل التطور المختلفة.

محمد عبده - أصاب أم أخطأ - كان في طرف، والأزهريون - أصابوا أم أخطئوا - كانوا أيضا في طرف مقابل له. ولو كان الفكر الفلسفي هو السائد في التوجيه العقلي أيام محمد عبده لعرف محمد عبده وارتفعت الهوة بينه وبين الأزهريين في زمن وجيز. لأن الفكر الفلسفي هو التأمل قبل إصدار الحكم، والروية في ربط الأسباب بالمسببات، وحرمان العاطفة - أيا كانت عواملها أو أيا كان لونها - من التدخل في قضاء العقل. ولكن التقليد هو الذي كانت له السيطرة على العمل العقلي الأزهري، وبقي أيضا مسيطرا بعد وفاة محمد عبده، ولم تزل كفته هي الراجحة الآن

وإذا كانت السيطرة للتقليد في توجيه جماعة من الجماعات، وفي عملها العقلي، لا يتحدث المؤرخ النفسي للجماعة عن أرادتها أو عن عدم أرادتها، بل عن دفع وانسياق في اتجاه معين محدود

نعم إن محمد عبدة كان له تلاميذ من الأزهريين، وله منهم ألان عدد غير قليل - وان اختلفوا في الإيمان بفكرته درجات - ومع ذلك لم يعرف محمد عبدة من الأزهريين تمام المعرفة حتى يرددوا فكرته ويخلدوا في نفوسهم ذكراه؛ لان اللحظة التي يعرف فيها محمد عبده هي اللحظة التي يتم فيها تحويل الجامع الأزهر إلى جامعة؛ وهي اللحظة التي ترتفع فيها قيمة الفكر الفلسفي لدى الأزهريين أنفسهم في البحوث العلمية وفي التفكير الأزهري

ولهذا ليس من العجيب أن لا يكون الذي فكر في إرسال بعوث أزهرية إلى أوربا باسم محمد عبده من الأزهريين. فعبد السلام الشاذلي باشا هو الذي فكر في تخليد ذكرى محمد عبده، وهو الذي أرسل باسم محمد عبده بعثة من الأزهر إلى أوربا على نفقة مجلس مديرية البحيرة، وهو الذي عمل على ربط ما للشرق الإسلامي من ثقافة عقلية وتاريخية بما للغرب من إنتاج عقلي منذ العصر الذي طرح فيه سلطة التقليد وهو عصر النهضة. وهو من أجل هذا قد ساهم في تكوين عنصر من المثقفين داخل البيئة المصرية يجمع بين ما للعنصر الشرقي المحض وما للعنصر المدني الآخر من مزايا؛ يضم إلى تراثه الشرقي الماضي ما يتلاءم من نتاج الغربيين.

و (ليس من العجيب كذلك ألا يكون الأزهر معنياً بتاريخ محمد عبده وأفكار محمد عبده). لأن الأزهر إنما يعني بتاريخ محمد عبده وأفكار محمد عبده إذا تمت معرفته لمحمد عبده.

وليس تمام معرفته بسرد تاريخه أو التحدث عن أفكاره، وإنما يكون أولاً بتهيئة العقلية الأزهرية لقبول محمد عبده وأمثال محمد عبده، وذلك بإبراز مزايا التفكير الفلسفي وسط البيئة الأزهرية. فإذا اتضحت هذه المزايا لدى العقل الأزهري عرف محمد عبده من نفسه؛ لأن إنتاج محمد عبده أكثر شبهاً بإنتاج ديكارت. كل منهما قصد إلى التوجيه أكثر من محاولة الابتكار في الفكرة والرأي. فمحمد عبده نادى بالا يكون للتقليد سلطان على التفكير في حياتنا العقلية؛ وديكارت أقام منهجه في البحث على إبعاد السلطات التي كانت تهيمن في وقته وقبل وقته على التفكير الأوربي وهي كلها مظاهر لشيء واحد، هو التقليد

وليس لنا أن نيأس من قرب الزمن الذي يتمكن فيه الفكر الفلسفي من نفوس الأزهريين، على رغم أننا نعرف أن ممن يشرفون على التوجيه العلمي في الأزهر من يحاول أن يفهم أن الفلسفة مادة، وأنها يجب أن تخضع في بحوثها إلى المنقول أو إلى التقاليد، أو على الأقل يجب أن تؤمن في بحوثها الميتافيزيكية بسلطان بعض المؤلفين في العقيدة، لهم صبغتهم الحزبية في كتبهم المذهبية - لأنه من الشيوخ المحبب إلى نفوسهم ترديد معارف الماضي فحسب، والوقوف في دائرتها دون مجاوزتها إلى الحاضر، بل من هؤلاء الذين لا يزالون شديدي النفرة من اسم الحاضر، ومعارف الحاضر، ورجال الحاضر - ليس لنا أن نيأس لأنه يوجد في الصف الأول في قيادة التفكير الأزهري أمثال: المراغي وعبد المجيد سليم وشلتوت. . . ثم من ورائهم الشبان الأزهريون

حقاً، فيه رغبة قوية من الشبان الأزهريين في تعرف محمد عبده ومشايخ محمد عبده وتلاميذ محمد عبده ممن تتكون منهم المدرسة الجديدة في الإصلاح الديني والتفكير العلمي، ولكن مع ذلك، ليس من السهل أن تلقى عليهم أفكار محمد عبده، أو جمال الدين الأفغاني، أو أمثال الزنكلوني، قبل أن نهيئ هؤلاء الشبان ونزيل من نفوسهم، أو على الأقل نضعف عندهم ما تكون من عقيدة ضد محمد عبده، منذ أن درست لهم (السنوسية)، وقرىء عليهم تفسير (الخازن)

من الخير للأزهريين أن تتم معرفتهم بمحمد عبده؛ ومن الخير للشبان الأزهريين - على الخصوص - أن يعلموا من هو محمد عبده كقائد وإمام في الحركات الإصلاحية الدينية والعلمية والقومية، وأن يعلموا من هو محمد عبده في المحافظة على الكرامة الشخصية والكرامة الدينية، وأن يعلموا من هو محمد عبده في عزلته إذا اعتزل، وفي تقديره للأفراد والجماعات إذا اتصل واختلط؟

من الخير للإسلام ولمستقبل الدين أن يعرف الأزهريون دينهم كما عرفه محمد عبده، وأن يفهموه عقيدةً ونظرةً في الحياة لا أن يميلوا به إلى حرفة ومهنة لطائفة

ومن الخير للأمة المصرية أن يعرف الأزهريون محمد عبده؛ ومن الخير للدولة المصرية إذا ابتغت انسجاماً داخل الأمة المصرية، أو على الأقل قرباً في التفكير المصري والعقلية المصرية أن تنشئ باسم محمد عبده كرسيّا في الأزهر كما تعمل على إنشائه في جامعة

فؤاد الأول

وأخيراً أقول للأستاذ الفاضل (م. . .): إن من بعثوا إلى أوربا باسم محمد عبده لم يهملوا محمد عبده عملهم العلمي؛ فقد بدأت التعريف بمحمد عبده في الحياة الجامعية الألمانية بعقد موازنة بين نظرته إلى الإسلام ونظرة هيجل إليه في رسالة صغيرة؛ ثم كتبت عنه رسالة الدكتوراه في جامعة هامبرج. وهنا في أزهرهم لم يهملوه أيضاً. وإنما رأوا مهمتهم أولاً وبالذات في التوجيه، إذ فيه الضمان الكافي لقبول تاريخ محمد عبده، وأفكار محمد عبده، وبالتالي للتعرف بمحمد عبده.

محمد البهي

يوم من أيام دمشق الخالدة

وفاة الإمام ابن تيميه

في 20 ذي القعدة سنة 728هـ

للأستاذ أحمد رمزي بك

قنصل مصر العام في سورية ولبنان

(بقية ما نشر في العدد الماضي)

- 3 -

لم يكن ثبات القلعة بدمشق وعودة الجند ليزيلا القلق من النفوس، فقد أقسم عاهل التتار هذه المرة أن يملك الشام ويفتح مصر عنوة، وملأ الدنيا بإشاعته والناس أشد ما يكونون ذعراً؛ كل هذا وابن تيميه لا يبالي، يقعد بمجلسه كالعادة في الجامع يحرض الناس كل يوم على القتال، ويسوق الآيات والأحاديث الواردة في هذا المعنى، ويحرم الفرار ويرغب الناس في إنفاق الأموال، وأن ما ينفق في الهجرة إذا أنفق في سبيل الله كان خيراً

اضطرت السلطات إزاء هذه الهجرة نحو مصر والكرك والشوبك أن تمنع الخروج بغير ترخيص خاص، وكانت الأنباء قد وصلت بوصول التتار إلى الشمال مرة أخرى، وتراجع جند الممالك الحلبية، ثم الأمطار فأعاقت السير إلى الجنوب وإلى الشمال

- 4 -

كان موقفاً رائعا فذاً في التاريخ أقرأه ونفسي تضطرب حينما خرج الشيخ في صباح السبت من مستهل جمادى الأولى سنة 700 هجرية وقابل نائب الشام بالمرج فواجه الجنود وثبتهم وقوّى جأشهم وطيب قلوبهم ووعدهم بالنصر والظفر على الأعداء وتلا قوله تعالى: (ومن عاقب بمثل ما عوقب به، ثم بُغى عليه، لينصرنه الله إن الله غفور رحيم)

وبات ليلته وسط العسكر وهم يحيون هذه الروح التي وضعوا آمالهم فيها

أتدري ماذا يطلب منه أمير الشام ونائب السلطنة فيها؟

يطلب إليه أن يركب على البريد إلى مصر ليستحث السلطان على المجيء إليهم. ويسوق
الشيخ على خيل البريد إلى القاهرة، وهو أينما يحل يستحث الناس إلى المبادرة
أقام الشيخ في قلعة مصر ثمانية أيام، وقد اجتمع بالسلطان والوزير وأعيان الدولة فأجابوه إلى الخروج، وكان فيما قاله لهم: (إن كنتم أعرضتم عن الشام وحمايته، أقمنا له سلطاناً يحوطه ويحميه - لو أنكم لستم حكام الشام ولا ملوكه واستنصركم أهله وجب عليكم نصره - فكيف وأنتم حكامه وسلاطينه وأنتم مسئولون عنه؟)
ثم عاد كما أتى على البريد من مصر، وقد أدى أمانته ونفخ في النفوس روحاً للكفاح جديدة
- 5 -
استمر المد والجزر بين الفرقين والرسل تتوالى إلى أن دخلت سنة 702 هجرية؛ وقد قدم جيش مصر وعلى رأسه الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير، وزحف التتار من جهتين من الشمال فوصلوا إلى البقاع واحتلوا بعلبك، ومن الشرق وصلت طلائعهم القريتين. كل هذا والتتار لا يعلمون بقدوم السلطان من مصر.
ولما وصل دمشق قرر أن يكون المصاف في جنوب دمشق بقرية شقحب، وأتم التعبئة والحشود ومشى السلطان والخليفة بجانبه ومعهما القراء يتلون القرآن، ويحثون على الجهاد، ويشقون إلى الجنة.
في هذا الموقف العصيب يقوم الطابور الخامس بدعايته فيقول: كيف تحاربون قوماً أسلموا وهم إخوان لكم؟ وهنا برز الشيخ بقوته ومضاء فكره فألهمه المولى هذه العبارة:
(هؤلاء من جنس الخوارج الذين خرجوا على علي وعلى معاوية ورأوا أنهم أحقبالأمر منهما. وهؤلاء يزعمون أنهم أحق بإقامة الحق من المسلمين ويعيبون على الناس ما هم فيه من المعاصي والظلم، ولكنهم متلبسون بما هو أعظم منه بأضعاف مضاعفة، فقويت النفوس (والله لو رأيتموني من ذلك الجانب وعلى رأسي مصحف فاقتلوني وانقطعت دعاية الضلال.
فلما تم الترتيب أخذت كراديس التتار تزحف كقطع الليل والتحم القتال على طول الجبهة قتالاً هائلاً رائعاً بيعت فيه النفوس بغير حساب. كل هذا والجاشنكير يسيطر على المعركة بجند مصر والشام. وهنا مال قطلوشاه القائد التتري إلى جبل قريب ونظر إلى السهل والجبال المحيطة فإذا المسيرة السلطانية ثابتة لا تتزعزع، والأعلام خافقة. وجئ إليه
الأسرى فسأله من أنت؟ فقال من أمراء مصر. فعلم بأنه قد خسر المعركة.
معركة فاصلة دامت أربعة أيام أظهرت فن القيادة والتعبئة لدى القواد المصريين والشوام، واختتمت بالنصر الباهر الذي نفخ فيه ابن تيميه من روحه.
وقبل اختتامها حاول قطلوشاه للمرة الأخيرة أن يجازف فقذف بما بقي لديه من جنده فرساناً ومشاة. وقد ترجل الخيالة فلقيتهم المماليك السلطانية من البرجية بسور من الفولاذ مزقهم شر ممزق وحلت بهم الهزيمة فانتشروا منهزمين إلى القريتين وقد تتبعهم العامة
وتقهقر قائدهم عائداً إلى بلاده فلم يعبر الفرات إلا في شرذمة قليلة من هذا الجيش اللجب الذي عبأ لفتح مصر والشام.
وبات السلطان بالكسوة ثم دخل دمشق وقد فتحت قلبها وتلقته لقاء الأبطال بعد أن أزال الهم والغمة عنها.
وفي مكان المعركة وبغير غسل ولا كفن جمع من استشهد من أبطالها فدفنوا في موضع واحد وبنيت عليهم قبة أرجوان تكون باقية إلى اليوم.
وكان الشيخ أول من فرح قلبه لهذا النصر المبين.
- 6 -
مرت ابتداء من سنة 705 سنوات كفاح للشيخ من أجل المبدأ يقارع الأيام وتقارعه، وتغمره موجة من الدسائس فيخرج منها سالماً، وتعقد المجالس لامتحان عقيدته فيخرج من هذه المغامرات أحياناً إلى الحرية وحيناً إلى السجن. وطلب إلى مصر، فلما أزمع السفر ازدحم الناس لوداعه. وفي إبان سفره لم يترك فرصة تمر دون أن يقف

واعظاً للناس. ولما وصل القاهرة واجتمع له العلماء واختلف معهم أدخل في أحد أبراج القلعة وبقي بها محبوساً. وكلما نجحت محاولة لإخراجه أبي إلا أن يبقى، والناس تقصده وترسل أليه المشكل من الأمور لاستفتائه فيه

- 7 -

انتقل ابن تيميه إلى الثغر الإسكندري في صفر سنة 809 بصحبة أمير من الأمراء فأدخل في دار السلطان وأنزل في برج فسيح منها. ووصلت أخباره إلى دمشق بعد عشرة أيام من سفره من القاهرة، فقلقت الخواطر عليه وتألم أنصاره وخلفوا سطوة أعدائه الذين عقدوا النية على النيل منه. وكان الشيخ يحضر الجماعات ويقيم الوعظ فيأتي إليه الناس من أهل الإسكندرية أفواجاً ينصتون إليه ويقرءون العلم عليه، وقد ازدادوا تعلقاً به ومحبة له وتقرباً منه

ووصل إلى دمشق كتاب من أخيه يقول: (. . . إن الأخ الكريم قد نزل بالثغر المحروس على نية الرباط فإن أعداء الله قصدوا بذلك أموراً يكيدونه بها. . . وقد انقلب أهل الثغر أجمعون إلى الأخ مقبلين عليه مكرمين له في وقت ينشر من كتاب الله وسنة رسوله ما تقربه أعين المؤمنين، ولقد استتاب جماعة منهم واستقر عند عامة المؤمنين وخواصهم من أمير وقاض وفقيه)

ويقول ابن كثير - وهو من المراجع التي اعتمدنا عليها مع غيره -: (إن الشيخ أقام بالإسكندرية ثمانية أشهر، وكان سكنه في برج متسع مليح نظيف له شباكان أحدهما إلى جهة البحر والآخر إلى جهة المدينة، وكان ينزل عنده من شاء ويتردد عليه الأكابر والأعيان والفقهاء يقرءون عليه ويستفيدون منه وهو في أطيب عيش وأشرح صدر)

- 8 -

دارت الأيام دورتها وعاد الملك الناصر إلى عاصمة ملكه بعد زوال حكم أعدائه، وكان ذلك في عيد الفطر المبارك من سنة 709 وقد استقبلته في القاهرة، وقبل ذلك بدمشق، دنيا من الأفراح إذ استبشرت العاصمتان بعودة ابن قلاوون إلى ملكه وحيته الجماهير وهتف له ذلك الهتاف المحبوب: (يا ناصر يا منصور).

ولم ينس المليك الشاب في أفراحه الشيخ المجاهد ابن تيميه فأرسل أليه وحضر إلى القلعة معززاً مكرماً مبجلاً. وكان قدومه في 18 شوال، وقد خرج مع الشيخ خلق عظيم من الثغر الإسكندري يودعونه بالبكاء لتركه مدينتهم. ولما دخل على الناصر تلقاه ومشى إليه وأنس به في محفل كبير جمع قضاة مصر والشام فأصلح السلطان بينه وبينهم. ونزل الشيخ إلى القاهرة وسكن بالقرب من المشهد الحسيني والناس يترددون عليه من الأمراء والجند وهو يقول لكل من يعتذر أليه: (أنا حللت كل من آذاني)؛ وجدد الشيخ سابق عهده بدمشق ولكن بمدينة القاهرة المعزية - قلب العروبة - فأخذ يقيم حلقات الدروس وبدأ حياة كفاح وجهاد في سبيل العلم

هذا هو الشيخ الذي يضم عظامه قبر بسيط بفناء الجامعة السورية، والذي كان يمثل دنيا وحده وكانت شخصيته فذة جديرة بالبحث والدرس

إننا في حاجة إلى أن نستلهم الماضي ونستوحي صفحاته؛ وابن تيميه رجل من رجال الماضي وشخصيته تطل علينا من وراء القرون

كان ابن تيميه دمشقياً مائة في المائة، وكان مصرياً مائة في المائة؛ فهو حلقة الوصل بين البلدين في عصر مضى. وأنني كلما دققت النظر في تاريخه وعمقت التأمل في أقواله أجد نفسي إزاء رجل أقف أمام ذكراه والاحترام يملأ نفسي

والآن في أرض هذه العاصمة الخالدة وفي فناء جامعتها المباركة أقول: (هنا يرقد رجل).

أحمد رمزي

ذكرى أم كلثوم

للشاعر التركي إبراهيم صبري

نشرت الرسالة في عددها (480) تعريفاً بالشاعر التركي) إبراهيم صبري وترجمة لقصيدة من شعره. وهذه القصيدة التي ترجمها الأستاذ (محمود محمد شاكر) تعطي صورة

جديدة من الشعر التركي بل من الشعر التركي في غربته.
وفيها يصف الشاعر ذلك الصوت الشعري السامي الذي يسحر
السمع، ويسبح بالروح في جو ممتد كامتداده، مرتعش
(كرعشته، منتحب كانتحابه: صوت أم كلثوم
إلى أخي محمود محمد شاكر
انصرفت من دعوتك الماضية وقد احتفظت بشعور وإحساس كتب في ذاكرتي هذه الأبيات:
كان يوماً بديعاً مِلْؤُه السرور! واحسرتا لذلك اليوم! لقد مضى!
ألوان من الطعام لذيذة اتصلت بموسيقى السحر التي فاضت على شفتي أم كلثوم الفاتنة،
قصيدة وردية من أباريق اللحن انسكبت في أرواحنا.
حين يأخذني سكر الإبداع أجد قلبي نشوانَ،
وتذهب أعصابي في سُبات عميق من فرط ما ثملت.
حينئذ أشعر بعروج خيالي وحده إلى عالم الأرواح
تاركاً على الأرض كل ما هو نقيض لهذا الصوت السماوي.
أراني أصل بخيالي إلى قمر في آفاقه نغم ألحانه من عالم الحور والسحر:
هو ذرة أثيرية أخرى لا أبعاد لها، تكوِّن هواء ذلك القمر وماءه وأرضه ونوره الشفاف.
إن هذا الصوت ليس للتراب، إنما حقه أن يسمع في السماوات.
في مصر التي تشعرك بالبقاء أدوارها التاريخية المديدة
وفي مصر التي يشبه الأهرام فيها صوت أم كلثوم
لا أقف لأستمع بل أبادر لأنظر وأشاهد.
في ذلك الصوت كلاهما كمومياء مذهَّبةٍ جديرة بالمشاهدة (ليلى والدهر).
في هذا الصوت تتمزق صدور العشاق إرباً إرباً،
وكيف لا تتمزق فيه صدور العشاق، وقد ورث نبئ موسيقار لوعة نايه من هذا الوادي.
وإن حفر البشر الهواء في المستقبل، فلعلهم يكتشفون في صوتها صوت المزامير.
حين تبدأ تغني ينبعث صوتها كأنهُ وسوسةُ ذاتُ ألوان من الحباب المنطفئ على النيل
الأخضر الذي يجري أمام الشمس النَّارنجيَّة؛
ثم إذا بك تراه ينقلب إلى أمواج في بحر تندفع كل موجاته فترتطم على قلب؛
ثم إذا بك تراه ينتصر على البعد المطلق.
تخال رَجْع (نواه) آتياً من وراء الفضاء.
هذا الصوت يغرِد كتغريد البلبل في الجنة،
كأنما تفوح منه رائحة ماءِ الورد وشجرة العود؛
كأنه نطفة يجري فيها ماء الحياة، لو انصبت قطرة منها على أجساد الموتى لشعروا بها.
هذا الصوت يمسُّ خدَّ السمع كمنديل من الحرير في كف معطِّرة،
كم من ناصية قد اعتمدت على هذه اليد الساحرة
تبكي وتنوح، غارقة في حنانها،
لذلك ينبعث ترديده منتحباً
ولذلك يحرق كما يحرق البكاء
حين غربت الشمس - انطفأ اللون الأحمر للرمال المتوهجة في جفون الصحراء فكأنها استحالت رماداً،
وتردد في نفسي صدى النغمة الأخيرة لهذا الصوت فأثار وجدي فقمت للوداع من زاويتي
حيث كنت مستغرقاً في خواطر.
كأن ذاكرتي لم تكن معي
عادت كأنما عادت من وراء أفق بعيد؛
وكأنها يد وضعت على كتف روحي
وأعادتني إلى الحقيقة.
تذكرت حينئذ زمناً من الأزمنة الماضية:

اجتمعت ليلة في بيت صديق ومعنا (سامي)
ما كان أبدع ما غنى من (الغزل) والأصوات!
كيف كوى بها قلوبنا؟
وكيف امتلأت جفوننا بالدموع ككؤوس خمر؟
وكيف أصبح شيطان ألحانه ساقياً للعبرات؟
إذا فاضت دموع التأثر من هذه العيون التي كانت ترسل دموع اللذة في ذلك الزمن، فلا
بأس!
فإن في هذه الأرض أصواتاً تجعل الغربة أُنساً
وفها مودتك المخلصة الغالية
ترجمة
محمود محمد شاكر
إلى المعترضين علينا
للأب أنستاس ماري الكرملي
(تتمة)
4 - نتيجة كلامنا مع الأستاذ المكابر
لا يقال إلا البساتين الغن، وإلا الدروع الحصد، وإلا الكريات البيض، وإلا الدروع الخضر. وأما قول القائل: البساتين الغناء، والدروع الحصداء، والكريات البيضاء، فخطأ ثم خطأ ثم خطأ. اللهم إلا إذا قدمت على هذه النعوت كلمات منسوبة مفردة مؤنثة، فيصح حينئذ مثل هذا القول: بساتين عبقرية غناء، ودروع فارسية خضراء، وكريات بيضيه بيضاء؛ وهذا القدر كاف لهذا الموضوع اليابس الناشف، ولا نعود إليه بعد، بل نحول أنظار السائلين إليه، وهو الهادي إلى الصواب!
5 - إلى الأستاذ الأفغاني
كنا نود - يا سيدي الكريم الجليل - أن تكلمني بالعربية، لأني عربي وأجدادي من بني مراد، لا بالأفغانية لسان أجدادك أهل الحسب والنسب. . . نعم، إني كنت قد اجتلبت كتباً أفغانية من باريس، لأدرس هذه اللغة البديعة لكن الزمان لم يساعدني على المطالعة، فبقيت الكتب في الخزانة من غير أن أنتفع بها إلى اليوم
قلت لي في نبذتك في (الرسالة) 869: 10: وقد كتب (أي الأب أنستاس ماري الكرملي) الجملة الأولى بخط عريض وأنا لم أكتب عنوان المقال إلا بالقلم الدقيق كما يمكنك أن تطلب الأصل من صاحب (الرسالة) ليطلعك عليه. أما الذي رسمه بالقلم الريان، وحضرتك تسميه الخط العريض، فمن منضد (الرسالة)، تزييناً للطبع ولسطور الصفحة، فلو جعلها كلها بقلم واحد، لملت النفس، ونبا البصر، وعاف القارئ المطالعة ونبذ الصحيفة من يده. وهذا ما تحققه بنفسك في جميع نبذ (البريد الأدبي). . . إذن، ليس المزكزك بأنيئهن
وقلت لي: بخط عريض مذيل؛ ولم أذيل الخط بشيء، لعلمي أن ذيل الشيء جعل له ذيلاً، وذيل الصحيفة كتب شيئاً في ذيلها زيادة على ما فيها، وهذا لم أفعله، ولا أرى هناك ما يؤيد هذا الكلام
وقولك يا سيدي: بخط أفقي، لا ينطق به فصيح، إنما ينطق به أرباب الهندسة، وهو من معرب الكلام الحديث، ورائحة التعبير الأجنبي تفوح منه. وأما ابن الناطق بالضاد، فيقول: وتحته خط. وأحسن من ذلك أن يقال: وقد رسم بخط ريان (أو عريض؟)، وخطٌ تحته خطاً توجيهاً للأنظار.
ثم نقلت، يا سيدي، بعض العبارات من المعاجم تأييداً للخطأ وأنه أحسن من الخطآء. والدليل الذي أتيت به هو أن: أرباب الدواوين ذكروا الخطأ المقصور قبل الخطآء الممدود. وهذا برهان ينطبق به الأطفال قبل الحلم، وهل تكون إلى الآن بهذه السن؟ ألا تعلم يا سيدي أن أرباب كتب متون اللغة يقدمون الكلمة القليلة الأحرف، على الكلمة الكثيرتها. خذ بيدك أيّ معجم شئت، وانظر إلى المصادر، أو إلى الأسماء أياً كانت، تر أن الكلمة القليلة الأحرف مقدمة على غيرها. وكذلك يفعل أهل الحساب فإنهم يقولون: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، إلى آخرها.
وأما أن صاحب (الصحاح) ضعف الحرف الذي (ذكر الأب أنه الصواب دون غيره) فهذا

لا يعني أنه مصيب فيما قال.
يا سيدي إنك تعلم أن مؤلف الصحاح خّطئ في كثير من أقواله الغوية والنحوية، فكيف تحتج بكلامه، وتسر كل السرور لكونه نطق بتلك الكلم؟ وهناك من أعلى مقاماً منه وهو صاحب الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، وكان معاصراً للجوهري، وقد انتبه لهذه الحقيقة الأستاذ اللوذعي محمد غسان فنقل في الرسالة (892: 10) ما ورد في ذلك التصنيف المفيد من المقال الزاري على اللآل
زد على ذلك أني أحاول في كل ما أكتب أن أتأثر أحسن من نطق باللغة المضرية باتفاق شهادة جميع قبائل العرب وجميع أمم الأرض قاطبة، فانه كان يحب الازدواج والمشاكلة والإمتاع والمجانسة، فقد قال مثلاً: ارجعن مأجورات غير مأزورات، مع ما في مأجورات من الغلط في نظر بعض حمقى اللغويين. فلما قلت الخطاء أردت أن أبين أن ما كتبه الناشران لكتاب الإمتاع في آخره، حين كتبا: خطأ وصواب، كان يحسن بهما أن يقولا: خطأ (بالمد) وصواب، مجانسة للوزن، لأن كليهما على وزن سحاب، فالقارئ يتذوق طيب هذه المشاكلة إذا ما رأى فيها هذه الموازنة
هذا ما أحببت عرضه على العلامة المحقق (الأستاذ الأفغاني) وله إعجابي وتحيتي!
إلى الأستاذ داود حمدان - 6
كتبت يا سيدي في الرسالة (870: 10) مخطئاً قولي: (قال ابن دريد في الجمهرة: (وبالصاد (أي ألخص) أحسبها لغة لبني تميم، وهي لغة ابن الغبر خاصة). كذا في تاج العروس وهو خطأ أيضاً. والصواب: (وهي لغة بني العنبر، إذ لا وجود لابن العنبر) أهـ فانبرت لي من أقصى اللد وكتب: (وقد يقال: عدم الجزم بهذه التخطئة أولى، فبنو الغبر لهم وجود. جاء في القاموس المحيط في (فصل الطاء وباب اللام): وككتاب (أي طحال) كلب وع لبنى الغبر. راجع القاموس المحيط ففيه شاهد لا يليق ذكره.) أهـ قلنا: لو كسرت يراعتك المرضوضة، وألقيت بها في التنور، وبقيت ساكتاً إلى أن يفيض التنور، لكان ذلك أحسن لك! وأنصحك نصيحة لله: ألا تكتب كلمة قبل أن تتدبرها كل التدبر ثم تعرضها على أصدقائك، ثم تتأملها ثانية، وتعرضها على أعدائك، وحينئذ ابعث بها إلى أصحاب الجرائد والمجلات.
وإلا فمثل هذه الخربشة والخربقة لا ترفع قدرك ولا تبقى لك أثراً طيباً!
أنك يا سيدي رأيت في القاموس أن (طحال كلب وع لبنى الغير. . .) وضبطت: (الغبر) في قولك هذا بضم وفتح مشددة فكم من غلط في كلمة واحدة!
وأول كل شيء، أن الغبر، التي ضبطتها كسكر، ضبطت في القاموس المشكوك كما ضبطتها. وأما يا قوت الحموي فضبطها في معجمه: غُبر كزُفر. والغلط الثاني أنه لم يدخل عليها أل، وكذا ضبطها ابن دريد في كتاب الاشتقاق ص 205 من طبع أوربة قال: (ومن قبائلهم بنو غُبَر بن غَنم، وغُبَر فُعَل، ولم يعرفها باللام هو أيضاً وضبطها صاحب جزيرة العرب - وهو الحجة العظمى في هذه المادة (بنو غُبَر) على حد ما ضبطها يا قوت وابن دريد. وعندنا عدة نسخ خطية قديمة من القاموس وكلها تضبطها كزُفر وبلا لام التعريف. وقد قال صاحب القاموس نفسه في مادة (غ ب ر): غبر كزفر ولم يذكر في ذلك التركيب (غُبَّر) كسكر
ثم لو فرضنا أننا صدقنا رواية القاموس الواردة في مادة طحال، فمن قال لك إن أولئك
المسلمين بني الغبر هم أصحاب تلك اللغة أي لغة قلب السين صاداً؟ وقلنا: (وبالصاد (أي الصديق) وأنت كتبتها (الخص) فما هذه الخربشة؟)
نحن نقلنا ما نقلنا وقلنا ما قلنا لا على مجرد الوهم والتخيل، على الحقيقة. فإن الجمهرة لابن دريد مطبوعة في الهند وما ذكرناه منقول عنها مع بعض الاختلاف هو الوارد في التاج لكنه قال: (لغة بني العنبر) لا لغة بني الغبر. وإن شككت في ما أقول فما عليك إلا مراجعة الجمهرة فهي في الأيدي لابتذالها في الطبع. فما معنى هذا التحكك الذي أظهرته يا سيدي وأنت لا تملك من الكتب ما تؤيد مدعاتك؟ فبنو الغبر كسكر لا وجود لهم ولا للغتهم. فإياك إياك يا سيدي العودة إلى هذا الميدان، فإنه لا يصيبك منه إلا الهوان، بعد هذا الامتحان!
(تم)
الأب أنستاس ماري الكرملي

أحد أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية
بغداد في 2691942
اذهب. . .
للأستاذ علي متولي صلاح
إذهبْ فإنِّي قد سلوتُ غرامي ... وملكتُ نفسي وانتهَتْ آلامي
إذهبْ فقد وضح الصواب ولم أعدْ ... عبد الخيال ولا فتى الأحلام
إذهبْ فإني قد تركتُ عواطفي ... وجعلتُ عقلي في الطريق أمامي
يا طالما أرسلتُ فيك مدامعي ... يا طالما شرَّدتُ فيك منامي
يا طالما ذقتُ الهوان ولم أكنْ ... لولاك في يوم يهون مقامي
صدَّا لقيتُ وذقتُ ألوان الجوى ... وحملْتُ مصطبراً أذى لوَّامي
حيران في أهلي وبين صحابتي ... أسوان أشكر للنجوم هيامي
الناس من حولي ولستُ أراهمو ... وأراك في عقلي وفي أوهامي
والنور في الأرض العريضة مشرقٌ ... لكنني أحيا بأرض ظلام
والزهر في عيني مريضٌ ذابلٌ ... والجدول الرقراق جوف رجام
والشعر في صدري ذبيحٌ ميت ... والنَّوْح صدْحي والبكا أنغامي
حتى كأنَّ الفلك غيَّرَ نهْجه ... ومحا السطور البيض من أيامي
ماذا رأيتُ أنك خائني ... ورأيتُ أنك لا تصون زمامي
ورأيت أنك ساخرٌ بمدامعي ... ورأيت حبك ليس غير كلام!
فالآن فاذهبْ قد سلوتُ غرامي ... والآن فاذهبْ قد مضت آلامي
وعلى جمالك من مُحِبٍ سابقٍ ... وعلى غرامك ألف ألف سلام
على متولي صلاح
المقابر. . .
للأستاذ محمد برهام
وقفت في حذر فيها فروعني ... ما تبصر العين من صمت وإظلام
تطلعت لي عيون الدوح في دهش ... وأنعمت في خيالي أي إنعام
وعاد يهمس هذا الدوح في أذني ... أركن لقوم ببطن الأرض نوام
تعال مت مثلما ماتوا فسوف غدا ... تعل كأس الردى من بحره الطامي
تعال مت ميتة في العمر واحدة ... فقد تميتك ألفاً دورة العام
كأس المنية خذها عن طواعية ... من قبل أن تتلقاها بإرغام
ولم أكد أبصر الأحجار قائمة ... والترب يضرب أكواماً بأكوام
حتى نسيت حياة الناس ناحية ... وعاد عيشي بها أضغاث أحلام
ورحت في عالم الأموات مبتعداً ... عن كل باعث أشجان وآلام
يا ليت كان هنا مثوى أقيم به ... ولا أعود إلى عيشي وأيامي
(عن العبرية)
محمد برهام
البريد الأدبي
في جماعة كبار العلماء: مصادرة كتاب ومؤاخذة عالم
روت البلاغ أن قد عرض على جماعة كبار العلماء في اجتماعها الأخير التقرير الذي كانت وضعته اللجنة المؤلفة من بعض أصحاب الفضيلة أعضاء الجماعة عن كتاب (رد الدرامي على المريس) الذي طبعه ونشره وكتب مقدمته الشيخ حامد الفقي من علماء الأزهر الشريف.
وقصة هذا الكتاب ترجع إلى أن أحد كبار العلماء وجد فيه أحاديث شك في نسبتها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فعرض الكتاب على الجماعة وطلب بحثه فألفت اللجنة السالفة الذكر.
وقد رأت اللجنة في الكتاب جملة مآخذ خلاصتها أن الأحاديث التي يستند عليها المؤلف في روايته غير صحيحة، وأن الكتاب يدعو إلى عقيدة التجسيم للخالق سبحانه وتعالى، وأن مقدمة الكتاب فيها مآخذ شديد وطعن على علماء الكلام، واتهام صريح لهم بأنهم أفسدوا العقائد ببحوثهم والتغالي فيها وزيفوها وخرجوا بها عن سلامتها. وانتهت اللجنة في تقريرها إلى أن نشر هذا الكتاب وإباحة تداوله هو ترويج لمبادئ باطلة عفي عليها

الزمان، وطلبت مصادرته ومحاسبة ناشره على نشره وعلى ما جاء في مقدمته من طعن على العلماء خصوصاً وأنه يرأس جماعة إسلامية للدعوة للدين هي جماعة أنصار السنةالمحمدية.

وقد طبع هذا التقرير ووزع على أعضاء الجماعة لبحثه. ورأى فضيلة الشيخ محمود شلتوت عضو الجماعة أن يرد عليه فكتب تقريراً وقدمه للجماعة ووزع على الأعضاء وقد عرض في الاجتماع نفسه. وقد تضمن أن الأحاديث التي طعن فيها والموجودة في هذا الكتاب لها أصل في كتب الأحاديث رواها أبو داود وابن كثير، وكثير من علماء الحديث. وقال عما جاء في المقدمة من كلمات نابية في حق علماء الكلام الإسلاميين أن المقصود بها أولئك الذين دخلوا في الإسلام تظاهراً وهدفهم الأول الإساءة إلى العقائد الإسلامية وتعاليم الإسلام السليمة، وهذا المعنى يتجلى في سياق كلام المقدمة، وضرب الأمثال الكثيرة لذلك

وعلى الجماعة أن تقرر مبدأ بالنسبة لهذا الكتاب وما يوجد من الكتب الأخرى وهو دراسته

والرد على ما فيه؛ وهذا أسلوب القرآن الكريم؛ فسبحانه جل شأنه ساق آراء المشركين والمعارضين للإسلام وحجهم ودعاواهم وعقب عليها بالرد والتنفيذ. وهكذا كان شأن علماء الإسلام الأول يسردون أقوال معارضيهم ويردون عليها. وفي الكتب التي بين أيدينا آراء وأقوال لكثير من الطوائف الإسلامية رد عليها رووها وكان في هذا تنوير للباحثين والدارسين والوقوف على المزيف منها والسليم.

وقد أفاد هذا الأسلوب ونفع وأوجد ثروة واسعة للمكتبة الإسلامية وأدى إلى الوقوف على الحركات العلمية التي كانت موجودة في العهود السابقة. ولعل الأزهر لم ينس بعد الموقف الذي كان منه في سنة 37 إزاء كتاب تاريخ بغداد ومصادرته ثم فك المصادرة عنه.

وانتهى الأستاذ الشيخ شلتوت من تقرير إلى الاقتراح باتباع أسلوب السلف في حماية العقائد والدين بتنفيذ ما يرى أن فيه مساساً بهما والرد عليه وعدم مصادرة الكتاب أو مؤاخذة الناشر على نشره وما جاء في مقدمته.

في نسب العبيدين

في العدد 485 من الرسالة كلمة بعنوان (حول الفاطميين) تراءى كاتبها برأي ابن خلدون في تصديق دعواهم في نسبهم المخالف لجماهير أهل التحقيق في التاريخ والأنساب العلوية، قال ابن خلكان في ترجمة عبيد الله المهدي: (أهل العلم بالأنساب من المحققين ينكرون دعواهم في النسب). وابن خلدون ليس بأقل خطأ في رأيه منه في (العرب والحضارة) و (العرب والعلوم)، وأغلاطه في ما دونه من أخبار الشرق غير مجهولة. إلا أن له هنا دافعاً نفسياً أوقعه في الشذوذ عن الجماعة، كما نص على ذلك المؤرخ الكبير السخاوي في كتابه (الإعلان بالتوبيخ) نقلاً عن شيخه الحافظ بن حجر، وذكر فيه أيضاً سبب شذوذ المقريزي في ذلك

هذا ورد كل شيء إلى السياسة مضيعة للحقائق، وليست كلمة (الغاية تبرر الواسطة) سوى قاعدة (مكيفلية) واهية يبرأ منها علماء الإسلام في جميع العصور. والحكم الذي أصدره كبار الأئمة من علماء بغداد في تزييف نسب العبيديين وافقهم عليه علماء الأمصار كالقاضي أبي بكر الباقلاني وأبي منصور عبد القاهر التميمي وأبي المظفر الإسفرايني ومؤرخ الإسلام الذهبي وابن تيميه وغيرهم. ومن درس سير أولئك العلماء الذين وقعوا

ذلك الحكم استيقن أن أحدهم يفضل الموت على إصدار حكم مخالف للشرع في نظره. ولم يكن الخليفة يومئذ القادر بالله بقادر على إكراههم على القول بما لا يعتقدونه لأنهمكانوا أهل الحل والعقد في الدولة مع عظم منازلهم في الأمة، على أن القادر بالله لم يوصم في التاريخ بظلم ولا عدوان بل ذكر بالدين والتقوى. ومما يدل على بطلان دعواهم في الانتساب إلى محمد بن إسماعيل ابن جعفر الصادق: أن إسماعيل مات في حياة والده، ومحمد لم يعقب كما قال النسابون الثقات على ما هو مبسوط (في الفرق بين) وغيره، فصلتهم بإسماعيل بن جعفر الإمام كصلتهم بالإسلام. وقال ابن طولن في (اللمعات البرقية في النكت التاريخية) في ترجمة الحاكم: وكان هو وأسلافه يدعون الشرف ويقولون: أبونا على وأمنا فاطمة، كان في كل أسبوع

يقول ذلك على المنبر، وكانت الرقاع ترفع إليه وهو على المنبر فرفعت إليه رقعة مكتوب فيها هذه الأبيات:

إنا سمعنا نسباً منكراً ... يتلى على المنبر في الجامع
إن كنت فيما قلته صادقاً ... فأنسب لنا نفسك كالطالع
أو كان حقاً كلُّ ما تدعي ... فاعدد لنا بعد الأب السابع

وزاد غيره:

أو فدع الأشياء مستورةً ... وادخل بنا النسب الواسع

فرماها ولم ينتسب فيما بعد. ولما دخل المعز العبيدي مصر وسُئل عن نسبه سل سيفه وقال (هذا نسبي) ونثر الذهب وقال (وهذا حسبي)

ثم إن الكاتب لو رجع إلى بعض كتب الأصول لعلم أن الأحكام الفقهية مسائل كلية لا جزئية، فلا وجه لا دعاء تأثرها بالظروف والأحوال فضلاً عن ادعاء الحاجة إلى نسخها بالاجتهاد، وإنما الأحكام الجزئية هي أحكام القضاة في القضايا الجزئية؛ ولعلم كذلك أن (الأحكام) في كلمته جمع محلى باللام فيفيد العموم، فيكون حملها على بعض الأحكام تراجعاً عن نص المدعى ودلالته. على أن القول بنسخ حكم من أحكام الشرع بعد المصطفى صلى الله عليه وسلم مما لا يعلمه الدين الإسلامي، ولذلك ترى إجماع الأئمة خلفاً عن سلف على إكفار من يقول بذلك، كما في مراتب الإجماع لابن حزم وغيره

صلاح الدين شفيق

العدد 488 - بتاريخ: 09 - 11 - 1942

دفاع عن البلاغة

أسباب التنكر للبلاغة، البلاغة، الذوق، الأسلوب

السرعة، والصحافة، والتطفل، هي البلايا الثلاث التي تكابدها البلاغة في هذا العصر فالسرعة - وهي جناية اختراع الآلة على الناس - كانت جريرتها على الفكر بوجه أعم، أن استحال تقدير القيم التي يحتاج وزنها إلى الروية والتأمل، أو إلى الأناة والصبر، فظهر الخبيث في صورة الطيب، ودخل الرديء في حكم الجيد، وقيس كل عمل بمقياس السرعة لا بمقياس الجودة!

وكانت جريرتها على البلاغة بوجه أخص، أنها أصابت الأذهان فلم تملك أن تحيط بالأطراف، ولا أن تغوص إلى الأعماق، فجاء أكثر ما تنتج من الزبد الذي لا رجع منه ولا بقاء له.

وأصابت الإفهام فلم تصبر على معاناة الجد من بليغ الكلام، فكان أغلب ما تقرأ من الأدب الخفيف الذي لا غناء فيه ولا وزن له

وأصابت الأذواق فلم تستطيع أن تميز الفروق الدقيقة بين الطعوم المختلفة، فاختلط الحلو بالمر، والتبس الفج بالناضج. فالكاتب البليغ قد بعجله الحافز الملح عن تعهد كلامه فيأتي بالركيك التافه. والكلام البليغ قد يسرع فيه النظر فلا يفطن إلى عبقريات الفن في تصوره وتصويره فيذهب في ذمة الغث. وقد السرعة خطأ في موازين بعض النقاد فيحسبونها شرطاً في حسن الإنتاج. وربما عابوا الكاتب المرويبالإبطاء وغمزوه بالتجويد وسفهوا قول الحكيم القائل: (لا تطلب سرعة العمل واطلب تجويده، فإن الناس لا يسألون في كم فرغ، وإنما يسألون عن جودته وإتقانه).

والصحافة - وهي من فنون الأدب المستحدثة - كانت جريرتها على البلاغة أنها أوشكت أن تستبد بالمجال الحيوي للكتابة. وليس في هذا الأمر على ظاهره نكير ولا مؤاخذة، ولكن عمل الصحافة رواية الأخبار العالمية، وتسجيل الأحداث اليومية، ونشر الثقافة العامة؛ وهي في كل أولئك تخاطب الجمهور فلا مندوحة لها عن التبذل والتبسط والإسفاف والمط مراعاة للموضوعات التي تكتب فيها، وللطبقات التي تكتب لها، وللسرعة التي تعمل بها. ولو كان للصحافة كتابها وللتأليف كتابه لما لقيت البلاغة منها أذاه ولا مضرة؛ ولكن حالها

مع الكتاب كحال السينما مع المسرح. فهي أوفر في المال، وأقوى في السلطان، وأوسع في الانتشار، وأشمل في المعرفة، وأغنى في الوسائل، ولذلك غلبت الكتاب على أمراء القلم؛ فهم يعملون فيها على ما تقتضيه أحوالها من مجاوبة السرعة وتوخي السهولة وإيثار العامية. وللصحافة سبعة أبواب لا يدخل بلغاء الكتاب إلا من باب واحد.

أما سائر الأبواب فهي لأنماط من ذوي الثقافات المختلفة هيأتهم ملكاتهم ونزعاتهم ليكونوا جنوداً في جيش (صاحبة الجلالة)، فحملوا القلم لأنهم لا بد أن يكتبوا، ثم حملهم إدمان الكتابة ومواتاة النشر على أن يعالجوا الأدب الرفيع فقعد بأكثرهم وهن السليقة وضعف الاطلاع عن مجاراة الموهوبين من أهله؛ فسول لهم الغرور أن يخفضوا مستوى البلاغة، ويبتذلوا حرم الفن، ويوهموا الناس أن أدب الدهماء هو أدب المستقبل، لأن العصر عصر السرعة، ولأن الشأن شأن العامة، ولأن الديمقراطية تقضي باختيار لغة الشعب وإيثاره أدبه. وما داموا هم الكثرة وقراؤهم هم الكثرة؛ فإنهم بحكم الديمقراطية يملكون وحدهم حتى التشريع في الأدب: فينهجون القواعد، ويقررون الأساليب، ويعينون الكتاب ويوجهون الرأي

من أجل ذلك طغت العامية، وفشت الركاكة، وفسد الذوق، وأصبحت العناية بجمال الأسلوب تكلفاً في الأداء، والمحافظة على سر البلاغة إلى الوراء، ولم يبق للمخلصين للغة الوحي وأدب الرسالة إلا أن يكتبوا لأنفسهم ولمن يعصمهم الله من أعقاب هذا الجيل

على أن العامية الأدبية عرض من أعراض العامية الاجتماعية. فمتى برئ المجتمع من أمراض الضعة فجنح للقوة وطمح للكمال، ظهرت الأصالة في فكره، والمتانة في خلقه، والسلامة في ذوقه؛ وحينئذ يتكون الرأي الأدبي العام، وهو وحده الذي يراقب ويحاسب، ويؤيد ويعارض، فلا تجوز عليه دعوى، ولا ينفق فيه زيف، ولا يطفر به مئوف أما التطفل فقد رأيته ظاهر الأثر على موائد الصحافة! ولكن هناك ضرباً من التطفل المغرور يجوز أن نفرده بالذكر: ذلك هو تطفل فئة من أرباب المناصب لا يقدح في كفايتهم ألا يكونوا كتاباً ولا شعراء؛ ولكنهم يأبون إلا أن يضموا المجد من جميع حواشيه فيتكلفون ما ليس في طباعهم من صناعة البيان فيقمون في النقص وهم يريدون الكمال!

قد ينبغ أولئك السادة فيما يملك بالتحصيل والمزاولة، كالتعليم والتأليف والمحاماة والسياسة؛ ولكنهم أعجز من أن يخلقوا في رؤوسهم ملكة الفن بمجرد الإرادة أو الأمر أو الادعاء.

فإصرارهم على أن يعدوا في كبار الكتاب على ما فيهم من تخلف الطبع وخمود القريحة وضعف الأداة، دفعهم إلى مشايعة الجهلاء في تنقص البلاغة وخفض مستواها إلى الدرك الذي لا يعز مناله على القاعدة. وهذه المشايعة من قوم لهم في التوجيه الثقافي رأي مسموع وأثر ملحوظ أخطر على البلاغة من كل ماتعانيه في هذه المحنة لذلك كان من البر بالأدب والإخلاص للفن أن نتقدم إلى قرائنا بهذه الفصول.

(للكلام بقية)

احمد حسن الزيات

مسابقة الأدب العربي لطلبة السنة التوجيهية

حديث عيسى بن هشام

للدكتور زكي مبارك

الأسلوب - الفكاهات - الرحلة الثانية - الرحلة الفكرية - أسلوب وأسلوب - كلمة ختامية

الأسلوب

أشرنا من قبل إلى أن أسلوب المويلحي يغلب عليه السجع فلنقرر أنه لا يعفى نفسه من أثقال هذه الحلية إلا حين يخوض قي أحاديث يطلب فيها الإقناع لا الإمتاع. ومعنى هذا أن مقامات الكلام ترجع في جملتها إلى مقامين: مقام تخاطب فيه العقول، ومقام تناجى فيه القلوب. فالترسل الحر هو أسلوب الإقناع، والنثر الفني هو أسلوب الإمتاع، وبين هذين المقامين صلات دقيقة يعرفها جهابذة القلم البليغ

فهل التزم المويلحي هذه الخطة في جميع الأحوال؟

الظاهر انه لم يراعها كل المراعاة، فقد سجع في مواطن لا يجوز فيها السجع، وحار قلمه بين موجبات العقل، وموحيات الذوق، فلم يسلم في بعض الظروف من الإسفاف نص شوقي على سجع المويلحي حين رثاه فقال:

رُبَّ سجعٍ كمرقص الروض لمَّا ... يختلف لحنُهُ ولا إيقاعُهْ

أو كسجع الحمام لو فصلتْهُ ... وتأنتْ به ودقَّ اختراعُهْ

هو فيه بديع كل زمانٍ ... ما بديعُ الزمان ما أسجاعه؟
ومن الواضح أن شوقي يرثي، والرثاء يبيح التهويل، ولهذا جاز أن يكون سجع المويلحي أبرع من سجع بديع الزمان، مع أن الفرق بين فن المويلحي وفن البديع، كالفرق بين (عيسى بن هشام) الجديد، و (عيسى بن هشام) القديم؛ وسيظل بديع الزمان هو البديع، لأنه المبتكر الأول لهذا الفن الجميل، الفن الذي ينقد المجتمع عن طريق الأسمار والأحاديث، باللمحة البارعة والأسلوب الرشيق
المويلحي يتعثر في الأسجاع، ولكنه قد يبلغ الغاية في بعض الفقرات، كأن يقول على لسان المحامي وهو يخاطب موكلا رجاه أن يرجئ الأجر إلى أخر الشهر:
(أتظن أن هذه الوعود، تقوم لدينا مقام النقود، في بلد كثر فيه الإنفاق وزادت الضرورات، وقل فيه الربح كما قلت المروءات، وصار الدرهم أعز عند الأب من بنيه، وعند الابن من أبيه؟ وقد تعبت في القضية تعبين: باللسان وبالجنان، ولا أستريح منهما إلا بنقد الأصفر الرنان. فلا تجعل الخلاص من قضية بقضية، والفكاك من بلية ببلية، فذلك ما لا يأتيه العقلاء، ولا يرتضيه الأمراء)
وكأن يقول: إنه رأى في ساحة المحكمة: (وجوهاً مكفهرة، وألواناً مصفرة، وأنفاساً مقطوعة، وأكفاً مرفوعة، وباطلا يذكر، وحقاً ينكر، وشاكياً يتوعد، وجانياً يتودد، وشاهداً يتردد، وجندياً يتهدد، وحاجياً يستبد، ومحامياً يستعد، وأما تنوح، وطفلاً يصيح، وفتاة تتلهف، وشيخاً يتأفف)
وجملة القول أن الأسجاع الجيدة عند المويلحي كثيرة، أليس هو الذي يسجع فيقول في التبرم بالناس:
(إن سالمتهم حاربوك، وإن وادعتهم ناصبوك، وأن صادقتهم خانوك، وإن واثقتهم كادوك، وإذا خالطتهم لا تأمن الاعتداء، وإذا مازحتهم لا تعدم الافتراء، وإن طالبتهم بحق، فانك لا تسمع الصم الدعاء)
الفكاهات
المويلحي كثير التندر والدعاية، وهو ألطف ما يكون حين يسوق الفكاهة بطريق النقد الملفوف. . . أراد أن يعيب عدم استقرار محكمة الاستئناف في مكان فقال وهو ذاهب إليها مع الباشا: (ولعلنا نجدها بإذن الله في مكانها، فقد تعودت التنقل من مكان إلى مكان، ثم اقتربنا فوجدناها)
والكلمة الأخيرة من دقيق التنكيت. . . وقد عاش المويلحي إلى أن رأى محكمة الاستئناف قد استقرت في مكان!
وأراد أن يفصح عن جرأة (المحامي الشرعي) في ذلك الزمان فأدار الحديث على مثل هذه الصورة:
- علمنا أنك رجلٌ عدلٌ عفّ، فجئناك لقضية في وقت
- أتطلبون ريعه؟ أم تريدون بيعه؟
- سبحان الله! وهل تباع الأوقاف؟
- نعم، ويباع جبل قاف!
ثم يصير السجع نفسه فكاهة في هذا الموضع (تنحنح الشيخ وسعل، وبصق وتفل، وتسعط، ثم تمخط، واقترب منا ودنا، ثم قال لنا)
وأراد أن يصور بلاء الناس بطول الإجراءات في المحاكم فقال:
(نسأل الله أن ينقذنا مما أصابنا من حكم الدهر، وأن يعجل بانقضاء القضية قبل انقضاء العمر)
وهذه فكاهة مرة المذاق، فلعل إجراءات المحاكم المصرية أصبحت أقصر مما كانت في ذلك الزمان
المرحلة الثانية
وعد المويلحي في نهاية الرحلة الأولى بأنه سيقوم برحلة ثانية ليصور المجتمع في الأقطار الغربية، وقد انتظر القراء هذه الرحلة عشرين سنة، انتظروها من سنة 1907 إلى سنة 1937
فمتى قام المويلحي بالرحلة الثانية؟
حدثني الأديب إبراهيم المويلحي تلفونياً أن هذه الرحلة كانت سنة 1889، فعارضته في التاريخ، لأن معرض باريس لسنة 1889 هو المعرض الذي أقيم فيه برج أيفل أول

مرة، وفي الرحلة الثانية فقرات صريحة في أن المعرض الذي زاره المويلحي لم يكن ذلك المعرض، لأنه يتحدث عن (إيراد البرج في المعرض السابق) ولأنه يتحدث عما انتهى إليه أمر (المسيو أيفل) وقد اتهم بالسرقة والاختلاس وسجن في قضية (بناما) ولا يمكن أن يقع ذلك في سنة 1889

وبعد يومين تفضل الأديب إبراهيم المويلحي فاخبرني انه راجع ما عنده من دقائق فعرف أن الرحلة الثانية كانت في صيف سنة 1900 وأن أصولها أرسلت من باريس ونشرت في (مصباح الشرق) على فترات

وإذن يكون المويلحي قبر الرحلة الثانية سبعاً وعشرين سنة، فما سبب ذلك؟

لعل السبب يرجع إلى أن المويلحي كان يستصغر محصول الرحلة الثانية، ولعل كان يرجو أن تتاح فرصة يزور فيها أوربا زيارة الباحث المدقق، ليؤلف كتاباً في قوة كتابه الأول، ثم صنع الدهر ما صنع فصرفه عما يريد، ولم يبق إلا أن يقنع بالمحصول السابق من الرحلة الثانية، فطبعها قبل أن يموت بثلاث سنين

رحلة أمين فكري

والمؤكد عندي أن رحلة أمين باشا فكري كانت السبب في تردد المويلحي، فقد كان يحب أن يصل إلى دقائق تفوق ما احتوت عليه (الرحلة الفكرية) فما تلك الرحلة؟

الجمهور يجهل أن القاهر شهدت في سنة 1892 ظهور كتاب لم تعرف مثله اللغة العربية، وهو كتاب (السفر إلى المؤتمر) في صفحات بلغت 823 بالقطع الكبير. وفيه وصف للحيوية الصناعية في البلاد الأوربية، وصف لم يكتب مثله كاتب في الشرق الحديث. وقد كنت شرعت في كتابة بحث أصور به قيمة هذا الكتاب النفيس ثم انصرفت عنه لبعض الشؤون، ولعلي أرجع إليه بعد حين

نحن في صحبة كاتبين وصف أولها معرض باريس سنة 1888 ثم وصفه الثاني في سنة 1900، فما الفروق بين هذين الكاتبين؟

لا جدال في أن أسلوب المويلحي أروع وأرشق، ولا جدال في أن المويلحي مفطور على الحاسة الفنية؛ ولكن عند الباحث أمين فكري نزعة علمية قليلة الأمثال، فقد وصف المعرض وصفاً هو الغاية في تعقب الأصول والفروع من حيوات العلوم والفنون قضى الباحث أمين فكري تسعة أيام في زيارة المعرض، وهو في صحبة أبيه عبد الله باشا فكري، أحد أئمة الأدب في الجيل الماضي، ورئيس الوفد المصري إلى مؤتمر المستشرقين الذي عقد في بلاد السويد والنرويج سنة 1889

كان أمين فكري يسجل مشاهداته في كل يوم، وأي مشاهدات؟ كان يتعقب ما ترى عيناه بالبحث والفحص والتشريح ثم يسجل ما يراه بعبارات فصيحة بليغة أغناها الوضوح والتحديد عن التزويق والتنميق

إذا قال محمد المويلحي إن برج أيفل هو أرم ذات العماد، أخذ أمين فكري في سرد تاريخ البرج وتصميماته الهندسية، وانطلق فتحدث عن طبيعة الأرض القريبة من نهر السين، وطاف بشؤون علمية لا تخطر للمويلحي في بال

والحق أن أمين باشا فكري آية من آيات النبوغ المصري، وما كان بينه وبين أبيه يشابه ما كان بين المويلحي وأبيه، فشهرة عبد الله فكري طغت على منزلة أمين فكري، كما أن شهرة إبراهيم المويلحي طغت على منزلة محمد المويلحي وأمين فكري نفسه يحدثنا في المقدمة أن أباه عبد الله باشا فكري كان ينوي كتابة هذه الرحلة، وأنه ألمع إلى ذلك في خطاب أرسله من لوسرن إلى الوزير علي باشا مبارك، ثم دهمه المرض والموت، فكان مصير الكتاب إلى ابنه أمين.

أسلوب وأسلوب

في (السفر إلى المؤتمر) صحائف من إنشاء عبد الله فكري، وهي تشهد شهادة قاطعة بأن أسلوب الأب وأسلوب الابن يختلفان بعض الاختلاف

فمتى نصل إلى مثل هذا اليقين في التميز بين أسلوب محمد المويلحي أبيه إبراهيم؟

محمد المويلحي ترك (حديث عيسى بن هشام) وإبراهيم المويلحي ترك (حديث موسى بن عصام) وهو منشور بجريدة (مصباح الشرق) فإن سمح الوقت يوماً بالموازنة بين الحديثين فستعرف مدى الفرق بين الأسلوب.

إحدى الطرائف

من طريف ما لاحظت أن أسلوب عبد الله فكري تغلب عليه النزعة الأدبية، على حين تغلب النزعة العلمية على أسلوب ابنه أمين
ولا كذلك الحال بين المويلحي وأبيه، فالابن تغلب على أسلوبه النزعة الأدبية، أما الأب فتغلب على أسلوبه النزعة العلمية والظاهر أن الجيل الماضي في مصر يحتاج إلى دراسات، فهو الذي وضع الأساس لبناء الجيل الجديد، وكان فيما أرى على جانب من العافية، تصوره النكتة الآتية:
كان الوزير علي باشا مبارك رجلاً من أهل الجد الرزين، ومع هذا استطاع عبد الله باشا فكري أن يصف له ملاعب أوربا في خطاب يقول فيه:
(وكم رأينا في تلك البطاح، من صباح ملاح، كل خود رداح، شاكية السلاح، من الحاظ كالصفاح، مراض صحاح، وقدود كالرماح، دامية الجراح، فاتكة في الأرواح، وليس عليها لدى القانون فيما جرحت جناح، وكل ما أجترحت مباح، وهن منتشرات في تلك الجهات كعقد خانه السمط فانتثرت درره، وروض ألحت عليه الريح فتبدد زهره، فهن ظباء في هذه المراتع روائع، وأقمار من هذه المطالع طوالع، وأنوار في تلك المواضع سواطع، قد ربين في مهاد الدلال رواضع، وغذتهن بلبان الجمال لا الجمال المراضع، فبرزن كالحور، في غلائل نور، أو ورد جور، في زجاج بلور، تراهن بين الأشجار، فتراهن بعض الأزهار)
أيكتب هذا الكلام إلى وزير اسمه علي مبارك لا زكي مبارك؟
كان أسلافنا في عافية، وكانوا يرون التشبيب فنا من البيان، ولم يكن من العيب أن يوضع مثل هذا الخطاب في وثائق مجلس الوزراء. فعلى رجال الجيل الماضي ألف تحية وألف سلام!
كلمة ختامية
بهذا المقال الثالث نختم القول في توجيه الطلاب إلى فهم سريرة عيسى بن هشام، فقد أفصحنا عن أهم الدقائق من تلك السريرة، ورفعنا عن المؤلف بعض الآصار التي أثقله بها معاصروه وأزحنا الستار عن حقائق كانت مجهولة عند الكثير من أبناء هذا الجيل
وأنا وأرجو من ينظر في كتاب (حديث عيسى بن هشام) أن يتذكرانه كتب في عصر كانت لأبنائه عقيدة أدبية، فما كانوا يخطون حرفاً إلا بميزان، ولا كان الفتى منهم يتطاول إلى تسطير مقال إلا بعد أن يستوعب ما يصل إليه من أثار القدماء، ولا كان يتسامى إلى الأدب إلا من زود بمواهب تضمن له الخلود
وما ظنكم بجيل كان من أبنائه محمد عبده وسعد زغلول وتوفيق البكري واحمد تيمور وإبراهيم المويلحي ومحمود البارودي وعبد الله فكري وعلي يوسف وعبد العزيز جاويش؟
لا تنسوا أن الجيل الماضي كانت له عقيدة أدبية وعقيدة قومية. لا تنسوا أنه ترك أثاراً تستحق الدرس والاقتداء. لا تنسوا أنه لا يليق أن نكون أقل منهم حرصاً على التلحيق، ونحن نملك من الوسائل ما لم يكونوا يملكون
إن (حديث عيسى بن هشام) صورة من صور القلق الاجتماعي، وهو يشهد أن مؤلفه كان يتجه إلى خلق جيل جديد يسلم من أوضار الجيل العتيق إن وقعت في الكتاب سجعة لا ترضيكم فلا تبتسموا ابتسام السخرية، فهي الدليل على ابتلاء المؤلف بمحنة الفنون
على أني أحب أن تكون لكم عيوب المويلحي، وهي عيوب رجال، وأكره أن تكون لكم محاسن أهل الغفلة، وهي محاسن أطفال
كونوا مبدعين في جميع الميادين، وكونوا أنتم أنتم، ولتكن صورة الوجه هي التي تميزكم بعد صورة الأسلوب.
زكي مبارك
عودة إلى تحفة الأستاذ علي طه
أرواح وأشباح
للأستاذ محمد توحيد السلحدار بك
(تتمة)
ألم يتضح بعد أن كلام الشاعر في الفنان وعلاقته بالمرآة ليس جماع ملحمته، على ما

قد يذهب إليه وهم واهم؟ أليس ذلك الكلام سبيلاً إلى وصف الكفاح بين الروح والجسد بذكر حقائق بشرية عامة هي المادة التي صدر عنها خيال الشاعر؟ ألحق أن شعره تحفة من الأدب الإنساني الصادق بعينه. ويجعل بالقارئ وهو يطالع مثل هذه التحفة ألا يميل إلى الكسل كي لا يمنعه من البحث فيها عن المميزات التي تدخلها في نوعها من الأدب. فإن هو أدرك هذه المميزات رأى أن التحفة فتحت باباً جديداً واسعاً في الأدب العربي بالاقتباس من أنواع الأدب الأجنبي، وعرف قدرها خصوصاً من هذا الوجه فقد توافرت فيها مميزات النوع المعروف عند الغربيين باسم ملحمة: شعر في الإنسانية يعبر عن وجدانيات وفكر معروفة في المأثور من أساطيرها الشرقية والغربية، وفي المعهود من طبعها وعاداتها وخلالها وعقائدها، وفي علمها وأدبها. وهو شعر رفيع صادر عن إيمان من الشاعر برأيه، ويشف عن إيمانه لهجته وبلاغته فيما قص؛ وقد مزج الحقيقة والخيال في قصصه، وبعث فيه الحركة والحياة بفنه؛ وطالت قصيدته حتى بلغت أربعمائة بيت ونيفاً. فهي ملحمة ليست يونانية موقوفة على تمثيل شخصيات بعينها من جيل إغريقي معين، ولا مترجمة، ولا فرنسية، بل هي إنسانية مبتكرة في الأدب العربي وإذا كانت العزة القومية تغرى بأن نسر لمثل هذا التجديد فإنما وجه السرور أننا نأخذ من الأجنبي ما يلائمنا ويندمج في آدابنا وأساليبنا، كما أخذ أسلافنا وكما هو منهم وأفلح، وأنها جاءت ملحمة عربية من أدبنا في القرن الرابع عشر الهجري، ومعنى ذلك أننا ما كنا لننفر من أدب بني جنسنا، بل إننا نرجو له أن يتلخص كل التخلص من الجمود ليتصل كمال الاتصال بحركة الحياة الإنسانية الحاضرة فيعود إلى ما كان عليه من خصب في أيامه الذهبية

وهذه الملحمة أدب عربي لا يقاس على كل مقاييس الآداب الأجنبية حتى يقال، مثلا - من أجل بيت أو بيتين - هذا شعر رومانتيكي، ولم يكن للأدب العربي عصر رومانتيكي بمدلول هذه الكلمة الأجنبية، أو حتى يقال إن نظرة الشاعر إلى الفن والحياة في ملحمة نظرة رومانيتكية جعلت من الفنان (صدى عابراً. . . ورحاً مجنحة الخاطر) في حين أن نظرته إنسانية اجتماعية لا فردية، وعقلية لا وجدانية، وأن عرض هذه النظرة بشعر مزاجه الخيال والوجدانيات وبلاغة هزة الإلهام، وكان فيه ما في طبائع البشر التي وصفها من انفعالية وشهوانية

ألا أن هذه التحفة شعر يملا النفس جلاله، ويثير الفكر في موضوعه الذي تترامى آفاقه كلما حاول النظر أن يتتبعها؛ وإن صاحب التحفة لشاعر شاعر، أسلوبه ساحر، وهو قادر حتى على تشريف كلام يعد خارج شعره من السهل غير الممتنع، كالبيت الثالث من قوله:

وكنت فتى ساذجاً لا أرى ... سوى دمية صُوِّرت من نقاء
أنيل الثرى قدمَي عابر ... يعيش بأحلامه في السماء
فأصبحت شيئاً ككل الرجال ... وأصبحت شيئاً ككل النساء

أليس في ثالث هذه الأبيات كل حسرة الفنان المؤلمة على روحه الخائبة، وكل لهفة على ما استحال من نظرته العفيفة إلى الجمال يوم كان فتى ساذجاً لا يرى مكر الغريزة به لشغله عنها بخواطر وخوالجه السامية، ومثله العليا في الحياة؟ أليس ما أفعم قلبه من أسف مصوباً كله في قوله (شيئاً) للتحقير؟ وقد قوى التنكير ما حملت كلمته من معنى التحقير في موضعها من سياق البيت تلو البيتين البليغين الأولين، وانتقل هذا المعنى بأداة التشبيه إلى كل الرجال. ثم أليس شجوه لتدهور المرأة معه، أو تدهوره معها، مركزاً في الشطرة الثانية من البيت؟ ألم يصبح كلامه من السهل الممتنع؟ الحق أن ما فيه من مزية شعرية، وروعة معنى، وسحر بيان، هو شيء بليغ يعلى النفس ويعلو على كل تقدير. وهو شيء ليس يستطيع إنكاره سوى الذين لا يعرفون كنه الشعر فيظنون أن الشعر هو ما تزدان به ماهيته الخافية عنهم من التشبيه الجميل، والمجاز البارع، والكناية البديعة؛ وإنما أولئك زينة الأبواب، وقد يكون لؤلؤها بهرجا، وزواقها خادعا، فتكون معارض زائفة تنقص قيمة الشعر أو لا شعر تحتها.

وهل من قول في أسلوب علي طه بعد أن كتب إليه خليل بك مطران: (جئت بالطريف من

المعنى، في الصريح الشائق من المبنى. . . إن في مطالعة أرواح وأشباح لمتعة فكري ولذة فنية)؛ وبعد أن كتب صاحب الرسالة: (هي في الصياغة مشرقة البيان، منتقاة اللفظ. . . هزت نفسي هزاً شديداً، فكنت أطيل الوقوف عند كل رباعية، أديم النظر في كل بيت، أتذوق جمال صياغته برفق، وأستجلي سر بلاغته في أناة) هزت نفسه، فأدام النظر في كل بيت ليتذوق ويستجلي. ذلك لأن اللذة التي يجدها الذوق يكشف التحليل سرها فيضاعفها في النفس

فأن الذوق ملكة مركبة من الشعور، أي الانفعال، لأن المحاسن والعيوب تؤثر فيها بالطبع؛ ومن الذكاء، لأنها تجلل تأثرها باحثة عن أسباب الاستحسان وأسباب الاستهجان، وتنظر فيها تجد من دواعي الإعجاب ودواعي الإنكار، وتوازن بينها. وأثر الانفعال، أي وقع الشيء، هو الحاكم الطبيعي أول وهلة، أما النظر فهو الحكم بعد ذلك. والمعتاد من هذا الحكم إذا اقترن عند صاحبه الانفعال السريع بالعقل الثاقب النير، ألا يجيء قضاؤه إلا مؤيداً لقضاء الحاكم الأول. ولذلك كتب الأستاذ الزيات، بعد إدامة النظر: (إن أسلوب هذه الملحمة ليس بدعاً من أسلوب علي طه، فإن الصفات الغالبة على أسلوبه كله، هي الوضوح والأناقة، والسهولة والسلامة)

أما بعد، فقد تبين من مزايا (أرواح وأشباح) أن إمعان النظر في هذا الصنيع - كما هو، يزيد الناظر إعجاباً به في ذاته، وإعجابا على إعجاب بطبعته. وما أجمل ائتلاف الظرف والمظروف في مثل هذه التحفة!

فإن للمؤلفات النفيسة عند الغربيين في هذا العصر طبعات فاخرة، محلاة بصور يصنعها أبرع الفنانين؛ وهم في ذلك يتبعون عادة أسلافهم في كتبهم الخطية. وقديماً كان هذا هو الشأن عند الشرقيين من فرس وعرب وغيرهم؛ وزين السلف الصالح مصحفنا الشريف - على جلال القران الكريم - بأجمل الخطوط والنقوش العربية، وموهوه بمختلف الألوان والمياه الفضية والذهبية، إجلالاً للكتاب المجيد. ثم ضاع منا العلم وضاعت الفنون والأذواق؛ ثم ظهرت عندنا تلك المطبوعات القبيحة التي تعمى الأبصار. ومنذ شرعت مصر تنهض أخذنا نجود الطبع، وونحلي المطبوعات أحياناً. وفي ذلك وقاية للنظر، وتهذيب للذوق، وتحبيب في الإتقان، وخدمة للطابع وللفنان. لكننا ما زلنا في المرحلة

الأولى على هذا الطريق

من أجل ذلك، لا من أجل ما يعنى التلميح السخيف، لم يقنع صاحب هذه التحفة بنفاستها الأدبية، بل زين طبعتها بصور بارعة من ريشة الفنان محمد سليم شوقي، تروق في النواظر، وكأنها في البصائر عناوين فنية لمقاصد الشاعر وأغراضه في شعره.

وقد اختار لكتابه أحسن طبع بحبور مختلفة ألوانها، مؤتلفة كألوان الصور؛ بأحرف جميلة بينة في أسطر متباعدة بين حواش عريضة؛ وتجود من أصناف للكتابة وللغلاف المحلى بصورة لآخر مشاهد القصص

وليس يجمع أجمل الصفات الأدبية والمادية في وحدة محكمة البناء، متقنة التأليف، عظيمة الإشراق، فتانة الرونق، إلا روح فنان وذوق ممتاز.

محمد توحيد السلحدار

عقيدة البعث

للأستاذ محمد عرفه

عضو جماعة كبار العلماء

لا أعلم شيئاً أعظم بركة على البشر من عقيدة البعث، وقيام الأموات من القبور، ومجازاة المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته

ولا أعلم شيئاً أعظم شؤماً على البشر من تحطم هذه العقيدة، واعتقاد الناس أنهم لا يجزون بخير يعلمونه، ولا بشر يقترفونه

ولا أعلم زماناً كان الناس فيه أحوج إلى اعتقاد البعث من هذا الزمان.

إن روح الشر التي تسيطر على البشر الآن، ويشكو منها القادة والمصلحون هي من ضياع هذه العقيدة

خوت القلوب من عقيدة البعث والجزاء، فقادت الناس شهواتهم، وضاعت الشكائم التي كانت تكفهم، وأصبح المرء يرى أن لا حياة له إلا هذه الحياة، وأنه إن لم يمتع

نفسه بكل الشهوات خسر خسراناً مبيناً، فاندفع يحصل هذه الشهوات من كل سبيل.
فقد الإيمان بجزاء الأعمال فاستوت عنده الحسنة والسيئة، فاندفع إلى السيئات يقترفها، وكأنما يأتي حسنات.
تنبهت غرائزه الدنيئة، وفتحت فاها فلم يكفها شيء تلقمه؛ واختفت غرائزه العلوية، وأصبحت الحدود التي تفصل بينه وبين الحيوان الأعجم دقيقة وتكاد تمحي.
أقفر المستقبل من الجنات التي أعدت له جزاء فعل الخير فلم تتحرك فيه إرادة الخير، وأقفر أيضاً من الجحيم الذي كان ينتظره جزاء فعل الشر فلم ينزجر عن شر، فهتك الحرمات، واستباح المعاصي، وسار في هذه الحياة لا دين يردعه، ولا فضيلة تزجره.
كانت مقاييس الخير والشر عنده رضا الله وغضبه، ونفع الناس وضرهم، فأصبحت مقاييس الخير والشر إتباع شهواته وإجاعتها، ورضا ميوله وغضبها.
كان الفقير والمريض والمبتلى يجد كل منهم في هذه الدنيا سلواه لأنه يعلم أن وراء هذا الفقر في الدنيا غنى الآخرة، ووراء هذا المرض صحة، ووراء هذه البلوى عافية، فكان في وسط هذه الشدائد والآلام راضي النفس، باسم الأمل، راجي الرحمة، فأوصدوا هذه البواب في وجهه، فلا أمل، ولا رحمة، ولا رضى، ولا رجاء.
كان الغنى يحسن إلى البائس الفقير لأنه يعلم أن ما يدفعه الآن سيأخذه أضعافاً مضاعفة، وسيجزى بذلك النعيم المقيم، فأوصدوا باب الجزاء في وجهه، وأوصدوا بإيصاده باب الإحسان
كان يعمر قلبه الله والخير والفضيلة والعدل، ويخيفه الشيطان والشر والرذيلة والظلم، فشك في ذلك وأصبح يتساءل ما الله؟ وما الشيطان؟ ما الخير؟ وما الشر؟ وما الفضيلة والرذيلة؟ وما العدل وما الظلم؟ هذه كلها من أوهام الماضي، وخرافات الأجيال
أعلم أن الذي حول العالم إلى هذه الحال القلقة، وورطه في هذا الجحيم هو اندفاع فلاسفة القرن التاسع عشر والقرن العشرين في مقاومة الدين ونقصه - كان هؤلاء الفلاسفة يجهلون قيمة الدين في حياة الشعوب والأفراد، وكانوا يرونه يعيش على هامش الحياة، بل ربما رأوه كلا عليها، فاندفعوا يقاومونه وينقضونه حجراً بعد حجر، ويشككون في مبادئه السامية، فضعفت قيمة الدين في النفوس بما ألقوا من شبهات وما أثاروا حوله من استهزاء، ولم يعلموا أنهم بذلك يفتحون باب المقبرة للعالم، وينقضون أخلاقه العلوية السامية.
أرجعوا إلى الناس إيمانهم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجزاء بالأعمال ترجع إليهم عفتهم وطهارتهم وصيانتهم.
أرجعوا إلى الناس إيمانهم ترجع إليهم أمانتهم ووفاؤهم وعدالتهم.
أرجعوا إلى الناس إيمانهم يرجع إليهم أملهم الضائع، وأمانيهم المنشودة، ومستقبلهم الزاهر، وعزاؤهم على ما يلاقون من آلام الحياة.
أرجعوا إلى الناس إيمانهم ترجع إلى الأرض الرحمة، وإلى البشر العدل، ويهبط على الكون السلام.
محمد عرفه
في فن الحرب
من الخنادق إلى حرب الحركة
للأستاذ (ذ. ص)
قال برناردشو:
إن صنعة الحرب تنحصر في الهجوم بقسوة المستضعف على من هو أقل منك عدداً) وعدة، وفي التهرب من لقاء الند. والسر في النجاح الحربي هو أن تتحايل على الخصم: تنصب له الفخاخ وتمد له الأحابيل؛ فإذا تعثر أو كبا، انقضضت عليه بلا شفقة (!انقضاض الغادر. ولكن إياك إياك من مجابهته وهو منتصب على قدم الاستعداد كلمات لاذعة ساخرة. . . ولكنها من صلب الحقيقة. القائد الناجح هو ذلك الذي يخادع ثم يقاتل، ويراوغ ويخاتل ثم ينقص بتلك الأساليب الملتوية، والحيل الماكرة، والطرق المتعرجة المنثنية، حيث الدهاء والفطنة متآلفان، والخبث والذكاء متعاونان ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان، وانتقل ذلك الفن العريق من أفقه الشاسع

الفسيح، أو قل من جحيمه العميق، إلى حيز ضيق محدود: فالتجنيد الإجباري قد أعطى الدول المقدرة على تغطية كل شبر من أراضيها المتاخمة لحدود الأعداء، فأصبحت الجيوش متجابهة، ولزم عليها صراع الخصم صراع الند للند، والقريع للقريع، كما حدث في الميدان الغربي أثناء الحرب الماضية.

تضاءل مجال مناورات الاستراتيك، ولم يجد القواد فرصة للالتفاف حول الأجناب، وليس هناك أجناب، وحاروا في كيفية الإغارة على المؤخرات، دون الاضطرار إلى اختراق الواجهات، بل وكيف يكون الاختراق وقد أعطت الأسلحة الآلية التفوق المطلق لمواقع الدفاع؟

إن الحرب بأساليبها وخططها ورجالها وعدتها ترتكز على ركنين أساسيين: قوة النيران، وسرعة الحركة. وما الهجوم إلا الحركة صوب العدو، وما الدفاع إلا محاولة وقف تلك الحركة بالنيران المحكمة التصويب. وهذه الأخيرة هي التي كانت أسبق إلى التحرر من قيود الطاقة البشرية، حين تحولت إلى قوى الطبيعة تستمد منها القدرة على الفتك، فلم تعد السواعد هي التي تلوح بالرماح أو تطعن بالسيوف، بل أصبحت المفرقعات هي قوتها

الدافعة، بل وزادت على ذلك وأدت إلى اختراع السلاح الآلي السريع الطلقات الذي طفر بمقدرة الدفاع إلى الأمام طفرات هائلة. فمنذ قرن مضى وقف ولنجتون أمام وترلو يصد هجمات نابليون العنيفة، وقد رص رجاله رصا، وتعلق مصير أوربا بمقدرته على وقف جيوش الإمبراطور، حتى يلحق به بلوخر، لحظات معدودات أطلقت خلالها الكتائب البريطانية النيران بمعدل ألفي رصاصة في الدقيقة الواحدة لكل كتيبة (أورطه)، ولو كان الزمان انتقل فجأة بولنجتون إلى عهد السلاح الآلي، لأمكنه استبدال كل كتيبة من كتائبه برجالها وبنادقها وقائدها وضباطها بثلاثة جنود خلف ثلاثة رشاشات، ليحصد نابليون حصداً ويشتته تشتيتاً

هذا في حين أن الهجوم ظليعتمد على الطاقتين: البشرية والحيوانية. وكانت تعبئة الجيوش تتم حقيقة بقوة البخار على خطوط الحديد، ولكنه أثناء تلك اللحظات الحاسمة التي ترفرف على الميدان خلال القتال، ظلت الحركة هي هي كما كانت أيام هنيبال: أدواتها أقدم بني الإنسان على الدوام، تعاونها ظهور الجياد في بعض الأحيان زادت إذن قوة الدفاع أضعاف الأضعاف، فكانت النتيجة الحتمية شل كل هجوم، وتثبيت الخطوط، وتحويل الحروب من ميدان البراعة والفن، إلى التطاحن المنهك الممل، والحصر الاقتصادي الطويل

لم تعد المعركة موضع حسم النزاع ولا الجنود هي العامل الفعال، بل انتقل الزمام إلى مقدرة المدنيين على الاحتمال ومهارة ربات المنازل في الاقتصاد من مستلزمات الحياة - كان سيأتي الوقت الذي يحل فيه التدبير المنزلي محل التدريب العسكري، وتكتفي الدول بخطوط (ماجينوية) أو (سجفريدية) مجهزة بالمقاعد الوثيرة ولوحات التليفزيون، يضطجع بداخلها الجندي في دعة وتراخ، فإذا لمع مصباح من المصابيح وجه الرجل عينيه إلى شاشة مخصوصة، ثم ضغط على زر معلوم، فتنطلق من أعلى الحصن عدة طلقات، يكون فيها إسكات المهاجمين وعودة المدافعين إلى النوم الهنيء والسبات العميق؟

ذاك ما تخيلته بعض العقول العسكرية وخاصة الفرنسية منها فأقامت خط ماجينو، ولكن هناك آخرون كان في التفكير مذهب جد مختلف، فقد احتفظوا في ذاكرتهم ببعض تفاصيل الحرب الماضية، من تلك التي كان لها تأثيرات شديدة، ولو أنها لم تكن نسبياً إلا نتائج

محدودة لمجهود محدود، حده أول مرة قلة الأدوات وصغر المكان، وفي الأخرى تخلف الزمان عن التفتح لاستثمار عبقرية ظهرت قبل الأوان

أول هذين الحدثين استعمال الطاقة الميكانيكية في ميدان المعركة، عند ما هجم البريطانيون في نوفمبر 1917 ببضع عشرة دبابة، فانكسر الخط الألماني؛ دهشة الإنجليز أنقسم أنفسهم وعدم وجود الاحتياطي الكافي عاقاهم عن استغلال ذلك النجاح المباغت

وثانيهما تفتحت عنه عبقرية لودندرف من طرائق للهجوم جديدة - وهو من أبناء المدرسة الألمانية المتشبعة بروح الهجوم - والهجوم الناجح يتطلب المناورة والالتفاف

وكما ذكرنا آنفا: لم يكن هناك أجناب، فما العمل إذن؟ أيستسلم لودندرف ويرضى بالحال؟ كلا فهذا من المحال. إنه يريد الهجوم، يريد إحراز نتيجة إيجابية بأي ثمن كان، إذن. . . فلتخلق لجيوش الأعداء أجناب!. . . يبتكر لودندرف وينفذ نظريته الجديدة: نظرية التسلل؛ وهي إرسال بعض الجنود يتسللون مواطن الضعف في خطوط الأعداء حتى إذا وجدوها تسللوا خلالها وأحدثوا بها ثغرة أو ثغرات، فيها يجري الحشد الجديد، ومنها يكون الالتفاف والتطويق والهجوم وحسم النزاع

صادف لودندرف بعض النجاح، ولكن حركات الجنود في الميدان بطيئة، فيتنبه لها الدفاع قبل الاستفحال؛ ويسارع إليها بالنيران يصلها وبالفتك الذريع يرميها، فتنبطح للتستر وتعود إلى الثبات، أو ربما تذعر وتولى، فتكون الهزيمة والفرار ويجلس القائد الألماني بعد الحرب بسنين، وفي قلبه حسرة وبقلمه رعشة، ويقرر حزيناً كئيبا: (إن مناوراتي الأستراتيكية خذلتها نقائض التكتيك)

ولكن نظرياته لا تنسى ولا تزول، بل تنزوي حية في بعض العقول، حتى يخلق لها الجو الملائم فتعود إلى الظهور؛ وتنشر هنا وهناك بعض المؤلفات تهيئ لها الجو، إن عفواً وأن قصداً، أهمها (نحو الجيوش المحترفة) للجنرال ديجول عام 1934، ثم (حرب الدبابات) للجنرال إيمنزبرج النمسوي. وأخيراً كتاب جودريان الفذ: (حذار!. . . إنها الدراعات) عام 1938

تنبهت القيادة الألمانية لمميزات الدبابات، ورأت أنها هي، وهي وحدها، الكفيلة بمضاعفة سرعة الجيوش في ميادين القتال، بل وإلى جعلها قادرة على إدماج الضرب مع الحركة،

فمن قبل كان الجندي المهاجم يقف عن الحركة ليطلق النيران، ثم يكف عن إطلاقها إذ عاد إلى الحركة، وهذا مضيعة للوقت وأي مضيعة، وإعاقة للتقدم وأي إعاقة! وهكذا قدر للهجوم أن يعود إلى عرشه المفقود، فينقلب ثبات المدافعين إلى جمود الحائرين، ثم إلى خنوع المستسلمين.

(ذ. ص)

مشاركة الأدب الإنجليزي
في الدراسات العربية
نقل اعن (برنارد لويس)
للأستاذ عبد الوهاب الأمين

القرن التاسع عشر وما بعده - 4

لقد درسنا حتى الآن حياة رجال ذوي شخصيات أكاديمية، فلنقف قليلاً لننظر في حياة ثلاثة من رجال الإنجليز الذين كان اهتمامهم باللغة العربية وببلاد العرب ينبع من معين أخر، والذين يختلف عملهم الذي ملأ حياتهم كلها، عن عمل أولئك الذين سبق أن درسناهم

وأول هؤلاء وأشهرهم هو (سررجارد برتون) (1821 - 1892) فبالرغم من أنه بدأ دراسته للغة العربية مبكراً وهو في أكسفورد فانه ترك الجامعة قبل أن يتمها، وذهب إلى الهند لكي يعمل في الجيش البريطاني. وعاش هناك بضع سنين، قضى أكثرها في المناطق الإسلامية، ودرس اللغتين العربية والفارسية، واللغات الإسلامية الأخرى على أيدي مدرسين من المسلمين، وعند عودته إلى إنجلترا نشر أربعة كتب عن الهند وفي سنة 1853 زار مصر زيارته الأولى، وقام برحلة على ظهور الجمال من القاهرة إلى السويس. وبعد سفر ملئ بالحوادث غادر ذلك الميناء قاصداً ينبع في باخرة حجاج؛ وتغلغل في الحجاز قاصداً زيارة المدينة ومكة، ثم عاد إلى إنجلترا عن طريق جدة ومصر. ونشر بعد عودته وصفاً لرحلاته هذه في ثلاثة مجلدات طبعت عدة طبعات، ولا تزال تعتبر مرجعاً عن البلاد التي وصفها. ثم أعقب ذلك عدة سنين من أسفار متعاقبة وفي إحدى المرات قام برحلة استكشاف في المناطق المتوحشة من شرقي أفريقيا والحبشة، متنكراً في زي تاجر عربي. وقد عاد بمعلومات ثمينة عن المناطق التي تكاد تكون مجهولة. وفيها تلا ذلك من السنين ساح في وسط وغرب أفريقيا، والأقسام المغمورة من الأمريكتين. ونراه في سنة 1855 في الفرم يخدم مع القوات البريطانية. وفي خلال المدة ما بين سنة 1869 و1871 كان في دمشق وساح في

سورية ومعه زوجته و (إدوارد هنري بالمر) ونشر هو وزوجته وصفاً لتلك البلاد، وعاد بعد سنوات إلى مصر وأشرف
على أعمال جيولوجية كانت قائمة في مناطق من البلاد كانت في ذلك الحين أبعد أقسامها عن المدينة
وعلى هذا فقد كانت حياته كلها مغامرة وخطراً متصلاً، ذهب أغلبها في السفر والسياحة في أقطار الأرض المتباعدة، ومع كل ذلك فقد وجد من وقته متسعاً ينشر فيه عدة كتب تكلمنا عن بعضها، ويضم الباقي ترجمة كاملة لكتاب (آلف ليلة وليلة) وهي ترجمة فريدة بين الترجمات الأوربية بالنظر لتمسكها المخلص بالنص الأصلي: ذلك التمسك الذي أثار فضيحة ضئيلة بين معاصريه الشديدي التزمت
ومن بين الرحالين الإنجليز المشهورين في الشرق الأوسط (ولفريد سكادن بلنت) (1840 - 1922) وقد بدأ حياته بداية دبلوماسية، ومع ذلك فقد أخذ اهتمامه يطرد وينمو بقضايا الشعوب المظلومة في العالم، وكرس أخر أيامه للمطالبة بحقوقها. وكان اهتمامه منصرفاً بصورة خاصة إلى الهند وأيرلندة ومصر. وكان من كبار السائحين وزار أقطاراً عديدة. فقام - بصحبة زوجته - بزيارة البلاد العربية في الشرق الأدنى وفي شمالي أفريقيا. وفي سنة 1878 زار نجداً حيث استقبله وزوجته أمير حائل استقبالاً حسناً، وقدم لهما بعض الخيول المنتقاة، وقام بإبلاغهما مخفورين إلى بغداد. وقد اتصل في خلال زياراته لمصر والهند بالزعماء الوطنيين ويعرفه كل من جمال الدين الأفغاني وعرابي باشا معرفة تامة. وقد نشر عدة كتب في تأييد القضية المصرية. وفي سنة 1881 استقر في دار له قرب القاهرة حيث عاش عيشة المصريين: يرتدي الملابس المصرية ويتكلم اللغة العربية وكانت زوجته (الليدي آن بلنت) عالمة باللغة العربية بالإضافة إلى خبرتها بالفروسية والأسفار، تشتمل كتبها المطبوعة على كتاب عن العراق وآخر عن نجد، وترجمة للمعلقات نظمها زوجها بالإنكليزية شعراً.
وهناك رحالة ثالث هو (جايس دوتي) (1843 - 1926) الذي يذكر بكتابه الخالد عن جزيرة العرب. فقد قام - بعد تحضير لمدة سنة كاملة في دمشق بدراسة متسعة للغة العربية - برحلة استكشافية في قلب بلاد العرب. وعلى عكس ما قام به من سبقه من الرحالين، فإنه كره أن يخفى قوميته ودينه، فساح في كل مكان كإنجليزي مسيحي ولم يقلل هذا الإصرار من جانبه من أخطار رحلاته. وزاد كتابه الذي نشر في إنجلترا بعد عودته في
سنة 1878في إنماء معلوماتنا عن بلاد العرب. ويحتوي سجل أسفاره على ثروة من المعلومات عن جغرافية تلك البلاد وطبيعة أرضها، كان أغلبها غير معروف قبل ذلك. وقد أعيد طبع كتابه قبل حوالي العشرين عاماً وكتب له (لورنس) مقدمة
ولنعد الآن إلى علماء العربية في الجامعات. فقد أظهرت السنين الأولى من القرن العشرين أن مستوى الدراسات العربية لم يكن بأية حال أقل منه في أعظم أيام القرن التاسع عشر، فقد أنشئت الدوائر العربية في الجامعات الاسكتلندية والجامعات الفرعية. وأنشأت جامعة لندن في الحرب الماضية كلية جديدة مقتصرة على العلوم الشرقية هي (معهد الدراسات الشرقية).
أما العلماء الذين سنتطرق إليهم الآن، فهم من الجدة بحيث يذكرهم الطلاب والزملاء بعطف في إنجلترا والشرق. فقد كان السرتوماس أرنولد الذي توفي في سنة 1930، أول من شغل كرسي الدراسات العربية والإسلامية في معهد الدراسات الشرقية في لندن. وقد تثقف في اكسفورد، وأنفق عدة سنين في الهند أستاذا للفلسفة في الكلية الإسلامية في عليكرة. واشهر مؤلفاته هو (تعاليم الإسلام): وهو وصف لامتداد العقيدة الإسلامية أكسبه في التو منزلة ملحوظة، وترجم إلى اللغتين: التركية والأوربية. وفي كتابه الآخر (الخلافة) تعقب تاريخ هذا النظام، وناقشه من وجهتي النظر الفلسفية والفقهية. ونشر بالإضافة إلى ذلك عدة دراسات قيمة عن الرسم والتصوير الإسلاميين: ذلك الموضوع الذي كرس له عدة سنين من حياته. وذهب في سنة1930 إلى القاهرة فتوفي هناك على الأثر
وهناك مستشرق آخر ذو مكانه هو (لي سترانج) الذي توفي في سنة 1934، ويمكن أن يكون القول الآتي له مفتاحاً لآثاره: (إذا كان المطلوب جعل تاريخ الإسلام شيقاً، وإذا كان المقصود في الحقيقة فهمه على الوجه الصحيح، فمن الواجب إعداد

الجغرافيا التاريخية للعصور الوسطى إعداداً دقيقا). وقد كرس (لي سترانج) افضل سني عمره لدراسة الأدب العربي والفارسي الخاص بالجغرافيا. وتعتبر كتبه التالية: (بغداد في عهد الخلافة العباسية) و (فلسطين تحت حكم المسلمين) و (أراضي الخلافة الشرقية) خيرة الكتب في هذه الموضوعات. ونشر أيضا عدداً من النصوص الجغرافية، وكثيراً من الدراسات القصيرة. ومنذ سنة 1912 قد عمى تقريباً. غير أن نقصا خطيرا كهذه في كيانه لم يعقه عن الاستمرار في عمله

ومات عالم آخر في العربية مشهور في السنة التي توفي فيها (لي سترانج) هو (أ. أبيغان) تلميذ (وليم رايت) وكان أكبر همه منصباً على الشعر العربي القديم. وقد نشر نقائض جرير والفرزدق على عهدته. والنادرة التالية تعطى فكرة عن دقته العظيمة: فقد روى زميله (ا. ج. براون) العالم المعروف بالفارسية أن بيغان زاره يوماً، وكان شديد الحزن حتى لقد خيل له أن كارثة حاقت به، ولكن حقيقة ما كان قد وقع هو أن (بيغان) اكتشف خللاً في أحد الأبيات في طبعته للنقائض!

ولا يتسع المجال للكلام عن كثيرين من العلماء في هذا العهد كليال محرر (المفضليات) و (لين - بول) مؤلف عدة من الكتب عن تاريخ الإسلام، وعن المسكوكات، و (امبروز) محرر عدد كبير من النصوص العربية التاريخية المهمة وكثير غيرهم. غير أن هناك عالماً واحداً يستحق أكثر من الذكر العارض هو (د. س. مارجليوث) الذي كان أستاذ اللغة العربية في اكسفورد عدة سنين، والذي اعتبر الشخصية الأولى بين علماء العربية من الإنجليز مدة طويلة من الزمن؛ وكان عضواً في المجمع العلمي العربي في دمشق. بالرغم من أنه نشر عدة دراسات باللغة الإنجليزية ذات قيمة عن التاريخ الإسلامي وعن الدين الإسلامي فأنه سيذكر بالخير لطبعاته العديدة وترجماته لأمهات الأدب العربي، وربما كان خير أولئك طبعته الفائقة لمعجم الأدباء لياقوت. وقد نشر أيضاً رسائل أبي العلاء، ومحاضرات التنوخي ومختصر ابن مسكوبة

أما أولئك الذين لا يزالون بين ظهرانينا فلن نتكلم عنهم، لأن الكلام سابق لأوانه. وأعمال علماء كنكلسون وجب وستورى وكثيرين غيرهم ممن يخرجون آثاراً مهمة لن يبت فيها من وجهة النقد إلا الأجيال المقبلة. وفي خلال ذلك يمكن القطع بالقول واثقين أن سيرة الدراسات العربية في إنجلترا - التي سبق أن تكلمنا عن تطورها في خلال العصور السابقة - لا تزال قوية الحيوية. ولعلها تستمر في الازدهار

عبد الوهاب الآمين

مرسلات مع الريح

ارسطوقراطية الوضاعة

للأستاذ إسماعيل مظهر

قال أرسطوقراطية الرومي: تكليف النفس ما ليس من طبعها، دخول على الناس بخدعة ما ينبغي المرء أن يسكن إليها. وإرسال النفس على سجيتها تقرير لواقع الطبع ومسايرة لحقيقة الأشياء. فاختر لنفسك أمراً: فأما أن تعايش الناس صورة مزورة على الطبيعة، وإما أن تعايشهم صورة حقيقة لما بثت الطبيعة في تضاعيفك من عناصرها. فأذا اخترت الأولى فأنت منافق. وإذا اخترت الثانية فأنت صريح النسب إلى الفضيلة.

قرأت هذه الكلمات. أقرنيها رجل أمي لم يفتح كتاباً غير كتاب الدنيا؛ ولا عرف صحيفة إلا صحيفة الأيام. رمته الدنيا بالفقر. والفقر، كما يقول الإنجليز، إذا نقر على الباب قفز الحب من النافذة. ورمته مع الفقر بالبغضاء: يحملها له أهله وأبناؤه وذوو قرباه. ومع البغضاء رمته بالحقد. الحقد الذي يأكل صدره على كل من جادت عليه الدنيا بشيء من نعائمها رزأه أحد أقاربه الأغنياء في شيء من ماله القليل، أخذه وأنكره عليه. فراح يستنصر آخر منهم حمت نفسه بمرضين: كراهية البشر، وتكلف العظمة، ومعهما أنتحل الأرسطوقراطية؛ ولكنها أرسطوقراطية الوضاعة. وكان وقوعه على هذا العتل حلقة في سلسلة مصائبه

هو إنسان إذا طرق بابه إنسان امتقع وجهه، وابيضت خرطومته من النكد والهم؛ فجلس إليه يعلو صدره ثم يهبط كأنه كير حداد. وتكلف الأدب تكلفاً ينم عن سوء أدبه؛

وتكلف الكلام، فتحس وهو يتكلم كأنما صدره مرجل يغلي، والكلمات تهدار ما في ذلك المرجل الثائر. قد يلتفت إليك إذا هو أراد أن يبالغ في إيلامك، وقد ينأى عنك بجانبه إذا هو أراد ملاطفتك. ذلك بأنه إذا التفت إليك فكي يريك الحقد مجسماً في ملامحه، والكراهية مرسومة في محياة. وإذا نأى عنك فكي يخفى عنك هذه المعاني المرتسمة في وجهه. فكأنه بذلك يمن ويشفق بك. وقد يبدؤك الكلام؛ فإذا كان هو البادئ فطامتك عظمى، ومصيبتك سوادء، ويومك أنكد الأيام، وساعتك أنحس الساعات، وبرهتك القيامة، نصب ميزاتها وبدأ الحساب

. . .هيه. . . كيف عرفت بيتي؟ تكلم

ويحدجك بنظرة، تتمنى لو أن الأرض تغور بك، أو يفتح لك فوهة من فوهات جهنم تلقفك،

قبل أن تستقر معاني تلك النظرة في نفسك. فأن كل معنى من معانيها رمح يستقر في قلبك فينزفه، وفأس تنزل على عنقك فتفصله عن جسدك.

قد يجود عليك حرج الموقف بكلمة، ولكن الغالب أن تغص فلا تتكلم. فإما أن تبقى ساكنا والعرق يتصبب من جبينك، وأما أن تتحفز للقيام فراراً من سوء ما أنت فيه. فإذا ارتج عليك وثبت في مكانك، انفتحت شفتاه العريضتان عن ابتسامة تترجم لك عن قوله: أكره البشر يا أبن (آدم)، فإليك بغضي) أما إذا ساعدك الحظ وحملتك رجلاك فقمت، فإن يدك معصورة في يده، وذراعك مهتزة كأنها القصبة المنخورة، ليشعرك أنه انتصر وآذى الإنسانية وانتقم منها في ذاتك، وفتك بأبناء (آدم) ومثل بهم في شخصك، ولكنه انتصار أشبه بانتصار الخراب على الفقر، كما يقول سير ولتر سكوت. غير أنه هنا خراب النفس، يستقوى ويستلئم، منهزلاً له فرصاً من نكد الدنيا وسألته: ثم ماذا يا شيخ محمود؟ قال: لاشيء، إلا أن هذا الإنسان لدنو مكانته في الأولى ورفعته في الثانية، أصيب بمرضين هما ما ذكرت: إنسان نشأ في الحضيض، درج على التراب أول ما درج، ولبس الأسمال أول ما لبس، وعاشر السفهاء والذؤبان أول ما عاشر، ونام عنه القدر، فلف ودار، ثم تسلق حائط المجد، فأصبح شيئاً ما في دنيا مجهولة، أشبه شيء بالبقعة الخراب في المصور الجغرافي، فحقد على البشر لأنه نشا من أدناهم مكاناً وأرذلهم موضعا، ثم أراد أن يعمى على سوء منشئه، فتكلف أشياء ليست من طبعه، فطغى على الناس كبراً والناس - يا أخي - لا يعاملون أمثاله بالحكمة النبوية الكريمة: (التكبر على أهلا الكبر صدقة)

واطرق الشيخ محمود هنيهة، ثم نظر إلي بعينيه الواسعتين وسأل: أليس الذي وضع مبدأ الأرستقراطية هو أرسطوقراطيس الرومي؟ قلت: كلا إنك واهم، وليس من الروم من هذا اسمه، وإنما هو مبدأ اعتنقه بعض مقاديم اللصوص في الأزمان القديمة، وكان منهم قتلة وقطاع طرق وقراصنة، ثم قلدهم فيه لصوص آخرون أشد منهم غباء، وأقل إقداماً، فانحدر إلينا بعض المقلدين، ولكنهم بيننا كالأحياء البائدة التي حفظت الطبيعة هياكلها في طبقات الأرض، وليس لنا منها إلا الصورة؛ أما الحقيقة فقد انحدرت في جوف الزمان

فأطرق الشيخ محمود إطراقه ثانية يتأمل كلامي، وحبات مسبحته تتساقط، فتحدث ذلك النقر المنتظم الذي يمثل تتابع فكراته وتأملاته، ثم ما لبث أن فاضت عيناه مرسلتين دموعا

تترامى على يديه، كأنها الندى البارد على وريقات الخريف

إسماعيل مظهر

43 - المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الإنجليزي أدورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

تابع الفصل الثالث عشر - الأخلاق

يشتهر المصريون بفضيلة الحب البنوي. وقد سبق أن ذكرت الاحترام الظاهر الذي يؤديه الولد إلى والديه. ويظهر المصريون أيضاً احتراماً زائداً للمسنين وبخاصة المشهورين بالتقي والعلم. ويعتبر حب المصرين لوطنهم وعلى الأخص مسكنهم صفة بارزة أخرى في طباعهم. ويخشى المصريون على العموم هجر مسقط رأسهم. وقد

سمعت الكثيرين يقررون السفر إلى الخارج بغية كسب عظيم ولكن عزمهم يفتر عند ما يقترب موعد السفر. وقد خخف أخيرا من حدة هذا الشعور ما يعانيه البعض من شدة الظلم. ولا شك أن هذا الشعور نشأ إلى درجة عظيمة من جهل الناس لحالة البلاد الأجنبية وسكانها. وقد سمعت البعض يدلل على حب المصريين العجيب لمسقط رأسهم بأنه يندر أن ترضى امرأة أو فتاة، أو يسمح والدها، بالاقتران بمن لا يعد بالبقاء في مدينتها أو بلدتها. ولكني أظن أن الأحجام عن ترك المواطن في هذه الحالة ينتج من خوف المرأة أن تفتقر إلى حماية أهلها. ويتعلق البدو بصحراواتهم ويحتقرون الحضريين والفلاحين ولكن الكثيرين منهم يميلون إلى الاستقرار على شواطئ النيل الخصبة أيضاَ. ومع أن المصريين من نسل البدو إلى حد كبير فهم لا يشابهونهم في حب الصحراء وأن شابهوهم في حب الوطن. وتزود الرحلة إلى الصحراء من يقوم بها من المصريين بقصص مطنبة في المتاعب والمجازفات والعجائب التي يعرفون بروايتها إلى مواطنيهم ذوي الخبرة القليلة

يعم الكسل جميع طبقات المصريين ما عدا الذين يضطرون إلى كسب حياتهم بالأشغال اليدوية الشاقة. وهذا الكسل نتيجة المناخ وخصوبة الأرض. ويبذل العامل بالآلات أيضاَ بالرغم من شدة طمعه في الربح يومين في عمل يستطيع بسهولة إنجازه في يوم، ويهمل اكثر الأعمال ربحاَ ليصرف وقته في التدخين. غير أن البواب والسائس الذي يجري أمام

جواد سيده والنوتية الذين يستخدمون في جر المراكب صاعدين في النهر وقت سكون الجو واشتداد حرارته يقاسون، مثل الكثير من الفعلة الآخرين، تعبا شديداَ.

يعرف المصريون أيضاَ بصلابة الرأي إلى حد الإفراط. وقد ذكرت في فصل سابق أن المصريين اشتهروا منذ عصر الرومان، بامتناعهم عن دفع الضرائب حتى يضربوا ضرباَ موجعاَ. وبأنهم كثيراَ ما يفتخرون بمقدار الجلدات التي ينالونها قبل أن يتخلوا عن نقودهم. وهم لا يرون غرابة في مثل هذا التصرف. وقد حكي لي مرة فلاحاَ فرض عليه الحاكم ما قيمته خمسة شلنات تقريباَ ففضل أن يقاسى الجلد على أن يدفع هذا المبلغ الزهيد، وقرر أنه لا يملكه. فأمره الحاكم بالانصراف وقبل أن ينصرف لطمه على وجهه فسقطت من فمه قطعة ذهبية بقدر المبلغ المطلوب تماماَ، فكان الضرب مع قسوته عجز عن حمله عن الدفع. وتبدو هذه الحال غريبة في طباع المصريين ولكن يسهل تبريرها بأن المصريين يعلمون تماماَ أنه كلما دفعوا عن طيب خاطر طمع الحاكم في أموالهم. على أن المصريين بوجه آخر يمتازون بشدة العناد وصعوبة المقادة بالرغم من امتثالهم الشديد في طباعهم ومهنهم. ويندر أن يحمل المرء الصانع المصري على أن يصنع شيئاَ حسب الطلب تماماَ. فلا بد أن يفضل رأيه على رأي مستخدمه، ويصعب أبداَ أن ينجز عمله في الميعاد المضروب. ولا يعوز فلاحي مصر، مع خضوعهم الشديد لحكامهم، الشجاعة عند ما ينهضون لخصومة بينهم. وهم يبرعون في الجندية ولا شك أن المصريين مثل شعوب الأقاليم الحارة يفوقون الشعوب الشمالية في الاستسلام للشهوات. على أن هذا الإفراط لا ينسب إلى المناخ فقط، ولكن ينسب على الأخص إلى نظام تعدد الزوجات وسهولة الطلاق كلما اشتهى الرجل زوجه جديدة، وإلى عادة التسري. ويقال أيضاَ كما أعتقد حقا أن المصريين، فيما يختص ذلك، يسبقون الشعوب المجاورة التي تماثلهم في الدين والنظم الدينية، وان بلدهم لا يزال يستحق تسمية (دار الفاسقين) التي أطلقها القرآن على مصر القديمة طبقاَ لرأي خير المفسرين، وقد أشاع المماليك الفاحشة في مصر فاصبح الفسق هنا أكثر انتشاراَ منه في البلدان الشرقية، ولكنه على حد القول قل كثيراَ في السنوات الأخيرة

يستبيح المصريين من الجنسين وفي كل طبقة، البذاءة المفرطة في الحديث، حتى أعف النساء وأوقرهن عدا القليل منهن يستعملن الكلام الغليظ، ولكن دون بذاءة. وكثيراً ما ينطق

المثقفون عبارات فاحشة لا تلائم غير أحط المواخير. ويذكر ارق النساء في حضرة الرجال أشياء وأحاديث. وقد تعف العاهرات بلادنا عن ذكرها دون أن يدركن مخالفة ذلك للآداب توصف نساء مصر بأنهن، في أهوائهن، أفسد النساء اللاتي ينتمين إلى أمة متحضرة. ويخلع مواطنيهن من الرجال هذه الصفة عليهن بسخاء حتى في أحاديثهم مع

الأجانب. ولا شك أن في المصريات كثيرات يشذذن عن ذلك. ويسرني أن أسوق هنا تعليقاً لصديقي الشيخ محمد عياد الطنطاوي على عبارة في ألف ليلة وليلة، قال: (يعد الكثيرون الزواج مرة ثانية من الأعمال الشائنة ويسود هذا لرأى مدن الريف وقراه. ويمتاز أخوالي بهذا، حتى أن المرأة عندهم إذا توفي زوجها أو طلقها في شبابها تترمل ما بقيت فلا تتزوج مرة أخرى أبداً. ولكني أخشى انه ينبغي التسليم، نظراً إلى غالبية المصريات بأنهن جد فاجرات. وقد اشتط أكثرهن كما يقال في استعمال الحرية. ولا يعتبر أغلبهن مصونات إلا إذا أغلقت عليهن الدار. وقل منهن من يخضعن لهذا القصر. ومن المعتقد أن المصريات يملكن شيئاً من الدهاء في تدبير الحيل التي يعجز الزوج عن تجنبها مهما كانت فطنته وحرسه، وانه قلما تخيب لذلك حيلهم مهما عظم الخطر الظاهر لما يباشرنه. وقد يكون الزوج نفسه أحياناً وسيلة لإشباع ميول زوجه الإجرامية بدون علمه. وتعرض لنا بعض قصص ألف ليلة وليلة في مكائد النساء صوراً صادقة عن حوادث لا يندر وقوعها في عاصمة مصر الحديثة. ويرى كثيرون في القاهرة أن جميع النساء تقريباً على استعداد أن يدبرون الدسائس متى استطعن ذلك بدون خطر، وأن الكثيرات يباشرن ذلك فعلا. ويؤلمني أن يكون الرأي السابق صحيحاً، وأكاد أكون مقتنعاً أن الحكم الأخير شديد القسوة، إذ يبدو من التقاليد السائدة المتعلقة بالمرأة أنه لا بد مكذوب. ويصعب على من لا يعرف العادات والطباع الشرقية معرفة كافية أن يدرك مشتقة الاختلاط بالمرأة في هذا البلد. فلا يصعب على المرأة من الطبقة الوسطى أو العليا إدخال عشيقها في مسكنها فحسب، بل يستحيل عليها تقريباً أن تلقى رجلا ذا حريم على انفراد في منزله الخاص، أو تدخل منزل رجل أعزب دون أن تثير ملاحظات الجيران وتدخلهم المباشر. وإذا لم يكن بد من التسليم بأقدم الكثيرات من المصريات على المكائد مع وجود مثل هذه المخاطر، فقد يكون صحيحاً أن الصعوبات التي تعترضهن هي العائق الرئيسي لكثير من المكائد. أما عند نساء الطبقة السفلى، فالمكائد أكثر وقوعاً وأسهل إنجاز.

(يتبع)

عدلي طاهر نور

البريد الأدبي

حول حديث (حديث عيسى بن هشام)

طالعت في العدد (486) من مجلة (الرسالة) الغراء ما دبجه يراع الدكتور زكي مبارك عن (حديث عيسى بن هشام) لمنشئه المرحوم عمي محمد بك المويلحي. وأني أعقب اليوم على مقال الدكتور بدافع الرغبة الصادقة في لفت نظره إلى بعض ملحوظات رأيت من واجبي أن أدلي بها خدمة للحقيقة وللتاريخ

يقول الأستاذ: إن عيسى بن هشام ينسب بالباطل أو بالحق إلى أبيه إبراهيم، تاركاً القارئ بين الشك واليقين. والأدباء الذين تذوقوا أدب المويلحي الأب والمويلحي الابن يعرفون أن لكل منهما ميزات خاصة في الكتابة. ثم إن المرحوم الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد، وأصحاب المقطم، والمرحوم شوقي بك، وحافظ بك إبراهيم، والشيخ محمد عبده، والبارودي، والشنقيطي، كانوا معاصرين له، فلو أن (عيسى) كان لغير (محمد) لأذاعوا به

والبرهان القاطع بأن عيسى هو من إنشاء محمد لا من إنشاء أبيه ما احتوته الديباجة التالية في العدد 109 من (مصباح الشرق)؛ وقد توقف المرحوم جدي عن متابعة رسالة (مرآة العالم) أو (موسى ابن عصام)، تاركاً الكلام لعيسى بن هشام قال: (شغل حديث عيسى بن هشام، عن متابعة ما يحكيه موسى بن عصام، فمرت الأشهر والأيام، حتى انقضت مدة العام، وسافر إلى المعرض، وعاد موسى إلى ما انقطع من كلامه، وعدنا إلى ما يدور بينه وبين شيخه وإمامه)

هذا، وقد أشار المرحوم جدي في العدد (107) من (المصباح) عن سفر عمي إلى باريس بالعبارة التالية:

يسافر محمد المويلحي إلى معرض باريس في يوم الأحد الآتي (10 يونيو سنة 1900)؛ وسينشر (المصباح) ما يوافيه به عيسى بن هشام من غرائب المعرض وعجائبه، بعد الوقوف على إجماله وتفصيله، كما يعلم ذلك من رسالته في صدر الجريدة اليوم: (يعنى حديث عيسى بن هشام)

وجاء في العدد (116) من (المصباح): (هذه الرسالة الأولى من حديث عيسى بن هشام عن زيارة معرض باريس، بعث بها إلينا السيد محمد المويلحي بعد رسالته التي نشرها في
أحد أعدادنا الماضية عن زيارة سمو الجناب العالي الخديوي لجلالة ملكة الإنجليز في بلادها)
كذلك نأخذ على الدكتور مبارك حكمه على محمد بك من أول جلسة جلسها معه عند المرحوم أحمد باشا شفيق، لأن الرجال أسرار، وقيمة الرجل لا تعرف إلا بعد طول المعاشرة.
ولم يعتزل محمد بك الكتابة كلية بعد موت أبيه كما قال الدكتور، وإنما اعتزلها حيناً من الدهر حين اشتغل مديراً لإدارة الأوقاف العمومية بعد مديرها أحمد شفيق باشا. ومع كل فقد كان ينتشر في الصحف اليومية المقالات الضافيةفي المناسبات الهامة كما ذكر بنفسه ذلك في المؤيد بتاريخ 9 فبراير سنة 1908 تحت عنوان: (كلمة مفروضة)، وكان الكلام يدور حول منع نصب تمثال (دانتي الإيطالي) في مدينة الإسكندرية. ولا يفوتني ذكر مقالته (صوت من العزلة) التي افتتح بها الأهرام صحيفته في30 ديسمبر سنة 1921 وفيها يذكر محمد بك سبب عزلته ويرحب باتحاد الأحزاب في مصر وما في الاتحاد من عزة للشرق
وفي سنة 1925 طلب منه صاحب جزيرة مشهورة في مصر أن يكتب مقالين في الشهر مختاراً له لونا معيناً من السياسة ويأخذ عليهما ثمانين جنيهاً؛ فأجابه المويلحي الصغير بكلمته المشهورة: (قلم المويلحي لا يباع)
أما سور بابل فلا مبالغة فيه إذا علم الأستاذ مبارك أن المهندس كان يعيش في القرن الثاني قبل المسيح هو أول من جمع في مؤلف واحد وصف عجائب الدنيا السبع بكل ما أوتي من دقة تكون أهلاً لمهندس. ولم يقصد محمد بك بقوله إن السور يتسع للإحاطة بسبع مدائن كمدينة باريس (في سنة 1900 طبعاً) إلا على الطريقة الحسابية التي سبقه بها في مثل هذه العمليات الحسابية المهندس الفرنسي (لينان باشا) حيث قال: إن حجارة الأهرام تكفي لبناء قناطر محمد علي.
إبراهيم المويلحي
اللغة والتعريب
تحركني كلمة الأستاذ زكريا إبراهيم إلى الرد لأنها تتناول مسألتين جوهرتين: أولاهما مسألة الخطأ والصواب بمناسبة (عثرت به) و (عثرت عليه) وثانيتهما مسألة تعريب الأسماء الأعجمية.
فأما عن (عثرت به) فقد قلت إن المعنى الذي أريد التعبير عنه هو العثور بالشيء أي ملاقاته اتفاقاً، ولم أرد (العثور عليه) أي الاطلاع الذي يدل على علم ومعرفة وبحث وجهبدة لا أدعيها.
والذي يدهشني هو تفضل هؤلاء العلماء بلفت نظري إلى مختار الصحاح ودوائر المعارف وتراكيب اللغة الإنجليزية وهذه كلها مراجع ما كنت أحلم بوجودها.
وآفة هذه المهازل هي قول بيكون: (العلم الصغير شيء خطر) وهذا طبعاً لا علاقة له بالعلماء الكبار أمثال الكرملي وزكريا إبراهيم؛ وهما بلا ريب يعلمان أن لغات العالم كلها مجازاة ميتة وأن تلك المجازاة رغم موتها تحتفظ دائماً بشيء من معناها الحقيقي.
فأنا عندما أقول (عثرت بالشيء) مفسراً بقولي (وقعت عليه) يكون معنى ذلك أنني اطلعت عليه ولكن مصادفة كما يعثر حافر الجواد بأحد الكنوز. وبذلك أعبر عن المعنى الذي في قلبي تعبيراً لا تحققه (علي) بما تفيده من إلى غاية وسعي لبلوغها.
ثم إن مسألة الصحة والخطأ في اللغات أصبحت مسألة تافهة لا يحرص عليها في غير مجال التعليم المدرسي. وأما العلم فقد تقدم وأصبحت المناهج تاريخية فترى العلماء اليوم لا يقررون الخطأ والصواب في اللغات وإنما يستقرون الاستعمالات عند كبار الكتاب ويفسرون ما يطرأ على اللغة من تطور. ومن الغريب أن نظل نحن مترددين في طرق التفكير التي تخلص منها العالم المتحضر منذ أكثر من قرن. فاللغة العامية ذاتها ليست مجموعة أخطاء، وأنما هي تطور عادي مألوف في كل اللغات. واللغة الفرنسية والإيطالية كذلك ليستا أخطاء اللغة اللاتينية.

وإذن فكلام الكرملي وكلام زكريا إبراهيم حذلقة تافهة ومماحكات لا علاقة لها بمناهج البحث في اللغات التي لم تعد تقريرية في شيء.

وأما عنصر الثبات في اللغة وهو ما يطالب به الأستاذ زكريا حتى لا يصير الأمر فوضى، فذلك مالا أستطيع أنا أن أدخله في اللغة بل ولا المجمع اللغوي نفسه. عنصر الثبات هو استعمال كبار الكتاب لمفردات اللغة وتراكيبها، ثم قراءة مؤلفات كبار الكتاب في المدارس والجامعات لتشيع تلك الاستعمالات. وكل محاولة في غير هذه السبيل لن تجدي شيئاً.

اللغة كائن حي لا يقنن له وأكبر دليل على صحة ما أقول هو أن المجمع اللغوي لم يستطيع شيئاً في هذا الباب ولن يستطيع. وأنا أشكر الأستاذ زكريا إبراهيم إذ نبهني ونبه زملائي أساتذة الجامعة إلى وجوب ترجمة أسماء الأعلام كما ينطق بها أهلها. فهذا لا ريب مبدأ سليم ولكن على شرط أن نعرف كيف كان ينطق بها أولئك الأهل. ونحن لسوء الحظ لا نعرف ذلك دائماً. ولقد ثار الأستاذ زكريا على أساتذة الجامعة وثار الأب الكرملي لأننا نعرف أحياناً عن الإنجليزية والفرنسية مع أنني أستطيع أن أؤكد لهذين العالمين أننا نعرف مبادئ اللغات الأندو أوربية وبخاصة اللاتينية واليونانية، ولكننا مع ذلك نؤثر أن نترجم عن اللغات الحديثة لأننا لسنا على ثقة من نطق هاتين اللغتين، وهما لغتان ميتتان، والعلماء مختلفون في نطقهما الآن أشد الاختلاف. وأنا وإن كنت لا أستطيع أن أدخل هنا في التفاصيل إلا أنني أضرب لذلك مثلاً باسم الخطيب الروماني الشهير فهذا الاسم ينطقه اليوم علماء الإنسانيات الإيطاليون (شيشرو) كأنه لفظ من ألفاظ اللغة الإيطالية الحديثة. والفرنسيون كذلك ينطقونه (شيشرو) والإنجليز (كيكرو) فأيها أصح؟

نعم لقد ماتت في السنين الأخيرة دعوة كان من أكبر زعمائهم العالم الفرنسي إلى محاولة النطق نطقاً تاريخياً أي نطقاً يقارب النطق القديم يستنتجونه من بعض الكتابات الصوتية القديمة ومن العناصر الموسيقية في الشعر ومن نتائج علم الأصوات التاريخي وتطور نطق الحروف المختلفة كما يستعينون بآراء العالم إرزم ومحاولاته في هذه السبيل، أقول إن ذلك كله قد كان، ولكن هذه المحاولات لم تنجح. ولا يزال علماء كل بلد في أوربا ينطقون اللاتينية واليونانية كأنهما من لغاتهم. وإذن فنحن حتى في هاتين اللغتين مضطرون إلى أن نتخير نطقاً نأخذه عن علماء أحد هذه البلاد. وذلك إلى أن يستقر النطق أسس ثابتة مقبولة من الجميع

ويزيد الأمر تعقيداً أن مسألة تعريب الأسماء لا يمكن أن يكون وفقاً لقرارا ت يصدرها المجمع اللغوي أو الأستاذان الكرملي وزكريا إبراهيم، وإنما الأمر أمر استعمال: استعمال كبار الكتاب الذين لهم من الشهرة ما يجعل تعريبهم يذيع بين الناس خذ لذلك مثلاً ما استقر عليه العرف في فرنسا منذ القرن السابع عشر تجد أن أسماء الأعلام الشهيرة التي تتداولها الألسن قد أعطيت صيغة فرنسية، ولذلك يقولون فرجيل وهومير وسوفوكل واوربيد وإشهل. وأما الأسماء التي لا ترد إلا على ألسنة الخواص من العلماء فقد تركت لها صيغتها اللاتينية واليونانية، ولذلك يقولون: كورينلوس نبوس وإبيكوس وبيوس ومورسكوس ومن إليهم

وإذن فالأمر أعقد مما ظن الأستاذ زكريا إبراهيم. وأساتذة الجامعة يؤلمهم أن يبلبلوا أذهان القراء. ولكن ما الحيلة والمسائل معقدة؟ أليس من الأجدى علينا وعليكم أن تتركونا نتحسس السبل ونجاهد حتى نصل إلى تعريب سهل قريب مستساغ نرجو معه أن تنتشر الألفاظ التي نفضلها فتنحل المشاكل ويرتفع اللبس؟ ثم أليس من الخير أن نعرب عن إحدى اللغات المنتشرة في بلادنا بدلاً من التعريب عن لغات قديمة لا يعدو من يعرفها من مواطنينا الذين نكتب لهم عدد الأصابع؟

محمد مندور

سبب مجهول من أسباب اختلاف القراءات

المعروف أن أقوى سبب لاختلاف القراءات يرجع إلى اختلاف اللهجات العربية، فجاء الأذن بقراءة القرآن على الفصيح من تلك اللهجات، ولم تتعين قراءته باللغة التي نزل بها وهي لغة قريش، تيسراً على غيرها من القبائل العربية

ولكن هناك سبباً آخر لم يذكروه في أسباب اختلاف القراءات، مع أن من هذه القراءات ما يظهر غاية الظهور أنه راجع إليه، ولا يظهر أنه راجع إلى اختلاف اللهجات،

وذلك نحو قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) ففي بعض القراءات (فتثبتوا) بدل (فتبينوا) ولاشك أن مثل هذا في القراءات وهو كثير لا يظهر إرجاعه إلى اختلاف اللهجات، وأنما يظهر إرجاعه إلى ما كانت عليه الكتابة العربية قبل اختراع النقط والشكل فيها، لأن مثل هذا يقف القارئ فيه متحيراً، فلا بد أن يرجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم في قراءته، وقد يكون بعيداً عنه فيتعذر رجوعه إليه، فقضت رأفة الله أن يقرأ القرآن بما يحتمله من ذلك تيسراً على المسلمين في عصر الوحي، وثقة بملكة العربي في ذلك الوقت. ولعل النبي صلى الله عليه وسلم كان يعين أمثال تلك المواضع، أو كانت ترد إليه فيقر ما يراه منها. ومما يظهر حمله على ذلك أيضاً قوله تعالى: (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها أباه) فقد قرأ الحسن وحماد الرواية (وعدها أباه) بالباء، وأمثلة ذلك كثيرة في القرآن الكريم، فإذا كنت أصبت في حملها على ذلك السبب فهو من فضل الله، وقد يكون الصواب في غير ما رأيت من ذلك، والعصمة لله وحده

عبد المتعال الصعيدي

أشرنا إلى هذا الرأي بإيجاز في كتابنا (تاريخ :(الرسالة)

(الأدب العربي

الشاعر المظلوم

الأستاذ الدكتور زكي مبارك

عددت على شاعرنا (إسماعيل صبري باشا) أن اشترك في (عام الكف) مع أنه مدح الشيخ أحمد الزين!

كذلك جاء مقالك الأخير بالرسالة الذي تحلل به المويلحي في فقرة جعلت عنوانها (الأديب المضطهد) فأوحيت إلي بهذا العنوان

ومدح الشاعر صبري باشا للشيخ أحمد الزين له قصة رواها على ملأ من كرام العلماء والأدباء إمامٌ من أئمة الأدب والعلم والفضل هو شيخناَ مصطفى عبد الرازق باشا يجب إيرادها إنصافاَ للشاعر الغائب:

كان ذلك منذ عامين، وبيت عبد الرازق بعابدين على عهدك به في ليلة من ليا لي رمضان؛ ولم يكن الشيخ احمد الزين وطائفة من أصدقائه غائبين عن هذه الجلسة، وجرى ذكر الشعر والشعراء وصلتهم بالنحو واللغة فقال الدكتور هيكل باشا: لعل الشاعر إسماعيل صبري باشا لم يكن واسع المحصول اللغوي سعة تحميه من التورط أحياناَ في بعض الأخطاء. فالتقت الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا يدفع غيبة صديقه صبري باشا فقال له هيكل باشا: لقد أسمعني بعضهم شعراَ له جاء فيه كلمة (خلاق) بمعنى خلق وهي ليست كذلك فيما يقول الشيوخ!

فقال عبد الرازق باشا - والشيخ احمد الزين حاضر - إنني أنكرت ذلك أيضا، فلما لقيت صبري باشا لم أكتمها عنه فكان جوابه: إن الشيخ الزين رجل مثابر علي الود، فلما هم بطبع ديوانه سألني أبياتاَ فلم تسعفني القريحة. ولما تكرر منه الطلب لم يسعني إلا أن أقول له - وهو شاعر أيضا - اصنع أبياتا لنفسك على لساني. فلما أهدي إلي ديوانه قرأتها كما قرأتموها، وصبرت على ما لم تصبروا عليه

وأقول: إنك يا دكتور - وأنت ذواقة - حين تقرأ الأبيات لا ريب تنكر نسبتها إلى سائر شعر صبري باشا، أو تتردد طويلاَ جداَ على الأقل. وهاهي ذي ليشترك معك ومعي قراء الرسالة في الحكم:

إذا كنت يا زين زين الأدب ... فأن كتابك زين الكتب
قلائد طوقت جيد البيا ... ن بهن وحليت جيد العرب
خلائق تزري بنفع الرياض ... إذا ضحكت من بكاء السحب
وما المرء إلا (خلاق) كريم ... وليس بما قد حوى من نشب

(المجمع اللغوي)

علي فوده

العدد 489 - بتاريخ: 16 - 11 - 1942

الجامعة العالمية

للأستاذ عباس محمود العقاد

تستعد الأمم المقاتلة للحرب في المدرسة كما تستعد لها في مصانع الذخيرة والسلاح،

فليس من النافع منع التسليح أو قصره على مقدار مرسوم إذا لم يكن مقترناً بمنع الأسلحة الفكرية والعدد الخلقية التي تتحفز أبداً للحرب ولا تستريح طويلا إلى عهد السلام

هكذا يقول الفيلسوف الرياضي الكبير (برتراند رسل) في مجلة (الفورتنتلي) من مقال عن الجامعة العالمية أو عن التعليم العالمي الذي يمحو العصبية ويهيئ العقول للسلم والمعاونة بين الأقوام والأجناس والأوطان

وبرتراند رسل كما يعرفه قراؤه رجل من أقدم دعاة السلم بين كبار الحكماء والعلماء، وكانت دعوته إلى السلم في إبان الحرب الماضية سبباً لحبسه وتغريمه وانقطاعه عن التعليم

فهو الآن يتأهب لدعوة جديدة من طريق جديد، وتلك هي طريق التربية العلمية التي ينبغي أن تعم جميع الطلاب في جميع الأوطان، وأن يكون لها غرضان مقترنان ولا تكتفي بغرض واحد ينحصر في العلم والمعرفة (الأكاديمية) كما يسميها. فإنما الغرض الأكبر أن يكون التعليم على نهج يؤدي إلى تعميم السلم وحسم بواعث القتال، خلافاً للنهج الذي سار عليه حتى الآن في معظم البلدان

قال: (من الواجب أن تكون للجامعة المنشودة وثيقة تشتمل على حقوق مرعية تقضي فيما يتعلق بالأساتذة والطلاب على السواء أن تفتح أبوابها لجميع الأجناس وجميع الأديان وجميع الآراء السياسية؛ ما عدا تلك التي ترفض المعاونة العالمية، إذ هي لن تفلح في دعوتها العالمية إن أخفقت في تحقيق هذه الشريطة، ولكل رجل أو امرأة على استعداد علمي أن يدخلها فلا يحول بينه وبين دخولها لونه الأصفر أو لونه الأسمر أو لونه الأسود، ولا إنه من بني إسرائيل أو من البوذيين أو المسلمين أو الهندوكيين، بل لا يجوز فوق هذا أن يحول بينه وبين دخولها إنه لا يؤمن ببعض العقائد والمقررات كائناً ما كان)

وعنده أن ما جرى عليه العرف حتى اليوم يناقض هذه المساواة العالمية حتى في تدوين تواريخ العلوم. فالقاعدة التي تعرف عند الإنجليز باسم قاعدة بويل تسمى قاعدة ماريت بين الفرنسيين، ويذكر الكتاب الإنجليز أحياناً أن بريستلي هو كاشف الأوكسجين، وفي ذلك غبن للعالم لافوازييه. ويميل الرياضيون الألمان إلى اعتبار جاوس مؤسساً للهندسة (غير الإقليدسية)، وقد أسسها في الواقع لاباتشفسكي الروسي. وطالما اختلفت الكتب الإنجليزية والأمريكية في الكلام على اختراع زورق البخار، إلى اختلافات أخرى من هذا القبيل أشهرها الاختلاف بين نيوتن وليبنتز على اختراع حساب التفاضل والتكامل مما عاق جورج الأول عن اصطحاب ليبنتز عند قدومه إلى البلاد الإنجليزية وما جر إليه ذلك من تعطيل الرياضيات في هذه البلاد قرناً من الزمان أو يزيد

ويقول الفيلسوف: (إن الأمم الكبرى جميعاً على تفاوت في الدرجة تزيف التاريخ وتتعرض له بالتمويه والتعديل. فحركة العصيان الهندية يتعلمها الأطفال الإنجليز من وجهة نظر واحدة، والواجب في الجامعة العالمية أن تعطي وجهة النظر الهندية من الرجاحة ما تعطاه وجهة النظر الإنجليزية. وكذلك يجب عند شرح تاريخ الحرب الإسبانية الأمريكية أن تلاحظ الحيدة المستقلة بين أسبانيا والولايات المتحدة. وهذه وما شابهها نقائص لا تسلم منها أمة واحدة في العالم بأسره ولكنها أسوأ ما تكون في ألمانيا وإيطاليا واليابان)

إلى أن يقول: (إن هيجل في فلسفته التاريخية يرى أن (الروح) الذي يسيطر على عظائم الحوادث يتجسم تارة في هذه الأمة وتارة في تلك، وأن كبار الرجال الذين يختارهم ذلك الروح المسيطر على الحوادث لبلوغ غايته هم أناس مرفوعون فوق قوانين الأخلاق والآداب على مثال الإسكندر وقيصر. وقد اختار الروح أمة الجرمان لتحقيق ما يريد في عصرنا هذا)

وبعد أن شرح الفيلسوف الرياضي الكبير نظام الإدارة ونظام التعليم وتحضير الكتب للدراسة في الجامعة العالمية قال: (إن الدعوات الوطنية إنما نجحت في الأغلب الأعم لإحساسهم أنها تجري مع المصالح الوطنية في مجرى واحد. فإذا أريد للنظرة العالمية الجديدة أن تفلح وتؤتي ثمرها فمن الضروري أن تتمثل للناس موافقة للمصالح الوطنية على ذلك المنوال)

وهنا تتلاقى آراء كثيرة قد تتشعب وتتدابر في غير هذا الملتقى الواضح المأمون من جميع نواحيه
فليس المقصود بالتعليم العالمي أن يجور على المصالح الوطنية، وإنما المقصود به أن يبطل النزعات التي تجور على مصلحة العالم بأسره أو مصالح الأمم الأخرى في تعاونها على السلم والحضارة.
فالوطنية والعالمية لا تتناقضان، لأن خدمة العالم بأسره لن تضير وطناً من الأوطان، ولاسيما الأوطان التي لا تملك القوة ولا تتذرع بها أن ملكتها إلى الطغيان على الآخرين.
وقد رأينا بعض المفكرين الداعين إلى التآلف بين الشعوب على أساس العالمية أو أساس الحكومات المشتركة ينزعون إلى التشكيك في عناصر الوطنية لأنها شيء يصعب التعريف به وفهم معناه، فإذا قيل مثلاً إنها قائمة على الوحدة الجغرافية فالفاصل بين الأرض الفرنسية والأرض الجرمانية فاصل اتفاقي من معظم نواحيه، وإذا قيل إنها الوحدة الجنسية فليس في الأرض أمة تخلو من مزيج الأجناس، وإذا قيل إنها الوحدة اللغوية فليس باللازم أن تقترن المشاركة في الوطن الواحد والمشاركة في اللغة الواحدة، وإذا قيل إنها وحدة الدين فقد تجتمع في الأرض الواحدة عدة أديان وعدة مذاهب من دين واحد، وإذا قيل إنها وحدة الحكومة فقد يخضع الناس لحكومة واحدة مكرهين مستعبدين، وإذا قيل إنها التراث التاريخي فهذا ولاشك من أقوى عناصر القومية ولكنه لا يخلقها ولا يمنع التفاهم بين أصحاب التراث المختلف على حكم واحد أو صلة حكومية متكافلة.
إلى آخر ما يقول أولئك المفكرون الداعون إلى التآلف العالمي وهم مخطئون فيما نراه
وقد ناقشنا هذا الرأي في موقف كموقفنا الحاضر منذ سنين فقلنا: (إن كلاماً كهذا يمكن أن يساق لإضعاف المزايا الإنسانية وتقريب الفوارق بين الإنسان والحيوان، ثم هو لا يفضي إلى نتيجة ولا يدل على معنى مستقيم. . . قد تقول مثلاً ما هي معالم الإنسانية التي تفرق بين الإنسان والحيوان؟ أهي اللغة؟ كلا! فإن أناساً كثيرين يولدون بكما لا ينطقون ولا يعقلون. أهي أعضاء الأجسام؟ كلا! فإنه ما من عضو في إنسان إلا يقابله عضو مثله أو يقوم مقامه في حيوان: أهي انتصاب القامة؟ كلا! فإن بعض الأحياء تمشي على قدمين وبعض الناس يزحفون على الأربع. أهي عناصر الدم؟ كلا! فإن التحليل قد يكشف فرقاً بين دم الرجل ودم المرأة وبين دم الشيخ ودم الصبي وكلهم من بني الإنسان؛ وزد على هذا أن الدم ليس بمزية الإنسانية العليا، فإن أناساً في ذروة العظمة قد يرجح عليهم في نقاوة
الدم وصحة تركيبه أناس في حضيض الذل والجهالة. أهي قابلية التناسل؟ كلا! فإن الخيل والحمير تتلاقح وهي من نوعين، والبغال لا تتناسل وهي من نوع واحد، وقد يعيش الرجل والمرأة معاً عيشة الأزواج ولا ينسلان)
فصعوبة التعريف والتفريق لا تنفي وجود الأشياء التي نريد أن نعرفها ونفرق بينها، والوطنية شيء موجود لاشك في وجوده وإن تعددت عناصره حتى تعذر الجمع بينها في وطن واحد
ومن الخطأ أن نناقض بين العالمية لأنهما في الواقع غير متناقضين، وإذا بنيت الدعوة إلى التعاون بين شعوب العالم على أن هذا التعاون يغض من الغيرة الوطنية فمصير تلك الدعوة معروف من الآن، وهو الإخفاق السريع
وإنما الصواب ما قال الفيلسوف الرياضي الكبير حيث رأى أن ضمان النجاح للدعوة العالمية مكفول بالتوفيق بينها وبين مصالح كل أمة تلبي تلك الدعوة وتشترك في المعونة
وهذا الذي نرجو أن يكون وأن يتوافى إليه شعور الأقوياء والضعفاء معاً بعد الحرب الحاضرة
ويبدو لنا أن تعدد الأقوياء سيلجئهم قسراً إلى التعاون بينهم على رعاية حقوق الضعفاء فينفتح من ثم باب التعاون بين هؤلاء وهؤلاء
فليس في الوسع أن يطغي قوي واحد على أنداده الأقوياء، وليس في الوسع أن يتفقوا على قسط متساو من المصلحة المشتركة يمنع التنافس ويحسم النزاع. فلا نغلو

بالأمل إذا قلنا إن الطريق الأيسر لهم والأجدى عليهم هو الاتفاق على التعاون بينهم وبين الضعفاء، والتفاهم على معاملة وسطى فيها رعاية للحق ورعاية للمصلحة الجامعة ورعاية لمصلحة الأمم أمة أمة على حدة. فقلما يرجى فلاح لمطلب من مطالب بني الإنسان يبنى على الحق وتنسى فيه المصلحة، أو يبنى على المصلحة وينسى فيه الحق، وآية الرجاء في مصير الدعوة العالمية أن الحاسة الخلقية وأن الوجهة النفعية فيها تتقاربان وتتساندان

عباس محمود العقاد

محي الدين النووي

والسلطان بيبرس

للدكتور عبد الوهاب عزام

كان شيخ الإسلام أبو زكريا يحيى النووي من أعلام العلماء في القرن السابع الهجري، ذا مكانة عالية بين علماء الفقه والحديث. وكان له في التقوى والورع والزهد سيرة محمودة، وفي نصرة الحق وتأييده مواقف مشهودة. ولا بأس أن نثبت هنا بعض سجعات ابن السبكي: (كان يحيى رحمه الله سيداً وحصورا، وليثا على نفسه هصورا، وزاهداً لم يبال بخراب الدنيا إذا صير ربع دينه معمورا. له الزهد والقناعة، ومتابعة السالفين من أهل السنة والجماعة، والمصابرة على أنواع الخير، لا يصرف ساعة في غير طاعة. هذا مع التفنن في أصناف العلوم: متون أحاديث، وأسماء رجال، ولغة وصرفا، إلى غير ذلك).

ولست أبغي هنا ترجمة النواوي، ولكن أذكر واقعة كانت بينه وبين الظاهر بيبرس، وهي واحدة لها أمثال في سيرة الشيخ، ولها نظائر كثيرة في تاريخ الإسلام:

كان بيبرس ملكاً مجاهداً أبلى في قتال التتار والصليبيين بلاء عظيما، وقد انتظمت شجاعته وعزيمته مع شجاعة أسلافه وأخلافه من الأيوبيين والمماليك، فكانت سراً من الجهاد والجلاد، وفي البلاد المصرية مصائب الغزاة، وخيب دونها آمال الصليبيين مائتي سنة. وكذلك كانت همته وإقدامه هو وجنوده في مصر والشام، كالطود ارتد عنه سيل التتار بعد أن جرف البلاد الإسلامية من سمرقند وخوارزم إلى حلب ودمشق؛ فعلموا جنود هولاكو في (موقعة عين جالوت) وما بعدها أن مصر أبعد من أن يطمعوا فيها، وأن الشام أعز من أن يسيطروا عليه

وكان بيبرس في جهاده المستمر، وحربه المتمادية، يتوسل إلى المال يستعين به على جهاده، وكان الشيخ النووي يكتب إليه ناصحاً كلما رأى في عمل السلطان شدة، أو جوراً، أو مخالفة للشرع، لا يني في هذا ولا يداهن، ولا تأخذه رغبة ولا رهبة

كتب مرة إلى السلطان هو وبعض العلماء، يطلبون رفع بعض المكوس، ويوصون بالعدل والشفقة، فكان في الجواب إنكار وتوبيخ وتهديد، فكتب الشيخ النووي يجادل فيما تضمنه جواب السلطان ويقول:

(وأما تهديد الرعية بسبب نصيحتنا، وتهديد طائفة العلماء فليس هو المرجو من عدل السلطان وحلمه، وأي حيلة لضعفاء المسلمين في الناصحين نصيحة للسلطان ولهم ولا علم لهم به؟ وكيف يؤاخذون به لو كان فيه ما يلام عليه؟ وأما أنا في نفسي فلا يضرني التهديد ولا أكثر منه ولا يمنعني ذلك من نصيحة السلطان، فإني أعتقد أن هذا واجب علي وعلى غيري. وما ترتب على الواجب فهو خير وزيادة عند الله تعالى. (إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار). (وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد). وقد أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نقول الحق حيثما كنا وألا نخاف في الله لومة لائم)

ولما ذهب السلطان إلى الشام لمحاربة التتار أراد أن يأخذ مالاً من الرعية يستظهر به على العدو واستفتى العلماء فأفتوه. ثم سأل عن الشيخ النووي أن يشارك العلماء في الفتوى. فلما حضر الشيخ قال السلطان: اكتب خطك مع الفقهاء. فامتنع. قال السلطان: لماذا لا تكتب؟ قال الشيخ: (أنا أعرف أنك كنت في الرق للأمير بندقدار، وليس لك مال. ثم من الله عليك وجعلك ملكا. وسمعت أن عندك ألف مملوك كل مملوك له حياصة من ذهب، وعندك مائتا جارية لكل جارية حق من الحلي. فإذا أنفقت ذلك كله وبقيت ممالكك بالبنود الصوف بدلاً من الحوائص، وبقيت الجواري بثيابهن دون الحلي أفتيتك بأخذ المال من الرعية)

قال الظاهر للشيخ: أخرج من بلدي (يعني دمشق)
قال الشيخ: السمع والطاعة. وخرج إلى نوى
فأنكر الفقهاء أن يُخرج مثل النووي من المدينة، وسألوا السلطان أن يرجعه. فأمر السلطان بإرجاعه. فأبى الشيخ وقال: لا أدخلها والظاهر بها
لست ادري أكان السلطان محقا في فرض ما فرض من المال أم لا. ولست لذلك أعرف أكان الشيخ محقا في مجابهة السلطان بما جابهه به، ولكن لا ريب عندي أن السلطان أحسن حين التمس فتوى العلماء قبل أن يجمع المال، وأن الشيخ أدى واجبه حين صارح السلطان بما يعتقد، ولم يأخذه في الحق خوف ولا طمع، وأن محي الدين النووي قد فقه أحسن الفقه ما على العلماء من النصيحة لأولى الأمر، والجهر بالحق في غير مداهنة ولا خوف. رحم الله النووي؛ لقد كان من علماء المسلمين. ولله تاريخ المسلمين كم فيه من أمثال محي
الدين!
عبد الوهاب عزام
الهدف الأدبي
للدكتور زكي مبارك
في الاحتفال الذي أقيم بدار الجمعية الجغرافية لافتتاح الموسم الثقافي لخريجي) الجامعة المصرية ألقيت ثلاث خطب في تحديد أهداف الموسم: خطبة الدكتور منصور بك فهمي في الهدف الروحي، وخطبة الدكتور حسن إبراهيم في الهدف الاجتماعي، وخطبة الدكتور زكي مبارك في الهدف الأدبي. وحال مرض الدكتور عبد الوهاب عزام (دون خطبته في الهدف العلمي
هذه فاتحة الموسم الثقافي لخريجي الجامعة المصرية، والجامعة أول مظهر من إرادة الأمة في العصر الحديث، فقد أنشأتها الأمة قبل أن تفكر فيها الحكومة، والأمم لا تسبق الحكومات إلا حين تكتمل فيها الحيوية الروحية والعقلية. وقد كان من أثر ذلك أن صارت الجامعة منذ إنشائها إلى اليوم مثابة لحرية الفكر والرأي. ولعلكم تذكرون إنها لم تقبل الانضمام إلى الحكومة إلا بعد إعلان الاستقلال، وبعد أن صارت الفكرة القومية هي التي توجه مذاهب التعليم والتثقيف إلى خير البلاد
كان الموسم الثقافي لخريجي الجامعة حلماً يعتاد خاطري من حين إلى حين، وكان الرأي عندي أن ينهض به الخريجون المستقلون، وأعني بهم من لا يتصلون بالجامعة عن طريق التدريس، لأن الجامعة أعدت هؤلاء لتثقيف الطلبة، وأعفتهم من تثقيف الجماهير، ولأن لبث الثقافة الجامعية خارج أروقة الكليات أساليب يجيدها الجامعيون المستقلون بأقوى مما يجيدها الجامعيون الرسميون. . . وهل ننسى أن للتدريس قيوداً تحصر المدرس في آفاق لا تتسع في كل وقت لدرس ما يتصل بالمجتمع من معضلات لا يلتفت إليها الطلبة إلا بعد أن تكتوي أيديهم بنيران المجتمع؟
إن الجامعي المدرس يكون في أحسن أحواله يوم يصبح على رأي الفراء حين قال: سأموت وفي نفسي شيء من حتى!
ومعنى ذلك أن أفضل حياة للجامعي المدرس هي الحياة التي تفرض عليه أن يكون إماماً في تشريح الجزئيات، عساه يصل بتلاميذه إلى تصور الكليات، في تواضع محبوب ينسيه وجوده الذاتي، ويحبب إليه الرضا بحظ الجندي المجهول في تثقيف العقول الجامعي المدرس لا يعاب عليه أن يجهل المجتمع الذي يعيش فيه، ما دام يعرف الدقائق من العلم الذي انقطع إليه. وقد رأيت من أساتذة السوربون من يجهلون زمانهم بعض الجهل، أو كل الجهل، لأنهم تخصصوا في دراسات سبقت زمانهم بأجيال.
أما الجامعي المفكر فله أسلوب غير هذا الأسلوب. الجامعي المفكر يتخذ من الدراسات الجامعية موازين يزن بها ما في المجتمع من أحلام وأوهام، وحقائق وأباطيل. الجامعي المفكر يرى جميع العلوم وسائل لا غايات، فالغاية الصحيحة عند الجامعي المفكر هي أن ينقل المجتمع من حال إلى أحوال في مذاهب الفكر والمعاش. الغاية عنده هي الإبداع لا التحصيل، الغاية عنده أن تكون آراؤه موضوعات الدرس في الجامعات، لا أن يكون شارحاً لآراء الناس. ومن اجل هذا اختلف المحصول الذي يصدر عن الجامعي المفكر والمحصول الذي يصدر عن الجامعي المدرس، فالأول يبدع والثاني يشرح، وهما في منزلة سواء في نظر العدل، لأن الغرض الأصيل هو

خدمة الحق بأي أسلوب وفي أي موضوع.
ومن آفات الحياة في مصر أن يتوهم أهلها أن الفكرة الجامعية لا تتمثل إلا في الجامعي المدرس، وكان ذلك لأن مصر طال عهدها باحترام الوظيفة الرسمية، فلم تعد تدرك أي قيمة للوظيفة الروحية
وقد انساق الجامعيون هذا المساق، فلم نسمع أن فيهم من يحمل راية الجامعة، وهو غير مدرس بالجامعة، فكانت النتيجة أن يحبس صوت الجامعة في حدائق الأورمان، وأن تشعر الحواضر والأقاليم بأن الجامعة صورة من صنع الخيال
والحق أن الجامعة أرادت لأبنائها ما لم يريدوا لأنفسهم، هي أرادت أن يكونوا مفكرين، وهم أرادوا أن يكونوا موظفين، وبين الإرادتين فرق بعيد
ومن أجل هذه الأسباب ضاعت محاولاتي في خلق الموسم الثقافي لخريجي الجامعة المصرية، وهو موسم دعوت إليه منذ أعوام ولم أجد من يستجيب، إلى أن لاحت فرصة لا يجود بها الزمان، إلا في أندر الأحيان
فما تلك الفرصة الذهبية؟
رأيت جماعة من خريجي الجامعة يتشكون على صفحات الجرائد من قلة الرواتب، فأسرعت إلى نهيهم عن هذا التشكي، وأفهمتهم أن للجامعة رسالة غير رسالة القوت، وأن مبدأنا أن نجوع لتشبع الأمة، وأن نتعب لتستريح. . . وهل تعرفنا الجامعة إن صرنا طلاب أموال، لا عشاق آمال؟
وسمع خريجو الجامعة صوتاً لم يسمعوه من قبل، فدعوني لأشرح لهم رأيي، فقلت: إني لا أثق إلا بمن يحلفون على المصحف، فقالوا: إن اليمين لا تطلب إلا من المرتابين، وستري كيف نصدق بدون يمين
كان ذلك في يوم جمعة من شهر رمضان، فهل تكون الأقدار أرادت أن توقظ المعاني الروحية في أنفس الجامعيين، بلمحة كريمة من لمحات شهر الصيام عن الآثام؟
أؤكد لكم أني لم أكن أنتظر أن يتقبل أولئك الشبان هذا الصوت بمثل ذلك القبول، فقد ابتلتهم الأيام بعصر منحرف عن المعاني. وهل فينا من ينكر أن الموظف الذي يزيد مرتبه عن زميله خمسة قروش يعتقد إنه أرقى من ذلك الزميل؟
البحث عن الدرجات المالية ليس من عيوب الفكرة الجامعية، ولكنه من عيوب الحياة الديوانية. وسيذكر أبناء الجامعة واجبهم، سيذكرون أن إنشاء الجامعة كان في الأصل غضبة على سياسة التعليم للتوظيف، وصاحب الوظيف وصيف، كما يقول أهل تونس الخضراء
ما الذي يوجب أن يبحث الشاب المتخرج في كلية التجارة أو كلية الزراعة عن وظيفة كتابية؟
إن هذه الظاهرة تشهد بأن بعض الكليات تعجز من رياضة أبنائها على الإيمان بما تخصصوا فيه، إيماناً يجعلهم أقطاباً فيما تخصصوا فيه، ويفرض عليهم أن يعينوا الدولة على تحقيق ما تريد من كرائم الأغراض
إني أتمنى أن يقترب اليوم الذي تفرض فيه الدولة على خريجي الجامعة ضرائب فكرية، اليوم الذي يقال فيه إن خريجي الجامعة يملكون ثروات لا يملكها أصحاب الملايين، وإن من الواجب أن تفرض عليهم الضرائب، لتستطيع الدولة أن تقيم أود المنكوبين بالزهد في كرائم المعاني
يجب أن يكون من أغراض الجامعيين أن يطمئنوا الدولة على أن أملها فيهم لم يضع ولن
يضيع
إن هذا اليوم قريب قريب، وسنخلقه خلقاً إن تأبى وامتنع، وسيعلم الذين آمنوا بجهادنا فمنحونا ألقاب الجامعة أن إيمانهم كان الإيمان، وأنهم سلموا راية الجامعة إلى جنود هم الرجال
لقد استضعفنا حيناً أو أحايين، والله قد يمن على الذين استضعفوا فيجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين
ولكن الله على كرمه لا يجود إلا بميزان، ليعلم عباده معنى النظام ومعنى العدل؛ فإن جاز في وهمنا أن الألقاب الجامعية تغني عن الجهاد الموصول في سبيل المجد، فقد ضللنا سواء السبيل

هل تفهمون معنى كلمة (ليسانس) وهي أول درجة من الدرجات الجامعية؟
الليسانس كلمة فرنسية معناها الحرية، وحرية الجسم لا تتم إلا بسلامة جميع الأعضاء، وكذلك حرية العقل وحرية الروح، فلا حرية لعقل تعوزه المواهب، ولا حرية لروح يعوزه الصفاء.
وأشرح كلمة الليسانس من ثانية فأقول:
الغرض من هذه الكلمة هو إعطاء الطالب راية الحرية، الحرية من جميع ما قرأ وما سمع، ليكون من المبدعين
فأين حَمَلة الليسانس من هذا الغرض؟
إن أعفتهم الدولة من تحقيق هذا الغرض فلن يعفيهم الوطن، ولن يرحمهم الله الذي علم آدم في الفردوس ليكون رسوله إلى ممالك الأرض
إن للجامعة المصرية رسالة ندور حولها من وقت إلى وقت، وإن كان لها في أنفسنا صورة لا يتمثلها أبرع فنان، ولو استوحى نجوم السماء
وتلك الصورة هي سبب شقائي، وأنا الجامعي المخضرم الذي ظفر بألقاب الجامعة القديمة والجامعة الجديدة، فماذا صنعت في دنياي؟
إن قصائدي ومؤلفاتي ومقالاتي لا توحي إلى نفسي شيئاً من الازدهاء، لأني أفهم جيداً أن للنبوغ والعبقرية غاية إنسانية لا غاية محلية، فأنا لا أقنع بأن يكون الجامعي هو المصري
الأول، وإنما أسمو إلى أن يكون الإنسان الأول، فاستعدوا للنضال في ميدان تكونون فيه أوائل الأبطال
لا قيمة للأرقام في حياة الوجود، ولن يكون من أسباب ازدهاء الجامعيين أنهم بلغوا بضع ألوف، فالشمس واحدة والقمر واحد، وهما عندنا أنفع من النجوم التي تفوق الإحصاء
وأنا من أجل هذا المعنى لا أقيم وزناً للتضامن الجامعي، لأن التضامن سناد الضعفاء، أعاذني الله وأعاذكم من وباء الضعف. وهل تتجمع في الأرض أمة كما تتجمع أمة النمل؟
الجامعي الحق هو الذي يسير في كل ارض وفي عقله فكرة الجامعة، كما يسير المسلم في كل ارض وفي روحه هدى المصحف
كونوا آحادا، ولا تكونوا جماعات، فالوحدانية هي العقيدة التي ارتفع بها الشرق، وبها ارتفع الغرب، إن كنتم تذكرون طلائع النهضات في التاريخ
إن الأدب الإسلامي أوصاكم بالتخلق بأخلاق الله، وأعظم صفات الله هي صفة الوحدانية. ولن يكون للتضامن قيمة إلا أن كان أرقاماً صحاحاً تضاف إلى أرقام صحاح، وأعيذكم أن تكونوا أصفاراً تزيد قيمة الرقم الصحيح
الصفر وحده عدم، ثم تكون له قيمة إن تضامن مع الرقم الموجود، فماذا تريدون بأنفسكم، يا أبناء الجامعة في هذا الجيل؟
أنا أحب لكم ما أحب لنفسي، وأنا أكره أن يكون لأي مخلوق عليّ سلطان، فتحرروا من بوارق الدنيا كما تحررت، ليسبغ الله عليكم نعمة الأدب الرفيع
لا تنشروا بعد اليوم على صفحات الجرائد شكايتكم من قلة الرواتب، فإن سطراً تكتبونه صادقين هو الرزق النبيل. وذكاء المرء محسوب عليه، كما قال الأسلاف
العقيدة الادبية والعلمية هي الأبوة الكريمة للرجل الحصيف، فلا تعرضوا مواهبكم لليتم الدميم. . . وفي الناس أيتام آباؤهم أحياء!
يجب أن يكون للجامعة في كل ميدان جنود. يجب أن يكون إليها الرأي في جميع المعضلات الأدبية والفلسفية والتشريعية والهندسية والطبية والعلمية
ويجب أن يكون الجوع أشرف قوت يقتات به الجامعيون الأصلاء
أتروننى أسرف في الأماني؟
إن قلتم هذا القول فإني أجيب بأن ليس في الخير إسراف
لقد كانت بلادنا أول مشرق للعلوم والآداب والفنون، وكانت وثباتها العلمية والأدبية والفنية موكولة إلى رجال لا يقيمون وزناً للأقوات، فكيف نيأس وتأخرنا المادي هو الشاهد على صدق بنوتنا لأولئك الآباء؟
أما بعد فماذا أريد أن أقول؟

لم أقل شيئاً، لأني قلت أشياء، وبعض الإيجاز أبلغ من الإطناب
الهدف الأدبي لهذا الموسم هو أن نخلق للقاهرة شواغل جدية، بعد أن طال عهدها
باستصغار قيمة الوقت، وبعد أن كان غذاؤها لا يزيد عن اجترار القيل والقال
الهدف الأدبي لهذا الموسم هو أن ننطق بعض الكليات التي لا تنطق!
الهدف الأدبي لهذا الموسم أن ننقل القاهريين من الاختصام في التوافه، إلى الاختصام في الحقائق
باسم الله نفتتح هذا الموسم، ولن يتخلى الله عن بناء كان اسمه أول ما سطر على
حجر الأساس (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون)
زكي مبارك
في الغاب
للأستاذ عبد الحليم عباس
قلت لصاحبي، ونحن نعتسف الغاب، نطامن من رأسينا لنتقي أذرع الشجر المتشابكة والممتدة في غير استواء، ونراوغ في السير مخافة أن نصطدم في فرع شائك، أو تزل بنا القدم في هذه الأرض الوعثاء. يشبه السير في الغاب، السير في الحياة. أعني، لابد من المراوغة. فعقب وهو ينحى فرع شجرة، ولابد من أن يطامن المرء من رأسه - كما أفعل الآن - لينجو من الصدمة. . .
حسن، فنحن في هذه الغاب، نمثل قصة الأحياء، أعني أن كل حي يطامن من رأسه - - في حال من الحالات - ويراوغ في مشيته، في شوطه المقدور، في دروب الحياة، كما نفعل الآن، حذوك النعل بالنعل، هذا إن أراد أن يستقيم معه الأمر. وإن ركبه الغرور فمشى رافع الرأس، مستقيم الخطوة، فلابد من صدمة يبين أثرها في وجهه، أو في جسده أو. . . يخر صريعاً إن كانت الصدمة قوية بالغة. . . ولكن قل لي هاهنا الشجر والحجر يصدم السائر، وفي الحياة. ماذا؟
- إرادة الأحياء العنيدة الضاربة في النفس، كجذور هذه الشجرة، المستحكمة في باطن الأرض - وراح يهز شجرة سنديان استحكمت ساقها، ونفض من فعل الزمن، ويتطلع فيّ، فعل المفكر المتألم
- إرادة الأحياء لفظة شاملة، وفي الشمول غموض وإبهام. ولكن قل لي: نستطيع أن نجتث هذه الأشجار، فيصبح السير فيها - الغاب - بخطوات مستقيمة وخدود مصعرة، وقلوب أمنت أن يفاجئها من بين ملتف الشجر، وخفي الأحجار حيوان مؤذ مفترس، فكيف نجعل الدرب في الحياة كهذه؟ أتنفي منها إرادة الأحياء؟ ومعنى هذا أن ننفي منها الأحياء. وقد قال بهذا كثير من المفكرين، ولكن قولتهم هذه لم تتحقق في الواقع، لأن الحياة أقدر على المحافظة على ذاتها من أن تذهب وتمحوها كلمة من يائس
- فماذا تمحو من الحياة؟
- شيئاً واحداً ليصبح السير فيها كالغاب بعد أن تجتث جذور أشجارها
. . .فزم ما بين عينيه، وقال: أمحو منها القوة، فيصبح الإنسان آمناً، والأمن هو الحياة
. . .وتابع قوله: ولكن من القوة ما هو جميل، وللخلق والإنشاء. . . أريد القوة الظالمة
- اسمع يا صاحبي. أقوى ما في الغاب الأسد، وليس هو شر ما فيها، يأتي الفريسة، فيدلها على نفسه، بفضل قوته المرعدة فتتقيه، وقد تنجو. ومن الضعف ما هو ظالم، أنسيت النفاق؟ وما قولك في الكذب؟ أليس ضعفاً؟ وما نلقى منه شر البلاء فأطرق صاحبي، وفي إطراقه قفز من بين يديه (ابن آوى) فجفل من المفاجأة، ولما تحققه يستن في عدوه، صاح: لقد وجدتها! أمحو منها هذا؟ جنس الثعالب؛ الثعلبة، بربك. ألا تراني مصيبا؟. . .
- أتمنى أن أراك مصيباً اليوم، ولكن لو محوتها لبقيت الغاب بعدها غاباً، تطامن لها رأسك، وتراوغ في مشيتك، وتقف عند حنية لتجمع نفسك، وتلم قوتك من حيوان متوثب، أو وحش غادر، كشأنك في الحياة؛ فالثعلب جنس من أجناس. وثعالب الأحياء كل خستها أنها تمشي إلى مطلبها بين مظاهر الجبن والتدليس، وهي تلقى جزاء خستها هذه. أنها تخشى افتضاح أمرها، وانكشاف مهارتها الحقيرة. وإن أحقر منها وأحقر، جنس الأفاعي: تطل برؤوسها وجلة، ثم تنساب ناعمة، لا يسمع لها حفيف، إلى الضحية الساهية اللاهية، ثم تنهشها لغير ما فائدة، إلا حب الأذى ولذة الإجرام. . .
أرأيت الحية؟ أنتبه. إنها أخطر ما في الغاب

- وهل هي أخطر ما في الحياة؟ أو رأيتها أنت؟
- لقد رايتها كادت تنهشني؛ لولا أني فطنت لها، فركلتها فعادت تتغذى من التراب. ومن العجب أنها تضع على عينها دوماً منظاراً، ولها صوت موسيقي ناعم جذاب. وهكذا ترى انك كلما محوت جنساً نبتت لك أجناس، وكلما أردت أن تقضي على نحيزة نجمت لك نحائز ثم. . .؟
- لم يبق شيء عندي، أراك معنثاً اليوم. هات وخلني أنا السائل، وستراني لا أقل عنك إعناتاً. الهدم أسهل من البناء
- هكذا تقول، وليس هو عند الحق كذلك، ليس الهدم بأسهل من البناء
- كيف؟ سنتكلم في هذا مرة أخرى. والآن. أليس كل ما في الغاب يطلب أن يعيش وهو يصطنع لهذا مطالبه الخاصة: ثعلبة، مراوغة، قوة، إلى آخر هذه المسميات. . . وكذلك الشأن في الحياة والأحياء. . . ما رأيك لو جعلنا العيش ميسوراً لكل طالب. . . ألا تمحي المنازعات وتذوب الشرور، ويمشي الإنسان ثابت القدم، مرفوع الرأس. كل ما أطلبه أن تمحى أنا، وتحل محلها نحن. ليتم كل شيء
- ولكن تبقى الغاب بعد هذا غاباً، وحيوان الغاب من طبعه الافتراس. إنه يعقل. أرأيت ثعلباً يفترس ثعلباً؟
- لا. . . وهذه نقطة الاختلاف عن بني الإنسان. فالناس جنس والغاب أجناس، هذه هي الطبيعة، ولكن (أنا) جعلت كل واحد جنساً متميزاً بذاته، منفصلاً عن بقية جنسه. فكل (أنا) لابد من أن يطامن من رأسه ويزحف على بطنه حذرا من (أنا) الثانية والثالثة. أما (نحن) فلا نمشي إلا مرفوعي الرؤوس. أمح قليلاً من (أنا) غير آسف. لو كان الغاب ملكاً لفصيلة واحدة، أكان يمشي أبناؤها وجلين مروعين، كما يمشي البشر في درب الحياة. . . أينا أعقل؟ إن جماع الرذائل في هذا الزائد في (أنا) عن حاجة المرء في الحياة. . .
- أو يكون ذلك؟
- سيكون في يوم ما، إنها الضرورة، أن الإنسانية لتعيش مروعة من الذل والخراب والجوع. وإنك لتعرف أن القلق حالة طارئة وأن الشيء الطبيعي هو حالة الاستقرار. وإلى أن يجيء هذا خلنا نضحك من زرادشت، ونردد قولته، ولكن على غير قصده وهواه. . . أهذه هي الحياة؟
هاتها إذن مرة ثانية وثالثة.
وأخيراً يا صاح هانحن أولاء أنسانا الحديث متاعب الطريق، واستحققنا متعة هذا المرح الضاحك النضير.
(شرق الأردن)
عبد الحليم عباس

أطوار الوحدة العربية

ثورة العرب الكبرى

للأستاذ نسيب سعيد

قلنا في حديثنا الماضي إن الطور الثالث (للقضية العربية) يبدأ بإعلان الثورة الكبرى رسمياً يوم 10 يونيو عام 1916، ونزول العرب إلى ميادين الصراع والكفاح، وينتهي بإرسال الحسين بلاغه ما أجملناه أمس، ونقول: إن (القضية العربية) كانت في خلال هذه المرحلة - وقد امتدت عامين ونيفا - عرضة لتيارات مختلفة، وعوامل متناقضة، لأنها أعظم الأطوار التي اجتازتها شأناً. وقد ظن بها الكثيرون من كبار السياسيين الظنون، واعتقدوا أنه قد لا يكتب لها التغلب على المصاعب التي أحدقت بها من كل جانب، فكان جمال السفاح يهاجمها من الداخل بكل قواه، ويبذل جهوده للقضاء عليها، والتخلص منها فيتم بذلك عمله الأصلي، ويقضي على كل حركة عربية، فينال إكليل الغار والظفر. ولا ريب أن فشله في احتلال مكة وفي إنقاذ الحجاز أفقده ما كان يتمتع به من نفوذ في دوائر الأستانة، وجعل حكومتها تقلص ظله، وتنقص سلطته تدريجياً حتى جردته من كل حول وطول، فطلب أن يقال، وكانت الحرب في عامها الثالث، فأقيل وعاد حزيناً مغموماً إلى الاستانة، يعض كفيه شجناً وأسى، وقبع في وزارة الحربية هناك ينتظر ما خبأه له القدر، ولم يطل به المقام حتى فرّ إلى روسية فعاش

فيها شريداً طريداً، ومات قتيلاً منبوذاً، وتلك عقبى الطاغين
ويجب علينا أن نعترف في هذا المقام أن معظم الفضل في إنقاذ الثورة، بل في إنقاذ القضية العربية في هذا الدور يعود إلى الجهود الخاصة التي بذلها الحسين وأولاده في الأشهر الأولى للثورة الكبرى، ولولا ذلك لتم لفخري باشا القائد التركي العام بلوغ مكة، واحتلالها، والقضاء على الثورة في مهدها
وعلى كل حال لابد لنا قبل الحديث عن حوادث الثورة ووقائعها، من دراسة مقدمات هذه الثورة وأسبابها وعواملها فقد يساعد هذا الدرس - كما نعتقد - على استخراج نتائج إيجابية تنير السبيل، وتجلي الحقيقة عن ثورة العرب الجبارة
وإذا أردنا البحث عن أسباب الثورة ومقدماتها، يجب علينا قبل كل شيء، استعراض علاقات العرب بالترك منذ اتحدا في ظل الهلال العثماني خلال القرون الوسطى، يوم كان للوازع الديني المقام الأول، وكان الشرق يعيش في عزلة تامة عن الغرب، ويدور في دائرة ضيقة من التقاليد والأساليب، تسللت إليه من أسلافه الأولين، وأجداده الأقدمين؛ فكل من يستعرض هذه العلاقات بين الأمتين المسلمتين، يسلم بأن العرب لم يجدوا غضاضة في الخضوع لسلطان العثمانيين حينما فرق يوم مرج دابق جيش السلطان (طومان باي خليفة الغوري) آخر المماليك المصريين، وتقدم إلى دمشق، فالقدس، فالقاهرة فاتحاً، فقد رحبوا به في كل بلد من بلدانهم، وقطر من أقطارهم، وبلغ من شريف مكة يومئذ وهو الأمير بركات أن أرسل إلى القاهرة من حمل إلى السلطان المنتصر كتاب بيعته ودخوله في طاعته، وبهذا الاعتراف اكتسب لقب خادم الحرمين الشريفين. والتعليل الصحيح لهذه الظاهرة الاجتماعية هو الفكرة الدينية ولاشك، فقد سرى في ذهن العرب من أبناء هذه الأقطار أن في تأييد السلطان الجديد تأييداً للإسلام وإعلاء لشأن الشريعة السمحاء فبايعوه سيداً وإماماً
وهبت على ديار الغرب بعد الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر ريح القومية، وتنشق العالم نسمات روح جديدة، حاملة معها حضارة الغرب الحديثة؛ وكانت بضاعة القومية في جملة صادرات الغرب الجديدة إلى الشرق القديم، فجاءت تجر ثوباً قشيباً فضفاضاً يغري ويفتن؛ إلا أن تأثيرها ظل محدوداً خلال القرن الماضي بسبب الجهل الذي كان مسيطراً وسائداً. حتى إذا بدت طلائع القرن الجديد شرع العرب ينتعشون تدريجاً، ويفتحون عيونهم لاستقبال نور الحياة المشرقة عليهم، المهيبة بهم إلى النهضة والعمل، لاحتلال المنزلة اللائقة بين الأمم. بدأت هذه الروح القومية الجديدة تهب عليهم نسمات خفيفة رقيقة، ثم أخذت تتابع وتقوى بتقدم الأيام والليالي، حتى كانت الحرب العظمى الماضية فإذا بتلك النسمات الرقيقة قد أصبحت ريحاً صرصراً عاتية، بل عاصفة هوجاء تتلاعب بالأمة العربية، وتقذف بها ذات اليمين وذات الشمال.
وما زال العرب اليوم يعيشون في وسط هذه العاصفة، وفي ملتقى التيارات المنصبة عليهم من كل صوب وناحية فإذا نحن تقصينا الأثر البارز للقوى العظيمة المتفاعلة وإياهم وجدناه في هذه الهبة القومية التي تدفعهم إلى استكشاف نفسهم، وتحرير أفرادهم ومجموعهم، واستعادة سالف مجدهم، وإثبات مكانتهم في المجتمع البشري.
وما من أحد يلمس الحياة العربية الحاضرة إلا ويشعر بهذه الهبة المرتفعة من صدور العرب في شتى أقطارهم، المبشرة بنهضة جديدة، يرجى لها ما كان لسابقتها في العصور الوسطى - من عز منيع، ومجد رفيع، ومساهمة ذات شأن في تقدم التمدن الإنساني، والحضارة العالمية
وكما هبت ريح القومية على العرب، كذلك هبت على الترك حتى أن بعضهم تشبع بفكرة القومية الطورانية، فكان ذلك مقدمة تحول عظيم في صلات الأمتين العربية والتركية، وقد ختم هذا الدور (23 يوليو عام 1908 - 30 أكتوبر عام 1918) بانفصالهما عن بعض بعدما عاشا متحدين مدى أربعة قرون، يخضعان لنظام واحد، ولعلم واحد؛ فانهار بذلك الانفصال بناء الإمبراطورية العثمانية، وقام مقامه صرح جمهورية أنقرة الجديدة، كما قامت هذه الدول العربية المنبثة في بلاد العرب من أقصى الجنوب حتى أقصى الشمال
أما الخلاف العنصري الذي نشأ بين العرب والترك، فمقدمته كانت - ولاشك - قضية إبعاد العرب عن وظائف الدولة؛ وقد بلغ اشده عن طريق الصحافة، إذ كانت الصحف التركية الجديدة تدعو إلى تعزيز القومية الطورانية، والتحامل على القوميات الأخرى،

وتحض الحكومة على مقاومتها والقضاء عليها. ولم تقصر صحافتا الترك والعرب في التراشق بالألفاظ والجمل، والغمز واللمز، كما لم يقصر شعراء الأمتين في نظم القصائد والمقطوعات التي تزكي نيران القومية في القلوب.

أضف إلى ذلك عمل الكتاب العرب الذين نزحوا إلى وادي النيل السعيد، فقد أذكوا روح القومية العربية بما كتبوا ونظموا، فكان عملهم أشبه بعمل روسو وفولتير ومنتسكيو وديدرو في إذكاء ثورة فرنسا الكبرى سنة 1789

تلك هي إذن مقدمات الثورة العربية وأسبابها البعيدة، أضف إليها عمل الجمعيات العربية بصورة خاصة. أما الأسباب القريبة أو المباشرة لها، فهي تصرفات جمال السفاح ومظالمه التي ريعت لها دنيا العرب، وجزعت، فعجلت في إضرام ثورة لا تبقي ولا تذر، حتى قبل أن تعد معداتها وتهيئ أسبابها، بل وقبل أن يأتي أوانها؛ مما أثر في تطورها وحال بين العرب وبين اجتناء الثمرات التي كانوا يرجون اجتناءها في ختام جهادهم الأكبر، كما كانت سبباً في تنفير الرأي العام المتمدن من الاتحاديين الترك واحتقاره لحكومتهم

وكيف لا يجزع العالم العربي لتلك المظالم التي أقدم عليها جمال السفاح، وتلك الفظائع التي

ارتكبها رجل الظلم والإرهاب من شنق أحرار العرب والتنكيل بأسرهم والتقليل من أمجادهم، مما لم يعرف التاريخ في صفحاته له مثيلاً؛ وكذلك كان لبعض رجال العرب من الذين أفلتوا من قبضة الظلم والإرهاق فلجئوا إلى مصر والعراق والحجاز، يد كبيرة في إثارة (الرأي العام العربي) على الترك، وتنفيره منهم، وتفهيمه (القضية العربية) على وجهها الصحيح، وفي إعداده للثورة الكبرى والغضبة المضرية العظمى طلباً للثأر والانتقام، كما بكى شعراء العرب وكتابهم في مصر والعراق والحجاز وأمريكا الشهداء الأبرار، مستنزلين سخط العالم المتمدن على الطغاة الظالمين

ويجب علينا هنا قبل الحديث عن وقائع الثورة وحوادثها أيضاً درس العلاقات التي كانت قائمة بين زعيم الثورة شريف مكة، وبين الاتحاديين الترك قبل الحرب الماضية، فإن هذا الشريف لم يبق في استطاعته أن يتجنب الاصطدام بالترك، وأن يحجم عن مصارحتهم الشر والعدوان بعد ما وصلت الحالة في بلاد العرب إلى الدرجة القصوى من الانحطاط والعدوان، رغم اصطناع المودة بينهما، وقد ظل كل فريق يبديها للفريق الأخر حتى اللحظة الأخيرة لظهور نيات الترك واضحة جلية إزاء (الحسين) شريف مكة، وإزاء أولاده أولاً، وإزاء قومه العرب ثانياً، وما كان هؤلاء يضمرون شراً للدولة العثمانية؛ وما كانوا - علم الله - يتمنون زوالها أو الخروج عن طاعتها لولا إنها بادتهم الشر

والواقع إنه كانت هناك جملة عوامل بعضها شخصي، وبعضها قومي، وبعضها ديني ترغم (الحسين) على التفكير فيما فكر فيه قبله عزيز مصر الخالد (محمد علي الكبير) في العمل على وحدة العرب، وضم شملهم، ولم شعثهم، وتأسيس دولة عربية كبرى لهم، تعيد مجدهم التليد، وعزهم المجيد. وهذه العوامل نفسها هي التي أهابت (بالحسين) لركوب هذا المركب الخشن، الوعر المسالك، العويص المرامي واضطرته إلى أن ينقض عهده مع الدولة العثمانية، وساقته إلى محالفة بريطانيا العظمى بعدما عرضت عليه من الشروط الرائعة ما يغري كل عربي، وأعلنت استعدادها لتنفيذ كل ما يطلبه. فأهم العوامل المباشرة للثورة العربية الكبرى إذن هي:

1 - العامل الشخصي
2 - العامل الإقليمي
3 - العامل القومي
4 - العامل الديني

وسنتحدث في مقالنا المقبل عن هذه العوامل مفصلاً فإلى اللقاء

(دمشق)

نسيب سعيد المحامي

إلى المجمع الملكي للغة العربية

للأستاذ نجيب شاهين

أمنية ورجاء

تتناقل صحفنا كلمات ليست من كلام العرب، وأعلاماً لأمكنة تخالف في صورتها ما كان معروفاً عندهم وما نقله مؤرخوهم لنا، فإذا دام الحال على هذا المنوال لم تمض السنون حتى يرى الخلف لغة لم يعرفها السلف كما طرأ على لغات أوربا مع فرق. ذلك بأن ما طرأ عليها تجديد، وما يراد إدخاله على لغتنا مسخ وتشويه يذهبان بها بعيداً عن الصورة التي أنزل القرآن بها. وإليكم بعض الأمثلة فراراً من التطويل:

لا زالت

لا زالت لفظة للدعاء ومدرسو مدارسنا لا يفرقون بينها وبين ما زالت فينشأ الطلاب على هذا الخطأ. وهؤلاء الطلاب هم كتاب صحفنا اليوم. ومن الغريب أن الإذاعات العربية في الخارج تقع في هذا الخطأ مؤتمة بمعظم صحفنا وبإذاعتنا

قاصر بدل مقصور

في كتاب قواعد اللغة العربية الذي كان يدرس في المدارس ووقف عليه جهابذة اللغة، لفظة قاصر بدلاً من مقصور. ووقع في هذا الغلط ابن خلدون. ومن غلطاته جمع صناعة على صنائع، وعادة على عوائد دائماً لا يشذ عن هذا. وكلاهما غلط شائع

شؤون

ويكتبونها شئون بالنبرة أو كرسي الياء مع أن ما قبلها مضموم، ولا فرق بينها وبين رؤوس أو رءوس جمع رأس. أنظر كتابتها في لسان العرب مثلاً، فلماذا نكتب شئون ولا نكتب رؤوس. وكنت قد كلمت المرحوم الشيخ الإسكندراني في ذلك فوافقني وكتب شؤون بواوين في مجلة المجمع

جبهة

أي ميدان أو ساحة أو حلبة. وصحافيونا أو صحفيونا بحثوا عن كلمة ? فيما يسمونها القواميس من إنجليزية وفرنسية فوجدوها جبهة، ومعنى جبهة هنا جبين أو مقدم الشيء. وقد استعار القوم الجبهة للميدان فلماذا نتابعهم وعندنا مترادفات كثيرة له

بواسل

كلمة شجعان ما لها؟ ولكن جميع الكتاب والمترجمين يقولون بواسل. وبواسل جمع باسلة أو باسل لغير العاقل ومعناه الأسد. وهي خطأ لباسل العاقل إذ لم يسمع جمع فواعل لفاعل العاقل غير ثلاث كلمات وهي فوارس وهوالك ونواكس. ورأيت في كتب اللغة عواجز جمع عاجز وتوابع جمع تابع أي خادم، ودوارس جمع دارس للعاقل. وفي ذلك تفصيل ليس هذا محله

سمى

لا تجد في أنباء المواليد في معظم الصحف سوى قولهم: (ولد لفلان ولد أسماه لا سماه)، وعند ذكر المصدر يعودون إلى مصدر سمى تسمية لا إلى مصدر أسمى إسماء. وليس في القرآن سوى سمى. نعم إن أسمى صحيحة، ولكنها مرجوحة مهجورة حتى صارت كالمماتة. وفي القرآن أسماء سميتموها

أفاد مكان استفاد

ومثلها أفاد بمعنى استفاد، فلماذا نلجأ إليها مكان استفاد وهي هي الصحيحة والغالبة والمسموعة في لغتنا السماعية. وفي أفاد بمعنى استفاد أقوال. جاء في المصباح: (وقالوا استفاد مالاً استفادة وكرهوا أن يقال أفاد الرجل مالاً أي استفاده، وبعض العرب يقوله) انتهى أي إنه لغة في استفاد ومعنى لغة هنا قليل وفي الحق أن استعمال أفاد مكان استفاد فيه لبس لا لزوم له إلا إرادة الكاتب للبس وإيهام القارئ.

كبد وتكبد وتكبيد

وكم يقول لنا المترجمون والإذاعة من ورائهم بالطبع كبدنا العدد خسارة، وتكبد خسارة، وتكبيده الخسارة، يريدون حمل وتحمل وتحميل مصدر حمل. فإذا أرادوا تكبد فصحتها كابد. أما تكبد فمعناها نزل في الكبد كقولنا تكبدت الشمس السموات نزلت في كبدها أو كبيداتها

تعريب وترجمة

إنما كانت لفظة تعريب بمعنى ترجمة أكثر الغلطات الحديثة شيوعاً حتى على أقلام أشهر الكتاب، فيقولون لك أنهم عربوا مكان ترجموا، وتعريب مكان ترجمة، وإنما

يسمون ترجمتهم تعريباً ظناً منهم - وبعض الظن إثم - أن الترجمة (عرة) خلافاً للخليفة أبي جعفر المنصور الذي انتدب بعض أعلام عهده لترجمة بعض الكتب اليونانية فكان ذلك أعظم ما عمله من أعمال النهضة العربية أو (الرينسانس العربي)

غلطات النسبة

يقولون: الألمان بالرفع والنصب والجر ترجمة عن الفرنسية. ودرجت صحفنا إلا واحدة على ذلك بغير مراعاة لقواعد النسبة، ومع ذلك تراها تقول إيطاليون وإيطاليين لا إيطاليان ولا طليان، وبريطانيون لا بريطان، وأمريكيون لا أمريكان. وسمعت ألفاظ الروس والبلغار أو بلغر والترك والعرب والعجم والديلم ولكنها ألفاظ سماعية لا يقاس عليها

شخصية

وفي الإفرنجية لفظة برسوناج أو برسوندج وهي نسبة إلى الشخص، ويريدون بها شخصاً معروفاً ترجمتها كتب الترجمة التي نسميها قواميس شخصية فتلقف مترجمونا هذه اللفظة وجعلوها بمعنى شخص كبير. فقالوا وحضر الاحتفال كثيرون من الشخصيات البارزة يريدون الأشخاص والشخوص وقديماً قال عمر بن أبي ربيعه:

فكان مجني دون من كنت أتقي ... ثلاث شخوص كاعبان ومُعصر

والصحيح أن يقال وحضر الاحتفال كثير من الشخوص البارزين أو كثير من الكبراء. أما الشخصية فنسبة إلى الشخص تقول فلان ذو شخصية بارزة مثلاً إذا كان لابد من هذا القول والا فقل كثير من أعلام الرجال

الأعلام

أكثرت الصحف هذه الأيام الكلام عن بحر قزوين، وهذا الاسم غير معروف لهذا البحر، بل إن قزوين مدينة في فارس أو إيران بعيدة عن البحر في الداخلية، وسمى الفرنجة البحر

كازبيان أو كاسبيان، ونقلته كتب الجغرافية الأولى في العربية قزيين. واسمه العربي بحر الخزر أو طبرستان. وفي الخرائط المدرسية هذان الاسمان، وهكذا ضبطا في خريطة بلاد العرب القديمة التي وضعها المرحوم أمين بك واصف ووقف عليها المرحوم أحمد زكي باشا.

دهلي لا دلها

دلهي الإنجليزية هي دهلي العربية وضبطها ابن بطوطة بكسر الدال. وبقي الإنجليز يحرفون سواكن إلى سواكم حتى عهد قريب ثم عادوا إلى رشدهم. فلتعد صحفنا إلى رشدها في لفظة دهلي وقد كانت من أعاظم مدائنهم هناك في القرون الوسطى.

أفريقية لا أفريقا

هكذا وردت في التواريخ العربية ومنها ابن خلدون لا أفريقيا بالألف ولا أفريقا وزان أمريقا كما تخرج مضخمة من فم مذيعنا الفاضل. ومن شاء أن يكتب أمريكا أو أميركا كاملة، وأما أفرقية فهكذا كتبت منذ قرون. وعند المجمع العربي السوري أن تكتب الأعلام العربية التي على مثالها بالتاء كلها فيقول فرنسة وأنجلطرة وإسبانية وروسية إلى آخر ما هناك.

قبرس

جميع الأعلام اليونانية المعربة تعرب بحرف السين في آخرها لا الصاد مثل: قبرس ورودس وساموس وبطرس وغيرها إلا قبرس وبولس ومرقس فإن بعض الكتاب يحاول كتابتها بالصاد وهذا خطأ، فقد عربت بالسين في الأناجيل وفي التواريخ العربية القديمة ورأيت قبرس مرة بالصاد في ابن خلدون.

الأعلام المعربة بال التعريف

وحبذا لو عني المجمع فوق هذا كله بتوحيد كتابة الأعلام الإفرنجية المؤنثة المعرفة بأل التعريف وهي كثيرة مثل البرازيل والروسيا والبلجيك والمرتينيك والأرجنتين وغيرها مما لم يسمع في العربية القديمة

طبرق وليبيا

ومن الأعلام التي يصر مذيعنا على التلفظ بها خطأ طبرق فإنه يلفظها بفتح الطاء وكسر الراء وقد نقلها الفرنجة واللفظ بالضمتين، وضبطها أحمد حسنين باشا طبروق بالواو وضبط معها ليبيا بالياء في كتابه المشهور (في صحراء ليبيا) وفي ترجمة الإنجيل

وردت (ليبيه) بالهاء
هذا بعض من كل أعوذ بالمجمع الكريم منه فلعله يدبج لنا رسالة فيه وينشرها لزيادة الفائدة؛ ولاسيما أن هذا العمل من اختصاصه وهو يقطع به قول كل خطيب ويحفظ للغة شخصيتها وينقيها من شوائب دخيل لا حاجة بنا إليه؛ وفيه فوق ذلك تشويه لها يبعدها عن شخصيتها النقية القديمة ويدنيها من شخصيات لغات لا تمت إليها بصلة وتفسد عليها شخصيتها

نجيب شاهين

خزانة الرءوس
في دار الخلافة العباسية ببغداد

للأستاذ ميخائيل عواد

تمهيد

اشتهرت دور الخلفاء بكثرة المرافق، كالغرف والصحون، والرواشن، والحدائق، والبرك، والأحيار لأصناف الحيوان، والبساتين لأنواع الطيور، ومواطن الأنس والتنزه، وغيرها

وكانت الخزائن في طليعة ما تضمه دار الخليفة. وقد كانت متعددة متباينة. فللكتب خزانة، وللسلاح خزانة، ومثل ذلك قل عن الكسوة والفرش والسروج والأدم والبنود والمال والطعام والشراب والتجمل والجوهر والطيب وغيرها. (وكان الخليفة يمضي إلى موضع من هذه الخزائن؛ وفي كل خزانة دكة عليها طراحة، ولها فرّاش يخدمها وينظفها طول السنة وله جار في كل شهر فيطوفها كلها في السنة)

وأمر هذه الخزائن وما تحويه من مختلف الأشياء مشهور معروف في كتب التاريخ والأدب، ولكن هنالك خزانة ندر ذكرها بين الخزائن. أمرها عجيب غريب، لم نسمع بها إلا في دار الخلافة العباسية ببغداد. تلكم هي (خزانة الرءوس)!

فلا سلاح فيها، ولا طعام، ولا شراب، ولا لباس، ولا كتب، بل كل ما فيها رءوس بشر، بدرت منهم إعمال أدت إلى قطف رءوسهم حين أينعت وإيداعها في هذا المستقر والظاهر أن هاتيك الخزانة كانت واسعة، وضعت فيها الرءوس في أسفاط من البردي والخيزران ونضدت في رفوف

فبعد أن يؤتى بالرءوس، توضع بين يدي الخليفة فيشاهدها هو ورجال دولته، ثم تنصب أياماً على بعض المواطن البارزة من البلد؛ فيراها الناس وتكون عبرة لمن اعتبر، وتحط بعد ذلك، وتسلم إلى الموكل بأمرها فيعمل على إصلاحها وتنظيفها وتفريغ أمخاخها، ورفع باقي أجزائها المعرضة للتلف والفساد، ثم طليها بالأدوية القابضة الماسكة لضمان بقائها كالصبر والكافور والصندل، وإلصاق رقعة صغيرة على كل رأس كتب عليها اسم صاحبه، وتاريخ قطافه، وما جدر ذكره. وقد أضيف إلى بعضهم العبارة التالية: (هذا جزاء من

يخون الإمام ويسعى في فساد دولته) أو (هذا جزاء من عصى مولاه وكفر نعمته)

وقد انفردت هذه الخزانة على ما بلغنا بوجود يد واحدة؛ هي اليد اليمنى لأبي علي بن مقلة الوزير، العلم المشار إليه في حسن الخط. وهو الذي قال فيها بعد قطعها: (قد خدمت بها الخلافة ثلاث دفعات لثلاثة من الخلفاء، وكتبت بها القرآن دفعتين، تقطع كما تقطع أيدي اللصوص!). فليت شعري، ألا تكون هذه اليد قد كتبت أيضاً بعض رقاع هذه الرءوس! وهي الآن حبيسة هذه الخزانة، شريدة غريبة بين الرءوس؟

وقد رتب لهذه الخزانة غير موكل يقومون بأمرها ومداراتها، واستقبال الرءوس الجديدة

وما ورد في التاريخ بصدد الرءوس شيء كثير، نورد في مقالنا أهمه وأبرزه

حفظ الرءوس في خزانة الرءوس - 1

رأس يلبق، رأس علي بن يلبق، رأس مؤنس، رأس يمن الخادم، رأس ابن زيرك (1):

كانت سنة 321 للهجرة مشحونة بالأحداث الجسام التي وقعت في دولة بني العباس.

وكان بعض النفر من القواد الأعاجم والموالي قد استبدوا بالأمر، فاضطرب حال المملكة وأمست على شفا هول شديد، وشغب هؤلاء غير مرة وحركوا الجند، وقر رأيهم أخيراً على خلع القاهر بالله واستخلاف أبي أحمد بن المكتفي، فعقدوا له الأمر سراً. فلما سمع القاهر ذلك أخذ حذره، وبث لهم العيون حتى صاروا بقبضته، فاعتقلهم

وغلهم بأغلال الحديد، ثم ذبحهم ذبح الشياه، وأودع رؤوسهم خزانة الرؤوس على الرسم المتبع. وإليك خبر هذه الرؤوس عن أوثق المصادر:

قال مسكويه (المتوفى سنة 421 للهجرة): (. . . ودخل القاهر إلى الموضع الذي كان فيه مؤنس، ويلبق، وابنه معتقلين، فذبح علي بن يلبق بحضرته ووجه برأسه إلى أبيه؛ فلما رآه جزع وبكى بكاءً عظيماً. ثم ذبح يلبق ووجه برأسه ورأس ابنه إلى مؤنس، فلما رآهما لعن قاتلهما، فأمر به فجر إلى البالوعة وذبح كما تذبح الشاة والقاهر يراه. وأخرجت الرؤوس الثلاثة في ثلاث طسات إلى الميدان حتى شاهدها الناس؛ وطيف برأس علي بن يلبق في جانبي بغداد، ثم رد إلى دار السلطان وجعل مع سائر الرؤوس في خزانة الرؤوس على الرسم)

وزاد الذهبي صاحب تاريخ الإسلام على ذلك بقوله (ثم ذبح يمن وابن زيرك، ثم أطلقت أرزاق الجند فسكنوا واستقامت الأمور للقاهر. وعظم في القلوب، وزيد في ألقابه: (المنتقم من أعداء دين الله)، ونقش ذلك على السكة،. . . قال أبو بكر الصولي في كتاب الأوراق: حدثني الراضي، قال: لما قتل القاهر مؤنساً ويلبق وابن يلبق أنفذ رؤوسهم إلي مع الخدم يتهددني بذلك وأنا في حبسه لأني كنت في حجر مؤنس؛ ففطنت لما أراد وقلت: (ليس إلا مغالطته) فسجدت شكراً لله وأظهرت للخدم من السرور ما حملهم على أن جعلوا التهدد بشارة، وجعلت أشكره وأدعو له فرجعوا بذلك)

وروى ابن الأثير (المتوفى سنة 630هـ) قصة هؤلاء ثم أضاف إلى ذلك قوله: (. . . ومضى حتى دخل على مؤنس فوضعهما بين يديه، فلما رأى الرأسين تشاهد واسترجع ولعن قاتلهما. فقال القاهر جروا برجل الكلب الملعون؛ فجروه وذبحوه وجعلوا رأسه في طشت، وأمر وطيف بالرؤوس في جانبي بغداد ونودي عليها: هذا جزاء من يخون الإمام ويسعى في فساد دولته. ثم أعيدت ونظفت وجعلت في خزانة الرؤوس كما جرت العادة. . .)

وقد نقل إلينا شاهد عيان، أعني به ثابت بن سنان (المتوفى سنة 365هـ) خبراً طريفاً عن أحد هذه الرؤوس، فقال: (حدثنا سلامة الطوراني الحاجب إنه لما أخرج إليه رأس مؤنس ليصلحه؛ فرغ الدماغ منه ووزنه، فكان ستة أرطال، وسمعت أنا ذلك من الجفني وكان حاضره)

رأس نازوك، رأس أبي الهجاء بن حمدان (ب)

قام هذان القائدان بفتنة كبيرة أدت إلى خلع المقتدر بالله من الخلافة في يوم السبت النصف من المحرم من سنة 317هـ، وتقليد القاهر بالله، ثم رد المقتدر إليها ثانية في يوم الاثنين السابع عشر من المحرم، أي بعد ثلاثة أيام! فكان جزاء هذين القائدين القتل ودفع رأسيهما إلى خزانة الرؤوس. وقد تبسط في هذا الحادث التاريخي الخطير جملة من المؤرخين، منهم مسكويه، فمما قاله في هذا الشأن أن الرجالة (وصلوا إليه (إلى نازوك) وقتلوه، وقد كانوا قتلوا قبله عجيباً وصاحوا: مقتدر يا منصور. . .)، ثم قال: (وصلب الرجالة نازوك وعجيباً على خشب الستارة التي على شاطئ دجلة. . .)

وواصل كلامه حتى جاء على خبر أبي الهيجاء إذ قال (. . . فرماه خمار جويه بسهم أصابه تحت ثديه، وأتبعه بسهم آخر فأصاب ترقوته، ورماه بسهم ثالث وقد اضطرب فشك فخذيه. قال بشرى: وهو الحاكي لهذه الصورة عن مشاهدة: فقد رأيت أبا الهيجاء وقد ضرب السهم الذي شك فخذيه فقطعه وجذب السهم الذي أصابه تحت ثديه فانتزعه ورمى به، ومضى نحو البيت فسقط قبل أن يصل إليه على وجهه، فأسرع إليه أحد الأسودين فضرب يده اليمنى فقطعها وفيها السيف، وأخذ السيف، وغشيه الأسود الآخر فخر رأسه، فأسرع بعض الخدم فانتزع الرأس من يد الأسود ومضى مبادراً به)

وكان المصير أن (أخرج رأس نازوك ورأس أبي الهيجاء وشهرا في الشوارع، ونودي عليهما: (هذا جزاء من عصى مولاه وكفر نعمته)، وسكن الهيج)، وردا إلى دار الخلافة وجعلا في خزانة الرؤوس

(يتبع)

ميخائيل عواد

كلمات. . .
في يوم 29 أكتوبر الماضي أقامت تركيا الجمهورية احتفالات حكومتها ومهرجانات شعبها بعيد الجمهورية والتحرير قبل ثماني عشرة سنة.
وتركيا القديمة كانت (الرجل المريض) المحتضر الذي تتقاسم الدول كبراها وصغراها مخلفاته وأسلابه. وتتحيف حدودها وتهزم جيوشها دول كانت ولايات محكومة لها بحد السيف؛ تركيا القديمة التي كان شعبها جاهلاً فقيراً مريضاً منحل الخلق متلاشياً، والتي كانت حكومتها وتاجها وخلافتها شخوصاً لا حول لها ولا قوة؛ تركيا المهيضة الجناح قد استحالت في ثماني عشرة سنة إلى دولة، واستحال شعبها أمة لها عزة وكرامة ولها جيش تتحدث صحف العالم به، وأصبحت تركيا الجديدة لها صوت ولها اعتبار وأكثر من اعتبار في معركة السياسة والحرب القائمة، ونحن نعرف ما هي السياسة والحرب القائمة.
نحن كانت لنا نهضة قريبة الاتصال الزمني بالنهضة التركية، أو نستطيع مع التواضع أن نقول: كانت لنا هبة وانتباهة منذ ثلاث وعشرين سنة وكنا نستطيع أن نصل بهذه الهبة وبداية اليقظة إلى ما استطاعت تركيا أن تصل إليه.
والآن عندما نذكر نهضة تركيا ويتحدث الناس أو يكتبون عن تركيا الحديثة في هذه الحرب القائمة: حرب الحديد وحرب العقول والأذهان، نذكر زعماء تركيا وقادة جهادها في هذا السبيل، قادتها في بدء نهضتها وفي تسربها وفي بدء شبابها وشرف كفاحها ونحن كان لنهضتنا زعماء وقادة سنذكرهم بالخير عندما نذكر النهضة المصرية، ولكن يجب علينا أن نتمم ما بدءوه لنصل إلى ما وصل إليه غيرنا من القوة والعظمة (المعتز)

ذات المنظار الأسود

للأستاذ علي الجندي

أقبلت على موقف الترام تتخايل في ملابس الخريف كأنها طاووس!! وقد لاثت على رأسها عمامة رقيقة من لون معرضها زادتها فتنة!! وحجبت عينيها النجلاوين بمنظار أسود براق تختلج من تحته أهدابها الوطف فتمس وجنتيها!! فلما رأت العيون تكاد تلتهمها، ساورتها عزة الحسن وكبرياء الملاحة، فنصت جيدها وطمحت ببصرها إلى السماء كأنها تستشف الغيوب! فقال أحد الظرفاء هامساً:

مَا لِمَنْ تَمّتْ محاسنُه ... أَنْ يعادي لحظَ من نظَرا
لكِ أن تُبدِي لنا حَسَناً ... ولنا أن نُعمِل البصرا

فأجابه ظريف آخر:

وكنتَ إذا أرسلت طرفَك رائداً ... لقلبك يوماً أتعبتْك المناظرُ
رأيتَ الذي لا كله أنتَ قادرٌ ... عليه، ولا عن بعضه أنت صابر

وقال الظريفان ذلك وقال ثالث:

لاَ يَحْجُبُ السِّحْرَ مِنْ عَيْنَيْكِ مِنْظاَرُ ... كُلٌّ إليكِ - عَلَى الْمِنْظاَرِ - نَظَّارُ
مَا زَادَ عَيْنَيْكِ إلاَّ فِتْنَةً، فَسَلي ... أَيُّ الْجَوَانِحِ لَمْ تَعْلَقْ بِهاَ النَّارُ
قَدْ رَفَّ مِنْ تَحِتْهِ خَدَّاكِ في وَهَجٍ ... كَماَ أَضاَءتْ خِلاَلَ الْعُشْبِ أَزْهاَرُ
وَشَبَّ لَوْنَكِ حَتَّى قُلْتُ، بَعْضُ دُجىً ... باَقٍ مِنَ اللَّيْلِ قَدْ جَفَّتْهُ أَنْوَارُ
أَوْ بَدْرٌ ثم تَمَشَّتْ فَوْقَ صَفْحَتِهِ ... غَمَامَةٌ بَرْقُهاَ اللَّمّاعُ غَرَّارُ
لاَ تَحْسَبِي جفَنَكِ الْمَكْحُولَ تَمْنعُهُ ... مِنْ أَنْ يَصُولَ عَلَى الْعُشَّاقِ أَسْتاَرُ
السَّيْفُ فيِ الْغِمْدِ لاَ تُخْشَى بَوَادِرُهُ ... وَسَيْفُ جَفْنِكِ في الْحَاَلَيْنِ بَتَّارُ
دَعِي عُيَوْنَكِ تَلْقاَناَ بِلاَ حُجُبٍ ... فَلَلْعُيُوُنِ مُناَجَاةٌ وَأَسْرارُ
وَلاَ تَخَافِي عَلَى الْمُضْنَي لَوَاحِظَهاَ ... فَجُرْحُهُ مِنْ عُيُونِ الْعَيْنِ تَغَّارُ
لَوْ لَمْ أُحِلَّ لْمَنْ أَهْوَاهُ سَفْكَ دَمِي ... لَمْ تَبْقَ حَسْناَء إلاَّ وَهْيَ لِي ثَارُ
تِلْكَ السِّهاَمُ - وَإنْ أَصْمَتْ - مُحَبَّبَةٌ ... كَمْ مْنْ قَتِيلٍ لَهُ فيِ الْقَتْلِ أَوْطَارُ
أَغْرَي بِنَا السَّقْمَ أَنَّا فيِ صَباَبَتِناَ ... تُخْفِي الْجَوَى وَالْمُعَنَّى الصَّبُّ صَبَّارُ
نَرَى الدَّوَاَء وَتَأْباَهُ مَكاَرِمُناَ ... لاَ خَيْرَ فيِ الْحُبِّ إن شاَبَتْهُ أَوْزَارُ

علي الجندي

البريد الأدبي

إلى الأستاذ مندور

كتب الأستاذ محمد مندور تعقيباً، على كلمتي المنشورة بالعدد 486 من الرسالة، فراعني ما في تعقيبه من انحراف عن جادة الحق؛ ووقع في نفسي أن أبين له ما انساق إليه من تعسف واجتلاب للنقد. فقد التجأ الكاتب إلى أساليب ملتوية معقدة، يبرر بها نفسه، وينفي عنه الخطأ، كأنما عز عليه أن يسلم بخطاه؛ وهو لو أنصف لعلم أن ليس مما يحط من قدره أن يخطئ، وإنما يحط منه أن يصر على خطأه ويكابر فيه.

ولا ريب أن الأستاذ يعرف المثل اللاتيني القائل: إن من طبيعة الإنسان أن يخطئ: والخطأ كثيراً ما يكون طريق الصواب كما يقول ليبنتز

بيد أن الأستاذ مندور - وقد أغرم بالسوفسطائية - شاء ألا ينهج نهج الميغاريين الذين نزعوا منزع السوفسطائيين، فكانوا في جدلهم لا يرمون إلى معرفة الحق والتوصل إليه، وإنما يهتم الواحد منهم بشيء واحد فقط؛ هو أن يجمل خصمه ينقطع. ومن أجل هذا رأيناه يتصدى للرد على كل معترض عليه، ولا يتوخى الحق في هذا الرد، وإنما يهتم بأن ينفي عنه الخطأ، مهما كان في ذلك من التجني على الحق!

لقد قلنا له أن قوله (عثرت به) بمعنى ملاقاته اتفاقاً، ليس تعبيراً عربياً صحيحاً، إذ الصواب أن يقال: (عثرت عليه). فعاد الأستاذ يقول: (فأما عن (عثرت به) فقد قلت أن المعنى الذي أريد التعبير عنه هو العثور بالشيء أي ملاقاته اتفاقاً، ولم أرد (العثور عليه) أي الاطلاع الذي يدل على علم ومعرفة وبحث وجهبذة لا أدعيها). ولو إنه كلف نفسه عناء البحث في المعاجم اللغوية، لما اضطرنا إلى العودة إلى هذا الموضوع مرة أخرى. . . ولكنه يطلق أحكامه إطلاقاً، ولا يستقصي المصادر ليتحقق مما يقول، بل يكتفي بأن يقول في جرأة غريبة: (والذي يدهشني هو تفضل هؤلاء العلماء بلفت نظري إلى مختار الصحاح ودوائر المعارف وتراكيب اللغة الإنجليزية، وهذه كلها مراجع ما كنت أحلم بوجودها). فنحن لم نرتجل أحكامنا ارتجالاً، ولم نطلق أقوالنا اعتباطاً، بل استقصينا المراجع استقصاء شاملاً، ثم أعلنا من بعد نتيجة بحثنا واستقصائنا. وإذا كنا قد أشفقنا على الأستاذ مندور، فكفيناه مؤونة البحث، وعرضنا عليه النتيجة التي توصلنا إليها دون أن

نحشد له أقوال أصحاب المعاجم ورجال اللغة، فما ذلك إلا لأننا نعلم علم الواثق، أنه يدرك ذلك باعتباره باحثاً قد خبر الحياة العلمية وعرف ما يستلزمه البحث العلمي

ومع ذلك، فإننا نروي للأستاذ مندور فيما يلي ما جاء في المعاجم اللغوية تحت مادة (عثر): جاء في (لسان العرب): (عثر يعثر عثراً وعثاراً وتعثر كبا. . . والعثرة الزلة، ويقال عثر به فرسه فسقط، وتعثر لسانه تلعثم. . . وعثر على الأمر يعثر عثراً وعثوراً اطلع وأعثرته عليه أطلعته، وفي التنزيل العزيز: وكذلك أعثرنا عليهم، أي أعثرنا عليهم غيرهم فحذف المفعول، وقال تعالى فإن عثر على أنهما استحقا إثماً، معناه فإن اطلع على أنهما قد خانا. . . الخ)

وجاء في القاموس المحيط: (والعثور الاطلاع كالعثر، وأعثره أطلعه. . . الخ) وجاء في صحاح الجوهري: (العثرة الزلة، وقد عثر في ثوبه يعثر عثارا؛ يقال عثر به فرسه فسقط، وعثر عليه أيضاً يعثر عثراً وعثوراً، أي اطلع عليه. وأعثره عليه غيره أطلعه، ومنه قوله تعالى: وكذلك أعثرنا عليهم. . . الخ)

وجاء في أساس البلاغة للزمخشري: (. . . ومن المجاز: عثر في كلامه وتعثر. وأقال الله عثرتك. وعثر الزمان به. وجد عثور. . . وعثر على كذا: اطلع عليه. وأعثره على كذا: أطلعه. وأعثره على أصحابه: دله عليهم. . . الخ)

وفي أقرب الموارد للشرتوني: (عثر على السر وغيره: اطلع عليه وعلمه. وعثر به فرسه فسقط ومنه يقال عثر جده أي بخته تعس وذهب أمره وهلك. . . وعثر بهم الزمان: أخفى عليهم. . . وأعثر فلاناً على السر وغيره: أطلعه. . . الخ)

فكل هذه المعاجم إذن تتفق في القول بأن معنى (عثرت عليه) هو اطلعت عليه أو وقفت عليه. ولا يفيد الاطلاع معنى البحث والجهبذة - كما يتوهم الأستاذ مندور - وإنما معناه ملاقاة الشيء والوقوف عليه. لأن أصل الكلمة (اطلّع) مأخوذ من (طالع) بمعنى نظر كما يقال: أتيت قومي فطالعتهم، أي نظرت ما عندهم. . .

وزيادة في تأكيد المعنى وإيضاحه، أنقل للأستاذ مندور عن المعجم الذي وضعه المستشرق (وليم لين ' - ما جاء تحت مادة (عثر):

(. . . .(عثر عليه) . . . ; ; ; ; ; , , ;)

فمن هذا يتضح أن العثور على الشيء يفيد معنى ملاقاته اتفاقاً، حتى أن هناك تعبيراً مشتقاً من هذه الكلمة وهو (عثري) يوضح هذا المعنى بشكل أظهر، إذ ورد في لسان العرب: (هو من عثري النخل، سمى به لأنه لا يحتاج في سقيه إلى تعب بدالية وغيرها، كأنه عثر على الماء عثراً بلا عمل من صاحبه). فالعثور إذن لا يفيد معنى العلم والجهبذة؛ وهو المعنى الذي شاء تواضع الأستاذ مندور أن ينفيه عن نفسه، وإنما يفيد معنى الملاقاة العرضية التي تتم بغير قصد

وأما (عثر به) بهذا المعنى، فلم أجدها في أي معجم من المعاجم التي رجعت إليها، وأحسب أنها من اختراع الأستاذ الفاضل، وقد كان موفقاً في التمثيل لها بعبارة من صوغه فقال: (. . . كما يعثر حافر الجواد بأحد الكنوز. . .)!

بقيت مسألة أحب أن أقف عندها وقفة طويلة، وتلك هي مسألة الحرية اللغوية التي يدعو إليها الكاتب، وقد سبق لي أن أشرت إلى هذه المسألة إشارة غامضة، ولكني أحب أن أعود إليها فأسهب في الحديث عنها، حتى أعرف ماذا يقصد الأستاذ مندور بقوله: (إن مسألة الصحة والخطأ في اللغات أصبحت مسألة تافهة لا يحرص عليها في غير مجال التعليم المدرسي). وماذا يعني بقوله: (وإذن فكلام الكرملي وكلام زكريا إبراهيم حذلقة (كذا) تافهة، ومماحكات لا علاقة لها بمناهج البحث في اللغات التي لم تعد تقريرية في شيء)؟

ولما كان المجال لا يتسع هنا للحديث عن هذه المسألة الهامة، فإني أرجئ الكلام عنها إلى عدد قادم، كما أرجئ التعقيب على رأي الأستاذ مندور في تعريب الأسماء الأعجمية إلى حين يقرأ الأستاذ الفاضل البحث الذي وجهت نظره إليه، ولعلي يومئذ لا أكون بحاجة إلى التعقيب أصلاً

(مصر الجديدة)

زكريا إبراهيم

حول اختلاف القراءات في القرآن

من المعلوم أن المسلمين على عهد الرسول كانوا يتلقون القرآن منه سماعاً، ويطوون صدورهم عليه حفظاً وفهماً، دون ما حاجة منهم إلى النظر في شيء من آياته مخطوطاً. .

والقراءات التي من أمثالها (فتثبتوا) بدل (فتبينوا) و (وعدها أباه) بدل (وعدها إياه) لا ترجع في تعليلها إلى اختلاف لهجات العرب - كما يقول صادقاً الأستاذ عبد المتعال الصعيدي - وإنما هي إلى باب التصحيف أقرب؛ وقد نص على ذلك بعض العلماء كما سنذكره.

والتصحيف كما يجده اللغويون هو: (أن يأخذ الرجل اللفظ من قراءته في صحيفة، ولم يكن سمعه من الرجال فيغيره عن الصواب)، راجع قول السيوطي في المزهر.

فالتصحيف إذن خطأ منشؤه الوهم؛ ولا ينبغي أن نتبعه إلا ريثما نهتدي إلى النطق الصحيح فنعدل إليه. . .

والآن يحق لنا أن نتساءل: كيف وقعت هذه التصحيفات على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، ولم تكن حاجة المسلمين يومئذ ماسة إلى القراءة في صحيفة، استغناء منهم بقراءة الرسول وقراءة أصحابه ممن أجادوا النقل عنه؟. . . وإذا كانت تلك التصحيفات قد وقعت بعد عهد الرسول، فكيف راجت وتداولتها ألسن القراء حتى أصبحت من القراءات المعروفة، مع أنها تصحيف كان ينبغي العدول عنه بمجرد الوقوف عليه؟. . . لا نستطيع أن نؤيد الأستاذ عبد المتعال في قوله: (لعل النبي صلى الله عليه وسلم كان يعين أمثال تلك المواضع، أو كانت ترد إليه فيقر ما يراه منها) لأن هذا إنما كان يحدث في المواضع التي تختلف فيها اللهجات؛ فتقرأ اللفظة بأكثر من لهجة واحدة تخفيفاً عن مسلمي العرب من مختلف القبائل، ولاسيما أن المعنى في كل ذلك واحد لا يتغير. أما أن يحدث هذا في مثل قوله: وعدها أباه معدولاً بها عن وعدها إياه، وقوله فتثبتوا بدل فتبينوا، مما لا يبدو فيه اختلاف في اللهجة مع ثبوت التغير في المعنى؛ فذلك أمر يحتاج إلى بحث دقيق وتمحيص واف حتى نعرف عن يقين مأتى هذه القراءات وأصل اعتمادها.

ويهمنا هنا أن نقول إنه إذا كان بعض المفسرين يعدون هذه الأمثلة من القراءات، كالزمخشري صاحب الكشاف، فإن آخرين من جلة العلماء يعتبرونها تصحيفاً، كجلال

الدين السيوطي صاحب (المزهر) التي ادرج أمثلة منها ضمن الفصل الذي عقده بعنوان (التصحيف والتحريف) ص230 ج2 من كتابه. قال - نقلاً عن بعض المجاميع -:
صحف حماد بن الزبرقان ثلاثة ألفاظ في القرآن لو قرء بها لكانت صواباً، وذلك أنه) حفظ القرآن من مصحف ولم يقرأه على أحد. واللفظ الأول (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها أباه) يريد إياه. والثاني (بل الذين كفروا في غِرة وشقاق) يريد إياه. والثالث (لكل امرئ منهم يومئذ شأن يعنيه) (والثالث ويفهم من ما أورده السيوطي - انتهى
العبارة أن مثل هذه الأمثلة لم تكن تعتبر قراءة أصلاً عند عدد من العلماء. فلعل بعض أشياخنا من ذوي التثبت والإلمام بهذا الموضوع، يدلي لنا برأي يكون فيه الشفاء والاكتفاء. . .

(جرجا)

محمود عزت عرفة

رابطة العروبة

تكونت في كلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول رابطة باسم (رابطة العروبة) قوامها طلبة الأقطار العربية الملتحقين بالكلية وبعض من طلبتها المصريين العرب

أغراضها:

1 - العمل بكل الطرق المجدية والوسائل الفعالة على تحقيق الوحدة العربية المنشودة

2 - توثيق صلاة الأخوة والثقافة بين الطلبة المصريين وطلبة الأقطار العربية الشقيقة في مصر وخارجها

3 - تنظيم رحلات سنوية إلى سائر البلاد العربية

4 - الدعوة إلى عقد مؤتمرات دورية لطلبة الجامعات العربية في مختلف أقطارهم للبحث في توحيد الثقافة وشتى النواحي والشؤون العربية الهامة

5 - تنظيم محاضرات يلقيها كبار رجال العروبة في مصر عن كيفية معالجة الأحوال الثقافية والاجتماعية والاقتصادية للبلاد العربية تمهيداً لتحقيق وحدتها

6 - تنظيم رحلات علمية أسبوعية إلى بلدان القطر المصري

فمن يود الاشتراك في هذه الرابطة من طلبة الكلية كأعضاء عاملين أو من غيرها كأعضاء فخريين عليه المبادرة إلى قيد اسمه في سجل الرابطة الموجود مع القائم بأعمالها الطالب (منيب الماضي) بكلية الحقوق

العدد 490 - بتاريخ: 23 - 11 - 1942

2 - دفاع عن البلاغة

البلاغة بين الطبع والصنعة

البلاغة كسائر الفنون طبيعة موهوبة لا صناعة مكسوبة. فمن حاول أن ينالها بإعداد الآلة وإدمان المزاولة وطول العلاج وهو لا يجد أصلها في فطرته، أضاع جهده ووقته فيما لا رجع منه ولا طائل فيه. قال أبو العباس المبرد: (إنه ليس أحد في الخافقين من يختلج في نفسه مسألة مشكلة إلا لقيني بها وأعدني لها؛ فأنا عالم ومتعلم وحافظ ودارس لا يخفى علي مشتبه من الشعر والنحو والخطب والرسائل، ولربما احتجت إلى اعتذار عن فلتة، أو التماس حاجة، فأجعل المعنى الذي أقصده نصب عيني، ثم لا أجد سبيلا إلى التعبير عنه بيد ولا لسان. ولقد بلغني أن عبيد الله ابن سليمان ذكرني بجميل فحاولت أن أكتب إليه رقعة اشكره فيها، فأتعبت نفسي يوماً في ذلك فلم أقدر على ما أرتضيه منها. وكنت أحاول الإفصاح عما في ضميري فينصرف لساني إلى غيره)

ذلك اعتراف صادق من أبي العباس يقصد به توجيه الحائر إلى التوفر على ما يحسن، وتنبيه المغرور إلى الانصراف عما يسيء

الناس كلهم يتكلمون ولكنهم ليسوا جميعاً خطباء؛ والمتعلمون كلهم يكتبون ولكنهم لا يستطيعون أن يكونوا كلهم بلغاء؛ والرسم مادة مقررة في مدارس الدنيا ولكنها لا تخرج في كل حقبة غير رفائيل واحد. والموسيقيون ألوف في كل أمة، ولكن الذين يستطيعون أن يؤلفوا رواية غنائية نفر قليل.

والمعضل من الأمر تعرف الطبع الأدبي في صاحبه إبان التنشئة، فقد تكمن العبقرية في الفنان حتى يبلغ الأربعين، كما حدث للنابغة الذبياني في الشعر، ولجان جاك روسو

في الكتابة. وقد يجر كمون الطبع في سن التوجيه إلى الخطأ في استغلال المواهب، فيتعلم المرء علماً أو يعمل عملا وهو بطبعه مخلوق لغيره؛ فبيير لوتي خُلق أديباً كاتباً ولكنه دفع إلى البحارة؛ وعلي طه خلق أديباً شاعراً ولكنه دفع إلى الهندسة، وحافظ عفيفي خلق مصلحاً اجتماعياً ولكنه دفع إلى الطب؛ فلو أن هؤلاء العباقرة نشئوا على مقتضى الطبع والاستعداد منذ الحداثة لكان نبوغهم أتم ونفعهم أعم ونتاجهم أوفر وقد يخدع المرء عن طبعه فيظن نفسه كاتباً وهو معلم، أو فيلسوفاً وهو صوفي، أو مؤرخاً

وهو صحفي، أو شاعراً وهو عروضي، أو ناقداً وهو هجاء، أو قصصياً وهو حكاء، أو وصافاً وهو محلل

وللخيال إذا امتد سراب يخدع الظمآن إلى المجد والشهرة؛ فقد يستهوي الناشئ وميض الهالة من حول العبقرية الفنانة فيسول له الغرور أن يقرض الشعر، أو يقص القصص، أو يدير الحوار، أو ينشئ المقالة، فينبهر في أول الشوط وينبت في بداية الطريق

قد تحب الأدب ككل إنسان؛ ولكن حبك الشيء ليس دليلا على قوة استعدادك له، فقد يكون ذلك من تأثير البيئة وتغرير الخلاط. وربما كانت نقائص المرء أحب خلاله إلى نفسه؛ فالإمام مالك بن أنس دفعته بيئة المدينة اللاهية إلى أن يتتبع في صباه المغنين يأخذ عنهم حتى صرفته أمه عن الغناء إلى الفقه فصار فيه إمام الأئمة

على أن الطبع والقريحة لا يغنيان في البلاغة عن الفن. وربما كان فيهما ذلك الغناء في العصر الجاهلي وصدر الإسلام حين كانت الأهواء صادقة والأخلاق صريحة والحياة بسيطة؛ أما وقد زيف الصادق وشيب الصريح وركب البسيط، فلابد من حذق الصناعة وهدى القواعد لمعالجة ذلك، كالمسايفة، كانت في أول أمرها سهلة يستعمل فيها السائف سيفه كما يستعمل الواكز يده؛ فلما كثرت فيها الحيل وتعددت الوجوه أصبحت فناً له قواعد وأصول لابد أن يراعيها المسايف وإلا هلك. وإذا كانت القواعد هي النتائج التي استنبطتها الأذهان القوية من وسائل الطبيعة وطرقها على طول القرون، فإن الشأن في البلاغة يجب أن يكون هو الشأن في سائر الفنون التي اخترعتها الغريزة وأصلحتها التجربة ورقاها المران

فعلم البيان إذن هو الجزء النظري من فن الإقناع والبلاغة هي الجزء العملي منه: هو ينهج الطرق وهي تسلكها، وهو يعين الوسائل وهي تملكها، وهو يرشد إلى الينبوع وهي تغترف منه

إن القواعد البيانية لم يضعها الواضعون إلا بعد أن رجعوا إلى أصول الأشياء ودرسوا علاقتها بالنفس والحس، وعرفوا نتائج هذه العلائق من الألم واللذة، ثم استخلصوا من تجارب العصور المستنيرة النتائج الصحيحة، ثم صاغوها قواعد وقالوا إنها أمثل الطرق لإحسان العمل دون أن يخضعوا قريحتك لها، ولا أن يسمحوا لهواك بالخروج عنها، فإن بين الاستبداد والفوضى نظاماً هو أحق أن يؤثر ويتبع

كذلك الذوق - وهو أداة الجمال كما أن العقل أداة الحق - لا يمكن أن يكون بغير القواعد طريقاً مأمونة إلى عمل من أعمال الأدب؛ فأنه موهبة طبيعية تختلف في الناس وفي الأجناس، وتحتاج إلى المران بالدرس والعادة، وليس له ما للعقل من سلطان واطمئنان وثبوت. وإنك لتجد في الناس العقل المطلق المستقل الذي لا يختلف ولا يتغير، لأن هناك حقيقة مستقلة تتميز بالوضوح والخلوص، ولكنك لا تجد مهما استقصيت واستقريت ذلك الذوق المطلق المستقل الذي لا يختلف باختلاف الألوان والأزمان والأمكنة. وفي الأقوال المأثورة: لا جدال في الذوق. لذلك لا نستطيع أن نطلقه في الأدب حتى لا تكون الفوضى، ولا نقيده بالقواعد حتى لا يكون الجمود.

أحمد حسن الزيات

مسابقة الأدب العربي لطلبة السنة التوجيهية

الشوقيات - 1

للدكتور زكي مبارك

تمهيد - تأريخ القصائد - من كل فاكهة زوجان: عواطف

- فرنسية وتركية ومصرية ولبنانية وأموية - مصرية شوقي

- حكاية المستر روزفلت أول دكتور من الجامعة المصرية

قصيدة أنس الوجود - دفاع شوقي عن الوثنية المصرية
تمهيد
المقرر من الشوقيات لهذا العام هو الجزء الثاني، وسنتحدث عنه في مقالين اثنين مراعاة للوقت، فأمامنا مؤلفات ستنتهب المدة التي تسبق ميعاد الامتحان.
من أهم أبواب هذا الجزء باب النسيب، ومن أهم قصائده قصيدة (يا نائح الطلح)، ولن أتكلم عن هذه القصيدة ولا عن ذلك الباب، لأني أكره أن أنشر في مجلة الرسالة بحثاً نشرته من قبل، وأنا تكلمت بالتفصيل عن نونية شوقي في الطبعة الثانية من كتاب (الموازنة بين الشعراء) وتكلمت عن غزليات شوقي بالتفصيل في الطبعة الثانية من كتاب (البدائع)، فليرجع المتسابقون إلى هذين الكتابين في هذين الغرضين
وهذا إعلان عن مؤلفاتي أنشره في (الرسالة) بالمجان!!
تأريخ القصائد
شوقي لم يؤرخ قصائده جميعاً، ولو أنه فعل لأعفى النقد الأدبي من التعب في تعقب أسباب الضعف والقوة في شاعريته العصماء. والظاهر أن وضوح التواريخ أمام عينيه أوهمه أن الناس لن يحتاجوا عند النظر في قصائده إلى تأريخ. والأمر كذلك بالفعل، فقد كنت أعرف المناسبات التي قيلت فيها تلك القصائد، ثم طغت الشواغل فأنستني ما لم أكن أحب أن أنساه. ولعل أبناء شوقي يلاحظون هذا المعنى فيذكروا جميع
التواريخ في الطبعة الثانية
أقدم القصائد المؤرخة قصيدة (طابع البريد) في العاشر من سبتمبر سنة 1900، وتليها أبياته في وصف معرض الأزهار والثمار في باريس سنة 1901، ثم وصف المرقص الذي أقيم في قصر عابدين سنة 1903، والمرقص الذي تلاه في سنة 1904 وهذه القصائد لا ترتقي إلى منزلة القصائد التي نظمها بعد أن استحصدت قواه الشعرية، ولكنها مع ذلك تشهد بأن شوقي فُطر منذ البداية على إجادة الغناء.
من كل فاكهة زوجان
في هذا الجزء ترى قصائد فرنسية وقصائد تركية وقصائد مصرية وقصائد سورية ولبنانية، قصائد وصف بها عواطفه الصحاح نحو فرنسا وتركيا ومصر وسورية ولبنان، قصائد تقيم أصح البراهين على أن شوقي أحب جميع ما عرف من البلاد، وأنس إلى أكثر من عرف من الناس
وهنالك ظاهرة يجب النص على تفسيرها الصحيح، وهي إفراط شوقي في أخريات أيامه على الإشادة بمحاسن الشام ولبنان
فما تفسير هذه الظاهرة النفسية؟
كان شوقي لا يحب إلا من يروي شعره، وكان هواه مقصوراً على من يؤمنون بأنه أشعر الناس. وقد وجد في سورية ولبنان جماعات كثيرة تعرف من سرائر شعره أكثر مما يعرف، وتذهب في تمجيده إلى آفاق لا يطيف بها الخيال
وهل أُسرفُ إذا قلت إن تلطف شوقي في الحديث عن المسيحية يرجع إلى مراعاة عشاق شعره من النصارى العرب؟
الإسلام يحكم بكفر من يتطاول على المسيح، ولكنه لا يفرض على المسلم أن يتغنى بمجد المسيح، فكيف جاز لشوقي أن يجعل الثناء على المسيحية من أغراضه الشعرية؟
السبب هو ما أقول، هو أن شوقي وجد في نصارى لبنان رجالا يؤمنون بأدبه الرفيع، فجازاهم وفاءً بوفاء، وقال في المسيح كلاماً يقره أدب القرآن، وهل وصف المسيح بأفضل مما وصفه القرآن؟
كان شوقي ينعطف من لبنان إلى سورية بروحانية قليلة الأمثال:
خلَّفتُ لبنان جنات النعيم وما ... نُبئتُ أن طريق الخلد لبنانُ
حتى انحدرتُ إلى فيحاَء وارفةٍ ... فيها الندى وبها (طيٌّ) و (شيبان)
نزلتُ بفتيان جحاجِحةٍ ... آباؤهم في شباب الدهر غسانُ
بِيض الأسرة باقٍ فيهُم صَيَدٌ ... من (عبد شمسٍ) وإن لم تَبق تيجانُ
يا فتية الشام شكراً لا انقضاَء له ... لو أن إحسانكم يجزيه شكرانُ
ما فوق راحاتكم يوم السماح يدٌ ... ولا كأوطانكم في البِشر أوطان
فما هو الكرم الذي أضفاه الشاميون على شوقي، وكان أغنى الناس عن سخاء

الأسخياء؟
هو الكرم الذي وصفه في قصيدة ثانية حين قال:
رُواة قصائدي، فأعجَب لشعرٍ ... بكل محلةٍ يرويه خَلقُ
والواضح مما قرأت وما سمعت أن شوقي لم يذق طعم النعيم
إلا في سورية ولبنان، فقد كان في أبناء تلك البلاد الجميلة من يُسمع شوقي آلاف الأبيات من شعره في اليوم الواحد، وكان فيهم من يُسمعه قصائد غابت عن وعيه الدقيق. وكان شوقي يتلقى تلك التحيات بالبكاء. ولبكائه هنالك صورة يتحدث عنها الشاعر أمين نخلة، إن صحت رواية الأستاذ صلاح الأمير
وحب شوقي للشام هو الذي جعل عواطفه أموية:
بنو أمية للأنباء ما فَتَحوا ... وللأحاديث ما سادوا وما دانوا
كانوا ملوكاً سريرُ الشرق تحتهمُ ... فهل سألتَ سرير الغرب ما كانوا
عالين كالشمس في أطراف دولتها ... في كل ناحية مُلكٌ وسلطانُ
يا ويحَ قلبيَ مهما انتاب أرسمهم ... سرَى به الهمُّ أو عادته أشجان
بالأمس قمت على (الزهراء) أندبهم ... واليوم دمعي على (الفيحاء) هتّان
في الأرض منهم سماواتٌ وألويةٌ ... وتِّيراتٌ وأنواءٌ وعِقبان
معادن العزّ قد مال الرَّغام بهم ... لو هان في تُربه الإبريزُ ما هانوا
لولا دمشقُ لما كانت طُلَيْطلةٌ ... ولا زهت ببني العباس بغدانُ
مررتُ بالمسجد المحزون أسألهُ ... هل في المصلَّى أو المحراب (مروانُ)
تغيَّر المسجد المحزون واختلفت ... على المنابر أحرارٌ وعبدان
فلا الأذان أذانٌ في منارتهِ ... إذا تعالى ولا الآذان آذان
ومع هذا لم ينس شوقي حتى العلويين فتحدث عنهم في مواطن كثيرة، أشهرها الموطن الذي اختلقه اختلاقاً في مسرحية (مجنون ليلى)، إن صدقنا افتراض الدكتور طه حسين
وخلاصة القول أن عواطف شوقي منوعة الأصول والفروع فقد سما بنفسه عن الشعوبية، ورأى أن يكون شعره ميراث الشرق على ما فيه من اختلاف النوازع والميول:
كان شعري الغناء في فرح الشر ... ق وكان العزآء في أحزانه
قد قضى الله أن يؤلفنا الجر ... ح وأن نلتقي على أشجانه
كلما أنَّ بالعراق جريحٌ ... لمس الشرق جنبه في عماته
وعلينا كما عليكم حديدٌ ... تتنزَّى الليوثُ في قضبانه
نحن في الفكر بالديار سواءٌ ... كلنا مشفقٌ على أوطانه
مصرية شوقي
وبرغم هذا التنوع في العواطف كان شوقي شاعر القومية المصرية، ولعله أول شاعر جعل من همه وصف مصر في أحلامها وأهوائها وأمانيها بما هي له أهل، وأول شاعر ذاق ما في مصر من قرارة النعيم والبؤس، وإن كان شفى ما في نفسه حين قال في غمز الحكومة التي سمحت بنفيه في أوائل الحرب الماضية: (وطن توالت عليه حكومات وحكومات، تقول فتجد وتعمل فتهزل، ولا تحسن من ضروب الإصلاح إلا أن تولي وتعزل)
حكاية المستر روزفلت
هو الرئيس الأسبق للولايات المتحدة، لا رئيسها الحاضر، وكان زار مصر في سنة 1911، أو قريباً من ذلك، فما يتسع وقتي لتحديد التاريخ
والظاهر أن روزفلت السابق فاه عند زيارة السودان بكلام لا يرتضيه المصريون، فرد عليه الشيخ علي يوسف في جريدة المؤيد بمقال كان آية في البيان، ثم اندفع شوقي فحاوره بأسلوب غير ذلك الأسلوب، اندفع فحدثه عن عظمة مصر الممثلة في (قصر أنس الوجود)
أيها المنتحي بأُسوان داراً ... كالثريا تريد أن تنقضَّا
اخلع النعل واخفض الطرف واخشعْ ... لا تُحاولْ من آية الدهر غضَّا
وهي قصيدة نفيسة المعاني، وقد يُسأل عنها الطلبة في الامتحان لأنها من عيون الشرقيات

أول دكتور من الجامعة المصرية
هو المستر روزفلت، الرئيس الأسبق للولايات المتحدة، فقد مُنح الدكتوراه الفخرية، وكان ذلك أول لقب منحته الجامعة المصرية، فاعترض (الغزالي أباظة) على صفحات إحدى الجرائد، وكانت حجته أنه أولى بذلك اللقب، لأنه يستطيع أن يغضب المصريين بأكثر مما يستطيع أن يغضبهم أي مخلوق!
والغزالي أباظة هو الأستاذ دسوقي بك أباظة، الوزير السابق لوزارة الشؤون الاجتماعية، فهل يذكر ذلك التاريخ؟!
قصيدة النيل
هي قافية في 153 بيت، أرسلها إلى المستشرق مرجوليوت مع مقدمة نثرية قلقة الأسجاع، قصيدة يرجع عهدها فيما أفترض إلى أيام حرب البلقان، فهي إذاً من غرر شعره القديم. وليس من العدل أن نجاري الأستاذ المازني في القول بأن شاعرية شوقي لم تتفتح إلا بعد المنفى، فأنا أرى أن قصيدة (الأندلس الجديدة) التي قالها بمناسبة سقوط أدرنة في سنة 1912 لا تقل جودة عن أبرع ما جاد به خاطره في النفي وبعد النفي. . . والحق أن شوقي نضج في وقت مبكر، فقصيدته التي قالها في المؤتمر الشرقي بمدينة جنيف سنة 1894 تعد من القصائد الجياد، وهي الباكورة التي بشرت بأن سيكون له مقام بين شعراء القصص التاريخي
ونرجع إلى قصيدة النيل فنقول:
أراد شوقي بهذه القصيدة تمجيد العنصرية المصرية ممثلة في النيل السعيد، وقد رحب الشاعر بالألفاظ الجارية على ألسنة الفلاحين في أعمال السقي والغرس والحصاد. وطاف به الخيال حول عهود التاريخ، فشرح ما مر بهذه البلاد من عقائد وديانات، شرحها برفق، لأنه لم يرد النقد وإنما أراد التسجيل. ولو شئت لقلت إنه اعتذر عن ظلم الفراعين، فقد عد إرهاقهم للشعب في بناء الهياكل باباً من المجد المرموق
هي من بناء الظُّلم إلا أنهُ ... يبيضُّ وجه الظلم منه ويشرق
لم يرهق الأممَ الملوكُ بمثلها ... مجداً لهم يبقى وذِكراً يَعبَقُ
ويرى الشاعر أن الأرض والسماء لا تبيدان إلا برجفة (القيامة)، أما (قيامة) مصر فهي جفاف النيل الذي خاطبه الشاعر فقال:
من أي عهد في القُرى تتدفق ... وبأي كف في المدائن تُغدقُ
ومن السماء نزلت أم فُجرت من ... عُليا الجِنان جداولاً تترقرق
وبأيِّ عينٍ أم بأيَّة مُزنةٍ ... أم أي طوفانٍ تفيض وتفهق
وبأي نَولٍ أنت ناسجُ بردةٍ ... للضَّفتين جديدُها لا يخلق
تسودُّ ديباجاً إذا فارقتها ... فإذا حضرت اخضوضر الإستبرق
في كل آونةٍ تبدِّل صِبغةً ... عجباً وأنت الصابغ المتأنقُ
أتت الدهور عليك مهدُك مترعٌ ... وحياضك الشُّرقُ الشهية دُفق
تَسقى وتُطعم لا إناؤك ضائقٌ ... بالواردين ولا خِوانك يَنفَق
والماءُ تسكبه فيسَبك عسجداً ... والأرض تغرقها فيحيا المغرَق
ونظر الشاعر فرأى الوثنية المصرية تأمر بعبادة النيل، فشاء له الأدب أن يوجه تلك العبادة توجيهاً يرفع عنها أصر الشرك بواجب الوجود:
دينُ الأوائل فيك دينُ مُروءةٍ ... لم لا يُؤَّله من يَقوت ويرزُق
لو أن مخلوقاً يُؤَّله لم تكن ... لسواك مرتبة الألوهة تخلَق
جعلوا الهوى لك والوقار عبادة ... إن العبادة خشيةٌ وتعلَّق
ثم نظر الشاعر فرأى أن المصريين القدماء كانوا يهتمون ببناء القبور أضعاف ما يهتمون ببناء البيوت، فاتخذ من ذلك دليلا على حبهم للخلود:
بلغوا الحقيقة من حياة عِلمُها ... حُجُبٌ مكثَّفة وسرٌّ مغلق
وتبينوا معنى الوجود فلم يروا ... دون الخلود سعادةً تتحقَّقُ
يبنون للدنيا كما تبني لهم ... خرباً غرابُ البين فيها ينعق
فقصورهم كوخٌ وبيت بداوةٍ ... وقبورهم صرحٌ أشمُّ وجوسق
ولم يفكر الشاعر في تفنيد خرافة (عروس النيل) وإنما جعلها حقيقة شعرية حين قال:
ونجيبةٍ بين الطفولة والصبا ... عذراء تشربها القلوب وتعلَق
كان الزفاف إليك غاية حظها ... والحظ إن بلغ النهاية موبِقُ

لاقيت أعراساً ولاقت مأتماً ... كالشيخ ينعم بالفتاة وتزهق
إلى آخر ما قال في هذا المعنى الدقيق. وقد اعتذر عن أسطورة (أبيس) فجعلها نوعاً من الوفاء للدين:
قومٌ وقارُ الدين في أخلاقهم ... والشعب ما يعتاد أو يتخَلقُ
ولم يفت الشاعر أن يسجل في أبيات كريمة أن مصر التي كانت موئلا للديانة الفرعونية هي مصر التي آوت الديانة الموسوية والديانة العيسوية والديانة المحمدية، ولم يفته أيضاً أن ينص على عدالة عمرو بن العاص الذي ضرب ابنه بالسوط حين سمع إنه أهان أحد الأقباط، وقال في ذلك كلمته التاريخية: (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً)
ثم ماذا؟
ثم يختم شوقي قصيدة النيل بأبيات تفسر معنى الوطنية، فالناس عنده يحبون الوطن لأنه مصدر سعادتهم، ولأنه المستقر الأمين لأبنائهم:
مما يحمِّلنا الهوى لك أفرُحٌ ... سنطير عنها وهي عندك ترزَقُ
تهفو إليهم في الترابِ قلوُبنا ... وتكاد فيه بغير عرقٍ تخفُق
تُرَجى لهم، والله جلَّ جلاله ... منا ومنك وبهم أبرُّ وأرفق
زكي مبارك
الملك الظاهر
زيارة ضريحه بدمشق
للأستاذ أبي أسامة
وتضحك مني شيخة عبشمية ... كأن لم ترى قبلي أسيراً يمانياً
قلت: مهلا فإني أنحدر من تاريخ طويل من المجد والبطولة؛ وليس في وسعنا نحن أبناء هذا الجيل الزاحف أن ننساه أو نغض الطرف عنه، بل إني لأشعر بالفخر يملأ نفسي، نعم لأني أشعر بالبطولة تملأ جوانب تاريخي
قالت: ومن هم أبطالك؟
قلت: كنجوم السماء لا تملك لهم عدا
قالت: حدثنا عن النفس القوية عندكم التي لا تربط حظها بما تؤمله من مساعدة الغير لها، ولا تعتمد على أهواء الناس وآرائهم وأحكامهم، وإنما تعتمد على عملها وحده الذي يخلق لها الحظ الذي تستحقه والذي هو جدير بها
قلت: اخترت الملك الظاهر بيبرس، إذ هو في نظري من أولئك الذين يعتمدون على القوة الكامنة في شخصيتهم، بل من الذين اتخذوا من أنفسهم قوة منظمة مدركة للعوامل المحيطة بهم، فوضع كل عامل في مركزه الخاص به، ثم جمعها وحشدها ووزعها، فاستعملها للوصول إلى الأهداف التي قصد تحقيقها، وكان النصر حليفه وطوع بنانه
قالت: آتنا من بعض أخباره
قلت: لست بمؤرخ، وإنما سأحاول أن أرسم التاريخ وأخرجه صورة حية:
نحن في سيارة من بيروت إلى دمشق ومعي صديقي، وكان ذلك في صيف 1942، فإذا أنا أرتل قول القائل:
لئن عاينت عيناي أعلام جلق ... وبان من القصر المشيد قبابه
تيقنت أن البين قد بان والنوى ... نأى شحطها والعيش عاد شبابه
هذه دمشق قد بدت تطل بوادرها عليك من وراء عقبة دمر، فإذا بالمرجة الخضراء تغمرك بروحها كما تغمر الأرض مياه بردى المندفعة، فتشعر بأنك تدخل عالماً لم يكن غريباً عنك في يوم من أيام حياتك
بدأت أستعرض ذكريات التاريخ الذي هو جزء منا، وأتحدث عنها، ودمشق عاصمة وثغر ورباط للعلم وموئل للعز التالد وللمجد القادم، كلما دخلتها شعرت بأن مصر تعيش في دمشق، كما أشعر في القاهرة بأن الشام تعيش بمصر. انظر إلى مساجد العاصمتين: تجد وحدة البناء والزخرفة، ووحدة التفكير والروح. أنظر إلى مئذنة الجامع الأموي الواقعة على يمين مدخله، ألا تذكرك بمآذن الأزهر بالقاهرة؟ وانظر إلى مئذنتي الغورى وقايتباي بمصر، ألا تذكرك بمآذن الشام؟
وأذكر أنني خرجت يوماً من الجامع الكبير فوقفت على قبر صلاح الدين وواصلت

سيري إلى المجمع العلمي ومنه اتجهت إلى الظاهرية، فإذا أمام ما سطرته يد الزمن السالف الغابر لأقرأ ما يأتي:

(بسم الله الرحمن الرحيم، أمر بإنشاء هذه التربة المباركة والمدرستين المعمورتين المولى السلطان الملك السعيد أبو المعالي محمد بركة بن السلطان الشهيد الملك الظاهر والمجاهد ركن الدين أبو الفتوح بيبرس الصالحي أنشأها لدفن والده الشهيد وألحق به عن قريب فاحتوى الضريح على ملكين عظيمين ظاهر وسعيد. أمر بإتمام عملها السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي قسيم أمير المؤمنين خلد الله سلطانه)

هذه دار العقيقي من رجال الدولة الفاطمية المصرية، بنيت منذ تسعة قرون ولا تزال حجارتها العتيقة ظاهرة وفاصل البناء تلمسه بين القديم وما استجد في أيام السعيد. ارجع إلى مدخل الظاهرية وانظر إلى جمال الباب وتناسقه والى المقرنصات بسقفه، إنه لتحفة من ريازة القرن السابع الهجري فإذا اخترقت الباب فاتجه يميناً إلى القبة هنا ضريح الملكين الشهيدين تحت قبة قد ازدانت جدرانها بالفسيفساء قلد راسمها جدران المسجد الأموي ورسومه، فإذا اتجهت إلى المحراب تجده تحفة أخرى من زخرفة هذا العصر يمتاز بالصدف الملبس في أعلاه وجوانبه فجاء كإطار ركب حول العمودين. اقرأ الآية التي كتبت على اليمين: (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله) وعلى اليسار: (وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله) أما ما تحت الفسيفساء من الجدران فقد ركب عليه الرخام المجزع، اختلف صديقان لي في أصله أهو من الشرق أم من الغرب.

ووقفت أمام هذا الضريح وقد غمرتني نفحة فانتبهت أمام رهبة الراقد كأني أتلقى الأمر ممن كانت بيده مقاليد آلاف الرجال وأعنة آلاف الخيل، وأحنيت رأسي احتراماً وإجلالا إذ هنا الملك الظاهر من كان اسمه يدوي في أرجاء ممالك ثلاث قارات من العالم المعروف في عصره. ومرت أمامي أدوار البطولة والمجد التي أوحتها إلي هذه البقعة الطاهرة

قد مر بمخيلتي في تلك اللحظة لفتة من الدهر تملأها الثقة بالنفس وتمثل الإرادة القوية التي أنشرها لاعتقادي ووثوقي في أن الأمة التي تحترم نفسها هي التي تشيد بأبطالها، وحينئذ تستحق احترام العالم المتمدين وتقديره لها.

كان عصر الظاهر عصراً فذاً في التاريخ ماجت فيه الأمم والشعوب والجماعات، وتمخضت أيامه بالحوادث الجسام والمعارك الكبرى، وقذفت فيه الأقدار بقوات هائلة من الخير والشر معاً؛ وكان هذا الركن من العالم الذي نعيش فيه الآن، يواجه أشد الأخطار ويمتحن بأقوى المحن التي مرت في تاريخه - فهو لم يكن قد أفاق بعد من النكبة الكبرى والصدمة المروعة التي أصابته في بغداد يوم استباحها هولاكو سنة 656 وكان صدى استشهاد الخليفة العباسي لا يزال يهز النفوس ويدوي في الدنيا كانت النكبات تتوالى من ذات اليمين وذات الشمال؛ وهذا العالم العربي يعاني الشدة أثر الشدة ويقارع ويكافح ضد الفناء أمام قوات تفوق طاقته وقد انسابت عليه من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق، والناس في دهش يتساءلون أأذنت الساعة؟ لم استعجلهم ربهم بالعذاب؟ (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض، أنظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون)

(قرآن كريم: الأنعام)

إن ما أصاب الشرق العربي في ذلك العصر الرهيب كان من قبيل الانقلابات الأرضية التي تثيرها عوامل الطبيعة فتدك الأرض دكاً وتهبط على أثرها المحيطات وتظهر بعدها القارات، أو كأعاصير هائلة برق ورعد وظلمات، ثم يعقبها طوفان يأتي على الأخضر واليابس ويهدم أحسن ما بناه الإنسان وما أخرجه العقل البشري. كان هذا حال أجدادنا في القرن السابع الهجري حينما قذفت عليهم الأقدار بتيارات متعاقبة من جماعات البشر تهاجمهم في عقر ديارهم فتخرجهم منها، وتنتزع من أيديهم فلذة أكبادهم وتهدم وتحرق

وتخرب وهم لا يستطيعون لها دفعاً إلا بقدر ما في أيديهم من قوة وصبر
في وسط هذا الوقت العصيب والليل المدلهم سطع في السماء نجم الظاهر، وظهرت
على مسرح شرقنا شخصيته الجبارة فقال عنه المؤرخون في عصره (هو الأسد
الضاري كان شهماً شجاعاً أقامه الله للناس لشدة احتياجهم إليه في هذا الوقت
الشديد والأمر العسير)
ولقد قامت قيامة الدنيا، وكشر إله المعارك عن أنيابه، ولعب الرجال والأبطال أدوارهم
ثم انتهت القوى الجامحة التي أثارتها الطبيعة فألقت قيادها إلى رجل قد اختارته
العناية من مصر وهيأته بمصر، فما أن رأته العناصر الهائجة حتى خفتت لدى طلعته، ثم
خبت فسلمت إليه طائعة مختارة
وأطلت شخصية الملك الظاهر على القرن السابع الهجري، فإذا هي تكشف ما حولها
وتظهر واضحة براقة قوية وكأن إرادة الملايين التي تمثلت في إرادته وآمال الناس
التي تحققت على يديه وأكبرت عمله قد تجمعت في بقعة واحدة وأخذت تنشد بصوت
واحد في مواجهة عالم بأكمله:
(إني أرفع يدي إلى السماء وأقول: حي أنا إلى الأبد)
(يتبع)
(أبو أسامة)
حديث عيسى بن هشام
للأستاذ أحمد أبو بكر إبراهيم
كتب الدكتور (زكي مبارك) بحثاً قيماً في حديث عيسى بن هشام شرح فيه كثيراً من
الحقائق التي تهم كل مطلع على هذا الكتاب، وكشف عن كثير من النواحي التي تهدي
الطلاب إلى الصواب، وتأخذهم بأيديهم إلى طرق البحث المجدي والاطلاع المفيد؛
ولكن الدكتور لم يرد ببحثه الاستيعاب والاستقصاء وذلك ليترك للطالب مجالا للتفكير
والتنقيب
هذا ما رآه الدكتور وهو رأي فيه صواب وفيه حكمة؛ ولكن الطالب في كثير من
الأحيان يحتاج إلى شيء من البسط والإيضاح؛ ولهذا رأيت أن أكتب هذه الكلمة
الموجزة تتميماً للفائدة في أسلوب الكتاب ومنزلته القصصية
1 - المنزلة القصصية للكتاب
حديث عيسى بن هشام تصوير رائع للمجتمع المصري في فترة من الزمن، وعرض
شائق للحياة المصرية وما فيها من أخلاق وعادات وأنظمة في أسلوب قصصي جميل
ولا يشك أحد في أن هذا الكتاب يعتبر بداية طيبة للقصة المصرية وفتحاً جديداً للون
جديد من الأدب في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. ذلك لأن القصة
المصرية منذ بداية العصر الحديث كانت مقصورة على المقامة والقصص العامية، وما
خرج منها عن هذه الدائرة كان منقولا عن اللغات الأجنبية لا يمثل الحياة المصرية في
قليل ولا كثير - ولقد كان إخواننا السوريون أسبق إلى النقل والتأليف في هذا الفن؛
فاهتموا به منذ منتصف القرن التاسع عشر ونقلوا كثيراً من القصص التي لا تمثل
الحياة الشرقية، ثم ألفوا بعضاً منها يمثل الحياة العربية (كالمروءة والوفاء) للشيخ
خليل اليازجي
ونحن حين نقول إن حديث عيسى بن هشام كان بداية طيبة للقصة لا ندعي أنه
استوفى شروطها وأنه سلم من الأخطاء الفنية التي تخرج الكتاب عن الروح
القصصي، فالقارئ يلحظ التقصير في كثير من المواقف التي عالجها الكتاب، ويحس
أن المويلحي كان سارداً لمظاهر الحياة المصرية لا كاتباً قصصياً. ويكفي للبرهان على
هذا الرأي أن يرجع القارئ إلى المجالس التي شهدها عيسى بن هشام مع الباشا،
فهما يحضران مجلس التاجر وغيره بعد الاستئذان ويسمعان كل ما يقال، ثم يخرجان
دون أن يشعر بهما أحد ودون أن يشتركا
في الحديث مع الجالسين، وهذا مناف للعادات المألوفة؛ فالزائر الغريب دائماً يكون
موضع السؤال والاهتمام والعناية؛ وكثيراً ما يكون قدومه سبباً في تغيير سياق الحديث
ثم إن الكاتب بالغ إلى حد كبير في الاستقصاء وتتبع نواحي المجتمع وكان يتلمس
المناسبات في كثير من الأبواب ليشرح موضوعاً من الموضوعات، وكان الاتصال بين
الأفكار أحياناً لا يجري على المألوف المستساغ. والمعروف أن القصص لا تحتمل هذا

التكلف، ويكفي أن يلم الكاتب في قصته ببعض هذه الموضوعات.
ولكنا مع هذا لا نغض من قدر الكتاب فهو توجيه جديد إلى لون من الأدب ولا يسلم مثل هذا الانتقال من المآخذ والنقص
2 - أسلوب الكتاب
لقد كتب الدكتور في هذا الموضوع كلمة قيمة وضح فيها أن أسلوب الكتاب نوعان: أسلوب فني أريد به الإمتاع، وأسلوب علمي توخيت فيه السهولة والبساطة.
وهنا يتساءل بعض القارئين: لم اختلف الأسلوب في كتاب واحد لمؤلف واحد؟
والمعهود أن لكل كاتب أسلوبه الخاص الذي يمتاز به ويحمل طابعه في كل كتابة له، ولم نعرف لكبار الكتاب الأقدمين والحديثين نوعين من الأساليب؛ فأسلوب الجاحظ له طابعه ولأسلوب الزيات مميزاته الخاصة.
وأقول في الإجابة عن هذا: إن السر في اختلاف الأسلوب في حديث عيسى بن هشام راجع إلى أن الكتاب وضع في عهد انتقال للأدب؛ فقد اضطرب الأدب والأدباء في نهاية القرن التاسع عشر، وكان الأدباء بين عاملين: عامل الحنين إلى القديم المملوء بالجمال الفني والمحسنات البديعية، وعامل النزوع إلى الطريقة الجديدة التي تعنى بالمعنى والسهولة والوضوح قبل كل شيء. وقد جاء حديث عيسى بن هشام معبراً عن هاتين النزعتين أصدق تعبير؛ فهو حين يجد مجالا للجمال والإمتاع يستعير قلم من يعنون بالديباجة والصياغة اللفظية؛ وحينما يقف أمام موضوع علمي يتناوله بقلم المجددين الذين يعنون بالمعاني والبساطة في الأسلوب. وقد كان هذا التردد بين الأسلوبين ظاهراً في أسلوب كثير من الأدباء الذين ظهروا في هذه الفترة من الزمن ومنهم الشيخ محمد عبده وعبد الله فكري. وما زال الأدباء على هذا النحو من التردد حتى ظهر الأدب في ثوبه الجديد واستقر في
اتجاهه الذي نشهده الآن فصار لكل أديب أسلوبه الخاص الذي يعرف به.
ويلحظ القارئ في حديث عيسى بن هشام أن المويلحي لا يلجأ إلى تنميق العبارة والعناية بالأسلوب إلا إذا كان الحديث على لسان عيسى بن هشام أو الباشا؛ أما غيرهما من أشخاص الكتاب فيجري الحديث على ألسنتهم سهلاً لا أثر فيه للتنميق والتجميل. ولم يشذ عن هذه الطريقة إلا في الحوار، فهو يتوخى فيه السهولة ولو كان بين عيسى والباشا.
ونستطيع أن نلخص مميزات الأسلوب الفني في حديث عيسى بن هشام فيما يلي:
(أ) السجع ولم يظهر فيه التكلف إلا قليلاً لاقتدار المويلحي على تخير الألفاظ الملائمة
(ب) الاستشهاد بالشعر والتضمين في كثير من المناسبات، وقد أكثر من ذلك المويلحي وكان اختياره يدل على سعة اطلاعه وصفاء ذوقه
(جـ) الاقتباس من القرآن الكريم
(د) ومن المحسنات الكثيرة التي حسن بها كلامه الجناس وفي بعض ما أتي به مغالاة وإكثار ومن ذلك قوله: (وغيرها ترضع طفلين في حذاء وزوجها يضرب رأسها بالحذاء. وأخرى آخذة بضفيرة ضرتها ورضيعها يتلهف على ضرتها)
(هـ) وهو يأتي بالتورية في موضعها، ويعزب في بعض التعبيرات فتأتي عالية الأسلوب بين التعبيرات الأخرى السهلة
(و) يستعير خيال الشاعر في كثير من الأبواب وبخاصة في الوصف
وبعد فإن للكتاب نواحي كثيرة لا يتسع المقام لشرحها، ومن بينها النقد الأدبي في الكتاب والاتجاهات الأدبية التي يرمي إليها المؤلف، والإصلاح الاجتماعي الذي يبغيه. . . وهكذا. وعلى الطالب أن يستوعب كل هذا ويلم بأطرافه والله الموفق الهادي.
(الفيوم)
أحمد أبو بكر إبراهيم
الدبابات أمام المدن
للأستاذ (ذ. ص)
بعد أن تنتهي هذه الحرب تدخل في سجل التاريخ ونكون قد نسيناها أو تناسينا ما مر بنا من أهوال، سيقبل علينا أطفال الجيل الجديد يسألون ويلحفون في السؤال، فنحيلهم على كتبهم المدرسية حيث الأحداث قد صبت في كلمات وجمل تعجز عن تصوير ما خيم على العالم من خوف وهلع، ولا نقدم لهم إلا الأيام والشهور والأسماء

والأرقام.
والأرقام والتواريخ كما كانت وكما ستكون، ثقيلة على الذاكرة، عسرة على اللسان، فلذلك ستبرز الأسماء إلى الأمام وتكون موضع التذاكر والنقاش، وخاصة ما دل منها على المعارك انتسبت حيناً إلى بقاع مترامية الأطراف كفرنسا والاطلنطي، ولم تحمل حيناً آخر إلا اسم مدينة أو بلدة، لا تحتل من خرائطهم إلا مقدار الثقب الصغير.
اتسعت رقعة المعارك قدماً مع نمو الجيوش، حتى إنها شغلت في الحرب الماضية مقاطعات شاسعة أو امتدت بطول بعض الأنهار، أما المدن فلم يكن لها كبير شأن إلا في أحوال خاصة، إذ كانت قلاعاً قوية منعزلة كلييج ونامور، أو نقط ارتكاز لخط دفاعي طويل كفردون.
وبدأت هذه الحرب وسمعنا بمعركة بولندا ثم النرويج، بل أن بلاداً فسيحة كالدنمرك ذهبت في ليلة لم يعقبها نهار، ثم البلاد الواطئة والفلندر وفرنسا. وفجأة ظهرت أسماء من نوع هو علينا جديد، احتلت مكانة خاصة، بل واعتبرها البعض من نقط التحول الهامة في تيار الحوادث، ومن هذه يكفيني أن أذكر على سبيل المثال: سمولنسك واستالنجراد.
كانت المدن في قديم الزمان حصوناً تصمد للأعداء شهوراً بل سنين، تغنى بحوادثها الشعراء وخلدت أسماؤها في تاريخ الحروب؛ فمن ذا الذي ينسى طروادة وحصانها الخشبي، وسقوط القسطنطينية أمام عبقرية محمد الفاتح، وارتداد نابليون تحت أسوار عكا وهو كظيم؛ ولكن الحروب ظلت تتطور ووسائلها تتعدد؛ حتى أصبحت مدافع الحصار أكملها استعداداً واشدها فتكاً، ولم تعد المدن - كما رأينا في الحرب الماضية - إلا مصايد للموت، فلم يرتد إليها المتقهقرون، بداخلها يحتمون، بل فضلوا الأرض الفضاء، ينبطحون خلف ثناياها، ويحتفرون في سطحها الخنادق ويمدون بجوفها السراديب
ولما قامت الحرب الإسبانية حولها الألمان إلى معمل تجارب لقيادتهم العسكرية، فيها يحللون ومنها يستنبطون، يلقون فيها بالسلاح الجديد يبلونه؛ ويقحمون نظرياتهم في تكتيكات فرنكو يختبرونها. واستمرت الحرب بين مد وجزر؛ وكان الجمهوريون كلما اكتسحتهم الدبابات ذعروا، وارتدوا إلى الوراء، والتجئوا إلى مدنهم يحتمون بها بعد أن كانوا حماتها؛ وكم دهشوا حين لم تخذلهم هذه كما خذلوها
لم تقف المدن في وجه الدبابات سداً منيعاً كما كانوا يأملون (وهم في قرارة نفوسهم من ذلك يائسون)، بل ظهرت لهم بمظهر جديد، لا تتمنع للداخلين بل تغريهم وترحب بهم، فإذا أصبحوا وسطها وخبروها، وجدوها الهوة التي ليس لها قرار، تجتذب الأجساد إلى الأعماق ولا تلفظ إلا الأرواح
استدعى ذلك الحال من الألمان لفتة أو لفتين، ولكنهم لم يعلقوا به كبير اهتمام، بل ظنوا الأمر طارئاً أسبابه ظرفية أكثر من أن تكون فطرية، فهذه حرب ليست ككل الحروب، هي حرب أهلية بين أفراد جنس واحد، انحدر من فرع لاتيني (وكم كان التتون يحتقرون اللاتين!)، وهذه الخطط هي من عصارة عقولهم، هم الجرمان، فهذا الأمر إذن لا يحتمل أدنى شك ولا يقبل أي جدال: كل نجاح هو إذن وليد خططهم ونظرياتهم، أما كل نقيصة أو كل خذلان فهو راجع لا محالة إلى طرق اللاتين في التنفيذ
اندلعت الحرب في سبتمبر سنة 1939، وتدفقت جيوش الألمان على بولندا، جارفة ما في طريقها من رجال وعتاد وحصون وقلاع، ولكن. . . ما هذا؟ رينهارت يصد؟. . . رينهارت الفذ يصل إلى غرضه ثم يرتد. . .؟، تخطى الجنرال رينهارت حدود بروسيا الشرقية على رأس جيشه المدرع أول أيام الحرب متجهاً صوب (وارسو)، ولكنه ما وصل إلى شوارع العاصمة البولندية حتى دفع إلى الخلف، وهجم الألمان ثانية ثم ثالثة، ولكنه في كل مرة كان على أعقابه يُرد.
تمزقت بولندا شر ممزق وقُطعت أوصالها تقطيعاً، وهرست أرضها هرساً، ووارسو لا تزال صامدة. نحن في أول أيام الحرب وكل قائد ألماني متعطش إلى إحراز السبق في النصر، ليسمع من زعيمه كلمة الثناء الموعودة، وينجز لبلاده ما ألقت عليه من أعباء؛ هذا فون بوك قد هصر الممر البولندي هصراً وهبط كالصاعقة من الشمال الغربي، وهذا فون

رنشتيد قد اخترق حصون المنطقة الصناعية عند (كراكاو)، والتف هاجماً من الجنوب الغربي. يتململ رينهارت ويرغي ويزيد، وينقض على وارسو يدكها دكا، ويطلق طائراته عليها: بالقنابل تقذفها وبالأرض تسويها، ثم تعود دباباته إليها تقتحمها، وتنساب في أزقتها، وتنعطف في منحنياتها وتضرب يميناً وشمالا. ولكن قليلاً قليلاً يهبط عليها نفس الشعور القلق ويكتنفها نفس الإحساس المبهم اللذان حلا بها في الهجمات السابقة، فتشلها الحيرة ويخنقها الارتباك؛ عدوها لا يزال مراوغاً غير مرئي. أين هو وأين يختفي؟. . . تجحظ عيون الألمان من فتحات الفولاذ الضيقة باحثة منقبة، ولكنها لا ترى إلا طريقاً خلواً طويلاً، منثنياً متعرجاً بين ديار وإن تكن قد خربت، ومنازل وإن تكن أجنابها قد صدعت، إلا إنها، هذه وتلك، لا تزال تؤوي مئات الجنود وآلاف السكان - هؤلاء الزاحفون داخل الفولاذ، مجال الرؤية أمامهم محدود، في حين أنهم ظاهرون بكل جلاء، واضحون وضوح الشمس والنهار - ينصب المدفع خلف أحد الأبواب، وبمجرد ظهور الدبابة أول الشارع يعد المدفع ويجهز، بينما لا تراه هذه حتى تكون بحذائه، وفي لمح البصر تصيبها الصدمة، فتمزق أجنابها وتهشم أفرادها، وتقذف أشلاءهم متشابكة مع فولاذها المتناثرة، متعلقة بأجزائها المتطايرة هنا وهناك. وهذه أخرى أوقفتها المتاريس لحظة فتساقطت عليها فجأة زجاجات البترول المندلعة، تشعل فيها النار وتشوى رجالها شياً، فتتعالى صيحاتهم المروعة، متجاوبة في آذان زملائهم المتقدمين خلفهم. . . فبالله عليك ماذا تنتظر من هؤلاء وقد رأوا عدوهم الخفي لا يظهر إلا ليضرب الضربة الصائبة، وإذا قضوا عليه آخر الأمر، فهناك غيره مئات بل آلاف، الموت لهم بالمرصاد، جاثم متربص في كل منعطف وفي كل ركن، وفي كل نافذة وفي كل قبو

ولم يكتو أحد بهذه الحوادث مثلما اكتوت به الجيوش الألمانية، وصممت ألا تقع في مثلها ثانية، وساعدها على ذلك غفلة العدو عن التقاط خبرة الغير والانتفاع بدروسها، ولذا رأينا الألمان يقذفون المدن الهولندية قذفاً ويمحقونها محقاً، واختصت روتردام بأكبر نصيب، ثم أسقطوا عليها الآلاف من جنود المظلات، يئدون المقاومة في مهدها، ويستحوذون أول الأمر بثمن بخس ومجهود ضئيل على تلك المراكز التي ربما تحولت آخر الأمر - إن هم تركوها إلى أوكار للدفاع - تستنزف من المجهود ما ضخم، بل ما استعصى: من توتر في

أعصاب القواد شديد، وثمن في سوق الأرواح مرتفع

وفصلت جيوش الشمال فكانت (دنكرك)، ودار الهاجمون نحو الجنوب. . . صوب باريس، وكانت القيادة الألمانية تعلم بتفكك الروح المعنوية في فرنسا، وما وصل إليه الأفراد فيها من أثرة وأنانية، فقررت الامتناع عن ضرب باريس، ذلك الضرب الذي ربما أحيا ما مات فيهم من شعور، فلم يخب ظنهم بل فتحت لهم الأبواب دون قيد أو شرط أما الروس فكانوا هم وحدهم الذين تفتحت أذهانهم لمقتضيات الظروف، وحولوا مدنهم إلى مراكز دفاع قوية، سلح فيها المدنيون قبل العسكريين، فأمسك الزاحفون عن دخولها خشية التعرض لاستنزاف قواهم في شوارعها، ولم يجسروا على تركها خلفهم خشية التعرض لتقطيع خطوط مواصلاتهم، حول ضواحيها، بل فضلوا على كره وقف زحفهم الدقيق التوقيت مترقبين بقلوب قلقة جازعة وصول مدفعيتهم الضخمة الجاهدة وسط الأوحال على طرق وعرة حفت بها عصابات الأعداء، ثم ينصبونها إما وصلت، لتقوم بالدك والتحطيم أمداً من الزمان، وأخيراً يتبعونها بجنودهم الراجلة لاقتحام المباني منزلا بعد منزل ثم غرفة بعد غرفة

أصبحت المدن العائق الأكبر للجيوش المدرعة، فهذه تعتمد على السرعة أكبر اعتماد، مزيتها الأولى هي سرعة الاندفاع من مكان إلى مكان، وتلك تعمل على العرقلة والتعطيل، واجتذاب العدو وربطه بالمكان

لم يصب الجيش الألماني في جميع معاركه بخسائر تذكر بجانب ما حاق به في سمولنسك وسبستبول وستالنجراد وسائر المدن الروسية الكبرى، بل أن أكواخ بيتر حكيم القليلة العدد ذات القوالب الطينية، كلفتهم ما يفوق خسارة اليابانيين أمام رنجون؛ فالأولى أحسن الحلفاء استعمالها، أما الثانية فقد بادروا فيها إلى الإخلاء، ولم تساعدهم روح أهاليها المعنوية على إعداد الدفاع.

(ذ. ص)

الأزهر والإصلاح
هل للأزهر فكرة إصلاحية. . .؟
للأستاذ محمود الشرقاوي
في سنة 1928 ونحن نطلب (العلم) في الدراسات الأخيرة للأزهر انتبهت نفوسنا وأذهاننا لأمر جديد اسمه الإصلاح، أقصد إصلاح الأزهر. وكان مثار هذا التنبه المفاجئ أن شيخاً مصلحاً عظيماً ولى مشيخة الأزهر عرفناه باسم الشيخ المراغي وبوصف الإمام المصلح خليفة الشيخ محمد عبده.
ثم انتهينا من طلب (العلم) ولم تنته نفوسنا ولا أذهاننا من الانتباه بل الاندفاع مع ما فاضت به قلوبنا من الرغبة ومن الاقتناع بضرورة الإصلاح للأزهر. ومن الرغبة والاقتناع بضرورة (تجديد الحياة الدينية) في مصر والشرق.
وبقي الشيخ المراغي في الأزهر فترة ثم تركه، ولكن الحديث عن الإصلاح والتجديد ظل مقروناً باسم الشيخ المراغي، وظل وصفه بالإمامة والإصلاح والخلافة للشيخ محمد عبده قائماً.
وسارت بنا الحياة هذه السنين الكثيرة العدد ما ننفك نكتب ونتحدث ونفكر في الإصلاح والتجديد. وسارت الحياة بالأزهر هذه السنين الكثيرة العدد فتقدم فيها نحو الإصلاح والتجديد خطوات ليس من حقي الآن وليس مقصودا إلى أن أبين عنها ولا أن أبدي رأياً فيها. بل من حقي ومن واجبي أن أعدل بما كنت فلا أقول إن الأزهر في هذه السنين الكثيرة العدد قد (تقدم) نحو الإصلاح والتجديد، بل أقول إنه قد (تغير) عما كانت عليه حاله قبل هذه السنين، ولك أنت - ولي أنا أيضاً - أن أفهم وأن أحكم وأن أصف هذا التغيير هل كان إلى حسن أو إلى غير حسن. وهل كان تقدما نحو الإصلاح والتجديد أم لم يكن. وهل كان الأزهر بهذا (التغيير) كاسباً أم خاسراً، والى أي مدى كان ربحه وكانت خسارته في الثانية أو في الأولى. أم أن هذا التغيير الذي صار إليه الأزهر في هذه السنين الكثيرة لم يكن تجديداً ولا رجعة ولا تقدماً ولا تخلفاً، وإنما هو تخبط وتخليط، وأن الأزهر صار به ومنه كالمنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى.
من حقك ومن حقي أن نفكر وان نحكم وأن نصف ما فعل الأزهر أو فعل به في هذه السنين. ففكر - إن لم تكن - واحكم وصف. أما أنا فقد فكرت وحكمت وليس من شأني اليوم ولا مقصوداً لي أن أصف، أما الذي هو من شأني اليوم ومقصود لي فهو أن أكتب هذا الفصل (للرسالة) عن: (فكرة الإصلاح) في الأزهر. ما هي. . .؟
فلنسلم جدلا أو اقتناعاً بأن الأزهر له فكرة إصلاحية. وبأن الكلام عن الإصلاح التعليمي في الأزهر وعن الإصلاح الخلقي فيه. والكلام عن إصلاح الحياة الدينية في مصر ليس مقصوداً بهما الدعاية ولا التظاهر ولا عرض من متاع الحياة أو جاهها، وليس لصوقاً بوصف معين فيه ربح أو فيه متاع لنفس أو إرضاء لشهوة
فلنسلم جدلا أو اقتناعاً بأن للأزهر فكرة الإصلاحية لتجديد الحياة العقلية والحياة التعليمية والحياة الخلقية بين أهله، وأن للأزهر فكرة إصلاحية لتجديد الحياة الدينية في مصر أو في الشرق. . . فما هي هذه الفكرة الإصلاحية التي وضع الأزهر أو وضع رجاله حدودها ورسموا معالمها وخطوطها وحددوا أهدافها القريبة أو البعيدة. . .؟
وهل استبان الأزهر واتضحت له الطريق التي يسلكها إلى أهدافه القريبة أو البعيدة، حتى يأخذ بأسبابها ويتلمس نهجها ويعرف أين هو مما كان وأين هو مما يريد أن يكون؟
نحن نعرف أن الأزهر - في هذه السنين الكثيرة العدد - قد وسع على طلبته في منهج الدراسة للعلوم الحديثة. وأنشأ لهم المعامل للكيمياء، ورحلهم الرحلات، وأنه أنشأ لهم الكليات خمساً أو ثلاثاً ولوى ألسنتهم أو ألسنة بعضهم بلغات الإنجليز والفرنسيين والألمان. بل - والله قادر علمهم أو مكن لهم أن يتعلموا لغات أهل الصين واليابانيين والفرس والترك إلى ما لست أدري من لغات أهل الأرض، وأنه أخرج طلبة العلم فيه من قباتهم القديمة والجديدة، ومن صحن أزهرهم وأروقتهم إلى حيث يجلسون على الكراسي في عمائر جديدة في سفح الجبل بين مقابر الموتى، وفي أحياء متباينة متباعدة في القاهرة بين مقابر الأحياء
ونحن نعرف أن الأزهر - في هذه السنين الكثيرة العدد - قد قدم إلى طلبته المذكرات والملخصات والمختصرات، واستعان عليهم بطائفة من الأساتذة في دار العلوم ومن

المطربشين في مدارس الحكومة، وأنه حفظ لأهله كرامة المال أو بعض كرامته فزاد لهم في الأموال وضخم لهم الميزانية عاماً بعد عام
ونحن نعرف أن الأزهر في هذه السنين قد جمع بين أهله عقولا تفكر في الإصلاح وقلوباً تشغل به وجهوداً تسعى إليه. وأن في الأزهر الحديث الشيخ المراغي والشيخ عبد المجيد سليم والشيخ شلتوت ومن ورائهم جمع أو جموع من الشباب والطلبة يهتدون بدهيهم ويستجيبون لما يريدونه عليه للإصلاح والخير والتجديد
فهل الإصلاح للأزهر هو العلوم الحديثة ولو لم يكن لها أثر في الإفراج عن عقول أهل الأزهر وإخراجها من عبودية التقليد إلى حرية النقد والموازنة والرأي؟ أم هو معامل الكيمياء والرحلات والتواء ألسنتهم أو ألسنة بعضهم بكلمات قليلة، أو كثيرة من لغات أهل الأرض ولو لم يكن لها أثر في الإفراج عن عقول أهل الأزهر وإخراجها من ظلماتها إلى نور هذه اللغات وكنوزها وحرية التفكير فيها وبراعة النظم. . .؟ أم هو الفرار من القبلة القديمة والجديدة ومن الرواق العباسي إلى عمائر جديدة أو بالية بين مقابر الأحياء أو مقابر الموتى. . .؟ أم هو الملخصات والمذكرات والمطربشون من المدرسين وأن تضخم الأموال في العام بعد العام. . .؟
نحن نعرف أن الأزهر قد تغير في هذه السنين الكثيرة العدد، وأن الكلام عن تجديده وإصلاحه لم ينقطع يوماً، وأن فيه عقولا تفكر وقلوباً تشتغل وألسنة تتكلم وأقلاماً تكتب وخطباً تحرر وتحبر، وجموعاً من الشباب والطلبة ومن الغيورين المملوءة قلوبهم حماسة وإخلاصاً وصادق رغبة. ولكن الذي نريد أن نعرفه: هل فكرة الإصلاح للأزهر وللحياة الدينية في مصر والشرق واضحة الحدود عند الأزهريين مستبينة المعالم؟ وهل تجمع بين أصحاب العقول التي تفكر والقلوب التي تنشغل والجهود التي تسعى والألسنة التي تتحدث؟ هل بين هؤلاء جميعاً رباط من غرض أو غاية توحد بينهم في الفهم والسعي والكفاح في سبيل ما يؤمنون به. . .؟
من حقك ومن حقي أن نفكر وأن نحكم وأن نجيب، ففكر واحكم وأجب، أما أنا فقد فكرت وحكمت وليس من مقصودي اليوم أن أجيب، بل أن أعرض ما بنفسي أو بعض ما بنفسي وأن أسأل من يجيب. فهل من يجيب؟
محمود الشرقاوي
المصريون المحدثون - 44
شمائلهم وعاداتهم
في النصف الأول من القرن التاسع عشر
تأليف المستشرق الإنجليزي ادورد وليم لين
للأستاذ عدلي طاهر نور
تابع الفصل الثالث عشر - الأخلاق
يمكن أن نعزو ميل المصريات إلى الذات الشهوانية وفساد أخلاق الكثيرات منهن إلى عدة أسباب ينسب بعضها إلى المناخ والبعض الآخر إلى حاجتهن إلى التعليم المناسب والتسلية البريئة والاشتغال بعمل. ولكن ذلك يرجع على الأكثر إلى سلوك الأزواج أنفسهم، وهو سلوك أكثر خزيا لهم من الصرامة الشديدة التي يستعملونها في تنظيم الحريم. فجميع الأزواج في مصر يسعون إلى تحريك شهوة نسائهم بكافة الوسائل التي في قدرتهم، مع أنهم في الوقت ذاته يكدون ويثابرون لمنع زوجاتهم من إشباع هذه الشهوة بطريق يخالف الشرع. وهم يسمحون للنساء بالإصغاء من وراء الشبابيك إلى الأغاني الخليعة والروايات الفاحشة التي ينشدها في الشارع رجال يؤجرون لذلك، كما يسمحون لهن بمشاهدة رقص (الغوازي) الشهواني (والخولات) المخنثين. ويأذنون للغوازي، وحرفتهن الدعارة، بدخول حريم الأغنياء، لا لتسلية السيدات بالرقص فحسب بل لتعليمهن الفنون الشهوانية. وقد يجلب أحياناً لتسلية الحريم دمى لا حشمة فيها روى لي عن كيد المصريات حكايات لا حصر لها. أذكر نموذجاً منها القصة التالية وقد حدثت أخيراً: تزوج نخاس شابة جميلة من هذه المدينة، وكان يملك مالاً يهيئ له عيشاً رغداً، ولكنه فقد أكثره، فكان له في ثروة امرأته عوض. ولم يلبث الرجل مع ذلك أن أهمل زوجه. ولكنه كان قد قضى عهد الشبان فلم تكترث زوجه لذلك، ومالت إلى رجل آخر يعمل زبالا وكان قد تعود الحضور إلى منزلها. فاشترت لهذا الزبال دكاناً

بجانب المنزل ونفحته مبلغاً من المال يصلح من شأنه. ثم أخبرته أنها ابتكرت طريقة ليزورها في
اطمئنان تام. وكان لحريمها شباك بمصراعين قامت أمامه على قرب منه نخلة تعلو المنزل، فلاحظت أن الشجرة تقدم لعشيقها وسيلة للوصول إلى غرفتها والهرب منها وقت الخطر. وكان لها خادمة واحدة تعهدت بمساعدتها على تحقيق رغباتها. وفي اليوم السابق لأول زيارة لعشيقها أمرت خادمتها أن تخبر الزوج بما سيحدث في الليلة التالية. فعزم الزوج على مراقبة زوجه، وأخبرها أنه لن يعود إلى المنزل تلك الليلة، ثم اختبأ في غرفة سفلى. ولما جن الليل جاءته الخادمة تخبره بحضور الزائر إلى الحريم فصعد إلى أعلى ولكنه وجد باب الحريم مقفلاً. وعندما حاول فتحه صرخت زوجه، وحينئذ هرب عشيقها من الشباك عن طريق النخلة. واستغاثت الزوجة بجيرانها وأخبرتهم أن لصاً في دارها. ولم يلبث أن حضر كثيرون منهم فوجدوها قد أوصدت باب غرفتها على نفسها وزوجها في الخارج، فأخبروها أن ليس بالبيت غير زوجها وخادمتها، فقالت إن من يدعونه زوجها هو اللص لأن زوجها يبيت خارج المنزل. فأخبرهم الزوج حينئذ بما حدث وأكد أن رجلا معها، وكسر الباب وبحث في الغرفة ولكنه لم يجد أحداً. فلامه الجيران وشتمته زوجته لافترائه عليها. واصطحبت في اليوم التالي اثنين من جيرانها الذين حضروا على صراخها ليشهدا أن زوجها قذفها في عرضها واتهمته في المحكمة إنه رمى امرأة عفيفة دون رؤية أو شهود. فحكم عليه بثمانين جلدة تبعاً لشريعة (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة). وطلبت الزوجة بعد ذلك من زوجها أن يطلقها فرفض. وعاشا معاً ثلاثة أيام بعد هذا الحادث في سلام. وفي الليلة الثالثة دعت الزوجة عشيقها ليزورها وقيدت زوجها يديه ورجليه أثناء نومه وشدته إلى حشيته. وجاء عشيقها فأيقظ الزوج وهدده بالموت العاجل أن صاح. ومكث مع الزوجة ساعات في حضوره. ولما خرج المعتدي فكت الزوجة وثاق زوجها، فنادى الجيران وأخذ يضربها بقسوة وهي تستغيث. وحضر الجيران ورأوه هائجاً، فلم يشكوا في قولها أن الرجل مجنون. فخلصوها من قبضته وهم يحاولون تهدئته بالكلام اللطيف ويدعون الله أن يشفيه. وأسرعت الزوجة باستدعاء رسول القاضي وذهبت معه هي وزوجها وكثير من الجيران الذين شاهدوا الحادث إلى القاضي. وأجمع الجيران على أن الزوج مجنون فأمر القاضي بوجوب إرساله إلى المارستان. ولكن الزوجة تكلفت الشفقة والتمست السماح لها بتقييده في غرفة من غرف منزلها حتى يمكنها أن تخفف من آلامه بالاعتناء به. فوافق القاضي مثنياً على عطف المرأة وداعياً الله أن يكافئها. وحصلت الزوجة بعد ذلك على طرق من حديد وسلسلة من المارستان. وقيدت زوجها في حجرة سفلى من المنزل. وجعل عشيقها يزورها كل ليلة في حضور الزوج. ثم تلح عليه بعد ذلك ليطلقها بلا جدوى. وكان الجيران يحضرون يومياً للسؤال عنه. فيشكو لهم من امرأته ويتهمها فلا يجيبونه بغير قولهم: (شفاك الله! شفاك الله!) واستمر هكذا شهراً فلما تبين للزوجة إصراره على الرفض أرسلت في طلب حارس من المارستان لينقله إليه. والتف الجيران حوله عند خروجه من المنزل وصاح أحدهم: (لا حول ولا قوة إلا بالله! شفاك الله!) وقال آخر: (يا خسارة. . . كان رجلا فاضلا حقا!) وقال ثالث ملاحظاً: (حقاً. . . إن الباذنجان كثير الآن!. . .) وأخذت الزوجة تزور زوجها كل يوم في المارستان ملحة في طلب الطلاق وهو يرفض. فتقول له: (ستظل إذن مقيداً حتى تموت، وسيأتي عشيقي عندي على الدوام!) وأخيراً رضى الزوج بالطلاق بعد حبس سبعة أشهر. فأخرجته من المارستان ونفذ وعده. وكان عشيق الزوجة من طبقة دون طبقتها فلا يمكن أن يكون زوجاً لها فبقيت عزبة وظلت تستقبله متى تشاء. غير أن الخادمة كشفت عن حقيقة الأمر ولم يلبث الحادث أن أصبح حديث الناس.

تتعرض الزانية إذا كانت زوجة لثري أو لذي منصب، كما يتعرض عشيقها، لأهوال عظيمة. وقد حدثا أخيراً أن انتهزت زوجة أحد ضباط الجيش الكبار فرصة غياب زوجها عن العاصمة، فدعت لزيارتها تاجراً مسيحياً اعتادت أن تشتري منه الحرائر. فذهب التاجر إلى منزلها في الوقت المعين فوجد عند الباب أحد الأغوات قاده إلى منزل آخر وجعله يتنكر في ملابس سيدة. ثم عاد به وأدخله على سيدته. وقضى التاجر الليل كله تقريباً في بيت المرأة، ثم نهض قبل أن تستيقظ وأخذ في جيبه كيس نقود كان قد

أعطاه إياها. ونزل إلى الأغا ليقوده مرة أخرى إلى المنزل الذي تنكر فيه.
فاسترد ملابسه وقصد دكانه. ولم تلبث السيدة التي افتقدت الكيس أن ذهبت إليه واتهمته بأخذه. ثم أخبرته إنها لا تريد نقوداً ولكنها تبغي رفقته فقط. ورجته أن يعود إليها في الليلة التالية، فوعد بالحضور. غير أن إحدى خادمات السيدة حضرت إلى دكان التاجر عصراً وأخبرته أن سيدتها مزجت بعض السم في الماء لتقدمه إليه. ويقال أن المرأة كثيراً ما
تختار هذه الطريقة لتنتقم من عشيقها لأقل إهانة.
يندر أن ترتكب الزوجة المسلمة الزنا دون أن تعاقب بالموت إذا شهد على الواقعة أربعة شهود. ويرفع الشهود أو الزوج دعوى الزنا. وقلما تنجو الزانية من العقاب إذا ضبطها أحد الضباط. فلا يلزم في الحالة الأخيرة شهود أربعة، وإنما تعدم المرأة سراً، إذا كانت من عائلة محترمة، تحت سلطة الحكومة الاستبدادية. غير أن الرشوة قد تخلصها أحياناً لأنها تقبل دائماً إذا لم يكن هناك خطر. وتكاد عقوبة إغراق الزانية تحل الآن محل الرجم في القاهرة وغيرها من مدن مصر الكبيرة.
ويحكى أن امرأة فقيرة من هذه المدينة تزوجت من بائع طيور؛ وبينما هي تعيش مع زوجها وأمها في سكن، اتخذت ثلاثة مساكن أخرى وتزوجت ثلاثة أزواج آخرين كانوا جميعاً يتغيبون عن القاهرة. وحسبت هكذا إنه يسهل عليها إذا جاء أحد الثلاثة إلى المدينة لبعض أيام أن تجد عذراً للذهاب إليه. ولكن حدث لسوء حظها أن قدم الثلاثة في اليوم نفسه وذهبوا في مساء ذلك اليوم يسألون عنها في منزل أمها. فارتبكت لحضورهم معاً ولوجود زوجها الأول أيضاً. فتظاهرت بالمرض وسريعاً ما تصنعت الإغماء، فحملتها أمها إلى غرفة داخلية. واقترح أحد الأزواج إعطاءها شيئاً يقويها. وأراد آخر تجربة دواء مختلف. وأخذ الجميع يتناقشون في أي الأدوية أفضل. وقال أحدهم: (سأعطيها ما يحلو لي. أليست امرأتي؟) فصاح الآخرون في صوت واحد: (امرأتك! إنها امرأتي) وأثبت كل منهم زواجه. فقدمت الزوجة إلى المحكمة وحكم بإدانتها وقذف بها في النيل. وقد حدث حادث مشابه لهذا أثناء زيارتي الأولى فقد تزوجت امرأة ثلاثة من جنود النظام، فدفنت في حفرة إلى صدرها وأعدمت بالرصاص

عدلي طاهر نور

. . .من خمر الزوال

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

(إلى التي سقتني ولم تشرب معي خمر الزوال، والى الذين يشربونها مثلي من يد الزمان!!)

لا تَتْرُكِينِي في ضَلالْ ... بَيْنَ الحَقِيقَةِ وَالخَيالْ
إنِّي شَرِبتُ عَلَى يَدْي ... كِ مَعَ الهَوَى خَمرَ الزَّوالْ
أَصْبَحتُ لا نَغَمٌ يُفجِّ ... رُ لي السُّلوَّ وَلا رَبَابْ
قَلْبي حُشاشةُ طائرٍ ... في الصَّيفِ أَحْرقُهُ اليَبَابْ
عُمري بَقيةُ مَوجةٍ ... حَيرَى تَخَطَّفَها العُبَابْ
في زَاخرٍ لَمْ يَدرِ سا ... بحُهُ أَبحرٌ أَمْ سَرَابْ؟
رُحماكَ. . لَمْ أَصْبحْ سوَى ... شَبَحٍ يَسيرُ عَلَى تُرابْ. .
لا تَتْرُكِينيَ زَلةً ... في الأَرْضِ تائِهة المَتَابْ
إنِّي شَرِبْتُ عَلَى يَدَيْ ... كِ مَعَ الهَوَى حَمْرَ الْعَذَابْ
أَصْبحْتُ أَشْوَاقاً مُعَذَّ ... بةً تُضِيء مِنْ الحنَانْ
وَأسًى يدُورُ فَلا تَقَ ... رُّ لهُ عَلَى كبدٍ يَدَانْ
وَصَدى تَجَسَّدَ في الأثِيرِ ... فَكادَ يُلْمَسُ بالْبنانْ
وَرُفاتَ أُغْنيةٍ لِحب ... كِ لَمْ تَزَلْ تُشْجِي الزَّمانْ
رُحْماكِ. . . مَا بيَدَيَّ إلاَّ ... منْ - غَرَامكِ - دَمْعَتانْ
لا تتْرُكِينيَ فِيهمَا ... لَهَباً يُذَوِّبهُ الْجَنانْ
إنِّي شَرِبْتُ عَلَى يَدَي ... كِ مَعَ الهَوَى خَمْرَ الْهوانْ!
أَصْبَحتُ لَمْ أُصْبِحْ! وَلَمْ ... يُشرِقْ عَلَى خَلَدِي صَبَاحْ
أنا ظُلمةٌ سَكرَي بأق ... دَاحٍ تطُوفُ بِهَا الرِّياحْ

في قَفرَةٍ نُسيتْ فَلَمْ ... يَخْفِقُ لِطَائِرَها جَنَاحْ
وَبَكَى بِهَا الصَّمتُ الْغَرِي ... بُ وَنَاحَ مِنْ فَمِهِ النُّوَاحْ
!رُحماكِ! نُورُكِ فَوقهَا ... قَدَرٌ لِغَيرِي لا يُتَاحْ
لا تَترُكِينيَ ذَاهباً ... كَخَريفَ لَحنٍ في صُدَاحْ
إنِّي شَربتُ عَلَى يَدَي ... كِ مَعَ الهَوَى خَمرَ الْجِرَاحْ
.الّليلُ يا لَيْلايَ لَمْ ... يَترُكْ عَلى كَبدِي أنِينْ . . .
إلا وَسَارَ بِهِ غِنَ ... اءً في صَحَارَى العَاشِقينْ . . .
وَسَرَى بِلَوعَتِهِ شِرَا ... عاً لا يَسيرُ بِهِ سَفِينْ . . .
يَجْرِي عَلَى مَوْجِ الْحَياَ ... ةِ عُلالةً لِلِبَائِسينْ
!أَرَأَيتِ حَيْراناً يَلُو ... ذُ بِهِ عَذَابُ الْحَائِرينْ؟
لاَ تَترُكِينَي يا شَقِي ... ةُ غُبْوةَ الزَّمَنِ الْحزِينْ
.إنِّي شَربتُ عَلَى يَدَي ... كِ مَعَ الْهَوَى خَمرَ السِّنِينْ . . .
!بَكَتْ الْجَزِيرةُ حِينَ قُ ... لتُ لَها وَداعاً لَنْ أَعُود
وَتَأَوَّهَ العُشبُ الْحَبي ... بُ وَوَلْوَلتْ فيهِ الْعُهُودُ
.وَالرِّيحُ رَوعَهَا الرَّحِ ... يلُ كأَنَّها فَزَعٌ شَرُود . . .
وَالمَوجُ إعْصارٌ تَمَ ... زَّقَ أَوْ تَبَاريحُ النُّهُودْ
!!أَرَأَيتِ كَيفَ غَدَا الهَوَى ... عَدَماً تَوَّهمهُ وُجُودْ
لا تَترُكِينَي بَعْدَهُ ... حَسَرَاتِ لَحنٍ فَوْقَ (عُودْ)
.إنِّي شَربتُ عَلَى يَدَي ... كِ مَعَ الْهَوَى خَمْرَ الخُلُودْ . . .
!!مَرَّتْ لَيَالينا كما الأوْ ... هَامُ. . . عُودِي يَا لَيَالي
إنِّي كَتَبتُكِ في الزَّمَا - نِ خُطُوطَ غَيبٍ في خَيالِ
إنِّي سَمِعتُكِ في الْحَياَ ... ةِ أَنِينَ صَوتٍ في رِمَالِ
إنِّي رَاَيتُكِ أَدْمعُاً ... سَوداَء جَاثِمةً حِيالِي
أَرَأَيتِ كَيفَ طَوَتْ صِبَا ... يَ، فمَاتَ، أحزَانُ الْجَمالِ!؟
لاَ تَترُكِينَي كالرَّدَى ... أَرِدُ الْفَنَاَء وَلا أُبَالِي
إنِّي شَرِبتُ عَلَى يَدَيْ ... كِ مَعَ الْهَوَى خَمرَ الضَّلالِ
أَذَكرتِ حينَ جَثَتْ لَدْي ... كِ صَبَابةُ الليْلِ الجَميلْ؟
وَسَندتِ رَأسكِ فَوقَ صَدْ ... رٍ لا يفُارِقُهُ الغليلْ
.فَشَجَتكِ في الْقَفَصِ الْمُحط ... مِ ذَبحةُ الطَّيرِ الْقَتيلِ . . .
وَسَمعتِ منهُ مَعَ الظّلا ... مِ تَفَجعَ الماضِي الطَّويلْ
وَرَأيتِ فِيهِ خُطَا غَرَا ... مِكَ في ضَبَابِ المُستحيلْ
لا تترُكينَي عَاصفاً ... في البيدِ يُزهقهُ العَويلْ
إنِّي شرِبتُ عَلى يَدَي ... كِ مَعَ الهَوَى لَهَبَ الرَّحِيلْ
!أَوَّاهُ. . . إن وَلى هَوَا ... كِ وَجَاَء يصرُخ لي هَوَاي
!وَدَعوتُ نُورَكِ للغَرَا ... مِ فَرَدَّ جُرحٌ من صَدَاي
!وَمَددتُ كفِّي للسَّلا ... مِ فَصَافحتك عَلَى حَشَايْ
!وَذَهبتُ مَلهُوفاً إلي ... كِ فَلَم أجِدْ إلا خُطايْ
!وَبَقَّيةً مِمَّا وَعَى ... طَيرُ الْجزِيرَةِ مِنْ بُكاي
لا تَترُكيني عَارِفاً ... أرِدُ الضِّفَافَ بِغيرِ نايْ
!إنِّي شَربتُ عِلى يَدَي ... كِ مَعَ الهَوَى بلْوَى صِباَيْ
!مَاذَا أَقُولُ إذَا الهَوَى ... أوْما إليَّ وَلَمْ يُنادِ؟
!وَإذَا الرَّحيقُ دَعَا فَكَي ... فَ يُجيبُ خَمرَتهُ فُؤادِي؟
!وَإذا تألقَتِ الرُّؤى ... وَمَضَت تَوَهَّجُ في وِسَادي؟
وَرَنَا لي المَاضي بِطَي ... فٍ مِنكِ مُرتعشِ الْحِدادِ
!فَبأيِّ كأسٍ مِنْ دَمي ... اسْقيهِ أحْزانَ المَعادِ؟
لا تَترُكِينِّي ضَلةً ... في الأَرضِ ثاكِلَةَ الرَّشادْ
.إنِّي شَربتُ عَلى يَدَي ... كِ مَعَ الهَوَى نَدمَ الرَّمادْ . . .
!!لا تَسألِينْي بَعدَ يَو ... مكِ كَيفَ أيامي تَسيرْ
إنِّي حُداءٌ سَاخرٌ ... بِقوافلِ الزمنِ الكَبيرْ

لَكنْ سَأصبحُ آهةً ... وَلهى مُضيَّعةَ الْمَصيرْ
في صَدرِ مَصلوبٍ شَ ... قيِ الْموتِ مَظلُومِ الضَّميرْ
. . .فإذَا سَمعتِ صَبابةً ... غَنَّى بِها وَتَري الأخيرْ
!لا تَترُكينَي بَعدَها ... أهْوَى السَّماء ولا أطيرْ
إِنِّي شَربتُ عَلَى يَدَي ... كِ مَعَ الهَوَى جَزعَ الْهجيرْ
وَإذا تُسائلكِ المَغَا ... ني: أيْنَ شاعرُهَا الْحبيبْ؟
قُولي لَهَا: بَل أيْنَ في ... كِ خَيالهُ الغَردُ الرَّطيبْ؟
. . .إنَّا وَهبناَ رُوحهَ ... قبَساً لِعالَمهِ الرَّهيب
فَغَدا شُعاعاً هَائِماً ... يَهتزُّ في فَلَكٍ غَريبْ
ياَ فِتنةَ الْماضِي حَنا ... نكِ وارَحمي نَغمِي الكَئيبْ
لا تَترُكينَي مَوجةً ... تَفنى وَشاَطِئُها قَريبْ
!إِنِّي شَربتُ عَلَى يَدَي ... كِ مَعَ الهَوَى وَلَه الْمَغِيبْ
!مِنْ أيِّ نُورٍ بَعدَ نُو ... ركِ يَستَقي زَمَني سَناهْ؟
!وَبأيِّ عِطرٍ بَعدَ عِطر ... كِ يَحتَسِي قَلبِي شَذَاهْ؟
!وَبأيِّ خَمرٍ بَعدَ خَم ... ركِ خَافقِي يَنسى أسَاهْ؟
!وَبأيَّ سِحرٍ بَعدَ سِح ... ركِ أشتَهِي مَا لا أرَاهْ؟
!وَبأيَّ وَحيٍ بَعدَ وَح ... يِ هَواكِ يُلهُمني الإلهْ؟
لا تَترُكينَي دَمعةً ... تَجري بأجفانِ الحَياهْ
!إِنِّي شَربتُ عَلَى يَدي ... كِ مَعَ الهَوَى وا حَسرَتاهْ
لا تَترُكينَي في ضَلالْ ... بَينَ الْحَقيقةِ وَالخيَالْ
فَلرُبماَ أفْنىَ ولا ... يَفنَى مَعي طيفُ الْجمالْ
وَلرُبمَا أنسَى وَناَ ... ركِ في رَمَاديَ لا تَزَالْ
إِنِّي تُرابٌ لا يُر ... يدُ الْبعْثَ من فَرْط لْمَلال
شَربَ الهَوَى مِنْ رَاحَتي ... كِ فَراجَ يَشربُهُ الزَّوَال
محمود حسن إسماعيل

البريد الأدبي

أرقام وأصفار

في خطبتي التي نشرت في (الرسالة) عن (الهدف الأدبي للموسم الثقافي) عبارات لم ألقها في حفلة الافتتاح لأنها لم تكن تناسب المقام، ولكل مقام مقال، وهي العبارات التي تشكك في قيمة التضامن وتجعله سناد الضعفاء

فأين وجه الحق فيما قلت؟

لقد وفقت إلى عبارة طريفة حين سألت: (وهل تتجمع في الدنيا أمة كما تتجمع أمة النمل؟) ولكن هل يكون معنى هذا الكلام أن النمل أمة ضعيفة، لأنها لا تبني المعاقل والحصون في حدود ما نتصور، ولا تزحم البحار بالغواصات والأجواء بالطيارات؟

لقد وقعت في خطأ فظيع، فأمة النمل في تكوينها المرسوم أمة على جانب من النظام، والنظام هو الذي حماها من الانقراض، ومن آيات النظام عند أمة النمل أنها لا تفرق بين النهار والليل، فهي تشتغل بالنهار والليل، وقد جربت ذلك بنفسي

أترك هذا وأنتقل إلى مسألة الأرقام والأصفار، وهي مسألة لم يخلُ كلامي فيها من اعتساف. فهل من الحق إنه يجب أن يكون الناس جميعاً أرقاماً لا أصفاراً؟ وكيف وأنا نفسي اعترفت بأن الصفر تكون له قيمة حين يضاف إلى الرقم الصحيح؟

إن المسألة المطلقة لم تتحقق ولن تتحقق، لأنها ضلال في ضلال، ولأنها لن تكون إلا باباً من الانحلال، فالناس يختلفون كما يختلف الشجر والنبات لغاية حقيقية هي الترابط بين أجزاء الوجود، وكما تختلف المسامير التي تربط أجزاء السفين

وإذن يكون الرأي أن نقرر أن للصفر قيمة، على شرط أن يتجنب الانحراف، فيكون على اليمين لا على الشمال

لو وقف كل مخلوق في الموقف الذي يأمر به العقل لظفر بالقيمة الحقيقية لوجوده الأصيل. وأين العقل الذي يأمر الصفر بأن يكون على الشمال؟

في مقدور الصفر أن يكون أكبر من بعض الأرقام إن راعى الواجب، ولهذه الكلمة

الأخيرة تفسير أو تفاسير قد نتحدث عنها بعد حين.
زكي مبارك
في اللغة
كتب الأستاذ نجيب شاهين في العدد 489 تحت عنوان (إلى المجمع الملكي) ما رآه أنه الصواب لبعض الألفاظ والعبارات
غير إنه لم يكتب له التوفيق في بعض ما رآه فمن ذلك:
1 - يرى الأستاذ (أنها لفظة للدعاء وأن مدرسي مدارسنا لا يفرقون بينها (لا زالت) وبين (ما زالت) فينشأ الطلاب على هذا الخطأ).
فما رأي الأستاذ في كتب اللغة التي أوجبت أن تعتمد أفعال الاستمرار على نفي أو (ا) نهي أو دعاء وذكرت من حروف النفي لا، ما (وقال علماء المعاني إن لكل مكانا) وقال النحاة: إن خروج (لا) من النفي إلى الدعاء لا يكون إلا بقرينة تعين الدعاء ومثلوا لذلك بـ (ولا زال منهلا بجرعائك القطر)
وما رأيه في أن القرآن الكريم استعمل زال معتمدة على النفي بلا في قوله (ب) تعالى: (ولا يزالون مختلفين) كما ورد في الأثر (لا تزال أمتي بخير ما فعلت كذا وكذا. .).
2 - يرى الأستاذ أن تكتب هكذا (شؤون) لأن ما قبلها مضموم وقياساً على (شئون) رؤوس، وما رأيه في أن جميع كتب الإملاء ذكرت القاعدة الآتية:
(. . .كل همزة وليها حرف مد كصورتها ليس ألف اثنين ترسم مفردة)
وليست كتابتها في قاموس ما حجة تلزم أن تنقص القاعدة لتكون كما يرى الأستاذ.
محمد عبد الفتاح المقدم
مدرس بمدرسة حلوان الثانوية للبنات
حول اختلاف القراءات في القرآن
قرأت ما كتبه الأستاذ محمود عرفة تعقيباً على ما رأيته في سبب بعض القراءات، فوجدته يتفق معي في أن هذه القراءات لا ترجع إلى اختلاف اللهجات، ويخالفني في إرجاعها إلى قصد التيسير على المسلمين في القراءة على عهد النبوة، لأن الحروف العربية في ذلك الوقت كانت كلها غير منقوطة، وهذا يدعو إلى ذلك التيسير كاختلاف اللهجات سواء
بسواء. وقد بنى الأستاذ إنكاره ما رأيت من ذلك على سبب غريب، هو أن المسلمين على عهد الرسول كانوا يتلقون القرآن منه سماعاً، ويطوون صدورهم عليه حفظاً وفهماً، دون ما حاجة منهم إلى النظر في شيء من آياته مخطوطاً، فهذا بلا شك أمر غريب لا يتفق مع المعروف عن المسلمين في ذلك العهد، فإن جمهورهم لم يكن يأخذ نفسه بحفظ القرآن، وكان القليل منهم يحفظ منه السورة أو السورتين، وقد مات النبي صلى الله عليه وسلم ولا يحفظ القرآن كله منهم إلا عدد لا يكاد يتجاوز عدد الأصابع
أما كتابة القرآن وقراءته فكان فيهما إذن عام من النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يكن هناك إذن في كتابة الحديث لئلا يشتبه بالقرآن، فكانت كتابة القرآن وقراءته في ذلك العهد منتشرة بين المسلمين، وإذا كان كثير منهم لا يحفظه فإنه بلا شك تعتريه تلك الصعوبة في بعض الكلمات، ومن هذا يجيء التيسير في قراءتها على ما تحتمله من الوجوه
أما حمل مثل هذه القراءات على التصحيف فأمر لا يصح أن يقال وخصوصاً مع وجود هذا المحمل السائغ، وهو محمل يمكن أن يشمله ما ورد من نزول القرآن على سبعة أحرف، لأن هذه القراءات ورد كثير منها في قراءات سبعية متواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم، وكثير منها روي عن بعض أصحاب النبي رضوان الله عليهم ولا تقتصر روايته على حماد وأمثاله
عبد المتعال الصعيدي
حول اختلاف القراءات
رداً على كلمة الأستاذ عبد المتعال الصعيدي المنشورة في العدد 488 من مجلة الرسالة بعنوان (سبب مجهول من أسباب اختلاف القراءات) أقول: إن القراءات التي تعد أبعاضاً للقرآن يشترط فيها موافقتها للرسم المتواتر عن الصحابة، وتواتر سماعها،

وموافقتها للعربية. فالمدار في كون القراءة بعضاً من القرآن على تواتر سماعها من النبي صلى الله عليه وسلم على أنها قرآن مبلغ عن الله تعالى. فقراءة (فتثبتوا) وقراءة (فتبينوا) قراءتان متواترتان عن النبي صلى الله عليه وسلم، ومعناهما واحد، لا أن الخط يحتملهما فقرأها فريق على أحد الاحتمالين، وفريق على الاحتمال الاخر، فإنكار أحدهما إنكار لبعض
القرآن
وأما تجويز القراءة بما يحتمله الرسم وتظاهره العربية بدون نظر إلى الرواية فرأي شاذ لابن مقسم العطار وهو محمد بن الحسن المتوفى سنة 453 استثيب بسببه (انظر شذرات الذهب في أخبار من ذهب وتاريخ بغداد)
وقراءة (أباه) بدل (إياه) شاذة قرأ بها الحسن البصري وابن السميفع اليماني وغيرهما. والقراءة الشاذة تكون في الأكثر مفسرة للقراءة المشهورة. فقراءة أباه تعين رجوع ضمير (إياه) إلى الأب مع احتمال رجوعه إلى إبراهيم باعتبار أن الأب ربما كان هو الذي وعد ابنه بالإيمان، وفهم الحسن البصري عكس ذلك فقال إن الواعد هو إبراهيم حيث وعد أباه بالاستغفار.
ولو أن الأستاذ عبد المتعال اطلع على (تاريخ الأدب العربي للأستاذ الزيات) ص89، 90 أو على كتاب في الفن (كمسجد المقرئين لابن الجزري) لما ذهب إلى هذا الرأي
محمد غسان
العدد 491 - بتاريخ: 30 - 11 - 1942
إن هي إلا أسماء
للأستاذ عباس محمود العقاد
في ليالي القمر، وفيما بين الخريف والشتاء، ليس أجمل ولا أروع من مشية طويلة في صحراء (ألماظة) أو ما يليها من الطرق المعبدة بين الحدائق والرمال هاتيك ليالٍ تسبح في بحار من سحر النور وسحر الصحارى وسحر التاريخ، بل النبوة إن صح ما قيل معززاً بالأسانيد أن موسى عليه السلام تلقى العلم هو وبنتاءور ونخبة من الحكماء والعظماء بجامعة (أون) في هذا الجوار، على أزمنة مختلفات
وما أذكر أنني مشيت في هذه الطرقات مع أحد إلا سألني: على اسم مَن من العظيمات أو الجميلات سميت هذه الصحراء بالماظة؟ وما معنى كلمة الكربة أو القربة أو القربى التي يطلقها الناس على الطريق المؤدي إليها من غير طريق قصر البارون؟
ومجال التخيل أو مجال العبث هنا فسيح
أما مجال الصدق والتحقيق فهو لا يتسع لأكثر من سطور: ألماظة هي (المجزا) أو الـ بالإيطالية ترجمة للمخزن بالعربية، والكربة أو القربى كما يكتبها بعضهم هي الـ بالإيطالية ومعناها (المتحني) أو المتعرج كما يترجمها زميلنا (المرصفي) رحمه الله لو سئل فيها
وقد نعلم أن بعض المهندسين والمفتشين في ترام مصر الجديدة كانوا عند نشأتها من الطليان، وكانوا يتحدثون عن المخزن فيقولون (المجزا) وينطقها العمال بعدهم (المازا) أو ألماظة على سبيل التصحيح، وخير من ذلك أن يقال على سبيل التغليط!
وكانوا إذا ذكروا المحطة الأخيرة قبل مدخل ألماظة ذكروا (الكرفا) أو موضع الانحناء فينطقها العمال بعدهم (الكربة) ويعربها بعضهم (بالقربى) على سبيل الحذلقة أو التحريف
فهذا هو الجد في أصل (ألماظة) و (الكربة) في غير تخيل ولا عبث ولا اختراع
أما مجال التخيل والعبث فكما قلنا فسيح، وكما يستطيع كل مخترع أن يخترع باب على صحراء!
ونحن نعرف الذين يسألون فيجيبون ولا يسكتون، ونعرف الذين يخلقون الأسماء أو يخلقون القصص والتواريخ حول الأسماء، فلو سئل واحد من هؤلاء: ما ألماظة؟ ومن هي رحمها
الله؟ أو سئل: ما القربى؟ ومن أي شيء تقترب بإذن الله؟ فماذا تراه يقول؟ وأي قصة لا يجوز أن تتألف وتتضخم في جواب هذا السؤال، وتفسير معنى الاسمين العجيبين وما فيهما من الشعر ما يغري بالاختراع؟

لقد رأينا كيف اخترعت قصة (أنس الوجود والورد في الأكمام) حول قصر مهجور بجزيرة (فيلة) عند الشلال؟ ورأينا أن القصر أصبح معقلاً مبنياً لفتاة يعشقها فتى مفتون بها يتعقبها من وراء البحار والأنهار والجبال والرمال؟ ولمن يبنى مثل هذا القصر إن لم يبن لبنت وزير؟ ولماذا يبنى إلا للحيلولة بين عاشقين؟ ذلك أمر معقول أدنى إلى العقل من التاريخ، ولهذا غلب اسم أنس الوجود على القصر حتى عرف به في الكتب وضاع بين الألسنة والأسماع ذلك الاسم الذي يسميه به المؤرخون

قال الراوي: أما ألماظة والقربى وقصر البارون فلها حديث عجاب، ونبأ مستطاب، يدهش الألباب، وتتحلى به الصحيفة والكتاب.

فالأصل في ألماظة (ألماسة) على التحقيق، لأنها كانت جوهرة مكنونة تحاط بالظلمات والسدود، ويقام من حولها الحراس والأجناد

وكانت (ألماسة) هذه جوهرة مومقة على سبيل المجاز، وفتاة معشوقة على سبيل الحقيقة التي يعلمها الراسخون. حجبوها لأنهم عشقوها فتعقبوها، وحاروا كيف يخفونها ويكتمون سرها لأن الذين تعقبوها كانوا ينفذون إلى كل سر ويحيطون بكل مكان. . . بنت وزير ولابد أن تكون حتى يستطاع نقلها من سهل إلى جبل ومن بحر إلى بر ومن بستان إلى صحراء، وابن أمير لابد أن يكون ذلك الذي هام بها وتعقبها حتى يستطيع أن يخيف الوزير على فتاته ويستطيع فوق هذا أن يهتدي إليها حيثما ضلله المضللون، وأن يطمع في اغتصابها ولو حماها منه الكماة المستبسلون

عرفنا السر إذن ووضعنا أيدينا على مفتاحه المكنون، ولم يبق إلا أن نتعقب المتعقبين إلى حيث يفلحون أو يخفقون

قال الراوي: وخرج الأمير الصغير يتنسم الأخبار، ويجوب الأقطار، ويتقلب بين الجزر والبحار، فوقف على كل جزيرة، ومخر في كل بحر، وسأل كل راكب، وتحير عند كل طريق؛ إلى أن أراد الله اللقاء، وأذن بانقضاء الفرقة والجفاء. فوقع المحب الوامق على

المسئول الذي يجيب عن كل سؤال، لأنه ساحر يضرب الرمل ويعرف طريق الرمال

قال له يا بني، إن نجم صاحبتك في الرمل وليس في الماء، فاخرج إلى صحراء مصر بعيداً من بحر القلزم وبعيداً من بحر الروم، وعلى ملتقى الخطين من هذين البحرين، وامش كذا مئات من الخطوات، واتل كذا صفحات من الرقى والتعاويذ، وأدن إلى قصر شامخ وصرح باذخ، فاحمد الله على بلوغ المراد، وانحر هناك الجزور للقصاد والوراد، ولكن حذار أن يخدعوك، وإياك إياك أن يسترجعوك، فإنك إن دخلت القصر الشامخ وجدته خواء لا أنيس فيه، فزعمت أنهم كانوا فيه ثم تركوه ينعي من بناه، ونكصت على أعقابك وأنت على مدى لحظات من ديار الحبيب الموعود

حذار يا بني أن يخدعوك، وإياك إياك أن يسترجعوك

فإذا بلغت تلك القصور، فلا تقف عندها إلا ريثما تنحر الجزور، وتنصب القدور، وتطلق البخور، وتشكر ربك الشكور، ثم دع القصر المعمور، واضرب في الخلاء المهجور، فهنالك تنحني وتدور، وعند المنحنى تستقبل مطالع النور، ومنازل البدور، وتنادي يا ألماسة يا ألماسة فينكشف المستور، وينفتح ما وراء السور، ولي منك البشارة يوم تقام الأعراس ويشدو في الحي قمري السرور، وبشير الحبور

قال الراوي، فلما جاوز القصر، وانحنى إلى القفر، صاح وا فرحاه! وا طرباه. . . دنت القربى والحمد لله!

وكان وراءه مسجل الأسماء الذي حضر كل تسمية في الأرض والسماء، فقال: هذا هو حي (القربى). . . فسمع الناس الدعاء، وكانت (الكربة) على منعرج الصحراء!

قصة أين منها قصة أنس الوجود والورد في الأكمام؟ وأين التوفيق بين ألماظة والقصر الهندي بصحراء مصر الجديدة، من التوفيق بين أنس الوجود ومعابد البطالة بجزيرة الشلال؟

في ليلة من ليالي القمر الماضي كنت أتمشى مع صاحب يُستحب الحديث معه على مقربة من تلك الصحراء، فبدر السؤال الذي بدر قبل الآن عشرات المرات، وكنت أستطيع الإيجاز فأروي لصاحبي قصة (المجزا) و (الكرفا) في كلمتين معجلتين، وأستطيع الإطالة فأنسج له رواية مسهبة تطول وتطول، ثم تعاد فتجر من ورائها الذيول. فآثرت الإطالة

على الإيجاز، وأفضت في الاختراع والتلفيق على نحو يجمع بين التاريخ والرواية، وذكرت السنوات وسميت الأسماء وأصحبت الحديث بالتعليق، الذي ينوب عن (التأثر) والتصفيق، وانتهيت من القصة كأنني أشكك فيها، وألقي التبعة على ناقلها وحاكيها، فكان شكي مدعاة لقبولها، والجنوح إلى تصديقها، والنفرة من مكذبيها، ثم انتهت الإطالة إلى مداها، فأردت أن أصلها بإيجاز من غير لحمتها وسداها، فلا يسألني القارئ عن الخيبة التي قوبلت بها الحقيقة الواقعة، فلعلها كانت ابلغ من الحماسة التي قوبل بها التلفيق والاختراع، ولا يعجبني كراهة المخزن والكرفا فإنها لن تروق القلوب الفتية كما تروقها ألماسة والقربى، وهكذا معظم الحقائق ومعظم الأوهام ومعظم الأسماع ومعظم العقول

وكم للحق من وحشة! وكم للوهم من حظوة! وكم من الناس يأبون أن يصدقوا ما يرون ويسمعون لأن صدق الحياة أليم، فإذا هم يصدقون من يحجبون الصدق عنهم لأنه حجاب مزخرف وثير

وعدنا في الطريق فإذا نحن على مقربة من مسجد يتوسط بين القصر والمنحنى، فعاد صاحبي يقول وكأنه ينتقم مني بما يقول: وأظن هاهنا كان موضع الجذور والقدور، ومقام الصلاة من ذلك المحب الشكور!

قلت: مرحى! مرحى! فهكذا قال الراوي ونسيت، وهكذا يفيد التعليم في السامع النجيب!

يقول شكسبير: وماذا في اسم؟

كثير يا شكسبير!

عباس محمود العقاد

السوقية في الأدب

للدكتور عبد الوهاب عزام

قرأت مقال الأستاذ الزيات الذي عنوانه (دفاع عن البلاغة)، فوقع في نفسي على القبول والاستحسان، وألفيته ترجماناً عن معان ترددت في نفسي ورددها لساني، وذكرني بحديث تحدثت به في دمشق في دار الأستاذ الصديق العلامة محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي

أذكر أني جلست والأستاذ مرة فأخذنا بأطراف الأحاديث بيننا، وأفضنا في أمور شتى حتى دفعنا في الكلام عن الأدب وما عرض له من آفات، وما حاق به من مساوئ الاتجار، ومسايرة الآلات الحديثة عجلة واندفاعاً، ومن تملق الجمهور بالإسفاف إليه، والتيسير عليه، وإمتاعه وتلهيته بما يلائم القراءة العجلى والنظرة السريعة، وقد أجملت هذا كله في كلمة، فقلت: (قد غلبت السوقية على الأدب) قال الأستاذ: أصبت المحز بهذه الكلمة، وأحسنت التعبير عما يسميه الفرنسيون:

وبيان هذا أن الآلات الحديثة يسرت الصناعة، وعممتها، وزوقتها، ولبست الجيد الثمين والرديء الرخيص في بعض المظاهر. فطمح كل في اقتناء الأمتعة التي كان لا يطمع فيها إلا الأغنياء، وطمع الفقراء في منافسة الأثرياء بأمتعة تقارب أمتعتهم أو تشبهها شكلا ولوناً، وقابل الصناع والتجار هذا الطموح وذاك الطمع بما يسده من بضاعة مزيفة مزينة خداعة، وكسدت الصناعات اليدوية الجيدة التي تكلف الصانع عمل الأشهر أو السنين، وأعرض الناس عنها مشفقين من تكاليفها. فمن لم يملك ثمن الحرير الطبيعي أو لم تسخ يده به عمد إلى الحرير الصناعي، ومن لم يستطع اقتناء الذهب اقتنى المذهب أو المموه. ومن لم يتسع ماله لاشتراء الماس اشترى ما يشبه الماس، ومن لم يقدر على اللؤلؤ البحري لجأ إلى اللؤلؤ الصناعي، وهلم جرا. فشاع بين الناس الصناعي إلى جانب الطبيعي، والمقلد إلى جانب الأصلي، والسوقي إلى جانب المتصنع، والزيوف إلى جانب الجود، والبهرج بجانب الصحيح

والعلم على هذا القياس، فقد تولت الحكومات التعليم فيما تولت، فحددت زمانه ومكانه وموضوعه ودرجاته، وخطت الخطط لتعميمه، وجعلت له شهادات تشهد لصاحبها بالعلم

وعلى من لا يحملها بالجهل، وحشر إلى دور العلم الراغب والكاره والأهل وغير الأهل، ووجه الأحداث الوجهة التي يريدها العرف أو النظام أو الضرورة لا التي تميل إليها نفسه، وتختارها مواهبه. وجرف التيار الناس، فصارت المدارس مصانع تصنع التلاميذ

على قوالب متماثلة أو متشابهة، أو مطابع تخرج آلاف النسخ من كتاب واحد، وتقدم أصحاب الشهادات إلى الأعمال كما تعرض السلع في الأسواق

قال بعض السامعين: أليس نشر العلم وتعميمه خيرا للناس؟ قلت لا ريب إنه خير ولكن معه شرا هو الذي حدثتك عنه. ولست أبغي الآن أن أفيض في هذا الداء وأدويته ولكن ساقنا إليه الحديث في الأدب

قال أحد الأصحاب وهو الحديث الذي بدأناه ثم حدنا عنه فلم نعد إليه

قلت: والأدب على هذا النسق. الجرائد والمجلات والكتب شاعت وانتشرت، وصار الكاتب بهذه الوسائل الحديثة السريعة يعرض على الناس ما يكتب وكأنه ماثل أمامهم يحدثهم به أو يخطب فيهم. فهو يسايرهم مسايرة المحدث أو الخطيب، ويلقاهم كل يوم على صفحات الصحف، يلتمس رأيهم فيما كتب، ويتعرف موقعه من نفوسهم. وكلما أرضى الكاتب جمهرة القراء سمع ثناءهم عليه وإكبارهم إياه فحرص على هذا الرضا رغبة في علو المكانة وبعد الصيت. واضطر إلى أن يسف إليهم دون أن يرفعهم إليه، وأن يجاريهم دون أن يصدهم عما يشتهون، وأن يلاينهم دون أن يحملهم على ما يكرهون أو يكبحهم عما يهوون، وأن يلهيهم ويضحكهم لا يشق عليهم ولا يسومهم عناء. فكأن الكاتب تاجر وكأن كتابته سلع في الأسواق أيضاً. والتاجر يلتمس لكل سوق ما يروج فيها. والرديء الرائج خير له من الجيد الكاسد.

ووراء هذا أصحاب الصحف والمكتبات والمطابع يبغون الربح في تجارتهم، والربح على قدر إقبال الجمهور على ما يخرجون، وإقبال الجمهور على قدر هواه ومتعته ولهوه. فالكاتب الذي يرضي الجمهور ويمتعه ويلهيه أقرب إلى أصحاب الصحف والمكتبات والمطابع، يبذلون له المال، ويسارعون إلى نشر ما يريد. على حين يجفون الكاتب المبدع الذي يحمل الناس على المكره، ويقودهم على الطريقة التي فيها صلاحهم وإن نفروا عنها نفور المريض من الأدوية الكريهة.

قال صاحبي الملول: وما وراء هذا؟ قلت: وراءه ما زعمته أول الحديث من غلبة السوقية في الأدب؛ فقد صار بضاعة في السوق أو تلهية في الملاهي، أروجها أقربها إلى عقول الناس، وطباعهم وإن تفهت وحقرت، وانتهت بهم إلى المهالك. وأكسدها ما علا عن إدراك العامة وأشباه العامة، وما اقتضى فهمه عقلاً وعلماً وضاق عن الجمهور ووسع الخاصة وحدهم. فمن شاء مالاً ورواجاً وصيتاً ومكانة عند العديد الأكثر فليطلع على الناس كل يوم بقصة أو نادرة أو ملهاة مما يقرأ في القطار والترام وحين انتظارهما؛ وليتجنب الموضوعات التي تحوج القارئ إلى الجد والكد، والألفاظ التي تحتاج إلى علم باللغة واسع، والأساليب التي تقتضي التمهل والتأمل لإدراك ما فيها من جودة وبراعة وجمال.

ومن ابتغى إصلاح الجمهور وتهذيبه وتعليمه وشاء الخير العام للناس، ورغب في الحقيقة والجمال لا يبالي أين يقعان من نفوس الدهماء فلا يتعجلن المكانة والصيت والمال وليكتب ابتغاء مرضاة الله، وليدع إلى الخطة الرشيدة، وليسم إلى مستوى الحق والخير والجمال، وليبلغ ما يوحي إليه ربه، ويهدي إليه قلبه. وإن طمع في المكانة وحسن الأحدوثة فليعلم إنه منته إليهما لا محالة؛ ولن يضيع الخير والحق والإجادة والإتقان على مر الزمان، ولن يذهب العرف بين الله والناس.

فإن سأل سائل: أتريد الناس كلهم على قراءة الأدب الرفيع والفلسفة العالية؟ قلت لا لا، بل أريد ألا تتحكم السوقة في الأفكار والأقلام، وألا يطغى الرواج على الجودة. أريد أن يؤدي الكاتب أمانته، ويبين عقيدته، غير حاسب حساب السوق، وليكن بعد هذا في الكتابة ما يلائم العامة وما يلائم الخاصة، وما يجمع بينهما. أريد أن يعلو الكاتب ما مكنه طبعه، وأن يدق ما شاء له فنه، لا يعنيه إلا أن يؤدي واجبه على الوجه الأكمل. وكذلك أريد أن ينزل الكاتب الآخر كما يريد طبعه، وأن يسهل ويدنو كما يشاء فنه. لكل وجهة، ولكل مجال، ولكل قراء. وإذا صدق كل كاتب نفسه، وأخلص لعمله، فرقت الكتاب المعارف والطبائع؛ فعلا جماعة وهبط آخرون، وبعد كاتب وقرب آخر، وكانت ضروب الكتابة معربة عن ثقافة الأمة وأذواقها، ملاقية أصناف الناس بما يسد حاجاتهم، ووجد الناس الصعب والسهل، والبعيد والداني، والغالي والرخيص، كلاً في بيئته وفي مظانه. لا أدعو إلى أن يصير الأدباء فناً واحداً في البيان وأسلوباً عالياً في الكتابة، ولكن أخشى أن تذهب السرعة

بالإتقان، وتطغى التجارة على الإحسان، ويمتحن الكتاب حتى يروا حسناً ما ليس بالحسن، ويجرفهم السيل فيتجهوا حيث يريد الناس لا حيث يريدون، وينتقل الزمام من يد القائد إلى يد المقود، ويسير الإمام خلف المأموم، فتنبهم الغايات، وتلتبس الطرق، وتشتبه الأعلام. وما ظنك بجماعة تسير على غير سبيل إلى غير غاية؟

عبد الوهاب عزام

مسابقة الأدب العربي لطلبة السنة التوجيهية

الشوقيات - 2

للدكتور زكي مبارك

مصاير الأيام - قصائد سورية - قصائد لبنانية - مصرع شوقي - شعور شوقي بالوجود - بين أحمد شوقي وحافظ إبراهيم

مصاير الأيام

هذا عنوان قصيدة صور بها شوقي صروف الحياة من عهد الطفولة إلى عهد المشيب. . . ابتدأ الشاعر بحياة الطفل في (المكتب)، والمكتب كلمة جديدة يراد بها المدرسة الأولية، وهي كذلك في عرف وزارة المعارف، فهي تقول المكاتب العامة بعد أن كانت تقول المدارس الأولية. وكان العرف المدرسي قبل سنين يعمم كلمة المكتب بحيث تشمل حجرة الدرس، ولو كانت في مدرسة عالية

وشوقي في هذه القصيدة يتمثل حياة الأطفال، ويحسها أصدق إحساس

ألاَ حبذا صحبةُ المكتبِ ... وأحبِبْ بأيامها أحبِبِ

ويا حبذا صِبْيةٌ يلعبون ... عِنانُ الحياة عليهم صَبي

كأنهم بَسَمات الحياة ... وأنفاس ريحانها الطيّب

وعبارة (عِنان الحياة عليهم صَبِي) عبارة طريفة، والمراد بصبا العنان هو الرقة واللين ثم يلتفت الشاعر فيرى أن الأطفال لا يفرحون بالمكتب كل الفرح، ولا يرتاحون إليه كل الارتياح، وكيف والأمر كما قال:

يُراح ويُغدَى بهم كالقطيع ... على مشرق الشمس والمغربِ

إلى مرتعٍ ألِفُوا غيره ... وراعٍ غريب العصا أجنبي

وهذان البيتان من أروع ما صورت به حياة الأطفال في رعاية المعلمين!

وصور اختلاف قواهم باختلاف أسنانهم فقال:

فراخٌ بأيكٍ فمن ناهضٍ ... يروض الجناح ومن أزغب

وصور غفلتهم عن المصير المرتقب فقال:

مقاعدهم من جَناح الزمان ... وما علموا خَطَر المركب

وقد جاد الوحي على شوقي ببيتين في غاية من العذوبة والصدق، أما البيت الأول فهو قوله في تلوين حيوية الأطفال:

عصافير عند تهجّي الدروس ... مهارٌ عرابيد في الملعبِ

وأما البيت الثاني فهو قوله في اختلاف الإحساس باختلاف أوقات الجرس:

لهم جرَسٌ مُطربٌ في السراح ... وليس إذا جدَّ بالمطربِ

وهل ينسى المدرسون لا التلاميذ أن جرس الانصراف محبوب الرنين، وأن جرس الدرس بغيض الضجيج؟

وأذكر من باب الفكاهة أني كنت أشرح لأحد نظار المدارس قيمة الطرافة في هذا البيت فقال: إن شوقي نسي جرس الغداء! ثم قال شوقي:

جنون الحداثة من حولهم ... تضيق به سَعةُ المذهب

عدا فاستبدّ بعقل الصبيّ ... وأعدى المؤدب حتى صبى

والغرض قد التوى على شوقي في هذين البيتين بعض الالتواء، لأنه ساوى بين الجنونين: جنون الأطفال وجنون المعلمين

وأخطأ شوقي في اختيار كلمة (المؤدب)، والصواب أن يقول (المعلم). فهناك فرق بين التأديب والتعليم، فالتأديب هو التثقيف، والتعليم هو الترتيب. وفي كلام الجاحظ عبارة تفصح عن الفرق بين المؤدب والمعلم، وتدل بوضوح على أن المؤدبين أكبر من المعلمين

ثم نقل شوقي تلاميذه من المكتب إلى المدرسة ثم إلى الحياة فقال:

فيا ويحهم! هل أحسوا الحياة ... لقد لعبوا وهي لم تلعب
تجرب فيهم وما يعلمون ... كتجربة الطب في الأرنب
سقتهم بسم جرى في الأصول ... ورَوَّى الفروع ولم ينضب
ودارَ الزمان فدال الصِّبا ... وشب الصغار عن المكتب
وجدَّ الطُّلاب وكدَّ الشبا ... ب وأوغل في الصعب فالأصعب
وعادتْ نواعمُ أيامه ... سنينَ من الدأب المنصِب
وعُذِّبَ بالعلم طُلابهُ ... وغصُّوا بمنهله الأعذَب
والمجال يضيق عن تشريح هذه القصيدة، القصيدة التي قال فيها شوقي:
وكم منجب في تَلقي الدروس ... تَلَقّى الحياةَ فلم يُنجبِ
فأرجو أن يلتفت إليها المتسابقون، لأنها من غرو الشوقيات

قصائد سورية

في المقال السالف نصصنا على السر في اهتمام شوقي بأخبار سورية ولبنان، فلنذكر اليوم أن الشعر تحدث عن سورية في قصائد جياد، منها القصيدة التي تحدث فيها عن الشهداء في سبيل الاستقلال:
بني سوريةَ التئموا ليومٍ ... خرجتم تطلبون به النزالا
سلوا الحرية الزهراء عناً ... وعنكم هل أذاقتنا الوصالا
وهل نِلنا كلانا اليومَ إلا ... عراقيب المواعد والمطالا
عرفتم مهرها فمهرتموها ... دماً صَبَغ السباسب والدغالا
وقمتم دونها حتى خضبتم ... هوادجها الشريفة والحجالا
دعُوا في الناس مفتوناُ جباناً ... يقول: الحرب قد كانت وبالا
أيطلب حقهم بالروح قومٌ ... فتسمع قائلاً ركبوا الضلالا
ومنها القصيدة الأموية، وقد أشرنا إليها في المقالة الماضية. ومنها القصيد الذي لا يطاوله قصيد، فما نظم شاعر أروع مما نظم شوقي في (نكبة دمشق)، ولا ارتاع شاعر كما ارتاع شوقي لنكبة دمشق:
لحاها الله أنباءً توالتْ ... على سمع الوليِّ بما يَشُقُّ
يفصِّلها إلى الدنيا بريدٌ ... ويجملها إلى الآفاقِ بَرقُ
تكاد لروعة الأحداث فيها ... تخال من الخرافة وهي صدق
وقيل معالم التاريخ دُكَّتْ ... وقيل أصابها تَلفٌ وحَرْق
ألستِ دمشق للإسلام ظئراً ... ومرضعةُ الأبوَّة لا تُعَق
وفي هذه القصيدة يقول شوقي في وصف ما صنعت النكبة بنساء دمشق:
بَرزْنَ في نواحي الأيك نارٌ ... وخَلْفَ الأيك أفراخٌ تُزقُّ
إذا رمنَ السلامةَ من طريقٍ ... أتتْ من دونه للموتِ طُرْق
بليل للقذائفِ والمنايا ... وراء سمائه خطفٌ وصعْق
إذا عَصَف الحديد احمرَّ أفقٌ ... على جَنَباتِهِ واسودَّ أفق
ثم توحي إليه ملائكة الشعر أن يقول:
بني سورية اطّرحوا الأماني ... وألقوا عنكم الأحلامَ ألقُوا
فمن خِدَع السياسة أن تُغَرُّوا ... بألقاب الإمارة وهي رِقُّ
وكم صَيَدٍ بدا لك من ذليل ... كما مالتْ من المصلوب عُنْق
نصحت ونحن مختلفون داراً ... ولكن كلنا في الهمِّ شرق
ويجمعنا إذا اختلفتْ بلادٌ ... بيانٌ غيرُ مختلف ونُطق
وقفتم بين موتٍ أو حياةٍ ... فإن رمتم نعيم الدهر فاشقُوا
ومن يسقى ويشرب بالمنايا ... إذا الأحرار لم يُسقَوا ويَسقُوا
ففي القَتْلى لأجيالٍ حياةٌ ... وفي الأسرى فدًى لهم وعتق
وللحرية الحمراء بابٌ ... بكل يَدٍ مضرَّجة يُدقُّ
هل يحتاج هذا الشعر إلى شرح؟ هيهات!

قصائد لبنانية

المذاق يختلف بعض الاختلاف أو كل الاختلاف بين قصائد شوقي السورية وقصائده اللبنانية، فهو في الشام يعاني نارين: الذكريات للأمجاد الأموية، ونار الحقد على الاستعمار الفرنسي، وقد جاهده السوريون أصدق الجهاد، وعانوا في دفعه مكاره لا

تطاق
ولا كذلك حال شوقي في لبنان، فهو هنالك شاعر يصدح فوق أفنان الجمال، ولا يرى ما يسوءه من الاضطهاد، لأن الظواهر كانت تزعم أن الفرنسيين واللبنانيين على وفاق كان لبنان لعهد زيارات شوقي وطن الشعر والجمال والأمان والرخاء. وكان اللبنانيون على فطرتهم الأصيلة من الترحيب الصادق بكل من يزور وطنهم الجميل، فأنس بهم شوقي كل الأنس، واطمأن إليهم كل الاطمئنان
أيام شوقي في سورية كانت أيام جهاد، أما أيامه في لبنان فكانت أيام شهاد
كان شوقي يكره أن يقول إن شبابه إلى أفول، وإن جاوز الستين، ثم شاء شيطانه أن ينقله إلى (زحلة) وطن الرحيق، ومعه المحامي فكري أباظة والموسيقار محمد عبد الوهاب. وفي لحظة من لحظات الصراع بين العيون والقلوب هان عليه أن يبكي الشباب الذاهب فيقول:
شيعتُ أحلامي بقلبٍ باكِ ... ولممت من طُرُق الملاح شباكي
ورجعتُ أدراجَ الشباب ووَردهُ ... أمشي مكانهما على الأشواك
وبجانبي واهٍ كأن خفوقه ... لما تلفت جهشة المتباكي
شاكي السلاح إذا خلا بضلوعه ... فإذا أهيبَ به فليس بشاكي
قد راعه أني طويت حبائلي ... من بَعد طول تناولٍ وفكاك
ويح ابن جنبي، كل غاية لذة ... بعد الشباب عزيزة الإدراك
لم تبق منا يا فؤاد بقية ... لفتوّة أو فضلةٌ لِعراك
كنا إذا صَفقتَ نستبقُ الهوى ... ونَشُدّ شدَّ العُصبة الفُتّاك
واليومَ تبعثُ في حين تهزّني ... ما يبعث الناقوس في النُّسّاك
وكان الرأي أن تُلقى هذه القصيدة في حفلة أعدها أهل زحلة لتكريم شوقي، وكان الأستاذ فكري أباظة هو الأثير عند شوقي حينذاك في إلقاء شعره البليغ، فاعترض الموسيقار عبد الوهاب قائلاً إن هذه القصيدة للغناء، وليست للإلقاء، ثم صدح بصوته الرنان:
يا جارة الوادي طربت وعادني ... ما يشبه الأحلام من ذكراك
مثّلتُ في الذكرى هواك وفي الكرى ... والذكريات صدى السنين الحاكي
لم أدر ما طيبُ العناق على الهوى ... حتى ترقّقَ ساعدي فطواك
لا أمس من عمر الزمان ولا غدٌ ... جُمِع الزمان فكان يوم لقاك
وفي هذه القصيدة يقول شوقي على عادته في التخوف من محجب الغيوب:
لبنان ردَّتني إليك من النوى ... أقدار سير للحياة دِرَاكِ
نمشي عليها فوق كل فجاءةٍ ... كالطير فوق مكامن الإشراك
مصرع شوقي
في مكتبة الدكتور طه بك حسين ظرف مختوم كتب عليه: (مصرع شوقي) فما الذي يحتويه ذلك الظرف المختوم؟
في إحدى العصريات من صيف سنة 1925 أو سنة 1926 حدثني الدكتور طه حسين أن شوقي أسفّ أبشع الإسفاف بقصيدة نشرتها جريدة المقطم عن هوى شوقي في لبنان
وأعترف أني كنت أرى ما يرى الدكتور طه في تلك القصيدة يومذاك، فقد نشرت في المقطم على أسوأ حال من التحريف
ثم دارت الأيام وعرفنا إنها أجود مما كنا نتوهم، وأنها في كل خاطر وعلى كل لسان في لبنان
ثم دارت الأيام مرة ثانية فعرفنا أن الأريحية اللبنانية سمحت بأن يكثر من يقولون إن شوقي عناهم بذلك القصيد، القصيد الذي يهتف:
وأغرَّ أكحلَ من مَها (بكْفَّية) ... عَلِقَتْ محاجرُه دمى وعَلِقْتُه
لُبنانُ دارتُهُ وفيه كِناسهُ ... بين القنا الخطّار خُطَّ نَحيتُهُ
السلسبيلُ من الجداول وردهُ ... والآسُ من خُضْر الخمائل قوتُه
دخلَ الكنيسة فارتقيت فلم يُطل ... فأتيت دون طريقه فزحمتُه
فازورَّ غضبانا وأعرض نافراً ... حالٌ من الغِيد الملاح عرفتُهُ
فصرفت تلعابي إلى أترابه ... وزعمتُهنّ لبانتي فأغرتُه

فمشى إليَّ وليس أول جؤذر ... وقعت عليه حبائلي فقنصته
قد جاء من سحر الجفون فصادني ... وأتيت من سِحر البيان فصدته
لما ظفرت به، على حَرَم الهدى ... لابن البَتُول وللصلاة وهبتُه
إلى آخر القصيد
شعور شوقي بالوجود
بين قصائد شوقي في سورية ولبنان وقصائده في البلاد التركية والفرنسية آماد طوال، ومع هذا نجد أن إحساسه بالوجود على اختلاف الأزمان غاية في القوة والبريق وهل ننسى أن الجرائد المصرية لم تجد عند مصرع باريس في الحرب الحاضرة غير ما توجع به شوقي لباريس في الحرب الماضية؟
ولقد أقول وأدمعي منهلَّةٌ ... باريسُ لم يعرفكِ من يغزُوكِ
زعموك دار خلاعةٍ ومجانةٍ ... ودعارةٍ، يا إفكَ ما زعموكِ
إن كنتِ للشهوات ربًّا فالعُلاَ ... شهواتُهنّ مروَّياتٌ فيكِ
ومن هذا الكلام نعرف أن للعلاَ شهوات أعنف من شهوات الأهواء.
وقصيدة شوقي في غاية بولونيا قديمة العهد، وهي مع ذلك لطيفة النفس، ذكية الروح وأبياته في (شبه أمينة) أبيات لطاف، وقد رأيت بعيني صورة أمينة في غرف كثيرة من دار شوقي، بدون استثناء لحجرة الاستقبال، وهي البنية التي قال فيها ذلك الأب الحنان:
وكم قد خلَتْ من أبيك الجيوب ... وليست جيوبك بالخاليهْ
ثم ماذا؟
ثم يبقى الحديث عن القصيدة التي حفظها غريم شوقي في الشعر والبيان، وهو حافظ إبراهيم، مع تفاصيل يوجبها التاريخ، ليعرف المتسابقون سرائر هذين الشاعرين، وليواجهوا يوم الامتحان مدرعين بالبصيرة واليقين. والله عز شأنه هو القادر على أن يجعلهم طلائع الفكر والرأي في هذا الجيل.
زكي مبارك
عثرت به وعثرت عليه
للأستاذ محمد مندور
لم يكن في عزمي أن أرد على زكريا أفندي إبراهيم لأن المناقشة لم تكن بيني وبينه، وإنما فعلت لأنني رأيته قد أثار مسألتين حسبت في إيضاحهما فائدة لعامة القراء وقد اعتمدت في تأييد استعمالي (لعثرت ب) على مبادئ لغوية عامة لم يقتصر العلم بها على الباحثين في علم اللسان بل سبقهم إليها ولحقهم الفلاسفة وكافة المفكرين. فاللغات كما قلت مجازات ميتة في الكثير من مفرداتها، فنحن عندما نقول بالفرنسية مثلا بمعنى (أتلف) نستعمل مجازاً ميتاً لم يعد يحس به أحد، وذلك لأن معنى هذا الفعل الاشتقاقي في اللغة الفرنسية هو (يلقى في هاوية) (هاوية: وكذلك الأمر في اللغة العربية، فالرفعة والسمو والانحطاط مثلاً كل هذه الألفاظ كانت معانيها الأولى حسية، ثم ماتت تلك المعاني وأصبحنا نستعمل تلك الألفاظ في الدلالة على الصفات المعنوية المعروفة، وهكذا مما لا حصر له في كافة اللغات. ولقد كانت هذه الحقيقة من الأسس التي بني عليها الفلاسفة الإنجليز أصحاب المذهب الحسي في المعرفة ومنابعها مذهبهم، إذ لاحظوا أن معظم ألفاظ اللغة كانت في الأصل تدل على معان تدركها الحواس ثم انتقلت إلى المعنويات
وعلى هذا يتضح لنا أن عثر في معناها الأصلي لم تكن تفيد الاطلاع مصادفة أو عن بحث في شيء، وإنما أفادت هذين المعنيين تجوزاً، وحروف الجر في كافة اللغات من أدوات نقل المعنى، ومن ثم فعندما نقول عثر ب، أو عثر على، يجب أن نحدد المفارقات بين الاستعمالين تبعاً لدلالة حرفي جر ومنحاهما في نقل المعنى. والذي لا أشك فيه أننا نقول (عثر الجواد بحجر) ونكون بذلك في حدود المعنى الحقيقي بحيث إذا تجوزنا أو قلنا عثرت بفكرة نكون أقرب ما يكون إلى مضمون المعنى الحقيقي أيضاً. ومن الواضح أن في ذلك المعنى ما يدل على المصادفة لأن الجواد لا يبحث عن حجر ليعثر به. وأما عندما نقول عثرت على فكرة، فالحس اللغوي يبصرنا بأننا هنا قد بعدنا عن المعني الحقيقي وما يحمل من دلالة المصادفة لأنه على الأقل يتضمن العثور بالفكرة ثم الوقوع عليها، وليس من الضروري أن نعثر بالشيء ثم نقع عليه إذ قد

يفلت منا؛ فالعثور على الشيء فيه معنى إيجابي هو ما أحسست ولا أزال أحس فيه بمدلول البحث
وأياً ما يكون الأمر فأنا بعد لا أرى مانعاً ما دام المجاز قد مات في عثر وأصبح الفعل يدل على الاطلاع في الاستعمالين من أن نقصد (يعثر ب) إلى الاطلاع مصادفة و (عثر على) إلى الاطلاع عن بحث. واللغة، كما قلت، كائن حي من الواجب أن نغذيه باستمرار بأن ننوع من طرق الأداء فيها كما نحدد من تلك الطرق على نحو ما نشاهد في لغات الأمم المتحضرة كلها
هذا رأيي أقف عنده لأن الأصول العامة تكفي لتأييده. ومع ذلك فقد حمل إليّ البريد هذا الصباح خطاباً من صديقي عبد الرحمن بدوي الأستاذ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول؛ وهاأنا أنسخ لكم خطابه. قال بعد المقدمة:
أود أن ألفت نظرك إلى نقط لعل بعدك عن المصادر هو الذي حال بينك وبين التنبه) إليها وفيها تأييد لما تقوله فيما يتصل بالتعبير (عثر به)
وأولى هذه النقط خيانة زكريا إبراهيم (وهو من تلاميذي الآن بالسنة الثالثة قسم الفلسفة) لنص (لين) إذ هو بتمامه يؤيد استعمال (عثر به) بمعنى اطلع عليه فهو يقول ما نصه:
عثر به ; , ; :
وأشرس وعثر به))
معجم لين ص1952 عمود (1) س3، 4 من أسفل.
وتحت مادة (أشرس) يذكر الشاهد الثاني: عثر بأشرس الدهر (أمثال الميداني المطبعة الخيرية بالقاهرة سنة 1310 ج1 ص313 س1 - 2)
وثاني هذه النقط أن (عثر على) بمعنى الاطلاع مصادفة وبلا طلب ليس متفقاً عليها بين اللغويين والمفسرين. فالذي يوردها صراحة من بين اللغويين الراغب الأصفهاني في (مفرداته) (تاج العروس) للزبيدي (وهو الذي يشير إليه لين هنا في الإشارة وغالب المفسرين عند كلامهم على الآية (وكذلك أعثرنا عليهم) والآية (فإذا عثر على أنهما استحقا إثما) يقولون إنها لا تدل على الاطلاع مصادفة. فالقرطبي يقول: (الجامع لأحكام القرآن ج6 ص358 طبع دار الكتب سنة 1938) (ومنه قوله تعالى: (وكذلك أعثرنا عليهم) لأنهم كانوا يطلبونهم وقد خفي عليهم موضعهم) أي الناس الذين كانوا يبحثون عن أهل الكهف. ويرجح رأي هؤلاء أن الآية (فإذا عثر على أنهما استحقا إثما) يقصد منها كما يقول الرازي
فإن) .(ج3 ص478 المطبعة العامرة الشرقية. الطبعة الأولى سنة 1308 بالقاهرة) حصل العثور والوقوف على أنهما (أي الأمينين على الوصية التي يوصي بها من بات بأرض ليس فيها مسلم) أتيا بخيانة واستحقا الإثم بسبب اليمين الكاذبة، أي أن المعنى هو (فإن وجد أنهما. . .) وإلا فلا يصح حكم الآية إن وجد بعد التحقيق أنهما خانا. وهذا ما لا يمكن أن يكون القرآن قد قصده. وفيما يتصل بآية أهل الكهف (وكذلك أعثرنا عليهم) فالقصد هنا من الله واضح لأنه قصد أن يدل بعض الناس على وجود أهل الكهف فليس هنا مصادفة إذن.
ويؤيد كلامك أو شعورك بوجود معنى المصادفة في (عثر به) أكثر مما هو في (عثر عليه) أن الأصل في (عثر عليه) هو (أن العاثر إنما يعثر بشيء كان لا يراه، فلما عثر به اطلع عليه ونظر ما هو، فقيل لكل من اطلع على أمر كان خفياً عليه قد عثر عليه) (الرازي في الموضع نفسه)، فعثر به هي الأصل، وعثر عليه هي المجاز؛ وعثر فيها معنى المصادفة من أصلها فما هو أقرب إلى الأصل وهو عثر به يكون معنى المصادفة فيه أقوى
ونقطة ثالثة هي أنك لست أول من استعملها بهذا المعنى فقد وجدت إنها استعملت مرارا من قبل. أذكر منها الآن ما يلي إلى جانب ما أورده لين في المثل: (عثر بأشرس الدهر)
استعملها ابن هانئ الأندلسي المتوفى سنة 362هـ حين قال (1):
منعوك من سنة الكرى وسروا فلو ... عثروا بطيفٍ طارقٍ ظنوك
راجع ديوان ابن هانئ تصحيح الدكتور زاهد علي. مطبعة المعارف سنة 1352هـ ص 531)

واستعملها ابن خلدون المتوفى سنة 808هـ حين قال (ب):
تاريخ ابن خلدون طبعة دي سلان. الجزائر سنة 1847 ج2 ص) (عثر بمجمعهم اتفاقاً)
342 س10 - وراجع دوزي: ملحق المعاجم العربية تحت مادة عثر ج2 ص95 عمود1 -
(الطبعة الثانية سنة 1927 .. . . . .)
عبد الرحمن بدوي
انتهى خطاب الأستاذ عن هذه المسألة . . .
وإذن فأنت ترى - كرئيس تحرير لمجلة محترمة - ولاشك يرى معك القراء أنني لست ميجارياً في محاجتي كما وصفني تلميذنا زكريا إبراهيم ونحن لا ريب نفتح صدورنا لنقد تلاميذنا، بل وأقول مخلصاً إننا نفرح به ونحثهم عليه، ولكن على أن يكون في حدود اللياقة؛ بل وخير من ذلك أن يكون في حدود الحقيقة والعلم الصحيح، وذلك لأنني لا أرى سفسطة في دفاعي عن عثرت به التي أفادت المعنى الذي أردت العبارة عنه مع عدم خروجها عن أصول اللغات عامة بما فيها لغتنا
وإن كان هناك شيء أنكره من زكريا إبراهيم، فهو عدم الأمانة العلمية، لأن اليوم الذي نرى فيه طلبتنا يتصرفون في نص لكي يحاجوا أستاذهم محاجة في هذا العناد أعتبره يوم فشل لكل مجهوداتنا العلمية ويوم حزن لي لا يعرف مداه إلا الله
محمد مندور
الطريق إلى الحق
للأستاذ محمود محمد شاكر
كتب الأخ الصديق الأستاذ محمد مندور كلمة في البريد الأدبي من الرسالة (488) بعنوان (اللغة والتعريب)، عرض فيها لمسألتين: إحداهما: مسألة الصواب والخطأ في اللغة، والأخرى: هي عنصر الثبات في اللغة كما سماه. وقد دفعه إلى الحديث عنهما ما كان من تخطئة الأب أنستاس الكرملي إياه في حرف من اللغة استعمله في كلامه، وهو (عثرت بالشيء) وهو يريد (عثرت عليه) وأحب أن أقدم بين يدي كلامي بعض ما أعرفه عن (مندور)، فقد كنا زميلين في الجامعة، فكان أحد الشبان الأذكياء المتدفقين. وإن فيه من ثورة النفس ما أرجو أن يبقى له على الشباب الهرم. ثم عرفته من بعد مطلعا حريصاً على العلم قليل العناد فيما لا خطر له، ثم هو لا يزال يدأب إلى الحق في غير هوادة. فكل هذه الصفات تجعله عندي غير متعنت ولا مكابر. ولكني رأيت الأب أنستاس قد سلك إلى (مندور) طريقاً، فاندفع كلاهما يطاعن أخاه بعنف لا يهدأ.
وأنا لا أحب أن أدخل بين الرجلين فيما هما بسبيله، ولكني أحرص على أن أدل (مندوراً) على الحق الذي كنا ولا زلنا نميل إليه بكل وجهٍ، ونسعى إليه في كل سبيل وينبغي لي أن أعرض للكلام على الفرق بين الحرفين (عثرت به) و (عثرت عليه) قبل أن أتحرى إلى (مندور) طريق الحق في المسألتين اللتين ذكرهما في كلامه
فأصل اللغة في هذه المادة (عَثَر يعْثُر عَثْراً وعِثَاراً)، وهو فعل لازم لا يتعدى إلى مفعول، ويأتي هكذا غير مصاحب لحرفٍ من حروف الجر. ولكل فعل في اللغة معنى يقوم بذاته، ودلالات يقتضيها بطريق التضمن أو الالتزام
فقولك (عثر الرجل) معناه (تهيأ الرجل للسقوط): فالمراد بالفعل هو حدوث (حركة سقوط) الرجل، ولا يقصد به السقوط نفسه، أي إنه يدل بذاته على الحركة التي تسبق السقوط. وأما الدلالات التي يقتضيها الفعل فأولها: سبب حركة السقوط، وهذا السبب عقلي محض يتضمن الفعل ويقوم فيه مقام الفاعل (كالحجر) مثلاً. وثانيها: الفعل الذي فعله هذا السبب وهو (الصدم)، وثالثها: الحالة التي تلحق الرجل من جراء اصطدامه وهي التنبه والتماسك قبل السقوط. أما الدلالة الرابعة . . .
فلو شئت أن تفسر (عثر الرجل) لقلت: (صدم الحجر الرجل فكاد يسقط)، فكأن (عثر) قامت مقام الكلمات (صدم الحجر. . . فكاد يسقط). وأنت ترى أن (الرجل) هنا هو الذي وقع عليه الفعل (أي المفعول به)، لأنه هو الذي صدم فكاد يسقط. فلما كتم هذا الفعل (عثر) فاعله الحقيقي - وهو الحجر مثلا -، وكتم (الصدم) الذي فعل الفاعل الحقيقي، نسب فعله إلى الرجل، مع إنه ليس فاعلا بل مفعولاً به. فهذا يدل على إنه ليس مريداً للفعل (وهو العثرة)، كما يكون مريداً للفعل في قولك: (قام الرجل) إذ إنه مريد هنا للقيام. وشبيه به قولك: (مات الرجل) و (نام الرجل)، فالرجل هنا - على إنه (فاعل) في عبارة النحاة - ليس فاعلا في حقيقة المعنى بل هو (مفعول به) لأنه غير

مريد في حالة الموت أو النوم
فإذا صح لديك أن الرجل غير مريد للعثرة في قولك (عثر الرجل)، رأيت الدلالة الرابعة لهذا الفعل وهي أن الشيء الذي فعل العثرة - وهو الحجر مثلاً - كان صغيراً لم يتبينه الرجل، أو لم يتوقع وجوده في المكان الذي كان فيه، فلذلك كاد يسقط على غير إرادة من الرجل لذلك
وإذا تأملت قليلاً رأيت أن قولك (عثر الرجل) لا يراد به الإخبار عن حدوث الصدم، بل المراد أن تصور هيئة الحركة التي جاءت بعد الصدم، وهي حركة السقوط. ولذلك بني مصدرها على هيئة المصادر التي تدل على عيوب الحركة في أصل الخلقة كالتي تكون في الدابة وغيرها من كل ما يمشي أو يتحرك. وذلك هو وزن (فعال) كالشماس، والجماح، والنفار، والشراد، والهياج، والطماح، والحران، والعضاض، والخراط، والضراح، والرماح، والفرار. فأنت ترى من ذلك أن المصدر قد نظر فيه إلى أن المراد في الفعل هو حركة السقوط لا الصدم، فإن الصدمة ليست عيباً، وإنما العيب في هيئة الحركة. وكثيراً ما يستعمل العثار للخيل يقال: (عثر الفرس) أو غيره من الدواب هذا. . . وحروف الجر التي تأتي لمصاحبة الأفعال إنما تأتي لمعان يتعين بها للفعل معنى لم يكن ظاهراً فيه قبل دخولها، بل ربما اضطر الحرف الفعل أن ينتقل من الحقيقة إلى المجاز، ولذلك تسمى حروف المعاني
ثم إن كل حرف من هذه الحروف له معنى أصلي يقوم به، ثم تتفرع منه معان أخرى لا تزال متصلة إلى المعنى الأول بسبب. فالباء مثلاً هي في حقيقة معناها على إلصاق شيء
بشيء أو دنوه منه حتى يمسه أو يكاد. ففي قولك (ألصقت شيئاً بشيء) تقع الباء في معناها الأول وهو الإلصاق الحقيقي. وفي قولك (مررت بزيد) تكون مجازاً لأنها تدل على الدنو والمقاربة الشديدة، كأنك ألصقت مرورك بالمكان الذي يتصل بمكان زيد. وينتقل الحرف من معناه الحقيقي إلى معناه المجازي بدليل من الفعل الذي يشترك معه في الدلالة. ولذلك تخرج من معناها الحقيقي إلى معنى السببية أو التعليل أو المصاحبة أو الاستعانة مما يذكر في باب معانيها، ولكنها في جميع ذلك تدل على الإلصاق الحقيقي أو المجازي
فإذا جاءت الباء بعد فعل يقتضي معناه بذاته أو بدلالته معنى من الإلصاق، تعين لها أن تكون واقعة في معناها الحقيقي، ويكون دخولها مبالغة في إظهار معنى الإلصاق. وذلك كقولك: (أمسكت الشيء)، و (أمسكت بالشيء) فالباء هنا تزيد في معنى الفعل تقوية الإمساك إذ أن الإلصاق مما يدل عليه هذا الفعل بدلالة التضمن أو الالتزام
فإذا قلت (عثر الرجل بحجر) فمعناه كما بينا آنفاً (صدم الرجل حجر فكاد يسقط). والباء قد دخلت على الفاعل الحقيقي للعثرة وهو (الحجر)، فهي إذن مكملة لمعنى الفعل، ولم تأت لتعدية الفعل إلى مفعول، كالذي يكون في قولك (ذهب الرجل) و (ذهب الرجل بمحمد)
فإذا كان الفعل دالاً بالتضمن على الصدم، والصدم يقتضي الإلصاق، وجاءت الباء مكملة لمعنى (عثر) تجر وراءها الفاعل الحقيقي للصدم، فالباء إذن ستزيد في معنى الفعل، وذلك بأن تظهر الصدم - المقتضي للإلصاق - بعد أن كان مكتوماً في الفعل، ويقوي ذلك أيضاً ظهور الفاعل الحقيقي للعثرة بعد أن كان مكتوماً في (عثر) فقول الأستاذ (مندور) إنه أراد بقوله (عثرت بالشيء) إنه لاقاه اتفاقاً غير ممكن؛ لأن الباء وافقت الفعل فزادت في الإبانة عما يضمره من دلالة (الصدم) الحقيقي، ولم يكن فيها من المخالفة ما يحمل هذا الفعل على الميل إلى المجاز (أي إلى الصدم المجازي). وليس من شك في أن قوله (لاقاه اتفاقاً) مجاز في تأويل (عثر بالشيء)، فإذا كانت الباء إنما تزيد حقيقة الفعل قوة وبياناً، فكيف إذن تصير بعد ذلك مجازاً بغير عامل يحملها إلى المجاز؟
وقد يستخدم مع هذا الفعل حرف آخر هو (في) فتقول (عثر الرجل في ثوبه) إذا كان واسع الثوب طويل الذيل، فهو يطأ بعض ذيله كلما مشى، فتشد الوطأة الثوب عليه، فيميل كأنه يتهيأ للسقوط فيتماسك
فهذا الحرف (في) يدل في أصل معناه على الظرفية الزمانية أو المكانية، وينسحب بها على سائر معانيه. وهو بذلك يدل على استقرار لا على حركة كالحركة التي تكون

في الإلصاق. ولما كان الفعل يدل دلالة ظاهرة على حركة السقوط وجاء الحرف (في) يطالب الحركة بالاستقرار، أسرع الفعل إليه، وذلك إنه حين يقول لك (عثر الرجل) لم تكد تجاوز تصور حركة السقوط حتى يفجؤك بقوله (في ثوبه)، فيطالبك بإقرار هذه الحركة ثم تصورها في جوف الثوب. وهذه السرعة التي يتطلبها الانتقال تضعف دلالات الفعل التي كان يدل عليها مستقلا بذاته أي في قولك (عثر الرجل) مجردا، وهي كما ذكرناها آنفاً: فاعل حركة السقوط، وفعله وهو الصدم، وحالة التنبيه والتماسك قبل السقوط، وعدم التوقع أو الاتفاق

فدخول (في) على (الثوب) أبعدت عن أول التصور أن يكون الثوب فاعل الصدم المؤدي إلى حركة السقوط، وبذلك أيضاً أضعفت دلالة الفعل على (الصدم)، إذ أن (الصدم) لا يشبه أن يكون من فعل الثوب؛ فيتغير ما يتضمنه الفعل (عثر) من الدلالة، وتضمن وطء الثوب المفضي إلى شده

ولما كان لابس الثوب الطويل ينبغي له أن يعلم أن طوله يؤدي إلى وطء ذيله فيعثر، اختفت من الفعل - إلا قليلا - دلالة الاتفاق من غير تعمد. ولذلك تستطيع أن تقول (جاء فلان يعثر في ثوبه)، ولا تستطيع أن تقول (جاء فلان يعثر بثوبه)، لأن الأولى قد ذهب منها الاتفاق من غير تعمد، فجائز أن تستمر، وأما الأخرى فمحتفظة بالاتفاق من غير عمد، فهي لا يمكن أن تستمر.

ومع ذلك فهذا الحرف (في) لم يستطع أن يغير من حقيقة (عثر) لأنه دان منها، أو هو مستقر لها، إذ سوف تنتهي حركتها إلى استقراره

وأما (على) فحرف يدل على الاستعلاء في جميع معانيه دلالة مطلقة، والاستعلاء المطلق لا يوجب الإلصاق كما في الباء، ولا يوجب الاستقرار كما في (في).

فاستعمالها مع (عثر) سيحدث في معناها أثراً جديداً ينقلها من حال إلى حال فحين تقول (عثرت على الكرسي) يقتضيك فيها معنى (عثرت) - وهو تهيؤك للسقوط وتماسكك دون السقوط - ألا تجعل معنى (على) استعلاءً ملاصقاً كما في قولك (وقعت على الكرسي)، وذلك لأنك لم تسقط بل كدت ثم تماسكت. وإذن فالحرف (على) هنا يدل على

الاستعلاء المطلق الذي يقتضي نفي الملاصقة كقولك: (فضلت فلاناً على فلان)

والاستعلاء المطلق مناقض كل المناقضة لمعنى (الصدم) لأن الصدم يقتضي الملاصقة، فلما جاءت (على) خلعت عن الفعل (عثر) كل ما كان يتضمنه من معنى الصدم الحقيقي (لا المجازي)، ولما خلعته عن الفعل خلعته أيضاً عن الفاعل (الكرسي) الذي كان فعله الصدم الحقيقي (لا المجازي). ولكن هذا الفعل لا ينفك من أحد دلالاته وهو (الصدم) سواء أكان حقيقياً أم مجازياً، فإذا خلعت (على) عنه الصدم الحقيقي بقي الصدم المجازي مكتوماً فيه قائماً مقام الصدم الحقيقي؛ وإذا كان ذلك فلابد من حدوث تغير في الفعل وفي معناه، لأن الصدم قد انتقل من معناه الحقيقي إلى معناه المجازي، والصدم وفاعله سببان في (عثر) التي تدل على حركة السقوط.

فإذا صار الصدم من الحقيقة إلى المجاز - وهو أحد مقومات حركة السقوط - فلابد من أن تصير (عثر) إلى المجاز أيضاً لأنها صارت مسببة عن مجاز.

فأنت ترى أن هذا الفعل لم ينقله من الحقيقة إلى المجاز إلا حرف واحد هو (على) الذي يدل على استعلاء مطلق يناقض معنى الصدم الحقيقي الذي كان ثابتاً في الفعل بدلالة التضمن أو الالتزام

وعلى ذلك لا يزال هذا الفعل مع (على) يدل على حركة السقوط المجازية، ويتضمن بدلالة الالتزام فاعل هذه الحركة، وفعله وهو الصدم المجازي، ثم حالة التنبه والتماسك قبل هذه الحركة، ثم عدم التوقع أو الاتفاق، وهذا بعينه ما يريده الأخ (مندور) بقوله في تأويل (عثرت به) إنه لاقاه اتفاقاً

وانظر الآن إلى سليقة هذه اللغة فإنها إذا كانت قد جعلت مصدر (عثر وعثر به) و (عثر فيه) عثاراً بوزن (فعال) الدال على عيوب الحركة، أو على الحركة نفسها: كالمزاح والضراب والنزال، والصراع، فإنها تجعل مصدر (عثر عليه) عثوراً على وزن (فعول) الذي يدل أكثره على مجرد الحركة، كالنزول، والسقوط، والقعود، والجلوس، والشرود، والنفور، والجموح والطموح. وبذلك خالفت بين المصدرين مع اشتراك الوزنين في معنى الحركة، لأن الفعل انتقل من الحقيقة إلى المجاز

وفي الآيتين من كتاب الله: المائدة (110) (فإن عثر على أنهما استحقا إثماً)، وآية أصحاب
الكهف (20) (وكذلك أعثرنا عليهم) جاء الفعل بالمعنى المجازي الذي يقتضي حركة السقوط المجازية، والصدم المجازي، وحالة التنبه والتماسك قبل حركة السقوط، وعدم التوقع أي الوقوف على الشيء بغير طلب أو بحث أو كشف
ولكن الأخ مندور يقول: (ولم أرد (العثور عليه) أي الاطلاع الذي يدل على علم ومعرفة وبحث وجهبذة لا أدعيها). والذي أوقعه في هذا التأويل قول أصحاب اللغة (عثر على الأمر عثوراً) اطلع. فتفسيرهم مقصر عن الغاية كل التقصير لأنه يدل على جزء واحد من الدلالات التي يتضمنهما الفعل، وهي حالة التنبه التي تلحق الرجل من الصدمة فينظر ويتبين ما صدمه، وأهملوا بقولهم (اطلع) المعنى الأصلي للفعل (عثر) وهي حالة السقوط المجازي، والصدمة المجازية، وعدم التوقع. وهذا نقص مخل في عبارة كتب أصحاب اللغة
وأنا أقرر أن أكثر ما في كتب اللغة عندنا من تفسير الألفاظ إنما هو تفسير مخل فاسد، لأنه قد أهمل فيه أصل الاشتقاق، وأصل المعنى الذي يدل عليه اللفظ بذاته كما رأيت هنا. وإذا أهمل هذان فقد اضطرب الكلام واضطربت دلالاته، وأوقع من يأخذ اللغة بغير تدبر في حالة من التعبد بالنصوص كتعبد الوثني للصنم. وأيضا فهو يوقع بعض النابهين من الكتاب في أوهام ليست من الحق في شيء، يحملهم عليها تكرار هذا التفسير الفاسد فيسلمون به على غير تبين، كما رأيت في تفسير قولهم (عثرت عليه) إنه (اطلعت عليه)، فانك حين تقول: (عثر على الكلمة في الكتاب) فلست تقولها إلا حين تريد أن تصور الكلمة كأنها فاعل الصدم، وتصور رؤيتها كأنه صدم لك، وهذا الصدم يستدعي تنبهك فتتماسك وتنظر إلى ما صدمك، وإن هذا كله كان بغير طلب أو بحث وإنما جاءك اتفاقاً على غير تعمد كان منك.
هذا وأنا لم أقصد ببحثي هذا إلى اللغة، بل قصدت إلى الدلالة على طريق الحق إلى فهمها. وأحب أن أظهر من يقرأ كلامي هذا على أنني لا أجعل مفردات اللغات كل الهم في عملي أو عمل غيري. ويقيني أن أكثر من يطيق التدبر والتأمل يستطيع أن يصل إلى فهم اللغة فهماً صحيحاً نافعاً معيناً على حسن العبارة ودقتها في البيان عن المراد، وهو لم يتكلف إلى ذلك إلا قليلا من الجهد
واحسبني قد سلكت إلى أخي مندور طريق العلم إلى غاية الحق، وهي غايته التي أعلمه لا يعمل إلا لها. وسواء عليه بعد ذلك أكان الحق له أم عليه
أما مسألة الخطأ والصواب في اللغة، ومسألة عنصر الثبات فيها، فنتركهما إلى العدد التالي من الرسالة، ولأخي مندور تحيتي وشكري.
محمود محمد شاكر
خزانة الرؤوس - 2
في دار الخلافة العباسية ببغداد
للأستاذ ميخائيل عواد
رأس يهبوذ صاحب الزنج (ج)
روى خبره أبو الفرج ابن الجوزي في جملة حوادث سنة 270هـ قال بعد أن شرح عيثه وفساده: (وجاء البشير بقتل الفاسق، ثم جاء رجل معه رأس الفاسق، فسجد الناس شكراً، وأمر أبو أحمد أن يكتب إلى أمصار المسلمين. . . وقدم ابنه العباس إلى بغداد ومعه رأس الخبيث ليراه الناس فيسروا. فوافى بغداد يوم السبت لاثنتي عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى في هذه السنة والرأس بين يديه على قناة، فأكثر الناس التكبير والشكر لله والمدح لابن الموفق وأبيه. ودخل أحمد بن الموفق بغداد برأس الخبيث وركب في جيش لم ير مثله من سوق الثلاثاء إلى المخرم وباب الطاق وسوق يحيى حتى هبط إلى الحربية، ثم انحدر في دجلة إلى قصر الخلافة في جمادى الأولى هذه السنة، وضربت القباب وزينت الحيطان)
قلنا: لم يصرح ابن الجوزي بوضع رأس هذا الخبيث في خزانة الرؤوس، ونحن نرجح إنه استقر في هذه الخزانة، بعد أن عرفنا إدخاله دار الخلافة
راس البساسيري (د)
كان أرسلان التركي المعروف بالبساسيري قد عظم شأنه، واستفحل أمره، وانتشر

ذكره، وقد هابته ملوك العرب والعجم حتى دعي له على المنابر، وعزم الاستيلاء على بغداد ونهب دار الخلافة والقبض على الخليفة وهو يومذاك القائم بأمر الله، فتم له ما أراد إذ دخل بغداد، وقبض على الخليفة وسيره إلى بلد عانة على الفرات فحبسه فيها، ثم دار الفلك دورته؛ فوقع البساسيري في الفخ، فكان مصيره حز رأسه وحمله إلى خزانة الرؤوس. وقد صدقت فيه الآية: (ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون بما كنتم تكسبون)

قال ابن الجوزي في حوادث سنة 451هـ (. . . وانهزم البساسيري على فرسه فلم ينجه، وضرب فرسه بنشابة فرمته إلى الأرض، وأدركه بعض الغلمان، فضربه ضربة على وجهه ولم يعرفه، وأسره كمشتكين دواتي عميد الملك، وحز رأسه وحمل إلى السلطان. ولما حمل إلى السلطان حكى له الذي أسره إنه وجد في جيبه خمسة دنانير وأحضرها، فتقدم السلطان إلى أن يفرغ المخ من رأسه ويأخذ الخمسة دنانير، ثم أنفذه حينئذ إلى دار الخلافة؛ فوصل في يوم السبت النصف من ذي الحجة، فغسل ونظف، ثم ترك على قناة وطيف به من غد، وضربت البوقات والدبادب بين يديه، واجتمع من النساء والنفاطين وغيرهم بالدفوف ومن يغني بين يديه، ونصب من بعد ذلك على رأس الطيار بإزار دار الخلافة ثم أخذ إلى الدار)

رأس البريدي (هـ):

أبو الحسين البريدي أحد العابثين الخارجين على سياسة دولة بني العباس. ارتكب من الظلم أمراً عظيما. فقد أرعب الخلق وكثرت جموعه، وتزلزل له الخليفة. وكان ظهوره في نواحي البصرة، حيث سعى غير مرة لفتحها والاستيلاء عليها؛ لكنه رد على أعقابه ولم ينل وطره، فقد خانه أكثر أصحابه وأعوانه، ثم قبض عليه وأودع دار السلطان.

قال مسكويه في أحداث سنة 333هـ: (وكان أبو عبد الله محمد بن أبي موسى الهاشمي أخذ في أيام ناصر الدولة فتوى الفقهاء والقضاة بإحلال دمه؛ فأظهرها في هذا الوقت، فلما كان بعد أسبوع من القبض عليه استحضر الفقهاء والقضاة، وأحضر أبو الحسين البريدي، وجمعوا بين يدي المستكفي بالله، وأحضر السيف والنطع، ووقف السياف بيده السيف، وحضر ابن أبي موسى الهاشمي، ووقف فقرأ ما أفتى به واحدا واحداً من إباحة دمه على رؤوس الأشهاد؛ وكلما قرأ فتوى واحد منهم سأله هل هي فتواه فيعترف بها حتى أتى على جماعتهم، وأبو الحسين البريدي يسمع ذلك كله ويراه، ورأسه مشدود، والسيف مسلول بازائه في يد السياف، فلما أعترف القضاة والفقهاء بالفتوى أمر المستكفي بالله بضرب عنقه، فضربت من غير أن يحتج لنفسه بشيء أو يعاود بكلمة أو ينطق بحرف، وأخذ رأسه وطيف به في جانبي بغداد ورد إلى دار السلطان. . .)

رأس الخليفة الأمين، رأس عيسى بن ماهان، رأس أبي (و) السرايا:

من يستعرض خزانة الرؤوس في دار الخلافة العباسية ببغداد، ير فيها رؤوس أمراء، ووزراء، وقواد، وصنوف شتى من طبقات الناس، من عرب وأمم مختلفة، ولكنها لم تكتف بهؤلاء أصحابا، بل ذهبت إلى أبعد من ذلك، إلى رؤوس أفراد بيدهم تدبير الملك وسياسة الرعية، أولئك هم الخلفاء؛ وإن في هذا الأمر الخطير لعبرة مؤلمة وموعظة بليغة.

كان رأس الأمين أول ما وضع من رؤوس الخلفاء في هذه الخزانة، ولا ندري أوضع بجانب رأس بهبوذ الزنجي، أم إلى جانب غيره من رؤوس المارقين العابثين، أم أفرد له فيها مكان خاص؟ ومهما يكن من أمر فهو لم ينج من هذه الخزانة العجيبة. وأمر الأمين مشتهر يوم نكب، ويوم قتل وقطف رأسه، ودعنا نأخذ بعض خبره، وخبر رأسه من شيخ المؤرخين محمد بن جرير الطبري؛ فانه روى في ماجريات سنة 198هـ هذه الأحدوثة (. . . قال: فقمت فصرت خلف الحصر المدرجة في زاوية البيت، وقام محمد (الأمين) فأخذ بيده وسادة وجعل يقول: ويحكم أني ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنا ابن هارون، أنا أخو المأمون، الله الله في دمي. قال: فدخل عليه رجل منهم يقال له خمارويه غلام لقريش الدنداني مولى طاهر، فضربه بالسيف ضربة وقعت

على مقدم رأسه، وضرب محمد وجهه بالوسادة التي كانت في يده، واتكأ عليه ليأخذ السيف من يده، فصاح خمارويه: قتلتني قتلتني بالفارسية. قال: فدخل منهم جماعة فنخسه واحد منهم بالسيف في خاصرته، وركبوه فذبحوه ذبحاً من قفاه، وأخذوا رأسه فمضوا به إلى طاهر وتركوا جثته. قال: ولما كان في وقت السحر جاءوا إلى جثته فأدرجوها في جلد وحملوها. . . قال: وبينا نحن كذلك إذ هدة تكاد الأرض ترجف منها، وإذا أصحاب طاهر قد دخلوا الدار وأرادوا البيت، وكان في الباب ضيق، فدافعهم محمد بمجنة كانت معه في البيت، فما وصلوا إليه حتى عرقبوه ثم هجموا عليه فحزوا رأسه واستقبلوا به طاهراً وحملوا جثته إلى بستان مؤنسة إلى معسكره؛ إذ أقبل عبد السلام بن العلاء صاحب حرس هرثمة، فأذن له، وكان عبر إليه على الجسر الذي كان بالشماسية. فقال له: أخوك يقرئك السلام فما خبرك؟ قال: يا غلام هات الطس فجاءوا به وفيه رأس محمد. فقال: هذا خبري فاعلمه. فلما أصبح نصب رأس محمد على باب الأنبار؛ وخرج من أهل بغداد للنظر إليه ما لا يحصى عددهم. وأقبل طاهر يقول: رأس المخلوع محمد. وذكر عنه (عن الحسن ابن أبي سعيد) إنه ذكر أن الخزانة التي كان فيها رأس محمد، ورأس عيسى بن ماهان، ورأس أبي السرايا؛ كانت إليه. قال: فنظرت في رأس محمد، فإذا فيه ضربة في وجهه وشعر رأسه ولحيته صحيح لم ينجاب منه شيء، ولونه على حاله. قال: وبعث طاهر برأس محمد إلى المأمون مع البردة والقضيب والمصلى. . . فرأيت ذا الرئاستين وقد أدخل رأس محمد على ترسٍ بيده إلى المأمون، فلما رآه سجد. . .)

(يتبع)

ميخائيل عواد

رسالة الشعر

في أخريات الخريف

للأستاذ محمود الخفيف

تُنذِرُني أَوْرَاقُ هُذِى الكُرُومُ ... تَساَقَطتْ ذَاوِيَهْ
وَفِي حَوَاشِي الأفْقِ تِلْكَ الْغُيُومْ ... غاَرِقةً طاَفِيَهْ
وَفي وُجوهِ النَّاسِ هذا الوُجُومْ ... بَادِيَةً أسْبَابُهُ خَافِيَهْ
خَشْخَشَةُ الأغْصَانِ كم زَيَّنتْ ... لِلنَّفسِ أشْجَانَهاَ
وَصُفرةُ العِيدَانِ كَمْ لَوَّنتْ ... بالْمَوتِ أَلْحَانَهاَ
وَالرِّيحُ كَمْ وَلْوَلَةٍ أعْلَنَتْ ... مِثلِ التي حَاوَلتُ كِتْماَنَهاَ
حَتَّامَ تُوحي أُخْرَياتُ الْخَرِيفْ ... لِلنَّفسِ هَذا الْحَزنْ
وَاعَجَباَ: هذا النَّسِيمُ الْخَفِيفْ ... يَفَرَقُ مِنْهُ البَدَنْ
وَكُلُّ شَيءٍ فِيه مَعْنًى مُخِيفْ ... أَلْبَسهُ حَوْلِي خَيَالَ الكَفَرْ
تَلُوحُ في أوْرَاقِهِ الذَّابِلَهْ ... كلَّ مَعَاني الشَّقاَءْ
فِيها جُسُومٌ تَرْتَمِي ناَحِلَهْ ... أومَى إلَيْهاَ الْفَنَاءْ
يُطِلُّ مِنْ أعْيُنِها الذَّاهِلَهْ ... الْجُوعُ والسُّقْمُ وَقُرُّ الشِّتَاءْ
وَأَلمَحُ الآلافَ أَلْقَى بِها ... لِحِتْفِها طَاغِيَهْ
طَعِينَةَ تَشْكُو إلى رَبَّهَا ... مِنْ يَدِهِ الْعَاتِيَهْ
لاَئِذَةً بالمَوْتِ مِنْ رُعْبِهاَ ... مَّما تَرَى في هَذِه الْغَاشِيَهْ
وَصَوَّرتْ أَيَّامِيَ الذَّاهِبَهْ ... مَا إنْ لَهَا مِنْ مَآبْ
وَكَمْ تَهَادَتْ كالمُنَى الكاذِبهْ ... لاحَتَ كَلَمْحِ السَّرابْ
لِلمَوتِ تَمْضِي زُمَراً وَاثِبَهْ ... مُعَجَّلةً أغْرَى بِهِنَّ الوثَابْ
وَاحَزَناَ أَغْصَانُها الْعَارِيَهْ ... تكْسَى غَدَاةَ الرَّبِيعْ
هَلْ مِنْ رَبيعٍ للمُنَى الذَّاوِيهْ ... وَالقَلْبُ ذَاوٍ صَدِيعْ
باَتَتْ شِتاءً كلَّ أيَّامِيهْ ... يا هَوْلَهُ بَعدَ رَبيعٍ مريعْ

الخفيف

البريد الأدبي

إعجاب

قبل أن تنسيني الشواغل أني قرأت مقالا نفيساً للأستاذ (أبي أسامة) أسجل إعجابي، وأرجوه أن يذكر حقوق الأدب والتاريخ على قلمه البليغ

زاده الله توفيقاً إلى توفيق، ورفع بأمثاله أعلام البيان.
زكي مبارك
تصحيح بعض سقطات الكرملي
أنا أعلم أني طلبت إلى الأب أنستاس الكرملي أن يكون دقيقاً أميناً واعياً. . . أكون قد كلفته ما ليس من عادته، بل فوق ما يطيق. ولذا فغرضي من كلمتي ليس الأب نفسه، وإنما أكتب تحذيراً لبعض من يقرأ كلامه من ضعاف الطلاب حذراً أن ينخدع به ويعتمده من غير تحقيق
ادعى الأب في العدد (475) من الرسالة الغراء أن استعمال خطأ لضد الصواب (من الأغلاط الشائعة في مصر). ثم قال: (على ما كتب اللغة) فنبهنا في العدد (479) إلى أن هذا الرأي ليس في كتاب من كتب اللغة، ونقلنا له نقولاً أجمعت كلها - بلا استثناء - على أن (الخطأ) كلمة صحيحة وبعضها ذكر (الخطاء) بعد (الخطأ) وبعضها لم يذكر وبعضها وهاها وهو صاحب الصحاح. فسبب وهيهاً إذاً عدم ذكرها في بعض المعاجم ونص بعضها على توهينها
فلما صرعه الحق حاول أن يبتعد عنه فكان مما قال في العدد (487) من الرسالة: (خذ بيدك أي معجم شئت. . . تر أن الكلمة القليلة الأحرف مقدمة على غيرها) وهذا - وإن وقع كثيراً - إلا إنه لا يطرد. وعلى ذلك تكون كلمة الأب تخرصاً، فقد فتحنا القاموس المحيط كما اتفق فرأيناه يقول: (خنز اللحم خنوزاً وخنزاً) فأطبقناه وكتبنا الكلمة منبهين على عدم تدقيق الأب وأمانته
أنا أريد أن (أفترض جدلا) أن (الخطاء) قد تسمو في بعض الأحيان إلى درجة (الخطأ) وإذاً يكون الأب قد جهل بديهة من البدائه اللغوية التي يتعلمها شادي العربية أعلم أيهذا الأب إنه إذا أتتك كلمتان فصيحتان من مادة واحدة فقدم الأخف حروفاً فإنها أفصح. وهل أنت بحاجة إلى ردك إلى مصدر ما؟ نعم فراجع إذاً كتاباً صغيراً لأحد المتأخرين هو (البلغة لحسن صديق خان) ثم الفهم الفهم والأناة الأناة، ولك عطفي الخالص.
(دمشق)
سعيد الأفغاني
تصحيحان
1 - جاء في البريد الأدبي من مجلة (الرسالة) الغراء (العدد 483) كلمة بعنوان: (رواية فاطمة البتول لمعروف الأرناءوط) وقد كتب هاته الكلمة الأديب لبيب السعيد حول الرواية المذكورة مقرظاً وناقداً. وجاءت في الكلمة هذه الجملة: (وفي وادي العقيق حيال قبر حمزة رضي الله عنه). والمتبادر المفهوم من سياق هذه الجملة أن قبر حمزة رضي الله عنه واقع في العقيق. وليس الأمر كذلك فإنه استشهد في وقعة أحد على سفح جبل الرماة الصغير القائم في قلب وادي قناة - لا وادي العقيق - وبينهما في هذه النقطة بون شاسع. وقد دفن سيد الشهداء بعد مصرعه ببطن وادي قناة، ثم نقل إلى شاطئ الوادي للشمالي في نقطة تسامت منتصف جبل أحد، وبغربي قبره قبور الشهداء في تلك المعركة
3 - وجاء في هامش مقال (الحديث ذو شجون المنشور في (العدد 484) من مجلة الرسالة أيضاً تفسير لنسبة الظواهري بأنها (نسبة قديمة إلى الظواهر، وهي ضواحي مكة وبها كان يقيم أجداد الشيخ الظواهري في سالف الزمان، وإليهم ينسب كفر الظواهرية بمركز ههيا بمديرية الشرقية). اهـ
والحقيقة أن الظواهر - كما هو معروف - هم فخذ من بني سالم أحد بطون حرب. ويقيم هذا الفخذ لهذا العهد وما قبله بوادي الصفراء الواقع بين المدينة المنورة وينبع. وممن نص على ذلك الأستاذ فؤاد بك حمزة في كتابه (قلب جزيرة العرب) في الصفحة 142. والى هذا الفخذ نسبة الظواهري وكل ظواهري
(مكة المكرمة)
عبد القدوس الأنصاري
تجوع الحرة ولا تأكل بثديها
يذكر كثير من المتحدثين عن الفضيلة والأخلاق المثل العربي القائل: (تجوع الحرة ولا تأكل بثديها) ولكنهم يخطئون في فهمه، إذ أنهم يفهمون منه أن المرأة الحرة يجب أن

تتحمل الجوع ولا تتخذ عرضها وسيلة لدفعه، وهم لا يذكرونه إلا في موقف يفهم منه هذا المعنى. ولعلهم يظنون أن كلمة (ثدييها) يكنى بها في هذا المثل عن عرض المرأة؛ والحق غير ذلك، فأصل هذا المثل أن أغلب نساء العرب كن يرين قيام إحداهن بإرضاع غير أولادهن مقابل أجر - قل أو كثر - مما يشين المرأة العربية، فقالوا: (تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها) من أجل ذلك. بل كانت نساء بعض القبائل العربية كقريش لا يرضعن أولادهن، وكن يعددن ذلك عاراً، لأنه قد يدل على الفقر والفاقة، فكيف لهن إذن بإرضاع الأولاد الأجانب عنهن؟!

أحمد الشرباصي

حول اختلاف القراءات

قرأت ما كتبه الأستاذ محمد غسان حول اختلاف القراءات رداً على الأستاذ عبد المتعال الصعيدي، فوجدته قد اشتبه عليه رأي الأستاذ الكبير حتى ظنه ما يراه ابن المقسم من تجويز القراءة بما يحتمله الرسم وتظاهره العربية بدون نظر إلى الرواية. . . وشتان بين الرأيين، لأن رأي أستاذنا لا يراد منه تجويز قراءات لم ترد، وإنما يراد منه توجيه قراءات واردة بالتواتر أو الآحاد، ولا تدخل في باب اختلاف اللهجات بسبب جديد يرتاح إليه العقل، وتطمئن إليه النفس، ولا يبقى معه احتمال لما يزعم من نشوء ذلك من تصحيف. . . وهذا غرض يتفق مع ما أخذ به أستاذنا نفسه للدفاع عن الإسلام وأحكامه بما يتفق مع ذوق هذا العصر. وهو الطريق الذي سنه المصلحون من أئمة الدين قبله، فأفادوا الإسلام بآرائهم وأفكارهم إفادة جليلة سامية. فالأستاذ غسان لم يفهم كلمة أستاذنا كما فهمها الأستاذ عزت عرفة ولهذا جاء رده بعيداً عن الصواب

عبد العليم عيسى

رسالة عمر بن الخطاب في القضاء

كان مما قررته وزارة المعارف على طلاب الثقافة هذا العام رسالة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في القضاء إلى أبي موسى الأشعري، وهذه الرسالة واردة في كتاب المنتخب للسنة الرابعة الثانوية وفيها قليل من التحريف، وعلى هذا الكتاب اعتمد المؤلفون الذين قاموا بشرح النصوص وطبعها ونشرها؛ ونحن نصحح هذه الأخطاء معتمدين في ذلك على كتاب رغبة الأمل من كتاب الكامل، للمرحوم إمام الأدب سيد بن علي المرصفي.

1 - ورد في أخر الرسالة (فما ظنك بثواب غير الله عز وجل في عاجل رزقه وخزائن رحمته) والصواب فما ظنك بثواب عند الله عز وجل. . . الخ، ولا وجه للنص محرفاً، وقوله في عاجل رزقه وخزائن رحمته وصف لثواب الله لا ثواب غيره

2 - (وإياك والقلق والضجر) والغلق والضجر بمعنى واحد، والصواب الغلق، لأن القلق يؤدي معنى أكثر من القلق؛ إذ هو ضيق الصدر وقلة الصبر فهو سبب الضجر.

زكي غانم

دنية القاضي في العصر العباسي

أما بعد: فقد بعثت إليكم في 15 أيلول سنة 1942 بمقال عنوانه (دنية القاضي في العصر العباسي). وقد جاء في المقال المذكور حاشية تحققت منها الآن أنها مغلوطة، فأبادر الآن لتصحيحها، إذ يعز عليّ أن أرى غلطاً فيما أحرره

قلت في نحو أواسط هذا المقال: (وللدنيّة أخبار طريفة كانت في أكثرها مدعاة للسخرية منها، والتمثيل بها. فقد روى أبو الفرج الأصفهاني حكاية قال فيها: (أخبرنا محمد بن خلف وكيع قال: كان الخليجي القاضي، واسمه عبد الله (بن محمد) ابن أخت علوية المغني، وكان تياهاً صلفاً، فتقلد في خلافة الأمين قضاء الشرقية؛ فكان يجلس إلى اسطوانة من أساطين المسجد. . .) وذكرت في الحاشية أن الشرقية يقصد بها الجانب الشرقي من بغداد. والصواب: أن الشرقية على ما في معجم البلدان (3: 279؛ طبعة وستنفلد): (محلّة بالجانب الغربي من بغداد، وفيها مسجد الشرقية في شرقي باب النصر. قيل لها الشرقية لأنها شرقي مدينة المنصور لا لأنها في الجانب الشرقي)

(بغداد)

ميخائيل عواد

الكتب
عبقرية عمر
للأستاذ عباس محمود العقاد
بقلم الأستاذ محمود أبو رية
لما نشرت الصحف أن الأستاذ عباس محمود العقاد قد أجمع النية على وضع كتاب عن (عبقرية عمر) قلنا إنها آية جديدة على بعد إدراكه وسعة عقله ما دام هو بسبيل الكتابة عن العبقرية الإسلامية، فانه ليس أحرى بالدرس والتأريخ بعد رسول الله صلوات الله عليه من عمر. ذلك بأن التأريخ الإسلامي لم يشهد من العدل والحزم وحكمة السياسة والقيام على أمور الرعية بالنصفة والمعدلة مثل ما شهد في عهده، حتى لقد كانت أيامه مضرب المثل الصالح في العدل والإصلاح على مدى التاريخ كله. ولقد اعتز به الإسلام من أول يوم أسلم فيه وظل عزيزاً به طول حياته، ولم يكد ينقلب إلى ربه حتى انقلبت الأحوال وتبدلت الأمور وانبعث بنو أمية بما كان جاثماً في صدورهم من الحقد والشنآن على بني هاشم، فأحاطوا بعثمان واستحوذوا على الملك، وقام الأمر منذ يومئذ على قوة العصبية والغلب، وتصدع البناء الإسلامي الذي كان قد أقيم على الشورى والعدل. وكذلك أخذ داء التفرق الديني واليأس يدب في جسم الأمة الإسلامية حتى أنهك قواها وأذهب ريحها. ولقد صدق علي في قوله يوم موته: (إن موت عمر ثلمة في الإسلام لا ترتق إلى يوم القيامة)
وثم أمر آخر يوجب تقديم هذا الرجل في التاريخ على غيره قد بينه الأستاذ المؤلف في أصدق عبارة فقال: (إن دراسة عمر غنيمة لكل علم متصل بالحياة الإنسانية كعلم الأخلاق وعلم الاجتماع وعلم السياسة، ولم تقتصر مزايا هذه الدراسة على علم النفس وكفى)
ولئن كان مؤلفنا الكبير قد عاجله التوفيق في وضع عمر في مكانه اللائق به في التاريخ، فإنه قد أحسن غاية الإحسان في إنه لم يتخذ في كتابه سبيل من كتب قبله فقال:
وكتابي هذا ليس بسيرة لعمر ولا بتاريخ لعصره على نمط التواريخ التي تقصد بها) الحوادث والأنباء، ولكنه وصف له ودراسة لأطواره ودلالة على خصائص عظمته، واستفادة من هذه الخصائص لعلم النفس وعلم الأخلاق وحقائق الحياة)
وإنه لعلى حق فيما نهج لنفسه، لأن طريقة التأليف التي تقوم على سرد الحوادث وإيراد الوقائع وبخاصة إذا كان ذلك قد صار من علم الناس أصبحت من الأمور التي تبعث الضيق إلى الصدر والسأم إلى النفس، ولو أن الأستاذ العقاد كان قد اتبع سنن من قبله الذين يتزيدون من نقل الحوادث بغية الجمع، ويتوسعون بتدوين الوقائع ابتغاء الحشد، فإنه لا يكون قد أربى عليهم بشيء ولا تكون المكتبة العربية قد غنمت منه إلا زيادة كتاب فيها!
كان الناس لا يعلمون بما درسوا من كتب السيرة كل ما يجب أن يعرف عن عظمة هذا الرجل الذي كان (ممتازاً بعمله ممتازاً بتكوينه، وكان وفاء شرط الامتياز والتفرد في عرف الأقدمين والمحدثين من المؤمنين بدينه وغير المؤمنين)
ولئن كان المؤرخون قد أطالوا في سرد تاريخه وأكثروا من بيان أعماله فإنهم لم يصلوا إلى دراسة حقيقة هذه النفس الكبيرة، ولا عرفوا كيف يتغلغلون إلى آفاقها الواسعة ومراميها البعيدة، وهذا لعمرك هو الفارق بين الكتاب الذي لا يرعف قلمه إلا مداداً يسيل على الصحف سطوراً سوداء وبين الكاتب الملهم الذي ينبثق من قلمه نور يشق الحجب لينفذ إلى ما وراءها، ويمزق الغلف ليصل إلى خفاياها
إن أظهر صفة لعمر قد أشاد التاريخ بها وحفظها له رائعة جليلة هي صفة (العدل)، وعلى أنك ترى أصحاب السير قد ملئوا بطون الأسفار من الأنباء التي تثبت هذه الصفة وتدل عليها، فإنك لا تجد أحداً منهم قد هدى إلى إظهار حقيقة هذا العدل العمري، ولا استطاع أن يصل إلى كنه أسبابه حتى يعلم الناس كيف امتاز عدل عمر من عدل غيره فبلغ به ما لم يبلغ سواه من الثناء والإعجاب ما دام يجري على وجه الأرض حكم،
ولكنك لو رجعت إلى كتاب (عبقرية عمر) لوجدته قد وقفك على مرد هذا العدل وكشف لك عن أسبابه فيقول: (إن له روافد شتى بعضها من وراثة أهله، وبعضها من تكوين شخصه، وبعضها من عبر أيامه، وبعضها من تعليم دينه، وكلها بعد ذلك تمضي

في اتجاه قويم إلى غاية واحدة لا تنم على افتراق). ولا يدعك على هذا الإجمال بل يفصل لك القول عن هذه الروافد حتى تصير وملء نفسك الإعجاب والرضا ولا يكتفي بدرس هذه الصفة بل يمضي في استقصاء دراسة سائر خلائقه وصفاته فيقول:

إن خلائقه الكبرى كانت بارزة جداً لا يسترها حجاب؛ فما من قارئ ألم بفذلكة صالحة) من ترجمته إلا استطاع أن يعلم أن عمر بن الخطاب كان عادلاً وكان رحيماً وكان غيوراً وكان فطناً وكان وثيق الإيمان عظيم الاستعداد للنخوة الدينية). وبعد أن يحدثك بأن هذه الصفات مكيفة فيه وأنها تتجه (إلى جهة واحدة، ولا تتشعب في اتجاهها طرائق قدداً كما يتفق في صفات بعض العظماء). وأن هذه الصفات يتمم بعضها بعضاً (حتى كأنها صفة واحدة متصلة الأجزاء متلاحقة الألوان) يمضي فيقول: (وأعجب من هذا التوافق بين صفاته أن الصفة الواحدة تستمد عناصرها من روافد شتى ولا تستمدها من ينبوع واحد، ثم هي مع ذلك متفقة لا تتناقض متساندة لا تتخاذل كأنها لا تعرف التعدد والتكاثر في شيء)

وهل تراه يقف بك عند هذا الاستقصاء البعيد أو يقنع بما قدمه من بحث ليس وراءه من مزيد؟ إن فلسفته لتأبى عليه إلا أن يمعن في الاستيعاب ويبالغ في الدرس فيقول (وما العدل والرحمة والغيرة والفطنة بغير الإيمان الذي هو الرقيب الأعلى فوق كل رقيب، والوازع الأخير بعد كل وازع، والمرجع الذي لا مرجع بعده لطالب الإنصاف) (إن إيمان عمر هو الضابط الذي يسيطر على أخلاقه وأفكاره، كما يسيطر على دوافعه وسوراته) ثم لا تدعه فلسفته العميقة حتى تظفره بسر لم يهتد إليه أحد من قبل ذلك هو (مفتاح الشخصية العمرية) ذاك الذي عرفه الأستاذ العقاد بأنه (السمة التي تميزه بين العظماء حتى في الإيمان، وسيطرته على الأخلاق والأفكار والدوافع والسورات، فإن الإيمان ليقوى في نفوس كثيرات ثم تختلف آياته وشواهده باختلاف تلك النفوس. . . والذي نراه أن (طبيعة الجندي) في صفتها المثلى هي أصدق مفتاح (للشخصية العمرية) في جملة ما يؤثر أو يروى عن هذا الرجل العظيم)

ولم يستأثر بهذا المفتاح بل تناوله بيد ماهرة وفتح به مغاليق هذه النفس الكبيرة ليبين للناس بقلمه البليغ خصائص عظمتها وما استفادت الحياة منها مما يجعلك تشهد مقراً بنفاذ بصره وقوة ذهنه

وبحسبك أن تراه لا يتولى ناحية من نواحي هذه العظمة إلا أتى على أطرافها وأحاط بجميع أكنافها، ولا درس جانباً من جوانبها إلا هتك من سره، وأظهر المكنون من أمره ولا نذهب نستزيد في بيان ما اشتمل عليه كتاب (عبقرية عمر)، لأن ذلك يحتاج إلى مقالات مستفيضة، وإنما نجعل كلمتنا دالة تشير إلى جملة هذا الكتاب دون تفصيله، فإذا لم

يكن فيها كل البيان عنه فليكن فيها شيء من دليله

ولعل هذه اللمحة تبين موضع هذا الكتاب الممتع الذي صور فيه العقاد عبقرية عمر أصدق تصوير وسايرها من إسلامه إلى عمله في الدولة ومعاملته للرسول وأصحابه، ثم ما كان عليه من ثقافة وغير ذلك مما لا تجد مثله في كتاب قبل اليوم

ولئن كان العقاد قد كشف بكتابه هذا عن عبقرية عمر وجلاها للناس في أروع مظهر وأبلغ بيان، فإنه قد أثبت العبقرية لنفسه في هذا الكتاب الفريد حتى لا يكاد يختلف في ذلك اثنان.

(المنصورة)

محمود أبو رية

العدد 492 - بتاريخ: 07 - 12 - 1942

دفاع عن البلاغة - 3

حد البلاغة

تسألني بعد ذلك عن البلاغة التي أعنيها وأدفع عنها: أهي بلاغة العقل العربي التي تجلت في نثر ابن المقفع والجاحظ والبديع، وارتسمت في منهج أبي هلال وعبد القاهر؛ أم هي بلاغة العقل اليوناني التي تمثلت في كلام الأصوليين والجدليين والمناطقة، واستسرت في قواعد السكاكي والسعد؟ أهي بلاغة المعنى أم بلاغة

اللفظ؟ أهي بلاغة الفكر أم بلاغة الأسلوب؟
والجواب أن البلاغة التي أعنيها وأدفع عنها هي البلاغة التي تحدى بها القرآن أمراء القول في عهد كان الأدب فيه صورة الحياة وترجمة الشعور وعبارة العقل. هي البلاغة التي لا تفصل بين العقل والذوق، ولا بين الفكرة والكلمة، ولا بين الموضوع والشكل؛ إذ الكلام كائن حي، روحه المعنى وجسمه اللفظ، فإذا فصلت بينهما أصبح الروح نفساً لا يتمثل، والجسم جماداً لا يحس
ومن العجيب أن كان في أمم البلاغة الثلاث: اليونان والرومان والعرب، من فصلوا بين القلب واللسان، وفرقوا بين المنطق والفن. ففي اليونان - وهي الأمة التي نشأت البلاغة في حضانة الفلسفة، وجعلت الشعر والخطابة قسمين من أقسام المنطق - كان للبلاغة مذهبان: مذهب الفلاسفة؛ ومن رجاله بركليس وديمستين؛ ومذهب البيانيين؛ ومن رجاله السوفسطائيون والمتشدقون من أمثال طراسيماك وجرجياس.
وفي العرب كان مذهب المعنويين ومذهب اللفظيين، أو مذهب أهل العراق، ومذهب أهل الشام. وكان هذان المذهبان أول الأمر يتماسان من شدة القرب كما تراهما بين أسلوب الجاحظ وأسلوب ابن العميد. فلما فسدت الطباع وأمحلت القرائح صار بينهما من البعد ما بين براعة ابن خلدون وغثاثة القاضي الفاضل
ولقد اختلفت التعريفات على مدلول البلاغة باختلاف تصور الناس لها وتأثرهم بها وغرضهم منها، ولكنها تعريفات مقتضبة لا تكاد تكشف عن جوهرها الفني لا من جهة النظر ولا من جهة العمل. ولعل أول من حاول شرح البلاغة على نحو يشبه الفن ابن المقفع إذ قال: (البلاغة اسم لمعان تجري في وجوه كثيرة: منها ما يكون في السكوت،
ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون شعراً، ومنها ما يكون سجعاً، ومنها ما يكون خطبا، وربما كانت رسائل. فعامة ما يكون من هذه الأبواب، فالوحي فيها والإشارة إلى المعنى ابلغ. والإيجاز هو البلاغة). ومن الأمثلة الأقوال المقتضبة قول ابن المعتز: (البلاغة هي البلوغ إلى المعنى ولما يطل سفر الكلام). وقول الخليل: (البلاغة هي ما قرب طرفاه وبعد منتهاه)
ولبلغاء الغرب في البلاغة أقوال تشبه ما قال بلغاء العرب في إجمال المعنى وبعد الإشارة. قال لاهارب: (البلاغة هي التعبير الصحيح عن عاطفة حق). وقال سورين: (هي الفكرة الصائبة، ثم الكلمة المناسبة). وقال لابروبير: (هي نعمة روحية تولينا السيطرة على النفوس). ولقد تخيلها (سنيك) إلهاً مجهولا في صدر الإنسان. ومثلها القدماء في صورة إله يتكلم فيخرج من فيه سلاسل من الذهب تسلك السامعين فلا يفلت منهم أحد. والتمثال على هذا الوضع لا يمثل غير بلاغة الخطيب
والناظر المتقصي في أقوال هؤلاء وأولئك يستطيع أن يستخلص من جملتها أن البلاغة هي بمعناها الشامل الكامل ملكة يؤثر بها صاحبها في عقول الناس وقلوبهم من طريق الكتابة أو الكلام. فالتأثير في العقول عمل الموهبة المعلمة المفسرة؛ والتأثير في القلوب عمل الموهبة الجاذبة المؤثرة؛ وفي هاتين الموهبتين تنشأ موهبة الإقناع على أكمل صورة. وتحليل ذلك أن بلاغة الكلام هي تأثير نفس في نفس، وفكر في فكر. والأثر الحاصل من ذلك التأثير هو التغلب على مقاومة في هوى المخاطب أو في رأيه. وهذه المقاومة قد تكون فاعلة كسبق الإصرار أو الليل أو العزم؛ وقد تكون منفعلة كالجهل أو الشك أو التردد أو خلو الذهن. فإذا كانت منفعلة كانت ضعيفة لا يحتاج في قهرها إلى الوسائل البلاغية القوية؛ فالمرء يجهل أو يشك أو يتردد ريثما يتهيأ له أن يعلم أو يستيقن أو يجزم؛ وهو في مثل هذه الأحوال تكفيه الحقيقة البسيطة للاستفادة من (التعليم). وقد يكون مع الجهل زيف العلم، واعتساف الحكم، وخطل الرأي الثابت باستمرار العادة، وفساد الوهم القائم على قوة القرينة. وحينئذ لابد أن تتناصر قوى العقل جمعاء على كسر هذه المقاومة من طريق البرهان؛ وذلك عمل الجدل، والجدل عصب البلاغة. وربما حدث مع ذلك كله أو بدون ذلك كله، فتور في الطبع فلا ينشط الحديث ولا يرتاح إلى رأي. وهنا يجب على صاحب
البلاغة أن يدفع السأم ويحرك النشاط، فيوشي الحقيقة بخياله، ويحي الأسلوب بروحه، ويجذب القارئ بفنه. وفي هذه الحال يظهر فضل البلاغة على الفلسفة وقد تكون المقاومة ضعيفة أو معدومة من جهة العقل؛ ولكنها تكون قوية عارمة من

جهة النفس. فأنا لا أماري في أن هذا هو الحق ولكني أستثقله، أو هو الفضل ولكني استرذله، أو هو النفع ولكنه يجهد نفسي ويبهر قواي، أو هو العدل ولكنه يعارض نفعي ويصادم هواي. فجهد البلاغة هنا يجب أن يوجه إلى النفس من طريق التأثير، لا إلى العقل من طريق الإقناع

فإذا اجتمع على مقاومة البلاغة العقل والهوى: هذا بميله أو نفوره، وذاك بإصراره أو قصوره، كان هنا ميدانها الأول وجهادها الخطير. لقد حشد لها العدو جميع قواه فيجب أن تربع حجره وتستعد له. وهي على حسب ما تقتضيه الحال أما أن تهاجم الرأي فتخضع بخضوعه الإرادة كحالها مع القاضي، وإما أن تهاجم الإرادة فيخضع بخضوعها الرأي كحالها مع الجمهور

أما الغرض من تحليل هذا التعريف فهو تجلية المراد من قول البيانيين أن البلاغة هي مطابقة الكلام الفصيح لمقتضى الحال. فليست الأحوال المعروضة أو المفروضة إلا انفعالات العواطف في النفس، أو اتجاهات الخواطر في الذهن. وليست مقتضياتها إلا الصور البلاغية المناسبة التي يهتدي إليها البليغ بطبعه أو فنه فيؤثر بها في هذه العواطف أو في تلك الخواطر التأثير الذي يريد. . .

(للكلام بقية)

أحمد حسن الزيات

الشباب والكهولة

بين توديع وترحيب

لصاحب العزة الأستاذ محمد كامل سليم بك

سكرتير عام مجلس النواب

إذا بلغ الإنسان الأربعين من عمره، وزحف منحدراً إلى الخمسين، شعر بتطور حاسم في مجرى حياته: هي فترة من العمر ظاهرة المعالم واضحة الحدود. قد يتجاهلها أناس فيمرون بها سراعاً ومن غير مبالاة. وقد يضطرب لها أناس فيحزنون أشد الحزن على شباب ولّى وأدبر بنضرته وروعته، وكهولة حلت بآثارها وأثقالها. وآخرون مثلي يقفون هنيهة، ويفكرون ثم يفكرون، ويودعون عهداً أدبر، ويستقبلون عهداً أقبل، ثم يبتسمون ويسيرون في الطريق المنحدر الذي يقاس بالأعوام، أو يقاس بالشهور والأيام. . . علم ذلك عند علام الغيوب

هي على كل حال فترة فاصلة حاسمة، تنطق بعبارة واضحة حازمة، لا لبس فيها ولا إبهام؛ إذ تقول: (أيها الرجل. قد انتهى شبابك. قد تضحك ساخراً؛ وقد تتحدى وتنكر، وتزعم أن رأسك لم يشتعل بعد شيباً، أو أن أسنانك سليمة، وقوتك عظيمة، وأنك في صحة الشباب وعافية الشباب. . . وإني لمصدقك؛ ولكن صدقني أنت كذلك: إنك لست الآن شاباً بل أنت كهل، فما رأيك؟)

والرأي هنا يتوقف على عوامل شتى أخص بالذكر منها اثنين أو ثلاثة:

(الأول) نظرة الإنسان إلى الحياة عامة

(الثاني) الحالة الباطنية أو الصحية

(الثالث) الحالة الظاهرة أو الشكلية

وما يعنيني الآن في هذا المقام أن أشرح هذه العوامل وأبين أثرها ومبلغ خطرها في تكوين الرأي؛ وإنما يعنيني (ونحن في زمن الحرب) أن أهجم على الموضوع هجوماً خاطفاً، فأقول: إني أحب الكهولة لأسباب أوجزها فيما يلي:

- لأني أصبحت بعد التجارب أعرف ما أريد وما لا أريد
- ولأني أصبحت أعرف نفسي وأعيش عيشة تتفق ومزاجها الخاص
- ولأني ما زلت والحمد سليم الصحة معافى البدن
- ولأني تعلمت ضبط النفس
- ولأني أقدر مما كنت على احتمال الآلام وصدمات الحياة
- ولأني أقدر على خدمة وطني وإسعاد من حولي
- ولأني أحمل كنوزاً من الأسرار والذكريات
- ولأني أصبحت أنعم بالهدوء والاستقرار والسلام

ذكرت رأيي هذا ذات يوم لصديق حميم فقال: هذا حسن. ولكن هل نسيت أن للشباب هزاته ولذاته، خفقاته وغزواته، أحلامه ومطامعه، قوته ونضرته؟ وهل الشباب إلا الحياة

الحافلة؟ وهل الكهولة إلا الحياة الفاترة؟
فقلت له: مهلا. لم أنس شيئاً وإني بما ذكرته عليم خبير. بل من أعلم به مني وأخبر؟
ولكن مالك أنت قد ذكرت حسناته ونسيت سيئاته؟ فللشباب كما تعلم نقائصه
وهفواته، كبواته وانفعالاته، حماقاته وجهالاته. فليس الشباب حلاوة صرفاً كما تزعم.
ولقد عرفت أناساً كان شبابهم عذاباً وجحيماً، فجاءتهم الكهولة راحة ونعيما. وعرفت العكس مع أناس آخرين
أن السعادة ميسورة في الشباب وميسورة في الكهولة إذا عرف الإنسان كيف يعيش وفق طبائع العهدين ومميزات العمرين
فالشباب عواطف أولاً وعقل ثانياً، فهو حماسة وتدفق وإقدام
والكهولة عقل أولاً وعواطف ثانياً؛ فهي اتزان وحساب وسير إلى الأمام
والشباب طائرة في السماء، ودبابة في الأرض، وغواصة في البحار
والكهولة سيارة فخمة تطوي الأرض أو باخرة ضخمة تمخر البحار
والشباب فراشة هائمة على وجهها طلباً للنور الوهاج، أو نملة سابحة فوق أطباق العسل المصفى
والكهولة فراشة هدأت وسكنت بعد طول المطاف واحتراق الجناح، أو نملة شبعت وارتوت وما هي بحاجة إلى التكرار
دعني يا صديقي أنعم بالكهولة نعيماً هادئاً معتدلا لا أشعر فيه بالاكتئاب والضجر، ولا بالتعب والملل، لأنه نعيم النفس والروح الخالدة، لا يتطرق إليها الاكتظاظ والسأم الكريه.
إن الشباب كلباس الحمام، ينفع للسباحة العنيفة في البحار. والكهولة كالمعطف ينفع للتدفئة عند مقدم الشتاء
فعلي بهذا المعطف المريح ألبسه في بر السلام، وقد أخذت نصيبي وأكثر من نصيبي في السباحة والتعرض لأخطار البحار
الآن أصبحت أعرف نفسي وما تريد. وكنت في الشباب أجهل نفسي وأسعى وراء ما لا أريد أو ما لا خير فيه. والآن أعرف ضبط النفس وجمال التسامح، وهما سر السعادة والإسعاد. وكنت في الشباب على النقيض: ثورة مشبوبة حينا أو سيارة من غير فرامل أحياناً أخرى
ولكن ما هذا؟ هل الكهولة خير كل الخير، لا عيب فيها، ولا غبار عليها؟ كلا فقد أراد الله أن يمزج الخير بالشر، والشر بالخير، ليخرج من المزيج مزاجاً معقولا، ونظاماً مقبولا.
ففي الشباب كفة الجسم وجماله ترجح كفة العقل. وفي الكهولة كفة العقل وكماله ترجح كفة الجسم. فكل شيء بميزان وقدر
أن الرجل إذا جاوز الأربعين واقترب من الخمسين لا محالة شاعر بنوع من الحرمان ونوع من الإذلال. فهذه بعض أسنان تتزعزع فتتخلع؛ وهذا شعر يبيض أو يتساقط؛ وهذه عيون كانت قوية نافذة، أصبحت ضعيفة حاسرة: في حاجة إلى منظار للقراءة ومنظار للمسير. وهنا وهناك خطوط تنذر بتجاعيد وأخاديد. ثم هضم يضعف، وغذاء ينتقي وشراب يدرس وكل شيء وإلا وقع العقاب، فإذا مرضت يا صاحبي جاءك الطبيب المعالج، ولا يتركك إلا وعلى شفتيه ابتسامة خبيثة جمة المعاني. إذ يقول لك: (يا عزيزي خفف من نشاطك وجهودك. واكثر من أسباب الراحة. ولا تنس أنك لست اليوم شاباً)
هذا وقد تشتهي نفسك أمراً فيه رياضة أو متاع أو غذاء، فلا يسعفك جسمك في همة ونشاط كما كان العهد في الشباب، وإنما يتباطأ أو يتخاذل بالإعياء. هذه هي الكهولة في أخف أعبائها. وقد تثقل وتقسو وتشتد حين تجعل من نفسها باباً تدخل منه العلل والأوصاب إلى الجسم، والحسرة والاكتئاب إلى النفس. على أني والحمد لله أسعد حالا من هذه الصورة، فما زلت كامل الصحة، معافى البدن، جم الحيوية والنشاط، ولهذا تراني أحب الكهولة لأني
أحب النضج، وأحب النضج لأني أصبحت أفضل حكم العقل على تحكم الغرائز، وأوثر الروحانيات على الماديات. والشباب في نظري حرب قائمة، والكهولة سلام مقيم. قد تقول ساخراً إن هذا السلام ركود، والركود من مظاهر الموت. وإني لا أقر هذا القول ولا أوافق عليه. فأنا لا أقول بالسلام العقيم ولا بالاستسلام وانعدام النشاط؛ إنما أقصد

سلاماً كسلام الدولة القوية الغنية، لا تحب الحرب ولا تسرع إليها مختارة، بل تعمل في شتى مرافق الحياة بنشاط أي نشاط. أقصد السلام الذي يشعر به المجاهد الذي ناضل طويلا، وأدرك ما أراد، ثم هدأ واستقر ليستريح وينعم بمزايا السلام. هو سلام لا يعرفه الشاب بحال من الأحوال، لأن الشباب يسبح في غمرات متلاحقات. فهو يطمح ويطمع. وينهك نفسه ليكون في الحياة شيئاً مذكوراً، وليحصل على المال والمجد والشهرة. يطالع ويدرس في نهم شديد ليعرف كل شيء. ويظل ريشة في مهب العواطف العواصف: من حب وكره، ورضا وسخط، وأمل وألم. فيظل على الدوام مشرد القلب في فرح يمازجه اضطراب، أو في حزن يلازمه اكتئاب، إن أخطأ أو أصاب. ضع هذا كله في كفة الخسائر للشباب، وانظر ما يقابلها في كفة المكاسب للكهولة. ترى الكهل ينعم بمزية التحرر والخلاص: التحرر من قيود كانت في الشباب ثقيلة، والخلاص من جهود كانت مضنية. لأنه أدرك ما أراد، ويئس في الغالب من إدراك البعض الآخر. واليأس إحدى الراحتين. . .

لهذا أراني أشد ما أكون اغتباطاً بالكهولة. لأنها خلصتني من مطالب كانت على نفسي ثقيلة الوطأة شديدة الإلحاح. ولأنها منحتني القدرة على خدمة بلادي على وجه معين ظاهر الأثر معروف الدائرة. كما منحتني القدرة على إسعاد من حولي على وجه أدق وأشمل. وفي هذا كله أنس للروح وغبطة للنفس، ليس إلى وصفهما من سبيل.

وأخيراً ما هذا الهدوء النفسي الفريد الذي يملأ صدري في الكهولة؟ أهو وليد الثقة بالنفس بعد طول التجارب على مر الأعوام؟ قد تحدث الآن أمور مروعة فأتألم لها من غير هلع أو جزع. وأراني أتحمل الألم في جلد وصبر وإيمان. لماذا؟ لست أدري. وإنما أدري أن هذا سلاح للروح معدوم النظير، لا يعرفه الشباب الذي تراه من هول كل صدمة يطير.

هو هدوء أشبه بالهدوء الذي يلي العاصفة: هدوء يطلق النفس من عقالها، ويفتح أمام العقل آفاقاً لم يكن يراها. ويا له من هدوء مريح حين أخلو إلى نفسي في مقعدي الوثير، أطالع ما أشاء كما أشاء، أو أفكر فيما أشاء عندما أشاء، أو أرجع إلى ذخائر الذاكرة أستثير منها ذكريات الماضي البعيد أو القريب، وأنها لمفعمة الأسرار، بعضها خاص لا يذاع، وبعضها عام سوف ينشر يوماً من الأيام. حينذاك يستقر رجل الأسرار مبتسماً هادئاً في مكانه المختار، ثم يتنفس في عمق واسترخاء وسكون. يا له من شعور لذيذ كامل الصفاء.

هيهات هيهات للشباب أن يدرك مداه أو يفهم معناه؛ لأن الشباب كما قلت دائب الحركة، يعدو ويلهث وراء متع ليس فيها ري ولا شبع، ووراء فرص الحياة يطاردها في حماسة الصبا، وخلابة المطامع وسراب الغايات.

هذا هو الشباب. وهذه هي الكهولة.

فوداعاً يا شبابي فقد كانت سعادتي بك أضعاف أضعاف ألمي منك

ومرحباً بالكهولة فقد سعدت بمقدمها، واستبشرت بطلائع ثمارها، وأصبحت لا أقوى على فراقها الآن. ورحم الله المتنبي الذي قال:

خُلقت ألوفاً لو رجعت إلى الصبا ... لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

محمد كامل سليم

مسابقة الأدب العربي لطلبة السنة التوجيهية

الشوقيات - 3

للدكتور زكي مبارك

توت عنخ آمون - لعنة الفراعنة - حقيقة أغرب من الخيال - بين حافظ وشوقي - بين الظلم والعدل - أحقاد العبقريين - ألاعيب الحظوظ - توضيح - النونية الآمونية - ثورة الجيل - خلاصة البحث

توت عنخ آمون

في الجزء الثاني من الشوقيات قصيدتان في توت عنخ آمون، ولهاتين القصيدتين قيمة عظيمة، فقد صرح شوقي نفسه أن أعظم قصائده هي النونية الآمونية:

درجتْ على الكنز القرون ... وأتت على الدَّنَ السنون

أما حافظ إبراهيم فكان يرى أن أعظم قصيدة نظمها شوقي هي البائية الكازنارفونية:

في الموت ما أعيا وفي أسبابهِ ... كل امرئ رهنٌ بطيّ كتابهِ

فما حديث هذه القصائد الجياد؟
كان اللورد كارنارفون من المولعين بالآثار المصرية، وقد سمح له غناه أن ينفق على الحفريات بسخاء، فكلف المستر كارتر أن يحفر في (وادي الملوك) بالأقصر عساه يهتدي إلى مقبرة لم يهتد إليها اللصوص في العصور الخوالي
وبعد متاعب كادت تودي بصبر اللورد كارنارفون عثر المستر كارتر على مقبرة توت عنخ آمون في سنة 1922
وقد التفت الباحثون من الأوربيين والأمريكيين إلى هذا الكشف أعظم التفات وقدمت التهاني إلى كارتر وكارنارفون من الهيئات العلمية في الغرب والشرق، ودعيت الصحافة إلى معاينة ذلك الكشف الخطير فذهب لمعاينته ثلاثة من الصحفيين: زكي مبارك مندوباً عن جريدة الأفكار، والدكتور هيكل مندوباً عن جريدة السياسة، والأستاذ المازني مندوبا عن جريدة الأخبار
ولن أنسى أن المستر كارتر حدثنا عن السبب في نقص بعض محتويات المقبرة، وكان الرأي عنده أن أيدي اللصوص قد امتدت إليها في عهد (الأسرة العشرين) فكتبت في (الأفكار) أقول إني أرجح إنها سرقت في (القرن العشرين) ولم يفت مراسل (التيمس) أن يبرق إلى جريدته بهذا التلميح، فنشرته بدون تسويف، لتداعب به اللورد كارنارفون، وكانت النتيجة أن يمتنع المستر كارتر عن السماح للصحفيين بزيارة المقبرة، ولهذا الامتناع صدى في شعر شوقي سنشير إليه قبل ختام هذا الحديث.
لعنة الفراعنة
هنالك خرافة تقول بأن الفراعنة يلعنون من ينبش قبورهم بعد الموت. ولهذا الخرافة أصل، فقد وجد على كثير من القبور المصرية والكلدانية دعوات حرار على من ينبشون قبور الملوك. وفي القبور المصرية ما يسمى (الرصد) وهو تمثال يقام في مدخل القبر لتخويف اللصوص، وهو حقا مخيف، لأن القدماء كانوا يتوهمون إنه مزود بالروح وبالسلاح، وأنه يقتل من يدخل القبر بدون استئذان. وهل يستأذن اللصوص؟
فماذا صنعت لعنة الفراعنة باللورد كارنافون؟
أبرق إليه المستر كارتر فحضر على عجل ليشهد الكشف الجديد، وبعد أيام لسعته بعوضة وهو نائم في خيمة بجوار المقبرة فمات.
حقيقة أغرب من الخيال
كان اللورد كارنافون أهدى إلى بنت ملك الإنجليز عقدا من العقود القديمة، ففرحت به فرحاً عظيماً، وأثابت مهديه أجزل الثواب، فلما سمعت أن بعوضة لسعته فمات نزعت العقد من جيدها لئلا تلحقها لعنة الفراعين
وفي قصة البعوضة يقول شوقي:
صادت بقارعة (الصعيد) بعوضةٌ ... في الجوّ صائدَ بازه وعقابهِ
وأصاب خرطوم الذبابة صفحةً ... خُلقت لسيف الهند أو للذبابه
طارت بخافية القضاء ورأرأتْ ... بكريمتيه ولامستْ بلعابه
ثم يعلل شوقي تلك الحادثة تعليلا علمياً فيذكر إنها من نتائج الوهم الذي يضعف الأعصاب:
لا تسمعنْ لعصبة الأرواح ما ... قالوا بباطل علمهم وكذابهِ
الروح للرحمن جلّ جلالهُ ... هي من ضغائن علمه وغيابه
غلبوا على أعصابهم فتوهموا ... أوهام مغلوبٍ على أعصابه
بين حافظ وشوقي
كان التنافس بين حافظ وشوقي قد وصل إلى أبعد الحدود، وزاد في خطر ذلك التنافس أن حافظا كان رجلا عذب الروح، وكانت له مع الصحفيين صلات يؤرث بها أحقادهم على شوقي حين يشاء
وما أذكر غلبة شوقي على حافظ إلا تعجبت. فقد كان حافظ غاية في الذكاء واللوذعية، وكان علمه بتاريخ العرب وآدابهم علما يفوق الوصف، وكان فهمه لدقائق الحياة المصرية أعجوبة الأعاجيب، فكيف تفوق عليه شوقي وكان رجلا يدل مظهره وحديثه على إنه فرد من سواد الناس لا يمتاز بعبقرية ولا نبوغ؟
أكاد أجزم بأن (شهوة الحديث) هي التي أضعفت شاعرية حافظ، فقد كان كثير الحديث، وبالحديث وصل إلى ألوف القلوب، وبالحديث ضاع، لأن الحديث يأخذ من

القوى النفسية طاقات لا تصلح بعدها للغناء
لو أن أحاديث حافظ دونت لكان فيها ثروة فكرية تفوق ما ترك شوقي من الثروة الشعرية، ولكان من الممكن أن يعد من أقطاب التاريخ الأدبي في هذا الباب، ولكن هذا الزمن لا تتسع تقاليده الأدبية لمثل ما كانت تحرص عليه عناية القدماء في أمثال هذه الشؤون
أما شوقي فكان يؤثر الصمت ليحتفظ بالمدخر من قواه النفسية، وليلقى الناس بالقصيد لا بالحديث، فظفرت جهوده بالخلود.
كان حافظ يحدث من يلقاه بإطناب وإسهاب، فلا يقتضي اليوم إلا وهو متهالك من فرط الإعياء، وكان شوقي يهرب من الناس حين يشرع في النظم، فلا تراه إلا هائماً على وجهه من طريق إلى طريق، وفي حال تنذر بالجنون
كان حافظ يطيل محاورتي حين كنت موظفا بدار الكتب المصرية في سنة 1925، فبدا للمرحوم أحمد نسيم أن يدلني على أحد مقاتله النفسية، فحدثني أن أعظم ما يغيظ حافظاً أن تخبره أنك رأيت شوقي ينتقل من ترام إلى ترام وفي يده سيجارة وعلى وجهه أمارات الذهول.
وحملني النزق على تجربة هذه الوصية، فأخبرت حافظا أني رأيت شوقي كثير التنقل في الشوارع، وفي حال يغلب عليه الانفعال، فصرخ حافظ: في أي غرض يعالج الشعر هذا المخبول؟ إنه يكره أن يقترن اسمي باسمه، مع أن الناس ظلوا يقولون في أكثر من عشرين سنة: شوقي وحافظ كما يقولون: بيض وسميط
بين الظلم والعدل
كانت الأقدار سمحت بأن تنعقد بيني وبين شوقي مودة دامت نحو سنتين. وفي تلك الأيام عرفت من أحوال شوقي أشياء وأشياء. ومن المؤكد إنه من أعاظم الرجال الذين عرفتهم في حياتي، فقد كانت أستاذيته في نقد المجتمع مضرب الأمثال، وكان روحه من ألطف الأرواح، وفي لحظة من لحظات الحوار حول مقاصد الشعراء سألته عن قصيدة حافظ في مجاريته، وهو منفي بالأندلس، فأجاب وقد تربد وجهه بالغيظ، أنا لا أروي غير شعري
فقلت: ومن الوفاء للأدب أن تروي شعر من يناجيك وأنت غريب
وفي اليوم التالي لقيت حافظا فسألته برفق: أتحفظ شيئا من شعر شوقي؟ فأجاب: لقد قتلني شوقي حين قال في اللورد كارنارفون:
أفضى إلى ختم الزمان ففضهُ ... وحبا إلى التاريخ في محرابهِ
وطوى القرون القهقرى حتى أني ... فرعونَ بين طعامهِ وشرابه
أحقاد العبقريين
ومع هذا فأحقاد العبقريين كأحقاد الأطفال تذوب بعد ليال. ففي سنة 1927 أقيمت حفلة عربية لتكريم شوقي، فأنشد حافظ قصيداً جاء فيه:
أميرَ القوافي قد أتيت مبايعاً ... وهذى وفود الشرق قد بايعت معي
فدعاه شوقي وقبّل جبينه والدمع في عينيه. . . ثم شاء القدر أن يموت حافظ قبل شوقي بأسابيع، فقال شوقي يبكيه:
قد كنت أؤثر أن تقول رثائي ... يا منصف الموتى من الأحياء
لكن سبقتَ وكل طول سلامة ... قدرٌ، وكل منية بقضاء
ووددت لو أني فداك من الردى ... والكاذبون المرجفون فدائي
الناطقون عن الضغينة والهوى ... الموغرو الموتى على الأحياء
من كل هدّام ويبني مجدهُ ... بكرائم الأنقاض والأشلاء
ما حطّموك وإنما بكَ حُطّموا ... من ذا يحطّم رفرفَ الجوزاء
أنظُر فأنت كأمس شأنك باذخٌ ... في الشرق واسُمكِ أرفع الأسماء
بالأمس قد حلّيتني بقصيدة ... غراء تُحفَظُ كاليد البيضاء
غِيظَ الحسود لها وقمت بشكرها ... وكما علمتَ مودتي ووفائي
وهي أعظم قصيدة قالها شوقي قبيل الموت. ولعلها خير ما جاد به خاطره برفق وحنان
ألاعيب الحظوظ
مات حافظ وشوقي في موسمٍ واحد هو صيف سنة 1932 فارتجت الأقطار العربية

لموت شاعرين كانت إليهما قيثارة الغناء في أعوام تزيد على الثلاثين
وفي خريف تلك السنة بدا لإحدى شركات السجائر أن تخرج علبة باسم شوقي وعلبة باسم حافظ، فجعلت ثمن العلبة الأولى خمسة قروش وثمن العلبة الثانية أربعة قروش وسعيد الدنيا سعيد الآخرة، كما يقول المصريون
توضيح
لهذا الاستطراد غاية، هي خلق جو يفسر ما كان بين شوقي وحافظ، ولهما مجال في مسابقة الأدب العربي لهذا العام السعيد. وما يليق بأديب أن يجهل ما كان بين حافظ وشوقي من مصاولات عادت على الشعر بأطيب الثمرات
النونية الآمونية
مراجعة هذه القصيدة بتأمل وتدقيق ترينا كيف قال شوقي إنها أعظم ما خطته يمناه، فقد حاور الحياة وحاور الوجود بأسلوب الأديب الفيلسوف، وزعم خياله أن الموتى لو شعروا بما في قبر ذلك الملك لنبشوه بدون استحياء ثم مضى فصور حياة ذلك الفرعون في حدود التصاوير المرسومة بجدران قبره المطموس
والتلطف مع شوقي لا ينسيني واجب النقد الأدبي، وهذا الواجب يدعوني إلى النص على أن شوقي أسرف في وصف مقبرة توت عنخ آمون، فقد ذكر لها خصائص غير حقيقية،
خصائص لم ترها عيناي حين زرتها قبل عشرين عاماً، ولعل شوقي لم يرها بعينه قبل نظم هذا القصيد، وإنما تمثل ما رآه في بعض المقابر الفرعونية فقال ما قال بلا تحفظ ولا احتراس
ثورة الجيل
في هذه النونية تحدث شوقي عن عصر توت عنخ آمون وعده عهد (الفرد اللعين) ليجوز له في قصيدة ثانية أن يقول إن الدستور جعل عصره دون عصر (فؤاد)
والقصيدة الثانية تحفة أدبية تخيل فيها الشاعر أن توت عنخ آمون:
سافرَ أربعينَ قرناً وعدَّها ... حتى أتى الدار فألفَي عندها
إنجلترا وجيشها ولُرْدها ... مسلولة الهنديِّ تحمي هندها
قامت على السودان تحمي سدَّها ... وركزت دون (القناة) بَندها
فقال والحسرةُ ما أشدَّها ... ليت جدار القبر ما تدهدها
وليت عيني لم تفارق رَفْدها ... قم بَبِّنِي يا بَنْتَئورُ ما دها
مصرُ فتاتي لم تُوقِّرْ جدها ... دقت وراء مضجعي جرْبندها
وخلطتْ ظباءها وأُسدها ... وسكب الساقي الطلا وبَدَّها
قد سحبتْ على جلالي بُردها ... ليت جلال الموت كان صدها
وهذا شعر يفسده الشرح، وهو أيضاً شعر لا يقوله غير شوقي إمام الصياغة الشعرية، وأصدق من تغنى بأمجاد النيل وفي هذه القصيدة نص شوقي على أن:
مصر الفتاة بلغت أشدَّها ... وأثبت الدم الزكيُّ رُشدها
فأرسلت دهاتها ولُدَّها ... في الغرب سدوا عنده مسدَّها
وبعثتْ للبرلمان جندها ... وحشدتْ للمهرجان حشدها
ثم أشار إلى معارضة المستر كارتر في زيارة المقبرة فقال يخاطب الفرعون:
لحدك ودَّتْه النجوم لحدها ... أريتنا الدنيا به وجدها
سلطانَها وعزها ورغدها ... وكيف يُعطَى المتقون خُلدها
أبوابك اللائى قصدنا قصدها ... كارترُ في وجه الوفود ردَّها
لولا جهودٌ لا نريد جحدها ... وحُرمةٌ من قربك استمدَّها
قلتُ لك اضربْ يده وقُدَّها ... وابعث له من البعوض نُكدها
والقارئ يفهم إنه يشير إلى البعوض الذي صرع اللورد كارنارفون، وهو بعوض ظالم، فقد حدثنا شوقي في البائية أن اللورد كارنارفون أهدى إلى توت عنخ آمون هدية أعظم من الهرمين، لأنه عرف به أمماً لم يعرفها عصر الفراعين. ألم تكتب فيه عشرات البحوث في بلاد الأمريكان؟
خلاصة البحث
قد فرغت من الكلام عن عيون الجزء الثاني من الشوقيات في الحدود التي يسمح بها الوقت، وإني لواثق بأن هذه الإشارات تكفي لهداية المتسابقين إلى اجتياز الامتحان

بأمان
ولكن الواجب يحتم عليّ أن أشير على الطلبة بأن يسألوا أساتذتهم عما فاتني النص عليه، فقد يكون في أساتذتهم من هو أعرف بسرائر الشوقيات
وقد سكت عن سينية شوقي في معارضة سينية البحتري، لأني تحدثت عنها بإطناب في كتاب (الموازنة بين الشعراء) وأنا أكره الحديث المعاد
أما بعد خلاصة هذا البحث؟
هو إشارات ورموز لا ينتفع بها غير من يقرأ الشوقيات بإمعان. والنقد الأدبي توجيه لا تلخيص. والله وليّ التوفيق
زكي مبارك
مرسلات مع الريح
نعش وباب
للأستاذ إسماعيل مظهر
نحو الشمال. . . وسرنا في ليل معتم، والمطر ينهمر كأن السماء تحاول أن تدك بمائها الغمر ذلك الأديم الذي تنزلق من فوقه حوافر الجياد
مال ميزان النهار، واكتهل اليوم الخامس عشر من شهر يناير سنة 1931، قبل أن ندلف بجيادنا في قفر سبسبٍ في شمال الدقهلية وقصدنا بلدة يقال لها (غرور). وكان ثلاثتنا في صمت محزنٍ، فلا ينبس أحدنا ببنت شفة. وكنا في حالة ترقب بعد أن انحدرت الشمس نحو المغيب، وأرسلت من خلال فجوة في السحب الدهم، غلالة حمراء من غلائلها التي تتيه بها في أشهر الشتاء
وهبّ ريح لافح تضرب وجوهنا بألسنة من الزمهرير، وتعصف بشجيرات من الطرفاء هنالك، فتسمع لها نواحاً أشبه بأنين البوم يتداعى ويتجاوب
وقد تراكب في السماء سحاب من فوقه سحاب، وانحدرت نحونا سحابة كأنها المداد، فخيل إليّ أنها قضاء الله في الظالمين، ينحدر إلينا متثاقلاً وفي تمهل العالم بأنه لابد من أن يصيب حيث يرمي. ولم تلبث أن رمتنا بذلك السيل المنهمر
مدت الجياد أعناقها نحو الأرض لتتقي بذلك انهمار المطر، وراحت تمشي حذرة متلكئة. فالأرض سبخة والطريق وعر، وقد استحال آلافاً من البرك الصغيرة، في كل منها منزلق، وفي كل منها مهواة؛ حتى لقد تذكرت في تلك الآونة جنة ذلك الرجل الذي كفر بربه، فأصبحت صعيداً زلقاً
وأين نحن من (غرور)؟ إنا منها على عشرة فراسخ، في ليل ممطر شديد السواد، قارس البرد، قر الرياح. وقد ابتلت ثيابنا وأخذ الماء يسري فيها، كما تسري الخمر في أعصاب المنتشين، حتى إذا بلغ جلودنا مضينا ننتفض ملتزمين ذلك الصمت الرهيب ذلك القفر السبسب ملك لحكومتنا. وقد تبلغ مساحته آلافاً وآلافاً من الأفدنة، لا يؤنسه غير نبات البردي بنيت حيث تجتمع المياه، ونبات الطرفاء يحتل نبكاته المرتفعة، متشبثاً بها وكأن كل نبتة منه غريق في لج مائج
وكنت أعرف أن في جوف ذلك القفر مقاماً لولي من أولياء الله، شاده هنالك جماعة من مريديه، وأقاموا إلى جانبه مسجداً، فأخذت تتناثر من حوله القبور: قبور أولئك الذين يوصون بأن يدفنوا بمقربة من ولي الله زلفى إلى الآخرة. وكنت أعلم أن لذلك المسجد حارساً يضيء فيه، إذا جن الليل، مصباحاً يهتدي به في ذلك القفر من تدهمهم مثل تلك الليلة الليلاء
رميت بصري في جوانب ذلك القفر، وقد ضللنا طريقنا، وأخذت الجياد تضرب بنا في نواحيه ضرب المتخبط المذهول، أتطلع لعلي أقع على شعاع ذلك الولي الكريم. وأنّا للبصر أن يهتدي في تلك الظلمات الهابطة علينا كسفاً؟
ولكن الصمت الذي لزمناه قد انتهى أجله؛ فقد تحرك لسان كبيرنا بكلمات وسمعته يقول إنه يرى ومض مصباح إلى الشمال منا. إذن فألي الشمال
وانتحينا بجيادنا نحو الشمال، وحثثناها على المسير. ولكن أين الوميض؟ لقد أخفناه الليل أو عصف به عاصف من الريح. وخيل إلي أن ذلك الوميض الذي لاح لكبيرنا ليس إلا سراب الليل، أو إنه الوهم ضخمه الأمل في النجاة من الليل والماء والرياح. وثبت نظري نحو الشمال وحدقت تحديقاً تراءت معه لناظري أشباح غريبة، وطيوف تبدو وتخبو كأنها في صراع، وشعرت أني أميل وأترنح من فوق جوادي، وأن يداً خفية تأخذ

بأطراف معطفي وتجذبني إلى الوراء، فأعتدل في سرجي وأتثبت من ركابي لأستوثق من محلي، وأني على ظهر الجواد، وما زلت مالكا حواسي. غير أن كل هذه الخيالات قد تبددت فجأة لما أن وقع بصري على لمع ذلك القبس الخافت المريض الذي تراءى لصاحبي من قبل، ثم اختفى في جوف ذلك البحر اللجي من الليل ومن الماء ومن الرياح. وكنا كلما ضربت بنا الجياد في جوف ذلك القفر الأملس المجرود، توالت ومضات ذلك القبس الذي علقنا عليه الأمل، وربطنا حياتنا بتراوحه بين الظهور والخفاء. حتى إذا كنا بمقربة منه عرفنا إنه مصباح وليّ الله يتلاعب به الريح العاصف فيتنوح رواحاً وجيئة، وقد علا جوانبه سواد كاد يخفي عن الأبصار ومضاته الضئيلة.

بلغنا عتبة المسجد القائم هنالك في فجوة من فجوات ذلك القضاء المترامي وحيداً كأنه الأمل الباسم العريض في وحشة الفراق. وكنت أول الواثبين إلى الباب أعالج اقتحامه إلى

الصحن فإذا بالباب مغلق، ومن دونه دريئة هي نعش من خشب يحمل الموتى إلى أول السفر وآخر المعاد.

جمدت هنالك ذا هلاً عن جوادي وعن صاحبي أتأمل النعش ومن ورائه الباب. فكل من يحمل في ذلك النعش، لابد له من إنه يجتاز ذلك الباب. فإذا جاوزه، فإلى سفر الأبد المديد.

الباب والنعش. ثم صلاة تقام تكفيراً واستغفاراً، فإذا دلف به الدالفون نحو الحفرة العميقة، فقد دلفوا به ليسلموه إلى الآخرة، ثم فلسفة في شعر:

تطوِّف ما تُطوِّف ثم نأوي ... ذوو الأموال منَّا والعديم

إلى حفر أسافلُهنَّ جرف ... وأعلاهن سفاح مُقيم

ثم تأملات رهين المحبسين:

سأفعل خيراً ما استطعت فلا تقم ... عليَّ صلاة يوم أصبح هالكاً

فما فيكم من خَيِّر يُدّعى به ... يُفرِّج عني بالمضيق المسالكا

ومن ذا الذي أستنجد به هنالك ليفرح عني في ذلك المسلك الرهيب: النعش ومن ورائه الباب. ليس ثمة من شيء غير عزيمتي. وأنا حي بيني وبين النعش والباب شقة، بعدها بعد الشرق من الغرب:

والشرق نحو الغرب أقرب شقة ... من بُعد تلك الخمسة الأشبار

فأزحت النعش جانباً، واقتحمت الباب، فإذا الظلام مخيم على صحن المسجد والرياح حيرى في جوانبه، تنهد منحدرة من منافذه العليا، فتدور متلوية، ثم تندفع نحو الباب، كأنها أسير أفلت من قيود الحديد:

تمشي الرياح به حْيرى مدلَّهة ... حسرَى تلوذ بأكناف الجلاميد

خلعت معطفي وألقيت به جانباً، وجلست مسنداً ظهري إلى الجدار البارد المقرور، وما لبث كبيرنا أن انتحى موضعاً آخر، ثم التفت إليَّ وقال:

(إذا بزغت الشمس يممنا نحو (غرور)، فقابلنا عمدتها ووجهاءها، واستوثقنا من أنهم سوف يعضدوننا، ثم انحدرنا نحو (زفر) فنأخذ على أهلها المواثيق ونقيدهم بالعهود ثم. . .)

غير إنه لزم الصمت إذ بادرته بسؤال لم يكن يتوقعه من فتى ينتمي إليه بروابط الرحم: فصرخ مهتاجاً:

(ألم تر كيف صار فلان عضواً بمجلس النواب، وفلان عضواً بمجلس الشيوخ، وفلان وكيل وزارة، وليس منهم من يدانينا جاهاً وثروة. إنك ما تزال جاهلاً بأمور دنياك فاسكت وأطع.)

قلت نعم إني أصغر منك سناً، وربما كنت أقل تجربة، ولكني سأصارحك برأيي فيمن ينبغي أن تكون لهم هذه المراكز العليا: هي يا سيدي لمن يقال له هي لك، لا لمن يقول هي لي. هذه هي الحقيقة برغم القوانين، وبرغم الشرائع. . .

ثم لزمت الصمت ولزمه. حتى إذا تنفس الصبح وبان الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، عمدت إلى معطفي المبلل فوضعته فوق كتفي، وهممت بالخروج من المسجد، فنظر إلي صاحبي نظرة تساؤل فلم آبه به، ولم أحفل بما نمت عنه نظراته، بل ألقيت على الباب نظرة وعلى النعش أخرى، وكأنما يحدثهما قلبي هاجساً: عندكما يقف كل مغرور بدنياه

وامتطيت جوادي. وأدرت وجهه نحو الجنوب، ومضيت أضرب في ذلك القفر، ولكن إلى عشي، إلى زوجي وأولادي؛ إلى موضع حبي وحنيني. إلى من هم لعيني النور، ولقلبي الرجاء، ولحياتي الأمل، ولنفسي الطمأنينة. إلى وكري الصغير الذي أصبح لي في جنبات هذه الدنيا الصماء الغرور، بمثابة البيضة والعش، والسكن والوطن والكون

إسماعيل مظهر

من أطرف ما قرأت

ميليزاند الأميرة

للأستاذ صلاح الدين المنجد

تمثلتها في قصرها الضاحك، فوق صخور الشاطئ، رافعة يدها تومئ (أن هلموا إلي. . . أنا ميليزاند، أنا الأميرة الحسناء)

إنها أسطورة ملؤها الخيال والجمال، والمغامرة والشعر إنها حلم زاهٍ رفاف، ومعنى بعيد بعيد

في بلدة هادئة من (بلاي) كان (روديل) الفتى الجميل، ذو الجسم القوي، والوجه الصبيح، يرسل أشعاره الملأى بالشجو والحب والأنين. لقد كان يحب ميليزاند الحلوة كالصبح، المشرقة كالنور، الرفافة كالورد. فكان يتمثلها في خاطره، ويداعبها في خياله، ولا يستطيع أن يراها. ما أبعدها عنه. . . هي في الشرق المسحور القاصي، وهو في (بلاي)

ولم يطق صبراً عنها، فقد كانت نفسه ناعمة يهزها كل شيء ويؤثر فيها كل شيء. كانت كالقيثارة تمر عليها النسمة الخفيفة، فتترك وراءها نغمة مطربة أو هزجة ناعمة وكان يرسل أشعاره في هدأة الليل، تحت القمر. وكان يحب تغريد العصافير، فإذا صمتت ذكرته حبه البعيد. يقول:

(عندما تطول أيام مايو، تلذ لي أغرودات العصافير. فإذا صمتت هاجت في قلبي ذكرى حب بعيد. فأعود مفكراً مطرقاً، فلا أناشيد الرفاق تفرح القلب الحزين، ولا رفيف الزهر يبهج النفس الكلوم

(أي فرح سيشرق في نفسي عندما أراها وأطلب أن تضيفني سأسألها الضيافة، بالله، وبالغربة. وعندئذ، يا ما ألذ أحاديث العاشق البعيد، بقرب الأميرة البعيدة. وهو ينعم بصفاء عينيها الحلوتين)

(ثم. . . ثم أتركها، وا حسرتاه، حزنان أو فرحان، راضياً أو كارهاً، فلا أراها أبداً لن أنعم بالحب إن لم أنعم بها، لأني ما رأيت سيدة أنبل ولا أحسن منها. . . آه، يا ليتني كنت عبداً لها

(اللهم يا من خلقت كل شيء. . . كل ما يموت ويحيا، صل أسبابي بأسبابها، في أي مكان شئت)

تلك كانت أغانيه. إن فيها حنينا ولوعة، كأنها نغمات من نغمات مالارميه أو فيرلين

وما زال (روديل) يسعى حتى سافر مع أهل الصليب. وقطع طريقه يغني، ويمني نفسه بحلاوة اللقاء. وما كادت الباخرة تقرب من طرابلس حتى فاض سروره وزاد وجده. لقد كاد يرى ميليزاند وهاهو ذا قصرها ينادي الناس. فيغلب عليه الوجد، ويطغى عليه الفرح؛ فيعل ويمرض، ويحمل إلى المدينة، ويوضع في كوخ حقير، وهو يلفظ أنفاسه وأسرعوا إلى الأميرة الحسناء فحدثوها عنه (لقد كان يغني مع الموج أغنيات حبه، وكان ما يفتأ يلهج باسمك ويسبح بجمالك. . .) فخفت إليه. ولما اقتربت منه، وأسندت إلى صدرها رأسه، دبت في جسمه الحياة ففتح عينيه، وأرهف أذنيه، وتدفق الدم في خديه، وجلس يسمعها أشعاره، ويؤنسها بأغانيه فتطرب ميليزاند، وتنحني فتيل بثغرها الريان فمه وشفتيه

وعجب الناس من الأميرة كيف تحيي الموتى، وعجبوا من العاشق الميت كيف يحيا. . .؟

وما أشبه ميليزاند، بمحبوبة الأعشى التي قال فيها:

لو أسندت ميتاً إلى صدرها ... عاشَ ولم يُنقلْ إلى قابر

حتى يقول الناس مما رأوا ... يا عجباً للميت الناشر

وأخذ (روديل) يحدثها عن تهيامه وتحنانه، وأخذت تطرفه بأعذب الأحاديث، حتى إذا

قص عليها كل شيء وأسمعها كل شيء، عاد، فأغمض عينيه. . . ومات وأعجب الناس بروديل، وجعلوا حبه أسطورة. فرنت في أوربة ودوت؛ وهام الناس بالشرق. وجعلوا الأميرة ميليزاند رمزا. . . وصوروها واقفة على شاطئ البحر، بين يدي الأمواج تنادي الأمراء، وتنادي الملوك، وتنادي الناس (تعالوا وانظروا إلى الأميرة البعيدة. . . تعالوا إلى البلاد المقدسة)

صلاح الدين المنجد

خزانة الرؤوس - 3

في دار الخلافة العباسية ببغداد

للأستاذ ميخائيل عواد

رأس بدر مولى المعتضد (ز):

كان سبب قتله على ما أجمعت عليه الروايات، أن الوزير (القاسم بن عبيد الله كان همّ بتصيير الخلافة من بعد المعتضد في غير ولد المعتضد، وأنه كان ناظر بدراً في ذلك، فامتنع بدر عليه قوال: ما كنت لأصرفها عن ولد مولاي الذي ولى نعمتي. فلما رأى القاسم ذلك وعلم إنه لا سبيل إلى مخالفة بدر؛ إذ كان بدل صاحب جيش المعتضد والمستولي على أمره والمطاع في خدمه وغلمانه، اضطغنها على بدر. وحدث بالمعتضد حدث الموت وبدر بفارس، فعقد للمكتفي عقد الخلافة وبايع له وهو بالرقة لما كان بين المكتفي وبين بدر من التباعد في حياة والده. . . فقدم بغداد المكتفي وبدر بفارس؛ فلما قدمها عمل القاسم في هلاك بدر. . .)

قال المسعودي: (. . . فلما امتنع عليه أحضر أبا عمر محمد ابن يوسف القاضي فأرسل به إلى بدر في شذاه (قلنا: الشذاء والشذاة والشذاوة؛ تجمع على الشذاءات والشذوات: ضرب من السفن النهرية الصغيرة في العصر العباسي) فأعطاه الأمان والعهود والمواثيق عن المكتفي، وضمن له إنه لا يسلمه عن يده إلا عن رؤية أمير المؤمنين؛ فخلى عسكره وجلس معه في الشذاء مصعدين، فلما انتهوا إلى ناحية المدائن والسيب تلقاه جماعة من الخدم، فأحاطوا بالشذاء، وتنحى أبو عمر إلى طيار فركب فيه، وقرب بدر إلى الشط وسألهم أن يصلي ركعتين وذلك في يوم الجمعة لست خلون من (شهر) رمضان سنة تسع وثمانين ومائتين وقت الزوال من ذلك اليوم؛ فأمهلوه للصلاة. فلما كان في الركعة الثانية قطعت عنقه وأخذ رأسه فحمل إلى المكتفي. فلما وضع الرأس بين يدي المكتفي سجد وقال: الآن ذقت طعم الحياة ولذة الخلافة. . .)

وزاد الطبري على ذلك قوله: (. . . وورد الخبر على المكتفي بما كان من قتل بدر. . . فرحل منصرفاً إلى مدينة السلام، ورحل معه من كان معه من الجند، وجيء برأس بدر إليه؛ فوصل إليه قبل ارتحاله من موضع معسكره، فأمر به فنظف ورفع في الخزانة)

رأس الوزير الحسين بن القاسم بن عبيد الابن سليمان ابن (ح)

وهب. بن أبي علي بن مقلد

قصة هذين الوزيرين إحدى عبر الدهر. قال ابن الطقطقي في الحسين بن القاسم إنه (لم يكن بارعاً في صناعته، ولا شكرت سيرته في وزارته، ولم تطل له المدة حتى عجز واختلت الأحوال عليه. . .، ولما ظهر للمقتدر نقصه وعجزه؛ قبض عليه وصادره، ثم بقى إلى أيام الراضي وأبعد عن العراق. فلما تولى ابن مقلة الوزارة؛ تقدم بقتله؛ وأرسل إليه من قطع رأسه، وحمل رأسه إلى دار الخلافة في سفط، فجعل السفط في الخزانة، وكانت لهم عادة بمثل ذلك. فحدث إنه لما وقعت الفتنة ببغداد في أيام المتقي؛ أخرج من الخزانة سفط فيه يد مقطوعة ورأس مقطوع؛ وعلى اليد رقعة ملصقة عليها مكتوب؛ هذه اليد يد أبي علي بن مقلة، وهذا الرأس راس الحسين بن القاسم، وهذه اليد هي التي وقعت بقطع هذا الرأس. فعجب الناس من ذلك)

حمل الرءوس إلى بغداد - 2

كان حمل رءوس العصاة، والخارجين على الدولة، والفارين من وجه العدالة، ومن جرى مجراهم؛ إلى دار الخلافة العباسية ببغداد، أصدق شاهد على الفوز والانتصار، وكان هذا الأمر من الرسوم الجارية في تلك الأيام، فكانت بغداد تستقبل هذه الرؤوس بين حين واخر، فتدخلها مشهرة، ثم يؤتى بها فتوضع بين يدي الخليفة ليشاهدها هو ورجال دولته، وفي ذلك أمر يبتغيه الخليفة. ثم إنها تنصب على المواطن البارزة من

البلد كالجسور، وأبواب دار الخلافة؛ ليشاهدها كافة الناس فيعتبرون بها ومن ثمة تستقر في خزانة الرءوس.

(ا) رأس خارجي ظهر ببلاد الحبشة

كان رأس هذا الخارجي من أوائل الرءوس التي حملت إلى بغداد، فقد ذكر المقريزي أن يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب ابن أبي صفرة حج (في سنة سبع وأربعين (ومائة)، واستخلف عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن خديج صاحب شرطته، وبعث جيشاً لغزو الحبشة من أجل خارجي ظهر هناك؛ فظفر به الجيش وقدم رأسه في عدة رءوس فحملت إلى بغداد. . .)

(ب) رأس أبي الليث الحارث بن عبد العزيز بن أبي دلف

انفرد أبو الليث بذبح نفسه بيده، دون قصد أو تعمد. فقد جاء في جملة حوادث سنة 284 هـ أن فيها (ورد الخبر بقتل أبي الليث الحارث بن عبد العزيز بن أبي دلف بسيفه لنفسه في الحرب، وذلك أن سيفه كان على عاتقه مشهراً فكبا به فرسه فذبحه سيفه، فأخذ عيسى النوشري رأسه وأنفذه إلى بغداد)

(يتبع)

ميخائيل عواد

الكرملي في قبضة الحق

للأستاذ سعيد الأفغاني

1 - كان الأب أنستاس ماري الكرملي قد تعرض لتصحيح بعض الخطأ في كتاب الإمتاع والمؤانسة الذي صححه الأستاذان أحمد أمين وأحمد الزين ولم يشركا الأب في التصحيح ولا الربح. وكان في جملة ما خطأ: قول القائل: (ويجعلها (أي الأحجار) ملساء) فقال حضرته مصححاً: (والصواب ملساً بضم الميم. . . الخ) فصححنا له فهمه في العدد (479) (من (الرسالة)، وكان قد استند إلى كلام لسيبويه فأوضحنا له - برفق وعطف - أن كلام سيبويه ليس فيه ما زعم حضرته. ثم شرحنا له القاعدة العامة (التي اعترف بصحتها واطرادها) في العدد (486) من هذه المجلة. وقلنا له: (إن نعت جمع التكسير يكون بالمفرد والمؤنث وبالجمع على السواء، فلك أن تقول: أشهر محرمة وأشهر محرمات، و (أياماً معدودة) و (أياماً معدودات) كما في القرآن الكريم وغيره، فما الذي يفرد صيغة واحدة بين جميع صيغ النعت بحكم خاص؟ هذا ما يحوج الأب الإبراه عليه. أما استقراؤه الشخصي وطلبه من مخالفه الإتيان بشاهد فلا يردان حجة، لأن المقيس لا يلزم له شاهد)

فلما ألجأه الحق إلى أضيق من جحر الضب، انبرى يرد علينا وعلى غيرنا ممن صححوا له تهافته في ثلاث مقالات طوال، نسي فيها الموضوع والزمان، وخلت من شيء واحد هو المطلوب كله وهو مدار البحث وحده، فلم يأتنا بالنص المطلوب ولن يأتينا به ولو دخل بعضه في بعض غيظاً وكداً

فعلى هذا يبقى قولهم: (صخور ملساء وكريات بيضاء) مما لا يجوز لصحيح الفهم أن يخطئه. وإن مما يعلمه بالضرورة من له أدنى إلمام بلغة العرب أن الموافق للقاعدة المطردة غير محتاج إلى شاهد وكل جائز له شاهد مدون

2 - وقال حضرته: (ومن الأغلاط الشائعة في مصر وتستحق أن يشار إليها إشارة خصوصية (كذا) ما يأتي: ص23 س18 أصواب هو أم خطأ. . . أم خطاء وزان سحاب لضد الصواب على ما في كتب اللغة) أهـ

وهذا زعم غير صحيح؛ وقد نقلت له من الكتب نصوصاً لقفت كل ما أفك، وأفهمته أن الخطأ هنا هو الأفصح والأشهر. والغريب المضحك حقا أن يحتج الأب بما هو حجة عليه واضحة وهو الكلام الذي نشرته الرسالة لأبي هلال العسكري وفيه (أن الخطأ هو أن تقصد الشيء فتصيب غيره. . . والخطاء تعمد الخطأ). وبعد أن عاب هذا الأب سيبويه والخليل. . . أنكر علينا احتجاجنا بمؤلف الصحاح، وذكر أن العسكري أعلى منه مقاماً!!

فيا أيها الأب إن الجوهري والعسكري متفقان ولكنك لم تدرك لا كلام الجوهري ولا كلام العسكري. والبلاء الأكبر في أن يأتي متحذلق في آخر الزمان يوازن بين إمامين ثم لا يستطيع أن يفهم كلامهما

أما بعد أيها الأب أنستاس ماري الكرملي، إن فيما نسبت قوله إلى ما هو كذب وافتراء. فأنا لم أقل: سيبويه غير موثوق به. ولم أقل: نص جمع التكسير، إنما قلت:

نعت جمع التكسير. ولم أقل. . . ولم أقل. . . مما يمل بيانه للقارئ
فإذا كان هذا شأنك مع حي يملك أن يدفع عن نفسه، فكيف نثق بما ننقل عن أولئك الأئمة المساكين الناعمين في عالم الخلود؟
وأدهى من ذلك أنك كنت ادعيت إنه لا يقال خطأ بل خطاء وامتلأت زهواً إذ زعمت أن هذا غلط شائع في مصر، فلما بينا لك أنك أنت المخطئ، تواريت خجلا ثم انبريت تدعي إنما أردت أن خطاء أحسن من خطأ موازنة لصواب؛ بين كلمتك الأولى المنشورة في العدد (475) من الرسالة، والثانية المنشورة في العدد (487) مدى قليل جداً، فما أسرع ما يفضح الباطل والادعاء الأجوف صاحبهما! وأمر آخر: متى عهدك، عافاك الله، بالذوق الموسيقي؟ أحين احتشدت فلم تجد أحلى وقعاً من (ليس المزكزك بأنيئهن) فإن يكن لك - وأنت عجوز - عذر من هرمك ومرض أذنك فاعلم أن الله لم يخلق رجلاً صحيح الذوق سليم الأذن يستسيغ (الخطاء والصواب) أكثر من (الخطأ والصواب)، ورحم الله امرأ صيرك - وأنت تريد الكلام في اللغة - إلى الجرس والموسيقى
ولست أوفى (الرسالة) ما يجب لها من شكري وشكر العلم والأدب على نشرها مقالاتك كما هي: فقد رأيتك يا سيدي تدعي - بعد كلامك في الموسيقى - أن نسبك ينتهي إلى بني مراد!! (تشرفنا)؛ ولقد تواضعت جداً إذ لم تنتسب في بني هاشم وأنت تشعر في صميمك شعوراً غالباً عليك بالحاجة الماسة إلى نسب ما بعد هذا التخبط أتسمح لي بطلب متواضع جداً؟ إنك ستفعل مشكوراً
1 - كن أمينا فيما تنقل عن الأحياء والأموات
2 - احتط فيما تكتب في اللغة العربية، فإن عارفيها كثيرون، وليست كذلك السريانية والآشورية. فلك في هؤلاء الأخريات ميدان تصول فيه وحدك
3 - إن أبيت إلا الخوض فاسلك من المسائل ما كان (آليا) بحتا وتجنب ما يحتاج إلى ذوق وعلم وحسن فهم، وإلا وقعت في مثل ما وقعت فيه حين زعمت أن قولك: لا يقال كريات بيضاء مستنداً إلى قول سيبويه
4 - إنك لا تستطيع فقد كلام حتى تفهمه، ولن تفهمه حتى تحسن قراءته، ولن تحسن قراءته حتى تتخلق بأخلاق المتعلمين
5 - لقد غبر زمان - لا رده الله - كانت الشهرة فيه عن طريق الدعوى والتحرش بمن لا يبلغ المتحرش أن يكون أصغر تلاميذهم، وأصبح يقاس فضل المرء بقوة حجته وحسن خلقه لا بسلاطته وتلبيسه. هذا وللب المفضال أنستاس ماري الكرملي جزيل احترامي.
(دمشق)
سعيد الأفغاني
45 - المصريون المحدثون
شمائلهم وعاداتهم
في النصف الأول من القرن التاسع عشر
تأليف المستشرق الإنجليزي ادورد وليم لين
للأستاذ عدلي طاهر نور
تابع الفصل الثالث عشر - الأخلاق
قد تعتمد المرأة أحياناً على الظروف المخففة أو على معونة أصدقاء أقوياء، لتنجو من عقوبة الإعدام إذا ضبطت في معاشرة أثيمة. وذلك كالحادث التالي: زوج الباشا إحدى جواريه من نخاس غني كان الباشا قد اشترى منه كثيراً من مماليكه وجواريه. ولم يكن الرجل يخون زوجه فحسب بل كان يهملها تماماً. فصاحبت تاجراً كانت تعامله صحبة غير لائقة. وجدث ذات يوم في غيبة الزوج أن رأى أحد عبيده السود رجلا في شباك الحريم. فذهب توا إلى غرفة الزوجة ليبحث عن الرجل. وسمعته الزوجة قادماً فأدخلت عشيقها في غرفة ملحقة وأغلقتها عليه. ففتح العبد الباب عنوة. فهجم عليه الرجل بخنجر كان يحمله في حزامه، ولكن العبد قبض على النصل بيده. وعاقته الزوجة حتى هرب عشيقها ثم قبلت يده وتوسلت إليه ألا يخبر زوجها فيسبب قتلها. غير أنها وجدته صلباً لا يلين. وذهب العبد في الحال إلى سيده وأراه يده الدامية وأخبره بالحادث. وهربت المرأة في أثناء ذلك تنشد الحماية في حريم الباشا. وطلب

من الباشا أن يرد زوجته عليه ليقتلها. فاستدعاها الباشا وسألها عن جريمتها فرمت بنفسها عند قدميه وقبلت طرف ثوبه وأخبرته بسوء أخلاق زوجها وإهماله الشديد لها.
فبصق الباشا في وجه النخاس لأنه اعتبر أن سلوكه إهانة له. وأعاد الزوجة إلى حريمه. ولم يعش عشيقها طويلاً بعد ذلك فقد خنق في منزل بعض البغايا ولم تعاقب البغي لعدم ثبوت التهمة عليها
يؤخذ على المصريين والمسلمين عامة القسوة الشديدة في معاملة النساء. حقاً إنهم لا يعتبرون استشارة الفتاة القاصر قبل زواجها ضرورياً. ولكن الغالب أن الرجل في الطبقتين
الوسطى والعليا يكاد يختار زوجه على السماع دون أن يراها، إذ لا حيلة له رؤيتها قبل أن يعقد العقد وتنقل إلى منزله. فيستحيل لذلك أن يكون هناك محبة متبادلة قبل الزواج. والحقيقة أن الجنسين معاً تثقل عليهما القوانين والعادات الجائرة، ولكنهما من حسن الحظ يعتبران هذه القيود ملائمة مشرفة. وقد يشعران بالعار في التخلص من هذه العادات. وقد لاحظت أن الحجاب الواقع على النساء يكون باختيارهن إلى حد كبير. وأعتقد إنه أقل صرامة في مصر منه في أي بلد آخر من بلاد الدولة العثمانية.
ومن المؤكد إن هذا الحجاب اقل جداً مما صوره لي الكثيرون. وينظر النساء إلى هذا الاحتجاب بفخر من حيث إنه يدل على عناية الزوج بهن. كما أنهن يقدرن أنفسهن بقدر حجبهن كالكنوز ولا يليق في المجتمعات الطيبة أن يستفسر المرء بطريقة مباشرة عن حال زوجة الصديق أو امرأة ما في منزله إلا إذا كانت قريبة له. وسأل أحد معارفي المصريين آخر كان في باريس عن أغرب الأشياء التي رآها في بلاد الكفار فأجابه الآخر: إن كل ما شاهده حري أن يثير إعجاب العاقل البعيد عن التعصيب ولم أر شيئاً يستحق الاعتبار مثل هذه الحال: فقد جرت العادة في باريس وغيرها من مدن فرنسا أن يدعو كل من الأغنياء والعظماء أصدقاءهم ومعارفهم رجالا ونساء معاً إلى حفل في منزله. ويستقبل الضيوف في غرف تضاء بعدة شموع وقناديل. وهناك يختلط الرجال بالنساء، وأولئك كما تعلم سافرات. ويستطيع الرجل أن يجالس زوجة رجل آخر وهو لم يرها من قبل. ويستطيع أن يسايرها ويحادثها ويراقصها أيضاً في حضور (زوجها الذي لا يغضب ولا يغير لمثل هذا السلوك المخزي
يشتهر المصريون أيضاً بكرمهم وجشعهم على السواء. وإن اجتماع مثل هاتين الصفتين المتناقضتين في ضمير واحد قلما يدهش. ولكن هذا هو الحال مع هذا الشعب. ويعتبر الغش والمكر في التجارة، وذلك في جميع الشعوب، إحدى نقائص المصريين الذائعة. وقلما يتردد المصري في مثل هذه الأحوال عن الكذب ليكسب. ويميل الشعب الذي يئن تحت نير الجور والجشع، الذي امتازت به حكومات مصر طويلا، إلى الشح دائماً. لأن المرء بالطبع يتمسك بما هو أكثر عرضة للضياع. ولذلك يعمد المصري المضيم إذا ملك مبلغاً من المال لا يلزمه حالا إلى شراء مصاغ لامرأته أو لنسائه، إذ يسهل عليه تحويل المصاغ ثانية إلى
نقود. ومن ثم أيضاً جرت العادة في هذا البلد، وفي أكثر البلدان التي تخضع لهذه الظروف السياسية، أن يخبئ الرجل أمواله في منزله تحت البلاط أو في أي موضع آخر. ولما كان الكثيرون من هؤلاء يموتون فجأة دون أن يطلعوا أسرهم على مكان المخبأ فإن من المألوف أن تكتشف نقود عند هدم المنازل. وهناك رذيلة تقرب من الجشع وهي الحسد. وأعتقد أنها تكثر بين المصريين المحدثين والشعوب العربية بأجمعها على السواء. ويعترف الكثيرون مدفوعين بسلامة النية أن هذا الميل الكريه يكاد يتركز في أذهان شعوبهم تماماً.
والمصريون أمناء في الوفاء بديونهم. وقد بين الرسول صلعم أن لا شيء حتى الاستشهاد، يكفر عن دين لم يوف. وقل من المصريين من يقبل فائدة على قرض أقرضه إذ أن الشرع يشتد في تحريم ذلك.
إن دوام الصدق فضيلة نادرة للغاية في مصر الحديثة. وقد ترخص الرسول في الكذب إذا وفق بين الناس في منازعة أو أرضى زوجة أو أفاد في حرب على أعداء الدين. غير أن الكذب في أحوال أخرى محظور بشدة. ويبرر ذلك بعض التبرير عادة الكذب السائدة بين العرب المحدثين إذ أن السماح لشعب بالكذب في أحوال يعوده بالتدريج الكذب في غيرها. ومع أن أكثر المصريين يكذبون عمداً فقلما تسمعهم يرجعون عن

تحريف غير مقصود دون أن يقولوا: (لا. أستغفر الله إنه كذا وكذا) كما يقولون عندما يقررون شيئاً لا يتأكدون منه تماماً: الله أعلم

ويمكنني أن أذكر هنا، وأنا أشعر بالفخر، الحادث التالي: كان في القاهرة صائغ أرمني اشتهر بالصدق إلى درجة أن عملاؤه قرروا تسميته اسماً يدل على تمتعه بفضيلة قلما توجد فيهم، فلقبوه بالإنجليزي وصار من بعد ذلك لقباً لعائلته. والمعتاد أن تسمع التجار هنا يقولون عندما يطلبون ثمناً لا ينوون إنقاصه: كلمة واحدة. (كلمة الإنجليز). وكثيراً ما يقولون أيضاً في هذا المعنى: كلمة (الإفرنج). ولكني لم أسمع أبدا بأمة كرمت هذا التكريم غير الإنجليز والمغاربة. وقد اشتهر هؤلاء دون أغلب العرب الآخرين بالصدق في القول

أشرت سابقاً إلى عادة القسم بالله السائدة بين المصريين. وينبغي أن أضيف هنا أن الكثيرين منهم لا يترددون عن القسم ليدرءوا عن أنفسهم تهمة الكذب. وقد يقولون في هذه الحالة أحياناً. والله (بكسر الهاء) أو عادة: والله. كأنهم يزعمون أن الصيغة الأخيرة يجوز

استعمالها في الدعاء. أما (والله (بالكسر) فهو قسم صريح والنطق به كذباً، إثم كبير. ويكفر عن هذه اليمين بإطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة أو صيام ثلاثة أيام. على أن هذه الكفارة رخص القرآن بها لقسم طائش فقط. ولكن المصريين المحدثين يراعونها أحياناً ليحرروا أنفسهم من وزر قسم كاذب مقصود. ويفضلون الصوم على الكفارات الأخرى. وهناك أيمان أعتقد أن بعض المسلمين لا يترددون في القسم بها كذباً مثل قولهم ثلاثاً: (والله العظيم) أو القسم على المصحف بقولهم: (بما يحتوي هذا من كلام الله)، ولكن القسم الذي لا يزال يعتمدون عليه هو قولهم: (عليّ الطلاق) أو (عليّ الحرام) أو (عليّ الطلاق بالثلاثة). فإذا كذب الرجل في أحد هذه الأقسام الثلاثة تصبح امرأته طالقاً إذا ثبت حنثه. وإذا كان للرجل أكثر من زوجة وجب حينئذ أن يختار إحداهن فيخصص بها الطلاق. غير أن هناك كاذبين فاسدين يقسمون زوراً بأشد الأيمان إلزاماً. وقد قال الشاعر يصف هذا الخلق.

وأكذب ما يكون أبو المعلّى ... إذا آلي يميناً بالطلاق

ويسهل تحريض المصريين إلى المشاجرة وخاصة السفلة الذين يتشاتمون في ثورتهم بسب الآباء والأمهات واللحى الخ. ويسرفون في نعت كل من الآخر بأحط النعوت كأن يقول: يا أبن الكلب، أو يا قواد، أو يا خنزير، وهناك تسمية أخرى يرونها أشد الشتائم على الدوام وهي قولهم: يا يهودي. وعندما يسب أحد المتخاصمين الآخر يجاوبه هذا بلعن أبيه وأمه وأحياناً بلعن العائلة جميعها. ويهدد كل منهما الآخر ولكن قلما يبادران إلى الضرب. غير أنني رأيت في أحوال قليلة بعض السفلة ثائرين إلى درجة أن كلا من المتشاجرين كان يعض الآخر ويقبض عليه من حلقه. وشاهدت أيضاً عدة مرات أفراداً من الطبقتين الوسطى والسفلى يتحملون السب الغليظ. وكثيراً ما سمعت المصري يقول عندما يضربه ندّ له: (الله يبارك فيك. الله يجازيك خيراً. اضربني مرة أخرى).

وتنتهي المشاجرة عادة بأن يقول أحد الطرفين أو كليهما: (الحق علي) وكثيرا ما يقرأن الفاتحة بعد ذلك ثم يتعانقان ويقبل كل منهما الآخر أحياناً

ويميل المصريون خاصة إلى الهجاء. وكثيراً ما يظهرون ذكاء في تهكمهم ومرحهم. وتساعدهم اللغة العربية على استعمال التورية والحديث المبهم الذي يتهكمون فيه بكثرة.

وتهجو الطبقات السفلى أحياناً حكامها في الأغاني ويسخرون من هذه القوانين التي يقاسونها كثيراً. وقد تسليت مرة بأغنية شائعة في أسوان وإقليمها. وكانت هذه الأغنية دعاء صادقاً بأن يبيد الطاعون حاكمهم المستبد وكاتبه القبطي. وكانت في مصر كلها أغنية ذائعة أثناء زيارتي الأولى ألفت لزيادة ضريبة (الفردة) وكانت تبدأ هكذا: (يا للي عندك لبده، بعها وادفع الفردة) واللبدة كما ذكرت قبلا غطاء رأس من اللبد يلبس تحت العمامة أو بدلها. ويعتبر من ليس له غطاء رأس غير اللبدة فقيراً جداً.

(يتبع)

عدلي طاهر نور

البريد الأدبي

آراء جديدة في السجع

1 - في كتاب (النثر الفني) للدكتور زكي مبارك جزء أول ص25 ما يلي (أذكر أنني كنت أحاور المسيو مرسيه في تطور السجع فأخرج رسائل الجاحظ وفيها هذه العبارة: (إن معاوية مع تخلفه عن مراتب أهل السابقة أملى كتاباً إلى رجل فقال فيه (لهو أهون علي من ذرة، أو كلب من كلاب الحرة)، ثم قال: (امح من كلاب الحرة واكتب من الكلاب) كأنه كره اتصال الكلام والمزاوجة، وما أشبه السجع، ورأى إنه ليس في موضعه) وكان المسيو مرسيه يظن أن في هذه العبارة دلالة على أنهم كانوا إذ ذاك لا يستحبون الكلام المسجوع، فوجهت نظره إلى أن لهذه العبارة معنى آخر، ذلك أن السجع فن رقيق لا يصلح في ذلك المقام، وهو مقام تهديد ووعيد)

إلى هنا انتهى كلام الدكتور. وقد قرأت في كتاب (عبقرية محمد) للأستاذ العقاد ما يلي: (أجاب الرسول أبا سفيان عندما خيره بين نصف نخل المدينة أو الخراب والدمار فقال: (وصل كتاب أهل الشرك والنفاق، والكفر والشقاق، وفهمت مقالتكم، فوالله ما عندي جواب إلا أطراف الرماح، وأشفار الصفاح!)

فهذا السجع في هذا المقام أصلح لخطاب الجاهلين لأنهم يعرفون منه معنى التوثيق) (والتمكن، كما يعرفون منه معنى المناجزة والتخويف

هذان رأيان في السجع متعارضان. أما الدكتور زكي مبارك فهو يرى أن السجع فن رقيق لا يصلح في مقام التهديد والوعيد، وأما الأستاذ فيرى في السجع ضخامة وفخامة وهما أصلح في المناجزة والتخويف. . . فما رأي الأستاذين؟

2 - يخبرنا الدكتور زكي في كتابه (النثر الفني) ص64 أن المسيو مرسيه والدكتور طه حسين ومن شايعهما قرروا أن السجع لم يلتزم إلا في القرن الرابع، وأن المسيو مرسيه وجد كتاباً لمؤلف قديم اسمه الأخضري، وأنه منسوب إلى القرن الثالث، وأصر مرسيه على ضمه إلى كتّاب القرن الرابع ووافقه الدكتور طه لهذا السبب. وللأستاذ أحمد أمين حادثة مثل هذه؛ ففي كتاب ضحى الإسلام ص236ج1 أنكر نسبة كتاب (الرد على ابن المقفع) إلى القاسم بن إبراهيم وكانت حجته (أن القاسم عاش في النصف الأول من القرن

الثالث والكتاب مسجوع. ونحن نعلم أن هذا العصر (عصر الجاحظ) لم يتكلف فيه سجع، ولم تؤلف فيه كتب مسجوعة. . .)

ولكن ما رأيهم في كتاب (الحاسد والمحسود) الذي كتبه الجاحظ نفسه، ونظرة فيه تقنعهم بأن نظريتهم خاطئة، أو على الأقل مبالغ فيها إلى حد بعيد. فكتاب الجاحظ في الحسد أغلبه سجع متكلف. وإني أورد هنا بعض فقرات منه لأثبت ما أقول: (الحسد أبقاك الله داء ينهك الجسد، ويفسد الأود، علاجه عسر، وصاحبه ضجر. . . قاطع كل رحم بين الأقرباء، وملقح الشر بين الخلطاء. . . والحسد هو الذي جعل (ابن آدم يلقى على أخيه الحجر شادخاً، فيصبح عليه نادماً صارخاً. . . وعبد الله بن أبي تبين للناس عقله، وافتقدوا منه جهله، ورأوه لذلك أهلا، لما أطاق حملا. . . والمحسود لولا عناية الله لأمسى وماله مسلوب، ودمه مصبوب، مهراق مسفوك، وعرضه بالضرب منهوك. . .

ثم ختم الرسالة بقوله: وما أرى السلامة إلا في قطع الحاسد، ولا السرور إلا في افتقاد وجهه، ولا الراحة إلا في مرم مداراته، ولا الربح إلا في ترك مصافاته، فإذا فعلت ذلك فكل هنيئاً، واشرب مريئاً، ونم رخياً، وعش في السرور ملياً. . .)

هذه فقرات من كتاب (الحاسد والمحسود) والمطلع عليه يجد السجع فيه غالباً، فهل ننكر نسبته إلى الجاحظ؟ أم هل نزحزح الجاحظ إلى القرن الرابع؟؟

3 - في الحق أن أصحاب هذا المذهب غالوا وبالغوا في تعنتهم وغلوهم وما كان ذلك منهم إلا ليثبتوا نظرية نادوا بها من قبل، وهو أن السجع من الزخرف الفني الذي اكتسبته العربية من اتصالها بالفارسية واليونانية. والواقع أن السجع كما يقول الدكتور مبارك (من مميزات البلاغة الفطرية)، وقد اعترف المسيو مرسيه بذلك عندما قال: (وكأنهم بدءوا يكرهون السجع في العصر الأموي) أي إنه اعترف بأن كان هناك سجع ثم بدأ الناس يكرهونه، والسجع من الزخرف الفني الذي زعموا أن العربية لم تعرفه إلا بعد اتصالها بالفارسية واليونانية.

محمود السيد أبو السعود

حول اختلاف القراءات أيضاً

ينكر الأستاذ الفاضل عبد المتعال الصعيدي ما ذكرته من أن: المسلمين على عهد الرسول كانوا يتلقون القرآن منه سماعاً ويطوون صدورهم عليه حفظاً وفهماً، دون ما حاجة منهم إلى النظر في شيء من آياته مخطوطاً. وهو ينعت هذا الكلام بالغرابة، وبأنه (لا يتفق مع المعروف عن المسلمين في ذلك العهد). ويلزمني الآن أن أنص على أن تلقي القرآن شيء، وحفظه كله أو بعضه أو عدم حفظه البتة، شيء آخر فزعم الأستاذ أن جمهور المسلمين (لم يكن يأخذ نفسه بحفظ القرآن) - وحاشا أن يصح ذلك - لا يعتبر رداً على ما حاول نقضه من كلامي السابق. لأن موضوع الحديث هنا هو تلقي القرآن، أعني إجادة تلاوته على وجهه الصحيح، بطريق ما؛ كيف يكون هذا التلقي؟ وما مبلغ العلاقة فيه بين السماع شفاها والقرآن في مخطوط؟

لست أشك في أن الأستاذ يوافقني على أن الأساس في التلقي هو السماع من الرسول، ثم من صحابته الذين أجادوا النقل عنه. فذلك ما يقول به كل ملم بهذا الموضوع؛ ولكن الأستاذ يضيف من عنده إلى هذا قصة طريفة، فهو يتخيل - ويريدنا على أن نتخيل معه - أن المسلم من هؤلاء كان يمضي إلى بيته وفي يده أديم أو عظم فيه الآية والآيات، فيكب على قراءته في مشقة وصعوبة. وتلتبس عليه خلال ذلك حروف متشابهة، كالياء مع الباء (وعدها إياه، وعدها أباه) والثاء والتاء مع الباء والنون (فتثبتوا، فتبينوا). وينبهم عليه وجه الصواب في كل ذلك، فيرجع إلى الرسول يستفتيه، فيقول له: اقرأ بكلام الحرفين، فالباء أخت الياء، وغيرك قد استعصى عليه ذلك أيضاً. فذلك معنى الرجوع إلى الرسول وإقراره ما يراه للتخفيف عن المسلمين في مثل هذه الكلمات التي اشتهت حروفها، مما يشير إليه الأستاذ في كلمته الأولى (ع488) من (الرسالة)

والأستاذ عبد المتعال يعتنق بهذا الكلام - دون أن يشعر - مذهب القائلين إن القرآن نزل بمعانيه دون ألفاظه وتراكيبه، وهو مذهب لم يحيى إلا على ألسنة بعض ذوي المقاصد السيئة من المستشرقين؛ وإلا فما معنى أن يذكر لنا ما يؤدي إلى الاعتقاد بأن الرسول كان ممن يبدلون كلمة بكلمة أخرى تباينها في معناه، لمجرد الاشتباه بين حرفين متقاربين في رسمهما العربي؛ وقد يكون هذا الاشتباه راجعاً إلى ضعف بصر القارئ، أو رداءة الخط، أو رثاثة الأديم مثلا؟!

إن الضابط المشترط في القراءة الصحيحة معروف، وقد أشار إلى هذا بإيجاز الأستاذ الفاضل محمد غسان في كلمته. . وإلى القارئ ما قاله ابن الجزري بصدد ذلك في كتابه (النشر)

كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالا،) وصح سندها؛ فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها ولا يحل إنكارها، بل هي من (الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن

ومن ذلك الوجه صحت هذه القراءات لدى أكثر المفسرين - وقد ذكرنا منهم فيما قبل صاحب الكشاف - ولم يكن لتشابه الحرف دخل في تصحيح هذه القراءات؛ بل أن هذا التشابه نفسه، قد أدى ببعضهم إلى اعتبارها تصحيفاً كالسيوطي صاحب المزهر والذين نقل عنهم. . .

هذا وإن إذن الرسول في كتابة القرآن وقراءته أمر معلوم لدى كل مسلم، وأسماء كتاب الوحي وسيرهم معروفة لنا جميعاً، فلم يأت الأستاذ بجديد في إشارته إلى ذلك؛ وهو لم يعد وجه الصواب في قوله أن من لا يحفظ القرآن كانت تعتريه الصعوبة في نطق بعض الكلمات، ولكنه أخطأ حين عقب على تلك الحقيقة فقال: (ومن هذا يجيء التيسير في قراءتها - يعني بعض الكلمات - على ما تحتمله من الوجوه!) فليس مجرد الصعوبة في القراءة هو علة هذا التيسير كما ذكرنا.

بقي أن نشير إلى أن الأستاذ عبد المتعال يبالغ في شأن الرقاع المخطوطة كثيراً، وما أشك في إنه يعلم ما فيه الكفاية عن حياة (الحفاظ) الذين كانوا يمضون بأمر الرسول إلى الجهات النائية لتحفيظ المسلمين آيات القرآن، وتلقينهم أوجه التلاوة الصحيحة؛ بل لعله يعلم أيضاً أن الرسول قبل الهجرة بعث إلى المدينة من يحفظ أهلها من المسلمين ما كان قد نزل من السور؛ فلم يكن يجزئ في كل هذا قراءة مخطوط دون الرجوع إلى تلاوة القراءة والحفاظ الموثقين والإثبات.

ومن الأمور المعروفة أيضاً أن عمر بن الخطاب لم يشعر بالحاجة إلى جمع الرقاع،

وينصح للخليفة الصديق بذلك، إلا بعد أن تفرق هؤلاء الحفاظ في أطراف البلاد وفني كثير منهم في الوقائع والغزوات. إذ كان في هؤلاء - على حياة الرسول ومن بعده - الغناء كل
الغناء عن القراءة في صحيفة أو النظر في مخطوط. ومعلوم أن المرجع كان إلى هؤلاء أيضاً في توثيق ما ورد بهذه الرقاع، لما قد عرفوا به من جودة الحفظ وصحة السماع، مع إدمان التلاوة على نهجها الصحيح.
(جرجا)
محمود عزت عرفة
حفاظ القرآن في عصر النبوة
قال الأستاذ عبد المتعال الصعيدي في كلمته (حول اختلاف القراءات في القرآن) في العدد (490): (وكان القليل منهم - أي المسلمين في عهد النبوة - يحفظ الصورة أو الصورتين وقد مات النبي صلى الله عليه وسلم ولا يحفظ القرآن كله منهم إلا عدد لا يكاد يتجاوز عدد الأصابع)
وهذا غير صحيح لأن حفاظ القرآن كله في عصر النبوة لا يحصون بفضل تحضيض النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين على حفظه، وتفانيهم في إطاعة أمره، حتى أن داراً للقراء كانت أنشئت بالمدينة المنورة قبل الهجرة، وندب القارئ المشهور مصعب بن عمير رضي الله عنه لتحفيظ القرآن فيها، وكانت صفة مسجد النبي عليه السلام مجمعاً له دوى بمدارسة القرآن وحفظه، وكان صلوات الله عليه يبعث من أصحاب هذه الصفة عشرات إلى القبائل التي يسلم أهلها لتعليمهم القرآن. وقد استشهد في وقعة بئر معونة زهاء سبعين من الحفظة، واستشهد في وقعة اليمامة نحو ذلك وما يذكر في بعض الكتب من أسماء قراء الصحابة رضي الله عنهم إنما يذكر لمناسبات لا بقصد الاستقصاء، وقد سرد منهم ابن حجر في (فتح الباري) تسعة وعشرين حافظاً ممن يستظهرون القرآن جميعه (ج9 ص43). ولعل الأستاذ الصعيدي اشتبه عليه ما يروى عن أنس رضي الله عنه من أن حفاظ القرآن أربعه، فلم يفهم أن الظاهر من طرق الحديث أن هذا القصر إضافي لأن مورده في مفاخرة بين الأوس والخزرج، أي أن حفاظ القرآن هؤلاء هم من الخزرج لا من الأوس. ومن الجلي أن هذا القصر الإضافي إنما هو بالنظر إلى علم أنس ليس غير
وأما الذين كانوا يحفظون بعض القرآن فما أكثر عديدهم كذلك، فهذه كتب الصحاح والسنن والمسانيد تحدثنا بما كان يتلى في الصلوات الجهرية من السبع الطوال وغيرها مما يدل على كثرة من كان يحفظ شتى الصور من الصحابة رضي الله عنهم. وكان دأبهم في تعليم من لا يتيسر له حفظ القرآن كله أن يعلموه سوراً منه ولغيره سوراً آخر، فوجد بذلك كثيرون ممن يحفظون صور القرآن متفرقة، عدا حفاظ القرآن جميعه
وأما قول الأستاذ الصعيدي: (أما كتابة القرآن وقراءته فكان فيهما إذن عام من النبي صلى الله عليه وسلم. . . الخ) فأجتزئ في رده بما ورد في الأقوال المأثورة: (لا تأخذ القرآن من مصحفي لأن القراءة سنة يأخذها الآخر عن الأول مشافهة
محمد غسان
نسبة شعر
كنت قرأت مقالا عنوانه (مشاركة الأدب الإنجليزي في الدراسات العربية) نقلا عن (برنارد لويس) للأستاذ عبد الوهاب الأمين في عدد الرسالة رقم (486). وقد ذكر الكاتب فيما ذكر بيتين نسبهما إلى المستشرق (بالمر) قائلا ما نصه بالحرف: (وتعتبر القطعة التالية نموذجاً لشعر بالمر العربي:
ليت شعري هل كفى ما قد جرى ... مذ جرى ما قد كفى في مقلتي؟
(قد برى أعظم حزن أعظمي ... وفني جسمي حاشا أصغري
وكنت قبل قراءتي للمقال أتصفح ديوان ابن الفارض وقد ورد هذان البيتان في قصيدته التي مطلعها:
سائق الأظعان يطوي البيد طي ... منعماً عرج على كثبان طي
فهل من يتكرم بما يفيد عما إذا كان البيتان حقيقة من شعر بالمر وأنهما نسبا خطأ لابن الفارض، أم أنهما حقيقة لابن الفارض وأن الكاتب قد وقع في خطأ نسبتهما

لبالمر
(السودان)
محمد بشير
العدد 493 - بتاريخ: 14 - 12 - 1942
التلباثي
للأستاذ عباس محمود العقاد
نطالع كتابكم الكبير عبقرية عمر الذي تجلت فيه عبقريتكم الفريدة. . . ونرجو . . .)
(. . .منكم خدمة للعلم التكرم بشرح التلباثي على صفحات مجلة الرسالة الغراء
(سنهور المدينة)
محمد السيد علي بدر
والإشارة إلى التلباثي في كتاب (عبقرية عمر) قد جاءت في سياق الكلام على قصة سارية حيث روينا أنه (كان رضي الله عنه يخطب بالمدينة خطبة الجمعة فالتفت من الخطبة ونادى: يا سارية بن حصن. . . الجبل الجبل! ومن استرعى الذئب ظلم
فلم يفهم السامعون مراده، وقضى صلاته فسأله علي رضي الله عنه: ما هذا الذي) ناديت به؟ قال: أو سمعته؟ قال: نعم، أنا وكل من في المسجد. فقال: وقع في خلدي أن المشركين هزموا إخواننا وركبوا اكتافهم، وانهم يمرون بجبل، فإن عدلوا إليه قاتلوا (من وجدوه وظفروا، وإن جاوزوه هلكوا. فخرج مني هذا الكلام
وأنه (جاء البشير بعد شهر فذكر انهم سمعوا في ذلك اليوم وتلك الساعة حين جاوزوا الجبل صوتاً يشبه صوت عمر يقول: يا سارية بن حصن! الجبل الجبل. فعدلنا إليه ففتح الله علينا)
ثم عقبنا على القصة قائلين: (إن المهم من نقل هذه القصة في هذا الصدد أن عمر كان مشهوراً بين معاصريه بمكاشفته الأسرار الغيبية أما بالفراسة أو الظن الصادق أو الرؤية أو النظر البعيد)
وهذه - كما هو ظاهر - حالة من حالات التلباثي التي يسال عنها الأديب صاحب الكتاب الذي اقتبسنا منه ما تقدم.
ونحن نترجم التلباثي بالشعور عن بعد، أو (بالنظر البعيد) إذا أردنا تعميم النظر حتى يشمل الرؤية والمكاشفة، أو يشمل الـ في اصطلاح بعض العلماء النفسانيين وهي حالة متكررة يحسها كثيرون ويسجل وقائعها أناس من المتدينين وغير المتدينين.
واشهر القائلين بها في عصرنا كاتب أمريكي ملحد هو ابتون سنكلير يقيم التجارب التي تثبت النظر على البعد أو الشعور على البعد، ويسجل فيها سجل تجاربه مع زوجته حيث كانا يجلسان في مدينتين بعيدتين ويحيط بكل منهما شهود كثيرون منهم المنكرون ومنهم المصدقون، فيطلب إليه بعضهم أن يرسم شكلاً هندسياً وأن يوجه شعره إلى امرأته لترسم مثله في تلك اللحظة، ويطوي الرسمان حتى يعلنا بعد ذلك فيتفق في كثير من الأحوال أن يتشابها في الخطوط، وإن اختلفا في الأبعاد كما يختلف المثلث الكبير والمثلث الصغير مع اتفاق الزوايا والنسب الهندسية
هذه التجارب يقول بها ويسجلها ويعلنها في الكتب السيارة رجل قلنا إنه ملحد لنقول إنه لا يقصد من كلامه تبشيراً بعقيدة أو خدمة لمذهب اجتماعي، لأن مذهبه الاجتماعي يقوم على (الفهم المادي) للتاريخ ولا يحوجه إلى التبشير بهذه الهبات النفسية، بل لعله ينفره منها ويحبب إليه السكوت عنها
واعتقادنا في (التلباثي) أنه هبة نفسية جائزة لا تناقض العقل ولا يمنعها العلم بدليل لأنها تستند إلى الحس، ولا فرق بينها وبين هبات الحس التي نباشرها كل يوم إلا في طول المسافة، وهو فرق اعتباري غير قاطع بين حالة وحالة. إذ من ذا الذي يستطيع أن يقول إن الحس ينتهي عند هذه المسافة ولا يجوز عقلاً أن يتعداها ويذهب إلى ما وراءها!
أننا نرى كل يوم في العصر الحاضر أن صوتاً يصدر من أمريكا أو اليابان ويسمع كما يسمع فيها حديث الجلساء. ولولا المذياع لعددنا من يزعم هذا الزعم ممخرقاً يعبث بعقول سامعيه
فإذا جاز سماع الصوت على هذه المسافات الشاسعة بجهاز من الأجهزة المصنوعة فلماذا يمتنع على قوى الذهن أو قوى الشعور أن تحس على هذه المسافة أو تتصل

بنفس أُخرى وذهن آخر متى تهيأت لها أسباب اتصال؟
فالتصديق بالتلباثي لا يدعونا إلى اختراع حس جديد أو ملكة غيبية من وراء الطبيعة، ولكنه يدعونا إلى تصديق هذا الحس الذي نباشره كل يوم في مختلف شؤون الحياة، مع السماح له بالامتداد والتكبير، وهما غير ممنوعين ولا مناقضين للمعقول أو المشهود والحس نفسه لا يقل في غرابته عن (التلباثي) كما يقول بها اشد الغلاة المؤمنين بها من
النفسانيين
فأنت تفتح عينك فترى
شيء بسيط جدا في حسابنا، بل هو ابسط شيء يخطر على بالنا. . . افتح عينك تر!. . أي شيء ابسط من ذلك وابعد من الغرابة؟ .
نعم هو كذلك لأننا نعالجه ونرى الألوف ممن يعالجونه كل لحظة، ولا يخطر لنا أننا نأتي بشيء غريب
ولكننا إذا رجعنا إلى أنفسنا فسألناها: ما هي الرؤية؟ وما هو معنى القوة العجيبة التي تحيط بشيء على مسافة منك وتعرف ما لونه وما شكله وما أثره وما حركاته وسكناته، ولا صلة بينك وبينه إلا الضياء؟
نسأل أنفسنا في هذا ونفكر ملياً في معناه فتستغرب النظر من قريب كما نستغرب النظر من بعيد، ونعلم أن معجزة الحس حاصلة قبل أن نسمع بالتلباثي والتلفزيون وما إليهما من وسائل الإحساس
وما قربنا المسالة حين نقول أنا ننقل الأشياء إلى حسنا بالنظر لأن بيننا وبينها الضياء إذ ما هو الضياء؟
ولماذا يكون حتماً لزاماً متى وجد الضياء أن يكون هناك نظر وإن يكون النظر على نحو ما وعيناه؟
فالتلباثي غريبة جداً عند من تنسيه الألفة اليومية غرابة النظر والسمع والذوق وسائر المحسوسات
والتلباثي جائزة جدا عند من علم أن النظر جائز ثم سال نفسه في معنى هذا الجواز واحسب أن الكثيرين من القراء قد جربوا هبة التلباثي كما جربتها ووقفوا منها على مبادئ تدل على نهايتها القصوى، إن لم يكتب لهم أن يملكوا هذه الهبة على أقصاها فإنني لا أقول بجواز التلباثي معتمداً على العقل والقياس دون التجربة والمشاهدة، ولكنني أقول بذلك لأنني (جربت) بعض الوقائع التي تقربني من تصديق (التلباثي) وتنفي الغرابة عنه أو تنفي استحالته على ايسر تقدير
يحدث مرات أن اذكر إنساناً بعد سهو طويل عنه فإذا هو ماثل أمامي في اللحظة التي ذكرته فيها
ولو كان هذا الإنسان صاحبها يعاودني التفكير فيه حيناً بعد حين لقلت الغرابة في تذكره ولو بعد السهو الطويل
ولو كان المكان الذي ذكرته فيه متصلاً بإقامته أو بالمقابلات بيني وبينه لقلت الغرابة كذلك في ثارة ذلك المكان لذكراه
ولكنه لا يكون أحياناً ممن طالت الصحبة بيني وبينه، ولا يكون الموضع الذي اذكرني به موضعا تقابلنا فيه قبل ذلك أو تحدثنا به يوماً من الأيام. وكل ما هنالك أنه إنسان جمعت بيني وبينه المصادفات فترة من الزمن ثم انطوت عني أخباره سنوات لا أراه ولا يعرض لي ما يدعوني أن اشتاق إلى رؤيته، ثم يمر بخاطري فما هو إلا أن أثبته واستعيد ذكره حتى أراه في عرض الطريق
ويحدث مرات أن يتولاني انقباض شديد تتخلله صورة إنسان عزيزي يكرثني جداً أن يصاب بمكروه، ويلج بي هذا الانقباض حتى كأنما الذي أخشاه قد وقع أو هو مرقوب الوقوع. فأبادر بالكتابة من طريق البرق أو البريد، ويحدث في هذه الحالة أن يجيئني خطاب قبل وصول سؤالي إلى وجهته يدعو إلى الطمأنينة، أو يرد ألي الجواب بعد قليل وفيه إشارة إلى خطر زال
واحسب أن هذه العوارض أشيع من أن تحصى في عداد النوادر والفلتات، فقد سمعت ما يشبهها من بعض الأصدقاء المصدقين. وقد اخبرني بعضهم بقلقه على غائب يعزه وهو لا يعرف سبباً واضحاً للقلق الذي يساوره حتى فاتح فيه غيره. ثم تبين أنه لم يقلق

يومئذ بغير داع معقول
إلا أن النوادر والفلتات في التلباثي هي العوارض التي تشبه قصة سارية فيما روي عن عمر بن الخطاب
فالذين يشعرون على البعد بمثل هذه القوة والوضوح قليلون، ولكن المسالة - بعد - مسالة فرق في القوة والوضوح، وليست بفرق في أساس الشعور يماثل الفرق بين من يبصر ولا يبصر، وبين من يسمع ومن ليست له إذن للسمع، وبين من يحس ومن ليست له قابلية للإحساس
فالشعور على البعد كالشعور على القرب جائزان، ووسيلة الشعور على البعد ليست بأصعب من وسيلة الشعور على القرب بالعيون والاذان، وإن كنا لا نستغرب هذه كما نستغرب تلك لطول لالفة وتكرار المشاهدة بين جميع الأحياء
وحد التصديق عندي لهذه العوارض هو وجود الأساس الذي تعتمد عليه
فإذا كان كل ما في أمر أنه تكبير للحس الذي تعودناه أو مضاعفة له وتقريب لإبعاده ومسافاته فلا مانع من صدقه، وإذا كان في الدعوى ما يحوجنا إلى فروض لا أساس لها من المشاهدات والمعقولات فهنالك موضع للتردد والاشتباه
وعلى هذا اقبل دعوى التنويم المغناطيسي - مثلاً - إذا ادعى للنائم أنه يبصر شيئاً موجوداً على مسافات بعيدة، ولكني لا اقبل منه هذه الدعوى إذا تعدى ذلك بما سيكون بعد عام أو بعد شهر أو بعد يوم، وليس له وجود قائم الآن
وكذلك اقبل دعوى الشعور البعيد أو النظر البعيد إذا كان بمثابة السمع المضاعف أو البصر المضاعف، لأن امتناع ذلك يحتاج إلى مانع قاطع ولا سبيل إلى القطع فيه، ولان القول بجوازه لا يتعدى كثيراً أن نقول بجواز رؤية العيون وسماع الآذان
وينبغي للعقل أن يتمهل في قول (لا) كما يتمهل في قول (نعم) كلما سمع بما يشككه ولا يوافق معهوده. فإن العقل ليكون خرافياً بقول (لا) في غير موضعها كما يكون خرافياً بقول (نعم) في غير موضعها؛ وإنما هذه خرافة تثبت بالباطل وتلك خرافة تنفي بالباطل، ولا فرق في الباطل بين نفي واثبات
الشعور على البعد جائز ما جازت الصلة بين الإنسان وموضوع شعوره وقد رأينا أن هذه الصلة لا تنقطع في طريق صوت كالهمس على مسافات الألوف من الفراسخ والأميال، فقبل أن ننفي الصلة بين نفسين يبتغي أن نتمهل طويلاً حتى نوقن من وجه الاستحالة والامتناع؛ ولن يكون هذا اليقين إلا ببرهان قاطع. والقول بهذا البرهان القاطع قبل أن يوجد ويتقرر هو أجرأ على العلم والعقل من التصديق بغير برهان اعتماداً على المروي والمشاع.
عباس محمود العقاد
راية الروحية الأدبية
للدكتور زكي مبارك
فيما كتب الأستاذ الزيات والدكتور عزام عن (البلايا التي تكابدها البلاغة في هذا العصر) تذكير بغضبات ابن قتيبة في القرن الثالث، والجرجاني في القرن الخامس.
وقد جاء هذا التذكير في الوقت المطلوب، جاء بعد انحراف قد يزعزع مركز مصر الأدبي في الشرق، إن لم تسنده الأقلام المصرية بأسندة متينة من الحق والصدق واليقين
وأقول من جديد أنه لا حياة للأديب مصر إن لم تكن لأهله عقيدة أدبية، عقيدة يرحب صاحبها بجميع المتاعب في سبيل الأدب الصحيح، ولا يبالي أين يكون مصرعه ما دام على وفاق مع ملائكة الفكر وشياطين البيان
والعقيدة الأدبية توجب أن نكون صادقين فيما نكتب وفيما نقول، بحيث يطمئن القراء إلينا كل الاطمئنان، وبحيث لا تخفى عليهم خافية من سرائرنا الفكرية، ولو جنحنا في التعبير إلى الرموز والتلاميح
القارئ صديق - وإن لم يتعرف إلينا بصورة شخصية - وللصديق حقوق أهمها اطراح الرياء، فمن العبث أن يخطب قوم وداد القارئ وهم لا يلقونه إلا مرائين
والأصل في الأدب أنه تعبير طريف عن أغراض الحياة والأحياء. وإنما قلت (تعبير طريف) لابدد الشبهة التي تقول بأن الأدب هو تصوير المشاعر والعواطف بالصدق الذي يماثل صدق الصورة الشمسية، فالقارئ لا يفرح بأن الكاتب حدثه عما يجول في

صدره بالحرف، وإنما يسره ويبهره أن يجد في تلك الصورة ألواناً لم يلتفت إلى مثلها من قبل، على شرط أن لا يزيغه التلوين عن الصدق، وعلى شرط أن يكون الجانب الطريف اظهر الجوانب في الأداء

فأين نحن من هذه المعاني في هذا الزمان؟

من المحقق أن الأدب عندنا في ازدهار، ولكني مع ذلك أعاني ضروباً من التخوف. فالجماهير في مصر لم تشعر إلى اليوم بأن الأدب صار قوتاً لا تطيب بدونه الحياة. ولم نسمع أن الجماهير مستعدة للمساعدة على نشر كتاب يعجز عن نشره أحد كبار المؤلفين. ولم نسمع أن كتاباً أعيد طبعه عشرين مرة في اشهر معدودات، كما يقع ذلك في بعض

الممالك التي تعاني شهوات العقول

فما أسباب هذا الخمود؟

أخشى أن أقول أننا لم نصر كتاباً ولا مؤلفين بالمعنى الصحيح للكتابة والتأليف أخشى أن أقول أننا عجزنا عن خلق الجاذبية الادبية، وسيحكم علينا التاريخ بما لا نريد، فسيقول أقوام إن مصر عانت زمناً لم يعرف أدباؤه كيف يرفعون البراقع عن الاقلام، ولم يفكروا في رفع الأمية الفكرية عن عقول القراء

!أعوذ بالله من بعض ما أرى وبعض ما أقرأ وبعض ما اسمع

!وبالله استعيذ من زمن تضعف فيه الأبوة الروحية، أبوة الباحثين والمفكرين

ومع هذا فالأمة المصرية هي هي لم تتغير ولم تتبدل، الأمة التي تستمع كل قول، وتستجيب لكل نداء، ولم يفتر نشاطها الذهني في أي وقت، ولكن أين من ينتفع بالحيوية المكنونة في ضمير الأمة المصرية؟

انتفع السياسيون من أمثال: مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول، لأنهم جاهدوا وناضلوا وكافحوا، ولأنهم جددوا أهدافهم تحديداً لا يتطرق إليه الارتياب، ثم رحبوا بجميع المتاعب في سبيل تلك الأهداف

فماذا صنع الأدباء ليسيطروا بالقوة الروحية، كما سيطر أولئك بالقوة السياسية؟

قد يقال إن الوطنية وتر حساس، فهي السر في نجاح أولئك الرجال

وأقول إن النزعة الإنسانية اقدم واعمق من النزعة الوطنية، فلو جاهد الأدباء جهاد الصدق لكان لهم في أمتهم تأثير لا يصل إليه كبار الوطنيين، ولكان من السهل أن تكون مبادئهم شرائع يعتصم بها السياسيون

واعجب العجب أن يكون في الأدباء من يطلبون الاستقلال لامتهم ولا يطلبونه لأنفسهم، كالأدباء الذين يعيشون تحت وصاية الأحزاب السياسية راضين وادعين ناعمين، كيانهم ظفروا بكنوز قارون، وكأن آلهة الفن هي التي ألهمتهم ذلك المذهب من مذاهب المعاش، مع أن القلم أكبر واعظم واشرف من أن يتشوف صاحبه إلى الاستظلال بظلال الأحزاب

لا عيب في أن يكون للأديب حزب ينتمي إليه إذا اقتنع بالتحزب في سبيل القومية. ولا عيب في أن تكون للأديب مطامع سياسية، ولكن العيب كل العيب أن يكون الأدباء ذيولاً

تجرجرهم التقلبات الحزبية، وتدوسهم سنابك الأهواء

إن جهاد مصر الأدبي لا يقل عن جهادها السياسي، فقد استطاع فريق من أدباء مصر أن يرفعوا اسم وطنهم في الشرق، ولكنهم مع الأسف عجزوا عن رفع اسم الأدب في وطنهم، لأنهم غفلوا عن واجب المصابرة تحت الراية الأدبية، واكتفوا بالتغني تحت الراية الوطنية

ألم اقل لكم إن الأديب ليس أجيراً للوطن ولا أسيراً للمجتمع؟

وما قيمة الوطن إن لم يفرح بأن ينبغ فيه المفترعون لأبكار المعاني؟

في القسم المصري بمتحف اللوفر في باريس تمثالان ناطقان: تمثال الفلاح المتربع تحت الشمس وهو يتذوق السكون والخمود، وتمثال الكاتب المتربع وهو مهموم يستعد للإنشاء. وتلك صورة مصر في القديم والحديث، فمن أبنائها من يفرح بالنعيم البليد، ومن أبنائها من يفرح بالشقاء السعيد. والأشقياء بالمعاني هم السعداء، يوم يوضع للسعادة تعريف صحيح

ألم يأن للأدباء أن يعرفوا واجبهم نحو الأدب؟

ألم يان للزمن أن يسمح بأن تقوم في مصر دولة أدبية لا تعرف غير الصدق في البيان عن أوهام الأهواء وأحلام القلوب واوطار العقول؟
أمن المستحيل أن يقول أديب (أنا) في هذه البلاد؟
ألا يوجد فينا من يتوكل على الله وحده ليملك الغنى عن الناس فيكتب ما يكتب ويقول ما يقول في صراحة وإخلاص؟
عذرت من عاشوا في زمان الظلم، فما عذر من يعيشون في هذا الزمان؟
إن حرية التفكير مكفولة للجميع، على شرط السلامة الفكرية، فما الذي يوجب أن يكون الأديب إمعة لا ينطق أو يصمت إلا وفقاً لبعض الموحيات الأجنبية عن جو العقل والروح؟
وما الموجب لأن يتفاضل الأدباء بالقدرة على الرياء، وهو سناد المهازيل، وعماد المعاليل، ودعام المناخيب؟
لقد وضع الورق في التسعيرة الجبرية قبل أن يوضع الفول، ومع هذا لا يفهم ناس أن قوت العقول يسبق قوت البطون!
إن الأدب الكاذب ينفع، فكيف يضر الأدب الصادق؟
والأدباء المستعبدون يفلحون، فكيف يخيب الأدباء المستقلون؟
جربوا الصدق مرة واحدة، يا أدباء هذا الزمان، وحاولوا مرة واحدة أن يكون لكم وجود منزه عن التبعية، ولو كانت في اشرف الأوضاع، ليصح لكم القول بأنكم من دعاة الحرية والاستقلال
إن محنة الأدب في هذا العصر محنة عاتية، وهل توجد محنة أقسى من محنة العبودية؟ ولأي سبب؟ للقوت الذي لا يبخل الله به على ضعاف النمال!
إن الأديب المصري لم يخلق بعد، الأديب الذي يستوحي نجوم السماء لا نجوم الأرض، الأديب الذي لا يخاف الجوع، لأن له زاداً من الحب والنسيم، الأديب الذي لا يخشى التوحد، لأن التوحد هو انس الأسود
التصوف خلق أول مرة في مصر، في عهود سبقت عهود الفراعين. عنا اخذ الناس معاني الروحية، فهل يعاب علينا أن ندعو إلى الصوفية الأدبية؟
ولكن أين الأديب؟ أين لا أين، فقد طوقت المنافع الباب الأدباء في هذا الزمان؟!
أن وجد الأديب المصري المنشود فسيكون المرجع لأقطاب السياسة واعيان المال، لأن الأدب هو الميزان لفهم مطالب الحياة وحقائق الوجود
وهنا تظهر إحدى الدقائق الروحية: فالميزان لا يستفيد مما يزن، وإنما يستفيد الوزان، فيا أدباء مصر كونوا موازين لا وزانين
آه ثم آه!!
إن الذي يملك بعض المنافع في هذه البلاد يعتز ويستطيل، فكيف يجوز لحامل القلم أن ينسى نعمة الله عليه فيتمسح بهذا الركن أو ذاك؟
وما الذي يمنع من أن نجرب حظنا مع الله، وقد جربنا الحظوظ مع الخلائق؟
لقد عفا الله عن سفهاء الأدب فأورثهم الخلود، برغم ترديهم في هوة التزلف إلى الوزراء والأمراء والخلفاء
قال أبو نواس في مدح الأمين:
عقتُ بحبل من حبال محمد ... أمِنتُ به من طارق الحدثانِ
فغضب الله عليه وعلى اللامين وأوردهما موارد البلاء
واعتر البحتري بصحبة المتوكل فضاع الأول وهلك الثاني
أنا أدعو الأدباء إلى التخلق بأخلاق الصوفية. . . هل تذكرون بعض مذاهب الصوفية؟ اسمعوا هذا الحديث:
انتفع الصوفية بسماحة الإسلام، وهو دين إيابي أن يكون بين المسلم وربه وسيط، فقرروا انهم ارفع من الانبياء، وهذا كفر بظاهر القول، ولكنه في الجوهر غاية الإيمان، لأن المهم أن تصح الصلة بصاحب العزة والجبروت، والإنباء عباد الله قبل أن يكونوا مرسلين وبعد أن كانوا مرسلين، وهم اشرف من أن يدعوا مشاركة الخالق في طاعة المخلوق
ومشكلة الأدباء أيهون من مشكلة الصوفية، فنحن لا ندعوهم إلى الترفع على الأنبياء، وإنما ندعوهم إلى الترفع على الناس. ندعوهم إلى أن يعرفوا أنفسهم. ندعوهم إلى أن

يعرفوا نعمة الله عليهم. ندعوهم إلى التنسك في سبيل المبادئ الروحية. ندعوهم إلى إنقاذ الأدب من مزالق الرياء
فلان الذي يكتب في المجلة الفلانية عن الدين والأخلاق لا يستبيح المرور بشارع فؤاد ولا عبور جسر قصر النيل، مخافة أن يقول الناس انهم راوغه يسير هنا أو هناك
فكيف تعبدون الله يا عبيد الناس، وهل يعبد الله من يخاف الناس؟
اطرحوا هذه البراقع. اطرحوها، اطرحوها، والله المسؤول عن أقواتكم، أن ضاعت بسبب الصدق، فبينكم وبين الله عهد وثيق، عهد يقضي بأن لا تكون العزة لغير الصادقين، والله لا ينقض الميثاق
في كل ميدان فرص ينفع فيها التمرين والتدريب، إلا الأدب، فهو موهبة ربانية لا تنال بجهاد الأنفس والاموال، ولا يظفر بها الملوك، إلا إن كانوا موهوبين
تستطيع الشعوب أن تجلس على عرش الملك من تشاء، ولكنها تعجز عن خلق الأديب، لأن الأديب من إبداع المبدع الوهاب، ومن كرم الله على الإنباء أن جعلهم فصحاء. وهل فات موسى أن يسال الله تأييده بلسان هارون؟
الأدب سلطنة لا يجوز عليها الذل
والكفر بالأدب كفر بحق الله في اصطفاء من يشاء
ثم ماذا؟
ثم يبقى القول بأن إيمان الأدباء بالله ضعيف ضعيف، فما زالوا يتوهمون أن لهم حوائج مع
الخلائق، وهذا شرك لا يرضاه الله ولا نرضاه
أنا أعرف السر في انهيار دولة الأدب في جميع الأجيال، فقد كان الأدباء يجافون الله ويصافون الناس
فيا أيها المبدع الأول والأخير لأنوار القلوب وأضواء العقول، تفضل فاجذبنا اليك، حتى لا نرى روحاً سواك، ولا نشهد إلا اياك، ولا نستجير بغير حماك، ولا نعتمد إلا عليك فما يعتمد على الخلائق غير الأذلاء
الأدب خير ما أبدعت، فهو منك واليك، ولك الحمد وعليك الثناء.
زكي مبارك
في الأدب المقارن
الندوات الأدبية الخاصة
في الغرب
للأستاذ صلاح الدين المنجد
عني مؤرخو آداب الأمم الغربية بتصوير المجالس الأدبية التي كانت تعقد في أوربا في القرون الخوالي. فقد لاحظوا أن أبهاء الأمراء والنبلاء، وانداء الفلاسفة والعلماء، ومجامع الشعراء والادباء، كان لها في أحايين كثيرة اثر بالغ في توجيه الأدب وجهة معينة، وإكسابه لوناً لا عهد له به من قبل، وتوشيته بصور طريفات فيها جمال وحياة كانت وحدة الأذواق والميول، تدفع في الغالب إلى عقد هذه المجامع، وربما كان السبب في بعض الأحايين، نبل أميرة، أو ذكاء سيدة، أو عبقرية أديب، أو الطمع في غرض نبيل والسعي وراء غاية مثلى. وقد بدأت هذه المجامع تظهر منذ القرن السادس عشر؛ ففي إسبانيا أسس أول مجمع أدبي حوالي سنة (1530) وكان يرأسه (دلافيرجا وكان ينهج هو وصديقه نهج الشعراء الإيطاليين ويقلدون أثارهم تقليداً شديداً وجعل فريق من المعجبين بالشاعر الإيطالي (بترارك) في فرنسة، مدرسة خاصة به في (ليون)، في منتصف القرن السادس عشر. وكان أفراد هذه المدرسة يتتبعون أثار ذلك الشاعر، ويسلكون نهجه، وينشرون مبادئه لأخلاقية، ويرون أن شعره احسن وارفع شعر ينبغي للشعراء أن يغترفوا من معينه دائماً
وفي هذه الحقبة، اعني في منتصف القرن السادس عشر، أسس في باريس مجمع سموه (بلياد (1550). وكان يرأسه (رونسار الشاعر، وفيه ستة آخرون، وقد كان هذا الاسم يطلق في القرون الخالية على بنات أطلس وبليون السبع اللواتي قتلن أنفسهن من الخيبة، ثم انقلبن إلى نجوم تسطع في السماء، كما تروي الأساطير. وقد اتخذ هذا الاسم سبعة من الشعراء اليونانيين لمجمع لهم؛ ثم أطلقه رونسار على مجمعه بعدهم.

وكان رونسار وأصدقاؤه ينشرون الشعر الإيطالي وينقلونه إلى الفرنسية. وقد بينا هذا
في مقالنا عن اثر الآداب الأجنبية في الأدب الفرنسي في هذه المجلة، فليرجع إليه
وفي إنجلترا جمعت (الكونتس دوبمروك حولها فئة من الشعراء الذين كانوا يقلدون
ماسي الشاعر الفرنسي (كهيبوليت و (اليهود وغيرهما، وكانوا يحاولون الوقوف دون
انتشار الدرام الحرة التي قامت قبل شكسبير
وفي سنة (1770) قام فريق من الأدباء في غوتنجن فأسسوا مجمعاً سموه (مجمع
الاتحاد وكان هدفهم تمجيد (فولتير الشاعر الفرنسي و (ويلند الشاعر الألماني، الذي
أطلقوا عليه اسم (فولتير ألمانية) وكانوا معجبين أيضاً بالشعراء الإنجليز
وفي الوقت نفسه أسس في ألمانية المجمع المسمى: وكان يمجد (اوسيان) و
(شكسبير) الإنجليزي، وروسو الفرنسي
وفي أواخر القرن الثامن عشر، كانت المدرسة الابتداعية الألمانية التي كان يرأسها
(شلجل تتعطش لآثار شكسبير و (سيرفانتس الإسباني، وأدباء الماسي في إسبانية
والبرتغال
وقامت في السويد، في أوائل القرن التاسع عشر، جمعية العصبة السويدية المسماة
لتنقل إلى شعرها محاسن الشعر الابتداعي الألماني والإنجليزي.
أما في فرنسة، فقد قامت في القرن التاسع عشر عدة ندوات أدبية؛ فقد كان
(ستاندال) الروائي، و (آمبير الأديب المؤرخ، و (جاكومونت الرحالة، و (ميريمه الكاتب
الروائي، يجتمعون في دار (دليكلوز المصور الشهير والنقاد اللاذع، ليقروا آثار اوسيان
الايقوسي، وروائع شكسبير، ويمجدوا آياتهما
وكان هناك عصبة هوغو المسماة (سيناكل ومعنى هذا الاسم، صومعات صغار أدبية.
وكان يطلق في الزمن الغابر على الغرفة التي كان المسيح عليه السلام يجمع فيها
تلاميذه ثم أصبحت تطلق على كل اجتماع، وخصت أخيراً بمجمع هوغو في فرنسة.
وكان من أفراد هذا المجمع (دفيني الشاعر المتشائم، و (نودييه القصصي، وديشامب
الروائي، ودموسيه صاحب الليالي، وغيرهم. وكانوا مأخوذين بروائع شكسبير و (بيرون
و (سكوت يتتبعون أثارهم ويستوحونها في كثير من الأحايين
وقد نجد في بعض الأحايين مجامع أدبية كانت تقوم حول مجلة أفرادها هم مؤسسوها
والمحررون فيها. كالمجمع الذي قام حول مجلة وفي فرنسة، ومجلة (? في إسبانية،
ومجلة في السويد، ومجلة (? في ألمانية، ومجلة في إيطالية.
والى جانب هذه المجامع، كانت تقوم أبهاء الأدب وصالوناته. وقد كان لها اثر في نمو
الأدب ونهضته وبعثه. واقدم بهو هو بهو اوتيل درامبويه (? وكان لصالونات باريس في
القرن الثامن عشر أثر وصدى بعيد، وساعدت على انتشار ألوان طريفة من الآداب
الأجنبية. كصالون مدام ديفاند، والآنسة دلسبيناس. . . وكان رجال هذه الأبهاء متأثرين
بالأدب الإنجليزي. وفي ستوكهولم كانت سيدتان مركزين للأدب فتحا قصريهما لاهله،
وهما: السيدة نوردينفلخت والسيدة لينوجرن ووفي لوندرة قام صالون الدوقة
دمازاران في القرن السابع عشر، وصالون اللادي هولاند في القرن الثالث عشر.
وكانت هذه الأبهاء وسيطة لنقل الأدب الأجنبي إلى إنجلترا، ومن إنجلترا إلى فرنسة.
وفي القرن التاسع عشر نجد في فرنسة صالون (مدام موهل و (مس ماري كلارك).
على أن اعظم هذه الصالونات أثرا، صالون (مدام دستال) في قصر (كوبه) الذي فتح
أبوابه من سنة 1795 إلى سنة 1811. وكان مهبطاً للعلماء ومزاراً للأدباء
وتبيان اثر هذه المجامع والأبهاء في نشر الآداب وإحيائها، بصورة أكثر تفصيلاً يحتاج إلى
صفحات مطولات. غير أن من المقرر أنها كانت وسيلة إحياء وتلقيح وازدهار، وأنها
كانت سبباً في تقدم ونمو وانتشار
هذه لمح عن مجامع الأدب الخاصة في الغرب، ذكرت ما كان له منها شان واثر كبير.
وهناك مجامع وأبهاء اقل شأناً أغفلتها. وليت أدباءنا يعنون بنشر ما يعرفونه عن
المجامع الأدبية الخاصة في مصر والشام والعراق، في العصر الحالي أو العصر
الحاضر، في هذه المجلة. فإن في ذلك طرافة ومتعة وتسجيلاً لصفحة من صفحات
تاريخ أدبنا الذي نكتبه اليوم.
(دمشق)
صلاح الدين المنجد

الشعب الحبشي
للدكتور فؤاد حسنين
إذا تحدثت لقراء الرسالة عن الحبشة فإنما أتحدث عن بلاد تربطها بالشعوب العربية روابط عديدة اذكر منها على سبيل المثال إلى جانب الجنس واللغة، الدين والجوار. الشعب الحبشي في مجموعه سامي حامي، ولفظ حبشة إن دل على شيء، فإنما يدل على تلك القبائل التي استوطنت بلاد العرب الجنوبية ولعبت دوراً هاماً في التاريخ المعيني السبائي. والتاريخ يحدثنا أن هذه القبائل، اعني قبائل حبشة، هاجرت من بلاد العرب الجنوبية حوالي القرن العاشر قبل الميلاد واستوطنت الجزء الشمالي من بلاد الحبشة فأطلق على ذلك الجزء اسمها. ومن ثم عمم العرب هذه التسمية فأطلقوها على هذه البلاد الواقعة بين خطي عرض 4 و15 شمال خط الاستواء. فسكان البلاد الذين أطلق اسمهم على تلك البلاد عرب وعرب خلص نزحوا من بلاد معين وسبأ في عصر كان يطلق فيه بحق على بلاد اليمن بلاد العرب السعيدة حيث المدنية زاهرة والحضارة زاخرة. نزحت تلك القبائل إلى القارة السوداء فحملت معها كثيراً من معالم الحضارة العربية الجنوبية من دين وكتابة وعلم وأدب، فغزت العقول كما غزت البلاد، وأقامت هناك الدعائم الأولى للحضارة الأثيوبية وأزالت العقبات التي كانت تعترض تقدم العقل الإفريقي ومهدت للديانات السامية السماوية كاليهودية والمسيحية والإسلام بفتح تلك البلاد وتثبيت إقدامها. نزلت قبائل الحبشة ذلك الصقع الإفريقي فوجدت فيه عنصراً إفريقياً وأخر حامياً انفصل عن أرومته السامية الأصلية فامتزجت بهما وتكون من هذا المزيج الشعب الحبشي الحالي، فهو إذاً شعب مركب من عنصر إفريقي قديم، وأخر حامي أو كوشي، وثالث سامي. فنحن نرى من هذا أن سكان البلاد ينتمون إلى جنس هو جنسنا، ولسانهم، قديمه وحديثه، ينتمي إلى الأسرة السامية الحامية التي تضم كثيراً من اللغات كالعربية والمصرية القديمة. وقد عرضت لإثبات هذه العلاقة بين الأحباش والساميين أسطورة حبشية قديمة تتصل عناصرها بقصة من قصص الكتاب المقدس والقران الكريم اعني قصة ملكة سبأ وسليمان. فالأسطورة الحبشية ككثير من الأساطير تتحدث عن تنين عظيم كان يحكم البلاد قروناً عديدة وكان على جانب عظيم من البشاعة والشراهة إذ كان يفترس يومياً ما لا يقل عن عشرة بقرات
ومثلها من الثيران وألف رأس من المعز ومائة من الضان وكثيراً من طيور السماء إلى جانب ما يقدم له من العذارى، فضاق السكان به ذرعاً فلجئوا إلى شخص اشتهر بالقوة يسمى (انجابو) وفاوضوه في أن يقتل التنين ويتولى هو الملك عليهم، فقبل (انجابو) وقتل التنين وتولى الملك وانجب ابنة تسمى (ماكدا) وهي التي تعرف في التاريخ باسم ملكة سبأ ودخلت ملكة سبأ في حرم سليمان، وفي طريقها إلى بلادها وضعت غلاماً أسمته (ابن حكيم) أو ابن سليمان، وهو المعروف في التاريخ الحبشي باسم (منليك الأول) مؤسس الأسرة السليمانية التي جلست على عرش الحبشة من (950 ق. م إلى 1855 م.). فمن هذه الأسطورة تعرف العلاقة بين الفرعين الساميين من ناحية، ونفهم الحكمة في أن نجاشي الحبشة يعتبر نفسه أسد سبط يهوذا الذي رمز إليه في العلم الحبشي بأسد متوج شاهراً بيمينه صولجان القوة والجبروت.
وكما أن بلاد الحبشة هي الملتقى لهذه العناصر السامية الحامية، فهي الأرض التي نجد من بين سكانها الوثنيين واليهوديين والمسيحيين والمسلمين. فالوثنيين يدينون بوثنية تحمل إلى جانب طابعها الأفريقي طابعاً أسيوياً يمنياً، فإلى اليوم ما زلنا نقرأ في الكتب الحبشية والآثار الأدبية كثيراً من الألفاظ الوثنية القديمة مثل (محرم) اله الحرب، و (عستر) اله السماء، و (مدر) اله الأرض، و (بحر) اله البحر. والى اليوم أيضاً ما زال أصحاب هذه الديانة يلعبون دوراً هاماً في التنافس القائم بين المسيحية والاسلام، فمن بين العشرة ملايين نسمة التي يتكون منها الشعب الحبشي نجد نحو ثلاثة ملايين يدينون بالمسيحية التي ادخلها المبشرون البلاد في القرن الرابع الميلادي، وأصبحت دين الأسرة الحاكمة الرسمي عام 350 م عندما اعتنقها الملك (عزانا). أما البقية الباقية من السكان فكثرتها تدين بالإسلام ولا يقل معتنقوه عن خمسة ملايين نسمة. ومن الجدير بالذكر هنا أن قبائل كثيرة مسيحية ووثنية أخذت تسارع إلى الدخول في الإسلام في السنوات الأخيرة حتى أزعج ذلك كثيراً من الدول الأوربية

فسارعت إلى مكافحته والوقوف في وجهه. وهذا التنافس بين الإسلام والمسيحية ليس حديث عهد في الحبشة. فالتاريخ الحبشي نفسه يحدثنا أن تاريخ المسيحية هناك عبارة عن سلسلة متصلة الحلقات من الكفاح لتثبيت قدمها ومقاومة انتشار الإسلام.
ولعل أهم عصر يتجلى لنا فيه هذا الصراع الديني هو الزمن الممتد ما بين عامي 1541
و1543؛ ففي ذلك الوقت ظهر قائد حبشي مسلم يسمى أحمد بن إبراهيم، اشتهر ببسالته ومهارته الحربية، فبعد أن كان جندياً بسيطاً اصبح أميراً على هرر. وفي عام 1527 هاجم بقية الولايات الحبشية واستولى عليها وأخضعها لسلطان المسلمين، وهرب الملك المسيحي (لبنا دنجل) واعتصم بالجبال، ولولا أنه استعان بالبرتغاليين الذين خفوا لمساعدته ما استطاعت المسيحية أن تعود ثانية إلى الحبشة. لكن هذا النفوذ الأوربي الذي استعانت به المسيحية في ذلك العصر عاد على الحبشة بأوخم العواقب؛ فمنذ النصف الثاني من القرن السادس عشر أخذت تعنى بعض الدول الأوربية بالحبشة وظهرت في عالم السياسة المسالة الحبشية التي كانت سبباً قوياً من أسباب انقسام أوربا إلى معسكرين عظيمين لن يحل السلام بلادهما إلا بعد أن تتقوض انظمة، ويعم الخراب، ويكثر الدمار. وبيان ذلك الاهتمام بالمسالة الحبشية أن أوربا منذ ذلك الحين أخذت تبعث الجمعيات التبشيرية إلى جانب بعض الرحالة والعلماء. وفي القرن السابع عشر اخذ المستشرقون الألمان يعنون بتاريخ الحبشة ولغتها. وفي القرن الثامن عشر نجد الرحالة والمستشرق الإنجليزي (بروس) يدخل الحبشة عن طريق مصر مكتشفاً منابع النيل. وفي عام 1855 نجد أحد قطاع الطريق من الأحباش الذي كان راهباً هرب من الدير يشن الغارات على سائر الأمراء وينتزع السلطان من أيديهم ويكلف (أبونا) أن يتوجه (نجوس نجست ذَ إيتيوبيا) أي ملك ملوك إيتيوبيا وتسمى باسم (تيودور الثاني) واخذ يقوم بإصلاحات داخلية كبيرة، فألغى الرق وحرم تعدد الزوجات وضم إليه إقليم (شوا) واصبح ذلك الملك الذي كان في صباه فقيراً مشرداً والذي كان يسمى (كسا) والذي كانت أمه تبيع في أسواق (جندار) غنياً قوياً وحد الحبشة واخذ يخلق من شعبه أمة قوية مهيبة الجانب، فاصطدم ببعض الأجانب المقيمين في بلاده، فأرسلت إنجلترا عام 1867 اللورد (نابيير) على رأس حملة تأديبية للحبشة استولت بدون كبير عناء على حصن (مجدلا)، ولما أيقن الملك بالهزيمة انتحر، فكان موته سبباً في تفكك الوحدة الحبشية أيام خلفه الملك (يوحنا الرابع) الذي توجه الإنجليز عام 1872. وفي أيامه قام ابن والي إقليم (شوا) وطالب بإعادة إقليمه إليه فمنحه واصبح ملكاً عليه وتسمى باسم (منليك)، ومن حسن حظه أن يوحنا قتل في حربه مع الدراويش عام 1889 فأعلن (منليك) نفسه ملك ملوك واخذ يعمل جهده لجمع صفوف أفراد شعبه فهاجمته إيطاليا فهزمها شر هزيمة في موقعة عدوة عام 1896. وقد كان منليك هذا محبوباً من شعبه، حتى أنه يقسم به إلى اليوم، كما تم في أيامه الخط الحديدي من جيبوتي إلى اديس ابابا. وفي عام 1908 مرض مرضاً أقعده عن القيام بمهام الحكم، فتنازل عن الملك لامرأته (تيتو) وتوفي هو في 12 ديسمبر عام 1913، وتولى الملك بعد وفاته حفيدة (ليدو يسوع) وكان يميل إلى الإسلام فلما ظهرت ميوله إلى الإسلام والمسلمين اجتمعت عليه عوامل مختلفة خارجية وداخلية وخلعته وزجت به في السجن عام 1917، وتولت بعده الأميرة (زوديتو) ابنة (منليك) والى جانبها الرأس (تفاري) ابن عم (ليدو يسوع) حاكما على البلاد، وبقيت السلطة في يد (زوديتو) حتى 7 أكتوبر 1928 إذ نودي بالراس (تفاري) ملكاً فقط. وبعد وفاة القيصرة عام 1930 اصبح ملك ملوك في 2 نوفمبر 1930 ولقب بلقب (هيلا سلاسي) أي قوة الثالوث. وما كاد يجمع عزيمته للعمل على رفع مستوى شعبه علمياً وأدبياً وعسكرياً حتى انقضت عليه إيطاليا الفاشستية واغتصبت منه عرشه. لكن هذا النصر الإيطالي لم يكن في الحقيقة إلا انتصار الحديد ووسائل القتال الحديثة التي لم تكن متوفرة عند الحبش على الشجاعة والبطولة والإيمان بالقول المأثور (النصر مكتوب لأسد سبط يهوذا) الذي تحقق أخيراً بفضل تعاون الأسدين اليهوذي والسكسوني.

فؤاد حسنين
مدرس بكلية الآداب - جامعة فؤاد الأول

أطوار الوحدة العربية
عوامل ثورة العرب
للأستاذ نسيب سعيد

أظنك لا تزال تذكر أني وعدتك في حديثي الماضي أن افصل لك ما أجملت من الأسباب المباشرة لثورة العرب الكبرى. وقد رددت هذه الأسباب إلى عوامل أربعة، وهي: العامل الشخصي، والإقليمي، والديني، والقومي. وهاأنا الآن - برا بالوعد الذي قطعته على نفسي - اشرع بالإسهاب والتفصيل فأقول:

1 - العامل الشخصي

يذهب الباحثون إلى القول أن في مقدمة العوامل المباشرة للثورة العربية اعتقاد زعيمها (الحسين بن علي) بأن رجال الدولة العثمانية قد انتزعوا كل ثقة منه ومن انجاله، وانهم يتحينون الفرص للقبض عليه وإقصائه ونفيه إلى أقاصي البلاد. ولا يخفى عليك أن الغاية الأساسية للترك من إرسال وهيب باشا القائد التركي العام إلى الحجاز وتزويده بما زود به من سلطة واسعة، هو لأجل القضاء على كل ما (للحسين) من نفوذ وشوكة في البلاد العربية. ويعترف جمال السفاح في مذكراته أن وهيب باشا هذا طلب من الحكومة إرسال فرقة من الجند لتنفيذ مشروعه، ولولا مفاجأة الحرب العظمى - وقد جاءت على حين غرة - لنفذ ذلك المشروع الظالم، ولقضوا على (الحسين) قضاء أبدياً، بل لقضوا على كل حركة أو نهضة قومية في بلاد العرب

ويضاف إلى ذلك ما يردده البعض من المؤرخين وهو أنه كان (للحسين) عيون في ديوان حكومة مكة، وفي مكتب برقها، وفي الباب العالي أيضاً يوافونه بكل ما يدور بشأنه من مكاتبات بين الأستانة ومكة، ويطلعونه على جميع الخطط والتدابير. وما كان باستطاعة الاتحاديين الترك معرفة شيء من إسراره وخططه لأنه كان حذراً، شديد التكتم؛ وقد ظل يجاملهم ويلاطفهم، حتى اضطرهم إلى استبدال وهيب باشا بغالب باشا في أوائل زمن الحرب الماضية، فارتاح من خصم شديد المراس، وخلا له الجو في العاصمة العربية فتصرف كما أراد وتسنى له أن يستأثر بمقادير كبيرة من السلاح في خلال سنتي الحرب

الأوليتين، كما استطاع الحصول على مبلغ كبير من المال لا يقل عن 60 ألف ليرة عثمانية ذهب من جمال السفاح. ولعل خوفه من الانتقام هو الذي جعله يشترط على الترك في خلال المفاوضات التي دارت بينه وبينهم جعل الأمارة العربية وراثة في أنجاله لأنه كان يخشى إقصاءه في أول فرصة تسنح، فأراد لذلك أن ينال من الدولة العثمانية عهداً باستبقاء الأمارة في بيته وذريته فيطمئن ويرتاح، فأبى عليه رجال الترك ذلك

2 - العامل الإقليمي

ويأتي العامل الإقليمي أو الاقتصادي بعد العامل الشخصي، ويجب أن يحسب حسابه أيضاً؛ وقد نشأ عن مركز الحجاز الاقتصادي وعن حالته الاستثنائية. فالحجاز قطر مجدب أو واد غير ذي زرع كما وصفه التنزيل العزيز. وقد اعتاد سكانه أن يعيشوا مما يدره عليهم موسم الحجيج. ولا يخفى أن الحرب العظمى أعلنت في شهر رمضان عام 1332 أي قبل موسم الحجيج بثلاثة اشهر تقريباً، فضرب الحصار البحري على سواحل الحجاز في البحر الأحمر فتعطل بذلك موسم الحج، وشعر سكان الحجاز بالضائقة الاقتصادية الخانقة، وشعروا كذلك بألم الجوع، فكاتب الشريف (حسين) الحكومة وبسط لها الموقف الاقتصادي في القطر المقدس بسبب تعطيل موسم الحجيج فاعتذرت بسوء الحالة، وبحاجة الجيش إلى القوت، ولم ترسل شيئاً يهون على العرب هناك أمرهم وما هم فيه من ضنك وضيق فجاءوا الحسين يتوسلون إليه أن يعمل لإنقاذهم، والوسيلة الوحيدة للخلاص من تلك الضائقة المستحكمة الحلقات كانت بمحالفة البريطانيين، والاتفاق معهم على إلغاء الحصار البحري فتعود السفن والبواخر إلى زيارة الحجاج حاملة الميرة والحجاج والأموال والخيرات

3 - العامل القومي

وخلاصة ما يقال فيه أن الحسين، وقد كان العرب ينظرون إليه كأكبر زعيم عربي في ذلك العهد كبر عليه أن تساق الحرائر من أبناء أمته إلى الأناضول سبايا تحت ستار النفي والإبعاد، وإن يقتل كبار قومه، ويقبلوا ويمحوا من الأرض ويشتت شملهم لا لذنب

جنوه ولا لاثم اقترفوه، وإنما لأنهم طالبوا الدولة العثمانية بإصلاح بلادهم العربية خوفاً من أن يؤدي الإهمال فيها إلى تدخل الدول الأجنبية في شؤونها باسم الإصلاح - كما جره من قبل

في البلقان - ولذلك لم يجد الأمير العربي بداً حينما وقعت الواقعة، واصم الترك آذانهم، من إجابة ملتمسة بالعفو عن زعماء العرب وأحرارهم من إعلان الثورة الكبرى انتقاماً لهم من الترك، وطلباً للثار، ولإنقاذ بقايا السيوف من أبناء العروبة الأحرار، وقد كانوا مهددين بالفناء والموت المحتم.

وهنالك شبه إجماع بين الباحثين في القضية العربية على أن إسراع (الحسين) في إعلان ثورة العرب بعد الفتك بالرعيل الأول والثاني من الشهداء الأبرار، ونفي الأسر الكبيرة العربية إلى أقاصي الأناضول، حمل الترك على تغيير سياستهم وأساليبهم كما اضطرهم إلى استقدام جمال باشا وتنحيته عن العمل في بلاد الشام، فعاد إلى عاصمة الترك يجر أذيال الخيبة والانكسار بعدما فشلت مساعيه، وخابت أماله في إنشاء عرش له في دمشق يتبواه ويورثه لأبنائه من بعده وعلى الباغي تدور الدوائر هذا من ناحية واحدة، أما من الناحية الأخرى فقد كان الاعتقاد سائداً بين العقلاء أن النصر في ختام الحرب سيكون للإنكليز وحلفائهم، فتدور الدائرة على الألمان وأنصارهم ومنهم الترك فتنقرض الدولة العثمانية، ويموت الرجل المريض، ويستولي بالتالي - الحلفاء على أراضي تلك الإمبراطورية الواسعة، وبلاد العرب من جملتها، وهكذا يقع العرب في أيدي الدول الغربية الكبرى؛ ولذلك كان لابد للحسين بصفته زعيم العرب الأكبر يومئذ من الاتصال بخصوم الترك والألمان، وعقد المواثيق معهم لإنقاذ دنيا العرب من أيدي الظلم والاستعباد، وإنشاء الدولة العربية الكبرى الموحدة، فتحل في الشرق مكان الدولة العثمانية المنقرضة، وتجدد مجد العرب الخالد، تبعث عزهم الطريف التالد، وتحيي دولتهم العظيمة

العامل الديني - 4

وأخيراً يجب إلا ننسى العامل الديني أيضاً، فقد كان الحسين، وهو صلب في دينه، شديد التمسك بأحكام الشريعة السمحاء، مغرقاً في المحافظة على التقاليد الإسلامية الحنيفة، يعتقد بكفر الاتحاديين الترك وخروجهم على الإسلام لإعمال بسطها بسطاً وافياً في المنشور الذي أذاعه على العالم الإسلامي يوم إعلان ثورة العرب، وقد تنتهي من هذه المقدمة السلبية إلى نتيجة إيجابية وهي فرض قتالهم على كل مسلم، والجهاد فيهم إنقاذاً للامة من شرورهم. وقد قام بهذا الواجب حين أعلن الثورة عليهم وقاتلهم قتالاً رهيباً. . .

تلك هي خلاصة العوامل التي عجلت في إعلان ثورة العرب الكبرى، ودفعت أميرهم (الحسين) إلى الصراع مع الترك وأنصارهم، والانضمام إلى البريطانيين وحلفائهم.

والباحث المدقق في هذه الثورة التي نشبت في الحجاز أولاً ثم امتدت إلى بلاد الشام وغيرها من أقطار العروبة يجد أنها تمتاز عن الثورات والحركات العربية القومية الأخرى، بكونها أول حركة استقلالية قام بها العرب مطالبين بالحرية والاستقلال، والانفصال عن الترك والإفلات من نير الدولة العثمانية الجائر لتأسيس ملك عربي مجيد، وتقلدوا السلاح لأجل ذلك. كما أنها كانت اعم ثوراتهم وأوسعها نطاقاً فقد اشترك فيها أبناء الحجاز، ومصر والشام والعراق واليمن ونجد والشمال الأفريقي فوقفوا جنباً إلى جنب يقاتلون الترك تحت راية العروبة الخفاقة، فأنقذوا الحجاز وحرروه من كل نفوذ أجنبي، ثم واصلوا السير نحو الشام فاستولوا على جنوب القطر الشامي ثم اخترقوه وبلغوا أقصى حدوده الشمالية، ولو ساعدتهم الظروف لواصلوا التقدم إلى العراق، ولاستولوا عليه أيضاً. على أن ما فاتهم في عام 1918 أدركوه في سنة 1920 فقد انشئوا حينئذ حكومة عربية برئاسة أحد أبناء (الحسين) في تلك الربوع فهذا الطابع الخاص الذي طبعت به ثورة (الحسين) جعل لها مقاماً ممتازاً في نفوس العرب على اختلاف أقطارهم، وتباعد ديارهم، وجعلهم يكبرون شانها، ويحتفلون بذكراها، يضاف إلى ذلك أنها أنقذت الكثيرين من رجال سوريا والعراق من موت محتم أو من شقاء دائم، فقد كانت الخطة التي سار عليها الاتحاديون الترك في ذلك العهد المظلم تقضي بنفي الأسر العربية الكبرى إلى أقاصي الأناضول لتتريكها وإفنائها، واحتلال الأرمن محلها فيصبح الناس في الشام بلا سراة، كما أنها اضطرت الترك

لإطلاق سراح كثيرين من الذين كانوا معتقلين في غياهب السجون، وكانوا ينتظرون صدور الأمر بإعدامهم من آن لآخر شان إخوانهم الشهداء الذين سبقوهم.
وسيقدر العرب الأبرار - كلما طال بهم الزمن وامتد - ثورة أجدادهم هذه حق قدرها ويكبرونها ويجلونها ويدركون أنها من أنبل الثورات وأشرفها، وإن الدعايات التي بثها الترك والألمان ضدها في أبان الحرب الماضية لتشويه سمعتها، ما كانت سوى أضاليل اقتضتها مصلحتهم السياسية؛ ورغم النقائص التي اقترنت بها أسدت للعرب يداً كبرى، وفتحت لهم باب الحياة القومية، وعلمتهم كيف يثورون على الظلم والاستبداد، ويقاتلون الظلام والمستبدين، وكيف يطلبون الثار والانتقام لأحرارهم وزعمائهم ومفكريهم الذين غدر بهم الترك، وسقوهم كاس الردى لأنهم نشروا (الفكرة القومية) المقدسة ودعوا إليها. أما كيف أعلنت الثورة، وأين كانت ميادين الصراع، فهذا سيكون موضوع حديثنا المقبل، فإلى اللقاء.
(دمشق)
نسيب سعيد المحامي
خزانة الرؤوس - 4
في دار الخلافة العباسية ببغداد
للأستاذ ميخائيل عواد
(ج) رأس بن الحسن بن حمدان، رؤوس جماعة من أصحابه
ذكر مسكويه في حوادث سنة 304هـ أنه (قبض على أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان وجميع اخوته وحبسوا في دار السلطان. وكان هرب ابن الحسين بن حمدان في جماعة من أصحابه وبلغت هزيمته أمد، فأوقع بهم الجزري وقتل ابن الحسين وجماعة من أصحابه وحملت رؤوسهم إلى الحضرة)
(د) رأس ليلى بن النعمان الديلمي
كان من ماجريات سنة 309هـ، أنه (دخل رسول صاحب خراسان براس ليلى بن النعمان الديلمي الذي خرج بطبرستان)
(هـ) رأس أحمد بن علي
ارتكب أحمد بن علي وهو من أمراء الأعاجم من الظلم والشر أمراً عظيما، وذاع خبر شره؛ فخافه الناس. ولكن أمد الظلم قصير، (فلما كان في ذي الحجة من سنة 311هـ، ورد الخبر على ابن الفرات بإيقاع ابن أبي الساج بأحمد بن علي أخي صعلوك، وقتله إياه، وأنه اخذ رأسه وهو على حمله إلى بغداد)
ثم قال مسكويه في أحداث سنة 312هـ، إن (في هذه السنة ورد الكتاب بشرح الخبر في مصير ابن أبي الساج من أذربيجان إلى الري ومحاربته أحمد بن علي، وحمل رأس أحمد ابن علي وجثته إلى مدينة السلام)
(و) رأس لصيدلاوي
لم تخل خزانة الرؤوس حتى من رؤوس العيارين، والشطار وقطاع الطرق: فهذا المعروف بالصيدلاوي كان (يقطع الطريق فاحتال عليه بعض الولاة فدس إليه جماعة من الصعاليك اظهروا الانحياز اليه، فلما خالطوه؛ قبضوا عليه وحملوه أسيراً إلى الكوفة، فقتل وحمل رأسه إلى بغداد)
(ز) رؤوس جماعة من الفرنج:
كان من أجل أنباء سنة 552هـ: الواقعة بين الإسلام وبين الفرنج. قال ابن الجوزي: (وكانت وقعة عظيمة بين محمود بن زنكي وبين الإفرنج، وفتح عسكر مصر غزة واستعادوها من الإفرنج، ووصل رسول محمود بتحف وهدايا ورؤوس الإفرنج وسلاحهم واتراسهم)
نصب الرؤوس في جانبي بغداد - 3
(ا) رأس رافع بن هرثمة:
من الأنباء التي حفلت بها سنة 284هـ: (قدوم رسول عمرو بن الليث الصغار براس رافع بن هرثمة في يوم الخميس لأربع خلون من المحرم على المعتضد، فأمر بنصبه في المجلس بالجانب الشرقي إلى الظهر، ثم تحويله إلى الجانب الغربي ونصبه هنالك إلى الليل، ثم رده إلى دار السلطان. وخلع على الرسول وقت وصوله إلى المعتضد بالرأس)

نصب الرؤوس على جسور بغداد - 4
(ا) رأس القرمطي، رؤوس جماعة من قواده وأصحابه:
والقرمطي هذا، هو الحسين بن زكرويه المعروف بصاحب الشامة، الذي اشتهر امره، وبالغ في الظلم والفساد، وهزم جيوش الخليفة غير مرة: وقد شرح أمره وأعماله جملة من المؤرخين، فإذا أردتها فارجع إلى سنة 291هـ وما قبلها تجد أخباره مفصلة. والذي يهمنا هاهنا رواية تعذيبه وقطع رأسه إذ كان قد حان قطافه. ودعنا نستل خبره من الطبري الذي قال في الوقعة بين القرمطي هذا وبين أصحاب الخليفة: (. . . ولما تقدمت (الكلام لمحمد بن سليمان الكاتب) في جمع الرؤوس، وجد رأس أبى الحمل، وراس أبي العذاب، وأبي البغل وقيل النعمان قد قتل؛ وقد تقدمت في طلبه واخذ رأسه وحمله مع الرؤوس إلى حضرة أمير المؤمنين أن شاء الله)
وهاهو ذا يحدثنا عن القرمطي وأصحابه يوم جيء بهم أسرى إلى بغداد لينالوا جزاء ظلمهم وعيشهم، ولا يبعد أنه رأى المشهد بعينه؛ فأمعن في الوصف وبالغ بذكر هذه الحقيقة.
ودونك ما قاله: (. . . ولما كان يوم الاثنين لسبع بقين من شهر ربيع الأول أمر المكتفي القواد والغلمان بحضور الدكة التي أمر ببنائها، وخرج من الناس خلق كثير لحضورها فحضروها؛ وحضر أحمد بن محمد الواثقي وهو يومئذ يلي الشرطة بمدينة السلام، ومحمد بن سليمان كاتب الجيش، الدكة فقعدا عليها. وحمل الأسرى الذين جاء بهم المكتفي معه من الرقة، والذين جاء بهم محمد بن سليمان ومن كان في السجن من القرامطة الذين جمعوا من الكوفة، وقوم من أهل بغداد كانوا على رأي القرامطة وقوم من الرفوغ من سائر البلدان من غير القرامطة، وكانوا قليلاً، فجيء بهم على جمال واحضروا الدكة ووقفوا على جمالهم، ووكل بكل رجل منهم عونان، فقيل انهم كانوا ثلاثمائة ونيفاً وعشرين وقيل ثلاثمائة وستين. وجيء بالقرمطي الحسين بن زكرويه المعروف بصاحب الشامة ومعه ابن عمه المعروف بالمدثر على بغل في عمارية، وقد اسبل عليهما الغشاء ومعهما جماعة من الفرسان والرجالة، فصعد بهما إلى الدكة واقعدا، وقدم أربعة وثلاثون إنساناً من هؤلاء الأسارى؛ فقطعت أيديهم وأرجلهم، وضربت أعناقهم واحداً بعد واحد؛ كان يؤخذ الرجل فيبطح على وجهه فيتقطع يمنى يديه ويحلق بها إلى اسفل ليراها الناس؛ ثم تقطع رجله اليسرى، ثم يسرى يديه، ثم يمنى رجليه، ويرمى بما قطع منه إلى اسفل، ثم يقعد فيمد رأسه فيضرب عنقه ويرمي برأسه وجثته إلى اسفل. فلما فرغ من قتل هؤلاء الأربعة والثلاثين نفساً، وكانوا من وجوه أصحاب القرمطي فيما ذكر وكابرائهم، قدم المدثر فقطعت يداه ورجلاه وضربت عنقه. ثم قدم القرمطي فضرب مائتي سوط، ثم قطعت يداه ورجلاه وكوى فغشى عليه ثم اخذ خشب فأضرمت فيها النار ووضع في خواصره وبطنه، فجعل يفتح عينيه ثم يغمضها؛ فلما خافوا أن يموت ضربت عنقه، ورفع رأسه على خشبة. وأقام الواثقي في جماعة من أصحابه في ذلك الموضع إلى وقت العشاء الآخرة، حتى ضرب أعناق باقي الأسرى الذين احضروا الدكة، ثم انصرف، فلما كان من غد هذا اليوم حملت رؤوس القتلى من المصلى إلى الجسر، وصلب بدن القرمطي في طرف الجسر الأعلى ببغداد)
(ب) رؤوس جماعة من الاباضية
من الأحداث التي وقعت في سنة 280هـ؛ في خلافة المعتضد، على ما نقله المسعودي أن
(افتتح أحمد بن ثور عمان، وكان مسيره إليها من بلاد البحرين، فواقع الاباضية من الشراة وكانوا في نحو من مائتي ألف، وكان أمامهم الصلت بن ملك ببلاد يروى من ارض عمان، وكانت له عليهم فقتل منهم مقتلة عظيمة، وحمل كثيراً من رؤوسهم إلى بغداد فنصبت بالجسر)
(يتبع)
ميخائيل عواد
ليالي القاهرة
للدكتور إبراهيم ناجي
أليلايَ ما أبقى الهوى بيَ من رُشْد ... فرُدِّي على المشتاق مهجته ردِّي

أينسى تلاقينا وأنتِ حزينة ... ورأسك كابٍ من عَياء ومن سهد
أقول وقد وسدتُه راحتي كما ... توسد طفلٌ مُتْعَبٌ راحة المهد
تعالي إلى صدر رحيب وساعد ... حبيب وركن في الهوى غير منهد
بنفسي هذا الشَّعر والْخُصَل التي ... تهاوتْ على نحرٍ من العاج منقدِّ
ترامتْ كما شاءتْ وشاءَ لها الهوى ... تميلُ على خدٍ وتصدفُ عن خَدِّ
وهذي الكرومُ الدانياتُ لقاطف ... بياضَ الأماني من عناقيدها الرُّبدِ
فيالكَ عندي من ظلامٍ مُحَبَّبٍ ... تَألَّقَ فيه الفرقُ كالزمن الرغد
ألا كلُّ حسنٍ في البرِّيَّة خادمٌ ... لسلطانة العينين والْجِيد والقدِّ
وكل جمالٍ في الوجود حياله ... به ذلة الشاكي ومرحمةُ العبدِ
وما راع قلبي منكِ إلا فراشةٌ ... من الدمع حامتْ فوق عرشٍ من الوَجد
مجنحةٌ صيغتْ من النور والندى ... ترف على روض وتهفو إلى وِرْد
بها مثلُ ما بي يا حبيبي وسيدي ... من الشجن القتَّال والظمأ المردى
لقد أقفرَ المحرابُ من صلواته ... فليس به من عابد ساهر بعدي!
وقفنا وقد حان النوىَ أي موقف ... نحاول فيه الصبر والصبر لا يجدي
كأن طيوف الرعب والبيْن موشكٌ ... ومزدحِم الآلام والدمع في حشْدي
ومضطرب الأنفاس والضيقُ جاثمٌ ... ومشتبكُ النجوى ومعتنق الأيدي
مَواكبُ خرسٌ في جحيم مؤبَّد ... بغير رجاء في سلام ولا برْد!!
فيا أيكةً مَدَّ الهوىَ من ظلالها ... ربيعاً على قلبي، وفيْئاً من السَّعد
تقلَّصتِ إلا طيفَ حب محيَّر ... على درَجٍ خابي الجوانب مسودِّ
تردَّد واسْتأنَى لوعد ومَوْثق ... وأدبرَ مخنوقاً وقد غصَّ بالوعد
وأسلمني لليل والقبر باردا ... يَهُبُّ على وجهي به نفَس اللَّحد
وأسلمني لليل والوحش راقدا ... تمزقني أنيابه في الدجَى وحدي
كأن على مصر ظلامين: أعكرٌ، ... وآخرُ من خافي المقادير مُرْبد
رُكودٌ، وَإبهَامٌ، وَصَمْتٌ، وَوَحْشَةٌ ... وَقَدْ ضَمَّهَا الْغَيْبُ الْمُحَجَّبُ في بُرْدَ
كأن سماء النيل لم تلقَ حادثا ... ولا قصفتْ فيها القواصفُ بالرعدَ
أحقا تولَّى ذلك الهولُ، وأمَّحتْ ... خواطرُ ذاك الويلِ والرعب والحقد
فيا لَلْقُلوُبِ الصابرات وقد غفتْ ... على نعمةِ الإيمانِ والشكرِ والحمدِّ
ويا للقلوب المؤمنات وأمنها ... وضجعتها في رحمة الصمد الفرد
أهذا الربيعُ الفخم والروضةُ التي ... تَزُفُّ إلى المستاف رائحةَ الخلد
تصير إذا رانَ الظلامُ ولفها ... بجنحٍ من الأحلام والصمت ممتدِّ
مباءةَ خمار وحانوتَ بائع ... شقي الأماني يشتري الرزق بالسهد
وقد وقفَ المصباحُ وقفةَ حارسٍ ... رقيبٍ على الأسرار داعٍ إلى الجد
كأن تقيّاً غارقاً في عبادة ... يقوم الدجى أو يقطع الليل بالزهد
فيا عالَمِ الأسرار، في الحي نائم ... قضى يومَه في حومة البؤس يستجدي
وسادتُه الأحجارُ والمضجعُ الثرى ... ويفترشُ الإفريزَ في الحر والبرد
وسيارة تجري لأمر مغيَّب ... محجبةَ الأسرار خافَيةَ القصد
إلى الهدف المستور تنتهب الثرى ... وتلمعُ لمعَ البرق يومضُ عن بعُد
متى ينجلي هذا الدجى عن مسالك ... مرنَّقة بالجوع والصبر والكد
ينقِّبُ كلبٌ في الحطام، وربما ... رعى الليلِ هَرٌّ ساهر وغفا الْجُندي
أيا مصر ما فيك العشية سامرٌ ... ولا فيك من مُصْغٍ لشاعرك الفَرد
أهاجرتي طال النوى فارحمي الذي ... تركتِ بديدَ الشَّملِ منتثر العقدِ
فقدتُكِ فقدان الربيع وطيبه ... وعدتُ إلى الإعياء والسقم والسهد
وليس الذي ضَّيعتُ فيك بهيِّنٍ ... ولا أنتِ في الغُيَّابِ هينة الفقد
أتيتُك أستسقي فكيف تركتِني ... لهذي الفيافي الصُّمِّ والكثُب الْجُرد
أتيتك أستعدي فكيف تركتِني ... إلى هذه الدنيا وأحداثها اللدِّ
أتيتك أستهدي فكيف تركتِني ... لهذا الظلام المطبق الجَهم أستهدي
أتيتُكِ أستشفي فكيف تركتِني ... ولم يبق غير العظم والروح والجِلْد
وهذي المنايا الحمر ترقصُ في دمي ... وهذي المنايا البيضُ تختالُ في فودي
وكنتُ إذا شاكيتُ خففتِ محملي ... فهان الذي ألقاه في العيش من جَهد

وكنتُ إذا انهار البناءُ رفعتهِ ... فلم تكنِ الأيامُ تقوىَ على هَدِّي
وكنتُ إذا ناديتُ لَبَّيْتِ صرختي ... فوا حَربَا كم بيننا اليوم من سدِّ!
وقد كان لي العطف والحب مسلك ... فأغلقتِه دوني فبتُّ بلا رَدِّ!!
سلام على عينيك ماذا أجنتا ... من العطف والتحنان والحب والود
إذا كان في لحظيك سيف ومصرع ... فمنك الذي يحي ومنك الذي يردي
إذا جُرِّدا لم يفتكا عن تعمد ... وإن اغمدا فالفتك أروع في الغمد
هنيئاً لقلبي ما صنعتِ ومرحباً ... وأهلاً به لو كان فتكك عن عمد
فإني إذا جن الظلام وعادني ... هواك فأبديتُ الذي لم اكن ابدي
وملتُ برأسي كابياً أو مواسيا ... وعندي من الأشجان والحب ما عندي
أقبِّلُ في قلبي مكاناً حَلَّلْتهِ ... وجرحاً أناجيه على القرب والبعد
ويا دارَ من أهوى، عليك تحية ... على اكرم الذكرى، على اشرف العهد
على الأمسيات الساحرات ومجلس ... كريم الهوى عَف المآرب والقصد
تنادِمنا فيه تباريحُ شاعر ... على الدم والأشواك يمشي إلى الخلد
محزونٌ و (فرلين) بائسٌ ... (وميسيه) مجروح الهوى عاثر الجد (فبودلير)
غضبة مضرية ... وثورةُ مظلومٍ وصيحة مستعدي (وللمتنبي)
دموعٌ يذوب الصخر منها فإن مضوا ... فقد نقشوا الأسماء في الحجر الصلد
وماذا عليهم أن بكوا وتعذبوا ... فإن دموع البؤس من ثمن المجد
ناجي
من أغاني الجسد
ليتني زورق. . .
للأستاذ محمود حسن إسماعيل
ظَمِئْتُ إِلَى الله يَوماً. . . فَلَمْ ... أجِدْ خَمْرَتي غَيْرَ هذا الْجَسَد
عَلَى ثَغْرِهِ آيَةٌ أَفْلَتَتْ ... بأَسْرَارِهاَ مِنْ نَبِيِّ الأَبَدْ
عَلَى شَعْرِهِ عَالَمٌ فَوْقَهُ ... وُعُودُ الْهَوَى مُبْهمَاتُ الأَمَدْ
عَلَى نَحْرِه هالَةٌ حَدَّثَتْ ... بِرُؤيَا مَلاَكٍ عَلَيْهاَ سَجَدْ
وَفي جَفْنِهِ نَبَأٌ تاَئِهٌ ... لِغَيْرِ الْهَوَى في دَمي لَمْ يَرِدْ
وَفي هُدْبِهِ بَغْتَةٌ عَذْبَةٌ ... كأَنِّي بِهاَ ساَحِرٌ مُسْتَبِدْ
وَفي قَدِّهِ. . . جلَّ بَارِي الصِّبَا ... صَلاَةٌ مُقَيَّدَةٌ في جَسَدْ
سَجَا نَهْرُهُ. . . لَيْتَنِي زَوْرَقٌ ... مَدَى الْعُمْر في لُجِّهِ يَرْتَعِدْ!
وَقاَلَ: الْهَوَى! قُلْتُ: هَاتِ الْهَوَى ... فَذَاتِي بِذَاتِكَ حُلْمٌ شَرَدْ
أَذِبْني بِنارٍ تَعَبَّدْتُهاَ ... وَلَمْ يُلْهِني عَنْ لَظَاهَا أَحَدْ
ظَمِئْتُ لَهاَ وَالدُّجَى مَارِدٌ ... يُفَرِّقُ مَا بَيْنَ كأسٍ وَيَدْ!
فَلَمْ تَسْقِنِي غَيْرَ هَذَا السَّرَابَ ... وَهَذاَ الْعَذَابَ، وَهَذَا الْكَمَدْ
فَعُدْتُ بِأَيَّامِيَ اللاَّهِثَاتِ ... صَدَى آهَةٍ في حَناَيا كَبِدْ
تَباَرَكْتَ يا رَبِّ! هذا الجَمَالُ ... طَرِيقٌ إليْكَ انْتَهى وَاتَّحَدْ. . .
محمود حسن إسماعيل
البريد الأدبي
حقائق أدبية وذوقية
أخونا الزيات يخاف أن تصنع الصحافة بالكتاب ما صنعت السينما بالمسرح، وكان ذلك لأن السرعة السينمائية قضت على التؤدة المسرحية، وفي التؤدة والتروي فرص للتجويد والتجميل. وسرعة الصحافة قد تفسد الأقلام إفساداً لا تصلح بعده لإجادة التأليف، وبذلك ينقرض الكتاب، وهو المرجع الأصيل لتثقيف العقول
حول هذه القضية ثارت آخر معركة بيني وبين الأستاذ مصطفى صادق الرافعي في سنة 1937، وكان ميدانه مجلة الرسالة وميداني جريدة المصري، وهي معركة مشئومة فقد أنذرته بالموت فما قبل أن تنتهي أشواط الصيال.
ومع احترامي لأراء الرافعي والزيات في هذه القضية فأنا لا أخاف على الأدب من السرعة، ولا أراها من الجانيات على الإتقان، ما دامت أثراً من ثورة العقل، وفورة الطبع، وما دامت صورة من اصطخاب العواطف واضطرام الأحاسيس.
والحق أن الكاتب المجيد لا يفوته أبداً أن يدقق في الأسلوب ولو اشتهر بكثرة الإنتاج،

والحق أيضاً أن البط ليس دائماً من الشواهد على أيثار التروي، فقد يكون من أثار البلادة الذهنية عند بعض الناس
وبأي حق يخرج الكاتب على روح العصر؟
العصر الحاضر عصر السرعة، فكيف نخرج عليه؟
وكيف نجهل فضل السرعة في تهذيب الأساليب من اوضار التكلف والافتعال؟
وهل عرفت مرونة التعبير إلا عند الأدباء الذين قهرتهم سرعة الصحافة على مواجهة القراء في كل يوم أو كل أسبوع؟
كان المازني جاحظي الأسلوب قبل أن يشتغل بالصحافة، ثم جرفته السرعة فصار المازني الذي نعرف، المازني الذي يكتب بلا تزين ولا تهويل، في حدود هي الغاية في البيان
وهل ينسى الزيات نفسه فضل الصحافة عليه؟
هل كان (وحي الرسالة) إلا دراسات فرضت عليه فرضاً بحكم السرعة التي يوجبها إصدار صحيفة أسبوعية؟ وهل كان من الممكن أن يجود ذهنه بذلك المحصول. لو ترك للظروف
التي توحي القول حين تريد؟
السرعة أدل على الحيوية من البط، إلا أن يكون البطء صورة نفسية أصيلة تشبه البطء الطبيعة في تكوين الجنين
على أني أنكر أن تكون سرعة الكاتب المبدع من ضروب الارتجال، فنحن نسرع في التعبير لا في التفكير، لأن محصولنا الذهني وليد لتاملات قضينا في ترجيعها شهوراً أو سنين، فما نكتبه اليوم ليس ابن اليوم إلا من حيث التدوين
ثم انتقل إلى مناقشة الدكتور عزام فيما سماه (السوقية في الأدب) وهو ما يسميه الفرنسيون بجامع الصلة بين الاتجار بالبضائع والاتجار بالأدب
والرأي عندي أن قلوب الجماهير أسواق نشتري فيها ونبيع، ومن واجبنا أن نكسب تلك القلوب قبل أن يكسبها الدجالون
يجب أن تكون لنا غاية صريحة هي غزو القلوب بالأدب الصحيح، وهذا الغزو لا يتيسر إلا إن كان للأدب جاذبية روحية تدخل على القلوب بدون استئذان
الأدب الحق هو الذي يضرم في القلوب والعقول نار الشوق إلى معرفة الحقائق الأدبية والذوقية والعقلية، وهو الذي يفرض على الجماهير أن تقيم أخلاقها على قواعد من المنطق السليم، وهو الذي يجعل للحياة غايات روحية لا يفطن إليها غير من يسايرون أقطاب البيان
التجارة لا تعاب وإنما يعاب الربح عن طريق التزييف، فمن استطاع أن يكسب قلوب الجماهير عن طريق الصدق فهو الأديب الحصيف أو التاجر الشريف
قلوب الناس تضيع من ايدينا، لأننا لا نفكر في رياضتهم على أيثار الصدق، ولأننا نترفع عليهم فلا ندعوهم إلى الحق إلا بتعابير محملة بالكبرياء
متى يصبح الأدب قوتاً لا تطيب بدونه الحياة في أنظار جميع الأحياء؟
يكون ذلك يوم يصير الأدب افصح معبر عن سريرة الوجود.
زكي مبارك
خطأ رواية حديث
زعم الأب انستاس ماري الكرملي في دفاعه أنه يتأثر احسن من نطق باللغة المصرية. . . الخ ثم قال:
فقد قال: ارجعن مأجورات غير مازورات، مع ما في ماجورات من الغلط في نظر (بعض حمقى اللغويين)
فيا أيها الأب انستاس ماري الكرملي عضو مجمع. . . الخ:
1 - الحديث الذي نقلته خطأ، فقد قلبت المعنى واللفظ رأساً على عقب. ولفظه كما لا يخفى على أحد هو هذا: (ارجعن مازورات غير ماجورات).
2 - ثم قلت: (مع ما في ماجورات من الغلط في نظر بعض حمقى اللغويين!!)
والعدول عن القياس - وحضرتك تسميه بالغلط - ليس في (ماجورات) كما زعمت إذ هي اسم مفعول من الاجر؛ ولكنه في (مازورات) لأنها من الوزر، فالقياس: (موزورات) فاقتضى الذوق والحرس الحسن العدول عن المقيس لاتباعها (ماجورات)

3 - (لو كسرت يراعتك المرضوضة، والقيت بها في التنور. وبقيت ساكتاً إلى أن يفيض التنور، لكان ذلك احسن لك! وأنصحك نصيحة لله: إلا تكتب كلمة قبل أن تتدبرها كل التدبر ثم تعرضها على أصدقائك، ثم تتاملها ثانية، وتعرضها على أعدائك، وحينئذ ابعث بها إلى أصحاب الجرائد والمجلات. وإلا فمثل هذه الخربشة والخربقة لا ترفع قدرك ولا تبقي لك أثراً طيبا!)

قلنا ولم يصدق الأب إلا في هذه الكلمة بشرط أن يوجهها إلى من يتخبط في سطر واحد هذه التخبطات الشائنة الشوهاء.

وله فائق احتراماتي.

(دمشق)

سعيد الأفغاني

البيتان لابن الفارض

تساءل الأديب محمد بشير عن صاحب هذين البيتين:

ليت شعري هل كفى ما قد جرى ... مذ جرى ما قد كفي من مقلتي

قد برى اعظم حزن أعظمي ... وغنى جسمي حاشا اصغري

أهو ابن الفارض؛ لأن البيتين مذكوران في قصيدته البائية المشهورة التي أولها: (سائق الإظعان يطوي البيد طي)؟ أم هو المستشرق المعروف (بالمر) كما ذكر الأستاذ عبد الوهاب الأمين في الرسالة (486: 1004)؟

أقول: لاشك أن هذين البيتين من شعر ابن الفارض، وانهما من يائيته المعروفة. والدليل الذي لا يقبل الشك في ذلك هو انهما موجودان في نسخة الديوان التي حررت وصححت بقلم ابن بنت الشيخ عمر بن الفارض نقلاً عن الشيخ كمال الدين محمد ابن عمر بن الفارض. وعلى هذه النسخة كتب الشيخ حسن البوريني شرحاً طويلاً كثير الفوائد واثبت هذين البيتين وشرحهما. وقد فرغ من شرح القصيدة اليائية سنة 1010هـ (1601م). وكذلك أثبتهما الشيخ عبد الغني النابلسي في شرحه وكتب عليهما وقد فرغ النابلسي من شرحه لديوان ابن الفارض سنة 1123هـ - 1711م فالبوريني شرح البيتين في ديوان ابن الفارض قبل مولد (بالمر) بنحو 339 سنة، والنابلسي شرحهما قبل أن يولد هذا المستشرق بنحو 129 سنة

برهان الدين الدغستاني

كلمة أخيرة في اختلاف القراءات

ما كنت أريد أن أعود إلى الكتابة في موضوع اختلاف القراءات بعد كلمة الأستاذ الفاضل عبد العليم عيسى، ولكني قرأت كلمة للأستاذ الفاضل محمود عرفة يحاول فيها أن يحرف رأيي تحريفاً آخر إلى مذهب القائلين أن القرآن نزل بمعانيه دون ألفاظه وحروفه، وهو مذهب لم يحيي إلا على السنة بعض ذوي المقاصد السيئة من المستشرقين، مع أنه هو الذي اعتنق مذهب أولئك المستشرقين في كلمته الاولى، إذ حمل كل ما لا يدخل من القراءات في باب اختلاف اللهجات على التصحيف، ولم يفرق في ذلك بين قراءات شاذة ومتواترة

ولست أدري كيف يحرف الأستاذ محمود عرفة رأيي هذا التحريف، مع أنه لا يراد منه إلا توجيه هذه القراءات توجيهاً تظهر به الحاجة إليها في عهد النبوة، ويقطع الطريق على من

يزعم أنها حصلت بتحريف بعدها، وإني بعد هذا لست أخالف الأستاذ عرفة في أن القرآن كان يؤخذ من النبي صلى الله عليه وسلم بالتلقي، ولكن كثيراً ممن كان يتلقاه لم يكن يحفظه، فإذا قراه بعد التلقي في مخطوط حصل له الاشتباه الذي ذكرته وقلت أن تلك القراءات والنسيان؛ وهذا هو غرضي من رأيي واضح لدى كل منصف

عبد المتعال الصعيدي

حول كتاب ديكارت للأستاذ عثمان أمين

لاحظت في كتاب (ديكارت) للأستاذ عثمان أمين مدرس تاريخ الفلسفة بكلية الآداب في الفصل الرابع (ص140) المعنون (بالشك المنهجي) فقرات مأخوذة من كتاب (آراء غربية في مسائل شرقية) تعريب الأستاذ عمر فاخوري، من الفصل الذي عنوانه: (الغزالي وديكارت) للكاتب الفرنسي شارل سومان (ص83) دون أن يشير الأستاذ الفاضل إلى هذا الكتاب سواء في مجموعة المصادر التي ذكرها أو في الحواشي التي

أوردها واليك نمطاً من الفقرات المتشابهة في الكتابين:
يقول الأستاذ عثمان أمين في الصفحة (140) من كتابه (ديكارت): اختار ديكارت كما فعل الغزالي من قبل، أقوى الأسلحة والحجج الجدلية التي جمعها الشكاك اليونان من عهد (سكستوس أمير بقوس) وسائر أنصار (بيرون) وادخروها في معاقل المذهب الارتيابي، هي الأسلحة التي لجا إليها (منتيني) صاحب (المقالات) المشهورة وبعده (شرون) في كتابه (الحكمة) (1603)
وفي الصفحة 89 من كتاب (آراء غربية في مسائل شرقية) نجد الكلمات التالية (فإن الغزالي وديكارت كليهما اختارا أقوى الأسلحة الجدلية التي جمعتها البرونية الأفريقية من عهد سكسيوس واونسيدام وادخرتها في ثكنات الشكوكية وهي الأسلحة التي ضرب بها مونتاني وقبله شارون في مؤلفه (الحكمة))
وهناك فقرة في الصفحة (141) من كتاب (ديكارت) تقول: (استبعد ديكارت شهادة لأنها تخدعنا أحياناً، ومن الفطنة إلا نأمن أمنا تاماً لمن خدعنا مرة)
وترجمة الأستاذ عمر فاخوري تقول (ص87) ما يلي: (قال ديكارت لما كانت حواسنا تخدعنا وتخوننا أحياناً أردت نفسي على الاعتقاد بأن لا شيء في حقيقته هو كما تخيله حواسنا، وقال أيضاً: لقد ثبت لي أكثر من مرة أن هذه الحوادث خادعة فمن الرشد إلا (تأمن أمناً تاماً لمن خانك وخدعك مرة
وقد اخذ الأستاذ عثمان أمين كذلك مقارنة بين فقرة من كتاب المنقذ من الضلال للغزالي، وفقرة من كتاب التاملات لديكارت وهما نفس الفقرتين اللتين أوردهما شارل سومان وترجمة الفقرة عن ديكارت هي نفس ترجمة الأستاذ فاخوري، وقد وقع الأستاذ عثمان أمين كل ذلك في حاشية (ص140) و (ص141). فلماذا اغفل الأستاذ اسم شارل سومان وعمر فاخوري من بين أسماء مراجعه؟
(بغداد)
صفاء خلوصي
العدد 494 - بتاريخ: 21 - 12 - 1942
دفاع عن البلاغة - 4
حد البلاغة - 2
قلنا إن البلاغة توجه إلى العقل أو إلى القلب أو أليهما معاً تبعاً لما تقتضيه حالات المخاطبين من مقاومة الجهل والرأي والهوى منفردة أو مجتمعة. فإذا كان غرض البليغ نفي جهالة أو توضيح فكرة أو تقرير رأي، جزاه في إصابة غرضه الصحة والوضوح والمناسبة. فإذا أراد التعليم أو الإقناع وكان قوام الموضوع طائفة من الفكر أو الأدلة وجب عليه أن ينسقها ويسلسلها على مقتضى الأصول المقررة في المنهج العلمي الحديث. أما إذا قصد إلى التأثير والإمتاع لا إلى التعليم والإقناع، كان سبيله أن يتأنق في اختيار لفظه، ويتفنن في تحرير أسلوبه، ويستعين على اجتذاب الأذهان واختلاب الآذان بإبداع الملكة والهام الروح وتشويق المخيلة وتزويق الفن والبلوغ إلى قرارة النفوس أخص صفات البليغ في كل ما يكتب. فلو أن كاتباً وقع على طائفة من الحقائق، أو حصل على مجموعة من الوثائق، ثم حققها ونسقها وأداها في اجمل لفظ وأجود صياغة؛ ولكنه لم يبلغ بها كنه القلوب كان حرياً أن ينعت بما شاء من النعوت إلا البلاغة
والسر في ذلك أن ضروب المعرفة إنما تقوم على الملكات المحصلة، وتعتمد على العقل المجرد، وتثبت بالدليل القاطع. ولكن الإثبات ليس معناه الإقناع، فإن الإقناع لا يكون بغير السيطرة على النفس، والسيطرة على النفس لا تتم بغير البلاغة. هي وحدها التي تعد بالعقل في أدراك الحق، وبالشعور في أدراك الخير، وبالذوق في أدراك الجمال. وهي وحدها التي تنفذ إلى القلب بسلطان غير ملحوظ، وتؤثر في الذهن ببرهان غير ملفوظ، وتذهب في تصوير الواقع وتقرير الحق مذهب الوحي الإلهي الخالد
فالوظيفة الأولى للبلاغة هي الإقناع من طريق التأثير، والإمتاع من طريق التشويق، ولذلك كان اتجاهها إلى تحريك النفس اكثر، وعنايتها بتجويد الأسلوب اشد. وربما جعلوا سر البلاغة في جمال الصياغة

قال أبو هلال: (وليس الشأن في أيراد المعاني؛ لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي، وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه، وكثرة طلاوته ومائه، مع صحة السبك والتركيب، والخلو من أود النظم والتأليف. وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صواباً، ولا يقنع من اللفظ بذلك حتى يكون على ما وصفناه من نعوته التي تقدمت. . . ولهذا تأنق الكاتب في الرسالة والخطيب في الخطبة والشاعر في القصيدة، يبالغون في تجويدها، ويغلون في ترتيبها، ليدلوا على براعتهم. . . ولو كان الأمر في المعاني لطرحوا أكثر ذلك فربحوا كداً كثيراً)

والحق أن اظهر الدلالات في مفهوم البلاغة هي أناقة الديباجة ووثاقة السرد ونصاعة الإيجاز وبراعة الصنعة؛ فإذا كان مع كل ذلك المعنى البكر والشعور الصادق كان الأعجاز. وليس أدل على أن الشان الأول في البلاغة إنما هو لرونق اللفظ وبراعة التركيب، أن المعنى المبذول أو المرذول أو التافه قد يتسم بالجمال ويظفر بالخلود إذا جاد سبكه وحسن معرضه. ولا باس أن اقدم إليك مثلاً من آلاف الأمثلة بلغ معناه الغاية في السوقية والفحش، ومع ذلك تحب أن تسمعه وتحفظه وتعيده لأنه بلغ من سر الصناعة غاية تظلع دونها أكثر الأقلام

قال أبو العيناء الأعمى لابن ثوابة: بلغني ما خاطبت به أبا الصقر؛ وما منعه من استقصاء الجواب إلا أنه لم ير عرضاً فيمضغه، ولا مجداً فيهدمه

فقال له ابن ثوابة: ما أنت والكلام يا مكدي؟

فقال أبو العيناء: لا ينكر على ابن ثمانين سنة قد ذهب بصره، وجفاه سلطانه، أن يعول على إخوانه. . . ثم رماه بمعنى فاحش مكشوف. فقال له ابن ثوابة: (الساعة آمر أحد غلماني بك). فقال أبو العيناء: (أيهما؟ الذي إذا خلوت ركب، أم الذي إذا ركبت خلا؟)

فانظر في هذه الجملة الأخيرة تره رمي ابن ثوابة في نفسه وفي زوجه، وهما معنيان سوقين يترددان كل ساعة على السنة السبابين من أوشاب العامة، وانك مع ذلك تقف من هذه الجملة موقف المشدوه والمعجب، تحرك بها لسانك، وتعمل فيها فكرك، وتعرضها على مقاييس البلاغة وشروطها فتطول على كل قياس وتزيد على كل شرط.

تأمل هذا الإيجاز البارع بحذف متعلقات الفعلين وفيها جوهر المعنى وإصابة الغرض، تجد سر البلاغة كله فيه؛ لأن هذا الحذف مع وضوح المعنى قد نزه الكلام عن صراحة الفحش، وصان المتكلم عن ذكر القبيح، فلو أنه قال خلوت بكذا وخلا بكذا، وركبت كذا وركب كذا، لانحط الكلام

عن مقام البلاغة وصار بهذر العامة أشبه. وكان بحسب البليغ هذا الإيجاز المشرق، ولكنه ضم إليه من أنواع البديع (العكس) و (أسلوب الحكيم) فعكس الفعلين، واستعملهما في معنيين مختلفين، وكل ذلك في غير تكلف ولا تعسف ولا غموض.

فأنت ترى أن الصياغة وحدها هي التي سمت بهذه المعاني الخسيسة إلى أفق البلاغة فتداولتها الألسن وتناقلتها الكتب. وليس حال المعنى في ذلك حال اللفظ؛ فإن اللفظ في ذاته كالموسيقى يخلب الأذن ويلذ الشعور وإن لم يترجم؛ أما المعنى فالكهرباء، إذا لم يكن لفظه جيد التوصيل انقطع تياره فلا يعرب ولا يطرب. أقرأ قول القائل:

لما أطعناكمُ في سخط خالقنا ... لاشك سلّ علينا سيف نقمته

ثم وازن معناه الشريف ونسجه السخيف، بما رويت لك من كلام أبي العيناء، فلا يسعك إلا أن تقول كما أقول: إن القذر يوضع في آنية الذهب فيقبل ويحمل؛ وإن المسك يوضع في نافجة الطين فيرفض ويهمل.

(للكلام بقية)

أحمد حسن الزيات

دار الهوى

في عيد القمر

للدكتور زكي مبارك

أخي الأستاذ الزيات

هل تذكر أني وجهت إليك مقالاً من بغداد عن (القلب الغريب في ليلة عيد) منذ نحو أربع سنين؟ وهل تذكر أني تشوقت إلى دار تحب العيد وتحن إليه لأنها تراني مع العيد؟ ذلك مقال قبسته من نار قلبي، وأخذت مداده من دمي، وأرسلته تحية إلى دار عظمت ديونها على قلمي

وإنما وجهت إليك ذلك المقال لأثير في روحك التشوف إلى تعليل ما تعاني الأرواح من متاعب ليس لها في الظاهر سناد من مطالب المجد في هذا الوجود
فهل فكرت في تعليل هذا المعنى؟
وهل حاولت الدفاع عن الأعمار التي تضيع في تشريح نوازع الوجدان؟
أنا أطالبك بالرجوع إلى الوجدانيات، بجانب ما أقبلت عليه من الاجتماعيات، فقد كاد الأدب يخلو من الحديث عن أوطار الأرواح والقلوب ولا قيمة للأدب إن اغفل الحديث عن أوطار الأرواح والقلوب
واليك القصة آلاتية:
في حفلة من حفلات إحدى الطوائف المسيحية تسابق الحاضرون لتقبيل يد البطريرك، فرايته ينهض بقوة ليعانق من يسارعون إلى التسليم عليه، مع أنه فيما سمعت قد جاوز التسعين
وعندئذ غلبني الفكر الفلسفي فقلت لجاري في المحفل: إن راحة رجال الدين من هموم الحياة تمنحهم طول الصحة والعافية
فقال جاري بتحمس: كيف ترى ذلك وغبطة البطريرك يحمل هموم الطائفة كلها، ويعني نفسه بالدقائق الخفية لجميع البيوت؟
فقلت: المتاعب الفردية اعنف من المتاعب العمومية، فالرجل الذي يحمل هموم بيت يعد أهله بالآحاد أشقى من الرجل الذي يحمل هموم طائفة يعد أبناؤها بالألوف أو الملايين.
وهل يحزن وزير المعارف لسوء نتائج الامتحانات العمومية بقدر ما يحزن لو رسب ابنه في الامتحان؟
إحساسنا الصادق يصدر عن متاعبنا الذاتية أولاً وقبل كل شئ، ثم يتفرع فيتصل بالمجتمع القريب أو البعيد، وهل بكى النبي محمد لوفاة أي طفل كما بكى لوفاة ابنه إبراهيم؟
وإذن يكون من حقي أن أقول إن الأدب الذي يصور الذاتيات هو اصدق الآداب، وهو الآية الباقية على الصدق الأصيل، فمن الجناية على الأدب أن نشغل أقلامنا بهموم خارجية قبل أن نستوفي التعبير عن همومنا الداخلية
للمجتمع حقوق على القلم البليغ، يوم يتأثر الكاتب بتلك الحقوق، ويوم يرى أنه عن تأييدها مسؤول أمام الضمير الأدبي لا أمام الناس
وأنت ذلك الكاتب، يا صديقي، فاتجاهاتك الاجتماعية تشهد بأنك تحس آلام المجتمع اصدق إحساس، وسيكون لك في هذا الميدان مكان يحفظه التاريخ
وأنا ارتضي لنفسي ما ارتضي لك، لولا تلك الدار التي أسرت قلبي عدداً من السني، ولم استطع التحرر من أسرها بأي جهاد
إن تاب الله علي من الهيام بتلك الدار فسأجاريك في ميدانك، وسيطول بيني وبينك السجال، ولكني أرى الله اكرم من أن يجود بذلك المتاب، لأن نعمته علي في هذه الضلالة اعظم من نعمته بالهداية على من يغضون أبصارهم عن سحر الجمال
وهل كان من العبث أن يتفضل الله فينوع الخلائق بهذا الوجود؟
إنه نوع الخلائق لينوع العواطف
هل تذكر ما تصنع النسائم بالسحاب والرمال؟
رأيت بالأمس عجباً من العجب: رأيت سحباً مطرزة بسماء (مصر الجديدة) على اظرف ما يكون التطريز. وبدأ لي أن أجوب الصحراء في ذلك الوقت فرأيت النسائم صنعت بالرمال ذلك الصنيع
أيعجز قلم الكاتب الصوال عما يقدر عليه النسيم الجوال؟
النسيم يبعث، وما وصف النسيم بغير العبث، ثم تكون له القدرة على هذا الافتنان، فكيف نعجز في الجد عما استطاعه النسيم في الهزل؟
الدار التي أهوى تضلني وتغلي عقلي بأوثق الأغلال
الدار التي أهوى تصنع بقلبي فوق ما تصنع النسائم العوابث بالسحائب والرمال
الدار التي أهوى حرمت أضواء المصابيح أكثر من شهرين، إلى معاد، أو إلى غير معاد، فما أدري ما تضمر الأقدار لمصاير ذلك الهوى النبيل، ولا أعرف متى نلتقي طائعين أو كارهين

كلَّ يومٍ لنا عتابٌ جديدٌ ... ينقضي دهرنا ونحنِ غضابُ
إن تلاقينا - ومتى التلاقي - فستكون لنا شؤون وشجون
إن عادت الدار إلى العهد الذي أعرف فساكون من الحجاج في العام المقبل، وسأنفق جميع أموالي على الفقراء والمساكين.
ثم ماذا؟
ثم أقص على الأستاذ الزيات هذا الحديث:
في صباح اليوم وأنا في طريقي إلى الواجب قرأت في إحدى الجرائد أن المحكمة الشرعية أعلنت أن شهر ذي الحجة يبتدئ بيوم الأربعاء، فعرفت أنني حرمت رؤية الهلال ثلاث ليال. ثم خف حزني حين تذكرت أن القمر غاب عن تلك الدار أكثر من شهرين
ما هذه اللجاجة في الحب؟
وما الطمع في كرم الزمان البخيل؟
ارجعوا إلى الدار، دار الهوى، قبل أن تسمعوا من نذير الأقدار ما لا تحبون
ارجعوا إلى دار الهوى في عيد القمر غير مأمورين
ارجعوا، فللدار التي شهدت مولد هوانا حقوق
ارجعوا، فالفضيحة في غرامي تكريم وتشريف، لأني قيثارة الغرام في الحان الخلود
عيد القمر آت بعد ليال، فهل أراكم في غرة تلك الليال؟
القمر يفي، فهل تفون؟
القمر يساير الفصول من شتاء وربيع وصيف وخريف، فهل تسايرون أحوالي من نزق وطيش وقرار وجمود؟
أنا أنا، فهل انتم انتم؟
لقد صبرت وصابرت لتشهد أحجار تلك الدار أن لها بقايا من الوفاء التي تدخره كرام القلوب
سينطق الحجر قبل أن تنطقوا، ولقد نطق فحياني ألوف المرات وانتم في غيابة العقوق
وماذا تنتظر مني تلك الأحجار؟
أنها ترجو مني ما أرجو منكم، ترجو سلاماً من عابر سبيل، وانتم هددتم وتوعدتم بأن لا لقاء في غير الفضاء
عودوا إلى الدار، دار الهوى، عودوا إليها سالمين غانمين، فأني اعد لكم قتالاً الطف وارفق من السلام
عودوا إلى الدار في عيد القمر، وهو آت بعد ليال
عودوا إلي فما قلبي بمصطبر ... على نواكم ولا في العمر متسعُ
إن متُّ قبل لقاكم أو فقدتكمُ ... قبل الممات فحظي عاثرٌ ظَلِعُ
أنا في انتظار القمر بعيد القمر، فهل يعود مع العيد؟ وهل اشهد كلف جبينه وهو غضبان؟
عودوا إلى الدار لا إلي، فقد كادت أحجارها تذوب من نار الاشتياق
يا غاضبين علينا كيف حالكمُ ... وكيف دارٌ بها للروح مرتَبَعُ
دارٌ جَلَوْنا بها حيناً سرائرنا ... كأن أيامها في صَفْوها جُمَعُ
لمُ يغدق الله فضلاً فاق نعمتهُ ... بوصل روحي بكم والشمل مجتمعُ
أما بعد فما رأي صديقي الزيات في هذا الحديث؟ وهل يراني في ضلال وأنا أناجيه بما لا يريد بعد أن هجر صديقه لامرتين؟
حال العين حال القلب، وللعيون والقلوب أحوال
وقد أشار طبيبي بنظارة تمنع التشرد من أضواء عيني، فمتى يشير طبيبي بنظارة تمنع التشرد من أضواء قلبي؟
لن يكون لقلبي حدود. لن تكون تلك الحدود ولن تكون، وسيعجز الطب عن جمع الأشعة من أنوار القلوب
متى نلتقي يا دار هواي؟ متى؟
عيد القمر آتٍ بعد ليال، فهل نتقاتل بعد ليال؟
زكي مبارك

العيد
للأستاذ محمد عرفة

لست مسرفاً إذا قلت إن كثيراً من الناس يعيدون ولا يدركون معنى العيد، ولا الغرض المقصود منه. لا يدركون من العيد إلا أنه يوم عطلة، يفرغ الناس فيه من أعمالهم، ويتفرغون إلى طعامهم وشرابهم ولعبهم ولهوهم

فعلينا أن نعمل لنفهم معنى العيد لنودعه على الوجه الأكمل. إن الناظر إلى أعيادنا الإسلامية التي شرعها الإسلام يرى أنها تكون عقب عبادة طويلة شاقة مضنية، فيها جهاد للنفس والشهوات. فعيد الفطر يأتي في أعقاب الصيام، والصيام عبادة شاقة، فيه منع النفس من شهواتها، وفيه الصبر عن الطعام والشراب، فإذا انتهى شهر الصوم حل عيد الفطر، فيفرح فيه المسلمون ويوسعون على أنفسهم وعيالهم وعلى فقرائهم. وعيد الأضحى يقبل بعد أن كادت تتم أعمال الحج، وفي الحج سفر طويل، ونفقة كثيرة، ومنع النفس من بعض الطيبات، فإذا جاء عيد الأضحى ذبح المسلمون ذبائحهم ووسعوا على أنفسهم وعيالهم وفقرائهم

ولعلكم بعد هذا قد أدركتم معنى العيد، وفهمتم سر فرح المسلمين فيه. لعلكم أدركتم انهم يفرحون في عيد الفطر بشيء سام، هو النصر: النصر على الشهوات، لأنهم مكثوا شهراً يمنعون أنفسهم في نهاره عن الطعام والشراب وبقية الشهوات الشهية إلى النفس والمحببة إليها فانتصروا؛ والنصر على الشيطان، فقد أراد إغواءهم وإضلالهم، واستعان على ذلك بالشهوات الممنوعة، والنوازع القوية، فانتصروا، لم تتغلب عليهم الشهوة، ولم يتغلب عليهم الشيطان، في هذا الكفاح. وما قلناه في عيد الفطر يقال في عيد لأضحى، فهو عيد النصر: النصر على النفس، والنصر على الشيطان؛ وسواء فيه الحاج وغير الحاج، فالحاج جاهد وصابر واحتمل الآلام واجتاز الأهوال وخرج من المعركة مظفراً منصوراً. وكذلك من لم يحج. العيد عيده، وهو به جد فرح مستبشر، وبشره بشر المسلم بالنعمة تتم على أخيه المسلم، ونصره وظفره لأن الله نصر إخوانه الحجاج، فوفقهم جميعاً لأداء الحج وإتمام عبادة من أسمى العبادات، ومسرته لأن الله اقدر المسلمين على إتمام موسم الحج، فلم يمنعهم قاهر ولا متسلط عن أقامته، فهو مزهو فخور وفرح مستبشر بعزة الإسلام وتمكين الله له في الأرض

وفي العيد - فوق هذا النصر وذلكم التوفيق - تقوية للروابط الوثيقة بين المسلمين، لأنهم يشتركون جميعاً في استقباله والترحيب والسرور به؛ والاشتراك في العاطفة داع إلى المحبة، واشتراك الجماعة في أمر يعمهم ويشملهم مشعر لهم بأنهم وحدة، عواطفهم واحدة، وآمالهم واحدة، وآلامهم واحدة. ولست تجد ادعى إلى المحبة من الاشتراك، ولا ادعى إلى التنافر من الاختلاف. ثم هم يشتركون قبل ذلك كله في أيام أعيادهم في شؤون الحياة وأمور القوت اشتراكاً يظهرهم في أروع مظهر من مظاهر التضامن الاجتماعي الوثيق، ففي عيد الفطر يخرج المسلم صدقة الفطر قبل صلاة العيد، وفي عيد الأضحى يذبح أضحيته ضحى يوم العيد، ويأخذ الفقراء حقوقهم من الصدقة والأضحية، فيفرغون إلى العيد واستقباله والفرح به والشعور بجماله، لا يشغلهم عن ذلك طلب القوت ومشكلات المعيشة؛ ويعم البشر والسعادة الناس جميعاً، فالأغنياء يفيضون من سعادتهم وبشرهم على إخوانهم من الفقراء

وفي العيد معان كثيرة أروعها أنه عيد النصر وعيد الظفر على النفس والشيطان؛ والمسلمون يفرحون بالعيد، لأن الله امتحن عزائمهم فوجدها قوية، وصبرهم فألفاه ثابتاً، وأيمانهم فألفاه راسخاً، وخرجوا من الامتحان مؤمنين، أقوياء، راسخين، بل خرجوا منه اشد واعظم شعوراً بمعاني القوة والإيمان.

وهذا المعنى في العيد يجعل الفرح فيه عبادة، لأن الفرح بإتمام العبادة عبادة، والفرح بقهر الشهوات عبادة، والفرح بالتغلب على الشيطان وجنده عبادة.

هذا المعنى في العيد يسمو بالعيد عن العبث، ويجعله معنى سامياً يوحي إلى النفس معنى العزة بالنفس، ومعنى القوة والغلبة، ومعنى العظمة والانتصار، يوحي إلى النفس معنى قوة الإرادة، ويوحي إلى الناس معنى تثبيت إنسانيتهم، وانهم خرجوا عن الأفق الذي تملكهم فيه شهواتهم إلى الأفق الذي يملكون فيه شهواتهم. والنفوس إذا

أوحي إليها بما فيها من معان سامية ازدادت فيها رسوخاً، وحفرها هذا إلى تحصيل غيرها من الخلق الفاضل الكريم

أرايتم كيف كان العيد معنى إنسانياً سامياً بعد أن كان أمراً حيوانياً ضئيلاً جافاً لا حياة فيه

ولا روح؟ أرايتم كيف صار شيئاً نافعاً مفيداً يوحي إلى النفوس معانيها من القوة والنصر على الأعداء، والارتفاع عن أفق الحيوانية المحدود، بعد أن كان شيئاً مغسولاً من النفع والسمو والخير والإفادة؟

إنما العيد عيد المجاهدين الذين جاهدوا في الله حق جهاده، فانتصروا على النفس والشيطان؛ أما هؤلاء الذين غلبتهم أنفسهم وشهواتهم، واخلدوا إلى الأرض، فليس لهم منه إلا الهم والحسرة، لأن الناس خرجوا منه أقوياء منتصرين، من حيث منوا هم فيه بالضعف والهزيمة وبالارتكاس والخذلان.

محمد عرفة

نشأة النطق بالكلام

وعلاقته بأصل اللغة وتطورها ولهجاتها

للأستاذ إبراهيم إبراهيم يوسف

مقدمة

أتى على موطن العربية حين من الدهر، خفي علينا ميقاته، تضافرت أبانه عصبة من العوامل الاجتماعية القاهرة، فقست على أبناء العربية قسوة كان من بعض شانها أن أخرجت فريقاً منهم من ديارهم، يضربون في الارض، يقتبلون مواطن جديدة ويسيرون في كل صوب زرافات ووحداناً مهاجرين ساعين في طلب الرزق. والرأي عندي أن تباعد هؤلاء وتنائيهم عن ديارهم، وتفرقهم وتشتتهم في أصقاع مختلفة، قد حفز الأكثرين نظراً في بواطن أمورهم إلى البحث في مآل الله التي يتفاهمون بها، فتبين لهم أن الدهر سوف ينال منها منالاً إذا ما تركوا أمرها للقدر، وأن لا عاصم لها من قسوته إذا ما تقاعسوا عن تحصين جزيئاتها وكلياتها، وأن لا مناص من أن تتستر معالمها، وتتنكر معارفها، وتتبلبل السن الناطقين بها يوم يخذلونها. وأكبر ظني أن كانت العربية لذلك العهد قد تبلورت وصارت أكثر ما تكون قرابة للغة الأدب التي ورثنا إياها التاريخ. فعزت على القوم أن تصاب لغتهم بذلك الذي توقعه أهل الرأي عندهم. ومن ثم قام أجلتهم يحتاطون للأمر؛ وذهب نفر من علمائهم إلى وجوب وضع دساتير للغة تحميها شر عدوان الزمن، وتحفظها على طول الأمد، وما إن استقر الرأي على هذا، حتى بدءوا العمل به. فكانت هذه فيما أرى، البداية المباركة في وضع علوم اللغة للسان العرب

وإذاً، فقد نشأت هذه العلوم في كنف من الغموض، يحجبها عنا عصر خفي علينا زمانه، واختفى معه كل اثر لمحاولات الأئمة الأول، تلك المحاولات التي انتهت بهذه الدساتير المسوقة إلينا من نحو وصرف وإعراب وغيره

وكان من الطبيعي أن يجر البحث في وضع دساتير اللغة إلى محاولة التفلسف فيها.

وهكذا كان شأن علماء العربية، إذ نجد أن بعض الباحثين من علماء العصر الأول الإسلامي لهم فيها مسائل، ومن بينها مسألة النطق بالكلام. وهذه المسالة إذاً، ليست وليدة الأبحاث العلمية

في علوم اللغة لعصر من العصور الحديثة، كما يزعم الزاعمون من رجال العلم في الغرب، بل هي - على حد ما وصل إليه تحقيقنا - مسألة ترتقي عند أبناء العربية إلى أول عهدهم بالقران الكريم، حين اقبلوا على تفسيره ودراسته دراسة لغوية توطئة لفقه دقائق ما جاء به. بل ومن المحتمل غاية الاحتمال أن تكون هذه المسالة ابعد غوراً مما ذكرنا وذلك استناداً إلى ما وضح لنا من أن نشأة علوم اللغة قد سبقت العصر الإسلامي، وأن التفلسف فيها كان ملازما لنشأتها. وقد يصبح هذا الاحتمال يقيناً لا مريه فيه. حين تتجه الأبحاث العلمية إلى تحقيق تاريخ وضع دساتير اللغة، وتنتهي إلى ما تطمئن إليه في هذه الناحية

وسواء أصحت هذه الدعوى الثانية أم لم تصح، فليس هذا الذي قام به أفاضل المسلمين الأول من تفلسف في الأبحاث اللغوية بالأمر اليسير الشأن، ولا هو بالمستكثر عليهم. فالعرب، ويشاركهم في ذلك أبناء الصين، يفضلون في رأي جمهرة

اللغويين الحديثين، بقية الشعوب بنزعتهم إلى التفقه في اللغة. وهذه النزعة هي التي حملتهم على النهوض بالدراسات اللغوية نهوضاً مبكراً، تجلى أثره في وفرة ما صنفه العرب من كتب ورسائل في علوم اللغة، كما تبين خبره في كثير مما تفرق لهم من أبحاث في مختلف مسائلها جاءت ضمن عدد آخر من موسوع مؤلفاتهم. وليس بغريب - وهذه حالهم - أن نجد في بعض مصنفاتهم الخاصة بعلوم اللغة، وكذلك تلك التي لها بعلوم اللغة صلة، نزعة فلسفية واضحة

ويمكننا القول، استناداً إلى ما وسعته المكتبة العربية من مصنفات وصلت ألينا، أن الفخر الرازي كان أول من تقصى آراء المتقدمين، وذهب إلى نقد فريق ممن تفلسفوا في هذه المسائل. وأن السيوطي كان أول من عنى من المتأخرين بإيضاح هذه الناحية، وعمل على بسط آراء من تقدموه بسطاً مجملاً. وأن جولد تسهير كان أول من اهتدى من المستشرقين إلى هذا. فلما أن وقف الغربيون على مجرى تفكير العرب هذا، أكبروا فيهم تفقههم المبكر في اللغة، ودهشوا لعناية العرب بهذا الضرب من التفكير الفلسفي، قبل أن يتقدم إليه أساتذتهم اليونانيون في الفلسفة

ولعل الذي حدا بالعرب إلى هذا النوع من التفكير الفلسفي ما أثير من قوله تعالى: (وعلم آدم الأسماء كلها). فذهب جماعة من أهل السنة إلى أن لغة العرب توقيف ووحي. واتفق

آخرون من أهل النظر، وأكثرهم من المعتزلة، على أن اصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح، وجرهم هذا الخلاف في الرأي إلى النظر في أمر وضع اللغة وأوليتها ومنشئها. وسلكوا في ذلك مذاهب؛ فالتزمت فئة منهم التحقيق العلمي لا تميل عنه في أبحاثها، واستسلمت فئة أخرى إلى ظنون تعوزها الأدلة، فراحت تستجدي من الدين المعونة. وكان كلما اتسع الخلاف في الرأي على هذه المسائل، كان الاقتراب من الحقيقة أدنى. وكان هذا اقرب للوقوع كلما أحيطت حرية الرأي بسياج من الضمان يكفل ازدهارها. ثم صار ذلك الضمان دستوراً نافذ المفعول للدولة الإسلامية أبان سؤددها. وبقيت حرية الفكر قائمة، مدعمة من الجميع، مكفولة للجميع، فأينعت علوم الدين وعلوم الدنيا. وكانت علوم اللغة إذ ذاك مشاعة بين هذه وتلك. فعلماء الدين يعتبرونها من نصيبهم، إذ هي دعامة تفهم الديانة. وعلماء الدنيا يعدونها حقاً من حقوقهم، إذ هي مفتاح سائر العلوم. وهكذا فازت اللغة بما لم تحظ به بقية العلوم، إذ ارتشفت عصارة فكر الفريقين جميعاً

إلا أن هذا التهافت على خدمة اللغة اصبح لا وجود له، بعد أن فشا استبداد الرأي في الحكم والعلم، وضاق النطاق على حرية القول والفكر. فكان ذلك إيذاناً بانتهاء العصر الذهبي للغة العربية. وما كان ذلك ليقع إلا ويختفي بوقوعه أعمال رهط من جهابذة علماء اللغة. فحيل بينها وبين الظهور أعماراً عديدة، أو هي اندثرت إلى غير بعث أو نشر. ومن ثم ضاع الكثير من الدرر الغوالي التي ازدانت بها مصنفات اللغة في العصور الإسلامية المتقدمة، كما ضاع غيرها للعصر الجاهلي. ولا عجب وقد تمثل لنا بعض ما أصاب لغتنا، أن يتفق الرأي، عند أهل التحقيق من أصحاب علم العربية، على أن الذي انتهى إلينا من كلام العرب هو الأقل. وما كان هذا الحال ليقعد علماء العربية عن واجبهم، أو ليدفعهم إلى شيء من التفريط في أمانتهم التي تشرفوا بحملها. فظهر منهم في العصور المتأخرة عدد من المجتهدين أرادوا بعلوم اللغة خيراً، فعمدوا إلى ما ورثه لنا أسلافنا الأول يريدون تنميته وتعزيزه. ولكنهم أبوا أن يسايروا الزمن فيما تطورت إليه العلوم، وما استنبط من طرائق ووسائل للقيام بأبحاث علمية، اهتدى إليها المفكرون في الأمم النابهة، فأصابهم ما أعجزهم عن متابعة السير، وبقيت علوم اللغة حيث كانت.

والآن، وقد أصاب العربية الفصحى ما أصابها، وأدركها الركود، فباعد بينها وبين أن تفي بحاجات الحياة في العصر الحاضر، أو تفي بمطالب العلوم والفنون في تقدمها المطرد، فلا سبيل لإحيائها إلا بانتهاج نهج علمي غير الذي سار عليه المتأخرون من أبناء العربية إلى اليوم. وهو إن يكن في مجموعه جديداً بالنسبة لنا، فقد سبقتنا إليه أمم الغرب وبعض أمم الشرق، فجدت طلائع علمائهم في دراسة لغاتهم، وعكف نفر منهم على دراسة لغتنا على أساس من العلم صحيح. وكان أن وفقوا إلى استنباط علوم جديدة يستكملون بها علوم العربية؛ فافردوا لكل من اللهجات والأصوات

والدلالات اللفظية والمفردات وتشكل الكلمات والأساليب علوماً قائمة برأسها، ثم ربطوا هذه العلوم بعضها ببعض. والتزموا فوق هذا وذاك دراسة جميع اللغات الشرقية وغيرها مما له بالعربية صلة، وذلك توطئة لدراسة النحو المقارن للغات السامية، وتوصلاً إلى معرفة اصل الكلمات ونسبها. وفي ذلك كله تيسير لمعرفة التطور التاريخي لمعاني الكلمات، وتذليل لمعرفة التطور العام للغة. وما كان لهؤلاء الآجلة من العلماء ليتجشموا كل ذلك الذي وجب علينا أن نتجشمه، إلا ابتغاء الكشف عن أسرار العربية والتشبع بروح هذه اللغة الشريفة. ولكن قد لا يتهيأ لنا ولهم الاستفادة من هذه العلوم، استفادة ترضي الوجه الصحيح من البحث العلمي، حتى يخرج لنا المحققون ثمين ما صنفه الأقدمون في علوم اللغة، وفي سائر العلوم التي لها بالعربية صلة، وذلك من عالم المخطوطات إلى عالم المطبوعات، على أن تكون طبعات علمية صحيحة

ومن ذلك كله يتضح لنا إن هذا النهج رغم وفرته لا مفر من انتهاجه. وإنه وإن يكن نهجاً وعر المسالك كثير الشعب، إلا أنه كفيل بأحياء العربية والمد في عمرها ابد الآبدين. فإذا ما صحت عزيمتنا على السير فيه أدينا للعربية أجل خدمة ترتجي لها في وقفتها هذه. ولاشك أن حب اللغة، ذلك الحب الذي يفضل به الإنسان الحيوان، سوف ييسر لنا هذه المهمة الشاقة فيدفعنا إلى تحقيقها دفعاً في عزيمة صادقة ثابتة، وبنفس راضية مطمئنة. وحين يعمل علماؤنا على أداء هذه الرسالة يتبارون ضمناً في إشعال جذوة الثقافة بين أبناء العربية، ويساهمون فوراً في تفجر نهضة صحيحة. وقد ثبت أن لا قيام لنهضة فكرية ما لم تبدأ بإنهاض اللغة

وقد أدرك القدامى من أهل التحقيق ذلك، إذ قالوا: لا تعمر عراص الدين والعلم والأدب إلا

بطول عمر اللغة. نعم، ولكن لا يطول عمر اللغة حتى يحال بينها وبين اكتهالها فشيخوختها، ولا يقيها شر الشيخوخة إلا ضمان فتوتها، ولا بقاء لفتوة إلا مع التجديد، ولا يكون التجديد حتى يدرك تطورها، ولا تطور يرتجي حتى يتبين اصلها ونشاتها، ولا تعرف لها نشأة حتى نهتدي إلى نشأة النطق بالكلام. وهذا ما أرجو أن أحاول بحثه في غير إطالة متوخياً عقده في فصول متتابعة.

إبراهيم إبراهيم يوسف
مساعد الأستاذ أ. فيشر
بمجمع فؤاد الأول للغة العربية

من القصص الإسلامي

جارية البصرة

للأستاذ صلاح الدين المنجد

كانت الجمال تميس ميساناً هادئاً، تحمل الخليفة الرشيد إلى الحج. وكان لابد لها، وقد بلغت البصرة، من الوقوف بها ليتمتع الركب بما فيها من جمال وجلال؛ فقد كانت هادئة انيقة، تستفيق على همس النخيل كأنه وسوسة القبل، وتنام على دغدغات دجلة كأنها مناغاة ألام، وزغردة الوليد. وكان أهلها، إلى ذلك، من أكثر الناس اقتناء للعاج والديباج، وكان نساؤها مشهورات بالدلال، وبيوتها ضاحكات بالفضة باسمات بالذهب. . ونهرها يفيض متدفقاً صخوباً يتساقط في أوله الرطب، ويتمايل على حفافيه النخيل والقصب.

ونزل الخليفة، ومعه جعفر بن يحيى، ووراءهما حاشية عريضة من الملهين والمغنين والزهاد.

ولم ير الرشيد أن يتحول عن هذه المدينة قبل أن يعلم أحوال الناس فيها؛ فدفع جعفراً إلى الطواف بها، ليتحسس اخبارها ثم يعود فيخبره بما سمع وبما رأى.

فلما عاد عشية ذلك اليوم قال له الرشيد: (إيه يا جعفر! حدثني بعجيب ما رأيت. . .)

قال جعفر: (لقد طوفت في المدينة يا أمير المؤمنين، فسمعت من ناسها ما يشكون وما يرغبون. وكنت اعلم كل شيء من غير عناء لتنكري. فلما كنت في إحدى الأسواق، اقبل علي نخاس يبيع الجواري والقيان، وهمس في أذني أن لديه جارية مغنية تباع، وأن مولاها ممتنع من عرضها إلا في داره؛ فتطلعت نفسي إلى معرفة أمرها، وتاقت لرؤيتها، فمضيت معه. . . حتى وقف عند باب شاهق يدل على نعمة وثراء، فطرقه؛

وإذا شاب حسن الوجه، دقيق العود، عليه قميص ممزق، يفتح لنا. فدخلنا إلى دهليز طويل مظلم. . . وانتهينا إلى دار واسعة خراب. فاخرج لنا الفتى من غرفة قطعة متآكلة من حصير، ففرشها لنا، وجلسنا عليها، ثم مضى ليحضر المغنية، فأخذت أفكر في أمر هذه الجارية، وتساءلت لم تعيش في هذه الخرائب؟ ومن تكون. . .؟ وما شأن هذا الفتى معها؟. . . وإذا بها تخرج علينا، زهراء غيداء، وعليها القميص الممزق الذي كان يلبسه الفتى منذ لحظات. فرايتها صبيحة الوجه، مياسة القد، حلوة العينين، ناهدة الثديين، وأدهشتني ببراعة جمالها ونضارة جسمها؛ فأمرتها بالجلوس وتقدمت إليها بالغناء. فضربت على عود ضرباً ما سمعت ارق ولا أحلى حلاوة منه، واندفعت تغني:

نمّتْ علينا زفرةٌ صاعدهْ ... وملّني العائدُ والعائدْ

فلم اسمع يا أمير المؤمنين أشجى ولا افجع ولا اطرب من غنائها. ثم أخذت تبكي، وذرفت دمعاً هاج حزني ولكم قلبي، وأرسلت آهات ناعمات من صدر ملوع وقلب مفجع. ثم سمعنا فجأة بكاء الفتى من الغرفة المجاورة. فقامت الجارية إليه. وطرق آذاننا صوت بكاء محزن، وشهيق اليم؛ ثم سكنت الأصوات حتى حسبنا انهما ماتا. فعجبنا من أمرهما، وقلت للنخاس: (ويحك! قم فانظر ماذا أصابهما. . .) وإذا بالفتى يخرج قائلاً: (عفواً يا سادتي. . .!) ثم غلبه البكاء فلم يستطع الكلام. فأشفقت عليه وقلت: (ما حالك يا فتى؟) فبكى. فأعدت عليه السؤال وألححت في الطلب، فتحرك وقال:

(نشأت نشأة فريدة مغمورة بالعطف والدلال. وكان أبي موسراً، أزهرت النعمة في دياره وتدفقت الدنانير عليه. وكنت ألهو في بستان يحيط بالقصر مع هذه الجارية التي ربتها أمي. فكنا نرتع فوق العشب، ونغوص في الماء، ونتسلق النخيل، ونطلق أنفسنا في لهو الطفولة الحلو. على أني كنت أحس بانقباض في صدري إذا ابتعدت مني؛ واشعر بالوحشة تغمرني كلما غابت عني، فلما بلغت السابعة وبلغتها، جيء لي بمؤدب يؤدبني، واتى لها بمغنية تتخرج عليها. أما أنا فتوفرت على الأدب التقط النوادر، واحفظ الفرائد، واروي الأشعار والأحاديث. وأما هي فقد انقطعت إلى الغناء لتمهر في طرائقه وتبرع في أصواته. فلما أورق غصني ورف صباي، ازداد حبها في قلبي؛ وخطبني وجوه أهل البصرة لبناتهم، وذاع صيتي في البيوتات، وأصبحت أمنية العذارى والفتيات، ورغبن فيّ لفصاحتي وأدبي ووفرة مالي. فأعرضت عنهن جميعاً وصبوت إلى هذه الجارية التي كان الجمال يرتع في جسمها، والفتنة تسجو في عينيها، فيتحرق قلبي ويتألم، ويضؤل جسمي ويرق

لقد كان صوتها، يا مولاي، مسكراً ناعماً حلواً. كنت انتشى فاغمر فمها الحلو الصغير بقبلي. . . أو اجثوا أمام قدميها فيزداد طربي. . . لقد كان في صوتها شيء يداعب الروح لا أدري كنه؛ شيء فيه نعومة وشهوة وحنين. فكانت إذا فرغت من الغناء جلست أمامي لأطربها بالأشعار، وأضحكها بالنوادر، وأطرفها بالأحاديث

فلم بلغ بها الغناء مبلغاً بعيداً، عزمت أمي على بيعها، وهي لا تدري ما في نفسي من وجد وشوق. فغامت الدنيا في عيني، ولجت نفسي في ألوان من الأفعال اقلها الانتحار. ثم قررت أن اصدق أمي خبري فأخبرتها. فأشفقت علي ووهبتها لي، وجهزها أبي كما يجهز أهل البيوتات بناتهن وجواريهن

ونعمت معها دهراً لهوت بها عن الدنيا وما فيها. وكنت احب سماع صوتها في الاماسي والأصابيح تحت ظلال النخيل، وبين القصب؛ فكانت تغنيني فأتيه وأغيب. ولكني وا أسفاه! لم اصح من هدهدات الغناء إلا على نوح النائحات وبكاء الباكيات؛ فقد مات أبي، وأنا ما أزال في ريعان الصبا

وانتقل إليّ بوفاته ما لا أحصيه من الأموال. على أني لم أكد أسلو لوعة الفقد الأولى. حتى عاجل الموت أمي. فبكيت وحزنت، ثم أغواني الشيطان وقال: مالك وللحزن! إن شبابك يفنى وعمرك ينقضي، فانعم ولذ بجاريتك. فأسأت تدبير الأموال، وعكفت على اللهو والقيان، فتلفت نعمتي، وابتزت الحسان مالي، فعشت في هذه الخرائب كما ترى؛ بكاء على الماضي وحنين لأيام الهناءة والنعيم

وذرف دمعة، يا أمير المؤمنين، وصمت. فقلت له: ثم ماذا؟ أتمم. . . أتمم. . .! قال: (وبقيت على ذلك سنتين، لا نذوق طعم اللحم إلا لماماً. وكانت يا مولاي وفية، لا

تستطيع مفارقتي رغم ما تلاقيه من ضنك العيش ومرارة الإقلال. وكانت تحبني حباً عنيفاً، فادركتني الشفقة عليها، وقلت لها: استمعي يا أختاه! لقد عبست لنا الأيام، فأصبحنا كما ترين، وأنت ما تزالين غضة الصبا، ريانة الشباب، وأنا آلم لما تكابدينه من البؤس والفقر، واعلم أني تالف متى فارقتك، ولكني أوثر أن أراك منعمة هانئة، فدعيني أعرضك على أصحاب الخليفة، فلعل واحداً يشتريك فتنعمي معه برغد العيش!
فبكت بكاء كله وله وحنين وقالت: (مالي وللطعام، مالي وللثياب، وأنت إلى جانبي. أنا أريدك أنت، أنت وحدك، لا أريد مالاً ولا ثياباً. . .!) فحزنت وقلقت، ولكني خرجت سراً إلى هذا النخاس فأطلعته طلع أمري، وأعلمته أني لا اعرضها إلا في داري لئلا تمتهن بالأسواق ويراها السوقة والعوام.
فلما جئتنا الساعة، بقيت في الغرفة، وألبستها ثوبي الممزق فما عندي ولا عندها غيره.
وجلست ابكي. ولما دخلت عليّ بعد غنائها قالت لي: (الست مللتني، وآثرت فراقي؟ فلم تبكي؟ بعد هذا علي!) فقلت لها: (إن فراق نفسي اسهل علي من فراقك، وإنما أردت أن أخلصك من هذا الشقاء!) قالت: (الست أنا راضية بهذا الشقاء؟) فاضطربت، وخرجت إليك يا مولاي لأخبرك أني عدلت عن البيع!)
واهتز الرشيد لطرافة الأحدوثة وحلاوة الكلام وقال: (إلا فليكن هكذا المتحابون. . .! فماذا حدث بعد ذلك يا جعفر؟)
قال: (تركتهما يبكيان، وأرسلت صاحب الشرطة ليبتاعها لي غصباً!) قال الرشيد: (ويحك! أهكذا تكون المروءة؟ كيف تفرق بينهما وتشتت شملهما؟ تعال يا غلام، قم يا حماد ثم يا جعفر، ردوا هذين المحبين إلى رغادة عيشهما وهناءة حبهما. اجمعوهما بالوئام، وأفرحوهما باللقاء والسلام، وانثروا هذه الآلاف الثلاثة من الدنانير أمامهما؛ فليس أثوب من جمع المتحابين! وإن شاءا فاحملوهما إلينا واخلطوهما بحاشيتنا، فانهما يستحقان معاشرة الملوك
(دمشق)
صلاح الدين المنجد
خزانة الرؤوس - 5
في دار الخلافة العباسية ببغداد
للأستاذ ميخائيل عواد
رأس صالح بن مدرك، رأس جمبش بن ذبال، رأس غلام (ج)
لصالح بن مدرك
لا تخلوا أخبار الحاج في كل سنة من أحداث خطيرة تلم بهم يتعمدها قطاع الطرق والفساق ومن خرج على الدولة يومذاك؛ فتسلب أموالهم، ويقتل اكثرهم، ويتيه بعضهم في بطن الصحراء فيهلك من العطش والجوع والحر. ولا يسلم منهم إلا نفر قليل فمن تلك الأحداث ما وقع في سنة 286هـ، والخليفة يومذاك المعتضد. ذكر المسعودي أن في هذه السنة (ظفر أبو الأغر خليفة بن المبارك السلمي بصالح بن مدرك الطائي بناحية فيد مكراً في ذهابهم إلى مكة، وقد كانت الأعراب جمعت لأبي الأغر ليستنقذوا صالحاً من يديه، فواقعهم فقتل رئيسهم جحيش ابن ذيال وجماعة معه واخذ رأسه، فلما علم صالح بن مدرك بقتل جحيش بن ذيال يئس من الخلاص من يد أبي الأغر؛ فلما نزل المنزل المعروف بمنزل القرشي أتاهم غلام بطعام فاستلب منه سكيناً وقتل نفسه، فاخذ أبو الأغر رأسه وأظهره بالمدينة فتباشر الحاج. وكان لأبي الأغر في رجوعه وقعة عظيمة اجتمع هو وتحرير وغيرهما من أمراء قوافل الحاج من الأعراب؛ وكانت الأعراب قد اجتمعت وتحشدت من طي وأحلافها، فكانت رجالتها نحواً من ثلاثة آلاف راجل، والخيل نحو من ذلك، فكانت الحرب بينهم ثلاثاً وذلك بين معدن القرشي والحاجر، ثم انهزمت الأعراب وسلم الناس. وكان ممن تولى بابي الأغر الحيلة على صالح بن مدرك سعيد بن عبد الأعلى، ودخل أبو الأغر مدينة السلام وقدامه رأس صالح وجحيش، ورأس غلام لصالح اسود، وأربعة أسارى وهم بنو عم صالح بن مدرك. فخلع السلطان في ذلك اليوم علي أبي الأغر وطوقه بطوق من ذهب، ونصبت الرؤوس على الجسر من الجانب الغربي، وادخل الاسارى المطبق)
(د) رأس ابن الرضا:

وابن الرضا هذا، هو محسن بن جعفر بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد، ظهر (في أعمال دمشق في سنة ثلاثمائة، وكانت له مع أبي العباس أحمد بن كيغلغ وقعة، فقتل صبراً، وقيل قتل في المعركة وحمل رأسه إلى مدينة السلام، فنصب على الجسر الجديد بالجانب الغربي)

5 - تعليق الرؤوس بازاء دار الخلافة العباسية ببغداد:

رأس بزبه (ا)

روى خبره ابن الجوزي في حوادث سنة 542هـ قائلا: (. . . وورد الخبر أن بزبه راسل سحنة اصبهان فاستماله ورحل إليها ومعه محمد شاه. وكان السلطان مسعود مقيماً بهمذان وعساكره قليلة؛ فأرسل إلى عساكر اذربيجان فتأخروا عنه، فسار بزبه من اصبهان سيراً يمهل فيه، فلما قاربها وصلت عساكر أذربيجان إلى السلطان، وكان بزبه قد جاء جريدة في خمسة آلاف فارس، فضرب على عسكر السلطان فكسر الميمنة والميسرة، وكان مسعود قد تأخر عن المصاف في ألف فارس، وكان عسكره عشرة آلاف، فاشتغل عسكر بزبه بالنهب والقتل، فجاء مسعود فحمل عليهم، فالتقى هو وبزبه، فكبت الفرس ببزبه فوقع، فجيء به إلى مسعود فقطع نصفين، وجيء برأسه فعلق بازاء دار الخلافة. . .)

6 - تعليق الرؤوس فوق باب النوبي

رأس ابن سنكا (ا):

من الأخبار الواردة إلى بغداد في شعبان من سنة 569هـ: (أن ابن أخي شملة التركماني ويعرف بابي سنكا قد استحدث قلعة في ولاية باذرايا بقرب من قلعة الماهكي، ليتخذها ذريعة إلى الإغارة على البلاد، ونقل إليها الميرة؛ فبعث السلطان إليه الجيوش فالتقوا، فحمل بنفسه عليهم، فطحن الميمنة، فتقدم قيماز العميدي إلى الأمراء فحثهم على خوض الماء، وكان قد فتح البثوق يحتج بها، فخاض قيماز ومعه جماعة فغرقوا ثم اقتتلوا، واسر ابن سنكا، ثم قتل وجيء برأسه فعلق بباب النوبة (كذا والصواب: النوبي). . .)

رأس طغرلبك السلجوقي (ب)

هو السلطان طغرلبك شاه بن أرسلان شاه بن طغر شاه ابن محمد بن ملكشاه بن ألب ارسلان بن داود بن ميكائيل ابن سلجوق السلجوقي آخر ملوك السلجوقية بالعراق كان سفاكاً للدماء وقد هابته الملوك. قتل وزيره رضي الدين الغزنوي وفخر الدين العلوي رئيس همذان. وكان مصرعه في سنة 590هـ قال ابن كثير في حوادث هذه السنة: (وفيها ملك السلطان خوارزم شاه تكش - ويقال له ابن الاصباعي - بلاد الري وغيرها؛ واصطلح مع السلطان طغرلبك السلجوقي، وكان قد تسلم بلاد الري وسائر مملكة أخيه سلطان شاه وخزائنه، وعظم شانه. ثم التقى هو والسلطان طغرلبك في شهر ربيع الأول من هذه السنة، فقتل السلطان طغرلبك، وارسل رأسه إلى الخليفة فعلق على باب النوبة (كذا والصواب: النوبي) عدة أيام. . .)

7 - نصب الرؤوس على باب العامة

رأس هرون بن غريب الخال، رؤوس جماعة من قواده (ا)

وهرون هذا هو ابن خال المقتدر بالله. كان ذا شان كبير في أيام المقتدر والقاهر، ولما بلغه خلع القاهر وتقليد الراضي الخلافة؛ وكان يقيم بالدينور - وهي قصبة أعمال ماه الكوفة - متقلداً أعمال المعاون بها، وبمسبذان ومهرجا نقذق وحلوان؛ رأى أنه أحق بالدولة من غيره لقرابته من الراضي، فغلظ ذلك على ابن مقلة الوزير، وعلى محمد بن ياقوت صاحب الشرطة، وعلى الحجرية والساجية والمؤنسية، فسار إلى بغداد حتى وافى خانقين فخاطبوا بأجمعهم الراضي؛ فقال: أنا كاره له فامنعوه من دخول الحضرة وحاربوه إن أحوج إلى ذلك

وهكذا اشتعلت الحرب بين هؤلاء، وبين هرون وأصحابه حتى كان فيها هلاكه. قال مسكويه في رواية مقتله: (ولم تزل الحرب غليظة إلى أن قارب انتصاف النهار، وركب هرون بن غريب مبادران وسار متفرداً عن أصحابه على شاطئ نهر بين يريد قنطرته لما بلغه أن ابن ياقوت قد عبر القنطرة، وقدر أنه يقتله أو يأسره، فتقطر به فرسه فسقط منه في ساقية، فلحقه يمن غلامه فضربه حتى أثخنه بالطبرزينات، ثم سل سيقه ليذبحه فقال له هرون: يا عبد السوء أنت تفعل هذا وتتولى بيدك قتلي أي شيء

أذنبت به إليك؟ فقال له: نعم أنا افعل بك هذا وحز رأسه ورفعه وكبر فتبدد رجال هرون. . . وسار محمد بن
ياقوت إلى موضع جثة هرون فأمر بحملها إلى مضربه فحملت وأمر بتكفينه ودفنه. ودخل بغداد وبين يديه رأس هرون وعدة من قواده فأمر الراضي بنصب الرؤوس على باب العامة)
8 - نصب الرؤوس على أسوار السجون ببغداد
رأس أبى يزيد خالد بن محمد الشعراني (ا)
ذكر قصته الطريفة عريب بن سعد القرطبي في مدار كلامه على أخبار بني العباس في سنة 304هـ، فقال: (وفي المحرم من هذه السنة ورد كتاب صاحب البريد بكرمان يذكر أن خالد بن محمد الشعراني المعروف بابي يزيد؛ وكان علي بن عيسى الوزير ولاه الخراج بكرمان وسجستان، خالف علي السلطان، ودعي أميراً وجمع الناس إلى نفسه. . . فكتب المقتدر إلى بدر الحمامي في إنفاذ جيش إليه ومعاجلته، فوجه إليه بدر قائداً من قواده يعرف بدرك، وكتب بدر قبل إنفاذ الجيش إلى أبى يزيد الشعراني يرغبه في الطاعة، ويتضمن له العافية مع الإنهاض في المنزلة وخوفه وبال المعصية فجاوبه أبو يزيد: والله ما اخافك، لاني فتحت المصحف فبدر إلي منه قول الله عز وجل (لا تخاف دركا ولا تخشى) ومع ذلك ففي طالعي كوكب بياني لابد أن يبلغني غاية ما أريد. فانفذ بدر الجيش إليه، وحوصر حتى اخذ أسيراً فقيلت فيه أشعار منها:
يَابَا يَزيد قاتل البُهتان ... لا تَغترر بالكوكب البَيْباني
واعلم بأن القتل غاية جاهلٍ ... باع الهدى بالغي والعصيانِ
قد كنت بالسلطان عَالي رتبةٍ ... من ذا الذي أغراك بالسلطانِ
ثم آتى الخبر بأن أبا يزيد هذا مات في طريقه، فحمل رأسه إلى مدينة السلام، ونصب على سور السجن الجديد)
(ب) رؤوس ثلاثة رجال من أصحاب الحلاج:
بعد مقتل الحلاج تفرق أصحابه أيدي سبا: فمنهم من ذهب إلى خراسان، ومنهم من بقي في العراق متوارياً عن الأنظار، بينا رجال الشرطة وأصحاب الأخبار لا يألون جهداً في البحث عنهم. فمن أخبارهم في سنة 312هـ أن نازوك، وكان يومذاك صاحب الشرطة
جلس في مجلس الشرطة ببغداد، فاحضر له ثلاثة نفر من أصحاب الحلاج، وهم) حيدرة والشعراني، وابن منصور. فطالبهم بالرجوع عن مذهب الحلاج فأبوا؛ فضرب أعناقهم ثم صلبهم في الجانب الشرقي من بغداد، ووضع رؤوسهم على سور السجن في الجانب الغربي
(يتبع)
ميخائيل عواد
46 - المصريون المحدثون
شمائلهم وعاداتهم
في النصف الأول من القرن التاسع عشر
تأليف المستشرق الإنجليزي ادورد وليم لين
للأستاذ عدلي طاهر نور
الفصل الرابع
الصناعة
من المحزن أن يوازن المرء بين فقر مصر الآن، وبين رخائها قديماً حينما كان اختلاف الصناعات وأناقتها وإتقانها تثير إعجاب الأمم المجاورة. وكان المصريون في غنى عن التجارة الخارجية لتنمية الثروة أو زيادة الرفاهية. وقد دل الكشف عن الآثار على أن المصريين انفردوا إلى حد كبير في السمو بالفنون في عهد موسى وقبل ذلك أيضاً. ولم يكن الفراعنة والكهنة وقواد الجيش في تلك الأزمنة الغابرة يعيشون وحدهم في ترف رفيع ويلبسون ارق الأنسجة الكتانية ويجلسون على سرر وكراسي نستخدمها نماذج لأثاث ابهائنا الحديثة، بل كان لكثير من أغنياء المزارعين وغيرهم من الأفراد كأولئك. ولا تزال الطبيعة تجود بنعمها على سكان وادي النيل، كما كانت في قديم الزمن. غير أن المصريين لم يعودوا ينعمون لعدة أجيال بحكومة مستقرة، فكان كل

من الولاة المتعاقبين في هذه المدة الطويلة يعمد إلى تنمية ثروته الخاصة، لعدم توطد ولايته. وهكذا هلك بالتدريج كثير من المصريين وقضي على الباقين أن يعيشوا في عوز اليم. وإذ كان الذكور من السكان يكاد عددهم يزيد على القدر اللازم لزراعة الأراضي التي يغمرها الفيضان أو يسهل ربها بالوسائل الصناعية، كان عدد هؤلاء الذين يحترفون الصناعة في هذا البلد شديد القلة نسبياً. ولا تتم أعمال المصريين عن براعة كبيرة لقلة التنافس وعدم تشجيع الأغنياء. غير أن انحطاط الصناعات اليدوية يرجع إلى حد بعيد إلى سبب آخر وهو أن السلطان سليم التركي بعد أن غزا مصر نقل على ما قال الجبرتي عدداً كبيراً من البارعين في الحرف

التي لا تمارس في تركيا فقضي بذلك على أكثر من خمسين صناعة يدوية في مصر حرم الإسلام كما سبق أن بينت، استخدام التصوير والنحت في رسم الأحياء، غير أن بعض المسلمين المصريين يحاول رسم الرجال والأسود والجمال وغيرها من الحيوان والزهور والقوارب وذلك على الأخص لزخرفة واجهات الحوانيت وأبواب الحجاج كما يقولون، وإن كانت محاولاتهم هذه تفوقها رسوم صغار الأطفال عندنا. ولكن الدين الإسلامي يسر الصناعة خاصة باستلزامه أن يعرف كل امرئ فناً أو عملاً يمكنه وقت الضرورة من سد حاجته وإعالة من يتولى أمرهم والقيام بواجباته الدينية والأدبية. ويبرع المصريون على الأكثر في فن العمارة، فتجد اجمل نماذج العمارة العربية في العاصمة المصرية وضواحيها. وليست المساجد والأبنية العامة الأخرى وحدها هي التي تستحق الاعتبار لعظمتها وجمالها، ولكن الكثير من المساكن الخاصة أيضاً تثير الإعجاب ولاسيما هيئتها الداخلية وزخرفتها. على أن هذا الفن كأغلب الفنون الأخرى انحط كثيراً في السنوات الأخيرة؛ فقد اخذ المصريون عن الأتراك طرازاً جديداً ساذج الشكل بعضه شرقي وبعضه أوربي وفضلوه على العربي. وتنم الأبنية ذات الطراز القديم، أبوابها وسقوفها وبلاطها، التي سبق وصفها، عن ذوق فريد. وكذلك أكثر الصناعات المصرية تنم عن الذوق وإن كان الكثير منها ينقصه الإتقان. وكان الخراطون، وشغلهم الأول عمل الشبابيك، كثيري العدد، وكان عملهم حينذاك أكثر اتقاناً؛ أما الآن فقد قلت أعمالهم، لأن نوافذ المنازل الحديثة تصنع من الزجاج. ولا يظهر المصريون المحدثون في صناعة الزجاج التي اشتهروا بها قديماً مهارة كبيرة، فقد انحط عندهم فن الزجاج الملون؛ غير انهم لا يزالون موضع الإعجاب في صناعة النوافذ الزجاجية وإن لم يكن ذلك بقدر ما كان في السنوات الماضية قبل أن ينقص تفضيل الطرز الجديد من أعمالهم. والصناعة الخزفية في مصر غليظة، وهي تشمل عمل القلل والجرار لحفظ المياه وتبريدها. ويستحق المصريون الشهرة التي نالوها في مهارة أعدادهم السختيان. ويستعمل المصريون السعف وأوراق النخيل في صناعات مختلفة فيصنعون من السعف الأقفاص والكراسي والصناديق والسرر الخ. . . ومن الأوراق السلال والقفف والحصر والمكانس والمذبات، وغير ذلك من الآلات. ويفتلون من ألياف النخيل أكثر الحبال المصرية. ويصنعون احسن الحصر التي يستخدمونها صيفاً

بدل البسط، من البردي. وقد فقدت مصر الشهرة التي نعمت بها قديماً في صناعة الكتان الرقيق؛ فالملابس الكتانية والقطنية والصوفية التي تغزل في هذا البلد غليظة الصنف حقيرته

اشتهر المصريون طويلاً في صناعة التفريخ. ويبدو أن هذه الصناعة كانت شائعة في مصر في سالف الأزمنة وإن وصفها الكتاب الأولون وصفاً غامضاً. وهم يطلقون في الوجه البحري على البناء الذي يتم فيه التفريخ (معمل الفراخ) وفي الصعيد (معمل الفروج). وفي الوجه البحري أكثر من مائة معمل، وفي الصعيد أكثر من نصف ذلك العدد. ويعين اغلب مراقبي هذه المعامل إن لم يكن جميعهم من الأقباط. وتفرض الحكومة على هذه المعامل ضريبة. ويبنى المعمل بالأجر أو اللبن ويتكون من أفراد ومواقد صغيرة للنار على صفين متوازيين يفصل بينهما دهليز معقود ضيق. ويبلغ حجم كل من الأفران تسع أقدام أو عشرا طولاً تقريباً، وثماني أقدام عرضاً، وخمسا أو ستا ارتفاعاً. ويعلو كلا منها موقد مقبولا يختلف عنها حجماً والأفضل أن يكون اقل ارتفاعاً. ويتصل الفرن بالدهليز بواسطة فتحة تسمح للإنسان بالدخول كما يتصل الموقد بفتحة مماثلة. وتتصل المواقد في الصف نفسه بعضها ببعض أيضاً لكل كوة في قبوه لمرور

الدخان ولا تفتح إلا عرضاً. وكذلك الدهليز يوجد به عدد كوى كالسابقة في سقفه المعقود. ويوضع البيض في الأفران، فوق الحصر أو على القش عادة، على طبقات ثلاث يعلو بعضها بعضاً. ويحرقون السرقين (الجلة) في المواقد التي تعلو الأفران ثم يقفلون مدخل المعمل بأحكام. ويتقدم المعمل حجرتان أو ثلاث حجرات صغيرة للمراقب والوقود والفراخ الناقفة حديثاً. ويجري هذا المعمل شهرين أو ثلاثة في صيف كل عام. ويبدأ التفريخ مبكراً في الصعيد. ويشمل كل معمل بين اثني عشر وأربعة وعشرين فرناً، ويتلقى حوالي مائة وخمسين ألف بيضة في الموسم السنوي، يخيب منها ربعها أو ثلثها. ويورد الفلاح البيض فيفحصه المراقب ويناول الفلاح عادة مقابل كل بيضتين فرخة صغيرة. ويستعمل نصف الأفران في الأيام العشرة الأولى، وتوقد النار في المواقد العشرة التي تعلوها، ثم تطفأ في اليوم الحادي عشر. وتوقد المواقد الأخرى ويوضع البيض الطازج في اسفل الأفران. وفي اليوم التالي ينقل بعض البيض من الأفران السابقة ويوضع في رماد مواقدها. وتظل الحرارة أثناء العملية بين مائة ومائة وثلاث

درجات بقياس فارنيهايت. ويعرف القائم بهذا العمل من تجاربه الطويلة الحرارة اللازمة لنجاح العملية دون الاستعانة بالة ترشده لتعوده هذا العمل من صغره. وفي اليوم العشرين ينقف بعض البيض الموضوع أولاً. ولكن اغلبه يفرخ في اليوم الحادي والعشرين. وتوضع الفراريج الضعيفة في الدهليز وما بقي يوضع في أقصى الغرف الداخلية حيث تبقى يوماً أو اثنين قبل أن تسلم مستحقيها. وعندما تنقف البيضات الأولى ونصف الثانية تتلقى الأفران التي كانت فيها دفعة ثالثة، ثم توضع دفعة رابعة بالطريقة نفسها عندما تفرخ الدفعة الثانية. ولا يقل الدجاج الذي نقف بهذه الطريقة طعماً عن دجاج البيض الذي يحتضن طبيعياً. ويقل دجاج مصر وبيضه في كلتا الحالتين حجما وطعماً عن دجاج بلادنا وبيضه. وقد وجدت في إحدى الجرائد المصرية التي تنشر بأمر الحكومة (العدد 248: 18 رمضان سنة 1346، 3 مارس سنة 1831) الإحصاء التالي:

الوجه البحري
الوجه القبلي
عدد معامل التفريخ في العام الحالي
105
59
عدد البيض المستخدم
19 , 325 , 600
6 , 878 , 900
عدد البيض المعطوب
6 , 255 , 867
2 , 529 , 360
عدد البيض المفقس
3 , 069 , 733
4 , 349 , 240

لا تزال تارة مصر عظيمة وإن انحط شانها كثيراً منذ اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح

بين أوربا والهند، ونتيجة لسياسة محمد علي وخلفائه باحتكار التجارة والاستيلاء على البضائع. وقد تقدمت التجارة كثيراً في السنوات القليلة الأخيرة لاستخدام البواخر الكثيرة بين الإسكندرية وإنكلترا وفرنسا والنمسا من ناحية، وبين السويس والهند من ناحية أخرى، وبإنشاء السكك الحديدية في الوجه البحري.

تستورد مصر الأقمشة الصوفية من أوربا ومن فرنسا خاصة، والشيت والموصلي الساذج والمصور للعمائم من اسكتلندة، والحراير والمخمل والكريشة والشيلان المقلدة عن الكشميري من سكوتلندا وإنجلترا وفرنسا، وورق الكتابة من البندقية خاصة، والأسلحة النارية والنصال المستقيمة من ألمانيا وتستورد هذه للنوبيين الخ. والساعات والفناجين والأواني الخزفية والزجاجية المختلفة واغلبها من ألمانيا والخردة

والألواح الخشبية والمعادن والخرز والنبيذ وغيره من المشربات. وكذلك يستوردون الرقيق الأبيض والحرير والمناديل والفوط المطرزة ومباسم الشبك والبوابيج وضروباً من السلع المصنوعة والأدوات النحاسية والبرنزية الخ. من الآستانة، ويستوردون من آسيا الصغرى البسط وسجاجيد الصلاة والتين الخ، ومن سوريا الدخان والحراير المخططة والعباءات والصابون، ومن جزيرة العرب البن والتوابل وعقاقير عديدة والسلع الهندية كالشيلان والحرير الموصلية الخ، ومن الحبشة وسنار أقراص التمر الهندي والصموغ والسنا المكي، ومن الغرب، أي شمال أفريقيا غرب مصر، الطرابيش والبرانس والاحرمة وأحذية الجلد السختيان الأصفر.

واهم ما يصدر إلى أوربا القمح والذرة والأرز والفول والقطن والعنب واللب والنيلج والبن والتوابل المختلفة والصموغ والسني والعاج وريش النعام، والى تركيا العبيد السود والأحباش ذكورا وإناثاً والاغاوات والأرز والبن والتوابل والحناء الخ، والى سوريا العبيد والأرز الخ، والى جزيرة العرب الحبوب خاصة والى سنار والبلدان المجاورة القطن والكتان والصوف وبعض الحراير المخططة السورية والمصرية والابسطة الصغيرة والخرز وحلي أخرى، والصابون والسيوف المستقيمة السابق ذكرها والأسلحة النارية والأدوات النحاسية وورق الكتابة.

(يتبع)

عدلي طاهر نور

بين الحب والحظ

سلْمَى

للأستاذ علي شرف الدين

حَنِينُ فُؤادٍ عادَ لي مِنْهُ مَا بَدَا ... وَكم رَائحٍ يَأتِي بِأَخْبَارِ مَنْ غَدَا
بقيَّةُ دَمْعٍ في جُفُونِي تنبَّهتْ ... وَآثَارُ جَمرٍ في ضُلُوعِي توَقَّدَا
وَقَدْ كُنْتُ وَدَّعْتُ الْهَوَى وَشُجُونَهُ ... فلَمَّا رَأَتْ عَيْنَايَ (سَلْمَى) تَجَدَّدَا
قَصِيدَةُ شِعْرٍ صَاغَهَا اللهُ فِتْنَةً ... سَماوِيَّةُ الألحَانِ عُلويَّةُ الصدَا
يَطوفُ بِها في رَفرفِ الخلدِ طَائرٌ ... إِذَا لاحَ ضَوءُ الصَّبح رَاحَ مُغَردا
وَزَهرةَ رَوضٍ قَبلَ الْفجرُ ثَغرَهَا ... وَألقَى لَهاَ في جَيبَها العِطْرِ وَالنَّدا
أرَقُّ مِن الأطيافِ في قَلبِ رَاهبٍ ... تَبّتلَ حَتَّىَ صَارَ روُحاً مُجَرَّدا
وَأجَملُ مِنْ عُرسِ الرَّبيعِ بِربَوةٍ ... وَأرَوعُ مِن فَخرٍ عَلَى الرِّيفِ قَدْ بَدا
تَوَدَّ النُّجُومُ الزُّهْر لو كانَ نظمُها ... عَلَى جِيدِهَا المَطلُولِ عِقداً مُنضَّدا
وَطيرِ مُروُجِ الرِّيفِ لَوْ سَالَ لَحنُهاَ ... مَعَ الصُّبحِ منْ سَلمَى حَديثاً مُرَددَا
فَيَا ظَبيَةَ الفِردَوسِ فَرتْ وَلَمْ تَعُد ... عَجْبِتُ لَمن لا يَرتَضي الْخلَدَ مَعْهَدا
وَيَا فَرحَةَ الدُّنياَ التَّي هَزَّ بِشرهُا ... جَوَانِحِ قَلبٍ كانَ للحُزنِ مَعبَدا
وَيَا سَلوةَ المَحزُونِ ضَاعَ جِهادُهُ ... حَوَى شَبحاً نَضْراً وَفِكراً مُشردا
وَيَا أمَلَ المُظلوم عُفِّرَ حَظُّهُ ... فَعادَ كَسيرَ القَلبِ حَيرانَ مُجهدا
لئنْ حَجبتْ نَجمي عَلى الأفْقِ غَيمةٌ ... فَقدْ مَلأتْ سَلمَى سَمائيَ فَرقدَا
وَإِن صَيرتنْي كَبوةُ الحظِّ مُخفقاً ... فحسبِي نَجاحاً أنْ أرَاهَا فأسْعدا
نسيتُ بِكِ الآلامَ وَهَي كثيرةٌ ... وَبَدلَتني منهاَ السُّرورِ المُجددَّا
وَأبصرتُ جُنحَ اللَّيل أزْهَر مُشرِقاً ... وَكُنتُ أرَى قَبلاً سَناَ الصُّبح أرْبدَا
وَشاعَ الرِّضا في جَبهةٍ فاضَ نُورُها ... وَقد كُنتُ عُمري سَاخطاً مُتمرِّدا
وَإنِّي عَلى حُبي الحَياةَ وَهدبهاَ ... مَدينٌ لسَلمى بالحَياةِ وَبالهُدى
خَيالٌ لَها مثلُ الحقيقةَ طيفهُ ... أكادُ مَع النَّجوى أمُدُّ لهُ يَدا
لَعمرُك مَا سَلمى سِوىَ أقحُوانةً ... لَها صَورةَ الإنسان جِسماً مُجسدا

علي شرف الدين

البريد الأدبي

من شاعر إلى شاعر

(أهدي الأستاذ الشاعر علي محمود طه نسخة من ملحمته الرائعة (أرواح وأشباح) إلى صديقه الأستاذ محمد عبد الغني حسن ولم يكن قد أتيحت له قراءتها إلا بعد أن سلم من ثورة نفسية جامحة فأرسل إليه هذه الأبيات):

هذا كتابك أشباحٌ وأرواحُ ... شعر من النغم العلويِّ لمَّاحُ
فيه من الفنِّ إشراقٌ وتجليةٌ ... وفيه من ومضات الروح أوْضاح
فيه من السحر ما هاروتُ يصنعُه ... وخمرِ بابلَ ما لا تصنعُ الراح
أقررتَ عيني وعين المعجبين به ... بكل معنى إليه النفس ترتاح
الشعر ما الشعر إلا روضة عبقت ... وأنت فيها طليق الصوت صدَّاح
سريتَ في الشعر مَسرى الملهمين كما ... يسري نسيم على الأسحار فوَّاح
فأنتَ في جوِّه العلويِّ منطلق ... وأنتَ في بحره اللجيِّ ملاَّح
محمد عبد الغني حسن

إنصاف الأب الكرملي

اطلعت في العدد الأخير من (الرسالة) على قطعة بعنوان (الكرملي في قبضة الحق) بقلم الأستاذ سعيد الأفغاني في دمشق. وإنصافاً للأب المحترم أقول:

خطأ الكاتب الأب، لأنه أنكر (أحجاراً ملساء) وصححها (بأحجار ملس) وقال: (لك أن تقول أشهر محرمة ومحرمات وأياماً معدودة ومعدودات) ولم يأتنا بمثل من القرآن أو الحديث أو كلام بليغ على مثل (مباسم فلجاء وعيون دعجاء وحواجب بلجاء)، بل الذي ورد من ذلك (لو رأيتم العيون الدعج تحت الحواجب البلج فوق المباسم الفلج لاتخذتموها اللات والعزى) ولم يرد غير ذلك على الإطلاق في كلام فصيح

وغريب قول الأفغاني (أما استقراؤه الشخصي أي الأب وطلبه من مخالفيه الآتيان بشاهد فلا يردان حجة، لأن المقيس لا يلزم له (يريد يلزمه) شاهد. يريد أن يقول إن عندنا قاعدة جميع شواهد اللغة شواذ منها

لكن مجمعنا اللغوي فهم ما لا يفهمه الكاتب ولا احسب الكاتب ينكر أن مجمعنا يحتج بكلامه. فقد جاء في الصفحة 204 من الجزء الرابع من مجلته قوله:

القاعدة: فعلاء مؤنث افعل كحمراء تجمع باطراد على فعل قال ابن يعيش: (فأما فعل فهو جمع فعلاء صفة إذا كانت مؤنثة افعل نحو حمراء وحمر وصفراء وصفر جمعوه على فعل جمع ما لا زائد فيه الخ. . .

فكريات بيضاء ليست صحيحة، وهذا ما كلت ألسنتنا وحفيت أقلامنا لإفهام أدبائنا إياه

نجيب شاهين

شبهة في تاريخ وفاة ياقوت

من المعروف أن صاحب معجم الأدباء (ياقوت بن عبد الله الرومي) توفي عام 626 من الهجرة. . وقد نص على هذا ابن خلكان في تاريخه؛ عندما ختم ترجمته لحياته بقوله: وتوفي يوم الأحد لعشرين من شهر رمضان سنة ست وعشرين وستمائة في الخان، بظاهر مدينة حلب

وعن ابن خلكان نقل ابن العماد صاحب (شذرات الذهب في أخبار من ذهب)، وجرى على هذا جميع أصحاب التراجم من المتأخرين. . .

ولكني وجدت ياقوتاً في معجمه (ج2، ص 198، طبع دار المأمون) يتحدث عن الحسن بن أبي المعالي المعروف بابن الباقلاني النحوي. . . ثم يختم حديثه عنه بقوله: (لقيته ببغداد سنة سبع وثلاثين وستمائة، وكان آخر العهد به). ونفهم من هذا أن ياقوتاً كان يعيش في ذلك التاريخ، بل يمكن أن نستنبط من قوله (وكان آخر العهد به) أنه يشير إلى وفاة ابن الباقلاني، وحدوثها في تلك السنة. ويؤيد هذا ما أورده السيوطي في كتابة (بغية الوعاة في ذكر طبقات النحاة)؛ فقد نقل عن ابن النجار صاحب تاريخ بغداد أن وفاة الباقلاني كانت (يوم السبت الخامس والعشرين من جمادى الأولى سنة سبع وثلاثين وستمائة)

هذه حقائق تاريخية تصطدم في ذهن القارئ ولا يجد لواحدة منها مرجحا؛ فهل نشك في صحة ما اجمع عليه المؤرخون من تاريخ وفاة ياقوت، أم نخطئ ما ورد بمعجمه من تاريخ التقائه بابن الباقلاني؟ وإذا اخذنا بالرأي الأخير، فهل نحمل السهو في ذلك على ياقوت نفسه، أم نحمله على ناسخي معجمه والقائمين بطبعه من القدماء والمحدثين؟. . .

هذا شيء، والشيء الآخر أن مكان هذه المقابلة - فضلاً عن تاريخها - موضع (للتفكير. فياقوت، كما نفهم من كلام ابن خلكان، لم يطرق بغداد منذ حوالي سنة 600هـ، بل إنه (تحامى دخولها) وهو يقترب منها عند انتقاله متخفياً من إربل إلى خراسان عام

613هـ؛ لأن له غريماً (علويا) من أهلها كان قد ناظره في دمشق وألب عليه العامة حتى كادوا يقتلونه؛ وكان هذا سبب هروبه إلى خراسان، فكيف إذن يزعم ياقوت أنه لقي ابن الباقلاني في بغداد؟ وإذا قلنا إنه لقيه بها قبل عام ستمائة (أي تسع وتسعين وخمسمائة فما قبله) فكيف يتفق أن يقع الخطأ أو التحريف في ثلاثة أرقام كاملة، فنقرأ أن هذا اللقاء كان في سنة (سبع وثلاثين وستمائة)؟ . . .

(جرجا)

محمود عزت عرفة

المكتب

قال الدكتور زكي مبارك وهو يدرس الشوقيات عندما تعرض لقصيدة (مصاير الأيام) ما يلي: (. . . ابتدأ الشاعر يريد شوقي) بحياة الطفل في المكتب، والمكتب كلمة جديدة يراد بها المدرسة الأولية، وهي كذلك في عرف وزارة المعارف فهي تقول المكاتب العامة بعد أن تقول المدارس الأولية)

وقد نفهم من ذلك أن المكتب بمعنى المدرسة الأولية وضع جديد والصحيح أنه استعمال قديم، ودليلي على ذلك ما يلي:

1 - قال المبرد: (المكتب موضع التعليم والمكتب المعلم، والكتاب الصبيان، ومن جعل الموضع الكتاب فقد اخطأ) ويرى هذا الرأي صاحب القاموس ولكن صاحب تاج العروس رده.

2 - قال ابن خلكان في ترجمة أبي مسلم الخراساني: (أنه نشأ عند عيسى بن معقل فلما ترعرع اختلف هو ووالده إلى المكتب) وغير خاف أنه في هذا الدرر من حياته يتعلم التعليم الأولي.

3 - روي ابن قتيبة في كتاب المعارف: (أن من المعلمين علقمة بن أبي علقمة مولى عائشة. . . كان له مكتب يعلم فيه العربية)

4 - وأوضح من هذا ما قاله الغزالي في كتاب الأحياء في باب رياضة النفس جـ ثالث: (ويشغل الطفل في المكتب بتعلم القرآن، وأحاديث الأخيار وحكايات الأبرار وأحوالهم. . . وينبغي أن يؤذن للطفل بعد الانصراف من المكتب أن يلعب لعباً جميلاً يستريح إليه من تعب التعلم).

محمود السيد أبو السعود

بني أمية والإسلام

قرأت ما كتبه الأستاذ محمود أبو رية حول كتاب (عبقرية عمر) للأستاذ عباس محمود العقاد. والحق يقال إن الأستاذ قد غالى كثيراً في قوله إن البناء الإسلامي قد تصدع، وإن اليأس اخذ يدب في جسم الدولة الإسلامية في عهد بني أمية، واستشهد على ذلك بقول الإمام علي: (إن موت عمر ثلمة في الإسلام لا ترتق إلى يوم القيامة)

والباحث المنصف في تاريخ الإسلام لا يسعه إلا أن يقرر أن الدولة الإسلامية لم تصب حظاً من العظمة وامتداد السلطان مثل ما أصابته في عصر الدولة الأموية

وكيف يدب اليأس في قلوب المسلمين في عصر بني أمية وهم الذين ركبوا البحر في هذا العهد لأول مرة، وكان لهم فوق الخضم المتلاطم صولات وجولات هي صفحة بيضاء في كتاب الشجاعة الإسلامية؟! وهذا عقبة بن نافع يسير بكتائب المسلمين في محاذاة الشاطئ الأفريقي مخترقاً المجاهل والقفار حاملاً لواء الإسلام خفاقاً في بلاد كل ما يعرفه عنها أن أهلها همج متوحشون لم تصلهم مدنية ولا حضارة!

أما قول الإمام علي، فما أظن أن الإمام كان يقصد أن البناء الإسلامي قد تصدع بموت عمر، إنما كان قصده أن الإسلام قد خسر بموت عمر رجلاً من خيرة رجالاته ومن العسير أن يجد الناس منه عوضاً.

أحمد البديني

فلسفة الأخلاق في الإسلام

الأستاذ محمد يوسف من العلماء الباحثين والكتاب المروين الذين عناهم الأستاذ الزيات في مقالته الغراء (دفاع عن البلاغة)

فهو يكتب عن دراسة مستفيضة وتحليل عميق، فيخرج الفكرة ناضجة، ويبدي الرأي خميراً، ويجلي البحث مكتملاً من جميع نواحيه

ولعل هذا هو السر في ظواهر ثلاث نلمسها لمساً في كتابه (فلسفة الأخلاق في الإسلام)
1 - النشر والطي، والتفصيل والأجمال، والعرض والتلخيص؛ مما يبلغ حد التكرار أحياناً ويؤاخذ به من لم يقصد إلى الإيضاح والتحرير
2 - الدقة البالغة في الشرح والموازنة، وتجلية الغامض من عبارات الفلاسفة ومصطلحات الصوفية، إلى أمانة في النقل نادرة؛ مما حداه إلى كثرة الاستدراك، وإيراد الجمل المعترضة التي لا تكاد تخلو منها صفحة واحدة واثبات النصوص مسندة إلى مصادرها الكثيرة المتنوعة
3 - السداد في النظر، والعدالة في الحكم بعد استقصاء وجوه الرأي، من غير ما سفه ولا شطط حتى لا تحوك في الصدر شبهة دون أن يذيبها بقول سديد أو رأي رشيد غير أن إصابة الأستاذ للغرض، ومصاحبته للتوفيق، ونزاهته في الحكم - لا تحول بيننا وبين الإدلاء بهذه الملاحظات الخفيفة خدمة للعلم ووفاء للحق (والحق لا يصح أن نجامل على حسابه أحداً من الناس وإن كان زين الدين وحجة الإسلام والمسلمين)

(ا) كنا نود أن يقتصد المؤلف ولو صفحة واحدة مما كتب في ابن عربي الذي هو إلى فلاسفة التصوف اقرب منه إلى فلاسفة الأخلاق، فيضمها إلى الكتابة عن أبي الحسن البصري المارودي الذي أشار الأستاذ بحق إلى أن كتابه (أدب الدنيا والدين) مما يمثل الأخلاق الإسلامية اصدق تمثيل على حين لم يظفر من الكتاب إلا ببضعة اسطر. وإذا لم تكن ترجمة أبي الحسن من أغراض الكتاب فلا ريب أنها - على الأقل - من قبيل الاستطراد المفيد

(ب) مما يثير العجب والأسف معاً أن بعض أئمة الأخلاق والتصوف - بله الأدب والفلسفة - ليسوا من أهل البصر في علم الحديث؛ ولقد روي عن الغزالي رحمه الله أنه قال: بضاعتي في هذا العلم مزجاة؛ وسبب ذلك عند علماء الحديث معروف؛ فكنا نأمل ألا يروي المؤلف حديثاً عن الأحياء أو غيره - وهو من أجلة المدرسين في كلية أصول الدين - إلا مع الإشارة إلى درجته على الأقل. ورحم الله الحافظ العراقي فقد كفانا المئونة في تخريج أحاديث الأحياء كتابه (المغنى) وقد جمع بينهما الحلبي في طبعته؛ ولكن الأستاذ اعتمد على نسخة مجردة. على أن المؤلف نقل تزييف الحفاظ للحديث الصوفي المشهور: (كنت كنزاً مخفيا. . .) وأبان اعتراف الصوفية أنفسهم بأنه لم يثبت نقلاً وإن ثبت كشفاً

وحبذا لو أشار إلى تزييف العراقي للحديث الذي ساقه الغزالي في الزهد (من أراد أن يؤتيه الله علماً بغير تعلم وهدى بغير هداية فليزهد في الدنيا) وما أكثر أمثال هذا الحديث في كتب الغزالي.

(ج) في الكتاب أعلام وكلمات غربية، كان يحسن أن يضبطها الأستاذ فيكفي القارئ مئونة البحث والتنقير، ولكن عذره - ويظهر أنه لابد من الاستدراك دائما - أن الكتاب موضوع لطائفة مفروض عليها البحث والتنقيب.

وبعد فما قرأت كتاباً في الأخلاق أو الفلسفة وأحببت أن أعود إليه بشغف وعناية قبل هذا الكتاب. وهذا - فيما أعتقد - أمارة على إخلاص المؤلف وحبه للحق ودءوبه على البحث عنه والوصول إليه؛ في أدب جم وخلق كريم.

طه محمد الساكت
المدرس بمعهد القاهرة

العدد 495 - بتاريخ: 28 - 12 - 1942

2 - التلباثي

للأستاذ عباس محمود العقاد

كثر الذين حادثوني أو كتبوا إلي بصدد مقالي عن (التلباثي) الذي نشرته الرسالة في عدد مضى؛ وبدا لي من أحاديثهم ومن رسائلهم أن بعضهم فهم المقال كما أردت أن يفهم؛ وبعضهم تجاوز به إلى الحد الذي أريده. وقد استزادني أناس من الكتابة فيه، وسألني أناس غيرهم أسئلة يقترحون الإجابة عليها. واحسبني ألبي مقترحاتهم جميعاً بما آثرت من الإجابة عن خطاب كتبه إلى صديقنا الأستاذ محمد شاهين حمزة نائب الدر السابق ولخص ما قراه تعليلا لأمثال هذه الحوادث - حوادث التلباثي - فقال:

ذكر بعض العلماء أن الأجسام تصدر منها أثناء حركتها الآلية إشارات ورسائل . . .)

تنطلق على أمواج الأثير كأنها محطات الإصدار في اللاسلكي، وهذه الرسائل التي تشير إلى شخصيات مصدريها وتحمل بعض أفكارهم تهز مراكز خاصة في أدمغة من لهم سابق معرفة بأصحابها أثناء انطلاقها، فتلتقطها هذه وكأنها محطات الاستقبال تقابل محطات الإصدار الأولى، وكان لكل إنسان محطتين أو جهازين للإصدار والاستقبال. ولما كانت هذه الرسائل متفاوتة القوى كانت هناك رسائل تصدر ميتة أو ضعيفة فلا تصل إلى أحد، وأخرى تصدر قوية لكن ضعفاً أو خللاً في محطة الاستقبال يحول دون تلقيها)

ثم سألني الأستاذ رأيي في هذا وختم خطابه قائلاً:

ونقطة أخرى أحسبها تحتاج إلى جلاء علمي هي: كيف بلغ صوت عمر بن الخطاب سارية وصحبه حين ناداهم بقوله: (يا سارية بن حصن. الجبل الجبل! فاستجابوا له؟) ومن اللازم فيما أرى أن أبدأ بتقرير الحد الذي يكفينا أن نقف عنده فيما يرجع إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وملكة التلباثي أو التلفزيون

فقد أردنا أن نذكر علامات العبقرية عند بعض النفسانيين المحدثين، ومنها (الحساسية الخاصة التي تلاحظ على بعضهم فيشتهرون بالغرابة في إيحاء الأفكار واستيحائها، وقلنا إن عمر بن الخطاب قد لوحظت عليه من ذلك علامات كثيرة كالفراسة وصدق الظن وسرعة التنبه إلى الفوارق الدقيقة بين المذوقات كما تنبه إلى الفارق بين لبن ناقة ولبن ناقة أخرى، وكلتاهما في مكان واحد ومرعى واحد

ومما روي عنه حديث سارية الذي أشرنا إليه. وقد لخصناه وقلنا بعد تلخيصه: (لا داعي للجزم بنفي هذه القصة استناداً إلى العقل والى العلم أو إلى التجربة الشائعة. فإن العقل لا يمنعها، والعلماء النفسانيون في عصرنا لا يتفقون على نفيها ونفي أمثالها) ثم عقبنا على ذلك قائلين: (إن المهم من نقل هذه القصة في هذا الصدد أن عمر كان مشهوراً بين معاصريه بمكاشفة الأسرار الغيبية أما بالفراسة أو الظن الصادق أو الرؤية أو النظر البعيد، وهي الهبات التي يلحقها بالعبقرية علماء العصر الذين درسوا هذه المزية الإنسانية النادرة وراقبوها)

فسواه صحت قصة سارية أو صح جزء منها أو لم يصح شئ منها على الإطلاق، فيكفي أن تروى عن عمر بين معاصريه، ليثبت لنا أمر محقق لا شك فيه، وهو أن (الحساسية الخاصة) كانت ملحوظة فيه حتى تنس إليه الناس ما نسبوا من رؤيته جيش سارية على البعد وندائه عليه. فهو قبل أن تقع هذه القصة كان من أصحاب (الحساسية الخاصة) التي يلحظها من حوله وينسبون إليها الحوادث التي تناسيها

وهذه وحدها علامة كافية من علامات العبقرية، ولا حاجة معها إلى تحقيق ندائه على سارية واستماع سارية له كما جاء في القصة المروية أو على نحو يقاربها

فهو في رأي من حوله رجل يحس الأشياء التي لا يحسونها، ويملك القوى النفسية التي لا يملكونها، وهذا كاف لا تصافه بعلامة بارزة من علامات العبقرية في رأي النفسانيين المحدثين

وهنا نحن على (بر الأمان) الذي لا مجازفة فيه، ولا يكلفنا كثيراً ولا قليلاً في التعرض للتلباثي بالنفي والإثبات

ولكننا إذا تجاوزنا هذا وتعرضنا لتحقيق التلباثي للحكم بإمكانها أو استحالتها، ففي وسعنا أن ننتقل من بر أمان إلى بر أمان مثله لا مجازفة فيه، وهو مطالبة الذين يجزمون باستحالتها بالدليل على ما يقولون

لأن الجزم باستحالة شئ بغير دليل كالجزم بوقوعه عياناً بغير دليل، كلاهما خرافة لا يقبلها العقل، وإن جاء أحدهما من ناحية الإثبات

وإنما الموقف السليم بين الإنكار والقبول أنك تترك الباب مفتوحاً لمن يثبت وينفي على السواء، فيجوز أن يأتي غداً من يثبتها ثبوتاً قاطعاً شك فيه، ويجوز كذلك أن يأتي غداً من ينفيها نفياً قاطعا لا شك فيه، ولا يجوز - حتى ذلك اليوم - أن تقطع باستحالتها على وجه من الوجوه. وكل ما امتنع القول باستحالته فهو معلق بالممكنات، ولا سيما إذا كثرت بيننا مشبهاته وشاع بيننا على درجات دون درجته القصوى، باتفاق الشعور بين ألوف من الناس

يسألني الأستاذ شاهين: (كيف بلغ صوت عمر سارية وصحبه فاستجابوا له؟)

فالجواب المأمون هنا أنني لا أعلم ولا أجزم بأن الصوت وصل واستجيب، ولا أجزم كذلك بأنه ممتنع الوصول والاستجابة
ولكننا إذا قلنا بوصوله واستجابته فإنما يتصور العقل وقوع ذلك على صورة من صور ثلاث:
الأولى: أن الصوت الذي سمعه سارية كان صوتاً مادياً يبلغ الأسماع كما يبلغها اليوم صوت المتكلم في المذياع على مسافات بعيدة
والصورة الثانية: أن الصوت وصل بالإيحاء النفسي إلى الجيش كله فاتفقت نفوسهم جميعاً في لحظة واحدة على الاتجاه والاستيحاء والسماع
والصورة الثالثة: أن الصوت وصل بالإيحاء النفسي إلى سارية وحده أو إلى سارية ومن شاركه في هموم القيادة، فشعر به فرد واحد أو أفراد قليلون
وأسهل هذه الصور الثلاثة قبولاً في العقل، على ما نعتقد، هي الصورة الثالثة، وهي أن سارية توجه بنفسه إلى نفس عمر في مأزق شديد عليه وعلى عمر معاً فشهر به الخليفة وناداه وهما في لحظة التقابل بالوحي والاستيحاء
هذه الصورة اسهل قبولاً من الصورتين الأخريين
لأن الصورة الأولى وهي انتقال الصوت المادي مئات الأميال بغير الوسائل الصناعية التي نستخدمها في عصرنا يكلفنا أن نطبع العناصر المادية بطابع لم تعرف به قط فيما مضى وفيما حضر، ويقتضي أن يكون صوت سارية قد سمع في الجيش الذي معه وهو يستغيث، وقد سمع في المسجد الذي كان عمر يخطب فيه، وقد سمع الصوتان: صوت الاستغاثة وصوت الاستجابة على طول الطريق، ولم يذكر لنا رواة القصة شيئاً من ذلك، ولو ذكروه لتحدث به الألوف من جند سارية ومن المصلين مع عمر ولم يقتصر حديثه على بشير
واحد أو نفر قليلين
أما الصورتان الأخريان فكلتاهما تمثل لنا وصول الصوت أو وصول الخاطر على الأصح بطريق الإيحاء من نفس عمر إلى نفوس سامعيه، ولكن التقاء نفسين أيسر قبولاً من التقاء نفس واحدة من جانب، وألوف النفوس من جانب آخر، ولهذا قلنا أن التقاء الشعورين بين عمر وسارية أسهل الصور الثلاث قبولاً، متى قلنا بوقوع الاستغاثة ووقوع الاستجابة
والأستاذ شاهين قد سأل في خطابه سؤالاً يشتمل على بعض الجواب الذي أجبناه حيث قال:
(إذا كان الأمر أمر رؤية بعيدة فهل تقف الرؤية عند الماديات أو تتعداها إلى الافكار؟ فقد يحدث أن يذكر الإنسان شخصاً ويذكر معه أمراً معيناً، ولا يلبث أن يلقى الشخص الذي ذكره فيبادره هذا بحديث عن ذلك الأمر المعين بنفسه، كما حدث لي مراراً، وهذا مما يغري بالميل إلى الفكرة القائلة بحركة الأجسام والإشارات الصدارة منها والتي يلتقطها جانب ثان)
فالتمثيل بمحطات الإرسال ومحطات الاستقبال هنا تمثيل مقبول لتقريب التصور وسهولة التشبيه، ولا مانع من اتصال النفوس على البعد وهي تتصل على القرب اتصالاً لاشك فيه، فإذا اتفق أن نفسين توجهتا كلتاهما إلى الأخرى - في وقت واحد فذلك أحرى بتوافق الشعور وتوافق الخاطر، والجزم بإمكان هذا اصح من الجزم بامتناعه إذا لم يكن بد من أحد الأمرين
يحدث كثيراً - كثيراً جداً - بين الصديقين المتفاهمين أن يطيلا الجلوس معاً صامتين، ثم يعودا إلى الحديث فجأة فإذا هما يطرقان موضوعاً واحداً أو يسألان عن شئ واحد. ولو كان هذا الموضوع على اتصال بما كانا يتكلمان فيه قبل ذلك لقلت الغرابة في اتفاقها عليه بعد صمت طويل، ولكنه يكون أحياناً بمعزل عن كل موضوع طرقاه ذلك اليوم فما تعليل ذلك؟
تعليله تقارب الشعور والتفكير، وهما لا يتقاربان هنا بأداة مادية حتى يقال بالفرق بين حصوله في حجرة واحدة وحصوله على مسافة أميال
فإنكار هذا الاتصال أصعب من إثباته، والقول بإمكانه قول تعززه احتمالات قوية ومشابهات مألوفة وروايات متواترة، ولا يقف أمامها من ناحية النفي إلا مجرد الإنكار أو سوء فهم الواقعيات والماديات

وقد وصلنا في زماننا بالماديات إلى حدود الروحيات، فانتقلنا بها من هذه الأجسام التي تلمس وتدرك بالحس إلى الذرات، ثم إلى الطاقة، ثم إلى الإشعاع الذي يدركه الفكر ولا تمسكه الحواس؛ فمن الحيطة أن نقل من الإنكار بعد أن أسرفنا فيه، وقد جاء زمان كان الإنكار فيه حسنا بعد إفراط الناس في الإثبات، فهل تدور الآن دورة من تلك الدورات الفكرية المعهودة فنسرف في القبول بعد إسرافنا في الإنكار؟
لا هذا ولا ذاك بالحسن المأمون، وإنما الحسن المأمون أن نأخذ بدليل ونرفض بدليل، وإن نعلم أن العجائب في الدنيا لا تنتهي فلا نغلق على أنفسنا بابها مختارين.

عباس محمود العقاد

مسابقة الأدب العربي

ديوان حافظ إبراهيم - 1

للدكتور زكي مبارك

تمهيد - شاعر القصر وشاعر الشعب - دسائس أدبية - ميدان حافظ - هزيمة حافظ - عريضة اتهام - هزائم فظيعة - قصيدة قصر الزعفران

تمهيد:

المقرر لمسابقة هذا العام هو الجزء الثاني. ومن الخير أن يرجع المتسابقون إلى مجموعة السنة الماضية من مجلة الرسالة، ففيها تفاصيل عن شاعرية حافظ لا تملك تلخيصها في هذا الحديث، وفيها أيضاً تفاصيل عن شاعرية شوقي، تفاصيل تكمل الدراسات التي قدمناها في الأسابيع السوالف، وتوضح اتجاهات شوقي في طوائف من الأغراض

السياسيات

أهم أبواب الجزء الثاني من ديوان حافظ هو باب السياسيات، وسيسأل فيه المتسابقون بكل تأكيد، لأن الجانب السياسي من شعر حافظ هو أبرز الجوانب في حياته الشعرية، فمن الواجب أن يجعله المتسابقون أول ما يدرسون بعناية وتدقيق

شاعر القصر وشاعر الشعب

لم تكن الحياة المصرية قبل الحرب الماضية شبيهة بالحياة التي جدت بعد تلك الحرب، ومعنى هذا أن أيام الخديو عباس تختلف عن أيام الملك فؤاد؛ ففي عهد عباس كان للقصر شعراء وللشعب شعراء، ولا كذلك الحال في عهد فؤاد، فقد أراد القصر أن يحول الشعر إلى وجهة قومية، ولم يقبل الملك فؤاد أن يكون له شعراء بالمعنى المعروف لعهد الخديو عباس، وإن كان تغاضي عن دعوى الشاعر عبد الحليم المصري رعاية لما كان ليه من أدب وإخلاص

دسائس أدبية

أنا مقبل على تسجيل حقائق لم تسجل قبل اليوم، ولن يعرفها التاريخ الأدبي إلا عن طريق

هذه الأحاديث، وما يدعوني إلى تسجيلها إلا الخوف من أن تضيع

شعر حافظ السياسي يبتدئ في سنة 1904، وشعر شوقي السياسي يبتدئ في سنة 1894، وقد انتهيا معاً في سنة 1932 عليهما أطيب الرحمات!

فكيف صار شوقي وحده شاعر القصر؟ وكيف اكتفى حافظ بأن يكون شاعر الشعب؟
يرجع السبب إلى أن شوقي كان مفطوراً على حاسة سميتها منذ سنين (حاسة المعاش) وهي حاسة ورثها عن أبويه، وكان لهما بالقصر اتصال، وشوقي نفسه قال كلاماً يؤيد هذا المعنى في مقدمة الطبعة الأولى من الشوقيات، وهي مقدمة تجاهلها شوقي فيها بعد، وتمنى أن تضيع من ذاكرة التاريخ، ولكن هيهات!

كانت في عيني شوقي علة شعرية هي النظر دائماً إلى السماء، علة تمنعه من أن يرى ما بين يديه، ثم اتفق أن زارت جدته الخديو إسماعيل وهو معها، وكان طفلاً رائع الجمال، فسألها الخديو عن أحوال ذلك الطفل الجميل، فقالت بتحسر وتوجع: أن في عينيه آفة تمنعه من رؤية الأرض؛ فنثر الخديو بدرة من النقود الذهبية على البساط، فاعتدلت عينا الطفل وأقبل على الذهب يجمعه بشراهة نادرة المثال!

قال إسماعيل: هذا دواء هاتين العينين العليلتين!

فأجابت الجدة: ولكنه دواء لا يوجد إلا في صيدلية إسماعيل!

وعرف أهل الطفل دواء عينيه فكانوا ينثرون ما يملكون من النقود لينظر إلى الأرض،

عساه يستريح من إدمان النظر إلى السماء
وشب الطفل وصار له حمار يمتطيه في العصريات، يوم كان القاهريون يغنون:
(أحب مشي العصاري لاجل ما أشوفك)
وكانت (دار شوقي) في تلك الأيام تقري من (دار الرسالة) في هذه الأيام، ولم يكن له بد من عبور ميدان عابدين وهو على صهوة حماره في نزهة الأصيل
وغلبت شوقي علة عينيه فنظر إلى فوق، فلمح الخديو توفيق في إحدى الشرفات، فنزل عن حماره وعبر الميدان على قدميه. وراع الخديو أن يرى شاباً يراعي هذا المعنى، فقرر أن يدعوه إليه بلا تسويف، ليبشره بوظيفة في ديوان المعية
لا يعرف أحد كيف كان شوقي في لك الوقت، ولكني أعرف كيف رأيته بعد نحو ثلاثين سنة من ذلك التاريخ، حين عاد من منفاه، وحين تفضل عبد اللطيف بك الصوفاني فجمع بيننا في حفلة عشاء بالدار التي أجهل ما صنعت بها الأيام!
هالني أن أرى شوقي الذي كان أمير الشعراء قبل أن تواجه عيناي نور الوجود قد احتفظ من أطلال صباه بنونتين تزينان خديه عند الابتسام، وأي ابتسام؟
وأقول بصراحة إني لم أر وجهاً أجمل من وجه شوقي، ولا روحاً الطف من روح شوقي ولكن هذا الجمال الجسدي والروحي كانت له غدرات، منها حسب التفرد بالسيطرة والاستعلاء. . . وهنا بيت القصيد!
كان شوقي يحب أن يكون وحده شاعر القصر في عهد عباس. وقد تسبب للقصر في متاعب، فقد دخل لورد كرومر على الخديو عباس وهو غضبان، وحجته أنه علم أن أحمد شوقي وعلي فهمي كامل يدبران أموراً لا يجوز عليها السكوت، والخديو عنهما مسؤول مسؤول. وما أحب أن أزيد!
هل كان شوقي الذي يحارب إنجلترا في السر يهادن خصومه من الشعراء؟
وهل كان يسمح بأن يكون لخصومه ومنافسيه في قلب الخديو مكان؟
ارجعوا إلى ما كتب فضيلة الشيخ عبد القادر المغربي في مجلة الرسالة منذ سنين لتروا كيف استطاع شوقي أن يمنع كرم الخديو عباس عن الشيخ عبد المحسن الكاظمي، ثم ابحثوا بعد ذلك عن السر في عطف الشيخ محمد عبده على الشيخ الكاظمي، فأنا أفترض أن الفتور بين الخديو والمفتي كان له أثر في تقوية ذلك العطف الرفيق.
صيدان حافظ
لم يستطع حافظ مجاراة شوقي في الحياة الرسمية، فانحاز إلى ميدان الوطنية، وصار بعد قليل شاعر الشعب، الشاعر الأول المحبوب، وكان الاتجاه الشعبي صريحاً في مقاومة الاحتلال، وصريحاً في تقوية الأواصر الإسلامية، فكان لحافظ قصيدة في كل مناسبة وطنية، وقصيدة في كل مناسبة دينية. ولم يفته أن يتغنى في أشعاره بأكثر أمم الشرق، ولا سيما اليابان، وما كانت اليابان أقرب إلينا في الوجوه والأفكار من إيطاليا أو فرنسا، ولا كانت لنا باليابان صلات أدبية أو اقتصادية، وإنما كانت اليابان في الاصطلاح الجغرافي أمة شرقية، وكان المهم هو إفهام الشعب أن الشرق يستطيع مجاراة الغرب في جميع
الميادين أن تسلح بأسلحة هذا الزمان، ولهذا السبب سارع الزعيم الوطني مصطفى كامل فألف كتاباً عن نهضة اليابان ليضرب لقومه الأمثال
هزيمة حافظ
كان حافظ أطال القول في شكري البؤس، فعينه الوزير حشمت باشا في وظيفة بدار الكتب المصرية، فسكت عن اغاريده الوطنية، وعند ذلك كثرت فيه الأقاويل، وجالت في غمزه الألسنة والأقلام كل مجال
ثم جاءت فرصة مشؤومة عليه، هي ظهور ثلاث قصائد في يوم واحد بجريدة الأهرام عند اعتلاء السلطان حسين كامل أريكة العرش: قصيدة أحمد شوقي وقصيدة حافظ إبراهيم وقصيدة أحمد نسيم
كانت الحرب في تلك الأيام تجتاز مسالك شوائك، فخاف حافظ وخاف نسيم عواقب المشي على الشوك. أما شوقي فهتف بقصيدة رمزية شغلت الجماهير بالتفاسير والتأويل، فعده المصريون شاعرهم الأول، وزادوا إيماناً بعبقريته حين رأوا أن تلك القصيدة قضت عليه بالخروج من البلاد

وكان في مصر جريدة أسبوعية اسمها (عكاظ)، وقد رأى صاحبها الشيخ فهيم قنديل أن يتودد إلى الجمهور بنشر ما طوى من أشعار شوقي، ولم يكن يكتفي بتسميته (أمير الشعراء) وإنما كان يسميه (شاعر الدنيا والآخرة) فحفظ سمعته الشعرية في أعوام الحرب الماضية، وعطر باسمه جميع أندية الأدبية

وفي ثورة سنة 1919 تخاذل حافظ فلم ينطق بحرف

دخلت الأزهر ذات مساء فسمعت خطيباً يعيب عليه التخاذل، فعلوت المنبر وفندت اتهامات ذلك الخطيب

وفي اليوم التالي لقيت حافظاً بمنزل محمود باشا سليمان، فقال له حفني بك محمود: هل تعرف يا حافظ بك أن الأستاذ مبارك دافع عنك في الليلة الماضية؟

فأدار حافظ بصره إلي وقال: ماذا تريدون مني؟

قلت: نريد قصائد وطنية

قال: والاعتقال؟

قلت: وما خطر الاعتقال؟

فأجاب في هدوء: لن أجد في المعتقل هذا السيجار (وكان في يده سيجار)

فقلت: لن تكون شاعر مصر الوطني وأنت أسير هذا السيجار البغيض!

عريضة اتهام

الغرض من هذه الدراسات هو إرشاد المسابقين إلى إدراك السرائر من الكتب المقررة لمسابقة الأدب العربي، وأنا قلت أن حافظاً تخاذل عن الثورة فلم ينطق بحرف، ونحن في مقام التاريخ وهو مقام يوجب الصدق، فلينظر المتسابقون في ص 87 بالجزء الثاني من ديوان حافظ، ليروا أن قصيدته التي نظمها عن مظاهرة السيدات في سنة 1919 لم تنشر إلا في سنة 1929، ومعنى ذلك أنها كتمت نحو عشر سنين!

أتريدون الحق؟

لقد نسيت تلك القصيدة في ذلك الوقت إلى جماعة من الشعراء منهم الأستاذ محمد الهراوي، ولم ير حافظ أن يصحح النسب، لئلا يقال أو يقال!!

هزائم فظيعة!

بعد عودة شوقي من منفاه حاول أن يتصل بالقصر من جديد، فحبر القصائد الطوال في مدح الملك فؤاد، ولكنه نسى أن الملوك لا يعرفون غير القلب البكر، فهم لا يأنسون بمن استأنسوا لسواهم في أحد العهود

كان الملك فؤاد غاية في الجبروت العقلي، وكانت عيناه أحد من عيني النسر الظامئ، وكان يحب أن يكون عرش مصر أعظم العروش، ولهذا بخل بالرتب والألقاب، إلا أن تكون جزاء على خدمة قومية تستحق التمجيد

وكان للشاعر شوقي تاريخ في شؤون الرتب والألقاب، فصد عنه الملك فؤاد، ولم يجد عليه بأي انعطاف

وهنا سنحت الفرصة للشاعر حافظ، فماذا صنع؟

أراد أن يؤلف جماعة من الشعراء يسميهم (شعراء القصر) فلم يظفر بغير الإخفاق دعاني حافظ ذات يوم إلى موافاته بقهوة النيوبار ليحدثني في مسألة خصوصية، وكان الغرض أن يدعوني للانضمام إلى تلك الجماعة الشعرية، فاعتذرت بأن شيطاني لا يوافيني إلا في ميدان الغزل والتشبيب، ومن الصعب على أن أنظم شعراً في غير هذا الميدان، وأنا تلميذ عمر بن أبي ربيعة، ولم يكن عمر يجيد مدح الملوك

قال حافظ: أنت أحمق يا مبارك!

فقلت: علمني يا معلمي كيف أداوي هذا الحمق

قال حافظ: ستمدح فؤاداً العظيم

فقلت: أمدحه أجزل المدح بالنثر لا بالشعر، فأقول فيه أعظم مما تقول، والآفة الوحيدة هي آفة شيطاني، وهو لا يوحي إلى من الشعر غير الغزل والتشبيب، ولو كان أمري بيدي لنظمت القصائد الطوال في مدح الملك فؤاد، فهو في نظري أعظم الملوك

قال حافظ: أتكون أصدق مني؟

فقلت: إني لا أجود بغير ما أملك، وطاقتي الشعرية لا تسمح بغير ذلك الفن الذي

تعرف. فهل تريد أن تفضحني بين الشعراء؟
ثم؟ ثم؟
ثم غدر المتشاعرون بحافظ فورطوه في متاعب أفسدت ما بينه وبين القصر إفساداً
ليس بعده صلاح، وسأتحدث عن هذه النقطة السوداء بعد حين!
قصيدة قصر الزعفران
هي قصيدة غابت عن الأستاذ أحمد بك أمين وهو يجمع ديوان حافظ إبراهيم، وهي
بشهادة حافظ نفسه أروع ما صدر عن موهبته الشعرية
فما حديث تلك القصيدة؟
في سنة 1925 تحولت الجامعة المصرية إلى جامعة أميرية، واختير لها قصر
الزعفران، وفكرت وزارة المعارف في إقامة حفلة رسمية لافتتاح الجامعة في عهدها
الجديد، وكانت التقاليد أن يرجع إلى القصر قبل إعداد أية حفلة يشرفها المليك، فدعي
حافظ إلى مقابلة نشأت باشا، وكلف إعداد قصيدة يلقيها في حضرة الملك فؤاد يوم
الاحتفال
لن أنسى أبداً فرح شاعر النيل بذلك التكليف، ولن أنسى أنه غناني أجمل غناء في أيام
لطاف لم تعد عليه بغير العذاب، كما سنرى بعد لمحات
كنت في ذلك العهد موظفاً بدار الكتب المصرية، وكان حافظ يشرف على القسم
الذي أعمل فيه إشرافاً روحياً، فكان يدعوني كل يوم إلى سماع ما جد من القصيدة
الجديدة، وكان يصرح بأنها الختام لحياته الشعرية، وأنه لن ينظم بعدها أي بيت
كان الخاطر جميلاً، ومن البر بحافظ أن نسجل ذلك الخاطر الجميل
الجامعة المصرية الحديثة في قصر الزعفران، وقصر الزعفران يجاوره (عين شمس)
وفي (عين الشمس) كانت الجامعة المصرية القديمة التي تخرج فيها فلاسفة اليونان
وعلى هذا الوتر غنى حافظ وأجاد الغناء
ولكن الأقدار أرادت غير ما أراد حافظ، فثارت مشكلة حول قصر الزعفران، مشكلة
قوى غبارها سعد باشا زغلول وهو رئيس مجلس النواب
قصر الزعفران من قصور إسماعيل، وهو يوم ذاك من أملاك الخاصة الملكية، فما
الذي تقدم الحكومة من أملاك الدولة في المبادلة بذلك القصر الخاص؟
كانت الحكومة ترى أن تقدم حديقة الأرمان لتجعل منها الخاصة الملكية (مربط خيل)،
فرأى فريق من رجال - الأمة أن هذا البدل غير مستساغ، وأن الأفضل أن تكون مباني
الجامعة في حدائق الأرمان
وبهذا ضاعت قصيدة حافظ، وتهشم خاطره الجميل!
فأين قصيدة قصر الزعفران؟ أين أين؟؟
قسمها حافظ إلى مقطوعات باختلاف ما دارت عليه من الموضوعات، ونشرت له
جريدة البلاغ في الصفحة الأولى من صفحات سنة 1926 مقطوعة بعنوان (بني
وطني)!
يرحمك الله يا حافظ، فقد حالفك الشقاء إلى آخر الزمان!
ثم ماذا؟
ثم كانت القصيدة التي ألقيت في الاحتفال بافتتاح الجامعة المصرية بعد أن قرت
بحدائق الأورمان قصيدة شوقي لا قصيدة حافظ، ولهذه الشؤون تواريخ يضيق عنها هذا
الحديث
أما بعد فقد يرى قوم أن هذا كلام لا يفيد، وهل اتفقنا على المراد من الكلام المفيد؟
احفظوا هذا الكلام المفيد؟
احفظوا هذا الكلام، فينفع يوم تفكرون في تأريخ الأدب لهذا الجيل
سيأتي يوم لا تعرفون فيه كيف استطاع شوقي أن يمدح الزعيم سعد زغلول فيقول:
فإن شئتَ فاوِضْ وإن شئت دَعْ ... فأنت الحقوق وميزانُها
مع أن شوقي نفسه حدثني مرتين أن بينه وبين سعد أحقاداً وترات، ومع أن أهاجي في
سعد زغلول، أهاجي لم تنشر، وفي الذاكرة منها أشياء
هادن شوقي سعداً لأسباب (انتخابية) يعرفها نسيبه حامد بك العلايلي
وتصافى حافظ مع سعد ليصرع غريمه شوقي
وخلاصة القول أن هذين الشاعرين كانا على جانب من فيض الحيوية، وبهذا الفيض

سيطرا على الجيل الجديد
هل تعرفون قصيدة شوقي في عرابي؟
وهل تعرفون ما طوى حافظ وشوقي من القصائد السياسية؟
ستلوح فرصة قريبة لتسجيل تلك الطوائف قبل أن تضيع، فللتاريخ الأدبي حقوق، والجهل بالتاريخ الأدبي أخطر من الجهل بالتاريخ السياسي، لأن الأدب هو التعبير الصحيح عن ضمائر الشعوب
زكي مبارك
العيد
للأستاذ محمد عرفة
- 2 -
ماذا جرى للعيد، أو ماذا جرى لنا في العيد!
أتغير العيد، فلم يعد هذا الذي كان يبعث فينا السعادة: أم تغيرنا نحن، فلم نعد نصلح مهبطاً للسعادة؟
لقد كنا نحيا في العيد حياة أهل الجنة في الجنة؛ وكنا نفرح بالثوب الجديد فرح الفاتح المنتصر، ونرى في الدريهمات التي يمنحنا إياها أهلونا ثروة وأي ثروة؛ وكنا بامتلاكها كأنما نملك الدنيا، وكنا نرى في العيد كل شئ ضاحكاً زاهياً، وكنا نشعر أن الأنهار والوديان والنبات والحيوان والأرض والسماء تشاركنا كلها في سعادتنا وفرحنا؛ ثم أصبح العيد يقبل كما تقبل سائر الأيام، ويذهب كما تذهب، لا يهزمنا عاطفة ولا نرى فيه معنى جهيداً
لقد صرنا نملك الضياع والدور فلا تستخرج منا من السرور ما كان يستخرجه ثوب جديد، وصرنا نملك المال فلا يسعدنا إسعاد هذه الدريهمات التي كنا نأخذها يوم العيد؛ ولقد كان هذا الفرح بما نملك من ثوب ودريهمات فيه معنى الرضا والقناعة، فصار هذا الوجوم وهدم الشعور بما نملك فيه عدم الرضا وعدم القناعة
الحق أننا كنا نفرح بالعيد صغاراً، لأننا كنا على الفطرة الطيبة التي خلق الله الناس عليها، فلما انحرفنا عن هذه الفطرة أخطأنا الفرح بالعيد بقدر هذا الانحراف، وكان علينا أن نحافظ على روح الطفولة البريئة فينا، لنسعد بالأيام، ولا نشقى بالعيش والحياة. كان علينا أن نحتفظ بسرورنا، لنحتفظ بنشاطنا، وتقوى على ملاقاة أحداث الحياة. فالسرور استجمام واستعداد، والقلب المسرور المغتبط المستبشر أقوى على تحمل الحوادث من القلب الحزين المنقبض المكتئب. وإن الأمم التي تفرح كثيراً أقوى على تحمل الشدائد وعلى النجاح في الحياة من الأمم التي يقل نصيبها من الفرح والبشر والمسرة
وإنكم لتجدون في هذه الأيام أمماً تحمل من الشدائد ما تنوء به الجبال، ولا تتململ ولا تضجر، ولا تهن ولا تستكين، لأنها قوت أعصابها بالسرور، فجعلها أقوى على الاحتمال.
وما أظن هذا الإخفاق الذي يصيب بعض أمم الشرق في عصرنا الحديث إلا من هذه الكآبة المستولية على نفوس الشرقيين، والتي تعم وديانه الضاحكة، وربوعه الجميلة
نعم، إنك تجد القوة حيث تجد الفرح والسرور، والأمم العظيمة تشعر بالقوة لأنها أشعرت قلبها المرح والسرور
أيها الناس، افرحوا بالعيد، واعتدوه عيد النصر على النفس وشهواتها، وأعظم بذلك من نصر في ميدان الجهاد
روى أن رسول الله (ص) قال وقد رجع من غزوة: (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر)؛ يعني جهاد النفس، فإذا كان جهاد النفس أكبر الجهادين كان النصر عليها أكبر النصرين
ألا إن الإسلام يدعوكم إلى الفرح والسرور، ولذلك سن لكم الأعياد. إلا أن الإسلام يدعوكم إلى الفرح والسرور في يوم العيد بما يهديكم إليه نبي الإسلام من قول وعمل
عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل أبو بكر وعندي جاريتان من جواري الأنصار تغنيان بما تقاولت الأنصار يوم بعاث، قالت: وليستا بمغنيتين، فقال أبو بكر: أمزأمير الشيطان في بيت رسول الله (ص) وذلك في يوم عيد، فقال رسول الله: يا أبا بكر أن لكل قوم عيداً وهذا عيدنا
نعم، فلتلتهموا السعادة التهاماً، ولتغتنموا المسرة البريئة اغتناماً، فلقد بينا لكم من

معنى العيد ما يعينكم على جلب المسرة، وبينا لكم من تعاليم الإسلام ما ينفي عنكم الحرج في المسرة؛ ولتبتعدوا عن السرور بالإثم والباطل، فإنه مسرة تعقبها ندامة، وفرح تتلوه الكآبة، وبشر مصيره إلى يأس وقنوط وخذلان
إنما الفرح عنوان الأمل والرجاء، ومظهر الحياة والأقدام، ودليل الرجولة العاملة الفائزة
وما خلق الله النجوم المتلألئة بأنوارها لنشقى بل لنسعد
وما خلق الله الرياض الضاحكة بأزهارها لنشقى بل لنسعد
وما خلق الله الطيور المغردة بألحانها لنشقى بل لنسعد
وما خلق الله الأشجار الراقصة بأغصانها لنشقى بل لنسعد
وما خلق الله الأنهار المصفقة بأمواجها لنشقى بل لنسعد
وما خلق الله هذا الكون البديع الجميل لنشقى بل لنسعد
كل ما في الكون يوحي بالمسرة والسعادة فلماذا الكآبة والشقاء؟
محمد عرفة
خزانة الرءوس
في دار الخلافة العباسية ببغداد
للأستاذ ميخائيل عواد
(تتمة)
9 - تغريق الرءوس في دجلة
رأس علي بن محمد بن الفرات، رأس المحسن بن علي بن محمد الفرات
كان بنو الفرات الوزراء، زينة الدولة العباسية خاصة في أيام المقتدر، فقد تقلد علي بن الفرات الوزارة ثلاث مرات، وكاد يتقلدها رابعة. وكان واسع الثروة حتى قال صولي في حقه وكان شاهداً ومشرقاً على أخباره: (ما سمعنا بوزير جلس في الوزارة، وهو يملك من العين والورق والضياع والأثاث ما يحيط بعشرة آلاف ألف عير ابن الفرات)؛ ومع ذلك كله لم يكن ليتحرج أو يتهيب من مد يده إلى خزانة الدولة، حتى أفرط في الأمر هو وابنه المحسن وأخوه العباس، فأضافوا كثيراً من ضياع السلطان إلى أملاكهم. وقد ساق هلال الصابئي خبراً غريباً مؤداه أن علي بن الفرات (سرق في عشر خطوات سبعمائة ألف دينار)، ففتحت هذه الأمور وغيرها عليه وعلى أهله وأصحابه باب الطن والضغينة من أعدائه وحساده، فحركوا قلب المقتدر عليه، حتى نكبه غير مرة، وفي النهاية قضى عليه وعلى ابنه المحسن، وشتت شمل عائلته، ونكب أصحابه وأعوانه. قال عريب في صفة مقتلهما: (. . . فأمر المقتدر بقتل ابن الفرات وابنه، وتقدم إلى نازوك بأن يضرب أعناقهما في الدار التي كانت لابن الفرات ويوجه إليه برأسيهما، فنفذ ذلك من وقته، وبعث بالرأسين في سفط، ثم رد السفط إلى شفيع اللؤلؤي، فوضع الرأسين في مخلاة وثقلهما بالرمل وغرقهما في دجلة)
10 - صيانة الرءوس من التلف
كان الرسم عند إحضار الرأس إلى دار الخلافة، أن يسلم إلى الموكل، فيعمل هذا على غسله وتنظيفه وإصلاحه، فيفرغ منه المخ، ويستأصل كل الأعضاء القابلة للفساد، ثم يغسله ببعض الأدوية المعقمة المعروفة يومذاك، وكذلك بماء الطيب أو بماء الورد؛ حتى إذا فرغ
من هذا كله، يحشيه بالقطن المخلوط بمواد مختلفة من شأنها إطالة بقاء الرأس، ثم يطليه من خارجه ببعض الأطلية الماسكة لأجزائه.
ودنك رأي طبيب بهذا الشأن، كان عائشاً في حدود سنة 305هـ، وهو المعروف بابن حمدان الطبيب الذي حكى: (أدخلت على أبي الفضل، فوجدت بين يديه أطباقاً عليها رءوس جماعة؛ فسجدت له كعادتهم والناس حوله قيام وفيهم أبو طاهر، فقال لأبي طاهر: إن الملوك لم تزل تعد الرءوس في خزائنها فسلوه - وأشار إلي - كيف الحيلة في بقائها بغير تغيير، فسألني أبو طاهر فقلت: إلهنا أعلم ويعلم إن هذا الأمر ما علمته؛ ولكن أقول على التقدير إن جملة الإنسان إذا مات يحتاج إلى كذا وكذا صبر وكافور والرأس جزء من الإنسان فيؤخذ بحسابه فقال أبو الفضل ما أحسن ما قال) وبهذه المواد والأطلية، كان طُلي جسم وصيف الخادم حيث بقي مدة طويلة دون أن يعتريه الفساد والبلى. قال المسعودي: (وفي أول يوم من المحرم وهو يوم الثلاثاء من

سنة تسع وثمانين ومائتين توفي وصيف الخادم وأُخرج وصلب على الجسر بدناً بلا رأس. . . وطلي بدنه بالصبر وغيره من الأطلية القابضة الماسكة لأجزاء جسمه، فأقام مصلوباً على الجسر لا يبلى إلى سنة ثلاثمائة في خلافة المقتدر بالله أو نحو هذه السنة. . .)

الخاتمة

يبدو لنا من تتبع هذا الموضوع أن اتخاذ خزانة الرءوس في دار الخلافة ببغداد، كان في صدر الدولة العباسية، غير أننا لم نتحقق من السنة التي بدأوا فيها بحفظ الرءوس.

وما قلناه عن بدء أمر الخزانة؛ نقوله في تعيين زوال ظلها، فإن التاريخ يحيلنا إلى سقوط بغداد في سنة 656 للهجرة؛ أفلا تكون خزانة الرءوس هذه ذهبت بذهاب بغداد ودار خلافتها؟

(بغداد)

ميخائيل عواد

ألحان الشاطئ

(إلى ضفاف النوبة الساخرة)

أَيْنَ مِنَّا يا حبيبي أين مِنَّا ... شَاطئٌ طاف به الحبُّ وغنَّى
أتراهُ في النوى يسألُ عنَّا ... أم سَلاَنا بعدَ ما كان وكنَّا؟
آهِ لو نسرِي عليهِ من جديد
فيعودَ الحبُّ والماضِي السَّعيدْ
وَنُغَنِّى الشَّطَّ أحلامَ اللَّيالِي ... كُلَّمَا فَاضَ علينا بالجمالِ
آهِ من سحرٍ بواديهِ حَلالِ ... بْينَ عَرْفِ النُّورِ أو صَمْتِ الظِّلاَلَ
آهِ لو نسرِي عليهِ من جديد
فيعودَ الحبُّ والماضي السَّعيدْ
أينَ منَّا ذلكِ الأفْقُ الجميلْ ... تَتَدَانَى في مجاليه النَّخيلْ
راقصاتٍ طَوْعَ أَنْسَامِ الأصِيلْ ... هامساتٍ بالهوى حيثُ تَمِيلْ
آهِ لو نسرِي عليه من جديد
فيعودَ الحبُّ والماضي السعيدْ
ذلكِ الزورقُ ينسابُ وَيَجْرِي ... فيهِ آمالِي وأحلامِي وفِكْرِي
كُلمَا أذكُرُ مَسْرَاهُ بِنَهْرِ ... وَدَتْ الأشْجانُ أن تفضَحَ سِرِّي
آهِ لو نسرِي عليهِ من جديد
فيعودَ الحبُّ والماضي السَّعيدْ
يا شِراعاً وَدَّ تقبيلَ المياهْ ... أنت أغْريتَ شِفَاهاً بِشِفاَهْ
يا حبيبي، آه هل أظمأ آهْ ... وعَلَى لمغرِك ينبُوعُ الْحَياةْ؟!
آهِ لو نسرِي عليهِ من جديد
فيعودَ الحبُّ والماضي السَّعيدْ
أين يا ملاحُ ألحانُ الهوَى ... تملأُ الشطَّ حَيَاةً وجَوَى
أتُرَى جَارَتْ عَلَى سَمْعِي النَّوَى ... بعدما عبَّ الأغانِي وارتوَى؟
آه ِلو نسرِي عليهِ من جديد
فيعودَ الحبُّ والماضي السَّعيدْ
أترى تبسمُ حيناً يا زَمَاني ... فنرَى الشَّطَّ وهاتيك المغانِي
ونغني للهوى عذبَ الأغانِي ... كلما هاجَ هَوانَا الشاطِئانِ
آهِ لو نسرِي عليهِ من جديدْ
فيعودَ الحبُّ والماضي السَّعيدْ

محمد عبد الرحيم أدريس

(شاعر النوبة)

البريد الأدبي

حول التلباثي

قرأت بإعجاب كبير مقال الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد عن (التلباثي) وأنا أورد هنا - تأييداً لما جاء في مقال لأستاذ الكبير - حادثة ذكرها المرحوم الشيخ رشيد رضا صاحب المنار في تعليقاته القيمة على رسالة التوحيد للإمام محمد عبده قال الشيخ:

(. . . ثبت بتجارب الأطباء حتى الماديين منهم أن بعض هؤلاء المرضى - يعني المرضى بأمراض خاصة - يخبر ببعض المغيبات وبالأمور قبل وقوعها فيصدق. قال مريض منهم كثرت أخباره في ذلك وكان بمصر: إن فلاناً من أقربائه في الإسكندرية خرج من داره إلى محطتها قاصداً السفر إلى مصر لعيادتي. . . ثم أخبر أنه وصل إلى محطتها ودخل القطار؛ ثم شغله الطبيب بأمور تهمه، حتى إذا ما جاء موعد وصول قطار الإسكندرية إلى مصر قال المريض: قد وصل القطار ونزل فلان منه. هاهو ذا خرج من المحطة وركب مركبة تحمله إلى هنا. ثم قال: هاهو ذا قد وصل، فإذا هو بالباب وقد دخل، فالروح التي تدرك مثل هذا وهو غائب عنها تعطينا دليلاً حسياً على إمكان إدراك روح أكمل منها لعلوم من الغيب أعلى مما أدركته هي)

وللأستاذ الكبير إعجابي الكبير، وتحيتي الخالصة.

إبراهيم محمد نجا

حول كتاب ديكارت

1 - أورد الأستاذ صفاء خلوصي في العدد 439 من (الرسالة) فقرات من كتابي (ديكارت) زعم أنها منقولة عن كتاب (آراء غريبة في مسائل شرقية) تعريب الأستاذ عمر فاخوري. والحقيقة أنني لم أنقل شيئاً عن ذلك التعريب إذ لم يكن لي علم بوجوده - وإنما اقتبست عن الأصل وهو بحث كتبه شارل سومان، وكنت قرأته في باريس منذ عهد بعيد، فأعجبني واستنسخته واحتفظت به في لغته الأصلية التي كتب بها. وبقي في أوراقي، إلى أن عدت إلى ديكارت فتذكرته واقتبست منه، وأحببت الإشارة إليه في المراجع، تبعا للخطة التي رسمتها في كتابي كله. ولكن حال دون القيام بهذا الواجب، أنه كان قد فاتني حين احتفظت بالبحث أن أقيد على وجه التدقيق عنوانه الكامل والموضع الذي نشر فيه وتاريخ نشره وترقيم صفحاته وما إلى ذلك مما ينبغي استيفاؤه في كل عمل من هذا القبيل يتم وفقاً للطريقة العلمية في سرد المظان وبيان المراجع. فكان لابد أذن من إغفال اسم ذلك المصدر والاكتفاء بإيراد النصوص والشواهد من الغزالي ومن ديكارت، مع ذكر مواقعها من مؤلفات هذين الفيلسوفين. ولم أشك في أن ما صنعت من الإحالة إلى الفيلسوفين مباشرة أقوى حجة وأجدى على القراء من الإشارة - دون تثبيت ويقين - إلى ذكرياتي عما كتب عنهما

هذا ولست أدري ما مراد الأستاذ خلوصي من قوله - بعد أن أورد بعض الفقرات المتشابهة في كتابي وفي البحث الذي كتبه سومان -: (وقد أخذ الأستاذ عثمان أمين كذلك مقارنة بين فقرة من كتاب المنقذ من الضلال للغزالي وفقرة من كتاب التأملات لديكارت). وإني أتساءل ما وجه الغرابة في هذا؟ وأي عيب فيه؟ أليس الأجدر بنا في مثل هذه الشؤون أن تعمد إلى النصوص الواضحة نستفتيها، بدلاً من الالتجاء إلى الأقوال المبهمة والفروض العامة؟

أما كون الفقرتين اللتين أوردتهما في كتابي (هما نفس الفقرتين اللتين أوردهما شرل سومان) فهذا أمر طبيعي، ما دمت - كما قلت - قد اقتبست من البحث المشار إليه ما احتجت إليه في المقارنة بين الغزالي وديكارت؛ ولقد كان بمقدوري أن أورد في المقارنة بينهما أقوالاً وفقرات أخرى كثيرة ذكرها سومان و (ليون جوتييه) وغيرهما من المستشرقين. ولكني لم أرد أن يتشعب البحث فيخرج عما كنت بسبيله، فاقتصرت على إيراد هاتين الفقرتين في الهامش مشيراً إلى موضعهما من (المنقذ) و (التأملات) وأما قول الكاتب إن (ترجمة الفقرة عن ديكارت هي نفس ترجمة الأستاذ فاخوري) فهو قول لا يخلو من إسراف. ولو كان الكاتب الفاضل موقناً منه لأورد نص الترجمتين ليرى القراء مصداق ما قال. أما أنا فإن كنت لا استبعد مبدئيا أن يكون قد وقع بين الترجمتين بعض شبابه، إلا أنني أستطيع أن اجزم منذ الساعة (أي قبل الاطلاع على كتاب (آراء غريبة). . .) باستحالة انطباق الترجمتين انطباقاً تاماً بحيث تكون الواحدة منهما هي (نفس) الأخرى كما زعم الكاتب. ويحملني على الجزم بهذه الاستحالة ثقتي من أنني إنما قرأت البحث الأصلي دون غيره، وأنني توخيت المنهج العلمي في كتابي، فلم أورد شيئاً إلا ذكرت مظانه ما استطعت إلى ذلك سبيلاً. ولعل الكاتب نفسه لا ينازع في هذا إن كان من المنصفين.

عثمان أمين
2 - ومن كلمة في هذا الموضوع للفاضل زكريا إبراهيم هذه الفقرة:
الواقع أن الأستاذ (عثمان أمين) لم يأخذ هذه العبارة من ترجمة الأستاذ عمر فاخوري، وإنما أورد نصاً لديكارت نفسه، وهو نص معروف يجده قارئ كتاب (مبادئ الفلسفة) لديكارت. واليك هذا النص في الترجمة الفرنسية للكتاب:
. . .) ,. . ' ' , ' '. .) , 1 , 4.)
وترجمة هذا النص هي كما يلي:
(إن حواسنا قد خدعتنا في كثير من الأحيان، ومن قلة الحزم أن نثق تمام الثقة في أولئك الذين خدعونا ولو مرة واحدة)
فالأستاذ عثمان أمين لم يأخذ هذه العبارة إلا عن ديكارت نفسه، ولم يكن بوسعه أن يتصرف في النص الأصلي، لأن واحداً سبقه إلى ترجمته!
(مصر الجديدة)
زكريا إبراهيم
في أزهار الرياض
1 - قصدت في مبحث لي إلى الجزءين المطبوعين حديثاً من (أزهار الرياض) الذي ينشره المعهد الخليفي للأبحاث المغربية فقرأت فيهما بضع صفحات فرأيت أخطاء يجدر بمصححي الكتاب أن ينبهوا عليها، منها في الجزء الأول ص2 في التعليق (وقد ذكر المؤلف هنا على سبيل التورية أسماء طائفة من الكتب للقاضي عياض وغيره وهي. . . الخ). والصواب أن يقولوا: (منها) بدل (وهي) لأنهم لم يذكروا جميع أسماء الكتب التي ذكرت في المقدمة كالإلماع بأصول الرواية والسماع للقاضي عياض، وغيره. وفي ص109:
سلامٌ على مولاي مِنْ دار ملكه ... قُسنطينةٍ أكرم بها من مدينة
الصواب:
سلام على مولاي من دارُ ملكه ... قُسنطينةٍ أكرم بها من مدينة
لأن السلام من الأندلس على السلطان أبي يزيد العثماني في القسطنطينة. وفي ص 113 (وجنسهم المغلوب في حفظ ديننا) والصواب (وحبسهم المغلوب). وفي ص 114:
وساقوا عقود الزور ممن أطاعهم ... ووالله ما نرضى بتلك الشهادة
الصواب (وساقوا شهور الزور). وفي الجزء الثاني ص160: (مرثيته) بتشديد الياء. والصواب (مرثيته) بالتخفيف. وفي ص359: (ولا تعد عيناك عنهم) بضم الياء، وصوابها (عيناك). وفي ص414 في الفهرس (الديباج المذهب في علماء المذهب لابن فرون) الصواب (لابن فرجون) ولم يذكروا رقم الصفحة الموجود فيها اسم هذا الكتاب. وفي ص403 (السلفي 354) وفي ص399: (أبو الطاهر السلفي الأصبهاني 354، 372) وكلا الاسمين لرجل واحد. ولم يذكروا في الفهرس (تاريخ ابن حيان) وقد ورد في هذا الجزء في الصفحة 258 وغيرها
ابن الفتح
2 - ومما أخذه على التصحيح الأديب عبد الله الصادق قوله:
(1) في صفحة 16س9 (ومن تنديداته على أبي الحسن) الصواب (تنديراته) كما في نفح الطيب الذي يرجعون إليه ويصححون عليه وهو من قولهم: فلان يتنادر علينا (الأساس) ولو كان من التنديد لعديت بالباء إذ يقال ندد به، لا عليه (القاموس)
(2) في ص39 س2
إن لوحقوا في المعلوات فإنهم ... طلعوا بآفاق العلاء بدورا
قالوا في الهامش: المعلوات جمع معلوة كمكرمة يريد بها المعالي، ولم نجد المعلوة بوزن المكرمة في المعاجم التي بين أيدينا.
أقول: هي جمع معلاة وهي كسب الشرف كما في القاموس، وأصل المعلاة معلوة تحركت الواو وانفتح ما قبلها قبلت ألفاً. وقد أرجعها الشاعر إلى الأصل ضرورة. فعدم ورودها في المعاجم ليس تقصيراً لأنها من القواعد المشهورة
(3) في ص207 س3 وكان المخترع لها - أي الموشحات - بجزيرة الأندلس مقدم بن معافى القبري). وأطالوا في الهامش ليصححوا تحريفاتهم فضلوا الصواب لأن (معافى)

محرفة عن (معافر) أنظر مقدمة ابن خلدون ص305 طبع بولاق. و (القبري) محرفة أيضاً عن (الفريري) نسبة إلى فريرة قرية بالأندلس كما في معجم البلدان لياقوت. وقد غلط مصحح مقدمة ابن خلدون فرسمها (الفربري) بالباء، والصواب بالياء.

بنو أمية وحلم الشورى والعدل

كتب الأديب أحمد البديني سطوراً في العدد الماضي من الرسالة قال فيها عني: (إنه قد غالى كثيراً في قوله إن البناء الإسلامي قد تصدع، وإن اليأس اخذ يدب في جسم الدول الإسلامية في عهد بني أمية). وإني أنتهز هذه الفرصة لأصحح لفظة من كلمتي التي نشرتها عن كتاب (عبقرية عمر) قد حرفتها المطبعة فجاءت على غير حقيقتها وقراها الأديب البديني على تحريفها ثم كتب ما كتب على ما أخذه فهمه منها ذكرت في هذه الكلمة، أنه لما استحوذ بنو أمية على الملك (قام الأمر منذ يومئذ على قوة العصبية والغلب وتصدع البناء الإسلامي الذي كان قد أقيم على (الشورى والعدل)، وكذلك أخذ داء التفرق الديني والسياسي (لا اليأس كما نشر خطأ) يدب في جسم الأمة الإسلامية حتى أنهك قواها وأذهب ريحها).

ولقد كنا سكتنا عن تصحيح هذه اللفظة لأن السياق كما ترى يدل عليها، وفطنة قارئ الرسالة المثقف لا تلبث أن تلمحها وتنفذ إليها

محمود أبو ريه

هل الأنصار من قريش؟

ستشغل المكتبة العربية حيناً من الدهر بالكتابين الكريمين اللذين أخرجهما أخيراً الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد. ففي كليهما اتجاهات فذة تفصح عن نواحي العظمة في أستاذنا الجليل

ولقد أجمع النقاد على إكبار عبقرية محمد، ولم يكن حظ عبقرية عمر من الإجلال والتقدير بأقل من حظ الأول

على أننا في قراءتنا لعبقرية عمر بالصفحة 319 استوقف نظرنا قول المؤلف في صدد النزاع الذي نجم على الخلافة عقب موت الرسول ما نصه:

(فالأنصار يقولون انهم أحق بالخلافة من المهاجرين لأنهم كثرة والمهاجرون قلة، ولأنهم في ديارهم والمهاجرون طارئون عليهم، ولأنهم جميعاً من قريش ولهم فضل التأييد والإيواء)

والعبارة على هذه الصورة توهم أن الأنصار من قريش وهم بالطبع ليسوا كذلك (المنصورة)

خالد عبد المنعم

العدد 496 - بتاريخ: 04 - 01 - 1943

الرسالة في عامها الحادي عشر

أقبل العام الميلادي تسعى بين يديه الشمس، ومن ورائه يقبل العام الهجري يسعى بين يديه القمر؛ وبين هذين النيرين الإلهيين تبلغ (الرسالة) مرحلتها الحادية عشرة في سبيلها الشاقة، إلى غايتها الحاقة، ومنهما معرفتها ورشادها، وفيهما تضحيتها وجهادها؛ ومن نور القمرين نور الدنيا، ومن هدى التاريخيين هدى الناس؛ فإذا تعسر الخطو وتعثر الخطاة فذلك لأن النور الإلهي احتجب، والبصر الإنساني كلّ. على أن نور الله تدركه البصائر لا الأبصار؛ فإذا عميت القلوب تخبط الناس في ظلام جهنمي تموج فيه تهاويل الشر، فأفسدوا كل صالح، وبددوا كل منتظم، وهددوا كل حي. وما محنة العالم اليوم إلا ضلال عن الطريق. والضال إذا لم يهتد هالك لا محالة. ومن يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً

كلما عاد عيد الهجرة أو عيد الميلاد صاح بالضالين المتفانين شيخ الإسلام أو حبر النصرانية: أن تعالوا إلى الطريق! ولكن كلا الدليلين - وا أسفاه! - يقف على رأس الجادة المهجورة داعياً ولا سميع، وراعياً ولا قطيع!

فمتى يا إله الناس تنحسر عن العيون السادرة أغشية الضلالة فيعود الجائر إلى القصد، ويرجع الشارد إلى الحظيرة؟

لقد طغي الفناء على الكون، وأرسل على ملكوت الله سمائمه السود تعصف في كل مكان بالخوف والجوع والدمار والموت لا تكف ولا تخف حتى لا يدري الممسي كيف يصبح، ولا الغادي كيف يروح!

هذا هو الشتاء الرابع يقبل على هذه الرجفة الآدمية العالمية وهي راعدة لا ينقطع لها دوي ولا حمم ولا نار ولا ضحايا؛ وبنو آدم المتمدنون لا يفتئون يسخرون العلم الذليل الخاضع في تأريث براكينها المزمجرة، فتقذف الردى شهباً في السماء، وتصحبه حميماً في الماء، وتشعله جحيماً في الأرض، وأولادهم هم أشلاء هذه المقتلة، وحضارتهم هي أنقاض هذه الزلزلة. وكل أولئك في سبيل الرغيف. ورزق الله موفور ميسور ما دامت السماء تمطر والأرض تنبت؛ ولكن الإنسان مهما تعلم وتقدم لا يزال في سياسة معدته على الفطرة الأولى من حب الاستئثار والاحتكار، فلا يعرف القناعة في الرزق، ولا يقبل العدالة في القسمة، ولا يحسم الخلاف على القوت إلا بالقوة إذا تأسد، وبالمراوغة إذا تثعلب. وقد تتفانى الدول وتبقى الأرض، كما يتفانى الأسود وتبقى الفريسة

والخاسرون في معركة الحياة هم عبيد الطمع من الأفراد والأمم. يبذلون دماءهم في سبيل الحياة لا لينعموا بها، ولكن ليحافظوا عليها. وهم مادة الغذاء في يد الطبيعة: ترعاهم ليأمنوا، وتدر عليهم ليسمنوا؛ فإذا ما تكاثروا وامتلئوا قدمتهم إلى الحياة العامة فكانوا سماد الزرع ليخصب، وقلامة الشجر ليغلظ!

كان الشأن في الحرب القديمة أن يخرس اللسان والقلم إذا نطق السيف والرمح. وكانت نيرانها المحصورة لا يصلاها إلا المتحاربون، رجلاً لرجل، أو فئة لفئة؛ ولكن هذه الحرب الجديدة في خططها وعددها، جندت كل قوة وأوعدت كل حياة: جندت العلم والأدب والفن والصحافة والإذاعة والتمثيل والسينما، وعبأت الزراع والصناع والتجار والمدنيين والعسكريين والمحايدين والمحاربين والأطفال والشيوخ، فلم تدع أحداً في العالم كله يفكر إلا فيها، ولا يشغل إلا بها، ولا يعمل إلا لها، ولا يألم إلا منها؛ فكأنها أصبحت المحرك الأول لآلة العيش، استولت عليه الشياطين فأنتجوا به من أداة الشر ما لم يقع في سماع التاريخ ولم يخطر ببال الناس ليهلكوا ما ادخرته القرون، ويهدموا ما شاده الله!

لذلك نما وطما كل ما يمت إلى هذه الحرب بسبب من الإنتاج المادي والفكري، وذبل وضؤل منهما مالا يحارب ولا يدعوا. والأدب في الحرب القديمة كان تشجيعاً، ولكنه في هذه الحرب أصبح دعاية. وقد نفق هذا النوع من الأدب نفوقاً عجيباً في كل أمه، لأن الحكومات على اختلافها وائتلافها تتملقه وتتعهده وتنفق عليه. والأدب كالحرب عصبة المال: بفضله يخصب ويزدهر، وبحوله يتسع وينتشر. أما الأدب الذي لا يحارب ولا يدعو، فقد ظل كالشعب المحايد، يعاني الحرمان ولا يد له فيه، ويقاسي الغلاء ولا ربح له منه

والصحافة الأدبية من هذا النوع، ألحّ عليها فحش الغلاء وحرمان العوز حتى نحل بدنها وشحب لونها، وكادت تنبت من فرط الضنى في وسط الطريق

أصبحت لا تجد الورق إذا وجدت المال، ولا تملك زيادة العرض إذا ملكت زيادة الطلب، ولا تضمن بقاء الغد إذا اطمأنت على بقاء اليوم. فإذا قدر الله لها أن تخرج من محنة هذه الحرب وفيها حشاشة نفس، كانت حرية بعد ذلك أن تستهين بكل صعب، وتثبت على كل

خطب. ورجاء الرسالة في الله أن يرزقها من الجلد ما تتماسك به على عرك هذه الشدائد. وحسبها من صدق الأماني أن تعيش حتى ترى الطريق قد استبصر، والسلام قد استقر، والأمر قد استقام. ويومئذ يتسع لها المجال فتشارك جاهدة مخلصة في رأب ما تصدع وتجديد ما تهدم

وإذا كانت للرسالة في مستهل هذا العام ما تغتبط به من فوز جهادها ونجاح دعوتها، فذلك توفيقها في معالجة الإصلاح الاجتماعي توفيقاً لمست أثره في منهاج وزارة الشؤون الاجتماعية في عهد وزيرها القائم بأمرها اليوم. فلقد آتاه الله حزم الحكماء وعزم المصلحين فطوى فؤاده الشهم على نية الإصلاح بالفعل لا بالقول، فرفع شأن العربية في دواوين الحكومة، ومهد السبل المؤدية إلى تنظيم الإحسان وجباية الزكاة ومحاربة الأمية ومطاردة الفقر على نحو يشبه ما نحته الرسالة في معالجة هذه الشؤون

وأمنية أخرى طالما تمنتها ورددتها الرسالة توشك أن تكون من مقاصد الحكم في هذا العهد: تلك الأمنية هي الاتحاد العربي على أي صورة يكون. وفي كلام الزعماء ومنطق

الحوادث ما يعزز الرجاء في تحقيق هذا الأمل؛ وفي توفيق الله وجهاد الصادقين ما يحقق النفع المرجو من هذا العمل

أحمد حسن الزيات

خواطر ليلة الميلاد

للدكتور زكي مبارك

كان لي مع هذه الليلة تواريخ في القاهرة وباريس، تواريخ أبدعها الجو الطروب أو الجو العبوس، فقد كان يتفق في أحيان كثيرة أن تحمل ليلة الميلاد أكداراً ومنغصات، لأن الغالب في البيوت الفرنسية أن يكون الزوجان عاشقين، وأن تكون نيران الغيرة مما يشب في ليلة العيد حول (شجرة الميلاد)، وما أسعد من يعيش وهو معذب بلواذع الوجدان!

ما أذكر مرة أن تلك الليلة مضت بدون عواصف، إلا أن تكون في بيوت فرغ أهلها من مصارعة الأهواء. وهي فيما عدا ذلك ليلة متاعب وكروب

وهذه الظاهرة هي سر جمال هذه الليلة، فاصطراع العواطف ميلادٌ جديد، وقد يفعل فعل السحر في إحياء المشاعر والقلوب

كنت أقضي هذه الليلة في بيوت أعرف من أحوالها أشياء، فكنت أفهم الرموز والتلاميح، وكنت أجد التفاسير لبعض دقائق الأدب الفرنسي، وهو أدبٌ قام على أساس الفهم للسريرة الإنسانية، وسيعيش إلى أزمان وأزمان، ما دام في الدنيا ناس يحبون الأدب الصادق الصريح

ثم جاءت هذه الحرب فقضت في مصير فرنسا بما قضيت، ولم يبق لأصدقائي الفرنسيين من زاد غير الحزن الوجيع، فأنا لا أزورهم في ليلة الميلاد كما كنت أصنع، ولا ألقاهم إلا في الحين بعد الحين، فهناك أحزان تؤرثها المؤاساة وتزيدها اشتعالاً إلى اشتعال

وهنا أذكر أني عرفت أخيراً أن سقوط باريس لم يحزن أهل باريس بقدر ما نتصور، ولم يشعرهم بمعاني الامتهان. وتفسير ذلك عند الأستاذ توفيق وهبة أنهم قوم تعودوا الهزائم والانتصارات، ولم تكن الدنيا في أنظارهم غير مواسم للانخفاض والارتفاع

ولكني مع هذا أقرر أن حال الفرنسيين المقيمين بمصر يختلف عن حال مواطنيهم هناك، لأن المغترب يتعلق بوطنه تعلقاً لا يحسه المقيم، وقد تأكد عندي هذا المعنى في الأعوام التي قضيتها في باريس وفي بغداد، فقد كان الخبر السيئ يؤرق نومي مهما صغر وهان، وكان أي حرف يكتب ضد مصر يؤذيني، فأرد عليه في الحال

أكتب هذه السطور في ليلة الميلاد، وفي خيالي بيوت عزيزة كنت أحب أن أراها وكانت

تحب أن تراني. وسيقول قومٌ كلاماً كالذي قالوه يوم نشرت (الرسالة) مقالي في التفجع لسقوط باريس!

كانت فرنسا أمةً استعمارية فشمت بانهزامها من يؤذيهم بغيُ المستعمرين، وفاتهم أن فرنسا أعطت جميع الشعوب درساً سينتفعون به حامدين أو جاحدين

كانت فرنسا ترى أن اللغة هي عنوان الأمة، وكانت ترى أن الوطن الذي لا يسيطر بالفكر على خصومه ومنافسيه وطن ضعيف. ومن أجل هذا أنفقت فرنسا ما أنفقت من الأموال ليكون لها مدارس في جميع البلاد، وبفضل هذه العناية صارت اللغة الفرنسية لغة دولية، وصار من حق الفرنسي أن يعفي نفسه من العناء في تعلم اللغات، لأنه سيجد من يتفاهم معهم بلغته في أي بلد يتوجه إليه، ولو في الصين!

اقترحتُ في سنة 1938 أن ننشئ مدرسة مصرية تنافس المدرسة الفرنسية في طهران، فلم أجد من يسمع كلامي. وأين من يعرف أن طهران جريدة إيرانية لغتها الفرنسية؟

فوجئت يوماً وأنا بدار المعلمين العالية في بغداد بمجموعات فخمة ضخمة من المؤلفات الفرنسية، وحين سألت عن مصدرها عرفت أنها هدية مرسلة من باريس وقد استوحيت هذا الشاهد فاقترحت فيما بعد أن ترسل وزارة المعارف المصرية هدايا من الكتب المكدسة في المخازن إلى المدارس الأجنبية، فترددت الوزارة عامين، ثم تلطفت فأهدت مجموعات هزيلة، مع أن في مخازنها مجلدات مهجورة ستباع يوماً بلا ميزان، لأن حراستها وصيانتها تجشمان الوزارة ضروباً من التكاليف

كانت فرنسا تقول بمبادلة الأساتذة والتلاميذ، لتعطي وتأخذ، ولتفيد وتستفيد، وقد أقامت في إحدى ضواحي باريس مدينة تبني فيها أية أمة لأبنائها ما تشاء، ولقد استفادت أممٌ كثيرة من هذه المزية، إلا مصر، ولهذا تفضيلٌ قد يتأذى الشمسي باشا من تسجيله في هذا الحديث

ونحن اليوم في أوج صلاتنا مع الشرق، فعند الشرق مدرسون مصريون يعدون بالمئات، ومع هذا لم تفكر مصر في رد الجميل

ما الذي يمنع من أن تستقدم مصر بعض الأساتذة من الشرق ليدرسوا في معاهدها العالية بأساليبهم الخواص: فهذا في كلية الآداب، وذاك في دار العلوم، وذلك في كلية اللغة العربية، إلى آخر ما يصلح له علماء الشرق؟

ليس معنى هذا أن مصر في احتياج إلى مدرسين، وكيف وفي خريجي المعاهد العالية شبان أكفاء لا يجدون ما أعدوا له من المناصب التعليمية؟

إن لهذه المسألة وضعاً غير هذا الوضع، والمراد هو أن تفكير مصر في إتاحة الفرصة لبعض أساتذة الشرق، الفرصة التي تمكنهم من الوقوف على التيارات العلمية والأدبية في الديار المصرية؛ فمصر اليوم في ازدهار علمي وأدبي لم تشهد مثله من قبل، وهو ازدهار يوحي إلى الأساتذة أكثر مما يوحي إلى الطلاب، وقد يكون في وجود أولئك الأساتذة فرص لمنافسات علمية وأدبية تعود علينا بأجزل النفع، وقد يكون في وجودهم خير للطلبة الذين حضروا إلينا من بلادهم، فأنا ألاحظ أن أكثر الطلبة الشرقيين لا يجدون من يعاونهم على الاستفادة الصحيحة من الإقامة بهذه البلاد

خطر في بالي مرة أن أقترح على مشيخة الأزهر الشريف أن تنشئ كرسياً للفقه الجعفري، وكان هذا الخاطر لأني لاحظت أن النضال بين المذاهب الفقهية قد انعدم في مصر أو كاد، مع أن لمصر في التشريع الإسلامي تاريخاً من أمجد التواريخ

إن مناصب (شيوخ المذاهب) صارت مناصب شكلية بسبب السلام الذي ساد بين المذاهب، وهل نسمع اليوم خبراً عن شيخ الشافعية أو شيخ المالكية؟

إن النضال بين المذاهب أدى للتفكير الإسلامي خدمات تفوق الإحصاء، وله فضلٌ عظيم في مرونة اللغة العربية، وأكاد أجزم بأن الفقهاء خدموا اللغة أكثر مما خدمها الشعراء

لو استقدمنا عالما شرقياً لتدريس الفقه الجعفري بالأزهر لأثرنا النضال بين المذاهب من جديد، وأعطينا مصر فرصة عظيمة ليقظة فكرية نادرة المثال

إن مصر في عهدها الحاضر تنشئ تاريخاً جديداً في الشرق، وهي في طريق الوصول إلى عقد معاهدات ثقافية مع أكثر أمم الشرق، وهذا يوجب عليها أن تعرف الشرق أكثر مما تعرف، فيكون لها فيه سفراء روحيون، ويكون عندها منه سفراء روحيون

لو دعونا جماعة من أساتذة الشرق ليحدثونا عما في بلادهم من تقاليد وآراء وآداب لحمدوا لنا هذا الصنيع، وعدوه تلطفاً يستحق الثناء

ويظهر أنه لا بد من إنشاء قلم بوزارة الخارجية لمراجعة ما يكتب عن مصر في جرائد الشرق، وتكون مهمته المبادرة إلى تصحيح ما يستوجب التصحيح، وتكون مهمته أيضاً أن

يستصدر أعداداً خاصة من بعض جرائد الشرق للتعريف بمصر كالذي تصنع وزارة الخارجية في استصدار أعداد خاصة من بعض الجرائد الإنجليزية والأمريكية

وهنا أشير إلى حادث ما ذكرته إلا شعرت بالحزن يعصر قلبي

في سنة 1939 أصدرت مجلة (الحديث) ومجلة (العرفان) ومجلة (المكشوف) أعداداً خاصة بمصر، أعداداً نفسية جداً، ومع هذا لم أستطع إقناع وزارة المعارف بأن تشتري من تلك الأعداد مجموعات لمكتبات المدارس، ليعرف الذين فكروا في التنويه بمصر أن كرمهم لا يضيع

وفي تلك الأيام كنت أقترح على الأستاذ الزيات أن تصدر الرسالة أعداداً خاصة عن الأمم العربية فرحب بالاقتراح وأجل تنفيذه إلى انقضاء الصيف، ثم بدا له بعد ذلك أن يواجه المشروع من جديد، فصدته أزمة الورق عما يريد

مالي ولهذا الكلام؟

هذه ليلة الميلاد، والأثير ينقل إلى سمعي بعض ما يثور في شوارع مصر الجديدة من عجيج وضجيج، فكيف آثرتُ الاعتكاف في هذه الليلة، وقد تفضل شهر ذي الحجة

فجعلها قمراء؟
لعني أردت الخلوة إلى قلمي، وهو الأنس الأنيس عند اعتكار الظلمات في دياجي الزمان
لعني أردت بهذه الخطوات القومية أن أتجنب الخلوة إلى قلبي، وهو عدوٌ صديق
ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى ... عدواً لهُ ما من صداقته بُدُ
قضيت ما قضيت من حياتي في دراسة الجمال، حيثما كان الجمال، فأنا لا أضيف حرفاً إلى حرف إلا بميزان، وأنا أصادق وأعادي بوحي الذوق لا بوحي النفع، وما الموجب لأن أكون نفعياً وقد أغناني الله عن جميع الخلائق، ولم أعرف ما الظمأ والجوع في أي يوم، ولا جاز في وهمي أن أتصور أن الله قد يتخلى عني؟
لي صداقات كثيرة مع أرواح تنطق بالأوراق لا بالألفاظ، وأقسم جهد اليمين أن بحديقة داري في سنتريس أشجاراً يعتريها الذبول إن صدقت عنها أسابيع
لي صديق هو اليوم أحد مدرسي الفلسفة بكلية الآداب، وهو الأستاذ محمود الخضيري، وكان لي معه حديث في (ايسكوار مونج) في نوفمبر سنة 1930، فما ذلك الحديث؟
كنت أجلس في بعض الضحوات (بذلك الإيكسوار)، وهو حديقة الحي في الإصلاح الفرنسي، كنت أجلس تحت شجرة يؤنسها أن ترى رجلاً بيده كتاب، وكان أصدقائي من بعثة الجامعة المصرية يعرفون كيف يلقونني هناك. وفي ذات يوم حضر الأستاذ محمود الخضيري فوجدني أجادل رجلاً يحاول تشذيب تلك الشجرة بعنف، فأنكر عليّ ما أصنع، فقلت إن الشجرة تصرخ، ومن واجب من استظل بظلها أن يدفع عنها العدوان. فقال: وهل يحس الشجر والنبات؟ فقلت: نعم، ويتألم الشجر والنبات كما يتألم الحيوان!
وبعد شهور حدثتنا جرائد باريس أن جلالة الملك فؤاد قد استقدم عالماً هندياً اسمه (بوز) ليلقي في الجمعية الجغرافية محاضرات عن نظريته في إحساس النبات!
إحساسي بالوجود هو سبب عنائي، ولو عرف الناس هذا العناء لقاتلوني عليه، فهو أطيب الأطايب في ثمرات الحياة
لم أدخل بلداً إلا أحببته أصدق الحب، لأني أرى بضميري وجه الله في كل مكان. وما صادقت إنساناً وغدرت به أبداً، لأني أرى الصداقة من أظهر الدلائل على صحة القول بوحدة الوجود
وأنا أترحم وأتحسر وأنفجع كلما رأيت إنساناً يكذب أو ينافق في سبيل العيش، فالموت الذي يخافه الناس لن يصل يوماً عن طريق الجوع. ولو نظر الناس في أسباب أمراضهم لوجودها ترجع إلى الإفراط في الطعام والشراب ولو كانوا من الفقراء
ثم ماذا؟ ثم يبقى جواب الخطاب الوارد من (الأرمان) فماذا يريد ذلك الخطاب؟
هو يريد أن تكون مقالاتي كلها على غرار (دار الهوى في عيد القمر)، فأين أنا مما يريد؟ وأين الأعصاب التي تستطيع تدبيج تلك الأحاسيس في كل أسبوع؟
أمام عيني وبين يدي أرواحٌ موقوذة هي المقالات التي سطرتها بدمي، ولا أستطيع نشرها بأي حال، لأنها تخالف المألوف من تقاليد هذا الزمان
ثم يحاسبني ذلك الخطاب على هفوات قلمي، كأنه يجهل أني أمتشق القلم في كل مساء، وأني أراود أبكار المعاني في يقظتي ومنامي
أما بعد فهذه ليلة الميلاد، وقد قضيتها وحيداً فريداً لأتقي الله في نفسي فلا أعرضها لشواجر الأرواح وعواطف القلوب
وقد بقيت ليلة ستأتي بعد ليال، وهي ليلة العام الجديد، وأغلب الظن أني سأحرم نعيمها على نفسي، لأني نذرت التبتل بعد فراق من تلقيت عنهم وحي الروح في اللحظة التي تفصِل بين العام الذاهب والعام الوليد
ما جزعي على ما مضى من أيامي، ولم يعيش أحد كما عشت، ولا استجاب الوجود لنداء شاعر كما استجاب لندائي؟
ماذا صنع الدهر بهم؟ ماذا صنع؟
إن دنياي بعدهم وهمٌ في وهم، وخيالٌ في خيال، ولن أتذوق طيب الحياة إلا بعد أن يصفحوا عني
إن ذنبي عندهم أني صيرت حياتهم أفانين من الارتياع والانزعاج. . فهل يجهلون ما صنعوا بحياتي؟ وهل يجهلون أن الجروح قصاص؟

قد كان لي قبلكم حبٌ وكنت فتى ... لظل سلطانهِ أهلُ الهوى تَبَعُ
فكيف أشقيتموني كيف لا رَضِيَتْ ... ولا أرتني الليالي كيف أرتدعُ
هبوا فؤادي سلا واجتاز محنتهُ ... فمن بسلوة قلب الصب ينتفع
يا غاضبين تعالَوْا تشهدوا كبداً ... رجاؤها في خيال البرء منقطع
هوًى تهاوت أمانيه فليس لهُ ... فيما تجود به الأوهامُ منتفَع
هوى خلقتم وأفنيتم، ولا عجبٌ ... بعض الأحباء في قتل الهوى صَنَعُ
لا تحسبوا هجركم خطباً يروِّعني ... إني بوأد بنات الدهر مضطلعُ
زكي مبارك

أيها الأصحاء. . .

للأستاذ راشد رستم

ها أنتم أولاء تمرحون وتلعبون، تستنشقون عبير الأزاهير والرياحين من الرياض وبين الفياض، وتستبدلون كما تشاءون مكاناً بمكان، وتستلذون طيب العيش، وتسكنون بيوتاً جعلتموها كما تريدون، وتستطيبون ألوان الراحة ومباهج الحياة، وترقبون شؤون دنياكم في رغبة ونشاط ونظام، وقد تصعدون إلى السماء فتطيرون تقضون مآربكم عجالاً - وهكذا تروحون وتغدون، أحراراً صحاحاً خفافاً كراماً. . .

جعل الله أيامكم كلها هكذا دواماً

والآن. ألا تقفون قليلاً!

نعم قليلاً. سائلوا ذلك الذي يناديكم، فإنه لا يبغي منكم تغييراً وتبديلاً، وإنما يطلب لكم صحة وسلاماً، ثم يهمس في صوت خافت لين صريح ساذج. . .

أيها الأصحاء! زوروا عيادات الأطباء. . .

زوروها واجلسوا في ركن منها هادئين

اذهبوا إليها في ساعة تختارونها، ولتكن هي الساعة التي تحارون كيف تقضونها. . .

تلك الساعة التي تتكرر كثيراً وكثيراً لذوي الوفرة في الجاه، والوفرة في الفراغ، والوفرة في المال

هنالك في تلك الساعة تعلمون أن المرض شيء من الحياة، وأن في العالم مرضى، وأنكم أنتم الأصحاء. . .

فإذا جاءكم الطبيب يسألكم عما تشكون وما تريدون، فقولوا له القول الصريح، القول الصحيح - (إنما نحن أصحاء، جئنا إلى هنا لكي نبقى أصحاء، وأنا لا نشكوا مرضاً ولا نريد شيئاً كما لا نريد أن نشكوا شيئاً أبداً)

ثم تحولوا قليلاً، وزوروا المستشفيات والمصحات، لا تسألوا المرضى عن أمراضهم، ولا الأطباء عن مرضاهم، ولا الممرضات عن أعمالهم، ولكن انظروا إلى المرضى في حالاتهم، ولاحظوا يقظاتهم ورقداتهم، واسمعوا في صبر آهاتهم وأناتهم. راقبوا في عطفٍ أهلهم وزوارهم. انظروا إلى طعامهم وشرابهم ولباسهم، ولا تنزعجوا خائفين، ولا تسرعوا

هاربين، إذ هناك تعلمون وتعلمون حقاً أن الصحة تاج على رؤوس الأصحاء، وأنها هي الحياة، وأنكم أنتم الأصحاء. . .

ثم اخرجوا آمنين، واهدءوا مطمئنين، وجانبوا الناس قليلاً سالمين. ثم اسكنوا إلى أنفسكم خاشعين. كل ذلك وأنتم في يقظة عالية وإحساس رفيع. اجلسوا ساعة أو بعض ساعة في النجوى صامتين: ساعة صلاة وحمد وتسبيح، ثم اجعلوها كذلك ساعة ذكرى دائمة الذكرى، فإن نعمة الصحة قد لا تدوم، وهي كالشباب لا يعرف فضلها إلا من فقدها. فأحيوا تلك الساعة بمظهر من مظاهر العطف والعاطفة، إحساناً بإحسان، وزكاة عن الصحة والعافية

ثم عودوا إلى لهو الحياة إن شاء الله آمنين أصحاء دائمين. . .

إن العواطف لا يدركها إلا المنكوبون

والرحمة لا تدخل القلب إلا إذا كان القلب يرى

وإن أبصر الناس من يرى بقلبه

وأرحمهم من يبكي بقلبه

وأصحهم من سلم في قلبه

(لوكاندة بحيرة فاروق)
راشد رستم
خطرات شاعر
ليلة عيد الميلاد
للأستاذ علي محمود طه
اسمعي أيَّتُها الروحُ! أفي الكون غِناءُ
وانظري. . . هل في نواحي الأرض بالليل ضياءُ؟
لا تُرَاعِي إنْ يكنْ قَصَّر عنك البشراء
فالنواقيس التي حَيَّتكِ أشَجاها القضاء
الشَّجَي رَجْعَ صداها والأسَى والبُرَحاء
والتراتيلُ من البِيعَة نَوحٌ وبكاء
رددتهنَّ الثكالى واليتامى الشهداء
والمصابيحُ التي كان بها يُزْهَي المساء
خنقتها قبضةُ الشرِّ فما فيها ذَماء
صبغوها بسوادٍ فهيَ والليلُ سواءُ
مأتمٌ للنور قام الويلُ فيهُ والشقاء
تحت ليلٍ ما له بدءٌ، ولا منهُ انتهاء
أيها المبعوث، لا ضَنَّتْ بِرُجعاكَ السماء
أنظِرِ الأرضَ. . . فهل في الأرض حبٌّ وإخاء؟
نسىَ القوم وصاياك وضلوا وأساءوا!
وكما باعوك يا منقذُ بِيعَ الأبرياءُ!!
ليلةَ الميلاد، والدنيا دموعٌ ودماء
في ربوع كان فيها لك بالسلم ازدهاء
باسمه يشدو المغَّنون ويشدو الشعراء
أين ولَّت هذه الفرحة؟ أم أين الصفاء؟
لم تصافحك من الأطفال أحلامُ وِضاء
رقدوا غيرَ عيونٍ ريعَ منهن الفضاء
ترقب الآباء، هل عادوا؟ وهل حان اللقاء؟
بين أيدي أمهات، بِتنَ، والليل جفاء
في طوايا النفس وقد عز الرجاء!
ويحهم أين تُراهم، هؤلاء التعساء؟
هم وراء الليل أجسادٌ وأرواحٌ هباء
ووجوهٌ رسم الرعبُ عليها ما يشاء
خندقوا في مأزقِ الموتِ وما منه نجاء
بين موج من سعير يتوقَّاه الفناء
وجبالٍ من رُكام الثلج يُرسيها الشتاء
وحديدٍ طائر يحذر مسراه الهواء
وعجيبٌ! فيمَ للموت يساق الأشقياء؟
في سبيل الحقِّ؟ والحق لدى القوم طلاء!
في سبيل المجد؟ والمجد من البغي بَراء!
أوَ في المجزرة الكبرى تنال المجدَ شاء؟
كذب الباغي وللسيف بكفَّيه مَضاء
وخداعٌ كل ما قال، وزورُ وافتراء!!
أيها الشرق الذي خصَّته بالرُّوح السماء
هذه الروح التي شِيدَ بكفيها البناء
والتي من نورها العالم يُجْلي ويُضاء
يا أبا الحكمة، لا هان عليك الحكماء!
ناد (أوربا) فقد ينفعها منك النداء:
دِنْتِ بالقوة حتى صَرَعَتْكِ الكبرياءُ

حانتِ الساعةُ يا أختاه أم حَقَّ الجزاء؟
أرقصي في النار، أنتِ اليوم للنار غذاء
وأشربي في حانة الشيطان ما فاض الإناء
حانة للموت فيها من دم القتلى انتشاء
نادمي من شئت فيها، فالمنايا الندماء
فارفعي الكأس وغّني وعلى الدنيا العناء!
يا قوياً لم يَهُنْ يوماً عليه الضعفاءُ
وضعيفاً واسمه يُصرع منه الأقوياء
وأنا المسلم لا يُجحد عندي الأنبياء
أنت في القرآن حب وجمالٌ ونقاء
عَجبٌ فِدْيتُكِ المثلى! وفي القول عزاء!
ألهذا العالم الشرِّير؟ قد ضاع الفداء!

كلمة عن التلباثي

للدكتور رمزي مفتاح

كتب الأستاذ العقاد مقالاً عن التلباثي؛ وليس قصدنا أن نناقشه فيما كتب أو نوضح من هذا العلم الغامض. ولكننا نلخص الموضوع باختصار شديد فنقول:

1 - ليس معنى التلباثي هو أو الرؤية عن بعد، وليس هو المكاشفة، ولكنه: (أ) انتقال إحساس قوي، أو انتقال فكرة واحدة مجردة؛ فقد تشعر الأم بوقوع ابنها في حريق وهي بعيدة عنه. وقد يحس الابن ضيقاً وكرباً وأبوه يناديه وهو على فراش الموت وبينهما بحار وأقطار.

(ب) تبادل الأفكار الذي يكون بين اثنين من المشتغلين بهذا العلم، ويتم بعد تدريب طويل بالطرق العلمية

(ج) إرسال فكرة أو أمر من فرد إلى آخر؛ وتقتضي أن يكون الأول عالماً بعلم النفس الحديث ومتدرباً على التأثير من بعد

2 - يمكن الوسيط المغنطيسي أن يرى أو يسمع أو يقرأ عن بعد، وقد نجح وسيطنا في هذه التجارب. أما الحاصلون على هذه الموهبة وهم في حالتهم العادية فعددهم فرد واحد في كل أربعة ملايين

فلو كان المقاتلون قد سمعوا صوت عمر وهم مئات، ولو كان ذلك قد تم بواسطة التلباثي، لا قتضى الأمر أن يكونوا كلهم موهوبين أو وسطاء وهو ما لا يعقل. والحقيقة أنه هو الموهوب وحده، وأن هذه الظاهرة ليست تلباثي. أما في المثالين المذكورين في (أ) وما يشبهها فلا تسمع فيها الأصوات. ويلزم أن يكون بين الفردين صلة أبوة أو زواج ويكون مرسل الرسالة وقد انطلق عقله الباطن من عقاله في سكرة الموت أو في توقعه

3 - أما الرؤية من بعد فنقسمها قسمين:

الأول: أن يراك غيرك وهو بعيد

والثاني: أن تنظر غيرك

فالأول كان يسمى قديماً إرسال المثال الكوكبي وهو من أعقد المباحث العلمية. وخلاصته أنه يمكن أحد الموهوبين - وهم بنسبة فرد في كل 100 مليون في المدن، وفرد في كل مليون في البدو - أن يرسل طيفه المثالي إلى أي مكان حيث لا يرى في ضوء النهار، ولكن قد يسمع صوته؛ ويرى في الغبش أو الليل على صورة المرسل ضباباً متجمعاً. والهنود يسمون هذا الضباب ويسميه العلماء الأقدمون أطياف الأثير، وهم جميعاً يعتقدون أنها ذرات كونية تتجمع وتكون شكلاً خاصاً بتأثير قوة خاصة ليست مجهولة منا الآن. وقليل من علماء النفس الحديثين من يعرف أن هذا الضباب مكون من ذرات الأشعة الكونية ' وهي التي كان العالم مسمر الشهير يسميها السيال المغنطيسي الكوكبي. وإنه لمطلب عجيب نمسك الآن عن البحث فيه. وبالمقدرة على إظهار الطيف الكوكبي يمكن أن ترى رجلاً تعرفه يمشي على الماء وتسمع صوته.

القسم الثاني يختص بالوسطاء المغنطيسيين أو الموهوبين كما بيننا.

والوسيط أو الموهوب يرى ولكن الآخر لا يراه ولا يشعر به.

وتسمى هذه الظاهرة وهو موضوع آخر بالمرة غير التلباثي الذي ذكره الأستاذ. ومن أمثلته عند العرب زرقاء اليمامة
4 - سماع الأصوات عن بُعد ويسمى وهو موضوع آخر غير التلباثي وهو الذي يقال فيه إن فلاناً يسمع الهاتف. وكل هذه الظاهرات من قوى الوسيط المغنطيسي أو الروحاني الموهوب - وكذلك لا يسمعه الطرف الآخر
5 - كل مقال الأستاذ العقاد منصب على إثبات وجود التلباثي بأدلة منطقية قياسية. وقد فرغ العلماء من إثباته منذ أكثر من 85 سنة. وتدرس هذه العلوم كدراسات عليا في جامعات إنجلترا الكبرى. ومحاولة الأستاذ إثباتها كمن يحاول إثبات وجود أشعة إكس بالاستنتاج. وقد صدر في أمريكا وأوربا في السنوات العشر الأخيرة نحو ألف كتاب فيها مباحث عن التلباثي والعقل الباطن

(مصر الجديدة)

رمزي مفتاح

أو (توبال فايين):

معجزة الحديد

للشاعر الإنجليزي تشارلس ماكاي

للأستاذ محمود عزت عرفة

(وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس)

سورة الحديد: الآية 25

(وصلة أيضاً ولدت توبال فايين الضارب كل آلة من نحاس وحديد)

سفر التكوين: 4: 22

تقدمة

كانت قصص الكتاب المقدس - وما تزال - مصدر وحي عميق لكتاب الغرب وشعرائه؛ فهي قد تركت بسهولة تعبيرها وبلاغة حكمتها ودقة تصويرها، أثراً بالغاً وسمةً واضحة الظهور في تفكير القوم وفي أسلوبهم؛ كما ترك القرآن الكريم أثره البالغ الخالد في مختلف علوم اللغة العربية وآدابها. . .

وهذه حقائق لا يتسع المقام هنا لشرحها. على أن في قصائد: مهلك جند سنحاريب، ورؤيا الملك بيلشاصر، ومرثية داود لأبنه أبشالوم وغيرها وغيرها من نفائس الأدب الإنجليزي، ما يعتبر دليلاً واضحاً على صحة ما أشرنا إليه آنفاً. . . والقصيدة التي نترجمها اليوم مما يدخل في هذا الباب.

وهي من نظم الشاعر الإنجليزي تشارلز ما كاي الذي عاش بين عامي 1814، و1889 م؛ وقد اشتهر بمقطوعاته الغنائية الرائعة، كما أنه ساهم في تحرير كثير من الصحف الصادرة على عهده، في إنجلترا واسكتلندا. وقد ورد في (معجم السير القومي: البريطاني أن هذه القصيدة نشرت لأول مرة في صحيفة (لندن المصورة) عام 1851 م.

ولكن المحقق الإنجليزي س. ب. هويكر يقول إنه لم يعثر عليها في هذا المصدر، وإنها نشرت لأول مرة عام 1856م ضمن ديوان للشاعر عنوانه: أغاني وأناشيد شعرية.

ترجمة القصيدة

عاش توبال قابين في بدء الحياة والكون طفل يحبو؛ وكان قيناً صَناعاً ذا أيدٍ وقوة، لا ينفك لمطرقته دويّ ولأتونه لهيب ولظى. . . كان يرفع مطرقته بساعده القوى المفتول ويهوي بها على الحديد الأحمر الوهاج، فيترامى من حوله الشرر كأنه شآبيب المطر الأرجواني. وما يزال حتى يستوي الحديد أمامه سيفاً قاطعاً أو سناناً لا معاً، وإذ ذاك يصيح من قلب جذلان:

ألا بورك في هذه من صنعة بورك في تلك الظُّبا وهاتيك الشَّبا! بورك لمن هزَّ مشرفياً أو اعتقل رديناً فبهذين تمتلك النواصي، وتستدنى الآمال القواصي!

وكانت الرجال ما تنفك تهوى من كل فج إلى توبال قابين وهو على عمله عاكف يلتمس كلٌّ لنفسه سيفاً جزاراً أو نصلاً قاطعاً، ليحقق في الحياة مأرباً أو يحتاز رغبة. فكان يمدهم من السلاح فأنفذه ومن العدة بأقواها، حتى ليهتفون باسمه في نشوة من السرور، ويغمرونه بعطاياهم من نفائس النضار وكرائم الجوهر وهم يقولون: ألا بورك

فيك يا توبال قايين؛ يا من تسبغ علينا من القوة لَبُوساً، ومن البأس سرابيل ودروعاً بورك في القين وبورك في النار! بورك في الحديد ذي البأس الشديد!

على أن خاطراً فجائياً احتل موطنه - في إحدى الليالي - من قلب توبال قايين، فجاشت نفسه بالألم الممض، وامتلأ صدره من الكمد الموجع والهم المقعد المقيم على ما قدم من الشر وأسلف من سوء الصنيع!

رأى الناس قد اذكروا فيما بينهم نار حرب عوان، بدافع من نزوات الغضب ونفثات الحقد؛ وخضبوا وجه الأرض بمسفوح الدم، في لحظات من جنونهم ونشوات نفوسهم العوارم، فصاح من قلب مفجع منكوء:

وا أسفاه على ما قدمت يداي! وتعساً لتلك المهارة التي هيأت لهؤلاء القوم من آلات التخريب ومعدات الدمار ما تمادوا به في تقتيل أنفسهم؛ حتى اقتضبوا طويل أعمارهم، وخربوا معمور ديارهم!

وقضى توبال قايين أياماً طوالاً يقض مضجعه التفكير في محنته، وقد أمسكتا يداه عن العمل، فما إن تطرقان قضيباً أو تضرمان لهيباً

وإنه لكذلك، إذ نهض ذات يوم بوجه متهلل ضحوك، وعينين ملتمعتين ببريق الرجاء والأمل، وشمر عن ساعده المفتول ليستأنف عمله من جديد؛ بيننا ارتفع لهيب أتونه المضطرم في الجو عالياً، وترامى الهواء من حوله بشرر كالقصر

وراح توبال قايين يغني وهو يعمل قائلاً: ألا بورك في هذه من صنعة. . . فما للسيوف دون غيرها نصقل الحديد أو نطرق المعدن. وأتم في هذه اللحظة عمل أول سكة المحراث!

وكان الناس قد لقنوا الحكمة من ماضيهم، فتصافحت أيمانهم على عهد من المودة وثيق؛ ثم أغمدوا سيوفهم وركزوا رماحهم وأقبلوا على الأرض المدرة المعطاء يفلحونها ويجنون يانع ثمراتها وهم يغنون:

لنشكر جميعاً صديقنا الطيب توبال قايين، هذا الذي حقن دماءنا وحفظ ذماءنا؛ ولنتقدم إليه من الحمد بأبلغه ومن الثناء بأجزله على ما أولانا من صنعة هذا المحراث النافع على أنه ترفع الفتنة يوماً رأسها، أو يطمع في السيطرة علينا طاغية متجبر؛ فلنكن مع شكرنا له على الانتفاع بمحراثه، غير جاحدين له مزية الدفاع بسيفه.

(جرجا)

محمود عزت عرفة

علاقة شوقي باللبنانيين في نظر الدكتور مبارك

للأستاذ نجيب شاهين

قال شوقي في يوبيله إنه يهتدي بهدى المتنبي في أدبه واعترف له بالسبق اعتراف أبي العلاء به قبله

وشوقي في ملتي واعتقادي - كلمتي أبي العلاء - أعظم شاعر بعد أبي الطيب بغير استثناء، ولا يخرج من هذا الاستثناء أبو العلاء. وله مواقف لم يقفها المتنبي نفسه بل سائر من سبقه

هذا هو رأيي وقد أكون مغالياً، ويكون سبب هذه المغالاة لوثة باطنية مما اصطلحوا عليه بلفظة ذاتية، وأكون مخالفاً فيها لجمهرة غالبة من أهل الرأي في الأدب والشعر وما يشتق عنهما. وقد أكون مصيباً، وفوق كل ذي علم عليم

جالست حافظاً حقبة من العمر في القهوة المناوحة (لدار الكتب الملكية) في باب الخلق كنت أوافيه فيها أياماً من الأسبوع وكلانا يدخن فيها نرجيلته، وكان حافظ هو المتكلم في الغالب، وكنت أنا السامع كعادته مع أصحابه، وكان أثناء بساطته (مباسطته) يمزح ذاماً للمتنبي مفضلاً عليه البحتري ناسباً انتصار الشاميين له إلى كونه شامياً مثلهم. ولم يكن كذلك تماماً لأنه ولد في بادية الشام وطوف في الشام ومصر وعاد إلى الشمال فمدح سيف الدولة الحمداني هناك، ثم هبط إلى طرابلس (الشام طبعاً) في أواسط الشام وأنشد فيها بعض مدائحه، ورحل إلى دمشق فأنشد فيها قصيدته الشينية على ثقلها، وأنتقل إلى فلسطين فمدح بدر بن عمار وقال فيه قصائده ومنها القصيدة المشهورة التي وصف فيها قنصه للأسود على ضفاف الأردن وبحيرة طبرية. ومنها يستدل على وجود الأسود هناك حينئذ مع أنها انقرضت الآن، وتنقله الكثير هذا بين الشام ومصر جاء مصدقاً لبيته الذي يقول فيه:

بأي بلاد لم أجرَّ ذؤابتي ... وأي مكان لم تطأهُ ركائبي
فإن كان الشام وطناً له فقد كان وطناً ثانياً، وهل أقول إنه كان دخيلاً فيه!
وكان يعرض لنا في مجلسنا ذكر شوقي طبعاً، فإذا ذكره بعض حساده بسوء ولغوا في ذمة تصريحاً أو تعريضاً لم يشاركهم حافظ ولم يردهم، بل كان يلقي لهم الحبل على الغارب تساهلاً وتهويناً لا تشجيعاً لأنه كان من أشد المعجبين بشوقي حقاً
أجيء الآن إلى تعليل قول الدكتور مبارك إن شوقي تغنى بالمسيح إيفاء لمتأخرات دين عليه للسوريين؛ وهو تعليل واهٍ، لأن أعظم إشادة لشوقي بالسيد المسيح احتوتها قصيدة الهمزية التي نظمها في أواخر القرن الماضي وألقاها في مؤتمر جنيف سنة 1894: أي منذ نحو نصف قرن وفيها:
ولد الرفق يوم مولد عيسى ... والمروءات والهدى والحياءُ
وازدهي الكون بالوليد وضاءت ... بسناه من الثرى الأرجاءُ
وسرت آية المسيح كما يسري ... من البحر في الوجود الضياءُ
تملأ الأرض والعوالم نوراً ... فالثرى مائج بها وضاءُ
لا وعيد، لا صولة، لا انتقام، ... لا حسام، لا غزوة، لا دماءُ
لم يكن شوقي حينئذ قد اشتهر ولا عرف الشام أو عرفه أهله وسمع به أدباؤه وشعراؤه. وكانت بضاعته قليلة على سمو نوعها، ورأس ماله، صغيراً، ولا دين له أو عليه يوفي به دائنته.
فليس تعليل الدكتور بحاو شيئاً من حسن التعليل. وكنت قد عللت مدائحه للمسيح بقراءته للتوراة والإنجيل قراءة دارس لها شأن كل أديب شاعر بلغ من الأدب شأواً رفيعاً ولا سيما أن الأدباء الغربيين متفقون على القول أن سفر النبي أشعياء في التوراة قطعة راقية من النثر الشعري بالعبرية، فرأى شوقي من الغضاضة عليه كشاعر فحل ألا يلم بذلك السفر ويعرف ما يحويه كأدباء الغرب وكما يناسب مقامه كشاعر شوقي من الطراز المعلم
والظاهر أنه قرأ سفر أشعياء، وما ورد في قصيدته الأندلسية الميمية مقتبس منه. فقد جاء فيها قوله:
عيسى سبيلك رحمة ومحبة ... في العالمين وعصمة وسلام
ما كنت سفاك الدماء ولا امرأ ... هان الضِّعاف عليه والأيتام
يا حامل الآلام عن هذه الورى ... كثرت عليه باسمك الآلام
فهذا البيت الأخير مقتبس من قول أشعياء في نبوته عن المسيح: (لكن أحزاننا حملها وأوجاعنا تحملها. . . وعبدي البار يبر كثيرين وآثامهم هو يحملها. . . ولقد حمل خطية كثيرين وشفع في المذنبين)
ولست أذكر: أقال شوقي (يا حامل الآلام) أم (يا حامل الآثام) وكلا القولين واحد لأنه كُنى بالآلام على الصليب في اعتقاد المسيحيين عن آثامهم الموروثة عن آدم الأول. ويقول علماء المسيحية إن أشعياء تكلم عن المسيح بروح النبوة قبل مجيء المسيح بما يقرب من ألف سنة
بهذا الاتفاق في قول أشعياء وشوقي يبعد أن يكون توارد خواطر بينهما
وإذا تغنى لبناني بشعر شوقي فللسبب الذي يتغنى بشعر المتنبي اللبناني وشوقي، لا لجامعة جنسية أو دينية بين الثلاثة، بل بجامعة الأدب التي لا تميز بين الأديان والأوطان والتي من أجلها قدم امرؤ القيس النصراني على غيره من شعراء الجاهلية، وسوى بين الفرزدق وجرير المسلمين والأخطل النصراني في الدولة الأموية. وفتح لبنان أبوابه مرحباً بشوقي، وفتح أدباء مصر صدورهم لشبلي الملاط وللأخطل الصغير
نجيب شاهين
وحي العام الجديد
المصباح الأحمر
للأستاذ محمود الشرقاوي
هاأنذا أعود إليك. أيها المصباح الأحمر!
أعود إليك يا مصباحي الأحمر ولكني إنسان جديد.
ها أنت ذا كما كنت. يسطع نورك على قرطاسي ويغمر وجهي وأشعر بدفئك الرقيق يلمس جبيني في برد هذا الليل.

هذا هو الليل الساكن والدهر يحبو إلى عام جديد. وهذا نورك في غرفتي وبهجة لونك، هذا كل شيء كما كان، ولكني أنا إنسان جديد.

إني أكاد أشعر منك بالحياة يا مصباحي الأحمر ويخيل لي أنك تهمس وأنك تناجي وتذكر، لا بل إنك تنبض وتخفق أو تكاد تنطق.

إني أحس ما تريد أن تهمس وأن تقول، وإني أناجيك به وحدك وقد سكن الليل كأنما الليل وظلامه قد سكنا إلى النوم كما نام السعداء من الناس؛ لم يبق سواك وسواي يقظان.

لا تسلني أيها المصباح الأحمر فسأحدثك، وحديثي لك وحدك. لم يبق من يستمع حديثي ويصغي. لقد كنت منذ سنين شاهدي وسميري حين أكتب إلى من أعزهم، وكنت تبهج مكاني ويغمر جبيني دفئك في برد هذا الليل، كما يغمر قلبي ويشمل كياني الفرح الشامل السعيد حين أكتب لمن أحب. وحين يغمر قلبي ويغمر كياني ذلك الفرح الهادئ البهيج والنشوة التي تكاد تحملني فأخف معها وأنا أتلو رسائل من أحب، أسترجعها وأتلوها وأقف عند كل حرف فيها أستوحيه وأشعر منه بالسعادة وباللذة لا تساوي عندي الدنيا كلها رسالةً منها.

كنت شاهدي وسميري أكاد أحس فرحتك معي وبهجة نورك من بهجتي ومن نور قلبي، والآن أنت وحدك الذي أخاطب وأنت الشاهد والغائب، فقد ذهب العزيزان ولم يبق لي سواكَ من يصغي.

لا تسلني أيها المصباح الأحمر عن رسائل الثلاثاء من كل أسبوع، ولا عن رسائل الأحد من كل أسبوعين، ولا عن رسائل الغائب البعيد من وراء البحار

إنك تعرف وتذكر من أمسياتي ومن ليالي هذه الساعات الطويلة يتبع بعضها بعضاً وأنت تفيض بالدفء على جبيني وبالنور على وجهي وقرطاسي وأنا مستغرق كما يستغرق الصوفي غيبوبة السعادة والمناجاة والتوجه، وهذه السطور والكلمات تلتوي وتنحدر ولا أشعر كيف تكتب ولا كيف يجري بها قلمي، ولكني أعرف كيف يمتلئ بها كياني وكيف يفيض بها قلبي وكيف يتحرق بها دمي. والليل ساج وليس من ساهر سواك وسواي، وأنا بالغيبوبة سعيد وبالليل سعيد

لقد ذهب العزيزان أيها المصباح فماذا أبقيا لقلبي؟

فرحت بهما حيناً من الدهر وأحببتهما الدهر كله وأقمت منهما وبهما القصور الشوامخ من الرجاء ومن بهيج الأمل، وكنت شاهدي وسميري حين أكتب إليهما في سكون الليل فأشد من عزم أحدهما وأهون له الأمور الصعاب أمنية بالرجاء والأمل، وأضع حياتي وقوتي وكدح نهاري وسهد ليلي له وحده، إنه أخي

وكنت شاهدي وسميري حين أكتب إلى أحدهما أقويه وأحييه وأبثه، وأرقب معه الحياة والصفو، وأجعل ما بقي من قوتي، وأجعل شبابي ومنامي ومقبل أيامي وهنيء عيشي بعد الكفاح المبذول والجهد الموصول، أجعل هذا كله منه وله؛ إنه حبيبي

كان سندي وكان محرابي وكان الواحة الهنيئة الحلوة المظلة في جدب أيامي، فانهار منه سندي وانهدم المحراب على العابد، وما خلته الواحة الهنيئة الحلوة كان السراب، وكان بردُ مائها العلقم. . .

قال لي وقلت: أصبر. فصبرت، حتى أفناني الصبر. وما صبر هو

أنت تعرف أيها المصباح الأحمر، إنهما كانا أخي وحبيبي.

أما أحدهما فقد خبطه الموت عشواء، وأما الآخر فقد خبطته الحياة، وللحياة خبط أشد مما يخبط الموت

لم أعد أكتب على ضوئك ودفئك أيها المصباح الأحمر رسائل الثلاثاء، ولا رسائل الأحد، ولا أكتب للغائب البعيد.

الذين أحببتهم ورجوتهم، والذين أناجيهم وأريدهم، وأناديهم وأفتقدهم، والذين قضيت عمري كله أرتقب قربهم ذهبوا لا يعودون، أحدهما بين التراب، والأخر أبعد من رفيع السحاب

والذين لا أريدهم ولا أرجوهم ولا أفتقد بعدهم يعودون فأذكر بهم من لا يعودون فهم لقلبي حرقة

والذين أجدهم وقد أرجوهم. . . أيها المصباح الأحمر. . . إنك في زعمي تحس وتعرف فلن أبوح إليك

ماذا أقول يا مصباحي الأحمر؟ هذا لونك البهيج فيه الحياة والدم والفتوة؛ وهذا هو الزمن يحبو إلى عام جديد، وهذا دفئك يلمس جبيني ويغمر وجهي وقرطاسي. . . أكاد أسمع وقع إشعاعك وأسمع لمس دفئك في سكون الليل وأنا أكتب

أكتب عن عزيزي لا لهما، ويا بعد ما أكتب وما كنت أكتب! وما كل طلٍ طل، أكتب على ضوئك أبكيهم لا أناديهم وهيهات. . .! ما مضى لن يعود

هذا عام جديد كنت سوالفه أكتب لهما بالأمل والنجوى عن مقبل الأيام

والآن كلما حل عام جديد كتب وقد أغلقت قلبي وأغمضت عن مقبل أيامي، أنطوي على سالف الذي كان

هذا ضوءك أيها المصباح وهذه غرفتي، غرفة باردة، طقسها بارد، ولكنها حارة الذكريات

كل شيء كما كان، لم يتغير سواي. هل تقول أيها المصباح إني ما تغيرت، بل تلاشيت وانتهيت؟ لعني أيها المصباح الأحمر!

لقد ذهب العزيزان فماذا أبقيا لقلبي؟ إنها الحسرات

وقد أحسست من قلبي أيها المصباح كيف كان قلبي يعرف السعادة، ويشعر بالحب، ويبتهج بالرجاء، ويرتقب الأمل، ويصبر على الأيام. أحسست من قلبي حبه الصارم العارم الفاتك قوياً كالإعصار، راسخاً كالجبل، ثابتاً كسواد هذا الليل، بهيجاً كصحبه

أحسست من قلبي أيها المصباح الأحمر حبه عزيزية كيف كان، فاعرف الآن أيها المصباح كيف يحس هذا القلب ما أبقيا من الحسرات!

محمود الشرقاوي

لا تثوروا على المدينة الحاضرة

للأستاذ محمد أيوب مدرس التاريخ القديم بكلية الآداب

إذا عجبت فإنما أعجب لكل من يفكر في التمرد أو الثورة على المدينة الحاضرة. وإني أنظر حولي فأجد أناساً كثيرون يحملون حملة شديدة على هذه المدينة ويودون إلغاءها بجرة قلم حتى تعود الإنسانية إلى الحياة البدائية الأولى، حياة البساطة والسذاجة لأنها في نظرهم خالية من التعقيد، قريبة من الطبيعة، وكل شيء قريب من الطبيعة جميل. وإني أسائل نفسي لماذا يريد هؤلاء الناس العودة بنا إلى الوراء حتى نعيش تلك الحياة التي يسمونها حياة بسيطة وما هي إلا حياة بدائية تقرب الإنسان من الحيوان، فقد كان الإنسان في القرون الخوالي كالحيوان يهيم على وجهه في القفار لا يعرف إذا كان يعيش أو لا يعيش.

فالمدينة الحاضرة أسمى ما وصل إليه العقل البشري، وهي عبارة عن تطور العقل البشري في مختلف القرون الماضية، بل هي التراث المجيد الذي تركه لنا العقل منذ حياة الإنسان الأولى، فكل المدنيات متصلة بل ومتمم بعضها للبعض الآخر، بحيث لا نستطيع أن نقيم حاجزاً بين مدنية ومدنية. فنقول إن هنا حدود المدنية المصرية، وأن تلك حدود المدنية اليونانية، بل ونحن لا نستطيع أن نوجد حلقة فاصلة بين المدنية الحاضرة وبين مدنية أخرى أجنبية عنها، إذ لا بد من التطور. وليس هناك من شك في أن هذه المدنية ستتطور في الأجيال القادمة كما سبق لها أن تطورت في الأجيال الماضية، فالمدنية الحاضرة وهي التي ابتدأت بإحياء العلوم ونهضة الآداب، متممة للحضارات القديمة، حضارات اليونان والرومان. وليس منا من يستطيع أن ينكر فضل تلك العقول الجبارة، عقول اليونان والرومان فيما أنتجته لنا في ميادين الفلسفة والعلم والآداب والقانون

ويخطئ من يظن أن المدنية الحاضرة عبارة عن الناحية المادية فحسب، وهي التي نتج عنها ما نراه اليوم من تحسين في أمورنا العامة وفي أمورنا الخاصة. كلا! هي لا تقتصر على هذه المخترعات العظيمة كالسكك الحديدية، والطيارات والسيارات التي قربت المسافات بين الأمم، وكالتلفون والتلغراف والراديو، وهي التي جعلت أنحاء العالم كلها تشعر بأنها عالم واحد، تربط بين أجزائها رابطة قوية؛ أقول ليست تقتصر هذه المدينة على هذه النواحي التي جعلت الإنسان يتحكم إلى حد كبير، في نظام هذا العالم الذي نعيش

فيه، إنما المدينة الحاضرة تشمل أيضاً الناحية المعنوية التي شأنها أن حررت الفكر وأبطلت الرق وضمنت حقوق الإنسان. تشمل ناحية العلوم التي كشفت عن أسرار

الطبيعة، وناحية الآداب التي سمت بالعالم إلى جو من الخيال جعله يبهج مشاعر النفس، وناحية الفنون التي أخذت بالذوق إلى أسمى درجة من درجات الرقي على أن المدنية الحاضرة، وهي التي ظهرت في أوربا، تختلف عن غيرها من المدنيات القديمة التي ظهرت في الشرق عامة وفي حوض البحر الأبيض المتوسط خاصة؛ فالمدنية في الشرق خاضعة للدين متأثرة بالطبيعة، بينما هي في الغرب خاضعة للعقل مؤثرة في الطبيعة. ففي الشرق الجو حار والشمس ساطعة تغذي الجسم بأشعتها، والأرض خصبة تنتج المحصول الكثير والخير الوفير، مما جعلنا نحن الشرقيين نميل إلى التراخي والكسل لكثرة ما نرى أمامنا من المحاصيل التي تكفي لغذائنا دون مشقة كبيرة. وكان من أثر هذا الفتور والتراخي أن ركن الإنسان إلى الطبيعة وأخذ ينظر إليها ويتأمل فيها، فرآها تجود عليه بالمياه لري أراضيه، وبالشمس لإنضاج محصوله، فأكبرها ومجدها وأخذ يعبدها ويعبد مظاهرها كالشمس والقمر وخلافهما. من هذا كان خيال الشرقيين خصباً، فتخيلوا أدياناً مختلفة، وتصوروا مظاهر مختلفة للعبادات وهذا آت من الفراغ وقلة النشاط الذي يسد هذا الفراغ. فالشرقي بوجه عام، عابد للطبيعة متأمل فيها خاضع للدين ناظر فيه، فأثر الخيال عليه عظيم، وأثر الدين عليه عظيم، وكذلك أثر الطبيعة عليه عظيم. أما في أوربا فإن الجو بارد لا تظهر الشمس إلا في أحوال نادرة؛ لذلك احتاج الفرد إلى الكد والجهد لاستغلال الأرض حتى تنتج أكثر ما يمكنها إنتاجاً، ولاستغلال مظاهر الطبيعة ما يفيد منها أكبر إفادة، فهو مضطر لأن يأكل كثيراً ليتقي بذلك برودة الجو، وهو مضطر لأن يتدثر بالملابس الثقيلة لكي تبعد عنه أثر البرد القارس؛ من أجل هذا كان عقله كثير الاختراع وافر الإنتاج، وقد وجه هذا العقل نشاطه لتسخير قوى الطبيعة، ونجح في هذا الميدان إلى حد بعيد إذ أصبح هو المسيطر على هذه الطبيعة بدل أن تكون هي المسيطرة عليه

فكيف يجوز لنا أن نثور على المدنية الحاضرة وهي التي حكمت العقل في أمور كثيرة، أخذت ما يأخذ به ورفضت ما يرفظه، وقد غلبت الناحية العقلية على هذه المدنية، حتى كان لهذا أثر عظيم في تاريخ التطور البشري، فأول نتائج تحكيم العقل في كل شيء أن قل

تعصب الناس للدين، فأصحاب المدنية الحاضرة لا يشنون الحرب على غيرهم بسبب اختلاف في الدين كما كان يحدث في القرون الوسطى مثلاً. ضعف إذن التعصب الديني إلى حد كبير، وليس معنى ذلك أن هذا التعصب القديم لم يصبح له أثر، كلا! بل أقول إن الدين لم يعد له تأثير كبير في سياسة الدولة وتوجيه الحكومات حتى تشن الحروب على غيرها بسببه، فهذا التعصب أصبح ضعيفاً جداً وهو إن وجد فإنما يوجد بين الطبقات الجاهلة من الشعب وهي التي لا تحكم العقل في قليل ولا كثير وإنما تخضع للعاطفة والوجدان والخيال أكثر من أن تخضع للعقل

ونحن لا نستطيع أن نبين مزايا المدنية الحاضرة إلا إذا وازنا بين الشعوب المتمدينة والشعوب غير المتمدينة، أما الأولى فيحكمها القانون وتسيطر عليها هيئة منظمة تحقق فيها التوازن بين مختلف الفرق والطوائف والطبقات، ويسود مجتمعها الهدوء والسكينة، فإذا طغت سلطة على سلطة فإنما الهيئة العليا هي التي تحد من هذا الطغيان. وهي فضلاً عن هذا النظام الذي نتمتع به لها جميع وسائل الراحة التي أنتجها العقل البشري. والثانية في فوضى لا ضابط لها، لا تخضع إلا للغريزة، وفيها يحاول الإنسان أن يأكل أخاه الإنسان، وفيها يعيش الإنسان وكأنه لا يعيش، لا يعرف من أحوال هذا العالم شيئاً. ينتقل من مكان إلى مكان كالحيوان حينما ينتقل من شجرة إلى شجرة، لا يدري ما أحدث العلم من تقدم ولا يعرف ما قدمه العقل من وسائل الرفاهية والسعادة. فالفرق عظيم بين الشعوب الأولى والشعوب الأخرى، كالفرق بين الإنسان المثقف والغير مثقف، الأول يحاول أن ينفذ ببصره إلى أعماق الأشياء فيعمل على تفهم أسرار الطبيعة، أما الآخر فإن العالم مغلق في وجهه، أسراره محجوبة عليه لا يستطيع لها كشفاً

فالمدنية الحاضرة تعمل أن يسود النظام المجتمع، وعلى أن يطيع الإنسان القانون، وعلى أن تكون العلاقة بين الأفراد علاقة منظمة أساسها الاحترام والود، ورائدها المنفعة العامة للدولة وللناس جميعاً. وتعمل أيضاً على تنظيم العلاقات بين الدول بحيث تكون خاضعة لعادات وتقاليد وقوانين، وبحيث تشرف على هذا هيئة عليا كجمعية

أو عصبة عامة أو محكمة عليا. وليس منا من يفضل الفوضى على النظام أو التمرد على الطاعة
وكيف يجوز لنا إذن أن نثور على المدنية الحاضرة وهي التي أشعرت الفرد بكرامته وقوة
شخصيته وجعلته يعرف حقوقه وواجباته، بل وذهبت إلى أبعد من هذا فحققت
المساواة بين أفراد البشر جميعاً. وقديماً كانت المدنيات القديمة تعمل على تحقيق
المساواة بين أفرادها الخاضعين لها: أي أن المدنية اليونانية مثلاً تنظر بعين المساواة
إلى اليونان فقط، أما غيرهم من الشعوب الأجنبية فهي تلفظها وتحتقرها وتبعدها عن
ميدانها. تحققت إذن المساواة بين أفراد الدولة في الداخل، فالكل سواء أمام القانون،
لا عبد هناك ولا سيد، ولا فرق بين الصغير والكبير أو الغني والفقير أو المواطن ورئيس
الدولة، فالكل متساوون أمام القانون. وهي لم تقتصر على تحقيق المساواة فقط، بل
عملت على تحقيق الحرية لبني الإنسان، فألغت الرق وحررت العبيد، وقد كان الرق
شيئاً عادياً طبيعياً تقول وتأخذ به المدنيات القديمة. ونحن نعجب كيف أن عقولاً جبارة
كعقول سقراط وأفلاطون وأرسطو كانت توافق على استخدام فرد لفرد آخر، وإخضاع
هذا الفرد لاستغلال فرد آخر يكبره من حيث الثروة أو الجنس أو المولد
بل وتعدت المدنية الحاضرة حدود الفرد وذهبت إلى ميدان الشعوب فعملت على رفع
الظلم عن كاهله. حررت الشعب وضمنت له حقوقه وحددت له واجباته بهذه النظم
الديمقراطية التي تعتبر أرقى ما وصل إليه العقل البشري من تصور لتنظيم الجماعة
وحكمها فقضت على النظم الطاغية، نظم الظلم والاستعباد؛ فقد كان الفرد فيما
مضى يخشى السلطان، وكان السلطان إذا تكلم كان هذا الكلام قانوناً مقدساً وإرادة
لا نقض لها. كانت سلطة السلطان مطلقة مستبدة، ورغبته هي النافذة، وإرادته هي
القانون والقانون هو إرادته. فجاءت المدنية الحاضرة وقضت على هذا كله، وأصبحت
الهيئة الحاكمة تعترف بأنها تحكم لا لتستبد بل لتخدم الشعب ولتقوم على مصالحه.
وقد سرت هذه المبادئ الحديثة بين الأمم سريان الكهرباء وانتشرت انتشار الهواء، لما
عرف القوم من مزايا هذه الديمقراطية التي ترتكز على المبادئ الشعبية الخالدة،
وهي التي تقدس الحقوق والحريات العامة. فالديمقراطية أثر من آثار هذه المدنية،
وهي التي جعلت الإنسان يشعر بشخصيته ويحافظ على حقوقه، ويقوم بواجباته بدافع
من نفسه. ولهذه الديمقراطية مزايا ومنافع، فهي التي تعمل على تساوي الحظوظ
بين أفراد المجتمع فلا تقصر الفوائد كنشر الثقافة والتعليم على طبقة دون طبقة. إنما
الجميع في نظرها سواء، لكل فرد الحق في أن يتعلم، ولكل فرد
الحق في أن يشترك في إدارة شؤون الدولة
وللمدنية الحاضرة فضل آخر هو الخاص بتحرير المرأة من عقالها، إذ جعلتها تشعر بأنها
عضو نافع من أعضاء المجتمع، فقد سوت بين المرأة والرجل، وقضت على هوة
الخلاف بين النوعين وأصبح للمرأة ما للرجل من حقوق وعليها ما عليه من واجبات،
وأشعرت المرأة أنها تستطيع أن تعطي رأيها في المسائل، وأن تشارك الرجل في
إدارة شؤون بيته وأعماله، بل وتعاونه معاونة تامة سواء أكان ذلك في الحياة الخاصة
أو الحياة العامة. وهي التي أعطتها هذا الغذاء العقلي غذاء العلم والثقافة، فأصبحت
تتعلم في المدارس على قدم المساواة مع النوع الآخر، وبذلك أصبحت تحس بأنها
تعيش حقاً، تهنأ لسعادة المجموع وتبأس لشقائه
وقد يقول بعض المكارين إن هذا صحيح، ولكن أنظر إلى هذا الاستعمار الأوربي وليد
الحضارة الحالية، ألم يعتد هذا الاستعمار على مصير الشعوب وحريات الأمم؟ وقد
يكون هذا صحيحاً إذا كان الاستعمار ظهر في عهد هذه المدنية ولم يظهر في عهد
غيرها من المدنيات الأخرى؛ فالاستعمار عرفه قدماء المصريين واليونان والرومان
وكذلك العرب، فهو يرجع إلى طبيعة الإنسان لا إلى طبيعة المدنية، والإنسان بطبعه
تواق إلى التحكم والسيطرة، فإذا وجد أمامه إنساناً ضعيفاً فرض عليه سلطانه
وسيادته، وكذلك الدولة الضعيفة، وهذا من طبيعة الناموس البشري، فلا بد للضعيف
من أن يخضع للقوي، ولا بد للقوي من أن يسود الضعيف؛ فللقوي البقاء، وللضعيف
الفناء
وقد يقول هذا النفر أيضاً: أنظر إلى هذه الحرب التي تفتك بالناس فتكاً ذريعاً، والتي

تأتي على اليابس فتأكله، وعلى العامر فتخربه؛ وانظر إلى هذه المخترعات الفتاكة، وهذه القنابل التي لا تفرق بين المحارب وغير المحارب؛ وانظر إلى هذه الوحشية التي تتطاير من أبراج الطائرات، أفبعد هذا تقول إنه خير لنا أن نؤيد المدنية الحاضرة وهي التي أنتجت كل هذه الأشياء الفتاكة؟ أما عن الحرب فإنها قد وجدت في كل زمان وفي كل مكان. والحرب لا تتصف بالوداعة ولا الهدوء، وإنما تصحبها الوحشية؛ فالمحارب يبغي من الحرب القضاء على قوة خصمه بأي وسيلة، سواء أكانت هذه الوسيلة مشروعة أم غير مشروعة. ففي كل حرب وقعت كانت الجيوش لا ترتدع عن إتيان كل أعمال الوحشية والهمجية من قتل وتدمير وتخريب، بل نستطيع أن نذهب إلى أبعد من هذا فنقول إن هذه المدنية نفسها اخترعت وسائل أخرى تتقي بها شر الوسائل الفتاكة، وهذبت من طباع البشر فجعلت الدول تراعي في الحرب بعض القواعد الإنسانية والمبادئ السمحة الكريمة التي لم تكن تتبع في عهد المدنيات السابقة. وبعد هذا نستطيع أن نقول إن الحرب لازمة لرقي المجتمع الإنساني، فهي موافقة للطبيعة البشرية ولهذا القانون الخالد: البقاء للأصلح؛ فالسمكة الكبيرة تأكل السمكة الصغيرة، والفرد القوي يستغل الفرد الضعيف. وكذلك الحال بين الأمم، فالصراع بين الأمم القوية والأمم الضعيفة قديم قدم الإنسان. الصراع قديم بين القوة والضعف، فالقوي يسود الضعيف، وخليق بالأمم القوية أن تتزعم الأمم الضعيفة، وللأمم الضعيفة بعد ذلك أن تعمل، إذا أرادت أن تعيش، على تنظيم أمرها وتحسين حالها. فالحرب تحفز الأمم الضعيفة التي تخاف على نفسها فتدفعها إلى أن تتقوى وتشتد فتستيقظ من نومها وإلا طال عليها الرقاد، وخيم عليها حكم الاستعباد. فالنزاع إذن سيظل ما دام في الإنسان الضعيف والقوي. سيظل دائماً بين عامل الخير وعامل الشر. وما الحرب إلا عامل من عوامل الشر ولكنها عامل مطهر كالنار، فهي تقضي على العناصر الفاسدة. وما الحرب إلا محنة من المحن لا بد منها في أطوار التاريخ، لأن الشعوب تخرج منها نقية طاهرة كأقوى ما تكون. والشعوب التي لا تحارب، تخلد إلى الراحة وتقبل على الترف وترتوي من المتعة واللذة، فيدركها الضعف والوهن، وهي بعد ذلك تفقد أسس النضال وعوامل الكفاح، ويكون مصيرها آخر الأمر إلى الفناء. فالحرب وإن كانت عاملاً من عوامل التدمير، تعمل على إذاعة الأخلاق المتينة بين الأفراد وإشاعة الصفات القوية بين الأمم، فهي تمجد البطولة والشجاعة والصبر والاعتماد على النفس، فهي مفيدة إذن للإنسان والإنسانية.

ونحن نرى من تطور التاريخ في مختلف عصوره أن الحرب يعقبها طور رقي وتقدم، فالإنسانية سائرة أبداً في طريقها نحو التقدم. من أجل هذا يجدر بنا أن ننظر إلى المستقبل نظرة آمنة مطمئنة معتقدين أن النصر سيكون دائماً في جانب الخير.

يجب علينا أن ننظر إلى المستقبل لا إلى الماضي، وأن نطمئن إلى أن هذه المدنية ستتطور لا شك إلى مدنية أرقى. أما النظر إلى الماضي والتمسك به فهذا شأن الطاعنين في السن الذين في عروقهم فقتل حيويتهم ويفتر نشاطهم، وهم لهذا السبب لا يستطيعون إلا البكاء على الماضي.

لذلك أومنبالمدنية الحاضرة إيماناً شديداً، لاعتقادي في الإنسان وفي قدرته على التطور. ونحن بدلاً من أن نحاول الرجوع إلى الماضي ونتعلل به، يجب أن ننظر إلى المستقبل وكلنا تفاؤل واطمئنان إلى قدرة الإنسانية على السير بالمدنية في طريق التطور حتى تصل إلى أسمى ما يعرف العقل البشري من تقدم ورقي. فيجب ألا نثور على المدنية الحاضرة، وألا نقيم العراقيل والصعاب في طريقها، بل نؤيدها بكل ما نملك فلا ندخر وسعاً إلا بذلناه حتى تسير هذه المدنية في طريقها الطبيعي، وهو طريق التطور والرقي.

محمد أيوب

ذكرى المغفور له

أمين الرافعي بك

للأستاذ علي عبد الله

كان اليوم التاسع والعشرون من ديسمبر الماضي موعد الذكرى الخامسة عشرة لوفاة

فقيد الوطن المغفور له أمين الرافعي بك

وليس أحق بالتكريم ولا أولى بالوفاء من ذكرى هذا الرجل الذي عاش حياته كلها يدافع عن الحق ويدعو إلى الله على بصيرة، ويبذل من ماله ومن دمه في سبيل أمته ما ليس وراءه غاية لمريد، ولا زيادة لمستزيد. ولو عرفنا أقدار الرجال بالمعنى الذي تعرفه الأمم الأخرى، لجعلنا ذكرى وفاة هذا المجاهد الصادق يوماً من أيام القومية المصرية، ولاتخذنا حياته الحافلة بالعظائم والجلائل نموذجاً لكمال الأخلاق، وشرف التضحية، والنزاهة المطلقة، وجعلنا من سيرته العاطرة كتاباً في الوطنية يدرسه الناشئون، ويسير على قواعده العاملون!

ولكنا من سوء الحظ نؤمن بالمظاهر دون الحقائق، ولا نعرف قيم الرجال إلا بمقدار ما لهم من الحول والطول، وما حولهم من المتاع والحطام! ولست أدري كيف ترجو الخير أمة تنسى حقوق أبنائها الذين استشهدوا في ميدان التضحية، وكتبوا صحائف جهادها الوطني بمداد من دمائهم، وقطرات من ذوب نفوسهم! ومن المؤلم حقاً أن يوجد في الأمة المصرية من يجهل فضل أمين الرافعي عليها، وهو رجل يعتبر تاريخه تاريخاً للحركة الوطنية في جميع أدوارها؛ إذ كان له في كل ميدان جولة، وفي كل معترك صولة؛ وكان قلمه سيفاً في يد الحق، إذا تصدى للباطل زهق، وإذا انبرى للطغيان مرق؛ كأنما كانت تؤيده السماء بالتوفيق، وتمده القدرة بالإلهام، ويوجهه الإيمان إلى السداد. ما عالج موضوعاً إلا أصاب الهدف، ونفذ إلى الصميم، وانتهى منه إلى الغاية المرجوة، لا سلاح له غير الحجة البالغة، والدليل الواضح، وقواعد البحث الدقيق، وقضايا المنطق السليم!

ولقد كان أمين عليه رحمة الله الكاتب الوحيد الذي حفظ الله قلمه من العثار، وعصم لسانه من الفحش؛ فما جارت الخصومة في يوم من الأيام على أخلاقه ولا ورطته العداوة في الكتابة إلى كلمة نابية أو عبارة مؤذية لا يرضى عنها الخلق، ولا يطمئن إليها الضمير.

على أنه لم يكن يخاصم إلا في الله والوطن والحق. ولم تعرف له في حياته خصومة شخصية، لأنه كان ينظر إلى زخارف هذه الدنيا بعين الزهد والاحتقار. ولقد حاول الكثيرون أن يشتروا قلمه أو يخففوا من حدته بالكثير من المال والجاه فلم يستطيعوا إلى ذلك سبيلاً. وعرضت عليه وظائف الدولة الكبرى، فكان جوابه: (لا تفسدوا عليّ إيماني؛ فأنا لم أخلق لهذه الوظائف!) وكان نعم العون للمرحوم سعد باشا زغلول؛ وكان سعد يؤثره برسائله وهو مع الوفد في باريس ويبدأ كتبه إليه بقوله: أخي أمين!. . .

وحينما اختلف معه في مبدأ المفاوضات، كان سعد مع ذلك يثق به ويلقبه بالخصم الشريف، والرجل النزيه. وكان يستعير منه الوثائق الخاصة بتسجيل أعمال الوزارات. ولما نفي إلى سيشل كان أمين أول المدافعين عنه مع اختلافه معه في الرأي، كما كان أول من نقد طريقة وضع الدستور. وفي ذلك يقول سعد باشا: إن أميناً كأنما يستمليني ما يكتبه. . . ومن مفاخر أمين التي تدل على التضحية والشجاعة أنه في سنة 1914 حينما أعلنت إنجلترا الحماية على مصر وقضت الأحكام العرفية على الصحف بنشر البلاغات الرسمية ومنها بلاغ الحماية، لم يشأ أمين أن ينشر في جريدة الشعب - الذي كان يتولى تحريرها في ذلك الحين - بلاغ الحماية، وقرر تعطيلها من تلقاء نفسه لكيلا ينشر فيها هذا البلاغ، ورضى بما ترتب على ذلك من السجن والاعتقال؛ وقضى مدة السجن صابراً راضياً وخرج منه مؤمناً قوي النفس والقلب. ونستطيع أن ندرك مبلغ التضحية إذا عرفنا أن جريدة الشعب كانت كل شيء في البلد لأنها كانت جريدة الحركة الوطنية، وكان الشعب يتلقف أعدادها بشوق وشغف. ثم تستطيع أن تؤمن بالرجولة الكاملة حين تعرف أن أمين الرافعي كان الرجل الوحيد الذي احتج على بلاغ الحماية البريطانية بعدم نشره!!

ومن أعظم الأمثلة الدالة على عبقريته وسعة علمه بالشؤون الدستورية - أنه الصحفي الوحيد الذي نبه الأمة والزعماء والأحزاب إلى أن قرار حل مجلس النواب يعتبر باطلاً لأنه لم يحدد فيه موعد الانتخاب والتاريخ الذي يجتمع فيه المجلس. وما دام البرلمان لم يدع فإن من حقه أن يستأنف وجوده؛ لأن قرار الحل يعتبر ملغي. وأخذ الزعماء بهذا الرأي واجتمع البرلمان في فندق الكونتنيتال في يوم السبت الثالث من نوفمبر

سنة 1925 واتحدت الأمة والأحزاب، وعادت الحياة النيابية إلى البلاد، وانتفع الجميع بفضل هذا
الرأي ما عدا أمين الرافعي فقد كان الشخص الوحيد الذي لم ينتفع بشيء من هذا، واكتفى من كل ذلك بقوله: (لقد سررت بإنقاذ الدستور وفوز الأمة وارتاح ضميري ارتياح من يشعر بأن الله قد وفقه إلى دعوة صالحة كتب لها التحقيق والنجاح!)
وفي وسعنا أن نعرف مبلغ إيمان أمين وثباته من قوله: (يرى المؤمن الثابت العقيدة أن عقيدته مقدسة لا تحتمل تفريطاً ولا زعزعة، وأن لها من ضميره حارساً قوياً، فإذا وسوس له الشيطان أن يهمل هذه العقيدة على أية صورة من الصور، كان صوت الضمير وحده كافياً لأن يقطع على الشيطان وسوسته ويرده مدحوراً. وإذا ما تقدم خصوم العقيدة الثابتة بأموالهم الوفيرة، وهباتهم العظيمة، ووعودهم الخلابة؛ كي يلعبوا بالعقول ويزعزعوا الإيمان، وجدوا من يقظة ضمير المؤمن أكبر مخيب لآمالهم؛ لأن هذا الضمير الخالص الذي لا يخضع للماديات ولا يتأثر بأثرها المفسد لا يلبث أن يصيح بصاحبه: إياك والانخداع بما يعرضون عليك مهما عظم شأنه، فإن كنوز الأرض لا تعدل شرف الإنسان. ومتى استطاع المرء أن يحتفظ بشرفه فكل ما يفقده بعد ذلك لا يقام له وزن. لأن الحياة الشريفة يمكن احتمالها مهما بلغت مرارتها، أما الحياة المجردة من الشرف فإنها لا تساوي قلامة ظفر. وليست أيام الجهود والتعب والألم أسوأ أيام الإنسان. ويكفي صاحب المبدأ تشجيعاً أن ينال شيئاً من المكافأة المعنوية بأن يرى مبدأه يصيب بعض الفوز. . .
ومن المقرر أن المرء لا يجوز أن يشغل نفسه بمستقبل نفسه متى كان ضميره مرتاحاً وروحه مطمئنة وشعاره القيام بالواجب، وفعل ما يأمر به الضمير. وما عدا ذلك فليدعه لله تعالى لأنه من خصائصه وشئونه. وإذا كان في تأدية الواجب ما يورث الألم، فيجب أن يتحمل الإنسان الألم بغير مضض. لأن الآلام موجودة في هذا العالم ولكل مخلوق نصيبه منها)
وكان أمين عليه رضوان الله يستفتح يومه بتلاوة القرآن ويدعو بدعاء الرسول عليه السلام: (اللهم اجعلنا هادين مهتدين، غير ضالين ولا مضلين، سلما لأوليائك، حرباً لأعدائك. نحب بحبك من أحبك، ونعادي بعداوتك من خالفك. اللهم هذا الدعاء وعليك الإجابة. وهذا الجهد، وعليك التكلان) ثم يتلو هذه الآية الكريمة (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون)
وبعد، فهذا قليل مما أعرف عن هذا الرجل العظيم أكتبه في مناسبة ذكراه الكريمة، وأبعث إلى روحه في مقاعد الصديقين والأبرار بأعطر التحيات وأطيب السلام (المنصورة)
علي عبد الله
البريد الأدبي
أدباء . . .!
قرأت في مجلة الثقافة العدد (209) كلمة تحت عنوان (الصحافة والأدب في أسبوع)، فرأيت كتاباً من صديقي الشاعر الأستاذ محمود حسن إسماعيل إلى صديقي أيضاً. . . الأستاذ (ق). وفي هذا الكتاب ذكرُ بعض أصحابنا وذكرى، ويصفنا الصديق الأستاذ الشاعر بصفات جميلة محببة كاللجاج، والتهاتر، والكسل، والجبن، والغفلة، والتخلف عن سير الزمان، ويدعونا إلى ملازمة الصمت على رفوفنا الجامدة حتى يتحرك بنا أو ينسانا الزمان!. . . وهو كذلك
لا أدري! فقد سمعت أن الأوائل قالوا: (عقل المرء مخبوءٌ تحت لسانه)، وأنهم قالوا:
إذا لم يكن للمرء عقْلٌ يَكفُّه ... عن الجهل، لم يستحي وانتهَكَ السِّتر
وللصديقين مني تحية المخلص المعجب بأدبهما وبيانهما
محمود محمد شاكر
تجارب على التلباثي
كان لظاهرة التلباثي التي أثارها الكاتب العظيم الأستاذ العقاد في (عبقرية عمر) وعلى صفحات الرسالة نصيب كبير من الدراسة، ومن عناية علماء النفس في أوربا بها؛ ولكنها بالرغم من ذلك ظلت مستغلقة عليهم فلم تتضح تماماً. ومن أكبر الأوساط

العلمية الأوربية التي تبحث في هذه الظاهرة جمعية في إنكلترا تسمى: شغلت بهذه الظاهرة منذ زمن طويل، وكتبت الكثير من النتائج التي وصل إليها أعضاؤها في مجلتها الخاصة. ولعل من الطريف أن نذكر أن هذه الجمعية لم تكتف بدراسة هذه الظاهرة دراسة نظرية فحسب، بل أجرت تجارب عديدة لتأييد هذه الظاهرة، وقد توصلت فعلاً إلى نتائج مدهشة وطريفة، وقد ذكر الأستاذ باريت الأستاذ بكلية العلوم الملكية بأيرلندة بعض هذه التجارب في كتابة: ومن أهم هذه التجارب، ما قامت به سيدتان من أعضاء الجمعية إحداهما تدعى المس هـ. رامسدن والأخرى المس ك. ميلز فكانت المس ميلز في وقت كل تجربة تسجل في مذكرة خاصة ما تريد نقله إلى المس رامسدن من أفكار أو صور، بينما تكتب المس رامسدن التأثيرات التي يستقبلها مخها، وترسل تقريرها إلى ميلز قبل أن تعرف ما كتبته هذه الأخيرة من ناحيتها. قد نجح الكثير من تجاربهما وإن فشل البعض الآخر. ولنذكر الآن بعض هذه التجارب الناجحة التي ذكرها الأستاذ باريت في كتابه:

كانت المس ميلز تنتظر في عصر يوم 27 أكتوبر 1905 اجتماع الجمعية في لندن، فاسترعى انتباهها نظارة غريبة الشكل يضعها على أنفه رجل يجلس بجانبها، فرأت أن هذه الملاحظة قد تصلح موضوعاً لتجاربها مع مس رامسدن. وحين رجعت إلى منزلها كتبت في مذكرتها: (27 أكتوبر - نظارات - ك. م) وكانت المس رامسدن في ذلك الوقت في بكنجها مشير على بعد حوالي عشرين ميلاً من لندن، ولكنها كتبت هذا المساء: 27 أكتوبر - 7 - مساء. - نظارات هذه هي الفكرة الوحيدة التي جاءتني بعد انتظار وقت طويل - هـ. ر) ويقول باريت إن الأمر لا يمكن أن يكون مجرد تخمين لأن المس ميلز لا تضع نظارات وتجربة ثانية. . . كتبت المس ميلز في كراستها الفكرة التي تريد إرسالها إلى المس رامسدن: (2 نوفمبر - يد - ل. م) وكتبت المس رامسدن في نفس الوقت: (2 نوفمبر، 7 مساء، ابتدأت أن أرى يداً صغيرة سوداء. . .) وتفسير ذلك، كما يقول باريت، أن المس ميلز كانت في ذلك الوقت ترسم يدي صورة بالفحم، وكانت والدة المس رامسدن حاضرة عند ميلز في ذلك الوقت فذكرت أن ذلك صحيح وقد أجريت تجارب عديدة، وكان البعد بينهما حوالي 400 ميل، وكانت الخطة المتبعة في تجاربهما أن رامسدن تبعد نفسها عن التفكير في أي شيء كان، وتحصر تفكيرها في ميلز كل يوم في وقت معين، ثم تكتب ما تستقبله من تأثيرات وترسل ذلك إلى ميلز، وتكتب ميلز في نفس الوقت ما كانت تفكر فيه وترسله إلى رامسدن بالبريد. ويذكر باريت أنه أطلع على الرسائل المتبادلة فوجد حالات كثيرة تتفق فيها النتائج اتفاقاً كبيراً جداً أو اتفاقاً كلياً

وفي ذات مرة كانت ميلز مع والدة رامسدن في إحدى الرحلات، وكانت رامسدن في اسكتلندة، وفي أثناء عودتهما من رحلتهما ذهبتا بنوبري في مقاطعة بركشير ونزلتا في فندق هناك، وكان لصاحب الفندق فتاة صغيرة لطيفة أعجبت ميلز بها كثيراً. وأصبحت ميلز، وإذا بها تستلم من رامسدن خطاباً جاء فيه: (31 أكتوبر 1907، أظن أنك تريدين مني أن أرى فتاة صغيرة لها شعر كستنائي مسترسل وراءها، ومربوط بشريط على الطريقة المعتادة. وهي تجلس على منضدة وقد أدارت ظهرها، ويظهر أنها مشغولة. . . بقطع قصاصات بالمقص. وهي ترتدي (مريلة) بيضاء، وأظن أن عمرها بين الثامنة والثانية عشرة. - هـ. ر)، وقد وصفت صاحبة الفندق الفتاة بقولها: (عندي فتاة صغيرة في الحادية عشرة من عمرها، ذات شعر كستنائي مربوط بشريط وترتدي (مريلة). ولما كانت مريضة فإنها تستلي نفسها بقطع القصاصات. وقد تكلمت طويلاً (عنها؟) مع المس ميلز يوم 31 أكتوبر - ل. لفجروف.)

هذه بعض التجارب على التلباثي. ويذكر باريت إلى جانبها حالات أخرى وحوادث جاءت عفواً، أي دون أن يقصد بها إلى التجربة، وهو تؤيد ظاهرة التلباثي، وقد استقاها من مصادر ثقة لا يمكن الشك فيها، ويذكر أن معظم هذه الحالات تحدث أثناء النوم.

من هذه الحوادث حادثة وقعت لسيدة تدعى لويزا. أ. هاريسون، فأرسلت يوم حدوثها تقريراً إلى الجمعية المذكورة آنفاً، ومع تقريرها خطاب من زوجها يؤمن على ما تقوله الزوجة التي تذكر أنها بينما كانت مستغرقة في النوم استيقظت فجأة على صوت زوجها وهو يتأوه من الألم، فنظرت حولها ولكنها لم تجده في الحجرة، فنظرت في

الساعة فألفتها الثالثة والنصف مساء. وعاد زوجها من الخارج في الساعة السادسة وقد ظهرت بعض الكدمات على جبهته، نتجت عن وقوعه أثناء وجوده في (حمام تركي) واصطدام جبهته بدرجاته الحجرية فقالت له زوجه: (إنني أعرف متى حدث ذلك كان ذلك في الثالثة والنصف لأنني سمعتك تتأوه من الألم في ذلك الوقت) فأجابها: (نعم، ذلك هو الوقت بالضبط، لأنني أذكر أنني نظرت إلى الساعة بعد ذلك مباشرة.) وقد حضر هذه المناقشة بين الزوجين شاهد شهد بذلك!

كذلك أرسلت سيدة تدعى آرثر سيفرن كتاباً إلى الجمعية تقرر فيه أنها استيقظت يوماً من نومها فجأة إثر إحساسها بلطمة عنيفة تنزل على فمها وتجرح شفتها العليا جرحاً بليغاً، ولكنها حين رفعت منديلها إلى فمها لتوقف الدم لم تجد شيئاً، ونظرت إلى الساعة فوجدتها السابعة صباحاً. وكان زوجها في الخارج، فعاد في التاسعة والنصف وقد وضع منديله على شفته، فأخبرها أنه بينما كان يتنزه في قاربه، هبت ريح عنيفة أزاحت (الدفة) فأصابته في شفته العليا؛ وسألته زوجه متى كان ذلك؟ فأجابها: حوالي الساعة السابعة!

وحادثة أخرى. . . استيقظت آنسة تدعى مس كينج من نومها في أحد أيام الأحد في الساعة الرابعة على صوت يناديها: (تعالي إلي يا تريكس، إنني مريضة جداً). وأرسلت الآنسة كينج إلى الجمعية كتاباً تذكر فيه أنها عرفت صاحبة الصوت وهي إحدى صديقاتها وتدعى المس ريد، وهي الوحيدة التي تناديها باسم (تريكس). فكتبت في نفس اليوم إلى المس ريد - على مبعدة مائتي ميل من صديقتها - تخبرها بما سمعت، فردت عليها المس ريد تخبرها بأنها في ذلك اليوم وفي تلك الساعة أحست بألم شديد، وظنت أنها سوف تموت، فمدت يدها إلى صورتها (صورة المس كينج) وقالت لها: (تعالي إلي يا تريكس إنني مريضة جداً، تعالي إلي)!

هذه التجارب والوقائع وغيرها تثبت ظاهرة التلباثي. ولكن كيف ينتقل التلباثي وينتشر؟ ذلك سؤال لم يجب عليه العلم جواباً شافياً. ويقول الأستاذ باريت: إنه ليس عندنا عنه أي فكرة، ولكنه يرى أنه لا ينتقل خلال أي وسط مادي أو أي عامل فيزيقي معروف، وقد يقربنا وجود اللاسلكي بأن نظن بأن الفكر ينتقل بنفس طريقة الرسائل اللاسلكية، أي بواسطة موجات أثيرية يمكن تسميتها (بالموجات المخية). ولا شك في أن حقيقة اللاسلكي تقرب إلى الأذهان ظاهرة التلباثي، ولكن ذلك لا يكفي.

أحمد أبو زيد
كلية الآداب - جامعة فاروق الأول
العدد 497 - بتاريخ: 11 - 01 - 1943

مستدركات
للأستاذ عباس محمود العقاد

كتب الأديب (خالد عبد المنعم) في عدد ماضٍ من الرسالة كلمة طيبة عن كتابي (عبقرية عمر) ختمها بقوله:

(على أننا في قراءتنا لعبقرية عمر بالصفحة 319 استوقف نظرنا قول المؤلف في صدد النزاع الذي نجم عن الخلاف عقب موت الرسالة ما نصه:

(فالأنصار يقولون إنهم أحق بالخلافة من المهاجرين لأنهم كثرة والمهاجرون قلة، . . . ولأنهم في ديارهم والمهاجرون طارئون عليهم، ولأنهم جميعاً من قريش ولهم فضل التأييد والإيواء)

(والعبارة على هذه الصورة توهم أن الأنصار من قريش وهم بالطبع ليسوا كذلك) وقد أصاب الأديب في قوله إن العبارة توهم أن الأنصار من قريش، وليسوا منها ولكن المسألة - كما هو ظاهر - مسألة سهولا أكثر ولا أقل، إذ لا يطلع أحد على ما جرى في سقيفة بني ساعدة ثم يفوته أن الأنصار كانوا ينازعون قريشاً الخلافة، وأن قريشاً قبيلة والأنصار قبائل أخرى، وقد كان المتكلمون في السقيفة يجرون كلامهم على حق قريش في الخلافة وهل هم الأمراء دون غيرهم أو يجوز لغيرهم أن يشاركهم فيها. فتكلم في ذلك أبو بكر وعمر وتكلم فيه كل متكلم من الأنصار، من نقل عن زعيمهم ومن استقل يومئذ بالمقال

فليس بجائز أن يطلع أحد على كلام عمر يومئذ أو كلام أبي بكر أو كلام من خالفوهما

ثم يفوته أن الأنصار من غير قريش وأنهم كانوا يقفون منها موقف المنازع الذي يطلب الاستبداد بالأمر دونها أو لا يقنع بما دون مشاركتها في الإمارة
وليس بجائز أن يعرف أحد ما هي مكة وما هي المدينة ومن هم الذين هاجروا ومن هم الذين نصروا ثم يفوته أن يفرق بين قريش وبين الأوس والخزرج ومن عاش معهم من أهل المدينة
فالسهو هنا - بالطبع - كما قال الأديب المستدرك، لأن الأنصار - بالطبع - لم يكونوا قرشيين
والذي يخطر ببالي الآن أنني أردت أن أكتب (من المسلمين) فسبق القلم بكتابة قريش لغلبة
ذكرها والخلاف عليها في الذهن وقيام الخلاف حولها في ذلك اليوم، وهو سهو يقع فيه القلم كما يقع فيه اللسان
فللأديب الشكر على تنبيهه، فإن ما توهم العبارة التي نقلها يحتاج إلى تصحيح وإن بدرت صحتها إلى البداهة بغير عناء
ذلك استدراك على كتاب
وهناك استدراك آخر على كتاب آخر، أو على كلمة في مقدمة ذلك الكتاب، وهو (أعاصير مغرب) ديوان شعري الجديد
والكلمة المستدرك عليها هي قولي في مقدمة الأعاصير: (يصح على هذا أن يكون الشباب عهد ابتداء العاطفة وافتتاحها على صورتها الأولى، أو هو العهد الذي تفاجأ فيه البنية بشعور جديد لم تكن لها خبرة من قبل، فيشاهد عليها ما يشاهد على كل بنية تفاجئها حالة طارئة. فإن المفاجأة إذا عرضت لإنسان بدا لك في حالة كحالة الشاب في أول عشقه: وجه ساهم، وفم مغفور، وطرف ذاهل، ولسان معقود، ونفس مطرود. . . وهذه هي الحالة التي يخيل إلى من يراها أنها العشق دون غيره. مع أنها أحرى أن تدل على أن العشق مفاجأة لم تعهدها البنية ولم تألفها النفس، فلم تزل بها حاجة إلى التثبت منها والرياضة عليها. ثم تأتي هذه الرياضة شيئاً فشيئاً مع تعاقب الأيام وتعاقب ألوان الشعور. . .)
يقول الأديب المستدرك (حسن رياض) إنني قلت غريباً لم يسمع به من قبل، وهو أن الحب والغزل مستغربان في الشباب ولكنهما لا يستغربان فيما بعد الشباب في سن الشيخوخة. . . إلى آخر ما قال
وأنا أشهد الله والقراء أنني لم أقل ذلك، ولم أقل ما يوهم ذلك، ولو من بعيد فإن القول بأن الحب مفاجأة في سن الشباب شيء، والقول بأنه غريب في تلك السن شيء آخر
لأن المفاجأة قد تتكرر ملايين المرات فلا تكون غريبة بعد هذا التكرار، وإن سميت مفاجأة في كل مرة من هذه المرات
فهذا الشاب تفاجئه العاطفة الغرامية في مطلع شبابه بعارض جديد في حياته، فهي مفاجأة لا
ريب فيها
ولكن هكذا كل شاب تعرض للعاطفة الغرامية منذ كان الإنسان كما نعرفه الآن إلى آخر الزمان
كل شاب يفاجأ هذه المفاجأة، فلا غرابة إذن في وقوعها ولا في ملازمتها لمطلع الشبيبة في ريعانها لأن هذا الواقع المتكرر الذي لا يصدمنا بغير ما عهدناه
إلا أنني لا أريد أن أكتفي بدفع هذا اللبس الذي لا يحتاج إلى مناقشة طويلة، فقد يغني في دفعه نقل الكلمة التي وقع عليها الاستدراك ثم الوقوف عند نقلها بغير تعقيب
وإنما أردت أن أتجاوز هذا اللبس العارض إلى الأساس الذي يقوم على كل لبس من هذا القبيل، وهو من جنايات اللغة أو من جنايات (التسمية) حيث كانت فيما أراه تطلق اللغة كلمة واحدة على عاطفة أو شعور أو حالة نفسية تلم بجميع الناس، فيسبق إلى الوهم أننا أمام شيء واحد لأننا نعبر عنه بكلمة واحدة، ويطرأ التناقض واللبس والاستغراب من هذا الوهم الذي يصعب التنبه إليه في كثير من الأحيان
مثلاً كلمة واحدة بل كلمة واحدة مختصرة في حروف ثلاثة خفيفة على كل (فالحب) لسان

فهل هي شيء واحد مختصر هذا الاختصار، مجموع في هذه الحروف، سريع إلى الفهم كسرعة اللسان في النطق بحروف اسمه الصغير؟
أجهل الناس بالشعور الإنساني لا يقول (نعم) في جواب هذا السؤال
فالحب يتناول مئات من الأشياء التي لا تحدها أسماؤها لاختلافها هي أيضاً في الصفات والعوارض والعلاقات والمناسبات
الحب يتناول الغريزة النوعية، ويتناول ذوق الجمال، ويتناول الشعور الاجتماعي الذي يدعو إلى التآلف ويقال في تعليله إن الإنسان مدني بطبعه، ويتناول فهم الميول الإنسانية والإيمان بأخلاق الوفاء والصدق والمجاملة، ويتناول التقارب بالعقول والمدارك والنزاعات، ولا توجد في الإنسان واشجه من وشائج النفس والجسد لا تتناولها هذه الكلمة ذات الثلاثة الحروف
ثم ما هي الغريزة النوعية التي هي جزء مما تنتظم في الحب من بعض نواحيه؟ هي أيضاً شيء كثير الشعب كثير الأطوار كثير الأوصاف على حسب الأمزجة والأعمار والعقول
وما هو ذوق الجمال؟ وما هو شعور المدنية الطبيعية؟ وما هي الأخلاق التي تفرض الصدق والوفاء؟ وما مبلغ سلطانها على أناس وانقطاعها عن آخرين؟
وما هو العقل؟ وكيف يتقارب ويتباعد؟ وإذا تقارب بين إنسانيين فهل يتقارب بينهما في جميع الأمور؟ وإذا تقارب بينهما في جميع الأمور فهل يتقارب في جميع الأوقات؟ وإذا تقارب حيناً بين إنسانيين ألا يجوز في ذلك الحين أن يتقارب بين إنسانيين آخرين؟
ثم ما هو الشعور نفسه إذا وصفنا الحب إجمالاً بأنه ضرب من الشعور؟ ما سلطانه على الإرادة أو ما سلطان الإرادة عليه؟ وما هي الإرادة بعد هذا وذاك؟ ولماذا تضعف في ساعة وتقوى في ساعة أخرى؟ ولماذا تكون في ساعة واحدة ضعيفة أمام أحد الناس وقوية أمام غيره!
كل أولئك حالات تقبل التنويع والتلوين والتدريج وكل أولئك تجمعه كلمة واحدة في ثلاثة حروف
فإذا حضرناه بمقدار حروفه إذن محدود يكون على حالة واحدة ولا يكون على غيرها. ويسهل أن نستغربه كلما رأيناه على غير ما تصورناه
وإذا نظرنا إلى شعابه وفروعه وألوانه ودرجاته جاز أن نراه في ألف حالة متناقضة ولا نستغربه في جميع هذه الحالات أقل استغراب.
جاز أن تسيطر عليه الغريزة النوعية، وجاز أن يسيطر عليه ذوق الجمال وفنون الجمال، وجاز أن يسيطر عليه التفاهم ورعاية الأخلاق، وجاز أن تسيطر عليه هذه البواعث مختلفات في المقادير والمظاهر والدرجات
كل أولئك جائز، وكل أولئك حب، وكل أولئك عارض من عوارض النفس الإنسانية في جميع الأعمار
ولكننا وضعنا اللغة فحبسنا تلك المردة أو تلك الأرواح أو تلك الأشباح في قمقم صغير من ثلاثة حروف خفاف على اللسان
قل (حب) فقد قلت كل شيء ولفظت بالطلسم الذي يحبس المردة في (القمقم) الصغير
ولكنك إذا جاوزت القول إلى الدخول في أعماقها والتفرقة بين شياطينها واللعب بأسرارها
ثارت بك والتوت عليك، وكسرت القمقم شر كسرة، فإذا هو يتطاير شعاعاً هنا وهناك ولا تجتمع منه هباءة على هباءة، ولو سلطت عليها ألف حرف وألف كلمة وألف لغة تضيق بها المعجميات
فما هو الحب الذي تستغربه ولا ترى أنه يكون في إبان الشباب؟ وما هو الحب الذي تستغربه ولا ترى أنه يكون بعد الشباب؟
هو على كل حال كلمة واحدة ولكنه ليس بشيء واحد.
وعليك قبل استغرابه أن تميزه في جميع حالاته، فإذا ميزته فقد عددته وفرقته وجاز - بل وجب - أن تراه في جملة حالات ولا تقصره على حالة واحدة تستغربه فيما عداها
من فضائل اللغة أنها قيدت المردة في القماقم، ومن جناياتها أنها قليلة القماقم فوضعت في قمقم واحد ما من حقه أن يوضع في ألوف!! وعلينا نحن أن نحترس من

جناياتها بحساب، ونستفيد من فضائلها بحساب
ونلحق بما تقدم استدراكاً قرأناه في العدد الأخير من الرسالة جاء فيه تعقيباً على مقالنا في التلباثي:
لو كان المقاتلون قد سمعوا صوت عمر وهم مئات، ولو كان ذلك قد تم بواسطة التلباثي لاقتضى الأمر أن يكونوا كلهم موهوبين أو وسطاء، وهو ما لا يعقل. . .)
ثم جاء فيه: (كل مقال الأستاذ العقاد منصب على إثبات وجود التلباثي بأدلة منطقية قياسية، وقد فرغ العلماء من إثباته منذ 85 سنة، وتدرس هذه العلوم كدراسات عليا في جامعات إنجلترا الكبرى. ومحاولة الأستاذ إثباتها كمن يحاول إثبات وجود أشعة إكس بالاستنتاج الخ)
أما أن مقالي منصب على إثبات وجود التلباثي فغير صحيح، لأنني لم أتجاوز تخطئة الذين يجزمون بنفيه. وقلت: (يجوز أن يأتي غداً من يثبت - هذه الملكة - ثبوتاً قاطعاً لا شك فيه، ويجوز أن يأتي غداً من ينفيها نفياً قاطعاً لا شك فيه).
وأما أن وجود التلباثي ثابت كوجود أشعة إكس فذلك قول يدعيه المدعي وعليه إثباته.
وقد نقنع منه بتقرير ثلاثة من المشتغلين بالعلم عندنا يؤيدونه فيما قال. وأول ما يقتضيه هذا الرأي أنه يبطل القول بالملكة النفسية ويجعلها خاصة من الخواص التي تتكرر في كل
جسم وفي كل معمل من معامل الطبيعة، وهذا كلام لا يقره النفسيون ولا الطبيعيون ولا المنطقيون
وأما ما قاله صاحب الاستدراك عن سماع الأصوات على البعد فما زاد فيه على ما رأيناه حيث قلنا في مقالنا السابق: (إن التقاء نفسين أيسر قبولاً من التقاء نفس واحدة من جانب وألوف النفوس من جانب آخر)
أو حيث قلنا: إن انتقال الصوت المادي مئات الأميال يقتضي أن يكون صوت سارية قد سُمع في الجيش الذي معه وهو يستغيث وقد سمع في المسجد الذي كان عمر يخطب فيه، وقد سمع الصوتان: صوت الاستغاثة وصوت الاستجابة على طول الطريق، ولم يذكر لنا رواة القصة شيئاً من ذلك)
وهذا ما نجيب به عن استدراك المستدرك ولا نجيب عن غيره من كلامه الذي لا نرى فيه ما يناقش أو يجاب.
عباس محمود العقاد
مسابقة الأدب العربي
ديوان حافظ إبراهيم - 2
للدكتور زكي مبارك
مواساة طرابلس - مواساة بيروت - آمال مصرية
مواساة طرابلس
في شهر سبتمبر من سنة 1911 أغارت إيطاليا على طرابلس - وهي يومئذ ولاية تركية - فنهض المصريون لمعاونة طرابلس بالطب والشعر والمال والرجال، فمضى إلى الميدان أطباء مصريون لمعالجة الجرحى الطرابلسيين، منهم الدكاترة حافظ عفيفي وسيد شكري ونصر فريد؛ ومضى إلى الميدان مجاهدون مصريون أشهرهم عزيز باشا المصري، ومحمد بك القناشي؛ وجمعت أموال كثيرة لتموين الجيش الطرابلسي. وبفضل تلك الحرب أنشئت جمعية الهلال الأحمر المصري، وكان لقلم الشيخ علي يوسف تأثير في إنشاء تلك الجمعية، وهي لا تزال من كبريات جمعياتنا الخيرية.
وانطلق الشعراء فقالوا في تشجيع الطرابلسيين وتخذيل الإيطاليين عشرات القصائد الجياد
في تلك الحرب قال حافظ قصيدته الميمية:
طمع ألقي عن الغرب اللثاما ... فاستفق يا شرق وأحذر أن تناما
وفيها قال عبد المطلب قصيدته البائية:
بني أمنا، أين الخميس المدرَّبُ ... وأين العوالي والحسام المذرَّب
و (بنو أمنا) في قصيدة عبد المطلب هم الأتراك، وكانوا كذلك بحكم الأخوة الإسلامية، وهو معنى فسره شوقي أحسن تفسير حين قال في التوجع لسقوط (أدرنه) في

الحرب البلقانية:
مقدونيا - والمسلمون عشيرة - ... كيف الخئولة فيك والأعمام
وبمناسبة قصيدة عبد المطلب أذكر أنه قال في التمهيد إن نفسه جاشت حزنا حين لاحظ أن القوة المدافعة من الطرابلسيين وأن الأتراك لم يكونوا إلا مديرين
وقد فكرت في مراجعة الجرائد المصرية لذلك العهد عساني أعرف السبب في تخلف الجيش التركي عن معاونة الجيش الطرابلسي، ثم اتفق أن لقيت الأستاذ عبد الرحمن بك
عزام في قصر الزعفران يوم مضيت للتسليم على حضرة صاحب السمو الأمير عبد الإله، فسألته عن سبب ذلك التخلف، فأفهمني أن إنجلترا اعترضت على مرور الجيش التركي بالأرض المصرية بحجة أن مصر على الحياد، فلم تستطع تركيا إنجاد طرابلس بغير القواد من أمثال أنور وفتحي ومصطفى كمال
كانت تلك الحرب مثاراً لحركة فكرية وأدبية، ففيها أختصم المصريون حول الموجب لمعاونة الأمم الأسلامية، وكان ذلك الاختصام بمناسبة مقالة نشرها لطفي باشا السيد عن الأموال التي تجمع لمواساة الجرحى من المجاهدين المسلمين. فقد أعلن أن الأفضل أن تجمع تلك الأموال بأسم الإنسانية لا بأسم الدين، فثار الجدل هنا وهناك، لأن مثل هذا الرأي في ذلك الوقت كان يثير الجدال
وفي غمرة الكروب التي أثارتها تلك الحرب أعلن الشام أنه يريد الاستقلال، بتوجيهات خفية من خصوم الأتراك، فثارت الجرائد المصرية وعدت ذلك تأييداً لعدوان الطليان شبكة بيروت
ولم تنتظر إيطاليا حتى تنجح الدسائس الخفية في تحريض البلاد الشامية على الدول التركية، فأرسلت أسطولها لضرب ميناء بيروت بمدافع الأسطول الثقال، انتقاماً من الأتراك، والأحمق يؤذي نفسه من حيث لا يريد
كان من السهل في تلك الأيام أن يميل نصارى لبنان إلى تأييد الطليان - فقد كانت بينهم الأتراك عداوات - ولكن ضرب بيروت بمدافع الأسطول الإيطالي أغضبت نصارى لبنان وملأت قلوبهم بالغيظ فثلبوها بما يملكون من أسلحة الهجاء في الجرائد والمجلات
وفي تلك النكبة ثار الشعراء المصريون على الطليان، ثاروا انتصاراً للأتراك وانتصاراً لأهل لبنان
وفي نكبة بيروت نظم شوقي قصيدةُ الرائع:
يا ربّ أمرُك في الممالك نافِذٌ ... والحكم حكمك في الدم المسفوك
إن شئت أهرقه وإن شئت أحمه ... هو لم يكن لسواك بالمملوك
واحكم بعد لك إن عدلك لم يكن ... بالممترَي فيه ولا المشكوك
ألأجل آجالٍ دنت وتهيأت ... قدّرت ضرب الشاطئ المتروك
بيروتُ مات الأُسد حتف أنوفهم ... لم يشهروا سيفاً ولم يحموك
كلٌ يصيد الليث وهو مقيدٌ ... ويعزُّ صيدُ الضَّيغم المفكوك
يا مَضربَ الخِيَم المنيفة للقِرى ... ما أنصت العُجمُ الآلي ضربوك
ما كنتِ يوماً للقنابل موضعاً ... ولو أنها من عسجدٍ مسبوك
بيروتُ يا راحَ النزيل وأنسهُ ... يمضي الزمان عليَّ لا أسلوك
الحسنُ لفظٌ في المدائن كلها ... ووجدته لفظاً ومعنًى فيك
وفي نكبة بيروت نظم حافظ (رواية تمثيلية) جديرة بالإعجاب، وفيها أدار الحوار بين جريح من أهل بيروت وزوجة له اسمها (ليلى) وطبيب ورجل بدوي
وترجع أهمية هذه المنظومة إلى ما اشتملت عليه من الصدق في تصوير العاطفة الإنسانية، العاطفة التي تجمع بين قسوة الرجولة ورقة الوجدان؛ فالجريح فتى لبناني عجز عن مقاومة النار بالنار، فما كان لبلده أسطول يقاوم به أسطول الطليان، ولا أتيحت له فرصة يلتقي فيها سيفاً لسيف مع أحد جنود الأعداء، وإنما رمى وهو عاجز عن أن يرمي، فهو وقيذ الاغتيال. وفي تلك المحنة يتذكر مهد غرامه وهو بيروت، بيروت التي جمعت بينه وبين ليلاه في فجر الشباب
ولنترك حافظاً يصور آلام هذا الجريح بشعره الرقيق:
ليلايَ ما أنا حيٌّ ... يُرجَى ولا أنا مَيْتُ

لم أَقضِ حقَّ بلادي ... وها أنا قد قضيت
شفيت نفسي لو أني ... لما رُميت رَميت
بيروت لو أن خصماً ... مَشى إليَّ مشيت
أو داسَ أرضَك باغٍ ... لدُستُه وبغيتُ
أو حلّ فيك عدوٌّ ... منازلٌ ما اتقيتُ
لكنْ رماك جبان ... لو بان لي لا شتفيتُ
ليلاي لا تحسبيني ... عليَّ الحياة بكيتُ
ولا تظني شكاتي ... من مصرعي إن شكوتُ
ولا يُخيفنْك ذِكرى ... بيروتَ أني سلوتُ
بيروت عهد غرامي ... فيها وفيك صَبْوتُ
جررت ذيل شبابي لهواً وفيها جريتُ
فيها عرفتُك طفلاً ... ومن هواك انتشيتُ
ومن عيون رُباها ... وعذب فيك ارتويتُ
فيها لليلى كِناسٌ ... ولي من العز بيتُ
فيها بنَى ليَ مجداً ... أوائلي وبنيتُ
ليَلى، سراج حياتي ... خبَا فما فيه زيتُ
قد أطفأته كُرَاتٌ ... ما من لظاهنّ فوت
رَمَى بهنّ بُغاةٌ ... أصبنني فثويت

ثم يمضي الحوار بين الجريح وليلاه، ثم يتدخل البدوي والطبيب، فلا تنتهي المنظومة إلا بعد أن يستوفي حافظ تصوير ذلك المشهد الحزين

ونرجع إلى القصيدة فنقول:

في تلك القصيد صور حافظ عدة مشاهد، صور انتفاع الطرابلسيين بالذخائر التي تركها الجيش الإيطالي عند انهزامه بإحدى المواقع فقال:

حاتِمَ الطليان قد قلدتنا ... مِنةً نذكرها عاماً فعاما
أنت أهديت إلينا عُدّةً ... ولباساً وشراباً وطَعاما
وسلاحاً كان في أيديكمُ ... ذا كَلالٍ فغدا يَفْري العظاما
أكثروا النزهة في أحيائنا ... ورُباناً إنها تشفي السقاما
وأقيموا كل عام موسما ... يُشبع الأيتام منا والأيامى

وصور استخفاف الإيطاليين بالمعاهدات وبالدين فقال:

أحرقوا الدور، استحلوا كل ما ... حرّمت (لاهاي) في العهد احتراما
بارك المطران في أعمالهم ... فسَلُوه: بارك القوم علاما
أبهذا جاءهم إنجيلهم ... أمراً يلقي على الأرض السلاما
كشفوا عن نية الغرب لنا ... وجَلوا عن أفق الشرق الظلاما
فقرأناها سطوراً من دم ... أقسمت تلتهم الشرق التهاما

وخلاصة القول أن حافظاً صور عواطف المصريين في الثورة على الأمة الباغية التي عدت على إحدى البقاع الإسلامية، بحيث استطاع أن يسبق شوقي في هذا الميدان

آمال مصرية

وهناك تاريخ مجهول هو تاريخ جهاد المصريين لتحرير طرابلس من نير الطليان في أعوام الحرب الماضية، وذلك الجهاد يرجع إلى نزعة أصلية هي شوق مصر إلى التلاقي مع جميع الولايات التي تشرف على شواطئ البحر الأحمر وشواطئ البحر الأبيض، فقد كانت مصر في أكثر عهود التاريخ متصلة بتلك البلاد اتصال وداد وإخاء، وبلادنا كانت الملتقى لآمال الرجال في تلك البلاد، فأكابر الأغنياء من اليمن والحجاز وفلسطين والشام ولبنان وليبيا والجزائر وتونس ومراكش قد انتفعوا جميعاً بمركز مصر مفتاح الشرق

وكبار الوطنيين في مصر لهم أصول في تلك البلاد، فقد عير عبد الرحمن الرافعي بأنه شامي الأصل، وعير عبد العزيز جاويش بأنه مغربي، ونحن مع هذا نرى هذين الرجلين غاية في شرف الوطنية المصرية

ما معنى ذلك؟ معناه أن الوطن المصري هو الوطن الذي ينظم شواطئ البحر الأحمر وشواطئ البحر الأبيض، وقد حفظ التاريخ أن جنودنا استنزلوا في المعارك التي انتهت

بفتح الأندلس وشهد التاريخ أيضاً أن عرب الأندلس لم يجدوا في محنتهم مأوى غير وادي النيل
متاعب الدنيا في هذه الأيام لن تنسينا ما يجب أن يحفظ، ولن ننسى أبداً أن لنا إخواناً هواهم من هوانا في جميع الشئون.
الحرب الحاضرة موجة عابرة، وميزان الوجود لا تزلزله قلقةٌ وقتية سيزول صداها بعد حين
مصر هي مصر، والشرق هو الشرق، ورجاؤه فيها هو رجاؤها فيه، ولن ينفصم ما بينها وبينه من مواثيق
سنكون فيما بعد أصدق مما كنا فيما قبل (والله العزةُ ولرسوله وللمؤمنين)
زكي مبارك
من أظرف ما قرأت
كزينوقراط الفيلسوف
للأستاذ صلاح الدين المنجد
كان في أثينا، أيام أرسطوفان، مائة وخمس وثلاثون حظية، كن زهوراً فواحة فيها، ونجوماً رفافة في سمائها؛ وقد أوتين الخلابة والظرافة والجمال. وكانت لاييس أخلبهن جمالاً وأبرعهن حسناً وأكثرهن دلاً وظرفاً
ويقولون إن فينوس، ربة الجمال والحب، تجلت لها في الحلم فأرتها ما ستحظها به من حظ، وما ستنعم به من نعيمات. . . ومسحت بكفها الصغيرة جسمها الغض، فجعلته مثار غوايات وينبوع شهوات
ولم يخلب الملوك، ولم يشرد نوم الكهان، ولم يُذهل أحلام الفلاسفة، غير لاييس؛ الطروب المدلة، ذات العين الضحوك والجسم الريان. فكان أهل أثينا يجتمعون في (الكورنث) مسرح اللهو واللذاذات، يتمتعون منها بمحاسن تتجدد وملاحات ليس تنفذ، فإذا مضت إلى معبد فينوس، فيا لسحر الجمال! هنالك ترى الشعب يتبعها كالخراف لا يدعون فينوس، ولا يبتهلون إلى آلهة الأولمب، ولكنهم ينظرون إلى لاييس وفلك ثدياها فكانا شركاً وفتنة: غضوضة تأسر اللب ونعومة تشل الحس، واهتزاز يفتن الناظر. فكان المثالون يعطون فينوس، إذا نحتوا لها التماثيل، ثدي لاييس الحظية أو فرينه اللعوب
وكانت الدنانير تنثر تحت أقدامها كما تنثر الأزاهير لنظرة حنونٍ منها أو بسمة خلوب ودوخت لاييس أثينا كلها، واشتد سلطان جمالها، وتيمت الأرواح وأذهلت الأحلام، إلا رجلاً واحداً، كان يتجلد ويصبر ولا يذعن لسلطانها. هو كزينوقراط الفيلسوف.
لقد طلبت منه مالاً من ماله. . . (فإذا أعطيتنيه، سكبت في فمك لذة الدنيا، وأذقتك هناءة العمر، في ليلة واحدة!)
ورفض الفيلسوف طلبة لاييس، فأقسمت لتغوينه، ولتجعلنه من عباد جمالها المخلصين، وتخاطرت على الهزء به مع أناس كثيرين.
وطرقت باب مأواه، وقد عبس الليل، مذعورة الجنان دامعة العينين. فقال لها: (ما ذعرك يا لاييس. . . وما أصابك في هذا الليل البهيم. . .؟) قالت: (لقد تبعني قُطاع الطريق وأرعبني سُفاك الدماء، يريدون اختطافي. . . فأوني في دارك حتى يبرق لي النور. . .!)
وأدخلها الفيلسوف غرفته، وقدم إليها سريره.
يا عجباً! لقد اختفت تلك الدموع الغزار التي كانت تساقطها، منذ لحظات، كحبات المطر، فتنحدر على خدودها كالدرر.
وابتسمت لاييس. . . وابتدأت الفتنة!
لقد وقفت أمامه، فرأى ما يسحر وما يغري: فهذه البسمة الفاتنة كأنها وعد بلذة صخوب، وهاتة الشفاه المفترة التي تقطر الشهد والرحيق، وهاتان العينان اللتان ترسلان لهباً فاتر يوهن القوي، وينظران نظرات حالمة فيهن ظمأ وعتب وأسى. وهذان الذراعان البضان اللذان يمتدان للعناق. وهذه الحركة الرشيقة التي تثير الوجد، والضحكة البارعة التي تفلق الكبد، والغمزة الساحرة التي ينخلع لها الفؤاد. . . ثم هذا الغضب الجميل، والنفور اللطيف، وذاك الدلال الحلو والإقبال الظريف. . . ثم ما شئت

من مراح ومزاح، ورقص وشدو، وبكاء وأنين. كل أولئك ما هز الفيلسوف وما أثر فيه.
لقد قطعت الليل تحاول إغراء كزينوقراط. فما خلبته فتنتها، ولا هاجه سحرها؛ لكنه لبث أمامها ينظر متجلداً، كأنه قطعة من حجر أو قدة من جليد.
ولملمت لاييس أثوابها، وخرجت من دار الفيلسوف مع الفجر وفي عينيها الحلوتين دموع الخيبة والفشل
وانتشر الخبر مع النور، فجاء صواحبها مسرعات، فابتسمت لاييس، وقالت: (لقد راهنت على إغواء إنسان. أما كزينوقراط فتمثال من جليد. . .!)
ونظر لداتها بعضهن إلى بعض دهشات، وقلن: (لك عذرك يا لاييس!)
هذا حديث أرسطوفان، ما أدري مبلغ التزويق أو التهويل فيه، ولكني ذكرت، وقد تمثلت في خاطري صورة الفيلسوف حديثاً طريفاً للجاحظ، عن نديم أسمه أبو المبارك الصابئ، كان أحلى خلق الله حلاوة وظرافة وفكراً، وابرعهن حديثاً ونادرة وعلماً، وألطفهن مذهباً وطريقة وفهماً. وكان قد خصي نفسه وأربى على المائة. وكان ينادم الخلفاء والوزراء ويغشي بيوت حرمهن، ويقضي الأوقات الطوال عندهن. وكان قلبه علوقاً بالجمال يتتبعه
ويهيم في أثره. فسئل عن ميله إلى النساء، وقد تخطى المائة؛ فزفر زفرة كادت تقصف ضلوعه وقال: (إني لأسمع نغمة المرأة، فأظن مرة أن كبدي قد ذابت، وأضن مرة أنها قد انصدعت، وأظن مرة أن عقلي قد اختلس، وربما اضطرب فؤادي عند ضحك إحداهن، حتى أظن أنه خرج من فمي. . . فكيف ألوم غيري عليهن؟)
فما أشد اختلاف الطباع!

(دمشق)

صلاح الدين المنجد

رفيق الصبا

للأستاذ محمد مندور

ها أنا اليوم أتماسك فأستطيع أن أذكر رفيق صباي الدكتور محمد الشحات أيوب الذي نقلت إلى الصحف خبر وفاته. ولقد بكاه قلبي فكان البكاء رحمة من الله وقد أوشكت حياتي أن تختنق ضيقاً بوفاته.
أيوب رفيق صباي منذ مدرسة الألفي الابتدائية بمنيا القمح سنة 1917 إلى آخر عهدنا بتحصيل العلم سنة 1939 بباريس.
وهو زميلي في دراستي، كان يحب كما أحب حضارة اليونان لأنها تسمو بالروح إلى أفق لا يمكن أن يدركه إلا من يصل إليه بنفسه بعد جهد طويل. ولقد علقت روحه بمثل اليونان: الخير والحق والجمال، فأبغض الظلم والشر والقبح. من لي اليوم برفيق سواه؟ كنت ألقاه فنرفع من قلوبنا بذكر من نحب من كتاب تلك الحضارة المشرقة. ولقد عرف أيوب كما عرفناه مرارة الظلم الذي ينزله الجهل بالنفوس الخيرة. ولقد تعزى أيوب كما تعزينا بالقيم الروحية. ولقد جاهد أيوب معنا لأننا عقدنا العزم على أن نكسب النفوس بأيماننا. وهاهو أيوب يغادرنا ونحن لم نكد نبدأ الشوط. أيها الأخ الراحل: لقد كنا بحاجة إليك. ها أشعة الأمل تشرق في الأفق البعيد. عزيز على نفسي أن نستأثر بنصيبك فيها. اللهم أملأ قبره ضوءاً. اللهم اهد إليه ضوء قلوبنا.
قد يجهل الناس أيوباً، فهل لي أن يصدقوني إن قلت إنه أمل خبا، أمل قوي لا أعرف أملاً يساويه. لقد كان أيوب (مدرس) التاريخ القديم بجامعة فؤاد الأول (أستاذاً) منقطع النظير. كانت له قدرة عجيبة على البناء التاريخي. كنت تراه يجمع مواده لا من ملخصات التاريخ بل من مصادر التاريخ. وكان رحمه الله يعلم ويحس أن التاريخ قصة نفاذ الروح البشرية إلى العالم والكائنات، ولهذا كان يتتبع مسارب تلك الروح في مظانها. مصادر التاريخ عنده كانت تماثيل فدياس وبراكستيل، خطب بركليس وديموستين، مسرحيات سوفكليس وأربيدس، ملاحم هوميروس، وأغاني بنداروس، قصص هيرودوت، وتحليل توكيديدس. التاريخ عنده كان شيئاً واحداً: الروح البشرية في مظاهرها المتعددة. جاءني يوماً يطلب إلى رواية الفُرس لأيسكيلوس ليتخذها مصدراً من مصادر المعرفة الحقة. المعرفة الإنسانية
بمعركة سلامين.
درس أيوب التاريخ بمصر فكان الأول بين أقرانه؛ وأرسل أيوب في بعثة إلى باريس

ثماني سنوات حيث أخذ العلم عن جلوتز وجنبير وسينوبوس وأمثالهم ممن تتطأطأ لهم الهامات في العالم أجمع. ولم يكتف بتحصيل المعرفة من بطون الكتب وأفواه الأساتذة بل ذهب عاماً كاملاً إلى بلاد اليونان يقلب آثار الماضي المجيد ويستنطق الحجارة. وعاد أيوب إلى مصر بعد أن طوف بدلف وديلوس وفيليب وأولمبي وقد انصهرت المعرفة بنفسه فإذا بالتاريخ القديم عنده كذكريات حياته الخاصة يحدثك عنه في طلاقة وحرارة وقوة فيكسبك.

عجيب أن يموت أيوب! عجيب أن يجف هذا النبع قبل أن يتدفق! لقد حاضر أيوب بالجامعة ثلاث سنوات فقط. لكن سل زملاءه، سل تلاميذه وهم موضع أمله، سلهم يخبروك عن هذا العالم الثبت الذكي الفؤاد الفصيح اللسان. لقد أخصب أيوب نفوساً سيتذكره بالرحمة.

لم يتوان أيوب عن أداء رسالته. ولقد عقد العزم ونحن معه على أن نؤديها، تنكر الناس أو رضوا، ظلموا أو أنصفوا. ولقد أحس بالظلم تكوينا ناره فصمد له وشمر عن ساعده فترجم جزءاً هاماً من (تاريخ مصر) لهانوتو، ذلك الكتاب الضخم الذي وضعته جماعة من علماء فرنسا بتكليف من ملكنا العظيم فؤاد الأول رحمه، ورأت وزارة المعارف أن تنقله إلى لغتنا، فأدرك بعض رجالها أن أيوباً في طليعة من ينهضون بهذا العمل الجليل الشاق

وقالوا إن المرء لا يثبت علمه إلا إذا كان (دكتوراً)، وكان أيوب يعد رسالة أصيلة باللغة الفرنسية عن تاريخ طيبة اليونانية. وقسموا على أيوب فلم يرد أن ينتظر حتى تسكن الحرب، فيقدم رسالته إلى السوربون بل قدمها إلى جامعة فؤاد الأول، فإذا به يمنح أعلى درجة تعرفها جامعتنا. وهذا ليس موضع فخارنا بأيوب، وإنما نفخر بأنه استطاع أن يتمتع بصداقة أستاذنا جميعاً البروفسير جوجيه أستاذ التاريخ القديم بجامعات فرنسا سابقاً ومدير المعهد الفرنسي بالقاهرة في السنين الأخيرة، والذي كان من حظ جامعة فؤاد الأول أن تنتدبه للتدريس بها. لقد كان البروفسير جوجيه ولا يزال يعز أيوباً بل يحبه حب تقدير لعلمه وإخلاصه وتفتح نفسه، وكان يخصه دائماً بالثناء. وكانت محبة البروفسير لتلميذه

وزميله محبة فعالة لأنها قامت على أساس شريف: أساس العلم. فكنت تراه يعين أيوباً على كل أموره. صغيرها وكبيرها. عامها وخاصها. كم اهتزت نفسي لنبل هذا الأستاذ الكريم إذ حدثني أصدقاء القاهرة أن البروفسير جوجيه لم يتخل عن أيوب أثناء مرضه ولا نسيه بل تردد عليه في كل حين وأعانه على تلقي الموت بروح مطمئنة

وأحس أيوب أن ضعف المؤلفات العلمية من أكبر أسباب انحطاط التعليم ببلادنا لاشك فيه، فأخذ نفسه بوضع مؤلفين أحدهما عن النظم اليونانية والآخر عن النظم الرومانية. ولقد افترقنا منذ أشهر، فلم أدر إلى أي مرحلة وصل في كتابيه، ولكنني على ثقة من أنه قد خطا بهما خطوات واسعة، لأن أيوبا كان عقلاً نشيطاً، وكان إذا قال نفذ وإذا وعد صدق. ترى ما مصير هذه الكتب؟! إن كاتب هذه الأسطر يعتبرها نعمة من الله أن يستطيع ترتيب المواد وإتمام التفاصيل وإيضاح الغامض والإشراف على نشر تلك الأبحاث القيمة التي خلفها رفيق صباه؛ وكلي أمل أن الجامعة والوزارة ستقدران قيمة هذه الأشياء فترصد المال اللازم لإذاعتها بين الناس

يجب أن ننشر رسالة الدكتوراه لأيوب، والجزء الذي ترجمه أيوب من هانوتو، ومذكرات أيوب ومقالاته. هذه كنوز. وقد ذاق أيوب المر في حياته، فهل لنا أن نكفر عن ذلك بالإحسان إلى ذكراه؟

أما حزني على هذا الصديق فأعز من أن يحتويه لفظ. اللهم ارحمه!

أيها الصديق الراحل! سنجاهد كما جاهدت حتى نلحق بك. سنظل كما عهدتنا جنداً في خدمة الروح. إلى اللقاء.

(الإسكندرية)

محمد مندور

عيد الهجرة

للأستاذ علي محمود طه

غنِّ بالهجرة عاماً بعد عامِ ... وادْعُ للحقِّ وبشِّرْ بالسلامِ

وترسَّلْ يا قصيدي نغماً ... وتنقَّلْ بين موج وغمام

صوتُكَ الحقُّ فلا يأخذكَ ما ... في نواحي الأرض من بغْيٍ وذْام
كنْ بشير الحبِّ والنور إلي ... مُهَجٍ كلْمَي وأكبادٍ دوامي
هجرتْ أوطانها واغتربتْ ... في مِثَالِي من المبدأ سامي
أَنِفَتْ عيش الرقيق المُجتبَي ... وأبَتْ ذُلِّ الضمير المستضام
يا دُعاةَ الحقِّ هذي محنةٌ ... تُشعلُ الرُّوح بمسعور الضرام
هذه حرب حياة أو حمام ... وصراعُ الخير والشرِّ العقام
خاضَها الإسلامُ فرداً، وهدَى ... بيراعٍ، وتحدَّي بحسام
هجرةً كانت إلى الله وفي ... خطوها مولدُ أحداث جسام
أخطأ الشيطانُ مسراها، فيا ... ضَلَّةَ الشيطانِ في تلك الموامي
آبَ بالخيبةِ من غايتهِ ... وهو فوق الأرض ملعونُ المقام
صفحاتٌ من صراع خالدٍ ... ضِّمنتْ كلَّ فخارٍ ووَسام
لم تُتَحْ يوَماً لجَّبارٍ طغَى ... أو لباغٍ فاتك السيفِ عُرام
بل لداعٍ أعزلٍ في قومهِ ... مستباحَ الدَّمِ مهدورِ الذمام
زلزلَ العالَمَ من أقطاره ... بقُوّى الرُّوح على القوم الطغام
وبنى أوَّلَ دنيا حُرَّةٍ ... بَرِئَتْ من كلِّ ظلم وأثام
تسعُ الناسَ على ألوانهم ... لم تفرِّقْ بين آريٍ وسامي
حاطمَ الأصنامِ هل منكَ يدُ ... تَذَرمُ الظلمَ صعيداً من حُطام؟
لم تُطْقها حجراً أو خشباً ... ويُطاقُ اليومَ أصنامُ الأنام!
وعجيبٌ صُنْعُهم في زمنٍ ... أبصرَ الأعمى به والمتعامي
آدميُّون قَزَامى انتحلوا ... منطقَ الآلهةِ الشمِّ العظام
وتراهم مثلما تسمعهم ... صُوَرَ الوهم وأحلامَ النيام
بَشَّروا الناس بدنيا، ويحهم! ... أيُّ دُنيا من دَمارٍ وَحِمام؟
تسلُبُ العالم حُرَّياتهِ ... وترى الناسَ قطيعاً من سوام
قيل للحق، وما أعجبه ... في مجال حيوي ونظام!
قيل للخبز، فهل أطعمهم ... حلمَ الحرب سوى الموت الزؤام؟
أنت يا أيَّتُها الشمسُ أطلُعي ... من وراء الليل والنعيمِ الرُّكامِ
سَدِّدِي بالنار قوساً واصرعي ... ماردَ الشرِّ بمشبوب السهام
ضَلَّتَ الأرضُ بليلٍ داهمٍ ... يَحَذرُ النجمُ دُجَاهُ المترامي
دَمِيَتْ أعيُنُنا في جنحه ... واشتكت حتى خفافيشُ الظلام
يا شعوباً جَمَعَتْها أمةٌ ... بين مصرٍ وعراقٍ وشآم
وبطوناً من بقايا (طارقٍ) ... في الجبال الْجُرْدِ والْخُضر النوامي
صاغها الإسلامُ في إقليدهِ ... خرزاتٍ من فريد ونُؤّام
ما شدا شعري بها إلا هفَتْ ... بالقباب البيض أو حُمْر الخيام
كلُّ روحٍ بهدىً من حُبِّها ... كلُّ قلبٍ بشعاع من غرام
تذكر القُرْبَى وتستدني بها ... مشرقَ الآمال في مطلعِ عامِ
وتُرَجِّي عودةَ المجد الذي ... أعجز الباني وأعيا المتسامي
في بيوتٍ هاشميات البِنَي ... وعروش أموّيات الدِّعام
ونتاجٍ من نُهىً جَّبارةٍ ... وتراث من حضارات ضخام
قُلْ لها يا عامُ لا هُنْتِ ولا ... كنتِ إلا مهد أحرار كرام
ذاك مجد لم ينله أهله ... بالتمني والتغني والكلام
بل بالآم وصبري وضني ... ودموعٍ ودم حُرٍ سِجَام
قُلْ لها إنَّ الرحى دائرة ... والليالي بين كرٍ وصدام
فاستعدِّي لغدٍ إن غداً ... نُهْزَةُ السبَّاق في هذا الزحام
وأجمعي أمركِ لليوم الذي ... يحمل البشرى لعشَّاق السلام

علي محمود طه

إلى الأستاذ البشبيشي
للأب أنستاس ماري الكرملي
(تأخرت في البريد)

1 - تمهيد

أشكرك، يا سيدي الشكر الجزيل الصادق، على مطالعتك لمقالتي التي نشرتها لي (الرسالة)، بخصوص كتاب (الإمتاع والمؤانسة)، وأشكرك شكراً أعظم، على أنك تنازلت فأبديت بعض ملاحظات تتعلق بكلمتي تلك. والآن أستأذنك في إبداء ما عندي من النظرات. وأول كل شيء، أود أن أقول كلمة في تاريخ رسم الحروف في مصر، وهي:

2 - تاريخ رسم الحروف في ديار النيل

كان كتبة وادي النيل، قبل سنة 1275 للهجرة، يختلف بعضهم عن بعض، في رسم بعض الأحرف، ككتابة الأعلام المؤنثة المنتهية بالياء والهاء كأفريقية، أو بالياء والألف كبادوراية، أو بالألف القائمة كبخارا، أو بالألف الجالسة، وهي الألف المصورة بصورة الياء كبخاري أيضاً (على رأى من يكتبها بهذا الرسم)، وكالمهموز الآخر الوارد على وزن التفاعل كالتخاجؤ والتخاجئ، وكان أغلب اختلافهم في رسم الهمزة الواقعة في قلب الكلمة كرؤوس، وبدءوا، ومشؤوم

وسبب ذلك جميعه، أن كل واحد من أولئك الكتبة المصريين، اتخذ له إماماً نحوياً أو لغوياً، وحاول اقتفاء آثاره. ولما كان الأئمة الأقدمون كثيرين، ويختلف بعضهم عن بعض في هذه الأمور، اختلف أيضاً متتبعوهم ومقلدوهم في هذه الأزمان الأخيرة

أما بعد سنة 1275، فقد أخذ الاختلاف يزول شيئاً بعد شيء من بين ظهراني أبناء النيل، أو كاد يزول. وذلك لأن الشيخ العلامة نصر الهوريني وضع رسالة في ذلك العام (المطلع النصرية، للمطابع المصرية)، ووشاها بقواعد لم يتبع فيها إماماً واحداً من أئمة العربية ولغويها، بل جمع بينهم؛ لأن اختياره لهم لم يكن موفقاً ولا دائماً حسناً، فقد خالف أحياناً سيبويه والحريري والخفاجي وغيرهم من أولئك الأساطين العظام الأقدمين، بل خالف أيضاً ثقات المتأخرين كجماعة الألوسيين: شهاب الدين ونعمان ومحمود شكري، فجاء تأليفه كفلك

نوح، الذي كان يحوي زوجين من أطايب الحيوان وخبائثه، أي أن كتابه حوى أطايب القواعد وخبائثها. ومع ذلك راج كتابه أي رواج ولا سيما لأنه تولى تصحيح كثير من أسفار مشاهير الأقدمين، وكانت تطبع في مطبعة بولاق للحكومة المصرية، منذ أن تولى تصحيح ما يصدر فيها، حتى شاع رسم الهمزة في تلك المطبوعات على ما أراد لا على ما كان رسمها المؤلف الأصيل في كتابه

ومما زاد الطين بلة، أن جماعة ممن جاء بعده من المؤلفين أصدروا كتباً للمدارس، فأشاعوا وأذاعوا تلك القواعد التي سورها الشيخ الهوريني بأسوار من فولاذ، بل أقوى وأصلب، فكانت الطامة الكبرى ولا سيما جاء الشيخ العلامة حسين والي وكان ينتظر أن يصلح ما أفسده سلفهُ، لكنه تابعه في جل قواعده، ألم نقل في كلها، وسمى تأليفه (كتاب الإملاء) (كذا)، مع أنه كتاب الرسم، إذ الإملاء بهذا المعنى من كلام الترك واصطلاحهم. لا من كلام العرب، كما كتب لي بذلك المؤلف نفسه في كتاب أحفظه، وكان جواباً على ما بينته له. فسارت تلك القواعد سير النار في هشيم التين بين جميع المعلمين والمتعلمين، وهي لا تزال سائرة إلى هذا اليوم الذي نكتب فيه هذه الكلمة إلا أنه - والحمد لله - قام مناوئاً للعالمين أعظم لغوي فخالفهما، وهو الشيخ محمد بن أحمد بن محمود التركزي المشهور بابن التلاميد (بدال مهملة في الآخر)؛ الشنقيطي: المغربي الأصل، فإنه تولى طبع (المخصص) لابن سيده (بهاء محضة في الآخر)، وعلق عليه حواشي هي درر بل دراري، فزاد قدر المخصص في عيون الناس زيادة لا تضاهي في شيء، وقد رسم الهمزات في مواطنها، كما يجب أن ترسم على مذهب السادة الأئمة الفصحاء كسيبويه وابن الأنباري وابن جني والحريري والخفاجي وإضرابهم في هذا الأوان كأبناء الألوسي والزهاوي والرصافي

وقد اتفق للشنقيطي أن فند بعض الأحيان تفنيداً فلسفياً وبصريح العبارة، كلام الشيخ الهوريني وزيف أقواله، وبذات الوقت لم يوافق على رأي الشيخ العلامة حسين والي، ونحن نورد لك هنا نموذجاً مما قال، وقد عثرنا عليه نبهاً، وقد جاء ذلك في المخصص 8 :178

3 - الآئب لا الآيب

آئب، الصواب أن يكتب بالهمزة بعد المد على قاعدة إبدال عين فاعل، لمعتل فعله) همزة، وهي قاعدة مطردة لم يستثن منها حرف واحد بالإجماع. وقد عد في المغنى

من اللحن قول الفقهاء: (بايع) بالياء غير مهموز. ولا عبرة بما كتبه الشيخ نصر الهوريني في مطالعه، حيث ذكر في صحيفة 48 (من الطبعة الأولى وص 71 من الطبعة الثانية) حكم الهمزة المكسورة المصورة ياء، وقال هناك: (نعم، إذا كان قبلها ألف نحو آبل وآيس وآيب، تبدل ياء حقيقية بمقتضى القياس الصرفي في نظير ما قالوه في جمع ذؤابة على ذوائب، حيث لم يجمعوه على أصله ذائب. وقد ورد من حديث الصحيحين قوله صلى الله عليه وسلم: آيبون تائبون عابدون. ولم يروه أحد بالهمزة) انتهى لفظه بحروفه وهذا كله خطأ مخالف للقياس والرواية، فلا يجوز التعويل عليه. ونحو ذوائب في جمع ذؤابة مما شذ عن القياس، والشاذ لا يقاس عليه.
والدليل على صحة ما قلته من إثبات همزة آئب وتحقيقها قول النابغة:
تطاول حتى قلت ليس بمنقض ... وليس الذي يرعى النجوم بآئب
وقول ابن زيابة:
يا لهف زيابة للحرث الصابح فالغانم فالآئب
وقول تأبط شراً:
فأبت إلى فهم وما كدتُ آئباً
وقول الأخنس بن شهاب:
تطير على أعجاز حوش كأنها ... جهام هراق ماؤهُ فهو آئب
ونحو هذا كثير مما أجمعوا على روايته بالهمزة فقط. وكتبه محققه محمد محمود لطف الله به. آمين.
إلى (آمين) هو كلام الشيخ الشنقيطي العلامة الأكبر، وهو في الوقت نفسه يرد على الشيخ حسين والي. وقد ورد كلامة مثل كلام الشيخ الهوريني في ص192 من الطبعة الثانية من كتاب الإملاء فلا حاجة لنا إلى نقله على غير جدوى.
4 - شأم. شؤم. مشؤوم. يبدءوا. رؤوس
قال الحريري في درة الغوّاص، طبعة الجوائب في سنة 1299 في قسطنطينية في ص128
(فأما سؤول، ويؤوس، وشؤون، ومؤونة، وموؤودة، فالأحسن أن يكتبن بواوين، ومنهم من كتبها بواو واحد ولم يقل وترسم مفردة أو على نبرة إذا لم يكن فصل ما بعدها عما قبلها كما في مشئوم، وكما قال حضرة أستاذي المحترم محمود البشبيشي اهـ) ومثل كلام الحريري، قال الشيخ الأجل الآلوسي في كتابه (كشف الطرة من الغرَّة في ص468)
فيؤخذ من كلام الحريري والآلوسي أن الهمزة إذا وقعت في قلب الكلمة، فإن كانت متحركة، كتبت على حرف علة يجانس حركة ما قبلها كما في رؤوس. وعليه تكتب (يبدءوا) على الألف لهذا السبب نفسه لأن حركة الدال فتحة.
أما مشؤوم فقد قال في التاج في مادة (ش أم): وشؤم عليهم ككرم ويَمن. . . ورجل مشؤوم، بالهمزة على مفعول، وكذلك يَمُنَ عليهم فهو ميمون. ومشؤم، كمقول والجمع مشائيم، نادر وحكمة السلامة. . .) والذي ورد مطبوعاً (مشؤم) وهي - ولاشك في النادر - من الناشر لا من المؤلف، لأن هذا يقول: بالهمزة على مفعول، وفي مفعول خمسة أحرف، فإذا كتبناها (مشؤم) كانت الأحرف أربعة، فظهر الخطأ من الطابع أو من الناشر، ولم يكتبها أحد من العلماء الثقات الإثبات (مشؤم على وزن مفعُل بضم العين، لأن هذا الوزن نادر في كلامهم وليس مشؤم منه.
فتكون القاعدة: إذا وقعت الهمزة متحركة في الوسط وسكن ما قبلها كتبت على حرف علة يجانس حركتها. ولما كانت حركة مشؤوم ضمة كتبت على الواو، وهي غير واو مفعول الملازمة له
أما إذا كانت الهمزة الواقعة في الوسط ساكنة فترسم على حرف علة يجانس حركة ما قبلها. فتكتب شؤم على الواو، وشأم على الألف، وبئس على الياء. وهذا كل ما يقال في رسم الهمزة الواقعة في الوسط
وقد تكلم الشيخ نصر الهوريني على الهمزة في كتابه المطالع النصرية في 44 صفحة، وبعد أن يتم القارئ الوقوف عليها، يقول في نفسه: هل عرفت كيفية رسم الهمزة؟ أما

الشيخ أحمد فارس الشدياق، فقد تكلم عليها وعلى مواطنها من الكلم في كتابه (غنية الطالب) المطبوع في قسطنطينية سنة 1289 في 13 سطراً لا غير. ونحن ننقل هنا نصه ليطلع عليه من لا يملك الكتاب. وهذه هي وقد جاءت في آخر ص31 وبلء 32:
إن كانت الهمزة في الابتداء كتبت بصورة الألف دائماً نحو أنصر وأضرب وأكرم. وإن) كانت متوسطة ساكنة كتبت بحرف يجانس حركة ما قبلها، نحو: يأس وبؤس وبئس. وإن كانت متحركة وما قبلها ساكن نحو: يسأل ويلؤم وييئس، لغة في ييأس بمعنى يقنط، أو كانت متحركة وما قبلها متحرك نحو سأل ولؤم وبئس
وإذا كانت متطرفة، فإن كان ما قبلها متحركاً كتبت بحرف حركته نحو: قرأ وقرئ وقمؤ. وإلا فتكتب من دون حرف، نحو وبلء وجزء
وإذا وقعت همزتان ثانيتهما ساكنة قلبت ألفاً لينة وكتبتا بصورة المد نحو: آمن أصله أأمن على وزن أفعل. وأهل الغرب يكتبون الهمزة منقطعة وبعدها ألف نحو ءامن. وكذلك إذا وقع بعد الهمزة ألف نحو: المآكل جمع مأكل
وإذا اجتمع همزتان متحركتان، جاز لك أن تفصل بينهما بألف نحو آأنت أم أمْ سالم. أما ماضي مهموز اللام المثنى فيبقى كتبهُ بألفين نحو قرأا
وللهمزة أحكام كثيرة قد أختلف فيها أهل الرسم؛ ولو أنها رسمت من الأصل بصورة معلومة خاصة بها، لما نشأ من هذا الخلاف) انتهى كلام الشدياق
والسوريون المعاصرون، والعراقيون واللبنانيون جروا ويجرون على هذه القواعد المذكورة هنا، وهي أيضاً قواعد الحريري والخفاجي والآلوسي والشدياق، ولا يخالفونهم في شيء
وإذا كان ثم من يجاري كتاب وادي النيل، فهو لأنه تعلم في مدارس أبناء مصر من المصريين، وطالع أشعارهم فخالف بذلك أهالي وطنه وعلماءه، من عهد غير بعيد والآن، وقد بسطنا كل ما يهم القارئ في هذا الموضوع فهل يستطيع الأستاذ البشبيشي أو غيره من العلماء أن يأتي لنا بنص صريح يرتقي إلى أربعمائة سنة أو تدوينها وفيه نلغي رسم الهمزة وحدها في حشو الكلمة في أي حال من الأحوال، ويكون النص لعالم ثبت ثقة يعتمد عليه. فإننا نتحداهم حاق التحدي!
يا سيدي الأستاذ البشبيشي، إننا نعلم العلم اليقين، أن أسلافنا العرب كانوا فلاسفة إجلاء في سليقتهم، حتى في قواعدهم الصرفية، والنحوية واللغوية، فهي تتدفق منطقاً، وفلسفة، وحكمة؛ ونظن أن الذي حملهم على أن يرسموا الهمزة الواقعة في قلب الكلمة على حرف، هو أنهم شبهوها بحشو البطن، أو بقلب الإنسان. فكما أن الأحشاء لا تكون وحدها، بل تقع بين الصدر والطرفين، أي الرجلين، كذلك الهمزة لا تكون وحدها، بل تقع على ما يسندها بصدرها وطرفها
أفبعد هذه الفلسفة أو الحكمة العميقة، والواضحة لكل ذي عينين نيرتين من يدم أحكام العربية وقواعدها؟ - فإذا كان هناك من يفعل ذلك، فهو من الشعوبية وأعدى أعداء العرب كهتلر ومصوليني!
ونظن أن في هذا القدر في هذا الموضوع، مجزأة، بل مكرهة لكل قارئ. فالعفو يا سادتي الكرام، والمغفرة من شيم العرب الفخام!
(البقية في العدد القادم)
الأب أنستاس ماري الكرملي
من أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية
المصريون المحدثون
شمائلهم وعاداتهم
في النصف الأول من القرن التاسع عشر
تأليف المستشرق الإنجليزي أدورد وليم لين
للأستاذ عدلي طاهر نور
تابع الفصل الرابع عشر - الصناعة
ليتبين القارئ قيمة النقود في القاهرة أثناء السنوات الأخيرة أقدم فيما يلي قائمة أسعار بعض الأطعمة العادية أثناء زيارتي الثانية. ومنذ أن أصبحت مصر مرة ثانية طريق الهند ومجمع السائحين الذين زاد عددهم على السنوات السابقة، زادت أسعار

السلع المختلفة زيادة عظيمة، وتقل الأسعار في مدن الأرياف وقراها عنها في العاصمة، فيكون سعر اللحم والطيور والحمام نصف الأسعار المذكورة هنا تقريباً، وسعر القمح والخبز يكون ثلثها أو نصفها:

فضة قرش

القمح: الأردب من 50 إلى. . 63

الأرز: (حوالي. . 240

الضأن: الرطل. . 1

لحم البقر: (35 . .

الطيور: الواحد من قرش وعشرة فضة إلى20 1

الحمام: الزوج (((((20 1

البيض: الثلاث بيضات5 . .

الزبد: الرطل. . 2

السمن: (من قرشين إلى 10 2

البن: (من ستة قروش إلى. . 7

التبغ الجبلي: الأقة من 15 قرشاً إلى. . 18

السوري: من خمسة قروش إلى. . 10)

السكر المصري المخروط: الرطل. . 2

السكر الأوربي: (10 2

العنب في موسمه: (10 . .

العنب المتأخر: الرطل من 20 فضة إلى 30 . .

البسكويت: القنطار. . 160

الماء: القربة من 10 فضة إلى 20 . .

خشب الوقود: حمل الحمار. . 11

الفحم: الأقة من 20 فضة إلى 30 . .

الصابون: الرطل30 1

الشمع المصنوع من الشحم: الأقة20 8

الشمع الجيد: (. . 25

وفي القاهرة أبنية عديدة تسمى الواحدة منها (وكالة) تخصص لإيواء التجار وخزن بضائعهم. والوكالة بناء يحيط بساحة مربعة أو مستطيلة، وتتكون طبقتها السفلى من مخازن مقببة للبضائع تواجه الساحة، وتستعمل أحياناً حوانيت. ويعلوا هذه المخازن مساكن يدخل إليها من رواق يمتد على طول جوانب الساحة الأربعة. وقد يعلو هذه المخازن بدلاً من المساكن مخازن أخرى. وتستعمل الغرف المعدة للسكنى في أكثر الوكالات مخازن ولا يكون للوكالة غير باب عام واحد يقفل ليلاً ويحرسه بواب، وفي القاهرة من هذا النوع حوالي مائتي وكالة. ويقع ثلاثة أرباعها في نطاق المدينة الأصلية ذكرت قبلاً في مقدمة هذا الكتاب أن شوارع القاهرة الكبرى يقوم على جانبيها صفان من الدكاكين لا تتصل بالبناء الأعلى (شكل رقم 55) ويلاحظ ذلك في أكثر الشوارع الفرعية أيضاً. وتخصص الدكاكين عادة في الشارع الواحد بعضه أو كله لتجارة واحدة فيسمى السواق باسم هذه التجارة أو بأسم المسجد المقام هناك. ويطلقون على أقسام الشارع الرئيسي في هذه المدينة: (سوق النحاسين) أو (النحاسين) فقط لأنهم يسقطون عادة لفظة (سوق) و (الجوهرية) و (الخردجية) و (الغورية) وهذا القسم الأخير بأسم المسجد المقام فيه؛ وهذه هي بعض أسواق المدينة المهمة. ويطلقون على السوق التركي الرئيسي: (خان الخليلي). ويغطون بعض الأسواق بحصر أو ألواح تحملها عوارض تمتد في الشارع أعلى الدكاكين قليلاً أو فوق المنازل

يتكون الدكان من كوة مربعة الشكل، أو حجرة صغيرة (شكل 56) ارتفاعها ست أقدام أو سبع تقريباً، وعرضها بين ثلاث أقدام وأربع. وقد يتألف الدكان من حجرتين تتقدم الواحدة الأخرى، وتستعمل الأخيرة مخزناً ويقام أمام الدكان مصطبة بالحجر أو الآجر يستوي سطحها بأرضية الدكان. وترتفع المصطبة عادة حوالي قدمين ونصف أو ثلاث أقدام، ويكون عرضها كارتفاعها. وتجهز واجهة الدكان بمصاريع ثلاثة سهلة الطي

يعلو بعضها بعضاً، فيثني أعلاها إلى فوق ويطوي الآخران إلى أسفل فوق المصطبة، فتكون مقعداً مستوياً يفرش بالحصر أو بالبسط وبالوسائد أحياناً. وتستبدل بعض الدكاكين بالمصاريع السابق ذكرها أبواب منثنية. ويجلس التاجر غالباً على المصطبة ما لم يضطر إلى الانسحاب قليلاً داخل الدكان ليخلي المكان لمن يصعد إليه من حرفائه الذين يخلعون أحذيتهم قبل أن يطئوا الحصيرة أو البساط بأقدامهم. ويقدم التاجر الشبك إلى حرفائه الدائمين أو من يشتري بضاعة كثيرة إلا إذا كان هؤلاء يحملون شبكهم. ثم يرسل إلى أقرب مقهى في طلب القهوة التي تقدم في فناجين صغيرة من الخزف الصيني داخل ظروف من النحاس الأحمر. ولا يستطيع أكثر من شخصين أن يجلسوا براحة على مصطبة الدكان ما لم تكن هذه أوسع من المعتاد. غير أن بعض المصاطب تمتد إلى ثلاث أقدام أو أربع، فيكون عرض الدكان حينئذ خمس أقدام أو ستا، فيفسح المجال لأربعة أشخاص أو أكثر يجلسون الجلسة الشرقية. ويقيم التاجر صلاته على مصطبة على مرأى من المارة. وقد يترك التاجر دكانه وقتاً فيطلب من جاره أن يخفره له أو يعلق شبكة على بابه. ويندر أن يفكر التاجر في ضرورة إغلاق دكانه قبل الانصراف إلى منزله ليلاً أو الذهاب إلى المسجد لصلاة الجمعة. أما الغرف التي تعلو الدكاكين فقد وصفتها في مقدمة الكتاب

(يتبع)

عدلي طاهر نور

. . .!دفنتها بيدي

للشاعر التركي عبد الحق حامد بك

أيتها العيون التي أمست ثقوباً! أيتها العظام الدائرة النخرة، انظري. . . انظري إلى جلال هذا التابوت الجميل المزهر. . . انظري ثم ارقدي بسكون حتى البعث. . . تحت لحافٍ من تراب في ظلمة القبر، وعدي هذا اليوم قيامةً صغرى!

الناس والدواب والطيور والأشجار والأحجار. . . كلها وشيكة البكاء من فرط الألم، والسحب القاتمة في حزنها العميق، تبكي تارة، وأخرى تتئر النظر الواله إلي في سكون موحش. إنها جميعاً تشاطرني لواعج الحزن بصمتٍ ناطقٍ مشوب بالذهول. . .!

يا ناشداً العبرة، كفكف العبر، وانظر في هذه الحفرة، تجد ثم جمال الوجود منظوماً في قصيدٍ من الحسن، تجده ممثلاً في صاحبة التابوت. . . لقد كانت أجمل من السماء الحالية بأملاكها. كانت أحلى من رحيق الأزاهر ورضابها، كانت أجمل من الطفولة في براءتها ونضارتها، ومن الملائكة في علائها وجلالها. كانت أجمل من الحور الكاسية بنور الإله في جنات النعيم.

يا لشعرها! كان أجمل من الشمس في شروقها، وهي ترسل شعاعها اللألاء من الورود والرياحين

يا لعيونها! كانت مرآة مجلوة للخيال الحالم.

. . .يا لنظراتها الوادعة! كانت ينبوعاً للرحمة يتدفق منه ماء سائغ سلسبيل ولكنها الآن كأمواج من جمد!

وبستان دلالها؟ لقد كان يموج بحلال من السحر والفتنة، ولكنه ذوي وتغشاه سكون رهيب ساخر. . .!

. . .كان وجهها المزدان بهالة شعرها أجمل من البدر يتلمس السفور من فرج السحاب والأحزان التي تراءت على وجهها قبل أن تزهف نفسها إلى الموت، لكالشمس ساعة رؤيتنا لها تحتضر في غروبها وراء أثباج من الموج. . .

!. . . . . .كفى

. . .أرى القلم يئن من لذع الألم التأثر، وأحس المداد يبكيها وهو متشح بثوب الحداد مهلاً أيها القبر، هلا صنعتها بين أحضانك وأطبقت إطباق البحر المظلم على لؤلؤة بين أصدافه؟

. . .وأنت يا أحجار القبر ويا أتربته، هل تَرَين الناس عليكٍ بُكاة كما بكوها؟

. . .ترى لمن كانت آمالُ مندثرة بين القبور، وآلام جمدت على صفحات الرموس

. . .حدثني بربك يا قبر، هل بكوا عليك بكاءهم عليها حين الممات؟

ألا خبروني كيف انقلبَ البكاء الواله إلى سُكون وصمت، ثم إلى قبر مهجور، فأحجار بعثرها البلى وسط القبور. . . كم مكثت شريداً أيها القبر، يتراوح عليك صباح ومساء،

بين هديل للحمام ونعيب للبوم؟!
احفظ العهد بإحسان ورفق
ألا فاشهدوا يا سكان القبور. . .
(حلوان)
ترجمة
محمد أمين نور الدين
المحامي
رسالة الشعر
يا ريح الشتاء!
(إلى الصديق الدكتور المبارك أهدي هذه العاصفة)
للأستاذ محمود الخفيف
اِعْصِفِي يَا رِيحَ الَّشتاءِ اعْصفِي ... مِلْء سَمْعِي وَنَاضِري
اِصْفِري يَا ريحُ اصْفِري واعْنُفي ... مَثِّلي مَا بخَاطِرِي
صَرْصِري، ثم صَرْصِري وَصفِي ... بَيْنَ جَنْبَيَّ ثوَرَة الثَّائِرِ!
اِعْصِفِي يَا رِيحَ لاَ تَسْكُنُي ... أرعِشي كلَّ جَانِب
اِغضَبِي يَا رِيحَ اِغضَبِي إنَّني ... عَاشِقٌ كلَّ غَاضِبِ
أمعنِي. . . هيه. . . أمْعنِي، أمْعنِي ... عَلِّميني مِنْ لَحِنِك الصَّاخِبِ
عَفِّرِي، عَفِّرِي هنا، عَفِّرِي ... وَعَلى الْبُعد عَفِّرِي
غَبِّرِي الَجْوَّ غَبِّرِي ... رَاقَ لي أنْ تُغَبِّري
كلَّ صفْوٍ ذَكَرْتُهُ عَكِّرِي ... كلَّ ضَعْفٍ أوْدِي بِهِ أقْبِرِي
يَا رِيَاح الشِّتاءِ لاَ تَهْدَئِي ... إيهِ يَا رِيحُ دَمْدِمِي
عَجِّلي بالصَّفِير لاَ تُبْطِئِي ... يَا لهُ مِنْ مُعَلمِ!
الأَهَازِيجُ عِفْتُهَا فَادْرَإِي ... سأماً بَاتَ طُولهُ مُسْقِمي
أقْبِلي يَا رِيَاحَ ذَارِيةً ... أينمَا سِرْتِ عَاصِفَةْ
أنسُ رُوحِي إنْ لْحتِ آتِيَةً ... أنْ أرَى الأَرَضَ رَاجِفةْ
ليتَ رُوحاً لِي مِنْكِ عَاتِية ... لَيْتَ صَوتاً كالرَّعْدَةِ القَاصِفةْ
زَلْزِلي كلَّ سَاكِنٍ نَاعسٍ ... وَاحْطِمِي كلَّ جَامِد
واكْنُسي كلَّ يَابسٍ دَارِسٍ ... عَاقِرِ العُودِ فَاسِدِ
واسْلُكي بَعْد مَسْلكَ الغَارِسِ ... لاَ يُبَالي أيَّ امرئ حَاصِدِ
دَوِّخي الدَّوْحَ دَوِّخي وَابْعَثي ... بالأعاصِيرِ عَاتِيَةْ
يَتَراقَصْنَ خِفيةً فاعبَثِي ... بِعَمَاليقَ راسِيةْ
حَدِّثِيني فِما أرَى حَدِّثي ... عنْ مَعَانٍ في مُهْجتي ثَاوِيةْ
كلَّ لاهٍ أوْ مُبْصرٍ ذكَّرى ... كمْ لَهُ فِيكِ تذْكِرَةْ
سَيْطِري لاَ تُغَادري سَيْطري ... لكِ روَحٌ مُسَيْطرةْ
ألْهَمَتني في عَصْفِها أسْطُرِي ... غَيْر مَعْنًى أمْسكْتُ أنْ أذْكُرَهْ
الخفيف
تحية (الرسالة)
للأديب عمر حافظ شريف
أشاهد من نور السنا ما أشاهدُ ... فأسأل خلي ما عسى أنت واجد
أذاك شعاع للرسالة أم ترى ... بدا للورى صرح من النور خالد
تمر بها الأيام يسمو مكانها ... وتسعى إلى غاياتها وتجاهد
كحكم ابن يعقوب لها النصر مرشد ... تطالعها الأعوام عشرٌ وواحد
كواكب سعد حالفتها وأقبلت ... تناصرها والكل للنور ساجد
أضاءت محاريب البيان بسحرها ... فحازت مكاناً تبتغيه الفراقد
هي السحر والنبراس تبدي لنا الهدى ... بآياتها للقلب والعقل قائد
فسيري يواليك الكمال إلى العلا ... لك الشعر وشيٌ والمعاني قلائد
عمر حافظ شريف
البريد الأدبي
التوأمان

قيض لي أن أزور توأمين ذكرين في العشرين من العمر متماثلين من جهة الصورة والأخلاق والوجدان والذكاء.
ومن طريف ما يذكر أن الأم تعرف أول من رأى منهما النور، وقد أخبرتني أن ولادتهما كانت يسيرة وأن الفرق بين عمريهما خمس دقائق.
مات أبوهما منذ بضع سنوات وقامت بأودهما أختهما التي تكبرهما بنحو خمس سنوات. وتحدب أمهما عليهما وتعاملهما على قدم المساواة. وقد علمت أنهما نشآ في بيئة واحدة وعاشا في ظل ظروف واحدة. وما زالا يتعلمان حرفة واحدة هي البرادة.
والعجيب أنهما يخطئان في نفس المسائل التي يطلب إليهما حلها. وقد اتفق أن رسب أحدهما في الامتحان لمرضه بينما نجح الآخر، ولعدم معرفة تميز أحدهما من الآخر في المدرسة أعيد امتحان الناجح منهما على اعتبار أنه الراسب فنجح للمرة الثانية في نفس السنة.
قالت لي أمهما: إنهما عندما كانا رضيعين كانا يستيقضان في نفس الوقت تقريباً أثناء الليل فترضعهما معاً.
ومما ذكرته لي أختهما: أن أحدهما حضر على عجل إلى المنزل فلم يجد أخاه فترك المنزل حالاً بحثاً عن أخيه، وفي هذه الأثناء حضر أخوه باحثاً عنه فلم يجده فترك المنزل على الفور، وتكرر هذا الأمر مرات عديدة إذ لم يملك أحدهما الصبر لينتظر أخاه ريثما يحضر.
وعلى الرغم من أن هذين التوأمين يحب أحدهما الآخر حباً جماً، فقد انتابت أحدهما نوبة هستيرية دلت على ما يخالج عقله الباطن من الغيرة الشديدة من أخيه. وفي هذه النوبة فقد قوة معرفته لأفراد العائلة، ولكن أول عمل قام به أثناء هذه النوبة ضربه أخاه ضرباً مبرحاً وهو لا يدري أنه أخوه، ولكن عقله الباطن كان بذلك بصيراً، على أن عقل أخيه الباطن لم يكن خالياً من هذه العقدة فكان لا بد لهذه العقدة من أن تعبر عن نفسها على الصورة التي عبرت بها عقدة الأخ المريض.
وقد أمكن بالتحليل النفسي شفاء المريض وإنقاذ الأخ من الاستسلام لنوبة هستيرية مماثلة.
محمد حسني ولاية
طبيب بصحة بلدية الإسكندرية
قصيدة حافظ النونية
قال صديقنا الدكتور زكي مبارك في العدد السابق من الرسالة: (ونحن في مقام . . . التأريخ وهو مقام يوجب الصدق. فلينظر المتسابقون في ص87 بالجزء الثاني من ديوان حافظ، ليروا أن قصيدته التي نظمها عن مظاهرة السيدات في سنة 1919 لم تنشر إلا في سنة 1929، ومعنى ذلك أنها كتمت نحو عشر سنوات) ثم قال مخاطباً الطلبة: (أتريدون الحق؟ لقد نسبت تلك القصيدة في ذلك الوقت إلى جماعة من الشعراء منهم الأستاذ محمد الهراوي، ولم ير حافظ أن يصحح النسب لئلا يقال أو يقال!)
والحقيقة التي أعرفها عن هذه القصيدة بالذات هي ما يأتي:
كنت في مجلس من مجالس السياسة والأدب، ولم تكن المجالس على أنواعها في ذلك العام السعيد سوى مجالس للثورة والحياة، وإذا بالمرحوم سليم سركيس مقبل علينا بوجه مشرق ولهفة بادية المعاني وقال: أخبار اليوم هي أخبار حافظ، ومد يده إلى جيبه فأخرج منها ورقات وأخذ يتلو علينا القصيدة النووية التي نحن في صددها، ومطلعها:
خرج الغواني يحتججن ... ورحت أرقب جمعهن
نسخت القصيدة، وهي بخط المرحوم حافظ إبراهيم وبعثت بها إلى الصحف السورية التي كنت أراسلها آنذاك، وقد نشرها المرحوم سركيس بمجلته المعروفة باسمه فلا يعقل والحالة كما ذكرت أن تنسب تلك القصيدة إلى غير ناظمها، وقد سمعته ينشدها في أحد المجالس، ولا أن يقال إنها كتمت عشر سنوات.
حبيب الزحلاوي
إجابة

الكيك والكيكة في اللسان العربي مثل البيض والبيضة وزناً ومعنىً، ولهذا أرى أن منه المأكول المعروف الذي يقال له (كيك)
طلاء - بالضم - الزكام
(وحيد)
أصدقاء. . .!
قيل إنني كتبت كلمة في مجلة الثقافة أحد بها من استطراد الباحثين في (لغوية) شغلت أذهان رهط من فضلاء الباحثين عدة أسابيع، متعلياً بهم أن يجرهم التحمس لآرائهم في هذه الهاجسة إلى المنابذة. وقيل إن الكلمة كانت غذاء متخماً لشهوة الخلاف، حين التهمها الاستغلال الصحفي (لقاف الثقافة) الأستاذ محمد سعيد العريان، فخدش أمانة القلم فيها. . . وعرضها بالطريقة التي كان من آثارها أن يرمد شعور الصداقة بيني وبين صديقي الكاتب البليغ الأستاذ (محمود شاكر) حتى خدزته شائعة الألم؛ فقال في كلمته بالعدد الماضي من الرسالة (عقل المرء مخبوء تحت لسانه) وأورد بيتاً من الشعر خانه ترويض غضبه به. . . وما لي بهذا شأن فهو انتقال من موضوع واضح إلى غبار مجرد لا أجيد التطارح به ولا سيما مع من له في رأيي ونفسي ما لمحمود شاكر
وأنا أقول إني عند رأيي في فكرة الموضوع، على غير قصد شائك لحضرات الأدباء الذين ورد ذكرهم. أما صداقتي بالأستاذ شاكر فهي اعتي من أن يوهنها نمل الصحافة، أو يسكر بصدعها (قاف الثقافة). . .!
محمود إسماعيل
إلى الأستاذ عبد المتعال الصعيدي
تعجبني أفكارك يا سيدي، ويسرني منهاجك المستقيم في البحث والنقاش؛ ولكني لم أستسغ أن تتهمني في كلمتك الأخيرة على غير أساس، بتهمة وجهتها إليك على أساس. . .
كنت قد قلتُ إنك تشايع بعض المستشرقين القائلين بنزول القرآن بمعانيه دون ألفاظه، حين تزعم أن الرسول عليه الصلوات كان ممن يبدلون لفظاً بلفظ آخر يغايره في معناه، لمجرد التشابه بين حروف اللفظيين والتباسهما على القارئ بطريق ما. وقد جعلت هذا دون غيره أساساً لتهمتي؛ ولم أضف إليه وقتذاك ما زعمته أيضاً في كلمتك من أن هذا التبديل كان من حق كل مسلم عربي دون رجوع فيه إلى الرسول حين (يكون بعيداً عنه فيتعذر رجوعه إليه. . . ثقة بملكة العربي في ذلك الوقت)!
وهذا نص تعبيرٍ لك لم أرد أن ألح عليك بالإشارة إليه ثقةً مني بأن صدوره لم يكن إلا نتيجة سرعة تحريرك، وسبق قلمك لمجرى تفكيرك، ولكنك تأبى يا سيدي وقد تبرأت من تهمة الأخذ برأي أولئك المستشرقين - في غير حجاج مقنع - إلا أن تعود فتنسبها إلي، لأني كما تزعم (حملت كل مالا يدخل من القراءات في باب اختلاف اللهجات على التصحيف، ولم أفرق في ذلك بين قراءات شاذة ومتواترة). وأنت تعرف أني لم أزد في كلامي عن هذا التصحيف على ما أورده السيوطي؛ بل لقد أتيت بما يشكك في قوله حين ذكرت أن صاحب الكشاف مع أكثر المفسرين يعتبرون هذا النوع من الكلام قراءة صحيحة لا تصحيفاً
فما كان أجراك يا سيدي وقد نفيت التهمة عن نفسك ألا تعود فتلصقها بمن لوح إليك بها في تأدب مع إقناع، لأن من دأب الفضلاء وأنت أحدهم، أن يميطوا الأذى عن طريقهم - إذا شاءوا - لا ليطرحوه مرة أخرى في طريق الناس.
ولك أزكى تحياتي واحترامي
(جرجا)
محمود عزت عرفة
تاريخ وفاة ياقوت
أورد الأستاذ البحاث محمود عزت عرفة في العدد 494 من مجلة (الرسالة) شبهة في تاريخ وفاة ياقوت الرومي الحموي. والذي يبدو أن وفاته كانت سنة 626 كما أجمع عليه المترجمون له؛ وأما الجملة المقحمة في النسخ المطبوعة من معجمه أثناء كلامه عن الحسن بن الباقلاني، وهي (لقيته ببغداد سنة 637. . .) فالراجح أنها كانت مزيدة

في الهامش من صاحب النسخة الأصلية المخطوطة، أو من أحد المطالعين فيها، ثم أدرجها النساخ في الكتاب، كما يقع كذلك كثيراً ولا سيما في كتب التاريخ، فترى نظائره في تاريخ بغداد للخطيب ووفيات الأعيان وفوات الوفيات وحسن المحاضرة وغيرها، فإن فيها وفيات أناس ماتوا بعد المؤلف. وقد أصاب الأستاذ عرفة في الإشارة إلى ما يؤيد أن يكون ذلك مقحماً في المعجم بعد وفاة ياقوت

فنرجو الدكتور أحمد فريد بك رفاعي ناشر المعجم أن يكون محققاً فيما ينشره من آثار السلف.

محمد غسان

غلطة تاريخية

قال الدكتور زكي مبارك في مقالته عن الشوقيات أثناء الكلام عن قصيدة (النيل) ما نصه:

ولم يفته أن ينص على عدالة عمرو بن العاص الذي ضرب ابنه بالسوط حين سمع . . . أنه أهان أحد الأقباط وقال في ذلك كلمته التاريخية: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً

فعزا هذا الضرب إلى عمرو بن العاص مع أن الضارب هو مصري ضرب ابن عمرو بأمر الخليفة عمر، وأسند الكلمة التاريخية إليه مع أن المعروف أن القائل هو عمر الفاروق. أنظر الصفحة الثانية من الجزء الثاني من كتاب (حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة)

وهبي الحاج إسماعيل حقي

مجلة الانتصار

استقبلت زميلتنا (الأنصار) عامها الهجري الثالث فصدرت في أول المحرم حافلة بالأبحاث القيمة والموضوعات الجديدة، متقدمة إلى القراء بأسلوبها الخاص في خدمة الفكرة العربية والثقافة الإسلامية، معتمدة في تناول الثقافة العصرية على أساس البحث العلمي. والعدد الجديد الذي قرأناه من الأنصار يدل على تقدمها خطوة واسعة في سبيل فكرتها فنتمنى لها النجاح والتوفيق.

المفضليات

تناولت كتاب المفضليات للرضى الذي خرج أخيراً للناس بتحقيق وشرح الأستاذين الشيخ أحمد محمد شاكر والسيد عبد السلام محمد هارون، وكنت أظن أني سأجده لا يمتاز من طبعته الأولى إلا ببعض شروح وتحقيقات، ولن ما كدت أقرأه فاتحته حتى رأيتني أمام عمل جليل يستأهل النظر فيه، ويستوجب الإقبال عليه، ذلك أني وجدت الشارحين قد صحت نيتهما على نشر نفائس الشعر العربي في العصور الأولى وما بعدها، وذلك لأن هذا الشعر (ديوان العرب وترجمان أفكارهم وعنوان مفاخرهم ورافع ألوية عظمتهم، ثم هو المرآة الصادقة لحياتهم) ورأيا أن يبدأ بنشر كتب الأئمة المتقدمين التي اختاروا فيها عيون الشعر ومحاسنه

فهذه المفضليات التي ظهرت اليوم إن هي إلا حلقة من تلك السلسلة الذهبية التي سينشرونها من نفيس الشعر؛ وهذا ولا ريب عمل جليل طالما تمنيناه وعدنا إليه. ولو أنك قرأت هذا الكتاب لوجدت فيه بحثاً قيماً عن أصل المفضليات وتاريخها لا تجد مثله في كتاب آخر

ومما انفرد به شرح هذا الكتاب أنه قد اشتمل على أمرين لم نجدهما في شروح كتب الأدب قبل اليوم أولهما (التخريج) وثانيهما (جو القصيدة) وهذان الأمران قد جاءا من طريقة المحدثين إذ التخريج عندهم هو بيان الكتب التي تخرج الحديث الديني يبين ما فيه من معنى وما كان له من سبب

ولا نطل الكلام عن هذا الشرح وما فيه من الفوائد الجزيلة في اللغة والصرف والنحو والبلاغة وما إلى ذلك، وبحسبنا أن نقول إنه بمثل هذا الشرح الذي أخذ نصيبه من التحميص والتحقيق والاستيعاب يجب أن ينشر تراثنا القديم، حتى يؤدي في هذا العصر ما كان يؤديه شيوخ الرواية من قبل بعد أن أصبحنا ولا سبيل لأخذ اللغة وآدابها إلا من الكتب

وأنا نرجو أن يوفق الله الشارحين في عملهما حتى يخرجاه في أجمل صورة وأكمل وجه.

(المنصورة)

محمود أبو ريه

العدد 498 - بتاريخ: 18 - 01 - 1943

دفاع عن البلاغ - 5

آلة البلاغة

آفة الفن الكتابي أن يتعاطاه من لم يتهيأ له بطبعه ولم يستعن عليه بأداته. وأكثر المزاولين اليوم لصناعة القلم متطفلون عليها، أغراهم بها رخص المداد وسهولة النشر وإغضاء النقد، فأقبلوا يتملقون بها الشهرة، أو يُزَجون بها الفراغ، أو يطلبون من ورائها العيش، وكل جَهازهم لها ثقافة ضحْلة وقريحة مَحْلة ومحاكاة رقيعة؛ ومن هنا شاع المبتذل وندر الحر، ونفق الرخيص وكسد الغالي، وكثر الكُتّاب وقلت الكتابة وادعاء الكتابة داء لا ينتشر إلى حين تضعف السلائق وتفسد الأذواق وتطغى العامية، فيصبح التفيهق علماً، والشعوذة فنّاً، والثرثرة بلاغة، واللحن تجديداً، والركاكة رقة.

وفي مثل هذه الحال قال صاحب المثل السائر: (ومن أعجب الأشياء أني لا أرى إلا طامعاً في هذا الفن مدعياً له على خلوه من تحصيل آلاته وأسبابه. ولا أرى أحداً يطمع في فن من الفنون غيره ولا يدعيه. هذا وهو بحر لا ساحل له، يحتاج صاحبه إلى تحصيل علوم كثيرة حتى ينتهي إليه ويحتوي عليه. فسبحان الله! هل يدعي بعض هؤلاء أنه فقيه أو طبيب أو حاسب أو غير ذلك من غير أن يحصل آلات ذلك ويتقن معرفتها؟ فإذا كان العلم الواحد من هذه العلوم الذي يمكن تحصيله في سنة أو سنتين من الزمان لا يدعيه أحد من هؤلاء، فكيف يجيء إلى فن الكتابة وهو ما لا تحصل معرفته إلا في سنين كثيرة فيدعيه وهو جاهل؟)

وعجبُ ابن الأثير لن ينقضي حتى يعتدل الزمان بأهل العربية فتنضج الحدود، وتستقيم الموازين، وتصح الأقيسة. فلا يتدخل أعجمي في نسب آل البيت، ولا يجري حمارٌ في حَلبة الكميت!

أما بعد فإن آلة البلاغة الطبع الموهوب والعلم المكتسب. والمراد بالطبع ملّكات النفس الأربع التي لابد من وجودها في البليغ، ولا حيلة في إيجادها لغير الخالق. وهي الذهن الثاقب، والخيال الخصب، والعاطفة القوية، والأذن الموسيقية. فإن كنت على يقين جازم من وجود هذه الملكات في نفسك فامض على ضوئها في طلب هذا الفن فإنك لا محالة واصل.

وسألقي عليك بعض الأسئلة لتعلم من أجوبتك عنها إن كنت موهوباً أو غير موهوب:

هل يتأثر خيالك في يسر ويتحرك فؤادك في سهولة، ثم يكون بين الخيال والقلب تجاوب سريع؟ هل تجد لأذنك الحساسية الرهيفة لانسجام الألفاظ وازدواج الفِقر وإيقاع التراكيب؟ هل يملك مشاعرك جمال البلاغة في روائع الشعر والنثر؟ هل تحس في نفسك السمو إذا حَمَّسها الاطلاع على النماذج الرفيعة من البلاغة فتتحرك للمنافسة والمباراة؟ هل تشعر حين يتجه فكرك إلى موضوعٍ ما أن فكرته الجوهرية الأولية لا تلبث في ذهنك أن تحيا وتنمو، ثم تتشكل وتتلون، ثم تتوالد وتنتشر؟ هل تشعر بالحاجة الملحة والتوَقان الشديد إلى الإنتاج الناشئ عن فيض القريحة وحرارة الفكر؟ هل يسهل عليك إدراك العلاقة بين الأفكار المجردة والموضوعات المحسَّة فتخرجها في الصور المقبولة والألوان المناسبة؟ هل تتمثل المعاني في ذهنك من تلقاء نفسها على أفضل الوجوه الصالحة للتعبير والتصوير؟ هل تحس حين تفكر في موضوع شعري أن العواطف تنثال على نفسك ثم تتزاحم وتتدافع طالبة الانبثاق والتدفق؟

إن كانت أجوبتك عن هذه الأسئلة بنعم، فتعال ننظر معاً في الآلة الأخرى للبلاغة فإنه لا مندوحة لك عنها إذا شئت أن تستغل ما وهبك الله من قريحة خصبة وملكة مواتية

آلة البلاغة الأخرى هي العلم بمعناه الأعم، أو المعرفة بمدلولها الأشمل. فالكاتب، إذا كان ناقص العلم أو قليل الإطلاع، يدركه الجفاف والنضوب فلا يكون في آخر أمره إلا سارد ألفاظ ومقطّع جمل. ذلك أن معارف الكاتب هي منابع إنتاجه. وألوان المعرفة له كألوان التصوير للمصور يجب أن تكون كلها على اللوحة قبل أن يقبض على الريشة. والمعارف لا تستفاد إلا بمواصلة الدرس وإدمان القراءة.

وأقل ما يجب على طالب البلاغة درسه، هو اللغة والطبيعة، والنفس
أما اللغة فلأنها أداة القول والكتابة. وللثقافة العامة منها قدر مشترك يجب تحصيله على كل مثقف؛ ولكن الكاتب أو الشاعر محتوم عليه أن يدرسها دراسة خاصة: يتضلع من مادتها، ويتعمق في فقهها، ويتبسط في أدبها، ويحيط بعلومها، ويوغل ما استطاع في استبطان أسرارها، واستقراء أطوارها، حتى تكون للسانة وقلمه أطوع من الشمع ليد المثّال الماهر. ومن زعم أن النحو والعروض وسائر علوم اللسان لا ينبغي حذقها لغير الأزهريين فهو
هازل لا يريد أن يكون شيئاً مذكوراً في هذا الفن
ولكل لغة من اللغات المتمدنة عبقرية تستكنّ في طرق الأداء وتنوع الصور وتلاؤم الألفاظ؛ وهذه العبقرية لا تدرَك إلا بالذوق؛ والذوق لا يُعَلَّم، وإنما يكتسب بمخالطة الصفوة المختارة من رجال الأدب، ومطالعة الروائع العالمية لعباقرة الفن. واطلاع الكاتب على النماذج الرفيعة من البيان الخالد يرهف ذوقه، ويوسع أفقه، ويريه كيف تؤدى المعاني الدقيقة، وتحيي الكلمات الميتة
ولقد علمتَ أن الجاحظ والبديع والخوارزمي في الكتّاب، وأبا نواس وأبا تمام وأبا العلاء في الشعراء، كانوا مضرب المثل في كثرة القراءة وسعة الحفظ. وكان فلوبير لا يقع في يده كتاب إلا استوعبه. ولم يعالج روسو الكتابة إلا بعد أن حفظ مونتيني وبلوتارك. وبوسويه كان يحمل على ظهر قلبه التوراة وأحاديث الرسل ومواعظ الأحبار. وقد اعترف شاتوبريان بأنه كان يدمن قراءة برنار دي سان بيير. فإذا كان هؤلاء العباقرة قد رأوا أن الاستمرار على دراسة الروائع الأدبية ضروري لضمان الخلود، فإنه ولا ريب يكون لذوي القرائح الناشئة ضرورياً لاستكمال الوجود
(للكلام بقية)
أحمد حسن الزيات
الثالوث الجامعي!
للدكتور زكي مبارك
هذا العنوان من ابتداع الأديب حسين فهمي صادق، وقد نَصّ في خطابه على أنه يَعني به الأزهر وجامعتي فؤاد وفاروق، وهو يسأل عن جوهر الحياة العلمية والأدبية في هذه الجامعات الثلاث، ويطلب أن (تُظهِر شيئاً يعلن عن نفسه على رءوس الأشهاد)
ومن قبل هذا الخطاب قرأت في مجلة الصباح مقالاً يسألني فيه الأستاذ عبد الحليم عبد البر عما صنع الأزهر وما صنعت دار العلوم في تخريج الأدباء، وكان من رأيه أن دار العلوم لم تخرج في ستين سنة ستين أديباً وأن الأزهر لم يخرج في ألف سنة ألف أديب (؟!)
وأقول إن الفكرة الجامعية لم تُشرح في مصر على الوجه الصحيح، ففي مصر أقوامٌ يتوهمون أن محصول الجامعة هو محصول مدرسيها في النواحي العلمية والأدبية، وهذا خطأ، لأن أساتذة الجامعات لهم صفةٌ غير صفة التأليف، هم يوجّهون ولا يُبدعون، إلا أن يكون فيهم رجالٌ مفطورون على الإبداع
الأستاذ في الجامعة لا يطاَلب بالمساهمة العلنية في نشر الثقافة العلمية والأدبية، وإنما يُسأل عن الصدق في توجيه الطلاب إلى فهم دقائق العلم الذي تخصص فيه، ومن حقه أن يتَسم بالخمول على أنه تشريف، ومن واجب الدولة أن تثيبه عليه، حين يصح عندها أنه خمول لا خمود
الأستاذ في الجامعة مسئول عن رعاية الأستاذية، والأستاذية نشأت في جوّ الرهبانية، فما يجوز له ما يجوز لسائر الرجال من مسايرة المجتمع في جميع الأحوال، إلا أن يكون فيلسوفاً يأخذ مادته الفلسفية من درس الأحلام والأهواء والأضاليل، وهذا نموذج لا يوجد في كل يوم، وإنما تُبدعه الأقدار من حين إلى أحايين
لأساتذة الجامعة واجبات نرجو أن يعرفها تلاميذهم على النحو الذي نريد، وتلك الواجبات ترجع في جملتها إلى خصيصة أساسية، هي الفناء المطلق في الدرس والبحث والتنقيب، ولو انتهى الأمر إلى أن يعيشوا مجهولين
فإن لم يكن بدٌّ من أن تتعرف الجامعة إلى الجمهور فذلك واجب الخِرّيجين، لا واجب المدرسين. وإليكم الشواهد الآتية:

1 - نشاط كلية الحقوق لا يتمثل في دار تلك الكلية، وإنما يتمثل فيمن أخرجت من القضاة والمحامين، وهؤلاء هم البرهان على قوتها الذاتية
2 - نشاط كلية الآداب لا يتمثل في دار تلك الكلية، وإنما يتمثل فيمن أخرجت من المؤلفين والمترجمين والمدرسين والمفكرين، وهؤلاء هم البرهان على قوتها الذاتية
3 - نشاط كلية الهندسة لا يتمثل في دار تلك الكلية، وإنما يتمثل فيمن أخرجت من كبار المهندسين، وإليهم يرجع الفضل في شؤون تفوق الإحصاء
4 - نشاط كلية الطب لا يتمثل في دار تلك الكلية، وإنما يتمثل فيمن أخرجت من أطباء لهم مركز ممتاز في مصر والشرق
5 - نشاط كلية الزراعة لا يتمثل في دار تلك الكلية، وإنما يتمثل في خريجيها النوابغ، وقد أدوا خدمات جديرة بالثناء
6 - نشاط الأزهر لا يمثله أساتذة الأزهر، وإنما تمثله تلك الجيوش التي أخرجها الأزهر من وّعاظ وأساتذة وقضاة وباحثين
7 - نشاط دار العلوم لا يمثله أساتذة دار العلوم، وإنما يمثله المدرسون الذين أنجبتهم دار العلوم، ولهم في كل بلدة مصرية صوت
وعلى هذا يُقاس، فالأساتذة يوجّهون ولا يُبدعون، وأنا أرى أن المعاهد المصرية أدّت واجبها خير الأداء، فهي جديرة بالتبجيل.
هذا هو الرأي في تقدير الذاتية الجامعية من ناحية الصلة الخارجية، ولكني مع ذلك أرى من الواجب أن أرجع إلى هذا الرأي بشيء من التعديل فأقول:
يبدو لي أن ابتعاد الأساتذة عن المشاركة في الجانب العلني من الحياة العلمية والأدبية يعرّضهم لخطرين، فهو أولاً يهوّن أقدارهم في أنفس الطلاب، وهو ثانياً يضيع عليهم فوائد كثيرة، فوائد تخلقها مواجهة المجتمع في موجاته النفسانية والروحانية
والذي يعرف شيئاً من أحوال الشبان يلاحظ أن استفادتهم مما يقرءون تفوق استفادتهم ما يسمعون، فهم تلاميذ للكتاب والمؤلفين قبل أن يكونوا تلاميذ لأساتذة الكليات. وهذه الظاهرة لا تحتاج إلى توضيح
وإذن يجب على أساتذة الجامعة أن يخلقوا لأنفسهم جواً خارجياً يساعد على تجديد الهواء
في جو الكليات، ويشعر الطلبة بأن لأساتذتهم قدرة على فهم ما في المجتمع من آلام وآمال، ويبدد الشبهة التي تزعم أن الأساتذة يعيشون في زمانهم غرباء
والحق أن الأدب الذي يقف عند درس الكتب وتحقيق الأسانيد هو (أدب الجماجم) لا أدب الأرواح
والنصوص القديمة لا تفهم جيداً إلا إذا عولجت بالروح الجديد، وقد كان أستاذنا برونو يوصينا بأن نتسمّع لما يدور من المحاورات في قهوات باريس، عسانا نستفيد شيئاً ن المرونة التي يبدعها الحوار الخالي من شوائب التكلف والافتعال
والحق أيضاً أن الرهبانية التي حاصرت حياة الأستاذية لم يبق لها في هذا العصر مكان، فهي تزمتٌ موروث عن عصور الرياء، وهي الثوب الذي يدارى الهزال عند بعض المهازيل
هل تعرفون السبب في ضعف الفكرة التشريعية عند مدرسي القوانين في هذا الجيل؟
يرجع السبب إلى أن أكثر أولئك المدرسين لم تكتو أيديهم بنيران المعاملات، فلم يعرفوا احتياج التشريع إلى التجديد الموصول
وسيأتي يومٌ نعرف فيه أن تدريس القوانين يجب أن يوكل إلى قدماء المحامين، لأن صلتهم بما في المجتمع من متاعب ومصاعب تبّصرهم بما يعتور الفكرة التشريعية من عقابيل
وما يقال في أساتذة الحقوق يقال في أساتذة الآداب
فأستاذ الأدب يجب أن يكون أديباً بالقول والفعل، أديباً مبدعاً لا أديباً مدرساً، أديباً من رجال الصناعتين: صناعة الشعر وصناعة الكتابة
بين الكلمة والكلمة صلات لا يدركها إلا من عانى المكاره التي يوجبها ضم كلمة في الحدود التي يوجبها روح البيان
الكلمة في المعجم غير الكلمة في الجملة؛ هي في المعجم سمكة محنَّطة، وهي في الجملة سمكة حية، وبين موت الكلمة وحياتها برزخٌ لا يَعبُره إلا من يملك إنقاذها من

الموت، وهو الأديب الفنّان
ومن مقاتل الأستاذية في الأدب لهذا العهد أن بعض الأساتذة لا يلتفتون لا يلتفتون إلى الوشائج الأصيلة بين الأدب وسائر العلوم والفنون، مع أن أسلافنا نصوا على هذه الوشائج
منذ أجيال وأجيال
كل ما في الوجود مواد أساسية لعقل الأديب، وروح الأديب. هو مسئول عن فهم جميع الحقائق بقدر ما يستطيع، وفي حدود ما يطيق
فهل ترون أستاذ الأدب يقل في المسئولية عن الأديب؟
آفة الأستاذية في هذا العصر أنها صارت وظيفة، وجّو الوظائف عجيبٌ غريب. ألم تسمعوا أن رجالاً تركوا كراسّيهم في الجامعة ليظفروا بوظائف ضخمة الرواتب؟
الغرض من هذا الكلام هو توجيه أساتذة الأدب إلى فهم واجباتهم الحقيقية، وأنا أحذِّرهم عواقب ما اطمأنوا إليه من الرضا بزخرف الحياة الجامعية، فزمام التوجيه الأدبي كاد يضيع من أيديهم، إن لم يكن ضاع
كان في مصر قتال بين الأفندية والمشايخ، وكان المفهوم أن الأفندية رجال الدنيا وأن المشايخ رجال الدين
ثم دار الزمن دورته فأصبح كتاب المباحث الإسلامية رجالاً مطربشين، أشهرهم فريد وجدي ومحمد هيكل وعباس العقاد
وإن طال سبات رجال الأدب من أهل (الثالوث الجامعي) فستكون لهم مصاير لا يعلمها غير علام الغيوب
أذهان الطلاب في الجامعات الثلاث محتلة بأفكار وآراء لم تصدر عن تلك الجامعات، فمن يمنّ على هؤلاء الطلاب بنعمة الاستقلال؟
من يدري؟
لعل الخيرة فيما اختاره الله! ولعل الله أراد أن تكون وظيفة الأدب وظيفة روحية لا رسمية! ولعل الله أراد لطلبة الجامعات خيراً مما نريد، فأباحهم ما في الحدائق الخصوصية والعمومية من أزهار وثمرات
من يدري؟ من يدري؟
الهواء الطلق هو الأصل، وهل تنفَّس سقراط وأفلاطون في كلية لها جدران وأبواب؟
الحرية الروحية والعقلية هي أساس العبقرية، ولا حياة لأدب لا يتمتع بحرية العقل والروح
لم تقبل جامعة باريس أن يكون جوستاف لوبون أستاذاً للفلسفة بالسوربون، لأنه دكتور في
الطب لا في الآداب، فهل أنصفت جامعة باريس؟
وهل كان أستاذنا فلان الذي أضحكني مضغه للألفاظ اليونانية الميتة أعرف بدقائق الفلسفة من جوستاف لوبون؟
كان أستاذنا ذاك مقبول الرأي في أكثر ما يقول، إلا حين يمضغ الألفاظ اليونانية، وعند الدكتور مصطفى زيور نوادر لذلك الأستاذ الجليل!
كنا ندخل عليه فيهولنا أن نراه يترجم ويبرجم بأسلوب فظيع، وهو يعرف أن اليونانية القديمة لن تبعث أبداً، وهل بعثها اليونان حتى يبعثها الفرنسيس؟
الآن فهمت كيف احتلت برلين باريس؟
كان الأساتذة الذين يراجعون رسالتي المقدمة إلى السوربون يكرهون أن يقع فيها بيت من الشعر، لأن موضوعها هو النثر الفني
وشكوت هذا التحكم إلى المسيو ديبويه فقال: إن جامعة باريس محتلة بالفكر الألماني منذ انتصار الألمان في حرب السبعين، والألمان غاية في التدقيق والاستقصاء
ثم ماذا؟
ثم عرفت بعد لأي أن الألمان خدعوا الفرنسيس بزخرف الوسوسة البحثية، ليصرفوهم عن التفكير في إعداد وسائل الموت لمن يعادون
كانت فرنسا بعد انتصارها في الحرب الماضية تتوهم أن غاية المجد أن يكون لها معهد مثل السوربون، وكانت تصرّح بأن الشهادات التي تعطيها الجامعات الألمانية شهادات تجارية، وأنها بذلك تتودد إلى الأغنياء من الطلبة الغرباء

وكان الأمر كذلك بالفعل، وكانت النتيجة أن لا تقيم الحكومة المصرية وزناً للشهادات الألمانية، لأنها شهادات مبذولة بلا تعب ولا عناء، كالشهادات التي تعطيها أمة الطليان
ثم ظهر أن لألمانيا سريرة غير سريرة السوربون، وهي النية المستورة لأكابر الفلاسفة من الألمان
وهنا أشهد أني قرأت بالفرنسية نحو خمسين كتاباً تصور انحلال الألمان من الناحية المعنوية بسبب طغيان الشهوة الجنسية
فهل التفت الألمان إلى هذا الاتهام الخسيس؟
مضوا يعملون في السراديب الخفية ليلقوا خصومهم بعد حين أو أحايين
أما بعد فالأدب عندي هو أن تسبق زمانك، وأن تقتل خصومك. الأدب عندي أن تكون قوة تزلزل الزمان، ولا تقنع بشهادة التاريخ
لأساتذة الجامعات شواغل من العلاوات والترقيات والدرجات، فدعهم في غيهم يعمهون، واجعل همك الأول والأخير أن ترفع راية القلم البليغ
زكي مبارك
أطوار الوحدة العربية
المفوضات بين العرب والحلفاء
للأستاذ نسيب سعيد
قلت لك في حديثي الماضي أن الحالة بلغت أشدها من التوتر والجفاء بين العرب والترك، ما ينذر بشر مستطير، بل بثورة عربية كبرى، وغضبة مضربة جبارة. . . وأقول لك اليوم إن البريطانيين ما كانوا غافلين عن كل ذلك، وعما هنالك أيضاً من نضال داخلي، ومشادة سرية بين (الحسين) و (الاتحاديين) ذاع خبرها واشتهر أمرها
وكان اللورد (كتشنر) معتمد بريطانيا العظمى في مصر قبيل الحرب الماضية، ووزير حربيتها في أبانها، أول سياسي بريطاني عمل للتقرب بين العرب والحلفاء، وخاصة بين (آل الحسين) والإنجليز، وسعى لإنشاء صلات ودية منهم وبين حكومته، أملا في اجتذابهم واكتسابهم بعد ما اكتسب الألمان الترك
ففي أواخر شهر سبتمبر (أيلول) عام 1914 وصل إلى مكة تاجر مصري من حي الجمالية اسمه علي أفندي أصفر يحمل إلى الشريف عبد الله (أمير شرق الأردن اليوم) من المستر (ستورس) السكرتير الشرقي لدار الحماية كتاباً خاصاً عن الصداقة العربية - البريطانية، فلم يطلع الأمير عبد الله والده (الحسين) على الكتاب بل أكرم الضيف المصري وصرفه بسلام. غير أن الرسول عاد بعد أسبوعين يحمل كتاباً آخر من المستر (ستورس) نفسه كله وصداقة وإخلاص، فاطلع الأمير حينئذ والده على الكتابين، وبحثا في الأمر مليا
وفي شهر نوفمبر (تشرين الثاني) سنة 1914 عاد السيد علي المصري إلى الحجاز يحمل كتاباً ثالثاً من المستر (ستورس) كان السبب في ابتداء المفاوضات والمكاتبات بين العرب والحلفاء بصورة عامة، وبين الحسين والإنجليز بصورة خاصة
وفي شهر أكتوبر 0تشرين الأول) عام 1915 عقد (مؤتمر الطائف) بين الحسين وأنجاله، وفيه قرروا إعلان الثورة العربية بالاتفاق مع البريطانيين على أساس استقلال العرب وتحريرهم ووحدتهم. ومما قرروه في هذا المؤتمر أيضاً أن يعود الأمير فيصل (ملك العراق بعد ذلك رحمه الله) إلى الشام فيتصل برجال العرب فيها، وكانوا يفكرون في أن تبدأ الثورة هنا في ديار الشام فيدرس التدابير ويضع الخطط لتكون عامة تشمل الحجاز
والشام والعراق، وأن يسافر الأمير علي إلى المدينة ويقيم فيها تحت ستار قيادة المتطوعين، فيتفق مع شيوخ القبائل وينظم أمرهم استعداداً ليوم الثورة، وأن يتولى الأمير عبد الله تنظيم قبائل الطائف والقبائل المجاورة لمكة، ويعد معدات العمل، وأن يشترك كذلك مع والده في المكاتبات والمفاوضات التي تدور مع البريطانيين. ولما رجعوا من الطائف انصرف كل منهم إلى إتمام ما اختص به من المهمات
وبينما كانت المفاوضات والمكاتبات السرية تدور بين دار الحماية البريطانية بمصر وشريف مكة بالحجاز، كان المستر (ستورس) يتصل بأقطاب حزب اللامركزية العربي في القاهرة، ويباحثهم في (القضية العربية)، ويدعوهم إلى زيارته في قصر الدوبارة ويسألهم عن خططهم وبرامجهم فيما لو دخلت تركيا الحرب، وماذا يكون موقفهم لو

عمل الحلفاء على استقلال بلاد العرب، وهل يستطيع أبناء العروبة مؤازرتهم والنهوض بأعباء استقلالهم، فأجابوه:
(إن العرب يتمون استقلال وطنهم وإعادة غابر مجدهم وعزهم إذا كان لابد من انهيار دولة الترك. وهم على استعداد تام لتأييد كل سانحة وبارقة ترمى إلى استقلال العربي مهما كان شأنها. . .)
ولقد دارت مكاتبات سرية يومئذ بين الشريف حسين باسم العرب، والسر هنري مكماهون نائب جلالة الملك بمصر باسم بريطانيا العظمى لأجل إعلان الثورة أدت إلى الاتفاق على البنود الخمسة التالية التي تمت الموافقة عليها في الشهر الأول مع عام 1916 وهي:
أولاً: تتعهد بريطانيا العظمى بتشكيل حكومة عربية مستقلة بكل معاني الاستقلال في داخليتها وخارجيتها، حدودها شرقاً: خليج فارس، وغرباً: بحر القلزم والحدود المصرية والبحر الأبيض، وشمالاً حدود ولاية حلب والموصل الشمالية إلى نهر الفرات ومجتمعه مع الدجلة إلى مصبهما في خليج فارس ما عدا مستعمرة عدن فإنها خارجة عن هذه الحدود. وتتعهد هذه الحكومة برعاية المعاهدات والمقاولات التي أجرتها بريطانيا العظمى مع أي شخص كان من العرب في داخل هذه الحدود بأنها تحل محلها في رعاية وصيانة حقوق تلك الاتفاقيات مع أربابها أمراء كانوا أو من الأفراد
ثانياً: تتعهد بريطانيا العظمى بالمحافظة على هذه الحكومة وصيانتها من أي تدخل كان وبأي صورة كانت في داخليتها، وبسلامة حدودها البرية والبحرية من كل تعد كان أياً كان الشكل، حتى ولو وقعت فتنة داخلية من دسائس الأعداد أو من حسد بعض الأمراء، تساعد الحكومة المذكورة مادة ومعنى على دفع تل الفتنة، وهذه المساعدة في الفتن والثورات الداخلية تكون مدتها محدودة أي إلى حين تتم للحكومة العربية تنظيماتها المادية
ثالثاً: تكون ولاية البصرة تحت مشارفة بريطانيا العظمى إلى أن تتم للحكومة الجديدة المذكورة تنظيماتها المادية. ويعين من جانب بريطانيا العظمى في مقابل تلك المشارفة مبلغ من المال يراعى فيه حالة الحكومة العربية
رابعاً: تتعهد بريطانيا العظمى بالقيام بكل ما تحتاج إليه ربيبتها الحكومة العربية من الأسلحة والذخائر والمال مدة الحرب
خامساً: تتعهد بريطانيا العظمى بقطع الخط من مرسين أو من نقطة مناسبة في تلك المنطقة لتخفيف وطأة الحرب عن بلاد ليست مستعدة لها)
وظل الشريف حسين حتى بعد هذا الاتفاق الذي تم في شهر يناير (كانون الثاني) من سنة 1916 يعد ويسوف البريطانيين، وبعد العدة سراً للعمل الخطير، ويتأهب للوثوب. . .
وكان قد كتب إلى المندوب السامي في مصر كتاباً يعلمه بذلك فأجابه السر (أرثور مكماهون) في كتاب مؤرخ في 10 مارس (آذار) عام 1916 (6 جمادى الأولى سنة 1334) يقول فيه: (قد تلقينا رقيمكم المؤرخ في 14 ربيع الآخر 1334 عن يد رسولكم الأمين. وسررنا لوقوفنا على التدابير الفعلية التي تنوون اتخاذها وترونها موافقة للأحوال الحاضرة. إن حكومة جلالة ملك بريطانية العظمى تجيزها. ويسرني أن أخبركم بأن حكومة جلالة الملك وافقت على جميع مطالبكم، وإن كل شيء رغبتُّم بالإسراع فيه وفي إرساله هو مرسل مع رسولكم حامل هذا. وستحضر الأشياء الباقية بكل سرعة ممكنة. فتبقى في بور سودان تحت أمركم إلى حين ابتداء الحركة وإعلامنا رسمياً بها. وقد انتهت إلينا إشاعات مؤداها أن أعداءنا باذلون الجهد في أعمال السفن ليبثوا بواسطتها الألغام في البحر الأحمر، لإلحاق الضرر بمصالحنا هناك. فنرجوكم أن تسرعوا بإخبارنا إذا تحقق ذلك لديكم)
ومرت أربعة أشهر على هذا الاتفاق العربي - البريطاني قبل أن يطلق الشريف حسين بندقية من قصر الأمارة بمكة. وكان الحجاز كما قلنا يعاني من شدة الحرب وأهوالها أكثر من سواه من الأقطار العربية. فسدت أبواب البحر، وانقطع الحجيج، ونفذ القليل مما كان في البلاد من زاد، فضجت الناس، وهلك مئات من الجوع، وقد قال (الحسين) إنه ظل هو وأهل منزله سنتين يأكلون الدخن
مرت الأربعة أشهر وكان قد أصبح الأمير فيصل في مأمن من الأعداء، ولديه فوق ذلك

من مالهم وسلاحهم ما لا يستهان به. وكانت الذخائر والسلاح والمال بدأت ترد عن طريق (بور سودان) من المصدر الذي أشار إليه المندوب السامي البريطاني في كتابه
فتوكل الشريف حسين علي الله، ونهض في صباح اليوم التاسع من شعبان سنة 1324 2يونيو (حزيران) عام 1916 قبل الفجر وبيده بندقية أطلقها طلقة واحدة كان
لدويها صدى في جدة والطائف والمدينة، بل في سائر أنحاء العالم العربي
فأعلنت الثورة في مكة وجدة في اليوم الأول، وفي الطائف والمدينة في اليوم الثاني،
وكان ما لدى العرب من القوات العسكرية موزعة متأهبة كلها، فحاصر الأمير زيد بجنوده قلعة (اجياد) بمكة وهجم الأمير عبد الله على الطائف، وكان الشريف محسن قائداً في جدة، والأميران علي وفيصل، وقد خرجا من المدينة يجمعان العربان ليحاصرا الترك فيها
وقد برهن أبناء الشريف على بسالة فيهم أظهرها القتال والصراع، وعززها الجلد في النضال والكفاح. ولم يمر شهر على حصار قلعة (أجياد) التي كانت تصب نارها على مكة، وخصوصاً على قصر الأمارة فيها، والشريف حسين في غرفته الخاصة في ذلك القصر يدير الحركة ولا يبالي بشظايا القنابل التي كانت تخترق السقوف والجدران؛
فلم يمر شهر كما قلنا حتى كلل الحصار بالنصر؛ فسلمت اجياد في 4 رمضان ثم استولى الأمير عبد الله على الطائف في 26 ي الحجة من تلك السنة
وفي 2 محرم عام 1335 الموافق يوم 16 نوفمبر (تشرين الثاني) سنة 1916 بويع الشريف حسين بالملك. وفي الشهر التالي اعترفت به دول الحلفاء الكبرى أي بريطانيا وفرنسا ملكاً على الحجاز، وجاء الأسطولان الإنجليزي والفرنسي إلى جدة يحملان إلى جلالة الملك تهاني تلك الدول، فخطب في حضرته أميرال الأسطول الفرنسي ودعاه بأعظم أمراء العرب
ونختم حديثنا اليوم بكتاب صغير وجهّه إلى الشريف (حسين) خلف السر (أرثور مكماهون) في مصر المندوب السامي السر (ردجنلد ونجت) مؤرخ في 19 إبريل (نيسان عام 1927 و27 جمادى الثانية سنة 1335 وفيه ما يلي:
فأؤمل ألا يبرح من بال جلالتكم أن الحكومة البريطانية هي التي تحترم المعاهدات،) (وهي حامية زمام الحق والعدل، والحليفة الوفية التي لا تخون العهود
(دمشق)
نسيب سعيد
المحامي
إلى الأستاذ البشبيشي
للأب أنستاس ماري الكرملي
(تتمة ما نشر في العدد الماضي)
5 - نعم وكرامة
يا سيدي البشبيشي، إننا نستشهد دائماً بأقوال الفصحاء حينما نرد على أحد الأدباء. وقد بينا للقراء صحة قول أبناء مضر (حبا وكرامة) أما حضرتك فلم تذكر لنا أسم من قال: (نعم وكرامة) فننتظر استشهادك لنسلم لك بما تقوله، وإلى أن تفعل، نقول: إن قولهم: (حبا وكرامة) أصح من قولهم: (نعم وكرامة لكثرة ورود الأول في أقوالهم، وقلة ورود الثاني فيها
6 - المسكن والمسكن
الذي قلناه في الرسالة (782: 10): مَسكِن بكسر الكاف هو الأفصح، ولم نخطئ الأول إذ قلنا الأفصح. فهذا معناه أن مسكناً بالفتح فصيح لكن الأفصح بالكسر. ففي غنية الطالب في ص24 من الطبعة الأولى: (وإذا كانت العين مكسورة، فأبقها على كسرتها نحو: مجلِس، ومضرِب. وشذَّ المسجد والمغرِب، والمطلع، والمجزِر، والمرفِق، والمفرِق و (المسكِن) والمنسك والمنبت، والمسقط، فإنها جاءت بكسر العين، مع أن مضارعها مضموم. و (أجيز) استعمالها على الأصل) اهـ
7 - الجدُدُ أفصح من الجدُدَ
نعم، إن الجدُدَ بفتح العين واردة في كلام (بعضهم)، لكن أنسير على كلام (بعضهم) ونترك جمهورهم. أليس اتباع الجماعة أحسن وأسْلَم لنا من اتباع البعض؟ قال صاحب التاج في ترجمة آخر هذه اللفظة: (والأكثرون على الضم)

8 - رواية الأشعار القديمة
من المشهور عند الأدباء المحققين، إن رواية الأشعار القديمة، يجب أن تنقل عن الأقدمين، لا عن المحدثين، ولا سيما المتأخرون منهم، لأنهم عبثوا بكل شيء قديم، ولهذا يجب أن
ننبذ نبذ النواة، ولو صحت روايتهم، أو وجهت توجيهاً حسناً، أو أُوْلت تأويلاً بديعاً، بل أبدع من رواية الأقدمين. والذي رويناه نحن نقلناه عن أصح كتاب رويت فيه أبيات أعشى باهلة، أي عن الديوان المروي عن أبي العباس ثعلب وشرحِهِ له، (المطبوع في مطبعة) دلف هلزهوسن في بيانه سنة 1927 بعناية رودلف جير ص266 وما يليها وأما رواية الشيخ حمزة فتح الله فليست بشيء بالنسبة إلى قدم ثعلب وقد توفي سنة 297 للهجرة، وأما الشيخ حمزة ففي سنة 1336. فأين الثري من الثريا؟ وقد قيل في ثعلب إنه (كان راوية للشعر، مشهوراً بالحفظ، وصدق اللهجة، ثقةً حجة).
وأما الشيخ حمزة - رحمه الله - فما كان يعرف أن يوقع اسمه حينما كان مفتشاً بوزارة المعارف المصرية فقد كان يكتب (حمزة فتح الله مفتش أول اللغة العربية بنظارة المعارف العمومية) فكأن للعربية أولاً وأخراً، وكان هو مفتش أول اللغة تاركاً لغيره أن يكون مفتشاً لآخرها!
فإذا كان الشيخ حمزة فتح الله لا يحسن النطق بثلاث كلمات صغار فكيف نعتمد عليه وعلى روايته للشعر القديم؟ - فأين الطمطمانية من العربية المبينة؟ وهل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟
فانصفنا يا سيدي البشبيشي، ولا تحد عن الصراط المستقيم، ذباً عن الصديق الحميم
9 - جمع أفعل وفعلاء على فعل
ليس لنا رأي خاص في جمع أفعل فعلاء على فُعل، وإنما نحن تابعون لرأي الفصحاء الصميم من الأئمة الأعلام. فقد قال سيبويه في كتابه (2: 211 من طبعة بولاق): (وأما أفعل، إذا كان صفة فإنه يكسر على فُعل، كما كسروا فعولاً على فُعل، لأن أفعل من الثلاثة وفيه زائدة، كما أن في فعول زيادة، وعدة حروفه كعدة حروف فعول، إلا أنهم لا يثقلون في أفعل في الجمع العين، إلا أن يضطر شاعر، وذلك: أحمر وحمر، وأخضر وخضر، وأبيض وبيض، وأسود وسود؛ وهو مما يكسر على فُعْلان. وذلك كحمران، وسودان، وبيضان، وشمطان، وأدمان
والمؤنث من هذا يجمع على فُعل. وذلك: حمراء وحُمر، وصفراء وصفر. وأما الأصفر) والأكبر فإنه يكسر على أفاعل. ألا ترى أنك لا تصف به كما تصف بأحمر ونحوه. لا تقول رجل أصفر ولا رجل أكبر. سمعنا العرب تقول الأصاغر كما تقول: القشاعمة والمصيارفة حيث خرج على هذا المثال. فلما لم يتمكن هذا في الصفة كتمكن أحرم، أجرى مجرى أجدل وأفكل، كما قالوا: الأباطح والأساود، حيث استعمل استعمال الأسماء. وإن شئت قلت: الأصغرون والأكبرون. فاجتمع الواو والنون والتكسير ههنا، كما اجتمع هنا الفعل والفعلان. وقالوا الآخرون ولم يقولوا غيره كراهية أن يلتبس بجماع آخر؛ ولأنه خالف إخوانه في الصفة فلم يتمكن تمكنها؛ كما لم يصرف في النكرة. ونظير الأصغرين قوله تعالى: بالأخسرين أعمالاً) اهـ
وفي مختار الصحاح: (الأسود: العظيم من الحيات، وفيه سواد والجمع الأساود، لأنه اسم، ولو كان صفه لجمع على فُعُل) اهـ
وفي لسان العرب في مادة (ج ح م): (الأجحم: الشديد حمرة العينين مع سعتهما. والأنثى جحماء، من نسوة جحم وجحمي). قلنا: وهو الصواب بخلاف ما جاء في القاموس، إذ قال: الأجحم. . . وهي جحماء والجمع جُحم ككتب وسكرى) اهـ
وكلام آئمة البصريين والكوفيين من صرفيين ونحاة ولغويين مبنى كله على الآيات القرآنية. ففي سورة الملائكة ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود). ولم يقل بيضاء ولا حمراء ولا سوداء.
وفي سورة الإنسان: (عاليهم ثياب سندس خضر)
وفي سورة يوسف: (وسبع سنبلات خضر)
وفي سورة الرحمن: (متكئين على رفرف خضر وعبقريّ حسان)
وفي سورة الكهف: (ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق). ولم يقل مرة واحدة خضراء

والآيات كثيرة ولم ترد فعلاء مرة واحدة صفة لجمع، أيّاً كان
وأما ما قاله سيدي وأستاذي البشبيشي: (نستطيع أن نحكم بجواز استعمال الوصف بهما مفرداً قياساً على قولهم: إن الجمع بمعنى الجماعة، فيجوز وصفه بالمفرد؛ ولذلك شواهد لا تحصى. . .) ومن هذه الشواهد التي لا تحصى كنا نود أن نرى واحداً، لنرى أهي من باب أفعل فعلاء، أم من غيره - ثم إن هذا الباب الذي يذكره يسمى باب التخريج، وهو
باب واسع يلجه الحيوان الأكبر والأصغر من الهوام والحشرات وأنواع العجماوات. أما الحيوان فيعدل عنه ولا يلجه، نظراً إلى شرفه وإجلالاً لقدره، وإعزازاً لشرفه وحبه، وخشية أن يقال عنه: (ولج العاقل باباً لا يلجه إلا الحيوان الأعجم) أعاذنا الله من أن نكون منه!
الأربعة الاستقصات لا الأربع - 10
في جميع ما نكتب نتوخى الفصيح والأفصح من كلام السلف الصالح بقدر الطاقة. وأفصح كلام العرب يرى في الآيات القرآنية. وقد جاء في سورة النساء: (ولا تقولوا ثلثة) أي ثلاثة آلهة. ولم يقل ثلاثا
وفي سورة الطلاق: (فعدتهن ثلاثة أشهر
وفي سورة الكهف: (سيقولون ثلثة رابعهم كلبهم، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم) إلى غيرها من الآيات وهي كثيرة لا حاجة لنا إلى ذكرها كلها فاجترأنا ما ذكر منها وجميع ما ورد في تلك الآيات، مختوم بخاتم الإحكام المتقن، ومطبوع بطابع الصحة المنيعة، وفيه أقصى التحقيق والتدقيق إذ (لا نرى بينها عوجاً ولا أمْتا)، ولا يهمنا بعد الكلام خرفشة النحاة ولا حذلقة الصرفيين، إذ يسمع لها جعجعة ولا طِمن!
فالاستقص (بصاد مشددة في الآخر) والاصطقسّ بصاد وطاء وقاف وسين، مذكرة، ولا يقول الفصحاء والحذاق والبصراء من السلف إلا الاستقصات الأربعة لا الأربع. ونحن نتبع الآيات المحكمات وكتاب سيبويه وجماعة علماء البصرة والكوفة، وليتبع غيرنا ما شاء من المجوزين، والمخرجين، والمفسرين. وعلمه فوق كل ذي علم
الخلاصة - 11
إننا نتبع الفصيح من كلام الناطقين بالضاد، ونترك الغير يتبع ما شاء من لغات العرب ولغيَّاتهم، أولئك الذين جاوروا الأعاجم فركت عبارتهم، وفسدت تراكيبهم وغمضت ألفاظهم وغلظت كلمتهم، فوقعوا في أوهام لا تعد
وهذا آخر ما نكتب في هذا الموضوع وقد أوصدنا بابه علينا، فلا نريد سماع ما يخالف أحكام اللغة المتينة ولا قواعدها المبنية، وإن فاض التنور وقامت القيامة، وكان اليوم الأخير.
الأب انستاس ماري الكرمل
من أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية
الحضارات القديمة
في القرآن الكريم
للأستاذ عبد المتعال الصعيدي
- 1 -
ظهر الإسلام بين أمة وصلت في البداوة إلى أبعد حدودها، وكانت طبيعة بلادها تجعلها بداوة قاسية، يشتد فيها النزاع والخصام بين الأفراد والقبائل، ويكون السلب والنهب أظهر عمل فيها لكسب العيش، وفي هذا تنتصر القوة الغاشمة، ويظفر الباطل بالحق
وكان يحيط بهذه البداوة الغاشمة حضارتان مختلتان، حضارة الفرس بالمشرق، وحضارة الروم بالمغرب، قد سرى الفساد فيهما حتى أنهكهما، فلم يكونا أقل ضلالاً من تلك البداوة، ولم يكن أهلهما أقل شقاء من أهل تلك الصحراء
فكان من أهم أغراض الإسلام القضاء على تلك البداوة وآثارها في بلاد العرب، وإنشاء حضارة جديدة صالحة للبشر عامة، يرتفع فيها لواء العدل، وينتصر الحق على الباطل، وتنتشر المساواة بين الشعوب والأفراد، فلا يظلم قوي ضعيفاً، ولا يأكل غني فقيراً، وبذلك يسود السلام بين الشعوب بالمساواة بينهم، ويجعلهم جميعاً عناصر لأمة واحدة لا يمتاز فيها على شعب، ولا تفرق بينهم الفوارق أيا كان أمرها
ولا غرو في أن يكون مثل هذا من أغرض الإسلام، بل لا غرو في أن يكون هذا من أهم

أغراضه، لأن الإسلام يمتاز على غيره من الأديان بأنه لم يشرع للآخرة وحدها، ولم يعمل لسعادة البشر فيها فقط، بل شرع لسعادة الدنيا والآخرة، وعمل على أن يكون البشر سعداء في دنياهم، قبل أن يكونوا سعداء في أخراهم

وقد صرح القرآن الكريم بذلك الغرض العظيم في بعض آياته، فقال تعالى في الآية (55) من سورة النور (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) وقد بين في آية أخرى أهم شيء تمتاز به هذه الأمة في حضارتها الجديدة، فقال في الآية (110) من سورة

آل عمران: (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون باله؛ ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم، منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون)

ومما يتفق مع هذا كل الاتفاق ما جاء في القرآن الكريم عن البداوة العربية وأهلها، وما جاء فيه عن الحضارات القديمة وآثارها، فهو إذا ذكر الأعراب - وهم سكان البادية - يكون شديداً عليهم، ويجعل بداوتهم هي السبب في جهلهم وانحرافهم. وقد وصفهم الله بقلة الإيمان في الآية 14 من سورة الحجرات: قالت الأعراب آمنا، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا، ولما يدخل الإيمان في قلوبكم، وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً، إن الله غفور رحيم). وإنما سميت هذه السورة بذلك الاسم لأنها نزلت في نفر من الأعراب أتوا النبي صلى الله عليه وسلم وهو قائل في أهله، فجعلوا ينادون من وراء الحجرات: يا محمد أخرج إلينا حتى أيقظوه من نومه، فأنزل الله فيهم من هذه السورة: (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون، ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم) وقد قيل إن هؤلاء الأعراب كانوا من بني تميم، وكان فيهم الأقرع بن حابس، وعُيَيْنة بن حصن، والزبرقان بن بدر، فنادوا على باب الحجرات قالوا: يا محمد، اخرج إلينا، فإن مدحنا زين، وذمنا شين. فخرج رسول الله صلى الله عليه وهو يقول: إنما ذلكم الله الذي مدحه زين، وذمه شين. فقالوا: نحن ناس من تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا، جئنا نشاعرك ونفاخرك. فقال رسول الله صلى الله عليه: ما بالشعر بعثت، ولا بالفخر أمرت، ولكن هاتوا. فقام منهم شاب فذكر فضله وفضل قومه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لثابت بن قيس، وكان خطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم، قم فأجبه. فقام فأجابه.

ثم قام الزبرقان بن بدر فقال:

نحن الكرام فلا حي يعادلنا ... منا الملوك وفينا تنصب البِيَع
وكم قسرنا من الأحياء كلهم ... عند النهاب وفضل العز يتَّبَع
ونحن نطعم عند القحطُ مطعمنا ... من الشواءِ إذا لم يؤنس القزَع
فننحر الكوم عبطاً في أرومتنا ... للنازلين إذا ما أُنزلوا شبعوا
فلا ترانا إلى حيٍّ نفاخرهم ... إلا استقادوا فكانوا الرأس يُقتطع
فمن يفاخرنا في ذاك نعرفه ... فيرجع القوم والأخبار تُستمع
إنا أبينا ولا يأبَى أحدٌ ... إنا كذلك عند الفخر نرتفع

فقال النبي الله صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت: قم فأجبه. فقام فقال:

إن الذوائب منِ فِهرو اخوتهم ... قد بينوا سُنة للناس تُتبع
يرضى بهم كل من كانت سريرته ... تقوى الإله وكل الخير يُصطنع
قوم إذا حاربوا ضَرُّوا عدوهم ... أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
سجية تلك منهم غير محدَّثةٍ ... إن الخلائق فاعلم شرها البدع
أعِفة ذكرت في الوحي عفتهم ... لا يَطبعون ولا يرديهم طمعُ
لا يبخلون على جار بفضلهم ... ولا يمسهم من مَطمع طَبَعُ
لا يفخرون إذا نالوا عدوهم ... وإن أصيبوا فلا خور ولا هلعُ
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم ... إذا تفاوتت الأهواء والشيع

وقد جاء ذكر أهل البادية أيضاً في سورة التوبة، فوصموا فيها هذه الوصمة التي جاءت في قوله تعالى (الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم)

ولكن الله تعالى بعد أن أطلقها كلمة فيهم، لأن ذلك شأنهم وديدنهم، وهو الطبع الغالب، والحال الظاهر، عاد فذكر أن قليلاً منهم يخالفهم في هذه الطباع؛ فقال: (ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول إلا إنها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم)

فهذا اجاء في القرآن الكريم عن البادية وأهلها، وهو حرب ظاهر عليها، وقد جاهد الإسلام حتى قضي على آثارها بين العرب، وجعل منهم أمة عالمة متحضرة متآلفة متحابة، وموعدنا بما جاء في القرآن الكريم عن الحضارات القديمة الأعداد الآتية.

عبد المتعال الصعيدي

. . .عندما فاض النيل

للشاعر التركي إبراهيم صبري

بقلم الأستاذ عثمان علي عسل

بحثت عن شاطئ حصباؤه تلمع، شاطئ منحدر رحب. وقد غطيت حصباؤه برمل ناعم كريش الطيور. إن اشتياقي إليه كالحنين إلى الوطن. فما وقع بصري على شاطئ إلا تعلقت به. هناك أنعم النظر في الشمس. فما أجمل نزولها في اليم. حينما يحجب نصف قرصها سحاب أسود. تغيب عن الأنظار كأنما تخلع رداء أشعتها. فيخيل إلى الناظر أن السحاب يستر وراءه قواماً جميلاً. وإذا بألوان الأفق تمتد وتعانق سطح البحر. وعلى هذا الجيد الفضي ترتجف أمواج هادئة تخالها رعشات. . وبينما الألوان الوردية والبنفسجية والحمراء تنشئ في السماء قوساً شبيهاً بعالم خرافي، يبدو البحر كأنما ارتفعت أعماقه. فيتراءى كسماء مقلوبة غاصت في قراره. سماء تتجلى فيها الأفلاك. ولكي تصعد الأنظار إلى هذه القبة العميقة، تهبط كأنها تنزلق على سطح زجاجي. ومن احتضان البحر للسموات يتجلى في روع الناظر عالم آخر فيرى في ضفافه حدود الأبدية. إن اتساع البحر يجعل الأنظار التي ترى اللانهائي تبحث عن عالم مجهول. أما الآفاق فهي ستار أزرق أسدل على الأفكار، يحول بين المتأمل وبين النفاذ في محيط الكون. إن الثرى إزاء الماء فانٍ. ففي كل قطرة من الماء قوة كامنة خالقة لا تحد. وحكم التراب كالعدم فهو نهاية. عجباً لهذا التراب إنه من أسباب الفناء، وإنه لمن أسباب الحياة! ومصير المخلوقات إليه. وكأنما الأمواج حينما تتبخر تهرب من الفناء. وهذا الإنسان اليائس الذي يلقي بنفسه في اليم، يشتاق إلى حياة أبدية في عبابه، ليعيش بعيداً عن التراب.

لاشك أن الشمس قد ذابت اليوم في أفق مصر. هاهي أشعتها مادة سائلة، تنحدر من السماء كأنها حمم تذيب الأرض معها. بحثت كسائر الناس عن خميلة أتفيأ ظلها، فذهبت إلى شاطئ النيل، وإذا بالنيل قد فاض وغمر. فأين مني الآن قوافل الجمال ذات اللون الأغبر التي ترسم على الشاطئ صورة الخمائل؟ أين تلك الأشرعة التي ترفرف بين الأشجار كأجنحة فراشة فضية؟ وأين هاتيك الكواعب الريفيات

اللائى يحملن على رءوسهن جرات ذات قوام له
دلال العرائس يباهي دلال من يحملنها، وقد
عكست ظلالها على سطح النيل. . . يا للعجب
إن هذا الماء كلما تدفق أسرع جريانه. أين
هذا النيل الذي رصع جِيد (أم الدنيا) بعقد
من الياقوت بمجراه الذي تسري في أمواجه
ثمار النخيل الحمراء؟ أين تلك المياه التي تفيض
بالأسرار كمقلة خضراء تزخر أعماقها بألوان
مباينة؟ أين هذا النيل الذي يتجلى في لونه
الزمر ذي إشراق الفجر. هذا النيل الذي تمس
!أعماقُهُ الأهرامَ والسماءَ والكواكبَ. هيهات
ليس أمامي الساعة غير نهر من اللهيب. بحثت
عن ضفافه فألفيتها قد سالت معه، وبدا لي
أن هذا الفيضان يندفع كالكارثة. لم يكن
هناك في هذا المحيط اللجي موطئ لقدم، كأن
الطوفان قد ابتلع الغبراء. هاهو النيل يجري
كنهر من الطين انطلق إلى الشمس، كأن
،من أجراه يريد أن يبني أجراماً في السماء
وهو يجيش بأمواج فوارة تكاد الشمس وهي
في مغربها تغرق في تيارها. كأن هناك عاصفة
هوجاء تكتسح هذه الأمواج، فلا يسمع
إلا زمجرة صاخبة. ربما كان في هذا الطين
أسرار، فهو لا يخرِّب بل يعمِّر. أما حقول
بلادي الظامئة فإنها تتلهف إلى قطرات تتساقط
من سماء الحظ، كأنما النيل سحر قد انساب
ماء، فهو يجعل الرمال أخصب من أي تراب
آخر. هو يتدفق إلى الحقول وإلى القرى وإلى
.المساكن، فالنيل هو مصر، ومصر هي النيل
ما أعجب هذا السيل إنه قوام الحياة. ما أعجب
هذا السيل فهو أينما جرى وأينما طغي انبثق
النبات واستحال القفار عماراً. قد منح أهلَ
بلاده قدرة فوق طاقتهم. هل السحر جاء إلى
مصر مع النيل، فهو كبحر مطلسم غمر أرضاً
وجرى نحو محيط في أغوار الأساطير، وكأنما
الأهرام أحجار رسبت من مجراه في وادي
الشياطين. وإنه ليرد من أرض حزينة؛ فهو
يسيل أحياناً كالدم وأحياناً كدموع تنحدر
من عيون تلك الأرض التي حرموها نعمة
الأبصار. إنهم يروون أن غادة كانت في الزمان
،الغابر تلقى في عبابه. إنني أعتقد أنها أسطورة
،غير أن هذا الفيضان الذي يدعو إلى الحيرة
.لابد له من سرّ خارق كهذه الأسطورة

ترجمة

عثمان علي عسل

المنطق المنظور والمنطق المستور

للأستاذ عبد الله حسين

ألف الناس أن يطلقوا على ما يقع لهم أفراداً أو جماعات، من الأحداث، اسم الغرابة والمفاجأة والشذوذ، وأن يبدئوا ويعيدوا في وصف كل حدث من الأحداث، كأنه شيء لا يقع إلا في الخيال ولا مثيل له في حوادث التاريخ، أو كأنه قد وقع من غير مقدمات

ولغير علل وأسباب!
ولعل مرجع هذا عندهم إلى أنهم يحرصون على حياة السلامة والدعة التي ألفوها قبل أن يتأوَّد مجرى حياتهم، ويزور مستقر شأنهم وقبل أن يشهدوا انحرافاً في ميزان حياتهم
ذلك، أن الناس كانوا ولا يزالون حريصين على ما يدعونه (الحقوق المكتسبة) ينعمون بثمارها. فإذا اعتاص عليهم أمر من الأمور، لعقبة أو نازلة أو عرض من أعراض الحياة وأطوارها المتناقضة ظاهراً، نادوا بالويل والثبور، وحسبوا ما واجههم من عظائم الأمور، ومن المنطق المستور!
قال أحد فلاسفة فرنسا: (وليس يقع في الدنيا غير الشاذ)
أولم يقولوا في الحرب إنها حالة شاذة، كأن السلم هي الحال الدائمة الطويلة؟
أولم يتطير الناس من الحروب والثورات وما إليها من الفتن والاضطرابات وألوان الانقلابات حتى الاقتصادية منها؟
يذهب الناس إلى هذا مع إنهم لو عَمَدوا إلى الاستقراء وفتحوا عيونهم على العالم كله قديماً وحديثاً، لفقهوا أن الحياة الاعتيادية ليست دعةً وسكوناً وأمناً وسلاماً إلا في حيز محدود وزمان غير طويل؛ فإن الدنيا لا تعرف السكون الطويل، والحياة ليست بالمستقرة المطمئنة إلى قواعد ثابتة، وأسس لا يعفى عليها تقلب الحدثان
وقد تأثر الكتاب والأدباء يحسبان الحياة سلماً واطمئناناً وأمناً إلا في النادر وعند المفاجأة وشواهد الغرابة، فبالغوا في تصوير الأحداث التي تقع على غير ما كان يتوقع أصحاب (المنطق المنظور) ونعني به منطق الحوادث اليومية الاعتيادية المألوفة التي تكاد تجري على صورة واحدة، فإن الاستمساك بهذا المنطق السطحي الضيق، هو آفة النظر الفاحص البعيد، الذي يزن الأشياء بميزان (المنطق المستور) الذي يستطيع أن يبلغ حقائق، ويكشف
عن مقدماتها وعللها، ويتنبأ بنتائجها وآثارها؛ وأصحاب هذا المنطق هم أولئك الذين لم يخدعهم (المنطق المنظور) الضيق
كم من تقلبات شهدنا في خلال العشرين عاماً الأخيرة أو منذ شبت نار حرب 1914 أو منذ وضعت أوزارها وأعلنت الهدنة ووقعت شروط الصلح وبادت دول وظهرت أخرى.
وكم عجبنا وأغربنا في الدهش والحيرة لأحداث وقعت بين ظهرانينا لأننا كنا ننظر إلى شئوننا بعين (المنطق المنظور)، فلما خلونا إلى أنفسنا قهرنا على مقابلة الخطوب، ورضنا أنفسنا على متابعة التقلبات، عرفنا بعين (المنطق المستور) أن ما وقع إنما جاء نتيجة منطقية لحوادث سابقة وأخطاء قائمة واستسلام (للمنطق المنظور)
وليس الأمر بمقصور على الشئون العامة، بل إن شئوننا الخاصة يجري عليها هذا المقياس، فالأمراض المستعصية ونكبات الأسرة والصداقة من طلاق وأزمات مالية وخصومات وانتقامات، كلها ترجع إلى مقدمات وحوادث وعلل، لا يقرأها ولا يدركها (المنطق المنظور) المنطق السطحي المستسلم، ولكن عين (المنطق المستور) تجلوها لنا سافرة طبيعية لا غرابة فيها ولا مفاجأة ولا شذوذ
عبد الله حسين
المحامي
. . .ذكرى
للدكتور عزيز فهمي
الدكتور عزيز فهمي نجل صاحب السعادة الأستاذ عبد السلام فهمي جمعة باشا في طليعة الشباب الجامعي المثقف، ومن شعراء الشباب الموهوبين الذين أذكوا بأدبهم الذكي المشبوب النهضة المصرية. وهذه من بواكير شعره بعد عودته من باريس إلى وطنه منذ شهور قلائل:
يا لياليَّ طال فيكنَّ سهدي ... مَن مُجِيرِي من الليالي ووجدي
قَدّرٌ صاح بالمنى فتداعتْ ... وقضاءٌ، وما له من مردّ
أيها الليل يا نجيِّ وحسبي ... أنتَ يا ليلُ، كم يَدٍ لك عندي
حال طعمُ الحياة بعد هناءٍ ... وشربتُ الحميمَ من كل وِرْدِ
إنه يا ليلُ كم كتمتَ هوانا ... يومَ كان الزمان طوعي وجندي

فانشر اليوم من زفيري نشيداً ... يطرب الدهر بعد طول التحدي
كان ما كان، لا مردَّ لعهدٍ ... غاله الدهر بعد سعيٍ وكدِّ
كان ما كان، كل حُلْمٍ لصحوٍ ... وانتباهٍ، وكل سيفٍ لغمد
أيها الحِبُّ ليس لي منك إلا ... ذكريات تُلحُّ في غير قصد
ذكرياتٌ أعيش فيها ومنها ... ليتها ليتها تُلحُّ وتجدي
طائف كالفَراش حول شعاع ... محرقٍ يبعثُ الحياةَ ويُردي
ذكرياتٌ تمرُّ حيناً وتحلو ... بعد حين، وأول الخمر يُصدي
يوم كنَّا في ميعة العمر نلهو ... لهوَ طفلين جاوزا سنَّ رشد
نتلاقى على صفاء قلوبٍ ... لم تُدَنَّسْ على الزمان بحقد
وأناجيك في خشوع وصمت ... وبودِّي لو استجبت بودي
وأناغيك يا حبيبي وتصغي ... وأعيد الحديث فيك وأبدي
وعلى وجهك المضيء تباش ... ير كوشّي النَّدى على دوْح وَرْد
ويدي في يديك ترعَش حتى ... تهدأ النفس بعد لهث وجَهد
وذراعايَ حول خصرك في عن ... فٍ ورفق ما بين جَزْرٍ ومدِّ
وعلى صدرك الحنون همومي ... غارقات ما بين نحرٍ ونهد
والنسيمُ العليلُ يذكي عبيراً ... من ثناياك شاع في كل برد
جَنَّةٌ أنتَ كنت فيها ملاكي ... كيف منها جَزَيْتُ نفسي بطرد
أنتَ رَحَّبْتَ بي مُضيفاً وضيفاً ... كسف لم أجْزك الوداد بودي
يعلم الله ما جحدتُ ولكن ... ذادني عنك طالع جِدُّ نكد
ما أنا إلا آدمي وهل آثر ... إلا الهبوطَ آدمُ جَدي؟
نحن فيها مسيرون وكلٌّ ... مُجْبَرٌ لا خيار للمرءِ عندي
أيها الغائب المقيم بأرض ... عهدت مولدَ الغرام وسعدي
بالجنين الوليد ينمو ويقوي ... في رفيق من الأمانيِّ رغد
كل شيء كما عهدتِ مقيم ... وأنا النازح الوفي بعهد
فالتفت يَمْنةً وأخرى يساراً ... واستمع عامداً وفي غير عمد

عزيز فهمي

الطيران بين أسلحة الحرب

للملازم الأول حسين ذو الفقار صبري

لم تعد الحرب في مختلف نواحيها بقادرة على الاستغناء عن سلاحها الجديد: (الطيران)، الذي لم يكن بالأمس إلا بدعة طارئة، وأصبح اليوم ضرورة أقحمت على كل فكر وكل رأي، حتى ذهب الكثيرون، ممن قنعوا بعابر الملاحظة دون عميق البحث، إلى القطع بأن أهميته تفوق غيره من الأسلحة، فهو منها المحورُ والدولاب، وله عليها العرش والسلطان؛ وتمادوا في إغضاء الطرف عن نقائصه، مُعْلين من شأنه، رافعين من ذكره، حتى وُصف بما لا قدرة عليه، ونعت بما لا طاقة له به.

جاب الإنسان الأرض شرقها وغربها، وشمالها وجنوبها، وسبح في الماء وارتقى الجبال، وحاول ثم حاول محاكاة الطيور بالتحليق في الفضاء، ولكنه هنا فشل مرراً، وارتد عن أحلامه تكراراً، حتى ظن أن التصاقه بالأرض قانون لا يُخْرق، وأن تحليقه في الهواء أمنية لن تُحقّق. فلما حلّق أول من حلق، انبهر البشر وتلمسوا طريق التأويل والتعليل، فرموا الطائرة بصفات تخيلوها، وحبوها بأحوال ليست لها. وقد انساقوا في ذلك السبيل وراء ما أحرزه الطيران من تقدم حثيث ملموس، نتيجة طبيعية لما زامل زمانه من اطراد مستمر في شؤون الآلات والكهرباء وصناعة المعادن، مما خف وزنه واشتدت صلابته. كل تلك الأشياء وغيرها تضافرت فأغدقت على الطيران من عندها، ودفعت به إلى الأمام عدة مرات؛ ولكنا إذا تأملنا الأمر قليلاً وجدنا الطائرة جسماً كسائر الأجسام، يخضع لقوانين الطبيعة كل الخضوع. هي جسم ساير تلك القوانين، وتحايل عليها واسترضاها فانقادت له تساعده وتحابيه وتزينه للناظرين

سرُّ الطائرة في استخدامها فراغاً لا نراه ولا نلمسه، سرُّها في استمدادها القوة من انضغاط هواء تحت سطح جناح انطلق انطلاق الشهاب، سرها في التفاتها إلى عنصر أحاط بنا منذ الأزل فألفناه، حتى انقلبت الألفة إلى عدم اهتمام بل إلى إهمال

استمدت الطائرة قدرتها على الارتفاع من الهواء المضغوط تحت الجناح، فغالبت

جاذبية الأرض وقهرتها، قهرت تلك القوة التي ألصقتنا بالأرض دواماً، والتي لم نتفهمها جيداً حتى ترجم العلم مفعولها إلى لغة قريبة من مداركنا، لغة الكتل والأثقال والأوزان. الجاذبية

مقدارها ثابت لا يتغير، أما جسم الطائرة - أو بالأحرى ثقلها - فهو العامل المتقلب، المتزايد أو المتناقص. هو الخصم الذي يهاجمه المهندس على أوراقه أولاً، وفي المصانع ثانياً، ليستخلص من عنصر الهواء أكبر غنم، ويستخلص لطائراته أنْفَذَ الخواص، ولصفاتها أعلى منسوب.

تتباين خواص الطائرات المختلفة تبعاً لتباين طرق توزيع وزنها على مختلف أجزائها. وطائرات الحرب أغراضها كثيرة متنافرة: هذه تحتاج لسرعة فائقة، وتلك لسعة في النقل عظيمة، وهذا يطالب بطائرة مدافعها فتاكة، وذلك بأخرى قنابلها كثيرة. هذه الأمور وغيرها تعرض للمهندس فيوازن بينه، ويقارن ويعادل، حتى يصل آخر الأمر - بعد مجهود طويل وتجاريب عديدة - إلى أحسن الحلول، أو على الأقل إلى أقرب من الغرض المطلوب

يتكون ثقل الطائرة من وزن أشياء شتى: أهمها المحرك والهيكل بما فيه الأجنحة، والوقود، والمدافع، وذخيرتها، والقنابل وصفائح الفولاذ الواقية. يختص المحرك منها بأكبر نصيب، كيف لا وهو القوة الدافعة، تزيد سرعة الطائرة بزيادته، وتنمو مقدرتها التسلقية بنموه

ولكن هذه المهارة في المناورة، يلزمها علاوة على القوة الدافعة أجنحة سميكة، معدنها متين، أقدر من غيرها على احتمال الضغط العنيف، الطارئ من حركات انقلاب حادة فجائية. ومدى التسلق يحتاج، علاوة على المحرك القوي، إلى أجنحة طويلة عريضة تعترف من الهواء كثيراً. أما السرعة، فهي وحدها التي تقنع بتركيز الوزن كله في المحرك

ويا ليت الأمر يقف بالمحرك عند هذا الحد، فهو لا يكتفي باستحواذه على نصيب الأسد، بل يتطاول أيضاً إلى ما بقى من ثقل يحتجز منه لملحقاته. الزيت والوقود؛ تلك السوائل الثقيلة الوزن التي لا غنى له عنها، تغذيه بحيويتها، وتخلق منه قلباً نابضاً لجسم كان هامداً. لم يبق إذن من ثقل الطائرة إلا جزء ضئيل تتنازعه المدافع وذخيرتها، والقنابل وأدوات تصويبها، والدروع الواقية لأرواح الطيارين. تنازع عظيم لا يفصل فيه المهندسون ولا يبتون فيه بقرار، إلا على ضوء نسب مخصوصة ترتفع وتنخفض تبعاً لما تقوم به الطائرة من واجبات سواء أكانت متعددة النوع أم محدودة فإذا تأملنا المقاتلات مثلاً وجدناها تحتاج إلى سرعة فائقة تلاحق بها ما تتخطى الحدود من

قاذفات، أي أنها - بلغة النسب - تحتاج لضآلة في الجسم إزاء قوة المحرك؛ ولكنها ضآلة تقف عند حده، إذ ما قيمة تلك الطائرة دون مدافع عديدة وكمية من الذخيرة كبيرة مدافع قد تبلغ الثمانية عداً، وذخيرة قد يتعدى معدل إطلاقها الخمسة آلاف رصاصة في الدقيقة الواحدة. هذه الضآلة إذن يجب أن تتسع لتلك المدافع وهذا الرصاص، ولمقدار ضخم من الوقود فرضه علينا محرك قوي، مقدرته على الالتهام عظيمة

هذه أخيراً طائراتنا، توصلنا إلى اصطناعها سريعة ما وسعنا الاصطناع، وأوجزنا من طول أجنحتها ما أوجزنا، وضمَّرنا من خصرها حتى ضمرت ما وسعها الضمور. ولكن تلك السرعة اللعينة تعلق بها علوقاً حتى عند الهبوط، فترى الطائرة تنهب الأرض نهباً، ولا تستطيع الوقوف إلا إذا انفسح لها المجال في المطارات. والمطارات الفسيحة لا تتسع لها كل أرض، ولا تتسع لتكاليفها حتى الميزانيات، فنضطر إلى إلحاق بعض القلابات بسطوح الأجنحة السفلى لتحد من سرعة الطائرة عند الهبوط. وهذه القلابات تعني زيادة في الحجم، وزيادة في الوزن

وأحياناً لا نشعر بالقاذفات إلا وهي قريبة منا على أهبة الهجوم، فنطلق المقاتلات من معاقلها. ولكن هذه الطائرات القصيرة الأجنحة، السريعة كل السرعة في الاتجاه الأفقي، تعجز عن الارتفاع إليها في مدى الزمن المطلوب، فنعود إلى المهندسين يطيلون أجنحتها، ويزيدون من مساحتها، ليعينوها على التسلق العاجل، مضطرين إلى التنازل عن قليل من سرعة الانطلاق، مقابل بعض الربح في سرعة التصاعد

وإذا انتقلنا إلى القاذفات، وهي أداة التحطيم الاستراتيكي وجدناها في حاجة إلى كثير من الوقود، وكثير من القنابل، وبعض الرشاشات تذود عنها فتك المقاتلات، كما هي طائرات كبيرة الحجم ضخمة الجسم، وهذا يحد من سرعتها كثيراً، ورشاشاتها تلك لا تحميها كل الحماية، فتعمد إلى تغليف مواطنها الحساسة بالصفائح السميكة، وهذا أيضاً عبء كبير يزيد تباطؤها أن لم نعوضه بالتقتير عليها في إحدى وديعتها الأساسيتين: أو القنابل. فإن شح وقودها عجزت القاذفة عن إدراك بعيد الأهداف ولزمت دائرة القريب منها، وإن ضُنَّ عليها بالقنابل قنعت بإغارة ضعيفة عجفاء على الأهداف القاصية. وقد تتدرج الحالات من هذه إلى تلك. على أن يظل مجموع ما حمِّلت به الطائرة من أثقال داخل النطاق المسموح.

ولكنا أحياناً نواجه ضرورات قاسية تحتم علينا تحطيم بعض مرافق العدو النائية تحطيماً فعالاً. فنود لو تمكنا من الارتفاع بالزاخر من الوقود والوافر من القنابل، فلا تسعفنا عندئذ إلا (القلاع الطائرة) البطيئة الحركة، المعرضة كل التعرض لهجمات المقاتلات، نراوغ هذه إما بالتسلسل تحت جنح الظلام، وإما بالتصاعد إلى طبقات عليا: هبط فيها ضغط الهواء إلى ما تحت الحدود اللازمة لاستيفاء أسباب الحياة. نتحايل على تلك الحال بإحكام منافذ غلاف الطائرة على جوف اصطنع فيه ضغط جوي يقارب الضغط العادي، بواسطة آلات ضخمة تعجز طائرات المطاردة الخفيفة الوزن عن حملها والصعود بها إلى هذه السموات البعاد

(البقية في العدد القادم)

حسين ذو الفقار صبري

البريد الأدبي

أول احتفال بالعام الهجري

ذكرتُ بحسن احتفال الأمة والحكومة بالعام الهجري في هذه السنة حقيقة تاريخية قد لا يعرفها الكثيرون: وهي أن الحكومة المصرية إلى سنة 1327هـ لم تكن تعترف به كعيد من الأعياد، حتى نبهها إلى ذلك قادة الحركة القومية، برآسة المرحوم محمد بك فريد، فأصدرت وزارة المرحوم بطرس غالي باشا قراراً بجعله يوم عيد رسمي تعطل فيه مصالح الحكومة. وقد صدر هذا القرار في ملحق لعدد 20 يناير سنة 1909 من الوقائع المصرية وهذا نصه.

بمناسبة أول السنة الهجرية الجديدة ستقفل نظارات الحكومة ومصالحها في يوم (السبت أول محرم سنة 1327هـ - 23 يناير 1909م)

وقد كان أروع احتفال أقيم في هذه السنة، هو الذي أقامه رجال الحزب الوطني في دار التمثيل العربي برآسة المرحوم أحمد بك لطفي المحامي، وكان من خطبائه الأساتذة: أحمد وجدي المحامي، ومحمد توفيق العطار، ومحمد راضي، وإمام واكد، وعبد المجيد إبراهيم صالح (باشا) الطالب بمدرسة الحقوق، وألقى حافظ قصيدته المشهورة:

أطلّ على الأكوان والخلق تنظر ... هلال رآه المسلمون فكبروا

تجلى لهم في صورة زاد حسنها ... على الدهر حسناً أنها تتكرر

وقد أشار إلى هذا الأستاذ الجليل عبد الرحمن الرافعي بك، مؤرخ الحركة الوطنية، في كتابه عن المرحوم فريد بك، فليراجعه من أراد التفصيل.

(المنصورة)

علي عبد الله

تاريخ وفاة ياقوت

وبعد فقد قرأت الملاحظة الدقيقة التي أوردها الأستاذ الفاضل محمود عزت عرفة في الصفحة 1170 من مجلة (الرسالة) الغراء لسنة 1942 عن الشبهة التي تولدت لديه في تاريخ وفاة ياقوت الحموي بسبب ما جاء في الجزء (9) والصفحة (198) من معجم الأدباء

طبعة دار المأمون في ترجمة الحسن بن أبي المعالي من أن ياقوت الحموي لقيه ببغداد سنة 637 وهو يخالف المعروف عن وفاة الثاني التي كانت في سنة 626

وقد رجعت إلى كتاب معجم الأدباء طبعة مرجليوث على نفقة لجنة ذكرى جبّ فوجدته يذكر في الصفحة الأولى من الجزء الرابع في ترجمة الحسن المذكور ولقيته ببغداد

سنة 603. ولذلك فإن نقل التاريخ المذكور إلى طبعة دار المأمون بزيادة 34 سنة وجعله 637 جدير بالاهتمام الذي أثارته في نفسي تلك الغلطة الغريبة
إلا أنه قد يكون الدكتور أحمد فريد رفاعي - كما قال في كلمة الإهداء التي بدأ بها الجزء الأول من طبعة دار المأمون - قد استفاد من نصيحة ناشر الكتاب الأول له أو من الصور الشمسية للصفحات التي تركت في الطبعة الأولى ووصلت إليه، وأدرك وقوع الخطأ في تاريخ لقاء ياقوت بالحسن بن أبي المعالي المذكور فصححها على الصورة المتقدمة، وهذا يعرفه هو، وعليه إن شاء أن يثبته بالبرهان؛ وإلا فإن تاريخ وفاة ياقوت ستظل كما هي مدونة في كتب التراجم سنة 626 ولا عبرة لتاريخ وفاة الحسن المذكور الواردة في كتاب السيوطي لأنها ليست حجة على وفاة ياقوت
عبد الله مخلص

تجديد اللغة

لغتنا العربية لغة عميقة تتميز بسعة ومرونة وحسن انقياد؛ ومن هذه الصفات استقامت لها قابلية المطاوعة، فكانت أكثر اللغات كفاية. وليس أدل على ذلك من كثرة مشتقاتها ووفرة تعبيراتها، مما لا يكاد المرء يعثر على نظير له في غيرها من اللغات. وحسبك أن ترجع إلى ما خلفه لنا أعلام الأدب العربي في ثنايا كتبهم وتضاعيف مصنفاتهم. من تعبيرات تترقرق فيها المعاني، وتركيبات تتألق خلالها الأفكار، لكي تتحقق من غناء هذه اللغة التي وصمت بالفقر وهي على قدر من الثراء كبير.
أجل إن لغتنا زاخرة بالمفردات والتعبيرات؛ ولكنها في حاجة إلى من يستخرج من تضاعيفها تلك الكنوز التي غبَّرها الزمن فانقطعت بنا صلتها، مع أنها إذا ما أزيح ما عليها من غبار، عادت إليها جِدتها، فانفتح لنا مغلقها، واتضح لنا غامضها. وليست هذه بمهمة
هينة، لأن القدرة على تصيد مثل هذه الألفاظ الشاردة، وردها إلى حظيرة الاستعمال اللغوي بعد أن طال عهدها، لا تتوافر لكل باحث لغوي، ولا تتهيأ لكل منقطع إلى المطالعة. وإنما هناك نفوس طبعت على تذوق المعاني، فلا تكاد تبدهها الجمل منثورة هنا وهناك، حتى تضع يدها على الألفاظ السهلة التي صيغت فيها المعاني الكبيرة؛ فإذا ما قصدت إلي الكتابة بادرت إليها تلك الألفاظ طائعة مختارة، فترد على قلمها وكأنها جديدة ما عرفت النور من قبل!
من ذلك ما ورد في مقال أستاذنا الأب أنستاس ماري الكرملي الأخير (الرسالة 11: 497) في العبارة التالية: (ونحن نورد لك نموذجاً مما قال، وقد عثرنا عليه نَبَهاً) إذ نجد في هذه العبارة كلمة سهلة سلسة، قلما تدور على أقلام كتابنا، على الرغم من أنها تعبر عن معنىً زعم قوم أنه لا سبيل إلى التعبير عنه إلا بالخروج على اللغة! ومعنى كلمة (نَبَه) - كما جاء في المخصص لابن سيده، ج13 ص73 - (الضالة توجد عن غفلة؛ وجدته نبهاً أي من غير طلب، وأضللته نبهاً أي لم أدر متى ضَلّ. . .) وقد وردت هذه الكلمة في بيت لذي الرمُة، يصف فيه ظبياً قد انحنى في نومه، وهو قوله:
كأنه دُمْلُج من فِضّة نَبَهٍ ... في مَلْعب من عَذارى الحيّ مفصوم
وجاء في لسان العرب: (النَبَهُ الضالة توجد عن غفلة لا عن طلب، يقال وجدت الضالة نبهاً من غير طلب، وأضللته نبهاً لم تعلم متى ضل. وقول ذي الرمة كأنه دملج من فضة نَبَه وضعه في غير موضعه، كان ينبغي له أن يقول كأنه دملج فُقِدَ نَبَهاً. . .)
والذي عندي أن قولنا: عثرت على الشيء نبهاً، قول يؤدي معنى الوقوف على الشيء من غير طلب، خاصته وقد جاءت كلمة (نَبَه) فأكدت معنى الالتقاء الذي يفيده (العثور على الشيء). فعسى أن يلقى هذا التعبير موافقة وقبولاً.
(مصر الجديدة)
زكريا إبراهيم

إلى الأستاذ محمود عزت عرفة

نسبت إليَّ أيها الأستاذ أني زعمت أن الرسول عليه الصلوات كان ممن يبدلون في القرآن
لفظاً بلفظ آخر يغايره في معناه. ومثل هذا لا يصح مني أن أقوله أو أزعمه، ولكن كثيراً من الناس يقرؤون ما كتبت فيصدقونه، ولا يكلفون أنفسهم أن يرجعوا إلى ما كتبت أنا، ليعلموا أني لم أقصد إلا توجيه قراءات منزلة بسبب هداني الله إليه، وهو

جدير بالتقدير من كل منصف. وقد قلت في ذلك - فقضت رأفة الله أن يقرأ القرآن بما يحتمله من ذك تيسيراً على المسلمين في عصر الوحي الخ - فجعلت مرجع ذلك إلى الله تعالى، لا إلى النبي ولا إلى أحد من خلقه، ثم ذكرت أن النبي كان يعين أمثال تلك المواضع ابتداء أو بعد رجوع أصحابه إليه، فقطعت بهذا كل ليس في رأيي، ولكن الناس يأبون إلا أن يحملوا كل جديد على خلاف ظاهر، وعلى أسوأ ما يمكن أن يحتمله ولو بتكليف، لأنهم يكرهون التجديد ويسيئون الظن بمن يدعوا إليه. وإنه لغريب أن تثير كلمتي في اختلاف القراءات ما أثارته، مع أني أردت فيها بخصوصها أن أعرضها قبل نشرها على أخ لي من العلماء لا يتهم بالتجديد مثلي، فأقرني على نشرها ولم ير شيئاً فيها. أما أنك أيها الأستاذ لم تزد في كلامك فيما رأيته من التصحيف على ما أورده السيوطي فهو التراجع بعينه، ولعلك تذكر أيضاً أنك أضفت إلى ذلك قراءة - فتثبتوا - وهي قراءة سبعية متواترة.

عبد المتعال الصعيدي

حديث الجهاد الأصغر والأكبر

جاء بالكلمة الثانية التي نشرها الأستاذ الفاضل محمد عرفه عن العيد في العدد 495 (أن رسول الله (ص) قال وقد رجع من غزوه، رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر يعني جهاد النفس)

وهذا الحديث قال عنه الحافظ بن حجر: (إنه مشهور على الألسنة ولكنه من كلام إبراهيم بن عيلة) اهـ

وقد رواه الغزالي في كتاب الأحياء ولكن كم في هذا الكتاب من ضعيف وموضوع.

محمود أبو ربه

من عجائب البريد

جناب السيد الجليل الأفخم صاحب مجلة (الرسالة) البهية طال بقاؤه:

أحمد الله إليكم. وبعد فإنكم في العدد 486 من السنة العاشرة لمجلتكم نشرتم مقالاً عنوانه (إلى المعترضين علينا) للأب (أنستاس ماري الكرملي، وأنا المقصود في قوله (المعترضين علينا) أو أنا أحدهم، ولم ترسلوا إليّ عدداً لأقف عليه. وعدم إرسالكم عدداً يفسح لي أن أرفع عليكم دعوى في محاكم مصر الجزائية وأطالبكم بما يعدُّه القضاء السوري (عطلاً وضرراً) والآن أرسل إليكم رداً بالبريد المسجل وأصبر شهراً عليكم لنشره، فإذا لم يكن منكم رضى بنشره سأقصد مصر وأداعيكم لدى قضاءه العادل. إني أعمل بمقتضى الشرع السوري وأحسب أنه شرع مصر أيضاً. وأنتظر شهراً لجوابكم على كتابي هذا وقد أعذر من أنذر.

دمشق24 كانون الأول سنة 1942

الداعي

أمين طاهر خير الله

ألقى إلينا البريد هذا الكتاب فأحببنا أن يطلع قراؤنا (الرسالة):

عليه ليتفقهوا أو يتفكهوا، فان للأساتذة اللغويين في بعض الأحيان جداً يشبه الهزل. أما الرد المسجل فكله على هذا النحو من المنطق، وأربعة أخماسه في شرح (النقطة القانونية) التي سيبني عليها الأستاذ رفع دعواه. فرأينا من التكرمة لرجال الأدب ألا ننشره.

العدد 499 - بتاريخ: 25 - 01 - 1943

ضحك كالبكي

للأستاذ عباس محمود العقاد

الضحك في صورته الجسدية تنفيس عن الجسد المكظوم

ذلك معناه الحرفي كما نراه رأى العين. فالضحك في صورته الجسدية حركة متتابعة في الصدر والحلق والفم يكثر بها تجدد الهواء في الجسم المكظوم، فيشعر على أثر هذه الحركة بطلاقة بعد حبس، وفرج بعد ضيق

وخليق بهذه الحقيقة المحسوسة أن تقودنا إلى عرفان معنى الضحك من الوجهة النفسية، أو من الوجهة الفكرية

فهو أيضاً تنفيس عن النفس المكظومة، أو الفكر المكظوم، وهو تعويض للحرية

الضائعة، والطلاقة المحدودة
ولهذا تكثر الحاجة إليه في أيام الاستبداد
ولهذا تشتهر الأمم التي طالت فيها عهود الاستبداد بكثرة التنكيت، وشيوع النوادر المضحكة بين أبنائها
وربما كان هذا مرجع الشهرة التي اشتهر بها المصريون في طوال العصور الغابرة، حين كانوا يُبتلون بالدولة الطاغية بعد الدولة الطاغية، تنالهم بالعسف والجور، وينالونها بالنكات والنوادر، فإذا هم يلوذون من الضحك بدرع تعينهم على الصبر وسلاح يعينهم على الانتقام.
وللاستبداد موقفان متناقضان من الضحك والضاحكين
فالمستبد المسيطر على الناس بالجبروت والطغيان يريد أن يهولهم وينزل منهم منزلة القداسة والتنزيه، فلا يحب أن يصبح بينهم عرضة للضحك، ولا أن يجترئوا عليه بالعبث والاستهزاء، ولو من وراء ظهره
ولكنه بعلم أنه يضيق عليهم الخناق، وأنه يلجئهم إلى التنفيس عن صدرهم بوسيلة من الوسائل، ولو على حسابه كما يقولون إن لم تكن ثمة وسيلة أخرى. ولهذا قيل إن الزعماء النازيين - وفي مقدمتهم هتلر - يقربون إليهم فئة من المضحكين والمتندرين يسمعون منهم نكات الجماهير وفكاهات العامة والخاصة، ويجتهدون مع هذا في تحويل النكات والفكاهات
عنهم ما استطاعوا، ليضحك الشعب ويحتفظ الحكام المستبدون بهالة الرهبة والوقار في وقت واحد
ولست أذكر أن أصحاب الدعوة النازية غضبوا لشيء قبل الحرب كغضبهم لقول الخصوم عن الشعب الألماني إنه شعب محروم من ملكة الفكاهة، وأنه لا يعرف الضحك والسخرية، وإلا لما طال صبره على المظاهر الحكومية التي هي أدعى الأشياء إلى الضحك والسخرية!
فقد أثارت هذه التهمة غضب جوبلز وتلاميذه فأوعزوا إلى الصحف الناقدة عندهم أن تقيم الدليل على بطلانها، وراحت هذه الصحف تعقد عندهم أن تقيم الدليل على بطلانها، وراحت هذه الصحف تعقد المباريات لأصحاب النوادر والتعليقات الفكاهية وتغريهم على الظهور تارة بالتنويه والثناء، وتارة بالجوائز والمكافآت. وكانت البدعة الشائعة في تلك الأيام بدعة تقصير الملابس والإفراط في التجرد بين النساء الأوربيات ومنهن الألمانيات، فانهال المتندرون على هذه البدعة بالتنكيت والتسخيف واتخذوها هدفاً للمباريات والمسابقات. وأذكر من نوادرهم في ذلك نادرة لا بأس بها فاز صاحبها بإحدى الجوائز الأولى، وهي أن رجلاً دخل المنزل فرأى امرأته في كساء جديد يشبه أكسية الحمام في القصر والخفة، فبادرته قائلة: ألا تعلم يا فلان أنني ظفرت بخائط يبيعني الكسوة التي أحتاج إليها بالتقسيط؟
فنظر إليها حانقاً وقال: (وأظن هذا هو القسط الأول من الكسوة؟. . .)
واعتقد الدعاة النازيون أنهم أبطلوا تهمة خصومهم بجملة هذه النكات، وأثبتوا للشعب الألماني ملكة الفكاهة التي ينكرها عليه المنكرون
على أن الواقع - بنجوة من المفاخرات القومية والخصومات السياسية - أن أبناء الحواضر في ألمانيا لا تفوتهم النكتة اللاذعة، ولا تخلوا تعليقاتهم على الحكام والنظم الحكومية من الفكاهة الصادقة، وإن لم يبلغوا فيها شأو أبناء العواصم الأخرى كفينا وموسكو ولندن وباريس
ويغلب على اعتقادنا أن الصرامة النازية قد شحذت هذه الملكة ولم تقتلها، لأن هذه الصرامة تلجئ الناس إلى التنفيس عن صدورهم بالنكات والفكاهات، وكل ما هنالك أنها لا
تنطلق على الألسنة ولا في الصحف كما تنطق في البلدان التي تملك القول والنشر ولا تبتلي فيهما بالحجر الشديد
وقلما خرج من برلين - أو من ألمانيا على العموم - صحفي أو ناشر أو مذيع من الذين أقاموا فيها أيام الحرب إلا جاء معه بجعبة حافلة بالنوادر والفكاهات التي يتهامس بها أبناء برلين وميونيخ وغيرهما من الحواضر الكبرى
أحد هؤلاء وليام شيرر الذي كان يذيع من ألمانيا لمحطات الإذاعة الأمريكية المعروفة

باسم (اتحاد كولومبيا) وقضى في أواسط أوربا سبع سنوات ثم غادرها بعد أن ضاقت به الحال وتعذر عليه أن يبلغ سامعيه شيئاً يستحق عناء التبليغ
ضاقت به أسباب الإذاعة لأنهم كانوا يحذفون معظم كلامه أو يحذفون كلامه كله في بعض الأيام، وكانوا إذا حذفوا كلامه كله خشوا أن يعزو السامعون ذلك إلى شدة الرقابة على الأنباء فاعتذروا عنه بغير علمه قائلين: إنه لا يذيع الليلة لأنه تأخر عن الموعد! ولم يقولوا إنه لا يذيع لأن الكلام الذي أعده للإذاعة قد حذف كله، أو لم يبق منه ما يستغرق الوقت المقدور لأنبائه
وحاول في بداية الأمر أن يعالج ذلك بما في وسعه فأقلع عن الصراحة ما استطاع وتعرَّض منها بالتلميحات والإشارات وتحميل اللهجة شيئاً من معاني السخر أو التوكيد أو الإيحاء. فما راعه ذات يوم إلا رقيب يلازمه ويشير على بعض الكلمات بالمداد الأحمر، ويقيس الفواصل بين جملة وجملة في أثناء الإلقاء حذراً من أن يكون المتكلم قد أراد بطول السكوت أن يلفت السامعين إلى أطواء كلامه السابق أو المقبل. فلما استحال عليه أن يقول كل ما يريد، وأن يقول بعض ما يريد، وأن يقول بالإشارة والسكوت ما يستحق أن يقال، لم يجد بداً من الرحيل، فرحل وفي ذاكرته وأوراقه جعبة من الخواطر والحواشي والتعقيبات تنبئ العالم بأضعاف ما كان ينبئهم به في أحاديثه ورسائله، وضمنها جميعاً كتاباً من الكتب النادرة في تاريخ الحرب الحاضرة، فما انقضى على صدوره عام واحد حتى كان قد أعيد طبعه ثماني مرات
في هذا الكتاب طرَف من فكاهات أهل برلين وفكاهات الموقف هنالك على الإجمال، تدل على أن الإنسان في إبان الخطر يحتاج إلى منفس الفكاهة - إلى الضحك - حاجة لا يبالي
معها بالموت أو العذاب، لأنها حاجة فردية شعبية لا حيلة فيها للحرب وضروراتها ولا للسطوة وطغيانها. فلا بد من التنفيس أو الانفجار
قال فيما رواه من تلك النوادر إن مدير مصلحة الوقاية نصح إلى الناس أن يبكروا بالنوم أول الليل قبل موعد الطائرات المغيرة. فكان أناس منهم يستمعون نصحه وأناس يؤثرون السهر وانتظار الموعد وهم أيقاظ
فإذا انطلقت زمارات الإنذار أقبل اللاجئون إلى المخابئ يحي بعضهم بعضاً بمختلف التحيات
أسعد الله صباحكم!. . . تلك تحية الذين بكروا بالنوم فلما استيقظوا تبادلوا التحية التي تعودوا أن يتبادلوها عند اليقظة
أسعد الله مساءكم!. . . تلك تحية الذين لم يناموا بعد، فهم يتبادلون تحيات السامرين في المساء
. . .هيل هتلر!. . . تلك تحية الذين ناموا من أول الحرب، ولا يزالون نائمين
وقال إن أهل برلين يزعمون أن هتلر وجورنج وجوبلز ركبوا طيارة فسقطت وهلكوا. . . ومن الذي نجا؟. . . الشعب الألماني
وربما كانت فكاهة الموقف أدعي إلى السخر من الفكاهة التي يخترعها المخترعون فمن ذلك ما سمعه المراسل من بعض أهل (كولون) وأكد صدقه، وهو عجيب لولا أن الحروب لا تخلوا من عجيب
قال: إن الكساوى الرسمية قد كثرت في البلاد الألمانية أثناء الحرب حتى تعذر التمييز بينها
فمن ذلك أن ضابطاً من سلاح الطيران البريطاني تلكأت به طيارته على مقربة من كولون فهبط على الأرض ودخل إلى المدينة يائساً من النجاة لتسليم نفسه، وتوقع أن يقبض عليه الشرطة أو من يصادفه من رجال الحكومة فلم يقبض عليه أحد ممن رأوه، بل كانوا يقفون له ويتلقونه بالتحية ويخلون له الطريق فاطمأن بعض الاطمئنان وكانت معه ورقات من عملة النقد الألمانية يحملها الضباط الطيارون عادة كلما حلقوا فوق ألمانيا، فخطر له أن يمضي بعض الوقت في دار للصور المتحركة ريثما يتفق له ما هو
مقدور له من الاعتقال أو النجاة
فطلبت منه العاملة نصف الأجر المكتوب على التذكرة، لأنه يلبس الكسوة العسكرية ثم خرج من دار الصور إلى حيث سلم نفسه إلى ديوان الحكومة، وذكر لهم أنه أمضى

بعض الوقت في المدينة ولم يقبض عليه أحد. فلما سألوا عاملة التذاكر فيمن سألوه: هل بعتِ هذا الرجل تذكرة لحضور الصور المتحركة هذا المساء؟
قالت نعم. وبنصف الأجرة مع السرور، لأننا لا نظفر في كل ليلة برجل من سلاح هتلر الممتاز!
ذلك أن الضابط كان يحمل على كتفه هذه الحروف الثلاثة: (س. هـ. م) أي سلاح هوائي ملكي. . . ففهمت العاملة وفهم السابلة معها أن الحروف اختصار لسلاح هتلر الممتاز، وهو أحق الأسلحة عندهم بالتوقير، وأندرها في أطراف البلاد!
إن صحت هذه القصة فهي من فكاهات القدر، وعندما تجب الفكاهة على الناس لا تندر بينهم فكاهة الأقدار
ولكنه ضحك كالبكي
وصدق ابن الرومي حيث قال:
إن من نابه الزمان بخطب ... لأحق امرئ بأن يتسلى
ومن كان في وسعه تسلية الفكاهة، ففي وسعه من التسلية كثير.
عباس محمود العقاد
مسابقة الأدبي العربي
ديوان حافظ إبراهيم - 3
للدكتور زكي مبارك
فن جديد ابتكره حافظ - هجريات حافظ - الشعر السياسي قبل الاستقلال - عبقرية حافظ في مقاومة الاحتلال - الشاعر المظلوم - بقية القول
فن جديد ابتكره حافظ
لم تكن المواسم الدينية ملحوظة في الشعر العربي على نحو ما نرى في هذا العهد؛ فقد كان يتفق أن يهنئ الشعراء ممدوحيهم بقدوم شهر الصيام وحلول العيدين. وتفرد الشيعة بإقامة المآتم يوم عاشوراء بكاء على الحسين
وما أذكر أن الشعراء كانوا يهتمون بالعام الهجري فينظمون القصائد في استقباله، كما كانوا يصنعون في استقبال النيروز، وإنما هي سنة حسنة نشأت في مصر منذ ثلاثين عاماً. سنةٌ دعا إليها فريق من شباب الحزب الوطني وعلى رأسهم (إمام واكد)، وقد استطاع أولئك الشباب أن يحملوا الحكومة على جعل اليوم الأول عطلة رسمية، وهي الفرصة التي أتاحت لحافظ أن يبتكر هذا الفن الجديد
وإنما أعد هذا ابتكاراً من ناحية الالتزام، وأعني أن حافظاً جعل هذا الفن من الفنون الموسمية، فكان يستقبل هلال المحرم بقصيد جديد. ثم عصفت الحوادث فشغلت مصر عن الاحتفال بعيد الهجرة عدداً من السنين، وتناسى حافظ واجبه فلم يقل في عيد الهجرة شيئاً يذكر بالعهد الذي انتفع به في صباه يوم كان قيثارة الحزب الوطني ثم كان التوجيه الجميل الذي صدر من قلب الملك الشاب فاروق ابن فؤاد، التوجيه الذي يوجب أن تحتفل الحكومة المصرية احتفالاً عاماً تظهر آثاره في جميع البلاد، وتُطلَق فيه المدافع، وترن أصوات الموسيقى في الحدائق والبساتين، وتعد فيه دفاتر التشريف بقصر جلالة الملك، ويتبادل فيه الناس التهاني بأسلوب لم يألفوه قبل هذا العهد
المهم هو النص على هذه الظاهرة الجديدة في الحياة المصرية لنعرف متى ابتدأ الشعراء هذا الفن الجديد، راجين أن تكون لهم تحليقات يفوقون بها مبتكر هذا الفن الجديد
هجريات حافظ
ولكن ما طريقة حافظ في تلك الهجريات؟
لا تظنوها قصائد دينية يبين فيها الحكمة من هجرة الرسول - وإن ألمع إلى شيء من ذلك - وإنما هي قصائد يسجل بها حوادث العام الماضي ويسطر فيها ما يرجو في العام الجديد، ومن أجل هذا يستبيح الهجوم على هلال العام السابق إن أخلف الرجاء، كأن يقول في هلال سنة 1327
هللت حين لمحت نور جبينه ... ورجوت فيه الخير حين تألقنا
وهززته بقصيدة لو أنها ... تُليت على الصخر الأصم لأغدقا
فنأى بجانبه وخص بنحسه ... مصراً وأسرف في النحوس وأغرقا

لو كنت أعلم ما يخبِّئه لنا ... لسألت ربي ضارعاً أن يمُحقا
وبهذا تجرد هلال المحرم عند حافظ من حليته الدينية، واحتفظ بصبغته الزمانية، فهو بدء مرحلة جديدة من مراحل التاريخ يسعد بها قوم ويشقى بها أقوام
وهجريات حافظ تمثل اتجاهات الرأي العام المصري في الوقت التي قيلت فيه، وتدلنا على أن المصريين كانوا يسايرون الحوادث في الأقطار العربية والإسلامية، فهم يعرفون أشياء من أحوال الترك، وأشياء من أحوال الفرس، وأشياء من أحوال الأفغان، وعندهم أخبار عن الجزائر ومراكش وجاوة والهند، ويتأثرون بما يقع في تلك الأقطار من حوادث وخطوب. ومراجعة الرائية والقافية تؤيد ما نقول. ولنقرأ معاً هذه الأبيات في الموازنة بين حال الترك وحال الفرس عام 1908
سلو الترك عما أدركوا فيه من منىً ... وما بدَّلوا في المشرقيْن وغيَّروا
وإن لم يقم إلا نيازي وأنورٌ ... فقد ملأ الدنيا نيازي وأنور
تواصوا بصبر ثم سلوا من الحجا ... سيوفاً وجدُّوا جدهم وتدبروا
سلو الفرس عن ماضي أياديه عندهم ... فقد كان فيه الفرس عمياً فأبصروا
جلاَ لهم وجهَ الحياة فشاقهم ... فباتوا على أبوابها وتجمهروا
ينادون أن منِّى علينا بنظرةٍ ... وأحيي قلوباً أوشكت تتفطر
والشاعر يطيل القول في فوز الترك بالدستور، وحرمان الفرس من الدستور. فإذا حال
الحول وجاءت تحية العام الجديد كانت الفرس ظفرت بالدستور، وكان على الشاعر أن يقول:
أولَى الأعاجم منَةً مذكورةً ... وأعاد للأتراك ذاك الرونقا
وتغيرتْ فيه الخطوب بفارسٍ ... حتى رأيت الشاه يخشى البيدقا
ثم يلتفت الشاعر فيرى مصر لم تظفر بشيء، لا بالدستور ولا بالاستقلال، وفي ذلك العام نُفِّذ قانون المطبوعات فقَصَّتْ أجنحة الجرائد المصرية، وجاز للشاعر أن يقول:
فتقيدت فيه الصحافة عنوةً ... ومشى الهوى بين الرعية مطلقا
كانت تواسينا على آلامنا ... صُحُفٌ إذا نزل البلاء وأطبقا
كانت لنا يوم الشدائد أسهماً ... نرمي بها سوابقاً يوم اللقا
كانت صماماً للنفوس إذا غلت ... فيها الهموم وأوشكت أن تزهقا
كم نفَّستْ عن صدر حرٍّ واجدٍ ... لولا الصمام من الأذى لتمزّقا
مالي أنوح على الصحافة جازعاً ... ماذا ألمّ بها وماذا أحدقا
قصّوا حواشيها وظنوا أنهم ... أمِنوا صواعقها فكانت اصعقا
ثم يتكلم عما وقع في ذلك العام من محاولة تجيد امتياز قناة السويس، وهي محاولة أثارت الجمهور المصري في سنة 1910، ثم يوجه القول إلى الشبان:
لا تيأسوا أن تستردّوا مجدكم ... فلربّ مغلوبٍ هوَى ثم ارتقى
مدْت له الآمال من أفلاكها ... خيط الرجاء إلى العُلا فتسلقا
فتجشَّموا للمجد كل عظيمة ... إني رأيت المجد صعب المرتقَى
من رام وصل الشمس حاك خيوطها ... سبباً إلى آماله وتعلقا
عارٌ على ابن النيل سّباق الورى ... مهما تقلب دهره أن يُسبَقا
أوَ كلما قالوا تجمّع شملهم ... لعب الشقاق بجمعنا فتفرقا
إلى آخر ما قال من هذا النصح الثمين.
الشعر السياسي قبل الاستقلال
سياسيات حافظ وقعت في عهد الاحتلال، السياسيات التي جعلته شاعر النيل، أما سياسياته بعد إعلان الاستقلال فهي مشوبة بالضعف، لأنه كان تعب من النضال، ولأنه كان استراح
إلى مطارحة الأحاديث في الأندية والبيوت والقهوات
فما سياسيات حافظ في عهده الأول؟
كان يشارك الجمهور المصري في مقاومة الاحتلال بعبارات هي الغاية في صدق الوطنية، ولكنه كان يقول كلاماً نَعدُّه اليوم من الكفر بالوطنية، فقد كان يطالب المحتلين بإصلاح البلاد، ويدعوهم إلى التحرز في اختيار الوزراء. . . أليس هو الذي يقول في مخاطبة السير جورست:

إذا ما شئت فاستوزر علينا ... فتىً كالفضل أو كابن العميد
ولا تُثْقِل مطاه بمستشارٍ ... يحيد به عن القصد الحميد
ولم يفت حافظاً أن يدعو جورست إلى إنشاء الجامعة المصرية فيقول:
وأسعدْنا بجامعةٍ وشيّدْ ... لنا من مجد دولتك المشيد
وإن أنعمتَ بالإصلاح فابدأ ... بتلك فإنها بيت القصيد
وقد أخطأ شارحو الديوان حين قالوا إن الجامعة المصرية لم تكن أنشِئت بعدُ، فقصيدة حافظ في استقبال جورست نُشرت في وقت كانت فيه الأمة استعدت بقوتها الذاتية إلى إنشاء الجامعة المصرية، كما يشهد التاريخ الذي سنسطره بعد حين.
عبقرية حافظ في مقاومة الاحتلال
لن نعفر لحافظ أنه استنصر بجورست فقال:
تَداركْ أمةٍ بالشرق أمست ... على الأيام عاثرة الجدودِ
وأيِّدْ مصر والسودان واغنمْ ... ثناَء القوم من بيضٍ وسود
فهذا كلامٌ لا تقوله اليوم، ولن نقوله بعد اليوم، لأنه كلامُ لا يقاوم له ميزان ولكنّ حافظاً له عبقرية في مقاومة الاحتلال لم نجدها عند غريمه شوقي، فما تلك العبقرية؟
إنها تتمثل في البيت الطريف:
لقد كان فينا الظلم فوضى فهُذِّبتْ ... حواشيه حتى بات ظُلماً منظَّما
وتتمثل في الأبيات التي نص فيها على تدريس العلوم باللغة الإنجليزية في المدارس الثانوية إضراراً باللغة العربية، وتتمثل في قصائده في وصف مأساة دنشواي، وهي مأساة لم تغب فجائعها عن الإنجليز أنفسهم، فسمعوا صوت الزعيم الوطني (مصطفى كامل)،
ونقلوا لورد كرومر إلى حيث لا يريد. وسيقول التاريخ إن صوت قَرَع سمع الاحتلال هو صوت المنوفية روضة البحرَيْن وزينة الوجود.
الشاعر المظلوم
هو حافظ إبراهيم الذي نحاكمه ظالمين، الشاعر الذي صرخَ فقال:
إلى من نشتكي عنَت الليالي ... إلى (العباس) أم (عبد الحميد)
ودون حماها قامت رجالٌ ... تهددنا بأصناف الوعيد
وكان هذا الأتهام ينشر بطريقة علنية في الجرائد المصرية، فكان شاهداً على خمود حاسة العدل هنا وهناك
ومما يُشرِّف الجيل الحديث أن نصرّح بأنه استطاع في عهد الشدة ما لم يستطع أسلافه في عهد الرخاء، فمصر التي كانت تقاوم الاحتلال وهي مؤيدة بالدولة العلية، لم تكن أقوى من مصر التي تقاوم جميع المكاره وهي مؤيدة بقوتها الذاتية
بقية القول
سياسيات حافظ ليس فيها كذبٌ ولا رياء، فقد عرفتُ من مسالك حافظ أنه لم يكن ينشر قصيداً إلا بعد أن يعرضه على جميع من يصادف من رجال السياسة والبيان، فشعره صورة صحيحة لزمانه، وهو زمان جمع بين الغرائب في الإفهام والأذواق، وكذلك تكون الأزمان التي تُعدُّ الأمم للنهوض والتحليق
مداراة حافظ للاحتلال لون من السياسية الوقتية، أما ضمير حافظ فهو ضمير الوطني الصادق، ضمير الشاعر الذي يدرك في سريره وطنه ما يدرك سائر الناس. أليس هو الذي أنبأنا أن مصر قالت:
وقف الخلقُ ينظرون جميعاً ... كيف أبني قواعد المجد وحدي
وبناة الأهرام في سالف الده ... ر كفوني الكلام عند التحدي
أنا تاج العلاء في مفرق الشر ... ق ودرَّاته فرائد عقدي
أي شيء في الغرب قد بَهَر النا ... س جمالاً ولم يكنْ من عندي
فترابي تبرٌ، ونهري فراتٌ ... وسمائي مصقولة كالفِرِند
أينما سرت جدول عند كرم، ... عند زهر مدبَّرٍ، عند رند
ورجالي لو أنصفوهم لسادوا ... عن كهول ملء العيون ومُرْد
لو أصابوا لهم مجالاً لأبدوا ... معجزات الذكاء في كل قصد
إنهم كالظُّبا ألحّ عليها ... صدأ الدهر من ثواء وغمد

فإذا صَيْقل القضاء جلاها ... كن كالموت ما له من مردّ
أنا إن قدر الإله مماتي ... لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدي
ما رماني رامٍ سليماً ... من قديم عناية الله جُندي
كم بغَت دولةٌ عليّ وجارت ... ثم زالت وتلك عُقبَي التعدي
وتلك قصيدة نفيسة أحب أن يلتفت إليها من يستعدون لمسابقة الأدب العربي، فقد يسألون عنها يوم الامتحان
في تلك القصيدة قال حافظ أبياتاً في تصوير الأخلاق التي ترفع الشعوب، وفيها أبياتٌ صوّر بها حافظ ما بيننا وبين الغرب من صلات، فقد أنبأنا أن مصر أوصت أبناءها فقالت:
إن في الغرب أعيناً راصداتٍ ... كحلتها الأطماع فيكم بسهد
فوقها مِجْهرٌ يريها خفايا ... كمْ ويطوى شعاعه كل بُعد
فاتقوها بجُنةٍ من وئامٍ ... غير رثّ العرا وسعيٍ وكدَ
وهذا القصيد موصول المعاني بالقصيدة الذي قال فيه:
أبناؤنا وهمُ أحاديث الندى - ... ليسوا على أوطانهم بِشِحاح -
صبروا على مُرّ الخطوب فأدركوا ... حُلو المُنَى معسولة الأقداح
شاكي سلاح الصبر ليس بأعزل ... يغزوه ربُّ عواملٍ وصِفاح
الصبر إن فكرت أعظم عُدةٍ ... والحق لو يدرون خير سلاح
وفي القصيدة السالف حدثنا حافظ أن الصبر هو عُدَّة من نطالبهم بالجلاء.
خُلُق الصبر وحده نصرَ القو ... مَ وأغنَى عن اختراع وعَدّ
شهدوا حومة الوغى بنفوسٍ ... صابراتٍ وأوجهٍ غير ربُد
فحما الصبرُ آيةَ العلم في الحر ... ب وأنحى على القويِّ الأشد
وهذا أعظم ما قيل في الإنجليز، فما كانوا أذكي من الفرنسيس ولا أعلم من الألمان، وإنما اعتصموا بالصبر الجميل فظفروا بما ظفر به العرب القدماء
ثم ماذا؟ ثم بقي القول عما نظم حافظ في المراثي وفي شكوى الزمان، وأهمية هذين البابين أهمية ثانوية بالقياس إلى باب السياسيات.
ادرسوا سياسيات حافظ بعناية لتفوزوا، جعلكم الله جميعاً فائزين.
زكي مبارك
مطالعاتي حول المدفأة
الفنانون والمال
للأستاذ صلاح الدين المنجد
يذهب دافنيل ' في كتابه عن (تاريخ الملكية الاقتصادي. .) أن العمل الفني الذي أخرجه أناس مجهولون أوتى، منذ القرن السابع عشر، ربحاً يعادل ثلاثة أضعاف الربح الذي قدر للآثار الفنية الرائعة التي أبدعها فنانون عباقرة عرفهم الناس فسار اسمهم، وشردت روائعهم في كل مكان
أفيكون للمال الذي يربحه الفنان، والرواج الذي يُقَدَّر لآثاره ورائعاته، أثر في قريحته ونبوغه؟ أيدب اليأس في نفسه عند رؤيته الغث يروج وينفق، والحسن يكسد ويهمل؟ هذا الأثر، كما أعتقد، يظهر في عدد المؤلفات، وفي شكل الآثار عند من يبتغي المال، ويتخذ الفن سبيلاً له، ويبدع، إن أبدع للسوقة لا للخواص
لا جرم أن هناك فنانين ذوي اقتصاد أو بخل أو تفتير، وأن هناك آخرين ذوي سرف وترف وتبذير، وأن فيهم جميعاً من يحب المال ويسعى إليه؛ ولكن ذلك كله لا يؤثر في عبقرية الفنان فيشلها أو يعلها. لقد كان من المقترين الموسيقي الإيطالي (باليسترينا وفيكتور هوغو، وميكيل آنج. . وكان من المبذرين موزار، ولامرتين، ورامبراند. . .
ولكن لم نر أن حبهم للمال أو تقتيرهم فيه أو حرصهم عليه، كان سبباً في خصب قرائحهم أو جديها؛ لأن الحقيقة هي أن هؤلاء، ونعني الفنانين الموهوبين، سواء أمبذرين كانوا أم مقترين، يجدون في الفن حاجة لا يتحولون عنها، لأن فيها متعة ولذة. فهم لا يعلمون، كل في فنه، ابتغاء المال، لكن إرضاء لأنفسهم. إذ ليس بهم سبيل إلى الصدوف عن الفن؛ فهم يعملون للفن، كما يعملون، بقدر، للحياة. ينظمون كما يبصرون، ويشعرون كما يأكلون؛ ويصورون كما ينامون. . . فإذا أشبعوا نفوسهم الجياع ورووا أرواحهم الظمآء بإبداع متع الفن الخالدات. . . تطلعوا إلى المال. فحاسة الفن،

فما هي غير الرغبة في المال. لأن الرغبة في المال حاسة تساعد الفن، فما هي بالتي تبدع وتخلق، ولكنها تدفع وتهيج
وقد يكون من النزوع عن جدد العقل أن نقدر قيمة مؤلف من التواليف، أو أثر من الآثار، بما يقدم لصاحبه من الأموال. فقد يخرج الفنان آية من آيات الفن تتجلى فيها العبقرية
والنبوغ والسمو، فلا يقدِّر لها النجاح، ولا يقدِّم لصاحبها إلا فلوس غير كثار؛ وقد يخرج متأدب، من الأدب السوقي، ما يوافق عقل العامي ويطابق هواه. . . فينال النَّفاق والرواج. ولقد ربح كورنيل الكبير من مسرحيته (آتيلا و (تيت وبيرينيس ما لم يربحه من (السيد أو (هوراس فقد نال في كل منهما ما كان يعادل في القرن الخالي سبعة آلاف من الفرنكات. وهذا مبلغ في القرن السابع عشر، عظيم. رغم أن هاتين المسرحيتين لم تبلغا ذروة الفن. ونال (توماس كورنيل) من مسرحيته (تيموقراط ما يفوق هذا المبلغ، من أن توماس كان لا يجاري أخاه كورنيل الكبير في البراعة. وكانت الآثار التي جلبت لرسُّو الأموال، هي آثاره التي نسيها الناس في هذه الأيام. فلقد مهد معجمه السبيل للمال ليصل إلى جيبه. وربح هوغو من البائسين أربعمائة ألف فرنك؛ وما كانت بأروع آثاره. وقد أوتي الروائي الفرنسي (أوجين سو هذا المبلغ من كتابيه (خفايا باريس) و (اليهودي التائه وتخطاه ربح (بونسون داتيراي من كتابه (روكومبول فمن أراد الفن لا يحفل المال. ويقول الدكتور لالو إذا أردت أن تعيش عيشة طيبة فاكتب وريقات، وميلدرامات وضع للتمثيل الموضوعات. . . أما إذا أردت أن تخدم الفن، وتخرج رائعات فاتنات، فاعزف عن العيش الناعم، والمال الكثير. فإذا كان عيشك الساذج آنئذ مترعاً بالفن والجمال، فإنه لعيش لا يقدر عليه من البشر غير أفراد قِلال.
وقد يخشى أن يسفل الفن إذا سعى وراء المال. ويقول (برودون في كتابه (ليس لدينا في مكان الأدب والفن، غير صناعة مقدّرة لخدمة الترف العامل على الفساد والخراب) ولقد احتج على الملكية الفنية وحقوق الفنانين في القرن الخالي، وقال إنه ليس من يكتب للفن، وليس من يبدع للفن، فهم جميعاً يبتغون التجارة؛ ويساعدون بما يكتبون على فساد البلاغة. . . وخراب الروح. وكان (شارل نودبير الروائي المعروف، يحسب عندما يكتب، أن كل ثماني كلمات تؤلف سطراً، وأن السطر ثمنه فرنك واحد. . . وقد عللوا وفرة حروف الاستفهام والتعجب. عند أبطال (دوماس الكبير) في رواياته كقولهم (أوه!) أو (آه!. . .) أو (آية!) بأن ثمن السطر كان فرنكاً ونصف فرنك؛ وهذه الحروف كانت تحسب في السطر من الكلمات التسع.
وقد لاحظ النقّادة الفرنسي (سانت بوف) هذا فقال: (إذا كنت تجد عند مؤلِّف بارع كهذا
جملاً فارغة جوفاً، فذلك لأنه قد اعتاد منذ الصبا، أن يشوه جمله، (يعني دوماس الأب) فيضع أقلَّ ما يكون من الفِكَر في أكثر ما يكون من الكلمات. . .) وما ذلك الإسهاب إلا لإكثار عدد السطور، وإكثار عدد الفرنكات.
فبرودون يغضب ويثور، لأن الفن لا ينبغي أن يصبح سلعة يلتمس من ورائها المال فتبتذل، ولكن يجب أن يبقي متعة يلتمس فيها الجمال والخلود.
(دمشق)
صلاح الدين المنجد
أهمية دراسة التاريخ
للدكتور محمد مصطفى صفوت
مدرس التاريخ الحديث بكلية الآداب
هذا ما ألفاه شاعر في التاريخ. وما يجده (أنشودة الزمن خلدت في ذاكرة الناس) الشاعر في قراءة التاريخ لا يختلف كثيراً عما يجده الفيلسوف أو المؤرخ. فالفيلسوف يجد التاريخ طرائق متعددة للحياة الإنسانية، ويسمع فيه صوتاً خالداً يردد قوانين الحق وأصداء الباطل، ويدرس فيه الفلسفة دراسة الواقع. وأما المؤرخ فيجد متعته في الوصول إلى الحقيقة، وذلك بدراسة الآثار والوثائق التي خلفتها الإنسانية في مناحيها المادية والروحية.
ويتساءل المؤرخون فيما بينهم عن موضوع علم التاريخ. هل التاريخ سيرة الملوك

والأمراء، أم هو سيرة الشخصيات الكبيرة والأبطال الذين قادوا الأمم وغيروا مجرى حياة الشعوب؟ هل التاريخ قصة لحياة طبقة دون سواها؟ هل التاريخ دراسة للناحية السياسية فحسب، أم هو شامل للنواحي الاقتصادية والاجتماعية والعقلية والفنية للحياة الإنسانية؟ ولعل الرأي الذي يقول بأن التاريخ يبحث في حياة الإنسان في الماضي من كل نواحيها وفي تطورها ونموها أقرب إلى الحقيقة. ولكنا نرجع فنجدد دراستنا للحياة الإنسانية بالمدة التاريخية، وهي المدة التي وجدنا لها آثاراً ومخلفات نستطيع الاعتماد عليها والوثوق بها. فالتاريخ يعرض أمامنا ثمرات العقل الإنساني والعاطفة الإنسانية من أدب وعلم وقوة ودين، يرينا ما مرت به الدول والشعوب والطبقات والأفراد من محن ومصاعب وما سمت إليه من مجد وعظمة: هو يوضح لنا التطور السياسي والاجتماعي والفني.

شعر الناس منذ القدم بما للتاريخ من قيمة، فعنوا بدراسته وسارعوا إلى تدوين أخبار الإنسانية على صفحات الذاكرة، ثم على مبانيهم ومنشآتهم، ثم سجلوها في كتبهم، وهم يحسون بضرورة صيانة تراث الآباء والأجداد. على أن قيمة هذه الأخبار تتباين في أنظارهم بتباين الزمان والمكان، فحينما كان التاريخ قصصاً يختار الرواة من حوادثه ما يبهرهم ويثير إعجاب الجمهور كانت قيمته في التسلية وكسب الرزق. وحينما تغلبت فكرة السياسة أو الأخلاق، أو الدين أو الاقتصاد أصبح التاريخ يخدم غرضاً سياسياً، دينياً أو اجتماعياً. ثم لما اهتم المؤرخون بتنظيم حقائقه وترتيب وقائعه، ونقدها، كانت قيمة التاريخ

في ذاته، في السعي إلى الوصول إلى الحقيقة

ولننظر إلى أهمية التاريخ في تربية الدارسين وتثقيف عقولهم. ما قيمة التاريخ في ذلك النوع من التربية الذي يرمى إلى إعداد الأفراد للقيام بحرفة بنجاح وكفاية؟ رمى التعليم في القديم إلى غرض مهني، فكان مرمى من توافروا على معرفة التاريخ كسب العيش. فمنذ أزمنة سحيقة من عهد هوميروس، وجد قوم انهمكوا في دراسة القصص القومي وما يحويه من سير الأبطال، وساروا به خلال الديار اليونانية ينشدونه أمام الناس ويتقبلون ما يمنحونهم من هبات. وفي التاريخ الإسلامي كانت طائفة من الناس تعمل على حفظ أخبار العرب وأيامها وآدابها للتقرب من الخلفاء ونيل عطاياهم. ولم تكن طريقة الدراسة تعتمد على الأخذ من أفواه الرواة فحسب، بل كثيراً ما كانت تلجأ هذه الطائفة إلى الرحلة إلى الأقاليم التي يراد دراستها والوقوف على عجائبها وطبقات أهلها. ومثل هذه الطائفة كان يطوف في أوربا في العصور الوسطى عرف المسلمون للتاريخ فوائد أخلاقية (دنيوية وأخروية) فكان عند الدول الإسلامية مادة حرفية تعد لمهنة الكتابة والإنشاء. وفي أوربا في العصور الحديثة كان التاريخ يدرس لأولاد النبلاء والأمراء كوسيلة من وسائل تدريبهم على ممارسة أمور الحكم. وهو الآن يدرس في بعض المعاهد العليا والجامعات لإعداد مُدرسي التاريخ والخُبراء السياسيين. أما في المدارس الثانوية والابتدائية فتتغلب الفكرة الثقافية التي ترمي إلى تكوين الدارس عقلاً وروحاً وإعداده لتذوق الفن والجمال

مركز التاريخ مهم بين العلوم الثقافية، فالاهتمام به إنما هو اهتمام بتركة الإنسان وآثار لجهد الإنساني. قد يشك بعض الناس في قيمة تثقيف الطلبة بمعلومات عن أشخاص أو حضارات أصبحت الآن طي الفناء كما يحاولون. هؤلاء الأشخاص وهذه الحضارات لم تعف آثارها فما زالت مقيمة بيننا مؤثرة فينا ملهمة لنا؛ وما قيمة المعلومات الأخرى للإنسان إذا لم يعرف نفسه وماضي حياته وتفكيره في أطواره المختلفة؟ فدراسة الإنسان ينبغي أن يكون محور كل دراسة ومركز كل بحث

أما مركز التاريخ في التربية الخلقية الاجتماعية فلا يقل أهمية. يرمي ذلك النوع من التربية إلى تكوين الأخلاق الشخصية. ولقد ولد الإنسان في مجتمع يعد أفراده للحياة فيه

وفق عاداته ونظمه ومثله العليا. ولا ريب في أن التاريخ يكاد يكون من ألزم العلوم لهذا النوع من التربية، لأن التاريخ يدرس ماضي الإنسانية وتراثها الاجتماعي

وهناك اعتراضات قد تثور في ذهن بعض المفكرين؛ فيرى فريق أن التاريخ لا يعرض أمامنا أمثلة حسنة للسلوك المرضي فحسب، بل كثيراً ما يضرب أمثلة للقسوة والغدر والأنانية. ولو أن المؤرخ أو المعلم أراد استبعاد ذلك الجانب من التاريخ لجعل من

شخصياته أبطالاً خياليين لا يدأبون وراء شيء غير الفضيلة، وهذا في ذاته مخالف للأمانة العلمية. ويقول فريق آخر (لقد أصبحنا لا نرجع للتاريخ لنجد دروساً في الأخلاق أو مثلاً عليا للسلوك أو مواقف باهرة. نحن نفهم أن القصة الخيالية لتحقيق ذلك المتفقة مع آرائنا في العدالة). ويرى فريق ثالث أن ليس ثمة فائدة أخلاقية نافعة من دراسة التاريخ، فهل دراستنا لتاريخ روما التي هوى بها الانهماك في اللذات والترف منذرة لعصرنا الحاضر بالاضمحلال؟ ويؤيد ذلك الفريق فكرته بأنه لم توجد فترتان متشابهتين من كل الوجوه في حياة الأفراد، فكيف في حياة الشعوب. وفريق رابع يندد بأن الماضي قد سيطر على عقولنا وتفكيرنا، فنحن نفكر بتفكير الماضي، ونحن منغمسون دائماً في الماضي، مع أن ظروف الحياة قد تغيرت وتبدلت، ولابد من زيادة الاهتمام بالحاضر والنظر إلى المستقبل

ويرد على هذه الآراء بالقول إن التاريخ مفسر للحياة الإنسانية الماضية، فهو موضح لناحيتي الخير والشر. والتربية الاجتماعية لا ترمى إلا لأعداد الفرد للحياة بما فيها من مفارقات. وهي تعمل دائماً على إيجاد التوازن بين الغرائز الاجتماعية للإنسان وغريزة حب الذات. لا ننكر أننا نرمي بمثلنا التاريخية إلى رفع مستوى الحياة وتطهيرها من أدرانها، ولكنا نعمل في نفس الوقت على إعداد شخصية حقيقية لا خيالية. ومن ناحية أخرى، كثير من الشرور التاريخية لا تستقر في أذهاننا، فقليل من الناس من إذا ذكر اسم شكسبير أو خالد بن الوليد يذكر هنأتهما الشخصية. ولا جدال في أن التاريخ ممتلئ بالشخصيات التي تتمثل فيها البطولة وبالمواقف الخلابة، وإذا وجد الأطفال في القصة الخيالية ما يشفي غليلهم، فلا يجد الدارسون ممن ارتقى بهم العمر في غير قصص التاريخ الحقيقية ما يهيج كوامن نفوسهم. وهل هناك ما يمنع من أن نضع لصغار التلاميذ قصصاً تاريخية في شكل جذاب تتجلى فيها الحقيقة، لهذه الأعمال أعمال حقيقية قام بها أناس

حقيقيون عاشوا على وجه الأرض. ثم هل من التعليم في شيء الإكثار من ملء عقول صغار الدارسين بخرافات وأوهام في مرحلة من العمر هم محتاجون فيها لضبط خيالهم، وفي وقت تناثر عقولهم بكل شيء، وأن هذه المعلومات المملوءة بالأوهام سوف تشكل ما يتلقونه من معلومات في المستقبل؟ وأخيراً لا نستطيع إنكار استفادة الإنسان من تجارب آبائه، واستفادة الأمم من تجارب من سبقها، فحياة الإنسان والأمم قصيرة ومعظم تجارب الإنسان ومعلوماته مستقى من الآخرين. ويمتاز الإنسان عن الحيوان بذكائه وقدرته الكبيرة على التعلم. وما نظم الحياة الحاضرة إلا تعديل لنظم الحياة الماضية. على أنه في دراستنا للماضي لا ينبغي نسيان الحاضر أو إهماله؛ فيجب دائماً ربط الماضي بالحاضر وتبين أثر الماضي في النظم الموجودة، كما يجب ألا تكون دراسة الماضي إعجاب فحسب، بل دراسة تفكير فيه ونقد له. ويلزم العناية بانتقاء الأمثلة التاريخية لأنها خير أثراً من كثير من النظريات الأخلاقية. وكلما كان المثل مأخوذاً من الحياة كان أكثر بقاء في النفس وأعمق قراراً فيها. وليست قيمة هذه الأمثلة مقصورة على عملها على استقرار الحياة وإنما في توجيهها لها. وفائدة هذه الأمثلة ليست في المبادئ التي تمثلها فحسب بل في الشعور والعواطف التي تستثيرها في نفس القارئ أو المتعلم. والتاريخ قصة لمحاولات الناس في سبيل الحياة، ولذا فدراسته ذات قيمة وفائدة لمن يتأهب للسير في هذا السبيل.

(البقية في العدد القادم)

محمد مصطفى صفوت

أطوار الوحدة العربية

العرب في ميادين الكفاح

للأستاذ نسيب سعيد

سأحدثك اليوم عن نزول العرب فعلاً إلى ميادين الصراع والنضال، وعن تأليف الجيش العربي واشتراكه بالمعارك والمواقع الحربية إلى جيوش الحلفاء فأقول:

لقد كان سفر الأميرين (علي) و (فيصل) من أبناء (الحسين) مع المتطوعين العرب، من معسكر (حمزة) في فجر أول يونيو (حزيران) عام 1916، أول نذير أنذر به الترك بخروج العرب عليهم، وانفضاضهم من حولهم. فاتجه الأميران العربيان بعد مغادرتهما الثكنة العسكرية إلى (الخانق) سالكين الطريق الشرقي، ثم عادا إلى (بيار علي) وهو

موقع بقرب المدينة فخَّيما هنالك، وكاتبا القبائل العربية، وأخذ يجمعان القوى والجنود والأنصار
وفي صباح الثامن منه هاجما بستة آلاف مقاتل محطة (المحيط) مع حاميتها، ودارت أول معركة بين الترك والعرب؛ واستأنفا الغارة صباح 9 منه فهاجما الحسا، ودارت معركة عنيفة امتدت من الصباح حتى الظهر. وعلى هذا المنوال بدأت المعارك حول المدينة المنورة بين العرب والترك قبل أن تعلن الثورة رسمياً لأن الثورة الكبرى - كما قلت لك في حديثي السابق - بدأت في مكة صباح يوم السبت 9 شعبان سنة 1334 الموافق 10 يونيو (حزيران) عام 1916. وذلك أن الحسين أوعز إلى رجاله - وكان قد أعدهم من قبل - بأن يهاجموا الثكنة العسكرية في (جردل) - كما حصل في المدينة والطائف - وكان الترك غافلين عما يدبر لهم في الخفاء، وكان قادتهم وكبار ضباطهم في الطائف؛ ويتولى القيادة على الجيش التركي وقتئذ بكباشي اسمه (درويش) بك وفي ذلك الصباح الأغر بدأ (الحسين) نفسه الثورة على الدامية بأن أطلق رصاصة من قصره على ثكنة الترك فكانت الإعلان الرسمي للثورة العربية الكبرى، كما كانت الإشارة التي اتفق عليها بينه وبين رجاله فشرعوا بالهجوم على أثرها. وكانوا قد احتشدوا في مكان مجاور قبيل الفجر
وأدرك درويش بك قائد الجند التركي حراج الموقف، وعرف أن مصير جنده إلى الفناء لأنهم كانوا يقومون بالتمرينات الرياضية المعتادة في خارج الثكنة، بلا سلاح ولا عتاد، فعمد إلى الحيلة لإنقاذهم، فخاطب الشريف تليفونياً وسأله عن السبب فيما وقع فأجابه:
(إن العرب لا يرضونكم حكاماً عليهم بعد ما قتلتموهم، وأهنتموهم وعاديتموهم) فقال له: (ما دام الأمر كذلك فأرسل من قبلك من تعتمد عليه لنسلمه السلاح والجند، فنحن لا نريد إراقة الدماء عبثاً) فقصد الشريف عبد المحسن البركاني على الفور لمقابلة درويش بك وأمر الثوار بالتفرق. فدخل الجند الثكنة فوراً وأخذوا السلاح وأخذوا أهبة النضال والقتال، ونبه أحد الضباط العرب الشريف إلى الحيلة والمكيدة، فنجا بنفسه
وهاجم الشريف محسن بن أحمد منصور جدة صباح الأحد في 11 يونيو (حزيران) على رأس أربعة آلاف مقاتل، فتحصنت حاميتها التركية في شمالها وجنوبها، وصمدت للكفاح. وقد اشتركت - لأول مرة - ثلاث بوارج بريطانية. في هذا الهجوم يوم 13 منه وأصلت أماكن الترك نيراناً حامية. وكذلك طارت الطائرات البحرية البريطانية في سماء جدة يوم 14 منه وألقت على معسكر الترك منشوراً يعلن ثورة العرب على أحقاد جنكيز. وفي يوم 16 يونيو (حزيران) رفعت حامية جدة راية التسليم، فأنذرت بعدم إتلاف مدافعها وأسلحتها. وبلغ عدد الجنود الترك الذين استسلموا للعرب يومئذ (1346) جندياً يقودهم (47) ضابطاً مع غنائم كثيرة جداً
وفي يوم 27 وصل إلى جدة (ولسن) باشا حاكم بور سودان يحمل كتباً إلى الشريف (حسين) يتضمن تهنئة العرب بالنصر والاستقلال ويعرب فيه عن الإعجاب والإكبار لهذه الأعمال المجيدة التي يقوم بها العرب، وقال انه من البريطانيين الذين يحبون الشرق ولا سيما العرب منذ نعومة أظفاره. وجاء في الكتاب أيضاً أن الحكومة البريطانية أرسلت مع هذه التهنئة والتحية قوة بسيطة من قبلها لمساعدة العرب في جهادهم الجبار. . .
وفي يوم 25 شعبان سنة 1334 و 26 يونيو (حزيران) تم طبع منشور الثورة، وقد وضعه الشريف (حسين) بنفسه وبسط فيه الأسباب التي أهابت به إلى مقاتلة الترك بسطاً وافياً
ولا ريب أن أقطاب العثمانيين ريعوا لإعلان الثورة العربية في الحجاز، وكان جمال باشا أشدهم حسرة وألماً، لأنه أدرك أنه كان مخدوعاً، وعرف أنه لم يحسن التصرف مع (الحسين) وأبنائه الذين أفلتوا من يده بعد ما أخذوا المال والسلاح. ولقد كان فخري باشا
محافظ المدينة المنورة أول من تنبه إلى هذه الحقيقة، كان يدعو إلى الفتك بالشريف وأبنائه، ويشير باتباع سياسة الشدة والحزم في الحجاز فقال كلمته المأثورة: (لقد انتصر الذكاء العربي في هذه المرة على الذكاء التركي وفاز عليه).

وقبض فخري باشا على ناصية الحال في المدينة على الأثر، وأخذ يستعد لمنازلة العرب الذين نزلوا إلى ميدان النضال والصراع، وشرعوا يقاتلون الترك بلا هوادة ولا توقف ولا رحمة. . .

وكذلك نزل العرب إلى ميادين الكفاح لأول مرة بعد نزولهم الحرب أيام الجيش المصري، بقيادة البطل الخالد إبراهيم باشا من القاهرة إلى فلسطين عام 1831 لمقاتلة الجيش التركي ففتحها بدون صعوبة ولا عناء بفضل تأييد عرب فلسطين إياه وانضمامهم إليه، وأكثر من ذلك بفضل شجاعة الجندي المصري وقوة بأسه وشدة فراسته، وواصل التقدم إلى دمشق وإلى حلب فاحتلهما، وكان العرب يقاتلونه في كل مكان بالهتاف والتصفيق والاستبشار وينضمون إليه ويرون فيه محرراً ومنقذاً مما سنفصله تفصيلاً حين الحديث على فضل مصر على القضية العربية

على أن إقدام (الحسين) وأولاده على إعلان الثورة وهم مجردون من كل قوة منظمة، ولا يملكون سوى مقادير قليلة من البنادق، وهي التي أخذوها من الترك للمتطوعة، ولا يجهلون أنهم سيستهدفون لقتال قوات كبيرة تنزل في ديارهم، وتحيط بهم، وتسد عليهم المسالك، ومن ورائها جيوش جرارة، تسرع لنجدتها؛ وأن هذا الإقدام ينطوي ولاشك على كثير من الجرأة، وصدق العزيمة. ولو تسنى لفخري باشا بلوغ مكة كما تصور جمال باشا لقضي على الثورة وأبادها في مهدها، بيد أن ثبات رجال العرب في وجهه واستماتتهم في المقاومة والكفاح، جعله يعدل عن خطة الهجوم، ويكتفي بالدفاع، فاستصفى العرب بذلك مدن الحجاز الواحدة بعد الأخرى بعد أن نزل (الجيش العربي) إلى القتال، ثم اتجهوا نحو الشمال، لتحرير سورية وإنقاذ بلاد الشام

ولقد أظهر الجيش العربي في خلال الأدوار التي اجتازها أثناء الحرب الماضية من الشجاعة والإقدام - على حداثة عهده - ما نال إعجاب الأعداء قبل الأصدقاء، وجعل قادة الحلفاء وفي مقدمتهم اللورد (اللنبي) يعترفون بما أسداه من خدمات جلى. أما أهم المعارك

التي خاضها الجيش العربي فهي معركة جدة وهي أول معركة ربحها العرب في الحجاز، ثم معركة مكة والليثي وأوملج، والطائف، والمدينة، ورابغ، والوجه، والمويلح، وخبا، وحروب المحطات، والعقبة، ووادي موسى، والطفيلة، ومعان، والأزرق، وحوران، ومعركة الشام الكبرى، وغير ذلك من الحروب التي أظهر بها الجيش العربي الباسل كل ضروب القوة والشجاعة والعبر رغم حداثته وقلة أفراده، مما لا يتسع المقام لتفصيلها. ولقد انتصر هذا الجيش الفتي في جميع هذه المعارك والحروب انتصاراً مبيناً، وسجل آيات الظفر بأحرف من نور. وكذلك انتهت الحرب التي افتتحت بمعارك الحجاز واختتمت بحروب الشام بفوز العرب وكانت قوة الترك لا تقل عن عشرين ألف محارب مجهزة بأفضل الأسلحة الحديثة. وقد قطع العرب خط الرجعة على الجيش التركي المتقهقر من فلسطين ووادي الأردن، ومنطقتي معانة وعمان، وما كان يقل عن ثلاثين ألف محارب، فقد ارتد على جناح السرعة من دون أن يشتبك مع البريطانيين في قتال بسبب ظهور العرب وراء خطوطه، فانسحب بسرعة لكيلا يقع بين نارين، ولولا جهود العرب في الصحراء، وقطعهم الطريق على الجيش العثماني، وحاجتهم للمحطات على طول الطريق، لما وقع ما وقع ولارتد الجيش سالماً ولأنشأ خطوط دفاع جديدة في حوران وحول دمشق. ولقد سلم الترك والألمان بهذه الحقيقة الرائعة قبل الحلفاء، فقال المارشال (ليمان فون ساندرس) القائد العام للجيوش التركية في بلاد العرب في مذكراته التي نشرها بعد الحرب الماضية ما نصه: (لقد اتفق شريف مكة وأميرها مع الحلفاء في صيف عام 1912 على الاشتراك في الحرب، وأعلن استقلال العرب، فنشطت بذلك حركاتهم الثورية في بلاد الشام، وكان الحلفاء يحمونها، واتسع نطاقها، وخصوصاً بعد إفلاس سياسة الشدة التي سار عليها جمال باشا، في معاملة الشعب العربي. ولقد أراد أنور باشا إعداد حملة عسكرية كبيرة تزحف على مكة، وتنصب أميراً جديداً عليها، بيد أن عدم ملاءة الظروف الحربية، وعدم جواز اشتراك جنود مسيحيين في الحرب، حال دون إتمام ذلك فعدل عنه. ولقد أدت الثورة العربية خدمات جلى للجيش البريطاني، خلال تقدمه في شبه جزيرة سينا فكان الإنجليز آمنين مطمئنين يفعلون ما يشاءون كأنهم في داخل بلادهم، بعكس

الترك الذين مقتهم أهل البلاد، وملوهم فكانوا يسوقون جيوشهم وكأنهم في بلاد معادية لهم) . . .
(دمشق)
نسيب سعيد
المحامي
الحضارات القديمة في القرآن الكريم
للأستاذ عبد المتعال الصعيدي
- 2 -
الحضارة المصرية القديمة
كان لقدماء المصريين حضارة رائعة يعتز بها الآن أبناء مصر، ويفد السائحون من سائر الأقطار لمشاهدة آثارها الباقية، والتمتع برؤية عجائبها التي تملأ النفس روعة، وتفعم القلب إعجاباً. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحضارة العظيمة فيما قصه من أخبار فرعون وموسى عليه السلام، ولكنه لم يمدح منها إلا ما يستحق المدح، ولم يطر منها إلا ما يستحق الإطراء، وذلك ما كان منها متجهاً إلى مصلحة الرعية، نم شق الأنهار، وتعمير الأرض، والعناية بتوفير خيراتها للناس، حتى تنمو بذلك ثروتهم، وتسعد به حياتهم، فلا يتمتع الملك وحده بالحياة السعيدة، بينما تعيش الرعية بجانبه في الذل والشقاء. وقد كان للحضارة المصرية عيوب بجانب هذه المحاسن فأشار القرآن الكريم إليها، وندد أشد تنديد بها، وذكر أنها هي التي قوضت بنيان هذه الحضارة، وجعلتها تنتقل إلى قوم آخرين، ساروا في الأرض سيرة صالحة، وأقاموا فيها موازين العدل، وتلك سنة الله في الخلق، كما قال تعالى في الآية - 150 - من سورة الأنبياء: (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون) فالمراد بذلك الصالحون لعمارتها، وإقامة بنيان الحضارة فيها، وهذا هو الذي يشهد به التاريخ القديم والحديث، فأنا نرى فيه أن الحضارة الإنسانية لم تكن وقفاً على أمة من الأمم، ولم يستأثر بها شعب من الشعوب، وكم من شعوب ظهرت بهم الحضارة فأبطرتهم، وأخذوا ينظرون إلى أنفسهم نظرة إعجاب وإكبار، وينظرون إلى غيرهم نظرة استهزاء واحتقار، ويرون أنهم أوثروا بالتقدم على غيرهم إيثاراً، وقد بلغ من بعضهم أن زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه، فلم تكن إلا عشية وضحاها حتى سلبهم الله عزهم، وأورثه قوماً آخرين صالحين متواضعين، ديدنهم العمل، ولا يأخذهم شيء من الغرور والكسل وهذه هي الآيات التي وردت فيما يستحق المدح والإطراء من الحضارة المصرية القديمة،
وهي تصف ما تركه فرعون من آثار هذه الحضارة في مصر، حين غرق هو وجنوده في البحر، ففي هذا يقول الله تعالى في الآيات: 24، 25، 26، 27، 28، 29 - من سورة الدخان: (واترك البحر رهواً إنهم جند مغرقون، كم تركوا من جنات وعيون، وزروع ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين، كذلك وأورثناها قوماً آخرين، فما بكت عليهم السماء وما كانوا منظرين)
ويقول أيضاً في الآيات - 57، 58، 59، 60 - من سورة الشعراء (فأخرجناهم من جنات وعيون، وكنوز ومقام كريم، كذلك وأورثناها بني إسرائيل، فأتبعوهم مشرقين) ولاشك أن القرآن بهذا المدح والإطراء لما كان في مصر على ذلك العهد، يتفق مع الغاية التي قلنا إن الإسلام جاء من أجلها، وينادي بأنه ليس ديناً يدعو إلى إقامة نساك وعباد في الأرض لا غير، ويزهد الناس في تعميرها بشق الأنهار، وإقامة الزروع والبساتين، وغير ذلك من معالم الحضارة، ووسائل السعادة في هذه الحياة، بل يدعو مع العبادة والنسك إلى ذلك كله، ويرى أنه لا تتم سعادة الآخرة، إلا بسعادة الدنيا وقد ذكر المفسرون في تلك الجنات والعيون أن البساتين كانت ممتدة في حافتي النيل فيها عيون وأنهار جارية، وذكروا في ذلك المقام الكريم أنه أراد به مجالس الأمراء والرؤساء التي كانت لهم، وقيل إن فرعون كان إذا قعد على سريره وضع بين يديه ثلثمائة كرسي من ذهب، يجلس عليها الأمراء والأشراف من قومه، وعليهم أقبية الديباج مخوصة بالذهب
ولا يفوتنا هنا أن ننبه إلى خطأ المفسرين فيما ذكر الله من إرث بني إسرائيل في تلك الآيات، فقد ذكروا أن الله عز وجل رد بني إسرائيل إلى مصر بعد هلاك فرعون وقومه

فأعطاهم جميع ما كان لفرعون وقومه من الأموال والأماكن الحسنة. ولاشك أن من يدرس تاريخ بني إسرائيل من عهد موسى إلى ظهور الإسلام، وكذلك تاريخ مصر في ذلك العهد، لا يجد شيئاً فيهما يثبت أن بني إسرائيل قام لهم فيه ملك في مصر، أو أنهم ردوا إليها فأعطوا ما كان لفرعون وقومه من الأموال والأماكن الحسنة. والحق أن الله تعالى يشير بذلك إلى بساتين وعيون كانت لبني إسرائيل في فلسطين، وذلك بعد أن قامت لهم فيها تلك الدولة العظيمة، وبلغت أوج عظمتها في عهد داود وسليمان عليهما السلام. فالضمير في (أورثناها) يعود إلى مطلق الجنات والعيون وما ذكر معها، ولا يعود إلى خصوص ما كان
منها في مصر على ذلك العهد، وهذا من أسلوب الاستخدام المألوف في لغة العرب، ويعتمد في بيان المراد منه على السياق وقرائن الأحوال
وأما الآيات الواردة فيما يستحق الذم من الحضارة المصرية القديمة، فهي التي وردت في قيام الحكم فيها على التفريق بين الشعوب، واستخدام الشعوب الضعيفة في مصلحة الشعوب القوية، وذلك قوله تعالى في الآيات - 4، 5، 6 - من سورة القصص، (إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفدسين، ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين، ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون)، وقد ذم القرآن الكريم من ذلك ما يستحق الذم، لأن الحكم الصالح يجب أن يقوم على التسوية بين الشعوب، وعلى الأخذ بيد الشعب الضعيف حتى يصل إلى ما وصل إليه الشعب القوي، فلا يرهق شعب في العمل لسعادة شعب أقوى منه، ولا يرى شعب أن يستأثر بأسباب السعادة لنفسه، لأن هذا مما يثير الأحقاد بين الشعوب ويعوقها عن التعاون في العمل لسعادة البشر في هذه الحياة، بما يقوم بينها من المنازعات والحروب، ولا سعادة لها إلا بالسلام، ولا سلام لها إلا بالعدل والمساواة.

(يتبع)

عبد المتعال الصعيدي

الطيران بين أسلحة الحرب

الملازم الأول حسين ذو الفقار صبري

(تتمة ما نشر في العدد الماضي)

سنجد إذا نظرنا في أمر (الناقلات) أن ما ذكرناه عن القاذفات ينطبق عليها تماماً، إذ أنهما نوعان متماثلان، لا يختلفان في شيء اللهم إلا في تصنيف الأحمال، وليس في تقدير الأحجام والأثقال؛ هذه ارتحلت بالقنابل والمقذوفات، وتلك نقلت الرجال والعتاد أو ربما نقلت جنود الهابطات

أما (المنقضات)، أدوات التحطيم التكتيكي، فهي طائرات تعمل ضد أهداف ضاقت مساحتها وإن عظمت أهميتها كمدافع الميدان، أو معاقل المقاومة، أهداف لا تميز إلا من ارتفاع بسيط، إصابتها عسيرة إلا إذا هوت عليها الطائرات كالعقبان. فهذه إذن طائرات مقدرتها على الاحتمال عظيمة: هياكلها متينة، تغالب ضغوطاً نشأت عن حركات اعتدال عنيفة إثر سقطات هاوية، وطائرات كهذه يجب أن يكون ثقلها محدوداً حتى لا تؤثر جاذبية الأرض عليها تأثيراً كبيراً، فيا حبذا لو تمكنا من اجتجاز ما تبقى من ثقلها هذا المحدود. لحساب محرك قوي يساعدها على الانطلاق سريعاً. ولكن هل ترانا نسينا أنه يجب عليه اقتسام ذلك الثقل الفائض مع قنابل ضخمة لولاها لما أنشئت تلك الطائرات ولا كان لها وجود؟ فلتقنع (المنقضات) إذن بمحرك ضعيف يتركها فريسة سهلة لطائرات الأعداء، إلا إذا أحطناها بالمقاتلات تحرسها وتحمي ظهرها، فتعينها ولو قليلاً على القيام بواجبها وتنفيذ مآربها

تلك هي أنواع الطائرات الرئيسية، وياليتها كانت مقسمة ذلك التقسيم البسيط! إن واجبات الطيران أصبحت عديدة متفرقة، لا تؤديها على الوجه الصحيح إلا أنواع من الطائرات تعددت بتعددها، وتخصص كل نوع منها كل التخصص، كل منها يخالف الآخر في خواصه بل يناقضه أحياناً وإن تضافروا جميعاً نحو الغاية وتكاتفوا على الهدف

وتعدد أنواع الطائرات هنا هو بالذات السبب الرئيسي الذي وقف في سبيل سيطرة الطيران سيطرة تامة على ميادين القتال؛ فإن السلاح الذي كتب له التحكم والسيطرة

يجب أن يكون سلاحاً مرناً متعدد النواحي لا الأنواع، يقابل كل حالة طارئة بأسلوب جديد يناسبها، أو بحل
مبتدع يعالجها. وما الحرب إلا ظاهرة اجتماعية لبشر يعيشون على وجه الأرض، ولذا سيظل سلاحها الأساسي جيوشاً تعمل مثلهم على وجه الأرض
بعد الحرب الماضية بقليل، غمرنا الجنرال الإيطالي (دوهيه) بمقالات عديدة ومؤلفات كثيرة ما قرأها قارئ إلا انقاد لآرائه وسلم بصحتها. فوثق من أن حروب المستقبل القريب هي حروب الفناء، حين تبسط الطائرات أجنحتها من شرق السماء إلى غربها، وتنقض على البلاد تمحوها، وعلى معالمها تدرسها
ولم يكتف (دوهيه) بالوصف والتصوير، بل قدم برنامجاً مفصلاً شاملاً، لم يترك فيه صغيرة إلا ذاكرها، ولم يمنعه الإمعان الطويل في الزوايا والأركان، من الابتعاد بين الحين والحين ليرنوا إلى هيكل بنائه كاملاً، فيضع قواعده، ويرسم خطوطه، بحيث تتسق بداخله التفاصيل، وتتماسك لتكون وحدة لا تنفصم
ولكن ذاك البرنامج عسير التنفيذ إلا على دولة ملكت من الطائرات عدداً عديداً، وكان لها منها وفرة وفيرة. فيقوم الإيطالي يدعو بعدم (تبذير) الميزانيات على الجيوش والأساطيل، فهي في نظره أشياء لا نفع فيها، ويتشبث بوجوب إنفاق أموال الدولة كلها في سبيل بناء الطائرات، بل يذهب إلى أن يخص منها بالذكر القاذفات، ويهمل المقاتلات وطائرات الاستطلاع. ويجب علينا هنا الانتباه إلى إحساس (دوهيه) العميق: باستحالة ضمان السيطرة للطيران إلا إذا تمكنا من تركيز قوتنا في نوع واحد من الطائرات، ظنه قادراً على مجابهة جميع الطوارئ. وهذه لم تكن طوارئ بمعنى الكلمة، بل تيارات مرسومة يسيرها المهاجم كيفما شاء، (وهيهات أن تنعدم في هذا العالم المفاجئات)، فهو إذن مشروع جامد تنقصه المرونة اللازمة لكل أداة يريدها الإنسان لمجابهة مشاكل الكفاح في سبيل الحياة، تلك المشاكل التي لا تبرز مجسمة كل التجسم إلا أثناء الحروب التي هي أشد مظاهر كفاح الحياة تركيزاً وأعنفها صورة
ومع ذلك فقد أرتكن مشروع (دوهيه) هذا على كثير من الأسس الواهية قسم (دوهيه) مراحل الهجوم إلى ثلاث؛ أولاها: مرحلة تحطيم مطارات الأعداء وتدمير قوتهم الجوية، فما يكاد يجهز عليها حتى ينتقل إلى مناطق الصناعة يدك أركانها ويقوض أساسها؛ ثم يلتفت أخيراً إلى مساكن المدنيين يصدّع أجنابها ويهدّم سُقفها. هي (الحرب
الكلية) لا تبقى على شيء ولا تذر؛ هي حرب سلاحها القاذفات تحمل أسباب الهلاك والفناء على دفعات ثلاث، دفعات متعاقبة متلاحقة؛ السابقة منها تمهد السبيل للاحقة، واللاحقة منها تباري السابقة في افتنان وسائل الدمار، أولاها قذائفها ثقيلة ضخمة، والأخيرة سلاحها أرق من النسيم، وأفتك من ألف قنبلة تدافعت نحو الهدف. هذه هي جراثيم أمراض وبائية حشرت في أنابيب صغيرة، ولكنها سلاح يعجز عن إلحاق الضرر الشامل إلا إذا سبقتها حالة عم فيها الفزع، واختلط خلالها الحابل بالنابل، وانقلب أثناءها العالي على السافل؛ حالة شُلت فيها وسائل الوقاية، وانعدمت أثناءها أسباب العلاج. حالة تخلقها القاذفات بإشعال الحرائق الكبيرة تستعر وتمتد حتى لا يعود إنسان يفكر في رفيق، ولا أخ في شقيق، ولا أم في وليد. ولكن هل يسعنا إشعال تلك الحرائق ما دام هناك على الأرض أفراد لها مترقبون. وبكامل الوسائل مستعدون؟ لا مناص إذن من إقصائهم عن مراكزهم أو تحويل رقابتهم بقنابل قاصفة شديدة الانفجار، تهز أعصابهم إن لم تنثر أشلاءهم.
تلك هي المراحل الثلاث، وهي كما ترى مرتبطة ببعضها، متسلسلة الترتيب، ممهدة لأخيرتها التي هي أصدقها إصابة، وأمضاها نتيجة
طبق الألمان نظريات (دوهيه) على عمليات بولندا فنجحت نجاحاً لا بأس به: فَقَدَ البولنديون سلاحهم الجوي إثر هجوم خاطف شنته قاذفات الألمان على المطارات، ووقفت جيوشهم مشلولة حيرى لا تدري عما حولها شيئاً. كيف لا؟ وقد فقدت طائراتها وأصبحت كالساري في ظلام دامس، يتحسس الطريق فيتعثر، ويتنسم الاتجاه فيتخبط! أما المصانع فلم تدمر تدميراً تاماً كما أمل الألمان؛ وأمام المدن عجز برنامج (دوهيه) عن شق طريقه إلى سُبُل التنفيذ والتحقيق. ولا داعي لتذكير القارئ أن ألمانيا أحجمت عن استعمال الجراثيم الوبائية حرصاً على موقفها إزاء الدول، وخوفاً من استفزاز

الرأي العام.
وفي صيف 1940 حاول الألمان معاودة تطبيق تلك النظريات على مطارات بريطانيا ففشلوا فشلاً تاماً، إذ هبت المقاتلات في وجه القاذفات المغيرة تردها وتقصيها، حتى فاه تشر شل بكلمته المشهورة في الإشارة بأعمال رجال الطيران البريطاني: (لم يسبق قط في تاريخ الحروب أن علقت فئة قليلة كهذه على أعناق شعب مثلنا، جموعه زاخرة بالأفراد، مائجة بالأعداد، دّيْناً كهذا، قيمته تفوق كل قيمة)؛ وهكذا أصبح القسم الأول نفسه من
برنامج (دوهيه) عسير التحقيق، إلا في تلك الأحوال الخاصة التي أنقضَّت فيها دول كبرى على دول صغرى ضعيفة لا تملك من تلك المقاتلات كثيراً
انهار إذن صرح (دوهيه) وهو أحسن ما شيد في سبيل تحقيق سيادة الطيران على ميادين القتال. فدعونا إذن من تخيلات المتخيلين، ولنخضع لما لا محيد عنه وهو أن الجيوش الزاحفة على الأرض ستظل العامل المسيطر ما عش الإنسان مثلها على سطح الأرض، وأن الأساطيل البحرية ستظل أقوى ما يؤثر على نشاط الصناعة والاقتصاد ما شقت السفن التجارية عباب الماء بشحناتها الغذائية أو مواد الصناعة الأولية. أما الطيران فستحتل ولاشك مكاناً تزيد أهميته بمر السنين، ولكنه سيظل دائماً أبداً السلاح المعاون لا الركن والأساس
أظهر الطيران تفوقه على غيره من وسائل الحرب في شئون الاستطلاع، فعم استعماله هناك، وفضل المدفعية في المقدرة على المسارعة بنيران تساعد قوات شقت طريقها للأمام سريعاً، بواسطة منقضات بنيت لهذا الغرض خصيصاً. وتمكن من التوغل بالقاذفات داخل بلاد الأعداء، وهذا ما لم يتوصل إليه أحد من قبل، وقدم المقاتلات تمد من تلك القاذفات، بل تشتتها أحياناً قبل وصولها إلى الأهداف، وهذا ما لم تقو عليه المدافع المضادة للطائرات.
وهكذا أصبح الطيران من أهم الأسلحة المعاونة، لا يجوز الاستغناء عنه بأية حال، خصوصاً إذا ارتد جيش منهزم أمام عدو يلاحقه، أو ارتحلت فوق البحر قوات حوصرت من البر، أو انتقلت جنود أثقلها العتاد من سفن حملتها إلى شواطئ الأعداء؛ أحوال تكون فيها الجيوش أو السفن متعرضة أشد التعرض لهجمات الجو، وتكون طائرات الأعداء فيها متهالكة على الأهداف، لا يردعها إلا سلاح من نوعها أقدر على محاربتها في نفس ميدانها، ومنازلتها بنفس وسائلها.
حسين ذو الفقار صبري
أشواق. . .!
إلَيكِ تَسَامَي هَائِماً رُوحُ شَاعِرٍ ... وَفِيكِ تَغَنَّى ضَارِعاً لَحْنُ سَاحِرِ!
عَلَىَ لَهَوَابِ الطَّيْرِ مِنِّي تَحِيَّةٌ ... إِلَى كلِّ قَلْبٍ بِالصَّبَابَاتِ عَامِرِ
وَفِي صَبَوَاتِ الغِيدِ عَنِّى رِوَايةٌ ... تُرَدِّدْهَا الأَنْسَامُ في كلِّ سَامِرِ!
ضَرَاعَةَ مُشْتَاقٍ إِلَى رُوحِ فَاتِنٍ ... وَدَعْوةَ مهجورٍ إلى قَلْبِ هَاجِرِ!
دَعَيْنِي أَرَى الدُّنْيَا كما يُبْصِرُ الْوَرَى ... فَقَدْ كادَ نُورُ الْحُبِّ يُعشِي نَوَاظِرِي!
أَرَاكِ فما أَدْري إلى أَيِّ سِدْرَةٍ ... مِنَ الْمَلإِ الأَعْلَى تَنَاهَتْ خَوَاطِرِي
صِبَابْةُ وَلْهَانٍ وَأَلْحَانُ ضَارِعٍ ... وَأَوْهَامُ مُشْتَاقٍ وَأَحْلاَمُ شَاعِرِ
فَلا تَتْرُكِينِي لِلأَسَى. . . أَنْتِ فَرْحَةٌ ... مِنَ الْحُسْنِ تَهْدِي بِالْهَوَى كلَّ حَائِرِ
وَلاَ تَجْحَدِينِي. . . إِنَّ لي قَلْبَ مُؤْمِنٍ ... وَلِي رُوحُ صَدَّاحٍ وَلِي نَفْسُ طَاهِرِ!
لِعَيْنَيكِ أَحْيَا فِكْرَةً لاَ يَحُدُّهَا ... زَمَانٌ وَلاَ يَرْقَى لَهَا وَهْمُ خَاطِرِ
إِذَا كانَ لي فِي الْحُبِّ طَاعَةَ عَاجِزٍ ... فَقَدْ كانَ لِي بِالْحُبِّ صَوْلَةُ قَادِرِ
نَسِيتُ بكِ الْمَاضِي. . . وَلَوْلاَ بَقِيَّةٌ ... مِنَ الرُّشْدِ تَهْدِينِي لأَنْسِيتُ حَاضِرِي
إِذَا سَئِمَتْ رُوحِي مِنَ الْعُمْرِ وَحْدَتِي ... فَطَيْفُكِ أَنْسِي فِي حَيَاتِي وَسَامِرِي!
فَيَا أَيُّهَا الطَّيْفُ الْحَبِيبُ بَعَثْتَنِي ... فَغَنَّتْ بِأَلْحَانِ الأَمَانِي مَزَاهِرِي
وَأَنْسَيْتَنِي مَا كانَ مِنْ طُولِ شِقْوَتي ... كأَنَّ الأَسَى مَا طَافَ يَوْماً بِخَاطِرِي!
فَهَبْنِي مَعَ الأَطْيَارِ بُلبلَ أَيْكةٍ ... يَلَقِّنُ أَسْرَارَ الْهَوى كلِّ عَابِرِ
وَخُذْ كَبَدِي لِلنَّارِ زَاداً فَرُبَّمَا ... هَدَى نُورُهَا حَيْرَانَ بَيْنَ الدَّيَاجِرِ
طَوَيْتُ عَلَى نَجَواكِ نَشْوَانَ أَضْلُعِي ... فَكُنْ عِنْدَهَا يا طَيْفُ بالْحُبِّ ذَاكِرِي
تَرُومُ لِيَ السُّلْوانَ. . . يا مَنْ لِطَائِرٍ ... جَريحٍ غَريبَ الرُّوح في كَف آسِرِ!

هِجِيرُ الصَّحَارَى لَمْ يَزَلْ فِي جَوَانِحي ... وَصَمْتُ الْحَيَارَى لَمْ يَزَلْ فِي نَوَاظِرِي
عَلَى شَفَتِي سِحرُ مِنَ اللهِ قَاطْرَبِي ... فَما كلُّ مَنْ غَنَّاكِ لحناً بِسَاحِر
!بَدَأتُ وُجُودِي مِنْكِ لَحْناً مِنَ الْهَوَى ... لَهُ أَوَّلٌ يَسْعَى إِلَى غَيْرِ آخِر
خَلَودُ عَلَى رَغْمِ الْبِلَي لاَ تَمُسُّهُ ... مَعَ الزَّمَنِ الْفَاني حُتُوفُ المقَادِر
طَوَيْتُ عَلَى الصَّبْرِ الْجَمِيلِ جَوَانِحي ... ومَا كَنْتُ عَنْ نَجْوَاك يَوْماً بِصَابرِ
!وِكِدْتُّ أَرَى حُبِّي وَأَسْمَعُ هَمْسَهُ ... هُنَا فِي دَمِي. فِي مَسْمَعِي. فِي خَوَاطِرِي
!. . .وَقُلْتُ: وَدَاعاً!. . . فِي غَدٍ سَوْفَ تَلْتَقِي ... فَكَانَ الْغَدُ الْمَأمُولُ أَوْهَامَ شَاعِر
(القاهرة)

محمود السيد شعبان

البريد الأدبي

الرقص الخليع

أكتب هذه الكلمة على أثر مشاهدتي لفلم جديد من أفلامنا المصرية، أجمع النقّاد الفنيون على استحسانه، وفاتهم جميعاً أن يشيروا إلى ما أقحم فيه من الرقصات الخليعة التي انتقصت من قدره، وما كان أغناه عنها. وإنني لأعلم إذْ أكتب هذه الكلمة، أنّ وزارة الشؤون الاجتماعية تحاول أن تطهر الفن من الخلاعة التي تسيء إليه، ولكنني أريد أن أسّجل ظاهرة مؤلمة، لشَدّ ما ترمض قلب كل وطني مخلص: تلك هي مجاراة أرباب الفن لشهوات سفلة القوم. وما يجب على الفنان أن ينزل بفنه إلى هذا المستوى الوضيع، فيقدم للعامة ما تتطلّب ولو كان في ذلك ما ينتقض من قيمته؛ وإنما يجب عليه أن يرفع العامة إلى المستوى الرفيع، فيسمو بهم إلى قمة الفن، ولو كان في ذلك تضحية منه ببعض الشهرة العاجلة والربح الوفير

إنهم يسيئون إلى الفنّ بهذه الرقصات الفاضحة التي لا يصحبها غير فوره الشهوة . . . وطغيان الجسد، إذ ما كان الرقص أداة لإرضاء الشهوة، وما كانت الراقصة أمتوعةً لكل حيواني متهتك. فهلاّ عمل اهل الفنّ - دون تدخلٍ من رجال الحكم - على القضاء التام على الرقص الخليع الذي لا أثر فيه لمعنى الفن؟

(مصر الجديدة)

زكريا إبراهيم

خط المصاحف وقواعد الإملاء

من العقبات التي تعترض المعلمين في مدارس التعليم الأولي - حين يقومون بتعليم القرآن الكريم لتلاميذهم - اختلاف خط المصاحف التي بأيدي هؤلاء التلاميذ، مع ما تعلموه من قواعد القراءة والكتابة، ويؤدي هذا الاختلاف دائماً إلى اللحن والتحريف في الآيات القرآنية، بالرغم من الجهد الكبير الذي ينفقه المعلم في الإرشاد والتصحيح، ولكن هذا الجهد يذهب عبثاً، حين يقرأ التلميذ لنفسه، وحين يستذكر دروسه، وهو بعيد عن معلمه. ولاشك أن عقلية الطفل لا تتسع لإدراك اصطلاحات الضبط التي تختلف عما انطبع في ذهنه من

قواعد الإملاء. وتظهر الصعوبة في صورة أوضح حين نعرف أن تحفيظ القرآن في الأيام الخوالي كان بطريقة التلقين، وكان التلاميذ ينقطعون لدراسته واستذكاره، فلا يشتغلون بغيره من العلوم، إلا بعد إتمام حفظه وتجويده. أما اليوم فالقرآن يدرس في المدارس الأولية مع كثير من مبادئ العلوم الحديثة، وزمنه محدود، والتلاميذ يحفظون بالقراءة في المصاحف لا بالتلقين، والزمن المخصص لا يكفي للمراجعة ودراسة مواضع الاختلاف بين خط المصاحف والكتب

ولا أستطيع أن افهم السبب في سكوت وزارة المعارف على هذا، وعدم قيامها بطبع مصاحف تتفق في الرسم مع قواعد الكتابة المعروفة. ولو فعلت ليسرت للناشئين الحفظ مع القصد في الزمن والجهد. على أنى لا ادري سر جمودنا وتعصبنا للخط الذي كتبت به المصاحف، وهو لم ينزل مع القرآن من السماء! اللهم إلا إذا كان القدم يكسب الخطأ صفة الخلود!

وبعد، فهل لمعالي وزير المعارف أن يضع هذه المسألة مع ما اعتزم أن يعالجه من مشكلات العلم، وشؤون التعليم؟

ليته بفعل، فيكسب ثواب العاملين، وحسن ثواب المخلصين

(المنصورة)

علي عبد الله
كلمة حرة للتاريخ
ذكر الدكتور زكي مبارك في مقاله المنشور في العددن497 تحت عنوان (حافظ إبراهيم) أنه:
في شهر سبتمبر سنة 1911 أغارت إيطاليا على طرابلس - وهي يومئذ ولاية تركية -) فنهض المصريون لمعاونة طرابلس بالطب والشعر والمال والرجال. . . وبفضل تلك الحرب أنشئت جمعية الهلال الأحمر المصري، وكان لقلم الشيخ علي يوسف تأثير في إنشاء تلك الجمعية، وهي لا تزال من كبريات جمعياتنا الخيرية
والحقيقة أن الشيخ علي يوسف هو مؤسسها الأول. وكنت أتمنى أن أذكر أشياء كثيرة عن
هذه الجمعية لولا أن هذا لم يحن وقته. وفي 15 فبراير سنة 1940 افتتح رسمياً مستشفى هذه الجمعية بشارع الملكة نازلي بحضور صاحب الجلالة الملك ووقف صاحب السعادة علي باشا إبراهيم وقال:
مولاي! يرجع تاريخ إنشاء جمعية الهلال الأحمر إلى الحرب الطرابلسية عام 1911) وقد أسسها المرحوم السيد علي يوسف باشا ونخبة من كرماء الأمة المصرية لإسداء المعونة الطبية والمادية لجرحى الطرابلسيين ومنكوبي الحرب منهم. . . الخ (
عطية شلبي
بحكمدراية بوليس مصر
إجابة
السليط بالفتح: الزيت أو الزيت الجيّد، أرى أنّ منه ما يقال له (سلطة) بفتحتين يستعمل الفعل (صمد) في بعض الصحف وفي أنباء الحرب بغير معناه، وأظن أن المراد (صمل) أي أشتد وثبت. صمد وصمد له وإليه: قصد، والصمد - بفتحتين - الذي يُصمد إليه في الحوائج أي يُقصد، والله الصمد (عن الحسن) الذي أُصمدت إليه الأمور فلا يقضي فيها غيره ولا يقضى دونه
ألمها - في عبارة السائل الفاضل - الثغر النقي، قال الأعشى:
ومهاً ترفّ غُروبُهُ ... يسقى المتيّم ذا الحرارةْ
وأنشد الجوهري للأعشى:
وتبسم عن مهاً شبم غريّ ... إذا تعطى المقبَّل يستزيد
(وحيد)
القراءات والتصحيف
اطلعت على ما دار حول القراءات في الأعداد الأخيرة من مجلة الرسالة، فرأيت ما يتعلق بالتصحيف لم يوف حقه من التمحيص، فأقول بإيجاز: إن ما عزاه الحافظ السيوطي في المزهر (2 - 230) إلى بعض المجامع من أن حماد بن الزبرقان صحف (إياه) إلى (أباه)
و (في عزة) إلى (في غرة) و (شأن يغنيه) إلى (شأن يعنيه) هو غير الصواب، لأن الأولى هي قراءة الحسن البصري وابن السميفع، والثانية قراءة الكسائي، والثالثة قراءة ابن محيصن والزهري
وحماد بن الزبرقان ظنين لا قيمة لما ينفرد به، وشواذه مدونة في كتاب ابن خالويه، بل يستقصيها أبو حيان في البحر. وما صح سندة من الشواذ يصلح لتفسير القراءات المشهورة، وما لم يصح سنده منها يكون من قبيل وهم الراوي وكذبه، وهؤلاء ما كانوا ينفون القراءة المتواترة في تلك الألفاظ حتى يظن بهم التصحيف
والحافظ السيوطي رحمه الله على كثرة مؤلفاته كثيراً ما يشط قلمه عن الصواب. وقد ألف شرح الشاطبية في القراءات السبع مع اعترافه بأنه لم يتلق علم القراءات عن شيخ. فمثله إذا نقل عن مجموعة مجهولة ما يتعلق بالقراءة سقط نقله من رتبة الاعتداد به.
(أبو أمية)
في رسالة عمر
للأستاذ زكي غانم كلمة بعدد الرسالة (491) يرى فيها أن رسالة عمر في القضاء قد أصابها تحريف في كتاب المنتخب للسنة الرابعة الثانوية، وفي كتاب شرح النصوص

الذي اعتمد على المنتخب. وهو وضع كلمة (غير) مكان كلمة (عند) في العبارة الآتية: (فما ظنك بثواب غير الله - عز وجل - في عاجل رزقه وخزائن رحمته؟) وقال الأستاذ: (ولا وجه للنص محرفاً، وقوله: (في عاجل رزقه وخزائن رحمته) وصف لثواب الله لا ثواب غيره)

ولا أوافق الأستاذ على هذا الرأي؛ بل أرى أن كلمة (غير) هي المناسبة هنا، ولا يؤدي المعنى المراد بغيرها.

ومما يوضح رأيي أن عمر يقول قبل ذلك: (فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانه الله. فما ظنك. . . الخ)

فعمر يدعو إلى مراقبة الله، وموافقة السر للعلن؛ وبنفّر من الرياء، والتظاهر للناس بغير ما تنطوي عليه النفس تقرباً إليهم، وطعماً في ثنائهم، ورغبة في ثوابهم. فالمعنى الذي يرمي إليه عمر: أن ثواب غير الله حقير إذا قيس إلى ثوابه؛ فلا يجدر بمؤمن أن يؤثره عليه. ولذلك صح ارتباط الفقرتين، فكانت اللاحقة تعليلاً لمعنى السابقة، وموازنة بين ثواب الناس وثواب الله، وتحقيراً لما يرجوه المرائي عند الخلق بجانب ما يأمله المحسن عند الخالق، وبالقياس إلى رزق الله الذي يفيضه على من يراقبه، وخيره الذي يدخره لمن صحت نيته وأقبل على نفسه.

ومما يوضح ذلك أن الحرف (في) هنا (في عاجل. . .) إنما جاء للموازنة والمقارنة؛ كما في قوله تعالى: (فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل) بعد قوله: (أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة) (سورة التوبة: 28)

ولما قرأت هذه الرسالة قديماً التوى على معنى هذه الفقرة، إذ لم أتبين موقع هذا الحرف (في) من العبارة؛ ولعل هذا هو السبب في اعتراض الأستاذ؛ ولكني رأيت في الكتب التي تعنى بحروف المعاني أن (في) يستعمل للمفاضلة، فاستقر المعنى عندي.

قال ابن هشام في باب حروف الجر من التوضيح أن المقايسة من معاني (في) وقال في المعنى: (الثامن (أي من معاني في) المقايسة، وهي الداخلة بين مفضول سابق، وفاضل لاحق، وقد استشهد في كلا الكتابين بالآية الكريمة: (فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل)

وبهذا يزول اللبس الذي حدا بالأستاذ أن يجعل الظرف (في عاجل) وصفاً لصواب الله لا ثواب غيره. فإنه في موضع الحال من (ثواب غير الله) أي: فما ظنك بثواب غير الله مقيساً إلى ثواب الله. ومرجع الضمير في (رزقه، رحمته) هو الله

المتولي قاسم

المتهمة

هذا هو عنوان الفلم الجديد الذي أنتجته شركة لوتس فلم ووضع قصته الأستاذ حسن عبد الوهاب وقام بعمل حواره الأستاذ يوسف جوهر، وهو من إخراج الأستاذ بركات. وقد قامت بالدور الأول فيه الممثلة السينمائية المعروفة آسيا بالاشتراك مع مجموعة كبيرة من الممثلين والممثلات. وموضوع الرواية يدور حول امرأة كانت تعيش مع زوجها وابنها عيشة سعيدة هادئة، ولكن الأيام سخرت منها وانتزعتها من حياتها إلى حياة أخرى شقية تعسة. وقد استطاع المخرج بركات أن يظهر الموضوع في صورة واضحة قوية. وبالرغم من أن هذا الفلم من النوع الدرامي العنيف فإنه لا يخلو من طرائف تبعث الضحك في وسط هذه العاصفة الهوجاء. وقد استطاع كل ممثل أن يؤدي دوره على خير وجه

نكتفي الآن بهذه الكلمة ونتمنى للسيدة آسيا كل تقدم ونجاح.

عبد الفتاح متولي غبن

العدد 500 - بتاريخ: 01 - 02 - 1943

دفاع عن البلاغة - 6

آلة البلاغة - 2

أشرنا في كلام سبق إلى أن طالب البلاغة الموهوبَ لابد له من درس اللغة، والطبيعة، والنفس، على الأخص؛ ثم أجملنا المراد بدرس اللغة، وألمعنا في صدد ذلك إلى منهاج

يبتدئ بتقويم السليقة وينتهي باكتساب الذوق
وكان الأشبه بطبيعة الموضوع أن نفصل الكلام في تحصيل علوم اللسان ووضع الخطة لها وبيان الفائدة منها؛ ولكننا في مقام من يدافع ولا يعلِّم، ويوجه ولا يقود. وقديماً شكا عبد القاهر ما نشكو من زهادة الكتاب في اللغة، وأنصرافهم عن النحو، واستخفافهم بالبيان، وتنكرهم للشعر، وجريهم في الصياغة على الاحتذاء. وظنهم أن الكاتب متى (عرف أوضاع لغة من اللغات. . . وعرف المغزى من كل لفظة، ثم ساعده اللسان على النطق بها، وعلى تأدية أجراسها وحروفها، فهو بيّن في تبك اللغة كامل الأداة. . .) على أن (ههنا دقائق وأسراراً طريق العلم بها الروية والفكر، لطائف مستقاها العقل، وخصائص معانٍ ينفرد بها قوم هُدوا إليها، ودُلُّوا عليها، وكشف لهم عنها. . . وأنها السبب في أن عرضت المزية في الكلام، ووجب أن يفضُل بعضه بعضاً، وأن يبعد الشأو في ذلك وتمتد الغاية، ويعلو المرتقى ويعز المطلب حتى ينتهي الأمر إلى الإعجاز. . .)
ولقد حاول عبد القاهر أن يطبَّ لهذا الداء فوضع كتابيه القيمين (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة)؛ ولكن الداء كان قد استشرى فلم يصحّ عليهما إلا أفذاذٌ رزقوا شدة الأسر وقوة الفطرة. ثم عقم الدهر بمثل عبد القاهر، وانقطعت الأسباب بين كتابيه وبين الزمن، فتجددت معانٍ وصور، وتولدت أغراض وأساليب، وأصبح هذان الكتابان في أول الطريق مناراً لا ترى بعده إلا إغفالاً ومجاهل! فهل في البيانيين من أساتذة جامعاتنا الثلاث من يحاول في البلاغة الحديثة ما حاول عبد القاهر في البلاغة القديمة، فيجددوا ما درس، ويكملوا ما نقص، ويقيموا أدب الكتابة وأدب النقد على قواعد ثابتة من الفن الصحيح والعلم الحديث؟
ذلك، وأما درس طالب البلاغة للطبيعة فلأنها كتاب الفنان الجامع ومصوَّره العجيب. منها موضوعه ومادته، وعنها اقتباسه ووحيه، وفيها دليله ونموذجه، وبها أخيلته وصوره، فيجب
أن يطيل فيها النظر، ويشغل بها الفكر، ويرجع في كل ما يعمل لأصولها الثابتة وقواعدها المقررة، ليتقي الضلال والخطأ، ويأمن الإغراق والتكلف
هذا الكتاب المحيط المعجز الذي ألفته يد القدرة قد تجمعت على هوامش متنه الهائل عقول بني آدم منذ استبصوا، يحاولون كشف أسراره وفهم حقائقه؛ فوفِّقوا بالاستقراء والاستنباط إلى ابتكار علوم، وابتداع فنون، تخصص في هذه أقوام، وفي تلك أقوام، كالجيولوجيين والجغرافيين والطبيعيين والكيميائيين والفلكيين والمهندسين وسائر من يتصل علمهم أو عملهم بالأرض والسماء، واليبس والماء، والجماد والحي. والأديب وحده هو الذي يجب عليه أن يشارك في كل علم ويلم بكل فن؛ لأنه عرضة لأن يكتب في كل أولئك ولو على سبيل التصوير والتشبيه. فإذا لم يكن واقفاً على مصطلحات الفنون والعلوم، عارفاً بمختلف الحدود والرسوم، قدح ذلك في ثقافته وغض من كفايته. ولقد عبرنا بالمشاركة والإلمام لأن دراسة الأديب للطبيعة تختلف عن دراسة الفيلسوف لها: الفيلسوف يدرسها ليعرف، والأديب يدرسها ليحتذي. الفيلسوف يشرح ويحلل، والأديب يصور ويمثّل. فحظ الأديب من درس الطبيعة هو حظ المصور من درس التشريح: لا يزيد على القدر الذي يضيف إلى جمال التخيل جمال الحقيقة، ويجمع إلى دقة المثال براعة الطريقة
إن الأسباب لا تعني الأديب وإنما تعنيه النتائج. فالفلكي يرقب فعل الجاذبية، ويرصد حركة الأفلاك؛ ولكن الشاعر يصور نظامها الدقيق وتلاؤمها العجيب وتطورها الدائم. والطبيعي يحلل الضوء والصوت؛ ولكن الشاعر يُسمعك في شعره هزيم الرعد من جبل إلى جبل، وزفيف الريح من واد إلى واد، فيقذف في قلبك الرهبة. ويريك وميض البروق الزُّهر تتكسر في الأفق صفائح وهاجة تشق رُكام السحائب الجون، فتبعث في نفسك الروعة. والكيميائي يشرح سطوع الروائح على طريقته الخاصة؛ ولكن الشاعر يصورها لذهنك في النسيم الرفاف يصفق في الهواء بأجنحته المخضلة بأنداء الفجر، المضمخة بعطور الصباح
وأما دراسته للطبيعة فلأنها الينبوع الثّرُّ لما يزخر به الشعر والنثر من مختلق الغرائز والعواطف والأفكار والأحاسيس؛ ومعرفة الينبوع في مصدره وجوهره ومداه، شرط في معرفة ما يصدر عنه على حقيقته وطبيعته وأثره. وإذا كان من خصائص فن الكاتب

أن يخلق أشخاصاً للقصص، ويمثل أهواءً على المسرح، يعالج أخلاقاً في المجتمع، ويحلل
عقّداً في الناس، فمن غير المعقول أن يحسن شيئاً من أولئك إذا لم يكن علينا بأسرار
القلوب وأهواء النفوس وما ينشأ من التعارض والتصادم بين الغرائز والأخلاق، وبين
العواطف والمنافع. وإذا كان مدار البلاغة على مطابقة الكلام الفصيح لمقتضى الحال،
فإن إدراك الفروق الدقيقة بين الحالات المختلفة للمخاطب، وصياغةَ الكلام على
قوالب المقتضيات المناسبة للخطاب، وتصويرَ الأخلاق على نحو يغرى بالخير أو يحذر
من الشر، والقدرةَ على خلق الجمال في الأسلوب، أو التعبير عما يخلقه الجمال فينا
من العواطف؛ كل أولئك يسلتزم دراسة خاصة لعلم النفس وعلم الأخلاق وعلم الجمال
هذا كلام أشبه بالمتن في تعميمه وإيجازه. والعذر المسوغ لهذا الأسلوب أننا نخاطب
الكتّاب ونبين الحدود وتبرز الخصائص؛ ومن اجل ذلك قصرنا الكلام على اللغة
والطبيعة والنفس من جملة ما يجب على طالب البلاغة درسه؛ لأنها في رأينا أشبه
بعلوم التخصص له. والمفروض أن يخصها بطول النظر بعد أن يأخذ قسطه الأوفى من ضورب الثقافة
(للكلام بقية)
أحمد حسن الزيات
رسالة وجدانية
ألوان وألوان
(للكاتب المجهول)
!مولاتي
كان الظن أن ينتهي ما بيننا بعد الجدال الذي ثار في الليلة الماضية، أو السنة الماضية،
فما أدري متى التقينا آخر مرة. وكيف أدري واللحظة القصيرة من الفراق تتمثل لقلبي
وكأنها أجيال وتواريخ؟
كان الظن أن ينتهي ما بيننا فلا تعود أحلامه ولا أهواله، ولا ترجع أيامه ولا لياليه، ولا
يمر بالخاطر في لحظة من زمان
كان الظن أن نفترق، بعد أن تشهينا أن نفترق، ومعاقرة الكأس توحي بصدع الكأس،
فكيف أراجع هواك يا ظلوم، بعد أن نويت المتاب، على أعظم حال من الشوق إلى
المتاب؟! قد تشهينا أن نفترق، فمتى تفترق؟ ومتى نذوق طعم الأمان من عدوان الأشجان؟
كان اللقاء الأخير بلية من البلايا المواحق، فقد تناظرنا بشراهة تفوق الوصف، وكأننا
نريد أن نلتهم ما بقي من زاد الحب، وأن نتزود للأعوام البواقي، وأن نقول إننا لا نواجه
بيداء الصدود بغير زاد
لقد أخطأنا فيما صنعنا، والمحبون كبار لا يدرون عواقب ما يصنعون من مرارة
!الافتراق، وهو غير الفراق
لن ينقضي ما بيننا أبداً، ولن تبيد تلك الألوان، ألوان الأثواب وألوان القلوب
كنت تلقينني في كل مرة بثوب جديد، وكنت ألقاك في كل مرة بقلب جديد. وما أبعد
!الفروق بين ألوان الأثواب وألوان القلوب
لن ينقضي ما بيننا أبداً. وبالرغم مني أن يكون ما بيننا أوثق مما بين العين والضياء،
فلك بدوات تجعل الإيمان بحنانك أضعف من الإيمان بأمانة المحتالين
لم تكن لي يدٌ فيما صرنا إليه، فقد فررت من هواك ألف مرة، وانتقلت من محلة إلى
محلة ومن إقليم إلى إقليم، لأنجو بنفسي، فهل نجوت؟
إن الشمس تلاحقني حيثما توجهتن فأين الفرار من وَهَج الشمس؟
لا المتاعب الشخصية تشغلني، ولا الحوادث الدولية تشغلني، ولا شيء في الدنيا
يصرفني عن التفكير فيما صرتِ إليه بعد الأفتراق، يا أجمل ريحانة في روض الوجود
ألوان أثوابك لا تفوق ألوان قلبي، إلا أن يقال إن المصنوع أجمل من المطبوع
ألوان ثوبك لها أمثال، وليس لقلبي أمثال، وأنت تعرفين ثم تعرفين
اذهبي إلى أبعد الآفاق، واعرفي جميع الخلائق، فلن تكوني لغيري أبداً، لن يكون
للغواية سبيل إلى المليحة التي وسمت جبينها بغرامي

لن أجود عليك يوماً بنعمة الحرية، وستطلين في إساري إلى آخر الزمان
جرّبي التحرر، جربيه، إن كانت لك بالتحرر من وثاقي يدان دنياك بعدي بئرٌ مسمومة، فانظري ما تصنعين
لن ينقضي ما بيننا أبداً، ولن يكون لنا غير ما حُظَّ في صحيفة الخلود، وهيهات ثم هيهات أن يمحى سطرٌ خطَّته الأقدار في صحيفة الخلود!
ما في كل يوم، ولا كل عام ولا كل جيل، ينعطف قلب إلى قلب كما ينعطف قلبك إلى قلبي، فنحن الغاية المنشودة من الوفاق الصحيح بين الأرواح والقلوب
دنيانا التي أعرف وتعرفين أصبحت قفراء، فمتى نلتقي لتعود زهراء؟
خبريني متى نلتقي؟ ومتى نعلن الانتصار على عوادمي الزمان؟ لطف الله بك يا ظلوم، وحفظ عليك نعمة الوجه الوهاج! متى نلتقي؟ وهل افترقنا؟ أنت بين يديّ وإن حجبتْك عني فيافٍ وسهوب.
(الكاتب المجهول)
الحديث ذو شجون
للدكتور زكي مبارك
مقاومة التدخين - أين (الرسالة)؟ سنعرف الأدب في أيام الشدة كما عرفنا في أيام الرخاء
مقاومة التدخين
في العام الماضي قام الدكتور شخاخيري بتأليف رابطة لمقاومة التدخين، ومضى يستهدي المفكرين والمؤلفين والوزراء كلمات في استنكار التدخين. ولم يكتف بذلك، وإنما اندفع فنظم سلسلة محاضرات في (دار الحكمة) دعا إليها أشهر المحاضرين ليقاوم آفة التدخين
والدكتور شخاخيري رجلٌ مخلص، ودعوته هذه تستحق التأييد، ولكنها معرّضة لأخطار سأنص عليها في هذا الحديث لأهدم الأساس الذي قامت عليه، ولعل الله يتفضل فيكتب لي النفع مما تعلمت، لأنني مع الأسف من المسرفين على أنفسهم بالتدخين
شاع وذاع أن الدخان يشحذ الفكر، ويوقظ الذهن، ومن أجل هذا كثر المدخنون من الشعراء والكتّاب والسياسيين، حتى صار من المألوف أن نرى صور الساسة والوزراء وفي أفواههم السجائر النحاف أو السمان، حتى صار من العسير أن نتصور شاعراً أو زعيماً خلت حياته من عبق الدخان
لن أقف موقف الواعظ في دفع هذه الآفة، ولكني سأقف موقف المؤرخ، ثم أترك الحكم للقراء فيما سأسوقه من البينات
أول أمة عريقة في التدخين هي أمريكا القديمة، أمريكا الأمريكية، لا أمريكا الأوربية، أعني أمريكا التي سبقت عهد كولمبوس، وسبقت عهد الاتصال بالأوربيين والأسيويين
فما الذي استفادت أمريكا القديمة من التدخين؟ هل فتق أذهان أهليها إلى ألوان من الفكر والعقل والبيان؟ هل جعل لأهليها ماضياً في رفع دعائم الحضارة الإنسانية؟
كلا، وإنما تركها التدخين أمة بلا تاريخ
وأقدم الأمم في رفع راية العقل هم المصريون والبابليون واليونانيون، فهل عرف هؤلاء التدخين حتى ننسب رقيهم إلى هذا المرض الفظيع؟
وهل عرف العرب التدخين حتى نرد السبب في تفوقهم إلى الدخان؟
هل دخن الجاحظ والغزالي وابن رشد والبحتري والمتنبي وأبو فراس؟
أترك التاريخ القديم وأذكر شواهد قريبة جداً من تاريخ مصر الحديث:
أعظم كاتب سياسي بإجماع الآراء هو المرحوم عبد القادر باشا حمزة، ولم يكن يدخن أبداً، وما أذكر أني رأيته طلب فنجان قهوة في أي وقت وهو يكتب أصعب المقالات
ومن عظماء كتابنا الأستاذ الزيات والأستاذ العقاد، وهما لا يعرفان التدخين. وهذا كلام لا يكاد يصدقه القارئ، ولكنه الواقع، ولا حيلة في إنكار الواقع
ولو أن الله أراد أن أنتفع بما تعلمت لتذكرت أني ألفت كتاب (الأخلاق عند الغزالي) وكتاب (النثر الفني) قبل أن أعرف التدخين، فمتى أنتفع بما تعلمت؟
أما بعد فقد دعاني إلى كتابه هذه الكلمة حوادث أغضبتني، لأن فيها دعاية إلى التدخين، وهو مرض يفتك بشبان هذا الجيل
الحادث الأول: في الأسبوع الماضي وقف الأستاذ زهير صبري يستجوب الحكومة في

مجلس النواب عن تسعير الحاجيات الضرورية، فلما وصل إلى السجائر قال: إن السجائر قد غلت مع أن (كيف) القهوة والشاري لا يحلو إلا بسجارة (؟!) فهل فاته أن هذا الكلام إيحاء بأهمية السجائر في الحياة اليومية

الحادث الثاني: قي الأسبوع الماضي أيضاً (تفضلت) الإذاعة اللاسلكية فأذاعت أغنية تنطق بفضائل السجائر، أغنية منقولة عن أحد الأفلام السينمائية

وأنا سأثبت هذه الأغنية في هذا الحديث لغرض واحد: هو تأريخ الحياة الأدبية، فما يجوز لمؤرخ الأدب أن يترك شيئاً بلا تقييد، ولو كان في الدعوة إلى الدخان. وسأدعو الإذاعة اللاسلكية بعد ذلك إلى التفرقة بين جو الرواية وجو الغناء

عنوان الأغنية (خد سجارة وهات سجارة) وهي من الشعر الملحون:

السجارة في الحياة زّيي أنا ... تِتْحرق يضحي روحها لأجل غيرها
عمرها في الدنيا ما شاقت هنا ... تحيا بين النار عشان يرتاح ضميرها
خد سجارة، وهات سجارة

السجارة إن كنت يوم حتْدوق حنانها ... تلقي نفسك في حياة غير الحياةْ
تلقي طيف اللي تحبه بين دخانها ... لما فكرك يبقى سارح في هواه
خد سجارة، وهات سجارة

أنت زعلان؟ خذ سجارة، خذها مني ... يا لله ولَعها واطفي الشوق بنارها
أنت تبقى في جوها عايش مهني ... والسجارة تبقى زيي في مرارها
خد سجارة، وهات سجارة

السجارة لما تيجي وتواسيك ... تنكوي بتارك ومن شوقك تبوسها
هي بتْصون الجميل حرام عليك ... بعدما تحرقها بالأقدام تدوسها
خد سجارة، وهات سجارة

وهذه القطعة قوية جداً في الإبانة عن الغرض الذي نُظمِت فيه، ولكن محطة الإذاعة تنسى أن ما يبيحه جو الرواية لتصوير إحدى الحالات النفسية لا يباح عرضه على جماهير بريئة يؤذيها الإيحاء بجمال الدخان

جو الرواية المسرحية أو السينمائية قد يدعو إلى تجميل إحدى الرذائل ولكنه قد يسوق بعد ذلك عبرة تقتل السم الذي بثه المنظر الأول، وبهذا يتعادل النضال بين السم والترياق

فما عذرُ محطة الإذاعة في أن تبثّ داءً بلا دوار؟

الحادث الثالث: رأيت في أحد الأفلام ممثلاً يدخن بإسراف مع أنه صديق أعرفه منذ سنين، وهو يبغض الدخان، فلما سألته عن السبب أجابني بأن الأفلام المصرية تجعل الناس جميعاً مدخنين فما هذا الذي نرى؟

أنُزّور الحياة المصرية لتشابه الحياة الأمريكية؟

أنكذب على الواقع في سبيل الفن، مع أن غاية الفن هي أن يجسم المحاسن والعيوب، حين يراد به تهذيب الأخلاق؟

اللهم حوالَيْنا ولا علينا!!

أين الرسالة؟

حدثت قرائي مرة أني رفضت أن تُهْدى إليّ الرسالة، لأني أجد أنساً في اشترائها من السوق، كأني أوجه تحية إلى صاحبها الصديق. وبالأمس انقبض صدري حين حدثني باعة الجرائد أنها احتجبت لعدم وجود الورق، ثم لطف الله فعرفت بعد ذلك أنها اكتفت بطبع كمية بقدر عدد المشتركين، إلى أن يأذن الله بالورق الذي يساعد على أن تغمر السوق من جديد. ليتني اشتركت في الرسالة!

هل خطر في بال من تهمهم سمعة مصر الأدبية في الشرق خاطر احتجاب الرسالة عن الأسواق؟

هل آذاهم أن يقال إن مجلة مثل الرسالة لا تجد قوتها من الورق مع أنه قوت مبذول لمنافع قد تضر بسمعة مصر في أنظار من لا يعرفون غير الجد الصريح؟

ليست الأزمة أزمة الورق، فهو موجود، وإنما الأزمة تنحصر في انعدام التعاون والتساند، هي أزمة الأدب اليتيم الذي لا يسأل عنه أحد حين يغيب!

هل صلصل الهتّاف في بيت الأستاذ الزيات من إحدى الجهات للسؤال عن الأسباب

التي حجبت الرسالة عن الأسواق؟
أكان يجب ألا تقتصر الرسالة على الأدب الصرف لتجد من يسأل عنها حين تحتجب؟
سنعرف طاقة الأدب في اجتياز هذه المحنة العاتية. وإن اقتضى الأمر أن نرجو الحكومة أن تسمح بإذاعة محصول الرسالة عن طريق المذياع فسنفعل
أيها الأدب
أنا غير خائف على مصيرك، وهل كانت هذه أول محنة صارعتَها وصارعتْك حتى أخاف عليك؟
لا تصدِّق أيها الأدب أننا سنفرّط في استقلالك بأي ثمن، ولا تتوهم أننا سنتخلى عنك بما يسمونه الظروف أو الصروف
سنعرفك في أيام الشدة، كما عرفتنا في أيام الرخاء، والله وليّ الصابرين.
زكي مبارك
أهمية دراسة التاريخ
للدكتور محمد مصطفى صفوت
(بقية ما نشر في العدد الماضي)
مركز التاريخ في التربية العقلية والجمالية كبير. فالتاريخ يزيد معلومات الدارس عن الحساة، ويوسع أفق تفكيره، ويرقي بقدرته على الحكم. وفي التاريخ يستطيع الإنسان البحث في أسباب الحركات العظيمة ونتائجها، وفي اتجاهات العالم لو أن حوادث هامة لم تقع. لا ريب في أن طريقة البحث الذاتي وقراءة المصادر الأصلية وتفسيرها ونقدها تثير همة الباحث وتبعث فيه حب الحقيقة والبعد عن التحيز. وفي التاريخ مادة تساعد على تقوية أنواع الذاكرة التي لدى الطالب، ففي رؤية الآثار والصور التاريخية ما يقوي بعض الأنواع البصرية من الذاكرة، والتاريخ يقوي التذكر السمعي إذا كان عند الدارس استعداد طبيعي لتذكر ما يسمع ولتذكر نوع خاص مما سمع. أما من حيث الخيال فللتاريخ قيمة كبيرة في تدريبه وتوسيع مجاله. فالتاريخ القصصي يشبع رغبات صغار القارئين في التخيل والبعد عن عالم الحقيقة الراهنة فيرون فيه أعمال البطولة، ويتلو الحوادث بعضها بعضاً فيذهب بهم الخيال كل مذهب ولكن في حدود الحقيقة. أما في حالة المراهق الذي يشرد به الخيال نتيجة لثورة قوية يهتز لها جسمه وعقله ويرجع الفكر به إلى الماضي البعيد للإنسانية أو يمتد به إلى المستقبل ثم ينقلب به إلى الحياة الحقيقية وهو كليل - يشفى التاريخ فيه هذه الرغبة في الرجوع إلى الماضي ويفسر له النظم الموجودة ويخفف من حدة شرود الفكر. ويجد الباحث والدارس لذة عظيمة في قراءته للتاريخ وتخيله للحوادث. فزيارة للأهرام والآثار حولها، وتخيل فرعون يأمر وينهي وقد عنت له الوجوه. . . كل هذا يستوقف النظر ويثير ويسمو به. ويساعد التاريخ على تذوق الفن والجمال. فهو معرض لنواحي الحياة الإنسانية: فهذا جانب السياسة، وهذا جانب الاجتماع، وهذا جانب العلم والأدب. هذه ناحية إرضاء الشهوات، وهذه ناحية إرضاء الروح. هذه هي آثار المصري، هذه مسلاته ومعابده. هذه هي آثار الفن على حياة الإغريقي. . . هذا هو الأدب الذي فاضت به النفس البشرية. ما الشعور الذي يغلب على النفس حينما فاضت به النفس البشرية. ما الشعور الذي يغلب على النفس حينما يزور الإنسان هيكلاً من الهياكل أو معبداً من المعابد أو مسجداً من المساجد أو قصراً من القصور القديمة، أو عندما يقرأ وصفاً لهذه الآثار! ما الإحساس الذي تحسه النفس حين تقرأ وصف البحتري إيوان كسرى أو وصف ابن حمديس لقصور أمراء تونس!
وأخيراً ننتقل إلى قيمة التاريخ العظيمة في التربية الوطنية والإنسانية. يولد الإنسان في مجتمع تربط أفراده علاقات متعددة، لا يدري شيئاً عن نظم ذلك المجتمع وقوانينه التي هي كنز خلفه الماضي، ماضي بلدته وماضي وطنه وماضي الإنسان؛ فالنظم والمثل العليا التي عينت سير الإنسانية في الماضي لا زالت هي التي تعين وتحدد السير في الحاضر، ولا مناص للإنسان من تلقي هذه التركة بما فيها من أعباء ومسئوليات. وكيف يقوم بواجبه نحو ذلك التراث ونحو الوطن والمجتمع الإنساني إذا لم يدرس هذه التركة وقيمتها؟ وقد لاحظ من المفكرين هذه القيمة، فقالوا بتدريس التاريخ القومي والاهتمام به اهتماماً خاصاً. ظهرت هذه الفكرة بشكل واضح في بروسيا عقب كارثة سينيا، وانتشرت في أوربا بين الشعوب التي تتحفز للظهور

والوحدة. رأت هذه الشعوب أن الوطنية الحق لا تقوم إلا على أساس الفهم لنظم الوطن، وتقدير التركة التي خلفها، وتحمل المسئولية التي تركها، ومعرفة أيام عظمته وأيام محنته والعمل على نشر الرسالة التي خلق من أجلها. والتاريخ حينما يذكر بمجد الوطن ومحنته هو نفس الوقت يدعو إلى المحافظة على تراث الوطن سليماً للمستقبل، إن لم يكن زائداً فغير منقصوص، لأنه يخلق العاطفة والشعور الذي يدفع الفرد إلى القيام بواجبه وتنير السبيل أمامه. على أن الغرض القومي لا يجوز أن ينسينا الأمانة العلمية وحب الحقيقة.

والتاريخ ليس سجلاً لماضي الوطن فحسب، فهو سجل لماضي الإنسانية كلها. والنفس ميالة بطبيعتها إلى معرفة ما خلفه الإنسان في كل مكان، ذلك الإنسان الذي تربطها به وشائج القرابة والنسب. ولن ينكر مثقف قيمة ماضي الإنسانية لحاضرها. ويدلل المفكر الإنجليزي جراهام ولاس على هذه القيمة بأنه لو فرض وأصيبت الأرض بصاعقة لنسى كل فرد العادات والمعلومات التي أخذها من الأجيال الماضية فتسعة أعشار سكان لندن ونيويورك سيموتون في مدى شهر، وتسعة وتسعون في المائة من الباقي سيموتون في خلال ستة أشهر إذ لا يكون لديهم لغة ولا أفكار ولا معرفة بالقراءة والكتابة. . . والإنسان محتاج إلى إنسانيته القديمة ليحيا حياة طيبة، وكلما ارتقت به الحضارة زاد احتياجه إليها. والتاريخ يشرح لنا الفكرة التي تسيطر على العالم، فكرة التطور. قد يرى البعض أن العلوم الطبيعية والأدب يفسران ناحية منها، والتاريخ يفسر النواحي السياسية والاجتماعية، ولكن إنعام النظر يرينا أن العلم الطبيعي والأدب يدخل فيهما عنصر التطور نفسه ولذا لا يمكن فهمها دون الرجوع إلى التاريخ

التاريخ يضرب لنا أمثلة حسية على الحياة، فهذه حياة أناس عاشوا في ذلك العالم وأحسوا احساسات خاصة، تحاربوا وتصالحوا وطالبوا بحقوقهم وذادوا عنها أو انصرفوا إلى التمتع بالحياة وأحبوا الترف، ماذا كانت نتائج أعمالهم، ما بواعث فعالهم؟ يبين لنا التاريخ اختلاف الناس وأثر ذلك الاختلاف، وأن لكل فرد نحو بلدته ونحو وطنه ونحو العالم مهمة خاصة يؤديها في الوجود. وهو لا يبين لنا اختلاف الأفراد أو الطبقات فحسب، بل اختلاف الأمم والشعوب أيضاً، فلكل أمة رسالة قد أدتها أو هي في سبيل تأديتها للحياة. ثم هو يبين لنا اختلاف العصور، فكل عصر مختلف عن سابقه له طابعه الخاص في طرائق تفكيره ومنتجاته. فعصرنا الحاضر مختلف اختلافاً ظاهراً عن العصور الماضية ومشاكلنا والموازين التي نحكم بها على الأشياء مختلفة عن ميثلاتها في الماضي، ولكن الماضي ضروري لفهم مشاكلنا الحالية، فالحياة كما يوضح لنا التاريخ في تغير دائم، في تطور

يرينا التاريخ تعاون الإنسانية في ارتقاء سلم الحضارة، كما يرينا أنها سائرة في طريق النمو والتحسن، فالأفراد يحيون ثم يموتون، والأمم تقوم وتسقط، والحضارة تتقدم حيناً وحيناً تتأخر، ولكن النمو مطرد. فالإنسان كفرد تزداد حقوقه وأصبح أمامه مجال كبير لخدمة مستقبله وعائلته ووطنه والعالم. وينكر بعض المفكرين النمو في نواحي الروح والدين والأخلاق؛ فالعصور الماضية عصور الأنبياء. ولم تتقدم الأخلاق خطوة، فالقانون بين الدول لا زال قانون القوة. حتى في الناحية العقلية يشير البعض إلى مثل ذلك الجمود. فلا دليل في نظرهم على أن عقل الإنسان الحاضر أرقى من عقل أفلاطون. ويقول هكسلي إنه لا يعرف دراسة محزنة لتفسير تطور الإنسانية مثل دراسة التاريخ. فالإنسان لا زال وحشاً ولكنه خير من الوحوش الأخرى. وأحسن الحضارات الحديثة لم تظهر لنا مثلاً أعلى أو شيئاً جديراً بالبقاء

ويرد على ذلك بأن التاريخ يرى لكل عصر مساوئه، وأن الإنسانية لم تبلغ بعد حد الكمال، وأن الطبيعة الإنسانية ذاتها لم تتغير إلا بمقدار ضئيل، وإنما الذي يغير تغيراً محسوساً هو تكيفها لظروفها الطبيعية والاجتماعية. ونمو محصول الإنسان من حيث المعلومات ومن الناحية المادية واضح، فكشف العالم الجديد وكشف كثير من قوى الطبيعة واستغلالها لمصلحته، وتكييف الإنسان للبيئة من إصلاح الأراضي وإزالة الغابات واختراق البحار والجبال والصحارى والهواء شواهد على النمو العقلي وعلى ارتفاع مستوى المعيشة. ولا ريب في أن زيادة المقدرة على التعليم والتعلم، وتقدم العلم وسهولة الانتقال هي في مصلحة الرقي العقلي والأخلاقي والروحي

التاريخ يصف التطور الاجتماعي لا العضوي والبدني، فإذا شعر الدارس بأنه يعيش في جو كله تطور ونمو فهو لا ينسى الماضي. سيقدر الحاضر ويزداد أمله في المستقبل. يعرف الدارس خلال التاريخ سر الإنسانية ويجد فيه أكبر خادم للفكرة الإنسانية ذاتها؛ لأنه يقلل من حدة التعصب لقومية أو لدين وعادات. فالتاريخ يبين أن العالم لم يقم على حضارة واحدة أو لغة واحدة أو دين واحد أو عسر واحد - فلكل حضارة نصيبها يغبنها التاريخ إياه - يرينا أن الأمم تبادلت ولا تزال تتبادل أنواع الحضارة. ولئن كان العلم قد أفاد فن الحضارة المصرية القديمة فهو مدين للفلسفة اليونانية والفن اليوناني والقانون الروماني. ولا ريب في أن مدينة العصور الوسطى في الشرق والغرب كانت أساساً عملياً لحضارة العصور الحديثة.

محمد مصطفى صفوت

الحضارات القديمة في القرآن الكريم

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

- 3 -

الحضارة الكلدانية

الكلدان من الشعوب السامية القديمة، وقد قامت لهم دول بالعراق، وكان لهم فيه حضارة تضارع الحضارة المصرية في القدم. ولكنها سارت في طريق معوج أضعف من شأنها، وجعلها أقل نتاجاً من غيرها من الحضارات القديمة؛ وقد نشأ هذا من أنهم كانوا يتجهون بعقولهم نحو الكواكب والنجوم، فاتخذوها آلهة يعبدونها، ويهتمون بمعرفة ما يتصل بها، حتى جرهم هذا إلى الاشتغال بعلم الفلك، وإلى أن يجعلوا جل اهتمامهم في حضاراتهم بهذا العلم، وبكل ما يتصل بها، حتى جرهم هذا إلى الاشتغال بعلم الفلك، وإلى أن يجعلوا جل اهتمامهم في حضاراتهم بهذا العلم، وبكل ما يتصل به من العلوم كالسحر والتنجيم، ولاشك أن مثل هذه العلوم لا تصلح أساساً لحضارة تنفع الناس في دنياه، وتهيئ لهم فيها أسباب الهناءة والسعادة، فلم يُعْنَ الكلدان بالعلوم التي تنظر إلى الأرض كما عنُوا بالعلوم التي تنظر إلى السماء، ولم يهتموا بالزراعة والصناعة والتجارة كما اهتم بها إخوانهم الفينيقيون في الشام، مع أن هذه الأمور هي الأسس التي يقوم عليها بنيان الحضارة، وترفل بها الشعوب في حلل الرفاهية، ولهذا ذهبت الحضارة الكلدانية ولم تترك وراءها إلا شهرة بابل عاصمتها بالسحر، وهي شهرة لا ترفع من شأنها، ولا تجعل لها منزلة عالية بين الحضارات القديمة

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك الاعوجاج في الحضارة الكلدانية في الآية (102) من سورة البقرة: (واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا، يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت، وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر، فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم، ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق، ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون)

فالقرآن الكريم يشير بهذا إلى أن السحر كان قد انتشر في تلك المدينة حتى عم ضرره كل الناس، وتفاهم خطبه بينهم، وصار أربابه هم الآمرين الناهين فيهم، لأنهم أوهموهم أن لهم قوة غيبية وراء الأسباب التي ربط الله بها المسببات في هذه الدنيا، فهم يفعلون ما يوهمون الناس أنه فوق استعداد البشر، وفوق ما منحوا من القوى والقدر، وأنهم يستعينون عليه بالشياطين وأرواح الكواكب، إلى غير ذلك من ضلالاتهم وكفرياتهم، فأرسل الله هاروت وماروت يعلمانهم حقيقة السحر، ويبينان لهم أن السحر بشر مثلهم لا قدرة لهم على النفع والضر، وأن السحر إما حيلة وشعوذة لا أصل لها، وإما صناعة علمية خفية يعرفها بعض الناس، وبهذا يكون علماً يؤخذ بالتعليم ويتكرر بالعمل، وفي استطاعة كثير من الناس أن يتعلمه ويفعل ما يفعله أربابه، ولا يرجع كما يزعمون إلى قوة غيبية فيهم، ولا أثر فيه لتأثير الشياطين وأرواح الكواكب، وهو مع هذا ليس من العلوم التي يليق بذوي الأخلاق الكريمة الاشتغال بها، لأنه من العلوم التي تضر ولا تنفع، ولا يشتغل به إلا كل دجال أو مشعوذ.

الحضارة الحميرية

وينسب الحميريون إلى حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب ابن قحطان، وكان لهم ملك

عريق باليمن، وحضارة يشهد بفضلها ما بقي من آثارها. ومن أشهر دولهم فيه دولة سبأ، وكانت دولة تجارية خلفت دولة مَعين في نقل التجارة بين الهند والحبشة والعراق والشام ومصر، وقد زهت حضارة اليمنيين في عهد هذه الدولة، وعظم غناؤها وثراؤها، لأنها كانت تعني بشق الأنهار وبناء السدود التي تحفظ المياه بين الجبال، لتصرفها على الأرض بقدر، ولا تذهب سدى في الفلوات والبحار، فعمرت بذلك بلاد اليمن أعظم عمارة، وامتلأت نواحيها بالزروع والحدائق وناطحت قصورها وحصونها السحب

وقد نوه القرآن الكريم بحضارة سبأ أعظم تنويه، وجعلها لعظمها وفخامتها آية من آيات الله، فقال تعالى في الآيات: - 15، 16، 17، 18، 19 - من سورة سبأ (لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال، كلوا من رزق ربكم واشكروا له، بلدة طيبة ورب غفور، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل. ذلك جزيناهم بما كفروا؛ وهل نجازي إلا الكفور. وجعلنا بينهم وبين

القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين، فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق؛ (إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور

وقد ذكر المفسرون من عظمة تلك الجنات أن المرأة كانت تحمل مكتلها على رأسها وتمر بها، فيمتلئ المكتل من أنواع الفواكه من غير أن تمس بيدها شيئاً. وذكروا من طيب تلك البلدة أنه لم يكن يرى فيها بعوض ولا ذباب ولا برغوث ولا حية ولا عقرب، وأن الرجل كان يمر بها وفي ثيابه القمل فيموت من طيب الهواء. وذكروا أن تلك القرى الظاهرة كانت تتواصل من اليمن إلى الشام، فإذا سافروا فيها لمتاجرهم يبيتون بقرية ويقيلون بأخرى، وكلما وصلوا إلى قرية وجدوا فيها المياه والزروع والأشجار، فلا يحتاجون إلى حمل زاد من سبأ إلى الشام. والقرآن الكريم يشير بهذا إلى أن عظمة هذه الدولة كانت قائمة على أساس التجارة ونقلها بين تلك البلاد، كما يشير بقوله: (باعد بين أسفارنا) إلى أن زوال عظمتها كان بسبب انتقال زمام هذه التجارة من أيدي أبنائها، وكل هذا يتفق مع ما وصل إليه علماء التاريخ في عصرنا، وهم لم يصلوا إليه إلا بعد الكد والتعب في كشف ما تركته هذه الدولة من آثار، وفي محاولة قراءة ما دون فيها من حوادث وأخبار، وكم للقرآن من أمثال هذه المعجزات العليمة!

وكان سبب انتقال التجارة من أيدي أبناء هذه الدولة تحول طريقها من البر إلى البحر، فأحدث ذلك أثراً كبيراً فيها، وجعلها تعجز عن حفظ تلك السدود وتهمل شأنها، وكانت خاتمتها بانهيار ذلك السد العظيم، سد مأرب الذي أشار إليه القرآن الكريم.

(يتبع)

عبد المتعال الصعيدي

جي دي موبسان

1840 - 1893

للأستاذ حسن فتحي خليل

نشأته وتكوينه وأسلوبه - 1

ولد موبسان في قصر ميرو مسنيل في 5 أغسطس سنة 1840 وتلقى دروسه ببلدة ييفتو أولاً ثم ببلدة روان. وأمضى في ربوع مقاطعة نورماندي أسد سني صباه وشبابه، حراً طليقاً بعد دراسته اليومية، كطائر سعيد. وكان يهيم بالطبيعة الساحرة في تلك المقاطعة حتى انطبعت في ذهنه صور كثيرة من حياة الفلاحين المحيطين به وفي عام 1870 التحق بالجيش المحارب وانغمر في ميدان الحرب كغيره من الشباب حينئذ، وعاش في محيطها وتشبعت بها نفسه، حتى إذا وضعت الحرب أوزارها ذهب إلى باريس والتحق بوزارة البحرية أولاً كموظف صغير، ثم انتقل منها إلى وزارة المعارف. وكان في أشد الاحتياج إلى مرتبه الحكومي ليقتات منه حتى تسمح له الحسنة التي تؤهله لأن يبدأ حياته الأدبية التي عاهد نفسه على بدئها منذ زمن بعيد وقد هيأت له تلك الوظيفة أن يختلط بطبقة الموظفين، وأن يطلع على خفايا حياتهم وكل أحوالهم، ولكن تلك النظرة التي كان ينظر بها إليهم كانت بشعور مزيج من العبث والسخرية. وانتقشت تلك الصور في ذهنه حتى انسابت من قلمه، وظهرت واضحة جلية في قصصه

وقد صرفته قوة بنيته وحبه اللهو والعبث المغرقين في بداءة حياته عن مطالعة الأدب، فلم يجهد نفسه في ذلك المضمار الإجهاد الكافي لأديب ناشئ يحاول أن يكون نفسه.
غير أن تلك الحياة التي كان يحياها قد أضافت صوراً جديدة إلى تجاربه إذا اختلط بالمجتمع الصاخب وانغمر في ملاهيه. وأول ما يتبادر إلى الذهن أنه كان مندفعاً نحو تلك الحياة اللاهية ليمل منها صوراً لأدبه؛ ولكن الحقيقة أنه إنما كان مندفعاً نحوها لكي يشعر نفسه بأنه يعيش المعيشة التي ترضي جسده وتشبع رغباته الجامحة. فقد كان قوى البنية، مفتول العضلات، محباً للرياضة وخاصة التجديف، جريئاً لا يهاب إنساناً كان فلوبير أباه الفكري؛ إذ هو الذي أخذ على عاتقه أن يدخله إلى دنيا الأدب. وتحت سيطرته بذل موبسان كل جهده لأن يرتفع بأسلوبه إلى المرتبة التي تؤهله لأن يكون شاعراً مجيداً؛ وكانت هذه هي منتهى آماله. كان فلوبير يحدثه دائماً عن كرامة الفن وواجبات الفنان؛ كما أنه غرس في نفسه كراهته للبراجوازيين والسخرية منهم ومن اعتقاداتهم العادية في كتبه. كما أخبره عن أهل الأدب في عصره وحدثه عنهم حديثاً مستفيضاً؛ وطبعه على الاستخفاف بكل أدب تجاري رخيص، ونصحه بالجد والاهتمام بتجويد كتابه، وجعل نفسه مثلاً له يسير على منواله؛ حتى أنه أشركه معه في تأليف كتابه (بوفار وبيكوشبيه) فكان يرسله إلى بعض بقع الساحل النورماندي ليعود فيقص عليه ما رآه وما استولى عليه من احساسات وشعور، فيرسم الطبيعة كما يراها دائماً وليتحرر من آراء زولا شبه العلمية التي كانت سائدة يومئذ، وأن تكون كل اتصالاته بالطبيعة فحسب
وبذلك أحيا موبسان كل الصور بمنظار في مخيلته منذ طفولته وصباه، وجعل ينظر إلى الطبيعة بمنظار صريح مستقيم سهل، وبذل قصارى جهده لأن يكون أسلوبه طبيعياً كمشاهدته، فخلا أسلوبه من المبالغات الرومانتيكية المشاهدة في أسلوب زولا والمحسنات اللفظية كأسلوب جونكور
وكان يطلع أستاذه فلوبير على كل ما يكتبه فيصححه له ويرشده إلى طريق الصواب. وأهم مؤلفاته في ذلك الوقت، وقت الاجتهاد والتحضير هي قصة (الدكتور هيراكلوس جلوس) وأهم ما يميزها وضوح نظرية التشاؤم التي بدأ يأخذ بها موبسان. كما كتب في تلك الفترة عدة مسرحيات وقصص وأشعار على الخصوص. وقد جمع ما أعجبه من شعره في كتاب صغير اسمه: (مجموعة شعر)
وكانت تلك القطع التي نشرها إنما هي في الحقيقة أقاصيص شعرية ويلاحظ أنها بداءة طيبة لما جاء بعدها. وأهم تلك القطع (على ضفاف النهر) وقد رسم فيها ذكريات غرامه وألبسها ثوباً رومانتيكياً متحدثاً عن الغرائز الحرة واللذات الجسدية.
ثم نشر قصته المشهورة فنجحت نجاحاً عظيماً وتنبه الكل له وصعد درجات المجد وعاهد نفسه منذ ذلك اليوم أن يكون قصصياً بدلاً من أن يكون شاعرا رغماً من إرادة أستاذه فلوبير. ومع أنه كان قد أخفى تلك القصة عن أستاذه إلا أنه حين قرأها أعجب بها
أشد الإعجاب وهنأه عليها.
ومات فلوبير فتحرر موبسان من سيطرته الأدبية التي كان يفرضها عليه، وأصبح حراً في معتقداته وسار في الطريق التي رسمها لنفسه.
2 - أفكاره وآراؤه
كانت لموبسان عين ثاقبة تلاحظ الصور وحركاتها بسرعة فائقة ودقة آلة فوتوغرافية، فسرعان ما تنطبع تلك المرئيات في ذهنه فيتعمق في فهمها جيداً حتى يهضمها تمام الهضم. فمن صباحه إلى مسائه كان يجمع ويلاحظ كل ما يفيده في مهمته الأدبية، ولذلك نلاحظ أن كتاباته لم تكن تظهر بمظهر الكتاب النفسيين (السيكولوجيين) بل هي مقتطعة من الحياة إذ فيها ألوانها وأشكالها وحركاتها
وتدور قصصه على ناحيتين: أولاهما الناحية المرحة والحياة الاجتماعية الصاخبة التي كانت تشتهر بها فرنسا، والأخرى قصصه عن الريف النورماندي وذكريات حياته التي قضاها فيه وحديثه اللذيذ عن الأرض والطبيعة والفلاح
وتترجم كل مؤلفاته في مختلف أطوار حياته ونظرياته عن المجتمع. ففي مؤلفاته الأولى نلاحظ السخرية اللاذعة. ففي قصة لم يترك فرصة سواء في العربة أو الحانة دون أن يهزأ بالأشراف والطبقة المتوسطة والراهبات. ثم ظهرت في الحقبة التي تلي

ذلك من حياته احساسات الرحمة والشفقة. أما في نهايته فكان التشاؤم ومشاغله ومتاعبه النفسية أوضح ما في كتبه في ذلك الحين. فأفكاره في ارتفاعها وانخفاضها إنما كانت تتبع ميزان صحته الجسدية في قوتها وهزالها.

كان أستاذه فلوبير يعتقد أن الفن يخفف من عبء الحياة ويجعلها سهلة لينة، ولم ييأس من تقدم العلوم ولم ينكر بلوغ النجاح، إلا أن موبسان الذي كان يستمع لتلك الآراء لم تكن لديه الثقة الكافية في الحياة. فمن مبدأ حياته كانت فلسفته اليائسة المتشائمة فوق العادة. فلم تجذبه فكرة فلوبير السليمة بقدر ما جذبته حكمة شوبنهور القائلة: (إنه لا سعادة على الأرض) وبالرغم من تكرار موبسان لنظريته المتشائمة في قصصه كثيراً لم تكن لتستند على براهين قوية. بل كل ما في الأمر أنه كتبها بشعور صادق قوي. وكان يبعث ذلك التشائم نظرته المجردة إلى الحياة الواقعية. فكان يعتقد أن الكون مجموعة متضاربة متطاحنة من

القوى، وأن العلم لا يعطينا سوى فكرة ضئيلة عن هذه القوى بواسطة آلات أولية ناقصة في بعض الحالات فقط. وأنه ليس هناك أمل في التقدم أو النجاح، إذ أن نظرية التقدم ما هي إلا نظرية فاشلة، وأن الإنسان حيوان أرقى قليلاً من الحيوان الأعجم. ولعل هذه النظريات قد تبادلها غيره من قبل إلا أنها كانت شديدة التأثير على شعوره. وإنما يعود ذلك إلى مرضه الذي أصيب به، حتى أنه أصبح يخاف الرسائل التي تصله

كما كان يفزع من علامات الود والمحبة التي يظهرها أصدقاؤه، إذ خيل إليه أنها محاولات اعتداء على حريته. فهو يفسر نظريته هذه بأن هؤلاء الأصدقاء إنما يشعرون بفراغ كبير في حياتهم، فيحاولون أن يتعلقوا بأهداب إنسان آخر يملأون به ذلك الفراغ. وبذلك أصبح موبسان يعتقد أن الصداقة والحب إنما هما نفاق وسراب، وأن الصلة بين كل رجل وآخر معدومة، إذ لا يمكن لأحدهما أن يفهم الآخر تمام الفهم. وعلى ذلك يجب على كل فرد أن يكون وحيداً، وبذلك امتزجت رغبته في الوحدة بخوفه من المجتمع. إلا أنه في وحدته كانت تتهيأ له خيالات يتوهم معها أن هناك شبحاً آخر يشاركه مجلسه فيبعث الخوف إلى نفسه ويدفعه دفعاً نحو الاختلاط بالأحياء الذين لم يعد يفهمهم جيداً. وقد زاد ذلك التعذيب خوفه من الشيخوخة والموت. فكانت فلسفة التشاؤم التي يسير على هديها تدفعه إلى الثورة دائماً. وأخيراً لم يجد منفذاً لهذه الخواطر والأفكار التي تعج بها رأسه حتى كان يرفض أي مناقشات أدبية، وأصبح يعتقد أنه ليست هناك أية قيمة للأدب، وأنه إنما يكتب تلك الأسطر لكي يكتسب منها بعض المال

وفي عام 1889 بدأ يفكر في الانتحار كما يتضح لنا من قصة ? إذ تخيل فيها انتحاراً قانونياً يسمح لليائسين أن يناموا إلى الأبد باسمين مرتاحي الضمير. وقد طرقت هذه الفكرة مخيلته كثيراً في أيامه الأخيرة وحتى هم بتنفيذها، وكان حينئذ في طريقه إلى الجنون الذي أراحه من عناء هذه الدنيا وتفكيره الأسود في كل أحوالها

وعلى ذلك فإذا تدبرنا هذا الشاب الموفور الصحة في مبدأ حياته، والذي هده المرض في أخريات أيامه حتى ساقه إلى الجنون فبدأ يسمع نداءات الموت ترن في أذنيه، أمكننا أن نتتبع النغمات الصادرة من مؤلفاته في هذه الأطوار

نهايته - 3

سبق أن قلنا إنه بالرغم من مظهره القوي فإن صحته بدأت تتهدم منذ عام 1884؛ ثم ظهرت عليه بوادر الجنون في عام 1891. وفي أول يناير سنة 1892 حاول الانتحار في بلدة (كان) ولكنه فشل. وأدخل مصحة الدكتور بلانش حتى توفي في 6 يوليو سنة 1893 وهو على حالة من الجنون

مؤلفاته - 4

يعتبر موبسان من أشهر كتاب الأقصوصة؛ ويمكننا أن نضمه الآن إلى زمرة الكتاب الكلاسيك؛ إذ أن أعماله تدرس بالمدارس لأنها غذاء طيب للعقول. ففي أمريكا وألمانيا تعتبر مؤلفاته من أهم مختارات الدراسة بمدارسها. كما وضعت أعماله في برامج الامتحانات العليا بفرنسا؛ وقدمت عنه بعض الرسالات كما جمعت أعماله وطبعت كلها في مجلد كامل كأعمال فلوبير وبلزاك. فمن عام 1880 إلى عام 1890 نشر موبسان حوالي ثلاثمائة أقصوصة جمعت في مجلدات هي:

سنة 1881

سنة 1883
سنة 1884
سنة 1885
سنة 1888
سنة 1887
سنة 1886
سنة 1890
سنة 1889
?
سنة 1889
كما نشر ست قصص طويلة وثلاثة كتب عن الرحلات وأربع مسرحيات.

حسن فتحي خليل

الفنون الجميلة

الفن ترتيب أجزاء متفرقة ترتيباً اختيارياً حسب فكرة معينة لتؤدي إلى غاية معلومة، هي أن يُخلق من تلك الأجزاء كلاً واحداً، أو حلقاً جديداً يثير في النفس عاطفة الجمال. فهو إذن إنتاج حر للجمال، لا الجمال الواقعي فحسب، بل مزيج من الجمال الواقعي والجمال المثالي. فلابد من أن توجد فكرة مثالية عن الفنان يحققها ويعبر عنها بمساعدة الواقع. ويتخذ الفن في تعبيراته عن تلك الفكرة أشكالاً مختلفة هي ما نسميه بالفنون الجميلة - فالنون الجميلة إذن، هي مختلف حالات الانفعالات الجمالية التي ينفعل بها الفنان إزاء أشياء معينة، فيحاول أن يعكسها ويعبر عنها، لكي يتذوقها غيره، فينفعل بها كما انفعل هو

والفن في تعبيره عن هذه الفكرة يخاطب الحواس، لا الحواس كلها، بل هو في الواقع يخاطب حاستين منها فقط هما: السمع والبصر؛ وعلى ذلك تنقسم الفنون الجميلة إلى مجموعتين:

(ا) ما يخاطب السمع وهي: الموسيقى: (سواء أكانت موسيقى صامتة، أم يصاحبها غناء مفرداً وجوقة) والشعر

(ب) ما يخاطب البصر وهي: النحت والعمارة والنقش ولكن، هل الفنون جميعها على درجة واحدة من السمو والرفعة؟ أو بمعنى آخر: هل هناك فنون أرقى وأرفع من غيرها؟ وإن كان الأمر كذلك، فعلى أي أساس يمكن تصنيفها وترتيبها إلى فنون راقية رفيعة، وأخرى أقل منه؟

لقد رأينا أن الفن هو الإنتاج الحر للجمال، ورأينا أيضاً أنه لابد من التعبير عن فكرةٍ ما في الفن؛ فقانون التعبير هو أهم قانون عام مشترك بين كل الفنون، وعليه يجب أن يقوم التصنيف. فالفن الذي يكون أكثر تعبيراً وأغنى في وسائل تعبيره من غيره يكون هو الأرقى. وليست الفنون على درجة واحدة من تلك الحرية في التعبير، فنحن نجد مثلاً أن حرية التعبير أقل ما تكون في فن العمارة، والفنان المعماري مقيد إلى أبعد حد؛ بينما تتمتع الفنون الأخرى بحرية في التعبير أوسع من ذلك، مع تفاوت فيما بينها. كذلك تختلف قوة تعبير كل فن عن الآخر إزاء شيء واحد بالذات؛ فالموسيقى مثلاً يمكنها أن تصور لنا منظر عاصفة عنيفة تصويراً أبلغ وأعمق مما يصوره لنا النقش مثلاً، فهي تعبر عنها أحسن تعبير منه، وتثير فينا من العواطف والوجدانات ما لا يثيره هو فينا إن تعرض للتعبير عن ذلك المنظر. كذلك يعجز النقش عن أن يساوي الشعر في قوة تعبيره وعمق تصويره، فهناك آثار شعرية عظيمة نعجب بها كل الإعجاب، وتثير فينا العاطفة الجمالية كأقوى ما تكون، ولكن النقش - أو غيره - يعجز عن تصويرها في مثل روعة تصوير الشعر لها. فمثلاً صور لنا فرجيل في قصيدته (صورة رمزية لمسخ عظيم هائل، له مائة عين ومائة فم؛ تمس قدماه الأرض، ويبلغ رأسه عنان السماء) فأبدع في تصويره كل الإبداع، وأثار إعجاب كل من قرأها. هذه الصورة الرمزية ماذا تثير فينا لو فرض أن حاول المنقش أن يحققها ويعبر عنها؟ وأغلب الظن أنه سيخرجها لنا صورة غريبة تثير فينا الضحك وتبعث على الهزؤ والسخرية.

وقد أجمعت الآراء على القول بأن الشعر هو أرقى الفنون الجميلة، فهو يحتل المكان

الأول بين سلسلة الفنون لأنه أقواها على إلهاب النفس، وتحرير المخيلة، والصعود بالإنسان إلى أرقى الأفكار وأسماها. ولا يكتفي الشعر بالتعبير عن الصور الحسية وعن العواطف الجياشة وتصويرها كما تفعل سائر الفنون الأخرى، بل يمتاز عنها بميزة أخرى هي، أنه يمكن أن يعبر عن المعاني المجردة، مثل فكرة (الله) وفكرة (الوطن) وغيرها مما يعجز عنه باقي الفنون، وذلك لأن أداة الشعر الكلام، ويمكن أن يؤدي الإنسان بالكلام ما لا يؤديه بغيره. فكلمة (الله) أو (الوطن) وحدها تحمل من المعاني، وتثير من العواطف والانفعالات والخواطر ما يقصر عن حمله وإثارته أي أداة أخرى من أدوات التعبير في الفن

ويأخذ (هجل) على الشعر أنه لا يعرض علينا كل الخطوط والملامح الجمالية المختلفة التي يصفها بحيث نرها كلها لأول وهلة بعضها بجانب بعض مثلما نرى في النقش مثلاً، إذ يكفي أن ننظر إلى لوحة من اللوحات فنرى كل الملاح المعبر عنها دفعة واحدة. فالشعر يعرض علينا الشيء الذي يصوره شيئاً فشيئاً على دفعات، وهذا ناتج من طبيعة أداة الكلام. ففي كل بيت مثلاً يعرض علينا جزءاً من تلك الملامح، ولا تكمل الصورة إلا بكمال القصيدة. فهو من هذه الناحية إذن أقل منزلة من النقش. ولئن كان هذا عيباً في الشعر فإنه من جهة أخرى ميزة يمتاز بها على غيره، وذلك حين يعرض لبعض المشاهد التي لابد فيها من التسلسل والتتابع حتى تستكمل ظهورها. فالنقش في الحقيقة يمثل حالة معينة وفي وقت بالذات ولا يمكن أن يعرض للحالات التي تتغير وتتابع. فمثلاً يمكن للشعر أن

يعرض لوصف عاصفة هوجاء عنيفة فيصور أولاً منظر البحر قبل العاصفة وقد هدأت المياه وصفا الجو وسطعت الشمس، وقد أخذت سفينة صغيرة تتهادى في رفق على صفحة الماء، ثم إذا بالجو يتلبد بالغيوم فجأة وتهيج الأمواج وتضطرب وتصفر الرياح وتتقاذف السفينة حتى تغلبها على أمرها وتدفع بها إلى صخرة عظيمة فتنفتح في جانب السفينة ثغرة كبيرة تدخل منها المياه، وتأخذ السفينة في الغوص والركاب يصرخون ويجرون هنا وهناك وقد تملكهم اليأس والفزع، ثم طغى البحر على السفينة فابتعلها بمن عليها. كل ذلك يصوره لنا الشعر بسهولة في قصيدة واحدة ولكن يعجز عنه النقش في لوحة واحدة، فهو لا يمكنه إلا أن يعبر عن حالة واحدة فقط من تلك الحالات المتباينة

وهناك فن آخر لا يقل عن الشعر رفعة وسمواً وهو الموسيقى فهي من أقوى الفنون تأثيراً في النفوس وإيقاظاً للعواطف وإلهاباً للوجدان، ويمكنها أن تحمل الروح وتتجاوز بها العالم الواقعي إلى اللانهاية. فعنصر اللانهاية واضح جداً فيها، ولعلها في ذلك تسبق الشعر، وقد كادت تفوقه لولا ما فيها من غموض وإبهام؛ فتعبيراتها غير محددة تمام التحديد، كما نرى في النحت مثلاً، فهو على العكس منها تماماً يحدد موضوع تعبيره بخطوط واضحة لا يمكن أن تخطئها، مما جعله لا يبعث على الخيال ولا يحمل الروح إلى اللانهاية. فجمال الموسيقى، وميزتها الكبرى تتجلى في قدرتها على العبور بالروح إلى اللانهاية، مما جعل الناس يقرنها بالدين لأنهما يخاطبان القلب والعواطف ويسموان بالروح عن عالم الواقع. ولعل هذا هو السر في أن المسيحيين يصبحون صلواتهم الكنيسية بالموسيقى. وتأثير الموسيقى في الحقيقة أقوى من تأثير الشعر، فهناك صلة وثيقة بين أنغام الموسيقى والقلب، بحيث يمكن للموسيقي البارع أن يلعب بأفئدة الناس كيفما شاء، إن شاء أضحكهم وإن شاء أبكاهم. وعلى العموم فهناك صلة كبيرة بين الشعر والموسيقى. فالشعر يدخل في الموسيقى على صورة غناء، فيحدد من تعبيراتها وتصوراتها، وهو بذلك يقتل ما فيها من لا نهاية. كذلك الشعر موسيقى الألفاظ، يحس الإنسان فيه بأنغام موسيقية غير خافية، قد تتولد الأكثر من تكرار بعض حروف معينة وتلازمها

والخلاصة من كل ما سبق أنه ما دامت حرية التعبير وقوته وعمقه وغناؤه هي أساس ترتيب درجات سمو الفنون ورقيها، فإنه يمكن تبعاً لذلك، اعتبار الشعر أرقى أنواع الفنون

الجميلة، وتليه في ذلك الموسيقى، وهي خليقة بأن تسمو عليه لولا غموضها وإبهامها، وإن كان ذلك يجعلها تمتاز عن غيرها باللانهاية. ويلي الموسيقى النقش، فهو يكاد يجمع بين قوة تأثير الموسيقى من ناحية وبين تحديد النحت من ناحية أخرى، فهو أكثر تحديداً

وإيضاحاً من الموسيقى، وأكثر تأثيراً من النحت. ويلي ذلك النحت وهو لا يكاد يبعث على التخيل بشدة ما فيه من التحديد؛ وأخيراً العمارة وهي أقل الفنون جميعاً في حرية التعبير وعمقه

إن طرق المساومة التي يتبعها المصريون في معاملاتهم تضايق كثيراً من لم يتعودها. فعندما يستفهم العميل عن ثمن سلعة، يطلب منه التاجر أكثر مما يرجو كسبه. فيستكثر المشتري السعر ويعرض على البائع نصف المبلغ أو ثلاثة أرباعه فيرفض التاجر؛ غير أنه يخفض سعره، فيعرض العميل بدوره مبلغاً زائداً نوعاً. وتستمر المساومة هكذا حتى يصلا إلى سعر وسط فتتم المبايعة. وأعتقد أن السائحين الأوربيين يذمون التجار المصريين بغير حق، وذلك بعد أن تحققت أن أكثرهم لا يكسبون أكثر من واحد في المائة. ويعمد من يجد سلعة توافقه ويبغي اقتناءها بثمن زهيد إلى المساومة مع التاجر طويلاً. فيصعد إلى مصطبة الدكان ويستريح، ثم يحشو شبكه ويشعله ثم يبدأ النقاش الذي يستمر طويلاً. وقد يقطع التاجر أو العميل المبايعة بأحاديث غير مناسبة كأنه عزم على ألا يناقش في الأمر أكثر من ذلك. ولا تلبث المساومة أن تعود. ويتناول خادم العميل من التاجر بعد إتمام الصفقة وانصراف سيده، نفحة صغيرة من المال. ولا يتردد الخادم في طلب هذه النفحة إذا لم يقدمها التاجر من تلقاء نفسه. ويقام في أغلب أسواق القاهرة مزايدات في أيام محددة مرة أو مرتين في كل أسبوع. ويتولى هذه المزايدات دلالون يستأجرهم أصحاب الشأن من الأفراد أو التجار. ويرفع الدلال البضاعة في يده معلناً الأسعار ويصيح: (حراج) وكثيراً ما يعمد أفراد الطبقة السفلى عند إتمام صفقات بأبخس الأثمان إلى الصياح والإشارات، فيظن من يجهل اللغة العربية أن طرفي المساومة يتشاجران وأن الغضب قد بلغ منهما أشده. وقد يستفهم المرء عن ثمن ما يبيعه الفلاحون فيقولون تقبله (هدية) واثقين أن المستفهم لن يستفيد من قولهم هذا الذي أصبح من لغوا الحديث. ويكرر الفلاحون قولهم هذا عند الاستفهام مرة أخرى، غير أنهم يطلبون على العموم أسعاراً باهظة

من الممل أن أذكر جميع الحرف الشائعة هنا. وأصحاب أهم هذه الحرف: بائع الأجواخ وهو يبيع أقمشة الملابس أو الملابس الجاهزة، والأسلحة؛ ويطلق عليه في كلتا الحالتين اسم (التاجر) فقط. والجوهري والصائغ وهو لا يستغل إلا حسب طلب عملائه. وبائع الخردوات (الخروجي) والنحاس والخياط والصباغ والرفاء والحباك والعقاد وبائع الشبك (الشبكشي) والعطار وهو يبيع الشمع أيضاً، وبائع التبغ (الدخاخني) وبائع الفاكهة (الفاكهاني) والنقلي وبائع الشراب (الشربتلي)، والزيات ويبيع مع الزيت الزبد والجبن والعسل الخ. . . والخضري والجزار والفران، ويرسل إليه الخبز والحم للشي. ويوجد في القاهرة مطاعم عديدة يطهى فيها الكباب وأصناف مختلفة أخرى، ولكن قلما يتناول الناس طعامهم في هذه المطابخ وإنما يرسلون في طلب ما يلزمهم حين لا يستطيعون إعداد الطعام في منازلهم. وكثيراً ما يتناول التجار غداءهم وعشاءهم من هذه المطابخ. ويوجد أيضاً عدة دكاكين لصنع الفطير وغيره وبيع الفول المدمس. وقد وصفت هذين الطعامين في فصل سابق. ويتناول أفراد الطبقة السفلى طعامهم عند (الفطاطري) أو (الفوال)

يباع الخبز والخضر وغير ذلك من الأطعمة في الشوارع. ويناد الباعة المتجولون نداءات غريبة تستحق الذكر. فيصيح بائع الترمس. (مدد يا امبابي)، ويعني بهذا القول إما الاستعانة بالشيخ الامبابي وهو ولي مشهور مدفون في بلدة امبابة على الشاطئ الغربي من النيل تجاه القاهرة، وينبت بجوار هذه البلدة أجود الترمس؛ وإما الإشارة

إلى أن ترمس امبابة لذيذ الطعم بفضل مدد الامبابي. ويصيح بائع الترمس أيضاً: (ترمس امبابه يغلب اللوز) أو يقول: (يا ما حلى بُنيَّ البحر)، ويشير هذا النداء الذي قلما يسمع في غير الأرياف إلى طريقة إعداد الترمس للأكل. إذ أنه ينقع في الماء يومين أو ثلاثة لتزول مرارته، ثم يغلى ويوضع بعد ذلك في قفة من الخوص تسمى: (فرد) يخاط عليه ويقذف به في النيل، حيث يترك يومين آخرين أو ثلاثة ينقع مرة ثانية. وبعد ذلك يجفف ويؤكل بارداً بعد أن يضاف إليه بعض الملح. ويصيح بائع الليمون: (الله يهونها يا ليمون) وكثيراً ما ينادى على اللب لب (عبد اللاوي)، وبذر البطيخ: (يا مسلي الغلبان يا لي) أو عادة: (اللب المحمص)، وينادى بائع (الحلاوة) وتصنع من تفل السكر الممزوج ببعض عقاقير نداء غريباً: (بمسمار يا حلاوة). ويقال إن بائع الحلوة يكاد يكون لصاً، إذ أن الأطفال والخدم يعمدون إلى سرقة الأدوات الحديدية من المساكن التي يسكنونها ليستبدلون بها الحلوى. ويصيح بائع البرتقال: (عسل يا برتقال عسل) ويستعمل بائع الخضر والفاكهة نداء مشابهاً، ويصعب على المرء أحياناً معرفة ما يباع ما لم يتبع قاعدة أن ما يباع هو الأقل جودة؛ فقولهم جميز يا عنب إنما يشير إلى بيع الجميز الذي يقل عن العنب جودة. ويستعمل بائع الورد نداء فريداً: (الورد كان شوك من عرق النبي فتح)، ويشير هذا إلى معجزة تنسب إلى الرسول. وتباع زهور الحناء الزكية بقولهم: (روايح الجنة يا تمر حنة). وهناك نوع من الأنسجة القطنية تصنع على آلة يحركها ثور. وتباع بقولهم: (شغل التور يا بنات)

عدلي طاهر نور

مقبرة الأحياء

. . .الوظيفة

(حين كنت مدرساً)

للأستاذ علي شرف الدين

عُلالةُ الْعَاجِزِ الضَّعيفِ ... وَحِيلةُ السَّائلِ الكَفيفِ
تُمِيتُ في الْقَلْبِ كل نبلٍ ... وَكلَّ معنًى به لطيفِ
وَتَحبسُ الرُّوحَ وهي طَيرٌ ... تَصبُو إلى غُصنها الوَريفِ
وَتُرهقُ النَّفْسَ وهْيَ طيْفٌ ... بَقْيدِها الْمُثْقِلِ العَنيفِ
وَتدْفِنُ المْرَء وَهْوَ حَيٌّ ... فِي قَبْرِهَا الأَسْودِ الْمُخِيفِ
وَينْهَرُ الْعَيْنَ وَهْيَ زَيْفٌ ... كَأَنَّها زَهْرَةُ الخَرِيفِ
وَكَمْ نِفَاقٍ تَراهُ حَتْماً ... يَحْمِيكَ مِنْ طَعْنَةِ الأَلِيفِ
تَفيضُ بالْجَهلِ صَفْحَتَاهُ ... وَزَادَ في الْجَهلِ عَنْ (عَرِيفِي)
وَيدَّعِى الْعَلْم - وَهوَ خِلوٌ - ... بالتَّالِدِ الْجَزلِ والطَّرِيفِ
وَأَنْتَ تَجْرِي عَلَى هَوَاهُ ... بِمْدحِكَ الْكَاذِبِ الصَّرِيفِ
لا يَعْرِفُ الصدْقَ مِنْكَ قَوْلاً ... وَالْكَذبُ مِنْ شِيَمِة الضَّعِيف
وَيْلٌ لِذِي حُرَّةٍ أبيٍ ... فيها وَذَي جَبْهَةٍ عَيُوفِ
أَجْرَوْا عَلَيْه دُرَيْهَمات ... تَضيقُ بالمِلحْ والرَّعِيف
حَتى الضَّروريُّ - وَهْوَ حَتمٌ - ... يَضِجُّ مِنْ جَيْبِه النَّظيف
مَا دَامَ لم يَلْتَمس وَسِيطاً ... فإن شَكْوَاهُ في الرُّفُوفِ
وَالْعَيْشُ كَالْحرْبِ فِيهِ أَضْحَتْ ... هَدى الوَسَاطَات كالسُّيوفِ
يا (جَارةً) ضِقْتُ مِنْ عَمَاها ... وَضِقْتُ بالْمُبْصِر الْكَفيفِ
تَعْمَي عنِ الصَّامِرِ الْمُجَلى ... وَتَجْعُل السَّبْقَ للرَّدِيفِ

علي شرف الدين

من أزهار الشر

لشارل بودلير

منظر

إنني أود أن أرقد على مقربة من السماء كعلماء الفلك، لكي أنظم قصائدي الروحية في جو من الطهارة

وأن أكون راقداً بجوار أجراس أصغي إلى أناشيدها المهيبة التي تحملها الرياح، سابحاً في أحلامي.

حين أطل من علِّيتي، وقد ذقنت على راحتي، سأشاهد العمال في مصنعهم ينشدون الأغاني ويلغطون، وسأرى المداخن والأجراس، وصواري المدينة، والسماء المترامية الأطراف التي تجعلنا نفكر في الأبدية.

إنه لبديع أن ترى، خلال الضباب، النجمً حين يتهلل في زرقة السماء، والمصباح في النافذة.

وأن ترى أنهار الدخان، وهي تتصاعد إلى قبة الجوزاء، والقمر ينثر إشراقه الشاحب.

سأرى الربيع والصيف والخريف، وعندما يُقبل الشتاء، بصقيعه الممل، سأغلق الأبواب والشبابيك لكي أشيد قصوري الخيالية الرائعة، تحت جنح الظلام.

حينئذ أهفو بأحلامي إلى الآفاق الزرق، وإلى الرياض، والينابيع التي تذرف دموعها على المرمر، وإلى القبلات، والطيور التي تغرد صباحاً ومساء، وإلى كل ما في الهوى من براءة الطفولة.

ولن تستطيع الرياح، مهما ثارت وعصفت بنوافذي أن ترفع جبيني من فوق مكتبي، لأنني سأكون ذاهلاً في تلك النشوة التي أجدها حين أبعث الربيع بمشيئتي، وحين أنتزع شمساً من فؤادي، وحين أخلق جواً دافئاً من خواطري الملتهبة.

ترجمة

عثمان علي عسل

البريد الأدبي

الدكتور أمين المعلوف باشا

في ليلة الخميس 21 يناير العالم الجليل الدكتور أمين المعلوف باشا نفسه بعد مرض طويل حجبه عن الناس ومنعه عن العمل، فشق نعيه على جمهرة العلماء والأدباء، ممن عرفوا فضله على العلم واللغة، وعلموا مكانه في الأدب والخلق، وصادقوا فيه الرجل الذي لا يتغير، والعالم الذي لا يدَّعى، والعامل الذي لا يكل. كانت حياته رحمه الله كحياة النبع الصافي يرسل حوالبه النماء والخصب من غير هدير ولا كدورة. ثم توفاه الله أمجد ما يكون ماضياً وأطيب ما يكون سمعة. كان ضابطاً ممتازاً في القسم الطبي بالجيش المصري، ثم قضى بضع سنوات في الخرطوم. ولما قامت الحركة العربية في الحرب الماضية انضم إليها، وكان من العاملين الصادقين فيها. ثم اختاره المغفور له الملك فيصل الأول كبيراً لأطباء جيش العراق، فأدى واجبه العلمي والعسكري على أفضل وجه حتى ارتقى كفاءته وحسن بلائه إلى رتبة فريق. ثم بلغ سن التقاعد فرجع إلى القاهرة واشتغل بالبحث والتأليف فنشر مقالات ممتعة في الحيوان والنبات والمصطلحات العلمية والشوارد اللغوية، ووضع في الحيوان قاموساً يعتبر مرجعاً في بابه. وقد اتصف الفقيد بالوفاء والمروءة والإباء، فأحلته جميع هذه الصفات منزلة رفيعة بين جميع من اتصلوا به.

رحمه الله رحمة واسعة وعزى عنه أسرته وأمته خير العزاء.

1 - الأوامر بين الطاعة والعصيان

في العدد 212 من مجلة (الثقافة) مقال للأستاذ أحمد أمين بك عنوانه (في الطريق). وهو مقال ينطوي على فكرة دقيقة تستحق الإشارة وتستوجب التعقيب. فالأستاذ يظهر في كلمته العجب البالغ من هذه الطاعة التي يحظى بها (عسكري المرور) ويذهب في تعليل ذلك إلى احتمالات شتى ينتهي برفضها جميعاً: فليس لشخصية عسكري المرور عنده أثر في إيجاد هذه الطاعة، لأن هناك (من هم ضعاف الشخصية ويسمع لقولهم في الطريقي كأقوياء الشخصية سواء بسواء. . .) وليس لـ (قوة القانون)، ولا للخوف من (العقوبة الحتمية السريعة) التي يستتبعها الإخلال به، أثر أيضاً في تحقيق ذلك الخضوع العجيب. ولهذا يحار الأستاذ - كما يقول - في بيان السبب فيتركه لقرائه. وهو يستعرض عقب هذا أوامر الأطباء التي تخالف، وأوامر العسكري نفسه - إذ جاوز المرور إلى البائعين والبائعات - وأوامر التسعيرة؛ تلك الأوامر التي تهمل جميعاً ويجملها كل مأمور بها تحت قدمه ودبر أذنه؛ أو يحتال على التخلص منها بألطف الحيل وأعجب المحاولات. . . ويخلص الأستاذ من هذا إلى تقرير الحقيقة التالية وهي أن (فعل الأمر وحده لا يكفي في التنفيذ، وإنما يحمل على التنفيذ أمران ممتزجان أتم الامتزاج، فعل الأمر ونفسية الآمر. فإذا كانت نفسية قوية وجدت السامع تتخاذل نفسه أمام الأمر، وأحس أنه أمام قوة كهربائية

هائلة، فاضطر إلى تنفيذ فعل الأمر رغم أنفه) إلى آخر ما ورد في المقال
ولقد فات الأستاذ في هذا الموضع الإشارة إلى نقطة دقيقة كان ينبغي أن يوطد عليها نظريته في الطاعة؛ تلك هي (شعور المأمور ونفسيته) لا حيال الآمر في قوة شخصيته وضعفها، بل حيال الأمر نفسه في نفعه له أو ضرره، وفي مبلغ إدراكه لهذا النفع أو الضرر
فالمريض لا يقرن أمر طبيبه بقوة شخصيته أو ضعفها، فينفذه أو يخل به بحسب ذلك. وإنما يقرنه بمبلغ شعوره الخاص إزاءه.
ولتوضيح هذا نقول إن أكثر المخالفة إنما تقع في دور النقاهة والإبلال من المرض، حين يستروح المريض نسيم العافية، ويرى أنه جاوز غمره الداء وسلم من مضاعفاته. فقد يدخل في وهمه إذ ذاك أن أوامر الطبيب إنما هي من قبيل الاحتياط والتوقي، فلا عليه من مخالفتها أو إهمال الدقة في تنفيذها، إذ الضرر في ذلك يسير محتمل، إن لم يكن وهماً متخيلاً قد لا يتحقق له وجود. ولو عرف المريض ما تجر عليه هذه المخالفة وتيقن سوء مغبتها، لما أقدم على خلاف الطبيب في أمر له، جل أو حقر.
ومثل هذا نقوله فيما يُرى من مخالفة أوامر الوعاظ والمعلمين، وأوامر التسعيرة، وأوامر العسكري نفسه (حين يجاوز المرور إلى البائعين والبائعات) . . .
ويؤدي بنا تقرير هذه الحقيقة إلى إدراك السبب الذي حار الأستاذ في بيانه فتركه لقرائه. . . إذ أن مخالفة (عسكري المرور) في إشارته معناها الموت المحق تحت عجلات سيارة قادمة، أو قاطرة ترام مندفعة؛ وطاعة أمره هي النجاة بعينها من موت محتوم والسلامة من خطر مائل يستشعره القلب وتراه العين. وهل يتردد العاقل لحظةً في الاختيار بين سبيلين:
أحدهما مُفْض إلى الموت والثاني موصول بالسلامة محفوف بالنجاة والعافية؟ . . .
2 - أين السليط من (السالاد)
يقول العلامة الكبير الأستاذ وحيد الأيوبي في إجابة له عن معنى السليط - الزيت -: (أرى أن منه ما يقال له (سلطة) بفتحتين. . وقد يوهم هذا الكلام أن ثمة علاقة لفظية أو معنوية بين الأصلين العربي والإفرنجي؛ وتسجيلاً لرأيي في هذا الموضوع أقول:
جاء في قاموس القرن العشرين - الإنجليزي - في شرح مادة ما خلاصته أن هذه اللفظة تطلق على مركّب غذائي يتألف من عدة نباتات غير مطبوخة كالخس والهندباء والخردل والجرجير والبصل والطماطم وغيرها. . . تقطع جميعاً وتعالج بالملح والخل وأصناف التوابل. . .
وثمة نوع من الزيت - زيت الزيتون خاصة - وعصارة لبعض الأفاويه المعروفة، يستعملان في (تهيئة) هذا الإدام المشار إليه، ولذا يطلق عليهما اسم - أو - فهذا كل ما وجدناه من علاقة بين الزيت المعروف ومدلول كلمة أما السليط في اللغة العربية فهو - كما ورد في القاموس - (الزيت، وكل دهن عُصِر من حّبّ) ولا يخرج إلى معنى غير هذا. . .
ومن ثم يتضح انقطاع العلاقة في المعنى بين الأصلين العربي والأجنبي، كما يتضح لنا انقطاع العلاقة اللفظية بينهما أيضاً، إذا عرفنا أن كلمة الإنجليزية، والفرنسية، والإيطالية بمعنى ملح. وواضح أن كلمة (سّلَطة) في لهجيتنا العامية تحريف لأحد هذه الألفاظ الأعجمية تسرب إلينا بحكم المخالطة؛ فهي لا تمت إلى الأصل العربي بأدنى سبب
ومن الغريب أن الاستعمال المجازي لهذه الكلمة جرى في اللغة العربية وفي غيرها مجرى متقارباً؛ فمن معاني السليط عندنا: الشديد، والحاد من كل شيء، والرجل الصخّاب (والمرأة سليطة). . . ويسمى الإنجليز أيام الشباب الهوجاء التي ينقصها الحنكة والتجارب
على أن هذا التشابه الذي أوجدته الصدفة المحض بين الأصلين - في لفظهما وفي معناهما الحقيقي أو المجازي - لا يحول بيننا وبين أن نقرر تمامَ انقطاع الصلة بينهما؛ إلا أن يُثبت لنا أحد الأدباء بدليل قاطع وجود علاقة بين الأصلين العربي واللاتيني، وهذا ما لا نستطيع الجزم به. . .
بقي أن نشير إلى أننا حاولنا تتبُّع اللفظ العربي إلى أصوله - إن كانت توجد - في اللغتين العبرية والسريانية؛ ولكن لم تُسعد المصادر التي بين أيدينا الآن على تحقيق

هذه الرغبة؛ فهذا باب آخر للبحث نتركه مفتوحاً لمن يحسن وُلوجَه. . . والله يهدينا جميعاً إلى الحق.

(جرجا)

محمود عزت عرفة

الرجولة والرجولية

يذهب بعض علماء اللغة في كتبهم إلى التفرقة بين (الرجولة والرجولية) فيقولون: إن (الرجولة) مصدر يدل على مجرد الحدث وأما (الرجولية) فمصدر صناعي يدل على الحدث مع الدلالة على معنى المروءة والإقدام وحماية الذمار الخ. ويعللون لذلك بأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى

ويذهب بعضهم الآخر إلى أنه لا فارق بينهما، فكلاهما مصدر لا يدل إلا على مجرد الحدث، كما أنه لا فارق بين الطفولة والطفولية، ويستدلون لذلك بأن معاجم اللغة تكرها دون أن تفصح عن فرق بينها لو كان لنبهت عليه.

وأما قولهم (إن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى) فذلك لبيان الغالب وليس بمطرد. . .

فأي الرأيين أجدر بالصواب وأحق بالإتباع؟ هذا ما أسأل قراء الرسالة عنه ولهم جزيل الثناء.

علي محمود الشيخ

ديوان التيجاني بشير (إشراقة)

في سنة 1935 حملت (الرسالة) الغراء لواء دعوة من أكرم الدعوات، إذ بدأت تنشر على صفحاتها فصولاً تعرّف القراء فيها بالنهضة الأدبية الحديثة في الأقطار العربية، وكان من وراء ذلك أن رأينا أقلاماً عربية قوية تسمعنا أصوات أصحابها من الأقطار الشقيقة في ميداني النثر والشعر؛ وكان من بين هذه الأصوات التي انبعثت من فوق منبر (الرسالة) صوت شاعر الشباب السوداني التيجاني يوسف بشير الذي لم يمهله القدر فاستأثر به عام 1937 عن خمسة وعشرين عاماً استطاع في أثنائها على قلتها أن يسمعنا أغاريد مشجية من الشعر السوداني الحديث!

وقد قام الوجيه السوداني المعروف الأستاذ علي البرير بطبع ديوان المرحوم التيجاني (إشراقة) على نفقته الخاصة وأهداه إلى روح ناظمه، وصدره بكلمة للأستاذ الكبير محمد محمود جلال عن قصته مع الشاعر، وكلمة للدكتور زكي مبارك عن الروحانية السودانية، وسيوزع ريع الديوان على ذوي الشاعر ومواطنيه. وقد ظهر فيما يقرب من 100 صفحة، ويحوي قصائد جيدة للشاعر في الوجدانيات والإخوانيات والوطنيات والتصوف والرثاء الوصف وغير ذلك. وشعر التيجاني يمتاز بعمق الفكرة ورصانة الأسلوب والإحاطة بالموضوع والافتنان في المعاني، ولا تتسع كلمة عابرة كهذه لتفصيل القول في ذلك. . .

ونحن ننتظر أن يلقي الديوان ما هو جدير به من الإقبال، وأن يعني بدراسته والكتابة عنه أدباؤنا، فهو أصدق صورة للشعر الحديث في القطر الشقيق!

أحمد الشرباصي

البكاء بعين واحدة

كنت وما زلت معجباً بأبيات الصَّمَّة بن عبد الله القشيري التي يقول في مطلعها:

حننت إلى ريا، ونفسك باعدت ... مزارك من ريا وشعبا كما معاً

وكنت أقف عند هذا البيت الذي يقول فيه:

بكت عيني اليسرى فلما زجرتها ... عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معاً

فأعجب كيف اتفق لهذا الشاعر أن يبكي بعين واحدة، ثم يعود فيبكي بكلتا عينيه؟! وكنت أتساءل: هل يتفق هذا لكل الناس أم أنها حال خاصة لا تخضع لقانون ثابت، ولا تجري على سنة مطردة؟. . . وأخذت أفكر فخطر لي أن هذا الشاعر قد يكون أعور، فيتصور منه البكاء بعين واحدة، وبدا لي هذا الخاطر معقولاً لولا اعتراض قام بالذهن، هو أن كون الشاعر أعور إنما هو محض افتراض لا يقوم على أساس، ولا ينهض على دليل. هذا من جهة، ومن جهة أخرى هل يمكن أن تدمع العين العوراء حتى يتصور بكاء

الأعور بكلتا عينيه؟ وأخذت أبحث عما يدفع هذا الاعتراض، ويصحح ذاك الافتراض، وأخيراً وقفت
إلى ذلك - وما توفيقي إلا بالله - فقد قرأت في (عبقرية عمر) للأستاذ الكبير العقاد أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل متمم بن نويرة، وكان هذا شديد الحزن لمقتل أخيه مالك: - ما أشد ما لقيت على أخيك من الحزن؟ فقال: كانت عيني هذه قد ذهبت فبكيت بالصحيحة فأكثرت البكاء، حتى أسعدتها العين الذاهبة وجرت بالدمع. ثم قرأت هذه الأبيات في الجزء الثالث من شرح ديوان الحماسة فوجدت التبريزي الشارح رحمه الله يعلق على البيت السالف بقوله: وإنما قال: (بكت عيني اليسرى) لأنه كان أعور
وبذلك سقط الاعتراض وصح الافتراض. والله أعلم.
إبراهيم محمد نجا
الشعر وجامعة فاروق
نهضت الحركة الأدبية بالثغر الحبيب نهضة مباركة منذ بزغت شمس جامعة فاروق. ولا غرو فإن حيوية الأدب لا تنشر وتكتسب كما قال أستاذنا الكبير الزيات، إلا (بمخالطة الصفوة من رجال الأدب. . . وأنه إذا كان الاستمرار على دراسة الروائع الأدبية ضروري لضمان الخلود، فإنه ولا ريب يكون لذوي الفرائح الناشئة ضرورياً لاستكمال الوجود)
وإن أصدق شاهد على صدق هذه القولة الحكيمة من صاحب (الرسالة) الغراء، أن روح الأدب قد تألقت مع إنشاء الجامعة الجديدة؛ فكان من مظاهر هذه النهضة تكوين جماعة للشعر لأول مرة في كلية الحقوق يشرف عليها مدرس الشريعة الأستاذ عبد الفتاح البانوبي، ويرأسها الشاعر حسين محمود البشبيشي
ولقد أقامت الجماعة مهرجانها الأول بدار الجامعة في الأسبوع الماضي، ألقيت فيه بعض القصائد الجياد. وستوالي الجماعة إقامة مهرجاناتها الشعرية شهرياً، وستختمها بمهرجان كبير يشترك فيه شعراء الإسكندرية المبرزون
عبد العزيز البسي
المسرح والسينما
الفرقة المصرية
قالوا إن الفرقة القومية (القديمة) لم تؤد رسالتها، ولم تقم بواجبها، ولم تفعل شيئاً مما خلقت له. والحق أنها وقفت جامدة في مكانها فلم تتقدم خطوة واحدة، وكان ذلك - راجعاً إلى سوء الإدارة - كما أعتقد
وقالوا إن الفرقة المصرية (الجديدة) ستكون مثلاً أعلى للنهضة بفن التمثيل في . . . مصر بعد ما أدخل عليها من تعديل وتبديل، وبعد ما أثير حولها من قال وقيل، فماذا فعلت الفرقة المصرية الجديدة؟!
أشهد أنها قد أجادت في الإعلان عن نفسها وسلكت في الدعاية لأعمالها كل السبل؛ ولكنها - وا أسفاه لم تعمل شيئاً غير ما كانت تعمله الفرقة المنحلة اللهم إلا الدعاية. . والدعاية فقط .
قدمت الفرقة في الأسبوع الماضي مسرحية (مروحة الليدي وندرمير) للكاتب الإنجليزي المعروف أوسكار وايلد ومن تعريب الأستاذ عباس يونس وإخراج الأستاذ فتوح نشاطي. وقد اشترك في تمثيلها لفيف من ممثلي الفرقة نذكر منهم الأساتذة: حسين رياض وسراج منير وفؤاد شقيق وفؤاد فهيم، والسيدات زينب صدقي ونجمة إبراهيم وإحسان شريف وسامية فهمي وغيرهم. وقد جاء الإخراج غاية في الإتقان والتمثل غاية في المقدرة. ولكن المسرحية - للأسف - بعيدة كل البعد عن مجتمعنا فهي لا تلائمه، ولا تدور حوادثها في مثل بيئتنا. ولست أدري لماذا قدمت الفرقة هذه المسرحية التي لا تمت إلى أخلاقنا وعاداتنا بصلة؟! أعجز الكتاب والمؤلفون المصريون عن خلق الرواية المصرية حتى تلجأ الفرقة إلى أدب الغرب تستعير منه وتأخذ عنه؟! أم ماذا؟! . . .
نحن لا نعارض فكرة الترجمة في حد ذاتها. وإنما نعارض أن تترجم للفرقة (المصرية) روايات لا تلائم ولا تتفق مع الخلق المصري فيكون تمثيلها نوعاً من العبث لا يؤدي إلى الغرض المقصود الذي من أجله تتفق هذه الأموال الطائلة. وحن لا نريد أن نجحدهم

فضلهم، وإنما نريد أن نشير عليهم بالوجهة الصحيحة حتى يتلافوا الوقوع في أخطاء الماضي
وأخيراً نتمنى للفرقة المصرية الجيدة كل تقدم وارتقاء
كلمة واجبة
ليس أفسد للفن ولا أضر على البلد من مصيبة مصر بأدعياء كبراء في الادعاء هرولوا سراعاً إلى مراكز فنية فرضوا نفوسهم عليها بالمال، ويا لضيعة الفن من أصحاب المال!
إن في مصر فوضى كبيرة في السينما مبعثها ومثيرها ومدبرها أمر واحد هو أن كل تاجر يريد الربح العزيز يلقي بعض ماله مكوناً شركة سينمائية، يؤلف قصصها، ويمثل أدوارها، ويخرج أفلامها فارضاً نفسه (كفنان) على الشعب ناسياً (أو) متناسياً أنه ينقصه الطبيعة الفنية، والحاسة، والذوق، والإلهام
لست أدري على من ألقي التبعة في هذا المقام؟! أعلى الشعب الذي يلقف كل ما يلقي إليه لأن السينما فن جديد؟! أم على أولى الأمر الذين يصرحون بعرض مثل هذه السخافات على الناس فيكونوا بذلك قد جنوا على أذواق الجماهير وعلى رسالة الفن في ذاته؟! أمر محير فهل يمكن تداركه قبل أن يستفحل؟! ليس أمامي مفزع سوى وزارة الشئون الاجتماعية ووزيرها أضرع إليه في أن يوجه عنايته إلى أمر الفوضى الضاربة في الفن السينمائي ويجتث أصولها حتى يضمن للفن المعاني أن يقيم أبنيته على أساس نقي نظيف.
عبد الفتاح متولي غين
العدد 501 - بتاريخ: 08 - 02 - 1943
في السياسة القومية
. . .بين الأخوة
أسرتان أختان ورثتا أمجاد الدهر، ورفعتا أركان الحضارة، وعاشتا على النعماء والبأساء ثلاثة عشر قرناً يظلهما وطن كريم، ويغذوهما نهر فياض، وترعاهما شريعة سمحة، وتربط بينهما أواصر خالدة من صلة القربى، وحرمة الجوار، ووحدة المنفعة، لا يجوز أن يعبث بوحدتهما المقدسة عابث لنزوة غضب أو شهوة خلاف.
تلك كانت كلمتي لصديقي ف. ب، وهو من سراة الأقباط الذين اعتقدوا مبادئ الوفد وضعها الزعيم سعد؛ قلتها له حين أنكرت في بعض حديثه معنى من معاني العصبية المفرِّقة التي ماتت ألفاظها في لغتنا المصرية منذ طويل. وكان صديقي هذا إلى يوم قريب لساناً من ألسنة الوفد، يؤمن برسالته، ويخلص لسياسته، ويخضع لزعامته، ويعتقد أن مبادئه هي الدِّين المشترك الذي تصلح عليه الأمة، وتتحقق به المساواة، وتشرق فيه العدالة، ويطهَّر به الدم المصري من جراثيم الفرقة فلا يكون لابن النيل إلا وصف واحد يُشتق من مصريته، لا من عقيدته ولا من عنصريته. فما هو إلا أن غضب من رجال الوفد غاضب يتمنى إليه حتى أصبحت مبادئ الوفد كفراً، وسياسته غدراً، وزعامته فجراً، وحكمه محاباة؛ وحتى صار الخلاف بين رجل ورجل، خلافاً بين عنصر وعنصر، وبين دين ودين، وبين كثرة وقلة سوى بينهما الفضل لا العدل، فلم يعد هناك كثرة ولا قلة، ولا عزة ولا ذلة، ولا قرابة ولا بعد
أهكذا يا صديقي تُحكم الهوى في الرأي، وننصر العصبية على الوطنية، ونصدع ما أراد سعد أن يُرْأب، ونقطع ما أمر الله أن يوصَل؟ إن كان لم يقنعك ما قلت، فإني لأرجو أن يقنعك ما أكتب:
إن توحيد الأمة معنى من توحيد الله لا يوسوس بتوهينه في الصدور إلا شيطان. وإن هذا الشعب المفطور على السماحة والوادعة والألفة، لم يسجل عليه تاريخه الطويل أن بعضه تعصب على بعضه إلا بمكر الدخيل أو غدر الخائن. وإن الإسلام الذي يرتع في ظلاله اليهودي المضطهد، والأرمني المبعَد، والرومي المهاجر، والأوربي المستعمر، لا يمكن أن يكون مصدر شقاق بين عنصرين شقيقين خلقا من طينة واحدة، ونبتا في مغرس واحد.
وإذا جاز للأجنبي أن يعكر الماء ليصيد، ويفرق الأهواء ليستفيد، فلا يجوز للوطني البر أن يمزق الوحدة لينتقم، ويوقظ العصبية ليغلب!
لقد كان التمييز بين المصري وأخيه بالإسلامية والقبطية، أو (بالأكثرية والأقلية)، أثراً

من آثار الحكم الجاهل، أو أداة من أدوات الاستعمار اللئيم. ومصداق ذلك أن الأمر لم يكد يصير في أهله حتى أمحت الفروق، وشاعت الحقوق، وتعانق الهلال والصليب، وتآخي الشيخ والقس، وماتت الصحافة الطائفية، وأصبح المصريون أمة واحدة تجد فيها المسلم والقبطي، كما تجد الوفدي والدستوري، ولكنك لا تجد للعقيدة الدينية أو النحلة السياسية أثراً سيئاً في علاقة خاصة أو معاملة عامة. وبهذه الوحدة المقدسة تميزت مصر على أمم الشرق، وقدمت إليهن مثلاً عالياً في الوطنية الصادقة والسياسة الحكيمة

إن تقسيم الناس على عدد الأديان والألوان خلق من أخلاق الجاهلية لا تزال الإنسانية تقاسي ما ورثت من عقابيله. وإن استغلال هذه المعاني اليوم في تحقيق غرض من أغراض السياسة وسيلة مكيافيلية لا يطمئن عليها ضمير حي. وإن زعمك يا صديقي أن غضب الأسرة لغضب واحد منها نزعة في أصل الطبع لا حيلة فيها، يكون له مساغٌ في العقل إذا كان الغضب لها والخلاف من أجلها، أما إذا كان الشقاق والانشقاق لخلاف في السياسة العامة، فإن في مغالبة فريق بفريق، ومواثبة عنصر بعنصر، دليلاً على نية سوء لا يصلح صاحبها أن يكون زعيماً يطاع ولا إماماً يتّبع.

لا يا صديقي! لم تكن فكرة التميز والتحيز في عهد من العهود سبيلاً إلى مصلحة الوطن؛ فإن تقسيم الحقوق والواجبات على مقتضى النسبة العددية شديد على الفريق الأقل. وإن انقسام الأمة إلى فريقين متعارضين، خليق بما يحمل من معاني الأثرة والتعصب أن يوقع الوحشة بين الأخوة فلا يجمعهم ظل ولا تدنيهم مودة لك يا صديقي ولجميع الناس أن تختلفوا وتختصموا؛ ولكن عليك وعلى جميع الناس أن تراعوا جانب الحق في الخلاف، وتؤثروا سلاح الحق في الخصومة. وما دمتَ من رجال السياسة وطلاب الحكم فيجب أن يكون رأيك للجماعة وسعيك للجميع. أما أن تفرق لتسود، وتقسم لتقود، فذلك جرم وطني لا تسعه مغفرة

اتقوا الله في الوطن يا صديقي، ولا تفتحوا عليه باب الفرقة فإنه باب ظاهره فيه الخراب،

وباطنه من قِبَله العذاب

لا تقولوا نحن وأنتم، ولا فعلنا وفعلتم؛ فإنها من بقايا الجمل التي كان يلقيها علينا الأجنبي فنمضغها مضغ الجيف، ثم لا يأمن بها عيش ولا يسمن عليها بدن

نحن وأنتم اخوة توشَّج ما بيننا من صلات النسب على طول القرون، فإذا قيل لكم إنكم طائفة في أمة، وذمة في دين، وعصبية في حزب، فادفعوا هذا القول الظنين بمنطق الوطني المؤمن، وارباوا بأنفسكم أن تكونوا مطايا ذُلُلاً لأصحاب المطامع يقتحمون بكم مزالق السياسة. واذكروا أن أثمن ما غنمناه من جهادنا الطويل هو توحيد الأمة، وان توحيد الأمة كما قلت معنى من توحيد الله لا يوسوس بتوهينه في الصدور إلا شيطان.

أحمد حسن الزيات

هل أدت الجامعة رسالتها؟

للدكتور زكي مبارك

أخي الأستاذ الزيات

في عصرية السبت الماضي أقيمت مناظرة في كلية الآداب أريد بها تحديد المدى الذي وصلت إليه الجامعة في تأدية رسالتها العلمية والأدبية والاجتماعية، واشترك في المناظرة طالب وطالبة، واثنان من الخرجين، واثنان من المدرسين، وقد دامت المناظرة نحو ثلاث ساعات، وحضرها جماهير من بيئات مختلفات، ولم يقع فيها ما يسوء برغم العنف الذي ثار تصريحاً أو تلميحاً بين المؤيدين والمعارضين. ومع أني كنت أؤيد الرأي فقد راعتني الحجج التي قدمها من عارضوني، لأن أحدهم وهو الأستاذ حسين دياب حضر ومعه عددان من مجلة (الرسالة) فيهما كلمات تشهد بأني قلت مرتين بأن الجامعة لم تؤد رسالتها على الوجه المنشود

كانت كلمتي مكتوبة، ولكني اختصرتها لضيق الوقت، فتجمع الحاضرون حولي عند الانصراف، ورجوني أن أنشرها في (الرسالة) كاملة ليقرءوا ما فاتهم أن يسمعوه، فأنا أقدمها إلى (الرسالة) تحقيقاً لذلك الرجاء النبيل

وتكميلاً للغرض أسوق الملاحظات الآتية:

1 - أجمع المعارضون أن الصلة بين الجامعة وخريجها منقطعة تمام الانقطاع، وأن الجامعة لا تعرف غير من تراهم من الطلبة والمدرسين. ولو كانت الجامعة أدت رسالتها لكان من الواجب أن تهيئ لأبنائها القدماء فرصة التلاقي في رحابها في كل عام مرة أو مرتين

2 - كان اللحن الفظيع يغلب على بعض المعارضين، وكان الجمهور يقابل اللحن بالضجيج، وقد اعتذر أحد المعارضين بأن لحنه من الشواهد على أن الجامعة لم تؤد رسالتها، فكان ألطف اعتذار في التاريخ الحديث!

3 - وردت في خطبتي كلمة موجهة إلى العميد، فأسرع بعض المدرسين ليسر في أذني كلاماً يرجوني فيه ألا أحرج العميد وكان الظن أن يدركوا أن العميد أقوى مما يظنون؟

4 - كان اثنان من المدرسين المشتركين في المناظرة يقلدان الدكتور طه حسين في التعابير وفي مخارج الحروف، وهذا دليل على ضعف الشخصية، فأنا أحب أن يكون لكل خطيب وجودٌ خاص

5 - المنطق قد انعدم في بعض أقوال المعارضين، فقد توهم أحدهم أن الجامعة لا تؤدي رسالتها إلا إذا عمل خريجوها بالمجان في جميع الميادين، ونص بالحرف على أن الأطباء في المستشفيات يتناولون مرتبات، وهذا في رأيه ينافي الروح الجامعية

6 - الألفاظ كانت فضفاضة عند بعض الخطباء حتى كدت أحس أن المناظرة لا تدور في المدرج الأكبر بكلية الآداب!

7 - كان أحد الخطباء يوهمنا أنه يرتجل مع أنه حفظ خطبته عن ظهر قلب!

8 - حدثنا أحد المعارضين عن تقاليد الجامعات الأوربية بكلام هو غاية العجب، مع أن عينه لم تكتحل برؤية جامعة أوربية، كما قال أحد المؤيدين، فمن أين استقى هذا المدرس المفضال معلوماته المبعثرة عن تقاليد الجامعات الأوربية؟

9 - الأديب سعيد محروس كان يقلد الخطيب محمد شكري في الإشارات والنبرات، وهذا دليل على أن الروح لا يموت، فقد كان محمد شكري أظهر خطباء الثورة، ثم انهزم لأنه عجز عن مسايرة الأحزاب

10 - الآنسة كوثر عبد السلام أجادت في المعاني، ولكنها عقت النحو عقوقاً لا يطاق. فذكرتنا بقول أحد الشعراء:

منطقٌ صائبٌ وتلحن أحيا ... ناً وأحلى الحديث ما كان لحنا

11 - حضر الأميرالاي علي حلمي لشهود المناظرة، وفي الطريق إلى المدرج لقينا الدكتور محمود عزمي، فقال له سعادة الأميرالاي: لعلك حضرت لنفس الغرض! فقال الأستاذ محمود عزمي: إن عندي حصتين في معهد الصحافة. فقلت: هات تلاميذك ليشهدوا المناظرة، فقد يختزنون مناظر تنفع في حياتهم الصحفية، فاعتذر بلطف وانصرف

هذه هي الصحافة التي تعرفها كلية الآداب، صحافة نظرية لا علمية، صحافة تأخذ وقودها من التاريخ لا من الحياة، صحافة تنكر الرحلات من حجرة إلى حجرة في مكان محدود، مع أن من واجب الصحفي أن يرتحل من قطب الشمال إلى قطب الجنوب

أما بعد فأنا آسف على ما أثبت في خطبتي من أن كلية الآداب خدمت الصحافة بإنشاء معهد الصحافة، ولن أمحو ما أثبت، لأني لا أريد التسجيل، وإنما أريد الإيحاء

ولم يبق إلا أن يتفضل أخي الأستاذ الزيات فينشر خطبتي بالحرف، مع الرجاء في أن يتذكر أني لم أثن على الجامعة المصرية بغير الحق، رفع الله دعائمها إلى الأبد، وجعلها منارة باقية إلى آخر الزمان.

أيها السادة

حين دُعيت للمناظرة في هذا الموضوع الطريف قلت لنفسي: إن لجنة المناظرات بكلية الآداب هبط عليها الوحي من حيث لا تحتسب ولا تعرف، فإن هذا الوقت هو أنسب الأوقات لوزن أعمال جامعة فؤاد الأول. ألم تسمعوا بأن الاحتفال الرسمي بافتتاح جامعة فاروق الأول سيكون في الأسبوع المقبل؟

إن في ذلك لفرصة لوزن ما لجامعة القاهرة وما عليها بالعدل والقسطاس، وهو أيضاً توجيه لجامعة الإسكندرية، فما أظنها تكره أن نمدَّ إليها يد الرفق، لنعاونها على

مصارعة الأمواج، وهي في بلد الأثباج
وكان المنتظر أن أكون في الصف الذي ينكر أن تكون الجامعة قد أدت رسالتها، ولكن لجنة المناظرات رأت أن قوتي في الهجوم، فبخلت بإعطائي فرصة جديدة أرفع فيها العَلَم لقلمي وبياني، في المكن الذي صاولت فيه كبار الرجال، بغير تهيب لعواقب الصيال
أو لعلها أرادت أن أشهد علانية بتمجيد الجامعة بعد أن حاربت من حاربت من رجالها الأبطال. إن كان ذلك ما أرادت فلن تنال ما تريد، لأن من رسالة الجامعة أن تروض أبناءها على الخلاف، ونحن نختلف أقل مما يجب، ويا وليلنا إذا لم نختلف!
فلا تحسبوني أغمدت القلم الذي أعددته لمصاولة زملائي، ولا تتوهموا أني سأعفي الجامعة من النقد الصريح، يوم أراها تقع فيما يوجب الانتقاد، فأنا أومن بأن الحرب حياة وبأن الصلح موت، وأنا الذي قال حين تنادي رجال الأقلام إلى الوفاق:
دعوتم إلى وأد الخلاف فحاذروا ... عواقبَ حلفٍ خير آثاره الختل
دُعوا الصلح للأموات فهو غذاؤهم ... هنيئاً لهم ذاك المكان الذي حلُّوا
ألاَ هل سمعتم أن قبراً تحركتْ ... حجارته فانزاح من فوق الثِّقْلُ
يجوز لقومٍ غيرنا أن يؤلفوا ... عصائب يحميها من النكثة الفتل
ونحن رجالٌ سرُّنا في خلافنا ... وقوّتنا العليا هي الفتك والصول
تآخي الظباء الرُّود رمزٌ لضعفها ... وهل تعرف الآساد ما الجمع والشمل
أيها السادة:
أتذكرون المناظرة التي اشتركت فيها بهذا المكان منذ سنتين أو ثلاث؟
لقد جئت وبيميني صحائف مكتوبة، لآمن التزيد الذي يستبيحه بعض المتناظرين، رغبة في كسب الأصوات، أو طمعاً في التغلب على مفكر لا يعتزّ بغير العقل والبيان
وقد رأيت أن ألقاكم بصحائف مكتوبة، مع أن مقامي هذا لا يحتاج إلى احتراس، بعد أن أعفتني لجنة المناظرات من النضال حين خصّتني بالجانب الأقوى في مناظرة هذا المساء، فاعرفوا أني قيدت كلامي، لأني سألقيه في أحد مدرجات الجامعة، والجامعة لا ترضى لأبنائها أن يتركوا الأوابد بلا قيود
ولكن كيف أخاف الإسراف في إبراز محامد الجامعة، وليس في الخير إسراف؟
الجامعة هي كل ما غنمنا من جهاد العوام التي أربت على الستين في مقاومة الاحتلال
الجامعة هي صوت مصر في الشرق، وقد اختارت الضفة الغربية من النيل رمزاً لما تسموا إليه من نقل عقل الغرب إلى روح الشرق
إن الجانب الذي سأتحدث عنه هو الجانب الأقوى، ولكنه مزعج، لأنه سيقهرني على مواجهة مشكلة من أصعب المشكلات، وهي توضيح الواضحات، وهل ينكر أحدٌ أن الجامعة أدت رسالتها قبل أن يولد بعض مناظريّ في هذا المساء؟
لم تكن للجامعة رسالة واحدة، وإنما كانت لها رسالات، وإليكم يساق الحديث:
كانت رسالتها الأولى أن تختبر العزائم والقلوب، لتعرف استعداد الأمة للتحليق في الجِواء العالية، يوم كان جماعة من خلق الله يقولون: إن السياسة الحكيمة للتعليم هي إعداد موظفين مصقولين. ونحن نعرف المواد من ذلك الصقل، فقد كان الغرض أن يكون عندنا موظفون لا يقولون (لا) ولو في التشهد!!
وقد كان المظنون أن تخفق الجامعة في تأدية تلك الرسالة، فقد كان الأمر يومئذ إلى حكومة مصقولة، حكومة تستهدي الاحتلال في حل بعض المعضلات، وكان الاحتلال يرى أن مصر تحتاج إلى كتاتيب لا إلى جامعات
فهل أفلحت الجامعة في إيقاظ الروح القومي لتشعر المحتلين بأن مصر شبَّتْ عن الطوق، وانتهت من أبجديات الكتاتيب؟ هو ذلك، فقد أقبلت الأمة على تأييد الجامعة إقبالاً منقطع النظير، إقبالاً يشهد بأن الجسم الوهين عروقاً نابضات، وأن مصر علمَّت فلاسفة الإغريق والرومان في العصر القديم ستكون موئلاً علميّاً لليونان والطليان في العصر الحديث
تلك الرسالة الأولى، فما الرسالة الثانية؟
كانت الرسالة الثانية أن تجد الجامعة طلاباً يسعون لظفر بإجازات علمية، لا تعترف بها الحكومة المصرية، طلاباً لا أمل لهم في الوظائف والمناصب، ولا حظ لهم غير التشرف بخدمة الدراسات العالية، في زمن كان فيه تراب الوظيفة أثمن من التبر

المسبوك، وأروع من خيوط الضياء
وذلك عهدٌ عرفتُه بدمي وروحي، وعرفه معي زملاء من أبناء الجامعة في عهدها الأول. . كنا يتامى، وكان اليُتم المضطهد بعض ما ورثنا عن الأنبياء
لم يكن للجامعة ماضٍ تستند إليه، فقد سبقتها المدارس العالية بعشرات السنين، وسبقها الأزهر بعشراتٍ القرون، ولم يكن لنا إخوان في أي ديوان، فقد عشنا حيناً غرباء، وكان من حق أي مخلوق أن يسخر منا كيف شاء، والحر في وطنه غريب لقد حملنا أعباءنا الثقيلة ولا معين، ورحبنا بالمكاره السود، لنقنع الأمة بأن عدننا رسالة لم يحملها أحد من قبل، وهي رفع راية الفكر الصداق والقلم البليغ
في ذلك العهد كنا نسمع أن علوي باشا يطوف على الوزارات عساه يجد أمكنه للعائدين الفائزين من بعثات الجامعة المصرية، وكنا نسمع أنه يجاب بأن (الحكومة ستنظر في الأمر) وهي عبارة ديوانية معناها أن الحكومة السنية لا تعرف من أعضاء البعثات إلا من تنفق عليهم من مالها الخاص، كأن الجامعة كفرت حين عاونت الحكومة على تثقيف بعض أبناء الجيل الجديد!!
وحكومة مصر كما تعرفون تجهل أقدار الذين يعفونها من النفقات عند الرغبة في التزود من الجامعات الأوربية والأمريكية لأغراض مردُّها حب السيطرة على العلوم والعلماء
فهل جزعنا فيئسنا؟
هيهات، ثم هيهات، فقد رحبنا بالجهاد في مناصب الجامعة بعنفوان أقوى من عنفوان الزمان، وقد انتصرنا على الحكومة، وعلى الزمان
تلك الرسالة الثانية، فما الرسالة الثالثة؟
كان للجامعة وحيٌ يغزو القلوب والعقول، وقد تسامَى إلى غرض أعجب وأعرب، وهو إنطاق الصخر الجلمود، فقد أقنع الحكومة بأنْ لابد من إنشاء جامعة في الوطن الذي سبق جميع الأوطان إلى إنشاء الجامعات، فتألفت لجنة حكومية عقدت في أربع سنين جلسات تفوق الثمانين، لتقول في النهاية بتسمية المدارس العالية كليات، وبعض أنصار الحكومة في ذلك العهد كانوا يعرفون الأسماء ويجهلون المسميات
وحي الجامعة كان الوحي الصادق، فقد انسحبت الحكومة من الميدان بعد اليأس، وبقيت الجامعة تصنع بأحلام الشباب وقلوبهم وعقولهم ما تريد
في تلكم الأيام كان أبناء الجامعة يقتحمون الميادين العلمية والأدبية، وكانوا يقيمون البراهين الصوادق على أن فكرة الجامعة لن تموت، ولو قامت في طريقها ملايين العقبات
تلك الرسالة الثالثة
أيها السادة:
قبل أن أواجه العهد الثاني من عهود الجامعة المصرية، العهد الذي ابتدأ في سنة 1925، وهو العهد الأرحب والأخصب، أرى من الواجب أن أجمل القول في العهد الأول، بصورة تشعركم بقيمة الرسالات التي أدتها في ذلك العهد
كان للجامعة مبعوثون إلى الجامعات الأوربية من أمثال منصور فهمي، ومحمود عزمي، وصادق جوهر، وأحمد ضيف. ولا ينكر أحدٌ أن مبعوثي الجامعة كانوا أقوى من مبعوثي الحكومة. وكانوا أقدر على النضال في الميادين العلمية والأدبية والاجتماعية، وأنا في هذا المقام أضرب الأمثال، ولا أحاول الاستقصاء
وكان للجامعة في ذلك العهد أبناء تثقفهم في دارها من أمثال: طه حسين وكمال حلمي وفريد رفاعي وتوفيق المرعشلي وأحمد البيلي وحسن إبراهيم وعبد الوهاب عزام ومحمد إبراهيم الجزيري، فماذا صنع هؤلاء؟
لن أتحدث هن جهودهم بالتفصيل، فأنتم تعرفون من جهودهم أكثر مما أعرف، ويكفي أن أؤيد رأيي بشاهد واحد لكم بعض ما صنعت الجامعة في ذلك الحين
في سنة 1914 تخرج أول دكتور من الجامعة المصرية، وهو الدكتور طه حسين، وقد قدّم لامتحان الدكتوراه رسالة سماها (ذكرى أبي العلاء)، رسالة ظنها الناس تأليفاً كسائر التأليف، ولكنها أدهشتهم حين طُبعت، فقد رأوا أن للجامعة نفَساً أطيب من سائر الأنفاس، وأدركوا أن الجامعة تخلق أبناءها خلقاً جديداً، وأن لها رسالة جيدة، وأنها مصباحٌ سيبدّ ما سلف من المصابيح

ولم تكن رسالة الدكتور طه مثالاً يحتذيه طلبة الجامعة فحسبُ، وإنما امتد أثرها إلى آفاق بعيدة من أقطار الشرق
وقد قدّم الدكتور طه بعد ذلك بأعوام رسالة إلى جامعة باريس عن ابن خلدون، ولكنها ليست في قوة الرسالة التي قدمها إلى الجامعة المصرية عن أبي العلاء، فكان هذا برهاناً على أصالة الجامعة المصرية في تثقيف الأذواق والعقول
ثم ماذا؟
ثم نظرت الجامعة فرأت الحكومة تخنق التعليم في المعاهد العالية، فأنشأت قسم الحقوق في أعوام عجاف، هي أعوام الحرب الماضية، وكانت النتيجة أن تعترف الحكومة نفسها بأن أبناء الجامعة المضطهدة أقدر من أبنائها على الظفر بالدرجات العالية.
وفي ذلك العهد كانت دار الجامعة هي الموئل لكبريات الحفلات، ففيها أقيم الاحتفال بذكرى الشيخ محمد عبده، مع أن الأزهر لم يحتفل بتأبين ذلك الإمام الجليل. وفيها احتُفل بتأبين فتحي باشا زغلول وعثمان باشا غالب، وفيها احتُفل بذكرى رينان، وفيها ألقيت عمرية حافظ إبراهيم وعلوية محمد عبد المطلب، وعلوية عبد الحليم المصري
وفي ذلك العهد. . . ماذا وقع في ذلك العهد؟
كان مجلس الجامعة المصرية ينتظم أكابر المصريين، وكان هو المكان الوحيد الذي يجتمع فيه أولئك الأكابر في أمان من الرقباء، وفيه تألف الوفد المصري برياسة الزعيم سعد زغلول.
ألا تكون هذه الناحية الخطيرة جانباً من رسالة الجامعة في عهدها الأول؟
زكي مبارك
في التربية الديمقراطية
الحكم الذاتي في المدرسة
للأستاذ السيد يعقوب بكر
سوف لا نعرض في هذا البحث للتجارب التي أُجريت في هذه المسألة؛ فإن هذه التجارب كثيرة كثرة لا نستطيع معها حصرها في بحث مثل هذا البحث؛ وهي كذلك ذات صبغة بيئية إن صحَّ هذا التعبير، فهناك تجارب إنجليزية وتجارب أمريكية وتجارب أسترالية وتجارب فرنسية، وطبيعي أن هذه التجارب لا تهمنا كمصريين لهم بيئتهم الخاصة وتعليمهم الخاص الذي توحي به هذه البيئة؛ هذا إلى أن من هذه التجارب ما كان مسرحه المدرسة الابتدائية وما كان مسرحه المدرسة الثاموية وما كان مسرحه الجامعة، وواضح أن هذه التجارب لا تصلح لمدارسنا وجامعاتنا لسبب بسيط جدّاً وهو أن مدارسنا وجامعاتنا تختلف عن تلك المدارس والجامعات الأجنبية التي جعلت مسارح تُجري عليها تجارب الحكم الذاتي؛ كذلك أجريت تجارب في الحكم الذاتي على التلاميذ الذين لم يبلغوا سن البلوغ والمراهقة وعلى الطلبة الذين بلغوا هذه السن وهنا أيضاً لا نستطيع تطبيق هذه التجارب على من لم يبلغ هذه السن من تلاميذنا وعلى من بلغها لسبب بسيط جداً أيضاً، وهو أن هؤلاء يختلفون اختلافاً كبيراً عن نظرائهم في البلاد الغربية.
وإذن فلن نعرض لهذه التجارب التي أجريت في الحكم الذاتي. وإنما سنعرض فقط للمبادئ العامة التي تسيطر على هذا الموضوع.
وأول ما نفعله في هذا الصدد أن نبين مكان الحكم الذاتي من التأديب
فنحن نعرف أن الأستاذ مكمان يقسم تطور التأديب من حيث البعد عن الحرية أو القرب منها إلى ثلاث مراحل متتابعة: مرحلة الإرهاب ومرحلة التأثير بالشخصية ومرحلة التحرير
ففي المرحلة الأولى كان المعول على القوة وحدها، وكانت العصا أداة التفاهم الوحيدة بين المعلم والتلميذ
وفي المرحلة الثانية - وهي مرحلة انتقال من المرحلة الأولى إلى المرحلة الثالثة - هذب المربون من حاشيتهم ووقفوا من جفوتهم وإن لم زودوا تلاميذهم بعد بالحرية الكاملة التي
يتطلعون إليها والتي هي في الحق من حقهم
أما المرحلة الثالثة؛ فهي التي تمثلها المدرسة الحديثة في التربية وهذه المدرسة

ترمي إلى تزويد التلميذ بحرية خالصة من كل قيد؛ ويجب أن تكون حرية التلميذ هذه إيجابية لا سلبية؛ فيجب - كما يقول السير روبرت بادن باول - أن يشجع التلميذ على أن يعمل ما يحب كما يحب وإن أدى به هذا إلى الخطأ، فبهذه الطريقة وحدها يمكنه أن يكتسب خبرة في هذه الحياة

والأستاذ ماك مان يرض نوع التأديب الذي تضمنته المرحلة الثانية، ولكن الدكتور الكورث براون. لا يقره على هذا الرفض

والسير جون آدمز يخرج من اعتباره النوع الأول من التأديب؛ ويترك النوع الثاني لمحك الحياة يظهر ما فيه من زيف أو صلاح؛ وينظر في النوع الثالث فيرى أن مفهومه يقتضي من المعلم أن يكظم شخصيته وأن يلفها في مدارج النسيان، فيقول إن هذا غير ممكن الحدوث، فشخصية المعلم تظهر بالرغم منه وتترك أثرها في التلاميذ، وهو لا يستطيع بحال ما أن يخلّص ما يلقيه على تلاميذ من أصباغ شخصيته. ويزيد السير جون آدمز على ذلك فيقول إن دعاة هذا المذهب الجديد يعترفون بصحة ما يقول والذي تقصد إليه من كل هذا هو أن نقول إن الحكم الذاتي في مظهر من مظاهر المدرسة الحديثة في التربية

وهنا يحسن أن نتحدث قليلاً عن تاريخ المسألة

فليس من شك في أن النظام يجب أن يتوفر في التعليم المدرسي حتى مكن لهذا التعليم أن يحقق الغاية المقصودة منه. لذلك كان النظام في المدرسة أمراً على جانب كبير من الأهمية في نظر الجميع. ومن ثمَّ أخذت المدرسة تهدف إلى أن بعث في جوها نظاماً مباشراً فما أدّى في كثر من الأحيان إلى إهمال الغرض التربوي المقصود تحقيقه عن طريق النظام. ولكن ازدياد الاهتمام بالأفراد ولا سيما الأطفال، ومطالبة المدرسة بإخراج تلاميذ قادرين على أن يشاركوا في التعاون الاجتماعي في هذه الحياة، وتسلط علم نفس صحيح على المدارس، كل هذا دعا إلى ترك هذا النوع من التأديب الذي لا يهدف إلا إلى مجرد النظام إلى نوع من التأديب آخر يتحقّق من ورائه نمو الشخصية والتعاون الاجتماعي الثابت في المدرسة

وقد تجلت تلك النزعة في أمريكا في عدة محاولات ترى إلى زيادة حرية الأطفال ومسئوليتهم في مباشرة نواحي نشاطهم في الفصل وفي خارج الفصل. ولقد ظهر أثر هذه النزعة أول ما ظهر في الكليات والجامعات فيما يُعبر عنه باسم نظام الشرف ثم ظهر بعد ذلك في الحكم الذاتي في المدارس العالية وأخيراً ظهر في المدارس الأولية على أنه يحسن بنا هنا وقد أشرنا إلى نظام الشرف في معرض كلامنا الوجيز عن تاريخ الحكم الذاتي أن نتحدث بإيجاز شديد عن الفرق بين هذين النظامين كما هما في أمريكا. فنقول إن وجود نظام الشرف في المدارس العالية يرجع إلى أنه لما كان طلبة هذه المدارس يتمتعون من قديم بقسط وافر من الحرية في مباشرة وجوه نشاطهم المختلفة في داخل هذه المدارس وفي خارجها، فإن المدرسين والمباشرين لأمور هذه المدارس قد وصلوا هذه الحرية التي يتمتع بها الطلبة بنظام الامتحان وجعلوها تنفيذ إليه لتدبر أمره. وكان الدافع لهم على ذلك أنهم لمسوا صعوبة التوفيق بين كبح نزعة الغش في الامتحان والعمل - في نفس الوقت - على خلق اتجاهات صحيحة وعادات صحيحة في نفوس الطلبة

هذا عن نظام الشرف. أما الحكم الذاتي في المدارس غير العالية فقد دفع إلى اصطناعه غرضان هما بدون شك أوسع مجالاً من الغرض الذي دفع إلى اصطناع نظام الشرف: فالغرض الأول هو إيجاد وسيلة لتعليم علم الحكم المدني تكون أكثر موضوعية وإيجابية، والغرض الثاني هو العمل على أن تنمي حكومة المدرسة الروح الاجتماعية عند كل طالب؟

فهذا هو الفرق بين النظامين.

على أن هناك نظاماً آخر يحسن أن نتحدث قليلاً عما بينه وبين نظام الحكم الذاتي من فروق، ونعني بهذا النظام نظام العُرفاء فبين هذا النظام وناظم الحكم الذاتي ثلاثة فروق رئيسية: فالفرق الأول يتلخص في أنه في نظام العرفاء يخَّول السلطة عددٌ قليل من التلاميذ كبار السن بينما أن السلطة في نظام الحكم الذاتي يخوَلها التلاميذ جماعة، والفرق الثاني يتلخص في أن أعمال العرفاء تنفيذية أكثر منها تشريعية؛

فمنظم القوانين التي ينفذونها ليست من تشريعهم. والفرق الثالث يتلخص في أن هؤلاء العرفاء يختارون من قبل ناظر
المدرسة ويكونون مسئولين أمامه بدلاً من أن يكونوا نائبين عن الجماعة.
وهنا يحسن بك أن تسألني عن كنه الحكم الذاتي لأقول لك إنه تخويل جماعة من التلاميذ سلطة كاملة لمباشرة شئون حياتهم المدرسية كلها أو بعضها
وهذا الحكم الذاتي لم يصطنع عبثاً، بل لتحقيق أغراض يُرجى تحقيقها من ورائه.
فمن هذه الأغراض تنمية القدرة على التعاون - نحن نعرف أن للتعاون أهميته العظمى في الدول الديمقراطية، بل وفي ذلك المحيط الفسيح الذي نسميه بالمجتمع الكبير والذي نحن جميعاً أبعاض منه. وإن المجتمع الحديث مدين بتقدمه بل وباستمرار وجوده لهذا التعاون الذي يربط بين أفراده بعضهم وبعض.
ومن هذه الأغراض تدريب التلاميذ تدريباً عملياً على أن يكونوا مواطنين مستنيرين، فإن دروس علم الحكم المدني لا يمكن أن تغني هذا التدريب العملي بحال ما. فالكتب لا تستطيع بحال ما أن تطلعنا على دقائق آلة العمل الحكومية أو على الطريقة التي تدير بها الأعمال، وإنما نطلّع على كل هذا بالتجربة وبالتجربة فقط
وهناك غرض ثالث هو قي الحقيقة غرض علاجي. بيان ذلك أن هناك أطفالاً ينزعون إلى أن يشعروا المجتمع بوجودهم وإلى أن يحملوا على الاعتراف بأهمية هذا الوجود، فإذا لم يجد نزوعهم هذا متنفساً يخرج منه إلى عالم الواقع والحقيقة فإنه يتحول إلى عقدة نفسية تحمل هؤلاء الأطفال على أن يقفوا من قوانين المجتمع موقف العداء، وبذلك تكون حياتهم العاطفية صراعاً مشتجراً بينهم وبين أولى الأمر. وعلى ذلك فيجب أن يوحي إلى هؤلاء المتمردين على المجتمع أن القانون ليس جماعاً من أوامر ونواها تملي عليهم وتُفرض، وإنما هو وسيلة تصطنع لتحقيق مثل عليا يطمح إليها أفراد المجتمع ويشاركونهم هم في هذا الطموح. وليس كالحكم الذاتي وسيلة لغرس هذا في نفوس هؤلاء المتمرِّدين
فهذه أغراض ثلاثة رئيسية يرجى تحقيقها عن طريق الحكم الذاتي: وهناك أغراض أخرى ثانوية يصح أن نذكر بعضها. فمن هذه الأغراض الثانوية تدريب التلاميذ على ضبط النفس، وذلك لأن في تدبيرهم لأمورهم المدرسية تقوية لعزيمتهم وشحذا لإرادتهم، ولابد لضبط النفس من قوة في العزم ومضاءٌ في الإرادة
ومن هذه الأغراض الثانوية أيضاً تقوية إحساس التلاميذ بقيمة النظام وأهميته. ومنها كذلك
تدريب التلاميذ على سياسة الغير.
(للحديث بقية)
السيد يعقوب بكر
من أزهار الشر
لشارل بودلير
عروج
ها أنتِ يا روحي ترفرفين هفافةً فوق الوهاد والغدران، والجبال والغابات، والسحب والبحار، وفيما وراء الشمس والأثير، والأفلاك النائية المرصعة بالنجوم.
وإنك لتعبرين الفضاء العميق، مرحةً في شهوة عارمة يعجز عنها البيان، سابح ماهر غشية الذهول في لجة الماء.
فلتحلقي بعيداً، بعيداً، عن الجيف المنتنة. واصعدي إلى الهواء الأعلى، لتتطهري من أدرانها، واحتسي النار الساطعة التي تغمر الآفاق المتألقة، كخمر إلهية صافية.
طوبى لمن يستطع أن ينطلق بجناح قوي إلى السموات المشرقة الساجية من وراء الهموم والآلام العريضة التي تنوء بأعبائها الحياة القاتمة!
طوبى لمن كانت خواطره كالقنابر تطير عند الصباح إلى السماء حرة طليقة!
طوبى لمن رنَّق فوق الحياة، وأدرك بلا عناء لغة الزهور والكائنات الصامتة
ترجمة
عثمان علي عسل
الحضارات القديمة في القرآن الكريم
للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

الحضارة اليهودية

ينسب اليهود إلى يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام. وقد أقام أجدادهم في مصر من عهد يوسف بن يعقوب إلى عهد موسى بن عمران، وهم قلة تدين بالتوحيد الذي دعا إليه إبراهيم أبو الأنبياء، وكانت الوثنية في ذلك العهد غالبة على الأرض، ولها دول قوية في مصر وغيرها من الأقطار. وقد لقي اليهود ما لقوا في مصر من الذل والهوان في سبيل دينهم، إلى أن أراد الله تعالى إظهار دين التوحيد في الأرض، وإقامة حضارة جديدة تقوم على ذلك الأساس الذي يرفع من شأن الإنسانية، وينقذها من الجهالات التي كانت تتردى فيها على عهد الوثنية. وقد بشر الله تعالى بهذه الحضارة قبل أن تظهر على الأرض بقرون، تعظيماً لشأنها، وتفضيلاً لها على الحضارات الوثنية التي سبقتها، لأنها ورثت محاسن تلك الحضارات، وخلت من الطغيان والجهل الذي كان يشوه تلك المحاسن، وقد جاء ذلك التبشير في أواخر أيام بني إسرائيل بمصر، فقال تعالى في الآيات: 4، 5، 6 من سورة القصص (إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين، ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين، ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون)

فالذين استضعفوا في الأرض هم اليهود، القرآن الكريم حين يرثى لاستضعافهم في الأرض، ولما لقوه من الذل والهوان في مصر، وحين يبشر بأن الله يريد أن يمن عليهم ويجعلهم الوارثين في الأرض، لا يحدث عنهم في ذلك بعنوان أنهم يهود، لأن مثل هذا لا يَعْني القرآن الكريم بشيء، وكل الناس عنده سَوَاسِيةٌ من هذه الجهة، وإنما يحدث عنهم بعنوان أنهم شعب موحد، يريد الله أن يجزيهم خيراً على ما لقوه من الاستضعاف في سبيل توحيدهم، وأن يمن على الموحدين من اليهود وغيرهم بأن يجعلهم الوارثين في الأرض،

فتقوم لهم دول تغلب عليها، وتظهر لهم حضارات لا تذكر الحضارات التي سبقتها بجانبها. وقد صدق الله تعالى وعده، فأخذ التوحيد يقوي شيئاً فشيئاً من عهد قيام دولة اليهود في فلسطين، وجعل يناضل الوثنية ويغزوها في معاقلها، وقد رفع لواءه في ذلك النضال الوثنية ويغزوها في معاقلها، وقد رفع لواءه في ذلك النضال أولئك الأئمة الذين اختارهم الله تعالى لهداية البشر، وكان أعظمهم في ذلك الجهاد الشاق ثلاثة لا تزال آثارهم فيه باقية إلى عصرنا، وهم: موسى صاحب الشريعة اليهودية، وعيسى صاحب الشريعة النصرانية، ومحمد صاحب الشريعة الإسلامية، وأتباع هذه الشرائع هم الظاهرون الآن في الأرض، وحضارتهم هي الحضارة العليا، وهي المثل الأعلى في عصرنا

وقد بلغت الحضارة اليهودية أوج مجدها في عهد داود وسليمان عليهما السلام، فارتقت فيها العلوم والآداب وتقدمت الصناعة تقدماً عظيماً، ونهضت التجارة نهوضاً كبيراً. وكان لسليمان عليه السلام أساطيل عظيمة تمخر عباب البحار، حتى وصلت غرباً إلى بلاد الأندلس، وجنوباً إلى بلاد اليمن وجنوب أفريقية. وقد لمعت سماء فلسطين في عهده بما أقامه فيها من المدن العظيمة، وبما شيده فيها من بيوت العبادة، وبما رفعه فيها من الصروح والقصور الجميلة، وهو مع هذا رسول من رسل الله الكرام، وإمام من أولئك الأئمة الذين بشر الله بهم في أواخر أيام بني إسرائيل بمصر

ولاشك في أن ظهور هذا كله في عهد سليمان أعظم رد على أعداء التوحيد، لأنه يبين خطأهم في ظنهم أن التوحيد يجافي الحضارة وينأى عن مظاهر الجمال التي تمتاز بها عن البداوة، ولا يتسع لها صدره، كما يتسع لها صدر الوثنية

وفيه أيضاً أعظم رد على أولئك المتنطعين في الدين، وهم الذين ينفقون في ذلك الظن الخاطئ مع أعداء التوحيد، فيظنون أن الدين ليس إلا خشونة وتقشفاً، وأن المثل الأعلى فيه هو الزهد في زينة الحياة الدنيا، لا يفرقون في ذلك بين الزينة التي أحلها الله تعالى وبين الزينة التي حرمها على عباده

وقد نوه القرآن الكريم بمظاهر الحضارة التي تمت في عهد داود وسليمان في آيات كثيرة منه، فمن ذلك قوله تعالى في الآيات (10، 11، 12، 13) من سورة سبأ (ولقد

أتينا داود منا فضلاً، يا جبال أوبي معه والطير، وألنا له الحديد، أن عمل سابغات وقدر في السرد
واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير. ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين الفطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير، ويعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور)
ومن ذلك ما ورد في شأن بَلْقِيس ملكة سبأ، وفي شأن الصرح العجيب الذي بناه لها، وذلك في الآيات (41، 42، 43، 44) من سورة النمل (قال نكروا لها عرشها نظر أنهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون. فلما جاءت قيل أهكذا عرشك؟ قالت كأنه هو! وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين. وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين. قيل لها ادخلي الصرح، فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها، قال إنه صرح ممرد من قوارير، قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان الله رب العالمين)
وكان هذا الصرح العجيب آية في فن البناء. ذكر المفسرون أنه كان قصرا من الزجاج الأبيض كالماء، وقد أقامه على ماء يجري تحته، وألقي فيه السمك والضفادع وغيرهما من دواب البحر، ثم وضع سريره في صدر المجلس عليه، فلما جاءت بلقيس قال لها: ادخلي الصرح، فحينئذ حسبته لجة عظيمة من الماء، وكشفت عن ساقيها لتخوضها إليه، فقال لها: إنه صرح ممرد من قوارير، فحينئذ سترت ساقيها، وآمنت بعظمة ملك سليمان عليه السلام
ولكن اليهود أدركهم في حضارتهم من الغرور ما أردك غيرهم، حتى زعموا أن ما وصلوا إليه فيها كان إيثاراً من الله لهم فركنوا إلى ذلك الغرور حتى سلبهم الله ما كانوا فيه من العز، وسلط عليهم غيرهم من الأمم، وإلى هذا بشير الله تعالى في الآية (18) من سورة المائدة (وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه، قل فلم يعذبكم بذنوبكم، بل أنتم بشر ممن خلق، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير)
وقد أضافوا إلى ذلك الغرور القاتل الاستكانة للرؤساء حتى اتخذوا أحبارهم أرباباً من دون الله فسار قادتهم وراء أهوائهم، ولم يكن لهم من أمتهم رقيب عليهم، وكان لهذا أثره أيضاً في القضاء على حضارتهم
(يتبع)
عبد المتعال الصعيدي
ابن خلدون
مؤرخ الحضارة العربية
للأستاذ عيسى محمود ناصر
حياة ابن خلدون قصة من أعجب قصص الخيال، ومغامرة لم تتح لكثير من عظماء الرجال، لا يزال تراثه فريداً في بابه بين آثار التفكير الإسلامي، وما يزال يحتفظ بقيمته وروعته، ويتبوأ مكانته بين التفكير العالمي. وهانحن أولاء بدأنا نتبّه إلى رجالنا لنقدرهم قدرهم، وندرس آثارهم، ونحفظ لهم مكانتهم، ونحيي ذكرهم، بما أدخل من نظام المسابقات التي تعقدها وزارة المعارف لطلبة السنة التوجيهية في مواد الدراسة المختلفة، وكان منها دراسة مقدمة ابن خلدون. ونحن بهذا النظام نحيي ذكرى فيلسوفنا الاجتماعي الكبير، وقد مضي عليه أكثر من ستمائة عام، وهو على قدمه يجب أن يكون مثالاً عالياً لجميع الشباب، وأن يقرءوا مقدمته القيمة، فهي ثروة لا تقدر في تراث البيان الغربي، والتفكير العربي. على أن لابن خلدون صلة خاصة بنا نحن المصريين؛ فلقد كانت له بمصر جولات ونظريات، كما كانت مصر مثوي إقامته، وإن كانت تونس تفخر به لأنها مستهل ولادته. وحسب ابن خلدون فخراً أنه السابق إلى وضع مبادئ علم الاجتماع الذي ما زال موضع إعجاب الغرب وتقديره، ولست في هذه العجالة متعرضاً لنشأته، وتاريخ حياته فهي في متناول الطلبة. على أنه عني بنفسه فوضع ترجمة له دونها بقلمه، وصور فيها كثيراً من أطوار حياته، وما تقلد من مناصب، وما قام من رحلات ومغامرات.
بدأ ابن خلدون مؤلفه التاريخي العظيم وهو في الخامسة والأربعين من عمره، وقد

نضجت مباحثه ومطالعاته في الكتب والحياة بعد أن قطع نحو ربع قرن يخوض معترك السياسة متقلباً في خدمة القصور والدول المغربية يدرس شئونها ونظمها، ويستقصي سيرها وأخبارها متغلغلاً بين القبائل البربرية يدرس طبائعها، وأحوالها، وتقاليدها في الحياة العامة والخاصة، وقد أعانه على ذلك ذهنه الخصب المتوقد ذكاء، وعزلته في قلعة (سلامة) على حدود تونس الغربية فلقد كانت عزلة مباركة موفقة لبث فيها أربعة أعوام نعم بالاستقرار والهدوء المستمر بعيداً عن غمار السياسة والدسائس السلطانية والمخاطر التجوالية والحربية، وقد استغرن في كتابة مقدمته خمسة أشهر ثم نقحها وهذبها بعد ذلك ثم شرع بعد

إتمامها في كتابة تاريخه، وقد رفهه إلى السلطان أبي العباس المغربي، وأنشده قصيدة طويلة يشيد فيها بسيرته وأعماله، ويستدر عطفه ورعايته، وينوه بكتابه يقول فيها:

وإليك من سير الزمان وأهله ... عبراً يدين بفضلها من يعدل

والله ما أسرفت فيما قلته ... شيئاً ولا الإسراف مني يجمل

ولقد كان ابن خلدون أعظم سياسيّ ومفكر عرفته إفريقية والأندلس في القرن الثامن الهجري.

ابن خلدون في مصر

غادر ابن خلدون تونس لينتظم في ركب الحجاج، ولكنه لم يحقق تلك الغاية فقد نزل القاهرة ليقضي أيامه بمصر في هدوء ودعة واستقرار، وكانت القاهرة يومئذ موئل التفكير الإسلامي في المشرق والمغرب ولبلاطها الشهرة الواسعة في حماية العلوم والآداب، فبهرت ابن خلدون ضخامة القاهرة وعظمتها كما بهرت كل من رآها من أعلام المشرق والمغرب فوصفها بقوله: (فرأيت حاضرة الدنيا، وبستان العالم، وإيوان الإسلام، وكرسيّ الملك) ولقد كان المجتمع القاهري يعرف الكثير عن شخصه وسيرته، ولاسيما مقدمته التي أذاعت فضله، فأقبل عليه العلماء والطلاب من كل صوب، وقد كان ابن خلدون محدثاً بارعاً، رائع المحاضرة، يخلب ألباب سامعيه بمنطقه؛ هذا إلى فصاحته وجمال صورته، فتقرب من السلطان الظاهر برقوق.

وإنه لمنظر شائق ذلك الذي يقدمه إلينا ابن خلدون عن مجلسه، ومن حوله العلماء والكبراء يشهدون الدرس الأول حيث يقول: (وانقضى ذلك المجلس، وقد شيعتني العيون بالتجلة والوقار)

عين ابن خلدون قاضياً لقضاة المالكية تنويهاً بذكره، وإعلاناً لشأنه، وقد ثارت حوله عاصفة شديدة بسبب الحقد والسعاية، وقد بين ما كان يسود جو القضاء في مصر في ذلك الحين من جهل وفساد الذمة، وأنه حاولي إقامة العدل الصارم المنزه عن كل شائبة، وما زال أمره بين جزر ومد إلى أن عزل من منصبه، وغادره موفور الكرامة والهيبة، فانقطع إلى الدرس والتأليف إلى أن أذن له السلطان بأداء فريضة الحج، ثم عاد بطريق البحر حتى القصير مخترقاً الصعيد بطريق النيل فوصل القاهرة

وليس في حياة ابن خلدون في هذه الفترة التي قضاها بمصر ما يستحق الذكر سوى سعيه إلى عقد الصلات بين البلاطين القاهرية والمغربي، فهو يصف المهاداة بين صلاح الدين، وبني عبد المؤمن من ملوك المغرب، وبين الناصر قلاوون وملوك بني مرين، ويصف الهدايا المصرية والمغربية فبدأ سلطان تونس بإهداء خيل مسومة وسروج ذهبية

لبث ابن خلدون بعيداً عن منصب القضاء أربعة عشر عاماً وكان بالفيوم يعني بقمح ضيعته التي يستحقها من الأوقاف، فاستدعاه السلطان إلى القضاء، فلما استقرت الأمور بمصر استأذن في السفر إلى بيت المقدس فإذن له؛ فشهد المسجدِ الأقصى وقبر الخليل وبعض الآثار ثم عاد من رحلته إلى القاهرة. ثم وردت الأنباء بانقضاض (تيمورلنك) بجيوشه على الشام واستيلائه على حلب في مناظر هائلة من السفك والتخريب فروعت مصر، وهرع (الناصر فرج) بجيوشه لملاقاة الفاتح التتري ورده، وقد اشتبك جنود مصر بجند الفاتح في ظاهر دمشق في معارك شديدة ثبت فيها المصريون، وبدأت مفاوضات الصلح بينهما، ولكن خلافاً دَبّ في معسكر المصريين، ومؤامرة دبرت لخلع السلطان؛ فترك السلطان دمشق لمصيرها ورجع إلى القاهرة. وهنا تتجلى لنا نزعة مؤرخنا الفيلسوف في مغامراته، فقد رأى أن يعتصم بالجرأة وأن

يغادر جماعة المترددين إلى معسكر الفاتح فيستأمنه على نفيه ومصيره، ويصف لنا ابن خلدون ذلك اللقاء بقوله: (ودخلت عليه (المراد تيمورلنك) بخيمة جلوسه متكئاً على موقفه، وصحاف الطعام تمر بين يديه، فلما دخلت عليه انحنيت بالسلام، وأومأت إيماءة الخضوع فرفع رأسه، ومد يده إلى فقبلتها)، وتحدث الفاتح طويلاً إلى المؤرخ، وحدثه المؤرخ بأنه كان سمع به، ويتمنى لقاءه منذ أربعين سنة، واستطاع ابن خلدون أن يقنع الرؤساء بالتسليم، وفتحت دمشق أبوابها للفاتح فنحت من بطشه. وقد قدم ابن خلدون إلى الفاتح هدية هي: مصحف رائق، وسجادة أنيقة، ونسخة من البردة وأربع علب من حلاوة مصر الفاخرة. فوضع (تيورلنك) المصحف فوق رأسه ثم سأله عن البردة، وذاق من الحلوى ووزع منها على الحاضرين، وقد أنكر مؤرخ مصري معاصر هو المقريزي هذه الروية، وانضم إليه ابن إياس المؤرخ المصري

وما لبث ابن خلدون يولي منصب القضاء في مصر ويعزل ست مرات بسبب كيد خصومه ودسائسهم له إلى أن توفي سنة ثمان وثمانمائة هجرية وقد بلغ نيفاً وسبعين سنة من حياة

باهرة حافلة بجليل الحوادث ورائع التفكير والابتكار، ودفن بمقبرة الصوفية خارج باب النصر بالقاهرة المعزية وهي يومئذ من مقابر العظماء والعلماء

قضي ابن خلدون في مصر ثلاثة وعشرين عاماً كانت أقل مراحل حياته حوادث وإنتاجاً؛ فقد عاش بعيداً عن شئون الدولة السياسية بعد أن لبث بالمغرب ربع قرن وهو يتجرد من ثوب السياسي المغامر ليتشح بثوب العالم المقتدر. على أنه لم يستطع أن ينشئ له بمصر مدرسة يطبعها بطابعة وآرائه ومناهجه وذلك راجع إلى روح النفور والخصومة، فقد سبقه إلى مصر حكمه على أهلها بأنهم قوم يغلب عليهم الفرح والخفة والغفلة عن العواقب، على أن ابن خلدون كان يحظى بتقدير فريق قوي من الرأي العام المصري المفكر وعلى رأسه العلامة المقريزي الذي تأثر بنظرياته تأثراً كبيراً كما يظهر أثر ابن خلدون في اعتماد بعض أكابر الكتاب المعاصرين عليه والاقتباس من مقدمته وتاريخه، ومن هؤلاء القلقشندي صاحب صبح الأعشى.

أثر ابن خلدون الفكري والاجتماعي

اعتبر ابن خلدون التاريخ علماً يستحق الدرس لا رواية تدون وتقرأ، فانتهى به البحث إلى وضع نوع من الفلسفة الاجتماعية، وكتب مقدمة مؤلفه التاريخي لتكون تمهيداً يقرأ على ضوئها التاريخ، وتفهم دقائقه فجاءت وحدة مستقلة من الابتكار الفائق تسجل مذهباً جديداً في فهم الظواهر الاجتماعية وتعليلها، وفي فهم التاريخ ونقده وتحليله؛ فهو يحاول أن يتبع المجتمع في جميع أطواره منذ نشأته وبداوته إلى استقراره وانتظامه في المصر والدولة وتردده بين الضعف والقوة والفتوة والكهولة والنهوض والسقوط مقسماً موضوعه هذا إلى ستة فصول كبيرة هي:

1 - العمران البشري على الجملة وأصنافه وقسطه من الأرض
2 - العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل
3 - الدولة العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية
4 - العمران الحضري والبلدان والأمصار
5 - الصناعات والمعاش ووجه الكسب
6 - العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه

وهذا التقسيم يشهد بتفوق هذا الذهن العبقري وطرائقه وقوة تدليله وجدله. وأجود هذه الفصول (الفصل الثالث) وهو خاص بالدولة والملك وخواصهما مبيناً أن للملك طبائع وللدولة أعماراً كالأشخاص، فهو يقدر لها ثلاثة أجيال في الغالب، ويقدر الجيل بأربعين عاماً متأثراً في هذا التقدير بما ورد في القرآن الكريم عن بني إسرائيل حين فقدوا عصبيتهم وكانوا عاجزين فعاقبهم الله بالتيه في قفار سيناء أربعين سنة ليخلق منهم جيلاً جديداً يقوى على المطالبة والتغلب. وفي هذا الفصل تبدو نظرياته الاجتماعية وتحليله للمجتمع، كما يدل ذلك على براعة ذهنه. ثم يتناول الدولة وتحولها من البداوة إلى الحضارة في الفصل الرابع، وبيان أطوارها المختلفة، وأثر الموالي والمصطنعين في هذا التطور. ثم يتناول الملك والإمامة والخلافة واختلاف الآراء في شأنهما ومذاهب الشيعة والخطط الدينية من القضاء والعدالة والسكة، ثم الوزارة ودواوين الأعمال والجباية والرسائل والشرطة وقيادة الأساطيل ورسوم الملك

والحروب ومذاهبها والمكوس ونظم التجارة، ثم يتحدث عن البلدان والأمصار ونشأة المدن واختلاف ظروفها من خصب ورفاهية وجدب وقفر وتفاوت في الغلات والصناعات واللغة

من هذا كله تتبينون أن ابن خلدون مخترع هذا العلم وصاحب الفضل الأول في ابتكاره وهو ما يسميه (بالعمران والاجتماع البشري) فقد أفاض في هذه النظريات مصحوبة بالشواهد مترابطاً بعضها ببعض، وكل ما خلفه أسلافه لمحات مبعثرة ضئيلة. على أن هذا العلم الذي استحدثه ابن خلدون اتخذ من حيث مادته وموضوعاته مكانة بين علومنا الحديثة في الاجتماع وفلسفة التاريخ والنظام السياسي والاقتصاد السياسي. وفي دائرة المعارف الإسلامية المترجمة إلى العربية ما يؤيد ذلك

أما أسلوبه فخاص يتميز به ابن خلدون من غيره في العرض والتنظيم، كما أن مقدمته تمتاز بطرافة موضوعاتها وروعة أسلوبها الأدبي الذي جمع بين البساطة وقوة التعبير، ودقة التدليل، وحسن الأداء والتناسق. والمقدمة مثل حسن للفصاحة المرسلة والغرض الشائق المنظم؛ وذلك على الرغم مما يطرأ أحياناً من ضعف في التأليف وغرابة في التعبير وشذوذ في اللفظ يرجع إلى نشأة ابن خلدون البربرية. وأسلوبه في تاريخه أقل درجة من أسلوبه في مقدمته. على أن لهذه المقدمة تأثيراً قوياً في الكتابة في أوائل العصر

الحاضر إذ كانت الأسلوب الأمثل لكتاب الصحف والمجلات في بدء النهضة الحديثة، فقد نشرت المقدمة لأول مرة في مصر سنة 1857م فرفعت الأسلوب الأدبي في مصر والشرق من السجع وتكلف البديع والزخارف اللفظية التي تستهلك المعاني، إلى الاسترسال في الكتابة فكانت نموذجاً يحتذي ويرب به المثل، فارتق النثر الفني والعلمي إلى أن وصل إلى ما هو عليه الآن من الإجادة والإتقان. . .

(البقية في العدد القادم)

عيسى محمود ناصر

المدرس بمدرسة الفيوم الثانوية

السيطرة على الجو

للأديب عبد المنعم محمد الزيادي

السيطرة على الجو من مستلزمات الفريق المهاجم إذا أراد أن يوطد هجومه ويجعله ساحقاً ماحقاً. كما أنها من مستلزمات الفريق المدافع إذا أراد أن يجعل دفاعه فعلاً ناجحاً. ولكنها للفريق المهاجم ألزم وأشد نفعاً لأنه بدونها يتعرض لأشد الأخطار وأقساها من خصمه الذي يملك السيطرة على الجو. وقد تسنى للحلفاء أن يقهروا جيوش رومل لأنهم سيطروا على الجو كما أنهم الآن على وشك الهجوم أو كادوا. وفي هذا المقال أحاول أن أضع صورة للقتال الذي يجري بين القاذفات والمطاردات. من جهة، وبين القاذفات ومراكز الدفاع المضادة للطائرات من جهة أخرى، قبل أن تتم السيطرة على الجو لأحد الطرفين.)

كشاف أمريكي جديد

يعتمد قائد القاذفة بجانب قنابله على عامل المفاجأة وهو سلاح لا يقل فتكاً عن أي سلاح آخر فهو إذ يقطع الأفق بمعدل خمسة أميال في الدقيقة لا يترك لخصمه سوى أمد قصير يأخذ فيه عذره، ثم هو يتخذ من الليل والسحاب حجاباً دون رؤيته، فضلاً عن أنه ليس في الاستطاعة سماعه حتى بأشد أجهزة الإصغاء حساسية على بعد أثر من ثمانية أميال. كل ذلك لا يترك سوى أمد قصير للمطاردات لتقوم للقائه، وللمدافع المضادة لتتأهب له، وللمدنيين ليلجئوا إلى المخابئ، كما أنه من الصعب - أو على الأقل كان دائماً من الصعب - على الأنوار الكاشفة أن تجده في الضباب أو السحاب، ولو كان فوق الرؤوس. غير أن هناك طرازاً جديداً من الكشافات يستعمله سلاح الإشارة في الجيش الأمريكي أحدث انقلاباً عظيماً في الأسلحة المضادة للطائرات. وتتراوح المساحة التي تقع في دائرة عمله بين 50 و 75 ميلاً. كما أنه لا يستطيع أن يكتشف الطائرة في حدود هذه المساحة فحسب؛ بل إنه يستطيع أن يحدد مكانها على ارتفاع بضع مئات من الأقدام. وعندئذ

بفضله - يمكن أن تصوب المدافع المضادة حتى لتدرك قنابلها الطائرة المختفية في - قلب الضباب الكثيف. ويشبه الكشاف الجديد جهاز الأنوار الباحثة؛ إلا أنه يرسل بدلاً

من شعاع النور شعاعاً كثيفاً من أمواج الراديو. فإذا ما التقت هذه الأمواج بجسم صلب (الطائرة) ارتدت مسرعة من نفس الطريق الذي اتخذته في ذهابها إلى ذلك الجسم. وبقياس الزمن
الذي اتخذته الأمواج في رحلتها ذهاباً وإياباً، وبالإضافة إلى الاتجاه الذي ارتدت منه يمكن أن يحدد مركز الطائرة بالضبط. وكل ذلك تفعله الآلات بطريقة أوتوماتيكية. وليست المدافع المضادة وحدها هي التي يمكن تصويبها إلى جسم الطائرة بفضل ذلك الكشاف، بل يمكن توجيه المطاردات كذلك إلى مكان القاذفات المهاجمة وذلك بالتزامها اتجاه أشعة الكشاف.

الكشاف الحالي

ولاشك أن هذا الكشاف الجيد سيأخذ مكان أجهزة الإصغاء والتحديد والأنوار الكاشفة المستعملة الآن. فجهاز الإصغاء والتحديد الحالي يستطيع أن يلتقط أزيز الطائرة على ارتفاع أقصاه ثمانية أميال ولكن له عيوب خطيرة. فالرياح العالية تقطع عليه خط سيره، كما أن حفيف الأشجار وزئير الأمواج المتكسرة على الصخور أو الشاطئ، وأصوات أبواق السيارات - حتى ولو كانت دونه أميالاً - تشوش على المستمعين. ويشبه جهاز الإصغاء المستعمل اليوم مجموعة من مكبرات الصوت مثبتة فوق حامل، وتقع على بعد بضع مئات من الياردات من مركز البطارية المضادة للطائرات. وعلى هيكل الجهاز الذي في الإمكان إدارته في أي اتجاه بواسطة عجلات يدوية - توجد أربعة أو أكثر من الأبواق لاقطات في بؤرة كل واحدة منها (ميكروفون) حساس ينقل الاهتزازات الآتية خلال المكبرات إلى مكان الاستماع الرئيسي. وتستطيع (آذان) الآلة أن تحدد الاتجاه الذي يصدر منه الصوت كما تعطي المسافة التي تصدر عنها الاهتزازات. وعلى بعد نحو مائتي قدم تجاه جهاز التحديد توجد إشارات كهربائية تفضي إلى مراكز الأنوار الكاشفة. وهناك تجد مجموعة من العدادات التي تبين بطريقة أوتوماتيكية الزوايا التي يجب أن توجه الأنوار بموجبها حتى تضيء جسم الطائرة التي حدد الجهاز ارتفاعها. وهناك أيضاً ضوابط كهربائية ترتفع وتنخفض وتوجه المصابيح الكاشفة. وإذ تتأرجح مؤشرات العدادات، يدير جنود المصابيح الكاشفة العجلات اليدوية فيجعلون أشعة المصابيح على الطائرة مهما تحركت أو تحولت.

وتبلغ قوة الشعاع الكشاف نحو 80 مليون شمعة، وله عدسة عاكسة نصف قطرها 60 بوصة؛ وهو يرسل في الليل الصافي نوره إلى مسافة سبعة أميال. والمصابيح الكشافة قائمة على حوامل من المطاط المتين يغذيها مولد كهربائي (دينامو) على هيئة مركبة. فإذا أريد حماية هدف مهم ضربت بطاريات الأنوار الكشافة نطاقها حوله على مسافة من البعد تكفي لأن تجعل الطائرة المغيرة دائماً في متناول أية مجموعة من هذه المصابيح.

أحكام الرماية العالية

تستطيع المدافع المضادة الثابتة التي قطرها 4. 2 بوصة، والتي توضع عادة حول الموانئ الهامة أو مستودعات الذخائر أو الأهداف العسكرية الثابتة الأخرى؛ تستطيع أن تقذف القنابل التي تزن الوحدة منها 33 رطلاً إلى ارتفاع 30. 000 قدم بمعدل 25 قنبلة في الدقيقة. وتقذف المدافع المتحركة التي قطرها ثلاث بوصات قنابل زنة الواحدة منها 18 رطلاً إلى ارتفاع 20. 000 قدم بصورة فعالة؛ فإن الحد الأقصى لمدى هذه المدافع يفوق هذه الارتفاع بكثير؛ إلا أن الإحكام عندئذ يقل في دقته. وتُستعمل المدافع الصغيرة التي قطرها 1. 5 بوصة والتي تطلق 12 قنبلة في الدقيقة، ومدافع الماكينة (المدافع الرشاشة) المضادة للطائرات التي تطير على ارتفاع منخفض. ويمكن تدفع التي قطرها ثلاث بوصات أن تُجرّ بمعدل 50 ميلاً في الساعة بواسطة مركباتها، وتحتاج فقط إلى عشر دقائق لإعدادها للطلقة الأولى منذ وقت وصول البطارية إلى مركزها.

وإذا أمكنت رؤية الطائرة المغيرة حين تقع على مرمى المدفع الحديث المضاد للطائرات، فالإصابة حاسمة في هذه الحالة. وتجعل آلة التوجيه مدافع البطارية الأربعة مُتجهة أوتوماتيكياً نحو هدفها ولو كانت الطائرة تسير بسرعة 300 أو 400 ميلاً في الساعة. وآلة التوجيه هذه عبارة عن صندوق مساحته نحو ثلاثة أقدام مربعة، وهو مركب على قاعدة متحركة على بعد بضع مئات من الأقدام من البطارية، وبجانبه

محدد الارتفاع وهو اسطوانة طولها ستة أقدام وقطرها نحو قدم، وهو كذلك مركب على قاعدة متحركة. ويتولى أمر محدد الارتفاع ثلاثة رجال. فعند اللحظة التي تظهر فيها طائرات العدو يجعل اثنان من الجنود - أيديهما على العجلات وأعينهما إلى السماء - منظار محدد الارتفاع على الهدف دائماً. وخلال هذا المنظار يرى الجندي صورة مزدوجة للطائرة المغيرة، فواجبه عندئذ أن يحرك عجلته اليدوية حتى تنطبق الصورتان بعضهما على بعض، وعندما يتم له ذلك يُسجل مُحدّد الارتفاع المسافة التي تفصله عن الطائرة. وهذه المعلومات ترسل أوتوماتيكياً
إلى آلة التوجيه. وفوق آلة منظاران آخران يُشرف على كل مهما عامل، وهذه أيضاً يُحتفظ بها متجهة نحو الهدف بواسطة عجلات سهلة الإدارة فنسجل سرعة الطائرة العمودية والأفقية. أما صندوق التوجيه فيحتوي في داخله على عداد يحول نتيجة محدد الارتفاع ونتيجة منظاريه هو إلى مقدار الزوايا التي تُصوّب بمقتضاها المدافع إلى الهدف. وتساعد آلة التوجيه كذلك على إعداد خزان القذائف في المدفع أوتوماتيكياً كي يهيئ القنابل لتنفجر على مسافة مناسبة بقرب الهدف، إذ يجب أن تنفجر القنبلة على بعد 250 قدماً من هدفها حتى يمكن أن تُسبّب شظاياها خسائر ذات بال في الطائرة المغيرة.

(البقية في العدد القادم)

عبد المنعم محمد الزيادي
معهد الصحافة بالجامعة الأمريكية

عاطفة الأبوة
في (أعاصير مغرب)
للأستاذ إدوارد حنا سعد

في ديوان (أعاصير مغرب) الذي صدر حديثاً للشاعر الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد موضع لبعض الدهشة، فقد وجدنا فيه الشاعر الذي نعرف، ولكننا لم نجد فيه العاشق الذي نعهد. فإن من الصعب أن يقال إن الأستاذ العقاد الذي كان يقول في دواوينه الأولى - عندما يلمس خداع العشيقة أو بشك في ذلك -:

جمالك سم في الضلوع وحسرة ... ترد مهاد الصفو غير ممهد
إذا لم يكن بد من الكأس والطلا ... ففي غير بيت كان بالأمس مسجدي

والذي كان يقول:

ما كنت يوماً بالأنام موكلاً ... فأعد منهم من يضل ويرشد
ولو كنت نوحاً لم تفدك سفينتي ... إن ابن نوح كان فيمن ألحدوا

هو نفسه الذي يقول في ديوانه الجديد:

أعفيك من حلية الوفاء ... إنك أحلى من الوفاء
خوني فما أسهل التقصي ... عندي وما أسهل الجزاء
وليس بالسهل في حسابي ... فقدك يا زينة النساء

وقد حاول بعض الكتاب أن يرد هذا الاختلاف إلى أساسه، فقال الأستاذ كامل الشناوي في الأهرام: (إن العقاد الشاعر كان ينظم وعين العقاد الكاتب الفيلسوف ترمقه وترعاه)

ولكني أرى أن الأستاذ الشناوي قد أخطأ المحز وكان الأولى به أن يقول إن عاطفة الأبوة كانت ترمق العقاد وترعاه، بل كانت تسيطر عليه وتملي نفسها على شعره إملاء فقد بلغ الأستاذ العقاد سن الخمسين وهي السن التي تهدأ فيها فورات العشق وتبدأ النفس تستعرض مواكب الذكرى وتحن إلى حياة الوادعة وإلى حنان الأسرة. ويكون هذا الشعور - أقوى ما يكون - في النفس المصرية التي انغرس فيها من قديم معنى الأسرة وتعلقت بها

وقد يصادف الإنسان في هذه السن عشيقة يجد في سنها أو حركاتها أو سماتها ما يوقظ فيه من جديد عاطفة الأبوة، فيختلط الحب الجنسي وهو أثرة مستترة، بالحب الأبوي وهو إيثار
صريح، فيكون منهما مزاج نقرأه الآن في أعاصير مغرب

فهذا الديوان الفذ حافل بأوصاف الطفولة وتدليلها وألعابها وحلواها إلى حد يلفت النظر:

غريرة تسأل ما الحبُّ؟
بنيتي هذا هو الحبُّ
ضمي ثغيرك يا بنية وابعثي منه الأمل
بنيةُ ما صنعت، جزاك ربي ... بحب في مشيبك مثل حبي
ماذا تخبئ طفلة ... رقت ورق قناعها
ما شب من نار طبخ ... نا فوقها حلوى الهوى
فكم لعبة وقعت من يدي ... ك وقوعاً أرى القلب لا يشتهيه
إني أشاهد كيف يفط ... م في القلوب رضاعها
فإذا تركنا هذه الأبيات الحافلة بصورة الطفولة طالعتنا أبيات فياضة بعاطفة أبوة صادقة دافقة
يقول الشاعر الكبير
احسبني الأكبر حتى إذا ... عانقتني ألفيتني الأصغرا
وهو بيت صادق جميل في وصف عناق عشيقين، ولكن ليس أجمل منه ولا أصدق في وصف عناق الأب لابنته، حين يجد نفسه وقد عادت فيها من جديد صغير فياضة بتيارات الحياة ويقول:
تم الكتاب وألقت باليراع يدي ... وضمن الطرس إحساسي وإدراكي
ما لي به غير مسرور ولا كلف ... إلا يسر يميناً نبتها الزاكي
ضيعت فيك مسراتي فما بقيت ... لي من مسرة شيء غير لقياك
فهل من محض المصادفة أن يقول الأستاذ هذا الكلام الآن، والآن فقط وهو الذي قضي أكثر من ثلاثين عاماً يكتب وينظم ويعتز بشعره وكتابته إلى أبعد حدود الاعتزاز لشد ما غيرت هذه العاطفة الجديدة من نفس أستاذنا الكبير!
إن كان خلفك للوعود تدللاً ... بمكانك الغالي لدي فأخلفي
ما كنت أتبعه القطيعة آنة ... هو منك واعجبي يزيد تشوقي
وقد هداه إلهامه الصادق فقال:
تحديث الحياة فهل جزتني ... بهذا الحب عن ذاك التحدي
نعم تحداها بوحدته وانصرافه عن الزواج أو هذا الجانب من منغصات الحياة كما قال همام لسارة وهو يحاورها
وما دمنا بصدد بحث أدبي، فإني أبيح لنفسي أن أبتعد عن المجاملات التافهة فأقول إن هذه العاطفة التي يقول علماء النفس إنها قد تنصرف إلى الحيوانات الأليفة، تبدو في أعاصير مغرب، ففيه عشرون صفحة عن (بيجو) الكلب الأمين الذي أحس الأستاذ لموته بالحزن (الوجيع)
فإذا فهمنا غزليات العقاد الجديدة على هذا الضوء الجديد استطعنا أن ننفذ إلى جمالها الباطن. وإذا كانت الطفلة قد عقت أو كادت، فإن للأستاذ الكبير أبوة روحية على الكثيرين من تلاميذه وعشاق أدبه المنتشرين في كل مكان تقرأ فيه اللغة العربية، وهم لا يكنون للأستاذ إلا الحب الصادق والوفاء الخالص. ويسرني بل ويشرفني أن أكون من بينهم.
(إسكندرية)
إدوارد حنا سعيد
على الشاطئ
وهيفاء تهفو إليها القلوبُ ... ويشرق منها ضياء الجمالْ
لها رقة الزهر في غصنه ... إذا داعبته رياح الشَّمالْ //
وللريح عربدة في المياه ... وللموج وسوسة في الرمالْ
يحدثها الموج عن سرهِ ... وما سره غير حب قديمْ
يكاد النسيم يطير بها ... إذا وقفت في مهب النسيمْ
وتحسبها العين بعض الضياء ... فتخشى من النظر المستديمْ
ولو لم يحطها قيود الحياةِ ... لطارت هناك وراء السديمْ
تعربد في الثوب أيدي الرياح ... وتوشك. . . لولا نداء الحياءْ
تطير إليها طيور المنى ... وتحنو عليها طيوف الضياءْ
عليها من الأفق سمت الجلالِ ... وفيها من البحر معنى لصفاءْ

وفيها من النور سر الحياة ... وفيها من الليل سحر الخفاءْ
أهم غراماً بهذا الجمال ... وأقبس منه ضياء الحياةْ
أرى فيه كل أماني الشبابِ ... ترفرف من حول تلك الشفاهْ
أعانق من شغفي طيفه ... وألثم من لهفاتي رؤاهْ
يرى فيه جسميَ سر الحياة ... وروحي ترى فيه روح الإلهْ
دعيني أغنيك شعر الصبا ... وأعزف لحن الهوى والغزلْ
دعيني أنام بروحي على ... فراش النهود، ومهد المقلْ
ولا تحرميني سلاف العناقِ ... ولا تمنعيني رحيق القبلْ
وكوني كما شاء فن الخيالِ ... وَبدع الفنون، ووحي الأملْ
هناك لدى الأفق عند الغروب ... يطير جناح، ويمضي شراعْ
وتشدو الرياح، وفي شدوها ... أسىً كامن وجويٌ والتباعْ
وتُحتضر الشمس. .! يا للأسى ... لهذا الجمال الحزين المُضاعْ
على وجنتيها شحوب الفراق ... وفي مقلتيها دموع الوداعْ
وغابت عن الأفق شمس المغيبِ ... وقد ذوَّبت قلبها في الشفقْ
كأني أرى دم قلبي يسيل ... كأني أرى مهجتي تحترقْ
لَيفجعني أن يغيب الضياء ... ويَحزُنني أن يجيء الغسقْ
ستأتين يا شمس عند الصباح ... فهل نلتقي ثم لا نفترق؟!
وألقى المساء ظلال الدجى ... على الكون أشباح جن تحومْ
فليس على البحر ضوء يلوح ... ولا في السماء تضيء النجومْ
فقامت تودعه في سكونٍ ... وراحت إلى بيتها في سهومْ
كأني بها كوكباً حائراً ... توشِّحه في السماء الغيومْ
وعدت إلى غرفتي باكياً ... لأقضيَ ليل الأسى والنُّواحْ
أحدث نفسي حديث الجوى ... وأنشد قلبي نشيد الجراح
وأرنو إلى عابرات الدجى ... وأصغي إلى نائحات الرياح
وأمضي إلى البحر عند الصباح ... فهل (هي) عائدة في الصباحْ؟
(القاهرة)
إبراهيم محمد نجا
البريد الأدبي
أين (الرسالة)؟
طلبتها من الباعة مرة ومرة. ثم ظننت أنها مرت بمدينتنا دون أن تعطيها نصيبها من محصول الفكر، فبعثت وكتبت إلى القاهرة والإسكندرية فقيل لي: إن (الرسالة) الحبيبة لم تصدر!
يا سبحان الله! وأخيراً بشرني الصديق الأستاذ الخضري أمين مكتبة دمنهور أن (الرسالة) جاءت إلى المكتبة، ولكنها تنذر بأن هذا العدد للمشتركين فقط لأن الورق . . .
وهنا صحت قبل الدكتور المبارك (لينتي من المشتركين) لقد ذقنا أزمة الدقيق وأزمة البترول وأزمة السكر، فهل تصدقنا يا صاحب الرسالة إن قلنا إنه لم تحز في نفوسنا ولم تبلبل خواطرنا أزمة كأزمة (الرسالة)؟
يقول الدكتور المبارك: (أكان يجب ألا تقتصر (الرسالة) على الأدب الصرف لتجد من يسأل عنها حين تحتجب)؟
وهذا حق! إنها ضريبة الأدب تدفعها (الرسالة) كما يدفعها كل أديب ينصرف لأدبه فلا يجد من يسأل عنه
وإذن (فأزمة الرسالة أزمة الأدب اليتيم الذي لا يسأل عنه أحد حين يغيب)!
فهل تنحرف (الرسالة) عن هدفها لتجد من يسأل عنها؟
إن لسان الحال يقول:
لقد صددنا كما صددتم ... فهل ندمتم كما ندمنا؟
والجواب عند (الرسالة) وعند صاحب كل رسالة. . .
وأخيراً فالأزمة كما يقول الدكتور المبارك ليست أزمة الورق فهو موجود! وإذن فالقضية قضية الأدب والأدباء، و (سنعرف طاقة الأدب في اجتياز هذه المحنة العاتية).

عبد المعطي المسيري
حول رسالة الجامعة
في مساء السبت 29 يناير 1943 أقيمت بكلية الآداب مناظرة اشترك فيها فريق من الأساتذة والطلاب، وشهدها مئات من شباب الجامعتين الأزهرية والفؤادية وغيرهم، وكان موضوعها: (الجامعة أدت رسالتها). والذي ألاحظه أن هناك خطأ في موضوع المناظرة، أو قل إن نزعة من نزعات العجلة والتسرع هي التي أوحت إلى لجنة المناظرات بكلية الآداب عرض هذا الموضوع السابق لأوانه على بساط البحث في مناظرة عامة، إذ لم يمض على الجامعة زمن يصح لنا بعده أن نتساءل: أنجحت الجامعة في رسالتها أم لم تنجح؟. . . لقد صدر القانون بإنشاء الجامعة المصرية الفؤادية في مارس سنة 1925، فلم يمر عليها إلى اليوم إلا نحو سبعة عشر عاماً، وهي كعام واحد في حياة فرد من الأفراد، ولا يُسأل الفرد بعد عام من نزوله إلى ميدان الحياة أنجح أم لا؛ يجب أن ننتظر على الجامعة عشرات السنين حتى تؤدي في سبيل غايتها ما يذكر فيحكم عليه، وإلا فهي لا تزال تعد العدة وتأخذ الأهبة ولم تسر في الطريق بعد، وإن خُيِّل لقوم أنها أدت أشياء وأشياء!. . . وإذا كانت الجامعة الأزهرية قد مر عليها ألف عام ولا يزال هناك من يخشى أن تقام مناظرة عنوانها: (هل أدى الأزهر رسالته؟) فماذا يكون شأن الجامعة الفؤادية وهي بالنسبة للأزهر في العمر لا تزال ذلك الوليد الجديد؟
بل إننا لم نتفق بعد على رسالة الجامعة المصرية، ففريق يقول إن رسالتها تحرير الفكر، وفريق يقول بل التقدم العلمي، وفريق يقول بل بث الأفكار والأخلاق وأصول الاجتماع، وفريق يقول بل التخصص للتوسع في دراسة طائفة من العلوم، وفريق وفريق. . . فكيف بنا نتساءل عن نجاح الجامعة في رسالتها وهي لم تعرف بعد ما هي تلك الرسالة؟. . .
نعم إن الجامعة قد اتخذت الأسباب والمظاهر الجامعية، فهناك كليات فخمة، وأقسام مختلفة، وشهادات متنوعة، ومدرجات ومحاضرات وأساتذة وعمداء. . . ولكن هذا كله مقدمة وعدة للبدء في العمل وللأخذ في أداء الرسالة، فكيف نسبق الزمن، ونحكم على الشيء قبل أن يوجد، أو على الأقل قبل أن يتم منه جانب ذو بال؟. . .
أحمد الشرباصي
جامعة الإسكندرية
في يوم الاثنين المبارك 8 من فبراير 1943 يشرف جلالة الملك المعظم بالزيارة جامعة
فاروق الأول بالإسكندرية، وهي الجامعة التي افتتحت في بدء هذا العام الدراسي، فتعود إلى الأذهان ذكرى جامعة الإسكندرية القديمة التي ظلت تحمل لواء العلم في العالم المتمدن إذ ذاك قرنين من الزمان. وبمناسبة زيارة المليك للجامعة الحديثة نعجب أن نتحدث عن تاريخ الجامعة القديمة
أنشأ هذه الجامعة بطليموس سوتر في حي البروكيون بجوار القصر الملكي على نسق مدارس الفلاسفة الأثينيين، وكانت الغاية من إنشائها أن تجذب إليها النابهين من العلماء والمفكرين والشعراء والأدباء، وكان الطلاب المقيدون بها معفين من المصروفات بل نتفق الجامعة عليهم
ولم تلبث الإسكندرية وجامعتها أن جذبتا العلماء النابهين والأدباء وكبار الشعراء حتى أن الإسكندرية غدت في القرن الثالث قبل الميلاد أكبر مركز علمي في العلم وخاصة في الطب والجغرافيا والرياضة والفلك والأدب - وقد كانت الجامعة مؤلفة من عدة مدارس: مدرسة للطب والتشريح والجراحة، ومدرسة الرياضيات والفلك، ومدرسة القانون والفلسفة، وكان يتصل ببنائها بستان كبير وحديقة لعلم النبات ومرصد ومن هذا نرى أنها كانت جامعة من أكبر الجامعات
وبجوار الجامعة أنشئت المكتبة التي كانت أكبر مكتبة عرفها العالم القديم. بدأ في إنشائها بطليموس سوتر (305 - 283 ق م)، ولكن لم يتم تجهيزها ويكمل نظامها إلا على يد خلفه بطليموس فيلادلفوس (283 - 245 ق م) وقد كانت تحوي المكتبة أجمل مؤلفات العالم القديمة من مصرية إلى عبرية ويونانية؛ ويغلو كثير من الكتاب في تقدير عدد الكتب التي كانت غلواً يصعب على العقل تصديقه، ولكن هذه المبالغة

إن دلت على شيء فإنما تدل على الكثرة، ويقدر بعض المؤرخين عدد الكتب بـ 490 ألف كتاب وهو رقم يصعب تصديقه مما دعا بعض المؤرخين إلى أن يفترضوا أن المكتبة لم تكن مرجعاً للعلماء والباحثين فحسب، ولكنها كانت مكاناً لنسخ الكتب وبيعها. هذا وجدير بنا أن نذكر أن هذه الكتب القيمة كانت طعاماً للنيران أثناء النزاع الذي أودي بالدولة البطلمية وجعل مصر جزءاً من الإمبراطورية الرومانية.

وقد كان من أكبر علماء الإسكندرية الفلكي العظيم إراتستين الذي كان نابغة زمانه في الأدب والفلك والجغرافيا، وقد كان عميد دار المكتب وإليه عهد بطليموس الثالث بتربية ابنه ولي العهد. وقد أصبحت هذه سنة، فكان أمناء المكتبة يعلمون أولياء العهد ومن أكبر العلماء المصريين في العهد البطلمي مانيثون، وإليه عهد بطليموس الأول بكتابة تاريخ مصر ففعل وكتب تاريخاً دقيقاً وافياً، ومن الأسف أن معظمه قد ضاع، على أن ما بقة ظل يكون معلوماتنا عن تاريخ مصر القديم حتى القرن التاسع عشر، وبهذا العمل العظيم صحح مانيثون ما كان يدرس خطأ من تاريخ مصر القديم في الجامعة

أبو الفتوح عطيفة

إجابة

طالعت قول الأستاذ المفضال السيد محمود عزت عرفة، وأرجو إذن السيد الكريم في قولي لماذا تنسب السلطة إلى الملح ولا ننسبها إلى السليط الذي معناه الزيت أو الزيت الجيد وهو الأقرب؟

المقرونة - بفتح فإسكان - اسم نوع من الطعام من عجين وسمن، وكان في زمن الجاهلية، وهي ما يقال له الآن (مكرونة)

(وحيد)

أين السليط من (السالاد)

في الكلمة التي نشرناها تحت هذا العنوان (ع 500) من (الرسالة) سقط سطر كامل من إحدى الفقرات، فأخل ذلك بالمعنى الذي نقصده، وأوجد في الكلام تناقضاً لعله لم يخفَ على الكثيرين من القراء. . .

فقد بينا أولاً انقطاع العلاقة في المعنى بين اللفظين العربي والإفرنجي (سليط وثم أوردنا في إثبات انقطاع العلامة اللفظية بينهما أيضاً، ما جاء هكذا: كما يتضح لنا انقطاع العلاقة اللفظية بينهما أيضاً: إذ عرفنا أن كلمة الإنجليزية والفرنسية، والإيطالية بمعنى ملح)

وواضح أننا لا نقصد مطلقاً القول بأن هذه الألفاظ تؤدي معنى نلح، بعد أن سبق فبينا - في نفس الكلمة - حقيقة معنى (السالاد) وتركيبه عند القوم. . . وإنما صحة الكلام بعد إثبات الساقط منه تكون هكذا: (. . . والإيطالية القديمة كلها مشتقة من اللفظ اللاتيني القديم بمعنى ملح)

محمود عزت عرفة

العدد 502 - بتاريخ: 15 - 02 - 1943

في الإصلاح الاجتماعي

. . .أمر عسكري

لو كانت الأوامر العسكرية كلها من نوع الأمر العسكري بردم البرك والمستنقعات لتمنينا أن نظل على هذا النظام دهرا طويلا. ذلك أن هذا الأمر وما يشبهه من الأمر بعقوبة من يفطر جهرا في شهر رمضان، أو من يبيع خمراً في يوم مقدس، إنما هو نفحة من نفحات الحكم العمري الذي لا ينهض الشرق بغيره

والعلة في أن نهوضنا منوط بهذا الضرب من الحكم، أننا مصابون بالقصور الذاتي في الخير والشر، فلا نأتمر بالمعروف إلا بدافع، ولا ننتهي عن المنكر إلا برادع. وأظهر أعراض هذا الركود النفسي فينا أننا نقول ولا نفعل، ونسمع ولا نطيع، ونعكف على ما ورثنا نعبده ولا نجدده، ونجمد على ما كسبنا لا نغيره ولا نزيده!

كم وزارة فكرت في ردم المستنقعات والبرك! وكم لجنة ألفت لتحقيق هذه الفكرة! وكم مشروع وضع لتنفيذ هذا التحقيق! وأخيراً صدر على الرغم من تسويف اللجان،

ومعارضة الإهمال والنسيان، قانون؛ واقتضى ذلك القانون أن تنشأ وظائف، ويحدد اختصاص، ويقرر تفتيش، ويسجل إحصاء. ولكن القانون يظل كلاما حتى ينفذ. والتنفيذ عمل من الأعمال يحتاج إلى إرادة؛ والمريض بالقصور الذاتي لا يريد ولا يملك أن يريد

صدر قانون بردم البرك منذ عشر سنين فقال الناس: جفت موارد الموت، وعفت مواطن البعوض، وبادت جراثيم الملاريا، وإن للفلاح المسكين أن يحس العافية. ولكن القانون العادي رحب البال، يقبل العذر ويأخذ الأمور بالملاينة؛ فالبركة الفلانية يملكها الباشا فلان، فهو يرجو من القانون أن يؤجله إلى يوم القدرة. والبركة العلانية يملكها الأمير علان، فهو يطلب إلى القانون أن يمهله حتى تنقضي العسرة. والقرويون الذين هدتهم الحمى ووضع لإنقاذهم هذا القانون تقابل عرائضهم بالإعراض، وتدفع مطالبهم بالاعتراض، وتعلل شفاعتهم بالمطل

أنا من أهل قرية وصفتها من قبل لقراء الرسالة بأنها جزيرة من الأكواخ والحظائر في وسط مستنقع محيط من مصافي المزارع، نمت على أسنة وعفنة جراثيم الأمراض المتوطنة، فجعلت كل وجه في صفار الخوف، وكل جسم في هزال الجوع، وكل حي في همود الموت. وعلى هذه الحال الشديد قطعت مراحل عمرها الماضي لا يزهر فيها شباب، ولا تثمر بها كهولة. لذلك لم نكد نسمع بصدور هذا القانون حتى رفعنا أصوات الاستغاثة، فأغاثتنا الوزارة المختصة بالمفتش وراء المفتش، والتقرير عقب التقرير، والوعد بعد الوعد؛ ثم وقفت عند ذلك فلا تجيب عن سؤال، ولا تصيخ لشكوى حال؛ لأن ما تستطيعه قامت به، وكل ما تستطيعه لا يعدو القول والكتابة. ثم تعاقب وزراء الصحة على هذا القانون وهو كلمات ميتة فلم يبعثوا فيه الحياة؛ ومضوا على المنهج المألوف من كفاح المرض بالتقارير والأرقام حتى اكتظت القرى والقبور بضحايا البلهارسيا والأنكلستوما والملاريا والطحال على الرغم من المستشفيات المنشأة على آخر طراز، والمعامل المجهزة بأحدث جهاز، والصيدليات المزودة بأندر الأدوية. ففكر الناس وأطالوا التفكير، ثم سألوا وأكثروا السؤال: هل في مصر وزارة للصحة؟ وهل في وزارة الصحة أطباء؟ وهل لأطباء الصحة ضمائر؟ وكان الجواب عن هذه الأسئلة السكوت المريب، حتى تولى وزارة الصحة وزيرها القائم فكان هو الجواب القاطع وإلا يجاب الصريح.

أثبت بالفعل هذا الرجل العظيم أن في مصر وزارة للصحة فيها أطباء أكفاء ينهضون إذا نبهوا، ويعملون إذا وجهوا؛ وأن المنصب الذي كان مكتبا ومرتبا وأبهة، يستطيع أن يكون أعظم القوى وأفعلها في الإصلاح الاجتماعي بمكافحة المرض، وهو شر بلايانا الثلاث. ومن كان يعرف ما فعله وهو مشرف على صحة القاهرة، كان يتوقع ما فعله وهو قائم على وزارة الصحة.

ولعل أظهر المزايا في هذا الرجل النشيط العامل قوة العزم وسرعة التنفيذ. لذلك أعرض عن قانون ردم البرك واستصدر

هذا الأمر العسكري الموفق، فلم يكد يمضي على صدوره عشرة أيام، حتى فعل ما لم يفعله ذلك القانون العادي في عشرة

أعوام؛ إذ أدخل في ملك الحكومة البرك التي خنست همم أصحابها عن التعهد بردمها قبل الأجل المحدد، ومساحتها 4050

فدان ستردمها مصلحة الشؤون القروية، ثم تستغلها بالتأجير أو تصرفها بالبيع. أما البرك

التي تعهد أصحابها بردمها وهي 1500 فدان فقد جعل لهؤلاء أطول الأجلين ستة أشهر ينتهي الردم قبل انتهائها وإلا أخذهم القضاء العسكري بالعقاب الشديد. وبذلك يقضى بانقضاء هذا الأجل على مصدر من مصادر الهلك انفجر على مصر بالعلل والأسقام منذ جرى بين صحراويها النيل.

إن الحكم العسكري فرصة مؤاتية لوزارتي الصحة والشؤون الاجتماعية يحسن بهما انتهازها لمعالجة الإصلاح الاجتماعي

بأسرع الوسائل وأقرب الطرق. وإن في مصر من باطل العادات وفاسد الاعتقادات ما لا يمحوه إلا صرامة هذا الحكم. وفي خبرة الوزيرين الجليلين ولقانتهما ما يغني عن ضرب الأمثال. والإصلاح الناجع قبل هذا وبعد هذا يثمر لا كلام يقال.

أحمد حسن الزيات

هل أدت الجامعة رسالتها؟
للدكتور زكي مبارك
(تتمة ما نشر في العدد الماضي)
.إن الجامعة التي أنشئت لمقاومة الاحتلال، هي الدار التي ارتفع فيها صوت الاستقلال
فما السر في أن يكون للجامعة هذا السلطان؟ ما السر في أن تصنع في الأيام القصار
ما عجز عنه غيرها في الأعوام الطوال؟
لا تسألوها ولا تسألوني، فقد تواصينا على الكتمان، وسر المجد لا يذاع
ليست الجامعة حجرات، ولا غرفات، ولا مدرجات، ولا وظائف، وإنما هي: روح وفكر وعقل وبيان
ثم أواجه العهد الثاني فأقول:
في صيف سنة 1925 أخذت الحكومة في التأهب لتنفيذ مشروع ترددت في تنفيذه سنتين (فإن الاتفاق بينها وبين الجامعة
عقد في سنة 1923، يوم كان الرجل العظيم زكي باشا أبو السعود وزيرا للمعارف)
وكان مصدر التردد أن الحكومة لا تعرف بالتحديد كيف يكون نظام الجامعة في عهدها الجديد
ثم بدا للجامعة الجديدة أن تراعي تقاليد الجامعة القديمة فتستشير أقطاب الجامعات الأوربية في الأوضاع التي تحمي تنفيذ
المشروع من الإخفاق
وما هي إلا أيام حتى ّاستطاعت أن تستقدم كبار الأساتذة من الجامعات الفرنسية والبلجيكية والإنجليزية
ولأول مرة في تاريخ مصر الحديث أنشئت كلية جديدة اسمها كلية العلوم، وهي الكلية التي عجزت الجامعة عن إنشائها في عهدها الأول، بحجة أن كلية العلوم لا ترتجل، كما صرح المسيو بوفيليه، وكان أحد خطباء حفلة الافتتاح في ديسمبر
سنة 1908 إذ قال:
'
كان إنشاء كلية العلوم أداء لرسالة جديدة من رسالات الجامعة المصرية، ولكنها رسالة
مزدوجة، لأنها أرادت أن تضع حجرا جديدا في بناء كلية الطب، حيث فرضت أن لا يدخل الطالب كلية الطب إلا بعد أن يأخذ زاده العلمي من كلية العلوم، وهو تقليد جميل، لا يمتري في جماله غير الجهلاء
ثم رأت الجامعة أيضا أن لا يدخل طالب كلية الحقوق إلا بعد أن يمضي سنتين في كلية الآداب، ليتزود بالحقائق الأدبية والفلسفية، عساه يصير فيما بعد من أئمة التشريع
والطلبة الذين انتفعوا بذلك النظام هم المرجع في هذه الأيام لدراسة القوانين
أيها السادة:
كانت المشكلة في العهد الجديد أن تعرف الجامعة كيف تقنع الحكومة بقيمتها الذاتية، وكان الرأي أن تسير الجامعة على النظام الفرنسي، وهو يقضي على قصر التعليم الجامعي على أربع كليات: الآداب والعلوم والطب والحقوق، ثم رأت أن تسير على النظام الإنجليزي فترفع رايتها على جميع المعاهد العالية، ولي على هذا النظام اعتراضات لا يتسع لها المجال
والمهم هو النص على أن الجامعة استطاعت أن تسيطر على جميع الفروع بالتعليم العالي، أن تعلن استقلالها عن وزارة المعارف، وهذا مغنم ليس بالقليل، وهل من القليل أن تكون الجامعة دولة في جبين الدولة، وأن يكون التعرض لأحد مدرسيها مما يفتح باب الجدال في مجلس البرلمان؟
عندنا جامعة بالفعل، لا بالقول، وعندنا جامعيون لا يقبلون وظائف الحكومة إلا متفضلين، لأن الجامعة أعدتهم للجهاد في الحياة بلا سناد من هذا الوزير أو ذاك
رسالة الجامعة هي نصر الحياة على الموت، وقد نصرنا الحياة على الموت، فليجرب خصومنا حظوظهم في محاربتنا أن استطاعوا وأنا أخشى أن يستطيعوا، فقد سمعت أنهم يملكون بلايين ودشالين من القبور التي ترجع إلى عهد أدم وحواء!
أفي نيف وثلاثين عاما تصنع الجامعة هذا الصنيع، فتعز الذاتية الأدبية والعلمية، وتقول

للرجل المفكر كن وجودا ذاتيا فيكون؟
كان ذلك لأنها أسست على التقوى، والتقوى هي الخوف، وكانت الجامعة تخاف أن ينهزم السلطان الأدبي والعلمي في هذه البلاد، وقد انتصرت لأن الخوف هو باب الأمان
أيها السادة:
إن تاريخ الجامعة في عهدها الجديد لا يتجاوز سبعة عشر عاما، وتلك مدة لا تكفي لإيجاد محصول تباهي به الجامعات التي طال عهدها بالوجود، فكيف اصل إلى إقناعكم بأنها أدت رسالات لم تؤد من قبل؟
أمامي مصاعب ترجع إلى أن الجامعة في عهدها الجديد قد انتظمت معاهد لها تواريخ، فكلية الطب حلت محل مدرسة الطب، ومدرسة الطب المصرية (مدرسة قصر العيني) قامت بخدمات كبار في أزمان طوال، وقد كتب عنها في اللغات الأوربية عشرات المؤلفات والبحوث، ولقد كان مجدها يهزني هزة الازدهاء حين أرى ما كتب عنها في المكتبة الطبية بحي السوريون
ومع ذلك فمن السهل أن اقرر أن مدرسة الطب قد ازدهرت ازدهارا ملحوظا حين انضمت إلى الجامعة في عهدها الجديد، فقد ضخمت ميزانيتها، واتسعت مبانيها، ومضت إلى آفاق لم يفكر فيها أبناؤها الأولون
استطاعت كلية الطب بفضل أساتذتها وخريجيها أن تقوم بعقد مؤتمرات سنوية في مختلف البلاد العربية، وهي مؤتمرات تعرف فيها أطباء العرب بعضهم إلى بعض، وتلاقت فيها قلوب لم يتيسر لها التلاقي قبل تلك المؤتمرات، وان وجد حلف عربي بعد زمن قصير أو طويل فسيذكر التاريخ أن لأعضاء الجمعية الطبية المصرية يدا مباركة في إيجاد الحلف المنشود، ولعله قريب!
فان كنتم في ريب من أحياء مدرسة الطب بعد أن صارت كلية فتذكروا اسم الدكتور علي باشا إبراهيم، فاعظم منصب كان يصل إليه مثل هذا الرجل العظيم هو أن يكون وزيرا، وقد كان، ولكنه ما كان يصل إلى منصب مدير الجامعة المصرية لو ظلت تلك المدرسة بمنأى عن الحرم الجامعي، وخلق الوزراء سهل جدا في العهود البرلمانية، أما خلق شخصية تتولى إدارة الجامعة فهو رهين بالأهلية الجامعية
وهنا أعقب على معالي الدكتور علي باشا إبراهيم بمناسبة الجواب الذي قدمه إلى مجلة الاثنين وقد سألته عما يختار من ألقابه الكثيرة فاختار لقب (الجراح) وإنما اوجه إليه هذا العتب، لان براعته في الجراحة لم تكن المؤهل الوحيد لصلاحيته لأدارة الجامعة المصرية، وإنما أهلته لهذا المنصب مزايا كثيرة، منها انه من كبار مفكرينا ومنها انه من أحد الرجال القلال الذين يعنون بتربية الأذواق، ومنها انه منوع الثقافة بحيث يستطيع أن يشترك في الأحاديث التي تتصل بجميع الكليات
ثم اذكر أن معالي الدكتور عبد الواحد الوكيل لم يترك دروسه في كلية الطب بعد أن صار وزير الصحة العمومية، فهل يقع هذا إلا من رجل صقلته الروح الجامعية؟
قولوا الحق واعترفوا بان لكلية الطب مذاقا غير مذاق مدرسة الطب، مع الاعتراف بما لمدرسة الطب القديمة من أمجاد سيحفظها التاريخ
ثم يجيء القول عن مدرسة الهندسة بعد أن صارت كلية، ومعلوماتي عن هذه الكلية قليلة، لأني مهندس معاني، لا مهندس مباني
ومع هذا يصح الحكم بان الجامعة خلقت كلية الهندسة خلقا جديدا، فقد وجهتها إلى مرامي جديدة، حين أوحت إلى أبناءها أن يشتركوا اشتراكا فعليا في اكثر الأعمال الهندسية، وكانت من قبل وقفا على خلائق ليس لها في هذه الديار انساب
ولنفرض أن كلية الهندسة لم تأت بجديد، فهل تنسون أنها تبالغ في اختيار الطلاب؟
ألم تسمعوا أن صدقي باشا عجز عن إلحاق أحد أبنائه بكلية الهندسة مع انه استطاع حل البرلمان؟
وسلطان الجامعة من هذه الناحية ليس اعتسافا، وإنما هو تعبير عن القوة الذاتية المصرية
ثم يجيء القول عن كلية الحقوق، وهي وريثة مدرسة الحقوق، ولطلبة مدرسة الحقوق القديمة تاريخ صوره شاعرنا حافظ إبراهيم حين قال:
وكيف يضيع للطلاب حقٌ ... وهم في مصر طُلّاب الحقوق

وما كادت مدرسة الحقوق تصبح كلية حتى اهتدت إلى أن لها غرضين أساسيين هما جملة الرأي فيما تتسامى إليه من كرائم الأغراض
الغرض الأول هو البرهنة على أن اللغة العربية قديرة على الإفصاح عن دقائق القوانين. وأنا لا أتحيز لوطني أن قررت إننا سبقنا جميع البلاد العربية إلى التأليف الجيد في مختلف فنون التشريع
أما الغرض الثاني فهو معاونة الشعوب العربية على استرداد الثقة بالفقه الإسلامي، وهو
اخصب من الفقه الروماني بمراحل طوال. . .
وفي هذا المقام تلوح الفرصة للكلام عن الدكتور السنهوري فقد نهض بعبء في تلقيح القوانين الوضعية بالشريعة الإسلامية، وهو جامعي قديم، لأنه كان من طلبة قسم الحقوق بالجامعة المصرية في عهدها الأول، ولأنه كان عميد كلية الحقوق بالجامعة المصرية في عهدها الجديد. ولو أن الدكتور السنهوري أعفى نفسه من السياسة وتقلبات السياسة لأدى لوطنه خدمات اعظم وانفع، فقد دعي لوضع القانون المدني العراقي، ولكن منصب وكيل وزارة المعارف أغراه بالاعتذار، مع أنني ألححت عليه في أن يترك ذلك المنصب الخداع ليؤدي لسمعة مصر العلمية خدمة مأثورة في العراق الشقيق
ويضاف إلى هذين الغرضين غرض ثالث: هو الرغبة الشريفة في معاونة الأمم العربية على التعمق في الدراسات القانونية، ولن ننسى فضل العراق في إظهار ثقته النبيلة بكلية الحقوق المصرية، فقد رأى أن يستأنس بها في تقوية كلية الحقوق العراقية. وهذه الالتفاته من جانب العراق تقوى ثقتنا بالكلية المصرية، وتدعونا إلى تأييدها بجميع ما نملك من
فنون التأييد.
هل أحتاج إلى القول بأن كلية الحقوق غير مدرسة الحقوق؟
لقد نشأت فيها أقسام جديدة بعد الليسانس، نشأت فيها دراسات لم تكن معروفة قبل عهد الأنظمة الجامعية، وبهذا استطاعت أن تقدم ألوانا جديدة من فقه التشريع، وما أحب أن أزيد
وهنالك كلية مجهولة هي كلية الزراعة، فهل تظنونها صورة من مدرسة الزراعة؟
ابحثوا تعرفوا أن كلية الزراعة أمدت أبناءها بأفكار وآراء لم تعرفها مدرسة الزراعة، فقد حاولوا وسيحاولون الاستيلاء على الأراضي التي لم تجد من يحسن استغلالها على الوجه الصحيح، وقد كان من أثار جهودهم في تنمية الثروة الزراعية أن أعلن أصحاب البساتين شكواهم من رخص الفواكه قبل أن تغليها أعوام الحرب
أما كلية التجارة فمكانها معروف، فقد استطاع أبناؤها أن يكونوا السناد المتين لبنك مصر وشركاته المتنوعات، وأنتم تعرفون أن بنك مصر توجيه جديد لأكثر أمم الشرق، فهو أول بنك نزه تحريراته وحساباته عن اللغات الأجنبية، واعتمد كل الاعتماد على اللغة العربية
أيها السادة
بقى القول في كلية الآداب، وكلية الآداب لها الصدارة في جميع الجامعات، ومن أجل هذا كانت كلياتنا الغالية على يمين من يدخل حرم الجامعة المصرية
ومع ذلك فكلية الآداب هي صاحبة الحظ الأوفر من الشقاء في جميع الجامعات، لأنها تعالج أمورا دقيقة لا تفطن أليها الجماهير إلا بعد زمن أو أزمان
ألوان المعايش تحتاج في كل يوم إلى مهندس والتاجر والزارع والمحامي والطبيب، وهي تستغني بكل سهولة عن الأديب والمؤرخ والفيلسوف، وهل يحتاج الناس إلى الأدب كما يحتاجون إلى الرغيف
ورقة مرقومة من كلية الطب تمنح حاملها العيش الرغيد، وكذلك يقال في الأوراق التي تمنحها سائر الكليات
أما نحن فلا يعرفنا الجمهور ولا تعرفنا الدولة إلا بعد أن نبالغ في أقذاء العيون تحت أضواء المصابيح
ولهذا أرجوكم السماح بعرض بعض الخدمات التي أدتها كلية الآداب إلى الوطن الحافظ للجميل!!

كلية الآداب هي الكلية المظلومة، وسيلاحقها الظلم إلى أن تستطيع إقناع الأمة بأن الأدب مقدم على الرغيف، فهل تستطيع أقلامنا أن تروض الأمة على الإيمان بأن زاد العقول مقدم على زاد البطون؟

إن جهادنا سيطول ويطول، إلى أن تذكر مصر أنها الأمة التي سبقت جميع الأمم إلى وضع تمثال للكاتب المفكر قبل ألوف السنين

سنرى كيف تستطيع كلية الآداب أن تقنع الأمة بأنها أنفع من كلية الطب، وسنرى كيف يمكن إقناع الأمة بأن احتياجها إلى الأديب أشد من احتياجها من الطبيب. . . يوم ذاك يصح القول بأن الجامعة أدت رسالتها خير أداء

وإلى أن يجيء ذلك اليوم أذكر بإيجاز بعض ما صنعت كلية الآداب، فماذا صنعت كلية الآداب؟

وهل تستطيعون أن تتناسوا جهود الأساتذة والخريجين بكلية الآداب؟

التأليف عندنا، فما رأى هذا العصر أقوى من كتاب الأدب الجاهلي وكتاب النثر الفني، من حيث البلبلة الفكرية في الحياة الأدبية. ونحن الذين غيرنا اتجاه الأدب في مدارس الدولة من حال إلى أحوال

والترجمة عندنا، فأبناء كلية الآداب هم الذين ترجموا دائرة المعارف الإسلامية مع تحقيقات يعترف بقيمتها المؤلفون الأصلاء

والشعر عندنا، فليتقدم لمصاولتي في الشعر من يطيق، ولن يطيق

والمجد القومي عندنا، ففي كليتنا الغالية أقيمت معاهد للدراسات الأثرية من فرعونية وإسلامية، بحيث يستطيع الفتى المصري أن يعرف فضائل الأجداد والآباء

ونحن الذين فكرنا في أن يكون مدرسو اللغات الحية مصريين لا أجانب، ويشرفني أن أكون صاحب هذا الاقتراح، وقد نفذه العدو الصديق طه حسين

ونحن الذين ابتدعنا الرحلات العلمية إلى البلاد العربية، ومن الطريف أن أنص على أن الحج الجامعي إلى بيت الله الحرام هو من ابتكار كلية الآداب، وقد وصلت عدواه إلى طلبة الأزهر الشريف، فتذكروا أن الحج من أركان الدين الحنيف

كليتنا عظيمة التأثير في الجيل الجديد، ولا ينكر فضلها إلا مكابر أو جحود

أيها السادة

لكليتنا الغالية أمجاد جديرة بالتسجيل، وأخص تلك الأمجاد حرية الفتاة في ارتياد المعاهد العالية، وهذا لم يقع بمصر لأول مرة إلا في كلية الآداب

كانت رفيقتي في دروس الأدب والفلسفة والتاريخ فتاة لطيفة الروح، وهي الآنسة مي ربيبة الجامعة المصرية، وعنوان الكاتبة الموهوبة في اللغة العربية

وأنا لم اشترك في رثاء هذه الكاتبة، لأني لا أزال أراها رأي القلب، ولاني لا احب أن اصدق أن الفناء يجوز على شبابها الجميل، وكان من بسمات الوجود

وقبل أن تموت مي رأيت تأثير كلية الآداب حين زرت الموصل في ربيع سنة 1938، فقد رأيت المدينة كلها مشغولة بكتاب أخرجته فتاة من طالبات كلية الحقوق

كلية الآداب هي أول معهد مصري أباح اختلاط الجنسين في المعاهد العالية، وهو مبدأ يرضى عنه قوم ويغضب عليه أقوام ولكنه مبدأ، وللمبادئ قيمة، ولو أقيمت أساسها على

ضلال

وكلية الآداب هي أول معهد مصري فكر في إمداد الصحافة بقوى جديدة مزودة بأهم أقوات الأذواق والعقول، وسيكون لأبناء معهد الصحافة تأثير جميل في صحافة الجيل الجديد

أيها السادة

ستسمعون في هذه الليلة كلاما في تجريح الجامعة، من أبناء الجامعة أنفسهم فلا تظنوا ذلك التجريح من صور العقوق وإنما يجب أن تعدوه من صور الوفاء، لأنه من أقوى البراهين على أن الجامعة أدت رسالتها خير أداء

أهم رسالة من رسالات الجامعة هي خلق القلق الروحي والعقلي، فان غلبني مناظري في هذا المساء فسيكون فوزهم تأييدا لحجتي. وهل تنسون أن الأشبال لا يصاولون آباءهم إلا بعد أن يصبحوا من الأسود؟

لا اعرف ما الذي سيقول مناظري الفضلاء، ولكني أخشى أن يفوتهم مقتل هو اضعف

مقاتل الجامعة المصرية، وهو عجزها الفاضح عن أن تجعل اللغة العربية لغة التدريس في جميع المواد بجميع الكليات
لقد قضيت عشر سنين في الدعوة إلى هذا المبدأ القومي، فما استمع مستمع ولا استجاب مستجيب، فليلتفت مناظري إلى هذا المقتل، وليقولوا لرجال الجامعة أن السبات قد يفضي إلى الموت ثم إلى الفناء
لا يجوز في أية جامعة أوربية أو أمريكية أن يودي امتحان بغير اللغة القومية، إلا أن يكون امتحانا في إحدى اللغات الأجنبية، أما الجامعة المصرية فتسمح بان يؤدي الامتحان بغير اللغة العربية في المباحث الإسلامية، وهذا هو الكفر بعد الإيمان!
. . .جرحوا الجامعة، جرحوها بعنف، لتستيقظ فتثور على الغفلة والجهل
قولوا وأطنبوا، فإن لم تفعلوا - وستفعلون - فسآخذ الكلمة من أفواهكم لأسمع الجامعة ما تحب أن تسمع، فرضاها عن هذه الحال رضا اليأس، لا فرح التحليق في أعالي الأجواء.
جولوا وصولوا، يا بني الأم الروحية، وقاتلوها وقاتلوني، لأرى أنكم وهبتم العزائم الفواتك، والأرواح الصحاح
أنا أثنيت على الجامعة بالحق، فجرحوها بالحق، لتأمنوا صيالي في ردكم إلى شرعة العدل
والإنصاف
وإلى اللقاء بعد أن أسمع ما عندكم من حجج وبراهين، فلن تضام الجامعة وفي الوجود رجل هو أصدق أبنائها الأوفياء
زكي مبارك
الحضارات القديمة في القرآن الكريم
للأستاذ عبد المتعال الصعيدي
(تتمة)
الحضارة اليونانية:
اليونان من الجنس الآري الذي ينتسب إلى يافث بن نوح عليه السلام، وهم أول من حمل لواء الحضارة من ذلك الجنس، وتمتاز حضاراتهم على غيرها من الحضارات بالنهضة العلمية التي قامت على أساسها، ومازالت ترعاها وتتعهدها حتى ترعرعت وازدهرت، وظهر فيها من أعلام الفكر أولئك الفلاسفة الذين رفعوا منار العلم، ووصلوا فيه إلى ما لم يصل إليه أحد قبلهم، فأقاموه على أسس ثابتة، وجعلوا له حدوداً ومعالم ظاهرة، وقد بلغ من قوة تلك الأسس وظهور تلك المعالم إنها لا تزال ثابتة إلى عصرنا، وان كل نهضة علمية حدثت بعدها تحذو حذوها، وتجري على منوالها، فتبني على تلك الأسس، ولا تتخطى تلك الحدود والمعالم، ويكون كل همها أن تصلح فيها خطأ أو تزيد على آثارها آثاراً جديدة
وكما تمتاز الحضارة اليونانية بهذا تمتاز بأمر آخر له خطره، وهو محاولتها جمع العالم على حضارة واحدة، وإخضاع الشعوب البشرية لسلطان واحد، حتى يمكنها أن تتقارب وتتفاهم، وأن تتعاون في كل عمل يرفع شأن البشر، ويعود عليه بالخير والرفاهية، والحضارة اليونانية في تلك المحاولة على عكس الحضارة اليهودية، لأن اليهود كانوا يعتقدون أن حضارتهم حباء من الله لهم، وأنهم أورثوا بها آثاراً على غيرهم من الشعوب، فلا يصح لهم أن يشركوا فيها غيرهم، ولهذا عاشوا منعزلين عن غيرهم من الشعوب، ولم يحاولوا أن يضموا شعباً منها إلى حظيرتهم
وقد أشار القرآن الكريم إلى هذين الغرضين الحميدين في الحضارة اليونانية، وفصلهما أحسن تفصيل في سورة الكهف من الآية - 83 - إلى الآية - 98 - (ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا، إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً، فأتبع سبباً، حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ووجد عندها قوماً، قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً، قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى
ربه فيعذبه عذاباً نكرا، وإما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا ثم اتبع سبباً، حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا، كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا، ثم اتبع سببا، حتى إذا بلغ بين

السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا، قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض، فهل نجعل لك خرجا على أن تحمل بيننا وبينهم سدا، قال ما مكني فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما، آتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا إذا جعله ناراً قال آتوني أفرغ عليه قطرا، فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا، قال هذا رحمة من ربي، فإذا وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقا)

فهذه الآيات تفيد أن ذا القرنين كان يرمي إلى أمرين عظيمين، أولهما جمع الشعوب في شرق الأرض وغربها تحت حكمه، ليكون لهم جميعاً سلطان واحد يجمع كلمتهم، ويقرب مسافات الخلف بينهم. وثانيهما نشر العلم والحضارة بين تلك الشعوب، فمن آمن وأذعن لذلك جزاه أحسن الجزاء، ومن لم يؤمن ويذعن لذلك ناله من العذاب، وقد تم لذي القرنين من ذلك ما أراد، فجمع أكثر الشعوب المحتضرة تحت حكمه، ثم عمل على أن يحفظها من الشعوب المتوحشة التي كانت تغير عليها، وتخرب ما تخرب من آثار الحضارة فيها

وذو القرنين الذي تم له كل هذا هو الاسكندر المقدوني اليوناني، كان أبوه فيليب ملك مقدونيا، وكان ملكاً عظيم القدر، عمل على أن يجمع بين البلاد اليونانية في حلف تتولى مقدونيا زعامته، ثم يوجه قوة اليونان بعد توحيدها نحو الفتح الخارجي، ولكنه قتل قبل أن يتم غايته، فخلفه ابنه الاسكندر على عرش مقدونيا، وكانت سنه عند ولايته عشرين سنة، وقد ورثه عن أبيه بعد الهمة وقوة العزم، وزاد عليه بتربيته على يد أرسطو الفيلسوف المعروف، فنشأ محباً للفلسفة والعلم، عاملاً على نشرهما في أنحاء المعمور. وقد أراد أولاً أن يخضع بلاد اليونان كلها لسلطانه، فإذا تم له إخضاعها توجه إلى ذلك الفتح الذي يجمع الشعوب تحت رايته، وكانت دولة فارس على عهدها أكبر دول الأرض، فعمل على قهرها أولاً، وعبر مضيق الدردنيل إلى الأناضول، فانتزعه من أيدي الفرس، وأوقع بجيوشهم في موقعة أسوس، ثم اتجه غرباً نحو الشام ومصر فانتزعهما أيضاً من أيدي الفرس، وما زال يسير غرباً حتى بلغ عين الشمس بواحة سيوة، وهي العين الحمئة أو الحامية التي ذكر

القرآن أنه بلغها في فتوحاتها الغربية، ثم عاد فاتجه نحو الشرق قاصداً بلاد فارس، ليقضي على دولة فارس فيها، وما زال يسير شرقاً حتى بلغ سهول الهند الشمالية، ولم يبق أمامه إلا بلاد يأجوج التي ذكر القرآن أنه وصل شرقاً إليها

ولا شك أن هذا الاتفاق بين فتوحات ذي القرنين والاسكندر المقدوني دليل على أنهما شخص واحد، وقد ثبت مع ذلك أن الاسكندر المقدوني كان يلقب بذي القرنين، وفي هذا دليل آخر على أنه هو ذو القرنين الوارد في القرآن. وقد ذهب إلى هذا إلى الرأي كثير من المفسرين، ومن رأى منهم أن ذا القرنين غير الاسكندر المقدوني فقد خبط في بيانه خبط عشواء، ولم يهتد إلى ملك يثبت التأريخ الصحيح أنه كانت له تلك الفتوحات.

ولا يوجد لدى الذين يأبون أن يكون ذو القرنين هو الاسكندر المقدوني إلا أنه كان على دين فلاسفة اليونان، ولم يكن رسولاً يدعو إلى الأيمان كما هو ظاهر القرآن في قوله: (قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب) ونحوه مما ورد في الآيات السابقة. ولنا في الجواب عن هذا أن نذهب إلى أن الفلسفة اليونانية لم تكن فلسفة وثنية مادية، وإنما كانت فلسفة توحيدية روحية، إذ كان العقل عند الفلاسفة الأقدمين كسقراط وأفلاطون وأرسطو يعد مظهراً للروح، وأكبر دليل على أن لها وجوداً مستقلاً عن الجسد، فتنفصل منه بعد الموت، وتصعد إلى عالم أرفع من هذا العالم، وهذا هو الإيمان بالتوحيد والبعث الذي دعت إليه الأديان السماوية. وقد كان في أولئك الفلاسفة من ادعى الإلهام والوحي كفيثاغورس وسقراط، وهي دعوى لا يوجد في الإسلام ما يمنع من قبولها، لأنه يمتاز على غيره من الأديان بأنه لا يجعل الرسالة السماوية وقفاً على قوم من الأقوام، وقد قال الله تعالى في الآية (24) من سورة فاطر: (إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) وإذا كان في آثار أولئك الفلاسفة ما يخالف الدين، فانه يمكن أن يكون من التحريف الذي أصاب الفلسفة اليونانية، كما أصاب الأديان السماوية، على أن كثيراً من أنصار هذه الفلسفة في اليهودية والنصرانية والإسلام لا يرون أنها تخالف هذه الديانات، وقد استخدموا علومها وآلاتها في نصرة

الدين، حتى صار علم الكلام في هذه الديانات متأثرا إلى حد كبير بهذه الفلسفة
ويمكننا أن نذهب في الجواب عن ذلك مذهبا آخر نسلم فيه أنه لم يكن في هذه الفلسفة وأصحابها إلهام ولا وحي، وأنهم وصلوا إليها بنظر العقل، فانه يبقى مع هذا أن أولئك
الفلاسفة اجتهدوا بعقولهم في الوصول إلى الحقيقة المطلقة، فوصلوا في ذلك إلى أسمى ما وصلت إليه العقول في العصور القديمة، وإلى ما استحق التقدير من كل من ظهر بعدهم من الأمم إلى عصرنا الحاضر، فإذا ذكر القرآن آثار علم من أولئك الأعلام، فأنه يقدر منها ما يستحق التقدير من كل منصف، وإذا كان فيها شيء من المؤاخذات
فإن الله لا ينظر إليها في هذه الحالة، كما قال تعالى في الآية (15) من سورة الإسراء: (من أهتدي فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً). وقد فعل القرآن الكريم ما يقرب من هذا مع
الروم في حروبهم مع الفرس، فراعى لهم أنهم على كل حال أهل كتاب، وبشر المسلمين بنصرهم في الآيات الأولى من سورة الروم (ألم، غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون، في بضع سنين، لله الأمر من قبل ومن بعد؛
ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر الله من يشاء وهو العزيز الحكيم)
أما قوله تعالى: (قلنا يا ذا القرنين) فلا يفيد إلا أن ذا القرنين كان في تلك الفتوحات وفيما يقصده منها مسبراً بأمر الله وقد ذكرنا أنه كان له في تلك الفتوحات مقاصد نبيلة، وكل شيء يحصل في هذه الدنيا فبأمر الله وتقديره.

عبد المتعال الصعيدي

ابن خلدون مؤرخ الحضارة العربية

للأستاذ عيسى محمود ناصر

تتمة ما نشر في العدد الماضي

الكلام على الفصلين الثالث والرابع

يمكن أن يقسم كلام ابن خلدون فيهما أقساماً ثلاثة: الإقليم والبيئة الجغرافية والدين؛ فلقد تتبع المجتمع البدوي والحضري وحكومته على اختلاف ضروبها ووسائل الارتزاق ولم تعد أحكامه في سياسة الممالك الاستبدادية التي ذكرها في مقدمته مطردة في عصرنا هذا إذ أصبحت طريقة الحكم في هذا العصر دستورية مبنية على الحكم النيابي الذي يؤيده الدستور ويدعو إليه سواء أكانت جمهورية أم ملكية، على أن معدات الحروب وظواهر المدنية الحاضرة تختلف كثيراً عن حالتها السابقة

ومن رأى ابن خلدون أن هناك ثلاث ظواهر مستقلة عن المجتمع تؤثر فيه باستمرار هي: الإقليم والبيئة والجغرافية والدين، وقد تأثر في نظرياته الجغرافية (ببطليموس) الجغرافي اليوناني، وبالإدريسي الجغرافي العربي، وهو في هذا يبين أن البيئة الجغرافية وسيلة إلى شرح الأقاليم المختلفة، وأن درجات الحرارة المختلفة تؤثر في أجسام الناس وأخلاقهم، ومن ثم في الحضارة؛ فسواد لون سكان الجنوب يرجع إلى شدة الحر حيث الشمس محرقة دائماً، وأما لون أهل الشمال فأبيض للسبب العكسي. أما الأقاليم المعتدلة فأجسامهم أقوى وأوفر توازنا في حين أن أهل الأقاليم المنحرفة مجردون عن الحضارة، فهم همج لا يعرفون شريعة ولا حكومة ولا ديناً، وأخلاقهم في غاية التناقض، ولكنها بعيدة عن أن تكون مجتمعاً متحضراً. ويعلمنا التأريخ أن الحضارة لم توجد قط إلا في البلاد المعتدلة، وأن درجة كمالها تختلف بقربها أو بعدها عن الإقليمين المنحرفين، ولهذا كان الإقليم الرابع الذي يشغل الوسط والذي يتمتع بحرارة معتدلة ينعم دائماً بضروب الحضارة، ففيه الحكومات والشرائع والأديان المنزلة والعلوم والفنون. ويضع ابن خلدون في ذلك الإقليم المعتدل: الشام والعراق، فالشام مهد اليهودية والنصرانية، والعراق كان بها الحضارة الآشورية، ولكنه اعترضته صعوبة أن بلاد العرب مهد الإسلام، وموطن العربية - ليست من الأقاليم المعتدلة، ولكن البحر يحوطها من ثلاث جهات فأثرت رطوبته في الهواء ولطفت من قيظها المفرط. ثم قال: إن بأخلاق أهل الجنوب خفة وطيشاً، وإنهم لا يعرفون السكينة، ويقضون معظم حياتهم في اللهو والرقص؛ فالحرارة مخلخلة للهواء والبخار زائدة في كميته، وقد اتفق ابن خلدون و (منتسكيو) في أثر البرودة والحرارة في الأجسام، ولكننا لا نرى في هذا العصر أثر لمقاومة البرد والحر، وهناك برهان قاطع

على أن نظرية الإقليم كما يشرحها (أرسطو) وأبن خلدون و (مونتسكيو) ليست معصومة من الزلل؛ فابن خلدون يرى أن سكان الشام والعراق هم أكثر الشعوب فوزاً بذلك الامتياز، و (مونتسكيو) يرى المثل الأعلى في أمم الشمال، و (أرسطو) يرى الشعب اليوناني هو الذي بعث ذلك التقدم إلى باقي الشعوب

ثم تكلم ابن خلدون عن الروح البشرية والنبوة والكهانة، وهو لا يعتبر الدين من عوامل الحضارة، ولا يعلق على تأثيره فيها أهمية كبيرة، والواقع غير ذلك؛ فالمجتمعات تتأثر بالدين وله تأثير قوى في النفوس، والدين مادة غزيرة من الفلسفة والتقاليد والمعتقدات. ولقد وفق ابن خلدون بين الفلسفة والدين كما وفق ابن رشد بينهما

ويؤخذ على ابن خلدون في مقدمته إنحاؤه على العرب وقسوته في الحكم عليهم في كثير من سياسة الملك؛ فقد غمطهم حقهم، وشدد النكير عليهم، فنعي عليهم عجزهم عن التغلب إلا على البسائط ويقول: إنهم لا يتغلبون على قطر إلا أصابه الخراب المطلق، فهم يهدمون الصروح، ويغتصبون أملاك المغلوبين مستشهداً بتخريب إفريقية الشمالية في القرن الخامس، وأنهم يجهلون سياسة الملك. والتأريخ وحده أقوم دليل على دحض هذه المفتريات. ويبدو في كلامه هذا التحامل على العرب، وإنه لعربي حضرمي، ولكن ذلك راجع إلى العصبية المغربية؛ فأهل المغرب لهم عواطفهم وتقاليدهم، وهم قد خرجوا من سلطان العرب منذ القرن الثاني للهجرة.

أما تحامله على العرب وعجزهم عن التغلب إلا على البسائط كسهول الشام والعراق ومصر وساحل إفريقية الشمالية فمردود بحوادث التاريخ فقد نسى ابن خلدون أو تناسى أنهم فتحوا فارس واستقروا هناك أكثر من قرنين، وأنهم فتحوا بلاد الأندلس، وأسسوا فيها حضارة وملكاً كبيراً استمر أكثر من ثمانية قرون

أما تخريب إفريقية الشمالية في القرن الخامس فلم يكن إلا بأمر الخليفة الفاطمي. ثم من هم العرب الذين فعلوا ذلك؟ إنهم بدو أعراب لم يتكلفوا تربية ولا نظاماً. ولنا شاهد من تأسيس حضارة العرب في فارس والشام وأسبانيا وإفريقية. ثم يقول: إن العرب ليسوا أهلاً لتأسيس الدولة إلا من طريق أثر ديني قوي، وإنهم يجهلون سياسة الملك مع أنهم قبضوا على ناحية الحكم في الدولة الإسلامية في العصور الوسطى والحديثة وكانوا أقدر وأعدل وأمهر؛ فقد هيئوا للشعوب المغلوبة أسباب التقدم العقلي المادي. ويقول: إنهم يبالغون في احتقار العلوم والفنون مستنداً إلى أن معظم العلماء فرس وموال. ولكن أيغيب عن ذهنه أن هؤلاء البدو فرضوا دينهم ولغتهم على دولتي الفرس والروم؟ اللهم إنها العصبية المغربية تغلبت عليه!

ابن خلدون والنقد الحديث

يصف الأوربيون ابن خلدون بأنه (مونتسكيو) العرب. وقد ترجمت مقدمته ونظرياته إلى اللغات الحية. وفي منتصف القرن التاسع عشر عني النقد الأوربي بابن خلدون ونظرياته الاجتماعية عناية خاصة، وكان أعجب ما في هذا الاستكشاف أن يظفر الغربيون في تراث هذا المفكر المسلم بكثير من النظريات الفلسفية والاجتماعية والاقتصادية التي لم يطرقها البحث الغربي. وقد ردد (مكيافللي) المؤرخ السياسي الإيطالي الذي ظهر بعد وفاة ابن خلدون بأكثر من قرن كثيراً من نظرياته وآرائه كما رددها (مونتسكيو) المشرع الفيلسوف الاجتماعي الفرنسي و (آدم سميث) الفيلسوف الاقتصادي وغيرهم، ولأبن خلدون فضل السبق في هذه الميادين السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفلسفية والتاريخية.

ويعتبر كتاب (الأمير) (مكيافللي) كمقدمة ابن خلدون. على أن ابن خلدون أغزر مادة وأوسع أفقاً من (مكيافللي) ذلك لأن مؤرخنا اتخذ من المجتمع كله وما يعرض فيه من الظواهر مادة أساسية لدرسه معللاً لها على ضوء التأريخ. أما (مكيافللي) فيدرس الدولة فقط أو يدرس أنواعاً معينة من التأريخ اليوناني أو الروماني القديم، أو التأريخ إيطاليا في عصره، أو يدرس شخصية الأمير أو الحاكم؛ وهذه الدراسة المحددة تقابل الفصل الثالث من مقدمة ابن خلدون وإن كان ابن خلدون يفوق (مكيافللي)، ويبتدع نظرية العصبية ونظرية أعمال الدولة وخواصها من الناحية الاجتماعية. ويمتاز (مكيا فللي) من جهة أخرى

بسلامة منطقه ودقة عرضه وتدليله وجمال أسلوبه؛ وهو في فلسفته هذه وصم آراءه ونظرياته بالصرامة والقسوة والخبث حتى كانت في عصرنا الحاضر مضرب المثل

للسياسة الغادرة التي لا ضمير لها ولا وازع فتغاضت عن المثل العليا للإنسانية والخلقية؛ فالنفاق والشح، والضعة، والقسوة، والإرهاب، والختل، ونكث العهود، وإهدار الإخلاص، والصداقة، والأمانة، والدين والوفاء، كل أولئك تقوم عليه هذه السياسة (المكيافلليه) وهي عنوان السياسة العملية القوية الخاطفة التي نشاهدها في هذا العصر بين الأمم والأفراد

وقد اعتبر ابن خلدون مؤرخاً لحضارة الدولة الإسلامية، فتحدث عن النظم السياسية وأنوع الحكم والخطط العامة، كالقضاء، والشرطة، والإدارة، وتطورها في الدول الإسلامية كما تحدث عن النظم الاقتصادية والتجارية والمكوس والضرائب، وعن المهن الحرة والحرف والصناعات، ووجوه الكسب والمعاش ثم عن العلوم والفنون والآداب وتطورها في العالم الإسلامي، وإنما عالج هذه المسائل اعتقاداً منه أنها صور لهذا العمران، ومراحل الحضارة مقياس لمراحل العمران

وقد أثرت في آرائه العلمية مبادئ (أرسطو) و (أفلاطون) وبخاصة الجمهورية لأفلاطون كما أثرت في آرائه فلسفة فيثاغورس الأفلاطونية، وكما أثر فيها المسعودى أيما تأثير، وقد استطاع أن يقرر منذ خمسة قرون أصل السلطتين الروحية والزمنية كما يقررها أساتذة القانون السياسي والديني

ويمكن أن توصف فلسفته بأنها يغلب عليها التشاؤم والتطير، ولكن تشاؤمه تشاؤم رجل مستسلم غير مكترث، فهو لا يحكم وإنما يشاهد، وهو بذلك يدلل على ذهنية علمية. ويرى بعض المستشرقين أن مصدر هذا انحطاط الدولة الإسلامية وتأخر الحضارة في العصر الذي كتب فيه ابن خلدون مقدمته، وإلى الظروف السياسة التي تقلب فيها وعصفت به، وما أصابه في حياته في خويصة نفسه من ألم وخيبة أمل وقد أوضح أهمية المال وبعد أثره في قوى الدولة الداخلية، وذكر كيف يقضي سوء الإدارة المالية والإسراف دائما على الدولة بالفناء

ومن رأيه أن تأسيس الدولة سابق على تأسيس هذه المدن، لأن الدولة وسيلة لتأسيس هذه المدن؛ فالقبيلة لا تستطيع ذلك قبل أن تتخذ شكل الدولة المنظمة تجتمع قوتها في الحكومة،

فقد بنيت بغداد بأمر الخليفة المنصور، وبنيت الفسطاط والكوفة والبصرة بأمر الخليفة عمر بن الخطاب، وابتنى القائد جوهر مدينة القاهرة تنفيذاً لأمر المعز لدين الله الفاطمي، ولحماية المدينة من الغارات تحاط بالأسوار الطبيعية والصناعية، وتصان صحة السكان بجودة الهواء وغزارة الماء. وقد بين أن العرب لم يحسنوا اختيار مواقع مدنهم لأنهم يعنون بالمراعى، وأنهم يجهلون بأن للهواء صفات يجب اعتبارها؛ لأنهم تعودوا حياة التجوال والانتقال؛ لذلك لم تكن المدن التي أسسها العرب في بدء الإسلام في العراق وأفريقية أهلاً للحضارة الثابتة، وأن تقاوم صروف الزمن، فقد زالت حينما سقطت دولها؛ ولكن هذا الرأي مردود بأن الكوفة والبصرة لا زالتا موجودتين في عهد ابن خلدون. وعنده أن تقدم الحضارة يتوقف على مزايا الأرض ومزايا الحكومة وكثرة السكان، فمن الأرض تستخرج كل المواد الأولية، والحكومة يجب أن تكون قوية عادلة كريمة، وكذلك عمر الحضارة منوط بعمر الدولة لأن سقوطها يفضي إلى سقوط العاصمة، ومن ثم تصاب الحضارة بضربة شديدة؛ ولكن الحكومة الجديدة المتغلبة إذا كانت حازمة قوية استطاعت في الحال أن ترد إلى العاصمة كل رخائها، أما كثرة السكان فتخلق الحضارة، وكلما كثر السكان كثرت المدنية وازداد الغنى واتسع المجال لتحصيل ثمار الترف!

ويرى ابن خلدون أن من أسباب ضعف الدولة انغماسها في الترف وضعف العصبية أو الحزب الذي أنشأها وما ينشأ عن هذا الضعف من مطالب بعض الجنود الأجانب الذين يتخذهم بعض الملوك لحمايتهم. ولا شك أن لفيلسوفنا آراء ومذاهب ونظريات يؤيدها العلم الحديث والعرف، وما نراه في هذا العصر من قيام دولة وسقوط أخرى واختلاف الناس في مذاهب الحياة وفهم الأخلاق. وقد عنيت أن أجلو أمام القارئ بعض هذه الآراء له فرصة الاستيعاب والتمحيص والموازنات الدقيقة. والله ولي التوفيق

عيسى محمود ناصر
المدرس بمدرسة الفيوم الثانوية

مصادر هذا المقال:
1 - فلسفة ابن خلدون الاجتماعية
2 - ابن خلدون مؤرخ الحضارة العربي
3 - ابن خلدون حياته وتراثه الفكري
4 - مقدمة ابن خلدون - ترجمة الكاتب بقلمه

السيطرة على الجو

للأديب عبد المنعم محمد الزيادي

(بقية ما نشر في العدد الماضي)

القاذفات (بيض)

والبيض هنا هو القنابل في عرف الأمريكيين! أما القنابل المتفجرة العادية فلها غلاف ثقيل ينقسم إلى شظايا كثيرة تتطاير بمجرد انفجارها. وهذه القنابل تستعمل خاصة ضد الأفراد. وإذا انفجرت قنبلة من هذا النوع زنتها مائة رطل، فإن شظاياها تتطاير في دائرة نصف قطرها خمسون ياردة. أما قنابل المهابط (الباراشوت) - وهي تستعمل ضد الأفراد كذلك - فتلقيها الطائرات عندما تكون على ارتفاع يقل عن ثمانمائة قدم، ولا تستطيع حينئذ أن تلقى قنابل متفجرة عادية خشية أن تصيبها شظاياها. فقنابل المهابط تتخذ طريقها ببطء متأرجحة في الهواء إلى أسفل ولا تنفجر حتى تكون القاذفة قد ابتعدت تماماً. ويمكن كذلك أن تهيأ لتنفجر وهي ما تزال في الهواء حتى تنشر شظاياها على الأفراد الذين يحتمون بالخنادق المكشوفة التي قد تقيهم شر القنابل المتفجرة العالية. أما القنابل المدمرة فلها غلاف رقيق يصلح لأن يحملها سليمة خلال أسطح المباني التي تمر خلالها، ثم تأخذ حمولتها من المواد الشديدة الانفجار في التدمير والتحطم بمساعدة ضغط الهواء الشديد الذي يتولد مع سقوطها. ويقرر الخبراء أن مثل هذه القنبلة لو قدر لها أن تدفن في الأرض قبل انفجارها، فإنها عند انفجارها تنسف الأرض بمعدل نصف ياردة مربعة من المواد المتفجرة التي تحملها؛ وهي تحمل من المواد المتفجرة ما بين 250 و1000 رطل

مولوتوف (سلة خبز)

اكتشف الروسيون أن القنابل المحرقة تكون أشد فتكا إذا ألقيت على البناء الذي تمزق بفعل القنابل المدمرة، وعلى هذا الأساس اخترعوا (سلة خبز) مولوتوف. وهذه السلة تشبه من الخارج القنبلة العادية تماماً. وتحتوي في داخلها على 20 أو 30 أسطوانة صغيرة تحمل مواد محرقة وقنبلة مدمرة عادية في الوسط. وتسقط القنبلة المدمرة من السلة على ارتفاع معلوم فتنتشر الاسطوانات المحرقة حولها فسرعان ما تلتهب قطع الخشب أو القماش أو الورق التي تناثرت بفعل القنبلة المتفجرة. وربما كانت القنبلة البطيئة الانفجار هي أفظع وأشد أنواع القنابل فتكاً؛ فعندما تصطدم القنبلة بالأرض، يحدث التصادم كسراً في زجاجة ملأ بحامض يبدأ في شق طريقه خلال حواجز معدنية قابلة للذوبان فيه حتى يصل إلى المادة المنفجرة، وإذ يختلط بها يحدث الانفجار. وبالتحكم في سمك الحوائط المعدنية يمكن تنظيم وصوله إلى المادة المتفجرة في خلال بضع ساعات أو بضعة أيام إذا أريد ذلك

فوق الهدف

يصعب - بطبيعة الحال - أن تختفي مدن بأكملها عن أنظار القاذفات. وقد استعمل الطلاء (الكاموفلاج) للوقاية من الغارات الجوية في الحرب العظمى الماضية، فكانت الخطوط الجوية الكثيرة الملونة - على هيئة حمار الوحش - على أرض السهول والوديان تحدث اضطراباً شديداً للرائي. وقد وجد خبراء الوقاية أن هذا الخلط بين الألوان شديد التأثير على الملاحظين الجويين، لذلك طلوا أسطح المباني الهامة بلون الحشائش أو الأحجار المجاورة كما غطوا الحوائط الجانبية بكروم اصطناعية. وقد أصبحت ترسانة (ولويتش) غاية في التنكر بفضل ما نما حولها وفوقها من الحشائش، حتى لقد أصبح عمالها يسمونها (بالبيت الأخضر).

ومن المعروف أن المركبات السريعة هدف سهل للطائرات المنخفضة، لكنه أصبح في الإمكان جعلها (غابة متحركة) - كما قال أحد عامة لندن - وذلك بنثر الأوراق والأغصان والشجيرات على جوانبها وأسطحها. فإذا سار صف من هذه المركبات المتنكرة في

الطريق بجانب صف من الأشجار، استطاعت أن تحتجب تماماً عن أعين الطيار الملاحظ. ولقد جد البريطانيون والألمانيون على السواء في الاهتمام بالإظلام الليلي، وذلك لسبب وجيه؛ فقد دلت التجارب على أن عود الثقاب الملتهب يمكن رؤيته على ارتفاع نصف ميل، كما أنه يمكن برؤية المصباح المضاد على ارتفاع ميل وربع بوضوح تام، والنافذة المضاءة على بعد 12 ميلاً. إلا أن هناك أشياء لا يمكن إطلاقها تماماً؛ فالموانئ وخطوط السكك الحديدية لابد أن يظهر منها بعض الضوء. وأشد من ذلك وأنكى مجاري الأنهار، فإنه في أشد الليالي ظلاماً يظهر النهر كشريط ضيق لامع يرى في جلاء ووضوح. ولا يمكن لأشد الاحتياطات إحكاماً أن تخفي الهدف تماماً إذا أخذت له صورة واضحة من الجو، فالطباعة السوداء والبيضاء تظهر الوديان والسهول بوضوح، كما تكشف خداع الألوان الذي قد يخدع العين المجردة. ولما كان من الصعب أن تقترب الطائرات من القواعد المهمة خلال النهار لتصويرها، فإن فن التصوير الليلي قد تطور كثيراً. فعندما تصبح الطائرة المنكشفة فوق البقعة المراد تصويرها، يلقى المصور قنبلة من المغنسيوم، وهذه تنفجر في الجو على ارتفاع معلوم فتخرج ضوءاً ناصع البياض. وإذ يبلغ الضوء أقصى شدته بسبب حركة في غطاء عدسة آلة التصوير، فيتم التقاط الصورة من تلقاء ذاتها. وفي إحدى الصور التي أخذت على ارتفاع 1200 قدم ظهرت كل شجرة في نصف قطر طوله ثلاثة أميال بغاية الوضوح والجلاء

الهبوط إلى الأرض

لجنود المهابط الذين يسبق نزولهم غزو إحدى الجهات كما للجنود الذين تظلهم الطائرات قيمة عملية عظيمة الشأن؛ فهم يحتلون المطارات الهامة أو يخربون المنشئات العسكرية ويربكون العدو إرباكاً له قيمته للجيش المهاجم. لذلك أهتم الحلفاء بالإكثار من فرق هؤلاء الجنود وإحسان تدريبهم. وتحتاج الوحدة المهاجمة من جنود المهابط التي يبلغ عدد رجالها الألف، إلى نحو 125 طائرة. تأتي في المقدمة ثلاثون منها من قاذفات القنابل أو المنقضات، تتبعها عن كثب عشرة من ناقلات جنود المهابط ثم خمسون طائرة من ناقلات الجنود حمولة الواحدة منها 25 جندياً لنقل رجال القوة النظامية، في حين تحمل خمس طائرات أخرى عتاد هذه القوة الثقيل وهو يتكون عادة من 150000 شحنة من الذخائر، 30 موتوسيكلا، 367 مدفعاً رشاشاً، وستة مدافع مضادة للدبابات. ويحرس هذه القوة عدد من المطاردات يبلغ الثلاثين أو أكثر. فإذا ما بلغت القوة الهدف بدأت المدافع الرشاشة تصليه ناراً حامية حتى تقضي تماماً على مقاومة رجاله. ثم تنزل قوة من رجال المهابط يتراوح عددها بين مائة وثلاثمائة جندي؛ ويفصل بين نزول جندي ونزول الأخر ثلاث ثوان بحيث يهبطون إلى الأرض في جماعات صغيرة. ويحمل كل خمسة منهم مدفعاً رشاشاً صغيراً كما يحمل كل منهم مسدساً، فإن البنادق والمدافع الرشاشة غالباً ما تسبب كسراً في أذرع أو أرجل الجنود الهابطين، فأصبحت هذه المعدات تلقى على حدة في شحنات بواسطة مهابط تقل في مساحتها عن المهابط (البارشوات) العادية سهلة الفتح من تلقاء ذاتها. وبمجرد أن يسيطر جنود المهابط على الهدف المقصود تتصل الوحدة الجوية بالقوة الرئيسية التي تهبط في نظام دقيق. فلا يمضي سوى ساعة واحدة حتى تكون القوة قد بدأت الزحف. أما جندي المهابط فيتلقى تدريباً حربياً يفوق كل ما يناله جندي آخر في الخدمة العسكرية. فالمراد من تدريبه أن يعرف كيف يهبط إلى الأرض دون أن يؤذي نفسه، وكيف يختار أحسن الأمكنة لنزوله. وهو يستعمل لذلك نموذجاً معقداً يبين الأراضي الصعبة ومكانها. والمفروض في كل رجل أن يكون خبيراً بفن الإشارة وقيادة الطائرات. ويجب أن يكون تام التدريب على كيفية استعمال الأنواع الأجنبية من المدافع الرشاشة والأسلحة الأخرى التي يمكن أن يغنمها. من ذلك ترى أنه لا يصلح سوى أشد الناس ذكاء وسرعة خاطر لهذا الطراز من القتال

أسلحة لمركبات الجو

ما برح سلاح الطيران الملكي البريطاني يرفع من شأن المدفعية الجوية من حيث الدقة والمقدرة على الفتك والتخريب. فإن قائد مطاردة من طراز (سبيتفاير) يستطيع بتصويب طائرته نحو الهدف بمساعدة المنظار ثم الضغط على الزر الخاص، أن يطلق 120 طلقة في الثانية من ثمانية مدافع رشاشة مثبتة في جناح الطائرة. وهذه المقدرة

الفائقة على إطلاق النار من مستلزمات سرعة المطاردة التي لا تمكن المدفعي من أن يبقى فوق هدفه لأكثر من ثانية أو ثانيتين في كل مرة يزوره فيها. والمدافع موضوعة بحيث تلتقي خطوط نيرانها على مدى بضع مئات من الأقدام أمام الطائرة. وقد اخترع سلاح الطيران البريطاني (طابية) تركب على القاذفة وبها أربعة مدافع أو أكثر تدور بدورانها وهذا يمكن المدافع من أن تطلق نيرانها في أي اتجاه. وهذه الطوابي توجد على ذنب القاذفة وجسمها ومقدمتها. وتستعمل هذه المدافع كلها أثناء القتال رصاصاً يترك وراءه أثراً. فمقدمة الرصاصة ملأى بمركب فسفوري فإذا انطلق في الجو تركت أثراً واضحاً من الدخان في النهار أو من النار في الليل. فإذا كان بين كل خمس رصاصات واحدة من ذوات الأكثر أمكن للعين أن ترى وتتبع خط الضرب. ولا يخفى أن رؤية الإنسان أين يضرب من الأهمية بمكان عظيم وبخاصة في المدفعية الجوية الحديثة حيث سرعة عمليات الهجوم والدفاع عظيمة يكاد يكون من المستحيل تتبع الهدف في البقعة التي يحددها المنظار

أصديق أم عدو؟

لكل طائرة علامة أو أكثر للتعرف عليها إن كانت صديقة. وهي غالباً ضوء صغير في الذنب والقاع، ويمكن أن يصحبه مفتاح تلغرافي بجانب القائد. وتعطى علامات التعارف هذه للطيارين جميعاً في كل ليلة لتكون بمثابة كلمة المرور بين الطائرات وبعضها أو بين الطائرات وبطاريات المدافع المضادة. فقد يرى قائد في سلاح الجو البريطاني يقوم بأعمال الدورية مثلاً إشارة غريبة في طائرة أخرى مرت به قد تكون معادية. وعندئذ يضئ بإشارة التعارف فإذا رد عليه الآخر بالإشارة المتفق عليها تابع سيره، وإذا لم تكن الإشارة بما يتوقعه تحسس تواً زر مدافعه الرشاشة.

عبد المنعم محمد الزيادي
معهد الصحافة بالجامعة الأمريكية

تابع الفصل الرابع عشر - الصناعات

مياه الآبار في القاهرة مشربة بالملوحة، فيجلب السقاءون الماء من النيل للسكان متعيشين من هذه المهنة. وكذلك يجلبون الماء من الخليج الذي يشق العاصمة أثناء الفيضان، أو بالحرى مدة الشهور الأربعة التي تعقب هذا الخليج. ويجلبونه من النيل في غير ذلك الوقت، وهم ينقلون الماء في مزادات من الجلد على الجمال والحمير، وقد يحملونه على ظهورهم في قرب صغيرة لمسافة قريبة (أنظر شكل رقم 57) ويطلق على المزادة التي يحملها الجمل لفظ (ري) والري زقان واسعان من جلد البقر. ويسمى ما يحمله الحمار (قربة) وتكون من جلد الماعز. ويحمل السقاء كذلك قربة من جلد الماعز إذا لم يملك حماراً. ويسع الري ثلاث قرب أو أربعاً. ويصيح السقاء عادة: (يعوض الله) فيدل هذا الهتاف على مروره. ويكاد أجر السقاء على القربة التي يحملها ميلاً ونصف ميل أو ميلين، لا يتجاوز أكثر من مليمين

ويوجد أيضاً سقاءون يزودون المارة بالماء. ويسمى بعضهم (سقا شربة) (شكل 58)، ويحمل هؤلاء قربة ذات أنبوبة نحاسية طويلة ويصبون الماء للظمآن في طاس نحاسي أو قلة من الفخار. وهناك طبقة كثيرة العدد تمتهن الحرفة نفسها ويسمى الواحد منها (حمليا) (شكل 59) وأغلب هؤلاء دراويش من الرفاعية أو البيومية، وهم معفون من ضريبة الفردة. ويحمل الحملى على ظهره إبريقاً من فخار رمادي يبرد الماء، ويحمل أحياناً قلة من الماء المعطر بماء الزهر المقطر من زهر النارنج، ليقدمه إلى أفضل عملائه. وكثيراً ما يضع في فوهة الإبريق غصناً من النارنج. ويتناول الحملى من أفراد الطبقتين العليا والوسطى قطعة فضة إلى خمس فضة. ولا يتناول من الفقراء شيئاً أو يتناول منهم قطعة خبز أو أي طعام آخر يضعه في جراب يعلقه على جانبه. ويصادف المرء كثيراً من

الحمليين وبعض السقائين في ساحات الحفلات الدينية، كالموالد وغيرها التي تقام في القاهرة وضواحيها. وكثيراً ما ينفحهم زائرو قبور الأولياء نقوداً في مناسبات كهذه

ليوزعوا الماء على الراغبين من المارة. وتسمى هذه الصدقة (تسبيل)، وتكون إكراماً للولي، أو في مناسبات أخرى غير الموالد. ويسمح لهؤلاء السقائين في هذه الأحوال أن يملأ والإبريق أو القربة من (سبيل) عام، لأنهم لا يتناولون شيئاً من المارة. وهم ينشدون لهذه المناسبة لحناً قصيراً، داعين الظمآن ليتناول من هذه الصدقة المقدمة باسم الله فيقولون: (سبيل الله يا عطشان) ويدعون لمن قدم الإحسان أن تكون الجنة والمغفرة من نصيبه فيقولون (الجنة والمغفرة يا صاحب السبيل)

ويوجد آخرون، تماثل مهنتهم مهنة الحملى. ومن هؤلاء، بائع عرق سوس المذكور في فصل سابق. ويحمل العرقسوسي جرة حمراء من الفخار على جانبه الأيسر ويربطها بسير من جلد أو غيره ويسندها بيده اليسرى (شكل 60) كما يحشو فوهة الجرة بليف النخل ويحمل طاسين من النحاس أو قدحين من الصيني أو أكثر يقرعهما معاً. ويتجول كثيراً من بائعي الشراب بالطريقة نفسها. ويحمل بائع الشراب عادة وعاء (الشيشة) الزجاجي ملآن بمنقوع الزبيب في يده اليسرى، وإبريقا كبيراً من القصدير أو النحاس الأحمر، وقللاً زجاجية في يده اليمنى. ويحمل بعضهم صينية مستديرة من النحاس الأحمر المبيض وعليها قلل ملأى من (التين المبلول) أو (البلح المبلول)، (وسطلة) نحاسية أو طاساً من الفخار الصيني. ويباع السحلب أيضاً بالطريقة نفسها، والسوبيا كذلك، وهي من لب عبد اللاوي يبل ويدق ثم ينقع في الماء ثم يصفى ويحلى بالسكر، وقد تصنع من الأرز بدلاً من اللب. وتحمل السوبيا في أوعية كأوعية الزبيب؛ غير أن الأكواب هنا توضع في وعاء من القصدير يشده البائع بحزام إلى وسطه.

ذكرت قبلاً أن كثيراً من فقراء القاهرة يتعيشون من تنظيف الشبك. ويحمل (المسلكاتي) أي منظف الشبك سلوكاً طويلاً لهذا الغرض يضعها في عصى مجوفة ثلاث أو أربع أو في أنابيب من القصدير، يشدها معاً ويعلقها على كتفه (شكل 61) ويعلق مع العصي أو الأنابيب حقيبة صغيرة من الجلد بها ألياف من القنب يلفها أعلى السلك لتنظيف الشبك. ولا يتناول المسلكاتي على تنظيف الشبك الواحد أكثر من نصف فضة يتعيش الكثير من الطبقة

السفلى رجالاً ونساء، في القاهرة وغيرها من مدن مصر، من التسول. والكثير من هؤلاء كما هو المتوقع، دجالون كريهون، فبعضهم يشق مظهره على المرء ولكنه يجمع أموالاً وافرة. وقد حدث منذ شهور قليلة حادث من هذا النوع شاع أموه في القاهرة. ذلك أنه كان هناك فلاح ضرير تقوده ابنته في شوارع القاهرة وهما يكادان يسيران عاريين دائماً. وقد تعود هذا الفلاح أن يدعوا يومياً إلى منزله سائلاً تركياً ضريراً، فيتناول العشاء معه. وفي ذات ليلة غاب الفلاح عن منزله، ولكن ابنته أعدت العشاء للصديق التركي الذي جلس يأكل وحده. وحدث أثناء ذلك أن مد يده إلى جانبه فوقعت على جرة ملآنة نقوداً. فلم يتردد في حملها وهو منصرف. وكان في الجرة مائة كيس وعشرة من قطع الخيرية، وهي قطع صغيرة ذات تسعة قروش، أي ما يساوي حينئذ أكثر من خمسمائة وخمسين جنيهاً. فذهب المجني عليه إلى القلعة يطلب إنصافه، فاستعاد ماله ما عدا أربعين خيرية كان اللص قد أنفقها، وقد حرم التسول على الفلاح بعد ذلك. وكثيراً ما يشاهد المرء في القاهرة الأطفال عراة تماماً. وقد رأيت كثيراً فتيات بين سن الأثنى عشر والعشرين يتسولون في الطريق دون أن يسترهن غير قطعة رثة حول الكشح وقلما يتأثر هؤلاء من برد الشتاء أو حر الصيف لتعودهم ذلك من الطفولة. ويستطيع الرجال أن يناموا في بعض المساجد. وليست حال المتسولين، من وجوه أخرى، سيئة جداً كما قد يرى الأجنبي من مظهرهم. ويكاد المتسولون بلا ريب أن يحصلوا على طعام أو نقود تكفي لسد حاجتهم الضرورية، وذلك نتيجة لميل المصريين إلى الإحسان، وتعود التجار تناول الطعام في دكاكينهم وإعطاء السائلين شيئاً منه. وهناك متسولون ينفقون جانباً كبيراً مما يجمعونه صباحاً في التمتع بتدخين الحشيش ليلاً فيتخيلون أنهم أسعد الناس

ولا تخرج صيحات المتسولين في القاهرة عن دعاء الله. ومن أكثر الأدعية شيوعاً قولهم: (يا محنن يا رب!) (لله يا محسنين) (أنا طالب من عند ربي رغيف عيش) (يا مانت كريم يا رب) (أنا ضيف الله والنبي). وقولهم مساء: (عشاي عليك يا رب) وفي ليلة الجمعة: (ليلة الجمعة الفضيلة) وفي يوم الجمعة: (يوم الجمعة الفضيلة). وكان هناك متسول، تعود أن يمر بداري يومياً، يقول: (توكلت على الله! لا الله إلا الله) وإني

أسمع الآن متسولة تصيح: (عشاي عليك يا رب. من أيدي مؤمن كريم موحد بالله. يا أسيادي!). ويرد الناس
المتسولة عادة، إذ أنهم كثيرون بحيث لا يمكن المرء أن يعطي كل من يسأله، بقولهم: (الله يساعدك). (الله يرزق). (الله يعطيك). (الله يعينك). ولا يرضى السائل برفض لا يتضمن ما سبق ذكره أو ما يماثله. ومن المعتاد أن يرى المرء أشد الشوارع ازدحاماً سائلاً يطلب ثمن رغيف عيش يمسكه في يده بينما يتبعه بائع الخبز. ويتجول بعض السائلين ولا سيما الدراويش، وهم ينشدون قصائد في مدح النبي صلعم، أو يدقون الصنوج أو طبلة صغيرة. ويتجول الدرويش بين الريف للتسول. وقد رأيتهم يعتلون الجياد. كما شاهدت أخيراً أحدهم يتنقل بين الأكواخ على جواد يستجدي الخبز ويصحبه رجلان يحمل كل منهما بيرقاً، وثالث يقرع طبلاً
(يتبع)
عدلي طاهر نور
-
في ظلال النيل
أنس الوجود
!. . .
!يا شِراعاً عَبَر الْماضِي إلى وَادِي الْخُلودِ
وَتَهادى في حِمَى فِرْعَونَ مَرفوُعَ البُنُودِ
وَمَضَى في مَوْكِبِ الذّكْرى إلى دُنْيَا جُدُودي
!مِلْ مَعَ الْمَوْجِ بِنَا. . . هَاهُنَا أنْسَ الْوُجُودِ
!هَيْكلٌ غَنّى لهُ الدَّهرُ أناَشِيدَ الْجَلالِ
وَبَناُه في ظِلاَلِ النيلِ أبنْاَء الَمعالي
!وَرَعاهُ الْمَجدُ فَوْقَ الأرْضِ عُنْوانَ المُحَالِ
!!هَاهُناَ أغْفَتْ مَعَ الأمْوَاجِ أحْلاَمُ اللَّيالي
!مَاَلتْ الشّمْسُ عَلَى أعْتَابِهِ عِنْدَ الْغُروبِ
!!وَسَجا اللَّيْلُ فأصْغَيتُ إلَى هَمْسِ الْغُيُوبِ
مَوْكبٌ يخَتْاَل في عِزّتهِ مَجْدُ الشَّعُوبِ
!وَرُؤى مِنْ فِتْنةِ الْوَادِي وَأحْلاَمِ القُلُوبِ
يَا خَيَالي عُدْ إلىَ مَاضٍ مِنْ الْمَجدِ تليدِ
!وَاسْتمِعْ هَمْسَ الْمَعَالي مِنْ فَمَ الأمْسِ البَعِيد
!وامْضِ بي فِي رَكْبِ فِرْعَوْنَ أغَنِّى بِنشيدِي
!وأحَيِّى مَا بَنَاهُ في حَمِى النِّيلِ السَّعيدِ
!عُمُدٌ عَزَّتْ عَلَى الأرْضِ بأسْرَارِ السَّماءِ
!وسَقاهَا النِّيلُ مِنْ أمْوَاهِهِ مَعْنَى البَقاَءِ
!وَحَمْتهَا عَزْمَةُ الأبَطالِ مِنْ شَرِ الْفَنَاءِ
!فَتَسَامَى في حِمَاهَا الْمَجْدُ خَفّاقَ اللِّوَاءِ
!وَجَرَى في ظِلِّهَا النِّيلُ نعَيماً وَسَلاَماً
!وَجَمالاً يَمْلأُ الشَّطيْنِ حُباً وَهُيَامَاً
!الأغَارِيدُ كُؤُوسٌ. . . وَالصَّناَدِيدُ نَدَامَى
!فِتْنَةُ الْحَاضِرِ في الدُنْيَا وَمَعْبوُدُ الْقَداَمَى
!وَمَضَى يَنْسَابُ نَشْوَانَ بِخمْرٍ وَعَبيرِ
!منْ دُعاءِ الشَّعْبِ مَجْراهُ وَمِنْ لحنِ البَشيرِ
!فاحْتمَى في ظِلِّهِ الْمَكدُودُ مِنْ حَرِّ الْهَجِيرِ
!!وَتلاقى مَجْدُناَ الأوَّلُ بِالْهَجْدِ الأخِيرِ
!يَا شِرَاعاً عَبَر الْماضِي إلى وَادِي الْخُلودِ
وتَهَادَى في حِمَى فِرْعَوْنَ مرْفوُعَ البُنُودِ
وَمَضَى في مَوْكِبِ الذِّكْرِى إلى دُنْيَا جُدودِى
!مِلْ مَعَ الْموْجِ بِناَ. . . هَاهَنَا أنْسُ الْوُجُودِ
(القاهرة)
محمود السيد شعبان

البريد الأدبي
هل هو نوارد الخواطر؟
المنابع الثرة التي تفيض منها جداول التفكير البشري قاطبة هي في حقيقة الأمر واحدة؛ وهذه المنابع الفياضة هي هذه العواطف المشاعة بين بني الإنسان كافة من سرور وحزن وحب وبغض، وأمل وألم. الخ.
فهذه العواطف المشاعة بين كل الناس وهي التي تسيطر على اتجاهاتهم النفسية فتنعكس صورها على - مرايا - ما ينطقون وما يكتبون، والاختلاف والتمايز في الكتابة والمنطق إنما يجيئنا من بعد ذلك فهما ينتجان من طرق التعبير والتصوير، ومقدار استيعاب الفكر والقلم لما تلتقطه عدسة المخيلة من صور وأشباح وانطباعات وتأثرات. وفي هذا الميدان تتبارى فرسان الكلام، فيتقدم سابق، ويتأخر لاحق؛ وفي هذا المجال نتعرف بلاغة البليغ وإسفاف المسف ولون كل منهما. ذلك لأن لكل واحد منهم مشربه الخاص لا يشاركه فيه سواه وإن اتحدت الغايات والمعاني في أغلب الأحيان. وعلى هذا فإننا إذا وجدنا مقالتين أو قصيدتين اتحدتا في كل شيء في اللفظ والأسلوب والمعنى فيحق أن يستوقفنا هذا الاتحاد. لأنه إما أن يكون منشؤه من (توارد خواطر) نادر المثال. أو من هجوم أحد الكاتبين أو الشاعرين على نتاج زميله وهذا ما يدعى بالسرقة في اصطلاح أهل البيان
أثار هذه الخواطر سياحة عملتها في ديوانين حديثين هما (الملاح التائه) للأستاذ الشاعر المبدع علي محمود طه. و (نسمات الربيع) للأستاذ صالح الحامد العلوي
وبحق أقول، إن كلا الديوانين خصب ممتع للنفس والفكر، وكلا الشاعرين مجدد أو يحاول التجديد فيما هو بسبيله. وقد راقتني في أثناء (سياحتي) هذه قصيدة في أول الديوانين بعنوان (غرفة الشاعر) تبدت لي في جمالها الخاص واتساقها وروعة فنها كالروض الأغن باكره الغيث في أيام الربيع فابتسمت زهوره من فوق الغصون فتنة للناظرين
وقد تلوت هذه القصيدة مراراً فيما بيني وبين نفسي وأنشدتها تكراراً لبعض زملائي من الأدباء وحازت من إعجابنا جميعاً ما جعلنا نبتاع الديوان الذي يضم (باقتها) العاطرة تقديراً لأريجها الفواح
ثم ماذا؟
ثم بعد أيام تناولت ديوان (النسمات) وسحت في رياضه وغياضه مستقبلاً عذب نسماته، فإذا بي أعثر فيه على قصيدة تماثل تلك التي اقتطفتها من روض (الملاح التائه، أو بحره. وهي تحمل عنواناً دانياً من عنوانها هو (صباح الشاعر، وتحمل معاني وأهدافاً ووزناً وألفاظاً مثلها. فأستوقف نظري هذا (التماثل) الغريب واحتار فكري أمام هذا - الاتحاد - المريب. فهل هو يا ترى من باب (توارد الخواطر أو يدخل في (الباب الآخر)؟
(مكة المكرمة)
عبد القدوس الأنصاري
أيها الشاعر استفق ذهب الليل ... فقم ويك حي نور صباحك
الرسالة والورق
لِمَ يا أيامُ غيْبتِ الرسالةْ ... مشرع الحق الذي أجرى زلالةْ
والربيعَ الطلق في إشراقه ... ناشراً في صفحةٍ الكون جمالةْ
والسنا اللماحَ في أنواره ... ضربَ العِلم على أيدي الجهالةْ
لئن غابت فمن ... بعدها يحملُ أعباءَ الرسالةْ؟ (ورق الطبع)
مصطفى علي عبد الرحمن
في العلاقة اللفظية بين اللغات
إن التشابه اللفظي بين بعض كلمات من لغات مختلفة، حقيقة قد تثير الدهشة لدى الكثيرين؛ ومن السهل والطريف معاً تتبع ذلك عند من يلم بأكثر من لغة واحدة. على أن التعليل لهذه الظاهرة يسير واضح يتلخص في أن الحروف التي تتحرك بها عضلات اللسان محدودة لا تتجاوز الثلاثين، في حين تتنوع لغات البشر وتتعدد، ويرتفع عدد الكلمات في بعضها إلى عشرات الألوف ومئاتها. فإذا قلنا نحن (نير) مشيرين إلى هذه الأداة التي توضع على عاتق الثور، قال الإنجليزي يعنون الداني أو القريب. . . وهكذا.

ويبدو لي أن عالمنا اللغوي الكبير الأستاذ (الأيوبي) يستقري أمثال هذه الكلمات الأعجمية - خلال بعض إجاباته - قاصداً ردها إلى أصل عربي قد لا يرتبط بها في شيء إلا أن
يشبهها في بعض الحروف.
ونحن مع شكرنا له على غرضه النبيل من هذا المجهود نقرر أن أصحاب كل لغة هم أدرى الناس بمنابع ألفاظها وأصول اشتقاقها. فذا قلنا للفرنسي إن كلمتكم مأخوذة من كلمتنا (سليط)، فأنكر وقال: بل هي مشتقة من بل هي مشتقة من كان من الواجب علينا أن نكذب أنفسنا ونصدقه، ما لم تكن حجتنا على هذا الأخذ قوية.
. . .!فكيف والظاهر يؤيده والتاريخ اللغوي يصدق زعمه؟
هل يريد أستاذنا الكبير أن يقول إن العربية أقرب إلى هذه اللغات من أصلها اللاتيني؟. ذلك ما لا نظنه . ..
وإننا حين نكتفي من المعجم الأوربي بقوله إن لفظة (كذا) مشتقة من الأصل اللاتيني أو اليوناني (كذا) يجب ألا نكتفي ممن ينسب هذا إلى العربية بغير الدليل التاريخي القاطع، ولا عبرة بالمشابهة اللفظية كما أوضحنا.
يضاف إلى هذا أننا نجد الألفاظ العربية الدخيلة في هذه اللغات منصوصاً عليها في معاجمها، مع ذكر خطوات اشتقاقها إن أمكن تتبعها، فلم يعد من حقنا بعد كل هذا أن ننسب إلى لغتنا لفظاً أجنبياً، ما لم تنص على ذلك معاجم القوم، أو يقم الدليل القاطع من عندنا على صحة نسبته إلى لغتنا. . .
ذلك رأيي الخاص في هذا الموضوع، وللأستاذ الكبير أن يؤيده أو يفنده. وأعود إلى إجابته الأخيرة عن (المقرونة) وما ذكره من أنها هي التي يقال لها اليوم مكرونة: إن هذا كلام يعوزه الدليل وتنقصه الحجة القاطعة. والذي تذكره المعاجم الموثوق بها، ويؤيده العقل أن هذه اللفظة الإنجليزية تحريف للاسم القديم الأخير مشتق من الفعل.
يسحق أو يتيسر لنا أن نثبت وجود علاقة صحيحة بين المقرونة العربية وهل كانت المقرونة - وهي التي يقول الأستاذ إنها من طعام أهل الجاهلية - معروفة لدى الشرقيين بنفس الاسم، عندما اتصل بهم الإيطاليون، وبادلوهم منافع السلم وفواجع الحرب؟
ذلك ما نطالب أستاذنا الكبير بإثباته قبل التسليم له بوجهة نظره، وثمة شيء آخر أحب أن أذكره، وهو أن الإنجليز يطلقون اسم الشعر على نوع من النظم الفكاهي عندهم يتألف من مزيج من الألفاظ بعضها أوربي حديث وبعضها لاتيني قديم. وفي قاموسنا المحيط
للفيروزبادمي نجد ما نصه: والمقرون من أسباب الشعر ما اقترنت فيه ثلاث حركات بعدها ساكن، كمُتفا من متفاعلن وعلتُن من مفاعلتن) فهل الشعر (المكروني) عندهم منقول من شعرنا هذا المقرون؟! إن الأخذ بمجرد التشابه في اللفظ قد يدفعنا إلى إصدار ذلك الحكم؛ وما نشك أن السير في تلك السبيل ينتهي بنا إلى تسجيل مفارقات مضحكة لا نستسيغها إلا أن تجيء على سبيل الإضحاك ليس غير. أما أن نقصد بها الجد كل الجد، ونرمي بالنظر فيها إلى البحث العلمي الصحيح، فذلك أمر فيه نظر. وأي نظر
وفي انتظار (إجابة) أستاذنا (الوحيد) نتوجه إليه بعاطر التحية وأذكى السلام.
محمود عزت عرفة
تكريم كتاب تركيا
من أنباء استانبول أن معالي حسن علي يويل وزير المعارف التركية افتتح الاحتفالات بالعيد الخمسيني الذي أقيم في جامعة استانبول لتكريم كتابها الذين ظلوا 50 عاماً يسدون الخدمات الجليلة للأدب التركي
وقد بدأ معظم الكتاب المحتفل بهم حياتهم الأدبية رازحين تحت نير أسوا عصور العسف والجور أيام حكم السلطان عبد الحميد الذي كان يخاف ويخشى جميع ألوان التثقيف، ويقف سداً منيعاً في سبيلها. أما احتفال أمس فقد جرى في جو على نقيض ذلك العهد الغابر
وكان في طليعة المحتفل بهم الأساتذة حسين جاهد يالشين الكاتب والروائي الشهير وهلال زيا والشاعر محمد أمين

وقد ألقى الأستاذ حسين يالشين خطاباً أشار فيه إلى الأوقات العصيبة. ثم نصح الشباب بألا يصغوا إلا إلى صوت ضميرهم فقط وأفضى الأستاذ بعد انتهاء الاحتفال بحديث إلى وكالة الأنباء العربية قال فيه: (إن حوادث اليوم واحتفالاته لهي خير جزاء عن الخمسين عاماً التي قضيتها أميناً على خدمة مثلي العليا وضميري)

الوطن والوطنية

ألقى حضرة صاحب العزة الدكتور محمد صلاح الدين بك رئيس (لجنة ترقيه التمثيل والسينما) حديثاً من محطة الإذاعة اللاسلكية عن الوطن والوطنية بمناسبة تمثيل الفرقة المصرية رواية (الوطن) للكاتب الفرنسي المعروف فكتوريان سارد وقد استهل حديثه القيم بأبيات حماسية من الشعر العربي في تمجيد الوطن وببعض الأحاديث النبوية والحكم النثرية. وقال إن الأدب شعراً ونثراً وكذلك القصة المسرحية تفيض بحوادث البطولة والتضحية في سبيل الوطن. ثم تحدث بعد ذلك عن رسالة الفرقة المصرية للتمثيل والسينما وواجبها نحو تثقيف الشعب وبسط موضوع رواية الوطن. واختتم حديثه قائلاً: (مثل هذه الرواية جديرة بالمشاهدة واستقصاء الحوادث. ولعل فيها اليوم مثلاً بليغ الدلالة على سمو النفوس التي تعاني البلاء في سبيل نصرة الحق والعدل وإعلاء كلمة الديمقراطية والحرية)

من شعر حافظ المنسي

ساق إلى القدر هذه القطعة الفكاهية النادرة من شعر المرحوم حافظ إبراهيم في صحيفة من مجلة قديمة قدم إلى فيها أحد الباعة بعض الحاجات، وهذه القطعة لم تنشر في الديوان القديم ولا في الجديد

واعتقد إن الدكتور مبارك ربما كان يعلم من يعرض به المرحوم حافظ في أبياته، وهذه هي الأبيات:

حدثونا بأن قرداً مُسِناً ... لبس الخزَّ مرة واختالا
وأتى للطيور في يوم عيد ... وهي من بهجة تفيض جمالا
قال إني أبو الجمال وثوبي ... شاهد جل صدقه وتعالى
قالت الطير: أيها القرد مهلاً ... أنت تبغي من الحياة محالا
كل ثوب إلى البلى ثم يبقى ... جوهر النفس للعيون مثالا
أنت قرد وإن سرقت من الطا ... ووس ذيلاه ومن حلاه جمالا

أحمد محمد حمد

الوطن

كانت الجيوش الأسبانية تحتل بلاد الفلمنك (بلجيكا وهولندا) حوالي عام 1567، وكان الدوق (ألب) نائب العاهل الأسباني لا يتورع هو وصحبه عن أن يذيق الأهلين كل أنواع التعذيب والموت والدمار؛ وكانت بروكسل عاصمة بلجيكا قد تحولت إلى معسكر لهم، وكان الوطنيون والخارجون على الكنيسة الكاثوليكية يزجون في السجون. ولكن هذا التعذيب لم يفت في عضد الوطنيين، ولم يثن عزمهم عن الكفاح والتضحية في سبيل الوطن

هذا هو موضوع رواية الوطن التي ألفها الكاتب الفرنسي المعروف فكتوريان ساردو وترجمها وأخرجها الأستاذ زكي طليمات وقدمتها الفرقة المصرية للتمثيل والموسيقى على مسرح دار الأوبرا الملكية في الأسبوع الماضي.

وقد أشترك في تمثيل هذه الرواية أقطاب التمثيل في الفرقة وفي مقدمتهم الأساتذة: حسين رياض، أحمد علام، زكي رستم. عبد العزيز خليل. عباس فارس. والسيدات: إحسان شريف وروحية خالد وغيرهم. وقام الممثلون جميعاً بأدوارهم على أكمل وجه ووفقوا كل التوفيق في أداء أدوارهم. وكأنما خلق كل منهم لتمثيل الدور الذي أسند إليه. وتلك غاية المقدرة فيما نرى

أما الإخراج فقد جاء آية بينة على مقدرة الأستاذ زكي طليمات المدير الفني للفرقة وإنه لجدير بكل تقدير وإعجاب

ولا يسعنا بعد ما ذكرنا إلا أن نقدم أصدق التهاني إلى القائمين على أمر الفرقة المصرية وعلى رأسهم صاحب العزة الأستاذ محمد صلاح الدين بك، ونتمنى للفرقة

نهضة مباركة وتقدماً مطرداً في عهدها الجديد
عبد الفتاح متولي غبن
العدد 503 - بتاريخ: 22 - 02 - 1943
نحو من النحو!
للأستاذ عباس محمود العقاد
نعلم ما كتبتموه، عن العلاقة بين كبرياء المتنبي وولعه بالتصغير في الهجاء، وإنه . . .)
أكثر ما يُرى مصغراً حين يهجو مغيظاً مخنقاً أو يستخف متعالياً محتقراً كما يقول عن
كويفير والخويدم والنويبية والأحيمق والأعيّر والشويعر وأهيل والزمان وأهيل العصر
إلى آخر هذه الأمثلة التي أكثرتم من ضربها
وقلتم (أنه إذا لم يصغر المهجوّ باللفظ صغره بالمعنى، فكان أعداؤه اللئام عنده شيئا
قليلا كما قال:
يؤذي القليل من اللئام بطبعه ... من لا يقلكما يقل ويلؤم
وإنه قد يلعب بهذا الإحساس المائل في نفسه على الدوام لعب المرء بعادة مغروسة
فيه فيتخذ منه نكتة نحوية كقوله
على ذكر ابني عضد الدولة:
وكان ابنا عدو كأثراه ... له ياءي حروف أنيسيان
يريد أن يقول: إذا كاثر العدو عضد الدولة بابنين كابنيه فجعل الله ابني العدو كياءين
تضافان إلى كلمة إنسان فتزيدانه في عدد الحروف وتنقصانه في القدر.
ثم قلتم: وهذا غير غريب من رجل شديد الإحساس بالصغر واعتاد التصغير باللفظ
وعرف عنه إدمان الاطلاع على كتب النحو).
وقد اطلعنا أخيراً على مقالة في مجلة الثقافة لبعضهم يقول فيها: إن هذا من طغيان)
النفسانيات على الأدب، وأن التصغير في شعر المتنبي لم يكن لتكبره وإنما هو أداة
من أدوات الهجاء يعرفها شعراء هذا الفن في الأدب العربي وفي غيره من الآداب:
أداة لصيقة بفن أدبي بذاته لا وليدة لطبيعة نفسية عند من يستخدمها، وليست هناك
رابطة تلازم بين التكبر والتصغير حتى ولا في شعر المتنبي نفسه لأنه قد يستخدمه
للتعظيم كما قال:
أحاد أم سداس في أحاد ... ليلتنا المنوطة بالتنادي
إلى آخر ما جاء في مقالة الثقافة.
فهل لكم أن تدلوا برأيكم في تعقيب الكاتب لأنه تفسير لرأيكم وفيه بيان لمسألة من
مسائل
النفسيات والأدب؟. . . الخ)
محمد جابر
والذي نراه في التعقيب الذي أشار إليه الأديب أن استعمال التصغير للتعظيم لا يبطل
استعماله للتحقير، وأن صيغة التصغير ليست أداة لصيقة بكل هجاء كما جاء في مقال
الكاتب بمجلة الثقافة، فلا يزال استخدام المتنبي هذه الصيغة بتلك الكثرة التي لم تعهد
في شعر غيره أمراً يرجع إلى خلائقه الشخصية ويرجع البحث فيه إلى النفسيات التي
لا انفصال بينها وبين الأدب، لأن الأدب قبل كل شيء تعبير عن شعور، وليس أولى من
النفسيات بالبحث في كل شعور.
فليست صيغة التصغير أداة لصيقة بالهجاء، ولم نرها قط بهذه الكثرة في أشعار
الهجائين المنقطعين لهذا أو المشهورين به قبل سائر الأبواب.
والمتنبي لم يكن من شعراء الهجاء المشهورين به في اللغة العربية، وإنما اشتهر به
شعراء آخرون كالحطيئة وجرير والفرزدق ودعبل وابن الرومي على التخصيص.
فلم لم يكثر التصغير في أشعار هؤلاء الهجاءين؟
ولم كان المتنبي منفرداً بهذا الإكثار؟
مرجع الأمر إليه لا إلى الهجاء، وأقرب شيء أن يخطر على البال أنه صبغ هجاءه
بصبغته النفسية فأختلف من هذه الناحية لأنها هي ناحية الاختلاف بينه وبين غيره من
الهجائيين
على أن الهجاء ضروب وليس ضرب واحد في اللغة العربية أو فيما عداها من اللغات
ومرجع الأمر في تعدد ضروبه إلى تعدد النفوس وتعدد الأمزجة وتعدد الشعور الذي

يشعر به الهاجي نحو من يهجوه
فهناك هجاء الرجل الوضيع المهين
وهناك هجاء الرجل المتكبر العزيز
وهناك هجاء الرجل المهذب الشريف
وهناك هجاء الرجل المتوقح البذيء
وهناك هجاء التهكم والسخرية، وهجاء العنف واللدد، وهجاء النقد وهجاء الإيذاء
ومناط التفرقة بينها هو النفسيات وما تشمله من فوارق الحس والعاطفة، وليس
المرجع فيها الى باب في علم النحو يتكلم على مواضع التصغير
وأعجب شي يقال هو أن المتنبي لم يستصغر المهجوين ولم يكثر من التصغير لأنه
متكبر، بل أكثر منه لسبب أخر. . . ثم لا يدري أحد ما هو ذلك السبب آخر؟
لم يمتنع الاستصغار بسبب التكبر؟ ولم لا يكون التكبر سبباً للاستصغار؟ أي عجب في
ذلك؟ بل أي مخالفة فيه للمعقول والمعهود! بل أي شي أقرب منه إلى الفهم
والتعليل؟
أيمتنع هذا القول لأنه من النفسيات وكل ما كان من النفسيات فهو ممنوع غير مقبول؟
أيمتنع لأن قراراً مجهولاً لا نعرف نحن مصدره قضى بمنعه وتحريمه وإقصائه من عالم
الفرض والتقدير؟
إننا لا ننفي أن المتنبي كان متكبراً مطبوعاً على الكبرياه، ولا ننفي أن التكبر مطبوع
على أن يستصغر الناس، ولا ننفي أن صيغة التصغير تستعمل للتصغير والتحقير، فلماذا
ننفي ولع المتنبي بالتصغير مرجعه إلى طبيعة الكبرياء فيه؟
لماذا؟ للنفسيات التي يسمع باسمها من يسمع فيظن أنها حجاب حائل بين المتنبي
والاستصغار بصيغة التصغير؟
أما أن المتنبي قد أستعمل التصغير للتعظيم والتكبير، فهو إذا صح لا يمنع أن التصغير
يستخدم أيضاً للتصغير، بل هو الأصل والتعظيم مجاز عارض عليه
يقول أحد إنني رأيت المليمات في أيدي الفقراء، فيجيء سامع بالنفسيات - أو قل
سامع بالاقتصاديات - فيقول: كلا. كلا. هذا بعيد! هذا غير معقول! هذا إقحام
للاقتصاديات في شئون الحس والعيان! لأنني رأيت بعيني المليمات في خزانة
المصرف الكبير، وفي خزانة الغني العظيم!
نعم ظريف كذلك الكلام الذي يبطل باب التصغير للتصغير جملة واحدة لأن التصغير قد
أستعمل حينا في معنى التكبير. . .!
على أن البيت الذي قيل إن المتنبي خالف به هذه السنة لا يدل بمعنى من معانيه على
أنه قد نسى فيه الكبرياء أو نسى عادة الاستصغار
فهو يقول في وصف الليلة التي ضاق بها:
أحاد أم سداس في أحاد ... ليلتنا المنوطة بالتنادي
ومن الميسور أن يلحظ القاري لهجة التأفف في تصغيره تلك الليلة المبرمة، كأنه
يستكبر أن يعروه الضيق من ذلك الشيء الصغير، وإن لج به المطال
وهبه مع ذلك كان ينوي التعظيم والتقديس لتلك الليلة المبرمة ولا ينوي أن يتأفف منها
ويستكثر عليها أن تبرمه وتثقل عليه، فهل كلمة في قصيدة واحدة تبطل عشرين كلمة
في عشرين قصيدة!؟ وهل يحصل كل هذا لأجل خاطر (النفسيات) قدس الله سرها
وبارك في عمرها!
ولقد كان كثيراً من كاتب المقال الذي أشار أليه الأديب صاحب الخطاب أن يزعم أن
الحقير والتكبير في صيغة التصغير يتساويان، فأما أن يقول إن التحقير هو الممتنع
الذي لا يقبل، وأن الاستصغار من جانب التكبر المطبوع على الكبرياء هو الغريب
المريب فتلك نفسيات لله درها من نفسيات!! وفنون حماها الله من فنون!!
وما نشك في أن الأديب (محمد جابر) رجل يريد أن يضحك ولا يريد في الحقيقة
تفسيراً لما هو غني عن التفسير؛ فإن لم يجد شبعه من الضحك في طراز تلك
النفسيات ومعرض تلك الفنون فغاية ما عندي من القول أن المتنبي رحمة الله لم
يشرفني بأمانة سره، ولم يطلعني على دخائل صدره، فإذا كان قد ذكر لبعضهم أنه لم
يولع بالتصغير لقصد التصغير فهو وذمته فيما ادعاه، وللأديب عليه اليمين الحاسمة إن
تردد في قبول دعواه!. أما نحن فغاية ما نعلمه أن المتنبي كان رجلا متكبرا، وأن

المتكبر يستصغر الناس فلا عجب أن يولع بصيغة التصغير. وهذا حسبنا وحسب القاري فيما زعمناه

عباس محمود العقاد

القوة الفردية هي أساس القوة الاجتماعية

رسالة مهداة إلى معالي الأستاذ عبد الحميد عبد الحق وزير (الشؤون الاجتماعية)

للدكتور زكي مبارك

في العام الأسبق نشرتُ مقالات عن الفقراء والأغنياء تقوم على أساس القول بأن الفقر مرض ولكل مرض أسباب، وأن الغنى عافية ولكل عافية أسباب

وقد قوبلت تلك المقالات بالاستنكار من كل جانب، وعدّها الناس تحاملا على الفقراء، وتلطفاً مع الأغنياء، مع أني كتبتها لوجه الله والحق، ولم يكن هناك باعث غير الرغبة الصحيحة في عرض أراء قد اقتنعت بصحتها كل الاقتناع

ثم مرت شهور طوال وأنا أفكر في أسباب غضب الجمهور على تلك المقالات، فلم أجدها ترجع إلا لسبب واحد: هو مجاراة النزعة الموروثة في الترفق بالفقراء، والغض من أقدار الأغنياء، فقد مرّت أزمان والناس لا يقرأون غير كلمات معسولة في الدعوة الى الرأفة والرحمة والبر والحنان فيما يتصل بمعاملة الفقراء، وكلمات مسمومة في إنذار الأغنياء بعواقب الحرص على كنز الأموال

وأقول أن هذه الألوان الكلامية كانت تليق بزمان غير هذا الزمان، يوم كانت الكلمة اللطيفة تنفع الفقير بعض النفع لما فيها من المواساة، ويوم كانت الكلمة القاسية تصدُّ الغنيّ عن المبالغة في طلب الجاه والمال

أما اليوم فقد تغيرت مذاهب الحياة أشد التغير، ولم يبق للكلام المعسول أي قيمة في مواساة الفقراء، ولم يعد للكلام المسموم وزن في تقويم الأغنياء

نحن في زمن الحقائق، وليس للكاتب المرائي في هذا الزمن مكان.

نحن في زمن الحقائق، والحقائق تنطق بأن الفقر مرض، وأن الغنى عافية. والمريض الذي لا يبحث عن أسباب مرضه ليتجنبها هو مريض في طريق الموت

يجب أن نقنع كل فرد بأن الغنى طوع يديه إن أراد

يجب أن نقنع كل فرد بأن الوصول إلى الرزق ليس من المشكلات، فجهاد ساعتين اثنتين

من كل يوم يكفي للظفر بالزاد الذي يغني عن سؤال الناس

وميادين الحياة في كل أرض تتسع للعيش، العيش الذي يطلب بالعمل لا بالسؤال

إن الفقر هو انعدام الرزق، والغنى هو وجود الرزق

أقول هذا لأدفع وهما من أسخف الأوهام، وهو الوهم الذي يقول كاذباً بأن الأغنياء هم الذين يملكون القصور والبساتين، وأن الفقراء هم الذين لا يملكون قصوراً ولا بساتين

العامل الذي يكسب خمسة قروش في اليوم ليدخل على أهله في المساء ومعه القوت الحلال من الخبز والبصل والفول هو من كبار الأغنياء

والخادم الذي يصدُق في بيت مخدومه ويقدّم لأهله في كل شهر عشرات القروش هو من كبار الأغنياء

الغني الحق هو انعدام الاحتياج الى الصدقات، فما تجوز الصدقة إلى على من يحرم القدرة على الكسب الشريف

ومن قال غير هذا القول فهو كاتب يتملق المجتمع ويطمع في شهرة محرّمة، والشهرة كالرزق فيها حرام وحلال

إن التباكي أو البكاء لن ينفع الفقراء بشي، ولو جمعت دموع الباكين من الكتاب والشعراء والخطباء لكانت أقل من أن تملأ كوباً ينفع غلة فقير ظمآن

أدباؤنا لن يؤدوا رسالتهم الأجتماعية إلا يوم يستطيعون إقناع الكنّاس بأنه يؤدي مهمة وطنية

لو كان في مصر أدبٌ اجتماعيٌّ صادق لكان من ثماره أن يتغنى الكنّاس بفضل مكنسته وهي من أظهر شواهد المدنية

ولكن الكناس يجد من أدباء مصر من يبكي على مصيره بكاء التماسيح

الغبار يؤذي الرئتين فيورث السل

كذلك قال الأطباء
فهل سمعتم أن كناساً مات بالسل؟
إن الله يحمي الكناسين، لأنهم يؤدون خدمة عمومية، ولم يبقى إلا أن يفهم الكناسون هذا المعنى، ليدركوا أنهم جنود جندهم الوطن لخدمة الإنسانية
وقد طال تباكي الأدباء على الفلاحين، فهل في أدبائنا من يفهم أن الفلاحين في غنى عن تباكيهم المصطنع؟
قالوا أن الفلاح يبيت مع الجاموسة في حظيرة واحدة، وفاتهم أن المبيت مع الجاموس أطهر وأشرف من المبيت في غرفه مفروشة بأحد المنازل التي يعرفها المتأنقون من أدباء هذا الجيل الظريف!!
إن حياة الفلاح في صحبة مواشيه حياة تفيض بالروح والوجدان، فهو ينظر الى مواشيه برفق يعادل نظره إلى أبنائه الأعزاء، وهو يسهر حول حظيرة ثوره حين يمرض، كما يسهر حول فراش أبنه حين يمرض، وهو لا يسمح بذبح ماشية مريضة إلا طاعة لعقيدة توحي إليه أن من الإساءة للحيوان الأليف أن يموت موت (الفطيس) وكذلك تكون المسارعة الى ذبح الحيوان المريض باباً من التكريم، لا ضرباً من الاستغلال
على هذا النحو من الفهم كانت الحياة في الريف، فقد رأيت ناساً يسهرون ومعهم مصباح حول ثور مريض، كأنهم يتوهمون أن المصباح يؤنسه بعض الإيناس. وتلك صورة تشهد بصدق الفطرة المصرية في إدراك منافع الطير والحيوان
والذي يفهم الريف حق الفهم يدرك السبب في عبادة المصريين القدماء للأنعام، وهذه العبادة فهمت على غير وجهها الصحيح. فما كان الغرض أن يكون البقر آلهة يعبدون من دون الله؛ وأنما كان الغرض أن يكون تقديس البقر نوعاً من صيانة النعمة الربانية، على نحو ما يصنع الفلاح المسلم حين يترك فتات الخبز في الطريق، لأنه يرى من كفر النعمة أن تداس بقايا الخبز بالأقدام
إن البقرة والثور من العناصر الأصلية في الثروة المصرية، ومن أجل هذا المعنى كانت هاتور وكان أبيس من المعبودات في زمن الفراعين. وعن مصر أخذت عبادة البقر في الأقطار الهندية، وتلك وثنية تستحق العطف، إذا فكرنا في سببها الصحيح
وقد حدثني سعادة الأستاذ طه الراوي أن الحجاج كان يحرِّم ذبح البقر، وأنشد أبياتاً قالها العراقيون في السخرية من هذا التحريم، فعمن أخذ الحجاج ذلك البدع الظريف؟ هل أخذه عن مصر؟ هل أخذه عن الهند؟
لا هذا ولا ذاك، وإنما أستوحي المنافع الحقيقية للبقر في بناء العمران
ونحن في هذا العهد نسرف في أكل اللحوم إسرافاً يحمل الحكومة على تقييد بيع اللحوم، وإن تمادينا على هذا الحال فستزول المعاني الشعرية التي يحسها الفلاح في رعاية مواشيه، وسيمسي الفلاح وهو آلة في أيدي الجزارين!
فهل يجوز بعد هذا الكلام أن يتمادى الكتاب المتحذلقون في تعبير الفلاح بأنه ينام في حظائر الأبقار والجواميس؟
إن لله حكمة في أن يجعل لنا أصدقاء نافعين من الطير والحيوان، أصدقاء لا يطالبون بشي، ولا يثورون على الحرمان!
كان أحد ملوك فرنسا يقول إن الذي يهمني أن يعم الرخاء بحيث يجد كل فرنسي دجاجة لمائدة يوم الأحد. . . والرخاء عندي أن يكون في دار كل فلاح بقرة أو جاموسة، فمتى نذيع هذا المعنى بأقلامنا؟ ومتى نترك تعييره بمصاحبة المواشي؟
كانت بيوت المياسير من أهل القاهرة تشتمل على حظيرة للأنعام، وكان هذا يلاحظ في تخطيط البيوت، فهل ترجع هذه النزعة السليمة، ولو في البيوت التي تقام في الضواحي؟
وكان الفرن ملحوظاً في كل بيت، ثم تمدَّنا فكانت العاقبة أن ذمم الخبازين!
وكانت أكثر البيوت في القاهرة تنتظر زادها (الصابح) من خيرات الريف يوم كان للقاهريين صلات بالريف، وقد انقطعت تلك الصلات بفضل التمدن الحديث
أما بعد فأين أنا مما أريد؟
أنا أدعو الى تقوية الذاتية في كل فرد، والى تمجيد كل مهنة، والى احترام كل جهاد في سبيل الرزق الحلال.
أنا أدعو العمال الذين ينقلون الأحجار إلى الفرح برؤية المباني الشواهق، لأن لهم يداً

في رفع البناء.
وأدعو الكناسين إلى الفرح برؤية الأصحاء، لأن لهم يداً في دفع ما يحمل الغبار من أوباء. وأدعو عمال المطابع إلى الفرح بنهضة مصر العلمية، لأن لهم يداً في إبراز نفائس المؤلفات
الحياة الطيبة هي الحياة التي يسودها الرضا والابتهاج، وفي مقدور كل فرد أن يحيا هذه الحياة، لو سكت الكتّاب المتحذلقون فلم يبغّضوا الحياة إلى الأحياء
هل تتوهمون أن السعادة لا تكون إلا من نصيب من يرتادون الملاهي أو يملكون البيوت والسيارات والفدادين؟
لو عرف الفلاح المجاهد في سبيل القوت أنه يغني أمته قبل أن يغتني لشعر بسعادة تفوق الوصف. ولو عرف الخادم أنه يساعد بأمانته على تجميل الحياة لأدرك أنه من السعداء
هل توجد في الدنيا مهنه حقيرة؟ لا، وأنما يجد في الدنيا حقراء، وهم الذين يريدون أكل الشي بلا جهاد.
ثم أما بعد فهذا درس في الأخلاق التي نرجو أن تسود في هذا الجيل وهو درس أوحته القصة الآتية:
كنت أسير في أحد البلاد ومعي رجلٌ متعلم له وظيفة ملحوظة في الريف، فرأينا جماعة من الفلاحين يجاهدون في نقل (عدّة وابور) مياه، فتنهد ذلك المعلم وقال: أنظر كيف يشقى الفلاحون!
ثم بالغ في التنهد إلى أن أخفت على عينيه من الدمع
عند ذلك قلت: ومن ينقل هذه (العدّة) إذا تخلى عنها هؤلاء الرجال الأشداء؟
فقال: هذه الحكومة تسمي نفسها حكومة الشعب، ومع ذلك لا تحمي هؤلاء المساكين من هذه الأثقال
فقلت: وهل ترى من واجب حكومة الشعب أن تحمي الشعب من الجهاد في سبيل الحياة؟
وطالت اللجاجة بيني وبين ذلك (المتعلم)، وانتهى الأمر بأن زاد اقتناعه بأني عدو الفلاحين
لو كان ذلك المتعلم من أرباب الأذواق لوجد في ذلك المنظر فرصة لنظم قصيدة يمجّد بها النشاط المصري، النشاط الموروث عن الآباء والأجداد، فالفلاحون المصريون هم أقوى الفلاحين في الدنيا بلا استثناء، ولو اشتركوا في مصارعة دولية لكانوا الفائزين.
ما العيب في أن يعاني الفلاحون عرق الجبين؟
وما العيب في أن لا يعرفوا غير الفؤوس والمحاريث؟
وما العيب في أن يكونوا شعثا لا زينة لهم غير كرم النفوس؟
هل تعرفون السعادة التي يشعر بها الفلاح وهو يوصي أهله بأن يوقظوه قبل الشروق ليدرك صلاة الصبح؟
هل تدركون فرح الفلاح بقدوم شهر الصيام؟
كان في مصر فِلاحه وكان فيها فلاحون، واليوم عرفت مصر أو عرف بعض كتابها أن حياة الفلاح بؤس في بؤس، وأن الواجب تنبيهه إلى ما خفي عليه من شقاء وعناء
أنا عدّو الفلاح، ولكن أي فلاح؟
أنا عدو الفلاح الذي يصدّق ما يسمع أو ما يقرأ في التهوين من شأن الريف
أنا عدو من يجهل نعمة الله عليه، والله قد أغدق نعمه على جميع الأحياء، فمتى نشكر الله على نعمه السوابغ؟ ومتى نعرف أننا لم نوفيه حقه من الثناء؟
زكي مبارك
السيدة سكينة بنت الحسين
للأستاذ سعيد الديوه جي
عصرها:
عاشت السيدة سُكينة في القرن الأول الهجري وهو القرن الذي تمخضت فيه (طيبة) بحوادث عظام وحروب كبرى وانقلاب في السياسة والدين والعلم والأدب والفن: منها شع نور الإسلام على العالم وأضاء سبل الهداية؛ ومنها خرجت جيوش الخلفاء

الراشدين وفتحت الأمصار؛ وإليها جاءت الوفود تعرض إسلامها وولاءها؛ وفيها انصبت كنوز القياصرة والأكاسرة فأثرى أهلها بعد فقر ونعموا بعد شظف العيش.
فيها تطاحنت أحزاب قريش على الخلافة وفاز الحزب الأموي وخضع لهم الناس رغبة في عطائهم أو رهبة من سيوفهم. واقتضت سياسة الأمويين أن تقصر شباب قريش في مكة والمدينة وأن تغدق عليهم العطايا الكثيرة لتشغلهم في نعيم الدنيا ولذاتها وتبعدهم عن مناصب الحكم.
اجتمع في فتيان قريش الشباب والفراغ والجدة؛ فكان الهوى والأمل المنشود؛ وكان الغزل الإباحي العفيف، وكانت مجالس الأنس والطرب، وكان الصيد والقنص، وكانت حلقات الأدب تعقد في وادي العقيق ومنتزهات المدينة، وحول الغدران. وتحت النخيل. وحتى في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم.
فكنت ترى أبن أبي ربيعه قد جلس تحت أثيل العقيق وقد أجتمع حوله نسوة وهو يداعبهن وينشدهن أشعاره ويستمع إلى حديثهن، ويخالسهن النظرات. وهن يتوددن إليه فإذا ما وقعت إحداهن في عينه فقد قارن. ذلك لأنه سيتغزل بها ويشهرها في شعره الذي يقال في المدينة فلا يلبث أن يصل إلى خراسان. ومنيه كل فتاة أن تستميل هذا الشاعر أو غيره ممن نهج طريقته فتعده وتمنيه ليقول فيها شعراً. تباهي بها أترابها بأنها قد خلبت قلبه وملكت هواه. وحتى الأميرات وبنات الطبقة الأرستقراطية فأنهن كن يبذلن الأموال لمن يأتيهن بشعر قاله أحد الشعراء فيهن. وكان الشعراء أنفسهم يتغزلون بكل شريفة أو أميرة لا يريدون بذلك إثما ولا نكراً وإنما يذهبون مذهب المدح والدعابة. وقد حجت بنت لعبد الملك بن مروان ورغبت ان يقول فيها ابن أبي ربيعة شعراً، ورغب هو كذلك ولكنه خشي بطش الحجاج. ولما همت بالرجوع قالت (قدمنا مكة فأقمنا شهراً فما ٱستطاع ابن أبي ربيعة أن يزودنا من شعره أبياتاً نلهو بها في سفرنا هذا) وبلغ عمر ذلك فقال قصيدته التي أولها:
راع الفؤادَ تفرقُ الأحباب ... يوم الرحيل فهاج لي أطرابي
ولما حملت إليها أعطت لحاملها في كل بيت عشرة دنانير.
وهذا الغزل الإباحي العفيف انتشر في الحجاز وخاصة في المدينة فترنم به الشبان. وغنت به القيان. وأنشده الكهول. واهتز له الشيوخ والزهاد. فابن عباس وهو من نعلم علمه وزهده وقربه من رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسمع من ابن أبي ربيعه شعره في المسجد الحرام ويهتز له.
وساعد هذا الترف على ظهور الغناء في المدينة وانتشاره بين معظم الشعب، فكانت المدينة مهد الغناء، لأن الحياة المرحة التي كان يحياها أهل المدينة تستدعي اللهو والطرب. ووجد بالمدينة في هذا العصر عشرات المغنين والمغنيات من الذين برعوا في هذه الصناعة وتفننوا في ألحانهم، وأحدثوا ألحانا جديدة لم تكن معلومة عند العرب، كما ٱستعملوا آلات الطرب والمعازف كالعود والبربط والقضيب والمزهر والدف. وكانت المغنية (جميلة) تعلم الفتيات هذا الفن ودارها أشبه ما يكون بمدرسة فنون يتخرج منها عشاق الفن والطرب.
ونرى فقهاء المدينة يتساهلون في تحليل الغناء بعكس فقهاء الشام والعراق. ولم يبق منهم شريف ولادنىء يتحاشى عنه حتى الصحابة والزهاد كان يعجبهم الغناء ويهتزون له. كان حسان بن ثابت إذا سمع عزة الميلاء يبكي. وكان أبو السائب المخزومي يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة، وكان مع هذا ينحرف عن محرابه ويسمع غناء ابن سريج ثم يعود لصلاته. وهذا عطاء ابن أبي رباح الذي هو من أعلم أهل المدينة وأزهدهم كان يسمع الغناء ويهتز له. وقد حُكِّم بين الغريض وابن سُرَيجْ فحكم للثاني. ومر بالأوقص المخزومي قاضي المدينة سكران وهو يتغنى بليل فأشرف عليه وقال: (يا هذا أتيت حراماً، وأيقظت نياماً، وغنيت خطأ. خذه عني) وأصلح له الغناء.
وظرف عباد أهل الحجاز مما يضرب به المثل، وكانوا لا يرون في الحب بأساً إذا لم تكن فيه ريبة. وبلغ من ظرفهم أن أبا السائب المخزومي تعلق يوماً بأستار الكعبة وأخذ يقول:
اللهم ٱرحم العاشقين واعطف عليهم قلوب المعشوقين بالرأفة والرحمة عليهم يا أرحم

الراحمين). فقال له رجل: يا أبا السائب أفي المقام تقول هذا المقال؟ فقال له: (إليك عني! الدعاء لهم أفضل من حجة بعمرة).

بجانب هذا كله نجد في المدينة حركة علمية قوية لا نجدها في غيرها من البلدان. ذلك لأنها مهبط الوحي الثاني بها نزل التشريع وبها عقدت مجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم وآثر الصحابة الكرام الإقامة بها. وقام فيها العبادلة وأحبار هذه الأمة من الصحابة والتابعين - فلا عجب إذا رأينا المدينة تصبح قبلة العلماء ومحط طلاب الفقه والتفسير والحديث والمغازي. فما من فقيه أو محدث أو طالب للأجناد إلا ونراه يقصد مدينة الرسول الأعظم ليتصل بصحابته وينال بغيته.

وإذا ما دخلت مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم هالك ما تجده من الحلقات المنتشرة في فنائه الواسع. هذه هي حلقة قد تصدرها أحد الصحابة الكرام يشرح للناس ما سمعه عن الرسول، ويفسر لهم آي الذكر الحكيم. وهناك حلقة أخرى توسطها أحد الذين اّشتركوا في فتح العراق وهو يقص عليهم أيام القادسية ونهاوند وما أفاضه الله على عباده المؤمنين من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم ونعمة. وهكذا قل عن بقية الحلقات فزخرت المدينة بفقهاء ورواة الحديث وطلاب السير والمغازي وتمتعت المرأة الحجازية بحرية واسعة في هذا العصر: شاركت الرجل في الحفلات العامة

والحلقات العلمية والأدبية وحضرت مجالس الأنس والطرب وارتادت منتزهات المدينة. ومنهن من أضرت بهن هذه الحرية فأسأن استعمالها وأسفقن وتبذلن، بل فُقن الرجال في الخلاعة والمجون. يتمثل لنا هذا في وادي العقيق وحلقات المغنين ومجالس المخنثين واّجتماعات الشعراء. حتى أن بعضهن شاركن الرجل في التغني وركوب الخيل (فقد كانت أم سعيد الإسلمية وبنت ليحيى بن الحكم بن أبي العاص من أمجن النساء، كانتا تخرجان فتركبان الفرسين فتستبقان عليها حتى تبدو خلاخليهن).

على أنه ظهر فتيات من الطبقة الأرستقراطية مثلن الفضيلة والعفاف والشرف بأجلى مظاهرها. يتجلى لنا هذا في السيدات سكينة بنت الحسين وعقيلة بنت عقيل بن أبي طالب وعائشة بنت طلحة وغيرهن كثير.

فسكينة بنت الحسين كانت المثل الأعلى في العفاف والنبل والشرف والحشمة والوقار

يحضر ببابها الشعراء والفقهاء ورواة الحديث والعلماء والزهاد حتى المغنون والمضحكون، فتأذن لمن تشاء منهم فيدخلون صالتها المعدة للاستقبال وتعقد مجالس العلم والأدب في دارها وتشارك هي في تلك المجالس من وراء ستار. وقلما كان يخلو دارها من شعراء يطلبون صلتها، أو رواة يحتكمون إليها، أو علماء يتجادلون بحضرتها، أو فقهاء يأخذون عنها. أو أشعب يضحكها أو مغني يطربها. وهكذا شاركت الشعب في أفراحه وأتراحه وترفعت عن تبذله وخلاعته.

في هذا العصر الحافل بحسناته وسيئاته تألق نجم السيدة سكينة في عالم العلم والأدب والفن.

سعيد الديوة جي

بالموصل

حركة الإصلاح وحديث عيسى بن هشام

للأستاذ محمد أبو بكر إبراهيم

نشرت لي الرسالة الغراء كلمة في (حديث عيسى بن هشام) تناولت فيها أسلوبه ومنزلته القصصية، ثم بدا لي رأي في هذا الكتاب آثرت أن أكتبه، علّ الطلبة المتسابقين يجدون فيه قبل الامتحان ما يهديهم إلى فهم المقصود من الكتاب.

حركة الإصلاح

استطاع الغربيون في القرن التاسع عشر أن يثبتوا أقدامهم في أقطار المشرق: يبسطون سلطانهم السياسي في كثير منها ويتذرعون في بعضها بالتبشير وإنشاء المدارس ويعالجون التجارة في أقطار أخرى. وقد حملوا إلى كل هذه الأقطار فيما حملوا ألواناً من العادات والتقاليد والأخلاق وضروباً من المدنية والحضارة لم يشهدها الشرق من قبل. فانقسم الشرقيون حيال هذا الجديد الطارئ فريقين: فريقاً يتحفظ ويتصون ويرى الوقوف عند القديم الذي شوهته العصور المظلمة واذهب بهاءه الجمود

الطويل، وفريقاً آخر قد فتنته المدنية الغربية وما فيها، فاندفع في تيارها على غير هدى وبصيرة فأصاب منها ما لا يغني ولا يفيد وأساء إلى تقاليده وأخلاقه
رأى المصلحون هذه الحال فلم يعجبهم هذا الجمود المزري ولم يرقهم هذا الاندفاع المقيت فقاموا بحركة للإصلاح، قوامها التجديد في حدود المعقول الذي لا يتنافى مع روح الدين ومبادئه وأصوله وغاياته، والوقوف في وجه الفوضى التي أوشكت أن تقضي على كل قديم جميل. وكان أول مجاهر بهذا الإصلاح زعيم الشرق السيد جمال الدين الافغاني، فقد دعا إلى مبادئه في بلاده والهند والحجاز وتركيا، ووصل إلى مصر عام سنة 1871 مبيناً منهاجه الإصلاحي فلاقى من المفكرين قبولاً، ورأوا فيه المنقذ للشرق والهادي إلى طريق الصواب
رأوا في آرائه ثورة على العلماء الجامدين الذين أساءوا إلى الدين بجمودهم حتى جعلوه في معزل عن الحياة العامة، وثورة سياسية تدعوا إلى إشراك الشعب في الحكم إشراكاً يظهر أثره، وثورة أخرى تنتظم نواحي الأخلاق والاجتماع والأدب؛ فقد دعا إلى الاقتداء بالسلف في أخلاقهم ومبادئهم، وأراد من الأدب العربي أن يكون أداة لنشر الأفكار والعلوم لا ألفاظاً
جوفاء تقوم على الزخارف اللفظية والحُلَي الكلامية ولا تحمل من المعاني قليلاً ولا كثيراً. ولم تلبث هذه المبادئ السامية أن وجدت من المصريين أعواناً عرفوا قدرها وأذاعوا بها: فكان منهم المرحوم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده المصلح الديني الكبير. وكان منهم من جاهر بالدعوة السياسية في كتابته وشعره وطالب بالدستور، وتألفت جماعات لبعث الكتب القديمة، وكان من هذه الجماعات جماعة تألفت سنة 1898، وكان من أعضائها حسن باشا عاصم، وأحمد بك تيمور، وعلي بك بهجت، وغيرهم. وإنما فعلوا ذلك ليُطْلعوا المتأدبين على طراز قوى من الأدب يغنيهم عن تقليب النظر في الضعيف الساقط من المنثور والمنظوم. وقام دعاة الإصلاح الاجتماعي ممن ثَقِفوا مبادئ جمال الدين يعلنون آراءهم للناس في صدق ويقين
حديث عيسى بن هشام
كان لرجال الإصلاح الديني كالشيخ محمد عبده ومن سار على طريقة آراء نافذة في الإصلاح الاجتماعي ظهرت في كتابتهم ودعوتهم، إلا أن رسالتهم الدينية شغلتهم بعض الشيء عن التفرغ لنواحي المجتمع فنهض بها غيرهم نهضة قوية وكان منهم محمد المويلحي في كتابه (حديث عيسى بن هشام)
ولم يقتصر المويلحي على المجتمع والأخلاق بل تناول أموراً أخرى تتصل بهما وتؤثر فيهما تأثيراً كبيراً أو قليلاً وهي السياسة والدين والأدب ولكنه لم يمعن في هذه النواحي لأنه يعلم أن لها رجالاً يقومون بها.
وبعد فهل سرى روح جمال الدين إلى المويلحي وهل أثر فيه التأثير الذي جعله يتجه هذا الاتجاه؟!
لقد كان جمال الدين مدرسة تخرج فيها كل من شهد الفترة الأخيرة من القرن التاسع عشر، وكان محمد المويلحي من هؤلاء ولعلك تستطيع أن تدرك هذا الارتباط المتين من رسالة. (جمال الدين) في صدر (حديث عيسى بن هاشم) فقد وافق ما بهذا الكتاب مبادئ جمال الدين التي يدعوا إليها وأصابت كتابات المويلحي هوى في نفسه فقرظه هذا التقريظ البليغ.
ونحن إذا تلمسنا هذا الارتباط في كتابة المويلحي وجدناه بيناً ظاهراً، فهو يرى أن فساد المجتمع راجع إلى تقليد المصريين للأجانب تقليداً أعمى وتهالكهم على التظاهر بمظاهر
الغرب، ويقول إنهم قد أساءوا إلى أخلاقهم وعاداتهم ونظمهم حين لجئوا إلى هذا التقليد:
1 - ذلك لأنهم استُّنوا بهذا التقليد سُنَناً جديدة ضارة لم تكن معروفة من قبل في مصر كالانتحار.
2 - وهم كذلك أساءوا التقليد فنقلوا عن الغرب مفاسد قد قيدها الغرب بقيود فجعلوها هم مباحة لا قيد فيها ولا شرط كالقمار والبغاء والخمور.
3 - وهم تعلقوا بالمظاهر الكاذبة في التقليد، وتركوا المهم من مدنية الغربيين. وفي هذا يقول: (فأصبحوا في الظلال يعمهون وفي البهتان يتسكعون، واكتفوا بهذا الطلاء

الزائل من المدنية الغربية)
4 - ولقد كان هذا التقليد سبباً في تركهم العادات الكريمة المتوارثة عن الأجداد والأسلاف فهو يقول: (ونبذوا ما كان عليه أسلافهم من الحق ظهرياً، فانهدم الأساس ووهت الأركان وانقضّ البنيان وتقطعت بهم الأسباب فأصبحوا في الضلال يعمهون وفي البهتان يتسكعون)
5 - على أن هذا النقل كان مخالفاً لطبيعة البيئات والأجناس فإن ما يصلح للغرب قد لا يصلح للشرق، وما يراه الغربيين أمراً مألوفاً نراه نحن أمراً منكراً لتقاليدنا وأمزجتنا وما توارثناه عن السلف من عادات وآداب، والمويلحي يضرب لذلك مثلاً التمثيل المنقول عن الغرب برمته وأشخاصه وأصوله: (ولن تخلوا قصة من قصصهم التي يمثلونها عن ذكر العشق والغرام وما من رواية لهم إلا والعاشقان يكونان فيها كالفاتحة والخاتمة لها، وهو وإن كان مقبولاً عند الغربيين مسموحاً به لموافقة العادة عندهم، ولكونه شيئاً لا عيب فيه يجهر به فتيانهم وفتياتهم بل هو أصل من أصول التزاوج بينهم قضت به رطوبة الإقليم وطبيعة الحال إلى ما يهيج الشعور ويثير ثائرة الخيال لكنه غير مقبول عند الشرقيين ولا مسموح به في عاداتهم. . .)
هذه هي الأسباب التي يعزو إليها المويلحي فساد المجتمع والأخلاق وهي كما ترى ما أشار إليه جمال الدين وتردد على ألسنة المصلحين. ولم يبق بعد هذا إلا أن نشير إلى الإصلاح الأدبي والديني في كتاب (حديث عيسى بن هشام) ليتضح للقارئ الارتباط المتين بين دعوة جمال الدين ودعوة المويلحي.
لم يكن المويلحي من علماء الدين وإنما كان من الأدباء المصلحين الذين وجهوا أكبر جهودهم إلى المجتمع والأخلاق، فهو إذا كتب في الدين كتب ليحارب الجمود دون تعمُّق في التفصيلات؛ وهو إذا انتقد العلماء أراد من وراء هذا النقد توجيههم إلى الاشتراك في الحياة العامة ليتحقق صلاح المجتمع والأخلاق.
فهو يرمي في كتابه طوائف من الناس بالاستهتار وضعف العقيدة فيقول على لسان حفيد الباشا (لست أسمع لهذا الكذب والخرف وليس لي اليوم من جد ولا والد، ولا أنا ممن يصدِّق حديث البعث في الآخرة فكيف برجوع الموتى في الدنيا)
أما الخرافات التي علقت بالأذهان فهو يلم بها إلماماً في سياق حديثه عن كبراء العصر الماضي. وقد جلس أحد العلماء إلى السيد عبد القادر الكيلاني إحياء الغريق كما ينسب إليه أن الله قد وعده بأن من ينظر إليه يوم الجمعة يكون ولياً مقرباً، وإذا نظر إلى التراب يكون ذهباً إلى آخر ما ورد في هذه القصة. ونحن نعلم علم اليقين أن المويلحي قصد بهذه القصة إظهار ما ران على الدين وأصوله ومبادئه من خرافات يجب الإقلاع عنها والبعد عن التعلق بأمثالها لأنها تبعد عن روح الدين ورسالته وهو يرجو من الدين أن يصلح لكل حياة وأن يكون دافعاً إلى إصلاح المجتمع وعاملاً من عوامل الخير والسيادة الإنسانية، فإن أقتصر الدين على النسك والعبادة، واتكل الناس على أعمالهم التعبدية التي يقومون بها غافلين عن فعل الخير وتقديم المعونة للبشر كان آلياً لا خير فيه لصلاح الناس. وفي الكتاب ما يشير إلى ذلك على لسان الباشا فهو يقول: (وقد غرتني في دنياي من مثل هذا الشيخ ما يهوِّن عليّ ارتكاب المخزيات وفضائح الشرور في معاملة الناس ارتكاناً على نهار أصومه وليل أقومه. . . فنمت عن عمل الخير وغفلت عن بذل المعروف)
فلعلك تدرك بعد هذا أن المويلحي له دعوة دينية قوامها التمشي مع المدنية والبعد عن الخرافات وخدمة الإنسانية. وهذه الدعوة هي غاية جمال الدين، وهي ما قام به الشيخ محمد عبده
أما الأدب فإن المويلحي يرى أنه لا يرتقي ولا تسمو عبارته ولا تجود معانيه إلا إذا اتصل الأدباء بالتراث العربي القديم يقلبون في عباراته البليغة وأساليبه الرصينة. ويرى أنه لا سبيل إلى تحقيق ذلك إلا بنشر الكتب وطبعها حتى تكون في متناول الناس جميعاً، ويعجب
من بقاء الكتب المخطوطة في المكتبة العامة بعيدة عن أيدي الناس قائلاً إن هذا يعرضها للتلف ويفوت الغرض منها ويجعل النفع بها محدوداً. وهو يشتط في هذا الرأي فيقول: (أي نفع وفائدة للأمة المصرية الإسلامية في أن تنشر بين يديها رمم الفراعنة في الأنتكخانة، وتقبر أرواح العلماء والحكماء في الكتبخانة). وهذا الكلام وإن أجراه

المويلحي على لسان أحد الأشخاص إلا أن المتتبع لكلامه في هذا الصدد يعلم إيمانه بها الكلام
ولم ينس المويلحي الثقافة الحديثة وأثرها في الأديب فهو يقول في عزلة الباشا عن الناس: (وعكفت مع الباشا في عزلتنا أذهب به كل مذهب، وأنتقل به من مطلب إلى مطلب في مطالعة الأشعار والكتب من تاريخ وأدب ومن حكم متينة قويمة وشتى علوم حديثة وقديمة)
وغاية المويلحي من كل هذا أن يتصل الأدباء بالأدب العربي القديم لأنه منبع لكل بارع وفاخر من الأساليب، وأن ينالوا من الثقافة الحديثة حظاً كبيراً لأنهم في حاجة إلى هذه الثقافة التي تمدهم بالأفكار والمعاني؛ ثم هو لا يعجبه رصف الألفاظ الجوفاء التي لا تحمل معنى قيماً. ولذلك ساق في حفلة العرس خطبة وقصيدة ليبين نوعاً من الأدب التافه شعره ونثره. وقد عقب عليهما ساخراً بقوله: (ثم انتهينا بحمد الله من الشاعر بعد الخطيب
وهذه الدعوة الأدبية هي دعوة جمال الدين ومن سار على نهجه من بعده. وقد استطاع المويلحي بلباقته الأدبية القصصية أن يضمن كتابه هذه النواحي الإصلاحية في أسلوب شائق جذاب يستهوي الناس. ولم ينس أن يذكر ما كان لدعاة الإصلاح وزعماء النهضة من فضل عليه فهو يقول في إهداء كتابه: (وأهديه إلى أرواح المرحومين الأديب الوالد، والحكيم جمال الدين، والعالم محمد عبده، واللغوي الشنقيطي، والشاعر البارودي. . . أولئك الذين أنعم الله عليهم وأولئك الذين تأدبت تأدبهم وأخذت عنهم)
(الفيوم)
أحمد أبو إبراهيم
رسالة الجاحظ في مناقب الترك وعامة جند الخلافة
للأستاذ محمود عزت عرفه
الجاحظ أمة في الأدب وحده، وعالم محقق لا يسبر له غور أو يدرك لاتساع فطنته مدى. وهو إلى جانب موسوعاته التي كشفت عن غزارة ذهنه ورحابة عقله، قد ترك لنا مجموعة رسائل يمكن أن نعدها في باب الموجزات بالقياس إلى تصانيفه التي يطول فيها استطراده وتتسع منادح تفكيره
ولكن إيجازه في هذه الرسائل غير مقصر بها ولا مخلّ؛ إذ تعالج كل منها موضوعاً قائماً بنفسه في إحاطة لا تترك وراءها فراغاً أو نقصاً، واستيعاب لا صغير ولا كبير إلا أحصاها. ومن هذه الرسائل رسالة عنوانها: في مناقب الترك وعامة جند الخلافة وإنها لآية من آيات الجاحظ؛ تقفنا من تفكيره على صورة جميلة، وترسم لنا خطوطاً واضحة المعالم لبعض وجوه تصرفه في الكتابة والتصنيف.
وهو يبدو في هذه الرسالة عظيم الاحتفاء بشئون السياسة على عهده، قوَّي المساهمة، بقلمه وبذهنه، في خدمة قضية يراها جديرة بأن يعمل لها ويسعى في سبيلها.
وقد بعث الجاحظ بهذه الرسالة إلى الفتح بن خاقان صاحب المتوكل ونديمه المصطفى في حياته، والذي قاسمه مصرعه الرهيب فيما بعد على يد المنتصر ابنه وولي عهده. . .
على أن الرسالة لم تكتب في ذلك العهد، وإنما كتبت أيام المعتصم ثامن خلفاء بني العباس؛ ولم يتهيأ للجاحظ أن يبلغها إليه فبقيت حبيسة طيلة عهده، ثم مدة الواثق من بعده، حتى تهيأ له الظهور أخيراً في أيام المتوكل. والجاحظ نفيه يشير إلى هذه الحقيقة كما سنرى ذلك فيما بعد. ولكن الذي يعنينا الآن هو التحقق من بواعث تحرير هذه الرسالة، ثم النظر في أسباب احتباسها طيلة هذه الفترة حتى ظهرت في عهد المتوكل. وما من ريب في أنه كان للعوامل السياسية أثر قوي في كل هذا فما الذي دفع الجاحظ أولاً إلى كتابة هذه الرسالة؟
لقد تولى المعتصم الخلافة بعد أخيه المأمون، وكان مثله ممن يقدر النبوغ ويحتفل بالمواهب حيث ظهرت، فانفسح مجال التفوق في دولته أمام العناصر غير العربية. على أن نزعة المأمون كانت علمية كما هو معروف؛ أما المعتصم فكان شجاعاً باسلاً

رب سيف ورمح، لا قلم ولا كتاب. كان (الحليفة الأمي) كما وصف نفسه في كثير من الصدق، ولكنه تفرد إلى
جانب ذلك بصفات سامية في البأس والشجاعة؛ فكانفارس بني العباس المعلم، وأضرب رجال دولتهم في البطولة بسهم
ولقد استكثر من غلمان الأتراك في جيشه ليتقوى بهم على الخراسانية الذين نهضت على أكتافهم دولة المأمون، واستقدم كثيراً من أبناء فرغانة وأشر وسنة ليستعز ببأسهم على من كانت تموج بهم بغداد من مختلف طوائف الجند بين عرب وأبناء وموال وخراسانيين
وما نشك في أن الجاحظ كتب رسالته على هذا العهد متشيعاً بذلك للخليفة وحزبه.
ولقد كان الجاحظ أديباً موهوباً محظوظاً، وقل في الأدباء من يجمع بين هاتين الفضيلتين. كان يحب أن يستفيد، ثم هو يعرف كيف يستفيد؛ ولكن تطور الأمور ألجأه - برغمه - إلى أن يحبس رسالته حتى حين، إذا كان التنافس قد اشتد وقتئذ بين هذه الطوائف المختلفة في أجناسها وجبلاّتها، المتباينة في أطماعها وفي أهوائها. وتطورت الحال إلى أكثر من هذا؛ إلى اصطدام دموي عنيف، وفتنة هوجاء جامحة، حيكت فيها الدسائس الخفية والظاهرة، ودبرت الاغتيالات المحقة والمبطلة، فطاحت رؤوس، وأهدرت دماء، وهاجت أوشاب من العامة بإيعاز من رؤساء الأجناد، وائتمرت الطوائف جميعاً بالأتراك الذين خصهم الخليفة بإيثاره، وبوأهم رفيع المناصب في دواوين حكومته وثكنات عسكره
وينبغي هنا أن نشير إلى بعض الوقائع الثابتة لنمثل الحالة التي سادت البلاد في ذلك العهد تمثيلاً أقرب إلى الوضوح:
1 - كان الأفشين من أشهر قواد المعتصم الأتراك، وقد أبلى البلاء الأعظم في الحروب التي اشترك فيها دفاعاً عن حوزة الخلافة، وبسطاً لسلطان الدولة في عصري المأمون والمعتصم. ولكنه لم يكن مع ذلك خالي النفس من كراهية العرب، والتسخّط على منافسيه من أفرادهم وأعيانهم. ولقد كان حسده للقائد العربي أبي دُلف (القاسم بن العجلي) أمراً مشهوراً؛ حتى لأشهد عليه مرة بجناية وقتل، وأزمع أن يقتص منه، لولا أن بادر أحمد أبي دُوَاد كاتب المعتصم ومشيره فأدركه قبل نفوذ الأمر فيه؛ وأنذر الأفشين أن يصيبه بسوء، ثم رفع القصة إلى الخليفة، فاستحسن صنيعه في المبادرة بإنقاذ أبي دلف، وعنف الأفشين على ما قد وطد العزم عليه. . . ولم يلبث هذا القائد - وهو من هو ضراوة وسوءَ معتقَد - أن حاول الاستقلال بمسقط رأسه أشر وسنة، فانكشف أمره على يد عبد الله بن طاهر
الأمير العربي في خراسان وكان في ذلك مهلكه ونهايته. ونذكر هنا بعض ما قاله أبو تمام من قصيدة يسجل فيها احتراق الأفشين وصلبه:
ما كان لولا قبح غدرة (حيْدر) ... ليكون في الإسلام عامُ (فجار)
ما زال سر الكفر بين ضلوعه ... حتى اصطلى سر الزناد الواري
ناراً يساور جسمه من حرها ... لهب كما عصفرَت شِق إزار
مشبوبة رُفعت لأعظم مشرك ... ما كان يرفع ضوءها للساري
صلى لها حيّاً وكان وقودَها ... ميتاً، ويدخلها مع الفجار
2 - كان عجيف بن عنبسة من قواد الأتراك الناقمين على المعتصم بعض تصرفه - ورضى الناس جميعاً غاية لا تدرك - وكان قد صحبه في حصار عمورية (عام 223هـ). وهناك أوغر صدر العباس بن المأمون حتى أطمعه في قتل عمه. ودخل معه في ذلك جماعة ممن انطوت نفوسهم على الكيد للمعتصم وتربُّص الشرِّ به. ولكن الخليفة اطلع على سر هذا التدبير، فقتل عجيفاً ومن مالأه؛ وحبس العباس ابن أخيه حتى مات من وطأة الضر وفرط الأذى. . .
3 - ومن تدابير الكيد في ذلك العهد ما أوغر به القوم صدر المعتصم على خالد بن يزيد الشيباني أحد ولاته من العرب حتى أزاله عن ولايته وطالبه بأموال جسيمة؛ فلم يجد من يشد أزره في هذه المحنة إلا أحمد بن أبي دواد الذي شفع له عند المعتصم حتى عفا عنه، وخلع عليه وأعفاه مما كان قد أمره به من الخروج منتفياً إلى الحجاز.
وفي هذا يقول أبو تمام أيضاً من قصيدة يمدح بها خالداً ويهنئه:
وغدت بطون منىً مُعنى من سيْبه ... وغدت حِراً منه ظهور حِراء

وتعرَّفتْ عرفاتُ زاخره ولم ... يُخصَص كَداءٌ منه بالإكداء
ولطاب مرتَبعٌ بطيبةَ واكتستْ ... بُرْدَيْن: بردَ ثرىً وبرد ثراء
. . .لا يُحرَمِ الحرمان خيراً! إنهم ... حُرِموا به نوعاً من الأنواء

تعد هذه الحوادث - وغيرها كثيراً - من عوامل نشوب الفتنة التي أشرنا إليها آنفاً؛ لأن هذا التحرش بين الترك من ناحية، والعرب والخراسانيين وسائر الموتورين من ناحية أخرى، لم يلبث أن تحول إلى اصطدام عنيف تكررت فيه حوادث العدوان في طرقات بغداد، واضطرب معه حبل الأمن في أرجائها؛ حتى لم يجد الخليفة بداً من أن ينهض بجنده المختار إلى عاصمته الجديدة سُر من رأى، ليحسم بذلك وجه النزاع ويهدِّئ من سورات النفوس. . . ففي مثل هذه الظروف لم يكن يتيسر للجاحظ أن يقدم رسالته في (مناقب الترك) وإن كان هذا لا ينفي احتمال وجود أسباب أخرى حالت دون تقديمها؛ مما قد يشير إليه قول الجاحظ في مفتتح رسالته: (هذا كتاب كتبته أيام المعتصم بالله - رضي الله تعالى عنه ونضر وجهه - فلم يصل إليه لأسباب يطول شرحها، فلذلك لم أعرض للاخبار عنها. . .).

أخيراً توفي المعتصم عام 227هـ وتولى بعده ابنه أبو جعفر هرون الواثق بالله؛ . . . وكانت النفوس وقتئذ ما تزال ثائرة، ومظاهر الأحوال لم تتغير إلى الحد الذي يبيح للجاحظ أن يقدم على ما كان عنه من قبل محجما.

وإذا افترضنا زوال الأسباب القديمة، فإن الفرصة لم تكن تعرض، والمناسبة التي يلائمها إظهار رسالة في مدح الترك وإبراز مفاخرهم لم تكن تعنّ؛ والجاحظ يعلم أن لكل مقام مقالاً، وأن الكلمة من شعر أو نثر تفقد أكثر قيمتها إذا هي برزت في غير موضعها أو ظهرت دون مناسبتها. وتلك حقيقة يتحراها أكثر الأدباء قديماً وحديثاً في عرض إنتاجهم؛ وإنها لأدل على صدق الأدب وصحة الاستلهام، وأدعى إلى قوة التأثر وبلاغة التأثير معاً. وما (أدب المناسبات) إلا صورة صادقة من الأدب الحي يعجز عنه جماعة المفْحَمين ممن لا تواتيهم قرائحهم في كل حين، فينبزون أصحابه بلقب النُّسَّاخ أو النظامين؛ وفرق ما بين الطائفتين تيقظ بديهة أو غفوتها، واستجابة خاطر أو استعصائه. . .

(للمقال بقية)

محمود عزت عرفة

لماذا لا أثق بأقوال النحاة ولا اللغويين

للأب ماري أنستاس ماري الكرملي

1 - تصدير

إني لا أثق (دائماً) بكل ما ينطق به النحاة ولا اللغويون ولو كانوا أدلاء أجلاء بل أعرضه على محك النقد والتحقيق، وتدقيق النظر فيه، فإن أظهر المحك صدق إبريزهم، وافقت عليه وقيدته عندي بكل فخر وإجلال، واعتبار وإكبار، وإلا نبذته نبذ النواة، أو نبذ آراء المشعوذين النحاة الهواة. وذلك لأن الإنسان محل النسيان، ولأن الجود قد يكبو، والسيف قد ينبو، وما العصمة والكمال، إلا لرب الجلال

ولهذا تراني لا أثق إلا بما ينقله السلف إلينا من أقوال المحققين الأقدمين، كما قلت مراراً لا تحصى. وأمثلة ما قد أخطأوا القول فيه أكثر من أن يعد، ولا تسعة مجلة موقوتة، لأن ما جمعته يقع في مجلد ضخم (لا تهضمه معدة مجلة) لثقله عليها، ولثقله أيضاً على معدة قرائها الكرام الأجلاء

وأنا أذكر هنا بعض الشيء، بمنزلة ما أذهب إليه من كلامي الذي عنونت به مقالي هذا

2 - ورود فعلى جمعاً لأكثر من لفظين

أنقل هنا ما جاء في تاج العروس في مادة (ظ ر ب) حرفاً بحرف، قال: (نقل شيخنا عن أبي حيان: ليس لنا جمع على فعلى، بالكسر، غير هذين اللفظين (ظِربى وحِجلى) ويقال: أن أبا الطيب المتنبي لقي أبا علي الفارسي، فقال له: كم لنا من الجموع على فعلى، بالكسر؟ فقال أبو الطيب بديهة: حجلى وظربى، لا ثالث لهما

فما زال أبو علي يبحث: هل يستدرك عليه ثالثة وكان رمداً فلم يمكن له ذلك، حتى قيل أنه مع كثرة المراجعة، ورمد عينيه، آل به الأمر إلى ضعف بصره. ويقال إنه عمى بسبب ذلك، والله أعلم

ثم قال: وهي من الغرائب الدالة على معرفة أبي الطيب وسعة اطلاعه. انتهى كلام

(الشارح على الحجلى: اسم للجمع
قلنا: الجمع لفظة تشمل الجمع بصيغه المختلفة، واسم الجمع وشبه الجمع. والظاهر أن
الذين جاؤوا بعد أبي الطيب وأبي علي الفارسي لم يجدوا في كلام العرب جمعاً، ولا اسم جمع، ولا شبه جمع على فعلى، بكسر الأول. أفهذا صحيح؟
قال فخر اللغويين المتأخرين، وإمام أئمتهم، الشيخ محمد محمود الشنقيطي، في حاشية له على المخصص 8: 156 ما هذا نصه بحروفه:
قلت: قول علي بن سيدة: الحجلى الخ خلاف الأصح؛ وقلده فيه من قلده. والأصح أن) فعلى بالكسر من أبنية الجمع النادرة، ولم يسمع منها إلا لفظتان، وهما: الحجلى هذه والظربى جمع الظربان. ونظمها شيخ شيوخ مشايخنا المختار ابن بون في احمراره ذيل الألفية، حيث قال رحمه الله تعالى: فعلى بما أجمع ظربان حجل، وليس باسم الجمع في القول الأجل ومن الدليل على ذلك الحكاية المحفوظة المروية عن سيف الدولة.
روى عنه أنه سأل ليلة أصحاب سمره، وفيها المتنبي فقال لهم: كم من جمع لنا على فعلى؟ - فأجابه المتنبي في الحال بقوله: حجلي وظربى، وكان في مجلسه ذلك العلماء والأدباء والشعراء، وفيهم أبو علي الفارسيّ، فلم يزد واحد منهم لفظة تثلثهما. وبعد انتهاء المسامرة، ذهب أبو علي إلى بيته، وسهر يطالع كتب اللغة العربية، فلم) يجد لهما ثالثة، فبسبب ذلك كان يتعجب من حفظ المتنبي لغة العرب، وتبحُّره فيها
قلت: وجد الدماميني بعد قرون لفظة ثالثة وهي: معزى جمع معز، ونظمها أستاذنا) وشيخنا عبد الوهاب جدود بقوله:
وثالث اللفظين لفظ يَعْزَى، إلى الدماميني وهو مِعْزَى انتهى وكتبه راويه حافظه محقّقه محمد محمود لطف الله تعالى به. آمين.) انتهى
أقول وأنا صاحب هذا المقال: ويزاد على الثلاثة المتقدم ذكرها ستة أخر وهي:
الأول: العرقي جمع عرقاة. قال في المخصص (15: 187): والعرقي جمع عرقاة. من قولهم: أستأصل الله عرقاتهم. عن الفارسيّ، ولم يحكها غيره.) اهـ. قلنا: وكفى بالفارسي حجة ثبتاً؛ مع أننا رأينا أنه طالع كتب اللغة فلم يعثر على مثال ثالث على فعلى، فيكون وجده بعد بحثه الأول عنه.
الثاني: قال الجوهري: العِمقي، بكسر العين، شجر بالحجاز وتهامة. كذا يرى في النسخة المطبوعة في بولاق. وفي أربع نسخ خطية قديمة عندنا، وإحداها منقولة عن نسخة المؤلف
نفسه. وكلها تذكر هذه الكلمات: العمقى بالكسر شجر بالحجاز وتهامة، ولم نقل واحدة: (شجرة) فالعمقى إذا شبه جمع، أو جمع على تعبير النحاة واللغويين، فيكون واحدتها عمقاة.
الثالث: قال الفارسي: العفري جمع عفراة. وأنشد عن ابن دريد: إذا صعد الدهر إلى عفراته
(عن المخصّص 15: 187)
الرابع: جاء في لسان العرب في مادة (صحن): (الأزهري الصحِناة، بوزن فعلاة، إذا ذهبت عنها الهاء دخلها التنوين، وتجمع على الصِّحْنا (هكذا كتبت بألف قائمة) والذي في المخصص: الصِّحنى، بألف قاعدة وبطرح الهاء
الخامس: ذفرى وهي جمع ذفراة، وهي العظم الثاني خلف الأذن (المخصص 15: 189)
السادس: الشِّيْزي. قالوا: شجر تعمل منه الجفان، ولم يذكروا لها واحداً. ومنهم من قال: واحدها الشيز. والعلم عند الله.
3 - الخلاصة:
جاءت تسعة ألفاظ على (فِعلى) المكسورة الأول، وهي: الحجلى، والظربى، والمعزى، والعرقي، والعمقي، والعفري، والصحنى، والذفرى، والشيزي. ولعل هناك غيرها ونحن نجهلها. فنطلب من القراء أن يوافونا بها، ولهم منا الشكر سلفاً.
القسم الثاني - فُعَلَى
قال الشارح في رسم (أرب): (الأُرَبى) بفتح الراء والموحدة، مع ضم أوله، مقصوراً،

هكذا ضبطه ابن مالك، وأبو حيَّان، وابن هشام: الداهية. أنشد الجواهري لابن أحمر:
فلما غشى ليلى وأيقنت أنها، ... هي الأربى جازت بأم حبوي
قلت: وهي كشعبى، وأرمى، ولا رابع لها.) انتهى.
قلنا: شعبى: إسم موضع.
ونزيد على ذلك أن لهن أخوات أخر منها:
وهي الرابعة: الأرنى، بهمزة فراء، فنون فألف. وهو حبّ بقل يطرح في اللبن، فيثخنه ويجبنه. ويقال للرجل: أنت كالأربى.
والخامسة: وهي أدمى، بهمزة ودال مهملة فلام فألف وهو موضع. وقيل: الأدمى، حجارة في الأرض بنى قشير.
والسادسة: جنفى وهي اسم موضع، بجيم فنون ففاء فألف
والسابعة: الجعبى وهي بجيم وعين مهملة فباء موحدة تحتية فألف، وجمعها الجعب والجعبات، وهي عظام النمل اللائي يعضضن، ولها أفواه واسعة.
والثامنة: تومي، بتاء مثناة فواو فميم فألف. قال المجد في قاموسه: وتومي كأربي. موضع في الجزيرة وذكره ياقوت بصورة توما بالتحريك: موضع بالجزيرة. عن نصر. اهـ فيجوز لك أن تختار إحدى اللغتين، لأن كلا من المجد وياقوت حجة ثبت.
والتاسعة: بشرى، وهي على ما في ياقوت كبشرى لكني سمعتها من شيخي الجليل السيد الألوسي كأربي، وترى مضبوطة في القاموس.
والعاشرة، تلّ بوني بباء مضمومة فواو مفتوحة فنون مفتوحة فألف. وسمعتها من شيخي الألوسي كأربي. أما الشارح فقد قال: تل بوني كشورى قرية بالكوفة. هكذا في النسخ، والصواب فيه بُوَنَّا، بضم الباء وفتح الواو وتشديد النون، كما ضبطه نصر رحمه الله تعالى، وهي ناحية بسواد العراق قريب الكوفة) اهـ. وفي ياقوت: (تل بونّا بفتحتين وتشديد النون، من قرى الكوفة. قال مالك بن أسماء الفزاري:
حبذا ليلتي بتل بَوَنَّا ... حيث نُسقَى شرابنا ونُغنَّى
ومررنا بنسوةٍ عطراتٍ ... وسماع وَقَرّقف فنزلنا
حيثما دارت الزجاجة درنا ... يحسب الجاهلون أنَّا جُنِنَّا
حدثنا ابن كناسة أن عمر لما لقى مالكاً، استنشده شيئاً من شعره، فأنشده. فقال له عمر: ما أحسن شعرك لولا أسمع قرى تذكرها فيه فقال: مثل ماذا؟. قال: مثل قولك:
أشهِدتِني أم كنت غائبة ... في ليلتي بحديثهِ القسِبِ
ومثل قولكَ:
حبذا ليلتي بتلّ بَوَنَّا ... حيث نُسقى شرابنا ونُغنَّي
فقال مالك: هي قرى البلد الذي أنا فيه، وهي مثل ما تذكره أنت في شعرك من أرض بلادك. قال: مثل ماذا؟ فقال: مثل قولك هذا:
ما على الرَّبْع بالبُلِيَّيْن لو ... بَيّن رجع السلام أو لو أجابا
فأمسك ابن أبي ربيعة) اهـ
فهذه أربع روايات مختلفة: رواية الألوسي، وهي رواية صحيحة. والألوسي من أبناء هذه الديار، وصاحب الدار أدرى بما فيها. ورواية القاموس ولا بد من أنه سمعها من أحد شيوخه، أو أصابها في كتب من تقدمه، أو ربما كانت الرواية الشائعة في عصره. ورواية نصر وهو حجة في ذكر أسماء المدن والبلدان والمواضع. ورواية ياقوت، وياقوت معروف بصدق النقل لأسماء المواضع والأمكنة
أما نحن فلا نكذب أحداً من هؤلاء النقلة، لأنهم كلهم رواة ثقات، وحجج أثبات. فالأخذ برواياتهم من أحسن الوسائل للاحتفاظ بما نقلوه إلينا، والاعتماد عليهم
الخلاصة
لنا من الألفاظ الواردة على فُعَلى، بضم ففتحتين، فألف مقصورة عشرة ألفاظ على أقل تقدير - لا ثلاثة كما قالوا - أو كما قال صاحب تاج العروس، ولعل هناك ضعف هذا العدد ونحن نجهله، ويذكره لنا غيرنا من المتتبعين لدقائق العربية
القسم الثالث - تفاعيل
قال السيد مرتضى عبادة (ب ش ر): (التباشير وليس له نظير إلا ثلاثة أحرف. تعاشيب الأرض، وتعاجيب الدهر، وتفاطير النبات والشباب)
قلنا: وهناك خامس وهو التناشير بتاء مثناة فوقية، فنون، فألف، فشين مثلثة: فياء

مثناة تحتية، فراء وهي كتابة لغلمان الكتاب بلا واحد (القاموس)
وسادس وهو النفاطير، بنون موحدة، فوقية، ففاء فألف فطاء فياء مثناة تحتية، فراء
قال اللحياني: يقال في الأرض نفاطير من عشب، أي نبذ متفرقة لا واحد لها
وسابع، وهو تصريف الدهر، بتاء مثناة فوقية فصاد، فألف، فراء فياء مثناة تحتية، ففاء
وثامن وهو تخاليف الأمور، بتاء مثناة فوقية، وخاء، وألف، ولام وياء مثناة تحتية، وفي الآخر فاء
وتاسع وهو التباريح. فال في التاج في (ب ر ح): (به تباريح الشوق، أي توهجه.
والتباريح: الشدائد. وقيل: هي كلف المعيشة في مشقة. قال شيخنا: وهو من الجموع
التي لا مفرد لها. وقيل: تبريح. واستعمله المحدثون، وليس بثبت) انتهى
وعاشر هو التباكير. قال الشارج في (بشر): (التباشير) ألوان النخيل أول ما يرطب،
وهو التباكير) انتهى. أي بتاء مثناة فوقية، وباء موحدة تحتية، فألف، فكاف، فباء مثناة تحتية، فراء في الآخر
وحادي عشر وهو التعانيق، بتاء مثناة فوقية، يليها عين مهملة، فألف، فنون مكسورة
فياء مثناة تحتية وفي الآخر قاف وهو موضع في شق العالية. قال زهير:
صحا القلب عن سلمى وقد كاد لا يسلو ... واقفر من سلمى التعانيق والثقل
(عن ياقوت في 854: 1 من طبعة أوربية)
وثاني عشر وهو بالتاء المثناة واللام فالألف فالفاء فالياء المثناة التحتية وفي الآخر الفاء
قال في تاج العروس في رسم (لفف). يقال: هذا تلافيف من عشب أي نبات ملتف لا واحد له)
الخلاصة
هذه اثنا عشر حرفاً على وزن تفاعيل لا واحد لها. وقد قالوا لأنها أربعة لا أكثر. ونحن لا ندعي بأننا ذكرنا كل ما ورد في اللغة، بل بعض ما حضرنا حين كتابة هذه الكلمة وهناك ما يضاعف هذا العدد موارد كثيرة.
(للمقال بقية)
الأب أنستاس ماري الكرملي
من أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية
البريد الأدبي
حول جامعة الإسكندرية
نشرت جريدة الأهرام بتاريخ 7 فبراير سنة 1943 مقالاً للأستاذ منصور جاب الله تحت عنوان (يوم الإسكندرية)، وقد عرج فيه الكاتب على مكتبة الإسكندرية قائلاً:
إن ثلاثة عشر قرناً تتجرم بعد احتراق مكتبة الإسكندرية لحقبة جد طويلة، فاليوم)
(يرأب الصداع، ويرد إلى المدينة الخالدة اعتبارها العلمي وتعاود مكانتها الثقافية،
والذي يسوق هذه العبارة في مقاله الجليّ يؤمن برأي من نسب حريق مكتبة الإسكندرية على يد عمرو بن العاص
وقد ناقش هذا الخبر كثير من علماء الإفرنج مثل (بطلر) و (جوستاف ليبون) وغيرهم
فلم يمكنهم الجزم بأن عمرو ابن العاص هو الذي أحرقها حقيقة بأمر الخليفة عمر بن الخطاب كما زعم بعضهم، بل ولم يؤيد هذه الدعوى أحد من المؤرخين المعاصرين للفتح الإسلامي، مثل (أوتيخوس) الذي وصف فتح الإسكندرية بإسهاب
وأما ما نسبه أبو الفرج الملطي في كتابه (مختصر الدول) عن حريق المكتبة على يد عمرو بن العاص، فقد فنده كل من (بطلر) و (سديو) و (جوستاف ليبون) وغيرهم.
والغريب أن هذه الرواية يذكرها رجل من أطراف بلاد الفرس بعد فتح الإسكندرية بنحو ستمائة سنة، ولم يتعرض لها المؤرخ المسيحي البطريق (أوتيخوس) الذي قلنا إنه أسهب في فتح الإسكندرية، على أن تعاليم الدين الإسلامي تخالف هذه الرواية؛ إذ ترمي إلى عدم التعرض للكتب الدينية اليهودية والمسيحية المأخوذة في الحرب ولا يجوز حرقها - أما كتب الفلسفة والطب والتاريخ والشعر وسواها من العلوم غير الدينية، فإنه يجوز للمسلمين الانتفاع بها
والمعروف أن هذه المكتبة لم تكن موجودة إبان الفتح الإسلامي اللهم إلا بقايا من جدران حوائطها

والصحيح الذي لا مرية فيه: أن المكتبة حرقت مرتين: المرة الأولى تم فيها حرق القسم الأكبر منها على يد جنود (يوليوس قيصر) سنة 47 ق. م وأما القسم الثاني من المكتبة فقد تم حرقه في عهد القيصر (طيودوس) سنة 391 م بأمر الأسقف (نيتوفيل) بواسطة جماعة
من المتعصبين للنصرانية. والدليل القاطع أيضاً على عدم وجود المكتبة حتى قبيل الفتح الإسلامي ما ذكره المؤرخ (أورازيوس) عن زيارته للإسكندرية قبل سنة 414م، إذ قال: (إنه وجد رفوف المكتبة خالية من الكتب)
على أن العرب لم يدخلوا الإسكندرية إلا بعد استيلائهم عليها بأحد عشر شهراً - وقد ذكر في عهد الصلح الذي أبرم بين عمرو بن العاص والمقوقس: أنه يجوز للروم أن يحملوا إلى بلادهم كل أمتعتهم. وفي غضون هذه المدة كان البحر مفتوحاً ولم تكن أمامهم صعوبات تعوقهم عن حمل كتب المكتبة إلى بلادهم إذا كانت موجودة؛ وهذا ينهض دليلاً آخر على عدم وجود المكتبة إبان الفتح الإسلامي.

عبد العظيم أحمد هيبة

موقف مجلة الأزهر من النبوة والعبقرية - 1

كتبت مجلة الأزهر في جزء المحرم سنة 1362 مقالاً في ذكرى الهجرة، فرقت فيه بين النبوة والعبقرية، فذكرت أن النبوة روح إلهية تتجلى معها قوة الحق في أروع مظاهرها، فتؤيد القائمين بها خرقاً للسنن الثابتة، ونقضاً للعادات المقررة، فيدرك الناس أنهم إزاء إرادة إلهية لا يقف في طريقها حائل، ولا تثبت في مقاومتها القوة. أما العبقرية فهي هبة ليس للقوة العقلية أثر في إيجادها، تعجز عن مجرد حمل الناس على تقدير ما تأتي به، حتى إن أكثر العباقرة عاشوا غير مقدرين، ولم يفهم الناس جلالة ما أتوا به بعد أن ماتوا بعدة قرون، ثم بنت على هذا أن نجاح الدعوة الإسلامية لم يكن فيه أي أثر للعبقرية، وإنما كان معجزة عظيمة جعلها الله دليلاً على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

ومجلة الأزهر تقصد بهذا أن تهدم الأساس الذي قام عليه كتاب عبقرية محمد للأستاذ العقاد، مع أن هذا الأساس لا شئ فيه من جهة الدين، وقد بنيت عليه قبل ظهور ذلك الكتاب مقالاتي في السياسة الأسبوعية - أثر السياسة النبوية في نجاح الدعوة الإسلامية - فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم مع الوحي مجال فسيح يعمل فيه كانسان، فيجتهد في بعض أحكام الدين، وينظر في أمور الدنيا، ويبحث ما يعرض له من مسائل السلم والحرب، وقد أظهر في ذلك المجال براعة عظيمة تشهد له بكمال العبقرية، ومع هذا كان
يدركه فيه ما يدرك كل إنسان، فيلفته الله إليه، ويهديه إلى ما ينبغي أن يعمل فيه، وكل هذا جاء به القرآن الكريم، وتشهد به كتب السيرة والأصول. ولعل مجلة الأزهر تتوهم أن التسليم بهذا قد يجر إلى التسليم بأن ذلك النجاح كان للعبقرية وحدها، كما يزعمه بعض أعداء الإسلام، ومثل هذا التوهم الخاطئ هو العقبة الآن في سبيل كل إصلاح.

عبد المتعال الصعيدي

إصلاح تحريف في آية قرآنية - 2

جاء في مقالي الأخير من مقالات (الحضارات القديمة في القرآن الكريم) هذه الآية: (بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الحكيم) والصواب الرحيم بدل الحكيم.

ع. ا

بين الرجولة والرجولية

يسأل الأديب (علي محمود الشيخ) في العدد (500) من الرسالة، عن نحو (الرجولة والرجولية) الواردين في كتب اللغة، هل معناهما واحد كما يقول بعض الناس؟ أو الثاني مصدر صناعي كما يقول آخرون؟

وأجيب: أنهما مختلفان، فالرجولة مصدر سماعي لا فعل له، ومعناه ضد الأنوثة، ومثله الرُّجلة
و (الرجولية وكذا الرُّجلية) كل منهما سماعي صناعي بزيادة ياء النسبة (الأول من الرجولة، والثاني من الرُّجلة) وهما يزيدان زيادة على المصدر العام كما هذه الصفة

في الشخص المحدث عنه، والمعاني اللازمة لهذا الكمال، مثل الشجاعة والإقدام وإباء الضيم
والطفولة خلاف الرجولة و (الطفولية) تدل على هذا المعنى ولوازمه، من العجز المطلق عن أعباء الحياة، واستدرار العطف والشفقة
والعروبة ضد العجمة؛ و (العروبية) تزيد على هذا الدلالة على شمائل العربي وخصائصه.
ومثل ما ذكر يقال في الرهبة و (الرهبانية)، والفروسة و (الفروسية)، والألوهة و (والألوهية)، والربوبة و (الربوبية)، والجاهل و (الجاهلية) والخنزوان (الكبر) (والخنزوانية) والأريح و (الأريحية) (الارتياح للندى). وكلها مصادر مسموعة عن العرب.
أما أن علماء اللغة لم يذكروا فارقاً بين الرجولة مثلاً فلأنهم إنما يعنون ببيان المعاني الوضعية للألفاظ، وأما المعاني اللازمية فلم يتصدوا لذكرها، لأنها وظيفة علماء المعقول، كالمناطقة والحكماء.
ثم إن تحميل المصادر الصناعية العربية للمعاني التي ذكرناها جاء قبل زيادة العرب الياء المشدودة، التي هي في الأصل للنسبة، ثم تنوسيت النسبة وأريد من اللفظ المعنى المصدري مع لوازمه، وألحقوا به التاء رعاية لأنه في الأصل صفة لموصوف مؤنث كالحال مثلاً
وكان هذا النوع من المصادر يسمى عند قدماء النحاة (بالنظائر) وهي ما جرى على وجه النسب، قاله ابن سيدة في المخصص
ونظراً لقلتها في اللغة، إبان العصر الجاهلي وصدر الإسلام، ولوجود ياء النسبة فيها لم يلحقها الأقدمون بالمصادر العامة، بل سموها باسم خاص. لكن تلك التسمية لم تشهر بين العلماء إذ ذاك فسماها بعضهم (بالمصادر الصناعية)، وذاعت هذه التسمية إلى عصرنا هذا. وقد أولع المحدثون وبخاصة علماء المنطق بصوغ هذه المصادر من أسماء الأعيان وغيرها، فقالوا: الحيوانية والإنسانية والناطقية والجسمية والحجرية، والإسمية والحرفية، والفاعلية والمفعولية والعلمية؛ وقالوا: الكيفية والكمية والماهية
فالمصدر الصناعي بمعنى المصنوع على وزان ما صنعه العرب من هذا النوع، فهو كقولهم: المصدر القياسي بمعنى المقيس، والمصدر السماعي بمعنى المسموع. وهي تسمية اصطلاحية حديثة وإن كان جنس مسماها عربياً قديماً. هذا وإن شئت إيضاح أكثر، أن تراجع الكلمة القيمة التي كتبها المغفور له الأستاذ الشيخ (أحمد الأسكندري) في مجلة (مجمع اللغة العربية الملكي) (ص 211 - 215 ج 1): احتجاجاً لقرار المجمع قياسية المصدر الصناعي، ففيها الغني لمن طلب المزيد، والله الهادي إلى سواء السبيل

عبد الحميد عنتر
أستاذ بكلية اللغة العربية

هل يتسع القلب لأكثر من حب واحد؟

كنت أطالع في مجلة الاثنين عدد 451 فلفت نظري رأي الدكتور زكي مبارك عند ما سئل هل يتسع القلب لأكثر من حب واحد؟
قال إني أصبحت أعتقد بعد تجارب أن القلب جارحة من الجوارح كالعين مثلاً؛ وهذا ما أعتقده أما أيضاً (والأغلبية من الناس). غير أنه قال: كما أن العين تقدر أن ترى ملايين من المرئيات، كذلك القلب يقدر أن يحب مليون مرة. وهذا لا أوافق عليه، فإن الحب شئ روحاني والمرئيات أجسام ملموسة غير روحانية. الحب مرض نفساني (مرض القلب)، فلو أن العين أصيبت بسهم وأدميت فإنها لا تستطيع أن ترى أكثر، وكذلك القلب، فإذا أصيب بسهم الحب مثلاً فإنه يمرض، وإذا مرض فلا يستطيع أن يحب أكثر.
وكم من قلوب أصيبت بسهم الحب! قال عمر بن أبي ربيعة:
راميات بأسهم ريشها الهدب ... تشق القلوب قبل الجلود

(فلسطين)

جورج شاريكاس

سرقة شعرية

كان يوم 9 فبراير موسماً حافلاً بكلية الآداب؛ فلقد غص مدرجها بمختلف الطبقات من أساتذة وطلاب ومدعوين، خفوا للاحتفال بذكرى مولد جلالة الملك - أعزه الله - وتلك

سنة درجت عليها الكلية كما قال الدكتور حسن إبراهيم في كلمته التي افتتح بها الحفل - وكان جميلاً أن نرى ونسمع ألواناً جديدة من المظاهر التي عبرت عن اتجاهات الفن في العصور الحديثة ونال معظمها إعجاب النظارة - غير أنه استدعى انتباهي شئ واحد قصدته في هذه الكلمة - ذلك هو قصيدة الشاعر (رجاء العربي) الطالب بكلية الآداب ومطلعها:

صدت على فنٍ طيور الوادي ... يا حسن ما صدح الحمام الشادي

وهي جميلة حقاً حتى استعيدت اكثر أبياتها مما دل على حسن وقعها، ولكنه خيل إلى عند ما سمعتها أنني أستعرض ماضياً وقع؛ وقد كان ذلك حقاً!

فالقصيدة لشاعر معاصر هو الأستاذ محمد عمر - قالها بمناسبة عيد ميلاد جلالة الملك (فؤاد) طيب الله ثراه وعنوانها: (آية الولاء)، والقصيدة بين يدي كما سمعتها من شاعرنا الجامعي بتحوير استدعته المناسبة

فإلى من سمعوا هذه القصيدة أسوق ذلك التصحيح خالصاً لوجه الحق.

عبد الغني جمعة

رابطة العروبة

تكونت بجامعة فاروق الأول جماعة باسم (رابطة العروبة لطلبة جامعة فاروق الأول)) تضم طلبة مختلف كليات تلك الجامعة المهتمين بقضية الوحدة العربية، والراغبين في العمل في سبيلها، وبث الدعوة إليها.

وغرض الرابطة الأساسي العمل بكافة الوسائل الممكنة وخاصة الثقافية منها على تحقيق الوحدة العربية، ونشر الدعوة إليها، ولتحقيق ذلك ستتذرع الرابطة بوسائل منها:

1 - تنظيم محاضرات ومناظرات تتناول الشؤون العربية الهامة.

2 - تقوية الصلات الأخوية والثقافية بين الطلبة المصريين وإخوانهم في البلاد العربية الأخرى بتنظيم المراسلات بينهم، وغير ذلك.

3 - الدعوة إلى مؤتمرات تضم طلبة الجامعات العربية المختلفة للنظر فيما يهمهم من توحيد الأحوال الثقافية في البلاد العربية وفي غير ذلك مما يمس قضية الوحدة العربية. وغير هذه من الوسائل المؤدية إلى تحقيق غرض الرابطة الأساسي.

والدعوة موجهة إلى طلبة جامعة فاروق - وهم من شباب هذه الأمة الذين عليهم تعتمد في بناء مستقبلها - إلى الدخول في هذه الرابطة التي ستباشر نشاطها قريباً إن شاء الله.)

جمال أحمد بدر

القائم بأعمال الرابطة

العدد 504 - بتاريخ: 01 - 03 - 1943

رسالة الأديب

للدكتور زكي مبارك

رسالة الأديب - كلام قد ينفع - الخلوة إلى القلب

في أحد الأعداد الأخيرة من مجلة الجمهور البيروتية كتب الأستاذ اليأس أبو شبكة كلمة في السؤال عما ترك شوقي وجبران من التوجيهات النافعة في السياسة القومية، وهو ينتظر أن يجود الجيل الجديد بأدباء قادرين على خلق تلك التوجيهات. وفي العدد الأخير من مجلة المصور القاهرية كتب الأستاذ فكري اباظة يقول إن قصيدة ستالينجراد للشاعر علي محمود هزته هزاً، وهو يرجو أن يعود الشعراء المصريون إلى التغني بالقومية والوطنية، ولا سيما العقاد ومطران

وأقول: أن من رسالة الأديب أن يتجه إلى آمال وطنه من حين إلى حين، أو في كل حين، وفقاً لما يجيش بصدره من نوازع وميول، ولكن من العقوق للأديب أن نجحد فضله إذا لم يجعل الآمال الوطنية في جميع الأحايين

والقول الفصل في هذه القضية إن رسالة الأديب هي خلق ذوق الحياة، فمن الواجب إن تتجه مراميه جميعاً إلى ذلك الخلق في أي صورة، وعلى أي شكل. وقد قلت مرات: إن الأديب الحق هو الذي يستطيع بقلمه أن ينقلك من ضلال إلى هدى أو من هدى إلى ضلال. والمهم عندي إن يقدر الأديب على خلق الفتن الروحية والذوقية والعقلية، بحيث تخرج من صحبته بمحصول جديد من القلق أو الاطمئنان. ولو كانت

غاية الأديب إن يرسم لنا خطط المستقبل لوجب أن نترك الشعراء القدماء، لان أدبهم يعجز عن توجيه الجيل الجديد، ولأنه من هذه الناحية أعجز من أدب شوقي وأدب جبران

أشعار المعري لا تنفع القومية بشيء، القومية في مدلولها الحديث، ولو شئت لقلت إنها كانت أذًى على قومية ذلك الزمان، لأن منحاها يتجه إلى الهدم لا إلى البناء، ولكن قراءة أشعار المعري تنفع في تقوية الذاتية، وتروض القارئ على الاعتداد بالنفس، وتثيره على الرياء الاجتماعي. وثمرات هذا الأدب الذي يرينا كيف نواجه مشكلات العصر الجديد

رسالة الأديب هي خلق ذوق الحياة، أو هي نصر الحياة على الموت، والقليل من هذه الرسالة في هذا الاتجاه يصنع الأعاجيب في إحياء الممالك والشعوب

كلام قد ينفع

صديقي. . .

لم يبق بدمن توجيه نظرك إلى أشياء خفيت عليك عدداً من السنين، واستوجبت أن أزهد في لقائك، برغم ما بيني وبينك من وداد عجزت عن محوه الأيام. هي أشياء تملني منك، فتصرفني عنك، وتجعل محضرك اثقل من الحديث المعاد

أنت يا صديقي مغرم بالسؤال عما لا يعنيك من شؤون الناس، ولا سيما الموظفين، كأنك تتوهم أن أعمالي تنحصر في استقصاء الدقائق والخفايا من أحوال الزملاء، وكان الحياة عندي وعندك قيل وقال، وبحث وسؤال، مع أنك تعرف جيداً أني لم أسألك يوماً عن شأن من شؤونك، الا أن تتلطف أنت فتستشيرني في بعض المعضلات من أحوال دنياك، ثم تكون النتيجة أن أنسى ما أفضيت به إلي بعد لحظات قصار أو طوال

يجب أن تكون شواغلنا الحقيقية مقصورة على ما ينفع، ولا نفع في استقصاء أحوال الناس، الا في حدود المتصلة بالمعملات، ثم يمضي كل إلى سبيله المرسوم في طلب الرزق أو المجد، بلا التفات إلى الفضول الذي لا يتشهاه غير صغار العقول

ومن أثقل ما يضجرني منك حرصك في كل لقاء على تذكيري بالتقصير في حق نفسي من الوجهة الدنيوية، وأنا أبغض من يبصرني بأمور دنياي، لأني رسمت لحياتي كلها خطة لا أحيد عنها في أي وقت، وهي الظفر بأكبر نصيب من أنصبة الفكر والرأي. وهذا هو السبب في أن تكون أوقاتي كلها مشغولة برياضيات ذهنية وعقلية وروحية، وهو أيضاً السبب في طول الخلوة إلى القلم، بحيث لا يمضي يوم يجوز نعته بالفراغ، ولو كان من أيام الأعياد

والغريب أنك لا تساجلني فيما أكتب، ولا تحاول تنبيهي إلى ما يغيب عني، وإنما تسأل دائماً عما ساجني من الأدب، وتحاول بالتصريح أو التلميح أن تفهمني أن كل شيء ما خلا المال ضياع في ضياع!

وأنا لا ازهد في المال ولا أدعو إلى الزهد فيه، ولكني أفهم أن الغني بالنسبة إلى أهل العلم والأدب غني محدود، وينبغي أن يظل كذلك، لتبقى لأهل العلم والأدب أشواق إلى المعاني، وليتحرروا من أسر الغنى الفضفاض، فله شواغل تحد من وثبات العقول، وسبحات الأرواح، وخطرات القلوب

ليس لي بصديق من يختار لي غير ما اخترت لنفسي، وأنت تخذلني تخذيلاً فضيعاً كلما لقيتني، لأنك تحاول تهوين نعمة الله في قلبي، وأنا اعتقد أني من الله عليهم بنعمة التوفيق، فله الحمد وعليه الثناء

أتريد الحق؟

الحق أنك تحاول الدفاع عن كسلك بأسلوب ملفوف، فأنت تهون من شأن الجهاد الأدبي بحجة أنه قليل الربح، وتلك حجة واهية، فللجهاد الأدبي أرباح أيسرها الشعور بقيمة الجهاد، ولو كان لي أمل في تقويمك لذكرتك للمرة الأولى بعد آلاف بأن حياتك صارت غاية في الهزال، وأنك لا تستحق اللقمة التي تاكل، ولا الخرقة التي تلبس، وما أنفقه أهلك وأنفقته الدولة في تعليمك وتثقيفك قد ضاع إلى آخر الزمان

عندك ألقاب علمية، وبيدك وظيفة رسمية، ولكنك على نفسك وعلى الوطن بلاء كيف يجوز أن تمر أيام وأسابيع وشهور وأعوام ولا تقرأ لك بحثاً جيداً أو غير جيد، ولا نسمع من أخبارك غير البراعة في تسقط أخبار الناس، ولا نلقاك الا في القهوة أن

أردنا أن نلقاك، ولا نأخذ عنك غير المعلومات السخيفة عن الدرجات والترقيات؟ وكيف يكون كل همك أن تسألني عما بيني وبين الرؤساء من صلات، ولا يخطر في بالك أن تسألني عما بيني وبين الله من صلات؟

وتعيب علي أن اقضي أيامي في نضال وصيال، فما الذي غنمت أنت من قضاء دهرك في التلطيف والتظرف، بمصانعة هذا ومجاملة ذاك؟

ما تذكرت ماضيك إلا تحسرت وتفجعت، فقد كنت فتى مرجو المخايل، وكان جهادك في طلب العلم مضرب الأمثال، فكيف وقع حجر الخمود فوق رأسك فشطره شطرين، شطراً للنميمة وشطراً للاغتياب؟

وأنا مع هذا أحبك وأحفظ عهدك، ولكن كيف أتقي شرك، يا شرير؟

أن لقاءك يؤذيني أعنف الإيذاء، لأنه يربيني في العدل، فما يجوز لمن يكون في مثل حالك من تعطيل مواهبه الأساسية أن يجد القوت

ارتع والعب، فأن الرزق لا يفوت السوائم المهملات!

صديقي

لا تفكر في لقائي بعد اليوم، الا أن تغير ما بنفسك، فترجع فتى كالذي عهدت، فتى يعتمد على الله لا على الناس، ويؤمن بأن الله لا يرفع أحدا بغير حق، لأنه يضع الموازين في جميع الشؤون، بحيث يمكن القول بأن المصادفة لا يمكن لها في الوجود

أتراني ألقاك مع الرجاء لا مع الخوف؟

أنا أخاف من لقائك لأنك تخذلني وتعوقني، أيها العالم الجبان!

لطف الله بي وبك، وهداني وهداك!

الخلوة إلى القلب

لا أدري كيف صرت إلى ما صرت إليه من الزهد في لقاء الناس، أو لعلني ادري، فقد صرت لا أفكر ففي لقاء صاحب أو صديق الا إذا وثقت بأن لقاءه يوحي إلى القلب أشياء

وهل يتسع الوقت لمسامرة من لا يوحون بشيْ؟

أن الحياة أقصر من أن نضيعها في مصاحبة الموسومين بالغباوة والجهل

الصديق الذي أجالسه فيثير في نفسي الشوق إلى امتشاق القلم لتدوين بعض المعاني هو الصديق، وأنا أرحب بلقائه في كل حين

والأصل في الصديق أن يكون على مثال القلب، فتحاوره كما تحاور قلبك ولا احتراس، عندئذ يتفتح القلب عن مكنونات يبدعها الحوار اللطيف

ومن أدبي في حياتي أن أحرص أشد الحرص على أصدقائي، وأن أتعصب لهم بحق وبغير حق، وأن أنتهز الفرص للحديث عنهم ولوفي صورة الملام، وكان ذلك لأني أومن بأن من حق من وثقوا بنا فصادقونا أن نبذل في البر بهم ما نملك من كلمة الخير، وهي كلمة لا يضن بها غير المفطورين على الشح اللئيم

والخلوة إلى القلب، أو إلى الصديق الذي بمنزلة القلب، هي فرصة الوحي الأدبي، وهذه الخلوة كانت السبب الأصيل في تفوق الأدباء القدماء

وهل ننسى أن الأنبياء لم يتلقوا الوحي الا في أعقاب الخلوات إلى القلوب؟

أقول هذا لأشرح السبب في قلة الشعر بجميع البلاد في هذا العهد، فالشعر لا يكون الا بالغناء، ولا يتيسر الغناء مع الضجيج

أن أحلام القلوب لا تجمع بسهولة، وكيف وهي في شرود الأوابد؟ أن القلب أعماقاً أبعد غوراً من أعماق المحيط، وستكتشف جميع المجاهيل قبل أن تكتشف سرائر القلوب

يجب على الكاتب أن يخلوا إلى قلبه لحظات من كل يوم، عساه يعرف بعض الملامح من سريرة القلب والروح

لا يفرح برؤية الناس والأنهار والبحار والمزارع والبساتين إلا من يعجز عن رؤية الخلائق فوق ساحة القلب

فمتى نكون من أرباب القلوب؟

متى؟ ثم متى؟

أن انتظارنا سيطول!

زكي مبارك

من أيام الفتوح
من مؤتة إلى اليرموك
للدكتور عبد الوهاب عزام
- 1 -
في العام الثالث بعد الستمائة من الميلاد، وذلكم قبل بعثة الرسول بست سنين، اشتعلت الحرب بين الروم والفرس. وهي حلقة من سلسة طويلة من الحروب بدئت منذ ظهر الرومان في غرب آسيا، واستمرت بين الرومان والأشكانيين، ثم ورثها الساسانيون والبيزنطيون حتى شغلت من التاريخ سبعة قرون بين الاشتعال والخمود، وهذه الحلقات الأخيرة التي سبقت البعثة واستمرت بعد الهجرة سبع سنين قد اهتم بها العرب ونزلت فيها آية من القرآن: (غُلبت الرومُ في أدنى الأرض، وهم من بعد غلبهم سيَغلبون، في بضع سنين، لله الأمر من قبل ومن بعد. ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم). انتصر الفرس في عهد كسرى برويز على الروم زهاء عشين سنة متوالية فسلبوهم كل ما ملكو في آسيا، وفتحوا بيت المقدس وأخذوا الصليب الكبير، ثم غلبوهم على مصر. وظهرت جيوش الفرس على أبواب القسطنطينية مرات. وظن الناس أن الروم لا تقوم لهم قائمة
ثم أجمع الروم أمرهم، وقادهم هرقل من ظفر إلى ظفر خمس سنين أتت على كل ما ناله الفرس في الحروب المتمادية. وخلع كسرى برويز بعد أن أخرجته الهزائم من دار ملكه ومات ذليلاً حزيناً، وخلفه ابنه قباد الثاني فصالح هرقل على أن يرد على الروم كل ما سلبوه في آسيا ومصر وأن يرد الصليب المقدس. وسار هرقل في أعظم مواكبه إلى بيت المقدس ليضع الصليب موضعه في ديسمبر سنة 629 م. وبلغ هرقل من العزة والهيبة والصيت ما بلغ
- 2 -
في جمادي الأولى سنة ثمان من الهجرة بعد غزوة خيبر بشهرين وجه رسول الله، ثلاثة آلاف من أصحابه إلى الشام، وجعل القيادة لزيد بن حارثة، فإن أصيب فجعفر بن أبي
طالب، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة. وكان هذا إيذاناً ببعد الشقة، وجسامة المطلب، وعظيم الخطر
لماذا سير الرسول صلوات الله عليه جيشاً لحرب الروم في أرض بعيدة؟ يقول المؤرخون أن الغسانيين قتلوا رسوله إلى أمير بصرى؛ ولكن أحسب الأمر أوسع من هذا فقد أراد المسلمون أن يرهبوا الطامعين موقف القبائل العربية الضاربة في سلطان الروم من المسلمون: أحرب هم أم سلم.
سار المسلمون إلى معان فإذا هرقل الذي حالفه الظفر خمس سنين حتى رد إلى سلطان الروم ما أخذه الفرس وزلزل سلطان كسرى في ديار كسرى - قد جمع في مآب جموعاً حاشدة من الروم والعرب - وتشاور المسلمون وهموا بأن يكتبوا إلى الرسول ولكن ابن رواحة قال: (يا قوم والله إن الذي تكرهون للذي خرجتم له؛ خرجتم تطلبون الشهادة؛ وما نقاتل الناس بعدد، ولا قوة، ولا كثرة. ما نقاتلهم الا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به. فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين: إما ظهور وإما شهادة).
التقى الجمعان عند مؤتة وهي قرية في البلقاء التي تسمى اليوم شرق الأردن، إلى الشرق من الطرف الجنوبي للبحر الميت.
واستعرت الحرب وقاتل زيد بالراية حتى قتل، وتقدم جعفر للشهادة فقاتل حتى نالها. وتلاه ابن رواحة فقتل. فاجتمع الناس على القائد المحنك المظفر خالد بن الوليد فقاتل كما يقاتل خالد حتى تراجع بالجيش الصغير فأنقذه من الجموع المطبقة عليه فعل القائد الحازم لا يهلك جيشه في معركة خاسرة.
ثم شغل المسلمون بفتح مكة وما تلاه من الأحداث. وبعد سنة من موقعة مؤتة دعا الرسول إلى غزو الروم (في زمن عسرة من الحر، وجدب من البلاء) زمن تدعو فيه إلى الحرب إلى ضرورة لا مناص منها. وعلم الناس أنهم يدعون لغزو الروم، غزو بني الأصفر وهم يعلمون من سلطانهم وقوتهم وانتصارهم على الفرس ما يملؤهم هيبة. حتى قال بعض المنافقين: (أتحسبون قتال بني الأصفر كقتال غيرهم؛ والله لكأني غداً مقربين في الحبال)

سار الجيش إلى تبوك، وكانت على حدود البلاد الخاضعة لسلطان الروم في الشمال؛ فأقام بضع عشرة ليلة وصالح الرسول صلوات الله عليه أهل دومة الجندل وأيلي وجربار
وأزرح.
ورجع المسلمون وقد صالحوا من صالحوا وأرهبوا القبائل الضاربة في الشمال، وأعلموا الروم أنهم غير عاجزين عن الجمع والسير للقتال. وكانت غزوة ذات أثر في تمكين هيبة المسلمين في القبائل الشمالية، ومحو ما أصاب المجاهدين في مؤتة، والتمهيد لإقامة سلطان الإسلام في تلك الأرجاء
- 4 -
ثم أعد الرسول جيشاً للمسير إلى البلقاء حيث ترتجع المسلمون في غزوة مؤتة وجعل عليه أسامة بن زيد أول قائد للمسلمين في تلك الغزوة وتوفي الرسول واشتعلت الفتنة في الجزيرة وسأل الناس أبا بكر أن يبقى الجيش ليلقى المدينة غارات القبائل المرتدة ولكن خليفة رسول أصر الإصرار كله على أن ينفذ الجيش الذي أمده رسول الله. فسار الجيش إلى حيث أمر الرسول فغنم وسلم. وذلكم في السنة الحادية عشرة. وهو تدبير عظيم لم يلقه الروم ومن والاهم من العرب بكفاية من الاهتمام والتفكير
- 5 -
وبعد سنة وأشهر من رجوع جيش أسامة - وذلكم أوائل السنة الثالثة عشرة عزم المسلمون على فتح الشام وسير أبو بكر جيوشاً أربعة لهذا الفتح. وتتابعت الوقائع إلى الموقعة الحاطمة موقعة اليرموك التي جعلت هرقل يودع الشام وداعاً لا لقاء بعده. وقد أدار هذه الموقعة الفاصلة خالد بن الوليد، القائد الذي شهد مؤتة وأنحاز بجيشه فخلصه من براثن الموت. ولولا ضيق المجال لفصلت القول وسردت الحوادث مبيناً عن الصلات الجامعة، والقرابة الواشجة، بين هذه الأحداث. تلكم صور متفرقة في كتب التاريخ، شتيتة في رأى مطالعيه؛ ولكنها في الحق أوجه حقيقة واحدة، أو أمواج من بحر واحد، أو فصول متتابعة من كتاب: أوجه من هذا اليقين الذي ملأ قلوب العرب المسلمين، وأمواج من هذا الجهاد الذي اعتزمه العرب المسلمون، وفصول من هذا المجد الذمي سطره العرب المسلمون قصة أولها خالد ينحاش بجيشه ليقيه غائلة الروم، وآخرها خالد يقدم بجيشه ليمحو سلطان الروم، ويمد سلطان المسلمين على الشام وما وراء الشام؛ وفي ثناياها حقائق من الأخلاق والسنن والتاريخ هي التي تجلت سريعاً فجمعت في سلطان العرب المشرق والمغرب وأن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب.
عبد الوهاب عزام
أيها المرضى
للأستاذ راشد رستم
(إذا كان المريض يخاف المرض فأن الصحيح منه أخوف)
(الكاتب)
شفاكم الله وعافاكم
إنكم اليوم مرضى وقد كنتم أصحاء، فلا تجزعوا بل اعملوا على أن تعودوا أصحاء إن الأصل في الحياة الصحة والعافية، أما المرض فهو حال نصيب الناس لحكمة من السماء - تصقلهم به وتهيؤهم ثم تنبهم أن يكونوا دائماً أصحاء
لا تنظروا إلى الأصحاء، بل انظروا إلى المرضى من إخوانكم؛ بل انظروا إلى أنفسكم قد يصير الصحيح مريضاً والمريض صحيحاً، إذ لا صحيح دائماً ولا مريض دائماً إن الأصحاء لم يكونوا دائماً (هم) الأصحاء، فهونوا على أنفسكم، ولا تضعفوها جنب ضعف أجسامكم، إذ هي التي تشفيكم وهي التي تنجيكم، وهي التي تعيدكم صحتكم الأولى
إن المرض ضعف فلا تزيدوا الضعيف ضعفاً
إن ضعف النفوس أخطر من ضعف الأجسام
وإذا تهيأ للمرء لأن تكون له نفس صحيحة قوية فلا يضعفها بأن يخضعها لحكم هذا الجسم المريض الضعيف المضطرب

تلك القوى الكامنة في النفوس إن هي إلا مدد سحري من تيار الروح العلوي ترفع عن الضعيف ضعفه، وتقوم له بما يعجز عنه دواؤه وأطباؤه
وإذا كان المريض، فإن للأصحاء هموماً وقيوداً، وإذا أفلت الزمن من يد المريض فلا يضن أن الصحيح عليه قادر
إن الزمان يقبض ولا يقبض عليه، فلا الصحيح قوي على الزمن ولا المريض ضعيف على الزمن
لا تطلبوا الشفاء إلا من الله، ثم من أنفسكم التي يجب أن تكون مع الله
أما الزائرون فلا تعتبوا
مرضنا فما عادنا عائد ... ولا قيل أين الفتى الألمعي
لعل له عذراً وأنت تلوم. ومن الناس من لا يحب أن يجد صديقه هزيلاً، فكيف به يرضى أن يراه عليلاً!
تحولوا عن هؤلاء وعن هؤلاء، واتجهوا دائماً إلى أصدقائنا الأطباء
إن الطبيب هو الصديق الطبيعي للمريض
وإذا لم يستطع الطبيب أن يكون صديقاً للمريض فلماذا أراد أن يكون طبيباً!
ليس يكفي أن يكون الطبيب عدواً للمرض حتى يعتبر صديقاً للمريض!
يتقدم المريض إلى الطبيب وهو يود أن يكون له كل ما يريد تلك ظاهرة من ظواهر المرض لا تخفى على أحد
غير أنها قد تفوت على من لا يجب أن تفوت عليه، نعم تفوت على الطبيب، تمر عليه دون أن يقيم لها وزناً - هنالك يختل ميزان الإنسانية، لأنه بيد الطبيب، ولا يعود المريض، ولا غير المريض، يرى في الطبيب ذلك الهيكل القدسي الذي يقصد إليه ليلقي بالروح والجسد بين يديه. . .
ولكن المريض كالغريق، يتعلق بكل ما يرى وما يجد - إذن فيا رحمة الله اهبطي على قلب الطبيب! ويا سكينته انزلي على قلب المريض، ويا الله ألطف بهذا الإنسان، وهذا الإنسان. . .
وهكذا لن يستطع المريض أن يفر من رحمة الله، فقد وسعت رحمته كل شيء، وإلى أي النواحي اتجه، وإلى أي المؤاسين قصد، ففي رحمة الرحمن البرء والرضا والأمان
وإن لله لحكمة بين الناس في دنيا الأمراض، إذ يولد ابن آدم وليس عليه غير الصحة والعافية، حتى إذا استلمها أخذ يخضعها لأغراض في الحياة مدى الحياة، ثم يذهب وقد ذهبت عنه الصحة والعافية وأغراض الحياة. . .
وإن في المرض لآية يدرك بها المرء معنى الصحة، وإنها هي الحياة، وإنها من الله وانه لا شيء سواها، ولا أحد سواه
خذ نفسك أيها المريض بيقين الشفاء، وجسمك بصحيح العلاج، ثم اصبر فإن الله كما قضى لك بما تحب منه، يقضى عليك أن تصبر له على ما يحب فيك. . .
وكن عبده والق القيادة لحكمه
وهو الله يمتحن الطبيب بالمريض، ليس ليعلم قدر علمه، إذ فوق كل ذي علم عليم، وإنما ليسأله الواجب الذي ارتضاه لنفسه، والمهمة التي أقسم عليها، أليس هو الذي اختار المهنة التي يعمل لها؟
إلى الأطباء إذن أيها المرضى. لا تسألوهم الشفاء، وإنما اسألوهم وسيلتهم إلى الشفاء - أن يكونوا لكم أصدقاء، بل ونعم الأصدقاء
إن الطب تخمين، والإنسانية يقين، و (الحكيم) البصير يسير بينهما وهو آمن وأمين. إذ شتان بين طالب الله وطالب من الله. . .
إن الرحمة لم ترفع بعد من الأرض إلى السماء، أيها المرضى وأيها الأصحاء. . .
فمن كان له قلب فله الرضا من كل شيء. . .
(بحيرة قارون)
راشد رستم
الحكم الذاتي في المدرسة
للأستاذ السيد يعقوب بكر
- 2 -
ولنتكلم الآن عن مجالات الحكم الذاتي

فنحن يمكننا أن نعتبر البيت في المدرسة الداخلية أحسن مجال يمكن أن يصطنع فيه الحكم الذاتي. فالبيت من جهة أضيق من أن يعجز بعض أفراده عن تدبير أمره تدبيراً محكماً، والحياة فيه تقدم أكبر قدر من وجوه النشاط المختلفة التي يمكن للتلاميذ أن يتخذوا منها ميداناً لتدبيرهم وتنظيمهم

وهناك مجال آخر من مجالات الحكم الذاتي هو الفصل المدرس والمأخذ على هذا المجال تتلخص في أن الأغراض التي يرمي الفصل إلى تحقيقها أولاً وقبل كل شيء تخرج من مجال الحكم الذاتي كثيراً من نواحي حياة الأطفال الاجتماعية التي هي ألصق بهم؛ وفي أن انتقالات التلاميذ كل سنة من فرقة إلى فرقة أعلى يصحبها في كثير من الأحوال تغيير مستمر في أعضاء الحكم الذاتي

وهناك مجال ثالث للحكم الذاتي هو تلك الجمعيات التي يؤلفها التلاميذ قاصدين بها إلى ممارسة وجوه من النشاط تضيق عنها جدران المدرسة كالجمعيات الأدبية والجمعيات التمثيلية وجمعيات فلاحة البساتين وجمعيات التصوير وغيرها

وأخيراً يمكن أن نجعل من المدرسة كلها مجالاً للحكم الذاتي. ولكن هذا لا يمكن أن يتأتى بسهولة إلا إذا كان تلاميذ المدرسة لا يزيدون عن أربعين طفلاً أو خمسين

فهذه هي المجالات التي يمكن أن يتخذ منها الحكم الذاتي مسرحاً يمثل عليه دوره. على أننا لا نحب أن نترك هذه المسألة قبل أن نتناول الحكم الذاتي في الفصل بشيء من التفصيل.

فنحن نريد أن أن نقول إنه ليس من الضروري في كل الأحوال أن يمتد الحكم الذاتي إلى نطاق الفصل. بيان ذلك أنه إذا كان ثم عداء متوارث بين التلاميذ من جهة والمدرس والمدرسين من جهة أخرى، وإذا كانت حياة التلاميذ خارج المدرسة حياة يتناوبها العسف والضغط، فإن الحاجة تكون حينئذ ماسة إلى قدر من الحكم الذاتي يتناول الفصل. أما إذا كانت العلاقة بين التلاميذ والمدرسين علاقة تسودها المودة والصفاء، وكان التلاميذ من

جانبهم يميلون إلى التعلم، وكانوا يتمتعون بقسط وافر من الحرية خارج المدرسة، فمن المشكوك فيه حينئذ أن يكون الحكم الذاتي شيئاً ضرورياً مرغوباً فيه

كذلك لا نحب أن نترك هذه المسألة قبل أن ننتبه إلى أن وجوه النشاط في داخل المدرسة مرتبط أشد الارتباط بوجوه النشاط في خارجها وأن الحكم الذاتي في خارج الفصل لا يمكن لهذا السبب أن يتم له النجاح إذا كانت الأمور في الفصل تجري على قواعد بالية عتيقة

وليس للحكم الذاتي نظام خاص صالح لكل الأحوال، وإنما هو يتكيف بحسب الحالة التي يوجد فيها، فالسن، والجنس وتقاليد المدرسة، وشخصية المدرسين، وطبيعة البيئة التي منها التلاميذ والمثل الاجتماعية التي ترمي إلى تحقيقها - كل هذه يجب أن تترك في الحكم الذاتي أثرها وتكيفه وفقها.

وأنا أعتقد أن قيمة الحكم الذاتي تزيد وأن مجاله يتسع إذا أمكن أن نبث فيه روحاً اقتصادية. وذلك يكون بإعطاء التلاميذ في كل أسبوع قدراً معيناً من المال يستطيعون به أن يدبروا الأمور المالية المختلفة التي كان يقوم بها من قبل مدبرو شئون المدرسة. فيستطيعون مثلاً أن يشتروا ما هم في حاجة إليه من الأقلام وأقلام الرصاص، وأن يشتروا لجرائد اللازمة للمكتبة، وأن يشتروا جميع الأدوات اللازمة للألعاب سواء أكانت داخل المدرسة أو خارجها، وأن يشتروا حاكياً أو مذياعاً، وأن يؤثثوا غرفة هادئة للمطالعة، وأن يقيموا بالرحلات الخ. وكل هذا يستدعي بالطبع وجود مصرف في المدرسة يودع فيه ما يعطاه التلاميذ من مال، ويقوم على تدبير أمره أحد هؤلاء التلاميذ. وكل هذا يستدعي أيضاً أن تقدم اللجان المختلفة ميزانيتها، وأن تفحص هذه الميزانيات لجنة مالية مختصة لتقرر ما تراه.

وقد يكون من بين التلاميذ يصطنعون الحكم الذاتي - ومعظمهم من غير شك قد بلغ سن الشباب - بعض التلاميذ الذين لم يبلغوا هذه السن بعد. فهؤلاء التلاميذ الأحدث يمكنهن أن يشاركوا في عملية الحكم الذاتي، ولكن على شرط ألا يكون عددهم كبيراً جداً. وهنا يتفق نظام الحكم الذاتي عن نظام العرفاء الذي يخضع التلاميذ الصغار لسلطة التلاميذ الكبار.

ويجب أن يعتبر الحكم الذاتي وسيلة يعاقب بها التلاميذ بعضهم بعضاً. وعلى ذلك فيجب

ألا يكون العقاب إلا حين يكون من ورائه صون لقوانين الحكم الذاتي من أن تنقض، تلك
القوانين التي شرعها التلاميذ أنفسهم وقصدوا بها إلى ما فيه الخير لهم جميعاً. على
أن هذا العقاب يجب أن يكون خالصاً من الغل مبرءاً من الضغينة. فالقوة إذن سناد
لقانون الحكم الذاتي في مجتمع التلاميذ كما أنها سناد القانون في المجتمع الكبير.
ولكن كلما قوى شعور التلاميذ بما فيه مصلحتهم العامة فإن الحاجة إلى العقاب تقل.
وهنا يأتي الكلام عن مسألة من أهم مسائل الحكم الذاتي: فيجب ألا يتطرق إلى
الأذهان أن نظام الحكم الذاتي يرفع عن عاتق ناظر المدرسة ومدرسيها مسئولية
التأديب، فهو على العكس من ذلك يزيد من مدى هذا المسئولية؛ وذلك لأن عملية
الضبط لا ترمي حينئذ إلى حفظ النظام فقط بل إلى غاية تربوية كذلك. ومعنى هذا أن
عملية الضبط في هذا النظام لا تقصد مباشرة إلى مجرد حفظ النظام، وإنما هي
تقصد عن طريق غير مباشر لا إلى منع النظام من أن يتطرق إليه العبث ويخترمه
الخلل. وإنما تصطنع عملية الضبط هذا الطريق غير المباشر لتكفل للغاية التربوية التي
يرمي إليها الحكم الذاتي أن تتحقق، وما هذه الغاية التربوية إلا إفساح المجال
لشخصيات التلاميذ حتى تنمو وتترعرع.
ولكن هذا النوع من الحرية لا يرضى به دعاة التحرير فهم يقولون إنه ليس إلا مسخاً
للحرية؛ ذلك لأنه يفرض على التلاميذ ما يريده المدرس، فإذا أراد هؤلاء أن ينطقوا مع
سجينتهم فيما يفعلون فإنهم سرعان ما يعوقون. وإنما ينادي دعاة التحرير بحرية
خالصة من القيود ينطلق معها التلاميذ أينما يريدون فيقعون فيما يقعون من أخطاء
ويعالجون هذه الأخطاء كما يحبون
على أن الأستاذ جون آدمز لا يرتضي مذهب هؤلاء. فهو ينادي بأن تكون للمدرس
السلطة العليا، تلك السلطة التي تحفظ على جماعة التلاميذ صالحها العام قد تؤدي به
الحرية المتطرفة. أضعف إلى ذلك أن الحياة الواقعية حياة مفعمة بالقيود: القيود
العامة التي تغلنا بها الحياة في المجتمع، والقيود الخاصة التي يغلنا بها من نخضع له أو
من نخضع لهم. فإذا كان التلاميذ لن يواجهوا في المستقبل حياة خالصة من القيود،
فأحر بهم أن يعودوا منذ الصغر الخضوع لسلطة مرب أو مربية يقصد كل منهما إلى
تهيئة ظروف المدرسة بحيث تكفل لسلوك التلاميذ وشخصيتهم الترعرع والنماء
ويرى الأستاذ أسبورن أن تقسم السلطة مناصفة بين الناظر والمدرسين من جهة
والتلاميذ
من جهة أخرى. وهو يعتقد أن هذا التقسيم لا يضير نظام الحكم الذاتي في شيء.
فالناظر مثلاً يمكنه أن يفرض على التلاميذ مزاولة الألعاب الرياضية في أيام معينة من
الأسبوع، ثم يترك لهم توزيع ضروب هذه الألعاب على هذه الأيام، فيجعلون هذا اليوم
للكريكيت وذاك للكشف وهلم جرا. على أنه لا يمكن فصل هاتين السلطتين فصلاً تاماً،
فيجب على الناظر والمدرسين أن يصغوا إلى ما يوجهه لهم التلاميذ من نقد، وإن كانوا
يملكون حق إهمال هذا النقد
وقد عرض الأستاذ جردن ماكاي المسألة، فقال إنه لا يمكن أن يتحقق نظام الحكم
الذاتي من غير وجود المربي. ولكي يبين صحة ذلك انتقل إلى وظيفة المربي، فقال
إنها تتلخص في العمل على نشر القدرة المنطوية، ثم العمل على تنمية قدرة تلاميذه
جماعة وأفراداً. فالمربي أولاً مرشد وفيلسوف وصديق، وهو إلى ذلك ناصح أمين في
كل ما يتعلق بالدروس والاجتماعيات وسائر وجوه النشاط في الفصل.
على أنه يجب أن يتصف بصفات معينة تعينه على أن يكون كذلك، وهذه الصفات
ليست إلا صدى للعلاقة التي تربطه بالتلاميذ. فهو يجب أن يثق بأنه قادر على معاونة
تلاميذه على نشر مواهبهم الكامنة، وهو يجب أن يعتقد أن نفوس تلاميذه تنطوي على
حكمة كثيرة مخبأة، أو على صفات أخرى تستحق أن يكد في سبيل إماطة اللثام عنها،
وهو يجب أن يكون ذا عقل واسع الثقافة، وشخصية منسجمة الأطراف متوافقة
الأنغام، وقدرة على التنفيذ، وهو يجب أن يجمع إلى هذه الخصال كلها حباً للأطفال
يلهبه الحماس، ولكن الحماس الذي يخفف من حدته الحذر ويبعد غوره التبصر
ويزيد الأستاذ ماكاي على ذلك، فيقول إن المربي يجب أن يشعر تلاميذه بأن نجاحهم
ونجاحهم فقط هو الهدف الأسمى للمربي، وأنه ما وجد إلا للوصول إلى هذا الهدف.

وعلى ذلك يجب أن يحملهم باستمرار على أن يهدفوا نحو شكل من أشكال الكمال هو في الحقيقة أبعد من أن يتناوله ذرعهم، وأن يشعرهم بأنهم إن فشلوا في الوصول إلى هذا الكمال فلسوف يستطيعون فيما بعد ان يحاولوا محاولات أخرى تحدوها خبرة أوسع
والمربي كذلك يجب أن يوفق بين نواحي الضعف في المربي ونواحي القوة، فيعطي من هذه لتلك ليصل بالمربي في آخر الأمر إلى حال من التوازن قائمة على تعاون ملكاته
وتواصلها
وصفوة القول أن نظام الحكم الذاتي يتطلب وجود المربي ليلعب فيه دوره الهام.
(للحديث بقية أخيرة)
السيد يعقوب بكر
السيدة سكينة بنت الحسين
للأستاذ سعيد الديوه جي
- 2 -
أمها:
بينما الفارق في المسجد الجامع وحوله شيوخ المهاجرين والأنصار، إذا بشيخ مهيب يتخطى رقاب الناس حتى قام بين يدي الفاروق وحياه بتحية الخلافة، فردها عليه الخليفة وقال له: من أنت؟ قال: أنا امرؤ القيس بن عدى الكلبي. فعرفه عمر؛ وكيف لا يعرف صاحب بكر الذي أغار عليهم في يوم فج في الجاهلية؟! فقال له عمر: ماذا تريد؟ قال: أريد الإسلام. فعرضه عليه فقبله. ودعا له برمح فعقد له على من أسلم بالشام من (قضاعة) وهذا أول رجل عقد له على المسلمين بالشام ولم يصل ركعة واحدة؛ ذلك لما له من المنزلة السامية بين قومه. وأراد علي بن أبي طالب أن يزيد في شرف هذا الشيخ فنهض إليه وأخذ بثيابه وقال له: يا عم أنا علي بن أبي طالب أبن عم رسول الله صلى الله عليه وصهره، وهذان ابناي من أبنته، وقد رغبنا في صهرك فأنكحنا. سر الشيخ من هذه الساعة الميمونة التي نال فيها ما لم يكن يتوقعه؛ اهتدى بنور الإسلام، وتولى إمرة قضاعة بالشام، وهذا أبن عم الرسول وزوج أبنته يريد أن يشرفه بمصاهرته. فألتفت إلى على بن أبي طالب والفرح قد امتلأ قلبه والبشر طافح في وجهه. وقال له: (وقد أنكحتك يا علي المحياة بنت امرئ القيس. وأنكحتك يا حسين الرباب بنت امرئ القيس) وكانت الرباب من خيار النساء وأفضلهن امتازت بفصاحة لسانها ورجاحة عقلها فكان الحسين يحبها حباً جماً لما رآه من كمالها وعقلها.
ولامه أخوة الحسين على هذا فقال:
لعمرك إنني لأحُب داراً ... تكون بها سكينة والرباب
أحبها وأبذل جل مالي ... وليس لعاتب عندي عتاب
فلست لهم وإن غابوا مضيعاً ... حياتي أو يغيبني التراب
كانت الرباب مع زوجها مثالاً للمرأة المسلمة الصالحة شاركته أفراحه وأتراحه ورافقته حتى في ساحة جهاده وشهدت بعينها مصرعه ورثته بقولها:
إن الذي كان نوراً يستضاء به ... بكربلاء قتيل غير مدفون
سبط النبي جزاك الله صالحة ... عنا وجنبت خسران الموازين
قد كنت لي جبلاً ألوذ به ... وكنت تصحبنا بالرحم والدين
من لليتامى؟ ومن للسائلين؟ ومن ... يغني ويأوي إليه كل مسكين
والله لا أبتغي صهراً بصهركم ... حتى أغيب بين الرمل والطين
وقد برت الرباب بقسمها فكم تقدم إليها من شريف وأمير وخطبها بعد مصرع زوجها، وكان جوابها لكل خاطب: (ما كنت لأتخذ حماً بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقضت الرباب حياتها حانية على ولديها عبد الله وسكينة).
نشأتها وزواجها:
تولت الرباب تربية ابنتها سكينة فأرضعتها الفصاحة والبلاغة منذ صغرها وأطلعتها على أشعار العرب وأخبارهم. وكثيراً ما كانت ترسلها إلى حلقات العلماء ومجالس رواة الحديث فتأخذ عنهم. كما كانت تقص عليها مآثر آبائها وأجدادها، فتذكرها بجدها الأعظم منقذ العالم من الشرك وهاديه إلى طريق الحق. وتسرد عليها أخبار جدها فتى الفتيان

(حيدر) ما كان عليه من البطولة والعلم والفقه في الدين. وكانت الفتاة ذكية الفؤاد تصغي إلى هذه الأحاديث بكل شوق وتفخر بمآثر أجدادها التي دونتها كل فخر، فاهتدت بنورهم وتسنمت ذروة المجد الشامخ

ولما بلغت سن الزواج زوجها أبوها من ابن عمها عبد الله ابن الحسن. وبعد وفاته تقدم إليها شبان قريش يطلبون يدها فلم يوفق سوى أحد الأبطال الذين يضرب بهم المثل في الشجاعة والمروءة والكرم - ذلك هو مصعب بن الزبير - أمهرها مليون درهم وأهدى لأخيها أربعين ألف دينار. وزفت إليه وهي كالنار الموقدة حسناً وجمالاً، وكان الخليفة عبد الملك ينفس على مصعب هذا الزواج، وقد صرح بذلك لجلسائه فقال: (أشجع الناس مصعب بن الزبير الذي جمع في بيته بين عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسن)

كان مصعب يحبها حباً جماً ويؤثرها على غيرها لعقلها وأدبها وحسبها وقضى معها أسعد أيام حياته، ولكن كل هناء يعقبه عزاء، فلم تطل أيامه معها حتى لقي حتفه. دخل عليها يوم قتله فنزع ثيابه ولبس غلالة وتوشح بثوب وأخذ سيفه لينزل ساحة الوغى. علمت سكينة

أنها الساعة الأخيرة وأنها ستفارقه فراق الأبد فلم تتمالك نفسها وصاحت: (وا حزناه عليك يا مصعب) وما هي إلا ساعات معدودة حتى أتاها خبر استشهاده. فخرجت إلى ساحة الوغى لتنظر البطل المجندل فطلبته بين القتلى وعرفته بشامة كانت في خده فوقفت عليه وقالت: (يرحمك الله، نعم بعل المرأة المسلمة كنت) أدركت والله ما قال عنتر:

وخليل غانية تركت مجندلاً ... بالقاع لم يعهد ولم يتلثم

فهتكت بالرمح الطويل أهابه ... ليس الكريم على القنا بمحرم

وقفت سكينة طويلاً أمام هذا البطل المضرج بدمائه. وتذكرت أيام نكبتها بشهيد كربلاء، ومر أمامها المناظر المحزنة والمصائب التي توالت على آل البيت. وهاهي تفجع اليوم بزواجها كما فجعت بأهلها من قبل ففاض الدمع من عينها والشعر من قبلها وقالت ترثيه:

فإن تقتلوه تقتلوا الماجد الذي ... يرى القتل إلا ما عليه حراماً

وقبلك ما خض الحسين منية ... إلى القوم حتى أوردوه حماماً

ثم احتسبت واسترجعت، وأمرت بدفن زوجها ثم عادت إلى الكوفة لتلم شعثها وتلحق بأهلها. ولما أرادت السفر تجمع إليها أهل الكوفة ليسلموا عليها، كأنهم لم يسلموا زوجها قبل أيام ولم يسلموا أباها وأخاها قبله، وكأنهم لم يخذلوا جدها. ولكن سكينة من نعرف دهاءها وعقلها فهي أجل من أن تنخدع بظاهر القول. وقد صرحت لهم بما يكنه صدرها من البغض فقالت لهم: (لا جزاكم الله عني خيرا، ولا أخلف عليكم بخير، يعلم الله أني أبغضكم، قتلتم جدي علياً، وقتلتم أبي الحسين، وأخي علياً، وزوجي مصعباً، فبأي وجه تلقوني، أيمتموني صغيرة، وأرملتموني كبيرة.

أراد عبد الملك أن يغتنم فرصة قتل زوجها، وكانت كل منيته أن يتزوجها ليحظى بالجمال والعقل والشرف، ولكن هيهات أن يجد حبه إلى قلبها سبيلاً. ولما عرض عليها أمر خطبتها قالت: (والله لا يتزوجني قاتله أبدا). خطبها الإصبع بن عبد العزيز والى مصر. فكتبت إليه أن أرض مصر وخمة. فبنى لها (مدينة الإصبع) ولكن هذا الأمر لم يرق في عين عبد الملك فحسده وكتب إليه: أن اختر ولاية مصر أو سكينة. فكف عن زواجها. خطبها بعد ذلك زيد بن عثمان بن عفان فشرطت عليه: ألا يغيرها، ولا يمنعها شيئاً تريده، ولا يخالفها في أمر تريده، وأن يكون خروجها بيدها. فرضى وسلم أموره بيدها كما أرادت. ولكن

صاحبنا هذا كان بخيلاً فلم يطق صبراً على تفيضه سكينة على الشعراء والفقهاء وحلقات الأدب وما كانت تنفقه في قصرها وغدواتها ومنتزهاتها. فغلب بخله على هواه وتخلى عنها.

آثرت سكينة بعد هذا أن تعيش منفردة مع جواريها بمكان ناء عن المدينة وضوضائها تتمتع بهدوء الطبيعة وجمالها الفاتن فلم تجد مكاناً أجمل من وادي العقيق الفتان. فباعت مالها بالزوراء وعمرت لها قصراً فخماً بهذا الوادي الجميل. وكلما فاض الوادي كانت تخرج إلى محل السيل يحف بها جواريها. وفي أحد الأيام جلست على حافة

الوادي تمتع نظرها بما يحف بها من الأزهار والحشائش وأشجار الاثيل، وكانت السماء صافية والنسيم عليلاً والناس منتشرون حول الوادي يمتعون أنفسهم بهذا الجمال الفتان. أعجبها هذا المنظر البهيج فالتفتت إلى جواريه وقالت: (والله لهذه الساعة في هذا القصر خير من الزوراء).

(يتبع)

سعيد الديوه جي

بالموصل

رسالة الجاحظ

في مناقب الترك وعامة جند الخلافة

للأستاذ محمود عزت عرفة

(تتمة ما نشر في العدد الماضي)

مات الخليفة الواثق عام 232 هـ وتولى بعده أخوه جعفر المتوكل على الله؛ وكان النزاع الذي طال أمده قد احدث رد فعل في نفوس المصلحين ومحبي السلام، فبذلت جهودا جبارة للتوفيق بين المتنازعين، وإزالة روح الحسد والتنافس التي طغت على العلاقة بين طوائف الجند، ووشجت بنفوس الرؤساء من كل فريق. وكان على رأس هؤلاء المخلصين الداعين إلى الإصلاح نديم المتوكل وصاحبة الأثير: الفتح بن خاقان الذي تقدم إليه الجاحظ برسالته في مفاخر الترك بعد أن أضاف إليها مقدمة قصيرة ملائمة. ولا شك أنه في هذه الفترة أيضاً زاد من عنوانها فجعله (في مناقب الترك وعامة جند الخلافة). . . إذ الرسالة الأصلية - بعد حذف المقدمة التي توجه بالخطاب فيها إلى الفتح - مقصورة على ذكر مفاخر الأتراك والإشادة بفضلهم على سائر الأجناس، في حربهم وسياستهم وصناعتهم وأخلاقهم، وكل ما يكون موضع فخر ومحل تمايز وتفاضل.

والفتح من الترك، فما يضيره أن يطنب الجاحظ في فضائل بني جنسه؛ ثم هو من دعاة الألفة والإصلاح فلا يضير الجاحظ أن يوطئ لرسالته بحديث في مزايا هذه الألفة يضمنه من فضائل تلك الطوائف جميعاً ما يجعل كلامه أقوى في التأثير وأدعى إلى القبول

بذلك خرجت الرسالة في قسمين: مقدمة في فصل التآلف وضرورة اتفاق الكلمة مع حديث في مزايا كل طائفة من طوائف الأجناد سوى الترك؛ ثم فصل طويل في مناقب الترك خاصة، وهو الرسالة القديمة بعينها. . .

أما المقدمة المستحدثة فيبدأ الجاحظ فيها بالإشارة إلى ما يضطلع به الفتح بن خاقان من الدفاع عن الخلافة والترغيب في الالتفاف حولها، والسعي إلى توطيد التآلف بين أنصارها، وإقرار فضيلة الطاعة وبث روح الود والمناصحة فيهم؛ ثم يقول متوجها بالحديث إلى الفتح:

(وذكرت أبقاك الله أنك جالست أخلاطاً من جند الخلافة، وجماعة من أبناء الدعوة، وشيوخاً من جلة الشيعة، وكهولا من أبناء رجال الدولة والمنسوبين إلى الطاعة والمناصحة الدينية دون محبة الرغبة والرهبة. وأن رجلا من عرض تلك الجماعة ومن حاشية تلك الجملة ارتجل الكلام ارتجال مستبد، وتفرد به تفرد معجب. . . وزعم أن جند الخلافة اليوم على خمسة أقسام: خراساني وتركي ومولى وبنوي. . . وأنك اعترضت على هذا المتكلم المستبد وعلى هذا القائل المتكلف الذي قسم هذه الأقسام وخالف بين هذه الأركان). ويورد الجاحظ عقب هذا بعض ما رد به الفتح على ذلك الخطيب الداعي إلى التفرقة، ويقول له: فزعت أن أنساب الجميع متقاربة غير متباعدة، وعلى حسب ذلك التقارب تكون الموازرة والمكانفة والطاعة والمناصحة والمحبة للخلفاء والأئمة). ثم يشير الجاحظ إلى أن هذا الخطيب ذكر في معرض كلامه جملا من مفاخر هذه الأجناس وجمهرة من مناقبهم، وأنه أطنب في ذلك ما شاء له الإطناب ولكنه (ألغى ذكر الأتراك فلم يعرض لهم، وأضرب عنهم صفحاً فلم يخبر عنهم كما أخبر عن حجة كل جيل وبرهان كل صنف. . .).

ويذكر الجاحظ - على لسان الخطيب أيضاً - مفاخر هذه الأجناس الأربعة سوى الأتراك، فيطنب في مزايا الخراسانيين والعرب والموالى ثم الأبناء. ويتخذ من آمال شأن الأتراك وسيلة إلى الحديث عنهم؛ أي إلى إبراز رسالته الأولى في مناقبهم وهو يسلك

إلى ذلك ألطف المسالك فيقول: أن ذهبنا - حفظك الله - بعقب هذه الاحتجاجات، وعند منقطع هذه الاستدلالات، نستعمل المفاوضة بمناقب الأتراك والموازنة بين خصالهم وخصال كل صنف من هذه الأصناف، سلكنا في هذا الكتاب سبيل أهل الخصومات ففي كتبهم، وطريق أصحاب الأهواء في الاختلاف الذي بينهم. وكتابنا هذا إنما تكلفناه لنؤلف بين قلوبهم أن كانت مختلفة، ولنزيد في الألفة أن كانت مؤتلفة، ولنخبر عن اتفاق أسبابهم لتجتمع كلمتهم ولتسلم صدورهم. . .)

ولا يخلص الجاحظ إلى رسالته الأولى في مناقب الترك حتى يعاود التمهيد لها والتمويه عن غرضه السابق مها فيقول: (وهم في معظم الأمر وكبر الشأن وعمود النسب متفقون، فالأتراك خراسانية وموالى الخلفاء فصرة، فقد صار التركي إلى الجميع راجعاً، وصار شرفه إلى شرفهم زائدا)

وينتقل الجاحظ بعد هذا إلى رسالته الأصيلة؛ وبديهي أن سطورها الأولى مما كتبه قبل تقديمها إلى الفتح بن خاقان، لأنه يقول فيها بعد التسمية: (هذا كتاب كتبته أيام المعتصم بالله رضي الله تعالى عنه ونضر وجهه، فلم يصل إليه لأسباب يطول شرحها. . .)

ولا نستطيع بحال ما ان نحدد مدى التحوير الذي أدخله في هذا الموضع، ولكنا نقول انه تحوير ألجأته إليه الضرورة، إذ لا أقل من أن يتوجه بالخطاب من المعتصم المتوفى إلى الفتح الذي تحولت إليه الرسالة.

ويبدأ الجاحظ حديثه عن مناقب الترك بسرد قصة فحواها أن حميد بن عبد الحميد كان جالسا - مع جماعة أسماهم - في دار المأمون إذ خرج عليهم رسول من عنده فقال: يقول لكم أمير المؤمنين متفرقين ومجتمعين، ليكتب كل رجل منكم دعواه وحجته، وليقل إنما أحب إلي كل قائد منكم - إذا كان في عدته وصحبه وثقاته - أن يلقي مائة تركي أو مائة خارجي؟. . . فأجمع القوم على أن لقاء الترك أهون من لقاء الشراة؛ إلا حميداً فإنه خالف هذا الرأي وبالغ في التهويل من شأن الترك والإشادة ببطولاتهم في حربهم. وعقد من الموازنة بينهم وبين الخوارج ما التهى به إلى تصويب رأيه وتثبيت حجته.

وبلغ الحديث المأمون فقال: ليس بالترك حاجة إلى حكم حاكم بعد حميد! فأن حميداً قد مارس الفريقين، وحميد خراساني وحميد عربي، فليس للتهمة عليه طريق. . .

ويمضي الجاحظ إلى غايته من إعلاء شأن الأتراك فيذكر من عجائبهم في حربهم ومن طرائف أقوال الرواة والمحدثين عنهم كل ما تطرب له النفس ويطول به العجب؛ وهو لا يستشهد في كلامه إلا بأقوال رجال من ثقات العرب والخراسانيين - سوى الأتراك - حتى يكون ذلك أبعد عن التهمة وأقوم بالحجة، وأدعى إلى الاقتناع. فيحكى عن سعيد بن عقبة بن سلم الهنائي، ويختم ما ينقله عنه بقوله: (فهذا قول سعيد بن عقبة ورأيه وحديثه، وهو عربي خراساني). ويروي بعض ما يقصه ثمامة بن أشرس ويعقب قائلاً (هذا ثمامة بن أشرس وهو عربي لا يتهم في الأخبار عنهم). ويروي أيضاً عن يزيد بن مزيد الشيباني ما وصف به الموقعة التي قتل فيها دولبا التركي الوليد ابن طريف الخارجي. ويقص عن قتيبة بن مسلم طرائف أخر. ويرى الجاحظ خلال هذا بعض ما شاهده بنفسه فيقول: (وأنا أخبرك أني قد رأيت منهم شيئاً وأمراً عجيباً غريباً. رأيت في بعض غزوات المأمون

سماطي خيل على جنبتي الطريق بقرب المنزل: مائة فارس من الأتراك في الجانب الايمن، ومائة من سائر الناس في الجانب الأيسر، وإذا هم قد اصطفوا ينتظرون مجيءالمأمون وقد انتصف النهار واشتد الحر. فورد عليهم وجميع الأتراك جلوس على ظهور خيولهم إلا ثلاثة أو أربعة! وجميع تلك الأخلاط من الجند قد رموا بنفوسهم إلى الأرض إلا ثلاثة أو أربعة! فقلت لصاحب لي: أنظر أي شيء اتفق لنا؛ أشهد أن المعتصم كان أعرف بهم حين جمعهم واصطنعهم.

ولا يفرغ الجاحظ من حديثه في هذه الرسالة حتى يكرر النص على أنه إنما وضعها بغية التأليف بين القلوب وجمع الكلمة وتوحيد المقصد والغاية؛ وأنها ليست من كتب المناقضات أو إظهار التبحر في العلم والاتساع في المعرفة؛ لأنه لا يهدف إلى شيء من هذا، وإنما هو يرمي إلى التوفيق من أوجز طريق، ويرى (أن القليل الذي يجمع خير من الكثير الذي يفرق. . .)

بهذا التصرف البديع تهيأ للجاحظ أن ينشر رسالته بعد أن يئس من إخراجها أو . . . كاد، فازداد بها فضلاً إلى فضل، وارتفع معها مكانة فوق مكانة؛ وهو لم يحرم مع ذلك أن بعد من الذائدين عن الوحدة، الداعين إلى التآلف والوئام، المصلحين بين الطوائف المتدابرة والفرق المتنافرة؛ وتلك أعراض لا نستطيع الجزم بأن واحداً منها كان يجول بخاطره وهو يضع رسالته الأولى على عهد المعتصم.

(جرجا)

محمد عزت عرفة

لماذا لا أثق

بأقوال النحاة ولا اللغويين

للأب أنستاس ماري الكرملي

(تتمة ما نشر في العدد الماضي)

القسم الرابع

فعلول (المفعول الأول)

قال السيد مرتضى بعد مادة (ص ر ق) وقبل رسم (ص ر ف ق) - وهو غريب - ما يأتي، ونحن نذكره بحذافيره على طوله لما فيه من الفائدة الجزيلة:

(الصعفوق، بالفتح: اللئيم من الرجال. قاله الليث. وصعفوق: بلدة باليمامة، فيها قناة يجري منها نهر كبير، لهم فيها وقعة، ويقال: صعفوقة بالهاء، وليس في الكلام فعلول سواه. قال الحسين بن إبراهيم النطيري في كتابه دستور اللغة: فعلول في لسان العرب مضمون، إلا حرفاً واحداً، وهو صعفوق، لموضع في اليمامة.

وأما خرنوب بالفتح، فضعيف. قال الصاغاني: وأما الفصيح فيضم خاؤه، أو يشد راؤه مع حذف النون، كما في العباب. وقال شيخنا: لا يفتح خرنوب، إلا إذا كان مضعفاً، وحذفت منه النون، فقيل خرنوب، أما ما دامت فيه النون، فإنه غير مسموع. قال: وأما برغوث الذي حكى فيه الخليل التثليث في الكتاب الذي ألفه فيه، فلا يثبت، ولا يلتفت إليه، وأما عصفور الذي حكى فيه الشيخ الشهاب القسطلاني عن ابن رشيق، فهو أيضاً غير ثابت، ولا موافق عليه. والله أعلم. اهـ.

قلت (أي الشارح): وقال ابن برى: رأيت بخط أبي سهل الهروي على حاشية كتاب: (جاء على فعلول: صعفوق وصعقول، لضرب من الكمأة، وبعكوكة الوادي، لجانبه. قال أبن يرى: أما بعكوكة الوادي، وبعكوكة الشسر، فذكرها السيرافي وغيره بالضم لا غير، أعني بضم الباء. وأما الصعقول، لضرب من الكمأة فليس بمعروف، ولو كان معروفاً لذكره أبو حنيفة في كتاب النبات، وأظنه نبطياً أو عجمياً. أهـ.

قلت (أي الشارح): ولا يلزم من عدم ذكر أبى حنيفة إياه في كتابه أن لا يكون من) كلام

العرب، فإن من حفظ حجة على من لم يحفظ. فتأمل ذلك. والصعافقة جمع صعفوق: خول لبنى مروان، أنزلهم اليمامة. ومروان بن أبي حفصة منهم، قاله الليث. قال: ولم يجئ في الكلام فعلول إلا صعفوق وحرف آخر. ويقال لهم: بنو صعفوق، وآل صعفوق. قال العجاج:

من آل صعفوق وأتباع أخر، من طائعين لا ينالون الغمر قال الأزهري: ويضم صاده ونصه: كل ما جاء على فعلول، فهو مضموم الأول، مثل: زنبور، وبهلول، وعمروس، وما أشبه ذلك، إلا حرفاً جاء نادراً، وهو بنو صعفوق، بالضم. انتهى - وقال الصاغاني: صعفوق ممنوع من الصرف للعجمة والمعرفة، وهو وزن نادر، سموا لأنهم سكنوا قرية باليمامة تسمى صعفوق، كما تقدم. وقيل: الصعافقة: قوم كان آبائهم عبيداً فاستغربوا. وقيل: هم قوم من بقايا الأمم الخالية ضلت أنسابهم. ويقال: مسكنهم بالحجاز. وقال الليث: الصعافقة: القوم يشهدون السوق للتجارة بلا رأس مال عندهم، ولا نقد عندهم، فإذا اشترى التجار شيئاً، دخلوا معهم فيه. ومنه حديث الشعبي: ما جاءك عن أصحاب محمد، ودعى ما يقول هؤلاء الصعافقة. أراد أن هؤلاء ليس عندهم قفة ولا علم بمنزلة أولئك التجار الذين ليس لهم رؤوس أموال. الواحد: صعفق صعفقي صعفوق، بالفتح. واقتصر الجوهري على الأولين، والجمع صعافيق أيضاً.

قال أبو النجم:

يوم قدرنا والعزيز من قدر، ... وآبت الخيل وقصَّيْن الوطر

من الصعافيق وادركنا المِئر
أراد بالصعافيق أنهم ضعفاء، ليست لهم شجاعة، ولا سلاح، ولا قوة على قتالنا) أ. هـ
آخر كلام التاج بنصه على فيه من الطول
رأى الألوسي في الصعافيق
ونزيد على ما تقدم، أننا كنا سألنا في سنة 1895 أستاذنا الكبير، محمود شكري الألوسي، عن هؤلاء القوم أصلهم، لأنه كان واقفاً أتم الوقوف على ما يتعلق بأخبار العرب وقدمائهم، وما يتصل بهم. فقال لي: (إنهم يونانيو الأصل، أتى بهم عبيد أسرى في صدر الإسلام، ثم بيعوا، فوضعوا في قرية من اليمامة عرفت باسمهم؛ ثم اتخذوا خولاً، ومن اليمامة انبثوا في
سائر العرب، فأسلموا، فاندمجوا بأهالي تلك الربوع، ولم يبق منهم باق) انتهى.
رأينا الخاص بنا
وعليه فيكون هذا الاسم يوناني الأصل، وهو بفتح الأول ومنحوت من قولهم أي ظاهر وواضح وصاف، أي تكلم جهاراً في مجلس أو نادٍ، أو تكلم كلاماً جهورياً، لأن الحرف بتمامه وذلك بأن هؤلاء القوم كانوا يتكلون ببراعة ومهارة بين أيدي الناس، ترغيباً في البضاعة والتجارة أو في أي مهنة يزاولونها أو يتخذونها. واليونانيون - حتى عوامهم معروفون بالتشدق. ولما كان هذا الاسم يونانياً، واشتهر بالفتح قبل ان تضبط قواعد اللغة ضبطاً محكماً بالأقيسة والقواعد، لم يكن قتل هذا اللفظ سهلاً، فاشتهر بين الناطقين بالضاد، وفشا فشوا غريباً في جميع طبقات الناس، ولما جاء أرباب القواعد، لم تصادف لها مزدرعاً طيباً فبقى اللفظ على علاته، ولهذا قد يقاس هذا الحرف أيضاً على القواعد الشائعة، ولا مانع من ذلك.
فلا جرم أن الفتح هو الأصح، لقدمه في اللغة، ولتمكنه فيها ولا سبيل إلى إنكاره، لاستحكامه في الأنفس وفي الدواوين اللغوية والتاريخية منذ أقدم الأزمنة، أي منذ نأنأة الإسلام. وأما ضبطه بالضم فيكون من باب إجراء أحكام القياس.
إذن يجوز الضبطان ويبقى الفتح هو الأعلى، وأصح المثال الأمثل الذي يقاس عليه ما يأتي من الحروف على نحوه.
ما جاء من الألفاظ على صعفوق بالفتح
وأما أن هناك غير صعفوق من الألفاظ فمما لا شهة فيهولا يمكن أن ينكر، من ذلك:
الصعقول، وقد مر الكلام عليها، فهي الحرف الثاني
والثالث: ترفوق
والرابع: طرخون
والخامس: برشوم، لضرب من التمر أو النخل
والسادس: قربوس، على لغة ذكرها التاج
والسابع: بعكوك وقد مر ذكرها
والثامن: كرموص
والتاسع: صندوق على لغة ذكرها الشارح
والعاشر: كندوج
والحادي عشر: سنطور وهو من كلام المولدين
والثاني عشر: برغوث. على لغة وإن أنكرها بعضهم
والثالث عشر: خرنوب، وإن أنكرها بعضهم، وهي لغة مشهورة
والرابع عشر: عمروس، علم رجل. قال في القاموس: (وفتحه من لحن المحدثين)، ثم زاد الشارح: (وتحريفهم لغرابة بناء فعلول، سوى صعفوق، وهو نادر، قاله الصاغاني
15 - حمدون (القاموس واللغويين)
16 - سعدون (التاج)
17 - ذرنوق في قولهم: الزرنوقان، بالضم، ويفتح (القاموس) وزاد في التاج بعد قوله: ويفتح (حكاه اللحياني رواه عنه كراع. قال: ولا نظير له إلا بنو صعفوق: خول باليمامة. وقال ابن جني: الزرنوق بفتح الزاي. فعنول، وهو غريب. ويقال الزرنوق بضمها) أ. هـ.
18 - خلدون ومنه ابن خلدون، وجميع من ترجم له ضبطه بفتح الأول، ولم يضبطه أحد بضمه وهو أشهر من أن يذكر
19 - سمهوط. قال ياقوت: (بفتح أوله وسكون ثانيه ويقال بالدال المهملة مكان

الطاء: قرية كبيرة على شاطئ النيل بالصعيد، دون فرشوط. والله أعلم.
20 - سحنون. كذا ضبطه جميع من ترجم لمن اشتهر بهذا الاسم. من ذلك عبد السلام بن سعيد بن حميد التنوخي الملقب بسحنون. ومحمد بن سحنون التنوخي
21 - عبدون. ومنه عبد المجيد بن عبدون. الفهري، من أبناء المائة السادسة.
22 - عبدوس. ومنه محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن عبدوس من أبناء المائة الثالثة. وعبدوس بن زيد، طبيب من أبناء المائة الرابعة
23 - دستور. جاء في التاج في ماجدة (دستر). وفي الأساس: الوزير: الدستور. قال شيخنا: وأصله الفتح، وإنما ضم لما عرب، ليلحق بأوزان العرب، فليس الفتح فيه خطأ محضاً، كما زعمه الحريري، وولعت العامة في إطلاقه على معنى الإذن). أ. هـ
24 - عصفور. قال في كشف الطرة ص233: (عصفور في لغة حكاها ابن رشيق، والمشهور فيه الضم) أهـ.
25 - شمعون بالشين المعجمة والميم والعين المهملة. هكذا ضبطه صاحب القاموس
26 - سمغون، مثل السابق، إلا أنه بالغين المعجمة ذكره أيضاً القاموس
27 - سنهور، بالسين المهملة (القاموس والتاج وياقوت)
28 - شنهور كالسابقة، لكنها بالشين المعجمة (التاج)
29 - بركون (القاموس وياقوت)
30 - جوع برقوع. قال الشارح: (كعصفور وصعفوق جاء الأخير نادراً ندرة صعفوق). أ. هـ

الخلاصة:

ليس فعلول من الأوزان النادرة، وقد ذكرنا من الشواهد على كثرتها وهي ثلاثون. ولو أمعنا في البحث لصعفناها، وربما مراراً، لكنا اجتزأنا بهذا القدر إثباتاً لما ذكرناه، من أن هذه القاعدة، وهي ليس لفعلول سوى حرفين، غير صحيح البتة، فيجب نقضها وتذريتها في الهواء هباء منثوراً!

الأب أنستاس ماري الكرملي
من أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية

50 - المصريون المحدثون
شمائلهم وعاداتهم
في النصف الأول من القرن التاسع عشر
تأليف المستشرق الإنجليزي ادورد وليم لين
للأستاذ عدلي طاهر نور

تابع الفصل الرابع عشر - الصناعات

تعتبر الزراعة أهم أعمال المصريين، ويباشرها كما سبق أن ذكرت جميع السكان ما عدا القليل منهم. ويخصب النيل الجزء الأكبر من الأراضي القابلة للزراعة بفيضانه السنوي. ولكن الحقول التي تجاور النهر والقنوات الكبيرة يحفر فيها جور للماء وتروي بآلات مختلفة الأنواع. والشادوف أكثر هذه الآلات شبوعاً، وهو يتكون من عمودين من الخشب، أو من الطين والعصي، أو من الطين والبردي، يرتفعان إلى خمس أقدام تقريباً، ويبلغ ما بينهما أقل من ثلاث أقدام، ويعلوها قطعة خشبية أفقية تمتد من قمة إلى أخرى، ويعلق بها عتلة رفيعة تتكون من فرع شجرة، وينتهي أحد طرفيها بثقالة من الطين، والطرف الآخر بوعاء يعلق بواسطة قضيبين طويلين من النخيل، ويصنع الوعاء على شكل طاس من السلال أو من طوق ونسيج من الصوف أو الجلد. ويرفع الماء في هذا الوعاء إلى علو ثماني أقدام تقريباً ويقذف به في حوض معد لذلك. ويلزم لرفع المياه إلى الحقول في أعالي الصعيد عندما ينخفض النيل أربعة شواديف أو خمسة. وهناك شواديف كثيرة ذات عتلتين يحركها رجلان. ويعتبر الري بالشادوف عملاً شاقاً للغاية. وتوجد آلة أخرى للري وهي (الساقية) وتكاد تكون وحدها المستعملة لري الحدائق في مصر. وتتكون الساقية خاصة من عجلة عمودية ترفع المياه في مجموعة متتابعة من أوعية فخارية مشدودة بحبال، وعجلة عمودية ثابتة ذات ضروس مثبتة إلى المحور ذاته، وعجلة كبيرة أفقية ذات ضروس يديرها ثوران أو بقرتان أو حيوان واحد فتحرك العجلتين السابقتين. وتصنع الآلة صناعة غليظة ويحدث تحريكها طقطقة كريهة. وهناك آلة ثالثة تسمى (تابوت) يستعملها

المصريون لري الأراضي شمال مصر حيث لا يلزم رفع المياه إلا لارتفاع قليل. ويشبه التابوت الساقية نوعاً، والفرق الرئيسي بينهما أن للتابوت، بدلاً من عجلة الساقية ذات الأوعية، عجلة كبيرة مجوفة الدائرة ترفع فيها المياه. وتستعمل (القطوة) في الأقاليم نفسها. وهي وعاء مثل وعاء الشادوف يشد إلى حبال أربعة، ويستعمل كثيراً لرفع المياه إلى جرة التابوت. ويحرك القطوة رجلان يمسك كل منهما بحبلين. وتقسم الأرض في نظام الري الصناعي إلى مربعات صغيرة يحدها ارتفاع من التراب أو الأخاديد، فيسيل الماء من الآلة في قناة ضيقة إلى المربعات أو الأخاديد الواحد تلو الآخر

لا تزرع الأراضي (الري) أي التي يغمرها الفيضان، ما عدا القليل منها، إلا مرة واحدة في السنة فيبذر القمح والشعير والعدس والفول والترمس والحمص الخ بعد انسحاب المياه في آخر أكتوبر أو وابتداء نوفمبر تقريباً. ويسمي هذا الموسم (الشتوي). أما الأراضي (الشراقى) وهي التي لا يصل إليها الفيضان لعلوها وبعض الأراضي (الري) فتنتج ثلاث غلات سنوياً بفضل الري الصناعي، وإن لم تكن الأراضي الشراقى جميعها تزرع هكذا. وتنتج الأراضي التي تروى صناعياً أولاً المحصول الشتوي، إذ هي تبذر مع الأراضي الري في وقت واحد، بالقمح والشعير على العموم. وعقب ذلك تبدأ زراعته الصيفي أو ما يسمونه في الصعيد القيضي أو (الجيضي) وتكون عند الاعتدال الربيعي تقريباً أو بعد ذلك فيزرع (الذرة الصيفي) أو النيلج أو القطن الخ. وأخيراً تأتي الزراعة (الدميري) مدة ارتفاع النيل وتبدأ عند الانقلاب الصيفي أو بعده بقليل، فتبذر (الذرة الصيفي) مرة أخرى أو (الذرة الشامي) الخ. وهكذا تجود الأرض بمحصول ثالث. ويزرع القصب على مساحة كبيرة في الصعيد. ويزرع الأرز في الأراضي المنخفضة قرب البحر الأبيض المتوسط

يستعمل المصريون (النورج) لفصل حبوب القمح والشعير وقطع القش للعلف. والنورج آلة على هيئة مقعد تسير على عجلات حديدية صغيرة، أو صفائح مستديرة دقيقة، عددها على العموم إحدى عشرة عجلة مثبتة إلى ثلاثة محاور، أربع عجلات في المحور الأوسط. ويجر النورج بقرتان، أو ثوران يدوران في حلقة فوق الحبوب. أما المحراث وآلات الفلاحة الأخرى، فهي ذات نوع بدائي.

تشغل الملاحة النيلية عدداً كبيراً من المصريين. وأغلب نوتية النيل أقوياء بارزون العضلات. وهم يقاسون مشقة في التجديف وسحب المراكب ودفعها (بالمدرة)، ولكنهم كثيرو الجذل؛ ويزيد سرورهم كلما كثر عملهم، إذ هم يسلون أنفسهم بالغناء. ويتعرض أكثر الربابنة خبرة إلى جنوح سفنهم نتيجة للتغيرات المتواصلة التي تحدث في مجرى النيل، ويلزم حينئذ أن ينزل البحارة إلى الماء لدفع المركب بظهورهم وأكتافهم، وتصنع المراكب النيلية بطريقة تمنعها من الاصطدام بحيث تغوص مقدمها في الماء عن مؤخرها، ومن ثم يلزم أن تكون الدفة كبيرة جداً. وتكون أحسن أنواع المراكب النيلية، وهي كثيرة العدد، بسيطة الشكل رشيقة. وتكون غالباً على طول بين ثلاثين وأربعين قدماً. ويكون لها ساريتان وشراعان مثلثان كبيران، وقمرة تتلو المؤخرة وترتفع إلى أربع أقدام تقريباً، وتشغل القمرة ربع المركب أو ثلثها طولاً؛ وكثيراً ما تشغل الثلثين أو أكثر. ويستخدم عادة ملاح ليمسك حبل الشراع الرئيسي، إذ أن يترك الشراع يخفق عند أقل إشارة. ويجب أن يكون المسافر حذراً بصفة خاصة مهما اعتدل الجو.

عدلي طاهر نور

وداع. . .!

نشرتْ على الأفقِ البَعيدِ قلاعَها ... تلك السفينة ازمعت إقلاعَها
قد خلَّفتني كالغريب بشاطئٍ ... أودعتُ أسراري به فأضنها
السحْبُ أحبابُ تمزَّق شملهم ... والشمس غاربةٌ تذيب شعاعها
يبدوا على الموج اللعوب ويختفي ... كسراب قافلة تذيب شعاعها
وسلوُّ ثاكلةٍ وأمنِ مضلَّلٍ ... وكدمع عاشقة، دعت فأطاعها
تذرى مدامعَها فإن مسَّ الأسى ... بردُ التجلد، حاولت إرجاعها
مضت السفينة بالكنوزِ وودعت ... أرض الصبابة: شطها وبقاعها
ضمت جوانحُها هناءةَ عاشقٍ ... لو يُسأل الدنيا بديلاً، باعها

وضياء مكفوفٍ وغفوةَ ساهد ... ومباه قافلةِ الهوى ومتاعَها
كيف استحال هناؤهن مواجداً ... بل كيف غيَّرتْ السنونُ طباعها
أين الهوى، وشكوك ويقينه؟ ... كانت رؤى حلم جفتْ هجّاعها
أيام كان لنا جنيناً يُرتجي ... ملأ الجوانح بالنعيم وراعها
ومساء مولده السعيد بجنةٍ ... تفتح الرقيب وغيَّبت مناعها
. . .بل أين يومَ حبا على بُسُط المنى ... طفلاً تبيح له الجنان رضاعها
أغرت به أرض الشقاء ضباعها ... حسداً وأضرتْ بالغرير سباعها . . .
وا رحمتا للمستظل بدوحةٍ ... لا ظلها يلفي ولا أسجاعها
وا رحمتا للقلب بات نعيمه ... ناراً تزيد على الندى لذَّاعها
مضت السفينة بالكنوز وودعت ... أرض الصبابة: شطها وبقاعها
أخفت بخفاق المياه صفاحها ... ورمت لخفاق الرياح شراعها
يهفو إلينا بالشجون وطالما ... أهدي البشائر باللقا وأشاعها
طوراً تُحَجَّبُه الدموع وتارةً ... يهتز رفَّافَ المنى لمَّاعها
فإخالها ألقت هنا مرستها ... وإخالها مدَّت إليَّ ذراعها
ما أضعف الجبار في أوهامه ... طفلاً وما أقوى الرؤى وصراعها
حيناً تغرد للغرام وتارةً ... تبكي الصبابة: وُجْدَها وضياعها
(الإسكندرية)
إدوارد حنا سعد
أنشودة الحرب لأبليس
أنشودتي ترقص ألحانها ... على هوى رقص بنيَّاتي
نوافراً حولي كبعض الدمى ... يعلن في الليل مسراتي
على الدم المسفوح أقدامها ... وفوق أجسام وهامات
إرادة الله لها قيمة ... والحرب هذى من إرادتي
هيأتها سراً وأطعمتها ... شراً وألوان العداوات
حتى إذا ما اضطرمت نارها ... وأسفرت عن وجه سعلاة
قمت على آثارها ضاحكاً ... وابؤس أحياء وأموت!
مصباحي الأحمر أوقدته ... وأقبلت نحوي فراشاتي
أطعمها الموت فلا تثني ... تقول لي هات لنا هات
وأمة فرقت ما بينها ... حتى غدت أشتات أشتات
وعفت بعد الأمن نسوانها ... شوارداً في عرض موماة
كشف عنها الستر في ليلة ... رهيبة من بعض ليلاتي
بكى لها السرحان من رحمة ... ولم يكن فيها بمنجاة
وبلدة صيرتها بلقعاً ... من بعد أنهار وجنات
يصيح فيها الموت مستشعراً ... خوفاً ويمضي تحت راياتي
وطفلة أطعمت أحشائها ... ذئباً ونسراً في العشيات
ودار أنس قد رعاها الهوى ... هدمتها بالمدفع العاتي
فهل درى آدام بعض الذي ... يلقي بنوه من نكاياتي
وهل درت حواء شكري لها ... من يوم عهدي في السموات
بناتها ما حدن عن نهجها ... كلا ولا عفن وصياتي
يقتدن بالرفق قلوب الورى ... إلى مني حمر ولذات
أنشودتي تقطر ألحانها ... دماً من ضحياتي
هدية لله قدمتها ... ولم يزل يخشى هدياتي
صاعدة بين دخان الوغى ... حاملة بعض ابتساماتي
(حلب)
عمر أبو قوس
البريد الأدبي
رجعة إلى المذاهب الصوفية
اطلع القراء الكرام على فتوى (الإمام الطرطوشي) (في المذاهب الصوفية) وغيها يقول: مذهب الصوفية بطالة وجهالة. . . ثم كان أن عززنا هذه الفتوى بنشر رأي أئمة

الفقه في هذه المذاهب. وفي الحق أن فتوى الطرطوشي وفي رأي أئمة الفقه الدليل القاطع على بطلان تلك الطرائق القدد التي أفسدت على الناس عقائدهم، ومكنت للوثنية من نفوسهم، حتى إذا ما جئت لتردهم إلى دين الفطرة من توحيد الالوهية والربونية لو وراء منهم واستغشوا ثيابهم ثم قالوا: أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آبائنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض؟

وإن في هذه الطوائف من يعرف الحق ولكنه ينكره عناداً وحرصاً على ما ينعم من مال وجاه، كدأب الذين من قبلهم:

وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا. وهؤلاء الرؤساء (المسلكون) الذين اتخذوا الانتساب إلى تلك الطرق حرفة لأكل أموال الناس بالباطل. أما عدا هؤلاء من الطالبين أو المريدين، فإن للشيخ (المسلك) سلطة خاصة حتى قالوا يجب أن يكون المزيد مع الشيخ كالميت بين يدي الفاسل، حتى لو أمره بمعصية لكان عليه أن يعتقد أنها لحيره وأن فعلها متعين عليه. فكان من قواعدهم التسليم المحض، والطاعة العمياء. وقالوا أن الوصول إلى العرفان المطلق لا يكون الا بهذا.

ومن ثم زادوا أمراً آدا في الدين هو أظهر من كل ما عداه قبحاً وهدماً للدين (وهو زعمهم أن الشريعة شيء والحقيقة شيء آخر، فإذا اقترف أحدهم ذنباً فأنكر عليه منكر قالوا في المجرم أنه من أهل الحقيقة فلا اعتراض عليه، وفي المنكر أنه أهل الشريعة فلا التفات اليه. كأنهم يرون أن الله تعالى أنزل للناس دينين، وأنه يحاسبهم بوجهين، ويعاملهم معاملتين - حاش لله ولدينه - نعم جاء في كلام بعض الصوفية ذكر الحقيقة مع الشريعة، ومرادهم به أن في كلام الله ورسوله ما يعلو إفهام العامة بما يشير إليه من دقائق الحكم والمعارف التي لا يعرفها الا الراسخون في العلم فحسب العامة من هذا الوقوف عند ظاهره، ومن آتاه الله بسطة في العلم ففهم منه شيئاً أعلى مما تصل إليه إفهام العامة فذلك

فضل الله يؤتيه من يشاء ممن يجد ويجتهد للتزيد من العلم بالله وسننه في خلقه. فهذا ما يسمونه علم الحقيقة لا سواه، وليس فيه شيء يخالف الشريعة أو ينافيها) أهـ أما ما يموه به المتصوفة على العامة وأشباه العامة بحيلهم ودجلهم لإثبات ما يزعمونه لأنفسهم من كرامات فهو ضرب من ضروب السحر كان يقوم بمثله الكهان من العرب في الجاهلية (وكانت أكثر مخاريق الحلاج من باب المواطآت).

وموطآت الحلاج هي أنه كان يتفق مع أناس من رجاله على ما يلبسون به على الناس بدعوى الكرامات. وقد اكتشف ذلك في عصره كما بينه التنوخي في جامع التواريخ (نشوار المحاضرة) ومنه أن رجلاً جاء بصفة مسترشد وإنما هو مختبر فقال له الحلاج: تشه على ما شئت فقال: أريد سمكاً طرياً وكانوا في بعض بلاد الجبل البعيدة عن الأنهار والبحر، فدخل بيتاً خالياً من داره وأغلق عليه بابه، وعاد بعد ساعة طويلة وقد خاض وحلاً إلى ركبتيه وبيده سمكة تضطرب وزعم أنه دعا الله فأمره أن يذهب إلى البطائح قال: فمضيت إلى البطائح فخضت الأهواز وهذا الطين منها حتى أخذت هذه. فقال الرجل: تدعني أدخل البيت فإن لم ينكشف لي حيلة فيه آمنت بك. فقال: شأنك. فدخل وبعد عناء وتنقيب اهتدى إلى دار كبيرة فيها بستان عظيم فيه صنوف الفاكهة والثمار والنوار ومنها ما ليس من وقته ولكنه محفوظ بحيلة صناعية، ووجد فيها خزائن مليحة فيها أنواع الأطعمة الناضجة والحوائج لما يهيأ بسرعة ورأي في الدار بركة ماء مملوءة سمكاً فأخذ واحدة منها وخرج. . . فتبعه الحلاج فرمى بالسمكة وجهه وصدره وهرب. وأقسم الحلاج ليقتلنه إن حدث أحداً بذلك ولو في تخوم الأرض. ولم يحدث بها الرجل الا بعد قتله لعلمه بأنه لو أمر المفتونين به أن يقتله فأنه يفعل).

وبعد فلينظر الناظرون إلى أين وصل المسلمين ببركة كالتصوف واعتقاد أهله بغير فهم ولا مراعاة شرع - اتخذوا الشيوخ أندادا، وصار يقصد بزيارة القبور والأضرحة قضاء الحوائج وشفاء المرضى وسعة الرزق بعد أن كانت للعبرة وتذكر القدوة. إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

(كفر المندرة)

احمد احمد القصير

مثل الحقيقة في رأى أفلاطون

أورد التوحيدي في مقياساته مقالة لأفلاطون جاء فيها (إن الحق لم يصبه الناس في

كل وجوهه، ولا أخطأوه في كل وجوهه، بل أصاب منه كل إنسان جهة. ومثال ذلك عميان انطلقوا إلى فيل، وأخذ كل واحد منهم جارحة منه، فجسها بيده ومثلها في نفسه، فأخبر الذي مس الرجل أن خلقة الفيل طويلة مدورة شبيهة بأصل الشجرة وجذع النخلة، وأخبر الذي مس الظهر أن خلقته شبيهة بالهضبة العالية والرابية المرتفعة، وأخبر الذي مس أذنه أنه منبسط دقيق يطويه وينشره. فكل واحد منهم قد أدى بعض ما أدرك، وكل ما يكذب صاحبه ويدعى عليه الخطأ والغلط والجهل فيما يصفه من خلق الفيل.

فانظر إلى الصدق كيف جمعهم، وانظر إلى الكذب والخطأ كيف دخل عليهم حتى فرقهم؟

وأنت إذا امتثلت قول أفلاطون هذا خير امتثيل، استطعت أن تجد فيه تفسيراً لما يقوم بين الناس من نزاع في كل مجال فلا يكاد الناس يتفقون في أية ناحية من نواحي الفكر والوجود على الرغم من أن الحقيقة في ذاتها واحدة. والسر في هذا الاختلاف، أن الذهن البشري لا يستطيع - لفرط قصوره وعجزه - أن يحيط بالأمر الذي ينظر إليه إحاطة وافية، ولذلك نراه يقصر نظره على ناحية واحدة من نواحيه، فلا يصيب منه إلا جهة واحدة، ومن ثم تفوته جهاته الأخرى التي عمى عنها. والذي يحدث أن الجهة التي يصيبها الفرد الواحد تكون مغايرة لما يصيبه غيره من الأفراد، فينشأ من ذلك الاختلاف والتنازع. وليس ثمة شك في أن كل ما يقوم بين الفلاسفة والمفكرين من خلاف في الرأى، إنما يترتب على اختلاف (الجهات) التي ينظر منها كل واحد منهم. وكثيرا ما تكون آراؤهم جميعاً صحيحة صائبة على الرغم من التعارض الذي يوحي به ظاهر القول. ولعل المرء لا يعدم لذلك في الطبيعة نفسها، مثالاً حياً صادقاً: فإن المنظر الطبيعي الواحد، يختلف أشد الاختلاف تبعاً للجهة التي ينظر منها الإنسان إليه حتى إنك لترى صورتين قد أخذتا لمنظر واحد، فتتوهم أنهما تمثلان منظرين مختلفين، وما ذلك الا لأن الجهة التي أخذت منها الصورة الواحدة، مختلفة عن تلك التي أخذت منها الصورة الأخرى.

(مصر الجديدة)

زكريا إبراهيم

فتاوى المفتى الأكبر

أقر معالي وزير العدل جمع فتاوى فضيلة مفتى الديار المصرية الحالي، وتبويبها مع مقارنتها بالمحفوظ من فتاوى مفتى مصر السابقين ووضع ذلك كله في كتاب يطبع على نفقة الوزارة وقد جاء في مذكرة هذا القرار ما يلي:

كتب الواقعات والفتاوى من أقوى الدعائم التي قام عليها بناء الثروة الفقهية الإسلامية وقديماً عنى الملوك والوزراء وسواهم بجمع فتاوى المفتين ونشرها حتى تكونت منها موسعات فقهية عظيمة النفع جليلة القدر، غير أنه منذ بداية هذا القرن لم يظهر بمصر شيء منها ومكانة مصر من العالم الإسلامي تدعوها إلى أن تكون أول من يعمل على تتابع حلقات هذه السلسلة الفقهية العظمى.

وحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد المجيد سليم شيخ الحنفية ومفتى الديار المصرية الحالي قد قضى في منصب الإفتاء قرابة خمسة عشر عاماً اصدر في خلالها مجموعة ثمينة من الفتاوى اشتملت على بحوث ضافية وتحقيقات قيمة، وجمع النصوص الفقهية وتحريرها وتطبيقها أحسن تطبيق على حوادث هذا العصر فكانت من أفضل المراجع الفقهية حتى لقد رغب الكثيرون من رجال القضاء وسواهم في ترتيب هذه الفتاوى ونشرها وتكرر إبلاغ هذه الرغبة إلينا. وقد رأينا أن الفائدة تكون أتم، والنفع أعظم إذا انضم إلى ذلك مقارنة هذه الفتاوى بما هو محفوظ من فتاوى المغفور لهم مفتى مصر السابقين وخاصة فتاوى: الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده والأستاذ الشيخ محمد بخيت المطيعي.

العدد 505 - بتاريخ: 08 - 03 - 1943

أسس الإصلاح

للأستاذ عباس محمود العقاد

الإصلاح المرتجل، أو الإصلاح الجزاف، قلما ينفع وقد يضير ونعني بالإصلاح المرتجل أو الإصلاح الجزاف كل إصلاح لا ينظر فيه إلى الحاجة التي تدعو إليه، ولا إلى الأساس

الذي يقوم عليه. فهو كالدواء الذي يعطى قبل معرفة الداء، أو كالعلاج الذي يعالج به الجهلاء كل داء: يفيد إن أفاد مصادفة واتفاقا، ويضير - إن ضار - لأن الشأن فيه أن يضير فلا بد لكل إصلاح من أساس يقوم عليه، ومن حاجة يغنى فيها بمقدارها وعلى حسب البيئة التي تنشأ فيها ولا بد لأولئك كله من تقدير صحيح لكثير من الأمور نقول ذلك لان حديث الإصلاح في العالم يجري على كل لسان، وينقله المتحدثون في مصر ليقيسوا عليه ما يقبل المقياس، وبخاصة ما نقلته الأنباء البرقية عن (مشروع بيفردج) في البلاد الإنجليزية، وما يرتبط به الشعب التي لا عداد لها في نواحي السياسة والاقتصاد والأخلاق ولا نريد هنا تفصيل القول في هذا المشروع، فلهذا التفصيل وقته حين ترد ألينا البحوث المسهبة التي أحاطت به من جانب القبول ومن جانب الإنكار، ومن جانب آخر غير القبول والإنكار وهو الاعتراف بالأساس كله - أو ببعض الأساس - ثم التعقيب عليه بالإضافة أو التعديل. فحسبنا الآن أن نقول إن المشروع يشتمل على النظم التي تكفل إعانة العجزة والعاطلين ووقاية الأطفال وتأمين الصحة العامة وتعويض المصابين في الأعمال القومية، وما شاكل ذلك من ضروب الإعانة والصيانة والترفيه. حسبنا هذا الآن إلى أن يحين الأوان للبحث المفصل في أجزائة، والمقابلة المفصلة بينه وبين نظائره من مواطن الإصلاح في البلاد المصرية، وفي البلاد الشرقية على التعميم. إلا أن الوقت قد حان - بل حان جداً - لإقامة هذه المشروعات الإصلاحية كلها على أساسها القويم، حذرا من يوم نصاب فيه بالإصلاح المرتجل أو الإصلاح الجزاف، فلا ننجو من غوائله إلا بعد حرب أخرى كالحرب الحاضرة، وساءت تلك من نجاة هي والمصيبة سواء!

هذا الإصلاح على أي أساس يقوم؟

إن بعض الفضلاء الذين عقبوا على مشروع بيفردج في مصر قد فهموا منه أنه غلبة للمذهب الحكومي على المذهب الفردي في معقل الفلسفة الفردية، وهو البلاد الإنكليزية

وقبل التعقيب على هذا الفهم لا غنى لنا عن بيان وجيز لما نقصده من المذهب الحكومي والمذهب الفردي في صدد هذا الإصلاح، وصدد كل إصلاح من قبيله فالمذاهب الاجتماعية تتشعب كثيراً بين الأمم الأوربية، ولكنها بعد هذا التشعب تنحصر في طرفين اثنين جامعين، وهما توسيع الحرية الفردية أو توسيع الرقابة الحكومية فالديمقراطية تميل إلى توسيع الحرية الفردية

والنازية والفاشية والشيوعية - أيضاً - تميل إلى توسيع الرقابة الحكومية

وأنصار الديمقراطية يرون أن الرقابة الحكومية ينبغي أن تتناول الأقل الأقل من شئون الأفراد الخاصة والعامة، ولا تمتد إلى شأن من شئون العقيدة أو التربية أو المعاملة إلا بحساب شديد وقدر مقدور لا يتجوز في المزيد

وأنصار الرقابة الحكومية ينوطون بالحكومة تدبير الثروة العامة وتدبير التربية العامة والهيمنة على الأعمال ورؤوس الأموال والعلاقة بين أصحاب المصانع وعمالهم وأصحاب المتاجر والمشترين منهم، كأنما جميع هؤلاء موظفون في شركة كبيرة أو ديوان كبير

والميل الغالب بين الإنجليز هو الميل إلى الحرية الفردية سواء تمثلت في الديمقراطية أو في نظام من النظم التي تشبهها وتؤمن بصلاحها.

نزع القوم إلى ذلك في مسائل الاقتصاد، وفي مسائل السياسة، وفي مسائل الاخلاق، وفي مسائل الآداب والفنون والعلوم. فالحرية الفردية عندهم هي النعمة التي لا تعد لها نعمة، والحكومات كلها عندهم إنما هي وسيلة من وسائل تحقيق هذا النعمة الكبرى: معيار صلاحها هو مقدار فلاحها في تحقيق هذه الغاية التي لا تعلوها غاية وتخلص مذهب القوم هذا في كتاب هربرت سبنسر عن الفرد والدولة، أو عن (الإنسان) والحكومة، تكبيراً لمكان الفرد، وحداً من مكان الدولة

وساعد القوم على الإيمان بهذا المذهب أنهم من قديم الزمان فرديون غالون في حب الحرية الفردية، أو هم فرديون تاريخياً وجغرافياً ونفسياً باتفاق الزمان والمكان، وأحداث الحياة، وتطورات النفوس

هم سكان جزيرة منعزلون، وأقاليمهم كانت فيما مضى ولايات منعزلة يشبه أن يكون

كل أمير في ولاية ملكاً مستقلاً لا يدين للحكومة العامة بغير الولاء من بعيد؛ وهم ركاب سفن
تعودوا أن تكون كل سفينة كأنها وحدة مستقلة فوق الماء وتحت السماء؛ وهم تجار
يحرصون على حرية الأخذ والعطاء؛ وهم من سلالات الشمال (الضبابي) التي تعود
أهلها الإيواء إلى المنازل كأنها القلاع والحصون لا يطرقها طارق بغير إذن من أصحابها.
فهم حريون فرديون معرقون
أفنستطيع أن نقول اليوم إن مشروع الإصلاح الجديد قد قلب هذه الأوضاع جميعها
رأساً على عقب وخرج بهزيمة الحرية الفردية في معاقل الديمقراطية؟
إن قلنا ذلك فنحن ناقضون لمنطق الحوادث، بل منطق الحرب الحاضرة على
الخصوص لأن الحرب الحاضرة في صميم لبابها حرب بين المعسكرين المتقابلين:
معسكر الحرية الفردية ومعسكر الرقابة الحكومية.
فمنطق الحوادث إذا انتصر الديمقراطيون ألا تهزم الديمقراطية، ولا تنتصر عليها
الرقابة الحكومية في نطاق واسع بعيد الآماد
وجائز أن تقتبس الديمقراطية بعض الحسنات من النظم الأخرى التي تقبل (الاندماج)
في بنيتها
ولكن الذي لا يجوز أن تنتصر فيصاب مبدأها بالهزيمة، وينهدم أساسها الذي قامت عليه
إنما الحقيقة أن مشروع بيفردج وما يحكيه من مشروعات الإصلاح هو انتصار
للديمراطية على الفاشية والشيوعية في جوهر الخلاف بين المعسكرين
هو انتصار للقول بتعاون الطبقات على القول بحرب الطبقات، ومن ثم فهو انتصار
للديمقراطيين على المعسكر الذي يقابلهم في الحرب الحاضرة
فالديمقراطية هي حكم الأمة بالأمة للأمة، ولا تناقض بين هذا المبدأ - أو هذا الأساس -
وبين تعاون طبقات الأمة على المعيشة الاجتماعية
وأنصار الرقابة الحكومية هم القائلون بحرب الطبقات، وهم الذين يرجعون بالتاريخ من
قديم إلى غلبة طبقة واحدة وتسخير سائر الطبقات لمنافع تلك الطبقة، ويعتقدون أن
تفسيرهم للتاريخ الإنساني يقتضي في النهاية أن تتغلب الطبقة العاملة وحدها على
الدولة فتنزع الأموال والأملاك وتدخلها في حوزة الدولة التي لن يكون فيها يومئذ غير
طبقة واحدة
فعبرة الحرب الحاضرة هي انتصار الديمقراطية التي تقول بتعاون الطبقات
بل تقول بعموم مذهب التعاون في العلاقات الدولية والعلاقات الداخلية على السواء
وإذا كان للتاريخ الإنساني معنى فهذا هو منطق الحوادث في صراع اليوم، وهذا هو
منطق الحرب الحاضرة إذا شاءت لها الأقدار أن تجري إلى نهايتها على استقامة
واعتدال
ونحن نؤمن أن الحرية الفردية هي رائد التاريخ الإنساني من قديم الزمان، وأنها هي
مناط التقدم في الحياة الاجتماعية وفي الحياة النفسية بلا اختلاف
ويخطئ من يرجعون بنشأة الحرية الفردية إلى الثورات الحديثة، أو إلى العهد الذي
شاعت فيه كلمة الديمقراطية على ألسنة الخاصة والعامة في الجيلين الأخيرين
فالحرية الفردية - أو الديمقراطية - قد نشأت مع الأديان السماوية الذي آمن فيه
الإنسان بالروح وآمن بالتكليف، وآمن بالمساواة بين الأرواح أمام العزة الإلهية
يومئذ عرف الفرد أنه فرد له روح تناط بها الفرائض والواجبات، ويناط بها الثواب
والعقاب
ويومئذ أصبح الإنسان (وحدة) مستقلة أمام الله
ويومئذ قام أساس الديمقراطية في الأرض قياماً لا يزول ولن يزول، إلا أن يذهب
التاريخ فوضى بغير دلالة وغير اتجاه
ولهذا آمنا حق الإيمان بهزيمة الطغيان في هذا الصراع القائم على الرغم من ظواهر
النجاح في بداية الصراع. لأننا آمنا حق الإيمان أنه واقف في طريق التيار الجارف، وأن
الإنسانية لو كانت تريد أن تدين بالقوة الغاشمة لما كانت بها حاجة إلى الأديان تظهر
بعد القوة الغاشمة هي - أي القوة الغاشمة - عند الإنسانية من بداية عهدها، بل من
بداية عهد الحيوان
ولهذا نفهم أن مشروعات الإصلاح على سبيل المثال مشروع بيفردج لا تدل على

هزيمة الحرية الفردية ولا يمكن أن تدل عليها وتطمع في النجاح
ولكنها تدل على التعاون بين الطبقات، والتعاون بين الأمم، والتعاون بين الأفراد
تدل على العالمية، وهي اتساع لحرية الفرد في العالم كله، واتساع لحرية كل وطن من الأوطان
وهي تقدم في الاتجاه القديم: الاتجاه الذي تجلى يوم آمن الإنسانية بروحه وتكليفه واستقلاله بين يدي الله
فالحرب الحاضرة قد أظهرت أن الأمم تحارب متعاونات بين جميع طبقاتها، وينبغي أن تجني فضائل السلم في جميع طبقاتها
وعلى هذا الأساس يقوم الإصلاح الصحيح السالك في سبيل التاريخ، وليس على أساس التناحر بين طبقات بغير أمل في التوفيق والتعاون والسلام
تبقى الطبقات وتتعاون على المثال الذي ظهر في هذه الحرب
أظرف يوم!
للدكتور زكي مبارك
انتظر أبنائي سيارة الليسيه خمسين دقيقة أو تزيد. انتظروها على باب البيت، بين المطر المنهمر والريح العصوف
وحين أشفقت أمهم فدعتهم إلى الدخول أجابوا ضاحكين: هذا أظرف يوم!
ثم جاءت السيارة فأقلتهم برفق إلى معهدهم المحبوب، ولعلهم لم يحبوا معهدهم بأكثر ما أحبوه في هذا اليوم، فلن تكون الروس غير حكايات وأقاصيص، ولن يكون المدرسون غير أطفال كبار يفرحون بمنظر المطر الهتان!
وبقيت في البيت أسأل نفسي عما أصنع، فما يجوز أن أخرج في مثل هذا اليوم، وهو لا يصلح لغير اقتناص الأوابد من الذكريات
لم يكن المطر غريبا عليّ، فقد تمتعت به أعواما في الديار الفرنسية. ولن أنسى فضله يوم دخلت مدينة الهافر أول مرة في سنة 1927، فقد أتاح الفرصة لمحادثة ريحانة
نظرت إليها بعين الغريب الحائر وقلت: . . . مطولة على غير ميعاد: , - ' ?
وبين السؤال والجواب تلاقى روحان، وكان المطر سبب التلاقي
وفكرت في (المطرية) التي نسيتها على سلم البيت المحبوب في باريس، يوم فارقتها آخر مرة في صيف سنة 1933
وعلى محطة ليون تذكرت تلك (المطرية)، وجاءت فلانة لتوديعي، فلانة التي كانت قالت: ,
يومئذ أوصيت فلانة بأن ترجع إلى البيت المحبوب لتأخذ المطرية التي نسيتها هناك
تذكرت وتذكرت
تذكرت أني حين رجعت إلى بغداد في صيف سنة 1939 مع (وفد مصر) للاشتراك في تأبين الملك غازي رأيت في شارع الرشيد إنسانة تشبه تلك الفلانة، فطوفت حولها مرات إلى أن صرخت:
فقلت: لا غرابة في أن لا تعرفني، فشمس بغداد تزيغ عيون الباريسيات
كان أمر هذه الفلانة عجبا من العجب، كانت فتاة غريبة الروح، وقد تركت دينها لتعتنق ديني، بعد مصاولات روحية يضيق عن شرحها هذا الحديث
وما السبيل إلى قضاء لحظات أعرف بها كيف تحدرت هذه الموجة إلى بغداد؟
- ندخل هذا الفندق؟
- لا، فهو فندق مطروق!
- وهذا الفندق؟
- هو فندق حوله شبهات!
- والى أين نتجه يا شيطانة، وقد عرفت من خفايا بغداد أضعاف ما أعرف؟
- إلى فندق مود
وكان فندق مود هو الفندق الذي نزل به (وفد مصر)، وكان اجتماعي بها فيه يعد فضيحة في أنظار المصريين والعراقيين
قال حمد باشا الباسل: ما تلك بيمينك يا دكتور مبارك؟
فأجبت: هي حية هديتها إلى الإسلام يوم كنت في باريس!
ثم دارت بيني وبينها كؤوس من الشراب الحلال

وهممت بدفع ثمن الكؤوس فاعترض الأستاذ عبد المسيح وزير، وتلطف حمد باشا فقال: لو رأيتكما بمصر لجعلت (قصر الباسل) مقركما إلى آخر الزمان!
ثم دعاني حمد باشا إليه في جانب من بهو الفندق ليسر في أذني كلمات
- ما هذا الذي تصنعه بنفسك يا دكتور مبارك؟
- وماذا أصنع بنفسي يا باشا؟
- ما قدومك علينا بهذه المخلوقة المتبرجة؟
- هي التي قدمت علي من باريس
- أنت عرفت هذه الفتاة في باريس؟
- وهديتها إلى الإسلام
- أنت تهدي إلى الإسلام؟
- أسألها تخبرك!
ثم نظرت إلى حمد باشا وقلت:
- هل تعرف (الحلوبة)؟
- وما الحلوبة؟
- هي أمطار عنيفة مزلزلة تفاجئ العراق في بعض أيام الشتاء
- فهمت فهمت!
- ماذا فهمت يا باشا؟
- فهمت أن هذه الحلوبة تقع على قلبك في الصيف لا في الشتاء
- نعم، وبهذا تتم المعجزة في الحياة العراقية!
ثم عاد حمد باشا فقال:
- أيطول هذا المجلس؟
- أي مجلس؟
- المجلس الذي يدور فيه الغزل بطريق العلانية!
ثم التفت فرأيت الجارم بك يوغل في التنكيت، ورأيت الدكتور عزام يروي أشعاراً، فأخذت بذراع الفلانة وانصرفت
ولكن إلى أين؟
إلى الفندق الذي تقيم به مع خطيبها العراقي، وكانت حدثته عني أحاديث شوقته إلى أن يراني
- دكتور، أنت الذي سميت هذه الفتاة ليلى؟
- وأنا الذي علمتها كيف تكتب أسمها بحروف عربية
- وترى أن أقترن بها؟
- وأرى أن (تتطوق) بها؟
- ايش لون؟
- تلك عبارة مصرية، ستفهمها بعد حين
ولم أدر ما جد في الدنيا بعد ذلك اليوم، وإنما أذكر أني تلقيت خطاباً من (ليلى المريضة في باريس) تقول فيه: قتل السيد رستم حيدر، وكان النصير الأوحد لخطيبي، فما الذي ترى في مصيره ومصيري؟
في تلك اللحظة تذكرت سعادة الأستاذ طه الراوي، وهو غاية في كرم النفس وشرف الروح
هل أكتب إليه بخبر فلانة وفلان؟ . . .
وأسرعت الدنيا فأثارت الحرب، وأمست أحاديث المحبين عبثاً في عبث، ومجوناً في مجون!
كانت الحرب هي (الحلوبة) الدنيوية لا العراقية، والعراق مظلوم في اتهامه بالشقاق، فتأريخه في أسوأ أحواله اهدأ من تأريخ الأمم التي تدعي الشوق إلى السلام والقرار والاطمئنان
حلوب العراق لا تدوم غير ساعات، أما حلوبة الغرب فلا تنقضي إلا بعد سنين
ما هذا الذي أرى؟ ما هذا؟ ما هذا؟
هذه أمطار وبرق ورعود!
لم يبق من تقليد مصر للغرب إلا أن تتشبه بجوه في هذا الهذر الممقوت!

وانظر فأرى صدري ينقبض حين يخف المطر لحظة أو لحظتين، وكان المظنون أن افرح بميل الجو إلى الاعتدال
ما السر في هذه النزعة الغربية؟ ما السر في الفرح بهطول الأمطار في بلاد أغناها النيل عن الغيث؟
لعل ذلك يرجع إلى أن (الإنسان الأول) يحتل صدورنا من حيث لا نعرف، وإلا فكيف جاز لأبنائي أن يقولوا إن هذا اليوم هو اظرف يوم؟
كان الماء من أسباب الوقاية عند القدماء، الوقاية من غارات السباع والوحوش، وكانت المياه سببا في انتصار المصريين في اعظم معركة من معارك الحروب الصليبية، وهي المعركة التي اشترك فيها النيل، فقد أحاط بالأعداء من كل جانب، وقضى عليهم بالخذلان.
وهنا أذكر حواراً دار فوق منبر الأزهر في أيام الثورة المصرية سنة 1919:
حضر الخطيب محمد بك أبو شادي ذات ليلة ليحدثنا عن الأخطار المخوفة من سيطرة الإنجليز على السودان، فقال فيما قال إن تلك السيطرة قد تكون سبباً في منع مياه النيل عن الأراضي المصرية
عند ذلك علت المنبر وقلت ينبغي أن نبحث عن أسباب منطقية لاحتفاظ مصر بالسودان.
وأنا أرى أن مسالة المياه قليلة الأهمية، لأن حياة السودان في تحدر مياه النيل إلى الأراضي المصرية. ولو وجد السودان من يساعده على احتكار مياه النيل لتعرض لآفات من الحميات لا يعلم أذاها غير علام الغيوب ثم ماذا؟
ثم طافت بالقلب خواطر حول شعور المصريين بظواهر الوجود وأقول بصراحة أن الذين ينظمون الأغاني يخطئون أبشع الخطأ في الإكثار من التغني بالرياض والبساتين إن المصريين لا يفهمون هذه الاشياء، ولن يذوقوها لو فهموها، لأن مصر خضراء في جميع الفصول، وهي من أجل هذا لا تشعر بقدوم الربيع، لأن دهرها كله ربيع الروض كلمة غير مفهومة، أو كلمة لا تذاق في الديار المصرية على نحو ما يفهمها ويذوقها شعراء العرب في البلاد التي تتأذى بالشتاء
المصري لا يدرك تقلبات الجو إلا في أندر الاحوال، وهل في مصر جو يتقلب؟
دخلت على المسيو دي كومنين وأنا محزون في يومٍ مطير فقال:
, ' ,
ولكن المطر لم ينتظر إلى الغد، فقد صفت السماء قبل أن ينتهي الحديث
والمسيو دي كومنين يلازم سرير المرض منذ أسابيع ولم أفكر في عيادته لأني اكره رؤية الاساد وهي مراض
سمعت أيضاً أن الأستاذ محمد الههياوي مريض، وان أطباء مستشفى الدمرداش قد احتجزوه عامين بعد الشفاء، لأنهم علموا أن أحد أبنائه مات، وليس من المصلحة لمريض في دور النقاهة أن يدخل بيتا شعاره السواد
هل يعرف أبناء هذا الجيل أن الههياوي كان اخطر مفنِّد لمشروع (ملنر) في السنين الخوالي؟
عند الله جزاؤك يا صديقي، لا عند الوطن، فقد كدت أؤمن بأن الوطن المصري لا يحفظ الجميل
الههياوي مريض، وسيعافى بأذن الله حين يقرأ هذه الكلمات، فلعل دواءه في أن يجد صديقا يذكره بالخير وهو عليل
ما هذا الجو العبوس؟ وما هذا المطر الهتون؟
وما شقائي بمرض الأستاذ محمد الههياوي ومرض المسيو دي كومنين؟
واين الأستاذ محمد عوض جبريل؟
أين أخوان عرفتهم يوم كانت الدنيا تسمح بأن يأنس صديق إلى صديق؟
إن الأستاذ أسعد داغر مريض منذ شهرين، وهو صوره من صور الوداد الصحيح، فأين من توجع لعلته بقصيدة في جريدة الاهرام، وهي تنشر قصائد التوجع لمرضى الروس واليونان؟
ثم ماذا؟
ثم أنتهز هذه الفرصة لتوضيح حقيقة غفل عنها أكثر الباحثين فأقول:

ليس في مصر أحزاب بالمعنى الذي يفهمه الأوربيون، لان جو مصر لا يوحي بالاختلاف كما يوحي بالائتلاف
وأذن يكون النجاح الحزبي في مصر مقصورا على الجماعات التي تعرف كيف تأتلف، وهذا هو الواقع بالفعل، فما فازت جماعة في مصر إلا بمراعاة ما في الجو المصري من الثبات والفرد كالجماعة في مصر، ففي مقدور كل فرد أن ينجح إذا مشى في طريق واحد إلى آخر الشوط، أما التنقل من حال إلى أحوال فهو نذير الانحلال
الإنسان ابن جوه، وجو مصر لا يعرف التقلب، ولو راجعنا تواريخ الفائزين في معترك الحياة المصرية لرأيناهم جميعا من أهل الثبات في الأفكار والآراء
إن المصري يتكلف ويتصنع حين يرائي، لان جو مصر لا يساعد على الرياء والحقد الأسود في مصر لا يقع إلا من رجل نسبه في مصر مدخول. وبكلمة واحدة تصفى ما بينك وبين خصمك من أبناء هذه البلاد، لان فطرة المصري منقولة عن جوه، وهو غاية في الصفاء
ولكن ما هذا اليوم (الملخبط)؟
أني أخشى أن يجعل مقالي هذا (لخبطة في لخبطة)!
هو ذلك، فقد انتقلت من حديث إلى أحاديث بلا نظام ولا ترتيب.
سيصفو الجو، سيصفو بعد ساعات، لا بعد أيام
الإنسان ابن جوه؟
كذلك قلت، فما بالي أعاني شجوناً تحترب في جميع الاحايين؟
ما حالي في دنياي؟ وما نصيبي من الجو المفطور على الصفاء؟
لا بأس، فبحرف أو نصف حرف أبدد ما حولي من المصاعب حين أريد، ولن أريد، لان الصراحة في الخصومة معنى نقلته عن وطني، وأنا لوطني أوفى الأوفياء
أعظم عيب في مصر هو أنها لا ترضى عن التفاوت في المواهب فهي لا تلتفت أبداً إلى الأوساط من الرجال في أي ميدان
وهذا العيب فضيلة عبقرية، ونحو به فرحون
لن نترك فرصة تمر بلا برهان على صحة البنوّة لهذه السماء وما صحت في غير مصر سماء، فتقشعي أيتها الغيوم الدخيلة على سماء هذه البلاد
هذا أظرف يوم؟
نعم، هو أظرف يوم، لأني أسلمت فيه العنان للقلم الجموح
زكي مبارك
الحكم الذاتي في المدرسة
للأستاذ السيد يعقوب بكر
وهناك مسألة أخرى يصح التحدث عنها، وهي مسألة الإيعاز والحكم الذاتي
فللإيعاز أشكال كثيرة. ومن أعود هذه الأشكال بالفائدة شكلان: الإيعاز الإيجابي، والإيعاز السلبي. والإيعاز السلبي فيما يبدو أكثر فائدة في مضمار التربية
فالمربي يركن إلى الإيعاز الإيجابي حين يجد تلميذه أو تلاميذه ينهجون سنناً يؤدي بهم فيما بعد إلى اعوجاج تربوي. فإذا لم يرعوا تلميذه أو تلاميذه عن إنهاج هذا السنن فله حينئذ أن يسلك أحد سبيلين: فإما أن يصطنع العسف، وأما أن يرفض تحمل مسئولية ما يحدث. وصفوة القول أنه إذا وجد المربي تلميذاً ينتهج سنناً في انتهاجه ضرر تربوي، فعليه إذا استطاع أن يحول بينه وبينه، وإلا فليخبر من بيدهم القوة
على أنه يجب ألا يركن إلى الإيعاز الإيجابي كثيراً، ولكن إذا مست الحاجة إليه فليصطنع بغير تردد
أما الإيعاز السلبي فهو أدعى إلى الاهتمام. ذلك لأنه الوسيلة التي يصطنعها المربي لتدريب تلاميذه على تفقد العلاقة بين السبب والمسبب، وبذلك يعمل على أن يحقق لهم شخصيتهم العقلية. ومتى مرن هؤلاء التلاميذ على تفقد العلاقة بين السبب والمسبب فأنهم يستطيعون أن يصلوا إلى مرحلة العمل المثمر
ولنضرب للإيعاز السلبي مثلا نوضح به هذا الذي نقول. فلنفرض أن هناك فصلاً يصطنع فيه الحكم الذاتي، وأن تلاميذ هذا الفصل يبحثون مثلا مشكلة التأديب. فهناك نجد هؤلاء التلاميذ عاطلين من العقول الناضجة ومن الخبرة بالحياة، وأنهم لهذا يغفلون في اعتبارهم بعض الأحوال، فإذا ما وصلوا إلى رأي ما في هذه المسالة، فأن رأيهم هذا

يكون رأياً مبتسراً غير مبني على اعتبار جميع الأحوال. وهنا يأتي دور المدرس، فإما أن يضع نطاق اعتبارهم حالة يتناولها رايهم، واما أن يسألهم مباشرة عما إذا كان خطر ببالهم انهم اغفلوا اعتبار عامل من العوامل. فإذا أدى بهم هذا إلى أن يعيدوا النظر في رأيهم ويصلوا بذلك إلى كنه المسألة، فان المدرس يكون حينئذ قد اصطنع الإيعاز السلبي ليعينهم على الوصول إلى هذا الرأي الصحيح. وإذا لم يستطيعوا الوصول إلى هذا الرأي الصحيح فعلى
المدرس حينئذ أن يدعهم وما وصلوا إليه. فانهم سيدركون بالخبرة أنهم كانوا على خطأ، وأنهم لم يدخلوا في اعتبارهم جميع الحقائق.
وهنا مسألة ثالثة هي مسألة تأثيرات الحكم الذاتي. فللحكم الذاتي تأثير فيما يتعلق بالحياة، وتأثير فيا يتعلق بالنجاح في الحياة. ولنتكلم عن كل من هذه التأثيرات
1 - فيما يتعلق بالحياة
من وجوه النقد التي يمكن أن توجه إلى نظام الحكم الذاتي أنه يجبل التلاميذ على أن يحيوا حياة
مثلى بينها وبين واقع الحياة أمد بعيد، بحيث أنهم حين يلجون باب هذه الحياة يجدون أنفسهم
مضطربين إلى أن يفصلوا مما نشئوا عليه لينغمروا فيما هم فيه
والجواب على هذا الاعتراض أن الحكم الذاتي حين ينشئ التلاميذ على أن يحيوا هذه الحياة المثلى يعمل على إصلاح واقع الحياة وعلى معالجة ما فيها من عيوب. أما إذا نشأ التلاميذ على أن يحيوا حياة تشبه حياتهم الواقعة فأنه حينئذ لا يضطلع بأي إصلاح، وإنما يضمن للحياة الواقعة بقاءها على ما هي عليه من تخلف وقصور.
وهناك جواب آخر يتلخص في أنه يلاحظ دائما في أن التلاميذ يسلكون مسلكاً مضاداً لما يريده عليهم أساتذتهم. فإذا كان أساتذتهم يريدونهم على اعتناق الآراء القديمة البالية، فانهم على العكس من ذلك يعتنقون الآراء الثورية الهادمة، وإذا كانوا يريدونهم على اعتناق الآراء الثورية المجددة فانهم على العكس من ذلك ينتهجون نهجاً محافظاً. فهذه الحال الأخيرة هي ما نراه في نظام الحكم الذاتي. على أننا لا نقصد بالمحافظة هنا الجمود، بل المحافظة على خير ما في التراث القديم من تقاليد ثبتت على محك الزمان. ومعنى هذا كله أن نظام الحكم الذاتي يبث في نفوس التلاميذ روحاً مجددة ولكنة على أساس من القديم، روحاً تجمع بيم طرافة الجديد وعراقة القديم، روحاً تجدد ولكن لا تبدد.
2 - فيما يتعلق بالمنزل
لاشك في أن نظام الحكم الذاتي الذي ينشأ عليه الطفل في المدرسة يطبع هذا الطفل بطابع خاص ويحيله شخصاً آخر ويبث فيه روح الحرية والشجاعة، بحيث نراه في المنزل وقد
خلع رداءه القديم، فأخذ يكثر من الأسئلة ويجادل أبويه ولا يكتم رأياً من آرائه، ويصبح بذلك كله مبعث فوضى واضطراب في البيت. ولكن بمرور الزمن نجد هذا الطفل قد اخذ يستشعر روح السعادة، ويكون بذلك مبعث سعادة في البيت.
فإذا ما لاءم والداه بين نفسيهما وما يعتنقه من رأى فإن الحكم الذاتي يكون حينئذ قد امتد أثره أليهما عن طريق غير مباشر. أما إذا لم يستجيبا له فهما على الأقل سيضطران إلى معاودة النظر في فلسفتهم في الحياة.
وصفوة القول أن للحكم الذاتي في المدرسة يداً تستطيع أن تمتد إلى المنزل فتتناوله بالتغيير والتبديل.
3 - فيما يتعلق بالنجاح في الحياة
يخيل إلى أن نظام الحكم الذاتي يؤهل التلاميذ لان يكونوا في المستقبل رجالاً يقومون بما تفرضه عليهم الحياة من واجبات، وزعماء يقودون الجماعات ويسوسون الجماهير. وليس من شك في أن هذا راجع إلى ما يبثه نظام الحكم الذاتي في نفوس التلاميذ من الاعتماد على النفس والقدرة على سياسة الغير.
وللحكم الذاتي أنصار وخصوم. فكما أن له أنصار ينادون بوجوب اصطناعه في كل مدرسة فان له خصوماً لا يفهمون منه إلا انه نوع من البلشفية نوع من البلشفية يتخلى فيه المدرس عن سلطته التقليدية ليتولاها عنه التلاميذ.

وهم يقولون انهم لا يخدعون بما يزعمه أصحاب هذا النظام من حتى الدرس في الأشراف والتوجيه. ذلك لأنهم لا يعترفون بسلطة إلا سلطة المدرس، ولا يؤمنون بحق إلا حقه.

فهؤلاء هم خصوم الحكم الذاتي. على أنهم لن تقدر لهم الغلبة عليه. ذلك لأنه صدى للحياة المتجددة، وهم صدى للقديم الموغل في القدم، وكيف يميت الصدى الحي صدى كاد يأكله الفناء؟ إلا أن الحياة لا تبقي إلا على ما يسايرها في سيرها الأبدي، أما ما يتخلف عن مسايرتها فقد حق عليه أن يموت على مدرجة الطريق غير مرئي من أحد أو مبكى من أحد.

هذه سنة الحياة، وسنة الأحياء، وسنة كل شيء.

السيد يعقوب بكر

ميدان تونس

للأستاذ محمد إبراهيم حسن

مدرس بكلية الآداب

تمثل تونس الميدان الأول في حوض البحر المتوسط إذ تواجه فيه قوات جيوش الحلفاء في أكثر من موضع.

وكل من الطرفين يدافع دفاعاً مستميتاً. وستحدث قريباً في هذا الميدان موقعة خطيرة ستلعب دوراً هاماً في الحرب الحاضرة في هذا الشطر من العالم.

ذلك لان المسيطر على هذا الميدان يتحكم في كل أجزاء الحوض المتوسط. فإن كتب النصر للمحور فقد حمى بذلك جنوب أوربا، أو على الأقل إيطاليا من غزو الحلفاء. بل لا يبعد أن يعيد المحور كرته في السيطرة على شمال أفريقيا ليحول حوض البحر الأبيض إلى بحيرة محورية. أما إذا كتب النصر للحلفاء فستكون الطامة الكبرى على المحور إذ تعرض إيطاليا للغزو لا محالة، فالشقة قريبة جداً. ولا سيما أن الحذاء الإيطالي مكشوف من جميع نواحيه تقريباً لضرب الطائرات وإصابة الأهداف، كما أن تحصين هذه الشواطئ الطويلة أمر صعب على المحور بعد أن أنهكته روسيا من ناحية، وحاصرته بريطانيا بحرياً من ناحية أخرى. كما أن استيلاء الحلفاء على تونس سيطهر شمال أفريقيا من المحور، ويسهل الملاحة في هذا الحوض، وتعود الطرق الملاحية مطمئنة إلى حد كبير بين الهند والجزر البريطانية عبر مضيق جبل طارق. ولا شك أن هذا النصر سيؤثر كثيراً على سياسة الدول المحايدة في هذا الحوض ونعنى مصر وتركيا وأسبانيا.

ومما يزيد في أهمية هذا الميدان أنه يساعد كثيراً في التموين، فتونس غنية بحاصلاتها الزراعية من حبوب وفاكهة، وسواحلها تسيطر عليها موانئ صالحة لإيواء السفن، مثل: تونس وبنزرت وقابس وسوس والحمامات، وكلها تقع على رؤوس خلجان عميقة، كما أنها تتصل بالداخل بشبكة من السكك الحديدية تمر في الأودية والممرات الجبلية، كما أن كل هذه الموانئ على اتصال وثيق بالسكك الحديدية والطرق الصالحة.

من هذه النظرة العارضة يبدو السبب واضحاً في هذا القتال العنيف وتلك المغامرات التي نسمع بها في الصحف بين وقت وآخر. ولكن الغريب في هذا الميدان هو ضعف التقدم من

الجانبين؛ فلقد عهدنا في الجيوش الألمانية تلك الحروب الخاطفة والدقة البالغة اللتين ظهرتا في الإغارة على نروج والدانمرك في إبريل عام 1940، وعلى بلجيكا وهولندا وفرنسا في مايو من ذلك العام. ولكن هذه الآلة الدقيقة لم تعمل في ميدان تونس بدقتها المعهودة، وبدلاً من أن تنتهي من حركاتها الحربية في أسابيع معدودات نجدها وقد مضى عليها بضعة شهور وهي لا تزداد إلا بعداً عن الغرض الذي تنشده.

ولعل هذه الظاهرة تعلل بعوامل كثيرة منها: طبيعة هذا الميدان المعقد إذ ينقسم إلى إقليمين متباينين هما الإقليم الجبلي الذي يشمل معظم الميدان، والإقليم السهلي الذي يمثل شريطاً يضيق ويتسع. ويتكون الإقليم الجبلي من سلسلة الأطلس البحرية في الشمال، وسلسلة أطلس الصحراء في الجنوب، وبينهما الطرف الشرقي من هضبة الشطوط، ويكثر في هذا الإقليم الممرات الوعرة مثل ممر قصرين الذي استولت عليه القوات الأمريكية أخيراً. وهذه الممرات تمثل كميتاً صعباً وتعقد شباكا معقدة لكل من الطرفين المتحاربين. ويقطع هذه الممرات السكك الحديدية التي

تسهل اتصال مدن الداخل بموانئ الساحل.

أما الإقليم السهلي فيحيط بالإقليم الجبلي من ثلاثة مواضع: فهو سهل ساحلي ضيق في الشمال تشرف عليه الأطلس البحرية، ويضيق جداً حول بنزرت، ثم يبتعد قليلاً عن تونس. وهو في الجنوب قد شغل معظمه ببحيرة شط الجريد. أما في الشرق فيمثل شريطاً ساحلياً يتسع في الوسط ويضيق في الشمال حيث تقرب الأطلس البحرية من الساحل، ويضيق في الجنوب حيث ترقب أطلس الصحراء من الساحل في منطقة قابس. ولا شك أن الموضعين خطيران من الناحية الحربية لان كلا منهما يمثل عنق زجاجة تسهل للمسيطر عليه مهمة الدفاع والهجوم عند الضرورة. ولذلك يرجح أن القوات الألمانية المتقهقرة في طرابلس لا ينتظر أن تقاوم كثيراً عند خط مارث بل ربما تحصن نفسها عند عنق قابس إن أعطيت الفرصة

يظهر إذن أن هذا الميدان معقد جداً من الناحية الجغرافية مما يصعب الحركات الحربية، فان كان المناخ هو العامل الأول لبطء الحركات العسكرية في الميدان الروسي في فصل الشتاء.

فان طبيعة السطح هي العامل الأول لبطء تقدم الجيوش في الميدان التونسي ليس في

الشتاء فقط بل طول العام.

ومما زاد في هذا البطء من الجانب الألماني هو تقسيم القوات المحاربة: فقسم في الشمال وقسم في السوط في منطقة سيدي بوزيد وقسم في الجنوب يمثل الجيش الألماني المتقهقر، والجانب المحوري، يعمل على الاتحاد لضرب الحلفاء ضربة قاضية، وجانب الحلفاء يعمل على العزلة لضرب كل على حدة. ولا شك أنه حتى الآن من الصعب أن نحكم أي الكفتين هي الراجحة.

وهناك عامل ثالث لا يقل عن العاملين الأولين أهمته وهو أن كلا من الطرفين قوي صلب الجانب مصمم على الدفاع راغب في النصر. ويواجه المحور عدواً من نوع جديد يخالف ما صادفه في تلك الدول الضعيفة التي اكتسحها في أول الحرب وظن بذلك أن النصر بسرعة خاطفة هو غرضه الأول ولا شك أنه بالغه. فاليوم يواجه في روسيا وتونس عدواً قوياً. ولا شك أن الغلبة لمن يصمد في الميدان.

محمد إبراهيم حسن

واسط مدينة الحجاج

للأستاذ يوسف يعقوب مسكوني

لا يخفى على المتتبع ما للثقافة في أية بلدة من البلدان من تأثير عظيم يقيم لها وزناً بين باقي المدن والأمصار.

فقد يتحدث المتحدث عن بلدة واحدة ذات شأن في مملكة من المماليك فتجعل البلدة لهذه المملكة شأناً بين الأمم والشعوب، وفخامة المدن نتيجة الثقافة والعمران، وهما أساسان رصينان في أسس الحضارة البشرية التي سمت على أحوال باقي المخلوقات في الطبيعة. ونقصد بالثقافة العلم والفن ومعاهدهما التي تدعى بالمدارس والجامعات على اختلاف أشكالها وأنواع مسمياتها.

فهي المناهل الرائقة للعلم والفن. وكلما ازداد عدد هذه البيوت ازداد مقدار التقدم الثقافي والتهذيب العلمي وبهما تكمل سيادة الأفراد في المجتمع البشري. وكذلك العمران ونقصد به المؤسسات المتنوعة لكل ما ينفع الفرد في حياته سواء أكان ذلك من أجل صحته أم عيشه أو اكتسابه. كل هذه المؤسسات تعود عليه بالنفع العميم لمواطنيه كافة من أبناء قومه وغيرهم.

ولقد دلت أبحاثنا عن تاريخ واسط الذي ما زلنا ندأب على استقصاء أخباره أن لمدارس هذه المدينة المندثرة أهمية كبيرة في تاريخها وان كان ما توصلنا إلى معرفته منها قليلاً. فإن معاهدها الثقافية لم تقتصر على عدد معلوم تحيط به المعرفة بل كانت هناك في واسط الربط التي كانت تكون بمثابة مدارس تدرس فيها علوم الدين وخاصة القرآن الكريم، وما يتعلق به من التفسير وما يخص قواعد الصرف والنحو وعلوم البيان والبديع والنثر والشعر، وكذلك الفقه والعلوم الشرعية وفلسفة الكون والتوحيد وغيرها؛ كما أننا نعلم أنه كان يتخذ في كل مسجد من المساجد مدرسة لتعليم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم، ودرس العلوم الدينية.

فكان يعتبر كل مسجد بمثابة مدرسة من المدارس، وكان فيها كتاتيب لتعليم الصغار وتهيئتهم لقبول هذه العلوم. ولم تشتهر مدينة واسط كما يظهر لنا إلا بالمدارس الآتي ذكرها على ما دونه المؤرخون الرحالون من أبنائها، ولعلهم لم يجدوا أشهر منها في زمانهم.

فأولاها مدرسة الأمير خطلبرس، وكانت تقع هذه المدرسة بالقرب من دجلة في الجهة الشمالية الغربية من الجانب الشرقي كما يغلب على الظن، لأن مدينة واسط كانت راكبة دجلة من الجانبين كبغداد. وقد نص على تعيين موقعها العلامة المؤرخ ابن الديئبي في مخطوطه المحفوظ الآن في الخزانة الأهلية بباريس حيث قال فيه: (جعفر بن مظفر بن يحيى بن محمد بن هبيرة. توفي بواسط سنة 610هـ. فدفن بها بمدرسة (خطلبرس) أعلى البلد اهـ. وقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى أحد الأمراء الذين حكموا في واسط أسمه خطلوبرس ذكره جماعة من المؤرخين يطول بنا تفصيل أقوالهم هنا. وهي من مؤسسات القرن السادس للهجرة لأنفاق اكثر المؤرخين على تحديد وجود الحاكم المذكور في هذا القرن. ونستدل من أخبار هؤلاء المؤرخين أن المدرسة كانت كبيرة حتى كانت فيها مقبرة لدفن مشاهير الرجال العلماء فيها. وذكر ابن حجر في الدرر مدرسة بواسط تعرف بالمدرسة البرانية لوقوعها في أعلى البلد ولعلها هي لاتفاق المؤرخين على تعيين هذا الموضع. وتليها مدرسة الغزنوي بواسط وهو: محمود بن احمد بن عبد الرحمن أبو الفضل الغزنوي حدث بكتاب تفسير الفقهاء، وتكذيب السفهاء لأبى الفتح عبد الصمد بن محمود بن يوسف الغزنوي عن ولده القاضي يحيى بن عبد الصمد عن أبيه ذكره الحافظ ابن النجار وقال: صحب أبا الفتوح احمد بم محمد الغزالي وأخذ عنه علم الوعظ وقدم بغداد سنة سبع وخمسين وخمسمائة وعقد مجلس الوعظ بجامع القصر ثم انتقل إلى واسط فسكنها إلى حين وفاته.

وقرأت في كتاب القاضي أبى الحسين علي الواسطي بخطه قال: توفي محمود الغزنوي يوم الجمعة ودفن يوم السبت ثامن شعبان (سنة ثلاث وستين وخمسمائة في مدرسته بمحلة الوراقين وكان يوماً مشهوداً

ثم تعقبها مدرسة شرف الدولة محمد بن ورام الجاواني الكردي ورد ذكره في مخطوطة تاريخ واسط لأسلم بن سهل ابن حبيب الرزاز الواسطي المعروف ببحشل حيث ذيلت في آخر المخطوطة الفقرة التالية: (سمع جميع هذا الكتاب وهو تاريخ واسط لبحشل. . . وذلك بواسط في مدرسة شرف الدولة محمد ابن ورام نور الله ضريحه في مجالس آخرها الاثنين رابع عشر من ذي القعدة من سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة). فإذا كان آخر قراءة المخطوطة في هذه السنة فلا شك أن تشييد المدرسة المذكورة يسبق هذا التاريخ المذكور بكثير

ثم تأتي بعدها مدرسة للحنفية ذكرها ابن الساعي الخازن وذكر مدرسها أبا المحاسن عبد اللطيف المعروف بابن الكيال الواسطي قاضي واسط المشرف على ديوانها الزمامي. تولى القضاء بواسط بعد أبيه. وكانت وفاة أبي المحاسن هذا سنة خمس وستمائة

ومن مدارسها أيضاً المدرسة الشرقية الشرابية ذكرها ابن القوطي البغدادي في حوادث سنة 632 هجرية. حيث يذكر فتحها في هذه السنة بالجانب الشرقي من واسط على دجلة وهي التي أمر بإنشائها شرف الدين أبو الفضائل الشرابي للشافعية، وكانت مجاورة لجامع كان داثراً فأمر بتجديد عمارته ورتب بها للتدريس العدل أحمد بن نجا الواسطي ومعيدان واثنان وعشرين فقيهاً، وخلع على الجميع وعلى من تولى عمارتها من النواب والصناع والحاشية الذين رتبوا لخدمتها، وعمل فيها دعوة حسنة حضرها صاحب الديوان تاج الدين معلى ابن الدباهي الناظر بواسط والقاضي والنقيبان: نقيب بني العباس ونقيب بني أبي طالب والشعراء والقراء، وكان المتولي لعمارتها وجعل النظر إليه وإلى عقبه في وقفها أبو حفص عمر بن أبي إسحاق الدروقي، وكان ذا مال كثير فائض وجاه عريض عمر، إلى جانب جامع ابن رقاقا رباطاً واسكنه جماعة من الفقراء، ورتب فيه من يلقن القرآن المجيد ويسمع الحديث، وأجرى عليهم الجرايات اليومية والشهرية. وأنشأ قريباً من مدرسة الشرابي هذه رباطاً آخر على شاطئ دجلة وتربة يدفن فيها ووقف عليها وقوفاً سنية، وممن درسوا

بالمدرسة الشرقية الشرابية عماد الدين زكريا القزويني قاضي واسط صاحب كتاب عجائب المخلوقات وكتاب آثار البلاد وأخبار العباد فلم يزل كذلك إلى أن مات. وكان حسن السيرة عفيفاً. ومن مدارسها أيضاً المدرسة التي وصفها ابن بطوطة في رحلته ولم يذكر اسمها وإنما يذكر أسم بانيها وهو الشيخ تقي الدين عبد المحسن الواسطي الذي كان من كبار أهل واسط وفقهائها، وقال فيه إنه يعطي كل معلم بها كسوة في السنة ويجري له نفقة في كل يوم ويقعد هو وإخوانه وأصحابه لتعليم القرآن الكريم بها ثم يقول: (وقد لقيته وأضافني وزودني تمراً ودراهم) فتكون رحلة ابن بطوطة إلى واسط في إبان تشييد هذه المدرسة التي قال فيها إنها مدرسة حافلة فيها نحو ثلاثمائة خلوة ينزلها الغرباء القادمون لتعليم

القرآن وهي من منشئات أوائل القرن الثامن الهجري. ويجد الباحث في تاريخ واسط مدارس بأسماء المحدثين والرواة والفقهاء كانوا يتخذونها بأسمائهم أو يجعلون قسماً من بيوتهم مدرسة يجتمع إليها طلاب العلم من المدينة أو من أنحاء أخرى

هذا مجمل ما تمكنت من العثور عليه من أخبار مدارس واسط. ويقيني أن وجود هذه المدارس في مدد متقاربة هو الرجعة العلمية التي حدثت في أواخر أيام الدولة العباسية لا سيما عهد الوزير نظام الملك وزير آلب أرسلان وملكشاه السلجوقيين فهو الذي نعش الرح العلمي في زمانه بفتحه المدارس النظامية في أنحاء الشرق العربي والعجمي فتأثرت واسط هذه الآثار وعاد لها نشاطها العلمي والثقافي وهي أم المقرئين والمحدثين والفقهاء الذين درسوا وأفتوا في مختلف البلدان العربية وأخصها بغداد مركز الخلافة العباسية حيث كثر في معاهدها العلمية الأساتذة الواسطيون

ومن أخبار العمران في واسط أن نذكر مارستانها وأطبائها الذين عثرنا على أسمائهم في سياق البحث. وأول أطباء واسط تياذوق طبيب الحجاج بن يعلف له نوادر وألفاظ مستحسنة في صناعة الطب وقد عمر طويلاً. صحب الحجاج والى العراق وخدمه بصناعة الطب، وكان يعتمد عليه ويثق بمداواته؛ وله تفاصيل مع الحجاج لا يسعنا ذكرها. وقد توفي بواسط في نحو سنة تسعين للهجرة، وله من الكتب كناش كبير أي كتاب جامع ألفه لابنه، وكتاب إبدال الأدوية وكيفية دقها وإيقاعها أذابتها وشتى من تفسير أسماء الأدوية. وله تلاميذ أجلة تقدموا بعده. ذكره عدة مؤرخين. ثم يليه تلميذه فرات بن شماتة الذي كان طبيباً لعيسى بن موسى الذي دعاه المهدي إلى خلع نفسه وتولية الهادي، ومن الأطباء أيضاً يوسف الواسطي الذي قرأ عليه جبريل بن عبيد بن بختيشوع الذي كان من أطباء المقتدر وخواصه، ومنهم أبو سعيد سنان بن ثابت بن قرة الحراني كان طبيباً مقدماً كأبيه، وكان طبيب المقتدر خصيصاً به، ثم خدم القاهر وإليه يرجع وعلى وصفه يعتمد. ومن أخباره أنه لما كان خليفة الراضي بالله استدعى بحكم التركي سناناً وكان بواسط وسأله الانحدار إليه ولم يتمكن من الطلوع في ذلك قبل موت الراضي لملازمة سنان بخدمته، فانحدر إليه أكرمه ووصله. وله حديث طويل فيه نصح وإرشاد يطول بنا وصفه حتى انه حمل بحكم على عمل دار ضيافة بواسط وقت المجاعة أكرمه سناناً غاية الإكرام وعظمه غاية التعظيم

ومن أهم البيمارستانات التي شيدت بواسط البيمارستان الذي شاد بذكره المؤرخون، أنشأه مؤيد الملك أبو علي الحسن الرخجي وزير شرف الدولة بن بهاء الدولة مدبر دولة الخليفة القادر بالله العباسي في العراق جميعه سنة 413 هـ وأكثر فيه من الأدوية والأشربة والعقاقير، ورتب له الخزان والأطباء وغير ذلك مما يحتاج اليه؛ وصفه عدة مؤرخين أيضاً. ومن مشاهير أطباء هذا البيمارستان أبو النعيم بن ساوة الطبيب الواسطي كان من الحذاق في الطب وله فيه إصابات حسنة وقد قتل في سنة 497 هـ، فيكون موته قريباً من عهد تشييد البيمارستان المذكور وممن نحن جديرون بذكره الطبيب الكبير موفق الدين أحمد بن محمد المعروف بأبي طاهر بن البرخشي كان من أهل واسط وكان فاضلاً في الصناعة الطبية كاملاً في الفنون الأدبية والفلسفة والحكمة والطب، وكان كريم الشمائل ظريف المخايل لا يخال إلا الأكابر، ولا يألف إلا الصدور، وكان مع ذلك مأوى الضعفاء وملجأ الملهوفين كثير الإحسان، وقد كان من أهل القرن السادس للهجرة. وقدقيل إنه كان حياً بواسط سنة ستين وخمسمائة، وكان عنده أدب بارع ومعرفة بالنظم والنثر فلا بد أن أبا طاهر البرخشي كان من الذين خدموا في البيمارستان المذكور أو من الذين اتصلوا بأطبائه ما دام أنه كان إذ ذاك من

مشاهير أطباء واسط ومن الذين عاشوا بعد تشييد البيمارستان المذكور
ومن الأطباء أيضاً أبو الفرج سعيد بن إبراهيم الواسطي، هذا كان طبيباً وقساً وراهباً، وممن نزحوا إلى واسط لممارسة هذه المهنة العظيمة الشأن أبو العلاء محفوظ بن المسيحي بن عيسى الحكيم الطبيب النصراني النيلي الأصل نزيل واسط، وكان طبيباً فاضلاً نبيلاً مذكوراً في وقته عالماً بصناعة الطب مرتزقاً بها جميل المشاركة محمود المعالجة وله مع ذلك أدب طريف وخاطر في النظم، وكان مولعاً بالألغاز والمعميات. توفي في أوائل سنة ستين وخمسمائة إذ كان معاصراً لأبي طاهر البرخشي المذكور آنفاً

هذا ما وقع إلينا من أخبار أطباء واسط ومارستانها ولعلنا نعثر على غيرهم في المستقبل والله ولي التوفيق.

(بغداد)

يوسف يعقوب مسكوني

السيدة سكينة بنت الحسين

للأستاذ سعيد الديوه جي

- 3 -

صالتها

ولئن ظهرت صالونات فتيات الطبقة الأرستقراطية في الغرب حوالي القرن الثامن عشر، فقد كانت هذه الصالونات معروفة في الأندلس قبل ذلك بقرون. فكان صالون (ولادة بنت المستكفي) مجمع العلماء والشعراء وأهل الفن والأدب. وهذه الصالونات كانت منتشرة في المدينة منذ القرن الأول الهجري. والذي نراه أن أول ظهورها في الشرق كان في المدينة المنورة على عهد الدولة الأموية، وأول من سن هذا هي السيدة سكينة، ثم تبعها بعد ذلك سيدات قريش

امتازت ندوة سكينة بفخامتها وجلالتها، ذلك لأنها ندوة سكينة التي نعرف أدبها الرفيع وعلمها وظرفها ومروءتها وميلها إلى تشجيع كل نابغ، والأخذ بيد كل سائر، تهديهم الطريق وتذلل لهم العقبات، وترشدهم إلى مواضع الضعف في علمهم وأدبهم وفنهم. وفي بيتها غرف للانتظار وأخرى للضيافة يتزاحم فيها الشعراء والأدباء والفقهاء ورواة الحديث والمغنون. وقلما كان يمر بالمدينة أمير أو شريف أو نابغ أو عالم إلا ويعرج إلى هذه الندوة عش الأدباء وكعبة العلماء والفقهاء.

وكم اجتمع الشعراء ببابها والناس حولهم يطلبون الإذن منها لينشدوها أشعارهم أملاً في صلتها أو طلباً لإبداء رأيها. وكم انتظر الشعراء ببابها أياماً حتى يأذن لهم. والشيء المعتاد عند أهل المدينة هو أن يترددوا إلى ندوتها ليشاهدوا مباراة الشعراء فيها، أو الحلقات العلمية التي تعقد. أو مجالس رواة الحديث التي تدور، وكانت السيدة سكينة تشارك في هذا كله من وراء حجاب حيث تراهم ولا يرونها، يحف بها جواريها اللاتي يروين الأحاديث ويحفظن الأشعار

اجتمع الفرزدق وجرير وجميل وكثير ونصيب في موسم الحج. فقال بعضهم لبعض: لا تجتمعون في مثل هذه الساعة، فهلموا نفعل شيئاً نذكر به في الزمان. فقال جرير: هل لكم

أن نسلم على سكينة بنت الحسين فلعلها أن تكون سبباً لما أردتم. قالوا: نعم الرأي. وانطلقوا فاستأذنوا. فخرجت جارية وأعلمت مولاتها بقدومهم. فأذنت لهم فقصدت حيث تراهم ولا يرونها وتسمع كلامهم. أخرجت إليهم جارية وضيئة قد روت الأشعار والأحاديث، فقالت: آيكم الفرزدق؟ قال: أنا. قالت: أنت القائل:

هما دلتاني من ثمانين قامة ... كما انقض باز أقتم الريش كاسره

قال: نعم. قالت: ما وفقت ولا أصبت. أما آيست من تعريضك بعودة صدق محمودة؟ ما دعاك إلى إفشائها سرك وسرها؟ أفلا سترت على نفسك وعليها؟ خذ الألف درهم وانصرف. ثم دخلت وخرجت، وقالت: آيكم جرير؟ قال جرير: هاأنذا. قالت: أأنت القائل:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا ... وقت الزيارة فأرجعي بسلام

قال الجرير: أنا قلته. قالت: فما أحسنت ولا أجملت ولا صنعت صنع الحر الكريم حين رددتها، وقد تجشمت إليك هول الليل. أفلا أخذت بيدها ورحبت بها وقلت لها (نفسي

فداؤك فادخلي بسلام. خذ هذه الألفين والحق بأهلك. ثم انصرفت إلى مولاتها ثم عادت فقالت: آيكم القائل:

ولولا أن يقال صبا نصيب=لقلت بنفسي النشء الصغار
بنفسي كل مهضوم حشاها ... إذا ظلمت فليس لها انتظار

قال نصيب: أنا قلته. قالت: غزلت وأحسنت ولا كرمت، لأنك صبوت إلى الصغار وتركت الناهضات بأحمالها. خذ هذه السبعمائة درهم فاستعن بها. ثم انصرفت إلى مولاتها ثم عادت فقالت: آيكم القائل:

وأعجبني يا عز منك خلائق ... كرام إذا عد الخلائق أربع
دنوك حتى يدفع الجاهل الصبا ... ودفعك أسباب المنى حين يطمع
وإنك لا تدري كريماً مطلته ... أيشتد إن لاقاك أو يتضرع

قال كثير: أنا قلته. قالت: غزلت وأحسنت. خذ هذه الثمانمائة درهم فاستعن بها. ثم انصرفت إلى مولاتها ثم خرجت فقالت: أيكم القائل:

لكل حديث بينهن بشاشة ... وكل قتيل بينهن شهيد
يقولون جاهد يا جميل بغزوة ... وأي جهاد غيرهن أريد
وأفضل أيامي وافضل مشهد ... إذا هيج بي يوماً وهن قعود

قال جميل: أنا قلته. قالت: غزلت وأحسنت وكرمت وعففت، ادخل، لما سلم. فقالت سكينة:

أنت الذي جعلت قتيلنا شهيداً، وحديثنا بشاشة، وأفضل أيامك يوم تذب عنا وتدافع، (ولم تتعد إلى قبيح، خذ هذه الألف درهم وأبسط لنا العذر، أنت أشعرهم)

على أن هذا التبصر بالشعر وفنونه والمآخذ الدقيقة على الشعراء لم يكن ليتهيأ لغير سكينة، فقد كان لها فوق ذكائها المتوقد، من عوامل الوراثة من والديها وما ساعدها على ذلك. فجدها سيد فصحاء العرب بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأمها بدوية نشأت في البادية وتلقت الفصاحة عن شعرائها وبلغائها وهي شاعرة رقيقة. ناهيك عن محيطها الذي نشأت فيه وهي المدينة المنورة عش الأدباء والشعراء، ومنشأ الغزل الإباحي العفيف - كل هذه العوامل أثرت في السيدة سكينة وجعلتها تفوق بنات قريش في بصرها الثاقب ورأيها الصائب وأدبها الرفيع

نرى رواة الشعراء يختصمون وكل يفضل صاحبه فإذا جدال وإذا خصام وينشدون حكماً صائباً يقدر أن يوفق في مثل هذا الموقف الحرج فيقضي لفحل على فحل دون خوف أو حذر أو تعصب. ومن لهم في مثل هذا الموقف؟ وأني لهم ذلك الحكم الواسع الإطلاع على أشعار العرب وأنسابها وأخبارها ليوفق في حكمه؟ ومن يعرض نفسه لتهكم جرير أو لفحش الفرزدق أو لهجو الأحوص. هذا مالا يجرؤ عليه أحد. ولا يتهيأ لغير (السيدة سكينة). اجتمع بالمدينة رواة الشعراء جرير ونصيب وكثير وجميل والأحوص فأدلى كل منهم أن صاحبه أشعر وتراضوا بأن يحتكموا إلى سكينة بنت الحسين. فقصدوا ندوتها وعرضوا عليها الأمر فأذنت لهم. فدخلوا. قالت لصاحب جرير: أليس صاحبك الذي يقول:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا ... وقت الزيادة فأرجعي بسلام
وأي ساعة أحلى للزيارة من الطروق؟!

ثم قالت لراوية نصيب: أليس صاحبك الذي يقول:

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت ... فوا حزناً من ذا يهيم بها بعدي

كأنه يتمنى لها من يتعشقها بعده ألا قال:

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت ... فلا صلحت دعد لذي خلة بعدي

ثم قالت لراوية الأحوص أليس صاحبك الذي يقول:

من عاشقين تواسلاً وتواعداً ... ليلاً إذا نجم الثريا حلقا
باتا بأنعم ليلة وألذها ... حتى إذا وضح النهار تفرقاً

قالت: نعم. قالت: ألا قال (حتى إذا وضح النهار تعانقاً)

ثم قالت لراوية جميل: أليس صاحبك الذي يقول:

فيا ليتني أعمى أصم تقودني ... بثينة لا يخفي علي كلامها

قال. نعم. قالت. رحم الله صاحبك. إنه كان صادقاً في شعره، وكان جميلاً كاسمه، فحكمت له. ورضى الجميع بالحكم

ميلها للغناء
وللسيدة سكينة شعور رقيق وحب للجمال - وهل يحب الجمال إلا الجميل - هي جميلة في صورتها، جميلة في صوتها، جميلة في نفسها، وجميلة حتى في تهكمها ونقدها. ففاض هذا الجمال من روحها الطيبة الطاهرة، وغمر ندوتها، وجعلها معرضاً للفن والجمال.
وما الغناء إلا مظهر من مظاهر الجمال الروحي الذي تجيش به الأنفس فتهتز له القلوب فتردده ألحاناً.
كان يعجبها الغناء وتهتز له. وكان المغنون يقصدون صالونها ويعرضون فيه ألحانهم الجديدة وأصواتهم المبتكرة التي لم تكن معلومة عند العرب. وكان (الفريض) مولاها يلازم هذه الندوة ويشرف على مرتاديها من أهل الفن. فاعتنت السيدة سكينة بتربيته وأسلمته إلى المغنين وما زال يسمو أمره حتى بلغ في الغناء ما بلغ.
وهذا (حنين المغني العراقي المشهور يشد الرحال إلى المدينة المنورة تلبية لدعوة زملائه المغنين فيها. ولما كان على مرحلة منها ازدحم الناس لمشاهدته - فلم يرى يوماً كان أكثر حشراً ولا جمعاً من يومئذ - وأمل كل سرى وشريف أن يحل حنين ضيفاً عنده. ولكن كل شرف دون شرف، ومن له من الشرف والمروءة مثل ما لها؟ عرج الحنين إلى دارها ليسلم عليه ويستأذنه في الغناء عندها قبل كل أحد. فأذن له بالدخول. ثم أذنت للناس إذناً عاماً وأقبل أهل المدينة كعاداتهم إلى صالتها ليسمعوا أنغام حنين، غصت الدار وصعدوا فوق
السطح وأُمرت لهم بالأطعمة فأكلوا ثم ابتدر حنين يغني:
هلا بكيت على الشباب الذاهب ... وكففت عن ذم المشيب الآيب
فأزدحم الناس على السطح وسقط الرواق على من تحته فسلموا جميعا إلا (حنين) فأنه مات تحت الهدم.
على أن المصائب التي اعتورتها منذ صغرها لم تترك قلبها خاليا من الحزن والأسى، وكيف يخلو قلبها من الحزن وقد شهدت أعظم المصائب؟ فقد كانت تأنس بالنوح وتخفف به آلامها وأحزانها. ومن أحق بالنوح منها؟ وهل النوح إلا أنغام الحزن والأسى؟!
كانت تبعث بالأشعار المحزنة إلى المغنين ليصوغوا بها ألحانا يتاح بها. كما كانت تختار من ذوي الأصوات المشجية وتسلمهم إلى المغنين ليعلموهم النوح، وقد بعثت مملوكها عبد الملك أبن سريج وأمرته أن يعلمه النياحة. ولما توفي عمها (أبو القاسم محمد بن الحنفية) ناح عليه نوحاً في غاية من الجودة.
(يتبع)
سعيد الدبو هـ جي
بالموصل
الأزهر حصن الدين وينبوع الأدب
للأستاذ حسن عبد العال
صاحب جريدة (الإصلاح) الحلبية
فقدت استنبول صفة الإسلام بزوال الخلافة منها وانتقلت هذه الصفة إلى القاهرة، وكانت القاهرة مع وجود الخلافة في عاصمة الإمبراطورية العثمانية عاصمة (عملية) للإسلام، فقد حفظت آثار الإسلام وأخذت طابعاً إسلامياً بارزاً في مساجدها القديمة ومدارسها الدينية، وعاداتها التاريخية، ومواسمها المذهبية، وهي الآن مركز لأعظم جامعة إسلامية وأقدم جامعة في العالم ففيها الأزهر، والأزهر دعامة الإسلام وركن العروبة؛ وينبوع الأدب وقاموس اللغة، وقد حفظ الأزهر مآثر الإسلام وبالغ في إغداق الفضل على اللغة العربية حتى صانها من الفناء وضمنها من البلاء، وأحاطها بسياج صد عنها المكارة فنعمت في أروقته وعاشت في ظلاله حتى صدرت إلى مجاهل الهند والصين، وبلغت آداب العرب ذروة المجد في هيكل الأزهر، حتى أشرقت على العالم العربي بجمالها وبهائها، وغرف العرب والمسلمون من معينها في كل زمان ومكان، وتدفقت شهداً من أفواه الأدباء الفطاحل
هذه صورة عن الأزهر، وهو على كل حال أجمل وأفضل، ولئن كان في حالته المتواضعة ومتانته في الدفاع عن العروبة والإسلام قذى في عين جماعة السخفاء من

المتأدبين، وحصناً لا يثبت فقرهم الأدبي أمام غناه في المناعة والجبروت، لقد نجده ضرورة للأدب وحياةً للقومية، ونوراً للعالم الإسلامي؛ وفي هذه الضرورة وهذه الحياة وهذا النور رحمة تصيب كل من نطق بالضاد وآمن بالله الأحد، رحمة عامة شاملة، لو جزأتها إلى تراكيب الاصطلاحات الحديثة لكان معنى هذه الرحمة اقتصادا أو سياسة واجتماعاً، ارتبطت بها أجزاء العالم الإسلامي المبعثرة، والأقطار العربية المتفرقة. وإن شئت الدليل فقل لي ما يكون شأن عالم إسلامي بدون هذه الجامعة؟ وما حالة بلاد العرب بدون هذا للغتها؟ وما قيمة القومية بلا لغة ذات قواعد وآداب؟ ولأذهب بك إلى شي اقرب من هذا كله، ولأذكرك بحقيقة تلمسها وتؤمن بها، لتعتقد ببداهة فضائل الأزهر، فلولاه لما قرأت أدباً لطه حسين، ولا تلذذت بما كتب عبد الوهاب عزام، ولا أخذتك روعة علم أحمد أمين، ولا استنزفت مقالات أحمد حسن الزيات كل ما في نفسك من إعجاب، ولا كان سعد أخطب الخطباء

وأحسن الزعماء، والمنفلوطي في طليعة الكتاب. كلهم طلبوا في الأزهر وحفظوا ألفية ابن مالك، وقرءوا مجموعة المتون، واستظهروا رسالات الكتاب ودواوين الشعراء، وحفظوا القرآن والحديث، وحضروا دروس المعاني والبيان والبديع والتفسير وفقه اللغة، حتى علموا بلغتهم ودينهم، ورسخت أسس أدب أمتهم في صدورهم؛ ثم مالوا إلى آداب الأمم الأخرى اقبلوا عليها إقبال العالم بالأدب، ونقلوا روائعها إلى قومتهم، فأحسنوا الانتقاء، وأتونا بأدب متين جميل جيد السبك، حسن الأسلوب غزير المادة كان الأدب الحديث لهذا الزمان، ولكنه كان مؤسساً على فضل الأزهر وأصوله في التدريس، ولو لم يكن كذلك لقرأنا الآن أدباً ركيكاً وخيالاً بارداً كله لحن يتطاير منه السخف، فالحمد لله على نعمة الأزهر وأدباء الأزهر وعلوم الأزهر فلقد أغنى الأمة العربية بالأدب الممتاز، وجعلها في حل من الاقتصار على أدب يكتبه جماعة من أدبائنا الحديثين، ممن تأدبوا من هوامش الأدب وأطراف الكتب. . .

وبعد فالأزهر كله فضل وفخر. وفخري منه أنني طلبت فيه

حسن عبد العال

البريد الأدبي

من جنايات المذاهب الصوفية

قرأت في باب البريد الأدبي رقم 504 كلمة عن المذاهب الصوفية وتنكب بعض رجالها وأتباعها الطريق السوي، ذكر فيها كاتبها الفاضل عن تفسير المنار بعض ما كان للحلاج من مواطآت كان الغرض منها أن يلقي في ورع العمة وأشباه العامة أنه ممن آثرهم الله بعلم الغيب والقدرة على المعجز من الأمور

وقد بعثني ما قرأت إلى كتابة هذه الكلمة الموجزة عن هؤلاء الذين يزعمون أنفسهم متصوفين ومشايخ الطريق، الذين بما لبسوا على العامة وأشباه العامة وبما اندس بينهم من الحال بالشرع والحق، صاروا غير أهل لشيء مما يتمتعون به من تشريف وتكريم

محي الدين بن عربي من أساطين المتصوفة، وممن لا يزال لهم أتباع كثر في البلاد الإسلامية، على بعد فلسفته النظرية والأخلاقية عن الدين، ويكفي أن نشير إلى بعض ما يرى في الأخلاق

1 - انه بما ذهب إليه من القول (بوحدة الوجود) وما يستلزمه هذا القول من اعتبار العالم كله صوراً ومجالي ومظاهر لله الذي هو وحده الموجود، قد أتى الأخلاق من قواعدها، إذ لا معنى للمسؤولية الأخلاقية التي هي مناط الثواب والعقاب؛ لان للآثم أخلاقياً أن يقول: ما دام الله الذي اتخذني مظهراً له هو الذي فعل حقيقة ما يظن انه فعل لي، كيف يستقيم أن أكون أنا المسؤول!

2 - ويظهر أن الشيخ الأكبر (كما ينعته أتباعه) لا يتهيب أن يصل به مذهبه إلى هذا الحد فيما يتصل بالأخلاق. أنه يرى أن الذي وصل إلى درجة المحبة الحق يباح له أن يتجاوز حدود ما أنزل الله، بعد أن لازم زمناً طويلاً حفظها؛ لان من أحكام المحب أو من صفاته أنه كالدابة جرحه جبار! بل أنه ليرى أن هذا الصنيع من المحب لا يعتبر مجاوزة للحدود إلا في نظرنا نحن، أما بالنسبة إليه فهو كأهل بدر الذين أباح لهم أن يفعلوا ما يشاءون فقد غفر لهم، وإذاً فتصرف المحب هو تصرف فيما أبيح له! وإذا تركنا هذا القياس الخاطئ للمحب على أهل بدر، رأينا ابن عربي يذكر تعلة أخرى لما جاز من

تعدي المحب حدود ما أنزل الله؛ إذ يرى أن هذا المحب - وهو ولهان مدله العقل لا تدبير له في رأيه - غير
مؤاخذة فيما يصدر عنه، وغير مطالب بالآداب التي لا يطالب بها إلا من كان له عقل
وبعد: فهل لنا بعد هذا أن نعالج في جد مشكلة هؤلاء المتصوفة، أعني الذين عرفوا منهم بالإلحاد
في العقيدة، والضلال في الأخلاق، وأكل أموال أتباعهم الجهال بالباطل!
محمد يوسف موسى
المدرس بكلية أصول الدين
العالم العربي
أهاب الأستاذ محمد عوض محمد في مجلة الثقافة بزعماء المسلمين لإعداد الخطط التي تؤول إلى ما فيه اليمن والفلاح. ومن واجبات المصلحين حث القادة على العمل المثمر لوضع الدعائم التي يقوم عليها صرح الوحدة العربية وتوجيه آراء الأمة نحو المثل العليا والسير بالشعب نحو المحجة السامية.
وما نخال مقال الأستاذ إلا توطئة لمقالات أخر ودراسات شاملة نأمل منه ومن حضرات المفكرين أمثاله أن يمهروا بها العالم العربي، ولا أقول الإسلامي فالوطنية الحق ليست وقفا على دين من الاديان؛ وان في مسيحي الشرق العربي من الشباب الطامحين المثقفين الأحرار من يدلون على الملأ: قاصيه ودانيه بعروبتهم ويفخرون بقوميتهم، ويتعصبون لها كأشد المسلمين اعتزازاً بالوطنية وتعلقاً بالعروبة.
وأني أرى أن يعدل كتابنا عن اسم (العالم الإسلامي) إلى (العالم العربي) عند ما يعرضون للوطنية وللاستقلال بالدراسة والبحث لأنه أدل تسمية وأدق تعبيراً.
وبعد، فما أنا من يتحرج بالاسم الديني هذا يطلق على البلاد العربية الغالية، والمسلمون أخوان لي أثيرون على قلبي، ولهم في نفسي - كما لهم في كل نفس تؤمن بالعروبة - مكانة لا تعد لها المكانات، وإنما أود أن نجرد نحن الشرقيين معنى الوطنية من الطائفية، فالطائفية كما نعلم جميعاً لم تكن إلا بلاء في وطن كثرت فيه الملل وتعددت فيه المذاهب والنحل.
والطائفية كانت - لنكد الطالع وشؤمه - الثغرة التي نفذ منها دعاة السوء إلى بنياننا القومي
فصدعوه، وما فينا على ما أعتقد من ينكر هذه الحقيقة إلا من أضله التعصب سواء السبيل وغشت على بصيرته نوازع الأهواء.
نحن اليوم أشد ما نكون حاجة إلى التكاتف والتساند وتوحيد الجهود لدرء ما قد يهدد الكيان العربي من أخطار. وعرب نحن سواء كنا مسلمين أم نصارى، وحرى بنا أن فرقت بيننا المذاهب أن تجمعنا العروبة فهي خير آصرة تتآلف عليها القلوب وتتوثق بها العرى، فللعروبة يجب أن تهفو النفوس وباسمها فلتنطق الأفواه
(بيروت)
جورج سلستي
تراث بني إسرائيل
يخطئ المفسرين الأستاذ الصعيدي فيما ذهبوا إليه من أن الله عز وجل رد بني إسرائيل إلى مصر بعد هلاك فرعون وقومه، فأعطاهم جميع ما تركوا من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم؛ معتمداً على أن تاريخ مصر وتاريخ بني إسرائيل لا يثبتان عودة الإسرائيليين إلى مصر ولا قيام ملك لهم فيها قبل ظهور الإسلام؛ ثم يقول: والحق أن الله تعالى يشير إلى بساتين وعيون كانت لهم في فلسطين، وأن الضمير في (أورثناها) يعود إلى مطلق الجنات والعيون؛ لا إلى خصوص ما كان في مصر على ذلك العهد، وهذا من أسلوب الاستخدام المألوف في لغة العرب
ومقال الأستاذ صريح؛ أو ظاهر - على لغة الأزهريين - في خمس دعاوي، إن المفسرين قاطبة على هذه الرأي، وأنهم جميعا مخطئون؛ وأن التاريخ ينفي عودة بني إسرائيل لأنه لم يثبتها، وأن الأستاذ وحده مبتكر هذا الرأي، وأنه الحق.
ولكن ما قول الأستاذ في أن ما نقله المفسرين إنما هو رأي جمهورهم - لا رأي جميعهم - بناء على الظاهر كما يقول الأزهريون إلا بقاطع. ولا قاطع، وأن التاريخ إذا سكت عن إثبات شئ لا يكون حجة على نفيه، ومن القضايا الأزهرية (عدم الدليل ليس

(دليلاً على العدم.
فكيف وقد أثبت التاريخ القديم رجوع بني إسرائيل إلى مصر؟ قال الآلوسي: ورأيت في
بعض الكتب أنهم رجعوا مع موسى وبقوا معه بمصر عشر سنين. وجاء في كتاب البشرية ص 88 لمؤلفه لينج أن موسى بعد أن هزم فرعون مصر الذي فر إلى الحبشة حكم مصر ثلاث عشر سنة
والمتبادر من قوله تعالى: (ويستخلفكم في الأرض)، ومن قوله (ثم قلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض)، ومن قوله سبحانه (وأورثنا بني إسرائيل) انهم رجعوا إلى مصر. وقد حكى الألوسي تأويلا آخر هو عين ما قاله الأستاذ الصعيدي إلى أن قال: وأخذ قوم بقول الحسن وهو رجوع بني إسرائيل إلى مصر وقال لا عبرة بالتواريخ وحسبنا كتاب الله تعالى فهو أصدق القائلين
طه محمد الساكت
المدرس بمعهد القاهرة
من نوادر العرب
نوادر العرب كثيرة، يعثر عليها المرء في تضاعيف الكتب التاريخية، وثنايا المصنفات الإخبارية. وإني لراوٍ لك فينا يلي طرفا مما التقطته من نوادرهم
1 - كان أبو حية النميري جباناً، وكان له سيف ليس بينه وبين الحية فرق، وكان يسميه (لعاب المنية). وذات يوم وقف النميري على باب داره ليلاً، وقد جرد سيفه وهو يقول: (أيها المغتر بنا، والمجترئ علينا، بئس والله ما اخترت لنفسك؛ خير قليل، وسيف صقيل، هو لعاب المنية الذي سمعت به. أخرج بالعفو عنك، وإلا دخلت بالعقوبة عليك)! وظل واقفا لا يجسر على الدخول، مخافة أن يكون فيه لص فاتك. فجاء رجل من أهله، فدفع الباب فانفتح. . . وخرج منه كلب يعدو كالأرنب، فسقط النميري على قفاه وهو يقول: (الحمد لله الذي مسخك كلباً، وكفاني حرباً)!
2 - دخل رجل أعور على معن بن زائدة، فأمر له بجائزة. وكان (معن) جوداً؛ ثم دخل عليه رجل آخر، وكان مثل زميله اعور، فأمر له بجائزة. . . فعادا يمشيان جنبا إلى جنب بحيث صارت عيناهما المكفوفتان جوار بعضهما البعض. . . فقال معن (لقد أعطيتكما منفردين، فماذا تريدان؟) فقال أحدهما (بيننا رجل أعمى يستحق الصدقة)، فأعطاهما معن
ضعف ما أخذاه، فقال أحدهما:
ألم ترني وعمراً حين نمشي ... نريد السوق ليس لنا نظير
أماشيهِ على يُمْنَى يدْيه ... وفيما بيننا رجل ضرير!
3 - وأما نوادر البخلاء فليس لها حصر، ولذلك نجتزئ بذكر هذه النادرة الطريفة: - طبخ أحد البخلاء قدراً، وجلس يأكل مع زوجته، فقال: (ما أطيب الطعام لولا كثرة الزحام!) فقالت: (وأي زحام وما ثم إلا أنا وأنت؟) فقال: (كنت أحب أن أكون أنا والقدر)!
زكريا إبراهيم
كليوباترة
منذ أمد بعيد واستديو لاما يعمل عملاً متواصلاً في إنتاج فلم (كيلوباترة)، وقد ابتدأ عرض هذا الفلم الذي اشترك في تمثيله جماعة منتقاة من الممثلين والممثلات نذكر منهم الأساتذة: بدر لاما، منسي فهمي، السيد زيادة، حسن كامل. والآنسة أمينة رزق، وزوزو نبيل. والمطربة درية أحمد وغيرهم. وقد أخرج هذا الفلم التاريخي العظيم المخرج المعروف الأستاذ إبراهيم لاما.
عبد الفتاح متولي غبن
العدد 506 - بتاريخ: 15 - 03 - 1943
7 - دفاع عن البلاغة
الذوق
يكثر ترداد كلمة (الذوق) في البلاغة، كما يكثر ترداد كلمة (العقل) في الفلسفة. ذلك لأن حاسة الذوق هي أداة الفن، كما أن ملكة العقل هي أداة العلم. فمن لا يذق لا يدرك الجمال، كذلك من لا يفقه لا يعرف الحق. ولم تؤتَ البلاغة إلا من فساد الذوق

فيمن يكتب أو فيمن يقرأ. ولم أجد فيما أثر من أدبنا، ولا فيما نقل إلى لغتنا، كلاماً يفيد طالب البلاغة في موضوع الذوق على ما له من بليغ الأثر في إنشاء العمل الفني وصحة تقديره ودقة نقده. لذلك لم أر من الفضول، وأنا في مقام الدفاع عن البلاغة، أن أحاول تجلية هذا المعنى بمقدار ما يحسن الاستطراد في موضوع يؤديَّ على الطرف الأقصى من الإيجاز

ما هو الذوق؟ والذوق حاسة معنوية يصدر عنها انبساط النفس أو انقباضها لدى النظر في أثر من آثار العاطفة أو الفكر. وقديماً فطن الناس إلى الشبه بين الذوق الحسي الذي يميز بين الطعوم، وبين هذا الذوق المعنوي الذي يحكم في نتاج الفنون. وما أظنهم وقفوا بوجه الشبه بين هاتين الحاستين عند طبيعة الإدراك، وإنما تعدوا به إلى قابليتهما للكمال والنقص، واختلافها بين الناس باختلاف الزمان والمكان والخلق والمادة على أن التنوع والتغير والاختلاف في الذوق الحسي أضعف وأقل، لأن مجاله محدود؛ وأدراك المادي قريب، واستيعاب المحدود ممكن، وفعل الطبيعة والبيئة في تطوير الغرائز بطئ لا يكاد يحس. أما الذوق المعنوي فمجاله ما يعجب وما لا يعجب من أعمال النفس والذهن. والمعجب وغير المعجب من هذه الأعمال أمور لا تزال تتأثر بعوامل الزمن والإقليم والجنس والتربية والثقافة والحضارة والطبقة والسن؛ وكلما التبست هذه الأمور التبس الذوق الذي يسيرها ويدبرها ويفرق بينها ويحكم عليها. فالذوق الحسي مرجعه إلى الطبيعة وللطبيعة طريقة واحدة؛ والذوق المعنوي مرجعه إلى العادة وللعادة طرق متعددة. وإذن لا يمكن الظفر بذوق عام تصدر عنه أحكام الناس على الأعمال الفنية، فإن ما يعجب الحضري قد لا يعجب البدوي، وما يطرب المصري قد لا يطرب الأوربي؛ فرقص (ببا) خزي عند الغربيين، وغناء (جانيت) نهيق عد الشرقيين. وفي الغالب نرى الشيء الواحد يثير الاستحسان في نفس والاستهجان في أخرى. فكيف نجعل الذوق أذن ميزاناً في البلاغة وهو على هذا الاختلاف؟

إن للذوق مصدرين يستمد منهما الحكم في جميع قضاياه: الأول العقل المتزن، وهو يحكم في التناسب والقصد والترتيب والعلائق المشتركة بين السبب والنتيجة، أو بين الطريقة والغاية. والذوق المستمد من هذا المصدر له ما للعقل من الوضوح الذي يشرق في كل نفس مهذبة؛ وقواعده كقواعد العقل لا تتغير لأنه ثابت مطرد. والفنان الذي أوتي ثقوب الذهن يكون في مأمن من الزيغ إذا اتبع قواعد الفن لأنها وضعت على هذا الأساس المكين

والمصدر الآخر هو العاطفة، وهي الشعور الواقع على النفس مباشرة من طريق الحواس. وهنا كان مجال الاختلاف وسبب التباين؛ لأن الحقيقة في الفنون غير الحقيقية في العلوم: هي في العلوم محصورة مضبوطة، ولكنها في الفنون منتشرة مبسوطة؛ ومن ذلك كان التدرج من الحسن إلى الأحسن، ومن الفائق إلى الممتاز. ولم ينشئ هذه الفروق إلا هذا الذوق العاطفي الذي يتولد من الصفات والعادات والحوادث فيجعل الحقيقة الفنية تختلف في نفسها من شعب إلى شعب، ومن قرن إلى قرن، حتى لتختلف في المكان الواحد، وفي الزمان الواحد، وفي الإنسان الواحدة، تبعاً لحالات العواطف وانطباعات الحوادث واختلافات الميول

ضع نموذجا أمام مائة طالب ليرسموه، ثم انظر بعد ذلك فيما عملوا تجد الرسوم كلها تتشابه لأول وهلة؛ فإذا أطلت فيها النظر لا تجد رسمين منها يتشابهان، لأن الذوق الخاص بكل راسم جعل الصور تختلف في حقيقتها، وإن لم تختلف في جوهرها وطبيعتها

لا بد للذوق إذن من استمداد العقل والعاطفة كليهما في تكوين حكمه: هذا بمقتضى المنطق السليم، وتلك بمقتضى الشعور الحاصل. ومرجع كل حكم من أحكام الذوق إلى القاضي الأعلى وهو الطبيعة. وللطبيعة، والحمد لله، قانون نافذ على كل كائن. وقد كان للناس قبل أن يوجد الفن ذوق معنوي خلقته الطبيعة فيهم كما تخلق الغرائز؛ وكان لهذه الحاسة من ميلها ونفورها قاض يحكم على كل شئ فلا يخطئ حكمه. فلما ظهر الفن لم يعارض الطبيعة ولم يناقضها، وإنما حسنها وزينها وعمل أحسن مما عملت باتباع طريقتها واقتباس وسيلتها وملاحظة تطورها إن الفنان كلما دنا من

الطبيعة كان أنقى وأصدق. أنظر إلى أدب الجاهليين من العرب والإغريق تجد أظهر خصائصه الحقيقية والسذاجة والوضوح. ذلك
لأن البدوي أو الهمجي يمتاز بقوة بصره وحدة سمعه؛ وإن حاسته المعنوية التي تتصل بعينه وأذنه تمتاز كذلك بوضوح الإدراك وصدق الحساسة. وإذا كان ذوقه أضعف من ذوق المتمدن في التحليل والتحديد والتمييز، فإنه ثابت غير مضطرب، خالص غير مشوب. لقد اخترع البدوي المجازات البيانية والصور الخطابية قبل أن ينشأ الفن ويوضع البيان. ولقد كان إذا ما ضرم النوى أنفاسه، وأرمض الهوى نفسه، يخاطب الغياب ويظنهم يسمعونه، ويكلم الأطلال والأموات ويعتقد أنهم يفهمونه. أسمعه حين تصيبه مصيبة فيشكو، أو تسعفه صنيعة فيشكر، أو تمسه إهانة فينتقم، تجده قد شعر بأثر ذلك في نفسه كل الشعور، وإدارة بالعبارة الملائمة أصدق الأداء، فلا يوارب ولا يبالغ ولا يتكلف. لأن الطبيعة صادقة لا تعرف التمويه، صريحة لا تقبل الرياء.
وهل تنتظر من رجل لا يقول إلا ليعبر عما في نفسه أن يقول غير ما في نفسه؟ وكيف يجازف بالألفاظ حين يصف وهو لا يصف إلا ما أثر في قلبه أو وقع تحت حسه؟ فليت شعري هل نستطيع أن نكون اليوم كالبدو طبيعيين نستلهم الواقع ونستوحي الطبيعة! اليقين الذي لا ريب فيه أننا لا نستطيع، لأن حياتنا قد أصبحت من التركيب والتعقيد والتصنع بحيث لا تجد غريزة على جبلتها، ولا عادة على طبيعتها، ولا عاطفة من عواطف الناس على أصلها وحقيقتها. فنحن نتغزل من غير حب، ونمدح من غير عاطفة، ونصف ما لم نر، ونقص ما لم يقع، ونتقمص في القصص أشخاصاً خياليين أو حقيقيين فنتكلم بلسانهم، ونشعر بشعورهم. فكيف نستطيع في هذه الأحوال أن نجد العبارة والحرارة اللتين يجدهما البدوي أو الهمجي، من دون كد ولا معانات؟ لقد جعلنا الطبيعة بالتصنع فناً، فينبغي أن نجعل الفن بالتطبع طبيعة.
(للكلام بقية)
احمد حسن الزيات
في ضيافة الهلالي باشا
للدكتور زكي مبارك
كانت جريدة الأهرام نشرت أن جماعة من الوزراء سيزورون المنوفية، وأن منهاج الزيارة شهود اجتماع يعقده النواب والشيوخ في سنتريس، فاستفسرت من حضرة الأستاذ شافعي ألبنا عن المراد من ذلك الاجتماع، فقال إنه للترحيب بالوزراء وهم في الطريق إلى عاصمة المنوفية، وإنما اختيرت سنتريس لأنها الملتقى لبلاد مركز أشمون، ولأنها أول بلد على بحر شبين بعد عبور القناطر الخيرية
قلت لنفسي: إن اسمي يخطر في البال حين تذكر سنتريس، فما الذي يمنع من دعوة وزير المعارف للتفضل بزيارة داري هناك؟
وكان المفهوم عندي أن الدعوة ستقابل بالاعتذار الرفيق، فقد كنت أعرف أن الوقت لا يتسع للزيارات، ولكن الهلالي باشا أعزه الله تقبل دعوتي بأحسن القبول، كأني وجهتها إليه وهو في أسيوط وطن الشهامة والجود
وفي مكتب الوزير دار حديث على الصورة الآتية:
- أهلاً بنابغة سنتريس!
- هذا اللقب لا يكفي يا معالي الوزير في تحيتي
- وكيف؟
- لأن الأستاذ عباس حافظ هو الذي منحني هذا اللقب في مناوشة أدبية، وهو يريد أني نابغة سنتريس فقط، ولست مفكراً عالمياً، كما أريد لنفسي. وللأدباء مسالك تعجز عنها الشياطين!
- كنت أحسب أنك منحت هذا اللقب لكثرة ما تتحدث عن سنتريس
- لو صح هذا لجاز أن أكون أيضاً (نابغة أسيوط) فلي فيها قصائد، وسأنشر عنها كتاباً بعد حين
- أسيوط أوحت إليك أشياء؟
- هي مدينة موحية، ولعلك توافق على أن لشارع الهلالي هناك جاذبية تفوق الوصف، وما دخلت أسيوط إلا جعلته طريقي إلى النيل

- لذلك الشارع تاريخ، فقد كان مع الأراضي التي حواليه بستاناً من بساتين جدي، وكان البستان هو الممر الموصل بين قصره بالمدينة ودهبيته بالنيل، فأين أنا من تلك الحياة؟ وأين مني ذلك الثراء؟
- إن ثروة جدك لم تضع، يا معالي الوزير، فلها صورة باقية هي علمك وفضلك، وفي بعض الآثار أن ذكاء المرء محسوب عليه، فالذكاء رزقك، وهو أطيب الأرزاق من فضل الله على أهل الأدب أن يحبب إليهم المعاني
- وفي سبيل المعاني سترى أني بخلت على جيبي بثمن شجرتين عظيمتين قامتا في مدخل البيت
- وما حديث الشجرتين؟
- إن تكلا باشا صاحب جريدة الأهرام بنى في ضواحي سنتريس قصراً لا يعلو عليه غير هاتين الشجرتين، فأنا أعزهما كل الإعزاز لأطول بهما قصر الرجل الذي قلت فيه:
ينازعني في سِنتريسَ منازعٌ ... له من جَدَا (الأهرام) مرتبع خُصبُ
إلى آخر القصيدة التي سأثبتها في الطبعة الثانية من ديواني
- سأزور دارك، مع الشكر لدعوتك الكريمة، وإن كان مكاني في رحلة الوزراء إلى المنوفية مكان الضيف
- وزير المعارف لا يكون ضيفاً بالمنوفية، لأن المنوفية تمد مصر بجماهير كثيرة من المعلمين، وأنت وزير المعلمين، وسيكون الجميع ضيوفك هناك
كان يجب أن أدعو الوزراء الذين يشتركون في رحلة المنوفية، ولكن كيف أدعوهم وقد ضاق الوقت؟
دعوت معالي الأستاذ فؤاد باشا سراج الدين بالتليفون فتلطف بالقبول، ولم يفته أن ينص على أن اسم سنتريس اسم جميل
ومررت على معالي وزير العدل، وهو رجل أبغضه بعض البغض، لأنه يريد بجهاده ونضاله أن يكون الرجل الأول في المنوفية لا في سنتريس! فقال حين رآني: ما كنت أعرف أن الهلالي باشا يعزك إلى هذا الحد. ففهمت أن الهلالي باشا حدثه عن دعوتي قبل أن أصل إليه بلحظات
ثم رجوت الأستاذ شافعي ألبنا أن ينوب عني في دعوة من لم أستطع دعوتهم لضيق الوقت، وهو أخ نعمت بمودته شهوراً طوالاً في غياهب الاعتقال
في عصرية اليوم الذي يسبق يوم الاحتفال دخلت سنتريس لأرى كيف استطاع أبنائي بمعونة بني أعمامهم إعداد حديقة الدار لاستقبال الوزراء
وهناك وجدت نواب مركز أشمون يتحاورون فيما ينبغي أن يقال
سمعت كلمات لم تعجبني، فسارعت إلى تفنيدها فيما بيني وبين نفسي، لأتخذ منها مادة أنتفع بها في إحدى المقالات، ولأشير عليهم بإخفائها عن الوزراء، إن خفت أن يقولوها في حضور الوزراء.
فقلت في نفسي: وما الغيب في ذلك؟ هل نقلت أطيان المنوفية إلى القليوبية أو الغربية؟ إن الذي وقع لا يزيد عن أن العائلات الكبيرة تفرعت إلى عائلات صغيرة، ومن هنا تعددت الملكيات في المنوفي، وهذا باب من قوة الشخصية، فلكل فلاح في هذا الإقليم وجود صحيح، وهو لهذا صورة نموذجية من الرقي المنشود
وسمعتهم يقولون: يجب أن نعرض مطالب المنوفية على الوزراء
فقلت في نفسي: الأفضل أن يقال إن المنوفية في استعداد لمعاونة الوزراء على إصلاح سائر الأقاليم، لأنها تملك أكبر عدد من المفكرين
والتفت فرأيت الأخ العزيز محمد أفندي محمود عمدة سملاى يجذب يدي ليسر في أذني كلمات، فما تلك الكلمات؟
هو يرى أن نقيم الزينات على باب البيت
وأنا أرى أن يبقى البيت بصورته الطبيعية، لأني أبغض الحسن المجلوب
ثم غلب رأيه وحضر الفراشون لتزيين مدخل البيت، فسمعت منهم كلمات غير مفهومة، ولكني تظاهرت بالعلم وتركتهم يتصرفون في حدود ما يحسبون
(شُوَية كُرُنات، شوية كرنُات)
فما هذا من الوجهة اللغوية؟

الكلمة الأولى مفهومة، فالشَّوية مؤنث الشُوّىّ، والشوىّ مصغر شئ المخفف عن شئ، ولكن ما (الكُرُنات)؟
دار ذهني مرة ومرات إلى أن عرفت أنها منقولة عن الكلمة الفرنسية وعلى هذا تكون الكُرنُات هي التيجان
لا بأس، فللأدب الفرنسي في عقلي ديون، ومن حقه أن يزور داري مع الوزراء.
أما بعد فنحن في صبيحة الاحتفال، وقد تجمعت خلائق في سنتريس يعجز عن عدها الإحصاء وهذا هو (البرجاس)، فما البرجاس؟
هو لعب الخيل، تلك كلمة قاموسية هجرت في أكثر البلاد، وبقيت مأنوسة في سنتريس
لم يكن منظوراً أن يحضر الوزراء في الميعاد. ومن الذي يفَرض على رجال مكدودين أن يحضروا يوم راحتهم في الميعاد؟ لم يبق إلا أن تتمتع تلك الجماهير بلعب الخيل، وفي لعب الخيل متعة ذوقية تذكّر أبناء المنوفية بماضيهم في الفروسية
وبجانب لعب الخيل تقوم المزامير والطبول في لونها القديم والحديث: فتسمع مرة (يا نخلتين في العلالي) وتسمع مرة (بالك مع مين يا شاغل بالي)
ثم تنظر فترى بُنَيّات المدارس الأولية من سملاي وسنتريس فتلتفت إلى ماضي صِباك، يوم كنت تخطب طِفلةً وهي في المهد، لأنك سمعت أن أمها من رائعات الجمال. . .
أما الأطفال فقل فيهم ما تشاء. ولقد سرّني أن أرى أطفال سملاي وسنتريس في صحة وعافية. وأي أطفال؟
الحمد لله على نعمته، فما فيهم سقيمٌ ولا ضعيف، وإنما هم الطلائع لجيل سيكون برعاية الله أقوى الأجيال
إن وزارة الصحة لا تخاف على سنتريس حين تتعرض بلاد مركز أشمون لإحدى الآفات، فهواء سنتريس شفاء من كل داء، وهل تذكر وزارة الصحة أن بلدنا كلفها شيئا من المتاعب؟
إن الله يعلم أن سنتريس تعتمد على رعايته السامية؛ وإن الله يعلم أن أهل سنتريس أحوج الناس إلى رعايته السامية؛ فهو بكرمه وفضله ولطفه يقيهم الأسواء
قضاء لحظة تحت سماء سنتريس تذهب همومي ولو كانت أثقل من الجبال، فلهذا البلد روحانية منقولة عن اعتماد أهله على واهب الخيرات والثمرات، ورعاية الله لمن يتوكلون عليه لا تحتاج إلى بيان.
حضرت ثلة من الشرطة للمحافظة على النظام، ولكن الأهالي لم يحوجوهم إلى تعب، فقد عرف كل فرد واجبه، وسادت الرغبة فأن تكون الحفلة غاية في الصفاء
ومع هذا أنظر فأجد رئيس نقطة النعناعية يشكو من أن أحد أقربائي يحاول الشغب في الاحتفال، وبعد التحري ظهر أن حامد أفندي عثمان يطلب من الحاضرين إمضاء عريضة ترفع إلى وزير المعارف، ليتفضل الوزير بإنشاء مدرسة ابتدائية في سنتريس
عند ذلك ابتسمت وقلت: يسرني أن يعرف حضرة الضابط أن معالي الهلال باشا يحب هذا النوع من الشغب. والمطالبةُ بإنشاء مدرسة ابتدائية في سنتريس شغب لطيف.
ثم أخذت العريضة لأقدمها إلى معالي الوزير بنفسي، وستكون أجمل هدية أقدمها إليه
وأقبل الخيالة يعدون ويركضون تبشيراً الزائرين، فهتفت الجماهير بحياة جلالة الملك، وصدحت الموسيقى بالسلام الملكي ثم تعالت الهتافات بأسماء الوزراء وباسم رئيسهم الجليل، شفاه الله وعافاه
كان مع الركب جماعة من المحررين والمصورين، وهم جميعاً أصدقاء، وكان فرحى بلقائهم فرح الأديب بالأديب
وبعد تناول القهوة وقف النائب المحترم سليم أبو العلا فألقى خطبة طويلة تحدث فيها عن أعمال الذين حضروا من الوزراء، وقد قوبلت خطبته بالإعجاب
وكانت النية أن يخطب الأستاذ عبد البر زهران، ولكن الوقت لم يتسع لما يريد. ثم نهض معالي الأستاذ صبري باشا أبو علم فألقى كلمة لطيفة شكر بها نواب مركز أشمون، وأعتذر بلطف لمن ضاق الوقت عن سماع ما أعدوا من الكلمات الجياد
وفي تلك اللحظة تموجت تلك الجماهير لتزور داري مع الوزراء، فكان منظر لن تنساه سنتريس، ولو طال الزمان

لقد أقيمت في بلدنا حفلات كثيرة سمع فيها أهل بلدنا أصوات رجال مشاهير من رؤساء الوزارات، ولكني أستبعد أن يكونوا فرحوا بقدر ما فرحوا في هذا اليوم السعيد
أمر الوزراء الوفديين عجب في عجبّ!! إنك تنقدهم كيف شئت في المجالس والمنتديات، ولكنك لا تستطيع صد الجماهير عن الوفاء لهم إلى أبعد حدود الوفاء
،لم أكن وفديا في أي يوم، ولا دعوت هؤلاء الوزراء للتفضل بزيارة داري إلا لغاية أدبية هي أن تضيفهم سنتريس، وهي المكان الذي اختاره للاحتفاء بهم نواب مركز أشمون، فما الذي يملك من السحر هؤلاء الوفديون؟
كان السرادق الذي أعده النواب يضيق برغم رحابته عن إعلان الفرح بقدوم أولئك الوزراء، فلما وجدت الجماهير فرصة للترحيب بهم في حديقة الدار تدافعوا تدافع الأمواج، وأعلنوا فرحهم بهتاف يشق أجواز السماء
وفي هذا الزحام وقف وزير المعارف ليسمع النشيد:
سنتريس في سرور ... وهناء وحبور
وقف برجاء من الأديب محمود عبد العزيز، برغم ذلك الجو الضجاج
أين الوقت؟ أين؟
إن الوزراء سيصلون الجمعة في شنوان، فمن الواجب أن نعفيهم من الخطب الطوال
قال الأستاذ عبد السميع الطوخي فقرات من خطبته، وقال الأستاذ محمد شما أبياتاً من قصيدته، ودعاني وزير العدل إلى أن ألقى خطبتي، فماذا أقول؟
. . .قلت: إن الحاضرين جميعاً في ضيافة الهلالي باشا
وطويت خطبتي. فما الذي كان في الخطبة المطوية؟
الجواب عند شجرات الورد في حديقة داري، وهي قد حدثتني أن الزهر يعيش يوماً أو يومين، أما جذور أشجار الورد فهي في صلابة الجلمود، ومنها تتخذ (البيبة) التي تعجز عن إحراقها النيران
دعابة الهلالي باشا هي زهر الورد
وصلابة الهلالي باشا هي جذع الورد
وهل منعت وداعة هذا الرجل من أن يكون أحزم الرجال؟
زكي مبارك
ذكرى السيد جمال الدين
للأستاذ محمود شلبي
أمم في رجل، وبركان ثائر يرمي بالحمم والنار، وصورة حية فذة عجيبة تسعى من النور وإلى النور. رجل أقام العالم وأقعده، وهز الشرق هزة عنيفة فأحيا العقول بعد مواتها، فتنبه الغافل ونشط العاقل وخر الباطل ذليلاً خاشعاً إلى الأذقان
ذلكم يا صاحبي، الأستاذ الفيلسوف السيد جمال الدين الأفغاني المتوفى صباح يوم الثلاثاء 9 مارس سنة 1897 ميلادية
ولد في قرية (أسعد آباد) من قرى كنر سنة 1254 هجرية، وفي السنة الثامنة من عمره أجلس لتعليم وعنى والده بتربيته فأيد العناية به قوة في فطرته، وإشراق في قريحته، وذكاء في مدركته، فأخذ من بدايات العلوم ولم يقف دون نهاياتها
واستكمل الغاية من دروسه في الثامنة عشرة من سنه، ثم عرض له سفر إلى البلاد الهندية، فأقام بها سنة وبضعة أشهر ينظر في بعض العلوم الرياضية على الطريقة الأوربية الجديدة
ثم ذهب إلى مكة حاجا، ثم عاد إلى بلاده، ولم يمكث طويلاً حتى تاقت نفسه إلى الحركة فيمم وجهه شطر الهند وتلقته حكومتها بحفاوة وإجلال.
وهبط مصر أربعين يوماً تردد فيها على الجامع الأزهر وخالطه كثير من طلبة العلم السوريين ومالوا إليه كل الميل، ولكنه تعجل بالسفر إلى الآستانة
وصل الآستانة وهو مع ذلك بزيه الأفغاني: قباء، وكساء، وعمامة عجراء؛ وحومت عليه لفضله قلوب الأمراء والوزراء، وعلا ذكره بينهم وتناقلوا الثناء على علمه ودينه وأدبه، وهو غريب عن أزيائهم ولغتهم وعاداتهم. وبعد ستة أشهر سمي عضواً في مجلس المعارف فأدى حق الاستقامة في آرائه وأشار إلى طرق لتعميم المعارف لم يوافقه على الذهاب إليها رفقاؤه
ودعي لإلقاء خطاب في دار الفنون للحث على الصناعات، فلبى بعد امتناع، وما ألقى

الخطاب حتى ثارت عليه ثائرة الرجعيين فصدر إليه الأمر بمغادرة الآستانة بضعة أشهر حتى تسكن الخواطر ويهدأ الاضطراب ثم يعود إن شاء، ففارق الآستانة مظلوماً في حقه، مغلوباً لحدته، وحمله بعض من كان معه على التحول إلى مصر
مال الشيخ إلى مصر، فهوت إليه أفئدة من الناس وتحلق حوله طلاب المعرفة من كل صنف، ثم وجه عنايته لحل عقل الأوهام عن قوائم العقول؛ فنشطت لذلك ألباب، واستضاءت بصائر، وحمل تلامذته على العمل في الكتابة وإنشاء الفصول الأدبية والحكمية والدينية، فاشتغلوا على نظره وبرعوا، وتقدم فن الكتابة في مصر بسعيه وهنا اصطدم الحق بالباطل، فنفس عليه الشيوخ مكانته، وشغب عليه سفلة المتعلمين وهم شر من سفلة الجاهلين، ولكنه واصل وثبته الفكرية وأشعل النار في الهمم الخامدة، وظل دائباً عاملاً دعي من حيدر آباد إلى كلكته وألزمته حكومة الهند الإقامة فيها
ولما وضعت الحرب أوزارها، أصعد إلى مدينة لوندرة وأقام بها أياماً قلائل، ثم انتقل عنها إلى باريس وأقام بها ما يزيد على ثلاث سنين وافاه في أثنائها الإمام محمد عبده.
هذا هو الرجل العجيب، أنشأه القدر إنشاء ليكون الشعلة المقدسة في الشرق، في زمان هبت فيه ريح الجهل تريد أن تطفئ نور الله.
ولقد أجمع على احترامه الغرب والشرق، وشهدت له الأستانة وباريس وبطرسبرج بالعبقرية والغيرة والحمية على الدين.
ونظرة واحدة إلى حياة الرجل، تدلنا على قوة شكيمته في الحق، وسلطته على دقائق المعاني وتحديدها وإبرازها في صورها اللائقة بها كأن كل معنى قد خلق له، يشد هذا وذاك قلب سليم، وحلم عظيم، وقوة اعتماد على الله لا يبالي ما تأتي به صروف الدهر. تتضافر هذه القوى الذهنية والقلبية والخلقية داخل بنيان الرجل، فتندفع متعطشة إلى النور والحرية، فيندفع البطل إلى طموحه كالأسد الوثاب، ويتخط العراقيل المكدسة في طريقه حتى ينال ما يبغي أو يرتقب بارقة تلوح.
لقد كان السيد جمال الدين كثير التطلع إلى السياسة، قوي الرغبة في إنقاذ المصريين من الذل، فدخل الماسونية وتقدم فيها حتى صار من الرؤساء، ثم أنشأ محفلاً وطنياً تابعاً للشرق الفرنسوي، ودعا تبابعته من العلماء والوجهاء إليه، فصار أعضاؤه نحواً من ثلاثمائة، وعظم إقبال الناس عليه حتى أقلق من بيدهم الأمر وقتئذ.
أنظر إلى الرجل وهو يخاطب العوام ليستشيرهم، فيقول ما معناه: (. . لو كان في عروقكم دم قيه كريات حياة، وفي رؤوسكم أعصاب تتأثر، لما رضيتم بهذا الذل والمسكنة، ولما
صبرتم على هذه الضعة والخمول، ولما قعدتم على الرمضاء وأنتم ضاحكون. تناوبكم أيدي الرعاة، ثم اليونان والرومان والفرس، ثم العرب والأكراد والمماليك، ثم الفرنسيس والمماليك. . وكلهم يشق جلودكم بمبضع نهمه، ويهيض عظامكم بأداة عسفة، وأنتم كالصخرة الملقاة في الفلاة لا حس لكم ولا صوت. انظروا أهرام مصر وهياكل منفيس وآثار طيبة ومشاهد سيوة وحصون دمياط شاهدة بمنعة آبائكم وعزة أجدادكم:
وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم ... إن التشبه بالرشيد فلاح
هبوا من غفلتكم، اصحوا من سكرتكم، انفضوا عنكم غبار الغباوة والخمول. . .).
لقد كان للرجل من حياته مقصدان: علمي وهو تنبيه المسلمين إلى الإصلاح الديني والعلمي بالكتابة والخطابة، وسياسي اجتماعي وهو ترقية الشرق أية دولة كانت غير مفرق بين وطنه وسائر البلدان.
وهكذا النفوس ذات الآفاق الرحيبة التي لا تقف عند غاية إلا لتتخطاها إلى أخرى أسمى منها.
محمود شلبي
إلى الأب أنستاس ماري الكرملي
لا. . . بل النحاة واللغويون ثقات!
للأستاذ عبد الحميد عنتر
نشرت (الرسالة) في العدد (503) مقالاً ضافياً للأستاذ (الأب أنستاس ماري الكرملي) تحت عنوان (لماذا لا أثق بأقوال النحاة ولا اللغويين). عدد فيه بعض مآخذ عليهم،

توجب عدم ثقته (دائماً) بأقوالهم، ولو كان إدلاء إجلاء، إلا بعد عرضها على محك النقد والتحقيق، فإن أظهر المحك صدق إبريزهم، وافق عليها وقيدها عنده، وإلا نبذها نبذ النواة؛ ثم عرض لذكر شئ من أخطائهم التي جمع ما يقع في مجلد ضخم. هذا ملخص تصديره

وسيكون كلامي إلى (الأب) في ثلاثة مقامات:

الأول - في منزلته اللغوية

الثاني - في تخطئته النحاة واللغويين

الثالث - في مبلغ هذه التخطئة من الصواب أو الخطأ فأقول، مراعياً الإيجاز قصارى جهدي، ومن الحق تعالى أستمد السداد

المقام الأول

لا ينكر أحد أن للأب (أنستاس) البحاثة الراوية، جولات في ميادين اللغة وصولات، وأنه يطرف قراء العربية الفينة بعد الفينة، ببحوثه الشيقة، ونقاشاته اللغوية الدقيقة الممتعة؛ ولا غرو، فإنه بذلك يحافظ على تراث أجداده الفصحاء وأسلافه من العرب العرباء. ونحن لا ننسى قولاته الضافية باحثاً منقباً عن اللغة على صفحات (الأهرام) أيام الرخاء (أعادها الله على العالم أجمع) فنحمد له غيرته على العربية، وحدبه على خدمتها، وولوعه بالبحث عن شواردها، فهو من أكابر الباحثين في اللغة المحدثين، وإن لم نر له معجماً يضارع (أقرب الموارد) للقس (سعيد الشرتوني) أو (المنجد) للأب (لويس اليسوعي) مثلاً

المقام الثاني

ظاهر عنوان المقال يحمل في طياته المقدمات ونتيجتها الحتمية الآتية:

الأب يبني بحوثه وتحقيقاته اللغوية على أقوال اللغويين والنحاة، والنحاة واللغويين في نظره مخطئون غير موثوق بأقوالهم. فالنتيجة المنطقية أنه هو الآخر مخطئ غير موثوق بأقواله، ويلزم هذه النتيجة نتيجة عامة، هي أنه لا يثق أحد بأقوال النحويين واللغويين أجمعين!! وأحسب (الأب) لا يرضى لنفسه تلك الوصمة الشنعاء، كما أعتقد عدم صحة النتيجة العامة بالبداهة

على أن من يسمع كلمة (أخطأ اللغويون. أخطأ النحاة). التي رددها (الأب) في مقاله، يفهم أن اللغة قد أحيط بها، وأن علماء اللغة والنحو قوّضوا بنيانها، وهدموا أركانه! مع أن ما نسبه إليهم في مقاله من الخطأ (في انتقاده) لا يعدو أنهم حصروا عدداً من الألفاظ على زلة خاصة، وجاء هو ومَن قَبله بقليل يقولون:

إن في اللغة أوزاناً أُخَر تنقض هذا الحصر.

والخلاصة: أنه جعل خطأهم في العدّ، خطأ في اللغة!

لا. يا سيدي. إن الخطأ في اللغة شئ آخر. هو أن يفسر اللغوي لفظاً بغير معناه الذي تواضع عليه العرب، كأنه يفسر (الماء) بمعنى العسل، أو يجعل معنى (تَصَر) لمقلوبه وهو (رصَن)، أو نحو ذلك. ومثلك لا يحتاج إلى هذا البيان. فالحق أن العنوان بظاهره قريب، وإن تنصل الأب من هذه الريبة: بأنه لا يثق إلا بأقوال القُدامى من النحويين وعلماء اللغة. وإذا وضح أن الخطأ الذي ألصق بعلماء النحو واللغة إنما هو (في العدد) لا (في اللغة). وجب أن يقول الأب معي: (إن النحاة واللغويين إثبات ثقات، وإن كان توثيقهم في الحقيقة قطعيّ الثبوت قبل أن أوجد أنا والأب بمئات السنين.

وإن كان الأستاذ يريد بالخطأ ما وقع لصاحب القاموس أو غيره من اللغويين، فمثل هذا لم يسلم منه لغوي ولا نحوي. هذا صاحب القاموس يحصي أخطاء صحاح الجوهري، وهذا صاحب الجاسوس يحصى أخطاء القاموس، وهذا الشيخ إبراهيم ناصيف اليازجي اللُّبناني، والعلامة أحمد تيمور باشا، يؤلف كل منهما في مؤاخذات لغوية على كتاب لسان العرب، ومع ذلك لم يجرؤ أحد فيما أعلم، على القول برفع الثقة عن القاموس أو عن لسان العرب؛ بل لا يزالان ولن يزالا أهم مراجع للعلماء، وأضوء نبراس للأدباء من الكتاب والشعراء. وبعد فأظن أن هذا المقام قد استوفى حقه من التوضيح والتدليل.

المقام الثالث

قلنا: إن الخطأ الذي نوه الأب بذكره في مقاله - هو خطأ النحاة واللغويين في (حصر الألفاظ لبعض الأوزان)، وهو المحور الذي يدور عليه مقاله الطويل، المقسم إلى أربعة

أقسام:
القسم الأول - فِعْلى
أورد الأب هنا قول النحاة واللغويين: ليس لنا من الجموع على وزن (فِعْلى)، ألا حجلى (جمع حَجَل لطائر) وظِربي (جمع ظَرِبان لدابة خبيثة الريح)، ولا ثالث لهما، ثم أخذ يندد بعلماء النحو واللغة، من عهد أبي الطيب المتنبي، وأبي علي الفارسي إلى عهد اللغوي الكبير الشنقيطي. فإنه لم يعثر أحد منهم على ثالث لهذا الوزن، إلا الدماميني، فقد وجد ثالثاً بعد طول عناء، وهو لفظ مِعْزَى جمع معزاة، حتى جاء الشنقيطي والأب أنستاس، فعثرا في المخصص وغيره على ستة جموع (أسماء جموع) بوزن فِعْلى، (وكلها من غريب اللغة). وهي: العِرْقي (أصول الشجر الممتدة في الأرض إلى أسفل) والعِمْقي (شجر أمر من الحنظل بالحجاز وتهامة)، والعِفْري (ريش عنق الديك)، والصِّحْنَي (نوع من السمك، وهو معرّب، ومعناه الصِّير) والذِّفْرَي (أسم جمع للعظم الناتئ خلف الأذن، واحدته ذفراة)، والشِّيزَي (خشب تصنع منه الجِفان). بهذه الكلمات ظهر خطأ النحاة وعلماء اللغة في قولهم: ولا ثالث لها.
قلت: لم يصب الأب شاكلة الصواب في هذه التخطئة؛ فإن نظرة غير فاحصة في قواعد النحو والتصريف ترشدنا إلى صواب ما قاله الأقدمون، وخطأ ما جاء به المتأخرون، وإلى القارئ البيان:
أثبت النحاة اللغويون وغيرهم، كلمتي (حجْلى وظِربَى) في معرض الكلام على موانع الصرف، وحكموا لهما بحكم (ذكرى) التي تمنع من الصرف لألف التأنيث المقصورة فلا يدلهما التنوين أبداً، وليس لهما ثالث في اللغة يحكم له بهذا الحكم. وأما (مِعزى) وما ذكر معها، ففيها عن العرب وجهان: الصرف وعدمه. فالمصروف منها ألفه للإلحاق بدرهم، وغير المنون منها ألفهُ للتأنيث.
ومما تجب معرفته صرفيًّا أن وزني (فَعْلى وفعلى) إذا ورد لهما مفرد بالتاء كأرطاة مفرد أرطي، ومِعْزاة، مفرد معزي - تحتم أن تكون الألف مع التاء فيه (شجرة) للإلحاق: الأول بدحرجة، والثاني بزئبقة، ولا يجوز أن تكون الألف المصاحبة للتأنيث؛ إذ لا يجتمع في الكلمة أداتا تأنيث، فإذا عري المفرد عن التاء، فقيل أرطي ومِعزي، كان القياس يوجب أن تكون الألف إذن للإلحاق، ويكون اللفظ معها منوناً. لكن العرب صرفتهما تارة لمحاً لأصلهما مع التاء، ومنعتهما الصرف تارة أخرى، لأن ألفهما تشبه ألف جَرْجى وذكرى
والخلاصة: أن ما عدا (حجلى وظربى) لا يتحتم فيه منع الصرف. وإذاً فلا ثالث لهما يتحتم فيه المنع. وعلى ذلك فأبو علي الفارسي، والمتنبي وشارح القاموس، ومن لف لِفَّهم، كانوا على حق فيما ذهبوا إليه!
القسم الثاني - فُعَلى
نقل الأب عن تاج العروس، شرح القاموس، أنه لم يجئ على هذا الوزن إلا ثلاث كلمات لا رابع لها. وهي: أُرَبى (الداهية) وشعبي وأرمى (موضعان). ثم ذكر الأب لها أخوات بلغت ستاً؛ فتكون الألفاظ الواردة على هذا الوزن عشرة، لا أربعة كما قال صاحب التاج
أقول: ما قاله الأستاذ هنا صواب حقاً؛ لكن سبقه إلى هذا النقد أحد النحاة المتأخرين. قال الأشموني عند شرح قول ابن مالك:
والاشتهار في مباني الأولى ... يبديه وزن أُرَبى والطُّولى
وزعم ابن قتيبة أنها لا رابع لها، ويرد عليه: أني (حب يعقد به اللبن)، وجنفي لموضع،) 1هـ (وجَعَبي لكبار النمل
وهذه المآخذ أهون من أن تضع من قدر ابن قتيبة، أو ترفع الثقة. وصاحب التاج ثقة تابع في النقل لابن قتيبة، وجل (من أحاط بكل شئ علماً). والفضل كل الفضل للمتقدم
القسم الثالث - تفاعيل
أثبت الأب هنا عن تاج العروس قول العرب: (تباشير الصبح، وتعاشيب الأرض، وتعاجيب الدهر، وتفاطير النبات والشباب، ولا خامس لها؛ ثم قال (الأب): هناك سبع كلمات من هذا القبيل، وذكرها، فتكون العدة أثنى عشر جمعاً على وزن (تفاعيل)، لا أربعة كما قال صاحب التاج، وربما كان في اللغة ضعف هذا العدد أو أكثر. هذا كلامه

وأقول: ما قاله الأب عين الصواب، ولكن ما كان يحسن منه أن يذيع من على منبر (الرسالة)، وهي الصحيفة العالمية للآداب والعلوم والفنون - أن مثل هذا خطأ في اللغة! بل كان الأخلق به - وهو على ما وصفت آنفاً من الدقة في البحث والتحري للصواب - أن يقول: ذلك تقصير من اللغويين في الاستيعاب، وحكم منهم على ما لم يعلموا نفيه أو ثبوته، وأو نحو ذلك من العبارات التي تلتئم وما نسبه إليهم من عيب (إن صح أن يكون ما صدر منهم عيباً)

وكلنا يعلم أن لغة العرب لغة ضخمة، وأن العبء الذي تحمله اللغويون والنحاة، في سبيل جمع شتاتها، وتنسيق كلماتها والمحافظة على سلامتها من الخطأ واللحن - كان أثقل الأعباء التي تحملها العلماء، منذ بدء التأليف والتدوين إلى وقتنا هذا

فكيف يقال مع ذلك: لا أثق بأقوال النحاة ولا اللغويين؛ لأنهم أخطئوا في حصر بعض الألفاظ؟!

الحق أن هذا أو اقل من هذا لا يصح أن يقال.

(يتبع)

عبد الحميد عنتر

أستاذ بكلية اللغة العربية

للذكرى والتاريخ

طيبة تستقبل فرعون مصر

للكاتب الفرنسي تيوفيل جونييه

في كتاب قصة المومياء (إلى جانب المصريين نحن حقاً - برابرة) - تيوفيل جوتيه

للأستاذ أحمد أحمد بدوي

أف، تلك المدينة الضخمة الواسعة، لم تعد تضم بين أحضانها إلا المرضى والعجزة والمسنين الذين لم يعودوا بعد قادرين على الحركة، والعبيد المكلفين بحراسة المنازل؛ ففي الشوارع والميادين، وطرق أبي الهول، وأقواس المعابد والأرصفة، يجري سيل من الناس متجه إلى النيل؛ ويزخرف هذا الجمع الحاشد اختلاف عجيب، فالمصريون يكونون الأعظم، ويعرفون بسمات وجوههم النقية، وبقامتهم الرشيقة العالية، وبثيابهم من الكتان الدقيق، ومناطقهم المثناة باعتناء، وبعضهم يلف رأسه بنسيج ذي خطوط زرق أو خضر، ووسطهم مشدود بسراويل ضيقة، وظهرهم عار له لون الصلصال المحروق

في هذا الجمهور الوطني تظهر نماذج مختلفة لأجناس أجنبية: فزنوج أعالي النيل سود كآلهة من البازلت، أذرعهم مطوقة بحلقات كبيرة من العاج، وتتأرجح في آذانهم حلي بربرية؛ والأثيوبيون ذوو الألوان البرنزية، والسحنات النافرة، قلقون برغمهم في هذه الحضارة كأنهم حيوانات متوحشة في وضح النهار؛ والأسيويون يعرفون بلونهم الأصفر الرائق، وعيونهم الزرق، ولحاهم المجعدة على شكل حلزوني، ويعصبون رءوسهم بقلانس مثبتة بعصائب، ويلبسون أردية مطرزة ذات أهداب؛ أما اليونانيون فيرتدون جلود لحيوانات يعلقونها بعواتقهم، ويتركون أذرعتهم وسيقانهم الموشومة وشماً غريباً، ويحملون ريش طير فوق رءوسهم التي يتدلى منها ضفيرتان، تصيران واحدة تنظم على هيئة قرط على الصدغ

في وسط هذا الزحام يمشي الرهبان عليهم الهيبة والوقار رؤوسهم محلوقة، ويلفون أجسامهم بجلد النمر، بحيث يبدو فم الحيوان كأنه مشبك حزام، وفي أقدامهم أحذيتهم، وبأيديهم عصى من شجر السنط قد كتب عليها بالهيرغليفية؛ ويسير الجند إلى جنوبهم خناجرهم ذوات المسامير الفضية، وعلى ظهورهم تروسهم، وفي أيديهم فئوسهم؛ والشخصيات المبجلة يحلي صدورها أوسمة التشريف، ويحيها العبيد بالانحناء، ووضع الأيدي إلى أسفل بالقرب من الأرض؛ وتمشي بجانب الحيطان في هيئة متواضعة حزينة نسوة فقيرات، يكدن يكن عاريات، ينحنين تحت ثقل أبنائهن، المتدلين من أعناقهن في خرق بالية أو قفف من الحصير، بينما تختال فتيات جميلات يصحبهن ثلاث توابع أو أربع - في أثوابهن الطويلة الشفافة، التي تنعقد عند أسفل صدورهن بوشاح أطرافه مرسلة، ويضئ فوقهن اللؤلؤ والذهب، ويفوح منهن رائحة الأزهار والعطور

وبين الرّجّالة تمضي الهوادج يحملها الأثيوبيون بخطى سريعة منتظمة، والعجلات الخفيفة المسرجية بحصن يزينها جلال ذات أهداب، ويجمل رأسها الريش؛ أما العربات التي تحمل أسراً ويجرها الثيران، فتمشي باتئاد، وتجد طريقها بعسر بين الجمهور الذي لا يأبه بأن يداس؛ وغالباً ما اضطر السائقون إلى أن يضربوا بسياطهم المتمهلين والذين لا يخلون الطريق

هذا وفوق النهر حركة غير عادية، فعلى طول المدينة قد غطى النيل برغم سعته، ولم يعد في الوسع رؤية مائه بقوارب من كل صنف، فمن زوارق ذات حيزوم وسكان عاليين، إلى أخرى ذات ألوان وتذهيب، فكلها كان مستخدماً، ولم يستنكف حتى من ركوب المراكب المعدة لنقل البهائم وحمل الفواكه، ولا الأرمات المصنوعة من خشب الخيزران، والتي كانت معدة في العادة لحمل أوعية الصلصال

ليس من السهل عبور النهر من جانب إلى جانب، وسط جمهور يربي على ألف ألف نسمة، بل يجب لذلك كل مهارة نوتية طيبة ونشاطهم.

ماء النيل تضربه المجاديف وتشقه السكانات، فيرغي ويزبد كأنه بحر، ويكون آلاف الدوامات التي تضعف قوة التيار

والزوارق في مجموعها مختلفة ومبهجة، فبعضها ينتهي كل من طرفيه بزهرة كبيرة من أزهار اللوتس تنحني إلى الداخل، وتربط بساقها راية، والبعض حيزومة على شكل هلال ينهض طرفاه فوق الماء، ومنها ما يحمل فوقه نوعاً من الأبراج أو السطوح يقف فوقها

رؤساء النوتية، وبعضها مكون من ثلاث جذوع ربطت بالحبال، ويحركها مجذاف؛ أما المراكب المعدة لنقل الحيوانات والعربات فقد ربط بعضها إلى بعض، ووضع عليها معبر يسمح بالصعود والنزول من غير كبير عناء، وقد كان عددها عظيما، وعليها تصهل الأحصنة المطهمة، وتضرب الخشب بحوافرها الرنانة، والثيران قلقة تنحني إلى النهر بمقماتها التي يسيل منها خيوط من اللعاب، ولكنها تهدأ إذا لاطفها قوادها.

يضبط النوتية حركات المجدفين بالتصفيق، ويجثم الملاحون فوق الكوثل، أو يمشون فوق سطح المركب يصدرون أوامرهم، ويرسمون خطة السير الضرورية للانزلاق بين هذه الكثرة المربكة من الزوارق، وبرغم الاحتراس كانت الزوارق تصطدم أحياناً هذه الآلاف من السفن المطلي أغلبها باللون الأبيض، والمزخرفة بزينة خضراء وزرقاء وحمراء، والمحملة بالرجال والنساء اللابسات ملابس من ألوان شتى أخفت سطح النيل تماما في أماكن كثيرة، وأظهرت تحت الأشعة الساطعة لشمس مصر منظراً ساطعاً باهرا في حركته، وكان الماء المتحرك بكل قوته يضئ ويبرق كأنه فضة خالصة، أو شمس كسرت آلاف الأجزاء

لقد كانت الزوارق ثقيلة بمن عليها وأبراجها مليئة بالعابرين، وفوق سطحها يجلس الرجال والنساء والأطفال متربعين، تلك الجلسة العزيزة لدى الشعب المصري. ولدى رؤيتهم يخيل إلى المرء أنهم قضاة أوزيريس، لولا أن منظرهم لا يدل على التأمل، وهو سمة قضاة الموت، بل على العكس يشعر بأقصى ما يكون من السرور

في الحق أن فرعون عاد منتصراً، يقود معه عدداً ضخما من الأسرى؛ فطيبة غارقة في السرور، وشعبها قد خرج بأجمعه إلى المحبوب أمون رع رب التيجان، مدبر المملكة الطاهرة، القدير على كل شئ إله الشمس، منظم شئون العالم

على الجانب الغربيّ للنهر، لم يكن الازدحام أقل شدة من الشاطئ الشرقي، وقد جاء سكان أحياء ممنون والقرى المجاورة، وفي كل لحظة تحمل الزوارق أناساً جدّوا ترسو بهم فوق الأرصفة فتزيد كثافة الجمهور، بينما العربات التي لا تعدّ تشقّ طريقها إلى ميدان العرض، وتضئ عجلاتها كأنها شموس بين الغبار الذهبي الذي تثيره. لقد صارت طيبة في هذه اللحظة خراباً، كما لو أن فاتحاً قاد شعبها أسيراً

والمنظر، مع ذلك، جدير بأن يصوّر، ففي وسط الخضرة اليانعة التي ينهض فيها النخيل بتيجانه، تبدو الألوان الزاهية للمتنزّهات والقصور وخيام الصيف محاطة بأشجار الجمّيز، و (الست المستحية)، وكثير من أحواض المياه يضئ في الشمس، والدوالي تشتبك محاليقها في عرائش مقوّسة، وفي النهاية يبدو شبح قصر رمسيس بأبراجه الهائلة، وجدرانه الضخمة، وصواريه المذهبة المزخرفة، ترفرف فوقها الرايات في الهواء، وأبعد من ذلك إلى الشمال يبدو التمثالان الضخمان الجالسان على عرشهما في وضع

خالد لا يتأثر، وكأنهما جبل صخريّ ذو شكل إنساني يقوم أمام مدخل معبد أمينوفيس، ويتراءى في لون ناصل الرمسيوم الذي يبعد قليلاً، والمقبرة الوحيدة للكاهن الأكبر، ولكننا من أحد الجوانب نستطيع أن نرى قصر منفتاح.

(يتبع)

أحمد أحمد بدوي
مدرس بحلوان الثانوية للبنين

السيدة سكينة بنت الحسين

للأستاذ سعيد الديوه جي

(تتمة)

مزاحها وتهكمها:

أنتهي الفرزدق من حجته ويمم شطر المدينة المنورة ليسلم على السيدة سكينة أملاً في صلتها ورغبة في ثنائها ليغيظ بهذا خصمه بل أكبر أعدائه (جريراً). والفرزدق من الحزب العلوي، طورد وسجن واضطهد بسبب تشيعه لهم. ولم يكتم هذا الحب الصادق لآل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حتى أمام الخليفة هشام. ولكن هذا لم يخلصه من انتقاد السيدة سكينة وتهكمها به. ولما مثل في ندوتها سألته: من أشعر الناس؟ وهي تعلم مكانته من الشعر فهو أفخر الشعراء الأمويين وأمدحهم وأمتنهم أسلوباً - وأجزلهم لفظاً - قال: أنا. قالت: كذبت. أشعر منك الذي يقول:

بنفسي من تجنبه عزيز ... عليَّ ومَنْ زيارته لمام
ومن أمسى وأصبح لا أراه ... ويطرقني إذا هجع النيام

ولا شئ يغيظ الفرزدق أكثر من تفضيل قرنه وخصمه الألد جرير عليه. بهت الفرزدق وأسقط في يده. وماذا يصنع مع سكينة التي تريد أن تلعب بعقل هذا الشيخ؟ قال لها: والله لئن أذنت لي لأسمعتك أحسن منه. قالت: لا أحب فاخرج عني. خرج الفرزدق يتعثر في أذياله، ويخشى أن يشيع هذا الخبر فيسمعه جرير ويتخذه حجة له عليه. وفي اليوم الثاني عزم على أن يعيد الكرة لعل الله يشرح صدر سكينة فتشمله بعطفها وتمن عليه بكلمة ثناء تجبر بها كسره. ولما مثل في صالونها قالت له: من أشعر الناس؟ قال: أنا. قالت: كذبت، أشعر منك صاحبك حيث يقول:

لولا الحياء لهاج لي استعبار ... ولزرت قبرك والحبيب يزار
كانت إذا هجع الضجيج فراشها ... كتم الحديث وعفت الأسرار

فقال لها: والله لئن أذنت لي لأسمعتك أحسن منه. فأمرت به فأخرج. ضاقت عليه الأرض بما رحبت فلا يدري ماذا يعمل وبمن يلوذ. ولكنه لم يقطع أمله من صلتها وثنائها. فقصدها

في اليوم الثالث. ولما مثل في صالونها، سألته: من أشعر الناس؟ قال: أنا. قالت: كذبت. صاحبك أشعر منك حيث يقول:

إن العيون التي في طرفها حَوَر ... قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به ... وهن أضعف خلق الله إنسانا

علم الفرزدق بأن شعر جرير قد وقع في قلبها لرقته وسلاسة ألفاظه وخلوه من الفحش والخبث، فهو يمثل النفس الطاهرة الطيبة. عندئذ لجأ الفرزدق إلى التلطف والتوسل، فقال لها: (يا بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، إن لي عليك حقاً عظيماً: خرجت من مكة إرادة السلام عليك فكان جزائي منك تكذيبي ومنعي من أن أسمعك) وعرَّض لها بكلامه أن تهبه جارية وضيئة من جواريها أعجبته. فضحكت سكينة وأمرت له بالجارية. وقالت: (يا فرزدق أحسن صحبتها فإني آثرتك بها)

وأحاديثها مع عروة بن أذينة كثيرة. وهو من فقهاء المدينة ومحدثيها. وقد أخذ عنه الإمام مالك. كان من الأتقياء ولكن قلبه لم يخلص من الهوى. كان يحب وكان يعشق ولكن كان يستر حبه ويكتم هواه - ومهما حاول المرء كتم هواه فلابد أن يظهر يوماً على لسانه

بينما كانت تسير سكينة بوادي العقيق رأت هذا الشيخ فمالت إليه بموكبها ووقفت عليه وقالت له: يا أبا عامر، أنت الذي تزعم أن لك مروءة وأن غزلك من وراء عفة وأنك تقي؟! قال: نعم. قالت: أفأنت الذي تقول:

قالت وأبثثتها وجدي فبحت به ... قد كنت عندي تحب الستر فاستتر

أَلست تبصر من حولي؟ فقلت لها ... غطى هواك وما أُلقي علي بصري
قال لها: نعم
قالت: (من حولي من الجواري حرائر إن كان هذا خرج من قلب سليم) وكيف يخرج هذا الغزل الرقيق من قلب خال من الهوى وإن لصاحبه من حب الجمال ما جعله يتخذ له قصراً في وسط العقيق عش الأدباء والظرفاء والمجان.
ومن تهكمها: أنها كانت في مأتم فيه بنت لعثمان بن عفان. فقالت بنت عثمان مفتخرة: (أنا بنت الشهيد) فسكتت سكينة فقال المؤذن: (أشهد أن محمداً رسول الله) فالتفتت إلى بنت عثمان وقالت لها: (هذا أبي أم أبوك؟!) فبهتت العثمانية وقالت: (لا أفخر عليكم أبداً)
وكانت تسلك طريق الدعابة والمزح في حياتها، ونوادرها أكثر من أن تحصى ومن ذلك أن لسعتها دبيرة. فقالت لها أمها مالك؟ فضحكت وقالت: (لسعتني دبيرة، مثل الأبيرة، أوجعتني قطيرة)
وبعثت مرة إلى صاحب الشرطة: إنه قد دخل علينا رجل شامي فأبعث إلينا بالشرط. فركب معهم وأتى إلى باب سكينة. فأمرت ففتح له. ثم أمر الجارية من جواريها فأخرجت إليه برغوثاً
وقالت. . (هذا الشامي الذي شكوناه) فانصرفوا يضحكون. ولعل أجمل مزحها كان مع أشعب خادمها ومضحكها. وكم لاقى هذا المخنث من تنفيذ أوامرها الأمرين: تارة تأمر جواريها أن يطأن بطنه وطئ شديداً تكاد تخرج أمعائه منه. أو تأمرهن أن يخنقنه أو يسحبنه على وجه ويلقى خارج الدار أو تأمره أن يقلد أصوات الحيوانات فيموي كالهرة أو يهر كالكلب.
غضبت يوم عليه فدعت حجاماً ليحلق لحيته. فقال له الحجام: انفخ شدقيك حتى أتمكن منك - وأشعب حتى في مثل هذه الحالة أن يضحك سيدته - فقال للحجام: (أمرتك أن تعلمني الزمر أو أن تحلق لحيتي؟!) فضحكت وعفت عنه.
وغضبت عليه مرة أخرى فأمرت أن يتخذ بيت من عود ويوضع فيه بيض وتبن وأدخلت أشعب به. وحلفت ألا يخرج من البيت حتى يحضن البيض كله إلى أن يفقس. ففعل أشعب - وكلما دخل زائر إلى دار سكنية كان أشعب يقرقر مثل الدجاجة - حتى فقس البيض كله فراريج. وأمرت أن تربى الفراخ بدارها. وكانت تنسبهن إليه وتقول: (بنات أشعب)
تأثيرها في المجتمع
ولم تقتصر شهرتها بين أهل عصرها في العلم والأدب والفن بل كان لها تأثير شديد في كل ما تفعله. فلم تظهر بزي إلا انتشر بين فئات الطبقة الأرستقراطية وتعداهن إلى بقية الطبقات. ذلك لأن السيدة سكينة أول من أبتكره وظهر به. كما كانت تصفف جمتها تصفيفاً لم ير أحسن. وصارت الجمة (السكينية) هي المتبعة في تصفيف الشعر. ولم يقتصر هذا التقليل على النساء بل إن فتيان قريش أخذوا ينسقون شعورهم على مثالها. وكان عمر بن عبد العزيز إذا رأى رجلاً يصفف جمته (السكينية) جلده وأمر بحلق شعر رأسه.
وأما تنسيق ندوتها وما يجد فيها من رياش وأثاث ورياحين فكان حديث فتيات قريش. فما من فتاة إلا وتزور هذه الندوة لتنظر ما أستجد بها مما أبدعته قريحة سكينة لتقلدها في ذلك.
فإن السيدة سكينة هي سيدة نساء عصرها على الإطلاق. كانت أحسنهن عقلاً وأظرفهن وأعلمهن وأعلاهن مقاماً وأرفعهن أدباً. تجالس الآجلة من قريش ويسعى إلى مجلسها أصحاب العلم وأرباب الفن يستمعون إلى محاضرتها أو يلتمسون صلتها. كما كانت تطرح عليهم الأسئلة وتجادلهم بما يقولون وتنتقد آراءهم ولا تخشى في الحق لومة لائم؛ ولهذا نرى قاصديها يحسبون لها حساباً. وهكذا تألق هذا النجم في سماء المدينة وظل يهتدي به حتى سنة 117هـ
وفاتها
وفي صباح يوم شديد الحر فاضت روحها وانتقلت إلى جوار ربها. خرج النعش يتهادى بين الجموع المحتشدة والقلوب الخاشعة والعيون الدامعة. ولكنها (حتى على الموت لا تخلو من الحسد) فإن أمير المدينة خالد بن عبد الملك أمر أن يؤخروا الصلاة عليها

حتى يحضر وجلس الناس حولها حتى العشاء ولم يحضر؛ وغلبهم النعاس فأوقدوا حولها عوداً بأربعمائة دينار وصلوا عليها جماعات جماعات. وفي صباح اليوم التالي دفنوها ودفنوا معها العلم والأدب والفن.

أقفرت الدار من سكينة فلا شعراء ينشدون، ولا علماء يتجادلون، ولا رواة يحدثون، ولا أدباء يحتكمون.

(أضحت خلاءً وأضحى أهلها احتملوا ... أخنى عليها الذي أخنى على لبد)

(الموصل)

سعيد الديوه جي

الذكرى الباسمة

لشاعر العاطفة والوجدان جان ريشبان

للأستاذ عبد العزيز العجيزي

لن أنسى لك أبداً أول حديث في الحب،
فعلى الرغم من انصرافي إلى الصلوات،
إلى الحسرات وتأوهات الضمير، سأجثم كابياً؛
غير جائل بالفكر فيما يثير الفزع في نفسي، بل
سابحاً بخاطري في ذكرى ليلة مقمرة ولت ولم تعد
لن أنسى لك أبداً أول مناغاة ساحرة،
ولا ما ألاقيه من عنت الزمان وتتابع الحدثان
وغفلة النسيان، ولا من تكدير الصفو وعبوس
الجو؛ فقد طويت صفحات حظي طياً،
لأوْدع في ثناياها فؤاد وردتي الناعسة.

لن أنسى أبداً أول عُرس لربيع أيامنا، حينما
لمع لي سنا عينيك وبدا أشد فتنة وخلابة وإغراء
من السماء الصافية، والغابة الزاهية، والشمس
الغاربة؛ حينما قبلت عبير الهوى المترقرق من ثغرك
الباسم. لن أنسى ذلك أبداً وإن غيبتني المنون. . .
الأطيار سكرى بسلاف شفاه الأزهار،
والأغاني والأغاريد راقصة على خدود الورود،
لا لشيء سوى ارتشاف عذب نغمات هوانا.
فواهاً لهذا الطير وواهاً لهذا الزهر!
بل واهاً لغرامنا الجامح وحبنا الهائم!
في نشوة تلك الساعة غاب صوابنا حتى عن
حمد الله، وتوهمنا اللحظات تمضي على رسلها
بينما الحب مقيم دفين، فرتبنا لقاء الزمن الوليد
ترتيب العصفور لو كره. مسكين! مسكين أيها
الطفل الوليد؛ فقد أخذتنا غفوة سمعنا فيها
هتاف صوت يردد: كل شئ لا يغني.

لكن، أواه! إني لا أروم إثارة أحزاني وأشجاني.
أواه حبيبتي! أواه رفيقة صباي! أواه ليلاي!
سوف يُنفخ دائماً في مزمار آهاتي وشكاتي.
سوف أتنقل في روض ذكراك، جانياً
قطوف حلاوتك وأفاويق عفتك، متنسما شدى
قبلاتك المناجية مناجاة قبلات القمر الحالم.
أهيم بذكرى قدك الرخص البارع، وغصنك
المعتدل الفارع، ذكرى جسدك الذي مازج
أشواقي في معبدها الروحاني، ذكرى أريج أديمك
الأشد من رحيق عتيق المدام، ذكرى الأزهار
الفواجة بمداعبة جيدك الأندى من الفجر؛ ذكرى
مرقدنا الحاقد على هوانا، الملتهب غيرة وحسداً.

أهيم بذكرى أيامي السادرة في ثنايا عمري،
ويغمرني عُباب ذكرياتي المقدسة. وحين يشتعل
رأسي شيباً، ويغضن الهرم وجهي، وأصبح مثل
سأستمد الدفء من قبس (كاساندر)
ربيع حياتي؛ وسألتمس دائماً حرارة
هذا القبس من تحت ذرات الرماد.
عندما يهب إعصار الفناء، وأحس برد الموت
يتمشى فيّ، سأذكر ربيع عمرنا الطلق النضير.
وألفظ حين ذاك النفس الأخير، فيخبو
سراج ذكراي، وتنعم هنالك روحي بالضوء
السنى في هيكلها النوراني، وأودع الحياة في
موكب الذكرى ناعم البال، إلى أفق باسم لألأء.
(المنصورة)
عبد العزيز العجيزي
المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم
في النصف الأول من القرن التاسع عشر
تأليف المستشرق الإنجليزي ادورد وليم لين
للأستاذ عدلي طاهر نور
الفصل الخامس عشر
استعمال التبغ والبن والحشيش والأفيون الخ
إن تحريم الخمر بأنواعها في التشريع الإسلامي، جعل المسلمين يلجئون إلى وسائل أخرى تسبب لهم نشوة خفيفة أو ضروباً مختلفة من الطرب الشديد
وأكثر هذه الوسائل انتشاراً في أغلب البلدان الإسلامية ما يسميه العرب (كيفاً) وهو تدخين التبغ، ولا يمكنني أن أترجم هذا اللفظ بأكثر من (لذة لطيفة). ويبدو أن هذا التبغ أدخل إلى تركيا وجزيرة العرب وغيرهما من بلاد الشرق قبيل القرن السابع عشر من الميلاد أي بعد سنوات قليلة من انتظام تصديره كسلعة تجارية من أمريكا إلى أوربا الغربية. وكثيراً ما أشتد الجدل حول إباحة التدخين للمسلم غير أن ذلك جائز الآن. وقد غير التبغ من طباع المدمنين عليه من الترك والعرب وجعلهم على الأخص أكثر كسلاً مما كانوا عليه قبلاً، فهم يضيعون في تدخين شبكهم وقتاً طويلاً. إلا أنه كان ذا أثر آخر حسن، فقد أغنى إلى قدر كبير عن استعمال النبيذ الذي يضر على الأقل بصحة سكان الأقاليم الحارة. وتقدم قصص ألف ليلة وليلة التي كتبت قبل استعمال التبغ في الشرق والتي تصور لنا بلا ريب عادات العرب وشمائلهم في ذلك الوقت تصويراً صادقاً، تقدم هذه القصص أدلة وافرة على أن المسلمين وقتئذ أو في العصر السابق مباشرة كانوا يشربون النبيذ علانية. ويمكن أن نقول دفاعاً عن الشبك - كما يستعمله العرب والترك - أن أنواع التبغ الخفيفة التي يستعملونها عادة لها تأثير لطيف. فهي تهدئ الجهاز العصبي وترهف الذهن بدلاً من أن تبّلده. ولا شك أن الشبك يتضمن كثيراً من ملذات الشرقيين ويقدم إلى الفلاح منعشاً رخيصاً زهيداً ويبعده في الغالب عن الملذات المضرة
وتعتبر القهوة، نعيماً مماثلاً للتبغ وتؤخذ معه، وقد ساعدا على جعل النبيذ أقل انتشاراً بين
العرب. ويؤيد هذا الافتراض لفظ القهوة وهي تسمية عربية قديمة للنبيذ. ويقال إن هذا الشراب المنعش اكتشفه في الجزء الأخير من القرن السابع للهجرة أو الثالث عشر من الميلاد متعبد عابد الشيخ عمر دفعه الاضطهاد إلى أحد جبال اليمن مع بعض أتباعه، وحمله الجوع إلى أن يشرب منقوع البن الذي ينبت هناك بالطبيعة. غير أن استعمال البن لم ينتشر في اليمن إلا بعد هذا الزمن بجيلين. وقد استوردت مصر البن بين سنتي 900 و910 هجرية أي في أواخر القرن الخامس عشر أو ابتداء القرن السادس عشر من الميلاد، أو قبل إدخال التبغ إلى الشرق بجيل تقريباً. وكان يشربه حينئذ في جامع الأزهر فقراء اليمن ومكة والمدينة الذين وجدوا فيه منشطاً لهم على العبادة والتسبيح، وكانوا يعكفون على شربه بكثرة. وأدخل البن إلى الآستانة بعد ذلك

بنصف قرن تقريباً. وقد أثارت القهوة منازعات حادة بين المتعبدين والمتعلمين في جزيرة العرب ومصر والأستانة. فكان كثير من العلماء يؤكد أن القهوة لها خصائص مسكرة فتحرم على المسلمين بينما كان آخرون يقررون أن للقهوة فضائل، إحداها مقاومة النوم فتكون عوناً قوياً للأتقياء على عبادتهم ليلاً. وكثيراً ما كان بيع البن حينئذ يحرم ويحلل حسب رأي الحاكم. أما الآن فيقول جميع المسلمين تقريباً بحل القهوة، ويفرطون في استعمالها، وحتى الوهابيون الذين هم أشد المسلمين صرامة في الحكم على التبغ والتمسك بأحكام القرآن والحديث. وكانت القهوة تجهز قبلا من حب البن وقشره معاً. ولا تزال تعدّ في جزيرة العرب منهما معاً أو من القشر فقط. وتحّضر في البلاد الشرقية الأخرى من الحب وحده يقلى ويطحن أولاً فأولاً.

في القاهرة أكثر من ألف (قهوة). والمقهى غرفة صغيرة ذات واجهة خشبية على شكل عقود. ويقوم على طول الواجهة، ما عدا المدخل، مصطبة من الحجر أو الآجر تفرش بالحصر ويبلغ ارتفاعها قدمين أو ثلاثاً وعرضها كذلك تقريباً. وفي داخل المقهى مقاعد متشابهة على جانبين أو ثلاثة. ويرتاد المقاهي أفراد الطبقة السفلى والتجار وتزدحم بهم عصراً ومساءً. وهم يفضلون الجلوس على المصطبة الخارجية ويحمل كل منهم شبكه الخاص وتبغه. ويقدم (القهوجي) القهوة بخمس فضة للفنجان الواحد أو عشر فضة (للبكرج) الصغير الذي يسع ثلاثة فناجين أو أربعة. ويحتفظ القهوجي أيضاً بعدد من آلات

التدخين من نرجيلة وشيشة وجوزه. وتستعمل هذه الأخيرة في تدخين التمباك والحشيش الذي يباع في بعض المقاهي. ويتردد الموسيقيون، والمحدثون على بعض المقاهي في الأعياد الدينية خاصة

(يتبع)

عدلي طاهر نور

غروب. . .!

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

مَالي أَحِسُّ كأَنَّ عُمْرِيَ في يَدِ الأَحْزَانِ يُطْوَى؟!
نَفْسِي تَنَاهَبَهَا الشَّقَاءُ وَلَمْ تَجِدْ في الْجِسْم مَأْوَى
قَلْبِي أَذَلَّتْهُ الْجِرَاحُ فمَا يُطِيقُ بِهِنَّ شَكْوَى
حُبِّي اسْتَحَالَ رِوَايَةٍ لِلدَّمْعِ يَعْصِرُهَا فَتُرْوَى
وَصِبَا غَرَامِيَ صَارَ أَبْعَدَ مِن مَشِيبِ الغَيْبِ شَأْوَا
أَغْدُو، وأُمْسِي. . . وَالأَسَى نَارٌ أُذَابُ بِها وَأُكْوَى!
رَبَّاهُ! مَا أَتَا؟. . . هَلْ وُجِدْتُ عَلَى زَمَانِ البَّاسِ سَهْوَا!
سَوَّيْتَنِي رُوحاً. . . تَمَرَّدَ أَنْ يَرَى الأَرْضَ مَثْوَى
وَأَنَا التُّرَابُ! فَكَيْفَ صِرْتُ هَوًى، وَتَعذِيباً، وَشَجْوا!
شُرُفَاتُ غَيْبِكَ لا يُتِحْنَ لِغَيْرِ مَنْ يَبْكِي دُنُوَّا
وَأَتَا إليكَ ذَرَفْتُ أيامِي فَزَادَ دَمِي عُتُوَّا
وَرَأَيْتُ سِحْرَكَ في الوُجُودِ أَضَلَّ إِحْسَاسِي وَأَغْوَى!
النَّهْرُ جَبَّارٌ عَصَاكَ فَلاَحَ مَحْمُوماً تَلَوَّى
وَالعِطْرُ زِنْدِيقٌ يُذِيعُ عَذَابَهُ. . . وَيَقُولُ: سَلْوى!
وَالطَّيْرُ مَجْرُوحُ الغِنَاءِ وَيْلبِسُ الآهَاتِ صَفْوَا
وَالرِّيحُ جِنٌّ آثِمٌ وَخَزَتْهُ زَلَّتُهُ فَدَوَّى. . .
وَطَوَى الفَضاءَ مُزَمْجِراً مُتَضَرِعاً يَسْتَلُّ عَفْوَا. . .!
وَالشَّمسُ مَسْلُولٌ تَلَفَّعَ بِالْغُيُومِ وَدَسَّ بَلْوَى. . .
قَلِقَتْ عَلَى شَفَقِ الْمَغِيبِ كأَنَّهَا في النَّارِ تُشْوَى. . .!
وَاللَّيْلُ أَقْبَلَ يَمْلأُ الْقِيعَانَ أَسْراراً وَنَجْوَى. . .
وَأَنَا الْغَرِيبُ شَرِبْتُ أَحْزَاني فَقِيلَ: شَرِبْتُ لَهْوَا
وَبَكَيْتُ حَتَّى خِلْتُ أَجْفَانِي مُعَذِّبَتِي وَنَشْوَى!
مَاذَا رَجَائِي في الْحَيَاةِ إِذا انْتَهَى مَا كُنْتُ أَهْوَى
وَوَقَفْتُ أَحْفِرُ لِلْجِرَاحِ طَرِيقَها. . . فَتَعُودُ شَدْوَا!

محمود حسن إسماعيل

نظرة جديدة
في (ليالي الملاح التائه)
بمناسبة طبعته الجديدة
للأديب حسين محمود البشبيشي

من حيوية الفن الحق أن يتجدد أثره في النفس برغم تقادم العهد، بما يبعث في نفس المتأمل من أحاسيس. وإني لأجد اليوم في الحديث عن (ليالي الملاح التائه) نشوة المقبل على شئ جديد وما ذاك إلا لتجدد ما يهيجه الديوان من بوارق الحس.

وسنحاول في هذا المقال أن نسبر غور هذه النفس الشعور ونرجع عبقريتها الفنية إلى أسسها الأصلية. تنهض شاعرية الليالي على أساسين: سعة العقل المطلع، ومضاءة الشور الفني. فانك لتلمح أثر العامل الأول في مسايرة الشاعر لكل ما يضطرب في عالم الإنسانية من أفراح وأحزان. فقد طلع علينا الشاعر الفنان في كثير من المناسبات وسجل الكثير من المرائي الفاتنة، وإن ذلك ليظهر جلياً في قصائده مصرع الربان، وبحيرة كومو؛ وليس أدل على أصالة هذا الأساس في نفسه من مسايرته له في كل الأحايين، وما عهدنا بقصائد: عيد الميلاد، وستالينجراد ببعيد!. . . مثل هذا يدل على أن الشاعر قد نزع قيود الشخصية المحدودة وحلق في جو الإنسانية الفسيح فأطلع طائره يمجد مصرع الربان، وداعب قيثاره يخلد ثبات ستالينجراد، وذاب لهفة وتقديراً وإعجاباً بفتنة فينسيا. ورأى بحيرة كومو وراقه منها:

بهج في كنوزها ... للمحبين مدّخر
بابل أم بحيرة ... أم قصور من الدرر
أم رؤى الخلد في الحياة تمثلن للبشر

هاله السحر منها فهتف:

!!لا تقل أخصب الثرى ... فهنا أورق الحجر

وما كان ليستطيع أن يقول سوى هذا وهو العابد للجمال والقائل:

!هاهنا يشعر الجماد ... ويوحى لمن شعر

تلك لمحة تكشف عن انطلاق شاعرنا من قيود البيئة المحدودة ونظرته إلى مفاتن ومباهج
!الكون كوحدة تنعكس في قلبه الشاعر

أما الأساس الثاني فهو وضاءة الشاعرية التي توشك أن تطبعه بطابع خاص يكسب قصيدة عذوبة في الجرس، ورقة في الصياغة، وأناقة في اختيار الكلمات التي تطالعك كالعروس في جلوتها. ومن منا لم يطرب لروعته الموسيقية وفتنة التركيب وحسن الاختيار الموفق للبحر الذي نسج منه الجندول والروعة اختتامه بعض أبياتها بكلمات توشك أن ترقص من رقة النغم. . . مثل (خمرة، ثغرة، عبرة، أثرة. . .) إن القارئ ليوشك أن يجد نفسه مترنما مرتلاً لتلك الأبيات التي تتوجها هذه الكلمات في غير ما شعور وبغير إرادة

تلك هي الحيوية الموسيقية عند ملاحنا التائه. وإنها لتملك عليه حواسه وتنظمها وتسيرها فتراه وقد تأمل في مظاهر الجمال، وبواعث الشعر تتوافر على حسه المشاعر، وتتوالى على قلبه العواطف فلا يسعه إلا أن يعبر عن هذه العواطف المنثالة المتدفقة في أنغام تجمع بين صدق العاطفة وتدافق الحس. . . وهو حينئذ يحس أن يعبر في مقاطع رنانة قصيرة تعطي للقارئ فكرة سريعة الانتقال النفسي الوجداني. . . أنظر إليه وقد تدفق قائلاً في عاطفة متدفقة تظهر جلية في تدافع النغمات في كلمات. . . (دعوات) و (فرحة) و (نشيد) . . .

!!مهرجانٌ ممالك الشرق فيه ... دعوات، وفرحة، ونشيد

وإن ذلك ليظهر أيضاً في قوله:

وسلمت يا مولاي للوطن الذي ... بك يستظل، ويستعز، ويسلم

فقد تزاحمت وتواترت الخواطر والأحاسيس فهتف قائلاً (بك يستظل)، ثم تدفق مغرداً (ويستعز)، ثم صاح منشد (ويسلم). ومن هذا قوله:

صوامع رهبان، محاريب سجَّد ... هياكل أرباب، عروش قياصر

وثمة ناحية أخرى جديرة بالتأمل أخطأ فهمها بعض الناس. . . وهي ميل ملاحنا التائه إلى تكرار بعض الصور والألفاظ مما جعل بعض مراض القلوب يتوهمون أن ذلك وليد

قصور في التخيل وضيق في الأفق. . . وما ذلك من الحق في شئ. بل إننا لننظر إلى الأمر نظرة المتأمل فنقول: التكرار عندنا نوعان. . . تكرار يوشك أن يقتصر على مرتين أو ثلاث، وتكرار لا تحدّه أرقام فهو طليق طلاقة الحس المعبر. . . والأول نراه من مظاهر

القصور، والثاني نعتقد أنه من أثار الاتصال بين مظهر التعبير وجوهر الشعور. وعلي طه في تكراره فنان يساير مشاعره ويعجب بفنه؛ وهيهات أن يستطيع الخلاص من قيد عواطفه. وإذا كان في قراراته حبُ لشيء أو معنى فلا أقل من أن ينطلق مردداً له مستطيبا لتكراره. . . ولكنة حين يكررها يبدل في عرض مشاعره ويلبسها ثوباً جديداً تستشف من خلاله اتصالها بوشائج قوية مع أصولها الثابتة في أغوار نفسه. ولعل المسألة تظهر جلية إذا علم القارئ أن أهم صفة في خلق شاعرنا هي الوفاء. . . فما يستغرب إذا منه الوفاء لبعض أحاسيسه. . .! وما تلك الأحاسيس والصور التي يطيب للملاح أن يكررها. . .؟ هي: (الحلم، الأشباح. الزورق. الكأس) نعم إن المتأمل ليهوله كثرة ما ردد شاعرنا العبقري هذه الكلمات. . . ولكننا بقليل من التأمل نقول إن هذه الكلمات وإن اختلفت في الدلالة فقد اتفقت في الباعث الأصيل لها. . . وإليك الدليل. . . إن الانفعال الذي عند تصورك الحلم وانطلاقه هو بلا ريب ما تحسه عند توهمك الشبح وتهاويله. وما يصدق على الأحلام والأشباح يصدق على الكأس وعصيرها. وهل كانت الكأس إلا الوسيلة للانطلاق في جواء سحيرة فسيحة؟ وإن ما يصدق عن الأحلام والأشباح والكأس ليصدق على حيرة الزورق، فإن حيرته لتعطيك رهبة الرياح الهوج والأمواج الرعن. . . هذا وإلى القارئ بعض هذا التكرار الفني الجميل الذي يرتكز على طبيعة حق فقد كرر كلمة الحلم قائلاً:

غرقان في حلم عذب) ،(يا عروس البحر يا حلم الخيال) ،(حلم مثلته في خاطري) و (أحلام الليالي الكواعب) وتكراره لكلمة الكأس (لو سقى مثواك بالكأس (تسلسله الصبيب)، (هي الكأس مشرقة في يديك)، (هيئ الكأس والوتر). وتكرار لكلمة الزورق (وضمنا فيه زورق يجري)، يسري عليها للملائك زورق)، (نرقب النيل تحت زورقه). وثمة ناحية أخرى تلمحها خلال ديوانه وهي أن أصدق ما صاغه في حب وطنه كان . . . وهو في غربة عنه؛ وتلك بارقة نفسية عميقة تدلنا على أن الفاقد للشيء هو خير من يقدره. . . أنظر إليه كيف تذكر النيل ومصر وهو على ضفاف (كومو) وفي جلوة الجندول بفينسيا. وبعد فلا يسعنا إلا أن نهتف أن هذا الشاعر المغرم بالأشباح والحيرة والشرود والأحلام والزورق خير مثال لتأثر الشاعر وتقيده بأحاسيسه الأصيلة. . . أفلم يخضع لهذه الحيرة السابحة والأحلام والأشباح فأبى إلا أن يكون ملاحاً تائهاً. . .

حسين محمود البشبيشي

البَريدُ الأدبيّ

هل الاسكندر الأكبر هو ذو القرنين المذكور في القرآن الكريم

يعتقد بعض المؤرخين خطأ أن الإسكندر الأكبر هو ذو القرنين المذكور في القرآن الكريم. فنجد المقريزي والمسعودي يحاولان أن يثبتا أنه (هو)، وكذلك الأستاذ فريد وجدي في دائرة معارفه، وغيرهم كثيرون. ومنهم من يدعي أن سبب تسميته بذي القرنين أنه ملك قرني الدنيا، وأن له ضفيرتين، أو أنه شجاع كالكبش، وغير ذلك من الترهات التي لا يجوز أن يعتمد عليها المؤرخ. ويخيل إلي أن سبب خطئهم جميعاً هو عدم اطلاعهم على التوراة. فلو رجعنا إليها لعرفنا سبب هذه التسمية التي ألصقها المؤرخون خطأ بالإسكندر

ولكي نلم بالموضوع يحسن أن نتساءل: لماذا ذكر القرآن الكريم شيئاً عن ذي القرنين؟ وجواب ذلك سيوضح لنا كل شئ: سأل اليهود وكفار قريش النبي عليه الصلاة والسلام عن شخص لم يذكروا اسمه جاب الدنيا شرقاً وغرباً، وكان له ملك عظيم. ويقصد اليهود بذلك ذا القرنين المذكور في التوراة. فنزلت آيات القرآن الكريم عن ذي القرنين في سورة الكهف. وإليك رواية التوراة: رأى النبي دانيال علية السلام في المنام كبشاً ذا قرنين وفسره في التوراة بمملكة فارس التي لم تكن قد ظهرت بعد. ورأى كبشاً آخر ذا قرن واحد يهجم على هذا الكبش ذي القرنين ويقتله. وفسره في التوراة بملك من ملوك اليونان سيظهر في المستقبل ويقضي على دولة الفرس العظيمة. . . وعلى ذلك فالمقصود بذي القرنين دولة فارس العظيمة التي أسسها

الملك كورش والتي تنتهي بالملك دارا الثالث الذي في عهده قضى الإسكندر على دولة الفرس. والمقصود بذي القرن الواحد الإسكندر الأكبر
ودولة فارس كانت عاصمتها سوس في جنوب غرب إيران. وكان الشعب الفارسي في الجنوب والميديون في الشمال. والقرنان إشارة إلى هذين الجنسين. والقرن الواحد إشارة إلى أن اليونان جنس واحد. وكانت دولة فارس تملك عدا بلادها التركستان في وسط آسيا، وبابل في حوض نهري الدجلة والفرات من الجنوب، وآشور في شمال بلاد النهرين. وبلاد آسيا الصغرى، والمستعمرات اليونانية التي بها، وبلاد الفينيقيين بسورية، وأرض العبرانيين بفلسطين، ومصر. . . وعلى ذلك فالآيات القرآنية الكريمة التي جاءت في سورة الكهف هي في الحقيقة تاريخ دولة برّمتها، والأعمال التي قام بها ملوكها. ومع ذلك
إذا رجعنا إلى القرآن الكريم نجده يرفع ذا القرنين إلى مصاف المؤمنين، في حين أن الإسكندر الأكبر كان وثنياً يدّعي أنه ابن الإله آمون، وأوصى بأن يدفن بعد موته بمعبد آمون بسيوة. وكان متهتكاً يميل إلى الفجور وشرب الخمر وكان ذلك سبب وفاته. وكانت جثته تعبد بعد موته. فلا يعقل أن يكون هو ذا القرنين الذي يقول فيه القرآن الكريم: (قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكرا. وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى). والآية الكريمة التي تقول: (حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة) تنطبق على الملك كورش الذي أتجه غرباً وفتح بلاد الفينيقيين بسورية حتى بلغ البحر الأبيض المتوسط (فوجد الشمس تغرب فيه). أما سد يأجوج ومأجوج فالذي أقامه هو الملك كورش أيضاً وهو الآن في موضع اسمه (دربند) ومعناها السد، وهو أثر سد قديم بين الجبال في بلاد التركستان في وسط آسيا. ويروى الرواة في تلك البلاد أنه كان خلف هذا المكان قديماً قبيلتان: إحداهما تسمى ياقوق والأخرى ماقوق. ولقد غار السد بفعل الزلازل. وهذا يفسر قوله تعالى: (فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء). ومن نسل يأجوج ومأجوج كانت جيوش تيمورلنك وحفيده هولاكو الذين خربوا بغداد وأسقطوا الدولة العباسية.
من هذا نرى أن الإسكندر ليس ذا القرنين، وعلى ذلك ليس من العدل أن نلصق به هذا اللقب بالإكراه. وإذا كان ولابد أن نجعل له قروناً فلا مانع من تسميته بذي القرن الواحد.
الدكتور إبراهيم الدسوقي
حول تراث بني إسرائيل
قرأت ما كتبه الأستاذ الساكت رداً على تخطئتي للمفسرين في تراث بني إسرائيل، فوجدته يؤيد ما ذكروه من رجوع بني إسرائيل إلى مصر بأن الألوسي رأى في بعض الكتب أنهم رجعوا مع موسى وبقوا معه بمصر عشر سنين، بأن صاحب كتاب الأصول البشرية ذكر أن موسى بعد أن هزم فرعون مصر الذي فر إلى بلاد الحبشة حكم مصر ثلاث عشرة سنة، وبأن المتبادر من قوله تعالى: (ويستخلفكم في الأرض). وقوله: (قلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض). وقوله: (وأورثناها بني إسرائيل) أنهم رجعوا إلى مصر
وكل هذا لا يفيد الأستاذ الساكت بشيء، لن الله تعالى قد عين ذلك التراث في قوله: (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها، وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون) فالأرض المباركة هي أرض الأنبياء من المسجد الأقصى وما حوله، كما قال تعالى: (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله) وهي الأرض المقدسة التي ذكر الله أنه كتبها لهم في قوله: (يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم) فهذه الأرض هي التي كانت مطمح بني إسرائيل، وهي الإرث الذي كانوا يتطلعون إليه، وأرسل موسى لأجل أن يمكنهم منه
وقد فصل الله تعالى ما جرى لبني إسرائيل بعد مجاوزتهم البحر، وكرره في سور كثيرة من القرآن الكريم، وذكر من ذلك أنه حاول أن يحملون على دخول الأرض التي وعدوا بها، فهابوا قتال أهلها (قالوا يا موسى إنّا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، قال رب إني لا أملك إلا نفسي وآخى فافرق بيننا

وبين القوم الفاسقين، قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين)

ولم يذكر الله تعالى فيما فصله وكرره من ذلك أنهم رجعوا إلى مصر، وهو لو صح حادث عظيم ما كان الله تعالى ليهمل ذكره، على أن أولئك القوم الذين عجزوا عن فتح بيت المقدس، وأظهروا ذلك العجز والجبن، لا يعقل أن يقووا على فتح مصر، ولا يعقل ألا أن يبقوا في ذلك التيه الذي ضربه الله عليهم، وألا أن يحرمهم الله نعيم مصر أيضاً جزاء فسقهم وعصيانهم

ولا شك بعد هذا في أن ظاهر القرآن الكريم يشهد لذلك التفسير الذي ذكرته، وهو التفسير الذي يتفق مع المعروف من تاريخ مصر القديم وتاريخ بني لإسرائيل، ولا اعتداد بتلك الروايات المجهولة التي ذكرت في المنارة وغيره، ولم تبين لنا كيف ملك موسى مصر، ولا كيف تركها بعد أن تمكن منها

والله يعلم أني لم أطلع على ذلك التفسير الذي يتفق تفسيري معه، وإنما كان ذلك من توارد الخواطر، والخطب فيه سهل.

عبد المتعال الصعيدي

العدد 507 - بتاريخ: 22 - 03 - 1943

فلسفة الترجمة

للأستاذ عباس محمود العقاد

مر بمصر في الشهر الأخير كاتب من أشهر كتاب السير والتراجم بين الإنجليز العصريين، وهو الأستاذ فيليب جودالا صاحب سيرة شرشل وسيرة بالمرستون وسيرة نابليون الثالث بطل الإمبراطورية الثانية، وسيرة ولنجتون القائد الإنجليزي المعروف، ويحسبها بعضهم خير ما كتب في مادة السير والتراجم على الإجمال، وهذا عدا التراجم القصيرة التي كتبها لكثير من القادة والأدباء من الإنجليز وغير الإنجليز

وقد دعاه (الاتحاد الإنجليزي المصري) بالقاهرة إلى المحاضرة فيه، فاختار للكلام موضوعاً هو أقرب الموضوعات إليه وأولاها أن يخاطب السامعين والقراء فيه وهو (عمل المترجم) أو عمل الكاتب الذي يُدوِّن تاريخ العظماء ومن لهم تاريخ يستحق التدوين

والحق أنه أدى عمل المحاضر في الأندية العامة أحسن أداء، فلم يكن متعمقاً معاظلاً يتعب السامع الذي يتتبع الحديث ويريد أن يفهمه وهو يصغي إليه؛ ولم يكن هيناً يقول ما ليس يستحق الإصغاء ولا يخرج السامع منه بمحصول يفيد، بل قال ما يفيد ويمتع، وأودع حديثه السهل زبدة الآراء التي يستصوبها من وجهة نظره في صناعة الترجمة وكتابة السير بأسلوب يخيل إلى من يستخفه أنه تسلية ساعة، وهو في الواقع خلاصة حياة، بل خلاصة حيوات إذا نظرنا إلى التراجم الكثيرة التي خرج منها بهذه الخبرة الطويلة

فالترجمة عنده ليست (بقصة) طلقت اللهو والعبث ولبست لبوس الوقار والاحترام!. . ولكنها تاريخ من التواريخ يطبق على الأفراد بدلاً من تطبيقه على الأوطان والأقوام . وهي من ثم جديرة بأكبر عناية في العصور الحديثة التي شاع فيها تهوين الفرد وتعظيم شأن القوى والعوامل الجامعة، فإن الفرد ولا ريب يدل على شئ كثير، لأنه يرتفع على القمة فيشير إلى اتجاه التيار، فإن لم يكن هو الفعال لكل شئ في زمانه فهو على التحقيق دليل على مجرى الزمن وعلى ما يكمن وراءه من الدوافع والمؤثرات

وقال: إن الفرق بين فرنسا قبل نيف وثلاثين سنة وفرنسا اليوم إنما هو في جملته فرق بين رجلين: بين فوش وبيتان! كما أن تاريخ إنجلترا في السنوات الأخيرة إنما هو مظهر الفرق بين شمبرلين وشرشل

ولما تعرض لفن السيرة أو فن كتابتها حذر الكاتب من فتنتين تغريانه من جانبين مختلفين: أحدهما جانب البلاغة الأدبية، والآخر جانب النظريات النفسية أو (السيكولوجية)

فليس الغرض من الترجمة إخراج قطعة من الأدب البليغ، وإن صح أن تجئ أدباً بليغاً في عرض الطريق

وليس الغرض منها عرض النظريات النفسية التي قلما تفضي إلى يقين، لأنها بين شئ مفروض معلوم من قبل، وشئ لا نفرضه ولا نعلمه على الإطلاق، وفي كلا الأمرين

مضلة تستلزم التحذير
إنما الترجمة عمل (يدوي) كما يقال إذا شئنا أن نقابل بينها وبين الخلق الخيالي أو الخلق المثالي الذي يتطوح فيه بعض رجال الفنون. ففي حدود هذا العمل المتواضع ينبغي أن يقبع المترجمون!
ثم حذر الكاتب من خطأين آخرين عند الكتابة عن الأقدمين: خطأ النظر (الفوقاني) أو النظر إلى أعلى وهو ينتهي إلى الإطناب في الحماسيات والبطوليات وتخيل الأقدمين كأنهم جيل من العمالقة أو الملائكة العلويين
وخطأ النظر (التحتاني) أو الترفع عن الأقدمين كأنهم أطفال في حاجة إلى التربيت والإغضاء، مع شئ من الابتسام والاستهزاء
وإنما النظرة الوسطى هي النظرة القويمة، أو النظرة السواء لا إلى الأعلى ولا إلى الأدنى، فنراهم بالعين التي تنظر إلى الحياة اليومية ولا تعيبها مبالغة في الإكبار أو مبالغة في التصغير
وقال: إن الكاتب الذي يشغل ذهنه فترة طويلة بالبحث في سيرة عظيم من العظماءِ لا يلبث أن يشعر عامداً أو غير عامد أنه تقمص ثياب (سكرتير خصوصي) لذلك العظيم. . . فهو يجاريه في ميوله وبدواته، ويترقب ملاحظاته وإشاراته، فيفوته من ثم أن يستقل بذهنه في النظر إليه. وهذه أيضاً فتنة من فتن الترجمة المغرية للكتابة، عليهم أن يتقوها جاهدين ليكتبوا عن عظمائهم عادلين مستقلين
وعلى هذا النمط كانت محاضرته طريفة مفيدة، عليها الطابع الشخصي الذي ينم على تجارب الكاتب نفسه ويصطبغ بصبغة منه، وفيها الأحكام العامة والآراء الأساسية التي تصلح للمشاركة والاقتباس.
وقد لقينا في منزل صديقنا الدكتور هيكل باشا فسرنا منه أنه مسرور من الجمهور المصري المثقف الذي تحدث إليه، وأنه يلاحظ أنه لم يشعر بفرق قط بين الجمهور الذي كان يتحدث إليه في البلاد الإنجليزية والجمهور الذي تحدث إليه في القاهرة، فالمصريون كما قال يضحكون في مواضع الضحك التي يفطن لها الإنجليز، ويشبهون نظراءهم من السامعين هناك في التفاتات الذهن ومواقف التعقيب عند الإصغاء إلى حديث
قال: والضحك علامة الحضارة، لأن الشعوب البربرية لا تضحك، فذكرنا في تلك اللحظة قولة نيتشه إن الضحك من نكتة واحدة هو أول الدلائل على تقارب فكرين. وقلنا: بهذه العلامة ثق كل الثقة أن المصريين أعظم المتمدنين!
وسألناه: ألا تنوي أن تكتب شيئاً عن مصر بعد هذه الرحلة؟ فقال مبتسماً: لا أزعم أنني أكتب عن وطن بعد رحلة أيام. . . ثم قال: ولعلي أنا الرجل الوحيد الذي قضى في روسيا أسبوعاً ولم يكتب عنها سفراً طويل الصفحات
تلك خلاصة مقربة لجملة الآراء التي تشتمل عليها فلسفة الترجمة في رأي الأستاذ جودالا، وهي آراء نوافقه على معظمها ولا نكاد نخالفه إلا في الميل إلى البطولة أو إلى الصبغة الأدبية، فإذا استطاع الكاتب أن يستروح نفحة البطولة من مترجمه وأن يبثها في قلوب قرائه فهو في اعتقادنا عمل لا ضير فيه، بل هو واجب مطلوب مفيد لا غبار عليه
وكذلك إذا استطاع أن يرضي ذوق الفن ويرضي الحقيقة في وقت واحد فتلك غاية حرية أن تتطاول إليها أعناق الكتاب، لأن تجميل الحياة بالصدق الفني غرض من الأغراض النبيلة التي نخلص إليها من طريق التراجم كما نخلص إليها من طريق الشعر والنحت والتصوير والغناء، فكل حياة خلت من الجمال الفني ومن الصورة المثالية التي يسبغ عليها ذلك الجمال هي حياة فاترة أو حياة ناقصة لا تستحق أن تعاش، وإنما مقياس الحياة التي تكتب عنها التراجم والسير هي الحياة التي تعاش
وفيما عدا ذلك نوافق الأستاذ جودالا في فلسفته التي اختارها بعد التجربة الطويلة لصناعة الترجمة وتمثيل العظماء
نوافقه ونحن نعلم صعوبة هذه الموافقة في زمن كثر فيه المنكرون لقيمة الفرد وقيمة العظمة، وتردد فيه القول بسلطان العوامل الاجتماعية كأنه هو السلطان الذي ليس وراءه سلطان
وقد رأينا فعلاً كاتباً إنجليزياً يعقب على محاضرة الأستاذ جودالا من هذه الناحية،

ويسأله سؤالاً يلخص مواضع اعتراضه فيقول: هل هتلر ظهر في البيئة الألمانية لأنها بيئة مقلوبة أو أن هذه البيئة انقلبت لأن هتلر ظهر فيها؟

والظاهر من سؤال المعترض أنه يأخذ بالقول القائل إن الفرد نتيجة منفعلة، وليس بسبب فاعل في الحوادث التاريخية، وأن العظيم لا ينبغ في أمة إلا إذا تمهدت له دواعي الظهور من تكوين تلك الأمة؛ فالعوامل الاجتماعية إذن هي موضع البحث والالتفات، وليست عظمة العظماء ولا جهود الأفراد

وهذا مذهب مبالغ فيه قد جنح إليه الاشتراكيون على الخصوص لأنهم يردون العوامل كلها إلى المجتمع وعناصر تكوينه ومعيشة أبنائه، ولكنهم مهما يبالغوا في هذا فلن يستطيعوا أن يزعموا أن العظماء والصغراء سواء، وأن النوابغ لا يقدرون على عمل يعجز عنه المحرومون من النبوغ. ومتى كان مسلما أن النوابغ يعملون وأن عملهم لا يذهب سدى فهذا هو المهم الذي يستحق النوابغ من أجله دراسة الدارسين وإعجاب المعجبين

يسأل السائلون الفارغون: من صاحب الفضل في السياحة؟ المركب أو البحر أو الريح؟

وهذا سؤال فارغ كما قلنا لأن السياحة كلمة لا معنى لها إذا انفرد المركب أو انفرد البحر أو انفردت الريح

ففي الساعة التي تلفظ فيها كلمة السياحة البحرية تتمثل لما كل هذه العناصر مجتمعات، ولكنها تتمثل أو لا تتمثل تعجز كل العجز عن إنكار حق المركب في إتمام السياحة، وحق المسافر في الاختيار بين مركب ومركب، وحق الشركات في إنشاء المراكب ورصد المسافات كيفما كانت البحار والرياح.

وكذلك العظمة المشهورة كلمة تستلزم وجود الآدميين الذين يشتهر بينهم العظيم بغير فلسفة ولا تعمق ولا استطلاع لمغيبات. ولكن ماذا في هذا مما ينفي أن العظيم أفعل من الصغير، وأن هذه الأفعال جديرة بالتقديم والتأخير في سير الأمور؟

فالفرد شئ والعوامل الاجتماعية شئ، ومن قال إن الفرد لا يهم فقد أنكر الغاية من إصلاح

المجتمع كله، لأن كل إصلاح لا ينتهي إلى الاهتمام بالأفراد فهو إصلاح تركه وإنجازه سواء.

عباس محمود العقاد

الشعب هو المسئول عن الإصلاح الإجتماعي

للدكتور زكي مبارك

أخي الأستاذ الزيات

ليتك شهدت المناظرة التي أقيمت بكلية الآداب في مساء الأحد الماضي، لترى مبلغ ما وصلنا إليه من حرية الفكر والرأي، ولترى كيف يستبيح ناسٌ إيذاء إخوانهم بلا استبقاء، ولترى أيضاً كيف تطغى العامية الفكرية على بعض من وُسموا بالتثقيف

وسأصف جوّ تلك المناظرة بإيجاز، أداءً لحق (الرسالة)، فمن قرائها ألوفٌ يحبون أن يعرفوا كيف يشتجر القاهريون في ميادين الحجج والبراهين

كانت المناظرة برياسة معالي الأستاذ عبد الحميد عبد الحق وزير الشؤون الاجتماعية، وقد سُبِقت بحفلة شاي أعدها عميد كلية الآداب ترحيباً بالوزير وبالمتناظرين وكبار المدعوين

وبعد الشاي رأينا الوزير ينتحي ناحية ليراجع خطبة طويلة متصلة بموضوع المناظرة، فعرفت أننا سنقضي شطراً من الليل في نقاش وجدال، وقد هممت بمراجعة الوزير، ثم تركت الأمور تجري إلى مداها المرسوم في ضمير الغيب

وحين وصلنا إلى المدرّج الأكبر بالكلية رأينا جماهير كثيرة وعانينا قيظاً قد اقتُبست ناره من وهج القلوب. . . ألقى العميد كلمة ترحيب بالوزير، وألقى أحد الطلبة كلمة ثانية، ورأى الوزير أن يطوي خطبته لضيق الوقت، ثم دعا المتناظرين إلى الكلام

كنت الخطيب الأول، وكانت خطبتي مكتوبة، ولكني رأيت الجوّ يوجب أن أعرض الموضوع بصورة خطابية، وفي دقائق، لأستبقي الفرصة الباقية، فرصة المنبر الأكبر على صفحات (الرسالة) الصديق

لن أحدثك عما قوبلت به خطبتي من الإعجاب، وإنما أحدثك عن مُناظر قصر خطبته

على مناوشتي بأساليب يمجّها الذوق، مع أن المناظرة في كلية الآداب، وبرياسة وزير الشؤون الاجتماعية!

حضر هذا المُناظر وفي قلبه أشياء، فهو لن ينسى أني أفحمته منذ عامين في محاضرة ألقاها بأحد الأندية تأييداً لفكرة وهمية نبتت في بعض خرائب الرءوس، وهو لا يستطيع نشر تلك المحاضرة بأي حال، لأنها من صنوف البهتان

كان الظن أن يتناسى حضرة المناظر تلك المعركة الأدبية، وأن يجعل همه الأول والأخير في شرح الرأي الذي ارتضاه في مناظرة ذلك المساء، ولكنه جعل همه في التحرش بالدكتور زكي مبارك وتأليب الجمهور عليه بطريقة عدّها الحاضرون ضرباً من التحدي الممقوت

ليست المناظرة قتالاً بين شخص وشخص، وإنما هي نضال بين رأي ورأي، وليست المناظرة فرصة للتشفي، وإنما هي فرصة للتصافي

أترك هذا وأذكر أني أعجبت في ذلك المساء بخطبتين مجّدا الفكر والرأي، أحدهما الأستاذ صالح جودت، وثانيهما الأستاذ حسين دياب، ومع أنها جَرَيا في ميدانين متعارضين فقد استطاعا الظفر بالحمد والثناء

قال صالح: إن اعتماد الشعب على الحكومة تحوَّل إلى طمع في الحكومة. وهذه فكرة دقيقة جدًّا

وقال صالح أيضاً: إن الذين يقيمون الحفلات الخيرية لمعونة الفقراء لا يفتحون مغاليق الجيوب إلا بفضل المراقص المسبوقة بأكواب الصهباء

وهذا كلامٌ يجب أن يقال. ولو مرةً واحدة، عساه ينفع بعض الجمعيات

وقال حسين: إن الحكومة هي التي تُسأل عن الإصلاح الاجتماعي، لأن عندها وسائل يعجز عن مثلها الشعب. . . وقال أيضاً: إن يقظة الحكومة لا تغني الشعب عن الاهتمام بما يجب عليه في تدبير أمور المعاش. . . وهذا وذاك من الكلام النفيس

أما لغة المتناظرين فكانت سليمة، بغض النظر عن اللحن المضحك، اللحن الذي تكرر ثم تكرر من الخطيب اللحان، وهو فلان!

أيهون منبر كلية الآداب إلى الحد الذي يسمح بأن يعلوه خطيب لا يعرف الأوليات من قواعد اللغة العربية؟

اتقوا الله يا ناس في منبر كلية الآداب!

ومن ذلك الخطيب؟

سأذكر اسمه يوم يغيّر ما بنفسه بعد قراءة هذا الدرس

سأذكر اسمه يوم يعرف أن المناظر لا يكتفي بالقصاصات من المجلات

إن خطبة عميد كلية الآداب لم تزد عن أربعة أسطر، وهو مع ذلك تلاها تلاوة ليأمن الخطأ في الإعراب، أما فلان فقد فعل بنفسه ما لا يفعل الأعداء

ثم ماذا؟ ثم أعلن معالي الأستاذ عبد الحميد عبد الحق أن رأيه كوزير أن يستزيد الحكومة من المسئوليات. فقلت ومن واجب الشعب أن يتحمل جميع المسئوليات

ثم؟ أسجل خطبتي في (الرسالة) لتُسجَّل في ضمير الزمان، وليعرف من لا يعرف أن للمصريين جذوات فكرية مقبوسة من نار الخلود

أيها السادة:

أحييكم باسم الفكر والرأي، ثم أشكر من تفضلوا فدعوني للاشتراك في هذه المناظرة، فقد هيأوا فرصة جديدة لتوضيح نظرية نفر منها الجمهور حين عرضتها في بعض الجرائد والمجلات وهي النظرية التي تقول بأن الفرد هو الحجر الأول في بناء المجتمع، وبأن الشعب هو المسئول في جميع الأحوال عما يتعرض له من متاعب وصعاب

وسأعرض تلك النظرية في هذا المساء بأسلوب جديد، راجياً أن تراعوا أننا في رحاب كلية الآداب، فلا يثور من تعودوا الثورة على الحق في المناظرات الماضية، وراجياً أن تذكروا أن ما تضيق به صدوركم اليوم قد يصبح من المألوفات بعد حين

أما بعد فمن المسئول عن الإصلاح الاجتماعي: الشعب أم الحكومة؟

في شرح هذه المعضلة أقول:

أنا أقبل إلقاء جميع المسئوليات على الحكومة، إذا صح عندي أن الشعب طفلٌ لا يفرق بين التمرة والجمرة، على نحو ما كانت الحال في طفولة الشعوب

أما اليوم وقد اكتملت قُوى الشعب وتخطى العهود الفطرية فمن الواجب أن يُسأل عن كل شئ، وأن يكون إليه الأمر في جميع الشؤون
وما السبب في إنشاء الحكومات؟
أفترض جان جاك روسُّو أن الخلائق اجتمعت يوماً للتشاور في الصورة التي تصان بها الحياة الاجتماعية، وأن كل فرد تنازل عن جزء من حريته، ليتكون من تلك الأجزاء قوة تحمي المجتمع من عدوان الأقوياء على الضعفاء
وقد آن أن نسترد ما تركنا من حريتنا باسم صيانة المجتمع. آن أن نكرم الإنسانية بأن تُسأل أمام الضمائر لا أمام القوانين، فإن من العار على الإنسانية أن يطول احتياج بنيها إلى حكام يصدونهم عن تقارض الظلم والاضطهاد
كل أمة تحتاج إلى وزارة اسمها وزارة العدل، فما معنى ذلك؟ معناه أن الأمم لم تصل إلى الرقي الصحيح، ومعناه أن بغي الناس بعضهم على بعض خطر يرتقب في كل حين
لا مانع من أن تكون في الدنيا محاكم، على شرط أن لا يُحتكم إليها إلا في القضايا التي تحتاج إلى اجتهاد القضاة، أما القضايا التي يقال فيها أن الحلال والحرام بين فاحتياج الإنسانية فيها إلى القضاة ضرب من الإسفاف
المثال الصحيح للأخلاق السليمة هو أن تعرف ما لك وما عليك، فتحب لأخيك ما تحب لنفسك، وتبغض لأخيك ما تبغض لنفسك، ويكون رأيك في تقدير المشكلات الأجتماعية هو الميزان
قال فلاسفة العرب: (الإنسان مدني بالطبع)، ومعنى هذا أنه يكره التوحد الموحش، ويميل إلى الوداد والإخاء، وكذلك كان حاله بالفعل، لولا بدواة ترده إلى عهود الوحشية من حين إلى أحايين
ويقول التاريخ الاجتماعي: إن الدنيا في عهود الظلومات كان فيها شهود يُستأجرون كما يستأجر الفتاك. وقد انقرض هذا الصنف من الناس أو كاد. وتلك بداية لطيفة، فقد نستغني يوماً عن المحاكم، وقد يصبح كل فرد وهو مسئول أمام الضمير لا أمام القانون
أليس من العيب على الإنسانية أن تحتاج إلى جيوش من القضاة والمحامين في شؤون يحكم فيها الضمير قبل أن يحكم القضاء؟
في بضع مئين من السنين يتحول بعض الحجر إلى مرمر، وقد مرت ألوف وألوف من السنين لم يتحول الإنسان إلى ملك
فبأي وجه تلقى الإنسانية بارئها يوم يقوم الحساب؟
الحكمة اليونانية تقول: اعرف نفسك بنفسك
والحكمة الإسلامية تقول: الإثم ما حاك في صدرك
ونحن مع هذا وذاك لا نسير في الطريق إلا معتمدين على أسندة من رعاية الحكومات. كأننا خلائق تحبو في فجر التاريخ . . !
أقدم أمة أقيمت فيها حكومة هي الأمة المصرية، وكان ذلك من أبواب المجد، يوم كان النظام حلما يداعب خيال الإنسانية
وستكون مصر أول أمة تعيش بلا حكومة، وسيكون ذلك أعظم آيات المجد، لأنه الشاهد على السمو الذي تغنى به الحكماء، جيلاً بعد جيل
نحن سبقنا جميع الشعوب إلى إقامة النظام الحكومي، يوم كان أصلح أداة لكبح الطغيان الفردي والاجتماعي
وسنسبق جميع الشعوب إلى الاستغناء عن النظام الحكومي، لأنه يطعن في قدرة الإنسانية على مغالبة الأهواء
وماضينا في التاريخ القديم يطمعنا في تحقيق هذا الأمل الجميل، فنحن الذين أقمنا النظام الشمسي قبل أن تعرفه أمم المشرق والمغرب. ونحن الذين غزونا بالروح أمماً لم تكن تغزى بغير السيف. وقد وصلت فنون أجدادنا إلى أمريكا قبل أن يكتشفها كولومبوس بأزمان وأزمان. . . ألم تسمعوا أن أمريكا وجدت فيها آثار بها ملامح من الفنون المصرية؟
وتحرش بنا الأوربيون متجمعين عشرات السنين لعهد الحروب الصليبية، فرددناهم على أعقابهم بعد أن زودناهم بأصول المدنية الشرقية، وهي أساس المدنية الغربية

ونحن كنا الحصون التي صدت غارات المغول، ومن قبل ذلك بقرون أوحينا إلى الإسكندر الأكبر أن يتجشم متاعب السفر إلى الواحات ليزور معبداً يجمع بين الرحموت والجبروت، وهو معبد آمون، آمون الذي دخل اسمه جميع اللغات فصار (آمين) التي تقال عقب الدعاء

أرضنا هي الأرض، وسماؤنا هي السماء، ومجدنا هو المجد، وخلودنا هو الخلود

فما الذي يمنع من أن نكون أول أمة تعتز بالقوة الذاتية؟

ما الذي يمنع أن نكون حكام أنفسنا في جميع الشؤون؟

وما الذي يمنع من أن نسبق جميع الأمم إلى فهم الغاية الصحيحة من قوة الروحانية؟

لكل أمة عذر في التخلف، ولا عذر لمصر في التخلف، وهي أقدم حجاز بين الحق والباطل والهدى والضلال

وتاريخنا الحديث لا يقلُّ عظة عن تاريخنا القديم، فقد حيكت حولنا الدسائس الدولية بالألوف، وكانت بلادنا مصطرعاً لأشتات من الجيوش، فهل غُلبنا في الميادين الفكرية، حين غلبنا في الميادين الحربية؟

أين الدولة التي تستطيع أن تزعم أنها نقلت القلب المصري من مكان إلى مكان؟

أين الدولة التي استطاعت أن تصدّ الفكر المصري عن التغلغل في آفاق الشرق؟

لبلادنا خصائص أصيلة أيسرُها القدرة على قهر عوادي الاضمحلال، وكيف تضمحل أرض نجد فيها الماء في كل بقعة، والله جعل من الماء كل شئ حيّ؟

أول كُفر عرفته الخلائق هو كفر المصريين، وأول إيمان عرفته الخلائق هو إيمان المصريين، وأشهر الأفراح أفراح المصريين، وأشهر الأحزان أحزان المصريين

هل عرف تاريخ الجاهلية أعظم من المعابد المصرية؟

وهل عرف التاريخ الإسلامي أروع من المساجد المصرية؟

وهل يوجد للفلاح المصري نظيرٌ في أي أرض؟

وهل يوجد ماءٌ أعذب من ماء النيل؟

وهل عُرفت العظمة في المباني قبل أن تُعرف في هذه البلاد؟

وهل يوجد في الدنيا ناس يفوقون المصريين في حلاوة الشمائل ولطافة الطباع؟

لم يبق إلا أن نتفرد با لابتكار الأخير، وهو الابتكار الذي عجز عنه من اهتدوا إلى البخار والكهرباء، وهذا الابتكار هو الكشف عن الجوانب المستورة من الأرواح والقلوب، الجوانب النقية، ففي قلب كل رجل غابة عذراء لا تغرّد فوق أدواحها غير بلابل الطهر والصفاء

أجمعوا جموعكم، واستعينوا بمفكريكم، لتكشفوا الواحة المجهولة في الضمائر المصرية، فقلبي بأن في هذا الوادي سرائر مطوية تفوق الأحجار التي يشق في البحث عنها علماء الحفريات!

أنفقوا في البحث عن الضمائر الحية معشار ما تنفقون في البحث عن الأحجار الميتة، واعلموا أن مصر لن تموت، لأنها مؤيدة بروح الحق الذي لا يموت

أين التي عرفناها أو جهلناها، وأين مكانها الأصيل في تاريخ الوجود؟

ستكون أول أمة تعيش بلا حكومة، لتقيم البرهان على أنها فوق الشبهات والأضاليل

قد تقولون: إن واقع الحياة لا يعرف هذا الخيال. . . وأقول: إن الأمر في هذه الأيام ما تقولون، فلو عاشت الأمة بلا حكومة أسبوعاً أو أسبوعين لانتشرت الفوضى وعمّ الاضطراب وشاع الفساد

ولكني مع هذا أجزم بأن الحكومة لا تستطيع بأي حال رعاية أمة فقيرة في نواحي التماسك الذاتي والاجتماعي، فخضوع الأمم للشرائع والقوانين لا يكون خضوعاً شريفاً إلا إن صدر عن إرادة ذاتية مردّها إلى أدب الأحرار لا أدب العبيد

ونحن في مصر نفهم هذه المعاني، فوزير المعارف يعتمد على ضمائر المدرسين، ووزير العدل يعتمد على إيمان الناس بأدب المعاملات، وكذلك يقال في الأمور التي يعالجها سائر الوزراء

قد سمعتم أو قرأتم أن وزارة الوقاية وزارة وقتية تنتهي مهمتها بانتهاء الحرب، فما المستقبل الذي ينتظر وزارة الشؤون الاجتماعية؟ أنا أقدِّر أن مهمتها ستنتهي بعد أمدٍ قريب، يوم يفهم الشعب واجبه في الإصلاح الاجتماعي، ويوم يدرك أن احتياجه إلى عون الحكومة في تلك الشؤون ضربٌ من الفقر في الروح والوجدان

وهذا المستقبل لن يكون بعيداً كما نتخوف، فالشواهد تنطق بأن ضمير الأمة سيستيقظ بعد طول السبات، ولعله استيقظ بالفعل. ألا ترون أن الأمة تتسامى إلى أمور كانت قبل اليوم من تهويل الخيال؟

قبل أن تشب الحرب ويغلو الورق كان متوسط ما تخرج المطابع المصرية في كل يوم أثنى عشر مجلداً، وكان لصحافتنا المقام الثالث بعد الصحافة الإنجليزية والأمريكية، وكنا أول أمم الشرق في إحياء الذخائر العربية والإسلامية، وسيكون لنا بعد الحرب ميادين يعتز بها العقل والبيان

ومعنى هذا أن يقظة الذكاء المصري يقظة حقيقية، وأن تحليقاتنا في سموات الفكر والرأي لم تكن أضغاث أحلام، فكيف تستبعدون أن يستيقظ الضمير المصري فيغني الحكومة عن التعب في مداواة الأمراض الفردية والاجتماعية؟

إن تعادل الضمير والذكاء في مصر فستصبح الأمة المصرية أمة نموذجية، وستبدع في الأدب النفسي آيات لا نظائر لها ولا أمثال

إن أفضل الفروض في وصف الصلة بين الحاكمين والمحكومين هي أن تشبَّه بالصلة بين

الآباء والأبناء، فهل سمعتم أن أباً يحب أن يكون ابنه عالة عليه في جميع الشئون!

ونحن اليوم في مطلع حياة جديدة، ولا بد لنا من رياضة أنفسنا على الاضطلاع بحمل جميع الأعباء

وسنجاهد ونجاهد إلى أن تشعر الحكومة أنها تعيش في أمة مثالية لا تحتاج إلى حكام في أي ميدان

سنجاهد ونجاهد إلى أن تغلق المحاكم بفضل اعتماد الشعب على الاحتكام إلى الضمائر والقلوب

لن يطول صبر الإنسانية على هذه الحياة الوضعية، وهي الحياة التي لا ينزجر فيها منزجر إلا خوفاً من سطوة القضاء

إن الاستقامة السليمة هي التي تنبعث من النفس، كما يستقيم العود حين تكتمل قواه، أما الاستقامة التي توجبها قوى خارجية فهي استقامة العود الذي يُستر ضعفه بأسندة من الجريد، وهكذا حال الأخلاق التي لا تستقيم إلا بأسندة من القانون

إن الجوارح الروحية تعطلت بسبب الاعتماد على الحكومة في مختلف الشؤون، وإن المواهب النفسية تهدمت بسبب التفريط في رياضتها على النفاذ والمضاء

الأمم الضعيفة تكل أمورها إلى الحكومات لتستريح من الجهاد، وأما الأمم القوية فتنهض بأحمالها الثقال لتتشرف بالجهاد

وآفة الاعتماد على الحكومة آفة مخوفة على الأمة المصرية، ويجب النص على هذه الآفة بذكر بعض الشواهد، عسانا نزهد فيما استمرأناه من التواكل البغيض

التعليم كله ملقىً على كاهل الحكومة، وما فكر فرد أو جماعة في إنشاء مدرسة إلا على نية التبعية لوزارة المعارف، بأي صورة من صور التبعية

وقد نهضت الأمة فأنشأت الجامعة، ولكن النهوض ثقل عليها فأسلمتها إلى الحكومة!

وأنشأت الجمعية الخيرية الإسلامية بضع مدارس، ثم أسلمتها إلى الحكومة

ومنذ أعوام تعرضت مدرسة الأقباط بالقاهرة لمتاعب مالية، فخذلها أعيان الأقباط ولم ينجدها غير الحكومة

فما الفقر المدقع في العزائم والنفوس؟

أتكون أحوال التعليم كهذه الأحوال في البلاد الإنجليزية والأمريكية؟

وكيف والتعليم في تلك البلاد ترجع أكثر شؤونه إلى هيئات مستقلة عن الحكومة كل الاستقلال أو بعض الاستقلال؟

واعتمادنا على الحكومة ظهر بصورة بشعة يوم خيف على (بنك مصر) من زعازع الحرب، فالحكومة هي التي تقدمت لحماية البنك، وبذلك ضاعت فرصة على أغنياء الأمة، وأي فرصة؟

لقد كان في مقدور الأغنياء أن يتعاونوا على رعاية تلك المؤسسة القومية، وهي رعاية مضمونة الربح، وكان من المؤكد أن تدر عليهم الخيرات في أعوم الحرب، ولكنهم تهاونوا تهاون العاجزين عن إدراك ما ينتظر من المنافع، وتركوا الحكومة تدبر الأمر كما تريد

وآفة الاعتماد على الحكومة زلزلت الثقة بالكفاية الفردي، وهل يتهالك المتعلمون على وظائف الحكومة إلا ليقال إنهم وصلوا إلى شئ في بلد الوظيفة كل شئ؟
كل ما رأيناه من هذه النواحي أهون من الناحية التي تساق في مناظرة هذا المساء، فان ناساً يرجون أن تنوب الحكومة عن الأمة في الإصلاح الاجتماعي. وقد يرجون غداً أو بعد غد ان توزع الإصلاحات الاجتماعية والفردية في بطاقات؛ وقد يرجون أيضاً أن تنوب الحكومة عنهم في اختيار ألوان الطعام والشراب!
الأساس الذي أراه لبناء المستقبل أن تكون روح الشعب وروح الحكومة ممثلة في كل فرد، فيكون الرجل حاكما ومحكوماً في آن، حاكما لهواه ومحكوماً لنهاه، ثم تتلاقى قوى الأفراد كما تتلاقى القطرات الطاهرة من الغيوث فتخلق نهراً في مثل عظمة النيل
أنا أنتظر اليوم الذي يقال فيه على سبيل التفكه بحوادث التاريخ: كان في الدنيا حكومات وبرلمانات، وكانت الدنيا في بعض العهود ميادين قتال بين الآراء والأهواء
فإن لم نر ذلك اليوم، وهو في رأيي قريب، فلنخلقه في صدورنا، ولنكن رجالاً يستفتون ضمائرهم في جميع الشؤون، لا يخافون الناس، لأن النزاهة الروحية تخلق الأمان والأطمئنان، ولأن الصدق يحمي صاحبه من عدوان الباغين والظالمين.
وسبحان من لو شاء لحقق هذا الرجاء.
زكي مبارك

قلمي!!

للأستاذ (د. خ)

إلىّ إلىّ يا قلمي فاكتب صلاتي وخُطَّ نُسُكي!
إن غِناءَك القديم يُفعم قلبي بذكريات الجمال والحب، فاصدحْ، كعهدك، ورقرق أناشيدك،
وأسكبْ في روحيَ الظامئةِ أغاريدك!
طالما غَنّيتَ يا قلمي الحبيب فأصْغَتِ السماء، وتهلل البدر، ورقصت الملائكة، واهتز الورد. . . فماذا أصابك؟
هات يا قلمي كأسَ بيانك نشرْبها على ذِكَرِ الماضي الجميل الفِضّيّ الذي غدا أحلاماً كالحمائم البيض، ترد ظِماءً وتصدُر ظماءً، فأين ماؤك؟
هل حقٌّ أن جنَّك أوشكت أن تُصَوّح، وأن يَنبوعك كاد أن يغيض؟ إذن فأين أنتَ في هذه
الدنيا الصّاخبة التي تُدَوّي في المشرقين، وتضطرب في المغربيْن، وأنت مُنْطَوٍ على نفسك، عاكفٌ على أحزانك، سادرٌ في آلامك، يُشجيك أن أعز الإخوان عليك قد هجرك، وأن مرضاً ألم بصاحبك فقطعه عن الدنيا قد كدّر عليك صفو الحياة، وأن المروءة والوفاء قد ذهبا أدراج الرياح، فلم يكتب إليك حبيب، ولم يحن إلى لقائك إلف، وألم يُسْلِكَ في وحدتك الموحِشةِ مواس!!
لله يا قلمي ما أبدعت لأحبّائك من جناتٍ، وما فجّرتَ في جنّاتك من عيون، وما جعلت فيهن من حور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون!
ألم تصور لهم شباباً لا يعرف الهرم، وجمالاً لا تمتد إليه يد الدبول؟
ألم تلهب أفئِدتهم بالحرارة التي أشَعْتَها في كلماتك، والأحرف العاشقة التي نفثتَها من شبَاتك؟
ألم تُجوِّد لهم ألحاناً أرْويت بها نفوسهم الصادية، وأسكنتهم منها في قصور عالية، من نور
وبَلُّور؟
ألم تُبدع لهم طوبى من وَرْد وريحان، وبهار وسُوسَان، فمنحتهم دمك، وخعلت على شيخوختهم شبابك، وأعْشَيتَ بطول السهر من أجلهم عينيك، وجلبْتَ على صاحبك العناء ليستريحوا، والشقاء لينعموا، والمرض ليصحوا. . . وأنت مع ذاك متنفّسي الذي لا أعرف
أن أشكوَ إلا إليك. . . ولا أستمد العَوْن إلا منك، ولا أفرّج الكربة عن صدري إلا بك، ولا أستروح الحياة إلا في ظلك، ولا أجلو صدأها إلا بشدوك، ولا أنير حلكتها إلا بنور إيمانكَ، حتى تَنقشعَ ظلماتُها بما ترقرق فيها من ضوء بيانك، وتنجاب غياهُبها بفيضٍ من لآلاءِ

عرفانك!!
لماذا صمتّ هكذا يا قلمي الحبيب؟ ألست تُحسِن أن تغنّي مع هذه الأقلام التي تملاء الوادي دَوِيّا؟ ألست تُجيد أن تنبت الزهر يانعاً في قلوب العذاري؟ ألست تستطيع أن ترقرق الدمع في عيون المحبين؟ ألست تقدر أن تسكب في قلوبهم رضى ورحمة؟ ألا يسعك أن تَشْدُوَ في هدأة الليل النائم فتلين أفئدة وتتسلى أفئدة! هل هكذا تنسى أَودَّاءَكَ المكلومين والمحزونين؟ تخاف عليّ؟ لماذا؟ لأن الأطباء آثروا عافيتك؟ وأي أديب لا تساقط نفسه من قلمه أنْفُساً؟ تُرْ على الطب يا قلمي جعلت فداءك!! إن الذي يقتلني هو هذا الصمت وذاك السكون!! ما قيمة الحياة التي تنقضي في مثل العزلة الرخيصة والركود الآسن؟! لقد مللتُ من طول ما قرأتُ فلا تجعلني أنانياً! لماذا أعيش في سجن هذه الوحدة لنفسي فقط، فلا يكاد الوجود يحس بي؟ لماذا آخذ ولا أعطي؟ لماذا جمدت الدموع في عينيّ، والرحمة في قلبي، والشعر في روحي، فلست أبكي في هذه الزحمة من البكاء والآلام والدم؟ أبأمر الأطباء تصمت عامين طويلين يا قلمي الحبيب؟ هل انتفعت إذن بهذا الصمت الطويل؟ هل رد جمودك برد الشباب على جسمي المحطم؟ هل أسا العلة تخلّفك عن موكب الحياة؟ تصمت عامين كاملين في أحفل حقبة من عمر الإنسانية، وخلال مأساتها الدامية: ألا ما أرخص الحياة التي يبقى عليها أطباءك، وما أحبّ إليَّ أن تتخذ من ذمائها مداداً يكفي لكتابة سطر في سجل محنتها!
منعك أطباءك من إدمان السهر، فهل نمت؟ وحظروا عليك طول الإكباب على الكتب فهل
سلوت؟ وقالوا لك أرح ذهنك فهل منعوا أطياف المعرفة من الإلمام به؟ لشد ما ضحكوا عليك ولهو بك يا قلمي الحبيب! ولشد ما أضحكوا عليك هوميروس وإسخيلوس وصحبهما الآخرين!!
أستيقظ إذن!
فتح أكمام الورد آماق النرجس وحدق البنفسج، وأرو روح الحديقة الظامئ مما عندك من
أمواه الغزل والحب والجمال!
أستيقظ إذن وأطلق بلابلك تخفف من أشجان العذارى بالتسجيع والترجيع، وتملأ الدنيا غناءً وموسيقياً!
تطمع أن تعيش عمراً طويلاً راكداً هكذا؟ إذن ما فائدة هذا العمر الطويل الذي لا يصلك
فيه بالعالم شئ؟ ما قيمة هذا الظلام الذي لا يتألق فيه نجم؟ ما أشبه خطأ الأطباء في هذا بالغلطة التي وقعت فيها أورورا!! هل تذكر أورورا؟ هل تذكر ربه الفجر ذات الأنامل الوردية؟ هل تذكر حينما أحبَّت الفتى تيتون حبًّا دلَّه فؤادها وأرق نومها وسعّر أنفاسها وجعلها تخر تحت أقدام الآلهة في أولمب طالبةً له الخلود، فلما أوتيت سؤلها وفرحت به، وراحت تحتسي وإياه أفاويق الغرام أياماً. . ذكرت أن تيتون من بني الموتى. . . وانه لا بد أن تدركه الشيخوخة يوماً ما. . . ثم كان ما خافت أورورا أن يكون. . . وشرع الشيب ينبت إبره في راس فتاها الحبيب. . . فلما تنهدت. . . و. . . صبرت! لكن الوجه الجميل المشرق، والفم الرقيق الباسم، والجسم القوى السامق، والأذرع الملفوفة العاتية، والنفس المتدفقة الحارة. . . و. . . والشباب الفينان الذي كانت تلف حوله ألصبوات والأماني. . . كل ذلك أخذ يخبو ويخمد، ويتغير ويتبدل، حتى أمسى تيتون كومة من الحطام. . . والذكريات!! فزهدته أورورا وعافته، بعد ما أسفت على أنها لم تسأل له الآلهة مع ذلك الخلود الذي لانهاية له، شباباً لا آخر له. . . ولما ضاقت به، تمنت على الآلهة الأماني فمسخته!. . . وهكذا كانت خاتمة تيتون!
فهل تريد لي عمراً طويلا كعمر تيتون يا قلمي الحبيب؟ لشدَّ ما يفزعني ذلك! لشدَّ ما تفزعني هذه الشيخوخة التي يثقل فيها الأب على الأبناء، ودبيب القدم المتهالك على أديم الغبراء! إطو عشرين حجة في غيابه المستقبل ثم ابحث عن بريق عينيك تجد فيهما ظلاماً، وعن تألق وجنتيك تر فوقهما قتاماً، وعن آمال الفؤاد تجدها ملئه آلاماً!!
انفذ يا قلمي إلى حديقة الحياة فوسوس في آذان الورد، واطبع القبَل فوق أجياد الزنبق،

وانفث السحر في صفحة الغدير، وسقسق مع البلابل لتسلى المنْبوذين، وغنِّ فالقافلة قد جدَّ بها المسير!

حذار يا قلمي الحبيب أن تكون متجهماً للحياة أو ناقماً على الناس، فأنت هنا لتبدع شيئاً جميلاً في هذه الدنيا، أو لتكمل نقصاً من كثير من أوجه النقص التي تعيبها. . . وماذا تنقم من الناس؟ ولماذا لا تنال شرفك بأن تكون خادمهم المتواضع؟ ألست ترى إلى هذه الأقلام المتهافتة التي تنفث السم في أخلاق ذويك؟ ألست تراها كيف تغازل الشهوات النائمة، والعواطف الرخيصة، والألباب الشاردة، والقلوب الضالة؛ تفتنها بالأدب المخنث، وتهيجها بالأسلوب الماجن، وتمزق حياءها بالغرام الذي لا يخجل، والفسوق الذي لا يرعوي، والرذيلة التي جثمت على صدر فرنسا فأوهت بنيانها وزلزلت أركانها وأسلمتها للهوان والخذلان!. . . يكتبون للشرق عن غادات بلزاك، وقيان شاتوبريان، والعبد الأسود الذي تَسَوَّرَ إلى شهرزاد في فحمه الليل ليطفئ ما في قلبها ولتطفئ ما في قلبه. . .!! يا للهول!! ماذا يكتب هؤلاء الضالون لهذا الوطن المنكوب بهم؟! متى كانت مصر في حاجة إلى فولاذ ينصب في أخلاق بنيها كما هي اليوم، بدلاً من هذا السم الذي تتجرعه ولا تكاد تسيغه؟. . . وأنت مع ذاك يا قلمي تغط في سباتك العميق لا توقظك أحداث الزمن، ولا تدميك صرخة الإنسانية، ولا يُفزعك أنين السماء، ولا يُشجيك بكاء الملائكة، ولا يُروِّعك أن يأكل الإنسان لحم أخيه الإنسان! لقد انتهت الإنسانية إلى المأساة التي أفزعت أفلاطون وأوحت إليه أحلام الطوبى، وروَّعت توماس مور ووسوست إليه برُؤى الفردوس. . . الفردوس الجميل الشعري الذي يلهم المفكرين ويغازل ألباب المصلحين!! لماذا تغمض هكذا أيها القلم كما يغمض الطفل المفزوع يرى المنظر المروّع فيطير له لبه، وينخلع له قلبه، وتطير نفسه شعاعاً؟ ألا يجد يداً عطوفاً فتنقذه، ولا نجدة من السماء فتباعد بينه وبين ما يرى؟!

أَلا لقد أصبحت خشيتك الأطباء تعلة، هي أقسى على صاحبك من العلة؛ وصار خوفك على صحته من الداء، داء أشق على روحه من جميع الأدواء. . . وها أنتذا قد أصابك الصمم، وجرَّ عليك سكوتك البكم، فلست تتوجع لأبناء وارسو، ولا يضنيك أن يحصد الموت شعب روتردام، ولا يهمك أن تنشق الأرض تحت كوفنتري، ولا أن تبيد ستالينجراد، ولا أن يبلع اليم جواريه؛ ولست ترثي لعذارى كييف، ولا يفزعك ما أنزله المثأورون بكولون. . . ثم ها هي ذي اليونان العزيزة، هيلاس الخالدة، جنة الأولمب وفردوس الخالدين. . . اليونان التي حَبَسّتُك عليها طويلاً يا قلمي، فعلمتك الجمال وألهمتك الفن وجرى منها في عودك ماء الحب. . . اليونان التي وهبَتْك أحلامها واستودعتك أسرارها وتفيأت تحت شباتك ظلالها. . . هل ذكرتها في تلك المحنة الظالمة التي لطمت فيها قفا المتشدق، وهزمت جيوش باعة الإسفنج، حتى أتاها الهون فأضاعوا شجاعتها بكثرة العَدد، وطفوْا فيها على مارسْ بالعُدد، فأذلوا الأولمب، ودنسوا رحاب زيوس، ونشروا سمادير الكآبة على جبين مينرفا، وأطاشوا سهام كيوبيد، وفجروا الدمع من عيني فينوس!!

أما تزال تبكي يا قلمي الحبيب؟! أما تزال تؤثر الصمت إشفاقاً على صاحبك، ورثاء لأخيك؛ إذن. . . فإليك البشرى التي تأسو علتك، وتمسح عَبْرتك، وترد عليك ما فاتك من شباب. . . ها هو ذا صاحبك يتفيأ ظل الجنة التي تحوطه فيها القلوب الحبيبة. . . القلوب التي تطب له ما لم يطب الأساة النُّطس، وتعالجه في جنباتها الأرواح الطاهرة التي سلمت من كل رجس، فهي لصاحبك من علته شفاء.

(د. خ)

إلى الأب أنستاس ماري الكرملي

!لا. . . بل النحاة واللغويون ثقات

للأستاذ عبد الحميد عنتر

(تتمة ما نشر في العدد الماضي)

القسم الرابع

فعلول (المفتوح الأول)

1 - جاء في (الرسالة) بالعدد (504) بين قوسين هكذا (المفعول الأول)، بعد لفظ (فَعْلول) ولعله تحريف، وصوابه (المفتوح الأول).

2 - أثبت الأب هنا قول اللغويين: إنه لم يجئ على زنة (فَعلول) إلا لفظ (صَعفوق) وهو اللئيم من الرجال، أو بلدة باليمامة؛ ثم أخذ ينفخ في بوق (توت عنخ أمون الحربي) حتى أثارها حرباً شعواء، أشنَّها على جميع اللغويين: القدامى منهم والمحدثين، قائلاً: لقد فحصت ونقبت، وحققت ودققت، فإذا الكلمات التي جاءت على هذا الوزن تبلغ الثلاثين أو تزيد، وإذن فيجب نقض القاعدة القائلة: (ليس لفعلول في اللغة سوى حرف أو حرفين) وتذريتها في الهواء هباء منثوراً. انتهى كلامه ببعض تصرف.

قلت (وهو ختام القول): إن الذي قاله اللغويون وتبعهم النحاة صحيح مستقيم، وإن القاعدة التي أسسوها متينة سليمة.

وإيفاء بما وعدت من الإنجاز أجمل ردي فيما يلي:

1 - إن ال 29 حرفاً التي زادها الأدب على كلمة (صعفوق) موزعة كما يأتي:

(بعضها) لضرب من الكمأة (صعقول) وهو بطريق الاستنتاج , منكر لم يثبت إلا!

(وبعضها) روى بالضم والفتح، ولكن الضم أفصح وأشهر. من ذلك: عُصفور ودسُتور وبرُغوث وخرنوب (الخروب) وبرشوم (أبكر النخل بالبصرة)

(وبعضها) على وزنه (فَعَلول) بفتحتين، وهو (قَربَوس)، وسكون الراء لغة ضعيفة.

(وبعضها) على زنه (فَعْلون) لا (فعلولّ!) ومنه: حمدون وسعدون وخلدون، والضم في هذا أفصح، وعبدون، ويكثر هذا الوزن في الأعلام الشخصية.

2 - عجبت كل العجب كيف يذكر الأب حمدون وما على شاكلته، ممثلاً به لما جاء على (فَعلول)، مع أن قواعد الميزان الصرفي تأبى ذلك كل الأباء.

وإنما هي على زنة (فعلون) كما بنيت، وكما هو مسطور في كتب التصريف!!

3 - أتحدى (الأب) أن يأتي بكلمة واحدة، عربية أو معربة، جاءت على وزن (فَعْلول) بفتح فسكون باتفاق علماء اللغة غير صَعْفوق المعرب من اليونانية كما قيل. إن فعل ذلك كنت به من الشاكرين.

4 - كثرة ممارستي لتدريس (علم الصرف) تسمح لي بأن أستنتج السر في امتناع العرب من النطق بألفاظ على زنة (فَعْلول) استقلالاً.

وبيان ذلك، أن العرب أكثرت من استعمال الألفاظ التي على وزن (فَعْلول) بضم الأول، أصيلة ومعربة، كالشمروخ (فرع العِذق)، والأُتكول والعتُكول (كلاهما بمعنى الشمروخ، والعنقُود والعصفور والدّستور، وغيرها كثير في اللغة، ولم تستعمل على زنة فَعْلول إلا صعفوق المعرب، ومع ذلك روى فيه ضم الأول وإن كان ضعيفاً. والسر في هذا خفة الانتقال من ضم إلى ضم بينهما سكون. فالضم في الأول يناسب الواو قبل الطرف. وأما بناء (فَعْلول) الذي كلامنا فيه، فأوله مفتوح. والفتحة لا تناسب الواو التي هي بنت الضمة، ففيه الانتقال من الفتح، وهو خفيف، إلى الضم وهو ثقيل، ولم يحفل العرب بالسكون المتوسط الذي يخفف أمر الثقل؛ لأن الضم بعده سكون ثم ضم، أسلس في لسانهم من فتح بعده سكون ثم ضم؛ لذلك كان فتح الأول في الكلمات التي ورد فيها الضم لغة ضعيفة متروكة. وهذا تعليل لما اقتضاه ذوق العرب آمل أن يكون صحيحاً.

وبعد، فقد أثبت البحث اللغوي، أن النحاة واللغويين، كانوا على يقين لا يخالجه شك، حين قالوا: (ليس في اللغة اسم على وزن فعلول غير (صعفوق) وقد انعقد الاجتماع على أنه معرب دخيل! وإن فليس للأب أنستاس، ولا لغيره من أرباب البحوث اللغوية بعد هذا البيان - أن يرفع عقيرته فوق المنبر الأدبي العلمي العالمي منبر (الرسالة) بقوله: (لماذا لا أثق بأقوال النحاة ولا اللغويين) بل الأجدر به والأليق بمنزلته أن يقول: إن اللغويين والنحاة، أعلام أثبات ثقات

وأقول أخيراً: إني لا أجد مثلاً للنحاة واللغويين مع الأب أنستاس، إلا قول من قال:

أوردها سعد وسعد مشتمل ... ما هكذا يا سعد تورد الإبل

وقول الآخر:

أعلمه الرماية كل يوم ... فلما اشتد ساعده رماني

وكم علمته نظم القوافي ... فلما قال قافية هجاني

جّملنا الله بحلية الأدب، وجنبنا مواقع الخطل والزلل، بمنه وكرمه.

عبد الحميد عنتر
أستاذ بكلية اللغة العربية
للذكرى والتاريخ
طيبة تستقبل فرعون مصر
للكاتب الفرنسي تيوفيل جوتييه
في كتابه قصة المومياء (إلى جانب المصريين نحن حقاً
برابرة)
تيوفيل جوتييه
للأستاذ أحمد أحمد بدوي
- 2 -
بالقرب من سلسلة جبال ليبيا يقع حي ممنون الذي يسكنه من يهيئون حاجات الموت، لأن عمله لا ينقطع أبداً، وعبثاً تنتشر الحياة بضوضائها، فالعصائب تجهز، والتوابيت تغطى بالنقوش الهيروغولوفية، وبعض الأجداث الباردة ممتد على سرير الموت ذي القوائم التي تحاكي أرجل الأسد أو ابن آوى وينتظر أن يزين الزينة الأبدية. ولدى الأفق الجبال الليبية تتضح قممها الجيرية فوق صفحة السماء النقية، ويبدو جسمها الأجرد الذي نحتت فيه النواميس والقبور.

وعندما يتجه المرء ببصره إلى الجانب الآخر من النهر لا يجد المنظر أقل من ذلك جمالاً: فأشعة الشمس تكسو باللون الوردي سفح سلسلة جبال العرب، والهيكل الضخم الهائل لقصر الشمال استطاع البعد أن يصغره قليلاً، وقد نهضت أبراجه من الجرانيت، وأعمدته الهائلة فوق منازل المدينة؛ وأمام القصر تمتد ساحة فسيحة تسلم إلى النهر بسلمين على الجانبين، وفي الوسط طريق الكباش يقود إلى برج ضخم، يسبقه تمثالان هائلان وزوج من المسلات العالية يقطع رأساهما الهرميان زرقة السماء الصافية.

وإلى الخلف من أعلى حائط السور يبدو جانب معبد آمون، وإلى اليمين قليلاً ينهض معبد (خنسو) ومعبد (أفت) ويرى وجه برج ضخم، ومسلتان طولهما ستون ذراعاً تبينان مبدأ هذا الممشى الهائل، ذي الألف من التماثيل التي جسمها جسم أسد ورأسها رأس كبش،

ويمتد هذا الممشى من قصر الشمال إلى قصر الجنوب، وعلى جانبيه نرى هذه التماثيل الكبيرة مستديرة النيل

وبعيداً من ذلك يتراءى غير واضح في الأشعة الوردية أفاريز عليها قرص الشمس الساحر ناشراً جناحيه الواسعين، ورءوس التماثيل الضخمة ذات الهيئة ألوادعة، وزوايا الصروح العالية، والطنوف المنضدة، ومسلات من الجرانيت، ومجموعات من النخيل يتفتح سعفها كأنه باقات من العشب، وقصر الجنوب قد زها بحيطانه العالية الملونة، وسوارية المزينة بالأعلام، وأبوابه المائلة ومسلاته، وقطعان أبي هوله؛ وفضلاً عن هذا كلما امتد الطرف استطاع أن يرى طيبة تمتد بقصورها وكليات كهنتها ومنازلها، ويجد خطوطاً زرقاء ضعيفة، تِشير في نهايات الأفق إلى قمم الأسوار ورءوس الأبواب.

كان ميدان العرض شاسعاً قد مهد بعناية لإبداء العظمة العسكرية، وبه أطوره يجب أن تكون قد استخدم فيها طيلة سنوات عديدة عشرات الأجناس التي قيدت إلى مصر مستعبدة؛ وهذه الأسطورة تكون إطاراً بارزاً لهذا المستطيل العظيم، وخلفها حيطان من اللبن مصنوعة بانحناء، ويقف عليها، على ارتفاعات متفاوتة مئات الآلاف من المصريين الذين يظلون في اضطراب دائم، هذا الاضطراب الذي يميز الجمهور، حتى حين يبدو أنه لا يتحرك، وتلمع في الشمس ملابسهم البيضاء أو المزخرفة بألوان ناصعة.

وخلف هذا النطاق من النظارة تجد العجلات والعربات والهوادج، يحرسها الحوذيون والسائقون والعبيد ولها منظر شعب راجل، فقد كان عددها عظيما جداً، وإن طيبة عجيبة العالم القديم كان بها من السكان ما يربي على بعض الممالك

وكان الرمل المجتمع الدقيق للميدان الواسع المحاط بمليون رأس، يلمع كأنه معدن براق تحت ضوء يسقط من سماء زرقاء، كأنها مينا تماثيل أوزيريس

إلى الجانب الجنوبي من ميدان العرض ينقطع البناء، وينفتح طريق محاذ لسلسة جبال

ليبيا، ويمتد إلى بلاد النوبة العليا، وفي الجهة المقابلة ينشق الجدار، ويسمح للطريق أن يستمر حتى قصور رمسيس، عابراً بين الحيطان الضخمة
سمعت من بعيد ضجة عجيبة مبهمة قوية، كضجة البحر، حين يقترب، وغلبت ضوضاء الجماهير. وهكذا يصمت زئير الأسد مواء جماعات ابن آوى. وبعدئذ أخذت تتميز أصوات
الآلات من بين هذه العاصفة الأرضية التي أثارتها عربات الحرب والمشية المتزنة للرجال من المحاربين؛ وقد ملأ هذه الناحية من السماء غبار مصفر كهذا الذي تثيره ريا ح الصحراء؛ ومع ذلك كان الجو راكداً فلم تكن تهب نسمة واحدة؛ وأدقُّ سعف النخل ظل ساكناً لا يتحرك، كما لو كان منحوتاً من الجرانيت على رؤوس أعمدة من الصخر؛ ولم ترتعش على الخدود الندية للسيدات شعرة واحدة، والعصائب المزخرفة التي زينهن بها الحلاقون تمتد متكاسلة خلف ظهورهن
هذا الغبار الناعم قد أثاره الجيش وصار فوقه كسحاب أشقر زادت الضوضاء، وانشقت عاصفة الغبار، وبدأت الصفوف الأولى من الموسيقيين تبدو في الميدان الواسع لتنعش الجمهور الذي بدأ من الانتظار تحت شمس تذيب الجماجم إلا جماجم المصريين
وقفت طليعة الجيش من الموسيقيين بضع لحظات، وأخذ جماعات القسس والمنتخبون من أعيان مدينة طيبة يعبرون ميدان العرض ليستقبلوا فرعون، واصطفوا على هيئة سياج، عليهم أعظم مظاهر الاحترام، وتركوا الطريق حرّاً لمرور الموكب
لقد كانت الموسيقى التي تستطيع وحدها أن تكوِّن جيشاً صغيراً، تتألف من الطبول والطنابير والأبواق والصلاصل
مرت الفرقة الأولى تغني لحناً مدوياً هاتفاً بالنصر، في أبواق قصيرة من النحاس اللامع كأنه الذهب، وكل واحد من الموسيقيين يحمل نفيراً آخر تحت إبطه، فكأنه الآلة هي التي تتعب لا الرجل
كان زي هؤلاء الجند مكوناً من نوع من السراويل قصيرة، مضمومة بمنطقة طرفاها العريضان يتدليان إلى الأمام، ومن عصابة غرس فيها ريشتان من ريش النعام، مختلفتا الاتجاه، وهذه العصابة تضم شعرهم الثقيل ووضع الريش كذلك يذكرنا بقرون الجعارين، ويمنح الذين يتزيون بها منظراً غريباً كالحشرات
وضاربوا الطبول يلبسون دروعاً مثناه فحسب، ويضربون بقضيب من خشب الجميز جلد حمر الوحش لطبولهم المعلقة بحمالات من الجلد، متبعين النسق الذي يعينه رئيس لهم يضرب بكفَّيه وكثيراً ما يتجه إليهم
تأتي بعد ضاربي الطبول اللاعبون بالصلاصل، هؤلاء يهزون آلاتهم بحركات عنيفة منقطعة، ويدقون في نظام حلقاتهم المعدنية على قضب أربعة من البرنز.
وحاملو الطنابير يعرضون أمامهم طنابيرهم المستطيلة والمحمولة بعصابة خلف أعناقهم، ويدقون عليها بقوة بمقابض أيديهم
كل جماعة من الموسيقيين ليست بأقل من مائتي رجل، ولكن عاصفة الضوضاء التي تنتج من الأبواق والطبول والصلاصل والطنابير ليست بذات خطر، ولا هي مخيفة تحت قبة السماء الواسعة، وفي وسط هذا الفضاء الشاسع، وبين طنين هذا الشعب، وعلى رأس جيش يتقدم وله عجيج المياه الثجاجة
وهل كثير أن يتقدم ثمانمائة من الموسيقيين ركب فرعون، محبوب آمون - رع، والذي أقيمت له التماثيل الضخمة من البازلت والجرانيت ترتفع إلى ستين ذراعاً، وقد نقش اسمه على الآثار الخالدة، ونحت تاريخه وصور على حيطان ردهات المعابد ذات الأعمدة، وعلى جدران الأبراج، والأفاريز التي تنتهي، وصوراً لا حصر لها؟ أيكون كثيراً على ملك قابض على ناصية مائة شعب مغلوب؟ على حاكم يؤدب الممالك بسوطه من أعلى عرشه؟ على شمس حية تبهر الأعين وتزيغها؟
(البقية في العدد القادم)
أحمد أحمد بدوي
مدرس بحلوان الثانوية للبنين
من معارج الروح
!نحن؟
نَسَخَتْنِي رُوحِكِ السَّمْحَةُ شِعْراً وَمُنَى

وَشَدَتْ بي في الْمَحَارِيبِ صَلاَةً وَغِناً
ثمَّ نَدَّتْ أفقَ الرُّوحِ جَلاَلاً وَسَنا
!أَنْتِ يَا دُنْيَايَ مَنْ أَنْتِ؟ وَآهاً! مَنْ أَنَا
أَنَا فِكْرٌ عَاشَ في ظِلِّكِ فَناً سَامِيَا
أَنَا طَيْفٌ رَفَّ في وَادِيكِ مَعْنىً شَاكِيَا
أَنَا نَايٌ ذَابَ في قُدسِكِ لَحْناً شَادِياً
أَنَا رُوحٌ طَارَ في الْحُبِّ فَرَاشاً صَادِياً
أَنَا هَذَا، مَرَّةً أُخْرَى، فَمَنْ أَنْتِ إِذَنْ؟
أَنْتِ مَنْ تَسْمُو وَتَسْتَعْلِي عَلَى فِكْرِ الزَّمَنْ
!أَنْتِ مَنْ طَهَّرْتِ مِحْرَابي بِأَقْبَاسِ الْفِتَنْ
أَنْتِ مَنْ فَجَّرْتِ عُودِي في سَمَوَاتِكِ فَنْ
!ثُمَ مَنْ نَحْنُ جَمِيعاً؟ نَحْنُ خَمَّارٌ وَشَرْبُ
نحن مَسْحُورَانِ يَا دُنْيَايَ: عَيْنَانِ وَقَلْبُ؟
!نَحْنُ قِدِّيسَانِ في الْمعْبَدِ: قُرْبَانٌ وَرَبُّ
!نَحْنُ في الدُّنْيَا، كما شِئْنَا، صَبَابَات وَحُبُّ
(القاهرة)
محي الدين صابر
!دمعة على الماضي
ثَارَتْ بِقَلْبِي ضَيْعَةُ الْحَيْرَانِ ... فِي اللّيْلِ وَامْتَصَّتْ دَمِي أَحْزَاني
!وَوَجَدْتُنِي سَأَمَانَ لَيْسَ يُحِيطُ بي ... إِلاَّ طُيُوفُ مَتَاعِبِي وَهَوَاني
لَهْفَانَ أَرْسُفُ في قُيُودَ مَوَاجِعِي ... وَتَشُوقُ نَفْسِي فَرْحَةَ الطَّيَرَانِ //
!أَجْتَازُ أَشْجَاني التي قَدْ أَغْرَقَتْ ... أَسْرَارَهَا رُوحِي إِلى أَشْجَانِ
فَكأَنَّ رُوحِي مَوْجَةٌ مَدْفُوعَةٌ ... غمَرَتْ صُخُورَ الْحُزْنِ في شُطْآني
!لَكِنْ أَحِسُّ بُرُوزَهَا لاَ يَنْثَنِي ... مُتَجَمِّداً باليَأْسِ في أَرْكاني
وَكأَنَّ عُمْرِي شَاطِئٌ مُسْتوحْشٌ ... قَدْ بَاعَدَتْهُ غَمْرَةُ النِّسْيَانِ
فَسَعَتْ مِنَ الْمَاضِي إِلَيْهِ زُمْرَةٌ ... مِنْ ذِكْرَيَاتي عَذْبَةُ الأَلْوَان
!أَذْكَى تَخَطَّرُهَا بِنَفْسِي حَسْرَةً ... أَبَدِيَّةً مَشْبُوبَةَ النِّيرَانِ . . .
!مَا مَاتَ مَاضِيَّ الذَّي أَحْبَبْتُهُ ... لكِنَّهُ يَمْشِي عَلَى وُجْدَاني
إِني أَرَاهُ! غَيْرَ أَنَّ زَمَانَهُ ... وَلّى، وَعَزَّتْ خُدْعَةُ السُّلْوَانِ
وَكأَنَّ ذَاكَ العَهْدَ أَيْكٌ سَاحِرٌ ... أَنَا مِنْهُ مَطْرُودٌ عَنِ الأَكْنَان
وَلَئِنْ يُحَلِّقُ بي حَنِينِي فَوْقَهُ ... فإِلَيْهِ مِنَّى دَمْعَةَ الْحِرْمَانِ
تِلْكَ العِشَاشُ سَكَنْتُهَا وَحَبِبْتُهَا ... هِيَ مَا مَضَى مِنْ رَاحِتِي وَأَمَاني
أَوَّاهُ لَوْ حَنَّتْ إِليَّ وَأَوَمَأت ... لِي أَنْ أَعِيشَ بِظِلِّهَا الْفَيْنَانِ
وَحَطَمْتُ هَذَا السَّدَّ عَنِّي عَابِراً ... نَحْوَ القَدِيمِ مَغَارَةَ الأَزْمَانِ
مُتَخَطِّياً أَسْوَارَ عَيْشٍ حَاضِرٍ ... قَدْ خَصَّنِي بِالظُّلْمِ وَالنُّكْرَانِ
!وَجَنَوْتُ في أَطْلاَلِهِ مُتَمَنِياً ... لَوْ أَنَّه بَاقٍ! بلاَ دَوَرَانِ
لَكِنَّ شِرْعَةَ هذِهِ الدُّنْيَا جَرَتْ ... بالْعُمْرِ نَحْوَ نِهَايَةَ الإِنْسَانِ
هَيْهَاتَ أَحْيَا فِي القَدِيمِ، فَقَدْ مَضَى ... وَأَفَقْتُ مِنْهُ عَلَى الأَسَى أَبْكَاني
عبد الرحمن الخميسي
عودة (الرسالة)
!جنّ بي شوقي إلى طيف الرسالة ... فتلفّت عسى ألقى خيال
مهبط الإلهام والسحر العجيب
ومنار العلم والفنِّ الحبيب
والهدى البسّام في ليل الكروب
كم أضاءت ظلمة الشك الرهيب
بالذي يفتن من سحر الأديب
والذي يبهر من فنٍّ خصيب
كيف غابت عن عيونٍ وقلوب
علّمتها كيف تشدو بالنسيب

جن بي شوقي إلى طيف الرسالة ... فتلفّت عسى ألقى خياله
فرحة غنّت بأشواق الأماني
للذي ألهم أسرار المعاني
والذي أيقظ وسنان الأغاني
وأشاع الفن في كل مكان
وأحال الفن ذَوْباً من جنان
مهبط الإلهام من سحر البيان
مُجتْلى الخلد على مرّ الزمان
!عاد!! ها قد عاد لي طيفُ الرسالة! ... فانتشى قلبي ونادى. . . يا جلاله
حسين محمود البشبيشي
البَريدُ الأدبَيّ
ذو القرنين هو الاسكندر المقدوني
ظهر في العدد - 506 - من مجلة الرسالة الغراء مقال لبعض الفضلاء تحت عنوان - هل الاسكندر الأكبر هو ذو القرنين المذكور في القرآن، وقد أنكر فيه أن يكون ذو القرنين هو الإسكندر، وذهب في ذلك مذهباً يكفي في ظهور بطلانه أن لأدلة التي أتى بها لإبطال المذهب الأول تبطله أيضاً. ولا أضعف من مذهب تقوم أدلة صاحبه على بطلانه، فقد أنكر أن يكون ذو القرنين هو الإسكندر لأنه كان وثنيا، وذو القرنين بنص القرآن كان مؤمناً، ولأن ذكر القرآن لذي القرنين كان جواباً عن سؤال اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم عن شخص لم يذكر اسمه، جاب الدنيا شرقاً وغرباً وكان له ملك عظيم، وهم يقصدون بذلك ما ورد في رؤيا دانيال أنه رأى كبشاً ذا قرنين، وقد فسر ذلك بمملكة فارس التي لم تكن ظهرت بعد، ثم رأى كبشاً ذا قرن واحد يهجم على الكبش ذي القرنين ويقتله، وقد فسر ذلك بملك من اليونان يظهر ويقضي على دولة الفرس؛ وعلى هذا يكون المقصود بذي القرنين دولة الفرس، وبذي القرن الواحد الإسكندر المقدوني
فالدليل الأول إذا أبطل أن يكون ذو القرنين هو الإسكندر يبطل أيضاً أن يكون هو دولة الفرس، لأنها كانت دولة وثنية غير مؤمنة. والدليل الثاني إذا أبطل أن يكون ذو القرنين هو الإسكندر، لأنه كان في تلك الرؤيا ذا قرن واحد، يبطل أيضاً أن يكون ذو القرنين هو دولة الفرس، لأن سؤال اليهود كان عن شخص لا عن دولة، والقرآن صريح أيضاً في أنه كان ملكا واحداً لا ملوكا متعددة. وحمله مع ذلك على دولة الفرس بمكان من التهافت، وهو أضعف ما قيل في ذي القرنين من الأقوال الكثيرة
هذا ولا شك أن رؤيا دانيال كما لم تقتض أن يلقب الإسكندر بذي القرن الواحد، لا تمنع أن يلقب بذي القرنين لسبب من الأسباب. وقد جاء في مجلة المقتطف أنه عثر على نقود مقرونة في عهده، فوجد فيها صورته والتاج بقرنيه على رأسه، ولا أدل من هذا على أنه كان معروفاً بذلك اللقب. وقد ذكر ابن العبري المؤرخ السرياني أن الإسكندر المقدوني هو الذي بنى سد يأجوج ومأجوج، وأنه شرع بعده في بناء السد الأعظم بمدينة باب الأبواب، فوضع له أساساً عظيماً، وقد بحث عنه ملوك الفرس حتى عثروا عليه، وبنوا عليه ذلك
السد الذي فرغوا منه في عهد كسرى أنوشروان. وكاتب ذلك المقال يرى أن هذا السد هو سد يأجوج ومأجوج، فإذا صح ذلك فهو من بناء الإسكندر كما ذكره ابن العبري وقد وفقت في مقالة الأخيرة من مقالاتي - الحضارات القديمة في القرآن الكريم - بين إيمان ذي القرنين في القرآن وبين ما ورد في تاريخ الإسكندر مما لا يتفق ظاهره مع ذلك وأزيد على ذلك هنا أنه ورد في كتاب مناهج الألبلب المصرية لرفاعة بك، أن الإسكندر كان يتظاهر باتباع ديانة ما يفتحه من الممالك إن لم تكن صحيحة في رأية، يقصد بذلك التقرب إلى أهلها، وحملهم على حب حكمه. على أن تلك الآلهة كانت في أصلها رجالاً من عظماء قومهم أو صلحائهم، ومن الممكن أن يكون تعظيم الإسكندر لها بالنظر إلى أصلها، وأنه لم يكن يعتقد أنها آلهة، وهذا يكفي في نفي الوثنية عنه. ولا يفوتني أن أنبه صاحب المقال إلى أن هولاكو كان أسبق من تيمورلنك
عبد المتعال الصعيدي
فتاوي السيد رشيد رضا - 1

نشرت الرسالة في العدد (504) أن معالي وزير العدل قد أقر جمع فتاوى فضيلة الديار مفتي الديار المصرية الحالي، ورأى (أن الفائدة تكون أتم والنفع أعظم إذا انضم إلى ذلك مقارنة هذه الفتاوى بما هو محفوظ من فتاوي المغفور لهم مفتي مصر السابقين وخاصة فتاوى الأستاذ الإمام محمد عبده والشيخ بخيت)

وهذا الذي أقره وزير العدل إنما هو ولا ريب عمل جليل يستأهل من أجله كل ثناء وحمد؛ بيد أننا نرغب زيادة في تمام الفائدة والنفع أن تشمل هذه المقرنة فتاوى المغفور له العلامة الجليل محمد رشيد رضا من أحكم الفتاوى التي صدرت في الثلث الأول من هذا القرن شاملةً لكل باب من أبواب الفقه الإسلامي. وأن الأستاذ الجليل الشيخ عبد المجيد سليم الأول من يعرف فضل هذه الفتاوى ويقدرها حق قدرها، وقد كان يطلب من صاحبها قبل موته جمعها وطبعها.

2 - حول ذكرى السيد جمال الدين

لقد أحسن الأستاذ محمود شلبى فيما كتبه بالرسالة عن السيد جمال الدين، ذلك الذي قال فيه

الفيلسوف الفرنسي أرنست رنان (كنت أتمثل أمامي عندما كنت أخاطبه ابن سينا أو ابن رشد أو واحداً من أساطين الحكمة الشرقيين)

وقال فيه الأستاذ الجليل مصطفى عبد الرزاق باشا (حسبُه من عظمة ومجد أنه في تاريخ الشرق الحديث أول داع إلى الحرية وأول شهيد في سبيل الحرية) وذكر عنه الأستاذ الكبير عبد الرحمن الرافعي بك (أن الأمم الشرقية جمعاء مدينة بنهضتها السياسية والفكرية إليه) ولا نُفيض في القول لأننا الآن على غير طريق دراسة شخصية هذا الرجل الذي كان أمة وحده، وإنما نذكر أنه إذا كان إحياء ذكرى العظماء هو بعض ما يجب لهم على الناس، وأن الكاتب الفاضل قد أحسن فيما كتب عن ذكرى هذا العظيم الذي جحدنا فضله ونسينا ذكره فإننا نبين مضطرين - خدمة للحق - أنه قد نقل إلى كلمته الوجيزة أكثر من خمسين سطراً بنصها مما كتبه الأستاذ الإمام محمد عبده وأديب إسحاق وسليم العنحوري والسيد رشيد رضا في تأريخ السيد الأفغاني ولم يشر إلى هذا النقل (يراجع الصفحات 27، 28، 30، 32، 33، 34، 40، 46، 73 من الجزء الأول من تاريخ الأستاذ الإمام)

ولقد كان الأجدر بالكاتب أن يشير إلى ذلك رعاية لحرمة الأمانة العلمية وتنويهاً بمن سبقونا إلى ترجمة السيد وبيان فضله.

(المنصورة)

محمود أبو رية

توضيح شبهة في كتاب عبقرية عمر

عبقرية عمر شاهد عدل كبقية الشواهد على عبقرية الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد. فقد حلل ووجه كثيراً من أقوال عمر ومواقفه، ولم يترك في ذلك مغمزاً لغامز أو اعتراضاً لناقد. وعهدي بالأستاذ أنه ثبْت، وما نجح إلا النادر في الاعتراض عليه؛ وذلك يرجع لترويه في كتابته؛ ولكنه استوقفني قول الأستاذ في عبقرية عمر صفحة (285) أن المتعة كانت حلالاً أيام النبي عليه السلام، وأن سيدنا عمر هو الذي نهى عنها وضرب عليها، وأتى بقول سيدنا عمر: متعتان كانتا على عهد رسول الله، أنا أنهي عنهما واضرب عليهما.

والواقع ليس كذلك، لأن المتعة حرمها النبي عليه السلام عام حجة الوداع ولم يتركها حلالاً

إلى خلافة عمر؛ وفي الصحيحين ما يؤيد هذا. نعم إن المتعة كانت حلالاً في صدر الإسلام للمضطر، ثم حرمت عام خيبر، ثم أبيحت عام الفتح، ثم حرمت عام حجة الوداع، وهذا رأي الشافعي، وقال ما معناه أنه لا يعلم شيئاً تكرر فيه النسخ إلا المتعة. والبيهقي يصحح تحريمه عام الفتح لئلا يلزم النسخ مرتين. وللأستاذ بعد هذا خالص تقديرنا وإعجابنا

(فلسطين)

رضا محمد ديباجة

إمام الفرعون

السعادة في نظر ديكارت

كتب ديكارت إلى الأميرة اليزابيث رسالة بتاريخ أول سبتمبر سنة 1645، قال فيها: (إننا لسنا نجد فرداً واحداً لا يرغب في أن يكون سعيداً، ومع ذلك فإن عدد الذين ينالون السعادة فعلاً عدد ضئيل، لأن كثيرين من الناس لا يعرفون الوسيلة التي بها يحققون لأنفسهم السعادة). وليست سعادة الإنسان - في نظر ديكارت - متوقفة على الحظ أو الظروف الخارجية، وإنما تتوقف أولاً وبالذات على الفرد نفسه. ولذلك نرى ديكارت في رسائله التي كتبها إلى الملكة كريستين، يحاول أن يثبت لها أن (كل إنسان عاقل يجب أن يفحص عن خيره وسعادته إلا في نفسه، وأننا نستطيع أن نحْصل على كل ما يلزمنا بأقل جهد وأدنى تكاليف)
' - , ' ;
وكان تأثير ديكارت على الملكة كريستين تأثيراً قوياً فعالاً، حتى أنها كتبت تقول في 27 فبراير سنة 1654، بعد تنازلها عن عرش السويد: (إنني في هدوء واطمئنان، لأن خيري ليس في يد القدر، وسعادتي ليست تحت سلطان الحظ. أجل، فأنا سعيدة مهما تكنْ الظروف ومهما يحدث لي)
وقد كتب ديكارت إلى الأميرة اليزابيث، في شهر مايو سنة 1645، يقول (إنني أميل دائماً إلى أن أنظر إلى الأشياء التي تتمثل أمام ناظري، من (وجهة) نظر تبديها لي حسنة تجلب الرضى، بحيث أن في وسعي أن أقول: إن سعادتي الأولى تتوقف عليّ وحدي)، وفي هذه العبارة ينحصر سر السعادة في نظر ديكارت، لأنه (ليس هناك أحداث أليمة ممعنة في الشر - في نظر الناس -، إلا ويستطيع الإنسان بعقله وفطنته أن ينظر إليها من (وجهة) تُبدِيها له مواتية نافعةً) وفضلا عن ذلك فإنه (ليس ثمة شر، لا يستطيع المرء أن يستخرج منه وجهاً من الخير أو المنفعة، إذا كان لديه عقل سليم)
(. . . ' , , 55.
وأما خير وسيلة لتحصيل السعادة، فتلك هي أنه (إذا وجد الإنسان نفسه حيال اعتبارات مختلفة، كلها صحيحة، ولكن بعضاً منها يحملنا على أن نكون سعداء، والبعض الآخر - بخلاف ذلك - يحول دون تحصيل السعادة؛ فإنه يبدو لي أن الحكمة تتطلب أن نسارع إلى أن نأخذ بالاعتبارات التي توفر لنا السعادة وتكفل لنا الرضى. . . وإذا كانت كل أمور الحياة هي مما يمكن أن يُنْظَر إليه من جانب فيبدو حسناً طيباً، وينظر إليه من جانب آخر فيبدو ناقصاً معيباً، فإني أعتقد أنه إن وجب على المرء استخدام مهارته في أمر ما، فذلك أولاً وبالذات في أن يعرف كيف ينظر إلى أمور الحياة من (وجهة) تبديها له محققة لفائدته ومصلحته، بشرط أن لا يكون في ذلك خادعاً لنفسه) (من رسالة إلى الأميرة اليزابيث بتاريخ 6 أكتوبر سنة 1645)
زكريا إبراهيم
أسد أباد: لا أسعد أباد
نشر الأستاذ محمود شلبي كلمة طيبة حيا بها فقيد الشرق السيد جمال الدين الأفغاني بمناسبة ذكرى وفاته. إلا أنه اشتبه على مؤرخي السيد موطن ميلاده
وقد ولد السيد في شهر شعبان 1254هـ في قرية (أسد باد) لا (أسعد أباد) فقرية (أسد باد) هي التي تقع على الساحل الشرقي لوادي (كُنَوْ) مديرية في الشرق لعاصمة أفغانستان (كابل)
وهذه القرية الآن خربة ولم يبق منها إلا الأثر. فوالد السيد هو معروف السيد صفدر الشريف. وأما والدته فمن جهة الأم من أشراف أهل البيت، وأما من جهة الأب فمن قبيلة (يوسف زائ) الأفغاني
محمد عبد الغفار الهاشمي الأفغاني
تصويب
حدثت أخطاء مطبعية في القسم الأول من مقال (لا. . . بل النحاة واللغويون ثقاة) أنبه على أهمها هنا، مراعياً أن اللفظ الأول من كل اثنين خطأ، وما بعده الصواب وهي: كأنه يفسر - كأن يفسر. قريب - مريب. مراجع - مرجع. ظرِبى - ظرْبى. يدلها - يدخلها. يفّهم - تفّهم.
عبد الحميد عنتر
العدد 508 - بتاريخ: 29 - 03 - 1943

دفاع عن البلاغة
الذوق - 2
كان الذوق في العصور الذهبية يتكون في الأديب - كما ذكرنا من قبل - بالدراسة الفقهية لعلوم الأدب، والقراءة النقدية لروائع الفن، والصحبة المتصلة لأمراء البيان، وغشيان مجالسهم، وطول الاستماع إليهم، وأخذ النفس بمحاكاتهم، وامتحان الآراء والأذواق بمحاكهم، بعد أن يجمع الأديب وعاء قلبه على خير ما أثر عن العباقرة الذاهبين من بليغ النظم والنثر في الأحوال المختلفة والأغراض المتنوعة. فلما خلت تلك العصور، وذهب في سبيلها أحبار البلاغة، وجاء هذا العصر الآلي العجول، نشأ عن انتشار الثقافة السطحية فيه نوع من المساواة الظاهرية بين الأذهان في التحصيل والتفكير، فأخذ كل أديب يقرر ولا يستشير، ويجيب ولا يسأل، ويكتب ولا يقرأ. ولماذا يقرأ؟ إن الكتاب المعاصرين لا يكادون في رأيه يتميزون عليه، وإن الأدباء المتقدمين لا يمتون إلى حياته بسبب؛ والأبهاء والأندية لا تسمر بأدب الجاحظ ولا بحكمة المتنبي ولا بفلسفة أبى العلاء؛ وأكثر أولياء الناس لغتهم أجنبية وثقافتهم أوربية فلا يعرفون قيمة الأدب العالي، ولا يعرفون مكانة الأديب الحق

إنما يقرأ متأدبوا اليوم صحف الأخبار ومجلات الفكاهة وأقاصيص اللهو وملخصات العلم. وأكثر ما يقرءون صور منقولة أو مقبوسة عن أدب الغرب لا تربى في القارئ إلا ذوقاً مذبذباً لا يثبت على لون ولا يستقيم على خطة. ومثل هذا الذوق الملفق المستعار لا ينظر إلى (الأمالي) و (الأغاني) و (اللزوميات) إلا كما ينظر إلى العمامة والقباء والجبة؛ فهي في حكمة أشياء قضت عليها (المودة)؛ وللمودة في كل يوم زي يتجدد معه الذوق ويتعدد!

وليس معنى ذلك أن الذوق الأدبي العربي فسد في كل نفس؛ إنما نتحدث عن الكثرة؛ والكثرة في عهد الديمقراطية تتحكم في القلة: تحدد لها المستوى، وتعين لها الاتجاه، وتنصب أمامها الغرض؛ بله العدوى، فإنها إلى الأصحاء مؤكدة سريعة

على أن في كتاب العربية المعاصرين صفوة مختارة لا تزال في وسط هذه الأذواق المتنوعة المتناقصة مخلصة للذوق الطبيعي الخالص، تذود عنه، وتدعو إليه، وتأبى أن تنزل به إلى تمليق الدهماء ولو فقدت في سبيله انتشار الصوت ورواج القلم. وأغلب هذه

الصفوة من أبناء الأزهر ودار العلوم ومن تلمذ لهم، لأن الذوق الأدبي عندهم هدى من الوحي الإلهي أنزله الله في القرآن، وأرسله في الأدب؛ فجرى في النفوس المؤمنة مجرى العقيدة لا يحسن في مكان دون مكان، ولا يصلح لزمن دون زمن

ولكن أصحاب الذوق السقيم يرمون أصحاب الذوق السليم بالقدم والتقليد؛ كأنهم يجهلون أن الجدة والأصالة إنما تكونان في العبقرية لا في الذوق: تكونان في الفكرة والعاطفة والصورة، وفي ابتكار السمات للطبع، والحركات للنفس، والنزعات للهوى؛ وفي استنباط الوسائل للإقناع والإمتاع والتأثير والتشويق والإفادة؛ وفي ابتداع الكلمة الصادقة الشاعرة والجملة البارعة النادرة والأسلوب الحي الذي يلائم الموضوع ويوائم الطبيعة. بذلك استطاع الجاحظ أن يكون غير أبن المقفع، وابن العميد غير الجاحظ، والبديع غير ابن العميد، وأبو نواس غير مسلم ابن الوليد، وأبو تمام غير أبى نواس، والمتنبي غير أبى تمام، وأبو العلاء غير هؤلاء جميعاً؛ ولكن الذوق الذي جمع فهم وفرق بينهم ظل واحداً لا يكاد يختلف

كان المخلصون للأدب في عهد انتشاره وازدهاره يجعلون من ثمار القرائح موضوعاً للنقد الدقيق الصادق، فيؤلفون الكتب في الموازنات، ويعقدون المجالس للمناظرات، ويضعون الموازين القسط للكتاب والشعراء، فلا ينبه شاعر لجاهه، ولا ينبغ كاتب لمنصبه. أما النقد اليوم فأكثره زور وعبث. هو في أغلب الأمر رأى يصدر عن مجاملة أو جهالة، ثم ينتقل من فم إلى فم، ومن مجلس إلى مجلس، ومن بلد إلى بلد؛ والناس في عصر السرعة الآلية والثقافة الضحلة يأخذون الرأي من غير تمحيص، ويعطونه بدون اكتراث. فهذا الكاتب في رأيهم زعيم الكتاب لأنهم يقرءون اسمه في كل صحيفة، ويسمعون ذكره في كل مناسبة! وهذا الكتاب في زعمهم زعيم الكتب لأنه قرر في المدارس أو انتشر في الأيدي أو تحدث به الناس! أما أن ينقدوا الكاتب أو يقرءوا الكتاب فذلك شئ لا يقع في الهوى ولا يدخل في الاختصاص. ومن هنا كان

الرأي العام الأدبي في مصر قائماً على التقليد والمتابعة؛ ومن التقليد والمتابعة لا يولد ذوق خاص، ولا يوجد رأي مستقل
إن مستقبل البلاغة منوط بتغلب الذوق الطبيعي المأثور على الذوق المزيف المستحدث. وإذا قلت إن سلامة القومية المصرية موقوفة كذلك على هذا التغلب لم تعد الحق؛ لأن
الأذواق والأخلاق والعادات هي عناصر الشخصية التي تميز فرداً من فرد وأمة من أمة. وسبيل الغلبة والفلج للذوق الحر تربيته وتقويته. وأقرب الوسائل إلى ذلك التعليم الصحيح والمثل العالي. فإذا عنى القائمون على الثقافة بتعليم اللغة على النحو الذي تعلم به اللغات الأوربية في الغرب، وعرضوا على النشء النماذج العليا من الأدب قديمه وحديثه، ورغبوه في قراءتها بالعرض المشوق والطبع الأنيق والمكافأة الحسنة، رجونا أن تنشأ الأذواق على الصحة وتجرى على الطبع، فتعاف الأدب الرخيص، وتستبشع الأسلوب الغث، وتنكر النقد المزيف. وإذن تنقى رياض الأدب من الحشرات والطفيليات فلا تسمع فيها لغواً ولا تأثيماً ولا شعوذة
إن معلمي اللغة في كل أمة هم وحدهم المسؤولون عن تكوين الذوق السليم والخلق القويم في الناشئ. وإن ما نجده في مصر من فوضى الأخلاق والأذواق لدليل على أن في بعض معلمي العربية ضعفاً في الاستعداد أو نقصاً في الإعداد نضرع إلى القائمين على شؤون التعليم أن يعلموا مخلصين لعلاجه. وما نظن (الدراسة العليا) التي فرضت على بعضهم في هذا العام هي وحدها الدواء الناجع في هذا العلاج.
للكلام بقية
احمد حسن الزيات
علوم اللغة العربية في المدارس الثانوية
للدكتور زكي مبارك
تمهيد
جرت وزارة المعارف منذ أعوام على الاستفادة من إجازة نصف السنة بجعلها مؤتمرات للمفتشين يتبادلون فيها الآراء حول مناهج التعليم وأحوال التلاميذ وحديث اليوم عن الأسئلة التي وجهتها المراقبة العامة للتعليم الثانوي إلى مفتشي التعليم الثانوي، وهي أسئلة دار حولها الجدال يومين، وقيلت فيها أقوال تستحق التسجيل، وقد استشرت زملائي في إعلان بعض تلك الأقوال، فأجابوا بالترحيب
ظاهرة إنسانية
لا أعرف كيف دارت المناقشات بين مفتشي الرياضة والعلوم والمواد الاجتماعية، ولكني أعرف كيف دارت المناقشات بين مفتشي اللغة العربية
كان الشوق إلى الكلام شديداً جداً، وكان كل مفتش يجب أن يتكلم بإطناب، وكأنه يريد أن يكون المتكلم الوحيد!
كان في المفتشين من يقف ليخطب، مع أن الجمهور الذي تألف منا لم يزد عن أحد عشر كوكباً!
ومع أن شهوتي إلى الكلام قليلة لكثرة ما أعبر بالقلم عما يجول في صدري، فقد زاحمت بعنف لأتكلم أنا أيضاً، وقد تكلمت حتى اشتفيت!
فما سر الشوق إلى الكلام حين يتلاقى الناس؟
يرجع ذلك فيما أفترض إلى أن طرائق التفاهم عند الإنسان قد انحصرت في طريق واحد: هو النطق، وبذلك عطلت طرائق التفاهم بالرمز والإشارة والإيماء
والظاهر أن انحصار التفاهم في النطق فضيلة إنسانية، فضيلة دعا إليها اشتباك الأغراض بصورة لا ينفع فيها غير التحديد بالألفاظ
والظاهر أيضاً أن اختراع الكتابة من أعظم المخترعات الإنسانية، لأنه يرمي إلى تسجيل الألفاظ قبل أن تضيع، وإلى تقييد ما فيها من مسئوليات
هل أريد أن أقول إن (المسجل) غاب عن اجتماعات المفتشين، وأنهم لو كانوا يعرفون أن كلماتهم ستسجل كما وقعت لاقتصدوا في الخطابة بعض الاقتصاد؟
أن الآداب الدينية توصى بان نحترس، وتوجب أن نفهم أن الإنسان ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد. فالخوف من تدوين الألفاظ باب إلى أدب اللسان
وليس معنى هذا أن المفتشين قالوا كلاماً لا ينبغي أن يقال - لا - ولكن معناه أنهم لو

عرفوا أن كلامهم سيسجل لأعدوا كلاماً أقوى من الكلام الذي قيل، مع أنه من الكلام النفيس
كل شئ صائر إلى التحديد، فالإنسان كان يعبر بالإشارة، ثم ارتقى فصار يعبر باللفظ، ثم ارتقى فصار يعبر بالكتابة، وسيرتقى مرةً جديدة فتكون له لغة واحدة، لغة محدودة لا يتطرق إليها لبس، ولا يعتريها غموض
من متاعب الإنسانية أن اللفظ الواحد في اللغة الواحدة قد يختلف مدلوله باختلاف الأذواق، بحيث يكون مدحاً عند هذا وقدحاً عند ذاك
وأعصابنا تتأثر بالألفاظ، أو باختلاف ما نفهم من مدلولات الألفاظ، فمتى تزول أسباب هذا الاختلاف؟
الرأي عندي أن هذه البلبلة الخطرة من أعظم مزايا الإنسانية، ولكن كيف؟
القوة الحقيقية للإنسان هي قدرته الأصيلة على الظفر بأكبر محصول من اشتجار العواطف والأحاسيس والآراء والأهواء ولو توحدت اللغات والتعابير فزالت جميع أسباب الاختلاف لتحول الإنسان إلى صورة آلية لا يسيرها غير ضريم (البنزين)
نحن نختلف أقل مما يجب، ويا ويلنا إذا لم نختلف!
المثال الصحيح للاتفاق هو أمة النمل، ونحن نكره التشبه بأمة النمل
الاختلاف هو الذي خلق العلوم والمدنيات، وهو الذي أوجب أن يكون لكل ثمرة مذاق الاختلاف واجب، أما التعادي فهو بلاء
الإنشاء
قالت مراقبة التعليم الثانوي: أن إنشاء التلاميذ لا تزال تكثر فيه الأنماط النحوية والصرفية والإملائية، ثم دعت المفتشين إلى أن يشيروا بما يرون لعلاج هذه الحال، فماذا قالوا؟
قال الأستاذ جاد المولى بك: إن أهم المظاهر لمعرفة اللغات هو إجادة الخطابة والكتابة،
وإن في المدرسين أنفسهم من يصعب عليه الإنشاء، ولعله يصعب أيضاً على بعض المفتشين! فمن الواجب أن يراض التلميذ على الكتابة والخطابة رياضة جدية وأن تكون قدرتهم على هذين الفنين أول ما يهم المدرسين
وقال الأستاذ منصور سليمان: إن تعليم الإنشاء في المدارس المصرية قد ابتلى بآفة قبيحة، آفة مموقة للفكر، وهي الحرص على الزخرف وعلى الإطناب في جميع الموضوعات. وقد رأيت في أحوال كثيرة أن التلميذ يثاب على التطويل بأكثر ما يثاب على التدقيق. ومن هنا شاع القول بأن اللغة العربية تمتاز بالتهويل والإسراف. وشكوى المدرسين من التعب في تصحيح دفاتر الإنشاء لا تستحق أي التفات، لأنهم مصدر هذا التعب، فهم الذين يوحون إلى تلاميذهم أن الإطالة من علائم البيان
مشكلة الإنشاء
كلام الأستاذ منصور سليمان يتيح الفرصة لأن أفضل رأي في هذه المشكلة، وهي مشكلة أساسية، فما الذي دعا إلى ضعف التلاميذ في الإنشاء؟
السبب الأول هو سيطرة المدرس على لغة التلميذ، ومعنى هذا أن المدرس ينتظر دائماً أن يعبر التلميذ عن غرضه بألفاظ مخزونة في ذاكرة المدرس
وتصحيحات بعض المدرسين تؤيد هذا القول، فهم يدورون حول ألفاظ أعدوها لكل موضوع، وهم يسجلون بالقلم الأحمر تلك الألفاظ تسجيلاً يظهر أثره في جميع الكراريس
بعض المدرسين يملون على تلاميذهم ألفاظاً وتعابير تصلح لكل موضوع، كما يزعمون، وهي طريقة عقيمة، ولا يعتمد عليها غير المدرس الببغاء!
السبب الثاني هو تحكم المدرس في عقل التلميذ، فهو يطلب منه أن يفكر كما يفكر، وأن يرى الدنيا بعينه ويسمعها بأذنيه، ولا يخطر في باله أن كل تلميذ له تصور خاص، وأن التلاميذ يختلفون في الأفكار كما يختلفون في الملامح
وقد يتفق أن نرى التلاميذ في الموضوع الواحد يثبتون أقوالاً وآراءً مقتربة كل الاقتراب، فنفهم أن المدرس أنزل عليهم الوحي الكاذب أو الصادق، وكنا نرجو أن يفكر في تقوية مواهبهم تقوية سليمة، وذلك لا يتم بغير دعوتهم إلى شرح ما يعتلج في صدورهم من المعاني والأغراض شرحاً لا تهيمن عليه قوة خارجية

السبب الثالث هو تقديم موضوعات بعيدة عن مدارك التلاميذ، وأريد بها الموضوعات الميتة، الموضوعات التي لا تأخذ وقودها من الحياة الواقعية
ومرد هذا إلى الجهل بحيوات التلاميذ، فلهم اتجاهات فردية واجتماعية غير اتجاهات المدرسين، ومن الواجب أن تكون موضوعات الإنشاء في شرح تلك الاتجاهات
وهل ينتظر الدرس أن يجيد التلاميذ في كتابة موضوع تلقاه وهو تلميذ قبل عشرين سنة أو تزيد؟
في المدرسين من لا يختار موضوع الإنشاء، وفيهم من ينقل الموضوعات التي ألقيت على تلاميذ المدرسة الفلانية، وفيهم من يكرر الموضوع الواحد بضع سنين
الإنشاء اسمه إنشاء
فاختيار الموضوع إنشاء
واللفتة الذهنية عند المدرس باب من الإنشاء
وخطأ التلميذ، الخطأ المنقول عن طبيعته الذاتية فن من الإنشاء
والمهم هو أن نجد في الصف المكون من ثلاثين تلميذاً ثلاثين صورة من التفكير والأداء، لا صورة منسوخة من حضرة المدرس الفاضل!
السبب الرابع إقبال المدرس على تصحيح الكراريس وفي ذهنه صورة محدودة للإجابات، فهو يهمل كل فكرة منحرفة عن تلك الصورة، ولا يثيب التلميذ إلا بقدر محاذاته للعناصر التي فرضها عليه قبل الشروع في الإنشاء
وهذه الطريقة تقتل شخصية التلميذ، وتميت فيه بواكير الابتداع والافتنان. وما ظنكم بتلميذ يرى الخير كل الخير في محاكاة المدرس، ويهمل ملكاته الإبداعية كل الإهمال؟
ما ظنكم بتلميذ يراض على الإيمان بأن رأي المدرس هو الرأي، وتقضى عليه التجارب المدرسية بأن يفهم أن نجاحه يقاس بمقياس رأي المدرس؟
هذه الظاهرة موجودة بالفعل، وهي السبب في الإكثار من دروس الإنشاء الشفوي، وهى دروس عميقة، لأن الغرض منها توجيه التلاميذ توجيهاً حرفياً إلى الأفكار التي يحب المدرس إثباتها في موضوع الإنشاء
ومن أغرب ما يقع أن يقيد المدرس فوق السبورة ألفاظاً وتعابير تساعد التلاميذ على إبراز
العناصر الأساسية، وتكون النتيجة أن تكثر المبتذلات (الكيشيهات) فنرى في الكراريس جميعاً صوراً موحدة في الأداء، وهذا نقل لا إنشاء
وهنا أقترح أن تقصر دروس الإنشاء الشفوي على المدارس الابتدائية، لأنها توجيه للمبتدئين. أما المدارس الثانوية فلا تجوز فيها دروس الإنشاء الشفوي، لأنها تزيد في اتكال التلميذ على المدرس، والاتكال باب إلى البلادة والخمود
وأقترح أيضاً أن تكتب أكثر الموضوعات في الفصل، ليعرف المدرس قوى تلاميذه على الوجه الصحيح
وهل ننسى أن بعض التلاميذ يعتمدون على غيرهم في الإنشاء ليلقوا المدرس بأساليب مثقلة بالزخرف والتنميق؟
وهل ننسى أن في المدرسين من يغيب عنه ما في كراس التلميذ من سرقات أدبية؟
وهل ننسى أن في المدرسين من لا يفكر في الموازنة بين الموضوع السابق والموضوع اللاحق، ليعرف كيف يتطور تفكير التلميذ؟
السبب الخامس غرام بعض المدرسين بالإكثار من التصحيحات إكثاراً يشهد برغبتهم في التفوق والاستعلاء
وهذا الغرام ينفعهم عند بعض المفتشين، لأنه دليل على التدقيق، ودليل على الفهم لأسرار اللغة العربية، ولعله الباعث على بعض الترقيات!
والحق أن الحبر الأحمر رخيص، فما أذكر أني استنفذت منه غير مثاقيل لا يزيد ثمنها عن بضعة قروش، مع أني قضيت أكثر من ربع قرن في التدريس والتفتيش
لو غلا الحبر الأحمر لاقتصد المدرسون في تلك البرقشة الحمراء، وهي برقشة ثقيلة الدم، فهي تشعر التلميذ في كل يوم بأنه تلميذ، ولا تتيح له فرصة الشعور بأنه إنسان له وجود مستقل، ولو بعض الاستقلال
إذا كانت الكلمة صواباً في قول وخطأ في أقوال فيجب تركها بدون تصحيح، لأن ورودها على قلم التلميذ شاهد على أن هذا الخطأ أحيا من ذلك الصواب

وإذا وردت كلمة عامية لها أصل بعيد من اللغة الفصيحة فيجب تركها بدون تصحيح
،دعانا الدكتور هيكل باشا مرة للتشاور فيما يجب لتقليل الأخطاء في كراريس التلاميذ
فقلت: إن المدرسين يوجبون حذف (الفوطة) وإثبات (القطيلة)
فقال: وما القطيلة؟
فقلت: هي كلمة يعرفها المدرسون ويجهلها وزير المعارف، مع أنه من كتاب الطبقة الأولى في اللغة العربية
ثم قلت: يوجد مؤلف كبير اسمه ابن الفوطي بالفاء، والجرائد تجهل اسمه فتسميه ابن القوطي بالقاف
فما الذي يوجب الحذلقة بتسمية الفوطة منشفة أو قطيلة؟
مهدوا الطريق للألفاظ الحية، واتركوا الألفاظ الميتة، فما يموت لفظ إلا بعد العجز عن البقاء
السبب السادس هو الهيام بتجميل الموضوعات بالباطل حيثما وقعت، فملعب الكرة فرش بالبساط السندسي، مع أن الأفضل أن يفرش بنبات النجيل. . . والحديقة يجب أن توصف بأنها غناء، ولو كانت فوق سطح البيت. وتحت يدي وثيقة تشهد بأن سطح الفندق الفلاني في المدينة الفلانية وصف بالفرنسية مرة وبالعربية مرة فقيل بالفرنسية إنه منظر يرى به الناظر جميع الآفاق، وقيل بالعربية إنه حديقة غناء، مع أنه لا يتسع لغير شجيرات محبوسة في زهريات!
ثم ماذا؟. . . عندي كلام كثير في العوائق الذي تصد التلاميذ عن إجادة الإنشاء، وأنا أكتب مقالاً لا كتاباً، فمن الواجب أن أكتفي بالتلاميح
وأنا أختم هذا المقال بالحقيقة الآتية:
هل يوجد مدرس يراقب ما يقرأ التلاميذ من الجرائد والمجلات ليجعل موضوعات الإنشاء في حدود المشكلات التي تثيرها تلك القراءات؟
أسمعوا، ثم اسمعوا
الإنشاء ليس تمريناً على إضافة لفظ إلى لفظ، وإنما هو رياضة ذهنية يراد بها تقوية المواهب الروحية والذوقية والعقلية
اخلقوا الشوق إلى الإنشاء بأن تقترحوا على التلاميذ موضوعات يحبون أن يكتبوا فيها. خاطبوهم بأذواقهم لا بأذواقكم وأدعوهم إلى أن يكشفوا من سرائر الحياة ما تجهلون، فهم
أعرف منكم بسرائر هذا الزمان
دعوهم يفكرون كما يريدون، لا كما تريدون، ورحبوا بجهلهم لأنه تباشير العصر المقبل، ولا تنسوا أن الطفل لا ينمو إلا إن تركناه يتصرف في حدود ما يريد
عندي كلام وكلام في تعليم الإنشاء، ولكن المجال لا يتسع للإسهاب
أما بعد فماذا قال مفتشو التعليم الثانوي؟ سأرى وسترون
للحديث شجون
زكى مبارك
من الأستاذ محمد كامل سليم إلى الأستاذ توفيق الحكيم
الأستاذ محمد كامل سليم بك أديب مبدع ومحدث مقنع، وله في الأدبين العربي والإنجليزي مكانة سامية. ولعل هذا من الأسرار التي حدت بزعيم مصر سعد زغلول أن يختار الشاب كامل سليم سكرتيراً خاصاً له أيام الجهاد برغم صغر سنة وعظم المركز وجلاله؛ فزاده ذلك صقالاً على صقال. وقد أهدى إليه صديقه الأستاذ توفيق الحكيم كتابه (عصفور من الشرق) فأرسل إليه هذا الخطاب
عبد الرحمن
صديقي توفيق الحكيم
تفضلت فأهديت إلى كتابك (عصفور من الشرق) وقد فرغت من مطالعته أمس في متعة وأنس للعقل والنفس. ذلك لأنك أقمته على دعامتين: الأولى عاطفة قوية جارفة، لا يعادل اختلاجها وسذاجتها إلا صدقها وشدة وطأتها. والثانية: عقل مفكر ساخط

يتضور من عالم الحقيقة، ويفزع إلى عالم الخيال، في ألم يزيده الشك تعقيداً، وفي أمل يزيده اليقين تجديداً.

وإن كتابك هذا لحقيق بأن يحرك في نفس القارئ العليم بحقائق الأمور عواطف وخواطر شتى: من إشفاق ضاحك على العصفور الحساس الشاعر، إلى عطف باسم على قلبه الخفاق الثائر، إلى رثاء ظريف لحاله المضطرب الحائر، إلى غبطة تثير الذكرى لما لقي من حب مدوخ فائر، أشعله جمال فتان ساحر؛ حتى أصبح هذا المخلوق البريء ريشة في مهب الأجواء، تلعب بها الأهواء، فلا تستقر على حال، ولا يهدأ لها بال؛ وأمسى وهو لا يرى ولا يسمع نصح الناصحين ولا إرشاد المرشدين:

وما تبصر العينان في موضع الهوى ... ولا تسمع الأذنان إلا من القلب

وأخيراً هذا المفكر البائس (إيفان) يتشكى ويتسخط، ويتفلسف ويتورط، ويسمع الإنسان في صوته رنيناً من الحق، وأنيناً من الأسى، ويشهد في أقواله طغيان الفكرة وقوة الإيمان بفساد الغرب وصلاح الشرق، وبما في المادة من شقاء وضلال، وبما في الروح من أنس وجلال؛ فلا يسع الإنسان - سواء أقره أم خالفه - إلا أن يشعر نحوه بعطف كله إشفاق، ورحمة تضاعفها لوعة، ولوعة يخالطها ألم.

وبعد، مرة ثانية: هل تريد أن أكشف اللثام عنك في ضوء هذا الكتاب الذي وصفت فيه حالات المحب واختلاجاته، ونزوات الحب ونزعاته، حركاته وسكناته، خطراته وخفقاته؟

إذن فاسمع يا صديقي، لقد جاء وصفك لهذا كله وصف العارف المجرب. وما ينبئك مثل خبير؛ فلست أنت عدو المرأة كما يزعم الزاعمون ويتصور الواهمون، وإنما أنت عاشقها المتيم الهائم، وعابدها في محراب العزلة والجمال.

ولقد وددت بعد فراغي من مطالعة كتابك لو امتد بك الصبر فأطلت فيما أوجزت، وأسهبت فيما سردت، وبسطت طرفاً آخر من تجارب الحياة. وتبسطت في ذكر حوادث أخرى أو مغامرات. . . إذن لكان صاحبك مثلاً فذاً للمفكرين ولكان عصفورك مثلاً حياً لعصافير المصريين.

فوا رحمتاه للعصافير السمراء حين تحب الحمائم الجميلة البيضاء! ويا لها من نشوة دونها كل نشوة، فيها عذوبة وفيها عذاب؛ ولكنها حياة لا تعدلها حياة.

قد يسأل سائل: أليس من العجيب أن يحب العصفور الآدمي الصغير الحمامة الآدمية الجميلة؟ أليس بينهما تفاوت قائم وتباين؟ فكيف يتم بينهما توافق دائم ووئام؟ بلى إنه لعجيب؛ ولكنه عجيب في حكم العقل والمنطق وحدهما؛ ولكنه في حكم الطبيعة والعاطفة مفهوم ولا يفهم سواه. والحب لغز من الألغاز تجري في دائرته المرنة عملية الجذب والانجذاب، فلا ملام ولا عتاب.

على أني كثيراً ما تمنيت لو أن كل عصفور من الشرق أو الغرب أدرك حكمة الأيام في كل زمان ومكان وهي أن المرأة إذا استقوتك استعطفتك ببكائها، وإذا استضعفتك قتلتك بكبريائها. إذن لكان نصيبه من متع الحياة أعظم وأكمل، ولكانت شقوته بها أقل وأضأل.

ولكن كيف يدرك العصفور، حكمة الدهور، قبل أن ينتقل بين الزهور؟

إليك يا صديقي خالص التهنئة على ما أدركت من توفيق ظاهر في كتابك الخفيف الظريف. وإليك كذلك خالص الشكر على الهدية وعاطر الثناء على كرم الإهداء والسلام.

10 مارس سنة 1943

(محمد كامل سليم)

على هامش (أحلام شهرزاد)

قضية اليوم

للأستاذ دريني خشبة

قالت فاتنة: (عجباً لك يا صديقي! لست أعرف سبباً لترددك هذا الذي طال، وخوفك ذاك الذي سمج، وإشفاقك الذي لم تعد له علة؛ فها أنت ذا تعيش ملء القاهرة، وهاهم أولاد أخذان الشباب من حولك ما تزال قلوبهم عامرة بالشباب؛ ونفوسهم ممتلئة بالفتوة. وهاهي ملاعب أنسك، ومراتع هواك، يرقص فيها ماضيك ريان كما عهدته فينان كما حلمت به، فإلام تظل راكداً هكذا؟ وحتام تخفو عيناك وكل ما حولك صحو؟! أخشى أن يكون إشفاقك من الكتابة عني، وقد ملأت أذنيك شدوا، ومهجتك غناء، هو ما

ترى من القطيعة الشاحبة التي قامت بين أئمة الأدب في هذا البلد، وقالات السوء التي يرسلها الأبالسة المغرضون لتعبس الجنة الباسمة، ويصمت الطير الصادح؛ وليكون نعيهم وحده هو المسموع في الآذان، المدوي في الأذهان، مهما يكن شأنه من الهوان. . . كلا يا صديقي. . . لا عليك من هذا أبداً، فأئمة الأدب في هذا البلد أعظم من أن تمزق وحدتهم الأقاويل، وأجل من أن تذهب بريحهم عصبة الأبالسة من مروجي الأكاذيب. . . يحب أن تكتب عني إذن وأنت آمن مطمئن، فقد بلوت من ألوان الأساطير وفنون القصص ما ينبغي أن يوقظ فيك جمالي، ويلفتك إلى سحري، وينبه فيك روعتي التي أبدعها خيال صاحبك الصناع الفنان. . . ولن يعفيك من الكتابة عني ما أرجف به المرجفون عقب أن تلهوا بقراءتي في سيارة أو في عرابة تزام، فلست من الهوان بحيث أقرأ هكذا، وبحيث يفرغ القارئون مني على هذا النحو، فأنا قطعة أدبية خالدة، ولن يسأمني الناس مهما أكبو علي، ومهما أدمنوا تلاوتي. . . إنني أروع لوحات الفن في الأدب المصري الحديث. . . وأعيذك من أن تظن بي الظن، أو تأخذ علي اعتداداً بشخصي القوي، ولن أقول الضعيف تواضعاً، فإن عرفاني بقيمتي يباعد بيني وبين التواضع. . . والتواضع أكبر رذائل الأديب ما لم يكن مصدره الغرور، إذ يصبح فضيلة يجمل أن يتحلى بها ليريح الناس منه. . . أنت أذن تخشى شيئين. . . أولهما هذا الفتور الذي قام بين (صاحبي القصر المسحور) فباعد بينهما إلى حين، وجعل الكلام عنهما كهذا الشوك الذي ينبت في أعواد الورد، فيخيف الأيدي الناعمة من أن تمتد، والأرواح الظامئة من أن تتطلع. . . أما ثانيهما فهو كتابتك في (الرسالة) عن صاحبي، أي عني. . . و (الرسالة) هي التي نشرت تلك الكليمات التي نفثها صاحب (شهرزاد) فيما شجر بينه وبين صاحب (فاتنة) أي صاحبي. . . والرسالة أيضاً لها (وعكتها) التي فترت العلاقة بين صاحبها وبين أعز أصحابه عليه، وأحبهم إلى نفسه، لأنه زميل الصبا، وخدن الشباب، وصاحب الحق الأول في فؤاده، والشريك الذي بنى معه مسرح هذا الأدب في مصر. . . لا لا يا صديقي، دع ما يريبك من أمر الصداقات إلى ما لا يريبك من أمر الأدب، فللصداقات عتاب يحلو أو يمر، وللأدب نقد يسلس أو يقسو، وينعم أو يعنف؛ والصداقة شئ، والأدب شئ آخر. ولن يقبل النقد صداقة من الصداقات فيجعلها عداوة إلا في الأمم الصغيرة الفقيرة من القلوب الكبيرة، فإذا عرفت لما أرجف المرجفون عن (شهرزاد) وعن (أحلام شهرزاد) وما تخرصوا به من أخذ هذه عن تلك، فإنما تعرض لموضوع أدبي لم يشد منه المتخرصون إلا ألفاظاً أو عبارات لا كيل لها ولا وزن. وهم قد أوردوها، حينما أوردوها، ليوهموا أنهم بلغوا بها لباب النقد الصراح، وقطعوا بسقطها جهيزة كل خطيب. . . أما صاحب الرسالة، والكليمات التي نشرها لصاحب شهرزاد، فصحيفته كانت وما تزال صحيفة الأدب والنقد الخالص البريء. . . وآية ذلك أنني تعمدت أن أختارها لك لتكتب عني فيها، لتقطع ألسن المرجفين والخراصين، ولتفتح أعينهم التي غشيت إن لم تكن قد عميت، على صورتي الرائعة التي هي ابتكار جديد لم يسبق أحد صاحبي إليه، ولا استطاع أحد أن ينبت في جنة شهرزاد زهرة أينع منها، ولا أعبق من شذاها شذى. . . هذه كلمات سيضيق بها النافسون على صاحبي أشد الضيق، ولكن قلها ولا عليك مما ينفسون من شئ، فلن يضر زحار الغل إلا أهله، ولن يأكل إلا قلوب أصحابه. . . ثم لا تنس أن صاحب الرسالة هو الرجل الذي أثار موضوع النقد منذ أعوام فجلاه أحسن تجليه، واستبقت الأقلام وراء قلمه تؤيد ما يقول، وتفصل ما يجمل، وأنك أنت يا صاحبي كنت أحد الكاتبين فيه، المؤيدين لوجهة نظر صاحب الرسالة. . . ثم أذكر أنه صرح لك بجمالي، واعترف بروعتي، وحسبك أن يصرح الزيات بجمال فاتنة، وروعة فاتنة، لتكتب أنت عن فاتنة. . . أما أختي. . . أما شهرزاد التي ملأت أحلامها، فأنت الكفيل بأن تنافح عنها، وتكافح في سبيلها، وأنا ضامنة لك أنك منصفها من هراء ما أرجفوا به عن غير علم، وجفاء ما شقشقوا به بغير هدى ولا كتاب منير. . . ويدعي الخراصون أن صاحب شهرزاد قد أصبح أنانياً، وذلك أنهم قالوا إنه غضب لأن زميله في القصر المسحور قد كتب في (شهرزاد) كتاباً مستقلاً ترجم به عن أحلامها؛ كأن شهرزاد لم تكن موجودة منذ قرون ثم وجدت، أو كأنها شئ من ابتكار هذا الجيل فلا يصح إلا أن تكون حبساً على فلان أو فلان من زعماء الأدب الحديث. . . ولو عقلوا لتأدبوا أولاً، ثم لعلموا أن الوقعية على هذا النحو شئ خسيس لا يليق بكرامة نهضتنا ثانياً، ثم لذكروا

أن صاحب شهرزاد ليس أنانياً وأنه صاحب فطنة ونباهة، وأنه ليس من الخفة بحيث ينطلي عليه ما زعموه له من السرق
. . . . . .وإن الذي بيني وبين بني أبي ... وبين بني عمي
ومختلف جداً ما جاء في شهرزاد وما جاء في أحلامها، وشهرزاد تلك مغايرة لهذه في طبيعتها وفي خلقها. وفي شهوتها البهيمية وفي وسائلها وفي أصحابها، وفي الملعب الذي شهد حياتها مذ وجدت ومن قبل أن توجد، بل هي مغايرة لهذا في كل شئ؛ حتى في الهواء الذي تنفسته. بل هي مغايرة لها في كل شئ حتى في المؤلف الذي كتبها، وفي القلم الذي كتبت به. . . وإلا فأين عدو المرأة من صديق المرأة؟ وأين الرجل الذي يعد المرأة دمية، من الرجل الذي يعدها نصف هذه الحياة على الأقل؟ أين الرجل الذي يحسب أن المرأة مما يستخف اللعب به، والإزراء عليه، ووضعه في إطار لتعليقه فوق جدران الصالونات، من الرجل الذي يعرف أن المرأة خلقت لما هو أسمى من اللهو، وأهم من اللعب، وأقمن بالجد! نحن هنا نقول لا لنغضب أحداً، ولا لنرضى أحداً. . . فأمامنا رجلان لكل منهما مؤلفات ولكل منهما كتب، ولكل منهما مذهب في الأدب لم يعد من الهين السهل إنكاره أو تجاهله. . . أما أحدهما فيباهي بأنه عدو للمرأة، فهو دئب في الإزراء عليها والتنديد بها والغض من نصيبها في الحياة، وأما الآخر فهو في الجانب الآخر من صاحبه، لأنه يعد المرأة شيئاً عظيماً جداً إن لم يكن أهم من كل شئ، فهو دائب في الإشادة بها، والثناء عليها، وإحلالها المكان الذي يسمو فوق الرقاعات. والعجيب أن كلا الرجلين في مركز يبيح له ذلك، فالأول غير متزوج وليس له أبناء، ولم يقع على كاهله من مسئوليات الحياة ما يفسد عليه طريقته في التفكير التي قد يراها حقاً، ويراها الناس بلاء. ثم هو لم يعرف هذا الشعور الأبوي الجليل، ولم يسمع بعد مخلوقاً ظريفاً فصل عن قلبه يناديه ذلك النداء الثمين: (بابا!) أو باللغة العربية الفصحى: (يا أبي!) ذلك النداء الذي يوشك أن يكون الفرق بين الرجلين، والذي هو خليق أن يغير الوسيلة التي يفكر بها كل شخص في هذا الوجود. أكتب هذا يا صديقي عني. . . أكتبه عن فاتنة. . . أكتبه معتقداً أنه الحق، وهو بذلك لن يغضب أحداً ولن يرضي أحداً. . .! إن لم يرض الجميع. . . فأكبر الظن أن الجميع عقلاء. ثم هذا هو الوضع الصحيح لكلا الرجلين. فأي غضب وأي رضى، وأي سخط وأي بشاشة؟ لماذا يسخط صاحب شهرزاد إذا غضبت شهرزاد الحكيمة الحازمة حين ترى كاتباً يسلم جسمها للعبيد السود، ويدعي أنها هي التي تصنع هذا وتتشهاه راضية! لقد حق لشهرزاد أن تثور وأن تسخط إذا كانت شهرزاد رمزاً للمرأة في كل زمان ومكان. لقد حق لها أن تثور وأن تسخط إذا كانت حقاً رمزاً لبناتنا وأخواتنا وأمهاتنا وزوجاتنا. . . بل رمزاً للمخلوقة المقدسة التي تصنع سعادتنا وشرفنا وتبنى منزلنا وتغدو أرواحنا، وتقيم لنا حياة العزة التي نصبو إليها ونحلم بها، وتملأ دائماً خيالنا وتستأثر بعبادتنا لأنها من الله بل هي جماع ما يأمرنا به الله. . . شهرزاد هذه تغضب أشد الغضب، وتثور أعنف الثورة إذا انحط بها كاتب إلى صفوف العاهرات. وكل رجل لا يغضب معها ويثور لثورتها هو زوج فقد نخوته، أو أب لا يهمه شرفه، أو أخ ليس فيه مروءة، أو ابن معدوم المجدة، أو قريب ليس عنده نحيزة. . . ولا يصح أن يكون هؤلاء آدميين إذا أخذوا بوجهة النظر الخسيسة
هذه في شهرزاد. . . حينما تكون شهرزاد رمزاً للمرأة. . . ثق يا صديقي أن أحداً لن يغضب من هذا الكلام الذي تقوله بلساني، لأن أحداً لا يرضى أن ينتسب إلى هذا الصنف من صنوف شهرزاد إلا إذا كان فسلا أو أفيكا أو مدخولاً في عقله. لن يرضى أحد أن ينتسب إلى هذا الصنف من صنوف شهرزاد بأبوة أو أخوة أو بنوة أو قرابة. . . واليوم الذي يرضى فيه أحد بشيء من هذا هو اليوم الذي تنعكس فيه معايير الأخلاق وتكون الفضائل والرذائل صفات اعتبارية وشعبذات لا قيمة لها إلا في إفهام النوكي والقعاديد. . . وإذا صح أن يكون الناس قد صاروا نوكى وقعاديد، صح أن تؤلف لهم قصة عن شهرزاد تهدف بالمرأة إلى هذا الهدف الوضيع الذي يجعل بيوت الناس مواخير فسق، وأسواقاً للبغايا. . . هاأنت ذا تشيع في وجهك حمرة الخجل يا صديقي لمجرد ذكر هذه الألفاظ التي
لم تتعود إيرادها في أي مما كتبت، ولكن ما حيلتك وأنت تريد أن تكتب حقاً. ثم ما حيلتك وقد لقيت شهرزاد هذا ذاك الرواج الذي لقيت بين جمهور القراء فهبطت بهم

ولم تعل، واشتركت العوامل التي أوشكت أن تفسد الاتجاه الأدبي في نهضة هذا الأدب، إن لم تكن قد أفسدت بالفعل. فإذا جاء كاتب أب. . . كاتب له زوج وأبناء وبيت ليكتب عن شهرزاد كتاباً جديداً يدفع به تلك الوصمة التي أخجلت، وينبغي أن تخجل الأمهات والأخوات والزوجات، إذا جاء هذا الكاتب ليكتب ذلك الكتاب، هب الخراصون يتفيهقون ويقولون إنه إنما سرق، وإنه إنما سوغ لنفسه أن يدعي لنفسه ما لغيره، وأن يعيث فساداً في بستان أخيه، وأن ينفش في زرعه؟ ولماذا؟ لأن عبارة أو عبارتين اتفقتا في الكتابين، وتواردتا في القصتين! ناسين أن الكتابين قد اشتركا في مصاحبة شهرزاد في قصرها المسحور، فكتبا عنها كتاباً يترجم عن فهما، ويشرح طريقتهما، ويحكم لأحدهما وعلى الآخر، ويتناول بالتفسير ما ذهبنا إليه من عناصر تلك القضية. ما هذا؟ كيف يفهم هؤلاء الأدب؟ أيكفي أن يقرءوا القصة من القصص في سيارة أو عربة ترام ليصدروا عنها حكمهم وهم يهزلون؟! لا. لا. . . ينبغي عليهم أولاً أن يفهموا أن الذي بين صاحب شهرزاد وصاحب أحلام شهرزاد، مختلف جداً. فأحدهما مشرق والآخر مغرب، وأحدهما يرمي إلى غرض يهدف الآخر إلى ضده. أحدهما يعد المرأة شهوة تفسد كل شئ. المرأة عند أحدهما شيطان مريد، وعند الثاني ملاك بار رحيم. فليفهم الخراصون قضية الكاتبين على هذا النحو. ثم ليقرءوا القصتين من جديد على هذا النور الجديد. ليضعوا عناصر القضية مرتبة أمام بصائرهم. ليقرءوا شهرزاد أولاً، ثم ليقرءوا القصر المسحور ثانياً، ثم ليقرءوا أحلام شهرزاد بعد ذلك، وليذكروا من هو كاتب شهرزاد وما مزاجه في المرأة، وما رأيه الذي يفرق به بين جسدها وبين روحها، وليذكروا، مالا يني يكتبه عنها، وما يفخر دائماً أنه مذهبه في كل ما يتعلق بها. ثم ليذكروا من هو كاتب أحلامها وما طريقته في الأدب، وما رأيه في المرأة، وماذا كتب وما يزال يكتب عنها

ليفعلوا هذا، أو فلينتظروا حتى نعرض لهم كل ذلك.

قالت فاتنة: (أكتب ذلك يا صديقي عني، فقد آن أن تجد المرأة من ينافح عنها، ويكافح في سبيلها.)

درينى خشبة

ثورة في الأخلاق

للأستاذ محمد يوسف موسى

كان من حكمة الله ورحمته بالإنسانية أن أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم للعرب خاصة وللناس كافة على فترة من الرسل، والناس في عمى عن الحق. وضلال عن الهدى، وجهالة شملته من أدناه إلى أقصاه. فقد كان من الناس قبل بعثة المصطفى من قال: ما يهلكنا إلا الدهر، ومن زعم أنه لا يبعث من يموت، ومن يعبد إلهين اثنين واحداً للخير وآخر للشر، ومن جعل يقيم من الأحجار أوثاناً وأصناماً يعبدها ويقدم لها القرابين حتى من أبنائه وأفلاذ كبده! هذا في ناحية العقيدة. أما في ناحية الخلق والأجتماع؛ فكان البغى والعدوان، وأكل مال اليتيم، وهضم حق الضعيف، ونصر الأخ ظالماً أو مظلوماً، واستبداد الأكسرة والقياصرة بمن استرعاهم الله من خلقه. كان الأمر كذلك وشراً من ذلك، حتى نظر الله للإنسانية المهضومة، والقلوب الحائرة، والنفوس المتطلعة لنور يهدي به الله خلقه بعد ضلال، ورشد يخرجهم من الظلمات، ورحمة تعمهم جميعاً، فكان محمد هو الهدى والرشد والرحمة والنور، وبه تمت نعمة الله على خلقه وقامت حجته عليهم، بما جاء به من عقيدة وتشاريع وأخلاق، بها صلاح العالم ما أخذ بها ومشي في ضوئها.

ولست أريد الآن أن أفصل ما ذكرت، أو أن أوضح ما أجملت، فحسبي في مقامي هذا الإشارة والإجمال، وفي ذلك بلاغ لقوم يعلمون. إنما الذي أرجو أن ألفت إليه النظر بقوة هو أن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم كانت ثورة بكل معنى الكلمة؛ ثورة على العقائد الباطلة، والفوضى الشاملة، والأخلاق الرذلة السيئة. كانت ثورة على هذا كله؛ وإن في بعضه ما كان طيباً في أصله، ثم لما طال به الزمن تغير على أيدي الناس شيئاً فشيئاً، حتى القلب سوءاً وشرا! فما أجدرنا إذاً أن نبحث التراث الذي وصل إلينا، بلا تفرقة بين منبعه وأصحابه، ونأخذ بما فيه من حق، ونثور على ما اندس إليه من باطل فنبعده عنه، وبخاصة في ناحية العقيدة التي بها صلاح المرء وسلامه، والأخلاق التي يتعايش بها الناس ويحكمونها في حياتهم وعامة أحوالهم.

وأرى، قصداً في القول والورق، ألا أتحدث الآن على ناحية العقيدة وما شابها من باطل بفعل بعض المتصوفة وغيرهم من الذين أفسد تفكيرهم فلسفات تلقفوها من هنا وهناك،
دون أن يعنوا بالفحص عنها والتثبت منها، فحادوا عن سواء السبيل. وإذاً فلتكن هذه الكلمة مقصورة على ما يجب من ثورة في ناحية الأخلاق.
ورثنا عن رجالاتنا وفلاسفتنا المسلمين - أمثال ابن مسكويه والفارابي والغزالي - مذاهب في الأخلاق، بينت لنا الفضائل والرذائل بياناً فلسفياً، وحددت السعادة التي يصح أن نسعى إليها، ورسمت لها الطرق والسبل، مستعينة في ذلك كله بهدى القرآن والحديث وبآراء من الديانة المسيحية والفلسفة الإغريقية فكان من هذا المزيج ما نعرفه من الأخلاق الفلسفية التي نتوفر على دراستها في الأزهر والجامعة علها تهدينا السبيل السوي، والتي جمدنا عليها فما غيرنا منها شيئاً، غافلين عن الزمن وتغيره وما جد من تطورات ونظم تقضي بأن نعيد النظر في هذه الأخلاق هذه الغاية - أو السعادة القصوى - التي حددتها تلك المذاهب هي العلم التام والمعرفة الصحيحة بالعالم والله والملأ الأعلى. والوسائل إليها في رأي الغزالي - الذي يعتبر إلى حد كبير ممثل هذا الضرب من الأخلاق - هي التحلي بفاضل الأخلاق، والزهد في الدنيا والإقبال على الآخرة. وهنا موطن من المواطن التي أدعو إلى الثورة عليها.
لم يجئ الإسلام ليمهد سبيل الراحة والسعادة الخاصة لقوم يقبعون في الزوايا والمساجد يسبحون الليل والنهار لا يفترون، ويقنعون بالتافه من الطعام والمرقع من الثياب والضروري من حطام هذه الحياة الدنيا، طلباً لما في الدار الآخرة من جنات عرضها السموات والأرض! لقد جاء الإسلام، وقد بلغت الإنسانية رشدها، فكان ديناً وسطاً لم يفضل الجسم ولا الروح بل عرف لكل حقه؛ فلم يوجب التقشف. ولم يحرم التمتع بما أودع الله من خير في بطن الأرض وعلى ظهرها: (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق)!
(الحديث موصول)
محمد يوسف موسى
المدرس بكلية أصول الدين
للذكرى والتاريخ
طيبة تستقبل فرعون مصر
للكاتب الفرنسى تيوفيل جوتييه
في كتابه قصة المومياء
(إلى جانب المصريين نحن حقاً برابرة)
تيوفيل جوتييه
للأستاذ أحمد أحمد بدوي
يأتي بعد الموسيقى، الأسرى من البربر بسحنهم الغربية، ووجوههم البهيمية، وجلودهم السوداء، وشعورهم المجعدة؛ وإنهم ليشبهون القرد أكثر مما يشبهون الإنسان، ويلبسون زي بلادهم: قباء إلى أسفل الدف، مطرز بزخارف ذات ألوان مختلفة، وتمسكه حمالة واحدة، ويسود في غل هؤلاء الأسرى قسوة غربية ماهرة؛ فبعضهم جمعت كيعانه خلف ظهره، والبعض ربطت يداه مرفوعتين فوق رأسه في أكثر الأوضاع مضايقة، وقسم وضعت يداه في محابس خشبية، وآخرون ربطت رقابهم في حبل يضم صفاً طويلاً، وقد عقدت عقدة عند كل أسير، ويسير إلى جانب الأسرى حرس ينظمون سيرهم بضربات من العصا، ويسير في الخلف بخجل وانحناء سيدات سمر بضفائر طويلة مسترسلة، ويحملن أطفالهن في خرق من نسيج معقود على جباههن؛ وأخريات حسان ذوات جلد أقل سمرة من هؤلاء قد زين أذرعتهن بحلقات ضخمة من العاج، وآذانهن باسطوانات واسعة من المعدن؛ وقد ارتدين أقبية طويلة ذات أردان واسعة، يزينها تطريز لدى العنق، وتنزل إلى أعقابهن، مثناة ثنيات دقيقة مكوية، ويلبسن خلاخيل في أقدامهن، ويصحب هؤلاء الجند ويحفظونهن من الاختلاط بالجمهور
يأتي بعد ذلك حاملو الرايات، رافعين أعلامهم مذهباً قضبانها، وعليها رسوم رمزية؛ من

صقور مقدسة، إلى رءوس هاتور يعلوها ريش النعام إلى لقالق ذات أجنحة، إلى أختام منقوشة باسم الملك، إلى تماسيح ورموز أخرى دينية أو حربية؛ وقد عقد بهذه الرايات أربطة بيضاء زينت بنقط سوداء، تجعلها حركة السير ترفرف برقة

لدى رؤية حاملي الرايات الذين يعلنون مقدم فرعون، أخذ نواب القس والأعيان يمدون أيديهم نحو فرعون في هيئة احترام تام، أو يتركون أيديهم على ركبهم مديرين راحاتهم للهواء، وبعضهم ينحني شاداً مرافقه إلى جسمه، وجبهته منحنية تبدي الخضوع المطلق والتقديس العميق؛ بينما النظارة يحركون في كل جهة ما معهم من سعف النخل

بين حاملي الرايات وحملة المباخر الذين يسبقون هودج فرعون، مناد يتقدم وحده وبيده منشور تغطيه الرموز الهيروغليفية؛ يعلن هذا المنادي بصوت قوي رنان، كأنه صوت من النحاس، انتصارات فرعون ويتحدث عن الحظ الذي صادفه الملك في مختلف مواقعه، وعدد الأسرى وعربات الحرب التي أخذت من العدو، وقدر الغنيمة، وقيمة برادة الذهب، وأسنان الفيل، وريش النعام والعطور، وعدد الزراف والأسد والفهود والحيوانات الأخرى النادرة؛ ويذكر أسم رؤساء البربر الذين قتلوا بحراب جلالته أو سهام ذلك الملك القادر على كل شئ محبوب الآلة، ولدى كل خبر يهتف الشعب هتافاً عالياً، ومن أعلى الجدران يرمون في طريق المنتصر سعف النخل الذي يلوحون به

وأخيراً يظهر فرعون.

بعض الكهنة يضعون البخور على الفحم المتقد في كوب صغير من البرنز، له يد على هيئة صولجان ومن الناحية الأخرى ينتهي برأس حيوان مقدس، ويسيرون باحترام بينما الدخان المعطر الأزرق يصعد إلى أنف المنتصر الجالس في هيئة من لا ينتبه إلى هذه التشريفات كأنه إله من البرنز أو البازلت

اثنا عشر رئيساً حربياً يغطي رؤوسهم خوذات خفيفة، عليها ريش نعام، أنصافهم العليا عارية، والسفلى يغطيها منطق ذو ثنيات عريضة، ويضعون أمامهم تروسهم معلقة بأحزمتهم، هؤلاء يحملون نوعاً من الهوادج عليه عرش فرعون، وهو كرسي له أذرع وأرجل على هيئة الأسد، وله ظهر مرتفع، وعليه حشية عالية، وقد زين جانبه بشبكة من الورد الأحمر والأزرق، وذهبت يدا العرش وأرجله وجوانبه، أما الأماكن التي خلت من التذهيب فيملؤها ألوان زاهية

وعلى كل جانب من المحمل يحرك أربعة رجال مراوح ثقيلة من الريش على شكل نصف دائرة، وعيدان هذه المراوح مذهبة؛ ويحمل قسيسان قرناً مزخرفاً زخرفة باهرة، ويسقط منه باقات اللوتس الضخمة

كان فرعون يضع على رأسه تاجاً به فتحة ينفذ منها صوان الأذن، ثم ينسدل على العنق ليحميها، وفي القسم الأزرق من التاج يلمع كثير من النقط التي تشبه أهداب الطائر، وهي مكونة من ثلاث دوائر سوداء وبيضاء وحمراء، وله إطار قرمزي وأصفر بين حافته. والثعبان الرمزي عاقفاً حلقاته الذهبية على الجزء الأمامي من التاج يتدلى وينفتح فوق الجبين الملكي، ويتهدل على الأكتاف خصلتان من الشعر المصفف طويلتان لهما لون أرجواني، ويكملان غطاء الرأس ذا الأناقة والعظمة

ويتدلى على صدر فرعون عقد ذو سبعة أدوار من الميناء والحجارة الكريمة والدرر والفصوص الذهبية التي لها في الشمس بريق وهاج خاطف

ويلبس الملك نوعاً من الأقمصة به مربعات وردية وسوداء، وينتهي بأربطة تلتف مرات عدة حول جذعه، وتضغطه بقوة؛ وكماه المشقوقتان من أعلى تدور عليهما خيوط ذهبية، وحمراء، وزرقاء، تريان ذراعين عظيمتي العضل قويتين، وباليد اليسرى مقبض من المعدن مخصص، ليخفف من احتكاك الوتر عندما يرمي فرعون سهماً من قوسه، واليد اليمنى يزينها سوار مكون من ثعبان يلتف عدة مرات على نفسه، وتقبض على صولجان من الذهب ينتهي بزهرة لوتس؛ وباقي جسمه ملتف بنسيج من أدق أنواع الكتان ذي ثنيات كثيرة، ويثبته على الخصر حزام عليه صفائح من الميناء والذهب، وبين القميص والحزام يبدو الجسم مضيئاً مصقولاً كأنه جرانيت وردي نحتته يد صناع، ويلبس في قدميه الدقيقتين الطويلتين صندلتين محنيا لسانهما، ويشبهان قبقاب التزحلق،

ويجلس واضعاً إحدى قدميه قريبة من الأخرى، كما نرى في أقدام الآلهة المنقوشة على حيطان المعابد
وجه فرعون مصقول أمرد ذو سمات نقية، يبدو أنه ليس في مقدرة أي انفعال أنساني أن يغيرها، وشفتاه نابتتان، وعيناه واسعتان يزيد في سعتهما الخطوط السود، وأهدابهما لا تطرف كأهداب الصقور المقدسة. وإنه ليوحي بسكونه الرهبة والاحترام؛ ويقال إن عينيه الثابتتين لا تريان إلا الخلود واللانهاية، أما ما حولهما من الحوادث فيبدو أنه لا ينعكس فيهما. وإن الاشمئزاز من اللذائذ والتعب من الرغبات التي تجاب حالما تبدى، والتفرد بان
يكون نصف إله لا نظير له بين البشر، والضجر من طول ما عبد، والملل من النصر، عقدت إلى الأبد هذا الوجه الجميل الصافي. وإن أوزيريس القاضي بين الأرواح ليس أكثر منه عظمة ولا هدوءاً
إلى جانب فرعون، يرقد فوق المحمل أسد خاص به، ماد إلى الأمام مخالبه كأنه تمثال أبى الهول فوق قاعدته، ولكنه يطرف بعينيه الصفراوين.
يصل هودج فرعون بالعربات الحربية لزعماء المغلوبين حبل، وهم مقودون خلفه كأنهم حيوانات ذات مقاود، وإنهم بهيئتهم الحزينة الوحشية، قد جمعت مرافقهم بالعصائب، ويكونون منظراً شنيعاً، ويهتزون بغير نظام كلما اهتزت عرباتهم التي يقودها حوذيون من المصريين.
بعدئذ تأتى العربات الحربية للأمراء الشبان من الأسرة المالكة، ويجر هذه العربات خيول من جنس أصيل وهيئة جميلة، وسيقان دقيقة، وأقدام كثيرة الحركة، وأعراف منظمة، ويسرج كل اثنين منها معاً، وقد زينت رءوسها بالريش الأحمر. وعلى جباههما يلمع المعدن وفى فمها شكيمة منه. ويستند إلى كواهل الحصن عريش منحن ذو حلقات متفرقة، وعلى كل حصان ميثرتان عليهما كرتان من النحاس اللامع، يجمعهما نير دقيق منحن إلى الداخل، ويكمل سرج الحصان بحزام وسير صدري مخيط، ومزخرف زخرفة كثيرة، وجلال عليها خطوط كثيرة زرقاء وحمراء، ولها هداب وخمل؛ فسرج الحصان متين جميل خفيف.
أما العربة فمطلية بالأحمر والأخضر، ولها صفائح وأنصاف كرات من البرنز تشبه وجه الدرع، وهى مجهزة بكنانتين كبيرتين موضوعتين بانحراف، إحداهما تحوي حراباً والأخرى سهاماً، وعلى كل وجه أسد منحوت مذهب، مخالبه ساكنة، وفمه مفتوح كما لو كان يزأر ويبغي الوثوب على الأعداء.
ويلبس شباب الأمراء على رءوسهم شريطاً يضم شعرهم، ويلتف عليه الثعبان الملكي نافحاً أوداجه، ويرتدون قميصاً مزخرفاً لدى العنق والأكمام زخرفة باهرة، ويحيط به لدى الخصر منطقة من الجلد يربطها مشبك من المعدن، قد حفرت عليه نقوش هيروغليفية، ويعلق بهذه المنطقة خنجر كبير، حافته مثلثة من النحاس، ويده مضلعة تنتهي برأس صقر؛
وفى كل عربة يجلس بجانب كل أمير حوذي مكلف بأن يقود العربة في أثناء المعركة، وتابع يحمل سلاحاً، وهو مكلف بأن يدفع بالترس الضربات الموجهة إلى الأمير المحارب عندما يكون هذا رامياً بالسهام، أو مهيئاً الحراب التي يأخذها من الكنانة الجانبية
عقب الأمراء تأتي عربات الفرسان المصريين، وعددهم عشرون ألفاً، كل ثلاثة في عربة يجرها حصانان، وتتقدم العربات عشرة عشرة، وتكاد أقطاب عجلاتها تتماس، ولكنها لا تحتك أبداً، لأن مهارة الحوذيين عظيمة.
بعض العربات خفيف خصص للمناوشات والاستطلاع، ويسير في المقدمة، ولا يحمل إلا محارباً واحداً، ولكي تكون يداه حرتين في أثناء المعركة يلف زمام عربته حول جسمه، ويجذبه إلى اليمين أو إلى الشمال، أو إلى الخلف، ليدفع أو يوقف حصنه، وعجيب جداً أن ترى هذه الحيوانات النبيلة التي تبدو كأنها متروكة لنفسها تحفظ في سيرها اتجاهاً منتظماً لا يتزعزع
مشي الخيل المكبوحه بعنف، وضوضاء العجلات ذات الإطار البرنزي، وقعقعة الأسلحة المعدنية منحت هذا العرض شيئاً من الوقار والخوف، حتى ليقذف الرعب في اكثر القلوب بسالة؛ والقبعات والريش والتروس، والأدرع المزينة بفلوس خضراء وحمراء

وصفراء، والأقواس المذهبة والسهام النحاسية، تضئ وتلمع مخيفة في ضوء الشمس الساطعة في كبد السماء فوق سلسلة الجبال الليبية، كأنها عين كبيرة لأوزيريس - كل ذلك يشعر أن مثل هذا الجيش يجب أن يمحو الأقطار أمامه إذا اصطدمت به، كعاصفة تطرد أمامها عوداً من التبن ضعيفاً.

تحت هذه العجلات التي لا عد لها، ترن الأرض وترتجف خفية كأن ظاهرة طبيعية تحركها

بعد العربات تأتي كتائب المشاة سائرين في نظام، يحملون تروسهم في اليد اليسرى ويحمل بعضهم في اليد اليمنى رمحا، وبعضهم قوساً، وطائفة نبالاً، والأخرى أفؤساً؛ ويلبس هؤلاء الجند على رءوسهم خوذات يزينها ضفيرتان من شعر الخيل، وأجسامهم مشدودة بدروع من جلد التماسيح

عدم التأثر الذي يلوح على هؤلاء الجند، والنظام التام في حركاتهم، ولونهم النحاسي الداكن

الذي كستهم به غارة حديثة في الأقطار المحرقة من أثيوبيا العليا، وغبار الصحراء الدقيق على ملابسهم؛ كل أولئك يوحي الإعجاب بهم وبشجاعتهم وإنه بمثل هؤلاء الجنود استطاعت مصر أن تفتح العالم

بعدئذ تأتي الجيوش الحليفة، ومن السهل معرفتها من النظام البربري في المغافر التي تشبه تيجاناً مقطوعة أو عليها أهلة مجتمعة في طرف. وإن رماحهم ذات الحدود القاطعة وفئوسهم المشقوقة يجب أن تحدث جراحاً لا أمل في الشفاء منها.

يأتي بعد ذلك العبيد يحملون ما أعلنه المنادي من جزية على أكتافهم، أو على محامل؛ وبعض المروضين يقود نموراً وفهوداً تفحص الأرض كأنها تريد أن تختفي، ونعاماً يصفق بأجنحته، وزرافاً يرتفع على الجمهور بطول عنقه، ودببة رمادية يقال إنها مجلوبة من جبال القمر

منذ وقت طويل عاد الملك إلى قصره، بينما كان الموكب لا يزال يسير

أحمد أحمد بدوي

مدرس بحلوان الثانوية للبنين

روسيا والحرب الخاطفة

لليوزباشى حسين ذو الفقار صبري

يتساءل الكثيرون عن السر في تحول أداة الحرب الألمانية عن نجاحها الخاطف أثناء فترة الحرب الأولى إلى هجومها الجاهد المكدود عبر الفيافي الروسية خلال الصيف الماضي

فقد رأينا بولندا وفرنسا تنهاران في لمح البصر تحت ضربات خاطفة، بهرتهم ثم صعقتهم، ورأينا جيوش يوغسلافيا واليونان تتمزق إرباً، ثم رأينا نفس الأمر يتكرر في روسيا، خلال الأسابيع الأولى من القتال؛ ثم. . . ماذا؟ كنا قد كونا رأياً عن نتيجة خلناها محتومة، فلما تلفتنا شاهدنا عكس ما تعجلنا استنتاجه فماذا كانت الأسباب؟

إن الحرب الخاطفة هي الحرب الاستراتيكية المثلى، هي الحرب التي ترمي إلى تفكيك أوصال العدو دون قتال، تفصل القوات عن قواعدها، تحيط بها دون أن تشتبك معها، تهدد العدو في مؤخرته عندما تكون أسلحته في المقدمة، تراوغه عندما يتقدم فتورطه هنا وهناك وفي كل مكان، فلما تتباعد قواته وتتفرق، وتتفتت إلى فئات منفصلة، فاقدة كل اتصال، غير محتفظة بأدنى تماسك، مقبلة على الانحلال، تعطى الكلمة عندئذ للطائرات بينما تضغط عليها بعض القوات، فما أسرع أن تبادر الجيوش المنحلة إلى التسليم، أو تصمد فتباد.

وما أسهلها عملية لجيش ميكانيكي حديث، لا يركز مجهوده إلا أمام أضعف المراكز، ما يكاد يخترقها حتى ينفذ إلى المؤخرة مسارعاً إليها على شكل مروحة ضخمة، شعابها مهما تفرعت فهي ما تزال يدفعها تصميم مشترك، إنجازاتها متنوعة وأوامرها هي هي، لا تفقد اتصالها اللاسلكي ببعضها، تستمر في ضغطها حتى يتفتت أمامها مجهود العدو استعداده لمثل هذه الأحوال التي ما كانت تخطر على البال

تعتمد الحرب الخاطفة على مقدرة الدبابات على اختراق الاستحكامات بأقصى سرعة، ثم النفاذ منها إلى ما وراءها، ثم استمرار القوات الراكبة في التقدم السريع حتى تنحل أوصال الجيش، ولكن هذا الانحلال لا يطرأ إلا بعد وقت يتحتم على القوات المتقدمة

أن تظل أثناءه مستمرة في حركاتها الهجومية، وهذه الحركة المستمرة لها حدود، يحدها أولاً قوة احتمال الجنود، وثانياً كمية الوقود، ثم ضرورة تعهد الآلات بين الحين والحين، ولذا لم
تنجح الحرب الخاطفة إلا عندما كانت أغراضها في الميدان داخل نطاق مجهودها؛ فالقوات الألمانية التي اخترقت سيدان توقفت بعد بضعة أيام عند المانش، وتلك التي هاجمت (سكولبي) توصلت بعد بضعة ساعات إلى قلب مواصلات البلقان وقبضت على محورها العتيد؛ وعلى عكس الرأي السائد، لا تبقى الدبابات في المقدمة طوال المعركة، بل إنها بمجرد اختراقها الاستحكامات الرئيسية ترتد إلى الخلف كاحتياطي ثمين، لا يستعمل إلا للضرورة القصوى عندما تصمد بعض الموانع الطارئة في طريق المتقدمين المكونين من (وحدات راكبة).
إن أول ما واجه الألمان من العقبات في روسيا هو انبساط المساحات، فرموا إلى التغلب على ذلك بتقسيم هجماتهم على دفعات، أهداف كل هجمة مراكز المواصلات القريبة منها، إذ باحتلال هذه تشل حركة إعادة تنظيم الصفوف الروسية في ميدان القتال بينما يكون الألمان قد أسرعوا في إعادة الاستعداد للخطوة التالية، وهكذا دواليك. وقد ساعدهم مساعدة كبرى مجهود الدكتور (فرتز طود) الذي خلفه (شبير) بعد وفاته في إنشائه، أولاً فأولا، خطوطاً خلفية للمواصلات، مقاطعة لاتجاه الزحف، فأصبحت القوات الألمانية قادرة على الانتقال من قطاع إلى قطاع تبعاً لمقتضيات الحال دون كبير عناء.
زحفت الجيوش الألمانية حتى احتلت روسيا البيضاء وجزءاً من أكرانيا؛ وكانت الفصائل الروسية، في حالة انعزالها عن بعضها البعض، تقاوم مستميتة بدلاً من أن تستلم مستيئسة، وذلك لأن الروس كانوا قد فطنوا الحقيقة بديهية، هي أن المناطق المزدحمة بالمساكن خير ما يقاوم نطاح الدبابات، فعملوا على أن تكون فصائلهم مكيفة بمئونتها وذخيرتها، لا تحتاج إلى أن تمون أمداً من الزمان، فما تكاد تحس بخطر التطويق حتى ترتد إلى وكرها المخصص وتنكمش فيه، مدافعة عن نفسها في كل اتجاه، محتفظة بعدد مناسب من الدبابات، تدفعه إلى الخارج من حين إلى حين، مقطعة مواصلات العدو، مربكة إياه، لا يكاد يعرف أهو الذي أحاط بها أم هي التي اندست في جوفه، وهل هو الذي فصلها عن قواعدها أم هي التي تعارض سيل تموينه، يهاجمها بمشاته المختارة فتشتتهم بدباباتها، يحاول اقتحامها فتصليه ناراً حامية؛ فيضطر أخيراً إلى إخراج ما في جعبته من دبابات وطائرات منقضة فيلقى هذا الاحتياطي الثمين في صميم المعمعة، تلك الدبابات وهذه
الطائرات التي كان يود أن يحتفظ بها للأوقات العصيبة، يطلقها الآن من معاقلها على نقط متفرقة متناثرة، كل نقطة منها تستلزم لإخضاعها اشتباكاً عنيفاً، خسائره مرتفعة ونتائجه الإيجابية فقيمة، ولكنه إن أهملها انقلبت عليه شراً وبيلاً.
إذا أشرفت عندئذ القوات الزاحفة في المقدمة على استحكامات جديدة تلتفت لدباباتها، فتجد أنها منشغلة عنها في مائة معركة صغيرة، فيعجز الجيش عن شق طريقه إلى الأمام حتى تعود إليه أسنته القاطعة، وهى لا تعود، أو قد تعود مضمحلة العدد مكلومة النصل، مستلزمة من العناية الكثير حتى تعود لسابق عهدها، ومن الزمن ما طال حتى يعاد تنظيمها.
توصلت الجيوش الروسية إلى تحويل سلاح العدو الاستراتيكي الأمثل إلى وحدات تكتيكية صغيرة، وفقدت الدبابة وظيفتها العامة وانقلبت منها إلى العمليات المحلية الخاصة، وهكذا انهارت دعامة الحرب الخاطفة. . .
أرجو ألاَّ يفهم القارئ أنى أقرر أن نجم الدبابات قد أفل أو قارب الأفول، فما أبعد ذلك عما أقول. . . بل الأمر بالعكس، فقد أصبحت الجيوش تطالب بأضعاف أضعاف ما عندها من دبابات، بل وحتى بتحميل المدافع الضخمة على الجرارات، فإذا ألقت ببعضها في الاشتباكات لمحلية، تبقى لها البعض الآخر لمتابعة التحركات الاستراتيكية لما أتى الصيف الماضي تراجعت القيادة الألمانية عن الخطط الخاطفة، وأحلت محلها خطة جديدة، قد يحسن أن نسميها بخطة (الكتل الميكانيكية)؛ لم تعد القيادة الألمانية تسمح لآليات الدبابات بالاستمرار في التقدم تاركة لها حرية التصرف، بل أصبحت تحدد أهداف هذه داخل نطاق ضيق حتى ينفسح لبقية الجيش الوقت الكافي لإخضاع

مراكز العدو الحصينة المتروكة في الخلف، يهاجم هذه بقلاع متحركة من المشاة الراجلين داخل مثلثات من الدبابات الثقيلة ذات المدافع الضخمة والدروع السميكة أصبحت تلك المراكز الروسية المنعزلة متحكمة في شبكة المواصلات، لأن مراكز المقاومة هذه تتجمع عادة حول القرى والمدن التي هي دائماً نقط التقاء الطرق وخطوط الحديد المتشعبة منها في كل اتجاه، وأصبح تأثيرها - كما رأينا - عظيما، وذلك لأن الجيوش الألمانية التي كانت في ذاك الوقت أحدث الجيوش تنظيماً وتسليحاً، لم تكن قد التفتت إلى اصطناع وسائل نقل للتموين تتحرك على جرارات، بل ظلت جميع وسائلها سيارات على
عجلات، ففي وسع الأولى أن تنفذ عبر أي أرض خلاء، أما السيارات فهي مرتبطة بالطرق المعلومة وخطوطها المرسومة.
والآن وقد بدأ الألمان يتقهقرون فهل تراهم إلى خطط الروس ملتجئون؟ لا أظن الأمر كذلك، إذ أن الروس انكمشوا في قراهم ومدنهم التي ولدوا وعاشوا فيها طول الحياة، فاندمجوا بارتدادهم إليها وسط الأهل والإخوان، ثم يجب ألا ننسى أيضاً أن القتال في الدور والمساكن يعتمد أكبر الاعتماد على سكانها المدنيين المسلحين بروح الكراهية والعداء لكل غريب دخيل.
سيطر على الحروب في روسيا من قديم الزمان عامل واحد هو هو لم يتغير ولم يتبدل، يقف دائماً أبداً حجر عثرة في سبيل كل مغير، وهذا العامل المؤثر إلى أبعد حدود التأثير هو روسيا نفسها بمساحتها الشاسعة، ولن يتمكن أي قائد مهما أوتي من مهارة وخبرة أن يتغلب عليها إلا عن طريقين لا ثالث لهما: احتلالها تماماً وهذا مستحيل، أو تدمير جيوشها وهذا أمر مستعص عسير.
ظن نابليون أن احتلال موسكو التي هي مركز شبكة المواصلات كاف لإيهان الروس، وغامر ففشل. . .، وحاول الألمان تحطيم جيوشهم في الحرب الماضية بهجوم عنيف، فأخفقوا أمام حيطة الروس؛ ثم تفتق ذهن الجنرال هوفمان عن خطة ما كرة، وهي سحب القوات الروسية إلى جيب ضخم بالانسحاب أمامهم فيندفعون وراءه، وقد أسكرتهم نشوة الظفر وذهبت بحذرهم الأول، فيطبق عليهم فجأة من كل جانب لإبادتهم عن آخرهم. وكانت خطته تستلزم إخلاء أراض فسيحة شرق ألمانيا أول الأمر، منها سيلزيا الغنية بمناجمها؛ فرفض هندنبرج احتمال تبعة ما قد يترتب عن هذا الانسحاب من نتائج مادية وأدبية في سبيل نتيجة مشكوك فيها، ولم يرض بتنفيذها؛ ثم أتى لودندرف فحور من الخطة قليلاً، وحصن حدود الأراضي المزمع إخلاؤها داخل نطاق ضيق، واحتج هوفمان وأشار إلى أنها تصبح عندئذ خطة عرجاء لا تجتذب من جيوش الروس إلا جزءاً يسيراً، ولكن لودندرف تمكن من إقناعه بأنها ستكون أقصى ما قد يوافق عليه هندنبرج. ولما نفذت الخطة الجديدة نتجت عنها (تاننبرج) حيث أبيد زهرة الجيوش الروسية. . .؛ وظل بعدها العملاق الروسي يترنح دون أن يسقط سنتين من الزمان، ولكن خطره العاجل كان قد زال،
ثم حلت عليه مشكلات السياسة، فسلم لألمانيا، وأمضى صلح (برست لتفسك)؛ وظل هوفمان بعد الحرب ينادى بأعلى صوته وفي كل مكان بأن خطته الأصلية كانت كافية لإخراج روسيا من الحرب في التو بضربة واحدة، فهل كان يا ترى على صواب؟.

حسين ذو الفقار صبري

. . .قطرة في بحر

للدكتور عزيز عبد السلام فهمي

تعاليتَ يا بحر هذا جلا ... لك سرُّ الزمان ولغز الحقبْ
تصاحب هذا الزمان وتس ... خر منه وتطويه طيَّ الكتب
تنادم حالكَ منه القرونُ ... ويمضي الندامى مُضِيَّ الحبب
فيا لك قبراً وسعت الزمان ... ولاذ الزمان بذيل الهرب
ويا بحر كم فيك من آية ... تساءلتُ عنها ولم تَسْتَجِب
تهمُّ بأمر وترتد عنه ... وتطمع فيه ولا تقترب
ففيم اندفاعك كالمطمئن ... وفيم ارتدادك كالمضطرب
ويا بحر ماذا يراقص مو ... جك منك وماذا وراء الحجب
تلين وتسكن عند الليان ... وطبع الحليم بطئ الغضب

وتشرَس حتى تئِنُّ الصخور ... ويطفو من الرمل ما قد رسب
وتجمع بين النقيضين جمعَ ... ك بين اللآلئ والْمُخَشْلَب
يشاطرك الآدميُّ الغموضَ ... وترتبطان بحبل النسب
ولن يسبر الغورَ منك الرجالُ ... ولن يكشف النفسَ علم وطِب
تعاليت يا بحر هذا جما ... لك ثغر الطبيعة وهي الغبب
تعربد نشوان حتى المجون ... وتمجن سكران حتى الصخب
تغازلك الشمس عند الغروب ... فأنت اللجين وفيك الذهب
وتشرق منك على صفحة ... ترقرق بين سناها اللهب
وتضفي عليك أكاليلها ... دماءً، وتنشق منك القُضُب
ويجمعك الأفق بالنيرات ... فأنت السماء وفيك الشهب
يسامرك البدر من شرفة ... تَبَرَّج فبها ذوات الذنَب
فتعكسهن على ضوئه ... ويلحظك البدر كالمرتقب
دعاني حنين خَفيٌّ إليك ... فلبَّيتُ يا بحر لما غلب
ويا بحر جئتك أفضي بنفسي ... وأشكو الزمان وماذا جلب
وأغرق فيك همومي وأنْ ... قَعُ يا بحر جرحاً بجنبي وثب
ومَن شاغب الدهر مثلي فما ... له الدهرَ إن زلَّ يا بحر جب
وغدر الزمان كختل الرجال ... ووقع السهام كلسع الرُّقُب
حنانيك يا بحر! يشكو إليك ... غريب تشرَّد حين اقترب . . .
غريب تشرَّد في داره ... وضاقت به الأرض لما اغترب!
تعاليت يا بحر هذا الجلال ... وهذا الجمال وهذا العجب
وهذا نشيدك لحن الحياة ... فغنِّ الحياة ونح وانتحب
عزيز فهمي
من أزهار الشر
لشارل بودلير
العمى
أنعمي النظر أيها النفس في هؤلاء العمى. حقاً إن صورتهم بشعة! وإنهم ليشبهون تماثيل الأزياء ويثيرون في النفس هزؤاً غامضاً. وإن هيئتهم مخيفة، وإنها لفريدة كهيئة هؤلاء النائمين الذين يسيرون وعيونهم مفتحة
هم ينظرون وما أحد يعلم أين أحداقهم التي تغشاها الظلمات. كما أن عيونهم التي فارقتها الشرارة الإلهية تظل شاخصة إلى السماء، كأنما تبصر على بعد، وما من أحد رآهم يحنون إلى الثرى في ذهول رءوسهم المكدودة.
هكذا يشقون الظلام اللانهائي شقيق الصمت الأبدي
إيه أيتها المدينة! انظري، إنني لأعاني ما يعانون، وإنك لترددين الأغاني حولنا، وتغرقين في الضحك، وتصرخين صراخ البهائم، كما تحملك اللذات إلى الفجور.
غير أنني، وأنا أكثر غفلة منهم وذهولاً، أقول: (هؤلاء العمى، ما الذي يبحثون عنه في السماء؟)
ترجمة عثمان علي عسل
البريد الأدبي
الشيخ عبد العزيز البشري
في فجر يوم الخميس الماضي استأثر الله بابن من أبناء العربية، وجندي مخلص من جنود الأدب، وهو المغفور له الأستاذ عبد العزيز البشري؛ فكان لنعيه المفاجئ موجة من الحزن الشديد غشيت أندية الأدب لما امتاز به الفقيد من حسن المحاضرة، وحلاوة الفكاهة، وطلاوة الأسلوب، ودقة الوصف، والإطلاع الواسع على أخلاق الناس وأحوال المجتمع، والعلم الشامل بأسرار الجيل الأدبي المنصرم، تهيأ له بطول الملابسة وحسن المداخلة؛ فكان أعلم من يتحدث عن الأدب والأدباء في العصر الحديث
نشأ رحمه الله في بيت رفيع من بيوت العلم والدين؛ فكان والده الشيخ سليم البشرى شيخاً للأزهر، واخوته طلاباً أو علماء فيه؛ فدرس هو كذلك في الأزهر حتى نال شهادة العالمية، ثم ولى القضاء الشرعي حيناً من الدهر، ثم تقلب في بعض المناصب المدنية حتى أتاه اليقين، وهو المراقب الإداري لمجمع فؤاد الأول للغة العربية

نكتفي اليوم بنعي الفقيد الكريم، وسنعود للكلام عن أدبه وعلمه في فرصة مناسبة. نسأل الله أن يتغمده برحمته، وأن يعوض الأمة العربية من أدبه وفضله خير العوض

ذو القرنين ليس الاسكندر الأكبر

قرأت بالعدد 507 نبذة لأستاذ فاضل عن ذي القرنين يريد بها أن يفند نظريتي الجديدة التي أعلنتها أخيراً على صفحات الرسالة الغراء، وأثبت فيها أن ذا القرنين المذكور في القرآن الكريم ليس الإسكندر الأكبر، وإنما هو لقب ملوك دولة فارس التي أسسها الملك كورش العظيم، وتنتهي بالملك دارا الثالث الذي قضى الإسكندر الأكبر على دولته في عهده. واستندت في ذلك إلى رواية التوراة. وأثبت أن وثنية الإسكندر وسيره المعوج وأخلاقه لا تتفق ووصف القرآن الكريم لذي القرنين الذي كان مؤمناً ويظن الأستاذ أن ديانة الفرس كانت الوثنية، والحقيقة غير ذلك؛ إذ كان الملك كورش ومن جاء بعده إلى الملك دار الثالث على دين زرادشت نبى الفرس الذي كان يقول إنه رسول الله بعثه ليزيل ما علق بالدين من ضلال وليهدى إلى الحق، وكان لهم كتاب مقدس يسمى أوستا ولما انتصر الإسكندر على الفرس كان ذلك ضربة لهذه الديانة، ثم انتعشت بعد ذلك

في العصور الأخرى وظلت باقية إلى وقت دخول المسلمين فارس برغم ما طرأ عليها من التحريف. ولقد عاملهم المسلمون في الفتح معاملة أهل الكتاب وعدوا كتابهم كأنه كتاب منزل. وجرى سيدنا عمر رضى الله عنه على ذلك لما روي له الحديث (سنوا بهم سنة أهل الكتاب) (اقرأ كتاب المسعودي وكتاب ودين زرادشت يؤمن بوحدانية الله والجنة والنار والصراط والأعراف (اقرأ كتاب صبح الأعشى وكتاب الأستاذ والملك كورش هو الذي أمر بإعادة بناء معبد أورشليم لليهود، وكان قد هدمه أحد ملوك بابل من قبل. وجاء بعده الملك قمبيز الذي بمجرد أن فتح مصر هدم معابد المصريين وحطم أصنامهم ومعبوداتهم وقتل بنفسه العجل أبيس (اقرأ كتاب

أما الإسكندر الذي يريد الأستاذ أن يلصق به لقب ذي القرنين بالإكراه كما فعل بعض المؤرخين من قبل، فلقد كان متهتكا يميل إلى النساء والترف وحب الشهوات وشرب الخمر وقسوة القلب وسفك الدماء؛ وكانت قسوته تزداد حتى تصير ضرباً من الجنون إذا شرب الخمر. ولقد قتل وهو نشوان كليثوس صديق أبيه وكثيرين غيره. ولم يكن موته وهو في عنفوان الشباب إلا نتيجة شراهته في الشراب، فلقد تراهن مع قواده على شرب الخمر طول النهار فمرض بحمى قضت عليه. وأوصى وهو على فراش الموت أن يدفن في معبد الإله (مون بسيوة) لأنه كان يدعى انه ابن هذا الإله (كتاب وكتاب فهل بعد هذا نقول عنه إنه غير وثنى. وهل يتفق هذا مع ذي القرنين المذكور في القرآن الكريم الذي جعله الله في مصاف الأنبياء تقريباً؟ فلو وافق على ذلك مؤرخو العصور القديمة، عصور الجهل والظلام فنحن لا نوافق عليه الآن ونحن في القرن العشرين عصر العلم والعقل والنور والمدنية

وآيات القرآن الكريم تنطبق على الملك كورش بشكل مدهش، فلقد أسس دولة عظيمة واتجه غرباً أولاً، حتى وصل إلى البحر واستولى على روسيا وآسيا الصغرى، ثم اتجه بعد ذلك شرقاً، حتى وصل إلى بلاد الهند وبلاد التركستان حيث توجد آثار السد القديم ولا يزال مكانه بين جبلين ويسمى دربندر أي السد. أما الإسكندر فإنه اتجه شرقاً أولاً ثم اتجه جنوباً ولم يتجه غرباً إلا عند فتحه مصر، ومرة أخرى عند عودته من الهند. مع أن القرآن الكريم ينص على أن ذا القرنين اتجه غرباً أولاً ثم بعد ذلك اتجه شرقاً. وهذا خلاف واضح

صريح. ومع ذلك فالتوراة صريحة في ذلك أيضاً. وهى تنص صراحة على أن المقصود بذي القرنين ملوك دولة فارس؛ والمقصود بذي القرن الواحد ملك من ملوك اليونان. فكيف نكذب التوراة ونصدق الآخرين، في حين أن التوراة هي مصدر هذا اللقب. ولقد نزلت آيات القرآن الحكيم عن ذي القرنين بناء على سؤال اليهود للنبي عن ذي القرنين المذكور عندهم في التوراة. فهل بعد هذا دليل أو برهان؟

وأخيراً أصحح كلمة تيمورلنك التي ذكرتها سهواً في مقالي السابق وكنت أقصد جنكيزخان زعيم التتار الذي قضى على الدولة العباسية هو وهولاكو من بعده.

الدكتور إبراهيم الدسوقي

حول تراث اليهود

اطلعت في عدد مضى من الرسالة الغراء على ما كتبه الأستاذ عبد المتعال الصعيدي رداً على الأستاذ طه الساكت الذي يدعى رجوع الإسرائيليين إلى مصر بعد خروجهم، وحكمهم لها استناداً إلى ما جاء في بعض أقوال المفسرين، وبياناً للحقيقة أقرر أن اليهود لم يعودوا لمصر بعد خروجهم منها رغم أنهم طلبوا ذلك من الرسول موسى عليه السلام، بع أن تأكد لديهم اعتزاز الكنعانين في بلادهم وتحصين مدنها، فما جعلهم يجبنون عن محاربتهم. كما بين ذلك القرآن الكريم في قوله: (قالوا يا موسى أن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها ما داموا فيها)

وفي تاريخ برستد في الجزء الخاص بالخروج يحدثنا فيقول: ولما خرج الإسرائيلين من سينا ساروا رويداً حتى وصلوا إلى حافة الصحراء التي تحد عبر الأردن، وأراد موسى الدخول بقومه إلى أرض كنعان، فأرسل رجالاً يتجسسون له، فأتوا، جدون (الخليل) ثم عادوا إليه عبر الأردن وقالوا: إن الشعب في عزة والمدن في مناعة. ويؤيد ذلك القرآن

وهنا يبكي الشعب ويطلب الرجوع إلى مصر، فيحكم عليهم الرب بالتيه أربعين سنة يرعون الغنم في البرية، حتى يموت ذلك الجيل. ثم يذكر رحلتهم إلى أرض أدوم، وموت هرون، وتركهم عبادة الله إلى الأصناف وتعذيبهم بسبب ذلك، ولا يذكر عن رجوعهم إلى مصر شيئاً ولو حدث لما أهمله. ويقول الأستاذ شاهين مكاريوس بك في كتابة تاريخ الإسرائيليين:

وأصابهم في مدة تيههم هذا أمور ومحن كثيرة يضيق بنا المقام عن استقصائها، أخصها فناء الجيل الذي خرج من مصر، إلا رجلين فقط. وقيامهم على موسى يطلبون العودة إلى مصر واطراحهم عبادة الله والاستعاضة منها بعبادة الأوثان، فنزلت بهم الضربات والأمراض حتى تابوا، ولما صاروا على مقربة من أرض الوعد توفى موسى، وعهد بالقيادة إلى يشوع بت نون.

دار العلوم

كامل السوافيرى

إلى الأستاذ محمود تيمور

سيدي الأستاذ الجليل

في 19 مارس 1943 كتبت إلي تقول: (. . . ويؤسفني أن أخبركم بأنني فوجئت بمرض أبني (سعيد) ونقله إلى المستشفى لإجراء عملية استئصال (الزائدة الدودية) له؛ فأرجو أن أتمكن من الاتصال بكم بعد أيام وأنا مطمئن القلب منشرح الخاطر. . .)

وفي 22 مارس، أي في اليوم الثالث لهذه المفاجأة هصرت المنية غضن (سعيد)!. . .

فأي أسى ألم بساحتك، وأي إحساس طاف بقلبك، وأنت تشهد هذا المصاب الأليم؟. . . وكيف انتزعت يد الموت السوداء هذا الغصن الرطيب من دوحته لتزين به فردوس السماء؟

حقاً إنها فاجعة، ولكنك يا سيدي رجل عظيم، والعظماء غرض الأقدار ومطمع الأيام، يبتليهم الدهر فيصبرون، ويمتحنهم فيصمدون، ويصارعهم فيصرعونه؛ فاصبر صبراً جميلاً، فلك عظيم المثوبة والأجر، ولابنك الراحل إلى جوار ربه رفيع الدرجات وخالد الذكر؛ والله من قبل ذلك ومن بعد ذلك يقول: (ولنبلونكم بشيء من الخوف والرجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين. الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا: إنا لله وإليه راجعون. أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة، وأولئك هم المهتدون)

صدق الله العظيم

أحمد الشرباصي

العدد 509 - بتاريخ: 05 - 04 - 1943

الفرد والدولة

للأستاذ عباس محمود العقاد

للأحوال الاقتصادية في كل مجتمع شأن عظيم في توجيه حياة أفراده، وفي إقامة النظم الحكومية والآداب العرفية بين أهله

هذه حقيقة لا حاجة بها إلى كشف ولا إثبات، ولا حاجة بها إلى كاشفين ولا مثبتين، لأنها أقرب إلى البديهيات المقررة والأصول المسلمة، منها إلى (نظريات) الأدلة والبراهين.

هذه حقيقة لم يكشفها الاشتراكيون والشيوعيون، وإن غلا فيها دعاة الاشتراكية والشيوعية، فإن شاءوا من خصوم مذهبهم أن يثبتوها معهم أو يثبتوها قبلهم أو بعدهم فما من معارضة في إثباتها بين فريق من الناس حيث كان

ولهم أن نزيدهم خطوة أخرى في هذا الطريق فنقول: إن الأحوال الاقتصادية وراء كل حركة عظيمة من حركات التاريخ؛ فما سجل التاريخ قط من نهضة أو دعوة أو ثورة أو انقلاب إلا كان للأحوال الاقتصادية في كل أولئك أثر واضح وسهم كبير.

وإلى هنا نقف فلا نستطيع أن نتقدم خطوة؛ لأننا إذا تقدمنا خطوة أخرى وراء هذه الخطوة قلنا ما ليس في وسعنا أن نقوله وليس في وسع العقل أن يقبله ويسيغه: قلنا إن الأحوال الاقتصادية هي كل شيء وإنها هي المهم الذي لا مهم غيره، وإن العوامل الكونية لا تشتمل على شيء آخر غير المضاربات والأسواق وتداول الأسعار.

وهذا مسخ للحياة ومسخ للفكر ومسخ للعوامل الكونية

بل هذا مسخ للكون حتى ليصبح من بداية الخلق إلى نهايته (بورصة) مضاربات ومثابة سمسرة وشطارة واختلاس

وليس في وسعنا أن نقول ذلك، وإن قاله الاشتراكيون، وقاله الغلاة من الاشتراكيين وهم الشيوعيون الماركسيون

فالأحوال الاقتصادية شيء هام ولكنها ليست بكل شيء هام، والأحوال الاقتصادية لها سلطان على المجتمع ولكنها ليست بكل سلطان في المجتمع، وليس المجتمع مع ذلك بالقضاء الذي لا يرد له حكم في حياة الأفراد، فقد يكون للأفراد حكم نافذ في كل مجتمع نشأوا فيه.

والقول بهذا هو الحد الفاصل بيننا وبين دعاة الاشتراكية الذين يلغون سلطان الفرد ليثبتوا سلطان المجتمع، ثم يقيمون للمجتمع قانوناً لا فكاك منه ولا محيد عنه، وهو قانون الضرورة المادية أو الضرورة الاقتصادية أو ما يسمونه في الجملة بالتفسير المادي للتاريخ.

ليست الأحوال الاقتصادية بكل شيء

وليس المجتمع بكل شيء

وليس الفرد لغواً إلى جانب المجتمع أو الأحوال الاقتصادية. ولكنه شيء، والمجتمع شيء، والأحوال الاقتصادية شيء، وليس من الضروري اللازم لإدراك حقيقة من الحقائق الاجتماعية أو الفلسفية أن نلغي شيئاً من هذه الأشياء

احسبنا في عهدنا هذا أحوج ما كنا إلى توكيد هذه الحقيقة مرة بعد مرة، لأن توكيدها في الأذهان غير عاصم من ضلال الشعور - بل ضلال الوهم - الذي يتمثل لبعض الناس كأنه مذهب من مذاهب التفكير.

فتغليب الشئون الاقتصادية، أو تغليب الدوافع المادية على دوافع الحياة في الأفراد، هو في الواقع (قدرية) جديدة يلجأ إليها العاجزون في زماننا هرباً من التبعة، كما لجأ العاجزون فيما مضى إلى قدرية القرون الوسطى

كان العاجزون فيما مضى يقولون: ماذا نصنع؟ وما الحيلة؟ هذا قدر مكتوب لا حيلة فيه!

فأصبح العاجزون في زماننا يقولون: ماذا نصنع؟ وما الحيلة؟ هذه ضرورات الاقتصاد التي تسيطر على إرادة الأفراد، فلا لوم عليهم، ولا تقصير من قبلهم، وإنما اللوم لوم المجتمع والتقصير تقصير (الأحوال)

وما كتبنا قط مقالاً عن الفرد والمجتمع إلا أحسسنا بخطر هذه القدرية في أسئلة بعض السائلين، وتعقيب بعض المعقبين، فعلمنا أنه (مهرب) جديد من التبعات الفردية، يلوذ به من يحاول فيفشل فيعز عليه أن يلوم نفسه على فشله، فيذهب به ليلقيه على كاهل المجتمع أو الأحوال الاقتصادية أو التفسير المادي للتاريخ.

أحسسنا بخطر هذه القدرية مرة أخرى على أثر المقال الذي كتبناه عن أسس الإصلاح، والمقال الذي كتبناه عن فلسفة الترجمة، لأننا أثبتنا في كلا المقالين وجود الفرد إلى جانب

وجود الدولة أو المجتمع، وخرجنا منهما بالرأي الذي خلاصته أن الفرد قد يكون قوة فاعلة كما يكون نتيجة منفعلة، وإن الإصلاح الذي يلغي حرية الفرد فساد شر من كل فساد.

كتبنا ذينك المقالين فلم يستريح إليهما أناس ممن استراحوا إلى القدرية الجديدة، لأن إعفاء النفس من اللوم راحة، وإلقاء التبعة كلها على المجتمع راحة، وفيما ذكرناه في المقالين ما يزعج المستنيم إلى تينك الراحتين.

يجب أن نقول إن المجتمع هو كل شيء، وإن الذنب كله هو ذنبه، ليستريح المؤمنون بالقدرية الجديدة

ولكننا لا نقول ذلك، وليس لنا أن نقوله. . . بل نحن نقول إن المجتمع شيء فقط وليس بكل شيء، وإن عليه ذنوباً وليست عليه جميع الذنوب، فالقدريون إذن غير مستريحين، و (الحوقلة) من نوع جديد هي كل ما يعبرون به عن هذا القلق المستحدث: قلق التفسير المادي للتاريخ!

ومهما يبلغ هؤلاء القدريون الجدد من الحوقلة فما هم بقادرين على إلغاء الفرد وإنكار قسطه من توجيه التاريخ، وبخاصة حين يكون من عظماء الأفراد

قالوا مثلاً ما طاب لهم أن يقولوا عن المظالم التي ضيقت على الناس منذ قرون فهجروا بلادهم إلى القارة الأمريكية، وقالوا ما طاب لهم أن يقولوا عن الأسباب الاقتصادية التي حفزت أناساً إلى البحث عن طريق جديد إلى الهند، فعثروا من طريق المصادفة على تلك القارة الأمريكية.

ولكن الذي قالوه كله لن يفسر لنا الفوارق بين الناس في التأثر بالمظالم أو بالعوامل الاقتصادية؟

فالمظالم قد نزلت بملايين من الناس، والعوامل الاقتصادية قد أحاطت بملايين من الناس، فلماذا وجد فيهم من ينفر من الظلم فيهجر بلاده ووجد فيهم من يستكين إلى الظلم فيقيم حيث أقام؟ ولماذا قنع أفراد بالشظف وطمح أناس إلى الوفر والثراء في قطر مجهول؟

أهي العوامل الاقتصادية التي فرقت بين فرد وفرد في حظوظ الحياة وملكات الشعور؟

وإذا كانت العوامل الاقتصادية لم تخلق هذا فمن أين لها أن تلغيه، وكيف يسعها أن تفسر التاريخ وهذه الفوارق الحيوية باقية عندها بغير تفسير.

كانت نظم الحكم في الدولة العثمانية واحدة، وكانت أسباب المعيشة بين رعاياها متماثلة أو متقاربة، ولكنها كانت تدين اليوم لسلطان قوي فإذا هي قوة مخيفة لمن حولها، ثم يخلفه على الأثر سلطان ضعيف فإذا هي مطمع لكل طامع فيها

فكيف ينكر المنكرون مع هذا أن اختلاف الأفراد لا يغير ولا يبدل في حوادث الأمم وحركات التاريخ؟

وسألنا سائل: ماذا يكون (صلاح الدين) لولا الحروب الصليبية؟ فسألناه: وماذا تكون الحروب الصليبية لولا صلاح الدين؟ بل لماذا تغيرت الوقائع كلما تغير القواد في تلك الحروب وفي جميع الحروب؟

والطريف في مناقشات هؤلاء القدريين أنهم يعقدون المقارنة بين الأبطال والحوادث ليرجحوا نصيب الحوادث على نصيب الأبطال، فيضعون صلاح الدين في كفة ويضعون الحوادث الصليبية في كفة أخرى، ويفعلون مثل ذلك في جميع الحوادث وجميع الأقدار، فإذا هم يبدعون للناس وزناً لا يستقيم في ميزان لأن المقارنة إنما تنعقد بين الأمثال والأشباه؛ فتنعقد المقارنة بين الحروب الصليبية وبين الغارات التترية، أو بين حروب الإسلام وحروب المسيحية، أو بين الثورة الفرنسية والثورة الروسية، ثم تنعقد المقارنة بين القواد هنا والقواد هناك، وبين العظماء في نهضة والعظماء في نهضة أخرى، ليتبين لنا ما استطاعه هؤلاء وما استطاعه هؤلاء، ويثبت لنا الميزان رجحان هذا أو رجحان ذاك.

أما من هو الأرجح: صلاح الدين أو الحوادث الصليبية؟ فهو ميزان لا يفيد ولا يدل على شيء، ولا يثوب إلى أصول

أو الوجه الصحيح في بيان فعل صلاح الدين وفضله أن تنعقد المقارنة بينه وبين فرد آخر ممن كانوا في عصره ولم يفعلوا مثل فعله ولم يؤثر لهم فضل كفضله. فيقال إنه فعل وأن غيره لم يفعل، وأن اختلاف الأفراد يؤدي إلى اختلاف الأفعال.

لكن الغرام الذي ملك على هؤلاء القدريين ألبابهم هو غرام البخس والانتقاص، وأقرب طريق إلى البخس والانتقاص أن يكون العظماء فضولاً وترفاً (مستغنى عنه). . . لأنهم

أفراد وليسوا بمجتمع وافر التعداد!
نحن أبناء الشرق أحرى الناس أن نفلت من إرهاق هذه الآفة، لأننا قد فنينا في المجتمع
آلافاً من السنين. فحق لنا أن نعطي الفرد أمداً من الحرية يرتع فيه جيلاً أو جيلين، ولو على سبيل التجربة إلى حين!
على أن الحقيقة البينة التي نؤمن بها أن المستقبل للفرد إلى آخر الزمان إن كان للزمان آخر نستقصيه، وأن التاريخ الإنساني هو تاريخ الفرد في اضطلاعه بالحقوق والواجبات. فكلما أوغلنا في القدم رجعنا على التوالي إلى أزمنة تقل فيها حقوقه كلما تقل فيها واجباته، وكلما تقدمنا مع الزمن كانت آية التقدم أن الفرد يزداد في تبعاته أي يزداد في حقوقه وواجباته، ويعرف له شأناً في المجتمع مستقلاً به ما وسعه أن يستقل، أو هو على الجملة أوفر استقلالاً مما أتيح له في مجتمعات الزمن القديم.
ومقاييس التقدم كما قلنا في بعض كتبنا (كثيرة يقع فيها الاختلاف والاختلال: فإذا قسنا التقدم بالسعادة فقد تتاح السعادة للحقير ويحرمها العظيم، وإذا قسناه بالغنى فقد يغنى الجاهل ويفتقر العالم، وإذا قسناه بالعلم فقد تعلم الأمم المضمحلة الشائخة وتجهل الأمم الوثيقة الفتية، إلا مقياساً واحداً لا يقع فيه الاختلاف والاختلال، وهو مقياس المسئولية واحتمال التبعة. فإنك لا تضاهي بين رجلين أو أمتين إلا وجدت أن الأفضل منهما هو صاحب النصيب الأوفى من المسئولية، وصاحب القدرة الراجحة على النهوض بتبعاته والاضطلاع بحقوقه وواجباته، ولا اختلاف في هذا المقياس كلما قست به الفارق بين الطفل القاصر والرجل الرشيد، أو بين الهمجي والمدني، أو بين المجنون والعاقل، أو بين الجاهل والعالم، أو بين العبد والسيد، أو بين العاجز والقادر، أو بين كل مفضول وكل فاضل على اختلاف أوجه التفضيل.
(فاحتمال التبعات هو مناط التقدم المستطاع)
ومعنى ذلك أن التقدم هو الاعتراف بالفرد والاعتراف بشأنه في المجتمع، والخروج به من ربقة القدرية التي تفرض عليه سلطاناً يستغرقه ويطويه.
عباس محمود العقاد
علوم اللغة العربية - 2
في المدارس الثانوية
للدكتور زكي مبارك
مشكلة المشكلات
هي مشكلة الصراحة في وزن الأمور التعليمية بالقسطاس وأنا مقبل على شرح تلك المشكلة بلا مبالاة ولا مداراة، فما يهمني أن يرضى فلان أو يغضب فلان، لأن المنافع الوقتية لا تهمني بشيء، ولأن الخطة التي اخترتها لحياتي هي خطة الصدق الصريح في جميع الشؤون.
أقول هذا وقد شاع بين جمهور المدرسين أن مفتشي التعليم الثانوي قرروا تقليل موضوعات الإنشاء
وأنا لن أعرض لتلك الإشاعة بنفي ولا إثبات، لأني لا أملك إعلان ما دار في اجتماع المفتشين إلا باحتراس، فما يجوز لرجل يشترك في إحدى اللجان أن يذيع مداولاتها بأي حال.
ولكن ما الموجب لطي تلك المداولات والجرائد تنشر تفاصيل ما يدور في مجلس الشيوخ ومجلس النواب؟
لو كان مقامي مقام المترفق لطويت أقوال زملائي، لأدفع عنهم تطاول المتطاولين من المتهاونين، ولكن مقامي مقام الثائر الذي لا يرضيه غير الظفر بأكبر نصيب من أنصبة النضال، فأنا أوذي نفسي ولا أوذي زملائي حين أعترض على الترفق بالمدرسين والتلاميذ.
بدعة مزعجة
هي بدعة التخفيف، تخفيف الواجبات المدرسية
وعندي كلمة سأقولها مرة واحدة ثم أسكت عنها إلى آخر الزمان.
سأقول إن في مصر ناساً يظنون أن تلاميذ المدارس الثانوية أطفال، وأن من الواجب أن تكون دروسهم هينات لينات، لأنهم أطفال!

سأقول إن التخفيف يفضي إلى قلة الاهتمام، والاهتمام هو أساس كل تفوق. وقد صارت علوم اللغة العربية في المدارس الثانوية عرضة للتسهيلات والتخفيفات من عام إلى عام، بصورة توجب الانزعاج

لقد انعدم علم الصرف أو كاد ينعدم في المدارس المصرية، وصار من النادر أن نجد تلميذاً يعرف كيف ينتفع من المعاجم اللغوية.

ومضى التخفيف إلى النحو فحذف منه أبواباً كثيرة، وصار من النادر أيضاً أن نجد تلميذاً يفهم أسرار الإعراب

وانساق التخفيف إلى علوم البلاغة فهو يقص حواشيها بلا تردد، وقد نرى غداً من يقترح حذف تلك العلوم، بحجة أنها نشأت في بيئات أعجمية!

وقرر المفتشون في اجتماعهم الأخير حذف تاريخ الأدب، وكان يجب أن افرح لأني اقترحت ذلك منذ سنين، ولكن الطريقة التي احتجوا بها لذلك القرار قامت على القول بأن التلاميذ أضعف من أن يفهموا تاريخ الأدب، لأنهم في حكم الأطفال!

والواقع أن تلاميذ المدارس الثانوية يسايرون من حيواتهم عهداً هو أخصب العهود، فيجب أن ننتفع بتلك الفرصة فنزودهم بالمعارف التي تسندهم في المستقبل، ويجب أن نخلق فيهم الشوق إلى جميع المعارف، وأن نجعلهم جنوداً سعداء بالجندية في ميدان التعليم والتثقيف.

قلت لزملائي: أنا أستطيع شرح أصعب معضلة أدبية أو فلسفية شرحاً يفهمه أضعف تلميذ، فلا تسيئوا الظنون باستعداد التلاميذ

فقال الأستاذ مختار يونس: لم أفهم شيئاً مما تقول

فقلت: لأني أوجزت في مقام يجب فيه الإطناب!

يجب أن نفهم أن الفرصة في أيدينا، وأن الشبان بين العاشرة والعشرين صالحون لفهم أصعب الدقائق. ويجب أن يكون في نيتنا جعل مرحلة التعليم الثانوي مرحلة حاسمة في تكوين عقول الشبان، بحيث لا يحتاجون إلى المعاهد العالية إلا إذا تساموا إلى الأستاذية في مختلف العلوم والفنون.

وأنا لا أعرف كيف قضينا أزماناً بلا فهم للمراد الصحيح من التعليم الثانوي، فهو عندنا إعداد للتعليم العالي، وكان يجب أن يكون إعداداً لخوض معترك الحياة بلا تهيب ولا إشفاق

أنا أكره أن تدوم هذه الحال، وأحب أن يصير الشاب رجل أعمال بعد العشرين، وأتعجب من أن يعيش عالة على أبويه إلى الثلاثين

وأنا أتمنى أن يصبح التعليم العالي مقصوراً على من يملكون الوقت والمال، ولهؤلاء فرص لا يظفر بها غير آحاد أو مئات، وهم لن يكونوا أشرف من الشبان الذين يصارعون أمواج الحياة قبل العشرين.

مرحلة التعليم الثانوي هي الفرصة الحقيقية لتثقيف الشبان وتضييع هذه الفرصة إثم موبق

والكلمة لحضرات المدرسين، فماذا يقولون؟

من واجب كل مدرس أن يدرك أنه مسئول عن إعداد تلاميذه للحياة، بحيث لا يحتاجون إلى شيء بعد التعليم الثانوي، إلا أن يتساموا إلى الأستاذية، كما قلت قبل لحظات

وما هذه الأستاذية التي توجب أن يكون في معاهدنا العالية ألوف وألوف؟

نحن نخلق لأبنائنا متاعب ثقيلة بفضل هذه الأحلام، ونحن نصدهم عن الحياة بفضل هذه الأحلام، ونحن نجني عليهم جناية ستُسأل عنها يوم يقوم الحساب

مرحلة التعليم الثانوي هي المرحلة النهائية، ثم يلتفت الشاب إلى حاله فيكون رجل عمل في أي ميدان

والمدرس مسئول عن تحقيق هذا المعنى، ومن واجبه أن يهب تلاميذه جميع ثروته العلمية والأدبية في أقصر وقت، لينصرفوا إلى الحياة بعد أسابيع لا سنين!

والمهمّ هو أن نؤمن بأن الشبان في مرحلة التعليم الثانوي رجال لا أطفال

المهمّ هو أن نحدِّث تلاميذنا في جميع الشؤون حديث الزميل للزميل

إن هؤلاء التلاميذ خلقٌ جديد، وقلبي يحدثني بأنهم يعرفون من حقائق الحياة أكثر مما نعرف

والمدرس الحق هو الذي يسبق زمانه بعشرات السنين، ليحاور تلاميذه في أشياء

تسبق زمنهم بأزمان
فمتى نجد ذلك المدرس المنشود؟
هو موجود بالفعل، فعندنا جيوش من المدرسين الأكفاء، ولعل مصر أغنى بلاد الشرق بالمدرسين الأكفاء
ولكن الذي يعوز الحياة التعليمية في مصر هو التوجيه السديد، التوجيه الذي يُشعر المدرس بأنه مسئول أمام الوطن عن تكوين الجيل الجديد.
ومن الواضح أن هذا لا يتيسر إلا إذا تغيّرت النظرة الحكومية والشعبية للمدرس
ومعنى هذا أني أنتظر أن تكون أبوة وزير المعارف للمدرسين أبوة رفيقة إلى أبعد الحدود، بحيث يجهلون المدلول من كلمات العلاوات والترقيات والدرجات، لأن لهم أباً ينوب عنهم في فهم تلك الكلمات
حدثني صديق يساير مناقشات البرلمان بأكثر مما أصنع أن معالي الهلالي باشا قال في مجلس النواب: (إن وزارة المعارف هي وزارة الدرجة السادسة)
والعبارة صحيحة، وإن جاز أنها من الكلام المنحول
ونحن نقرأ من يوم إلى يوم أن الهلالي باشا مَعنيٌّ بتحسين أحوال المدرسين، وهذا الذي نقرأ ليس كلاماً يراد به الدعاية، وإنما هو صدق في صدق، فهذا الوزير يجب أن يكون له في وزارة المعارف تاريخ نبيل، وسيرى المدرسون بعد أيام أنه ضمن لهم طمأنينة تريحهم من القلق الذي يساورهم منذ سنين.
والمجال يسمح بتدوين الملاحظة الآتية:
كان يهمني في بغداد أن أسأل عن الطلبة الذين يتخلفون عن دروسي بدار المعلمين العالية، وكان الجواب دائماً أنهم تحولوا إلى المدرسة العسكرية، لأن مستقبلها مضمون
والحال كذلك في مصر، فالشباب عندنا لا يؤُّمون المعاهد التي تُعدّ المدرسين إلا بعد اليأس من دخول المعاهد التي تُعدّ الضباط والمهندسين والأطباء
ومعنى هذا أن يفهم الجمهور أن المدرس هو شخص فاتته المواهب التي تؤهل لتلك المناصب
وأقول بصراحة إن المدرس لا يصلح لمهنته إلا إن كان غاية في جمال الصفات الجسمانية والروحانية
ولن نظفر بمدرسين من هذا الطراز إلا إن ضمنّا أن تكون حياة المدرس في مثل حياة الضابط والمهندس والطبيب
ولن يكون هذا إلا يوم يفهم الشبان أن مهنة التعليم مهنة مجد، يقول الفرنسيون
وهل ننسى الصراع الذي يثور عند الانقلابات الوزارية؟
هل ننسى أن الوزير لا يرضى عن مصيره إلا إن كان وزير الداخلية أو المالية؟
يجب أن يكون وزير المعارف هو الوزير الأول في الدولة، لأنه المسئول عن تكوين العقول والقلوب
قالت جريدة الأهرام إن الهلالي باشا استطاع بلباقته أن يظفر بألوف من الجنيهات لتحسين أحوال المدرسين
ومعنى هذا أنه انتهب من أموال الدولة أشياء باسم التعليم!
الله أكبر، ولله الحمد!
إن مصر رضيت الحياد في الحرب، ولكنها لم ترض الحياد في العلم، فهي تناضل في الميادين العلمية نضال المجاهدين الفائزين، فما الموجب لأن يقال إن وزير المعارف قد استطاع بلباقته أن يأخذ من أموال الدولة أشياء؟
لن نسكت أو يصير وزير المعارف هو الوزير الأول، ليصير المدرس هو الرجل الأول في هذه البلاد
نحن المدرسين نطالب الدولة بإقرار العدل، لنصير مطمئنين إلى ما تريد من تثقيف الجيل الجديد
غايتنا واضحة وصريحة، وهي أن يعرف الشعب أننا في المقام الأول، لأننا معلمون، والمعلم هو الرجل الأول في شِرعة الإنصاف.
مدرس اللغة العربية
كتبت عن هذا المدرس أربع صفحات، ثم طويتها، لأنه مدرس مظلوم، فهل أعود إلى

نشر تلك الصفحات؟
لن أفعل أو أنشر أقوال المفتشين بالتفصيل
وسأرى كيف أروض القلم في المقال المقبل
زكي مبارك
على هامش (أحلام شهرزاد)
قضية اليوم - 2
للأستاذ دريني خشبة

قالت فاتنة: (أكتب يا صاحبي. . . أكتب. . . أكتب ولا تظنن أن الذي تكتب سيغضب صاحب شهرزاد أو المعجبين بصاحب شهرزاد وما أظنك إلا كنت واحداً منهم، إن لم تكن ما تزال واحداً منهم. . . ثق يا صاحبي أن مبدع شهرزاد لا يخرجه نقد ما أبدع لأنه أخذ على نفسه عهداً بأن يُنفِّذ فيها أحكام الزمان، قاضية في (القصر المسحور). وهل نسي القراء بعد ذلك الحكم الذي أصدره الزمان - القاضي العادل - على مبدع شهرزاد، في الفصل الأخير من القصر المسحور؟ إن كانوا قد نسوا هذا الحكم فاكتبه هنا لهم عساه أن ينفعهم فيما نحن بسبيله اليوم من أمر تلك القضية التي أحدث ضجتها الخرّاصون وأرجف بها المرجفون. . .

حكم الزمان: (والآن وقد سمعنا ادعاء المدعين ودفاع المتهم الأول، ولاحظنا اعتزال من اعتزل وعدول من عدل عن الاتهام، نقرر أن من حق الأديب أن ينشئ أشخاصه كما يريد هو لا كما يريدون هم، بل إن من الحق على الأديب أن يتلقى أشخاصه كما يؤديهم إليه فنه، لا يغير من صورهم التي تلقاهم عليها ولا يبدل، ولو حاول ذلك لما استطاعه ولما وجد إليه سبيلاً.

ولمن شاء أن ينكر عليه أو على فنه هذه الصورة كلها أو بعضها، وأن يعيب عليه أو على فنه ما يكون فيها من ضعف أو نقص أو تشويه، وما ينبغي لهذه الأشخاص نفسها أن تثور بمنشئها أو تمكر به أو تكيد له أو تتألب عليه، أو تبغي له سوءاً أو تستنزل عليه عقاباً؛ فإن فعلت فهي طاغية يجب أن ترد عن طغيانها، وباغية يجب أن تصد عن بغيها، وجامحة يجب أن يكبح جماحها، ومنشئها وحده هو القادر على ذلك. وسبيله إليه ترقية فنه وتجديده واصطناع الأناة والدقة والإتقان في التصوير والتعبير جميعاً. ولما كان المتهم نفسه قد أعلن تواضعه واعترف بقصوره وسلم بأنه في حاجة إلى أن يسعى ويطيل السعي، وإلى أن يجد ويمعن في الجد، لا ليبلغ الكمال، بل ليدنو منه.

ولما كنا نقدر للمتهم تواضعه وطموحه إلى الكمال، واعترافه ببعد الأمد أمامه؛ ولما كنا نحرص على أن نمنحه المعونة على ما يريد من الرقي الفني فقد قضينا أولاً بإسقاط دعوى المدعين، وتبرئة المتهم مما وجه إليه ثانياً. . . بنفيه عن سالتش الخ. . .)

وحسب القراء يا صاحبي هذا القدر من حكم الزمان الذي ارتضاه صاحب (شهرزاد) ورضي أن ينشر في قصة (القصر المسحور) التي اشترك في إبداعها مع صاحب (أحلام شهرزاد) وليس القراء في حاجة إلى أن نذكرهم بأن هذا الحكم الذي أصدره الزمان القاضي العادل، هو حكم أملاه على الزمان صاحب (أحلام شهرزاد) وكان حريصاً فيه على أن يرسم لشريكه السبيل إلى (ترقية فنه وتحديده واصطناع الأناة والدقة والإتقان في التصوير والتعبير جميعاً)، وكان جميلاً من صاحب (أحلام شهرزاد) أن يسجل على شريكه: (تواضعه واعترافه بقصوره وتسليمه بأنه في حاجة إلى أن يسعى ويطيل السعي، وإلى أن يجد ويمعن في الجد. . . لا ليبلغ الكمال. . . بل. . . ليدنو منه) وأن يقدر له تواضعه وطموحه إلى الكمال، واعترافه ببعد الأمد أمامه). وحرصه على أن يمنحه (المعونة على ما يريد من الرقي الفني)

فهل تخشى بعد ذلك يا صاحبي أن يغضب صاحب شهرزاد إذا كتبت في قضية (أحلام شهرزاد) كلمة ترد بها الحق إلى نصابه؟ وماذا يغضب صاحب شهرزاد كما يخرص الخراصون ويرجف بالباطل المرجفون، وقد اشترك في نشر هذا الحكم الذي ذاع من أبراج القصر المسحور ولم يشترك في نشره إلا بعد أن قبله ورضي ما جاء به، ولم يعقب عليه بكلمة؟ الحق أن صاحب شهرزاد أعظم من أن توغر صدره الكريم نفثات المبطلين المصدورين. . . بل واجبه أن يصفع بالحقائق التي وردت في ذلك الحكم أقفيتهم؛ لأنه عرفها قبل أن يعرفها أحد قبله، وأذعن لها قبل أن تذيع في الناس.

وبعد فقد كان هذا الحكم تعقيباً على قصته - أو مسرحيته الرومانتيكية - شهرزاد، فهل

كان فن هذه المسرحية ناقصاً؟ وهل كان في حاجة إلى التجديد واصطناع الأناة والدقة والإتقان في التصوير والتعبير جميعاً؟ وهل نحن الذين يطلب إليهم أن يجيبوا على ذلك؟ وكيف وقد اعترف صاحب شهرزاد بقصوره وسلم بأنه في حاجة إلى أن يسعى ويطيل السعي، وإلى أن يجد ويمعن في الجد. . . لا ليبلغ الكمال، بل ليدنو منه. . . إلى آخر ما جاء في عقابيل هذا الحكم من ألفاظ التواضع وبعد الأمد وحاجته إلى معونة ثابتة من
الخارج على ما يريد من الرقي الفني. . . الخ.

هل نجيب أو لا نجيب؟ وهل يقف ما اعترف به صاحب شهرزاد بيننا وبين ما نريد أن نقول؟ وهل من حقنا أن نقول شيئاً بعد هذا؟ وهل نستطيع أن نخالف عن أمر الزمان وأن نثور بأحكامه؟

أجل، نحن نستطيع أن نفعل ذلك، فقد جاء في هذا الحكم الإذنُ (لمن شاء أن ينكر عليه (على الأديب) أو على فنه هذه الصورة كلها أو بعضها، وأن يعيب عليه أو على فنه ما يكون فيها من ضعف أو نقص أو تشويه). . . وعلى هذا فلنا أن نتناول نقد شهرزاد بما نشاء من كل ضروب النقد، ضامنين ألا يغضب مبدعها كما يحاول المرجفون المبطلون أن يحملوه على الغضب، بما يوهمونه من السطو على بضاعته، وادعاء ما هو حق خالص له.

ولكن. . . هل كان فن (شهرزاد) ناقصاً؟ وهل كان في حاجة إلى التجديد واصطناع الأناة والدقة والإتقان في التصوير والتعبير جميعاً؟ وكيف اعترف صاحب شهرزاد بذلك، واعترف معه بقصوره وبأنه في حاجة إلى أن يسعى ويطيل السعي، وإلى أن يجد ويطيل الجد. . . لا ليبلغ الكمال. . . بل. . . ليدنو منه؟! أما نحن فنخالف صاحبي (القصر المسحور) في كثير من ذلك، ونوافقهما في بعضه. . . إذ نشهد أن (شهرزاد) قطعة فنية رائعة من حيث الفن الأدبي الخالص لوجه الفن، لا لوجه الحياة. . . ومن حيث أنها تصور مذهباً في الأدب يأخذ به كاتبها نفسه، ويتحمس له، ولا يرى أن يحيد عنه. . . أليس قد اشترك مع عميد الأدب العربي في (القصر المسحور) فأبى إلا أن تكون له شخصيته المستقلة البارزة إلى جانب شخصية العميد التي تختلف بأسلوبها وتتفرَّد بسردها وتتخذ إلى قلوب القراء طرائقها المألوفة المعروفة. . . وعندنا أن شهرزاد من حيث الفن ليست في حاجة إلى ترقية ولا إلى تجديد. . . فقد بلغت من ذلك الكمال. وهذا حق لا ريب فيه. أما الذي نثور من أجله على (شهرزاد) وعلى مذهب صاحبها كله في الأدب، فهو هذا التحقير الشنيع للمرأة، واعتبارها متاعاً رخيصاً لا يصح أن يناط به الشرف، أو اعتقاد الحفاظ فيه، أو نسبة العفاف إليه. ثم هذه الحماسة التي يبديها صاحب هذا المذهب في التمسك برأيه والفخر من أجله بأنه (عدو المرأة)

ومن القول المعاد أن نلخص للقراء فكرة العبقري الأول الذي ابتدع فكرة قصص (ألف ليلة وليلة) والذي ابتدع من أجلها شخصية شهرزاد الرائعة، تلك الفتاة النابغة التي استطاعت أن تطفئ جذوة الحقد على النساء في نفس شهريار، وأن تنسيه مأساة زوجته التي أزهق بسبب خيانتها أرواح هذه الجمهرة من فتيات مملكته، والتي استطاعت مع ذاك أن تكسب حب هذا الملك المنقبض النفس، المكظوم الفؤاد، وأن تبادله ذلك الحب، وأن تجزيه عليه الوفاء والصفاء والإخلاص، كما استطاعت أن تردَّ عليه ثقته بالمرأة التي كرهها، ومحبته لها بعد البرم بها، وافتتانه بحديثها بعد انصرافه عن كل كلمة تنبس بها، فيكون له منها أبناء بررة، وأسرة مجموعة الشمل، فتتغير حاله خضوعاً لقانون الظروف، ونزولاً على مقتضيات الأحوال الجديدة. . .

هذه هي شهرزاد البسيطة غير المعقدة. هذه هي المرأة التي تعتبر، ويجب أن تعتبر، محور الحياة ومناط الفضيلة، ورحمة الله التي تذهب الأحزان، وابتسامة السماء التي تشرق في القلوب المكروبة فتغمرها بالسعادة وتفعمها بالرضى. . . المرأة التي تروض الطباع الجافية فتجعلها رخاء، وتحتال للغرائز الوحشية فتحيلها إلى اللين واليسر والصفاء.

أما شهرزاد الأخرى. . . تلك الهولة التي رمز بها صاحبها إلى المرأة في كل زمان ومكان. . . فهي لا تمثل إلا نفسها. . . إنها تمثل حلماً مريضاً يملأ خيالاً مريضاً. . . لقد تصورها صاحبها امرأة احتالت على الملك - على شهريار - بقصصها البارع لتنقذ نفسها

قبل أن تنقذ جنسها (ص40) كما صرحت بذلك للوزير وهي تحاوره وتداوره - هذه هي شهرزاد الأنانية الأثرة التي لا يصح أن تمثل إلا نفسها - أما شهرزاد التي تتشهى العبيد السود في المنظر الخامس، ولا تريد أن تشبع منهم، وتخون الملك من أجلهم، فمن من بنات حواء تمثل؟ مَن مِن جمهور بنات الإنسانية وأخواتها وأمهاتها تمثل هذه المرأة الساقطة الهلوك؟! هل تمثل إلا نفسها تلك المرأة التي تغازل الوزير في المنظر الثاني، ويستطيع حبها الدنس أن يعصف بنفسه - وهو الوزير المخلص - في المنظر السادس، وتكون نتيجة هذا الحب أن يقتل الوزير نفسه في المنظر الأخير حينما يكتشف أن شهرزاد لم تكن تتشهاه وحده، بل كانت تعبد (جسم) العبد أكثر مما كانت تعبد جسمه (ص138) ما هذا؟ ما تلك الصورة الشاحبة التي يخبئها صاحب شهرزاد للمرأة في مخيلته؟ لقد مسخ الصورة

الساذجة غير المعقدة، الصورة العلوية الفردوسية التي ابتدعها الرجل العبقري الأول الذي ابتكر فكرة ألف ليلة وليلة فجعلها صورة شائهة قبيحة فاجرة لا يمكن أن تمثل مرأة المواخير التي تتجر بعرضها كما تتجر بأعراض الناس. يريد أن يقول المبتدع الأخير للعبقري الأول: إنك يا صاحبي رجل سليم النية طيب القلب ساذج التفكير، تنظر للمرأة تلك النظرة العالية المبرَّأة فتتهمها بالذكاء الصالح، وتنفي عنها الدهاء الطالح، حين تضع بين يديها شخصية مستوحشة مثل شخصية شهريار الذي قتل زوجه الملكة وقتل العبد الذي خانته فيه، ثم راح يقتل العذارى نقمة منه على جنس المرأة حتى رزقه الله هذه الفتاة الألمعية (شهرزاد) التي تسلمته كما يتسلم المروضون السباع والضواري فما يزالون بها حتى يسلس لهم قيادها وينقاد لهم عاصيها، وتخضع كما تخضع الثعابين في الهند للموسيقى وتسكن سكون الطفل إذ يلتقم ثدي أمه. . . أما أنا - لا جعلت فداك - فعلى النقيض منك، إذ أني قليل الإيمان - بل لا إيمان لي على الإطلاق - بالمرأة. . . المرأة التي تمثلها شهرزاد في كل زمان ومكان. . . إني عدوها!!. . . إنها مخلوق أناني صلف غادر. . . إنها كائن غويّ بغيّ فاجر. . . إنها أصل كل بلاء، وجالبة كل شقاء. . . إنها كما جاء في هذا البيت المضحك الذي دسه عليك بعض القصاص المتأخرين فيما دسوه عليك من سخف. . . هذا البيت الواهي المتهالك الذي لا يستقيم له وزن:

!!إذا رأيت أموراً منها الفؤاد تفتت ... فانظر تجدها من النساء تأتت

بالضبط يا عزيزي العبقري الأول، ولو أنك أنت كنت رويت هذا البيت، وثقفته لراقك أن يكون مذهبك في المرأة كما أصبح مذهبي، ولدنت به كما أدين أنا - في آخر الزمان - به فقد تناولت شهرزاد الحصيفة العفيفة الظريفة اللطيفة التي قتلت الشيطان بين جنبي شهريار، وأبادت الظلام الذي جثم على قلبه، وأعادت إلى روحه السلام والطمأنينة، وغيرت مجرى تفكيره في الحياة حين أنجبت له أبناء وخلقت له (بيتاً)، شهرزاد التي لم تزل بالملك المتبرم بكل شيء، الناقم على كل الوجود، حتى على نفسه فردته إلى الرضى، وغسلت قلبه بالثلج والبرد، واشتركت وإياه في شئون الملك، فاستقامت له الرعية، وازدهرت في فيض عدالته الدولة. . . تناولت أنا شهرزادك هذه فمسختها. . . ولا تؤاخذني يا عزيزي العبقري الأول فهذا رأيي في المرأة. . . وجعلتها أنانية أثرة لا تجهد

إلا أن تبقي على نفسها وإن هلك نساء العالم. ثم جعلتها تخدع الملك وتصر على الانتقام منه فتخونه كأسفل ما خانته زوجته الملكة الأولى، وتؤوي إلى فراشه العبيد الأقوياء السود فلا تشبع منهم، وتحرص على أن يكونوا سوداً غلاظاً (فالزهرة البيضاء الرقيقة تنبت من الطين الأسود الغليظ)، وتحرص أن يكون عبدها (وضيع الأصل قبيح الصورة، لأن هذه هي صفاته الخالدة التي تحبها). . . فإذا أنبأها العبد أن (تلك هي صفات الشهوة!) قالت له: (أقترب) فإذا قال العبد: (يخيل إليَّ أنك امرأة لا ككل النساء. أنت لا يمكن أن تعشقي أحداً) قالت له (لا شأن لك بقلبي!) فإذا قال: (أنت إنما تلعبين بي. إني أخافك) قالت: (أنت واهم) فيقول، ويا مصيبة ما يقول: (وزوجك!) فتقول: (ما شأنك به؟) فهل رأيت إلى يا عزيزي العبقري الأول كيف أشعت الفجور في نفس شهرزادك؛ وإن غضبت. فشهرزادي! وماذا يغضبك وللأديب أن يضع أشخاصه في الصورة التي يحب كما جاء في حكم الزمان في آخر قصة القصر المسحور؟ لقد أشعت الفجور في نفس شهرزاد وفي نفس العبد وفي نفس قمر وفي نفس الجلاد

وفي نفس أبي ميسور، وفي نفس الملك. إي والله في نفس شهريار الذي ما فتئ يقتل النساء. لقد جردته حتى من نخوة الرجولة وفحولتها وجعلتها ضعفاً وخناً وفسولة. لأنه يرى العبد يخرج من مخبئه في مخدعها، فلا يبرم ولا يثور ولا يأمر جلاده بشيء. . . ولا بالبصق في وجهه. ولماذا يفعل وقد اشتد إيمانه بأن هذه هي طبيعة المرأة التي لا سبيل إلى تقويم معوجها؟

أرأيت إليّ يا عزيزي العبقري الأول؟! هذا مذهبي في المرأة. . . روّأت له هذا الترويء، وموّهت به على قرائي ذاك التمويه، وأذعته عليهم في كتاب وجد من حرية الرأي ورحابة الصدر، وحسن الالتفات، في مصر والشرق، ما وجد، فشاع وذاع وملأ النفوس والأسماع. . . وغلب القنّت - الذي ورد ذكره في كتابي - على صفاته الغوالي، ومزاياه الكبار.

قالت فاتنة: (وحسبك هذا القدر اليوم يا صاحبي، وقبل أن آذن لك فتضع هنا اسمك، نبه الناس إلى أن صاحب أحلام شهرزاد لم يسرق من هذا الفجور شيئاً، بل هو قد عالجه العلاج الذي كان ينبغي له منذ أعوام. وإلى اللقاء في الأسبوع المقبل)

دريني خشبة

الإصلاح الذي أنشُده للأزهر

عماده المال

للأستاذ عبد الحميد عنتر

(وسيكون للجامعة الأزهرية نصيب كبير من اهتمام حكومتي، فتعنى بإصلاح نظم التعليم فيها إصلاحاً يساير روح العصر، ويحفظ لهذا المعهد الكبير صبغته الدينية، ويهيئ له من الوسائل ما يمكنه من أداء رسالته العلمية الدينية، على الوجه الذي تنشده مصر، ويحقق آمال الإسلام والمسلمين. وستوجه الحكومة إلى الوعظ الديني عناية تناسب ما له من أثر في تهذيب الخلق المصري، وما يبذله من جهود للإصلاح بين الناس)

(من خطبة العرش)

هذا ما جاء في خطاب العرش، لسنة 1942 خاصاً بالجامع الأزهر.

وهو على ما يرى القارئ قبس من نور الحكمة، وسراج وهاج من روح الإخلاص الحكومي لهذا المعهد العتيد. ذلك المعهد الذي يجله ملوك مصر وحكامها، منذ نشأته الأولى، إلى أن بلغ من العمر ألفاً من السنين، والذي له المنزلة العليا في نفوس المسلمين بكافة بقاع الأرض، لأنهم يتمثلون فيه المحامي الأكبر عن دين الله، (الذي لا تصلح دنيا الناس إلا به)، والحصن الحصين الذي حفظ تراث العرب، من اللغة والآداب والعلوم، ووقاها عاديات الضياع والإهمال؛ ولأنهم يرون - ونرى معهم - أن النهضة الفكرية في مصر، والنهضة الخطابية والكتابية، والنهضة الأدبية والشعرية، وأستطيع أن أقول: والنهضة الوطنية. كل أولئك النهضات المباركات، كان الفضل في تدعيمها وتغذيتها للجامع الأزهر. فهل هو كما قال قائلهم الأديب، الابن البار بالأزهر، الأستاذ حسن عبد العال، صاحب جريدة الإصلاح الحلبية: (الأزهر حصن الدين وينبوع الأدب)

ولما كان في التصريح الخطير المقتبس من خطبة العرش، ما يمس نظام التعليم، وفيه ذكر الوسائل التي تمكن الأزهر من تأدية رسالته على الوجه الأكمل، أحببت أن أبين على صفحات (الرسالة) ما عنّ لي من وجوه الإصلاح، وما أراه أنفع الوسائل لأداء الرسالة العلمية الدينية، على الوجه الذي (يحقق آمال الإسلام والمسلمين). فأقول محاولاً الإيجاز ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله.

رسالة الأزهر قديماً

لا مراء في أن علماء الأزهر القدامى، حملوا أمانة العلم، وأدوها أحسن الأداء، وضربوا للناس المثل الأعلى في الجد والنشاط، والتوفر على الدرس والتحصيل، وتطبيق أقوالهم الطيبة، على أفعالهم الحميدة، مع تغلغل في البحث، واستقلال في الرأي، وجهر بالحق، وسمو في الخُلق، ورضاً لم يخالطه سخط، وقناعة لم يتطرق إليها طمع، وإخلاص لم يشبه رياء.

لله درهم! نشروا العلم وأحيوا الفضيلة، وحافظوا على لغة الكتاب المنزل. فدرسوا وعلّموا، وصنفوا وألّفوا، وفحصوا ومحّصوا، حتى تركوا لمن بعدهم ثروة كبيرة من التأليف في شتى العلوم، تعد بحق مفخرة لهم، في عصر كاد ينطمس فيه نور العلم،

ويخبو فيه مصباح الفكر، لولا نفحة سماوية، وروح علوية إلهية. جزاهم الله عن العلم والدين خير الجزاء.

ومما تجب ملاحظته أن نفسية الأمة إذ ذاك، كانت أكبر معين للعلماء على أداء مهمتهم، وتبليغ رسالتهم على الوجه الذي سلف بيانه، والتاريخ أعدل شاهد على ذلك؛ وأن هذه النفسية قد تغيرت الآن تغيراً طغت فيه المادة على المعاني الروحية، وأصبح الناس لا يقدرُون العالم لعلمه وأدبه، أو سمو نفسه وطهارة قلبه وصالح عمله؛ بل إنما يقدرونه لمال أو جاه، أو منصب أو رياسة. ومن هنا وجب (أن تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا)، وأن تتغير وسائل تأدية الرسالة العلمية الدينية، طبقاً لروح العصر الذي نعيش فيه. وذلك ما سأبينه في رسالة الأزهر الجديدة.

نظام الأزهر الحالي

إن من ينكر نظام الأزهر الآن، كمن ينكر الشمس في رائعة النهار، ولا يجرؤ على ذلك إلا الجاهل المتعامي الذي لا يضير الشمس إنكاره، ولا يغيّر الحقيقة جحوده واستهتاره.

إن من يزور معهداً من معاهد الأزهر الابتدائية أو الثانوية، ثم يزور مدرسة من مدارس الحكومة الابتدائية أو الثانوية، المؤثثة على أحدث طراز - لا يرى فارقاً واضحاً بين المعهد والمدرسة، (إلا العمائم والطرابيش)

،أما نظام الفصول الدراسية، ومقاعد الطلاب، وأدوات الدراسة: من مصورات جغرافية وأخرى زخرفية، وسبورات للإيضاح، وأدوات للرسم، ومعامل للكيمياء والطبيعة، وهياكل مجسمة لدراسة علم الحياة (الأحياء) وقاعات للمحاضرات، أقول أما كل أولئك فهو في معاهد الأزهر، كما في مدارس وزارة المعارف، وتمتاز المعاهد بأن ما فيها من الطراز الحديث.

وإن من يزور كلية من كليات الأزهر، لا يرى فرقاً بين أيَّةٍ منها، وبين كلية الآداب أو الحقوق أو معهد التربية، إلا من حيث فخامة الأبنية والموقع الصحي المنتقى، وضخامة الميزانيات.

فهي في الأزهر وكليلته متضائلة متواضعة، وفي مدارس الحكومة وكلياتها عظيمة متضخمة. وتكاد طريقة التدريس في الأزهر الحديث، تضاهي الطريقة التي تتبعها مدارس الحكومة وكليات الجامعة، وكذلك نظم الامتحانات.

وقد استقر هذا النظام في الأزهر، ورسخ فيه رسوخ الشَّم الرَّواسي، حتى أصبح من العسير جداً أن يُعدل به إلى أي نهج آخر؛ لأن رجال الأزهر وطلابه قد اعتبروه تقدماً وتجديداً. ومسايرة لروح العصر الحاضر. فالعدول عنه رجوع بمعهدهم القهقري، ووقوع فيما فروا منه قديماً من بلاء!

فمن يحاول رجع الأزهر كما كان، كمن يحاول أن يجعل (النيل) ينبع من شواطئ البحر الأبيض المتوسط ثم يصب في أعالي السودان!

فالأزهر لا ينقصه نظام، ولا يعوزه رجال مفكرون، أو طلاب نبهاء، وإنما يعوزه إصلاح هذا النظام، ولا سبيل إلى إصلاحه إلا المال؛ ليؤدي به إلى بلاده، وإلى العالم الإسلامي رسالته الجديدة

وإذا قال الأزهر الحديث: (المال)، فهو لا يريد أن يتكاثر فيه حتى يصبح من أصحاب (الملايين)! أو التهالك عليه حتى يكون شغله الشاغل، ومحبوبه الأول، ولكنه يطلبه للإصلاح، وللإصلاح لا غير. . . يطلبه الآن لأنه ليس كالأزهري في الزمن السالف، الذي كانت تهدي إلى بيته الهدايا، من كل (ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين). يطلبه لأنه يرى أن كل شيء في هذه الحياة الصاخبة مفتقر إلى المال. يطلبه ليتساوى مع غيره ممن يؤدون مثل مهمته، ويقومون بمثل عمله، من رجال التعليم.

أمامي الآن بيان إجمالي لدرجات موظفي الإدارة العامة بالأزهر، ودرجات شيوخ كلياته وأساتذتها ومدرسيها وموظفيها ودرجات شيوخ المعاهد الابتدائية والثانوية ومدرسيها وموظفيها. وبيان آخر لدرجات أمثالهم من موظفي وزارة المعارف بالديوان العام، وعمداء كليات الجامعة وأساتذتها ومدرسيها وموظفيها، ونظار المدارس الابتدائية والثانوية ومدرسيها وموظفيها. والناظر إليه يرى البون الشاسع بين هذه الدرجات بالنسبة إلى عمل أصحابها من الفريقين!

فهي في ميزانية الأزهر تتصاغر وتتضاءل، وفي ميزانيات غيره تتعاظم وتتكاثر. ولو شئت أن أذكر البيان التفصيلي مؤيداً بالأرقام لفعلت، ولكني آثرت عدم ذكر شيء من

ذلك رعاية لأزمة ورق الصحف، ولأن ولاة الأمور يعلمون ذلك علم اليقين. لذلك أجتزئ بذكر الأمثلة الآتية، ومنها يتبين الفرق الكبير:

الأول - في الإدارة العامة: وكيل الجامع الأزهر لم يوضع في الدرجة الأولى (التي تعطى لبعض أساتذة الجامعة) إلا في سنة 1942 مع أن نظيره في ديوان المعارف يتقاضى مرتب (مدير عام)، ومفتشو الأزهر في الخامسة والرابعة لا أكثر، مع أن مفتشي المعارف ليس فيهم من هو في أقل من الرابعة. وكبار المفتشين في الثانية

الثاني - شيوخ الكليات الأزهرية لم يوضعوا في الدرجة الثانية إلا في سنة 1942، مع أن هذه الدرجة تعطى لأساتذة الجامعة، بل إن بعض هؤلاء في الأولى كما سبق! وأما عمداء الجامعة فهم في درجة (مدير عام)

الثالث - أساتذة كليات الأزهر ومدرسوها: لم يوضع أحد من الأساتذة في الدرجة الرابعة إلا في سنة 42، ولم يكن أحد منهم في الثالثة أو الثانية أو الأولى (بالطبع) مع أن أساتذة الجامعة ودار العلوم في الثانية والثالثة وليس فيهم من هو أقل من الثالثة أما مدرسو كليات الأزهر، فهم في الدرجات الخامسة والسادسة، ويخجلني أن أقول: والسابعة! مع أنه ليس في مدرسي الجامعة من هو في أقل من الخامسة

وعلى هذا الغرار الفرق بين شيوخ المعاهد، ونظار المدارس، وبين المدرسين والموظفين في كل منهما

فإذا طالب الأزهري بالمساواة، فهو طلب عادل، ومساواة واجبة. وفي هذه المساواة تحقيق للعدالة بين طبقات الأمة، وراحة لضمير فئة خصصت حياتها لخدمة العلم والدين ولغة العرب.

فالأزهري الحديث يطلب المال كما يطلبه غيره، ليعيش بكرامته، وينعم بخيرات بلاده كما ينعم غيره

وإذا كانت الدول تنفق الأموال الطائلة، على الدعاية التي لم تتحقق ثمرتها بلا مقابل - فالأزهر أكبر دعاية لمصر في الشرق والغرب، بل هي دعاية محققة الفائدة، بل قد يكون من القضايا المسلم بها، أن مصر لم تتزعم العالم الإسلامي والشرق العربي إلا بفضل الأزهر. فليس بمستغرب إذن أن ينفق عليه للإصلاح، بسخاء من غير مقابل!

وممن يطلب المال؟ يطلبه من حكومته العادلة الرشيدة، التي آلت على نفسها أن تصلح شأنه، وأخذت على عاتقها أن تمكنه من أداء رسالته العلمية الدينية، وأن توجه عناية خاصة إلى الوعظ والإرشاد.

وهذا التمكين وتلك العناية، لا يقومان إلا على أساس المال وهاأنذا أرسم الخطة التي أرجو أن يسير عليها الأزهر في عهده الجديد؛ لتكون منهاجاً واضحاً لمن يريد الخير والإصلاح لهذه الجامعة الدينية الكبرى. مصدراً ما أورده هنا عن تجارب الماضي وعبره.

رسالة الأزهر الجديدة

هي بذاتها رسالته القديمة، مضافاً إليها ما يلي:

1 - تأليف الكتب العلمية للدراسة. وهذه عقدة العقد في إصلاح نظام الأزهر، وأعتقد أن كل إصلاح لا يحل تلك العقدة، لا يؤتي ثمرته المرجوة، ولا يحقق آمال المسلمين كتب الأزهر الحالية في شتى العلوم، مجموعات كبيرة من المتون والشروح والحواشي والتقارير، فهي حقاً ثروة علمية هائلة، جمعت كنوز العلم، وميادين الفكر، وعصارات العقول. لولا ما فيها من حشو لا تسيغه أذهان الناشئين، ولا يتفق وكثرة العلوم التي لا غنى عنها للطالبين.

ألفت تلك الموسوعات في زمن غير زماننا، ولرجال غير رجالنا. هم عملوا، وعلينا أن ننقح ما عملوا؛ لأن ما عملوه لا يروج إلا في سوق الأزهر ومعاهده، ونحن نريد بضاعة علمية من التأليف، تروج في سوقنا، وتغزو سوق غيرنا، في مصر وفي غير مصر من جميع بلاد العالم.

نريد أن تكون كتب الأزهر القديمة، مراجع علمية، ومصادر للتأليف، ومواد ودراسات عالية لمن يريد التضلع من العلم، والتخصص فيه.

ونريد أن تؤلف للدراسة في الكليات والمعاهد الدينية كتب جديدة قيمة في جميع العلوم، مقتبسة من كتبنا القديمة تجمع المسائل العلمية، والبحوث النافعة، مع التنسيق وحسن الترتيب- مراعى فيها أن يمكن استيعاب دراستها في الزمن المخصص

لكل مرحلة من مراحل التعليم، حتى لا تنفلت حلقة واحدة من سلسلة المقررات العلمية السنوية، لكل فرقة من فرق الدراسة. وهذا النوع من الإصلاح لا يعوزنا في تحقيقه إلا المال. أما الرجال فإن في الأزهر الآن عقولاً تستطيع أن تؤلف أنفع كتب (أخرجت للناس) وإني أهيب بولاة الأمر فينا، أن يبادروا بإخراج هذه الفكرة إلى حيز الوجود ولو بالتدريج، قبل أن يقل العلماء القدامى، فتفوت الفرصة السانحة، تلك الفرصة التي يرجو كل محب لخير الأزهر أن تنتهزها حكومة الشعب، في عصر الملك السعيد، صاحب الجلالة فاروق الأول، أيده الله، وأعز به الدين والوطن.

(يتبع)

عبد الحميد عنتر
أستاذ بكلية اللغة العربية

من مغاني الأزهار

إلى (ذات الغدائر الذهبية)

لشاعر العاطفة والوجدان جان ريشبان
للأستاذ عبد العزيز العجيزي

ليلاي! هيا نجول في روض الأحلام، ونطوف
بفردوس الأوهام. هيا ننعم بما يداني قطوف
فتنتك وجلالك، وأفاويق سحرك ودلالك.
هيا نسبح في أجواء الخيال، ونرفرف في فضاء
الآمال، ونسمو إلى عالم الجمال. . . واهاً لها من
أحلام مغرية! وواهاً لها من أحلام خادعة!
هيا نرنو إلى الأشجار الوارفة، والأطيار
الصادحة، والمياه الساجية تحت قبة السماء الزاهية
تأملي يا حبيبتي! فالشمس بازغة من مخدعها
بزوغ الحسناء من خدر عشيقها، شاحبة المحيا،
حسيرة الطرف، كسيرة الجناح، في موكب
الصباح النضير، وجماله الساذج الغرير، ناثرة
في الأفق طاقات الزهور العسجدية، والورود
القرمزية، بينما الدجى يسحب غدائره السوداء.
زنبقات الفجر! تلك الزنابق البيض تنثر لؤلؤاً
وضاء، فتوجي جبينك بهذا الإكليل اللألاء،
ليشدو الفجر الفريد، شدو البلابل بالنشيد،
فتتفتح حينذاك أوراق الأزهار وتنفض عن
أجفانها غلالة النعاس، كما تنفض العيون عن
أهدابها كحل الكرى عند انبلاج الصباح الوليد
ويترنم سيل الجدول المنساب، حاملاً إليك
بين ثناياه المترقرقة جواهر ماسية صافية، ومن
صفحته اللألاءة مرآة بلورية زاهية. وتندفع
أحجار الحصى كثمار الجوز المنزلقة على
الصراط الضيق، وتفوح أشجار الصندل
بالعرف الشذي، والطيب الندي.
وتسلب الريح الهائمة أنغام القبل الراقصة على
شفتيك، وتنهب الأغاني الشادية على لماك، فتجعل
الأشواق المتأججة، والأماني الهائجة، ورعدة
الصبوة الجامحة، تهيم في الآفاق، وترقد في
منازل الأفلاك، حالمة بسحر لحظك الفتاك!
ليلاي! كل شيء يزهر تحت قدميك، وينضر
بين يديك؛ فيشرق جماله لعينيك، ويضوع نسمه
من عبير ثناياك، في روض السحر والفتنة، وأيك
الجمال والروعة. . . وينمو العشب وينبت الكلأ

. . .حيث تتباين الورود وتتنوع الأزهار
لحظة يا حبيبتي من لحظات عمري أرشف فيها
الهوى صرفاً، وانتشى بالحب خمراً.
كل شيء يمتزج في ربيع هوانا بسحر الجمال،
ويثمل برحيق الوصال؛ فيعانق شذى الوجود،
وخمر الطبيعة، وفيض النور، وصدحات
القبلات الساجعات، كشدو ناي مترنم
في مجامع الأزهار؛ هذه القبل هي قربان
هيامنا القدسي، وزلفى غرامنا السرمدي.
ليلاي! ها نحن أولاء غرقى في ثبج هذا الحشد
الزاهر؛ فكيف النجاة من عبابه الزاخر؟ عبثاً
تحاولين الفرار! فالأزهار تحنو منطوية عليك لشوقها
إليك، والرياحين ترنو مطلة إليك لتلهفها عليك.
بينما تبعث الزكى من روحها والشذى من
ريحانها، لتنهلها الريح بعبيرها ورياها، وتلتهمها
بمتعها وجناها؛ كالسلوقي يعدو مسرعاً ويطوي
الأرض لاهثاً ليروي ظمأه، ويمسك رمقه!
فاطو العمر أيها الزهر المخضب، ومت بفتنتك
بين الرياض وجداً وهوى! فقد كتب الموت
على الأزهار التي تذوب صبابة وهياماً،
لتنفث زفراتها أريجاً وعبيراً لمن جافاه
نعيم الصبا ولم يهتد لضوء الهوى.
ليلى؛ أواه! حسبنا أن نموت كهذه الأزهار
الولهة، لنريق دماء صبوتنا عطراً متيماً، فتسكر
الريح بخمر قبلاتنا، وتبوح الأزهار بسر غرامنا!
أجل يا حبيبتي! هذا هو الحب العاطر ينشر
أريجه ف الأودية والحقول، ويلهم وحيه الصادق
الإفهام والعقول، ويرويه للكون في آيتيه الليل
والنهار، هوى عذريا، وحباً قدسياً، فيؤمن بالحب
بعد جحوده، ويصحو على صوت مؤذنه بعد همود
هنالك، يوحي إلهامه، ويهمس تراتيله في أذن
الطبيعة الصماء، فتشدو الريح في يوم عرسنا مرتلة
أناشيد غرامنا، وترقص أغاني العمر على الشفاه،
مغردة أغاريد الهوى على الثغور، شادية
ألحان القبل، ساجعة أنغام الغزل.
(المنصورة)

عبد العزيز العجيزي

اليابان إزاء الصين

لليوزباشي حسين ذوالفقار صبري

هناك في الشرق الأقصى منذ أكثر من عام، هبّت فجأة أعاصير الحرب تجتاح الدول عاصفة بالقوانين، لا تعرف لتلك حرمة ولا تقيم لهذه حساباً، ثم خبت نارها فجأة كما قامت، وصفت سماؤها وشفّت إلا عن بضعة التحامات هنا وهناك، ولكن تيارها العميق، البعيد عن الأنظار ظل قوياً مستمراً عنيفاً تحت السطح الراكد قبل الزوبعة، المتلاطم أثناءها، ثم المختلج بعدها.

هناك في مجاهل الصين منذ أكثر من خمس سنين انبثق ذلك التيار، الجارف الآن، مترقرقاً في ذلك الحين، ولم يزد على أن يكون مشاغبة تافهة بالقرب من بيبنج (بكين قديماً)، ولكنها كانت مشاغبة توارت خلفها مطامع اليابان، فانتهزتها فرصة للإقدام والتنفيذ، ولكن تنفيذ ماذا؟ استعمار الصين؟ نعم ولكن. . . أين كانت خطتها المحكمة التدبير. . .؟ أين كانت، فإن المراقبين لم يروا منها إلا ارتجالاً إثر ارتجال، ولم تحصد

هي من أعمالها إلا توريطاً إثر توريط؟
تلك كانت عقيدة ،(!إذا أردنا السيطرة العالمية، وجب علينا أول الأمر إخضاع الصين)
الجيش الياباني، وهو كما لا يخفى أداة الحكم في تلك البلاد. وإخضاع الصين عملية
شاقة مرهقة، عملية تستنزف أعنف مجهود، وتستنفد أرواح ملايين من الجنود،
وتتطلب فوق هذا وذاك وقتاً طويلاً تكون اليابان خلاله متورطة في مجاهل سحيقة في
حين تكون روسيا متربصة عن يمينها، وبريطانيا رابضة عن يسارها، وأسطول أمريكا
جاثم على مؤخرتها؛ إذ لم يكن هناك بد لإخضاع الصين من التوغل في أرضها الوعرة
الموحشة حتى تصل الجيوش إلى معبر توانج كوان عند منحنى النهر الأصفر، وهو الذي
يعد بحق مفتاح الصين اللازم لكل غاز منتصر، وبدونه يستحيل الانتقال بالجيوش
الجرارة أو الإمدادات الوفيرة إلى قلب البلاد، وهو في الوقت نفسه يمهد الطريق
الأسهل إلى ولاية ستشوان الخصبة الغنية (حيث توجد العاصمة الآن)، وهو أيضاً يهدد
مرتفعات شانسي المشرفة على منشوكو والمغول الداخلية وسهول الصين الشمالية!
فهو كما نرى معبر به مغاليق الصين إلا أنه معرّض مهدد إن لم يحمه صاحبه باحتلال
وادي نهر هان الملتف جنوبه. إذن على
اليابان أن تحتل هذه المعاقل الثلاثة النائية: معبر توانج كوان، ومرتفعات شانسي،
ووادي نهر هان، قبل أن تأمل بسط سيطرتها على أبناء (الأرض الطيبة)، وقد أحجمت.
. . فهي تعلم أن الدول الثلاث المحيطة بها لا شك مقدمة على وقفها عند حدها إن هي
تجاوزته؛ ولكن مطامع اليابان كانت متأصلة في نفسها، مُلحة عليها، مكبوتة متحفزة،
مخبوءة متربصة، فهي إذن لا مراء مندفعة إلى عالم الوجود، إن عاجلاً أو آجلاً، كماء
تفجر من ينبوع جياش، فينقلب إلى سبيل متدافع أرعن لا حاكم له ولا ضابط. لذا
استقر رأي ولاة الأمور على تلافي تلك العاقبة الهوجاء بتفريج الحال على دفعات خلال
منفس صغير أدّى بهم إلى سلوك مسلك عجيب، بريء المظهر، خبيث الطوية، مسلك
المنحرش بالقوم الآمنين حتى يستفزهم، الغاضب لإهانة وهمية لم تلحقه، المتوعد
بالويل حتى يسترضى فيتأفف، ثم المقدم على اغتصاب تعويض ضخم ليس من حقه،
وقد بنيت الخطط على أن يكون التعويض المذكور مقاطعة صينية تنتزع انتزاعاً لتضم
إليهم، وعندما يتم إدماجها اقتصادياً واجتماعياً في نظامهم المرسوم تُعاود عملية
الاستفزاز من جديد وهكذا دواليك.
وتحرشوا أول مرة في (مكدن) في سبتمبر سنة 1931 فضُمت منشوكو إليهم. . .
وتلمظت طوكيو هانئة بالذي ابتلعت، وأدارت وجهها لانتقاء وجبتها التالية، بينما مضت
إدارتها الداخلية تنسق الولاية الجديدة. . . ولم تعلق كبير اهتمام بذلك الشاب الصيني
اليافع الذي علمته في مدارسها الحربية، وأنعمت عليه بلباسها العسكري، فجازاها بأن
ألقاه في وجهها وفرّ منها متقلباً بين اليمين والشمال في حكومات الصين، موحّداً
لواءها مرة ومشعلاً الحرب بينها مرات، ذلك الشاب الذي أضحى الآن رجلاً قوي
الشكيمة شديد البأس على رأس جيش عرمرم، ذلك الرجل الذي توصل أخيراً إلى
توحيد مختلف حكومات الصين تحت تعاليم أستاذه العظيم (صون يات صن) ذلك
الرجل الصارم العنيد، شانج كاي تشك رجل الصين الأعظم، ورمز عصرها الجديد.
تنبه القائد الصيني للخطر المحدق ببلاده فأعد خطته على أساس توسيع رقعة القتال
بمجرد نشوبه مرة أخرى، فيورط اليابان في حرب أرجاؤها فسيحة وسط قوم
مناهضين لهم ساخطين عليهم. أستمع إليه قبل الحرب بثلاث سنوات وهو يخاطب
ضباطه في (كولنج): (تظن اليابان أن في إمكانها احتلال الصين دون كبير عناء. . .
وهي لا بد معاودة التحرش
بنا قريباً. . . واعلموا أنه لا يتحتم علينا مقابلة كل سلاح تأتي به اليابان بسلاح
يماثله. . . بل في وسعنا أن نجابه اختراعات العدو الجديدة بأسلحتنا التقليدية العريقة،
وهي مقدرتنا الفائقة على استخدام كل ما تراه العين أو تقع عليه اليد، سواء أكان هذا
جبالاً أم أنهاراً، حجارة أم أغصاناً. . . يجب علينا إيقاظ شعبنا من سباته حتى يهب خلف
المغير إذا تقهقرت القوات أمامه،. . . إن تحديد وسائل المقاومة لا يهم ما دامت
تحدونا عزيمة لا تهن وهمة لا تكلّ. . .)
وفي هزيع ليلة حالكة من ليالي يوليو سنة 1937 دوت في الفضاء عدة طلقات عند
معبر (مركو بولو) بالقرب من بيبنج فكانت إيذاناً بالملحمة الكبرى. وأطبقت اليابان

على الصين الشمالية. . . وكان (كاي تشك) كما أسلفت قد قرر أن يمد رقعة القتال ويستدرج العدو إلى جوف البلاد، أو على حد تعبيره، كان قد قرر أن يشتري الزمان بالمكان. ظنت اليابان أنها مقدمة على نصر سريع كذلك الذي واتاها منذ ست سنين في منشوكو. ظنت أن (كاي تشك) سيواجه جيوشها الميكانيكية الحديثة في سهول الصين الشمالية، ولكنه لم يفعل، بل أرسل خيرة جنوده إلى شنغهاي يهدد مصالحها هناك فاستدرج جنودها وراءه. وهزم القائد الصيني هناك وأخلى عاصمته نانكين ثم هزم في (سوتشاو)، ثم هزم مرة ثالثة أمام عاصمته الجديدة (هنكاو)، ولكنه في كل مرة كان ينزل بأعدائه أفدح الخسائر ويرتد عنهم قبيل إطباقهم عليه، مغرياً إياهم باللحاق به والتوغل خلفه حتى أضحت جنود الحملة اليابانية منتشرة على مساحة شاسعة، ولم تعد قادرة على تركيز مجهودها في مكان معين، واضطرت حامياتها الموزعة على مختلف المدن الصينية المحتلة أن تحمي خطوط المواصلات حتى لا تفقد تماسكها ولكنها لم تجرأ على المخاطرة بنفسها في الأماكن غير المطروقة، وهكذا أصبحت لا تحتل من البلاد إلا شبكة خيوط مرسومة حول أرض وعرة مجهولة وبالهلاك موبوءة.

توصل شانج كاي تشك إلى تنفيذ مأربه وأصبحت القوات اليابانية عاجزة عن إحراز نتيجة حاسمة، وأضحت حكومتها لا تجرؤ على التراجع بعد أن بهظت تكاليف مغامرتها، وظلت إدارتها الداخلية قاصرة على تنظيم موارد أراض لم يستتب الأمن فيها بعد.

وفي الوقت نفسه كان القائد الصيني يجمع الجنود وينظم الصفوف ويستورد المهام من

روسيا عبر (سنكيانج)، ومن بريطانيا وأمريكا عبر بورما أو عن طريق بعض المواني التي حمتها امتيازات الدول الغربية

ووقفت اليابان تراقب ذلك الجرح الذي لا يندمل بقلب كمد وعقل مبلبل حائر. . . ثم قبض جنرالها (سوجياما) على مقاليد الجيش وأصبح رئيساً لهيئة أركان الحرب العامة، و (سوجياما) هذا جندي نشط جسور، يواصل العمل ليل نهار تحدوه إرادة لا تكل، وكراهية ملتهبة لكل ما هو أجنبي، وكان عليه أول الأمر عزل الصين عن كل مساعدة خارجية وتأمين مؤخرة اليابان أمداً من الزمان حتى يتم لها القضاء على مقاومة شانج كاي تشك. . . وربض (سوجياما) يرقب اللحظة المناسبة حتى واتته فانقض. . . فكانت (بيرل هربور) وتبعتها هنج كنج والفلبين وبورنيو والملايو وبورما وسومطرة وجاوة وجزر سليمان. . .

يظن الكثيرون أن تلك كانت مقدمات لانقضاض اليابان على استراليا أو استعداداً منها لاجتياح الهند؛ وإني لا أنكر أنها قد تتحول إلى ذلك مستقبلاً، ولكنها لم تكن في ذلك الحين إلا سياجاً عظيماً أقامته اليابان حول الصين وبحار الصين، وإن كانت لم تتعرض لطريق روسيا التي انشغلت عن مساعدة شانج كاي تشك بحربها الشعواء مع ألمانيا النازية، وعدا ذلك فقد خشيت طوكيو استفزاز الجنرال الروسي اشترن الذي وقف على أتم استعداد يراقب بعين يقظة جيش إتاجاكي المرابط في منشوكو. . .

كل شيء هادئ في الميدان الشرقي!. . . هكذا يقرر الكثيرون لأن الصحف لم تعد تقدم لهم عنه ما تعودوه من عناوين ضخمة، وهم في ذلك مخطئون. . . فقد ألقت اليابان في أتون المعركة بفرق أخرى جديدة، وأطبقوا على (شنسي) في الشمال، واحتلوا (شكيانج) و (كيانجي) في الجنوب الشرقي فأصبح لهم خط حديدي تام يصل شنغهاي بسنغافورة عبر الهند الصينية وسيام، وهاهم يقاتلون الآن في مقاطعة يُنان حيث ألقى شانج كاي تشك بجنده المختارة على أمل إعادة فتح طريق بورما المشهور، بينما سارع وكيل هيئة أركان حربه الجنرال المسلم (باي تسونج هسي) إلى الشمال للدفاع عن (شنسي). . .

كل شيء هادئ في الميدان الشرقي!. . . نعم إلا إذا استثنينا ذلك الصراع الهائل الذي يخوضه ربع سكان العالم، أربعمائة مليون شخص، في سبيل حريتهم.

كل شيء هادئ. . . ولا جديد هناك! نعم لا جديد سوى أن زهرة الجيش الياباني قد عُقلت

وأصبحت عاجزة عن الإقدام على مغامرة جديدة! لا جديد سوى بضع معارك طاحنة في ينان وشنسي وتشكيانج وكيانجسي! لا جديد سوى أن تلك المعارك يتوقف عليها

مصير العالم الشرقي بأجمعه!
حسين ذوالفقار صبري
ميلاد زهرة
(إلى الطيور النائمة في أعشاشها قبيل فجر الشتاء)
للأستاذ علي محمود طه
من ديوانه الجديد (زهر وخمر) وهو الآن على وشك
(الظهور)
يا شُعراَء الروض أيْنَ البيانْ؟ ... أين أغاريدُ الهوى والحنانْ؟
قد وُلِدت في روضكم زهرةٌ ... يا حُسنها بين الزهور الحَسانْ!
حُلمُ الفراشات، وحُبُّ النَّدى ... وخمرةُ النحل وسحرُ الأوانْ
قد بشَّر الأرض بها مرسلٌ ... مُجنَّحٌ من نسمات الْجِنانْ
والنورُ سرٌّ في ضمير الدُّجَى ... والفجرُ طيفٌ لم يبنْ للعيانْ
أبصرتُها تهفو على غُصنها ... في وحشةِ الليل وصَمْتِ المكانْ
بيضاَء أو حمراء تُزْهَي بها ... عرائسُ النرجس والأقحوانْ
تظلُّ تُصغي، وتظلُّ الرُّبى ... والعشبُ والجدول والشاطئانْ
وليس منكم حولها هاتفٌ ... تكب موسيقاهُ سِحرَ البيانْ
أملَّت النشوةَ أرواحكم! ... أم نَضَبَتْ من خمرهنَّ الدِّنانْ
قُوموا انظروا الظِّلَّ على مهدها ... يرقصُ فيه القمرُ الأضحيانْ
لو تقدرُ الأنسامُ زفَّتْ لها ... أربعةَ الفردوسِ في مهرجانْ
وأسمعتْ من خفقِ أنفاسها ... صوتَ البشيرات وشدوَ القيانْ
يا شعراَء الروض كم زهرةٍ ... ميلادُهَا من حَسَنَاتِ الزمانْ
حسبي من الدُّنيا على شدوكم ... زهرٌ وخمرٌ ووجوهٌ حِسانْ
علي محمود طه
المنارة الجديدة
للأستاذ خليل شيبوب
ألقيت في حفلة (تحية الشعر السكندري إلى جامعة فاروق)
الأول) التي أقيمت في جمعية الشبان المسيحيين بالإسكندرية
(يوم الخميس 25 مارس سنة 1943
سماء الهدى فيضي ضياَء وجدِّدي ... ضياءك إن القلب بالنور يهتدي
وما زالت الإسكندريةُ مَهْبَطاً ... لوحيكِ فيها نازلاً أرضَ موعد
أطلي بألوانِ الربيع وأطْلِعي ... من الزُّهر فيها فرقداً إثْرَ فرقد
فإن عروسَ الشرقِ أنفاسُها الشذى ... وحُلتُهَا بُرْدُ الشبابِ المُجَدَّد
أنارَ على شطِّ المحيطِ ابتسامُها ... يَرُدُّ إلى الميناء كلَّ مُشَرَّد
وسيانِ سَفْرٌ في الحياةِ مُضلَّلٌ ... وسَفْرٌ على لْجٍ من اليمِّ مُزبِد
أطلَّتْ على التاريخ شمساً تشعبت ... أشِعَّتُها من مصدرٍ فيه أوحد
بعلمٍ وفنٍ كالسناء وكالسنا ... وبأسٍ وعزمٍ كالمُنِيفِ المشيَّد
إذا ماً خبتْ تلك المنارةُ وامّحت ... معابدُ فيها للجمالِ المخلد
فقد بقِيَت فوق الزمان منارةً ... كما بقيت للحسن أكْبَرَ معبد
وها قد أتاها الدهرُ معتذراً لها ... بجامعةٍ تستلحقُ الأمْسَ بالغدِ
منارةُ فاروقٍ وليدةُ ملكه ... فيا حُسْنَ أنْوَارٍ ويا فَخْرَ مَوْلد
بناها فأعلاها مليكٌ تألفَتْ ... عليه قلوبٌ تصطفيه وتفتدي
وساق إليها صفوةً من رجاله ... جهابذةً أعلامَ فضلٍ وسؤْدد
وفجَّرَ فيها شِرْعةً صولجانهُ ... من العلم مرويًّا بها ظمأُ الصدى
إذا فرِقُ الوُرَّادِ محشودةٌ بها ... كتائبُ آمالٍ تروحِ وتغتدي
وشرَّفها لما تقلَّدَ مُفْضِلاً ... إجارَتَها مَزْهُوةً بالمقلد
فأبلغها أوج الكمالِ فتيَّةً ... تُباهي بما نالته أقدمَ معهد
أتمَّ على الإسكندريةِ مجدها ... عظيمٌ له تعنو العظائمُ عن يد
فعاودَها التاريخُ يفتحُ بَابَهُ ... لها مستعيداً سِيَرةَ المتعوِّد
وهلَّ عليها الفجرُ يلثم ثغرها ... وهبَّ عليها الروضُ بالعَبَقِ النَّدي

وضاحكت الآفاقُ شاطئها على ... مباهج فيها النورُ لحنُ مُغرِّد
فيا شُعلة الفن القديم تجدَّدي ... ويا جذوة الحسنِ الصميم تَوَقَّدِي
ويا ثغرَها هذي المنارةُ فابتِسمْ ... ويا موجَها هذا الضياءُ فأَنْشِد
خليل شيبوب

البريد الأدبي

حول قضية شهرزاد: الأدب والأشخاص

في العدد الفائت من الرسالة أكثر من ثلاث صفحات عن (قضية شهرزاد) للأستاذ (الدريني خشبة). وقضية (شهرزاد) قد أثيرت منذ صدرت (أحلام شهرزاد) وأثيرت في جو أدبي مقيد بهذا الوصف، ولا تزال قابلة لأن تثار في هذه الحدود. ولكنني أسمح لنفسي أن أقول: (إنني شممت في كلمة الأستاذ (رائحة) أخرى!

ففي حدود الأدب الخالص يملك الأستاذ أن يقول عن (أحلام شهرزاد) على لسان فاتنة (إنني أروع لوحات الفن في عالم الأدب المصري الحديث. . .) أو أن يقول: (صورتي الرائعة التي هي ابتكار جديد لم يسبق أحد صاحبي إليه، ولا استطاع أحد أن ينبت في جنة شهرزاد زهرة أينع منها ولا أعبق من شذاها شذى). . . الخ

فهذا حكم أدبي يجد الأستاذ كثيرين يوافقونه عليه، ويجد كذلك كثيرين يخالفونه فيه؛ بل يجد كثيرين يقولون له: إن أحلام شهرزاد بما فيها صورة فاتنة، لا تقاس إلى لوحات الفن التي رسمها الدكتور طه حسين نفسه في كتاب (الأيام) أو في (دعاء الكروان) أو في (الحب الضائع) أو في (أديب) إلى آخر هذه اللوحات التي عاشت طليقة في سماء الفن الرفيع غير مقيدة بأوضاع اجتماعية أو سياسية حياتها محدودة في نطاق من الزمان!

وسواء خالفه الناس أو وافقوه، فهو حكم أدبي خالص لا عليه فيه من جناح!

أما الذي عليه فيه جناح والذي تمنيت وتمنى الناس ألا يكون في لغة النقد الأدبي في هذا الزمان، فهو مثل قول الأستاذ في رأي من يخالف رأي صاحب أحلام شهرزاد عن المرأة إنه (رقاعات)!

أو مثل قوله فيمن يخالفون رأيه هو في أحلام شهرزاد: إنهم (خراصون مرجفون)! أو مثل قوله في قراء (شهرزاد): (وإذا صح أن يكون الناس قد صاروا نوكى وقعاديد صح أن تؤلف لهم قصة كقصة شهرزاد تهدف بالمرأة إلى هذا الهدف الوضيع الذي يجعل بيوت الناس مواخير فسق وأسواقاً للبغايا).

ومثل هذا كثير في كلمة الأستاذ، بل هو مادة كلمته وقد اختار أن يجعل من (شهرزاد) رمزاً لبناتنا وأخواتنا وأمهاتنا. واختار أن يجعل مؤلفها قد انتهك أعراضنا وحرماتنا، فلم نثر ولم نسخط، فنحن إذن: (نوكى قعاديد) ونحن إذن (فسول أفيكون مدخولون في عقولنا)

وأعتقد أن هذا وأمثاله لم يعد لغة في النقد في هذا الزمان. فالنقد لم يعد يقبل أن تستثير ضد الرأي الأدبي الذي تخالفه نخوة الدين ونخوة العرض ونخوة الأخلاق، وأن تتهم بلا حساب كل ناقد أدبي يخالف رأيك في نخوته وشرفه ومروءته ونجدته وتحيزته)!

أحسبه أراد أن يقول: إن لكل من مؤلف شهرزاد ومؤلف أحلام شهرزاد رأياً في المرأة يختلف عن رأي الآخر ويؤثر عليه في اتجاهاته الأدبية؛ فتلك قضية كان يمكن أن تؤدي بأعف من هذه الألفاظ وأكرم. ولقد أديتها في مجلة (المقتطف) في حدود أوسع من هذه الحدود، وأديتها واضحة صريحة مفهومة، ولم أجدني محتاجاً إلى كل هذا العناء!

وبعد فالأستاذ يكرر مرة ومرة: (أنه لا يبغي بما كتب أن يرضي أحداً أو أن يغضب أحداً) فأحب أن أطمئن الأستاذ (وهو حديث عهد بالعمل تحت رياسة المستشار الفني) أنني جربت مؤلف (أحلام شهرزاد) في نظرته للنقد الأدبي، وعلمت أنه لا يثير غضبه ولا يستوجب رضاه! والسلام

سيد قطب

هل ذو القرنين هو كورس الفارسي

أخذت في العدد - 507 - على بعض الفضلاء أن ما ذهب إليه في ذي القرنين لا يتفق مع القرآن ولا مع سؤال اليهود، لأنه يرى أن الآيات الواردة في ذي القرنين هي في الحقيقة تاريخ دولة برمتها، وهي دولة الفرس من كورش إلى دارا الثالث، مع أن كلا

من سؤال اليهود وتلك الآيات صريح في أن ذا القرنين شخص واحد، لا تاريخ دولة برمتها. وقد عاد هذا الفاضل في العدد - 508 - إلى تأييد رأيه بعد تهذيبه بتأثير ما أخذته عليه، فذهب إلى أن الآيات القرآنية تمثل تاريخ ملك واحد لا دولة برمتها، وإلى أن ذلك الملك هو كورش منشئ الدولة الفارسية، وذلك باطل أيضاً من وجوه.

1 - أن كورش حينما اتجه إلى السكيثين المعروفين الآن بالتتر لقيته الملكة طوميريس بجيوشها، فوقع بينهما حرب شديدة انتهت بأسره وقتله، وهذا لا يتفق مع ما ذكره القرآن عن ذي القرنين حين وصوله إلى بلاد التتر، فهو لم يقتل هناك كما قتل كورش، وإنما بنى سداً ذكر القرآن أنهم لم يستطيعوا أن يظهروه ولم يستطيعوا له نقبا

2 - أن بلاد فارس تقع في جنوب آسيا، فحينما اتجه كورش منها إلى آسيا الصغرى وسوريا كان متجهاً إلى الشمال لا إلى الغرب كما جاء في القرآن عن ذي القرنين، ولا شك أن آسيا الصغرى وسوريا لا يمكن أن يقال عمن يصل إليهما إنه بلغ مغرب الشمس، لأنهما يقعان في قلب المعمور من نصف الكرة القديم، وإنما يمكن أن يقال ذلك فيمن بلغ في فتوحاته أوائل بلاد المغرب على الأقل

3 - أن رؤيا دانيال ليس فيها إلا تمثيل دولة الفرس بكبش ذي قرنين، وتمثيل دولة اليونان بتيس ذي قرن واحد، وكما لا يقتضي تمثيل دولة اليونان بهذا التيس تلقيب ملوكهم بذي القرن الواحد، لا يقتضي تمثيل دولة الفرس بذلك الكبش تلقيب ملوكهم بذي القرنين

أما الاسكندر المقدوني فإنه كان يلقب بذي القرنين كما ذكره كثير من المؤرخين، ويؤيد هذا تلك الدنانير القديمة التي عثر عليها في عصرنا، وقد رسمت فيها صورة الإسكندر وعلى رأسه قرنا أمون. أما فتوحاته فقد اتجه فيها من اليونان إلى آسيا الصغرى، فحارب فيها دارا وهزمه، وسار بعد هذا إلى سوريا فمصر حتى وصل إلى واحة سيوة، وبذلك يمكن أن يقال إنه وصل إلى مغرب الشمس، لأنه وصل بذلك إلى بلاد المغرب، ثم عاد بعد ذلك متجهاً إلى الشرق فقتل دارا وفتح بلاد فارس وما وراءها حتى وصل إلى بلاد الترك، وهذا الفتح يتفق اتجاهه مع اتجاه الفتح المنسوب في القرآن لذي القرنين، وكذلك يتفق الفتحان في نهايتهما غرباً وشرقاً.

أما وثنية ملوك الفرس فهي واضحة وضوح الشمس، وقد كان أسييا ج جد كورش لأمه وثنياً، وهو الذي دعا أرباغوس من حاشيته ليحضر ما يقدمه من قربان لآلهته شكراً لهم على سلامة كورش، فقدم لأرباغوس لحم ابنه مطبوخاً فأكله، وقد فعل معه هذا لأنه لم يقتل كورش حين سلمه إليه وليداً وأمره بقتله، وكذلك كان كورش وقمبيز وغيرهما من ملوك فارس، وقد كان بعضهم يؤمن مع ذلك بإله الإسرائيليين، فيكرمهم تبعاً لإيمانه به، ولكن هذا لا ينفي الوثنية عنه، لأنها لا تنتفي إلا بالإيمان بالله وحده.

عبد المتعال الصعيدي

إلى الدكتور زكي مبارك

قرأت مقال الدكتور النابغة عن (اللغة العربية في المدارس الثانوية) وقد تحدث فيه عن ضعف التلاميذ في الإنشاء فرجعه إلى المدرس، فهو السبب الأول والآخر والظاهر والباطن، وسرد أسباباً لبابها انصباب الضعف على رأس المدرس، أو من رأسه، أما التلميذ، وأما المفتش، وأما الوزارة، وأما الوسط، وأما المنهج، وأما توزيعه، فليس لكل أولئك أثر من جناية على التلميذ في ضعفه. والسكوت على الاتهام مع القدرة على دحضه فوق أنه ضعف إثبات للتهمة وتزييف للعدالة، لذلك سأرد على ذلك الاتهام لا لتبرئة نفسي وأخي بل لأضع الحق في نصابه.

يرى الدكتور أن السبب الأول: (سيطرة المدرس على لغة التلميذ) وهذه السيطرة هي السبيل الوحيد لتزويده بما يشاء من ألفاظ ومعان يستخدمها فيما يكتب، لأنه لا يزال في أول طريق الكتابة فسنة أو سنتان في التعليم الابتدائي لا تقدر التلميذ على الكتابة المستقلة.

السبب الثاني: (تحكم المدرس في عقل التلميذ)، ويقصد الدكتور بذلك حصر عناصر الموضوع وتسلسلها؛ ومع أن هذا لا عيب فيه، لأن العناصر تستخلص من أفكار التلاميذ وبألسنتهم فتلك الطريقة لا تتبع إلا في السنوات الأولى من التعليم الثانوي، على أن الأساتذة لا يقيدون التلاميذ بالعناصر بل يتركون لهم العنان يفكرون كما يشاءون،

ويكتبون ما يشاءون السبب الثالث: (تقديم موضوعات بعيدة عن مدارك التلاميذ وأريد بها الموضوعات الميتة)

في هذا السبب يتجنى الدكتور على كثرة المدرسين إذ هو لم يطلع - من غير شك - على جميع - الموضوعات المختارة وإنما اطلع على قلة ضئيلة لا يمكن إلا أن يكون فيها الحي والميت والحكم القائم على القلة حكم واهي الأساس.

السبب الرابع: (إقبال المدرس على تصحيح الكراريس وفي ذهنه صورة محدودة للاجابات، فهو يهمل كل صورة منحرفة عن تلك الصورة) وذلك تجن ثان أو ثالث - كما يشاء الدكتور - فإن أحداً لم يطلع على ما ارتسم في ذهن المدرس حتى يحكم هذا الحكم، وإن يكن الدكتور أيام تدريسه يسلك تلك الطريق فلا يصح اتخاذه طريقته دليلاً على طرائق غيره.

السبب الخامس: (إغرام بعض المدرسين بالإكثار من التصحيحات إكثاراً يشهد برغبتهم في
التفوق والاستعلاء).

وإن يكن الشق الأول مما يزعمه الدكتور صحيحاً فليس فيه ما يعيب المدرس الذي يعني بتقويم العبارة وتحقيق اللغة، أما التفوق والاستعلاء فمعنيان لا يردان في خاطر المدرس لأنه بطبيعة مكانه من التلميذ يستأهلهما. ولا أحسب الإباحية اللغوية التي يدعو إليها الدكتور في كثير من أدبه صراحة حيناً ودوراناً حيناً مقبولة لدى جمهرة الأدباء عامة وعلماء المجمع اللغوي خاصة.

السبب السادس: (الهيام بتجميل الموضوعات بالباطل حيثما وقعت) وقد يكون في هذا شبهة من الحق لو أنه نسب إلى التلميذ وأن الأستاذ يعالجه أنجع العلاج.

أما مراقبة التلاميذ فيما يقرءون فأؤكد للأستاذ الدكتور أنها لا تجدي، ولا يصلح اتخاذ موضوعات الإنشاء مما تثيره تلك القراءات، فجلهم - إن لم أقل كلهم - يقرأ من القصص الوضيع ومن الأدب الرخيص

وبعد فالعذر للأستاذ واضح فما جدوى اثني عشر موضوعاً يكتبها التلميذ ثم لا يجد من الوقت ما يدفعه إلى تعرف أخطائه؟ وأني له الفرصة ليصف لكل تلميذ داءه والفصل يتراوح بين الثلاثين والخمسة والثلاثين؟)

حضرات المفتشين:

وحدوا خططكم، وسددوا توجيهاتكم، ونظموا مناهج لغتكم، وامنحوها من الحظ ما للغة الأجنبية، وأعطونا من الحرية ما يحفزنا إلى الإثمار والإنتاج، ثم تعالوا بعد ذلك فحاسبونا ولومونا إن وجدتم إلى اللوم سبيلاً فلوم المقصر تقويم لا يخشاه الجادون في عملهم البصيرون بواجبهم.

عبد العظيم علي قناوي
المدرس بالقبة الثانوية

ï» ؟ Error
©ظپططµظٹظ^طط¯ ط®ط·ط ظپظ‰ ط¹ط±ط¶ ظ‡ط°ظ‡ طظ„ط
ï» ؟ Error
©ظپططµظٹظ^طط¯ ط®ط·ط ظپظ‰ ط¹ط±ط¶ ظ‡ط°ظ‡ طظ„ط
ï» ؟ Error
©ظپططµظٹظ^طط¯ ط®ط·ط ظپظ‰ ط¹ط±ط¶ ظ‡ط°ظ‡ طظ„ط
ï» ؟ Error
©ظپططµظٹظ^طط¯ ط®ط·ط ظپظ‰ ط¹ط±ط¶ ظ‡ط°ظ‡ طظ„ط
ï» ؟ Error
©ظپططµظٹظ^طط¯ ط®ط·ط ظپظ‰ ط¹ط±ط¶ ظ‡ط°ظ‡ طظ„ط
ï» ؟ Error
©ظپططµظٹظ^طط¯ ط®ط·ط ظپظ‰ ط¹ط±ط¶ ظ‡ط°ظ‡ طظ„ط
ï» ؟ Error
©ظپططµظٹظ^طط¯ ط®ط·ط ظپظ‰ ط¹ط±ط¶ ظ‡ط°ظ‡ طظ„ط
ï» ؟ Error
©ظپططµظٹظ^طط¯ ط®ط·ط ظپظ‰ ط¹ط±ط¶ ظ‡ط°ظ‡ طظ„ط

ï» ؟ Error
©ظپططµظٹظ‌طط¯ ط®ط·ط ظپظ‰% ط¹ط±ط¶ ظ‡ط°ظ‡ ظ„ظ„ط
ï» ؟ Error
©ظپططµظٹظ‌طط¯ ط®ط·ط ظپظ‰% ط¹ط±ط¶ ظ‡ط°ظ‡ ظ„ظ„ط
العدد 510 - بتاريخ: 12 - 04 - 1943

مصر والوحدة العربية

قلنا في افتتاحية السنة الحادية عشرة من حياة الرسالة:

إن الاتحاد العربي على أي صورة يوشك أن يكون مقصداً من مقاصد الحكم في هذا العهد. ولقد قام في سبيل هذا المقصد ما قام منذ تصدع شمل الأمة العربية، من بواثق الاستعباد وعوائق الاستعمار وما تجره سياسة الغزاة من انقطاع الأسباب بين الأخوة، وتشعُّب الآراء بين القادة. فلما تعارضت منافع الأمم المستعمرة، ووثبت النازية تريد استعباد الأمم لأنها بطبيعة عنصرها على زعمها سيدة، وزحفت الفاشية من ورائها تبغي استغلال البلاد لأنها بطبيعة أرضها فقيرة، رأت الديمقراطية التي تجاهد في سبيل السلام والحرية والمدنية بجانب جهادها في سبيل نفسها، أن تستعين فيما تستعينُ على هذا الطغيان الكافر المسلح بقوى العرب المتفرقة؛ فأعلن وزير الخارجية البريطانية في مجلس العموم البريطاني: (أن حكومته تنظر بعين العطف إلى كل حركة بين العرب لتعزيز وحدتهم الاقتصادية أو الثقافية أو السياسية؛ ولكن من الجلي أن الخطوة لتحقيق هذا المشروع يجب أن تكون من العرب أنفسهم. والذي أعرفه أنه لم يوضع إلى الآن هذا المشروع الذي سينال استحساناً عاماً)

وبهذا التصريح الرسمي العلني زالت الحوائل السياسية التي كانت فيما مضى تجعل الكلام في الوحدة العربية حُلماً يُرى وشعراً يقال، فإذا تنفس الصبح بالحلم تبدد، وإذا انتهى الشعر إلى الفعل كذب. وكان من غير المعقول أن يرى العالم العربي الخطوب تتواثب على جوانبه، والنوازل تتفاقم في أحشائه، ثم تظل كل دولة من دوله سادرة في مشاعب هواها دون أن تعالج ضعفها بما تعالج به الطبيعة ضعف النمل والنحل من التجمع والتعاون؛ فما هو إلا أن غامت الآفاق العربية بخطوب الحرب حتى شعرت كل دولة عربية بما تشعر به الشاة الشاردة عن القطيع، فتضاموا من الخوف ليتقي بعضهم ببعض سوء المصير؛ وهبَّ الزعماء المخلصون يقوون ما وهن من صلة الدم ونسب الروح، فسهلوا تزاور الأقرباء، وشجعوا تبادل الآراء، وقرروا توحيد الثقافة. ثم كان من توفيق الله لهذه الوزارة القائمة أن تخطو في سبيل الوحدة العربية هذه الخطوة التي كان ينتظرها وزير الخارجية البريطانية، وأن يسجل صاحب المقام الرفيع رئيسها هذه الخطوة المباركة في مجلس الشيوخ بقوله: (. . . منذ أعلن المستر إيدن تصريحه فكرت فيه طويلاً. ولقد رأيت أن الطريقة المثلى التي يمكن أن توصل إلى غاية مرضية، هي أن تتناول الحكومات العربية هذا الموضوع. وانتهيت من دراستي إلى أنه يحسن بالحكومة المصرية أن تبادر باتخاذ خطوات رسمية في هذا السبيل، فتبدأ باستطلاع آراء الحكومات العربية المختلفة فيما ترمي إليه من آمال، كل منها على حدة؛ ثم تبذل الحكومة المصرية جهودها في التوفيق والتقريب بين آرائها ما استطاعت السبيل إلى ذلك؛ ثم تدعوها جميعاً إلى مصر في اجتماع ودّي لهذا الغرض، حتى يبدأ المسعى للوحدة العربية من وجهة متحدة بالفعل. فإذا ما تم التفاهم أو كاد، وجب أن يعقد في مصر مؤتمر برياسة رئيس الحكومة المصرية لإكمال بحث الموضوع واتخاذ ما يراه من القرارات محققاً للأغراض التي تنشدها الأمم العربية.

وقد أخذتُ أنفذ هذه الخطة، فوجهت بالفعل إلى رئيس حكومة العراق دعوة . . .) رسمية. . . حتى إذا ما وافق فخامته على هذه الخطوات بحثنا رأي العراق في هذا الموضوع من جهاته السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وسأوجه بعد ذلك الدعوة تلو الدعوة إلى الحكومات العربية وأستقصي من مندوبيها واحداً بعد واحد رأيها في الموضوع نفسه. فإذا ما انتهيت من هذه المباحثات التمهيدية ورأيت منها ما يبشر بالنجاح كما أرجو، دعت الحكومة المصرية إلى عقد المؤتمر في مصر .. .)

وبهذا التصريح الرسمي الآخر أصبح السعي للوحدة العربية حقيقة من حقائق السياسة لا خيالاً من أخيلة الشعر، وعملاً رسمياً من أعمال الحكومات لا أملاً وهميًّا من آمال

الأفراد.
وظنُّ العروبة بحكامها وأعلامها أن يخلصوا لها السعي والرأي في هذه المحنة العالمية التي عبثت الشياطين فيها بأنظمة الكون، فاختل التوازن، واضطرب العيش، وذل الحق، وأفلس المنطق. ولا جرم أن سلامة العروبة وحريتها في أن تكون يوم يجتمع الناس للصلح القريب أو البعيد، وحدةً سياسية تنتظم دولها جمعاء من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهندي، وجملتها لا تقل عن ثمانين مليون نفس. ذلك لأن الدويلات الضعيفة كان لها فيما مضى من الزمن السعيد حارس من سلطان الدين وحكم القانون وعرف السياسة. فكانت تعيش في ظلال الخلق الإنساني العام حرة آمنة، لا تجد من جاراتها الكبرى إلا ما يجده الصغير من عطف الكبير، والفقير من عون الغني. فلما نُكس بعض أمم الحضارة وعاودها داء الهمجية الأولى فتحلبت أشداقها على حدود هذه الدول الصغيرة، لم يعد لها عاصم من عدوانها إلا أن ينضم بعضها إلى بعض، ويتقوى بعضها ببعض.
أما نوع هذا الاتحاد فقد كنا اقترحنا في عدد مضى من الرسالة أن يكون على مثال الاتحاد الأمريكي؛ ولكن تحقيق ذلك الاقتراح يقتضي من الوقت والجهد والاستعداد والمرونة ما لا يحتمله الزمن المضطرب ولا تسعه الفرصة العجلى. إذن فلتكن بداية هذا الأمر مثلاً أن تؤلف عصبة من الدول العربية في القاهرة على نحو ما كانت عصبة الأمم في (جنيف) لتقرب المصالح الخاصة، وتوحد المآرب العامة، وتوجه السياسة المشتركة، ثم تستعد للصلح المقبل، وتمهد للاتحاد التام.
على أن في المؤتمر الذي اقترحته مصر ودعت إليه مطالعةً لحال العرب: تُستشف فيه الدخائل، وتُكشف به الحوائل، وتُستنبط له الوسائل؛ فلندع مواضعة الرأي لأولئك الذين ادخرهم الله لهذا المسعى الخطير الذي لم يُتح لأحد بعد محمد؛ ثم لنقف نحن بجانب التاريخ نرصد وننقد ونسجل.

احمد حسن الزيات

ظاهرة جديدة في الأزهر

للأستاذ محمد محمد المدني

انتهى العام الدراسي في الأزهر أو كاد، وانصرف الطلاب عن فصولهم إلى المذاكرة والإعداد لمرحلتهم المقبلة، وابتدأ الأساتذة فترة استجمامهم التي ألفوا أن ينعموا بها في كل عام إثر الدراسة وبين يدي الامتحان؛ أما أنا فقد عدت من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر: عدت من دراسة (علم الأصول) في كلية الشريعة بين طلاب عليّ كرام، أحبهم ويحبونني، وأفهمهم حق الفهم ويفهمونني، وأبثهم نصحي وإرشادي فيستمعون إلى نصحي وإرشادي. غايتهم العلم فهم عنه باحثون، وبغيتهم الحق فهم له مخلصون؛ لم تطرف عيونهم الدنيا، ولم تسد مسامعهم الشهوات. رجعت من هذا الجهاد الأصغر، بل من هذا الجهاد الحبيب إلى النفس الذي نجد فيه معاشر الأساتذة لذتنا، وننشد بالتعب فيه راحتنا، إلى جهاد من نوع آخر قد حف بالمكاره، وأحاطت به الأهوال والصعاب من كل جانب: عدت إلى (الرسالة) الغراء أبثها آلامي وآمالي، وأسجل على صفحاتها آرائي وأفكاري، وأتعرض بذلك لسخط الساخطين، ولوم اللائمين، وكيد الكائدين.
عدت إلى (الرسالة) اخطب على منبرها العالي قوما تناط بهم الآمال في إصلاح هذه الأمة، ويرجى منهم النهوض بما حملهم الله من أمانة حين جعلهم حملة هذه الشريعة
عدت إلى (الرسالة) أنادي قوماً يحسبون صيحاتي لهم صيحات عليهم، فيثقل عليهم نصحي إذا نصحت، ويُحفظ صدورهم نقدي إذا نقدت، وتهيم بهم الظنون في أمري إذا سكت، وتنطلق الوشاة بي من حولهم كما تنطلق الصلال الرقطاء في الرمال البيضاء، ينفثون سمومهم، وينشرون شكوكهم، ويقولون: هذا شاب مغرور بنفسه، متطفل على ما ليس من شأنه. ليس هذا بكاتب يصور قلمه ما يشعر به قلبه، إنما هو فتى يردد ما يسمع أو يعلّم ما يقول. ليس هذا بناصح أمين، وإنما هو عدو مبين. . . قالات سوء يرجف بها المرجفون، ويمكر بها الماكرون حتى لتطيش منها أحلام ما عهدناها أن تطيش، وتفتر بالهُجر من القول شفاه لم تكن تفتر إلا عن الحكمة والموعظة الحسنة! فاللهم عونا على هذا الجهاد. أنت مولانا فنعم المولى ونعم النصير!
انتهى العام الدراسي في الأزهر أو كاد. ولسنا ننظر إلى الأزهر كما ننظر إلى أي معهد

من معاهد التعليم فحسب، وإنما ننظر إلى الأزهر وينظر المسلمون جميعاً إليه على أنه الحصن الأخير الذي لم يبق سواه لشريعة الإسلام وثقافة الإسلام، فيجب أن نلتفت إليه في كل مناسبة، ويجب أن نهتم به في كل حركة، ويجب أن نتابع أخباره فلا يشغلنا عنها شيء.

وهاهو ذا قد أمضى اليوم عاماً من أعوامه الدراسية، فمن حق كل مسلم أن يعرض تاريخه في هذا العام، وأن يحاسبه على ما قدم أو أخر في شئونه الخاصة والعامة، ومن الحق على الأزهر أن يثبت لهذا العرض، ويصبر على هذا الحساب!

فما هو إذن تاريخ الأزهر في عام؟

لقد مضت قبل هذا العام أعوام كان الناس يتحدثون فيها عن أشياء كثيرة: كانوا يتحدثون عن (جماعة كبار العلماء) وما يرجى من نشاطها للقيام بواجبها. وكانوا يتحدثون عن (برنامج الإصلاح) الذي اقترح لها. وكانوا يتحدثون عن الكتب والمناهج الدراسية وما يرجى من إصلاحها وحسن الانتفاع بها. وكانوا يتحدثون عن المقررات التي يمضي العام ولا يقرأ منها إلا القليل. وكانوا يتحدثون عن نظام (المراقبة العامة) على التعليم العالي ولأي غرض أنشئت. وكانوا يتحدثون عن الفقه الإسلامي وواجب الأزهر في وصله بالحياة العامة وعرضه عرضاً يوافق روح العصر. وكانوا يتحدثون عن نظام التخصص وعيوبه التي ضج منها الطلاب وغير الطلاب. وكانوا يتحدثون عن مجلة الأزهر التي هي لسانه وعنوان ثقافته وأداة الدفاع عنه. وكانوا يتحدثون عن واجب الأزهر في الاتصال النافع بمراكز الثقافة وأندية العلم ولجان التشريع. وكانوا يتحدثون عن مكتبة الأزهر وكنوزها الدفينة التي كاد يأتي عليها البلى بعد أن أتى عليها النسيان. وكانوا يتحدثون عن رسائل الجماعة الموقرة، تلك الرسائل التي تكتب لتختبئ فلا تراها عين ولا تسمع بها أذن!

كانوا يتحدثون عن ذلك كله، وكانوا يتحدثون عن غيره مما لست أذكر الآن، وكانت (الرسالة) سجلاً واعياً لهذه الأحاديث، ولساناً ناطقاً بهذه الآمال، بل كان البرلمان بمجلسيه يتحدث عن بعض ذلك، ويتقدم أعضاؤه فيه بالأسئلة والاستجوابات، وترسل لجانه إلى مشيخة الأزهر بملاحظاتها على التعليم ومستواه، وعن (الأمثلة البادية العوار) التي لا ينبغي أن تبقى ماثلة تتأذى بها العيون. . . الخ. الخ.

كان ذلك كله في الأعوام الماضية، وكان أصحاب الرأي والنظر البعيد يعدونه بداءة طيبة للدعوة إلى نهوض الأزهر، فإن الأزهر إذا سمع الناس يتحدثون عنه، ورأى الناس يهتمون به، ووجد بعض أبنائه والمخلصين له يشاركون في هذه الأحاديث، ويلفتونه إلى هذا الاهتمام، لم يلبث أن يفكر في أمره كما يفكر الناس فيه، ويومئذ تجد دعوة الإصلاح من النفوس قبولاً، ومن الآذان إصغاء، فيتعاون على نجاحها الداعون والمدعوون على سواء.

وقد بدت في هذا العام تباشير تلك الخطوة الثانية في سبيل النهوض، وانتقلت أحاديث الإصلاح من ميدان (الرسالة) إلى ميدان آخر هو ميدان الرؤساء والعلماء والطلاب من أبناء الأزهر المخلصين: شعروا بأن الأزهر في حاجة إلى تكاتف الهمم، وتناصر العزائم، ورأوا تيار العلم في الجامعات الحديثة يوشك أن يكتسح الأزهر اكتساحاً، وعلموا أن الأمة قد تنبهت إلى ما تفعله كل طائفة من أبنائها، وأن الدولة قد أصبحت حريصة على أن تجعل دور العلم للعلم فقط، وأن الأزهر حين انحرف عن طريقه العلمي وانغمس في الحركات، وسُخر في سبيل الأهواء والنزعات، غض ذلك من مهابته، وجرأ الأصدقاء قبل الأعداء عليه، وأزال صيانة الذي كان ينبغي أن يبقى له. علم أبناء الأزهر المخلصون ذلك كله، وعلموا أن عليهم واجباً لمعهدهم العظيم ألا يقفوا منه موقفاً سلبياً، والعيون ترمقهم، والألسنة تتحدث عنهم، والأصابع تشير إليهم، فعقدوا العزم على أن يجعلوا من أنفسهم جنوداً للاصلاح، وخداماً مخلصين للأزهر حتى ينهض نهضته، ويسترد في العالم الإسلامي مكانته، ويعود إليه سابق مجده!

عقدوا العزم على أن يخلصوا للأزهر أكثر من إخلاصهم للأشخاص، ووطنوا أنفسهم على أن يكونوا صرحاء في الجهر بالعلة، أقوياء في المطالبة بالعلاج؛ وسرت هذه النزعة الجديدة في نفوسهم جميعاً: سرت في نفوس الشباب الأزهري كما تسري الحياة في الأزاهير الناشئة، وسرت إلى نفوس الشيوخ كما يسري الماء إلى الجذوع المتعطشة، بل سرت إلى الرؤساء المسئولين الذين يلون المناصب الكبرى في

المعاهد والكليات، فأصبح هؤلاء جميعاً مؤمنين بها، متلاقين عندها، متناسين كل شيء من خلافاتهم في سبيلها!

ولست أقول هذا الكلام جزافاً، أو توسعاً في الآمال، فإن له لشواهد حاضرة، وآثاراً بادية، ربما تناولتها في مقالاتي الآتية تباعاً. وحسبي اليوم أن أقول للذين كانوا يظنون أن دعوة الإصلاح صرخة في واد، أو نفخة في رماد، وللذين كانوا يؤثرون اطراد الأمور على أي نسق كان ابتغاء الراحة والهدوء، ثم للذين بذروا البذر ولم يتعهدوه حتى ينبت:

إن الإصلاح لا يعرف الرجوع، ولا يعرف الركود. إنه كشعلة من نار يخفضها الخافضون فتأبى إلا ارتفاعاً. إن قوة الإيمان لا تغلب ولا يقاومها إلا مخذول. وإلى اللقاء في حديث بعد هذا الحديث.

محمد محمد المدني

كيف نعلم أبناءنا؟

وما الغرض من التعليم؟

للدكتور زكي مبارك

متاعب!

هي المتاعب التي يعانيها من يواجه الحقائق بأساليب صريحة بريئة من الرياء. . . ومن أعجب العجب أن الناس يطالبون الكاتب بأن يحدثهم عن كل شيء، مع أنهم لا يسمحون له بشيء من الصدق إذا تحدث عن أشياء تمسهم من قريب أو من بعيد. وهذه الظاهرة من أسباب ضعف الروح البيانية، ومن أسباب قصور الأدب عن وصف المجتمع الحديث.

إن الأمم المحاربة لم تشغلها الحرب عن التفكير في شؤون التعليم والتثقيف، لأن تلك الأمم عهدت إلى كل طائفة من الطوائف جانباً من جوانب الحياة القومية، فبقي الجندي جنديًّا، والتاجر تاجراً. إلى آخر ما هنالك من الطوائف، وصار لزاماً أن يبقى المعلم معلماً في حدود ما يملك من القُوى النفسية والروحية والعقلية.

ونحن لم نشترك في الحرب من جانبها الدموي - وإن كان أذاها وصل إلى كثير من مرافقنا الحيوية - وهذا الحياد قد استبقى قواها وادّخرها لإنجاز شؤون التعليم في مراحله المختلفات، فمن الواجب أن نبذل جميع الجهود الممكنة في خلق التعليم خلقاً جديداً، بحيث نواجه تقلبات ما بعد الحرب، ونحن على بينة من مطالب العصر الجديد.

قال معالي الهلالي باشا في خطبته بحضرة جلالة الملك يوم افتتاح جامعة فاروق الأول: إن هذه الجامعة هي الجامعة الوحيدة التي أنشئت في العالم كله أيام الحرب

وهذا صحيح، ولكن ما السبب في تفرد مصر بهذه المزية؟

يرجع السبب إلى أن إعفاءنا من الحرب الدموية لم يدعُنا إلى إعفاء أنفسنا من حرب الجهل والجمود، فنحن نقاتل في ميدان هو أصعب ميادين القتال، ونحن نواجه مصاعب تزلزل القلوب والعقول، وهذه محمدة قليلة الأمثال

أكتب هذا وقد تعتَّب ناسٌ وتغضّبوا لأنهم رأوا في المقال الأسبق عبارات في نقد الطرائق المتبعة في تعليم الإنشاء. . . فهل كان يجب أن أقول إن كل شيء على ما يرام، وليس في

الإمكان أبدع مما كان؟

الكاتب يحاسب على المجاملات، ولا يطالب بالمجاملات، وأول طائفة خليقة باحترام حرية الرأي هي طائفة المدرسين، لأنهم دعاة الحرية الفكرية، ولأن واجبهم الأول هو خلق اليقظة العقلية، فما يجوز لأحدهم أن يعتب أو يغضب إذا رأى كاتباً يدعوه إلى التفكير في وزن ما درج عليه من طرائق التعليم، عساه ينتقل من حال إلى أحوال في الإفهام والتفهيم والشرح والبيان.

واجب المدرس أن يصغي لكل قول، وأن يحترم كل رأي. واجبه أن يدرك أن كل شيء في تجدد، وأن يفهم جيداً أن للتعليم سياسات تتغير من يوم إلى يوم، وأن التلميذ الواحد قد يساس في درس الأدب بغير ما يساس في درس الإنشاء، وأن التدريس هو في الأصل رياضة مختلفة المسالك والألوان.

وإذا ضاق صدر المدرس بما يقرأ أو يسمع من ضروب النقد، فعند من ننتظر رحابه الصدور ورزانة الأحلام؟

وتأدَّى فلان من أن يقال إن الإنشاء قد يصعب على بعض المفتشين. . . فما عيب هذا القول وفيه شيء من الحق؟
وبماذا نجيب إذا سئلنا عن جهود مفتشي اللغة العربية في خدمة الحياة الأدبية؟
هل يكفي أن يكون الكاتب كاتباً بالقوة لا بالفعل، كما يعبّر علماء المنطق؟
إن المفتشين رُفعوا إلى مراكزهم باسم التفوق في علومهم، فهل نلام إذا دعوناهم إلى زكاة ذلك التفوق؟
مصر غنية بالثروة العلمية، فهل نراها غنية بالثروة البيانية؟
وهل من الحق أن رجال التعليم عندنا أكثروا من الجهاد العلمي والأدبي إكثاراً ليس بعده زيادة لمستزيد؟
كم كتاباً صدر عن رجال التعليم في مدى عشر سنين؟
وما هذا الزهد في البحث والتأليف، الزهد الذي يسمح بأن تنتهي حياة الرجل قبل أن يدين أمته بكتاب جيد؟
إني أخشى أن يضيع زمام الحياة الأدبية من أيدينا إن تركنا الإبداع في الأدب، واكتفينا بوضع الموجزات في القواعد والتطبيق، كما يفعل بعض الزملاء.
صلة المدرس بالحياة
قبل أن أواجه مشكلات التعليم أفصِّل مسألة شغلتني منذ أعوام، وهي مسألة القلق الذي يساور المدرسين من الوجهة المادية، وهو في رأيي قلق يبشر بالخير، ولا ينذر بالشر كما تعوَّد بعض الناس أن يقول.
لو أحصينا مطالب المدرسين لرأيناها في الجملة متصلة بالمطالب المعاشية، فهل يكون في هذه الظاهرة برهان على أننا نواجه عصراً أفضل من العصور الخوالي؟
أنا أقول بذلك، ولا يؤذيني أن أرى مدرساً يرجو أن تنصفه وزارة المعارف ليعيش في رخاء
ولكن هذا الكلام يحتاج إلى شرح، فلنقدم الشرح:
كان التعليم من أعمال الكهَّان والأحبار والرهبان، وحيوات هؤلاء كانت مريحة، لأن الجمهور كان مسئولاً عن تزويدهم بما يشتهون، فلم يكونوا في احتياج إلى مزاولة أعمال المعاش.
يضاف إلى ذلك أن التعاليم التي كان يقدمها أولئك الأقوام إلى الناس كانت ترمي إلى غاية أخروية لا دنيوية، فكان من المعقول أن يعيشوا عيش الزهاد ليفلحوا في أداء رسالتهم الروحية.
أما التعليم في هذه الأيام فله غاية تخالف تلك الغاية، هو تعليم يراد به فهم الحياة الواقعية ليكون أداة من أدوات التملك والاستيلاء
نحن نعلم أبناءنا ليسودوا في دنياهم، ولا نرضى لأبنائنا أن ينتظروا الثواب من المحسنين ولو كانوا في سماحة الأنبياء
نحن نرجو أن تكون يد أبنائنا هي العليا بفضل التعليم الصحيح. نحن نحب لهم أن يتسلحوا بأسلحة العصر الحاضر، عصر النضال والصيال، ونكره أن يذلوا باسم الزهد في الدنيويات
ومن الذي يوحي إليهم تلك المعاني؟
أهو المعلم المترهب الذي ينتظر إفضال المفضلين؟ إن فاقد الشيء لا يعطيه، والمعلم الذليل
لا ينشئ تلاميذ أعزاء يجب أن يكون المعلم ابن زمانه بالقول والفعل، وأخلاق هذا الزمان لا تمنح العزة لمن يعيش بفضل الصدقات
كانت غاية المعلمين من الرهبان أن يخلقوا طوائف جديدة من الرهبان، وكان التشرد في أقبح صوره يجد من يسمه بوسم التوكل على الله، فأين نحن من تلك الغاية العجفاء؟ إنها منا بعيد
وإذن يتحتم أن يكون المعلم رجلاً موصول الأواصر بالمنافع الدنيوية، ليوجه تلاميذه إلى المنافع الدنيوية
يتحتم على المعلم أن يدرك ما في الحياة من تعقد واشتباك، ليروض تلاميذه على مغالبة ما في الحياة من تعقد واشتباك
كان المعلم راهباً، وقد بقيت من هذه النزعة بقايا نجدها في بعض البيئات، ولكنها لا

توائم العصر بأي حال
يجب أن تُسبق الأبوة الروحية بأبوة حسية. . . ومعنى هذا أني أرى أن المدرس لا يعرف حقوق تلاميذه عليه إلا إن كان له أبناء
المعلم الحق في هذا الزمان هو المعلم الذي يعيش كل العيش، فيكون له مصالح تفرض عليه أن يفهم الاتجاهات المختلفة في هذا الجيل
والعيش على هامش الحياة عيشٌ ضائع، ومن عاش كذلك فليس بأهل لأن يخلق ذوق الحياة في صدور التلاميذ
وأين التلميذ الذي يحترم أستاذاً فقير الجيب؟
الأصل أن تقول لتلميذك: تعلم لتكون في مثل جاه أستاذك؛ والجاه في هذا الزمان يُجرح بأيسر بادرة من بوادر الإفلاس
والأصل أيضاً أن يكون العلم تاج المنافع. . . فإن افتقر العالم فسيكون افتقاره شاهداً على أن قوة العلم هباء في هباء.
وهنا مشكلة تستحق الدرس، وهي تحديد المراد من العلم، فما هو العلم المنشود؟
هو العلم الذي يمنح صاحبه السيطرة على ناصية هذا الزمان
هو علم العصر الحديث، ولو تمثَّل في فهم أساطير الأولين
أنا لم أتعود خداع قرائي، وأنا أوصيهم بما أوصي به نفسي، فليسمعوا هذا الكلام إن كانوا لأنفسهم أوفياء
ونحن لا نطالب الدولة بحق الإنصاف، إلا إن أقمنا مئات البراهين على حقنا في الإنصاف
ولن يكون ذلك إلا إذا وثقت بنا الدولة ثقة تغنيها عن تلك الجيوش من المفتشين
إن احتاج المدرس إلى رقابة المفتش فليس بمدرس
والأساس أن تكون المدرسة غزواً روحياً للبيت، فيكون الطفل أستاذاً لأبويه، لأن له أسندة من روحانية أساتذته الفضلاء
والأساس أيضاً أن يُخوَّف التلميذ بسلطان المدرسة عليه، فلا يشكوه أهله حين ينحرف لغير السلطة المدرسية
ومتى يتيسر ذلك؟
أيكون غنى المدرس هو الوسيلة كل الوسيلة إلى السيطرة على التلاميذ؟
وكيف وفي آباء التلاميذ من يكون إيراده أضخم من مرتب وزير المعارف؟
هيبة المدرس ترجع إلى التمكن من المعلم الذي يدرسه التمكن الفائق الذي يشعر التلاميذ بأن أستاذهم من أكابر العلماء
إن استطاع المدرس أن يلقى تلاميذه كل يوم وفي يده كتاب جديد فليفعل. . . وإن استطاع المدرس أن يدل تلاميذه على جميع ما يجدّ من الآراء العلمية والأدبية فليفعل. . . وإن استطاع أن يرشدهم إلى طيبات الحياة الفنية فليفعل ..
المهمُّ هو أن يسيطر على تلاميذه سيطرة روحية تصغر بجانبها سيطرة الجاه والمال وإذا وصل إلى هذه الغاية فلن يضيره أن يقال إنه من الفقراء
وأنا لا أطالب بإنصاف المدرس من الوجهة المادية إلا لأضمن صلاحيته لفهم مطالب الحياة، لأني أعتقد أن الرجل المنسحب من ميدان الحياة لا يصلح لشيء، وأكاد أجزم بأن حب الحياة يزيد في قوة الأخلاق.
المعلم الذي أنشُده لأبناء هذا الجيل هو رجل مزوَّد بمواهب إيجابية لا سلبية، هو رجلٌ يسبق زمنه بأزمان، هو رجلٌ يرجو تلاميذه أن يكون هاديهم إلى صراط الحياة في معناها المنزّه عن الغفلة والجمود.
إن وزارة المعارف أنشأت معهداً جديداً هو معهد الدراسات العالية، وبه أرادت أن تزدّد المدرسين بأزواد علمية وأدبية لم يذوقوها من قبل.
فما مصير هذا المعهد؟
إن بقاءه رهينٌ بأحوال المدرسين، وقد قيل إنهم في احتياج إلى مزيد من التثقيف وأقول: إن من العيب أن نحوج وزارة المعارف إلى أن تُشغل بتثقيفنا بعد أن شببنا عن الطوق منذ زمان
لا يجوز أن نحوج وزارة المعارف إلى شيء من هذا القبيل، وإنما يجب على كل مدرس أن يكون نائباً عن وزير المعارف في أداء الواجبات الوطنية من الوجهة

التعليمية.
يجب أن يقترب اليوم الذي يستغني فيه المدرس عن رقابة المفتش.
ولن يقترب ذلك اليوم إلا حين يوجد التلميذ، التلميذ الذي يحب أن يتعلم، التلميذ الذي يقهر المدرس على أن يستعد للدرس كل الاستعداد.
ومتى يوجد ذلك التلميذ؟
متى يوجد التلميذ الذي يخلق المدرس؟
متى يوجد الفتى الذي يعزّ عليه أن تمر أيامه بلا انتفاع؟
سنرى محاولات لبعث الروح المكنون في صدر التلميذ. . . فإلى اللقاء في الأسبوع المقبل وهو قريب.
زكي مبارك
على هامش أحلام شهرزاد
قضية اليوم - 3
(القصر المسحور)
للأستاذ دريني خشبة
قالت فاتنة: (أرأيت إذن كيف مسخ صاحب (شهرزاد) تلك الصورة العلوية الفردوسية التي رسمها الكاتب العبقري الأول للمرأة الكاملة التي طبَّت لشهريار وعالجت اعوجاجه؟ وهل رأيت كيف أسلم جميع أبطاله للشيطان، فليس فيهم بطل رشيد!؟ فشهرزاد شهوانية مخادعة هلوك. . . وقمر يفتتن بجسدها البض ويراه في صورة إيزيس وعيني بيدبا الفيلسوف الهندي. . . ثم يقتل نفسه من أجل أنه رآها تخدعه عندما شهد العبد يخرج من مخبئه في مخدعها. . . وشهريار ينسى فحولته بل يتبدل بها فسولة عندما يضبط العبد نفسه في مخدعه فلا يثور ولا يتسخط ولا يفور دمه في رأسه، ولا يأمر برأس العبد ورأس شهرزاد، ولا تعود إليه جبلته القديمة المغرمة بسفك الدماء. . . ولماذا تعود تلك الجبلة وقد كلت حيلته في المرأة عامة، لأن المأساة بعينها تتجدد، ودورة الفلك تبدأ من حيث تعود، وتعود من حيث تبدأ. . . ثم هذا هو الجلاد يبيع سيفه أو يرهنه. . . وأبو ميسور يهذي من كثرة ما دخَّن القنب. . . والعبد يتسور الجدار إلى شهرزاد في فحمة الليل فلا تشبع منه ولا تريد أن تشبع منه. . . فهل رأيت بلاء في قصة كهذا البلاء؟ وهل اجتمعت لقصة عصبة من الأبطال المناكيد كهذه العصبة من الأبطال المناكيد؟
وهل يكفي في الاعتذار عن هذا أن يعترف المؤلف في (القصر المسحور) بقصوره، والتسليم بأنه في حاجة إلى أن يسعى ويطيل السعي، وإلى أن يجد ويمعن في الجد، لا ليبلغ الكمال، بل ليدنو منه؟ وهل يكفي أن يعترف ببعد الأمد أمامه حتى يصل إلى ترقية فنه وتجديده واصطناع الأناة والدقة والإتقان في التصوير والتعبير جميعاً؟. . . هل يكفي أن يعترف مؤلف شهرزاد بكل ذلك ليكون بمنجاة من النقد الذي يزيف أدبه مهما اعتذر له عميد الأدب العربي وشريكه في القصر المسحور، ومهما دافع عنه بوصف كونه أديباً له أن يبرز أبطاله في الصورة التي يراها، ومهما اعتذر له بوجوب حرية الرأي والدفاع عن
حرية الرأي وتقديس حرية الرأي؟! على أن عميد الأدب قد احتاط للأمر، فلم يرسل هذا القول على عواهنه، بل كان حصيفاً حين قال في القصر المسحور (ص17) على لسان شهرزاد: (هو إذن هنا هذا الآثم!! ليعلمن كيف تكون الكتابة عن شهرزاد) وحين قال على لسانها أيضاً (ص21): (وسيجد عندي علم ما لم يعلم من أمر شهرزاد) وحين قال على لسانها ولسان غيرها من أبطال مسرحيته ص57: (. . . كيف أعفو عن هذا الذي اتهمني فيما لا ترضى امرأة حقيرة أن تُتهم فيه.، فكيف بملكة كريمة مثلي متسلطة على القلوب خالدة على الأزمان. وقمر يقسم ما أضمر لمليكه غدراً ولا أدار في خلده شيئاً يستحي أن يظهره. والعبد - وويل لصاحبك من العبد - إنه ثائر فائر، إنه مرغ مزبد. إنه مبرق مرعد. إنه يريد أن يمزق صاحبك بأنيابه وأظافره. إنه لا يطيق التفكير في هذا الرجل الذي جعله صورة بشعة لأبشع ما يتسلط على العقول والأبدان، وهو يغريني ويحرضني، ويريد أن يضرم النار في قلبي، لولا أن قلبي أهدأ من أن تضطرم فيه النار. وهو يسألني كيف أترك الحياة لرجل صورني في هذه الضعة، وجعلني أهبط من أعلى عليين لأكلف بهذا المخلوق البشع الدنيء. . . والساحر يقسم

ما سحر، والجلاد يقسم ما باع السيف لينفق ليلة هنية، وأبو ميسور يقسم ما أظلت حانته إثماً قط. . . حتى زاهدة تقسم ما عرفت سراً ولا سألت عنه ولا باحت به ولا اتخذت وسيلة إلى معرفته. . . فكل هؤلاء مغيظ محنق يلح على في أن أنتقم له، وأنتقم لنفسي من صديقك البائس المسكين. . . ومع أني كنت ضيقة به ساخطة عليه حين قرأت كتابه. . . الخ)

أرأيت إذن يا صاحبي كيف كان عميد الأدب العربي حاذقاً أشد الحذق حينما احتاط لنفسه وهو يدفع سخط الناقمين على مؤلف (شهرزاد)، فراح يبعث الطمأنينة على شهرزاد في نفوسهم ويعدهم برد شرف هذه الفتاة، وذلك بما قاله على لسانها في الصفحة السابعة عشرة والصفحة الحادية والعشرين والصفحة السابعة والخمسين من القصر المسحور. . . (ليعلمن كيف تكون الكتابة عن شهرزاد!). وسيجد عندي علم ما لم يعلم من أمر شهرزاد!) إي والله؟. . . ليعلمن كيف تكون الكتابة عن شهرزاد. . . وقد بر العميد بما أكد. . . فكتب أحلام شهرزاد، التي يجد فيها صاحبه علم ما لم يعلم من أمر شهرزاد. . . ولكن لهذا الحديث حينه، فخذ في حديث القصر المسحور.

ولكن ماذا في القصر المسحور من أقوال صاحب (شهرزاد) التي تؤكد رأيه في هذه الفتاة التي ظلمها، وفي أبطالها الذين ظلمهم كما ظلمها، والتي تؤكد آراءه المريبة في المرأة خاصة، وفي الناس بوجه عام؟! أقرأ إذن في الصحيفة الحادية عشرة بعد المائة هذا الجزء من الحوار مكتوباً بقلمه:

توفيق - دخلنا منطقة الكلام الفارغ الذي لا تحذقه غير المرأة

طه - (صائحاً): استغفر الله استغفر الله!

شهرزاد - (لطه) دعه! فإن عداوته للمرأة سوف تكلفه ما لا يطيق.

ثم ارجع إلى هذا الحوار لتسمع توفيقاً يقول: (إنه من فصيلة لا تغرد إلا فوق أطلال نعمة ذاهبة وآثار هناء ضائع!)

واقرأ بعد هذا في الصحيفة الثالثة والسبعين بعد المائة:

القاضي - ما أقوالك؟

شهريار - أقوالي: أن هذا قد قذفني بالباطل وافترى عليّ كذباً وزوّر واقعة لم تكن، فقد جعلني دّيوثاً، أدخل على شهرزاد فأجد عندها العبد فلا أقتله ولا أشرب من دمه!

توفيق - (مهتاجاً) كنت تريد أن أجعل منك قاتلاً سفاكاً يشرب الدماء؟ نعم، لقد آذيت وجرمت وأسأت إليك، إذ لم أجعلك كما كنت تريد مخلوقاً سخيفاً

ثم اقرأ في الصحيفة التي تليها هذا الحوار:

قمر - (وقد سأله القاضي عن أقواله) أقوالي يا سيدي القاضي: أن هذا المتهم قذفني وحط من قدري، فلقد جعلني أقتل نفسي من أجل امرأة، في الوقت الذي يخرج فيه العبد من مخدعها وينكشف لي إثمها ودنسها

وبعد. . . فالكلام الفارغ (في نظر توفيق) لا تحذقه غير المرأة. . . وعداوة توفيق للمرأة ستكلفه (باعترافه) ما لا يطيق. . . وتوفيق لا يحسن التغريد إلا فوق أطلال نعمة ذاهبة وآثار هناء ضائع. . . أي أنه رجل مظلم الطبع ذو مزاج سوداوي حالك منقبض متشائم. . . ومن هنا عداوته للمرأة وقلة ثقته بها. . . ومن هنا تجريحه لتلك الصورة التي افتن في خلقها لشهرزاد الخالدة الكاتب العبقري الأول القديم الخالد. . .

ثم إن توفيقاً ينطق بنفسه شهرياراً ليشكو مما افترى عليه وزور، حينما جعله ديوثاً - وابحث أنت في المعاجم عن

معناها لأن الرسالة أطهر من أن تحمل إليك معناها - وتوفيق مصمم على أن يظل شهريار ديوثاً مهما ثار، فهو يداعبه أمام القاضي بقوله إنه أخطأ إذ لم يجعله قاتلاً سفاكاً، ولو كان القتل في سبيل الشرف الرفيع الذي لا يسلم. . . حتى يراق على جوانبه الدم. . . في رأي المتنبي ورأي شهريار.

قالت فاتنة: فبماذا تملأ يديك من مذهب هذا الرجل إن أنت جمعت ما كتب في (شهرزاد) إلى ما كتب في (القصر المسحور)؟ إطمئن، فإنك تتأبى أن تملأهما بشيء. . . وكيف تملؤهما بما يصر عليه من هذا الحنث العظيم، والإصر الذي ليس وراءه إصر، مما يذيعه في الناس أنه مذهبه، وأنه معتقده، في شهرزاد التي يرمز بها للمرأة في كل زمان ومكان. . .

ومن هنا هذه المباهاة الطويلة العريضة بأنه عدو المرأة الذي لا يعترف لها بعفاف، ولا

يأبه أن يُذال لها عرض، لأنها ليس لها عرض؛ والذي يفترض فيها الأنانية المطلقة لأنها لا تفكر إلا في خلاصها ولا يعنيها أن تهلك نساء العالمين ما دامت مستطيعة أن تكون بمنجاة من الهلاك، والتي تخاتل وتخدع وتجعل بيتها مأوى للعبيد الفُتاك الذين لا تشبع منهم ولا تريد أن تشبع منهم، وتؤثر أن يكون عبدها خسيساً غليظاً خشناً وضيعاً لأن هذه كلها مزايا تضاعف - في رأي السيد توفيق - من شهوة شهرزاد كما تضاعف من التذاذها.

!لمن يكتب هؤلاء الناس؟

وفي أي بلد يكتبون؟! وما هي حرية الرأي هذه التي يحض عليها عميد الأدب العربي لحماية هذا اللون الوضيع من ألوان الأدب والتي غلا في الحض عليها والحماسة لها في الصحيفة الثانية والسبعين والصحيفة السابعة بعد المائتين من القصر المسحور؟!

هذا كثير. . . هذا كثير جداً مهما احتفظ العميد لمن شاء أن ينقد هذا الضرب من ضروب الأدب أو ذاك. . . وما جدوى النقد بعد أن يتمكن (سل) هذا الأدب من صدور قرائه؟! وإذا كان عميد الأدب العربي قد أحس هذا الخطر ونبه إليه فكيف كان يرى - وأظنه ما زال يرى - أن النقد الأدبي كاف لتزييف هذا اللون المهلك من ألوان الأدب، الذي إذا قدر له أن ينتشر في بلد - أتى على أخلاق أهله وعرضه للانحلال والاضمحلال. نحن هنا لا نقسو على أحد، فمصر أعز علينا من ألف ألف كاتب، وهي في عصر الحديد والنار، في حاجة

إلى أخلاق الحديد والنار، لا إلى الأخلاق المائعة الرخوة التي شاعت قبل الحرب الحاضرة في أوربا التعسة نتيجة للأدب المائع الرخو الذي سمم به الأدباء المنحطون أخلاق ذويهم فسمموا به كل شيء، وقضوا به على كل شيء. ونخشى أن تظن طائفة من القراء أننا نقصد إلى السب أو إلى ما يشبه السب حينما نذكر الأدباء المنحطين - كلا - ليس إلى السب قصدنا - ولكنا مخلصون جد مخلصين في إشفاقنا من أن يشبع الانحطاط في أدبنا الغض الحديث - والانحطاط مذهب من المذاهب الأدبية التي شاعت في أوربا بعد الحرب العظمى، فعصفت بأخلاقها وبدينها، ونشرت في ممالكها روح الرخاة والطراوة والاستهتار. ومن الإملال ضرب الأمثال فما تزال فرنسا بمأساتها الخلقية الدامية تنكأ القلوب لوعة عليها وأسى. وفرنسا هي البلد الذي كان يطلق لحرية الرأي العنان؛ فكان أحد الأدباء المنحطين إذا ضاقت به أرض بريطانيا، ولم تصرح له الحكومة البريطانية بطبع قصته الرخوة ولا ينشرها في المملكة أو في المستعمرات (أي والله في المستعمرات!) انطلق إلى فرنسا (بلد الحرية المطلقة) فطبع فيها كتابه؛ وقد يعيد فيه نظرة ثمة فيزيده رخاوة ويشيع فيه من الفاحشة ما يضمن له الذيوع والانتشار.

نحن نشفق إذن من الانحدار إلى مزالق الأدب المنحط لأننا فقراء إلى أدب القوة، وليس في الدنيا، في الوقت الحاضر، أمة هي أفقر إلى أدب القوة من هذه الأمة التي ذاعت فيها قصة شهرزاد بأبطالها المنحطين جميعاً. وبهذا العبد الأسود الخسيس الوضيع الذي لا تشبع منه شهرزاد ولا تريد أن تشبع منه.

قالت فاتنة: (وأكاد أنزلق بك يا صاحبي إلى الكلام في المذاهب الأدبية، مبعدة عن القصر المسحور. فإذا كان عميد الأدب العربي قد قالها قولة على لسان شهرزاد، هي، ليعلمن كيف تكون الكتابة عن شهرزاد. . . و. . . سيجد عندي علم ما لم يعلم من أمر شهرزاد. . . وقد جاء الوقت الذي بر فيه عميد الأدب العربي بما وعد، فأصدر قصته البارعة (أحلام شهرزاد) نافح فيها عن ذكاء المرأة وسموها وحسن مقاصدها، وجميل حدبها على الإنسانية وعملها المتصل على إسعادها. . . فإذا كان عميد الأدب العربي قد صنع هذا. . . أفيليق أن يتخرص الخراصون ويرجف المرجفون بأنه سرق من الأستاذ توفيق؟ وماذا - لا درّ درهم - سرق؟ إن طه لم ينحدر بالمرأة إلى البؤرة التي انحدر بها صاحبه إليها، بل هو قد

ارتفع بها إلى أعلى عليين وهو في هذا كان مخلصاً لرأيه في المرأة حسن العقيدة في عفافها وسموها، وأنها مصدر السعادة في هذه الدنيا. . . فهو في الصحيفة السادسة والستين من القصر المسحور لا يتمنى ملكاً وسلطاناً كما كان المتنبي يتمنى ملكا وسلطانا، ولا يشتهي كما كان يشتهي ثروة وغنى، إنما يتمنى لقاء شهرزاد والاستمتاع بجوارها القريب (وأي ملك يشبه الخضوع لها ويعدل الإذعان لأمرها؟ وأي ثروة تشبه

الشعور بأنه قريب منها ليس بينه وبين الغني الذي يمتع القلب والعقل إلا أن يتجه إليها فيسمع منها ويحسن قربها منه) وفي الصحيفة الثامنة والستين يقول هذه القولة المشجية: ثم أشار الفجر بإصبعه الوردية التي أريتها أنت يا سيدتي لضرير اليونان منذ ثلاثين قرناً، فإذا الليل الجاثم ينهزم، وإذا الشمس تقبل فتبسط الضوء والحياة على كل شيء وفي كل نفس - ولكني أظل محروماً ضوء الشمس وحياتها لأنك أنت الشمس والحياة. وفي الصحيفة الثانية والأربعين بعد المائة يقول: ماذا؟ تشكين في قوتك وتنكرين سلطانك وذكاءك، وأنت التي تمنح أمثالنا القوة والسلطان والذكاء؟ وفي الصحيفة الثالثة بعد المائتين يقول على لسانها أيضاً: لا أقف هذا الموقف لأدافع عن نفسي، فلست أعرف لأحد الحق في أن يتهمني بإثم مهما يكن، وأنا الحرية كلها، الحرية التي تشيع النشاط في العقول، وتذيع الحياة في القلوب وتبعث الحرارة في العواطف والمشاعر والأهواء. . .

هذا هو رأي طه في المرأة، وهو رأيه فيها من قديم، وهو رأيه الذي أذاع به في القصر المسحور كما أذاع به في أحلام شهرزاد، وهو ضد ما أذاع به توفيق الحكيم في معظم كتبه، بل في كل كتبه، بل في كل ما كتب. . .

قالت فاتنة: اذكر للناس يا صاحبي إذن أن مشروع أحلام شهرزاد مشروع قديم، وأنه كان وعداً موعوداً في القصر المسحور، وأنه قصد به إلى الدفاع عن المرأة والترفع بها عما وصمها به توفيق. . . فإذا أرجف المرجفون بأن زيداً سرق من عمرو فماذا يملك المرجفون ما داموا لا أحلام لهم، وما داموا يخلطون بين الفردوس وبين الجحيم، وبين الملاك وبين الشيطان الرجيم.

دريني خشبة

شاعر الغزل

للأستاذ عباس محمود العقاد

بقلم الأستاذ سيد قطب

يبدو أن العقاد - في هذه الأيام - يهز الشجرة الناضجة هزاً رفيقاً، فتساقط ثمارها في يسر ورخاء. وإنها لشجرة الجهد الموصول، والاطلاع البصير، والتجربة العميقة، قرابة أربعين عاماً من عمر فنان موهوب، لم يكد يراهق حتى بدأ حياته الأدبية في جد واحتفال، وحتى كان الاطلاع عمله الأول، والحياة الفنية وجهته الأصيلة.

وهذا ما يفسر لنا ذلك الخصب في إنتاج السنوات الأخيرة، بل السنة الأخيرة وحدها؛ ففيها أخرج (عبقرية عمر) و (شاعر الغزل)، وهو يتهيأ لإخراج كتاب عن (أبي بكر) في هذه الأيام. فضلاً عن (أعاصير مغرب) ديوانه الغنائي الأخير.

وفي هذه الكتب جميعاً - على تفاوت بينها - يبدو أن الثمار الناضجة تساقط بأيسر جهد، وأن الشجرة متهيئة ما تكاد تلمس حتى تعطي الجني الشهي في رفق ولين!

ظهر كتاب (عبقرية محمد) فقلت: (هذا كتاب العقاد) ثم ظهر كتاب (عبقرية عمر) فقلت: (لا! بل هذا هو كتاب العقاد!) ثم هاأنذا أكاد أعيدها وأنا أقرأ كتابه الصغير (شاعر الغزل) في الشهر الأخير.

إن هذا الكتيب يستقل بإنشاء مدرسة جديدة في النقد الأدبي باللغة العربية. مدرسة لها طريقها ولها قواعدها ولها أدواتها، وكل ذلك في يسر ووضوح يكادان يغريان كل قارئ بأن يسلك الطريق ويتخذ القواعد والأدوات، ويروح ينشئ في النقد الأدبي ما أنشأ العقاد!

لقد قلتها مرة: إن العقاد دارس الشخصيات الأول، حين لاحظت أن أفضل مواهبه تنصرف إلى هذا اللون من الإنتاج، وأن ميزته فيما يدرس أن يعطيك (مفتاح الشخصية) التي يتناولها، تعرف على الفور (من هو) هذا الإنسان الذي يحدثك عنه، وتتبين سماته وملامحه من بين الملايين أو من بين الألوف الذين ينتمي إليهم ويندمج فيهم؛ كما تستطيع أن تجزم بصحة الأخبار والحوادث والأعمال التي تنسب إليه أو عدم صحتها، ولو لم ترد في دراسة العقاد له، لأنك أصبحت تعرفه، وتدرك خصائصه، وتلحظ مزاجه؛ وتعلم ما يمكن أن يأتي أو يدع من الأمور؛ شأنك في هذا شأن الصاحب الذي أطال عشرة صاحبه، فعرف أعمق خوالجه وأدق (لوازمه)!

هذا اللون من الدراسة يستهويني أكثر من السِّير التي تتناول حياة الأشخاص بالسرد،

وتجمع حولهم كل المعلومات التي لابست هذه الحياة. ذلك أن اللون الأول يمنحني حياة آدمية نابضة، واللون الثاني يضع بين يدي معلومات في حيز من الزمان والمكان. وكلا اللونين ضروري للتراث الفني، ولكن أولهما آثر عندي لميزته تلك.

وفي كل ما كتب العقاد عن الشخصيات تتضح هذه الميزة، وإنها لتنضج في كتب الدراسة الكاملة أمثال: (ابن الرومي) و (سعد زغلول) و (تذكار جيتي) و (هتلر في الميزان) ثم تبلغ أقصى درجات النضوج في الكتب الثلاثة الأخيرة التي تقدم الحديث عنها حين يجتمع إلى عمق الدراسة وقوة المنطق، ذلك اليسر العجيب وتلك الحركة السريعة في التفكير وفي الأداء على السواء.

و (شاعر الغزل) - على صغره - نموذج كامل لهذا اللون الحي من الدراسة الناضجة؛ ففي خلال ثلاث وأربعين ومائة صفحة فقط من قطع الجيب، ينتفض (عمر بن أبي ربيعة) من بين ركام الأجيال، حيًّا نابضاً شاخصاً بسمته وزيه ومزاجه وفنه؛ وينبعث في حياته على الورق صورة مكتملة لحياته على الأرض؛ حتى ليخيل إليك أنك وشيك أن تلقاه وتصافحه وأن تجلس إليه وتبادله الحديث!

وذلك هو الإبداع! الإبداع الذي يصور (عمر بن أبي ربيعة) في هذا الحيز الصغير، كما لم يصور قط في الأدب العربي كله بلا نزاع.

والعقاد في عملية البعث والإحياء لا يأتي بحادثة واحدة ليست معروفة في سيرة هذا الشاعر، ولا بقصيدة أو بيت أو شطرة لم ترو من قبل له، ولا بخبر من أخباره أو أخبار عصره لم يدون في الكتب المتفرقة؛ ولكنه يصنع من هذه الخامات البسيطة المعروفة مادة أخرى جديدة، ويهيئ منها هيكلاً قائماً للعصر وللبيئة وللشاعر، ثم ينفخ في هذا الهيكل من روحه، فإذا هو خلقة سوية، تحيا وتتنفس كما كانت تحيا وتتنفس من قبل، في هذه الدنيا الفانية!

وإنه ليهمني هنا أن أبرز هذه الحقيقة، فنحن في مستهل نهضة في البحث العلمي والفني. ولكنني لاحظت على الإنتاج الجامعي الحديث بلا استثناء أنه يتجه إلى السرد والجمع

والموازنة، ولا يتجه مرة إلى الخلق والتكوين والإحياء، في تصوير العصور والبيئات والشخصيات؛ وتلك ظاهرة خطرة، فإنها تدل على أن عقلية التسجيل والتدوين والجمع هي التي تسيطر على العقلية الجامعية في مصر. وهذا اللون من البحث ضروري كما قلت، ولكنه لا يفي وحده، ولا بد من اللون الآخر الذي يصور الحياة أو يهب الحياة!

وليس هذا اللون عدواً لذاك، وإنهما ليجتمعان عند الاقتضاء، وقد اجتمعا معاً في كتاب (ابن الرومي. حياته من شعره) للعقاد، وفي كتاب ذكرى أبي العلاء للدكتور طه حسين على أفضل ما يكون الاجتماع.

إن طبيعة الشخصية التي يقدمها لي المؤلف ولون مزاجها، وصورة حياتها، لآثر عندي ألف مرة من جميع الحوادث التي وقعت لها، ومن جميع المعلومات التي تتصل بها، وحسبي من الحوادث والمعلومات، ما يكشف لي عن الطبيعة والمزاج، وما أتعرف به إلى هذه الشخصية من بين مئات الشخصيات!

يتحدث العقاد عن عصر (عمر بن أبي ربيعة) فنحس أن الغزل كان وظيفة ملحة في هذا العصر تتطلب العضو الذي يقوم بأدائها، وأنه لم يكن مفر من وجود شاعر غزل يلبي هذه الحاجة، فكان هذا الشاعر هو عمر بن أبي ربيعة في هذا الأوان.

كيف أحسسنا بروح العصر هذا الإحساس الواضح الملح؟ حكاية من هنا ونادرة من هناك، مما هو معروف مذكور، ومما يمر به القارئ بين الكتب مرات، فإذا صورة العصر بارزة واضحة على النحو الذي أراد!

وهنا يقتضيني الإنصاف - وقد ذكرت البحوث الجامعية والعقلية الجامعية بما ذكرت - أن أثبت أن للدكتور طه حسين بحثاً قيماً عن طبيعة العصر الذي عاش فيه عمر بن أبي ربيعة وعن نشأة الغزل وأسبابها في هذا العصر، وعن تلوين هذا الغزل بالألوان التي اصطبغ بها إذ ذاك، في كتاب (حديث الأربعاء)

وفي هذه الفصول التي عقدها الدكتور عن الغزل وعن عمر ابن أبي ربيعة خاصة يلتقي مع الصورة التي رسمها العقاد حيناً ويختلف حيناً، ولكنه يرسم على طريقته صورة مكتملة للعصر وللغزل فيه، هي إحدى الصور التي نتطلبها في الدراسات الأدبية

الناضجة.
ثم نعود إلى (شاعر الغزل) فنرى العقاد ينتهي من صورة العصر ومن وظيفة عمر فيه، ومن حدود هذه الوظيفة، وهي التعبير عن طبقة خاصة في العصر لا عن العصر كله على السواء، ليبحث عن طبيعة غزله؛ فهو غزل البدوي المتحضر، غزل الفطرة التي تخلقها الحياة في مكة، وقد فارقتها الحكومة والسلطان، ولم تفارقها الثروة والسراوة.
ثم يدلف إلى الحديث عن طبيعة شعره، فيفرق في وضوح ويسر تكاد تلمسها بين طبيعتين من طبائع شعراء الغزل: طبيعة المحب الذي يتوجه بحبه إلى المرأة الواحدة في الوقت الواحد، و (يفرزها) بحبه من بين جميع النساء. وطبيعة اللاهي الذي يتغزل في الأنثيات، وينصرف همه إلى المناوشة والمعابثة. ويكون عمر من الفريق الثاني حين يكون عروة وكثير وجميل من الفريق الأول. وهو فصل من أمتع فصول الكتاب هذا المتاع لا يتضمنه ذلك الفصل لأنه يذكر أن طريقة عمر وإخوانه الغزليين غير طريقة عروة وإخوانه العذريين، ولكن لأنه يوضح الفارق الإنساني الحاسم بين طبيعة هؤلاء وطبيعة هؤلاء (لأن علاقة رجل بامرأة واحدة يبقى على حبها زمناً طويلاً أو يبقى على حبها مدى الحياة هي حادث لا يتكرر كل يوم، ولا بد فيه من عامل الشخصية التي تفرز المرأة من سائر النساء، ويصح أن يقال: إن هذه العلاقة (إصابة حب) كسائر الإصابات التي يتعرض لها الإنسان فتطول أو لا تطول، وتصيبه وهو مستعد لها أو تصيبه على غير استعداد؛ فإنما المهم في تمييزها أنها إصابة عارضة وحادث من عوارض الأحداث.)
أما حب الغزل بالنساء عامة فهو مزاج يلازم صاحبه ملازمة الأمزجة للطبائع ولو لم يتصل بنساء معروفات، فهو مخلوق على هذا المزاج كما يخلق الإنسان بلون من الألوان أو صفة من الصفات.)
فالمدرستان مختلفتان أيما اختلاف في مقاييس الشعور ومقاييس الأخلاق، ولا يجمع بينهما إلا تشابه الكلام في ظاهره دون التشابه في الباعث والاتجاه. . . الخ.)
وأحب أن يعود القارئ هنا إلى ص392 من الجزء الأول من (حديث الأربعاء) للدكتور طه حسين، فسيجد في هذا الموضوع كلاماً آخر تلذ الموازنة بينه وبين هذا الكلام.
ونعود إلى (شاعر الغزل) لنقع على نقطة جديدة كل الجدة لم يطرقها - فيما أذكر - طارق في اللغة العربية لا عن (عمر بن أبي ربيعة) ولا عن سواه. تلك هي النقطة التي يعرض فيها العقاد لبحث عوامل الاتصال بين (عمر) وبين الأنثيات اللواتي كان يناوشهن بالغزل
والحديث، وبين أشباه عمر وبين النساء في جميع العصور. فهو يقول:
وربما رشحه للسبق في هذه الصناعة جانب أنثوي في طبعه يظهر للقارئ من أبياته الكثيرة التي تنم على ولع بكلمات النساء واستمتاع بروايتها والإبداء والإعادة فيها، مما لا يستمرئه الرجل الصارم الرجولة. وأدل من ولعه بكلمات النساء على الجانب الأنثوي في طبعه أنه كان يشبههن في تدليل نفسه وإظهار التمنع لطالباته. . . (ثم يذكر الأمثال)
ولعل جانب الأنوثة فيه لا يظهر من شيء كما يظهر من تدليل اسمه بين تلقيب وكناية وتسمية كما يعهد في أحاديث النساء؛ فهو تارة أبو الخطاب، وتارة المغيريّ، وتارة عمر الذي لا يخفى كما لا يخفى القمر، وأشباه هذه الأنثويات التي يقارب بها المرأة في المزاج ويسايرها في الحديث.)
إنما تأتي خبرة ظرفاء المجالس من تقارب الإحساس بين المرأة وبين هذه الطائفة من اللاهين والمتغزلين، فهم يحسون كما تحس أو على نحو قريب مما تحس، وهم يشبهونها بعض الشبه فيصدقون في الحكاية عنها، والتحدث بخوالج نفسها. وفرق بعيد بين هذا وبين الرجل الذي يعلم طبع المرأة وهو يخالفها في طبعها، ويستجيش ضمائرها، لأن هذه الضمائر تجاوبه مجاوبة الأنثى للذكر، فيعرف من مجاوبتها كيف تضطرب نفسها وتتقلب هواجسها وخواطرها. هذا يرى أثر الرجل في طبع المرأة فيعرفه، وذاك يعرف ما في طبعها لأن الطبعين غير مختلفين في جملة الشعور. الخ.)
فهذا كلام جديد، وكلام قيم، وكلام يفتح العين والنفس على ملاحظة مفيدة للملامح والسمات في النفوس الإنسانية الكثيرة التي تصادفنا في الحياة، والنفوس الإنسانية الكثيرة التي نلقاها في صفحات الكتب، لنجد في هذه الملاحظة لذة وأنساً وحياة

وأحب مرة أخرى أن يرجع القارئ هنا إلى الجزء الأول من (حديث الأربعاء) ص394 ليجد في هذا الموضوع كلاماً آخر تلذ الموازنة بينه وبين هذا الكلام.

وينتهي هذا الفصل بحديث عن الصدق الفني: ما معناه وما حدوده، فيبين أوضح بيان أنه شيء آخر غير الصدق الخلقي والصدق التاريخي قد يلتقي معهما وقد لا يلتقي. وأنه في صميمه هو صدق الحكاية عن (المزاج الخاص) الذي لا يتوب عنه صاحبه ولا يملك الانحراف عنه ولو تاب عن دفعاته وملابساته، ولو انحرف عن حكاية الواقع إلى حكاية
الخيال.

وفي هذا الفصل يلتقي العقاد والدكتور في بعض المواضع، وإن سار كل منهما على طريقته وطبيعته في النظر إلى الأشياء، وفي الحديث عن هذه الأشياء ثم ينشئ فصلاً عن صناعة عمر ابن أبي ربيعة فنعلم منه أن عمر كان إمام مدرسة في طريقته، ولكنه لم يكن إماما في صناعته؛ فهو يمثل الطريقة أكمل تمثيل، وإن لم يساعفه حسن الأداء وكمال الأداة (فالأكثر من شعره يبدو عليه الجهد والإعياء في تقويم البيت والوصول به إلى القافية) وليس هو من فحول الصناعة الذين (ربما كثر الرديء في أشعارهم وأربى على الجيد في معظم الأحيان؛ ولكن الإتيان بالرديء غير الإعياء الذي يكشف مدى الطاقة وينم على الفاقة)

وبمثل هذه النصاعة يمضي إلى نهاية الكتاب، فيفرق بين القصة وبين الحوار القصصي الذي عرف به عمر، ويلقى أشعة أخرى على طبيعة المحب وطبيعة المتغزل وعلى الصدق الفني والصدق الخلقي والتاريخي. ثم يتحدث عن ذوق عمر في جمال المرأة، فإذا هذا كله دراسة من أبرع الدراسات النفسية في إطار فني جميل، وإذا هي خلاصات من تجارب العقاد وحياته الفنية وذوقه الإنساني. ثم يعقد فصلاً لنوادر عمر وأخباره، وفصلاً لمختارات من شعره، يشترك كلاهما في تلوين صورة الشاعر وتوضيح سماتها، وإطلاق الأبخرة المناسبة في جوها، حتى تكتمل لها جميع عناصر الحياة!

أحب أن يقرأ الناس هذا الكتاب للعقاد، وأن يقرءوا معه (حديث الأربعاء) للدكتور طه حسين، فسيجدون فيهما طبيعتين وطريقتين: طبيعة التعمق وطبيعة الاستعراض؛ وطريقة التحليل وطريقة التصوير. وسيرون كلا من هاتين الطبيعتين والطريقتين تلازم صاحبها في كل ما يكتب، فهي أصيلة في خلقهما أصالتهما في فنهما، وإن كان لكل منهما وزنه الذي لا يتسع المجال له هنا، بقدر ما أرجو أن يتسع له في كتاب!

سيد قطب

ثورة في الأخلاق

للأستاذ محمد يوسف موسى

(تتمة)

على أنه ما بالكاتب من حاجة إلى الإلحاح في بيان أن هذا الزهد البالغ الذي يدعو إليه مذهب الغزالي ومن نحا نحوه لا يتفق والدين والعقل، وأنه من معوقات الأمة عن النهوض. لا يحتاج الكاتب لشيء من هذا، فإننا شغلنا بالدنيا حتى لا يخطر لنا الزهد فيها على بال، ولكنا في حاجة لبيان أن بعضاً من الفضائل التي دعت إليها تلك المذاهب وأكبرت من شأنها لا تعد اليوم من الفضائل في شيء، بل بعضها انقلب بسوء الفهم والتطبيق إلى رذائل، وصار أحجار عثرة في طريقنا للرقي والنهوض.

وحسبي أن أمثل لهذا بصفة القناعة

لقد اتفقنا منذ عصور طويلة على أن القناعة فضيلة، وقلنا في بيان مكانتها إن القناعة كنز لا يفنى، فكانت العاقبة شراً ووبالاً على الشرق ومنه مصر!

قنع الفلاح بغلة ما ورثه من الأرض فلم يغير - إلا قليلاً - من طرق استغلاله لما يملك، ولم يعمل بجد على تنمية ثروته، قانعاً بما يرزقه الله من دخل لا يزيد عن معيشته معيشة الكفاف!

وقنع الصانع بأجره اليومي الذي لا يرتفع به في حياته إلا قليلاً عن مرتبة الحيوان، فلم نجد من صناعنا إلا خولا وأجراء لأصحاب الأعمال الغربيين الذين وضعوا أيديهم على أكثر موارد ثرواتنا، والذين استغلوا ما يحيط بنا من صحارى فيها الزيت والحديد والذهب والمعادن الأخرى!

وقنع جمهرة تجارنا بالربح الزهيد الذي يتبلغون به من يوم ومن عام لآخر، فقلّ منهم

المغامرون أصحاب المتاجر الضخمة الواسعة!
وإذا تجاوزنا الحياة المادية للحياة المعنوية، وجدنا الحال أمر وأدعى للألم. فقد قنعنا بما ورثنا عن الأسلاف من علم فلم نحاول أن نزيد فيه، بل لم نعمل على تمحيصه! وإنما قنعنا بما وصل إلينا من كتب ومؤلفات، فأقبلنا على دراستها دون أن نجعلها أساساً نبني عليه، حتى صار منا ونحن في القرن الرابع عشر الهجري من يعيش بعقلية القرون الوسطى!
كما قنع التلاميذ بالفهم السطحي دون العميق، وبالنجاح في الامتحان دون العمل للعلم لأنه في ذاته حسن وجميل وعامل من أقوى العوامل على المعيشة في عز وكرامة وسعادة! ولا أظنني مبالغاً في شيء من هذا الذي أقول! وإلا فأين ما تخرجه هنا دور الطباعة من المؤلفات في العلوم التي نقرأها ونتدارسها منذ مئات السنين؟ لكم تمنيت أن ناراً تنزل من السماء فتلتهم أكثر ما نملك من أسفار قديمة، على ما فيها من خير كثير ليكون ذهابها حافزاً لنا على الإنتاج في العلم، وعلى التخلص من الآثار الوبيلة لما جره علينا اعتقادنا بأن القناعة من الفضائل! فقد أمات هذا الاعتقاد منا الهمم والعزائم، وكان عاملاً من عوامل التثبيط والركود، وسبباً من أسباب وقوف أولياء أمورنا في السياسة والإدارة والعلم عند حد عدم النزول عن المستوى الموجود الذي يقنعون به، ويقولون في أنفسهم حسبنا أن تسير القافلة فيما رسم لها من طريق قبل أن نلي ما ولينا من أمور هذا البلد!
وأخيراً، لست أدعو بهذه الكلمة إلى أن يكون المرء شرهاً لا يقف عند حد في رغباته، فهذا أيضاً رذيلة كالقناعة بالدون سواء بسواء، إنما أدعو إلى أن نتأسى بالرسول الكريم والصحابة والسلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين، فنبذل الجهد في طلب كل ما يمكن من خير لأنفسنا وأمتنا، مستغلين في هذا خير استغلال ما وهبنا من قوى مادية ومعنوية في سائر نواحي الحياة، ثم بعد ذلك نقنع بما نصل إليه بعد طرح الكسل وبذل المجهود، ففي هذا خير الدين والوطن والسعادة الخاصة والعامة. هكذا كان صنيع الصحابة الراشدين حين لم يقنعوا بالعيش آمنين في جزيرة العرب، وتعدوها إلى ممالك الروم والفرس ففتحوا منها ما شاء الله، وعاشوا أعزة سعداء، ضاربين لمن أتى بعدهم وللعالم أجمع في هذا أحسن الأمثال. والله يهدي للرشد، ومنه الخير والتوفيق والسداد.

محمد يوسف موسى
المدرس بكلية أصول الدين

معركة الآزور
للشاعر الإنجليزي ألفريد تنيسون
بقلم الأستاذ محمود عزت عرفة

تقديم

في عام 1558م توفيت (ماري تيودور) ملكة إنجلترا الكاثوليكية التي كانت زوجاً لفيليب الثاني ملك أسبانيا. وتولت بعدها عرش إنجلترا أختها من قبل أبيها الملكة اليصابات (وهي ابنة هنري الثامن من زوجته آن بولين). وكانت اليصابات تعتنق المذهب البروتستانتي في اعتدال؛ وقد حاولت خلال حكمها إرضاء الكاثوليك والبروتستانت على السواء، فأثارت بذلك حفيظة أسبانيا وفرنسا وغيرهما من الأقطار الكاثوليكية

وزاد في توتر العلاقة بين إنجلترا وأسبانيا عوامل أخرى متعددة: منها رفض الملكة اليصابات التزوج من فيليب الثاني ملك أسبانيا، وقد عرض عليها ذلك عقب وفاة الملكة ماري. . . ومنها ما كان من انحياز إنجلترا إلى ثوار الأراضي المنخفضة ضد أسبانيا، وإيوائها الأغنياء منهم ممن خلصوا إليها عبر القنال بأموالهم وثرواتهم وكل ما تيسر لهم حمله

يضاف إلى ذلك قصة ماري استيورت ملكة اسكتلندا الكاثوليكية، تلك التي لاذت بإنجلترا عام 1568م عقب ثورة الشعب الاسكتلندي ضدها، فقضت هناك عشرين عاماً شبه أسيرة؛ ثم ظهر من دسائسها ضد الملكة اليصابات، وكانت ماري استيورت وريثتها الشرعية على عرش إنجلترا ما استوجب التخلص منها بالإعدام عام 1587م؛ فقد أثار هذا التصرف ثائرة فيليب الثاني وحفزه للعمل. وكانت قوة إنجلترا البحرية

خلال هذه الحوادث المتلاحقة تنمو في اطراد، وقد نشط البحارة الإنجليز في جوب البحار بحثاً عن كنوز الذهب والفضة التي سبقهم إلى اكتشافها الأسبان؛ أو اقتناصاً للسفن الأسبانية العائدة بهذه النفائس من مستعمراتهم في العالم الجديد.

وفي عام 1588م سحق الإنجليز قوة أسبانيا البحرية بتحطيم الأرمادا التي حشدها فيليب الثاني لغزو بلادهم، فرجحت كفتهم في البحار رجحاناً زاد على مدى الأيام ظهوراً

وبعد معركة الأرمادا بثلاثة أعوام حدثت موقعة الآزور (أغسطس 1591م) التي سجلت للإنجليز صفحة خالدة من البطولة في عالم البحار.

فقد صارعت فيها سفينة واحدة صغيرة، ثلاثاً وخمسين سفينة إسبانية كاملة العُدة والعدد، في ملحمة استمرت خمس عشرة ساعة لا يعتورها فتور.

وقد أوحى هذا الحادث إلى كتّاب الإنجليز وشعرائهم قديماً وحديثاً، بما لا تستوعبه المجلدات الضخمة من فائق المنثور ورائع المنظوم.

ومن أشهر من كتب في ذلك: السير والتر رالي (1552 - 1618م)؛ وجيمس أنتوني فرويد (1818 - 1894)؛ وروبرت لويس ستيفنسون (1850 - 1894)، ثم شاعر التاج لورد آلفرد تنيسون (1809 - 1892) ونحن نترجم هنا قصيدة هذا الأخير التي نظمها بعنوان (: الانتقام) - وهو اسم السفينة التي أبلت هذا البلاء - مجتزئين بتفاصيل القصيدة الرائعة عن الإفاضة في هذه المقدمة أكثر مما أفضنا؛ معتمدين - في إيضاح بعض الحقائق فقط - على ما أورده الكتّاب الثلاثة الذين أشرنا إليهم، ولا سيما أولهم: والتر رالي، فهو من معاصري السير ريتشارد جرانفيل بطل المعركة، بل هو أحد مواطنيه من إقليم ديفون، وذوي قرابته الأدنين. . .

ترجمة القصيدة

كان السير رتشارد جرانفل مرفئاً بسفينته إلى جُدَّة من جدد شاطئ الفلورز إحدى جزر الخالدات، عندما أقبل زورق ذو مجاديف يهوى من بعيد كأنه الطائر يُزف بجناحيه. وارتفع صوت من داخله يقول: السفن الحربية الأسبانية تمخر العباب. . . لقد رأينا منها ثلاثاً وخمسين!

فهتف لورد توماس هُوارد قائلاً:

ليشهد الله أني لست بالجبان، ولكني لا أستطيع أن ألقاهم على هذه الحال، فأسطولي على غير أهبة، ونصف رجالي قد نهكتهم العلل. حقيقٌ بي أن أعرِّد عن لقائهم ولكن لأقتفي آثارهم في أقرب حين. . . إن لدينا ستا من السفن المقاتلة، فهل نستطيع أن نناجز بها ثلاثاً وخمسين؟

عندئذ تكلم سير رتشارد جرانفيل قائلاً: أعرف أنك لست بالضَّرَع ولا الجبان، وأنك لا تنحاز عنهم لحظة إلا لتعود إليهم من قريب، فتزلزل أقدامهم وتطيش سهامهم. أما أنا فلدي تسعون مريضاً ونيفاً قد استلقوا على الشاطئ القريب يعالجون غصة الداء؛ وسأعد نفسي الجبان، يا سيدي لورد هوارد، إذا أنا تخليت عنهم لهذه الطغمة من أوغاد محاكم التفتيش، وشياطين أسبانيا المتمردين. . .

وهكذا انسحب لورد هوارد بخمس من السفن الحربية في ذلك اليوم، وانطلق . . . موغلاً في اليم حتى ذاب كما تذوب السحابة في صفحة الأفق الغارق في الصمت، المتشح بالدفء والسكون. أما سير رتشارد فقد حمل من الشاطئ رجال سفينته الإعلاء، من مواطنيه أبناء بدفورد في إقليم ديفون. وأضجعهم برفق تام وعناية بالغة فوق الهواجل من قاع السفين، فراحوا يدعون له ويباركونه في ساعات آلامهم الممضة على أن انتاشهم من هذه المحنة، فلم يتركهم فريسة للأسبان يمثلون بهم أشنع التمثيل، ويسومونهم بمعدات نكالهم سوء العذاب.

كان لديه مائة من البحارة لا أكثر، عليهم أن يضطلعوا بإدارة السفينة وتدبير القتال معاً؛ فأقلع مبتعداً عن الفلورز حتى أصبح على مرمى البصر من الأسبان الذين اعترضوا مهب الريح إلى سفينتنا بقصورهم العوائم الفخمة وجواريهم المنشئات كالأعلام. وارتفع صوت منا يقول:

ألا أخبرنا يا سير رتشارد، أنكرّ أم نفِرّ؟. . . إن اشتباكنا في هذا القتال لا يعني غير الهلاك؛ وما نحسب أن سيكون منا في عداد الأحياء إلا القليل عندما تجنح شمس هذا النهار إلى مغربها.

وتحدث سير رتشارد مرة أخرى فقال: نحن جميعاً من أبناء إنجلترا الأنجاد وفتيانها المصاليت؛ فدعونا نسدد الطعن وخضاً إلى هذه الكلاب (الإشبيلية) الخواسيء، أبناء الأبالسة ونسل الشياطين. . .
لا جرم أني حتى اليوم لم أُولِّ الأدبار أمام أحد اثنين: دُونٍ أو شيطان!
نطق السير رتشارد بهذا ثم افتر فمه عن ابتسامة ساخرة. وانفجرنا جميعاً نهتف في صوت مدوٍّ: مرحى، مرحى!. . . وهكذا صمدت (الانتقام) صمد عدوها دون محاشاة، وعلى ظهرها مائة مقاتل، وفي جوفها تسعون مريضاً قد أداءتهم العلل وبرَّحت بهم الأسقام.
وانشعب الأسطول الأسباني حول (الانتقام) شطرين راحا يكتنفانها عن يمين وشمال، بينا اندفعت هي في الشقة الضيقة من الماء بينهما لا تلوى على شيء. وشهدنا ألوفاً من جنودهم قد أوفوا علينا من ظهور سفائنهم وهم يضحكون، وألوفاً آخرين من بحارتهم يسخرون من المركب الصغير الذي ركب فيما زعموا متن الغرر، وأقحم نفسه بلقائهم المتالف. وراحت (الانتقام) تندفع وتندفع، وتوغل في تقدمها وتوغل، حتى بجدت في موضعها ما تريم؛ وقد سدت عليها السبيل خليَّتهم الضخمة (سان فيليب) تلك الناهضة كالطود الشامخ، والحاملة جُماءَ ألف من الأطنان وخمسمائة. فقد أوفت علينا بهيكلها الرائع من علٍ مصوِّبة نحونا صفوفاً من المدافع فاغرات الأفواه، وصرفت وجه الريح عن أشرعتنا فوقفنا مُبلسين.
(البقية في العدد القادم)
محمود عزت عرفة

من شجو الربيع

أغاني غرام

(إلى. . . . . .)

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

أنِينُ اللّيلِ يُشْجِينِي ... وَنَوْحُ الرِّيح يُبْكِينِي
هُناكَ صَدىً يُنَادِينِي ... وَرُوحٌ رَفَّ يَدْعُونِي
أأنتِ هُنا. . .؟ أجِيبِينِي!
جَمَالُكِ ذَلِك الْفَاتِك ... إلهٌ شَعَّ مِنْ ذَاتِكْ
خُذِينِي بَيْنَ رَاحَاتِكْ ... وَطِيرِي في سَمَاوَاتِكْ
وَأَفْنِينِي، وَأحْيِينِي!
وَسِحْرُكِ يَسْوقُ الآجَالْ ... وَلوْ يَسْكُنَّ طَيْفَ خَيالْ
شَرِبْتُ بكأسِه الْقتَّالْ ... شَقَاء العُمرِ والأهْوَالْ
وَأَوْهَامَ الْمَجَانِينِ!
عَبَدْتُكِ فْتَنةً كُبْرَى ... عَشِقتُكِ كَرْمَةً سَكْرَى
رَأَيْتُكِ هَالَةً حَيْرَى ... سَمِعْتُكِ نَغْمَةً حرّى
تَهِيجُ دَمِي، وَتَكْزِينِي!
سَعِيرُ دَمِي بِكَفَّيكِ ... تَضَرَّعَ وَالِهاً يَبْكِي
وَجَاء لنورِ عَيْنَيْكِ ... يُذِيبُ مَرَارَةِ الشَّكِّ
أُذِيبيهَا. . . أَذِيبِينِي!
أنا الأَشَواقُ في جَسَدِك ... أنَا النِّيرَانُ في كَبِدك
أنَا الْمَاضي حَرِيقُ يَدِك ... أنَا الآتِي رَحِيقُ غَدِك
وَجُودكِ سِرُّ تَكْوِينِي. . .
دَعِي أيَّامَنا تَجْرِي ... بما تَهْوَى مِنَ الأَمْر
فإنَّ الدَّهرَ لا يَدْرِي ... غَرَامَ النَّارِ بالْجمرِ
فَكَيْفَ بَما تُذِيقِينِي؟!
دَعِينِي طَيْرَ جَنَّاتِك=أسبِّحُ في خَمِيلاتِك
وأسْبَحُ في صَبَاباتِكْ ... هَوى يَجْرِي بأهاتِكْ
وَيَفْنَى في الرَّياحِينِ!
على شَفَتَيْكِ أنْهَارُ ... مُحَرَّمةٌ، وأثْمَارُ
وَفي عَيْنَيْك أسْرَارُ ... وإبْرِيقٌ، وَخَمَّارُ

فَمَالكِ لا تُرَوِّينِي؟!
لِمَنْ إلا لقْيَتاركْ ... يْوَسوسُ مُوَجُ أنْهَاركْ؟
أنَا الظَّامي لأنْوَارِكْ ... أنَا البَاكِي لأزْهَارِكْ
فَلَيْتَ شَذَاكَ يَطْوِينِي!
عَشْقتُكِ. . . وَالْهَوى غَلاّبْ ... نَشِيداً في دَمي يَنْسَاب
فَصَوتُكِ كانَ هَمْسَ رَبَابْ ... وَكانَ حَفِيفَ خَمْرٍ ذَابْ
عَلَى كَبِدِي ليُشْجِيني!
وَكَنْتِ كزَنْبَقِ الأَسْحَارْ ... شَذَاهُ يُحيِّرُ الأَسْرارْ
إذا نَاشَدْتُكِ الأَشْعَارْ ... ضَلَلْتُ، وَضَلَّتِ الأوْتَار
بأيِّ صَدىً تُناجِينِي!
وَكَنْتِ كآيةٍ عُلْيَا ... شُغِلْتُ بها عَن الدُّنْيَا
تُطِلُّ بِنَورِهَا وَحْياً ... وَتَنْشرُ سِحْرَهَا رُؤيا
عَن الأَهْوالِ تُلْهِينِي!
وَكَنْتِ صَلاةَ أَحْزَاني ... وَكَنْتِ مَتَابَ عِصْيَاني
وَكَنْتِ رَبيعَ أكْوَاني ... إذا مَا الدَّهرُ أَظْمَاني
يُعَاندهُ، وَيَسقِينِي!
وَكَنْتِ الشَّجْو والأحلامْ ... وَكَنْتِ الدَّمْعَ والأَسْقَامْ
وَكَنْتِ مَتَاهَة الأَوْهَامْ ... وَكَنْتِ مَضَلَّة الأيَّام
تُحيِّرُني وَتَهْدِينِي!
وَكَنْتِ الَخْمرَ والأقْداحْ ... وَكَنْتِ اللَّيْلَ وَالإصْبَاحْ
وَكَنْتِ الصَّمْتَ وَالإفْصَاحْ ... وَكَنْتِ على يديَّ جِرَاحْ
أُقلِّبُها فَتُدمِينِي!
وَكَنْتِ الْمَوْجَ والشُّطآنْ ... وَكَنْتِ الجُرحَ والسُّلوانْ
وَكَنْتِ النَّايَ والأَلْحَانْ ... وَكَنْتِ الذِّكْرَ والنسْيَانْ
عَلَيْكِ الدَّهرُ يَطْوِينِي!
وَكَنْتِ شُجُنَ أيَّامي ... وَكَنْتِ جُنُونَ أحْلامي
وَكَنْتِ غَدِيرَ إلهْامي ... وَكَنْتِ هَديرَ أنْغَامي
يُفجِّرُني ويُبْلِينِي!
وَكَنْتِ عَيَاهِبَ الآفَاقْ ... وَكَنْتِ تَوَهُّجَ الأعَماقْ
وَكَنْتِ تَمرُّدَ الأشواقْ ... وَكَنْتِ تحيُّرَ الإحْدَاقْ
أدُورُ بِهَا فَتُغْوِينِي!
وَكَنْتِ ضُحىً وإشْراقاً ... وَكَنْتِ هَوىً وَأشَواقاً
وَكَنْتِ سَناً وَإبْرَاقاً ... وَكَنْتِ مُنىً وآفَاقاً
بِنَارِ هَوَاكِ تُغْرِينِي!
وَكَنْتِ وَكنْتُ. . . ظِلَّيْنِ ... نُرَفْرِفُ في خَمِيلَيْنِ
نَعِيشُ بقَلْبِ طِفْلَين ... علَى الدُّنْيَا غَرِيبَيْنِ
كاطْيارِ البَسَاتِين. . .
وَدَارَتْ بالْهَوى الأحلاَمْ ... فَعَادَ صَباهُ نَعْشَ غَرَامْ
وعُدتُ أنُوحُ بالأنْغَامْ ... كأنِّي مِنْ يَدِ الأيَّام
طُعِنْتُ بَحِدَّ سكِّينِ!!
البريد الأدبي
إلى الأستاذ سيد قطب
لست أدري يا أخي كيف قرأت شهرزاد وكيف فهمتها؟ ألم تقف قليلاً عند المنظر الخامس من تلك المسرحية الفاجرة؟ أكبر الظن أنك نسيت هذا المنظر فارجع إليه لتغير رأيك، ولتعذرني فيما أوردت من الألفاظ التي تحرجت من إيرادها في صلب المقال نفسه الذي جعلت أنت مادته من تلك الألفاظ.
يا أخي:
لقد خجلت الرسالة من إثبات ما نقلته من هذا المنظر فحذفته من مقالي وإن تكن قد

أوردت منه القليل الذي يغنى عن الكثير، فلماذا فعلت ذلك؟
يا أخي:
هل تذكر (بالضبط) متى أطلق الأستاذ الحكيم على نفسه لقبه الخالد (عدو المرأة)؟
وهل تذكر لماذا راح الأستاذ يباهي بهذا اللقب؟
يا أخي:
متى نصبت من نفسك مرشداً عاما للناقدين فتبصرهم بآداب هذا الفن؟ ومن ألقى في روعك أنك إمام هذه الصناعة في العصر الحاضر؟ وكيف تظلم رجلاً أن يقول إن شهرزاد الأستاذ الحكيم خطر أخلاقي يجب أن يحارب بأقذع مما قلت فيها؟ هل نسيت بهذه السرعة نضالك الرائع عن أدب القوة ممثلاً في شخص الأستاذ العقاد؟
يا أخي:
إن ما أوردت من أنني حديث العهد بالعمل تحت رئاسة المستشار الفني وأنك قديم العهد به هو صغار لم أكن أوثر لك لانزلاق إليه أو الوقوع فيه، لأن جميع القراء فهموا ما أردت أن تكسر عليه قصدك، وتلوى به كلامك. . . على أن قدم عهدك هذا لم ينفعك في ذاك الموقف الذي أدميت فيه كرامة كان الأولى أن تصان، ألا فلتعلم إذن أننا تلاميذ الأستاذ وحواريوه منذ أكثر من ربع قرن من الزمان. . . وأننا كنا نقف من حوله صفاً في زمن الأزمات التي كانت الجن تشفق من مظاهرته فيها فكنا نشرع للذود عنه أقلام الملائكة في أوجه الطغاة. ولولا أن شيئاً مما كتبناه في ذلك لا يصح أن ينشر اليوم، لأن الفتنة نامت، والقلوب صلحت. لأذعته عليك. . ولكنه هنا. . . تحت يدك. . . فإن شئت أطلعتك عليه. . . على أن رأيك في الأستاذ طه رأي فج فطير، وأنا أعرف به منك. وأنا ما كتبت الذي كتبت إلا وأنا عالم بأني مستثير سخطه، بل منته إلى تبرمه. على أنه سواء عندي أسخط أم رضي، فقد أصبحت قضية اليوم قضية الأخلاق وقضية الأدب في وقت معاً. ولما كنت لا أحسن التسلق على أكتاف الأبطال كما تعود أناس آخرون. فسيان عندي إن عملت تحت رئاسة المستشار الفني، أو تحت رئاسة أحد نظار المدارس الأميرية كسابق عهدي. وإن لي لقلماً وإن لي لآثاراً تغنيني عن التشبث بهذه المظاهر الجوفاء، ورغم أنف من رغم.
دريني خشبة

تأييد الاسكندر من السماء عند اليهود

اختلف المؤرخون في ديانة الإسكندر اختلافاً كبيراً، وعندي أن أسوأ تقدير في ديانته لا يمنع أن يكون هو ذا القرنين المذكور في القرآن الكريم، لأنه بقطع النظر عن ديانته كان فاتحاً عظيماً. وقد ابتدأ به التاريخ عهداً جديداً في سير الفاتحين، فلم تكن فتوحه كفتوح الملوك قبله، إذ كانوا جميعاً يدمرون البلاد، ويهلكون الأمم (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة) أما الإسكندر فكان كلما فتح مملكة أسس فيها وجدد، وبنى وشيد، وأوجد وسائل العمران، وأحيا قلوب أهالي البلدان. وكان يرمي بفتوحه إلى غرض عظيم، وهو أن يجعل من شعوب الأرض أمة واحدة لا فرق فيها بين شعب وشعب، وقد ألف بهذا بين الشعوب الأوربية والأسيوية ومزج بعضها ببعض، فتعرف كل فريق روح الآخر في العلم والحكمة والعادات والأخلاق، ونشأ من ذلك حضارة جديدة أرقى من الحضارات التي سبقتها، ومثل هذا يستحق التنويه بقطع النظر عن دولة صاحبه، ولا شيء في أن ينوه القرآن الكريم به.

ومن المهم هنا أن نبين رأي اليهود الذين سألوا عن ذي القرنين في ديانة الإسكندر، فقد ذكروا أنه لما قصد أورشليم لفتحها سار في بعض الطرق فرأى رجلاً بهيًّا لابساً ثياباً بيضاً، وبيده سيف مثل البرق اللامع، وهو يشير به إليه كأنه يريد قتله، ففزع منه وعلم أنه ملاك مرسل من الله تعالى، فسقط على وجهه وسجد، وقال: يا سيدي لماذا تقتل عبدك؟ فقال: لأنك تريد أن تمضي إلى القدس لتهلك كهنة الله وأمته، وأنا الملاك الذي أرسلني الله لنصرتك على الملوك والأمم. فقال الإسكندر: يا سيدي، أغفر لعبدك فقد أخطأت، وإن كنت لا تشاء أن أسير في طريقي فإني أعود إلى بلادي. فقال له: أما وقد استغفرت عن مآثمك فلا ترجع، وإذا وصلت إلى أورشليم ورأيت رجلاً على صورتي، فانزل عن فرسك واسجد له، واقبل جميع ما يأمرك به. فمضى الإسكندر في

طريقه إلى أورشليم، ولما وصل إليها قابله كاهنها على صورة ذلك الملاك، فنزل الإسكندر عن فرسه وسجد له وسلم عليه وعظمه؛ وحمل إلى بيت الله مالاً كثيراً، ثم سأل الكاهن أن يتوسل إلى الله فيما عزم عليه من محاربة داريوس ملك الفرس، فقال له: أيها الملك، امض في طريقك فإن الله معك، وهو يظفرك بداريوس ومملكته.
وقد سار الإسكندر بعد ذلك في فتوحه إلى أن ملك أقاليم الدنيا السبعة (تاريخ يوسيفوس ص26 - 38)
فالإسكندر عند اليهود كان ملكاً يشبه أن يكون نبياً، وقد جاب الدنيا غرباً وشرقاً حتى ملك أقاليمها السبعة، ولا شك أن هذا يتفق كل الاتفاق مع الشخص الذي ذكره اليهود في سؤالهم للنبي صلى الله عليه وسلم، ويتفق كل الاتفاق مع ما جاء عن ذي القرنين في القرآن الكريم، وهكذا نجد الاتفاق بينهما قريباً على أي وجه فرضناه، ولست أرى بعد ذلك وجهاً لإعادة الكلام فيه.

عبد المتعال الصعيدي

حول ذكرى السيد جمال الدين

أشكر للأستاذ محمود أبو رية ما نوه عني في بريد (الرسالة) بيد أني لا أتفق معه فيما ذهب إليه وسماه رعاية لحرمة الأمانة العلمية. ذلك لأني لست من تلامذة الفيلسوف (جمال الدين) - وليتني كنت منهم - وإنما حز في نفسي أن ينسى الشرقيون عباقرتهم في سرعة مخزية، فذكرتهم علهم يذكرون، وعرضت عليهم صورة قبست خطوطها مما قال عنه معاصروه، ونسيت - وهذا يؤسف حقًّا - أن أذكر المرجع الذي عنه أخذت.

محمود شلبي

رواية الأصمعي وحماد لشعر زهير

قرأت في العدد 222 من (الثقافة) كلمة للأستاذ الفاضل (قاف) تحت عنوان: الأدب المنحول؛ أورد خلالها قصة فحواها أن الرشيد سأل حماداً الرواية عن المقصود من قول زهير (دع ذا وعدَّ المدح في هرم)
فاصطنع حماد (بيتين) نسبهما إلى زهير، وزعم أنهما أول قصيدته وأنهما المشار إليهما بقوله: دع ذا. . . الخ
ثم أعاد الرشيد السؤال على الأصمعي للتثبت من صحة قول حماد فأجاب: بل هذا أول مقالة زهير، ولعله كان مشتغلاً بأمر في نفسه أو مع غيره حين بدا له أن ينشئ في مدح هرم؛ فكان أن قال (مبتدئاً غير منقطع مما كان فيه): دع ذا وعد المدح في هرم. إلى آخر ما قال
ونحن نسجل هنا أن الرواية بهذا الوضع دليل على غفلة حماد والأصمعي، وقلة تثبتهما من قصيدة زهير، إذ البيت المذكور وهو بتمامه:
دع ذا وعد المدحَ في هرِم ... خير البُداة وسيدِ الحْضر
يقع الرابع من قصيدة رائية لزهير يقول في مطلعها:
لمن الديار بُقنةِ الحجر ... أقوينَ من حجج ومن شهْر؟
وهذه رواية الأعلم الشنتمريّ (410هـ - 476هـ) وهو أشهر من جمع ديوانَ زهير وقام على شرحه
على أنه إن صحت إجابة الأصمعي كان معنى ذلك أن الأبيات الثلاثة الأولى - لا بيتين فقط - من نظم حماد الراوية دون زهير
ونحن لا نميل إلى الأخذ بهذا الرأي، لما نلحظه من شدة التواؤم بين الأبيات جميعاً؛ ثم لأن القصة نفسها تشير إلى أن حماداً جُوبه بمقالة الأصمعي فأقر بزلته واعتذر، وأذيع أمر ما كان منه في مربد البصرة، فلم يبق إذن مجال لرواج كذبته ونفاق أبياته المصطنعة على رواة شعر زهير وشارحي ديوانه ممن جاءوا بعد ذلك.

(جرجا)

محمود عزت عرفة

انصفوا المعلم الإلزامي

الأستاذ الجامعي مسئول عن كل ما يقول لأنه موضع الالتفات في كل ما يقول. ومن ثم فلا بد لنا من الرد على قولة نحمد الله على أنها لم تك مدعمة بالأسانيد ولم تك صادرة عمن لابس التعليم الإلزامي وسبر أغواره. . .
فلقد راعنا حقاً أن يقوم في محاضرة عامة الأستاذ توفيق الطويل مدرس الفلسفة

بجامعة فاروق فيطلق حكماً غريباً جريئاً على التعليم الإلزامي إذ يقول: (إن التعليم الإلزامي يجب أن يلغى فما له من نفع ولا فائدة. . .) لا. لا يا سيدي الأستاذ فما بمثل هذه الأحكام المرسلة تعالج مشكلة التعليم الإلزامي

ولقد والله شهدت للتعليم الإلزامي تلك الأزاهير اليانعة من أطفال النيل التي فتحتها يد السحر من التعليم الإلزامي فانتقلت من الظلام إلى النور، فما من طفل في الريف إلا وهو يقرأ أو يكتب. . . وما نريد ممن يقيده الفقر عن إتمام أقل مراحل التعليم سوى أن يحسن القراءة والكتابة حتى يخلص من مشاكل الجهل بهما

وثمة ناحية أخرى يا سيدي وهي أن للمعلم الإلزامي فضلاً آخر يتمثل في صورة القدوة الحسنة في روعة النظافة ودقة النظام. وإننا لنحمد الله على أن أكابر كتابنا الاجتماعيين وخاصة في (الرسالة) التفتوا إلى فضل المعلم الإلزامي؛ فقد كتب الأستاذ الكبير الزيات مقالاً صادقاً جعل فيه المعلم الإلزامي (جندياً مجهولاً) كما شهر الأستاذ الفاضل العقاد قلمه مدافعاً عنه.

وبعد فما نظن أن هناك من ينكر فضل هذا الجندي المجهول ممن يقيمون الأحكام على أسس من الاختبار والاستقراء.

حسين محمود البشبيشي

العدد 511 - بتاريخ: 19 - 04 - 1943

القراءة في زمن الحرب

للأستاذ عباس محمود العقاد

هل للإقبال على القراءة في ومن الحرب أسباب حقيقية؟ وإن كانت لها أسباب حقيقية فما هي؟ وكيف يستفاد من هذا الإقبال خير فائدة؟

تلك بعض الأسئلة التي استخلصتها من خطاب مطول في هذا الموضوع، وأحسبه من أحق الموضوعات بالدراسة في الوقت الحاضر، لأنه موضوع القراءة الذي تنطوي فيه سائر الدراسات

فأما أن الإقبال على القراءة له أسباب حقيقية فذلك ما ليس فيه شك ولا يحتاج إلى بينة

إذ كل شيء حاصل فله لا محالة أسبابه الحقيقية، وألا لم يحصل ولم يكن له وجود، وإنما يجوز الخلاف في دوام هذه الأسباب وزوالها، أو في قوتها وضعفها، أو في خلوصها وما قد يشوبها من العوارض الغريبة عنها

فأما أنها حقيقية فذلك أمر لا محل فيه لخلاف

والأسباب التي تدعو إلى الإقبال على القراءة في هذه الفترة كثيرة لا تنحصر في ناحية واحدة، وقد تنحصر في جملة الأسباب التالية

فمنها أن البريد الأوربي لا يحمل إلى مصر كل ما كان يحمله إليها من الكتب والصحف والمجلات من معظم البلدان

فقد كان يرد إلى مصر بريد حافل بهذه المطبوعات في كل أسبوع، وكان له قراء مثابرون على مطالعته كلما وصلت رسالة من رسالاته. فانقطع بعض الذي كان يصل من فرنسا وبلجيكا وإيطاليا وألمانيا، وقل وصول بعض الذي كان يصل من إنجلترا وأمريكا، وتحول قراؤه إلى مراجع أخرى يشغلون بها وقت القراءة، ومعظمها من المراجع العربية الحديثة أو القديمة

ومن تلك الأسباب أن الصحف اليومية كانت منها صحف تصدر في أربع وعشرين صفحة أو عشرين، وصحف تصدر في ست عشرة صفحة ولا تقل عنها، وكانت إلى جانبها صحف أسبوعية تصدر في أربعين صفحة وتزيد عليها في بعض الأسابيع

فنقص كل ذلك نقصاناً بيناً بغير تدريج طويل، وأصبح الحد الأقصى للصحيفة اليومية في أكثر الأيام أربع صفحات، وعم النقص سائر الصحف والمجلات فأوشكت أن تصدر في ثلث عدد صفحاتها قبل الحرب الحاضرة

وكل هذا النقص تقابله زيادة في وقت القراءة عند من تعودوا مطالعة الصحف والمجلات في حجمها الأول، ولابد لهذا الوقت من شاغل يناسبه ويجري في مجراه وإلى جانب النقص في الصفحات ألف الناس الأخبار التي لا يعرض لها كثير من التنويع والمفاجأة، وندرت المناقشات السياسية الق يشتد فيها الجذب والدفع والتأييد

والتفنيد، وينشط القراء إلى متابعتها بحماسة التشيع تارة إلى هذا وتارة إلى ذاك، فأصاب القراء شيء من الفتور إلى جانب النقص في المادة المقروءة لو أنهم نشطوا إليها.

ومع هذا كله كثر الوقت الذي يتسع للقراءة لانصراف الناس عن السهر في خارج البيوت، إما لتقييد الإضاءة أو لقلة الجديد في دور الصور المتحركة ودور التمثيل

ومع هذا وذاك كثرت النقود بين الأيدي وتيسر شراء الكتب بالأثمان التي أوجبها غلاء الورق وغلاء تكاليف الطباعة، وقال الخبراء بشئون الاقتصاد إن كثرة النقود في الآونة الحاضرة دليل على رخاء صحيح وليست من عوارض التضخم التي تنشأ أحياناً من شيوع العملة الورقية؛ إذ الناس يبيعون محصولاتهم وتبقى معهم أثمانها في داخل البلاد، خلافا لما كان يحدث قبل سنوات من تصريف هذه الأثمان إلى خارج القطر بالسفر أو باستجلاب البضائع الأجنبية. فهذه الأثمان المحفوظة في البلاد وهي ثروة حقيقية مكسوبة من موارد حقيقة وليست بالثروة المصطنعة التي تنشأ من شيوع الورق النقدي بغير مقابل معروف

وخلاصة ما تقدم أن الإقبال على قراءة الكتب العربية يرجع إلى تحول بعض القراء من مادة إلى مادة، وإلى اتساع وقت القراءة، وإلى تيسير الشراء، ويدوم ما دام هذه الأسباب

فإذا ضعفت طاقة الشراء، أو ضاق وقت القراءة، أو توافرت المادة الأولى التي كانت متوافرة قبل سنوات، فقد يتغير هذا الإقبال، وقد تثوب الحال إلى ما كانت عليه من قبل، أو تتمخض عن حال جديد لم نعهده حتى الآن

هذا الحال الجديد الذي لم نعهده حتى الآن قد يأتي من ناحية واحدة معلقة على تيسير الورق وتيسير الطباعة

فإذا تيسر الورق وتيسرت الطباعة بقية أيام الحرب ثبت في البلاد العربية عادة يصعب تغييرها، وإن عاد البريد الأوربي إلى نظامه السابق وعادت الصحف الأوربية والأسبوعية إلى نطاقها الأول:

تلك عادة القراءة في الكتب وحسبانها في حاجات الحياة العصرية ومطالب المجتمع المهذب، فإنها عادة قد تتأصل في مصر كما تأصلت في البلدان الأوربية على كثرة الصحف فيها واتساع صفحاتها وتنوع موضوعاتها

ويزيد هذه العادة تمكيناً أن يتيسر ورق الطباعة من مصانع وطنية توالي مصر وبلاد الشرق القريب بما هي في حاجة إليه؛ فإن رخص الورق يغري بطبع الكتب الرخيصة التي تقبل عليها جميع الطبقات، ولا سيما إذا اجتمع لها إغراء الرخص وإغراء الموضوعات

أما الاستفادة من الإقبال على القراءة في زمن الحرب خير فائدة مستطاعة فذلك موقوف على معنى الفائدة التي نرمي إليها

فإن كانت فائدة الربح فسبيلها أن تعطي (جمهور القراء) ما يشتهيه من الموضوعات التي يحسبها جديرة بالقراءة قيمة بالفائدة

وإن كانت فائدة الثقافة فسبيلها أن تعطي جمهور القراء ما هو في الواقع محتاج إلى علمه، وإن لم يخطر له ذلك

ومما لا شك فيه أن جمهور القراء يحتاج إلى كثير، وإن كثيراً مما يقرأه لا حاجة به ولا غناء فيه، وإن الوقت قد حان لتزويده بما يحتاج إلى عرفانه من أحوال العالم اليوم وأحوال العالم بعد نهاية الحرب، إلى زمن طويل

فبين الموضوعات التي كانت مهملة أكبر إهمال يعاب على أبناء الحضارة في العصر الحاضر، موضوع المشاكل الاجتماعية والسياسية في قارة أوربا، وفي البلاد الغربية على الإجمال

فقلَّ جداً في مصر وبلاد الشرق القريب من كان يتابع هذا الموضوع ويعرف ما ينبغي عرفانه من أطوار الفكر وصراع الدخائل الاجتماعية في كل أمة من الأمم وارتباط ذلك جميعه بمقاصد الحكومات ومقاصد الزعماء الذين يقبضون على أعنة تلك الحكومات أو على أعنة الهيئات السياسية

فكم من المصريين المثقفين - ولا نقول الجهلاء - كان يعرف ما ينبغي أن يعرف عن مسألة (التقسيم الجديد) في الولايات المتحدة؟

وكم منهم كان يعلم حقيقة العناصر التي أيدت هتلر في ميدان السياسة الألمانية؟ أو حقيقة العناصر التي أيدت فرانكو في ميدان السياسة الإسبانية؟ أو حقيقة الخلاف بين ستالين وتورتسكي وما يتصل به من خطط روسيا وعلاقتها بالشرقين الأقصى والأدنى؟
كم منهم يعلم ما وراء البضائع اليابانية المنشورة في أسواقنا من حبائل الاستعمار ومطامع الاستغلال؟
كم منهم كان يعرف زعماء الأمم على ما فرطوا عليه فيعرف ما يصنعونه وما يريدونه خليقاً أن يصنعوه أو يريدوه؟
إن الذين عرفوا ذلك لجد قليلين
وإن الذي أصابنا من جهل ذلك لجد عظيم
لأننا أخذنا بالحرب ولما نتبين من تياراتها كيف تتجه سفينة النجاة، وكيف تهب رياح الأخطار
فإذا أحببنا ألا تفاجئنا السلم مثل هذه المفاجأة، فعلى الذين بأيديهم أمر القراءة والطباعة أن يملئوا الأذهان بالمعارف والمعلومات التي تغني في استطلاع الأحوال والمقاصد بعد الحرب الحاضرة، إلى زمن طويل
ما الذي تريده هذه الأمة أو تلك؟
ما الذي يريده هذا الزعيم أو ذاك؟
وما الذي يخلص فيه؟ وما الذي يماذق فيه؟ وما الذي تواتيه عليه الأسباب الحاضرة؟
وما الذي يخشى أن يعرقله من الأسباب المنظورة؟
بعض ذلك غيب لا سبيل إلى استطلاعه
وبعض ذلك عيان مشهود أو في حكم العيان المشهود، من أخبار الأمم ودراسات المفكرين، وسوابق التاريخ، وضرورات الاجتماع و (الاقتصاد)
ولا يزال في الوقت متسع لاستدراك ما فات، ولا يزال الباب مفتوحاً لمن يلج فيه، ولا تزال الحاجة كل يوم في إلحاح ومزيد من الإلحاح
ومهما يكن من قصر الوقت الباقي من زمن الحرب، فانقضاء هذا الوقت في معرفة الحقائق والتأهب للطوارق خير من قضائه في الإهمال والتسويف، وليكن إقبال الناس على القراءة حافزاً لمن يعنيهم أن يقرءوا ما يصلح للفهم في كل زمن وما يصلح للفهم في الزمن الأخير من الحرب على التخصيص. وليس الكتاب وحدهم أصحاب الشأن في الكتابة لأنهم لا يملكون زمام الأمر إلا قليل. فلو كنا على ما نود من توافر الأداة الثقافية لنهض بالأمر جمع قادر أولو جاه ومال يقررون الموضوعات ويوزعون الأبواب وينفقون على ثقة من الكسب وعلى توقع للخسارة في وقت واحد، أو يراوحون بين ما يربح وما يحمل الخسارة، فلا يهمهم أن يربحوا من كل شيء ما داموا لا يخسرون من كل شيء
إننا لقادرون على ذلك لو أردناه
وإننا لمريدوه لو أدركنا دواعيه، وأدركنا عقباه
فهل ندركها؟
إن قلنا: (فيها قولان) وكفى، فنحن متفائلون.
عباس محمود العقاد
روحانية الحياة المدرسية
للدكتور زكي مبارك
مهنة التعليم توحي إلى النفس طمأنينة لا توحيها أية مهنة، لأن التعليم يقوم على أساس من شرف الغرض لا يعادله أي أساس. والإحصائيات تثبت أن المعلمين أقل الناس تعرضاً للآفات النفسية، بسبب تلك الطمأنينة الروحية. . . وبرغم كثرة التشكي من الغبن الذي يلاحق مهنة التعليم فإن حال المعلمين في مصر من أحسن الأحوال، فأكثرهم بحمد الله صاروا من المياسير، ولعلهم الطائفة الوحيدة التي أعفاها الله من التعطل في هذا الزمان
والمتأمل يلاحظ أن الله يبارك في أعمار المعلمين وفي أرزاقهم بقدر ما يضمرون من الإخلاص، وبقدر ما يقاسون من العناء، لأنها مهنة لا يستريح فيها غير من يرحب بالشقاء، إن جاز أن يكون مع الإخلاص في هذه المهنة شقاء
والآفة التي تكدر حيوات المعلمين هي آفة الأسلوب القديم في الترقيات؛ فترقية

المدرس بمدرسة ابتدائية هي نقله إلى مدرسة ثانوية، وترقية المدرس بمدرسة ثانوية هي نقله إلى مدرسة عالية أو نقله إلى التفتيش
وكنا أرجو أن يكون الأمر بالعكس. كنت أرجو أن تكون المدرسة الابتدائية هي المكان المختار لأكابر المدرسين، ليستطيعوا خلق الروحانية في الحياة المدرسية، وليكون ذلك شاهداً على الإيمان بقدسية التعليم
المبتدئ هو الذي يحتاج إلى المدرس الكبير العقل والروح، المدرس الذي صقلته التجارب وراضته على فهم الغرائز والنفوس
والتلاميذ في المدارس الابتدائية يحتاجون إلى رياضة روحية يقوم بها مدرسون روحيون، وهم الذين صاروا في حكم الآباء، ليكون انتقال التلميذ من البيت إلى المدرسة انتقالاً من رعاية أبوية إلى رعاية روحية
والحق أن المدرسة الابتدائية هي الأساس، فإن استطعنا أن نخلق في تلاميذها الشوق إلى الحياة العلمية فسيقل خوفنا عليهم حين يتحولون إلى المدارس الثانوية
والحق أيضاً أن العُرف الذي قضى بأن يكون المدرس في الثانويات أعلى من المدرس في الإبتدائيات قد زعزع قدسية التدريس
يضاف إلى هذا أننا أوجبنا أن تتأثر الترقيات بتلك الاعتبارات؛ فالمدرس في الثانوي مرتبه أكبر من المدرس في الابتدائي، وكان ذلك لأن المدرس يبدأ عمله في المدارس الابتدائية، ثم يتحول إلى المدارس الثانوية بعد أعوام قصار أو طوال
وليس عندي من الاقتراحات ما يصلح لتغيير هذا المنهاج، فقد فكرت كثيراً في حل هذه المشكلة، ولكني لم أصل إلى شيء، فهل أستطيع القول بتحويل بعض مدرسي التعليم الثانوي إلى التعليم الابتدائي؟
وهل أستطيع القول برد جماعة من المفتشين إلى التدريس طائعين لا كارهين؟
إن مهنتنا لن ترتفع إلا إذا رحب بها كبراؤنا، ولو دعوناهم إلى التعليم بالمدارس الأولية، وهي النواة الأصلية للتعليم والتثقيف
الطفل في مدارسنا يتيم، لأننا نبخل عليه بأكابر المدرسين
قلت مثل هذا الكلام منذ أعوام في مجلة الرسالة فسخر منه سعادة الأستاذ عوض بك إبراهيم، وأشار إلى أحد مريديه أن يكتب كلمة في جريدة الدستور يقول فيها: إن وزارة المعارف عملت باقتراحي فعينتني رئيساً للمدرسة الأولية بقصر الشوق!
وأين من يعرف أني أعتقد أن الذي فاتني في الحياة التعليمية هو أن أكون رئيساً لمدرسة أولية؟
لو سمحت الظروف بأن أكون مربياً لمائة طفل لرجوت أن أخلق منهم أشبالاً يكونون في طليعة الجيل الجديد
ما هذا التعالي الذي لا يليق بمهنتنا العالية؟
المدرس جنديٌّ أمين، والجندي الأمين لا يقف إلا في مظان الحتوف. . . وتعليم الأطفال متعبة لا يضطلع بها غير كبار الرجال
المهم هو النص على تنزيه مهنتنا من الظواهر الخوادع، فلا يكون فيها فاضل ولا مفضول إلا بمقدار التفاوت في الإخلاص
المعلم في المدرسة الأولية يستطيع مساماة الأستاذ بالجامعة إن صدق من الوجهة المعنوية. وهو لصدقة سينسى فروق الرواتب، لأن أساتذة الجامعة لا يصلون إلى مناصبهم إلا بعد جهود لا يستطيعها غير أفراد، فمن حقهم أن يمتازوا برواتب تعينهم على متابعة ما يجد من
التراجم والتأليف، وعلى مسايرة حيوات العلوم والآداب والفنون
المعلم في مدرسة أولية يقيم بيته وهو في صباه، أما الأستاذ بالجامعة فلا يقيم بيته إلا بعد أن يكتهل، فعلينا أن نعترف بأن من واجب الدولة أن تراعي حقه في الجهود التي بذلها من شبابه ومن أمواله ليصلح للحياة الجامعية
وخلاصة القول أني أرى روحانية المدرسة تتبع روحانية المدرس، وأرى أن نلتفت إلى المدارس الابتدائية بأكثر مما نصنع، كأن نختصها بأكابر المدرسين، وكأن نغير النظرة المألوفة إلى طبقات المدرسين، بحيث لا يكون طول الثواء بالمدرسة الابتدائية مانعاً من أن يظفر المدرس بمثل نصيب زميله في المدرسة الثانوية من الدرجات والترقيات
ويوم يكون من حق المدرس أن يفتخر بأن وزارة المعارف رأت أن يقضي حياته كلها

في التعليم الابتدائي لمزايا تعليمية يكون من حقنا أن نطمئن إلى سيادة الروحية في الحياة المدرسية
أقول هذا وأنا أعرف أني أطلب غرضاً لا يتحقق إلا بعد رياضات نفسية تحتاج إلى آماد؛ فالمدرسون في جميع بقاع الأرض يريدون الفرار من المدارس الأولية والابتدائية، ولا يرضى الرجل منهم عن حاله إلا إذا صار إلى التعليم الثانوي ثم العالي. وهذه نزعة تأخذ وقودها من هوى النفس، وليس لها في نظر التعليم سناد.
أترك هذا وأنتقل إلى مسألة ثانية، هي صلة التلميذ بالمدرسة، الصلة التي توجب أن يحبها أصدق الحب، على نحو ما كان التلاميذ في بعض العهود الماضية
والواقع أن تلميذ اليوم تجتذبه قُوىً خارجية لم يعرفها التلاميذ من قبل. . . وهل ننسى أن المساجد كانت قبل عشرين سنة ملتقى التلاميذ في أوقات المراجعات؟ فأين نحن من ذلك الحال الجميل؟
لا بد من جهاد لجذب التلميذ إلى المدرسة، بحيث يحبها حب العقل، وهو أصدق الحب يجب أن نصل إلى إقناع التلميذ بأن روح المدرسة هو الروح الصديق، وأن أوقاته في رحابها هي أوقات الصفاء
في كلام القدماء: فلان علمه أكبر من عقله، وفلان عقله أكبر من علمه، فما معنى ذلك؟
معناه أن ملكة الفهم تختلف عن ملكة التحصيل بعض الاختلاف.
وعلى ضوء هذه الفكرة نريد أن نعرف المنهج المختار في سياسة التعليم فنقول:
أيهما أنفع: قراءة كتاب عن خزان أسوان أو زيادة ذلك الخزان؟
وأيهما أفضل: نظر الخريطة عشرين مرة أو رسمها مرة واحدة؟
وحفظ مقامات بديع الزمان أنفع، أم إنشاء مقامة على غرار تلك المقامات؟
ثم أثب إلى الغرض فأحكم بأن إنشاء عشرين سطراً أنفع في تكوين الذهن من قراءة كتاب، لأن الإنشاء يوقظ القوى النفسية، ويروضها على التفكير السديد
والتعليم الحق هو الذي يقضي بتقوية الملكات الإبداعية، هو الذي يخلق عاقلاً لا ناقلاً، وبين العقل والنقل مراحل طوال
وليس معنى هذا أني أغض من قيمة الاطلاع، لا، ولكن معناه أني أدعو إلى أن تكون سياسة التعليم قائمة على إعزاز قيمة الفكر عند التلاميذ، فلا يقرأ أحدهم سطراً إلا وهو يحاول أن يأتي بأروع منه وأبدع، ولا يسمع درساً إلا وفي خاطره أنه مسئول عن التعقيب عليه بالمبتكر الطريف
ما السبب في أن يكون الجو المدرسي غير محبوب في بعض الأحوال؟
لو أمكن جذب التلميذ بالعقل إلى جو المدرسة لتمنى أن تكون مأواه إلى آخر الزمان
ولكن التلميذ يُسأل عن المواظبة الصورية، ولا يُجذب إلى المواظبة الروحية
وفي العقوبات المدرسية أن ينسخ التلميذ صفحات من كتاب، وهذا النوع من العقوبة موجود بالمدرسة الفلانية، وهو عقوبة حقًّا وصدقاً، فما يمكن أن يؤذي التلميذ بأصعب ولا أعنف من أن ينسخ كلاماً هو عن فهمه غير مسئول
هرب الشيخ محمد عبدة من الدرس ورجع إلى الريف فأقام به ثلاث سنين، لأنه طولب بإعراب البسملة قبل أن يفهم الإعراب
ومئات من التلاميذ يحضرون الدروس بالجسم لا بالروح، فهم غائبون لأنهم لا يفهمون، وإن لم تفطن المدارس إلى تقييد ذلك الغياب!
ودروس القواعد دروس غير محبوبة، لهذا السبب، أعني أنها لا تقدم إلى التلاميذ مع التعليل، ولو عللت القواعد يذكر مراميها الأصلية لأحبها التلاميذ، لأن الحياة موجودة في إضافة لفظ إلى لفظ بغاية من القوة والجاذبية، ولكن أين من يفكر في التنبيه إلى تلك
الحياة؟
وخلاصة القول أن الغاية من التعليم هي إثارة الشوق إلى فهم الوجود، وتنمية المواهب تنمية تغني التلميذ عن الدرس بعد حين، وتجعل منه روحاً يتطلع إلى السرائر الكونية، والحقائق الوجودية، تطلع المتشوف إلى إدراك ما عاب عن الأسلاف، ولو كانوا من فطاحل العلماء
وكمية المعلومات ليست بالغاية العالية، وإنما الفهم الصحيح هو الغاية، ولو تعلق بأقل

مقدار من المفهومات
وتصحيح غلطة واحدة في علم من العلوم أدل على قوة الذاتية من استيعاب جميع العلوم
ونظم خمسة أبيات نظماً صحيحاً فيه روح الشاعرية يدل على قيمة الفتى بأكثر مما يدل حفظه لجميع الدواوين
المهم هو إيقاظ روح الفكر عند التلميذ، بأن نجعل جميع الدروس وسيلة إلى هذه الغاية، ولن يتم ذلك إلا إذا استطعنا أن نشغل روحه وفكره وعقله بتعقب ما يرى وما يسمع تعقب الشغف والاشتياق
دخل تلميذ مصطفى كامل على الوزير علي مبارك وحاوره بأسلوب غير مقبول، فقال الوزير للتلميذ: اقرأ هذه اللوحة لأعرف مقدار ذكائك (وكانت طرة كثيرة التلافيف عجز عن قراءتها التلميذ)
قال الوزير: أنت لا تجيد غير الصياح!
فقال التلميذ: هل يتفضل الوزير فيخبرني عن عدد السلالم التي يصعدها كل يوم إلى مكتبه هذا منذ أعوام؟
فقال الوزير: التحدي تافه ولكنه معقول
والواقع أن التعليم لا يثير التطلع إلى استكشاف المجاهيل، ولا ينقل خيال التلميذ من أفق إلى آفاق إلا في أندر الأحوال. . .
عمل المدرس لا يتجه إلى تقديم الحقائق، وإنما يتجه إلى إيجاد الحقائق عن طريق التلاميذ. وأريد أن أقول إن المدرس لا يُخبر ولكنه يستخبر، إلى أن يعرف من تلاميذه الخبر اليقين، وكأنه به من الجهلاء
طريقة التلقين طريقة عقيمة، وهي لا توقظ عقول التلاميذ وقد ترميهم بالخمود والدرس هو الفرصة لتنبيه العقول الغافية، في الحدود التي تسمح بها براعة المدرس، والمدرس البارع هو الذي يسوس الدرس سياسة تقضي بأن يشعر كل تلميذ بأنه يتلقى سؤالاً بعد لحظات
هل تذكرون الواجبات المدرسية التي يؤديها التلاميذ في البيوت؟
إنها ثقيلة جداً، وبغيضة جداً، فما السبب فيما تتسم به من الثقل والبغض؟
يرجع السبب إلى أنها لم تسبق بالتشويق إلى إيجاد الحقائق
ويرجع السبب إلى أننا لم نصل إلى خلق الجاذبية المدرسية.
ويرجع السبب إلى أننا لم فكر جدياً في إبداع شخصية التلميذ. . .
وأنا أختم هذه المقالات بتوكيد ما قلته في صدر مقال اليوم وهو أن مهنة التعليم في مصر مهنة سعيدة وأصحابها سعداء
المدرس المتبرم ليس بمدرس، لأن التدريس من أقوى موجبات الابتسام
ولو أردنا شكر الله على أن جعلنا مدرسين لعجزنا عما نريد من الشكران
للمدرس في كل يوم جهاد، وهذا مغنم جميل
إن صحت دعوتنا إلى تعميم التعلم فسيكون في مصر ألوف وألوف من المدرسين؛
فهل تستطيع مالية الدولة أن تستجيب لما يطمح إليه ألوف وألوف؟
القناعة هي التاج لمهنتنا السامية، وغِنى القلوب يستر فقر الجيوب. وهل افتقر منا أحد حتى نتوجع ونتفجع بشبهة من الحق؟
نحن أغنياء وأغنياء، فلله الحمد وعليه الثناء.
زكي مبارك
على هامش أحلام شهرزاد
قضية اليوم - 4
للأستاذ دريني خشبة
قالت فاتنة: (الآن يا صديقي وقد أطلعتك على أطراف من شهرزاد الحكيم، وعلى أطراف من القصر المسحور، ووقفتك على المذهب الذي أخذ الكاتب به نفسه، ولم يفتأ يباهي به، ويشتط فيه. . . الآن وقد علمت أن مشروع (أحلام شهرزاد) كان وعداً موعوداً في القصر المسحور على لسان شهرزاد أراد عميد الأدب العربي أن يذود به عن هذه الشخصية الفذة التي ابتدعها الأديب العبقري القديم الأول، والتي رمز بها إلى جنس المرأة في كل زمان ومكان. . . والآن وقد علمت ما يرتئيه الأستاذ توفيق في

شهرزاد كل زمان ومكان من غدر وكيد وخيانة وأنانية و. . . شَبَق. . . الآن يحين لي أن أحدثك عن أحلام شهرزاد حديثاً يروقك وتنزع إليه نفسك، النزاعة إلى الحق، المشغوفة بالجمال، المؤمنة بالكمال
(!ليعلمن كيف تكون الكتابة عن شهرزاد)
هل تذكر هذه القولة التي أخذت مكانها في القصر المسحور عن عمد؟! أما تزال تذكر هذه القولة أيضاً، وقد أخذت مأمنها من هذا الكتاب كما أخذت مأمنها الكلمة السابقة:
(!سيجد عندي علم ما لم يعلم من أمر شهرزاد)
هاتان كلمتان! فهل بر العميد فيما وعد؟ وكيف صور شهرزاده يا ترى! وكيف حافى بها عما رسمها الأستاذ توفيق؟ ثم ما بال أبطاله الآخرين! هل أخرج لنا ملكاً (ديوثًّا) كشهريار الحكيم؟ أم انتفع شهريار العميد بشهرزاده فهذبت طبعه النافر، وأقامت خلقه المعوج، ولفتته إلى شئون ملكه يرعاها بعين الخبير البصير، وعلمته كيف يوائم بين رغبات نفسه ورغبات شعبه، ثم هي مع هذا وذاك لم تنكشف له كل الانكشاف لتستبقى سحرها في قلبه، وتحتفظ بسر الجمال الذي يفضحه التبذل، ويُذيله التهالك في إشباع رغبات الرجال؟!
ثم شخصيتي؟ أنا؟! شخصية فاتنة؟ تلك الشخصية التي تزري بكل شخصيات القصص العربي في الأدب المصري الحديث. . . أرأيت كيف صورها فأتقن صورتها وأبدعها في أحسن تقويم؟
وشخصية طهمان بن زهمان ملك الجن؟! هل كان هذا المارد الأحمق الذي يجلس على عرش أمة ليفرغ إلى رغباته ودنايا نفسه كما فعل شهريار الحكيم؟ أم كان ذاك الحاكم البر الحازم الحكيم الرحيم الذي حكم فعدل فأمن على شعبه كما أمن على ملكه ونشأني على خير منهاج يضمن السعادة لقبيله من الجن من بعده؟!
ثم شخصية هذا الطائف العجيب الذي كان يسْفر بالأحلام إلى شهريار ينبئه بموعد القصص الشهي الرخي الذي ترسله شهرزاد في أحلامها - ما بال هذا الطائف يا ترى؟ أما شهرزاد الحالمة فإنها من غير شك شهرزاد نبيلة كاملة، قامت بواجبها في تهذيب شهريار على خير وجه، وقامت بواجبها نحو وطنها على أحسن صورة، واحتفظت بسحر أنوثتها فلم تفسده بالتبذل، ثم هي هذا الملاك الحارس الذي أدعى وظيفته في الحياة كما ينبغي أن يؤدي كل مخلوق كامل وظيفته في الحياة. . . يأخذ بحظه منها ولا يجور على حقوق الآخرين. . . يعرف أن الحياة جد لا لعب، وهي مع ذاك جد يخفف جفوته لهو قليل برئ. . . لهو بالموسيقى التي تهذب الطبع، والغزل الحلال الذي لا ينحدر إلى أحضان العبيد، ولا يسف إلى اتخاذ الأخدان، ولا يسفل إلى أن يكون خداعاً وخيانةً ولغواً وتأثيماً. . . شهرزاد العميد هي هذا الملاك الحارس الذي أخذ على عاتقه إصلاح شهرياره في النوم وفي اليقظة. . . في النوم بإرجاعه إلى محجة الصواب كلما عاوده داؤه القديم فسأل عن سر شهرزاد، وشهرزاد مع ذاك تطلعه على شطر غير يسير من هذا السر، ثم تحتفظ لنفسها بشطره الآخر. . . الشطر الذي يبقى على سحر الأنوثة في المرأة ويجعلها شابة دائماً، جميلة دائماً، ساحرة دائماً. . . لأنها تعطي من نفسها بقدر، وتهب من ذاتها بمقدار، فلا تتبذل بكثرة البذل، ولا تمنح كل ما عندها كي تجد ما تمنحه طوال الحياة التي تربط الزوجين. . . وهي لذلك جديدة كل يوم في عين شهريار، لأنها تسقيه كل يوم كأساً جديدة. . . فإذا سألها: (ألا تنبئيني آخر الأمر من أنت وماذا تريدين؟). . . أجابت. (من أنا؟ أنا شهرزاد التي أمتعتك بقصصها أعواماً لأنها كانت خائفة منك والتي تمتعك بحبها الآن لأنها واثقة بك مطمئنة إليك وماذا أريد! أريد أن أرى مولاي راضياً سعيداً ناعم البال رخي العيش مبتسماً للحياة كما تبتسم له الحياة) فإذا أعاد بعد ذلك سؤاله، قالت له: (من أنا؟ أنا شهرزاد التي أحبتك قبل أن تعرفك كما لم تحب فتاة رجلاً قط، والتي خافتك حين عرفتك خوفاً لم يخفه إنسان إنساناً قط، والتي زفت إليك تتحدى الموت وتتحدى السلطان وتتحدى الحب والبغض جميعاً، فبلغت من نفسك هذه المنزلة التي تراها والتي لا تراها، ثم أصبحت الآن وهي لا تفكر إلا فيك، ولا تفكر إلا بك، ولا تفكر إلا لك. ماذا أريد؟ أريد أن تكون سعيداً موفوراً، ولكني لا أعرف كيف أجعلك سعيداً موفوراً. من أنا؟. . . أنا من تحب أن ترى في أي ساعة من ساعات النهار، وفي أي ساعة من ساعات الليل. أنا أمك حين تحتاج إلى حنان الأم، وأنا أختك حين تحتاج إلى مودة الأخت، وأنا ابنتك حين

تحتاج إلى بر البنت، وأنا زوجتك حين تحتاج إلى عطف الزوج. . . . وأنا خليلتك حين تحتاج إلى مرح الخليلة، أنا كل هذا. وماذا أريد! أريد ما تريده الأم لابنها، وما تريده الأخت لأخيها، وما تريده البنت لأبيها، وما تريده الزوج لزوجها الوفي، وما تريده العشيقة لعشيقها المفتون. وقد سألتني فألحفت على في السؤال، أفتأذن لي في أن أسألك؟) فيرفع الملك إليها بصره كالمنكر لما تقول، ولكنها تتضاحك وتتماجن وتسأله: (كيف أراك في هذا المكان من جنة القصر، حيث كان ينبغي أن أراك في غرفتك تتهيأ للخروج إلى حيث تستقبل وزراءك وتصرف أمور ملكك، أو أراك قد خرجت مبكراً فأقبلت على شئون الدولة تصرفها حفيًّا بها منكبًّا عليها. . . الخ)

فهل رأيت إلى شهرزاد العميد وفرق ما بينها وبين شهرزاد الحكيم؟ أرأيت كيف صور العميد ما ينبغي أن تكون عليه الزوجة الوفية في كل زمان ومكان!! فتكون لزوجها أماً حين يحتاج إلى حنان الأم، وأختاً حين يحتاج إلى مودة الأخت، وابنة حين يحتاج إلى بر البنت، وزوجاً حين يحتاج إلى عطف الزوج. . . ثم. . . خليلة حين يحتاج إلى مرح الخليلة. يجب أن تكون الزوج كل هذا فهل يرى الأستاذ توفيق هذا الرأي؟! أم هو موجس ظِنَين واجد على المرأة يبشر ضدها بالويل والثبور وعظائم الأمور، لا يأتمنها على أن تنجب لشهريار غلاماً ذكياً أو غبياً، ولذلك فهو يرسلها في أحضان العبيد، ويبيح غرامها للوزير ولغير الوزير، ويجعلها أنانية لا تفكر إلا في نجاتها هي دون أن تعني بخلاص بنات جنسها

ولقد نبهتك يا صديقي إلى ما التزمته شهرزاد العميد من الغموض أحياناً لتصون جمالها وتجدد سحرها في نفس زوجها، فهل تدري لماذا حرص الأستاذ الحكيم على أن تكون شهرزاده غامضة؟ إنه حرص على هذا لتذهل شهرزاده لبَّ شهرياره، ولتعصف بقبله؛ فغموضها هو من غموض السحراء والمشعبذين وأكلة الثعابين والذين يمشون بأرجل حافية على النار ورؤوس المسامير. . . لأن الذين يتفرجون بهذه الشعبذات يقفون حيالها مشدوهين صعقين لما فيها من غموض يذهل ألبابهم، ولا يدركون له كُنْها. . . أما ماذا وراء هذا الغموض، فليس وراءه شيء. . . ليس وراءه نفع قط. . . إن لم يكن وراءه ما يمكن كالأفعى الرقطاء في ظلمات نفس شهرزاد - شهرزاد الحكيم طبعاً - من شر وكيد وختل وخداع وخيانة وتدبير سيئ. . . ولهذا قالت شهرزاد في القصر المسحور وهي تتميز من الغيظ على توفيق الحكيم: (ليعلمن كيف تكون الكتابة عن شهرزاد!) ثم قالت: (سيأتيه علم ما لم يعلم من أمر شهرزاد!)

هذا فرق ما بين الغموضين، وللغموض نصيب عظيم من السرق الذي أرجف به المرجفون، وتخرص به المترخصون

أما فرق ما بين شهريار الحكيم وشهريار العميد فليس يحتاج إلى إسهاب ولا يفتقر إلى إطناب. وحسبك أن تذكر ما كان من غفلة شهريار الحكيم التي سماها معرفة، وسكوته على ما قتل بسببه وزيره نفسه حينما انسل العبد من مخدع شهرزاد. ذلك السكوت الذي سماه الحكيم فلسفة. ثم حسبك أن تعلم ما كان من سهر شهريار العميد على أمور رعيته، وحسن التفاته إلى تصريف أمورها، واضطلاعه بما يعود عليها بالخبر والنظام. . . حسبك هذا وذاك لتقدر أنت فرق ما بين الملكين

أما أنا. . . أما فاتنة. . . فإني كما علمت أبرع شخصيات الأدب المصري الحديث. . . إني أتمم شخصية شهرزاد. بل أنا روحها الحالم. . . بل أنا شبحها الهائم. . . بل أنا غناؤها الباغم. بل أنا منطقها السليم وسحرها العظيم وتدبيرها الكريم وقلبها الرحيم. . . بل أنا حدبها على الرعية، واستخفافها بالطغاة، وعذابها المسلط على الملوك المستبدين الذين ذاق بعضهم بأس بعض، وعذب بعضهم بأيدي بعضهم الآخرين. . . بل أنا هذه الديمقراطية العزيزة التي أجج لها الطغاة الآثمون تلك الحرب الطاغية الآثمة القائمة. . . الديمقراطية التي ترد الصواب إلى الفرد المغرور، وتعيد السلام إلى العالم، الجمال إلى الجنة. . . أنا الديمقراطية التي تبعث العزة في نفوس الأفراد، والكرامة في قلوب الشعوب، فلا يسميها الحاكمون بأمرهم الخسف، ولا يسلط عليها فرد واحد مجنون فيجعل أمنها خوفاً،

وقوتها ضعفاً، وعيشها شظفاً، وجهودها هباء، ورخاءها عناء، وفَرَجَها شدة، وسلامها حرباً، وعلمها شراً، وعلماءها أبالسة، وقادتها أفاكين

أستمع إليّ أقول لأبي وهو يحاورني: (. . . متى رأيت الملوك يقدمون على حرب لا

تدفعهم إليها شهواتهم الجامحة وعواطفهم الحائرة؟ ومتى رأيت الشعوب تجنب هذه الأهوال وتعصم من الحرب لغير مصالحها المؤكدة ومنافعها المحققة. . .؟. . . إن أثرة الملوك والسادة والزعماء هي التي تثير الحرب دائماً وهي التي ترهق الشعوب دائماً. . .!)

فإذا قال لي أبي: (فقد كنت أرجو أن يهيئ لك علمك وحكمتك ابتكار لون من ألوان الحياة لا تشقى فيه الشعوب بسعادة الملوك والزعماء!. . .) قلت له في بعض الذي أجبته به: (فأنبئني يا أبت ما بال هذه الرعية لا ترفق بنفسها ولا تعني بأمرها، ولا تفكر في مصالحها، وإنما ندعوها فتجيب، ونأمرها فتطيع، ونوجهها إلى حيث نشاء فتتجه إلى حيث نشاء لا يخطر لها أن تأبى إذا بلغها الدعاء، ولا أن تعصي إذا صدر إليها الأمر، ولا أن تمتنع إذا وجهت إلى حيث لا تحب. . .؛ فما طاعتها لنا في غير روية ولا تفكير، بل في غير فهم لما تؤمر به وتقدير لما تدعى إليه؟. . .)

أرأيت إلى كيف مثلت الديمقراطية أروع تمثيل وأصدقه؟ وهل سمعت إلي أفضح الطغاة والمستبدين، وآخذ على الأمم المستضعفة رضوخها لهم وعدم الثورة عليهم، وطاعتها إياهم في غير روية ولا تفكير ولا فهم ولا تقدير؟!. . . وأنا مع ذاك الديمقراطية المتعلمة المثقفة التي لا تصدر عن الطيش ولا يتلاعب بها الرعاع. وليست هذه الديمقراطية التي تدخن القنب في حانة أبي ميسور، وتنام في أحضان العبيد، وترهن السيف لتقضي ليلة هانئة؛ لكنها الديمقراطية التي تثل عروش المستبدين وتقوم على الجد ولا ترضى العبث وترفض أحلام روَّاد الحانات التي يدخن فيها الـ. . . الديمقراطية التي انتصرت على قوات الشر (. . . وردت إلى شعوب الجن حقوقها المغصوبة وحرياتها المسلوبة. . . ومن يدري! لعل علم الجن أن يصل إلى الناس ذات يوم أو ذات قرن واضحاً جلياً لا لبس فيه ولا غموض؛ أو لعل عقول الناس أن ترتقي ذات يوم أو ذات قرن إلى حيث تفهم عن الجن في غير مشقة ولا جهد. يومئذ أو قرنئذ تصلح أمور الإنسان كما صلحت أمور الجان

قالت: (وعكف شهريار على نفسه يتدبر ما سمع ويستحضر ما شهد ويتذكر ما رأى، وكأنه أنسى نفسه في هذا العكوف، حتى أقبلت شهرزاد وقد ارتفع النهار. وسمعها تقول في صوت حازم باسم معاً: (لشد ما هانت عليك أمور الملك يا مولاي! هاأنت ذا تخلو إلى نفسك في زاوية من زوايا غرفتك كأنك فرد من أفراد الناس قد فرغ للفلسفة والتفكير. ألم تحاسب نفسك على هذا الوقت الطويل الذي أنفقته في غير شئون الملك! ألم يخطر لك أن للشعب حقوقاً يجب أن تؤدي إليه، وإن أوقات الملوك ليست خاصة لهم من دون الرعية؟)

قال الملك دهشاً. . . (يا عجباً! كأنما أسمع حديث فاتنة)

قالت شهرزاد ذاهلة: (فاتنة! فاتنة! ليس هذا الاسم عليّ غريباً، وأحسب أن لي بي عهداً قريباً)

قالت فاتنة: (فأنا إذن أتمم شخصية شهرزاد. . . بل أنا روحها الحالم. بل أنا شبحها الهائم. بل أنا غناؤها الباغم. بل أنا منطقها السليم، وسحرها العظيم. وتدبيرها الكريم. وقلبها الرحيم)

أما أبي. . . أما طهمان بن زهمان، فهو الذي أدبني فأحسن تأدبي، وهو الذي كان يخفق قلبه بمحبة شعبه فنشر المدارس بين طبقاته ليعلمه الديمقراطية، وهو الذي (رفع بعض النابهين من الدهماء إلى مناصب الدولة) مُعرضاً نفسه لسخط الأمراء وكيد الشيوخ من رؤساء العشائر، فوصل من الديمقراطية إلى كثير مما كان يريد. . .

فشهرزاد وأبي طهمان وأنا. . . إنما نكون هذا الثالوث المقدس الذي ألفه العميد لتهذيب روح شهريار، ولإنقاذ هذا الروح من البرم والتوجس والتشاؤم الأسود الذي عصف به منذ خانته زوجه. وقد نجحنا في هذا، وبلغنا منه ما نريد)

قالت فاتنة: (فاسأل المرجفين إذن أين هو السَّرق الذي يدعونه؟ بل أين الشبه بين كل؟ أيكفي أن يسأل شهريار شهرزاد ما هي، وماذا تريد؟ ليكون هناك أخذ وسرق وسطو. . . أم يكفي أن تتذرع شهرزاد العميد ببعض الغموض إبقاء على سحرها وجمالها وأسرها، ليدعى الخراصون أن الغموض من (اختراعات!) الحكيم المسجلة فلا ينبغي لأحد غيره، وإلا سرق هذا (الغير) وسطا!

وبعد. . . فلندع هذا اللغو وذاك العبث، ولنطلب إلى عميد الأدب العربي مواصلة لياليه لأنها فتح جديد في أدب القصة، وقد قرأنا كلما ألف العميد بعد (الأيام والهامش) فلم نجده
أحسن كما أحسن في تلك الأحلام الرائعة الخالدة التي لا ترتهن بظرف من الظروف، ولا بعصر من العصور كما ادّعى بعضهم.

دريني خشبة

تغريدة

إلى تاج العراق

(في مقدم مليكه العزيز (فيصل) الثاني، ضيف وادي النيل)

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

لَمَحْتُ بِجنَّات مِصْرٍ شُعَاعا ... لأنْوارِهِ صَفَّقَ الشَّاطِئانْ
غَزَا طيْفُهُ كلَّ قَلبٍ وشَاعا ... فَلَمْ يخْلُ مِنْ صَفْحَتَيْه مَكانْ
تَهَادَى فَخِلْتُ الرُّبى وَالْبِقَاعا ... وَشمْسَ الضُّحَى مَوْكِباً مِنْ حَنَان
فَيَا (نِيلُ) مَنْ هَزَّ فيكَ البِقَاعا ... مَلاَكٌ وَفى كَفه صوْلَجَانْ
حَمَى الله أَيَّامهُ أَنْ تُرَاعا ... وَوَقّى لَيَالِيه رَيْب الزَّمَانْ. . .
وَأَعْلَى مَعَ الشَّرْق مُلْكاً حَوَاهْ . . .
وَنَهْراً تَهِيمُ بِهِ ضَفّتَاهْ
وَتَاجاً عَلَى الْبَأس يَرْسُو عُلاَهْ
وَشَعْباً إلى (مِصْرَ) يَهَفْوُ هَوَهْ
وَيَرْبِطُنَا فِيهِ عَهْدُ الْحَياهْ
خُطَانَا إلى كلَّ مَجْدٍ خُطَاهْ
فدِجْلَةَ والنَيل ذَاقَا الرِّضاعا ... شَقِيقيْن دِيناً، وَنَجْوَى لِسَانْ!
فَيَا تَاجَ مِصْرَ أَتَتْكَ الشُّعُوبْ ... مِنْ الشَّرقْ تَسْكُبُ أَحْلاَمَها
وَأَلْقَتَ إليْكَ زِمَامَ الْقُلُوبْ ... فَكُنْتَ هَوَاها وَإلْهامَها
إذا أَرْعَشَتْ جَانِبَيْهَا الْكُرُوبْ ... أسيتَ، وَآسيْتَ آلامَها
إذا مَسَّها في سُرَاهَا لُغُوبْ ... إلى النَّجم طَيرْتَ إقْدَامهَا
فأنْتَ لَهَا في ظَلامِ الْخُطوبْ ... صَبَاحٌ يُنوِّر أيّامَهَا. . .
وَيَنْشُرُ في كلَّ وَادٍ ضُحَاهْ . . .
فَيَنْسى بِهِ كلُّ قَلْبٍ أسَاهْ
على النَّهْرِ أوْ في هَجِيرِ الْفلاهْ
زَمَانٌ (بفاروقَ) ضَاحٍ سَنَاهْ
مَلِيكٌ عَلَى الشَّرقِ تَحْنُو يَدَاهْ
رَعَى مُلْكَهُ، وَرَعاهُ الإلهْ!
صَحَتْ أُمَم الشَّرْقِ تَبغْي الْهُبُوبْ ... فَهَيَّا لِتَرْفَعَ أعْلامَها
مِنَ الرَّافدِيْنِ أَضَاءَ الْقِبَابْ ... شُعَاعٌ بِمَهْدِ الْعُلا يَرْفُلُ
سَرَى وَالرَّبيعُ يَحُثُّ الرَّكابْ ... إلى الدَّوْحِ فِرْدوْسُهُ المُخْضِلُ
فَكَانَا رَبِيعَيْنِ بَيْنَ الشَعابْ ... يُحَيَهمَا الحُبُّ، وَالْجدْوَلُ
وَهذَا يُنَاجِيهِ قَلْبُ الشَّبَابْ ... وَهذَا الطُّيُورُ لَهُ تَهدْلُ
وَلَكِنْ رَبيعُكَ أَنْقَى إهَابْ ... وَأَخْلَدُ في الروُّحِ يَا (فَيْصَلُ)!
فَمَوْجُ (الْفُرَاتِ) جَرَى في ربُاهْ
وَأَحْلامُ (بَغْدَادَ) فَصَّتْ شَذَاهْ
وقَلْبُ (الْعِرَاق) انْشَى منْ صِبَاهْ
وَرَفْرَقَ آمَالَهُ في سَمَاهْ
غَداً مِنْ يَدَيْكَ يُلَقّى مُنَاهْ
وَفي ظلَّ عَرْشِكَ يَجْني جَنَاهْ. . .
ونسْبَحُ بالشَّرْقِ فَوْقَ الْعُبَابْ ... عَلَى وَحْدَةٍ. . . دِينَهَا مُنزْلُ!

محمود حسن إسماعيل

سليمان الحكيم

التوفيق الحكيم!

للأستاذ سيد قطب
- 1 -
يبدو أن فصل النقد الفني هو الفصل المتخلف في كتاب الأدب العربي الحديث. وقد) لمست هذا في المناسبة القريبة بين الأستاذ (دريني خشبة) وبيني كما لمسته من قبل مرات.
فنحن: إما أن نحب فنبالغ في الإطراء، وإما أن نكره فنبالغ في القدح، وإما أن نكسل فلا نستقصي عن عمل من نتصدى لهم بالنقد، وإما أن نتحكم بمزاجنا ونفرض تحكمنا على القراء!
وسأحاول في الفصول التي أقولها في النقد الأدبي لأعلام العصر الحديث أن أتوقى كل (هذا بقدر المستطاع. والله يلهمنا طريق السداد
هذه هي التمثيلية الخامسة لتوفيق الحكيم التي يستلهم فيها الكتب الدينية أو الأساطير. وقيمة استلهام هذه المصادر وأمثالها هي في الصورة الجديدة التي يجلوها الفنان، وفي ملء الفجوات التي يعني بها الفن وقد لا يعني بها الخبر ولا الأسطورة؛ وفي التعميم الذي يخرج بها من الجو المحدود والمناسبة العارضة إلى الجو العام والحقيقة الخالدة
وتمثيلية (سليمان الحكيم) مستلهمة من القرآن الكريم ومن التوراة ومن ألف ليلة وليلة. فلننظر في المواد الخامة التي كانت بين يدي المؤلف حين همّ أن يصوغ تمثيليته الجديدة، لنعرف كم استمد منها وكم زاد عليها؛ فتلك هي الخطوة الأولى في الوزن الفني لمثل هذا العمل
قصة سليمان وأخباره في القرآن الكريم في سورتي النمل وسبأ معروفة أو في متناول كل قارئ، فلست في حاجة أن أثبتها هنا، فأكتفي إذن بتسجيل نظرة القرآن إلى سليمان الحكيم؛ فهو نبي أوتي العلم والحكمة، ووهُب ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وعلم منطق الطير، وسخرت له الريح والجن والإنس
وأما قصته في التوراة فقد لا تكون في متناول القراء، فألخص هنا بعض ما يحتاجون إليه
منها في هذا السياق، وما كان بين أقواس من هذا التلخيص فهو نص منقول:
ورد في (سفر الملوك) من العهد القديم أن سليمان كان ملكاً بعد أبيه داود يعاصر من أنبياء إسرائيل وكهانهم (ناثان النبي) و (صادوق الكاهن). وقد طلب سليمان من إلهه أن يعطيه الفهم والحكمة ولم يطلب لنفسه مالاً كثيراً ولا عمراً طويلاً، فكافأه الرب على ذلك بأن وهبه الحكمة التي طلب والملك الذي لم يطلب
وكان صيته . . .(وفاقت حكمة سليمان حكمة جميع بني المشرق، وكل حكمة مصر) في جميع الأمم حواليه، وتكلم بثلاثة آلاف مثل، وكانت أناشيده ألفاً وخمسة. وتكلم عن الأشجار من الأرز الذي في لبنان إلى الزّوفا النابت في الحائط، وتكلم عن البهائم، (وعن الطير، وعن الدبب، وعن السمك
وبنى سليمان بيتاً للرب جلب أخشابه وزخارفه من مختلف الأمصار حوله. وصاهر فرعون ملك مصر فكان هذا دليلاً على عظمته!
وقد جاءت معها بهدايا كثيرة. (وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان فأتت لتمتحنه بمسائل) ولما رأت سليمان وحكمته وعظمة ملكه، أعجبت به وبحكمته وسلطانه (وأعطته مائة وعشرين وزنة ذهب وأطياباً كثيرة جدّاً وحجارة كريمة) وأعطى سليمان للملكة كل (مشتهاها الذي طلبت. . . فانصرفت وذهبت إلى أرضها
وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة - مع بنت فرعون - مؤابيات وعمونيات) وأدوميات وصيدونيات وحيثيات. من الأمم الذين قال عنهم الرب لإسرائيل: لا تدخلون إليهم وهم لا يدخلون إليكم لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم).
وتذكر التوراة بعد ذلك أن نساء سليمان بلغن الألف عداً، بين زوجات وسراري. وأن بعض نسائه أملن قلبه، وكان في شيخوخته (فمال وراء آلهتهن ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود أبيه. فذهب سليمان وراء عشتورت إله الصيدونيين وملكوم رجس العمونيين) وانتهى الأمر بغضب إلهه عليه وانتزاع الملك منه. . .
وأما قصص ألف ليلة وليلة فهي معروفة كذلك لعامة القراء؛ وقصص الصيادين الذين

يعثرون بالعفاريت في قماقم مسحورة، وقصص الأحياء الذين يسحرون أحجاراً أو أشياء أخرى ويوضع طلسم خاص لفك سحرهم معروفة كذلك
ومفروض أنه كان بين يدي المؤلف بعض ما كتبه عن (سليمان الحكيم) في الفرنسية الفيلسوف (رينان)، وبخاصة ما كتبه عن (نشيد الإنشاد) نشيد الحب والربيع والشباب وهو من نظم سليمان
هذه هي الخامات التي كانت بين يدي توفيق الحكيم. فلننظر كيف استخدمها في تمثيليته
لقد انتفع بالمصادر الثلاثة على السواء، وزاوج بينها، وفسرها وأضاف إليها بحرية كاملة، وهذه الحرية معترف بها للفنان الروائي بلا جدال
فهو قد اختار أن يكون سليمان نبياً كما جاء في القرآن، وملكاً كما جاء في التوراة.
وقد جاءته الخطيئة الدينية - في التوراة - من جانب المرأة، فجعلها توفيق تجيئه من ناحية المرأة أيضاً ولكنها خطيئة إنسانية لا دينية. واختارت له التوراة غضب الله وانتزاع الملك، ولكن المؤلف اختار له أن يتوب عن خطيئته وأن يقاسي عذاب ضميره
وقد أثار بين الملك والإنسانية، وبين الحكمة والنبوة، في نفس سليمان صراعاً نفسياً عنيفاً. فتغلب الملك أو تغلب الإنسان فيه عند القدرة وبدافع الرغبة، وتغلبت الحكمة أو تغلب النبي فيه عند الاصطدام وبدافع اليأس
وبعض تفاسير القرآن زوّج (بلقيس) من أحد الأمراء، ولكن المؤلف جعلها تعلق بحب هذا الأمير، وجعله يعلق بحب وصيفتها (شهباء)!
ثم استعار من ألف ليلة وليلة أحد عفاريتها وأحد صياديها. ولكنه استعارهما ليشيع الجو الأسطوري في التمثيلية من ناحية، وليستخدمها في الصراع بين الخير والشر، وبين الضمير والشهوة، من ناحية أخرى؛ وليرمز بها إلى التكامل والتصارع في نفس الإنسان الواحد من ناحية ثالثة
ومن هذه الخامات حاول أن ينشئ تمثيلية تعالج الصراع الأبدي بين الخير والشر وبين الضمير والرغبة - وتهدف مع هذا الصراع إلى الاتجاهات التالية:
1 - سليمان . . . تغليب الجانب الإنساني على الجانب المقدس في نفس النبي!
2 - قداسة القلب الإنساني في الحب والسخرية بجميع قوى الأرض أمام هذه القداسة
3 - الجحود والوفاء والخير والشر، واجتماعهما في الحب الإنساني جنباً إلى جنب
4 - رفع الستار عن بعض القداسات، وغمزات للكهان وأشباه الكهان
5 - الآلام والحرمان والعجز والفجيعة هي التي تشع الحكمة وتهدئ الفورة وتفتح البصيرة
6 - السخرية بحكمة الإنسان المحدودة مهما سمت وبقوته مهما عظمت أمام الحكمة الكونية الكبرى
7 - التفسير النفسي - من جانب الفن - لبعض الحوادث والروايات في حياة العظماء!
فلنستعرض التمثيلية استعراضاً مجملاً لنرى إن كانت قد أدت هذه الأغراض، وإن كانت قد جمعت إليها جمال الفن وحركة الحياة. وتلك شروط الرواية الجيدة بالإجمال.
يتبع - (حلوان)
سيد قطب
بين القديم والجديد
بناة القاهرة المسلمون
تأليف السيدة ر. ل. ديفونشير
للدكتور محمد مصطفى
جلست إلى جانبها في عربة يجرها جوادان كريمان، أحدهما أشهب والآخر تغلب في لونه الحمرة، ويقودها سائق فحل عريض المنكبين قوي البنية. وكنا نتحدث في التاريخ الإسلامي، وفي الفن الإسلامي، وفي مجموعة المساجد والمباني الأثرية الإسلامية التي تضمها القاهرة بين أسوارها، والتي لا يوجد لها نظير في بلد آخر. واسترسل بنا الحديث فجعلنا ننتقل بين عصور الفن والتاريخ المختلفة. وكان السائق الفحل يملأ مكانه في خيلاء وغرور، ويسوق جواديه مترفقاً بهما، وهما ينصاعان له هادئين، كأنهما قد استسلما لحبيب يبادلانه الحب، ويعملان جهدهما على إرضائه. ومن وقت إلى آخر كانت السيدة الجالسة إلى جانبي ترسل إلى الجوادين الكريمين نظرة تدليل وإعجاب.

ومرت بنا العربة في طريق من طرق القاهرة القديمة التي لم تنلها يد المدنية الزائفة بالتخريب والتشويه، ولم تصل إليها وسائل النقل الحديثة بأصواتها المزعجة. طريق من تلك الطرق الضيقة الكثيرة المنحنيات والتعاريج، والتي تعلوها (مشربيات) البيوت الأثرية من الجانبين، فتترك في أعلاها شقاً ضيقاً يظهر منه القليل من زرقة السماء ممزوجاً بالقليل من أشعة الشمس، وتتخلله مآذن المساجد الشاهقة، شامخة برؤوسها تحدث عن عظمة بُناتها

وصمتت السيدة فصمت احتراماً لها، وجعلت أتطلع إلى منظر هذا الطريق فاستهواني، وتملّكني سحره وانتقل بي إلى زمن مضى، فخيل إلى أنني عدت شاباً فتياً مزهواً بعنفوان شبابه؛ وأنني أجلس إلى جانب فتاة هيفاء ترنو إليّ بعينيها النجلاوين لتزيد من أثر فتنتها في نفسي. وإذ كنت غارقاً في هذه التأملات، سقط شعاع دقيق من أشعة الشمس على رأس الجواد الأشهب، وانتقل منها إلى ظهره، ثم إلى رأس السائق الفحل، ثم أصاب عيني فآلمني وأيقظني وعاد بي إلى الحقيقة السافرة. ونظرت إلى السيدة الجالسة إلى جانبي فوجدتها

كأنها عادت هي الأخرى من ذكريات عزيزة حلوة، وقالت كمن يحدث نفسه: يا لها من طريق جميلة!. . . وقلت مؤكداً: حقاً! إنها طريق جميلة ساحرة. . . وكيف لا تكون جميلة ساحرة وقد ملكت عليّ مشاعري، فعشقتها من أول نظرة، وعشقت معها هذه البيوت القديمة التي تطل عليها، وهذه المساجد والمآذن التي تقوم على جانبيها، وعشقت هذا القليل من زرقة السماء الممزوج بالقليل من أشعة الشمس، بعد أن كنت أنظر إلى السماء والشمس فيبهرني جمالها ويعمى عيني فلا أتبين منه شيئاً! وشكرت السيدة الجالسة إلى جانبي لأنها حببت إلى كل هذا، وقادتني لرؤية هذا السحر والجمال.

هذه هي السيدة (ر. ل. ديفونشير) وهي سيدة وقور، يعرفها أغلب سكان تلك الأحياء القديمة الجميلة، ويقابلونها بالإجلال والاحترام. وهي من جانبها تسر لرؤيتهم، وتتحدث معهم باللغة العربية كأنها واحدة منهم. وقد اعتادوا - منذ عشرات السنين - أن يروها تمر في أحيائهم كل أسبوع، وفي صحبتها جماعة من نزلاء مصر، تقودهم ليستمتعوا بجمال هذه الأماكن الأثرية، ويدرسوا معالمها، ويتبينوا بأنفسهم مكان حضارة مصر بين حضارات الأمم الأخرى. ولا شك أننا مدينون لها بالشكر والثناء للدعاية الطيبة التي ما زالت تنشرها لبلدنا الذي عاشت فيه طويلاً وأحبته كثيراً. فقد تطوعت على الرغم من تقدمها في السن - أن تقود في أيام معينة فريقاً من رجال وسيدات - القوات الحليفة الموجودة بين ظهرانينا، ليشاهدوا أماكن الحضارة المصرية من متاحف ومعاهد ومبان أثرية، ليلموا بالناحية الثقافية في مصر إلى جانب ما يجدونه فيها من وسائل اللهو والتسلية.

وقد ألّفت هذه السيدة الفاضلة عدة كتب عن مصر الإسلامية، يبحث بعضها في التاريخ، والبعض في فن العمارة، والبعض الآخر في نواحي تأثير الفن الإسلامي في الفنون الأوربية. أما كتابها الذي ظهر أخيراً (بناة القاهرة المسلمون) فهو يبحث في تاريخ مصر منذ الفتح الإسلامي إلى وقت الحملة الفرنسية (1798م). وقد فصّلت فيه أخبار حكام مصر وولاتها وملوكها وسلاطينها، وما خلفوه من آثار وبنوه من مساجد ومدارس ومارستانات ونكايا وقناطر وحمامات وقباب ومدافن وغير ذلك من المباني.

وتكلمت في الفصل الأول من هذا الكتاب عن دخول العرب مصر، وولاية عمرو بن العاص، وتشييده جامعه إلى جانب مدينة الفسطاط. وأشارت إلى من خلفه من الولاة، حتى جاء أحمد بن طولون والياً من قبل الخلفاء العباسيين، الذين كانوا قد اتخذوا إذ ذاك مدينة سامرا (سُرَ من رأى) عاصمة لبلادهم. وجلب ابن طولون معه من سامرا المعماريين والفنانين، فنسجوا فيما شيدوه بمصر من المباني والعمائر على نسق الطرز الفنية التي كانت مزدهرة في بلادهم في ذلك الوقت. لذلك نجد أن جامع أحمد بن طولون مبني على طراز جامع سامرا من حيث تخطيطه وزخارفه وشكل مأذنته، حتى أنهم استعملوا في بنائه الآجرّ (الطوب الأحمر) الشائع في العراق بدلاً من الحجر الجيري الذي كان يستعمل بكثرة في مصر لقرب محاجر جبل المقطم

وتحدثت في الفصول التالية عن انتقال الحكم في مصر إلى الخلفاء الفاطميين وتأسيسهم مدينة القاهرة. فتكلمت عن أخبار خلفائهم وما بنوه من جوامع ومساجد

كالجامع الأزهر والحاكم، ثم استئثار الوزارة بالسلطة في أواخر العصر الفاطمي وما بنى في عصرهم من المباني مثل السور العظيم الذي بناه أمير الجيوش بدر الجمالي مع باب الفتوح وباب النصر وباب زويلة، وجامع الجيوشي، وجامع الأقمر، ومشهد السيدة رقية وغير ذلك. ثم مجيء صلاح الدين الأيوبي إلى مصر واستقلاله بالحكم بها، وقيام الدولة الأيوبية، وبناء قلعة القاهرة لصد هجمات الصليبيين المحتملة في ذلك الوقت. إلى أن قامت دولة المماليك البحرية، وانتقلت الخلافة العباسية إلى مصر أيام الملك الظاهر بيبرس البندقداري، بعد أن فتح التتار بغداد. ثم ذكرت أخبار من حكم مصر من سلاطين دولتي المماليك البحرية والبرجية وأمرائهم وشدة شغفهم بالفنون الجميلة التي ازدهرت في مصرفي عصرهم، وتشييد المباني الفخمة مثل جامع الظاهر ومارستان قلاوون وجامعه ومدفنه وجامع بيبرس الجاشنكير وسلار وسنجر الجاوي والناصر محمد بن قلاوون والسلطان حسن وبرقوق وبرسباري وجقمق وأينال وخشقدم وقايتباي والغوري. إلى أن كانت موقعة (مرج دابق) الشهيرة بين العثمانيين ومماليك مصر، وانتصر فيها السلطان سليم الأول العثماني على السلطان قانصوه الغوري، وفتح العثمانيون مصر في سنة 1517م، فصارت منذ ذلك الوقت ولاية عثمانية، إلى أن جاء المغفور له محمد علي باشا الكبير فحررها من ربقة الإدارة العثمانية

وأفردت الفصل الأخير من كتابها لذكر أخبار ولاة مصر العثمانيين وما بناه بعضهم من المساجد والمباني الأخرى، رغماً من حالة الاضطراب التي كانت سائدة في هذا العصر، والسياسة التي كانت تتبعها الدولة العثمانية في كثرة تغيير الولاة، لكي لا يتوفر لأحدهم الوقت لتقوية مركزه والاستقلال بالبلاد. وبينت في هذا الفصل كيف تأثر فن العمارة في مصر، بعد فترة انتقال قصيرة، بفن العمارة العثماني، وهذا هو السبب في أننا نجد بعض المساجد من هذا العصر مبنية على نسق جامع (أيا صوفيا) باستانبول في تخطيطه وبعض زخارفه. ومن أكبر مباني هذا العصر جوامع حاير بك وسليمان باشا والملكة صفية وغيرها وكذلك بيت جمال الدين الذهبي وبيت السحيمي، وأخيراً بيت الكريدلية الذي اتخذه اللواء جاير أندرسون باشا في السنوات الأخيرة مقراً لسكناه، وكون لنفسه فيه مجموعة كبيرة من التحف أهداها عند سفره إلى إنجلترا - للحكومة المصرية، لتبقى في هذا البيت كمتحف باسمه تابعاً لدار الآثار العربية

ولكن، يا سيدتي الفاضلة! إن هذا البلد الحبيب إليك له عليك حق آخر، وواجب أنت مدينة له به. وإني أتقدم إليك اليوم على صفحات (الرسالة) لأطلب منك أن تقومي بأداء هذا الواجب، فيحفظ لك هذا البلد الأمين ذكرى خالدة تبقى إلى جانب ما ألَّفت من كتب وأبحاث. لقد قضيت في مصر وقتاً هو بمثابة انتقال بين القديم والجديد، فهلا دوَّنت ذكرياتك ومشاهداتك وتجاريبك، لتبقى لمؤرخي هذا العصر يجدون فيها رأياً حراً لشخص أجنبي جاء إلى هذا البلد وأحبَّه وعاش فيه وساهم في نهضته الوطنية والثقافية؟ لقد عشت حوالي أربعين سنة في مصر، كنت في خلالها على صلة وثيقة بكبراء البلاد وعظمائها ومن وفدوا عليها من رجالات البلاد الأخرى، وكنت موضع احترام الكبير والصغير. وهذه - كما تعلمين - حقبة من الزمن طويلة في تاريخ مصر الحديث، لا شك أنك تتبعت في أثنائها حوادث النهضة الوطنية التي كان لها أكبر الأثر في تغيير مجرى التاريخ. ثم شاهدت عصر النهضة الثقافية في عهد المغفور له الملك فؤاد الأول، وما كان له من أياد كريمة في نشر الثقافة والعلوم وإنشاء المعاهد المختلفة في أنحاء البلاد. وهاأنت ذا تحضرين عهد ابنه الملك المفدَّى (فاروق الأول) حفظه الله، وتشاهدين أعمال الإنشاء والإصلاح والتجديد

أيتها السيدة الفاضلة: بالله عليك، تكلمي وحدثينا، هل كان الأجدر بنا أن نبقى على القديم. . . وهل نحن أفلحنا في الانتقال من القديم إلى الجديد؟. . . وهل نحن حقاً في بداية عصر جميل جديد؟. . . أم لا تزال هناك بعض الشوائب علقت بهذا الجديد فشوهت جماله؟

لا شك أننا قد خطونا في تقدمنا نحو الجديد بخطى واسعة وأنه قد آن لنا أن نحد من سرعة هذا التقدم، فنعمل على تقوية أخلاقنا وتقويمها ونشجع البحث العلمي الصحيح ونشر الآداب والعلوم على شرط أن نعاقب على السرقات الأدبية والعلمية، ونطهر مصالحنا العامة من (أدوات الحكم) الماضي. حقاً سيدتي! إنني أعرف رئيساً في

مصلحة حكومية، يحكم فيها - بدون لائحة داخلية أم نظام للعمل - حكما دكتاتورياً، في وقت تحارب فيه الدكتاتورية، ويفخر بأن له 32 سنة خدمة في هذه المصلحة، مع أنه لم يحصل في أثناء هذه المدة الطويلة على شهادة دراسية من أي نوع كان، ولم يؤلف خلالها أي بحث علمي أو مقال صغير، بالرغم من أن هذه المصلحة يجب أن تكون في صفوف المعاهد العلمية الراقية. ولي صديق عزيز طبع في كل شيء على نقيض هذا (الرئيس)؛ فهو متعلم وله أبحاث علمية وذو خلق قويم مع عفة نفس وشهامة وترفع عن إيذاء مرءوسيه. وشاء حظ هذا الصديق أن يشتغل في هذه المصلحة؛ فما قولك يا سيدتي في أن هذا (الرئيس) يغار من صديقي ويحاول أن يحقر من شأنه ويحول دون مواصلته أبحاثه العلمية ولا يدع له أي مجال لإظهار كفاءته ومقدرته على العمل، ولا يراعي في ذلك الصالح العام. وقد بلغ السفه بهذا (الرئيس) أن سب مصور هذه المصلحة ورماه بالسخف لأنه التقط صورة صديقي إلى جانب كبير من أكبر كبراء البلد! مع أن صديقي قام بالواجب نحو هذا الكبير ولم يشعره بكثرة تغيب الرئيس عن أعمال مصلحته وعدم محافظته على مواعيد العمل بها

هذه يا سيدتي الفاضلة حالة تكاد تكون فردية. أرجو ألا يكون لها أو لأمثالها أي اعتبار لديك إذا تفضلت ودونت مذكراتك عن مصر. وإنني أرى أن نهدم هذه البقية الباقية من فترة الانتقال هدماً لا قيام لها من بعده، قبل أن نتابع طريقنا نحو الجديد الجميل!. . .

محمد مصطفى

مساعد في دار الآثار العربية

معركة الآزور

للشاعر الإنجليزي ألفريد تيسون

بقلم الأستاذ محمود عزت عرفة

(بقية ما نشر في العدد الماضي من ترجمة القصيدة)

وفيما كانت (سان فيليب) تشرف علينا من موضعها هذا إشراف السحابة التي توشك أن تنقض بصواعقها في تواتر وعنف، كانت أربعة من الغلايين الإسبانية قد انحازت عن الأسطول جانباً، فاستقر اثنان منها على يسار سفينتنا واثنان منها على يمينها، ثم انثالت قذائف الدمار علينا منها جميعاً. ولكن سرعان ما تبينت سان فيليب حرج موقفها فارتدت مبهورة، وفي جوفها ما يقض ويرمض. . . ثم انحدرت إلى سفينتنا عُصب من سائر السفن تقاتلنا يداً بيد. اثنتي عشرة مرة يقتحمون صفوفنا برماحهم وقذافاتهم، واثنتي عشر مرة ننفضهم عنا كما ينفض الكلب الواثب من الماء أذنيه البليلتين

أخيراً يقل وجه النهار وتوارت الشمس بالحجاب، ثم طلعت نجوم الليل فوق . . . صفحة المحيط الدافئ؛ ولكن المعركة القائمة بين سفينة واحدة وثلاث وخمسين لم تكف لحظة. . . فقد كانت (غلايينهم) السامقة تنساب إلينا سفيناً بعد سفين، على مدى فترة الليل الطويل، فتقذفنا بجاحم من متسعَر نارها ومتأجج حممها؛ ولكنها ما ترتد إلا وقد تخضبت بدم قتلاها وتجللت بسواد فضيحتها وعارها. لقد ابتلع اليم فريقاً منها، ومزقت قذائفنا فريقاً آخر لم يعد يملك معه للنضال سبيلاً. فيا لها من موقعة عجب، لم تقع عين لها من قبل على شبيه!!

كانت سفينتنا لا تزيد على حطام متناثر عند ما راح قائدنا يهتف في قوة: ناضلوا، ناضلوا! وما كادت تولى بُهْرة هذا الليل المتقاصر حتى أصيب بجراحة غادر من أجلها ظهر السفينة إلى حيث يضمَّد له. . . ولكن قذيفة أخرى مسددة شقت طريقها إلى طبيبه الذي يقوم عليه فخر في موضعه صريعاً، وأصيب هو بجراح أخرى في جنبه وفي شواه، فما كان إلا أن هتف مكرراً دعوته: ناضلوا، ناضلوا!

انحسر نقاب الظلام، وذر قرن الشمس على الأفق البعيد، ورأينا الأسطول الإسباني بدعائمه المنهارة قد أحصر بنا من كل وجهة، وطوقنا في دائرة تامة. ولكن سفينة واحدة لم

تجرؤ على معاودة نزالنا، كأنما قد خشوا أن يكون في نكزنا فضل من حُمة! فانحازوا إلى ناحية منا يتوكّفون مغبة هذا النضال الرائع. ولم نكن قد قاتلناهم عبثاً، ولكن حالتنا كانت بالغة الخطورة، إذ أودى من رجالنا المائة أربعون في محتدم هذا الصراع اليائس؛ وأصيب شطر الباقين بما آفَهُم وأقعدهم عن التصرف مدى الحياة. أما مرضانا في قاع

. . .السفين فقد مُنوا من نفحات البرد بما يبَّس أعضاءهم وشلَّ قواهم
وهوت الرماح من أيدينا جميعاً بين متقصَد ومنآد، ونفدت كل ذخيرتنا من القذائف
والمتفجرات، وامتلأت جنبات السفينة بكل شراع مقدود وقلَس مبتوت؛ ولكن السير
رتشارد راح يتحدث إلينا في كبريائه الإنجليزية فقال:
أيها الرفاق، لقد اضطلعنا طوال يوم وليلة بحرب لن يكون مثلها أبداً، وربحنا من المجد
وكرم الذكرى ما أناف بنا على اليفاع؛ وسنودع الحياة في يوم قريب أو بعيد، على
نجوة هذا الشاطئ أو في أثباج هذا اليم، فهل نبالي متى يكون ذلك أو كيف يكون؟ ألا
أغرق لنا السفينة يا سيدي المدفعي! أغرقها!! أجعلها شطرين. . . ولنقع بين يدي الله
ولا نقع في أيدي الإسبانيين!
وأجاب المدفعي الباسل: أجل، أجل. . . ولكن البحارة اعترضوا قائلين: إن لدينا أطفالاً
وخلفنا زوجات، وها قد حفظ الله علينا حياتنا، فلنستوثق من الإسبانيين بعهد على أن
نحاجزهم فيخلوا سَربنا، لأن من الخير أن نعيش الآن حتى نعود إلى قتالهم في مؤتنف
الأيام، فنكيل لهم الطعن خِلاجاً والضرب هَذاذَيْك. . . وهكذا ألقوا السلَم إلى أعدائهم
بينما اضطجع القائد الباسل يودع حياته ويجود بآخر أنفاسه
وحملته ثلة من الأسبان المتغطرفين إلى سفينة قائدهم فأضجعوه إلى جانب
الدَقل. . . وأقبل عليه القوم يزكّون عمله بلهجتهم الأجنبية المتطرفة، ويشيدون
ببطولته على مرأى منه ومسمع؛ فما كان إلا أن نهض بينهم وهو يصيح قائلاً: لقد
حاربت في سبيل ملكتي وبلادي كما يحارب الرجل الشجاع المحق. . . لم أزد على أن
أديت واجبي كاملاً كما ينبغي أن يؤديه رجل. . . وهاأنا، سير رتشارد جرانفيل، أموت
وملء نفسي الغبطة والاطمئنان
ثم سقط في موضعه يكيد بنفسه حتى صفرت منه الوطاب
وحدقوا بأبصارهم في وجه الصريع الذي تجسمت فيه الشجاعة وصدق البلاء، الذي
طامن
من نخوة أسبانيا، وطأطأ من إشرافها بما تحدى به أسطولها الضخم من فلك صغير
وشرذمة من الرجال قلائل. . . أشيطاناً كان هذا أم إنساناً؟. . . لقد كان الشيطان
بعينه من أية وجهة نظروا إليه. على أنهم احتفلوا بإيداع جثمانه اليم احتفالاً ملؤه التجلة
والتكريم. ثم احتلوا: (الانتقام) بشرذمة من بحارتهم ذوي السحن الغريبة والوجوه
السمراء. واستأنفت السفينة رحلتها في رفقة ضحاياها، وهي تكابد غصص الآلام من
مواجعها الخاصة غب المعركة الرهيبة
وما أسرع ما نهضت الرياح من غفوتها، وهبت عليهم بحفلات من قبَل الأرض التي
اعتبدوا أهلها وعاثوا في أرجامها مفسدين
وبدأ اليم يرغي ويزبد والسماء تئن وتزمجر، فما أسدل الليل ستوره إلا والقواصف
العاتية تجتاح البحر من كل جهة؛ والموج يتدفع حول السفن كأنما تركه أيدي الزلازل،
ويتدفق على جوانبها وأشرعتها، فلا ينحسر منها إلا عن دوقل مصدوع أو علم منزوع
ثم استجمع البحر قواه وعطف على الأسطول الذي أوهنت من تجلده القذائف فلفه
في أحضانه
أما سفينتنا (الانتقام) فقد غاصت بدورها إلى جانب إحدى الرضام القوابع تحت الماء،
مودعة حياتها إلى الأبد في أعماق هذا الخضم الجياش.
(جرجا)
محمود عزت عرفة
البَريدُ الأدَبيّ
اقتراح مقدم إلى المجمع اللغوي في ضبط الخلاف بين العربية
والعامية
قدم بعض أساتذة كلية اللغة العربية اقتراحاً برأي جديد يرمي إلى تقريب الخلاف بين
العربية والعامية، وإرجاعه إلى أصول ثابتة، وقواعد مضبوطة، تكون فيها العربية عربية
بمقتضى هذه الأصول، وتكون العامية عامية بمقتضى هذه القواعد، فلا يشتبه أمر ذلك
على أحد، ولا يكون فيه أثر لتعنت أو تحكم
والأصول التي يجب أن يرجع إليها في ذلك هي الأصول النحوية والصرفية والبلاغية؛
فكل كلمة لا تخالف شيئاً من هذه الأصول تكون عربية مقبولة، وكل كلمة لا توافق

شيئاً من هذه الأصول تكون عامية غير مقبولة؛ وبهذا يكون قول العامة عباية في عباءة غير صحيح ولا مقبول، لأنه لا يجري على قاعدة الصرف في قلب الهمزة ياء، وكذلك قولهم توب بالتاء المثلثة، وقولهم جعر بالعين في جأر بالهمزة، وهكذا. ويكون قول العامة تِرْمس بكسر التاء والميم صحيحاً، لأنه لم يخرج عن أوزان الاسم الرباعي، وكذلك قولهم حُصان بضم الحاء، وقولهم معدن بفتح الدال، لأن هذا كله لا يخالف قاعدة من قواعد العربية ولا يؤثر بشيء في صميم اللغة ولا دليل على فساده عندهم إلا أن أئمة اللغة لم ينصوا عليه في كتبهم، مع أن حكم أئمة اللغة في لك قائم على الاستقرار الناقص، لأن لغة العرب من السعة بحيث لا يحيط بها إلا الله تعالى، والاستقرار الناقص لا يفيد العلم كما هو ثابت في علم المنطق.

(. . .)

جائزة فاروق الأول في مباراة الشعر والقصة

اجتمعت لجنة الأدب مجمع فؤاد الأول للغة العربية ونظرت في الجائزة التي خصصتها السيدة هدى هانم شعراوي وقدرها مائة جنيه مصري لإقامة مباراة سنوية باسم (جائزة فاروق الأول للشعر العربي والقصة المصرية) على أن توزع الجوائز كما يلي: 40 جنيهاً للفائز الأول في القصة المصرية، و20 جنيهاً للفائز الثاني فيها، و25 جنيهاً للفائز الأول

في مباراة الشعر العربي، و15 جنيهاً للفائز الثاني فيه، على أن تكون المباراة بإشراف المجمع اللغوي

وقد قررت اللجنة أن تكون القصة باللغة العربية الفصحى، وأن تكون مبتكرة لم يسبق نشرها، وان تعرض صورة من صور الحياة المصرية العصرية، وألا يقل عن ستين صفحة؛ وأن يكون آخر موعد لقبول الاشتراك في هذه المباراة أول نوفمبر سنة 1943 كذلك اشترطت في نظم القصيدة المقررة للمسابقة أن تكون في أحد الموضوعين الآتيين: حياة الريف المصري - فصول السنة في مصر، وأن تكون مبتكرة لم يسبق نشرها، وألا تقل عن أربعين بيتاً. وآخر موعد لقبول الاشتراك فيها أول سبتمبر سنة 1943، وللمتبارين أن يذكروا أسمائهم أو أن يختاروا أسماء مستعارة والمحكمون هم أعضاء لجنة الأدب وترسل القصص والقصائد إلى كاتب اللجنة بالمجمع.

حول مسقط رأس السيد جمال الدين

ذكر الأستاذ محمد عبد الغفار الهاشمي الأفغاني أن السيد جمال الدين ولد في قرية (أسد أباد) لا (أسعد أباد). وقد استطعت من البحث أن أقف على ما يأتي:

1 - جاء في دائرة المعارف للبستاني: أسد آباذ مدينة بينها وبين همذان مرحلة واحدة نحو العراق، وبينها وبين مطبخ كسرى ثلاثة فراسخ وإلى قصر اللصوص أربعة فراسخ. ذكرها ياقوت وقال عمرها أسد بن ذي السرو الحميري في اجتيازه مع تبّع. . . وأسد أباذ أيضاً قرية من أعمال بيهق ثم من نواحي نيسابور أنشأها أسد بن عبد الله القسري سنة 120 هجرية لما كان على خراسان من قبل أخيه خالد في أيام هشام بن عبد الملك

2 - وجاء في دائرة المعارف الإسلامية (المجلد الثاني ص103 ما نصه: (أسد أباذ): مدينة في بلاد الجبل (ميديا) على بعد بضعة فراسخ أو مسيرة يوم إلى الغرب من همذان، وهي واقعة على المنحدر لجبل أروند عند مدخل سهل خصب مزروع يبلغ ارتفاعه نحو 5659 قدماً. وكانت أسد أباذ في عهد العرب إبان العصور الوسطى وفي عهد المغل (كذا) كذلك مدينة زاهرة كثيرة السكان بها أسواق عامرة. وأسد آباذ اليوم بلدة جميلة بها نحو مائتي منزل (كما يسكن بعضها أسر يهودية. ويسمى الفرس هذه البلدة (كما يروي بعض الرحالة الأوربيين، (أبسد آباذ) وكذلك (سعيد آباذ) أو (سهد آباذ) الخ. . .

ولقد حاولت أن أوفق بين ما قاله الأستاذ وما ورد في الدائرتين المذكورتين فلم أوفق؛ فبينما هي - كما ذكر - قرية خربة لم يبق منها إلا الأثر إذ هي في دائرة المعارف الإسلامية مدينة زاهرة أو بلدة جميلة

لذلك آثرت أن أقف عند هذا الحد، وأن أدع لقراء الرسالة فرصة البحث عن مسقط رأس أبي النهضة الشرقية.

محمود شلبي

حول (معركة الآزور)
نشر الأستاذ محمود عزت عرفة ترجمة جزء من قصيدة لشاعر الإنجليز (تنسون) وقد راعنا من الأستاذ تصرفه في الترجمة تصرفاً شديداً لا تدعو إليه ضرورة، وإغراقه في المجازات والاستعارات والتشبيهات مما لا وجود له في أصل القصيدة ولا قبل له باحتماله، وتعسفه في تصيد الكلمات الغريبة.
وقد جاءت ترجمة الأستاذ أطول من الأصل كثيراً لكثرة ما زاد عليه من حشو وذيول.
قال الأستاذ: (كان السير رتشارد جرانفل مرفئاً بسفينته إلى جدة من جدد شاطئ الفلورز إحدى جزر الخالدات، عندما أقبل زورق ذو مجاذيف يهوي من بعيد كأنه الطائر يزف بجناحيه. وارتفع صوت من داخله يقول: السفن الحربية الإسبانية تمخر العباب. . . لقد رأينا منها ثلاثاً وخمسين). فإذا رجعنا إلى الأصل وجدناه هكذا:
, , ' ,
وترجمته: بينما كان السير رتشارد جرنفل عند فلورز في الجزر الخالدات إذ أقبل من بعيد زورق حربي يخفق خفقان الطائر: (السفن الحربية الإسبانية في اليم لقد رأينا منها ثلاثاً وخمسين!)
ويقول الأستاذ: (وهكذا انسحب لورد هوارد بخمس من السفن الحربية في ذلك اليوم، وانطلق موغلاً في اليوم حتى ذاب كما تذوب السحابة في صفحة الأفق الغارق في الصمت
(المتشح بالدفء والسكون
ففي أي مكان من الأصل تقع هذه المجازات والاستعارات وهو:
,
;
وترجمة: (ابتعد لورد هوارد في خمس سفن حربية، حتى تلاشى تلاشى سحابة في سماء صيفية ساكنة)
وشر من ذلك في الحذلقة قول الأستاذ: (نحن جميعاً من أبناء إنجلترا الأنجاد وفتيانها المصاليت؛ فدعونا نسدد الطعن وخضاً إلى هذه الكلاب (الإشبيلية) الخواسئ أبناء الأبالسة ونسل الشياطين. والأصل:
. . . ,
,
وترجمته: (نحن جميعاً إنجليز كرام؛ فهيا بنا نضرب هؤلاء الكلاب الأشبيليين، أبناء الشياطين) فأين من هذا (المصاليت والطعن الوخض). ومثله قوله: (نطق السير رتشارد بهذا، ثم افتر فمه عن ابتسامة ساخرة فانفجرنا جميعاً نهتف في صوت مدو: مرحى، مرحى!. . . وهكذا صمدت (الانتقام) صمد عدوها دون محاشاة، وعلى ظهرها مائة مقاتل، وفي جوفها تسعون مريضاً قد أداءتهم العلل وبرحت بهم الأسقام) والأصل:
' , ' ,
, , ;
وترجمته: (نطق السير رتشارد بهذا ضاحكاً فزأرنا مرحى مرحى، واندفعت (الانتقام) الصغيرة خفيفة إلى قلب العدو وعلى ظهرها مائة مقاتل تحتهم تسعون مريضاً)
ومثل ذلك في الأغراب قوله: (بجدت في موضعها لا تريم) و (أغر دعن لقائهم) و (الحاملة جماء ألف من الأطنان وخمسمائة) ويقول الأستاذ (ألوفاً آخرين من بحارتهم يسخرون من المركب الصغير الذي ركب فيما زعموا متن الغرر، وأقحم نفسه بلقائهم المتالف) والأصل:
وترجمته: (ألوف من بحارتهم سخروا من المركب الصغير الأخرق)
هذا، ولم يترجم الأستاذ غير ثلث القصيدة فشغل نحو صفحة من الرسالة، وكان يمكن ألا يشغل إلا نصفها إذ الأصل طولا كذلك.
(سمالوط)
محمد خليفة التونسي
هل ذلك من نوادر الخواطر؟
وقع في يدي منذ أيام كتاب بعنوان (مصر قي قيصرية الإسكندر المقدوني)، وهو من

الكتب التي تعد حديثة، وكاتبه هو الأستاذ إسماعيل مظهر، فوجدته ترجمة حرفية للفصل الأول من كتاب:
ولم يأت الكتاب بشيء من عنده اللهم إلا بعنوان كتابه هذا، وحتى هذا العنوان إذا راعينا الدقة العلمية نجد فيه خطأ، فكلمة قيصرية هذه لم تعرف إلا منذ عهد يوليوس قيصر - نسبة لاسمه - فكيف ينسبها الأستاذ مظهر إلى الإسكندر المقدوني الذي سبق قيصر بنحو ثلاثة قرون.
مختار العبادي
(طالب بكلية الأداب - جامعة فاروق
ديوان أغاني البحيرة
دفقات من السنا الفتان
وانطلاق النشيد من فنان
ونقاء الضمير من روحاني
صاغها شاعر نديّ المعاني
لم يزل كالربيع في الريعان
عبد الحسن؛ حسن تلك المغاني
بين موج سعى إلى الشطآن
ونسيم سرى إلى الوديان
فأذاب الفؤاد في الألحان
فوق ثغر البحيرة الوسنان
حسين محمود الشبيشي
لاتينية وليست فرنسية (كرنا)
كتب الأستاذ زكي مبارك في مقال له بالرسالة أن (كرنات) منقولة عن الكلمة الفرنسية أي التيجان، وفي الواقع لم تعرف مصر هذه الكلمة عن الفرنسيين، بل عرفتها منذ حكم روما لمصر، إذ أن كلمة (كرنات) لاتينية في الأصل، ونقلتها فرنسا، كما تداولها أهل مصر، وكان الرومان قد اعتادوا في الحفلات أن يزينوا رؤوسهم بأكاليل عبارة عن غصون من شجر الزيتون، على شكل تاج يطلقون عليها اسم وهذه هي الكلمة التي أرادها الدكتور مبارك ونسبها إلى اللغة الفرنسية، وقد أبان عن اغتباطه بنسبة هذه الكلمة للأدب الفرنسي، ولعله يغتبط أكثر عندما يعرف أنها لاتينية، كثيراً ما ذكرها شعراء الرومان الغزليون والخمريون، مثل كاتولوس وغيره من شعراء روما القدماء.
صموئيل كامل عبد السيد
بالدراسات اليونانية والرومانية - كلية الآداب
العدد 512 - بتاريخ: 26 - 04 - 1943
دفاع عن البلاغة - 9
الأسلوب
لعل ما عرضته عليك من إجمال القول في البلاغة كان توطئة لتفصيل الكلام في الأسلوب. ذلك لأن الأسلوب هو مظهر الهندسة الروحية لهذه الملكة النفسية، يبرزها للعيان، ويصل بينها وبين الأذهان، وينقل أثرها المضمر إلى الأغراض المختلفة والغايات البعيدة. وكتب البلاغة في لغتنا لم تُعن إلا بالجمل ومل يعرض لها في علم المعاني، وإلا بالصور وما يتنوع منها في علم البيان؛ أما الأسلوب من حيث هو فكرة وصورة معاً فقد سكتت عنه سكوت الجاهل به. وكان الظن بمن خلفوا عبد القاهر وأبا هلال وابن الأثير أن يفطنوا إليه بعد ما دلوهم عليه بذكرهم بعض خصائصه الفنية وصفاته اللفظية، وإن كان ما ذكروه من ذلك جاء فطيراً لم يختمر، وخديجاً لم يكتمل، وشائعاً لم يحدد، ومشوشاً لم يرتب؛ ولكنهم صُّموا عن تنبيه العسكري، وعموا عن توجيه الجرجاني، ومضوا على نحائزهم الأعجمية يفلسفون النحو والبلاغة لا لشيء غير الفهاهة والحذلقة. والأسلوب كما قال لهم ابن خلدون في مقدمته: (لا يرجع إلى الكلام باعتبار إفادته أصل المعنى الذي هو

وظيفة الإعراب، ولا باعتبار إفادته كمال المعنى من خواص التركيب الذي هو وظيفة البلاغة والبيان. . . وإنما يرجع إلى صورة ذهنية للتراكيب. . . وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ويصيِّرها في الخيال كالقالب والمنوال، ثم ينتقي التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الإعراب والبيان فيرصها فيه رصًّا كما يفعله البناء في القالب والنساج في المنوال حتى يتسع بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام، ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربي فيه، فإن لكل فن من الكلام أساليب تختص به وتوجد فيه على أنحاء مختلفة. . .) لذلك حسب المدفوعون بطبائعهم عن موارد البلاغة من طول ما ثرثروا حول الجمل والصور في عصور العجمة، أن الأسلوب سرد ألفاظ لا تسفر عن معنى، وحشد أسجاع لا تؤدي إلى غرض

إذن ما هو الأسلوب؟ الأسلوب هو طريقة الكاتب أو الشاعر الخاصة في اختيار الألفاظ وتأليف الكلام. وهذه الطريقة فضلاً عن اختلافها في الكتَّاب والشعراء تختلف في الكاتب أو الشاعر نفسه باختلاف الفن الذي يعالجه، والموضوع الذي يكتبه، والشخص الذي يتكلم بلسانه أو يتكلم عنه. ولكن الأساليب مهما اختلفت باختلاف الأفراد، وتنوعت بتنوع الأغراض، فإنها تتسم جميعاً بسمات واحدة من عبقرية الأمة. ومنطق ذلك أن الصفات المشتركة في آحاد الأمة تتلاقى وتتجمع فتكوِّن خصائصها التي تميِّزها من سواها. وهذه الخصائص نفسها تنطبع في لغتها فتكون طرازاً عاماً في كل أسلوب وعلى قدر ما تكون هذه الخصائص في الأمة تكون قابلية الأساليب فيها للاختلاف. فالصفات القومية في الأمة العربية كانت في جاهليتها شديدة الظهور والعموم حتى لم يكن بين صفات الفرد وصفات الجماعة إلا فروق لا تكاد تلحظ. ومن ثم تشابهت أساليب الشعر والخطابة في ذلك العصر فلا تستبين فروقها الدقيقة إلا للناقد البصير. ومن اختلف أسلوبه من الشعراء الجاهليين فقد اختلف لتغلب صفاته الخاصة، كأمية بن أبي الصلت وعدي بن زيد. فلما جاء الإسلام أخذت هذه الفروق تتضح وتتباين حتى بلغت غايتها من ذلك في العصر العباسي حين صارت اللغة العربية لغة الإسلام، والأدب العربي أدب الشرق

والفنان العبقري هو وحده الذي يستطيع أن يغلِّب صفاته الخاصة على صفات قومه العامة فيتميز طابعه ويستقل أسلوبه. أما العاديون والمقلدون من حملة الرواسم وحفظة التعابير

فتظل أساليبهم نسخاً منقولة عن الأصول العامة الموروثة لا يختلف بعضها عن بعض إلا بمقدار ما تختلف رسائل التجار وكتب الدواوين

وبهذه الصفات القومية العامة تميزت لغة من لغة، واختلف أدب عن أدب؛ فاللغات الشرقية في جملتها تتميز من الغربية بالزخرف والأبهة والانتفاخ والتبجيل والتهويل والصوفية؛ لأن شعوبها صبغوها بهذه الأصباغ من صفاتهم الخاصة. والفروق المعروفة بين الفرنسية في وضوحها ودقتها، وبين الإيطالية في رخاوتها ورقتها، وبين الإنجليزية في خشونتها وقوتها، هي نفسها الفروق بين أصحاب هذه الأمم الثلاث في أصل الجبلَّة وموروث الطبع

وكما تؤثر صفات الأمة في طبيعة اللغة، تؤثر طبيعة اللغة في أسلوب الكاتب؛ فاللغات التي اكتسبت من مدنية أهلها رقة اللفظ وأناقة العبارة، ومن شاعريتهم جمال الصور وروعة الأخيلة، تغنى الكاتب بموسيقاها وحلاها عن كد القريحة في ابتكار المعاني واستنباط الفكر. أما اللغات التي لم تؤتها الطبيعة حظاً موفوراً من سحر اللفظ وفتون الصياغة، فكتابها مضطرون إلى أن يعوضوا أساليبهم من ذلك، وجازة التعبير، ووزانة التفكير، ومدَّ القارئ بفيض من المعاني يشغله عن الفكر فيما فاته من جمال الأسلوب

واللغة العربية من النوع الأول، طبعها أهلها منذ القدم على موسقة الألفاظ، وتنويع المعاني بصور البيان، وتفويف الجمل بألوان البديع، لا فرق في ذلك بين بداوتها وحضارتها، ولا بين فصحاها وعاميتها، حتى اطمأن كثير من رجال القلم إلى أن يُعفوا طباعهم من جهد التفكير ويحاولوا امتلاك القلوب بروعة الأسلوب، فكانت المقالة أو القصيدة أشبه بالقطعة الموسيقية تخلب الأذن ولا يبلغ النفس والذهن منها غير رجع

ضعيف. ومن هنا قرَّ في أكثر النفوس أن الأسلوب إنما يطلق على الجانب اللفظي من الكلام، حتى قال الأستاذ الرافعي طيب الله ذكره: (فصل ما بين العالم والأديب، أن العالم فكرة، والأديب فكرة وأسلوبها) ففصل بين الفكرة والأسلوب، واعترف بالأسلوب للأديب وأنكره للعالم. ولعلّي أوفق إلى تصحيح هذا الرأي فيما يلي من هذا الحديث.

(للكلام بقية)

احمد حسن الزيات

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

بلاء الناس بالناس - ملك الشط والفراتين - زيارة سياسية

بلاء الناس بالناس

تمرّ بنا لحظات كدر وغيظ لا يخلقها غير بلاء الناس بالناس. . . نعم، تمرّ بنا لحظات نحسد فيها سكان المغاور والكهوف، ونتمنى عيش العزلة إلى آخر الزمان

هذه الحرب صنعت ما صنعت بالأرزاق والأقوات، ولم تترك بيتاً بلا متاعب معاشية، فهل تأدب الناس وتذكروا أنهم يعيشون في أعوام حرب؟ وهل تقع العيون على ناس تشهد ملابسهم بأنهم يعانون أزمات الحرب؟

قيل أن المال كثر وفاض، فعند من كثر المال وفاض؟ لم يكثر إلا عند التجار. وكثرة المال عند التجار مفسدة معاشية لا يدرك خطرها إلا الأقلون، وهي ناشئة عن بلاء الناس بالناس. . . ولكن كيف؟

الموظف المحدود الراتب، والمالك المحدود الإيراد، لا يريد هذا أو ذاك أن يقال إن حياته تعرضت لمتاعب الغلاء، فهو كما كان يعيش في أيام الرخاء، وإن كلفه ذلك غمّ القلب وهموم الديون

ما هذه الملابس الجديدة في زمن ليس فيه جديد غير دماء القتال؟ وما هذه العطور والمساحيق والأزياء في أيام لا يتعطر فيها الجو بغير جثث المحاربين؟

لو راعى الناس أنهم يعيشون في زمن حرب فخففوا من بعض المطالب لاعتدلت أسعار الحاجيات وانقشع كرب الغلاء، ولكنهم لجهلهم يأبون الاعتراف بمكاره الحرب، ويصروّن على الظهور بمظهر الوجاهة في كل مجتمع وفي كل ناد

هل عندك أبناء وبنات يتعلمون في المدارس؟

لك الله، إن كان هذا حالك، فلن تستطيع أن تقنع ابنك أو بنتك بأن الدنيا في حرب وكرب، لأن هذا الإقناع لن يتيسر إلا إذا عُقد مؤتمر من آباء التلاميذ يقررون فيه الاستغناء عن الفضول في الملابس والأزياء، ولن يُعقد المؤتمر المنشود إلا إذا وجد في آباء التلاميذ من يجرؤ على القول بأن أعوام الحرب صيرته خفيف الجيب!

وآه ثم آه من بلاء الناس بالناس!

قَدِمَ مندوب المتجر الفلاني إلى المدرسة الفلانية وأخذ مقاس جميع التلميذات بدون استئذان ليعدّ لهن أثواب الصيف، وهو موقن بأن لن يكون في مقدور تلميذة أن ترفض ثوبها (يوم الحساب) لئلا يقال إن أباها من الفقراء!

فما شأن المتجر الفلاني بالمدرسة الفلانية؟

وما الذي يوجب أن تكون ملابس جميع التلميذات كأسنان المشط في اللون والاستواء. وقد نوّع الله الوجوه والملامح أغرب التنويع؟

أفي مثل هذه الأيام نعرف الفروق بين ملابس الصيف وملابس الشتاء؟

كان الظن أن يعرف نظار وناظرات بعض المدارس أن في الآباء من لم يستفد من فرص الحرب، كما استفاد من سيكونون طعام سقر من التجار المنهومين

وكان الظن بالأغنياء الذين يدللون أبناءهم أن يتذكروا أن لأبنائهم رفاقاً لا يملكون من الترف ما يملكون، وأن الأدب مع الله يفرض علينا أن نستر نعم الله، فلا نجأر في كل لحظة بأننا أغنياء، لنكدر عيش الفقراء

وآه ثم آه من بلاء الناس بالناس!

الظواهر لا تشغل الخلائق إلا حين يُحرمون جمال المعاني

والمفاضلة بين تلميذ وتلميذ في هذا العصر مفاضلة بين ثوب وثوب، وليست مفاضلة بين عقل وعقل، ولهذا كثرت خيبة التلاميذ النجباء!

ما لي ولهذا الكلام المزعج؟
هو كلام ساقه جزعي من العجز عن ادخار درهم واحد في مدى شهرين، بسبب الجو الذي يحيط بي وبأبنائي، جوّ الزخرف الذي يحيا فيه الأصحاب والجيران
كنت أوصي تلاميذي في مصر وفي العراق بالادخار، وكنت أقول لهم إن الادخار هو الذي منحني الفرصة لإتمام دراستي العالية في باريس، بعد توفيق الله. واليوم يصعب عليّ أن أوصي أبنائي بما كنت أوصي به تلاميذي. وكيف يسمع أبنائي ما أقول ومن حولهم خلائق عجز عن تأديبها الزمان؟
إن عدوى الترف سريعة الإيذاء، فلنحترس من شرها كل الاحتراس
وكيف نحترس وليس في الدنيا طفلٌ يعرف أن أباه لا يبخل عليه بالترف إلا ليدّخر له ما ينفع في الأيام المقبلات؟
إن أبناءنا لا يريدون أن نطمئن على سلامتهم من الوجهة الروحية، وإلا فكيف جاز أن تكثر رغبتهم في الزخارف وثقل رغبتهم في الحقائق؟
عفا الله عنهم، فهم ضحايا بلاء الناس بالناس!
إن حال الرجال من هذه الناحية مقبول، فما أذكر أني رأيت مدرساً أو مفتشاً يهتم بملابسه اهتماماً يوجب الاعتراض، وإنما الحال المزعج هو حال بعض المدرسات والمفتشات، حال الفساتين التي لا تجاوز الركبتين، حال الزينة التي تنافي وقار التعليم، وكان مهنة الأنبياء
وفي إحدى المدارس رأيت مدرِّسة ضنت على نفسها بالزينة الزخرفية، فزاد إيماني بعظمة بلادي، وأيقنت أن (ربة البيت) بخير وعافية، وأن مصر في أمان من طغيان الخسران
عندنا مدرِّسات حقاً وصدقاً، مدرسات يتحلين بالعلم لا بالزينة، وبفضل أمثال هؤلاء المدرسات سنبلغ من تعليم البنات ما نريد
المدرسات المصريات في هذا العهد يجاهدن بصدق للتغلب على السخف الذي جلبه الجانب الضعيف من المدنية الغربية، ويحاولن بصدق أن يكن مدرسات لا وصيفات
وقد صار من المألوف أن تجد مدرسات يقهرنك قهراً على بذل تحية التعظيم والتبجيل، وهي تحية أكرم وأشرف من تحية الحسن المجلوب
وأرجو أن يفهم القارئ أن كلامي هذا لا يراد به الإيحاء، فما هو إلا صدق في صدق، بعد ملاحظات ومشاهدات جعلتني من المطمئنين إلى صحة ما أقول
وأنا مع هذا منزعج مما صرنا إليه في مدارس البنات ومدارس البنين
هل عندنا مدرسة توصي تلاميذها بأن لا يكلفوا آباءهم ما لا يطاق؟
هل عندنا مدرسة تفكر في أن تكون من الأسندة للبيوت؟
التلميذ لا ينجح بتفوق إلا إذا أمدته المقادير بالدروس الخصوصية، فمتى نثق بكفاية الدروس المدرسية؟
وما قيمة المدرس الذي لا يتفتح عقل تلميذه إلا إن خاطبه لسان إلى لسان؛ بين أربعة جدران؟
أعوذ بالله من بلاء الناس بالناس!
ملك الشط والفراتين في ضيافة النيل
من مزايا مجلة (الرسالة) أنها تسكت عن الأشخاص ليكون التفاتها كله إلى المعاني، وذلك هو السر في عدم اهتمامها بالإخباريات المتصلة بالأشخاص
قلت لنفسي: ولكن في الأشخاص من يكونون رموزاً للمعاني، فما الذي يمنع من أن أقول على صفحات الرسالة: أهلاً وسهلاً ومرحباً بملك الشط والفراتين!
كانوا يسمونه الملك الطفل، فسميته الملك الشبل، جعله الله أكرم الأشبال!
و (ملك الشط والفراتين) لقبٌ جميل صاغه شاعرنا شوقي في القصيد الذي يغنيه محمد عبد الوهاب في تحية فيصل الأول. والشط هو شط العرب، والفراتان: دجلة والفرات. . . ولو كانت الأقدار سمحت بأن يزور شوقي ديار (الشط والفراتين) لجاد شعره بأطايب لا يجود بمثلها الخيال
وهل كان شوقي يشعر بقيمة المبدأ الذي رسمه حين جعل ملك العراق ملك الشط والفراتين؟
ما أغرب ما سمعت في بغداد سنة 1938

سمعت أن العراقيين دعوا (الملك فيصل الأول) إلى الاحتفاظ بالموصل في المؤتمر الذي عقدوه في (الصُّليخ)، فما الصليخ؟
هو مكان في ضواحي بغداد مرت به لحظة تاريخية. وقد زرته زيارة الطيف في ليلة شاتية لأتنسم الجو الذي قيل فيه بحضرة فيصل الأول: إن العراق لا يستغني عن الموصل بأي حال
ثم زرت الموصل الذي لا يجوز عنه الاستغناء فهالني أن أرى روحانيات مختلفات، وعز عليَّ أن يكون الموصل مما يدخل في الحساب عند تقسيم المغاني، مع أنه كان ولا يزال ولن يزال من صميم الأرومة العربية
وقد زرت الشط، شط العرب، بعد أن شهدت العراك الذي دار في مجلس النواب العراقي حول معاهدة الحدود
وأصغيت بأذنيَّ وبقلبي إلى الصوت الذي قال: من غفلة العرب أن ينسوا الأهواز، مع أنها أحق بالعطف من فلسطين
لقد نفضت يدي من السياسة بعد أن آذتني في وطني.
فكيف جاز أن ألتفت إلى السياسة يوم كنت ضيف العراق؟
هي سياسة روحية تشبه السياسة التي تساور قلبي حين أزور دمياط المصرع الذي انتهى إليه (جامع الفتح) وهو المسجد الثاني في مصر بعد مسجد عمرو بن العاص دعوت سادن جامع الفتح مرة ومرات فما أجاب؟ وأين السادن لمسجد لا تهتم به لجنة الآثار العربية ولا وزارة الأوقاف؟
ليتني صليت ركعتين على باب ذلك المسجد، وليتني تيممت بما على جدرانه من تراب!
لقد زرت في دمياط مشاهد يجهلها الدكتور علي مصطفى مشرفة ويجهلها الأستاذ عبده حسن الزيات، زرت البلد الذي تحدثت عنه في كتاب (التصوف الإسلامي) قبل أن أراه، لأرفع عن عقلي بعض ما يثقله من أوزار الجهل!
وأين من يعرف حقيقة ما أرويه في هذا الحديث؟
دمياط صورة من البصرة والبصرة صورة من دمياط
الطريق إلى هاتين المدينتين محفوف بالنخيل، وكلتاهما ملتقى للماء العذب والماء الأجاج، مع فروق أوجبها بعد البصرة من دمياط، وكلا البلدين ثغرٌ مخوف، فما يعيش العراق بدون أمان البصرة، ولا تعيش مصر بدون أمان دمياط
هذه السياسة الروحية تزلزل روحي، فلي في كل بلد آلام وآمال، وأنا أجول جولات روحية بكل ما أحب من البلاد في كل مساء، وكأنني أجول في شارع فؤاد. وهل يوجد في أية مدينة شارع له جاذبية شارع فؤاد؟
بالرغم مني أن يكون حظي من المرور بذلك الشارع شبيهاً بمرور الطيف على ديار الأحباب
شارع فؤاد هو طريقي إلى المفوضية العراقية. فهل سمح الوقت بأن أزور فخامة السيد جميل المدفعي وكان رئيس الوزراء حين كنت من الذين يتشرفون بخدمة العلم والأدب في العراق؟
المصري الصادق في خدمة وطنه لا يجد وقتاً لأداء حقوق المجاملات، لأن الشواغل عندنا تفوق الوصف، ولأن في حياتنا متاعب لا يعاني مثلها أحد في سائر البلاد العربية
إذا وفد إلى مصر زائرٌ كريم تلفت عساه يرى من يخفون لتحيته من المصريين. ثم تكون النتيجة أن لا يرى غير آحاد من الذين تسمح أوقاتهم بتحية الضيوف، فينصرف وهو متعجب من تهاون المصريين في المجاملات الإخوانية
أقول هذا لأعتذر لفخامة السيد جميل المدفعي، راجياً أن أراه في فرصة قريبة بالقاهرة أو بغداد.
زيارة سياسية!
ضاق الوقت عن التشرف بمقابلة صاحب الجلالة فيصل الثاني، وكنت أحب أن أعرف البواعث لزيارته الكريمة، فقد سمعت ناساً يقولون إنها زيارة سياسية!
نعيش إن شاء الله ويعيش فيصل الثاني إلى أن يتولى السلطة الدستورية وتُصبغ كل أسفاره بالصبغة السياسية. أما زيارة اليوم فهي زيارة ملك ناشئ لا يرى غير الورود والرياحين
وأنا مع هذا موقن بأن زيارته لمصر زيارة سياسية، فقد أبدع بروحه اللطيف جاذبية

أخوية تزيد ما بين مصر والعراق من صلات السياسة ليست مقصورة على النظر في المنافع العاجلة أو الآجلة في حيوات الشعوب، فهناك سياسة أعظم وأرفع، وهي سياسة الحب والوداد. والملك فيصل الثاني يسمع من أخبار مصر ما يسمع، ويقرأ من مؤلفات رجالها ما يقرأ، فكان من الواجب أن يراها بعينيه ليحس روحها بأوفى وأصدق ما يكون الإحساس

انتظروا قليلاً، فسترون يوماً أن هذا الملك الناشئ دوّن في مذكراته البسيطة أشياء، فمن المؤكد أن صدره فاض بالجذل والارتياح والاغتباط حين رأى أن لغة العرب لها مدينة مثل القاهرة، ومن المؤكد أنه اطمأن على مصير العروبة حين رأى أن اشتباك المصالح الدولية لم يزحزح القاهرة عن خطتها العربية

وهنا أقول إنه يجب على كل عربي أن يزور القاهرة وأن يرى ما فيها من المدارس والمعاهد والكليات

عاصمة مصر هي العاصمة الأولى في الشرق، وهي في الحضارة والمدنية أعظم من استانبول، وهي أبقى على الزمن من أخطر حواضر اليابان، فقد نجانا الله من أهوال الزلازل والبراكين، وأنعم على بلادنا بوفاء النيل، وأعاننا على كبح ما فُطر عليه من الطغيان

ومصر التي هدت الإنسانية إلى حقائق لم يعرفها الغرب إلا بعد أجيال وأجيال ستظل على الدهر وطن الابتكار والابتداع في أكثر الميادين. وهل نطق ناطق بحقيقة علمية أو أدبية أو فلسفية إلا وهو مدين لآبائنا الأولين؟

عنا أُخذ الكفر وعنا أُخذ الإيمان، فما كفر كافر ولا آمن مؤمن بدون أن يكون لنا في عقله وقلبه ديون ثقال

وهل يعرف أحد كيف كفر المصريون في طفولة التاريخ؟

لقد فكروا في محاربة السماء، ليبددوا الوهم القائل بوجود السماء، وأين السماء التي يقيم بها الله، كما كان يقال؟

مصر من صُنع الله، والله لا يصنع غير الحقائق الأزلية، وسيشقى من يشقى في محاربة مصر، ثم تبقى إلى الأبد وهي غرة في جبين الوجود

ما أسعد من يرى مصر أول مرة وهو سليم القلب والوجدان!

إن رؤية مصر في كل صباح وفي كل مساء وعلى طول السنين لم تزهدنا في مرآها الجميل، فكيف تكون الانفعالات النفسية في صدر من يراها لأول عهده بقلبها الخفاق؟ وأنا مع هذا أعاني في رحابك يا وطني ما أعاني، فمتى يخف شقائي بك وعتابي عليك؟ أنا أطلب المستحيل إن طلبت في رحابك الأمان كل الأمان، لأنه حظ الأموات، ونحن أحياء

لك يا وطني أن تبدع ما تبدع من تهاويل الحقائق والأباطيل، وعلينا أن نجاري روحك المبدع فنكون من أقطاب الشعر والبيان.

زكي مبارك

ظاهرة جديدة في الأزهر

أمثلة. . .

للأستاذ محمد محمد المدني

ذكرت في مقالي السابق أن (ظاهرة جديدة) قد ظهرت في الأزهر. تلك الظاهرة هي أحاديث الإصلاح التي كانت حول الأزهر والأزهريين قد أصبحت الآن في الأزهر وبين الأزهريين، وانتقلت من ميدان الرسالة إلى ميادين أخرى في مدرجات الكليات ومجالس الأساتذة ومكاتب الرؤساء، وأنها لم تعد آمالا يُقتصر على ترديدها، بل أهدافا يُرمى إليها، ويقاس القرب والبعد من النجاح بمقياسها.

وقد استبشرت خيراً بهذه الظاهرة لأنها تدل على أن الأزهر قد تنبه واستفاق وأخذ يتساءل عن مصيره، ولأنها تيسر التعاون المثمر بين الدعاة والمدعوين على تحقيق نهضته المرجوة، وأخيراً لأنها صوت الشعب، ولصوت الشعب في الآذان دوىً لا يستطيع أن يتجاهله المتجاهلون

استبشرت خيراً بهذه الظاهرة، وأحببت أن أسجلها على صفحات الرسالة كما هو دأبي، لأني أعتبر (الرسالة) ويعتبرها المخلصون جميعاً مجلة الإصلاح الديني والأزهري ولسان الدعوة إلى إنهاض هذا الشرق وإحياء تراثه المجيد تراث الدولة الإسلامية إبان

عظمتها وفي عنفوان شبابها، ولأني أحسب أن تاريخ هذا الجهاد الشريف سيلتمس يوماً ما من مجلداتها فلا ينبغي أن يغيب عنها شيء منه دقَّ أو جلَّ لتكون الصورة كاملة واضحة لا نقص فيها ولا غموض!

واليوم أذكر (أمثلة) لتلك الظاهرة التي وصفت. أمثلة يعرفها كثير من الناس في الأزهر وفي غير الأزهر. ولست أقول: ماذا أذكر منها وماذا أدع، لأنها لم تعد سراً تنطوي عليه الجوانح، وتغلَّق دونه الأبواب؛ ولكن أقول: ماذا أقدم منها وماذا أؤخر؛ لأنها جميعاً أمثلة جديرة بأن تتقدم وبأن يلتفت الناس إليها، ويتفهموا مغزاها، ويدركوا عواقبها. وربما كان من الرأي أن ندع الآن جهود الطلاب ونشاطهم الذي لا يكل في المناداة بتنفيذ خطة الإصلاح، وما يعقدونه ويدعون إليه في مدرجاتهم من اجتماعات أسبوعية يخطبون فيها ويتناظرون، وما يكتبونه من رسائل مفعمة بحماسة الشباب وحرارة الإخلاص يتوجهون بها إلى أساتذتهم ورؤسائهم، وما يبعثون من وفود إلى ولاة الأمور في الحين بعد الحين، لا هاتفة بالمال، ولا ملتمسة الرزق، ولكن هاتفة بالإصلاح راغبة في العلم النافع الذي يصل الأزهر بالحياة. ربما كان من الأوفق أن نترك هذا ونحوه الآن، وأن نلتمس ما نريد من الأمثلة في محيط غير هذا المحيط ليعلم الناس أي مدى بلغته دعوة الإصلاح. وإنا لفاعلون:

(1) قالوا: إن طائفة من أبناء الأزهر المخلصين، فيهم شيخ كبير يشغل منصباً هاماً من مناصب الدولة، وله صلة وثيقة بالأزهر، وفيهم وكيل لإحدى الكليات الأزهرية معروف بإخلاصه وغيرته وصداقته لفضيلة الأستاذ الأكبر، وفيهم شاب مثقف بالثقافة الإنجليزية إلى جانب ثقافته الأزهرية - ضم هذه الطائفة مجلس مع فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي، وكان مجلساً صافياً مباركاً: فكروا فيه في الأزهر، وذكروا ما آلت إليه أحوال الدراسة وشئون العلم في معاهده وكلياته وتخصصاته، واستعادوا ذكريات ماضية ما زال الناس يذكرونها لفضيلة الأستاذ الأكبر، وقيل لفضيلته في هذا المجلس: إن الناس ينتظرون منه أن يعيد عهد المراغي الذي كان على رأس الأزهر في سنة 1928. ينتظرون منه أن يعيد عهد المراغي القوي الجريء الذي كان يكتسح العقاب، ولا يعبأ بالصعاب، ويغار على فكرته الإصلاحية ويدافع عنها دفاع الأسد الهصور. وقيل له في هذا المجلس أيضاً: إن الناس لا يريدون منه أكثر من أن ينفذ مذكرته الإصلاحية الكبرى بالروح التي وضعها بها، بالقوة التي تمثلت فيها، بالصراحة التي تتجلى في كل سطر من سطورها! وأذن فضيلة الأستاذ الأكبر لهذه الكلمات المخلصة التي تفيض عن قلوب للأزهر والدين مخلصة. أذن لهذه الكلمات، وفتح لها قلبه، واستعاد ذكرى ماضيه المجيد الذي تشير إليه، ثم قطع على نفسه عهداً ليكونن كما يريدون فلا يأتي أول العام الدراسي (يريد فضيلته العام الماضي) حتى تبدو آثار ذلك لهم وللناس أجمعين! وانطلقت البشرى بهذا الحديث في مجالس الأزهريين وغير الأزهريين، وقرت به عيون واطمأنت إليه قلوب، وترقب الناس أول العام الدراسي متلهفين.

ولست أريد أن أعجل فأسأل: ماذا كان في أول العام الدراسي؟ وإنما أوثر الآن أن أستمر في عرض المثل لهذه الظاهرة حتى لا أخرج عما رسمت لنفسي في هذا المقال:

(2) وقالوا أيضاً: إن طائفة من العلماء قد اجتمعت على سبيل المصادفة في مكتب فضيلة الأستاذ الأكبر، وكانت هذه الطائفة تضم بعض ذوي المناصب في الأزهر، وكان اجتماعها قبل ظهور فكرة الاحتفال بالعيد الألفي بزمن يسير، وجرى الحديث في شئون مختلفة ونواح شتى، ثم جرى حول الأزهر وحالة الدراسة في كلياته ومعاهده فأشار فضيلة الأستاذ الأكبر بأن يتناظر اثنان عيَّنهما في هذا الموضوع: (هل الأزهر القديم خير أو الأزهر الحديث؟) فقال أحدهما: ينبغي أولاً أن نحرر على طريقة الأزهريين موضع النقاش في هذه المناظرة، فنعرف من أين يبدأ الأزهر الحديث؟ أيبدأ بعهد الإمام الأول المغفور له الشيخ محمد عبده، أم يبدأ بعهد الإمام الثاني فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي؟ فإن كانت الأولى فالأزهر الحديث خير من الأزهر القديم، وإن كانت الأخرى فإلى أن يخرِّج الحديث أمثال المراغي وعبد المجيد سليم ومن إليهما يظل الأزهر القديم خيراً من الأزهر الحديث!

ووافقه صاحبه على هذا الرأي. فأما فضيلة الأستاذ الأكبر فلم يفته، وهو الرجل الذكي

الألمعي، ما تقصد إليه هذه الإشارة فقال: لقد مضى على الأزهر ألف عام كان فيها بين التقدم والتأخر، وتقلبت عليه فيها نظم كثيرة، فإذا كانت الأعوام العشرة الأخيرة ليست من أعوام النجاح في تاريخه الطويل فهي أعوام تجربة، فأسقطوها من حساب هذا التاريخ، واعتبروها كذلك، وانظروا في تعديل هذا النظام على وجه تصلح به شئون الأزهر. قال قائلهم: لا. ليس السر فيما يشكو منه الناس راجعاً إلى النظام، فإن النظام في ذاته صالح وليس فيه عيب جوهري، ولكن هذا النظام لم ينل حظه من التنفيذ كما ينبغي أن ينال. وهذا هو السر في أنه لم يثمر ثمراته التي كان الناس يرجونها منه. قال فضيلة الأستاذ الأكبر: نعم هذا صحيح!

ولا شك أن هذين المثالين يدلان على ما عنيت بوصفه من تلك الظاهرة الجديدة التي بدت في الأزهر، وفي استطاعتي أن أمثل بكثير من نوعهما، مما يدور في المجالس الخاصة، ويتناقل الناس الأحاديث عنه، ولكني أورد مثالاً ثالثاً هو أجلى في بيان تلك الظاهرة وأدنى أن يعد من آثارها:

ذلك أن رجلاً مسئولاً من رجال الأزهر هو فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمود (3) شلتوت عضو جماعة كبار العلماء دعا في يوم من أيام شهر فبراير الماضي إلى محاضرة يلقيها في دار كلية الشريعة موضوعها (السياسة التوجيهية العلمية في الأزهر) ولست أريد الآن أن ألخص للرسالة هذه المحاضرة، ولا أن أنقل شيئاً منها، ولكني أريد أن أصف للقراء كيف أقبل الناس على سماع هذه المحاضرة وكيف استقبلوها عندما سمعوها، ليعلموا أن عيون الأزهريين قد أصبحت متطلعة، وأن آذانهم قد أصبحت مصغية، وأن نفوسهم قد أصبحت مستعدة.

فأما إقبال الناس على هذه المحاضرة فقد كان رائعاً: إنه لم يكد عنوانها ينشر على الناس مقترناً باسم صاحبها حتى جعلوا يتساءلون: ماذا عساه يقول في هذا الموضوع. وكيف يذكر حقائقه، ويعرض للناس وقائعه؟ تساءلوا عن ذلك لأن العنوان وما عرف به صاحب المحاضرة من حب للصراحة وجهر بالحق قد أثار في نفوسهم معاني شتى هم بها يشعرون. ولبوا دعوة الداعي خفافاً سراعاً حتى بلغت عدتهم قريباً من أربعة آلاف بين علماء وطلاب، واكتظت بهم مدرجات الكلية وحجراتها وأفنيتها، واستعين على إسماعهم بمكبرات الصوت التي بثت في نواحيها، وكان فيهم صفوة من الأزهريين الذين يشغلون المناصب في الإدارة العامة وفي الكليات وفي غيرهما، وألقى فضيلة الأستاذ الكبير محاضرته فكان يقاطع بالتصفيق الحاد والهتاف المدوي في أثنائها. ولما انتهى منها هنأه فضيلة الأستاذ الكبير مفتي الديار المصرية على ما وفق إليه من وصف حالة الأزهر العلمية وسياسته التوجيهية، وعانقه فضيلة الأستاذ الكبير وكيل مشيخة الأزهر مقبلاً إياه بين عينيه على ملأ من الناس أجمعين، وعلا التصفيق والهتاف لهذا المظهر الرائع، وأبى الطلاب إلا أن يحملوا فضيلة المحاضر على أعناقهم إلى فناء الكلية فتم لهم ما أرادوا، وكان يوماً في الأزهر عظيما!

ولكن ما هي هذه المحاضرة التي استقبلها الأزهر: شيوخه ورؤساؤه وطلابه هذا الاستقبال العظيم؟ وماذا قال فيها صاحبها حتى ملك هذه القلوب جميعاً؟ سؤال تسألونه أيها القراء الكرام وحق لكم أن تسألوه. ولتعلمن نبأه بعد حين.

محمد محمد المدني

. . .وعصفور من الشرق أيضاً

للأستاذ دريني خشبة

لو لم يتعمد الأستاذ صاحب الرسالة فيضع هذه التحية الرقيقة التي بعث بها الأستاذ الجليل محمد كامل سليم بك إلى الأستاذ الحكيم قبالة أولى مقالاتي عن (قضية اليوم)، ولولا ما جاء في هذه الكلمة من نفي عداوة الأستاذ الحكيم للمرأة. . . لولا ذلك كله لآثرت إغلاق هذا الباب الذي اضطرني إلى كثير من القسوة والمرارة في التعبير، وإن كنت على حق كل الحق في جميع ما ذهبت إليه، وما أيدته بكلمات الأستاذ الحكيم نفسه مما لا يُعقل أن ينكره أو يماري فيه. فقد أثبت من صميم شهرزاد للأستاذ الحكيم - وذلك في المقال الثاني - أنه عدو للمرأة في كل زمان ومكان ما في ذلك شك، وأثبت أنه ينظر إليها نظرة تسفل دائماً ولا تعلو أبداً، ويعدها مصدراً للشرور التي تحيق بالعالم وتجعله جحيماً لا يطاق، وسواء أعاملها الإنسان كما عاملها شهريار الأول الذي قتل زوجه ورجم روحها بأرواح العذارى البريئات من بعدها، أو عاملها

شهريار الثاني (الديوث!) من الصفح عن أوزارها، أو الغض عما تأتي وما تدع من تلك الأوزار، فالمرأة هي المرأة في الحالين في نظر الأستاذ الحكيم، وهذا هو رأيه فيها، الذي أيده في (القصر المسحور) وادعى التوبة منه، والإنابة مما ذهب بصدده إليه. . . لكن الأستاذ كامل سليم نفى عنه تلك العداوة للمرأة، وبرأه من الموجدة عليها (كما يزعم الزاعمون) بل ذهب إلى أبعد من هذا، فاتهم الأستاذ الحكيم بأنه (صديق المرأة والمنافح عنها!) وقال ذلك بعد أن فرغ من قراءة (عصفور من الشرق) التي لم أكن أن أتعرض لها بخير ولا بشر لما كنت أوثر أن أحصر فيه موضوع (قضية اليوم) وقصرها على ما يتصل بشهرزاد وبأحلام شهرزاد. . . ولكن ما الحيلة، وقد حدثني الأستاذ الزيات قبل نشر المقالين فلمّح في حديثه إلى أنه متعمد أن يضعهما جنباً إلى جنب مبالغة منه في تأكيد ما للرسالة من حرية في النشر أو حرية في الرأي أو حرية في النقد. . . لست أدري أي الحريات الثلاث أراد، ولعله قد أرادها جميعاً

وبعد، فما هي قصة عصفور من الشرق؟ وهل تؤكد تلك القصة شخصية الأستاذ الحكيم التي تظهر جلية في أكثر قصصه، خصوصاً مسرحية (شهرزاد)؟ وسؤال ثالث: هل الأستاذ الحكيم في تلك القصة عدو للمرأة كدأبه أم هو صديق للمرأة كما يتهمه الأستاذ

الجليل كامل سليم بك؟

1 - أما قصة عصفور من الشرق فتتلخص في أن الطالب الشاب (محسن) كان يشدو العلم في باريس، وأنه كان يسكن مع جماعة باريسية لاحظت عليه ما يلاحظ عادة على المغرم المبتدئ (ولا سيما إن كان شرقيًّا) من شرود وانقباض وقلق، فإذا عرفت منه أنه يحب شجعته وعلمته أن باريس لا تعرف التردد في الحب وأن قارورة من العطر أو باقة من الزهر تكفي لغزو قلب أية باريسية.

2 - أما من هي التي شغفت أخانا محسناً حباً، فهي (جابية أو محصلة، أو عاملة) أو ما شئت فسمها، من عاملات دور الصور، كان الفتى محسن يهواها، بل يتعبدها، وكان منصرفاً، مذ أحبها، عن كتبه، بل عن مدرسته، لا يبرح واقفاً بالقرب من الشباك الذي تعمل فيه حتى تفرغ من عملها، فإذا قال لها (عمي مساءً يا آنسة) ردت عليه التحية بإغلاق الشباك في وجهه. . . ثم ما يزال يترصدها حتى يعرف مسكنها فيهجر مسكنه ويأوي إلى الفندق الذي تسكنه سوزي - وهذا هو اسمها - وتكون غرفته فوق غرفتها. . . أما أول التعارف فقد كان (خبطة عشواء!) إذ ادعى السيد محسن الإفلاس فكان أن أدت عنه سوزي حسابه للغسالة. . . ولا ندري كيف دفعته وهي لا تعرفه. . . يُسأل عن هذا فن الأستاذ الحكيم. . . أما كيف رد الثمن فقد أهدى إليها ببغاء وضعه في قفص - لعله من جريد لا من ذهب، وعلقه في حبل ثم دلاه من نافذته إلى نافذتها - فكان تعارف وكان شكر. . . وكان حب. وكانت سهرات وكان (أنس). . . وكان لا يصحو الأخ العزيز (العاشق الشرقي) محسن إلا على رنين قبلات سوزي، وربما كان لا ينام إلا على رنين قبلاتها كذلك. . . وكانت مقابلات يُضرّجها دم الغيرة الشرقية إذا تأخرت سوزي عن ميعادها. . . وإنهما لفي مطعم يوماً ينعمان ويأكلان ويشربان ويعبثان، إذا شاب يدخل فجأة فتذهل سوزي، وتكاد الأرض تسوخ من تحتها، وإذا سر قلبها يطفر فجأة من عينيها. . . وإذا العاشق الشرقي يعرف كل شيء. . . إنه ليس وحده في هذا القلب المزدحم! إنه طفيلي. . . لقد ركع في محراب هذا القلب عشاق معاميد من قبل

هذه هي القصة، لا ينقصها إلا خطابان أحدهما من محسن، والآخر رد من سوزي عليه. وإليك الآن هذه المقتطفات:

1 - نظر محسن إلى سوزي مرة فسألته:

- لماذا تنظر إليّ هكذا؟

- أصبت، أرى الآن أني على خطأ، ما الذي يعنيني من أمر حياتك أنت؟ ما أنت إلا (حلم) يحيا فيه. . . الآخرون. . .

- ومن هم الآخرون؟

2 - ولما فاز محسن بالوصول إلى فتاته وأخبر صديقه الفرنسي (أندريه) بذلك، ابتسم الفرنسي وقال له: . . . قالتها في ابتسامة ذات معنى، وأناملها تعبث بصفحات كتاب

أرأيت أنها فتاة ككل الفتيات، وعاملة كآلاف العاملات؟ تلك التي أسكنتها قصراً من - قصور ألف ليلة وليلة، وجعلتها تنظر من عليائها إلى مواكب الناس المتدفقة تحت شباكها، آه أيها الصديق، اقتنعت الآن أن الأمر أقل خطراً مما كنت تتصور، وأن وقوع امرأة بين ذراعيك مسألة بسيطة لا تحتاج إلى كل هذا الوقت، ولا إلى كل هذه الخيالات والتأملات؟

فأحس الفتى إحساس من يهوى إلى الأرض، وكأن قيم الأشياء في نظره قد تضاءلت، وكأن الحياة نفسها قد تجردت من غطائها فبدت كتمثال مصبوب من السخف. وشعر محسن بفراغ في مادة نفسه لا يدري بعد اليوم ماذا يملؤه. .

(حدث هذا والحب في إبانه قبل أن يقع ما فصل بينهما)

3 - وانظر إلى هذه الروح المتجهمة في العبارة التالية:

التفاحة هي التفاحة، ولكنها تفاحة أرض جديدة! تفاحة الأرض. . . حلوة لكن داخلها الدود! (والعياذ بالله!)

4 - ويقول بعد ذلك في الصحيفة نفسها:

(ولم يكن محسن يطيق إبطاء سوزي خمس دقائق عن موعدها، ولم يكن يحتمل رؤيتها تبتسم لأحد معارفها وهي تحني رأسها بالتحية، ولم يعد يرى صورتها في أحلامه ممتزجة بأنغام الأنترمتزو - و - رقصة الفراندول، ولكنه يراها في نومه تعانق رئيسها هنري الذي عرف منها بعض أخباره، أو يراها تقبل شاباً زنجياً تلك القبلات الملتهبة، فينهض منزعجاً مضطرباً يود لو يمزق جسدها بأسنانه!!)

فهل رأيت إلى شهريار الدموي كيف يتنبه في أعماق محسن؟ ومحسن هنا هو الأخ الكريم الأستاذ توفيق كما لا يخفى. . . توفيق الشاك الذي تملأ رأسه أشباح العبيد والزنوج وقبلاتهم الملتهبة، وغدر شهرزاد التي لا تشبع من عبدها ولا تريد أن تشبع منه. . . وهل رأيت كيف ينهض شبحه (محسن) منزعجاً مضطرباً يود لو يمزق جسد سوزي بأسنانه؟!

5 - وقصة الملكة سميراميس التي هي صورة فاجرة من صور شهرزاد الآثمة التي تخيلها الأستاذ الحكيم: (يوم دعت أسيرها إلى ليلة من ليالي النعيم، مهدت فيها الفرش، وأقيمت الموائد. . . وتلاقت الشفاه. . . إلى أن لاح الصباح، فتغير وجه الملكة الجميل، ووضع الأسير في الأغلال، ومشى به إلى الموت، وهو ذاهل ما زالت في رأسه بقية من نشوة الليل. . .،. . .، ولكن ملكات العصر الحديث يفعلن بأسراهم غير ذلك. كل شيء عندهن مستتر مقنَّع (فهي) تضع على وجهها ذلك القناع الحريري الأسود الذي يلبس في المساخر. . . إلى آخر المهزلة. . . . . .

6 - ثم إليك هذه النفس السوداء المريضة المتشائمة: (. . . لا ينبغي أن نبني شيئاً جميلاً فوق هذه الأرض!! هذه الأرض المتغيرة المتحركة برمالها ومائها وهوائها!!

ويرى بعد ذلك أن يكون البشر جميعاً في كل زمان ومكان زهاداً كزُهاد الهنود، زهاداً مضعوفين مسلولين لا يذوقون إلا حبات من الأرزكي تصفو نفوسهم وترتفع إلى الملأ الأعلى. . . يريد أن يكون الناس كلهم - أو المصريون على الأقل - من (مقاطيع السيدة زينب)! لأن مقاطيع (الست) وحدهم هم المتصلون بالسماء. . . والفضل في ذلك لروح الزهد والتقشف والفول (النابت!!)

ولن يصغي شرقي واحد إلى الأستاذ الحكيم؛ فقد شبع الشرق من الفقر وما جرته عليه فلسفة الفقر والقناعة والتقشف من قبول الذل والخنوع وموت روح المقاومة التي لا توجد إلا في الأقوياء بدناً وروحاً في وقت معاً. . . وديننا الحنيف هو دين القوة الذي لا يعرف الرهبانية ولا التصوف الهندي الذميم، وهو الدين الذي أحل لنا مناعم الحياة حلالاً طيباً، وفرض الإفطار على الصائم المحارب كما حرم الجوع الذي يضر الجسم، وقام على محاربة الفقر بإطعام الطعام على حب الله من أوسط ما يطعم الناس وبالزكاة والتعاون المنظم الذي يمحق الفاقة، ولا يأذن لمقطوع واحد من (مقاطيع) الست الطاهرة بالوجود في هذا الوجود! وأما قول المسيح عليه السلام: (ما أعسر دخول ذوي الأموال إلى ملكوت الله) فقد قصد به ما قصد إليه الرسول الكريم حين قال: (اللهم توفني فقيراً ولا توفني غنياً واحشرني في زمرة المساكين) فقد قصد المسيح أن يحض الأغنياء على عمل الخير، كما قصد الرسول أن يخفف ألم الفقير في نفوس الفقراء - وليس يعقل

أن الرسولين الكريمين كانا يريدان انتشار الفقر في العالم وتحكم الفاقة في الوجود
7 - أما هذه الثورة على أوربا، التي هي جميلة رشيقة ذكية، لكنها خفيفة أنانية لا يعنيها
إلا نفسها واستعبادها غيرها، فهي ثورة أحدثتها في نفس النكسة التي جرها عليه
غرامه الخائب، فلو أنه نجح في هذا الحب، لكانت أوربا في نظره شيئاً آخر
8 - ولست أدري ما هذا الذي انزلق إليه الأستاذ الحكيم - في معرض الطعن على
أوربا - من القذف في حضارتها، وفي ضرورة ما تراه أوربا من وجوب نشر التعليم
ومحاربة الأمية والإزراء على الديمقراطية؟ ما هذا؟ أيريد أن يظل جمهور العالم جاهلاً
لا يقرأ ولا يكتب؟ أيريد لهذا الجمهور أن يظل مسكيناً ذليلاً مستعبداً؟ أيريد أن يقوم
الطغاة في كل فج يسيمون الجماهير سوء العذاب مما نرى أثره في ألمانيا وإيطاليا
واليابان؟
ولكن، لا علينا من ذلك فليس من أجله كتبنا هذا المقال فهذه المقتطفات التي أثبتناها
هنا تدل على أن الأستاذ الحكيم هو في (عصفور من الشرق) كما كان في (شهرزاد)
من حيث رأيه في المرأة ومن حيث عداوته لها. . . ومن حيث أنها ملك مشاع للجميع،
ويكذب من يقول بوفائها وعفافها وإخلاصها لرجل بعينه وإن يكن هذا الرجل هو زوجها؛
فهي حلم يحيا فيه الآخرون. . . وأن وقوعها بين ذراعي أي إنسان مسألة بسيطة لا
تحتاج إلى وقت وخيالات وتأملات وأن التفاحة هي التفاحة. . . تفاحة أرض جديدة. . .
تفاحة الأرض. . . حلوة. . . ولكن داخلها الدود، وأن شخصية شهريار الدموي الفظيع
الناقم كانت دائماً تتقمص روح الحكيم كلما أبطأت عليه حبيبته فيراها فيما يرى النائم
وهي تقبل شاباً زنجياً تلك القبلات الملتهبة فينهض منزعجاً مضطرباً يود لو يمزق
جسدها بأسنانه. . . ولست أدري إن لم يكن مؤلف شهرزاد هو نفسه مؤلف عصفور
من الشرق قلباً وقالباً كما يقولون فلماذا ساورته أشباح العبيد الغلاظ والزنوج الذين
يقبلون تلك القبلات الملتهبة وهو كان يحب في باريس. . . باريس اللعوب المفتان. . .
ولم يكن يحب في جزائر واق
الواق ولا في بلاد نيام نيام ولا بين قبائل الشيلوك والدنكا. . . إن لم يكن توفيق
الحكيم مع سوزي في باريس هو توفيق الحكيم مع شهرزاد في بغداد، أو في فاس أو
الهند لست أدري، فلماذا ذكر هذا الزنجي الذي لم تكن تؤثر عليه شهرزاد أحداً، وكانت
لا تشبع منه ولا تريد أن تشبع منه، وكانت تريده أسود غليظاً. . . ولماذا كان ينهض من
نومه منزعجاً مضطرباً يود لو يمزق جسد سوزي الجميل الغض بأسنانه (والعياذ بالله!)
إن هذه خبيئة من خبيئات العقل الباطن برزت في غفلة من غفلات وعي توفيق
الحكيم ففضحت رأيه في المرأة، وأكدت مذهبه فيها على صفحات عصفور من
الشرق، كما تأكد هذا المذهب في شهرزاد من قبل. . . وما هذا الذي ربط بين الحلم
الذي يحيا فيه الآخرون، وبين سهولة وقوع أية امرأة بين ذراعي أي إنسان، وبين تفاحة
الأرض الحلوة التي داخلها الدود، وبين الحلم الذي يرى فيه الحكيم فتاته مستسلمة
لزنجي أسود يقبلها تلك القبلات الملتهبة، وبين نهوضه من النوم مضطرباً منزعجاً يود
لو يمزقها بأسنانه،. . . ما هذا الذي يربط تلك الصورة كلها بصورة سميراميس الملكة
الفاجرة التي أرادت أن تبالغ في انتقامها من أحد أسراها المولعين بحبها فدعته إلى
ليلة ناعمة راقصة، ومنحته من نفسها وعرضها ما لا يقدر على وصفه إلا. . . الأخ
المسكين البائس. . . محسن!. . . على أن يصبح فيتسلمه الجلاد بأمر الملكة ليضرب
عنقه؟! ما هذا الذي يربط تلك الصورة كلها، وهي مفرقة على الكتاب، متباعدة عن
بعضها فيه، موزعة على مشاهد القصة وفصولها من قبل أن يفضح محسن غش
سوزي وخداعها إلى أن وقف منها على ذلك السر المهول!؟
وبعد. . . فهل الأستاذ توفيق الحكيم بعد ذلك كله صديق المرأة وليس عدوها - كما
يزعم الزاعمون - على حد تعبير الأستاذ الجليل كامل سليم بك؟!

دريني خشبة

حانة الشعراء

للأستاذ علي محمود طه

(من ديوانه الجديد (زهر وخمر) وقد صدر اليوم)

هي حَانَةٌ شَتى عَجَائُبهَا ... مَعْرُوشةٌ بالزَّهرِ والقَصَبِ
في ظُلَةٍ باتَتْ تُدَاعُبها ... أنفَاسُ لَيْلٍ مُقْمِرِ السُّحُبِ

وزَهَتْ بِمصْبَاحٍ جَوَانُبِها ... صَافي الزُّجاجِةِ رَاقِص اللَّهبِ
بَاخُوسٍ فيها وهو صَاحُبِها ... لم يَخْلُ حين أفَاقَ مِنْ عَجَبِ
قدْ ظَنَّها، والسحْرُ قَالَبُها، ... شِيَدتْ مِنَ اليَاقُوتِ والذَّهبِ
إبْرُيقهُ حلْيٌ مِن الدُّرَرِ ... يُزْهى به قَدحٌ مِنَ الْمَاس
وكأنَّ مَا حَوْلِيه مِنَّ صُورٍ ... مُتَحركَاتٌ ذَاتُ أنْفاسِ
تَرَكَتْ مَوَاضِعَهَا من الأُطُرِ ... وَمَضَتْ لَهُ في شِبْهِ أعْرَاس
مِنْهُنَّ عازِفةٌ على وَتَرِ ... مُتفَجرٍ بأرَقَّ إحْسَاسِ
وَغَريرةٌ حَوْرَاءُ كالْقَمرِ ... تَحْنُو على شَفَتْيه بالْكَاسِ
أو تِلكَ حَانُتهُ؟ فَواعجبَا! ... أم صُنْعُ أحْلاَم وأهوَاء؟
وَمَنَ الْخَيالُ أهَلَّ وَاَقتربا ... (فيْنُوس) خَارجَةً من الماء!
في مَوكبٍ يتمَّثلُ الطَّربا ... وَيميلُ من سِحْرٍ وإغْراء
وَبكلِّ ناَحِيةٍ فَتًى وَثبَا ... مُتَعَلقاً بِذِرَاعِ حَسْناَء
يَتَوَهَّجُونَ صَبَابَةً وَصِبَا ... يتمثلونَ غَرِيب أَزْيَاء
حُمْرُ الِثَيابِ تِخالُ أنَّهُمُو ... يَفِدونَ مِنْ حَانُوتِ قصَّابِ!
جَلَسُوا نَشَاوى مِثْلمَا قَدِمُوا ... يترقَّبونَ مَنافِذَ الَبابِ
يَتَهَامسُونَ وَهَمْسُهُمْ نَغَمُ ... يسري على رَناتِ أكْوَاب
إنْ تَسألِ الخمَّارَ قَالَ هُمُو ... عشَّاقُ فَنٍ أهْلُ آدَابِ
لولا دُخَانُ التَّبغِ خِلْتَهُمو ... أنْصَافَ آلهةٍ وأرْبَابِ
وَتَلَّفتُوا لما بَدا شَبَحُ! ... فَتَّانةٌ دَلَفَتْ من البابِ
سَمْراءُ بالأزْهَارِ تَتَّشحُ ... أَلَقَتْ غُلاَلَتَهَا بإعْجَاب
وَمَشَتْ تُراقِصَهُم فما لَمَحُوا ... إلا خُطَى رُوحٍ وأعْصَابِ
وَسَرى بِسِر رَحِيقِه القَدَحُ ... في صَوتِ شَاجِي اللَّحْنِ مِطْرابَ
وَشَداَ بجو الْحانَةِ الفَرَحُ ... لإلهةٍ فَرَّتْ مِنْ الْغَابِ
هِيَ رَقْصَةٌ وَكأنَّها حُلمُ ... وإذا (بفينوس) تمدُ يدَا
الكأس فيها وهي تَضطَرِمُ ... قَلْبٌ يَهُزُّ نِدَاؤُهُ الأبَدَا:
زِنْجَّيةٌ في الفن تَحْتَكُمُ؟ ... قَدْ ضَاعَ فَنُ الْخَالِدِين سُدَى!
فَأجَابَتْ السَّمْراءُ تَبْتسِمُ: ... أَلفْنَّ رُوحاً كان؟ أمْ جَسَدَا؟
يَا أيَّها الشُّعَراءُ وَيَحْكُمُ ... اللَّيْلُ ولَّى وَالنهارُ بَدَا!
علي محمود طه
سليمان الحكيم
!لتوفيق الحكيم
للأستاذ سيد قطب
- 2 -
يلتقي الصياد الساذج القانع الطيب القلب بالعفريت الطامح المتمرد العاصي (داهش بن الدمرياط) حين يجذب شبكته أول مرة فتخرج حماراً ميتاً، ويجذبها ثاني مرة فتخرج زيراً مملوءاً بالرمل، ويجذبها ثالث مرة فتخرج أحجاراً وقوارير. حتى إذا طلب من الله أن يرزقه من فضله في الرابعة خرج له قمقم نحاسي مختوم بخاتم سليمان، وفيه هذا العفريت الملعون الذي حبس في هذا القمقم جزاء عصيانه أمر الملك وإبائه أن يذهب لجلب الأرز وخشب السرو لبناء بيت الرب، لأنه عفريت طموح مهيأ لأكبر من هذه الأعمال التافهة!

ويهم العفريت بقتل الصياد الذي أنقذه لأنه كان قد نذر أن يقتل من يخرجه في هذه اللحظة (وهنا ينسج المؤلف الخيط الأول في شخصية العفريت) لولا أن يحضر سليمان وجنوده فيرجو العفريت الصياد في أن يعيده إلى القمقم وأن يستشفع له عند الملك، ويستنجد العفريت بشرف الصياد فلا يجد هذا مفراً من القبول (وهنا ينسج الخيط الأول في شخصية الصياد)

ويقبل سليمان الشفاعة على شرط أن يكون الجني محسوباً على الصياد بخيره وشره، وأن يعدهما شخصاً واحداً أمامه في السراء والضراء (ومن الصياد الطيب والعفريت الشقي يتألف الإنسان). ويقبل الصياد - وأمره لله - ولكنه يختار أن يكون مع عفريته في خدمة النبي سليمان! (وتلك أول بذرة من بذور الحكمة في نفسه)

ويسمع سليمان من الهدهد الغائب (حسب رواية القرآن) عن ملكة سبأ وعظمة ملكها وعن جمالها أيضاً. ويكون حاضر هذا الحديث صادوق الكاهن وآصف الوزير. فأما صادوق فمشغول بالسؤال عن معبود الملكة وقومها، وأما آصف فمشغول بالسؤال عن عرشها وملكها، وأما سليمان فمشغول بهذا كله، ولكنه مهتم كل الاهتمام بما يسمع عن الملكة الجميلة (وهنا ينسج الخيط الأول في هذه الشخصيات الثلاث. ويمهد للصراع الذي ينتظر
!(قلب سليمان

ويعمل سليمان على استزارة الملكة فتسير القصة حسب نصوص القرآن تقريباً، من إرسال الهدهد إليها وإرسالها هدية لسليمان ترد إليها، ومن التشاور بين الملكة ورجالها. وفي هذا التشاور يدور حوار طريف لا نستطيع أن ننقله هنا. ولكنه يصور طبيعة المرأة وأحاسيسها الخفية ووسائلها الغامضة، ويصور طبيعة الوزير السياسي، وطبيعة القائد الحربي في بضع كلمات (وتلك براعة توفيق الحكيم في الحوار. وهي براعة تفوّق وتفرّد في هذا المجال. فما هي إلا لفظة من هنا ولفظة من هناك، وجملة عابرة هكذا، وجملة خاطفة كذلك. حتى تستوي القضية التي يريدها أو الشخصية التي يرسمها، كأنما مستها عصا ساحر فانتفضت من بين الركام. فهو من هذه الناحية متفوّق ومتفرد حتى اليوم بلا جدال.)

ونعلم هنا أن للملكة أميراً أسيراً هو (منذر). وإنها لمشغوفة به حباً، وإنها لتواري هذا الحب عنه في مشقة وعسر لتعترف به متهالكة ناسية كل أبهة الملك أمام جاريتها (شهباء) وإنه هو لمشغوف حباً بشهباء، وإنه لا يعبأ بقلب الملكة الآسرة. وإن شهباء لتبادله هذا الحب في الخفاء، ولا تظهره له ولا للملكة على السواء!

فإذا ما جاءها رسول سليمان، وإذا ما ردت إليها هديتها، أدركت بغريزة المرأة التي تشم من بعيد أن سليمان لا يبغي ملكها ولا ثروتها إنما يريدها هي لذاتها. فتنعش لهذا وتنشط وتحس أنه يرد عليها شيئاً من كبريائها المحطمة مع الأمير الأسير فتجيب الدعوة. ولكنها تحب أسيرها ولا تستطيع فراقه، فهي تحتال عليه لتأخذه معها في رحلتها.

ونلمح هنا بين ما يشبه الضباب - أو بين السطور - غريزة المرأة التي تحب ويمتلئ قلبها بمن تحب، ولكنها ترحب بكل لفتة من قلب رجل! ونلمح أغراضاً شتى متداخلة مبهمة في نفسها من استصحاب أسيرها معها. أهي تفعل هذا لأنها لا تصبر على فراقه؟ أهي تفعله لتري حبيبها المعرض كيف يعجب بها سليمان العظيم فتوقظ إعجابه هو بها وتثير في نفسه الغيرة عليها؟ أم إنها تريد أن تقول لسليمان: إنك لست المعجب الوحيد فلي أيضاً حبيب؟! أم تريد أن تصد سليمان عنها مع تمتعها بإعجابه بها؟. . . إلى آخر هذه الاحتمالات؟

كل ذلك نستطيع أن نلمحه وراء ستار من الضباب أو من السطور والكلمات. وتلك مقدرة من مقدرات الحوار.

وتقدم الملكة على سليمان في موكبها العظيم، فيحس قلبه من بعيد بما هنالك (وهنا تشترك الأسطورة والنبوة والغريزة في رسم الصورة وتقريب الإحساس) وعندئذ يبدأ في محاولة بهرها ولفت نظرها بخوارق الأمور؛ فيطلب استحضار عرشها من بلاد سبأ. ويتبارى في ذلك أتباعه. وعندئذ تعرض الفرصة للجنيّ (داهش) صاحب الصياد ليأتي بالعظائم ويلبي الطموح، فيعرض أن يأتي به في غمضة عين أو يقتل هو والصياد! ويعارض الصياد بطبيعة الحال، ولكن طموح الجني ورغبة سليمان يغلبان. وينجح (داهش) فيظهر الصياد الساذج مشاركاً في النجاح، وترتسم للصياد صورة فيها كثير من الدعابة والفكاهة تلازمه في معظم الأحوال! ويسر سليمان ويستقبل الملكة ومعها الأمير الأسير، فترى عرشها وتعجب بهذه المقدرة، ولكنها تشم بغريزتها لماذا يحاول سليمان أن يبهرها! ويختليان بسرعة فتلاحظ هذه السرعة، وتصارحه بها، فيفاجئها بما ساور نفسه من أسيرها، فتعترف! ويصدم سليمان صدمة عنيفة فينسحب لتنال راحتها! وتبتهج هي في دخيلة نفسها بما تم حتى الآن!

فإذا خلا سليمان إلى نفسه فهو منقبض قلق ضيق الصدر، في حاجة إلى السلوى وإلى التسلية، فهو يلتمسها عند أضعف أتباعه وأشدهم سذاجة. عند الصياد! وإنه ليسأله إذا كان قد ذاق طعم الحب؟ وهنا يروي الصياد قصة حب خائب لم يدم إلا لحظة. أدى

ثمنها ثروة مفاجئة كان يملكها. وقد ضحى بحبه ليفسح لمن أحبها طريق السعادة، لأنه ليس كفئاً لها فهي كفء لملك! (وفي هذه القصة ينسج خيطاً آخر من شخصية الصياد فهو رجل طيب ذو ضمير نقي وقلب كريم)

ومرة أخرى يجد الجني أن الفرصة سانحة لإرضاء طموحه، وللنزغ في قلب النبي سليمان، وتلبية رغبته في آن! فيعرض خدماته - على كره كذلك من الصياد - ويرسم خطة لتحويل قلب الملكة وانتزاع إعجابها. ويستجيب سليمان، تدفعه الرغبة الإنسانية الجارفة؛ فإذا الجني مفوض في استخدام جميع السلطات وجميع القوى، وإذا هو يسخر بساط الريح ليحمل الملكة مع سليمان في الفضاء؛ وإذا هو يبني الصرح الممرد من قوارير وتحته ما يشبه اللجة، لتبهر الملكة، وليجد سليمان الفرصة متاحة ليحملها بين يديه ويتخطى بها اللجة الموهومة! وماذا يصنع محب محروم إلا أن يلتمس كل وسيلة للتمتع بمثل هذا الفتات؟!

ثم ماذا؟

ثم إذا المرأة التي تحب أقوى من جميع هذه المغريات؛ وإذا القلب الإنساني الذي يحب أقدس من جميع هذه المظاهر؛ وإذا هو يسخر بجميع قوى الأرض وجميع مظاهرها؛ وإذا الملكة على حبها لأسيرها أمام كل جهود سليمان وجهود الشيطان!

ثم ماذا أيضاً؟

ثم إذا سليمان غاضب على الجنيّ وعلى الصياد؛ وإذا الصياد خائف مذعور، عاتب لائم لهذا الجنيّ الذي لا يعرف الهدوء ولا يني عن المحاولة، ولا يكف عن الطموح؛ وإذا (داهش) يعرض عروضاً جريئة، وينزغ نزغات شريرة. إنه يعرض اقتحام الحصن الذي لم تفتحه المحاولات، وتحطيم القلب الذي لم تحوله المغريات!

ويشفق الصياد ويضطرب ضميره؛ ويتردد سليمان وتتحرك قداسته. ولكن الرغبة الملحة تغلبه، فإذا الجنيّ مفوّض في عمل ما يشاء!

فلما نفذت الخطة الجديدة الجريئة، فمنذ رقد الأمير مسخ تمثالاً في حوض الرخام؛ ولن تعود إليه الحياة إلا إذا بكت عليه حبيبته حتى تغرق جسده بالدموع. وإذا الملكة ترسل الدمع مدراراً بجانب التمثال الحبيب، وإذا سليمان يرسل الضحكات كلما أطل عليها سخرية وشفاء (ونلمح هنا جو ألف ليلة وليلة. ولكننا نلمح التضحية الأسطورية للحب، والشر الذي تثيره الرغائب الجامحة في قلب إنسان).

حتى إذا ما أوشكت المعجزة أن تتم، تدخّل الجنيّ فهدى سليمان إلى حيلة يبعد بها الملكة قليلاً عن التمثال، ولم تبق إلا دمعتان حتى تصل الدموع إلى قلبه فينبض ويحيا. وزيّن لشهباء أن تنتهز الفرصة السانحة وتحيي حبيبها لنفسها. وأغرى الصياد أن يذهب - هو الآخر - إلى الحديقة ليجد حبيبته الضائعة فهي الآن من نساء سليمان (وبهذا يضرب الشيطان جميع هذه القلوب في لحظة واحدة!)

فأما الملكة فتؤخذ بالحيلة. وأما الصياد فيتردد ثم يذهب ولكنه يحجم عن مخاطبة حبيبته تحرجاً وتورعاً. وأما شهباء فتتمنع ثم تدمع عيناها في الحوض، فإذا حبيبها يحيا، وإذا هو يراها بجانبه تبكي فيحسبها صاحبة التضحية في سبيله وواهبة الحياة له، فيطوقها بذراعيه.

ولكن ضميره يتحرك فتخبره بالمضحية الحقيقية التي ملأت الحوض بالدموع، وإن هما إلا دمعتان منها لا سواهما. ولكنه هو (لأنه يحب) يرى الدمعتين الأخيرتين اللتين وصلتا إلى قلبه أغلى وأعظم من جميع دموع (بلقيس)!

وحين تعود الملكة ومعها سليمان تقع عيناها على المنظر الفظيع فتصدم صدمة عنيفة ويجلجل صوت سليمان ضاحكاً. ولكن الملكة تتهدم بين يديه وتنهار. وهنا يدرك عظم الكارثة وفظاعة الجريمة، فيأخذه الوجوم. . . إنه أفاق ولكن بعد فوات الأوان!

وهنا يستعرض الناقد من المنظر عدة لوحات

فلوحة يتجلى فيها الصراع بين الخير والشر في نفس الصياد وقد تغلب الخير في النهاية على نزغات الشيطان، لأنها نفس محدودة المطامع ضيقة الرغبات!. ولوحة يتجلى فيها هذا الصراع في نفس شهباء وقد تغلب الحب المكتوم على همسات الضمير، لأنها امرأة تحب!. ولوحة يتجلى فيها هذا الصراع في نفس سليمان وقد غلب الشر حين أججته الرغبة والمقدرة، ثم غلب الخير حين كشف الجرم وتبين العجز، لأنه

نبي وإنسان!
وهناك لوحة منزوية يتراءى فيها جحود الحب الأعمى، بجانب نبله المقدس؛ فدمعتان اثنتان من عيني شهباء يقومهما المحب بالدموع الغزار والليالي الطوال فترجحان، وهما وحدهما اللتان تبلغان قلبه لأنهما ممن يحب!. وعظمة سليمان وملك سليمان ومحاولات سليمان كلها لا تحول قلباً يحب لأن هذا الحب فوق الملك والقوة والسلطان!. ونبوة سليمان وحكمة سليمان لا تعصمانه من الشر الذي اندفع إليه، ولا من نزغ الشيطان في قلبه؛ لأن الشيطان يستخدم الحب الذي يذهب بالعقل وبالحكمة جميعاً
هذا الجحود العجيب بجانب الوفاء العظيم، بجانب الاندفاع المريد: لوحة فاتنة لأنها صادقة
وإلى هنا كان يمكن أن تنتهي التمثيلية، فلا تفقد شيئاً كثيراً من وقعها النفسي ومن أهدافها الإنسانية. ولكن توفيق الحكيم يؤثر الحوار الفلسفي ويؤثر ألا يكتفي بالإشارة عن العبارة؛ فهو يسجل في فصلين تاليين تسجيلاً مفصلاً في حوار ذهني ما سجلته الحوادث حتى الآن في تصرف حيوي، وما يستشف من هذه الحوادث في بساطة وبغير انتباه
وموعدنا ببيان هذا العدد المقبل فقد بلغنا اليوم أقصى الفراغ
سيد قطب
أثر المرأة في علي محمود طه
للأستاذ إدوارد حنا سعد
الحرمان من المرأة - كدافع نفسي - ليس خيراً في ذاته ولا شراً؛ ولكن الخير أو الشر إنما يتعلقان بالوسيلة التي يتبعها لإشباع رغباته: وهو في الفن خير محض لأنه كان نبعاً فياضاً استقى منه الملهمون وخرجوا على الناس بذخائر خالدة على الزمن
والأدب المصري مدين للحرمان بنبوغ الشاعر الرقيق الأستاذ علي محمود طه، فقد لمس نفسه الحساسة فأذكى شاعريتها ومرَّ على قيثاره الشاجي بأعذب الألحان على أنه مما يلفت النظر في الأدب المصري المعاصر ذلك التباين الواضح بين ضآلة أثر الحرمان في نتاج الأدباء المعاصرين ممن نسميهم شيوخ الأدب. . . وعمقه ووضوحه في نتاج الطائفة التي تأخرت عنهم في السن أو تاريخ الظهور الأدبي، ومرجع ذلك فيما أعتقد إلى تحجب المرأة قبل الحرب الماضية، ثم ثورتها على الحجاب يعيد تلك الحرب، واشتراكها في كثير من مناحي الحياة الاجتماعية
قد ينشأ الحرمان عن خيبةٍ قوية في حب قوي فيكون من أثره ولوع صاحبه بإعلان عدائه للمرأة، فإذا وجد أن في ذلك منافاةً لما درج عليه الناس اندفع بطريقة لا شعورية إلى تسفيه الآراء الشائعة والتعالي بقيمته الذاتية. وأثر هذا الضرب من الحرمان شديد الوضوح في الأستاذ توفيق الحكيم عدو المرأة وصاحب الرأي المعروف في تفضيل الجاهلة على المتعلمة كزوجة، وكاتب المقال الذي يقول فيه إن الزواج من أربع نساء أمر تحتمه الطبيعة، وذلك حين رأى التفكير متجهاً إلى سن تشريع يمنع ذلك إلا عند الميسرة وضمان العدل بين الزوجات. ثم يقول عن نفسه إنه (خالق)، وعن الأشخاص الذين يصورهم في قصصه إنهم مخلوقاته، ويقول عن أحد قرائه (زارني هذا الطبيب الفاضل ثلاث مرات دون أن يحظى برؤيتي)
وقد يكون الحرمان ناشئا عن خيبة في إنشاء علاقات غرامية في فجر الشباب، فيولع صاحبه بالتحدث عن علاقات غرامية موهومة أو مبالغ فيها؛ وقد يصدر كتاباً - كما فعل الأستاذ الصاوي - يتحدث فيه عن حياة قلبه وتكون عناوين فصوله:
(وأما السابعة. . . وأما الثامنة. . . وأما التاسعة)
وقد يولع الشاب بفتاة من طبقة معينة ولا تستجيب لغرامه فيكون منه قصصي كالأستاذ محمود كامل معظم بطلات قصصه من خريجات المدارس الفرنسية، وكلهن من بنات الباشاوات وعلى الأخص كبار الضباط المتقاعدين. ولكل فتاة من هؤلاء محب يُشترط فيه أن يكون محامياً له إلى جانب مهنته شهرة أدبية أو فنية وله سيارة صغيرة يقودها بنفسه
هذه المقدمة لازمة لكي نفهم منها فهماً واضحاً أثر المرأة في الأستاذ علي طه، ففي نفسه الشاعرة رواسب من حب خاب، وعلاقات فشل في إنشائها، وطبقة لم تلتفت

إليه بناتها هي على الأغلب طبقة الفنانات. هذه الرواسب كونت منه رجلاً فيه من توفيق الحكيم بعض تعاليه، وفيه من الصاوي بعض تفاخره، وفيه من محمود كامل اهتمامه بطبقة معينة تبدو من كثرة حديثه عن مخادع المغنيات والراقصات وقد امتزجت هذه العناصر وتفاعلت فإذا به في شعره - وقد يكون في حياته الخاصة - زير نساء يطلب المرأة لأنها إحدى النساء، وليس بعاشق يميز امرأة واحدة من دون النساء

والمفروض في زير النساء أنه رجل مستهتر، قوي، كثير التنقل بين (الحبيبات)، مشغول البال بالمرأة، شديد الالتفات إلى نواحي جمالها وزينتها، محبوب منها وأنيق وكل هذه الصور واضحة في شعر علي طه ونثره أشد وضوح فهو مستهتر لا يبالي أن يقول:

حلفتُ بالخمر والنساء ... ومجلس الشعر والغناء

أو يقول:

فاعذري الروح إن طغى ... واعذري الجسم إن ثأر

ثمر ناضج الجني ... كيف لا نقطف الثمر

وهو رجل قوي، استغفر الله بل فتىً قوي، يقول عن زملائه ركاب السفينة (كانوا يعجبون من هذا الفتى الأسمر الذي يقتحم غرفة المائدة ليملأ معدته بالطعام بينما هم مستلقون على ظهورهم من دوار البحر أو ممسكون بمعداتهم من الألم والاضطراب!) ويقول:

الثلاثون قد مضت ... في التفاهات والهذر

فهذه الصورة قد تتفق مع صورة دون جوان، ولكنها قد لا تتفق مع الحقيقة. ففي مقال الأستاذ الزيات عن أرواح وأشباح يقول: (وبين اللقيا الأولى للصديق والقراءة الأخيرة للشاعر إحدى وعشرون سنة). (وكان إذ ذاك في إبان شبابه وكنت في عنفوان شبابي) ومن هذا يتضح أن لفظة (الثلاثون) هذه لم تأت إلا لضرورة الشعر ثم هو رجل كثير التنقل بين الحبيبات، فهو في الجندول مع البولونية الحسناء، وهو في بحيرة كومو مع الأديبة الأمريكية الفاتنة، وهو على الرين مع (صديقة سويسرية التقى بها في ذلك الجو الساحر الخ. . . وهذا بالطبع عدا عذارى وادي النخيل وقاهرياته الغرر وهو مشغول البال بالمرأة يغازلها في كل مكان؛ وقد يغازلها وإلى جانبها زوجها (الليلة الأولى في أرواح شاردة) وكتبه كلها فياضة بهذا الاهتمام الذي يقيمه ويقعده؛ ولكني أود أن ألفت النظر إلى نشيده الأفريقي (عودة المحارب) الذي يقول فيه:

حين ألقى زوجي على باب كوخي ... وأناغي على ذراعيّ طفلي

فهذا التصوير الصادق للقلب الظمآن إلى حنان الأسرة لم ينج من سمادير الاهتمام بالمرأة على العموم، ذلك الاهتمام الذي يملأ قلب الشاعر، فيقول على لسان ذلك المحارب العائد إلى زوجه وطفله:

يا عذارى القبيل انتن للمجد (م) ... على عفةٍ صواحب بذل

حسبُ روحي الظامي وحسب جراحي ... رشفةٌ من عيونكن النجل

وابتساماتكن فوق شفاهٍ ... بمعاني الحياة كم أومأت لي

وصحيح أن البطل العائد يسر بالحفاوة التي يلقاها من قبيلته رجالها ونسائها، ولكن لعل حفاوة الرجال به أبعث لسروره، وأقدح لمكامن الزهو في نفسه.

ونستطرد في توضيح الصورة التي أوجزناها في مقدمة حديثنا فنقول إن التفاته إلى نواحي الجمال في المرأة كثير في شعره ونثره إلى درجة أستبيح لنفسي معها أن أغفل إيراد الشواهد عليها، والتفاته إلى زينتها دقيق (صففت شعرها على طريقة القرن الثامن عشر، وقصت جانبيه على طريقة القرن العشرين) ويقول عن أخرى إنها (ارتدت زي القرويات من سكان الأديج الأعلى وغطت رأسها بمنديل احمر موسوم بصور متناسقة لزهرات برية)

أما أنه محبوب من المرأة فشواهد ذلك كثيرة في دواوينه وكتبه وأجتزئ هنا بمقتطفات من حديث نشره بمجلة الاثنين عن ذكريات الصيف، تحدث فيه عن جارة له في الفندق قابلته في الردهة. . . (لم يطل بي النظر ولم يطل بها الوقوف، فقد ابتسمت لي وأحنيت رأسي تحية لها، وسرعان ما وجهت لي عبارة لطيفة قائلة:

- منذ أمس وأنا أعجب من هذا الغريب المنفرد بنفسه الذي لا يجد في هذه المدينة الصاخبة اللاهية ما يزعجه عن النوم ويشغله إلى ما بعد منتصف الليل. أقول هذا وأتساءل كيف لا أعجب من نفسي أنا أيضاً، فقد حضرت ليلتين، فلم أجد ثمة حذاء واحداً على باب واحد، ووجدت حذاءك منفرداً بنفسه على باب غرفتك. وقلت لنفسي وأنا أضع بدوري حذائي على باب غرفتي، فليظل الحذاءان هكذا قريبين من بعضهما في الليل وإن لم يتعارفا. وفي الحق أني عندما أغادر غرفتي إلى الحمام في الصباح الباكر أجد أن منظر الردهة قد تغير، فأمام كل باب حذاءان أحدهما ضخم خشن، والآخر دقيق رقيق، فأحدث نفسي لم لا يتفق حذاءانا نحن أيضاً فنجدهما ذات صباح على باب واحد. . .)

فياما أشد إغراء هذا الفتى الأسمر، لقد أنسى تلك الحسناء أنها امرأة يسرها أن تُصاد وأن ترى الشباك منصوبة من حولها. . . أنساها هذا وأنساها حياءها الغريزي فبدأته بهذا الحديث الطويل واقترحت عليه أن يشاركها غرفتها.

بقي الحديث عن الصفة الأخيرة وهي الأناقة وتكاد تكون أظهر صفات شعره الموسيقي العذب، ثم هي تبدو أيضاً في طبع كتبه وتقديم قصائده، ويرجع السبب في شدة وضوح هذه الصفة إلى أنها ارتوت من رافدين نبعا في صدر شبابه: أولهما الحرمان الجنسي، وثانيهما الحرمان الأدبي، لأن المجد الأدبي لم يوات الأستاذ علي طه في السن التي كان ينتظره فيها، بل تأخر عن ذلك. وفي مقال الأستاذ الزيات عن (أرواح وأشباح) ما يكشف عن ذلك الجانب، فهو يقول إنه منذ إحدى وعشرين عاماً كان يشرف بالاشتراك مع حضرة الأستاذ الجليل الشيخ مصطفى عبد الرازق على قسم الشعر في مجلة السفور، ودفع إليهما البريد بقصيدة لعلي طه (فوجدنا قوة الشاعر الموهوب تطغي على ضعف الناشئ البادئ، فضننا بها على السل وصححنا ما فيها من الخطأ وقدمت لها ببضعة أسطر تنبأت فيها بنبوغ الشاعر ونصحت له أن يرفد قريحته السخية بمادة اللغة وآلة الفن. . .)

ثم لقيه في المنصورة. . . (وطلب إليه صديقنا أن ينشدنا بعض شعره فنشط لهذا الطلب وارتاح كأنما نفسنا من كربه أو خففنا من عبئه، وقال: نشرت لي السفور هذه القصيدة وقدمت لها بهذه المقدمة. . . ثم أدى المقدمة عن ظهر الغيب). . . (وكان حين عرفته في إبان شبابه وكنت حين عرفني في عنفوان شبابي)

ففي هذه الأسطر نرى علي طه وهو ناشئ مغمور ينشط لإلقاء شعره ويرتاح، ويحفظ عن ظهر الغيب مقدمة فيها تنبأ ونصيحة، ثم يعرف صاحب هذه المقدمة التي احتفي بها كل الاحتفاء فإذا هو شاب لا يكبره كثيراً في السن. وتلك مقدمات تصل إلى نتيجة واحدة هي شدة إحساسه بأنه مغمور وأن قريحته في حاجة إلى أن يرفدها بمادة اللغة وآلة الفن. وربما تأثر بأسلوب الزيات الأنيق، فما زال يتحرى الأناقة ويتوخاها حتى أصبح أكثر الشعراء المصريين أناقة غير مدافع. وقد واتته الشهرة الأدبية سخية فياضة؛ ولكن نفسه الحساسة لم تسلم وما كان لها أن تسلم من عقابيل هذا الشعور القديم، فيقول في مقدمة إحدى قصائده: (ألقاها الشاعر في حفل كان من خطبائه الأساتذة الإجلاء: لطفي السيد باشا، الدكتور طه حسين بك، مصطفى عبد الرازق بك، أنطون الجميل بك). وقد جعل هذا دأبه في تقديم كل القصائد التي ألقيت في حفلات عامة كأنه يستكثر بطريقة لا شعورية أن يلقى شعره بين هؤلاء الذين كانوا يملئون أفق الأدب أشعة وشهرة وهو ناشئ مغمور في المنصورة. بل هو يلجأ إلى أغرب من ذلك في تقديم الجندول (تغريدة الموسيقار الكبير محمد عبد الوهاب) كأن عبد الوهاب لا يتغنى إلا بجيد الشعر ومختاره، مع أنه غنى الجندول وغنى بعدها (ماتهونش)، (وبلاش تبوسني)

وهذا الأثر الذي أتحدث عنه يبدو كذلك في كثرة حديث الأستاذ علي طه عن الشاعرية ومناجاته لها في (ميلاد شاعر) و (غرفة الشاعر) و (قبر الشاعر). . . ثم في حديثه عن نفسه بقوله (الشاعر)، فهو بهذا وذاك يمدح نفسه وشاعريته عن طريق غير مباشر ولا شعوري

وألاحظ هنا كثرة لجوء الشعراء الشبان إلى الحديث عن أنفسهم بقولهم: (زار الشاعر قرية كذا وقال فيها) مثلاً، والشاعرية كموهبة لا يجوز أن يفخر بها صاحبها بل يدع

للناس أن يتحدثوا عنها ويمدحوه بها وإلا جاز لكل صاحب موهبة أن يتحدث عن نفسه فنسمع مثلاً (قال الذكيُّ في حديثه) أو (قهر القويُّ خصمه في الملاكمة) ولن يكون هذا أغرب من ذاك

وأعود فأكرر ما قلته في أول هذا المقال من أن الأدب العصري مدين للحرمان بنبوغ الشاعر الموهوب الأستاذ علي محمود طه وبضلال الملاح التائه في بحار الجمال والخيال، وهو ضلال حبيب إلى النفوس المرهفة الحس، وهو أعود بالفائدة من هداية القابعين المتزمتين.

(الإسكندرية)

إدوارد حنا سعد

البريد الأدبي

ذو القرنين

قرأت بالعدد (509) نبذة للأستاذ عبد المتعال الصعيدي يرد بها على نظريتي الجديدة عن ذي القرنين التي هدمت بها النظرية القديمة التي كانت تقول إن ذا القرنين المذكور في القرآن الكريم هو الإسكندر الأكبر، وأثبت بالأدلة القاطعة (بالعدد 508) أن ذا القرنين كان مؤمناً، في حين أن الإسكندر كان وثنياً فاسد الأخلاق سفاكاً للدماء سكيراً قاسياً. وينص القرآن الكريم على أن ذا القرنين اتجه غرباً أولا ثم اتجه شرقاً، في حين أن الإسكندر اتجه شرقاً أولا ثم اتجه جنوباً ولم يتجه غرباً إلا أخيرا.

وأثبتُّ أيضاً (بالعدد 506) أن كلمة ذا القرنين ما هي إلا لقب ملوك الفرس ابتداء من الملك كورش إلى الملك دارا الثالث بدليل أن آيات القرآن الحكيم عن ذي القرنين نزلت بناء على سؤال اليهود للنبي عليه الصلاة والسلام عن ذي القرنين المذكور عندهم في التوراة (سفر دانيال) والتوراة تنص صراحة على أنه لقب ملوك دولة فارس التي أسقطها ملك من ملوك اليونان. وإذا بحثنا في التاريخ عن ملوك هذه الدولة الذين ينطبق عليهم هذا الوصف نجدهم ابتداء من الملك كورش العظيم إلى الملك دارا الثالث الذي في عهده قضى الإسكندر على دولة الفرس. والملك كورش اتجه غربا أولا واستولى على سوريا حتى وصل البحر الأبيض (حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة). ثم اتجه بعد ذلك شرقا حتى وصل بلاد التركستان حيث توجد إلى الآن آثار السد القديم (اقرأ العدد 506) والملك كورش وخلفاؤه كانوا على دين زرادشت نبي الفرس الذي كان يؤمن بوحدانية الله والجنة والنار والصراط والأعراف (اقرأ العدد 508)

وبعد هذه الأدلة القويمة نجد الأستاذ يقول بالعدد الأخير إن وثنية الفرس واضحة، في حين أنه لو كلف نفسه قراءة كتاب تاريخ فارس كما أوضحت بالعدد 508 لاقتنع بهذا الرأي ووجد أن الملك كورش كان على دين زرادشت. ولو اطلع على كتاب صبح الأعشى وكتاب تاريخ حياة زرادشت تأليف من أن دين زرادشت يؤمن بوحدانية الله والجنة والنار والصراط والأعراف. ولقد كان زرادشت قبل الملك كورش بسنين قلائل، ولذلك كانت مبادئ هذا الدين لا تزال سليمة لم يطرأ عليها تحريف بعد

ويقول الأستاذ إن سوريا تقع شمالاً بالنسبة لفارس. في حين أن نظرة بسيطة إلى أي مصور جغرافي تثبت لنا أن خط عرض 35 يمر في وسط فارس وسوريا. أي أنهما على خط عرض واحد. وعلى ذلك فالملك كورش عندما ذهب لفتح سوريا اتجه غرباً بكل تأكيد.

ويعتقد الأستاذ إن سوريا لا يقال لمن يصل إليها أنه بلغ مغرب الشمس لأنها في قلب المعمورة. وليسمح لي أن أسأله عن المكان الذي تغرب فيه الشمس على سطح الأرض. أليست كل بقعة على سطح الأرض تصلح لأن تكون مغرب الشمس لأن الشمس تغرب فيها كل يوم. كما تصلح لأن تكون مشرق الشمس لأن الشمس تشرق عليها كل يوم. فمعنى مغرب الشمس جهة الغرب بالنسبة للمكان الذي هو فيه. وليس المقصود بلاد المغرب فقط كما يظن. فالملك كورش اتجه غرباً حتى وصل سوريا فوجد الشمس تغرب في عين حمئة أي البحر

ويقول الأستاذ إن الملك كورش قتل ببلاد التتار وذو القرنين لم يقتل. ومن أين عرف أن ذا القرنين لم ُيقتل في حين أن القرآن الكريم لم يأت إلا بجزء يسير من تاريخه: (ويسئلونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا)، أي جزءاً من تاريخه ولم يذكر

تاريخ حياته كلها. ومع ذلك فالقتل لا يمنع الشخص من أن يكون مؤمناً أو عظيماً ويقول الأستاذ إنه وجدت دنانير عليها صورة الإسكندر يلبس قرني آمون. وهل عندما يلبس الإسكندر شعار الإله آمون نقول عنه إن له قروناً. وهل كل من يلبس على رأسه قروناً نقول عنه إنه ذو القرنين المذكور في القرآن الكريم؟ ومع ذلك فالتماثيل العديدة التي للإسكندر في جميع متاحف العالم ليس منها تمثال واحد بقرون وأخيراً ألفت نظر الأستاذ إلى أن كلمة ذي القرنين ليست شخصاً وإنما هي لقب عدة أشخاص، وهم ملوك دولة الفرس كما قلت ابتداء من الملك كورش إلى الملك دارا الثالث.

دكتور ابراهيم الدسوقي

نظرات في كتاب

أصدر الدكتور عبد الدايم أبو العطا البقري كتاباً جديداً عن (اعترافات الغزالي) ضمّنه اتهاماً خطيراً للإمام، وحملة عنيفة على كتابه المنقذ من الضلال. ولست أريد أن أعرض لنقد هذا الكتاب الجديد، فإن مؤلفه قد كفانا مؤنة النقد، حين تجاوز الوضع والتصنيف إلى النقد والتقريظ. ولكنني أريد فقط أن أسجل ظاهرة عجبت لها عجباً يستنفد كل العجب! فقد ذكر المؤلف في الخاتمة التي وقفها على الحديث عن قيمة بحثه وما له من أثر، أن في وسعنا أن نجمل أثر بحثه في أن (المنقذ من الضلال. . . ليس بتاريخ حقيقي لتدرج الغزالي الفكري، ولتطوره العقلي والنفسي، ولن يعتبر بعد اليوم مصدراً لذلك) (كذا!). وهذا القول فيه من لهجة التوكيد والتظاهر بالدراية والتثبت، ما يثير الابتسام العريض! فإن العالم الحق لا يجيز لنفسه مطلقاً أن يتحدث بمثل هذه اللهجة التي لا تخلو من تجاف عن الروح العلمية. ولعل الأستاذ المؤلف يعترف بذلك، إذا أنعم النظر في مقدمة الدكتور زكي مبارك التي ارتضى أن يُثبتها في أوّل كتابه. فقد ورد فيها ما نصه: (أنا أعتقد أن الغزالي صادق في كل ما رواه. . .) وهذا القول ينقض ما ادعاه المؤلف من أن المنقذ لن يعتبر بعد اليوم مصدراً لمعرفة تاريخ حياة الغزالي.

وثمة ظاهرة أخرى تعرض لقارئ كتاب الاعترافات؛ وتلك هي غرابة الأسلوب. فإنني أستطيع أن أؤكد أن أحداً لم يسبق الدكتور عبد الدايم إلى الكتابة بالأسلوب الذي أثره هو. وأي باحث علمي يرتضي لنفسه أن يملأ صفحات كتاب له بمثل هذه العبارات: (الله؛ الله؛ أيها الشيخ؛ إنك لرجل قوي وبطل، نعم قوي؛ لأنك احتملت ما لم يحتمله الناس. . . الخ) ص96؟ أو يقبل باحث أن يستعمل مثل هذه العبارات التي لو أوردها كاتب في مجادلة كاتب آخر لانتقصت من قدره في نظر الناس؟ هذا سؤال أترك الإجابة عنه للأستاذ المؤلف نفسه، فإنني أحسب أنه يوافقني على أن البحوث العلمية لا تكتب بمثل هذا الأسلوب.

أما إذا تركنا (الشكل) وانتقلنا إلى (الموضوع)، فإننا نأخذ على الكتاب عدة مآخذ. والمأخذ الأول عندنا أن المقارنة التي عقدها المؤلف بين الغزالي وديكارت، مقارنة فاسدة لا أساس لها. وكان الأجدر بالمؤلف أن يقارن بين الغزالي والقديس أوغسطينوس فإن ديكارت ليس فيلسوفاً متديناً يقيد نفسه بعقيدة ما من العقائد، وإنما هو فيلسوف حر الفكر، لا يعطي لمشكلة العقل والنقل من الأهمية ما يقفه عليها رجل مؤمن كالقديس أوغسطينوس. وديكارت لم يكتب لنا (اعترافات) يصوّر فيها حياته تصويراً دقيقاً كما فعل رجل كأوغسطينوس الذي كتب اعترافات رائعة، أدرك البعض قيمتها فاشتغل بترجمتها.

والمأخذ الثاني أن المؤلف يضارب أقوال الغزالي بعضها ببعض، في سبيل التوصل إلى الحكم على اعترافات الغزالي بأنها كذب وافتراء. وهذا منهج خاطئ لا يوصّل إلا إلى نتائج فاسدة، لأن الأقوال التي يضاربها المؤلف بعضها ببعض، ذُكرت في عهود مختلفة، والتطور يفرض على الغزالي أن يغير من رأيه تبعاً لتغير حالته، فلا يمكن إذن أن نستنتج شيئاً من تعارض الأقوال واختلاف الآراء كما أراد المؤلف.

زكريا إبراهيم

ضبط الخلاف بين العربية والعامية مستحيل

اطلعت في البريد الأدبي من (الرسالة) على كلمة موجزة، تحت عنوان: (ضبط الخلاف بين العربية والعامية)

وخطأ هذه القاعدة الجديدة أنها بنت كون اللفظ العاميّ عربياً مقبولاً على مجيئه موافقاً في الضبط لأصل من أصول المفردات العربية. وهذا ظاهر الفساد؛ فإن المتواضع عليه بين العلماء أن اللفظ العامي ما لم ينطق به عربي، سواء في الصوغ أو في الشكل. وهذا محل وفاق قطعاً، وأن المدار في تمييز العربي من العامي على النقل عن المعاجم اللغوية. وإلا لجاز أن يخترع العامي ألفاظاً لا حصر لها، على نمط الأوزان العربية. فهل نقول: إنها عربية لأنها وافقت أصلاً من أصول الكلمات العربية؟ وبنت كون اللفظ عامياً غير صحيح على مجيئه مخالفاً لقواعد الصرف. ولو أخذنا بهذا القول على إطلاقه لخطأنا نحو ربع اللغة العربية من الألفاظ الشاذة عن القياس الصرفي كمصادر الثلاثي وجموع التكسير، وبعض صيغ النسب والتصغير!

وأما خطأ التمثيل فقد مثل الكاتب لما يجب أن يكون عامياً غير صحيح بقول العامة: عباية في عباءة، ثوب في ثوب، جعر في جأر، معللاً بأن إبدال الهمزة ياء، وإبدال الثاء تاء، وإبدال الهمزة عيناً لا يرجع شيء منها إلى قاعدة صرفية.

أما عباية فقد نقل الثقات من أهل اللغة، أنها عربية مسموعة. نعم إن استعمالها بالهمزة أكثر وأشهر.

وأما جعر في جأر فذلك إبدال مطرد في لغة بني تميم، فقد حكى ابن مالك في شرح الكافية:

أنهم يبدلون الهمزة المتحركة عيناً، وأما توب بالتاء فهو من تحريف العامة، ولكن لا لأنه إبدال غير قياسي فحسب، بل لأنه لم ينقل عن العرب، ولو نقل عنهم لقبل، فقد ورد في اللغة تاب إلى الله وثاب إليه بمعنى واحد لتقارب مخرجي التاء والثاء، ولكنهم لم يقولوا في ثوب لما يلبس: توب بالتاء لئلا يلتبس بتوب مصدر تاب بالتاء المثناة.

بهذا ظهر أن ما جعله عامياً برأيه الجديد، عربي صحيح، وأن قواعد الصرف جُعلت لضبط الكثير المسموع من كلام العرب، لا للتحكم في اللغة بجعلها كلها خاضعة لهذه القواعد. ولذلك ورد الشاذ والنادر مما لم يمكن ضبطه بقاعدة

ومثل لما هو عربي صحيح بقول العامة: تِرمس (بكسر التاء)، وقولهم: حُصان (بضم الحاء)، وقولهم: معدَن (بفتح الدال)؛ لأن هذا كله لم يخالف قاعدة من قواعد العربية. وذلك أوغل في الفساد من سابقه، لأنه إذا جاز للعامي أن يقول في حِصان بكسر الحاء: حصان بضمها، جاز أيضاً أن يقول: حَصان بفتح الحاء؛ لأنه على أصلك الذي جريت عليه على وزان (غزال). وفي ذلك خلط بين الأبنية العربية

نعم إن كسر التاء في لفظ ترمس ونحوه لا ينشأ عنه اختلاط في الأبنية ولا تأثير في المعنى، ولكننا إذا فتحنا هذا الباب على مصراعيه للعاميّ، تجرأ على التحريف في ضبط سائر المفردات حتى المتواتر منها.

وهاهنا ملاحظة جديرة بالنظر، وهي أن حضرة الكاتب ترك التمثيل لما يميز فيه بين اللفظ العربي والعامي بقواعد النحو والبلاغة. ويغلب على ظني أنه لا وجود لشيء من ذلك إلا في مخيلة الكاتب!

عبد الحميد عنتر

أستاذ بكلية اللغة العربية

نزول عيسى

تنشر (الرسالة) ابتداء من العدد المقبل إن شاء الله بحثاً في نزول عيسى يرد به فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمود شلتوت عضو جماعة كبار العلماء على الشبه التي أثارها بعض الناس على فتواه السابقة التي نشرت بالعدد (462) من الرسالة فنلفت إلى ذلك

أنظار القراء.

العدد 513 - بتاريخ: 03 - 05 - 1943

قاسم أمين

للأستاذ عباس محمود العقاد

قرأت في مجلة (روز اليوسف) حديثاً للسيدة الجليلة قرينة قاسم أمين رحمه الله، نشرته المجلة لانقضاء خمس وثلاثين سنة على وفاة ذلك المصلح الكبير، وكان من المصادفات الموفقة أن تؤدي هذا الواجب - واجب الذكرى - مجلة تصدرها سيدة. ففي ذلك بعض الوفاء (المناسب) لموضوع الوفاء

وقاسم أمين رحمه الله حقيق بالتذكار لغير سبب واحد: حقيق بالتذكار لغزارة علمه؛ وحقيق بالتذكار لنزاهة قضائه؛ وحقيق بالتذكار لدماثة خلقه ولطافة ذوقه وامتزاج الثقافة الروحية فيه بالثقافة الفكرية؛ وحقيق بالتذكار قبل كل شيء، وبعد كل شيء، لدعوته إلى إنصاف المرأة وإخراجها من ربقة الظلم الذي كان محيطاً بها وبالرجال

كتبنا عنه قبل ثلاثين سنة في (خلاصة اليومية) فقلنا: (إن المرأة المصرية مدينة لقاسم؛ لأنها كانت سجينة فأطلقها، وكانت أمة فأعتقها. والأمة المصرية مدينة لقاسم؛ لأنها كانت شلاء فأبرأها من ذلك الشلل الذي أمسك شقها عن الحركة دهوراً وأعواماً. والإنسانية مدينة لقاسم؛ لأنه أنقذها من رق لا تجرؤ مصلحة الرقيق على مطاردته. والفخر في تحرير المرأة لا يزال الآن وبعد الآن من نصيب قاسم. أما من قفوه في هذا المقصد فهم إنما درجوا على طريق بينه الآثار وسلكوا في منهج مأبور)

وقد مضت الآن خمس وثلاثون سنة على وفاة قاسم، ومضى نحو خمسين سنة على دعوته الأولى في سبيل تحرير المرأة، وولد في يوم دعوته - بل في يوم وفاته - بنات يعشن الآن ويحسبن من الرجعيات المتخلفات، لأنهن يتحرجن من أشياء لا يتحرج منها بناتهن الناشئات اللائى ولدن متحررات، وغلون في الحرية أبعد الغلواء، ولما يسمعن باسم قاسم أمين ولا بالدعوة التي دعاها. لأنهن أخذن الحرية من عدوى المجتمع ولم يأخذنها من معرفة الحقوق ولا من العناية بنهضة المرأة

وإنصاف قاسم يستدعينا إلى تقرير هذه الحقيقة. فإن عدوى المجتمع شيء ودعوة قاسم إلى تحرير المرأة شيء آخر، وإنما اللوم كل اللوم فيما نعيبه الآن من الشطط والبهرج الكاذب إنما هو من عدوى المجتمع لا من الدعوة القاسمية التي لا يزال لها فضلها ولا يزال لها

حقها من الثناء وإن شط بها الطريق على غير ما أراد صاحبها، وعلى غير ما يستطيع أن يريد

قاسم أمين قد رأى خطأ فنبه إليه

ويكفي أن يثبت الخطأ ليثبت الفضل في التنبيه إليه. ثم يكفي أن يكون التنبيه إليه شجاعة وتضحية ومجازفة بالمصير ليغنم صاحبه منا حمد الشجاع المقدم على التضحية في سبيل الخير والفلاح، ثم لا عليه بعد ذلك من الخطأ الآخر الذي جاءت به الحوادث ولا جناح عليه فيه

مثل قاسم أمين في دعوته إلى تحرير المرأة مثل محام فاضل غيور على حقوق الناس رأى إنساناً يساق إلى السجن بغير جريرة معروفة وبغير حجة مشروعة يقبلها القانون؛ فغضب المحامي الفاضل الغيور على الحقوق غضبة الكرامة الإنسانية، وجهد في إطلاق ذلك السجين جهده المستطاع، وبر بذمة القانون وذمة الصناعة وهو يخرجه من السجن ويسلمه إلى الطريق الطليق. ثم دهم الترام ذلك السجين المظلوم على مدى خطوات من سجنه فمات؛ أو بدا له أن يعرج على حانة فيذهل عن صوابه ويعتدي على بريء أو يصاب بما يسقمه ويضنيه

هو لو بقي في السجن لما قتله الترام، ولا وصلت يده إلى الكأس أو أقدم على العدوان

ولكن الرأي فيمن ظلمه وأدخله السجن، وفيمن أنصفه وأخرجه منه، لا يختلف مع كل ما حدث أو يحدث بعد انطلاقه

فلا يقول أحد فيه ذرة من إنصاف أن ظالمه خير من منصفه، وأن إدخال الناس السجن بغير الحق عمل أشرف وأكرم من إعادتهم إلى الحرية وفاقاً لحكم القانون والذي حدث في الدعوة إلى تحرير المرأة شبيه بهذا من وجوه كثيرة. فإن الذي أنكره قاسم من ظلم المرأة وحرمانها العلم والتربية والرعاية الإنسانية لحقيق بالإنكار، وحقيق بان يتبدل أو يزول. وهنا صنع قاسم ما لابد أن يصنع، وقام بالواجب الذي نكص عنه آخرون. فوجب له الحمد وعرفان الجميل، وإن ذهبت المرأة بعد ذلك في حريتها مذهباً لم يكن ليرضاه

دعوة قاسم هي فضيلة قاسم التي تحسب له ولا تحسب عليه

أما (عدوى المجتمع) فليست من فعله ولم يكن في يديه أن يمنعها ولو كف عن دعوته وسكت عنها في زمانه كل السكوت

فهذا الشطط الذي نراه اليوم إنما نشأ من أمور كثيرة بمعزل عن الدعوة القاسمية

وعن كل دعوة من قبيلها
نشأ من رؤية المرأة الأوربية في مصر بالمئات والألوف، ثم هجوم الناس على المحاكاة العمياء بغير تفرقة بين الأحوال عندنا والأحوال عند الأوربيين
ونشأ من الصور المتحركة التي تعرض لنا كل يوم مفاتن الحياة الغرامية بين الجنسين على نحو يراد به الإغراء وقلما يراد به التعليم والتهذيب
ونشأ من انتقال الألوف من أبنائنا إلى أوربا يعيشون هناك كما يعيش الشبان الميسورون في غير رقبة ولا تقيد بالعرف الشرقي الذي نشأوا عليه
ونشأ من القراءة الرخيصة التي يصح أن يقال فيها ما يقال في العملة (إن الرديء منها يطرد الجيد من الأسواق)
ونشأ من الأزمات الاقتصادية ثم من تداول الضنك والرخاء على البلاد، وفي هذا التداول ما فيهمن إفساد الأخلاق وزلزلة العرف والبيئة
ونشأ من معقبات الحرب الماضية التي عمت جميع الأقطار، ولم تخصنا نحن الشرقيين أو نحن المصريين
وهذه كلها أسباب أين منها دعوة قاسم أمين وأين منها جهود قاسم أمين أو جهود نفر من المصلحين؟
إن القدوة الاجتماعية لتصنع الكثير ولو قامت في طريقه العقبات ولم يرتفع بالدعوة إليه صوت داع من الدعاة؟
فلم يقم في مصر (قاسم أمين) يؤلف الكتب ويستهدف للملام في سبيل (التنحيف) وإقلال الطعام
وإن الإقلال من الطعام لعسير جد عسير، لأنه تضييق على الحرية وتضييق على الجسم في وقت واحد. . . ومع هذا تصبر المرأة على الحرمان والشدة وتزهد في الطعام المشتهى لتظفر (بالنحافة) المموقة التي فرضتها العدوى الاجتماعية ولم تفرضها على المرأة دعوة
ولا عقيدة
بل فرضت الدعوة القوية صياماً في وقت من أوقات السنة وأنذرت على تركه بالعقاب في الدنيا والآخرة، فلم تصم امرأة واحدة لاتقاء هذا العقاب إلى جانب عشر نساء ممن يصمن في العام كله مرضاة للعرف وتلبية للعدوى الاجتماعية. وما كانت دعوة قاسم رحمه الله بأقوى من دعوة الصيام ونذير العقاب على تركه باسم الدين
إنما هي آفة الإصلاح حيث كان
وإنما هي القسمة السيئة التي يصاب بها المصلحون في الحياة وبعد الممات ففي حياتهم يكرهون ويصابون
وبعد حياتهم تعرض لدعواتهم العوارض التي لا ذنب لهم فيها ولا قدرة لهم عليها فيلامون من حيث يسكت الناس عن علة الملام
وقد تثمر دعواتهم أحسن الثمر بعد زمن طويل، فإذا الناس يستمتعون بالثمر وينسون غارسيه، ولعلهم إن ذكروهم لا يشكرون ولا يكترثون
ذلك كله حق نلمحه بيننا ونلمسه بأيدينا كل يوم، فإن أوجب علينا شيئاً فإنما يوجب علينا أن نضاعف الجزاء للمصلحين الذين يساء إليهم بمقدار ما أحسنوا، وإنهم لأقمن الناس بإحسان
قالت السيدة الجليلة قرينة قاسم بك في حديثها الذي أشرنا إليه: (إنما كان قاسم ينادي بالسفور الشرعي الذي لا يزيد عن إظهار الوجه واليدين والقدمين ولا يتجاوزه إلى إظهار العورات وإلى اختلاط المرأة بالرجل على النحو الحاصل الآن. وإني أعتقد أن قاسم بك لو كان حياً لما رضي عن هذه الحال بل لانبرى لمحاربتها. ويحزنني أن أرى الكثيرين يسيئون إلى قاسم أمين إذ يحملونه المسئولية عن هذا التهتك وينسبونه إلى دعوته، فيدللون بذلك على أنهم يسيئون فهم الدعوة)
وصدقت السيدة الجليلة في قولها عن مقاصد قرينها الكريم وهي بها أدرى. فقد أراد قاسم عزة للمرأة تخرج بها من ذلة الجهل وفقد المشيئة، فإذا بها قد وصلت إلى ذلة أخرى أسوأ لها من الذلة الأولى، لأنها من طريق المشيئة والحرية التي لا تحسنها فالعوارض التي نراها الآن إن هي إلا عوارض الضعف عن حمل الحرية قد أصيب بها

النساء كما أصيب الرجال في المرحلة الحاضرة، وغاية ما نرجوه أن تكون مرحلة انتقال وراءها مراحل استقامة وصلاح
عدت إلى كتب أدبائنا منذ أسبوعين لأكتب عنهم في مجلة (الاثنين) فقرأت في فيض الخاطر للأستاذ أحمد أمين مقالاً عن حرية المرأة بين جيلين يقول فيه بلسان البنات وهن يخاطبن أباهن:
(يا أبانا الذي ليس في السماء! رقصت أمنا فرقصنا، وشربت أمنا فشربنا، وشربت سراً فلتسمح لنا بحكم تقدم الزمان أن نشرب جهراً، ورأينا في روايات السينما والتمثيل حباً فأحببنا، ورأينا عريا على الشواطئ فتعرينا، وتزوجت أمنا بإذن أبيها فلنتزوج نحن بإذننا. قال: نعم. قلن: وقد أوصتنا أمنا أن نركب الروح ولكننا أمام مشكلة يشغلنا حلها. فإننا نرى شبان اليوم متمردين لا يخضعون خضوعك ولا يستسلمون استسلامك، فإرادتهم قوية كارادتنا، وهم يحبون السلطة حبنا، فهم أحرار ونحن أحرار، وهم مستبدون ونحن مستبدات، فكيف نتفق؟)
والذين نراه أن شكوى الجيل الحاضر من مشكلة الزواج أعظم من شكوى الجيل الغابر الذي منه آباؤهم وأمهاتهم، فليست المسألة قوة إرادة من هذا الجنس أو من ذاك، ولكنها مسألة حرية لا يقوى على علاجها هذا ولا ذاك. وإن هان شأن الفتاة حيناً فإن شأن الفتى ليهون في حين آخر على حسب المناسبة العارضة أو على حسب قانون العرض والطلب الذي يتحدث به الاقتصاديون. ويغلب الهوان على الفتاة في المعترك الحاضر لأنها هي التي كانت مطلوبة فأصبحت معروضة أو طالبة فأصابها الرخص والهوان من طريق الحرية، وهو ما عنيناه بالذلة في طريق مشيئتها بعد الذلة التي أصابتها قديماً من فقد المشيئة. فإذا وقع الفتى في قيد الزواج فإنه ليشكو من زواجه أضعاف ما كان يشكوه أبوه وجده، ويحار فيه الحيرة التي لا مخرج منها إلا بالفرار أو الاصطبار
هي بلوى الحرية المفاجئة بعد بلوى العدوى الاجتماعية، وهي حالة جديدة تحتاج إلى (قاسم أمين) جديد يعالجها ويرفع العقيرة بالثورة عليها، ولا يكون في عمله إلا فاتح صفحة من الكتاب الخالد الذي فتح صفحته السابقة قاسم أمين قبل خمسين سنة. رحمه الله.
عباس محمود العقاد
الحديث ذو شجون
للدكتور زكي مبارك
درس في الأخلاق - الكتاب الأسود - زكي مبارك كما يراه عباس العقاد - الطبيعة المصرية - الترجمة عمل مطلوب ومفيد، ولكنها لا تدل على الأصالة الذاتية
درس في الأخلاق
صديقي. . .
أوجه إليك هذه الكلمة، وأنا أرجو أن تقرأها فيما بينك وبين نفسك، بلا تفكير في التعقيب، لأني لن أستمع لك إن قابلتها بأي اعتراض، فما يتسع وقتي للمجادلة في أمور صارت عندي من البديهيات
وأسارع فأقرر أني لا أقيم وزناً للتشكي من الزمان، على نحو ما يصنع بعض الشعراء، وعلى نحو ما كنا نصنع يوم كنا نتوهم أن الحظوظ تقسم بلا ميزان
أنا اليوم أومن بأن لله قانوناً اسمه النظام، وهو يطرد في جميع الشؤون، فالشمس بنظام، والقمر بنظام، وجميع الخلائق بنظام يفسده أقل اختلال
لا يتقدم متقدم ولا يتأخر متأخر إلا وفقاً لقوانين أزلية لا يجوز عليها الانحراف
السيد سيدٌ بحق، والعبد عبدٌ بحق. . . ولو حمل الهرُّ روح الأسد لصاوله في حومة الصراع بلا تهيب ولا إشفاق
نحن المسئولون عن تخلفنا حين نتخلف، لأن في مقدورنا أن نصل إلى أعظم مكانة إن تحلينا بالصدق في الجهاد، ولأن في استطاعتنا أن نكون عظماء يشغلون التاريخ، إن ناضلنا في سبيل المجد نضالاً يقرع سمع التاريخ
وهذا لا يتيسر إلا إن راعينا نظام الوجود
ذلك السائل لا يستحق غير ذل السؤال، لأنه يخمد قواه عن عمد ليظفر بالصدقات العجاف

وذلك البليد الذي رضي أن يكون طول عمره من الذيول سيظل ذيلاً لأنه بليد. . . وذلك التابع السخيف لمتبوعين سخفاء لن يصلح لشيء، لأنه يستظل بأموات يعيشون في ظلال الأموات. . . وذلك الذي يتبهنس بفضل حماية غيره لن يرتفع بأي حال، وإن استعان بطنين الذباب

لك ما تريد لنفسك، على شرط أن تفهم تلك القوانين الأزلية فتجاهد في حدود الصدق جهاد الرجال

لك ما تريد لنفسك، على شرط أن تترك الأوهام التي تزعم أن الرجل لا ينجح إلا إن صادفته فرصة تنقله من حال إلى أحوال

الفرصة في يدك إن أردت، ولكن متى تريد؟

أنت لغفلتك تتوهم أن الذين سبقوك إلى المال أو الجاه لم يسبقوك إلا بفضل الفرص التي سنحت على غير ميعاد

الفرصة في يدك، وميعادها بيدك، على شرط أن تكون رجلاً لا يجوز عنه الاستغناء

زوّد نفسك بالمزايا التي ترفعك، واقض ليلك ونهارك في كسب الخصائص التي تجعلك من أهل التفوق، وإن استطعت أن تكون الرجل الأول في المذهب الذي اخترته لنفسك فلن تشكو الغبن ولو قامت في طريقك ألوف وألوف من الأشواك

الرجل الذي يستطيع أعداؤه وحاسدوه أن يهدموه ليس بالرجل العظيم، وإنما هو وليد ظروف ومصادفات جعلته شبحاً يوهم من يراه أنه شخص من الأشخاص، وما أريد لك هذا الحظ الضئيل

أتريد أن تكون كذلك المسكين الذي يعرف في قرارة نفسه أنه لا يستطيع الوقوف على قدميه بلا سناد؟

ما لهذه الغاية الضئيلة خلقنا، وما لهذا النصيب الهزيل منَّ الله علينا بنعمة السمع والبصر والفؤاد

الكسل آفة سخيفة، وهو يميت مواهبنا الذاتية، ويمضي بنا إلى مهاوي الخمود

الكسل مذموم العواقب، وهو من صور الموت، لأنه أول خصائص الأموات

وأنت يا صديقي كسلان، بغض النظر عن نشاطك في لحظات التشكي من زمانك، وهو نشاط المريض في لحظات الصراخ

غيِّر ما بنفسك يا صديقي ليغيّر الله ما بك، واحذر أن تأكل رغيفاً بغير حق، كأن تأخذ أجراً على عمل لا تؤديه أحسن الأداء

الكتاب الأسود

تسامع الناس قبل أسابيع بأن سعادة الأستاذ مكرم باشا عبيد نشر كتاباً سماه الكتاب الأسود، وقال من قرأوه إنه غاية في قوة الحجج والبراهين، فدفعني الشوق إلى الاطلاع عليه، وأنا بلا مباهاة أقرأ جميع ما تنشر المطابع فيما يتصل بالحياة الأدبية والوطنية لأساير اتجاه الأفكار في زماني

فماذا رأيت في الكتاب الأسود؟

رأيت مؤلفه اهتم بالشؤون الداخلية، وترك الشؤون الخارجية، فما معنى ذلك؟

أتكون وزارة النحاس باشا سلمت كل السلامة من التقصير في الشؤون الخارجية ونحن في زمن تكثر فيه المشكلات الدولية؟

إن كان هذا هو الواقع بفضل سكوت مكرم باشا فوزارة النحاس باشا أعظم وزارة تغلبت على المصاعب الدولية في أحرج لحظات التاريخ

وإن كانت هناك مآخذ على الوزارة الوفدية من الوجهة الدولية فسكوت مكرم باشا على تلك المآخذ سكوت المريب

التعرض للشؤون الداخلية يغضب النحاس وحده. أما التعرض للشؤون الخارجية فيغضب ناساً يراعيهم مكرم في السر قبل العلانية

ما هذه المغالاة في تعقب الشؤون الداخلية، مع ترك الشؤون الخارجية؟

الجواب حاضر: فسعادة الأستاذ مكرم باشا يتوهم أن مسلمة الأمور الدولية قد تنفع بعد حين، وقد تردُّه إلى وزارة المالية بعد أحايين!

نحن نبالغ في إيذاء المواطنين باسم الوطنية، ونسكت عن الشؤون الخارجية باسم الديبلوماسية، وذلك هو ما صنع الأستاذ مكرم عبيد!

هل أستطيع أن أسأل عن المصير الأخلاقي لمن يجرح قوماً عاشرهم في أعوام تزيد

على العشرين؟
وهل أستطيع سؤال مكرم عن سر سكوته فيما يختص بمتاعب مصر من الوجهة الدولية؟
من واجب مكرم باشا أن يقرأ هذه الكلمة ليراعيها في كتابه المقبل. وهذا درس في الوطنية أقدمه إليه بالمجَّان
زكي مبارك كما يراه عباس العقاد
تفضل الكاتب الكبير الأستاذ عباس العقاد فخصني بكلمة نقدية في مجلة الأثنين، وهي كلمة تؤيد رأيي في مذهبه الأدبي. . ألم أحدثكم أن منطق العقاد يستقيم في جميع الشؤون إلا فيما يتصل بزملائه من الأدباء المصريين؟
إن لي في أدب الأستاذ العقاد آراء صحيحة لم تتأثر بتحامل المعاصرين بعضهم على بعض، وقد أثنيت على أدبه في ظروف لا تسمح بأن ينتظر مني أي ثناء، فقد تخاصمنا وتعادينا في آماد وآماد، ثم كانت العاقبة أن أعترف بجهاده في الحياة الأدبية، وأن أذكره بالجميل حين يستأهل الجميل
قال الأستاذ عباس العقاد: (إن الدكتور زكي مبارك أقل الكتاب شخصية في حياته الكتابية وإن أسلوبه الكتابي معروض لتوقيع من يشاء)
فبأي منطق وبأي حق يقول الأستاذ العقاد هذا الكلام الغريب؟
هل يستطيع أن يدلنا على كاتب يضع اسمه على كتاب (النثر الفني) أو كتاب (التصوف الإسلامي) أو كتاب (عبقرية الشريف الرضي) أو كتاب (ذكريات باريس) أو كتاب (اللغة والدين والتقاليد) إلى آخر ما أخرجت من المؤلفات؟
ثم يقول الأستاذ العقاد ما نصه بالحرف:
(الدكتور زكي مبارك حضر الأزهر والجامعة المصرية وجامعة باريس، ولكنه لا يمثل الأزهر ولا الجامعة المصرية ولا جامعة باريس)
وهذا كلام يسرني، وإن أراد به العقاد إيذائي، فأنا أبغض الاستعباد للمعاهد والمذاهب، وأعتقد أن أدبي سيعيش بعد أن تصبح تلك الجامعات خبراً لا تعيه ذاكرة التاريخ
زكي مبارك هو زكي مبارك كما قال العقاد، وهي أصدق كلمة قالها العقاد، على كثرة ما صدق في أحكامه الجوائر على أدباء هذا الجيل
قد يقول الأستاذ عباس العقاد كما قال الدكتور طه حسين: إن شخصية زكي مبارك المؤلف قوية كل القوة، وإنما الخلاف في شخصية زكي مبارك الكاتب
وأقول إن هذا ظلمٌ من الدكتور طه والأستاذ العقاد، وأنا أتحدى هذين الرجلين بكتاب (ليلى المريضة في العراق) فهو آية من آيات البيان
وما رأي الأستاذ العقاد في المقالات التي أنشرها بمجلة الرسالة من أسبوع إلى أسبوع؟
أيظنها مقالات معروضة لتوقيع من يشاء، كما يقول؟
مجموعات الرسالة تشهد بما أملك من قوة الذاتية، وهي أيضاً تشهد بأن أسلوبي أقوى من أسلوبه وأبلغ، وبأني أحلق في آفاق لا يصل إليها ولو استمسك بأوهام الخيال.
والعقاد يعرف في قرارة نفسه أنه لا يقدر على مجاراتي في أي ميدان
وما رأي الأستاذ العقاد في القصائد التي نشرتها بمجلة الرسالة؟
هل يستطيع أن ينظم مثلها في أي غرض؟
أنا أتحداه أن ينظم قصيدة مثل قصيدة (مصر الجديدة) أو قصيدة (الإسكندرية) أو قصيدة (بغداد)
العقاد شاعر كبير، ولكنه لا يستطيع أن يكون أشعر مني، وله أن يحاول مصاولتي في ميدان الشعر إن أراد
قال الأستاذ العقاد: (زكي مبارك الكاتب لا يستغني عن زكي مبارك بحال من الأحوال، إذا استغنى المؤلفون عن أنفسهم في بعض الأحيان)
وهذا حق وصدق، وهو الدليل على ما أملك من قوة الذاتية؛ وإذا استغنى العقاد عن نفسه فأنا لا أستغني عن نفسي، لأنها أثمن ما أملك
أما بعد فما الذي دعا الأستاذ العقاد لمناوشتي بمثل ذلك التحامل الذي لا يليق بمن يكون في مثل منزلته الأدبية؟
وما عدوانه على كاتب ذكره بالخير في أكثر ما أنشأ من المقالات والمؤلفات؟

رأيي في العقاد لن يتغير بأي حال، فهو كاتب وشاعر وناقد ومؤلف، وسأزكيه عند قرائي بلا بخل وبلا إسراف، ولكني أرجوه أن يتذكر أن له صديقاً يكره أن يكون من المطففين

إن كان الأستاذ العقاد رأي بفكره الثاقب أني سأتلطف في الرد عليه فقد صدق فيما رأى، فما أستبيح الهجوم على رجل يحمل القلم منذ أعوام تجاوز الثلاثين، وقد تشارفت الأربعين، أطال الله في حياته وأسبغ عليه نعمة الصفاء

الطبيعة المصرية

وأراد الأستاذ العقاد أن يحكم بأن الدكتور هيكل كاتب لا يثب إلى الآفاق العالية ولا ينقض إلى الأغوار العميقة، فجعل ذلك وفاء للطبيعة المصرية، طبيعة الأرض التي يرويها النيل

بغير عناء كما يقول

وأقول إن الطبيعة المصرية لا تعرف السهولة التي عناها الأستاذ العقاد، وليس بصحيح أن أرض مصر يرويها النيل بغير عناء، فهو لا يؤدي واجبه في ري الأرض إلا بالجمة من القناطر والجسور، ولا ينكف شره إلا بمتاعب ثقال

والحق أننا أسرفنا في وصف الأرض المصرية بالاستواء، وكدنا نوهم أنفسنا بأن بلادنا قليلة التنوع في المناظر، وقليلة القدرة على إبداع النقائض في المذاهب والآراء

والعقاد مصريٌ من أسوان، فما الاستواء الذي يراه في الطريق بين القاهرة وأسوان؟

ومتى سهل ري الأرض في مصر وهو المشقة الأولى في حياة الفلاحين؟

والعقاد لا يبخل على نفسه بما بخل به على هيكل، فهو في نظر نفسه من الذين يثبون إلى الآفاق العالية وينقضون إلى الأغوار العميقة، فعن أي أرض ورث الوثوب والانقضاض؟

إن الوطن المصري وطن مبدع، وله في الإبداع ألوان، ومن آيات إبداعه أن يجود في العصر الواحد بأفانين من الأذواق والعقول في كثير من الميادين

ثم ماذا؟

ثم يبقى القول في تحامل العقاد على المازني، وقد أراد أن يستر تحامله فشهد بأن المازني أقدر كاتب على الترجمة من لغة أجنبية إلى اللغة العربية

فمتى كانت الترجمة عملاً ذاتياً يقام له ميزات بين أعمال الرجال؟

الترجمة شيء مطلوب ومفيد، ولكنها ليست بالعمل الذي يجعل فرداً أقدر من فرد، وأمة أقوى من أمة، ومزية مصر أنها تبدع قبل أن تترجم، وذلك دليل الأصالة الذاتية، وهو سر تفوق مصر على كثير من الشعوب

من المؤكد أن الأستاذ العقاد كان يمزح وهو يسطر مقاله لمجلة الاثنين، فإن بدا له أن يجد فليساجلني على صفحات الرسالة الصديق، وله مني خالص التحية وعاطر الثناء.

زكي مبارك

أيها النيل!

للأستاذ دريني خشبة

أيها النيل! يا أغنية الأزل! يا حابي العزيز! مالي كلما مررت بشاطئك طافت بي الأحلام، وازدحمت في روعي تهاويل الماضي، ولم أدر ما مسّ القُبل النحيلة التي تطبعها نسماتك على أفواف الزهر، وأفنان الدوح، وصفحة الماء، وخيال الشاعر، وجبين النوتي، وخدود العذارى؟!

ما لي أنسى جمال الصباح المفتر، والحدائق الضاحكة، ولازورد السماء الذائب في تبر الشمس، وأمواه الطبيعة المتبرجة، وعبير الربيع الفواح الذي يعطر جنباتك، ويتضوع فوق حفافيك، ويملأ ملاعبك بهجة، ويغازل الشعر والفن والجمال والحب. . . ما لي أنسى كل ذلك حينما تتصل روحي بروحك، وينبض قلبي بالذي ينبض به قلبك، فأحس كأنما ماؤك دموع حِرار تسكبها عيون الفراعنة، وكأنما قطراتك أحقاب المجد المؤثل التي حضّرت الدنيا، ومدينت الناس، وهدت القلوب الضالة إلى الله الحق، وسارت بموكب الإنسانية نحو النور المقدس الذي يهدي للرشد، وانتشلت العقول من غرائز الغابة بما أشاعت فيها من بينات الهدى والعرفان!

أيها النيل!

ما أروع ما يتغنى الزمان بنشيدك الخالد! هاهم أولاء الفراعين الصِّيد يهمسون فيهتز

الوادي، ويطرب الكرنك، وتصحو منف، وترتجف أون، وتبسم أكاليل الغار على رؤوس القادة، وتصرخ الصقور والبُزاة: هوراس! هوراس!

فأين هو هوراس اليوم؟ إنه جريح مهيض الجناح، لأنه كما رأرأ بناظريه في سمائك يا نيل رأى بُزاةً لا تهتف بعظمتك، ولا تسبّح بحمدك ولا تقدس لك. . . بُزاة لا ترعى لك كرامة لأنها تعدك فريستها. . . فإذا أدار هوراس ناظريه إلى الأحفاد وجدهم مشغولين عنك بالعبث، منصرفين عن الجد في أمرك إلى اللهو ومتاع الغرور!

ما أروع ذكريات الصبا على ضفافك يا نيل؟

لقد كنا نجلس فوق حفافيك وفي يد كل منا سنارة يُداعب بها صغار أسماكك كلما طلعت شمس أو غابت ذُكاء. . . وما أنس لا أنس يوم مرت بنا إحدى بواخر شركة كوك

للسياحة، فرأيت الدنيا تدور من حولي، ونظر إلى رفاق صباي فرأوا عبرة حزينة تترقرق في عيني. . . ثم تنهمر على صدري فتقف قريباً من قلبي الذي كان معها على ميعاد. . . لقد كان يخفق هو الآخر!. . . لقد ذكرت أسلافي صبية الفراعنة. . . صِبية مصر العظيمة الخالدة. . . يداعبون أسماكك يا نيل، فلا تمر بهم إحدى بواخر كوك للسياحة، تلك التي جرح مرآها كبريائي، وردت إليَّ طرفي وهو كسير حسير .!

لقد كان أبناء الفراعنة أولاد أمة كريمة لا يجسر الأجنبي على أن يحل بها إلا ضيفاً. . . أما أن يكون فيها سيداً ويتيه فوقك على بواخره الماخرات، فقد كنت تنقلب بحراً من الدماء يا نيل يقذف به إلى اليم، أو يُلقمه أفواه التماسيح

لهذا نسيت صيدي، ولمحني رفاق صباي أبكي. . . فلما وقفتهم على ما شجاني لم يلبثوا أن بكوا مثلي. . . وحطم كل منا سنارته، وقذف بها في أذيال هذا الثبج المنساب وراء باخرة كوك. وعدنا إلى القرية محزونين!

ما أجمل الخمائل التي تنشد فوق عدوتيك قصائد الورد يا نيل!

لله هذا الأيك الذي تغنى فيه حمائمك البيض بالنهار، ويرتل فيه الكروان أورادك بالليل! فتنة! أنهرك فتنة! ولياليك فتنة! وأنهرك يلعب في سماواتها السبع أتون، ولياليك يرقص بين أنجمها خون! أتون الشمس المشرقة الضاحكة. وخون البدر السافر الطروب!

لقد كانت مصر المجيدة مشرقة ضاحكة كالشمس، سافرة طروباً كالبدر، وكان المصريون يتوقدون كما يتوقد النيران الشمس والقمر، وكانوا ينشدون في الدنيا كلها عبق ورودك يا نيل، ويتغنون لموكب الإنسانية نشيد إنشادك، وورد أورادك، وموكب الإنسانية من ورائهم يسير. فماذا دهى الدنيا؟ إن الشمس ما تزال تشرق، وإن القمر ما يفتأ يسكب لُجينه في واديك

لن أنسى أبداً تلك الليلة المقمرة في رحبات خوفو، وبين يدي أبي الهول، حينما كنت أنصت إلى تسبيح الأباء الصناديد يملأ الفيافي والبيد، وهتاف الأجداد الأمجاد، يدوي بين تلك الأوتاد. . .

لقد خيل إليّ أنني عدت القهقري لأعيش في هذا العصر بين أسلافي الأعزة، فذهبت بخيالي أول ما ذهبت إلى أقرب معبد فشهدت قومي يصلون لله ويقولون: (نحب الله والوطن والملك، نحب الحياة العزيزة ونحب العمل الخالص لوجه الله والوطن والملك. الله والوطن والملك في كل مكان وليس في المعبد فقط)

ثم ذهبت إلى أقرب بيت فوجدت في حديقته الصغيرة من ورودك يا نيل، وذهبت إلى البيت الذي يليه فشممت فيه عبير رياحينك، فتنقلت بين المنازل كلها فلم أجد واحداً، واحداً فقط ليس له حديقة. وهنا ذكرت زهرة النيلوفر. زهرة اللوتس المقدسة، تلك الزهرة التي كانوا يبرزونها في كل شيء. في مبانيهم وفي ملابسهم وفي آنيتهم وفي سفائنهم. . . وحتى في مقابرهم. . . فذكرت أنهم كانوا دائماً يعيشون فيك، لأنك أصل الحياة ومصدر العيش وجالب الخير وصانع المدنية. لذلك هم يقدسونك ولا يدنسون عُدويتك بما يدنسها المصريون اليوم مما لا أسميه (!). . . ولا يلقون فيك الجيف والرمم. بل يحيونك بباقات الورد وأكاليل الرياحين وضفائر اللوتس. أليست بلادهم حديقة يا نيل؟ أليست مصر أينع حدائق الدنيا؟ إن الأمة التي لا تفهم سر الحديقة، ولا تعرف لغة الورد، هي أمة لا قلب لها يا سيد الأنهار

ثم ذهبت إلى دار ندوتهم فوجدت فيها ملأ يأتمرون. . . لم أسمع كلمة آثمة تقال يا

نيل. . .! لقد أصغيت إليهم يمحصون خير هذه البلاد في أدب وهدوء. . . وفي وقار. . .
لم أسمع مطلقاً كلمة لاغية يصيب بها مصري عرض مصري، ولم أر مصرياً يرمي مصرياً بالمروق، ولا بانتهاب مال الدولة، ولا باحتساب أقاربه وأصهاره، وإيثارهم بالمناصب والأعطيات. . . ولم أر واحداً منهم يحتكر الوطنية والإخلاص لمصر، ويسفه على معارضيه ويرسل لسانه فيهم، ويتهمهم بممالأة العدو. . . مما نستهين به اليوم، ونصنعه في غير مبالاة ولا اكتراث، كأنه من الهنات الهينات. لقد رأيتهم جميعاً كرماء على أنفسهم. . . لا يحمل أحدهم موجدة لأخيه، ولا يبطن له ما يكره. . . أليسوا يقولون في صلاتهم: (نحب الله والوطن والملك. . . نحب الحياة العزيزة ونحب العمل الخالص لوجه الله والوطن والملك. . . الله والوطن والملك في كل مكان. . . وليس في المعبد فقط!)
!ما أجمل ما كانوا يأتمرون في غير سفاهة ولا مهاترة، في سبيل إسعادك يا نيل
غير أنني استيقظت من أحلامي فجأة، لأن أحد رواد الأهرام عثر بي وانحطم كالبنيان الشاهق فوقي. . . فلما نهض ونظرت إليه. . . وجدته. . . أحد جنود الأنزاك! وعندما أدرت عيني. . . وقعتا على وجه أبي الهول. . . فرأيته يضحك عليَّ. . . ساخراً بي وبأحلامي. . . والذي أذهلني أنني رأيت شفتيه الغليظتين تنبسان. . . فأرهفت أذني. . . فسمعته يقول: (ألست تعلم أن هؤلاء الأنزاك قد جاءوا يدافعون عنك؟ لم لا تعتذر للجندي الباسل!)
إلا أنني لم أعتذر للجندي الباسل، ولم أصدع بما أمرني أبو الهول. وكانت هذه هي أول مرة يعصى فيه أمر للملك خفرع!
وأقسمت إن أنا أصبحت في برلمان مصر فلن أهاتر ولن أسفه، ولن أتهم زعيماً عظيماً بالمروق، ولن أخوض في عرض أحد من المصريين، ولن أفرغ لهذا العبث؛ وإن أنا أصبحت زعيماً فلن أحتكر الوطنية لنفسي، ولن تثيرني تخرصات السفهاء! أليس وجود هؤلاء الأنزاك كفيلاً بأن يشغلنا عن كل شيء؟ لماذا يجدُّ العالم ونهزل؟ لماذا تبكي الإنسانية ونعبث؟ لماذا لا نأخذ عبرتنا من أنهار الدماء التي ضرجت جنبات مصر نفسها؟ لماذا لا نصغي إلى همس الفراعنة؟ لماذا لا يفزعنا هديرك الصخاب يا نيل!
لقد كنا نتعلم في المدارس أن تلال العرب وتلال لوبية تحميانك من رمال الصحراء يا نيل! والحمد لله، إنهما ما تزالان قائمتين بوظيفتهما التقليدية، وما تزال أنت دائباً على فطرتك التي فطرك الله عليها. . . تأتي بالزيادة في ميعادك فتأتي بالخير واليمن والبركات. . . قصة العنبرة السوداء والزبرجدة الخضراء التي رواها عمرو - إلى عمر - ما تزال تمثل على مسرحك إلى اليوم، كما كانت تمثل منذ آلاف السنين قبل عمرو وعمر. . . وما تزال المياه الحمراء تجري من الجنوب إلى الشمال فتنبت الحنطة والبقول وتهتز الخمائل ويُؤتي الأُكل
أفتحميك التلال يا نيل ولا نحميك، وتعطينا ولا نفديك، وتحفظ عهودنا ولا نحفظ لك عهداً، ويقصد بك السوء فلا نقف من حولك جنداً؟! لشدَّ ما كفرنا بغناء بلابلك، وشدو جداولك، وفيء خمائلك، وزلال سلسبيلك، وفيض نوالك، وعبق رياحينك. . . وبكل أياديك يا نيل!
كيف يخصب ثراك وتجدب قلوبنا؟ كيف ينبت الورد في واديك وينبت الشوك في نفوسنا! كيف تدب الحياة في مروجك ويتسرب الموت إلى أرواحنا؟
. . .إن هذه خلائق الصحراء يا نيل! الصحراء. . . حيث الجدب والشوك والحسك الصحراء الغادرة التي لا تعرف الوفاء. . . الصحراء التي يصيبها الوابل ثم تجحده، لأنه يغور في قلبها الذي يشبه قلوبنا. . .
!!ما أشد عواصفها الهُوج. . . هذه التيهاء المضلة
.ولكن. . . لا. . . إنها مهما بلغت من العنف فلن تبلغ ما بلغته عاصفتنا الهجوم من بأس. . .
لله يا نيل تلك المحنة الأخلاقية التي تمزق وحدتنا، وتمسح وطنيتنا، وتبعثر جهودنا، وتشعب أمرنا، وتزيد في وهننا، وتضحك الأمم علينا، وتُغري الأعداء بنا، وتلبسُنا شيعاً وأحزاباً، وتذيق بعضنا بأس بعض!
أهكذا نستقبل الربيع في جنَّاتك يا نيل؟
أين فرعون المحتفل والكاهن الشادي والشعب المغنى!

أين البنود والأعلام؟ أين الشعراء والأقلام؟ أين العلماء الأعلام؟
أهكذا نستقبل الربيع بعواصفنا كما يستقبلنا بعواصفه؟ أهكذا لا نستطيع أن نتعلم درساً في الجد من المجزرة البشرية الماثلة؟ أإلى هذا الحد تعقم وطنيتنا يا نيل! أفي زحمة تلك الدموع التي تسكبها عيون اليتامى والمنكوبين في بولندة وروسيا والصين. . .
نعبث فوق ضفافك هذا العبث يا نهرنا المقدس؟
يا رب!
تدارك اللهم هذه الأمة فلم شملها، وارأب صدعها، واحسم داءها، وسدَّ ثُلمتها، وأقم ما مال من أمرها، وأصلح بالها، وأقل عثرتها، وألهمها السداد منك، والتوجه إليك، والإيمان بك؛ فهذه محنة ليس لها إلا أنت. . . إن لم تتداركنا فمن يرحمنا؟ وإن غضبت علينا فمن لنا؟. . . اللهم فأصلح ذات بيننا فقد أعضل أمرنا، وبهظنا الخلاف حتى ساء حالنا. . . اللهم إن هؤلاء قومي قد ضلوا سبيلك الحق فردهم إليه، واستفزهم الشيطان بغروره فنجهم منه، وافتتنهم فلا تدعه يستحوذ عليهم. . . اللهم إلا تهدنا نضل، وإلا تنجنا نهلك؛ فهذِّب اللهم أعراقنا، وطهر أخلاقنا، فلا ملجأ لنا إلا إليك، ولا نعوذ إلا بك يا قريب!
أرأيت يا نيل إلى هذه الوحدانية الجميلة الهينة الحنيفية؟! أليست خيراً ألف مرة من أربابك القدامى المتفرقة؟ أوزوريس وإيزيس وولدهما هوراس! وهذه العصبة التي لا تنتهي. . .
ورع. . . وأمون. . . ثم أمون رع. . . بل الله الواحد الخلاق.
فما لنا نقدس لله الواحد وقلوبنا شتى؟!
ما لنا نعتصم بحبال من الشيطان ولا نعتصم بحبل من الله!
ما لنا تفرقنا وقد أمرنا الله أن نتحد؟
علام الخلف بيننا والوطن ما يزال جريحاً يهتف بنا ويناديا؟
هل يليق أن تكون الوطنية مغنماً ومغرماً والأقوياء يتطاحنون علينا؟
أرأيتم إلى فرنسا ماذا أصابها؟ إن آخر بطلين من أبنائها ما يزالان في شقاق. . .
فمن لك يا نيل. . .!
دريني خشبة
سليمان الحكيم
التوفيق الحكيم!
للأستاذ سيد قطب
(تتمة)
لو انتهت تمثيلية (سليمان الحكيم) عند الحد الذي وصلنا إليه آنفاً ما نقصت في نظرنا إلا القليل من وقعها النفسي، ومن أهدافها الإنسانية. ولكنها كانت تفقد - ولا شك - شيئاً من كمال الصناعة الفنية التي يبدو أن (توفيق الحكيم) يعني بها كل العناية، ولا سيما في هذه التمثيلية الأخيرة. فلما أن بدأ تمثيليته بالصياد والعفريت وجهاً لوجه ثم توسع فيها شيئاً فشيئاً في عرض الأشخاص وفي المجال الذي يعرضهم فيه، كان من كمال هذه الصناعة أن يضيق في مجال العرض وفي الأشخاص شيئاً فشيئاً حتى إذا وصل إلى النهاية كان على المسرح فقط الصياد والعفريت وجهاً لوجه كما بدآ، وكان أن يقذف العفريت القفاز فيلتقطه الصياد، وأن يعلنا ابتداء الحرب الأبدية بينهما بعد انتهاء الرواية الموضعية!
وتلك طريقة توفيق الحكيم المختارة في الصناعة الفنية وفي الأهداف الفلسفية على السواء، في جميع تمثيلياته الرمزية الفلسفية؛ أما التمثيليات والقصص الواقعية فلها نظام آخر وشأن آخر.
ولعله يحسن هنا أن أقول: إن توفيق الحكيم لم يحسم برأي في مشكلة من المشاكل التي أثارها في رمزياته جميعاً. (فشهريار) في نهاية (شهرزاد) ذهب إلى حيث لا يعلم أحد ولم يحل مشكلة القلق العقلي التي صارع من أجلها المكان والمحسوسات والأشياء! و (بيجماليون) مات وفي نيته أن يصنع في الفن ما لم يصنع وأن ينفذ الوحي الأخير الذي يموت كل فنان أصيل وهو في نفسه أمنية توسوس له في الخيال! و (أهل الكهف) فارقوا الحياة، وهم لا يدرون إن كانوا في حلم أم في حقيقة، ولم يدر القراء - ولا توفيق الحكيم نفسه - من المنتصر؟ القلب أم الزمن، والفناء أم الإنسان! وهاهو ذا

الصياد والعفريت في (سليمان الحكيم) يعلنان الصراع الأبدي في اللحظة الأخيرة ثم يسدل الستار!

تلك طريقة (توفيق الحكيم) التي لا تتخلف. ومنشئوها - فيما أعتقد - طبيعة توفيق نفسها،

فهو (الأديب الحائر) كما قاله عنه مرة الدكتور طه حسين. إنه الشك غير الواعي في طبيعة هذا الفنان، وإنه القلق الدفين في نفسه، يصدانه عن التعرض للحلول الحاسمة وعن الفصل فيما يعرض من مشاكل وأزمات. وإن ظن أنه مختار في اختيار هذه الطريقة!

ومع هذا فكم وددت لو تخلفت هذه الطريقة في (سليمان الحكيم)، أولو سار عليها، ولكنه ظل - كما بدأ - يدع الحادثة تتكلم، بدل أن يلقن أشخاصه الحديث، وبدل أن يطيل الحوار الفلسفي ليعرض به ما يريد أن يعرضه من المشكلات

لقد نسج (توفيق الحكيم) أهل الكهف وشهرزاد وبيجماليون على منوال واحد يختلف نسيجه بعض الشيء في الواحدة منها عن الأخرى، ولكنه منوال واحد على كل حال. فأما (سليمان الحكيم) فقد نسجت على منوال آخر يختلف في طبيعة قالبه عن ذلك المنوال.

في التمثيليات الأولى - على خلاف بينها في الاتجاهات - كان المؤلف يبرز لنا شخصيات ويدير بينها حواراً حول مشكلة فلسفية أو إنسانية. فنشعر لأول وهلة أن هذه الشخصيات إن هي إلا دمى تحركها أصابعه من وراء ستار لتنطق بهذه الأفكار وتختلف تلك التمثيليات في هذه الخاصية - كما قلت -؛ ففي (شهرزاد) مثلاً لا يخطر لقارئ يفهم ما يقرأ أن (شهرزاد) و (شهريار) و (قمر) و (العبد). . . هم أشخاص حقيقيون ممن نلتقي بهم في هذه الحياة؛ وإنما هم منذ أول لحظة رموز؛ والمشكلة التي يراد منهم التعبير عنها هي مشكلة القلق الإنساني والشك العقلي، والتطلع إلى المجهول، والتخلص من الواقع بعد ارتواء الغريزة والحصول على الاكتفاء الأرضي المحدود. وفي (أهل الكهف) ربما خطر للقارئ أول الأمر أن (مشلينا وبريسكا، وأرنوش ويمليخا). . . هم أشخاص حقيقيون - ولو كانوا من أشخاص الأساطير - ولكنه يلمح هنا وهنالك ما يشككه في واقعيتهم؛ وما يلبث أن ينكشف له أنهم رموز وأن المشكلة التي يراد منهم التعبير عنها هي مشكلة الصراع بين الفناء والإنسان، أو بين القلب والزمان. وفي (بيجماليون) يحس القارئ من أول الأمر أنه يعيش في جو أسطوري رمزي وأن (بيجماليون) و (جالاتيا) و (فينوس) و (أبولون) و (نرسيس) و (إيسميه). . . إن هم إلا رموز لقوى بشرية وكونية تتصارع في الحياة أو في نفس الفنان؛ وإذا تصور لحظة أن بيجماليون هذا إنسان خاص، فسرعان ما يرى أنه رمز للفنان الحائر المثالي والواقع الحي، وبين الطموح الخالد والقدرة المحدودة؛ وبين التسامي الفني والميل الغريزي في الفنان.

فأما (سليمان الحكيم)، فقد نسجت على منوال جديد، وعاشت في جو جديد. إنه جو أسطوري نعم، ولكن الحياة كانت تدب فيه منذ اللحظة الأولى، فسليمان إنسان نبي يحيا حياة النبي الإنسان، وبلقيس ملكة وامرأة محبة تتصرف تصرف الملكات والنساء المحبات، ومنذر أمير أسير محب حتى وهو تمثال! وصادوق وآصف والصياد هم أناس يعيشون في هذا المستوى طوال الفصول الخمسة، وحتى (داهش بن الدمرياط) هو كذلك عفريت حي على هذه الأرض، على الرغم مما يدلف به إلى عالم الرموز! وهم جميعاً يعيشون ونشعر معهم بحرارة الحياة، ولكنهم في الوقت ذاته يعرضون لنا في تصرفاتهم وفي حوارهم القصير (بالقياس إلى الحوار الطويل في التمثيليات الأولى) مشاكل فكرية وإنسانية ونفسية في كل خطوة وفي كل حركة، دون أن ينبهونا إلى انهم يعرضون هذه المشاكل ويقصدون إلى هذه الأفكار. . .

وهذه في اعتقادي مقدرة فنية أكثر من المقدرة التي يحتاج إليها المؤلف في التمثيليات الأولى، ومنوال أصعب في النسج عليه من ذلك المنوال

لذلك وددت أن يظل هذا النسق إلى نهاية التمثيلية؛ ولكن توفيق الحكيم لم يطق صبراً على الاختفاء الطويل عن المسرح، فقد أطل مرة أو مرتين برأسه في أثناء الفصول الخمسة الأولى ليتفلسف بالعبارات! وليشعرنا بوجوده خلف الستار. حتى إذا كان الفصلان الأخيران تمرد على السكون، واقتحم حياة أبطاله الذين خلقهم، وظهر على

المسرح بشخصه، ليلقن هؤلاء الأبطال حواراً طويلاً يكشف عنا في نفوسهم، ويصور المشاكل الفكرية التي يريد تصورها، بدل أن كانوا هم أول الأمر يصورون هذه
المشاكل الفكرية التي يريد تصورها، بدل أن كانوا هم أول الأمر يصورون هذه
المشاكل بتصرفاتهم في الحياة!

وإننا لنلخص هنا هذا الحوار لنشرك معنا القراء فيما نراه:

لقد اصطدمت بلقيس بالحرمان النهائي. وقد اصطدم سليمان بالخطيئة والحرمان، وقد اصطدم الصياد بالمحاولة التي لم تتم، ولكنها نزغة من نزغات الشيطان فأما سليمان فقد حبس الجنيّ وترك الصياد - بعد أن علم من أمره ما علم - وهو متهالك
على نفسه، شقي بعذاب ضميره، معترف بخطيئته؛ بينما يحاول (صادوق) أن يبرر هذه الخطيئة وأن ينظر إلى سليمان بمنظار التقديس التام (شأنه منذ أول القصة) ذلك أنه يعمل لحساب المظاهر والجماهير، بينما سليمان يستوحي العقيدة والضمير. (وذلك هو الفرق بين الكاهن والنبي)

وأما بلقيس فقد هدأت باليأس واطمأنت إلى صداقة سليمان فهي لن تحبه ولم يعد قلبها صالحاً للحب. ولكنه رجل منحها في فترة ما حبه وإعجابه، فصداقته الآن هي أقرب الأحاسيس إلى نفسها وفيها بعض العزاء
وإن بلقيس وسليمان ليحسان لهذه الصداقة طعماً مريحاً بعد الحرمان!

وأما الصياد، فقد استيقظ ضميره، وإنه ليطلب إلى سليمان عقابه على النية (وقد ارتفع درجات هائلة في سلم الحكمة العالية) فلا يجيبه سليمان إلى طلبه؛ بل يطلب هو إلى الصياد أن يكون قاضيه لأنه خير منه فقد همّ ولم يفعل. أما هو فهمّ وفعل!

ثم تودع الملكة بلقيس الملك سليمان عائدة إلى مملكتها بعد المعركة!

فإذا كان الفصل الأخير، فإن سليمان قد اعتكف في القصر الذي كان قد بناه لبلقيس (فهو إذن مكان حبيب إلى نفسه وما تزال للحب الإنساني خيوط على الرغم من الندم والتوبة)!

وإذا هو متكئ على عصاه، وإذا الصياد قائم على حراسته بإذنه. وإذا هو يموت دون أن يعلم أحد بموته (حسب رواية القرآن). فإذا انكشف أنه مات بدأ حوار فلسفي طويل بين أصف وصادوق والصياد، تثار فيه مسائل فلسفية حول الحكمة الإنسانية الصغرى، والحكمة الكونية الكبرى. وحول السخرية بحكمة الإنسان وعظمته، مهما بلغ من الحكمة والسلطان!

ثم إذا الجني يظهر وجهاً لوجه أمام الصياد - قوة الخير وقوة الشر - وإذا هو يعلن الصراع الأبدي بينهما فيلتقط الصياد القفاز! وإذا الصياد والعفريت في هذه الصورة رمزان خالصان وقد كدنا نظن طول الرواية أنهما شخصان كائنان! وكذلك تسفر الرمزية في سليمان وصادوق وبقية الأشخاص
وفي هذين الفصلين أشياء تزيد وضوح أهداف الرواية، ولكن كم وددت لو سارا على النسق الأول في استبدال الحادثة بالحوار والحركة بالكلمات
ولكنه توفيق الحكيم على كل حال!

وأحب أن أنبه هنا إلى لبس قد يقع فيه من يتصدون للنقد بلا اطلاع ولا استقصاء. فالناقد المنصف لتوفيق الحكيم يرى أن له تمثيليات وقصصاً أخرى تنبض بحرارة الحياة الإنسانية وفيها الفكاهة والدعابة التي زعم الأستاذ (محمد مندور) أنه محروم منها بعد اطلاعه الخاطف على تمثيلية (بيجماليون) وحدها. وإني لأذكر في هذه اللحظة (رصاصة في القلب)، و (عودة الروح) و (يوميات نائب في الأرياف) وغيرها، وفيها جميعاً هذه الحياة الحارة البسيطة الجميلة، وهذا تنبيه يجب أن يقال
ولقد أسلفت رأيي في مقدرة توفيق الحكيم على الحوار، فأريد هنا أن أسجل له سبقه وتفرده في إدخال الحوار إلى عالم الأدب العربي مستقلاً عن المسرح، بحيث يصلح للقراءة المجردة عن التمثيل. وفي تناوله الأسانيد والأساطير تناولاً فنياً في التمثيلية الأدبية، واستخدامها لعرض المشكلات الفكرية، والصراعات الإنسانية على السواء وقد بلغ توفيق الحكيم في (سليمان الحكيم) - على الرغم مما لاحظناه - قمته الفنية في الصناعة: بلغها في تنسيق العرض الذي تحدثنا عنه في أول المقال؛ وبلغها في إدارة الحوار وفي رسم الشخصيات، وفي الالتفاتات السريعة الموحية والإشارة

الخاطفة المصورة (وفي مقال لصحيفة لا يتسع المجال لضرب الأمثال كما يتسع لها في كتاب)
ولقد كنت ألمح في أثناء دراستي للتمثيلية تلك الخيوط التي ينسجها في شخصية كل شخص، ثم يلقيها على أبعاد متقاربة أو متباعدة، ليعود إليها بعد حين، فينسج الخيط التالي بجوار الخيط الأول وهكذا. فأحس بعد خطوات لِمَ أُلقي بهذا الخيط هنا وبذلك الخيط هناك!
والصورة التي أستخلصها لطريقة عمل المؤلف: أنه استحضر جميع أفكار تمثيليته وجميع مشاهدها بالتفصيل قبل أن يمسك القلم ليكتب، ثم جعل يلقي بهذا الخيط هنا وبذلك الخيط هناك، ليجمع أطرافها إليه ويشدها جميعاً في الوقت المناسب. وهو تنظيم دقيق قد يستغرب من (توفيق الحكيم) المعروف للناس؛ ولكنه غير مستغرب عند الناقد الذي (يفقس) توفيق الحكيم!
ولقد بلغ كذلك قمة التمثيلية في اللغة العربية حتى الآن. أما القياس إلى التمثيلية العالمية فلست أنا صاحب الحق في هذا المجال
وقد تكون الفكرة في (شهرزاد) أعلى أفقاً وأوسع مدى، ولكن الطريقة هنا أكمل والحركة أسرع والحياة أوضح وأبسط
وإلى هنا كان يمكن أن ينتهي الحديث، ولكن لا بد من كلمة قصيرة عن لغة التمثيلية فهي عامية معربة حين يتحدث في جو أسطوري؛ وهي عربية سهلة حين يخرج إلى الجو الفكري
ولا يفوتني أن أنبه إلى ثلاث غلطات لفظية جاءت في الرواية:
فقد جاء في ص 42: (فأنتم ترون من حسن السياسة أن توكلوا الأمر إليَّ) وصحتها (تكلوا). وجاء في ص 111: (أومن بي أيها الأحمق) وصحتها (آمن). وجاء في ص 181: (عما أتكلم؟) وصحتها (عمَّ أتكلم؟)
وقد وددت أن أغض الطرف عن هذه الغلطات، لولا أنني أريد السلامة التامة لفن توفيق الحكيم ولغة توفيق الحكيم!!
(حلوان)
سيد قطب

في التصوير الإسلامي

ليلى والمجنون

للدكتور محمد مصطفى

- 1 -

تقدمة

أحبّ قيس بن الملوّح ليلى العامرية، وبادلته الحب العفيف البريء، فلما فشا أمرهما حجبت عنه، فشق ذلك عليه، وجاء يخطبها إلى أبيها، فرفض أبوها أن يزوجه إياها، وزوجها غيره، فاشتد به الأمر، وحزن حزناً شديداً أفقده عقله، وقيل له: (المجنون) أو (مجنون بني عامر)، فكان لا يلبس ثوباً إلا خرقة، ولا يمشي إلا عارياً، ويلعب بالتراب، وهزل وطال شعر جسده، وهام في البرية مع الوحوش والظباء فألفته، وكان يشرب معها إذا وردت مناهلها، وهي لا تنفر منه، وظل هكذا حاله، يتغنى غرامه التعس، في أشعار جيدة رقيقة، إلى أن ماتت ليلى. . . فلحق بها
هذه قصة (ليلى والمجنون) مجردة من كل تنسيق وتنميق وتزويق، وهي قصة بسيطة. . . لا غريب فيها ولا عجيب. . . وهل هو غريب أو عجيب أن يعشق رجل امرأة، فيعبث به العشق ويودي بعقله وحياته. . . ولكن الذي يحيرنا حقاً أن تنال قصة قيس بن الملوّح وغرامه بليلى العامرية كل هذا الاهتمام بين القصص الغرامية الأخرى لشعراء العرب (العذريين) و (المحققين).
وليس يعنيني أن يكون شخص قيس بن الملوح تاريخياً أو غير تاريخي، وإنما الذي يعنيني أن هناك قصة غرامية هي قصة قيس بن الملوح. . . ولا يعنيني أن يشك بعض مؤرخي الأدب العربي في وجود المجنون، أو أن يبالغ البعض الآخر في إنكار وجوده، وإنما الذي يعنيني هو وجود (فن القصص الغرامي) عند العرب في القرن الأول للهجرة وتطوره حتى كاد يكون فنّاً مستقلاً على نحو ما نرى من فنون القصص الغرامي في الأدب الحديث، وأن يشق هذا الفن لنفسه طريقاً إلى الأدب الإيراني حيث تنال قصة

(ليلى والمجنون) ما نالته من الحظوة في بلاد العرب، بل إنها تنفرد هنالك بأن ينظمها أكابر شعرائهم مثل نظامي
الكنجوي المتوفى في حدود سنة 600 هـ والأمير خسرو الدهلوي المتوفى سنة 725هـ، والشاعر الصوفي الكبير عبد الرحمن الجامي المتوفى سنة 898 هـ، وابن أخته هاتفي الجامي المتوفى سنة 918 هـ، والشاعر نامي من شعراء القرن الثاني عشر الهجري في عهد الملك نادر شاه، وغيرهم من شعراء إيران. ثم تنتقل هذه القصة أيضاً إلى الأدب التركي فينظمها من شعراء الترك نجاتي المتوفى سنة 914 هـ، وحمدي المتوفى في السنة نفسها، وفضولي المتوفى سنة 970هـ، وغيرهم. وأخيراً ينظمها شاعر مصر الكبير المرحوم أحمد شوقي بك في قصته (مجنون ليلى) وإننا لا نعجب إذا بحثنا في الأدب الأوربي أن نجد بعض الأثر لموضوع قصة ليلى والمجنون في القصص الغرامية الأوربية التي وضعت في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلادي، مثال ذلك قصة (تريستان وأيسولده) أو قصة (روميو وجوليت). لا سيما ونحن نعلم أن الآداب والفنون الأوربية في ذلك الوقت كانت متأثرة إلى حدّ ما بالآداب والفنون الإسلامية عن طريق صقلية وإيطاليا وإسبانيا.

أما سبب عشق المجنون (ليلى)، فهنالك روايات مختلفة، يجمع المجنون بينها في قوله:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى ... فصادف قلباً فارغاً فتمكنا

ولكن المشهور ما رواه أبو عمرو الشيباني أن المجنون كان يهوى (ليلى) وهما حينئذ صبيان، فعلق كل واحد منهما صاحبه وهما يرعيان مواشي أهلهما، فلم يزالا كذلك حتى كبرا فحجبت عنه، قال: ويدل على ذلك قوله:

تعلّقتُ ليلى وهي غرّ صغيرة ... ولم يبد للأتراب من ثديها حجمُ

صغيرين نرعى البَهْم يا ليت أننا ... إلى اليوم لم نكبر ولم تكبر البهم

واقتبس الشاعر نظامي الكنجوي هذه الرواية وحورها بما يناسب الحضارة الإيرانية في عصره، فاستبدل بالبادية والمواشي حجرة المكتب والكتب، وجعل المجنون يقابل ليلى في المدرسة وهما صغيران، ويتعارفان ثم يتحابان في أثناء الدراسة. واقتدى بنظامي الكنجوي في ذلك سائر شعراء الإيرانية والتركية الذين نظموا قصة (ليلى والمجنون).

وكانت هذه القصة أيضاً، موضوعاً محبباً لدى المصورين في جميع فروع الفن الإسلامي وجميع عصوره، فنرى صوراً كبيرة لتوضيح حوادثها في دواوين الشعر الإيرانية والهندية والتركية، وعلى السجاد والقاشاني وغير ذلك من الأشياء والأدوات، وتمثل هذه الصور المجنون هزيلاً ناحلاً، عارياً من الثياب إلا من غلالة صغيرة تستر عورته، ويحيط به بعض الظباء والوحوش.

وقد حاولت فيما أقصه هنا أن أوفق بين الروايات المختلفة العربية والإيرانية والتركية، وأن أوضح بعض حوادث القصة بما يسمح به المقام من الصور.

كان الملوح بن مزاحم يجلس إلى جانب زوجته وكل منهما واجم يفكر في شئون الحياة، فقد أوتيا الثروة والجاه وآلت إلى الملوح زعامة بطن من بطون بني عامر، فكان سيد القوم يتمتع بينهم بالهيبة والجلال والاحترام - ومع ذلك لم يكن لهما ولد يجلب إليهما البهجة والسرور فيلطف خُشونة حياتهما في الصحراء. ولكن من أين لهما هذا الولد وقد بلغا خريف الحياة، وكاد يشتعل رأساهما شيباً! فأخذ كل منهما يدعو الله تعالى أن يهب لهما من لدنه ولياً يرثهما ويخلفهما في رئاسة بيتهما وزعامة آلهما وقومهما، وأن يكون قلبه بعيداً عن البغضاء مفعماً بالحب، ليخفف عنهما صحبة بني عامر غلاظ الأكباد. وبينما هما في وجومهما مسترسلان، يتنازعهما الأمل واليأس، إذ تفتحت أمام أعينهما أبواب السماء، وانبثق منها نور غمرهما في غلالة من الرحمة والرضوان، وجعلهما يشعران بالسعادة والاطمئنان

واستجاب الله دعوات الزوجين الطيبين الصالحين ورزقهما صبياً جميلاً أسمياه قيسا، كان موضع إعجاب كل من رآه. وأقام الملوح على إرضاع ابنه وتغذيته وتربيته أبرع نساء الحي وأحذقهن في القيام بهذه الفنون، ونما الصبي وترعرع، وشب في كنف والديه، يعطفان عليه ويخصانه بأكبر قسط من حبهما ورعايتهما. ورزقا غيره ولكنه بقي أحب أخوته إلى قلبيهما

وفي (شكل 1) نرى منزل الملوح بن مزاحم، وقد شمله الطرب والسرور، واجتمع فيه

الأهل والأصدقاء يحتفلون بمولد قيس الذي نراه في وسط الصورة في لفافة تحتضنه سيدة من سيدات العائلة وتمسح رأسه الصغير في عطف وحنان بخدها الأملس البض وهي تجلس به إلى جانب حجرة (الحريم) حيث جاء بعض السيدات لتهنئة والدته. وجلس الرجال على سجادة جميلة في الحديقة أمام سور المنزل يتزعمهم الملوح بلحيته البيضاء

وهو على رأس الجالسين إلى اليسار، وقد جلس أمامهم أفراد فرقة موسيقية يعزف بعضهم بالمزمار، وواحد منهم يغني، وتقف إلى جانبهم راقصة تضرب على الدف. ونرى الخدم والجوار والعبيد وهم يروحون ويجيئون في أنحاء المنزل يحملون أطباق الطعام وصحون الحلوى. وقد راعى المصور في تصوير سحن الرجال وملابسهم أن تكون عربية لتتناسب مع القصة العربية الأصل. وهذه الصورة في مخطوط من المنظومات الخمس للأمير خسرو الدهلوي، مؤرخ سنة 890 هـ (485 م) وكانت الصور التي في هذا المخطوط تنسب إلى المصور الإيراني الشهير بهزاد لما فيها من ميزات أسلوب هذا المصور، كالدقة في رسم المباني وزخرفتها، وفي جزء الحديقة الظاهر إلى اليمين، والاهتمام البادي على سحن الأشخاص، ووجود العبد الأسود الواقف هنا في وسط الصورة إلى اليسار، وغير ذلك. ولكن يظهر أن هذه الصورة من تصوير أحد تلاميذ بهزاد. وهذا المخطوط محفوظ في مجموعة شستر بيتي بلندن.

(يتبع)

محمد مصطفى

مساعد في دار الآثار العربية

ابتسم للحياة

أرسلها الشاعر إلى صديقه الشاعر الصاغ (ع ف م) وهو يهديها هنا إلى كل عابس في الحياة لعله أن يبتسم

شدةٌ لا تدومُ إلا قليلا ... لا تَخَلْها مقيمةً لن تزولا
قد عرفناكَ في الخطوب حُساماً ... ماضياً حدُّه وسيفاً صقيلا
ورأيناك في الودادِ كريماً ... وعهدناكَ في الوفاءِ جميلا
هل يَعيبُ السيوفَ في الضرب يوماً ... أنها في الصراع تَلْقى فلول؟
أو يَعيبُ البدورَ في الأفق يوماً ... أنها صادفتْ لحين أفولا؟
يا صحيح الفؤاد والودِّ إني ... ساءني اليومَ أن أراكَ عليلا
شدةٌ تَنْجَلي ونَحْسٌ يولِّي ... عن قريبٍ ولا يدوم طويلا
ستعودُ الحياةُ أحسنَ عرضاً ... ويصيرُ الزمانُ أحلى فصولا
ابتسم فالحياة ليست تساوي ... صرخةً منك أو تساوي عويلا
ليس يُجْدي الأسى عليك قليلا ... ليس يغني العبُوس عنك فتيلا
يا قويَّ الإيمان بالله مهلاً ... يا صحيح اليقين صبراً جميلا

محمد عبد الغني حسن

دير الحياة

ذكروا الشبابَ فقلتُ: إي والله ... ما كنت عن ذكر الشباب بساهي
لكن يَعزُّ عليَّ نعيي باقياً ... وبِفِيَّ لا بسواه من أفواهِ //
نعيُ الفتوةِ والنضارة والهوى ... والرقص في النيران والأمواهِ
والروغ من فرضٍ عليَّ وواجبٍ ... لم يُعفِني لم أعفَ من إكراه
أمرٌ وفائيٌّ صَدَعْتُ به وكم ... بعد الشباب أوامرٌ ونواهي؟
وبصيرةٌ كشفت لعيني بعدما ... كلَّت مآسي كُنَّ قبلُ ملاهي
قوسُ السحاب أرى به أنواءه ... لاما احتوى من كل لونٍ زاهي
وإذا بدَا الشفق الغَرِيُّ تهولني ... ظَلَمٌ لدى الأفق البعيد دواهي
والورد يَسنح لي فأبحث جاهداً ... عن شوكهِ خلف الجمال الباهي
فإذا الذي هو مؤنسي هو موحشي ... وإذا الذي أغرى شبابيَ ناهي
وإذا الحدود تغيَّرَت أوضاعُها ... وخلودُ أحلامِ الشباب تناهي
يا رَاعيَ الغزلانِ في (وادي طوىً) ... أقْصِرْ، فأعينهن عنك سواهي!
اخلَعْ هنا نعليكَ إنك واقفٌ ... في موقف المتبتِّلِ الأوَّاه
وانظم صدى الوادي بكل عهوده ... لحناً تُغنيِّه بصوتٍ واهي

ذكروا المشيبَ فقلتُ: لا والله ... ما كنتُ في ديرِ الحياةِ بلاهي
محمود عماد
السبيل القويم
الناس صنفان: صنف دائماً حذرٌ ... يخشى المنايا ويقضي العمر أوهاما
وذاك صنف إذا انتابته خشيته ... توهم الكون في عينيه آلاما
وثاني اثنين مَنْ يحيا بعزمته ... حتى ليحسب صوت الرعد أنغاما
وذاك صنف عزيز دائماً أبداً ... يضيف للعمر أياماً وأعواما
فاختر لنفسك في دنياك عزَّتها ... وابسم لدهرك مهما شاء أو راما
عبد القادر محمود
البريد الأدبي
هل قتل ذو القرنين بيد التتر؟
قرأت ما كتبه الأستاذ إبراهيم الدسوقي في العدد (512) من مجلة الرسالة الغراء، فوجدته لا يزيد عن تكرار ما كتبه أولاً وثانياً، ويتهرب من الرد على ما أذكره في تأييد رأيي أو يحوله عن وجهه ثم يرد عليه، وهذا كما فعل في ردي عليه بأن كيرش قتله التتر في حربه لهم، وذو القرنين المذكور في القرآن لم ينته أمره معهم بهذا الشكل، لأن الله تعالى يقول في شأنه معهم: (قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سدّا، قال ما مكني فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما، آتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً قال آتوني أفرغ عليه قطرا، فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا، قال هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقا)
ولا يمكن أن يفعل ذو القرنين هذا مع يأجوج ومأجوج ثم يتمكنوا من قتله، لأنهم لا يقتلونه إلا إذا استطاعوا أن يظهروا ذلك السد أو ينقبوه، وقد أخبر القرآن أنهم لم يستطيعوا شيئاً من ذلك، وإذن لا يمكن أن يكون ذو القرنين كيرش المقتول بيد التتر.
فلما أراد الأستاذ إبراهيم الدسوقي أن يرد على هذا حوله عن وجهه، وذكر أني أقول إن كورش قتل ببلاد التتر وذو القرنين لم يقتل، ليتأتى له أن يقول في رده عليّ: ومن أين عرف أن ذا القرنين لم يقتل في حين أن القرآن لم يذكر إلا جزءاً يسيراً من تاريخه. وستطول المناظرة بيننا بهذا الشكل، ولهذا رأيت أن أتركها إلى ما هو أهم.
عبد المتعال الصعيدي
ضبط الخلاف بين العربية والعامية ممكن
اطلعت في العدد (512) من مجلة الرسالة الغراء على كلمة للأستاذ الفاضل عبد الحميد عنتر تحت عنوان (ضبط الخلاف بين العربية والعامية مستحيل) يرد بها على اقتراح مقدم إلى المجمع اللغوي في ضبط الخلاف بين العربية والعامية، فعجبت لدعوى الاستحالة من الأستاذ في هذا الأمر الممكن، عجبت لإقدامنا على هذه الدعوى بسهولة، بينما غيرنا يحاول
أن يمحو كلمة مستحيل من قواميس اللغة. على أن ما كتبه الأستاذ في الرد على هذا الاقتراح لا يمت بصلة إلى عنوانه، وقد ذكر في هذا الرد أن المتواضع عليه بين العلماء أن اللفظ العامي ما لم ينطق به عربي، وأنه المدار في تمييز العربي من العامي على النقل عن المعاجم اللغوية، ولا شك أن في هذا ضبطاً للخلاف بين العربية والعامية، فكيف يدعي معه أن ضبط الخلاف بين العربية والعامية مستحيل؟
والاقتراح المقدم إلى المجمع اللغوي يرمي إلى إبطال هذا الضابط المتواضع عليه بين العلماء، لأنه يبعد الشقة بين اللغتين ويؤدي إلى تخطئة كثير من العامية بدعوى أنه لا يوجد في معاجم اللغة، مع أن هذه المعاجم لم تستقص اللغة كلها، ولو رجعنا إلى الضابط المذكور في ذلك الاقتراح لأمكن تصحيح ما يعد خطأ بالضابط المتواضع عليه بين العلماء، وفي هذا تسهيل كبير لأمر العربية في هذا العصر، وتقريب للخلاف الذي بينها وبين العامية ومحاولة لجمع المختلفتين في شأن اللغتين على أمر لا يؤثر في صميم العربية، ويضم إليها كثيراً ممن ينتصر للعامية عليها، وقد ذكر الأستاذ (عبد الحميد عنتر) في الرد على هذا الاقتراح أنه يخالف الضابط المتواضع عليه بين العلماء، ومثل هذا من المصادرة التي لا تصلح في مقام الرد، ثم ذكر أنه لو صح ذلك لجاز

للعامي أن يخترع ألفاظاً لا حصر لها على نمط الأوزان العربية. والجواب عن هذا أن الاقتراح في ألفاظ موجودة بالفعل وهي ألفاظ جرت عليها سليقة الناس، ولا شأن له بما يخترع من الألفاظ، على أنه لا يوجد ما يمنع العامي من اختراع مثل ذلك عند حاجته إليه، وذلك حين لا يجد في اللغة ما يغنيه عنه. ثم ذكر أنا لو أخذنا بهذا الاقتراح لخطأنا نحو ربع اللغة من الألفاظ الشاذة، وهذه مغالطة ظاهرة، لأن موضوع الاقتراح الألفاظ العامية لا العربية. وأما ما ذكره في الأمثلة من تصحيح بعضها على لغة من اللغات فلا يفيد شيئاً في موضوع الاقتراح، ولا يصح أن يصرفنا البحث فيها عن البحث في الاقتراح نفسه، والأمثلة كثيرة لا تحصى ولا تعد.

(. . .)

ذو القرنين غير الاسكندر المقدوني

تأييداً للرأي القائل بأن أحدهما غير الآخر - وهو الرأي الذي أعيد موضحاً بالعدد (512) من الرسالة - أنقل ما يأتي:

(ومن ملوكهم - يعني اليونانيين - الإسكندر المقدوني وهو ابن فيلبس، وليس بالإسكندر ذي القرنين الذي قص الله نبأه في القرآن بل بينهما فروق كثيرة. وبينهما في الدين أعظم تباين؛ فهذا كان صالحاً مؤمناً، وذاك المقدوني كان مشركاً. وكان أرسططاليس وزيره).

عن كتاب الإغاثة لابن قيم الجوزية أحد أعلام القرن الثامن الهجري صفحة 367 ببعض اختصار

وفي كتاب (لقطة العجلان) لصديق حسن خان القنوجي البخاري ملك مملكة بهوبال:

(التحقيق أن ذا القرنين الذي ذكره الله في كتابه عربي كثر ذكره في أشعار العرب واسمه الصعب بن ذي مراثد ابن الحارث الرائش وأنه ملك من ملوك حمير. وقد غلط من ظن أن الإسكندر بن فيلبش هو ذو القرنين؛ فإن لفظة ذو عربية، وذو القرنين من ألقاب العرب ملوك اليمن، وذاك رومي يوناني غزا دارا ملك الفرس وقتله. وهو صاحب أرسططاليس وتلميذه. وذو القرنين المذكور في القرآن ملك قديم كان على زمن إبراهيم وهو الصعب بن الرائش الذي مكن الله له في الأرض وبنى السد على يأجوج ومأجوج. وقد غلط من ظن أن باني السد هو الاسكندر الرومي) (صفحات 10، 11، 91، 92 باختصار وبعض تصرف. هذا ويؤثر عن تبَّع قوله:

قد كان ذو القرنين قبلي مسلماً ... ملكاً تذل له الملوك وتسجدُ

ويروي بلفظ آخر فيه التصريح بأنه جدُ لتبع اليماني وهو:

قد كان ذو القرنين جدي مسلماً ... ملكاً علا في الأرض غير مفنَّد

بلغَ المشارقَ والمغاربَ يبتغي ... أسبابَ أمر من حكيم مرشِد

فرأى مغيب الشمس عند غروبها ... في عين ذيُ خُلب وثأط حرمد

محمد عبد الله الجزار

أستاذ بكلية الشريعة

حول مقال (أثر المرأة في علي محمود طه)

جاء في مقال الأستاذ أدوار حنا أسعد المنشور في العدد السابق أن لفظة (الثلاثون) الواردة في بيت شعر من قصيدة (بحيرة كومو) للملاح التائه لم تأت إلا لضرورة الشعر، مدللاً على ذلك بكلمة من مقال للأستاذ الزيات ذكر فيها أول لقاء تم بينه وبين الشاعر إذ كان في إبان شبابه، وكان الأستاذ الزيات في عنفوان شبابه. ثم عاد الكاتب في موطن آخر من مقاله إلى التعليق على ذلك

والذي أعرفه ويعرفه أصدقاء الشاعر انه نظم قصيدة (بحيرة كومو) الوارد في سياقها البيت المشار إليه، وهو في السادسة والثلاثين من عمره. ولعل ما يؤثر عن الأستاذ علي محمود طه هو احتفاله بذكر العلاقة الزمانية والمكانية بين ما ينشئه من شعر في أدوار حياته المختلفة حتى لا يقع فيما وقع فيه غيره من الخلط والاضطراب

حسن كامل الصيرفي

نزول عيسى

أرسل إلينا الأستاذ الجليل محمود شلتوت أولى مقالاته التي كتبها في (نزول عيسى) يفند فيها بالحجج الملزمة والنصوص الصريحة أقوال معارضيه، ويعرض لبعض ما عُمِّي على الحشويين والمتنطعين من وجوه الاستدلال بالحديث، ويدلي بالقول الفصل فيما يختلف فيه الناس من حين إلى حين في بعض المسائل الشرعية. وقد كان بودنا أن

ننشرها، ولكن أسباباً قاهرة حالت دون ذلك

حانة الشعراء

نشرنا في العدد الماضي من (الرسالة) هذه القصيدة الفريدة من ديوان (زهر وخمر) للشاعر الكبير علي محمود طه، ولكن مقطوعتين سقطتا منها سهواً عند الطبع؛ فأحببنا أن ننشرهما احتفاظاً بوحدة القصيدة، ومكانهما بين المقطوعة الرابعة والمقطوعة السابعة، وهي:

مِنْ كلِّ مُرْسِلِ شَعْرِهِ حِلَقَا ... وَكَأَنَّهَا قِطَعٌ مِنَ الحَلَكِ
غَلْيُونهُ يَسْتَشْرِفُ الأُفُقَا ... وَيَكَادُ يَحْرِقُ قُبَّة الْفَلَكِ
أَمْسَى يُبْعِثُرُ حَوْلَهُ وَرَقَا ... فَكَأَنَّهُ في وَسْطِ مُعْتَرَكِ
فإِذَا أَتَاهُ وَحْيُهُ انْطَلَقَا ... يُجْرِي اليَرَاعَ بِكَفِّ مُرْتَبِكِ
وَيَقُولُ شِعرْاً كَيْفَمَا اتَّفَقَا ... يُغْرِي ذَوَاتِ الثِكْلِ بالصَّحِكِ
يَروِي عن غَرَائبِهِمْ ... شَتَّى أَحَادِيثٍ وَأَنْبَاء (باخُسُ)
قِصَصٌ تَدَوالُ عَنْ صَوَاحِبِهِمْ ... وَعن الصَبَايَا فتْنَةِ الرَّائِي
وَعَنِ الْخَطِيئَةِ في مَذَاهِبِهم ... بَدَأَتْ بآدَمَ أم بِحَوَّاءِ
وَالْمُلهِمَاتُ إلى جَوَانِبِهِمْ ... يُكثِرْنَ مِنْ غَمْزٍ وَإِيماء
يَعْجَبْنَ مِنْ فْعلِ الشَّرَاب بِهِمْ ... وَيَلَذْنَ مِنْ سَأْمٍ بإِغْفَاءِ

إلى الأستاذ حبيب الزحلاوي

أهدي إلى الأستاذ أحسن تحية، وأعتذر إليه من تأخر هذه الكلمة بأني طالعت أولاً (شعاب قلب) لكي أشكر له هذه الهدية النفيسة، وأشكر له في آن معاً، فضله الذي أتاح لي التلذذ بقراءة كتابه البديع.

صوّر لنا الأستاذ أفراداً من المجتمع في زماننا هذا، ومثلهم بسجاياهم ووجدانياتهم، وشهواتهم وأهوائهم، وقص حوادثهم وفعالهم، ووصف أزمنتها وأمكنتها، وصاغ كل أولئك على نظام سليم من السرد الرتيب، في أقاصيص شائقة وليدة ملكاته الراوية من تجاربه الشخصية ومطالعاته، وقد مازجها الخيال وإن أنشأها من الحقائق الواقعية حتى ليكاد القارئ يتعرف فيها مثلاً شيخ (فلسفة الشيخوخة)

وليس في هذه الأقاصيص عقود وحلول؛ بل هي بسيطة بين الأقصوصة والحكاية، وهي قطع من الحياة متفرقة، لكن تضمها جهة جامعة تلوح في خفاء للقارئ. وبودي لو يكتب الأستاذ قصة كاملة فيتسع فيها المجال لملكاته، لكي تبلغ مدى قدرتها على تمثيل الحياة المصرية أو الشرقية لهذا العهد

وقد ماشى الأسلوب الحي في (شعاب قلب) تلك النفوس فيما خالجها من اكتئاب أو ابتهاج، وحياء أو إباء أو رجاء، وإعجاب أو عتاب، وقلق أو شكوى، وحسرة أو رغبة أو شهوة؛ وتوافرت فيه الحركة بوسائل معنوية بلاغية، كالتعجب والمبالغة، والتجاهل والاستفهام، والتصريح والتلميح، والتشبيه والتصوير؛ وجاء سريع المعاني إلى الفهم بمثل الفصل والوصل والإضمار في عبارات تعتّم معانيها بالتقدير.

فما حسن بالفصل، مثلاً: (كنت أنعم بالراحة كلها في مخاصرة هذه السيدة التي تنبعث منها

الطمأنينة إلى أعماق نفسي؛ لم أكلهما، لم أجتل محياها، كنت نشوان بها . . .)

ومن التشبيهات غير المحفوظة: (ذكرت ذلك الدير المهيب الشاهق الرابض فوق الربوة شبيهاً بقلعة شيدت لحماية الخيالات والأوهام!!) ومنها أيضاً: (أشعلت غليوني، أخذت أنظر الدخان يعقد حلقات تتمدد وتتبخر كخواطر الإنسان، وأرى النار تتأجج وتهمد في قلبه كالرغبات في ضمير الرجل)؟

ومن وصف الجمال، والحياء، والطهر، والإعجاب: (ذكرت تلك الفتاة القروية عائدة من الكنيسة بثيابها الفضفاضة، وضفائرها المنسدلة على كتفيها، ووجهها الخمري الزاهر بنفحات الربيع، وصدرها الناهد، وقدها الممشوق، وخطواتها المتزنة الحازمة. كم كانت رائعة صبغة الخجل الوردية التي اصطبغت بها أذناها لما سألتها عن اسمها، وهل فكرت في صلواتها في غير أهلها ممن تعرف من الناس!)

ومن المعاني المضمرة في العبارة (كل امرأة ترضي الرجل، وليس كل رجل يرضي المرأة. أما أنا فإني امرأة يسكن جسدي روحان: الأول محلّق في السماء مصعَّد نحو المجهول، والثاني دنيوي يلتصق بأديم الأرض. ولم يكن تطلعي إلى السماء يعميني عن

التطلع إلى الأرض!)
ومن جميل التصوير: (ممثل هزلي بارع. إحساسه في وجهه، وعقله في نظرات عينيه، وبراعة فنه في إيماءته وسكونه)؛ وأيضاً: (زايلت البيت فرحته، فانطفأت أنواره، وقد كانت تتألق أكثر الليل؛ وهمدت الحركة فيه، وقد كانت مرحة طليقة فياضة؛ وخرست موسيقاه، وقد كانت تفيض على الجيران أنفاسها فاتنة ساحرة، وانقطع عنه زواره، وتبدلت وجوه قطانه، خادمين ومخدومين، واعتلاها مسحات من كآبة وسحب وغيوم)
إن هذا الكتاب، على الإجمال، أدب حيّ تزينه ثمار من المعرفة، ويظهر فيه إلهام من الاشتراكية والمادية، وأثر واضح من نظرية فرويد؛ وأسلوبه محدث صاغته شخصية حرة، وملكات طليقة. وما هفواته في صدقه وتمثيله وقيمته الأدبية بشيء يذكر
ثم سروري بهدية الأستاذ الفاضل وثنائي عليه
محمد توحيد السلحدار
العدد 514 - بتاريخ: 10 - 05 - 1943
دفاع عن البلاغة - 10
الأسلوب - 2
من رجال الأدب من يرى أن العلاقة بين المعنى واللفظ كالعلاقة بين الجسم والثوب، لكل منهما على تلازمهما وجود ذاتي مستقل له أوصافه وخصائصه؛ فالجسم يقوَّم بحساب الخلقة؛ والثوب يقوَّم بحساب الصناعة. ومنهم من يرى أن العلاقة بينهما كالعلاقة بين الروح والجسد، لا يوجد هذا بغير ذاك؛ فإذا انفك أحدهما عن الآخر الحي وفسد الكائن. ونحن كما علمت من قبل على رأي هذا الفريق. فقد قلنا في كلمة سبقت إن الأسلوب هو الهندسة الروحية لملكة البلاغة؛ وإن البلاغة التي نعنيها هي البلاغة التي لا تفصل بين العقل والذوق، ولا بين الفكرة والكلمة، ولا بين الموضوع والشكل: إذ الكلام كائن حي روحه المعنى وجسمه اللفظ، فإذا فصلت بينهما أصبح الروح نفساً لا يتمثل، والجسم جماداً لا يحس
فالفكرة والصورة في الأسلوب كلٌ لا يتجزأ، ووحدة لا تتعدد. وليس أدل على اتحادهما من أنك إذا غيرت في الصورة تغيرت الفكرة، وإذا غيرت في الفكرة تغيرت الصورة. فقولك أعنيك، غير قولك إياك أعني. وقولك كل ذلك لم يكن، غير قولك لم يكن كل ذلك. وقولك ما شاعر إلا فلان، غير قولك ما فلان إلا شاعر. فترتيب الألفاظ في النطق لا يكون إلا بترتيب المعاني في الذهن؛ وإن مزية الألفاظ (ليست لك حيث تسمع بأذنك، بل حيث تنظر بقلبك وتستعين بفكرك). (ولن يُتصور في الألفاظ وجوب تقديم وتأخير وتخصيصٌ في ترتيب وتنزيل. وعلى ذلك وضعت المراتب والمنازل في الجمل المركبة. . فقيل من حق هذا أن يسبق ذاك، ومن حكم ما ههنا أن يقع هنالك. . فإذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعراً أو يستجيد نثراً، ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ، فيقول: حلو رشيق، وحسن أنيق، وعذب سائغ، وخلوب رائع، فاعلم أنه ليس ينبئك عن أحوال ترجع إلى أجراس الحروف وإلى ظاهر الوضع اللغوي، بل إلى أمر يقع من المرء في فؤاده، وفضل يقتدحه العقل من زناده). وإنا حين ذكرنا أن الأسلوب هو الطريقة الخاصة في اختيار الألفاظ وتأليف الكلام، كنا نريد بذلك اختيار الألفاظ على الشكل الذي يرتضيه الذوق، وتأليف الكلام على الوضع الذي يقتضيه العقل.
فالأسلوب إذن هو طريقة خلق الفكرة وتوليدها وإبرازها في الصورة اللفظية المناسبة. هو ذلك الجهد العظيم الذي يبذله الفنان من ذكائه ومن خياله في إيجاد الدقائق والعلائق والعبارات والصور في الأفكار والألفاظ، أو في الصلة بين الأفكار والألفاظ. ولهذا الجهد جهتان: جهة موضوعية تتصل بالنظام، وهو حسن الترتيب، وصحة التقسيم، وإحكام وضع القطع في رقعة الشطرنج التي نسميها جملة أو فقرة أو فصلاً أو مقالة. وجهة أخرى شكلية تتصل بالحركة، وهي خلق الكلمات والصور والتأليف بينهما على نمط يحدث الحياة والقوة والحرارة والضوء والبروز والأثر
من ذلك نرى أن الأسلوب خلق مستمر: خلق الألفاظ بواسطة المعاني، وخلق المعاني بواسطة الألفاظ. ومن ذلك نرى أن الأسلوب ليس هو المعنى وحده، ولا اللفظ وحده، وإنما هو مركب فني من عناصر مختلفة يستمدها الفنان من ذهنه ومن نفسه ومن ذوقه. تلك العناصر هي الأفكار، والصور، والعواطف، ثم الألفاظ المركبة، والمحسنات

المختلفة
والمراد بالصورة إبراز المعنى العقلي أو الحسي في صورة محسَّة، وبالعاطفة تحريك النفس لتميل إلى المعنى المعبَّر عنه أو لتنفر منه
ففي قول أمير البلاغة علي بن أبي طالب: (ألا إن الخطايا خيل شُمُس حُمل عليها أهلها، وخُلعت لجمها، فتقحمت بهم في النار؛ وإن التقوى مطايا ذُلُل حُمل عليها أهلها، وأُعطوا أزمتها، فأوردتهم الجنة)ـ تجد صورتين: صورة الفرس الشموس لم يروَّض ولم يلجم فيندفع براكبه جامحاً لا ينثني حتى يتردى به في جهنم؛ وصورة الناقة الذلول قد سلس خطوها وخف عنانها فتنطلق بصاحبها في رسيم كالنسيم حتى تدخل به الجنة.
ثم تجد عاطفتين: عاطفة النفور من الألم الذي يشعر به الخاطئ المستطار وقد جمحت به خطاياه الرُّعن في أوعار الأرض حتى ألقته في سواء الجحيم؛ وعاطفة الميل إلى لذة المتقي الوادع وقد سارت به تقواه سيراً ليناً حتى أبلغته جنة النعيم
ذلك من حيث الموضوع؛ أما من حيث الشكل فتجد اختيار الألفاظ المناسبة للفكرة، كالمطايا وما يلائمها من الانقياد والإيراد هنا، وكالخيل وما يوائمها من الشماس والتقحم هناك. والفروق الطبيعية بين هذين الحيوانين في هذين المكانين لا تخفى على ذي لب. ثم تجد بعد ذلك هذا التأليف المتوازن المحكم الرصين، وهذه المقابلة البديعية بين عشرة معان لا
تكلف في صوغها ولا تعسف
أما القائلون باستقلال طرفي الأسلوب فجريرة رأيهم على البلاغة أن الذين فسدت فيهم حاسة الذوق أهملوا جانب اللفظ، والذين ضعفت فيهم ملكة العقل غضوا من شأن المعنى، فضلوا جميعاً طريق الأسلوب الحق؛ فلا هؤلاء سلموا من معرَّة العيّ، ولا أولئك سلموا من نقيصة الهذر
قال أبو هلال: (ليس الشأن في إيراد المعاني؛ لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي؛ وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه. . . مع صحة السبك والتركيب، والخلو من أود النظم والتأليف. . .). وقال لابروبير: (إن هوميروس وأفلاطون وفرجيل وهوراس لم يبن شأوهم على سائر الكتاب إلا بعباراتهم وصورهم). وقال شاتوبريان: (لا تحيا الكتابة بغير الأسلوب. ومن العناء الباطل معارضة هذه الحقيقة؛ فإن الكتاب الجامع لأشتات الحكمة يولد ميتاً إذا أعوزه الأسلوب) وهؤلاء ومن لف لفهم من أنصار الصياغة أقرب إلى الصواب من أولئك الذين كفروا بها وشنعوا عليها. وتعليل ذلك ستقرأه في الحديث المقبل.
(للكلام بقية)
احمد حسن الزيات
نزول عيسى
للأستاذ محمود شلتوت
(ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون.
فويلٌ للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله
ليشتروا به ثمناً قليلاً. فويلٌ لهم مما كتبت أيديهم وويلٌ لهم
مما يكسبون)
(قرآن كريم)
في مثل هذه الأيام من العام الماضي ورد إلى (مشيخة الأزهر) سؤال عن عيسى عليه السلام: أحيٌ هو أم ميت في نظر القرآن الكريم والسنة المطهرة؟ وعن حكم المسلم الذي ينكر أنه حي: أتبقى له زوجته، وإذا مات أيصلى عليه ويدفن في مقابر المسلمين، أم يكون مرتداً فتبين منه زوجته، ولا يصلى عليه ولا يدفن في مقابر المسلمين؟
حولت المشيخة الجليلة هذا السؤال إلينا، وطلبت أن نكتب فيه رأينا، فعرضنا للآيات التي وردت في القرآن الكريم متصلة بنهاية عيسى مع قومه، ثم عرضنا للمروي من الأحاديث في هذا الشأن، وبحثنا الجميع على ضوء ما تبحث عليه الآيات والأحاديث، فخرجنا من البحث بهذه النتيجة وهي بنصها:
(والخلاصة من هذا البحث:
1 - أنه ليس في القرآن الكريم ولا في السنة المطهرة مستند يصلح لتكوين عقيدة

يطمئن إليها القلب بأن عيسى رفع بجسمه إلى السماء وأنه حي إلى الآن فيها، وأنه سينزل منها آخر الزمان إلى الأرض
2 - أن كل ما تفيده الآيات الواردة في هذا الشأن هو وعد الله عيسى بأنه متوفيه أجله ورافعه إليه وعاصمه من الذين كفروا، وأن هذا الوعد قد تحقق فلم يقتله أعداؤه ولم يصلبوه ولكن وفاه الله أجله ورفعه إليه
3 - إن من أنكر أن عيسى قد رفع بجسمه إلى السماء، وأنه فيها حي إلى الآن، وأنه سينزل منها آخر الزمان فإنه لا يكون بذلك منكراً لما ثبت بدليل قطعي فلا يخرج عن إسلامه وإيمانه ولا ينبغي أن يحكم عليه بالردة، بل هو مسلم مؤمن، إذا مات فهو من المؤمنين يصلى عليه كما يصلى على المؤمنين ويدفن في مقابر المؤمنين ولا شية في إيمانه عند الله. والله بعباده خبير بصير)

قدمت هذا البحث إلى المشيخة الجليلة، وبعد أن استقر الأمر عليه رأيت أن أنشره على صفحات الرسالة الغراء سداً لباب التكفير بهذا وأمثاله الذي شاع وذاع واتخذه بعض الناس حرفة في التدين، وإعلاناً للورع والتقوى، وتظاهراً بمظهر الغيرة على دين الله وأحكامه. وقد تفضلت الرسالة بنشره في العدد 462 الصادر في الخامس والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة 1361هـ

وما كنت أظن أن متذوقاً للعلم واقفاً على أصول الاستدلال الشرعي يزورُّ عن هذا البحث ويلتوي عن هذه الخلاصة البينة الواضحة؛ ولكن قوماً لهم من شبه العلماء الزي واللقب قد حاولوا أن يغضوا من هذا البحث أو يثيروا من غبارهم عليه، فنسجوا حوله خيوطاً ضعيفة واهية من الشبه، وأخذوا يكتبون كلاماً مردداً متشابهاً في مجلات وصحف لا تقع عليها عين عالم. ويرجع كل ما موهوا به إلى ما يأتي:

1 - أن حياة عيسى الآن ونزوله من السماء آخر الزمان ثابتان بالكتاب والسنة والإجماع)

2 - أن من أنكر نزول عيسى كمن أنكر خروج المهدي، كلاهما كافر مرتد عن الإسلام كمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره)

3 - أن هذا البحث صدر بروح قاديانية قصد صاحبه به أو ساير فيه هوى أتباع غلام أحمد القادياني):

ونحن نبدأ بالنقطة الثالثة لأن لها شيئاً من الطرافة، ولأنها توضح للقراء أسلوب هؤلاء القوم في البحث وطريقتهم في التفكير والتكفير معا!

يقول (كبيرهم) في مطبوع له نشره:

ولعل السائل هندي قادياني المذهب أراد الحصول على فتوى من الأزهر تؤيد مذهبه!) ولعل مشيخة الأزهر ندمت بعض الندامة على ما سبق لها من تنفيذ القرار الصادر عن هيئة كبار العلماء لطرد الطالبين الألبانيين القاديانيين من الأزهر؛ إذ حولت السؤال إلى الشيخ كاتب المقالة من بين علماء الهيئة الذي ستعرف القاديانية في المسألة المحولة إليه، فكان جوابه أنه عليه السلام مات في الأرض ورفعت روحه ولم يرفع حياً)

وهنا يكتب تعليقاً في أسفل الصحيفة، يقول فيه سامحه الله:

وكنت قد سمعت عندما فاوضت هيئة كبار العلماء فيما بينهم للبت في أمر الطالبين) المذكورين أن في الهيئة من يشذ ويتردد في الإفتاء بكفر المنكر لكون نبينا صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء طعناً منه في حجية الحديث الوارد فيه والإجماع المنعقد عليه وفي دلالة قوله تعالى: (ما كان محمد أبا أحدٌ من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين) عليه القطعية؛ وقد رددت على هذا العضو الشاذ شذوذه في مقدمة الكتاب (الذي لم ينشر تمامه بعد) والآن أقول: إن كان الشيخ شلتوت لم يتأخر التحاقه بهيئة كبار العلماء عن زمان درس مسألة الطالبين فهو أول من يخطر بالبال أن يكون ذلك الشاذ!)

هكذا يقول شيخ الإسلام الذي كفرت به تركيا! فارجع أيها القارئ إلى هذه العبارة ورددها لتنظر ماذا يكتب صاحب (القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون) رددها لتعلم العامل الوحيد الذي جعل دولة إسلامية كبرى تتشكك فيما ينسب إلى الدين عن طريق هؤلاء!

يبيح هذا الشيخ لنفسه أن يرمي وجوه أهل العلم بدون أدنى تثبت بتهم خطيرة في مثل هذه العبارة الركيكة الملتوية، فيزعم أن نزعة كاتب هذا البحث قاديانية، ويزعم

أن هناك عضواً في جماعة كبار العلماء شذ فعارض في فصل الطالبين القاديانيين، وأن هذا العضو يتردد في الإفتاء بكفر من أنكر ختم النبوة بمحمد صلى الله عليه وسلم، وأنه يطعن في حجية الحديث الوارد فيه، ويطعن في الإجماع المنعقد عليه، ويطعن في دلالة الآية القطعية عليه. يتصور هذا الشيخ عضواً في جماعة كبار العلماء هذا شأنه وتلك عقيدته، ويؤلف كما يقول كتاباً في الرد عليه لم ينشره بعد، وهو لا يعرف شخصه ولا يكلف نفسه السؤال عنه حتى تسعفه به المصادفة فيجمع في خياله بين بحث شلتوت ومعارضة العضو المجهول في فصل الطالبين، بل يجمع بين شلتوت وكفر هذا العضو المجهول بإنكاره مسألة من أمهات مسائل الدين وأصوله فيقول: (إن كان الشيخ شلتوت لم يتأخر التحاقه بهيئة كبار العلماء عن زمان درس مسألة الطالبين فهو أول من يخطر بالبال أن يكون ذلك الشاذ!)

ولست في حاجة إلى أن أقول: إنه لا يوجد بين كبار العلماء قاطبة، ولم يكن فيها من قبل، شخص كهذا الذي تصوره الشيخ وألبسه تلك العقيدة ظلماً وعدوانا

ولست في حاجة أيضاً إلى أن أقول: إن زمن التحاقي بالجماعة متأخر عن درس مسألة هذين الطالبين وتنفيذ القرار فيهما

ولكنني بعد هذا أسأله، وقد علم أن هذا العضو ليس بشلتوت: من يكون إذن؟ حتى نعرف على الأقل ثاني من يخطر بالبال في مثل هذا المجال!

أسأله وأنا واثق أنه لا يستطيع أن يجيب لأن هذا الشيخ وأمثاله لا يقولون ما يقولون عن علم أو بحث، ولكن عن خرص وتظنين وتمويه وتشويه (إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس و (إن الظن لا يغني من الحق شيئاً)

وحسب القراء أن يعلموا أن هذا الشيخ لم يكد يسلم منه أحد من قادة العلم والدين في مصر: فهو يتهم الأستاذ الإمام المغفور له الشيخ محمد عبده، ويتهم المغفور له الأستاذ الشيخ رشيد رضا، ويتهم فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي، ويتهم غير هؤلاء ممن ذهبوا إلى ربهم وممن يعيشون! ولو شئنا أن نضرب للقراء أمثالاً من اتهاماته المضحكة لطال بنا القول، ولكننا نكتفي بإيراد ما نسبه إلى الأستاذين: الشيخ عبده والشيخ المراغي

زعم أن الشيخ عبده رضي الله عنه يرى أن النبي صلى الله عليه وسلم رجل (من أمثال الذين يثقون بأنفسهم في صحة آرائهم ومبادئهم ويأمل الناس فيهم الصلاح والإصلاح) ينسب هذا إلى تلك الروح الطاهرة التي ذهبت إلى ربها راضية مرضية بعد أن جاهدت في الله حق الجهاد، ويكرر هذا المعنى كثيراً ويقول في لهجة تنم عن الحقد والضغينة في كل ما يتناول به العلماء المصريين: (تفكر في هذا وفي كون صحافة مصر المنحرفة عن الثقافة الإسلامية إلى الثقافة الغربية لا تزال تشيد باسم الشيخ قائل هذا القول)

يقول هذا في الشيخ عبده وهو صاحب رسالة التوحيد التي تكلم فيها عن الرسالة والمعجزة ودلالتها على صدق الرسول وعن الوحي وكونه ممكن الوقوع وواقعاً فعلاً، وعن وظائف الرسل عليهم الصلاة والسلام، وعن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بالخصوص - تكلم عن هذا كله في أكثر من نصف رسالته بعبارات جلية واضحة لا لبس فيها ولا غموض

ولا تدع مجالاً للشك في رأيه العلمي لمن أراد مخلصاً أن يعرف آراء العلماء

أما تهمته التي حاول إلصاقها بفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي، فهي تتصل بمقدمته التي قدم بها لكتاب (حياة محمد) الذي ألفه الدكتور هيكل باشا، وفيها يقول فضيلة الأستاذ الأكبر (إن الإسلام أعلى من شأن العقل والبرهان وجعلهما أساس الحكم والعلم وعاب التقليد وذم المقلدين وأنب من يتبع الظن وفرض الدعوة بالحكمة لمن يفقهها ولم تكن معجزة محمد صلى الله عليه وسلم القاهرة إلا في القرآن وهي معجزة عقلية)

هذا هو قول فضيلة الأستاذ الأكبر. أتدري أيها القارئ ماذا صنع به هذا الشيخ الذي يتصيد التهم للناس تصيداً؟ لقد أعاد فيه وأبدأ في عدة مواضع متفرقة من كتابه بعبارات مختلفة ولوازم منتحلة، ومن ذلك أنه يقول (بهذه العبارة أنكر الشيخ المراغي المعجزات الكونية لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ويلزمه لذلك أن ينكر الأحاديث

الواردة فيها، ويلزمه لذلك أن ينكر المعقل الثاني للتشريع الإسلامي وهو السنة المحمدية، وهو بهذا وذاك يمهد لإلغاء (كلية الشريعة) التي تدرس الفقه وأصول الفقه) قياس متصل النتائج نسج الخيال والتعسف مقدماته حتى انتهى إلى هذه النتيجة التي سود بها صحيفة كتابه!

فإذا كان هذا الشيخ ينتحل هذه التهم وأمثالها ويلصقها بالشيخ عبده والشيخ المراغي وأمثالهما فلا غرابة في أن ينتحل مثلها أو أشد منها ويلصقه بشلتوت وأمثال شلتوت، فتلك شنشنة عرفت من أمثال هؤلاء الذين مني الإسلام بهم في كل عصر، ورأوا أن مسايرة الجماهير في أهوائهم وعقائدهم أجدى لهم وأسبغ للخير والنعمة عليهم!

ومن الأمثلة التي نسوقها تفكهة للقراء، وبياناً لطريقة هؤلاء في البحث ومبلغ إخلاصهم للعلم ونزولهم على حكم البرهان، أن أحد المتمرنين على طريقتهم كتب يقول:

بل كان يجب عليه - يريدنا - أن يتقرب إلى الله بمخالفتهم - يعني القاديانية - وإظهار) موافقة المسلمين فيما يعتقدون، فإن لم يفعل ذلك تقرباً فليفعله مجاملة لأولئك الأبطال العلماء الذين وقفوا أنفسهم للدفاع عن الدين من هؤلاء المعتدين، وإظهاراً لاتحاد كلمة المسلمين حتى لا يجد المعتدى خللاً ينفذ منه. والمثل العامي يقول: (أنا وأخي على أبن عمي، وأنا وأبن عمي على الغريب) ثم يقول: (فبربك قل لي: كيف يكون موقف إخواننا علماء الهند الذين أثبتوا نزول عيسى عليه السلام بسبعين حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم فيها

الصحيح والحسن والضعيف المنجبر، وأثبتوا حياته ورفعه بأحاديث وآثار عن الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين، حين يبلغهم عن طريق القاديانية قبل غيرهم أن الأزهر يخالفهم ويقول ليس في هذه المسائل دليل ولا شبه دليل؟)

وهذا كلام غني بنفسه عن التعليق عليه، فقارئ الرسالة يكفيه أن يقرأه ليعلم أن من أسس البحث عند هؤلاء المجاملة والجري على مقتضى المثل العامي القائل: (أنا وأخي على أبن عمي، وأنا وأبن عمي على الغريب). وهذا أسلوب جديد في التفكير لا نستطيع مسايرته، ولا نحب أن نشغل أنفسنا به، وحسبنا أن نقول:

أولاً: إن الخلاصة التي أسلفنا نقلها من الفتوى صريحة في أن حياة عيسى ورفعه بجسمه إلى السماء ونزوله منها إلى الأرض آخر الزمان لم يثبت شيء منها بدليل قطعي يكوّن عقيدة يطمئن إليها القلب حتى يكفر من أنكرها. وهذا القدر وحده لا اتصال له بمذهب القاديانية في قليل ولا كثير

ثانياً: وعلى سبيل الفرض والتقدير لو اتفقت الفتوى مع رأي القاديانية قطعاً أيلزم من ذلك أن صاحب الفتوى يكتب بروح قاديانية ويؤيد القاديانيين الذين يرون فيما يرون أن محمداً صلى الله عليه وسلم ليس خاتم النبيين، وأن غلام أحمد نبي يوحى إليه؟ وأين هذه من تلك؟ وهل إذا قال المسلمون في مسألة مثل ما يقول اليهود والنصارى يكون ذلك دليلاً على روح يهودية أو نصرانية؟ وهل إذا أنكر عالم من علماء المسلمين وقوع النسخ في القرآن يكون مُصدراً في ذلك عن روح قاديانية؟ وإذا رد علماء الهند على القاديانية في ذلك أتجب عليه مجاملتهم أيضاً؟ وهل إذا قال قائل بأن الجهاد ليس مطلوباً منا بسبب كفر الكافرين ولكن بسبب محاربتهم إيانا واعتدائهم علينا كما ينقل عن الثوري وكما ينسبه ابن العربي إلى الحنفية في تفسيره؛ أيكون بذلك مُصدراً عن روح قاديانية؟

لا. لا. إنكم أيها المموهون لا تريدون بذلك إلا أن تجاروا سلفاً لكم ضعفوا عن الحجة والبرهان، ولم يتعودوا الإخلاص للحق، فراحوا يردون الآراء بتشويهها والتنفير منها: كانوا يقولون: هذا رأي المعتزلة، وهذا يتفق مع قول الفلاسفة، وذاك رأي ابن تيمية. . . الخ. وهاأنتم أولاء تتبعون سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع فتحاولون تشويه الآراء بمثل قولكم: هذه روح قاديانية، هذه مسايرة لآراء المستشرقين، هذا تجديد في الدين. . .

الخ. ولكن أعلموا أن الفكر الإسلامي قد أخذ يستعيد صفاءه ويسترد إخلاصه للحجة والبرهان كما كان السلف الصالح من المؤمنين. وأصبحت هذه الأساليب مكشوفة معروفة، بل أصبحت وبالاً على أصحابها لأنها تنفر منهم وتدل على ضعفهم والتواء عقولهم!

لقد كان جديراً بنا ألا نشغل أنفسنا بأمثال هؤلاء، وأن نمر بما ذكروا كراماً، ولكنهم

عمدوا إلى أسلوب آخر من أساليب الخداع والتمويه إذ اتصلوا بقوم عزيز علينا أن نتركهم صيداً في شبكتهم. خدعوهم باسم الدين، ووسوسوا لهم بأن هذه الفتوى تمس العقيدة الثابتة بالقرآن والسنة المتواترة والإجماع القطعي، فهي اعتداء على الدين وهدم لركن من أركانه. وسوسوا بهذا ونحوه، وكان من آثار هذه الوسوسة أن نائباً محترماً له في نفوسنا مكانة ومحبة انخدع بما يقولون وطاوعهم في استكتابه كتاباً في هذا الشأن رفعه إلى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر، وبعث بنسخة منه إلى حضرة صاحب المقام الرفيع رئيس مجلس الوزراء

وفي هذا الكتاب يقول:

إني أكتب لفضيلتكم في مسألتين هامتين لكل واحدة منهما خطرها وعظم شأنها) ثم يرجو فضيلة الأستاذ الأكبر أن ،(لمساسها من قريب أو بعيد بأصل العقيدة الدينية ينشر الرأي الصواب الذي يقرره فضيلته عن هاتين المسألتين في مجلتي الرسالة والإسلام فضلاً عن نشره بمجلة الأزهر. ونحن لا نرى بأساً في الرجوع إلى شيخ علماء الدين أو إلى هيئة علمية دينية في تعرف رأيه أو رأيها في مسألة دينية، ولكننا لا نفهم ما المراد بتوجيه هذا الكتاب إلى حضرة صاحب المقام الرفيع رئيس مجلس الوزراء في مسألة دينية كهذه: أيراد أن تكون هناك هيئة حاكمة يرجع إليها في حماية نوع خاص من التفكير العلمي والديني؟ إن كان هذا هو المراد فما أشبهه بمحاولة العمل على إعادة صورة من صور محاكم التفتيش الأسبانية البائدة في مصر وعلى يد رئيس حكومتها وشيخ علمائها وفي أحضان الإسلام دين الحجة والبرهان لا دين القوة والسلطان

ألا إننا لا نكتب ما نكتب إلا صوناً لمثل هذا النائب المحترم ولجمهرة من المسلمين قد تروج عليهم حيل هؤلاء الخادعين المتطفلين على موائد العلم، وسنعرض في الفصول المقبلة إن شاء الله إلى شبههم التي موهوا بها وبنوا عليها قصور الخداع والإضلال.

وسيعلم الناس أن الله سبحانه وتعالى كما ابتلى عباده بقوم يجادلون في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، قضت حكمته - رحمة بعباده وصوناً لدينه - أن يهيئ طائفة يظهرها على الحق، ويدفع بها في صدر الباطل، حتى يكشف عواره، وينسخ آثاره (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون)

محمود شلتوت

عضو (جماعة كبار العلماء)

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

على ميعاد - في بناء الجيل الجديد - ظرف المكان - ضيوف القاهرة - شارع الشريف وغيط الشريف

على ميعاد

مع من؟ مع الربيع بعد أن كاد يخلف الميعاد

في صباح كل يوم من هذه الأيام أطالع وجوه الأشجار الضواحك، عساني أنسى عبوسها في الشتاء الذي طال ثم طال، إلى حد الإملال. ومن العجب أن أرى أشجاراً لم تورق بعد، كأنها تخشى أن يكون انصرام الشتاء خبراً لم يقم على صحته دليل.

فلتقرأ هذه الأشجار هذا الكلام، ولتصدق أننا في (مايو) شهر الأزهار والرياحين لا شتاء بعد اليوم من هذا العام، فلنفرح بقدوم الربيع الأول وهو مطلع الصيف، إلى أن يجيء الربيع الثاني، الربيع الحقيقي في الديار المصرية، وهو الذي يقع في الأشهر الثلاثة: أغسطس وسبتمبر وأكتوبر، وهي أشهر الصفاء والرخاء في هذه البلاد مرحباً بالصيف، والصيف المصري جدير بالترحيب. فبفضله نتذوق نسمات في المساء لا تجود بمثلها الطبيعة في أي أرض. والقيظ في مصر يُتقى بالطل؛ وفي غير مصر لا يُتقى القيظ إلا بوسائل يغلب عليها الافتعال

وطعم الظل في مصر لعهد الصيف جميل المذاق إلى أبعد الحدود. ولا أدري كيف تركناه بلا تنويه فيما كتبنا عن خصائص الطبيعة المصرية

ولا بد من النص على حقيقتين من حقائق الحياة في مصر قبل أن أنسى وينسى الناس:

الحقيقة الأولى هي جمال الشتاء المصري قبل التمدن الحديث، ولا يعرف قيمة هذا

الجمال إلا من نشأ في الريف، فقد كان هنالك طعمٌ لذيذ للدفء في (القاعة المحمية)، وكان لتلك القاعات فضلٌ في خلق شعور السعادة بالتغلب على قسوة الشتاء
الحقيقة الثانية هي جمال الزّير المعلَّق في أيام الصيف، وهو يمنح الماء طعماً لا يمنحه الثلج بأي حال
وبالقرب من دار الرسالة حارة تسمى حارة الزير المعلق، فمن كان يجهل أصل هذه فليعرف أن (الزير المعلق) هو قصر شيرين باشا. ولعل صاحب القصر سماه بهذا الاسم للمعنى المضمر في لطافة الزير المعلق أيام الصيف. وقد سُجِّل اسم هذا القصر في قصيدة من قصائد الشاعر إبراهيم الدباغ، أنعم الله عليه بالشفاء، فقد سمعت أنه مريض.
أما بعد فماذا أريد أن أقول؟
هذا ربيع، وهذا صيف، وهذه ليالي النسائم الرفيقة بمصر الجديدة والجيزة والمعادي وحلوان والزيتون
فأين صبواتك يا قلبي؟ وأين أيامك؟ وأين لياليك؟ وأين أحبابٌ كنت معهم على ميعاد؟
لقد بخلت الأقدار بالتلاقي، وتركتنا نصطرع في لجج اليأس العجّاج
مضى الشتاء وأورقت أشجارٌ ثم أزهرت، وما لك يا قلبي أملٌ في إزهار ولا إيراق
الوجود كله ربيع، فأين نصيبك من هذا الربيع يا قلبي؟
ربيعك هنالك، فامض إليه إن استطعت، وإن استطاعت تلك الأزهار أن تطمس أبصار الرقباء
سيمر زمن وأزمان، وستفعل المقادير ما تفعل بمصاير ممالك وشعوب، ثم يبقى لك هواك يا قلبي، هواك الذي لا يجوز عليه الخمود، لأنه من أقباس الخلود
وهل يعرف أحبابك هنالك أنك معهم على ميعاد؟ لقد يئسوا من وفائك يا قلبي، لأنك آثرت الكتمان، فمتى تفتضح في هواهم ليعودوا مع الربيع؟
أنتِ على بالي في كل وقت، ... يا مَهاةً لا تخطر إلا في البال
ولو أنني أستغفر الله كلما ... ذكرتكِ لم تُكتبْ عليّ ذنوبُ
في بناء الجيل الجديد
أعتقد أن الأساس لبناء الجيل الجديد هو خلق الإيمان بالعدل في تقسيم الحظوظ، بحيث يصير من المفهوم عند الجميع أن في مقدور كل فرد أن يصل إلى أعظم المناصب، إذا زوّد نفسه بالزاد الذي يؤهله لما يتسامى إليه، بلا احتياج إلى وسيط أو شفيع
ولكي نصل إلى هذه الغاية يجب أن نروض أنفسنا على فهم المراد من العدل، فقد يصرخ ناس ثم يصرخون بدعوى أنهم لم يؤهلوا أنفسهم لخوض معارك الحياة واقتحام أسوار المجد. وهذه آفة لم يسلم منها الناس في أي زمان
نحن في الغالب نطالب بأكثر مما نستحق، وندّعي لأنفسنا حقوقاً لم نبذل في سبيلها ما يجب بذله من الجهود، ثم نطيل التوجع والتفجع والتحسر على انعدام العدل. وهل عدلنا مع أنفسنا حتى نطالب غيرنا بالعدل؟
لا يجوز تضييع لحظة واحدة بلا استفادة علمية أو أدبية، ولا يجوز تضييع لحظة واحدة في القيل والقال إذا كنا نريد أن يكون لنا في الحياة السامية مكان
ومن آفات الناس في هذا العصر أن تكون المظاهر غاية ما يطلبون، فمن النادر أن نجد من يتشهى أن يكون نعيمه مقصوراً على المغانم الروحية، ومن النادر أن نجد من يفرح لأن جيرانه في رغد وإن كان في حرمان
والاعتماد على الحكومة في جميع الشؤون أخطر آفات هذا الجيل؛ فالحكومة هي التي تصد بغي الناس بعضهم على بعض، والحكومة هي التي تضمن وجود الرغيف في السوق، والحكومة هي المسئولة عن كف يد القريب عن ظلم القريب
نحن نشغل بعدِّ المنافع عن عدِّ المآثم، وننسى محاسبة أنفسنا على الكسل البغيض، الكسل الذي يشل مواهبنا المكنونة ويضيفنا إلى جماعة المتواكلين
ما هذا الذي نعاني من كوارث وخطوب؟
أقول هذا لأني أعرف أننا لا نلتفت لغير المصاعب التي تساق إلينا من بُعد، ونغفل عن المصاعب التي نخلقها بأيدينا، وهي المصاعب الناشئة عن غفوتنا الروحية والذوقية

والعقلية. وصدق الرسول حين قال: (أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك)
الجهل الدميم بقوانين الوجود هو الذي يجعلنا نلقي المسئولية على من لا يحملون عنا أية مسئولية، والفرار من التبعات هو أعظم شواهد الخذلان
لو أنفقنا في محاسبة أنفسنا معشار ما ننفق في محاسبة الحكومة والمجتمع لوصلنا في جهاد النفس إلى أشياء. ولو تجنَّينا على أنفسنا كما نتجنى على الحكومات والمجتمعات لتكشفت أنفسنا عن حقائق تهدينا في ظلمات الوجود
محاسبة النفس لا تقع إلا عند يقظة النفس، فلنفهم أن رضانا عن أنفسنا في جميع الأحوال من دلائل السبات
وأغرب ما نتورط فيه أننا نبالغ في تعقب عيوب الحكومات والمجتمعات، ثم ننتظر أن لا
ترى فينا الحكومات والمجتمعات غير الجميل
وما هي الحكومة؟
هي مجموعة أشخاص يتعرضون لما يتعرض له سائر الناس في المعاملات الفردية والاجتماعية، ومن حقهم أن يعاملوك بالعدل في الإساءة كما تحب أن يعاملوك بالعدل في الإحسان
وما هو المجتمع؟
هو تلك الخلائق المبثوثة في القرى والمدن والأسواق، وهي على تنوعها العجيب قد تلتقي في المشاعر والعواطف من حين إلى حين
وقد نخطئ فنتوهم أن تلك الخلائق تعجز عن تعقب العيوب فيمن لا يرى فيها غير العيوب
والمصلح في الجيل الجديد سيُسأل أمام ضميره عن تجسيم المحاسن الأصيلة في المجتمع، وهي سر التماسك الاجتماعي، وبفضلها استطاع المجتمع المصري أن يقهر مصاعب كثيرة عانتها مصر من جيل إلى جيل
وخلاصة القول أني أدعو إلى محاسبة النفس قبل محاسبة الحكومة والمجتمع، وأرجو أن يؤمن كل فرد بأنه حجر الأساس في بناء الحكومة وبناء المجتمع، إن صحت النية على أن نكون من رجال الأخلاق
ظرف المكان
في يوم واحد ظهر لي مقال في مجلة الرسالة ومقال في مجلة الاثنين رداً على الأستاذ عباس محمود العقاد؛ ومع أن المعاني واحدة أو كالواحدة في المقالين فقد اختلف الأداء كل الاختلاف، فما السر في ذلك؟
يرجع السر إلى ظرف المكان، فقد بدا لي العقاد في (الاثنين) وهو خصم، وبدا لي في (الرسالة) وهو زميل وما أبعد الفرق بين الخصم والزميل!
قال قائل إن اللطف الذي بدا في مقال الرسالة بدد العنف الذي ظهر في مقال الاثنين. وأقول إني لا أندم على كلمة الخير بأي حال. وليس في نيتي أن اصطنع العنف في معاملة زملائي، إلا أن يحرجوني. والرجل الغضبان يستبيح ما لا يباح
وأنا مع ذلك أشعر بفداحة الخسارة في العراك الذي ثار بيني وبين الأستاذ العقاد؛ فلا هو
وصل إلى شيء، ولا أنا وصلت إلى شيء، لأن ذلك العراك لم يزد عن ملاحاة لا أرضاها منه ولا يرضاها مني
خصومتي مع الدكتور طه حسين هدتني إلى حقائق أدبية وفلسفية
وخصومتي مع الأستاذ أحمد أمين كانت السبب في أبحاث جياد أفصحت فيها عن سرائر الأدب العربي
وخصومتي مع الأستاذ توفيق الحكيم كانت السبب في أن أنشئ مقالي عن (رجال الأدب ورجال القضاء)
وخصومتي مع الأستاذ إبراهيم المازني كانت الباعث لبعث مواهبي الشعرية
فما مصير خصومتي مع الأستاذ العقاد؟
إن بوادر لا تبشر بالخير، فهل تقع معجزة تحولها إلى الاختصام حول حقائق تكون دساتير في فهم أصول الأدب والبيان؟
أنا أنتظر أن نخوض في أحاديث تصل بنا إلى نفائس، وأكره أن تكون المعارك الأدبية

في مصر مقصورة على مجادلات ينفر منها الذوق في أكثر الأحايين
وإلى اللقاء على صفحات (الرسالة) الصديق
ضيوف القاهرة
كان من المألوف أن يصطاف المصريون في فلسطين أو سورية أو لبنان، لينعموا بالرخاء الذي لا تعرفه مصايف الإسكندرية أو رأس البر أو بور سعيد، فما تمتع بلدٌ قبل هذه الحرب بمثل الرخاء الذي كان يتمتع به أهل فلسطين ولبنان
واليوم نسمع أن تلك البلاد تعاني متاعب عنيفة من الغلاء ونرى بين أعيانها أفواجاً تزور القاهرة لتعيش في رفاهية بضعة أسابيع، فما الذي نصنع في إكرام أولئك الضيوف؟
يعزّ عليّ أن أعترف بأننا لم نتخذ خطة واضحة في استقبال من يزور مصر من أبناء الشرق العربي والإسلامي. وإلى وزير الشئون الاجتماعية أوجه هذا الحديث
شارع الشريف وغيط الشريف
في يناير سنة 1931 شكا إليّ المسيو فوشيه مراسل (الأهرام) في باريس من أن جريدة
الأهرام لا تدعوه إلى الإقامة في القاهرة شهراً أو شهرين من كل عام، ليعرف الجو السياسي فيراعيه فيما يرسل من البرقيات
وفي أغسطس من سنة 941 زرت مدينة المنصورة لأتحدث مع الأستاذ الزيات فيما يجب أن نراعيه من التوجيهات الأدبية والاجتماعية
وفي إحدى السهرات قال فلان: هل سمعتم باسم الشارع الجديد؟
وما اسم الشارع الجديد؟ -
شارع الشريف الرضي -
فابتسم الأستاذ الزيات وقال: هذا من وحي الدكتور المبارك
وفي يناير من سنة 1942 رفعت قضية شفعة على غيط يجاور أملاكي في سنتريس.
ولم أكن أملك من ثمنه غير دنانير كسبتها من كتاب (عبقرية الشريف الرضي)، وقد كسبت القضية وسميت الغيط (غيط الشريف)
أمر الأرواح عجب في عجب، وما أعجب أمور الأرواح!
كان الشريف يتحدى خلفاء بغداد بأن له في مصر أنصاراً يستنصر بهم حين يشاء، وقد وفت مصر للشريف بعد عشرة قرون، فسمَّت باسمه شارعاً في المنصورة وغيطاً في سنتريس، ولن يموت رجلٌ يحفظ اسمه في المنصورة وسنتريس
الشريف هو الذي يعبِّر عن أشواقي إلى أحبابي في العراق حين يقول:
ومن عجب لا أسأل الركب عنكم ... وأعلاق وجدي باقيات كما هيا
ومن يسأل الركبان عن كل غائب ... فلا بد أن يلقى بشيراً وناعيا
وقد فجعتني الأقدار بموت الصديقين الكريمين: إبراهيم العمر وصادق الوكيل، وكانا عدوين لا يقرب بينهما غير الاتفاق على ودادي، وما أكثر ما صنعت في تبديد الخلاف بين المتخاصمين من أدباء العراق!
كنت أقول إني أحب العراق لأخلق فيه صداقات لوطني؛ واليوم أقول إني أحب العراق، لأنه العراق
ومن الذي يكره بلداً لا يفارقه بغير الدمع؟
من الذي يكره بلداً رجاله طه الراوي ورضا الشبيبي؟
العراق وطني، لأنه أصدق الأصدقاء لوطني، ولأنه العراق، ولأنه دار الذين يئسوا من وفائي، مع أنني أوفى الأوفياء
أنا الجاني على نفسي، فقد تهاونت في نقل تلك البُنية إلى وطني، ومعها تلك الأم السمراء، ويا لها من سمراء!
جنى الهوى ما جنى، وجنيت ما جنيت، فعلى أيام الهوى وعلى أيامي ألف تحية وألف سلام، إلى أن نلتقي في ظل الموصلية التي تسكن بغداد، وهي ملثوغة الراء، لأنها حواء، وأنا أول الحافظين لعهد الوفاء.
زكي مبارك
مجلاتنا الممتازة
ونصيب المسرح والسينما والغناء منها
للأستاذ دريني خشبة

هل تكتب (الرسالة) أو (الثقافة) أو (المقتطف) أو (الهلال) شيئاً في المسرح المصري الحاضر أو السينما المصرية الحاضرة أو الغناء المصري الحاضر أو الموسيقى المصرية الحاضرة؟ وإن لم تكن هذه المجلات تكتب شيئاً من ذلك، فهل هي على حق في خطتها تلك! وهل هي بتلك الخطة التي تلتزمها حيال أرقى فنونها الجميلة تمثل النهضة المصرية أو تنطق بلسان مصر الحديثة؟ وهل هناك فرق أن تصدر الرسالة - وتلك خطتها - في القاهرة أو في بغداد؟ وهل يتغير المقتطف إن كان يطبع في دمشق، لا في القاهرة؟ وإن صدرت الثقافة في مكة، ولم تصدر في مصر، فماذا كان يتغير فيها بحكم تلك البيئة الجديدة؟ وإذا كان الهلال يأتي إلينا من صنعاء اليمن فهل كنا نرى فيه هلالاً غير هذا الهلال الذي يصدر عن القاهرة؟

وما السبب يا ترى في امتناع مجلاتنا الممتازة هذه عن الكتابة في المسرح المصري الحديث والسينما المصرية الحديثة، والغناء المصري الحديث، والموسيقى المصرية الحديثة، وفي سائر الفنون المصرية الحديثة!

هل يستطيع أحد أن يتهم الأستاذ الزيات أو الأستاذين أحمد أمين وعبد الواحد خلاف، أو الأستاذ يعقوب صروف أو الأستاذين أميل وشكري زيدان بأنهم رجال لا يستطيعون أن يزنوا هذه الفنون من حيث تمثيلها للنهضة المصرية الحديثة والذوق المصري الحديث؟ وإن قلنا إن هذه المجلات قد خصصت نفسها للأدب الجد والعلم الجد، فهل نفهم من ذلك أن أصحابها لا يقولون بأن المسرح المصري الحديث ليس من الأدب الجد في شيء، ومثله السينما والغناء والموسيقى!!

وهل العلاقة بين هذه الفنون وبين الأدب الجد لا تصل في أهميتها إلى خطورة العلاقة بين الأدب الجد وبين اشتقاق كلمة (اجلوّز) وما إليها من تلك الببغائيات التي تحفل بها مجلاتنا الممتازة وتفسح لها صفحاتها؟

ولكن. . . ما علة امتناع مجلاتنا الممتازة، هذا الامتناع الإجماعي، عن الكتابة في هذه النواحي من مقومات نهضتنا الفكرية الأدبية الحديثة؟!

هل هو الاستعلاء كما زعم لي أحد الزاعمين وأنا أحاوره في هذا الموضوع؟ وفيم يا ترى استعلاء مجلاتنا المصرية الممتازة عن الكتابة في المسرح المصري الحديث والسينما المصرية الحديثة؟ هل هي في حاجة إلى من ينبهها إلى خطر المسرح والسينما ومكانهما من الأدب الذي تضطلع بنشره في مصر قاطبة؟!

وهل ترفض هذه المجلات الممتازة نشر بحث يقدم لها عن المسرح اليوناني، أو المسرح الإنجليزي، أو المسرح الفرنسي؟ كلا. . . إنها ترحب دائماً بهذا البحث وتعده من واجبها الأول!

وهل ترفض ترجمة لأحد رجال المسرح اليوناني أو المسرح الإنجليزي أو المسرح الفرنسي؟. . . وهل ترفض ترجمة لأحد الموسيقيين من أمثال موزارت وباخ وهاندل وبيتهوفن وهايدن وشوبين وليزت ولتنتايكوفسكي؟ أم ترفض ترجمة لأحد المغنين القدامى من أمثال إسحاق وإبراهيم الموصلي وزرياب وعنان؟

هذه طائفة من الأسئلة كانت وما تزال تملأ التفكير، وتجعل الرأس أشبه بخلية النحل من كثرة ما كانت تتوارد فيه، في شدة وفي عنف. . . بل في شبه ثورة جارفة، مُغثاة بكثير من الهم والاكتئاب!. . . لماذا تستعلي مجلاتنا عن تناول المسرح المصري، والسينما المصرية، والغناء المصري والموسيقى المصرية؟. . . إن أحداً لا ينقم على مجلاتنا الممتازة مظهرها العربي الصميم الذي هو مفخرة الصحافة المصرية، ونحن حين نرى العالم العربي كله يقرأ مجلاتنا ويقبل عليها هذا الإقبال لنحمد الله على أن جعل لنا الصدارة في هذا الباب، وأن هيأ لنا من الزعامة الفكرية ما يجعل مصر نبراساً للأمم العربية جمعاء. . . هذا حسن جداً. . . وهو خير كل الخير، لكن ماذا يضرنا لو أظهرنا شقيقاتنا من الأمم العربية على هذا الجانب الهام من مصريتنا الصميمة؟ لماذا لا نكتب لهم عن مسرحنا وعن هذه النخبة الفاضلة العامة المجدة من رجاله؟ لماذا لا ننقد لهم الروايات المصرية التي يؤديها هذا المسرح ويعالج فيها عللنا الاجتماعية؟ ألم تكن فرقنا تذهب إلى فلسطين وسوريا ولبنان والعراق وتونس والجزائر وأمريكا الجنوبية لتمثل هنالك تلك الروايات المصرية؟ أليست هذه هي الأفلام المصرية تصدر من مصر إلى تلك الأقطار

الشقيقة فيقبل عليها الأهلون إقبالاً منقطع النظير ليشهدوا مصر الحديثة، وليطالعوا الأدب المصري الحديث، والتمثيل المصري الحديث. وليمتعوا أنفسهم بالغناء المصري الحديث ويشنفوا آذانهم بالموسيقى المصرية الحديثة؟ الحقيقة أن شطراً كبيراً من مسئولية ذلك تقع على عواتق رجال تلك الفنون من المسرحيين ومخرجي السينما وممثليها والمغنين والموسيقيين المصريين. . . وسنكون صرحاء في تحديد هذا الشطر من المسئولية فنقولها كلمة حق إن كثيرين منهم يكادون يكونون أميين. . . أميين في فنهم نفسه، وأميين في طريقة أدائه، وأميين في منوال حياتهم بوصف كونهم رجال الفنون الرفيعة في مصر. أما أن منهم الأميين في فنهم فهذا هو المشاهد الملحوظ في كثير من الروايات المصرية المسرحية، وأشرطة الصور المصرية تأليفاً وإخراجاً وتصويراً وتمثيلاً - وأنا أكتفي هنا بالإشارة العابرة دون التصريح والتجريح، فما لهذا كتب المقال - ولست تعرف من أين يأتي أكثر العيب؟ أيأتي من المؤلف الذي يتناول الموضوع المصري أو إحدى البيئات المصرية فيشيع فيهما مرض خياله ويمسخها بسقم تصويره ويجعل منها أضحوكة لا تخطر في بال مصري؟ أم يأتي من المخرج الذي يضرب أخماس المشاهد في أسداسها حتى تبرز عرجاء شوهاء مقعدة في كثير من الأحيان؟ أم يأتي العيب من المعمور الذي لم يدرس قط، أو درس دراسة ارتجالية - فن الضوء المسرحي أو السينمائي وزوايا المناظر؟ أم يأتي أكثر العيب من الممثلين وفيهم مهرجون كثيرون فرضوا بطولتهم على الشركات التي ألفوها، وعلى النظارة الذين أفسدوا أذواقهم بالإلحاح عليها بشعبذاتهم ومساخرهم

أما أميتهم في أسلوب حياتهم فذاك أن أكثرهم لا يحاول قط أن يتعلم أو أن يثقف نفسه بمطالعة ما تصل إليه يده عن تاريخ فنه وتراجم أبطال هذا الفن وما يجد كل يوم فيه وما ينضاف إليه من جهود المتخصصين فيه، ثم هم غير هذا يحيون حياة سائبة ليس فيها أي شعور بالكرامة الفنية التي كان يخلق بها التسامي عن التبذل والانغماس فيما يشين الأقدار. وليس يضير هذه الفنون قط أن كثيرين من أبطالها في مصر قد نشئوا من صميم الشعب، فهنا مفخرة هذه الفنون، بل هنا حياتها، لأنه لا يعرف هوى الشعب ولا يدرك علله إلا أفراد منه أوتوا تلك الملكات الشعبية التي يجهلها السراة جهلاً تاماً

وبمناسبة فقر أبطال المسرح والسينما والغناء والموسيقى في ثقافتهم، ذلك الفقر المضحك

المخزي، يذكر الإنسان ما كان يشترط في المغني العربي والمغنية العربية في العصر العباسي من إلمام واسع بنحو العربية وصرفها وعروض الشعر وقوافيه، وما كان ينبغي أن يتوفر له من محفوظ الشعر والبصر بعلله ودقة الذوق في نقده وطول الباع في الوقوف على أخبار الأدباء والكتاب والشعراء والمحبين. ولسنا هنا بمعرض ضرب الأمثال لذلك، فكتب الأدب العباسي والأندلسي تفيض بذلك وتزخر به. ونحن والحمد لله نعيش في مصر في عصر شباب اللغة العربية ورونق مجدها المبين، مما لم تبلغه في أي عصر من عصورها الذهبية الحوالي؛ والمستمع الذي له دراية بنحو هذه اللغة لا يتلف الغناء أو الإلقاء في نفسه ما يتلفه اللحن في القطعة المغناة أو الملقاة. . . إنه يضيق عند ذاك بالغناء وبالمغني. . . بل إنه ليضيق بالدنيا جميعاً ولا يعود يعنيه من أمر الغناء ما يعنيه من جهل المغني بنحو اللغة، ذلك الجهل الذي لا عذر له فيه إلا الكسل عن الإلمام بهذا النحو. لقد كان المغنون في العصر العباسي وفي بلاد الأندلس أدباء من الطراز الأول، وكانوا يحتلون من رواية الرواة ومؤلفي كتب الأدب ما كانوا خليقين به. وحسبهم فخراً وشرفاً أن يسمي أبو الفرج كتابه (الأغاني) ولم يسمه اسماً آخر بالرغم مما حشد فيه من تراجم الشعراء وقصائدهم

وبعد. . . فمتى يعني مديرو مجلاتنا الممتازة ورؤساء تحريرها بالمسرح المصري الحديث وما إليه من سائر الفنون الرفيعة التي ذكرنا؟ إننا حينما ندرس الأدب اليوناني القديم نجد ثلاثة أرباع هذه الدراسة تدور حول المسرح اليوناني وحول شعراء مآسيه وملاهيه؛ ودراسة الآداب الأوربية تكاد تكون قسمة عادلة بين القصص في الشعر في ناحية، والدرامة في ناحية أخرى، بل يكاد بعض هذه الآداب يكون مسرحياً صرفاً. وقد عني أرسطو بدراسة المأساة المسرحية وكرس لها كتابه الخالد (بويتيكا) (الشعر) وعدها مصدر الفضائل ولباب الأدب. فهل أصحاب مجلاتنا الممتازة ورؤساء تحريرها

. . .في حاجة إلى أن يذكرهم أحد بكل ذلك؟
قد يجادل رؤساء التحرير المحترمون هؤلاء في حقيقة المسرح المصري الحديث: أموجود هو؟ وهل لدينا الممثلون الذين يستحقون أن يكتب عنهم؟ وهل لدينا مذاهب مسرحية تستأهل أن يعنى بها؟ ثم ما هي عيون الأدب المسرحي أو السينمائي التي تستحق أن تفسح
لها مجلاتهم ميداناً للنقد أو العرض أو التحليل. وقد آن أن نكون صرحاء. . . فالمسرح المصري أصبح حقيقة لا مرية فيها، وأشرطة الصور المصرية تغزو دور الصور في مصر خاصة وفي الشرق العربي عامة. وقد أصبح للمسرح المصري والسينما المصرية والغناء المصري أكبر الأثر في التوجيه الأخلاقي والتوجيه الثقافي الحديث. ورب درامة أو شريط سينمائي للأستاذ يوسف وهبي - كائناً ما كان هذا الشريط - له من الأثر في أخلاق هذه الأمة وفي مزاجها وفي تكييف ذوقها ما لا تستطيع أن تصنعه خمس مدارس أو عشرة أو عشرون. . . ورب أغنية للأستاذ محمد عبد الوهاب أو للآنسة أم كلثوم يكون لها من الأثر في عامة الشعب وخاصته مالا يكون لألف مقالة من مقالات الرسالة والثقافة والمقتطف والهلال مجتمعة. . . هذه حقيقة لا يماري فيها إلا مكابر. . . فإذا كان الأمر كذلك، فكيف تجمع هذه المجلات المحترمة الممتازة على الانصراف عن المسرح المصري والسينما المصرية والغناء المصري والموسيقى المصرية لا تتعرض لها بخير أو شر؟ هل يظن رؤساء تحرير هذه المجلات - وهم قادة الفكر في مصر وفي الشرق العربي - أنهم يؤدون وظيفتهم كاملة على هذا النحو المبتور؟ هل صحيح أن انصرافهم عن هذه النواحي الثقافية التي لها أكبر الخطر في تكييف نهضتنا الفكرية وذوقنا الفني هو صدى هذا الاستعلاء الذي أشار إليه أحد رجال الفكر الذي حاورته في هذا الموضوع. . . على أنني لست أدري سبباً لهذا الاستعلاء؟ أليس هو من باب وضع النعامة رأسها في الرمال إذا حاق بها الخطر؟ هل يماري رؤساء التحرير المحترمون هؤلاء في خطر المسرح والسينما والغناء والموسيقى على الأخلاق والأذواق؟ ألا تستحق الأربعون أو الخمسون رواية التي ألفها الأستاذ يوسف وهبي ومثلها أو أخرجها للسينما وشهدها خمسون أو ستون مليوناً من النظارة في مصر وفي العالم العربي. . . كلمة نقد أو كلمة تقدير أو كلمة تحليل. . . أو حتى كلمة تحذير من إحدى مجلاتنا الممتازة أو المتزمتة. . . لا أدري. . .
ألا يستحق هؤلاء الأبطال: يوسف وهبي وحسين رياض وأحمد علام وزكي طليمات وسليمان نجيب وعباس فارس وعمر وصفي وحسين صدقي وأنور وجدي ومحمود ذو الفقار ومنسي فهمي ومحمود المليجي وأحمد جلال ومختار عثمان ونجيب الريحاني وفوزي الجزايرلي وعلي الكسار. . . ألا يستحق هؤلاء أن تقدمهم مجلاتنا الممتازة إلى قرائها
فتحلل لهم شخصياتهم أو تقفهم على مزاياهم أو تنقد لهم مذاهبهم في التمثيل أو طرائقهم في الأداء؟
ألا تستحق أمينة رزق وزينب صدقي وفاطمة رشدي وعزيزة أمير وآسيا ودولت أبيض ومن إليهن أن تترجم لهن مجلاتنا الممتازة، أو أن تقدمهن لجمهور قرائها بما ينبغي لنساء المسرح من عرض ونقد وتحليل؟
ما هذا؟ ألا يستحق محمد عبد الوهاب وأم كلثوم ورياض السنباطي والقصبجي وزكريا أحمد وعبد الغني السيد وصفر علي والنقاد والرشيدي وسامي شوا وفاضل شوا وعبد المطلب والسروجي وأحمد عبد القادر ونور الهدى ورجاء وفتحية وأسمهان ونجاة. . . ألا يستحق هؤلاء أن يترجم لهم والعالم كله ينتفع بهم ويلتذ غناءهم وموسيقاهم وألحانهم؟
إني وأنا أكتب هذه الأسماء ألمح الابتسامات العريضة ترقص على شفاه رؤساء التحرير وعلى قسمات الكثيرين من القراء. وليست هذه الابتسامات من الغموض بحيث يخفى معناها على أحد. . . إنها ابتسامات الاستعلاء. أو الاستهزاء. ما في ذلك شك. . . وهو استعلاء ظالم. . . بل هو استعلاء أناني أثر، وأمسك عن وصفه بشيء آخر
لقد آن أن تكون مجلاتنا الممتازة صادقة في التعبير عن مصر الحديثة. ولقد آن أن تعرف مجلاتنا الممتازة حق المسرح المصري الحديث، والسينما المصرية الحديثة،

والغناء المصري والموسيقى المصرية. . . هذه المظاهر الأربعة الهامة التي تصور للعالم العربي مصر الناهضة التي تتزعم ممالكه ودويلاته، وتصدر إليها الفكر الجديد والثقافة الجديدة. ليكن بعض رجال هذه الفنون كما وصفنا في هذا المقال؛ ولكن لتكتب مجلاتنا عنهم لتقوم اعوجاجهم، ولترد إليهم كرامتهم، ولتصل أسبابها بأسبابهم، فإنه إذا استمرت تلك القطيعة بينها وبينهم وبين رجال الفنون على هذا النحو صار سواء أصدرت مجلاتنا تلك عن القاهرة أو عن مكة أو عن دمشق أو عن بغداد أو عن صنعاء. وربما جاء يوم تصبح فيه مجلاتنا صحائف أرثوذكسية لا تعبر عن شخصيات العصر الحديث. . . ولست أدري لماذا ألغت الرسالة باب الفنون وباب الموسيقى والموسيقيين وقد كانا من أجمل أبوابها؟

هذه كلمة سريعة وربما كان لنا عود إلى الموضوع.

دريني خشبة

خيال الرافعي

(هدية إلى روح الرافعي في ذكرى وفاته)

للأستاذ عمر الدسوقي

إذا تحامت الأقلام القديرة النقادة تراث الرافعي حتى اليوم، ولم تحاول عرض ما فيه من نفائس وعجائب على جمهرة المتأدبين في العالم العربي؛ ليكون لهم ينبوع إشعاع يلهم ألبابهم، ويستثير عقولهم، ويستحث خيالهم، ويحكم بيانهم؛ وإذا لم يتقدم بعد الناقد الضليع، والكاتب العبقري الذي ينفذ إلى نفسه العميقة وخياله المغرب، فيحلل أدبه، ويبوئه منزلته في سفر الخلود؛ فما أظن ذلك عن تهاون بهذه الذخيرة الفذة، ولكن هيبة ورهبة وفرط إعجاب

ومعذرة إلى الإمام الرافعي إذا تطاول يراعي إلى الخوض في أدبه، فلقد طال - علم الله - تردده وإحجامه، ووقف دهشاً يملكه البهر أمام هذا النور الفياض الذي هتك الخدور عن أبكار المعاني، وهذا الذهن الثاقب الذي نفذ إلى أسرار الحقائق فتخير أطيبها عنصراً، وأكرمها جوهراً، وأجملها رواء، ثم كساها البيان الساحر أكمل حلة، فغدت فتنة المتأمل ومحراب الأديب. وإنما حفز هذا اليراع - على ضعف منته، ووهن عدته - لتسطير هذه الكلمة ذكرى ارتحال الرافعي، عليه الرحمة والرضوان، إلى جنة الخلد. وهي نفثة إعجاب ووفاء، وإن ضن على الزمن بمعرفة شخصية إلا أني مدين لروحه الكبير بالشيء الكثير

وبعد، فما أخترت الكلام عن خيال الرافعي، لأنه أبرز ما فيه، وأجمل ما خلفه؛ ولكن لأن الرافعي نشأ شاعراً ملهماً مشبوب الخيال، ذا عبقرية فنية مبدعة، وهو وإن آثر النثر فيما بعد للإفصاح عما يختلج في نفسه من فكر ومعان، فقد لازمه خيال الشاعر في أكثر ما دبجه قلمه في الأدب الإنشائي؛ فكثير من مقالاته الوصفية قصائد نادرة في عالم الشعر والخيال؛ وهو مصور قدير دقيق الحس، يعرض لك المعنى البكر في أروع صورة وكأني به عنى نفسه إذ يقول: (أما الذهن العبقري فليس له من المعاني إلا مادة عمل فلا نكاد نلابسه حتى تتحول فيه وتنمو وتتنوع وتتساقط له أشكالاً وصوراً في مثل خطرات البرق)

وخيال الأديب النابغة له مظاهر شتى يتمثل فيها: فإما أن يصور ما في الطبيعة، وينقل عنها ويحاكيها؛ وليس سر نبوغه في هذا النوع جودة المحاكاة وإتقان التصوير، ولكنه يستشف من وراء ما يحاكيه أسراراً لا تخطر إلا له، ويختار مالا يقف عنده إلا عين شاعر، أو يحس جماله إلا ذوق فنان، ثم يعرضه للناس بعد أن ينفث فيه من شخصيته وموهبته، ويسبغ عليه من خياله وبيانه ما يجعله صورة جديدة نادرة المثال

وإما أن يكون مرآة مصقولة تنطبع فيها الصورة المختارة فتعكسها وتبرزها وحدها؛ ويكون سر نبوغه في حسن ذوقه واختياره، وفي صفاء نفسه وقدرتها على إظهار الصورة خالية من الشوائب واضحة مجلوة

وإما أن يخترع مالا وجود له في الخارج، ويخلق صوراً وأشكالاً هي وليدة عقله وصنع خياله، وبمقدار ما تكون مبتكرة جميلة أخاذة يكون تفوقه ونبوغه

وإما أن يوازن بين صور الطبيعة بعضها وبعض، وينظمها في سلك، ويأتي بالمفارقات التي تبهر العقول، ولا تتأتى إلا لصاحب الخيال الشرود، ومن تحسبه قد وضع الأشكال والمعاني بين يديه يؤلف منها ما يشاء، وينتقي منها كما يشتهي

وإما أن يوضح المعنويات بالمحسوسات، ويضرب الأمثال التي تقربها إلى الأذهان؛ وإما أن يتخيل في الجماد حياة فينطقه وينسب إليه - بالاستعارة والمجاز - وأفعال الأحياء، ويرتفع بالطبيعة إلى درجة الإنسانية، وكلما كانت استعاراته ومجازاته طبيعية محبوكة طريفة برهن على سر نبوغه

والرافعي رزق من سمو الخيال، وتوقد القريحة، وإرهاف الحس، وكمال الذوق، ما مكنه أن يبتكر في كل هذه الأنواع وأن ينمي الثروة الأدبية دون أن يجري في مضمار غيره من السابقين أو يسطو على معاني سواه. وإذا حاكى غيره فشخصيته وروحه تنفحان ما يأتي به سمة خاصة ترتفع به عن التقليد

ولقد عرف الرافعي الخيال الأدبي تعريفاً دقيقاً، وألزم نفسه في جل ما كتب أن تتمثله ولا تحيد عنها فيقول: (والخيال: هو الوزن الشعري للحقيقة المرسلة، وتخيل الشاعر إنما هو إلقاء النور في طبيعة المعنى ليشف به، فهو بهذا يرفع الطبيعة درجة إنسانية، ويرفع الإنسانية درجة سماوية)

وإذا كان الخيال سامياً، والمعاني التي ينفذ إليها رائعة جديدة قيمة، كان لا بد من صيغة تناسب ذاك الخيال وهذه المعاني، ولا بد من عبارة طلية قوية تزيد المعنى روعة، والخيال جمالاً. والرافعي كان معنياً بعبارته أتم العناية، يقدها وفق المعنى، ويأتي بها رصينة جميلة منتقاة الألفاظ؛ وفي هذا يقول: (ودورة العبارة الفنية في نفس الكاتب البياني دورة خلق وتركيب، تخرج بها الألفاظ أكبر مما هي، كأنها شبت في نفسه شباباً، وأقوى مما هي كأنما كسبت من روحه قوة، وأدل مما هي كأنما زاد فيها بصناعته زيادة)

ويقول: (والكاتب الحق لا يكتب ليكتب، ولكنه أداة ي يد القوة المصورة لهذا الوجود تصور به شيئاً من أعمالها فناً من التصوير)

أقرأت مقالة (الربيع) في (وحي القلم)! ألا تحس كأن الرافعي اتحد بالطبيعة، وفهم لغتها، فجاءت إليه بأسرارها ثم جاء يترجم عنها فنقل ما لم يتح لكاتب قبله!. أسمعه يقول: (خرجت أشهد الطبيعة كيف تصبح كالمعشوق الجميل لا يقدم لعاشقه إلا أسباب حبه، وكيف تكون كالحبيب يزيد في الجسم حاسة لمس المعاني الجميلة!)

ويقول: (لاحت لي الأزهار كأنها ألفاظ حب رقيقة مغشاة باستعارات ومجازات، والنسيم حولها كثوب الحسناء على الحسناء، فيه تعبير من لابسته، وكل زهرة كابتسامة تحتها أسرار وأسرار من معاني القلب المعقدة). ويقول: (ويكون الهواء كأنه من شفاه متحابة يتنفس بعضها على بعض)

ولا يتسنى لي في هذه الكلمة الموجزة أن أحلل وأعلق وأبين مطارح الجمال في عباراته وخياله، وحسب القارئ أن يتأمل ويتذوق ويحكم. إن الرافعي تمثل الطبيعة عاشقة جميلة تترضى حبيبها، ولها من القدرة والغنى ما يمكنها من إرضائه، بل لا يظهر منها إلا ما يرضيه ويفتنه؛ وتأمل قوله: (أسباب حبه) وفسرها كما تشاء، وعلل لماذا اختار الرافعي هذه الكلمة دون سواها؛ الآن أسباب الحب شتى من عطف وجمال وزينة وإبهاج. . .

وانظر كيف رأى الأزهار (ألفاظ حب رقيقة)، وهل رأيت تشبيهاً أحلى وأرق وأوفق من هذا التشبيه؟ أو لا تراه لا يزال على خياله من أن الطبيعة حبيبة تبادله ألفاظ الحب الرقيقة على لسان أزهارها المختلفة الشكل واللون والشذى؟

ثم تأمل كيف يصور الشتاء فيقول: (وكانت الشمس في الشتاء كأنها صورة معلقة في السحاب، وكان النهار كأنه يضيء بالقمر لا بالشمس، وكان الهواء مع المطر كأنه مطر غير سائل، وكانت الحياة تضع في أشياء كثيرة معنى عبوس الجو، فلما جاء الربيع كان فرح جميع الأحياء بالشمس كفرح الأطفال رجعت أمهم من السفر!)

تالله إن هذا وصف يفسده الشرح وأولى به أن يترجم ويذاع بين أمم الأرض ليبرهن على أن الأمة العربية لم تصب بالعقم في الخيال كما يدعي المفترون، وأن فيها أمثال شكسبير، وجيته، وهوجو، وأناتول فرانس.

أقرأت مقالة (عرش الورد) في زفاف ابنته؟ ألا ترى أنه يستشف من وراء الموصوفات أسراراً لا يقف عليها إلا العباقرة الملهمون؟

أسمعه يصف تاج الورد الذي عقد حول عرش العروسين: (وتنظر إليه يسطع في النور

بجماله الساحر سطوعاً يخيل إليك أن أشعة من الشمس التي ربَّت هذا الورد لا تزال عالقة به)
أو أسمعه يصف لون الكرسيين اللذين نُصَّا على العرش: (ويكسوهما طراز أخضر تلمع نضارته بشراً، حتى لتحسب أنه هو أيضاً قد نالته من هذه القلوب الفرحة لمسة من فرحها الحي)
ليت شعري! أكانت للرافعي حاسة زائدة يقف بها على هذه الأشياء فيرى أشعة الشمس لا تزال عالقة بالورد وسط الليل، ويلمس فرحة الطراز الأخضر، أم هو خياله الخصب ونشوة السرور صَّورا له ما رأى!
ويقول: (وأقبل العذارى يتخطرن في الحرير البيض كأنه من نور الصبح، ثم وقفن حافات حول العرش حاملات في أيديهن طاقات من الزنبق، تراها عطرة بيضاء ناضرة حيية كأنها عذارى مع عذارى)
وما أشبه الزنبقة بالعذارى الهيفاء في لينها، وهيفها، ونضارتها ورائحتها وطهارة قلبها! وماذا عساي أن أقدم إليك من هذه القصيدة المثالية، وحسبي ما اقتطفت منها وعليك بالرجوع إليها والوقوف لديها ملياً؛ لتحملك على أجنحة الخيال إلى عوالم من السحر والفتنة والفن. . .
أقرأت مقال (البحر) و (الربيع الأزرق)، تأمل في قوله: (والقمر زاه رفاف من الحسن كأنه اغتسل وخرج من البحر)، وقوله: (نظرت إلى هذا البحر العظيم بعيني طفل يتخيل أن البحر قد مليء بالأمس وأن السماء كانت إناء له فانكفأ الإناء فاندفق البحر، وتسرحت مع
هذا الخيال الطفلي الصغير فكأنما نالني رشاش من الإناء)
وقوله: لطف الجمال صورة أخرى من عظمة الجمال، عرفت ذلك حينما أبصرت قطرة من الماء تلمع في غصن فخيل إلى أن لها عظمة البحر لو صغر فعلق على ورقة)
وقوله: (الحياة في المدينة كشرب الماء في كوب من الخزف، والحياة في الطبيعة كشرب الماء في كوب من البلور الساطع، ذاك يحتوي الماء، وهذا يحتويه ويبدي جماله للعين. . .
هذه صور من ذياك الخيال الفريد الفياض فيها ابتكار، وفيها جمال وفيها دقة وروعة؛ وأكتفي بعرضها فهي غنية عن التوضيح، ولعلها تنبه بعض أدبائنا إلى ما عليهم من التبعة إزاء هذا الأدب الرفيع.
عمر الدسوقي

خواطر على شاطئ النيل

إذا أثقلتني هموم الحياة ... وناء بها كاهلي المرهف
وضقت وضاق بقلبي مداه ... على شاطئ النيل لي موقف
يفيض السكينة في خاطري
هنالك والماء ضاحي الجبين ... بوجه ضحوك المحيا طروب
تخالجني غبطة المستهين ... بدنيا شرور ودنيا لغوب
تغيب عن القلب والناظر
جرى الخصب حيث جرى والجمال ... فلا بِدْع أن تخصب الأنفس
إذا قهرتها صروف الليالي ... ففي شاطئيه لها مَنْفس
يفرج من همها القاهر
أبٌ أنت يا نيل منذ الأزل ... فلي في لقائك عطف الأبِ
إذا غاب عني حنان الأمل ... فحسبي حنانك من مأرب
تطيب به مهجة الشاعر
سعادة قلبي معي ههنا ... ترفرف فوق صفاء المياه
إذا رمتها لم يحل بيننا ... ظلام الحدود وعسف الطغاة
هي المِلْك في راحة الظافر
وإن أقبلت راقصات النسيم ... تصافح موجك في موكب
تنبه في النفس وجد مقيم ... يشاطرها نشوة المعجب
ويرقص في أفقها الساحر

تزاحم قوم لأجل المحال ... وكدوا ولكن بلا آخر
وفي وقفة تحت ظل الخيال ... جمعت السعادة في خاطري
على شاطئ بالمنى زاهر
محمد طاهر الجبلاوي
من أزهار الشر
لشارل بودلير
إلى عذراء
(نذر بروح أسبانية)
إنني أود أن أشيِّد لك، أيتها العذراء عشيقتي، حرماً سارياً في قرارة بؤسي، وأن أحفر لك في سويداء قلبي، بعيداً عن الشهوة الدنيا والنظرة الساخرة، محراباً لونه من زرقة السماء، وزينته من الذهب لتنصبي نفسك فيه أيها التمثال الرائع
وسأضع لهامتك تاجاً فخماً من أشعاري المصقولة، مضفراً بأصفى المعادن ثم أرصعه بقواف بلورية
وفي غيرتي سأحيك لك، أيتها العذراء الفاتنة، معطفاً متصلباً ثقيلاً، على الطراز الهمجي، ثم أبطنه بالشك ليكون كملاذ يحمي محاسنك الفاتنة
ولن أزيّن هذا المعطف باللآلئ بل بكل مدامعي!
وسيكون رداؤك شهوتي المرتعشة المتموجة، شهوتي التي تعلو وتُسف فتتأرجح على الذرى وتستقر في الوهاد، كما تغمر جسدك الناصع الوردي بقبلة واحدة
وسأضع لك من إجلالي واحترامي نعلين من الأطلس تطأهما قدماك المقدستان فتضمهما ضمة لينة كقالبين وفيين يحتفظان بآثار إذلالهما
وإذا عجزت، رغم مهارتي وفني، أن أصوغ لك قمراً فضياً كدرج تخطرين عليه.
فسألقي تحت قدميك، أيتها الملكة الظافرة التي تُفدى بسخاء، الحية التي تنهش أحشائي لتسيري عليها عابثة بهذا الوحش الذي يطفح بالبغضاء واللعاب
وستلمحين خواطري مصطفات أمام مذبح ملكة العذارى الساطع المتألق، تعكس أشعتها على الغماء الأزرق فترصعه بالنجوم وهي ترنو إليك بلحاظ من اللهيب
ولما كانت كافة جوارحي تحبك وتعجب بك فإنها ستتحول إلى عود وبخور ولبان ومُر، وستستمر روحي العاصفة تصعد كالبخار إليك أيتها القمة الناصعة المكللة بالصقيع
ولكي تكوني في النهاية، عذراء كمريم، ولكي تمزجي، أيتها اللدة السوداء الهوى بالوحشية،
سأصنع مثل جلاد يشعر بالندامة سبعة أسنة مشحوذة من الكبائر السبع، ثم أتخذ - كمشعوذ لا يُحس - أبعد أغوار حبك هدفاً، فأطعنها جميعاً في فؤادك الخافق، في فؤادك النائح، في فؤادك الذي يسيل منه الدم. . .!
ترجمة
عثمان علي عسل
البريد الأدبي
حول معركة الآزور
عندما قرأت نقد الأستاذ محمد التونسي لما نشرته من ترجمة قصيدة معركة الآزور لآلفريد تنيسون، أحسست برغبة يسيرة في ولوج باب مثل هذا النقاش اللغوي الذي ما أراه ينتهي. . . والذي أخشى أن أقول إنه أقرب إلى اللجاج والمماحكة منه إلى البحث اللغوي الصحيح.
على أني أكتفي هنا بمناقشة الفقرة الأولى من كلامه فقط؛ ليصحَّ عنده أن هذا النقد الذي أورده أوهن من أن يثبت لدى النقاش عند التمحيص، فأقول: قلتُ في ترجمة المطلع: ;
كان السير رتشارد جرانفيل مرفئاً بسفينته إلى جدةٍ من جدد شاطئ الفلورز. . . وقال الأستاذ: بينما كان السير رتشارد جرانفيل عند فلورز.
فكأنه يستكثر عليَّ قولي: مرفئاً بسفينة إلى جدة. . . وأنا أسأله بدوري: أين ترجمة الفعل فيما كتب؟
إن الذي يستكثره عليَّ هو ترجمة هذا الذي نسيه، مع شيء من التوضيح لمعناه.
وقلتُ: عندما أقبل زورق ذو مجاديف يهوى من بعيد كأنه الطائر يزف بجناحيه. . .

فقال الأستاذ: إذ أقبل من بعيد زورق حربي يخفق خفقان الطائر. والخلاف في صفة الزورق هل هو حربي أو ذو مجاديف؟ وإذا رجعنا إلى معنى كلمة في المعاجم الإنجليزية وجدناه هكذا، وبنفس الترتيب: مركب صغير له مجاديف وأشرعة - زورق ذو ثمانية مجاديف (غالباً) - زورق حربي.

لكن لا يظن الأستاذ أنه ساواني هنا في فهم المعنى؛ فإن في اختياري المعنى الذي فيه ذكر المجاديف دون غيره، التفات إلى قصد الشاعر من تشبيه الزورق بالطائر! إذ أي شبهٍ يرمي إليه إن لم يكن يقصد هذه الحركة التي تحدثها المجاديف، مما يشبه حركة أجنحة الطائر عند طيرانه؟

وقلت: وارتفع صوت من داخله يقول: السفن الحربية. . . الخ فحذف الأستاذ الجملة الفعلية برمتها (وارتفع صوت. . . الخ) وهي كلام ليس له ذكر في أصل القصيدة؛ ولكني أعجب للأستاذ كيف يشوه الأساليب العربية بمثل هذه السهولة. . .

إن مقول القول لا بد أن يُسبق في كل كلام منثور بالإشارة إلى القائل. ولكن قد يُتجاوز عن ذلك في الشعر فقط نظراً لضروراته المختلفة. ألا ترى إلى الأستاذ الفاضل علي محمود طه كيف يقول في قصيدته حانة الشعراء (عدد 512 من الرسالة):

زنجيةٌ في الفن تحتكم؟ ... قد ضاع فن الخالدين سُدى!

وهذا كلام يقوله على لسان روَّاد الحانه دون أن يرى ضرورة النص على ذلك. ولكن عندما يجد في الجواب أن الأسلوب يُسعده على ذكر اسم المتكلم، يذكره فيقول:

فأجابت الحسناء تبتسم: الفن روحاً كان؟ أم جسداً؟ الخ

فإذا كان تنيسون قد أعفى نفسه (في هذا الموضع فقط) من الإشارة إلى القائل نظراً للضرورة الشعرية، فليس ثمة ما يعفي المترجم الناثر من أن يوضح الكلام فيقول (وارتفع صوت من داخل الزورق يقول). وكان بودي أن أناقش سائر النقط التي أوردها الأستاذ؛ ولكن صفحات الرسالة لا تتسع لمثل هذه المناقشات اللفظية، فأرجو أن يعاود الأستاذ النظر فيما كتب على ضوء هذه القاعدة؛ وهي أن المترجم مقيد بالأفكار وبالمعاني، بل وأكثر من هذا بالروح الشائع في القطعة المترجمة؛ ولكنه مطلق الإرادة فيما سوى ذلك من الألفاظ والأساليب والتعبيرات، تلك التي لا تزيد على كونها أوعية خارجية للأفكار والمعاني.

(جرجا)

محمود عزت عرفة

الكلمة الأخيرة في ضبط الخلاف بين العربية والعامية

قرأت في العدد (513) من الرسالة، رد الكاتب الفاضل (. . .) على ردي عليه بالعدد (512). وفيه يقول: إنني حكمت باستحالة الضبط المذكور، بينما أتيت بضابط لهذا الخلاف!. . .

وردي عليه الآن أن لفظ مستحيل في عنواني، ينصب على رأيه الجديد في ضبط الخلاف، لا على الضابط الذي نقلته عن العلماء، والذي عليه المعول في التمييز بين العربية والعامية، منذ 1342 عاماً هجرياً بوجه التقريب! وعلى ذلك فلا تناقض في كلامي كما ادعي.

وقوله: إن ردي لا يمت بصلة إلى عنوانه، لا أجد أسطع برهان على دحضه غير إحالة القراء على الرد في العدد السالف الذكر. . .

أما قول الفاضل: إن ردي عليه ينقل الضابط المتواضع عليه بين العلماء، مصادرة لا تصلح في مقام الرد، فالجواب عليه أني اعتبرت هذا الضابط مجمعاً عليه عند العلماء الذين يؤخذ بآرائهم في مثل هذا الشأن. فإذا جاء أحد العلماء أخيراً برأي جديد متطرف - عد هذا الرأي خارجاً على الإجماع، فلا يعتد به. إذن فليس هناك مصادرة، وإنما ذلك نقض للاقتراح من أساسه.

وقد تخلص الفاضل من إلزاماتي الموجهة إليه بما لا يجديه نفعاً، ولا يشفع له عند أهل النظر!

وبعد فقبل أن يقول المجمع كلمته في قيمة هذا الاقتراح أظن أن الجدل بيننا قد يطول، فأرى أن نتحاكم إلى القراء في آينا على صواب فيما يقول. وما أكثر قراء

الرسالة من العلماء والأدباء، فإليهم نطلب الكلمة الأخيرة.

عبد الحميد عنتر

زهر وخمر

ذلك عنوان الديوان الجديد الذي أخرجه للعالم العربي شاعر اللذة والجمال، وعاشق التيه والضلال، ونحيُّ الأرواح والأشباح، الأستاذ الكبير على محمود طه؛ فكان ببديع خياله ورقيق نسجه وأنيق وشيه وبارع تصويره وجمال طبعه، طاقة عطرية من ألوان الربيع، ومجموعة عبقرية من ألحان الحب، ونشوة علوية من رحيق الشباب، لا يزال العقل والذوق والشعور منها على لذة لا تنقطع، ومتعة لا تنفد

وإن إخراج هذا العمل الفني البارع في وسط هذه الزعازع الحربية والاقتصادية والسياسية دليل على خلوص العقيدة الفنية في نفس الشاعر. وإن القيثار الذي لا تضطرب به اليد ولا يتهدّج عليه الصوت في هذا البحران العالمي، شاهد على صلابة العود وسلامة الطبع في الفنان

يشتمل هذا الديوان الجميل على عشرين قصيدة من آيات الشعر ومبتكراته، تستطيع أن تتخيل طرافة موضوعها من وحي هذه العناوين: ليالي كليوبطرة، ميلاد زهرة، حانة الشعراء، سارية الفجر، أغنية الحب، حديث قبلة، خمرة الشاعر، المدينة الباسلة، حلم ليلة الهجرة، ليلة عيد الميلاد. الخ.

وقد عرضنا عليك نماذج من هذا الشعر الرائع في بعض أعداد الرسالة؛ وهي نماذج خليقة أن تغريك باقتنائه ومطالعته. والديوان يباع في جميع المكاتب المعروفة وثمنه عشرون قرشاً.

شعر منشور!

نشرت مجلة الثقافة في عددها الأخير قصيدة للأديب مصطفى محمد الشكعة بكلية الآداب هالني منها ألا ترتفع العين من خطأ في الوزن فيها إلا لتقع على خطأ. وإلى القارئ الفاضل ما علق بالفكر منها:

هاجني الشوق والولوع اشتياق ... (حائر ساهر في سماء القلوب)

وقال أيضاً منها:

إيه يا قلب كم قضيت الأماني ... (راقصاً صادحاً كالهزار الطروب)

والقصيدة من بحر الخفيف وهو (فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن) وإذن فالشطرتان اللتان بين القوسين خطأ يبده المتأمل لأول نظرة. وليس هذا فقط بل إن في البيت الآتي (واواً) زائدة وهو:

مجمع الصحب والأحبة والخلا ... ن (و) مأوى لكل فكر خصيب

والأعجب من كل ذلك هو هذا البيت الغريب التركيب والوزن:

(عصف الدهر بالكؤوس وبالمحراب والح ... سان والرجاء الرطيب)

وبعد فجدير بالمبتدئ أن يتمهل ولا يتعجل النشر؛ وحقيق بالناشر أن يتأمل فيتجنب الزلل.

حسين محمود البشبيشي

رواية (زينات) تأليف الأستاذ حسين عفيف

هي قصة حب عذري حوت من الغزل أرقه ومن الخلق أقومه ومن المواقف أعنفها، كل ذلك في أسلوب هو إلى الغناء أقرب، وجمل حاسمة تهز النفس هزًّا.

مغزاها أن الإنسان في هذه الحياة إنما يكفِّر عن ذنوب لم يجنها. ويحاول المؤلف تعليل ذلك فيقول: (فهل تُرى نكفر عن ذنوب نجهلها، اقترفناها في عوالم سابقة، وعاشت فينا خلال حيوات وموتات عدة، حتى إذا ما آن ان نتطهر منها، انتهى بنا المطاف إلى هذا المبكى لنغتسل عليه؟)

وفي سياق الوصول إلى هذا المغزى الرهيب، تعرض الرواية لمشكلات اجتماعية خطيرة كمشكلتي الفقر والزواج، ومشاعر إنسانية دقيقة كالتضحية والصراع بين الروح والجسد.

ومن جميل ما جاء في هذه الرواية قول زينات لمختار قبيل يفرها: (أذاكري أنت يا مختار؟)

فيجيبها: (وما شغلي غيرك؟ نعم سأذكرك يا زينة. سأذكرك كلما غرد طائر، فأبلغني

منك رسالة، أو نشرت زهرة عطرها، فنشقت فيه أنفاسك. سأذكرك كلما سمعت حديثك في خرير الجدول، أو أنصت لهفهفة شعرك في حفيف الغصون. سأذكرك في كل وقت، وأراك في ركاب كل شيء جميل: في مواكب الضياء التي يجرجرها الصبح، وفي القمر المطل على المروج مساء، سأراك، نعم سأراك يا زينات.)

فتجيبه: (وأنا أيضاً سأذكرك. وسأبعث إليك بشوقي الجريح في مغرب كل شمس. وبالتحايا مع الطيور العائدة إلى أوكارها. فإذا ما رأيت الدماء في الشفق تسيل، فاعلم أنها أشواقي. أو طرق سمعك نوح حمامة، فاعلم أنه بثي ترجّعه. وسأقطف الأزهار في الصباح، وأضعها في الجدول ليحملها إليك. وأضمخ بالعطر النسيم الساري ليملأ به جوَّك. ارقبني يا مختار في كل شيء. وانظرني في كل شيء. وإذا ما رأيت كوكباً يتهاوى، فاعلم أنني خررت صريعة حبك، ولا تترقبني بعد ذلك.)

والرواية كلها تكاد تكون على هذا النسق. وهي وإن أغرقت أحياناً في الخيال، إلا أن جوّها الساحر الذي يوقعك تحت سلطانه، ينسيك ذلك. كما أن أصحاب المزاج الشعري يجدون فيها بغيتهم. ولقد فازت في مسابقة القصة التي أجرتها وزارة المعارف، كما عنيت بنشرها مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة.

(م. ع)

العدد 515 - بتاريخ: 17 - 05 - 1943

السعادة بعد الحرب

للأستاذ عباس محمود العقاد

طريقة الاستجواب في القضاء الإنجليزي معروفة يذكرها الذين حضروا المحاكم العسكرية بمصر أو قرءوا محاضرها، وهي طريقة يذهب فيها القضاة والمستجوبون مذاهب مختلفة، فيبيح بعضهم الإطالة في الجواب، ويشترط بعضهم أن يقتصر الجواب على كلمة واحدة بالإثبات أو النفي أو الامتناع: نعم أو، لا، أو، ممتنع، ولا زيادة ويتفق كثيراً أن يتعذر الجواب بكلمة واحدة، ويشعر المحامون بذلك فيطلبون إلى المحكمة أن تأذن لموكلهم ببعض التفصيل. وأذكر من مراجعة إحدى القضايا الهامة في إنجلترا أن المحامي اعترض على توجيه سؤال إلى موكله يتعذر الجواب عليه بكلمة النفي وحدها أو بكلمة الإثبات وحدها، وذكر للقاضي أن بعض الأسئلة لا يجاب عليه بنعم ولا بلا دون تعقيب. فسأله القاضي مثلاً فأجابه المحامي: هبني سألت حضرة القاضي المحترم: ألا تزال تضرب امرأتك؟ فبماذا يجيب؟ إن كان لم يضربها قط ثم قال: (لا) ففي هذا النفي معنى الاعتراف بالضرب فيما مضى وإنكاره الآن. وإن قال: نعم فقد خالف الحقيقة. فكيف يكون الجواب بغير بيان الحقيقة بشيء من التفصيل؟

وعندي أن هذا الجواب القاطع إذا تعذر في الوقائع مرة فهو متعذر في الآراء والمعاني مرات. إذ يندر في الآراء والمعاني ذلك الفصل الجازم بين النفي والإثبات. وتكثر فيها المواضع التي تحتمل الجواب بنعم في بعض الأحيان وبلا في أحيان أخرى

ولكني سئلت منذ أيام جملة أسئلة يتقيد فيها الجواب بكلمة واحدة، ومنها: هل يصبح العالم بعد الحرب أسعد مما كان قبلها؟

فقلت: نعم. لأنه أصدق جواب في كلمة واحدة، لا لأنه أصدق جواب على الإطلاق

أما الجواب الأصدق الأوفى فهو مزيج من القولين يتراوح فيه الإثبات والنفي تارة إلى الزيادة وتارة إلى النقصان في أكثر من مكان

فالذي أعتقده أن العالم سيتقدم بعد الحرب في سبيل الحرية، وأن الحرية نعمة وتبعة في وقت واحد. فمن حيث هي نعمة فهي ولا ريب سعادة ينعم بها الإنسان؛ ومن حيث هي تبعة فهي ولا ريب باب للهموم والشواغل وقرينة للعناء الذي يغض من سعادة السعداء

كل تقدم في الحياة فقياسه الأصدق الأوفى عندي زيادة التبعة لا زيادة السعادة الرجل أقدر على التبعة من الطفل، والعالم أقدر على التبعة من الجاهل، والقوي أقدر على التبعة من الضعيف، والعظيم أقدر على التبعة من الصغير، وهكذا في كل باب من أبواب التقدم بغير اختلاف وبغير استثناء

أما مقياس السعادة فقد يختلف فيه هذا القياس أبعد اختلاف: قد يكون الطفل أسعد من الرجل، وقد يكون الجاهل أسعد من العالم، وقد يكون الضعيف أسعد من القوي، وقد يكون الصغير أسعد من العظيم؛ بل هذا على الجملة هو الأقرب إلى الواقع

والمعهود
فالمرجو من عواقب الحرب أن يزداد نصيب الناس من الحرية، وأن يزداد نصيبهم إذن من التبعة، وهنا موضع المزج بين النعمة والعناء، وبين زيادة الرجاء وزيادة المخاوف والمقلقات
لكننا نحصر المسائل الكبرى التي يرجى أن يتناولها التغيير النافع بعد الحرب الحاضرة لنحصر موارد الخير والشر في المستقبل القريب جهد المستطاع
فلا نخالنا ننسى شيئاً كثيراً إذا حصرناها في ثلاث مسائل كبريات تشتمل على شتى الصغائر والفروع، وهي مسألة التجارة العالمية، ومسألة البطالة، والمسألة النفسية الأخلاقية التي يتفق كثيراً أن تجلب الشقاء لصاحبها وهو في غمرة الثروة والعمل المجيد
فمسألة التجارة العالمية كانت مورد الشر العميم من ناحية التنافس بين الدول على الأسواق وعلى الخامات
وقد نظر الأمريكيون والإنجليز في علاج هذه المشكلة فخرجوا منها بطريقتين لا يصعب التوفيق بينهما على ما بينهما من خلاف:
طريقة الأمريكيين، وهي تقوم على فتح الأسواق بغير تمييز بين الأمم، وعلى تثبيت العملة العالمية بضمان من الذهب والمعادن النفيسة تشترك فيه كل أمة بالمقدار الذي يناسب طاقتها التجارية
وطريقة الإنجليز، وهي تقوم على تعاون الأمم المشتركة في المصالح، وعلى تثبيت العملة العالمية بإنشاء مكتب دولي يتولى الموازنة بين الصادرات والواردات، أو بين المبيعات والمشتريات، على حسب الطاقة الاقتصادية التي تحتمل المراجعة والتعديل من حين إلى
حين
وبين هاتين الطريقتين فرق في التنفيذ وإن كانتا في الجوهر أدنى إلى الاتفاق. ولكن المعول هنا على الضرورات العالمية التي لن تحكمها إرادة الأمم والحكومات. فإذا جاء دور التنفيذ فالمصلحة العالمية لها من القوة والرجحان ما يكفل لها الظهور والغلبة على كل إرادة، وهي خليقة أن تزيل الفروق وتقارب بين المسافات
أما مسألة البطالة فالتأمين الاجتماعي الذي تتسابق الحكومات المتحالفة في استنباط مشروعاته كفيل بتخفيف أعبائها عن كواهل الصناع والفقراء على الإجمال. وعلاج هذه المسألة ضرورة قومية في كل أمة لا محيص عن الاهتمام العاجل بها بعد تسريح الجنود واستئناف الصناعة الإنشائية للتعمير والترميم. وهذه الضرورة القومية وحدها هي التي تلجئ الدولة قسراً إلى علاج مشكلة التجارة العالمية؛ لأن المصانع لن تدار بغير تنظيم الخامات والأسواق، ومسألة البطالة والتأمين الاجتماعي لن تحل بغير إدارة المصانع وإعادتها إلى الإنشاء والتعمير، وهذه الضرورة العاجلة هي إحدى الضرورات التي قلنا إنها كفيلة بتنظيم التجارة بين الأسواق العالمية، وإنها أقوى وأقدر على الغلبة والظهور من إرادة الساسة والحكومات
أما المسألة النفسية أو المسألة الأخلاقية فهي في اعتقادنا أعضل هذه المسائل وادعاها إلى التفكير والتدبير
ومن بواعثها الكثيرة اختلال الأعصاب الذي ابتلى به ألوف الألوف من الجنود المشتركين في القتال، وابتلى به ألوف الألوف من السكان المروعين بالغارات وفقد الأعزاء
ومن بواعثها الكثيرة اختلال التوازن بين عدد الفتيان والرجال، وعدد الفتيات والنساء، واضطرار الملايين من النساء العاطلات إلى المغامرة في سوق العمل أو المغامرة في سوق الشهوات
ومن بواعثها الكثيرة فقد البيوت آباءها وعائليها وأركان التربية والخياطة فيها
ومن بواعثها الكثيرة ضغائن المغلوبين وآلام المستضعفين الذين داستهم القوة وفرّج عنهم النصر وهم لا يملكون منه إلا التشيع والاغتباط
ومن بواعثها الكثيرة خلو النفوس من المذاهب والعقائد التي تبددت في الحرب الحاضرة

وعجزت عن إمداد النفوس بالثقة والعزاء
وأصعب ما في علاج هذه البواعث أنها لا تعالج بالقمع لأن كبت الأهواء هو الدال العضال لمن يصابون بمثل هذا المصاب؛ ولا تعالج بالإباحة لأن (المعاصي) كما قال الأباصيري تقوي شهوة النهم ولا تشبع الشهوات
إنما تعالج هذه الآفة بالإيمان و (إحياء الروح) التي تعصم نوازع الفساد في الأجساد وإنما يتوطد هذا الإيمان بالإقبال على العمل المفيد، وإقناع كل من خامره الشك في مصير العالم بأن العالم يسعى إلى غاية مقصودة وغاية مستطاعة ولو في مرحلة منها بعد مرحلة، وأن الحرب لم تذهب عبثاً ولم يرجع الناس بعدها إلى مثل ما كانوا عليه قبل فناء ما فني وخراب ما خرّب وضياع ما ضاع وهو كثير لحد كثير. فإذا وجد الناس أنفسهم بعد الحرب عاملين مجتهدين، ووجدوا أن عملهم واجتهادهم عوض صالح لما فقدوه وأصيبوا به من الخسائر والقلق والعذاب، وأيقنوا أن الطامة الكبرى لم تذهب عبثاً في غير مغنم وفي غير صلاح وإصلاح، وأن داء الإنسانية ليس بالداء العضال الميئوس منه أبد الزمان، ففي هذا وأشباهه من دواعي الإيمان والعقيدة ما يبعث العزاء ويشحذ الهمم ويعصم الأرواح من مزالق الشهوات
وهنا تدور الحلقة المفرغة التي لا يُدرى أين طرفاها. فإذا عولجت مسألة التجارة العالمية عولجت مسألة البطالة والتأمين الاجتماعي. وإذا عولجت هاتان المسألتان ثابت النفوس إلى التفاؤل بمصير العالم وتهيأت القلوب للتصديق بغاية شريفة في الحياة، وظفر المصلحون النفسانيون ببلسم الجراح وأكسير الأمل وعنصر العقيدة التي تؤيدها المشاهدات العيانية ومطامح الآمال
ولك أن تقول إن النفوس إذا صدقت عملت وانشرحت لعملها، وإذا عملت وانشرحت لعملها لم تتعاظمها المصاعب ولم يعسر عليها تفريج الأزمات وفض المشكلات فهما قولان متقاربان
وليس من الضروري أن نعرف أين الابتداء وأين الانتهاء في هذه الحلقة المفرغة. فإن النفس الإنسانية لن تعيش أبداً في طور من الأطوار خلواً من المزيج الذي تتلاقى فيه دواعي العمل ودواعي العقيدة، وبأيها ابتدأت فأنت واصل إلى نهاية تستحق عناء الوصول
إليها
سيصبح العالم بعد الحرب أسعد مما كان قبلها، فإن شككت في ذلك فالذي لا أشك فيه أنه سيتقدم في سبيل الحرية والتبعة وهو غنم جليل يساوي خسارته في الحروب. ورجائي الذي يرجوه معي من يحبون الحياة ألا تقضي سعادة العالم بعد الحرب على أسباب شكواه، لأن القضاء على أسباب الشكوى قضاء على أسباب الحركة وأسباب التجديد وأسباب الطموح إلى المثل الأعلى.
عباس محمود العقاد
السياسة التوجيهية العلمية
في الأزهر
للأستاذ محمد محمد المدني
ذلكم أيها القراء هو عنوان المحاضرة التي حدثتكم عنها من قبل، وقد كان لهذه المحاضرة شأن لا أجد بأساً في أن أقص عليكم منه طرفا:
عجب الأزهريون أول الأمر حين سمعوا أن محاضرة بهذا العنوان سيلقيها أزهري في دار أزهرية، ثم عجبوا وازداد عجبهم حين علموا أن صاحب هذه المحاضرة هو فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمود شلتوت:
قالوا: هذا موضوع شائك دقيق ينبئ عنوانه عما سيقال فيه مما نعرفه ونشهد آثاره، ولا بد أن يمس الكلام فيه بعض أصحاب السلطان من قريب أو من بعيد، وأصحاب السلطان في كل زمان ومكان يرون أنفسهم في منزلة من السمو ليست لغيرهم: فهم لا يحتملون في أنفسهم ما يحتمله سائر الناس، ولا يصبرون على ما يصبر عليه سائر الناس؛ وهم يغالون فيما لهم من حقوق يجب أن تُرعى، ويغمضون عما للناس من آمال (ينبغي) أن تحقق؛ وهم يرون من حقهم أن يشكّوا في الناس إذا خالفوهم في سبيل الحق والواجب، ويرون من حسن السياسة أن يرفضوا النقد إذا كان صريحاً مسفراً، وأن يعرضوا عن النصح إذا لم يُلف لهم في أوراق من الورد والريحان! فأيّ

أزهري يعلم ذلك ثم يعرّض نفسه لما يستلزمه الخوض في مثل هذا الحديث؟
فلما سمعوا اسم (شلتوت) قالوا: هذا أعجب وأغرب! ولم يكن عجبهم إلا لأن صاحب هذا الاسم صديق حميم لفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي، ونصير قوى لإصلاحه طالما دافع عنه، وأشاد به وأيده بقلمه ولسانه وبحوثه العلمية؛ وهو مع هذا وذاك وكيل كلية الشريعة، وعضو في مجلس إدارتها، بل هو عضو في جماعة كبار العلماء، فكيف يتكلم إذن في هذا الموضوع، وكيف يذكر حقائقه، ويعرض للناس وقائعه؟
عجبوا لذلك كله أول الأمر، وتساءلوا عنه في مجالسهم؛ ولكن هذا العجب لم يطل بهم كثيراً، فقد تأملوا الأمر من جميع جهاته وروّوا فيه فتبين لهم أن الذي أنكروا منه غير منكر، وحينئذ جرت الأحاديث بينهم على نحو آخر:
قالوا: أن الكلام في هذا الموضوع، ولو كرهه بعض الناس، لا بد منه لمصلحة الأزهر ولمصلحة الثقافة الإسلامية العربية. فلو كان الأزهر معهداً من هذه المعاهد المتشابهة المتكررة لهان الأمر، ولجاز لأبنائه أن يجاملوا فيه أو يصانعوا، ولقال الناس: معهد من المعاهد إن ضاع ففي غيره عوض منه، ولكن الأزهر ليس كذلك، وإنما هو الجامعة الكبرى التي تعتز بها الأمة الإسلامية في مصر والشرق، بل يعتز بها العالم كله شرقيّه وغربيّه. هو الجامعة الفريدة في نوعها، القوية بتاريخها التي انحاز إليها تراث الفكر الإسلامي في أجيال بعد أجيال!
وقالوا: إذا كان (شلتوت) صديقاً (للمراغي) فذلك أقرب إلى نجاح دعوته، فإن كلام الصديق أيسر على السمع، وأدخل إلى القلب. وإذا كان (شلتوت) نصيراً للاصلاح، حريصاً على النظام القائم إلى درجة الدفاع عنه فذلك أنفى للتهمة، وأبعد من الشبهة. وإذا كان (شلتوت) متصلاً بالعمل، مكابداً لشئونه فذلك أدنى إلى القسط، وأهدى إلى الرشاد
فلتُقل إذن كلمة الحق، وليقلها (شلتوت) في صديقه ولصديقه، وليصدع بها عالية بريئة يبتغي بها وجه الله، وليؤثر الأزهر على صاحبه وعلى عاطفته في صاحبه، فإن الحق أحق أن يتبع، وإن الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المؤمنين! ولقد كان ذلك فكانت هذه المحاضرة
ولست أريد في هذا المقال أن أثبت شيئاً من نصوصها، فقد سمعها الناس حين ألقيت، وقرأها الناس حين طبعت ونشرت، وإنما أريد أن أذكر أهم المبادئ التي اشتملت عليها:
لقد مهد فضيلة الأستاذ الكبير لموضوعه بمقدمة بين فيها الغرض من الأزهر وعرض لتاريخه العلمي من يوم أن انسلخت عنه الصبغة الشيعية التي أنشئ لتركيزها وتنميتها والقضاء بها على المذاهب الأخرى، ووصف العلل التي ورثتها عن ماضيه الطويل فصرفته عن التفكير والإنتاج وقصرته على غير النافع وغير المستقيم من عناية بالمناقشات اللفظية، وتقديس للآراء والإفهام التي دونها السابقون، واشتغال بالفروض العقلية والاحتمالات التي لا تقع، وباختراع الحيل التي يتخلص بها من الحكم الشرعي، ومن تغليب لروح التعصب المذهبي، وتحريم لتقليد غير المذاهب الأربعة. . . الخ. وبعد أن فرغ من هذا التمهيد وأيد ما ذكره بالأمثلة العلمية أخذ يفيض في موضوعه بما يرجع إلى المبادئ الآتية:
كانت أول صيحة أيقظت الأزهر من نومه، ونبهته إلى واجبه، هي صيحة الأستاذ (1) الإمام المغفور له الشيخ محمد عبده. (فكانت مبادئه وأفكاره بمثابة شعاع انبثق في أفق الأزهر. انتفع به من انتفع، وازورّ عنه من ازورّ، ولكنه مع ما قوبل به من محاولات متعددة لإطفائه ظل قويا وهاجا يجذب إليه أنظار المؤمنين، وينفذ إلى بصائر المخلصين. . . وإن الأزهر لينتفع الآن في كلياته ومعاهده، وفي القضاء الشرعي والإفتاء، والوعظ والإرشاد بطائفة كبيرة من العلماء الذين تخرجوا في ظلال هذه النظم التي تستمد من إصلاح الشيخ عبده، لهم أثر واضح في حياة الأمة من جميع نواحيها)
وفضيلة الأستاذ المحاضر ينفي بهذا فكرة ربما فهمت من عبارة ذكرها فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي في مذكرته الإصلاحية التي وضعها في سنة 1928 إذ يقول في شأن النظم التي تقدمت إصلاحه: (وإني أقرر مع الأسف أن كل الجهود التي بذلت لإصلاح المعاهد منذ عشرين سنة لم تعد بفائدة تذكر في إصلاح التعليم، وأقرر أن نتائج

الأزهر والمعاهد تؤلم كل غيور على أمته وعلى دينه!)
إن فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي قد وضع في عهده الأول مذكرته الكبرى (2)
في إصلاح الأزهر (تلك المذكرة التي لا نعلم مثلها في تاريخ الأزهر - حديثه وقديمه -
قوة وفهماً وإدراكا للعوامل المختلفة المحيطة بالأزهر، والتي جعلها برنامجه في
الإصلاح المنشود، ودستوره الذي عاهد الناس على أن يسير على مبادئه في النهوض
بالأزهر وإعلاء شأنه، وتحقيق آمال الأمة الإسلامية فيه) (تلك المذكرة التي علقت عليه
الأمة من أجلها آمالها الكبرى في إعلاء شأن الدين وإنهاض أهله)
وهو يرى في هذه المذكرة رأياً معيناً في الكتب المعقدة (التي لها طريقة خاصة في
التأليف لا يفهمها كل من يعرف اللغة العربية)
ويرى فيما يختص بدراسة الفقه أنه (يجب أن يدرس دراسة حرة خالية من التعصب
لمذهب، وأن تدرس قواعده مرتبطة بأصولها من الأدلة. . . الخ)
ويرى في دراسة التفسير كذا، وفي دراسة الحديث كذا، وفي دراسة اللغة العربية كذا.
. . إلى غير ذلك مما سجله في مذكرته
ولقد مضى على هذا الإصلاح أمد هو فيما يرى المصلحون غير قصير، ونحن مع ذلك لم
نزل حيث كنا، وإن حدث اختلاف في بعض الصور والمظاهر:
لم تزل كتبنا هي الكتب المعقدة التي لها طريقة خاصة في التأليف لا يفهمها كل من)
(يعرف اللغة العربية
لم نحاول أن نقرب للناس ولا لأنفسنا هذه الكتب، ولم نحاول أن نأخذ النافع منها)
(لنعرضه عرضاً يروج عند أهل العصر
ولم نزل ننفق أوقاتنا الثمينة في المناقشات اللفظية، وفي خدمة نصوص المتون)
(وعبارات المؤلفين
ولم نزل نشغل أنفسنا بالفروض الفقهية كما اشتغل بها السابقون. ولم نزل نحس)
ثقل العلم ولا نجد في أنفسنا اندفاعاً إلى تحصيله، ولا رغبة في المثابرة على طلبه.
(ولم نزل نحضر العلم حضوراً زمنياً لنقطع به أعوامنا الدراسية عاماً في إثر عام
(ونحن لا نقرأ من المقررات إلا نسباً ضئيلة تافهة لا تكوّن ملكة ولا تعد تحصيلاً)
3 - يقرر المحاضر أن هذه الحالة المؤسفة هي حالة الأزهر الواقعية، وأن فضيلة
الأستاذ الأكبر وجميع معاونيه يعلمونها فيقول (هذه حالتنا التوجيهية الواقعية، وهي حالة
عامة تشترك فيها الكليات جميعها على اختلاف بينها في النسب، وهي مسجلة في
التقارير التي تقدمها لجان الامتحان إلى الرياسة العامة إثر كل امتحان، وفيها يقول
حضرة صاحب الفضيلة أستاذنا الأكبر: (وهناك أمثلة ظاهرة العوار في قراءة المقررات
تعلمونها كما أعلم، وتشعرون بأنها أمثلة سيئة لا يجوز أن تبقى ماثلة) ولكنها مع ذلك
بقيت ماثلة، وازدادت سوءاً
4 - يقرر فضيلة المحاضر (أن من المؤلم له أن يصرح في موقفه هذا بأن جهوداً كثيرة
بذلت في سبيل إصلاح هذه الحالة، ولكنها لم تقابل بإخلاص ولا تضافر على تنفيذها،
فماتت تلك الجهود، واستمرت هذه الحالة)
وهذا تصريح خطير من رجل مسئول. ولعل فضيلته يفصل للناس ما أجمله فيه حتى
يعلموا: من هم المسئولون عن موت تلك الجهود!
5 - يقرر فضيلة المحاضر (أن العامل الذي وقف بالأزهر هذا الموقف لا يرجع إلى
الطلاب ولا إلى الأساتذة، فإن هؤلاء جميعاً خاضعون لنظام يظلهم وتوجيه يوجههم. ولا
يمكن أن يرجع إلى المناهج، لأن المناهج في جملتها قوية صالحة لتخريج نوابغ من
العلماء في الفقه والتشريع وفي غير الفقه والتشريع) وإنما يرجع إلى أن الإصلاح لم
ينفذ بالروح التي وضع بها، ولم يتعهد حتى يؤتي ثماره، ولم يتهيأ له ما ذكره فضيلة
الأستاذ الأكبر في مذكرته الإصلاحية حيث يقول:
يجب أن تكون الخطوة إلى ذلك الإصلاح خطوة جريئة يقصد بها وجه الله تعالى، فلا)
يبالي بما تحدثه من ضجة وصراخ، وقد قرنت كل الإصلاحات العظيمة في العالم بمثل
(هذه الضجة
ويقول فضيلة الأستاذ المحاضر: (وإلى أن تحدث هذه الخطوة الجريئة التي يقصد بها
وجه الله، ولا يبالي بما تحدثه من ضجة وصراخ سيبقى الأزهر في عزلته عن الأمة، لا
يسعفها بحاجتها، ولا تقدره في وجوده ولو سُنّ له ألف قانون!)

أما بعد:
فهذه هي المحاضرة التي وعدتكم بها - أيها القراء - كمثال من أمثلة الظاهرة الجديدة التي ظهرت في الأزهر هذا العام، وقد تبينتم منها حالة الأزهر الواقعية، وسياسته التوجيهية، ولو كان فضيلة الأستاذ الأكبر لا يعلم، أو كان مع علمه لا يرى أن يعمل، أو كان مع عزمه لا يقدر، لكان الأمر مفهوماً؛ ولكن فضيلته يعلم هذه الحالة حق العلم، ويعترف بها في أحاديثه وكتبه الرسمية، ويعد من يكلمه فيها بأنه سيتداركها ويسرع إلى إنقاذ الأزهر من سوء مغبتها، وهو مع ذلك كله مالك لأمره غير مغلوب عليه، تحترمه الأمة والحكومة ويعطف عليه المليك حفظه الله. أليس هذا موقفاً تحار فيه العقول؟ وهل يطلب منا أن نقول فيه كما يقول الراسخون في العلم عن المتشابه: (آمنا به كل من عند ربنا)
لا. لا، ولكنا نقتبس ما اقتبسه الأستاذ الزيات حين نشر مذكرة فضيلته في إصلاح الأزهر فنقول:
إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة ... فإن فساد الرأي أن تترددا
محمد محمد المدني
الحديث ذو شجون
للدكتور زكي مبارك
تجميل القاهرة - قطار بور سعيد - قطار الديزل - القيظ في أسيوط - المدينة المهجورة - كلمة صريحة إلى أهل أسيوط
تجميل القاهرة
المعروف أن رجال الهندسة لا يرون من حق رجال الأدب أن يتحدثوا في شؤون هي في الأصل من أعمال المهندسين، ولكني مع ذلك سأسوق ملاحظة تبين أن تخطيط المدن يقوم على قواعد ذوقية قبل أن يقوم على قواعد هندسية، إن جاز الفصل بين الهندسة والذوق!
هل سمعتم حديث (نفق شبرا) وقد انتظرناه عدداً من السنين؟
لا أدري كيف سمحنا بأن ننفق في إنشائه ألوفاً مؤلفة من الدنانير، ثم تكون النتيجة أن يبقى جسر شبرا في حالة لا تريح من يسيرون على الأقدام، لأنهم مضطرون إلى استعمال تلك السلالم المتعبة في الذهاب والإياب، بغض النظر عن المتاعب التي يتعرض لها من يريد ركوب ترام شبرا وهو في ميدان باب الحديد
منشأ هذه المضجرات أننا أردنا أن تكون محطة القاهرة محطة واحدة، وكان يجب أن تكون فيها محطة لقطارات الشمال ومحطة لقطارات الجنوب، ولو فعلنا ذلك لظفرت القاهرة بميدان جديد، ولكان من السهل أن تُرفع متاعب من يتجهون إلى شبرا، وهي اليوم منطقة تموج موجاً بالسكان، وستكون مصدر نشاط صناعي واقتصادي في المستقبل القريب
يجب أن نبادر إلى رفع جسر شبرا، وأن نفصل محطة الشمال عن محطة الجنوب، وهذا لا يمنع من بقاء الطريق الذي تمر به قطارات البضائع، وهي قليلة العدد، وأغلبها يمر بالليل، فلا يعرقل حركة المرور إلا في لحظات لا يُحسب لها حساب.
لقاء القاهرة
خطر في البال هذا الخاطر وأنا أمتطي قطار الديزل إلى الصعيد في عصرية الخميس الماضي، ثم خطر في البال أيضاً ما تعاني المنطقة التي يمر فيها قطار الصعيد بين باب الحديد وجسر امبابة، وهي منطقة لا تقع فيها العين على منظر جميل، لأنها من ذيول
بولاق، وكان الظن أن نفهم أنها أول ما يرى القادم على القاهرة من ناحية الصعيد منذ ثلاث سنين كتبت كلمة في مجلة الرسالة أدعو فيها إلى تجميل مدخل القاهرة في نظر القادم من الإسكندرية أو بور سعيد فما استمع مستمع ولا استجاب مستجيب، وأنا اليوم أعجب من أن تبقى منطقة بولاق على ما كانت عليه قبل التمدن الحديث، مع أن لبولاق تاريخاً من أعظم التواريخ، فهي التي أنشأت المدافع لمقاومة الاحتلال الفرنسي، وفيها أقيمت أول مطبعة لإحياء المؤلفات العربية والإسلامية. وهل في العرب من لا يدين لمطبعة بولاق، ولو كان في أقاصي الصين؟
قطار بور سعيد

الواقع أننا لا نفكر في خلق الجاذبية في صدور من يفد على الديار المصرية. . . هل تعرفون شيئاً عن قطار بور سعيد؟
وهل تصدقون أن أجرة الباخرة من مارسيليا إلى الإسكندرية أرخص من أجرة المثل في السفر من مارسيليا إلى بور سعيد؟
لذلك أسباب، ولكني أحب أن أجعل قطار بور سعيد من أهم الأسباب
هو قطار سخيف، وهو لسخفه يجهل أنه يقاسي زوابع الصحراء نحو ساعتين، فليس بالدرجة الثانية ستائر تمنع هجوم الرمل والتراب. أما الدرجة الثانية فطعام ركابها عجاج في عجاج. . ويا ويل من يركب قطار بور سعيد وهو خفيف الجيب!
وبهذه المناسبة أذكر أن الدرجة الثانية بقطار الصعيد ليس فيها مراوح، فماذا يصنع الركاب في وهج الصيف، إذا كتب عليهم أن يصطلوا القيظ بين الأقصر وأسوان؟
شيئاً من الرحمة، يا مدير سكك الحديد، فقد سمعت أنك من الرحماء؟
وما حال المقصف الذي يوجد في بعض القطارات لا كل القطارات؟
هو محرم على ركاب الدرجة الثالثة تحريماً قاطعاً، وقد يكون فيهم من يحتاج إلى تناول الطعام في مكان مريح ليدفع مشقة السفر وهو قطعة من العذاب
يا ناس، يا ناس، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء!

قطار الديزل

سمي باسم المخترع وهو ألماني الأصل، وليس بقطار الديزل مقصف، مع أنه خاص بركاب الدرجة الأولى والثانية، ومع أنه لا يقف إلا في محطات قليلة، وهو حين يقف لا يتمكث غير دقيقة أو دقيقتين
بهذا القطار حنفية تجود بالماء لمن يقبل الجود من الأشحاء، وما قيمة الجود بماء لم يسمع بأخبار الثلج، ولا يعرف الطريق إلى تنسم الهواء؟
جرّبوا السفر بهذا القطار بعد الظهر في مثل هذه الأيام وفي طريق الصعيد، لتعرفوا كيف يبخل القطار على ضيوفه الأعزاء بكمية من الماء المثلوج لا تتكلف خمسة قروش
وقف الديزل في محطة بني سويف، فتصايح الركاب يطلبون من الباعة إمدادهم بأكواب الليمون، ليبتلعوها في مثل ومضة البرق، ويقوم القطار قبل أن يتناول المسافرون ما يخفف وقدة الظمأ، وبعد لحظات يقف القطار، وننظر فنعرف أنه وقف إكراماً لصاحب (بوفيه المحطة) وكان بقي في القطار إلى أن يتسلم ما له عند المسافرين من نقود!
فما الذي يمنع من أن يقف القطار بالمحطة نحو ثلاث أو خمس دقائق، ليستغني عن هذا التلطف في معاملة صاحب البوفيه، وليضمن راحة المسافرين من بعض هذا العناء؟
أيكون من الصعب إمداد ثلاجة القطار بزادها من الثلج، ولو بإضافة زيادة على أثمان التذاكر؟
أما بعد فهذه شؤون تبدو من التوافه في نظر بعض الناس، ولكنها شؤون على جانب من الأهمية، والاهتمام بها قد يغيّر ما درجنا عليه من الغفلة عن تذوق الحياة
وهل كان البدوي الذي يعاني متاعب السفر في البيداء أشقى من الحضري الذي يمتطي قطار الديزل، وهو على ما وصفت؟
لقد ظمئت بهذا القطار ظمأ لم أشعر بمثله وأنا أخترق البادية من دمشق إلى بغداد، لأن مطية نيرن تفكر فيما لا تفكر فيه مطية ديزل، ولأن الشركات تصنع في ملاطفة الزبائن ما لا تصنع الحكومات. . . وما أحب أن أزيد!

القيظ في أسيوط

دخلت أسيوط وقد انتصف الليل أو كاد، فرأيتها في حال من القيظ لا تطاق، فماذا صنعت الأيام بجو هذه المدينة الفيحاء؟
إنها بعيدة من النيل بعض البعد، فكيف أنشئت على هذا الوضع، وما كان لمدينة مصرية أن تُنشأ إلا على ضفاف النيل؟
كانت أسيوط في الأصل على شاطئ نهر يجاورها من الغرب، نهر يساير الجبل من الجنوب إلى الشمال، وقد انطمر هذا النهر، ولم يبق ما يدل عليه غير بقايا من قناطر

محطمة كان لها شأن فيما سلف من الزمان
وكان بأسيوط برك واسعة، كالبرك التي كانت بالقاهرة، من أمثال بركة الأزبكية وبركة الرطلي وبركة الفيل
والبركة كانت كلمة مقبولة في الأيام الخوالي، ولها في أشعار البحتري مكان، وقد أخذتها اللغة الأسبانية عن اللغة العربية، وابتذال هذه الكلمة جديد في حياتها اللغوية،
فهي اليوم ترادف كلمة المستنقع، ومن هنا قيل (بطينة ولا غسيل البرك)
البركة قديماً هي البحيرة، والبحيرة تصغير بحرة مؤنث بحر، والبحر في أصل اللغة هو مجتمع الماء الغزير، بغض النظر عن العذوبة والملوحة، فما يخطئ المصريون في تسمية النيل بحراً، مع أنه عذب لا أجاج
وأقول إن البرك التي كانت بالقاهرة وأسيوط هي بحيرات، فقد كانت تأخذ مددها من النيل في أيام الفيضان، ثم يبرك فيها الماء بعد انحسار الفيضان، فهي بركة من أجل هذا، إن صح هذا التخريج، وهو صحيح
كانت برك القاهرة كثيرة المنافع، فقد كانت مجالاً لنزهات الأصيل والعشيات في السفائن اللطيفة، وكانت منادح لتوالد الأسماك. وكتلك كانت برك أسيوط، وإن لم يسجل الأسيوطيون بركهم في الأشعار كما صنع القاهريون
والذي يهمني في هذا المقام هو النص على أن برك أسيوط طُمرت كما طُمر النهر الذي كان يساير الجبل، وهذا من أسباب عنف القيظ في أسيوط
لقد حاول عبد السلام الشاذلي باشا تحويل تلك البرك إلى حدائق فتم له ما أراد في بركة واحدة، وبقيت البرك الأخرى في حال من الجفاف تزيد وقدة القيظ
أنا أعرف أن من العسير نقل أسيوط إلى شاطئ النيل في سنة أو سنوات، فلم يبق إلا أن
نقترح المبادرة إلى تزويدها بالحدائق الكثيرة ليخف عذابها بلوافح الصيف
المدينة المهجورة
هي مدينة أسيوط فقد زهد فيها كبار أهليها من المسلمين والأقباط، وكادت تفقد اللقب الذي يجعلها عاصمة الصعيد
ومن يصدّق أن أسيوط كانت قبل عشرين سنة أنضر مما هي اليوم؟
ومن غريب ما لاحظت أن أسيوط أقل الحواضر المصرية مسايرة للحياة الأدبية، ولولا الرعاية لحق هذه المدينة لقلت إنها لا تعرف من مطبوعات القاهرة بعض ما تعرف دمشق أو بيروت أو بغداد.
هل تتغير هذه الحال بإنشاء الجامعة الثالثة جامعة أسيوط؟
إن الجلال السيوطي وهو أشهر من مجّد اسم أسيوط في العهد الإسلامي لم يتخذ هذه المدينة دار مقام في الحياة ولا بعد الممات، فهل كان يعرف زهدها في المجد العلمي والأدبي؟
كلمة صريحة إلى أهل أسيوط
في أسيوط وحدها يمر اليوم وأيام بلا مدد من الجرائد والمجلات، فكيف يقع ذلك
ومدينة أسيوط هي الثالثة أو الرابعة بين كبريات المدائن المصرية؟
اتقوا الأدب في مدينة كان لها في الأدب تاريخ
عزيز على أن أقول في أسيوط كلاماً كالذي قلت، ولكن ماذا أصنع وأنا موقن بأنها أقل اهتماماً بالأدب من حواضر السودان، وبيننا وبينه أبعادٌ طوال؟
زكي مبارك
على هامش النقد
الأدب (المهموس)
والأدب الصادق
للأستاذ سيد قطب
حكاية أن (الأدب تعبير عن الحياة) حكاية معروفة من معاد القول الحديث عنها. وإن كان تفسيرها وتطبيقها لا يزالان موضع اختلاف عند استعراض النماذج. والنموذج في الفن أبلغ دائماً في بيان المذهب من النظريات العامة.
وقد تحدث الأستاذ (محمد مندور) في مقالات ثلاث بالثقافة عن (الشعر المهموس) ثم تحدث في العدد الماضي عن (النثر المهموس) وأعاد قصة (الشعر المهموس)

وفي جميع هذه الكلمات كان مندفعاً لأن يثبت أن أدباء المهجر هم (شعراء اللغة العربية) وأن (بين شعرهم وشعر الكثير من شعراء مصر قرونا) وكذلك نثرهم الشعري وليس يسوءني ولا يسوء أدباء مصر أن يكون الأمر كذلك حقيقة، فالتعصب هنا لا محل له؛ ولكن الذي يهمني ويهم أدباء مصر ويهم الأدب في ذاته، أن (النماذج) التي جاء بها والدعوة التي يدعو بها إلى هذه النماذج هي توجيه مؤذٍ في فهم الأدب وفهم الحياة!
وأنا أفهم مثلا أن يحب الأستاذ مندور أو سواه لوناً خاصاً من ألوان الأدب، فتلك مسألة مزاج؛ ولكن الذي لا أفهمه أن يصبح هذا اللون الواحد دون سواه هو الأدب الصحيح الراقي المتقدم، وأن يكون ما عداه من الألوان مرة (سخيفاً) كما يقول عن شاعر كبير معاصر، وطوراً خطابياً كما يقول عن شاعر كبير قديم. . . فذلك ضيق في الإحساس، يجوز أن يقنع به قارئ يتذوق ويلذ له لون واحد من الغذاء الروحي؛ ولكنه لا يصلح لمن يتصدى للنقد والتوجيه
وما اللون المفضل الذي يدعو إليه الأستاذ؟
من جميع النماذج التي اختارها حتى الآن - والنموذج كما قلت أكثر دلالة من الشرح العام - أستطيع أن أسمي هذا اللون باللون (الحنيّن) حسب تعبير أولاد البلد من القاهريين!
الذي تحس فيه (بالحنيّة) أو بالهمس والوداعة الأليفة حسب تعبيره هو!
وهذا الأدب الحنيّن قد يكون فيه الصادق السليم، وقد يكون فيه الكاذب المريض. ولكنه على كل حال لون واحد من ألوان الأدب، يعبر عن مزاج واحد من الأمزجة، في حالة شعورية واحدة من حالات الشعور
فإذا نحن جعلنا همنا أن نهمس فقط، وأن نكون وديعين أليفين فقط، وأن تكون الحنية هي طابعنا فقط؛ فأين نذهب بالأنماط التي لا تعد من حالات الشعور وحالات النفوس وحالات الأمزجة، في هذه الحياة الحافلة بشتى الأنماط؟
يسمي الأستاذ شعر المتنبي شعراً خطابياً، ويعني أن المتنبي لا يهمس ولا يلقي إلينا تعبيره في دعة وفي حنيّة أو في همس كما يقول مثلا ميخائيل نعيمة
أخي إن عاد بعد الحرب جندي لأوطانه
وألقى جسمه المنهوك في أحضان خلانه
إلى الآخر . . .
وإن الأستاذ مندور ليقف معجباً أمام صورة هذا الجندي المنهوك الذي يلقى بجسمه في أحضان خلانه، وهي صورة وديعة منهوكة قد تكون جميلة في مكانها؛ ولكن أي خطأ ينتظرنا حين نطالب المتنبي العارم الطبع، الصائل الرجولة، بأن يحدثنا في وداعة كوداعة ميخائيل نعيمة؟
أنا لا أحاول (مؤقتاً) المفاضلة بين الطبيعتين، ولكني أحاول فقط أن أقول: إن الصدق هو الذي يجب أن ننظر إليه حين نقف أمام عمل الشاعر أو الفنان بوجه عام. وإن المتنبي لصادق أجمل الصدق، وهو يجلجل ويصلصل في شعوره وفي أدائه، لأنه هو هكذا من الداخل. وتلك صورة لنفسه ولمزاجه، وإنها لنفس صادقة، وإنه لمزاج أصيل يجب أن نوسع آفاقنا ولا سيما حين نقف موقف النقاد - فلا نحكم مزاجنا الخاص، الذي قد لا يكون أصدق الأمزجة، بل الذي قد يكون ثمرة (عقدة نفسية) أو حادثة عارضة من حوادث حياتنا الشخصية
وإنه ليستلفت نظري أن جميع النماذج التي استعرضها الأستاذ مندور هي من اللون الذي يشيع فيه الأسى المتهالك المنهوك. فهل أفهم أن هذه عناصر محببة إليه وحدها، وأن الشاعر لا يكون شاعراً حتى تشيع هذه العناصر في شعره؟
أعرض هنا تعبيراً أفلت منه، وله دلالة خاصة على هذا المزاج. ففي قصيدة (لنسيب عريضة) ساق الحديث هكذا:
يا نفس مالك والأنين؟ ... تتألمين وتؤلمين؟
عذبت قلبي بالحنين ... وكتمته. ما تقصدين؟
وهانحن منذ المقطوعة الأولى في جو الشعر (فالنفس تئن)!
إذن كانت النغمة التي استرعت سمعه وجعلته يحس بأنه دخل في جو الشعر هي أن (النفس تئن). ولهذا دلالته، وهي الدلالة التي تنطق بها جميع مختاراته حتى الآن. وهو (مزاج) خاص له أن يتذوق ما يحبه من الألوان، ولكن ليس له أن يتولى مهمة النقد

والتوجيه كما قدمت
وأريد أن أسأل: ألا ندخل في جو الشعر إلا إذا سمعنا هذا الأنين؟ و (الهمس) بالسرور والفرح والانطلاق؟ ألا يكون شعراً على هذا الأساس؟
إن الأستاذ مندور لم يقل هذا بالضبط، ولكن النماذج التي جاء بها جميعاً تكاد تنطق فذلك إذن توجيه مؤذ، يكاد الدافع إليه يكون دافعاً (مرضياً) وهو ما يدعو إلى الحذر الشديد!
ولا أحب أن أقف من الشعر المهموس والنثر المهموس موقف العداء المطلق كما وقف الأستاذ مندور من جميع ألوان الشعر الأخرى. وكذلك لا أريد (مؤقتاً) أن أفاضل بين هذا اللون وبين الألوان الأخرى.
ولكن هذا لا يمنعني أن أقول إنه كان موفقاً في اختيار بعض النماذج، وغير موفق في اختيار بعضها. فقصيدة (يا أخي) لميخائيل نعيمة وقصيدة (ترنيمة سرير) لنسيب عريضة يعدان نموذجاً طيباً لهذا اللون الذي يحبه. وأقول نموذجاً طيباً لهذا اللون بذلك القيد. ولكن ما عداها من مختاراته كان نماذج رديئة للشعر عامة ولهذا اللون من الشعر كذلك، لا في الأداء وحده، ولكن في حقيقة الشعور
والفرق بعيد والمسافة طويلة بين هذين النموذجين وبين سواهما. ولكن الذي يجمع بينه هو مجرد (الحنية) ومجرد الأسى المنهوك. ويهمني أن أبرز هذا المعنى إبرازاً خاصاً؛ فهو دليل عندي على هذه (الحالة الخاصة) التي أكاد أعزو إليها ولعه بهذا اللون، فهذه الحالة هي التي تجعله يستجيد كل ما ينطوي على هذه العناصر جيدة ورديئة على السواء. وهذا
ما يدعوني للشك العميق في أن (مزاج) الأستاذ الخاص هو الذي يملى عليه آراءه لا ذوقه الفني
إن المسألة ليست مسألة ضيق في أفق الذوق الفني فقط، ولكنها (حالة مزاجية) خاصة تتحكم في هذا الأفق الضيق بطبيعته. وأخشى أن تكون حادثة ما أو عدة حوادث كامنة في ماضي الأستاذ مندور تتحكم في نفسه دون شعور. وهذا ما يدعو إلى الحذر الشديد في تقبل هذه الآراء!
وقصة (النثر المهموس)؟ إنها كقصة (الشعر المهموس). وأريد أن أقول للأستاذ مندور إن الفقرات الأخيرة من قطعة (يا أمي) لأمين مشرق هي فقرات طيبة في إحساسها وفي أدائها، ولكن الفقرات الأولى (تقليدية) من أدب (القوالب) المحفوظة. وكناقد كان يستطيع أن يفرق بين هذا وذاك؛ ولكنه كصاحب مزاج خاص لم يستطع التفرقة. ففيها جميعاً تشيع روح (الأسى المنهوك) وهذا يكفي!
وإذ انتهيت إلى هذا الحد أحب أن أعرض على الأستاذ مندور وعلى القراء ألواناً من الشعور البسيط الأليف الذي لا تفقده بساطته وألفته قوته وسلامته وصحته. وهو من عمل أدباء مصريين من أولئك المتخلفين قروناً في نظره
وهذا النموذج الأول لأديب شاب من رثاء لأمه: (وقد اخترتها لمناسبة قطعة أمين مشرق):
(من نحن اليوم يا أماه؟ بل ما نحن اليوم عند الناس وعند أنفسنا؟ ما عنواننا الذي نحمله في الحياة ونعرف به؟
(إننا لم نعد بعد أسرة، ولم يعد الناس حين يتحدثون عنا يقولون: هذه أسرة فلان. بل أصبحوا يقولون: هذا فلان. وهذا أخوه. وهاتان أختاه!
(اليوم فقط مات أبي؛ واليوم فقط أصبحنا شتيتاً منثوراً. وإني لأضم اليوم إلى صدري ابنكما وابنتيكما. أضمهم بشدة لأستوثق من الوحدة، وأشعرهم بالرعاية. ولكن هيهات هيهات. فأنا وهم بعدك أيتام يا أماه!
(لقد شعرت اليوم فقط بثقل العبء. وعلمت أنني لم أكن أنهض به وحدي، وأنني كنت أرعاهم وأرعاك معهم، لأنني قويٌّ بك. أما اليوم فالعبء فادح، والحمل ثقيل، وأنا وحدي ضعيف هزيل!
(إن الشوط لطويل. وإني لوحدي في الطريق، وأخي وحده كذلك، وأختاي وحدهما أيضاً، وإن كنا نقطعه جميعاً!
والعش الذي خلفته ستظل فراخه زغباً مهما امتد بها الزمن، لأن يدك الرفيقة لا تمسح ريشها وتباركه، وكفك الناعمة لا تدرب أجنحتها على التحليق، وروحك الحنون لا تكلؤها

في أجواز الفضاء!
نحن اليوم غرباء يا أماه
لقد كنا - وأنت معنا - نستشعر في القاهرة معنى الغربة في بعض اللحظات، وكنا نشبه أنفسنا بالشجرة التي نقلت من تربتها، والتي ينبغي لها أن تكثر من فروعها لتتقي الاندثار في غربتها!
أما نحن اليوم فغرباء في الحياة كلها. نحن الأفرع القليلة ذوى غصنها، بعد اغترابها من تربتها. وهيهات أن تثبت أغصان في التربة الغريبة. . . بلا أم!
(أماه. . .
من ذا الذي يقص عليّ أقاصيص طفولتي كأنها حادث الأمس القريب، ويصور لي أيامي الأولى فيعيد إليها الحياة، ويبعثها كرة أخرى في الوجود؟
لقد كنت تصورينني لنفسي كأنها نسيج فريد منذ ما كنت في المهد صبياً! وكنت تحدثينني عن آمالك التي شهد مولدها مولدي، فينسرب في خاطري أنني عظيم، وأنني مطالب بتكاليف هذه العظمة التي هي من نسيج خيالك ووحي جنانك! فمن ذا يوسوس إلي بعد اليوم بهذه الخيالات الساحرة؟ ومن ذا يوحي إليّ بعد اليوم بتلك الحوافز القاهرة؟
لمن أصعد درج الحياة بعدك يا أماه؟ ومن الذي يفرح بي ويفرح لي وأنا أصعد الدرج، ويمتلئ زهواً وإعجاباً وأنا في طريقي إلى القمة؟
قد يفرح لي الكثيرون. وقد يحبني الكثيرون. ولكن فرحك أنت فريد، لأنه فرح الزارع الماهر يرى ثمرة غرسه وجهده. . . وحبك أنت عجيب، لأنه حب مزدوج: حبك لي، وحب نفسك في نفسي. . .!
أماه. . .
عندي لك أنباء كثيرة. كثيرة جداً ومتزاحمة. تواكبت جميعها في خاطري على قصر العهد بغيبتك. وإنه ليخيّل إليّ في لحظات ذاهلة: أنني أترقب عودتك لأسمعك هذه الأنباء، وأحدثك بما جد في غيبتك من أحداث؛ وأنك ستسرين ببعضها وتهتمين ببعضها. . . وهي مدخرة لك في نفسي يا أماه. ولن تدب فيها إلا حين أقصها على سمعك. . . ولكن هيهات فسيدركها الفناء، وستغدو إلى العدم المطلق، لأنك لن تنصتي إليها مرة أخرى. . .
(أماه. أماه. أماه. . .)
وموعدنا العدد التالي لتقديم نماذج أخرى من الشعر المصري (المتخلف قرونا)
سيد قطب
في التصوير الإسلامي
ليلى والمجنون
للدكتور محمد مصطفى
- 2 -
جاء قيس محققاً ما تمناه والداه، لا يعرف قلبه سوى أخلص الحب. . . يعشق الجميل ويحب الجمال. . . فكان وهو في مهده يتطلع إلى الفتيات الجميلات المليحات، ويرنو إليهن في شغف ونهم، كأن في منظرهن ما يجلب السرور إلى قلبه، أو ما هو غذاء لنفسه الصغيرة، يصيح في طلبهن إذا ابتعدن عنه، ويبكي في توجع وتوسل ليقترب منهن إذا لم يستطع رؤيتهن. ثم صار يجالسهن ويحادثهن ويستنشدهن الشعر، حتى حفظ منه الكثير، فاكتسب حديثه طلاوة ولباقة، وأسلوبه أناقة وطرافة، وأخذ على صغر سنه يقرض شعر الغزل وينشده، ويغازل به الفتيات ويشبّب بهن، وكأنه جاء من عالم آخر لا يعرفه بنو عامر، ولا عهد لهم به، فالحب والغزل في رأيهم (إنما يكون في اليمانية الضعاف قلوبها، السخيفة عقولها، الصعلة رءوسها).
ولما كبر الصبي وفات سن الطفولة، أرسله أبوه إلى المدرسة مع أقرانه الصغار من الفتيات والفتيان. وبين الفتيات كانت فتاة تسمى (ليلى)، كان أبوها شيخاً لبطن أخرى من بطون بني عامر، ووقعت ليلى موقعاً حسناً من قلب قيس فمال إليها وأحبها وقال في وصفها:
بيضاءُ خالصةُ البياض كأنها ... قمرٌ توسطُ جُنحَ ليلٍ مُبرَدِ

موسومةٌ بالحسن ذاتُ حواسدٍ ... إنَّ الجمالَ مَظِنةٌ للحسَّدِ
وتُرى مدامعُها ترقرُقَ مُقْلَة ... سوداء ترغبُ عن سواد الإثمِدِ
خوْدٌ إذا كثُرَ الكلام تعوذت ... بحِمى الحياء وإن تَكلَّم تقصد

ووقع لقيس في قلب ليلى مثل ما وقع لها في قلبه، فكانا يجتمعان كل يوم في المدرسة ليدرس كل منهما ما يتجلى في نظرات صاحبه وقسماته من الحب والهيام. وحاولا أن يخفيا حبهما عن أصحابهما. . . ولكن عبثاً. . . فإن الحب يشبه الطيب أو المسك إذا وجد في

بيت لا يمكن إخفاء رائحته. ففي ذات يوم أرادت ليلى أن تعلم ما لها في قلب قيس، فأعرضت عنه، وأقبلت بحديثها على غيره، فلما رأى ذلك جزع جزعاً شديداً حتى خافت عليه فقالت له:

كلانا مظهر للناس بغضاً ... وكل عند صاحبه مكين
تبلغنا العيون بما أردنا ... وفي القلبين ثمّ هوى دفين

فلما سمع قولها سرى عنه وعلم ما له في قلبها، وانصرف عنها وهو من أشدّ الناس سروراً وأقّرهم عيناً، وقال:

أظن هواها تاركي بمضلة ... من الأرض لا مال لدي ولا أهلُ
ولا أحدٌ أفضي إليه وصبتي ... ولا صاحب إلا المطيّة والرحل
محا حبها حب الألى كن قبلها ... وحلت مكاناً لم يكن حل من قبل

ولما سمع جلساؤهما ذلك فطنوا إلى أمرهما، وشاعت قصة غرامهما بين الناس حتى بلغت مسامع والد ليلى، فأبعدها عن المدرسة وحجبها عن قيس، ومنعه من رؤيتها والتحدث إليها، وتوعده بالشر إذا اقترب منها، فقال قيس في ذلك:

ألا حجبت ليلى وآلي أميرُها ... عليَّ يميناً جاهداً لا أزورُها
وأوعدني فيها رجالٌ أبوهم ... أبى وأبوها خُشّنتْ لي صدورها
على غير جُرم غير أني أحبُّها ... وأن فؤادي رهنها وأسيرها

وفي (شكل 1) منظر داخلي للمدرسة يبين قبة يجلس تحتها المعلم بلحيته البيضاء الطويلة، وعلى رأسه عمامة كبيرة، وفي يده عصا لتأديب (أشقياء) التلاميذ، وأمامه تلميذ يتلو عليه ما حفظه من الدروس. ونرى قيساً جالساً إلى اليمين في معزل عن زملائه، يسند رأسه على ذراعه غارقاً في تأملاته كأنه يفكر في حبيبته ليلى التي تجلس إلى اليسار بجانب صديقة لها تواسيها وتعطف عليها. ويقرأ أو يكتب بعض التلاميذ الآخرين في كتبهم ويتجادل آخرون. وإلى اليسار يتقاذف (شقيان) بأدواتهما المدرسية، غير عابئين باحتمال إصابة (زير الماء) الموضوع في الركن الأيسر على كرسي حامل له، وما قد تجلبه هذه الإصابة على جسديهما من آثار عصا المعلم. ولم ينس المصور أن يخفف من حدّة (عصا) المعلم ببيت شعر كتبه على مدخل القبة يناشده فيه ألا يعلم الفتاة الشقراء ذات الوجه الجميل

سوى كل شيء حسن هي جديرة به. وهذه الصورة في مخطوط من المنظومات الخمس للشاعر نظامي الكنجوى كتبه الخطاط سلطان محمد نور، ومؤرخ سنة 931 هجرية (1525 م)، وقد اختلف مؤرخو الفن الإسلامي في نسبة الصور التوضيحية التي به، ولكنا نرجح ما يقوله الأستاذ كينل في نسبتها إلى المصور شيخ زاده تلميذ المصور الكبير بهزاد الذي هاجر معه إلى مدينة تبريز. وهذا المخطوط محفوظ في متحف المتروبوليتان للفنون الجميلة بنيويورك

- 3 -

بعد أن حجبت ليلى في منزل أبيها، حزن قيس وضاقت الدنيا في عينيه، ولما لم يجد في المدرسة ما يرقّه عن نفسه الحزينة ويسري عنه، هجرها وهام على وجهه يبحث عن حبيبته في منزل والديها. ولما أعياه ذلك عمد إلى الحيلة فتزيا بزي درويش عجوز أعمى قد أناخ عليه الدهر بكلاكله، وسار يتلمس طريقه بعكاز في يده حتى وصل إلى بيت ليلى، فألقى بنفسه على عتبته متصنعاً الإعياء. وخرج أهل الدار لمساعدة هذا الدرويش البائس الذي أنهكه السير الطويل وشقة الطريق، وكانت بينهم ليلى فعرفته وأمسكت يده وشدت عليها لتعلمه أنها ما زالت على عهده بها، ولكي تجدد ما قطعته على نفسها من ميثاق الإخلاص له في الحب. ولاحظ والدها ذلك وتعرّف على قيس، فنهر ابنته وطرد قيساً، فزاد ذلك من شدة حزنه ويأسه. وعاتبه أصحابه ورموه بالجنون

لما رأوه في مسلكه من شذوذ، فقال لهم:

وإني لمجنونٌ بليلى مُوكَّلُ ... ولستُ عَزوفاً عن هواها ولا جَلْدَا
إذا ذُكرْت ليلى بكيتُ صبابة ... لتَذكارها حتى يبل البكا الخدَّا

وسماه أصحابه (المجنون) وصار يعرف بين قومه بهذا الاسم.

واشتد به الحزن واليأس فاعترض على قضاء الله بقوله:

خليلي لا والله لا أملك الذي ... قضى الله في ليلى ولا ما قضي ليا
قضاها لغيري وابتلاني بحبّها ... فهلا بشيء غير ليلى ابتلانيا

فسلب عقله، وهجر أهله وذويه، وانفرد في جنبات الحيّ عارياً، لا يلبس ثوباً إلا خرقه، يخطط بإصبعه في التراب، ويجمع العظام حوله، ولا يجيب أحداً سأله عن شيء إلا إذا ذكروا له ليلى، فيرجع إليه عقله ويخاطبونه فيجيبهم جواباً صحيحاً. ولما يئس من لقاء ليلى بارح الحيّ ولجأ إلى البرية وهو يقول:

فمن أجلها ضاقت عليّ برحبها ... بلادي إذا لم أرض ممن أجاوره
ومن أجلها أحببت من لا يحبني ... وباغضت من قد كنت حيناً أعاشره

وكان المجنون وليلى وهما صبيان يذهبان إلى جبل قريب يقال له (التوباد) فذهب إلى هنالك وجلس على ربوة منه فأتته ذكريات الصبا فقال:

هذه الربوة كانت ملعبا ... لشبابينا وكانت مرتعا
كم بنينا من حصاها أرُبعا ... وانثنينا فمحونا الأربعا
وخططنا في نقا الرمل فلم ... تحفظ الريح ولا الرمل وعى
لم تزل ليلى بعيني طفلة ... لم تزد عن أمس إلا إصبعا

(شوقي)

وخرج الملوح بن مزاحم ومعه بعض أولاده وذويه يبحث عن ابنه قيس، فوجده هائماً على وجهه في جبل التوباد، وكان في حالة يرثى لها، عارياً، نحيل الجسم، طويل الأظافر، يخط بإصبعه في الرمل وهو تائه الفكر، وقد طال شعر جسده وتوحش وألفته الظباء والوحوش فكانت تجالسه وتلازمه، فلما اقترب ذووه منه لم يعرفهم ونفر منهم، فناداه أبوه: قيس، أنا أبوك الملوح وهذا أخوك، فطب نفساً وابشر فقد وعدني أبو ليلى أن يزوجكها. فأقبل إليهم وأنس بهم، فقال له أبوه: يا قيس، أما تتقي الله وتراقبه؟ كم تطيع هواك وتعصيني، فقد كنت أرجى ولدي، أفضلك علتهم وأوثرك، فأخلفت ظني ولم تحقق أملي، فليت شعري ما هي أراها ممن يوصف بالجمال والحسن، وقد بلغني أنها فوهاء قصيرة جاحظة العينين شهلة سمجة، فعدّ عن ذكرها ولك في قومك من هو خير لك منها. فلما سمع ثلبه فيها أنشأ يقول:

يقول لي الواشون ليلى قصيرة ... فليت ذراعاً عرض ليلى وطولها
وأن بعينيها لعمرك شهلة ... فقلت كرام الطير شهل عيونها
وجاحظة فوهاء لا بأس أنها ... مني كبدي بل كل نفسي وسولها
فدق صلاب الصخر رأسك سرمدا ... فإني إلى حين الممات خليلها

فاضطر أبوه أن يعده بالسعي لدى والد ليلى كي يزوجه إياها، واستطاعوا بذلك أن يأخذوه معهم ويردوه إلى الحيّ وأهل بيته.

ولما رأته أمه بكت لحالته البائسة التعسة، وحاولت جهدها أن تروّح عن نفسه، فألبسته ملابس جميلة، وأصلحت من شكله وهندامه، وجعلت تواسيه وتشمله بعطفها ورعايتها عساها تجلب إلى قلبه العزاء والسلوة.

وفي (شكل 2) ينام المجنون إلى جانب مجرى ماء، ويسهر على حراسته الوحوش من كل جانب، فيربض الأسد والفهد إلى اليمين، والثعلب والظباء والوعول إلى اليسار. وجاء ذووه وضربوا خيامهم بالقرب منه، وقد خرج الرجال وانتشروا في المكان، بينما نرى والده بلحيته البيضاء قادماً نحوه. وقد أجاد المصور تصوير الحياة المنزلية لنساء البدو في بيوتهن، فرسم إحداهن وهي تحلب بقرة، وأخرى تغزل على مغزل أحضرته معها وهي تستعين في عملها بيديها وقدميها، واثنتين جالستين في مدخل إحدى الخيام وقد احتدم بينهما الجدل. وهذه الصورة من تصوير المصور الإيراني قاسم علي أحد تلامذة المصور الشهير بهزاد، وهي في مخطوط للمنظومات الخمس للشاعر نظامي الكنجوي كتب في سنة 900 هجرية (1494 م) باسم أحد أمراء السلطان حسين ميرزا. وهذا المخطوط محفوظ في المتحف البريطاني.

(يتبع)
محمد مصطفى
مساعد فني دار الآثار العربية
أغرودة الليل
(!إلى وردتي الشقراء)
لشاعر العاطفة والوجدان جان ريشبان
بقلم الأستاذ عبد العزيز العجيزي
أواه ألحاني، غردي، غردي! واسكبي الخمر عذباً، صداح الأغاني، إلى من تغنى بها الحبّ في روض جناني، وسكبت نشيد الهوى في كأس وجداني!
هام النور على جيد ليلاي، ناشراً حلو الضياء، وغنى سناه على جبين دنياي، شادياً لحن الصفاء، وداعب السحاب غصن مناي، بأنامل النور والبهاء، لما ارتقينا معراج السماء، صوب المشرق الوضاء، فانتشت بسلافه أفاويق الطرب، ومراشف السرور، واحتست شعاع النور بأقداح البسمات!
الدجى وسنان، والليل سكران، والكون نعسان، والوسن هيمان، وشمسي الذهبية أشرقت في رقة وحنان، وبدت غدائرها العسجدية تهفو بنفح العبير وشذى الربيع النشوان. فدانيتها عن كثب مازجاً أشواقي بأزهار جمالها، ناهلاً النور من نجوى محياها، راشفاً الضياء من سحر سناها، الهاتك حجب الدجى وجحافل الظلام.
ويصوغ خاطري نجوم الكواكب الساطعة من درر ذلك النهر الباهرة، قلادة ماسية متألقة، ذات فتنة ووضاء، وظلال ساحرة زرقاء، ودرة يتيمة رائعة تزهر بسناها فوق أديم جيد الحبيب، الندى الرطيب.
أواه ألحاني، غردي، غردي! فروض ليلاي زاهر بأنواره كسنا التاج، باهر بجلاله كأبهة المُلك، وحبيبتي بين أطيافه ملك تحف به سراته. . .
ليلاي! أنا هائم بترتيل أبهى الأغاني، والترنم بأعذب الألحان! فحسبك أن تكوني يا حبيبتي وحي أشعاري، ولحن قيثاري، ومحراب إلهامي، وناي أنغامي!
حنانيك حنانيك يا وردتي الشقراء! كوني لجمالك راعية، ولدلالك رانية؛ وابسمي، وهيمي بنغم القوافي الراقصة في موكب حبنا، ولحن الأغاني الشادية حول أجسادنا! اسمعي أغاريد
الصبوة الهائمة، وأناشيد قيثارة الأشعار المترنمة! استمعي إليها. . . فقد هصرتها كلها من جنى الخيال، وشهى الجمال!
أرهفي السمع لسحر الأغاني، وشيق المعاني، وحلو النغم وجرس الكلم. . . قد ملأت أقداحي بها من سلسبيل الفكر، وعناقيد الغزل؛ فارشفي منها رحيق القبل واقطفي منها جني الثمر! وأذني لورد شفتيك بالتفتح، ليفضي عبيره بسر حبك، ويهفو أريجه عن مكنون سحرك، فيسعد طالعي، وينعم خاطري. . .
وتنساب الأناشيد إثر وقع خطواتك الراقصة، تناجي خيالك، وتناغي جمالك في حنان الأم لرضيعها. . . فتصدح الأشعار بغرامك، منشدة أهازيج هيامك. . .؛ أني شاقتك الأغاني، وطاب لك النغم. . .
ليلاي! ثغرك النضيد حلو كالزهرة الباسمة، ذات الفتنة والنقاء، والسحر والصفاء. . . قد مزج بها منذ فضت عنك التمائم: ترنمت الأشعار بسنا جمالك وسجعت أغاريد الصيف البهي لصدى ضيائك وبهائك، ولرجع جلالك ودلالك
ترنمت الأشعار بجمال صدر فينوس الكاعب لصدى روعة ثديك الناهد؛ سجعات قلبك الباسم، وخطرات قدك النامي هي تآلف أنغام غصنك الغاني وفرعك الداني باللحن السامي
ترنمت الأشعار بخمر لحظك الوسنان، وسلاف سحرك الفتان، فسكرت الروح الهائمة بوصلك، وثملت النفس الولهى بقربك، وانتشت بخمر آثر من عتيق المدام. . . ترنمت الأشعار ياليلاي بفتنة غدائرك الذهبية المترجرجة؛ وروعة خصلات شعرك الأرجواني المنساب على عنقك العاجي. . . فهام القلب بالشعر العسجدي، وقدّم العمر قرباناً على مذبح الحب القدسي، في معبد الهوى العذري!
وأخيراً صدحت الخواطر شجي الأغاني، وغرّدت الأشعار رقيق المعاني، مشدوهة هالعة عندما تغنيّتُ مترنماً: (أنا المتيّم بهواك، المعذّب بضناك، الشادي بجمالك، الملحن

عذب ألحانك!)
واهاً من الحب والهوى! الأشعار ظمأى لسلاف أغانيه، وألحان مغانيه، وشدو أنغامه على قيثار قوافيه! ولا تسخري يا حبيبتي من حمق مجاليه؛ إذا تآلف لحنها ولم يتباين سجعها
ليلاي! اهجعي أنى طاب لك الرقاد! فالأشعار هي وثير فراشك ومثوى جسدك بين رياشك،
. . .وحلم راقص على أهدابك الوطف الساجية، بين أنغامه الحالمة، وألحانه السامية أواه ألحاني؛ غردي، غردي! واسكبي الأحلام صداحة الأغاني! وانشدي الأنغام سكرى بخمر الوصال في دنيا الخيال؛ ليتغنى النسيم على مسارح الغابات، ويهفو بعبير النفحات! ويصفق الهزار بجناحيه غرداً، معرباً عن شجوه، ويرقص الموج طرباً، مغنياً في كرنفال غديره.
عبد العزيز العجيزي
إلى زهرتي اليتيمة
(من دموع لم تذرف)
للأستاذ محمود حسن إسماعيل
لَئِنْ مَاتَ حَوْلَكِ نُورُ الضُّحَى ... وَرَانَتْ عَلَيْكِ سُتُورُ الظَّلامْ
فَلاَ تَحْزَنِي. . فَالْهَوَى فِي دَمِي ... صَبَاحٌ يُزَلْزِلُ هَذَا الْقَتَامْ
وَفَجْرٌ مَدَى الدَّهرِ يَبقَى لَكِ
تُشَعْشِعُ أَنْوَارُهُ حَولَكِ
وَتَسقِي أَبَارِيقُهُ لَيْلَكِ. . .
سَناَ خَمْرَةٍ لَمْ يَذُقْهَا الأَنَامْ . . .!
وَإِنْ مَاتَ حَوْلَكِ سَاقِي النَّدَى ... وَفَحَّتْ لَدَيْكِ أَفَاعِي الْهَجِيرْ
فَلاَ تَجْزَعِي. . . إِنَّ رُوحِي بِهَا ... لآهَاتِ رَوْضِكِ نَبْعٌ غَزِيرْ
يُفَجَّرُهُ عَاتِياً سِحْرُكِ
وَيُسْكِرُ أَمْوَاجَهُ عِطْرُكِ
فَتَجْرِي وَيَجرِي بِهَا نُورُكِ. . .
. . .إلى أَنْ نُلاَقِي الرِّكَابَ الأَخِيرْ!
وإِنْ مَاتَ حَوْلَكِ سَاجِي الظِّلاَلْ ... وَنَاحَتْ بأَرْضِكِ ثَكْلَى الرِّيَاحْ
فَلاَ تَجْزَعِي. . . فأَنَا نَسْمَةٌ ... وَظِلٌّ عَلَيكِ رَطِيبُ الْجِناحْ
وَطَيْرٌ نَمَا عُودُهُ فِي يَدَيْكِ
فإِنْ أَوْمَأَ الْحُزْنُ يَوْماً إِلَيْكِ
. .عَصَفْتُ بِلَحْنِي وَعُشِّي وَأَيْكِي
لأِفنَى وَأَشْرَبَ عَنْكِ الْجِرَاحْ . . .
وَإِنْ مَاتَ حَوْلَكِ زَهْرُ الرُّبَى ... وَكُنْتِ الْيَتِيمَةَ فَوْقَ الْهِضَابْ
فَلاَ تَذْرُفِي دَمْعَةً. . . إِنَنِي ... خُلِقْتُ لأَحْمِلَ عِنْكِ الْعَذَابْ
كِلاَنَا غَرِيبٌ يَتِيمُ الزَّمَانْ
فَهَيا نُجَدِّدُ زَهْرَ الْجِنَانْ
. . .وَنَقْطِفُ مِنْ قَبْلَ يَمْضِي الأَوَانْ
وَنَقطِفُنَا قَبْضَةٌ مِنْ تُرَابْ . . . .
وَإِنْ مَاتَ حَوْلَكِ مِنْ فِي الثّرى ... وَأَصْبَحْتِ مُفْرَدةً في الْجِبَالْ
فَلاَ تَنْدُبِي فَانِياً. . . إِنَنِي ... أَرَى فِيكِ خُلْداً يُذِيبُ الزَّوَالْ
فِفِيكِ الإِلهُ الَّذِي أَعْبُدُ
وَفِيكِ الْخَيَالُ الَّذي أَنْشُرُ
. . .وَفِيكِ الهَوَى وَالصِّبَا وَالْغَدُ
دَعِينِي أُسَبِّحْ بِهَذَا الْجَمَالْ . . .
محمود حسن إسماعيل
البريد الأدبي
إلى الأستاذ دريني خشبة
قرأت في مقالكم القيّم عن (مجلاتنا الممتازة ونصيب المسرح والسينما والغناء منها)

فعنث لي الملاحظات الآتية:
1 - التأليف - سواء في المسرح أم في السينما - لم يتحقق وجوده بعد. ومن يعرفون بالمؤلفين في هذين الفنين يعيشون في الواقع عالة على الترجمة والاقتباس ولا أقول أكثر من ذلك!
2 - صلة المسرح بالأدب وثيقة بل ذاك فرع من هذا ولذلك أشارك الأستاذ رأيه في وجوب عناية مجلاتنا الممتازة به والاهتمام بنقده وتقويمه، وفضلاً عن ذلك فللمسرح رجاله من الممثلين الذين يستحقون التنويه والذكر
3 - أما السينما فبحكم مواجهتها المباشرة للملايين من الشعب تنقطع بها الأنفاس دون أهداف الأدب السامية، ففكاهتها تهريج، وعلاجها للمشكلات الاجتماعية يقوم على التعمل والمبالغات السخيفة والأخيلة السقيمة، وفيما عدا هذا من الغايات الأدبية فهي عاجزة عنه غاية العجز. ألا ترى يا سيدي الأستاذ أن السينما الأمريكية والأوربية نفسها 90 % منها غث تافه إذا قومته بحساب الأدب الفني، وأن الـ 10 % الذي يتصدى لإخراج أعمال فنية عالمية يعرض جسدها دون روحها، أو بمعنى آخر يظهر الحادثة التي توافق (الحركة السينمائية) دون التحليل والوصف، وهما لباب الفن الأدبي عامة، والحديث منه خاص؟. . . فالسينما في الواقع إخراج وتمثيل، وصلتها بالأدب الرفيع مقطوعة أو واهية
4 - أرجو ألا ينسى الأستاذ أن مجلات لا حصر لها - وهي في انتشارها تسبق المجلات الممتازة وأسفاه بمراحل - لا هم لها إلا تسويد صفحاتها بأخبار أبطال السينما والمسرح سواء من يستحق منهم الذكر أو غالبيتهم الكبرى الغارقة في أمية اللغة وعامية العقل والذوق، وهي أخبار لا تشرف مجلة لها من الاحترام والوقار ما لمجلاتنا الممتازة
5 - وأما الغناء فمن نجومه فئة يسمو بها فنها إلى مرتبة الأساتذة الإجلاء الذين يغذون المجلات الممتازة بنفحات أرواحهم وعقولهم وعلى رأس هؤلاء أم كلثوم وعبد الوهاب والقصبجي وزكريا والسنباطي!
والسلام عليكم ورحمة الله.
حافظ القاهري
إلى الأستاذ العلامة الشيخ محمود شلتوت
في العالم كله تنتشر المصارف المالية لتقرض الناس لأجل معين بفائدة صريحة تقل وتكثر قيمتها بين 6 - 9 % بحسب درجة عملاء البنك
والاقتراض من البنك يفيد المقترض فائدة مادية عظيمة إذا تيسر له القيام بمشروع له في بنائه وتغذيته وإدارة شؤونه خبرة وإلمام كبير، وخصوصاً في أيام الحرب التي بها أصبح منتوج الأرض ذا قيمة كبيرة
فهل ما يأخذه البنك من الفائدة هو الربا كما يفهمه الناس: آكله ملعون وموكله ملعون، وملعون شاهده وكاتبه، أم هذه الفائدة الخفيفة ليست أضعافاً مضاعفة، ويحل التعامل على صورتها؟ وإذا ثبتت حرمة الفائدة سواء أقلت أم كثرت فهل يستثنى من ذلك أحد من الناس أو طائفة من الناس لسبب من الأسباب أو في حالة من الحالات أو لغرض من الأغراض؟ ومتى وكيف يباح ذلك؟ وفي حالة التحريم القطعي هل يعد المال المقبوض من البنك من المال الحرام كأن يكون مسروقاً مثلاً ولا يحل الانتفاع به أم يصبح ملكاً حلالاً للمستدين مع تحريم المعاملة؟
(قلقيلية - فلسطين)
محمد عبد الفتاح محمود الحسن
إلى الأستاذ محمد أحمد الغمراوي
كيف يمكن التوفيق بين الآية الكريمة: (يُخرج الحي من الميت، ويُخرج الميت من الحي) وبين قول علماء الحياة: (الأحياء لا تنتج إلا من أحياء)؟
(القدس)
حافظ عبد النبي
على المسرح (أرواح وأشباح)
أقام الفرع المدرسي لمعهد فؤاد الأول للموسيقى العربية حفلته السنوية لتوزيع الشهادات على طلابه المتخرجين، وكان أطرف ما في برنامجها الحافل فاصل تمثيلي

غنائي عنوانه (ابن السماء) من كتاب (أرواح وأشباح) للأستاذ الشاعر علي محمود طه، وضع ألحانه وموسيقاه الفنان الدكتور محمد شرف الدين، وتولى إخراجه الفنان عثمان أباظة، ومثله طلاب المعهد، فكان تأثيره على النظارة عجيباً دعا القائمين على شئون الفرقة المصرية أن يفكروا في إخراج هذه الملحمة الجميلة على مسرح دار الأبرا الملكية لتكون أروع إخراجاً وأبرع تمثيلاً وأكمل عدة؛ وهي فكرة موفقة نرجو أن يصاحبها العزم حتى تصل إلى دور التنفيذ.

كلمة أخيرة أيضاً في ضبط الخلاف بين العربية والعامية

قرأت ما كتبه الأستاذ الفاضل عبد الحميد عنتر في العدد (514) من مجلة (الرسالة) الغراء، فوجدته يعتمد في إبطال الاقتراح المقدم إلى المجمع اللغوي في ضبط الخلاف بين العربية والعامية على أنه يخالف الضابط الذي أجمع عليه العلماء منذ 1362 عاماً هجرياً، ويقوم على رأي جديد متطرف لا يعتد به لخروجه على ذلك الإجماع، وما كنت أظن أن مثله يفوته أن صاحب الاقتراح يعرف أن رأيه يخالف ما أجمع عليه العلماء قبله، ولكنه يؤمن مع هذا بما قاله الأول: كم ترك الأول للآخر. وبما قاله الإمام علي رضي الله عنه: لا تكن ممن يعرف الحق بالقائلين له، اعرف الحق تعرف أهله وقد كان إجماع العلماء القدماء على أن العناصر البسيطة أربعة، فلم يمنع هذا مخالفة المتأخرين لهم، وأن يثبتوا أن هذه العناصر الأربعة مركبة لا بسيطة ' وأن العناصر البسيطة لا تحصى ولا تعد. وبعد فإن ذلك الاقتراح ليس فيه إلا مخالفة ذلك الإجماع، ولا شك أن هذا لا يجعله من الاستحالة في شيء.

(. . .)

تراجم المعاصرين

أُثير هذا الرأي في إحدى المجلات المصرية منذ زمن غير بعيد؛ ولقد انشرح صدري لتقبُّل المجلة التي أثير فيها أن تساهم في هذه الغاية بنشر هذا اللون من الأدب المؤرخ. وأيقنتُ أن ذلك سيعود على تاريخ الأدب العربي بفوائد جمة إن يشرع في تحقيقه. ذلك لأن تدوين حياة الأديب الكبير ودراسة أدبه: أفكاره وأسلوبه، في حال حياته، أسهل وأصدق مما لو عُمد إلى ذلك بعد موته. فإن دراسته إذ ذاك تكون أوفى وأقرب إلى الحقيقة.

أقول هذا وبين يديّ الآن العدد الأخير من مجلة (الصباح) الدمشقية (عدد 29 آذار 1943) أطالع فيه دراسة مستفيضة عن الشاعر احمد الصافي النجفي.

حرّر هذا العدد الخاص الأستاذ فؤاد الشائب فاستخلص شخصية الصافي من دواوينه التي أشهرها (الأمواج) و (أشعة ملونة) فتحدث عن حياة الصافي الحر البعيد عن الدنيا، القريب منها، وقدّم لبحثه بهذه الكلمات:

(قرأت في حياته، وقرأت في ديوانه، فلم أجد أحفل منها حياة، ولا أصدق منه كتاباً. . . نغمتان أختان، وصورتان توأمان للنفس البشرية في أعمق شعورها وأصدق حكمتها. . . فلا أدري أيهما كتاب الشاعر، وأيهما حياته. . .)

تكلم الأستاذ الشائب عن خصائص الصافي الشعرية، وعن تحرره وعدم تقيده وإبداعه وعن روحه الشعرية، ودلل على أنه شاعر لا ناظم، ووصف شعره (بالبساطة الحلوة النافذة إلى غرضها بلا عنف أو جهد) وأوضح أنه اقترب أعظم الاقتراب من الإنسانية، وأنه وإن لم يبل الحب ويخبره، فقد بلا الألم وخبره أكبر الخبر، فجاء شعره وليد نفس ثائرة متألمة ملتاعة

نرجو أن نستمع إلى من يحدثنا عن العقاد، والزيات، وطه حسين، واحمد أمين. . . وغيرهم من زعماء الأدب العربي. . .

أما الدكتور المبارك، فلا بأس من أن نستمع إلى من يحدثنا عنه، ولو أنه هو نفسه تحدث كثيراً عن نفسه، وكتب ما ينبغي أن يُكتب عن حياة أديب، بل وأكثر. . .

(بيروت)

سهيل ادريس

تصحيح أجزاء بحر الخفيف

كتب الأديب حسين البشبيشي تحت عنوان شعر منشور بالعدد 514 من قصيدة للأديب مصطفى محمد أن الشطرتين اللتين بين القوسين خطأ، وذلك لأن القصيدة من بحر الخفيف

وقد أصاب في ذلك ولكنه أخطأ في أجزاء البحر حيث قال إن أجزاءه (فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن). والصواب (فاعلاتن مستفع لن فاعلاتن) بالوتد المفروق وهو ما كان ثلاثة أحرف وسطها ساكن. وكم من فرق بين مستفعلن بالوتد المجموع ومستفع لن بالوتد المفروق فقد قال العروضيون هناك فرق بينهما من جهة موقعهما في البحور، ومن جهة الخط، ومن جهة اللفظ، ومن جهة الحكم. أما من جهة الفرق في موقعهما في البحور أن مستفعلن أحد أجزاء البسيط ومخلعه والرجز والسريع والمقتضب. والثاني أحد أجزاء الخفيف والمجتث. والفرق بينهما في الخط أن الأول وهو مستفعلن لا وقف فيه. والثاني يوقف على آخر وتده المفروق. والفرق بينهما في اللفظ أنه يجب صناعة على قارئ الأول ألا يقف على الرابع ليعلم السامع أنه ذو الوتد المجموع بخلاف الثاني فيجب عليه أن يقف ليعلم السامع أنه ذو الوتد المفروق، وأما من جهة الحكم أن الأول يجوز طيه وهو حذف الرابع الساكن بخلاف الثاني فلا يجوز طيه. لهذا كله ولما لهذه الفروق من الأهمية كتبت هذا إعلاناً للحق. وإلى الأديب عاطر التحية وأزكى السلام

(الإسكندرية)

عبد الفضيل يوسف

جماعة نشر الثقافة

تواصل جماعة نشر الثقافة نشاطها الأدبي لتساهم بجهودها في تقوية الحركة الفكرية بالإسكندرية، وستقيم مهرجاناً للربيع بمسرح نادي موظفي الحكومة عند الساعة الخامسة من مساء يوم الاثنين الموافق 24 مايو 1943؛ إذ يشترك الفن والأدب في الاحتفاء بفصل الجمال والحياة.

العدد 516 - بتاريخ: 24 - 05 - 1943

أخطار الطعام الواحد

(رسالة مهداة إلى جار الشجرة الزهراء)

للدكتور زكي مبارك

أكاد أحكم بأن جمال الحياة من صُنع أيدينا، وأن الله لم يجعل الإنسان خليفته في الأرض إلا بعد أن زوّده بالقدرة على تجميل الحياة بأغرب وألطف ألوان التجميل وملكات الإنسان تؤهله للغرور القائم على أساس، فمن حقه أن يزعم أنه يهب الحياة للحياة، وأن يقول في بعض حالات التمرد إنه خالق لا مخلوق

ولن نؤمن بالله حق الإيمان إلا يوم نعرف على وجه التحديد أو التقريب قيمة ما خصنا به من القدرة على تلوين الوجود بأشتات من الألوان

والواقع أن العزة الإلهية دانت الإنسان بديون تعجز عن حملها الجبال. ولا يعاب على الإنسان إلا غفلته عن استثمار ما في صدره وروحه وعقله من كنوز تفوق الذخائر المعروفة والمجهولة في جميع بقاع الأرض. . . هو يملك ثروة معنوية في غاية من النفاسة، ولكنه قد يجهلها بعض الجهل أو كل الجهل فلا يبذل في استكشافها أي مجهود، ولا يؤذيه أن يعيش على الفطرة كما يعيش سائر الحيوان

كل أمة من الخلائق تنقرض بالموت، إلا الأمة الإنسانية، فهي تترك شواهد خوالد على ما قدمت للحياة من أفانين العقل والذوق، وهل كان من المصادفة أن تتفق الديانات على أن البعث بعد الموت مقصور على الأمة الإنسانية؟

وأنا مع هذا أفترض أن البعث لن يكون عاماً، وسأحرص على هذا الافتراض لغاية أخلاقية توضحها السطور الآتية:

يوم البعث هو يوم الحساب، ومعنى ذلك أنه خاص بمن كانت لهم إرادات ذاتية تدرك معاني الثواب والعقاب، ومعناه أيضاً أن الذين مرّت حياتهم بلا إدراك قد يضافون إلى الخلائق المنسية، إن صح هذا الافتراض

ولكن ما هذا التهيب في عرض هذه النظرية؟

هل أخاف من أن يعترض معترض وبيده الأثر الذي يقول: أكثر أهل الجنة هم البُله والمجانين؟

هذا أثر مصنوع، اختلقه واضعه لغاية مدخولة يراد بها صد الناس عن الاحتكام إلى العقل في مختلف المعضلات، وإلا فما قيمة الجنة إذا كان أكثر ساكنيها من قدماء البُله والمجانين؟

مزية الإنسان هي قوة الشعور بالمسئولية، وهذا الشعور قد يسوقه إلى البحث عما في صدره من المكنونات، فإن فعل فقد يصل إلى منافع لا تخطر في البال
الحياة لا تقاس بالطول والعرض، وإنما تقاس بالخصب المعنوي، وهو أطيب الأرزاق، فمن واجبنا أن نزوّد أنفسنا بالكثير من الأزواد العقلية والذوقية عساها تجود بإبراز تلك المكنونات
النفس كنز تحرسه أقفال وأرصاد. وقد تعب الناس منذ أزمان في التعرف إلى كنوز النفوس، بأساليب تختلف باختلاف الأقاليم والإفهام، فأهل الهند يرون الصوم عن الطعام والشراب هو الوسيلة إلى كشف أسرار النفس، وكان بعض فلاسفة اليونان يرون الطعام والشراب من وسائل الوصول إلى أسرار النفس، وفريق من رجال الإسلام يرون النفس لا تتفتح إلا في إعقاب الصلوات عند هدأة الليل
ماذا أريد أن أقول؟
أنا أريد النص بصراحة على أن الرقي الإنساني لم يبدأ إلا بعد التحرر من الطعام الواحد، وذلك لم يقع إلا بعد أن عرف الإنسان كيف ينتقل من أرض إلى أرض. ودليل ذلك أن الأمم القليلة المعارف والقليلة الحيوية هي الأمم التي ألفت الاستقرار في وطنها الأول، لأن الاستقرار يخمد شهوة التطلع، بسبب الركود الذي يصحب توحّد المطعومات والمرئيات
والمعروف أن حواس الطفل أقوى من حواس الكهل، فكيف يكون ذلك؟
قد يقال أن الحواس تضعف مع الزمن، وذلك أسهل التعاليل، ولكني أرجح أن قوة الحواس عند الأطفال ترجع إلى أن كل شيء في نظرهم جديد، فهم يتطلعون إلى كل أفق، ويتشوقون إلى كل مجهول، ولا كذلك حال الكهل الذي ألف ما حواليه من الأشياء، فهو ينظر ويتأمل بفتور وبطء، ثم ينتهي به الأمر إلى تبلد الإحساس
والمعروف أيضاً أن النبوات لا تظهر إلا في البلاد التي يكثر فيها الاعتراك والاقتتال حول المبادئ والآراء، فما كان يمكن لمكة أن تكون مهبط الرسالة الإسلامية لو أنها كانت قرية منعزلة لا تشتبك فيها المنافع، ولا تصطرع فيها العقول. وهل ننسى كيف منّ الله على
قريش برحلة الشتاء والصيف؟
إن تلك الرحلات هيأت القرشيين لما صاروا إليه فيما بعد؛ وفضلُ الإسلام على العرب لا يقتصر على تزويدهم بعقيدة التوحيد، فهالك فضلٌ عظيم، وهو تمكين العرب من الاتصال بأكثر الأمم المعروفة لذلك العهد، وهذا الاتصال خلق في العرب حيويات جديدة، وأيقظ في نفوسهم كثيراً من القوى الغافية، وأمدهم بأزواد عقلية وذوقية لم يعرف مثلها العرب القدماء
والمدنية الإسلامية تمتاز بهذه الميزة، فهي ليست وليدة العقل العربي الصرف، وإنما هي مدنية دولية أخذت زاداً من كل أرض، فقد كان المسلمون إنجليز زمانهم، وكانت لهم مسالك إلى كل بلد عُرفت أرضه بالثمرات
هل تعرفون السر في أن نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام كان يوصي بالزواج من غير القريبات؟
تعليل ذلك سهل: فالتزاوج في البيئة المحصورة ينتهي بضعف النسل، لأن كثرة الألفة تضعف الشهية، ولأن الاكتفاء بالقريبات يضيع فرصة الموارد الجديدة من الطبائع والأذواق.
العاهات الموروثة تكثر في البيئات التي تتزاوج فيما بينها كثرة تنذر بالخطر المبيد. وقد تعرض اليهود لهذا الخطر في الأزمان الخوالي فكثرت فيهم العاهات الحسية والمعنوية، ثم أنقذتهم الحوادث فشردتهم في الأرض ليجدوا أجواء تطب لمرض القرار والاطمئنان
وقد أكثر اليهود من المطالبة بالوطن القومي، وهو عندهم فلسطين، فإن عادوا إليها جميعاً فستكون عودتهم المرموقة نذير انحلال، ومن قال بغير ذلك فهو يجهل خطر الطعام الواحد على الجسوم والعقول
وقد صرخ اليهود لعهد موسى من الطعام الواحد، كما قص علينا القرآن، فأوصاهم موسى بهبوط مصر، لأن مصر منوعة الفواكه والحبوب والبقول، وهذا سر القوة التي جعلت المصريين بمأمن من طغيان الأمراض الفواتك على اختلاف الأجيال

قال العباس بن الأحنف وقد آذاه تقلب محبوبته فوز:
يا فوزُ لم أهجركُم لملالةٍ ... مني ولا لمقال واشٍ حاسد
لكنني جربتكم فوجدتكم ... لا تصبرون على طعام واحد
وقال شاعرٌ آخر:
ومُظهرةٍ لخلق الله ودّاً ... وتلقى بالتحية والسلام
أتيت لقلبها أشكو إليه ... فلم أخلُص إليه من الزحام
أيا من ليس يكفيها محبٌّ ... ولا ألفا محبٍّ كل عام
كأنك من بقية قوم موسى ... فهم لا يصبرون على طعام
وبقليل من التأمل ندرك أن هذين الشاعرين في غفلة عن تلوين العواطف والأحاسيس. وهل يتعلق العاشق بمعشوقته إن أمن عليها الشركاء كل الأمان؟ التعقيد في الميول والأهواء هو سبب الحيوية في الميول والأهواء. ومزية الإنسان أنه منوّع المطاعم والمشارب، فهو يأكل ما تأكل السباع والأنعام والحشرات، وهو لذلك يواجه مكاره الحياة بالقوة المستمدة من تلوين الطعام والشراب. إن مزية الإنسان أنه حيوان عارم لا تصده حدود ولا سدود، وأنه يجد طعامه ولو سكن فوق رءوس الجبال هل سمعتم الوزير الإنجليزي الذي اختبر معدته بالأكلة الهندية، الأكلة المركبة من توابل حِرِّيفة لا يقدر على ابتلاعها غير الهنود؟
كان يقال إن العائلة الإنجليزية إذا استقرت مائة سنة في الهند فستنقرض، لأن جو الهند يخالف جوّ الجزر البريطانية، ثم ظهر أن هذا القول يعوزه الدليل، فقد تأصلت في بلاد الهند عائلات بريطانية ولم تنقرض
والوثائق تحت يدي، فالإنجليزي المقيم في الهند تصل إليه أزواد من كل أرض، فهو هندي الموطن، ولكنه دوليّ الطعام والشراب، وبذلك تأخذ أمعاؤه وقودها المنوع من هنا وهناك
والإنجليزي المقيم في الهند لا يكتفي بقراءة ما تخرج مطابع الهند. وإنما تنتقل إليه المطبوعات الأوربية والأمريكية بأيسر عناء، فيرى وجوه الآراء الغربية قبل أن يرى وجوه الآراء الشرقية، ويعيش بملء روحه وعقله عيشاً لا يعرفه جيرانه من الهنود قلّت أملاك الآساد في الأرض، لأنها أكلة لحوم، وقلت أملاك الغزلان في الأرض، لأنها أكلة أعشاب
هل تعرفون الظباء في حياتها اليومية؟
إنها تتمرن على الجري في كل وقت، لتحسن الفرار من هجوم الآساد، وكان ذلك لأن فطرة
الظباء فطرة غبية، فهي لا تحب غير حياة التوحش والتوحد، وهذه الحياة فرضت عليها الذل، كما فرضته على الآساد. أليس من بلاء الأسد أنه لا يستطيع العيش بأرض خالية من الحيوان، ولو أخرجت أطيب الثمرات؟
واكتفاء أكثر أنواع الحيوان بالطعام الواحد قضى بأن تعيش في ظل الوهم الأول، فهي جميعاً تخاف من النور حين يسطع بالليل. ولو دخل إنسان غابة وحشية وبيده مصباح لأزعج ما فيها من الكواسر والجوارح، لأن تلك الخلائق ترى أن النور قوة سماوية لا أرضية، وأنه لذلك أمضى سلاح
وقد تحرر الكلب من الطعام الواحد بعض التحرر لا كل التحرر، ولهذا ظل على أشياء من المخاوف الحيوانية، فهو ينزعج من الليل أشد الانزعاج، وهو لا يكف عن النباح إن قضى الليل في العراء
والطعام الواحد يؤذي الأرواح، كما يؤذي الأبدان، والعقل يُعطب بالطعام الواحد كما يُعطب الجسم. فمن الواجب أن نزود عقولنا في كل يوم بأزواد مختلفات. ورياضة العقل على تقبل الآراء لا تقل عنفاً عن رياضة الجسم على تناول الطعام الحرّيف لاحظت أن البهائم تميز بين الطيب والخبيث من الأعشاب بدون تعليم، وهل سمعنا أن بهيمة أكلت عشباً ساماً فماتت؟
ولكن هذه الغريزة الهادية من أسباب الانحطاط في طوائف من الحيوان، فيها تنعدم فرص التجاريب، والتجربة خصيصة إنسانية وهي أعظم تمرين لتقوية عضلات العقل، وللعقل عضلات!
ولاحظت أن المواليد الحيوانية تعرف طريقها إلى الحياة منذ ساعة الميلاد، فهي تأكل

وتشرب وتمشي وتلعب من أول يوم
فكيف ضاع هذا الحظ على المواليد الإنسانية؟
وكيف جاز أن يحتاج المولود الآدمي إلى شهور طوال قبل أن يعرف كيفية الوقوف؟
قالت إحدى الجرائد الإنجليزية في وصف الملك فيصل الثاني (هو طفل في غاية من الذكاء ولكن لا تظهر عليه علامات النُّضج المبكّر)
فما معنى العبارة الأخيرة؟ هل ترونها ترمي إلى التهوين من شأن ذلك الطفل؟
لا، إنها غاية في المدح، لأن النضج المبكر ليس علامة حسنة في حيوات الأطفال
الإنسان الجيد كالشجرة الجيدة، يحتاج في تكوينه إلى متاعب، وقد حدثتكم مرة أن الشجر الجيد هو الذي ينمو في بطء وتمهل. وأحدثكم اليوم أن السوس لا يعض غير الخشب المأخوذ من شجر سريع النماء
أقول هذا لأقرر حقيقة طُفتُ حولها عدداً من السنين، ولم أستطع التعبير عنها بوضوح وبيان
تلك الحقيقة هي أن العقل لا يخاف عليه من اصطراع الآراء إلا إذا فاتته فرص التدريب على الاصطراع، وهذه الفرص تفوت العقل إذا اكتفى بالطعام الواحد في المعقولات، كما يتعرض الجسم للخطر إذا اكتفى باللون الواحد في المطعومات
ألم تلاحظوا أن خواطر الشك والريب والإلحاد لا تساور غير المبتدئين؟
إذا رأيت شخصاً يجادل في آيات الله فاعرف أنه طفل، لأن هذا النوع من الجدال مألوف عند الأطفال
وإذا رأيت شخصاً يناقش في أمور فرغ منها الباحثون فاعرف أنه طفل، والطفولة في العقول قد تطول في حياة بعض الناس!
أما بعد فما الذي أوحى هذه الأفكار بهذا الأسلوب؟
أوحاها ضيفٌ رحل إلى غير معاد، وما أصعب فراق الضيف المحبوب إلى غير مَعاد!
موضوع المقال هو الصفحات الآتية، أما الصفحات الماضية فقد أنشأتها على سبيل التمهيد، على قلة ما أصنع في تحرير المقال على دفعات
وسأترك الصفحات الآتية على ما كانت عليه في الوضع الأول، لأني أخشى أن يصيبها التزييف بالتعديل
وفي ترجمة خبرك، أيها المفارق إلى غير معاد، أسوق الحديث:
في جنح الليلة الماضية مات العصفور. وفي صبيحة اليوم دفناه في حديقة البيت بجوار شجرة زهراء، ضنّا على جسمه اللطيف بأن يكون طعمه لفرد من الحيوان أو لطائفة من النمل، إن ألقينا به في الصحراء. . . فما تاريخ ذلك العصفور الصريع؟
كان هدية من صديق راقه ما كتبت في خصائص الطير والحيوان، يوم كنت أنشر بمجلة الرسالة قصة آدم وحواء، هدية لطيفة من صديق عُرف أهله بلطافة الأذواق
دخل العصفور المنزل بعد الغروب، وهو يغفو بعد الغروب، ولكنه استيقظ حين بهره نور الكهرباء، فتلفّت حواليه تلفّت المتأمل، عساه يتعرف إلى مأواه الجديد
وانتظر الأطفال تغريده في الصباح، وكانوا سمعوا أنه يستقبل الصباح بالتغريد، ولكنه آثر الصمت، كما يصمت كل غريب!
وبعد يومين بدأ يرسل تغاريده بقوة أغنت الأطفال عن صلصلة (المُنبّه) وحببت إليهم انتظار تباشير الصباح
كانت حياة هذا العصفور في طعامه عجباً من العَجب، كان طعامه حبّات تُشبه حبات البرسيم، ومع هذا كان يقزقزها قزقزة غريبة فيفصل القشور عن اللباب في لمحات وهو يتناول الغداء، وكانت هذه المهارة من طرائف ما ترى العيون. . .
كان مُقامه في مدخل البيت، وهو مكان يواجه هواء الشمال، ويشعر من يقيم فيه بقسوة الشتاء، فاقترحت أن يقيم ساعتين من كل صبُحيه بشرفة الغرفة الشرقية، وهي مأوى في الشتاء
فرح العصفور بالشمس فغرّد وغرّد، والتفتُ فرأيت جماعة من العصافير تحيط بالقفص لتستمع بالحفلة الموسيقية، الحفلة التي تُقدم كل صباح بالمجان!
عند ذلك أشرت بأن يبقى العصفور في تلك الشرفة ساعات من كل يوم، إكراماً لهذه العصافير المرهفة الأحاسيس!
ثم وقع ما لم يكن في الحسبان، فقد سُمع صراخ العصفور، سُمع من الدور الأول وهو

يصرخ بشرفة في الدور الثاني، مع أن التليفون لا يسمع في الدور الأول إلا بتوصيله كهربائية تمنح التليفون لقب الهتّاف
أسرعت الروح التي تهيمن على البيت لتعرف سبب الصراخ فرأت صقراً بسط جناحيه على قفص العصفور، وأخذ ينقره من جانب إلى جانب، والعصفور يعلو ويهبط في ذهول، فلطمت الصقر لطمة قهرته على الفرار، ثم أنزلت العصفور إلى مكانه بالدور الأول، بعد أن ترك الصقر برأسه جرحاً صار في صورة (الشوشة) التي تزدان بها رءوس بعض الشبان
بدا لي بعد ذلك أن أقيم العصفور في الشرفة لحظات من كل صباح وأنا أتهيأ للخروج، لعل الصقر يدنو فأصطاده، وأنا مولع باصطياد الصقور والنسور، ولكن الصقر كان أمكر مني فقد كان يقف من بعد، ثم ينصرف حين يعرف ما أريد
قلت لأبنائي: إن الصقر لن ييأس، وهو يتحرق شوقاً إلى لحم العصفور المغرد، وفي هذه المنارة لوح من الزجاج حطمه رصاص المدافع أيام الغارات الجوية، فانتظروا نزول الصقر من هذا المكان لتصطادوه، إن اجترأ على النزول
ثم كانت العجيبة الآتية:
جاء عيد الفصح، ومضى أبنائي إلى سنتريس، لشهدوا مطلع الربيع في الحديقة التي تنتظر قدومهم في كل صباح، الحديقة التي أعدّ أشجارها من أبنائي
ونظرت فرأيتني في البيت وحدي، ورأيت العصفور في إملاق، فلم يكن أمامه غير حبات لا تدفع غوائل الجوع، وهو أضعف من أن يحتمل الجوع
مضيت إلى دار ابني الأكبر أستشيره فيما أصنع، وكان العصفور غرّد بعد الغروب، وهو لا يغرِّد بعد الغروب إلا في توسل الملهوف
وخرجنا فطوفنا بشوارع مصر الجديدة وبعض شوارع العباسية فلم نجد طعام العصفور في أي مكان
وبعد متاعب وجدنا نوعاً من السمسم يصلح لاقتيات العصافير، فيما قيل
أقبل العصفور على السمسم يلتهمه بلا احتراس، ليأمن غائلة الجوع، ألم أكن أقدم إليه أغصاناً يابسة فينقرها بشهية لأنها تذكره بعهد أجداده في حضانة الغابات؟
ولكن نشاط العصفور أخذ يضعف من يوم إلى يوم، وانتهى الأمر بموته في جنح الليلة الماضية، فما العبرة من ذلك الموت، ولكل موتٍ عبرة؟
أماته الاكتفاء بالطعام الواحد، والطعام الواحد يميت الجسوم والعقول
الآن عرفت كيف كان يغرّد بأسلوب رتيب لا يعرف تلوين الألحان
الآن عرفت كيف تقترب طرائق الصوت عند أكثر صنوف الحيوان، فما كان ذلك إلا لأن كل أمة حيوانية لها طعام واحد، ولو بَعُد ما بينها بعد الشمال من الجنوب
الآن عرفت كيف امتاز الإنسان باختلاف الألوان في الملامح والطبائع والأصوات، وكيف يختلف رجل عن رجل وأمة عن أمة في طرائق التعبير عن المعاني
تلوين الطعام يلون الأهداف والأغراض والآراء والأهواء
وذلك كنز وصلت مفاتيحه إلى بعض الشعوب فهي تُلقي بأبنائها في مجاهل الشرق والغرب، لترتاض أمعاؤهم على الحياة، ولو فوق متون البراكين
كم تمنيت أن أعيش أياماً في سفح فيزوف، وكان يستهويني حين تمر عليه الباخرة بالليل. . . ولكن لا بأس، فقد أمتعتني الحياة بصنوف من المضجرات والمزعجات والأحابيل.
هل يمر يوم بلا متاعب على من يمتشق القلم في كل يوم؟
زكي مبارك
العقيدة الدينية وطريق ثبوتها
للأستاذ محمود شلتوت
التكاليف علمية وعملية - العقائد - طريق ثبوتها - النظريات الخلافية الاجتهاد فيما لا قاطع فيه يمنع التأثيم - أثر التعصب المذهبي - تطبيق
قال العلماء: إن للإنسان قوتين؛ إحداهما نظرية، وكمالها في معرفة الحقائق على ما هي عليه؛ والأخرى عملية، وكمالها في القيام بما ينبغي من الشئون في الحياة. وقد قرر الإسلام هذا المبدأ أساساً لسعادة الإنسان في الدنيا والآخرة فجاءت تكاليفه نوعين: منها ما يطلب علماً، ومنها ما يطلب عملاً. ونرى ذلك واضحاً جلياً في هذه

الكثرة من الآيات القرآنية التي تجمع بين الإيمان والعمل وتربط بهما النجاة والسعادة: (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة)، (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً). (والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات). . . الخ.

وقد اصطلح العلماء على تسمية التكاليف التي تطلب علماً (بالعقائد) أو (أصول الدين) كما اصطلحوا على تسمية التكاليف التي تطلب عملاً (بالشريعة) أو (الفروع)

ولما كانت الحقائق التي يمكن أن يعلمها الإنسان كثيرة، وكان أكثرها لا يتصل من قريب بالسعادة التي يقصدها الشارع قضت الحكمة أن يبيِّن للناس ما يجب عليهم أن يؤمنوا به في سبيل الحصول على تلك السعادة. وذلك عند التحقيق يرجع إلى الأصول التي اشتركت فيها الأديان السماوية جميعها من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. . . الخ

حدد الشارع هذه الأمور، وطلب من الناس الإيمان بها. والإيمان هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع عن دليل. ومن الواضح أن هذا الاعتقاد لا يحصله كل ما يسمى دليلاً، وإنما يحصله الدليل القطعي الذي لا تعتريه شبهة

وقد اتفق العلماء على أن الدليل العقلي الذي سلمت مقدماته، وانتهت في أحكامها إلى الحس أو الضرورة يفيد ذلك اليقين ويحقق الإيمان المطلوب

أما الأدلة النقلية فقد ذهب كثير من العلماء إلى إنها لا تفيد اليقين ولا تحصل الإيمان المطلوب، ولا تثبت بها وحدها عقيدة. قالوا: وذلك لأنها مجال واسع لاحتمالات كثيرة تحول دون هذا الإثبات. والذين ذهبوا إلى أن الدليل النقلي يفيد اليقين ويثبت العقيدة شرطوا فيه أن يكون قطعياً في وروده، قطعياً في دلالته. ومعنى كونه قطعياً في وروده ألا يكون هناك أي شبهة في ثبوته عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وذلك إنما يكون في المتواتر فقط. ومعنى كونه قطعياً في دلالته أن يكون نصاً محكماً في معناه، وذلك إنما يكون فيما لا يحتمل التأويل. فإذا كان الدليل النقلي بهذه المثابة أفاد اليقين وصلح لأن تثبت به العقيدة. وأمثلة ذلك فيما ورد إلينا آيات القرآن التي تحدثت عن التوحيد والرسالة واليوم الآخر وما إلى ذلك من أصول الدين؛ فقد جاءت - كما هي قطعية في ورودها - قطعية في دلالتها، لا تحتمل أكثر من معناها: (فاعلم أنه لا إله إلا الله). (قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد). (قل بلى وربي لتبعثن). (قل يحيها الذي أنشأها أول مرة). (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله). (ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين)

هذا هو شأن العقائد وطريق ثبوتها. ولا بد أن يعم العلم بها جميع الناس ولا يختص بطائفة دون أخرى، لأنها أساس الدين وبها يكون المرء مؤمناً فكيف يتصور في مؤمن أن يجهلها؟ ومن مقتضيات هذا العلم العام بها ألا يقع خلاف بين العلماء في ثبوتها أو نفيها

ومن هنا نستطيع أن نقرر أن العمليات التي لم ترد بطريق قطعي، أو وردت عن طريق قطعي ولكن لابسها احتمال في الدلالة فاختلف فيها العلماء، ليست من العقائد التي يكلفنا بها الدين، والتي تعتبر حدّاً فاصلاً بين الذين يؤمنون والذين لا يؤمنون!.

وإنك لتجد كثيراً من هذا النوع في كتب التوحيد إلى جانب العقائد التي كلفنا الله أن نؤمن بها، فهي تذكر إلى جانب وجود الله ووحدانيته والرسل واليوم الآخر مسائل: رؤية الله بالأبصار، وزيادة الصفات على الذات، ومرتكب الكبيرة، وما يكون آخر الزمان من ظهور المهدي والدجال والدابة والدخان ونزول عيسى وما إلى ذلك مما يذكر في مثل (خريدة الدردير) و (جوهرة اللقاني) وغيرهما

والتاريخ العلمي يدل على أن هذه مسائل جر إليها البحث في العقائد حين تعددت الفرق وكثرت الآراء والمذاهب الكلامية، فكانت محل اجتهاد بين العلماء كل يرى رأيه فيها، ويدلي بحجته على ما يرى ملتمساً الوصول إلى ما يلائم في نظره العقيدة المتفق عليها

وأمثلة ذلك كثيرة، منها أن المسلمين جميعاً قد اتفقوا على أن الله تعالى منزه عن كل نقص، متصف بكل كمال. فهذه عقيدة قاطعة يعلمها كل مؤمن ولا يختلف فيها عالم مع عالم، ولكن البحث جر إلى مسائل تتصل بها: هل يجب على الله أن يفعل الأصلح

لعباده؟ هل العبد خالق لأفعال نفسه الاختيارية؟ هل المعاصي التي يفعلها العباد مرادة لله؟ فاختلف العلماء في هذه المسائل: رأى المعتزلة أن ترك الأصلح، وتعذيب العبد على شيء لم يفعله، وإرادة القبيح، نقص لا يليق بجلال الله وكماله فذهبوا إلى وجوب الأصلح على الله، وإلى أن العبد خالق لأفعال نفسه، وإلى انه لا يريد المعاصي. ورأى غيرهم أن إيجاب شيء على الله، وعجزه عن خلق ما يفعله العبد، وحصول ما لا يريد في ملكه، نقص لا يليق بجلال الله وكماله فذهبوا إلى أن الله لا يجب عليه فعل الأصلح، وإلى أنه خالق أفعال العباد، وإلى أنه يريد المعاصي. فأنت ترى أن هؤلاء جميعاً لم يختلفوا في الأصل الذي كلفنا الله الإيمان به وهو تنزيه الله تعالى عن النقص ووصفه بالكمال، ولكنهم اختلفوا في أشياء: هل هي نقص فلا يتصف الله بها، اوليست بنقص فيتصف بها، وقد ذكرت كتب التوحيد ما اتفقوا عليه وما اختلفوا فيه، وأوردت الأدلة النقلية التي استدل بها كلٌ على ما يرى.

على هذا النحو جرى الخلاف بين الفرق الإسلامية في المسائل التي جر إليها البحث في العقائد، وهو خلاف كخلاف الفقهاء في أحكام الفروع التي لم يرد فيها نص قاطع محكم. خلاف لا يصح أن يُرمى أحد فيه بأنه حاد عن الصراط المستقيم، أو ضل، أو فسق، أو أنكر مسألة من مسائل الدين. . . الخ ولكن عصور التعصب المذهبي العنيف حملت للمسلمين تراثاً بغيضاً من التراشق بالتهم، والترامي بالفسوق والضلال، فتبادل الفقهاء أصحاب الفروع نوعاً من التهم، وتبادل المتكلمون أصحاب العقائد مثل ذلك، وتلقف المخدوعون من الخلف هذه التهم وملأوا بها كتبهم، وأسرفوا في الاعتداد بها حتى جعلوها مقياس ما يقبل من الآراء أو يرفض

من هذا كله يتضح:

1 - أنه لا بد في العقيدة من أن يكون دليلها قطعياً في وروده وفي دلالته

2 - وأن ما لم يكن دليله قطعياً، فاختلف فيه العلماء، لا يصح أن يعد من العقائد، ولا أن يكون رأيُ طائفة معينة فيه هو الحق دون سواه

3 - وأن كتب التوحيد لم تقتصر على ذكر العقائد التي كلفنا الشارع بها، وإنما ذكرت بجانبها بعض النظريات العلمية التي تعارضت فيها ظواهر النصوص فكانت محل اجتهاد بين العلماء ونتيجة هذه كله: أن القول بأن كذا عقيدة يجب الإيمان بها لأن ظاهر الآية أو المروي من الحديث يدل عليه، أو لأنه رأي أهل السنة والجماعة مثلاً، أو لأنه مذكور في كتب التوحيد. كل ذلك قول من لا يفهم معنى (العقيدة) ولا يعرف أساسها الذي تبنى عليه.

لاشك أن هذه المبادئ التي ذكرنا تنير سبيل البحث لمن يريد معرفة الحق فيما هو من العقائد وما ليس منها، وهي مبادئ مسلمة عند العلماء يعرف كل مطلع على كتبهم ومناقشاتهم أنه لا نزاع فيها. وعلى ضوء هذه المبادئ نستقبل قول الذين زعموا (أن رفع عيسى ونزوله آخر الزمان ثابتان بالكتاب والسنة والإجماع) ولنا في ذلك نظرات ثلاث: نظرة فيما ذكروا من آيات، ونظرة فيما ساقوا من أحاديث، والنظرة الثالثة فيما ادعوا في هذا المقام من إجماع

فأما الآيات التي تذكر في هذا الشأن فنحن نرجعها إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: آيات تذكر وفاة عيسى ورفعه، وتدل بظاهرها على أن الوفاة قد وقعت، وهذه الآيات هي:

1 - قوله تعالى في سورة آل عمران (إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليّ)

2 - قوله تعالى في سورة النساء: (وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم) إلى قوله: (وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه)

3 - قوله تعالى في سورة المائدة (فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم)

وقد تناولنا هذه الآيات في الفتوى ودرسناها دراسة علمية واضحة، وعرضنا إلى آراء المفسرين فيها، وبينا أنه ليس فيها دليل قاطع على أن عيسى رفع بجسمه إلى السماء، بل هي - على الرغم مما يراه بعض المفسرين - ظاهرة بمجموعها في أن عيسى قد توفى لأجله، وأن الله رفع مكانته حين عصمه منهم، وصانه وطهره من مكرهم. ولسنا في حاجة إلى أن نعيد شيئاً مما ذكرناه

النوع الثاني: آيات ما كان ليخطر بالبال أن لها صلة بموضوع البحث، فلذا لم نفكر فيها،
وحسبنا الآن أن نمثل لهذا النوع بما قال أحدهم:
ولك أن تضم إلى ما ذكرناه قوله تعالى عنه عليه السلام (وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين)ـ ففي قوله (ومن المقربين) إشارة إلى رفعه إلى محل الملائكة المقربين)
والشيخ يريد السماء طبعاً، وهو ليٌّ للكتاب غريب، فقد وردت كلمة (المقربين) في غير موضع من القرآن الكريم: (والسابقون السابقون أولئك المقربون). (فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم). (عيناً يشرب بها المقربون) وإذن فليس عيسى وحده هو الذي يعيش بجسمه في السماء، بل معه أفواج من عباد الله يعيشون فيها ويزداد عددهم يوماً بعد يوم. وهكذا فليكن المنطق!
ثم يقول: (بل في قوله تعالى (وجيهاً في الدنيا والآخرة) إشارة إلى ذلك، لأن الوجيه بمعنى ذي الجاه، ولا أدل على كونه ذا جاه في الدنيا من رفعه إلى السماء)
وهذا كلام لا يقال، فإن وجاهة عيسى في الدنيا هي الرسالة المؤيدة بالمعجزات البينات (ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ورسولاً إلى بني إسرائيل: أنى قد جئتكم بآية من ربكم) فكيف تذكر بجانب هذه الوجاهة قصة الرفع إلى السماء التي يرغمون هذه الآية على إفادتها أو الإشارة إليها؟ وكيف يكون وجيهاً في الدنيا من غادر الأرض وترك أهلها الذين يحسون وجاهته؟ وهكذا ينتزع القوم من كل عبارة إشارة أو تلميحاً ليؤيدوا ما زعموا أنه عقيدة يكفر منكرها؟
النوع الثالث: آيتان قد اختلفت آراء المفسرين في بيان المراد منهما، وجاء في بعض ما قيل أنهما تدلان على نزول عيسى وهما:
1 - قوله تعالى في سورة النساء: (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته)
2 - وقوله تعالى في سورة الزخرف: (وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها)
ولا نحب أن يطيل اليوم على القراء بالبحث في هاتين الآيتين وبيان درجتهما في الدلالة على ما زعموا، فليكن ذلك في حديثنا المقبل إن شاء الله.

محمود شلتوت
عضو جماعة كبار العلماء

أدباؤنا والمسرح

للأستاذ دريني خشبة

أخذنا على مجلاتنا الممتازة، في كلمة سابقة، انقطاع الصلة بينها وبين الفنون المصرية الحديثة، وأكبر مظاهرها المسرح والسينما والغناء والموسيقا؛ ونريد في هذه الكلمة بحث العلل التي تصرف كبار أدبائنا عن التأليف أو محاولة التأليف، للمسرح المصري والملاحظ في مصر اليوم تلك الحركة الطيبة في كتابة القصة، وإقبال القراء على القصة المصرية ذلك الإقبال الكبير المشجع الذي أوشك أن يكون منافساً خطراً لقراء القصة المترجمة. ولدينا ولله الحمد عدد لا بأس به من كتاب القصة المصرية الشائقة التي لا تقل رونقاً ولا بهاء عن القصة الأجنبية وإن لم تبلغ مرتبتها بعد في الطول ولا في التماسك ولا في الصبر على معالجة الأدواء الاجتماعية. . ولا بأس من أن نسجل هنا أن جل كتابنا، إن لم يكن كلهم، أميل إلى كتابة الأقصوصة منهم إلى تأليف القصة، وقد بلغ بعضهم في ذلك حد الكمال، وهو ما يفخر به الأدب المصري الحديث
وقد يحار الإنسان في انصراف أدبنا هؤلاء عن التأليف المسرحي، وإمداد المسرح المصري بما يفتقر إليه من المسرحيات التي تساعده في شق طريقه بين مسارح العالم الناجحة المحترمة. ولعلنا سائرون في نهضتنا الأدبية الحديثة في مثل الطريق التي سار فيها الأدب الإنجليزي خاصة والآداب الأوروبية على العموم؛ فلقد لاحظ مؤرخو الأدب الإنجليزي أنه لم يتفق أن ازدهرت القصة إلى جانب ازدهار الدرامة في عصر ما من عصور هذا الأدب، ففي عصر إليزابث مثلاً كانت الدرامة هي التي تحتل المقام الأول في إنجلترا، بينما كانت القصة متخلفة نوعا ما. أما في العصر الفكتوري، فقد حدث العكس، إذ ازدهر أدب القصة، وغاض أو كاد يغيض الأدب المسرحي، حتى رد إليه برنارد شو وسير جيمس باري، وطائفة أخرى من الكتاب المسرحيين شبابه الذي ولى، ويتنبأ بعض مؤرخي هذا الأدب أن نهضة التأليف المسرحي الحديثة التي

بدأها شو ونفخ فيها باري وجولزورثي وموجهام وكوارد، ومن إليهم دورة من هذه الدورات في تاريخ الدرامة والقصة، تلك الدورات التي تجري إحداها في إثر سابقتها حتى إذا حلت محلها لم تلبث أن تخلي لها الطريق ردحاً من الزمن لتعود إلى مسرح الحياة مرة أخرى، وهكذا دواليك. . .

ويعللون ذلك بروح العصر أولاً، وبما كان من تحريم التمثيل وإغلاق جميع المسارح الإنجليزية خلال الحروب الأهلية ثانياً؛ لكنهم لم يعللوه قط بكسل الأدباء، أو تكاسلهم، أو ازدرائهم للمسرح كما يخيل للإنسان أن يعلل كساد الإنتاج المسرحي عندنا، وتراخي كبار الكتاب في مصر في مد المسرح بما هو جد محتاج إليه من الدرامات بأنواعها. . .

وبعد، فلنكن صرحاء في تعليل عقمنا في الإنتاج المسرحي، هذا العقم الذي يضع أدبنا في مؤخرة آداب العالم بالرغم من تقدم فن القصة المصرية الذي لا يسع المنصف إلا أن يعترف به

فأول أسباب ذلك العقم هو تأخر الترجمة في مصر، وضآلة النقل الفني المسرحي، إن لم نقل انعدامه. . . ويحار الإنسان على من تقع جريرة تأخر الترجمة وضآلة النقل الفني المسرحي؟! أتقع جريرة ذلك على الأدباء المصريين ذوي الثقافة الأجنبية والبصر بمختلف آداب العالم! أم تقع على كلية الآداب المصرية؟ أم تقع على وزارة المعارف العمومية وإدارة الترجمة بها؟ أم تقع على دور النشر ولجان الترجمة والتأليف؟ أم تقع على أغنيائنا الذين يصمون آذانهم عن الحركات الأدبية في مصر؟ أم تقع على أمرائنا الذين لا يشملون بالرعاية (مساكين الأدباء) كما كان يصنع أمراء أوروبا في عصر النهضة؟

1 - على من تقع جريرة تأخر الترجمة في مصر؟ لا جرم أن شطراً كبيراً من تلك الجريرة يقع على عاتق الأدباء المصريين الذين لهم دراية كاملة بالتيارات الأدبية الحديثة في العالم كله. . . فأولئك الأدباء - وهم كثيرون جداً والحمد لله - يعلمون مما درسوا من آداب الأمم المختلفة أن لابد لكل نهضة أدبية في مدارج ارتقائها الأولى من لقاح أجنبي تستفيد به، وينير لها السبيل إلى الكمال، ويوقيها الوقوع في التجارب الفاشلة التي مرت بها الأمم الأخرى - وهم يعلمون كذلك أن الأمة التي لا مسرح لها لا أدب لها، مهما كثر عندها كتاب المقالات ومؤرخو الأدب العربي وناظمو القصائد والموشحات، فالمسرح اليوم عند جميع الأمم، وكما كان في معظم العصور، هو المظهر الأول من مظاهر النشاط الأولي عند أي شعب من الشعوب، وقد أسلفنا القول في كلمة سابقة أن نصف، أو ثلاثة أرباع الآداب العالمية هو أدب مسرحي صرف. فإذا كان الأمر كذلك، فإلى متى يا ترى نظل بأدبنا الحديث في مؤخرة آداب العالم؟. . . ليس معقولاً ولا مقبولاً أن يماري أحد في قيمة المسرح ومساسه بالتربية الشعبية، ومجرد المماراة في ذلك ضرب من الجنون أو النقص الذهني لا يليق بأمة ناهضة طامحة إلى الكمال. . . فلماذا لا يترجم كبار كتابنا مع ما لهم من الإلمام باللغات الأجنبية؟. . . إن الذي له دراية بأية لغة أوربية من اللغات الكبيرة يستطيع أن يقرأ روائع الآداب العالمية منقولة إلى تلك اللغة نقلاً يشبه الأصل إن لم يفقه جمالاً وروعة. . . فمتى يستطيع القارئ العربي الاطلاع على روائع آداب العالم منقولة إلى اللغة العربية؟ متى يستطيع أدباء الأزهر ودار العلوم وطلاب الثقافة العامة من جمهور القراء الاتصال بالأذهان العالية دون أن يتجشموا تعلم اللغات الأجنبية؟ متى يستطيع المسرحيون في مصر الاطلاع على تاريخ المسارح العالمية وروائعها وتراجم أبطالها، ومعظمهم على ما نعرف من الأمية والعجز والفقر الأدبي والثقافي؟. . . ثم ماذا يمنع كبار أدبائنا من الترجمة وأنا أعرف منهم أربعين أو خمسين على الأقل يستطيع الواحد منهم أن ينقل إلى العربية ثلاث مسرحيات كل عام على أن يشغل كل يوم ساعة، فإذا انتهى العام قدموا للقارئ العربي وللمسرح المصري مائة أو مائة وخمسين من روائع درامات العالم. فماذا تكون هذه الثروة الأدبية يا ترى؟ وماذا يكون أثرها في خلق النهضة المسرحية وتوجيهها في مصر؟. . . وأعود إلى التساؤل عما يمنع هؤلاء الأدباء الكبار من الترجمة؟ إني أجلهم عن أن يكون ما يحول بينهم وبين ذلك هو الكسل، أو التعلل بالعوامل المثبطة التي سنتناولها فيما بعد!

2 - أما نصيب كلية الآداب من جريرة تأخر الترجمة في مصر فهو كبير بلا شك، وإن كان في رأيي في المرتبة الثالثة أو الرابعة بعد نصيب الكبار من أدبائنا. فخريجو كلية

الآداب ولا سيما خريجو أقسام اللغات الأجنبية. ما يزالون قلة في مثقفي هذه الأمة، ولست أريد أن أنتقص من أقدار هؤلاء الخريجين حين أقرر أن معظمهم ضعاف أشد الضعف في اللغة العربية، وأن كثيرين منهم - إن لم يكن أكثرهم - ينصرفون عن القراءة وإدمان المطالعة والاتصال بما أخرجته المطابع الأوربية، وما تزال تخرجه من روائع الأدب، والأدب المسرحي بوجه خاص. على أن كثيرين من هؤلاء الخريجين يجيدون أكثر من لغة أجنبية، كما يجيدون العربية إجادة تامة، فماذا يمنع هؤلاء من النقل المسرحي إلى اللغة العربية؟ إنهم أعرف من جمهور القراء بما نقوله هنا عن المسرح والأدب المسرحي، فهل الذي يحول بينهم وبين هذا العمل هو نفسه ما يحول بين كبار الأدباء في مصر وبين المسرح والدرامة المسرحية؟ على أننا نعفي من ذلك هيئة خريجي قسم اللغة الإنجليزية التي تنفي عن نفسها تهمة الكسل بما تقدمه لنا أحياناً من إذاعات تمثيلية جيدة وإن تكن مقتضبة. . .

3 - أما جريرة وزارة المعارف في تأخر الترجمة فهي بلا شك أعظم شأناً من جريرة كبار الأدباء ومن جريرة كلية الآداب؛ ومن المؤلم جداً أن يكون ذلك كذلك، وفي وزارة المعارف إدارة للترجمة يرأسها مدير مجد صبور على العمل، ويشرف عليها رجل ارتبطت به نهضتنا الأدبية الحديثة إلى حد بعيد، وكان من حسن حظ هذه النهضة أن يتزعمها من نحو عشرين عاماً. . . ذلك هو عميد الأدب العربي، ومؤلف (مستقبل الثقافة في مصر) ومستشار وزارة المعارف الفني. وقد يخيل لي أن الكلام هنا لابد أن يكون شائكاً لأنه يتناول الإدارة التي أعمل فيها منذ عهد قريب، ولذلك أعتذر مقدماً عن صراحتي التي جرّت عليّ كل مصائبي في هذه الحياة، لأني إن لم أكن صريحاً في الكلام عن هذه الإدارة فماذا أكون؟ إن إلواء الكلام لم يكن قط من سجاياي، وإن كان - قبحه الله - من أحسن فضائل العصر الحديث! وقبل أن أخوض في نقد المنوال الذي تسير عليه إدارتنا المحترمة أنقل للقراء ما يأتي من كتاب (مستقبل الثقافة في مصر) الذي ألفه الدكتور طه حسين بك. قال حضرته في الفصل الثالث والخمسين (جـ 2 - ص 496 وما بعدها): (وفي حياتنا العقلية تقصير معيب يصيبنا منه كثير من الخزي كما يصيبنا كثير من الجهل وما يستتبعه الجهل من الشر. ولا بد من إصلاحه إن كنا نريد أن ننصح لأنفسنا ونعيش عيشة الأمم الراقية. وإن كنا نريد أن ننصح للعلم نفسه ونشارك في ترقيته وتنميته. وإن كنا نريد أن ننصح للشعب فنخرجه من الجهل إلى المعرفة، ومن الخمود والجمود إلى النشاط والإنتاج. ومظهر هذا التقصير المخزي إهمالنا الشنيع للترجمة والنقل عن اللغات الأوروبية الحية. . . إلى أن يقول. . . ونحن من غير شك أقل الأمم حظاً من الترجمة، وأقلها علماً لا أقول بدقائق الحياة العقلية الأوربية بل أقول بأيسر مظاهرها. . . وينشأ عن هذا أننا لا نترجم؛ وكيف نترجم إذا كنا لا نقرأ؟ وكيف نقرأ إذا كنا لم نثقف هذه الثقافة التي تجعل القراءة جزءاً مقوماً لحياتنا اليومية؟ وينشأ عن هذا خطر عظيم جداً وهو أن القارئين الكاتبين منا على قلتهم يجهلون الحضارة الحديثة جهلاً تاماً، لأن كثرة هؤلاء القارئين الكاتبين يجهلون اللغات الأجنبية جهلاً تاماً، ولأننا لا نترجم لها إلى اللغة العربية مالا تستطيع أن تقرأه في اللغات الأجنبية. . . ثم يقول. . . وقد قلنا غير مرة في غير هذا الحديث أن من غير المعقول أن تكلف كثرة القارئين الكاتبين في أمة من الأمم إتقان اللغات الأجنبية؛ فلا بد من أن تنتقل لها خلاصة هذه اللغات إلى لغتها العربية. ذلك حق لها على الدولة، وهو حق لها على المثقفين القادرين على الترجمة. . . إلى أن يقول: فلنترجم إذن ولنكثر من الترجمة، ولنبذل في ذلك أقصى ما نملك من الجهد وأكثر ما نستطيع من المال. وعلى الدولة المسكينة يقع هذا العبء كما يقع عليها كثير من الأعباء وقتاً طويلاً، لأن ظروف الحياة المصرية تقتضي ذلك وتفرضه فرضاً. وإذا كانت وزارة المعارف تمنح الإعانات لكثير من الجماعات والهيئات التي يُشك في نفعها، فلا أقل من أن تنشئ مكتباً للترجمة على أن يكون عمله منوعاً بعض الشيء، فينهض بنقل الآثار الأدبية والعلمية والفلسفية الخالدة التي أصبحت تراثاً للإنسانية كلها والتي لا يجوز للغة حية أن تخلو منها. يترجم هذه الآثار لأغناء اللغة نفسها ومنحها ما تحتاج إليه من المرونة، ولإرضاء الكرامة القومية. . . ثم يقول. . . وواضح جداً أن هذا المكتب لن يستطيع وحده أن ينهض بهذه الأعباء الثقال، فلا بد من تشجيع المترجمين

(وإغرائهم بالمال. . . الخ
وليس يخامرني شك في أن الدكتور طه هو أقدر الناس في التعليق على هذا الكلام الحماسي عن الترجمة ومكتب الترجمة الآن، فقد عبر، عندما كان يؤلف كتابه، عن أماني مصر والمصريين وعن حاجة النهضة المصرية إلى هذه الثقافة التي تعتمد - أول ما تعتمد على شيء على الترجمة، وعبّر عن حاجة اللغة إلى ما يغنيها حين ينقل إليها من اللغات الأجنبية ويكسبها المرونة اللازمة لها. . . ثم هو قد رسم المنهاج لمكتب الترجمة الذي هو ضرورة الضرورات لمد النهضة واللغة وجماهير المثقفين والقارئين الكاتبين بروائع الآداب العالمية وإن لم يستطع وحده أن يضطلع بهذا العمل. . . وها هي الأيام قد دارت ووقع اختيار الدولة على الأستاذ الدكتور ليكون مستشارها الفني في تطبيق برنامجه الحافل الذي رسمه في كتابه الجليل. . . والدولة - والله المحمود - سخية أعظم السخاء على جميع المشروعات الحيوية هذه الأيام، وقد بلغت ميزانيتها من الضخامة هذا العام مبلغاً لم
تعرفه من قبل، فماذا صنع الدكتور لمكتب الترجمة؟ هل نال هذا المكتب بعض ما تناله قنطرة أو مصرف أو تطهير ترعة أو مدرسة إلزامية ولا أقول ابتدائية أو ثانوية؟ وهل أصبح هذا المكتب - الذي هو ضرورة الضرورات لنهضتنا الثقافية - من الأشياء التي لا نفكر فيها إلا ذلك التفكير الخلفي؟ وبهذه السرعة ننسى الأحلام التي يزخرفها لنا الخيال ونحن نؤلف؟ وهل يستطيع هذا المكتب ولما يبلغ أعضاؤه العشرة، أن يؤدي للنهضة حقوقها عليه؟ وهل العمل الذي فرض على هذا المكتب، والذي لن ينتهي في أقل من عشر سنوات هو من قبيل التنويع الذي أشار إليه الدكتور للنهوض بنقل الآثار الأدبية والعلمية والفلسفية الخالدة؟ وأخشى أن يكون الدكتور قد نسي تلك المثل العليا التي كان يغازلها خياله الخصب وهو يكتب فصوله الشائقة عن الأدب والأدباء والترجمة والمترجمين والتمثيل والممثلين في كتابه الجليل. لقد كان الأجدر بإدارة الترجمة أن تكون شيئاً آخر غير هذا الشيء الذي لن تشعر به الأمة إلا بعد عشرات السنين. . . لماذا نفرغ إلى هذا العمل البطيء السلحفائي الذي يخمد الأنفاس ولا تعطي لنا الحرية في نقل روائع الآداب العالمية التي أشار إليها الدكتور في كتابه؟. . . إني لا أجادل في قيمة الموسوعة التاريخية التي ننقلها إلى العربية، ولكني أجادل في عدم الملائمة بين احتياجاتنا وبين أعمالنا. . . وليس يجادل أحد في أننا أحوج ألف مرة إلى روائع المسرح العالمية وروائع القصص العالمية منا إلى هذا التاريخ العام الذي يأتي دوره بعد أدوار الآداب المختلفة بمراحل شاسعة. فإن لم يكن بد من القيام بكل ذلك، فلنعن على الأقل بهذه الإدارة الضيقة (ولتبذل لها الدولة أقصى ما تملك من جهد وأكثر ما تستطيع من المال) كما يقول الدكتور في كتابه. أما أن نحلم بأشياء جميلة فتتاح لنا الفرصة في إنشائها فنوجدها ولا نوجدها في وقت واحد، فهذا من المتناقضات التي ينبغي ألا نقع فيها، كما يجب ألا تتبعثر جهود تلك الإدارة التي يرأسها أقدر رجال الترجمة في مصر فيما هو بالمحل الثاني أو الثالث مما نحتاج إليه أصلاً. إن الساعات الثمينة التي يقضيها شباب المترجمين يومياً في نقل هذه (الأضابير) التاريخية إلى اللغة العربية كانت تتيح لهذه اللغة عشرين أو ثلاثين درامة كل سنة من أروع الدرامات التي تمد المسرح والقراء في وقت معاً بثروة لا تعدلها ثروة
(للحديث بقية)

دريني خشبة

بحث لغوي أنُف

للأستاذ عبد القادر المغربي

كنت ألقيت في ردهة المجمع العلمي العربي بدمشق محاضرة في غريب اللغة قصصت في آخرها خبر الأميرة العمانية (ابنة الجلندي)، وكانت تحمق، أي تنسب إلى الحمقى. وقد ذكروا من حمقها أنها أرادت يوماً أن تلهو، فألبست سلحفاة لها حليّ زينتها، ونزلتها تسرح في حديقة قصرها. وكانت الحديقة على شاطئ البحر، فانسابت السلحفاة إلى الشاطئ وغاصت في الماء بما عليها من الحلي. فأمرت الأميرة جواريها أن يغترفن ماء البحر بأكفهن، ويصببنه على رمل الساحل. وكانت تقول لهن منشطة (نزافِ نزافِ، لم يبق غير قُدافِ) أي لم يبق غير غرفة؛ فعيروها بحمقها، وضربوا به المثل. فتخيلت أنها دافعت عن نفسها بقولها: إن الحروب البشرية التي يقع فيها

التغريق والتدمير، لم ينسبوا أهلها إلى الحمقى، فكيف يحمقونها هي؟ ثم قلت على لسانها (أنا غرّقت وهم غرّقوا، وشتان بين ما محَّقت ومحَّقوا، أفيكون من العدل أن أحمّق ولا يحمّقوا؟)

فاستعملت فعل (محّق) من باب (التفعيل)، وعلى أثر ذلك كتب الأستاذ صلاح الدين المنجد في مجلة الرسالة الزاهرة (العدد 441 من السنة التاسعة) مقالاً أثنى فيه على المحاضرة، ولكنه أنتقد استعمالي لفعل (التمحيق مكان (المحق) وسأل عما إذا كان يصح هذا الاستعمال، فأحببت أن أجيبه على نقده بالكلمة التالية:

حقاً إن فعل المحق لا يجيء في كلام العرب إلا ثلاثياً، ونقل بعضهم مجيئه من باب الإفعال، لكنهم اتفقوا على أنه لغة رديئة بل أنكرها الأصمعي بالمرة. هكذا قال أصحاب اللسان والصحاح ومختار الصحاح والمصباح، فإنهم جميعهم ذكروا (المحق والإمحاق) ولم يذكر التمحيق. وقد خالفهم في ذكره صاحب القاموس وشارحه وهذه عبارتهما: (محقه كمنعه محقاً أبطله ومحاه، كمحّقه تمحيقاً للمبالغة. ومنه قراءة عبد الله بن الزبير (يمحق الله الرّبا، ويُرِّبي الصدقات، يمحق من التمحيق ويربي بتشديد الباء من التربية) هـ وظاهر هذا القول أن التشديد لغة في التخفيف

وأرى أن قول أرباب المعاجم هو الحق، وأنه لا (تمحيق) في اللغة، وإنما الذي فيها هو (المحق) وقد سها صاحب القاموس فقال بالتمحيق، وما استشهد به من قراءة ابن الزبير محلاً للاستشهاد، وإن صحّت القراءة.

وبين ذلك أنّ (يمحّق الله الربا) المشدّد الحاء في قراءة ابن الزبير إنما جاء مشدداً للمزاوجة بين فعلي (يمحِّق) و (يرِّبي) فيصبحان كلاهما مشددين

والتزاوج بين كلمات اللغة في الكلام الفصيح مذهب للبلغاء معروف وطريق مطروق. ومنه الحديث الشريف (إرجعن مأزورات غير مأجورات) فقوله (مأزورات) إنما هُمزَ ليواخي ويُزاوج (مأجورات) فلا يُقال إن الفعل من (مأزورات) هو (أزر) بالهمز وإنه بمعنى (وزر). ثم لا يجوز استعمال أزر في الكلام من دون غرض المزاوجة المذكورة، كما لا يجوز تدوين فعل (أزر) في المعاجم في مادة (أ. ز. ر). ومثله (محَّق) بالتشديد فهو إنما ورد في قراءة ابن الزبير لغرض المزاوجة وليس هو لغة للعرب. ولذا لا يجوز استعماله في جملة لا ازدواج فيها، كما لا يجوز تدوينه في المعاجم. وهذا ما جعل أرباب المعاجم يهملونه

فأستنتج من كلِّ ما مر أنه تجوز تخطئة صاحب القاموس في تدوينه فعل التمحيق وتخطئة شارحه في عدم الإشارة إلى أمر المزاوجة، كما يجوز لي أن أعتذر لنفسي في استعمال فعلي (محَّقتُ ومحَّقوا) بالتشديد، أعتذر بأني إنما ذكرته مزدوجاً بأشباهه من الأفعال المشددة قبله وبعده، (أنا غرَّقتُ وهؤلاء غرّقوا، وشتان بين ما محَّقت ومحَّقوا، أفيكون من العدل أن أحمَّق وما يحمقوا!):

وهناك وجه آخر لصحة فعل التمحيق ربما ذهب بعضهم إليه، وهو أن علماء الصرف ذكروا أنه يأتي بالفعل الثلاثّي من باب التفعيل لإفادة المبالغة تارة والتعدية تارة؛ فلم لا يكون محق إنما شُدد لهذا الغرض، أي غرض المبالغة لا غرض المزاوجة؟ والجواب على ما يذهبون إليه هو أن هذه المسألة، أي مسألة ما يقوله علماء الصرف في قياسية صيغ الأفعال المزيدة على اختلافها، وما تفيده تلك الزيادات من الدلالة على التعدية والمبالغة وغيرها - هذه المسألة ما زالت ولا تزال موضعاً للأخذ والرد بين العلماء وبين أعضاء مجامعنا العلمية خاصة. وكل ما فعل مجمع مصر من التوسعة والترخيص في زيادات الأفعال المزيدة، أنه قرر قياسية تعدية الفعل الثلاثي بالهمزة (مجلة المجمع ج 1 ص 230) ولم يبت الرأي في ما وراء ذلك بعد. ولعله يعود إلى الترخيص في قياسية التضعيف لإفادة المبالغة في مثل أفعال (حَلّل، برَّر، عضَّد، نقّد، وصَّف) فإن في الترخيص بذلك سداً للثلمة، ووفاء للحاجة، وتأدية لأغراض المتكلمين في العلوم العصرية والفنية وماله اتصال بها من صناعات واختراعات

وما قلناه في عدم جواز استعمال (التمحيق) هو رأينا، ما دمنا لم نجد نصّاً على جوازه غير قراءة ابن الزبير فإذا وُجد النص فنحن له تَبع.

(دمشق)

عبد القادر المغربي
نائب رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق
وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية
(دمشق)
كيف عرفت الرافعي
للأستاذ محمود أبو رية
(ننشر هذه الكلمة بعد انقضاء ستة أعوام على وفاة أديبنا الكبير مصطفى صادق الرافعي طيب الله ثراه، ونرجو أن تكون تحية طيبة منا نقابل بها ذكراه، وآية صادقة على أنه مهما باعدت بيننا وبينه السنون فأنا لن ننساه.)
(أبو رية)

رغب إليّ بعض إخواني من الذين يعرفون ما كان بيني وبين أديبنا الكبير مصطفى صادق الرافعي رضي الله عنه من وُصلة الصداقة، وما ربطني به من آصرة المحبة، أن أنشر بعض ما لدي من كتبه الخاصة التي كان يرسلها إليّ؛ فصادفت هذه الرغبة مني قبولاً وارتياحاً، لأنها من أمانيَّ العزيزة، التي كنت أود من قبل أن أقوم بها مع ما هو واجب عليّ أداؤه للناس في هذه الحياة لولا ما رمتني به الأقدار من مصائب في أولادي ومصاعب في حياتي حتى أصبحت ممزق القلب مشرد اللب لا أكاد أحسن عملاً أتولاه، ولا أجيد أمراً أقوم به

ولقد كان أشد هذه الضربات على تلك التي نفذت إلى صدر أكبر أولادي بعد أن تم دراسته العالية فخر منها صريعاً

وإذا كان نشر هذه الكتب سيكون فيه شيء من الخير للأدباء بما سيرون فيها من آراء أديبنا الرافعي وفتاواه في أغراض كثيرة من الأدب ورجاله، فإنه سيكشف لهم كذلك عن جوانب جديدة من أدبه وحياته لم يطلعوا عليها من قبل، ويعرفون كيف كان يكتب رسائله الخاصة التي تصدر في الغالب بغير أن ينالها تهذيب أو يصيبها تنميق، وإنما ترسل إرسالاً من عفو الخاطر وصفو الهاجس، وهذه ناحية لا يتم تأريخ رجال الأدب وأمراء البيان إلا بمعرفتها والاطلاع عليها

ولقد كنت أظهرت الأستاذ الكبير صاحب الرسالة في بعض أحاديثي معه على هذه الأمنية فرحب بها وطلب مني تحقيقها.

على أني رأيت أن أقدم لما سأنشره من كتب الرافعي كلمة أذكر فيها كيف عرفت هذا الأديب الحجة، والسبب الذي جعلني أتصل به ذلك الاتصال الذي نما حتى صار صداقة وثيقة امتدت بيننا أكثر من ربع قرن خلطني فيها بنفسه، واصطفاني لصحبته، حتى لقد كان يشاورني في خاص أحواله، ويظهرني على مكنون أسراره

وليس من همي اليوم أن أعرض لتاريخ هذه الصداقة، ولا يتجه قلمي لبيان ما كان لها من أثر وما كان فيها من خير لأن لذلك يوماً أرجو أن أبلغه

ترجع معرفتي بأديبنا الكبير إلى أوائل سنة 1912. ذلك أن الحرب الطرابلسية كانت حينئذ مستعمرة بين الترك والطليان. وكان الأمير الجليل شكيب أرسلان قد ألم بمصر في سفره مع بعثة الهلال الأحمر إلى طرابلس الغرب، وما كاد يحط بها رحاله حتى أشرق على الناس نور بيانه فاستنارت به الأندية واستضاءت به وجوه الصحف، وكنت يومئذ في صدر شبابي والأدب العربي قد غلب على حبه حتى أغرمت به غراماً؛ ولكني لم أكن أعرف كيف السبيل إلى دراسته ولا قرأت من مصادره إلا كتباً قليلة كان قد أشار عليّ بقراءة بعضها العالم الكبير محمد فريد وجدي بك حفظه الله.

ولما رأيت الأبصار قد اتجهت إلى الأمير شكيب أرسلان، وذكره قد استفاض حتى نفذ إلى كل مكان، وأن رجال الأدب قد ذهبوا في الإعجاب به إلى أن لقبوه بأمير البيان، دفعتني الرغبة المشبوبة بين جوانحي لدراسة الأدب إلى أن أتوجه له بكلمة أرغب إليه فيها أن يبين لي وللذين هم مثلي في هوى الأدب كيف يبلغون منه غايتهم، فأجابني حفظه الله بجواب طويل ملأ صدر العدد الذي خرج من جريدة المؤيد في 19 فبراير سنة 1912 وكان صدر هذه الجريدة يزين كل يوم بمقال ممتع من تحبيره في الأدب والسياسة؛ وكان المؤيد يقدم لكل مقال له بهذه العبارة: (لسعادة الكاتب العثماني

الكبير صاحب الإمضاء) أما الأمير فكان يرمز لاسمه في أعقاب ما يكتب بهذا الحرف (ش) وقد ساق الأمير الجليل في هذا الجواب القيم الذي لازلت أحتفظ به وأعده من نفائس البيان نصيحة غالية لكل من يريد دراسة الأدب، ثم أنشأ بعدها يبين للناس طريقته هو التي اتخذها في دراسته. ولما عرض للمصادر والكتب التي يجب على كل أديب أن يقرأها أخذ يثني ثناء طيباً على كتاب (تاريخ آداب العرب للرافعي) وكان قد صدر يومئذ الجزء الأول منه، فكان مما قاله هذه العبارة البليغة: (لو كان هذا الكتاب خطّاً محجوباً في بيت حرام إخراجه منه لاستحق أن يحج إليه، ولو عكف على غير كتاب الله في نواشيء الأسحار لكان جديراً أن يعكف عليه)

ومن ثم عرفت الرافعي وفضله ولم ألبث أن أقبلت على ما له من كتب أدرسها وأنتفع بها. وبعد انقضاء بضعة شهور على ذلك رأيت أن أجاذبه حبل المودة وكان ذلك في أواخر سنة 1912 ولكن أنى لي ذلك وأنا لا أعرف أين مكانه ولا بأي عمل يعمل؟ على أني استخرت الله وأرسلت إليه خطاباً جعلت عنوانه على القاهرة إذ ظننت أنه من أهلها وما كان أشد فرحي إذ تلقيت منه بعد أيام قليلة أول جواب وهذا الجواب مؤرخ 20 ديسمبر سنة 1912

وقد امتدت بيني وبينه بعد ذلك أسباب المراسلة طوال السنين التي صادقته فيها حتى بلغ ما لدي من كتبه أكثر من ثلاثمائة خطاب، منها نحو مائتين في شؤون أدبية وغير أدبية يصح نشرها كلها وإن كان في بعضها ما قد يؤلم بعض أدبائنا المعاصرين بما جاء عنهم فيها

أما سائر الكتب وهي أكثر من مائة فهي في أمور خاصة بي وبه لا يمكن نشرها ولا يصح إظهار أحد على ما جاء فيها.

(المنصورة)

محمود أبو رية

أغنية

ذكريات. . .

حِينَما كُنْتُ أَرَاهَا وَتَرَانِي ... مِنْ بَعِيدٍ كالتِمَاعَاتِ الْأَمَانِي

فَتَقَارَبْنَا عَلَى بُعْدِ الْمكانْ ... وَتَحَابَبْنَا عَلَى رَغْمِ الزَّمَانِ

وَبَلغْنَا مِنْ أَمَانِينَا مَدَاهَا

فَتَلَاقَيْنَا عُيُوناً وَشفَاهَا!!

لَسْتُ أَنْسَى وَقْفَةً عِنْدِ الْغَدِيرِ ... وَهجِيرُ الصَّيْفِ كالشَّوقِ المُثِيرِ

فَخَلَقْنَا نَحْنُ مِنْ نَارِ السَّعِيرِ ... جَنَّةً لِلْحُبِّ فَاضَتْ بِالْعَبِيرِ

قَدْ خَلَقْنَاهَا وَسَوَّيْنَا رُبَاهَا

وَعَلَيْنَا حَرَّمَ الله جَنَاها!!

لَسْتُ أَنْسَى في صِبَانَا مَرْبَعَاً ... كانَ مَلْهَانَا نُقَدِّيهِ مَعَاً

فَرَكِبْنَا اللّهْوَ وَالدَّهْرُ سَعَى ... لاَ الصِّبَا دَامَ وَلاَ الصَّفْوُ رَعَى

رَبَّةَ الآمَالِ وَاسْبقَي صِبَاهَا

وَكأَنِّي لَمْ أكنْ قَبَّلْت فَاهَا!

أَيْنَ مِنِّي جَنَّةُ الأَمْسُ القرَيبِ؟ ... أَيْنَ مِنِّي خَمْرَةُ الثَّغْرِ الشَّنِيبِ؟!

أَيْنَ مِنَّي رِقَّةُ الْغُصنِ الرَّطِيبِ ... يَا حَبيبي أَيْنَ مِنِّي يَا حَبيبي

جَلْوَةُ الْحُبِّ وإِشْرَاقُ صُحَاهَا!

خَيَّمَ اللّيْلُ عَلَيْهَا فَمَحَاهَا!!

أَصْبَحَ الْحُبُّ وَأَمْسَى ذِكْرِيَات ... وَانْقَضَى عَهْدُ الْهَوى والصَّبَوَات

وَوَلّى الْعُمْرُ إِلاّ زَفَراتِ ... لَم تَزَلْ تُشْعِلُ قَلْبِي بِشَكَاتِي

أَيْنَ عَيْناهَا وَأَيَّامُ هَوَاهَا؟؟

لَيْتَنِي كُنْتُ، أَنَا وَحْدِي، فِدَاهَا!

أحمد أحمد العجمي

(كوم النور)

الأحلام

للفيلسوف الفرنسي هنري برجسون

بقلم الأستاذ ألبير نادر
ترجمة المحاضرة التي ألقاها الفيلسوف هنري برجسن في)
(دار المعهد العام لعلم النفس
إن المحاضرة التي عُهد إليّ بإلقائها معقدة ومثيرة لمسائل عديدة: منها ما يتعلق بعلم النفس، ومنها ما يتعلق بعلم الحياة وأيضاً بما وراء الطبيعة. والموضوع يتطلب شرحاً طويلاً ولدينا القصير من الوقت، لذلك أطلب إليكم أن تعفوني من كل مقدمة حتى نبحث الموضوع مباشرة
هاك حلم: أرى أشياء مختلفة تمر أمامي وليس واحد منها موجوداً فعلاً - يخيل إليّ أنني أغدو وأروح، أمر بسلسلة من الحوادث بينما أنا نائم في فراشي بكل هدوء. أصغي إلى نفسي تتحدث وأسمع من يجيبني، ولكن أنا لا أفوه بشيء. فمن أين هذا الوهم؟ لِمَ ندرك أشخاصاً وأشياء كأنها موجودة حقيقية؟
ألا توجد أشياء حقيقية؟ أليست هناك بعض المواد الحسية تتهيأ أمام السمع أو البصر أو اللمس الخ. . . في وقت النوم كما هو الشأن في وقت اليقظة؟
لنغمض أعيننا ونرى ماذا يحدث. كثيرون من يقولون إنه لا يحدث شيء لأنهم لم يتبصروا في الأمر، ولكننا في الحقيقة نرى أشياء عديدة: أولاً نرى قاعاً أسود ثم بقعاً مختلفة الألوان باهتة حيناً وبراقة حيناً آخر، وهذه البقع تتمدد وتنقبض، تبدل ألوانها وتتحدى الواحدة منها الأخرى. وهذا التبدل يمكن أن يكون بطيئاً متدرجاً ويمكن أن يتم في بعض الأحيان بسرعة شديدة. فمن أين هذه التخيلات؟. تكلم علماء الحياة وعلماء النفس عن (غبار منير) وعن (طيف بصري) وعن (شرار العين) فتراهم ينسبون هذه الظواهر إلى التغيرات البسيطة التي تحصل باستمرار في الدورة الدموية في شبكة العين، أو إلى الضغط الذي يسببه الجفن المقفل على المقلة والذي يؤثر تأثيراً آلياً على العصب البصري - ولكن قلما يهمنا شرح الحادث أو الاسم الذي يطلق عليه - إن هذا الحادث عام لدى الجميع ويقدم بلا شك المادة
التي تنقش عليها كثير من أحلامنا. لاحظ ألفريد موري كما لاحظ في نفس الوقت المركيز درثي دي سان ديني أن هذه البقع الملونة ذات الأشكال المتحركة المتقلبة يمكنها أن تثبت عندما نخمل؛ فترسم حينئذ دوائر الأشياء التي تكون الحلم. ولكن علينا أن ننظر إلى هذه الملاحظة بعين الحذر لأنها ناتجة عن علماء نفس أنصاف تُيّم. تصور الفيلسوف الأميركي لار الأستاذ في جامعة يال طريقة أكثر إحكاماً ولكنها صعبة التطبيق لأنها تتطلب شيئاً من المران. تنحصر هذه الطريقة في إبقاء العينين مقفلتين عندما نستيقظ والمحافظة مدة لحظات على الحلم الآخذ في الزوال من حقل البصر وبالتالي من حقل الذاكرة. ترى عندئذ موضوعات الحلم تتحول إلى شرار العين وتمتزج بالبقع الملونة التي كانت تشاهدها العين حقيقة عندما كان الجفنان مغلقين. فإذا كنا نطالع جريدة مثلاً فها هو الحلم يتكون ثم تستيقظ وتبقى من الجريدة التي ارتسمت سطورها في العين بقعة بيضاء وبعض السطور السوداء المبهمة. هذا ما في الواقع. أو إذا كنا نتنزه في عرض البحر بالحلم، وعلى مدى البصر كان المحيط ينشر أمواجه الرمادية التي تكللها رغوة بيضاء. فعند اليقظة كل هذا يتلاشى في بقعة كبيرة اللون الرمادي الباهت تتخططها نقط براقة. البقعة موجودة وكذلك النقط اللامعة؛ إذاً يوجد غبار بصري بدا لإدراكنا أثناء النوم وهذا الغبار استعمل في صنع الحلم
هل يستعمل هذا الغبار وحده فقط؟ لكي نختصر الحديث على حاسة البصر نقول إنه بجانب الاحساسات البصرية الصادرة من الداخل توجد احساسات أخرى صادرة عن سبب خارجي. مهما يكن الجفنان مغلقين فالعين لا تزال تميز بين النور والظلام وتتعرف أيضاً - إلى حد ما - على نوع النور؛ لكن الاحساسات الناتجة عن نور حقيقي هي أصل لكثير من أحلامنا، فشمعة تضاء فجأة تحدث عند النائم عدة رؤى تسود فكرة الحريق ويذكر تيسيه مثلين لذلك: (فلان يحلم أن النار تلتهم مسرح الإسكندرية واللهب يضيء حياً بأثره، وفجأة يجد نفسه قد انتقل إلى ميدان القناصل، وهناك يرى شريطاً من النار يجري على مدى السلاسل التي يربط بعضها ببعض علامات الحدود الغليظة الموجودة حول الحوض، ثم يجد نفسه في باريس في المعرض وقد التهمته النار. . . يشاهد مناظر مؤلمة الخ. . . فيستيقظ بغتة: إن عينيه كانتا متأثرتين بحزمة النور

المنبعث من مصباح الواعية وهي تمر في جولتها الليلية وكانت قد سلطت المصباح على السرير
فلان آخر يحلم أنه التحق بوحدة مشاة البحرية حيث خدم سابقاً - يذهب إلى نوردي فرانس، إلى ظولون، إلى كوريان، إلى القرم، إلى القسطنطينية، يشاهد برقاً، يسمع رعداً، ثم يشاهد معركة يجد فيها النار تخرج من أفواه المدافع فيستيقظ - ومثل فلان الأول استيقظ بسبب النور المنبعث من مصباح الواعية عند مرورها) - هذه هي الأحلام الناتجة عن نور شديد مفاجئ.
لكن الأحلام الناتجة عن نور مستمر ولطيف (خفيف) مثل نور القمر فتختلف عن الأولى بعض الاختلاف - يذكر كراوس أنه ذات ليلة عندما استيقظ لاحظ أنه لم يزل يمد ذراعيه نحو ما كان يظنه في حلمه غادة، ولم تكن سوى القمر يرسل له شعاعه - إن هذه الحادثة ليست فريدة في نوعها. يظهر أن شعاع القمر عندما يداعب أعين النائم يمكنه ان يثير رؤى طاهرة. أليس هذا ما تذكره قصة أنديمون: (الراعي النائم دائماً الذي تحبه الإلهة سيلينيه (أي القمر) حباً جماً؟ . . .
للأذن أيضاً احساساتها الداخلية مثل الطنين والرنين والصفير التي لا تقوى على تمييزها وقت اليقظة ولكن النوم يبرزها بكل وضوح - لا نزال ونحن نائمين نسمع بعض الأصوات الآتية من الخارج مثل طقطقة دولاب أو تلألؤ النور أو صوت المطر المنهمر على النافذة أو الريح المتقلب النغمات؛ فكلها أصوات تصدم الأذن ويحولها الحلم إلى محادثة وصراخ وألحان ألخ. . .
حك بعضهم مقصاً بملقط أمام أذن الفريد موري وهو نائم، ففي الحال حلم أنه يسمع صوت المدفع ويشاهد حوادث 1848 - ويمكنني أن أسرد لكم أمثلة أخرى ولكن يجب أن يكون للأصوات نفس الأهمية التي للأشكال والألوان في أغلب الأحلام - إن الاحساسات البصرية لها الأسبقية وفي غالب الأحيان نرى فقط حينما نظن أننا نسمع أيضاً. . .
ويلاحظ مكس سيمون أننا نقوم بمحادثة كاملة في الحلم، ونلاحظ بغتة أنه لا شخص يحدثنا ولا أحد يتكلم - لقد كان هناك بيننا وبين محدثنا تبادل مباشر في الأفكار، محادثة ساكنة - إنه لحدث غريب ولكنه سهل التفسير - فلكي نسمع أصواتاً في الحلم يجب أن تكون هناك دائماً أصوات حقيقية نحس ونشعر بها لأن الحلم لا يصنع شيئاً من لا شيء؛ وإن لم تقدم له مادة رنانة فيصعب عليه أن يصنع ما هو رنان.
ومن جهة أخرى يتدخل اللمس بقدر ما يتدخل السمع، فأي لمس وأي ضغط مهما يصل إلى الوجدان أثناء النوم فحاسة اللمس تقمر بتأثيرها الصور الموجودة حينئذ في الحقل البصري؛ وعليه يمكنها أن تُغيّر شكل هذا الحقل ومعناه. لنفرض أننا نشعر فجأة بملامسة الجسم مع القميص فالنائم يتذكر أن ما يرتديه من ملابس خفيف. وإذا ظن حينئذ أنه يتنزه في الشارع فإنه سيظهر أمام أعين المارة في هذا اللباس البسيط جداً. ولكن المارة لا تتأثر من هذا لأنه نادراً ما تبدو الأشياء الخارقة التي نستسلم إليها في الحلم، مثيرة لدهشة المراقبين بينما نحن يعترينا منها الحياء والخجل.
(يتبع)
ألبير نادر
من أزهار الشر
للشاعر شارل بودلير
شبح
1 - الظلمات
في غيران الحزن الذي لا قرار له، حيث رماني القدر، وحيث لا ينفذ شعاع وردي مرح، أراني وأنا منفرد مع الليل، هذا الزائر العبوس، كمصور قضى عليه إله ساخر أن يرسم صورة على الظلمات، أو كطاه ذي شهوات كئيبة تُفضي إلى الموت، أُغلي قلبي وأجعله أكلتي
وفي لحظة تألق طيف صيغ من الرواء والجلال، وعندما بلغ آية روعته في مشيته الشرقية الحالمة، عرفت زائرتي الجميلة:
إنها هي. . .! سوداء وإنها لسنية

2 - العطر
أيها القارئ ألم تستنش، في شيء من السكر والنهم المتمهل، رائحة البخور التي تملأ جو المعابد، أو عطراً معتقاً من مثبنة حسناء؟
إنها لفتنة عميقة سحرية، تبعث في نفوسنا النشوة بالماضي الذي يعود في اللحظة الحاضرة! كذلك يجني العاشق الزهرة الناضرة من ذكرياته الغابرة، وبين يديه جسد معبود
فمن جدائلها اللدنة الجثلة، هذه المثبنة الحية، هذه المبخرة التي تملأ جو المخدع، كانت تفوح رائحة وحشية ضاربة
ومن ثيابها الحريرية والمخملة، العامرة بشبابها الناضر، كان ينبعث أريج الفراء
3 - الإطار
مثل الإطار الجميل الذي يضيف إلى الصورة الجميلة، وإن كانت بريشة رسام عظيم، مالا أدري من الغرابة والسحر حين يعزلها عن الطبيعة الهائلة، مثل ما حولها من الحلي والأثاث والمعادن والطلاء، فإنها كانت تتسق مع جمالها النادر. فلم يحجب وصفائها الساطعة شيء، وقد بدا كل شيء كزينة أحاطت بها حتى خالت ذات يوم أنها تريد أن
تتعلق بها حباً، فأغرقت جسمها العاري باشتهاء في لثمات الأطلس والكتان، وكانت كلما تمايلت في أناة أو سرعة تبدي في لفتاتها رشاقة القرد الساذجة
4 - الصورة
إن العلة والمنية تحيل النار التي تشتعل بها حياتنا إلى رماد. فماذا تبقى من هذه العيون النجل المتوهجة الوردية، ومن هذا الثغر الذي كان يغرق فيه قلبي، ومن هذه القبل القديرة كالسلوان، ومن هذه النظرات التي تفيض بالحياة أكثر من الأشعة؟ ماذا تُبقي؟ إنه لمروع يا نفس! فماذا تُبقي غير صورة شاحبة من ثلاثة خطوط
ويحي! من مثلي يموت في الوحدة، ومن مثلي يلطمه الدهر، هذا الظالم المسن، كل يوم بجناحه القوي؟
أيها القاتل الأسود، يا عاصب الحياة والجمال، لن تقضي، في ذاكرتي، على تلك التي كانت بهجتي ومجدي!
ترجمة
عثمان علي عسل
البريد الأدبي
الإصلاح والحرية
اطلع قراء الرسالة في العدد 512 على تنبيه للبحث الذي اعتزم الأستاذ الكبير الشيخ محمود شلتوت نشره في الرسالة، مدافعاً عن فتواه بشأن (نزول عيسى)، داحضاً أقوال مخالفيه في هذه المسألة. وقد فوجئنا في العدد التالي، بأن أسباباً قاهرة حالت دون نشر الرسالة لهذا البحث القيم، وهي إشارة لا تستبهم على من تتبع حركة الإصلاح الديني في مصر، وما لقيته في العهد الأخير من تعنت الجامدين، ومناهضتهم كل رأي جديد وبحث حر، مهما كان نصيبه من الإخلاص والغيرة على الشريعة السمحة التي أطلقت العقول من عقالها، وجعلت حرية التفكير من ألزم خصالها
وبينما يتطلع العالم الإسلامي إلى مصر لتكون موئل التفكير الحر، ومثابة الإصلاح المثمر لدينه وتقاليده وآرائه، ويتلقى بشغف بالغ الدعوات الكريمة والأبحاث الجريئة التي يتقدم بها أساطين العلم وجهابذة الفكر من رجالات مصر - يقف مبهوتاً كلما علم أن هذا الباحث أو ذلك المصلح قد حيل بينه وبين ما يريد من إبلاغ دعوته ونشر أبحاثه، وهذا في مصر التي حدثنا التاريخ أنها وسعت كل مذهب، وآوت كل حر طريد
نحن نعلم أن الخلاف لابد منه بين أهل البحث، ولا ننكر على مصر وجود طائفة تناهض الإصلاح وتخاصم المصلحين، ولكننا ننكر على هذه الطائفة أن تخاصم بالوقيعة وتستغل عواطف العامة، مستمدة في ذلك أسباب الغلب عندما تعوزها الحجة والبرهان.
ونفهم أيضاً أن يعرض أولو الأمر لحماية العقائد وصيانة الأخلاق، ويحولوا دون إفسادها بالآراء الشاذة والنشرات الخبيثة؛ ولكننا لا نسيغ أن يمنع عالم مصلح كالأستاذ شلتوت من الدفاع عن رأيه في مسألة دينية، وهو يتمتع بمركز علمي يعلو صاحبه عن كل شبهة تحول دون نشر أبحاثه على الناس، لاسيما في عهد الإمام المراغي الذي يرتقب

فيه المسلمون خيراً كثيراً، ولن يبلغ المسلمون أمنيتهم من الإصلاح ما دام أنصار الجمود يملكون من النفوذ ما كانوا يملكونه في عهد ابن تيمية ومحمد عبده (هم العدو فاحذرهم).

(نابلس - فلسطين)

حلمي الأدريسي

فائدة القرض من المصارف المالية

قرأت السؤال الذي وجهه إليَّ الفاضل (محمد عبد الفتاح محمود الحسن - من فلسطين) في البريد الأدبي بالعدد 515 من الرسالة الغراء، فيما يتعلق بفائدة القرض من المصارف المالية، وإني لا أشك في شدة الحاجة إلى وضع حد بيّن في هذه المسألة المتصلة اتصالاً وثيقاً بحياة المسلمين الاقتصادية في هذا العصر، وأقرر في الوقت نفسه أن وضع هذا الحد في مثل تلك المسألة التي تشعبت فيها الآراء قديماً وحديثاً، واتخذت على ألسنة بعض الناس في جميع فروعها صفة العقيدة ليس من السهل أن يبادر به فرد واحد، وإنما ينبغي أن يصدر عن هيئة دينية كجماعة كبار العلماء في الأزهر، حتى تكون له قيمته العملية وتتلقاه القلوب بصدق وإذعان

ولقد توجهت منذ عامين إلى جماعة كبار العلماء باقتراح يتضمن أن تعالج الجماعة أمثال هذه المسألة مما (جد ويجد في المعاملات ويحتاج المسلمون إلى معرفة حكم الشرع فيه). ولا يزال هذا الاقتراح بين يدي فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ورئيس الجماعة الموقرة. هذا ما أراه الآن وللسائل الفاضل تحياتي

محمود شلتوت

عثرات. . .

أما الأولى ففي كلام أديبنا الكبير الدكتور زكي مبارك:

(يا مهاةً لا تخطر إلا في البال)

كلام جميل. . . لكنه غير دقيق، ففي العبارة ما يسميه علماء المعاني (القصر) وفي قصر خطور هذه المهاة على (البال) نظر، كما يقول سادتنا الأزهريون، إذ أنه يقتضي جواز خطورها بشيء آخر غير البال. . .

أفهم أن يقال: (لا تخطر إلا في بالي) فالقصر واقع على باله وحده دون بال غيره من الناس. وإن كان في هذا المعنى غضٌّ من جمال هذه المهاة الذي لا يؤثر إلا فيه وحده، أما قصره الخطور على (البال) دون سائر جوارح البدن، فهو قصر لا معنى له.

وأما الثانية ففي كلام فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمود شلتوت إذ يقول: (وهل إذا قال

(المسلمون في مسألة. . . وهل إذا أنكر عالم. . . وهل إذا قال قائل. . . الخ

وعلماء المعاني - وعلماء النحو أيضاً كصاحب المغنى - يقولون: إن هل الاستفهامية لا يقع بعدها الشرط أبداً. . . وهذا فرق بينها وبين الهمزة. . .

وأما الثالثة ففي كلمة الأديب حسين البشبيشي التي يخطئ فيها شعراً نشرته (الثقافة)، وذلك إذ يقول: (والأعجب من كل ذلك هو هذا البيت الغريب. . . الخ.)

ولو أن الأديب البشبيشي رجع إلى أبيه - أستاذنا الفاضل - لدلّه على أن أفعل التفضيل إذا كان محلى بأل امتنع الإتيان بعده بالمفضل عليه مجروراً بمن، وأن الصواب إن أراد ذكر المفضل عليه أن يقول: (وأعجب من كل ذلك) بتجريده من أل.

محمد محمود رضوان

المدرس ببني سويف الابتدائية

في القصة والمقامة

أهدى إليّ الأستاذ الفاضل محمد جميل سلطان الدكتور في الآداب وعضو المجمع اللغوي للدراسات السامية في باريس، وأستاذ الأدب العربي في تجهيزي دمشق الرسميين وفي الكلية الشرعية الإسلامية، رسالته في (القصة والمقامة) وهي رسالة صغيرة تقع في 56 صفحة من القطع الصغير. وقد طبعت في مطبعة الترقي بدمشق في هذه السنة

وهي تتضمن بحثاً طريفاً في القصة وشروطها، وتبين كيف تدرجت القصة حتى وصلت إلى المقامة في عصر الهمذاني والحريري وكيف اهتدى إلى هذا بديع الزمان، وهل هو الذي اخترع فن المقامة، وما الفرق بينها وبين القصة، وبين عمل الهمذاني وعمل

الحريري فيها. فإذا انتهت من هذا كله في دراسة دقيقة مستفيضة انتقلت منه إلى بيان ما طرأ على المقامة بعد الحريري، فذكرت في هذا من تناولها من الأدباء إلى عصرنا الحاضر، وبينت حالها في ذلك من قوة وضعف واستقامة وانحراف، وقد ختمت ببحث طريف في المقامات عند غير العرب، بين فيه أثر هذا الفن العربي في الأدب الفارسي والأدب السرياني والأدب العبري؛ فجاءت بهذا كله رسالة جامعة لكل ما يتعلق بموضوعها. ولهذا نحث المشتغلين بالأدب على اقتنائها.

عبد المتعال الصعيدي

حول تراجم المعاصرين

أمنية يطيب للنفس أن تتعلق بها ولكن الشواهد التي حولنا توشك أن تثبط الهمم. فمن كان يتوهم أن أديباً فاضلاً سيعجز عن جمع طرائف المرحوم حافظ ونوادره؛ وأن هذه الملح ستتبخر من واعية أصدقاء حافظ وجلسائه وخاصته!!

بل من كان يتوهم أن أديباً يكتب كتاباً فيذكر فيه (المرحوم فلان!) وفلان هذا لم يزل ينعم بأنفاس الحياة!!

وأكثر من هذا. فإن الكثير من شعرائنا لا يقيمون وزناً لتأريخ ظروف قصيدهم مما يضيع على الأدب فوائد يدركها الناقد الفطن

ولقد كان الظن أن تقوى هذه الناحية من الأدب في عصر الطباعة والراديو! ولكن المشاهد غير ذلك. . . وتلك هي المسألة، كما يعبر الغربيون. . . أفيكون هناك أثر نفسي خطير (لانتشار الطباعة) سبّب ضعف الذاكرة وتهاونها، وقعد بالناس عن مسايرة الأخبار وروايتها؟

إنا لنعتقد ذلك. . . فإن وفرة المطبوعات أيقظت في الناس رغبة الخمول والاعتماد على (الغير) ممن يؤلفون. . . وهؤلاء نفر قليل قد لا يلازمهم التوفيق في كل الأحايين.

ومع هذا فإننا لنعتقد أن باب النقد والتحليل في كبريات مجلاتنا كالرسالة والثقافة والمقتطف والهلال يقدم صورة مصغرة لتراجم المعاصرين. وبعد فما من شك في أننا نجهل الكثير من أطوار حياة كتابنا، ولقد كنت إلى عهد قريب أجهل أن أستاذنا الكبير الزيات يحمل شهادة الحقوق، وأن هناك بعض كتب ألفها ليضع غيره عليها اسمه! لو أننا اهتممنا بتراجم المعاصرين لأنكشفت لنا أسرار وأسرار، ولتركنا لخلفنا آثار أدبية واضحة التقاسيم سديدة المرامي

(الإسكندرية)

حسين محمود البشبيشي

جماعة نشر الثقافة بالإسكندرية

أعلنت جماعة نشر الثقافة عن إقامتها لمهرجان الربيع بمسرح نادي الحكومة عند الساعة الخامسة من مساء يوم الاثنين الموافق 24 مايو 943، وسيكون شعراء الحفل وخطباؤه وفنانوه الأساتذة الأفاضل:

(1) محمود البشبيشي
(2) خليل شيبوب
(3) مصطفى علي عبد الرحمن
(4) حسين جنيد الموسيقار
(5) أحمد الطاهر
(6) السيدة منيرة توفيق
(7) حسين محمود البشبيشي
(8) فرقة موسيقى نادي الموظفين
(9) صلاح الدين طاهر
(10) عثمان حلمي
(11) أحمد السمرة
(12) المطرب طاهر القرضاوي

العدد 517 - بتاريخ: 31 - 05 - 1943

بيفردج والمرأة

للأستاذ عباس محمود العقاد

قال لي صاحبي وهو يوشك أن يلقى بالصحيفة من يده: وما شأن بيفردج بهذه

المسألة؟ ما شأنه بالمرأة وما يقوله الحكماء والشعراء في النساء؟
بيفردج والمشاكل الاقتصادية مفهوم؛ أما بيفردج والمشاكل العاطفية فغريب غير مفهوم، لأنه يبدو للأكثرين في هذه الحالة كمدير المصرف الذي ينظم ديواناً من الشعر على هامش الميزانية! أو كالسياسي الذي يسوق العواطف في خطاب رسمي من خطب الأزمات والمعضلات! وكل ذلك غريب أو (نشاز) كما يقال في لغة الفنيين
كان الذين يعرفون بيفردج قبل هذه السنة يعرفونه قطباً من أقطاب الاقتصاد السياسي ولا سيما في مسألة البطالة ومسائل التأمين الاجتماعي والتموين على الإجمال. فلما ظهر بمشروعه المشهور منذ بضعة شهور ظهر في ثوبه الذي يعهده الناس، وعرفه الأكثرون في أنحاء الأرض كما كان يعرفه الأقلون في البلاد الإنجليزية، رجلاً من رجال الحساب أو الإصلاح المبني على الحساب
أما صاحبي الذي كان يقرأ الصحيفة وأوشك أن يلقيها من يده دهشة فقد خيل إليه أنه يراه في غير زيه ويلتقي به في غير مكانه؛ لأنه رآه في كتاب عجيب صدر قبل ثلاثين سنة ولم يحفل به أحد غير قراء الأدب يومذاك. وهو كتاب جمع فيه المصلح الكبير طائفة مختارة من أقوال الحكماء والأدباء والمفكرين من أقدمين ومحدثين. . . في أي موضوع؟. . . في موضوع لا يتخلله رقم واحد من أرقام الحساب، وهو موضوع المرأة والحب والعاطفة والمناجاة!
قلت لصاحبي: الرجل على حق. . . وأنت المخطئ في هذه الدهشة التي فوجئت بها كما يفاجأ المرء بالمتناقضات. وليس فيها من التناقض شيء على ما أعتقد. بل هي أدل الدلائل على طبيعة الإصلاح المتأصلة في هذا الرجل من أوائل عهده بالاشتغال بالمسائل الاجتماعية، لأنه جمع الإصلاح الاجتماعي من يمينيه وشماله، واحتواه في جميع أحواله وأشكاله. فاهتم بمسألة الرجل والمرأة، كما اهتم بمسألة الفقر والغنى، وهما هما الإصلاح الاجتماعي بحذافيره من قديم الزمان، وفي كل ما تنزل من الأديان أو المذاهب والدعوات
العظات التي نسمعها من عشرة آلاف سنة يبدأها الواعظون ويعيدونها من جديد عصراً بعد عصر وجيلاً وراء جيل، على أي شيء تدور وفي أي معنى تقال مع اختلاف الكلمات والأساليب؟ على العلاقات المشروعة أو غير المشروعة بين الرجل والمرأة، على البيوت والآباء والأمهات، على الرحمة والإحسان أو على الإنصاف في توزيع الأرزاق وهذه هي خلاصة الإصلاح كله، وهذه هي المسائل التي شغل بها صاحبنا بيفردج واهتم بها وهو يلهو في شبابه كما اهتم بها وهو يعالج المعضلات في مشيبه، كأن أعصابه موصولة بأعصاب المجتمع الإنساني فهو يهتدي إلى المواضع الحساسة بإلهام البداهة
وأعجب من إحساسه البديهي بأصول الاصطلاح دقة إحساسه في اختيار الحكماء والشعراء ثم دقة إحساسه في اختيار ما يقولون. فيخيل إليك أنه لا يختار من الحكماء والشعراء إلا الذين لمسوا مشكلة المرأة في حياتهم الخاصة، ولا يقع من كلامهم إلا على الكلمة التي تمثلهم في الصميم
فمن حكمائه تولستوي الفيلسوف الروسي المشهور الذي خانته امرأته فوصف هذه الخيانة في قصة من أشهر قصصه الصغيرة، وراحت امرأته تبرئ نفسها بعد موته فتصدت لها بنته تكذبها وتأخذ بناصر أبيها وترثى له مما لقيه من خيانة أمها
ومنهم رسكن الناقد الفيلسوف الفنان الإنجليزي الذي سرح امرأته بيديه لتتزوج من عشيقها
ومنهم هازليت ملك النقاد في العالم الذي فشل أفجع الفشل في حبه كما فشل في زواجه
ومنهم روسو ورابيليه وسقراط وأمثالهم من حكماء الأمم الذين عرفوا هذا الجانب من الحياة بالذكاء والفطنة كما عرفوه بالخبرة والمحنة، وهم كثيرون
فالفيلسوف الروسي تولستوي يقول: (إن النساء يعرفن جيداً أن ما يسمى حباً علوياً أو حباً شعرياً لا يتوقف على الفضائل الأخلاقية كما يتوقف على المقابلات الكثيرة، وعلى (تسريحة الشعر) وألوان الملابس وطريقة تفصيلها)
وروسو يقول: (إن الذكر إنما يكونّ ذكراً في بعض أوقاته. أما المرأة فهي أنثى في جميع حياتها أو على الأقل في جميع أيام شبابها. فكل شيء يذكرها ولا يزال مذكراً لها

بجنسها)
وهازليت يقول: (النساء لا يعتمدن على التفكير أو القياس المنطقي أبداً، وإنما يحكمن بالغريزة على ما يشعرن به مباشرة ولا يشغلن أنفسهن بالعواقب البعيدة. فإذا فاتهن العثور على الأفكار العظيمة فهن أيضاً لا يتورطن في السخافات الضخمة، وإنما هو العقل وحده - أو القياس المنطقي - الذي يجعل الإنسان مثلاً في أصالة الرأي أو مثلاً في الحماقة)
وشسترفلد الذي كتب رسائله المشهورة إلى ابنه غير الشرعي يقول: (اثنتان من النساء يحسن تمليقهما بوصف الذكاء واللباقة، وهما المرأة التي لا شك في جمالها، والمرأة التي لا شك في قبحها. أما المتوسطات بين الجمال والقبح فهن اللواتي يخدعن بوصف الجمال أو على الأقل بوصف الملاحة)
وهولمز يقول: (الإفراط في قلة الكلام من المرأة التي نحبها خير من الإفراط في كثرة الكلام. فإن الطبيعة تعمل لها وتغنيها عن العمل لمصلحتها وهى ساكتة، ولكنها إذا تكلمت فهي تعمل لنفسها (ولن تدرك في ذلك شأو الطبيعة) والحب على ألسنة الرجال عسير الذوبان فهم يكثرون من الكلام فيه، ولكن الكلمة الواحدة تقولها المرأة قد تذيب منه ما يعجز قلب الرجل عن احتماله)
وديوجين - الكلبي - يقول: (إياك أن تأمن المرأة ولو ماتت!)
أما سيجوس فيقول: (لنكن للنساء منصفين، فإنهن لا يزلن على طول الزمن مصدر العزاء الصحيح لجنس الإنسان. إنهن أقدر منا على الشعور بحاجة من يرونه محتاجاً إلى العزاء)
ويقول رسكن مثله: (في المجتمع الذي يبلغ فيه الرجال والنساء غاية المقدور لهم من الكمال تتولى النساء رسالة الهداية والتطهير. أما في المجتمعات الهمجية أو المتأخرة فهن يعانين الظلم جهرة كأنهن من العجماوات، ثم هن يعانينه خلسة - مضاعفاً - في المجتمعات التي يشيع بينها الفساد والسقوط)
ويعود رابيليه فينقض هذا الرأي وما شابهه حيث يقول متهكماً: (يزعمون أنهم قلما يعثرون بحسناء يقيدها العرف أو القانون بقيد الواجب المفروض)
ويتعرض كولردج الشاعر الإنجليزي غريم نابليون للملكات الفنية في المرأة فيقول: (إن النساء روائيات مجيدات ولكنهن شاعرات مخفقات، وذلك لأنهن يفرقن نادراً - أو لا يفرقن أبدا - بين الواقع والاختلاق)
أصحيح هذا؟
الأمثلة المتواترة أمامنا تدل على أنه صحيح كل الصحة. لأننا عرفنا كثيراً من النساء النابغات في كتابة القصة والرواية، ولم نعرف قط شاعرة عظيمة نبغت في أمة من أمم العالم قديمها وحديثها
فهن روائيات مجيدات وشاعرات مقصرات، ولكن لغير السبب الذي يراه كولردج فيما نرجح، وهو قلة التفرقة بين الواقع والاختلاق أو التأليف
والذي نرجحه أن المرأة تحسن كتابة القصة لأنها مطبوعة على الفضول والاستطلاع والخوض في أسرار العلاقات بين الرجال والنساء والإطالة في أحاديث هذه الأسرار مع الاشتياق والتشويق. وهذا كله هو معدن القصة التي تصاغ منه، وهو جوهر من جواهر الرواية قد يغنيها عن المزايا الأخرى من تحليل وتعليل وإبداع في الوصف والتمثيل
أما الشعر فهو ابتكار واقتدار على الإنشاء، وليست المرأة مشهورة بالابتكار حتى في صناعتها الخاصة بها كالطهي وصناعة الملابس والتزيين
والشعر - وأساسه الغزل - هو وسيلة الرجل لمناجاة المرأة، وقد تعودت المرأة بفطرتها أن تكون مطلوبة مستمعة في هذا المجال. فهي لا تحسن الشعر كما يحسنه الرجل، وعلى هذه السنة تجرى جميع الذكور في أنواع الحيوان حين تسترعى أسماع الإناث بالغناء أو الهتاف والنداء
ولا عجب لهذا أن يخلو تاريخ الإنسان من شاعرات مجيدات بل من شاعرة واحدة مجيدة بغير استثناء في جميع اللغات. وحتى (سافو) الشاعرة اليونانية التي ذاع صيتها في الزمن القديم لا تحسب بين الطراز الأول في الشعراء. وإن حسبت من الطراز الأول فهي في شعرها - المعكوس - تمثل الرجال أكثر من تمثيلها النساء، لأنها كانت

تنظم الغزل في البنات
هذه طرائف من الآراء التي حام بينها بيفردج لتصوير المرأة بألسنة الحكماء والشعراء
في الأمم كافة. ثم لم يمنعه ذلك آخر المطاف أن يلتمس لها المعونة والعذر
والإنصاف. وهكذا تكون رحمة العليم ومعذرة الحكيم
قبل في نقد مشروعه الاقتصادي الكبير أنه لم يأت فيه بجديد ولم يجاوز أن يستقصي
فيه ما تقدم من خطط الإصلاح مع قليل من التنقيح والزيادة هنا وهناك
ويمكن أن يقال في فلسفته عن المرأة أنها على هذا النحو فلسفة الجمع والتوفيق بين
مختلف الآراء
وعلى هذا وذاك يجب أن يقال إنه قد أفاد وأعان على فهم جوانب الإصلاح
ويجب أن يقال بعد هذا وذاك أنه كان مثلاً من أمثلة عدة في الحرب الحاضرة على
اتساع آفاق الحياة عند الغربيين. فهم على قدر أعباء الحياة التي ينهضون بها يقابلونها
بما يكافئها ويلاقيها في كل ناحية من نواحيها، لا يشغلهم اليوم عن الغد، ولا الجد عن
اللهو، ولا العظيم عن الصغير، ولا أحاديث الأزمات والمعضلات، عن أحاديث المساجلة
والمناجاة.
عباس محمود العقاد
آيتان. . .
للأستاذ محمود شلتوت
كان فيما قررناه سابقاً: أن القرآن كله قطعي في وروده، وأنه في دلالته نوعان:
قطعي لا يحتمل التأويل، وغير قطعي يحتمل معنيين فأكثر، وأن هذين النوعين قد
وجدا في العلميات والعمليات، وأن النوع الثاني لا يصلح أن يتخذ دليلا على عقيدة
يحكم على منكرها بأنه قد كفر. قررنا هذا ثم أخذنا في تطبيقه على الآيات التي
أوردوها في شأن عيسى من رفعه أو نزوله، فأرجعنا هذه الآيات إلى أنواع ثلاثة بينا
بطلان رأيهم في نوعين منها، واليوم نذكر النوع الثالث وهو آيتان زعموا أنهما تدلان
دلالة قاطعة على نزول عيسى:
إحداهما: قوله تعالى في سورة النساء (وان من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته
ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا)
والأخرى: قوله تعالى في سورة الزخرف (وانه لعلم للساعة فلا تمترن بها)
ما غاب عنا، وقت أن كتبنا الفتوى، النظر في هاتين الآيتين وفي درجة دلالتهما على
نزول عيسى، وما غاب عنا ما ذكره المفسرون من الآراء والإفهام المختلفة فيهما، وما
كنا نحسب - ونحن بصدد البحث عن دليل قاطع يحكم بالكفر على مخالفه - أن أحداً
يعرض لهاتين الآيتين وقد رأى فيهما ما رأينا من أقوال المفسرين المختلفة في ذاتها،
والمختلفة في ترجيحها، فيقول إنهما نصان قاطعان في نزول عيسى! ولذلك آثرنا إذ
ذاك أن نترك الكلام عليهما اكتفاء بظهور درجتهما في الدلالة لكل من يقرأ شيئاً من
كتب التفسير. ولكنهم أبوا ألا أن يذكروا هاتين الآيتين ويزعموا أنهما تدلان دلالة قاطعة
على نزول عيسى، فلسنا نجد بداً من أن نضع بين يدي القراء خلاصة لآراء المفسرين
فيهما، ثم نقفى على ذلك بما نرى ليتبين الحق واضحاً:
الآية الأولى:
للمفسرين في هذه الآية آراء مختلفة وأشهرها رأيان:
الأول: أن الضميرين في (به) و (موته) لعيسى. والمعنى: ما من أحد من أهل الكتاب
يهوديهم ونصرانيهم إلا ليؤمنن بعيسى قبل أن يموت عيسى. قالوا: أخبرت هذه الآية
أن
أهل الكتاب سيؤمنون بعيسى قبل موته، وهم لم يؤمنوا به إلى الآن على الوجه الذي
طلب منهم، فلابد أن يكون عيسى إلى الآن حياً، ولا بد أن يتحقق هذا الإيمان به قبل
موته، وذلك إنما يكون عند نزوله آخر الزمان
الثاني: أن الضمير في (به) لعيسى، وفي (موته) للكتابي. والمعنى: أنه ما من أحد من
أهل الكتاب إلا ليؤمنن قبل موته بعيسى. والإخبار بإيمان أهل الكتاب على هذا الوجه لا
يتوقف على حياة عيسى الآن، ولا على نزوله في المستقبل، لأن المراد أنهم يؤمنون
عند معاينتهم الموت بأنه نبي الله وابن أمته
هذان رأيان مشهوران في الآية عند المفسرين، ولكل منهما من يرجحه. وقد ساقهما

ابن جرير، وذكر الآثار التي تدل لكل منهما ثم قال: (وأولى الأقوال بالصحة والصواب قوله من قال: تأويل ذلك، وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل أن يموت عيسى. وإنما قلنا ذلك لأن الله جل ثناؤه حكم لكل مؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم بحكم أهل الإيمان في الموارثة والصلاة عليه وإلحاق صغار أولاده بحكمه في الملة؛ فلو كان كل كتابي يؤمن بعيسى قبل موته لوجب ألا يرث الكتابي إذا مات إلا أولاده الصغار أو البالغون منهم من أهل الإسلام. . . وأن يكون حكمه حكم المسلمين في الصلاة عليه وغسله وتقبيره، لأن من مات مؤمناً بعيسى فقد مات مؤمنا بمحمد. . . وقد أجمع أهل الإسلام على أن كل كتابي مات قبل إقراره بمحمد صلوات الله عليه، وما جاء به من عند الله فمحكوم له بحكم ما كان عليه أيام حياته غير منقول شيء من أحكامه في نفسه وماله وولده صغارهم وكبارهم بموته عما كان عليه في حياته، فدل هذا على أن المعنى: إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى، وان ذلك عند نزوله)

ويريد ابن جرير بهذه العبارة أن الإيمان بعيسى يلزمه الإيمان بمحمد صلوات الله وسلامه عليهما، لأن رسالة محمد مما جاء به عيسى، وعليه يكون من آمن بعيسى مؤمناً بمحمد فيكون مسلماً له أحكام المسلمين في التوارث والصلاة عليه وغسله ودفنه في مقابر المسلمين. . . الخ. وهذا يخالف إجماع السلمين على عدم ثبوت شيء من هذه الأحكام للكتابي الذي يموت، وإذا كان هذا يخالف الإجماع فقد بطل أن يكون معنى الآية ما ذكر، وكان (أولى الأقوال بالصحة والصواب) في نظر ابن جرير هو الرأي الأول الذي لا يترتب عليه مصادمة الإجماع

إلى هنا، وقبل مناقشة ابن جرير فيما رجح به، ليس في الأمر أكثر من أن مفسراً من بين المفسرين قد اختار رأياً من رأيين حكاهما عن أهل المأثور ورجح ما اختاره بما رأى، ولكن القوم تلقفوا هذا عن ابن جرير وصوروه بما يريدون موهمين الناس أن الآية صارت بترجيح ابن جرير دليلاً قاطعاً على ما يزعمون من نزول عيسى. ونحن نلخص ردنا عليهم في النقط الآتية التي غفلوا أم تغافلوا عنها:

1 - إن ابن جرير يذكر احتمالين في الآية، ويذكر الآثار الدالة لكل منهما، ويصل بالرأي الثاني إلى ابن عباس ومجاهد وغيرهما، فكيف يعد نصاً قاطعاً غير محتمل لأكثر من معنى ما خالف فيه ابن عباس ومجاهد وغيرهما؟

2 - إن ابن جرير كما وجه الرؤى الذي اختاره وجه الرأي الثاني أيضاً (بأن كل من نزل به الموت لم تخرج نفسه حتى يتبين له الحق من الباطل في دينه). وهذا فيما أرى هو الذي جعل ابن جرير يقتصد في التعبير عن ترجيح ما اختاره فيقول: (وأولى الأقوال) دون أن يقول مثلاً: والرأي الصحيح

3 - إن يكون ابن جرير قد رجح أحد المعنيين فقد رجح غيره من العلماء المعنى الآخر ومنهم الإمامان: النووي والزمخشري وغيرهما. قال ابن حجر في فتح الباري: (ورجح جماعة هذا المذهب - يريد الثاني - بقراءة أبي بن كعب (إلا ليؤمنن به قبل موتهم) أي أهل الكتاب. قال النووي: معنى الآية على هذا: ليس من أهل الكتاب أحد يحضره الموت إلا آمن عند المعاينة قبل خروج روحه بعيسى وأنه عبد الله وأبن أمته، ولكن لا ينفعه هذا الإيمان في تلك الحالة كما قال تعالى: (وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال أني تبت الآن) ثم قال: وهذا المذهب، أظهر لأن الأول يخص الكتابي الذي يدرك نزول عيسى وظاهر القرآن عمومه في كل كتابي في زمن نزول عيسى وقبله)

وقد ذكر صاحب الكشاف قريباً من هذا وأطال فيه ونقله عند الإمام الرازي في تفسيره فليرجع إليهما من شاء

بهذا يتبين: -

1 - أن هذه الآية ليست نصاً في معنى واحد حتى تكون دليلاً قاطعاً فيه

2 - أن ما تمسك به ابن جرير في ترجيحه للرأي الأول غير مسلم له، فقد بناه على أن المراد بالإيمان في الآية هو الإيمان المعتبر الذي ينفع صاحبه وتترتب عليه الأحكام، مع أنه أيمان - كما قرره العلماء، ومنهم ابن جرير نفسه - لا يعتد به ولا يقام له وزن ولا تترتب عليه أحكام لأنه إيمان جاء في غير وقته

3 - أن من ينظر فيما تمسك به أصحاب المذهب الثاني: من العموم الواضح في قوله (وإن من أهل الكتاب) ومن قراءة أبى (إلا ليؤمنن به قبل موتهم) ومن أن إيمان المعاينة لا ينفع صاحبه عند الجمع، لا يسعه إلا أن يخالف ابن جرير فيما ذهب إليه وأن يقول مع النووي عن المذهب الثاني: (وهذا المذهب أظهر).

والنتيجة الحتمية لهذا كله أن الآية ليست ظاهرة فيما يقتضي نزول عيسى فضلاً عن أن تكون قاطعة فيه!

الآية الثانية

للمفسرين في هذه الآية أيضاً آراء مختلفة، ومن هذه الآراء أن الضمير في قوله تعالى: (وانه لعلم للساعة) راجع إلى محمد صلى الله عليه وسلم أو إلى القرآن، ولكننا نستبعد هذا ونرى أن الضمير راجع إلى عيسى كما يراه كثير من المفسرين؛ وذلك لأن الحديث في الآيات السابقة كان عن عيسى. ومع ذلك نجد خلافاً آخر يصوره لنا بعض المفسرين بقوله: (وإنه: أي عيسى لعلم للساعة: أي أنه بنزوله شرط من أشراطها، أو بحدوثه بغير أب، أو بإحيائه الموتى دليل على صحة البعث)

ومن ذلك يتبين أن في توجيه كون عيسى علماً للساعة ثلاثة أقوال:

الأول: أنه بنزوله آخر الزمان علامة من علامات الساعة

الثاني: أنه بحدوثه من غير أب دليل على إمكان الساعة

الثالث: أنه بإحيائه الموتى دليل على إمكان البعث والنشور ولقد كان في احتمال الآية لهذه المعاني التي يقررها المفسرون كفاية في أنها ليست نصاً قاطعاً في نزول عيسى، ولكننا لا نكتفي بهذا بل نرجح القول الثاني وهو (أن عيسى بحدوثه من غير أب دليل على إمكان الساعة) معتمدين في هذا الترجيح على ما يأتي:

1 - إن الكلام مسوق لأهل مكة الذين ينكرون البعث ويعجبون من حديثه، وقد عني القرآن الكريم في كثير من آياته وسوره بالرد عليهم واقتلاع الشك من قلوبهم. وطريقته في ذلك أن يلفت أنظارهم إلى الأشياء التي يشاهدونها فعلاً أو يؤمنون بها (يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب) (وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت). (فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحي الأرض بعد موتها. إن ذلك لمحي الموتى) وقد عرضت سورة الزخرف التي وردت فيها هذه الآية إلى هذا المعنى في أولها (والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتاً كذلك تخرجون)

وهذه هي الطريقة المستقيمة المنتجة في الاستدلال المقتلعة للشك، أما أن يلفت أنظارهم إلى أشياء يخبرهم هو بها كنزول عيسى، وهي أيضاً في موضع الشك عندهم، ويطلب منهم أن يقتلعوا بهذه الأشياء ما في قلوبهم من شك فذلك طريق غير مستقيم؛ لأنه استدلال على شئ في موضع الإنكار بشيء هو كذلك في موضع الإنكار!

2 - ومما يؤيد هذا قول الله تعالى تفريعاً على أن عيسى علم للساعة: (فلا تمترن بها) فإنه يدل على أن الكلام مع قوم يشكون في نفس الساعة، والعلامة إنما تكون لمن آمن بها وصدق أنها آتية لا ريب فيها؛ أما الذي ينكر وقوعها أو يشك فيها فهو ليس بحاجة إلى أن يتحدث معه عن علامتها، بل لا يصح أن يتحدث في ذلك معه، وإنما هو بحاجة إلى دليل يحمله على الإيمان بها أولاً ليمكن أن يقال له بعد ذلك: هذا الذي آمنت به علامته كذا

3 - ثم إنه من الأصول المقررة في فهم أساليب اللغة العربية أن الحكم إذا أسند في اللفظ إلى الذات، ولم تصح إرادتها معنى، قدر في الكلام ما كان أقرب إلى الذات وأشد اتصالاً بها. فإذا طبقنا هذه القاعدة على قوله تعالى: (وإنه لعلم للساعة) وعلمنا أن ذات عيسى من حيث هي لا يصح أن تكون مرادة هنا، وإنه لا بد من تقدير في الكلام، ثم وازنا بين النزول، والخلق من غير أب، وإحياء الموتى، فلا شك أننا نجد الخلق من غير أب أقرب هذه الثلاثة إلى الذات، لأنه راجع إلى إنشائه وتكوينه لا إلى شيء عارض له، وحينئذ يتعين الحمل عليه ويكون معنى الآية الكريمة: (لا تشكوا في الساعة، فإن الذي قدر على خلق عيسى من غير أب قادر عليها)

وبهذا يتبين:

أولاً: أن الاختيار بنزول عيسى لا يصلح دليلاً على الساعة يقتلع به ما في نفوس المنكرين
لها من شك ويصح أن يقال عقبه (فلا تمترن بها)
وثانياً: أن جعل عيسى بنزوله آخر الزمان علامة من علامات الساعة لا يستقيم هنا، لأن الحديث مع قوم منكرين للساعة فهم بحاجة إلى دليل عليها، لا مع قوم مؤمنين بها حتى تذكر لهم علاماتها
وثالثاً: أن أقرب ما تحمل عليه الآية هو المعنى الثاني الذي بيناه.
أما بعد فهذه هي الآيات التي أوردوها في شأن عيسى من رفعه أو نزوله. ولا شك أن القارئ المنصف بعد عرضها على هذا النحو وتطبيقها على المبادئ التي ذكرنا لا يخامره شك في أنه (ليس في القرآن الكريم ما يفيد بظاهرة غلبة ظن بنزول عيسى أو رفعه فضلاً عما يفيد القطع الذي يكون العقيدة، ويكفر منكره كما يزعمون)
محمود شلتوت
عضو جماعة كبار العلماء
الحديث ذو شجون
للدكتور زكي مبارك
حياة أسيوط - الدفع مقدماً. . . - بلادة أدبية! - المعارك القلمية في مصر - الطبيعة والناس
حياة أسيوط
كان من المنتظر أن يتأذى قوم من الكلمة التي كتبتها عن أسيوط، وفي دفع تلك الكلمة تلقيت خطابين كريمين، أحدهما من الأستاذ أحمد فتحي القاضي المحامي، والثانية من الآنسة (ليلى) فماذا أقول في مناقشة هذين الخطابين؟
أذكر أولاً أن لي غاية من التجني على أسيوط، فأنا أريد التنبيه إلى أن هذه المدينة لا تأخذ حظها من الاهتمام الواجب لمدينة في مثل مكانتها التاريخية. وأنا أريد أيضاً تأييد الرأي الذي يقول بإنشاء جامعة في أسيوط لتسترد المدينة حيويتها العلمية والأدبية. وهل ينكر أحد أن من واجب الكتاب الوطني أن يدعو قومه إلى المبادرة بتزويد الحواضر الكبيرة بأزواد العلوم والآداب والفنون؟
أن أكابر أسيوط يهجرونها طائعين، رغبة في الحياة القاهرية، حياة السيطرة على المجتمع السياسي، وأنا أحب أن تعيش العصبيات الإقليمية على نحو ما كانت عليه قبل سنتين، وأتمنى أن يرى الرجل في بلده من قوة الذاتية ما يغريه بالزهد في صوت القاهرة الصخاب
وتقول الآنسة (ليلى) إني لو درست حياة أسيوط بعناية لأدركت أنها أعظم من سنتريس. وأقول إن البلاد تحيا بحب أهليها، وأنا أحب بلدي بأكثر مما يحب الأسيوطيون بلدهم الجميل
حدثني أحد أساتذة الكلية الأمريكية بأسيوط قال: إن الكلية دعت معالي الأستاذ نجيب باشا الهلالي ليكون خطيب الحفلة الختامية في هذه السنة فتفضل بالقبول ثم اعتذر بعد ذلك
فقلت: الكلية لم تراع ظروف الخطيب، فإن الهلالي باشا نفسه حدثني أنه لم يزر أسيوط منذ عشر سنين، ومن المؤكد أن هذه المدة الطويلة مرت فيها مناسبات تفرض عليه زيارة وطنه الأول، مناسبات عائلية في الأفراح أو الأتراح. فكان يكتفي بالبرقيات في التهنئة أو العزاء، فمن العسير عليه أن يعود في مناسبة وقتية لإلقاء خطاب يستطيع إرساله بالبريد
إن أراد
وأعجب ما في هذه القضية أن للهلالي باشا مصالح في أسيوط تعطلت بسبب انصرافه عن زيارة تلك المدينة، فله دار فخيمة تعرضت للتصدع بسبب هذا الانصراف
قلت لصاحبي وأنا أحاوره: هل تعرف أن للديار أرواحاً يؤذيها الجفاء؟
فقال: المعروف أن الديار مجموعة أحجار وأخشاب، فهي جمادات لا تتأثر بالهجران
قلت: هذا وهم في وهم، فالديار تتأذى بالهجر كما يتأذى الأحباب، وليس في الوجود كائن بلا روح، ولو كان في الاصطلاح من الجماد
يستطيع الهلالي باشا أن يعتذر لداره بالشواغل التي تصده عن زيارة أسيوط، ولكن لي

رأيا آخر، هو أن نجعل زيارة دورنا بالأقاليم النائية من شواغلنا الأساسية، فلتلك الديار حقوق، وهي أيضاً من ضمائر الوطن الغالي
وبماذا يجيب الهلالي باشا لو دعوته إلى بناء دار بأم درمان أو الخرطوم؟
لو التفت هذه الالتفاتة لكان من السهل عليه أن يخلق لمصر صداقات جديدة في السودان
بإحدى المحاضرات الافتتاحية في الكولليج دي فرانس ألقى علينا المسيو ماسينيون محاضرة عن مشاهداته في إيران، وبعد المحاضرة سألته عن السبب في كثرة أسفاره إلى إيران، فأجاب: ألا تعرف أن لي داراً هنالك؟
وفي مقابل هذا أذكر أن كبيراً من كبرائنا باع أملاكه في بلده لتكون ثروته في القاهرة، عساه يشرف عليها بلا عناء
ومع هذا يعاب على أن أقول إن أكابر أسيوط يهجرون أسيوط!
يجب أن نقول ونقول ثم نقول بأن الإقبال على الحياة القاهرية سيؤذي الأقاليم المصرية أشد الإيذاء
هذا مع أن النيل يرشدنا إلى الواجب في كل لحظة باختياره الموفَّق لأطايب البقاع، ولو سايرنا النيل في هواه لكان عندنا مئات مت غُرر البلاد
وهل ننسى أننا لم ننشئ مدينة جميلة في (القناطر الخيرية) وهي بقعة لا نظير لها في أي أرض؟
وقطار الإسكندرية يمر بنا على مدينة اسمها (كفر الزيات) على موقع من أجمل مواقع النيل، فما تلك المدينة؟ ومتى تخطر في البال؟
والنيل بين زفتي وميت غمر على جانب العظمة الطبيعية والجمال الأصيل، فأين من فكر في الاستظلال بتلك العظمة وذلك الجمال؟
إن الحمائم والعصافير تعرف من سرائر بلادنا ما لا نعرف ألم أحدثكم مرة أن لها مغاني في أكثر البقاع المصرية؟
لكل مكان في مصر روح وأرواح، وبلادنا نشأت أول ما نشأت على فطرة الاستقلال، فقد كان لكل قطر من أقطار مصر سيادة محلية، وكان بكل قطر من أقطار مصر سادة يتعالون باسم الشرف والجود، فكيف نحول هذه القوى إلى بقعة واحدة هي البقعة القاهرية؟
هل نتعزى بأن يقال إن القاهرة أعظم مدينة في الشرق ونحن نعرف أنها تجنى على الحواضر المصرية بغير حق، كما تجنى أسيوط على منفلوط؟
وهنا يجيء حديث المناطق في وزارة المعارف، وقد سمعت أن نظام المناطق في طريق الإلغاء
وأقول بصراحة إن أول وزارة عرفت نظام المناطق هي وزارة الداخلية، وهي لا تستطيع التخلي عنه بأي حال، لأنه أفضل الأنظمة في صيانة الحياة الداخلية، ولأن المشرفين عليه كانوا السبب في تنظيم حواضر البلاد
وإذا استطاعت وزارة المعارف أن تمنح ممثليها بالأقاليم قوة تشبه القوة الممنوحة لممثلي وزارة الداخلية فستظفر الأقاليم بإصلاحات قائمة على أساس الفهم والذوق، وقد تفك الحصار المضروب على رجال التعليم، وهم رجال عوقتهم الظروف عن تحقيق ما يريدون في إصلاح الأقاليم
هل يعرف أحد كيف يجوز أن يكون ممثل وزارة الداخلية هو الرجل الأول في المديرية، ولا يكون مثل هذا الحظ لممثل وزارة المعارف؟
نحن اخوة، فكيف نفترق في الواجبات ولم نفترق في الحقوق؟ ما الذي يمنع من إعطاء مدير التعليم فرصة الإصلاح الممنوحة لمدير المديرية؟
أنا أوجه القول إلى وزير المعارف، وأسأله برفق عن تعطيل مواهب رجال التعليم في الأقاليم، وفي مقدورهم أن يخدموا الإصلاح خدمات عظيمات؟
لقد اقترحت أن يكون وزير المعارف هو الوزير الأول، ليكون المعلم هو الرجل الأول، فهل كنت في هذا الاقتراح من المسرفين؟
إن كان ذلك فأنا أطالب معالي وزير الأشغال بأتعابي، وقد وجهت إليه كلاماً عن (نفق شبرا) يستحق ألوفاً من الجنيهات فليدفع الأتعاب قبل أن أقاضيه بمحكمة مصر الجديدة. . . وهل في مصر الجديدة محكمة أهلية؟

هذا إشكال جديد، وسأخاصم فيه وزري العدل بعد حين!
ثم ماذا؟ ثم يبقى القول في رد ما جاء بالخطابين الكريمين، خطاب ابن منفلوط، وخطاب بنت أسيوط، فإلى اللقاء!
الدفع مقدماً. . .!
من العبارات المألوفة في البيع والشراء عبارات: الدفع مقدماً، والدفع فوراً، والدفع بالتقسيط
والمفهوم أن الدفع مقدماً أدل على النفاسة من الدفع فوراً، أما العبارة الثالثة فهي شاهدة بهوان المعروض. وكل معروض مهان
ولكن ما الرأي إذا التقسيط من تلطف البائع، لا من هوان المبيع؟
ما الرأي إذا كانت السلعة المبذولة غنيمة وجدانية لا تقوم بالمال، وإنما تقوم بقصيدة أو مقالة تؤخذ أقباسها من لهيب الروح؟
ألا يكفي أن تصبح ذمة الكاتب والشاعر في غنى عن الضمان؟
سأرى كيف أصنع في سداد الديون بالتقسيط. ولعلني أسارع ليكون من حقي أن أطمع في غنائم جديدة من غنائم الوجدان، في المدينة التي قال فيها أحد الشعراء:
ولا عيب فيها أن نسميها ... يزيد سعير القلب وقداً إلى وقد
بلادة أدبية
هي بلادة الأدباء الذين يسألون من وقت إلى وقت عن السبب في خمود نار الخصومة بيني وبين الدكتور طه حسين. وإني لأنظر فأرى لهم غاية من تأريث تلك الخصومة، لأنها تشفى صدوراً يعجز أصحابها عن الوقوف موقف الخصماء
إن خصومتي للدكتور طه حسين خصومة أدبية لا شخصية، وسأخاصمه كلما لاحت فرصة لنقد ما يصدر عن قلمه من آراء، وهو لا يزال في الميدان فليس من البعيد أن أرجع إليه بعد أسبوع أو أسابيع
المهم هو تسجيل هذه الظاهرة الغريبة، ظاهرة البلادة الأدبية عند بعض الأدباء البهاليل، فما الذي يصدهم عن نقد الدكتور طه بأقلامهم إن كانوا يرون في مذهبه الأدبي شيئاً من الاعوجاج؟
إن الذين يتوهمون أن في مقدورهم أن يثيروني على الدكتور طه حسين بمثل ما توسل به أحدهم من النمائم لفي ضلال، فما يستطيع قلمي أن يصول بغير الحق، ولو في مناوشة أعدى أعدائي، على فرض أن الدكتور طه من الأعداء، وله في قلبي مكان
المعارك القلمية في مصر
لخصت مجلة الصباح الدمشقية ما دار بيني وبين الأستاذ عباس العقاد من صيال، ثم قالت:
هذا نمط من المعارك القلمية التي تثور في مصر اليوم، وبمثل هذا النقد اللاذع (يتراشقون)
والجواب حاضر، فمصاولة الأدباء المصريين بعضهم لبعض لا تغض من النهضة الأدبية في الديار المصرية، وإنما هي شاهد صادق على حيوية الأدباء المصريين
قلت مرة ومرات: إننا نختلف أقل مما يجب، ويا ويلنا إذا لم نختلف!
فإن شاء رفاقنا في دمشق أن يعدوا الاختلاف من عيوبنا فهم مخطئون
ألم أقل لكم: إن السلام ضرب من الموت؟
الطبيعة والناس
في اللحظات التي يتزحزح فيها برد الشتاء من وضع إلى وضع تبدأ الطبيعة بإعداد الخلائق الجديدة في عوالم الشجر والنبات والطير والحيوان
والأمر كذلك في حياة الناس. . . ألم تسمعوا بهجوم الربيع في دنيا الحرب؟
كان ذلك لأن الربيع يوقظ القوى الغافية، قوى الحب والبغض، والصلح والقتال
أكتب هذا وقد سمعت ما سمعت وقرأت ما قرأت من أخبار العراك في مجلس النواب. فما دلالة هذا العراك؟ وهل يحط من أقدارنا في أنظار أهل الشرق والغرب، كما قيل؟
الرأي عندي أن مصر غنمت بهذا العراك غنائم لم تكن تخطر في البال، فقد ظهر جلياً أن عندنا خطباء من الطراز الأول في اللغة العربية، وظهر جلياً أن عندنا رجالاً من أصحاب الأعصاب الحديدية. وهل من القليل أن يكون عندنا وزراء يقضون نهارهم في

مكاتبهم على خير حال من النشاط، ثم يقضون صدر الليل في مصاولات برلمانية تفل الحديد؟
ماذا يقول الجيل المقبل حين يرى مضابط البرلمان؟ ماذا يقول؟
كل ما أتمناه أن تدوم هذه اليقظة العقلية والروحية على نحو ما رأينا من القوة والحيوية، ليعرف الجيل المقبل أن آباءه كانوا أصحاء في الأرواح والعقول، وأنه جدير بأن يخلفهم في ميادين المنطق والفكر والبيان
أظهر ما عيبت به تلك المصاولات هو صدور ألفاظ نابية على ألسنة بعض النواب، فهل تفردنا بخلق تلك الألفاظ، ولها نظائر في جميع اللغات؟ وهل كان مجلس النواب مجلس سمر لا يدور فيه غير مصقول الأحاديث؟
إن خصوم الحكومة قالوا فيها ما قالوا، وقالت فيهم ما قالت، وعرف الجمهور عن طريق العلانية كل شيء، برغم قيام الأحكام العرفية
إن موقفي موقف المؤرخ لعهد من عهودنا الأدبية في البلاغة البرلمانية، وهي بلاغة وصلت إلى غاية من أرفع غايات البيان، وشهدت بأن للفكر في مصر أقطاباً وأساطين.
زكي مبارك
2 - أدباؤنا والمسرح
للأستاذ دريني خشبة
تكلمنا في الكلمة السابقة عن السبب الأول من أسباب عقم الإنتاج المسرحي بين أدبائنا المصريين، وذكرنا أن هذا السبب الأول هو تأخر الترجمة في مصر، وضآلة النقل الفني المسرحي، إن لم يكن انعدامه. . . ثم وزعنا جريرة هذا التأخر فتكلمنا عن نصيب كل من كبار أدبائنا، وكلية الآداب، ووزارة المعارف ممثلة في إدارة الترجمة من هذه الجريرة. . .
4 - وتأتي بعد ذلك جريرة دور النشر، ودور النشر مع الأسف الشديد يملكها ويسيطر عليها تجار لا يعرفون للأدب طعماً ولا لوناً، ولا يفهمون منه إلا أنه مغنم لهم ومغرم على الأدباء المساكين، فهم دائماً يلقون في روع الأديب أن طبع كتابه مجازفة قد تجر على داره الخسارة إن لم يدع أنها تجر عليها الخراب والإفلاس، وأنه - أي صاحب الدار يريد أن يضحي والسلام، فإما أفلحت التضحية وإما (أهي خدمة للأدب والسلام!!) - والسلام الذي يتمشدق به هذا التاجر أو ذاك من أصحاب دور النشر هو السم الذعاف الذي يجرعه للأدباء. على أننا لا ندري لماذا تقف لجان الترجمة والتأليف والنشر من شباب الأدباء نفس الموقف الذي تقفه منهم دور النشر التجارية، مع ما تبذله الحكومة لهذه اللجان من المعونات المتواضعة أحياناً السخية أحياناً أخرى؟ ولا ندري أيضاً لماذا تتفشى روح البيرقراطية الأدبية بين السادة القائمين بأمر هذه اللجان؟ إن الشباب من الأدباء يداولون فيما بينهم ألواناً من الشكاوي التي لها ما يبررها بلا ريب، وقد أثبتت أحوالنا الأدبية أن مشايخنا الأدباء المصنفين لا يصلحون بحال للانتاج المسرحي لما صح من أنهم عاشوا أعمارهم الطويلة المباركة هذه ولم يلتفتوا قط إلى أهمية الأدب المسرحي بدليل أنهم لم ينتجوا فيه شيئاً قط ولم يترجموا له شيئاً قط. والذي لا شك فيه هو أن الشباب من الأدباء أقدر على هذا كله من أساتذتهم أدباء أمس الدابر. فإلى أن ينظم أدباء الشباب أمورهم يجب أن يتقدموا إلى الدولة بطلب المعونة التي تبذلها لمشايخ الأدباء، ولكن عليهم قبل ذلك أن يستعدوا. . . فلا يتقدموا لطلب هذه المعونة وأيديهم فارغة، وإلا أضحكوا الدنيا كلها عليهم. . . وإذا هم أقبلوا على نقل المسرحيات الأجنبية إلى اللغة العربية فإنهم بذلك يؤدون خيراً مزدوجاً لنهضة المسرح المصري أولاً ولأنفسهم ثانياً
5 - أما نصيب أغنيائنا من هذه المسئولية فنحن نكتب عنه، ثم نغضي، لأننا أعرف بالنتيجة، ولكنها فرصة طيبة للتكلم عن نصيب الأغنياء في بعض الأمم وفي عصور التاريخ المختلفة في إحياء النهضة الأدبية على العموم، والأدب المسرحي على الخصوص، ففي اليونان القديمة كان الشاعر من شعراء المآسي ينظم مأساته ثم لا يذهب إلى بيوت الأغنياء كي يبذل لديهم ماء وجهه ابتغاء أن يتولى أحدهم الإنفاق على إخراج هذه المأساة، وكان إخراجها يقتضي القناطير المقنطرة من المال، بل كان الأديب لا يلبث أن يذيع في الأوساط الأدبية أنه يوشك أن يتم مأساته التي نظمها في موضوع كذا حتى يتهافت عليه الأغنياء يعرضون العروض السخية لكي يتم لأحدهم

شرف إخراج هذه المأساة. . . وإذا علمنا أن كلا من إسخيلوس وسوفوكليس وبوريبيذز وأرستوفان (وعشرات غيرهم من رجال المسرح اليوناني) قد ألف أكثر من مائة مأساة أو ملهاة، وأن الدرامة الواحدة كانت تكلف الموسر الذي يتولى الإنفاق على إخراجها أكثر من ثلاثة آلاف من الجنيهات، عرفنا كيف كان أغنياء اليونانيين يجودون بملايين الجنيهات. ولا نقول بمئات الألوف - في سبيل تشجيع الأدباء والنهضة المسرحية في ذلك العصر اليوناني القديم - ولا يحسبن القارئ أننا ننفخ في كلمتنا هذه روح المبالغة بذكر تلك الأرقام التي كان سراة اليونانيين يسخون بها على مسارحهم وتيسير أحوال شعرائهم، فقد كان الشاعر ومساعداه ورجال الخورس - ويتراوح عددهم بين الخمسين والثمانين - يأكلون ويشربون ويسكنون ويقبضون أحسن الرواتب لمدة ثلاثة أو أربعة أشهر حتى يتم إخراج الرواية على حساب هذا المثري كما كان يدفع لهم ثمن الملابس التمثيلية (أربعة أطقم لكل منهم) وأثمان الملابس التنكرية التي كانت مرتفعة جداً، فإذا بدأ التمثيل تولت الدولة الإنفاق على هؤلاء الممثلين وإعطائهم رواتب حسنة، كما كانت تسبغ على الشاعر أجزل المكافآت (غير راتبه الخاص)

كان هذا في اليونان من أربعمائة وألفين من السنين. . . أما في أوربا، فقد لقي المسرح ما يقرب من هذا التشجيع في جميع الممالك وفي فرنسا وإنجلترا خاصة. . . ففي إنجلترا مثلا كانت تتكون النقابات التمثيلية أو من أرباب الحرف المختلفة، وذلك بعد أن انتقل زمام التمثيل إليها من أيدي رجال الأكليروس في الطور الثاني من أطوار حياة المسرح

الإنجليزية. وكان لكل طائفة من الصناع نقابتها التمثيلية الخاصة بها، فثمة نقابة للدباغين وثانية للسقائين وأخرى لتجار الأقمشة. . . الخ. وكان أصحاب رؤوس الأموال ومدير والمصانع ينفقون على هذه النقابات ويمدونها بالأموال الضخمة لما اضطلعت به من إخراج الروايات القديسية أو الكرامية فكانت النقابات بدورها لا تألو جهداً في الإنفاق عن سعة على الإخراج حتى تبلغ به حد الإتقان استعداداً للمواسم التمثيلية التي تشبه ما كان يقام منها عند اليونانيين القدماء في أعيادهم الدينية، والتي كانت تقام في الأعياد الدينية الإنجليزية أيضاً، مثل عيد الميلاد وعيد الفصح وأحد العنصرة وعيد الجسد أو القربان المقدس. . . الخ. وقد نالت نقابات بعض المدن شهرة كبيرة أدت إلى تنافس شديد بين المدن الإنجليزية كي يبز بعضها بعضاً في الكمال التمثيلي. وكان هذا التنافس الشديد سبباً في أن تضاعف النقابات، وبالأحرى الأغنياء من أصحاب رؤوس المال، ما ينفقون على فرقهم التمثيلية. . . فهذا اتحاد نقابات لندن ينافس اتحاد كوفنترى، كما ينافس اتحاد دبلن اتحاد يورك، وكما تتنافس شسنر ولاتكستر وبرستون. . . وهكذا كانت جميلة رائعة حرب السلام والفن والفكر والأدب هذه بين سائر المدائن الإنجليزية في فجر النهضة التمثيلية في القرن الرابع عشر. وأظرف من هذا التنافس بين المدن، التنافس المحلى الذي كان ينشب بين أحياء المدينة الواحدة لكي يفوز أحدها بتمثيل الرواية فيه دون الأحياء الأخرى، فكانت الأحياء تتبارى في إجزال العطاء لفرق النقابات كي تفوز بهذا الشرف، وكانت الفرق مطلقة الحرية في قبول العطاء الأسخى. وكثيراً ما كانت العطاءات تنيف على الخمسمائة جنيه للحفلة الواحدة، وكثيراً ما كان العرض يستمر لمدة ثمانية أيام متتالية للرواية الواحدة كما حدث في رواية (طوفان نوح) التي مثلت في إسخلين بلندن سنة 149 في عهد الملك هنري الرابع. فهاتان منافستان. ثم كانت هنالك منافسة من نوع ثالث بين المنازل نفسها، فالمنزل الذي يساهم في العطاء بأكثر مبلغ هو الذي يفوز بتمثيل الرواية أمامه، وكان أصحاب المنازل يتبارون من أجل ذلك في الدفع حتى كان أحدهم يدفع قرابة الخمسمائة جنيه حتى لا ينتصر عليه في مضمار المباهاة أحد أعيان الناحية!! وكانت أجور الممثلين والمنشدين مرتفعة جداً حتى كانت تصل إلى خمسة جنيهات عن الحفلة الواحدة وذلك بعملتنا الحاضرة، وقد كان ذلك سبباً في دخول الاحتراف المسرحي في إنجلترا. ولما حدث

هذا الإقبال العظيم من الشعب على شهود التمثيل اضطرت النقابات إلى المؤلفين الذين ينتجون الروائع في سرعة فنشأ الاحتراف في التأليف أيضاً. غير أن مؤرخي المسرح الإنجليزي يقررون بكل أسف أن النقابات كانت تعتصر دماء المؤلفين بالثمن

البخس، وكان عنصر الربا يدخل في المعاملة بينها وبين المؤلفين لتذلهم إذلالاً، وتربط حياتهم بها ربطاً محكما حتى لا تغر بهم النقابات الأخرى بالعطاء الأجزل. . . وذلك من قبيل ما تبديه دور النشر عندنا من جشع

ذلك بعض ما كان يسخو به الأغنياء الإنجليز لتعضيد المسرح وما كان يحدث أعظم منه في فرنسا، فمتى يصل هذا الصوت إلى أغنيائنا فيشاركوا في صناعة الذوق العام لهذه الأمة بإحياء المسرح المصري؟

6 - وإذا كنا نطمع أن يعضد أغنياؤنا الأدب المسرحي - وسيضحك القراء جميعاً حين يقرأون هذا الهذيان! - فنحن نطمع في أن يتشبه أمراؤنا بأمراء أوربا في عصر النهضة، وذلك بحماية المؤلفين ورعاية الأدباء المسرحيين بوجه خاص. فالأمير الذي يساعد مؤلفاً أو يوفر الراحة الذهنية لشاعر، إنما يقدم لأمته أثمن هدية في الحياة. . . إنه يقدم لها قلباً من القلوب النابضة، وقريحة من القرائح الخصبة التي تشيع فيها النشاط وترد إليها العزة. . . وكل من درس تاريخ النهضة وإحياء العلوم في أوربا يذكر أن هذه النهضة العجيبة التي عم خيرها جميع شعوب الأرض هي من صنع أمراء فلورنسا من أسرة دى مديشي تلك الأسرة التي كانت تنفق معظم أرباحها التجارية في شراء الكتب والمخطوطات مهما كانت أثمانها عالية باهظة، كما كانت تحمي العلماء والأدباء ورجال الفكر، والتي أنشأت في فلورنسا تلك الأكاديمية الفلسفية لدراسة آراء الفلاسفة الإغريق فكانت أول منارة شع نورها في ظلمات أوربا السادرة في الجهالات. وستظل أسماء كوزيمو وحفيده لورنزو وابن لورنزو الثاني جيوفاني دىمديشي كواكب ساطعة على الزمن في سماء النهضة العالمية، فإليهم يرجع الفضل في إحياء التراث اليوناني الخالد من فلسفة وأدب، وذلك بما أنفقوا من حر مالهم في سبيل الحصول على مخطوطات أفلاطون وآرسطو وأدباء المسرح اليوناني القديم، مما قدره علماء الببليويلزم (جمع الكتب والمخطوطات القديمة) بملايين الجنيهات كذلك يعلم كل من درس تاريخ النهضة ما كان لأمراء بافاريا وغيرها من الولايات الجرمانية من فضل على النهضة الألمانية. وكان لحماة الأدباء من لوردات إنجلترا أكبر الأثر في رعاية المسرح الإنجليزي، وكل من له معرفة بشكسبير يعلم تلك الصلة الخالدة التي كانت بينه وبين هنري ريوتسلي (إرل أوف سوثمبتون). الحق. . . أنه قد آن أن يكون للوطن حق معلوم في الأموال المصرية التي تفتقر إليها العبقريات المصرية. ولن تنسى مصر تلك اليد التي أسداها إلى الفنون الرفيعة واحد من أبر أمرائها

وبعد، فقد أطلنا القول في أسباب تأخر الترجمة وما جرت إليه من تأخر الآداب المسرحية في مصر، وما أدى إليه ذلك من فقر الأدب العربي الحديث بالقياس إلى آداب الأمم المتحضرة. إذ نكاد نكون الأمة الوحيدة - بين جميع الأمم - التي ليس لها أدب مسرحي تقريباً.

ومن أسباب عقمنا في الإنتاج الأدبي المسرحي هذا التهيب الذميم الذي نتناول به تاريخنا الديني والسياسي. والمدهش أن الأدباء إنما يخشون رجال الدين وما عساهم أن يحدثوا من ضجة إذا هم وضعوا درامات مشتقة موضوعاتها من أحداث التاريخ الإسلامي، وما أروع أحداث هذا التاريخ! وهذا الذي يخشاها الأدباء في مصر، حدث ضده في تاريخ المسرح الأوربي الحديث، فقد نشأ التمثيل أول ما نشأت أوربا في الكنائس والبيع، وكان الأحبار والقسيسون والرهبان والعرفاء هم الذين ابتدعوا الدرامات الإنجيلية والدرامات الكرامية وأخذوا موضوعات النوع الأول من الكتاب المقدس مع المحافظة على حرفية القصص، كما أخذوا موضوعات النوع الثاني من خوارق القديسين ومعجزات الأنبياء وكرامات أهل التقى والورع. ولما رأى رجال الدين إقبال الشعب على شهود تمثيلياتهم الدينية هذا الإقبال فكروا في تنشئة صبيان البيع على هذه الصناعة الجديدة فكان الاحتراف في التمثيل، وبذلك وجد عمل شريف عظيم لهذه الكثرة من رجال الدين - غير المتفقهين - ممن عندنا منهم آلاف مؤلفة احترفت قراءة القرآن بأبخس الأثمان على المقابر والمزارات وفي المنازل والمتاجر للتبرك مما يستنكره ديننا وتأباه كرامة الإسلام وتألم له روح نبينا العظيم ويبغضنا الله من أجله. . . فلو أن الذي حدث في أوربا حدث بعضه عندنا لخلصنا من هذا الخرى

المنتشر بيننا مما جعلنا أمة جنائزية عجيبة الأحوال. . . وإذا كنا نحرص على عدم تمثيل شخصيات الرسل الكرام توفيراً للوقار الذي ينبغي لهم، مع أن القصص العظيم الذي جاء به القرآن هو أسمى ألوان القصص التمثيلي الذي تندق دون تقليده أعناق المقلدين، فما بالنا جعلنا الانصراف عن ذلك عاماً بحيث شمل جميع الموضوعات الدينية والشخصيات الدينية؟ إن في سير صحابة الرسول الكريم آيات من القصص التمثيلي لو عرفنا كيف نبرزها عن المسرح لتوفرت لنا مئات من التمثيليات الرائعات التي تزري بما هو نوعها عند الأمم الأخرى. . . وأقول مرة أخرى إنني وأنا أكتب ذلك الكلام الآن ألمح هذه الابتسامات الساخرة ترقص على بعض الشفاه التي لم تشد قليلاً ولا كثيراً من تاريخنا الإسلامي - على أنها شفاه جاهلة لا تزن ما للدين من أعمق الأثر في توجيه الأمة المتدينة - على أنني أيضاً لست أريد أن نبدأ في نهضتنا المسرحية من حيث انتهت أوربا، وإلا تكون دعوة إلى نكسة لا تليق بنا، لكنني أرى استغلال الروائع العظيمة من سير الصحابة الذين يجلهم الشعب في إيجاد مسرحيات دينية تمس روح الشعب الدينية وتلعب على أوتاره الحساسة في سبيل النهوض به وهدايته إلى مثله الأعلى الذي يرفعه إلى منازل العز والسؤدد الأخلاقي. يجب أن نفهم روح العصر ونتخذ الوسائل المستحدثة في الوصول إلى روح الجماهير، ويجب ألا نتخلف عن موكب الإنسانية فنتخذ وسائل عقيمة غير التي يتخذها هذا الموكب وإلا كنا شذاذاً - ويجب أن نصنع ذلك ما دام لا يناقض ديننا. . . إن رواية القصة على الأسماع ليس له من السحر في النفس والأسر في القلب ما تحدثه مشاهدتها على المسرح تتحرك شخصيتها، وتتحرك وقائعها، وتتحرك مشاهدها، فتثبت في الذاكرة إلى الأبد. يجب ألا نكون أميين فنفسد آذاننا عن هذه الحقائق

دريني خشبة

في التصوير الإسلامي

ليلى والمجنون

للدكتور محمد مصطفى

- 3 -

أقام المجنون بين أهله وذويه، يواسونه ويعطفون عليه، ويخصونه برعايتهم وعنايتهم، حتى تاقت نفسه إلى رؤية حبيبته ليلى، فاصطحب بعض أصحابه المخلصين، وذهب معهم إلى حي قبيلتها، فوجدوها جالسة أمام بيتها مع بعض أهلها. وعرفته ليلى فحيته وحياها، ولكنه لما أراد أن يقترب منها ليحادثها منعه ذووها. فأعاده أصحابه إلى بيت والديه مهموما حزيناً متفكراً. وظل يتفكر في أمرها حتى منعه ذلك من الطعام والشراب، وترك محادثة الناس، وصار في حد يرحمه كل من رآه من عدو وصديق، فكان يقول:

ما بال قلبك يا مجنون قد خُلعا ... في حب من لا ترى في وصلها طمعا

الحب والود نيطا بالفؤاد لها ... فأصبحا في فؤادي ثابتين معا

ولامه أهله وعذلوه وقالوا: لا خير لك في ليلى ولا لها فيك، فلو تزوجت واحدة من بنات عمك، نرجو أن يذهب عنك بعض ما بقلبك من حب ليلى، فأنشأ يقول:

قضى الله بالمعروف منها لغيرنا ... وبالشوق مني والغرام قضى ليا

أراني إذا صليتُ يممتُ نجوها ... بوجهي وإن كان المصلى ورائيا

وما بي إشراك ولكن حبها ... وعظم الجوى أعيا الطبيب المداويا

أحب من الأسماء ما وافق اسمها ... وأشبهه أو كان منه مدانيا

واشتد بالمجنون الأمر حتى خاف عليه أهله، فذهب معه أبوه وبعض رجال عشيرته إلى والد ليلى وقالوا له: إن هذا الرجل لهالك، وإنك فاجع به أباه وأهله، فنشدناك الله والرحم أن تزوجه ليلى، فوالله ما هي أشرف منه، ولا لك مثل مال أبيه، وقد حكمك في المهر، وإن شئت أن يخلع نفسه إليك من ماله فعل. فأبى وحلف بالله وطلاق أمها أنه لا يزوج ابنته هذا الرجل المجنون أبداً، فقال قيس:

ألا أيها الشيخ للذي ما بنا يرضى ... شقيتَ ولا هنيتَ من عيشك الغضّا

شقيتَ كما أشقيتني وتركتني ... أهيم مع الهلاّك لا أطعمُ الغمضا

كأن فؤادي في مخالب طائر ... إذا ذكرت ليلى يشد بها قبضا

كأن فجاج الأرض حلقة خاتم ... على فما تزداد طولاً ولا عرضا

وسمعه أبوه الملوح فأشفق عليه، وقال إن ابنه عاقل وليس به جنون، ثم التفت إليه وناداه أن يتقدم ويخاطب والد حبيبته ليثبت له عقله ورشاده. . . وتقدم قيس. . . وإذا بكلب ليلى يظهر بغتة، فيعرف فيه حبيب سيدته، ويبصبص له بذنبه. . . فلم يتمالك المجنون من أن يلقى بنفسه على الأرض، إلى جانب الكلب، ليحتضنه ويناجيه ويسأله عن ليلى. . . فكان في ذلك أكبر دليل على جنونه. ورجع أبوه معه إلى بيته حزيناً وقد خاب أمله

ولما حاول أهله مرة أخرى أن يزوجوه إحدى بنات عمه، مزق ملابسه، وفر هارباً. . . إلى حيث تأتيه ذكريات ليلى. . . إلى جبل التوباد. . . ولما دنا منه قال:

وأجهشتُ للتوباد حين رأيته ... وكَبَّر للرحمن حين رآني
وأذريتُ دمع العين لما عرفته ... ونادى بأعلى صوته فدعاني
فقلت له أين الذين عهدتهم ... حواليك في حفظ وطيب زمان
فقال مَضوْا واستودعوني ديارهم ... ومَنْ ذا الذي يبقى على الحدثان

ثم خر مغشياً عليه، فوجده بعض عابري سبيل، فأشفقوا عليه، وحملوه إلى منزل والديه

وفي (شكل 1) اجتمع الملوح بن مزاحم وبعض أقاربه بوالد ليلى يخطبونها لأبنهم قيس. ويرى قيس وقد ألقى بنفسه على الأرض يحتضن كلب ليلى ويناجيه، ويحاول أخوه عبثاً أن يجره إلى الخلف ليبعده عن الكلب. وجلس والد ليلى في الوسط وقد ثبت ما قاله عن جنون قيس، وإلى يمينه الملوح وقد ظهر على وجهه الحزن والأسى. ووضع بعد الحاضرين أصابعهم السبابة في أفواههم دلالة على ما اعتراهم من دهشة لهذا المنظر الغريب الغير مألوف لديهم. وهذه الصورة في مخطوط من منظومات الشاعر هاتفي الجامي، مؤرخ سنة 941هـ (1535م) ومحفوظ في مكتبة الدولة ببرلين.

أفاق المجنون من غشيته حائل اللون ذاهلاً، فوجدة نفسه في منزل والديه وقد جلسا إلى جانبه مع اخوته ابن عمه زياد بن مزاحم وبعض أقاربه، يبتهلون إلى الله تعالى أن يخفف عن قيس ويرد إليه عقله. وأجال المجنون بصره فيمن حوله، فتبينهم وعرف فيهم أهله

وذويه، فترك لنفسه العنان، وجعل يبكي أشد بكاء وأوجعه للقلب ويقول:

صريع من الحب المبرح والهوى ... وأي فتى من علة الحب يسلم

وتقدم الناس إلى أبيه أن يخرجه إلى مكة، ويعوذه بيت الله الحرام، لعل الله يعافيه مما ابتلى به. فخرج به أبوه، وسار معه ابن عمه زياد، الذي جعل يلازمه ويدون ما يقول من أشعار وأناشيد. ومروا في طريقهم بحمامة تنوح على دوحة، فوقف المجنون صاغياً لها يبكي، وتخلف معه زياد وقال له: ما هذا الذي يبكيك؟ سر بنا نلحق الرفقة. فأنشد المجنون:

أأن هتفت يوماً بوادٍ حمامةٌ ... بكيتَ ولم يعذِرك بالجهل عاذرُ
دَعتْ ساقَ حرٍ بعدما عَلَت الضحي ... فهاج لكَ الأحزانَ إن ناح طائرُ
يقول زيادٌ إذ رأى الحيَّ هَجَّروا ... أرى الحيَّ قد ساروا فهل أنت سائرُ
وإني وإن غالَ التقادمُ حاجتي ... مُلِمٌّ على أوْطان ليلى فناظرُ

ولما دخل مكة أمره أبوه أن يدعو الله أن ينسيه ذكر ليلى ويبغضها إليه، فقال المجنون: اللهم زدني لليلى حباً، وبها كلفاً، ولا تنسني ذكرها أبداً. فزجره أبوه وأخذه حتى أمسكه أستار الكعبة وقال له: قل اللهم أرحني من ليلى وحبها. فتعلق المجنون بأستار الكعبة. . .

ولكن قال يا ربُّ ... ملكت الخير والشرَّا
فهات الضرَّ إن كان ... هوى ليلى هو الضرَّا
وإن كان هو السحر ... فلا تُبطلْ لها سحرا
ويا رب هب السلوى ... لغيري وهب الصبرا
وهب لي موتة المُصْني ... بها لا ميتة أخرى
(شوقي)

فلما سمعه أبوه رق له، وأخذ بيده نحو (منى) يريد رمي الجمار. وكان الوقت موسم الحج، والطريق غاصة بقوافل الحجاج، تغدو وتروح بين بيت الله لحرام وجميع بلاد

العالم الإسلامي. وكان قيس يسير بين أهله متفكراً، يستقبل الريح التي تهب من ناحية نجد، وإذا به يسمع صوت حاد يتجه صوب تلك الناحية، حيث مضارب بني عامر على سفح جبل التوباد. ثم يتعالى الصوت قليلاً قليلاً حتى يظهر الحادي ومن ورائه قافلة تسير، وأنصت قيس، وإذا بالحادي ينشد في صوت عذب حنون:

هلا هلا هيَّا، إطوى الفلاطيا، وقربي الحيا، للنازح الصب جلاجل في البيد، شجية الترديد، كرنة الغرِّيد، في الفنن الرطب هلا هلا سيري، وامضي بتيسير، طيري بنا طيري، للماء والعشب طيري اسبقي الليلا، وأدركي الغيلا، العهد من ليلى، ومنزل الحب بالله يا حادي، فتش بتوباد، فالقلب في الوادي، والعقل في الشعب

(شوقي)

ولما سمع المجنون الحادي يردد في أنشودته ذكر ليلى والتوباد، صرخ صرخة مدوية وخر مغشياً عليه. واجتمع عليه قومه، وأبوه باك حزين، وجعلوا يروحون له ويرشون على وجهه الماء إلى أن أفاق مصفر اللون وأنشأ يقول:

وداع دعا إذ نحن بالخيف من منى ... فهيج أحزان الفؤاد وما يدري
دعا باسم ليلى غيرها فكأنما ... إطار بلي طائراً كان في صدري
دعا باسم ليلى أسخن الله عينه ... وليلى بأرض الشام في بلد قفر
عرضت على قلبي العراء فقال لي ... من الآن فاجزع لا تمل من الصبر

وفشا أمر المجنون بين الحجاج، فلامه بعض قومه وطلب منه أن يستشعر الصبر ويستبقي مودة الحبيب بكتمان الحب، فكان من جوابه أن قال:

إن الغواني قتَّلت عشاقها ... يا ليت من جهل الصبابة ذاقها
في صدغهن عقارب يلسعننا ... ما من لسعن بواجد ترياقها
إن الشقاء عناق كل خريدة ... كالخيزرانة لا تمل عناقها
زانت روادفها دقاق خصورها ... إني أحب من الخصور دقاقها
إن التي طرق الرجال خيالها ... ما كنت زائرها ولا طراقها

ثم انسل من بين أهله، ومزق ملابسه، ولجأ إلى جبل التوباد، حيث جعل يخطط بإصبعه في التراب، ويجمع العظام حوله، ويعاشر الظباء والوحوش.

وفي (شكل2) نرى الناس وقد أحاطوا بالكعبة الشريفة رافعين أيديهم بالدعاء لقيس أن يمن الله عليه بالفرج. بينما تعلق قيس بأستار الكعبة وهو يقول:

أتوب إليك يا رحمن مما ... عملت فقد تظاهرت الذنوب
فأما من هوى ليلى وتركي ... زيارتها فإني لا أتوب

وقد صور المصور الإيراني الكعبة الشريفة بأستارها كما هيأها خياله، وجعل الحمام يطير حولها عليها في أمن وسلام. وهذه الصورة من تصوير المصور حيدر قولي في أسلوب المصور الشهير رضا عباسي. وهي في مخطوط من المنظومات الخمس للشاعر الكنجوي كتب حوالي سنة 1034هـ (1624م) في مدينة أصفهان. وهذا المخطوط محفوظ في المكتبة الأهلية بباريس.

(يتبع)

محمد مصطفى
مساعد فني دار الآثار العربية

من تحت الأنقاض

(. . . . . .)

للأستاذ محمد محمود شاكر

حَسْرةٌ وَلَّتْ، وَأُخرَى أَقْبَلَتْ، ... كَيْفَ؟ مِنْ أينَ؟ مَتَى؟ لم أَعْلَمِ!
مَوجةٌ سوَدَاءُ تَنقضُّ عَلَى ... مَوجةٍ في بَحْر لَيْلٍ مُظْلِمِ
تَتَفَانى وَهْيَ لاَ تَفْنى، وَكَمْ ... رَدَّهَا تَيَّارُهَا كَالصَّيْغَمِ!
صَمّمَتْ، حَتَّى إِذَا مَا الْتهَمَتْ ... نُورَ أَيَّامِي طَاشَتْ في دَمِي
فَهْوَ أَموَاجُ ظَلَامٍ: لا تَرَى، ... لا تُبَالِي، لا تَعِي، لا تَحتَمِي
زَهرةٌ حَنَتْ، فَبَاحَتْ فَذَوَت ... أَذْبَلَتْهَا نَفْحةٌ لم تُكْتمِ
شَكتِ الْبثَّ لِنَجمٍ سَاطِعٍ، ... ثُمَّ ظَنَّتْ في شُعَاعٍ مُلهِمِ
شَعْشَعْت عِطراً، فَلَم يَعبأْ بِهِ ... لَثِمَ الْمَوطِئ أَمْ لَمْ يَلثَمِ
فَضَّ سِرُّ سِرَّها، فَانفَضَتْ، ... فَهوتْ سَاجدةً لمْ تُرحمِ

وَرَمَى النَّجمُ شُعاعاً وسَناً. ... ثُمَّ ضاعَ النَّجمُ بَيْنَ الأَنْجُمِ
قَدْ جَلا الوَهمُ عَرُوساً زُينَتْ ... لِبَسَتْ حِليتَها لِلمأتَمِ
إنَّما أَثْوابُها أَكفَنهُا، ... والأَغَانِي لَحْنُ قَبرٍ مُعتمِ
وَوُجُوهٌ أشْرقَتْ مِنْ نَشْوَة ... لمْ تَكُد. . . ثُمَّ هَوَت لم تَسلمِ
شَهَواتٌ أَشْعَلَتْ ثُمَّ خَبَت: ... لَمْ تكنْ إلاشَكَاةَ المُغْرَمِ
نَظرةٌ، ثُمَّ هَوى، ثُمَّ مُنى، ... ثُمَّ. . . وانْفَضَّ كأنْ لم تَحْلُمِ
لاَ أرَى إلا فَنَاء أوْ سُدًى، ... فَبَصِيرٌ في ضَلالٍ أو عَمِ
وَلَيَالٍ أَصْلَمَتْ أَنْوَارُهَا، ... وَلَيالٍ نُورُها لَم يُظْلِمِ
وَهُما الدَّهرُ. . . فلا لَيْلَ ولاَ ... صُبحَ، بَلْ وَالِدةٌ لم تَعقمِ
وَحَيَاةٌ منْ فَنَاءٍ فُجِّرتْ ... لِفَنَاءٍ في حيَاةٍ يَرْتَمِي
كُلُّهُ لَمْحُ وَميضٍ خَاطِفٍ ... ثُمَّ. . . لا شَيَء. . . فَجَاهِد أَوْتَم

محمود محمد شاكر

الأحلام - 2

للفيلسوف الفرنسي هنري برجسون

بقلم الأستاذ ألبير نادر

سبق أن ذكرت حلماً مشهوراً، وهاكم حلما آخر ربما رآه الكثير منكم. موضوعه أن يشعر الإنسان بأنه يطير ويرفرف ويمر بالفضاء دون أن يلمس الأرض. فإذا ظهر هذا الحلم مرة ففي الغالب يحاول أن يظهر مرة أخرة، وفي كل مرة تقول: (كثيراً ما حلمت أني أطير فوق الأرض، ولكنني في هذه المرة مستيقظ تماماً - الآن أعرف وسأبين للآخرين - أنه يمكننا أن نتحرر من قانون الجاذبية. فإذا استيقظت فجأة أظن أنك تجد الآتي: تشعر بأن قدميك فقدتا نقطة ارتكازهما، بما أنك كنت متمدداً فعلاً. ومن جهة أخرى اعتقادك بعدم نومك هو عدم شعورك بالنوم. كنت تقول في نفسك إنك لم تلمس الأرض بالرغم من أنك كنت واقفاً. هذا هو الاعتقاد الذي كان يزيده فيك حلمك في الحالات التي تشعر فيها أنك تطير. لاحظ أنك تظن أنك تقذف بجسمك إلى الجانب يميناً أو شمالاً وأنت ترفعه بحركة ذراع فجائية كأنها ضربة جناح، ولكن هذا الجانب هو نفسه الجانب الذي كنت نائماً عليه، استيقظ تجد شعورك بمجهودك لتطير هو نفس الشعور بضغط الذراع والجسم على السرير، وضغط الذراع والجسم هذا إذا فصل عن سببه لم يعد إلا شعوراً غامضاً ناتجاً عن التعب وسببه المجهود. وإذا ارتبط هذا الشعور بالضغط باعتقادك بأن جسمك ترك الأرض، يتحول هذا الشعور إلى شعور واضح بمجهود للطيران

من المهم أن نلاحظ كيف أن احساسات الضغط عندما تصعد إلى الحقل البصري وتستفيد من الغبار المضيء الموجود فيه يمكنها أن تتحول حينئذ إلى أشكال وألوان. حلم ذات يوم ماكس سيمون أنه أمام كومتين من قطع الذهب، وأن هاتين الكومتين غير متساويتين، وكان يحاول أن يسويهما ولكن عبثاً. فشعر بانقباض شديد، وازداد هذا الشعور من لحظة إلى أخرى حتى أيقظه. فلاحظ حينئذ أن ساقاً من ساقيه كانت معاقة بثنايا الغطاء، وأن قدميه لم تكونا في مستوى واحد، وكانت كل واحدة تحاول عبثاً الاقتراب من الأخرى، فبدون شك نتج عن ذلك شعور مبهم بعدم المساواة، وانتشر في الحقل البصري حيث قابل (وهي النظرية التي أقدمها) نقطة صفراء أو أكثر، وظهر على شكل بصري بواسطة عدم التعادل

هذا بين كومتي قطع الذهب. فيوجد إذاً في باطن الاحساسات اللمسية أثناء النوم استعداداً لكي تتحول إلى احساسات بصرية وتدخل على هذه الصورة في الحلم وأهم من هذه الاحساسات الخارجية احساسات اللمس الداخلي الناتجة من جميع أجزاء الجسم، لا سيما الحواشي. فالنوم يمكنه أن يمنحها، أو بالأحرى أن يهبها دقة وحدة فريدتين. أن هذه الاحساسات موجودة بدون شك زمن اليقظة، ولكننا نكون غافلين عنها بسبب الحركة لأننا نعيش حينئذ خارجاً عن أنفسنا، ولكن النوم يجعلنا نعود إلى أنفسنا

يتفق أن بعض الأشخاص المعرضين لالتهاب الحلق أو الغدد يشعرون بأن هذه النوبات انتابتهم ضمن حلم، ويشعرون حينئذ بوخزات مؤلمة جهة الحلق. وعند ما يستيقظون يقولون إنها وهم وحسب؛ ولكن مع الأسف سرعان ما يتحقق هذا الوهم. يذكرون أن

أمراضاً وعوارض خطيرة مثل ذبحة صدرية ونوبة قلبية. . . كانت قد ظهرت وتنبأ عنها في الحلم. فلا نندهش إذا رأينا فلاسفة مثل شوبنهور يقولون إن الحلم يشخص أمام الوجدان اهتزازات صادرة من الجهاز العصبي السمبثاوي، وإذا رأينا علماء نفس مثل شرنر يقولون إن كل عضو له مقدرة خاصة لينتج أحلاما نوعية تمثله تمثيلاً رمزياً، وأخيراً إذا رأينا أطباء مثل أريتج يكتبون مجلداً عن (قيمة الأحلام وما تنبئ به)، وعن طريقة استعمال الحلم لمعرفة نوع الأمراض، وحديثاً بين تيسيه: كيف أن خللاً في الهضم، أو في التنفس، أو في الدورة الدموية، يظهر في أحلام معينة

خلاصة ما تقدم: أننا أثناء النوم الطبيعي لا تكون حواسنا مقفلة تماماً للتأثيرات الخارجية. نعم إنها حينئذ لا تكون على نفس الدقة التي لها زمن اليقظة، بل عوضاً عن ذلك تصادف كثيراً من التأثيرات الشخصية التي لم نكن نشعر بها أثناء اليقظة عندما كنا نتحرك في عالم خارجي مشترك لجميع الناس، ولكنها تظهر أثناء النوم حيث أننا لا نعيش عندئذ إلا لأنفسنا فقط. ولا يمكننا أن نقول إن إدراكنا يتقيد عندما ننام بل بالعكس فالإدراك يوسع حقل عمله في بعض الاتجاهات على الأقل. نعم إنه يفقد دقة ما يكسبه في التوسع لأنه يأتي إلا بالمسهب والمبهم مما يدل على أننا نصنع الحلم بواسطة إحساس حقيقي

كيف نصنع الحلم؟ إن الاحساسات التي نستخدمها كمادة تكون مبهمة وغير معينة. لنأخذ مثلاً الاحساسات التي تبدو في الصف الأول أي البقع الملونة التي تتطور أمامنا عندما

يكون جفنانا مغلقين - ترى سطوراً سودا على مسطح أبيض يمكنها أن تمثل سجادة أو صفحة مخطوطة أو عدة أشياء أخرى أيضاً. من الذي سيجري الاختيار؟ أي شكل سيعين هذه المادة غير المعينة؟ هذا المشكل إنما هو التذكر - لنلاحظ أولاً أن الحلم عادة لا يخلق شيئاً. نعم يذكرون بعض الأمثلة عن عمل فني أو أدبي أو علمي نفذ أثناء الحلم، ولا أذكر هنا إلا المثل الأكثر شيوعاً: كان تارتيني - وهو موسيقي عاش في القرن الثامن عشر - يجد في تأليف قطعة موسيقية، ولكن قريحته كانت عاصية، فنام. وهاهو الشيطان قد ظهر له بنفسه واستولى على القيثارة وعزف القطعة المنشودة. ولما أستيقظ تارتيني سطر هذه القطعة من ذاكرته ووهبها لنا تحت أسم (أنشودة الشيطان). ولكن لا يمكننا أن نستخلص شيئاً من قصة مختصرة كهذه. يجب أن نعرف هل كان تارتيني جاداً في إتمام هذه الأنشودة عندما كان يتذكرها؟ إن مخيلة النائم الذي يستيقظ تضيف في بعض الأحيان شيئاً إلى الحلم وتبدله بمقتضى فاعلية رجعية وتسد ثغراته التي يمكنها أن تكون عديدة. بحثت عن ملاحظات أدق وخصوصاً أكثر صدقاً فلم أجد سوى ملاحظة الروائي الإنجليزية استيفنسن في كتاب عنوانه (فصل في الأحلام): يخبرنا استيفنسن أنه ألف أو بالأحرى رسم في الحلم قصصه الأكثر غرابة. لنقرأ بإنغام الفصل نجد أن المؤلف عاش فترة من حياته بحالة نفسية لم يتمكن أثناءها أن يعرف ما إذا كان نائماً أو مستيقظاً. إني أعتقد أنه ليس هناك نوم عندما ما تخلق (تبدع) النفس شيئاً، وعندما تقوم بالمجهود الذي يتطلبه تأليف عمل أو حل مسألة. وعلى الأقل جزء النفس الذي يعمل ليس هو الجزء الذي يحلم. فالجزء الأول يعمل في ثنايا الوجدان الخفية (العقل الباطن) باحثاً ولكن بدون أي تأثير على الحلم، وهذا البحث لا تظهر نتيجته إلا عند اليقظة. . . أما بخصوص الحلم ذاته فما هو إلا إحياء الماضي. ولكن هذا الماضي يمكننا أن نتعرفه، فيكون في غالب الأحيان حدثاً قد نسيناه، أو ذكرى بدت لنا كأنها زالت ولكنها في الحقيقة كانت متوارثة في أعماق الذاكرة. وفي الغالب تكون الصورة المتذكرة صورة شيء أو حدث نظرناه ونحن غير مبالين وبدون أن نشعر به تقريباً وقت اليقظة. وتوجد خصوصاً أجزاء ذكريات مشتتة تجمعها الذاكرة من هنا وهناك وتقدمها إلى وجدان النائم على شكل غير متماسك. فأمام هذه المجموعة التي لا معنى لها يبحث العقل عن معنى (والعقل يستمر في التعقل مهما قيل في ذلك) والعقل ينسب

عدم التماسك هذا لثغرات يسدها بمناجاة ذكريات أخرى تبدو غالباً بدون نظام، وتتطلب بدورها تعبيراً جديداً، وهكذا دواليك. ولكني لا أريد الشرح الآن وإنما أقول إجابة عن السؤال الموجه منذ لحظة: أن التذكر هو القوة التي ترشد إلى المواد الصادرة عن أعضاء الحس، والقوة التي تحول إلي أشياء واضحة ومعينة تلك التأثيرات

المبهمة الصادرة عن العين والأذن وعن كل مدى الجسم وعن داخله
(يتبع)
ألبير نادر
البريد الأدبي
النسل وصفاته المتوارثة
أشار الأستاذ الجليل الدكتور زكي مبارك في مقاله عن: أخطار الطعام الواحد؛ إلى وصية الرسول عليه الصلوات بالزواج من غير القريبات
وهذا الحديث المشهور: (لا تنكحوا القرابة القريبة فإن الولد يخلق ضاويا) قد أصبح - رغم الشك في صحة نسبته إلى الرسول - منبع حقيقة اعترف بها القدماء جميعاً وسجلوها في غير موضع من مؤلفاتهم؛ ثم جاءت علوم الأحياء الحديثة ودراسة طبائع أجسام الحيوان والنبات، مؤيدة لصحتها تمام التأييد
وقد عقد الغزالي في باب النكاح من كتابه (إحياء علوم الدين) فصلاً تحت عنوان: الخصال المطيبة للعيش التي لا بد من مراعاتها في المرأة. . . فجعل ثامنة هذه الخصال ونهايتها: ألا تكون من القرابة القريبة؛ وأورد الحديث الذي ذكرناه، ثم علل ذلك بضعف الشهوة بين المتقاربين. . .
وقد أورد الدكتور في مقاله مثل هذا التعليل؛ ثم زاد على ضعف النسل بسببه جسمياً، آفة أخرى نفسية فقال: إن الاكتفاء بالقريبات يضيع فرصة الموارد الجديدة من الطبائع والأذواق. . .
ونقول أننا مع اعترافنا بالعلاقة الوثيقة القائمة بين الأجسام - في قوتها وضعفها - والطبائع والأذواق - في رقيها وانحطاطها - نحب أن نسجل حقيقة استرعت نظرنا أثناء مطالعتنا المختلفة حول هذا الموضوع
فقد أشار الدميري صاحب حياة الحيوان عند حديثه عن (البغل) إلى تركبه من الفرس والحمار؛ ثم قال: لذلك صار له صلابة الحمار وعظم آلات الخيل. . . وهذا يؤيد الحقيقة التي ألمعنا إليها. ولكنه عاد فوصف هذا الحيوان برداءة الأخلاق والتلون (لأجل التركيب)، ثم قال: وشر الطباع ما تجاذبته الأعراق المتضادة، والأخلاق المتباينة، والعناصر المتباعدة. . . وذكر في موضع آخر أن (أكثر الحيوانات المركبة من نوعين من الحيوان أخبث طبعاً من أصولها التي تتولد منها وأشد شراسة، كالسمع والعسبار - ونحوهما) - وكلاهما يتولد بين الضبع والذئب
وظاهر من هذا أن تحسن (النسل المتولد من متباعدين) في صفاته الجسمية، لا يستتبع تحسنه في صفاته النفسية، أو فيما ركب فيه من طبائع وأذواق. . . بل على العكس من ذلك، ينشأ النسل الجديد أخبث في الطبائع من أصوله، أو هو يكتسب أسوأ ما في أبويه من صفات نفسية؛ وهذا متحقق - على الأقل - في أنواع الحيوان المركب من نوعين، وفقاً لما قاله الدميري
بقى أن ننظر في نسل الآدمي المتولد من متباعدين. . . أي الصفات النفسية يجتمع فيه؟ وهل هو في اكتسابه أحسن الصفات الجسمية من أبويه، يكتسب أيضاً أفضل ما فيهما من صفات عقلية وخلقية؟
وإذا كان الأمر كذلك، فلم هذا التفريق - من هذه الوجهة - بين الإنسان والحيوان؟ على أنه إذا نفينا هذا التفريق، فماذا يبقى من الثقة بكلام الدميري في طبائع الحيوان المركب، وهو قد ضرب لإثباته الأمثلة المحسوسة من طبائع البغل والسمع والعسبار وغيرها من هذه الأنواع؟
(جرجا)
محمود عزت عرفة
نظرات في مهرجان الربيع
أمسى ثغرنا السكندري على حقل أدبي كبير زفت فيه تحايا الربيع في أثواب من النغم الشعري البديع، وآيات من الكلم النثري الرفيع. . . ولعل السر في هذا يتمثل في اشتراك نفر من أسرة (الرسالة) الغراء في هذا المهرجان، فقد مثلها من شيوخها الأستاذ الكبير محمود البشبيشي، والأستاذ الفاضل خليل شيبوب؛ ومثلها من شبابها الأستاذان: حسين البشبيشي، ومصطفى علي عبد الرحمن. وكان لا بد للناقد من التأثر فالتأمل فالتعبير. . . وكان لا بد لتعبيره أن يتناول الهنات قبل المحاسن، ويحق لنا أن

نقول إن بعض الخطباء قد أصاب، وبعضهم قد تردد في النطق واضطراب في الإبانة. .
. وزل لسان بعضهم بلحنات يجدر بالخطيب الحق أن يتفاداها. ولكن الذي يخفف من
تلكم الهنات ويذهب بها ذلكم البيان الدافق والقدرة الخطابية العجيبة التي غمر بها
الحفل أستاذنا القدير محمود
البشبيشي، الذي عرض فيها لمجهودات الجماعة في بيان جامع، وحيا الربيع بأسلوب
رائع!
وقد كان جميلاً من الأستاذ البشبيشي ذلك الوفاء لإخوانه القاهريين (أعضاء رابطة
العروبة) الذين ذكرهم بكل خير
أما عن الشعر فقد أوشك أن يحتكر المهرجان لذاته، إذ رأينا فيه اتجاهين من الشعر
يعرضان لونين مختلفين: الشعر الذي يحفظ على الديباجة ويلمس المعاني بهوادة. ثم
الشعر الذي تغلب روعة معانيه على حيوية ألفاظه، وينطلق في جواء من الخيال
الوضئ. ولقد مثل النوع الأول الأستاذ خليل شيبوب، ومثل النوع الثاني الأستاذان
مصطفى علي عبد الرحمن وحسين البشبيشي
ومن قصيدة الأستاذ شيبوب قوله:
عيد الطبيعة والشباب كأنه ... فطر يعيد بعد صوم شتائه
والشاطئ المسحور دار كأنه ... أفق الجمال حنا على دأمائه
ومن قصيدة الأستاذ مصطفى علي عبد الرحمن قوله:
على الشاطئ المسحور دنيا رحيبة ... عليها الجمال العبقري تجسما
أرى الموج فيها والرمال تعانقا ... ولم يعبآ بالناس ترنو إليهما
وحولك جنات تفيض عيونها ... وتندى بشاشات وتورق أنعما
ولقد كانت ربيع الحفل، ودرة القصائد بحق، قصيدة الأستاذ حسين البشبيشي الذي
وفق فيها إلى مقارنة ربيع الطبيعة بربيع قلبه إذ قال:
ربِّ هبني الحياة كي أصحب الدني ... اإلى مولد الربيع الثاني
آه. . .! عاد الربيع وانطلق الح ... ب وراء المنى بكل مكان
يا ربيعي الذي انطلقت ولم تر ... جع بقلب ممزق حيران
أنت دنياي والربيع الذي يه ... فو إلى ورده فؤادي الفاني
عبد العزيز البيسي
عضو جامعة نشر الثقافة بالإسكندرية
عثرات:
جاء في المقال الأول من الرسالة:
هبني سألت حضرة القاضي المحترم: ألا تزال تضرب امرأتك؟ فبماذايجيب؟ إن كان)
لم يضربها قط ثم قال (لا) ففي هذا النفي معنى الاعتراف بالضرب فيما مضى وإنكاره
(الآن، وإن قال (نعم) فقد خالف الحقيقة. . . الخ
والصواب أن همزة الاستفهام إذا دخلت على النفي كان الجواب بالحرف (بلى) إثباتاً
وبالحرف (نعم) نفياً. أما (لا) فلا موضوع لها هنا
وأما الثانية ففي كلامه أيضاً:
(فلا نخالنا ننسى شيئاً كثيراً إذا حصرناها في ثلاث مسائل كبريات)
وصواب الكلام (ثلاث مسائل كبار) إذا لم يرد التفضيل؛ فإن أراده قال (مسائل أكبر)
وذلك لأن (كبريات) جمع (كبرى) مؤنث أكبر، فهي أسم تفضيل؛ وهو يجب إفراده
وتذكيره إذا كان مجرداً من (أل) والإضافة، فإذا أضيف إلى المعرفة جازت المطابقة
والإفراد مع التذكير.
وأما الثالثة ففي كلام الأستاذ سهيل أدريس (وأيقنت أن ذلك سيعود على تاريخ الأدب
العربي بفوائد جمة إن يسرع في تحقيقه)
والصواب (إن شرع في تحقيقه) لأن جواب الشرط لا يحذف إلا إذا كان فعل الشرط
ماضياً، وما عدا ذلك فهو شاذ لا يقاس عليه.
محمد محمود رضوان
المدرس ببني سويف الابتدائية
من شعر الأستاذ مصطفى عبد الرزاق باشا
حدثنا صديقنا الأستاذ الزناتي عن عطار يمنى لقيه بالفشن أن الشيخ (شعيب) عمدة

هليه من بلاد الصعيد مدح صاحب السعادة الأستاذ مصطفى عبد الرزاق باشا بقصيدة فرد عليه بهذين البيتين:

أبديتَ من خِدْر فكِر ... سامي المقام عروسا
هي ابنة لشعيب ... فأين في الناس موسى

وقصة زواج الرسول موسى من ابنة النبي شعيب معروفة.

1

العدد 518 - بتاريخ: 07 - 06 - 1943

دفاع عن البلاغة - 11

الأسلوب - 3

أجل، إن الذين آمنوا بالصياغة ودعوا إليها، كانوا أفهم لمعنى البلاغة من الذين كفروا بها وزرَوْا عليها. ذلك لأن تجويد الصور يستلزم تجويد الفِكرَ وليس كذلك العكس. والعناية الدقيقة بالعبارة سبيل إلى إجادة التفكير وإحسان التخيل كما يرى فلوبير. وفلوبير هذا كان إمام الصناعة في فرنسا، أخذ نفسه بالتزام ما لا يلتزم غيره، فكان لا يكرر صوتاً في كلمة، ولا يعيد كلمة في صفحة. وكانت أذنه هي الحَكم الأعلى في صوغ الكلام، فلا تسيغ منه إلا ما حسن انسجامه وتعادلت أقسامه وتوازنت فقره. قال فيه تلميذه ومواطنه موباسان: (كان يرفع الصحيفة التي يكتبها إلى مستوى نظره وهو معتمد على مرفقه، ثم يتلو ما كتب جاهراً بتلاوته، مصغياً لإيقاعه؛ فكان في نَبره وإرساله يوفق بين السكنات والحركات، ويؤلف بين الحروف والكلمات، ويضع الفواصل في الجملة وضعاً دقيقاً محكماً فكأنها الاستراحات في الطريق الطويل).

وقال هو لبعض أصحابه: (تقول إنني شديد العناية بصورة الأسلوب، والصورة والفكرة كالجسد والروح هما في رأيي شيء واحد. وكلما كانت الفكرة جميلة كان التعبير عنها أجمل. إن دقة الألفاظ من دقة المعاني، أو هذه هي تلك).

وقد غالى علماؤنا البيانيون فزعموا أن المعاني شائعة مبذولة لا يملكها المبتكر ولا السابق، وإنما يملكها من يحسن التعبير عنها. فمن أخذ معنى بلفظه كان له سارقاً، ومن أخذه ببعض لفظه كان له سالخاً، ومن أخذه فكساه لفظاً أجود من لفظه كان هو أولى به ممن تقدمه. على أن هذا الرأي الجريء لم يكن رأي العرب وحدهم، وإنما يراه معهم (بوفون) وأشياعه من كتاب الفرنج؛ فقد قرر في خطبته عن الأسلوب التي ألقاها يوم دخل الأكاديمية الفرنسية، أن الأفكار والحوادث والمكتشفات شركة بين الناس، ولكن الأسلوب من الرجل نفسه.

نعم قال بوفون: إن الأسلوب من الرجل نفسه ' ولم يقل: إن الأسلوب هو الرجل ' ' كما شاع ذلك على الألسنة. ولم يرد بما قال أن الأسلوب ينم عن خلق الكاتب ويكشف عن طبعه كما فهم أكثر الناس، وإنما أراد أن الأسلوب، ويَعني به النظام والحركة المودعين في الأفكار، هو طابع الكاتب وإمضاؤه على الفكرة. ومعنى ذلك أن الأفكار

تكون، قبل أن يفرغها الفنان في قالبه الخاص، من الأملاك العامة؛ فإذا عرف كيف يصوغها على الصورة اللازمة الملائمة تصبح ملكاً خاصاً له، تسير في الناس موسومة بوسمه، وتعيش في الحياة مقرونة باسمه. فالأسلوب وحده هو الذي يملكك الأفكار وإن كانت لغيرك. ألا ترى أن أثر الأخلاق في بقاء الأمم وفنائها معنى من المعاني المأثورة المطروقة؛ فلما أجاد شوقي سبك اللفظ عليه في بيته المشهور أصبح بهذه الصيغة من حسناته المعدودة وأبياته المروية؟

على أنك مهما استقربت لا تجد امرأً سليم الملكات ينكر ما لحلاوة الجرْس وطلاوة العبارة من الأثر الفعال في بلاغة الكلام. وعلماء البيان مجمعون على أن (الكلام إذا كان لفظه غثاً، ومعرضه رثاً، كان مردوداً ولو احتوى على أجل معنى وأنبله). ومنذ تنزلت الشياطين بالسجع والقصيد على كهان الجاهلية الأولى لم يقل أحد غير كتاب آخر الزمان أن البلاغة هي الفكرة وأن البليغ هو المفكر. وفيما سلف من العهود التي صحت فيها القرائح وسلمت الأذواق كان الرجل ينصرف عن الكتابة أو الشعر إذا لم يجد في طبعه براعة الأداء ولا في نفسه ملكة الفن. إنما يحاجُّك في العناية بالأسلوب من اضطر إلى مزاولة الكتابة وهو مدفوع عن البلاغة بوهن سليقته وجفاء طبعه. ولهم في الحِجاج رقاعات سبيلك أن تُسَلم بها لتسلم منها. يقولون مثلاً: إن الناس يتكلمون

ليفهم الشاهد، ويكتبون ليفهم الغائب؛ فلماذا لا نكتب مثل ما نتكلم؟ لماذا نؤثر أن يقال: وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً، على أن يقال: كبرت سني وشاب رأسي، والجملتان الأخيرتان أخصر لفظاً وأيسر فهماً؟

على أن من أعداء العناية بالأسلوب قوماً جادّين ليسوا من أبناء العربية ذات الأناقة الذاتية والتلاؤم المطبوع، ولكن لهم آثاراً تُقرأ وآراء تناقش، أولاهم بالذكر الكاتب الفرنسي إميل زولا. فلقد مكن الله لهذا الكاتب في دولة الكتابة وآتاه أسباب النبوغ، ولكنه ابتلاه بشيء من خشونة الطبع وفجاجة الذوق فلم يستطع مجازاة البلغاء من أنداده ومعاصريه في رونق البيان وروعة الأسلوب، فأخذ يهوّن من شأن الصور الفنية في العبارة بمثل قوله: (ليس من مطلق الحق - وإن عارض بوفون وبوالو وشاتوبريان وفلوبير - أن الكاتب يكفيه أن يعنى كل العناية بأسلوبه ليشق له في الأدب طريقاً يبقى على الأبد. إن الشكل عرضة للتغيير والزوال بسرعة. ولابد للعمل الكتابي قبل كل شيء أن يكون حياً؛ ولا يمكن أن يكون حياً إلا إذا كان حقاً. والكاتب لا يظفر بالخلود إلا إذا استطاع أن يوجد مخلوقات أحياء)

ثم يقول بعد ذلك: (وهل نستطيع أن نتبين الكمال الفني في أسلوب هوميروس وفرجيل ونحن نقرأهما مترجَمين؟) وهذا القول ظاهر البطلان، لأن المخلوقات الحية التي يلدها ذهن الكاتب لا يتسنى لها البقاء على توالي الأعقاب والأحقاب إلا بالأسلوب كما قال شاتوبريان. ومن هنا قل اهتمام الناس بكتب زولا بعد موته، وإن ظلت في تاريخ الأدب هرما شاهقاً ضخما يدل على جبروت الذهن وقوة القريحة، لأنها فقدت النبل في الموضوع والبلاغة في الأسلوب، وبغير هاتين الصفتين لا يخلد كتاب . . .

(للكلام بقية)

أحمد حسن الزيات

السنة وثبوت العقيدة

للأستاذ محمود شلتوت

منشأ ظنية السنة - التواتر والآحاد - الآحاد لا تفيد اليقين - ندرة المتواتر - الإسراف في وصف الأحاديث بالتواتر وأسبابه - تطبيق

بينا فيما سبق أنه (ليس في القرآن الكريم ما يفيد بظاهره غلبة ظن برفع عيسى أو نزوله فضلاً عما يفيد اليقين) وتمت بذلك النظرة الأولى من النظرات الثلاث التي وعدنا بها

وسنعرض في هذا الفصل للمبادئ التي تنبني عليها (قطيعة السنة أو ظنيتها) ثم نطبق هذه المبادئ على الأحاديث التي زعموا أنها تدل دلالة قطعية على نزول عيسى، وهذه هي النظرة الثانية

وأول ما يجب التنبه له في هذا المقام أن (الظنية) تلحق السنة من جهتي الورود والدلالة: فقد يكون في اتصال الحديث برسول الله صلى الله عليه وسلم شبهة فيكون ظنيّ الورود، وقد يلابس دلالته احتمال فيكون ظني الدلالة، وقد يجتمع فيه الأمران: الشبهة في اتصاله، والاحتمال في دلالته، فيكون ظنياً في وروده ودلالته. ومتى لحقت (الظنيةَ) الحديثُ على أي نحو من هذه الثلاثة فلا يمكن أن تثبت به عقيدة يكفر منكرها، وإنما يثبت الحديثُ العقيدة وينهض حجة عليها إذا كان قطعياً في وروده وفي دلالته

ولكي يتضح مناط (القطعية والظنية) في ورود الحديث ينبغي أن نبين ما قرره العلماء في (التواتر والآحاد) ليكون مناراً يهتدي به من يريد الوصول إلى الحق:

قسم العلماء (السنة) إلى قسمين: ما ورد بطريق التواتر، وما ورد بطريق الآحاد.

وضابط التواتر أن يبلغ الرواة حداً من الكثرة تحيل العادة معه تواطؤهم على الكذب. ولابد أن يكون ذلك متحققاً في جميع طبقاته: أوله ومنتهاه ووسطه، بأن يروي جمع عن النبي صلى الله عليه وسلم، ثم يروي عنهم جمع مثلهم، وهكذا حتى يصل إلينا، وهو عند التحقيق رواية الكافة عن الكافة

ويقول بعض علماء الأصول: (الخبر المتواتر هو الذي اتصل بك من رسول الله صلى الله عليه وسلم اتصالاً بلا شبهة حتى صار كالمعاين المسموع منه، وذلك أن يرويه قوم لا يحصى عددهم، ولا يتوهم تواطؤهم على الكذب لكثرتهم وعدالتهم وتباين أماكنهم، ويدوم

هذا في وسطه وآخره كأوله، وذلك مثل: القرآن والصلوات الخمس، وأعداد الركعات، ومقادير الزكوات)

هذا هو التواتر الذي يوجب اليقين بثبوت الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أما إذا روى الخبر واحد، أو عدد يسير ولو في بعض طبقاته، فإنه لا يكون متواتراً مقطوعاً بنسبته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما يكون (آحاديا) في اتصاله بالرسول شبهة فلا يفيد اليقين

إلى هذا ذهب أهل العلم ومنهم الأئمة الأربعة: مالك وأبو حنيفة والشافعي وأحمد في إحدى الروايتين عنه، وقد جاء في الرواية الأخرى خلاف ذلك، وفيما يقول شارح مسلم الثبوت (وهذا بعيد عن مثله فإنه مكابرة ظاهرة) وقال البزدوي: (وأما دعوى علم اليقين - يريد في أحاديث الآحاد - فباطلة بلا شبهة لأن العيان يرده؛ وهذا لأن خبر الواحد محتمل لا محالة، ولا يقين مع الاحتمال. ومن أنكر هذا فقد سفه نفسه وأضل عقله)

وقال الغزالي: (خبر الواحد لا يفيد العلم وهو - أي عدم إفادته العلم - معلوم بالضرورة. وما نُقل عن المحدثين من أنه يوجب العلم فلعلهم أرادوا أنه يفيد العلم بوجوب العمل إذ يسمى الظن علماً، ولذا قال بعضهم: خبر الآحاد يورث العلم الظاهر، والعلم ليس له ظاهر وباطن وإنما هو الظن)

وقال الأسنوي: (وأما السنة فالآحاد منها لا يفيد إلا الظن)

وقال البزدوي تفريعاً على أن خبر الواحد لا يفيد العلم: (خبر الواحد لما لم يفد اليقين لا يكون حجة فيما يرجع إلى الاعتقاد لأنه مبني على اليقين، وإنما كان حجة فيما قصد فيه العمل)

وقال الأسنوي: (إن رواية الآحاد إن أفادت فإنما تفيد الظن والشارع إنما أجاز الظن في المسائل العملية وهي الفروع دون العلمية كقواعد أصول الدين)

وهكذا نجد نصوص العلماء من متكلمين وأصوليين مجتمعة على أن خبر الآحاد لا يفيد اليقين، فلا تثبت به العقيدة، ونجد المحققين من العلماء يصفون ذلك بأنه ضروري لا يصح أن ينازع أحد في شيء منه، ويحملون قول من قال: (إن خبر الواحد يفيد العلم) على أن مراده العلم بمعنى الظن كما ورد، أو العلم بوجوب العمل. على أن الكلام إنما هو في إفادته

العلم على وجه تثبت به العقيدة، وليس معنى هذا أنه لا يحدث علماً لإنسان ما، فإن من الناس من يَحدث العلمُ في نفسه بما هو أقل من خبر الواحد الذي نتحدث عنه، ولكن لا يكون ذلك حجة على أحد، ولا تثبت به عقيدة يكفر جاحدها، فإن الله تعالى لم يكلف عباده عقيدة من العقائد عن طريق من شأنه ألا يفيد إلا الظن. ومن هنا يتبين أن ما قلناه في الفتوى من (أن أحاديث الآحاد لا تفيد عقيدة ولا يصح الاعتماد عليها في شأن المغيبات) قولٌ مجمع عليه وثابت بحكم الضرورة العقلية التي لا مجال للخلاف فيها عند العقلاء!

وإذ قد عرفنا الفرق بين مناط القطعية في الورود وهو التواتر، ومناط الظنية وهو الآحادية، فهناك بحث آخر يتصل بالتواتر ولابد من النظر فيه، هذا البحث هو: هل يوجد المتواتر في الأحاديث المروية في الكتب المدونة؟ وقد اختلف العلماء في الجواب عن ذلك: فذهب قوم إلى أنه لا يوجد حديث متواتر فيما روي لنا من الأحاديث ودون في الكتب، ولعل هؤلاء بنوا رأيهم هذا على اشتراط عدم الإحصاء في رواة المتواتر، وهو مذهب لطائفة من العلماء كما تبين مما نقلناه في تعريف المتواتر. وقال ابن الصلاح: (لا يكاد يوجد المتواتر في رواياتهم، ومن سئل عن إبراز مثال له فيما يروى من أهل الحديث أعياه تطلبه، وحديث (إنما الأعمال بالنيات) ليس من ذلك السبيل وإن نقله عدد التواتر وزيادة، لأن ذلك طرأ في وسط إسناده ولم يوجد في أوله. نعم حديث (من كذب علي) نراه مثالاً لذلك، فإن رواته أزيد من مائة صحابي وفيهم العشرة المبشرون بالجنة، ولا يعرف حديث يروى عن أكثر من ستين صحابيا إلا هذا الحديث الواحد)

وذهب آخرون إلى أن المتواتر كثير في هذه الكتب. قالوا: (إن هذه الكتب المشهورة المتداولة بأيدي أهل العلم شرقاً وغرباً مقطوع بصحة نسبتها إلى مصنفيها، فإذا اجتمعت على إخراج حديث، وتعددت طرقه تعدداً تحيل العادة معه تواطؤهم على

الكذب إلى آخر الشروط أفاد ذلك العلم اليقيني بصحة نسبته إلى قائله، ومثل ذلك في الكتب كثير)

وليس بنا حاجة إلى أن نعرف مدى هذه الكثرة التي يراها هؤلاء، ويذكرونها في مقابلة القول بالعدم، أو في مقابلة القول بالندرة وإعياء تطلب المثال، وإنما يهمنا أن نلفت النظر إلى أنه لا يحكم لحديث بالتواتر - حتى على أكثر هذه المذاهب توسعاً - إلا إذا اجتمعت في الشروط الآتية:

1 - أن تخرجه جميع كتب الحديث المشهورة المتداولة

2 - أن تتعدد طرق إخراجه تعدداً تحيل العادة معه التواطؤ على الكذب

3 - أن يثبت هذا التعدد في جميع طبقاته: أوله وآخره ووسطه

وإذن: فالحديث الذي لم تخرجه جميع الكتب المتداولة المشهورة، أو أخرجته جميعها ولكن لا بطرق متعددة، أو أخرجته بطرق متعددة ولكن لا في جميع الطبقات، بل في بعضها دون بعض، لا يكون متواتراً باتفاق العلماء أجمعين!

ويجدر بنا بعد هذا أن نعرض لظاهرة غريبة شاعت في الناس، وإن الحق ليتقاضى فيها واجبه من العلماء المسئولين أمام الله وأمام الرسول: تلك الظاهرة هي أنه على الرغم مما قرره العلماء في شأن المتواتر تحديداً ووجوداً، وعلى الرغم من هذا التحفظ الشديد في الحكم لحديث مما دون في الكتب بالتواتر، نرى بعض المؤلفين قديماً وحديثاً يسرفون في وصف الأحاديث بالتواتر، وقد يقتصدون فيخلعون عليها أوصافاً أخرى كالشهرة والاستفاضة والذيوع على ألسنة العلماء، وتلقي الأمة إياها بالقبول والثبوت في كتب التفسير وشرح الحديث، أو في كتب التاريخ والمناقب. . . الخ. وقد يشتط (أناس) في سلوك هذه السبيل، فتراهم يتتبعون مع هذا أسماء الصحابة والتابعين والأئمة والمؤلفين الذين جرى ذكرهم على ألسنة النقلة في رواية الحديث، وهم يعلمون أنها روايات ضعيفة لا تصبر على النقد، وأن هذه الأسماء التي يحرصون على جمعها توجد في كل حديث حتى في الأحاديث الموضوعة، ولكنهم مع ذلك يجمعونها، ويجتهدون في عدها وإحصائها وذكر الكتب التي اشتملت عليها لأنهم يريدون أن يخطفوا أبصار العامة، ويستغلوا عاطفتهم الدينية، ويزعموا لهم أن هذا الحديث أو تلك الأحاديث قد وردت عن نبيكم في هذه الكتب الكثيرة وعلى لسان هذا الجم الغفير من الرواة بين صحابة وتابعين فهي متواترة لاشك في تواترها، وهي متصلة بالرسول لاشك في اتصالها، ومن حاول الطعن فيها، أو الحط من درجتها، فقد ضل ضلالاً بعيداً، وحاد عن سبيل المؤمنين!

ولهذه الظاهرة أسباب:

منها، وقد يكون أقلها خطراً، اشتهار الحديث في طبقة أو طبقتين فتسحب الشهرة على جميع طبقاته، ويحكم عليه حكماً عاماً بالتواتر أو الشهرة من غير تحقيق ولا تمحيص، وقد لا يصل الحديث إلى حد الشهرة في طبقة ما، ولكنه جاء في (الخلافيات) فقهية أو كلامية فتعصب له أتباع المذاهب وخلعوا عليه وصف الشهرة أو التواتر تأييداً لمذهبهم، وتناقلته الكتب، موصوفاً بذلك منسوباً إلى جمع من رجال الرأي والمذهب فيخاله الناس مشهوراً أو متواتراً وهو ليس بمتواتر ولا مشهور!

ولقد كان للقائمين (بالترغيب والترهيب) ونقل الملاحم والفتن وغرائب الأخبار التي تميل النفوس إلى التحدث بها والاستماع إليها، أثر عظيم في خلع أوصاف الشهرة والتواتر على أنواع خاصة من الأحاديث التي ليست بمشهورة ولا متواترة بل ربما كانت غير صحيحة، وقد تأثرت بذلك طبقة من الخاصة لم تعن بتحقيق الرواية، ولا بمعرفة درجة الحديث، واكتفت بنقل ما يقوله هؤلاء وإجرائه على ألسنتهم وفي كتبهم حتى شاع واشتهر

وإنما استباحوا ذلك معتمدين على ما قرره بعض علماء المصطلح من (جواز التساهل في الأسانيد ورواية ما سوى الموضوع من أنواع الأحاديث الضعيفة من غير اهتمام ببيان ضعفها فيما سوى صفات الله تعالى وأحكام الشريعة من الحلال والحرام وغيرهما، وذلك كالمواعظ والقصص وفضائل الأعمال وسائر فنون الترغيب والترهيب مما لا تعلق له بالأحكام والعقائد)

وبذلك رووا الأحاديث الضعيفة بل الموضوعة، ثم توسعوا فوصفوا الآحاد بالتواتر،

والضعيف بالصحيح، وتناسوا مقاييس التواتر والآحادية، ومقاييس الصحة والضعف، ومن هنا رأينا من يصف (المعجزات الحسية) كانشقاق القمر وتسبيح الحصى وكلام الغزالة وحنين الجذع بالتواتر مع أنها غير متواترة، وإنما هي آحادية كما قرره علماء الأصول. وكذلك رأينا من يصف أخبار المهدي والدجال ويأجوج ومأجوج وما إلى ذلك مما يذكر باسم (أشراط الساعة) بالشهرة أو التواتر

ولعل أحقر ما رأينا من أسباب الإسراف في وصف الأحاديث بالتواتر أن قوماً من المرتزقة باسم الدين وباسم الغيرة على أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم استباحوا لأنفسهم في سبيل أغراضهم الدنيا أن يصطنعوا كل أساليب التلبيس والتمويه في شأن أحاديث عيسى التي لا يمكن أن يكون منها متواتر حتى على أوسع الآراء في تحققه، وهي مع آحاديتها يكثر ويشتد في معظمها ضعف الرواة واضطراب المتون ونكارة المعاني،

فتراهم يقولون هي متواترة قد رواها فلان وفلان من الصحابة والتابعين، وذكرت في كتاب كذا وكتاب كذا من كتب المتقدمين، فإذا رأوا في بعضها ضعفاً أو اضطرابا أو نكارة حاولوا التخلص من ذلك فقالوا: إن الضعيف فيها منجبر بالقوي، وأن العدالة لا تشترط في رواة المتواتر. وهكذا يخلعون عليها ثوباً مهلهلاً من القداسة لا رغبة في علم ولا غيرة على حق، ولكن مكابرة وعنادا، وإصراراً على التضليل، وليقال على ألسنة العامة وأشباه العامة إنهم حفاظ وإنهم محدثون!

بقي بعد هذا أمر لابد من تقريره: وهو أن تلك الأحاديث كيفما كانت ليست من قبيل المحكم الذي لا يحتمل التأويل حتى تكون قطيعة الدلالة، فقد تناولتها إفهام العلماء قديماً وحديثاً ولم يجدوا مانعاً من تأويلها. وقد جاء في شرح المقاصد بعد أن قرر مؤلفها أن جميع أحاديث أشراط الساعة آحادية ما نصه: (ولا يمتنع حملها على ظواهرها عند أهل الشريعة. . . وأول بعض العلماء النار الخارجة من الحجاز بالعلم والهداية سيما الفقه الحجازي، والنار الحاشرة للناس بفتنة الأتراك، وفتنة الدجال بظهور الشر والفساد، ونزول عيسى صلى الله عليه وسلم باندفاع ذلك وبدو الخير والصلاح. . . الخ.). ومن ذلك نرى أن السعد لا يقرر وجوب حملها على ظواهرها حتى تكون من قطعي الدلالة الذي يمتنع تأويله، وإنما يقرر بصريح العبارة (أنه لا مانع من حملها على ظواهرها) فيعطى بذلك حق التأويل لمن انقدح في قلبه سبب للتأويل، ثم يحدث عن بعض العلماء أنهم سلكوا سبيل التأويل في هذه الأحاديث فعلاً، ويبين المعنى الذي حملوها عليه، ولا شك أن هذا لم يكن منه إلا لأنه يعتقد - كما يعتقد سائر العلماء الذين يعرفون الفرق بين ما يقبل التأويل وما لا يقبله - إن ما تدل عليه ألفاظ تلك الأحاديث ليس عقيدة يجب الإيمان بها، فمن أداه نظره إلى أن يؤمن بظاهرها فله ذلك، ومن أداه نظره إلى تأويلها فله ذلك، شأن كل ظني في دلالته

ومما تقدم يتبين جلياً (أنه ليس في الأحاديث التي أوردوها في شأن نزول عيسى آخر الزمان قطيعة ما، لا من ناحية ورودها ولا من ناحية دلالتها). والسلام على من اتبع الهدى

محمود شلتوت

عضو جماعة كبار العلماء

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

في دار المفوضية الأفغانية - مع النحاس باشا - مع الدكتور طه حسين - مع الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا - نفحات عراقية

في دار المفوضية الأفغانية

كانت عصرية الخميس الماضي موعد الاحتفال بعيد استقلال أفغانستان، فأقبل على دار المفوضية الأفغانية بالزمالك جمهور من رجال السياسة والأدب والدين، وشعر الزائرون جميعاً بأنهم في دارهم، بفضل المودة التي يضمرها سعادة السيد محمد صادق المجددي لأهل هذه البلاد، وبفضل ما يكنه المصريون لهذا الرجل من الإجلال ولكن ما القيمة الصحيحة للسيد المجددي، القيمة التي توجب أن يبقى في مصر مدة لم تتفق لغيره من السفراء؟

التوفيق بيد الله، ومع هذا فمن الواجب أن نحاول وزن الرجل من الوجهة الأخلاقية،

فقد يكون في ذلك ما ينفع بعض الديبلوماسيين من رجال الشرق
المجددي ذكيٌ جداً، ولكن ذكاءه يشبه النبع الذي يترقرق تحت الرمال، فهو يرى الأمور
على ما هي عليه من قُرب أو من بُعد، ثم يؤدي واجبه بلا جَلَبة ولا صياح
والمجددي سفيرٌ مسلم في أمة إسلامية، مسلم صادق إلى أبعد حدود الصدق، وقد يُعَدْ
من النوادر في بعض السِّمات، وإلا فمن يصدِّق أن وزيراً مفوضاً ينزل من سيارته
ليساعد على حمل نعش، عساه يظفر بموعود الثواب؟
والمجددي يقيم حفلات موسمية متصلة بالأعياد القومية في أفغانستان، ولكنه لا يُلقي
خطبة إلا في الحفلة التي يقيمها بمناسبة المولد النبوي
وهو يعتكف أياماً من كل سنة في أحد المساجد اعتكافاً لا يسمع به غير الخواصّ. وأين
من يصبر على الاعتكاف بالمساجد في هذا الزمان؟
وإسلام المجددي إسلام لطيف فهو يحيا حياة ذوقية قليلة الأمثال
دخلت المفوضية الأفغانية مع السيد خالد الشوربجي، فلما جاء السيد المجددي
لاستقبالنا قدَّم إليه الشوربجي سبحة، فقال المجددي: وأين القرنفلة؟
وكان ذلك لأن المجددي نسِي في المفوضية العراقية سبحة وقرنفلة، ولم يفته حين
ترّد إليه السبحة أن يذكر القرنفلة، كأنها أهديتْ إليه في ساعة صفاء
ويظهر ذوق المجددي في أحاديثه الإخوانية، الذوق المطول بندى الوجدان، فهو يحادثك
بروحه وقلبه حديث الرجل المفطور على صدق الطوية، ولا تلمح في بشاشته أي
تكلف أو افتعال
وقد ربى أبناءه في مصر تربية عربية إسلامية، ليكون اتجاههم إلى المشرق لا إلى
المغرب، وليضمن انتفاعهم بالإقامة في وطن الأزهر الشريف
لم تكن لمصر مفوضية في أفغانستان، فسعى السيد المجددي لحمل الحكومة
المصرية على إنشاء مفوضية هناك، ثم لاحظ أنها تتردد، فأعلن أن هذا التردد قد يقهره
على مفارقة مصر بعد أن أحبها أصدق الحب. وبهذه اللمحة الوجدانية وصل إلى ما
يريد
أما بعد فهذه كلمة نكتبها لوجه الله في تحية رجل من المؤمنين بالله
مع النحاس باشا
كانت مصادفة جميلة في ذلك اليوم الجميل، فقد جلست مع رفعة النحاس باشا على
مائدة واحدة وتجاذبنا أطراف الأحاديث والنحاس باشا يترسل حين يتحدث، ويحرص
على أن يقدم لمحدثه أطايب من المعاني اللطاف
مرَّ اسم (عباد الشمس) بالحديث فقال إن اسمه بالفرنسية لأنه يدور مع الشمس،
وهو رمز الرياء
فقلت: إن عباد الشمس يدور مع الشمس بإرادة لا تعرف التقلب، فمن الظلم أن
نضيفه إلى زمرة المرائين، وإن سمح رفعة الرئيس فأنا أذكر أن رمز الرياء هو (أبو
رياح) لأنه يدور مع الرياح بلا إحساس، وبهذا الوصف عرفه العرب، وكان له مكان فوق
أبواب القصور وأسوار البساتين
وعند ذلك قال عبد الفتاح باشا الطويل، ولا يزال أبو رياح معروفاً عند باعة الحلويات،
ويكثر وجوده في الموالد والأسواق
وسأل أحد الحاضرين من الأجانب رفعة الرئيس عن موعد اصطياف الحكومة
بالإسكندرية فأجاب: سيُحدد الموعد بعد استئذان جلالة الملك في أن يكون انتقال
الحكومة إلى هناك
بصفة رسمية، فقال السائل: وما الفرق بين الصفة الرسمية وغير الرسمية في
الاصطياف؟ فأجاب رفعة الرئيس: الاصطياف الرسمي يوجب انتقال الهيئة
الديبلوماسية إلى هناك
فقلت في نفسي: هذا بعض ما كنت أجهل من تأثير الرسميات
ثم اعتذر الرئيس بأن عليه أن يحضر حفلة يونانية وانصرف قبل نهاية الاحتفال
مع الدكتور طه حسين
والتفت فرأيت الدكتور طه بك قريباً مني فمضيت للتسليم عليه، ودار الحديث:
- هل يعرف سيدي الدكتور أن ورق الطباعة قد انعدم أو كاد؟
- إنها فرصة ثمينة جداً

- انعدام الورق فرصة ثمينة جداً؟
- بالتأكيد، لأنه يريح الناس من مؤلفات زكي مبارك سنة أو سنتين!
- ولكن ما رأيك في الكتب المدرسية؟
- هذا ما نفكر فيه؛ وقد نصل إلى شيء، فليس من الصعب أن نقنع الحكومة بأن استيراد السماد لا يغني عن استيراد الورق
- وهل يعرف سيدي الدكتور أن إرسال المطبوعات المصرية إلى الشرق قُيِّد بقيود ثقال؟
- أعرف ذلك وقد انتهينا إلى حَل
- ما هو ذلك الحل؟
- قيدنا إصدار المؤلفات القديمة، وأبحنا إصدار المؤلفات الحديثة بلا قيد ولا شرط، تشجيعاً للتأليف الحديث، فليس من الرفق ولا من العدل أن تصد المواهب المصرية عن الاتصال بأمم الشرق، ويكفيها ما تعاني من أزمة الورق وغلاء المطبوعات
- ولكن ما الموجب لتقييد التصدير بالنسبة للمؤلفات القديمة، ولبعضها أهمية لا تحتاج إلى بيان؟
- المؤلفات القديمة موجودة في أكثر بقاع الشرق، فمن واجب كل أمة عربية أو إسلامية أن تنشر ما تحتاج إليه من تلك المؤلفات. وهل تظن أن الجاحظ مثلاً يحتاج إلى تشجيع الحكومة المصرية؟ إنما يحتاج إلى التشجيع جماعة المؤلفين من الأحياء، وقد نشأوا في زمن لا ينقل فيه الفكر بغير الطباعة والتوزيع.

وما كدنا نفرغ من هذا الحوار الهادئ حتى رأينا رجلاً يقول: يا دكتور طه بك، عندي مؤلفات عميقة جداً لا يفهمها أحد غيرك، فمتى أعرضها عليك، لأعرف رأيك؟

فقلت: اسمع يا حضرة المؤلف العميق، إن الدكتور طه مشغول في هذه الأسابيع، فانتظر إجازته الصيفية ليَفرُغ لك ولأمثالك من أهل العمق العميق!

وتفضل حضرة المؤلف فمنح الدكتور طه بطاقته الغالية ليذكره حين يستريح في إجازة الصيف!

قال الجراح الدكتور محمد كامل حسين وهو يتأمل تلك البطاقة المزخرفة: يجب على وزارة المعارف أن تؤلف لجنة لدرس مؤلفات هذا المؤلف العميق!

فقلت: ومن أجل هذا المؤلف توصد الأبواب في وجه الجاحظ!

وأسرع الدكتور طه فانصرف قبل أن يتم الحديث

مع الشيخ مصطفى باشا

ولقيت فضيلة الأستاذ الجليل مصطفى عبد الرازق باشا عند الباب فرجعت معه لآنس بحديثه لحظات، ولم أكن رأيته منذ شهور طوال فاقترحت عليه أن يقيم في كل سنة موسماً دراسياً بالرواق العباسي، إحياء لذكرى الشيخ محمد عبده، فقال إن ذكرى الشيخ تقع في يونية فقلت ليس المهم ذكرى الوفاة وإنما المهم ذكرى الدرس، وهي مقيدة بالعام الدراسي

- في النية أن تقام في مباني الأزهر الجديدة قاعة محاضرات باسم الشيخ محمد عبدة
- أهم من هذا أن يقترن الرواق العباسي باسم الشيخ محمد عبده، ففي ذلك الرواق تألق نجم الشيخ، وفيه دارت المساجلات بين طلاب الحق واليقين
- ما الذي يمنع من أن تقدم هذا الاقتراح لفضيلة الشيخ المراغي؟
- الشيخ المراغي يرحب كل الترحيب، فاستعد أنت، وليستعد من انتفعوا بآراء الشيخ محمد عبده، عساكم تحيون ذكراه بأبحاث متصلة بالمعضلات العقلية في هذا الجيل

ثم تحدثنا في تأثير الشيخ عبده في زمانه، فقال الشيخ مصطفى: كان السلطان حسين كامل يحمل المصحف دائماً. وكان يقول: أنا مسلم على مذهب الشيخ عبده

وتحدثنا عن صنيع الشيخ رشيد رضا في نشر مؤلفات الأستاذ الإمام فقال الشيخ مصطفى: خدمات الشيخ رشيد لا تنكر، ولكنه ظل بعيداً عن روح الشيخ عبده، فقد كان يسرع إلى تكفير المسلمين لأقل الشبهات، مع أن الشيخ كان يحكم بأن الرأي الذي يحتمل الكفر من تسعة وتسعين وجهاً ويحتمل الإيمان من وجه واحد يجعل صاحبه من المؤمنين

وعرفت من حديث الشيخ مصطفى أن أوراق الشيخ عبده قدمت إلى الشيخ رشيد لينتفع بها في تدوين تاريخه بعد أن اعتذر الشيخ عبد الكريم سلمان، وأن تاريخ الشيخ

عبده روعيت في تدوينه أشياء، فلم يدوَّن على الوجه الصحيح فيما يمس تلك الأشياء ثم ماذا؟ ثم أذكر أن المستر بلنت قال في مذكراته: لقد وجب عليَّ أن أسجل شعوري نحو الشيخ محمد عبده، فهو في نظري أصدق رجل عرفته في الشرق
وأنا أشعر بمثل هذه العاطفة نحو الشيخ مصطفى عبد الرازق فهو في نظري أصدق الاوفياء، وهو معي في كل وقت، وإن كنا لا نلتقي إلا في القليل من الأحايين
الصديق الحق هو الذي يجعل الصداقة في مكانة من القدسية لا تتأثر بالقرب أو البعد، ولا تختلف باختلاف الظروف، ولا يزيدها تقادم العهد إلا صفاء إلى صفاء
نفحات عراقية
أصدرت مجلة (الغَرِيّ) عدداً خاصاً بالوفد العلمي، وفد الأساتذة المصريين إلى النجف، وهو مجموعة من الخطب النفيسة والقصائد الجياد، وفيه ذُكِرتْ مصر بالخير على ألسنة فصاح، وأفئدة صحاح
قرأت تلك المجموعة حرفاً حرفاً، ومتعت خاطري بذكريات النجف والموصل والبصرة والحلة وبغداد، وهي بلاد الأهل والاحباب، ثم سرني أن أرى خطباء النجف وشعراء النجف بعافية، وإن لم أر اسم السيد عبود شلاش بين الخطباء
وتذكرت الصديق الذي زرت معه النجف، فمن ذلك الصديق؟
لن أنسى أبداً أني زرت النجف مع السيد صادق الوكيل، ولن ينقضي حزني عليه، وكان أكرم صاحب وأكرم أليف
لو عاش هذا الفتى لوصل إلى خفايا الدقائق من التاريخ الإسلامي
ولو كنت أعرف أنه سيُخْتَصَر لأديت إليه بعض حقوق الوفاء
كان طيِّع القلم في الرسائل الإخوانية، فكنت أتلقى منه خطاباً في كل أسبوع، برغم تقصيري في الجواب، لأنه كان يعرف أن الوقت لا يوافيني بما أريد، والصديق الذي يعتذر عن أخيه نادر الوجود
إن زرت العراق بعد حين أو أحايين فسأمر على كربلاء، لأقرأ الفاتحة على قبرك يا صادق، ولأعزي أهلك، إن جاز لمن يفقدك أن يجد العزاء
أترك هذه اللواعج وأشكر لمجلة الغَرّي لطفها مع الأساتذة المصريين، راجياً أن تلوح فرصة قريبة نجزي فيها العراق لطفاً بلطف، وجميلاً بجميل
زكي مبارك
موسيقى. . .
للأستاذ دريني خشبة
كلما جلست وحدي تحت قبة السماء، لا يمضي غير قليل حتى تملأ أذني موسيقى الأفلاك. . . الأفلاك العلوية. . . التي تسبح فوقها الملائكة!
ما أطيب الوَحدة في هذا الزمن! إنها تصلنا بالأول والآخر، والظاهر والباطن. . . إنها تصلنا بالله!
ما أجمل موسيقى هذا الوجود المشرق بنور ربه! النور الذي يُدَوي بأعذب الألحان في قلوب الشعراء والمؤمنين والمحبين! النور الذي يفيض على الخمائل فيغني الورد، وتصدح البلابل، وتسقسق العصافير، ويهتز الأيك، ويستيقظ الوادي النائم، ويصحو النهر الوسنان، وتهرول الأنجم الحَيْرى، ويقف البدر الخجول مستأذناً عند أبواب المغرب الفضية!
غَنِّ يا قلبي فكل ما في الوجود يغني!
هات ألحانك فكل ما في الوجود ألحان!
ألحان صامتة هنا، وألحان مُدَوِّية هناك؛ وألحان من ألوان الزهر الضاحك، والفَنَنِ المورق، والبلبل الشادي، والخرير المترقرق، والنسيم العاشق، وعبير الحب في القلوب اليافعة، وابتسام الأمل في قلوب العذارى، وبراءة الحَمَل وهو يقضم الكلأ، ثم يحسو جرعة من صفحة الغدير!
تلك موسيقى الخلود أيها الفؤاد المعمود!
ألست ترى إلى قطرات الكد التي تتحدر فوق جبين العامل! وتفيض ملء أسارير الفلاح؟. . . إنها صلوات الرجاء الذي لا ينقطع، وأدعية الأمل الذي لا يخيب. . . إن لها بين يَدَي الله لغِناء تردده الملائكة من حول العرش، كما تردده الأطفال من حول الأم. . . أما في قلوب العمال والفلاحين، فهي موسيقى الإيمان الذي لا ينقم، والرضى

الذي لا يسخط، والقناعة التي لا تضيق، والتسليم الذي لا يعرف الحسد
كل ما في الكون ألحان فتغن يا فؤادي
ليست ألحان الرياح في أوتار الدوح، ولا هديل الحمائم في ضحى القرية، ولا موسيقى الكروان في هدأة الليل، ولا تنهدة الحسناء في ضوء القمر، ولا تناجي المحبين في غفلة
الرقباء، ولا هَمْس القُبَل المذعورة في أول لقاء، ولا رعشة الشفاه الظامئة وهي تعترف، ولا المعاني الراقصة وهي تغازل خيال الشاعر، ولا مس فم الأم وهي تسجل أسرار قلبها فوق جبين الطفل، ولا قطرات الندى وهي تُفتح أكمام الورد، ولا آراد الشمس وهي توشي أذيال السحاب عند ما يتنفس الصبح، ولا حفيف الريشة في يد المصور وهي تجمش اللوحة، ولا صلاة الناسك وقد فني في الله في سكون الخَلْوة، ولا تبرج الموج وهو يعانق حِسان الصيف قريباً من الشاطئ، ولا براءة الطفلة وهي تضم القُطَيطة إلى صدرها النابض، ولا غناء القلوب الملتاعة حين تلتقي، فتتماس، وتخفق ثم تهدأ. . .
ليس هذا كله إلا موسيقى الوجود المتحد، فغن مع القافلة يا قلبي!. . .
اتحد بالأغنية الكبرى التي تصغي إلى موسيقاها العذبة الحنون ترددها قرائح الشعراء، وتصدح بها أسراب الطير، وتنفخ في نايها أنفاس الريح، وتستروح إليها قلوب المدنفين، ويستجيب لها بيان الأديب الذي يغدو لها مزماراً، ويقدم من روحه لجرسها قيثاراً، فيجعلها دموعاً في أعين المحبين، أو رحمة في جوانح الحزانى، أو حمرة في شفة كل عذراء، أو سحراً في أهداب كل حورية، أو نفحة في فؤاد كل مبتئس. . . أو ما شاء له فنه الذي جعله الله مرآة هذه الحياة الدائبة، ولسان هذا العالم الشادي
لله ما في حناياك من حناياي يا وتر!
تعال أسمعك أناتي التي هاجت حَرّها أناتك. . . أنت أيها المعجب المطرب، إن عندي ما يشجي وما يبكي!. . . إن هذا النغم الحلو النحيل الذي يمس المشاعر المترنحة كما يمس الفراش أفواف الزهر. . . إن هذا النغم الذي يشبه الأهداب الطويلة الناعسة، هو نغم ضحوك طروب ثمل، يصدر عنك ولا يرتد إليك. إنه يمس القلوب مساً خفيفاً ثم يمضي كما تمضي الذكريات السعيدة، ويتبدد كما تبدد الأحلام الفضية، وقلما يبقى منه شيء في السويداء تستعين به على تخفيف آلامها وتلطيف مآسيها. . . وإن بقي منه شيء فإنما يكون أطيافاً. أطيافاً من آهات ولوعات ولهفات، تزيد الشجا في صدر الشجي، وتؤجج اللظى في قلب المشتاق. إنها تزيد المواجع ولا تشفيها، وتثبتها ولا تنفيها، إنها تفجر دموع الضعفاء الذين يعتزلون الدنيا من أجل غادة، ويلبسون المسوح من أجل حب خائب، وغرام تعس
أما موسيقاي يا وتر! فمن لي بكلمات أعصرها من قلبي دماً، إذا جعلته سطوراً على أديم
طروسي، وقرأها الناس، ملأت قلوبهم، قبل أن تملأ أسماعهم. . .!
هذاك قلمي يا وتر! إنه أشبه اليراعات بالناي الذي يبكي معك ليبكي الناس! أليس ينفث من شباته ما تتغنى به الإنسانية من ألحان هذا الزمان المضرج بالدماء، مثل ما ينفث نايك من ألحانه الخمرية التي يتغنى بها السهاة اللهاة العرابيد!
اسمع إلى موسيقاي يا وتر، تحملها الصبا من جوانح الأمهات والأيامى والمنكوبات في جنبات الفستولا وحفافي اليانج وضفاف الروهر. ثم من مغاور الأولمب وكهوفه، وليس من شعافه ومشارفه التي كان يصدح فوقها أبوللو، إذ تهدهد مركبته أورورا الوردية فوق السحب مطلع كل شمس
هَلُمَّ أسمعك موسيقاي يا وتر!
هلم أسمعك دقات القلوب النابضة. . . القلوب المجروحة. . . قلوب العذارى البولونيات اللائي لَدَيَّ من همس عيونهن، ومشبوب ضلوعهن، ما لا يدور لك في خلد! تعال. . . أرهف آذانك التي يملؤها الشدو دائماً بما تتشكى هذه الفتاة التي تقول لي وهي تبكي: (لقد كان لي أب. . . لقد كان لي أم. . . لقد كان لي حبيب. . . والآن هاأنذي جائعة. . . هاأنذي ظمأى. . . ظمأى إلى كل شيء. . . إن صدري يمزقه الظمأ، وتشويه الحُرَق، وتقتات به الآلام. . . وإن جمالي الذي كان العالم يفتتن به، قد ذبل، إنه يدمى الآن في أسمال الفاقة، وفي وادي الموت والتشريد. إنه يبكي على الآباء

والأمهات والأخوة , , , وعلى كناره الذي كان يملأ جنة حبه بالشدو، ويغسل أرضها بالدمع، ويورق أغصانها بالتغريد. . . يا رب أين ذهب كناري. . . لم لم يفرد جناحيه للريح حين هبت زوابع الهون؟ هل ظن أنه يحول بيني وبينهم بأغنياته؟ ما كان أرق فؤاده يا ربي؟. . . ولكن ما لي أذكر كناري الحبيب ولا أذكر بيانكا. . . بيانكا الصغيرة ذات العامين، التي ظلت تحت الردم يومين، ولما أخرجت في الثالث سألتني بصوتها النحيل الباكي الذي يتحشرج: ماما. . . أين ماما؟ فلما أنبأتها أنها تنتظرها في الجنة. . . تلك الحديقة الكبيرة اليانعة التي غرستها يد الله، تبسمت، وأطبقت جفنيها وأسلمت آخر أنفاسها وصعدت إلى الله القادر اللطيف لتقابل أمها في الحديقة الكبيرة اليانعة. . ولعلها تتذكر حينما تلقي البستاني فتروي له ما صنع الهون .

ولأترك لك بقية القصة، قصة البولونية تلحنها أنت وتغنيها أنت. . . وتزفر بها أنت. ثم تبكي بها ملء عيون الإنسانية وملء قلوبها يا وتر!

تعال. . . تعال أسمعك من أناشيدي الباكية يا وتر!

هل سمعت ما قالت كيتي اليونانية، عذراء كوريتزا، وهي تبكي؟! إن أنين القيثار كله يذهب في بعض أنينها يا وتر. . . لقد كانت تذيب روحها قطرات من الدمع المختنق ترسله قطرة فقطرة من عينيها الثرتين، إذ هما ترويان مأساتها. . . مأساة أفروديت ويالّلا وسيرز وبندورا. . . بل مأساة الجمال والحكمة والخير والأمل!!

اسكبي دموعك يا ورود الحديقة على فينوس الجميلة التي أثخن الأعداء جسمها البض بجروح الوحشية المتبربرة المزهوّة بالطائرات والدبابات والغواصات والطرابيد!

اسكبي دموعك يا ورود الحديقة على أدونيس الغُرانِق الذي جند له الخنزير البري وراح يلغ في دمه، ويسلب القوت من أطفاله العُراة الظّماءِ الجياع الذين هبوا يردون من عرينهم الضبع، فهب الخنزير البريُّ إلى معونة ابن عمه. . . لكنه ذاده آخر الأمر عن الجثة التي غرز فيها أظافره، ووقف على رمتها يُقهقه ويُغني

اسمع إلى كيتي عذراء كوريتزا يا وتر، وهي تروي مأساتها:

(لقد كان لي أب. . . لقد كانت لي أم. . . لقد كان لي كِنارٌ حبيب يملأ حديقة حياتي ترجيعاً وتسجيعاً. . . يبتسم لي وأبتسم له. . . ويملأ قلبي بالمُنى البيض، وأفعم حياته بغُر الأماني. . . ثم جاءت القائمة السوداء تنعيه من ميدان المجد والشرف. . . فلبست عليه البياض الذي ترى يا وتر. . . لأنه قَدَّم قلبَينا قرباناً للوطن. . . ولما مضيت في إثره أقتل الهون البرابرة الذين قتلوا كناري، قبض عليَّ سفّاحهم في طريق الحومة، ولما أقتل من كلابهم غير عِلْجَيْن. . . فوا أسفاه على أن لم أروّ الأولمب بدمائهم جميعاً. . .)

اسمع إلى لحن الإنسانية المجنونة يا وتر!

الإنسانية التي أصابها هذا السُّعار المحزن الذي جَرح القلوب وقَرح العيونَ وبرِّح بالقافلة. . .

ألا أيها الليل الطويل متى ينبلج الفجر؟

ألا أيتها العِير الضالة متى تطلع الشمس؟

ألا أيها الوتر الماجن متى تجد فتسمع قومي هدير الموج الصخاب وهزيم الريح الصِّر وانفطار قلب الإنسانية الباكية. . .

الإنسانية التي تدفن أطفالها تحت الردم، وتهوي جواريها في بطن اليم، وتبث ألغامها في البحر واليَبَس. . .

الإنسانية التي تضحك وتبكي، وتنوح وتغني، وتلبس السواد وتلبس البياض، وترقص في العُرس كما ترقص على المقبرة، وتتحمس في الخندق كما تتيه في الحانة. . .

ما هذا؟

ماذا تسمع يا وتر؟

ما هذا الصوت العذب الجميل الذي يقول:

أيها الخفاق في مسرى الهواء؟

ولمن هذا اللحن الخلاب:

يا شباب النيل!

يا عماد الجيل؟!

يا للموسيقى؟!

أين هو اللواء الخفاق؟ وأين هم شباب النيل عماد الجيل؟
اصدقي يا موسيقى. . . اصدقي. . . اصدقي فقد جد الجد، وآن أن يزهق الباطل!
دريني خشبة
على هامش النقد
الأدب (المهموس) والأدب الصادق
للأستاذ سيد قطب
قلت في كلمتي السابقة عن اللون المفضل من ألوان الأدب الذي يدعو إليه الأستاذ مندور
من جميع النماذج التي اختارها حتى الآن - والنموذج كما قلت أكثر دلالة من الشرح) العام - أستطيع أن أسمي هذا اللون باللون (الحِنَيّن) حسب تعبير أولاد البلد من (القاهريين! الذي تحس فيه (بالحنية) أو بالهمس والوداعة الأليفة حسب تعبيره هو
ولست أحب أن أظلم الأستاذ (مندور) ولا أن أشوه صورة اللون الأدبي المفضل لديه. فليس في الأمر ما يدعو إلى هذا العناء، أو هذا الالتواء. فأنا أسجل له هنا - في الرسالة - بعض الشرح لما يريده نقلاً عن (الثقافة). قال في أحد الأعداد:
الهمس في الشعر ليس معناه الضعف، فالشاعر القوي هو الذي يهمس، فتحس في) صوته خارجاً من أعماق نفسه في نغمات حارة؛ ولكنه غير الخطابة التي تغلب على (شعرنا فتفسده، إذ تبعد به عن النفس، عن الصدق، عن الدنو من القلوب
ثم قال في عدد آخر:
وبعد، فهناك شعر صادق جميل، وهناك نثر صادق جميل، سميتها مهموسة لأعبر عما) يثيره التعبير الفرنسي - الذي نستطيع ترجمته حرفياً بـ (نصف الملفوظ) والمعنى في نفسي ليس واضحاً تمام الوضوح، لأنه في الحق إحساس أكثر منه معنى، وإنما أستطيع أن أوحي للقارئ بشيء منه. إن قلت إنني أقصد إلى ذلك الأدب الذي سلم (من الروح الخطابية التي غلبت على شعرنا التقليدي منذ المتنبي
ثم يقول في نفس المقال:
لست أدري أأفصحت أم لا. ولكني في الحق أعتمد على نفاذ روح القارئ، لأني يائس) من أن أحمل إليه ما في نفسي حملاً تاماً، ولهذا أترك له دائماً مشاطرتي التفكير والإحساس. عليه أن يصل ما أقطع، وأن يفصل ما أجمل، وأن يضفي على الإشارة كل ما خلفها. . .
وقد عنيت أن أسجل هذه الفقرات، ولعلها أقوى وأوضح ما يصور فكرة الأستاذ مندور - أو إحساسه بتعبير أصح - وهذا اللون الذي يدعو إليه في الأدب، لون حبيب، ما في ذلك شك؛ ولكنه ليس اللون الوحيد الذي نعادي كل ما سواه، لأنه ليس الصورة الوحيدة للحياة
ولم يكن خطأ الأستاذ مندور في هذا التضييق وحده - عند رسم آفاق الأدب - ولكنه كان كذلك في رسم صورة واحدة لهذا اللون الواحد عند اختيار نماذجه - والنموذج الواحد هو الذي يكشف عن الصورة الباطنة في نفس المتحدث - فإذا جاز لي أن أعد النماذج التي جاء بها صورة اللون الذي يدعو إليه، لم أكن حينئذ ظالماً له، ولا مشوهاً لغرضه حين سميت الأدب المهموس بالأدب (الحنين)!
وأحب أن أطمئن الأستاذ مندور على أنني أحس ما في نفسه مما لا يستطيع أن يحمله إلى القارئ حملاً تاماً - كما يقول - ولا أرى في استنجاده بإحساس القارئ لتكملة ما يريد وتفصيله، عجزاً ولا قصوراً - كما رأى البعض - فالحس الفني لا تستطيع الألفاظ دائماً أن تحمل معانيه كاملة بوضوح، وحسبها أن تشير إليه وأن تستثير في نفوسنا المعاني والأحاسيس والذكريات الخاصة به
وهو في شرحه للأدب المهموس، كان أوسع أفقاً وأرحب صدراً، من الأمثلة التي جاء بها جميعاً من لون واحد، ولو كانت المسألة مسألة علمية أو فكرية لكان هذا الشرح هو كل شيء. ولكنها مسألة فنية، فالمثال هو الأصدق والأصح في تصوير الشرح العام وإذا قلت: كان أوسع أفقاً وأرحب صدراً، فإنما أقيسه إلى نفسه في فهم الأدب. ولا أحتاج أن أقول: إن ذلك الأفق ليس وسيعاً، وهذا الصدر ليس رحيباً، بالقياس إلى الفهم العام الذي يجب أن تعنيه جميع الألوان الصادقة من الفنون، لا لون واحد قد يكون أفضل الألوان، وقد لا يكون!

وقد قلت في الكلمة السابقة: (إنه كان موفقاً في اختيار بعض النماذج، غير موفق في اختيار بعضها، فقصيدة (يا أخي) لميخائيل نعيمة، وقصيدة (ترنيمة سرير) لنسيب عريضة يعدان نموذجاً طيباً لهذا اللون بذلك القيد. ولكن ماعداهما من مختاراته كان نماذج رديئة للشعر عامة، ولهذا اللون من الشعر كذلك، لا في الأداء وحده، ولكن في حقيقة الشعور)

فأحب أن أفصل هذا القول بعض التفصيل

يقول الشاعر (نسيب عريضة) بعنوان (ترنيمة سرير):

ظلام الليل قد جنا ... وبوق الهمِّ قد رنَّا
فنم يا طفل لا يهنا ... غني بات شبعانا
قتام اليأس غطَّانا ... فَنمْ، لا عين ترعانا
إذا ما صبحنا حانا ... حسبنا الصبح أكفانا
ألا يا همُّ يكفينا ... لقد جفَّتْ مآقينا
لو أن الدمع يغذونا ... أكلنا بعض بلوانا

فتنال هذه القطعة إعجاب الأستاذ (مندور) وحبه، وهي حقيقة أن تنال هذا منه، ومنا - نحن أيضاً - بوصفها لوناً من ألوان الأدب، لا بوصفها اللون الوحيد الذي يحب ولكن الشاعر يقول قطعة أخرى بعنوان (يا نفس) لا تبلغ أن تكون في هذا المستوى، ولا أن تكون نموذجاً شعرياً، فتنال إعجاب الأستاذ مندور كذلك لأسباب سنذكرها بعد. وهذه بعض مقطوعاتها:

يا نفس مالك والأنين ... تتألمين وتُؤلمين
عذبت قلبي بالحنين ... وكتمته ما تقصدين!
قد نام أرباب الغرام ... وتدثروا لحف السلام
وأبيت يا نفس المنام ... أفأنت وحدك تشعرين؟
والليل مر على سواك ... أفما دهاهم ما دهاك
فلم التمرُّد والعراك ... ما سور جسمي بالمتين

ولا يعلو مستوى بقية القصيدة عن هذا المستوى، الذي لا شعر فيه ولا حرارة. وأحسب أن وضع القصيدتين متقابلتين - وهما لشاعر واحد - يكفي للإحساس القوي الواضح بما بين مستواهما من فروق. ولكن الأستاذ مندور يصب إعجابه عليها جميعاً، ورائده في ذلك أمران:

الأول: أن القصيدتين لشاعر من شعراء المهجر. وهو يحب شعراء المهجر، لأنه حين ذهب إلى أوربا كان يحمل بعض أدبهم، وبعد أن عاد إلى مصر لم ينفسح له الوقت ليقرأ الشعراء المصريين المحدثين!

والثاني: أن في كلتا القصيدتين نغمة أسى دفين متهالك. وهو لا يحوجنا في هذا إلى - التخمين إذ يقول عن القصيدة الأولى: (أعود أنصت إليه - أي إلى نسيب عريضة يهدهد طفله في (ترنيمة سرير) حزينة بموسيقاها المطردة!) وكان قد قال عن المقطوعة الثانية: (وهانحن منذ المقطوعة الأولى في جو الشعر فالنفس تئن) يكفي إذن عند الأستاذ (مندور) أن تكون القصيدة لأحد شعراء المهجر، وأن يكون فيها حزن وأنين، لتنال منه الحب والاستحسان! ومرد هذا كما قلت إلى (مزاج خاص) هو إلى الحالات المرضية أقرب فيما أعتقد

هناك عقدتان نفسيتان لعلهما تلتقيان عند عقدة واحدة. فالأستاذ - كما لمحت في أحاديثي القصيرة معه - حاد المزاج، سريع التأثر، شديد الحنين والألفة، وهي صفات إنسانية تحب، ولكنها لا تصلح للناقد ولا يستقيم معها النقد. وهو يقول في إحدى مقالاته:

بلغني أن (أمين مشرق) قد قتلته سيارة بأمريكا، فحزنت وراجعت نفسي في سر ذلك الحزن، وهذا رجل ما رأيته قط، ولا حدثني عنه أحد، وإنما هي مصادفات الحياة ساقتني وأنا طالب، إلى كتاب به مختارات لشعراء المهجر، فتفتحت لنغماتهم نفسي، واصطحبت الكتاب إلى أوربا سنوات، وعدت (بكتابي) القديم كما ذهبت به، وإن تكن جلدته قد ضاعت، وأوراقه الأولى قد تآكلت، وأصبحت لا أعرف له عنواناً. ولكنني أفرغ إليه كلما ضاق الصدر أو عض الألم، فأجد بين صفحاته من عبير الروح ما يحيي الإيمان أمين مشرق، بين من يضمهم (كتابي). له فيه صفحات من الشعر والنثر. كم آنست)

(من وحشتي ورفعت من قلبي. إنه صديق قديم
هكذا كتب الأستاذ (مندور) وأنا (أحب) هذه النغمة منه. ولكني من أجلها لا أثق بأحكامه الأدبية - وبخاصة في الشعر - ومن أجلها كذلك أحذر القراء من الاطمئنان إلى هذه الأحكام!
في (مندور) حنان وألفة، وهو قد (هاجر) إلى أوربا وحمل معه إلى المهجر كتاباً يضم مختارات لشعراء (المهجر) وكان هذا وحده يكفي لأن يحب هذا الكتاب وشعراء هذا الكتاب. ولكنه كان كذلك كتاب الصبا الذي رافقه وهو (طالب)، وجلدته قد ضاعت، وأوراقه قد تآكلت. ولكنه عاد (بكتابه) القديم كما ذهب به، فزاده ذلك إعزازاً لديه وأثارة عنده. وصار يفزع إليه كلما ضاق الصدر أو عض الألم. وكان (أمين مشرق) بين من يضمهم كتابه فاستحق لقب (الصديق القديم) وكان سواه من شعراء المهجر كذلك. فكل منهم
إذن هو (صديق قديم)!
ولقد قلت إنني (أخشى أن تكون حادثة ما أو عدة حوادث كامنة في ماضي الأستاذ مندور، تتحكم في نفسه دون شعور) فهذه حادثة من تلك الحوادث التي افترضتها ومن يدري فلعل وراءها من نوعها الكثير!
على أن هناك عاملاً آخر تتأثر به أحكام صاحب (الميزان الجديد)؛ فقد عاد إلى مصر قريباً، ولم يتسع له الوقت بعد ليقرأ الشعراء والأدباء المصريين؛ إذ كان مشغولاً في الوقت القصير الذي تلا عودته بكتابة رسالة يتقدم بها إلى الجامعة. فهو - كما فهمت من حديث سريع معي - كان يحسب الشعر المصري هو ذلك الذي تنشره الأهرام في بعض (المناسبات)، فأصدر عليه حكماً جازماً سريعاً. كما أنه عندما تحدث عن (بيجماليون) لتوفيق الحكيم، لم يكن قرأ كل مؤلفاته فأصدر عليه حكماً جازماً سريعاً. وهكذا كان أمره - فيما أحسب - مع شعر العقاد وشعر سواه: نظرة خاطفة سريعة، وحكم جازم سريع! وليس هكذا يصنع (أصحاب الموازين)!
وبعد فلقد كان اليوم موعدي مع القراء لعرض نماذج من الشعر الهامس الصحيح؛ فمعذرتي إليهم أن الفرغ المتاح قد استغرق كله. والى اللقاء القريب
(حلوان)
سيد قطب
إنشاء معهد لفنون التمثيل
ضرورة لا غنى عنها
للأستاذ زكي طليمات
المدير الفني للفرقة المصرية للتمثيل والسينما
تحية للأستاذ دريني خشبة الذي يعنى بشئون المسرح المصري ويفسح لها من علمه (وأدبه)
إن ما تجري عليه الحكومة من وسائل ترقية فن التمثيل وتشجيع القائمين به - وأبين مظاهرها قيام الفرقة المصرية للتمثيل والموسيقى - إنما هو علاج مؤقت لحالة يجب أن يشملها إصلاح واسع يرتكز على سياسة إنشائية ترسم الوجهة التي يجب أن يولي المسرح المصري وجهه شطرها، ويكون من أول ما تسعى إلى تحقيقه إنشاء معاهد لفن التمثيل تعلم فيها فنونه وصناعاته على حقيقتها، وتكفل نشر ثقافة حقة لهذا الفن الجميل
وإنا إذ نقرر هذا ونشير به لا ننسى اعتباراً آخر له أهميته في تدعيم أساس لفن التمثيل وأدبه، وأعني به المسرحية المحلية ومؤلفها، بيد أن إيجاد هذا المؤلف النابه لا يتم بمجرد استشعارنا الحاجة إليه والبحث عنه، إذ أنه من فعل البيئة الثقافية وصنع الواعية الباطنة للمجتمع، وهذه أشياء تخرج على طوقنا لا حيلة لنا في السيطرة عليها. غير أنه مما لا شك فيه أن إذاعة ثقافية منظمة لهذه الفنون وتنظيم فرق تمثيلية تتسامى في عملها على الارتجال والجهل والتهويش والعرض الزائف لمما يساعد على خلق البيئة الفنية الصالحة التي قد ينجم منها المؤلف المسرحي الذي يسجل سمات الإنسانية العامة في معالم جيله، ويكشف عن القلب البشري في مسرحياته. لهذا نتجاوز عن هذا الاعتبار على أهميته، لنعالج عنصراً آخر له أيضاً أهميته لأنه مما يقوم عليه المسرح في كل زمان ومكان، ألا وهو الممثل والمخرج

إن إنشاء معاهد للتمثيل ضرورة ملحة مأتاها أن فن التمثيل باللسان العربي ليس أصيلاً في الأدب العربي، ولا هو من مرائي الحياة الاجتماعية في مصر، بل هو لون من الفن والأدب منتحل من الغرب، دخيل على المجتمع المصري منذ أن تفتحت أبواب من الأدب
العربي على الأدب الغربي في أواسط القرن الماضي، فتقاليده غير ممتدة في التربة المصرية، وفنونه وصناعاته غير مستبطن دخائلها، والقائمون بأمره ليسوا كلهم مما يرتفع بهم هذا الفن ويسمو، وذلك لخفة مؤونتهم من التعليم العام والثقافة الفنية. وإن ما انتهى إليه المسرح المصري في شتى نواحي هذا الفن، ولا سيما فن الأداء التمثيلي والإخراج، إنما هو ثمرة الجهاد الذي يقوم على الموهبة العاجزة والميل الشديد أكثر مما يقوم على الموهبة المثقفة والدراية الكاملة بمعارف هذه الفنون ولمقاليدها، وهو جهاد كان يسفر ولا شك عن مستوى أرفع مما انتهى إليه لو أنه أحيط بالدراسات التي تنمي مواهب القائمين به وتوسع في آفاق تفكيرهم وتردهم دائماً إلى الموثوق بصحته من التعاليم الفنية، إذ أن كل فن جميل إنما يقوم على عمادين: الدراسة والميل، ولا يقوم على واحد منهما
ولا أغالي إذا قررت أن فن التمثيل في مصر يتفرد بين جميع الفنون بأنه قائم من غير مدرسة ولا خطة تعليمية ما، وهذه حال تثير العجب والأسف في وقت واحد وليس فن الأداء التمثيلي وصناعات المسرح وفن الإخراج مما يرتجل ارتجالاً بدفعة الميل والرغبة، وإمداد الجرأة، ومواتاة المدارك فحسب، وإنما هي فنون تقوم على التثقيف النظري الواسع والممارسة السليمة من الزيف، بعد أن تناولها العلم بالصقل والتوليد، فقعّد لها القواعد وأصّل الأصول
نقرر هذا من غير أن نجحد ما للمواهب التي تركبها الطبيعة في الخلق من أثر كبير في نتاج الفنان، فقد وعت حافظة المسرح في مختلف الأقطار أسماء ممثلين اتسم عملهم بالنبوغ من غير أن يخضعوا لتعاليم معهد أو كتاب فن، ولكن هذا النبوغ قليل، يكاد يخرج على كل قاعدة وتعليم، فهو أمر خارق وشاذ لا يؤخذ به في وضع النظم التعليمية العامة
وفن الأداء التمثيلي وفن الإخراج، عنصران لهما خطرهما وأهميتهما في هذا الفن. وذلك باعتبار أنهما أداة الاتصال بين المسرحية والجمهور، المخرج والممثل: الأول يرسم وينشئ، والثاني يؤدي ويطالع الجمهور، فبطريقيهما يجري التأثير وتتم الفائدة من حضور الرواية
وقد سبق لوزارة المعارف العمومية أن أخذت بوجهة النظر هذه بعد أن سجلتها في تقريري الذي قدمته إليها مفصلاً معززاً بأقوال الثقاة من رجال الفن المسرحي في أوربا، وهو تقرير
قدمته عام 1929 عقب عودتي من البعثة الفنية في مسارح أوربا ومعاهدها، فكان أن أنشأت معهداً حكومياً للتمثيل عام 1930، ولكن هذا المعهد لم يقطع من سني حياته غير العام الأول، ثم ذهب ضحية المنازعات الشخصية التي كان يختلج بها صدر الوزارة في ذلك الوقت، فأغلقت أبوابه بدعوى أنه مخالف للتقاليد الشرقية!
وكان من جراء هذا أن انهار ركن كبير من سياسة إنشائية مرسومة، وحرم المسرح العربي من أن تعمل فيه وجوه جديدة لها مستواها الثقافي العالي ومواهبها الممتازة، فكان ذلك القصور المشهود في فنون المسرح، وكانت هذه المعاناة في سبيل إصلاحه. وها قد مرت اثنتا عشرة سنة منذ أن أغلق المعهد الحكومي أبوابه، بذلت أثنائها جهود مختلفة للارتقاء بمستوى المسرح، ولم تسفر عن شيء في سبيل تحقيق هذه الغاية، وبقيت الفرق العاملة تشكو ما كانت تكابده من ضعف في وسائل الأداء، وما تعانيه من افتقار إلى وجوه جديدة تحمل المشعل بأيد فتية وتواصل الجهاد إلى جانب ذلك النفر العزيز من الممثلين والممثلات المقتدرين، وهم نفر قليل عددهم قد برزوا في فنهم بخصب مواهبهم وفيض مؤهلاتهم. وإنني أتساءل ماذا يحل بالمسرح المصري في ناحية فن الممثل لو أن هذا النفر العزيز تنحى عن خدمة المسرح مختاراً بدافع الشبع والزهد، أو مجبراً بعامل المرض أو الوفاة؟.
إن إنشاء معهد للتمثيل أصبح ضرورة لا مندوحة عن مواجهتها لوزارة الشؤون الاجتماعية التي آل إليها أمر الفرقة المصرية وإعانات التمثيل والموسيقى

وما دامت الوزارة قد أولت المسرح المصري هذه العناية المأثورة إذ تتعهد الآن بنفسها أمر توجيهه وتقويمه ورعاية القائمين بأمره، فما أظن أن رعايتها تقصر عن إنشاء معهد للتمثيل يكون حجر الزاوية لمرحلة جديدة ينتقل إليها المسرح وقد رسخت له قدم ثابتة فيها هي جوهر له وأساس.

زكي طليمات

الصديق أبو بكر

بين العقاد وهيكل

للأستاذ محمود أبو رية

كانت هذه الكلمة في أصلها ستخرج خالصة لكتاب (عبقرية الصديق) الذي أخرجه الكاتب الكبير عباس محمود العقاد، ولكن عرض ما غير وجهة القول، وجعلني أتناول بالحديث كتاباً آخر معه، ولعل الخيرة فيما وقع.

ذلك أن أحد الأدباء واجهني بسؤال قال فيه: ترى ماذا بقي من تاريخ أبي بكر بعدما أتى به هيكل باشا في كتابه، فيجري به قلم غيره؟ وأني أجيبه هنا فأقول: إن هيكل باشا قد عنى في كتابه بذكر الأخبار وإيراد الوقائع التي حدثت في عهد أبي بكر متبعاً في ذلك سَنن من قبله من المؤرخين الذين ينقل بعضهم عن بعض

وعلى أنه قد أطال في النقل حتى خرج عمله في سفر ضخم، فإنه - كما قال صديقنا الكاتب السيد محب الدين الخطيب - قد فاته الاطلاع على مراجع وثيقة واعتمد على مصادر واهية لا يصح التعويل عليها (المقتطف والفتح)

ومن أجل ذلك ترى كتابه قد حمل أخباراً ما كان لمؤرخ محقق أن يأخذ بها، مثل ما روي أن علياً حمل فاطمة على دابة وخرج بها يطوف على الناس يجر هذه الدابة وهي تناشد الرجال وتتوسل إليهم أن ينصفوا بعلها وهم يعتذرون آسفين. وقد عجب الكاتب الكبير إبراهيم عبد القادر المازني في البلاغ من إيراد هيكل باشا لهذه القصة وقال (إن المرء لا يحتاج إلى ذكاء أو علم ليدرك أنها مختلقة من أولها إلى آخرها)

ومن الأخبار التي نقلها هيكل باشا إلى كتابه وهي إلى الخرافات أدنى منها إلى الحقائق أن العنكبوت خيمت على الغار لتحجب النبي وصاحبه عن الناس. ومن العجيب أن ما أتى به في كتابه من مثل هذه الخرافة قد عابه على الدكتور طه حسين يوم أن نشر الجزء الأول من كتابه (على هامش السيرة) وكان مما قاله في ذلك: (إن هذه الأمور إنما وضعت لإفساد العقول والقلوب من سواد الشعب ولتشكيك المستنيرين ودفع الريبة إلى نفوسهم في شأن الإسلام ودينه) (السياسة الأسبوعية)

هذا هو كتاب هيكل باشا ونحن بما أظهرنا من نقد - لنا ولغيرنا - لا نغض منه، وإنما نقول إنه قد أصبح مصدراً من المصادر التي يجد فيها الباحث تاريخ الإسلام في عهد أبي بكر وبخاصة تاريخ حروب الردة

أما العقاد فقد اتخذ في تأليفه منهجاً جديداً يباين ما ذهب إليه رجال التاريخ الإسلامي جميعاً، ذلك أنه جعل وجهته دراسة شخصية أبي بكر وتحليل ملكاته. وقد بين هذا المنهج بقوله: (إنني لا أكتب ترجمة للصديق رضي الله عنه، ولا أكتب تاريخاً لخلافته وحوادث عصره، ولا أعني بالوقائع من حيث هي وقائع، ولا بالأخبار من حيث هي أخبار، فهذه موضوعات لم أقصدها. . . ولكنما قصدت أن أرسم للصديق صورة نفسية تعرفنا به وتجلو لنا خلائقه وبواعث أعماله كما تجلو الصورة ملامح من تراه بالعين، فلا تعنينا الوقائع والأخبار إلا بمقدار ما تؤدي أداءها في هذا المقصد. . . وهي قد تكبر أو تصغر فلا يهمنا منها الكبر أو الصغر إلا بذلك المقدار، ولعل حادثاً صغيراً يستحق منا التقديم على أكبر الحوادث إذا كان فيه دلالة نفسية أكبر من دلالته، ولمحة مصورة أظهر من لمحته) (ص 3)

وهذا المذهب لذي اتخذه لدراسة أبي بكر هو ما نحتاج إليه ولا ريب في هذا العصر وما يجب على كل كاتب مجيد أن يسلكه، لأنه كما يقول العقاد: (أوجب مما كان في الأزمان الغابرة لأن الأسباب التي تغض من وقار للعظمة لم تزل تتكاثر منذ القرن الثامن عشر إلى الآن. . . وأن الإنسانية لا تعرف حقاً من الحقوق إن لم تعرف حق عظمائها، وأن الإنسانية كلها ليست بشيء إن كانت العظمة الإنسانية في قديمها أو حديثها ليست بشيء) (ص 6 و 7)

ولكي يُحكم التصوير ويُوفى بعمله على الغاية جعل من عقله وفكره وعلمه مجهراً

جعله أمام شخصية أبي بكر ثم أجرى قلمه على القرطاس ليرسم ما يستعلن في هذا المجهر حتى خرجت هذه الشخصية في صورة (صادقة كل الصدق في جملتها وتفصيلها)

وإذا كانت الصورة الجميلة التي تغترق العين لا يمكن لواصف أن يجلوها على حقيقتها فإنا نشير إلى بعض ملامح تلك الصورة التي أبدعها قلم العقاد إشارة عابرة تومئ ولا تغنى

لقد جعل العقاد من مذهبه إذا ما ترجم لعظيم أن يستقصي في الدرس ويمعن في التحليل حتى يقبض بيده على مفتاح شخصيته ثم يعطيه لكل باحث لكي ينفذ به إلى سر عبقريتها،

ويكشف عن دخائل ملكاتها. وقد كشفت له دراسته لأبي بكر عن مفتاح شخصيته فإذا هو (الإعجاب بالبطولة) وقد تحدث عن هذه البطولة فقال: إن البطولة التي أعجب بها أبو بكر هي البطولة التي ليس أشرق منها، بطولة تعرفها النفس الإنسانية، هي بطولة الحق وبطولة الخير وبطولة الاستقامة؛ وهي بعد هذا وفوق هذا بطولة الفداء يقبل عليها من يقبل وهو عالم بما سيلقاه من عنت الأقوياء والجهلاء، تلك هي بطولة محمد) ص 68

ولما عرض إلى ما بين أبي بكر وعمر من تقابل قال: (كان أبو بكر نموذج الاقتداء، وكان عمر نموذج الاجتهاد) ص 84 وبعد أن بين ما بينهما من اختلاف في الصفات قال تلك الكلمة الحكيمة: (وموضع العبرة بل موضع الإعجاز هو تلك الدعوة التي شملت هذه القوى كلها في طية واحدة، وضمت هؤلاء الرجال حول رجل واحد، وجذبت إليها أكرم العناصر التي تأتي بالعظائم وتصلح للخير وتقدم على الفداء) ص 95

وإذا كان مما لا ريب فيه أن أهم الأحداث التي نجمت بعد وفاة الرسول إنما هو أمر الخلافة وأمر الردة، فإن العقاد بعد أن استقصى الأمور كلها - في الأمر الأول - وقلبها على جميع وجوهها قال: (ومصلحة المسلمين في ولايته راجحة في كل حساب؛ لأن المسلمين كانوا يومئذ أحوج إلى عهد يكون امتداداً لعهد النبي حتى يحين وقت التوسع والتصرف الخ ص 33

ولقد أصاب العقاد في ذلك، إذ ما كان أحد يصلح للخلافة أو ينهض بأعبائها بعد رسول الله غير أبي بكر، لا لأنه أفضل الصحابة - فما ذلك قصدنا - ولكن لما كان عليه العرب حينئذ عامة، وبنو أمية خاصة، هؤلاء الذين كانت عصبيتهم المكبوتة تنتهز الفرصة للوثبة. فإذا أتيح لها أن تتولى الأمر بعد وفاة الرسول لأعادتها جاهلية، ولصار أمر الإسلام إلى زوال. وناهيك بما فعلوه بعد أن تولى عثمان أمر المسلمين، وكانت الدعوة قد استقرت والأمور قد تمهدت! وإذا كان عهد أبي بكر كما قال العقاد آنفاً امتداداً لعهد النبي فإنه كان كذلك عهد تمحيص وتثبيت. وكذلك ما كان يَصْلح للأمر بعد أبي بكر غير عمر ولا يتولى بعده إلا من يكون في مثل قوته وصرامته حتى يكون أمر المسلمين بعيداً عن أعاصير الأهواء وعواصف الفتن

أما أمر الردة فبينا ترى هيكل باشا يكتفي بأن يقول فيه عن الذين ارتدوا (إن كثيراً منهم راجعهم الحنين إلى عقائدهم الأولى فلم يلبثوا حين علموا بوفاة رسول الله أن ارتدوا عن دين الله) ص 14. ويقف في التعليل عند ذلك، إذ بك تبصر العقاد قد أرجع هذا الارتداد إلى علل منطقية ودلائل عقلية لا نطيل بذكرها. ص 141 وهذا هو الفرق ما بين من يأخذ الأمور من ظواهرها وبين من يوغل في دراستها إلى أن يصل إلى بواطنها

بقي أمر لابد من أن نقول فيه كلمة صريحة، ذلك هو موقف أبي بكر من فاطمة بنت الرسول رضي الله عنها وما فعل معها في ميراث أبيها. وهذا أمر نخالف فيه الأستاذ العقاد وكل من يرى رأيه؛ لأننا إذا سلمنا معهم بأن خبر الآحاد الظني يخصص الكتاب القطعي، وأنه قد ثبت أن النبي قد قال إنه لا يورث. وإنه لا تخصيص في عموم هذا الخبر، فإن أبا بكر كان يسعه أن يعطي فاطمة رضي الله عنها بعض تركة أبيها كأن يخصها بِفَدك، وهذا من حقه الذي لا يعارضه فيه أحد، إذ يجوز للخليفة أن يخص من شاء بما شاء؛ وقد خص هو نفسه الزبير بن العوام ومحمد بن مسلمة وغيرهما ببعض متروكات النبي. على أن فَدَك هذه التي منعها أبو بكر من فاطمة لم تلبث أن أقطعها

(الخليفة) عثمان لمروان
هذه لمحات قصيرة من ملامح صورة أبي بكر التي صورها العقاد؛ أما هذه الصورة
على حقيقتها فإنه لا يغني القول فيها عن الاطلاع عليها
ولعل القارئ قد أدرك بما بيناه بعد ما بين عمل هيكل باشا وعمل العقاد؛ فذاك قد آثر
حشد الأخبار وسوق الأحداث فِعل الإخباريين، وهذا قد أبدع مذهباً جديداً في التأليف
أعانه عليه أنه لم يتوله إلا وهو مستحصد المِرَّة من عقل وفكر، مستكمل الأداة من
اطلاع وعلم. وقد خرج هذا النحو من التأليف في عبارة محكمة السرد لم يستلهم فيها
وحي الخيال، وإنما استعان بمنطق الفيلسوف الذي يفتح من آفاق الحقائق ما لا يبلغه
خيال الشاعر أو الكاتب
وإذا كانت مؤلفات العقاد تعمل على تربية العقل وتنمية الفكر فإن ما يكتبه عن
عباقرة الإسلام يربى على ذلك بأنه خير دعاية للدين الإسلامي وأنجع وسيلة لإظهار
فضل رجاله الذين هم أهل لكل تعظيم
(المنصورة)
محمود أبو رية
حصاد القمر. . .!
وحي سياحة قمرية في ليلة من ليالي الحصاد بين حقول)
القمح، والنخيل. حيث كان الشاعر ضيف القمر بقرية (أم
(خنان) الهاجعة في مروج الجيزة الخضراء
للأستاذ محمود حسن إسماعيل
سِيَّانِ في جَفْنِهِ الإِغْفَاءُ وَالسَّهَرُ ... نَامَتْ سَنَابِلُهُ وَاسْتَيْقَظَ القَمَرُ!
نَعْسَانُ يَحلُمُ وَالأَضْوَاءُ سَاهِدَةٌ ... قَلْبُ النَّسِيم لَهَا وَلْهَانُ يَنْفَطِرُ
مَالَ السَّنَا جَاثِياً يُلْقى بِمَسْمَعِهِ ... هَمْساً مِنَ الْوحْي لاَ يُدْرَى لَهُ خَبَرُ
وَأَطْرَقَتْ نَخْلَةٌ قامَتْ بِتَلْعَتِهِ ... كأَنَّهَا زَاهِدٌ في اللهِ يَفْتَكِرُ
إِنْ هَفَّ نَسْيم بها، خِيلَتْ ذَوَائبُهَا ... أَنَامِلاً مُرْعَشاتٍ هَزَّهَا الْكِبرُ!
كأَنَّمَا ظِلُّهَا في الحَقْلِ مُضْطَهَدْ ... صَمْتُ السَّكِينَةِ عَنْ جَانِبِهِ يَعْتَذِرُ
الدَّوْحُ نشوَانُ! فَاخشَعْ إِنْ مَرَرتَ بِهِ ... فَضَيْفُهُ الْباطِشانِ: اللَّيْلُ، وَالْقَدَرُ!
كأَنَّ أَغْصَانَهُ أَشبَاحُ قافِلَةٍ ... غَابَ الرَّفِيقَانِ عَنَّهَا: الرَّكْبُ، وَالسّفرُ
مّبْهوُرَةٌ شَخَصَتْ فِي الجَوِّ ذَاهِلَةً ... كأَنَّهَا لحَبيبٍ غَابَ تَنْتَظِرُ!
أَوْ أَنَّهَا نَسِيَتْ عَهْداً، وَأَنْعَشَهَا ... شَجْوُ الرِّياحِ فَهَاجَتْ قَلْبَهَا الذِّكَرُ
أَوْ أَنَّهَا وَالأَسَى الْمَكْبُوتُ في فَمِهَا ... بَنَاتُ وَعْدٍ بها عُشقُهَا غَدَرُوا
عَجْمَاء تَنْبِسُ كالتمْتَام عَاتِبَةً ... وَمِلْءُ أَفْوَاضِهَا التَّهْوِيمُ وَالْحدَرُ!
يَا سَاكِبَ النُّورِ لا يَدْرِي مَنَابِعَهُ ... لأَنْتَ قَلْبٌ يُشِعُّ الْحُبَّ، لا قمرُ!
هَيْمَانُ تَحْمِلُ وَجْدَ اللَّيْلِ أَضْلُعُهُ ... وَاللَّيْلُ تقْتُلُهُ الأَشْجَانُ وَالْفِكَرُ
كأَنَّهُ زَوْرَقٌ في الخُلْدِ رِحْلَتُهُ ... تَيَّارُهُ مِنْ ضِفَافِ الْحُورِ مُنْحَدِرُ
يَا طَائِراً في رُبَى الأَفلاَكِ مُخْتَفِياً ... يَمْشِي عَلَى خَطْوِهِ الإِجْفَالُ والْحَذَرُ
أَرْخِ اللِّثَامَ، فمهْمَا سِرْتَ مُحْتَجِباً ... نمَّتْ عَلَى نُورِكَ الأَسْدالُ وَالسُّتُرُ
عَلاَمَ ضَنُّكَ بالأَنْوَارِ في زَمَنٍ ... إِلَيْكَ يَظْمأُ فِيهِ الرَّوحُ والْبَصَرُ!
الأَرضُ مُظْلمَةُ الأَسْرَارِ سَاخِرَةٌ ... كأَنَّهَا شَيْخَةٌ بالنَّاسِ تَتَّجِرُ!
تَقَبَّلَتْ كلَّ مَوْلُودٍ بِقَهْقَهَةٍ ... وَقَهْقَهَ اللَّحْدُ لَّما جَاء يَنْدَثِرُ!
يَا طَائِفاً لم يَنَمْ سِرٌّ عَلَى كَبِدٍ ... إِلا وَحَفَّكَ مِنْ أَحْلامِهِ أَثَرُ
تمْشِي الْهُوَيْنَا، كما لو كُنْتَ مُقتَفِياً ... آثَارَ مَنْ دَنَّسُوا مَغْنَاكَ وَاسْتَتَرُوا
لَيْلاَتُكَ الْبِيضُ وَالأَيَّام تَحْسُدُهَا ... عَرَائِسٌ عَنْ صِبَاهَا انْحَلَّتْ الأُزُرُ
سَمِعْتُ سِحْرَكَ في الأَضْواءِ أَغْنِيَةً ... حَيْرَى تَأوهَ عَنْهَا الرِّيحُ وَالشَّجَرُ!
وَعَيْنُها وَنَقِلْتُ السِّرَّ عَنْ فمها ... لِمنْ أَبوُحُ به وَالنَّاسُ قد كَفَروا؟!
آمَنْتُ باللهِ! كلُّ الْكَوْنِ في خَلَدِي ... هَادٍ إِلَيْهِ. . . الْحَصَى، والدُّرُّ، وَالْحَجَرُ!
ذرَتْ عُيُونكَ دَمْعاً لَيْسَ يَعْرِفُهُ ... إلا غَرِيبٌ بصَدْرِي حَائِرٌ ضَجِرُ!
قلْبٌ، كَقَلْبِكَ مَجْرُوحٌ. . . وَفي دَمِهِ ... هَالاتُ نورٍ إليهَا يَفْزَعُ الْبَشَرُ!
إِنَّ الْعَذَابَ الَّذِي أَضنَاكَ في كَبِدِي ... مِنْ نَارِهِ جَذْوَةٌ تَغْلِي وتَسْتَعِرُ
سَرَى كِلاَنَا وَنَبْعُ النُّورِ في يَدِهِ ... أَنْتَ السَّنَا! وَأَنَا الإِنْشَادُ وَالْوَتَرُ!

وَأَشْرَبَتْناَ اللّيالِي السُّودُ أَدْمُعَناَ ... وَأَنْتَ سَالٍ وَنَفَسِي غَالَهَا الشَّرَرُ!
كأَنَّ وَجْهَكَ في الشُّطْآنِ حِينَ غَدَا ... إليْكَ يُومِئُ مِنْ أَدْوَاحِهَا نَظَرُ. . .
مُبَشِرٌ بِنَبيٍّ. . . ذَاعَ مُؤْتَلِقاً ... عَلَى الْعَوَالِمِ مِنْ أَضوَائِهِ الْخبَرُ!
اللهُ أَكْبرُ! يا إبْنَ اللّيْلِ. . . يا كَبِداً ... لم يُضْنِ أَسْرَارَهَاَ التِّطْوافُ وَالسَّهَرُ!
بَكَى الْحَيارَى عَلَى الدُّنْياَ مَوَاجِعَهُمْ ... وَصَرَّعَتْهُمْ بَلاياَ الدَّهْرِ وَالْغِيَرُ
وَأَنْتَ حَيْرَانُ مُنْذُ الْمَهدِْ. . . لا وَطَنٌ ... وَلا رَفِيقٌ، وَلا دَرْبٌ. . . وَلا سَفَرُ!
لكن طَرفَكَ نَشوانُ السنا، ذَهَبَتْ ... منايِعُ السِّحْرِ من بلواهُ تنهَمِرُ!
قِفْ مرةً في سماء النيلِ واصْعَ إلى ... محيرينَ سَرَوْا في الحَقلِ وانتشروا
قومٌ. . . هُمُ الدَّمْعُ والآهاتَ تحمِلُها ... أقفاصُ عظمٍ لَهُمْ مِنْ خَطوِها نُذُرُ!
كادتْ مناجِلَهم والله مُشرِبُها ... بأس الحديدِ من البأساءِ تنصهِرُ!
مَشوا بها في مغاني النورِ تحسَبُهُمْ ... جَنائِزاً. . . زُمَرٌ أنتْ لها زُمَرُ!
جاسوا الحقولَ مساكيناً جلائِبُهُمْ ... توراةُ بُؤْسٍ عليها تُقرأُ العبَرُ
يجنونَ أيامهُمْ ضَنكاً ومسغبةً ... مِما أفاء لَهم وأدبهُمُ النَّضِرُ!
ساءلْتُ سُنبُلَهم: ما سِرُّ شقوتِهِمْ ... ومِنْ غُبارِ يديهم مَرْجُكَ العَطِرُ؟
فمالَ واسترجَعَتْ عيدانُهُ نغَماً ... يلغُو من الموتِ في أصدائِهِ سَمَرُ!
وإذ بها في تُرابِ الحقلِ نائمةً ... تحكِي توابيتَ لم توجد لها حُفَرُ
بكى الحصيدُ على أحزانِ غارِسِهِ. . . ... متى سَيُحْصَدُ هذا الدمعُ. . . يا قَمَرُ؟!

البريد الأدبي

من شعر الأستاذ مصطفى عبد الرازق باشا

نشرت الرسالة في العدد الماضي بيتين من الشعر لسعادة الأستاذ الجليل الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا، وقد يحسب بعض القراء أن هذين البيتين يتيمان ليس له غيرهما ولكنا نقول لهم إن لسعادته أشعاراً كثيرة ولكنه لم يُعن بنشرها، ونحن نذكر هنا بضعة أبيات من قصيدة مدح بها الأستاذ الإمام محمد عبده عند عودته من أوروبة وتونس والجزائر سنة 1903 (أي منذ أربعين سنة) وهاهي ذي:

أقبل عليك تحية وسلام ... يا ساهراً والمسلمون نيام
تطوى البلاد وحيث جئت لأمة ... نشرت لفضلك بينهم أعلام
كالبدر أنَّى سار يشرق نوره ... والحق أنَّي حل فهو إمام
إن يقدروا في الغرب علمك قدره ... فَلَمصْر أولى منهم والشام
فيك الرجاء لأمة لعبت بما ... يُلهى الصغار وجدت الأيام
لا زلت غيظاً للضلال وأهله ... والله يرضى عنك والإسلام

وقد كان جزاءه من شيخه أن كتب إليه كتاباً رقيقاً هذه نسخته:

ولدنا الأديب. . .

خير الكلام ما وافق حالاً، وحوى من النفس مثالاً، تلك أبياتك العشرة رأيتني والحمد لله متربعاً في سبعة منها كأنها الكواكب تسكنها الملائكة وما بقي كله كأنه الشهب، نور للأحباء، ورجوم للأشقياء، ما سررت بشيء سروري بأنك شعرت من علم حداثتك بما لم يشعر به الكبار من قومك. فلله أنت ولله أبوك! ولو أذن لوالد أن يقابل وجه ولده بالمدح لسقت إليك من الثناء، ما يملأ عليك الفضاء، ولكني أكتفي بالإخلاص في الدعاء، أن يمتعني الله من نهايتك، بما تفرسته في بدايتك، وأن يخلص للحق سرك، ويقدرك على الهداية اليه، وينشط نفسك لجمع قومك عليه

محمود أبو رية

وزير سوري يؤلف معجماً زراعيا

عرف الأمير مصطفى الشهابي وزير الدولة في حكومة سورية المؤقتة بأنه من الأعلام الثقات في وضع مصطلحات عربية للعلوم الزراعية، وقد شرع معاليه الآن يطبع معجمه المسمى (معجم العلوم الزراعية) بالفرنسية واللاتينية والعربية وهو معجم يضم نحو عشرة آلاف كلمة

إلى فضيلة الأستاذ الكبير محمود شلتوت

ملكتْ قلوبنا بحوثك الممتعة في: نزول عيسى عليه السلام وتقرير العقيدة الدينية على أساس من العلم كما هو متفق وأصول الدين: وإيماناً بما أفاضت علينا الرسالة الغراء من سامي تحقيقك وخالص نصحك أرجو إفادتي عن:

1 - قول بعض العلماء المتقدمين كالنووي والقاضي عياض بصحة الأحاديث الواردة في نزول عيسى واستدلالهم عليه بأهل السنة
2 - إذا ثبتت صحة الأحاديث الواردة في نزوله، ولكن لم تنهض دليلاً لاعتقاد ذلك لأنها لم تبلغ حد التواتر الذي تبنى عليه عقائدنا، فما موقفنا إزاء تلك الأحاديث الصحيحة؟
دسوقي إبراهيم
دفع لاعتراض
أخذ الأستاذ محمد محمود رضوان على الأستاذ العقاد أنه استعمل الحرف (لا) جوابا لسؤال هو (ألا تزال تضرب امرأتك؟) وحقيقة أن همزة الاستفهام إذا دخلت على النفي كان الجواب بالحرف (بلى) إثباتاً وبالحرف (نعم) نفياً. ولكن العبارة التي معنا لم تدخل فيها الهمزة على نفي، بل دخلت على إثبات، لأن لا للنفي وتزال للنفي، ونفي النفي إثبات، فهي في قوة قولك (أتضرب امرأتك إلى الآن) فكيف تكون الإجابة بعد ذلك بنعم ويكون المراد بها نفي الضرب؟ لعل هذه القاعدة مقيدة بما إذا كان النفي لم ينتقض
محمد أبو سريع حسين
بمعهد القاهرة
ذكرى السيد جمال الدين
بهذا العنوان قرأت أول ما قرأت بشوق ولهفة مقال الأستاذ محمود شلبي في عدد الرسالة 506
فهو لعمر الحق مقال ممتع قوي التعابير، محكم التراكيب تعلوه موجة أدبية لا يشعر بها إلا من منحه الله ذلك الإحساس الفني والشعور الأدبي
وكيف نستكثر على الرسالة واتجاهها هذا اللون الإنشائي وهي قد مهدت الطرق لرفع مستوى الأسلوب الفني في مصر والأقطار العربية؟ وإني لازلت أتذكر جيداً كلمة أستاذنا محمود البشبيشي في موضوع الرسالة، وقد كان يدرس لنا الإنشاء إذ قال إن الرسالة حملت عبء مدرس الإنشاء في المدارس العالية، وقد كان المدرس ينوء بحملها
وقد استرعت تفكيري أمور في مقال الأستاذ شلبي لا يحسن السكوت عليها، فقد ذكر أن السيد جمال الدين ولد في قرية (أسعد أباد من قرى كنر) ولا أعلم من أين أخذ الأستاذ هذه المعلومات في حياة هذا الفيلسوف العظيم. وعلى فرض أنه استند إلى جريدة أو مجلة فإن قراء الرسالة لا يغتفرون له هذا الاستناد بل يرجون منه ومن غيره تحقيقاً وتمحيصاً فإن آذانهم مرهفة، وأبصارهم شاخصة لكل ما يكتب في الرسالة
وكان الجواب على الأستاذ أن يطلع على الكتاب الذي أصدره منذ سنيهات عن السيد جمال الدين ومحمد علي الكبير مساعدُ أستاذ في الجامعة الأمريكية ببيروت باللغة الفارسية واسم الكتاب (مودان نامي شرق) فهذا الكتاب منجم ثري لمن أراد الكتابة عن السيد جمال الدين وفيه مراسلات جميلة وطريفة بينه وبين العالم السيد مرزا حسن الشيرازي
أما ولادته ففي قرية (أسداباد من قرى همدان) لا في قرية (أسعد أباد من قرى كنر) وفي هذه القرية اليوم مدرسة اسمها (الجمالية) تخليداً لذكرى السيد جمال الدين ودراسته الأولى كانت على والده ثم رحل إلى النجف، وله فيها حتى الآن أصهار وأقارب. وإذا أراد الأستاذ التعرف إلى أقاربه فإني أحيله على الأستاذ المحامي السيد صادق كمونة في النجف فهو خير من يعرف عنهم
أما قبره ففي تركيا وقد كان مهجوراً دارساً إلا أن المستر كراين الأمريكي تبرع لبنائه لما زار تركيا. وللأستاذ شلبي مني ألف تحية.
(بغداد)
عبد الكريم الدجيلي
المدرس بدار المعلمين الابتدائية
العدد 519 - بتاريخ: 14 - 06 - 1943
المرأة والفن
للأستاذ عباس محمود العقاد
ليس أكثر من المرأة في هذه الدنيا

وليس أخطأ ولا أضل مع هذا من الكلام عنها بين الرجال والنساء على السواء كأنهم يتكلمون جميعاً عن (عينة) نادرة في بقعة من بقاع الأرض النائية، أو عن بقية من مخلفات العصور الأولى في قارورة مغلقة عليها، أو كأنما هذه المرأة التي نحسبها آدمية - كما قال بعض العلماء - إن هي إلا أنثى حيوان داثر تغلب عليه الإنسان وانتزعها منه لفاقة أصابته في نسائه. وليست هي في النوع الإنساني بالأنثى الأصيلة فيفهمها الرجل وتفهمه كما يتفاهم الزوجان من جنس واحد

وسر هذا الخطأ والضلال فيما نرى هو أن المرأة خلاصة الحياة الحسية كلها، فلا محيص من الخطأ فيها إذ لا محيص في الحياة الحسية من التجدد والتناقض، ومن رؤية الشيء الواحد على شتى الوجوه، حسبما تعرضه لنا المناسبات والطوارق التي لا يضبطها عنان

ومن أكثر الأهداف عرضة للخطأ في موضوع المرأة كلام الناس عن نصيبها من الفنون الجميلة ونصيب الفنون الجميلة منها. نلمح ذلك كلما كتبنا عن المرأة ووحي الفن، أو المرأة وحقيقة الجمال، أو المرأة والشعر والشعراء، ولمحناه في العهد الأخير بعد مقالنا في الرسالة عن (بيفردج والمرأة) حيث نقول إن النساء روائيات مجيدات وشاعرات مقصرات؛ لأن الشعر ابتكار واقتدار على الإنشاء، وليست المرأة مشهورة بالابتكار حتى في صناعاتها الخاصة بها كالطهي وصناعة الملابس والتزيين، وزدنا فقلنا: إن الشعر وأساسه الغزل (هو وسيلة الرجل لمناجاة المرأة، وقد تعودت المرأة بفطرتها أن تكون مطلوبة مستمعة في هذا المجال. فهي لا تحسن الشعر كما يحسنه الرجل، وعلى هذه السنة تجري جميع الذكور في أنواع الحيوان حين تسترعى أسماع الإناث بالغناء أو الهتاف والنداء

قلنا هذا فلم نر أكثر من المستغربين أن تكون المرأة عالة على الشعر وهي مصدر وحيه إلى الشعراء فيما يقولون. مع أن المسألة هنا مسألة واقع محسوس وعلة معقولة، وليست مسألة فروض أو مذاهب تفكير. فنحن نقول: إن إجادة المرأة للشعر نادرة في آداب الأمم قاطبة، فمن شك في ذلك فعليه أن يذكر أسماء الشواعر الكثيرات اللوائي يكذبن ما نقول من

ندرتهن في الآداب العالمية. فأين هن أولئك الشواعر الكثيرات المجيدات؟ لا يزدن على الأربع أو الخمس عدًّا في آداب العالم من قديمها وحديثها. وفي إجادتهن للشعر مع هذا شك كثير يطول فيه الخلاف، وإن بطل الخلاف في إجادتهن فأيسر الأشياء أن ترد هذه الإجادة إلى شذوذ في بعضهن يلحقهن بالرجال، ولا يقصرهن على طبائع النساء

ونحن نقول إن علة القصور الذي يلاحظ على المرأة في ميدان الشعر أنها لا تحسن الابتكار والإنشاء حتى في صناعاتها الخاصة بها كالطهي وصناعة الأكسية والزينة. فمن شك في ذلك فعليه أن يقول لا: بل تحسن المرأة هذه الصناعات ولهذا تتقدم الطاهيات على الطهاة، وتتقدم مخترعات الأزياء على مخترعيها، وتتقدم المشتغلات بالتجميل على المشتغلين به، ولا سيما في العصر الحديث

فهل يقول ذلك القول أحدٌ وله سند من الواقع الذي نراه كل يوم؟

إن الواقع الذي نراه كل يوم هو أن الطهاة المقتدرين أكثر جداً من الطاهيات المقتدرات، وإن اختراع الرجال للأزياء وأدوات الزينة أكثر جداً من اختراع النساء، وإن معاهد التجميل لا تعتمد على فنون النساء كما تعتمد على فنون الرجال. ولو انعكس الأمر لما كان عجباً للوهلة الأولى مع المتبادر إلى الأذهان من اختصاص المرأة بهذه الصناعات.

ونحن نقول إن الشعر أساسه الغزل، وإن الغزل من عمل الرجل وليس من عمل المرأة. لأن المرأة خلقت مطلوبة تستمع النداء فتجيبه، وسنتها هذه هي السنة التي تجري عليها جميع الذكور في أنواع الحيوان حين تسترعي أسماع الإناث بالغناء أو الهتاف والنداء

فمن شك في ذلك فسبيله أن يقول لا: بل هناك باب من الشعر هو أحق من الغزل بأن يكون أساساً للشعر كله، وهو أقرب إلى ملكات المرأة منه إلى ملكات الرجل وسبيله أيضاً أن يقول لا: بل الإناث هي التي تدعو الذكور وليست الذكور هي التي تدعو الإناث

فأما والقول بذلك بعيد التصديق بعيد المرجع والبرهان فليكن الواقع إذن عمدتنا من نصيب المرأة من الفنون، ولا يكن عمدتنا الفرض والظن والجدل الذي يحيط بالفروض والظنون

والواقع ينتهي بنا إلى حصر الفن الأنثوي في مجالين اثنين نصيبهما من التقليد والمحاكاة

أكبر من نصيب الابتكار والإنشاء، وهما مجال الرواية ومجال التمثيل

أما الرواية فالذي نرجو كما قلنا: (إن المرأة تحسن كتابتها لأنها مطبوعة على الفضول والاستطلاع والخوض في أسرار العلاقات بين الرجال والنساء والإطالة في أحاديث هذه الأسرار مع الاشتياق والتشويق، وهذا كله معدن الرواية الذي تصاغ منه، وهو جوهر من جواهرها قد يغنيها عن المزايا الأخرى من تحليل وتعليل وإبداع، في الوصف والتمثيل)

وأما التمثيل فالإجادة فيه قائمة على قدرتين أو على نوعين من القدرة لا على نوع واحد: قدرة الخلق والإنشاء كأنما يخلق الممثل حياة بطله مستمداً لها عناصر الخلق من حياته. فهو لا يحاكي رجلاً بعينه رآه أو قرأ وصفه وعرف سيماه من الصور والتماثيل، وإنما يعمد إلى صفات هذا الرجل فيفرغها في بوتقة من حسه وخياله ويخرجها من هنالك إنساناً حياً جديداً لا موضع فيه للمحاكاة والتقليد

والقدرة الأخرى هي قدرة التقليد والتصنع وسهولة اتخاذ المظاهر والألوان على حسب الدواعي والبيئات، وهذه القدرة في المرأة على أوفى نصيب، فهي مطبوعة على التصنع والمداراة وإظهار الحب في موضع البغض والتمنع في موضع الإقبال، وهي تتلقى الأحاسيس التي توائم طبيعة الأنوثة لأنها مستغرقة في الحس طوال حياتها فلا يجهدها كثيراً أن تحضر على المسرح إحساساً من الذي جربته أو تقدر على تجربته في عالم الحقيقة

ولهذا نبغ في العالم روائيات وممثلات، وإن لم يعرف عن ممثلة نابغة أنها خلقت دوراً من محض خيالها وتفكيرها كما يتفق لنوابغ الممثلين من الرجال

أما الشعر فلم يكثر فيه نبوغ النساء لما قدمناه من الأسباب، بل هن لم ينبغن فيه حتى فيما هو أقرب إليهن وأحرى أن يتفوقن به على الرجال

خذ مثلاً لذلك شعر الرثاء وهو أقرب إلى المرأة التي تطيل الندب والعويل على موتاها. فهل في آداب العالم كله شاعرة راثية تفوق بالرثاء طاقة الشعراء من الذكور! الخنساء التي يضربون بها المثل بين الشواعر لا تخرج من ديوانها بأكثر من أبيات متفرقات في بكائها على أخيها قلما ترتقي إلى منزلة الشعر الجيد السيار، وما عدا ذلك من قصائدها العديدة فكله تكرير وترديد وإعادة وإبداء في معنى واحد، بل في ضرب من القول

واحد لا يصح أن يقال عنه إنه معنى من معاني القريحة والخيال

وعلى إدمان المرأة البكاء والرثاء لم توجد قط راثية بلغت في هذا الباب ما بلغه رجل كالشريف الرضي في رثاء أمه، أو رجل كابن الرومي في رثاء أولاده، أو رجل كالمعري في رثاء أصدقائه، سواء رجعنا إلى وصف الشعور أو إلى معاني الحكمة ومعارض الاعتبار

وإذا كان هذا شأن البكاء والرثاء فما بالك بالمطالب الأخرى التي لا تقترب من طبائع المرأة هذا الاقتراب

وقد يظن أن التصوير مخالف للفنون الأخرى في هذا القياس لأن النقش والتطريز من معدن واحد على ما يخيل إلى بعض الناظرين، وللمرأة حظ من إجادة التطريز والوشي قد تضارع به حظوظ الرجال في هذه الصناعة الآلية

ولكن الحقيقة بعيدة مما يتخيله هؤلاء الناظرون، لأن التصوير كالتمثيل يعتمد أيضاً على نوعين من القدرة لا على نوع واحد، وهما الخلق والتقليد

فأما التقليد فهو لا يعدو صبغة الألوان وظاهر الأشكال، وقد يتاح للمرأة أن تجيد نقل الألوان ومحاكاة الأشكال فيقال إذن إنه تطريز بالريشة يجري على منوال التطريز بالإبرة ولا يزيد

وأما الخلق فهو صوغ المرئيات في بوتقة النفس والخيال ثم إعادتها على اللوحة صورة نفسية خيالية ليس نصيب العين منها إلا نصيب الأداء والإبلاغ

وهذا هو الجانب الذي لم تنبغ فيه المرأة بين المصورين، ولا نحسب أننا عرفنا مثلاً هاماً من الأمثلة الدالة على إجادتها فيه
وفحوى هذا جميعه أن المرأة موضوع حسن للفن وأهله، وأنها قد توحي إلى أهل الفن معاني يرتفعون بها إلى مراتب النبوغ، ولكن الموضوع لا يخلق شيئاً إلا بخالق، ولو جاز أن يكون إيحاء المرأة للفن حجة على نبوغها الفني لجاز كذلك أن تنبغ البساتين والبحار وكواكب السماء مثل هذا النبوغ
واستحضار هذه الحقيقة لازم جد اللزوم في عصرنا هذا، لأننا نسمع المذاهب الاجتماعية حولنا تمارى على حسب أهوائها ومراميها في تقويم الجنسين بين قائل بالتشابه الكامل
وقائل بالفوارق والمزايا التي يقتضيها توزيع العمل واطراد الخلق في طريق التخصيص والامتياز، ورأينا نحن أميل إلى هذا المذهب القائل بالفوارق والمزايا، لأنه الحق الواضح أمامنا، ولأنه العدة التي ندرع بها أذهاننا للقاء فوضى المذاهب التي فيها الضير أكبر الضير على المجتمع الإنساني وخلائق الإنسان
عباس محمود العقاد
الإجماع وثبوت العقيدة
للأستاذ محمود شلتوت
آراء العلماء في الإجماع: حقيقته وحجيته وما يكون فيه - شيوع حكاية الإجماع في المسائل الخلافية وسببه - الإجماع عند المحققين - تطبيق
نظرنا - على ضوء المبادئ العامة لثبوت العقيدة - نظرتين في الآيات والأحاديث التي زعموا أنها تدل دلالة قاطعة على حياة عيسى الآن ونزوله آخر الزمان، وبينا مدى ما تفيده الآيات والأحاديث في ذلك، وبقي أن ننظر النظرة الثالثة فيما زعموا من إجماع في هذا المقام
ويحسن بنا - جريا على ما اتبعناه في هذه البحوث - أن نقدم للقراء العلميين مقدمة إجمالية تصور لهم موقف العلماء من الإجماع: حقيقته، وحجيته، وما يكون فيه من أحكام، ثم نتبع ذلك بما نريد من إبطال زعمهم الذي يزعمون
إني لا أكاد أعرف شيئاً اشتهر بين الناس أنه أصل من أصول التشريع في الإسلام، ثم تناولته الآراء واختلفت فيه المذاهب من جميع جهاته كهذا الأصل الذي يسمونه (الإجماع)
فقد اختلفوا في حقيقته: فمنهم من رأى أنه (اتفاق جميع المجتهدين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم في عصر من العصور على حكم شرعي)، ومنهم من رأى أنه (اتفاق أكثر المجتهدين فحسب) ومنهم من ذهب إلى أنه اتفاق طائفة معينة) فلا يعد اتفاق غيرها إجماعا. ثم اختلف هؤلاء في هذه الطائفة مَنْ هي؟ فقيل (الصحابة) وقيل (أهل المدينة) وقيل (أهل البيت) وقيل (الشيخان: أبو بكر وعمر) وقيل (الأئمة الأربعة) الخ
واختلف الذين قالوا بالجميع: هل الإجماع بهذا المعنى ممكن متصور الوقوع، أو هو غير ممكن لأن الاجتهاد ليس له مقياس بارز متفق عليه بين العلماء، ولأن المجتهدين غير محصورين في بلد واحد أو إقليم واحد؟
واختلف الذين قالوا بإمكانه وتصور وقوعه: هل يمكن معرفته والاطلاع عليه أو لا؟ وممن روى عنه المنع الإمام أحمد رضي الله عنه إذ يقول في إحدى روايتين عنه: من ادعى وجود الإجماع فهو كاذب
واختلف الذين قالوا بإمكان معرفته والاطلاع عليه: هل هو حجة شرعية فيجب العمل به
على كل مسلم أو ليس حجة شرعية فلا يجب العمل به؟
واختلف الذين قالوا إنه حجة شرعية: هل ثبتت حجيته بدليل قطعي يكفر مُنكره، أو بدليل ظني فلا يكفر؟ وهل يشترط في وجوب العمل به أن ينقل إلينا بالتواتر أو يكفي أن ينقل ولو بالآحاد؟ وهل يشترط أن يبلغ المجمعون عدد التواتر أو لا يشترط؟ وهل يشترط أن يصرح الجميع بالحكم مشافهة أو كتابة، أو لا يشترط فيكفي تصريح بعضهم وسماع الباقين مع سكوتهم؟. . . الخ
وكما اختلفوا في حقيقته وفي حجيته اختلفوا فيما يكون فيه من أحكام: فقال قوم: إنه

حجة في العلميات والعمليات جميعاً. وقال غيرهم: إنه حجة في العمليات فقط. ومن ذلك كله يتبين أن حجية الإجماع في ذاتها غير معلومة بدليل قطعي فضلاً عن أن يكون الحكم الذي يثبت به معلوماً بدليل قطعي فيكفر منكره

ولعل اختلاف العلماء في الإجماع على هذا النحو يفسر لنا ظاهرة منتشرة في كتب القوم وهي حكاية الإجماع في كثير من المسائل التي ثبت أنها محل خلاف بين العلماء، وذلك من جهة أن كل من حكي الإجماع في مسألة هي محل خلاف قد بنى حكايته على ما يفهمه هو أو يفهمه إمامه أو الطائفة التي ينتمي إليها في معنى الإجماع وما يكفي لتحققه

وعلى الرغم من ظهور السبب في تلك الظاهرة قد تأثر بها كثير من المتأخرين فخضعوا لها، وتوسعوا فيها تأييداً لآرائهم في المسائل الخلافية: فتجدهم في علم الفروع يحكون الإجماع على إلزام الطلاق الثلاث بكلمة واحدة، وعلى تحريم لحم الخيل، وعلى حل أكل الضب، وغير ذلك. وتجدهم في علم أصول الأحكام يحكون الإجماع على العمل بخبر الواحد، وعلى تقديم الإجماع على النص عند التعارض، وعلى العمل بالقياس. وتجدهم في علم الكلام يحكون الإجماع على رؤية الله بالأبصار، وعلى ظهور المهدي والدجال ونزول عيسى، وما إلى ذلك من المسائل العلمية والعملية التي ثبت فيها الخلاف ولم تكن محل قطع وإجماع. ولقد كان في وسعهم أن يقيدوا ذلك بالإجماع الطائفي أو المذهبي ولكنهم قصدوا أن يرسلوا كلمة الإجماع ليسجلوا على المخالف لوازمها الشائعة بين الناس: من مخالفة سبيل المؤمنين، ومشاقة الله ورسوله، وخرق اتفاق الأمة، إلى غير ذلك مما يتحرجه المسلم ويخشى أن يعرف به عند العامة. وكثيراً ما نراهم يردفون حكايتهم للإجماع بقولهم:

أو (بمخالفة أهل البدع والأهواء) أو (بمخالفة الشيعة والخوارج) (ولا عبرة بمخالفة المعتزلة والجهمية) ونحو ذلك مما يخيفون به، وبهذا امتنع كثير من العلماء عن إبداء رأيهم في كثير من المسائل التي هي محل خلاف ضناً بسمعتهم الدينية، فوقف العلماء، وحرمت العقول لذة البحث، وحيل بين الأمة وما ينفعها في حياتها العملية والعلمية. ونحن معشر الأزهريين لا ننسى شيوع القول بحرمة الاشتغال بالعلوم الرياضية والكونية والحكم بالزندقة والإلحاد على من شذ فتعلمها أو أباح تعلمها!

وفي مثل هؤلاء الذين يحكون الإجماع في مواضع الخلاف يقول ابن حزم: (ويكفي في فساد ذلك أنا نجدهم يتركون في كثير من مسائلهم ما ذكروا أنه إجماع، وإنما نحوا إلى تسميته إجماعاً عناداً منهم وشغباً عند اضطرار الحجة والبراهين إلى ترك اختياراتهم الفاسدة)

وقد كشف جهابذة العلماء عن حقيقة الإجماع التي تسمو عن الخلاف والتي هي حجة ملزمة عند الجميع؛ قال الشافعي: (ولست أقول، ولا واحد من أهل العلم: هذا مجمع عليه، إلا لما لا تلقى عالماً أبداً إلا قاله لك، وحكاه عمن قبله، كالظهر أربع ركعات وكتحريم الخمر وما أشبه هذا). وقال ابن حزم: (وصفة الإجماع هو ما تُيقن أنه لا خلاف فيه بين أحد من علماء الإسلام ونعلم ذلك من حيث علمنا الأخبار التي لا يتخالج فيها شك مثل أن المسلمين خرجوا من الحجاز واليمن ففتحوا العراق وخراسان ومصر والشام، وأن بني أمية ملكوا دهراً طويلاً ثم ملك بنو العباس، وأنه كانت موقعة صفين والحرة وسائر ذلك مما يعلم بيقين وضرورة)

ولا يخفى أن معنى ما ذكره الشافعي وابن حزم أن الإجماع لا يكون إلا فيما هو معلوم من الدين بالضرورة، وفيما كان طريق العلم به هو التواتر الذي يفيد قطعية الورود وانتفاء الريب، فهذا هو الإجماع الذي تتم به الحجة ولا يصح أن يخالف، ولا ريب أن العمل في مثل هذا لا يكون عملاً بالإجماع من حيث هو إجماع وإنما هو عمل بما تلقته الكافة عن الكافة مما لا شبهة في ثبوته عن صاحب الشرع، وأن الإجماع فيه لم يكن إلا أثراً من آثار الثبوت على هذا الوجه فلا يكون مصدراً له ولا أصلاً في ثبوته

ومن هنا قرر العلماء أن منكر حجية الإجماع لا يكفر في حين أنهم حكموا بالكفر على من
أنكر المجمع عليه

هذا وقد رأى بعض الباحثين أن الإجماع الذي كان يرجع إليه ويجرى على الألسنة في الصدر الأول حيث لا نص هو إجماع بمعنى آخر غير هذا الإجماع الذي اصطلح عليه

الأصوليون واشتهر بين الناس أنه حجة شرعية، واعتمدت عليه عصور التقليد في سد باب الاجتهاد، وعصور التعصب في الرمي بالتضليل والتفسيق والخروج عن سبيل المؤمنين. ونرجو أن تهيأ لنا فرصة قريبة نشرح بها نظرية هؤلاء الباحثين ونبين ما لها من الآثار الطيبة المباركة على الشريعة وعلى الأمة الإسلامية

نعود بعد هذا إلى موضوعنا فنقول: إن الذين ذهبوا إلى حجية الإجماع لم يتفقوا على شيء يحتج به فيه سوى الأحكام الشرعية العملية، أما الحسيات المستقبلة من أشراط الساعة وأمور الآخرة فقد قالوا: (إن الإجماع عليها لا يعتبر من حيث هو إجماع لأن المجمعين لا يعلمون الغيب، بل يعتبر من حيث هو منقول عمن يطلعه الله على الغيب، فهو راجع إلى الإخبارات فيأخذ حكمها، وليس من الإجماع المخصوص بأمة محمد صلى الله عليه وسلم لأن الحسي المستقبل لا مدخل للاجتهاد فيه، فإن ورد به نص فهو ثابت به ولا احتياج إلى الإجماع، وإن لم يرد به نص فلا مساغ للاجتهاد فيه) وعلى هذا تخضع جميع الأخبار التي تتحدث عن أشراط الساعة ومن بينها نزول عيسى إلى مبدأ القطعية والظنية في الورود والدلالة، وقد سلف بيان ذلك في موضوع (السنة وثبوت العقيدة)

وعلى فرض أن أشراط الساعة مما يخضع للإجماع الذي اصطلحوا عليه نقول: إن نزول عيسى قد استقر فيه الخلاف قديماً وحديثاً:

أما قديماً فقد نص على ذلك ابن حزم في كتابه (مراتب الإجماع) حيث يقول: (واتفقوا على أنه لا نبي مع محمد صلى الله عليه وسلم ولا بعده أبداً، إلا أنهم اختلفوا في عيسى عليه السلام: أيأتي قبل يوم القيامة أم لا؟ وهو عيسى بن مريم المبعوث إلى بني إسرائيل قبل مبعث محمد عليه السلام) كما نص عليه أيضاً القاضي عياض في شرح مسلم، والسعد في شرح المقاصد، وقد سقنا عبارته في البحث السابق وهي واضحة جلية في أن المسألة ظنية في ورودها ودلالتها!

وأما حديثاً فقد قرر ذلك كل من الأستاذين المغفور لهما: الشيخ محمد عبده والسيد رشيد رضا، وفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي:

فالشيخ عبده رضي الله عنه يذكر وهو بصدد تفسير آية آل عمران (إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليّ) (أن للعلماء هنا طريقتين: إحداهما وهي المشهورة أنه رفع بجسمه حيًّا وأنه سينزل في آخر الزمان فيحكم بين الناس بشريعتنا ثم يتوفاه الله تعالى. . . والطريقة الثانية أن الآية على ظاهرها، وأن التوفي على معناه الظاهر المتبادر منه وهو الإماتة العادية وأن الرفع يكون بعده وهو رفع الروح. . . الخ) ثم يذكر (أن لأهل هذه الطريقة في أحاديث الرفع والنزول تخريجين: أحدهما أنها آحاد تتعلق بأمر اعتقادي، والأمور الاعتقادية لا يؤخذ فيها إلا بالقطعي وليس في الباب حديث متواتر. وثانيهما تأويل النزول) بنحو ما سبق نقله عن شرح المقاصد

وقد ورد على المغفور له السيد رشيد رضا سؤال من (تونس) وفيه (ما حالة سيدنا عيسى الآن؟ وأين جسمه من روحه؟ وما قولكم في الآية (إني متوفيك ورافعك). وإن كان حيًّا يرزق كما كان في الدنيا فمم يأتيه الغذاء الذي يحتاج إليه كل جسم حيواني كما هي سنة الله في خلقه؟) فأجابه السيد رشيد إجابة مفصلة عما سأل عنه نقتطف منها ما يأتي:

قال بعد أن عرض للآيات وآراء المفسرين فيها (وجملة القول أنه ليس في القرآن نص صريح في أن عيسى رفع بروحه وجسده إلى السماء حيا حياة دنيوية بهما بحيث يحتاج بحسب سنن الله تعالى إلى غذاء فيتوجه سؤال السائل عن غذائه، وليس فيه نص صريح بأنه ينزل من السماء وإنما هذه عقيدة أكثر النصارى وقد حاولوا في كل زمان منذ ظهور الإسلام بثها في المسلمين) ثم تكلم عن الأحاديث وقال: (إن هذه المسألة من المسائل الخلافية حتى بين المنقول عنهم رفع المسيح بروحه وجسده إلى السماء)

أما فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي فقد كتب بمناسبة السؤال الذي رفع إلى فضيلته وكان سبباً في فتوانا، إجابة جاء فيها: (ليس في القرآن الكريم نص صريح قاطع على أن عيسى عليه السلام رفع بجسمه وروحه، وعلى أنه حي الآن بجسمه وروحه. وقول الله سبحانه: (إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليّ ومطهرك

من الذين كفروا) الظاهر منه أنه توفاه وأماته ثم رفعه، والظاهر من الرفع بعد الوفاة أنه رفع درجات عند الله كما قال في إدريس عليه السلام: (ورفعناه مكاناً عليا) وهذا الظاهر ذهب إليه بعض علماء
المسلمين فهو عند هؤلاء توفاه الله وفاة عادية ثم رفع درجاته عنده فهو حي حياة روحية كحياة الشهداء وحياة غيره من الأنبياء. لكن جمهور العلماء على أنه رفعه بجسمه وروحه فهو حي الآن بجسمه وروحه، وفسروا الآية بهذا بناء على أحاديث وردت كان لها عندهم المقام الذي يسوِّغ تفسير القرآن بها) ثم قال فضيلته: (لكن هذه الأحاديث لم تبلغ درجة الأحاديث المتواترة التي توجب على المسلم عقيدة، والعقيدة لا تجب إلا بنص من القرآن أو بحديث متواتر) ثم قال: وعلى ذلك فلا يجب على المسلم أن يعتقد أن عيسى عليه السلام حي بجسمه وروحه، والذي يخالف في ذلك لا يعد (كافراً في نظر الشريعة الإسلامية
هذه نصوص صريحة يقرر بها هؤلاء العلماء قديماً وحديثاً أن مسألة عيسى مسألة خلافية، وأن الآيات المتصلة بها ظاهرة في موته عليه السلام موتاً عادياً، وأن الأحاديث الواردة فيها أحاديث آحاد لا تثبت عقيدة وهي مع هذا تحتمل التأويل، وأنه لا تكفير لمسلم بإنكار رفع المسيح أو نزوله، فأين مع هذا كله ما يدعونه من إجماع؟
ولعلنا، يعد إظهار فتوى فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي، نستريح من لغط بعض العلماء الرسميين الذين عرف عنهم أن تمسكهم بالرأي وما يزعمون أنه دين ليس إلا بمقدار جهلهم برأي فضيلته (وهو شيخ الجامع الأزهر) فإذا ما عرفوا رأيه وهو شيخ الجامع الأزهر خلعوا أنفسهم من ربقة رأيهم الأول وسارعوا إلى اعتناق رأيه بل تسابقوا في توجيهه وتأييده (يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعلمون محيطا)
محمود شلتوت
عضو جماعة كبار العلماء
حاشية: لعل الأستاذ الفاضل (دسوقي إبراهيم) قد وجد في بحثنا السابق (السنة وثبوت العقيدة) وفي بحثنا هذا جواب ما سألنا عنه في بريد الرسالة بالعدد الماضي، وله منا الشكر والتحية.
الحديث ذو شجون
للدكتور زكي مبارك
هنا تقرأ الرسالة - تمثال سعد باشا - منارة أبي العباس - عهود ومواثيق
هنا تقرأ الرسالة
بهذه الجملة هتفتُ حين سمعت النداء بالرسالة صباح الأحد في شاطئ ستانلي، وحين رأيت مع بائع الجرائد كمية من أعداد الرسالة لم أكن أنتظر أن أراها في ذلك المكان.
وقبل ذلك بيوم رأيت في مكتب (بريد سيدي جابر) جماعة من أفاضل الموظفين يحدثونني عن مقال أسيوط. ومن هذا وذاك فهمت أن المجلات التي تُعنى بالأدب الصِّرف أخذت تسيطر سيطرة روحية على أكثر الميادين، وكانت فيما سلف مقصورة على طوائف قليلة من الخواص
إن وصول المجلات الأدبية إلى الشواطئ له دلالة معنوية، فهو شاهد على رقي الذوق، ودليل على أن روّاد الشواطئ ليسوا جميعاً من اللاهين، فقد ظهر أن فيهم من يتخير المكان الذي يقرأ فيه، كما يتخير الكاتب المكان الذي يكتب فيه. والقراءة كالكتابة تحتاج إلى جوّ يسود فيه الجمال
أقمت بالشاطئ ساعتين مع جماعة من رجال الأدب ومحبيه، فدار الحديث حول كثير من المعضلات، ودار أيضاً حول اللآلئ المنثورة فوق الرمال. . . وأُخِذْت صور، وأُنشِدتْ قصائد، وتجاوبتْ عيونٌ وقلوب
ثم أنظر فأرى رجلاً ملء العين والقلب يشرِّف الشاطئ، وهو سعادة الأستاذ الجليل محمد العشماوي بك، فيقع هذا السجال:
- ماذا تصنع هنا يا دكتور مبارك؟
- جئت أحاول إتمام التصنيع الذي بدأته قبل أربع سنين
- وما ذلك الصنيع؟

- هو تأليف كتاب عن (أدب الشواطئ)
- وما أساس الفكرة في ذلك الكتاب؟
- أساس الفكرة أن المصريين أنشأوا فناً جديداً في الأدب العربي هو أدب الشواطئ، وقد
يكون ابتكارهم لهذا الفن جديداً بالنسبة لسائر الآداب
- تريد أن تقول إنه فنٌ لم يوجد في الفرنسية أو الإنجليزية مثلاً؟ . . .
- هو ذلك، مع الاعتراف بأن لشعراء فرنسا وإنجلترا أفانين متصلة بالحياة البحرية، ولكنها تخالف إحساس المصريين بالشواطئ في مواسم الاصطياف
- وهل تفردت الشواطئ المصرية بخصائص؟
- هذا مؤكد، فأنت لا تستطيع أن تحدد موعد لقاء على شاطئ فرنسي أو إنجليزي بعد أسابيع ولا بعد أيام، لأن الطبيعة هنالك مفطورة على التقلب، أما في مصر فتستطيع أن تحدد موعداً على أحد الشواطئ بعد سنة أو سنتين، لأن جو مصر مفطور على القرار والاطمئنان
- إن كان الأمر كذلك فكيف تأخر أدب الشواطئ في مصر، ولم نر له بوارق فيما مضى من العهود؟
- بدعة الاصطياف على الشواطئ بدعةٌ حديثة العهد في الشرق والغرب
- تعني أنها لم توجد قبل أن يوجد الشيخ أبو العيون؟
- الشيخ أبو العيون وجد قبل قرون!
- متى؟
- وُجد باسم السخاوي
- وكيف؟
- كان السخاومي مولعاً بعدّ هفوات ابن خلدون، فطاب له أن يدون في كتاب (الضوء اللامع، في أعيان القرن التاسع) أن ابن خلدون كانت له جولات في الشاطئ السكندري أيام الصيف
وما معنى هذا؟
- معناه أن شواطئ الإسكندرية كانت مراتع صبوات في ذلك الزمان
- وهل قال ابن خلدون شعراً أو نثراً في الشواطئ؟
- حكاية ابن خلدون غريبة جداً
- وما وجه الغرابة في حكاية ابن خلدون؟
- حدثنا الأستاذ محمد المهدي بك في إحدى محاضراته بالجامعة المصرية سنة 1917 أن السفينة التي أقلت ابن خلدون من تونس إلى الإسكندرية غرقت وهي مشرفة على الشاطئ، فهلك أهله وأصحابه، ونجا بعد أن كاد يمسي من المغرَقين
- وإذن تكون جولات ابن خلدون على شواطئ الإسكندرية مناجاة لتلك الأرواح، وهذا معنى جهله السخاوي ولن يجهله أبو العيون
- في هذا الكلام لواعج ذاتية، فهل كان لك مع شواطئ الإسكندرية تاريخ؟
- كان ذلك أيام الاعتقال
- هل اعتُقِلْتَ يا دكتور؟
- قال ناسٌ إني كنت من خطباء الثورة المصرية، وإنني استصبحت بغياهب الاعتقال
- وأنا أيضاً لم أسمع به قبل اليوم
- تلك إذن دعابة من دعاباتك؟
- هي دعابة من دعاباتي، بلا جدال، ولكن لها عقابيل
- لا تؤاخذني يا دكتور في جهل هذا الجانب من حياتك
- أي جانب؟ أنا أمزح!
- وأنا أحب أن أسمع هذا المزاح
- دخلت الإسكندرية أول مرة في سيارة مغلقة من سيارات الجيش البريطاني، دخلتها بعد انتصاف الليل وفي أعنف وقت من قسوة الشتاء، فاجتهدت في زحزحة الأحجبة عساني أرى وجهاً من وجوه الحياة فوقع نظري على غابة من النخيل
- وأين كان المعتقل في الإسكندرية؟
- لا أدري أين! كنا في (سيدي بِشْر)، ولكن أين؟

- هل فكرت في التعرف إلى مكان الاعتقال؟
- فكرت وفكرت، ولكني لم استطع الاهتداء إليه، برغم الشوق إلى المكان الذي أودعت فيه ذخائر شبابي
- هذه رموز تحتاج إلى تفاسير
- كنت بطل البحر في ذلك العهد، ولعلني أول سابح عرفته البحار على نحو ما كنت
- وكيف؟
- كنت أثبتُ قدميّ في الماء بصورة لا تختلف عمن يثبت قدميه فوق الجبال، وكان من المستحيل أن أتزحزح ولو صارعني أمهر السابحين، فأين الماضي الجميل لعهد فتوّتي وشبابي؟ أنا اليوم أزور الشاطئ زيارة الطيف، وكل ماضيّ فيه أنني أنقذت من الغرق جماعة فيهم فلان، وهو مخلوق لا يؤذيه أن يُذكر فضلي عليه وبعض الناس يكربهم الوفاء!
- وبمثل هذه الخواطر تزور هذا الشاطئ؟
- ينبغي أن أقول كلاماً من هذا الطراز، لينسى الناس أنني قلت فيه:

رعاه الحب من شطٍّ جميل ... خفيف الروح مصقولٍ أنيقِ
بهيّ الرمل تحسبهُ سُجُوفا ... مطرَّزةً بحبات العقيقِ
أطوف به فيغلبني خشوعي ... كأني طفت بالبيت العتيق

- هذه شيطنة الشعراء!
- وماذا يصنع الملائكة لو طافوا بهذه الشواطئ؟ هل ينسون أن الله هو الذي جمَّل هذه الخلائق؟ هل ينسون أن أعظم نعمة من نِعم الله هي نعمة الجمال الوهّاج؟ هذه الشواطئ كنوزٌ أتحف الله بها هذه البلاد، فلنشكر لله هذه التحفة الغالية، ولنسأله أن يجعل أيامنا مواسم لشيطنة الشعراء

ثم انتقل الحوار إلى مسائل سأعود إليها بالتفصيل بعد حين

تمثال سعد باشا

أعجب ما يقع في مصر أن يفاجأ الجمهور بأشياء لم يؤخذ فيها الرأي، كالذي وقع في تمثال سعد باشا زغلول، وإلا فمن يذكر أن تمثال سعد أخذت فيه الآراء قبل أن يقام في القاهرة والإسكندرية على ذلك الوضع الغريب؟

قاعدة التمثال يعاب عليها ما يعاب على قاعدة التمثال القائم بميدان باب الحديد، فهي مرتفعة بطريقة لا تخلو من عُنُجهية

والتمثال نفسه سيئ التعيير في أكثر نواحيه، فعزيمة سعد باشا تتمثل في يده الشمال، وقد أُرخيتْ يمناه بصورة لا تليق

وهنالك لوحة جانبية تَفْرض على سعد زغلول وعبد العزيز فهمي وعلي شعراوي أن يقدموا مطالب الأمة إلى رجلٍ قاعد وهم وقوف، فهل كان السير ونجتْ قاعداً وهو يستقبل أولئك الرجال؟

وفي هذه اللوحة يقف عبد العزيز فهمي وقفة غير مقبولة، فما الموجب لذلك؟

وهنالك لوحة ثانية جانبية حُمِل فيها سعد على أعناق مريديه، وقد برز نعلاه بروزاً يأباه الذوق

أعيدوا النظر فيما رُسِم على جوانب ذلك التمثال

منارة أبي العباس

قلت مرةً إن منارة أبي العباس المُرسى ستشهد بإسلام الإسكندرية حين تنار بعد الحرب، وستكون على الشاطئ المصري نظيرةً لبُرج (نوتردام دي لاجارد) على الشاطئ الفرنسي. والتنافس بين الإسلام والنصرانية سيمتد إلى آخر الزمان

واليوم أذكر أن سعادة الأستاذ عبد الهادي الجندي باشا أسدى خدمة جليلة إلى الإسكندرية الإسلامية قبل أن يترك وزارة الاوقاف، فقد كلَّف الأستاذ حسن السندوبي تأليف كتاب تُفصَّل فيه أخبار أبي العباس وأخبار مريديه من الصوفية، ليوزع على المصلين يوم يتفضل جلالة الملك بافتتاح ذلك المسجد البهيج

فما مصير ذلك الكتاب، وقد راعني ما فيه من تفاصيل؟

أيُهْمَل باستقالة الوزير الذي أشار بأن يؤلَّف؟ أيوضَع عليه اسمٌ جديد إن كُتبَ له البعث من مَرقَد وزارة الأوقاف؟

إن معالي الأستاذ عبد الحميد عبد الحق في غِنىً عمن يُذكِّره بأن الإسكندرية الإسلامية

منسية في عالم التأليف، فليس من الكثير أن يذاع كتابٌ يؤرخ عهداً يفوق في الروحانية عهود اليونان والرومان، وهو أيضاً في غِنىً عمن يذكره بأن إسلام الإسكندرية ينتظر الإحياء

عهود ومواثيق

لم أسمح لنفسي يوماً بالراحة باسم المرض، ولم أَشْكُ لغير الله ما يعتريني من التعب في بعض الأحايين، فكيف جاز أن أفكر في الرجوع إلى القاهرة قبل أن أقضي في الإسكندرية

لحظات بين هدير البحر وظلام الليل؟

وماذا يقول أبنائي حين أرجع إليهم بعد يوم وأنا مكروب؟

بيني وبين الله عهود ومواثيق، والعهد بيني وبينه أن أقضي العمر ساجعاً فوق ما أبدع من أفنان الجمال، فأنا واثقٌ بأن العافية لن تضيع من يدي، وهل يُرضي الله أن أسجع سجع الجريح؟

سأفارق الإسكندرية حزيناً هذه المرة، وسأجد في أصدقائي بها من يعتذر عني، فما عندي بسمات ولا ضحكات ألقاهم بها لقاء الحبيب للمحبوب

سنلتقي حتما يا أحبائي، وسنلهو معاً بمصارعة الأمواج، وسنُسِرُّ أحاديث تُصغي إليها ضمائر السماء، فمن المستحيل أن ينفصم ما بيني وبين الله من عهود ومواثيق

زكي مبارك

لكي ننتفع بتجاريب غيرنا

المسرح في أوربا - 1

بين حربين

للأستاذ دريني خشبة

تحيتي وشكري للأستاذ الصديق زكي طليمات أحد الذين

(تدخرهم مصر لنهضتها المسرحية)

لم تمض سنوات قلائل بعد إذ وضعت الحرب الكبرى أوزارها حتى أخذ النقاد المسرحيون - ولا سيما في أمريكا - يتلفتون حولهم، ويتساءلون ماذا أصاب المسرح بعد الذي أصاب العالم من تقتيل وتخريب؟ وقد ذهب كثير من النقاد الأمريكيين إلى أوربا يجوبون أطرافها ويدرسون أحوال المسرح فيها، مارين بإنجلترا بادئ الأمر، حيث هالهم ما أصاب المسرح الإنجليزي من الانتكاس المؤلم، وما عراه من الشعبذات التي لم تكن قط مما يروج في سوقه، أو ينفق في ناديه. . . ثم ذهبوا بعد ذلك إلى فرنسا ثم إلى إيطاليا، فإلى بلجيكا، فإلى ألمانيا وروسيا. . . ثم عادوا أدراجهم إلى أمريكا ليكتبوا، ولينقدوا المسرح الأوربي، ولينشروا في ذلك المؤلفات القيمة وغير القيمة، ثم ليثنوا على هذا المسرح، وليقدحوا في ذاك، مما أوجد في أوربا رد فعل عظيم أرهف الآذان وفتح الأعين، وكان سبباً في حركة إصلاحية مباركة تضافرت جميع القوى في القيام بها بالاشتراك بين الهيئات الحرة وجهات الاختصاص الحكومية

ولقد كان الناقدان الأمريكيان: كِنثْ ماك جَوَانْ - و - روبرت إدموند جونس في مقدمة الذين ألفوا في هذا الموضوع، إذ أصدرا كتابهما الفذ المسمى: (البراعة الأوربية في الإخراج المسرحي - صرحا فيه بانحطاط المسرح الإنجليزي وتخلفه عن المسرح في القارة الأوربية واضطرارهما إلى تجنب الكلام عنه وتناول الإخراج فيه تبعاً لذلك في حين أنهما أثنيا الثناء العطر على المسرح الأوربي فيما عدا إنجلترا من الممالك الأخرى. وقد جاء إلى أوربا ناقد أمريكي آخر هو الأستاذ ستارك يونج فجاب معظم ممالكها، متفقداً حالة المسرح في كل منها، ثم عاد ليكتب فصوله البارعة في مجلة أمريكا الشمالية وهي تلك

الفصول التي أقامت إنجلترا وأقعدتها لما صرح فيها بمثل ما صرح به الناقدان الأسبقان من مر القول عن المسرح الإنجليزي الذي انحط بكل عناصره جمهوراً وروايات وإخراجاً وغرضاً، عن سائر المسارح في أوربا. وقد انبرى للرد على هؤلاء النقاد الأمريكيين عدة كتاب من المشتغلين بالمسرح الإنجليزي وفي مقدمتهم الأستاذ جون ألف كتابه جمع فيه ما ألقاه من المحاضرات عن المسرح الإنجليزي في إنجلترا رداً على المستر ستارك يونج وأضرابه، ودفاعاً عن المسرح الإنجليزي وتاريخه العتيد. والذي حدا بنا إلى الاهتمام بما كتبه المستر أرفن هو انطباقه على المسرح المصري

انطباقاً يوشك أن يكون كاملاً مع أنه ألقى محاضراته سنة 1923 ونشرها في كتابه سنة 1924 وقد تكلم فيه عن:

1 - المسرح الإنجليزي والمسرح الأوربي إجمالاً

2 - جمهور النظارة من الإنجليز

3 - انحطاط الدرامة الإنجليزية بعد الحرب الكبرى وتعليل ذلك

4 - المسارح التجارية واضطرارها إلى النزول إلى مستوى الجماهير، وعدم محاولتها إطلاقاً أن ترتفع بهم حتى لا يختل ميزانها الاقتصادي

5 - نتائج الحرب الكبرى الاقتصادية والأخلاقية والفنية وأثر ذلك في المؤلف والنظارة، ومديري المسارح والإنتاج المسرحي وفي الذوق العام للشعب الإنجليزي

6 - موازنات طريفة بين الذوق الزراعي والذوق الصناعي والثقافة الزراعية والثقافة العمالية. . . أي بين الريف والمدن

7 - تطبيق هذه الموازنات على إنجلترا في عصر إليزابث وإنجلترا في القرن التاسع عشر إلى اليوم

8 - العوامل التي تتحكم في حياة المسرح بعد الحرب الكبرى غير العوامل التي أنتجت العبقريات الخالدة في عصر إليزابث

9 - نفقات الإخراج وإيجار المسارح وأجور الممثلين وأثمان الملابس والمناظر والإضاءة والدرامات مما يبهظ عاتق المديرين ويضطرهم إلى اعتبار العامل الاقتصادي قبل أي اعتبار فني آخر

10 - واجب الحكومة، وواجب الشعب، وواجب الفرق التمثيلية.

وقد تناول الكلام عن مئات من الأسباب والنتائج غير هذه القضايا العشر حيث عرض الموضوع عرضاً عادلاً ووفاه حقه من البحث بطريقة تبدأ في نظر القارئ خطأ في خطأ، وشروداً عجيباً عن الموضوع الذي زعم لنا أنه بسبيله، ثم لا يفتأ أن يدخل بنا في الحقائق التي مهد لها بالمقدمات التي وهمنا أنها شاردة، فإذا هي تبدهنا، وإذا نحن منها في النور الساطع.

1 - ولقد تناول المستر أرفن تاريخ المسرح في أوربا قديماً وحديثاً، وقبل الحرب الكبرى ثم بعدها، فقرر ما سبق إلى تقريره مؤرخو الأدب المسرحي من ازدهار المسرح في الأمم التي تشتغل غالبية سكانها بالزراعة، حتى إذا بدأت هذه الغالبية تتحول إلى غالبية صناعية أخذت دورة الفلك تتبدل، وأخذ الانتكاس المسرحي يعمل عمله، ولا سيما في الأمم التي أخذت نفسها في القرن التاسع عشر والقرن العشرين بالصناعات الكبيرة التي ترمي إلى سرعة الإنتاج وكثرته والتي تخصص من أجل ذلك الأيدي العاملة آلافاً آلافاً لصنع جزء من ألف جزء من السلعة بحيث يقضي العامل كل حياته وهو لا يدري من الصناعة شيئاً غير عمل رأس دبوس أو خرم سَمِّ الخياط (عين الإبرة) أو تلوين جزء خاص من صورة من صور الشوكولاته بالأزرق أو الأحمر، أو عملية بعينها من مئات العمليات في مصنع للنسيج أو الغزل، أو تركيب مسمار بعينه في مدفع يتركب من مئات الأجزاء في مصنع للأسلحة المختلفة. . . إلى آخر ما هنالك من أمثال هذه الصناعات المركبة. . . ويقيم المستر إرفن الدليل على أن أمة تشتغل الكثرة الساحقة من أبنائها في مثل هذه التفاهات هي بلا شك أمة من الأميين الفقراء في ثقافتهم، الفقراء في أمزجتهم، الفقراء في صحتهم، الفقراء في تقديرهم للحياة الفنية، الفقراء في مساكنهم التي يتراكم فوقها الدخان ويزيدها الضباب واكفهرار الجو المستديم بلاء على بلاء. . . أما الأمة التي تكون غالبية أفرادها من الزراع - كاليونان القديمة وإنجلترا في عصر إليزابث، وفرنسا في القرن الثامن عشر، وروسيا وإيطاليا. فهي أمة ذات مزاج رفيع وذوق سامٍ وتقدير متئد للفنون بكل أنواعها وإن كانت غالبية سكانها أميين كذلك، لأن الزارع الأمي أوسع ثقافة من غير شك من الصانع الذي شدا هذا اللون الفقير من ألوان التعليم الإجباري حتى إذا بلغ سنا معينة وابتلعه المصنع، لم يبق في رأسه شيء مما شداه في المدرسة، خصوصاً بعد أن يصبح عبداً للآلهة على النحو الذي أسلفنا. . . أما لماذا يكون الزارع الأمي أوسع ثقافة من مثل هذا الصانع، فذاك لأنه نشأ على حسن الملاحظة في الريف الزراعي الجميل، فهو لا يحبس نفسه في المصنع طول حياته ليثقب إبرة أو ليصنع رأس دبوس، بل هو ينطلق حراً في فردوسه الشاسع الواسع يشق الأرض بمحراثه، ثم يخططها بالسليقة تخطيطاً يعجز

عنه الهندسيون، ثم يقسمها أحواضاً ليس فيها حوض أوسع من حوض، ثم هو يلاحظ خروج الشطء من البذر، ويعرف متى ينبغي سقي الزرع، ويقوم بالحصاد حين يأتي الزرع أُكله، فيبدأ الدرس. . . إلى آخر هذه السلسلة من الأعمال التي يلاحق بعضها بعضاً. . . ثم هو يربي الماشية ويتخذ من ألبانها صناعات مختلفة، كما يربي الشاء والخنازير ويعرف من طباع الطير ما لا يعرف أهل المدن، بله الصناع، ثم هو يستمتع في كل ذلك بالصحة الكاملة والحرية المطلقة، ولا يعيش في جنته عبداً لآلة نجعل الصناع بعد قليل قطعة منها لا قيمة لها لأنها ربما استطاعت الاستغناء بنفسها عنهم. . . وليس المسرح وحده هو الذي يرقى في الأمم الزراعية وينحط في الأمم الصناعية، بل سائر الفنون والآداب، فها هو ذا فن النحت في مصر القديمة واليونان القديمة، وهو ذا فن التصوير فيهما وفي إيطاليا، وهاهو ذا الشعر اليوناني القديم والشعر الروماني القديم. . . شعر فرجيل وهوراس وأوفيد وكاتولوس، وهاهي ذي الفلسفة اليونانية القديمة، وفلاسفة النهضة الأوربية الذين نشأوا في حمى الأستقراطيين الزراعيين. . . وهاهي ذي روائع الفن القديم التي لا يسمو إليها شيء من شوائه النحت الحديث أو التصوير الحديث. ثم هاهي ذي موسيقا القرنين السابع عشر والثامن عشر الزراعيين. . . تلك الموسيقى العلوية التي نشتفي بها ونسكن إليها في القرن العشرين. . .

ومن أجمل ما قرره المستر إرفن هو إقبال الشعوب ذوي الثقافات الزراعية على المأساة المسرحية في حين لا تقبل الشعوب الصناعية إلا على الملهاة. . . والملهاة الخفيفة المرحة التي ترتكز على الشعبذة والنكات الطائرة التي تحلقها المناسبات إن لم تقحم هي نفسها في تلك المناسبات إقحاماً. . . والعجيب أن تروج المأساة في العصور الذهبية للأمم، كعصر بركليس العتيد وعصر إليزابث البهي، حتى إذا أخذت الشيخوخة تحل محل الفتوة في حياة الأمة من الأمم، أخذت المأساة تنزل عن عرشها، متخلية عنه للملهاة الخفيفة الطائشة التي تنخذ مادة تهريجها من شخصيات العظماء والمصلحين. . . فقد ارتفع المسرح اليوناني إلى الذروة في أعظم فترة من فترات القوة في التاريخ اليوناني الحافل بالأمجاد، وكانت المأساة هي مادة ذلك المسرح في هذا العهد، فلما أخذت الروح اليونانية تفسد، وتسرب الضعف إلى روح الشعب، بدأت الملهاة تنتعش، وأخذ أرستوفان يكتب ملاهيه الساخرة، متخذاً من يوريبيدز فخر المأساة اليونانية، ثم من غيره من المصلحين، مادة لتهريجاته. . . أما في عصر إليزابث فقد كتب شيكسبير وبن جونسون وأضرابهما عدداً كبيراً من المآسي والملاهي، إلا أن الشعب أقبل إقبالاً منقطع النظير على المآسي ولم يقبل ذاك الإقبال على الملاهي، مع أنها كانت من الملاهي الجميلة العميقة التي ترتفع درجات فوق ملاهي أرستوفان. . . وقد علل إرفن ذلك بأن روح الشعب الزراعي أقوى من روح الشعب الصناعي، وأعصابه أقوى من أعصابه، فهو يستطيع أن يتفرج بالآلام ويصبر على مشاهدتها تمثل أمامه ويتسلى بذلك جميعاً كما يحلو له أن يتأسى أيضاً، ويشعر خلال ذلك بأضعاف اللذة التي يشعر بها المتفرج بالملهاة. . . أما الشعب الصناعي فهو مركب من كثرة منهوكة الأعصاب مختلة التوازن الفكري، ومن قلة من أصحاب المصانع والتجار رفعتها المضاربات فجأة فوق أكداس من الثروة الطائلة ومن أوساط عجماء عادة، إن صح هذا التعبير. . . فالكثرة تريد الترويح الخفيف عن أعصابها المتعبة، وذلك إنما يكون بالملهاة ذات البهرج الزائف من مناظر الرقص والافتنان في الشعبذة، والنكات التي تداعب الأسماع وتثير أعصاب الضحك، كما تثير حركات (البهلوان) أعصاب الضحك عند الأطفال. أما القلة من الأغنياء فهي فقيرة بثقافتها وأسلوب حياتها عن أن تسيغ المأساة؛ وهي تحمل عقلية وضيعة لا تسمو كثيراً فوق عقلية الكثرة من الصناع. ولذلك فهي تشاطرها ميولها وأهواءها

أما في فرنسا، فقد أوشك تاريخها في المائة سنة الأخيرة أن يكون حلقة متصلة من الحروب المستمرة، ولذلك أصبحت الأعصاب الفرنسية أكثر تأثراً وأشد نصباً من غيرها، ولذلك أيضاً أصبح لا يمثل على المسرح الفرنسي إلا نوع واحد من الدرامات المتشاكلة التي تتناول موضوع الحب غير الشرعي. ولعل إرفن نسي أن يعلل ذلك

بكثرة الأزواج الذين فقدوا في حروب الثورة وحروب نابليون وحرب السبعين والحرب الكبرى، مما كان سبباً
في كثرة الأرامل وكثرة العوانس وقلة الأزواج. . . هذا وإن يكن الإخراج في المسرح الفرنسي قد بلغ الأوج الذي لم يبلغه قط في أيٍ من مسارح العالم
أما في ألمانيا فقد ظهرت جماعة (التعبيريين) التي تدعو إلى أنَّ تكون الدرامة من مناظر كثيرة متعددة، لا من فصول، كما أصبحت الحال في السينما، على أنه لا في ألمانيا ولا في روسيا كان المسرح أحسن حالاً منه في إنجلترا أو فرنسا فقد خرجت ألمانيا المهزومة من الحرب كما خرجت روسيا بروح جديدة ونظام من الحكم جديد حور مرافق الدولة جميعاً وأخضعها لأغراضه واستعان بكل شيء، ولا سيما بالمسرح، في تثبيت دعائمه والوصول إلى أهدافه. والاشتراكية في ذاتها تنكر الفنون والآداب كما تجحد الأديان والأخلاق، وذاك أنها لا تعترف إلا بالعلم، وهي تعتبر هذه الأشياء آخر ما يشغل العالم به نفسه. كما تفسرها على أنها ألوان من الخبز واللحم حتى أن الألمان ليقولون في أمثالهم (يكون الناس كما يأكلون!). والاشتراكية في إنكارها للفنون والآداب والأديان والأخلاق لا تغض من قيمتها، ولكنها تتركها في مؤخرة برنامجها لتأتي من نفسها طائعة مختارة كما يدعون، وعلى كل فلم تنتج النازية كما لم تنتج الشيوعية بطلاً من أبطال الدرامة أو المسرح يعتد به، ولعل هذا راجع إلى أنهما لم تسلخا في التجربة أكثر من ربع قرن بعد. وهاهي ذي تلك الحرب العالمية القائمة قد أخذت تحصد الأرواح الفينانة التي أبقت عليها الحرب السالفة، كما أخذت تضاعف آلام الإنسانية وأحزانها في كل مكان، ولم تتوحش هذه الحرب بعد كما توحشت في الأعوام الثلاثة الماضية بين النازية والشيوعية. أليس كل من النظامين إنما يؤمن بالعلم وحده ويريد أن تأتيه الفنون والآداب والأخلاق والأديان طائعة مختارة؟
(يتبع)
دريني خشبة
عبد الحميد الديب
شاعر البؤس والفاقة والحرمان
للأستاذ علي متولي صلاح
من أراد أن يلتمس حظ الأديب في الشرق، وما يلاحقه من فاقة وحرمان، وما تضطرب به حياته من أوجاع وآلام، فيلتمس ذلك كله في حياة عبد الحميد الديب ذلك شاعر قطع حياته غريباً عن هذا العالم الذي يعيش الناس فيه، لم يكن يدري أنه حي، لأنه لا يُرزق والأحياء يرزقون!
صدفتْ عنه النعم جميعاً، وحلّتْ به النقم جميعاً. عاش لا يعرف السكن، ولا يعرف الأهل، ولا يعرف الوطن
حاول مرةً أن يتخذ لنفسه سكناً كما يفعل الناس، وأن يعيش مثلهم ذلك العيش الرتيب المريح، فجمع كل عزمه، واستأجر غرفة في أحد الأحياء الوطنية بالقاهرة، وأقام بها أياماً يفترش أرضها ويلتحف سماها، ثم تأمَّل حياته فيها، ومُقامه بها فقال: أراني بها كلَّ الأثاث فمعطفي ... وساد لرأسي أو وقاءٌ من البرد!
وهجرها إلى غير رجعة وعاد إلى ضلاله وتيهه!
عاش هذا الفنان البائس لا يعرف المال إلا من فضل ما يمنحه إخوانه من دراهم معدودات يسد بها بعض رمقه، ويقضي بها بعض لبانته، ولكنها لا تكاد تفي له بشيء، فعاش على الجوع والطوى، إنْ أصاب طعام يومه ففي ذمة الحظ والمصادفة طعام غده، وأخيراً جداً أرادوا به خيراً، فوظفوه في وزارة الشؤون الاجتماعية براتب هو جنيهات خمسة! فقبل الوظيفة راضياً شاكراً، وذهب إلى (الديوان) نشوان فرحاً، حامداً الله على نعمته، والتمس كرسياً يجلس اليه، ومكتباً يعمل عليه فلم يجد، فأرسل إلى الوزير يقول:
بالأمس كنت مشرّداً أهليَّا ... واليوم صرت مشرداً رسميَّا!
وبعد ثلاثة أشهر من توليه هذه الوظيفة، لفظ الشاعر آخر أنفاسه، وقضتْ عليه علة طارئة لم تجد العلاج النافع
كانت هذه المحن التي ألمت بهذا الشاعر، وطاردته طول حياته لا يكاد يفر منها إلا

إليها، وهذه النكبات التي انصبت على رأسه لا يعرف عنها منصرفاً. كان كل ذلك مُلهباً لنفسه،
مثيراً لحفيظته. رأى الحرمان الشامل يحيط به ويُلازمه فحقد على المجتمع ووجد عليه، وهو الأديب الفنان ذو الحس المرهف، واستحال الشاعر جحيماً من العداوة والكره والبغضاء للناس، تغنّى آلامه وأوجاعه بالبليغ الجزل مما عرفت العربية من شعر الشكوى والأنين، كنتُ - وأنا بعدُ في صدر الشباب - أغشى مجالس الأدباء والشعراء في العاصمة فما رأيتُ - علم الله - مصدوراً يُنفس عن كربته إلا بشعر عبد الحميد الديب، ولا مُؤلماً يشكو آلامه، ولا متعباً يشكو أوجاعه إلا بشعر عبد الحميد الديب وهو هو النكرة المجهول المحروم المقصيُّ عن الناس بفقره وخصاصته
لك الله أيها الأديب، ولكم الله أيها الأدباء، أنتم بحق جنود هذا المجتمع المجهولون، تحترقون أيها الأدباء لتنيروا للناس، وتجوعون أيها الأدباء لتشبعوا الناس، وتعرؤن أيها الأدباء ليكتسي الناس، وأنتم - بعد - لا تنالون منهم جزاءً ولا شكوراً
شدَّ ما مَنَّى غروراً نفسه ... تاجر الآداب في أن يربحا!
أما أنت يا عبد الحميد، فهيات أملك وصفك الحق للناس - وقلَّ فيهم من يعرفك - هيهات يا عبد الحميد أن أعطيهم عنك صورة صادقة صحيحة سليمة لنفسك ولمتاعبك وشقائك، فلأعرض عليهم بعض شعرك ليعرفوا يا عبد الحميد من أنت

1 - دمع المنازل

بِوَادِ كدار الخلد برِّ المنازل ... حييتُ فمالي لا أفوز بنائل؟
أقاسي به في ليله ونهاره ... معيشة أفَّاق ووحدة ثاكل
وكم سألوني كيف تشقى مع الحجى ... وفي شعرك الهامي عذاب المناهل؟
فقلت بهذا الشعر بؤسي وشقوتي ... كما قتل الصدَّاحَ زهر الخمائل
فلا تسألوني عن دمائي وسفكها ... سلوا بدمي الغالي جريمة قاتلي
فكم مرَّت النعمى عليَّ بسيمة ... فأبعدني عنها وضيع الوسائل
ورفض لئيم كاشح القلب حاقد ... منالي أرزاقي بهمة عامل
بكت بلدتي حزناً عليّ وحسرةً ... وأحزن ما أبصرت دمع المنازل
وكم ندبتني في حماها ضريرةٌ ... تنوح بصوت خافت الصوت ذابل
وشيخ أبيَّ الدمع إلا بمحنتي ... وفي ثوبه مجد الكرام الأماثل
هما والداي الصالحان: كلاهما ... على شدة البأساء موئل سائل
فيا ربِّ إما نعمة من حصافتي ... وإما حياةٌ في حماقة جاهل!!

2 - الطلل الباكي

لو أستطيع البكا يأيها الطللُ ... بكيت حتى شكت من دمعي المقل
أرى الحوادث ذؤباناً مقذفةً ... عليَّ دون الورى تعدو وتقتتل
فكم تصوَّح عودي بعد نضرته ... وكم خبا في دياجي عيشي الأمل
وكم دعت لي أمي وهي باكيةٌ ... وكم دعا لي أبي يقظان يبتهل
وأجلس الليل في صحبي أسامرهم ... وكلهم بمجالي رقتي حفل
حتى إذا سلموا للعود وانصرفوا ... سريت جوعان يفرى عزمي الطلل
جوعان! يا محنةً أربت على جلدي ... كأن ليلي بيوم البعث متَّصل
كأن حظي رحيق الدهر يشربها ... بكراً معتقة فالدهر بي ثمل
فإن تطلبت عيشي مت من كمد ... وإن تطلبت حيني يبعد الأجل

3 - البائس

أذله الدهر لا مال ولا سكن ... فتى تزيد على أنفاسه المحن
إذا سعى فجميع الأرض قبلته ... وإن أقام فلا أهل ولا وطن
مهاجر بين أقطار الأسى أبداً ... كأنه بيد الأرزاء مرتهن
كأنه حكمة المجنون يرسلها ... من غير قصد فلا تصغي لها أذن
ثيابه كأمانيه ممزقةٌ ... كأنها وهو حي فوقه كفن
هو الهدى صرفتكم عنه محنته ... إن العزيز مهين حين يمتحن
ألا فصونوه من عزائه كرماً ... ولا تخلوه يوري شره الزمن
فرب عزم يثير البؤس فيصله ... فينبري لسبيل الشر لا يهن

4 - مصرع الحظ

حظي ومصرعه في لين أخلاقي ... وفيض عطفي على قومي وإشفاقي
ومن حبته الطلى أخلاف نشوتها ... عدا على الكأس طوراً أو على الساقي
بين النجوم أناس قد رفعتهمو ... إلى السماء فسدُّوا باب أرزاقي
وكنت نُوح سفين أنشئت حرماً ... للعالمين فجازوني بإغراق
وكم وقيت الردى من بتُّ مضطرباً ... في أسره المر لم أظفر بإطلاق
يا أمة جهلتني وهي عالمةٌ ... أن الكواكب من نوري وإشراقي
أعيش فيكم بلا أهل ولا وطن ... كعيش منتجع المعروف أفاق
وليس لي من حبيب في ربوعكمو ... إلا الحبيبين: أقلامي وأوراقي
ريشت لحظي سهام من نميمتكم ... فصارعتني ومالي دونها واق
لم أدر ماذا طعمتم في موائدكم ... لحم الذبيحة أم لحمي وأخلاقي
قالوا: غويٌّ شقيٌّ قلت يا عجبا ... قد امتُحنت بكفار وفساق
وما تألمت من خطب ضحكت له ... كما تألمت من خطبي بعشاقي
أنا على القرب منهم كل متعتهم ... وإن نأيت حبوني فيض أشواقي
فما لهم قد أشاعوا كل مخجلة ... عني، وقد أعلنوا بؤسي بأبواق
كصاحب الطير لا ينفك يسجنه ... سجنين من قفص مضن وأطواق
حظي هو الأيكة الخرساء ذابلة ... هو النسيم سموحاً غير خفاق
هو السحاب جهاماً والندى أسفاً ... هو الضياء لهيباً حين إحراقي
كأنه أذرع شلاء راحتها ... أو أنه أعين من غير أحداق
لا تسألوني عن بؤسي وعلته ... سلوا به الحظ ميتاً فوق أعناق!
والسلام عليك يا صديقي ما انبعث أنين، وصرخت شكوى والتهبت صدور.
(المنصورة)
علي متولي صالح
الأحلام - 3
للفيلسوف الفرنسي هنري برجسون
بقلم الأستاذ ألبير نادر
التذكر!
في حالة اليقظة تمر بنا ذكريات تظهر وتغيب متطلبة انتباهنا على التوالي وعلى الدوام. ولكنها ذكريات مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بحالتنا وعملنا. إني أتذكر في هذه اللحظة كتاب المركيز درني في الأحلام لأني أبحث في موضوع الحلم وأنا الآن في معهد الدراسات النفسية ومحيطي ومشاغلي وما أراه وما أنا قائم به من عمل، كل هذا يوجه نشاط ذاكرتي نحو اتجاه معين. إن الذكريات التي نناجيها وقت اليقظة، مهما تبدو غريبة عن مشاغلنا الوقتية فإنها تمت إليها دائماً بصلة ما. ما هي وظيفة الذاكرة عند الحيوان؟ هي أن تُذكره في كل مناسبة العواقب النافعة أو المضرة التي سبق أن تلت حوادث متشابهة للحوادث الحاضرة، وتخبره عندئذ بما يجب عليه عمله. - عند الإنسان - اعترف بأن الذاكرة تكون في حالة تحرر عن العمل أكثر مما هو الحال عند الحيوان؛ ولكنها لا تزال مرتبطة بالعمل، فإن ذكرياتنا في وقت ما تكون كلاً متماسكا. قل إذا شئت هرماً قمته في حركة مستمرة ومتفقة مع وقتنا الحاضر وتغوص معه في وقتنا المستقبل. ولكن خَلف الذكريات التي ترتكز هكذا على مشاغلنا الحاضرة وتظهر بواسطتها، توجد ذكريات أخرى - آلاف وآلاف أخرى - موجودة في الأسفل، خلف المسرح المضاء بواسطة الوجدان. أجل أظن أن ماضينا موجود هناك محفوظ حتى أقل جزء منه، وأننا لا ننسى شيئاً، وأن كل ما أدركناه، وكل ما فكرنا فيه وأردناه منذ أول فجر وجداننا فإنه يدوم أبداً. ولكن الذكريات التي تحافظ عليها ذاكرتي هكذا في أظلم أعماقها موجودة هناك على شكل أشباح خفية - ربما تتشوق إلى النور ولكنها لا تحاول أن تصعد نحوه فهي تعرف أن هذا من المستحيل - وإني أنا الكائن الحي الفعال لديَّ مشاغل أخرى تنهاني عنها. ولكن لنفرض أنه في وقت ما أكف عن حالتي الحاضرة، عن العمل الملح أي عن كل ما كان يحصر في نقطة واحدة كل نشاط ذاكرتي. لنفرض باختصار أني نائم - فحينئذ تتحرك تلك الذكريات الثابتة عندما تشعر بأني نزعت العائق ورفعت الحاجز الذي كان يجعلها ملازمة قاع الوجدان، فتنهض وتهب وتضطرب وتقوم برقص قبري عظيم في ظلمات الوجدان - وجميعها تتجه نحو

الباب الذي انفتح، تريد أن تمر كلها ولكنها لا تقدر لكثرة عددها. فما هي الذكريات المختارة من هذا الحشد المدعو؟ أنكم تدركونها بسهولة. منذ لحظة، عندما كنت في حالة اليقظة، كنت أختار فقط الذكريات التي تمت بصلة قرابة إلى الحالة الحاضرة، أعني مداركي الحالية. وإنها الآن لأشكال أكثر إيهاماً ترتسم أمام عينيَّ وأصوات أقل وضوحاً تؤثر في أذنيَّ، ولمس أقل وضوحاً مبعثر على طول مساحة جسمي ولكنها أيضاً احساسات أكثر عدداً تأتيني من داخل أعضائي. ولكن من بين هذه الذكريات الشبحية التي تحاول أن تكتسب ثقلاً بواسطة اللون والرنين والمادية، فقط تظهر تلك التي يمكنها أن تمتثل الغبار الملون الذي أشاهده، والأصوات الخارجية والداخلية التي أسمعها الخ. والتي تتفق أيضاً والحالة العاطفية العامة التي تكونها التأثيرات العضوية، ومتى حصلت هذه الصلة بين التذكر والإحساس ينتج الحلم.

في صفحة شعرية من صفحات كتاب التساعيات يشرح لنا الفيلسوف أفلوطين - مترجم أفلاطون ومتممه - كيف يولد الناس وينالون الحياة - يقول: تبدأ الطبيعة في صنع الأجسام الحية ولكنها تبدأ فقط، وإذا تركت الطبيعة وشأنها فلا يمكنها أن تصل إلى النهاية. ومن جهة أخرى تسكن الأرواح في عالم المُثل حيث لا يمكنها أن تعمل، وهي لا تفكر في العمل فترفرف مرتفعة عن الزمن خارجة عن الفضاء - ولكن بين الأجسام ما يكون أكثر ملاءمة بفضل أشكالها لأغراض هذه الأرواح أو تلك - ومن بين الأرواح ما يجد نفسه أكثر ملاءمة ليحل في هذه الأجسام أو تلك - والجسم - وهو لا يخرج حياً تماماً من بين أيدي الطبيعة - يرتفع نحو الروح التي تهبه الحياة الكاملة. والروح تنظر إلى الجسم الذي تظن أنها ترى فيه صورتها فتنجذب وتنخدع كأنها أمام مرآة وتترك نفسها تندفع نحوه وتنحني وتسقط - وسقوطها هو ابتداء الحياة - إني أشبه الذكريات التي تنتظر في ثنايا الوجدان الخفية بتلك الأرواح المنفصلة - وهكذا احساساتنا الليلية فإنها تشبه هذه الأجسام في بداية تكوينها. الإحساس حار ملون رنان، وتقريباً هي كذلك ولكنه غير مستقر - والتذكر واضح معين ولكنه فارغ وبدون حياة. يبحث الإحساس عن شكل يثبت فيه خطوطه المتقلبة.

والتذكر يبحث عن مادة تملأه وتعطيه ثقلاً حتى يتحقق فيجذب الواحد الآخر، والتذكر الشبحي يتخذ شكلاً مادياً في الإحساس الذي يقدم له الدم واللحم ويصير كائناً يعيش عيشة خاصة أي حلماً

فتولد الحلم ليس بأمر غريب. إن أحلامنا تتكون تقريباً مثل ما تتكون رؤانا للعالم الواقعي. إن آلية العملية واحدة بالإجمال. فما نراه من أشياء أمام أعيننا، وما نسمعه من كلام أمام أذننا، ما هو إلا الشيء القليل بالنسبة إلى ما تضيفه الذاكرة. عندما تطالع جريدة أو تتصفح كتاباً أتعتقد أنك ترى فعلاً كل حرف وكل كلمة أو كل كلمة ضمن كل جملة؟ إذا كان الأمر كذلك فلا يمكنك أن تطالع الكثير في جريدتك - في الحقيقة أنت لا ترى من الكلمة أو من الجملة سوى بعض الأحرف أو بعض العلامات المميزة، وهو ما يلزم حتى تخمن الباقي. يبدو لك أنك ترى كل الباقي ولكنك في الواقع تتوهمه - هناك اختبارات عديدة ومتفقة لا تترك أي مجال للشك في هذا الصدد ولا أذكر هنا سوى اختبارات جلوشيدر ومولر: إنهما كتبا أو طبعا صيغة دارجة عادية وهي مثلاً (ممنوع الدخول بتاتاً) أو (مقدمة الطبعة الرابعة) الخ. ولكنهما أخطآ بتبديل الحروف أو بحذف بعضها. ثم يوضع الشخص الذي سيعمل بواسطته الاختبار أمام هذه الصيغة في الظلام، وهو يجهل طبعاً ما كتب على اللوحة أمامه. ثم تضاء هذه الصيغة المكتوبة مدة قصيرة من الزمن حتى لا يتمكن المشاهد لها من أن يرى جميع الحروف. وفعلاً كانا قد توصلا إلى معرفة الوقت اللازم لمشاهدة حرف من حروف الأبجدية وذلك عن طريق التجربة. فمن السهل إذاً عمل الترتيب اللازم حتى لا يتمكن المشاهد من أن يميز أكثر من ثمانية حروف أو عشرة مثلاً من الثلاثين أو الأربعين حرفاً التي تكوِّن الصيغة. ففي غالب الأحيان يقرأها بدون صعوبة، ولكن ليست هذه النقطة هي المهمة في الاختبار - إذا سألنا المشاهد ما هي الحروف التي شاهدها بكل تأكيد، فالحروف التي يذكرها يجوز أن تكون موجودة فعلاً ولكنه سيذكر أيضاً حروفا كانت ناقصة أو استبدلت بحروف أخرى. هكذا يبدو له أنه شاهد الحروف الناقصة ترتسم في الضوء لأن الحس يتطلب ذلك. فالحروف التي شاهدها فعلاً ساعدت على

تذكره شيئاً ما. ووجدت الذاكرة الباطنية مرة أخرى الصيغة التي بدأت تحققها هذه الحروف فتبعث بها التذكر إلى الخارج
على شكل وهمي. فالمشاهد رأى هذه الذكرى بقدر ما رأى وأكثر ما رأى الصيغة المكتوبة نفسها. فالمطالعة العادية باختصار عمل تخمين ولكنها ليست مجرد تخمين. إنها انبعاث ذكريات إلى الخارج أي مجرد تذكر إدراكات غير واقعية تنتهز فرصة تحقيق جزئي تصادفه هنا وهناك حتى تتحقق بأكملها
هكذا في حالة اليقظة تتطلب معرفتنا لشيء ما عملية مشابهة للعملية التي نقوم بها في الحلم. إننا لا ندرك من الشيء إلا ابتداءه؛ وهذا الابتداء يتبعه تذكر الشيء بأكمله. والذكرى الكاملة الكامنة في عقلنا والتي كانت في الباطن مجرد نكرة تنتهز هذه الفرصة لتندفع إلى الخارج. ونحن عندما نرى الشيء نتوهم هذا النوع من الوهم المحاط بحاجز واقعي. ويمكننا أن نقول الكثير في تصرف الذاكرة أثناء هذه العملية. لا يجب أن نعتقد بأن الذكريات الموجودة في ثنايا الذاكرة تبقى فيها ساكتة جامدة وغير مكترثة، لا بل إنها صاغية وفي انتظار. إذا كان عقلنا مشغولا بعض الانشغال وفتحنا جريدة يقع بصرنا صدفة على كلمة تتفق تماماً ومشغلتنا؟ لكن ترى الجملة عارية عن كل معنى وسرعان ما نلاحظ أن الكلمة التي قرأناها لم تكن الكلمة المطبوعة. فقط توجد بينهما بعض العلامات المشتركة أو تشابه ضئيل بين شكليهما. فالفكرة التي كانت تشغل بالنا أيقظت في خفايا شعورنا جميع الصور المتجانسة وجميع الذكريات عن الكلمات المتشابهة، وعللتها، بنوع ما، بالعودة إلى الوجدان، والذكرى التي تعود إلى حقل الوجدان هي التي بدأ في تحقيقها إدراك وقتي لشكل من أشكال الكلمة
هذه هي آلية الإدراك الحقيقي وآلية الحلم - يوجد في الحالتين تأثير حقيقي على أعضاء الحس من جهة ومن جهة أخرى توجد ذكريات تنضم إلى التأثير وتنتفع بحيويته لكي تعود إلى الحياة
(يتبع)
ألبير نادر
البريد الأدبي
روسيا والثقافة العربية
روت وكالة الأنباء العربية أن الأستاذ أجناتي كراشوفسكي - العضو في المجمع العلمي، ومن أنصار العرب المعدودين - تلا بياناً عن الجهود التي بذلها أنصار الشؤون العربية، أمام معهد اللغات لشعوب الجمهوريات السوفيتية في موسكو، متحدثاً فيه عن مبلغ العناية التي وجهت إلى دراسة لغة العرب وثقافتهم وتاريخهم، مسترعياً أنظار المستشرقين الروسيين إليها قائلاً: إنها أساس الثقافة الإسلامية القديمة الفنية التي تعتنقها شعوب كثيرة تستوطن آسيا الوسطى كالقوزاق والتتر الذين يؤلفون جزءاً من جامعة الأمم السوفيتية وإن آثاراً عديدة عن الثقافة العربية تقوم في آسيا السوفيتية والقوقاز. وما زال بعض سكان داغستان وشيستو ينجوشتيا يتكلمون بلغة عربية قديمة إلى جانب لغتهم الأصلية، ويستخدمونها في التخاطب والكتابة، حتى في نظم الشعر وفق الأوزان العربية القديمة. ويعتبر قسم أنصار العربية في معهد الدراسات الشرقية وفي جمعية أنصار العربية التي تضم بين أعضائها علماء من كافة أنحاء روسيا دليلاً على الاهتمام الكبير الذي تبديه روسيا بشأن مسائل الثقافة العربية. ورغماً من ظروف الحرب لا يزال العمل مستمراً في تنفيذ مشروعات عربية أدبية وتاريخية. وقد تمت في الأعوام الأخيرة أعمال كثيرة بفضل دراسة الموضوعات العربية باعتبارها من الموارد التي يستقي منها تاريخ الشعوب الروسية
ولم تكن الحرب عائقاً كبيراً لتطور هذه الأبحاث العربية، بل اقتصر أثرها على إرجاء صدور بعض المؤلفات التي تم وضعها وبخاصة في لينينجراد؛ ولم يفقد أو يضع منها أي مؤلف برغم أخطار الحياة ومتاعبها في هذه المدينة وقت الحصار الذي كان مضروباً حولها، فقد حفظت هذه المؤلفات جميعاً بعناية كبرى
ولا يزال يواصل أنصار العربية في روسيا عملهم في هذه الأبحاث
مشكلة النظافة في مصر
أعجبني وأثار تفكيري استطراد الأستاذ الجليل أحمد أمين بك إلى مسألة - النظافة عند المصريين - وهو يسوق حديث المرحوم الشيخ رفاعة الطهطاوي في إعجابه بنظافة

وقد امتطى ظهر سفينتهم إلى أوربا، واستنكاره لقذارة المصريين وهو (الفرنساوية) يعترف بها في حديثه على مضض
والحق أن للمصريين شهرة بعيدة بقلة النظافة لا يفيدنا في شيء أن ننكرها أو نتصام دون سماعها. وقد رد الأستاذ ذلك إلى سببين: أولهما (الفقر المنتشر والبؤس الشائع) اللذان يحولان بين عامة الشعب واستكمال وسائل نظافته؛ وثانيهما تقصير الحكومة في الدعوة الصحية و (عدم تدخل أولي الأمر في نظافة الشعب وتعويده أن يقوم النظافة قيمتها الحقة)
والواقع أن كلا السببين ينقصه الوجاهة، ويعوزه شيء من صدق التأييد. فالفقر والبؤس لا يغرسان عادة القذارة في نفوس طبعت على حب النظافة، وليس صحيحاً هذا الارتباط الذي نتوهمه بين الفقر والقذارة أو بين الغنى والطهارة!
بل إن الأستاذ لينقض رأيه هذا في نفس الكلمة حين يقول: (ومن نعم الله أن تكاليف النظافة رخيصة إذا وجدت نفوساً تأنف القذر) أما الحديث عن مهمة الحكومة في تنظيف الشعب فحديث عجيب، حتى لكأننا - نحن أفراد هذه الرعية - من طينة، ورجال حكومتنا من طينة أخرى
وهب الأمر كذلك، فما قيمة الشعرة الواحدة البيضاء في أديم الثور الأسود؟ ما أثر دعوة الحكومة إلى النظافة إذا صح أن نرجع بالقذارة إلى أسباب طبيعية أقوى من أن تخضع للإرشاد أو تتأثر بتزجية المقال؟
ولتوضيح هذا نقول: إن جذور القذارة عندنا أعمق مما يبدو في كلام الأستاذ؛ ومنبعها - فيما أرى - يرتد إلى أسباب طبيعية ثابتة قوامها البيئة والمهنة، أكثر مما يرتد إلى هذين السببين المعارضين اللذين ساقهما خلال حديثه
فطبيعة الطقس في مصر، بين شدة حرٍ وندرة مطر، مما يلوث الجو ويوبئه، ويهدم سياج النظافة، بل ويضاعف المشقة على من يتحرى ذلك في ملبسه أو في جسمه، بله المسكن وسائر الأدوات والمرافق الأخرى. ولو راقبنا الأجنبي عندنا في صيف أو شتاء لرأيناه راضياً لنفسه بمستوى من النظافة يقل عما يألفه في بلده، وإلا فهو مرغم على بذل مجهود أكبر، ليصل إلى الدرجة التي كان يبلغها هنالك بأيسر المجهود
هذا ولمهنة المصريين الطبيعية أثر لا يقل عما ذكرناه وضوحاً؛ فالفلاحة لا تترك لدى الزارع المخلص مجالاً للتحرز من أوساخ الأرض. وليس صميما في مصريته من يكره الخوض في الأوحال أو يضيق ذرعاً بهذا الطمي العالق بماء النيل، وإنه لسبب حياتنا ونعمتنا، بل سبب الرزق الذي يتحدر من أيدينا إلى لهوات شعوب وشعوب
وإن قولتنا المشهورة - أرض مصر من ذهب - لحقيقة صادقة لا يعلق بها مجاز، أو يقلل من تصريحها كناية. فليس بضائر فلاحنا أن يوشي ثوبه بالطين والغبار، إذا توشت ثياب غيره بخيوط الذهب، وتزين صدره بقلائد النضار
وأخلص من كل هذا إلى تقرير أمرين: الأول أن النظافة - كخلق أو عادة أو سمها كيف شئت - تخضع في كل أمة إلى ظروف من بيئتها ومن طبيعة عملها خضوعاً تقف معه عند مقاييس خاصة، وتضطرب بسببه في مجال محدود وأفق معين، يختلفان ضيقاً وسعة عن مثلهما في الأمم الأخرى. والثاني: أن إهمال الحكومة وتفشي الفقر. . . هما داعيان - فقط - من دواعي استدامة هذه الحال التي نشاهدها من قذارة أغلب العامة من أهل مصر؛ ولكنهما ليسا العلة الأساسية في وجود هذه الحالة التي قد ترتقي في بعض الأحيان إلى مستوى (العادة) المتأصلة؛ ولكنها تزول مع ذلك - في سهولة ويسر بالغين - إذا نحن هيأنا لأقذر من نختار من المصريين شيئين اثنين فقط: هما الجو اللطيف، والعمل النظيف
(جرحا)
محمود عزت عرفة
ديوان زهر وخمر
إن من عرف ديوان الملاح التائه فقد عرف الأستاذ علي محمود طه على حقيقته: ذلك لأن روح القلق المشوب بالمرح تغلب على شعر صاحب الجندول حتى لتكاد تجعل منه نغمة واحدة تجمع بين الحيرة والفرحة، وهذه الروح التي تعبِّر أصدق تعبير عن طابع الحياة العام، يلمسها قارئ ديوان (زهر وخمر) في سهولة ويسر؛ فإن ثمة موجة هائلة تغمر بفيضها كل شيء في الوجود، عند صاحب هذا الديوان؛ إذ ينظر المرء فيرى

المجداف يمرح، والزورق قد رنحته الأمواج، والأضواء ترقص مع الموج، والشعاع يمرح مع الأمواج الخليعة. . . إلى آخر تلك التعبيرات التي تضفي على كل شيء روحاً من البهجة
والمرح. . . وما عسى أن يكون هذا إلا صدى لروح الملاح التائه الذي يستعذب القلق والحيرة، ويجد فيهما الفرح والبهجة؟
إن الأستاذ (علي محمود طه) ليصور لنا في ديوانه الجديد روح الملاح التائه، فيعرض لنا في قصيدته (سارية الفجر) صورة جميلة لغادة فاتنة عبرت به في الصباح الباكر؛ وهنا نراه ينظر إليها نظرة الملاح التائه أيضاً، إذ ينبئنا بأنها عرضت له عند الفجر حتى لقد عجب لهذه الغادة وقال:
!هذه الساعة تسعى امرأةٌ ... حين لم يخفق جناح الطائر
وهو لا يقف عند هذا الوصف، وإنما يضيف إليه وصفاً جديداً تكتمل به صورة الحيرة والقلق، فيصور تلك الغادة وقد أخذت تقطع الإفريز كالأسير الهارب من الأسر، وهي تتقي الأعين أن تبصرها، وتلتفت إلى العابرين التفات الحائر، ولا تعبأ بالمطر الذي يصيبها والبرد الذي يلفحها. . . الخ. وينظر المرء مرة أخرى فلا يرى في هذه الصورة غير طيف لتلك الصور التي عرضت لصاحب (الجندول) حين كان يلتقي بغادات أوربا الجميلات فلا يستطيع أن يظفر منهن بغير اللفتة العاجلة والنظرة العابرة! وهل كان الحب عند الملاح التائه غير هذا القلق المغَلَّف بالمرح والبهجة؟
إني لأكاد أجزم بأن الحيرة والمرح هما كل شيء في (شاعرية) الأستاذ علي محمود طه؛ ومن أجل ذلك فإننا نراه يعنف حيناً في تصوير موقف الإنسان أمام الطبيعة، ونراه يفرط حيناً آخر في تصوير متعة الإنسان التي يجدها في الطبيعة. وهو في كلتا الحالتين يعبر عن روح الملاح التائه التي قد يطغي عليها القلق حيناً فتعنف وتشتد، ولكنها لا تلبث أن تعود إلى مرحها فتطرب وتبتهج. والظاهر أن المرح أغلب على تلك الروح، فإن الحيرة تمتزج بالحب فتذهب مرارتها في عذوبته. والحب عند الملاح التائه ينزع إلى أن يصبغ كل شيء في الوجود بصبغته الجميلة المستحبة. وهل ننسى أن صاحب الجندول هو الذي يقول:
كل نجم مهجة تهفو ... وعينٌ لا تنامْ
وشعاع البدر معش ... وق به جُنَّ الغمامْ
يا حبيبي كل عَيْشٍ ... ما خلا الحبَّ حرامْ
أجل! هذا ما يقوله صاحب (زهر وخمر)؛ ومن قبله قال جيته شاعر الألمان: (ليس ثمة نعمة في هذه الحياة، أعظم من أن يَعشِق المرء ويُعْشَق)
زكريا إبراهيم
محمد بن عبد الوهاب
أصدر صديقنا الأستاذ الفاضل أحمد عبد الغفور العطار الأديب الشاعر الحجازي المعروف كتابه الجديد عن هذا الزعيم العربي المصلح، فسد في كتب التراجم فراغاً ملموساً وأسدى به إلى الزعيم المسلم الصادق يداً سيذكرها له المعجبون بمحمد بن عبد الوهاب في جميع الآفاق. والكتاب برغم المآخذ القليلة التي يمكن تداركها في الطبعة الثانية هو مصدر نافع يفيد كل من يريد الإلمام بالمصلح النجدي كما يلقي الضوء على هذه الشخصية العربية التي جددت سنة الرسول الكريم ودعت إلى العود بدينه إلى الفطرة التي صدر عنها ويشر بها، واتخذ من رسول الله أسوته الحسنة في كل ما تجشمه بسبيلها. ونحن في مصر نرحب كل الترحيب بالكتاب الجديد ونتمنى له الذيوع والانتشار فإنه لهما أهل
دريني خشبة
العدد 520 - بتاريخ: 21 - 06 - 1943
دفاع عن البلاغة - 12
الأسلوب - 4
أما قول إميل زولا: (وهل نستطيع أن نتبين الكمال الفني في أسلوب هوميروس وفرجيل ونحن نقرأهما مترجمين) فمرماه أن روائع اليونان والرومان لم تخلد على الدهر إلا بمعانيها المبتكرة، ووقائعها المشوقة، وعواطفها الصادقة، وشخوصها الحية، بدليل أننا نقرأها اليوم بمعانيها لا بمبانيها، وبفكرَها لا بصورها. فلو كان خلودها منوطاً

بدقة الصياغة وجودة الصناعة لما عاشت بالترجمة. ثم يترتب على ذلك خطأ القول باتحاد الصور والأفكار في الأسلوب؛ لأننا حين نقرأ الإلياذة مثلاً في الفرنسية أو في العربية لا نقرأ منها غير الموضوع

والحق الذي تؤيده الدلائل أن جمال الأسلوب وحده هو الذي ضمن الخلود لهذه الروائع؛ فإن الثابت بالسند المتصل والخبر المتواتر أنها كانت آية عصرها في البلاغة، ولولا ذلك ما روتها الرواة ولا ترجمتها التراجم. واللفظ كما يقول الجاحظ: (إذا لم يكن رائعاً والمعنى بارعاً لم تصغ له الأسماع، ولم تحفظه النفوس، ولم تنطق به الأفواه، ولم يخلد في الكتب)

والترجمة الصحيحة لا تنقل أفكار الكاتب أو الشاعر وحدها عن الاصل؛ إنما تنقل مع ذلك إشراق روحه، وسمو إلهامه، ولطف شعوره، ونمط تفكيره، وخصائص أسلوبه. فلو أن ترجماناً ضعيف العربية من تراجم المحاكم حدثته نفسه أن يعرض لإحدى روائع شكسبير فنقلها نقلاً لفظياً بأسلوبه الذي يترجم به عُروض الأحوال أو أصول الاحكام، فهل تقول إذا استطعت أن تقرأ ما كتب إنك قرأت شكسبير، أم ترى أنك قرأت ألفاظاً كالعظام المعروقة المبعثرة لا تمثل من أي حيوان معنى من معانيه ولا صورة من صوره؟ إن بلاغة التوراة والإنجيل في العبرية لا مساغ للشك فيها، ولكنك تقرأهما في العربية فلا تجد أثراً لهذه البلاغة؛ ذلك لأن الذين ترجموها إلى لغة القرآن لم يكن لهم بآدابها علم، فوضعوا لفظاً مكان لفظ، ولم يضعوا أسلوباً مكان أسلوب؛ فجاءت الترجمة كما ترى موضوعية عجماء لا تشبه لغة من لغات الناس في لون ولا طعم ولا شكل

فأنت ترى أن الترجمة التي يسوقونها دليلاً على أن الروائع الأدبية تحيا بصدق موضوعها، وأن الأفكار تنفصل عن الصور وتنتقل بدونها، هي نفسها الدليل الناهض على

أن الموضوع لا تتحرك الهمم لنقله، إلا إذا راع النفوس بشكله، وأن الترجمة لا تكون صحيحة إلا إذا نقل المترجم أسلوب الكاتب أو استبدل به مثله

إذا حَلِيَ في صدرك بعد ذلك أن تذهب إلى ما ذهبتُ إليه من أن تجويد الأسلوب يتضمن تجويد الفكرة ويضمن خلودها؛ فدعك من أولئك الذين عادَوا الكمال الفني بطبائعهم فآثروا جانب التسمح والتجوز والمجازفة والمعافاة: كزولا، وبلزاك، واستندال، وسائر الذين رآهم فُلتير يحاصرون (معبد الذوق) ثم لا يستطيعون أن يَظهَروه ولا أن ينقبوه ولا أن يمنعوه. ولا تبال أولئك الذين نزلوا بقصورهم عن طبقة البلغاء فتنطعوا بركيك الألفاظ، وتكثروا بسخيف التراكيب، كهذه الكثرة الكاثرة من كتاب العربية وشعرائها في هذا العصر، فإنهم كما قال ابن قتيبة في أهل زمانه: (قد استطابوا الدعة، واستوطأوا مركب العجز، وأعفوا أنفسهم من كد النظر، وقلوبهم من تعب الفكر، حين نالوا الدرك بغير سبب، وبلغوا البغية بغير آلة). دعك من هؤلاء وأولئك وانظر أنت في الأسلوب الذي ارتضيته لنفسك فتعهده بالتصحيح والتنقيح ما استطعت، ولا تحفل الزمن الذي تنفق فيه؛ فإنك تخلق الخلق ليعيش، وتبدع الأثر ليخلد. والزمن لا يُبقي على عملٍ يتم بدونه. وما العبقرية كما يقول بوفون إلا صبر طويل. ولا عليك أن يقال عنك إنك بطيء بكيء؛ فإن زهيراً لم يعبه أحد بحولياته، وابن المقفع لم يغض من عبقريته قلة مؤلفاته، وأبو نواس شهر بالتخير والتفكير، كما شهر أبو العتاهية بالارتجال والاقتضاب، فجاء شعره كله من حر الكلام ومختاره، كما جاء شعر الآخر على رأي الأصمعي (كساحة الملوك يقع فيها الجوهر والذهب والتراب والخزف والنوى). وللابروبير كتاب واحد، ولفلوبير كتابان؛ ولو كان لبلزاك كتاب من طراز (الشمائل)، أو كتابان على أسلوب (مدام بوفاري) و (سلامبو) لما قلت شهرته بهما عن شهرته بمجلداته الخمسين

والروية والعمل والتهذيب والتأنق تشف عنها العبقريات الخالدات للعباقرة الخالدين. فهنا تجد الفرزدق ومسلم بن الوليد وأبا تمام وأبا العلاء وسهل بن هرون وأحمد بن يوسف والجاحظ وابن العميد والحريري؛ وهناك تجد بوالو ولافونتين وتين ولابروبير وبسكال ومنتسكيو وفلوبير وشاتوبريان وإدمون رستان!

كان لافونتين ينظم المثل ثم ينظر فيه عشر مرات، وفي كل مرة يحرر ويغيِّر، ويحذف

ويضيف. وكان شاتوبريان يبديء الصفحة ثم يعيدها على نحو ما كان يفعل لافونتين. ويقول بسكال إنه حرر بعض فصول (البروفنسيات) خمس عشرة مرة. ولو كشف أفذاذ الكتاب عن عاداتهم في الكتابة لما وجدت فيهم من يرسل الكلام كما يجيء، ويقيد الفكر كما يَعِن

ومعاذ الله أن تحمل هذا الكلام الواضح على محمل العجزة الكسالى من مفاليك الأدب وصعاليك الصحافة، فتفهم من الروية التكلف، ومن العمل الجهد، ومن التهذيب الصنعة المكشوفة، ومن التأنق الزخرف الكاذب. تلك عيوب سيجيئك الحديث عنها فيما يجيء. ولسنا اليوم بصدد الإفاضة في تحليل الصفات الفنية التي تميز كلاماً من كلام، وتقضي لأسلوب على أسلوب. ذلك موضوع الحديث المقبل، وإنما كان ما ذكرناه من ضرورة المعالجة والمراجعة والتخير، تذييلاً لابد منه لمناقشة الخلاف بين أنصار الجمع بين الفكرة والصورة، وبين أنصار التفريق بينهما على الوجه الذي رأيت؛ فإن من لوازم الجمع التروية والتجويد والعناية، ومن لوازم التفريق التساهل والإهمال والارتجال ومجافاة القواعد؛ وكلها من أعراض السرعة التي جعلناها في حديثنا الأول إحدى البلايا الثلاث التي تكابدها البلاغة في هذا العصر.

(للكلام بقية)

أحمد حسن الزيات

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

بين الحب والإعجاب - شبهة لغوية - غناء وغناء

بين الحب والإعجاب

الصلة بين الكاتب والقارئ منوَّعة الألوان، فهنالك كاتب يحبه القارئ، وكاتب يعجب به القارئ، وكاتب يظفر بالحب والإعجاب

ومَرَدُّ الأمر إلى ذاتية الكاتب، فإن كان أدبه أدب وجدان فهو جدير بالحب، وإن كان أدبه أدب ذكاء فهو خليق بالإعجاب، وإن جمع بين الوجدان والذكاء فهو الكاتب المنشود، وهو الذاتية الكاملة فيما يرى أصحاب الأذواق وأرباب العقول

والظاهر أن الأدب الحق يأخذ زاده من الذكاء ومن الوجدان، فإن خلا من أحد هذين الزادين فهو عُرضة للضعف، وإن خلا منهما معاً فهو إلى فناء

وقد يظن بعض الناس أن الذكاء والوجدان من المواهب الثوابت، وأن من حق الموهوبين أن يتكلموا حين يريدون. وهذا توهم، فما يستطيع أعظم عقل أو أكبر قلب أن يجود بالمعاني في كل وقت، وإنما هي بوارق تَصدُر عن العقل والقلب من حين إلى أحايين

ومع هذا فمن المؤكد عندي أن العقول تُراض وأن القلوب تُراض، ولكن كيف؟ هنالك أغذية لا يعرفها مؤتمر الأغذية، وهي التأملات في دقائق الفروق بين الحيوات الحسية والمعنوية، وهي فروق لِطاف لا يدركها غير قلب الأديب وعقل الفيلسوف والظاهر أيضاً أنه لابد من التزود بما سميته (الحاسّة الفنية) وهي حاسة لا توهب لجميع الناس، وإنما يختص الله بها من يشاء، وإلا فكيف جاز أن يكون النوابغ في كل أمة آحاداً وإن زاد أبناؤها على عشرات الملايين؟

إن الوجود كتابٌ مفتوح، ولكنه لا يُقرأ بسهولة، ولا يجتلي أسراره غيرُ أفراد، فكيف نصل إلى لُبابه المكنون؟

أعتقد أن مسئوليتنا نحو أنفسنا خطيرة، فنحن نضيع فرص التأمل، ونحن نتهيَّب ما يُغضب المجتمع، ونحن نجعل السلامة شارة النصر المبين

الأصل في الأدب أن يكون ثورة عقلية وذوقية، والأصل في طبيعة الأديب أن تكون قوة موحية، قوة تُعطى وتَمنح، وعنها تصدر أقباس الفكر وألوان الخيال

وليس معنى هذا أن يعيش الأديب عيش المحادة للمجتمع، فالمحادة المقصودة عناد بغيض، ولكن معناه أن يستقل الأديب عن الموحيات الخارجية، موحيات الظروف، بصورة تجعل أدبه من وحي الخلود

ويظن ناسٌ أن الكاتب المحبوب هو الذي يحدّث قراءه عما يألفون، وهذا خطأ في خطأ، وإنما الكاتب المحبوب هو الذي يمضي بقرائه إلى شِعاب من الفكر والروح والوجدان لا يصلون إليها بغير دليل. فمن غفلة بعض الكاتبين أن يأنسوا إلى العامية

الفكرية، عامية الرأي المبذول بغير حساب على اختلاف عهود التاريخ. وما قيمة الكاتب إن لم يُشعر القارئ بأنه هداه إلى أفق جديد من آفاق العقل والروح، ولو بلمحة سانحة في أثناء الحديث؟.

يجب أن تكون للكاتب ذاتية عقلية وروحية، عساه يخلُق في القارئ وجداناً يحس به حقائق الوجود. فليس بكاتب ولا مفكر من يكون محصوله نُفاضة من أضابير زهد فيها العنكبوت

والأدب عند كل أمة وفي كل عهد سموٌ وعَلاء، أو هو التعبير الصحيح عن المطامح الكريمة في السمو والعلاء، ولهذا كان من أساسه الأصيلة أن يكون طريف الفكرة جميل الأسلوب

وليس المراد من طرافة الفكرة أن تكون رأياً لم يسمع بمثله الناس، لا، وإنما المراد أن يكون تعبير الكاتب عنها تعبيراً ذاتياً يجعلها من الطريف، بحيث لو تحدث عنها غيره لعُدت من الحديث المعاد

أما جمال الأسلوب فله عندي مقياس يخالف المعروف من المقاييس، والكاتب صاحب الأسلوب في نظري هو الكاتب الذي يشغلك بنفسك حين يوجه إليك الحديث، ومعنى هذا أن تبرز الفكرة بصورة قهارة ينسى فيها القارئ أنه في صحبة كاتب، ولا يدرك إلا أنه يواجه معضلات يعترك فيها العقل والوجدان. وهذه البراعة لا تتفق للكاتب ولا تنصاع إليه إلا بعد أن يكون إماماً في لغته، إمامة صحيحة كونتها الرياضات الطوال على الأداء المبين بالأسلوب الرشيق

شبهة لغوية

هي شبهة من يتوهمون أن اللفظة الفصيحة هي اللفظة المخدَّرة ويريدون بها اللفظة التي لا يعرفها سواد الناس، فالكاتب العظيم في نظر هؤلاء هو الكاتب الذي يتحامى المأنوس من الألفاظ، ويؤثر الألفاظ التي عاشت في المعاجم بقوة التحنيط وإن حُرمت الحياة منذ أزمان

وأنا لا أقيم وزناً لهذا الرأي، وأضيف أصحابه إلى الجهلاء، ولا يؤذيني أن يتهموني بالتسامح في اللغة، كما طاب لأحدهم أن يقول ذلك في إحدى المجلات

الألفاظ تتقاتل في سبيل العيش كما يتقاتل الناس، فينتصر فريق وينهزم فريق، ثم يجيء الكاتب الحصيف فيعانق اللفظ المنتصر، ويتقدم الكاتب المخذول فيعانق اللفظ المخذول

كان أحد أعضاء المجمع اللغوي - وهو السيد حسن القاياتي - أنكر عليَّ في مقال نشره في جريدة البلاغ منذ سنين أن أستعمل لفظة (يستأهل) بمعنى (يستحق) فكتبت في الرد عليه مقالاً بعنوان: (والله تستأهل يا قلبي)

واستعملت مرة كلمة (شافَ) بمعنى (رأى) فثار خلْقٌ من خلق الله وعدوني من المتسامحين في اللغة، فسألتهم عن (تشوَّف) وهي كلمة كثيرة الورود في قصائد التشبيب، ثم أكدت لهم أن العرب في جميع الأقطار يقولون: (شافه) بمعنى (رآه) وقد (شفتهم) بعيني!

أتريدون الحق؟

الحق أن النقد اللغوي غلبت عليه الصبغة الببغاوية، واليكم هذا المثال:

قضى علماء البلاغة نحو عشرة قرون وهم يقولون في مؤلفاتهم وفي دروسهم بأن المتنبي أخطأ في جمع بوق على بوقات حين قال:

فإن يك بعض الناس سيفاً لدولةٍ ... ففي الناس بوقاتٌ لها وطبول

وكان العجب كل العجب أن يتحامل علماء البلاغة على المتنبي نحو عشرة قرون، ولا يجدون من يهديهم إلى الصواب.

وأثني على نفسي (للمرة الأولى بعد الديشيليون) فأقرر أني تفردت برفع الظلم الذي عاناه المتنبي في تلك القرون، ولكن كيف؟

ليست البوقات جمع بوق، كما توهموا، وإنما هي جمع بوقة، والبوقة هي اللفظة الاصطلاحية في موسيقا الجيش العربي، كما تشهد نصوص رأيتها في بعض كتب التاريخ

وهنا أسوق فائدة لا أذكر أني رأيت من نبه إليها في كتب الصرف، وهي جعل التأنيث من صور التصغير، فالبوقة أصغر من البوق، والطبلة أصغر من الطبل، والبحرة أصغر

من البحر، وقد بولغ في تصغيرها فصارت بحيرة
و (طُونس) الساقية في عُرف أهل الريف له وصلة يسمونها (الفرخ) إن كانت طويلة، ويسمونها (الفرخة) إن كانت قصيرة
وفي شوارع القاهرة نجد بائعاً يتغنى:
(حَبِّ العزيز الرُّبعة بقرش)
فما الرُّبعة؟ هي مصغر الرُّبع، بلا جدال
إن الصفة الببغاوية في النقد اللغوي أضرت باللغة وآذتها أعنف الإيذاء، فقد كتب كاتب في الرسالة ينقد استعمال كلمة (مَرِير) بمعنى مُر، وحجته أن المرير هو الحبل المحكم الفتل، ثم اتفق أن رأيت الشريف الرضي يستعمل كلمة المرير ويريد بها المر، فنظرت في أساس البلاغة فوجدت الزمخشري نص عليها بوضوح لا يحتمل الخلاف
وأنكر قومٌ جمع صناعة على صنائع، وألحوا إلى أن حملوا وزارة المعارف على تغيير اسم مدرسة الصنائع، مع أن لهذا الجمع شواهد تفوق العدَّ، وعلى أقلام كبار البلغاء وأنكروا أن تنسب إلى الطبيعة فتقول طبيعي، مع أن العرب لم يقولوا طبَعي، ومع أن (فَعَلي) في (فَعِيلة) هو في ذاته شذوذ
والجرائد تقول (القتيل) وهي تريد القتيلة، لأن قائلاً قال بأن (فعيل) يستوي في التذكير والتأنيث، وهذا خطأ، إذا كان فعيل بمعنى مفعول، وهل أخطأ صاحب لسان العرب حين قال: رجل دفين وامرأة دفينة؟
ولم يفهم النحويون علة التذكير في آية (إن رحمة الله قريب من المحسنين)، فعدوه تذكيراً أوجبته المجاورة ونسوا أن (قريب) في معنى الفاعل لا معنى المفعول
والمراد من الصفة الببغاوية في النقد اللغوي هو أن يحكي بعض الناس ما يقرءون حكاية الببغاوات. فأكثر ما نرى من اعتراض هو ألفاظ منقولة عن ناس تعرضوا للنقد اللغوي بلا بصيرة ولا يقين
لغة العرب لغة آبائنا وأجدادنا، فليعرف من لم يكن يعرف أن خطأنا فيها أفصح من الصواب. وإننا لن نستمع لأي اعتراض بعد أن ركزنا الراية فوق ناصية الخلود
غناء وغناء
في مكان يستبق إليه ضياء الشمس، ونور القمر، وهدير الأمواج، وقفت أنتظر وفاءً بميعاد هو الميعاد
وأقبلت الروح الملائكية في سِمة إنسانية، كما يطيب للملائكة أن تتشكل بصور الناس في بعض الأحيان
ودار حديثٌ أعذب من رنين الكؤوس، وأرق من وسوسة الحلي، في لحظات الصفاء ثم دار عتابٌ كعتاب القلوب للعيون، فماذا قلت وماذا قالت تلك الروح، وقد أصغى البحر واستمع الوجود؟
لو تجمع ما أثار البحر من عواطف على اختلاف الأجيال، ولو اعتصرت الحياة ما يجري في أعوادها من رحيق الحب، لكان هذا وذاك دونَ ما أضفينا على الكَون من بهجة النعيم. . . ولو دُعينا لأداء الزكاة عن تلك اللحظات لكان من القليل أن نقضي العمر في شكران من قضت حكمته أن يجعل الحب سيطرة روح على روح، وانجذاب روح إلى روح
كان ضجيج المدينة أضعف من أن يحجب سرار القلوب، وكان القمر بفضل عليائه أشرف من أن ينمِّ عن خلوة حبيب بمحبوب
في شهر يونية تقوم غمامة تحجب القمر في لحظة لا تنتظر ظلال السحاب، فنفهم أن للحب والشعر آلهة، كما تقول أساطير القدماء
كانت الدنيا كلها في يدي، وكان هواي هو الهوى، وزماني هو الزمان، وكانت لغة الوجد فوق الأصوات والحروف، وهل يعرف أحدٌ ما لغةُ الأنفاس الحِرار؟ وكيف وما كانت اللغات إلا تعابير عما يجوز البَوْح به من سرائر الأرواح؟
وأين اللغة التي تعبِّر عن فرحنا بالحب في تلك اللحظة الوجدانية؟
أين أين. . . وهي لحظة ما ظفر بمثلها عاشق في قديم ولا حديث؟
هي زاد العمر كله، فليتمرَّد الهجر كيف شاء بعد ذلك الوصال.

لو مرت تلك اللحظة بالناس في ماضيهم البعيد لظفرت اللغات بألفاظ وتعابير تفوق الوصف، ولكان من السهل أن أشرح ما يوحي به دَرْع (الرمل) على نغمات الموج في صمت الليل
ثم نفترق، فمتى نلتقي، يا روحاً لا يحيا بدونه روحي؟
للوجود كله غِناء، ولنا وحدنا غناء، وروحك هو غَريد البلبل، وحفيف النسيم، وهدير الموج، وعربدة الكهرباء
ثم نفترق وقد تحيرنا بين النور الأحمر والأزرق، وهذه إشارة لا يفهمها غير أسارى هذين النورين في (دار الوجد والمجد)، عليها أطيب التسليمات!
فمن فاته أن يعرف سر هيامي بوطني فليقرأ هذه السطور بروحانية وإخلاص
الإسكندرية هي المثال المصوِّر لسرائر النعماء، ومن لم يزر الإسكندرية فليس من حقه أن يزعم أنه عاش لحظةً من زمان
ولي في الإسكندرية دارٌ تشكو جفائي، ولم أكن من الجافين، دارٌ أساورها بلا استئذان حين أريد، كأنها دار الهوى في سنتريس أو بغداد أو باريس
في الصبح قرأت مقالاً في جريدة الأهرام عن إيطاليا بعد ثلاث سنين، وفي الظهر قرأت مقالاً في جريدة الريفورم عن إيطاليا بعد ثلاث سنين، فتذكرت أني عرفت تلك الروح في اليوم الذي أعلنتْ فيه إيطاليا الحرب قبل ثلاث سنين
وما أبعد الفرق بين إيطاليا وبيني!
مرَّت بها موجاتٌ هزمتها، ومرت بي موجات نصرتني
أفي الحق أننا لم نتعارف إلا قبل ثلاث سنين؟
أنت يا جِنِّية الشاطئ رفيقة روحي منذ أزمان وأجيال، وأنت مُناي من الهوى قبل أن يتنفس صبح الوجود
لابد للإسكندرية من حبيبين، فلنكن هذين الحبيبين، ولتفرح بنا الإسكندرية فرح الأليف بالأليف
يا مثال الحُسن ومثال اللطف، ويا ريحانةً مطلولة في صباح من أصبحة آذار!
يا تلك الروح في تلك المدينة، تذكري ثم تذكري، تذكري (سبعة أبحُر) في لغة العراق و (سبعة أرادب) في لغة السودان، وتذكري الأبيات التي أمليتها عليك من لغة الفرنسيس. والى اللقاء في شِعاب الوجدان
زكي مبارك
لكي ننتفع بتجاريب غيرنا
المسرح في أوربا - 2
بين حربين
(في إنجلترا)
للأستاذ دريني خشبة
رأينا في الكلمة السابقة كيف علل إرقن عوامل الرقي والانحطاط في المسرح الأوربي بوجه الاجمال، وعرفنا وجهة نظره في جمهور النظارة؛ وسنرى كيف يربط وجهة نظره تلك بتأخر الدرامة بعد الحرب الكبرى في أوربا عامة وفي إنجلترا على وجه الخصوص، ثم ما نشأ عن انحطاط حاسة هذا الجمهور الفنية من قيام المسارح التجارية التي أجهزت على البقية الباقية من السمو المسرحي الذي ورثته أوربا عن جهابذة كتاب الدرامة وشعرائها قبل تحول هذه القارة من الزراعة إلى الصناعة، ثم ما صنعته الحرب الكبرى من التحلل في أعصاب الأوربيين وما أفسدت به أرواحهم من انتشار الخلاعات في معظم شعوبهم ولاسيما في شعوب البحر الأبيض المتوسط أو الشعوب اللاتينية على وجه التخصيص
لم تعد تروج المأساة في مسارح هذه الشعوب المحتاجة إلى ما يرفه عنها. . . لقد فقدت إنجلترا قرابة المليون من زهرة شبابها المثقف اليانع، وقل الرجال في فرنسا التي فقدت في تلك الحرب المشئومة أكثر من مليونين، وكان لقلتهم أوخم العواقب الاجتماعية والأخلاقية، فقد فشت الخلاعة، وانتشرت الرشوة، ونفقت السوق السوداء، وخربت الأمم، واختلت معايير الفضيلة، وأصبحت الخيانة الوطنية أبسط الجرائم التي تقترف دون مبالاة. أما في إيطاليا فقد خنقت الحريات باسم الإصلاح الفاسستي، ذلك الإصلاح المادي الذي ملأ روح الأمة بالخيلاء والزهو الكاذب وأفسد فيها مثُل غاريبلدي

العليا. . وفي أسبانيا حدثت القلاقل التقليدية في تاريخها المفعم بالأعاجيب، فطاح عرش ألفونسو، وشبت الحرب بين الاشتراكيتين اللتين تصطرعان الآن في روسيا وألمانيا، وانصرف الجمهور عن المسرح بعد إذ كان يشارك الجمهور الإيطالي في الذهاب إليه (بالجملة) حيث كانت العائلات تقصد بكامل هيئاتها لشهود الروايات التمثيلية حاملة معها عشاءها أو غداءها فلا تجد بأساً من تناوله أثناء التمثيل. أما في روسيا وألمانيا فقد عرفنا رأي الاشتراكية في الفنون والآداب والأخلاق والأديان في الكلمة السالفة، وعرفنا كيف خضع المسرح فيهما لخدمة الدعاوة السياسية مما حاد به عن الجادة

فمن غير المعقول أن ير في التأليف المسرحي في شعوب هذه حال الكثرة الساحقة من أفرادها، وإذا قدر لنوع من التأليف أن يروج فيها فلابد أن يكون النوع الذي ينحط إلى مغازلة هذه الأذواق المريضة والأعصاب المنهوكة والأرواح المتعبة؛ ومؤلف الدرامة مضطر إلى أن ينصاع للخطة التي تمليها عليه الظروف المسرحية والتي ترسمها وتتحكم فيها نقود ذلك الجمهور، تلك النقود التي أتلفت الدرامة الفنية وخلقت المسارح التجارية في طول أوربا وعرضها ولاسيما في فرنسا وفي إنجلترا. إننا نردد في مصر دائماً أن واجب رجل المسرح سواء أكان مؤلفاً أو مخرجاً أو ممثلاً هو أن يرتفع دائماً بالجمهور لا أن ينحط إلى مستوى الجمهور، ثم ننسى أن ذلك الارتفاع بالجمهور الذي ننادي به هو عمل شاق يتعرض دائماً لظروف تجعل المهمة تنتهي دائماً إلى الفشل الذريع، لأننا نتعامى عن عيوب جمهورنا الذي كان ينبغي إصلاحه وتهيئته لشهود الروائع المسرحية. إن جمهورنا بثقافته التي لا نجهلها غير مستعد لشهود الدرامة الهادئة التحليلية ذات القضايا التي تنتهي إلى نتائج ترضي العقل ولا تستفز القلب، وتقنع التفكير ولا تحرك العاطفة. ولقد حاولت الفرقة القومية المنحلة القيام بهذا العمل الجليل، فماذا كانت النتيجة؟. . . إنها لم تجد جمهوراً. . . لأنها نسيت طبائع هذا الجمهور فلم تعالجها العلاج المعقول ولم تزخرف له من المغريات ما تجذبه بواسطته إليها. . . ولو أننا الآن بسبيل الكلام عن المسرح المصري لخضنا في الحديث عن الفرقة القومية التي أدى إلى حلها، كما أدى إلى إلغاء معهد التمثيل، تفكير أمي مرتجل يدل على قصر النظر إن لم يدل على العمى المطلق الذي يصيب سياستنا الإنشائية دائماً. . . ولما كان لهذا الحديث حينه إن شاء الله فنحن نرجئه لوقته. . .

تحكم العامل الاقتصادي إذن في خلق المسرح التجاري في أوربا جميعها، وفي إنجلترا خاصة، ولكي نعذر مديري المسارح التجارية في الانزلاق بالدرامة وبالمسرح في هذه الهوة التي لم تكن تليق بأسمى الأعمال الفنية الثقافية. نذكر أن متوسط نفقات المسرح العادي في إنجلترا في الأسبوع الواحد هو أربعمائة جنيه، ويقفز هذا المبلغ في مسارح الوست إند الإنجليزية إلى 1200 جنيه أو 1300 جنيه في الأسبوع، إذ يقدر إيجار المسرح بما يتراوح بين 250 و 600 جنيه في الأسبوع الواحد، ومتوسط إيجار أحد المسارح اللندنية اليوم هو 400 جنيه في الأسبوع، وبإضافة أجور الممثلين والإداريين ومصممي المناظر ومهندسي الإضاءة والخدم والمستخدمين الآخرين ورجال الأركسترا وأجور الإعلان والنور والتدفئة الصناعية وثمن الدرامة وضريبة الملاهي (وإن تكن محتسبة على النظارة) يقفز المنصرف على المسرح أسبوعياً إلى ما ينيف على الألف جنيه بكثير. وإذا علمنا أن ثمن تذكرة الكرسي الممتاز هو ستون قرشاً (12 شلناً)، وأن ثمن الكرسي العادي هو تسعة قروش عرفنا أن إيراد المسرح متوقف إلى حد بعيد على ثمن الكراسي الممتازة (الألواج والبناوير والكراسي الأمامية) وهي الكراسي التي يدفع ثمنها الأغنياء من الجمهور الذي وصفنا، فإن لم يعمل مدير المسرح حساباً لذوق هؤلاء الأغنياء انصرفوا عنه بطبيعة الحال وتكون النتيجة المنطقية هي الخراب والإفلاس إذ تسقط الرواية من الوجهة الاقتصادية، والمدير محتاج - كي يغطي مصروفات الإخراج فقط - إلى أن تباع جميع كراسيه في حفلات شهرين على الأقل، لأن فترة الإخراج لا تدر عليه إيراداً، وهي عادة تكلفه ثلاثة أسابيع، أي أنها تكلفه حوالي أربعة آلاف أو خمسة آلاف من الجنيهات. ومن أظرف ما يورده إرفن بهذه المناسبة أن جميع المديرين في مسارح لندن، بل في جميع المسارح الإنجليزية هم رجال مثقفون ثقافة ممتازة، وهم لهذا يخجلون من أنفسهم كلما بالغوا في الإسفاف بالدرامة إلى حضيض التهريج والشعبذة ليضمنوا إقبال الطبقة الخاصة من هؤلاء

الأغنياء التي تشتري التذاكر ذات الأثمان المرتفعة
وليس أحب إليهم، لهذا السبب، من أن يقدموا للجمهور درامات من عصارة الفكر)
ولباب الفلسفة لو ضمنوا جمهوراً من الأغنياء الفلاسفة؛ إذ لو تأخر الزمن بشكسبير
وأقبل بعد الحرب الكبرى وفي يده روايته الخالدة هملت ليعرضها على أحد هؤلاء
المديرين لألقوه جميعاً من نوافذ مسارحهم، إن لم يلقوه في شيء آخر داخل هذه
المسارح (!!) وذلك لأن في رواية هملت ثلاثين بطلاً يقتل معظمهم، ثم منظر هذا
الشيخ المفزع كفيل بتمزيق
أعصاب المترفين من جمهور النظارة. . . فما لهم ولهذه المهلكات التمثيلية، وما جاءوا
إلا ليلهوا هذا اللهو الخفيف الظريف الذي لا يسيل دموعاً ولا ينكأ في القلوب أوجاعاً!!
ولا شك في أن شكسبير كان يرتد على عقبيه كسير الفؤاد كاسف البال فينطوي إلى
(الأبد على نفسه، وتضيع عبقريته التي تألقت في عصر إليزابث هباء منثوراً
وقد عولج هذا الخطر في إنجلترا علاجاً جميلاً، إذ أنشئ في كل مدينة إنجليزية هامة
مسرح من المسارح باسم أو المستودع - إن جازت هذه الترجمة السقيمة - أو مسرح
الروايات التي سبق تمثيلها. وتمتاز هذه المستودعات بقلة النفقات، إذ لا يتجاوز
مصروفات أحدها المائة من الجنيهات كما تمتاز بتفاهة أجور الممثلين وثبات ما تنفقه
على المناظر لأنه لا يتكرر إلا كلما رث وأصبح غير صالح للاستعمال، ثم هي معفاة
تقريباً من مصروفات الإخراج. فمن أشهر تلك المسارح مسرح برمنجهام الذي يدين
ببقائه لكرم المستر باري جاكسون؛ ثم مسرح منشستر الذي كان يدين بوجوده للمِنح
الكبيرة السخية التي تنفحه بها الآنسة تلك الإنجليزية العجيبة التي كانت تنفق من حر
مالها على مسارح كثيرة حفظاً لها من الإنحلال؛ فمن تلك المسارح التي كانت تنعم
بأعطياتها مسرح دبلن بإيرلندة أما مسرح هو الآخر يعتمد في مواصلة أعماله على
كرم اثنين من أسخياء الإنجليز. . . وقد كانت معظم هذه المسارح تستمد قوتها من
مسرح الكورت بلندن الذي كان يأذن لها جميعاً في تمثيل رواياته بل كان يمدها ببعض
ممثليه. . . على أن مسارح المستودعات كثيراً ما كانت تحيد عن تقاليدها فتخرج
روايات جديدة للمؤلفين المبتدئين. ومن هنا كانت فائدتها الجزيلة في إظهار عبقريات
إنجليزية لم تكن لتبرز إلى الوجود لولا هذه المسارح. وحسبك أن تعلم أن برمنجهام
كان الحقل الأول الذي نما فيه جون درنكووتر حيث أخرج له روايته المعروفة (أبراهام
لنكولن)، كما نما فيه أيضاً شاعر الأوبرا المشهور (رتلاند باوتن)؛ وأن مسرح دبلن كان
الحقل الأول الذي ازدهر فيه العاهل الدرامي الكبير جون. م. سينج والمستر لِتكس
روبنسَن والليدي جريجوري. والذي يهمنا من هؤلاء الثلاثة هو سينج الذي يسمو إلى
مرتبة شو في المسرح الإنجليزي الحديث؛ ولولا مسرح دبلن لما ظهر في الوجود.
وفي مسرح منشستر: الـ ظهرت عبقرية ستانلي هاوتن، شارلز ماك إفوي ومستر الآن
منكهوس. وفي ليفربول تألق نجم المستر رونالد جينس
الناقد المسرحي اللامع. . . أما في مسرح الكورت بلندن فقد وثب إلى قمة المجد
مستر شو وجولذ ورثي وجرانفيل باركر وجون هانكن. . . وكما كانت هذه المسارح
وسيلة لإظهار هذه الطائفة الضخمة من كبار المؤلفين فكذلك كانت سبباً لظهور أكابر
الممثلين الإنجليز. وقد كان مسرح ليفربول أعظم مدرسة إنجليزية لتخريج أحسن
ممثلي الطراز الأول كما بدأ نبوغ الممثلة الذائعة الصيت سيبيل ثورنديك في مسرح
منشستر وهي التي أصبحت درة مسارح الوسْت إند فيما بعد. . . وكذلك أخرجت تلك
المسارح طائفة عظيمة من كبار المخرجين وعلى رأسهم المستر باسل دين كما
أخرجت الكثيرين من مصوري المناظر وفي مقدمتهم المستر جورج هارِسْ
أما ما كان يعاب على مسارح المستودعات هذه فجملة أمور أهمها ضآلة أجور
الممثلين وضآلة المكافآت التي كانت تمنحها للمؤلفين الناشئين - وكثيراً ما كانت
المس هورنيمان وغيرها من أسخياء الإنجليز هم الذين يشترون الروايات الجديدة
ويمنحونها للمسارح على سبيل الهدايا ومن باب التشجيع، - وكانت هذه المسارح كلها
متقاطعة فيما بينها، فلا يتصل أحدها بالآخر، ولا تقوم فرقها بزيارات إقليمية، وكانت
عنايتها بالروايات الجديدة تافهة كما قدمنا. ولعل هذا كان سبباً في تخليد تلك الثروة
العتيدة الضخمة من الروائع المسرحية القديمة التي لولا مسارح المستودعات لاختفت
إلى الأبد أو لأصبحت محبوسة في بطون الكتب لمن شاء أن يقرأها لا لمن يحاول أن

يمثلها أو يشهدها على خشبة المسرح قطعة فنية حية تتحرك بأشخاصها ومناظرها وعنصرها وموضوعها. على أن أكبر عيوب تلك المسارح هو الملل الذي يتسرب إلى نفوس النظارة من كثرة ما يشهدون ممثليها، إذ يتفق للمتفرج أن يشهد الممثل ثلاثين أو أربعين مرة (هذا في إنجلترا!) في السنة الواحدة، وفي ذلك من الإملال لنفس المتفرج ما فيه، والمتفرج - بل كل نفس بشرية - محتاجة إلى التشويق بالأشخاص الجدد حاجتها إلى الهواء الجديد والمناظر الجديدة والموضوعات الجديدة. ولعل هذا الركود في وحدة أشخاص الممثلين هو الذي أوشك أن يقضي على تلك المسارح بانصراف الجمهور عنها - ولعل هذا أيضاً هو أحد العوامل التي هونت على الجمهور المصري شأن المسرح وسببت انصرافه عنه. وهم يقترحون لاستدراك هذا الخطر - في إنجلترا طبعاً - تسهيل تزاور هذه الفرق ليعرض كل منها رواياته في مسارح البلدان الأخرى، على ألا تتحمل الفرق مصروفات الانتقال أو أجور المسارح التي تزورها ما دام التزاور سيكون على قاعدة التبادل المنفعي. . . ومن عيوب مسارح المستودعات أيضاً سرعة تغيير البرنامج الذي يقتضيه الفرار من إملال الجمهور المتشوق إلى رؤية الجديد دائماً. . . وسرعة تغيير البرنامج تؤدي إلى أخطار كثيرة منها عدم عناية الممثل بدوره لكثرة إرهاقه بالعمل. وكان المسرح الألماني يتخلص من نتيجة ذلك بتمثيل الرواية الواحدة في أكثر مسارح الـ في وقت واحد ولمدة طويلة معينة ربما امتدت إلى أكثر من خمسة عشر أسبوعاً، وبذلك يضمن ربحاً معقولاً للمؤلف الذي تخصص له حصة معلومة من جميع المسارح، كما يضمن الراحة لجميع أفراد الممثلين الذين يتمكنون بذلك من أداء أدوارهم على خير وجه مضمون. على أن الألمانيين، قبل الحرب الكبرى، كانوا يعرفون للمسرح قدره، وقد ضاقوا ببطء الأساليب المسرحية الإنجليزية فأنشأوا مسارحهم الخاصة على منوال جديد وذلك بتشييد المسارح الشعبية الحرة ' التي كانت بلديات المدن الكبرى تمدها بإعانات على جانب كبير من السخاء كما كانت هي تتألف عن طريق الاشتراك من آلاف الأعضاء الذين كانوا يمنحون امتيازات عظيمة لشهود الروايات، وكان أجر الدخول لا يتجاوز الخمسة قروش قط، كما كانوا، مقابل جنيه واحد في السنة، يحصلون، يحصلون على مجلة مسرحية ثقافية ويملكون الحق في شهود عدة محاضرات ثقافية تلقى عليهم بانتظام، هذا إلى حضور أربعين حفلة تمثيلية بالمجان موزعة على الفصل التمثيلي السنوي. والعجيب في ألمانيا أن برلين نفسها كانت متخلفة في الحركة التمثيلية وراء جميع المدن الألمانية الكبرى فلم تكن تفرض هذا الذوق الـ أو العاصمي الذي تفرضه العواصم الأخرى على المدن الأقل شأناً في المملكة؛ فكان لمدينة كولونيا مسرحها الشعبي العتيد الذي كانت بلديتها تمنحه سنوياً مبلغ خمسة وعشرين ألفاً من الجنيهات؛ وكذلك كان لمدينة ثورن، وهي من أصغر المدن الألمانية، مسرحها الشعبي الذي كانت تمنحه بلديتها مبلغ ألف جنيه سنوياً. وقد مثل مسرح كولونيا رواية المعركة لجولذورتي الإنجليزي فربح منها أضعاف ما ربح في إنجلترا.

دريني خشبة

على هامش النقد

الأدب (المهموس) والأدب الصادق

للأستاذ سيد قطب

أرجو أن تكون هذه الكلمة هي الكلمة الأخيرة عن (الأدب المهموس). وبرنامجها يتناول ثلاثة أغراض:

فأما الغرض الأول: فهو أن الأدب المصري لم يخل من صور ذلك اللون المحبب إلى الأستاذ (مندور)، وهي صور منوعة وأكثر سلامة من النماذج التي استهوته هناك. ولكن عجلته فيما يصدر من الأحكام، وعدم انفساح الوقت أمامه ليدرس قبل أن يحكم، وتشيعه الواضح المفهوم لشعراء المهجر. . . هذه الأسباب جميعها جعلته ينادي بأن الشعر المصري متخلف قروناً عن الشعر المهجر، وأنه شعر خطابي لا يستهويه

وأما الغرض الثاني: فهو أن هذا اللون من الأدب، ليس هو اللون الوحيد الذي يستحق الإعجاب، وقد لا يكون أفضل الألوان؛ فالتشيع له إلى أقصى الحدود، وإنكار ما عداه من ألوان الأدب الأخرى، مسألة (مزاج) خاص، له دوافعه الخاصة، وليس حكماً أدبياً يرتكن إليه النقد الفني

وأما الغرض الثالث: فهو الحديث عن (النماذج البشرية) الحبيبة إلى الأستاذ مندور وعلاقتها في (مزاجه) بحكاية (الأدب المهموس) من بعض النواحي. وهو ما أرجو أن ينفسح له المجال في هذا المقال

ليس من الضروري أن يستتبع الهمسُ الأسى، وليس من الضروري أن يكون الأسى متهالكاً ليكون حبيباً إلى النفوس. ولكننا - مع هذا - نعرض للأستاذ مندور صورة من صور الشعر الهامس فيها الأسى وإن لم يكن فيها التهالك، لشاعر مصري كبير تحت عنوان (السلو)

أذن الشفاء. فما له لم يحمد؟ ... ودنا الرجاء وما الرجاء بمسعدي
أعدوت أم شارفت غاية مقصدي؟
برد الغليل اليوم وانطفأ الجوى ... وسلا الفؤاد فلا لقاء ولا نوى
وتبدد الشملان أي تبدد
قذفت بنا الأيام في غمراتها ... ورمت بنا في التيه من فلواتها
فردين لم يتلاقيا في موعد
لا أنت أكرم من أحب ولا أنا ... سلواك دون الناس في هذي الدنى
تفدين حبي بالحياة وأفتدي
ما كنت أحسب أن أبيت عشية ... أبَدَ الزمان ولا أراك نجية
تحت الظلام ولا أضيق بمرقدي
يأتي الأصيل ولا نراقب وعده ... وبلى الظلام ولا نحاذر سهده
وإذا انقضى يوم فليس: إلى غد
وإذا رأيتك في الطريق فعابر ... يجتاز عابرة، وطرف ناظر
يرنو لناظرة تروح وتغتدي!
عجباً لغابرنا وحاضر أمرنا! ... أكذا تمر بنا معالم عمرنا
وتزول حتى لا دليل لمهتد؟
هذي الشفاه فهل على بسماتها ... أثر يشف اليوم عن قبلاتها
في ذلك الماضي الذي لم يبعد؟
هذي العيون فأين من نظراتها ... لمسات رحمتها ووحي هنائها
لم يبق من خبر ولا من مشهد!
ذكرى تردد في الحياة سقيمة ... وتعيش في كنف الهوان يتيمة
وتمر ذاهبة كأن لم توجد

ترى يستطيع الأستاذ مندور أن يحس بهذه القطعة وما يغشي جوها كله من أسى شفيف وهمس عميق؟ ثم تراه حين نقلب الصفحة الأخرى على صورة هامسة ذات لون آخر، يستطيع كذلك أن يحس بالصفحتين المتقابلتين؟

إذن فليسمع هذه المقطوعة الأخرى لنفس الشاعر الكبير! تحت عنوان (الكون جميل)

صفحة الجو على الزر ... قاء كالخد الصقيل
لمعة الشمس كعين ... لمعت نحو خليل
رجفة الزهر كجسم ... هزه الشوق الدخيل
حيث يممت مروج ... وعلى البعد نخيل
قل ولا تحفل بشيء ... إنما الكون جميل

ونلمح هنا (ألفة) عميقة بين الشاعر وبين الطبيعة، هي ألفة الحبيب العاشق المتفتح الحس والنفس، المنهوم القلب والجوارح؛ ونكاد نلمحه متسع الحدق مفغور الفم، متوفز الاحساس، وهو ينشق بل يلتهم ما في الطبيعة الحبيبة من روح وجمال

قل ولا تحفل بشيء ... إنما الكون جميل

قلها وأنت تستنشق ملء رئتيك ما فيه من روح وحلاوة، ثم تستريح بنفس طويل!. قلها فإنها لحظة تجلٍ لروح ذلك الكون الجميل

وقصة ثالثة ذات لون ثالث، لا هو يا لأسى الشفيف، ولا هو بالحس المنهوم؛ ولكنها اللهفة الآسفة، والحيرة الخاطفة في (الحلم الضائع) لشاعر من شعراء الشباب المصريين:

أين حلمي وغرامي ونشيدي؟ ... أين آماليَ في الأفق المديد؟
أين دنياي التي جسَّمتها ... في خيالي، فتوارت من بعيد!

ومضة كالبرق مرت في حياتي ... أيقظت قلبي وحثَّت أمنياتي
وكما يخبو شعاع بارق ... لم أجد حوليَ إلا الظلمات
أين عش كان في نفسي دفيئاً ... أين أفق كان في قلبي وضيئا
وحياة عشتها في خاطري ... قبل أن تولد، نشوان هنيئا؟
أهو حلم أم ترى كان عيانا ... عشنا النائم في دفء هوانا
وسياحات لنا في عالم ... نحن أبدعناه في الحلم فكانا؟
أين يا أحلام واديك الجميل؟ ... أين ظل عند واديك ظليل؟
أين؟ فالجدب يغشى عالمي ... وخريف العمر والصمت الثقيل
أين أين؟ كل ما قد كان فات ... لم تعد في النفس إلا الذكريات
وحنين في الحنايا موغل ... وظلام غارق في الظلمات

ولدي من هذه الصور عشرات، ولكن الفراغ محدود، فبحسبي هذه الصور الثلاث من الشعر المصري المتخلف قروناً، لأنه ليس من عمل شعراء المهجر لسوء الحظ! وبعد. فليس هذا اللون من الشعر - على تعدد صوره - باللون الوحيد الذي يعجب الناقد الفني ذا الآفاق الوسيمة، والنفس الرحيبة. وقد لا يكون أفضل الألوان حين يكون المقياس هو صدق التعبير عن الحياة، لا إرضاء الأمزجة الخاصة المتأثرة بماض خاص ومن الذي يقول: إن الهمس والوسوسة في الطبيعة أصدق من الجأر والجهر؟ إن بغام الظباء ليس أصل في الحياة من زئير الآساد؛ وإن خرير الجدول ليس أعمق في النفس من هدير الشلالات؛ وإن وسوسة النسيم ليست أوقع في الحس من زمجرة العاصفة والموسيقى؛ ما شأنها في هذا المجال، (وهو خاطر جال في نفس الموسيقي المصري المبدع الأستاذ الشجاعي بهذه المناسبة) انقضى مثلاً على موسيقى (واجنر) وكثير من سيمفونيات بتهوفن وسواه في سبيل الهمس الذي تلجأ إليه الطبيعة مرة، كلما لجأت إلى مختلف النغمات والطبقات مرات! كل مقاييس الفنون تنكر أن يكون الهمس أجمل أو أصدق أو أعمق. وإن هو إلا (حالة) من حالات، بل حالة لا تلجأ إليها الطبيعة والحياة إلا في فترات الراحة من عناء الضجيج! وليست الحياة كلها راحة إلا أن تكون حياة مزاج خاص يرى الدنيا من زاوية واحدة صغيرة! ألا وإن الدنيا لحفية بالهامسين والجاهرين وإنهم لأبناؤها المخلصون في جميع نغماتهم وطبقاتهم ما داموا صادقين. وإن هذه النغمات والطبقات لكثيرة منوعة تنوعَ النفوس، بل تنوعَ الحالات النفسية في الإنسان الواحد. وإننا لنعجب بالمتنبي مثلاً حين يجهر بأعلى صوته:

أفكر في معاقرة المنايا ... وقوْد الخيل مشرفة الهوادي
زعيم للقنا الخطى عزمي ... بسفك دم الحواضر والبوادي
إلى كم ذا التخلف والتواني ... وكم هذا التمادي في التمادي
وشغل النفس عن طلب المعالي ... يبيعْ الشعر في سوق الكساد

كما نعجب به حين يهمس في حنين:

خلقت ألوفاً لو رجعت إلى الصبا ... لفارقت شيبي موجع القلب باكياً

أو حين يهمس في ألم مرير:

وحيد من الخلان في كل بلدة ... إذا أعوز المطلوب قل المساعد

فهو هو المتنبي في جهره وهمسه، ذو الطابع الواضح، والصدق الأصيل وبهذه الرحابة يجب أن ننظر إلى أنماط الفنون، وأنماط النفوس في هذه الحياة التي تتسع للجميع، وتحفل بالجميع، ولا تتطلب منهم إلا التعبير الجميل عن الشعور الصادق، وليكن في هذه الحدود الرحيبة ما يكون

فأما النماذج البشرية، التي يهفو إليها الأستاذ (مندور) وبعض زملائه في هذه الأيام، فيمهلني القراء أسبوعاً آخر لإدارة الحديث عليها، بعد أن استغرق المقال كل المجال! (حلوان)

سيد قطب

الشعر الخطابي
للدكتور محمد مندور
يريد الأستاذ السيد قطب أن يجعل مما سميته الهمس في الشعر نوعاً من الأدب يتميز بالإحساس الذي يغذيه فهو شعر الحنين أو (الحنية) كما يقول، وهو يحذر القراء من آرائي لخضوعها لطبع خاص أقرب إلى المرض منه إلى الصحة، ولكنني بحمد الله لست مريضاً، ولا أذكر أنني مرضت يوماً ما، وأنا على العكس سليم الجسم صلب البناء متمتع بكل قواي الجسمية والعقلية، وشخصي بعد ليس موضع الحديث، والهمس في الشعر ليس (الحنية)، ولا هو خاص بنوع من الإحساس، وإنما هو مذهب في الفن، مذهب عام لا يتقيد بمادة
أما تحذير القراء من آرائي فهذا ما أدعو إليه أنا أيضاً لأنني أمقت مبدأ (السلطة) ' وأعرف ما أصاب الإنسانية من أضراره المميتة خلال القرون الوسطى يوم كان الناس يؤمنون بآراء أرسطو لأنها صادرة عن المعلم الأول، لا لما تقوم عليه من بينات. ونحن في الشرق أحوج ما نكون إلى تحطيم هذا المبدأ الذي يشل عقول الناس فتستسلم لآراء هذا أو ذاك، والأمر في المسائل الفنية أشد خطورة، وذلك لأن الأذواق الفنية لم تتكون بعد لسبب واضح هو جهلنا بالآداب الأجنبية أو معرفتنا بها معرفة أضر من الجهل بها، وليس من سبيل إطلاقا إلى الادعاء بأن أدبنا العربي يكفي لتكوين ذوق أدبي صحيح
وإذن فأنا لا أريد أن أملي ذوقي على أحد؛ وذلك لأن الذوق وإن يكن من أعمق ملكاتنا البشرية في إدراك مواضع الجمال والقبح، إلا أنه لا يمكن أن يصبح وسيلة مشروعة للمعرفة التي لدى الغير، إلا إذا علل بأسباب عقلية وفنية ونفسية تستطيع أن توحي بمثل ما نحس به، وإلا أصبح ما نقول ادعاء كاذباً إن لم يكن نصباً.
ولقد حاولت تمييز (الشعر المهموس) بمعارضته (بالشعر الخطابي)، ولكنني فيما يظهر لا أزال محتاجاً إلى مزيد من الإيضاح. وهاأنا اليوم أتناول قصيدة للأستاذ محمود حسن إسماعيل، وجدتها مصادفة في عدد 7 يونية سنة 1943 من (الرسالة) بعنوان (حصاد القمر)
الأستاذ محمود حسن إسماعيل يذكرني دائماً بالمتنبي، ففي شعره رنين قوي تجده في بسطة
أوزانه وضخامة ألفاظه بل في بعض صوره الشعرية المجتلبة على نفس النحو الذي كان المتنبي يصطنعه متتلمذاً لأبي تمام. ولكني أبادر فأقرر أن شعر المتنبي غير شعر محمود إسماعيل في معدنه النفسي وفي رؤيته الشعرية
شعر المتنبي كشعر محمود إسماعيل من النوع الخطابي ولكن شاعر الحمدانيين كان شاعراً كبيراً. وأما صاحب (هكذا أغني) فشاعر يعيبه أمران خطيران:
1 - أولهما أن المتنبي نفس قوية عاتية متماسكة. عاطفة المتنبي مغلقة مركزة عميقة ولهذا قلما تلوح كاذبة. عاطفة المتنبي نار داخلية لا تراها وإن ألهبت اللفظ أو أوقدت الصورة. وأما إحساس محمود حسن إسماعيل فمفضوح؛ ويأبى شاعرنا إلا أن يزيده افتضاحاً بقصاصات النثر التي يعلقها فوق قصائده. وفي هذا ابتذال، للنفس عنه نفرة. عاطفة محمود إسماعيل (مطرطشة) حتى لتلوح (سراباً عاطفياً) كما يقول نقاد الإنجليز
2 - ثانيهما اضطراب الرؤية محمود إسماعيل، بل إنني لأخشى ألا يكون له حقل شعري على الإطلاق، وهذا أمر يتضح لمن يراجع صوره في أية قصيدة من قصائده، فإنه لابد واجد بينها من التنافر ما يقطع بأنه لا يرى الأشياء رؤية شعرية صحيحة. تراه يجمع بين صور لا يمكن أن تكون وحدة للموصوف، ولو أنه حرص على الرؤية الشعرية الصادقة لرأيت التجانس الذي يعوزه. وأنا بعد أرجح أنه يلتمس الصور من ذاكرته لا مما يراه ببصره أو يدركه بحسه
ونحن عندما لا نجد لدى الشاعر العاطفة المتماسكة والرؤية الشعرية لا نستطيع أن نحكم بتفوق فنه؛ وذلك لأن الرنين الخطابي مهما بلغت قوته لا يمكن أن يسمو بالشعر. فلغيري إذن أن يعجب بقوة أسر محمود إسماعيل واستحصاد لفظه وغرابة صوره. وأما أنا فما دمت لا أستطيع أن أدرك ببصري حقيقة ما يصف ولا أن أسكن إلى نوع إحساسه، فإنني لا أتردد في رفض شعره وتفضيل (نعيمه) أو (عريضة) عليه وذلك

لصدق شعراء المهجر في فنهم
وأنا بعد مؤمن بأن محمود إسماعيل يستطيع أن يصبح شاعراً كبيراً جداً وذلك لأنه يملك هبتين لا شك فيهما
أولاهما روح الشعر. روح غفل ولكنها قوة من قوى الطبيعة. قوة تحتاج إلى - 1 التثقيف
الصحيح. ولو جاز لي أن آمل من هذا الشاعر الإصغاء إلى موضعي النقص الكبير اللذين أشرت إليهما فيما سبق لرجوت أن نجد فيه شاعراً يعتز به عصرنا
وثانيهما قدرته على الانفعال، وفي هذا ما يلهب الحس فيدرك المرء بقلبه ما لن - 2 تدركه العقول. وما يحتاج إليه محمود إسماعيل لاستغلال قدرته إنما هو نوع من النظام يركز به إحساسه ويرد ما فيه من فضول
ثم إنني أريد أن يطمئن الأستاذ قطب إلى أن أحكامي على أدباء المهجر ليست سريعة ولا هي عن جهل، فقد قرأت الكثير مما كتب وإن لم أتحدث عنه؛ وأمر اشتغالي بالدكتوراه حدث عارض لم يستوعب قط كل وقتي، وأنا لازلت عند رأيي في أدب الحكيم ومحمود طه وغيرهما مع تحفظ واحد هو أنني اقتصرت في مقالاتي على كتب بعينها ليكون النقد موضعياً ومن ثم منتجاً. ولقد قرأت لكل كاتب معظم كتبه الأخرى فوجدت الخصائص التي ذكرتها واضحة وإن تكن ثمة اتجاهات أخرى تحتاج إلى علاج خاص كتصوير الحكيم لبعض الشخصيات تصويراً ناجحاً في (عودة الروح) وكاستخدامه للهيومر في (أهل الفن)، ولكن أدبه كما قلت في جملته أدب فكرة، أدب رمزي وكذلك الأمر في حديثي اليوم عن محمود إسماعيل هذا الحديث الذي لا أبغي من ورائه لجاجة وإنما أبغي الخير، خير الشاعر وخير أدبنا الجديد. فأحكامي عنه تستند إلى قراءة شبه شاملة لما كتب، وإن كنت سأكتفي اليوم بنقد قصيدة واحدة من قصائده حرصاً على الدقة
القصيدة كما يقول الشاعر في بطاقته وحي سياحة قمرية في ليلة من ليالي الحصاد. . .) وهاهو شاعرنا يبدأ بوصف الحقل: (سيان في جفنه الإغفاء والسهر) وإذن فنحن في حالة هيام شعري تستوي فيه اليقظة والنوم. نحن إن أردت في حلم يقظة (نعسان يحلم والأضواء ساهدة) وهذا لا ريب جو الإلهام الشعري، ولكنه جو قد قيد الشاعر؛ ونحن لا يعنينا منه صدقه أو تصنعه، فالشاعر يدعونا إلى هذا الجو وقد أعاننا على أن نحيط أنفسنا به لنخلق فيها جواً مشابهاً وننظر مع الشاعر فماذا نرى: نرى أن السنابل قد نامت واستيقظ القمر فإذا بنا أمام مقابلة مصنوعة، لأننا لا نرى نوم السنابل بوضوح ولا يقظة القمر. القمر الذي ينشر الأحلام. وهذا يسلمنا إلى ملاحظة عامة خطيرة على شعر محمود
إسماعيل وهي مصدر ما فيه من تنافر وأعني بها (تشخيصه) للأشياء؛ والتشخيص لا ريب من وسائل الفن القوية، ولكنه لا يمكن أن يكون مجرد عبث أو مهارة، بل من الواجب أن تمليه الأشياء إملاء يقربه الفن وقد مسه بجناحه فإذا به كالحقائق. والفن إلى حد بعيد إيهام، إيهام بالخلق، خلق واقع شعري، فهل نجح الشاعر في ذلك؟ إنني أنظر فأرى (قلب النسيم ولهان ينفطر للأضواء) وأرى (السنا قد مال جانباً) وأرى (نخلة قد أطرقت بتلعة) وأرى ظل النخلة كأنه (مضطهد)، ثم أرى (الدوح نشواناً) ومع ذلك يدعونا الشاعر إلى أن نخشع إن مررنا بالدوح النشوان. ما هذا التنافر؟ (لماذا ينفطر قلب النسيم ولهاً بالأضواء)، أهذا تجسيم لإحساس الشاعر؟ أهو تصوير لرقة النسيم تصويراً مجتلباً؟ و (لماذا يجثو السنا) وهو يحنو على الشاعر وينساب إليه من السماء؟ ثم إن الجو كله جو أحلام هادئة فيها لا ريب حزن خفيف ومع ذلك فجأة نرى الدوح نشواناً. وكل هذا تخبط في الرواية الشعرية أو انعدام لها. ومن عجب أن تجد وسط هذا التنافر الكاذب البيت الرائع بتصويره:
إن هب نسم بها خيلت ذوائبها ... أناملاً مرعشات هزها الكبر
وأن يجاور هذا التصوير الجميل تشبيهه لظل النخلة (بمضطهد) وأغصان الدوح بأشباح قافلة غاب عنها الرفيقان (الركب والسفر) وقد نزل على الدوح ضيفان (الليل والقدر) ليتم الازدواج الكاذب: الليل والقدر والركب والسفر. أما الليل فنستطيع أن نفهمه، ولكن ما شأن القدر هنا، وما الرأي في (غياب السفر) كناية عن ثبات الدوح وعدم تحركه. قد يكون في غياب الركب ما يشعر بالوحشة ولكنني في الحق لا أدرك العبارة

عن السكون بغياب السفر. والأغصان (مبهورة ذاهلة) ولكنها مع ذلك قد تكون (منتعشة بشجو الرياح) وما أريد أن أدركه هو وضع تلك الأغصان. كيف كانت أو كيف رآها الشاعر. (ذاهلة أم منتعشة) أنني لا أطيق ما يلقيه الشاعر في نفسي من عجز عن إدراك ما رأى

ثم إن القمر (هيمان يحمل وجد الليل أضلعه) وقديماً قاتل النقاد أبا تمام لقوله (ماء الملام) وثار به الآمدي إذ وصف حمرة الخدين بـ (ملوطة الخدين بالورد) فماذا يقول المسكين الآمدي لو سمع محمود إسماعيل يتحدث عن (أضلع القمر)

وأنا لا أريد أن أطيل فقد أبنت بالأمثلة السابقة عما أريد من (الرواية الشعرية)؛ وأما العاطفة فليست واضحة في هذه القصيدة الوصفية وضوحها في قصائده (طرطشة) العاطفية وهي كثيرة بديوانه (هكذا أغني) ومع ذلك نجد في هذه القصيدة أيضاً كثيراً من (التأوه) و (الآهات) و (الكبد) و (كبدي) و (يا كبدا) وما إليها

أنظر مثلاً إلى قوله يخاطب القمر:

وقوله لنفس المخاطب: (إن العذاب الذي أضناك في كبدي) ثم .(قلب كقلبك مجروح)

حدثني عما تستطيع أن ترى من جروح في قلب القمر الهادئ البارد الحالم الحزين حزناً رفيقاً لا يعرف الدماء. ثم ما هذا الضنا الآخذ بكبد الشاعر وكيف يوحي به القمر؟ أليس هذا إسرافاً معيباً ووضعاً للإحساس في غير موضعه؟

أو ما تحس بنفرة نفسية من (يا كبدا) هذه. وكيف .(الله أكبر! يا ابن النيل. . . يا كبدا) تخاطب القمر (بيا كبدا)

وبعد فأنا لا أدري كيف يجوز لنا أن نضع هذا الفن الذي نرده اليوم في مستوى فن شعراء المهجر المرهف القوي المباشر. كيف نقارن هذا الضجيج بهمسهم الفني؟ وأما عن النثر فما أظن القراء في حاجة إلى أن أدلهم على أن (رثاء أحد الشبان لأمه) الذي أورده الأستاذ قطب لا يمكن بحال من الأحوال أن يقارن (بأمي) لأمين مشرق. فرثاء الشاب المذكور لا إيقاع فيه ولا نبل في الإحساس ولا توفيق في الاختيار للتفاصيل. وكيف تريد من شاب يؤلمه من موت أمه أنهم لم يعودوا يعرفون (بأسرة) أن يصل في فن الكتابة إلى مشرق الذي يذكر (فستانها العتيق) و (يديها اللطيفتين) (ووقع قدميها حول سريره) و (غابة السنديان) وما إلى ذلك من فتات الحياة التي يعرف كبار الشعراء - كما قلت - كيف يلتقطونها بأنامل ورعة فيصلون من التأثير في نفوسنا إلى ما لا تصل إليه (الأبواق والطبول).

محمد مندور

تشارلز دكنز

مواهبه وخصائص فنه

للأستاذ محمود عزت عرفة

حلم. . . يتحقق

كان جمال الطبيعة وفتنة المناظر في الطريق بين بلدتي شاتهام وجريفسِند مما يملك لب الصغير (تشارلي) ويستثير عنده أدق الأحاسيس بالجمال. وكان أحب شيء عنده أن يقف ويستوقف أباه لدن هذا الصرح الممرد القائم على قمة الربوة. . . صرح جادْزْهيل؛ حيث كان يربض فيما مضى قاطع الطريق فالسْتاف مع رجال عصابته ليسلب المسافرين والمنقطعين؛ وحيث تنبسط اليوم على مدى البصر السهولُ الآمنة الخضر والمروج الأواهل الفيح

قال الوالد الفقير المثقل بأعباء الحياة لطفله ذات يوم، وهو يحاول أن يبعث في قلبه الصغير بصيصاً من الأمل:

أترى هذا القصر الأنيق يا تشارلي؟ إنك لتستطيع أن تكون مالكه يوماً ما، إذا أنت أخذت نفسك منذ اليوم بالجد والدأب، وسلكت في حياتك مسلكا ناجحاً شريفاً حتى تنال ما ينبغي لك من الجاه والثراء جميعاً. . .

وما من شك في أن الأب كان يرتاب في إمكان تحقيق هذا الأمل الذي داعب به مشاعر غلامه؛ ولكن مشيئة القدر، وانطواء الزمن تلو الزمن كانا كفيلين بتحقيق هذه الأمنية النفيسة، في جملتها وفي تفصيلها. فقد جد تشارلز ودأب، وسلك في حياته سبيلاً ناجحاً شريفاً، ونال الجاه والثراء جميعاً. . . ثم امتلك قصر جادزهيل بمروجه ومزارعه، وقضى في رحابه أجمل أيام حياته. ولكن لم يتم له ذلك إلا في أعقاب

. . .أربعين سنة كاملة تجرع فيها كؤوس الآلام مترعة دهاقا
لم يكن تشارلز من مواليد شاتهام وإنما انتقل إليها مع والده وهو في الرابعة من عمره؛ وكان مولده في لاندبورت بجزيرة بورت سي يوم الجمعة السابع من فبراير عام 1812 م.
وكان والده - وهو كاتب ببعض خزائن الأسطول - رجلاً ممتلئ النفس بالعطف البالغ على أسرته، وتلمس أسباب السعادة والنعيم لها، إلى الحد الذي لا يفي به دخله، أو تتسع له ذات يده، فأقبل يستدين ويستدين حتى اضطرب ميزان حياته، وحتى جنى بهذا التصرف على أسرته أكثر مما أفادها! ولم تُتح بذلك أدنى فرصة لتشلرلز يتلقى فيها من العلم ما يشبع بعض نهمه أو يُروى القليل من غلته
وبلغ العاشرة من عمره دون أن ينتظم في سلك مدرسة أو يتلقى دروساً بالمعنى المفهوم؛ ولكنه كان قد لقن من الحياة دروساً نافعات، واستنبط من الإهمال والجهالة اللذين اكتنفاه علماً ولقانة قل أن أتيحا لغيره؛ وكان أثر هذه السنوات الست التي قضاها في شاتهام بالغ الوضوح في تفكيره وإنتاجه الأدبي فيما بعد. ففيها ثقب فكره وتفتحت مداركه، وفيها اكتسب دقةً في النظر وقوة في الملاحظة شعَّ سناهما على سائر تآليفه، وفيها عرف من بأساء الحياة وذاق من مرارة العيش ما أجداه ذوقه ومعرفته كثيراً، وتقلب في أحضان الفاقة والضر إلى الحد الذي مكَّن له من أن يصف ذلك في رواياته أبلغ الوصف وأصدقه؛ حتى لأصبح البؤس مادة لفنه والبائسون أبطالاً لقصصه، يفصح في التعبير عن أشجانهم، ويجلِّي في الإبانة عما دق أو عظم من أحداث حياتهم.
من شاتهام إلى لندن
انتقل تشارلز وهو في العاشرة من عمره مع أسرته إلى لندن. وكان الجو من حوله يزداد قتاما، ومشاكل الأسرة المالية تهدد بقية نعمتها بالزوال؛ فألحقه قريب له بمخزن لبعض معامل الصباغة لقاء أجر أسبوعي يقل عن ثلاثين قرشاً!
وبدأ تشارلز يتذوق نوعاً من الشقاء لم يألفه من قبل؛ ولقد كتب مرة يقول وهو يسترجع ذكريات هذه الفترة من حياته: إني لأعجب كيف كنت مطرحاً منبوذاً بمثل هذه السهولة وفي مثل تلك السن. أعجب كيف أن إنساناً واحداً لم تحركه دواعي الشفقة والرحمة فيرى تدارك ما فات من أمري بإرسالي إلى أية مدرسة عامة!
وقبض على والد تشارلز بعد قليل وألقي به مع زوجه في معتقل المدينين؛ . . . فتقوضت بهذا الحادث دعائم الأسرة الصغيرة، وقطن تشارلز بالكراء في بيت عجوز لم تكن لتعنى به في كثير ولا قليل
ولقد رسم لنا تشارلز فيما بعد صورة صادقة لهذه المرأة في روايته الموسومة بعنوان:
دومبي وولده!
كان في هذه الفترة من حياته يعتمد على نفسه اعتماداً تاماً، ولا يكاد يحظى بكلمة عطف من مخلوق، إذا استثنينا هذه الفترات المتباعدة التي كان يُسمح له فيها بلقاء أبويه
وإن من المؤلم حقاً أن نتصور طفلاً في الحادية عشرة من عمره يعاني وحده أعباء مثل هذه الحياة الشاقة المريرة؛ ولكن يبدو أن أباه في معتقله كان يحاول تسوية مشاكله المالية، ولم يكن النظام في معتقلات المدينين يحول بينهم وبين محاولة ذلك. . . ويبدو أيضاً أن تشارلز كان يتلقى من عطف أبويه ومن معونتهما ما يخفف عنه أعباء المسكن ويعفيه من مؤونة الكسوة. وكان يزورهما في نهاية كل أسبوع فيقضي بينهما سحابة يوم الأحد سجيناً مختاراً. . .
ويصف تشارلز بعد سنين ما ألم به في هذا الطور من حياته فيقول: لذا أعتمد على نفسي في تهيئة طعام إفطاري الذي لا يعدو خبزة بلدية بأربعة مليمات وبمثل هذه القيمة لبناً. وكنت أحتفظ بخبزة أخرى مع ثلاث أواق من الجبن فوق رف لي من خزانة خاصة، ليكون ذلك عشائي عندما أعود ليلاً. وكان هذا القدر الضروري من الإنفاق يستغرق جانباً كبيراً من شلناتي الستة التي ينبغي أن أعتمد عليها طوال الأسبوع. وأحسب أن أجر المسكن كان يدفعه أبي، لأني لم أكن أسأل عنه ألبتة. ولم أكن أتلقى أي مساعدة أخرى كيفما كانت - عدا ملابسي على ما أذكر - من صبيحة الاثنين إلى

مساء السبت من كل أسبوع. وما أذكر أني حظيت من أي مخلوق بأيسر شيء من الترفيه أو الإرشاد أو المعونة، أما أيام الآحاد فكنت أقضيها إلى جانب أبويَّ في السجن ولقد طالما تسكعت في الطرقات والجوع يقض أحشائي؛ وأعرف أنه لولا رحمة من الله تداركتني لكان من أيسر الأمور أن أتحول على يد من يريد، لصاً متمرداً أو عياراً متشرداً. . .

انتقل تشارلز بعد حين إلى مسكن قريب من سجن مارشالسي حيث كان هو أول الدالفين من الباب صبيحة كل يوم، لينعم بلقاء أبويه ويتناول معهما إفطاره، وكان في هذا أكبر العزاء لنفسه المحرومة المستوحشة

حياة جديدة

على أن هذه الحياة المؤلمة انتهت عند حد، وكأن طبيعة دكنز كانت قد صهرت في بوتقة الآلام إلى القدر الكافي، وتهيأت لأن تتجلى في عنصرها المشرق الوضاء، فهاهو ذا والده يغادر السجن وقد سوى مشاكله المالية. وهاهو ذا تشارلز يجد نفسه في الثانية عشرة من عمره تلميذاً بإحدى المدارس بعد أن كان عاملاً في مخزن صباغة! واستمر به الحال على ذلك سنتين

وإنه ليصور لنا، فيما بعد، هذه الفترة من حياته تحت عنوان (مدرستنا) ويصف لنا شخصياتها وحوادثها وقد استقر عليها غبار ربع قرن كامل من الزمان

والآن وقد بلغنا تلك المرحلة من حياة دكنز لا نجدنا بحاجة إلى الإطناب في تتبع . . . بقية المراحل لسبب واضح: ذلك أن خصائص دكنز الأدبية وعناصر تفكيره، وكل مقومات حياته الفنية إنما تكونت في هذه الفترة التي ألممنا بها من سيرته؛ أما ما تلا ذلك من أحداث فهو أشبه شيء بالحاشية تحت المتن، أو الإطار حول الصورة. ولكن الإشارة إليه مع ذلك أمر محتوم لإتمام هذه الهالة المشرقة التي نريد أن نرسمها لدكنز غير مباهين كي تتسنى لنا رؤيته على وضعه الحقيقي وهو في عنفوان مجده وقمة شهرته. . . فها هو ذا يغادر مدرسته بعد عامين ليعمل في مكتب أحد المحامين عاماً وبعض العام. ثم تتجه به نزعته الأدبية إلى الصحافة فيعمل مندوباً برلمانياً لبعض الصحف، وتتفتح أمامه في هذه الفترة من حياته آفاق جديدة. فهو يدرس فن ليستعين به على أداء مهمته الصحفية ويتعرف إلى بعض الشخصيات البارزة بحكم عمله وطبيعة مهنته، ولكن أهم ما يستحق التسجيل في نظرنا هو انصرافه في ذلك العهد إلى التزود بأنواع العلوم والمعارف المختلفة، وتردده الطويل على قاعة المطالعة بالمتحف البريطاني. ويبدو أن هنا كانت مدرسته الحقيقية التي اضطلع فيها بمهمة المعلم والتلميذ معاً. . .

وفي عام 1831 - وكان في التاسعة عشرة من عمره - أصبح مندوباً لصحيفة , وبعد سنيَّات قليلة كان المحرر الدبلوماسي للمورننج كرونكل. . . منصبٌ وثب به إلى الأمام وثبات بعيدة!

وكان أول إنتاج دكنز الأدبي مجموعة مقالات نشرها في (المجلة الشهرية) بتوقيع ثم ضمنها كتاباً في مجلدين أصدره في ربيع عام 1836م

وقد أعجب الناس من هذه المقالات بروح التهكم اللاذع الذي يسيطر عليها، وبالفكاهات الرقيقة الحلوة يرسلها دكنز خلال عباراته من غير تصنع ولا كلفة، ثم بقوة ملاحظته التي تجلو له الحقائق فيبسطها أمام القارئ بسطاً رفيقاً دقيقاً

وكانت هذه خصائص دكنز وسماته الفنية في سائر ما كتب، يضاف إليها خبرته الدقيقة الواسعة بحياة الطبقتين الوسطى والفقيرة من أبناء وطنه، وتسجيله البارع لآلامهم وآمالهم، وكفاحه الدائم في سبيل النهوض بهم ورفع أعباء الحياة ومظالم المجتمع عن كواهلهم، مما صير لأدبه قيمة اجتماعية وأخلاقية كبرى، قد تساوي قيمته الفنية لدى الكثيرين إن لم تفقها.

(للكلام بقية)

محمود عزت عرفة

من الغرب

أغاريد بليتيس

لشاعر الهوى والغزل بيير لويس

(!إلى شادية الأغاني)

بقلم الأستاذ عبد العزيز العجيزي

(بليتيس)

فتاة غيداء فاتنة، مزملَّة بالصوف، وكاعب حسناء ساحرة، مدبَّجة بالدمقس والحرير، وغادة زهراء شائقة، متشحة بالكروم والأزهار، وغانية هيفاء رائعة ملتفة بأوراق الأشجار. . . أما أنا، فسافرة المحيا، عارية الجسد، خالعة العذار، حاسرة الإزار، ممزقة الغُلف، هاتكة سادل الحجب، متجردة من الحلي والذهب، ومن نعل يقي قدمي. هاأنذا بليتيس يا حبيبي! خذني بين أحضانك، عارية بلا ثياب تستر غصني المعتدل الفارع، ولا دثار يغطي قوامي الممشوق البارع.

حبيبي إن ليل شعري ظلال حلكته، ودجى غدائري منساب حول قدي، مسترسل على جسدي كأبهى الرياش. . . وثغري الدقيق، يقطر الشهد والرحيق، من بين فصي عقيق! حبيبي؛ خذني بين ذراعيك، وضمني إليك، واهصر عطفي بساعديك، ثم انهل رحيق ورودي، واقطف جنى ثماري، وارشف خمر أزهاري. . .

هاأنذا عارية كما جاءت بي أمي في نزوة من نزوات الهوى الجامح والهيام الدافق. . . فاشد بالأغاني إذا فتنك هيف قوامي، واصدح بالأماني إذا سحرك أضحيان جمالي، وترنح بالألحان والأنغام، ترنح النشوان بالمدام!

(تسابيح الليل)

امتدت ظلال الأشجار القاتمة، وأشباحها القائمة، كما يمتد الطود الراسخ. وانتشرت الكواكب متألقة في مساري الأفلاك ومسابح الأملاك؛ ولاطف النسيم الحالم أهداب الجفون الناعسة، وداعب العبير اللافح ورود الخدود الزاهرة. . . بينما الليل ساج، يوحي الأشعار بسكونه، ويلهم الأفكار بصمته، والدجى ساهر يردد ترانيم قيثاري، ونسيمه الرقراق هائم يداعب غدائري، والظلام ناشر على قدمي غلالة من السحر والفتون. . . فتأخذني روعة جلاله، وتهيجني فتنة جماله. هنالك. . . يجود سنا محياي الباهر، بربيع موفق زاهر، تتفتق فيه الورود، وتتفتح الأزهار، ويفوح النسيم معطراً من شذى نسماتي، وعبير نفحاتي؛ وتذيع نسمات الروض همسات شوقي وحنيني، ويرتل هزار الأيك شكاة تأوهي وأنيني؛ ثم تسطع النجوم، وتأتلق الكواكب من سنا عينيّ، وضياء محياي!

واهاً حبيبتي! أترانيم صوتك العذب الندي، من شدو خرير المياه المترقرقة، أم من سكون الطبيعة الصامتة؟! واهاً لصوتك الحلو الرنين! واهاً لنغمك الشهي الرخيم! واهاً لغنائك الذي يهزّ أحاسيس نفسي وحياً وإلهاماً، ويثير أهازيج قلبي طرباً وإعجاباً. . .

(آهات)

علت وجهي حمرة الخجل، ولم ألب نداء الغزل، لرشف سلاف القبل. . . فارتعشت كزهرة بللتها حبات الندى، واضطرب قلبي؛ وخفق لخفقان فؤادي صدري ونهداي. . . وبعد دلال يثير الوجد، وإعراض يذيب الكبد، قلت: أواه. لا. لا!. . . ثم أسندت رأسي إلى الوراء. ولكن لم تغادر قبلة الحب شفتيّ، ولم تفارق رعدة الهوى ساقيَّ!

حينئذ، عانق رأسي مستعطفاً، طالباً عفوي وصفحي. . . فتنسمت شذى أنفاسه، ونشقت عبير أنسامه، وتأرج النسيم بنفح زفراته؛ ثم مضى عني وارتحل. . .!

أواه! هاأنذا وحيدة حزينة، أبكي ربيع حبي الراحل، وأندب زهر عمري الذابل، بعد أن طوح بي البعد في بيداء الهجر، بين تأوهات الحسرات، وتناوح العبرات!

أواه! هاأنذا راسفة بين أكداس آلامي وأحزاني، غارقة في خضم أسقامي وأشجاني؛ شاكية لوعة هواي، باكية هوى صباي! وقمت أنشد حبي الثاوي في الغاب المهجور، والربع المقفر؛ ورحت أناجي شبابي الهاوي في الرياض الموحشة، والمسالك الواجمة التي كتمت سر غرامنا مذ وطئتها أقدامنا! فلم أر من الأطياف إلا أشباح الذكريات، ولم أسمع من الأصوات إلا أصداء التأوهات!

أواه! لقد نفشت كظيم لوعات حيري حزينة، وزفرت أليم آهات حري كليمة، تهاوت بين الحشائش متهالكة، يذيبها الجوى، وتوارت بين الأعشاب غضبي كسيفة، يدميها الضنى!

(أمطار)

ترقرق المطر فبلل الكون برذاذه، ولا مس الأرض بقطراته، ثم جاءت السماء بماء منهمر؛ وطاب لي السير تحت وابله وطله، متفيئة بوارف الشجر وظله.

واهاً للمطر في الربيع! ما أرقه وأعذبه! ما أروع الأغصان الدانية، وقد كللها الزهر الزاهي، وتهاوت عليها ظلال النوّار الضاحي، وماء المطر الضافي؛ فانتشر منها أريج يفوح بالعطر الزكي، والعرف الندي؛ وطاف بالنفس الولهى فأطربها، وحلق فوق الروح الحيرى فأنعشها. ولاح سنا محياي مشرق الضياء، ساطع اللألاء!
واحسرتاه! كم من الأزهار النضرة مبعثرة في الفضاء؟ كم من الورود العبقة ملقاة في مدارج الفناء؟ فرحمة بها يا حبيبتي ورفقاً! إدخريها للنحل، كي لا تهب عطرها للريح، وتذهب أدراجها برياها وجناها، ملوثة بطين الأرض وأقذارها.

عبد العزيز العجيزي

البريد الأدبي

من رسائل الرافعي - دراسة الأدب العربي

عنَّ لي أن أعرف رأي الرافعي في دراسة الأدب، فكتبت إليه خطاباً في ذلك كان الجواب عنه هذا الكتاب:

طنطا في 30 ديسمبر سنة 1912

أيها الفاضل

إن أعمالي كثيرة في هذه الأيام، ولذا أراني أبطأت في الرد على كتابك، وإني مجيبك عنه بإيجاز لأن ما سألت عنه يصعب التبسط فيه على وجه واحد

إنك تريد امتلاك (ناصية الأدب) كما تقول، فينبغي أن تكون لك مواهب وراثية تؤديك إلى هذه الغاية وهي مما لا يعرف إلا بعد أن تشتغل بالتحصيل زمناً، فإن ظهر عليك أثرها وإلا كنت أديباً كسائر الأدباء الذين يستعيضون من الموهبة بقوة الكسب والاجتهاد، فإذا رغبت في أقرب الطرق إلى ذلك فاجتهد أن تكون مفكراً منتقداً. وعليك بقراءة كتب المعاني قبل كتب الألفاظ، وادرس ما تصل إليه يدك من كتب الاجتماع والفلسفة الأدبية في لغة أوربية أو فيما عرب منها. واصرف همك عن كتب الأدب العربي بادئ ذي بدء إلى كليلة ودمنة والأغاني ورسائل الجاحظ، وكتاب الخبران، والبيان والتبيين له. وتفقه في البلاغة بكتاب المثل السائر؛ وهذا الكتاب وحده يكفل لك ملكة حسنة في الانتقاد الأدبي وقد كنت شديد الولوع به

ثم عليك بحفظ الكثير من ألفاظ كتاب نجعة الرائد لليازجي والألفاظ الكتابية للهمذاني، وبالمطالعة في كتاب يتيمة الدهر للثعالبي والعقد الفريد لابن عبد ربه وكتاب زهر الآداب الذي بهامشه

وأشير عليك بمجلتين تعنى بقراءتهما كل العناية (المقتطف والبيان). وحسبك (الجريدة) من الصحف اليومية، والصاعقة من الأسبوعية، ثم حسبك ما أشرت عليك به فإن فيه البلاغ كله. ولا تنس شرح ديوان الحماسة وكتاب نهج البلاغة فاحفظ منهما كثيراً ورأس هذا الأمر بل سر النجاح فيه أن تكون صبوراً وأن تعرف أن ما يستطيعه الرجل لا يستطيعه الطفل إلا متى صار رجلاً؛ وبعبارة صريحة إلا متى انتظر سنوات كثيرة

فإن دأبت في القراءة والبحث وأهملت أمر الزمن طال أو قصر انتهى بك الزمن إلى يوم يكون تاريخاً لمجدك، وثواباً لجدك، والسلام عليك ورحمة الله.

(الرافعي)

(المنصورة)

محمود أبو ريه

معنى قوله تعالى: يخرج الحي من الميت

إن الله تعالى جعل أساس الخلقة في مختلف أنواع الحيوان والنبات هو حفظ النوع. ولحفظ النوع يجب أن تتوافر جملة عوامل أهمها المحافظة على الجنين حتى ينمو ويقوى، ومنها إيجاد نسل قوي يصلح لهذه المحافظة وهذا النمو. وهذان العاملان جليان في الحيوان - أما في النبات فيحتاج الأمر إلى بعض الشرح. فخذ مثلاً شجرة النبق تجد أن ثمرتها فاكهة صغيرة داخلها نواة تحتوي على جزأين أحدهما غلاف صلب متين يحتاج في كسره إلى مجهود، والجزء الآخر داخل هذا الغلاف الصلب وهو حبة صغيرة مستديرة هشة ضعيفة تسمى الجنين؛ وهذا الجنين وما يحيط به من غلاف صلب متين يشابه الجنين في بطن أمه في عالم الحيوان؛ لأن الله تعالى خلق حوله هذا الغلاف للمحافظة عليه من يد عابث أو أسنان آكل أو أن تهضمه معدة الطيور إذا ابتلعته لأنه لا

يتأثر بعصيرها الهضمي. أما الحكمة في خلق الجزء الفاكهي فهي تبادل المنفعة، فيأكله الآكل هنيئاً ثم تنتفع النواة من هذا الآكل بإلقائها في الأراضي النائية لتنبت فيها، وكذلك الطيور تبتلعها ثم تتبرز النواة سليمة في جهات نائية لتنبت فيها؛ وهذا سر من أسرار الكون، لأنه إذا سقط كل حب الشجرة تحت غصونها وحول جذعها ولم يفرق بهذه الطريقة الحكيمة هنا وهناك فإنه يتراكم بعضه فوق بعض ويفقد قوة إنباته، وإذا نبت البعض منه فإنه ينبت ضعيفاً إلى حين ثم يموت

ولنفكر فيما يحدث في هذه الثمرة الصغيرة بعد أن تنزع من الشجرة؟ الذي يحدث هو أن يموت بها الجزآن: الفاكهة وغلاف النواة الصلب، ويفقدان الخواص الحيوية كالإنبات والتمثيل الضوئي وامتصاص الغذاء وما إلى ذلك، بدليل أنهما إذا وضعا في الأرض للإنبات بعد تجريدهما من الجنين يصيبهما التعفن. أما الجنين فيبقى حياً وفيه كل معاني الحياة النباتية ولكنه ضعيف ومحاط بغلاف قوي صلب متين؛ فإذا استمر الحال على هذا المنوال استحال الإنبات؛ ولذا شاءت إرادة الله تعالى أن يتشقق هذا الغلاف الصلب من تلقاء نفسه بعد مدة معينة من وضعه في الأرض ليسمح بنمو الجنين إلى خارج النواة. وهذا يفسر ما جاء بالشطر الأول من الآية الشريفة (أي يخرج الجنين الحي من الغلاف الصلب المحيط؛ وهو ميت وذلك بقدرته وإرادته). أما الشطر الثاني فهو مكمل لهذه العملية، لأن هذا النبات بعد أن ينمو الجنين خارج هذا الغلاف الصلب يتخلص منه نهائياً إذ يصبح لا فائدة منه بعد أن قام بمهمته (أي ويخرج الغلاف الصلب الميت من الجنين النابت الحي بدون أن يعيق نموه) وقس على ذلك في عالم النبات على اختلاف أشكاله وأنواعه. والذي يؤيد ذلك ما جاء في نفس السورة وبعد بضع آيات من الآية التي نحن بصددها قوله تعالى: (وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء، فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكما. . . انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه، إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) ففي هذه إشارة صريحة إلى الإنبات بعد أن يفلق الحب والنوى ويخرج الحي منها من الميت فيها فينبت الحي بالماء فيينع ويثمر ويأتي من كل الثمرات وهذه قدرة بالغة

أما ما جاء بقول السائل من أن الحي يخرج من الحي فهذا لا علاقة له بهذا الموضوع. والذي أوجد هذا اللبس هو أن المفسرين قد تركوا الشطر الأول من الآية الشريفة وهو (إن الله فالق الحب والنوى) وراحوا يفسرون الجزء الثاني على حدة ويطبقونه على نظريات بعيدة كل البعد عن القصد المطلوب. أما الذي ينطبق هنا على نظرية العلماء هو الجنين الذي بالحبة فإنه حي ولا يتكون طبعاً إلا من شجرة حية.

دكتور

عباس محمود حسين

كبير أطباء منطقة التعليم بأسيوط

بنو إسرائيل والطعام الواحد

جاء في مقال الدكتور زكي مبارك (أخطار الطعام الواحد) هذا الكلام: (وقد صرخ اليهود لعهد موسى من الطعام الواحد، كما قص القرآن، فأوصاهم موسى بهبوط مصر، لأن مصر منوعة الفواكه والحبوب والبقول، وهذا سر القوة التي جعلت المصريين بأمن من طغيان الأمراض الفواتك على اختلاف الأجيال). والآية المشار إليها هي قوله تعالى: (اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم). وظاهر أن (مصراً) في الآية مرادفة لكلمة (بلد). والمعنى: اهبطوا أي مصر من الأمصار تجدوا طلبتكم. أما (مصر) النيل المبارك فهي علم ممنوع من التنوين وليس مراداً في الآية. وظاهر أيضاً أن الدكتور مبارك قد سها في فهمه الآية وبنى على هذا السهو النتائج التي تقدمت

(دمشق)

(س)

في الأدب المصري (فكرة ومنهج)

صدر أخيراً هذا الكتاب، لأستاذنا الفاضل أمين الخولي، وكتب مقدمته تلميذ من تلاميذه في الجامعة اقتداء بسنة السلف من العلماء

وفي الكتاب دعوة حرة إلى دراسة الأدب المصري دراسة خاصة وبيان للمنهج الذي يجب أن يتبع في هذه الدراسة

فهو إذن قسمان: فكرة ومنهج. أما الفكرة، فقد أملتها اعتبارات قومية مصرية خاصة وأخرى فنية أدبية عامة

يقول المؤلف في الاعتبار القومي الخاص (إن حياً لن يفكر بنفسه وهو حي، لأن إيمان الحي بنفسه سر وجوده الفطري، ومصر لم تكفر بنفسها لحظة ما، فكيف لا تؤمن بشخصيتها في الفنون بعامة ثم في الأدب بخاصة. وفي هذا العصر الإسلامي الذي ظلت فيه كدأبها شاعرة بنفسها يقظة لذاتها، فهي لهذا تصر على أن تدرس وجودها الأدبي في العصر الإسلامي)

ثم تناول المؤلف الاعتبارات الفنية العامة فبين الخطأ الشائع في تحديد العصور الأدبية تحديداً زمنياً كالأموي والعباسي دون نظر إلى المكان الذي يشغله هذا الأدب كالعراق أو مصر، فذلك إخلال بالتحديد والضبط وإهمال للمؤثرات الطبيعية القاهرة مع الاهتمام بحالة

أيسر الأثر وهو الحكم السياسي وزمنه. فالبيئة الطبيعية لها أثرها القوي على ما يعيش فيها من ماديات ومعنويات والأدب من أشد هذه المعنويات تأثراً بالبيئة والإقليم.

ويقول المؤلف إن مصر بوصفها الطبيعي الفطري قد تميز كيانها الاجتماعي واستقر ماضيها التاريخي فتوافرت لها مقومات البيئة المتفردة الواضحة. فدرس أدبها عمل علمي صحيح الأصول.

وأنكر الأستاذ وحدة الثروة الأدبية العربية وحدة تامة، وبيَّن ما يتميز به أدب أمة عن أدب أخرى، وأوضح كيف تكون الإقليمية منهجاً واضحاً صحيحاً مع الطموح إلى دعوة أدبية إنسانية عامة، ومشاركة الأمة في الحياة الأدبية العالمية مع وضوح مشخصاتها الأدبية المميزة لها

والقسم الثاني من الكتاب رسم للمنهج الصحيح في دراسة الأدب المصري. فبين المؤلف معنى الأدب وتاريخه وما بينهما من صلة، ثم قسم منهجه إلى خطوات ثلاث: (ما حول الأدب) وهو ما يتيسر به درس النص الأدبي حتى يفهم المتن فهماً مجدياً له أثره في تكوين الذوق الأدبي ومعاونته الهامة في تحقيق تاريخ الأدب، ثم (المتن الأدبي) وهو فهم النص بهداية الأضواء التي تحف به مع الاعتماد على وسائط هذا الفهم من علوم العربية وفنونها الأدبية

ثم ندرس (تاريخ الأدب) فنستطيع أن نلمح على مصور الحياة مناطق متميزة وفوارق واضحة، نستطيع بها تأريخ الحياة الأدبية ووصف أدوارها وبيان مسالك الحياة الأدبية فيها وسبيل تطورها وموقع حاضرها من ماضيها؛ وأي مستقبل فني وراء ذلك ينتظرها

ذلك بيان لما ورد في الكتاب من آراء جريئة سديدة لم أشأ أن أنقدها، لأني أوافق عليها جملة وتفصيلاً. ولن يكفي هذا العرض السريع عن قراءة الكتاب، فهنالك قضايا تستحق اهتمام الباحثين، لأنها تتصل بدعوة فنية قومية من جهة، وتتصل من جهة أخرى بما ينادي به الناس الآن من ضروب الوحدة.

محمود عبد المنعم مراد
ليسانس في الآداب من جامعة فؤاد

العدد 521 - بتاريخ: 28 - 06 - 1943

عرض واحد

للأستاذ عباس محمود العقاد

كان خلاصة ما قلناه في مقالنا السابق عن المرأة والفنون أن نصيب المرأة من الفنون محدود لا يرتقي بها إلى مراتب النبوغ العليا بين الشعراء والمصورين والموسيقيين، وختمناه بقولنا: (إن استحضار هذه الحقيقة لازم جد اللزوم في عصرنا هذا، لأننا نسمع المذاهب الاجتماعية حولنا تمارى على حساب أهوائها ومراميها في تقديم الجنسين بين قائل بالتشابه الكامل وقائل بالفوارق والمزايا التي يقتضيها توزيع العمل واطراد الخلق في طريق التخصيص والامتياز. ورأينا نحن أميل إلى هذا المذهب القائل بالفوارق والمزايا، لأنه الحق الواضح أمامنا، ولأنه العدة التي ندرع بها أذهاننا للقاء فوضى المذاهب التي فيها الضير أكبر الضير على المجتمع الإنساني وخلائق الإنسان)

أما المذهب القائل بالتشابه الكامل بين الرجال والنساء فهو مذهب الشيوعية، وهو ينزع هذا المنزع في تقديم الجنسين لأن فلسفة كارل ماركس تقتضيه ولا تستقيم

بعضها مع بعض إلا إذا فرضنا أن الجنسين متماثلان متشابهان في الواجبات والحقوق.
وآفة كارل ماركس وأتباعه أنهم يريدون أن تتحول الحقائق ليصبح مذهبهم صحيحاً قابلاً للتنفيذ، ولا يريدون أن يتحولوا هم في آرائهم وفروضهم وتقديراتهم لتصبح الحقيقة هي الحقيقة بمعزل عن المذاهب والفلسفات
فالعائلة عندهم هي أساس الاستغلال
وقيام المرأة بشؤون البيت هو أساس العائلة
والتفرقة بين الرجل والمرأة في الواجبات والحقوق إنما تنشأ من قيام المرأة بشؤون البيت وانصراف الرجل وحده إلى الأعمال الخارجية
لهذا يجب أن تكون المرأة مساوية للرجل، وألا يكون بينهما فارق في كفاءة من الكفاءات، لأنهم مضطرون إلى هذا القول في طريق إلغاء العائلة
فلتكن الحقيقة إذن هكذا لأنهم هكذا يريدونها، لا لأن قوانين الخلق والتكوين منذ وجدت الذكور والإناث في الحياة الحيوانية والنباتية تشهد بالتفرقة بين الجنسين، وتشهد بأن الحياة ماضية في طريق تقسيم العمل والاختصاص ولا تمضي في طريق التشابه وإلغاء الفروق
وبلغ من سخف الغلاة منهم في هذا الباب أنهم يسمحون للمرأة بالإجهاض ولا يرون فيه وجهاً للعقاب، لأن الرجال والنساء متساوون
وأنت تسأل: وما شأن هذه المساواة في إباحة الإجهاض؟ فيقولون لك نعم؛ إن الرجل لا يكرهه أحد على إنتاج النسل فلماذا يفرض على المرأة أن تحمل على غير إرادتها؟
حقارة في التفكير هنا لا تقل عن الحقارة في الشعور، لأن هؤلاء الشيوعيين ينسون أساس مذهبهم وهم يلغطون بهذا اللغو السخيف: ينسون أن مذهبهم كله قائم على تغليب المجتمع على حرية الفرد في تصرفاته العامة. فكيف يتفق مع هذا المذهب أن تكون حرية الفرد غالبة حتى على حفظ النوع وتجديد الحياة؟
وليس هذا كل ما هنالك من حقارة التفكير وحقارة الشعور، لأن القياس العقلي معدوم هنا لا يستند إلى برهان. إذ الإكراه وعدم الإكراه إنما يكونان في دور الإرادة والرغبة ولا يكونان بعد خلق الجنين ووجود هذه الحياة الجديدة. والمرأة تستطيع كما يستطيع الرجل أن تمتنع عن العلاقة الجنسية فلا فرق في هذا بين الرجال والنساء، ولكن المسألة إذا وصلت إلى جنين يخلق وحياة جديدة تظهر فلا الرجل ولا المرأة يملك هنا أن يريد أمام إرادة الحياة وأمام القانون الطبيعي والقانون الإنساني اللذين يحميان كل حياة
وهكذا تلتقي في كثير من الآراء الماركسية حقارة الفكر وحقارة الشعور
وهكذا ينبغي أن نحرس عقول الشبان ونفوسهم من هذه الحقارة في شعورهم وهذه الحقارة في تفكيرهم، وأن نضع أيديهم على موطن الداء الذي ليس به كثير خفاء وموطن الداء فيما نعتقد إنما هو الكسل والحسد
وصدق (فرويد) وأصحابه حين قالوا إن المرتبة الأولى من مراتب الشقاء في العقد النفسية إنما هي كشف العلة الحقيقية لعين المريض المصاب بها
والعلة الخفية التي تجنح ببعض الشبان عندنا إلى التفكير الشيوعي هي أنهم يحسدون وأنهم يكسلون، وأنهم يريدون من المجتمع أن يعطيهم جميع حظوظ الحياة؛ ويخيل إليهم أن المجتمع الشيوعي كفيل بتحقيق هذا المطلب، وإذا لم يكن كفيلاً بتحقيقه فاقتلوني ومالكا ... واقتلوا مالكا معي
على حد قول الشاعر العربي، أو (عليَّ وعلى أعدائك يا رب) كما قال شمشون الجبار
وكلمة وجيزة تفتح عيون هؤلاء المخدوعين على الحقيقة التي تبدو من وراء ستار رقيق
هذه الكلمة الوجيزة هي أن المجتمع الشيوعي لا يدعي أية دعوى في الإصلاح الاجتماعي إلا سمعنا دعوى مثلها من ناحية الفاشيين والنازيين
فمحاربة البطالة وإسعاد المرأة وإنصاف الفقراء وما شابه هذه الدعاوى ذائعة بين الفاشيين والنازيين ذيوعها بين الشيوعيين، والإحصاءات التي يسردها هؤلاء تشبه الإحصاءات التي يسردها هؤلاء، وكلها في الواقع تمثل حالة طارئة أمكن فيها تشغيل معظم الأيدي من الذكور والإناث، وهي حالة الإنتاج الحربي التي تتعلق بعوارض الحرب ولا تتعلق بنظام السلام والاستقرار

ومما يؤسف له أن تسري هذه الخدعة إلى نفوس نفر من الشبان الأدباء فيغتروا بالدعاوى الطوال العراض التي يروجها الشيوعيون عن الحياة الأدبية أو الحياة الفنية بينهم، ويحسبونها الفردوس الموعود لكل أديب أو كل مشتغل بفن جميل

والآفة هنا كالآفة هناك هي الأخذ بالسماع وقلة الاطلاع على حقائق الأمور من وراء الدعاوى والأقاويل

ولو اطلعوا على تلك الحقائق لعلموا أي جو خانق هو ذلك الجو الذي يعيش فيه الأدباء الملهمون من الشيوعيين

ولا ضرورة للإطالة في هذا الصدد لأن كلمة وجيزة قد تغني فيه غناء الإطالة في البحوث والفروض. وما حاجتنا إلى بحث أو فرض بعد أن نعلم أن ثلاثة من فحول الشعراء عندهم قد انتحروا في فترة واحدة، وأن شاعراً آخر هو أكبرهم وأفحلهم قد مات في عنفوان الرجولة ميتة تحيط بها الشبهات؟

أما الشعراء الثلاثة الذين انتحروا فهم مايكوفسكي

وأما الشاعر الذي مات في عنفوان الرجولة فهو ألكسندر ولعله الشاعر الوحيد الذي يقارب في أفقه شعراء النهضة الأولى بين الروسيين

ولو كان هؤلاء الشعراء من أعداء الشيوعية لقلنا إنهم برموا بالحياة لاختلاف العقائد والأمزجة والآمال

ولكنهم جميعاً من الغلاة في الدعوة الشيوعية، وممن ظهروا واشتهروا بعد الانقلاب الأخير

كذلك لو كانوا من طبقة واحدة لأمكن أن يقال إن الشيوعية تلائم طبقة ولا تلائم طبقة أخرى، ولكنهم متفرقون في النشأة، منهم العامل الذي يبشر بالمدينة، والفلاح الذي يبشر بالقرية والمعيشة الريفية، وكلهم كرهوا الحياة في المصانع وفي الحقول.

وأصدق ما يقال في هذا أن الشيوعية جو خانق لكل قريحة ملهمة، ولو كان صاحبها من دعاتها الغلاة

ونعود فنقول: (فتش عن الحسد والكسل) لأنهما على التحقيق علة كامنة وراء كثير من الظواهر الغريبة التي تلاحظ على بعض الناشئين في الجيل الحاضر، وبهذه العلة نستطيع أن نهتدي إلى تفسير نزعات كثيرة غير الجنوح إلى الشيوعية وما شاكلها من المذاهب الاجتماعية، ومنها تلك النزعة - أو تلك الضجة - التي ترتفع ثم تخفت آونة بعد أخرى باسم أدب الشيوخ وأدب الشباب

فهي ضجة غير مفهومة إلا أن تكون حسداً معيباً مقروناً بكسل ضعيف

وكل ضجة تساق في تسويغها لا تؤيدها بل تنقضها وتكشف عن الباعث الخفي من ورائها وهو باعث الحسد المعيب والكسل الضعيف

سئلت أخيراً رأيي في بعض الأدباء الكبار من المصريين فقلت عن الدكتور طه حسين إن قدرته في تأريخ العصور الأدبية (تأتي بعد قدرته في القصة أو الكتابة القصصية، فهو يحسن إقامة الحدود بين العصور ويحسن تمييز كل عنصر بمزية عامة، ولكنه أقرب إلى حدود العالم منه إلى حدود الفنان، ويأتي طه حسين الناقد بعد طه حسين المؤرخ وبعد طه حسين صاحب القصة؛ لأن المدار في النقد كله على مقاييس الشعر والبلاغة الشعرية، وليس نصيب الدكتور طه حسين في هذه المقاييس بأوفى نصيب)

كتبت هذا الرأي فعقب عليه بعض الحانقين على شيوخ الأدب يقول: (ونحن إذ ننشر هذا الرأي نوجه إلى الأستاذ العقاد السؤال الآتي: كيف تحتفظ بأمارة الشعر التي خلعها عليك طه حسين ونصيبه من مقاييس الشعر والبلاغة الشعرية ليس بأوفى نصيب؟ رجعة إلى الحق يا عميد الأدب ويا أمير الشعر ويا. . . أدباء الدعاية. . .)

هذا هو التعقيب العجيب

فهل ركب على كتفي إنسان رأس يفهم مما كتبناه عن الدكتور طه حسين أننا أدباء دعاية لو كانت المسألة مسألة رؤوس تفهم وبراهين تساق؟

إن الذي كتبناه لينقض صفة الدعاية خاصة دون غيرها من الصفات

لأنه يدل على أن أدباء الشيوخ لا ينسون آراءهم من أجل دعاية بعضهم إلى بعض، وإنني لا أنسى الحق من أجل الدعاية لنفسي، وإلا لقلت عن الذي سماني أميراً للشعراء أنه الحكم الوحيد في قيم الشعر وأقدار الشعراء

فهل هي إذن مسألة فهم وصدق، أو مسألة حسد وكسل؟

كلا. إنما هي مسألة حسد وكسل ولا زيادة! ولولا الحسد والكسل لخجل هؤلاء المساكين من أنفسهم إذ يهجعون في مراقدهم وينعون على الكتاب المشهورين شهرتهم ولا ذنب لهم إلا أنهم يصدرون الكتاب بعد الكتاب وأولئك المساكين يقلبون شهادة ميلادهم ولا يزيدون

إنه عرض واحد هذا الحسد وهذا الكسل اللذان يفسران النزوع إلى الشيوعية، ويفسران استعجال الشهرة، ويفسران كل انتقاد مريض لا يصحبه عمل ولا تصحيح

عباس محمود العقاد

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

نفحة اليمن - مكانة مصر بين الأمم العربية - محاسبة النفس - معادن الأرواح والعيون

نفحة اليمن

منذ أعوام لا أدري كيف مضت وانقضت كان في الديار المصرية كتابٌ اسمُه (نفحة اليَمن، فيما يزول به الشَّجَن)، وهو كتاب في المواعظ كان له في نفسي تأثير. ولو شئت لقلت إن إحدى المواعظ التي وردت فيه كانت دستوراً لحياتي في البيت، ولأسلوبي في معاملة الأهل. فأين من ينشر هذا الكتاب من جديد، عساه يؤدي خدمة يحتاج إليها الناس في هذا الجيل؟

ومنذ أعوام لا أدري كيف مضت وانقضت كان اسم (حَسان اليماني) هو اسم الحكيم الذي ألهمته الغيوب مصاير الناس في أواخر الزمان، وكانت أحكامه المنظومة تُنشَد على (الربابة) في سهرات الريف

ومنذ أعوام لا أدري كيف مضت وانقضت كانت رحلة مُعاذ بن جبل إلى اليمن مما يتداوله أكثر الناس، وكانت فيها عظات قليلة الأمثال

واليوم تلقيت نفحة جديدة من نفحات اليمن جاد بها أحد أعضاء (نادي الإصلاح العربي) في عَدَن وهو السيد محمد بركات، فهل تصل مجلة الرسالة إلى عدن كما تصل إلى السيد عثمان شبيكة في ملكال بالسودان؟

كانت أخطار الحرب أوهمتنا أن الصلة انقطعت بيننا وبين اليمن والهند، وأن التخاطب مع سكان تلك البلاد لن يتيسر إلا بعد حين أو أحايين

فيا فرحة القلب لخطاب يصل من عدن بعد أن قيل إن وسائط النقل البري والبحري والجوي قُصِرتْ قصراً على معدات الحرب!

لليمن تاريخ في العمران يجهله أكثر الناس، فلنفصله في كلمات:

أهل اليمن هم أول أمة في التاريخ نظّمت الرّي، بفضل ما عملوا في سَد مارِب ومن أبناء اليمن كان من نظموا الريّ في الأندلس، والأوربيون يعترفون بأن تنظيم الريّ في بلادهم منقول عن عرب الأندلس

وأول من فكر في إقامة خزان أسوان هو الحسن بن الهيثم، وهو عربيٌّ وَفَد على مصر من العراق منذ نحو عشرة قرون، ولعلهُ يمنيُّ الأصل

واليمنيون هم أقطاب الفاتحين لجُزر البحر الهندي، ولهم أيادٍ في مد لغة العرب إلى الهند والصين

والظاهر أن التنافس بين أبناء الجزيرة كان له صدىً في العالم القديم، فكان أبناء الشمال وهم الفينيقيون يهتمون بتحضير أوربا الشرقية، وكان أبناء الجنوب وهم الحضرميون يهتمون بتحضير آسيا الغربية، ومن هذا الجهاد وذاك رسخ السلطان الحضري لعرب ذلك الزمان

والمفهوم أن قصة السندباد البحري هي أغرب قصة روتها السياحات البحرية، ولعلها أظرف وألطف من بعض قصص الإغريق، فهل تكون إلا من إنشاء حضرمي مفطور على مقارعة الأمواج فوق ألواح هي بالنسبة إلى بواخر اليوم خيوط من العنكبوت؟

وهنا لطيفة من اللطائف لم يتحدث بها متحدث، وهي ديباجة الشعر في مصر لآخر أيام العهد الفاطمي وأوائل العصر الأيوبي، وهي ديباجة أذاعها الشاعر عُمارة اليمني، وعن هذا الشاعر أخذ شاعرنا أحمد شوقي عبارة أو صورة سأذكرها يوم يجيء مكانها في هذه الأحاديث

ثم ماذا؟ ثم كان اليمن يد مصر في التعرف إلى الشرق البعيد، فبفضله وصلت السفائن المصرية إلى آفاق لا نعرف مداها اليوم إلا بأجنحة الخيال

ثم ماذا؟ ثم أعتذر لأستاذنا أحمد زكي باشا، فقد عبت عليه أن يقول في محاضراته بالجامعة المصرية إن صنعاء كانت في قوة باريس أو برلين
وهل حفظنا حق اليمن في التاريخ؟
قيل وقيل إن سقوط بغداد بأيدي المغول أوجب رحلات علماء العراق إلى مصر فكانت النهضات العلمية والأدبية بالديار المصرية
فأين من يذكر أن سقوط سد مارب أوجب رحلات العلماء من الجنوب إلى الشمال فكانت النهضات الأدبية والعلمية بالديار العدنانية؟
أجمع مؤرخو الأدب على أن امرأ القيس هو فاتحة الشعر العربي في العهد الجاهلي، ونصُّوا على أنه يمنيّ العِرق، فأين من يذكر أنه من كِنْدة؟ وأين من يذكر أن كندة كان لها محلة بالكوفة نُسِب إليها المتنبي فكان الكِندي؟
لنا في اليمن كلام يضيق عنه هذا المجال، وسنرجع إليه بتفصيل وتفاصيل
مكانة مصر بين الأمم العربية
في جرائد سورية وفلسطين ولبنان والعراق كلام كثير عن مكانة مصر بين الأمم العربية، وجرائد تلك البلاد تذكر بالخير مؤازرة مصر لفكرة الحِلف العربي
ويجب أن نذكر جميعاً أن ما يدور حول الوحدة العربية ليس إلا تمهيدات، ولا يعرف أحد متى تتحقق تلك الوحدة على الوجه المنشود
محاسبة النفس
بدأت أشعر بضجرٍ في هذه الأيام، وأخذت أشعر بانقباض الصدر من حين إلى حين، فما سبب هذه الحال؟ وما هو الدواء؟
يخيل إلي - ولعل هذا هو الواقع - أني لا أؤدي حقوق القلم كما يجب، فأنا أتحامى شؤوناً كثيرة، وأسكت عن آراء لو دونتها لكان لها في عالم الفكر مكان
ويزيد في الضجر أن لحياتي ألواناً جديرة بأن تقدم أثمن الغذاء لقلمي، فكيف يفوتني أن أنتفع بتلك الألوان؟
قد يقال أن ظروف الحرب لها دخلٌ في الحدّ من الحرية القلمية، لأنها تقهرنا على مراعاة أمور لم يكن من الحتم أن نراعيها في أيام السلام
وهذا عذر غير مقبول، لأن الشؤون التي تمس الحرب ليست كل ما يعتلج في صدور الرجال، فهنالك معضلات إنسانية تساور العقول والقلوب في كل زمان، وهي معضلات لا تهادن الناس ولو كانوا في ميادين القتال
وربما قيل إن الشؤون التي تعفيها ظروف الحرب لا تعفيها ظروف المجتمع، فقد تكون الرقابة التي يفرضها الجمهور على الأقلام أقسى من الرقابة التي تفرضها الحكومات في أيام الحروب
وهذا أيضاً عذر غير مقبول، ففي مقدور المفكر أن يعالج شؤون المجتمع بأسلوب يخلق
الحب ويبعد العِداء
يظهر أن الآفة هي في طريقة الطب للمجتمع، الطريقة التي تلبس ثوب السيطرة بأقلام الناصحين، ونحن في الأغلب ننسى أن في فطرة الناس ميلاً إلى الدفاع عما يتورطون فيه من ضروب الانحراف، ونجهل أن العنف في النصح قد يخلق للعيوب أنصاراً يجعلون سيئاتها حسنات
أنا موقن بأن سياسة القلم تعوزنا في أكثر ما نكتب، وسياسة القلم معنًى لم نلتفت إليه. ألا ترى كيف نقضي العمر في شقاق مع القراء؟
أين الذي حاول أن يقدم النصيحة المرة في كلمة مغلفة بمجاج النحل؟
وأين الذي واجه الجمهور بأسلوب منزه عن الاستعلاء؟
هذه الحال تشبه أن تكون مرضاً من الأمراض القلمية، وللأقلام أمراض
وأعترف بأن تحرير القلم من الآفات النفسية يحتاج إلى رياضات لا نقدر عليها في جميع الأحايين، لأن الرجل قد يقدر على محاسبة الجمهور ثم يعجز عن محاسبة النفس
وهنالك آفة أخطر وأفظع، وهي آفة المبالغة في تصوير الكمال الذي ننشده للإنسانية، كأن ننتظر أن يعيش الناس بلا أحلام ولا أوهام، وكأن نرجو أن يسلموا جميعاً من طغيان الأهواء، كأن الناصحين سلموا جميعاً من طغيان الأهواء!
أيكون من الخير أن ندعو إلى تجفيف البحار والأنهار ليأمن الناس الغَرَق؟

أم يكون من الخير أن نعلِّم الناس السباحة ونسكت عَن تجفيف البحار والأنهار؟
هنا مَناط المعضلة الأخلاقية، المعضلة التي حيَّرت كرائم الألباب
الشخصية اُلخلقية هي الشخصية المزوَّدة بموجبات الجذب والدفع، وهي الشخصية السليمة من الضعف، ولن تكون كذلك إلا حين تحارب في ميدان من ميادين الأهواء ولهذه الفكرة شروح سنعود إليها يوم نستطيع محاسبة النفس على التهيب والترقب، ويوم يكون الصدق هو أشرف ما نسمو إليه في عالم البيان
معادن الأرواح والعيون
لكل روح معدن أو جوهر أو عنصر، إلى آخر الألفاظ التي تعبر عن الأصول والأرواح توحي بأساليب لا تعرفها العيون، وهل كانت العيون إلا وسائل الأرواح في الإيحاء؟ أستغفر الحب، فقد قلت من قبل إن للعين وجوداً ذاتياً يستقل عن الروح بعض الاستقلال في بعض الأحيان
وما سِرُّ العيون على التحقيق؟
هل يعرف أحد كيف كُوِّنت تلك الخلائق اللطيفة بهذا الوضع اللطيف؟
الوجود كله مدين للعيون، فهي التي شهدت بما فيه من جمال وجلال، وهي التي قالت إنه وجود
وما هذا الصُّنع العجيب، صنع الله في إبداع العيون؟
ينقضي الدهر ولا ينقضي العجب من القدرة المطوية في سريرة مخلوق رقيق اسمه العين؛ وستمر أزمان وأزمان قبل أن يُعرف سر هذه الجارحة الظَّلوم
وما قدرة الطب في تعليل هذه القوة الصمدانية؟
هل يعرف كيف تنظر حتى يعرف كيف توحي، وهي أعجوبة الأعاجيب في النظر والإيحاء؟
ومع هذا فقدرة الأرواح أعجب وأغرب، فهي ترسل السهام من إقليم إلى إقليم، وقد تصادق وتعادي وأصحابها أموات في عرف الناس
ذلك المفكر الذي يعبر الآفاق لغزو العقول بعد أن تمر على موته آلاف السنين. ما سر قوته الروحية؟ ما سرُّه وقد اجتاز أسوار روما بعد ألفي سنة ليقتل أحد تلاميذي بالقاهرة؟
وذلك الشاعر الذي قال:
إذا نُشرَتْ ذَوائبُه عليه ... حسبتَ الماَء رفَّ عليه ظلَّ
هل كان يتوهم أن المطربة فتحية أحمد ستنقل خياله بالمذياع إلى جميع الأقطار العربية بعد أن نسيه القاهريون؟
سمعت هذا البيت مع الأستاذ سعد كامل فعجبنا من قدرة الأرواح على اختراق الأزمان
وقال الشريف الرضي:
سهم أصاب وراميه بذي سَلَم ... من بالعراق لقد أبعدت مرماكِ
فهل كان يخطر في بال الشريف أن هذا المعنى سيكون حقيقة لا مجازاً فيما سيخلف عصره بأجيال طوال؟
وقال شاعرٌ قديم:
غَنَّتْ سُلَيمى بالحجا ... زِ فأطربتْ من في العراق
فهل كان ينتظر ذلك الشاعر أن تصح نبوءته فأسمع من القاهرة صوتاً يغزو روحي وأنا في سهرة بمدينة النجف؟
لقد قضى ذلك الصوت بأن تكون ليلتي ليلاء، وأن أعود إلى بغداد وأنا مفطور الفؤاد
وما معنى قول البهاء زهير شاعر الفطرة المصرية:
إن حالي لعجيبٌ ... ما يُرى أعجب منه
كلُّ أرض لي فيها ... غائبٌ أسألُ عنه
أليس شاهداً على استبداد الأرواح بالقلوب، وإن تباعدت البلاد؟
أما بعد فهذه الكلمة تحية للروح التي يئست من وفائي، الروح التي ضَنَنتُ عليها بإعلان حبي، لتعيش في أمان من سفاهة الرقباء
يا مصدر الوحي، على رغم البعد واليأس، ويا روحاً هي الروح، ويا تحفة فنية صاغها الفنان المعبود، ويا من لا أسمِّي ولو سُئلتُ يوم الحساب في حضرة صاحب الجبروت، سلام عليك وألف سلام

أنت أمامي حيثما توجهت، وغضبك عليَّ أعذب من الرضوان يا مهاة لا تخطر إلا في البال
ثم أما بعد فأنا مؤمن باختلاف المعادن في الأرواح والقلوب، وروحك يا شقية هي الروح، وسبحان من لو شاء لجعلني من عينيك في أمان!
متى نلتقي على الشط، بالرمل، لأقول مع الشريف:
ولو قال لي الغادون ما أنت مشتهٍ ... غداة جزَعنا (الرمل) قلت أعود
قال بديع الزمان في المقامات على لسان أبي الفتح الإسكندري:
إسكندرية داري ... لو قرَّ فيها قراري
ويرى الأستاذ إسعاف النشاشيبي أنها إسكندرية مصر في مقال نشره بالرسالة وهو يحيي الشواربي باشا. ويرى الشيخ محمد عبده في شرح مقامات البديع أنها بلد بالأندلس، ورأيت بعيني وقلبي أن إسكندرية أبي الفتح بلد بالعراق
فمتى نلتقي في إحدى الإسكندريات الثلاث، بغض النظر عن اختلاف الأقوال؟
إن رمل الإسكندرية هو (الرمل) الذي عناه الشريف، وسنلتقي هناك بعد أسابيع.
زكي مبارك
لكي ننتفع بتجاريب غيرنا
المسرح في أوربا بين حربين - 3
(في ألمانيا والنمسا)
للأستاذ دريني خشبة
ألمعنا في الكلمة السابقة إلى انتشار المسارح الشعبية الحرة في ألمانيا، وعرفنا ما يدخل في صناديق هذه المسارح من الإيراد الضخم بطريق الاشتراك بين الأعضاء، ويبلغ عددهم في أحد مسرحي برلين حوالي ستين ألفاً معظمهم من العمال! أي أن المبلغ المتحصل من الاشتراك فقط يربو على ثلاثة آلاف من الجنيهات شهرياً - إذ يدفع العضو شهرياً خمسة قروش أو نحوها - أضف إلى ذلك مثل هذا الإيراد من غير المشتركين، وأضف إليه أيضاً إعانة البلدية للمسرح؛ وقد عرفنا أن بلدية كولونيا تُعين مسرحها الشعبي بخمسة وعشرين ألفاً سنوياً، كما أن مدينة ثورن، أو بالأحرى قرية ثورن، تعين مسرحها الصغير المتواضع بألف جنيه كل عام. . . وقبل أن نتكلم عن المذهب يسود المسرح الألماني والذي ارتفع به إلى الأوج قبل قيام الاشتراكية الوطنية لا نرى محيصاً من الرجوع قليلاً. . . إلى ما قبل الحرب الكبرى، وربما إلى ما قبلها بخمسين سنة أو يزيد. . . إلى هذا الوقت الذي كانت فيه فينا - عاصمة النمسا - هي مركز المسرح الألماني العتيد، حينما كان الأدب المسرحي في شمال ألمانيا ما يزال في المهد، وما يزال أدباً رومانتيكيا (إبداعياً) يقصد به التلهي وإشباع غريزة التشوُّف الأدبي فحسب. . . وقد كنا نؤثر أن نرجع إلى أكثر من ذلك. . . إلى أيام عاهل الدرامة النمسوي الأكبر فرانز الذي بدأت تباشير عبقريته تظهر في مشارق القرن التاسع عشر، لولا ما ننتويه من إفراد فصول مستقلة لكتاب الدرامة في الأمم الأوربية المختلفة وذلك بعد الفراغ من هذا الاستعراض السريع لحالة المسرح الأوربي بعد الحرب الكبرى، والذي نريد به استخراج العبرة التي نهتدي بنورها في تشييد دعائم المسرح المصري وخلق العنصر المسرحي المنعدم في الأدب العربي
فحسبنا إذن أن نبدأ من تلك السنة اللامعة ذات البريق في التاريخ الألماني، ألا وهي في سنة 1871، تلك السنة التي تم فيها تكوين الإمبراطورية الألمانية، بعد الانتصارات السبعينية على الجيش الفرنسي. والعجيب أن تلك الانتصارات، بالرغم مما صحبها من الزهو العسكري، لم تستطع أن تمحو من نفوس الشعب الألماني روح التشاؤم الذي أشاعته فيها فلسفة شوبنهاور، والتي تمكنت من ألباب الخاصة المثقفة تمكناً كان يوشك أن يؤدي إلى اليأس المطلق، لولا ما اضطلع به أدورد فون هَرْتمان من تلطيف تلك الموجة من الشعور الأسود، ولولا أن أصاخ إليه شباب الجامعات وأساتذتها الذين رسموا الطريق للنهضة الذهنية الألمانية، فانحرفوا بها عن طريق الأدب - إلى حين - إلى طريق العلوم، فازدهرت الفلسفة وفقه اللغات والتاريخ والعلوم التجريبية، حتى إذا أينع هذا الشباب ودّوت في أسماعه الصيحات الآتية من خارج ألمانيا. . . تنبه إلى صوت كَنْت العظيم فترك هيجل الألماني وراءه، ولم يلبث أن أتاه الصوت العظيم الآخر من داخل ألمانيا نفسها، فتلفت فرأى قيثارة الشعر والأمل ترقص في يدي جوته

الخالد، كما رأى فيلسوف القوة الألمعي فردريك نيتشه ينهض جباراً مرعداً ليهدم شوبنهاور، وليهدم تقاليد الماضي العتيق الذي كان يجثم كابوسه المخيف فوق الذهن الألماني، ثم ليخاصم في سبيل ذلك صديقه الأعز رتشارد ثم لينشر إنجيله الجديد: هكذا تكلم فيقلب به الفكر الألماني ويجعله عدواً لكل قديم؛ ثم ليطلع على الناس بهذه الطوبى الجديدة، طوبى الإنسان الأعلى - أو السبرمان - الذي يعد الناس بالنسبة إليه (حبلاً ممتداً بين الحيوان وبين السبرمان) ثم ليجدف ضد أديان السماء تجديفاً هداماً لا يعرف القيود، ثم ليحدد وظيفة الرجل ووظيفة المرأة، فيجعل الأول للحرب والثانية لتكون متعة لرجل تلك الحرب، فإذا رأى أحداً يقصد إلى زوجه أوصاه ألا ينسى سوطه!؛ ثم ليبرر تسلط القوي على الضعيف وتحكمه فيه، لأن الذي لا يستطيع القيام على شأنه ينبغي عليه أن يسلم قياده للغير. ثم ليعتبر هذه الطائفة من الفضائل المتعارفة بين الناس، كالرحمة واحترام العهود وخفر الذمم والتواصي بالضعفاء، رذائل نشأت عن ضعف كامن في سويداء هذا الحيوان الذي نسميه الإنسان. . . الخ ويفتتن أدباء الشباب بهذا الإنجيل الجديد ويبشرون به ويصفقون له، لأنه في زعمهم جعل الأدب الألماني أدب (أفكار) جريئة حرة لا تعرف هذا الإله التنين الذي يقول: هذا كفر فدعوه، وذاك إلحاد فلا تخوضوا فيه. . . هذا الإله (الشرقي!) الذي يلوح بالنار ويغري بالجنة لا لشيء إلا ليشل تفكير الإنسانية. . . إلى آخر هذا الضلال. . . وقد ترددت أصداء هذا الصوت الجديد في المسرح الذي أخذ بدوره يتحلل من الدرامة الإبداعية (الرومانتيكية) متأثراً بالدرامة الواقعية التي نفذت إليه من فرنسا وسكنديناوه (النرويج والسويد) وأول ما ظهر هذا التأثر في روايات إرنست فون الروايات التاريخية التي هاجم فيها كاتبها روح التشاؤم على هدى من تعاليم نيتشه. على أن معاصراً نمسوياً لهذا الكاتب وأعظم منه نشاطاً وأغزر فناً وأوفره مقدرة، اسمه لدفج قام يخلص الدرامة الألمانية من الإسفاف الذي تردت فيه بالمبالغة التي لا مبرر لها، واستثارة عواطف الجماهير (بالبهلوانيات!). . . استبدل لدفج بهذا النوع المستهتر المألوف - روايات واقعية مستمدة من صميم الحياة الريفية الهادئة وإن تكن لم تخل من التأثر بنيتشه - وفي سنة 1888 افتتح برلين المسرح غرار المسرح وذلك برواية إبسن النرويجي (الأشباح) التي أثرت تأثيراً كبيراً على المؤلفين الثوريين الشباب، ونخص بالذكر منهم جرهارت هوبتمان، ثم هرمان ألفا لمسرح برلين المستقل كثيراً من الروايات التي كانت نواة الأدب المسرحي الألماني الحديث. ولقد كان سودرمان يتأثر الدرامة الواقعية الفرنسية ويجري دائماً في أذيال دوماس، وقد بلغ من ظهور طابعه على المسرح الألماني أن اعتبره النقاد المثل الأعلى الذي يقاس عليه، ولا يجوز أن يحاد عنه حتى انتهى الأمر إلى تفشي الروايات المتشابهة ذات الموضوع كأنما صبت جميعها في قالب بعينه، وهو نفس المآل الذي انتهت إليه الدرامة الفرنسية الـ التي كانت تؤلف دائماً في موضوع الحب الخاطئ مما أشرنا إليه في الفصول السابقة. وقد فطن سودرمان إلى هذا الخطر فحاول هجر ميدان الدرامة الواقعية إلى المأساة السيكلوجية، ثم إلى تقليد شيلر في دراماته الكلاسيكية إلا أنه فشل في ذلك. أما هوبتمان فكان أضعف شخصية وأوهى استقلالاً من سودرمان. . . كان يقلد كل من تدخل سمعته في المسرح الألماني من الخارج على حد ما عبر بعض نقاده. وكان تأثره بكتاب سكنديناوه أوضح من غيره، على أنه بتجاوب أصداء المسرح في أوربا عن طريقه داخل ألمانيا قد خدم المسرح الألماني من غير شك. فهذان هما أشهر مؤلفين واقعيين ظهرا في ألمانيا في تلك الفترة من فترات الانتقال الهامة هناك. على أن الحركة الواقعية لم تلبث أن انكمشت ثم أخذت تختفي جميع المسارح الألمانية، وحلت محلها الدرامة الغامضة الرمزية المجازية. وقد سبقت النمسا كعادتها جميع الشعوب الجرمانية،

ولا سيما شمالي ألمانيا إلى الأخذ بهذا النوع الجديد من الروايات الرمزية، حيث ظهر فيها مؤلفون أحيوا درامات القطولة القديمة التي اشتهرت في المسرح الفرنسي في القرن السابع عشر مع فارق واحد، هو أن أبطال هذه الدرامات لم تظهر على المسرح الألماني كأنصاف آلهة منزهة، ولكن كرجال ونساء ذوي عواطف مشبوبة ولهم مشكلاتهم التي يعرفها الإنسان في كل زمان ومكان. وهكذا لم يلبث المسرح الألماني أن استقل بأدبه عن جميع المسارح الأوربية، وأصبح له مذهبه الدرامي الخاص الذي

يتفرد به بين هذه المسارح حتى صار في مقدمتها افتناناً من وجهتي الشكل والموضوع، وحتى صار معهداً دائب الحركة، محتفظاً بجمهوره المشغوف بكل جديد وبكل شاذ. ولا جرم أن مذهب (التعبيرية قد ينشأ من مذهب الرمزية إن لم يكن هو نفسه هذه الرمزية بعينها، وربما اضطر إليه المؤلفون ليخفوا وراءه ما أشربت به قلوبهم من فلسفة نيتشة الكفرية، وذلك اتقاء مجابهة الجمهور المتدين إلى حد ما بأفكارهم الثورية ضد (الشرق) بأديانه وتقاليده، وضد الضعف الذي شقيت به ألمانيا قبل أن تتوحد، وليستطيعوا بذلك أن يبثوا فيه تلك النُّعرة الجرمانية التي تدعى أن الألمان هم أقرب الأجناس البشرية إلى (السبرمان) وأنهم أولى الأمم بالتحكم في بقية القافلة الإنسانية. . والدرامة التعبيرية لا تصرح بأسماء الأعلام في فصولها - أو في مناظرها بتعبير أدق - فلا تسمي أبطالها زيداً أو عمراً أو إدورد أو شرلوت بل تسميهم الرجل الأول والرجل الثاني والخادم والصانع والمرابي والحبيب والحبيبة والقاتل. . . الخ وهي في ذلك تشبه الدرامة الأخلاقية التي نسخت الطورين الأولين من أطوار نشوء الدرامة الإنجليزية والفرنسية، ألا وهما طور الدرامة السمعية أو الإنجليزية والطور النقابي إذ لا نسمع في الدرامة الأخلاقية أسماء أعلام قط، بل تحل محلهم أسماء الفضائل المجردة والرذائل المجردة، فهذا ممثل يمثل الأمانة وذاك ثاني يمثل الشر وهذا ثالث يمثل الصدق، وذاك يمثل الكذب وهكذا

ويأخذ النقاد الإنجليز والفرنسيون على هذه البدعة من بدع الدرامة الألمانية أنها إحياء لمذهب قديم ثبت فساده، لأن الأسماء المجسمة - أي أسماء الأعلام - أثبت في الذهن من هذه الرموز التي لا تؤثر في الجمهور، حتى ولا في الخاصة، كما تثبت وتؤثر أسماء الأعلام. . . فشخصيات هملت وعطيل وشيلوك وروميو ولير وطرطوف وما إليها من الشخصيات الخالدة لم يكن من الممكن أن تكسب هذا الخلود لو سميناها الشباب والغيرة والربا والحب. . . الخ أو لو سُمِّيت الشاب والأسود واليهودي والعاشق. . . الخ وذلك لأن الرابط التذكري في أسماء الأعلام أقوى منه في الصفات والمصادر.

ويتساءل النقاد الذين ذكرنا فيما كانت النقلة من الدرامة الأخلاقية التي لا نذكر فيها أسماء الأعلام والتي استوعبت الطور الثالث من أطوار نشوء الدرامتين الإنجليزية والفرنسية إلى المأساة التي استوعبت الطور الرابع العظيم من تأريخ تلكما الدرامتين؟ لابد أن التجربة قد دلت على فساد تلك الرموز التي كانت تطلق على شخصيات الدرامة الأخلاقية، ولابد أن الجمهور قد مل هذه الألغاز الذي لا مسوغ له ولا ضرورة تلجئ إليه ولا خبر يرجئ فيه إلا أن يكون وسيلة لذلك الغرض الخفي المستتر الذي أشرنا إليه، وهو الخوف من مجابهة الجمهور بالحقائق السافرة، وإيثار اللف والطرق الملتوية على الجادة الواضحة والنهج السوي. ولو فطن مبتدعو المذهب الرمزي - والتعبيري - ممن يدينون بنيتشه، لآثروا الصراحة على الالتواء، لأن فيلسوفهم دعا إلى الشجاعة قبل أن يدعو إلى فضيلة أخرى من الفضائل. . . وأي شجاعة، بل أي تهور، أشد من الدعوة إلى الثورة على الله!

يتساءل هؤلاء النقاد: لم لم ترتفع أية درامة تعبيرية - درامة واحدة - إلى الأفق السامي الذي ارتفعت إليه درامات شيكسبير وبن جونسون وسنج وشو وشريدان وإبسن ومترلنك وشيكوف وموليير وساردو وسارسي وبيراثدلو وجاكنتو بينافنت إلى آخر هذا الثبت الحافل العظيم من مؤلفي الدرامة الأوربية الخالدة من غير المؤلفين الرمزيين؟. . . وهذا في الواقع سؤال له وجاهته. ويزيد في دلالته على أنه الحق، أن مسارح المستودعات ما تزال قائمة في ألمانيا وما تزال تعرض درامات هؤلاء المؤلفين الذين سمينا هنا وغيرهم فيقبل عليها الشعب الألماني إقبالاً عجيباً يترجم عما يكنه هذا الجمهور من النظارة من الشغف بتراث الإنسانية العظيمة النيرة و (لسنا نقول هذا غضاً لقيمة الدرامة الرمزية في ألمانيا؛ إذ أن لها جمهورها الراقي المثقف الذي يتألف من خلاصة رجال الفكر الألماني. . . إلا أننا نرى أنها ليس مما يلائم جماهير النظارة ممن يقصدون إلى المسارح الشعبية)

دريني خشبة

الخطابة

بين الحرب والسياسة

للأستاذ محمد عبد الغني حسن

تستند الخطابة إلى الإقناع والتأثير، فلها سبيلان العقل المقتنع والقلب المتأثر. وهي في كل أمة وعصر أتخذها الرومان في دور القضاء وساحات العدل دفاعا عن مظلوم، أو تبرئة لمتهم، أو إدانة لمسيء. واتخذها تاعرب في الجاهلية سجعاً لكاهن، أو عدة لواعظ، أو نصيحة لحكيم. كما فعل قس بن ساعدة الأيادي في خطبته المروية في كثير من كتب الأدب. تلك الخطبة التي ذكر الناس فيها بالسماء ذات الأبراج، والأرض ذات الفجاج، والبحار ذات الأمواج. وكما فعل أكثم بن صيفي في خطبته التي اشتملت على الموعظة الحسنة والحكمة البالغة.

واتخذها الإسلام في أول أمره نشراً لدعوة وتشجيعاً للجنود المقاتلة، وتأليفاً للقلوب، وتذكيراً للغافل، وتنبيهاً للخامل.

وتروج سوق الخطابة في المنازعات والخصومات عند اختلاف الرأي وتنوع الفكر وتعدد المذاهب، كما حدث بين العلويين والأمويين والزبيريين والخوارج، وكما حدث في إنجلترا بين المحافظين والأحرار، وكما حدث في أمريكا بين أهل الجنوب وأهل الشمال.

ومن الطبيعي أن يظهر عند احتدام الفكر واصطراع الرأي قوتان متعارضتان تمثل كل منهما رأياً معيناً. وهنا يظهر الخطيب في جانب، ويبرز في الجانب المقابل من يبطل دعوته ويبطل حجته.

ففي القرن التاسع عشر كان في إنجلترا غلادستون زعيم الأحرار وخطيبهم الذي لا يجارى. وأمامه في الخصومة بيكونسفلد لسان المحافظين ومدرههم.

ولا تجد الخطابة فرصة أكثر صلاحا لها وأحسن ملاءمة من الثورات العنيفة والتيارات القوية الشديدة. وقد تصنع الأقوال في خلال الثورات مالا تصنع الفعال. وأصدق شاهد على ذلك المجر في منتصف القرن التاسع عشر. فقد كمت النمسا الأفواه وألجمت الألسن إلا لساناً واحداً تأبى على القيد وامتنع على المقاومة؛ هو لسان كوشوت الزعيم المجري؛ فرحل عن وطنه مجاهداً في سبيله بجنان فتى ولسان عضب قوي. فأكرمت إنجلترا وفادته،

كما أحسنت أمريكا ضيافته. فكان فيهما حر اللسان طلق البيان، حلو العبارة صريح الإشارة. وأقام متنقلاً بين الأمتين زماناً أسمع الشعوب الحرة خلاله صوت أمته المهضومة وبلاده المظلومة. ولم يطل على الأمة المجرية أمر الكفاح حتى استعادت قوتها واستردت حقوقها، وأصبحت شريكة في مملكة النمسا والمجر.

وقد تساعد الثورات نفسها على تقدير خطباء لم يتح لهم من مواهب الخطابة ما يسمو بهم إلى مراتب التقدير. فهذا كرومويل زعيم الثورة الإنجليزية في عصر الملك تشارلس الأول ملك إنجلترا. كرومويل هذا كان ثائراً أكثر منه خطيباً. إلا أن روح الثورة واتجاهها وعنفها جعلته من الخطابة في المحل الأول. وجعلت الشعب يجد في الاستماع إليه لذة وميلاً. مع أن كارليل الناقد المشهور يقول عنه في إحدى مقالاته: (إن خطب كرومويل لا تجري على أساليب صحيحة من البلاغة أو قواعد مرتبة من التفكير المنطقي. فهي تخالف كل أسلوب معروف في الخطابة إلا أنها أتيح لها من الشأن في حينها ما لا يقل شأناً عن خطب ديموستين في أثينا)

وقد تتمخض بعض الثورات العنيفة عن زعماء يؤثرون العمل على الكلام أو يفضلون النضال على المقال وطعن السنان على وخز اللسان. والثورة الفرنسية أصدق دليل على ما نقول. فلقد كان من زعمائها دنتون وروبسبير ومارا الذين ضج الناس مما سفكوا من دم وأزهقوا من روح. وكانوا يعتمدون في الثورة على القتل أخذاً بالظنة ورمياً بالشبهة؛ حتى شك الناس في أخيرهم مارا ورموه بالتهم فدافع في إحدى خطبه عن نفسه. إلا أن ذلك لم يجد عليه فقتلته فتاة في الحمام وأراحت الناس من شره

ولقد قالوا إن الأمة العربية لم تنكب بخطيب مثل الحجاج ابن يوسف الثقفي في حبه لسفك الدماء وإذلال النفوس وإرادتها على القسر والإرغام، وفي شراسة الطبع وغلظ الكبد. وهذا كلام ينطبق على مارا في الأمة الفرنسية، وفرق ما بينهما أن الثقفي كان يرتكب جرائمه باسم الاستبداد، ومارا الفرنسي كان يرتكبها مع صاحبه باسم القانون والخطيب السياسي يعتمد على الشجاعة والجرأة الأدبية في كل ما يصدر عنه، سواء أكان حاضاً على ثورة أم حاثاً على جهاد أم مدافعاً عن رأي، أو مبطلاً لبعض الرأي.

ولقد تتحرج أمام الخطيب السياسي الساعات ويحزب الأمر فلا يزيده ذلك إلا شجاعة وجراءة
وإليكم مثالين:
1 - وقف الحجاج على منبر الكوفة فقال: (والله لأحزمنكم حزم السلمة، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل)
2 - ووقف مارا الفرنسي يدافع عن نفسه بعض التهم التي جزاؤها الإعدام فقال في شجاعة نادرة لهيئة القضاة التي تحاكمه: (لقد كان هذا رأيي يعرفه من اتصل بي أو قرأ لي، ولقد كنت أصدر الآراء مشفوعة بتوقيعي، مصحوبة بإقراري. وما أنا ممن يخشون الجهر بآرائهم. وإذا كنتم أنتم لا تفهمون ذلك ولا تعرفونه عني فتباً لكم وسحقاً)
وإذا اقترنت شجاعة الخطيب الأدبية بحسن القريحة وسرعة البديهية وحلاوة النادرة كان ذلك أوقع في نفوس السامعين وأشد تأثيراً فيهم. وللمستر لويد جورج الخطيب الإنجليزي المشهور في ذلك الميدان مجال أي مجال
حدثوا أنه كان يخطب مرة في الحكم الذاتي فقال: سنعطي الحكم الذاتي لكندا وسنعطيه لايرلندا وسنعطيه لـ. . . ولم يكد يكملها حتى قال رجل من السامعين. . . لجهنم فرد عليه لويد جورج قائلاً: هو ذاك. يعجبني أن يتذكر كل إنسان وطنه
وقد يكون في بعض السامعين للخطباء من يغمزهم بكلام أو يتعرض لهم بملام. وهنا تظهر مقدرة الخطيب على سرعة الرد وحسن الدفاع ومواتاة الجواب. فقد حدثوا أنه وفد جماعة من العرب على كسرى وفيهم من السادة الخطباء من انتهى إليه الشرف وبلغ السيادة في قومه والمنزلة في قبيلته. وأخذ كل منهم يتكلم بما يعرف لإبانة ما للعرب من فضيلة. حتى انتهى الدور إلى الحارث بن ظالم فأجاد الكلام وأحسن الدفاع. فقال له كسرى: من أنت؟ قال: أنا الحارث بن ظالم. قال كسرى: إن في أسماء آبائك لدليلاً على قلة وفائك وأن تكون أولى بالغدر وأقرب من الوزر! قال الحارث: إن في الحق مغضبة، والسرو التغافل. ولن يستوجب أحد الحلم إلا مع القدرة. فلتشبه أفعالك مجلسك
وخطب الوفود هذه من الخطب السياسية التي لا يغفل شأنها. وقديماً استعملها النعمان بن المنذر ليدفع عن العرب ما رماهم به كسرى وما تجناه عليهم، وليعلمه أن العرب على غير ما ظن أو حدثته نفسه. فاختار جماعة من خيارهم فيهم أكتم بن صيفي وحاجب بن زرارة والحارث بن عباد وقيس بن مسعود والحارث ابن ظالم. فتكلموا ودافعوا عن مآثر
صالحات، وحموا عن نسب صحيح
وكان الروم والهند والصين يفدون على كسرى وفيهم الخطباء المصاقع فيذكرون من بلادهم ما يدخل اليوم في باب الدعاية السياسية. ولاشك أن هؤلاء الرسل كانوا يختارون من أحسن الناس كلاماً وإلا ضاعت الحكمة من إيفادهم وذهبت المزية من اختيارهم
والخطابة تروج في زمن الحروب وتصادف من الآذان سمعاً واستجابة. وسيسجل تاريخ الحرب الحالية أسماء صفوة من الخطباء من أنصار الديمقراطية ومن أعدائها. وكم يكون الأدب سعيداً لو أن هؤلاء الخطباء أنجبتهم ظلال السلامة ومنابت الأمن والطمأنينة. ألا إن الدفاع عن الحرية يتطلب دائماً ثمناً غالياً.
وقد يكون القائد المحارب نفسه خطيباً مفوهاً ومتكلما فصيحاً؛ فيمسك قائم سيفه بيده ولسانه بفمه يحض الجنود على القتال ويشجعهم على المصابرة كما فعل خالد بن الوليد في معركة أجنادين بين الروم والعرب حين قال فيما قال: (اقرنوا المناكب، وقدموا المضارب، ولا تحملوا حتى أمركم بالحملة، ولتكن السهام مجتمعة إذا خرجت من القسي كأنها تخرج من كبد قوس واحدة. فإنه إذا تلاحقت السهام رشقاً كالجراد لم يخل أن يكون فيها سهم صائب)
أو كما فعل طارق بن زياد حين عبر العدوة من الأندلس وبلغه دنو (الذريق) فخطب خطبته المشهورة التي أولها (أيها الناس! أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر)
ومن الخطب السياسية خطب الفتوح وتلقى عادة عند إتمام فتح أو إكمال غزو.

والغرض منها بالطبع الدعوة للفاتح الجديد وتهنئته وإدخال الناس في طاعته. وضمهم إلى حوزته. وأشهر الخطب من ذلك النوع خطبة القاضي محيي الدين بن علي المعروف بابن الزكي التي ألقاها في مسجد القدس مهنئاً صلاح الدين بأخذ بيت القدس من الصليبيين. وهي خطبة تاريخية طويلة تمتاز بقوة عبارتها ألا إن السجع يفشو فيها جريا على طريقة عصرهم وأسلوب زمانهم

وهناك طائفة من الخلفاء تغلب الصنعة الخطابية عليهم؛ فلقد كان الخلفاء الراشدون خطباء فصحاء كما كان معاوية وعمر بن عبد العزيز الأمويان والمنصور المهدي والرشيد العباسيون

وقد يجتمع الشعر والخطابة في واحد كما كان ذلك عند العرب في قطري بن الفجاءة شاعر الخوارج وخطيبهم وعلي ابن أبي طالب. وعند الفرنجة في لامارتين وفكتور هوجر. ومن الوزراء الخطباء وليم بت واللورد جون رسل أكبر زعماء الأحرار في القرن التاسع عشر، وغلادستون، ولويد جورج وتشرشل

ولابد للخطيب على كل حال من الصوت الحسن وحلاوة الألقاب وحسن النغم. وممن أوتوا تلك الموهبة جون برايت الإنجليزي مناصر غلادستون، وأنجرسول الأمريكي الذي كان يستهوي سامعيه بحسن إيقاعه وحلاوة صوته؛ وغلادستون الذي له في السياسة الإنجليزية في القرن التاسع عشر مواقف مأثورة

محمد عبد الغني حسن

أدباء عالميون

موريس ماترلنك - 1

للأستاذ صلاح الدين المنجد

ماترلنك من الأدباء الذين فتنوا بآثارهم القلوب ولذّوا العقول، بلغ من شأنه أن خُصَّ بآثاره نُهاد المئة من الدراسات الطوال الجِياد في لغات مختلفات. فقد أوتيت آراؤه من الأصالة والواقعية والخيال ما جعلها تأسر وتُعجب، فهي سحر من السحر لا يقاومه إنسان

ولد ماترلنك في (غاند) من أسرة قلامندية. فشدا طرفاً من العلم على الآباء اليسوعيين. وكان له هوى شديد إلى القراءة فكان لا يدع كتاباً وقع في يديه حتى يفرغ منه، غير آبهٍ بموضوعه، ولا حافل بجودته وغثاثته. ولم يستطع الآباء اليسوعيون أن يؤثروا فيه فنشأ عزوفاً عن الدين ضعيف الإيمان. فلما فرغ من دراسة الإنسانيات، انصرف إلى دراسة القانون، لا رغبة منه فيه، ولكن ابتغاء مرضاة ذويه. على أنه لم يُرافع أمام المحاكم إلا مرات معدودات. ثم صدف عن القانون ويمم وجهه إلى باريس (1886) فأقام بها وعرف أدبائها. فاجتمع (بسان بول رو وو (إفرام واستطاع (فيلير دُليل ' أن يملك قلب هذا الفلمندي الشاب بقوة شخصيته وخصب قريحته. وكان فيلير من أدباء المذهب الرمزي، فنحا ماترلنك نحوه، ونشر في مجلة (البلياد قصة سماها (مذبحة الأبرياء) فأعجب بها الناس، وتطلعوا إلى هذا الأديب الجديد

وقضى ماترلنك في باريس سبعة شهور، ثم مضى إلى الفلاندر فكان يقطع الشتاء في (غاند) ربع ميلاده، والصيف في (أوستاكر في مزرعة ريفية، حيث يعنى بغرس الأزاهر وتربية النحل، وهو يصف لنا حياته فيها بصفحات ممتعات من كتابه (حياة النحل ويظهر أثر الطبيعة الفنانة في تأريث وحيه الأدبي

أخذ يكتب ماترلنك لمجلة بلجيكا الفتاة فنشر فيها مأساته الأولى (الأميرة مالين ولم تثر هذه المأساة اهتمام الناس، عند نشرها، حتى أتيح لها ناقد ينقدها، وإذا بماترلنك يسمو إلى ذروة المجد، وإذا بصيته يذيع وبشهرته تستفيض. فلقد كتب عنها آنئذ الروائي أوكتاف ميربو هذا الهجاء اللاذع، والأديب الذي أخرج أروع المآسي الحديثة. رأى ميربو ما في مأساة ماترلنك من جمال وكمال، فتكلم عليها بمقال ظهر في (الفيفارو) سنة 189. وما

ظهرت المقالة حتى تردد اسم ماترلنك، وإذا بالناس يقبلون على مأساته يقرأونها ويناقشونها، ويجعلون كاتبها من العباقرة الخالدين

لقد كتب ميربو يومئذ يقول: (وما أدري إن كان هذا المؤلف شيخاً أم شاباً، غنياً أم فقيراً، ولكني أعلم أن ليس بين الأدباء رجل مغمور مثله، وأعلم أنه أتى بمأساة رائعة، تضمن له الخلود، وتضمن له إعجاب أولئك الذين يتتبعون الجمال، وأعلم أنه أخرج لهم

مأساة فتانة كتلك التي يحلُم بها الفنانون الملهمون في ساعات الحماسة، وكالتي لم يكتب أحد مثلها حتى اليوم. لقد قدّم لنا موريس ماترلنك أعظم أثر عبقري في زماننا، لا أغالي إذا قلت إنه يسمو في جماله على ما في آثار شكسبير من جمال، هذه المأساة، هذا الأثر يسمى (الأميرة مالين)، فهل في هذا العالم عشرون رجلاً يعرفها. . .؟)

ولم يصرف هذا النجاح المتألق ماترلنك، عن طريقه التي سار فيها، وشعر يدافع يدفعه نحو الصوفية. . . ودأب على إصدار درامات طريفات، ليس في أدب من آداب الأمم مثلها، وسنلخصها ونبين ما فيها من سحر وجمال

ولابد من الإشارة قبل المضي في تحليل آثار ماترلنك، إلى أن قليلاً من الكتاب مَنْ يستطيع أن يجاري ماترلنك في سلاسة أسلوبه وصفائه، وخصوبة ألفاظه وبراعته، وسحر الجو الذي يحيط به دراماته. وقد يكون من العسير أن أبين لك صفات الأشخاص نفسها، فهي مخلوقات، فوق المخلوقات البشرية لا تحس إحساسنا ولا تشعر بما نشعر به من عواطف دنيا. بل تهزها أبداً عواطف نبيلة سامية، أكثر رفعة، وأكثر صفاء من العواطف التي تغمرنا. ومع ذلك فإنك لترى ألفاظاً عميقة تصف هذه العواطف النبيلة لا تجدها عند غيره. ولقد استطاع أن يصور الحب والقلق والحسد والألم والرعب والطمأنينة بما لم يصفه بها أحد. وهو في أكثر دراماته يحاول أن يبين تلك القُوى العلوية التي تؤثر في مصيرنا وأعمالنا وحياتنا، وهو لا ينصح ولا يدعو إلى الأخلاق. . . عمداً، فقد يضحي من أراد ذلك بجمال المأساة أو القصيدة الفني (ولكن ما على الشاعر أو الأديب من حرج إذا أوصلنا إلى حقائق أخلاقية مقبولة دون أن يُفقِد القصيدة شيئاً من زينتها في شكلها وفكرتها)

وإذن، فنحن إلى جانب عنايتنا بتبيان الناحية الفنية في آثار ماترلنك سنعنى بتبيان آرائه الفلسفية التي يسوقها عن تلك القوى العلوية، عن العالم المجهول

كانت أولى دراماته، كما ذكرنا، الأميرة مالين. فهي التي دفعت به إلى قمة المجد، بعد أن كتب عنها ميربو ما كتب. في هذه الدرامة تشعر بجو غريب لا عهد لك به. . . بلاد واسعة لا نهاية لها، تحسبها في آن واحد، بلاداً خرافية، وحقيقية. . . وفيها يدع ماترلنك الإنسان والطبيعة يقدمان الأدلة على الشك في قوتهما وضعف إرادتهما، وعبوديتهما.

في هذه البلاد، ترى بحيرات راكدة محاطة بالغابات، وقصوراً شماً ذات دهاليز مظلمات، وأقبية سوداً مخيفات؛ وترى بروجا مهدمة تريد أن تنقض تحت ثقل القرون الطوال. وترى حدائق غُلباً لا تطأها قدم إنسان، وقد ألفها الحزن والظلام. هذه القصور التي تجثم فوقها ذكرى الجرائم الخاليات، والآلام الدائمات، هي في آن واحد عظيمة وحقيرة، مأهولة ومقفرة. يروع أهلها ذات يوم خوف شديد، فيجتمع شبانها وشيوخها يتبادلون الرأي، ويبحثون في الأمر ويتحاورون محاورات يظهر فيها ماترلنك البعد الساحق بين هؤلاء وهؤلاء في أفكارهم وأعمالهم ومصائرهم

ويبقى القارئ في جو غامض لا يدري أنى يخرج منه. وفجأة تبرز له المشكلة التي بنيت عليها الدرامة. لقد وقف الموت: هذه القوة التي لا ترى أمام الحب والسعادة، لأن هذه القوة الفاجعة، تبغض هذه السعادات؛ هي تبغض الحب، والأمن والهدوء، فهي أبداً تسعى لتهديمها. وهنا يظهر ماترلنك متشائماً، فأي سعادة ترتجيها والموت حيال عينيك لا يزول؟

والحق أنه ليس أدعى إلى التشاؤم واليأس من قدَر مالين. لقد كانت تحب. وكانت تُحَب. لقد سميت على ولي العهد؛ حبيبها وخطيبها. ولكنها، وهي في فوران الهناءة والسرور، تسمع بخيانة خطيبها؛ فتجن وتموت بالخناق دون أن تتثبت مما سمعت؛ ويعلم خطيبها (هجالمار) بما فعلت حبيبته فينتحر

والفكرة بسيطة كما رأيت؛ ولكن ماترلنك يوقظ فيك وأنت تقرأها أدق المشاعر، وأخص العواطف؛ ويؤثر فيك تأثيراً بالغاً. وهي لعمري درامة شكسبيرية بكل ما في هذه الكلمة من معنى

(للبحث بقية - دمشق)

صلاح الدين المنجد

الأحلام - 4

للفيلسوف الفرنسي هنري برجسون

بقلم الأستاذ ألبير نادر

أين الفرق بين الإدراك والحلم؟

ما هو النوم؟ إني لا أتساءل طبعاً ما هي الشروط الجسمية للنوم - هذا أمر يبت فيه الأطباء ولم يفصل فيه بعد. أتساءل كيف يجب أن نتصور الحالة النفسية لرجل نائم لأن النفس تستمر في العمل أثناء النوم. فالنفس - كما سبق أن ذكرنا - نائمة كانت أو يقظة، تربط الاحساسات بالذكريات التي تدعوها - وآلية العمليتين تبدو واحدة في الحالتين: حالة اليقظة وحالة النوم - ولكن يوجد الإدراك الطبيعي من جهة والحلم من جهة أخرى - فآلية العملية لا تقوم بنفس العمل في الحالتين، فأين الفرق إذاً؟ ما هي الميزة النفسية للنوم؟

دعونا، لا نثق كثيراً بالنظريات. يقولون إن النوم عبارة عن انفراد عن العالم الخارجي، ولكننا بينا أن النوم لا يمنع الحواس تماماً من التأثيرات الخارجية، لكنه يستمد منها مادة الكثير من الأحلام. ثم بينا أن وظائف العقل السامية أثناء النوم تستريح ويتسبب عن ذلك توقف في التعقل. لا أظن أن الأمر كذلك. إننا أثناء الحلم نصبح غير مكترثين بقوانين المنطق؛ ولكننا لا نكون عاجزين عن كل منطق، وأكثر من ذلك، وهنا أخشى أن أدهشكم، أن ذنب النائم هو أنه يعقل أكثر من اللازم. والنائم يتجنب المحال إذا كان مجرد مشاهد لاستعراض رؤياه - ولكنه عندما يريد، بقدر المستطاع أن يعبر عنها، يكون منطقه المخصص لربط الصور المبعثرة بعضها ببعض غير قادر إلا على تقليد منطق العقل، ويتلمس حينئذ المحال. نعم إن وظائف العقل السامية تنحل أثناء النوم؛ وإن ملكة التعقل تلهو أحياناً بتقليد التعقل الطبيعي ولو لم تشجعها على ذلك الصور المتماسكة. ويمكننا أن نعمم هذا القول فيما يخص الملكات الأخرى. إننا لا نعلل الحلم بانعدام التعقل ولا بإغلاق الحواس ولنترك جانب النظريات ونتصل مباشرة بالواقع يجب أن نقوم باختبار حاسم في أنفسنا. عندما نخرج من الحلم سنراقب انتقالنا من حالة النوم إلى حالة اليقظة، إذ أننا لا نستطيع أن نحلل حالتنا أثناء الحلم نفسه. ولنتتبع هذا

الانتقال بقدر المستطاع - لنوجه التفاتنا إلى حالة عدم انتباه عندنا، ولنأخذ على غرة الحالة النفسية لإنسان لم يزل نائماً، ولكنه في طريق اليقظة. نعم إن هذا العمل عسير ولكنه ليس بالمستحيل لمن مرن نفسه عليه بكل صبر. اسمحوا لي أن أقص عليكم حلماً من أحلامي وأقول لكم ماذا ظننت عندما استيقظت. ظننت أني على منبر أخاطب حشداً من الناس، فصعدت تمتمة مبهمة من مؤخرة المستمعين، ثم أخذت في الوضوح؛ وأصبحت رعداً، ثم نباحاً، ثم ضجيجاً فضيعاً - ثم دوى من كل جانب وعلى وتيرة منظمة صراخ يقول: إلى الباب إلى الباب. استيقظت فجأة عندئذ - وكان كلب ينبح في الحديقة المجاورة، وكلما كان يعوي كان الصراخ القائل: إلى الباب يمتزج بكل عوية من عواء الكلب - هذه هي اللحظة التي يجب انتهازها. فشخصية اليقظة التي ظهرت الآن تتحول نحو شخصية الحلم التي لم تزل موجودة وتقول لها: (أقبض عليك متلبسة بجرمك؛ تظهرين لي حشداً يصرخ وليس هناك إلا كلب يعوي! لا تحاولي الهروب. إني قابضة عليك. ستدلين لي بسرك وأمرك - ستدعينني أرى ماذا كنت تصنعين) وشخصية الحلم تجيب قائلة: انظري! إني لم أكن أفعل شيئاً؛ ولأجل ذلك كانت شخصيتانا مختلفتين، فتقول لها شخصية اليقظة: أتظنين أنك لا تفعلين شيئاً وأنا أسمع كلباً ينبح وأفهم أن من ينبح هو كلب؟ إنه لضلال مبين. . . أنت تبذلين مجهوداً كبيراً بدون أن تشعري بذلك - يجب أن تجمعي كل ذاكرتك وكل تجاربك المتراكمة وتقوديها بواسطة حصر مفاجئ حتى لا نقدم للصوت الذي تسمعينه سوى جزء من هذه الذاكرة أعني الذكرى التي تكون أكثر شبهاً بهذا الإحساس والتي يمكنها أن تعبر عنه أحسن تعبير: فحينئذ إذ تغطي الذكرى الإحساس. ثم يجب أن تكون هناك الموافقة التامة حيث لا يترك أي فرق بين الذكرى والإحساس (وإلا فستكونين في حالة حلم).

لا يمكنك أن تضمن هذه المطابقة وهذه الموافقة التامة إلا بواسطة الانتباه أو بالأحرى بواسطة مجهود مشترك من قبل الإحساس والذاكرة. هكذا يفعل الخياط عندما يجرب لك رداء قصَّه فقط، فهو يضع الدبابيس ويشد بقدر الإمكان القماش على الجسم حتى ينسجم عليه تماماً. وحياتك في حالة اليقظة هي حياة عمل وإن ظننت أنك لا تعملين شيئاً. وذلك لأنه يجب عليك في كل لحظة أن تختاري وأن تعزلي. إنك تختارين بين

احساساتك لأنك تبعدين عن الوجدان آلاف الاحساسات الشخصية التي تعود إلى الظهور حينما تنامين. إنك
تختارين بكل دقة وتأن من بين ذكرياتك بما أنك تبعدين كل ذكرى لا تنسجم وحالتك الحاضرة. هذا الاختيار الذي تقومين به بلا انقطاع، وهذه المطابقة (بين الذكريات والحالة الحاضرة) المستمرة والدائمة التمدد هما الشرط الأساسي لما يسمونه الصواب. ولكن المطابقة والاختيار يجعلانك في حالة إجهاد غير منقطع أنت لا تشعرين به في الحال كما أنك لا تشعرين بالضغط الجوي ولكنك تتعبين إذا ما طال. والصواب متعب جداً.
لقد قلت لك تواً: إني أتميز عنك لأني لا أفعل شيئاً. والمجهود الذي تبذلينه بدون) انقطاع أنا أمتنع فقط عن بذله. أنت تتمسكين بالحياة وأنا أنفصل عنها. لم أعد أكترث بشيء ولا أهتم بشيء. النوم عدم اهتمام ونحن نيام بقدر ما نكون غير مبالين. الأم النائمة بجانب طفلها يمكنها ألا تسمع قصف الرعد، بينما تنهدة واحدة من تنهدات طفلها توقظها. فهل كانت غافلة (نائمة) حقاً بالنسبة لطفلها؟ إننا لا نغفل عما يزال يهمنا
تسألينني عما أفعل عندما أحلم؟ سأقول لك ماذا تفعلين أنت أثناء اليقظة. تأخذينني) أنا شخصية الأحلام، أنا مجموعة ماضيك وتقودينني، مضيقة على الخناق، حتى تحصرينني داخل الدائرة الضيقة التي تخطينها حول عملك الحالي، هذه هي حالة اليقظة: الحياة النفسية الطبيعية، الجهاد، الإرادة. أما الحلم فهل أنت بحاجة لأن أعبر لك عنه؟ إنها الحالة التي تلاقين فيها نفسك في حالتها الطبيعية عندما تتركينها على غاربها، عندما تهملين حصرها في نقطة واحدة، عندما تكف الإرادة عن العمل. وإذا ألححت أو أصررت في طلب شرح أي شيء فسلي كيف تعمل إرادتك في أي وقت من أوقات اليقظة حتى يمكنها أن تحصر كل تحمله فيك في نقطة واحدة تهمك. وذلك بدون أن تشعري واسألي فجأة حينئذ حالتك النفسية وقت اليقظة، ووظيفتها الأساسية (أن تجيبك. لأن اليقظة والإرادة شيء واحد
هذا ما تقوله شخصية الأحلام، وإنها لتقص علينا أشياء أخرى كثيرة إذا تركنا لها المجال لذلك. لكن لقد حان الوقت للوصول إلى النتيجة. ما هو الفرق الجوهري بين الحلم واليقظة؟ سنلخص ما سبق قائلين إن القوى نفسها تعمل سواء كنا في حالة اليقظة أو في حالة الحلم. فقط في الحالة الأولى تكون هذه القوى منحصرة وفي الحالة الثانية تكون منطلقة
الحلم هو الحياة العقلية بأكملها ينقصها مجهود الحصر. فلا نزال ندرك ولا نزال نتذكر ولا
نزال نعقل. والحالم يمكنه أن يدرك ويتذكر ويعقل كثيراً. والإكثار في هذه العمليات لا يعني أن النفس تبذل مجهوداً لأن ما يتطلب المجهود إنما هو الدقة والتأني في الانسجام. فنحن لا نعمل شيئاً ولا نبذل أي مجهود ليرتبط نباح الكلب صدفة بذكرى حشد متضجر، ولكن يجب بذل مجهود فعلي حتى يتصل هذا النباح بذكرى نباح الكلب وحتى يمكننا التعبير عنه أنه فعلاً نباح. ولكن لم تبق عند الحلم أي قوة لبذل هذا المجهود. فبذلك وبذلك فقط يتميز الحالم عن اليقظان
هذا هو الفرق ونحن نعبر عنه بطرق مختلفة. وإني سأتجنب التفصيلات؛ فقط ألفت نظركم إلى نقطتين أو ثلاث وهي: عدم استقرار الحلم، والسرعة التي يمكنه أن يسرد بها، والأفضلية التي يعطيها للذكريات التافهة
من السهل التعبير عن عدم الاستقرار، إذ أن الحلم من خاصيته ألا يجعل الإحساس ينطوي تماماً على الذكرى، بل يترك في ذلك مجالاً للعب، فعليه يمكن لذكريات مختلفة تمام الاختلاف أن تنطبق على الحلم. إليك مثلاً بقعة خضراء منتشرة عليها نقط بيضاء، وذلك في حقل البصر - فيمكنها أن تحقق ذكرى جزء مزدهر في حديقة أو ذكرى مائدة لعب الكرات مع كراتها، أو أشياء أخرى كثيرة. وجميع الذكريات تريد أن تعود إلى الحياة في هذا الإحساس وكلها تعدو وراءه. ففي بعض الأحيان تبلغه الواحدة تلو الأخرى، والجزء المزدهر في الحديقة يصبح مائدة لعب الكرات، ونشاهد حينئذ تطورات مدهشة. وفي بعض الأحيان تبلغه جميعها فيصير الجزء المزدهر مائدة لعب الكرات، ويحاول الحالم أن يرفع عنه هذا التناقض بواسطة تفكير يزيد في دهشته

(البقية في العدد القادم)

ألبير نادر

المؤلفات العربية القديمة

وما طبع منها في سنة 1942

للأستاذ كوركيس عواد

في غير موطن من هذه المجلة، نشرنا قوائم بالتصانيف العربية القديمة التي طبعت في السنوات 1939 و1940 و1941 مما كنا وقفنا عليه بالذات أو ما كان اتصل بنا خبره. وهانحن أولاء نواصل ما بدأنا به سابقاً، مع علمنا بصعوبة إدراك ما نتمناه في هذه السبيل وهو الوقوف على كل ما يطبع منها وحصره حصراً تاماً. ولعل ذلك التقصير راجع في أغلبه إلى الظرف الذي يلابسنا، فقد تعسر فيه سير البريد بين بعض الأقطار وتعذر في غيرها، ذلك بعد أن كان فيما مضى من أيام السلم مضرب المثل في انتظامه وسرعته

وعلى كل حال، فإننا نذكر فيما يلي ما انتهى إلينا من مطبوعات سنة 1942، ثم نردفها ببعض المستدركات على مطبوعات سنة 1941، متبعين في سياقتها الترتيب الهجائي لعناوين الكتب، شأننا فيما فعلناه في القوائم السالفة.

أولاً: مطبوعات سنة 1942

1 - الأشباه والنظائر في النحو لجلال الدين السيوطي، المتوفى سنة 911هـ. نشرته مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد في أربعة مجلدات، صحائفها على التوالي 340 و334 و303 و253

2 - الأفعال: لأبي القاسم علي بن جعفر السعدي اللغوي المعروف بابن القطاع الصقلي المولد، المتوفى بمصر في سنة 515 وقيل 514هـ نشرته مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد. ظهر منه مجلدان (398 و491 ص) فيهما ذكر الأفعال المبدوءة بالهمزة فالباء إلى الفاء. وسيظهر المجلد الثالث وبه يكون تمام الكتاب

3 - الألحان واختلاف الناس فيه: هو قسم من كتاب الياقوتة الثانية في كتاب العقد الفريد لابن عبد ربة المتوفى سنة 328هـ. نقله إلى الإنكليزية المستشرق فارمر وطبعه في مدينة برسدن باسكتلندة ضمن المجموع الموسيقي الموسوم 5 ; 27

وقد ظهرت الرسالة أولاً في المجلة الآسيوية البريطانية

4 - الإمتاع والمؤانسة: لأبي حيان التوحيدي، المتوفى بعد سنة 400هـ الجزء الثاني، صححه وضبطه وشرح غريبه الأستاذان أحمد أمين بك وأحمد الزين (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة 205 + 26 ص) الجزء الأول صدر سنة 1939

5 - بلاغات النساء وطرائف كلامهنَّ ومُلَح نوادرهن وأخبار ذوات الرأي منهن وأشعارهن في الجاهلية وصدر الإسلام: لأبي الفضل أحمد بن أبي طاهر المعروف بطيفور، المتوفى سنة (280هـ). نشرته المكتبة المرتضوية ومطبعتها الحيدرية في النجف في 226 صفحة

6 - التاريخ الكبير: للإمام البخاري المتوفى سنة 251هـ. القسم الثاني من الجزء الرابع، نشرته دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد في 465 19 ص. وفيه تراجم رجال الحديث من باب (مدرك) إلى باب (يونس). القسم الأول من الجزء الرابع ظهر سنة 1941 ولم يطبع شيء مما قبله

7 - التصوير عند العرب: للمغفور له العلامة أحمد باشا تيمور، المتوفى سنة 1347هـ. أخرجه وزاد عليه الدراسات الفنية والتعليقات الدكتور زكي محمد حسن (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 15 324 ص منها 114 ص للمنن الأصلي والباقي للناشر. والكتاب مزدان بصور عديدة

8 - تفسير سفر هُوْشع (أحد أسفار التوراة). تأليف يافث بن عليَّ القرَّائي (من أهل المائة العاشرة للميلاد) نشره المستشرق برنبام إلى ثماني نسخ خطية لهذا الكتاب، ومضيفاً إليه تعليقات ومقدمة بالإنكليزية. (فيلادلفية (الولايات المتحدة) 62 + 274ص)

9 - الجرح والتعديل: لأبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، المتوفى سنة 327هـ، الجزء الثالث، نشرته مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد، في قسمين

صحائفهما 435 و340. أما سائر الأجزاء فلم تطبع
10 - ديوان أبي تمام: لأبي تمام الطائي الشاعر المشهور، المتوفى سنة 228هـ. باب الهمزة منه، شرحه ودرسه الأستاذ أحمد عثمان عبد المجيد (طبع في القاهرة)
11 - رسالة في اتصال العقل بالإنسان: لابن باجة الفيلسوف الأندلسي الشهير، المتوفى سنة 533هـ، خاطب بها بعض إخوانه. نشرها المستشرق أسين في مجلة الأندلس
الإسبانية 1 - 47 - , , 1942 بعنوان:
12 - السلوك لمعرفة دول الملوك: لتقي الدين المقريزي، المتوفى سنة 845هـ القسم الثاني من الجزء الثاني، عني بتحقيقه الدكتور محمد مصطفى زيادة على غرار الأجزاء السابقة. وهو يشتمل على بقية عهد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة، 250 ص)
13 - ضوء الصباح في مدح الوزير عبد الفتاح: وهو ديوان شعر محمد بن مصطفى الغلامي الموصلي (من أبناء المائة الثانية عشرة للهجرة)، أهداه إلى الوزير عبد الفتاح باشا بن إسماعيل باشا الجليلي سنة 1183هـ، نشره الأستاذ محمد رؤوف الغلامي في آخر كتاب (العلم السامي في ترجمة الشيخ محمد الغلامي) (مطبعة أم الربيعين بالموصل الصفحة 298 - 360)
14 - علم البيان: رسالة صغيرة كتب على غلافها أنها (تأليف العلامة أبي بكر) نشرها الأستاذ عبد المجيد الملا. (مطبعة الفرات، بغداد 32 ص)
15 - كتاب الكنى: هو جزء من التاريخ الكبير للأمام البخاري (256هـ) نشرته مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد في 98 صفحة
16 - المزهر في علوم اللغة وأنواعها: لجلال الدين السيوطي، المتوفى سنة 911هـ عني بشرحه وتصحيحه الأساتذة محمد أحمد جاد المولى بك ومحمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي نشرته دار إحياء الكتب العربية (مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بالقاهرة، في 651 صفحة)
17 - المعَرَّب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم: لأبي منصور الجواليقي، المتوفى سنة 540هـ. حققه وشرحه الأستاذ العلامة أحمد محمد شاكر (مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة 40 + 456 ص)
18 - المفضليات: جمعها أبو العباس المفضل الضبِّي، المتوفى سنة 168 أو 170هـ. الجزء الأول، حققه وشرحه الأستاذان أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون. (مطبعة المعارف ومكتبتها بالقاهرة، 200 ص)
19 - المفضليات الخمس: للمفضل الضبي (168 أو 170هـ) حققها وشرحها الأستاذ عبد السلم محمد هارون (مطبعة المعارف ومكتبتها بالقاهرة، 48 ص)
20 - من شعر أبي تمام: فيه نصوص من شعر أبي تمام والقصائد الخمس الأولى من المفضليات. ضبطه وشرحه وعلق عليه الأستاذ محمد محمد رضوان (طبع في القاهرة)
21 - نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة. للقاضي أبي علي المحسن بن علي التنوخي المتوفى سنة 384هـ الجزء الثاني بتحقيق المستشرق في (مجلة المجمع العلمي العربي) بدمشق، في أعداد المجلد 12 منها (سنة 1932 - والمجلد 13 (سنة 1933 - 1935) والمجلد 17 (سنة 1942) إن الجزء الأول من هذا الكتاب النفيس، نشره مرجليوث (القاهرة 1921)، والجزء الثامن منه نشره المستشرق المذكور والمجمع العلمي العربي (دمشق1930) ولا يعلم اليوم من أجزاء النشوار، التي تبلغ أحد عشر مجلداً، غير هذه الثلاثة، الأول والثاني والثامن
22 - همزيات أبي تمام: شرحها وحققها الأستاذ عبد السلام محمد هارون (مطبعة المعارف ومكتبتها بالقاهرة 79 ص)
23 - وجائب الضمير: تأليف يحيا بن يوسف بن بقواد (المتوفى نحو سنة 1050 م) نقله من أصله العربي إلى اللغة العبرية يهوذا بن تبون ونقله إلى الإنكليزية هيامسن وقد نشرت الترجمتان معاً في نيويورك، في 5 + 156 ص

ثانياً: المستدرك على مطبوعات سنة 1941

1 - الإباتة في أصول الديانة: لأبي الحسن علي بن إسماعيل البصري الأشعري (قيل

إنه توفي سنة 324هـ) نقله من العربية إلى الإنكليزية المستشرق بمقدمة وتعليقات، في المجلد 19 من (نيوهافن 13 + 143 ص)
2 - أزهار الرياض في أخبار عياض: لشهاب الدين المقري التلمساني، المتوفى سنة 1041هـ الجزء الثاني، نشره وعلق عليه الأساتذة مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي، طبع على نفقة بيت المغرب (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 430 ص) الجزء الأول ظهر سنة 1939
3 - أنباط المياه الخفية: لأبي بكر محمد بن الحسن الحاسب الكرخي (من أهل المائة الخامسة للهجرة) نشرته مطبعة المعارف العثمانية بحيدر آباد بعناية الأستاذ السيد هاشم الندوي (74 صفحة فيها أشكال توضيحية)
4 - أولياء حلب في منظومة الشيخ أبي الوفاء الرفاعي (1765 - 1847م) نشرها الأب فردينان توتل اليسوعي، بمقدمة وتعليقات وفهارس (المشرق 38 (بيروت 1940) ص 321 - 422). وقد وضع الناشر ترجمة أبي الوفاء في المشرق (39 (1941) ص 164 - 184).

(بغداد)

كوركيس عواد

البريد الأدبي

معنى قوله تعالى (يخرج الحي من الميت)

لقد اطلعت في مجلة الرسالة الغراء على تفسير لهذه الآية الكريمة، ولما كنت قد فسرتها في كتابي (الحمل وخلقة الإنسان بين الطب الحديث والقرآن) تفسيراً آخر رأيت أن أدلي به على صفحات هذه المجلة

فالمقصود من قول الله تعالى (يخرج الحي من الميت) أي أنه تعالى يخرج الإنسان الحي من الطين الميت؛ ويشير إلى ذلك قول الله تعالى: (إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين) ثم يجعله يتكون وينمو من أشياء ميتة؛ فالإنسان الحي يقتات من المواد النباتية وهي غير حية كما يقتات من لحوم الحيوانات بعد ذبحها وموتها وموت خلاياها موتاً كلياً، فيحول الله تعالى هذه الأشياء الميتة في جسم الإنسان إلى جسم حي فينمو الإنسان ويكبر. فالإنسان يستمد حياته من الحيوان والنبات، والحيوان يبنى جسده من النبات، والنبات ينمو من مواد الأرض فلا شك أن جسم الإنسان كله ينمو من الطين. وهذه معجزة الله الخالق العظيم الذي بدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل بناء جسمه من الطين

فالمواد التي تدخل في تركيب أجسامنا موجودة في حفنة من تراب أو في حثوة من طين، ولكنا لا نستطيع الانتفاع بها مباشرة وإنما ننتفع بها عن طريق النبات. فعلى ذلك يحول الله تعالى المادة غير الحية إلى مادة حية في أجسامنا، وهذا هو إخراج الحي من الميت

وإما إخراج الميت من الحي فهو مثل خروج الإفرازات كاللبن وهو شيء ميت من جسم حي

أما قول كثير من المفسرين من إن إخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي هو إخراج الإنسان من النطفة وإخراج النطفة من الإنسان على اعتبار أن النطفة شيء ميت، فأعتقد أن ذلك لا يساير الحقيقة وقد ثبت أن النطفة جسم حي بحيواناتها المنوية الحيّة.

(بني سويف)

الدكتور حامد البدري الغرابي

من رسائل الرافعي. ألفاظ العلوم. الترادف في السجع

الشعر الجاهلي

منع الجاحظ أن يستعمل الخطيب - إذا كان متكلماً - ألفاظ المتكلمين إلا إذا عبر عن شيء من صناعة الكلام واصفاً أو مجيباً؛ وحرم العسكري على الأديب استعمال تلك الألفاظ في أي غرض؛ وأوجب ابن الأثير على الكاتب أن يعرف مصطلحات كل صناعة وأن يلم بكل علم وفن. فسألت الرافعي رحمه الله عن هذه الآراء الثلاثة وسألته كذلك عما أخذه ابن الأثير على الصابي من أنه يرادف السجع في المعنى الواحد؛ ثم طلبت

بعد ذلك أن يفضي برأيه فيما ذكره المنفلوطي رحمه الله من أن الشعر الجاهلي شعر ساذج. فجاءني هذا الجواب الشامل:

(أيها الأخ: السلام عليكم ورحمة الله. وبعد فإنه يسرني أن أعرف لكم هذه العناية بالأدب والتوفر عليه، ولعلكم واجدون فيه شيئاً من التعزية عما ترونه في حادثات الدهر من سوء الأدب. . . أما الأسئلة فإني مجيبكم عنها بإيجاز. . ولو أعان الله على إظهار ما بقي من أجزاء تاريخ آداب العرب لرأيتم فيها الجواب مطولاً مبسوطاً

أما كلام الجاحظ فصحيح؛ لأنه يريد (بالمتكلم) الرجل من أهل الجدل وعلماء الكلام؛ وهذا إذا هو استعمل ألفاظ صناعته في مخاطبة الناس من أهله وجيرانه، أو الكتابة إلى من هو في حكمهم والخطابة عليهم، كان ذلك مرذولاً منه وعُدَّ متكلفاً ودخل في باب الغريب الذي يسمونه العي الأكبر؛ ولكن الجاحظ لم يمنع أن يفيض المتكلم مع المتكلمين بمثل تلك الألفاظ بل هو نبه على أن ذلك محمود منه

والأصل هو ما ورد في الحديث: خاطبوا الناس على قدر عقولهم. وصاحب المثل السائر لا يرمي في كلامه إلى ما أراده الجاحظ بل هو يريد أن يلم الكاتب بمصطلحات كل صناعة ويشارك في كل علم وفن، إذ يجد في ذلك مادة ربما احتاج إليها في توليد معنى، أو في الكتابة عن واحد من أهل تلك الصناعات أو في ديوان من دواوين الإنشاء القديمة التي كانت تتناول أكثر أمور الدولة يومئذ، ففيها كاتب الرسائل وكاتب الخراج وكتّاب آخرون، وكانت تلك أغراض الكتابة من حيث هي صناعة. على أن ألفاظ العلوم الخاصة بها مما

يصطلح عليه لا يجوز أن يستعان بها في الإنشاء إلا لغرض يستدعيها وإلا كانت من العي والفهاهة ونزلت منزلة الحشو ووقعت أكثر ما تقع لغواً. وهذا هو غرض العسكري

وأما عيب صاحب المثل علي الصابي في ترادف السجع فأنا أراه في موضعه من النقد، لأن السجع صناعة لا سجية، والترادف قد يحسن الأسلوب المرسل لمتانة السياق وقوة السرد كما تجده في كتابة الجاحظ وغيره، ولكن الذي يسجع لا يضطر إليه لأن كل سجعة فاصلة فهو من باب الحشو لا غير. والصابي علي قوته في الترسل ضعيف في السجع لا يبلغ فيه منزلة البديع، ولا جرم كان ذلك من ضعفه فيه

وأما شعر الجاهلية وسذاجته فلم أقرأ ما كتبه المنفلوطي في ذلك، ولكن شعر الجاهلية كشعر غيرهم إنما يصف أحوال الحياة التي شهدوها فيقع فيه ما يقع في سواه من القوة والضعف ويكون فيه الجيد والسخيف. على أن شعر فحول الجاهلية لا يتعلق به شيء من شعر غيرهم في صناعة البيان لا في صناعة الشعر إذ هم أهل اللغة وواضعوها

وفي الجزء الثالث من تاريخ الأدب زهاء أربعمائة صفحة في تاريخ الشعر العربي وفلسفته وأدواره الخ

على أني أحب لك ألا تحفل كثيراً بأقوال المتأخرين وكتاباتهم ومحاوراتهم فيما يختص بالأدب العربي وتاريخه لأنهم جميعاً ضعاف لم يدرسوه ولم يفكروا فيه، فابحث أنت وفكر واجتهد لنفسك فهذه هي السبيل. . .

كتبت على عجلة ساعة الانصراف، ففكر في الجواب واستخرج من قليله مالا يكون به قليلاً. والسلام عليكم ورحمة الله

14 أكتوبر 1916

(المنصورة)

(مصطفى صادق الرافعي)

محمود أبو رية

تصحيح اسم طبيب

كتب صديقنا القديم الدكتور باول كراوس المدرس بكلية الآداب مقالين نفيسين في الثقافة

الغراء عن (هبة الله بن جميع الإسرائيلي المصري طبيب الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن أيوب. وضبط الدكتور الفاضل اسم الطبيب المصري هكذا (ابن جميع أو ابن جُميِّع)

وعجبت جداً كيف يغفل صديقنا المحقق عن صحة اسم هذا الطبيب الإسرائيلي المصري فيرويه على وجهين، مع أن النصوص والأخبار جميعها متفقة على رواية واحدة

وهي ابن جميع بفتح الجيم لا غير. فلا حاجة بنا إلى تشديد الياء
قلت إن الأخبار الأدبية والتاريخية تؤيد هذا الوجه ولا تعرف غيره وخاصة أن هذه الأخبار لأعلام عصر المؤلف وشعرائه المشهورين
ودليلنا على ذلك ما قاله ابن المنجم المصري الشاعر المشهور في عصر صلاح الدين وكان معاصراً لابن جميع في عجائه:
دعوا ابن جميع وبهتانه ... ودعواه في الطب والهندسة
فما هو إلا رقيع أتى ... وإن حل في بلد أنحسه
وقوله من أبيات أخرى.
لابن جميع في طبه حمق ... يسب طب المسيح من سببه
وقوله من أبيات أخرى
كذبت وصحفت فيما ادعيت ... وقلت أبوك جميع اليهودي
فهذه النصوص كلها تدل على أن اسمه ابن جميع بفتح الجيم لأن الشعر لا يستقيم وزنه على الوجه الثاني (ابن جميِّع) الذي ذكره الدكتور
بقي أن هذه الأبيات التي أوردتها هي في هجاء ابن جميع، وقد صدرت عن شاعر خبيث اللسان كما يعترف بذلك ابن أبي أصيبعة صاحب طبقات الأطباء ج 2ص113، ولكنها على كل حال لا تغض من قيمة ابن جميع العلمية ولا تنقص من قيمة رسالته الصلاحية النفيسة التي أورد الدكتور كراوس نبذاً منها في عدد الثقافة الأخير
محمد عبد الغني حسن
للأستاذ صلاح الدين المنجد (إبليس يغني)
الأستاذ صلاح الدين المنجد في طليعة الشباب السوري الممتاز بالجمع بين الثقافتين العربية والغربية. وقلما تجد هذا الجمع على نسبة عادلة في غير هذه الفئة الصالحة التي تنتج الأدب السوري اليوم وتجدد فيه وتقوم عليه؛ فهي تمتاز من غيرها بإشراق الديباجة وسلامة البيان من جهة التصوير، وبشمول الثقافة وجدَّة الفكرة من جهة التصوُّر. والمتتبع لمقالات الأستاذ المنجد في الرسالة يلاحظ هذه المزايا واضحة جلية. وقد أصدر اليوم بعنوان (إبليس يغني) ثلاث روايات قصيرة هي: إبليس يغني، وإبليس يلهو، وحسناء البصرة. نقلها عن حكايات قديمة (كتبت في عصر يباين عصرنا فأصبح يعوزها أن تعرض برشاقة، وتهذب بذوق، وتصقل بفن، وتثقف بدقة. . .) وقد قال الأستاذ: (فوضعت حوارها على طراز تمثيلي حديث، ولم أشأ أن أبدل في جوهرها، ولكن تصرفت بعض التصرف في ترتيبها وتفصيلها وتبويبها، فجاءت كتاباً خاصاً ما أحسب أن أحداً أفرد مثله لمثلها. . . أقدمه رياً للقلب الرغيب في التماس الجمال في أدب القدامى، ومتاعاً للنفس العطوف على الفن أنى كان، ووسيلة لتحبيب الشباب في أدبنا القديم). والكتاب مطبوع في مطبعة الترقي بدمشق طبعاً جميلاً على ورق جميل. فللأستاذ المنجد الشكر على كتابته، ولجمهور القراء التهنئة بقراءته
بنو إسرائيل والطعام الواحد
قرأت ما رد به الأستاذ (س) على الدكتور زكي مبارك في فهم الآية الكريمة: (اهبطوا مصراً. . .) فراعني منه أن يبنى على وجه التخطئة على ما يأتي:
أن (مصر) النيل المبارك فهي علم ممنوع من الصرف. . . كيف هذا وصاحب الكشاف يقول ما نصه. . . ويحتمل أن يريد العلم وإنما صرفه مع اجتماع السببين فيه وهما التعريف والتأنيث لسكون وسطه كقوله: نوحاً ولوطاً. . . وأن يريد مصراً من الأمصار. وفي مصحف عبد الله وقرأ به الأعمش: اهبطوا مصر بغير تنوين كقوله: ادخلوا مصراهـ
وعندي لتعليل تنوين مصر مع كونه علماً وجه آخر ذكره النحاة في كتبهم، وأظنه لا يغيب عن مثل حضرة الأستاذ، وهو أن العلم إذا أريد به البقعة لم يصرف لأنه اجتمع فيه التأنيث مع العلمية، وإن أريد به المكان صرف
والذي يرجح أن المراد بمصر مصر النيل قوله سبحانه (فإن لكم ما سألتم) إذ المعنى أنهم إذا نزلوا هذا البلد المعين فإنهم سيجدون سؤلهم، وسيكون المعنى على فهم الأستاذ الجليل أنهم إذا نزلوا أي مصر من الأمصار وجدوا ما يطلبون. فأي المعنيين أليق بعظمة القرآن وجلال التبيان؟!
إبراهيم السعيد عجلان

العدد 522 - بتاريخ: 05 - 07 - 1943
دفاع عن البلاغة - 13
الأسلوب - 5

خلص لنا من مخض هذه الأحاديث أن الأسلوب الفني يتكون من الصورة والفكرة كما يتكون الماء القراح من الهدروجين والأوكسجين. وكما استحال في فن الطبيعة أن يتكون الماء من أحد عنصريه، فقد استحال في فن الإنسان أن يتكون الأسلوب من أحد جزئيه. ولا أقصر وجه الشبه بين الأسلوب والماء على أن تركّب هذا وذاك من عنصرين ضربة لازب؛ إنما أمد الشّبه إلى أن نسبة الصورة إلى الفكرة في الأسلوب يجب أن تكون كنسبة الهدروجين إلى الأوكسجين في الماء. وإذن لا يعد من الأساليب الفنية تلك المعاني الحكيمة التي تُعرض في معرض بشع من الركاكّة والغثاثة والتعقيد والخطأ ولا تلك الصور المموهة التي تنتفخ انتفاخ الفقاقيع، وتبرق بريق الشرر، ثم لا يكون من ورائها غير فراغ وظلمة. قال ابن رشيق: (ولا تجد معنى يختل إلا من جهة اللفظ وجريه فيه على غير الواجب، قياساً على ما قدمت من أدواء الجسوم والأرواح. فان اختل المعنى كله وفسد، بقى اللفظ مواتاً لا فائدة فيه وإن كان حسن الطلاوة في السمع، كما أن الميت لم ينقص من شخصه شيء في رأى العين إلا أنه لا يُنتفع به ولا يفيد فائدة. وكذلك إن اختل اللفظ وتلاشى لم يصحّ له معنى، لأنا لا نجد روحاً في غير جسم ألبتَّةَ)

على ذلك نستطيع أن نتحدث إليك اليوم عن صفات الأسلوب الذي عرَّفناه وآثرناه. وحاشاك أن تفهم مما قدمتُ أن في ذهني أسلوباً معيناً جعلته النموذج، وأن في بالي نموذجاً خاصاً جعلته المقياس؛ فأني ذكرت لك من قبل أن الأساليب تختلف باختلاف الذهن والثقافة والنوع والغرض والحال والشخص الذي يتحدث. فأسلوب القصة غير أسلوب الرواية، وأسلوب العتاب غير أسلوب الشكر، وأسلوب التأثير غير أسلوب الإقناع، وأسلوب العالم غير أسلوب العامل؛ وكل أسلوب بليغ في بابه، مقبول من أصحابه. ومن العسير عليَّ في هذه اللمحات أن أستوعب الصفات الخاصة بكل أسلوب لكل نوع؛ فإن موضع ذلك عند تفصيل القول في الأنواع الأدبية وقواعدها الثابتة وشروطها المميزة؛ ولكن لهذه الأنواع مهما تعددت واختلفت صفات مشتركة من جهة الأسلوب، كما أن لها ملكات مشتركة من جهة الذهن، هذه الصفات المشتركة هي التي تعنينا ونعنيها، وهي التي سنحاول بسط الكلام فيها

تقرأ في كتب النقد والبلاغة فتجد من صفحه إلى صفحه سلاسل من الوصف الجزاف تتلاحق على الكلام البليغ فلا توضحه ولا تحدده. ذلك لأن أكثرها من الألفاظ التي أشاعها الكتاب في الناس من غير تقييد ولا تحديد فظلت معانيها مبهمة ودلالها شائعة. من ذلك قولهم: الجزالة والسهولة والعذوبة والرقة والدقة والخفة والقوة والسلاسة والرصانة والنصاعة والوضوح والصدق والحلاوة والرونق والمائية والطبيعية والسبك والحبك والشرف والسمو والجلال، إلى آخر هذه النعوت المتداخلة التي لا تعين حداً ولا تبين مزية

وأنت إذا تدبرت هذه الصفات على علاتها ثم عرفتها وصنفتها لا تجدها تخرج عن صفات ثلاث هي جملتها وجماعها: تلك الصفات الجامعي هي الأصالة والوجازة، والتلاؤم. ويقابلها في الفرنسية ' , ' وسنفيض القول في كل صفة منها ما وسعنا البيان والجهد يراد بالأصالة في الأسلوب بناؤه على ركنين أساسيين من خصوصية اللفظ وطرافة العبارة. وتلك هي الصفة الجوهرية للأسلوب البليغ، والسمة المميزة للكاتب الحق. وملاك الأصالة ألا تكتب كما يكتب الناس. ملاكها أن تكون أصيلاً في نظرتك وكلمتك وفكرتك وصورتك ولهجتك، فلا تستعمل لفظاً عاماً ولا تعبيراً محفوظاً ولا استعارة مشاعة. ولعلك قرأت فيما قرأت كلاماً يرضي اللغويين ويعجب النحاة، ولكنه مضطرب الدلالة مختلط الألوان تفه المذاق لا تستقله روح ولا تمثله صورة. ذلك هو الأسلوب الذي صدر عن الذاكرة ولم يصدر عن الذهن، ونقل عن الناس ولم ينقل عن النفس، وعبر بالجمل لا بالكلمات، وأبان بالتقريب لا بالدقة، وصور بالسوقي المبتذل لا بالأصيل المبتكر. أما خصوصية اللفظ فدلالته التامة على المعنى المراد ووقوعه الموفق في الموقع المناسب. وآية مطابقته لمعناه ومبناه أنك لا تستطيع أن تُبدله ولا أن تَنقله.

والخصوصية في اللفظ أصل الدقة في التعبير والوضوح في المعنى والصدق في الدلالة؛ لأن الكلمة إذا تمكنت في موضعها الأصيل دلت على المعنى كله؛ فإذا حُشرت فيه حشراً، أو قسرت عليه قسراً، دلت على بعض المعنى أو أبانت عن غيره وفي اختيار الكلمة الخاصة بالمعنى إبداع وخَلق؛ لأن الكلمة ميتة ما دامت في المعجم؛ فإذا وصلها الفنان الخالق بأخواتها في التركيب، ووضعها في موضعها الطبيعي من الجملة،
دبت فيها الحياة، وسرت فيها الحرارة، وظهر علية اللون، وتهيأ لها البروز. والكلمة في الجملة كالقطعة في الآلة، إذا وضعت في موضعها على الصورة اللازمة والنظام المطلوب تحركت الآلة وإلا ظلت جامدة. وللكلمات أرواح كما قال (موباسان). وأكثر القراء، وإن شئت فقل أكثر الكتاب، لا يطلبون منها غير المعاني. فإذا استطعت أن تجد الكلمة التي لا غنى عنها ولا عوض منها، ثم وضعتها في الموضع الذي أعد لها وهندس عليها، ونفخت فيها الروح التي تعيد لها الحياة وترسل عليها الضوء، ضمنت الدقة والقوة والصدق والطبيعّة والوضوح، وأمنت الترادف والتقريب والإعتساف ووضع الجملة في موضع الكلمة. وذلك في الجهاد الفني فوز غير قليل.
(للكلام بقية)
احمد حسن الزيات
الحديث ذو شجون
للدكتور زكي مبارك
الحياة والموت في الآية القرآنية - احترسوا من الأموات - الغصن الوريق
قرأت السؤال الموجه إلى الأستاذ محمد أحمد الغمراوي من أحد أفاضل الفراء، وقرأت إجابة حضرة الدكتور عباس محمود حسين وإجابة ضرة الدكتور حامد البدري الغرابي، ثم رأت أشترك في الإجابة، لأن عندي آراء ترفع اللبس عن الآية القرآنية، وتلقي على الموضوع بوارق من الضياء
القرآن يقول (يُخرج الحيّ من الميت) والعلم يقول إن الحيّ لا يخرج من الميت، فكيف نوفق بين قول العلم وقول القرآن؟
إن هذا الخاطر حير البرية منذ أزمان، فقد قال أبو العلاء:
والذي حارت البرية فيه ... حيوانٌ مستحدثٌ من جماد
وأسارع فأقرر أن مصدر الحيرة يرجع إلى عدم فهم المراد من الميت، وعدم فهم المراد من الجماد
وبيان ذلك أن الموت في الآية القرآنية ليس هو الموت الذي ينافي الحياة كل المنافاة، وإنما هو الحالة التي لا تتمثل فيها خصائص الحيوان والنبات من الإحساس والنماء، وكذلك يقال في الجماد وهو الطين في بيت العلاء، فالطين ليس له في الظاهر إحساس ولا نماء، ولكن فيه حيوية تظهر في قدرته على تحويل البذور إلى نبات، فهو يحتضنها بحرارة تشبه احتضان الطير للبيض، وتلك الحيوية متفرعة عن أسباب جوية، ولكنها أصيلة في الطين بدليل قدرته على اجتذاب وسائل الإنضاج، فإنه لا يمكن تصور الفاعلية بدون بدون تصور القابلية، والقابلية استعداد يشهد بالحيوية
يروي أن أستاذنا الروحي في التصوف وهو أبو الحسن الشاذلي قال (نحن كالسلحفاة تربى أبناءها بالنظر) وهي عبارة في غاية من الجمال
ومع أني لم أفكر في تحقيق هذه الظاهرة الطبيعية فقد سمعت أن النعامة تحتضن بيضها بالنظر فقط، لأنها لا ترقد علية وطريقتها في الاحتضان أن تنظر إلى البيض باستقامة لا يعروها التفات إلى اليمن أو الشمال، فإذا تعبت جاء الظليم فوقف مكانها وصوب نظرة إلى
البيض بنفس الأسلوب، لأنه إذا انحرف يمنة أو يسرة خفت الحرارة فبرد البيض وعن هذه الصورة نقلت بعض الكنائس وضع بيضة الناعمة في المحراب، لتوحي إلى المصلين أن الصلاة لا تقبل إذا اعترى المصلي أي انحراف
فنظرة السلحفاة للتغذية ونظرة النعامة للاحتضان، هاتان النظرتان فيهما حيوية لا يرتاب فيها مرتاب، وهما تشبهان احتضان الطين لبذور الشجر والنبات
قلت مرة إني أنكر أن يكون في الوجود شئ ميت، وهذا رأى كونته بعد تجارب، وهو في يقيني صحيح صحيح، وعندي على صحته براهين

ما رأيكم في الغبار الذي يثور فيسد مسام الأجسام ويقذي العيون؟
في ذلك الغبار حيوية تسبب ذلك الإيذاء، وأن سكت عنها الباحثون، وبرهاني على هذا القول أن القابلية لا تتأثر بدون فاعلية ومعنى ذلك أن الغبار من الأحياء لأنه فعال
يقول الدكتور حامد البدري:
الإنسان الحي يقتات من المواد النباتية وهي غير حية، كما تقتات من لحوم الحيوانات (بعد ذبحها وموتها وموت خلاياها موتاً كلياً)
وأنا لا أقول بهذا القول، فالنباتات التي نأكلها حيةٌ وليست بميتة، ولحوم الحيوانات لا تموت خلاياها موتاً كلياً بذبحها وموتها، كما يقول هذا الطبيب، وإنما هي لحوم حية وإن أنضجناها بالنار، وإلا فكيف يمكن أن تعود على أجسامنا وعقولنا بالنشاط والأريحية؟
إن حياة الدجاجة، حياتها الطبيعية، لا تقاس إلى حياتها المعنوية بعد أن تذبح وتؤكل، فقد يكون آكلها قائداً فينتصر في موقعة، وقد يكون شاعراً فينظم قصيدة بليغة، وقد يكون باحثاً فينشط ذهنه لحل أصعب المعضلات
هل تعرفون شيئاً عن طمي النيل، وإلى ذلك الطمي يرجع خصب الأرض المصرية؟
ذلك الطمي ليس غباراً تسفيه الرياح كما يقول جماعة من المهندسين، وإنما هو محصول حيواني ونباتي تنظمه خلائق صغيرة لم يتحدث عنها العلم ولا التاريخ، ولهذا السبب نجد في الفلاحين من يأكل طمي النيل بشهية، لأنه في الواقع طعام من لأتراب، وهو لدسامته المفرطة يؤذي الأمعاء، ويصيب الفلاحين بمرض الرهان والفلاح بطبعه يترك الماء المقطر، ويقبل الماء المعكر لأن عكارة ماء النيل غذاء، وهي
السبب فيما نتمتع به من الخيرات. لا تنسوا أن العكارة هي في الأصل عناصر نباتية والحيوانية، وإن سكت عنها الأطباء في القديم والحديث
ثم ماذا؟ ثم أمضى إلى نهاية الشوط فأقول:
ما الذي يوجب أن تكون الرسوم الهوامد من أسباب الإيحاء، إلى الشعراء؟
وتذكروا الفاعلية والقابلية، لتعرفوا أن الرسم الهامد لا يخلو من حياة، وهل يوحي الأموات إلا وهم في بعض أحوالهم أحياء؟
الناس في جميع العهود يؤمنون بالعين، أو يخافون العين، وتلك أسطورة معروفة عند بني إسرائيل، وعنهم نقلها أكثر شعوب الشرق، وما سميتها أسطورة إلا تلطفاً مع العلم الحديث وإلا فهي حقيقة من الحقائق، فعين الحاسد يصدر عنها شعاع محرق، شعاع يحسه الحاسد نفسه، كما نص بعض القدماء، وهذا الشعاع يسلم الرجل إلى القبر، والجمل إلى القدر، كما جاء في بعض الأحاديث المنسوبة إلى الرسول
قال يعقوب لبنيه عند دخولهم عاصمة مصر لذاك العهد: (يا بنيّ لا تدخلوا من باب واحد، وأدخلوا من أبواب متفرقة) فما معنى هذه الوصية؟ قال جماعة من المفسرين: إنه خاف عليهم عيون الحاسدين
ولنفرض أن الحسد خرافة في خرافة، وأن الجاهلين افتروا على النبي محمد والنبي يعقوب، فكيف تفشت تلك الخرافة في اكثر الشعوب؟
هل تصدر الخرافات بدون أصل؟
إن كان ذلك فحدثوني عن سر التوافق بين المصريين والفرنسيين في هاتين العبارتين:
إن خاف المصري الحسد قال: عين الحسود فيها عود. وإن خاف الفرنسي الحسد قال: إلمس الخشب
فما معنى هذا التوافق العجيب في الفكرة والصورة؟
هل كان المصريون والفرنسيون يدركون قيمة الخشب في دفع باس الكهرباء؟
هذه والله إحدى العجائب
المهم هو أن أقرر بصراحة أن ليس في الوجود شئ ميت، وأن القرآن حين قال: (يخرج الحيّ من الميت) لم يكن يريد الموت المطلق، وإنما كان يريد الموت الاصطلاحي، وهو
الحالة التي لا تتمثل فيها خصائص الحيوان والنبات من الإحساس والنماء
وما هو الموت إذا أريدت حقيقة الموت؟
إن كان الموت هو الفناء فلا فناء
قال القرآن المجيد: (إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد) ومع هذا فالله لن يتركنا أبداً،

فالكتب السماوية صريحة في أنه سيردنا إليه، للثواب أو العقاب، وعلى هذا لن يكون الموت لغير غفوات قصار أو طوال
ثم ماذا؟ ثم أسأل عن التفسير الصوفي لعبارة (يخرج الحي من الميت) وهو تفسير سكت عنه أساتذتي في التصوف، ومن حقي أن أتأدب بأدبهم فأدير الحديث بالرمز والإيماء
الميت في التصوف هو الإنسان الفاني، والحي في التصوف هو الإنسان الباقي، ومن فضل الله على عباده الفانين، أن يجعل منهم عباداً خالدين
فإن قيل: وكيف يخرج الله الميت من الحي على الطريقة الصوفية؟ فأنا أجيب:
الحي في هذه المرة هو الدنيوي المفتون، وسينتقم الله منه فيجعل ميتاً بالعقاب يوم الحساب
أما بعد فهذه كلمات لم أرد تفنيد ما قال ذانك الطبيبان الفاضلان، وإنما أردت أن أقدم إلى قرائي حقائق تعتلج في صدري، وهي حقائق متصلة بالشروح التي أيدت بها نظرية وحدة الوجود
لا موت ولا فناء
فاسمعوا كلامي واعتقدوا أن في مقدور كل مخلوق أن يظفر بالخلود إن أراد جاهدوا لتحيوا، فلا حياة بدون جهاد
لا تكونوا صحراوات لا يترقرق فيها غير السراب، وإن كان للصحراء حياة تتمثل في قدرتها على تفويت ألوان السراب كل شئ حي، حتى الصحراء التي تبدع السراب،
فأين من سمع قبل اليوم أن الصحراء تؤيد غناها الموهوم بتلك الأحابيل؟
وكيف يكون غنى الصحراء غنى موهوماً وهي لا تقل في الثروة والمناعة عن البحر المحيط؟
أنا لا أخاف عليكم الموت ولا الفناء، لأني أنكر الموت والفناء، وإنما أدعوكم إلى التسلح بسلاح الفاعلية لا القابلية
لا تكونوا مقابر توحي فكرة الخوف والخذلان، وكونوا آساداً توحي فكرة السيطرة والافتراس
القبر يوحي والأسد يوحي، فاختاروا الأفضل والاشرف من الوحيين
لا موت في الوجود ولا فناء
ولكن الميت قد يحيا، والحي قد يموت
أموركم بأيديكم، فاصنعوا بأنفسكم ومصايركم ما تريدون، فقد بلغت في نصحكم غاية ما أملك من عافية الروح وصراحة البيان
احترسوا من الأموات
وراء كل إنسان حي إنسان ميت يسوقه بعنف إلى مصاير فيها المقبول والمردود، تبعاً لما يملك الميت من آراء وأهواء
ومن غرائب ما يقع في القدوة الفكرية أن الناس في الأغلب لا يحترمون رأي المفكر إلا بعد أن يموت. هل التفت الناس إلى آراء الشيخ محمد عبده إلا بعد أن مات؟
إن الشيخ عبده كان يتندر بمعاصريه فيقول إنهم لا يحترمون غير الرأي المنصوص عليه في كتاب قديم بعد عهد صاحبه بالحياة ولأحياء
وغفلة بني آدم من هذه الناحية أوضح من أن تحتاج إلى بيان، فقد أشاع أبو نواس وأصحابه أن الخمر لا تجود إلا إن قدم عهدها بالوجود، ولهذا نجد تجار الخمر يعفرون الزجاجة بالتراب ليوهموا الغافلين أن جوهرها عتيق، كما كنا نرى في بعض مخازن الخمور بمدينة باريس
والقديم في الأدب هو الأصل، فقد مرت أزمان والناس يعتقدون أن أشعار الجاهليين أقوى وأبرع من أشعار الأمويين والعباسيين
القدم في عرف بني آدم يمنح صاحبه قدسية تفوق الوصف، وهو شارة من شارات النضج العبقري في الأشخاص وفي المعاني بسبب ما درج عليه الناس من احترام الأموات
أي العبارتين أقوى: عبارة قال القدماء، أو عبارة قال المعاصرون؟
وازنوا بين هاتين العبارتين من الوجهة النفسية لتصدقوني
وأي الحفظين أنفع في نظر المتأدبين: حفظ ديوان المتنبي، أم حفظ ديوان شوقي؟

إن الأموات يسيطرون على الجماهير سيطرة روحية وعقلية لا يرتاب فيها إنسان، ولو كان من أكابر الحكماء
فكيف ننكر أن يخرج الحي من الميت، وهذا هو الحال في تصورات الأفهام والعقول؟
للموت قدسية رائعة، فهو يرفع الأموات إلى آفاق لم تخطر لهم في بال، ألم تسمعوا أن كلمة الموت أصبحت مرادفة لكلمة الخلود؟
تبارك من يخرج الحي من الميت، وعفا عن صاحب ذلك الاعتراض!
الغصن الوريق
هذا الغصن هو مصدر الوحي، وهو أنضر فنن من أفنان الجمال جمالة عندي ليس جمال الشراب المعتق، وإنما هو جمال الماء الصابح في بحر سنتريس
أهفو إليه وهو سرحة ناشئة لم يغرد فوقها غير شعري وخيالي، وأشتاق رؤيته لأحميه من رقة النسائم في لطائف الآصال
فوق أوراقك أيها الغصن الوريق تراق دموع الهوى، وهي أرق من قطرات الندى، ومن أجل الوفاء لهواك يفتضح من يكره الافتضاح
وهل عرف أحد هويتك، أيها الغصن الوريق؟
أنت نفسك لا تعرف أنك المعنى بما يهتف به روحي في رسائلي وأشعاري، يا أجمل جاهل في هذا الوجود
هل تعرف أيها الغصن رفقي بك في القريب من أيامك ولياليك؟
كان بيدي أن أصيرك صرخة لا يترنم فوقها بلبل، ولا يفرح بمداعبتها نسيم، ولا يتطلع إليها نور الصباح
كان بيدي أن أهصرك، أيها الغصن الوريق، فكيف جاز أن أسلك مسلك الزهادة فيك؟
رأيت أن أجعلك فوق مشتهيات العيون والقلوب؛ يا أجمل وأظرف ما تشتهيه العيون والقلوب
كان رأيك أنني ترفقت بنفسي فلم أقل إنك هواي، وكان رأيي أني أرحمك فلا أقول إنك هواي، لأني أقدر منك على مقاومة الرقباء
فيا أنضر غصن في أجمل شجرة تتخايل في أعظم بستان، ما رأيك فيمن يكتم هواك؟ ألا
يكفي أن الغناء بحبك صيرني أشقى الأشقياء بالحب في زماني؟
سكت فقال العاذلون أنت، ونطقت فقال الكاشحون أنت، فمن أنت؟
آفتي في زماني أني أحب الغصن الوريق، فليعرف من لم يكن يعرف أن هواي مقصور على الأغصان الوريقة بحديقة داري في سنتريس، مع الأدب في حق من زار تلك الدار وكأنه طيف من أطياف الخلود
زكي مبارك
ألف ليلة. . .
للأستاذ دريني خشبة
كلما تعبت الإنسانية أو جثمت على صدرها الهموم والآلام، لجأت إليك يا ألف ليلة الحبيب تخدر بك أعصابها المنهوكة، وتحسو من نهر أحلامك تلك الجرعة السحرية العجيبة، فتستسلم للأحلام. . .
أنت أيها الأغنية الخالدة التي تترقرق في أرواح المحزونين ما أبدع شاديك وما أملأ بالفتنة ناديك!
لله حورياتك التي تثب كالقطا نحو أبواب الشرق بعد إذ فتحت أكمام الورد، وغسلت بالندى أحداق النرجس، ووسوست في صدر العرائس، وأيقظت الحياة في القرية الحالمة، وداعبت كل أم بالأماني، وجمشت الديكة فأطلقت حناجرها للريح تتأذن للشمس أن تشرق، وللبدر أن يغيب، وللأنجم الظالمة أن تغرق في فيض الضوء الذي يفتر عنه فم الصباح!
لله عذاراك يا ألف ليلة الحبيب! إن في عيونهن كحل الشرق، وفي وجوههن صباحته التي لا تعرف الدمام! إنهن يسبحن فوق السحاب الموشى بأجنحة من ذهب لا ثقل له. . . لأنه ذهب مما تصب سبائكه أخيلة الشعراء والحالمين والظامئين، تلك الأخيلة التي تصنع الطوبى، وتنبت الجنان، وترسل الألحان الصامتة، وتنحت التماثيل الحية، وتفرش أديم الأرض الطيبة بأوراق الورد والبنفسج، وتفجر فيها أنهار المعرفة، وتعطر نسيمها

بعبق الزنبق، وتملأ أرجائها بألسن الموسيقا، وتبنى فيها القصور للعشاق والمحبين من البلور واللؤلؤ المنثور. . .

أملأ كأسك السحرية يا ألف ليلة الحبيب لتشرب الإنسانية المتعبة نخب أحلامك. . . إنها تود أن تنام فلا تصحو. . . إن الأشباح الكريهة الشائهة قد ملأت عليها عالم الحقيقة، وهجمت عليها فجأةً من الغابة المظلمة الفاحمة أفاعي الأحقاد. . . هاهي ذي الضباع الجائعة التي أصابها السعار تنوشها من كل فج، وتتلقفها في كل مكان. . . في البحر. . . في البحر. . . في الهواء. . . تحت الماء. . . في المخابئ. . . في الخنادق. . . في البروج المشيدة. . . في البيداء. . . في القرية. . . في المدينة. . . في كل مكان يا ألف ليلة الحبيب تجد الإنسانية الأشباح ذات الظفر والناب. . . أشباح السباع والضباع وعفاريت الجن والسحراء والأفاعي والرخاخ الهائلة التي تحمل فراخها الفيلة، والتنانين الطائرة التي تنزع الأشجار وتحطم المدن وتجعل العامر يباباً داثرا

لشد ما تفزع الإنسانية يا ألف ليلة الحبيب بهذه الرؤى التي زحمت حولها عالم الحقيقة، فهبها كأسك السحرية مترعة لترسل بها إلى وادي أحلامك. . . وادي البدور والحور والعطور والبخور. . . وادي الأشجار والأزهار والأثمار والأطيار. . . الوادي الجميل الذي لا لغوب فيه ولا كروب ولا حروب. . . الوادي الأخضر السندسي الذي يستطيع كل شئ فيه أن يبتسم وأن يغني وأن يتكلم بلغة الموسيقا. . . لأن كل شئ فيه يستطيع أن يحب. . .

الوادي الذي تبتسم شطئانه، وتبغم غزلانه، وتغازل الأرواح ألوانه، وثلج الصدور ريعانه. . . نضر ريان، حلو فينان؛ حينما تدخله الإنسانية الباكية تطرح أشجانها، وتنسى عند بابه أحزانها، فتمشي فيه بقدميها الورديتين، اللتين أرهقهما المشي في تلك الطريق الجافة الجافية المضرجة بالدماء، تبكي أطفالها، وتضحك من رجالها. . . ولا من يرثي لحالها.

حينما يداعب الحب قلوب العشاق، لا يقنع إلا أن يترك فيها ندوباً يجري منها الدم. فتارة يلون هذا الدم خدود العذارى وثغورهن، إن كن رقيقات رحيمات. . . أما إن كن قاسيات عاتيات، لا قلوب لهن، فإنهن يتركن الدم الشهيد المسكين يسقط ليروي الأرض. وقد يمشين فيه ويتلاعبن فيه حتى يخضب أقدامهن وبنانهن، فيخيل للمخدوعين أنها وردية

ومن حسانك يا ألف ليلة الحبيب من يملأن دنياك مباهج ومسرة. إنهن أرأف بالمدنفين من النسيم الغزل بالزهرة الظامئة؛ حين يبل صداها بالرذاذ النحيل الذي تحمله أجنحته ذات الزغب فيطبعه كالقبل فوق أوراقها التي ترتعش

أولئك المحصنات المحسنات المحسنات يا ألف ليلة، اللائي يمهدون للإنسانية طريق الخير، ويبتن فيها الورود والرياحين وأفواف الزهر

ومن حسانك يا ألف ليلة من يشببن حرب الحياة جذعة. هن جميلات ذاك الجمال الفائز المتأجج الذي كل من مسه يحترق وجميع من دخل تيهه يضل، ولا بد لمن يضرب في بيدائه من التعاويذ والطلسمات والرقي. . . تلك البيداء المسبعة المحواة التي تعزف جنباتها الجن، وتفح الأفاعي، وتعربد الغيلان والسعالي. . .

الجمال الخطر المتبرج الذي صنعته يد الشيطان، وباركه إبليس الأكبر، فقصر من ذيله، وحسر عن ساقه، وأرسل شعره كالزوابع الهوج تعصف بالقلوب الرطبة، وتزيغ العيون الجائعة، وتحرق العواطف المحرومة. ثم جعله سائباً طليقاً في الطرقات ليهدم ما تبنيه الآداب والأديان والمدارس وليثير غرائز الحيوان فيعود بالإنسانية إلى الغابة

هات يا ألف ليلة الحبيب من جرعتك السحرية فقد طال الانتظار بمعروف المسكين الإسكاف!

لقد ضاق بالشدتين: صنعته وزوجه، فابعث إليه بهذا العفريت من الجن يحمله إلى بلاد الصين، حيث يتزوج من ابنة الملك! وحيث يحمل علاء الدين مصباحك السحري إلى أمه فيرد بأساءها رخاء، ومتربتها هناء وفقرها غني. . . ويطلب إليها أن تخطب عليه ابنة الملك! بالضبط كما تتهيأ الفرصة لمعروف الإسكافي. ولكل بائس محروم يفكر في الناحية الأخرى المقابلة، حيث الفرج والسخاء والرضا، حيث طاقية الإخفاء وخاتم الملك والعصا السحرية ومصباح علاء الدين، حيث الأرض الطيبة، وجنة الأحلام، والطوبى السعيدة الخالية من الآلام. ألا ما أحوج الإنسانية إلى طاقيتك اليوم يا ألف

ليلة الحبيب! ما أبدع أن تلبسها لتستخفي من الطائرات والغواصات والطرابيد ومدافع الهاون ومدافع الميدان والمدافع الرشاشة والقنابل اليدوية وقنابل الثمانية آلاف رطل!
إنك إن تفضلت بها اليوم فحملتها على رأسها الذي يضطرب داخله ذلك البركان الأحمق، فإنك تريحها من أبنائها الحمقى، وأطفالها السكارى العرابيد!
إنها تستطيع إذن أن تتخلص من مارس المتوحش الدموي وعماله المتوحشين الدمويين، ومن تلك المجزرة المجنونة التي صنعت في معمل الأبالسة، وأعدت في جب الشياطين! اخلع عليها تلك الطاقية يا ألف ليلة وليلة لتصل إلى خزائن الأسرار الحربية، فتريحنا من اختراعات الأبالسة، ولتضع مكانها أشباح تيمورلنك وجنكيز خان وهولاكو وأتالاكي تصيح في أوجه الجبارين: (مكانكم، ما هذا الدمار وما ذاك التخريب؟
لقد دمرنا من قبل، وخربنا من قبل، وحرقنا المدائن والقرى. . . ثم دمرنا الزمان وأحرقنا التاريخ، فلم نك شيئاً)
اخلع عليها طاقيتك يا ألف ليلة الرحيم لتصل إلى خزائن البخلاء والمنهومين ومختزني الأرزاق والأقوات، أولئك الذين تركوها تتضور جوعاً وترتعد عرياً. . . وتذوب من الاستحياء والتعفف لا لشيء. . . إلا لتمتلئ بطونهم بنار الذهب الوهاج. . . ليقتنوا الدور ويشيدوا القصور. . . وليضاعفوا بعد من آلامها. . . تلك الآلام التي يشربونها في كؤوسهم خمراً لذة، وسلافة مزة، وشرباً لا بارداً ولا طهوراً!
لقد طال بكاء معروف ومسغبته يا ألف ليلة، فامنحه طاقيتك ليستخفي بها قليلاً من عصا زوجه وثقلها. . . فما جنى شيئاً؛ ولكن جنت عليه تلك الحرب التي لم يشعل نارها وهو يصلى بأوارها
أين الخاتم يا ألف ليلة؟ خاتم الملك العجيب الذي يملك الدنيا من ملكه؟ أين خادمه الجبار لينقل الإنسانية إلى كوكب غير هذا. . . كوكب بعيد قصي. . . كوكب غير قريب من المريخ فلا يراها مارس وأعوانه المردة الذين لا ري لهم إلا من دماء الأبرياء، ولا شبع إلا. . . بأكباد الأمهات والأيامى والمساكين وقلوب اليتامى والحزانى
أين خبأت هذا الخاتم يا ألف ليلة؟ لماذا تبخل به علي إصبع الإنسانية المرفوع إلى السماء، والدم يقطر من بنانها؟ من به عليها لتكتم أنفاس المدافع، ولتوزع على الجائعين أرغفة بدل هذه القنابل والمنشورات التي تلقيها عليهم الطائرات؟
لقد ضلت الإنسانية سبيلها في تلك المفازة، فألق إليهم بالخاتم يا ألف ليلة. . . ولقد اشتد الظلام الذي تضرب فيه على غير هدى؛ فأشعل لها مصباح علاء الدين لحظات حتى تتبين سبيل الرشد، وحتى تفئ إلى الحق، وحتى تعود لها نعمة الحياة التي يعدها المردة من سخافات الماضي
لماذا هذا الحديث الطويل عن الدم والآلام والحلبة؟)
أليس في الدنيا ركن أختبي فيه بهذا الناي الذي في يميني، وذاك القرطاس الذي في شمالي، حيث أخلو إلى أناشيدي التي أملأ بها أسماع الرياح وآذان الآرام؟
لماذا يعوزني التحدث إلى الإنسانية ذات الأسمال، وها هو ذا الورد يصغي إلى ألحاني، ويعطر الحديقة الضاحكة بعبير بياني؟)
هكذا وقفت شهر زادك تسأل نفسها يا ألف ليلة:
سأمشي على ثبج هذا البحر بقدمي الجميلتين، فنهرع إلى جنياته وعرائسه.)
وسأسبح على رؤوس الآكام في الهواء فتثب إلى بنات الغاب وعذارى الخمائل. . . ثم أسبح فوق السحاب. . . في صميم الأثير، فتقبل إلى ملكات العلالي. . . أما جنيات البحر وعرائسه فتقبل قدمي وتتلقى أوامري. . . فوجمالي ومفاتني لا يأذن لغواصة أن تلج فيه ولا لبارجة أو ملقية طوربيد أو نحوها. . . ولتمخر فيه الجواري المنشئات كدأبها من قديم آمنات مطمئنات
وأما بنات الغاب وعذارى (الخمائل) فتقبل بناني، ثم لا يأذن لمدفع أو دبابة أن يشوه جمال دنياي الخالدة. . . لن تصعد الآهات المكروبة من خرائب المدن الباكية بعد اليوم. . . ولن تكون هناك أطلال تذكر بتلك المجزرة المجنونة
وأما ملكات العلالي فتقبل يدي، وتنثر على الأرض المتعبة لآلئ الحكمة، وتنشر في الهواء لواء السلام، وترد إليها المحبة والإخاء)
ما أجمل ما تغني شهر زاد يا ألف ليلة الحبيب؟!

شهر زاد! روايتك الخالدة! مخترعة الطاقية والخاتم ومصباح علاء الدين والعصا السحرية. . . مسخرة الجن، وصانعة التعاويذ والطلسمات والرقى
شهر زاد! حلم الإنسانية الجميل!
متى تصحو شهر زاد يا ألف ليلة الحبيب؟!
دريني خشبة
على هامش النقد
النماذج البشرية المهموسة!
للأستاذ سيد قطب
حينما يذكر هذا التعبير (نماذج بشرية) تتواكب على النفس، وتخطر في الخيال، عشرات أو مئات أو ألوف من السحن المتمايزة، والملامح المتغايرة. سحن الأجسام والطبائع، وملامح النفوس والجوارح، من هؤلاء البشر الذين نلتقي بهم في الحياة اليومية، أو نسمع عنهم في القصص والتاريخ، أو نستشرف إليهم في الأساطير والخيال وكل نموذج من هذه النماذج (أصيل) في بابه - حين ننظر إلى الحياة بعين فنان - وكلها جدير بأن (يسد خانته) ويؤدي دوره على المسرح الحافل الرحيب الذي تعرض فيه الحياة شتى النماذج وشتى الأدوار.
فإذا أردنا أن نضيق من هذه النظرة، فننظر بعين الفرد الإنساني ورغباته وميوله وما يحب في هذه الحياة وما يكره من الطبائع والأشكال؛ فلنا حينئذ أن نحب نموذجاً ونؤثره على نموذج؛ ولكن ليس لنا أن نطلب من النماذج الأخرى جميعاً أن تستحيل إلى المثال الذي نحبه؛ لأن في هذا تضييقاً لمسرح الحياة!
ولكن الأستاذ (مندور) كما يستهويه لون واحد من ألوان الأدب، لا يفرق بين الجيد والرديء من أمثلة، ما دام الجيد والرديء فيه ملونا بهذا اللون الخاص الأثير عنده المحبب لديه. يستهويه كذلك لون واحد من ألوان النماذج البشرية، وهو (الشخصيات المهموسة) التي لا تجهر مرة واحدة في حياتها، والتي تنزوي دائماً وتتضاءل وتتفانى وتخنس، والتي يتوافر فيها الحنان أو الحنين في همس واستخفاء
ولقد كتب في مجلة الثقافة بضع مقالات يستعرض فيها أعمالا في القصة والرواية لأدباء مصريين وأوربيين. والقارئ لهذا الاستعراض لا يحتاج إلى كبير عناء ليعرف أن آثر شخصية من شخصيات القصص قد أنس إليها وأحبها، وأطنب في عرضها والتذ هذا الإطناب. هي شخصية (فيليستيه) التي صورها الروائي الفرنسي الكبير (فلوبير) في قصة بعنوان: (قلب ساذج)
تلك الشخصية التي يقول عنها هو: (في عنوان القصة، وفي اسم البطلة ما يشخص هذا
الأنموذج المؤثر. ولو أنك طلبت إلي أن أترجم هذا الاسم وكان ذلك من حقي لما وجت خيراً من (أم السعد) فإنا نحس في هذا اللفظ سذاجة القلب وطيبته.
خادمة من خدم الريف. عقل محدود وقلب رحب. وعن هذه المفارقة يشع (فليستيه) نبل حياتها المتواضعة الحزينة. . . مثلها كمثل كلب أمين لأن الأمانة من طبعه، يقاتل دون سيده، ولقد يمسه الأذى ويعود من المعركة لا يذكر إلا ما به من جراح يحيها ألمه. . .)
ولا علاقة لي هنا بقيمة هذه القصة من الناحية الفنية ولا بمقدار إجادة المؤلف في رسم هذه الشخصية. وإنما يعنيني فقط إعجاب الأستاذ مندور بشخصية معينة إنها ليست مصادفة عارضة أن تكون شخصية (فيليستيه) أو (أم السعد) هي أحب شخصية من شخصيات القصص إلى الأستاذ مندور بما فيها من (سذاجة وطيبة) و (بحياتها المتواضعة الحزينة) وبما فيها من شبه بالكلب الجريح (تحيى آلامه جراحه). وأن يكون آثر ألوان الأدب لديه هو (الشعر المهموس) والنماذج التي اختارها خاصة من هذا الشعر بما فيها من (نفس تئن) و (موسيقى حزينة). وأن تكون دعوته إلى الأدباء، هي الهمس والتواضع والاختفاء. وأن يكون المتنبي والعقاد بما فيهما من فحولة وضخامة وجهارة من الشخصيات التي لا تقع بينه وبينها ألفة في الأدب أو الحياة! إنما هي تلبيه لمزاج خاص يهفو إلى الحنان والحنين، ويستنيم إلى الهمس و (الوشوشة) والتهويم!
ولم تكن كذلك ملاحظة عابرة تلك التي لاحظتها على (مزاجه) فاجتماع هذه المصادفة،

إنما يوحي بدلالة خاصة واضحة!
ولا أعيد هنا ما سبق لي تقريره من حاجة الذي يتصدى للنقد إلى أن يوسع آفاقه فينظر إلى ألوان الأدب والى نماذج الشخصيات وأنماط الطبائع من زوايا كثيرة مختلفة، لا من زاوية واحدة صغيرة
فشخصية (فيليستية) بصفاتها تلك، قد تكون شخصية محبوبة تستدعي العطف والرثاء، ولكن الحياة ليست مطالبة أن تحيل الناس جميعاً (فيليستيهات)! لتعجب الأستاذ مندور
فهناك شخصيات جهيرة جاهرة، وشخصيات عظيمة شاعرة بما فيها من عظمة، وشخصيات ضخمة جبارة، وشخصيات طاغية عاتية؛ بل هناك شخصيات مريدة شريرة، وشخصيات دعية داعرة. وكلها جديرة بريشة الفنان. وليس نموذج آخر في عرف الفن ولا
في عرف الحياة. ولم يقع أن التذ الأستاذ مندور نموذجاً آخر من هذه النماذج البشرية الكثيرة أو عني باستعراضه فيما كتب ولهذا دلالته بلا جدال!
و (الأدب المهموس) قد يكون لوناً محبوباً من ألوان الأدب - مع وجوب التفرقة بين الصحيح منه والمريض - ولكن الحياة ليست مطالبة كذلك أن تحيل الفنون جميعها همساً، لأنها لا تستطيع أن تحيل الطبيعة كلها همسات خافتة أو حشرجات لاهثة لتعجب الأستاذ مندور، فالحياة أرحب من ذلك وأكبر وأعرف بقية الأنماط المختلفات!
وتشاء المصادفات أن يكتب الأستاذ مندور في عدد الرسالة الماضي كلمة في الرد عليّ، فتنضح بدليل جديد على هذا المزاج الخاص حين يقول:
وأما عن النثر فما أظن القراء في حاجة إلى أن أدلهم على أن (رثاء أحد الشبان) لأمه) الذي أورده الأستاذ قطب لا يمكن بحال من الأحوال أن يقارن (بأمي) لأمين مشرق. فرثاء الشاب المذكور لا إيقاع فيه ولا نبل في الإحساس ولا توفيق في الاختيار للتفاصيل. وكيف تريد من شاب يؤلمه من موت أمه أنهم لم يعودوا يعرفون (بأسرة) أن يصل في فن الكتابة إلى مشرق الذي يذكر (فستانها العتيق) و (يديها اللطيفتين) و ((وقع قدميها حول سريره) و (غابة السنديان) وما إلى ذلك من فتات الحياة؟
وأريد أن أتجاوز عن شئ من الالتواء في اختيار الأستاذ مندور لإحساس واحد من أحاسيس الشاب المصري في رثاء أمه ليس هو أبرز أحاسيسه تجاه الفاجعة، وحشده في مقابل هذا الإحساس الواحد خلاصة أحاسيس أمين مشرق كلها ليصل إلى غرض خاص في الموازنة!
أريد أن أتجاوز عن هذا الالتواء في العرض، وأكتفي بأن أضع بإزائه تصرفي في عرض رأيه هو، وعودتي في المقال الثاني من مقالاتي إلى توضيح هذا الرأي كاملاً بفقرات ونصوص حين أحسست أنني في مقالي الأول لم أعرضه العرض الكافي لتحقيق الأمانة الأدبية!
أتجاوز عن هذا لأتحدث في لب الموضوع فأثبت أولاً للقراء ذلك النص الذي يعنيه من رثاء الشاب المصري لأمه:
(من نحن اليوم يا أماه؟ بل ما نحن اليوم عند الناس وعند أنفسنا، ما عنواننا الذي نحمله في
الحياة ونعرف به؟ إننا لم نعد بعد أسرة، ولم يعد الناس حين يتحدثون عنا يقولون: هذه أسرة فلان، بل أصبحوا يقولون: هذا فلان، وهذا أخوه، وهاتان أختاه!)
هذا هو الإحساس الذي لا يعجب الأستاذ مندور: شعور الأبناء - بعد أمهم - بأنهم فقدوا عنوانهم في الحياة أمام أنفسهم وأمام الناس، وأنهم لم يعودوا يعرفون من هم، بل لا يعرفون ما هم!
وفي هذا الرثاء أحاسيس أخرى صادقة عميقة. تجاوزها ولم يشر إليها؛ ففيه الإحساس بالتناثر، والإحساس باليتيم، والإحساس بالغربة في الحياة كلها. وفيه الأسى على صور الأمومة الحية النابضة حين يقول:
(من ذا الذي يقص علي أقاصيص طفولتي كأنها حادث الأمس القريب. ويصور لي أيامي الأولى فيعيد إليها الحياة، ويبعثها كرة أخرى في الوجود)
وحين يقول:
(عندي لك أنباء كثيرة. كثيرة جداً ومتزاحمة. تواكبت جميعها في خاطري على قصر العهد بغيبتك، وإنه ليخيل إلي في لحظات ذاهلة: أنني أترقب عودتك لأسمعك هذه

الأنباء، وأحدثك بما جد لنا في غيبتك من أحداث، وأنك ستسرين ببعضها وتهتمين ببعضها. . . وهي مدخرة لك في نفسي يا أماه، ولن تدب فيها الحياة يا أماه إلا حين أقصها على سمعك. . . ولكن هيهات فسيدركها الفناء. وستغدوا إلى العدم المطلق، (لأنك لن تنصتي إليها مرة أخرى

هذه الأحاسيس، وهذه الصور لا تعجب الأستاذ مندور: (ولا إيقاع فيها ولا نبل في الإحساس ولا توفيق في الاختيار للتفاصيل) ولا تدل بحال من الأحوال ذكر (الفسطان العتيق) ولا (اليدين اللطيفتين) ولا (وقع القدمين حول السرير) ولا (غابة السنديان) لماذا؟ لأن في القطعة الأولى معاني كبيرة وأحاسيس عميقة، وليس فيها (فتات). ولهذا دلالته القوية فيما نحن بصدده. فهنا مزاج موكل بالأحاسيس الصغيرة الهامسة والمظاهر التافهة الساذجة، لا يستقل حسه بإحساس ضخم، ولا بصورة مركبة، ولا يطيق أن يرى في الحياة إلا الأطياف الباهتة، ولا أن يسمع في الطبيعة إلا الهمسات الخافتة. وتلك الجزيئات المفردة تستلفت نظر المرأة بشدة في الحياة، ونظر ذوي الأمزجة الخاصة كذلك

والأستاذ مندور كرجل ذي مزاج خاص مطلق الحرية في أن يختار ما يطيق حمله وما يستطيع أن يقله، ولكنه لا يصلح حكما يشرع للآخرين من أقوياء البنية القادرين على حمل ما يؤوده حمله، وعلى إدراك ما يقصر عنه حسه!

أما ما قاله عن الأستاذ محمود حسين إسماعيل فليس اليوم مجال الحديث فيه؛ وحتى التسليم به لا يؤثر في الحكم على الشعر المصري كله

سيد قطب

أدباء عالميون

موريس ماترلنك - 2

للأستاذ صلاح الدين المنجد

وأخرج ماترلنك، بعد (الأميرة مالين) درامته المسماة: (بالدخيل وهي ذات فصل واحد، تجري حوادثها في بهو مظلم، من قصر قديم. أما أشخاصها فقلال: جد أعمى، وأب، وعم، وثلاث فتيات. كما رأيت أن أشخاص الأميرة (مالين) هما الملك والملكة. . . فالملكة تجن، والملك يموت. . . ولكنهما يخفيان وراء شخصيهما أمراً، ذلك أن الناس كلهم أمام تلك القوة الخفية التي تؤثر فينا متشابهون، سواء أنسبوا ذلك للمصادفة أو الحظ أو الشقاء أو الموت. . . لأن أشد الناس اختلافاً وتبايناً يصبحون متساوين متشابهين أمام العدم. . .

إذن فأشخاص الدرامة الثانية قليلون. وهاهم أولاء في غرفة يكاد مصباحها لا يضئ. . . يتكلمون وأصواتهم لا تسمع. . . يقطعون الليل قلقين مظطربين وفي غرفة مجاورة تنام تلك التي يقلقون عليها ويظطربون. . . تلك المرأة المشرفة على الموت. لقد كانت تجود بنفسها، في حين كان الأب والعم، والفتيات يطمئن بعضهم بعضاً:

- لقد تكلمت هذه الأمسية
- إنها تنام نوماً عميقاً)
- (هذه أول ليلة تشعر براحة فيها. . .
- (أحسب أن لنا الحق بالضحك أيضاً بلا خوف. . .)

ولكن الجد العجوز، لا يزول اظطرابه ولا قلقه؛ ولا يخفف من قلقه واظطرابه هذا الهراء الذي يسمعه، لأن عينيه لا تريان هذه المظاهر الخارجية التي تمنع الروح من الجولان، فهو متصل بالكون بروحه، يلتقط بها الأشياء ويدركها. هي كلاقطة المذياع. . . يعلم بها ما سيقع وسيكون. لا جرم أن لدينا جميعاً هذه اللاقطات، ولكنها تختلف في قوتها؛ فكلما كانت الروح قوية كان هذا الإدراك أو ذاك الشعور قوياً. ولكننا لا نفيد منها جميعاً. . . لأن بصرنا يقف عند ظاهر الأشياء. فالواقع الذي نشاهده يمحو الحق وهذه الفكرة ملازمة لآثار ماترلنك يعرضها ويفصلها ويشرحها. وإن ما نعتبره أدوات كشف وفهم كالبصر والنطق، لهي عاهات. . . فالأعمى في هذه الدرامة يرى ببصيرته، يرى ما لا يراه أولئك الذين يثرثرون من حوله. . . ويتكلمون

ويمضي ماترلنك في درامته هذه، فيصور لنا وساوس الجد المسكين وقلقه. إنها لم تشعر بالروح والنشاط كما زعموا. . لا. . ولكن ماذا حدث. . .؟ فلقد هب الهواء. . .

وخرست العنادل، وهاهو ذا خفق أقدام البستاني يرتفع. لقد بدأ عمله. . ويثرثر الفتيات؛ ويضطرب الشيخ، فقد شعر بدخول مخلوق لا يستطيع أحد أن يراه. . . إنه يرى. . . يرى ما لو تكلم به لسخروا منه. . . دخل هذا المخلوق الرهيب. . . إنه هنا، في الدار، يحس به ويضطرب قلبه له. ويطرق الشيخ الأعمى لحظة، وتدخل الراهبة فترسم الصليب. . . لقد ماتت المرأة. . .

وجهد ماترلنك في إفهام القارئ أن الموت دخل إلى غرفه أولئك الأحياء، وكان بينهم، كما أنه في كل ساعة، وفي كل مكان، يستطيع أن يدرك المخلوقات كلها وماترلنك يدخل الموت في جميع مسرحياته، فالموت يسدد ضرباته دائماً للشباب والنعيم والحب، لا لأن السعادة أو الحب تصبان بما لا يصاب به الحقد والألم والبغض، بل لأن ضرباته شداد في السعادة والحب. . . خفاف في الشقاء والحقد.

وينحو النحو نفسه في درامته (العميان فمن هم هؤلاء الإثنا عشر أعمى: ستة عميان، وست عمياوات، التائهون في غابة من غابات أفريقية الاستوائية، تحت سماء صافية مزدانة بالنجوم. ينتظرون عودة الكاهن الذي قادهم إلى تلك المناطق البعاد، فتركهم فيها ومضى. هؤلاء العمى رمز الإنسانية القلقة الحائرة، التي تجهل الطريق الواجب اتباعها، وترتقب نجدة خارجية من دين أو فلسفة، فتنقذها مما هي فيه. إن أولئك العميان وهم في تلك الغابة، لا يجهدون ولا يتحركون لأشد ضعفاً من الأطفال. . . ماذا يفعلون وقد غاب الدليل. . . إن صخوراً شما، وهوى سحاقاً تحيط بهم. لقد حكم عليهم أن يبقوا في هذا السجن وسلط عليهم الموت، فهم يشعرون به عندما يفقد بعضهم بعضاً ولكنهم لا يجدون إلى رؤيته سبيلاً.

على أن درامته المسماة (بيلياس وميليزاند أشد سحراً ورقة، وأقرب ما كتب ماترلنك من الواقع. وقد افتن الموسيقيون في وضع ألحانها، فجلتها موسيقى شعبية ذائعة. حتى أن سلطان النغم أكسبها قوة ورقة، وأن كانت هذه الموسيقى قد أوضحت بعض ما كان ينبغي أن يبقى غامضاً، كالأم والقلق والخيبة. . . هذه الأشادي التي يجب أن تضل كالضلال. . . وراء الأقوال. . . يدركها المرء بروحه ويستخرجها بنفسه. . .

لقد تزوجت (ميليزاند) الحسناء (جالود الأمير وكان هذا صياد ماهراً، ذا بأس وقوة. وكان أخوه بيلياس فتى غرانقاً، فأحبته ميليزاند، وأحبها. وأنهما لفي خلوة من خلوات الحب، إذ يفجؤهما خولود. . . فيثور ويغضب ويشهر سيفه ويطعن ميليزاند فتخرج، ويحاول أن ينتحر. . . ويفر بيلياس فيرى بنفسه في هوة سحيقة. . . فتتناثر قطع جسمه في جنباتها. وتموت ميليزاند بعد أن تضع غلاماً. . . وهنا تزداد الدرامة رفعة بالموسيقى. . . على أن بيلياس وجولود وميليزاند ليسوا أشخاص الدرامة الأوائل. . .

وإنما كان صاحب (الدور) الأول، ذالك المجهول الذي لا يرى، رغم وجوده كان ماترلنك، عندما كتب هذه الدرامة، متشائماً. فهو يصور القدر يسير الكون، فلا يستطيع أي مخلوق أن يقف في وجهه. فالقدر هو الذي سلط على ميليزاند الآلام القتالة بعد فرارها من زوجها؛ وهو الذي وصل بين قلبيها وقلب بلياس بالحب. . . هذا الحب العنيف الذي لا يقاوم، وهو الذي دفع جالود إلى القتل، وحال دون سعادة مخلوقين بريئين، ثم هو الذي ضرب العاشقين ضربات مؤلمات على جريمة لم يرتكباها. . . فهذه القوة التي لا ترحم. . . هي التي فعلت هذا كله. العقيدة المسيحية (تبرر) الأم بأنه عقاب أو تكفير عن ذنوب. ولكن بلياس وميليزاند لم يرتكبا جريمة، إنهما بريئان، وإنما تحابا. . . فكان الحب جريمة لا تغفر.

(دمشق - للبحث بقية)

صلاح الدين المنجد

مناهضة أزياء النساء قديماً

للأستاذ كوركيس عواد

بلغت النساء في عصرنا مبلغاً عظيماً من التفنن في ضروب الملبس وابتكار صنوفه. فأضحينا نرى أو نقرأ بين الفينة والأخرى عن زي جديد يشيع بين طبقات منهن، ثم لا يلبث أن ينقلب أمره فيصبح قديماً مستهجناً في أنظارهن، فيهمل استعماله ويعدل عنه إلى غيره

ومثل هذا التقلب بين الأزياء لا يمكننا عده بدعة جديدة أو أمراً مستحدثاً؛ فإن من

يتصفح الأسفار القديمة، لا يعتم أن تستوقفه أخبار من هذا القبيل. وما يلفت الأنظار إليه بوجه خاص، ما كانت تلقاه بعض الأزياء من معارضة واستنكار ممن كانت بأيديهم مقاليد الحكم والتدبير. وقد وجدنا أحد المؤلفين الأقدمين، وهو ابن الأخوة القرشي الشافعي، المتوفى سنة 729 للهجرة (1328م) ينعى على نساء عصره ما انتهين إليه من سوء الحال في الأزياء المتكلف فيها والتصنع الممقوت في المظهر، كما يبدو من عبارته التالية:

(والنساء في هذا المقام أشد تهالكا من الرجال، ولهن محدثات من المنكر أحدثها كثرة الإرفاه والإتراف، وأهمل إنكارها حتى سرت في الأوساط والأطراف. فقد أحدثن الآن من الملابس ما لا يخطر للشيطان في حساب، وتلك لباس الشهرة التي لا يستتر منها اسبال مرط ولا أدنى جلباب. ومن جملتها أنهن يعتصبن عصائب كأمثلة الأسنمة، ويخرجن من جهارة أشكالها في الصورة المعلمة)

وكانت بعض أزياء النساء قد أصابت مقاومة عنيفة، لما كانت تنطوي عليه من غرابة وتبذل، فعمد أكابر القوم إلى إبطالها بما وسعته طاقتهم وأسعفهم سلطانهم. ومن الشواهد على ذلك ما رواه ابن إياس في حوادث سنة 751 هـ (1350 م) من أن السلطان الملك الناصر أبا المحاسن حسن بن الملك الناصر محمد بن المملوك المنصور قلاوون (أبطل ما أحدثه النساء من القمصان التي خرجت في كبر أكمامها عن الحد، وأبطل ما أخرجوه من الأزر الحرير والأخفاف الزركش؛ فأشهروا المناداة في القاهرة بإبطال ذلك، فرجعت النساء عن ذلك)

ونظير ذلك ما حكاه ابن كثير في أحداث سنة 762 هـ (1360م) أن (في العشر الأوسط من جمادي الآخرة، نادى مناد من جهة نائب السلطنة حرسه الله تعالى في البلد (دمشق)، إن النساء يمشين في تستر، ويلبسن أزرهن إلى أسفل من ثيابهن، ولا يظهرن زينة ولا يداً. فامتثلن ذلك)

ومثله ما رواه شمس الدين محمد بن طولون، عن ناصر الدين ابن شبل المحتسب أنه في سنة 830 هـ (1426 م) (أنكر على النساء لبس الطواقي، ومنعهن، وبالغ حتى أحرق بعض القصع على رؤوسهن بما عليها من المناديل، فامتنع النساء من الخروج)

وكانت بعض النساء ينتهزن الفرص للخروج إلى المتنزهات والظهور بأزيائهن المختلفة، بما لا يكون مرضياً في بعض الأحيان؛ فكن يلقين ممانعة من أولي الأمر وامتعاضاً من مسلكهن البعيد عن الاحتشام. فمن ذلك ما نقله المقريزي في بعض كتبه، واليك كلامه بحرفه:

وقال جامع سيرة الناصر محمد بن قلاوون: وفي سنة ست وسبعمائة (1306)، رسم) الأميران بيبرس وسلار بمنع الشخاتير والمراكب من دخول الخليج الحاكمي (خارج القاهرة) والتفرج فيه بسبب ما يحصل من الفساد والتظاهر بالمنكرات اللأتي تجمع الخمر، وآلات الملاهي، والنساء المكشوفات الوجوه، المتزينات بأفخر زينه من كوافي الزركش والقنابيز والحلي العظيم، وينصرف على ذلك الأموال الكثيرة، ويقتل فيه جماعة عديدة. ورسم الأميران المذكوران أن لمتولي الصناعة بمصر أن يمنع المراكب من دخول الخليج المذكور، إلا ما كان فيه غلة أو متجر أو ما ناسب ذلك. فكان هذا معدوداً من حسناتهما ومسطوراً في صحائفهما)

ومثل هذا الإنكار والمنع شئ كثير في كتب التاريخ والأدب لا يسعنا استقصاؤه في هذه النبذة. وقد اكتفينا بذكر بعض الأمثلة، لما فيها من فائدة بكونها تطلعنا على بعض أصناف ملابس وأزياء النساء كانت شائعة بين القوم في المائتين السابعة والثامنة للهجرة

ولا نريد أن نطيل الكلام الآن على الأوامر الجائرة التي أصدرها الحاكم بأمر الله في هذا الصدد. فهي في جملتها إجحاف بحقوق النساء وإرهاق لهن، ولم يكن فيها ما يستند إلى عقل ويحتكم إلى منطق، إنما كان ذلك دأبه في غالب أوامره ونواهيه. من ذلك ما رواه ابن تغرى بردى في حوادث سنة 404 هـ (1014 م) أنه (منع النساء من الخروج من

(بيوتهن. وقتل بسبب ذلك عدة نسوة
(بغداد)
كوركيس عواد
تشارلز دكنز
مواهبه وخصائص فنه
للأستاذ محمود عزت عرفة
(تتمة ما نشر في العدد 520)
ضحك. . . وبكاء
قد تعجب للكاتب الواحد يجمع بين الجد الصارم والفكاهة المرحة، أو يمزج في حديثه بين ضحكات الهتانة: ولكن هكذا كان ديكنز! فهو في ثاني كتبه (صحائف بكويك) يرتفع بأدب الفكاهة إلى القمة حتى لتكاد تلمح روحه المرح خلال كل حادث، ومن وراء كل حوار. بل لقد أصبحت تلك الأساليب ذوات المعاني الطريفة الافتراضية التي أجراها دكنز على لسان بطله ساموبل بكويك رمزاً أو معنى ينضوي تحت هذا النوع، مما يطلق عليه اليوم اسم ولقد كان انسجام هذه العبارات دقيقاً وتواؤمها طريفاً مع فكاهات سام ويلز - بطل الرواية الثاني - التي جرت في أعقاب ظهورها على كل لسان، وأبهجت بطرافة معانيها نفس كل قارئ. حتى لقد قال أحد نقاد الإنجليز في وصف هذا الكتاب: (أن الهدف الأسمى لصحائف بكويك إنما هو الفكاهة لذاتها، وما نشك في أن هذا الكتاب قد ابتعث في صدور قرائه من الضحكات المرحة البريئة أكثر مما ابتعثه أي كتاب آخر في لغتنا. . .)
أما رواية (حانوت الطرف العتيق) فإنها تعرض علينا صوراً محزنة من الحياة يسترعي التفاتنا، من بينهما قصة (نل الصغيرة) تلك التي أثارت أشجان الكثيرين وهي تطالعهم كل أسبوع بحوادث حياتها في حلقات متتاليات
ويذكرون أنه عندما اتضحت خاتمة القصة، وظهر للقارئين أن (نل) على وشك أن تموت، بعث أحد أصدقاء دكنز إليه بكتاب يرجوه فيه أن يبقي عليها ولو إلى حين. ولكن عبثاً كان هذا الرجاء، فقد تقرر مصير البطلة المسكينة، وظهرت بعد قليل حلقة وفاتها، فاستدرت الدموع، واشجت قلوب الآلاف من القارئين
الواقع أن مفارقات دكنز ومضحكاته. . . وصوره المؤلمة وأحزانه، إنما هي سلاح واحد ذو حدين يرمى به إلى غاية بعينها، ويهدف به إلى غرض واحد لا يبغي سواه
فهو قد نصب لأخطاء هذا المجتمع وأغرى بعيوبه؛ وإنه ليحارب هذه الأخطاء والعيوب في كل ما يكتب؛ يتهكم منها أحياناً فيكشف عن سوآتها، ويذيل بسخريته اللاذعة ستارها البراق بحالة تقزز منها النفوس؛ ويصورها بصورة قاتمة محزنة أحياناً فيستثير عليها أعمق مشاعر البغضاء والكراهية. وهو في كلتا الحالتين يعمل على هدمها ويجاهد في تبرئة المجتمع من وصمتها. ومن يقرأ رواية (مغامراة أوليفر تويست) ير كيف يضرب دكنز بسلاحه ذي الحدين في مقتل واحد!
فعوامل البؤس التي ألمت بأوليفر من مبدأ طفولته تحلق في جو الرواية كالسحابات القواتم، وتغمر نفس القارئ بصور من الوحشة والإشفاق والألم تطالعه خلال كل سطر، وتبرز إليه من وراء كل عبارة
فيتم أوليفر الباكر، وحياته البائسة في الملجأ، ثم تحت مسز مان (تلك العجوز التي كانت تتخذ من تربية الأطفال تجارة مربحة!) وانتقاله بعد ذلك للعمل في حانوت مستر سوربري، وسوء المعاملة التي لقيها هنالك مما حمله على الهرب إلى لندن تحت جنح الظلام، ووقوعه ثمة في أيدي عصابة اللصوص التي أوشكت أن تقضي على آخر نوازع الخير في نفسه. . . كل هذه مشاهد أليمة محزنة تملأ النفس بالحسرة، وتثقل على القلب بأشجانها، فلا يخفف من وقعها إلا بعض تلك الجوانب المشرقة التي يعرضها دكنز خلال حديثه فينفس عن القارئ بعض التنفيس. . . كشخصية مسز سوربري - عنوان - وابنتها شارلوت، ومشهد اشتباكهما في معركة مع أوليفر المسكين قبيل هروبه بهيئة تختصب منا الابتسام وإن كانت القلوب مفعمة بالألم؛ ثم منظر القبض على أوليفر في لندن عندما (نشل) زميلاه منديل المستر براونلو، واندفاع المارة خلفه وهم يتصايحون بإيقافه وفي مقدمتهم اللصان الأصيلان؛ وخروج جمهور مسرح بنش برمته والرواية في أدق مواقفها للاشتراك في مطاردة اللص المزعوم. . . إلى آخر ما

هنالك. فهذه كلها مواقف مرحة طريفة تستجلب الضحك وتقلل من عنف المأساة التي تمثلها حوادث القصة، فيسير القارئ خلال فصولها وقد اعتدل مزاجه أو كاد، وتوازنت دواعي القلق والارتياح في نفسه

هذه الفكاهة

على هذا النحو البارع يجمع دكنز في حديثه بين الجد القابض والفكاهة المرحة، وفي وسعنا أن نتصور مبلغ الوحشة التي كانت تبدو فيهما رواياته لو أنها خلت من هذا الروح الممتع الذي يتألق خلال حوادثها، كما تتألق النجوم اللوامع في ظلمة الليل البهيم

على أن ثمة علاقة وثيقة بين الفكاهة والألم يجتمعان لها في أكثر الأحيان

فقد ذكرنا أن جهاد الرذيلة إنما يكون بأحد سلاحين؛ عرض سورها المشوهة المؤلمة لتأليب النفوس عليها وحشد عوامل الكراهية والبغضاء فيما حولها؛ أو غمزها والسخرية منها ومن مرتكبيها، وإثارة روح التحقير والازدراء بها وبهم. وقد يكون السلاح الأخير أشد نكاية وأعمق أثراً، فضلاً عن سلامة عقباه وسهولة متناوله. والأستاذ (العقاد) كلام نفيس قرأته له في الرسالة منذ سنوات في تعليل انتشار الروح الفكاهي بمصر في فترات الانحطاط السياسي وقيام المظالم الاجتماعية. على أني لست أحاول هنا أن أفترض أن دكنز كان من أهل التقية في محاربة المظالم التي نصب لها، فقد كان له من طبيعة نفسه، ومن حال بيئته ما يؤديه إلى أتم الصراحة ويحمله على أبلغ الجرأة؛ ولكني أقول إنه اجتمعت في نفسه عوامل السخرية وبواعث الألم جميعاً، وإنه استغل هذه الموهبة الفذة التي أوتيها: موهبة الذوق الفكاهي، والقدرة على التهكم اللاذع القاسي، استغلالاً أتاح له أن يخرج نوعاً من الأدب قل أن أتيح لغيره أن ينتج مثله

أهداف وإصابات

كان دكنز يهدف بكل كتاب يخرجه إلى غاية إصلاحية يضعها نصب عينيه، ويتجه في الوقت نفسه نحو رذيلة من الرذائل يحاول أن يهدم كيانها ويجتث أعمق أصولها. فهو يحمل معول الهدم في يد ومواد البناء والتجديد في أخرى؛ أو هو يهدم، يخطط الأوضاع - على الأقل - لمن يقوم بعده بمهمة البناء

ففي صحائف بكويك يعالج - فيما يعالج - مشكلة السجون، ويكشف عن بعض مثالب النظام فيها. وفي مغامرات أوليفر تويست يندد بقسوة المجتمع على الأطفال المتشردين، ويحمل أنظمته الجائرة تبعة انحدارهم إلى مهاوي الرذيلة والفساد. وفي (حياة ومغامرات نكولاس نيكلباي) يكشف عن مساوئ التعليم الأهلي في إنجلترا، ويوجه النظر إلى أشهر عيوبه كما أنه يعالج مشاكل الأسرة في روايات (عيد الميلاد) ويحاول أن يضع نموذجاً عالياً لمجتمع فاضل قوامه التعاطف والتواد، وملء أفقه السعادة

والرضا وحب الإحسان، مع الشعور بآلام الغير وبأفراحه ومشاركته في بأسائه وفي ضرائه

ولقد عاش دكنز حتى شاهد بعيني رأسه جل نظراته يتحقق، وأكثر أمثلة العليا يصبح أمراً واقعاً ونهجاً في الحياة مسلوكاً

وهو يعد - إلى جانب ذلك - أول من رفع من شأن الروح (الفكاهي المرح) في إنجلترا واحله في الأدب مكاناً مرموقاً. فلقد كانت الشخصيات الفكاهية قبل دكنز أمثلة تامة للخيبة والجهالة، ووسائل مصطنعة للإضحاك والترفيه ليس غير. . . حتى جاء دكنز فنفض عن هذا الروح غبار الإهمال والتخلف. وهو ذلك لم يبتدعه من نسج خياله أو يخلق به شيئاً من العدم؛ وإنما وجده بأتم أوضاعه في أزقة لندن، واقتبسه من صدور أبنائها - بل من صدره هو نفسه - ثم أظهر للناس قيمته في تذليل مصاعب الحياة ومواجهة أحداثها

ويقول الإنجليز إن هذا الروح المرح، روح أبناء لندن الصميمين، أو ما يسمونه: هو سر نجاحهم ودعامة انتصارهم في كل معترك. وإنه - إذا حللناه - لمزيج عجيب التركيب من الهدوء والسخرية والصلابة والاستسلام والتصميم جميعاً وذلك شئ قديم في طبائع القوم، ولكن جاء دكنز فأعطى منه أمثلة روائع تنبض بالحياة، فأدبر بذلك من قيمة، ورفع من قدره كخلق اجتماعي نافع، وسلاح في معترك الحياة لا يفل له أو حد أوتنبو عنه ضريبة.

مراحل أخرى

نشر دكنز جل رواياته في حلقات أسبوعية متتابعة، فكان لا يرى أكثر وقته إلا منهمكاً في تحرير أو غارقاً في تفكير. . . ولقد أثر فيه هذا المجهود المضني فألم به المرض غير مره خلال عام 1841م
ثم رحل إلى أمريكا طلباً للاستشفاء والراحة فقوبل هناك بأجل مظاهر الحفاوة. ولما عاد اصدر كتابه (مذكرات أمريكية) ويبدو أنه كان فيه صريحاً إلى الحد الذي أثار عليه عاصفة قوية من الاحتجاج في سائر مدن الولايات المتحدة!
ومرت فترة قصيرة ظهر بعدها بقصته (أغنية عيد الميلاد) فكانت الحلقة الأولى من سلسلة روايات عيد الميلاد التي دأب على إصدارها في مثل هذه المناسبة من كل عام وفي سنة 1846م تولى رئاسة تحرير الديلي نيوز، ولكنه تخلى عن هذا المنصب بعد قليل ليمضي في رحلة إلى سويسرا، وهناك كتب رواته: دومي وولده
وبدأ ينشر في عام 1849م فصول أشهر رواياته على الإطلاق: دافيد كوبر فيلد، وأنشأ في الوقت نفسه مجلة أسبوعية تحت عنوان: وصايا منزلية. واستبدل بها فيما بعد صحيفة أخرى سماها، دورة العام الكامل
وقد استنفذ هذا المجهود الهائل قواه ولكن لم يزده ذلك إلا تهالكاً على العمل وبدأ في عام 1853م يلقي فصولاً من رواياته في مجتمعات عامة. . . بدأ ذلك في برمنجهام بروايته: أغنية عيد الميلاد، واستأنفه في سائر المدن الإنجليزية إجابة لدعوات ملحة، ولقد درت عليه هذه المحاضرات فيما بعد أرباحاً وفيرة
وفي عام 1856م تيسر له - كما أشرنا من قبل - أن يشتري بيت أحلامه منذ الطفولة (قصر جادز هيل) حيث أنشأ في رحابه كوخاً على النسق السويسري أتم بين جدرانه تأليف كثير من رواياته الخالدة. ولقد ارتفعت أرباح دكنز من قراءاته العامة خلال فترة ما إلى نصف ألف من الجنيهات كل أسبوع؛ ولكن أوهن هذا المجهود المتوالي من صحته وأذال من قواه حتى اقتضب حبل حياته، لا سيما وأنه كان يوالي إلى جانبه إصدار رواياته في فصول متلاحقة
وفي عام 1866م شد رحاله مرة أخرى إلى أمريكا ليحاضر القوم برواياته، ثم عاد إلى إنجلترا مستأنفاً مهمته الشاقة حتى صرفه عنها المرض وفرط المجهود فأمسك مرغما.
النهاية
أقبل خريف عام 1869م فاعتكف دكنز في جادز هيل ليكتب روايته الأخيرة (سر إدوين درود ولكن تقطعت به أسباب العيش قبل تمامها. . .
وكان موته فجائياً، فقد أصيب بنكسة شديدة في اليوم الثامن من يونية سنة 1870م وتوفي في مساء اليوم التالي
وكان لنعيه وقع شديد في كل مكان، ورنة حزن قوية
زلزلت قلوب المعجبين به. . . وما أكثرهم
ولم يكن عجيباً أن تصل تعزية الملكة فكتورية في أوائل الرسائل التي تدفقت من سائر الجهات تدفق السيل العرم، وهي التي دعته في أخريات أيامه إلى التشرف بلقائها في قصر بكنجهام وتقبلت هديته التي رفعها إليها من مؤلفاته بأحسن قبول
وكان طبيعياً أن يكون مقر دكنز الأخير بين جنبات كنيسة وستمنستر مثوى الأبطال والزعماء والنابغين في كل فن
وقد احتفل بدفنه في بساطة وهدوء وفق وصيته الأخيرة، ولم يخط على صفائح قبره إلا هذه الكلمات القصيرة:
(تشارلز دكنز: ولد في 7 فبراير عام 1813، وتوفي في 9 يونيه 1870).
(جرجا)
محمود عزت عرفة
قطرة دمع
(إلى روح صديقي شهيد الواجب. . المرحوم أحمد شلبي)
للأستاذ محمود حسن إسماعيل
أَسْكَنَتْهُ بَعْتَةُ الْمَوْتِ الرِّغَامَا ... أَيْقِظُوهُ، فَهُوَ يَأْبَى أَنْ يَنَامَا!
أَيْقِظُوهُ، فَهُوَ يَأْبَى أَنْ يَرَى ... هَامِدَ التُّرْبِ لجَنْبَيْهِ مَقَامَا
أَيْقِظُوهُ! فَهُوَ فَجْرٌ رَاقِدٌ ... لَمْ يُعَوَّدْ نُورُهُ هَذَا الظَّلاَمَا

لم يَكَدْ يُشْرِقُ حَتَّى انْدَفَعَتْ ... رَاحَةُ التَّابُوتِ تَسْقِيهِ القَتَامَا
كَيْفَ لم يَعْصِفْ بِهاَ وَهْوَ الذَّي ... لم يَكُنْ إلاّمَضاَء وَاعْتِزَامَا؟
في شَبَابِ الْعُمْرِ يَغْلي أَمَلاً ... وَحَيَاةً، وَانْبثاقاً، وَاَحْتِدَامَا
لم يَكُنْ يَدْرِي الصِّبَا إلاّ خُطىً ... أَرْخَتِ الرُّوحُ لِسَاقيْهَا الزِّمَاما
في سَماءِ الْمَجْدِ يَمضْي طَائِراً ... يَهتِكُ الرِّيحَ وَيَجْتاحُ الْعَمَامَا
لاَ هُدُوه، لا وُقُوفٌ، لا هَوًى ... يَلْفِتُ الإعْصَارَ أَنْ يَمْضِي أَمامَا
لاَ كَلاَلٌ، لاَ مَلاَلٌ، لا دُجَيّ ... يُوقِفُ السَّارِيَ أنْ يَخْشَى الزحَاما
وَإِذَا الْكأسُ التي مِنْ فَمِهَا ... تَشْرَبُ الأقدارُ آجَالَ النَّدَامَى
فَاجَأَ الْغَيْبُ بِهاَ أَحْلاَمَهُ ... فإذَا هِي بَيْنَ كفّيْهِ حُطَامَا
وَإِذَا آمَالُهُ فَوْقَ الثّرَى ... رَكْبُ أَزْهَارٍ عَلَى قَبْرٍ تَرامَى
ذَا بِلاَتِ النُّورِ تَبْدُو مِثْلَمَا ... قَرَّحَ الإِنْكَالُ أَجْفَانَ الأيامى
بَاكِياتٍ. . . أَنَا أَدْرِي دَمْعَهَا ... وَأَرَاهُ بَيْنَ جَنْبَيَّ ضِرَامَا!
وَإِذَاهُ جَذْوَةٌ هَامِدَةٌ ... وَصباً في مَضْجَعِ الْهَلْكَى أَقَامَا
لا تَلُومُوهُ عَلَى رَقْدَتِهِ ... غَفْوَةُ الأكْفاَنِ لاَ تَدْرِي الْمَلاَما
. . .وَاسْأَلوا الْغَيْبَ فَإِنَّي عَاجِزٌ ... لم أَجِدْ إلاّ قُبُوراً وَرمامَا
أَيْنَ مِنْ دُنْيَاكَ قَلْبٌ ضَاحِكٌ ... أَتْرَعَ الأيام صَفْواً وَابْتِسَاما؟
أَيْنَ آمَالٌ وَنَفْسٌ رَفْرَفَتْ ... كَصَبَاحِ الصَّيْفِ نوراً وَسَلاَما
أَيْنَ؟ لاَ أَيْنَ. . فَماذَا بَعْدَهَا ... غَيْرُ دَمْعٍ فاَضَ مِن قَلْبي كلاماً!؟
أنتَ أَخْرَسْتَ بَيَانِي مِثْلَمَا ... يُخْرِسُ الإعْصَارُ في الدَّوْحِ اليَمامَا
مَزَّقَ النَّعْمُى سُكُوني وَمَضَى ... أتُرى أغمَدَ في الصَّمْتِ حُسَاما؟!
. .جِئْتُ أَرْثِيكَ فَمالِي مُلْجَمٌ ... تَزهَقُ الأنْغاَمُ في عُودِي إذا ما
يَا رَبِيعَ الْعُمْرِ، يَا نَشْوَتَه ... كَيْف أَطْلَقْتَ بِوَادِيه الْحِمَاما؟
وَهْوَ فَجْرٌ مِنْكَ مَطْلُولُ الرُّبى ... وَأَدُهُ كاَنَ عَلَى الْمَوْتِ حَرامَا
كانت لنا أيام
للأستاذ حسن كامل الصرفي
كانت لنا أيام ... يا طيبَ ما كانت!
لو هانت الأعوامْ ... بالله ما هانت!
مرَّت بنا أحلامْ ... حتى إذا حانت
إشراقةُ الإلهامْ ... وَلَّتْ فما بانت
كانت لنا. . كانت!
كُنَّا مع الأطيارْ ... نَغْشَ البسَاتينَا
يُهَدْهِدُ الأزهارْ ... شَدْوُ أغانينا
وَيَفْتِنُ النَّوّارْ ... سِحْرُ أمانينا
تحبسُ الأسحارْ ... هَمْسَ تَنَاجينا
وتكتمُ الأشجارْ ... سِرَّ تلاقِينا
وكانت الأنوارْ ... تَغْمُرُ وَادِينا
نَغْفُو عَلَى القِيثارْ ... وهو يغنِّينا
في غفْلَة الآلامْ
أُغْنِيَةَ الأحلامْ
كانت لنا أيام
يا طبيب ما كانت!
متى يفقُ النورْ ... من غَشْيَةِ الإظْلاَمْ
وَتستعيد الدُّور ... عهد المنى البسَّامْ
وتزْدَهي بالحورْ ... معارض الأجسامْ
ويهتف العصفورْ ... بأعذب الأنغامْ
ويُطْلِقُ المأسورْ ... سُجَّانُهُ الظَّلاّمْ
متى؟ متى يا نُورْ ... تُعَدِّدُ الأوهامْ
وتهزم الدَّيْجُورْ ... فتمَّحِي الآثامْ

وتنقضي الآلامْ!
لو صحَّت الأحلامْ!
وعادت الأيام
تَصْفو كما كانت!

البريد الأدبي

من شاعر إلى شاعر

تناولت أمس بالبريد مجموعة (زهر وخمر) للشاعر الساحر علي محمود طه فصار عندي من مجموعاته الخمس اثنتان: الملاح التائه وزهر وخمر. أما ليالي الملاح التائه، وأرواح وأشباح فستصلني بالبريد حالما يقع نظر أخي الشاعر على هذه الكلمة، فأنا أحبه وأحب شعره، ولن أكلف نفسي مشقة إفهام خصومه لماذا أحب شعره ولماذا أحبه، فإذا كان شعره لا يستطيع أن يضع في عيون أولئك الخصوم نوراً، وفي أنوفهم عطوراً، وفي قلوبهم فلن يستطيع لساني

فيا خصوم علي محمود طه؛ ستموتون ويبقى هو حياً. فغراب الموت البشع يقعقع في سطوركم، وعروس الحياة الجميلة تحلم في قصائده

ألا تعرفون حكاية الضفدع والحباحب؟ إذن فاسمعوها: رأى ضفدع يوماً حباحباً يلمع على حافة غدير، فخرج إليه قذراً ساخطاً وراح يبصق عليه. فقال الحباحب: (ماذا فعلت بك؟ من أين جاءك هذا الغضب؟) فأجابه الضفدع: وأنت من أين جاءك هذا اللمعان؟)

على أن ما يعزيني ويطربني ويملأ نفسي رجاء أن الإقبال على شعر علي محمود طه كبير، وفي هذا دليل كاف على أن الشعور بالجمال مطرد النمو في مصر كما هو في لبنان

فيا أخي الشاعر علي محمود طه! أنا أقطن أجمل بقعة في الأرض: ورائي شيخ الجبال، وأمامي وحولي أروع وأعذب ما مهرت به الطبيعة بلداً من بلاد الله: شاطئ كشعرك ذهب وفضة: فضة حين أتركه في الصباح إلى المدينة، وذهب حين أعود إليه في المساء، وخليج كله فتنة كشعرك في (الجندول) أو في (كليوباترا) (فاتنة الدنيا وحسناء الزمان)، ورواب كشعرك شماء وادعة، وسماء. . . سماء كأنها شعرك: جمال وحب وإلهام، وجو كله كشعرك غناء؛ وماذا أقول بعد؟ في هذه البقعة الطيبة في هذا الإطار الساحر قرأت شعرك أو قل تغنيت به وأحببتك. ويقيني أنك ستجيء يوماً إلينا، فأصعد بك إلى الشيخ صنين وننحدر معاً إلى الروابي فالخليج فشاطئ الذهب والفضة. ويقيني أيضاً أن هذا الشاطئ سيظفر منك بأغنية أشجى من أغنية لا مرتين في شاطئ سرنته، أو (سرنت) على قافية (برلنت)

إلياس أبو شبكة

تصويبات شعرية في كتاب السلوك للمقريزي

يقوم الدكتور محمد مصطفى زيادة بنشر كتاب (السلوك في دول الملوك المقريزي) نشراً علمياً مضبوطاً بالغاً غاية الجودة في التحقيق والتعليق. وحبذا لو نشرت كتبنا وتراثنا الأدبي العلمي بمثل هذه الدقة والتوفر على الضبط وحسن الإخراج، حتى لو بعث المؤلف نفسه ما تمنى أن يخرج كتابه على خير من هذه الصورة. غير أنني لاحظت في الكتابين الأول والثاني من الجزء الثاني بعض هفوات في الشعر المروي أرجو أن يتسع لها صدر الناشر الفاضل لما أسمع عن رحابة صدره وحسن قبوله جاء في القسم الأول من الجزء الثاني ص 263 س 16 هذا البيت:

يا قاضياً شاد أحكامه ... على تقى من الله وأقوى أساس

والبيت مكسور، وبحره السريع. وكلمة (من) في الشطر الثاني زائدة والفعل (شاد) بكسر الشطر الأول. ولعل الرواية الصحيحة التي يستقيم بها الوزن هي:

يا قاضيا شيد أحكامه ... على تقى الله وأقوى أساس

وذكر الدكتور زيادة في هامش صفحة 29 (أن الموشحات يلتزم فيها اللفظ العربي الصحيح) وهذا كلام جرى فيه الناشر على رأي غير المحققين من الأدباء. وللمغفور له العالم الثبت الشيخ حسين والي كلام في هذا الموضوع من مخطوط له نفيس اسمه (عصا موسى) وهو تحت يدي الآن. ولعل الله يوفق أقارب الشيخ الجليل وهم من أفاضل العلماء لطبع هذا المخطوط

وفي القسم الثاني من السلوك ج 2 ص 441 س 13 هذا المصراع
واردعه ردع كل مفسد وهو مصراع مكسور، لأن المخمسة التي هو منها من بحر الرجز، فهنا كلمة ناقصة ولعلها (باغٍ) أو عاتٍ أو ما إليهما فيكون المصراع هكذا:
واردعه ردع كل باغ مفسد
وفي صفحة 476 سطر 7 من هذا القسم خمسة أبيات وردت كأنها قصيدة واحدة، والواقع أن فيها قافيتين، فالبيتان الأولان قافيتهما الياء والثلاثة الأخر قافيتها الشين، وليست الهاء
في الخمسة الأبيات قافية. والبيت الأول منها هو هذا:
يا ملكا أصبح في نشوة ... من نشوة الظالم في نشيه
وعلى كلٍ، فالأول من السريع ولأربعة الباقية من بحر الكامل وإيراد الأبيات الخمسة على هذه الصورة فيه هذه الأخطاء:
1 - الهمزة في أول البيت زائدة في الطبع أو النسخ
2 - البيت الأول بعد حذف الهمزة وزنه السريع
3 - البيت الأول من بحر والأربعة الباقية من بحر آخر؛ ولكن إيرادها على هذه الصورة يوهم أنها كلها من بحر واحد
4 - البيتان الأولان من قافية والثلاثة الباقية من قافية أخرى. وأرجو أن لا يفوت الدكتور الفاضل تصويب هذا الشعر وتصحيحه في الجزء القادم خدمة للعلم واعترافاً بالحق وصوناً لجهده العظيم أن يرمى بالتهاون في التحقيق
محمد عبد الغني حسن
إلى الأستاذ العقاد
يدل رأيكم عن الرواية والشعر في مقاليكم الأخيرين على أنكم ترون الفن الروائي لا يقوم - كالشعر - على الإنشاء والابتكار، وهذا رأي جديد، والعهد بالفن عامة أنه يرجع إلى قوة الخلق والابتكار، أو إلى الخيال الإبداعي، لا فرق في ذلك بين قصة وقصيدة، أو صورة وسيمفونية. وبتلك النظرة يعالج بها فلاسفة الفن وعلماء الجمال فصل الخلق أو الإبداع الفني فيستشهدون بأنواع الفنون على السواء ومنها الرواية والقصة. فكيف لا تعدون التركيب الروائي وتصوير الشخوص وتحليلها من الإنشاء والابتكار؟ بل كيف فاتكم أن رواية كالأرض الطيبة أو الفندق الكبير وكلتاهما من تأليف امرأة - لا تقل منزلتها عن أية منزلة شعرية؟!
حافظ. . .
إلى الأستاذ الدكتور محمد مصطفى
قرأنا على صفحات الرسالة مقالاتكم الرائعة (عن ليلى والمجنون) وقد كانت كلمة طيبة
وتعبيراً جميلاً وتصويرا ساميا، وكنا نأمل أن نقرأها حتى انتهاء القصة؛ غير أنكم انقطعتم عن الكتابة. فنرجو أن تعاودوا النشر وأن تجمعوها متى انتهت في كتاب، والله يوفقكم.
(جنين - فلسطين)
ابن الطاهر
العدد 523 - بتاريخ: 12 - 07 - 1943
عيد ميلاد
للأستاذ عباس محمود العقاد
لم يكن لي عيد ميلاد
ولكنني لم أنس قط أنني ولدت، ولم أشعر قط بحاجة إلى تذكير؛ فهذه الحادثة التي لا تتكرر، وتقادم العهد بها وتعاقبت الأيام والسنون عليها، ولا يلوح لي أنني نسيتها أو أستطيع نسيانها
فما حاجتها إلى تذكار؟ وما حاجتها إلى احتفال؟ ومالي وقد أغفلتها سنين وسنين أبتدئ اليوم بإحيائها، وأحصيها ولات حين إحصائها؟
إنها العدوى
ولأعياد الميلاد عدواها كحوادث الميلاد. ألا يقول المعري في النسل والولادة:
تثاءب عمرو إذ تثاءب خالد ... بعدوى فما أعدتني الثوَباء؟

بلى. ولكنني أنا عُديت بعد طول التعرض والممانعة، فاحتفلت بعد الخمسين بأول ذكرى، واستغنيت عن إعادة الدرس خمسين مرة لأحفظه كما يحفظه المحتفلون به بعد طول التكرار
كنت أدعى إلى عيد ميلاد بعد ميلاد
وأكثر ما دعيت إلى أعياد الأبناء الذين يخمسون سنواتهم أو يسدسونها أو يسبعونها أو لا يزالون فيها بين التثنية والتثليث
درس جديد لهم العذر أن يثبتوه في الواعية وأن يستذكروه ويراجعوه. . . ولكني رأيتهم يكبرونني ويتقدمونني في هذا المجال لأنني أبتدئ الآن وقد سبقوني مرتين أو ثلاثاً أو أربع مرات. فأنا أسأل حيث لا يسألون، وأراجع حيث لا يراجعون، وأستخرج من الأضابير تذكرة جديدة هي عندهم أقدم ما يملكون!
في أي يوم ولدت!
لم أكن أدري؛ لأنني أذكر السنة على التحقيق، وأذكر الشهر على الترجيح؛ ولكنني لا أذكر اليوم بعد أن قرأته آخر مرة في وثيقة الاستخدام، ثم تركت الوثيقة وتركت الخدمة، ووددت لو محوتها من عداد الذكريات
فأنا اليوم في موقف من يكتب له شهادة جديدة بالميلاد، وكأنني بهذه المثابة على عتبة الحياة
. . .خير إن كانت الحياة خيراً
وليس بشر إن كنا غارقين من الحياة في شرور
ونويت أن أسأل في أول فرصة للسؤال، ولكن في غير اكتراث ولا استعجال، فقصاراه أنه شئ في البال، ولقد تمضي عليه الأعوام وهو في مكانه من البال!
وسنحت الفرصة على غير ما اشتهيت، لأنها اقترنت بتشييع أخ إلى مثواه الأخير، في موطني الذي درجت فيه خطواتي الأولى
وعند موقف الموت يسأل الإنسان عن موقفه من الحياة
فسألت، وعلمت، وطلبت المزيد من العلم، فظفرت بالعلم اليقين من أضابير المحفوظات
بل ظفرت في حياة واحدة بشهادتين للميلاد!
وكانت نوبة من نوبات الذكريات التي تساق إلينا على غير اختيار منا، فكثيراً ما ذهبت إلى أسوان دون أن تعرض لي دواعي الإياب إلى معاهد الطفولة، وتآلف الشباب. أما في هذه المرة فندر معهد من تلك المعاهد لم أقف ساعة عليه، ولم تجذبني داعية من الدواعي إليه
ومنها المدرسة التي قضيت بها ما بين التاسعة إلى الثالثة عشرة، ولا تزال في جملتها على حالها المعهود
ذهبت إليها وأنا أحسبني في الطريق ذاهباً إلى دار كسائر الدور، ولا أخالني سأهجم فيها على لجة من أعمق اللجج النفسية، ومفاجأة من أعنف مفاجآت الشعور
حتى وقفت عند الباب، ونظرت إلى البواب
فإذا هو البواب الذي كان يستقبلنا هنالك قبل أربعين سنة في ساعة الحضور
هو بعينه بوابنا الأول لم يتغير منه إلا قليل في صورته ومعناه، وإلا النظرة التي كان يعرفنا بها لأول وهلة، وهي الآن لا تعرفنا إلا بعد تثبت واستغراب
قال: من هذا؟ فلان؟ لقد شبت كثيراً يا بني!
وفي لمحة عين لا تتسع لقلب صفحه من كتاب، تنقلب في أعماق النفس صفحات من العمر تضيق بها أسفار كبار
لقد شبت كثيراً يا فلان!
ملاحظة صادقة وثبت إلى لسان الرجل كأنه لا يلفظها بل تلفظ نفسها بنفسها، وكم تأخر بها الزمن مع هذا الوثوب السريع!
ولا أعرف في الحياة شعوراً كثيراً أشبه به شعوري عند باب المدرسة التي كنت أدخلها عدواً وأنا الآن جامد لديها كأنني تمثال
ولكنني أذكر شعوراً موصوفاً أحسبه أقرب ما يكون إلى هذه المفاجأة العاصفة، وهو شعور الطيار في طوائر الانقضاض السريع، وقد هبط إلى الأرض وارتفع منها صعداً في خلال لمحات

يختلف ضغط الهواء عليه، فيتفجر الدم من قلبه ويطغى على عينيه، فيوشك أن يحجب عنه الأرض والسماء
ولم يختلف هنا ضغط الهواء بل ضغط السنين!
أربعون سنة ترتفع عن كواهل النفس في خفقة جناح، وغشية كتلك الغشية التي تعصف بالطيار عصفت بي صعداً فارتفعت إلى أجواء الثالثة عشرة، وطرحت عن كتفي أعباء اربعين سنة، كانت ترين هناك
وجلست في إحدى الحجرات أتحدث كما يتحدث المنوم يتقهقر به منومه مرحلة بعد مرحلة من عهود العمر حتى يبلغ به سنة معلومة من السنين فيقول له: قف لديك، وصف ما تراه!
فإذا وصف فهو لا يقول لنا: كان هنا وكان هنا قبل أربعين أو قبل كذا من السنين؛ بل يقول: إني لأرى الساعة وإني لأسمع في أذني ما أروي، وإني هنا الآن، ولا أعرف ما وراء ذلك من مشهود ومسموع.
وانقضت على ذلك خمسة أشهر وجاء موعد اليوم الذي كان في حياتي أول يوم. فلم أحتفل بشيء واحد حين احتفلت به، بل كان أعجب العجائب أنه كان موعد ذكريات يضيق بها الإحصاء، كلها من أخطر الذكريات وأكبر المواقف في الحياة، وآخرها في السنة الماضية ذكرى العلمين!
في هذا اليوم بعينه وصلت جيوش روميل إلى العلمين، وأوشكت أن تعبرها إلى طريق العامرية فالقاهرة والإسكندرية
وهو الهوان على أيدي أناس هم أخبر الناس بالهوان، ولا فرار من الموت إن وجب، ولكن البقاء للهوان إخلال بكل واجب يحرص عليه إنسان
وإلى أين الفرار؟ إلى وادي التيه الذي يرجع منه الغائب أو لا يرجع، ولكنه لا يدري أين يذهب ولا كيف يكون الرجوع
وليس هذا أفجع ما في الصفقة الفاجعة
بل أفجع من الليلة التي قبلها، أو هي ليلة المذبحة كما سميناها لأنها جرأة على الماضي تهون معها الجرأة على المستقبل، وعلى المجهول!
كل ما أتركه بعدي لا أباليه
الكتب يصنع الله بها ما يشاء. وما أكتم القارئ أنني على خطوة من إحراقها في كثير من الأوقات، غضباً على تكاليف المعرفة حيث يسعد الجهل بغير تكليف
وماذا اترك غير الكتب مما أباليه إن كنت أترك الكتب ولا أباليها!
هباء أو كالهباء!
إلا أوراقاً متفرقات فيها ودائع العمر التي يموت عنها الإنسان ولا تسخو نفسه بأن تموت قبله
وهي لا تنقل إلى حيث تفتح وتقرأ في مدخل كل أرض مطروقة، وهي لا تودع عند أحد كائناً من كان
فلا موئل لها أكرم من التمزيق، ثم نار الحريق
وانقضت ساعتان قبل تمزيق الورقة الأولى
ولم تنقض إلا دقائق قبل تمزيق الورقة الأخيرة، كالذي يأخذه التردد عند الضربة الأولى ثم يهيم به سعار الضرب بعدها فلا يبقي ولا يذر، ويضرب ويضرب حتى بكل ساعداه وتخلو كفتاه؛ ثم يستريح من فرط الإعياء وبهر السعار
وانجلت الثورة عن كومة من الورق كل قطعة منها موصولة بعرق ممزق، وشعل من النار لم تكن من قديم عهدها إلا شعلاً من النار، ولكنها حارت إلى رماد!
ويلك يا هتلر!
النار التي أشعلتها في العالم لا تنسى، ولا تنسى لك عندي هذه النار التي أشعلتها أنا بيدي
تلك أقرب ذكرى من ذكريات اليوم الذي كان في حياتي أول يوم
وقبل ذلك نظائر لهذه الذكرى موزعة في سنوات متباعدات يوشك أن تقنعني بصدق ما يقال من أن للنفس صيحة كصيحة الإهلال في كل موعد ذكرى من ذكرياته!
أفما كان خيراً لي إذن أن أنسى ذلك اليوم في سنتي هذه كما نسيته في السنوات الماضية؟

وأن يكون لي ميلاد، وليس لي عيد ميلاد؟
عباس محمود العقاد
الحديث ذو شجون
للدكتور زكي مبارك
عصارة المتاعب - الإنتاج والاستهلاك في الحياة الأدبية - عتاب!
عصارة المتاعب
من عصارة المتاعب يصاغ إكليل المجد، ومن عصارة المتاعب يرفع ناس من التراب إلى السحاب
كذلك قلت وأنا أدفع وهماً رسخ رسوخ الحقائق، بحيث صار الأمل في زعزعته من أخيب الآمال، وهو الوهم الذي يزعم أن الحياة السعيدة هي خالية من التكاليف، وهذا الوهم يحيط بنا من كل جانب، ويملا حياتنا بالمنغصات، لأنه يفرض علينا أن نفهم أن الراحة هي الغرض المنشود، وأن كلمة التعب تماثل كلمة الشقاء في المدلول
ما هو الفرق بين الرئيس والمرءوس في وهم بعض الناس؟
الفرق هو أن الرئيس يملك من الراحة ما لا يملك المرءوس، فهو لا يسأل عن رعاية المواعيد، ولا يطالب بالسرعة في إنجاز ما لديه من الأعمال (؟!)
وفي الأمثال المصرية كلمات تؤيد هذا المعنى، فالرجل السعيد هو الذي لا يستطيع أحد أن يقول له: (قم من الشمس واقعد في الظل)، وهو الذي لا يسأل عن (ثلث الثلاثة)، كأن المسئولية تكليف يكدر صفو الهناء
ولنفرض أن الراحة هي الغاية، وأن كل رئيس يتمتع بها إلى أقصى حدود التمتع، فما السبب في أن تكون هذه المزية من حق بعض الناس لا كل الناس؟ وما هو السبب في أن يقضي فلان عمره وهو مرءوس وقد أصبح نظراؤه من الرؤساء؟
الجواب حاضر: فكل تقدم يسبق بتزكية من عصارة المتاعب، ومن لم يقدمه جهاده فلن يتقدم، ولو كان أبوه أقدر الرجال على إحياء الأرض الموات!
هل كانت الراحة من أنصبة الملوك، مع أنهم ملوك
وهل ظفر عظيم بالراحة في أي يوم؟
إن الراحة متعة حقيرة لا يرغب فيها غير الحقراء
لقد امتلأت كتب الأدب بأخبار الملاهي التي كانت تقام في قصور الملوك. فهل فكر أحد في
أسباب تلك الملاهي؟ وهل قال قائل إنها ضجيج يراد به ستر المتاعب؟
التعب هو المقياس للقيمة الذاتية، والعمل المتعب هو الذي يرشح صاحبه لجلائل الأعمال، والذي لا يرحب بالتعب ولا يفرح به لن يصل إلى شئ. . . والطمع في الراحة هو طمع الأموات لا الأحياء. . . وهل يثق بك أحد وهو يعرف أن الراحة من التعب هي غايتك، وأن التحرر من التكاليف هو مبتغاك؟
عصارة المتاعب
احفظ هذه اللفظة جيداً، واكتب منها لوحات يزدان بها مكتبك، وانظر إليها في صباحك وفي مسائك، واعلم علم اليقين أنها مسطورة فوق كل قلب من قلوب المجاهدين الفائزين
عصارة المتاعب نقلت خلائق من التراب إلى الحساب، فلا يخطر في وهمك أن إنساناً ارتفع بلا متاعب، ولا تصدق أن المناصب العالية تمنح كما تمنح الصدقات للمعوزين، ولا تتصور أن نظام الوجود يسمح بان يرتفع طائر بلا جناح أو يرتقي رجل بلا جهاد
يقول الكسالى من حولك بان لا نهوض بلا وسيط، وهم يردون كل فوز إلى قوة الوساطات والشفاعات
ولنسلم بان هذا القول صحيح في المطالب الهينة، كأن يكون غرضك أن تكون موظفاً يأكل العيش بأحد الدواوين، فمن الذي يرشحك لأن تقوم بعمل عظيم ولست له بأهل؟
من الذي يوصي بان تكون قوة مسيطرة على زمانك وهو يدرك أنك تعجز عن السيطرة الفكرية أو الروحية في أي ميدان؟
وكيف تصل إلى توصية من رجل عظيم وأنت مجرد من الكفاية الذاتية؟
أقم الدليل أولاً على صلاحيتك للأعمال التي لا يقوم بها غير فحول الرجال، ثم أنتظر نصيبك الحق، فقد تصل إليه بلا وسطاء ولا شفاء

هل جال بخاطرك أن توازن بين رجلين أحدهما في مركز فوق ما يستحق، وثانيهما في مركز دون ما يستحق؟ فأي الرجلين أعظم في نفسك؟ وأي حظ من هذين الحظين تريد لنفسك؟
وهل فكرت يوماً في غضب الله على من يأخذ أجراً بحق؟
أنا أخشى أن يكون رزقك أكبر من جهادك، فيكون في طعامك شئ من الحرام، والطعام لا
يسمن إلا إن كان حلالاً في حلال
ثم؟ ثم ماذا؟
هل فكرت في منافع الأعضاء؟
كل عضو يعرض للعطب إن لم يؤد أعماله الأساسية، فالعين تضعف إن صرفت عن النظر، والرجل تثقل إن كفت عن المشي، فما رأيك في عزيمتك وهي جارحة معنوية؟
أنا أعرف أنك تشتهي أن يحمل عنك الناس جميع أعبائك، وأن تركب فرساً ركبة الإعزاز لا ركبة الفروسية، وما أبعد الفرق بين الركبتين!
الراكب الأول مخلوق مدلل تراض له الفرس، والراكب الثاني فارس يروض الفرس، فانظر أين أنت بين هذا وذاك؟
كن رجلاً فعالاً يصنع العجائب في تصريف دنياه، كن رجلاً يفرح بالتعب، فالتعب أعظم رزق من أرزاق الرجال
لم يتقدم فرد على فرد ولا شعب على شعب إلا بفضل عصارة المتاعب، ولا جاز أن يتقدم متخلف أو يتخلف متقدم إلا بسبب تفاوت الجهاد
والأقدار التي سمحت بأن يكون فلان وزيراً في المملكة الفلانية - وكان في صباه بائع جرائد - هذه الأقدار لم تحابيه بأي لون من ألوان المحاباة، وإنما احترمت عصارة المتاعب في الأعوام الشداد فصيرته من الوزراء
ولتعرف جيداً أن لا نهاية لفضل الله على المجاهدين، فعند طيبات تفوق الوصف والإحصاء، وهو لا يتخلى عنك إلا يوم تتخلى عن نفسك بإيثار الراحة من عناء الجهاد
افرح بالتعب، واسأل الله أن يكثر متاعبك في أعمالك لا في أوهامك، فما شقي الناس إلا بالتعب في الأوهام لا الأعمال
افرح بالتعب، قبل أن لا تفرح بالتعب، فما يعاني التعب غير الأقوياء
وتذوق عرق الجبين من التعب قبل أن تعانيه من المرض
وأحذر ثم أحذر أن تمر عليك ساعة وأنت مستريح من هموم الرجال
هل سمعت باسم (الغرازة) في عرف أصحاب البساتين؟
هي عود من الخشب تسند به الشجرة الهيفاء، ومن الهيف في الأشجار، جاء الهيف في
النساء
ومزية الغرازة أنها تغني الشجرة عن الجهد في مقاومة الرياح إلى أن تستطيع المقاومة بعد حين؛ وقد لا تستطيع بفضل هذا التدليل
والغرازة للشجرة كالمشاية للطفل، وفي الناس من يعيش طفلاً طول عمره، لأنه لا يعيش بغير سناد
كن أنت أنت، وقف على قدميك، واستفت ضميرك في مصيرك، ولا تجعل لغيرك فضلاً في نقلك من حال إلى أحوال
لا تخف من التوحد. فما يتوحد غير الآساد، واذكر دائماً أن الله جعل أمرك بيدك، وانه فتح لك خزائن الأرض والسماء من هؤلاء: تشرشل وروزفلت وستالين؟
هم ناس أمثالك، ولكنهم اعتمدوا على عزائمهم فجعلهم الله من العظماء
وهل كانت البداية الأولى لهتلر وموسليني تبشر بأن ستكون لهم فاعلية دولية في السلم أو في الحرب؟
وهل كانت البداية الأولى للمسيو بونابارت توحي بأن سيكون الإمبراطور نابليون؟
عصارة المتاعب هي التي صنعت الأعاجيب فحولت الأطفال إلى رجال، وعصارة المتاعب هي التي نقلت هؤلاء من التراب إلى السحاب
اتعب قبل أن لا تتعب، فالتعب أمضى من السيف في اختراق المصاعب والأهوال
الراحة سم زعاف، وهي شؤم على الأعضاء، والشرايين والأعصاب

لا تبتسم للراحة، فلا راحة إلا بالتحرر من المسئولية، وهذا حظ المجانين
إن آذاك نصحي فأنا أوجهه إلى نفسي لا إليك، لأني أحوج منك إلى هذه الكلمات، بعد أن كدت أرتاب في المنهاج الذي اخترته لحياتي
الإنتاج والاستهلاك في الحياة الفكرية
المنتج في عالم الاقتصاد هو الذي يصنع ويورد إلى عملائه هنا وهناك. والمستهلك هو الذي يشتري ما تنتج المصانع من صنوف البضائع. والصلة بين المنتج والمستهلك صلة طبيعية عرفها الناس من قديم الزمان، وإن لم تخل من الشعور بأهمية الفرق بين الإنتاج والاستهلاك في وزن أقدار المتعاملين
والمنتج هو أيضاً مستهلك، فمصانع (المحلة) بالديار المصرية، ومصانع (لنكشير) بالديار الإنجليزية، هذه المصانع تنتج الأقمشة، وهي مع ذلك تستهلك الخيوط فتحتاج إلى الأقطان التي تخرجها المزارع المصرية والأمريكية
ومن الواضح أن المنتج أقوى من المستهلك، لأنه المتحكم الأول في الأسواق، ولأن المستهلك يعجز عن مقاومته في أغلب الأحيان
فمد الرأي في الإنتاج والاستهلاك في الحياة الفكرية؟
وما مركزنا الصحيح بين المنتجين والمستهلكين؟
قضينا زمناً ونحن عملاء أمناء للثقافات المجلوبة من بلاد غير البلاد، فمتى ننتج بأكثر مما نستهلك؟ ومتى نحاول غزو الأسواق الأجنبية بالفكر والبيان؟
قد يقال إن الفكر المصري منتج بالنسبة لكثير من أمم الشرق العربي والإسلامي وأقول إن هذا ميدان غير جديد، فالعرب والمسلمون اخوة لنا بالشرق، وما بيننا وبينهم من الجاذبية الروحية قد يوجب أن يرضوا منا بالقليل، وإن لم ندخر جهداً في أن نلقاهم بأقوى مما يلقاهم به أقطاب الفكر من أهل الغرب
والحق أن الأديب المصري غاية في الحرص على التسلح بالجدية في الحياة الأدبية، وقد يكون جهاده في الأدب أقوى من جهاد نظرائه في الأمم الأوربية والأمريكية، بدليل ما نشاهد من سيطرته الروحية في الشرق، مع أنه لا يعتمد على أي سناد، ومع أن الأدب في مصر لم يصبح أداة من أدوات المجد، في حدود ما يستحق من التبجيل
فماذا نصنع لنكون منتجين لا مستهلكين بالنسبة لأهل الغرب؟
ماذا نصنع؟
هل نترجم لهم ما يصدر أدباء مصر من الروائع؟
هل نستجديهم الثناء على ما عندنا من الآداب والفنون؟
لا هذا ولا ذاك، وإنما الرأي أن نعتز بالذاتية العربية، وأن نحاول خلق جبهة أدبية من قراء العرب، وهم يزيدون على الثمانين من الملايين
إن صنعنا - وسنصنع - فسيلتفت الغرب إلى الشرق، وسيكون لنا في حياة الفكر والرأي تاريخ جديد
ما هذه الغطرسة التي يتمتع بها بعض أدباء الغرب؟
وما هذه الهالة التي يحيطهم بها بعض المترجمين؟
أنا أنتظر مساجلة دولية يشترك بها أدباء مصر مع أدباء الفرنسيس والإنجليز والأمريكان والألمان
أنا أنتظر هذه المساجلة في أقرب وقت، ليعرف العالم القديم والجديد مكانة مصر في فردوس الأحلام والعقول
مصر تجد، وأدباؤها يجدون، وهي تؤمن بأن مكانها في الفكر أعظم مكان، فإن كنتم في ريب من عظمتها الفكرية فتعالوا إلى السباق في ميدان الرأي والبيان
عند أوربا وأمريكا مدافع وطيارات وأساطيل، وتلك قوى أنعم الله بها على الأوربيين والأمريكان، والله يخص بالقوة من يشاء
ولكن مصر السلمية لا الحربية تقول إن مكانها في الأدب لا يدانيه مكان، وأنها مستعدة لأعظم سباق في ميادين الروح والوجدان
في مصر اليوم عشرون أديباً من العظماء، على أقل تقدير، فأين الأمة التي تقول إنها تملك من عظماء الأدب عشرين؟
مصر اليوم هي الفكر والرأي، وهي صلة الوصل بين الشرق والغرب، وإليها المرجع في الفصل بين الحقائق والأباطيل

أنا أنتظر مساجلة دولية تقول فيها مصر إنها مصر، ويقول فيها النيل إنه النيل
فتعالوا يا هؤلاء، إلى كلمة سواء!
عتاب!
هو عتاب الطبيب الذي يذكر عند المرضى وينسى عند العافية
هو عتاب الصديق الذي يذكر في البأساء وينسى في النعماء
هو عتاب النهر الذي يشتاق الأرض في الصيف وتنساه في الخريف
هو عتاب من لم يبق له منكم غير العتاب!
وكيف اعتب على من يستغني عن نور القمر بشعاع السراج جربوا حياة العقوق،
جربوها، بعد أن جربتم حياة الوفاء لتعرفوا ما طعم الشهد وما طعم الصاب!
إن كان غركم الصفح فلا صفح، إن كان غركم الدمع فلا دمع، فقد صيغ قلبي من
ضمائر الجبال
تلك أيام خلت، وأنا أضن عليها بأن تضاف إلى التواريخ، ولن أعترف بأنكم أسرتم
روحي لحظة من زمان
فإن راعكم وفائي لدار الهوى بالمرور عليها في الغدو والرواح، فلا تعجبوا ولا تظنوا
أني أستهديكم تحية يجاد بها على عابر الطريق، وإنما هي لفتة أريد بها أن تفهم
الحجارة أني لم أكن في هواي من العابثين
إن دار الهوى لن تعرفكم بعد اليوم، ولن تراكم إلا أبدانا بلا أرواح، ولن تجود عليكم
بالسعادة والصفاء، يا جيرة آدهم حفظ الجميل
سيصنع الدهر ما يصنع، وسيفعل الغدو ما يشاء، وستفترون علي بقدر ما عندكم من
كيد وجحود، ثم يبقى وفائي لكم ولدار الهوى، يا جيرة أطغاهم الجمال فتاهوا في
صحراوات الدلال
لن تضيعوا من يدي ولو فررتم إلى آفاق المريخ، فارجعوا طائعين قبل أن ترجعوا
كارهين، فسرعة الظبي في الجري تنبهر حين يلمح وجه الأسد الصوال
زكي مبارك
القلب الشاعر
للأستاذ دريني خشبة
جميع هذا العالم الأثيري الذي لا نهاية له، بكل ما يطن فيه من سدم وأنجم وأفلاك،
وكل ما يروح في كواكبه ويجئ من خلائق وكل ما يسبح في أجوائه من ملائك، ويصدح
ملئها من طير. . . كل ذاك، كل ذاك قطرة من بحرك الزاخر أيها القلب الشاعر!
أنت أكرم خلق الله على الله. . . لأنك تتسع لكل ما لا يتسع له غيرك مما صنعت يداه
تتسع لما تضيق به العقول الضالة التي تتعالى فتنكره، لأنها تحصي عليه كل ما عمى
عليها فتجعله في منطقها تضارباً. . . وما دام هنالك تضارب فثمة جحود ونكران
تتسع لهذا كله لأنك لا تعرف الحدود، وهي مقيدة بالحدود. . . أنت حر طليق، وهي
. . . ذليلة مستعبدة ترسف في الأصفاد والقيود
أنت أكرم خلق الله على الله، لأنك تلجم هذه العقول دائماً حينما تطلق عليها عواطفك
فتلسعها كما يلسع النحل، ثم تسائلها ساخرة: ما الحياة وما الجمال وما الحب؟! وما
وراءك أيتها العقول؟ منذ الذي يمسكك فلا تكوني هراء وجنوناً؟
منذ الذي يمسك الأرض والسموات أن تزولا؟ وما سر هذا الجمال الذي يبهرك ويورث
منطقك البكم، والذي يملأ الأرض والسموات؟ ما سر هذه الألوان التي تذهب الشفق،
وتفضض السحب، وتموه صفحة اليم، وأديم السماء بأصباغ البنفسج، وتزخرف بالدمام
ثغور الزهر، وتغازل بالسحر خدود العذارى، وتملأ بالفتنة عيون الحسان، وتنضد
بالجسمان ثنايا الغيد، وتطبع بخاتم الحسن ثدي الكواعب؟!
ما سر هذه الألوان يا عقول؟
وما سر الجاذبية التي تربط الدنا بالدنا، والعوالم بالعوالم؟! الجاذبية التي هي سر
الحياة وبقاؤها، واستمرار الوجود وقيامه؟! الجاذبية التي تشد بين العيون والعيون،
وتعاطف بين القلوب والقلوب، وتربط الأرواح بالأرواح؟!
ما سر تلك الجاذبية التي تسيطر على سكان المدينة وسكان الخميلة وما تعج به
الغابة، وما يأوي إلى الكهف، وما يخفق بجناحيه في الهواء، وما يتخذ سبيله سرباً تحت

الماء؟
وإلى أن تجيبي فاعزبي، ودعي القلب الشاعر يغني!
أي القلوب يحب كما تحب يا مستودع الشعر، وأيها يرحم كما ترحم، وأيها يضطرب كالعاصفة كما تضطرب حين يحز بك أمر، أو حين تتحرق أسى على الإنسانية الضالة؟ أي القلوب يفيض بالخير والنبل كما تفيض، وأيها يبتسم لما يصيب الناس من سعة كما تبتسم، وأيها يعبس وينقبض لما يؤودهم من شدة كما تعبس وتنقبض؟
إنك تود حينئذ لو استطعت فسحرت لهم الجبال ذهباً، والتراب فضة. . . أو سخرت لهم الريح فأمطرتهم دنانير ودراهم، أو أمرت البحر فحار ماؤه لبناً وعسلاً مصفى!
إلا أنك تعجز أيها القلب النبيل. . . يا أكرم المخلوقات. فيذهب بك صاحبك ليجلس فوق ربوة، أو في منعزل من الناس، لتخفق له، وتغني له؛ وتنظم له ألحانك كي يهديها بعد إلى الناس. إلى الجائعين الظامئين الذين أضرت بهم المسغبة وأذاب أبدانهم الطوى، وأضرت بهم تلك الريح العاصفة التي تلفح الإنسانية الضاوية وتتلقفها بالموت في كل مكان
بيد أنك تعود أدراجك لتبكي يا أكرم المخلوقات، لأن ألحانك لا تخفف من ألم الجوع، ولا تروي من حر الظمأ، ولا تستطيع أن تنسج نفسها ثوباً يرد عادية البرد، أو يصد لفح الشمس؛ ولا تستطيع الأم الفقيرة المعذبة أن تشتري بمعظم قصائدك قدحاً من اللبن لطفلتها الباكية التي يصهر الجوع أمعاءها؛ ولا أن تبتاع بالباقي أرغفة من نخالة هذا العصر الأسود تملأ بها معدات أطفالها الآخرين
طالما يضحك العلماء من أحلامك، والأغنياء من فقرك، وطالما يستهزئ الخبراء في الأرقام بعواطفك التي لا عدد لها، لأنها عداد كل شئ. . .
غير أنك تضحك منهم جميعاً، وتستهزئ بهم جميعاً؛ لأنك تعرف أنهم يعيشون اليوم ثم يموتون غداً، فلا يذكرهم أحد. . . فهم ينتهون كما انتهى ألف مرة الطعام الذي طعموا، والشراب الذي شربوا، والملابس الزاهية التي طالما تاهوا بها ودلوا. . . وكما انتهت الأرقام الضخام التي طالما زحموا بها السجلات
أما أنت فتعيش اليوم، وتعيش غداً، ولسوف تعيش إلى الأبد. تعيش اليوم في أفئدة المعجبين بك، أولئك الذين تواسيهم دائماً بأناشيدك، وترأب جرحهم بأغاريدك، وجفف دموعهم بألحانك، وتبدل جحيم الحياة من حولهم جنات تجري تحتها أنهار - حنانك، وتتفجر فيها أمواه عطفك، وتصدح في أفنانها بلابل شدوك، ويحمل إليهم نسيمها عذب غنائك فترد إليهم السعادة، وتحيي في نفوسهم الرجاء، وتنعش في قلوبهم خامد الأمل، وتصلهم بعد القنوط بحبل من الله، فتستنير بصائرهم، وتهدأ أعصابهم، وتفيق أرواحهم الخافتة من سكرات الجوع والظمأ والعرى بذكر الله. . .
وأنت تعيش غداً بمثل هذا، ولسوف تعيش إلى الأبد بمثل هذا. ستعيش في قلوب القافلة التي يجد بها السير. القافلة التي ركبها المئون، فيتصل به المئون والمئون حتى يجئ أمر الله. . . ستعيش كما يعيش الصديقون والشهداء وقادة الإنسانية. قادتها إلى الطوبى التي طالما غازلت خيالك، وعمرت أحلامك، ورفت كما ترف الجنة تحت شباة قلمك وفي صميم سويدائك
ألا ما أسفه الذين ضحكوا منك، واستهزءوا بك عند ذاك!
لقد فرغت الدنيا منهم، بقدر ما امتلأت بك، وهبطوا إلى التراب وسموت إلى عليين!
يمشي صاحبك أيها القلب الشاعر كما يمشي الناس في الحدائق والطرقات، ويقف كما يقفون عند شاطئ النهر، وحفافي الغدير، ويرى كما يرون بعينين، ويتكلم بلسان وشفتين، ويسمع بأذنين، وله يد كما لهم أيد تمتد إلى طعام والى شراب والى. . . كتاب
إلا أن صاحبك حينما يمشي في الحديقة يكلم الورد، ويكلمه الورد بلغة قد لا يعرفها الناس وقد لا يسيغونها؛ لأنها لغة صامتة تتفاهم بها الأرواح التي من قبيل روح الوردة وروح الشاعر. . .
ثم هو يكلم كل ما هو في الحديقة، ويفهم عنه ما لا يفهم الناس
إن الحديقة أغنيته الكبرى الخالدة، التي يتنفس فيها كل شئ، ليجاوب نبضاتك، ويرقص على خفقاتك، وليتحد بك
فإذا مشى صاحبك في الطرقات، وثبت إلى عينيه أيها القلب، يا أكرم المخلوقات،

وكما تثب إلى مسمعيه، كي تنطبع على شغافك آلام القافلة المتعبة، وتستقر في جوانبك أدعيتها، فتطب لها بما ترقرق من غناء وحداء
أما إذا وقفت عند شاطئ النهر أو حفافي الغدير، فإنك تسبح لله وتثني عليه، فتقبل قطرات الماء لتصلي معك، وتنشد إنشادك، وتتمنى لو تقبل قدميك، أو تقبل فمك، لتمتزج بروحك العلوية التي هي بضعة من الروح الأكبر، وقبس من نور الخلود، ونفس من أنفاس
الرحمن. . .
وإنما تتمنى قطرات الماء أن تصنع ذلك لأنها تحس كأنما تنبع من أعماقك، وتنسكب من نفسك، كما نبعت من السحاب الذي باركته يد الله. . . وانسكبت من القمة الشامخة التي يداعبها البرد ويغسلها الثلج. . .
ألست المرآة الصافية التي تجلو جمال هذا الكون للناس، والعندليب المجلجل الذي يفتح آذانهم على ألوان من مباهجه لم يكونوا يفقهونها لولاك؟!
ألست الناي الخالد الذي يسكب في أسماع الزمان ألحانه فينشط الركب، وتتجدد عزمات القافلة، وتغني السنون، وترقص الأيام!
ألست الطبيب النطاسي الذي يأسو جراحات الحزانى، ويعالج لواعج المحبين. . .
وقد تظمأ مع ذاك يا أكرم خلق الله، فإن اشتد بك حر الظمأ فاشرب ما شئت من سلافة العيون. . . العيون الخضر الرمادية، والعيون الزرق اللازوردية، والعسلية الصافية التي فيها من مغناطيس الكهرمان. . . واشرب ما شئت من العيون السود التي فيها ذاك المزيج العجيب من الدعج والحور والوطف ما تسكر به وتسحر وتأمر. . . العيون الجميلة النجل التي تغمزك في هوادة ورقة ورفق مرة، وفي عنف وقسوة مرات. . . وهي في الحالتين أمواه حياتك، وحدائق أحلامك، ومشارق خيالك، ومهابط وحيك، ومراتع فتونك، وملاعب هواك
العيون الموسيقية التي لا يتسع غيرها لملكوتك الرحب الذي لا يعرف الحدود!
إشرب منها ما شئت، ثم تصدق بما تنبته تلك المدامة في جناتك ذوات الجنا من موسيقى وألحان. . .
تصدق بهما على المدنفين والمكلومين والمحرومين
تصدق بألحانك على العيون المشهدة، والجوانح المشبوبة، والحدق الباكية، والأنفاس المحترقة، والفم الظامئ، والمهجة الغرثى، والروح الصادية. . . على كل حمامة تنتظر، وعلى كل ظبي غاب عنه أليفه. . . فألحانك غذاء هذه الأرواح جميعاً، وهي عصارة العيون التي شربت، والخدود التي رعيت، والأنفاس الطاهرة التي اختلطت بأنفاسك، وشاعت حمياها في أعطافك
أيها القلب الشاعر! يا أكرم المخلوقات وأنبلها! لن أفرغ اليوم منك، لن أفرغ منك غداً ولا بعد غد، فإلى صلاة قريبة، وإلى لقاء قريب!
دريني خشبة
من أدب التراجم
الخليل بن أحمد
للأستاذ طه الراوي
إذا افتخرت الأمم بالأفذاذ من رجالها الذين رفعوا مشعل العلم عالياً فأناروا للعقول مناهجها، وضاعفوا لذاتها ومباهجها؛ حق للعرب أن يكونوا المجلين في هذه الحلبة؛ ولهم من تأريخ المعارف الإنسانية شواهد خوالد تسطع أنوارها وتتجدد على الزمن آثارها. فتأريخ النتاج العقلي يفيض بما للعقل العربي من خصب في الإنتاج، وبراعة في الاختراع، ودقة في الإبداع، وسعة في التحقيق، وإنعام في التدقيق مع صدق في القول وأمانة متناهية في النقل
ومن بين أولئك الأفذاذ الذين أقاموا للعلم مناره ورفعوا لواءه في سماء الرافدين الخليل بن أحمد البصري. وقد رأيت أن أترجم له بمقال مسهب أرسل به إلى مجلة الرسالة الغراء؛ وبعد أن تم المقال رأيت من الأصلح اختصاره رغبة في دفع الملل عن القارئ لأني أعلم أن الكثير من قراء المجلات في هذه الأيام العصيبة يرغبون عن المطولات ويملون المسهبات
نسب الخليل

من أشهر قبائل اليمن قبيلة الأزد التي منها غسان، والأوس والخزرج اللتان عرفتا بعد الإسلام بالأنصار؛ ومن بطون هذه القبيلة الفراهيد، وكان الكثير من أفخاذها يقطن عمان والبصرة. وقد أنجبت عدداً كبيراً من المشاهير كان في الطليعة منهم المترجم وهو: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمر بن تميم البصري الفراهيدي اليحمدي، وبعضهم يقول الفراهيدي، قال الأصمعي: سألت الخليل بن أحمد ممن هو؟ فقال: من أدعمان من فراهيد. قلت: وما فراهيد؟ قال: جرو الأسد بلغة عمان. أهـ

مولده ونشأته

ولد الخليل في البصرة حوالي سنة 100هـ ونشأ بها، وترعرع فيها وهي يومئذ مهد العربية ومطلع أقمارها، فياض بالمعارف ولا سيما الأدبية منها، فشب بين مربدها الذي أصبح عكاظ العرب بعد الإسلام، وحلقات أدبائها الذين كانوا مصابيح الدجى ونجوم الهدى،

فاقتطف من أزاهير المعارف ما شاء أن يقتطف، واجتنى من يانع ثمارها ما راق منظره وطاب مخبره، وبرز على أقرانه أيما تبريز. ومن أشهر مشايخه في الأدب أبو عمرو بن العلاء. ولما آنس من نفسه الكفاية رأى أن أخذ العربية عن الحضريين من العلماء والمترددين إلى الحواضر من الأعراب الذين لانت سلائقهم وضعفت طباعهم لا يوصل إلى اليقين ولا يهدى إلى مهيع الصواب، وعلم أن التبحر في هذا الشأن لا يتيسر إلا بمشافهة الأعراب الخلص الذين توقحت سلائقهم، وصفت عربيتهم، ومعايشتهم في ديارهم، فشد الرحال، وضرب في كبد الجزيرة، وطفق يفلي ناصية الفلاة ويتنقل في الأحياء التي حلت في سرة البادية ولم يكدر صفاء لغتها مخالطة حمراء الأمم وصفرائها كقيس وتميم وأسد وغيرهم ممن خلصت عربيتهم، فكان يلتقط ما يعثر عليه من درر كلامهم وفرائد خطبهم ونوادر أخبارهم وعيون أشعارهم وجليل آثارهم، فما عاد إلى وكره حتى وعى في حافظته أدباً وعلماً جماً، كما أوقر راحلته رقاقاً وطروساً ومهارق حشد فيها شوارد النثر وفرائد النظم فكانت تلك المنقولات عدته في استخراج المسائل وبناء القواعد، وتبويب اللغة، وتصحيح القياس والإكثار من الشواهد والتوسع في إبداء البراهين.

عقله

كان الخليل آية من الآيات في الذكاء ودقة التصور، وتوقد الفطنة، وصدق الحدس، وسعة الحافظة، وقوة الذاكرة، ورجاحة العقل، حتى كانوا يقولون: (لا يجوز على الصراط أحد بعد الأنبياء أدق ذهناً من الخليل) ولا حاجة بنا إلى برهان أنصع من هذه المبتكرات التي أخرجها للناس كما سيمر بك بعد. وقد نقل أهل العالم عنه حكايات من هذا الشأن تتجاوز حد التصديق لولا ثقة رواتها وتكاثر نقلتها. من ذلك أنه جاءته رسالة عربية مكتوبة بالحرف السرياني فقرأها وهو لا يعرف شيئاً عن الحرف السرياني ولكنه استعان بما عرف أنها تصدر عادة بالبسملة والحمدلة ونحوهما

قال الرواة: اجتمع الخليل وعبد الله بن القفع ليلة يتحدثان إلى الغداة فلما تفرقا قيل للخليل: كيف رأيت ابن المقفع؟ فقال: رأيت رجلاً علمه أكثر من عقله. وقيل لابن المقفع: كيف رأيت الخليل؟ فقال: رأيت رجلاً عقلة أكثر من علمه

وقال حمزة بن الحسن الأصفهاني:

إن دولة الإسلام لم تخرج أبدع للعلوم التي لم يكن لها عند علماء العرب أصول من) الخليل. ليس على ذلك برهان أوضح من علم العروض الذي لا عن حكيم أخذ، ولا على مثال تقدمه احتذاء. فلو كانت أيامه قديمة، ورسومه بعيدة لشك فيه بعض الأمم لصنعته ما لم يصنعه أحد منذ خلق الله الدنيا من اختراعه العلم الذي قدمت ذكره، ومن تأسيس بناء كتاب العين الذي يحصر لغة أمة من الأمم قاطبة، ثم من إمداده سيبويه من علم النحو بما صنف منه كتابه الذي هو زينة لدولة الإسلام. م

مبتكراته

لقد أبدع الخليل بدائع لم يسبق إليها، واخترع علوماً أعجزت المتقدمين كما بهرت المتأخرين، فلا عجب إذا سميناه (شيخ المبتكرين من العرب)

لو لم يكن للخليل من المبدعات إلا هذا العلم لكفاه منقبة، فإنه - :(علم العروض) لعمري - أبدع في تنسيق قواعده، وضبط أبوابه، كما بهر الألباب باختراعه. فقد حصر أقسامه في خمس دوائر يستخرج منها خمسة عشر بحراً على كيفية أدهشت الفطن،

وحيرت الأفئدة. ونحن نعلم أن كل مبتكر يعتريه في بادئ الأمر الاضطراب، ويحف بالنواقص، فلا تستقيم قناته ويلبس الحلة التي تليق به إلا بعد أن تختلف العقول على صقله وتثقيف أوده حيناً من الدهر؛ سنة الله في خلقه. ولكنا رأينا علم الخليل بلغ الرشد يوم ولادته، فلم يستدرك عليه من جاء بعده باباً أهمله، أو قاعدة أخل بها، أو فصلاً ذهل عنه، أو اصطلاحاً غيره خير منه - إلا ما كان من أمر البحر الذي زاده تلميذه الأخفش وسماه (الخبب)، ولا يعسر رد هذا البحر إلى واحد من بحور الخليل

(الشكل): كان الخط في صدر الإسلام خلواً من الشكل والإعجام؛ فوضع أبو الأسود الدؤلي المتوفى سنة 69هـ علامات للحركات الثلاث، فجعل علامة الفتحة نقطة فوق الحرف، والكسرة تحته، والضمة بين يديه، وجعل التنوين نقطتين، كل ذلك بمداد يخالف مداد الحرف. فلما وضع نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر بأمر من الحجاج نقط الإعجام اضطرب الأمر واشتبه الإعجام بالشكل فتصدى الخليل لإزالة هذا اللبس فوضع الشكل على الطريقة المعروفة اليوم، وبنى ذلك على مقاييس مضبوطة وعلل دقيقة بأن جعل للفتحة ألفاً صغيرة مضطجعة فوق الحرف، وللكسرة رأس ياء صغيرة تحته، وللضمة واواً

صغيرة فوقه؛ فإذا كان الحرف المحرك منوناً كرر الحرف الصغير فكتب مرتين فوق الحرف أو تحته. ذلك لأن الفتحة جزء من الألف، والكسرة جزء من الياء، والضمة جزء من الواو؛ ووضع للتشديد رأس شين بغير نقط (ّ)، ووضع للسكون دائرة صغيرة وهي الصفر من الأرقام العربية القديمة؛ وذلك لأن الحرف الساكن خلو من الحركة، ووضع للهمزة رأس عين (ء) لقرب الهمزة من العين في المخرج. هكذا قالوا. والذي أراه أن هذه الشكلة إنما هي الميم المتوسطة في لفظ (همزة) لأنك إذا كتبت هذا اللفظ وحذفت الهاء من أوله والزاي والتاء من آخره ظهرت هذه الشكلة واضحة. ووضع لألف الوصل رأس صاد هكذا (ص)، توضع فوق ألف الوصل مهما كانت الحركة فيها؛ وللمد الواجب ميماً صغيرة مع جزء من الدال هكذا () فكان مجموع ما تم له وضعه ثماني علامات: الفتحة والكسرة والضمة والسكون والشدة والهمزة والصلة والمدة، كلها حروف صغيرة أو أبعاض حروف بينها وبين ما دلت عليه أجلى مناسبة وأوضح صلة، بخلاف علامات أبي الأسود وأتباعه فإنها مجرد اصطلاح لم يبين على مناسبة بين الدال والمدلول. وألف الخليل في هذا الموضوع كتاباً نفيساً فلم يزد أحد على طريقته هذه شيئاً ولا أصلح منها رأياً فكأنه ابتدأها وبه ختمت

(الموسيقى): لم يكن الخليل يعرف لغة أجنبية وليس فيه ميل إلى اللهو والقصف ولكنا رأيناه ألف كتاباً في الموسيقى جمع فيه أصناف النغم وحصر أنواع اللحون، وحدد ذلك كله ولخص وذكر مبالغ أقسامه ونهايات أعداده فصار الكتاب آية في بابه. ولما وضع اسحق بن إبراهيم الموصلي كتابه في النغم واللحون عرضه على إبراهيم بن المهدي فقال له: أحسنت!. . . فقال اسحق: بل أحسن الخليل لأنه جعل السبيل إلى الإحسان. فقال بعض أهل العلم: إن مهارة الخليل في علم الألحان هي التي أعانته على إبداع علم العروض.

(البقية في العدد القادم)

طه الراوي

أدباء عالميون

موريس ماترلنك

للأستاذ صلاح الدين المنجد

(تتمة)

إن درامة ماترلنك (بلياس وميليزاند) لتقطر سحراً وجمالاً. . . وفيها مشاهد مترعة متعة ولذة؛ تمثلهما وهما يتناجيان هذه النجوى:

- أنت لا تعلمين لم يجب علي أن أبتعد. . . أنا أحبك!

- وأنا أحبك أيضاً. . .!

- آه. . .! ماذا تقولين يا ميليزاند؟. . . لم أسمع، لم أسمع ما تفوهت به، كأنما حطم الجليد بالحديد المحمر. . . أأنت تقولين هذا بصوت كأنه آت من اللانهاية. . . لم أسمعك يا ميليزاند. أتحبينني. . .؟ تحبينني أيضاً. . .؟ منذ كم وأنت تحبينني يا ميليزاند. . .

- منذ رأيتك . . منذ بعيد!
- آوه! أنت تقولين هذا. . . كأنما مر صوتك فوق البحر، في الربيع، كأن غيثاً هطل على قلبي. . . بصراحة تقولين هذا؟ أنا لا أصدق! ميليزاند لم تحبينني؟ ألا تخدعينني بقولك، ألا تكذبين لا سر؟
- لا، لا أكذب أبداً عليك، ولكن أكذب على أخيك . . .
- يا لصوتك، يا لصوتك! إنه ندى مبلل، أندى من الماء، كأن الماء يجري بين شفتيك أفرأيت إلى هذه السذاجة الحلوة، وهذا الطهر الناعم، وهذا السحر الأخاذ. إنها نجوى واحدة من النجويات!

وأخرج ماترلنك بعد ذلك درامة المسماة وقد بلغت هذه الدرامة الصغيرة الكمال، فهو يصور لنا فيها حياة أسرة برجوازية تصاب بالمصائب، ويسلط عليها الرعب والخوف. . .

وقد تجد في هذه الدرامة من الطرفة ما لا تجده في غيرها. فأشخاصها خرس مجتمعون في غرفة تكاد تكون مظلمة، وهم أب وأم، وبنتان وطفل. (أما الأب فجالس إلى النار يشيعها بالحطب، وأما الأم فقد ارتفقت الطاولة، وأخذت تنظر من خلال النافذة ساهمة في حين ارتدت البنتان ثوبين أبيضين، وجلستا تطرزان)

كل شئ يبعث في النفس الطمأنينة، ولكن لا. . . أنظر، فها هو ذا عجوز يدب في الحديقة، يتبعه جمهور من الناس يمشون بحزن ووجوم. إنهم يعلمون ما كان يجهله أولئك المطمئنون الهادئون.

أتدري ماذا وقع؟ لقد غرقت الأخت الثالثة في النهر. وهاهم أولاء يحملونها جثة هامدة.

ليت شعري كيف يطلعون عليهم بهذا النبأ الفاجع وهم ينتظرون عودتها؟ ويمعن ماترلنك في تصوير أولئك الوادعين الذين كانوا يفعلون في هذه الليلة ما فعلوه ليلة أمس، ويظهر الفرق بين ما هم فيه، وما هم آتون عليه، بين الواقع الذي يجهلونه ولا يحسبون له الحساب، وبين ما هم مطمئنون إليه

ويتقدم الموكب، ويراه الجيران، وتثرثر جارتان:

- آوه. . يا لكثرتهم. . إنهم يسرعون
- سيأتون. . وأنا أراهم أيضاً، إنهم يقربون!

لقد كانت المصيبة تسعى. . . (فالقدر يمشي. . . لا يتعب ولا يمل. . .)

والحق أن هذا المنظر الفاجع ليبعث في الأنفس القلق. هذا مصيرنا نحن أيضاً. إننا نستسلم جميعاً للطمأنينة والراحة، وإننا لنفرح ونضحك. . . بل نعتقد أحياناً أننا سعداء، ولكن الموت والألم والمصائب، تسعى نحونا مسرعة لا يوقفها إنسان، ونحن غافلون مطمئنون

لقد كانت هذه الفكرة تهيمن على آثار ماترلنك حتى مطلع هذا القرن. . . ولقد حاول في روايته (أجلافين وسيليزيت أن يجعل الألم والموت يتراجعان أمام الحياة والفرح. ولكنه لم يدرك ما ابتغاه، ووجد نفسه مجبراً على أن يصور هذه المصائب التي تنغص عيش الإنسان في هذه الحياة الدنيا

هذه أشهر آثار ماترلنك في الحقبة الأولى من تفكيره الفلسفي. فلما طلع هذا القرن، كان لماترلنك وجهة أخرى سنعود إلى التكلم عليها بعد حين

(انتهى البحث - دمشق)

صلاح الدين المنجد

الأحلام

للفيلسوف الفرنسي هنري برجسون

بقلم الأستاذ ألبير نادر

السرعة التي تسرد بها بعض الأحلام تبدو لي كأنها نتيجة أخرى لنفس السبب: الحلم يمكنه أن يقدم لنا في بضعة ثوان مجموعة حوادث تتطلب أياماً عديدة لتتحقق في حالة اليقظة. كتب الفريد موري في هذا الصدد يقول: (كنت نائماً في حجرتي ووالدتي على قمة السرير، حلمت بالثورة وكنت أشاهد حوادث الذبح ثم مثلت أمام محكمة الثورة، ورأيت روبسبيير ومارا وفوكييه تنفيل. . . أخذت أجادلهم، ثم حكم علي بالإعدام وقادوني في عربة إلى ميدان الثورة - صعدت إلى المقصلة وربطني الجلاد

على اللوح ثم دفعه والمقصلة هبطت علي؛ فشعرت بأن رأسي قد انفصل عن جسمي واستيقظت وأنا في حالة بأس شديد وشعرت بسهم السرير فوق عنقي، وكان هذا السهم قد انفصل من موضعه ووقع على فقرات عنقي مثل ما تقع مقصلة المشنقة على العنق - حصل هذا في الحال كما أثبتته لي والدتي. فأنا اتخذت هذا الإحساس الخارجي بداية لحلم تعاقبت فيه حوادث متعددة. أهـ (من كتاب موري: النوم والأحلام). ومهما يقل عن ملحوظة موري هذه في أيامنا الأخيرة فأنا أراها ممكنة التحقيق، لأني وجدت حوادث مماثلة لها في أدب الأحلام - وتوالي الصور السريع هذا ليس بأمر قريب، فإن صور الحلم تكون بنوع خاص صوراً بصرية. والمحادثات التي يظن الحالم أنه سمعها تنظم وتتم وتتضخم غالباً عند اليقظة. وربما لا تكون صور الحلم سوى فكرة المحادثة فقط أو معناها الكلي الذي صاحب الصور. فجمع كبير من الصور البصرية يمكنه أن يبدو دفعة واحدة على شكل منظر، وبذلك لا يحتاج إلا لبضع لحظات. فلا تدهش إذا جمع الحلم في بضع لحظات ما يتطلب عدة أيام أثناء اليقظة. إن الحلم يرى الشيء مصغراً فهو يعمل كما تعمل الذاكرة. في حالة اليقظة يلزم الذكر البصرية التي تعبر عن الإحساس البصري؛ ومن ذلك ينتج سرد الحوادث وهو يدوم بقدر الزمن الذي يدومه هذا الانطباق. وبالاختصار يدوم إدراك الحوادث الخارجية تماماً قدر ما تدوم هذه الحوادث. لكن في الحلم تكتسب الذكرى المعبرة عن الإحساس البصري حريتها، وعدم استقرار الإحساس البصري يجعل الذكرى لا تنطبق عليه. ووتيرة الذاكرة المعبرة لا يعد لها أن تختار وتيرة الحقيقة. والصور يمكنها إذا شاءت أن تندفع بسرعة جنونية كما تتعاقب الصور السينمائية إلا إذا نظمنا تعاقبها. فلا التدفق ولا الغزارة يبرهنان عن قوة في محيط النفس، إلا أن الضبط والدقة في الانسجام يتطلبان مجهوداً. أما إذا تمردت الذاكرة المعبرة والتفتت إلى الحياة وخرجت عن حالة الحلم فالحوادث الخارجية تقسم حينئذ مجراها وتخفف وطأتها مثل رقاص الساعة يقسم أجزاء ويوزع على عدة أيام تمدد الزنبرك مع اللم بأن هذا التمدد يصير في الحال إذا ترك وشأنه بقى لنا أن نبحث لماذا يختار الحلم هذه الذكرى أو تلك مفضلاً إياها على الذكريات الأخرى التي يمكنها أن تنطبق أيضاً على الإحساسات الحالية. لا يمكننا أن نعبر عن خاطر الحلم ولا يمكننا أن نعبر عن خاطر اليقظة، لكن يمكننا أن نشير إلى اتجاههما البين. ففي النوم الطبيعي تعيد لنا أحلامنا في الغالب الأفكار التي مرت بنا كالبرق، أو الأشياء التي أدركناها بدون أن نعيرها انتباهاً. وإذا حلمنا أثناء الليل بحوادث النهار فالحوادث التافهة لا الحوادث المهمة هي التي يكون لها حظ الظهور. وإني أؤيد نظريات دلاج وروبرت وفرود في هذا الصدد. أنا في الطريق أنتظر الترام ولا يمكنه أن يمسني لأني واقف على الرصيف؛ ولكن إذا طرأت علي فكرة خطر ممكن عندما يمشي الترام. لا بل أكثر من ذلك: إذا تراجع جسمي بدون انتباه وبدون أن أشعر بأي خطر فيمكن أن أحلم في الليلة السابقة أن الترام قد دهمني. أعود أثناء النهار مريضاً حالته تدعو إلى اليأس، ويكفي أن يمر شعاع أمل بسيط ولمدة لحظة وجيزة - شعاع أكاد أشعر به - حتى يظهر لي حلمي أثناء الليل أن المريض قد شفى، وعلى كل حال سأحلم بشفاء لا بمرض أو موت، بالاختصار ما لم نعن بمشاهدته له الأفضلية في الرجوع والعودة. ولا غرابة، فالشخصية التي تحلم هي شخصية ساه تتمدد. والذكريات التي تتفق أحسن اتفاق مع هذه الشخصية هي ذكريات السهو التي لا تحمل معها علامة المجهود

هذه هي الملاحظات التي أردت أن أقدمها لكم في موضوع الحلم. أنها غير وافية. فهي لا تبحث إلا في الأحلام التي نعرفها اليوم وفي الأحلام التي نتذكرها والتي ترجع إلى النوم الخفيف؛ ولكن إذا كان النوم عميقاً فربما تحلم أحلاماً من نوع آخر ولا يبقى منها شئ عند اليقظة

وأنا أميل إلى الاعتقاد وخصوصاً لأسباب نظرية ومحض اقتراح بأن رؤيانا حينئذ تكون أكثر تمدداً وأكثر إيضاحاً لماضينا. فعلى علم النفس أن يوجه مجهوده نحو هذا النوم العميق، لا ليدرس فيه فقط كيان الذاكرة الباطنية وعملها، بل ليفحص العوامل الخفية التي تتعلق بالبحث النفساني. أني لا أريد المغامرة في هذا المضمار ولكن لا يسعني إلا أن أهتم بالملاحظات المتجمعة بفضل مجهود (جمعية الأبحاث النفسية) الذي لا

يعرف الكلل، فالتنقيب عن العقل الباطن والبحث عن أعماق النفس بواسطة طرق مخصوصة هو عمل علم النفس الأساسي في فجر هذا العصر. ولا أشك أن هناك اكتشافات بديعة تنتظره وأهميتها تضاهي أهمية العلوم الطبيعية في العصور الماضية، وهذا ما أتمناه لكم في ختام حديثي هذا.

(تم)

ألبير نادر

الساعة. . .!

عزيزي الدكتور طه حسين بك

في المحاورات الممتعة الطريفة التي دارت بينك وبيني - في خريف السنة الماضية بالقدس - والتي استمع إليها جمهور من نخبة أدباء فلسطين كنت ثائر على الشعر العربي الحديث منكراً الإبداع الفني في الصورة وتهاويله، فاسمح لي اليوم أن أقدم إليك - على أسبوعين أو ثلاثة - طرائف من شعر أحمد الصافي النجفي لم تنشر بعد لأرى رأيك الجديد. .

القدس - عبد القادر جنيدي

يا ساعةً أتبعها النظام ... عليك كل راحة حرام

تجرين لا يوقفك الزحام ... مسرعة كأنك الحمام

هذي الليالي لك والأيام ... تفنيها كأنها أخصام

النوم من أعمارنا انحسام ... ألا تنامين كما ننام

أسقيك لو تسكرك المدام ... فتسكر الشهود والأعوام

وتهجعون إن غفا الأنام ... وترقد الخمر ويغفى الجام

والليل والنهار إن تناموا ... هما لكم في نومكم أحلام

ونحن في أحلامكم أوهام

أحمد الصافي النجفي

من أدب الشاطئ

شكاة المغيب!

(إلى العروس النائية)

لشاعر الوجدان جان ريشبان

للأستاذ عبد العزيز العجيزي

أين مني الليالي الزُهر، والسنا النشوان! أين مني بهجة الدنيا وابتسامة الزمان! أين مني يا ليلاي أيامك الخوالي، ومغانيك الحسان! أين مني الهوى، والصبا، والمنى، وروضك الفينان؟

آه لقد كدر الفراق صفو المعاني، وأشقى البعد مهجة العاني! وبقيت وحيداً أعاني الشوق والأشجان، وأقاسي الهجر والحرمان!

أين الزمان الذي قد كنت ناعمة ... مهلةً بدنوِّ منك يا سندي

هاج شوقي لو كر إلهامي وروض إنشادي، وزاد حنيني لمهد أحلامي وظل ودادي. وفررت من عيش كئيب تكتنفه أكدار وتمازجه آلام. . . وسرت بقلب يذوب جوى، ونفس تتأجج لوعةً، وكبد تتلظى كمداً. . . إلى أطلال حبي الغابر! فلاحقتني أطياف الأسى المتفجر، وأشباح الجوى المتسعر، وقد أهلكها ا ? نحيب وأزهقها الوجيب، من ضناها وتوجعها، وأساها وتفجعها!

طليحُ شوقٍ بنار الحب محترق ... تقتاده زفرات إثر لوعات

واحسرتاه على شباب نضب معينه هو في غضارة الإهاب، وذوى زهره في ربيع الصبا! وا لهفي على أمسيات ساحرات ولت تشيعها أنين الحسرات وكمين العبرات! وا أسفاه على ضياء خبا سناه من تفجع الذكريات ثم ما لبث أن عاد النور إلى الظلمات! واشجني على نفس ترسف في أغلال همومها، ومهجة حرى تذوب من سعير خطبها، وروح صرعتها أهوال القضاء، وأنشبت فيها أظفار الشقاء!

فيا هجر ليلى قد بلغت بي المدى ... وزدت على ما لم يكن بلغ الهجر

لقد أبلى السقام جسدي النحيل، وأضنى الهيام بدني العليل! فأين مني رحمتك وحنانك، وأين

. . .!مني سحرك ودلالك؟
لقد كنت يا ليلى أستشفي بوصالك وأستهدي بجمالك، فأنت شفاء العاني الموله، ورواء المحب المدله!
وما عبد العزيز طبيب قلبي ... ولكن الطبيب هو الحبيب
فوا حزناه على معذب محروق أذابه لهيب الشجون، وأضنته أسقام المنون!
أواه ليلاي! لقد أدمى البعد فؤادي، وذهب الجوى برشادي، وقضيت أيامي حليف سهادي. . . ونأيت بنفسي بعيداً عن صخب الحياة ولغوب الناس حتى. . . . . .
أخلو بذكرك لا أريد محدثاً ... وكفى بذكرك سامراً وسروراً
فلا يقع بصري على إنسان، وأكون بنجدة من همسات الحسان، وخلوة في ذكر، وحنان، وأمان!
واهاً لذكرى المجالي بين أفنان الجمال، تتابعني أشباحها أينما سرت، وتلاحقني أطيافها أنى حللت بين زفرات التأوه وحسرات التوجع!
أُرْدد سعادُ على حيران مكتئب ... يمسي ويصبح في هم وتذكار
واهاً لمحب عربيد عربيد، ترك حبه صريع الجوى، شهيد الهوى، تنزف منه دماء قلبه المكاوم، ثم يفر هارباً كجبان رعديد دون أن يرحم جرحاً دامياً، أو يغيث قلباً عانياً!
لقد فررت بنفسي إلى جزيرة نائية كي أكون بمناجاة من سخر الرجال وأضاحيكهم، وبمأمن من رياء النساء وأكاذيبهن! فيطمئن القلب ويهدأ الجنان؛ في عالم قدسي موفور الأمان!
دلفت كابياً في سكينة هذه الجزيرة الوادعة، وأقمت فيها كاسفاً بين وحشة الصمت ورهبة الموت كبوم لفه البؤس والوجوم والوجوم في وادي الآلام والهموم!
واهاً لوحدتي، وسهدي، وانفرادي! ها قد جلست منعزلاً وللحياة معتزلاً. لا أرى إلا بحراً مضطرب الأمواج، ولا أسمع إلا إعصار ثبج يصارع الأنواء صراعاً رهيب الأصداء، واصطفاق لجج على ثنايا الشاطئ في إزباد وإرغاء!
ولا مُؤنس إلا شهيق وزفرة ... ولا مسعدُ إلا دموع وأشجان
أطلق النسيم أنفاسه العذاب، وسرى يختال في أردية العباب، وسجن البحر، وترفق الموج ناثراً رذاذاً كحباب الصهباء وشدت قيثارة الريح ألحان الصفاء. ولكن، ما أسكرتني خمرة
الألحان، ولا أنعشتني لذة الوجدان، وما أطربني صداح الأغاني ولا هاجني لماح الأماني: إذ
كيف السرور وأنت نازحةُ ... عنّي وكيف يسوغ لي الطرب
أجل. لا شئ في الحياة يسري عني هموم الوصب إلا ورقاء حزينة هي مسلاة غرامي ومتنفس آلامي، تؤنسني في وحدتي، وتسليني في عزلتي، وشدوها سلوان خاطري وألحانها عزاء شاعر
فكأنها صاغت على ... شجوى شجا تلك اللحون
أواه! لقد جنت التأوهات من فرط جواها، وهامت اللهفات من فيض ضناها، ورفرفت أحلام الهوى العذري على الرمال الشقراء. فتغنى البحر بأنين الزفرات، وأنشد الموج على الصخر أناشيد العبرات. أخذت صخور الشاطئ تبكي وتنتحب رحمة بي وشفقة علي، وترقرقت القطرات على خدها كحبات لؤلؤ وضاح. فغاض الأسى بجفوني، وفاضت مدامعي عقيقاً وتهللت على الخدين والنحر. . .
علّ ماء الدموع يخمد ناراً ... من جوىّ الحب أو يبل غليلاً
أجل إنه لسراب يخدع النظر، وعبث لا ينيل الوطر! حقاً إنه خداع كاذب ووهم باطل اعتراني في حمى قطيعة لا تجدي نفعاً إذ علام الحياة في خراب مقفر، وباب موحش، أمل امتلاك ناصية ضالة خادعة!؟
أسجناً وقيداً، واشتياقاً وغربة ... ونأي حبيب إن ذا لعظيم
لكن! كيف المفر من ذكريات أضنت صباي وأضاعت مناي؟! كيف النجاة من طيفك يا قاسية؟ إنك قد نزلت من مهجتي في كل مكان؛ وغداً خيالك يتمثل لناظري ويسبح في خاطري، ويسطو على مشاعري ويهيج سرائري!
خيالك في عيني وذكرك في فمي ... ومثواك في قلبي فأين تغيب

(شاطئ رأس البر)
عبد العزيز العجيزي
للعقاد (أعاصير مغرب) - 1
للأستاذ علي متولي صلاح

عندما شرعت القلم لأكتب عن ديوان العقاد الفذ (أعاصير مغرب) قرأت مقالاً للدكتور مندور في مجلة الثقافة عن (ترنيمة السرير) يقول في نهايتها: (لقد تصفحت (أعاصير مغرب) فعجبت لمن يجرؤون على تسميتها شعراً وهي نثرية في مادتها، نثرية في أسلوبها، نثرية في روحها. ونثريتها بعد مبتذلة سميكة، حتى الإحساس فيها شئ لا تطمئن إليه النفس، شئ ناب. الأدب الجيد لا بد أن يلونه الإحساس، وصاحب (أعاصير مغرب) من الكتاب الذي قد تبهرك مهارتك العقلية في التخريج، ولكني لا أذكر إلا في النادر الذي لا يذكر أنه قد استطاع يوماً أن يحرك في نفسي إحساساً فكيف له بقول الشعر؟ وكيف لنا أن نقارن شعراً كالأعاصير ونحوها بشعر المهجر الحي)

فعجبت بدوري من الدكتور مندور كيف يمسك سيفه بيده ويضرب في الهواء عن يمين فيحسب أنه قتل ألفاً، ويضرب في الهواء عن يسار فيحسب أنه قتل ألفاً! الدكتور مندور شاب نرجو منه الخير الكثير للأدب إن فارقته نزعة التعقب والرغبة في الهدم بلا استقصاء ولا روية، ولا تأن ولا دراسة شاملة لمن يتعقبهم ويحسبه قادراً على هدمهم! ذم أدباءنا وشعراءنا جميعاً: العقاد والزيات والحكيم ومن إليهم عنده طبول وأبواق؛ وعلي طه ومحمود حسن إسماعيل ومن إليهم خطباء منابر لا شعراء يصدحون! اللهم إلا شعراء المهجر؛ فهم عنده في القمة والذؤابة ومن خلاهم هباء! وأعاصير مغرب ابعد هو - عندي - أعظم وأرق وأجمل دواوين العقاد جميعاً. قرأت كل ما قال العقاد من شعر فما اجتمع لديوان من دواوينه القديمة والحديثة ما اجتمع لهذا الديوان - في رأيي - من روعة ورونق وصدق عاطفة، وجمال أسلوب وإشراق ديباجة ولم أفهم بعد لماذا سماه العقاد (أعاصير مغرب) ولو أنه شرح ذلك بعض الشرح في مقدمته إلا أنه لم يقنعني ولم أسترح إليه إلا في نصفه الأول (أعاصير) فالديوان في مجموعة أعاصير عاتية عارمة، نظمه العقاد إلا أقله وعالم الدنيا مضطرب بأعاصيره، وعالم النفس مضطرب بأعاصيره. بيد أنها ليست أعاصير (مغرب) إن كان العقاد التمس الغروب من (توماس هاردي) الذي ينظر إلى المرآة فيرى بشرته الذابلة تتقبض فيتوجه إلى الله مبتهلاً

يقول: (أسألك يا رب إلا ما جعلت لي قلباً يذبل مثل هذا الذبول، إنني لأحس برد القلوب من حولي فلا ألم ولا أحزن، وإنني لأظل في ارتقاب راحتي السرمدية بجأش ساكن، وسمت وقور. غير أن الزمن الذي يأبى لي إلا الأسى قد شاء أن يختلس فلا يختلس كل شئ، ويترك فلا يترك كل شئ. ولا يزال يرجف هذه البنية الهزيلة في مسائها بأقوى ما في الظهيرة من خلجة واضطراب). . . أو كان التمسه عند (بيرون) الذي نظم قصيدة (عيد ميلاد أخير) وهو في السادسة والثلاثين من عمره وقال: (آن لهذا القلب أن يسكن مذ عز عليه أن يحرك سواه؛ ولكني وقد حرمت من يهوى إلي، حسبي نصيباً من الحب أن أهوى. إن أيامي لمكتوبة على الورقة الذابلة الذاوية. إن زهرات الحب وثماره ذهبت إلى غير رجعى، إنما السوس والديدان وحسرة الأسى هي لي. . . لي وحدها تحيي. . . تلك القدرة على الهيام والهوى ليس لي منها حصة تبقى، فما لأغلالها في عنقي لا تنزع ولا تبلى؟. . .)

ما هاردي ولا بيرون بشبيهين للعقاد في هذا الذي يقولان. العقاد ذو قلب شاب فتى قوي متفتح للحياة، مقبل عليها، نهم بها، كلف بألوان الجمال وأنماط الحسن فيها، فأين يكون الغروب منه؟ العقاد يسير قلبه دائماً إلى الشباب حيث تسير قلوب الناس إلى الهرم والشيخوخة، ويصبو قلبه إلى الحياة حيث تزهد القلوب الفانية في متاعها. العقاد يصغر حيث يكبر الناس، والشاعر - بعد - طفل كبير!

لو أنه سماه (أعاصير قلب) لكان أدنى إلى الصدور وأقرب إلى الحق من اسمه الذي اختار اللهم إلا أن يكون استطراداً لفظياً مع دواوينه السابقة: يقظة الصباح، ووهج الظهيرة، وأشباح الأصيل، ووحي الأربعين، التي يعبر بها عن الزمن والأيام والسنين لا عن القلب وما به من صبى وشباب أو كهولة وفناء، وهل غرب قلب الذي يقول:

هي قبلة ضمَّتْ عرى ... عامّين فاتّصلا اتّصالا

ومُنى الخواطر في غد ... عام كسابقه مآلا
لا تعجلنّ به فما ... أقسى الحياة على العجالى
لا لا فهذا يومنا ... وغد وبعد غد خفاء
أنا مغمض عيني ... ومستمع إلى حادي الرجاء
فإذا سمعت حداءه ... فدعيه يمضي حيث شاء!
والذي يقول:
أهلاً بعام ثالث ... يتلوه عام رابع
بل خامس فيما عهد ... ت وسادس أو سابع
ما ضاقت الدنيا وفي ... جنبيْك قلب واسع!
أو الذي يقول:
سنةٌ كان لها نجم فريد
هات منها أيها النجم وهات
سنة ثانية بل سنوات
ولنا منك مزيد المستزيد. . .!
أو الذي يقول:
وفي كل يوم يولد المرء ذو الحجي ... وفي كلَّ يوم ذو الجهالة يُلحد!
بل إني لألمح بين سطور الديوان غراماً حقيقياً وقع فيه العقاد! ولعله وقع أخيراً في (فخ) جعل هذا الشعر الغزلي الرائع ينساب من قلبه انسياباً
والعقاد إذ يكتب الشعر إنما يكتبه بعاطفته وبعقله معاً، وتلك ميزة تفرد بها العقاد، فهو يكتب مدفوعاً بعاطفة أصيلة صادقة دفاعة، فإذا بدأ يكتب جاء عقله من وراء الستار فصقل الفكرة وهذب الرأي، وأخرجه للناس في رواء بهيج من الفلسفة والشعور معاً، وما أحسب ذلك قد توفر لغير العقاد. خذ مثلاً شعره الغنائي في هذا الديوان، فهو جماع من اللفظ الصادح، والعقل الراجح، والقلب المحب الولهان، وإنك لواجد في هذا الديوان مجموعة طيبة جداً من شعر العقاد مثل قصيدة (عمر زهرة):
فريدة في روضها ... أخيرة في الموسم
عيشي وأهدي غيرها ... في كل عيد واسلمي
ألست أنت مثلها ... علمَت أو لم تعلمي
هدية الخلاق لي ... وقدرٌ أن تنسمي
زهرتك البيضاء هلا ... تذكرين نشرها؟
حفظتها في خدرها ... هل برحت مقرها؟
حفظتها حفظتها ... فهل حفظت سرها؟
قصصتُ منها عقدة ... لكي أطيل عمرها؟
ولا أدري ما الهمس الذي يقولون به إن لم يتوفر كله في هذه الأبيات، أو تلك القصيدة الأخرى (الطير المهاجر) التي غناها الفلسطينيون في محطتهم فكانت بحق درة الغناء عندهم:
علمتني مواسم الروض أن الطير ... سر شتّى: مهاجر ومقيمُ
أتراني لا أسمع الطير إلا ... في رياض معشعشاً لا يريم
رب شاد في هجرة يتغنى ... وعليه السلام والتسليم
من جنوب إلى شمال وحيناً ... من شمال إلى جنوب يحوم
فله حين يستقل وداع ... وله حين يقبل التكريم
خذ من الطير كل يوم جديداً ... فسواء جديده والقديم
كم مولٍ وصفوه لا يولي ... ومقيم وصفوه لا يقيم!
وأنا - بعد - أسأل الأستاذ الدكتور محمد مندور أمثل هذه القصيدة نثرية في مادتها، نثرية في أسلوبها وروحها، ونثريتها مبتذلة سميكة؟؟
(المنصورة)
على متولي صلاح
البريد الأدبي
جبرائيل تقلا باشا
في ليل الأربعاء الماضي روعت الصحافة العربية بفقد رجلها وعميدها المأسوف عليه

(جبرائيل تقلا باشا) صاحب (الأهرام). وقد أجمع الذين لابسوا هذا الرجل من قرب أو عاملوه من بعد أنه كان أصدق المثل الشريفة للعقلية اللبنانية العاملة المثابرة الثابتة، وأنه كان فضلاً عن ذلك موصوفاً بالتواضع الجم والحياء الكريم والسمت الحسن، وذلك بالطبع سر أبية في تكوينه، وأثر أمة في تربيته. وأسرة تقلا من الأسر اللبنانية القليلة التي غذت عروقها في التربة المصرية بالخلق الكريم والعمل الدائب. وإن في حياة الأهرام الطويلة الحافلة بالجد والصدق والعفة والشجاعة في بلد من أشد البلاد اضطراباً بالمنافع المختلفة والأهواء المتباينة لشاهداً على أن الفرد متى توفر له رأس المال الطبيعي من العمل والخلق والقدوة قام بما لم يقم به حزب، وقوى على ما لم تقو عليه أمة

وفي الحق أن الأهرام الخالصة بطبيعتها للجهاد الصحفي القومي هي من عمل الخلق المتشابه والغرض المتحد في تقلا وبركات والجميل. وذلك توفيق من الله نرجو أن يديمه على هذا العمل الجليل، ما دام على السبيل القصد والغرض النبيل.

إلى الأستاذ دريني خشبة

أخي الأستاذ دريني خشبة

أحييك الطف تحية. وبعد فأني قرأت ناشطاً ما سطرته بحذق في قصة المسرح الإفرنجي. وإني لأهنئك بهذه الوجهة فلا يكتب عندنا في ذلك الفن إلا الأقلون. وقد وقفتني أشياء فيما سطرت، وفيها شئ لم أر معدلاً عن الكتابة إليك في شأنه، وهو قولك في خاتمة المقال الثالث: (يتساءل هؤلاء النقاد. . . الرمزيين). فإني معرض عن الغرابة التي في ترتيب الأسماء لأسألك من أين استقيت (تساءل هؤلاء النقاد، ثم من هم؟) فإني والله ليدهشني أن يقحم (ساردو) على وجه التخصيص في الثبت الحافل العظيم من مؤلفي الدرامة الأوربية) وقد التصق في ترتيبك بالعظيم حقاً: موليير، واساه الله! وليدهشني بعد هذا أن يسل (ميترلنك) من الرمزيين. وأما بيرندللو فقد شرحت سنة 1938 في الرسالة كيف يدخل في الطور الثاني من الرمزية الباحثة عن حقائق النفس لا عن خفايا العالم. ثم إني ما عرفت

من هو (سارس)؟ هي هفوة من هفوات الطبع وقعت على غرار (شيكوف) بدلاً من (تشيكوف)

في هذه الأيام الفاترة المفترة أحببت أن أثاقفك، وأن أكاشفك بعد ذلك بتقديري وودي

بشر فارس

معنى قوله تعالى (يخرج الحي من الميت)

اطلعت على ما نشر في الرسالة الغراء عدد (521) وملاحظاتي على ذلك ما يلي:

1 - الآية خاصة بالحب والنوى بدليل النص الصريح

2 - لفظة يخرج تؤدي معنى استخلاص شئ من آخر ولو أراد الله تعالى غير ذلك لقال يخلق أو ينشئ أو أي معنى آخر يفيد الحدوث فقارن بين جلال المعنى في قوله تعالى: (إني خالق بشراً من طين) بما لو قال إني مخرج بشراً من طين

3 - إذا أكل إنسان أو حيوان طعاماً أو امتص نبات مواد من الأرض فليس معنى هذا خلق حياة جديدة في هذه المواد الأولية التي يتحلل إليها الطعام في الجسم لتدخل في تركيب الخلايا في عملية النمو أو التعويض. ولو كان الأمر كذلك لأمكن. لهذه المواد التي تنشئ حياة إذا وضعت في درجة الحرارة المناسبة، مثال ذلك البيضة الغير ملحقة بذكر الدجاج

4 - يحدث النمو والتجديد والتعويض في الأجسام بواسطة انقسام الخلايا الحية الوحدة إلى اثنتين ثم إلى أربعة، وهكذا تتضاعف، وفي الجنين تتضاعف إلى علقة ثم إلى مضغة الخ

5 - الحياة شئ والمادة شئ آخر، فالمواد الأولية التي تنتج من تحليل الغذاء في الجسم تساعد على تكوين المادة بخلايا الجسم ولكنها لا تخلق فيها حياة

6 - إفراز اللبن وكل الإفرازات الأخرى من الجسم كالدمع والعرق والبول والبراز والعصير الهضمي يمكن تطبيق الجزء الثاني من الآية عليها، إلا إن ذلك على سبيل التوسع في الشرح والمجاز في التعبير.

(أسيوط)

دكتور عباس محمد حسين
إلى الدكتور زكي مبارك
1 - أخالفك كل المخالفة في قولك: إن (شاف) بمعنى (رأى) يستعمل في اللغة، بدليل (تشوف) بمعنى نظر، أن العرب في جميع الأقطار يقولون (شافه) بمعنى (رآه)، وقد (شفتهم) بعينك. وأقول: الحق أن العرب العرباء لم تستعمل شاف بمعنى أبصر لا في شعر ولا في نثر، ولو كان ذلك لنقل إلينا في معاجم اللغة؛ أما الذين سمعتهم يلفظون هذه اللفظة فهم عرب في النسبة لا في اللغة الصحيحة الفصيحة!
وفي قولك: إن علماء البلاغة منذ عشرة قرون أخطأوا في تخطئة المتنبي حين جمع بوق على بوقات في قوله:
فإن يك بعض الناس سيفاً لدولة ... ففي الناس بوقاتٌ لها وطبول
وأنك تفردت برفع الظلم عن المتنبي، وجعلت البوقات جمع (بوقه) مصغر بوق، وهي لفظة اصطلاحية في موسيقى الجيش العربي، كما يؤخذ ذلك من نصوص في بعض كتب التاريخ. وأنا أقول: إن كتب التاريخ ليست متون لغة يعتمد عليها في إثبات الكلمات العربية. وأضيف إلى ذلك أن لفظة (بوقة) بمعنى مذكر (البوق) لم ترد في كلام العرب بهذا المعنى
بقي يا دكتور أنك سقت فائدة صرفية لم تر أحداً من الصرفيين نبه عليها في كتب الصرف. وهي (جعل التأنيث من صور التصغير. فالبوقة أصغر من البوق، والطبلة أصغر من الطبل، والبحرة أصغر من البحر، وقد بولغ في تصغيرها فصارت بحيرة. وما الربعة إلا مصغر الربع بلا جدال
ولكن ما قولك في أن الأمثلة التي سقتها لما فيه التأنيث غير صحيحة؟ فليس في لغة العرب (بوقة ولا طبلة ولا بحيرة ولا ربعة) بالمعنى التي تريدها، حتى يحتاج الصرفيون إلى التنبيه على أن التأنيث قد يكون من صور التصغير. أما لفظ (بحيرة) فهو من الكلمات التي لم تستعمل إلا مصغرة كقولهم: كميت للفرس، وكعيت وجميل لطائرين صغيرين
ثم قلت: وأنكر قوم جمع صناعة على صنائع، فحملوا وزارة المعارف على تغيير أسم مدرسة الصنائع، مع أن لهذا الجمع شواهد تفوق العد. والواقع يا دكتور أن صناعة لم تجمع في لسان العروبة على (صنائع) لا في منثور الكلام ولا في منظومة.
وليعلم أن (صنائع) في كلام العرب جمع صنيع أو صنيعة وفنه الحديث (صنائع المعروف تقي مصارع السوء) على أن لفظ (صناعة) من مصادر الحرفة، وهي لا تجمع في اللغة على (فعائل). فكما لا يقال في تجارة (تجائر) لا يقال في صناعة (صنائع).
عبد الحميد عنتر
العدد 524 - بتاريخ: 19 - 07 - 1943
دفاع عن البلاغة - 14
الأسلوب - 6
سمع ابن هرمة أديباً ينشد قوله:
بالله ربك إن دخلت فقل لها ... هذا ابن هرمة (قائماً) بالباب
فقال له: لم أقل (قائماً). أكنت أتصدق؟ قال: قاعداً؟ فقال: أكنت أبول؟ قال: فماذا؟ قال: واقفاً. وليتك علمت ما بين هذين من قدر اللفظ والمعنى!
ذلك مثال من أمثلة كثيرة تريك كيف يميز الفنان اللفظ ويختاره. وتمييز اللفظ واختياره شديدان على من لم يؤته الله العلم بمعاني الألفاظ، والبصر بفروق المعاني. ولم يقع صاغة الكلام في الهرج والزيف إلا بمجافاة الذوق ومخالفة اللغة. فإن اللفظة الحوشية أو السوقية أو الطفيلية أو النابية أو الركيكة أو المبهمة أو العليلة لا تسقط في الكلام إلا إذا كان العلم الذي يميز قد فقد، والذوق الذي يختار قد فسد. إذاً تكون الكلمة التي انتخبت بذوق، واستعملت بحذق، هي الكلمة الضرورية الطبيعية التي تتحقق بها خصوصية اللفظ وهي الركن الأول لأصالة الأسلوب. أما الركن الآخر وهو طرافة العبارة فأسه الابتكار في حكاية الخبر وتصوير الفكر وتقويم الموضوع. وهيهات أن تجد الجملة المبتكرة التي تثير الإعجاب، وتحدث الأثر، وتحرك الفتنة، إلا إذا وجدت الكلمة الخاصة التي تحدد الفروق، وتجد العلاقة، وتبعث الحركة. والأسلوب كما قلت من قبل خلق مستمر: خلق للفكر بطرافته، وخلق للترتيب بتنسيقه وتشويقه، وخلق

للأداء بألفاظه ولهجاته وصوره. وعلى قدر ما يتضح الخلق في الكتابة، تتضح العظمة في الكاتب. أما القوالب الموضوعة والرواسم المصنوعة فقد كانت في ما مضى قطعاً من أعصاب الذين صاغوها، ثم قطعت بهم وبها أسباب الحياة فضمنتهم القبور وضمنتها الكتب. فكما لا ينفعك أن تستعير أعضاءهم لجسدك، لا ينفعك أن تستعير تراكيبهم لأسلوبك. ولكن أدعياء الكتابة يعيشون على هذه الرواسم كما يعيش أدعياء التصوير على نقل الروائع الفنية باليد، أو تصويرها بالآلة. وكثيراً ما يسرفون على أنفسهم فينتحلون القصيدة بنصها أو المقالة بلفظها. ولا أزال أذكر صعقة الأستاذ إبراهيم . . وقد دعي ذات ليلة إلى حفلة زفاف. وأبى ولاؤه للعريس ووفاؤه للفن إلا أن يسجل اسمه بين خطباء العرس. وذهب إلى كتاب (أبدع الأساليب، في إنشاء الخطب والمكاتيب) فحفظ منه خطبة رنانة فيها السجع المرصع، وفيها الشعر البديع. ثم أخذ مكانه المرموق فوق المنصة. وتعاقب الخطباء والشعراء على المنبر المزدان بالرايات والثريات والرياحين. حتى إذا لم يبقى بينه وبين الكلام غير خطيب واحد، تبحبح وتنحنح، ثم تجهز وتحفز؛ ولكنه لم يكد يصغي إلى الخطيب الذي قام قبله حتى حملق إليه وقد انتسف لونه، وانفغر فمه، وارفض عرقه، وتمنى لو ساخت به الأرض! لقد كان الخطيب السباق قد اقتنى الكتاب نفسه، وانتقى الخطبة عينها، ثم سبق الأستاذ إبراهيم إلى القول فانطلق يلقيها عن ظهر الغيب لا يتلعثم ولا يتوقف ولا يخرم منها حرفاً! وبينما كان المنبر يهدر بالأسجاع، والسرادق يدوي بالتصفيق، والبيت يلعلع بالزغاريد، كان الأستاذ إبراهيم قد أخذ بطنه بيديه، ومشى مشية الشيخ الأحدب، يتأوه ويتلوى ويسأل الذين فجئهم بهذه الوعكة الغريبة عن بيت (الأدب)!

ثم نعود فنقول إن الأصالة هي الكلمة الخاصة والعبارة الجديدة. وبخصوصية الكلمة وجدة العبارة تتحقق الطبيعة في الأسلوب. وليست الطبيعة أن ترسل الكلام على سجيتك من غير روية ولا تنقيح، إنما الطبيعة نتيجة النظر الطويل والجهد المتصل. فهي على الرغم من اسمها تكسب ولا توهب وشرطها الذي لابد منه أن يختفي فيها الفن كما تختفي دودة القز في الشرنقة فإن من الفن ألا يظهر الفن، كما قال شيشرون. ومن اختفاء الجهد البالغ في سراح الطبع، وكمون الصنع الدقيق في سهولة العبارة ينشأ ما يسمونه بالسهل الممتنع والأصل فيه قول ابن المقفع لمن سأله عن البلاغة: (هي التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها، فإذا حاول عجز)

ومن كلام بسكال أنك (تقرأ الأسلوب المطبوع فتعجب منه وتعجب به، لأنك تتوقع أن تجد فيه الفنان، فإذا بك لا تجد إلا الإنسان)

ومن الطبيعة بمعناها الفني تكون الدقة. وما الدقة إلا ترك فضول الكلمة وتوخي صواب اللفظ. وهي تختلف في أسلوب الشاعر والخطيب عنها في أسلوب الفيلسوف والمؤرخ. ولكن القدر المشترك منها في أساليب هؤلاء هو أن يعرف كل منهم كيف يمضي قدماً إلى الغاية. وكل ما يجعل الفكرة نيرة مؤثرة، والصورة حية قوية، والعاطفة أخاذة نفاذة، هو في الحقيقة داخل في القدر المشترك لكل كاتب والدقة المشتقة من الطبع سبيل الوضوح. لأن غموض الكلمة ينشأ من غرابتها أو اشتراكها، وغموض الكلام ينشأ من تعقده أو فساده. والغرابة والاشتراك والتعقد والفساد هي الأضداد الطبيعية لمعاني الأصالة

ومن بدئه العقل أنك تفهم لتكتب، وتكتب لتُفهم. ولكن من الكتاب من ينسج قبل فرز الخيوط، ويكتب قبل درس الفكرة، فيلتاث عليه الأمر. وإن منهم من يحسب أن الوضوح ينافي العمق، والبساطة تجافي الدقة، فيغرب ولا يعرب، ويجمجم ولا يترجم؛ ثم يسمي هذا الغموض فنا وذلك العجز رمزاً. على أننا لا نقصد بالوضوح أن يسفر لك الكلام عن معناه كله لأول وهلة؛ إنما نقصد به الوضوح الفني الذي يتراءى خلال النقاب الشفاف والظلام المضيء والعمق الصافي؛ وهو بالطبع أكثر دلالة وأشرق بياناً وأروع جمالاً وأطول وحياً من ذلك الوضوح الساذج الذي يعرفه الكاتب الجاهل، ويطلبه القارئ الغبي.

(للكلام بقية)

احمد حسن الزيات

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

جبرائيل تقلا باشا - مصادر الثروة اللغوية - محاكمة العقاد!

جبرائيل تقلا باشا

قرأت أكثر ما كتب في رثاء الصحفي الكبير جبرائيل تقلا باشا، ورأيت كيف ختمت حياته بتبجيل وتعظيم وإجلال، فماذا بقي من القول بعد تلك الصحائف من جميل الرثاء!

لم يبقى إلا أن أشير إلى بعض السر في نجاح ذلك الرجل، لأن حياته تصلح قدوة لرجال الأعمال

أذكر أولاً أن الرجل جعل الغاية من حياته أن يكون صاحب أكبر جريدة في الشرق، وهي غاية تمثلت له بوضوح، وبدت له في عظمة تستحق بذل العمر كله في صيانتها من عوارض الضعف والاضمحلال

وأذكر ثانياً أن الرجل رأى أن الأعمال العظيمة لا تنهض بغير معاونين أمناء، فجعل من خطته أن يكون الاشتراك في تحرير (الأهرام) ضمانة من المتاعب المعاشية بحيث لا يحتاج من يعمل معه إلى التفكير في صحبة غيره، ولو كان ذلك الغير شخصية تحمل أضخم الألقاب

وأذكر ثالثاً أن الرجل نزه جريدته عن الأذى بجميع صوره فعاش بلا أعداء، وهذا الجانب من الحياة الصحفية يوجب ألواناً من جهاد النفس لا يصبر عليها غير كبار القلوب

والذي يتصور ما صنع هذا الرجل لجريدته يعجب من براعته وقدرته على التصرف، فللأهرام مكاتب كثيرة في الغرب والشرق، وما كان يمكن أن تقوم تلك المكاتب بدون أن تكون الثقة بهمته وكفايته وأمانته مضرب الأمثال

وهنالك جانب سكت عنه من رثوا هذا الرجل، فما ذلك الجانب؟

هو فهمه الدقيق للأحوال الجوية، فكان يعرف ما يُلبس. لكل وقت، فلم يتعرض للحر ولا للبرد، وكانت الحكومات المتعاقبة تعجب من فهمه ذاك، ولا يؤذيها أن يكون في مصر صحفيٌّ يعرف اتجاهات الرياح قبل هبوبها

ومع هذا قتلته مروحة غزت صدره بهواء عجز عن دفعه الأطباء، ولكل أجل كتاب. وسبحان من تفرد بالبقاء

مصادر الثروة اللغوية

من الكلمة التي نشرتها (الرسالة) لحضرة الأستاذ عبد الحميد عنتر فهمت أنه يقصر المحصول اللغوي على المأثور عن (العرب العرباء) وهي الأمة التي شهدت العصر الجاهلي وصدر العصر الإسلامي، وفي هذا القول رجعة إلى أقوال كانت ترى أن اللغة ختمت بالأقفال بعد هذين العصرين، وهو قول كان يجد من يطمئن إليه قبل أن تتفتح العقول إلى النظر الصادق في العصر الحديث

وأقول أن مصادر الثروة اللغوية عندنا هي ما نطق به العرب في جميع العصور وفي جميع البلاد، ولو كان فيه دخيل، وأقول أيضاً إن وجود الألفاظ الدخيلة في أي لغة يشهد لها بالحيوية، لأنه يدل على أنها أخذت وأعطت، واللغة التي تسلم سلامة تامة من الألفاظ الدخيلة لا توجد إلا في قبائل المحصورة بين جدران الجهل والركود

وعندي أنه يمكن الحكم بأن شعراء الجاهلية لم يكونوا يملكون من الثروة اللغوية مثل الذي نملك، لأنهم عاشوا في آفاق محدودة، ولأن التفوق اللغوي لم يكن من المقاصد التي يشغل بها الناس في القديم على نحو ما يشغلون في هذا الزمان

فكلمة (العرب العرباء) كلمة طنانة، ولكنها لا تنفع بشيء، فمجد العرب الحق، المجد الذي بجله التاريخ، وهو مجدهم بعد الفتوحات الإسلامية، وبعد أخذهم ما استطابوا من مواريث الشعوب

وهنا حقيقة لم تأخذ قسطها من الالتفات، وهي فضل الدخيل في إمداد اللغة العربية بالثروة لعهد الجاهلية. وبيان ذلك أن جاهلية العرب الملحوظة هي جاهلية قريش، وقريش لم تعرف حياة العزلة بسبب (البيت)، فقد جمع حولها الناس، وعرفها ما لم تكن تعرف من طرائق المعاش، وطرائف الخيال

كان للعرب في الجاهلية ما يزيد عن سبع لغات، وكان من الصعب أن يتفاهم أهل الشمال مع أهل الجنوب، فكيف ضعضعت تلك اللغات وبقيت لغة قريش؟ يرجع الفضل إلى (البيت) أولاً والى الإسلام ثانياً، ولكن كيف اتفق ذلك ولم تكن مهمة البيت

مهمة لغوية ولا كانت رسالة الإسلام رسالة لغوية؟ يرجع السبب إلى أن الضجيج الاجتماعي والجدال
الديني والسياسي مما يزيد في ثروة اللغات. ومن هنا نجد في القرآن وفي الأحاديث ألفاظاً أجنبية منقولة من اللغات الفارسية والعبرانية واليونانية والحبشية والمصرية، لأن ذلك الضجيج وذلك الجدال قضيا باقتباس تلك الألفاظ من تلك اللغات. وكذلك الحال في كل لغة تعرف أهلها إلى طوائف من الشعوب
قولوا الحق، أيها الناس
هل كان العرب الذين تلقوا القرآن يلتفتون إلى أن كلمة (سندس) كلمة فارسية وأن كلمة (اليم) كلمة مصرية؟
إن تنقية اللغات من الدخيل فكرة حديثة العهد بالوجود في أكثر بقاع الأرض، ولعلها لم تعرف إلا بسبب العصبية العنصرية، كالذي وقع حين رأى الفردوس أن تخلو (الشهنامة) من الألفاظ العربية فيما قبل، وكالذي وقع من الأتراك فيما بعد، وهذه وتلك من النزعات الشعوبية، وهي نزعات تزيد في نفرة الأمم بعضها من بعض، بلا نفع ولا غناء وإذا جاز هجر الألفاظ المنقولة من لغات أجنبية فكيف يجوز هجر الألفاظ الأصيلة في اللغة العربية؟
أنا أشوف أن الأستاذ عنتر يجانب الصواب حين ينكر كلمة (شاف) بمعنى (أبصر) مع أن العرب قالوا تشوف بمعنى تطلع
أنا أشوف أنه أخطأ حين قال: (إن كتب التاريخ ليست متون لغة يعتمد عليها في إثبات الكلمات العربية)، فأكثر المؤرخين أدباء فضلاء، ومؤلفاتهم تعد من المراجع اللغوية
قال ابن مسكويه (وخرج الجند بالبوقات والطبول) وهو كاتب فحل يكاد يعاصر المتنبي، أفلا يكون كلامه شاهداً على أن (البوقات) كانت كلمة اصطلاحية في ذلك الحين، وهل كان يصعب على المتنبي أن يقول (أبواق) لو كانت هي الكلمة التي يريد؟
وهل نخطئ المتنبي لنصوب من نقدوه عن جهل، ولنصوب من نقلوا ذلك النقد المنحرف بلا بصيرة ولا يقين؟
وما الرأي في كلمة (مستشزرات) التي عابوها على امرئ القيس منذ اشتغلوا بعلم البلاغة إلى اليوم؟
ما الرأي وهي أفصح الكلمة في هذا البيت:
غدائره مستشزراتٌ إلى العُلا ... تضل المدارى في مثنّى ومُرسَل
ثَقُلت عليهم الكلمة فعابوها، مع أن ثقلها مقصود، لأنها بهذا الوصف تمثل ما أراد أمرئ القيس
ولو طاوعناهم لحذفنا من اللغة كل لفظة تعوزها النعومة واللين، وهذا مطمح لن يصلوا إليه، لأن اللفظ الوعر في موطنه مقبول ومنشود
وأنكر الأستاذ لفظة بحرة وقال إنها لفظة لا تعرفها لغة العرب، فليرجع إليها غير مأمور في القاموس المحيط
وأنكر كلمة طبلة. فهل يرى الاستغناء عنها بكلمة طبل؟
وأنكر كلمة بوقة، فهل يرجع إليها في تاج العروس؟
وأنكر كلمة ربعة، فهل يضع مكانها الربع وهي أصغر من الربع؟
وقال إن جمع صناعة على صنائع لم يرد في منظوم الكلام ولا منثوره، فهل يدفع ديناراً على كل شاهد لأظفر منه بمائة دينار أطبع بها كتاب (أدب الشواطئ)؟
أما بعد فإن مصادر الثروة اللغوية عندنا هي ما نطق به العرب في جميع العصور وفي جميع البلاد، ونحن نكره أن يكون محصولنا اللغوي محصول جيل أو جيلين، ونحن مع هذا لا نرحب إلا بالكلمات المأنوسة التي صارت نصاً في الدلالة على أشياء لا يدل عليها بغير تلك الكلمات
الكاتب البليغ والشاعر المجيد هما أعرف الناس بسرائر اللغة، وإليها يرجع الفضل في إقرار الحقائق اللغوية والأدبية ولا يجوز لمن حرم ذوق الشعر والكتابة أن يتعرض للنقد اللغوي والأدبي، فهذا مجال الذوق لا مجال النقل، وبين الذوق والنقل مراحل طوال
ومن علماء البلاغة الذين استباحوا التطاول على المتنبي وامرئ القيس؟
هل قرأتم مقدمات الكتب البلاغية لتعرفوا ما يملك بعض معلمي البلاغة من القدرة على الإنشاء البليغ

قال قائل: إن كتب التاريخ ليست متون لغة، فما رأيه في كتب الفقه الإسلامي؟
أنا أشوف أن كتب الفقه تحوي ذخائر لغوية نفسية جداً، ولعلها أدت للغة خدمات لم تؤدها كتب الأدب الصرف، لأنها أذاعت مرونة التعابير في كثير من البيئات، ولأنها حوت الدقائق من محاورات الناس في الأسواق
وخلاصة القول أني لا أعترف بما يسمونه عهد (العرب العرباء) ولا أدير بالاً لمن يدعو إلى الاكتفاء بما عرفت العرب العرباء، فلو بعث عرب الجاهلية لعجبوا من الثروة اللغوية في هذه الأيام، واعترفوا بأن أحفادهم نجباء نجباء
ثم ماذا، يا حضرات الأفاضل بالأزهر الشريف؟
أنتم توجبون أن يطبع المصحف بالرسم العثماني، فما حجتكم وهو رسم هجر منذ أزمان؟
أكان الخليفة عثمان بن عفان يختار ذلك الرسم لو عاش في هذا الوقت؟
وهل ترضون أن نرجع فيما نكتب إلى الخط العربي في عهد عثمان؟
كان يكفي أن تكون للمصحف نسخة تسمى النسخة التاريخية، ثم ترسم جميع المصاحف وفقاً للرسم الحديث، الرسم الذي اصطلحت عليه جميع البلاد العربية، لتسهل تلاوة القرآن على جميع الناس
ثم؟ ثم أقول إن الأدب لن يلتفت إلى حذلقة اللغويين المتكفلين، لأن الأدب هو مبدع اللغة، وهو المهيمن على تراثها الثمين.
اللغة ملك لكتابها وشعرائها وخطبائها، وليس لقراء المعاجم منها خلاق
ملكة اللغة تسمى شأن من يناقش في اللغة وليس له فيها عاطفة ولا وجدان؟
كونوا كتاباً وشعراء وخطباء قبل أن تكونوا ناقدين وإلا. . . وإلا. . . عندكم جواب هذا السؤال
محاكمة العقاد
دعتني المجلة الفلانية إلى محاكمة الأستاذ العقاد بالأسلوب الذي أريد، فقضيت بتأجيل الحكم إلى حين!
والحق أني لا أستسيغ مذهب المجلات التي ترى من البراعة الصحفية أن تؤرث الخصومات بين رجال الأقلام ليتفرج القراء، كأن الصحافة صارت ملاعب لا تكلف المتفرجين غير ملاليم!
إن الخصومات الأدبية لا تُقْتَرح، وإنما تخلقها الظروف، فليصبر المتفرجون قليلاً. ألم يسمعوا أن الله مع الصابرين؟
نحن لا نختصم لنقدم الغذاء لأهل الفضول، وإنما نختصم لنؤدي خدمة للفكر والرأي والوجدان، وسأخاصم العقاد ويخاصمني حين تسنح فرصة يكون فيها الخصام من أوطار العقول
ما هذه الشهوة التي لا يغذيها غير عدوان بعض الأقلام على بعض؟ وما هذا الشوق السخيف إلى رؤية مناظر الحرب في غير ميدان؟
لا قيمة للخصام الأدبي إن لم ينته إلى نتائج صحاح، فإن لم يكن بد من خصومة بيني وبين الأستاذ العقاد فسأبحث عن مجال يحترب فيه المنطق، ويتصاول البيان
ولكن متى؟
ذلك إلينا لا إليكم، يا جماعة المتفرجين بملاليم لا قروش!
النقد الأدبي لن يرخص إلى الحد الذي تصورتموه، ولن يكون إلا نضالاً في ميادين ترفرف عليها أعلام الآراء والأذواق
زكي مبارك
وفود العرب على كسرى
لأستاذ جليل
الشاعر الناثر الأستاذ محمد عبد الغني حسن في مقالته اللطيفة (الخطابة بين الحرب والسياسة) في الرسالة (521) ص (510) يشير إلى قصة (وفود العرب على كسرى) ويستشهد بكلام للحارث بن ظالم دليلاً على حذق الخطيب وسرعة خاطره. ولا ريب في أن الأستاذ قدر في نفسه صحة الحكاية. والحق - والحقيقة إن ساءت سرت - أن هذا الخبر الذي أورده ابن عبد ربه في (العقد) وصاحب (تحفة الإخلاء في كتابه أسطورة مصوغة. وقد كان هذا الضعيف أول من عالن بصوغ الخبر فقال سنة (

(1343:
وإن كتب العلم لتنبئنا بأن الرواة كانوا يتقربون إلى الخلفاء والسلاطين والنبهاء . . .)
في الدولة برواياتهم، فكانوا يضعون الأحاديث، ويختلقون ما لم يكن ابتغاء خير يأملونه
عند من يحملون سلعتهم الأدبية إليه أو أجل تبريزهم على أقرانهم برواية قول أو شعر
استبدوا هم بمعرفته. وربما صاغ العلماء والأدباء الحديث لينصروا مقالة لهم أو
نحلة. . . وعُدَّ من الموضوع أيضاً مقالة النعمان في النضح عن أحساب العرب وكلام
الذين أوفدهم ابن ماء السماء إلى سلطان فارس فإنه مزور مختلق لم يقله النعمان
ولا جماعته ولن يستجرئوا على مثله، ولن يجوز العقل أن يقعد ابن الأكاسرة لاستماع
ثرثرة كل مهذار نفاج ويفرغ لشهود عجرفة المتعجرف وعنجهيته. ومن الموضوع أيضاً
كلام وفود قريش على سيف بن ذي يزن، وحديث عبد المطلب بن هاشم، وحديث عبد
المسيح بن نفيلة مع خاله سطيح، وحديث خنافر الحميري مع رَئِيه شُصار فإن هذه
الأحاديث أعرق قول في الاختلاق. والدليل على ذلك علمي عقلي فليرجع إلى كتاب
العقد والأمالي من أحب وليتأمل ذلك بعين العقل، ولا يسألنا سرد الأدلة فالموقف
حرج، واللبيب تكفيه اللمحة الدالة، و (من لا يعرف الوحي (الإشارة) أحمق)
ثم جاء عالم من علماء القاهرة مشهور فأيد في مصنف له القول في اختلاق تلك
الحكاية، حكاية الوفود، ولن يضير - إن شاء الله تعالى - تلك الأخبار من الوجهة اللغوية
والأدبية ضائر. ومما يسر أنها لفقت والعربية بليغة فصيحة صحيحة قوية. وإن خيل أن
أولئك الصواغين أو الصياغين قد أحفظوا طلاب الحقائق التاريخية بما وضعوا، فقد
أحسنوا بما
صنعوا، إذ خدموا - والحق يقال - لغة (الكتاب) وهل كان لنا هذا التراث، هذه الثروة
اللغوية الثمينة لولا تلكم المصوغات المزخرفات؟
وإنا لموقنون أن القوم ما قصدوا في كثير مما لفقوا إساءة و (إنما الأعمال بالنيات)
وإن أساءوا وأحسنوا فـ (إن الحسنات يذهبن السيئات)
وبعد فمن مبدع ذلك الخبر؟
ابن عبد ربه وصاحب (تحفة الأخلاء) نقله. وقد روى ياقوت في سيرة (الزبير بن بكار
بن عبد الله القرشي) أن من تصانيفه كتاب وفود النعمان على كسرى
فهل صاحب هذا الكتاب هو (الصائغ) المحسن؟
قال الذهبي في (الميزان): الزبير بن بكار الإمام صاحب النسب، كان ثقة من أوعية
العلم، لا يلتفت إلى قول أحمد بن علي السليماني حيث ذكره في عداد من يضع
الحديث، وقال مرة: منكر الحديث
لا يضير أن يلتفت إلى ما ذكره السليماني، وإذا ثبت قوله في ابن بكار فمن :(قلت)
يضع الحديث النبوي يضع الحديث الأدبي
وذكر ابن خلكان وياقوت هذه القصة وخلاصتها أن الزبير دخل على محمد بن عبد الله
بن طاهر فأكرمه وعظمه، وقال له إن باعدت بيننا الأنساب فقد قربت بيننا الآداب.
ولما ودعه قال: إن رأيت يا أبا عبد الله أن تفيدنا شيئاً نرويه عنك
قال: أحدثك بما سمعت أو بما شاهدت؟
قال: بل بما شاهدت
قال: نعم، بينما أنا في مسيري هذا أبصرت جماعة مجتمعة، فأقبلت إليهم، وإذا برجل
كان يقنص الظباء، وقد وقع ظبي في حبالته، فذبحه فانتفض في يده فضرب بقرنه
صدره فنشب القرن فيه فمات، وإذا بفتاة كأنها المهاة، فلما رأت زوجها ميتاً شهقت
ثم قالت أبياتاً منها:
أضحت فتاة بني نهد علانية ... وبَعلها في أكف القوم محتمل
ثم شهقت فماتت. فما رأيت أعجب من الثلاثة: الظبي مذبوح، والرجل جريح ميت،
والفتاة ميتة. فلما خرج قال الأمير محمد بن عبد الله: أي شيء أفدنا من الشيخ؟
قالوا: الأمير أعلم
قال: قوله (أضحت فتاة بني نهد علانية) أي ظاهرة، وهذا حرف لم أسمعه في كلام
العرب قبل اليوم
إنها لقصة كيسة وإن فيها لفائدة وإن لم يكن مما خرف الشيخ به شيء :(قلت)
(ن)

المسرح المصري
وكيف نشيده على دعائم ثابتة
للأستاذ دريني خشبة

لابد أن يكون لنا مسرح إذا أردنا أن نُدخل الأدب المسرحي في الأدب العربي، وسوف يظل الأدب العربي في مؤخرة آداب العالم ما لم يدخله الأدب المسرحي، ذلك الأدب الذي يشغل النصف وأكثر من النصف من آداب الأمم الحية التي تفرض نفسها وثقافتها وفكرها على غيرها من الأمم، وهي إنما تتم لها تلك السيطرة الذهنية بما يبذل أدباؤها المسرحيون من إنتاج عجيب لا يعرف الكسل، ويأبى إلا أن يعطي أكثر مما يأخذ، بل هو في الغالب يعطي كثيراً ولا يأخذ شيأً. . .

وإن لم يكن بد من أن يكون لنا مسرح فليس الشعب وحده هو الذي يضع دعائمه، وليست الحكومة وحدها هي التي تضطلع بكل شيء فيه، وليست جهود الأفراد المتواضعة هي التي تكفل قيام هذا الصرح الذي نريد أن يكون رمز نهضتها كما هو رمز نهضة تلك الأمم التي تكتسح آدابها - عن طريق السينما والمسرح والكتب - حياتنا المصرية خاصة، وحياة الأمم العربية على وجه العموم. . . بل يجب أن تتضافر الجهود جميعاً في إنشاء هذا المسرح، على أن تكون القيادة العليا بيد الدولة مؤقتاً، وعلى أن تكون تلك القيادة العليا قسمةً بين وزارتي المعارف العمومية والشئون الاجتماعية. . . قسمةً في الاختصاص، وليست قسمة في الهدف؛ فتنشئ وزارة المعارف المعاهد الكثيرة للتمثيل لتمد وزارة الشئون بمن تحتاج إليهم من الممثلين والمخرجين ومصوري المناظر ومهندسي الإضاءة وغيرهم ممن تفتقر إليهم مسارحها التي يجب أن تنشئها في طول البلاد وعرضها لتثقيف الشعب وتهذيبه، ولنشر الدعايات الوطنية والأخلاقية التي ينبغي بثها في طبقاته

لقد آن الأوان لإصلاح الغلطة الكبرى التي وقعت فيها إحدى الوزارات الانقلابية الرجعية السابقة. . . تلك الوزارة التي سوغت لها التقاليد التي كانت تحرص عليها في جهل هو أقبح من العمى فألغت معهد التمثيل، وحرمت بذلك نهضتنا من الممثل المثقف الذي هو المادة الأولى للحياة المسرحية

لقد آن لنا أن ننظر إلى المسرح نظرة فيها جد وفيها احترام وفيها تقدير للرسالة التي يقوم بها بيننا رجاله الأوفياء المجاهدون

يجب أن تكفل الدولة العيش الهانئ الرغيد لكل المسرحيين من مؤلفين ومخرجين وممثلين ومهندسين حتى تضمن إخلاصهم لفنهم، وحتى لا تسلمهم آخر المطاف للفقر والفاقة، وتسلم أبناءهم للجوع والعوز

التمثيل فن ومهنة ورسالة. . . وهو لم يعد تلك المتعة الرخيصة المبتذلة التي كانت تبحث عن أبطالها بين الطبالين والزمارين والراقصين

التمثيل من أشرف المهن إن لم يكن أشرفها جميعاً، وهو لم يعد يهدف إلى إمتاع الناس فحسب، بل هو يعمل على رفع مستواهم وإصلاح حالهم بطرق لا يستطيع غيره أن يحسنها. . . فالمسرح يستطيع أن يؤدي من الخير للأمة مالا تستطيع المدرسة أن تؤديه. . . ولتكن هذه المدرسة أية المدارس شئت. . . ورب دراسة تشير من بعيد إلى أحد الأمراض السرية، تقي الناس من تعريض أنفسهم لهذا المرض، فتنجو الأمة من شروره، وتوفر على كلية الطب جهوداً تستطيع أن تصرفها إلى ميادين أخرى

ورب درامة تؤدي لأمن هذه البلاد وسلامها مالا تستطيع مائة كاملة من دور البوليس أن تؤديه؛ لأن الدرامة تعالج الجرائم قبل وقوعها، فإما أن تمتنع امتناعاً تاماً فلا يقع منها شيء، وإما أن يقع العدد القليل منها في صور مخففة. أما دور البوليس ومحاكم القضاء فتعالج الجرائم بعد وقوعها، ثم هي تعالجها علاجاً سلبياً قد ينتهي إلى شرور مضاعفة تزيد في متاعب الأمة وتعقد أمورها تعقيداً شديداً

ورب درامة ترفع من مستوى الأمة الصحي بما لا تستطيعه تلك المئات من المكاتب الصحية المنتشرة في البلاد، وذلك بما توحي به من العناية بالنظافة وإنقاذ الطبقات من عاداتها المستهجنة

ورب درامة تبث من روح الجندية والاستبسال الوطني أضعاف ما تستطيعه تلك الأناشيد الببغائية التي يرددها الجنود ترديداً أصم دون أن يفقهوا لها معنى

ومن المؤلم حقاً أن نورد هذه البراهين التي هي بالموضوعات الإنسانية أخلق لكي نقنع أنفسنا بقيمة المسرح. . . ولكن ما الحيلة وقد أشرنا في كلمة قديمة إلى انحطاط المستوى الثقافي بين رجال المسرح المصري، وما ينتهي إليه انحطاط هذا المستوى الثقافي من
انحطاط الممثل في أخلاقه وسلوكه وعدم تقديره لملكاته أو انخداعه في تقدير تلك الملكات، وما يؤدي ذلك إليه من زراية الناس به وإزرائهم عليه وهوانه عندهم، وما يصيب المسرح من جراء ذلك من التأخر والانتكاس، بل الموت والفناء، فجادلنا بعض الأصدقاء في حقيقة المسرح، وأنكروا وجوده على الإطلاق،. وذهبوا في عدم اعترافهم به إلى أبعد حدود المغالاة. ونحن ما زلنا عند ما أثنينا به على الكثيرين من القائمين بأمر المسرح المصري، لأننا نعدهم أبطالاً شهداء استطاعوا أن يقفوا في تيار الزراية بهم حتى فتحوا أعيننا على حقيقة المسرح، وما ينبغي له من عناية وإصلاح. . . أو تجديد كامل إن اقتضى الأمر التجديد الكامل، لأن هذا لا يضيرهم في شيء، ما دامت الدولة ستعرف لهم سابقة الفضل وأولوية الجهاد، والبدء بالتضحية التي بخلت بها العائلات المحافظة فضنت بأبنائها وبناتها على المسرح الناشئ جهلاً منها وعدم عرفان بقيمته، وإن خرج بعض الشباب من أبناء أرقى الأسرات المصرية على هذا التقليد، فأقدموا إقدام الأبطال على الاحتراف المسرحي، فأعلوا من قدر المسرح، وارتفع بهم شأن التمثيل
ولقد عرضنا على القراء في كلمات سابقة بعض الخطوات التي خطاها المسرح في عدد من الممالك الأوربية بين الحرب الكبرى والحرب العالمية الحاضرة، وكان عرضنا لها بقصد الانتفاع بها في تجديد المسرح المصري، وأقام دعائمه على ضوء التجارب التي نضج بها المسرح الأوربي حتى نوفر على أنفسنا مشقة الوقوع في أخطاء لا داعي للوقوع فيها ما دام في مستطاعنا أن نهتدي بما تم من ذلك في الممالك الأخرى. وقد اتفقت الآراء على وجوب إنشاء أكثر من معهد واحد للتمثيل لتخريج الممثل المثقف الذي يجيد لغة أجنبية واحدة على الأقل، والذي له نصيبه من الثقافة العامة التي ينبغي ألا تقل عن القدر الذي يتم به الطالب علومه الثانوية، يضاف إلى ذلك ما يلقاه في المعهد من تاريخ المسرح وفن الإلقاء، وما يمارسه فيه من أداء عدد من (الأدوار) في مختلف العصور المسرحية، ومن مختلف أنواع الدرامة، إلى ما يحسن أن يعرفه أو يتقنه من أصول الموسيقى والإنشاد وما إلى ذلك مما لا تكمل ثقافة الممثل إلا به، وما ينبغي له من الرياضة البدنية والتمرن على إطلاق النار والمبارزة مما تتم به مرونة الجسم ويتفادى به ذلك الاستكراش والترهل الذي يعيب جسوم الكثيرين من ممثلينا
ولا يعقل أن ننتظر حتى تنشئ وزارة المعارف معاهد التمثيل هذه وحتى يتخرج الممثل المثقف الذي نريده لنهضتنا المسرحية لا يعقل أن ننتظر حتى يتم ذلك وغيره لنشيد مسرحنا الجديد. . . بل ينبغي على وزارة المعارف أن تسارع فتنشئ اتحاداً للممثلين الحاضرين - ولنسمهم القدامى مع تقديم اعتذارنا - على أن تقدم لهذا الاتحاد داراً فخمة تصلح أن تكون نادياً لهم، كما تصلح أن تكون معهداً تلقى عليهم فيه محاضرات منظمة في كل ماله علاقة بفنهم وكل ما من شأنه أن يضمن لهم قدراً من الثقافة التي حرم أكثرهم منها - وفي مصر ولله الحمد عدد لا بأس به من رجال المسرح المثقفين ثقافة عالية يستطيعون أن ينظموا هذه المحاضرات، أو الدروس، وأن يلقوها على فترات متقاربة مقابل مكافئات طيبة، (ويجب أن تكون طيبة!). . . ولا بأس مطلقاً، من سبيل التشجيع للمثلين على الاهتمام بتلك المحاضرات، أن يعقد لهم امتحانات بعد مدة معينة، فمن جازها منهم منح شهادة فنية تحميه في المستقبل من كبرياء الخريجين الجدد في معاهد التمثيل، حتى يقف معهم حين يجد الجد على قدم المساواة، وبذلك لا تقع الدولة فيما وقعت فيه من قبل مع المحامين الذين لم يحصلوا على شهادة الحقوق القديمة والذين حصلوا عليها، ثم مع المدرسين الذين لا يحملون مؤهلات فنية والمدرسين الذين يحملون هذه المؤهلات
ولا محيص أيضاً من تشجيع الإقبال على معاهد التمثيل بربط درجات في ميزانية الدولة لخريجي هذه المعاهد، ولا بد من أن تكون تلك الدرجات مساوية على الأقل لدرجات الشهادات العالية، على أن ينال الممثلون القدامى ممن منحوا الشهادات الفنية الحق

في التمتع بتلك الدرجات وعلى أن يمتازوا أيضاً بفرق الأقدمية تكريماً لهم وتعويضاً عن جهادهم الشاق الطويل

ولا يحق لوزارة الشئون أن تعتبر المسارح منشئات تجارية تدر الربح، بل يجب أن تعتبرها مدارس شعبية ينفق عليها وتربط لها الميزانيات الضخمة كما تنفق وزارة المعارف على التعليم الإلزامي والتعليم الأولي، وكما تساهم في نفقات التعليم العام والتعليم العالي بأكثر مما يدفعه الطالب وبأضعافه في بعض كليات الجامعة. . . مما يبلغ الملايين الضخمة سنوياً. . . يجب أن تتناول وزارة الشئون مسألة المسرح على هذا النحو من الوجهة الاقتصادية، ولتذكر أن دولة أثينا القديمة كانت تعتبر المسرح هو المدرسة الشعبية العامة،

وكانت تخفض أجرة الدخول إلى الحد الذي لا يرهق أحد حتى أفقر أفراد الشعب، إذ كانت تلك الأجرة لا تتجاوز ثلاثة أوبولات أي ما يساوي قرشين تقريباً، وكان من حق العمال جميعاً أن يأخذوا من خزانة الدولة هذه الأجرة على ضآلتها، وذلك لكي يتسنى لهم شهود درامات آلهة المسرح الإغريقي العتيد من أمثال: سخبلوس وسوفوكليس ويوريبيدز وأرسطوفان. وكان بركليس يباهي بذلك قائلاً: (إننا هنا، وبتلك الوسيلة، نستطيع أن نخلق شعبنا على المثال الذي نريد!) ومن رأينا أن نحتذي حذو أثينا ونقتدي بما كانت تصنع، فنخفض أجور المسارح إلى الحد الأدنى، على أن يكون للعمال حق الدخول مجاناً أو بنصف الثمن أما من أين توفر الدولة ما يقتضيه ذلك من الأموال الضخمة فأمامها بلديات المدن المصرية جميعاً. لتفرض على ميزانيات تلك البلديات دفع إعانات خاصة، وعلى حسب مقدرة كل منها، لتشجيع المسرح، ولنتخذ من ألمانيا قبل الحرب الحاضرة مثالاً نحتذيه، فلقد ذكرنا في مقالاتنا السابقة أن بلدية كولونيا كانت تعين مسرحها المحلي بخمسة وعشرين ألفاً من الجنيهات سنوياً، وأن قرية ثورن كانت تعين مسرحها المحلي المتواضع بألف من الجنيهات سنوياً، وقس على ذلك جميع المدن والقرى الألمانية؛ فإذا ساهمت بلديات المدن المصرية بمبلغ إجباري تدفعه سنوياً لوزارة الشئون لتوفر لديها مبلغ ضخم يربى على الملايين يفعل الأعاجيب في نهضتنا المسرحية، إذ تسدد منه جميع النفقات، كما تضمن للممثلين علاوات كبيرة، وللمجيدين منهم منحاً عالية ويسعها في الوقت نفسه أن تجزي المترجمين الذين ينقلون الدرامات الأجنبية إلى العربية، ثم المؤلفين المصريين والمؤلفين العرب الذين يمدون المسرح بثمار قرائحهم، عاملين جهدهم على خلق الدرامة المصرية أو العربية وسلكها في الأدب العربي الذي لا يعرفها. . . ولتذكر وزارة الشئون بهذه المناسبة - مناسبة المؤلفين - أن حكومة أثينا كانت تعقد المباريات بين المؤلفين اليونانيين في العصر القديم - القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد - وأنها كانت تجزي الفائزين بمكافآت سخية تربى الواحدة منها على المائتين من الجنيهات عداً ونقداً

وقد يلاحظ بعضهم أن ما نقترحه هنا يدور كله عن المسرح الحكومي، وإننا لم نشر إلى وجوب وجود المسرح الحر الذي تنطلق في جوه الحرية بأوسع معانيها. . . ونحن بالطبع لم نغفل ذكر هذا المسرح إلا ونحن نعمد هذا الإغفال الآن، حتى يكثر عدد خريجي معاهد

التمثيل، وحتى تأخذ القاعدة الاقتصادية الخاص بالعرض والطلب مجراها، فتضيق المسارح الحكومية بالخريجين وتوجد الفرصة بالضرورة لقيام المسرح الحر على مثال الـ في فرنسا والـ في ألمانيا والنمسا والمسرح الحر الإنجليزي بكل أنواعه، ثم تنشأ المنافسة البريئة بين المسرحين على أن تكون منافسة ترعاها الحكومة وتتولاها حتى لا تنتهي إلى ما انتهت إليه في أوربا من قيام المسرح التجاري الذي ينحط بجمهوره ولا يحاول الارتفاع به، لأن أقصى ما يعنيه هو الربح والربح وحده - ويستطيع المسرح الحر حين يقوم أن يعتمد على موارد ثابتة وموارد متقلبة يغطى بها نفقاته ويضمن لأصحابه أرباحاً ضخمة يسيل لها لعاب أصحاب رؤوس الأموال. أما الموارد الثابتة فتتألف من الإعلانات الحكومية ومن اشتراكات أعضاء المسرح المحليين، وذلك على نحو ما كان حاصلاً في ألمانيا قبل الحرب الحاضرة وقبل قيام الحكم النازي على وجه التحقيق. وينبغي ألا تكون الإعلانات الحكومية هبة تمنح في كثير من التردد والمن، بل يجب أن تكون شيئاً مقرراً لا تملك الحكومة رفض صرفه أو قطعه لغير أسباب لها وجاهتها، كما يجب أن تكون هذه الإعلانات ضماناً لحسن سير العمل بالمسارح في أول الأمر، فلا

يتحكم المديرون في الممثلين ولا ينصبوا من أنفسهم طغاة عليهم. . . أما نظام الاشتراك المسرحي الذي يجب أن يأخذ به مسرحنا الحر عن المسرح الألماني، فهو نظام عتيد يضمن للمسرح إيراداً ضخماً يتجدد من اشتراكات ضئيلة لا ترهق الأفراد، فلقد ذكرنا أن أحد مسرحي برلين يضم أعضاء من العمال يبلغ عددهم ستين ألفاً يدفعون ستين ألفاً من الجنيهات سنوياً - أي أن العضو يدفع جنيهاً سنوياً على أقساط - مقابل شهود أربعين رواية في كل موسم تمثيلي، ومقابل امتيازات أخرى عالية منها حضور محاضرات ثقافية منظمة والحصول على مجلة شهرية تعنى بأمور كثيرة أهمها المسرح والرياضة. ونحن نستطيع أن نعدل في النظام الاشتراك المسرحي ما نشاء بحيث نبقي على روحه لينفع مسرحنا الحر من الوجهة الاقتصادية. أما الموارد المتقلبة فأهمها (إيراد الشباك) والإعلانات التجارية التي نشهد منها نماذج في دور الصور بالقاهرة اليوم، وهي تدر أرباحاً لا بأس بها تضيف إلى إيراد المسرح.

(يتبع)

دريني خشبه

إيضاح أخير

للدكتور محمد مندور

الحنية:

قلت أنني لا أحب اللجاجة فكيف إذا انقلبت مزيجاً من المهاترة والمغالطة. وها هو الأستاذ سيد قطب يعود إلى (مزاجي) الخاص فيدعي أن آثر شخصية لدي من شخصيات القصص التي حللتها في سلسلة (النماذج البشرية) بالثقافة، هي شخصية (فيلستيه) للكاتب الفرنسي (فلوبير)، وذلك لما بها من (حنية) كما يقول ولكنني لم أوثر شخصية على أخرى إلا أن يريد الأستاذ قطب حملي على ذلك الإيثار. و (فلستيه) بعد ليست النموذج الوحيد الذي تحدثت عنه، فثمة (فاوست) يمثل الإقبال على الحياة والنهم إلى المعرفة عن سبيل المغامرات؛ و (دون كيشوت) الساخر من الحياة، المجالد للشر رغم إيمانه ببطلان جهاده. و (هملت) العقل النافذ نفاذاً يشل الإرادة. و (جوليان سوريل) الثائر على مواضعات الحياة الاجتماعية. و (الست) الناقم على البشر انحلال أخلاقهم. و (فيجارد) المنتقم من الحياة بالسخرية. و (إبراهيم الكاتب) الذي تعلق بالحياة حتى مجها و (جفروش) الطفل الباسم عن جسارة قلب وغيرهم ممن لا صلة لهم (بالحنية) والمزاج الخاص

لقد حللت هذه النماذج مظهراً ما فيها وهي عندي سواء، فلا محل إذن لمغالطة الأستاذ قطب وإصراره على زعمه أني لا أوثر إلا لوناً واحداً من الإحساس

ويأبى الأستاذ قطب إلا أن يضيف إلى المغالطة المهاترة بحيث لا أرى بداً من أن تكون هذه الكلمة آخر حديث لي في هذا الموضوع:

يرى الأستاذ قطب أن نوع الإحساس الذي أوثره في زعمه خاص بالنساء وبذوي الأمزجة الخاصة. وأنا لا يرهبني أن يكون إحساسي على هذا النحو، ويعصمني من تلك الرهبة جهل نفضته عن نفسي وبربرية لا يزال يسدر فيها الفطريون من الناس لقد سمع الأستاذ قطب أستاذه العقاد يكتب مقالات يثبت فيها أن المرأة غير رجل، وأن بينهما اختلافاً سحيقاً في الطبيعة؛ وسمع الغفل من الرجال يزدرون المرأة ويعتبرونها مسبة أن يشبه الرجل المرأة في شيء، فلم ير سبيلاً للمهاترة خيراً من أن يرد إحساسي إلى

المرأة والى ذوي الأمزجة الخاصة

وأنا أحب أن يعلم الأستاذ قطب، وأن ينقل إلى الأستاذ الكبير العقاد أن الحياة البشرية ليست من البساطة بحيث يظنان؛ وليس بصحيح أن بين الرجل والمرأة اختلافاً في الطبيعة. وقديماً زعم اليونان - وزعمهم الحق - أن الآلهة عند خلقها للبشر لم تخلق الرجل والمرأة دفعة واحدة، بل خلقت أعضاء مختلفة ثم جمعت بين تلك الأعضاء لتسوي الرجل والمرأة، وهي لسوء الحظ أو حسنه لم تحرص على نقاء الرجل من عنصر المرأة أو نقاء المرأة من عنصر الرجل. ولهذه الخرافة الرمزية دلالتها، فليست هناك امرأة كاملة الأنوثة، وليس هناك رجل كامل الرجولة، ومن يدعي غير ذلك إنما يصدر عن عقل باطن أمرضته سخافات العقلية الاجتماعية التي نحيا بينها واليونان لا ريب كانوا في خرافتهم هذه أنبه مني ومن العقاد، وطبعاً من الأستاذ قطب.

وإنه لمن الحمق أن نحاول تنقص الرجل برد إحدى أحاسيسه إلى المرأة، والشعوب المتحضرة ترى على العكس من ذلك أن في إحساس الرجل كالمرأة موضع فخار لكبار رجال الفن والأدب. ولعل الأستاذ قطب قد سمع من العقاد أن رينان قد وصف بأعظم الصفات كفنان عندما قيل عنه (أنه كان يفكر كرجل، ويحس كامرأة، ويتصرف كطفل)

الفتات

وأما فتات الحياة (التي يعرف كبار الأدباء كيف يلتقطونها بأنامل ورعة) فالظاهر أن الأستاذ قطب لم يدرك ما أردته منها. وهاأنا أبسط القول. والأستاذ قطب لابد قد فهم عن الأستاذ الكبير العقاد أن كل فن اختيار للتفاصيل الدالة. فالمصور يختار من الألوان والأضواء وتفاصيل المنظر أقدر الجزئيات على الإيحاء، وكلما سما الفنان في فنه ورهف في وسائله عرف كيف يختار تلك الجزئيات الصغيرة، وليس ثمة علاقة بين (فتات الحياة) التي يختارها (وضخامة الإحساس) الذي يريد أن يثيره، فالإحساس من الواجب طبعاً أن يكون قوياً؛ وموضع الإعجاز هو أن يثير الفنان هذا الإحساس القوي (بالفتات) التي لن يدركها الأستاذ قطب؛ بل أن جميع المثقفين في حقائق الفن والأدب ليعلمون لخبرتهم الطويلة بكافة الفنون في العالم المتمدن أن إثارة الاحساسات القوية لا يمكن أن تكون بغير فتات الحياة الأليفة الوثيقة الصلة بالبشر؛ وأما الطنطنة وأما تضخيم التوافه وأما عجيج الألفاظ وأما التبجح بالقوة الجوفاء فهذه وسائل العجز والادعاء والجهل

أضرب للأستاذ قطب مثلاً بسيطاً أختاره من السينما لنبعد عن الأدب العسير الفهم في أحد الأفلام أراد مؤلف القصة أن يحمل المشاهدين على إدراك ضيق بطل الرواية لطول انتظاره أمراً يهمه فلم ينطقه بخطبة، ولم يعبث بملامحه، ولم يحمله على تمزيق ملابسه أو شد شعره، ولا حمله على الصياح في أجواز الفضاء، بل عرض على الشاشة بطلنا وأمامه منفضة سجاير خالية، ثم غير المنظر وعرض الرجل في نفس الجلسة، وأمامه المنفضة وقد امتلأت بأعقاب السجاير حتى فاضت. هذه المنفضة المليئة بأعقاب السجاير لا شك من فتات الحياة بل من هيناتها، ولكن أو ما يرى الأستاذ قطب أنها وسيلة قوية من وسائل الأداء وأنها قد حملتنا على إدراك نفسية البطل إدراكاً لن تبلغه قصيدة طويلة من قصائد الأستاذ قطب أو قصائد غيره؟

هذه هي (فتات الحياة) التي يجب أن نعرف قدرها في الفن؛ ولكننا قوم فطريون نظن الفن ألواناً فاقعة وضجيجاً خاوياً. نعم يا أستاذ قطب أنا أوثر (الأطياف الباهتة) لأنها نسيج كل فن رفيع؛ وأما (الأطياف الزاهية) فلا تسر غير البدائيين من الناس. أو لا ترى إلى زنوج أفريقيا كيف يستهويهم الأحمر القاني والأصفر الكركم؟

وأعود فأكرر أننا في سبيل الحديث عن طرق الأداء في الفن؛ وأما قوة الإحساس المثار فلا دخل له بالفتات إلا أن تكون هذه الفتات مبعث ذلك الإحساس القوي

وأما أنني أستطيع أن أستقل بالمشاعر الضخمة وبالفحولة والجهارة أو لا أستطيع فهذه دعوى لا أحب أن أناقشها لأنها صغيرة، ولسنا في مجال مبارزة أنحدر إليها ورحم الله من قال:

ونحن نناقش مسائل فنية يدور حولها .(أسرع الناس إلى القتال أقلهم حياء من الفرار) الأستاذ قطب. يدور من الخارج.

مختارات الأستاذ قطب

قلت: إنني أحب المتنبي وأرى فيه شاعراً كبيراً ويأبى الأستاذ قطب إلا أن يقول ويكرر أنني لا أحبه؛ وهو يقرن العقاد إلى المتنبي، وفي هذا ظلم للمتنبي وللعقاد، فالمتنبي شاعر والعقاد لا شأن له بالشعر، ولا أدل على ذلك من مختارات الأستاذ قطب نفسها

لقد أتى الأستاذ قطب بنموذج للنثر المصري الجيد رثاء أحد الشبان لأمه؛ والشاب صاحب الرثاء هو الأستاذ قطب نفسه؛ واحتجاج الإنسان بنثره الخاص شيء سمج؛ وأمعن في السماجة أن يتحدث المرء عن نفسه في مناقشة الغير فيدعي أن في نثره (معاني كبيرة وأحاسيس عميقة) هذا الأسلوب ليس من آداب المناقشة، ولهذا أهمل نثر الأستاذ قطب كله وأترك له مهمة الحديث عن نفسه

وأما مختاراته الشعرية فهي أولاً لشاعر مصري كبير، وثانياً لشاعر من شعراء الشباب المصريين. فأما شاعر الشباب فهو أيضاً الأستاذ قطب ولهذا أهمله وأهمل شعره لأنني

لا أطيق هذه الصفاقة، ثم أنني لا أرى من اللياقة أن أناقش أشعار التلميذ بينما لدي أشعار الأستاذ نفسه، لدي أشعار الشاعر المصري الكبير العقاد فالشعر له والأستاذ قطب في ركابه

ولنأخذ من الصور الشعرية التي أوردها الأستاذ قطب للشاعر الكبير العقاد قصيدته (الكون الجميل) (رسالة عدد 520). قال الشاعر:

صفحة الجو على الزر ... قاء كالخد الصقيل
لمعة الشمس كعين ... لمعت نحو خليل
رجفة الزهر كجسم ... هزه الشوق الدخيل
حيث يممت مروج ... وعلى البعد نخيل
قل ولا تحفل بشيء ... إنما الكون جميل

وقال الأستاذ قطب معلقاً على جمال هذه الأبيات أن فيها ألفة وأنه يكاد يلمح الشاعر (متسع الحدق مغفور الفم وهو ينشق بل يلتهم ما في الطبيعة) وأنا لا أدري أي ذوق أدبي ذلك الذي يحمل الناقد على تصوير الشاعر (متسع الحدق مغفور الفم)، وهل يستطيع القارئ أن يتصور هذه الصورة القبيحة دون أن يملكه الاشمئزاز والضحك. تصور شاعراً مفتوح العينين فاغر الفم. هذه صورة أبله لا صورة شاعر

ثم أين الجمال في هذه الأبيات؟

يا لله! ما هذه الصفحة؟ أهي السحب؟ أهي الأثير؟ وهل هذه الصفحة غير الزرقاء؟ وهبها كانت غيرها أهي كالخد هذا الفضاء الرحب، الفضاء المترامي الذي تسبح فيه الروح فلا تنتهي إلى غاية. هذا الفضاء خد. وكيف تصقل الأثير، الأثير اللين الشفاف الخفيف؟

لمعة الشمس كعين ... لمعت نحو خليل

هل يرى القارئ عين الحبيب وهي تلمع نحو الخليل فتشبه لمعة الشمس؟ لابد أنها عين حمراء تقدح الشرر وترسل اللهيب

رجفة الزهر كجسم ... هزه الشوق الدخيل

أنا أعلم أن الدخيل معناه الطفيلي فما هذا الشوق الطفيلي؟ أهو الشوق الداخلي؟ وهل ترى الجسم يهتز كرجفة الزهر؟ لو أن كانت في القلب لقلت شاعر يشارك الطبيعة بإحساسها ولكنه الجسم كله. يخيل إلي أنني أرى فيلاً يهتز بجوار وردة تتمايل على غصنها

حيث يممت مروج ... وعلى البعد نخيل

مروج ونخيل لا تخصيص فيها ولا اختيار. أين الفن في يممت نحو المروج وعلى البعد نخيل. هذا نثر لا روح فيه

وأما غاية العجب فتأخذك من قوله:

قل ولا تحفل بشيء ... إنما الكون جميل

تسمع قل ولا تحفل بشيء، فتتنبه حواسك، ويستيقظ إحساسك، ويصحو عقلك لهذا التحدي القوي وتلك الشجاعة النادرة، وتحسب أن الشاعر سيخرج على قانون من قوانين الوجود أو على حقيقة من الحقائق الإنسانية الثابتة، ثم تنظر فإذا به لا يأتيك بغير هذه الجملة المبتذلة (إنما الكون جميل). وأنت تتساءل عن سر هذا القصر وذلك التأكيد فلا تهتدي إلى شيء.

هذا هو شعر الشاعر الكبير فما بالك بشعر الشاعر الصغير؟

محمد مندور

من أدب التراجم

الخليل بن أحمد

للأستاذ طه الراوي

(تتمه ما نشر في العدد الماضي)

كتاب سيبويه من وحي الخليل

الخليل أول من فتق معاني النحو وضبط أصوله، وبسط فروعة، واستخراج علله وأسبابه، ووسع فصوله وأبوبه، وأوضح سبله، وعبد مناهجه حتى بلغ أقصى غاياته؛ ولكنهم ترفع عن التأليف فيه لأنه منهل كثر وراده فأوحى إلى تلميذه وخريجه (سيبويه) من دقائق مسائله وبنات أفكاره وأبكار تصوراته ما جعله حرياً بأن يشار إليه بالبنان،

وجديراً بوضع كتابه المشهور الذي أصبح للنحاة إماماً يقتدون به ويهتدون بهديه، فمعظم ما في الكتاب مغترف من سلسال علم الخليل، ومقتبس من مصباح ذكاءه. وكلما قال سيبويه: (سألته) أو (قال) من غير أن يذكر أحداً فإنه يعني (الخليل)

كتاب العين أو (أبو المعاجم كلها)

علمنا أن الخليل قد طالت صحبته لخلص الأعراب وكثرت إقامته بين ظهرانيهم، ثم إنه كان يحج بين العام والعام، وكان يقابل في طريقه إلى مكة فصحاء العرب وأقطاب بلغائهم فاجتمع لديه كثير من مفردات اللغة وفرائد دررها، فعزم على جمع ذلك في كتاب لم يسبق إلى مثله، فرسم الخطة ورتب الأبواب على طريقة ابتدعها، وأسلوب لم يسبق إليه، وكان قد افتتح بحرف العين فسماه (كتاب العين) على عادة الكتاب في ذلك العصر، فإنه يسمون الكتاب بأول أبوابه ككتاب الجيم وكتاب الميم وكتاب الغين وكتاب الحماسة وغيرها. وهذا الكتاب أول كتاب ألف في متن اللغة مرتباً على الحروف جمع فيه الخليل 12. 305. 412 كلمة، بعضها مستعمل وأكثرها مهمل. والذي حدا به لذكر المهمل استيفاء التقاسيم العقلية لكل كلمة، فمثلاً كلمة (كتب) يحتمل في الكاف الفتح والضم والكسر ويحتمل في التاء الحركات الثلاث والسكون وثلاث في أربع اثنتا عشرة صورة فيذكر الاثنتي عشرة صورة ويقول هذه الصورة مستعملة لمعنى كذا، وهذه الصورة لم تستعملها العرب. وقد جمع الخليل في كتابه هذا من غرر الشواهد، ونوادر الفوائد، وضروب الحصر، ورصين القواعد، وجليل المسائل ما يعز وجوده في معجم غيره. على أنه تضاربت آراء العلماء في نسبة هذا الكتاب إلى الخليل أو إلى بعض تلاميذه أو إلى الليث. وقد ألف ابن درستويه كتاباً خاصاً في شرح هذا الخلاف واستقصى الجلال السيوطي في المزهر جميع ما دار في هذا الموضوع من أقوال. ولكن نحن لا نرتاب في أن الخليل هو الذي رسم خطط هذا الكتاب ورتب أبوابه ووضع حجر الزاوية بيده، أما أن غيره أكمله وزاد فيه فذاك أمر محتمل، ولكنه لا يدفع الخليل عن كونه المجلي في هذه الحلبة وأنه أول واضع لمعاجم اللغة مرتبة على حروف المعجم، وأن من جاء من بعده إنما اقتبس من مصباحه واهتدى بمناره. ولم يزل جمهور الأدباء وأرباب البحث لهذا العهد يظنون أن هذا المعجم الجليل اغتالته أيدي الأيام فيما اغتالت من نفائس الأسفار وجليل الآثار؛ ولكن من يمن الطالع أن عثر على نسخ منه أحد أدباء الحاضرة الهاشمية، فسعى البحاثة المشهور صاحب (لغة العرب) بمقابلة تلك النسخ وتصحيحها باذلاً الجهد في تحري الصواب على عادته، ثم شرع في طبعه ولكن بعد أن أنجز منه بضع كراريس حالت الحال، وعرضت دون ذلك أهوال. ولا ندري هل بقي لتلك النسخ من أثر بعد أن تفرقت كتب الرجل أيدي سبا ومزقت كل ممزق؟

جرى كل ذلك قبل نحو بضع وعشرين سنة

وقد سلك الخليل في ترتيب حروف الهجاء مسلكا لم يسبق إليه، ذلك أنه رتبها حسب المخارج مع تغيير طفيف فجاءت على هذا الوجه: ع ح هـ خ غ ق ك ج ش ض ص س ز ط د ت ظ ذ ث ر ل ن ف ب م وا ي

قال الخليل: لم أبدأ بالهمزة لأنه يلحقها النقص والتغيير والحذف ولا بالألف لأنها لا تكون في ابتداء كلمة، ولا في أسم ولا فعل إلا زائدة أو مبدلة ولا بالهاء لأنها مهموسة خفية لا صوت لها فنزلت إلى الحيز الثاني وفيه العين ولحاء فوجدت أنصع الحرفين فابتدأت بها ليكون أحسن في التأليف. أهـ

هل كان الخليل يقرض الشعر؟

قالوا: كان ينظم البيتين والثلاثة كما سيأتي. وروي الإثبات أنه سئل لماذا لا تقرض الشعر

مع سعة علمك بالعربية وتبحرك في علومها؟ قال: (يأباني جيده وآبى رديئه) وهذا الجواب على إيجازه غاية في البلاغة وآية في الحكمة وحصافة الرأي

مؤلفاته

للخليل مؤلفات أبدع فيها أيما إبداع ولم يحتذ في تأليفها وتبويبها حذو من سبقه من أهل العالم. والذي يجيل النظر في سيرة هذا الرجل يتبين له أنه كان يربأ عن سلوك المناهج المبعدة في كل ما يكتب ويصنف، ولذلك كان يسلك في التأليف طرقاً خاصة يؤم فيها الناس ولا يأتم بأحد. فمن تصانيفه:

1 - كتاب العين. وقد مر بك بعض أوصافه
2 - فائت العين
3 - كتاب الإيقاع. وهو في الموسيقى العربية ويظهر من مراجعة فهارس المؤلفات في هذا الباب أن الخليل يعتبر مجلي الحلبة في هذا المضمار
4 - كتاب النغم. وهو في الموسيقى العربية
5 - كتاب الجمل
6 - كتاب الشواهد
7 - كتاب العروض
8 - النقط والشكل وقد أشرنا إليه آنفاً. وذكر الفاضل جورجي زيدان في كتابه تاريخ آداب اللغة العربية ما نصه: (في المكاتب الكبرى في أوربا مما ينسب إلى الخليل
1 - كتاب في معنى الحروف في مكتبة ليدن ومكتبة برلين
2 - شرح حروف الخليل في مكتبة برلين قطعة منه)
3 - جملة آلات العرب في مكتبة أياصوفيا في الآستانة)
4 - قطعة من كلام عن أصل العقل في مكتبة اكسفورد (بودليان) .. .)

زهده وورعه

كان الخليل من أولئك الفلاسفة الذين نظروا إلى هذا العالم نظر الازدراء، ولم تخدعهم بهرجته، ولا غرتهم زخارفه. أجل كان الخليل أحد زهاد الدنيا المتبتلين إلى الله تبتيلا.

ومن أنصع البراهين على ذلك أن أمير الأهواز (سليمان بن علي) أرسل إليه يلتمس منه الشخوص ليقيم بحضرته ويؤدب أولاده فأخرج الخليل للرسول خبزاً يابساً وقال: كل فما عندي غيره. وما دمت أجده فلا حاجة بي إلى سليمان. فقال الرسول: فماذا أبلغه؟ فقال له؛

أبلغ سليمان أني عنه في سعة ... وفي غنى غير أني لست ذا مال
شحاً بنفسي أني لا أرى أحداً ... يموت هزلاً ولا يبقى على حال

والفقر في النفس لا في المال نعرفه ... ومثل ذاك الغنى في النفس لا المال

وكان سفيان بن عيينة يقول: من أحب أن ينظر إلى رجل من الذهب والمسك فلينظر إلى الخليل. وقال تلميذه النضر ابن شميل أقام الخليل في خص بالبصرة لا يقدر على فلسين وتلامذته يكسبون بعلمه الأموال الطائلة

ومن أوابد حكمه:

وقبلك داوى المريض الطبيب ... فعاش المريض ومات الطبيب
فكن مستعداً لدار الفنا ... ء فإن الذي هو آت قريب

وبالجملة فقد كان الخليل إحدى حسنات هذه الأمة وقمراً من قمارها، ودرة في تاج مفاخرها

وفاته

اختلف المؤرخون في السنة التي انتقل فيها الخليل إلى جوار ربه، فذهب جمهورهم إلى أنه توفي سنة 170هـ. وقال آخرون سنة 175هـ وقال بعضهم سنة 160هـ وأغرب خطأ وقع في ذلك هو قول ابن الجوزي في كتابه شذور العقود أنه مات سنة 130هـ وهو منقول عن الواقدي. قال المحقق ابن خلكان أنه خطأ قطعاً والصواب ما أثبتناه أولاً

وكانت وفاته في البصرة مسقط رأسه فكانت البصرة مشرق هذا الكوكب الوقاد ومغربه. وقد ضمته تربتها إلى من ضمت من أعلام العلم وأقمار الفضل ونجوم الهدى ورجال التقى الذين حلوا الآداب بأنفس الحلي، ونهضوا بالمعارف الإنسانية إلى مراتب العلا، فكانوا للعلم جمالاً، وللتأريخ أبهة وجلالاً، رضى الله عنهم ورضوا عنه ولقاهم في دار رضوانه تحية وسلاماً

(بغداد)

طه الراوي

كتب التراجم

بمناسبة كتاب روزفلت

للأستاذ محمد عبد الغني حسن

قد تستهوي الإنسان سيرة عظيم من العظماء، أو أديب من الأدباء، أو عالم له في

ميدان البحث العلمي مجال، أو مغامر له في الكشف مصاولة، فيقرأ عنه ويتتبع حياته، ويجد في مثله العالي ما يستحق العرض والتجلية. ثم يحمله الإعجاب به والاتصال به - من قريب أو بعيد - على الكتابة عنه والترجمة له ووصف الظروف التي كونته، والأقدار التي أحاطت به، والأحداث التي ألمت بعصره، والمبادئ التي تحدرت عنه

وقد يكون ذلك العظيم - موضوع الترجمة - شرقياً فيجد الكاتب الشرقي فخراً في الكتابة عنه والترجمة له، مدفوعاً إلى ذلك بعامل الاشتراك في الجنس أو اللغة أو الدين. ويجد الكاتب الغربي في الترجمة له إنصافاً لعظمته وإظهاراً لفضله. وقد يكون ذلك العظيم غريباً فيجد الكاتب الشرقي لذة وفائدة لبلاده ومعرضاً لعرض المثل الصالح والأسوة الحسنة

وكتابة التراجم المطولة، والدراسات الشخصية المعتدلة المنصفة لا تتقيد بوطن ولا جنس، ولا شرق ولا غرب، ولا دين ولا مذهب

فأميل درمنجهم كتب عن حياة النبي محمد، وأميل لدويج كتب عن حياة المسيح، وفيليب جوادالا كتب عن حياة نابليون الثالث، وماريوس أندريه كتب عن حياة خريستوف كولمب ومغامراته فوق أثباج المحيط، والسير والتر سكوت كتب عن حياة نابليون بونابرت، وتوماس كارليل الإنجليزي ترجم لفردريك شيلر الشاعر الألماني، وآرام سترونج كتب عن الذئب الأطلس أتاتورك، وكربيتس كتب عن إبراهيم باشا وإسماعيل باشا المصريين

لهذا ليس عجيباً في باب التراجم أن يكتب مصري عن غير مصري، أو يترجم عربي لحياة غير عربي كما صنع الدكتور محمد حسين هيكل مع جان جاك روسو؛ وعبد الرحمن بدوي مع نيتشة واشبنجلر وغيرهما من أعلام الفكر والفلسفة؛ وحسن محمود مع ديستويفسكي، وفؤاد صروف مع روزفلت

وقد يقال أن كتاب الأستاذ فؤاد صروف عن فرانكلين روزفلت هو من قبيل السياسة. وهو كلام فيه كثير من الحق. ولكن ما أحوجنا نحن قراء العربية إلى كتب من هذا الطراز فإن

الفقر يضرب على مكتبتنا العربية في هذا الباب لولا ما أخرج العقاد عن سعد زغلول، وما أخرج عبد الرحمن الرافعي عن الزعيم الوطني مصطفى كامل، وما وصنعه محمد فريد أبو حديد مع السيد عمر مكرم، وما كتبه كريم ثابت عن فؤاد الأول

إلا أن هؤلاء استوحوا وطنهم واستمدوا من تاريخ بلادهم وترجموا الأعلام رجالهم، ولكن فؤاد صروف استشرف إلى ما وراء العباب، واستكف ما خلف السحاب، فكتب كتابه الأول عن تشرشل (وقد كتبت عنه في حينه بالرسالة الغراء) وأخرج كتابه الثاني عن روزفلت. ولكن ذلك لا ينقص من شأن كتابه، بل على الضد من ذلك يرفع من قيمته ويغلي من بضاعته. لأن حياة روزفلت وسيرته وقصة كفاحه هي شطر من حياة الديمقراطية وقصتها. ومن منا اليوم لم تشغله قضية الديمقراطية ولم تفتنه قصتها؟ ومن منا لم تذهب نفسه اليوم حسرات على المحنة التي تبتلي الحرية اليوم بها وتصلى بنارها؟

ولا يرجع إعجاب فؤاد صروف بشخصية روزفلت إلى زمن اشتراك أمريكا في الحرب، ولا إلى اندلاع الشرارة الأولى لها حتى يقال إنه حب طارئ وإعجاب عارض؛ ولكنه حب متمكن وإعجاب قديم دفين يرجع إلى أكثر من عشرين عاماً حين رشح الرئيس روزفلت نفسه لوكالة الجمهورية. فقد تابعه المؤلف منذ ذلك الحين وشغف به وتحمس له وتقصى كل نبأ عنه أو خبر له، وطوى نفسه على متابعته والقراءة عنه حتى تهيأ له اليوم أن يخرج كتاباً قيماً في مائتين وأربعين صفحه من القطع الكبير

ولقد كانت تجري كتابة التراجم في اللغة العربية على نسق محدث ممل يعني بالسرد والقص والحكاية والجمع والترتيب والتأريخ ولا يعنى بالدراسة السيكلوجية والتحليل والنظرة العامة أو المقارنة. وكتب المؤرخ ابن الجوزي عن العمرين (ابن الخطاب وابن عبد العزيز). وكتاب يوسف بن شداد عن صلاح الدين الأيوبي خير مثال لهذا النسق العتيق

أما اليوم فقد تغير المجرى واستقام النسق وتأثر كتاب العربية بكتاب الفرنجة في هذا الباب، وأخذ عنهم طرق الدرس ومناهج البحث، وظفرت المكتبة العربية بما كتب

هيكل عن النبي محمد وأبي بكر، وبما كتب العقاد عنهما وعن عمر وسعد زغلول، وبما كتب الرافعي عن مصطفى كامل؛ وفؤاد صروف عن روزفلت

وكتابة التراجم لها في الآداب الأوربية اعتبار أي اعتبار، ولا يكاد يخلو إنتاج أديب ملحوظ من ترجمة شخصية أعجب بها وتوفر على درسها، مهما كان لون هذه الشخصية ومزاجها ومجالها الحيوي في السياسة أو العلم أو الفن. فلويس ديمييه يكتب عن ديكارت الفيلسوف، وهنري بيرو يكتب عن روبسبيير، وفرانسوا مورياك عن راسين، وراؤول أرنو عن كاميل ديمولان، وأميل لدويج عن روزفلت

ومن كتب التراجم ما يتحدث فيه المرء عن نفسه ويترجم لذاته. وهذه التراجم غير كتب المذكرات التي يدون فيها رجل ممتاز حوادثه اليومية كمذكرات اللورد جراي. وقد تكون هذه التراجم الذاتية قطعاً أدبية ممتازة كترجمة (لي هانت) لنفسه وهو من كتاب الإنجليز في القرن التاسع عشر، وترجمة دي كوينسي التي كانت سابقة على كتابه المشهور (اعترافات آكل أفيون)، وترجمة جيبون المؤرخ الإنجليزي التي حكم لها النقاد بالامتياز في نوعها وأسلوبها الذي يعد بحق مزية ذلك المؤرخ العظيم

والترجمة للأناس تتطلب فناً غير ترجمة الحيوان الأعجم. لأن ترجمة الناس تقتضي الاختلاط بهم أو السماع عنهم أو القراءة لهم أو رؤية آثارهم. أما الترجمة للحيوان فتقتضي ملاحظة أقوى وجلداً أكثر، وعلماً أغزر، وإحساساً أعمق. وتوفر الكثير من هذا في موريس مترلنك، فترجم لحياة النحل وحياة النمل بما لا يتهيأ لكاتب عادي أن يصنعه. ولكن لدويج ترك ترجمة الحيوان إلى ترجمة الذوات. . . فكتب عن (النيل) كتابه الذي جسد فيه هذا النهر الخالد كأنما كان يترجم لإنسان

ولكتابة التراجم سبيلان: سبيل الاتصال الشخصي بالمترجم له والاختلاط به والعمل معه أو تحت ظله وفي ذراه؛ وسبيل القراءة عن المترجم له وذلك لبعد الزمان بين الكاتب وبينه كما صنع ارفنج ودرمنجهم عن النبي، أو لبعد المكان كما صنع فؤاد صروف مع روزفلت اليوم

وإذا جمع كاتب التراجم بين قرب الزمان والمكان من المترجم له كان ذلك أقرب إلى الصدق وأدنى إلى الحق، وخاصة إذا كان الكاتب غير ميال إلى الهوى في حكمه أو الغرض في رأيه. ولكن بعد الزمان وحده خير ضمان للاعتدال في الحكم لبعد الكاتب عن المؤثرات والمغريات

فسيرة ابن شداد عن صلاح الدين هي أقرب السير زماناً ومكاناً من المترجم له. فالمؤلف معاصر لصلاح الدين وقاضي عسكره وناظر أوقاف بيت المقدس في عهده. وهي سيرة صادقة إلا أن فيها بالطبع بعض الميل

جرت عادة القراء أن يبدءوا الكتب من أول فصولها. ولكنني قرأت (روزفلت) من الفصل الثالث. وهو عندي خير فصول هذا الكتاب القيم. فهنا سيرة زكية من النضال والكفاح. هنا قوة تسري من الكتاب إلى القارئ فتوحي إليه أن الضعف ليس عدة الرجال ولا أداة الأبطال. هنا جسد اصطلح عليه المرض ومشى فيه الشلل، ولكن عزيمة صاحبه كانت أقوى من أن تخضع للحوادث. هنا سيرة يقرؤها المريض فيصح، والضعيف فيقوى، والهيابة النكس فيتقدم

وقد تمد فصول الكتاب الخمسة عقل القارئ بألوان من العلم والسياسة والمعرفة بأحوال العالم الجديد ونظمه ودستوره ومجلسيه التشريعيين وحكومته ونظام اقتصاده؛ ولكن الفصل الثالث يمد قلب القارئ بالشجاعة ويملؤه بالقوة ويجعله موصول الآمال، حتى في الساعات الحرجة واللحظات العصيبة، لأن الإرادة القوية تغلب كل حرج؛ وتتحكم في كل شدة. فهذا الرجل المشلول لا ينطوي على نفسه كمن تقعدهم الأدواء ولكنه طلعة دءوب، فكيف تصده آفة جسدية عن تحقيق مطامعه القوية؟

ومزية كتاب (روزفلت) أنه ليس من الأدب المحض وحده أو الفن الصراح وحده، فليس من نوع النثر الفني المقصود لذاته؛ ولكنه فكرة قبل أن يكون كتاباً، ومعنى قبل أن يكون لفظاً، فهو طراز عال من كتب السياسة الأدبية التي اتجه إليها الكتاب في العصر الحديث. فلم يحاول فؤاد صروف فيه أن يكون عالماً فحسب أو سياسياً فحسب أو أديباً فحسب، ولكنه كان مزيجاً من ذلك كله. فهنا علم بالنظم الأمريكية، وهنا معرفة بتيارات السياسة الدولية؛ وهنا إحاطة واسعة بأشتات التاريخ الذي وعاه المؤلف في صدره؛ وهنا أدب يتجلى في تعبير مترسل مستقيم المنطق صحيح

التسلسل؛ وهنا ريشة مصور لا أقول إنها عنيفة ولكنها صادقة ترسم الحدود وتوضح المعالم في بيان وجلاء
وهو كتاب يذكرني بكتاب أندريه مورواه الفرنسي في تاريخ إنجلترة
محمد عبد الغني حسن
اليتيم. . .
للآنسة فدوى عبد الفتاح طوقان
هَاضَه الوهْنُ وَأَعْيَاهُ الأَلَمْ ... وَسَطاَ الضَّعْفُ عَليهِ وَالسقَمْ
خاشعُ الأطْرَافِ من إِعْيَائِهِ ... ما به يقْلِبُ كَفًّا أو قَدَمْ
مُتَدَاعٍ جِسْمُهُ مُنْخَذِلٌ ... لَجَّت الحمَّى عليه فاضطَرَمْ
سَاكِنُ الأوْصَالِ إلاَّ بَصَراً ... زَائِغاً يَطْرُفُ حِيناً ويَجُمْ
ابْنُ سَبْعٍ بَرَّحَ الْيُتْمُ بِهِ ... رَحْمَةُ الله لَهُ نِصْوُ يَتَمْ
كَسَرَتْ مِنْ طَرْفِهِ مَسْكَنَةٌ ... لَبِسَتْ هَيْئَتَهُ مُنْذُ فُطمْ
وَاحَنَاتَاهُ لأُمٍ أَيِّمٍ ... طَوَتِ النَّفْسَ عَلَى خَوْفٍ وَغَمْ
فَنَضَتْ عَنْهَا الثِّيَابَ السُّودَ، لاَ ... تظنوا جُرحَهَا الدَّامِي الْتَأَمْ
بل لِدَفْعِ الشُّؤْمِ عن وَاحِدِها ... يَا لَقَلْبِ الْأمِ إِنْ أُشْعِرَ هَمْ
وَبدَتْ في البيضِ من أثوابها ... مَن رَأى إحدى حمامات الحرمْ
عَطَفَتْ من رَحْمَهِ تَحْضُنُهُ ... إِنَّمَا دُنْياً الْيَتَامَى حِضْنُ أُمْ
وَمَضَتْ تَمْسَحُ بالْكَفِّ على ... جَبْهَةٍ رَهْنِ اشْتِعَالٍ وَضَرَمْ
وَلَقَدْ تَنْدَى فَتَخْضَلُّ له ... وَفْرَةٌ مِثْلَ الظَّلاَمَ المُدْلَهِمْ
نظَرَ الطِّفْلُ إليهَا صَامِتاً ... وَبَعَيْنَيْهِ حَدِيثٌ وَكَلَمْ
ليْتَ شِعْري مَا بِهِ؟ مَا يبْتَغِي؟ ... أَبِنَفْسِ الطِّفْلِ سُؤْلٌ مُكْتَتِمْ
لو أرادَ النَّجْمَ لاحْتَالَتْ له ... كلُّ سُؤْلٍ هَيِّنٍ مهما عَظُمْ
وَحَنَتْ تَسْأَلُ عَنْ طِلْبَتِهِ ... فَرَنَتْ عَيْنٌ لَهُ وَافْتَرَّ فَمْ
قَالَ: يَا أُمِّي، أَلاَ أَبْنَ أبي ... لِمَ لاَ يَرْجِعُ من حَيْث اِعْتَزَمْ
نَاشِدِيهِ وَاسْأَلِيهِ رَجْعَةً ... فَلَكَمْ يَفْرَحُ قَلْبِي لو قَدِمْ
لا تَسَل عَنْ جُرحِهَا كَيْفَ مَضَى ... مِنْ هُنا أَوْ مِنْ هُنَاَ يُنْزَفُ دَمْ
ضَمَّتْ الطِّفْلَ إليْهَا بِيَدٍ ... وَبِأُخْرَى مَسَحَتْ دَمْعاً سَجَمْ
عَزَّ مَا يَطْلُبُهُ وَاهاً لها ... كَيْفَ تَأْتِي برِفُاَتٍ وَرِمَمْ؟
قَلِّبِ الْبُؤْسَ عَلَى أَوْجُهِهِ ... لَنْ تَرَى كالْيُتْمِ بُؤْساً مُحْتَكِمْ
يَنْشَأُ الطفلُ ولا ركْنَ له ... ركنُهُ من صغرِ السِّنِ انْهَدَمْ
خائضاً في لجج العيْش علَى ... ضَعْفِهِ، وَالْعَيْشُ بَحْرٌ مُحْتَدِمْ
تَائِهاً في ظُلَمٍ مَاَ تَنْتَهي ... حَائِراً يَخْبُطُ في تلك الظُّلَمْ
ليس في الدنيا ولاَ في ناسِها ... فهْوَ يحْيَا في وُجُودٍ كالْعَدَمْ
أَخَذَ اللهُ بِأَيْدِي مَعْشَرٍ ... كلُّهم سبَّاقُ غَايَاتٍ عَلَمْ
جعَلوا شأنَ اليتامى هَمَّهُمْ ... فَالْيَتاَمَى مِنْهُمُ في مُعْتَصَمْ
أُدْركوا منهم جناحاً واهياً ... هُوَ لَوْ لَمْ يُدْرِكُوهُ لَمْ يَقُمْ
رَأَبُوا صَدْعًا إِذَا أُهْمِلَ في ... أُمّةٍ يومًا تَدَاعَتْ في الْأُمَمْ
أغنية
عودة إلى الوكر
للأديب حسين محمود البشبيشي
هاهنا كنا وكانت أمنيات الحب تسري
وهنا عينك أجرت فتنة الدنيا بشعري
ما لعيني اليوم لا تشهد أوكاري وزهري
أطواها من طواني؟ أم تراني لست أدري؟
يا حبيبي عدت للوكر وأحلام الأماني
مثلما كانت وفي عينيك أسرار الزمان
تسكب الخلد بروحي وفؤادي وبياني
وتذيب الحب نجوى من معان وأغان
الندى النشوان يهفو فوق زهري لجمالك

والشعاع السمح يسري من ضميري لظلالك
والنشيد العذب يجري فوق ثغري لدلالك
وفؤادي زورق بالشوق يسري لخيالك
هاهنا المحراب يهفو للتصابي والتنادي
هاجه الشوق إلى نجوى فؤاد لفؤاد
وصلاتي لعيون ألهمتني أن أنادي
يا حبيبي لك روحي وضميري وفؤادي. . .
أيها الوكر أتنساني وتنسى ذكرياتي
حين جن الشوق في قلبي وجنت قبلاتي
وحبيب القلب هل يذكر يا وكر صلاتي
وفنائي بين عينيه كهمس في فلاة

البريد الأدبي

إلى الدكتور بشر فارس

أخي الأعز الدكتور بشر فارس

لك حق يا أخي في تساؤلك عن هؤلاء النقاد من هم. . . ولست أدري لماذا لم تتول الرسالة الرد وهي التي حذفت فقراً من مقالي لتوسع على مقالات أخرى. . . أضف إلى ذلك اختلافي كل أسبوع مع رئيس العمل بالإدارة من جراء الأخطاء المطبعية التي أخذت تضايقني مضايقة شديدة. وكنت ألمح وأنا أراجع مقالاتي بعد صدور المجلة نظرات أمثالك من القراء الحنابلة المحترمين الذين لا يرحمون، وهي تهزأ بي مرة وترثي لي مرة أخرى، وأنا والله لا ذنب لي مطلقاً لو فطنت هذه النظرات

أما سؤالك عن ابن المنجد العبقري موليير فلم أفهمه على وجهه. . . لقد وضعته في ثبت الدراميين فهل هذا خطأ؟ وهل عفا الزمان على روائعه الكوميدية الخوالد التي تجعل منه نداً لشكسبير في المآسي؟. . .

وما سؤالك عن السيد المحترم مترلنك؟ هل ظننت أنني نزعته من ثبت الرمزيين إطلاقاً؟ كلا يا أخي. . . فمعظم مقالي منصب على الذين هم أقرب أصحاب المذاهب إلى الرمزيين كما نوهت في المقال الثالث، ولو أنني قصدت إلى الرمزيين إطلاقاً لما وضعت - أو لما حشرت - بينهم إبسن زعيم المذهب الواقعي وقد كانت معظم دراماته رمزية. . .

وأما أكتبه سارس على نحو ما جاء في كلمتك، وأما تشيكوف فضم تحريفه إلى الخمس عشرة غلطة المطبعية الواردة في صلب المقال نفسه

وأما الكتب التي أعتمد عليها فلن أذكرها لك الآن حتى أنتهي من مقالاتي. وحسبك أن تتفضل بزيارتي لأكسب كنز اخوتك الثمين، أو تتفضل بزيارة دار الكتب المصرية ومكتبة الجامعة - ثم مكتبتي - لتلمس العناء الشديد الذي نلقاه في كتابة هذه المقالات وهو ما جربته أنت وبلوت منه الشيء الكثير. . .

أما الحر الشديد، وأما المثاقفة. . . فلست أدري كيف نسيت أيامك ببطن خبت، وكيف ما زلت تحن إلى لقاء الأسود لتقد من ضلوعها عشرات وعشرات؟

يا أخي الهزبر الأغلب، اعلم أن الزمان قد تغير، وأن وسائل الحروب قد تبدلت. وهاهي ذي أصوات الطرابيد والقنابل لا تبالي ببطن خبت وسكان بطن خبت. . . ولم يعد المحاربون يمتطون ظهور الجياد ولا ظهور البوادي إلا نادراً، فقد وجدوا ظهور الدبابات أثبت ظهراً من كل ذي ظهر. . .

ثم السلام عليك من المشوق إليك.

دريني خشبة

بوق وبوقات

يقول الدكتور زكي مبارك: إن علماء البلاغة قضوا عشرة قرون يخطئون المتنبي في جمعه (بوقاً) على (بوقات) في بيته المشهور.

ثم يقرر أنه انفرد برفع الظلم عنه بجعل بوقات جمعاً لبوقه لا بوق الخ

وأقول: إنه لا حاجة بالمتنبي الشاعر الثبت الحجة إلى من يرفع الظلم عنه بعد هذه القرون المتطاولة، لأنه لم يظلم السماع ولا القياس في جمعه هذا (بوقات)، إنما ظلم البلاغيون أنفسهم في تخطئته لقلة نصيبهم من اللغة. وأخطأ المدرسون حتى اليوم في السير على هذا الخطأ لأنهم لم يتحرروا من أسر التقليد

أما السماع فقد جاء في مادة (بوق) من المصباح المنير (البوق) بالضم معروف والجمع بوقات وبيقات بالكسر

وأما القياس فقد جاء في مادة (ابن) من المعجم نفسه. قال ابن الأنباري: واعلم أن جمع غير الناس بمنزلة جمع المرأة من الناس. تقول فيه: منزل ومنزلات ومصلى ومصليات.

علي الجندي

مثال من تداعي الأخطاء

في ترجمة المعري بالجزء الثالث من معجم ياقوت (طبع دار المأمون) إشارة إلى القاضي

أبي المجد محمد بن عبيد الله (حفيد أخي المعري) ورد فيها من حديث الأمير أسامة بن منقذ عنه، قوله:. . . ولما فارق أهله بالمعرة وبقى منفرد (يعني في قلعة شيرز التي هاجر إليها بعد دخول الإفرنج المعرة) وكان له غلام اسمه شعيا، قال:

زمانٌ غاض أهلُ الفضل فيه ... فسَقْياً للحمام به ورَعْيا

أُسارَي بين أتراكٍ وروم ... وفقدُ أحبهِ وفراقُ شَعيا

وقد أشار المصحح في هامشه إلى كلمة (وفراق) فقال: (في الأصل ورفاق، وهو تحريف)! والرأي عندي في ذلك أن التحريف هو ما أثبته المصحح لا ما ورد بالأصل. إذ (الرفاق) هنا بمعنى المرافقة وقد اشتق كلاهما من الفعل (رافق) كما يشتق الخطاب والمخاطبة من خاطب، والقاضي هنا يشكو صحبة خادمه شعيا ومرافقته لا فراقه والدليل على ذلك ما قاله الأمير أسامة مستأنفاً حديثه عن القاضي: (. . . وقد سبقه إلى هذا المعنى الوزير المغربي، فإنه لما تغيرت عليه الوزارة وتغرب، كان معه غلام اسمه داهر فقال:

كفى حزناً أني مقيم ببلدة ... يعللني بعد الأحبة داهر

(يحدثني مما يجِّمع عقلُه ... أحاديث منها مستقيم وجائر

فالوزير هنا يشكو صحبة غلامه داهر الذي يرمض نفسه بأحاديثه الجامعة بين الغث والسمين، ومثل ذلك تماماً شكوى القاضي من غلامه شعيا

ذلك خطأ وقع فيه المصحح؛ وقد أنجز بسببه إلى ارتكاب خطأ آخر أبينه فيما يلي قال الأمير أسامة متابعاً حديثه: لما بليت بفرقة الأهل، كتبت إلى أخي أستطرد بغلامي أبي المجد والوزير المغربي، اللذين ذكراهما في شعريهما:

أصبحت بعدك يا شقيق النفس في ... بحر من الهم المبرِّح زاخر

متفرداً بالهم، من لي ساعةً ... برفاق شعيا أو علالة داهر!

فقد قال الأمير مرة أخرى (برفاق) شعيا؛ وكأن المصحح لم يجرؤ هنا على معاودة التغيير، لما يؤدي إليه من إخلال بالمعنى الذي يقصده الشاعر، ثم لما قد يوهمه ذلك من ادعائه أن التحريف وقع في كلام القاضي مرة وفي كلام الأمير أسامة مرة أخرى. فدفعه كل هذا إلى إبقاء كلمة (رفاق) على حالها ثم التعليق عليها بقوله: يعني أمثال شعيا

وداهر؛ يزعم بهذا أن رفاقاً جمع رفيق بمعنى المثل. وواضح تمام الوضوح وجه الخطأ في كل ما ذكره.

(جرجا)

محمود عزت عرفة

(الشاعر الرجيم: بودلير)

كتاب الأستاذ عبد الرحمن صدقي عن بودلير يعد من خير ما كتب عن هذا الشاعر من الدراسات الأدبية. فقد عنى الكاتب بترجمة حياة بودلير ترجمة مفصلة أقام على أساسها كل أحكامه التي قررها عن شعره، ودرس شخصية بودلير على اعتبار أنها شخصية مركبة جمعت بين الاستهتار والتصوف في وقت واحد. والواقع أن شخصية بودلير التي حيرت معاصريه وسائر الكتاب الذين تصدوا لتحليل أشعاره؛ هي شخصية لا

يستعصي أمرها على التحليل النفسي، وإنما يمكن أن تدرس على ضوء البحوث السيكولوجية دراسة تكشف غامضها وتجلي سرها. وهذا هو ما قام به الدكتور (رينيه لافورج) في كتابه الموسوم باسم (هزيمة بودلير) فقد نظر إليه على اعتبار أنه ليس إنساناً سوياً وإنما هو شاذ يجب أن تحلل حالته المرضية. واستدل (لافورج) (وهو من الأطباء المختصين بالتحليل النفسي) من الدراسة التي قام بها، على أن شعر بودلير يعكس الصراع العنيف الذي كان يعانيه في قرارة نفسه. وقال إن بودلير كان مريضاً بتعذيب نفسه، فلذا كان يميل إلى تهجين سمعته وتشويه صورته، والتهويل بخبايا دخيلته. وذلك كله لم يكن إلا نتيجة الفشل الذي لقيه الشاعر في حبه مما جعل غرامه الشاذ يحبب إليه خيبته ويميل به إلى تمجيد خذلانه!

درس الأستاذ عبد الرحمن صدقي (شارل بودلير) على هذا الوضع، فجاءت دراسة موفقة طيبة. وقد نقل الكاتب إلى العربية كثيراً من أشعار بودلير، وكانت ترجمته أنيقة، وإن كانت غير دقيقة. أما عنوان كتابه، فقد كنا نؤثر أن يرفع الكاتب منه عبارة (الشاعر الرجيم) لأن هذا أليق بالدراسة العلمية.

زكريا إبراهيم

العدد 525 - بتاريخ: 26 - 07 - 1943

حكمة الصين

للأستاذ محمود عباس العقاد

في الحروب شر يتبعه أو يتخلله بعض الخير

فالشر المحض ليس له وجود، ولا سيما في الحوادث الكبيرة، ومن الخير الذي في الحروب أنها تعين على تعريف الأمم بعضها ببعض، وتعليم الناس ما لم يكونوا يعلمونه من شئون البلاد الأخرى. فلا تنتهي حرب بين أمتين أو أمم شتى إلا تركتها وهي أعرف بأحوالها ورجالها مما كانت قبل اشتعالها، ومصداق ذلك ظاهر في الحروب الأوربية القريبة، وفي كل حرب من الحروب الموزعة في جوانب الكرة الأرضية ومنها حرب الصين واليابان

فالأوربيين كانوا يذكرون الصين في القرن الماضي فلا يذكرون بها غير الأفيون والخطر الأصفر، والحائط الأعظم الذي يحيط بها منذ قرون. وقد يذكرون الرسوم والنقوش والآنية وطرفا من الحكمة التي تنسب إلى كنفشيوس، فإذا بهم قد ذكروا عنها كل ما يعرفون، أو كل ما أرادوا أن يعرفوه!

أما اليوم فالصين بلاد مكشوفة يكتب عنها في لغات العالم كما يكتب عن البلاد الأوربية، ويقرأ الناس ما يكتبه أدباؤها وما يكتبه أدباء العالم عنها، ويحسب جمهور القراء في المسائل الصينية بمثابة الألوف بين جميع الأجناس والألوان

وأشهر أدباء الصين الذين عرفناهم بعد حربها الأخيرة هو لن يوتانج غير مدافع آخر ما قرأناه له مقال في مجلة أمريكية عنوانه (ما بالك لست بفيلسوف؟):

خلاصته أن الشرق والغرب يجب أن يلتقيا، أو هما قد التقيا، وأن التقاءهما ضروري لأن إدراك العقل لطبيعة الإنسان قد تغير، كأنك قد عمدت إلى بناء فحطمت قواعد فهو لا يتماسك ولا يعاد تعميره ليسع العالم الجديد حتى يشترك في بنائه كل من سيأوي إليه، وهم الشرقيون والغربيون

قال ما فحواه: لما قرأت أن وندل ويلكي كان في شنكنج يوم الجمعة وعاد إلى أمريكا يوم الاثنين ذعرت!. . . أهي فسحة آخر الأسبوع بين قارتين؟ إن الشرق والغرب إذن لملتقيان

وستطرد قائلاً: إن عالماً جديداً ينبغي أن يسبك من عناصر الثقافات الإنجلوسكسونية والروسية والشرقية؛ وأن حكمة الشرق هنا غناء كبير

وراح يسأل: هل للصين فلسفة أو مذهب فلسفي كمذهب ديكارت مثلاً أو كانت أو غيرهما من المذاهب التي تقيم لنا بناء منطقياً شامخاً للتعريف بأسرار الكون؟

ثم أسرع يجيب: كلا، مع الفخر!

فأما (كلا) فهذا صحيح وينطبق على الصين كما ينطبق على بلاد شرقية كثيرة

وأما (مع الفخر) فهذا الذي فيه قولان أو أكثر من قولين

والواقع أن فلسفة الصين كلها تنحصر في موضوعين متقاربين: أحدهما آدب السلوك، والآخر رياضة النفس على علاج الأهواء ومسايرة الحياة

ومن كلام لن يوتانج هذا: (إنني - حين أتكلم بلسان الرجل الصيني - لا أحسب أن حضارة من الحضارات تسمى كاملة ما لم تنتقل من التكليف إلى رفع الكلفة، وترجع عن. وعي وشعور منها إلى بساطة التفكير والمعيشة، ولا أصف رجلاً بالعقل ما لم يكن قد تقدم من حكمة الحصافة إلى حكمة الحماقة، وأصبح فيلسوفاً يشعر بمأساة الحياة ثم يشعر بمهزلتها إذ لابد لنا من البكاء قبل الضحك، لأن الحزن يصير إلى اليقظة واليقظة تصير إلى ضحك الفيلسوف، وملء هذا الضحك ولا ريب الرحمة والسماحة وهذا الذي يقوله فيلسوف الصين الحديث هو إعادة عصرية لما كان يقوله فيلسوفها القديم كنفشيوس، أو هو إعادة لكل فلسفة صينية حفظت لنا مسطوراتها إلى اليوم، وخلاصة رياضة النفس والتغلب على الأحزان

ففي بعض أيام كنفشيوس بلغت به المحنة أن أهدر دمه بين أميرين متنافسين، كلاهما يقصده بالسوء وليس منهما من يحميه. ومضت عليه سبعة أيام بغير طعام غير حساء الأعشاب التي تجمع من الخلاء، فشحب وجهه وهزل بدنه ولكنه لم يزل في مجلسه يترنم على قيثارة. فلما تبرم تلاميذه بهذه المحنة، دعاهم إليه وناداهم: (ما هذا الذي تقولون!. . . إن المصاعب هي التي تعلمنا الهداية إلى الطريق، وإنما في صبارَّة الشتاء تعرف حق المعرفة نضرة الربيع. وإن هذه الفتنة بين الأميرين لهي حظي السعيد) واستدار مترنما إلى كوخه وهو محبور الفؤاد

هذه هي الحكمة الصين بحذافيرها: آداب سلوك ورياضة نفس وخروج من ذلك كله بالصبر على مصاعب الحياة

ولم انحصرت حكمة الصين في هذين الموضعين؟

لأن (البلاط الملكي) فيها قديم، وما زال البلاط الملكي هو المصدر الأول لآداب السلوك وأصول الكياسة ورياضة النفس على السمت اللائق والعرف الجميل فأصبحت القدوة المطلوبة هي الأخلاق التي تحمد في معاشرة الملوك، وأصبح قوام الحكمة كلها هو السلوك والرياضة، بل أصبح الرجل الذي يروض نفسه على مسايرة الناس واحتمال سيئاتهم مرشحا للأمارة والملك، حيث يخفق الرؤساء والكبراء

ومن نوادر التي تساق في معرض هذا المعنى نادرة في كتابهم المشهور (سفر الأسانيد) تجري على النحو الآتي: قال الأمير: من يجد لي رجلاً أرفعه إلى مرتبة الوكالة عني؟ فقال له بعض الحاشية: ابنك يا مولاي تلوح عليه مخائل الذكاء قال الأمير: كلا فإنه شكس عنيد. أتراه يصلح لما نعهده إليه؟

وقال غيره من رجال الحاشية: إن الوالي فلانا يصلح لها

فقال الأمير: كلا. لأنه يتكلم عن الأعمال العظيمة ولا يعمل شيئاً، وأمانته ظاهرة ليس لها قرار

قال بعضهم: ليس لها إلا (كون) المدير القدير

فأجابهم الأمير: كلا. كلا إنه يحيد عن القانون ويبني القناطر لنفسه إذا عم الفيضان. يعني أنه يجر النفع إلى ناحيته ولا يحفل بمصالح الناس

وعاد يسألهم أن يجدوا له رجلاً قديراً على ما يرجوه منه ولو لم يكن من النابهين الذين تقلدوا المناصب واشتهروا بين ذوي المقامات

فذكروا له رجلا من عامة الناس

قالوا للأمير حين سأل عنه إنه ابن رجل ضرير من الأجلاف أمه صخابة سبابة، وأخوه صلف شديد الخيلاء، ولكنه عاش معهم ووفق بينهم وأبطل شكايتهم ونزع منهم داعية الشر، فهم هادئون وادعون

قال: إنه طلبتي، وعلي اختباره

فحكمة الصين برعت في أدب السلوك ورياضة النفس لأنها نشأت من البلاط العريق ولم تزل منذ نشأتها تدور حوله وترجع إليه

لكن هذا يفسر لنا نشأة الفلسفة السلوكية ولا يفسر لنا امتناع الفلسفة الكونية، فلماذا امتنعت الفلسفات التي تبحث في نظام الكون وسر الحياة وموضع الإنسان من هذا الوجود؟

لماذا لم توجد في الصين فلسفة أو مذاهب فلسفة كمذهب ديكارت وكانت وهجل وبرجسون وغيرهم من فلاسفة أوربا في العصر الحديث؟

الكهانة العريقة إلى جانب البلاط العريق
فالكهانة العريقة تفسر لنا امتناع الفلسفة الكونية، لأن الكهانة تستأثر بأسرار الخلق وعبادة الخالق ولا تطيق المزاحمة من المفكرين في هذه الصناعة
وقد امتنعت الفلسفة الكونية في أوربا حين قامت الكهانة ودانت لها الشعوب بالصولة ورجع إليها الأمر كله في العلم والتعليم والبحث عن حقائق الأشياء
فلما زالت هذه الصولة ظهرت الفلسفات الكونية بمقدار زوالها، واشتهر القرن الثامن عشر وما بعده بتلك الفلسفات لأن العقول انطلقت في القرن الثامن عشر من حكم الكهانة العريقة واستباحت البحث فيما كان قبل ذلك حكراً موقوفاً على رجال الدين
وعلى هذا ليست المسألة مسألة فخر للصين أو لغير الصين لأنها برعت في حكمة السلوك ولم تبرع في الحكمة الكونية؛ وإنما هي مسألة موانع طبيعية عاقت الوظائف العقلية عن غايتها التي ينبغي أن تتجه إليها ولا تحتبس دونها، فهي نقص وليست بكمال، وهي ضرورة مفروضة وليست بالمزية المقصودة، كما أراد أن يصورها فيلسوف الصين الحديثة
وفي العهد الذي تتعاون فيه العقول على بناء العالم الجديد من عناصر الثقافات المختلفة ينبغي أن تتمثل لنا هذه الحقيقة ولا نغفل عنها
ينبغي أن نعلم أن حكمة السلوك ورياضة النفس إنما هي حكمة تراد لتيسير (المعيشة) أي للمنفعة والراحة
ولكن (المعيشة) ومنافعها دون (الحياة) ودوافعها
فنحن نحسن السلوك ونروض النفس لنعيش في سلام
ولكننا نفسر نظام الكون ونستجلي أسرار الطبيعة لنفقة نصيبنا من الحياة، ونتجاوز تيسير
المعيشة إلى تحقيق معنى الوجود
والعالم الجديد ينبغي أن يكون عالم معيشة وحياة، وأن يسمو فيه الإنسان عن طلب الراحة إلى طلب الكمال، وعن تهدئة خواطره إلى توسيع تلك الخواطر وتقريب ما بينها وبين المثل الأعلى
وإلا فهو عالم (مادي) محدود وإن تظاهر بالزهد والحكمة، ولا فرق في الجوهر بينه وبين النازية والفاشية والعسكرية اليابانية، وهي العلة التي من أجلها نلتمس الخلاص من العالم المتداعي إلى العالم الجديد
عباس محمود العقاد
الحديث ذو شجون
للدكتور زكي مبارك
إلى الأستاذ إبراهيم المازني
صديقي
حدثتنا مجلة آخر ساعة أنك سئلت عني فأجبت (لو أخلى زكي مبارك كتابته من الحديث عن زكي مبارك لكان أحسن مما هو الآن)
وبمثل هذا أجاب الأستاذ عباس العقاد حين سألته مجلة الاثنين، فكيف تم التوافق بينك وبين صديقك فيما كتبتما عني؟
أهو من باب توارد الخواطر، ووقوع الحافر على الحافر، كما كان يقال؟ أم هو موصول بقصة المسيو ديبون؟. . . ومن ديبون؟ هو رجل فرنسي صنع شراباً سماه باسمه وأعلن في جميع البقاع الفرنسية، فما تسير في شارع ولا تدخل قهوة ولا تركب قطاراً إلا وجدت اسمه مسطوراً بأحرف كبيرة تبهر العيون. ولم يكتف بذلك، بل وضع لوحة مسجوعة بهذا الوضع الطريف
وقد هالني هذا الإسراف في الإعلان فسألت صديقاً فرنسيا عن السر فيه فأجاب: ذلك الرجل يعرف العادة المتبعة في القهوات الفرنسية، العادة التي توجب أن يسألك غلام القهوة عما تطلب قبل أن تجلس، فتنطق بأكثر الأسماء وروداً على بالك وهو ديبون!
والأمر كذلك فيما يتصل بحياتي الأدبية، فقد قال الدكتور طه حسين مرة: إن أكثر أديب زكي مبارك في الحديث عن زكي مبارك. فلما سئل الأستاذ العقاد عني وجد هذه

العبارة في باله فأجاب. ولما سئل الأستاذ المازني عني وجدها في باله فأجاب
وكذلك تعاد قصة المسيو ديبون في القاهرة بعد أن سئمها الناس في باريس
وهنا مشكلة لا أكتمها عنك، وهي الخوف منك، ولكن كيف؟
أنا لا أبالي نقد الدكتور طه حسين إياي، لأنني نقدته بمائة مقالة ومقالة، فمن السهل أن يقول الناس إنه ينتقدني وفي نفسه أشياء
وأنا لا أبالي نقد الأستاذ العقاد إياي، لأن بيننا أحقاداً تنشر في حين وتطوى في أحايين
الخوف كله من نقدك، لأنك صديق حميم، ولن أجد من يتهمك بالتحامل حتى أطمع في أن يكذب الناس ما تقوله عني
يضاف إلى هذا أنك مسموع الكلمة، وأن الجمهور لا يفطن إلى قدرتك على قلب الحقائق. وهل أنسى ما صنعت بنفسك وبصديقك العقاد؟
كانت العيون ترى قبل عشرين سنة أنك طويل جداً، وأن العقاد قصير جداً، فشاء برك بصديقك أن تزعم أنك القصير وأنه الطويل، وما زلت تبدي وتعيد حتى آمن الناس بقولك وظنوا أنك قزم وأن العقاد عملاق!
وبنوا آدم يصدقون ما يسمعون وما يقرءون، قبل أن يصدقوا ما تحدثهم به العيون والقلوب
من أجل هذا أنقض حكمك علي، وأرجو أن تكف عني شرك وإن لم تكففه عن نفسك، فما بي حاجة إلى صديق يسير على طريق المسيو ديبون
وماذا تنكر من حديثي عن نفسي؟ وماذا ينكر صديقك العقاد؟ وماذا ينكر الدكتور طه حسين؟
هل كان أدبك يا صديقي المازني إلا دوراناً حول نفسك؟ وهل كتب الأستاذ العقاد مقالاً أقوى من مقاله الأخير في مجلة الرسالة عن الأزمة التي صاولت روحه يوم احتلال العلمين؟ وهل كتب الدكتور طه أقوى مما كتب في الحديث عن طفولته وصباه؟ إن تصوير هموم النفس وما يحيط بها من مخاوف وآمال هو أدب صحيح جعلته الكتب السماوية من شمائل الأنبياء، فما العيب في أن يكون الحديث عن النفس من خصائص أدبي؟ وهل يمكن أن أتعرف إلى الوجود قبل أن أتعرف إلى نفسي؟
وهل كانت روائع الأدب في جميع الأمم إلا أحاديث نفسية؟
ما هو سفر أيوب الذي ترجم إلى اكثر اللغات؟
ألم تكن أصالته في التعبير عن المخاوف الروحية؟
وهل كانت أكثر القصائد الخوالد إلا إفصاحاً عن عواطف ذاتية؟
قال ديكارت: أنا أفكر، فأنا إذاً موجود
,
ومن معاني هذه العبارة أن الشعور بالنفس هو أساس الشعور بالوجود
لا موجب للمداورة في محاورتك، فأنت لم تنكر علي الحديث عن النفس بمدلوله المعروف عند رجال الأدب، ولا كان هذا ما أنكره الدكتور طه والأستاذ العقاد، وإنما تنكرون الثناء على النفس، وهذا يقع من حين إلى حين، والثناء على النفس يضايق الناس حين يكون ثناء بالحق، وإلا فمن الذي استطاع أن يكذبني حين أثنيت على نفسي؟
ولكن هل جال في خاطرك أن تبحث عن السر في هذه النزعة النفسية؟
هل حاولت إدراك الأسباب للتكبر الذي أقع فيه كارهاً غير طائع؟
لو أنك فعلت لعرفت أني لا أتكبر إلا متحدياً، والتحدي نزعة طبيعية تطوف بالنفس حين تفكر في دفع الجحود والعقوق
وإليك شاهداً من مقالك بجريدة البلاغ في مساء هذا اليوم (18 - 7 - 43) في كلامك عن (قصة الأدب في العالم) أثنيت على رأي المؤلفين الفاضلين أحمد أمين وزكي نجيب حين قررا أن عمر بن أبي ربيعة لم يقتصر على معشوقة واحدة، وإنما تبع الحسن أنى كان، بخلاف ما كان عليه أمثال قيس وكثير وجميل
ثم تحمست للأمانة الأدبية والتاريخية فقلت:
وهذا تفريق سبق إليه العقاد في كتابه (شاعر الغزل) وقد بسطه بسطاً وافياً وتوسع) في بيانه. ولست أقول إن المؤلفين الفاضلين أخذا هذا التفريق عنه، فليس ما يمنع أن يتنبها إليه، ولكني أقول إن الأستاذ العقاد سبقهما اليه، فمن الإنصاف أن يذكر له فضل

(السبق ويسجل
وهذه حماسة مشكورة، وهي من بعض صفاتك الطيبات، ومن الواجب أن نتلقاها بالترحيب، ولكن هذه الحماسة نفسها تقابل بالإنكار حين تصدر عني، كأن أقول بالرد عليك إن أول من سجل هذا الرأي في كتاب طبع ثلاث مرات هو المبارك لا العقاد إن كتاب (حب بن أبي ربيعة وشعره) طبع أول مرة أوائل سنة 1919، وهذا الرأي مدون في أول طبعة، فهل تكره أن أثني على نفسي فأقول إني سبقت العقاد إليه بأكثر من ثلاثة وعشرين عاما؟
وما أقول إني كنت في بالك حين سجلت للعقاد ذلك السبق، فمن المحتمل أن يغيب عنك أني أول من أصدر كتاباً عن شاعر الغزل، وأن كتابي كان المنار لكل من تحدثوا عن ذلك
الشاعر الفنان.
وأنا في الواقع أتعجب من استهانه الباحثين بالأمانة العلمية في هذا العهد، فما يمر أسبوع بدون مفاجئات غريبة تتمثل في سرقات جريئة من مؤلفاتي ومقالاتي، وأنا مع هذا أسكت لئلا يقال إني أكثر من الحديث عن نفسي!
وإصرارك وإصرار صديقك على أن هذا من عيوبي لن يصدني أبداً عن النص الصريح بأن خلائق كثيرة تنهب آرائي علانية وتعيش بها عيش السعداء
هل تذكر ما قال بعض الناس حين جازيت العقاد قتالاً بقتال؟
قالوا إنني أثنيت على العقاد من قبل، فكيف أهدم ما بنيت بالأمس؟
والاعتراض صحيح، ولكن المعترضين غفلوا عن أسباب ذلك الثناء، فقد أردت أن أشرح لطلبة السنة التوجيهية عناصر الكتب المقررة لمسابقة الأدب العربي، وعند ذلك تذكرت أني مدرس يعلم تلاميذ، ومن واجب المدرس أن ينزه أحكامه عن الأهواء وأثني على نفسي فأقول إن تلك الدراسات نفعت المتسابقين اجزل النفع، وقد شكا الدكتور عبد الوهاب عزام والأستاذ إبراهيم مصطفى من تأثير تلك الدراسات في عقول الطلاب، وقالا في دعابة إنهما سيرجوان المعارف أن يشير بأن لا تعاد تلك الدراسات في مجلة الرسالة، بعد أن ظهر أنها تكثر من عدد الفائزين!
بهذا الصدق في الأحكام الأدبية أنصفت نحو عشرين باحثاً من رجال هذا الجيل، وفيهم خصوم ألداء يشرفون بريقهم حين يسمعون اسمي
فأين من يملك من الصدق بعض الذي أملك؟
المازني وحده يستطيع أن يجاريني صدقاً بصدق، فقد وقف بجانبي وقفة كريمة، يوم الدكتور طه على صفحات الرسالة إن كتاب النثر الفني كتاب من الكتب أخرجه كاتب من الكتاب
ولكن هل يستطيع الأستاذ المازني أن ينصف خصومه كما انصف أعدائه؟
لقد يئست من إنصاف الناس، فكيف نفسي؟
في كتاب (ملامح المجتمع العراقي) ثناء على الأستاذ المازني والأستاذ الزيات، فهل قدمت نسخة من هذا الكتاب إلى أحد هذين الرجلين؟
عز علي أن أظهر بمظهر من يمن على الصديق، واستغنيت عن تقريظ الرسالة وتقريظ البلاغ، اكتفاء بما أثنيت به على نفسي في مقدمة الكتاب!
وأعجب العجب أني أهديت كتابي إلى رجل لا ينتظر مني أي معروف، ولا أنتظر منه أي جزاء، ليكون في عملي شيء لوجه الله والوجه الوطنية، وهو رجل سبقنا إلى التشرف بخدمة العلم في العراق، ولم يحفظ له مواطنوه بعض ما حفظ له العراقيون
وأنا بعد هذا أسأل من يؤذيهم ثنائي على نفسي، أسألهم متى يجاهدون في الأدب كما أجاهد؟ ومتى يعانون في سبيل الأدب ما أعاني؟
أين الزميل الذي يقول إنه أحرص مني على الوفاء بحقوق القلم البليغ؟
أين الشخص الذي يملك الزعم بأنه نفعي؟ ومن هو المخلوق الذي يتوهم أن له ديناً في عنقي؟ ومن هو الروح الطاهر الذي يطمع في السيطرة على شيطانية روحي؟
كانت الغاية عندي أن أقيم الدليل على أن لوطني وجودية تحميه من الأباطيل، وكانت حياتي شاهداً على صحة ما ابتغيت، فما استطاعت قوة أن تهد مني، ولا جاز في وهم مخلوق أن يراني من أتباعه، ولو كان أعظم العظماء
أنا أخاطب رجلاً هو الأستاذ المازني، أخاطب رجلاً يسره أن يعلم أني أسيطر على

شآبيب من الدواهي المواحق، وسأصبها على أعدائي حين أشاء
إن أدبي من صنع الله، وثقة الجمهور بأدبي من فضل الله، ولن أرتاب لحظة في أني أول كاتب وأول مؤلف وأول شاعر في هذا الزمان
هاتوا برهانكم يا خصومي إن كنتم صادقين!
هاتوا برهانكم، هاتوه، إن استطعتم الاعتصام بخيوط الأحلام أنا أثني على نفسي؟؟
هو ذلك، لأني أسهر الليل في مسامرة قلمي، ولأني أومن بأن الاعتماد على الماضي هو ثروة السفهاء من الوارثين
سنلتقي غداً وبعد غد، وسيكون صرير الأقلام أخطر من قعقعة السيوف
وإلى اللقاء، ولعله قريب!
زكي مبارك
المسرح المصري - 2
وكيف نشيده على دعائم ثابتة
للأستاذ دريني خشبة
بينا في الكلمة السابقة ما ينبغي توفيره لجميع رجال المسرح من الكرامتين المادية والمعنوية، وبينا نصيب كل من وزارتي المعارف والشئون من مهمة إنهاض المسرح المصري وموالاة العناية به حتى يقوى عوده ويشتد ساعده؛ لأنه بذلك يكفل لنا نهضة اجتماعية ونهضة إصلاحية ونهضة في اللغة ونهضة في الأدب ونهضة في الأمن ونهضة في الذوق العام ونهضة في جميع فروع الحياة المصرية، بل نهضة الأمم العربية قاطبة في كل فروع حياتها
وبينا كذلك ما يجب على بلديات المدن المصرية جميعاً أن تساهم به مهمتهم لا تقف قط عند حدود مراعاة النظافة في مدنهم وتجميل شوارعها، وغرس الأشجار على جوانب الطرقات، وما إلى ذلك من عمليات الكنس والرش والإضاءة وتوفير المياه المرشحة وإنشاء المجاري. . . كلا. . . إن مهمة أعضاء البلديات لا تقف قط عند حدود هذا الجهاد الأصغر، كما قال مرة أحد مشجعي النهضة المسرحية في ألمانيا. . . بل إنها تتعدى تلك الحدود إلى جهاد أكبر يفوقها قيمة وجدوى. . . ذلك هو العمل على رفع مستوى الشعب وحياته الاجتماعية. . . فيجب ألا يقتصر الكنس على شوارع المدينة وحاراتها، بل ينبغي أن يتناول القاذورات المختبئة في نفوس الأفراد أيضاً. . . وإذا نجحنا في إزالة هذه القاذورات استطعنا أن نضاعف نظافة المدينة وأن نزيد في جمالها ورونقها. . . والحمد لله، فلقد تنبهت بلديات كثيرة مصرية إلى واجبها نحو الثقافة العامة، فأنشأت دور الكتب والمسارح التي اقتصرت إلى الآن على عرض الصور المتحركة، فلتكن هذه باكورة نهضة مسرحية إقليمية نحكي بها ما قام في إنجلترا من المسارح المتنقلة، الـ ومسارح المدن الخاصة التي سمينا الكثير منها في الفصول السابقة عن المسرح في أوربا
فإذا وجد المسرح المصري على هذا النحو، فلا مندوحة من أن يبدأ حياته على صورة ما من صور مسارح المستودعات، وذلك إلى أن توجد الدرامة المصرية الحقة التي يمكن أن تأخذ مكانها بين الدرامات العالمية المثالية، والتي نستطيع إخراجها على صورة تمثل مصر
تمثيلاً صادقاً لا بهرج فيه ولا تهريج
ولما كانت مسارح المستودعات الـ تعنى بتمثيل الدرامات العالمية - أو الوطنية - التي سبق تمثيلها قبل عنايتها بإخراج روايات جديدة فسيواجه مسرحنا مشكلة نقل طائفة كبيرة من أشهر الدرامات الأجنبية إلى اللغة العربية. . . وقد عرضنا في كلمة سابقة لهذه المشكلة وأثبتنا تقصير الهيئات جميعاً في معالجتها. . . ونحن ما نزال عند الذي قلناه في هذا الصدد، ولن يضيرنا أن ينقم علينا من ينقم ما دمنا نقول الحق وننشد الخير. . . فالدولة - ممثلة في وزارة المعارف - لم تتناول بعد مشكلة الترجمة بما ينبغي لها من عناية ورعاية. . . وتقصير الدولة في ذلك يؤخر نهضتنا ويقعد بها ويؤذيها، كما يؤخر الأدب واللغة ويقعد بهما ويؤذيهما. . . وإن تأخرت نهضتنا وتأخر أدبنا ولغتنا تأخرت عجلة الحياة في مصر بل في الشرق العربي عامة
إنه لابد من حركة ترجمة واسعة شاملة للأدب الأوربي بوجه عام، وللآداب المسرحية بوجه خاص. . . يجب أن تتصل نهضتنا بأقطاب الفكر العالمي عن طريق ترجمات

عربية قوية لروائعهم التي تمد مكتبتنا بثروة ليست بعدها ثروة، فيجد شبابنا ما يثقف به نفسه من ذلك الغذاء الروحي العظيم الذي سيظل محروماً منه ما دام محبوساً عن لغتنا. . . يجب أن تعرف المكتبة العربية جميع روائع شكسبير ومارلو وبن جونسون وتشايمان وشريدان وكونجريف وباري وشو وجولذورثي وويلد وباركر وما سفيلد وسينج وبيتس وروبنسن وغيرهم من أساطين الدرامة الإنجليزية

يجب أن تعرف المكتبة العربية جميع الطرف السامية التي أنتجتها قرائح آلهة المسرح الفرنسي من أمثال: موليير وراسين وهاردي وكورني وجان روترو وكوينولت وكريبلون وهوجو وسكريب وروستان

إلى متى تحرم المكتبة العربية من درامات المسرحيين الأسبان أمثال: ناهارو، ولوب دي رودا، ودي أرجنسولا، وما أبقت عليه يد العفاء من درامات سرفنتس، ثم لوب دي فيحا العظيم الذي يؤثر أنه ألف للمسرح ألفاً وثمانمائة درامة بقي منها أكثر من أربعمائة إلى يومنا هذا، ثم تروسو دي مولينا، وكالدرون، وألاركون، وزورللا، ودي جويفارا، ودي موراتان، وتامايو، وجوسي إشجاري، وبلايو، وبلاسكوإباني

ومتى يستطيع القارئ العربي أو المسرح العربي الاستمتاع بدراما المسرحين الإيطاليين أمثال: ترسينو، تاسو، أريوستو، مكيافللي، جواريني، مافي، زينو، ألفييري، جولدوني، كارلو جوزي، متاستاسيو، مونتي، فوسكولو، مانزوني، نيكوليني، كوسا، داننزيو وبيراندللو؟

ولنذهب برقشة مقالنا بأسماء المؤلفين المسرحيين في الأمم المختلفة إلى حد المغلاة، فنذكر والحسرة تملأ جوانحنا أن المكتبة العربية محرومة من ترجمات لدرامات النوابغ الجرمانيين: يعقوب ومفلنج، وستلتس، كرشماير، لسنج، ويس، إشنبرج، جوته، كلنجر، مللر، شللر، كوزنر، شليجل، جرلبارزر، هيل، جراب، موسن، لدفج، هالم، رايموند، لوب، أنزنجروبر، سودرمان، هرشفلد، ويلدنبروخ، هوبتمان؛ كما أنها محرومة حتى من نموذج واحد من الدرامات التعبيرية التي وضعها جورج قيصر، وأرنست تللر، وسترنهايم، ويولنبرج، وهاردن، وبول إرنست، وفرانز ورفل

وماذا نقل إلى اللغة العربية من درامات المسرحين الهولنديين هامسن، وشمل، ونوهانز، ودي كو، وهايرمانز، وسيمونز ميز، وألفونس لودي؟

وماذا تعرف العربية من درامات هولبرج، وإبسن، وهيبرج، وكجار، وبراتمان، وهانز كنك النرويجيين؟

وهل تعرف المكتبة العربية درامات بلانشن، وسترند برج السويديين؟

وهل تعرف مكتبتنا الدراميين الروس ماياكوفسكي، وترتياكوف، وليولنتس

وهل نقل إلينا شيء من درامات التشكيين لفوفيك، ودفوراك، وفشر، وكارل كابل الذي مثلت جميع دراماته في جميع مسارح العالم؟

وبعد:

فلقد تعمدت أن أسلم القارئ العربي لهذا التيه المضل من أسماء كتاب الدرامة وشعرائها ليعلم إلى أي حد نحن محرومون من هذه الثروة الذهنية الهائلة التي ينعم بها أهل اللغات الأخرى لأنها مترجمة إليها. . . وأننا محرومون منها بسبب إهمال وزارة المعارف وتكاسل الجامعة وكبار الأدباء الذين لا يجدون تشجيهاً ولا حافزاً

لقد أهملت مئات من كتاب الدرامة فلم أذكرهم لأنهم ممن كتبوا أقل من عشر روايات. . .

ومع ذاك فقد ذكرت أشهر المكثرين فقط، ولو أراد أحد سرد أسمائهم جميعاً لضاق بهم نطاق أعداد عديدة من هذه المجلة. . . وكنت أوشك أن أسرد عشرات من كتاب الدرامة اليابانية التي لا تقل رونقاً عن الدرامة الأوربية، إلا أنني حسبت حساب تلك الابتسامات المرضية المتورمة التي تؤول ما أردت من ذكرها أسوأ تأويل. . . ولهذا أيضاً غضضت الطرف عن أبطال الدرامة الأمريكية في ممالكها

إن في عالم الأدب دنيا بأكملها من الررامة الراقية واكبت كل عصور التاريخ. . . فمتى تكون لنا درامة عربية ياترى؟ وكيف تكون لنا درامة عربية ونحن لم ننقل مائة أو مائتين من عشرات آلاف الدرامات العالمية لينسج كتابنا على منوالها، وليكب شبابنا على قراءتها فتترك في قرائحهم خمائر التفكير اللازمة للإنتاج الذي نطمح به ونفكر فيه، ثم هي تعلمهم كيف يقسمون فكرة الرواية إلى فصول، وكيف يقسمون الفصول

إلى مناظر، وكيف يمهدون للمفاجئات، وكيف يسلسلون الحوار. . . ثم كيف يخلقون لنا درامة مصرية تعالج مشكلاتنا وتتناول قضايانا وتسلك أدبنا في كوكب الآداب العالمية الراقية التي يمثلها الأدب المسرحي أحسن تمثيل وأصدقه

إلى متى يا ترى يظل أدبنا يباباً فارغاً هكذا؟

على رسلك أيها القارئ الذي يظن بي الظن، فأنا لا أقل عنك غيرة على الأدب العربي، وبالأحرى على الأدب المصري؛ وأنا أقدر لغتي العربية بل أقدسها، لكني مع ذاك أعترف بأن الأدب العربي سيظل وسوف يظل وراء الآداب العالمية قاطبة، ما لم نسلك فيه الأدب المسرحي وآداباً أخرى غير الأدب المسرحي ليس هنا مقام ذكرها. . . والسبيل إلى أن نسلك في أدبنا هذه الألوان من الأدب لابد أن تبدأ بالترجمة. . . لنترجم عن أدباء إنجلترا وأيرلندة وفرنسا وألمانيا والنمسا وإيطاليا وأسبانيا والسويد والنرويج وتشكو سلوفاكيا وبولندة وروسيا وأمريكا. وعن أدباء اليابان والصين إن وجدنا إلى الترجمة عنهم من سبيل لنترجم عن هؤلاء وهؤلاء، فلقد أصبح لكل أمة أدب قومي مستقل كما أصبح لكل أمة مسرح قومي مستقل. . . إلا مصر وإلا الشعوب العربية قاطبة، فأدبها ما يزال أدب تراجم وقصائد ومقالات. . . وإن شدا من القصة نصيباً ضئيلاً لا غناء فيه نعد

وما دامت الترجمة هي السبيل الوحيد الآن أمامنا لنخدم أدبنا المصري وأدبنا العربي ولنخدم مسرحنا ولنخدم لغتنا، فماذا يقعدنا عن التوسع فيها توسعاً لا نبخل عليه بجهد أو مال، ولا يصح أن نبخل عليه بجهد أو مال، وإلا أثبتنا أننا أمة من الأميين. . . ممن يفكرون كثيراً وينفذون قليلاً. . . بل لا ينفذون شيئاً

كيف يستكثر علينا مستكثر أن نصرخ في آذان وزارة المعارف لكي تقوم بواجبها في هذه السبيل فتولي عنايتها إدارة الترجمة بها وتشجع المترجمين بالمبالغ الضخمة التي تحفزهم وتشحذ هممهم

لماذا لا ترفع عدد المترجمين الفنيين إلى مائة أو مائتين بدل هذا العدد الذي لم يرتفع إلى عشرة بعد؟

لماذا لا يتنوع المترجمون فينقلون من الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والأسبانية واليونانية القديمة ومن اللاتينية والروسية؟

لماذا لا ترصد المبالغ الضخمة لهذه الإدارة التي لا تقل فائدتها للبلاد واللغة والأدب والعلم عن الجامعة ولا عن مجمع اللغة ولا عن مصلحة الآثار؟

ومتى يتاح لوزارة المعارف عصر كهذا العصر الديمقراطي الذي يعنى بصالح الأمة فيهيئ لأدبها ولغتها هذا الإصلاح؟

ومتى يتاح لوزارة المعارف رجلان كالرجلين اللذين يرسمان سياستها ويقودان سفينتها، فتكون فرصة إدارة الترجمة، وفرصة الأدب العربي، وفرصة اللغة، وفرصة المسرح، وكل فرص الحياة الثقافية العامة في وجودهما، ولتعز إدارة الترجمة، وليعز الأدب العربي، ولتعز اللغة العربية، وليعز المسرح المصري ورجاله الشهداء الأوفياء؟!

ليقل جاهل أو غبي كما قال من قبل، إن هذا كلام له ما وراءه. . . لا. . . فنحن . . . بحمد الله مستعدون للارتداد إلى خطوطنا الأولى. . . ولذلك فإنا لا نبالي بأن نلاحظ على وزارة المعارف تقصيرها في العمل للنهضة الثقافية بمصر، بالرغم مما هيئ لها من زعامة أدبية خالصة كانت لمصر فيها آمال كبار؛ وما تزال لها فيها تلك الآمال الكبار. وإنا لن نمل من الكتابة في هذا والتبشير به والإلحاح فيه، حتى تبلغ منه نهضتنا ما تريد

على أن التفكير في إنشاء معاهد كثيرة للتمثيل، لابد أن يسبقه تفكير في نقل عدد كبير من الدراسات الأجنبية الرائعة لأشهر الكتاب الدراميين كي تجد المعاهد ثروتها من الروايات

التي تتخذ نماذج لتطبيق دراساتها كما تجدها مهيأة للتمثيل. . . وإلا فهل نحن معتزمون أن تكون الدراسة في تلك المعاهد بالعربية ثم يكون التطبيق العملي بلغة أجنبية؟

وإذا نحن سلمنا بهذا ونقلنا عدداً كبيراً من الدراسات الأجنبية، لزم أن نلخص تاريخاً عاماً للمسرح في الممالك المختلفة ليلم الممثلون بتاريخ المؤلفين وتاريخ التطور المسرحي في كل منها. والقيام بعمل هذا الملخص لتاريخ المسرح يصح أن يوكل لهيئة من المترجمين، أو أن يكون قسمة بين إدارة الترجمة ومدرسي معاهد التمثيل.

(يتبع)
دريني خشبة
كيف بدأ الإصلاح في الأزهر
وكيف نصل الآن إليه
للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

كلما صرفت نفسي عن الكلام في إصلاح الأزهر عاودها الحنين إليه. وكيف أنسى عقيدة أشربت حبها منذ الطلب، ومضى على جهادي فيها أكثر من عشرين عاماً، ولقيت فيها من العنت ما لقيت، وبذلت من التضحية ما بذلت، خالصاً لوجه الإصلاح، لا أبتغي بذلك عوضاً، ولا أقصد أن أجرب مغنماً

وقد قرأت ما كتبه صديقي الأستاذ الجليل محمد المدني تعليقاً على محاضرة صديقي الأستاذ الكبير محمود شلتوت، فوجدتهما يرجعان بقاء الأزهر على جموده في هذا العهد إلى الكتب القديمة، لأن الأزهريين لا يزالون يعولون عليها في جميع مراحل التعليم، ولا تزال الدراسة في المعاهد الدينية متجهة إلى شرح ألفاظها، وتضيع الزمن في مماحكاتها اللفظية التي لا طائل تحتها. وقد ذكرني هذا بما نشرته في أوائل هذا العهد على صفحات مجلة الرسالة وغيرها، وذلك حين قمت بنقد ما يشكوان الآن منه بعد فوات الوقت، فغضب لذلك من كان يناصر هذا العهد لغير الإصلاح، وكان لهذا الغضب أثره في حرماني من بعض حقوقي، فقبلت ذلك راضياً، وصبرت عليه إلى وقتنا هذا في غير شكوى ولا تألم، لأن من ينصب نفسه للجهاد لا تؤلمه التضحية، وقد يسر بها كما يسر أصحاب اللبانات بقضائها. ولو أن الصديقين الفاضلين ضما صوتيهما إلى صوتي في ذلك الوقت لكان لذلك منا شأن آخر، ولم ينظر إليه تلك النظرة التي قوبل بها صوتي، لأنهما كانا محل الثقة من رجال هذا العهد، وكانت كلمتهما مسموعة عندهم وما علينا من هذا كله، فما نريد الآن إلا أن نبين كيف نصل الآن إلى إصلاح الأزهر، وقد مضى على معالجته نصف قرن أو أكثر، وهو ما يقرب إلا ليبعد، ولا يسهل أمره إلا ليعسر. وهانحن أولاء الآن لا نزال كما كنا قبل معالجة ذلك الإصلاح، نألف الجمود ونعض عليه بالنواجذ، ونقف من الإصلاح الذي يقضي على هذا الجمود موقف المعارض المعاند. ولا يزال اللذين يؤمنون بيننا بهذا الإصلاح يعدون على الأصابع، وليس لديهم من القوة ما يمكنهم أن يقضوا به على ذلك التعصب للجمود، وقد بذلوا من التضحية في

الإصلاح ما بذلوا، ولكن التضحية وحدها لا تفيد في القضاء على التعصب، وإنما يفيد في ذلك القوة الغالبة، والسلطان القاهر، والتاريخ على ذلك شاهد عادل

ومن ينظر إلى بدء الإصلاح في الأزهر يجده لم يتم إلا بتلك القوة، ولم يأخذ سبيله فيه إلا بعد أن تدخلت الحكومة في أمره، وقد كان تدخلها في ذلك بعد أن لجأ إليها المصلحون من رجال الأزهر، وأقنعوها بصواب ما يدعون إليه من الإصلاح، ولولا تدخلها في ذلك ما خطا الأزهر في الإصلاح تلك الخطى، ولبقى إلى وقتنا قابعاً في عزلته، راضياً بالانكماش الذي كان راضياً به، ولم يكن هذا الانكماش في شيء من ديننا، وإنما هو من الرهبانية التي أباها الإسلام لأهله

وكان الذي قام بإقناع الحكومة بذلك هو الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، فقد ذكر السيد محمد رشيد رضا في تاريخه أنه لما جلس عباس باشا حلمي على كرسي الخديوية تجددت للبلاد المصرية آمال، وتوجهت إلى أعمال يقصد منها إزالة الاحتلال، وكان الشيخ محمد عبده يرى أن إزالة الاحتلال لا يمكن أن يحل بوسيلة السياسة إلا باتفاق الدول، وأن الرجاء في اتفاقهم على ذلك بعيد، فأراد أن يكون حظه من حب الخديو للعمل السعي في إصلاح الأزهر والمحاكم الشرعية والأوقاف، فاتصل به وحظي عنده وكاشفه برأيه في إصلاحها، فقال له: إن لدى أفندينا هذه المصالح الثلاثة العظيمة، فيمكنه أن يصلح الأمة كلها بإصلاحها، وهي دينية ويجب المبادرة بإصلاحها. ثم ذكر له كليات هذا الإصلاح، ولم يخرج من عنده حتى أقنعه به

فمن هذا الوقت أخذت الحكومة في إصلاح الأزهر، وقد بدأت أولاً بتأليف مجلس إدارة للأزهر مؤلف من أكابر علماء المذاهب الأربعة، وأضيف إليهم الشيخ محمد عبده والشيخ عبد الكريم سلمان على أنهما عضوان من قبل الحكومة، فسار هذا المجلس بهمه صادقة في إصلاح الأزهر، وسلك في ذلك سنة التدرج ليأمن الاصطدام بأعداء

الإصلاح، ويأخذ الأزهريين به شيئاً فشيئا، وكانت الحكومة من ورائه ترعاه بالمساعدة، وتصد عنه كيد هؤلاء الأعداء، وتأخذهم بالشدة إذا جنحوا إلى الثورة، حتى لانوا واستكانوا. ونجح هذا المجلس في إقامة الدعائم الأولى للإصلاح، فألف أهل الأزهر النظام في أعمالهم ودروسهم، وأقبلوا على دراسة العلوم الحديثة التي كانوا ينفرون من دراستها

وكان الشيخ محمد عبده يرى أن ما نجحوا فيه من ذلك يجب أن يكون وسيلة لا غاية، لأن الإصلاح الحقيقي لا يصح أن يقف عند هذه الحدود، بل يجب أن يتعداها إلى فتح الأذهان المقفلة في الأزهر، وكسر قيود التقليد في العلوم القديمة، حتى تدخلها آثار التجديد، وتخلع تلك الأثواب البالية، وتعود إلى ما كانت عليه علوماً تفتح العقول، وتربي العلماء المجددين، والأئمة المبرزين. وقد سأله السيد محمد رشيد رضا عن رأيه فيما قاموا به من إصلاح الأزهر، فذكر أنه لم يحصل شيء من الإصلاح يذكر إلى ذلك الوقت، وأنه أراد أن يبدأ بأعمال عظيمة في الإصلاح اغتناماً للفرصة، فأشير عليه بوجوب التدرج في الإصلاح، وأنه لابد له من المسايرة، وإن كان يخشى أن تضيع الفرصة بما يسمونه التدرج

وقد أتى القوم بعد الأستاذ الإمام فساروا في ذلك على أنه غاية لا وسيلة، ووقفوا عند هذه الحدود التي لا يصح أن يقف عندها الإصلاح، فلم ينهضوا بالأزهر إلى ما يرجى له في هذا العصر، وبقيت علومه القديمة في أثوابها البالية التي تزهد الناس فيها، وتجعلها مماحكات لفظية لا فائدة في دراستها. وقد نبهتهم إلى ذلك بكتابي (نقد نظام التعليم الحديث للأزهر الشريف) فقامت علي قيامتهم، ولم تهدأ ثائرتهم إلا بعد أن أنزلوا بي من العقاب ما أنزلوا، وكانوا يريدون عزلي من المعاهد الدينية، فتداركني لطف الله تعالى، وبقيت إلى وقتنا هذا مخلصاً لعقيدتي لا يثنيني عنها ما يفوتني بسبب إخلاصي لها

وقد أراد أستاذنا الشيخ المراغي في عهده الأول أن يصل بالإصلاح إلى هذه الغاية التي أرادها الأستاذ الإمام، وأن يخطو في الإصلاح خطوة جريئة يقصد بها وجه الله تعالى، ولا يبالي بما تحدثه من ضجة وصريخ، فقد قرنت كل الإصلاحات العظيمة في العالم بمثل هذه الضجة، ولكنه اعتزل منصبه بعد فترة وجيزة

وهاهو ذا قد عاد إلى منصبه مرضياً عنه كل الرضا من ولي الأمر، فما عليه إلا أن يستغل الفرصة السانحة كما استغلها الأستاذ الإمام، ويستدرك بها ما فاته في المرة الأولى، وقد هيئت له أسباب النجاح، ومد له في منصبه حتى ذلت له العقبات، وزال ما كان يعترض تلك الخطوة الجريئة في الإصلاح

عبد المتعال الصعيدي

أقوياء الأبدان في العصور الإسلامية

للأستاذ كوركيس عواد

للمؤرخين روايات ونوادر كثيرة بشأن بعض جبابرة الناس الذين أوتوا من ضروب القوى البدنية، ما أبقت لهم ذكراً وشهرة في صحائف الكتب. ونحن نأتي في هذا المقال بشيء مما انتهى إلينا من طرائف أخبارهم في ميادين البطولة. فمن ذلك ما ذكر عن مبلغ قوة الأمين، سادس خلفاء بني العباس (193 - 198=809 - 813 م) من أنه كان (في نهاية القوة والشدة والبطش والبهاء والجمال، إلا أنه كان عاجز الرأي ضعيف التدبير غير مفكر في أمره، ويروى أنه اصطبح ذات يوم وقد كان خرج أصحاب اللبابيد والحرب على البغال، وهم الذين كانوا يصطادون السباع، إلى سبع كان بلغهم خبره بناحية كوني والقصر، فاحتالوا في السبع إلى أن أتوا به في قفص خشب على جمل بختى، فحط بباب القصر وأدخل، فمثل في صحن القصر والأمين مصطبح. فقال شيلوا باب القفص وخلوا عنه، فقيل له: يا أمير المؤمنين، إنه سبع هائل أسود وحش، فقال: خلوا عنه، فشالوا باب القفص، فخرج سبع أسود له شعر عظيم مثل الثور، فزأر وضرب بذنبه الأرض، فتهارب عنه الناس، وغلقت الأبواب في وجهه، وبقى الأمين وحده جالساً في موضعه غير مكترث بالأسد، فقصده الأسد حتى دنا منه، فضرب الأمين بيده إلى مرفقة أرمنية وامتنع منه بها، ومد السبع يده إلى الأمين، فجذبها الأمين وقبض على أصل أذنيه وغمزه ثم هزه ودفع به إلى الخلف، فوقع السبع إلى مؤخرة ميتاً. وتبادر الناس إلى الأمين، فإذا أصابعه ومفاصل يده قد زالت عن

مواضعها، فأوتى بجابر، فرد عظام أصابعه إلى مواضعها، وجلس كأنه لم يعمل شيئاً. فشقوا بطن السبع، فإذا مرارته قد انشقت على كبده)

ونظير ذلك ما عرف من تناهي قوة الخليفة العباسي المعتصم (218 - 227=833 - 842م)، فإنه (لم يكن في بني العباس من قبله أشجع منه ولا أتم تيقظاً في الحرب ولا أشد قوة. قيل أنه اعتمد بإصبعه السبابة والوسطى على ساعد إنسان فدقه. وكان يلوي العمود الحديد حتى يصير طوقا، ويشد على الدينار بإصبعه فيمحو كتابته)

ومثل ذلك ما تناقله بعض المؤرخين بصدد قوة المعتصم ومتانة جسمه، وإليك الخبر: (قال ابن أبي دؤاد: كان المعتصم يخرج ساعده إلى ويقول: يا أبا عبد الله، عض ساعدي بأكثر قوتك، فأقول: ولله يا أمير المؤمنين، ما تطيب نفسي بذلك، فيقول: إنه لا يضرنين فأروم ذلك، فإذا هو لا تعمل فيه الأسنة فضلاً عن الأسنان)

وزاد السيوطي على الخبر المتقدم ما هذا نصه: (وقال نفطويه: وكان (المعتصم) من أشد الناس بطشاً، كان يجعل زند الرجل بين إصبعين فيكسره)

وروي الخطيب البغدادي أن المعتصم (انصرف يوماً من دار لمأمون إلى داره، وكان شارع الميدان منتظما بالخيم فيها الجند. فمر المعتصم بامرأة تبكي وتقول: ابني ابني! وإذا بعض الجند أخذ ابنها. فدعاه المعتصم وأمره أن يرد ابنها عليها، فأبى. فاستدناه فدنا منه، فقبض عليه بيده، فسمع صوت عظامه، ثم أطلقه من يده فسقط، وأمر بإخراج الصبي إلى أمه)

ومما حكاه ياقوت الحموي عن ابن زهر الطبيب الأندلسي الشهير، المتوفى سنة 595 أو 596هـ (1198 - 1199م)، أنه (كان شديد البأس، يجذب قوساً مائة وخمسين رطلاً بالاشبيلي، وهو ست عشرة أوقية). وهذا الخبر عينه نقله ابن أبي أصيبعة بأن زاد في التعريف أن (كل أوقية عشرة دراهم)

ونظير ذلك ما روي عن بكتمر السلاح دار الظاهري المنصوري، المتوفى سنة 703هـ (1303م) من أنه كان (حسن الرمي، يرمي على ستة وثلاثين رطلاً بالدمشقي)

ومثلهما في هذا الباب، أنس بن كتبنا الملقب بالمجاهد، المتوفى سنة 723هـ (1323م)، فقد (عانى الفروسية ورمى النشاب، حتى صار أوحد عصره فيه، يقال رمى على قوس زنة مائة وثمانين رطلاً)

وقد عرف غير واحد من هؤلاء الأبطال الأشداء، فكان من جملتهم كستاي أمير السلاح المتوفى سنة 720هـ (1320م)، فأنه (كان شديد البأس قوى البدن، كان يأخذ العظم الكبير من الشاة فيكسره بيده قطعتين) ومن الغرائب في هذا الباب، ما حكي عن قطيلجا بن بلبان الجوكندار، المتوفى سنة 720هـ (1320م)، من أنه (كان فارساً بطلاً خفيف الحركات، يقال أنه ساق فرسه، فأخذ نصف سفرجلة من غصنها، وبقى نصفها الآخر مكانه)

ومثله في هذا الميدان ما نقله ابن رافع السلامي في ترجمة عبد الرحمن بن عبد المحسن بن عمر بن شهاب بن علي الواسطي، الذي كان حياً سنة 728هـ (1327م) من (أنه قوي شديد البطش، يضرب الأجرة بيده فتصير فلقاً، ويضرب الجوزة يكسرها. قال أبوه: . .

ودخل اللصوص داره وأخذوا المتاع، فتركهم حتى خرجوا ومشي خلفهم إلى الصحراء فعقر منهم واحداً وهرب الباقون)

وممن وهب قوة بالغة واشتهر بأمور من هذا القبيل، أحمد ابن أبي بكر بن محمد بن محمود الحلبي، المتوفى سنة 754هـ (1353م) فقد (كان قوي اليدين جداً، حتى كان يأخذ الحية فيحملها بذنبها ويرفعها إلى فوق ويقصفها إلى أسفل ويرميها وقد انقطع وسطها وانخلعت فقرات ظهرها)

ونظيره في هذا الأمر، أبو بكر زكي الدين الخروبي رئيس التجار بالديار المصرية، المتوفى سنة 787هـ (1385م)، فقد كان أبداً شديد القوى. حكى لنا أنه كان يقبض على الركب الحديد فتتعصر رجل الراكب)

(بغداد)

كوركيس عواد

من ميدان الحياة
للأستاذ شكري فيصل
هذه الأماني التي تعتادني اليوم. . . ما بالها تزدهر في خاطري من جديد، وكنت أحسب أنها الفرقة التي لا رجعة وراءها، والهجر الذي لا لقاء بعده، والأسباب التي انقطعت فلا سبيل إلى صلتها؟ وما أنا وهذه الأماني التي تتفيح في أعماقي من جديد مع الورد الناشيء، وتنطلق في عالمي مع الربيع الطلق، وتتألق في دنياي مع الزهر النير، وكنت حسبتني انصرفت من دنياي الكبرى لأعيش في دنيا الناس الضيقة، وخرجت من عالمي الفسيح لألقي هذا العالم المتقارب، وهجرت الأرض الخصبة ليدمى كفاي وقدماي بالفأس القاسية والأرض الغليظة. . وما رجعتي إلى رؤاي هذه؟!. . . كانت لي معها ليال أزهى من النور وأوضح من الصبح. . . وأيام أنضر من الورد وأحلى من الربيع. . . لكأني أذكر الساعة أوديتها الخضر العامرة، وجنباتها الغر الزاهرة. . . وهذه الفضة فيها كالحصى. . . وهذا الصليل كالأمواه. . . وهذا الذهب المنتشر كأنه أوراق زهر الدراق. . . وذلك الزمرد الذي يطرز حواشيها كأنه أعشاب الجنة. . . لكأني أثب معها الساعة في تطواف بعيد، لا أحس له الجهد، ولا ألقى فيه العناء، ولا أكاد أمس الأرض إلا المس الهين الرقيق. . فأجوز السهل والجبل، وأمر بالهضبة والوادي، وأطوي البيد الفساح، ويحملني النهر على سرير ناعم من نسماته اللطاف، ويصوغ لي البحر فلكا طيعة من أمواجه الخفاف، وينشر لي الأفق بساطه المسجدي. . . أكان الجبل إلا السبيل المذلل المنقاد. . أكانت الصحاري إلا المسالك المذهبة المبسوطة؟ أكان العالم إلا جنة من السحر الحلال؟!
تلك ليال وأيام. . . ما أمرها، تطرقني مبكرة، وتسعى إلي هذا السعي الهادئ مع مولد الفجر. . . تنشر لعيني الصور، وتلقي في أذني الأحاديث، وتفجر في قلبي الأصم ينابيع متدفقة من الذكريات. . . أتراها تريد أن تفسد علي حياتي بالنعيم، وتثير مني عاطفتي بالذكرى، وتنال من بعضي ببعضي. . . أتراها تود أن تطفئ ظلماتي السود بمشاعلها المتقدة، وتخفت أنفاسي الخرس بأغانيها العذبة، وتطمس أنفاسي الباردة بأنفاسها المشتعلة؟
وما أنا وهذه المواكب التي تتهادى من أمامي، وهذه الحسناء التي تنظر إلى. . . . . لكأني عشت معها دهراً طويلاً. . . أذكر. . . لقد كان بيني وبينها عهود! وكان لها في عنقي ذمم، وكان لي في رقبتها وجائب. . . ثم. . . ألم تكن من بيننا فرقة، فتتاركنا على غير شيء. . . كأنما لم ترع طفولتي بالهدهدة الناعمة، ولم ترف على فتوتي ظلالها الهادئه، ولم تكسب في قلبي خمرها المسكرة. . . وكأن لم يكن بين دمشق والقاهرة أنيس، ولم يسمر في مرابع الجيزة سامر، ولم تهتف في دمشق هواتف، ولم تثر في الغوطة أصداء. . . فما بالها اليوم: هذه المواكب توحش صمتي السادر بالنشيد، وتفزع أمني القلق بالسلام، وتعشي عيني المظلمتين بالجمال، وتفسد علي مقامي الخشن بالموكب اللاهي؟!. . . أتراها تبتليني من جديد بسحرها العابث؟! تلك كواكب وأغان وأناشيد قد خلت. . . فما مثارها عندي اليوم، ومالي من موكب وأغنية ونشيد. . .؟
وهذه الذكريات التي تغزوني فتلح علي وتأخذني من بين يدي وخلفي. . . ما أنا وهي وقد استرقني حاضري، فإذا هو علي مطبق لا ينفرج، رتق لا ينكشف، ضيق لا يكاد يتسع لغير هذا الذي أنا فيه؟ وما أنا فيه إلا الآلة الصماء تغدو مطلع النهار مع الصباح لتعود في صفرة اليوم مع المساء، وتظل على ذلك تحرك في غير حراك، وتدور على غير حس، وتمضي وكأنما تدفعها يد قادرة إلى غير ما أحبت وما كانت تقدر أنها تحب. . . ما أنا وهذه الذكريات، تجد السبيل إلى كهفي العميق، ثم تتحسسني من بين هؤلاء المساكين الذين قدر لهم أن يعيشوا معي في هذا الكهف. كيف استطاعت أن تجوز هذه الأبواب الحديدية الضخمة، وأن تفلت من هؤلاء المردة الذين يحرسونها، وأن تبلغني فتمزق هذا الغشاء الصفيق الذي أسدلت بيني وبينها؟! ما شأنها، تملأ على جنبات هذا الكهف، في يديها البضتين هذه الأعواد الرقيقة المشتعلة ينتشر منها هذا الدخان اللطيف العطر الذي ينفث في روح الماضي. لكأنه هذا البخور الذي عهدته في ليالي الخاليات. إن سحبه لتتلوى هادئة رقيقة فتبدد كل ما حولي. لا الناس الهرالي الذين أعهدهم، ولا المتعبون الذين آلفهم، ولا هذه الأردية السود التي تتحرك إلى

جانبي؛ وإنما هي أطياف حلوة كريمة، أحس كأنما كان من بيني وبينها سبب، ومغان رائعة بهيجة كأنما كان لي بها عهد. أتراها تود أن تلقف بسحرها الحائل هذا الواقع المتورد، وأن تطرد بأطيافها القاتمة هذه الأشباح الناعمة، وأن يذهب عطرها الهفاف بالحاضر المتماسك؟! أتراها تود أن تدير حياتها الأولى في حياتي الجديدة لتثير الأماني والأوهام؟! وهذه الأحلام التي تشق عني ظلمة الليل. . . ما أنا وهي.

وقد انعتقت منها وانصرفت عنها. ألست أعمل نهاري المتصل ليميتني الليل، وأجهد شمسي الطالعة ليواريني المساء، وأنطلق مع الغراب المبكر كيما أنسى بعد في العتمة كل شيء. ما شأن هذه الأحلام تراودني عن نفسي، فتطرقني منذ أيام، وتنشر في مسائي الكالح أفقاً وردياً زاهياً، وتبعث في ليلي البهيم أضواء رفافة نيرة، وترسم على غبش العتمة أنوار النجم. أتراها تود أن تؤرقني فلا أغفى، وأن تهزني فلا أغفل، وأن تعتادني فلا أجد الهدوء!. . . أتراها تملك أن تفسد علي راحتي التي لا تحس فيها بالحس الذي لا راحة معه، واطمئناني الذي لا شعور فيه بشعور لا اطمئنان معه، وما عساها تبتغي مني، وإنها لتعلم أن الدنيا قد جعلت مني غير الذي عهدت في: لا هزة الطروب، ولا رفة المرح، ولا استيفاز الشاعر. فقد ذهبت الحياة بالهزة والرفيف والحس المستوفز. وما يكون للذين تضطرهم الحياة أن تذهب بنفوسهم في سبيل العبء الذي لا بد منه، والعيش الذي لا مناص من تداركه إلا أن يرتقبوا اليوم القريب والساعة الدانية

لا يا أماني التي تزدهر الساعة في خاطري! ما كان لي أن أغفل عن ى الماضي، أو أنصرف عن العهود، أو أهدر هذه الفترة الحلوة من حياتي القريبة. وإنما هي ويلات الحاضر التي لا بد من النجاة منها، وضرورات الواقع التي لا بد من الاضطراب فيها أن تكاتف السحاب لا تذهب بنور الشمس، وأن قتام الضباب لا يحول دون إيماضة البرق؛ وإنما يتفتح الشتاء القاسي - بإرادة الله - عن الربيع المتدفق

(دمشق)

شكري فيصل

حملة صقلية

الجبهة الثانية. أين ومتى تفتح؟

هذا هو السؤال الذي تردد على ألسنة الناس في الأسابيع الأخيرة والذي كان موضع اهتمام العسكريين وبحثهم في كلا العسكرين، وكان في غزوة الحلفاء لصقلية الجواب على هذا السؤال. وللمعركة التي تدور رحاها الآن في هذه الجزيرة أهمية كبرى للطرفين؛ فالإيطاليون من جهة، يرون أن غزو هذه الجزيرة خطر يهدد كيان إيطاليا نفسها ويجعلها الهدف التالي بعد صقلية، ويرون أن القرار الحاسم فيما يتعلق بالحرب كلها سيتخذ على سواحل صقلية؛ وهم واثقون بأن كل قوة للحلفاء ستجد مصرعها على سواحل إيطاليا. أما اهتمام الحلفاء فيتجلى في النداء الذي وجهه الأميرال كننجهام لجنوده ساعة الغزو: (إن نجاح الحلفاء في غزو صقلية يعد بمثابة فتح جبهة ثانية كما أنه سيكون الخطوة الأولى في سبيل هزيمة سريعة للأعداء)

قبيل انتصاف ليل الجمعة التاسع من يوليو أخذت جنود المظلات البريطانية والأمريكية تنهال على أرض الجزيرة وهبطت على أثرهم الجنود الذين كانت تقلهم الطائرات الشراعية وأسرعوا في الزحف لتعزيز مراكزهم وراء استحكامات المحور لتدمير منشئاته وشل حركة مطاراته حتى يحال بين المدافعين وبين القيام بعمل جوي منظم ضد القوات الكبيرة التي كانت تقلها سفن الغزو

وفي فجر يوم السبت، أي بعد هبوط قوات المظلات بساعات قليلة، أخذت السفن المحملة بالجنود والأمداد تقترب من مواني الجزيرة منتشرة في الاتجاهات التي رسمت لها من قبل.

ولم يكن غزو صقلية بالأمر المفاجئ للمحور فقد صرح الجنرال إيزنهاور منذ أكثر من شهر لمندوبي الصحف بأنه لن يمض الشهر حتى تكون الأعمال الحربية ضد صقلية قد بدأت، وكذلك كانت الغارات العنيفة التي ظلت الطائرات المتحالفة تشنها على النقط الحيوية والمواقع الرئيسية في الجزيرة بمثابة مقدمات لهذا الغزو، وهو عين ما حدث في جزيرتي بنتلاريا ولبيدوزا حين سبق احتلال الجزيرتين غارات على مثل هذه الصورة من العنف والشدة

وقد وقع الغزو بعد أقل من أسبوع لبدء الهجوم الذي قام به الألمان في الجبهة الروسية، فقد انتظر الحلفاء حتى إذا ضمنوا اشتباك القوات الألمانية في معركة الروسيا الطاحنة شنوا هم
هجومهم؛ وبذلك ضيعوا على الألمان فرصة تقديم مساعداتهم الجدية لإيطاليا في صقلية
أما موقع الهجوم فقد اختارها الحلفاء في جزء كان خبراء المحور يرون الحلفاء فيه أبعد احتمالاً من غيره، فاختاروا الركن الجنوبي الشرقي للجزيرة، وذلك لأن وعورة أراضيه وكثرة مرتفعاته وقربه من قواعد المحور الجوية في جنوب إيطاليا تجعل من العسير نزول قوات كبيرة من المشاة والدبابات كما تجعل القوات النازلة أكثر عرضة لضربات العدو الجوية وأقرب منالاً للقوات البرية التي تأتي عن طريق خليج مسينا. لهذه الأسباب كان نزول الحلفاء في هذا الجزء غير متوقع
وقد تطور القتال منذ بدء الغزو تطوراً يعتبر في صالح الحلفاء الذين استولوا على معظم المدن المهمة هناك ولم يبق أمامهم سوى قطانيا حيث تدور بعض المعارك في السهل الذي يحيط بها. ويرجع عدم وقوع معارك كبيرة حتى الآن إلى أن القيادة الإيطالية في الجزيرة تراقب الحالة بعين يقظة حتى تقف على المكان الذي يجب أن توجه إليه قواتها الرئيسية
وبديهي أنه يفرغ الحلفاء من هذا الركن فسيحاولون الزحف بقواتهم داخل الجزيرة للاستيلاء على المواقع الهامة التي تجعل خليج مسينا في قبضتهم، وذلك ليتسنى لهم عزل صقلية عن إيطاليا ووقف سيل الإمدادات التي يوالي المحور إرسالها، وحينئذ يسهل السيطرة على باقي أجزاء الجزيرة الغربية وتعتبر صقلية أول ثغرة يحاول الحلفاء فتحها في القلعة الأوربية، وستختبر على هذه الجزيرة قوة استحكامات أوربا الدفاعية، فإذا نجح الحلفاء ف غزوها فستخذون منها نقطة للهجوم على إيطاليا نفسها، كما أنها ستصبح أعظم قاعدة بحرية للأساطيل المتحالفة في البحر الأبيض المتوسط
ويظهر للمتتبع لسير الأعمال الحربية أن الحلفاء محتفظون بقوات احتياطية كبيرة في شمال أفريقيا حيث تصل إمدادات متوالية من بريطانيا وأمريكا
ويمكن التكهن بأن هذه القوات يحتفظ بها لغرضين: أولهما أن القيادة المتحالفة تعمل لمواجهة احتمال قيام المحور بحركة تركيز أو تطويق قد تؤدي إلى الإحداق بقواتهم، فوجود هذا الاحتياطي يمكن الحلفاء من إفساد أية محاولة في هذا الصدد
أما الغرض الثاني فينحصر في الإبقاء على هذا الاحتياطي لاستخدامه في مهاجمة جزيرتي سردينيا وكرسيكا اللتين سيكونان بلا شك الغرض التالي للحلفاء بعد صقلية، إذ أن احتلال
هاتين الجزيرتين لازم للهجوم المنتظر على ساحل فرنسا الجنوبي
وستؤدي الأعمال الحربية في جزيرة صقلية والمحاولات التي سيقوم بها الحلفاء للسيطرة عليها وعلى غيرها من الجزر في البحر الأبيض المتوسط إلى تطورات جديدة سيكون للقوات البحرية منها أوفر نصيب.
محمد شاهين الجوهري
بكالوريوس صحافي
تينة الجبل!
للأستاذ أحمد الصافي النجفي
وهذه طرفة ثانية من طرائف (الصافي) نقدمها للدكتور طه حسين بك. ولعل من . . .) الخير أن نذكر أن (الدكتور) ينكر على شعرائنا المحدثين فيما ينكر عليهم انعدام (الوحدة الفنية) في أكثر منظوماتهم. ولقد فهمنا من محاوراته معنا أن من أظهر خصائص الشاعر الأصيل في رأيه وضوح المثل الأعلى الذي يدور عليه فلك وحي الشاعر، واستحضاره في فترات الخلق والإنتاج. وليس هنا محل مناقشة الدكتور في هذا الرأي؛ ولكن أضع يده على هذه الطرفة البارعة التي تمثل مذهبه في الشعر أصدق تمثيل
و (تينة الجبل) شجرة عجيبة شاذة معروفة في سورية لا يطلب لها أن تنمو وتستطيل إلا في جو قاس من العزلة والتوحيد والانزواء، فتراها بعيدة عن مجاري المياه العذبة

والأعشاب الندية والطيور المغردة، فهي تعيش دائماً في صمت وسكون. ولكن أي فوز تناله يوم عرض الثمار؟ هذا ما نترك الإجابة عنه لحضرات القراء وهم ينعمون بتلاوة هذه القصيدة الرمزية البارعة)

القدس - عبد القادر جنيدي

نبتتْ في الجبال دَوحة تِينِ ... وقفت مثل وقفة الجبار
أَلِفت وحشة الدجى واستمرَّت ... في صراع مضنٍ مع الإعصار
فهي أخت الثلوج والأمطار ... وهي نبت العُواء والتزآر
وهي تحيا كراهب في قفارٍ ... دون دير يضمه أو دار
وإذا ما هفتْ لنجوى سمير ... رنَّ في سمعها صدى الأدهار
أينما تلتفتْ فليس تلاقى ... من سمير لها سوى الأحجار
حرمتها يد الطبيعة حتى ... من غناء الحفيف في الأسحار
لم تظلَّل غصونُها ندماَء ... لا ولم تُسقَ منهم بعقار
وهي لم تستمع لنجوى حبهِ ... بين وما أعلناه من أسرار
لا ولا أمَّها هزارٌ يغني ... فانتشى سمعها بشدْو الهزار
ما وعتْ حين أينعت للعصا ... فير سوى لحن نقرة المنقار
ما جلتْ جسمها ليوم أزدهاء ... أو رأت وجهها بنهرٍ جار
فهي تبدو كأشعث ذي سفار ... وهي تحكى فلاَّحة في القفار
أنفت من تمايل واختيال ... وسمتْ عن تجمّلٍ وازدهار
أصبحت لا ترى سوى البرّحلياً ... لا ولم تشتمل بغير الوقار
إن تردَّي دوح الرياض اخضراراً ... فهي لا ترتدي بغير الغبار
لم تفاخر بالمجد دوحاً ونالت ... قصب السبق يوم عرض الثمار
ولو أني أتيتللدوح باسمٍ ... قلت هذي أميرة الأشجار
فهي بنت الجبال ذات وقار ... وهي بنت الصخور ذات اصطبار
وهي تسعى للسيرِّ دون ضجيج ... وهي تعطي الخيرات دون افتخار
وهي طيُّ الخفاء تدأب كدْحاً ... مستمراً في ليلها والنهار
تصهر الشمس رأسها كل صيف ... وتلاقي الشتا بجسم عار
قد تلقَّت حوادث الدهر تتري ... دون أن تشتكي من الأقدار
ما الذي ساقها لنفع البرايا ... دون ما دافع ولا إجبار
هم ذووها إن أطعمتْهم وإلا ... قطعوها فعذّبت في النار
كم لها من يد علينا ولكن ... ما عليها يدَّ لغير الباري
لمْ تزل تأكل التراب ولكن ... تطعم الخلق أطيب الأثمار
ليتنا مثلها فنعطي جنانا ... لا لنفع يُرجَى ولا استثمار
وأراني كالدوح شأناً ولكن ... ما جَنَا دوحتي سوى الأشعار
ولكلّ في الكون شأنٌ به خُصَّ ... وخُصَّ الفناء بالأطيار

أحمد الصافي النجفي

البريد الأدبي

الوشوشة والهينمة

الكاتب الباحث الأستاذ (سيد قطب) في مقالته البليغة (النماذج البشرية المهموسة) حوط (الوشوشة) - قد توسطت الهمس والهويم - بالأقواس أو الأهلة - كأنهن تحويطة - فإن كان قد جاء ذلك لفرط اهتمامه بهذه اللفظة فلا ملام؛ وإن كانت الأقواس إعلاماً أن الوشوشة من العلميات لا من قبيل العربيات ولا من بنات المعجمات ففي (النهاية) في حديث سجود السهود: (فلما انفتل توشوش القوم) وروى القول (اللسان)؛ وفي (القاموس): (توشوشوا تحركوا وهمس بعضهم إلى بعض) وفي مستدرك التاج: (الوشوشة الكلام المختلط، وقيل: الخفي، وقيل: الكلمة الخفية) وجاء (التهويم) بعد الوشوشة، والتهويم - كما قالوا -: أول النوم، أو النوم الخفيف، أو هز الرأس من النعاس. فهل المراد أحد هذه المعاني أو المقصود (الهينمة) أخت الهمس؟

ناقد

إصلاح التعليم في مصر

في اليوم الذي أغادر فيه مصر إلى مدينة الخرطوم بالسودان مقر عملي رأيت أن أقدم تحيتي إلى الرسالة وصاحبها الجليل لما لها من أثر في الثقافة العامة في السودان، ولما للمتأدبين وأهل العلم هناك من عناية فائقة بما تنشر الرسالة من بحوث قيمة وأدب بارع

وبينما كنت أقلب الأوراق استعداداً للسفر وقع نظري على مقال في مجلة (الاثنين) في أواخر مايو الفائت لصاحب المعالي الأستاذ عبد الحميد عبد الحق وزير الأوقاف بعنوان (ثورة على المدرسة المصرية) كان قد نشره قديماً وقال: إنه لا يزال عند رأيه هذا. جاء فيه (والواقع أن موقف المدرس من الطلبة كموقف (سواقي الأنفار) سواء بسواء. يرى أنه أدى واجبه حينما يقطع مقداراً معيناً من الدروس لا حينما يلمح نجاحه في تربية عدد من الطلبة وتهذيبهم، فهو بذلك خدم الدروس، ويستخدم الطلبة للدروس، ولكنه لا يخدم الطلبة)

وفي الليلة السابقة لكتابة هذه الكلمة خلوت إلى ولد من أولادي كان من تلاميذي في الفرقة التي كنت أعلمها قبل سفري إلى السودان فسألته أن يذكر لي بصراحة رأي طلبة الفرقة في أبيه فقال:

كنت يا أبي توقظ أذهان الطلبة في أول السنة الدراسية، وتطيل المناقشة معهم، وتتوسع في الأدب العربي، وتكثر من تنبيههم إلى ما في أبيات النصوص الأدبية من معان وأغراض، فيشغلون بدرسك ويقدرونه، ولكن بعد أن مرت أشهر على ذلك أخذ الشك يساور نفوس الطلبة في جدوى هذه الطريقة بالنسبة لضخامة المنهج الذي يجب أن يتم قبل السنة الدراسية بشهر على الأقل، وكان من قولهم: يجب أن ننبه أستاذنا إلى ما فيه مصلحتنا بأن يقتصر على سرد ما في الكتاب، ويسألنا فيه في اليوم التالي، وهكذا دواليك حتى يتم المقرر في حينه ونكون قد استوعبنا ما في الكتاب ويكتب لنا النجاح في الإمتحان، وأن نلفت نظره إلى أنه ليس الغرض من تعليمنا أن نكون أساتذة في اللغة العربية. ولكن قبل أن تصل النصيحة إلى سمعي قبلت التعليم في السودان، وكفى الله المؤمنين القتال

هذه صورة مصغرة لميول الطلبة نحو تثقيف عقولهم وبخاصة في المدارس الثانوية، فهل لي أن أرجو وزارة المعارف في ضجة العلاوات والدرجات أن تجهز جيوشها السلمية لإصلاح التعليم، وتبسيط مناهجه وتحديد الغرض منه، وأن تغير النظم القديمة البالية في إدارة المدرسة وواجب المعلم والناظر والمفتش على أساس تكوين الملكات وتهذيب الأخلاق وتربية النفوس على حب العلم والرجولة الحق في الطلاب الذين تنشدهم مصر الحديثة ليستعدوا لحمل الأعباء المستقبلة. بل أقول إن ذوي المناصب الخطيرة في وزارة المعارف يجب أن يخرجوا من حيز الأوامر والمنشورات والرأي الواحد المقلد إلى مصابيح تشع النور في معاهد التعليم، فكل هذه الجولة والصولة الغرض منها معلم يحسن أثره في التلاميذ وأن يعالجوا الأمور في جراءة وصدق وإخلاص وهم أهل لذلك

وألا يختبئوا دائماً وراء الوزير والمستشار، فإن واجب وزارة المعارف غير واجب الوزارات الأخرى

وأذكر أن في أدراج صاحب العزة الدكتور طه حسين بك مشروعاً شاملاً لإصلاح التعليم وبخاصة في اللغة العربية أعدته لجنة برياسته منذ زمن وأرجو أن يبعث من مرقده والله الهادي إلى سواء السبيل.

حسنين حسن مخلوف

من رسائل الرافعي: اللفظان بمعنى واحد في القرآن.

معنى بيت للنابغة. قصة الجارية وعمر

أخذ ابن الأثير في المثل السائر على الصابي - كما بينا - أنه يرادف السجع في المعنى الواحد، وعد ذلك من عيوب البلاغة؛ ولكنه لما سئل عن قول الله: (وكان رسولاً نبياً) والرسول لا يكون إلا نبياً، رجع فقال: (إن إيراد لفظتين في آخر إحدى الفقر بمعنى واحد لا بأس به لمكان طلب السجع) ولما كان بعض الذين يدافعون عن البلاغة القرآن يقولون إنه لا توجد فيه لفظة زائدة - وهو صاحب إعجاز القرآن - أن يذكر رأيه في هذا الأمر المهم

وسألته أن يبين معنى بيت النابغة:
ولست بمستبق أخاً لا تلمعه ... على شعث أي الرجال المهذب
وكان حافظ إبراهيم قد ذكر في عمريته قصة الجارية التي
كانت تضرب الدف أمام النبي وأبي بكر بغير خوف ولا وجل. فلما جاء عمر ألقت دفها وجلست، فقال له النبي: أن شيطانها قد فر منك يا عمر. وذلك حيث يقول في هذه العمرية:
قد فر شيطانها لما رأى عمراً ... إن الشياطين تخشى بأس مخزيها
فسألت الرافعي عن هذه لقصة التي تنبئ أن الشيطان يفرمن عمر ولا يفر من النبي فتلقيت منه هذا الجواب:
طنطا في 20 فبراير سنة 1918
أيها الأخ
بعد السلام، سرني من كتابكم أني أرى لكم شيئاً من التحقيق ودقة الفكر لم أكن أعهدها من قبل، فإذا واصلت العمل والجد واستعملت ذهنك رجوت لك اكثر من هذا ورجوت لك مظهراً إنشاء الله
أما ذكر الرسول والنبي معاً في الآيتين فأقرب ما يظن من الحكمة في ذلك أنه تأكيد لشرف الموصوف واختصاص له بالذكر لصفات مميزة، ولهذا جاءت العبارة معطوفة على صفة سابقة (وكان مخلصاً وكان رسولاً نبياً). (كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً). وقد كان
يتوجه الانتقاد وحقيقته لو لم يكن هذا التنوين في لفظ رسول، ولكن التنوين أضعف معنى الكلمة. والمراد من السياق أن يكون المعنى قوياً بالغاً في وصف فوجب أن يدل على كمال الموصوف بكمال المعنى؛ وليس في مذاهب التعبير عن هذا الكمال أدل ولا أبين من لفظ النبي فجاء به نكره كذلك وترك العطف فيه ليعلم أن المقصود هو إتمام المعنى لأن لفظ الرسول متضمن معنى النبوة، فذكر النبوة بعده على الوجه الذي في الآية يدل على أن المراد التوكيد في الصفة. ومن المعلوم أن التكرار يفيد التوكيد وله موضع معين في البلاغة لو ترك فها لخرجت العبارة ضعيفة أو ناقصة. لو كان لفظ الآية (وكان رسولاً من الرسل) أو (وكان الرسول النبي) أو (وكان رسولاً ونبيًّا) لسقطت العبارة عن درجة الإعجاز، ولجاز انتقادها؛ ولكن هذا التنوين في هذا السياق هو الحكمة كلها. ولزيادة الإيضاح نضرب مثلاً: لو قلت عن رجل عظيم كالشيخ محمد عبده مثلاً إنه كان فاضلاً وكان فيلسوفاً فأي شيء يفيده هذا الوصف إلا أن الرجل كأحد الرجال الممتازين؛ ولكن لو قلت كان فاضلاً وكان فيلسوفاً حكيماً شعر السامع في نفسه وشعر القائل أيضاً أنه كان رجلاً ممتازاً كاملاً لأن العبارة جاءت من التكرار الذي فيها على وجه من الكمال يفيد التوكيد، فكأن غيره من الفلاسفة يعبر عنه بلفظتين، وأما هو فيعبر عنه بثلاث تصويراً لكماله في نفسه وامتيازه عن سواه، مع أن لفظ الفيلسوف يقتضي معنى الحكيم. ولا يمكن أن تكون لفظة النبي جاءت في الآية للسجع لأنها وأن وافقت ذلكن ولكنها تكرار في الآية الأخرى ومع ذلك لم يعبها تكرارها لأن سياق الوصف اقتضاها، وما اقتضاه السياق فهو طبيعي، لأنه بنية الكلام، بخلاف ما إذا سجع الكاتب فجاء بكلمة لا يراد منها إلا السجع، وبعد سطر أو سطرين كرر السجعة نفسها لغرض السجع أيضاً فإنها تجئ أبرد كلام وأسخفه. هذا ما يحضرني وكنت راجعت أمس الكشاف للزمخشري وتفسير الطبري الكبير فلم أجد لأحدهما كلاماً في هذا المعنى، وأظن أن الفخر الرازي ربما تكلم فيها، وتفسيره عند فضيلة الوالد مع تفاسير أخرى كثيرة، ولكني لم أراجع لأن دماغي يتعب سريعاً، ولأني أرى أن ما ذكرته هو الحقيقة
وأما بيت النابغة (ولست بمستبق أخاً الخ) فضبطه لا تلمه. ومعناه أن الصاحب إذا تفرقت أخلاقه فجاء بالحسنة والسيئة ثم أرادت ألا تلم أخلاقه على تفرقها وتجمعها كما هو بل
ذهبت تنتقي الحسنه فقط فإنه لا يبقى لك لأن كل إنسان يأتي منه الخير والشر، فلا بد من احتمال هذا وهذا من الصديق إذا أردت أن يبقى صديقاً
وأما العمرية فإن حافظاً نظم وتصرف في عبارة التاريخ فجاء بعض كلامه موهوماً معاني غير صحيحة. والقصة التي أشار إليها يمكن أن يؤخذ منها كما هي في نظمه أن

النبي صلى الله عليه وسلم كان يسمع الغناء ويشهد الرقص النسائي. وكان أضعف في الدين من عمر، وكان وكان الخ: ولكن القصة في نفسها لا تفيد شيئاً من هذا كله.
فالرواية أن جاريه سوداء جاءت النبي صلى الله عليه وسلم لما انصرف من بعض مغازيه فقالت: أني كنت نذرت إن ردك الله سالماً أن أضرب بين يديك بالدف. قال: إن كنت نذرت فاضربي وإلا فلا. فجعلت تضرب، فلما دخل عمر ألقت الدف وجلست عليه. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إن الشيطان ليخاف منك يا عمر. فلم يفر الشيطان ولكنه خاف أو كأنه خاف. ولا يخفى أن اللهو من الشيطان؛ فهي عبارة مجازية. وأنت ترى أنها جاريه سوداء، وأنها لم تفعل شيئاً إلا الضرب بالدف. وكان هذا من عادات سائر العرب إذا انقلب أبطالهن من الغزو، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يرخص للجارية إلا لتوفي نذرها لا غير. فأي شيء في هذا كله؟
وبالجملة فإن حافظاً إنما نظم تاريخاً موضوعاً وكان خليقاً به أن يضع تاريخاً جديداً كما يكتب رجل مثل كارليل في كتاب الأبطال أو نحو ذلك
أما الكلام في باقي القصيدة فليس من شأني أن أخوض فيه. ولعل السيد البرقوقي يكفيك إذا وفى بما وعد قراءه والسلام عليكم ورحمة الله.
الداعي
مصطفى
(المنصورة)
محمود أبو ريه
نقدة نحوية
جاء في الشاعر محمود حسن إسماعيل (قطرة دمع) المنشورة بالرسالة الغراء (العدد 522) هذا البيت
جئتُ أرثيك فما لي (ملجمٌ) ... تزهق الأنغام في عودي إذا ما
مضبوطة فيه (ملجمٌ) بالرفع والمفهوم أنها وأمثالها في هذا الموضع منصوبة على الحالية من الضمير المجرور باللام
يشهد لذلك قول فاطمة بنت طريف ترثي أخاها
أيا شجر الخابور مالك (مورقا) ... كأنك لم تجزع على ابن طريف!
وقول المرحوم حافظ إبراهيم وهو يرثي الإمام الأستاذ محمد عبده:
عليك سلام الله، مالك (موحشاً) ... عبوسً المغاني مُقْفر العرصات
وقد انتظرنا في العدد التالي أن يصلح الشاعر هذا الضبط فلم يفعل فصار من حقنا أن ننبه على ذلك
(الإسكندرية)
حسين محمود البشبيشي
تصويب
وقع خطأ مطبعي في أحد أبيات قصيدة (اليتيم)، للآنسة فدوى طوقان انكسر من أجله البيت وصوابه
فنضت عنها الثياب السود، لا، ... لا تظنوا جرحها الدامي التأم
العدد 526 - بتاريخ: 02 - 08 - 1943
وزارة الأوقاف الجديدة
أقول (الجديدة) وأنا أعلم أن بين هذه الصفة. بين وزارة الأوقاف نفوراً لا يزول إلا بمعجزة! فهل تمت المعجزة؟ أم لا تزال الوزارة القديمة قائمة في مكانها الأثري كالدير العتيق أو كالطلل الموحش تروع النفس القوية بمسالكها الضيقة المظلمة، ومكاتبها الصامتة الرهيبة، وأضابيرها المكتظة البالية، فكأنما يجول الزائر فيها بين أجداث وأضرحة
وليست الأضرحة بالكلمة الغريبة عن لغة الأوقاف؛ فهنالك الوقفيات بشروطها العجيبة، والتصرفات بوجوهها المريبة، والأنظمة التي تعقد البسيط وتعوق السريع وتصعب السهل! وهنالك القضايا التي تماطل الحق، والشكاوي التي تنتظر العدالة، والحقوق التي تنكر المستحقين؛ وكلها راقدة في نواويسها الكرتونية رقود البلى لا تسمع دعاء الناس ولا تحس مرور الزمن!
نعم لا تزال الأوقاف القديمة تمثالاً للصدقات الجاريات والصالحات الباقيات والبر

بأسمى معانيه؛ ولكن التمثال على كل حال تمثال. كل ما فيه معان من الخير نبض من جسد أصم. أما وزارة الأوقاف الجديدة أو المرجوة فهي في درج الوزير المصلح عبد الحميد عبد الحق؛ وأما المعجزة التي ستؤلف بين الجدة والأوقاف فهي عزيمة الشاب العامل عبد الحميد عبد الحق! والرجل الذي استطاع أن يجعل من العدم وجوداً في وزارة الشؤون، يستطيع أن يجعل من الفساد صلاحاً في وزارة الأوقاف. على أن الذين يعرفون في الأوقاف تلك الصخور التي. أدمت أيدي المصلحين وفلت معاول الإصلاح يقولون إن العمل هنا يختلف عن العمل هناك. كانت وزارة الشؤون أحاديث منى وأساليب بلاغة، فجعلها بثاقب رأيه وصادق عزمه حركة تجديد ونهضة إصلاح. والبناء على الجدد أسرع من البناء على الأنقاض، والتعمير الحر أسهل من الترميم المقيد. أما الأوقاف فهي أحد القروح الثلاثة التي أعضلت الأساة وظلت الدهر الطويل تمج الصديد وتوهم الجلاء أنه من الدين. ولكن المحاكم الشرعية بسبيل النهوض، والأزهر الشريف بسبيل اليقظة، فلم يبق غير هذا القرح مضموم الفم على الفساد ونغل. وقد بلغ من سوء القيام على شؤون الأوقاف أنك لا تكاد تجد في مصر كلها بائساً في بيت كريم إلا من مستحقي الأوقاف، ولا خربة في مكان (صقع) إلا من أملاك الأوقاف. وكان السفهاء من الأجانب يرجعون عيوب هذه المؤسسات الثلاث إلى الطبيعة الإسلام وهو الذي نشر العلم ورقاه، ومدن العالم وحرره.

ومن هدى أولياء الأمر في الدين والدنيا بالنظر في إصلاحها على هدى المدينة الحديثة لتتسق مع الأداة المصرية الأوربية في الإدارة والتعليم والحكم. فدرست العلل، وكتبت التقارير، ووضعت الخطط، وجاء دور التنفيذ فجاء معه الهوى المستبد، والطمع المتهالك، والجهل المتنطع، والتردد الخوار، والمصانعة الحقيرة؛ فانهزمت فكرة الإصلاح وعادة كما بدأت - أحاديث في المجالس، ومقالات في الصحف، وتقارير في الأدراج! فماذا عسى أن يصنع هذا الوزير الفعال وإن أول ما عليه أن يهدم المتصدع ويقطع المؤوف، وربما اتسع الأمر على معولة ومبضعة فيستنفدان جهده ويستغرقان عهده. والهدم والقطع من وسائل الإصلاح لا من غاياته. على أنني شديد الثقة بكفاية هذا الرجل أن كان الأمر كما ترى بلاء العقول الجبارة ومحنة النفوس الكبيرة. وفي يقيني أنه سيعمل لأنه يريد. وأرادته في الأوقاف مطلقة على خلاف ما كانت في (الشؤون). وإن ما كان قد وجه إليه عزيمته من تحقيق الصلاح الاجتماعي بمجاهدة الجهل والفقر والمرض، يستطيع أن يصل إليه عن طريق الأوقاف؛ لأن الأوقاف إنما حبسها المحسنون على كفاح هذه البلايا الثلاث. ولو اجتمع لهذه الأحباس التي تربى على مائتي ألف فدان وستة وثلاثين ألف عقار، الرأس المدبر ولعين الكلوء واليد المصرفة والضمير العفن لهونت على المكدودين متاعب الحياة، وسهلت على المنكودين مصاعب العيش. ولكن هذه الينابيع الفياضة بخير الله قد ردها وا أسفاه! الإهمال والإخلال والعبث إلى أوشال من الرزق لا تكاد تفي بنفقات الإدارة وتكاليف الوزارة!

وزير الأوقاف القائم على شؤونها اليوم حقيق أن يكذب ظنون المتشائمين في إصلاح هذه الوزارة. وأن في ابتدائه بتنظيم الإدارة وأحياء الثقة واستثمار المتروك وتبسيط الإجراء وتعجيل التنفيذ لدليلاً على توخيه النجاح من أقرب طرقه. ولعل الأستاذ الوزير أول من أعلن لوزارة الأوقاف رسالة. ورسالتها كما جاء في حديثه لممثلي الصحف أن تسير على هدى الروح التي تتجلى في المدية الإسلامية: مدينة العلم والخلق والتعاون، فهيئ للمساجد - وهي التي كانت في صدر الإسلام مصدراً لكل ذلك - الوسائل الصحية والدينية والعلمية، ليكون كل مسجد من مساجد الوزارة، في كل قرية من قرى مصر، مؤسسة ثقافية تدير الأبدان بالطب، الأذهان بالعلم، وتطهر النفوس بالدين، وتوثق الأواصر بين الناس

بالمودة والمعونة. ووسيلتها رفع مكانة العاملين ليستطيعوا أداء هذه الرسالة، وإنشاء قسم (الخدمة الاجتماعية بالمساجد) ليمهد لتنفيذ هذه السياسة. وسيجد الوزير العامل مع تراخي الزمن وتوفر المال أغراضاً شيء لرسالة الوزارة تجدد بعض ما درس من رسالة الإسلام. وسيجعل (رجل الشؤون الاجتماعية) من الأوقاف بيت مال لله يكون مثابة للفقير ومصحة للمريض ومدرسة للجاهل. وإن في شيء الأغراض الخيرية التي قصدها الواقفون البررة منتجعاً لآمال الوزير. وإن في ريع خمسين مليوناً من الجنيهات

الموقوفة متسعاً لأعمال البر. ولقد كتبنا من قبل في وزارة الأوقاف القديمة ما أملاه الألم والشكوى، فسعى أن نكتب في وزارة الأوقاف الجديدة ما يمليه الأمل والثقة!

أحمد حسن الزيات

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

تحول جديد في الجو المصري - بين الشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا

تحول جديد في الجو المصري

اخذ الجو يتحول في الأعوام الأخيرة بأسلوب لم تعهده من قبل، فقد صار شتاء مصر عنيفاً جداً، وصار صيفها أعنف، وأصبحنا نتذوق الطعوم المختلفة للحياة الجوية على نحو ما كان يتذوق الأباء والأجداد قبل أجيال

والمنتظر أن يكون لهذا التحول الجديد في الجو المصري تأثيرٌ يزيد في قوة الحيوية وقوة الشعور بالوجود، فقد كاد اعتدال الجو في مصر يخلق ألواناً من البلادة، وكاد يضعف الإحساس بتغير الفصول

والمنتظر أيضاً أن يكون لهذا التحول فضل في التشويق لمعرفة الأجواء المختلفة بالديار المصرية، فسيصير من المألوف أن تكون لنا مواسم في الجنوب أيام الشتاء، كما صارت لنا مواسم في الشمال أيام الصيف، وسيكون من الحتم أن نعرف الأقصر وأسوان كما نعرف الإسكندرية ودمياط

والواقع أن إقبال المصريين على مصايفهم الجميلة ليس إلا وثبة جديدة في تذوق الحياة، فما أعرف أنفي الدنيا مصيفاً يشبه مصيف الإسكندرية، ولا أعرف أن في الدنيا بقعة يتجمهر فيها الجمال كما يتجمهر في ذلك المصيف. والذي يقدر على قضاء أيام بالإسكندرية أو بور سعيد أو دمياط ثم يبخل على نفسه بذلك النعيم فهو من أعيان السفهاء!

صار الاصطياف بحمد الله من صميم التقاليد المصرية، وصار من منهاج الحياة في مصر أن يدخر الناس ما يعين على الاصطياف، ولم تعد الشواطئ مقصورة على من يعرف فضلها من الأجانب، فقد أضحت ملاعب مصرية تحت سيطرة الشبان المصريين، وصار من السهل أن ترى من كبار الرجال من يرتاد تلك الملاعب في الضحى والأصيل هل شهدتم ملاعب التنس فوق الشواطئ!

إنها مواكب من الحياة البهيجة تهادي في كل صيف، وتشهد بأن مصر مقبلة على فتوة مرحة سيزدهر بها الشعر والخيال

في هذه اللحظة صلصل الهتاف من الإسكندرية يحمل صوت الأستاذ محمد على حماد محرر مجلة الشعلة، وهو يستعجل مقالاً وعدته به عن الديوان الجديد للشاعر على محمود طه فابتسمت وقلت: وحي الشاطئ هو الذي أثار العطف على الملاح التائه، لطف الله به وهداه إلى الشاطئ الأمان!

إن مصر ديار بحرية، ديار تحيط بها البحار من أكثر الجوانب، وتجري بها الأنهار في كل جانب، ومع هذا تقل فيها الآداب البحرية والنهرية، فما هذا الجمود!

إن أسلافنا عاشوا بأفضل مما نعيش، فقد كانت في مدينة القاهرة مشابه من مدينة البندقية، يوم كانت القاهرة تتماوج بين الخلجان، ويوم كانت الملاهي بتلك الخلجان في أصائل الجمع والآحاد تزعج رجال الدين فيفتون بأن النزهة في السفائن حرام لا حلال!

كانت حياة أسلافنا شعراً في شعر، وكان للنيل في حياتهم وجود، ألم تسمعوا أنهم أحاطوه بطرائف من الأقاصيص؟

ومع هذا رأينا من يقول بأن (عروس النيل) أسطورة خلقها العرب لا الفراعين، وحجتهم أنها لم توجد في غير الكتب العربية. فإن صح ما قالوه فالعرب أبلغ في الشعر والذوق، لأنهم تخيلوا النيل فتى لا يعيش بلا عروس، وتلك وثبة من وثبات الخيال.

في القاهرة حي اسمه (بركة الرطلي)، فما تلك البركة في التاريخ؟

نقل الدكتور عبد الوهاب عزام في (مجالس السلطان الغوري) أن وصلها بالخليج الحاكمي في أيام الفيضان كان يوجب إعداد عروس تزف فيه نساء جميلات، وأن السلطان الغوري قد أستفتى الشيخ البلقيني فأفتى بأنها بدعة، وكل بدعة ضلال

ألا تكون عروس البركة صورة جديدة من عروس النيل؟
والشيخ البلقيني كان من ظرفاء المشايخ، وهو الذي قال بأن الميت يسال في القبر باللغة السريانية لا العربية، وفي هذا قال أحد الناظمين
ومن عجيب ما ترى العينانِ ... أن سؤال القبر بالسُّرياني
أفتَى بهذا شيخُنا البُلقَيْني ... ولم أرهْ لغيره بعَيْني
وقبر البلقيني معروف بالقاهرة، وهو قريب من قبر الشعراني، عليهما أطيب الرحمات!
قال الأستاذ حماد وقد راعه أن يعرف أني أكتب مقالاً في ظهيرة هذا اليوم القائض: في مثل هذه اللحظة تكتب؟
فقلت لأنها أنسب اللحظات لموضوع هذا الحديث، فما كان أدبي إلا صورة من شعوري بالوجود
قال: متى تزورنا في الإسكندرية؟
قلت: أنا أقضي في الإسكندرية عشرة أيام من كل أسبوع
قال: ولا نراك؟
قلت وهل أزور الإسكندرية لأراك؟
في الإسكندرية ذخائر وجدانية يعرفها من يمشي على قدميه من محطة الرمل إلى المحطة الفلانية، وفي صحبة الروح التي أوحت رسالة (غناء وغناء)، وهل كانت (جنية الشاطئ) إلا مصدر نعيمي وعذابي؟
رواد الإسكندرية غرباء ولست فيها بالغريب، فلي هناك تلك الروح
ومن بينات الحب أنْ كان أهلُها ... أعزَّ على قلبي وعينيَّ من أهلي
رواد الإسكندرية غرباء، أما أنا فإسكندرية داري، بفضل تلك الروح
أيجوز الارتياب في القوة الربانية، ومن أبدعها ذلك التمثال من الجمال؟
تبارك من هذا فنه في تحويل الأنوار إلى شخوص تصافحها القلوب!
أن إبداع الشمس والقمر والنجوم لا يدل على قدرة الله بأقوى مما يدل عليها إبداعه الفائق لتلك الروح، بذلك اللطف الوهاج
وهي آية من آيات الله، آية أعظم من البحر ومن السماء، وأنظر من جميع ما في الوجود
أيكون الله أراد أن يجزيني جميلاً بجميل؟
أيكون الله أراد أن يجعل ثوابي في الثناء عليه بخلق تلك الشواطئ الملاح ثواباً روحيا يمثله تفردي بالسيطرة على ذلك الروح المليح
ومن كان له في الإسكندرية رمال وأمواج، فلي فيها أرواح وأضواء
في هالة ذلك القمر أجد مؤلفاتي ومقالاتي وأشعاري، وأجد حول كل سطر شروحاً تفضح
المكنون من أسراري، وأجد حول كل حرف نيرانا رثها أشواقي، فأومن بأن لله فضلاً عظيما في وصل روحي بتلك الروح
كان من حظ الشعر أن يكون لي في الإسكندرية مكان، وأين الشاعر الذي يستطيع الإجادة وهو لم ير الإسكندرية في الصيف؟
يا مدينة أحلامي ويا دار هواي، متى نلتقي؟
وهل افترقنا حتى نفكر في التلاقي؟
وهل فارقتني تلك الروح حتى أفكر في اللقاء؟
هي في رحابي ولو مضت لاستكشاف أقطار السماء
روح الشيخ رشيد
حول إلى سعادة الأستاذ مصطفى باشا عبد الرازق خطاباً وصل إليه من السيد عبد الرحمن عاصم بطرابلس الشام. وصاحب الخطاب يعترض على ما نشرناه من حديث دار بيني وبين الشيخ مصطفى حول تأثير الشيخ رشيد رضا بروح الشيخ محمد عبده، وحول الدقة في ترجمة الأستاذ الإمام، رحمه الله
وأقول إن ما نقلته من حديث الشيخ مصطفى راعيت فيه الأمانة العلمية، فلم أضيف إليه أي حرف، ولم أشبه بأي عدوان، لأني أعرف فضل السيد رشيد في إحياء مآثر الشيخ محمد عبده، ولأن هذا الرجل كان من أعز أصدقائي

إن لهذه المسألة وضعاً آخر، وهو تجري الصدق في تقدير الرجال، وما كان يجوز أن أطوي حديثاً للشيخ مصطفى يزن به الصلة بين روح الشيخ عبده وروح الشيخ رشيد، مع العلم بأن الشيخ مصطفى حجة في وزن هذين الرجلين، لأنه تلميذ الأول وزميل الثاني ولأنه معروف بكراهة التزايد على الناس

والذي عرفته وتحققته أن روح الشيخ رشيد شابته شوائب من العنف، شوائب خلقها اتصاله بالمجتمع في نواحيه الصواخب، فلم تكن عنده تلك البشاشة الروحية التي اتصف بها الأستاذ الإمام في جميع العهود

وإليكم النادرة الآتية:

قبل أن أكتب هذه الكلمة رأيت أن أحادث جماعة من محبي الشيخ رشيد، عساني أعرف

من أحواله في التسامح الديني ما لم أكن أعرف، وكانت النتيجة أن يقول فلان وهو رجل حصيف: كيف يجوز لسعادة مصطفى باشا أن يرتاب في تسامح الشيخ رشيد مع أن له حكاية تنقض ذلك الارتياب؟

فما تلك الحكاية؟

قال الأستاذ أسعد داغر للشيخ رشيد: أنا نصراني يحترم الفضائل الإنسانية ويروي أن محمداً آية في الكرامة الأخلاقية، فكيف يجوز أن تغلق أبواب الجنة في وجهي؟

فأجاب السيد رشيد: ستدخل الجنة يا أسعد قبل كثير من فقهائنا

ذلك هو تسامح الشيخ رشيد في نظر ذلك الرجل الحصيف. وأنا أرى في هذا التسامح دليلاً على التحامل، التحامل على الفقهاء وكانت بينهم وبين صاحب المنار ضغائن وحقود

ولأجل أن نفهم هذه الحقيقة يجب أن نرجع إلى مقالين في رثاء الشاعر عبد المحسن الكاظمي، المقال الأول في مجلة (الرسالة) بقلم الشيخ عبد القادر المغربي، والمقال الثاني في مجلة المنار بقلم صاحبه السيد رشيد

في المقال الأول عطف ورفق، وفي المقال الثاني قسوة وعنف، فقد قال الشيخ الرشيد في الكاظمي كلمات لا تليق، وسلقه بقلم دونه بأس الحديد

أكانت إهانة الكاظمي بتلك الصورة فرضاً يوجبه التاريخ؟ وما الذي يعكر التاريخ الأدبي لو بقى الكاظمي كما صوره الشيخ عبد القادر المغربي؟

الأمر كله يرجع إلى أن الشيخ رشيد عانى من معاصريه، متاعب ثقيلة جداً، فقد كان الناس يستكثرون عليه أن يتفرد بإعلان مآثر الشيخ محمد عبده والإفصاح عن آرائه الدينية والاجتماعية، وكانوا يرون ظالمين أن الأمر لا يعدو المهارة في الاستغلال

من خطاب السيد عبد الرحمن عاصم عرفت أن فضيلة الشيخ محمد شاكر كتب إلى الشيخ محمد عبده يدعوه إلى كف يده عن رعاية الشيخ رشيد، وأن الأستاذ الإمام أجاب:

(كيف أرضى بإبعاد صاحب المنار عني وهو ترجمان أفكاري؟)

وأنا أعرف الشيخ محمد شاكر جيداً، فقد كان على جانب من العنف، وكانت عداوته مرة المذاق، وكان يحارب خصومه في الرأي محاربة المستميت، فمن المؤكد أن خصومته تركت في نفس الشيخ رشيد عقابيل

أما جواب محمد عبده فهو جواب محمد عبده، جواب فلاح مصري شريف يؤازر أنصاره ولو تألبت عليهم الأرض والسماء

مضيت عصر يوم لتنسم الهواء بحديقة الجزيرة فوجدت الشيخ عبد الرحمن قراعة هناك، وكانت الشيخوخة لا ترحم يديه من الارتعاش، فدار بيني وبينه حديث وأحاديث، وجاءت قصة الشيخ محمد عبده فقال:

- هل تعرف أن الشيخ عبده لم يعز أحداً كما أعزني؟

- وكيف؟

- لأني زرته أيام اعتقاله بعد انهزام الثورة العرابية

- ولتلك الزيارة تلك هذه القيمة؟

- أنا وجهت إليه هذا السؤال فكان جوابه أن هذه التفاتة لا ينساها كرام الرجال

ماذا أريد أن أقول؟

زيارة عابرة للشيخ محمد عبده في معتقله تقرر في نفسه هذا الحق، فكيف يكون

نصيب الشيخ رشيد من نفسه وهو يرفع العلم لآرائه في كل مكان؟
أترك هذا وأذكر أن قول الشيخ مصطفى بأن تاريخ الشيخ عبده لم يدون على الوجه الصحيح ليس معناه اتهام الشيخ رشيد، ولكن معناه أن تاريخ الشيخ عبده روعيت في تدوينه أشياء من الاعتبارات السياسية، وهي اعتبارات يراعيها أكثر الباحثين في التاريخ الحديث، وعلى الأستاذ مصطفى باشا أن يحررها بقلمه إن تناسى أنه من السياسيين!
أما قول السيد عاصم بأن السيد رشيد لم يجد من يترجم له بعد أن يموت فجوابه حاضر: ذلك بأن الشيخ رشيد رضا ترجم لنفسه بنفسه، ولم يمت إلا بعد أن إن كتب سطور حياته في صفحات الخلود.

زكي مبارك

المسرح المصري - 3

لغته وماذا تكون؟

للأستاذ دريني خشبة

الذين يزعمون أن اللغة العربية هي لغة أجنبية عن هذه البلاد هم قوم متعصبون يتجنون على الحقيقة كما يتجنون على أنفسهم، ويسيئون إلى الحقيقة بقدر ما يسيئون إلى بلادهم. . . فلقد أثبتت اللغة العربية حيويتها وصلاحيتها لسكان وادي النيل فلم يمضي قرن أو قرنان بعد فتح العرب مصر حتى كان المصريون جميعاً. . . بما فيهم سكان الأديرة والواحات، يتكلمون اللغة العربية ويعجبون بطواعيتها، وقيامها بأغراض حياتهم قياماً كاملاً غير منقوص، فأنسوا لغتهم الأصلية وآثروا عليها اللغة اللينة السهلة التي مرت بها ألسنتهم في غير مشقة، وأسلست لهم في غير عسر. . . ولتكن أسباب انتشار العربية في مصر ما تكون، فما لا جدال فيه أن المصريين لم يرغموا على التكلم بها وأنهم لم يتعاظمهم أن يهجروا لغتهم إلى لغة الغزاة الفاتحين برغم ما في هذا الترك من مرارة على أنفسهم، وبالرغم مما في تعلم لغة جديدة من عنت وإرهاق إن انتقال أمة بأكملها، بل أمم كثيرة، من لغة إلى لغة هو ضرب من السحر لا يفسره إلا امتياز اللغة الجديدة وتفردها بفضائل ليست للغة القديمة. وإذا احتج أحد بالعامل الديني لم يستطع تعليل إبقاء الملايين من مسلمي الهند والترك وغيرهم على لغاتهم، ثم لم يستطع تعليل فناء اللغات القديمة في العربية التي جذبت إليها الأقليات الدينية فعربوا كتبهم المقدسة وأغفلوا اللغات الأصلية التي كتبت بها مع ما يكنونه لأصول هذه الكتب من إعزاز وتقديس

هذه مقدمة أوشكت أن تغرينا بكسر الكلام على اللغة العربية وصرف النظر عن المسرح. . . على أننا نعود فنتساءل: هل تصلح العربية أن تكون لغة للمسرح المصري. . . ولست أدري لماذا لا نتساءل: هل تصلح اللغة العامية أن تكون لغة هذا المسرح؟

أما السؤال الأول فله أعداء كثيرون قامت عداوتهم على روح شعوبية منكرة، كما قامت على كراهية للغة العربية التي هم ضعفاء فيها أغلب الأمر، والتي لا علم لهم بأسرارها ولا ذوق أصيل يغريهم بطلاوتها وحلاوتها، وكل أولئك الأعداء هم ممن شدوا لغة أجنبية

فثقفوها وبرعوا فيها قبل أن يتاح لهم نصيب موفور من اللغة العربية. ومنشأ ذلك فساد نظام التعليم في مصر. . . ذلك النظام الذي أوهى من دعائم قوميتنا - ورمزها الأول اللغة - كما أوهى من عصبيتنا لكل ما هو مصري. . . فإن مصر توشك أن تكون الدولة الوحيدة - وربما يشبهها في ذلك الشام - التي تسمح لعدد ضخم من أبنائها ممن يتعلمون بالمدارس الأجنبية أن يتعلموا جميع المواد التي تدرس في هذه المعاهد بلغة غير لغة البلاد. . . فالحساب والجغرافيا والتاريخ والعلوم والرسم والهندسة والأشغال وما إلى ذلك يدرس كله بلغة أجنبية وبواسطة معلمين من الأجانب. . . وهكذا يفقد هذا العدد الجم من أبنائنا مصريتهم، وينسون لغتهم، لأنهم يذهبون إلى تلك المدارس وهم صغار لم يعدوا الرابعة أو الخامسة من عمرهم، أي في السن التي يصلحون فيها للتكييف حسبما تشاء المدرسة وعلى الصورة التي تهوى سياستها أو سبب إنشائها. . . ولقد آن أن نفهم أن الاستمرار في السماح لتلك المدارس بأن يظل منهاج الدراسة بها على هذا النحو هو أشنع ضرب من ضروب الخيانة الوطنية. ولا يقل عنه سماحنا لأبنائنا بالذهاب إلى تلك المدارس. . . وهو هذا الجزء البغيض من تلك الخيانة الذي نصنعه

بأيدينا. على أن الآباء الذين يدفعون بأبنائهم إلى تلك المدارس يدفعون اعتراض كل معترض بحجج لها وجاهتها أحياناً. . . ولسنا نرى ماذا يمنع وزارة المعارف من تدارك أوجه النقص التي تعتور نظام التعليم في مدارسها حتى لا تنهض لأولئك الآباء حجة في العدول بأبنائهم عن مدارسها؟ على أن التفات المدارس الأجنبية إلى تعليم البنات وتطبيعهن على الطابع الأجنبي كان خليقاً أن يفتح أعين وزارة المعارف فتقاومه بفتح المدارس المصرية الراقية في كل مدينة بها مدرسة أجنبية تغشاها الفتاة المصرية التي لا تجد مدرسة أخرى في بلدتها لتتعلم بها. . . ولحق أنه لم يعد معنى مطلقاً أن توجه الدولة 95 % من اهتمامها إلى تعليم الذكور، ولا توجه إلى ما تبقى من تلك النسبة المئوية التافهة لتعليم الإناث. وسنظل فقراء في قوميتنا، مدخولين في مصريتنا، بائسين في لغتنا، ما دامت الدولة تقصر هذا التقصير الشنيع في تعليم الفتاة المصرية، صارفة معظم عنايتها إلى تعليم الذكور دون الأناث، مع علمها بأن البنت هي التي تصنع الأمة، وأن نصيبها في ذلك هو أضعاف نصيب الذكر

ونحن إنما نسوق هذا الكلام في معرض الحديث عن لغة المسرح لما له من الصلة الوثيقة

به. . . لأننا نتكلم باللغة العامية ونتعامل بها في حين أننا نقرأ الكتب والصحف ونصغي إلى الراديو والخطب الضافية في المساجد والكنائس، والمحاضرات الضافية في النوادي ودور العلم. . . ثم نحن نكتب في مدارسنا وفي معاملاتنا باللغة العربية الفصحى، أو ما يقارب من اللغة العربية الفصحى. . . وفي مصر اليوم أكثر من ثلاثمائة جريدة ومجلة تصدر يومياً أو أسبوعياً أو كل شهر وكلها مدبجة بهذه اللغة العربية الفصحى. . . من هذه الجرائد ما كان يصدر يومياً في ست عشرة صفحة وفي ثماني وأربعين صفحة محررة باللغة العربية الفصحى وندر ما كان يعثر القارئ فيها جميعاً بغلطة في اللغة. . . ومن مجلاتنا عدد لا بأس به يعني بالأسلوب فلا يسمح بركاكة أو لحن أو إسفاف أو دنو من العامية حتى في أبسط ألفاظها. . . فهل قال أحد إن أي مستمع من عامة الشعب ممن لا يتكلمون العربية الفصحى وممن لا يخطر لهم استعمالها على بال، لا يفهم ما يصغي إليه من موضوعات تلك المجلات وتلك الصحف وما يستمع إليه في خطب المساجد وعظات الكنائس ومحاضرات الوعاظ العامة وإرشادات الإذاعة وأغانيها المنظومة بالعربية من قصائد وموشحات؟

الحق أن عامة المصريين، بل عامة الأمم العربية، تجيد فهم الأساليب العربية وتسيغها. . . ولو لم تكن هذه العامة متعلمة، ولو لم يكن لها بصر بطبيعة تراكيب تلك الأساليب. . . وما دامت هذه العامة تفهم تلك الأساليب ولا تضيق بها، بل هي تلتذها أحياناً وترددها في أغاني كبار المطربين وفي أحاديث الرسول الكريم التي تحفظها عن ظهر قلب، وفي آيات القرآن التي ترددها وتمزج بها حياتها في صلواتها وأدعيتها، وفي آيات الكتب المقدسة الأخرى. . . فليس من العسير أن تحاول الدولة التمهيد لإحلال العربية الفصحى محل هذه اللهجات الدارجة المتعددة، وذلك بتعليم الفتاة المصرية وتنشئتها في بيئة مدرسية عربية لا يؤذن فيها بتعلم لغة أجنبية حتى تبلغ الفتاة الثانية عشرة على الأقل، وحتى تكون قد أنضجت فيها قوميتها المصرية التي نعتبر اللغة العربية أكرم مقوماتها. . . ونحن نلاحظ أن الطبقات المتعلمة في مصر وفي الشرق العربي عامة، أقل استعمالاً للهجات الدارجة من سائر طبقات الشعب غير المتعلمة. . . فمعظم طبقات المتعلمين في مصر وفي الشام وفي العراق يداولون أحاديثهم بينهم باللغة العربية، أو ما يقرب أن تكون لغة عربية خالصة، اللهم إلا ما تقضي به العادة من استعمال العامية في مجرى الحديث في غير وعي. . . فالتعليم إذن هو الوسيلة الوحيدة لإحلال العربية الفصحى محل العامية الدارجة. . . أما عنايتنا بتعليم الفتاة خاصة فذاك أنها هي التي تتولى تربية أطفالنا في سنيهم الأولى، فهي كفيلة إذن أن تصقل ألسنتهم، وأن تفهم عن المدرسة ما تهدف إليه من مطامح وأغراض، فهي على مساعدتها أقدر من الأم الجاهلة المغرقة في الأمية، ومن الأم التي تعلمت في مدرسة مصرية عرجاء، أو في مدرسة أجنبية تعنى أول ما تعنى بمحاربة القومية المصرية في كل مشخصاتها وأهم تلك المشخصات اللغة التي لا تسيحي بعض طبقاتنا الراقية ممن تعلموا - أو تعلمن - في مدارس أجنبية من هجرها واحتقارها ومداولة الحديث بلغة أجنبية حيث لا يكون في المجلس أجنبي واحد. . . هذه

كارثة اجتماعية ينبغي أن تعالجها الدولة بما يجب لها من جهد. . . وليس على الأرض قاطبة لغة أشرف من لغتنا لو وجدت من يخدمها في إخلاص ونصح. . .
وإلى أن يتم هذا الإصلاح، وإلى أن تلتفت الدولة إلى خدمة اللغة العربية على النحو الذي تراه، لا نرى مندوحة من الصراحة في القول ونحن نتحدث عن لغة المسرح المصري وما ينبغي لها أن تكون في الوقت الحاضر، من أن نوصي باللغة العامية خيراً في هذا الحديث. . . فللغة العامية محاسنها التي لا تنكر، ومن هذه المحاسن ما تتفرد به، وما لا يؤديه شيء في العربية الفصحى إلا حيثما تفشو، هذه العربية الفصحى، بين الناس بحيث تختلط بدمائهم وألسنتهم كما تختلط العامية الآن. . . وليس الخير الذي نريد أن نوصي به للغة العامية هو الخير المطلق الذي يجعلها لغة المسرح عندنا. . . كلا. . . وإلا كنا ندعوا إلى شر لا إلى خير، وإلى نكسة لا إلى نهضة، فليست لغة غير اللغة العربية تصلح للمسرح المصري خصوصاً في الروايات المترجمة التي كان يقبل الجمهور عليها إقبالاً شديداً في فجر نهضتنا المسرحية التي كان يضطلع بها الشيخ سلامة حجازي وجورج أبيض وعبد الرحمن رشدي والشيخ أحمد الشامي وأحمد سماحة، والتي ازدهرت أيما ازدهار في السنوات الأولى من حياة مسرح رمسيس قبل الانشقاق المشئوم الذي مزق وحدة الممثلين المصريين البارزين والذي انتهى إلى تلك العواقب المحزنة التي لم يسلم منها إلى اليوم. ولا يفوتنا أن نذكر الفرقة القومية بهذه المناسبة. . . فقد كانت اللغة العربية هي لغتها
الرسمية، وكان يرجى الخير كل الخير من هذه الفرقة العتيدة التي قضت عليها سياسة قصر النظر. . . تلك السياسة المرتجلة التي كانت تريد أن تجعل من هذه الفرقة مشروعاً تجارياً فلم تعرف لها حقها الثقافي، ولم تعرف لأبطالها مقدرتهم على الاضطلاع بالنهضة المسرحية وحسن استعدادهم لأداء مهمتهم فضربت بهم عرض الأفق، وقبضت عنهم كفها؛ مما نرجو أن نعرض له عند الكلام عن فرقنا التمثيلية. . . ونأمل أن لا يغضب كلامنا هذا أحداً من أبطال التمثيل في مصر، وألا يترك ثناؤنا على زيد غضاضة في نفس عمرو. . . فقد آن أن يكون عمل الجميع خالصاً لخير المسرح وقصار النظر هم الذين يزعمون أن تمسك المهيمنين على الفرقة القومية باللغة العربية هو الذي قضى عليها. . . بل قضت عليها عوامل أخرى سنعرض لها في حينها إن شاء الله. . . فاللغة العربية يجب أن تكون اللغة السائدة في جميع الروايات المترجمة. أما الروايات المصرية فمسألة فيها نظر. . .
وإليك أيها القارئ بعض الأسئلة التي تتبادر إلى ذهني وذهنك بهذه المناسبة:
هل يجوز أن يدير المعلم (فلان) الجزار أو البواب أو الخادم أو بائع المقانق (السجق ولا مؤاخذة!) حديثه باللغة العربية في زماننا الذي نحن فيه؟
وهل نستطيع أن نخلق جواً كوميدياً (هزلياً) باللغة العربية الفصحى دون أن تنتهي جهودنا إلى الغثاثة والسخف؟
وهل نستطيع الاستغناء في جميع رواياتنا الكوميدية عن لهجتنا المضحكة المرحة من (صعيدي وشرقاوي وبربري وشامي ومغربي؟)
وهل نستطيع الاستغناء عن أمثالنا العامية الفياضة بالحكمة وعن نكاتنا القومية التي لا يعقل أن ترسل بغير اللغة العامية؟
وهل نستطيع الاستغناء عن الفلكلور المصري كله طفرة من غير أن نمنح أنفسنا مهلة ليكون لنا فلكلور آخر لا غنى لحياتنا الأهلية عنه، إلى أن نستعرب تمام الاستعراب؟
ولنسأل أنفسنا هذا السؤال أيضاً . . . :
هل في أوربا أمة استغنت تمام الاستغناء عن لغتها الدارجة في مسرحها المحلي؟
وأحسب أن الإجابة هي بالنفي القاطع عن كل الأسئلة الأولى، ولعل السؤال الأخير فقط هو
الذي يحتاج لإيضاح. . .
ولا مراء في أن ولا مراء في أن جورج برنردشو هو أعظم مسرحي عرفه العالم في العصر الحديث، وأكثر النقاد على أنه من أعظم مسرحي التاريخ، ثم هو رجل تدين له اللغة الإنجليزية بفضل كبير. وهو في الوقت نفسه من أكبر كتابها حيث لا ينازعه المرتبة الأولى إلا واحد أو اثنان من أساطين كتبها. . . وقد استطاع شو أن يجعل اللغة الإنجليزية الفصحى معيناً لا ينضب من اللغة العامية، وهو يعتبر هذه اللغة ضرورة لا

غنى عنها للكمال المسرحي خصوصاً لشخصيات الرعاع والغوغاء التي يصرح أنه أن أنطقها بالإنجليزية الفصحى التي لا تعرفها ولم يسبق لها أن لهجت بها فأنه يجافي الواقع وينافر الطبع ويقلق الذوق المسرحي، ولذلك تراه في عدد كبير من رواياته، خصوصاً في ملاهيه المرحة، يرسل حديث أحد أبطاله الرئيسيين بالعامية من أول الرواية إلى آخرها، كما في ملهاته كانديد حيث لا يتكلم برجس إلا بالعامية؛ وكما في روايته: (هداية الكبتن براسبوند)، حيث لا يتكلم البطل درنكووتر إلا العامية كذلك. ولو أرنا ضرب الأمثال من روايات كتاب آخرين يرتفعون إلى مستوى شو لما أعوزنا ذلك.

على أن الكاتب الإنجليزي سويفت كان أول من تولاه القلق على ضياع العامية الإنجليزية، ولذلك أنشأ مجموعته الفاخرة منها، والتي تعد اليوم معيناً لا ينضب لإمداد الإنجليزية الفصحى بما تفتقر إليه من ألفاظ قد لا تستطيع نحتها فتفضل استعمال المرادف العامي من أن تأخذ عن اللغات الأجنبية مع أنها لا تأبى أن تصنع ذلك.

والحقيقة أننا نغلو غلواً لا معنى له في استهجان لغتنا العامية واستقباح استعمالها مع أنها كنز لم نعرف قيمته بعد نستطيع أن نسعف منه العربية الفصحى بما لم تسعفه به بدواتها الأولى التي حرمتها من كثير من مقومات الحضارة

وقصارى القول فيما ينبغي أن تكون عليه لغة المسرح المصري هو وجوب استعمال العربية الفصحى استعمالاً مطلقاً في الروايات المترجمة، واستبقاء اللغة العامية لبعض شخصيات الملاهي ليمكن خلق الجو الكوميدي المرح، كما يجب استبقاء اللهجات العربية الفكهة التي أشرنا إلى بعضها في مجرى الحديث لتساعد في خلق هذا الجو. . . وإن كان رأينا هو أن تقوم الملهاة على موضوعها لا على نكاتها وشتائمها كما هو شائع عندنا اليوم.

دريني خشبة

حول الأدب المهموس

غلطة الآلهة!

وشتائم الأستاذ مندور

للأستاذ سيد قطب

شاء الأستاذ مندور أن ينقلنا من الجو الأدبي الذي كنا نعيش فيه، ومن اللغة الأدبية التي كنا نتجادل بها، إلى جو آخر كريه، وإلى لغة أخرى هابطة، يبدو أنه يهرب إليهما كلما أحرج في جدل أدبي لا يملك أدواته

وقد تحدث إلي بعض الأدباء مستائين لانحدار أسلوب الجدل الأدبي إلى هذا المستوى الهابط، فأحب أن أعتذر عندهم للأستاذ مندور:

الرجل ذو حساسية مريضة في ناحية خاصة، ولم أكن في أول الأمر أعلم موضع هذه الحساسية، وإن كان حدسي قد هداني إلى شيء منها وأنا أتتبع ميله إلى (الحنية) في الأدب، وطريقته في المناقشة.

فالأستاذ مندور معذور إذن إذا خرج عن طوقه، ومعذور إذا لم يملك قلمه عن هذا الانحدار إلى شتائم شخصية لا يعسر على أي مخلوق أن ينحدر إليها، وإن كان يعسر على بعض المخاليق أن يرتفعوا عنها لسبب من الأسباب

على أن الخرافة اليونانية التي ساقها الأستاذ مندور في العدد الأخير عن خلق الرجل وخلق المرأة تكفي وحدها لحل عقدة الخلاف بيني وبينه في فهم الأدب ودراسة الشخصيات. فيبدو أن هؤلاء الآلهة الملاعين يزيدون في نسب المزج والتركيب وينقصون في كثير من الأحوال. ويبدو أن نسبة المزج في الأستاذ مندور تختلف اختلافاً بينا عن مثيلتها في رجال أمثال العقاد وسيد قطب، فطبيعي إذن أن تختلف الأمزجة والأحكام بنسبة هذا الاختلاف!

والغلطة - كما ترى - ليست غلطة الأستاذ مندور، إنما هي غلطة أولئك الآلهة الملاعين!

وقد اختار الأستاذ الفاضل في رده علي طريقة (الملاوعة والمكايدة)، ففهم أنه (يغيظني) إذا راح يتحدث عني كتلميذ للعقاد، ويصغر من شأني في أعين القراء. فأحب أن أقول له: إنني لسوء الحظ - لا أفهم الأشياء على النحو الذي يفهمه، لأن الآلهة فيما يبدو لم تودع

تركيبي تلك النسبة الكبيرة من الجنس الآخر! فليس أحب إلي من أن أكون تلميذاً ناجحاً في مدرسة العقاد
وإنني لأؤكد للسيد مندور أن العقاد لو كان بين أساتذته هو أولئك الذين منحوه الدكتوراه أخيراً، فصيروه دكتوراً (في الأدب على ما أظن) لكان خيراً مما هو الآن بكثير، ولما وقف تلك الوقفة الغبية البليدة أمام مقطوعة (الكون الجميل) ولاستطاع أن يدرك كما يدرك أصغر تلاميذ العقاد أن الشاعر الكبير حين قال:
قل ولا تحفل بشيء ... إنما الكون جميل
كان يستعرض في لمحة من لمحات الحس. . . كل ما يعترض الفرد ويعترض الإنسانية من هموم وأشجان في هذا الكون، وكل ما ترمي به الحياة من تهم وشكايات، وكل ما تذخره الدنيا من آلام وأشواك؛ ويقابل هذا كله بذلك الجمال الكوني الفتان، فيقولها قولة الصوفي العابد لهذا الجمال:
قل ولا تحفل بشيء ... إنما الكون جميل
قلها على الرغم من كل شيء، فإن للسكون شفاعة حاضرة من هذا الجمال، بل إن الكون لجميل على وجه القصر والتوكيد لا يغض من صنعته هذه شيء من تلك الأشياء وهذا هو الذي يقف أمامه (الدكتور مندور) يقول في غير استحياء:
(هذه جملة مبتذلة لأنك تتساءل عن سر هذا القصر وذلك التأكيد فلا تهتدي إلى شيء) وبعد فلا حديث لي بعد الآن مع ضحية الآلهة اليونان
(حلوان)
سيد قطب
وفود العرب على كسرى
للأستاذ محمد عبد الغني حسن
وجه إلي أستاذنا الجليل (ن) كلمة طيبة تحت هذا العنوان بشأن ما نشرته في (الرسالة) في موضوع (الخطابة بين الحرب والسياسة)
وما بال السيد الجليل (ن) يخفي عنا اسمه، وقد دلت عليه عبارته وأشارت إليه مقالته، كما يدل فسيق المسك على المسك، ونضح الإناء بما فيه. وقلنا ونحن نقرأ مقاله ونتذوق بيانه: هذه نفحة من شيخ أدباء الجارة الشرقية والشقيقة العربية؛ طالعنا بها على بعد أمد، وطول عهد والتزام صمت؛ فوردة نماذج الروح لطافة، وتجري مع النفس رقة
يتهمني الأستاذ الجليل أنني قدرت في نفسي صحة حكاية وفود العرب على كسرى، وهي تهمة يشرفني أن أكون بها مقترفاً، ولها مكتسباً؛ فقد أوردت قصة الوفود في مقام يقتضيها وسياق يستدعيها، ولم أتعرض لها من حيث صحة الوقوع وصدق الرواية؛ فذلك لم يكن سبيلي في المقال؛ ولكنني سقتها - على علاتها - كما ساقها صاحب العقد الفريد في أول الجزء الثاني من كتابه.
وكان غايتي من سوق خطب الوفود في مقالي بالرسالة أن أستشهد على حذف بعض الخطباء وحضور بدائهم وسرعة خواطرهم في المقامات الضيقة التي يفرجونها ببيان ولسان وجدل، فلم أجد أحسن في الاستشهاد ولا أطوع في الانتقاد من خطب وفود العرب على كسرى
وابن عبد ربه نفسه الذي نقل أخبار هذه الوفود يمهد لها في أول كتاب الجمانة بقوله: (. . . فأنها مقامات فضل، ومشاهد حفل، يتخير لها الكلام، وتستهذب الألفظ، وتستجزل المعاني. ولا بد للوفود عن قومه أن يكون عميدهم وزعيمهم الذي عن قوته يتزعون وعن رأيه يصدون). وهذا كلام من ابن عبد ربه له خبئ. . . معناه أنه مقر بصحة ما ينقله، وأن هذه الوفود الوافدة على ملك الفرس لم تكن خبراً مصنوعاً ولا حديثاً موضوعاً. وأن غيرها من أخبار الوفود صحيح في اعتبار المؤلف، وخاصة بعد قوله في التمهيد المشار إليه: (وما ظنك بوافد قوم يتكلم بين يدي. . . ملك جبار في رغبة أو رهبة، فهو يوطد لقدمه مرة، ويتحفظ من أمامه أخرى، أتراه مدخراً نتيجة من نتائج الحكمة، أو غريبة من غرائب الفطنة؟)
ويقول الأستاذ الجليل (ن) ناقلاً كلاماً في موضوع الوفود على كسرى: (ولن يجوز العقل أن يقعد ابن الأكاسرة لاستماع ثرثرة كل مهذار نفاج، ويفرغ لشهود عجرفة

المتعجرف وعنجهيته). وأقول إن الأستاذ العربي الجليل قد رمى العرب في هذه المقالة بما لم يرمهم به أعداؤهم، فكيف يفوت ذلك على فطنة أستاذنا وهو يعلم أنه إذا رمى فسيصيبه سهمه، وأنه - أعزه الله وشرفه - من غزية. . . إن غوت غوى. . . وإن ترشد غزية يرشد .!

لقد كان النعمان من ملوك الحيرة، ولهم الملك المؤثل كما كان الغساسنة في الشام. وهذا كلام لا يغيب عن علم الأستاذ الجليل ولا يند عن أبسط معارفه، كما لا يغيب عنه شعر حسان ابن ثابت - في الجاهلية - في مدح الغساسنة وصف بياض وجوههم، وكرم أحسابهم، وشمم أنوفهم، وأولية طرازهم. . . فهل يقل المناذرة عن الغساسنة شيئاً من مكارم العرب واعتدادهم بأنفسهم في ساعة يحسون فيها انتقاص منتقص، أو اعتداء معتد مهما كان شأنه؟

وما الذي يمنع من وفود النعمان على كسرى وهو تابع له وفي ظل حمايته؟ لا شيء يمنع عقلاً من حدوث الوفادة. ونحن نرى في زماننا هذا الأمم المحمية، يفد مندوبها على الأمم الحامية القوية. . . ويجلسون حول الأنضاد الكبيرة، والموائد المستديرة !

فهل تعدم هذه الأمم المحمية اليوم رجلاً من أعز رجالاتها؛ أو بضعة من أصدق ألسنتها يقولون ما يعتقدون، ويدفعون عن أممهم وأوطانهم بحسن البيان، ما لا يستطيعون دفعه بالسان؟

اللهم إن هذا يحدث اليوم تحت سمعنا وأبصارنا، والأستاذ (ن) شاهد به هذه الوقود الحديثة والموائد الخضر نبأ يقين. . .

فلماذا ينكر هذا القلب العربي المتوثب - قلب أستاذنا الجليل ن - على النعمان بن المنذر واكثم صيفي وحاجب بن زرارة والحارث بن ظالم وغيرهم من سادات تميم، وأشرف بكر، وغطاريف عامر، وجحاجحة زيد - كيف ينكر عليهم أن يقولوا في سبيل العروبة كلمة يعتقدون حقيقتها ويؤمنون بصدقها، إيمانهم بالمصطحبات من لصاف وثبرة يزرن ألالاً

ويتدافعن في سيرهن. . .؟

يقول الأستاذ الجليل (ن) (كلام الذي أوفدهم ابن ماء السماء إلى سلطان فارس مزور مختلق لم يقله النعمان ولا جماعته ولن يستجرئوا على مثله)

ونحن نقول إن العربي لا يستجرئ على إعلان حميته وإبائه إلا لما أودع الله فيه صفات الأنفة العزيزة والكبرياء الرفيعة؛ حتى ولو كان في الأطمار والأسمال خاوي البطن عاري الشوى والمنكبين من الطوى. . . وهو على عنجهيته ولوثته بصير بمواطن الكلام، عليم بمرامي السهام. . .

وإني على ما كان من عنجهيتي ... ولوثة أعرابيتي لأديب

وقد انتقى النعمان لوفد كسرى جماعة وظنهم بميزانه، وأنزلهم أقدارهم التي يعرفها عنهم؛ وتوسم فيهم - لطول معرفة، أو حسن سماع، أو ص دق جوار - حسن الجواب ولطف المخرج من مضايق الكلام. ولم يخترهم من أهل الغفلة والبله، والسرعة والحمق؛ وتلك حسنة أخرى من حسنات النعمان، وفضيلة من فضائله؛ فهو هنا محسن يحسن اختيار الرجال، ويتنخل أعضاء الوفود الذين يصح أن توكل إليهم المهمات وتلقى عليهم التبعات. . .

إذا كنت في حاجة مرسلاً ... فأرسل حكيماً ولا تُوصه

وفعلاً وحقاً وصدقاً، لم يكذب النعمان قول الشاعر الإسلامي فأرسل مع الوفد حكيماً عربياً عرف بالصدق في الكلام وأشتهر بالقولة السائرة والحكمة المرسلة، وهو أكثم بن صيفي، فلم يعد أن يكون حكيماً في مقام المفاخرة. وتلك لطيفة من لطائف وفود العرب على كسرى؛ فقد كانوا يستطيعون أن يكونوا كلهم أبواقاً - أو بوقات - يضربون على فضائلهم، ويغنون على (ليلياتهم). . . ولكنهم قسموا العمل، ووزعوا الخطة وأحكموا الطريقة في هذا المؤتمر الذي يشبه مؤتمر (كذا) في بلاد (كذا) في عصرنا الحديث. . .

فأكثم بن صيفي حكيم ينطق بقدر، ويزن الكلام إذا نطق، فليس ثرثارة يخطب، ولا مهذاراً يكثر؛ بل يرسل الحكمة تلو الحكمة، والكلمة الصادقة أثر الكلمة، ويوجه الكلام - على حد البلاغيين - فيأخذ منه كسرى ما يأخذ لنفسه ويدع ما يدع. والحكيم في ذلك

لم يغلط في قول، ولم يعنف في كلام، ولم يجهل أقدار الملوك، ولم يخرج عن جادة الاعتدال. فكيف
يقال بعد ذلك إن خطباء هذه الوفود لن يستجرئوا على مثل ما نسب إليهم من الكلام؟
ويقوم عمرو بن الشريد السلمي فيفخر في إيجاز؛ ويهدد في إعجاز. أما افتخاره فما كان فيه غالياً ولا مبالغاً ولا نفاجاً ولا كذباً ولا مسخطاً لكسرى ولا متنقصاً للفرس؛ فهو يقول عن العرب بارك الله فيهم: (إن في أموالنا مرتفداً؛ وعلى عزنا معتمدا، إن أو رينا ناراً أثقبنا، وأن أود دهر بنا اعتدلنا. إلا أننا مع هذا لجوارك حافظون، ولمن رامك مكافحون). لا فض فوك يا ابن الشريد! فما عدوت الصدق في كلامك، ولا جاوزت الحد في افتخارك. فهو يعلن هنا في كلمته الموجزة ميثاق الصداقة مع حليفته الكبرى. . .
وهذا كلام لا يؤلم الحلفاء؛ ولا يوجع الأصدقاء وترجمته في لغة السياسة الدولية الآن أنه إذا اعتدى على بلاد الفرس فإن الأمة العربية الحليفة ملزمة بتقديم المعونة لها من المال والعتاد والرجال. . .
فأين موضع الجرأة أو الكذب أو المغالاة أيها الأستاذ الجليل، في هذا الكلام الوفي الجميل؟
بقى أن ذكرت أيها السيد العربي الكريم في تساؤلك أن صانع خبر الوفود أو صائغه أو مختلقه أو مزوره هو الزبير بن بكار بن عبد الله القرشي. فقد ذكر ياقوت الرومي أن من تصانيف الزبير هذا كتاب (وفود النعمان على كسرى)
وأقول أنا: إن ياقوت الرومي ذكر نقلاً عن ابن النديم صاحب الفهرست الذي عاش قبله بقرابة قرنين من الزمان. ووصفه ابن النديم بقوله: كان شاعراً، صدوقاً، راوية، نبيل القدر. فكيف يجوز لمن هذه أوصافه أن يضع الحديث الأدبي ويختلق الأخبار؟ وقد الزبير قاضياً على مكة وتوفي وهو قاض عليها. فكيف صح في القضاء رجل يتهمه أستاذنا الجليل اليوم بالوضع والاختلاق
وما حاجة الأستاذ الجليل أن يبني كلامه في اتهام الزبير بكار على الظن والفروض ما دام كتابه في وفود النعمان على كسرى لم يصل إلينا
وفوق ذلك أن الزبير بن بكار عاش في القرن الثالث الهجري ومات سنة 256هـ وفق رواية ابن النديم. فهو متأخر عن ابن القطامي والكلبي اللذين نقل عنهما ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد حكاية الوفود على كسرى. فإذا كان هناك وضع في هذه الحكاية فأولى به أن يكون صاحبه ابن القطامي أو الكلبي - سواء أكان محمدا الكلبي أم ابنه هشاما الكلبي - فلم يشتهر عنهما وضع - شهد لهما الأوائل بتقدمهما في علم الأنساب
أما ابن القطامي فقد اشتهر عنه الكذب المقصود والاختلاق المعمود إليه؛ مع غفلة وبلاهة وضعف في الحكم وسقم في الفهم وسرعة تصديق لما يسمع من غير تدبر وتفهم. ويجوز أن يكون هو الذي وضع أو صاغ حكاية وفود العرب على كسرى إن كان لابد في هذه الحكاية من وضع
أما رأيي أنا. . . فحكاية الوفود صحيحة وليس فيها محل للإنكار والاستنكار، وهي جائزة الحدوث علماً وعقلاً، فهي تتفق مع صراحة العرب وإبائهم وحسن قيامهم في المواقف الضيقة وصدق حكمتهم، والوفاء لأحلافهم؛ ولو أن فيها من زخرفة الرواة وتزيد أهل الأخبار.
محمد عبد الغني حسن
في الشعر المهموس
للأستاذ حسين الظريفي
ليس من البحث في شيء أن نتناول الظاهرة في العلم أو في الأدب أو في الاجتماع، ونغفل المصدر الذي انبعثت عنه كشأن الحديث الذي دار وما يزال دائراً على الشعر المهموس في (الرسالة) و (الثقافة) دون أن يصل الناقد والمنقود إلى نقطة اتصال، يتم فيها بينهما التفاهم على ما اختلفا فيه ولا يزالان على خلاف
ولو أن كلا منهما اتجه بالبحث إلى تعيين مصدر هذا الشعر في أدب المهجر لضاقت بينهما شقة الخلاف، ولقاما بتعليل جروح كثيرة. وما كان القول بتخلف الشعر في مصر، أو بنفي هذا التخلف، إلا علة السير على الهامش وترك الصميم. وهذا ما رغبتي في أن أقول كلمتي لإملاء فراغ الموضوع
والواقع أن شعر المهجر طابعاً خاصاً يعرف به. لا من حيث مبانيه ومعانيه فحسب،

ولكن من حيثية أخرى، هي ذلك الإيقاع الذي يقرع به الأسماع، أو مدى ذبذبته على حد التعبير العلمي. وهذا ما يحمل على استصواب تسمية هذا الشعر بالشعر المهموس، وتخطئة نعته بشعر الحنين. لأن هذه التسمية الأخيرة ترتكن إلى انفعال الشاعر بينما تعتمد التسمية الأولى على النزعة الشعرية العامة في قطر بعينه. فالموضوع يدور على هذه الظاهرة العامة في شعر المهجر، تاركاً وراءه البحث عن كل انفعال خاص - كالحنين - لا يقوم إلا إذا قام الباعث عليه. وما يظهر إلا لحاجة ثم يختفي

وأنا أراد نزعة الهمس هذه إلى شعر الشقيقة سورية؛ لأنها هي الأخرى تتميز بهذا الضرب من الشعر، وإن كانت تسير فيه خلف الشعر في المهجر. ويظهر أن شعراء الشقيقة وجدوا في العالم الجديد ما إذا قيهم نزعة الهمس هذه، فإذا هي علامته الفارقة في الشعر على اختلاف أغراضه وفنونه

ونحن نجد ظاهرة الهمس في النثر إلى جانب ظهورها في الشعر، ثم نجدها في فنون الغناء السوري، كما نجدها في لهجة التخاطب. فالقوة الموسيقية في الإعراب عن الخواطر والانفعالات؛ وأعني بها ما اصطلحنا عليه بكلمة (الهمس) لا تكاد تختلف في ضروب هذه الأساليب البيانية من شعر ونثر وغناء وتخاطب

وقد أطلت التفكير في مصدر هذه الطاقة الموسيقية فلم أجده إلا في طبيعة البلاد السورية، فإنها هي المصدر الذي صدرت عنه هذه الظاهرة وانسجمت علي كافة طرق التعبير. لقد فعلت طبيعة البلاد فعلها الخاص في أعصاب هؤلاء الشعراء وتسربت منها إلى فنون القول موزوناً وغير موزون

يقابل ذلك ما ينتج من العراق من شعر ونثرن وما يألف من ضروب الغناء؛ فإنه يقف في الطرف الثاني من المحور، حيث يقف على طرفه الآخر أدب المهجر. إن الأدب في العراق كالغناء فيه يعتمد في إيصال الشعور على قوة اللهجة؛ فإذا كان أدب المهجر يمس شعور القارئ أو السامع برفق ولين، فإن أدب العراق لا يمسه إلا بشدة. ويقف بين هذين أدب مصر، فلا هو بالضعيف ولا بالعنيف

ولا محل للقول بتخلف الشعر في مصر لأن رنة الإيقاع فيه غير هادئة؛ فالشعر لا يقاس بهذا المعيار، وإنما ينظر في مدى ارتقائه على أنه أسلوب بيان ومجموعة خواطر. أما قوة اللهجة فيه فإنها مظهر الحالة العصبية التي كان عليها الشاعر عند بنائه بيوت الشعر. وليست هذه الحالة بجزء من الشعر لتكون جزءاً مما يقاس به مدى ارتقائه وطول بقائه، ويحكم له أو عليه

وقد نرى الهمس والجرس في بعض قصائد الشاعر فلا يصطبغ شعره بهذا اللون، لأنه وليد حالة روحية خاصة تأتلف الموضوع المقول فيه. ومركز الثقل فيما دار ويدور عليه الحديث على لسان الرسالة وزميلها الثقافة، هو ندرة ما في مصر من هذا الشعر وكثرة ما في أدب المهجر منه. تلك الظاهرة التي أرجعناها إلى طبيعة البلاد. فشاعر المهجر عاش في وسط لا ترهق فيه الأعصاب، ومن ثم كان تصويره وتعبيره غير مرهق الأعصاب غيره. أما الشاعر في مصر أو في العراق فإنه محاط من حمارة الصيف بما يتعب الأعصاب ويبعد بها عن أن تنفعل إلا بأبلغ المؤثرات. وهو بمدى تأثر هذه مسوق إلى التهويل عند محاولة التأثير فيمن سواه. فكان كل من أدبه وغناه يعتمد في التأثير على ارتفاع الصوت فيه وإن صم الآذان

وأعتقد أن حالة الأعصاب هذه كانت وما تزال حائلاً دون انتشار القصة والرواية في أدب العرب، وباعثاً إلى وضع تلك القواعد الأدبية التي تقول باختيار ما قل ودل، وأن الإعجاز
في الإيجاز

فإذا اتفقت كلمة الباحثين على أن الشعر المهموس وليد طبيعة خاصة تفعل في نفس الشاعر، لا يبقى محل للنعي على الشعر في مصر، أو للقول بأن الهمس فيه فن من الفنون

إن الهمس أو الجهر في الشعر أو في غير الشعر، لا يمكن اعتباره مظهر تطور أو تأخر، لأنه لا يدل إلا على مقدار الطاقة التي بذلها صاحب الفن في سبيل التأثير في الآخرين

(بغداد)

حسين الظريفي المحامي

برنارد شو
بمناسبة بلوغه السابعة والثمانين
في السادس والعشرين من يوليو يبلغ برنارد شو عامه السابع والثمانين
وقليل من العظماء الذين يتاح لهم أن يعيشوا ليروا أسماءهم ترتفع إلى ذروة الشهرة، وبرنارد شو هو أحد هؤلاء الذين قدر لهم أن يلمسوا شهرتهم العالمية بأنفسهم، فلم تلق مؤلفات كاتب منذ شكسبير إلى الآن ما لقيته مؤلفات شو من الرواج والذيوع. فمؤلفاته تطبع منها الملايين وتمثل على أعظم المسارح وتعرض على الشاشة البيضاء في جميع أنحاء العالم
ويعتبر شو أكبر كاتب وناقد اجتماعي وسياسي وديني. ويمتاز بنظرته النافذة وأسلوبه التهكمي اللاذع وقدرته على مهاجمة النظم القائمة في إقدام وجرأة
ولد جورج برنارد شو في دبلن في أيرلندا في السادس والعشرين من يوليو عام 1856. وكان والده سكيراً لم يصادف في عمله حظاً ولا توفيقاً
ولما كان شو الصغير في الحادية عشرة أرسله والده إلى مدرسة ابتدائية في دبلن، فلم يظهر هو الآخر نبوغاً ولا تفوقاً، بل كان كما قال أرشيبلد هندرسون مصدر قلق ومتاعب لمدرسيه وشغلاً لزملائه عن الدرس، إذ كانوا يفضلون الانقطاع لسماع ما يرويه لهم من القصص على الانتباه إلى مدرسيهم
وكانت أمه - التي أخذ عنها ابنها الشيء الكثير - ذات خلق كريم وثقافة عالية، تهوى الموسيقى، وكان بيتها ومزاراً لكبار الموسيقيين في ذلك العصر وعلى رأسهم (جورج جون فاندليرلي) وكانت نشأة شو في هذا الوسط سبباً في اكتسابه كثيراً من المعلومات في هذا الفن وهيأت له جواً من الجمال والخيال
ولما بلغ شو العشرين من عمره رحل إلى لندن حيث قضى الأعوام الستة التالية في عوز وفاقة، وأوشك أن يغلب عليه اليأس، وكاد أمله في الكتاب يتحطم إذ لم يربح من إنتاجه الأدبي طوال هذه المدة سوى جنيهات معدودة
ولما كان في السادسة والعشرين استمع إلى محاضرة ألقاها الاقتصادي الكبير هنري جورج عن الملكية الزراعية بين فيها رأيه في مشاكل العالم الاجتماعية وقال إن الحل الجيد لهذه
المشاكل ينحصر في جعل الأرض ملكا مشاعاً للجميع، بينما تبقى رؤوس الأموال الأخرى في يد الأفراد. فراقت شو هذه الآراء وقرر اعتناقها، ولكن ذلك لم يدم طويلاً بل تغير حين قرأ شو كتاب كارل ماركس عن الاشتراكية والرأسمالية وقد تأثر شو بهذه الآراء إلى حد جعله يقول إن كتاب كارل ماركس هو الزي الذي خلق مني رجلاً
وما حل عام 1894 حتى كانت شهرة شو قد ذاعت، فقد أضحى بعد هذا التاريخ كاتباً قصصياً يطلع برواياته على الجمهور مصدرة بمقدمات تتضمن آراء في المسائل السياسية والاجتماعية. وإذا كانت هذه المقدمات لا تتصل في الغالب بموضوع الرواية التي تتصدرها فإنها كانت لا تقل عنها قيمة إن لم تفقها
وفي عام 1898 وهو في الثانية والأربعين من عمرهن أصيب بجرح بليغ في قدمه. وقد سهرت عليه أثناء مرضه سيدة ايرلندية، وهيأت له جواً هادئاً ومريحاً، واختصته بالجانب الأكبر من عنايتها واهتمامها. وكانت هذه الراحة والعناية سبباً في أن يطلق شو مهنته السابقة كصحفي ويتفرغ للكتابة. ومنذ ذلك التاريخ كسب شهرته كأكبر ناقد اجتماعي وسياسي وديني، وكأعظم كاتب قصصي
ولنعرض الآن لبعض آرائه
لم يرق شو رؤية الكثيرين يعانون متاعب الفقر في عالم غني بمواده وثرواته، وحاول أن يجد حل لهذه المشكلة علاجاً فرأى في الاشتراكية هذا العلاج
ويقول عنه الأستاذ جود أحد أعضاء جامعة لندن في هذا الصدد: (لقد كان برنارد شو في عام 1914 القائد الذي قادنا تحت لوائه إلى عهد الاشتراكية المنتظر، كما كان اللسان الناطق بآمال من يعتقدون هذه المبادئ)
ولما بدأت الحرب الحالية أخرج شو مؤلفه (الشعور نحو الحرب) الذي حاول أن يفسر الحرب تفسيراً على ضوء الاشتراكية، ويروي أن رؤوس الأموال مكدسة في أيدي الرأسماليين الذين يستغلون بها العمال ويستعبدونهم، فيجب أن توضع تحت رقابة الشعب.

وفي عام 1921 زار شو روسيا السوفيتية وقابل ستالين، فلما عاد إلى إنجلترا أخذ يشيد بهذا الرجل وبرجال حكومته ويقول إنهم قد وقفوا لحل المشاكل التي واجهتهم هذا طرف من آرائه السياسية. أما آراؤه الاجتماعية فتتلخص في أن ما يواجه العالم من
مشاكل يرجع في الأصل إلى النظام الرأسمالية الذي يجعل الكثرة الغالبة في أفراد قلائل يتحكمون في مصيرهم. وهو لا يلقي المسؤولية على عانق الرأسماليين وحدهم، بل يشترك معهم العمال الذين يضعفهم إنشقاقهم وافتراق كامتهم. ولعل رواية (فوق الصخور) خير معبر عن آراءه في هذه الناحية
وفي رواية (مهنة مسز وارن) يحاول أن يصل إلى أن وزر الدعارة وحياة الرذيلة إنما يلحق هؤلاء الذين كانوا سبباً في الفاقة التي تدفع المعدمين إلى مثل هذه الحياة، لأنه إنما يعملون ذلك مدفوعين إليها ومرغمين عليها لكسب قوتهم. ويردد شو دائماً أن (لا جريمة إلا الفقر)
وتحمل كتابات شو كثيراً من المتناقضات، فنراه يعترض على الغبن الذي يقع على العمال، ولكنه في الوقت نفسه يقر هذا الغبن إن كان لمصالح الإمبراطورية البريطانية. ونراه في قضية أيرلندا يقف إلى جانب بريطانيا مع أنه أيرلندي النشأة ومع اعتزازه بها. وبينما يتهم شو الإنجليز ويعيب عليهم عسفهم في مذبحة دنشواي، نراه يعضدهم ويؤازرهم في اضطهادهم للبوير أثناء حرب جنوب إفريقيا
وبرنارد شو مقتنع بأن الكثيرين يخالفون مذاهبه وآراءه ويقفون دونها؛ وفي هذا يقول في إحدى مقدماته: (إذا نطقت بكلمات تافهة تحت تأثير فكرة أو عاطفة سرت في صحف العالم سريان البرق؛ أما إذا قلت خلاف ما يريد الرأسماليون كان صدى قولي صمتاً وسكوناً).

محمد شاهين الجوهري

بكالوريوس في الصحافة

صورة من الأدب التركي

قبر من الأوحال

للكاتب التركي خالد ضيا

بقلم الأستاذ برهان الدين الداغستاني

قد مضى عليه الآن بعض سنوات وهو يخرج كل صباح حاملاً هذه الرسائل التي تملأ حقيبته
أنه تعب من هذه الحياة، وسئم جر ساقيه المتعبتين من كثرة المشي من إفريز إلى إفريز يتلمس الأبواب
نعم بلغ به الملل والسأم الآن حد النفور من توزيع هذه المزق من الأوراق التي تأتي من كل ركن من أركان العالم وتقتضيه الجولان من شارع إلى شارع ومن باب إلى باب
مضى عليه الآن أمد طويل وهو على حاله هذه: يحترق تحت أشعة الشمس اللافحة وتكاد أنفاسه تتقطع من حر السموم التي تقذف باللهب كأنها فيح جهنم
وفي الشتاء يتلقى ميازيب السماء التي تغسله من فرقة إلى قدمه. ويجر رجليه اللتين كاد يفتهما البرد وسط الأوحال
إنه كره التسكع في أزقة هذه المدينة العظيمة التي لا حصر لها. كما كره منظر حقيبته التي لا تفارق جنبه. نعم إنه سئم السير آلاف الخطوات كل يوم ليوصل الأخبار إلى هذا وذاك
سنين. . .! إن سلسلة أيام هذه السنين الطويلة الخالية من الإنصاف قد مرت عليه وهي تنزل به الضربة تلو الضربة في كل يوم. وتحطم آماله وتهدم صرح أمانيه وتدفنها في الرغام. مسكين! إنه لا يكاد يجد بعض الراحة والهدوء لأعصابه المحطمة في ظلمة الليل حتى تقول له الشمس التي تشرق في مطلع كل نهار:
إنك اليوم أيضاً - كما كنت أمس وكما كنت في كل الأيام الخالية - موزع بريد وستبقى (كذلك ما دمت حياً)
آه من هذه الحياة المريرة التي حكم عليه أن يقضيها متسكعاً الساعات الطوال ليجد

شخصاً من الأشخاص، يبحث عن أرقام المنازل تارة، ويسأل أصحاب الدكاكين والحوانيت عن
اسمه تارة أخرى. ويسير بخطوات مضطربة في منحنيات هذه الشوارع والأسواق التي لا نهاية لها
هاهو ذا قد ثارت ثورته على الحياة وانفجر بركان نقمته من جراء هذا المطر الغزير الذي لا يرحم، والذي ألصق أثوابه المبللة بعظامه ونفذ من حذائه الممزق إلى جواربه
إنه لم يرى حاجة إلى الاحتماء في مكان ما ولم يحاول الهرب من هذا المطر المنهمر
وكأنه يريد مطاردته - حتى يخفف بعض أذاه عنه. بل جلس على حافة أحد تلك الحوانيت المغلقة وأخذ يتأمل هذه الطبيعة الثائرة. هذا الشارع الذي يخيل لناظره - من هول المطر وشدته - أنه أمام نهر من أنهار جهنم إبان فيضانه. هذه الأوحال التي تغلي وتقذف بحباب أسود من شدة وقع قطرات المطر. وبينما هو في تأملاته رأى أولئك الذين يسيرون في سكون ودعة مستظلين بمظلاتهم من غير أن تلوث الأوحال أرجلهم، ولا أن تبلل الأمطار أثوابهم. ثم رأى تلك السيارات التي تشق الأوحال وتسير مندفعة كالسيل. لا جرم أن المطر لم يكن له أثر بالنسبة إلى هؤلاء وأولئك. إن أصحاب هذه المظلات وإن أرباب هذه السيارات هم أصحاب هذه الرسائل التي تملأ حقيبته. من يكون هو وما قيمته ومقداره بين هؤلاء وأولئك في وسط هذه الحياة الصاخبة؟ هل جاء إلى هذه الدنيا لمجرد حمل رسائل هؤلاء السادة وتبليغها إليهم؟
إنه لم يعد ينظر إلى الشارع وما فيه، بل حول نظره إلى قطرات الماء التي كانت تتساقط حوله من أطراف ملابسه الممزقة، والى حذائه الذي يخيل لرائيه أنه ينتحب تحت نقاب من الطين!. . .
آه من هذه الرسائل! هذه الأشياء التي تأتي من أي إنسان وتذهب إلى أي إنسان!. . .
كان المسكين في حاجة ملحة إلى رسالة من هذه الرسائل، لأنه لم يتلق رسالة خاصة مدة حياته كلها، بل كان مكلفاً برسائل الآخرين فقط. كان وحيداً لا أهل له ولا أقرباء فأنى له بكتاب يأتيه أو ينتظره؟
وكان كلما فتح هذه الحقيبة التي تملأ كل يوم وتفرغ أو أقفلها أرسل من أعماق قلبه آهة حزينة طويلة. كان يتحسر على هذه الأشياء التي تمر بين يديه كل يوم من سنين طويلة ويتحرق شوقاً إليها. ماذا كان يحصل لو أن أحد هذه الرسائل ـ في الفينة بعد الفينة ـ
كان باسمه وله خاصة؟ لا جرم كانت تكون نوعاً من التسلية تخفف بعض أعباء الحياة عن كاهله
ماذا في هذه الرسائل، وما هي الأسرار التي تخفيها في طياتها؟ إنه يعرف سيدة تنتظره دائماً في مدخل منزلها في زقاق بعيد طويل، لأنها كانت تتلقى رسائل من ولدها
ويعرف فتاة في كلية الطب تأخذ كل أسبوع ثلاث. أو أربع رسائل دفعة واحدة. وكان يراها دائماً تسارع إلى غلاف ارجواني وتفضه دون بقية الرسائل ويداها ترتعشان.
وعلى مر الأيام ألف هذه الرسائل وكسب شيئاً من المرانة من طول التكرار وكثرة الممارسة، فأخذ يفهم أسرارها ومحتوياتها المختلفة، فكان يعرف مضامينها من خطوطها تارة ومن أسماء أصحابها تارة أخرى. ومن ألوان أغلفتها والروائح المنبعثة من أوراقها المعطرة في بعض الأحيان
نعم بدأ يعرف هؤلاء الذين يتبادلون الرسائل فيما بينهم، أولئك الآباء والأبناء والأزواج والزوجات
وهؤلاء الشبان من الفتيان والفتيات الذين يتبادلون عواطف الحب ويتساقون أكؤس العشق والغرام
نعم أخذ يفهم أولئك الذين يمرون أمامه بمظلاتهم وسياراتهم من غير أن يكونوا مثقلين مثله بحقائب مملوءة برسائل الآخرين. . .
كان يفهم كل السادة أصحاب هذه الرسائل اللعينة وكان في نفس الوقت يشعر شعوراً قوياً بأنه الوحيد الذي لاحظ له من نعيم ولا نصيب من راحة وسط هذا العالم الصاخب وبين هؤلاء السادة المترفين المنعمين
كان بائساً حقاً. فلم يكن له أن ينتظر وصول رسالة باسمه من أحد في يوم من الأيام

وعند ما وصل إلى هذا الحد من تأملاته وخواطره كان المطر لا يزال يتساقط بشدة فوق طربوشه المبلل وتنحدر قطراته إلى وجنتيه فتملك هذا الموزع المسكين البائس هذا القلب الحزين. هذا الذي فقد كل أمل في الحياة تملكه شعور قوى من اليأس العميق والألم المبرح والحزن الشديد. وتمنى لو يستطيع اقتلاع هذه الحقيبة التي تحفظ رسائل الآخرين من على عنقه وقذفها في الهواء. هذه الحقيبة المعلقة برقبته بسلسة لا تطاق كأنها - لثقلها - تريد
أن تجتذب رأسه إلى أسفل حتى تلصقه بالأرض
. . .!إنه يتمنى أن يدوس هذه الحقيبة برجليه حتى تتمزق إرباً إرباً وتنسحق سحقاً
وبعد ذلك يرجو - لينال بعض الراحة - أن ينغمس في هذه الأوحال التي تنشق كالقبر ثم تلتئم كلما خاضها خائض.
نعم هنا وفي هذه الأوحال يريد أن يمد رقبته تحت عجلات السيارات ويموت
يريد أن يدفن في هذه الأوحال
إنه يتمنى قبراً من الأوحال
برهان الدين الداغستاني
نهاية موسوليني
للأستاذ علي محمود طه
نبأ في لحظة أو لحظتين ... طاف بالدنيا وهز المشرقين
!نبأ، لو كان همسَ الشفتين ... منذ عام، قيل إرجافٌ ومَيْن
وتراه أمة بالضفتين ... إنه كان جنين (العلمين)
موسولين! أين أنت اليوم؟ أين؟ ... حلم؟ أم قصة؟ أم بين بين؟
قَصْرُ (فينسيا) إليكَ اليوم يُهدِي ... لعنةَ (الشرفة) في قربٍ وبُعْدِ
عجباً! يا أيُّهذا المتحدِّي ... كيف سامك سقوط المتردِّي
:إمبراطورك في هَمْ وسُهدِ ... صائحاً في ليلهِ لو كان يُجْدِي
أين يا (فاروسُ) ولّيت بجُندي؟ ... أين ولّيْتَ بسلطاني ومجدي؟
أعتزلت الحكم؟ أم كان فراراً ... بعد أن ألفيْتَ حوليْكَ الدمارا
سقت للمجزةِ الزغب الصغارا ... بعد أن أفنيت في الحرب الكبارا
يالهم في حومة الموت حيارى ... ذهبوا قتلى وجرحى وأسارى
يملأون الْجو في الركض غبارا ... وقبوراً ملأوا وجه الصحاري
أعلى (الصومال) أم (أديس ابابا) ... ترفع الراية، أم تبنى القبابا
أم على (النيل) ضفافاً وعبابا ... لمحت عيناك للمجد سرابا
فدفعت الجيش أعلاماً عجابا ... ما لهذا الجيش في الصحراء ذابا؟
بخرته الشمس فارتد سحابا ... حين ظن النصر من عينيه قابا
يا أبا (القمصان) جمعاً وفرادى ... أحَمَت قمصانك السود البلادا؟
!لم آثرت من اللون السوادا؟ ... لونها كان على الشعب حدادا
جئت بالأزياء تمثيلاً معادِا ... أي شعب عز بالزي وسادا
إنه الروح شبوباً واتقادا ... لا اصطناعاً بل يقيناً واعتقادا
موسوليني قف على أبواب روما ... وتأملها طلولاً ورسوما
قف تذكرها على الأمس نجوما ... وتَنَظَّرْها على اليوم رجوما
أضرمت حولك في الأرض التخوما ... تقتفى شيطانك الفظ الغشوما
أوكانت تلك (روما) أم (سدوما) ... يوم ذقت بخطاياك الجحيما؟
هي ذاقت من يد الله انتقاما ... لأثام خالد. عاماً فعاما
يوم صبت فوق بيروت الحماما ... لَم تذر شيخا ولم ترحم غلاما
من سفين يملأ البحر ضاما! ... ذلك الأسطول كم ثار احتداما
أين راح اليوم؟ هل رام السلاما؟ ... أم على الشاطئ أغفى ثم ناما؟
أي عدوان زرِي المظهر ... بدم قان ودمع مُهْدَر
حين طافت بحمى (الإسكندر) ... أجْنح من طيرك المستنسِر
تنشر الموت بليل مقمر! ... يا لمصر! أترى لم تثأر
!بيد المنتقم المستكبر؟ ... أترى تذكر؟ أمُ لم تذكر؟
موسليني لست من أمس بعيدا ... فاذكر (المختار) والشعب الشهيدا

هو روح يملأُ الشرق نشيدا ... ويناديك ولا يألو وعيدا
موسليني خذ بكفيك الحديدا ... وصغ القيد لساقيْك عتيدا
أو فضع منك على النصل وريدا ... فدمي يخنقك اليوم طريدا
علي محمود طه
البريد الأدبي
القصة والتجديد
أردت أن أبعث الفعل (خرف) الذي اشتقه الإمام ابن حزم من (الخرافة) أي الأسطورة أو ممن انتسبت إليه أعني المسمى (خرافة) فقلت فيما قلت:
وإنما عنيت (إن هذا الزمان وكتاب القصة المخرفين فيه في حاجة إلى التخريف) الحداث (الذين يحكون، يقصون) واحتياجهم إلى هذا الفعل. ولقد خشيت أن يظن أني أحقر في هذه الجملة (القصة) وأنتقص كتابها، وأني أنكر (تجديداً) في الأدب. فليعلم أني لا أمقت القصة بليغة مرصنة، لا أمقتها ولا أكره التجديد مجوداً. فمن قص وجدد وأحكم وأفاد وهدى وجود تقبلت العربية قصصه، ورضى الناقدون عن تجديده. ولم أستحدث في هذا الوقت في هذا الباب لي مقالة، فمذهبي (في المجدد، في التجديد مع التجويد) اليوم هو مذهبي في الأمس. وفي خطبتين أو رسالتين قديمتين كلام واضح مفصل، والحق لا يتحول، الحق مثل ذي الخلق المتين وذي العقيدة - لا يتبدل.
إلى الأستاذ دريني خشبة
سيدي: قرأت مقالكم العظيم المنصب في بحثه على المذهب (التعبيري) في ألمانيا، ولقد راعني أيها الفاضل أنكم تكررون لفظة (التعبيريين) في مقالكم كترجمة للفظ الإنجليزي واللفظة الإنجليزية جمع لاسم الفاعل من الفعل واسم الفاعل في اللغة الإنجليزية يصاغ بطريقتين: الأولى: من الفعل بزيادة في آخر الفعل؛ والثانية: من الاسم بزيادة والأولى مطردة، والثانية سماعية، قياسية في بعض الأسماء، وعلى هذا فالترجمة الصحيحة للجمع هي: (المعبرون - المتكلمون)، لا كلمة (التعبيريين - الكلاميين)، لأن كلمة (تعبيري) كلامي منسوبة إلى كلمة (تعبير والمنسوب كما تعلمون في القاعدة العامة، ما لحق آخره ياء مشددة مكسور ما قبلها للدلالة على نسبة إلى المجرد منها للتوضيح أو التخصيص، (والمعبر - المتكلم اسم فاعل من العبارة بزيادة في المثنى والجمع.
عبد الله الملحوق
أخطاء في كتاب الإمتاع والمؤانسة
كنت أطالع الجزء الأول من كتاب (الإمتاع والمؤانسة) فعنت لي بعض ملاحظات أذكر طرفاً منها فيما يلي:
1 - جاء في ص117 س17: (. . . ومثل هذا كثير، وهو كاف في موضع التكنية)، ويقول المصححان للكتاب إن (التكنية) كانت في الأصل (التبكيت) وهو تحريف لا يستقيم به المعنى فلذلك غيراه إلى (التكنية). ولكن الواقع أن عبارة الأصل هي الصواب، لأن التبكيت هو أن يغلب الإنسان خصمه بالحجة، ومن العبارات الجارية قولهم: (بكَّته حتى أسكته). وفضلاً عن هذا فقد وردت هذه الكلمة بعد ذلك بقليل في كتاب الإمتاع ص119 س15
2 - جاء في ص149 س6: (. . أعني أن كل ما يدور عليه ويحور إليه مقابل بالضد)، وفي الأصل (يجوز عليه) فرفض الناشران رواية الأصل، ولكن الصواب أن تثبت؛ لأن كلام التوحيدي في هذا الصدد ينصب على الفلسفة الخلقية ولذلك فقد استعمل فيه تعبيرات فلسفية. ومن الشائع في الفلسفة قولهم يجوز عليه التغير، أولا يجوز عليه التغير. (أنظر (الانتصار) للخياط (مثلاً) ص162 س18، ص170 س5 الخ)
3 - ويقول وفي ص155 س7: (وللرأي والعقل فيهما مدخل قوي وحظ تام) المصححان الفاضلان إن (العقل) هي في الأصل (العقد) ونقول إن (العقد) صحيحة، وهي من الكلمات المستعملة في الفلسفة الإسلامية، فلا موجب لرفضها. . . يقول ابن سينا في إلهيات (الشفاء): إن الحق يفهم منه الوجود في الأعيان مطلقاً، ويفهم منه الوجود الدائم، ويفهم منه حال القول أو العقد. ومعنى العقد في عبارة ابن سينا الاعتقاد أو التصديق، وأظن أن الاعتقاد (أو العقيدة كما نقول أحياناً) من الألفاظ التي يمكن أن توضح إلى جوار لفظ (الرأي) (كما فعل الأستاذ أحمد أمين نفسه في مقالة

الرأي والعقيدة بكتابه فيض الخاطر ج1)
وفي ص159 س3: (وإذا غلبت عليه اليبوسة يكون صابراً. . . يضبط ويحتد)، - 4
ويقول المصححان الفاضلان إن يحتد أصلها يحقد، ونقول إن الأصل هو الصواب وإنهما أخطأا في التصحيح؛ لأن المراد أن الإنسان إذا غلب عليه مزاج (اليبوسة) فإنه في هذه الحالة يضبط نفسه ويكظم غيظه أو حقده (دون أن يحتد أو يظهر غضبه)
وفي ص219 س3: (لذلك عرفت الحكمة في الكائنات الفاشيات) ويقول - 5
المصححان إن (الفاشيات) هي في الأصل (الفاسدات) ونقول إن عبارة الأصل هي الصواب: (أنظر ص220 س12)، والفاشيات هنا لا معنى لها
هذه هي بعض الملاحظات التي عنت لي أثناء قراءتي للجزء الأول من كتاب (الإمتاع والمؤانسة)، وكلها تندرج تحت ضرب واحد من ضروب التصويب هو العودة إلى رواية النص إذ لا موجب لرفضها والتحكم في لغة الكاتب الأصلي. أما الملاحظات الأخرى التي طويتها عن القراء فهي أدخل في باب الذوق والاجتهاد، وليس هذا مجالها
(مصر الجديدة)
زكريا إبراهيم
العدد 527 - بتاريخ: 09 - 08 - 1943
النظام والتربية القومية
للأستاذ عباس محمود العقاد
عاقبة موسليني السياسية لا تعنينا في هذا المقال، لأن لها مجال غير هذا المجال، وإنما تعنينا هذه العاقبة هنا من حيث تتصل بالفلسفة الاجتماعية ومذاهب التربية القومية، لأنها من هذه الناحية قد شغلت أناساً لعلهم مخلصون في نياتهم وتفكيرهم ولعلهم لا يخدمون غرضاً من الأغراض الموقوتة بما اعتقدوه ونزعوا إليه، ترسما الخطوات موسليني، ثم خطوات التابعين له في مضمار السلطان والاستبداد
بعد قيام النظم الفاشية في إيطاليا كثر القائلون بفائدة هذه النظم للأمم التي أصابها الانحلال على التخصيص، وجنح بهم إلى هذا القول أن الفاشية ظهرت في زمن خيفت فيه أخطار الشيوعية أشد خوف، فجعاها بعض الباحثين الاجتماعين (جبيرة) لعظام الأمم المهيضة التي يخشى أن تصاب في حياتها القومية، فتنقلب من الإيمان بالوطن إلى الإيمان بالشيوعية
وكان هذا وهما من الأوهام
لأن النظام وحده لا يخلق القوة، وطنية كانت أو غير وطنية والنظام وحدة لا يجبر كسر الانحلال إذا كانت له أسبابه المتغلغلة في تكوين الأمة
فالسجناء أكثر الناس نظاماً في معيشتهم المفروضة عليهم، لأنهم ينهضون من النوم في موعد، ويأكلون الوجبات الثلاث في موعد، ويخرجون إلى الرياضة في موعد، ويذهبون إلى النوم في موعد، ويتناولون من طعام واحد ويلبسون من نسج واحد وزي واحد، ويزاولون عملا واحداً في مكان واحد، ولا يأتون بحركة من الحركات العامة إلا على نظام مفروض لا اختلال فيه
فلا يطمع أحد في بلوغ النظام بين جماعة الناس مبلغاً أدق وأوفى من مبلغه بين جماعات السجناء في العالم بأسره
ومع هذا لا يتخذهم أحد من الباحثين ولا غير الباحثين قدوة في أخلاق اجتماعية ولا أخلاق فردية، ولعلهم على نقيض ذلك مثل فيما يحذره الباحثون وغير الباحثين من مساوئ الأخلاق؛ لأن النظام وحده لا يغني في تقويم فرد ولا في إصلاح جماعة. ولابد مع النظام
من عقيدة صالحة لإحياء القوى الإنسانية.
فهل كانت للفاشية هذه العقيدة الصالحة؟
كلا!
والاكتفاء بالنتيجة هنا أقرب وأجدى من متابعة الأقوال الفاشية والعقائد الفاشية والتعليقات الفاشية التي ملئوا بها المجلدات الضخام على غير طائل
فالنتيجة أن الفاشية ما تكن قط جبيرة لخلق مهيض، ولم نعلم جباناً واحداً كيف يصبح من الشجعان وذوي البسالة والمفاداة
فبعد تربية طويلة تبتدئ من الخامسة إلى العشرين لم يزل الجبناء الأولون على جبنهم

القديم يفرون من الميدان بعد الصدمة الأولى، وقد يفرون منه قبل اللقاء
فالحركة الفاشية مفلسة في العقيدة التي تجبر كسر النفوس أو تبعتها من جديد في
حياة جديدة، وهي لا تزود أصحابها بشجاعة أدبية أو شجاعة عسكرية، ولا تبث فيهم
الإيمان الذي يغلبون به الجبن ويأنفون من عار الفرار
لأنها عقيدة تليق بالحيوان ولا تليق بالإنسان
أو لأنها عقيدة ترجع بالإنسان إلى الوراء وتلغي ما عمل لنفسه أو عملته له الطبيعة
عشرات الألوف من السنين
فهي عقيدة قائمة على تقديس السلطة الفردية، وتقديس القوة المادية التي تشبه
القوة الحيوانية، وكلاهما شوط تجاوزه الإنسان منذ أجيال، ولم يتجاوزه عبثاً ليعود إليه
بعد هذا الطواف الطويل
بل نحن نؤمن أن تقديس السلطة الفردية لم يوجد قط في أبعد العصور الهمجية فضلاً
عن عصور الحضارة والنور
لأن السلطة لم تقم قط على إرادة فرد من الأفراد باعتباره فرداً من الأفراد، وإنما
كانت تقوم على إرادته لأنه يمثل إرادة الأرباب التي تؤمن بها الشعوب، وكان الكهان
هم الذين يترجمون الإرادة الإلهية فتصبح هي إرادة الشعب من هذا الطريق
فالسلطة الفردية - حتى في أبعد العصور الهمجية - لم تكن خلوا من الاعتراف للأفراد
بحرية اختيارهم لمن يحكمونهم، وهي - أي السلطة الفردية - خليقة من أجل ذلك أن
تفشل في خلق العقيدة الصالحة بها بين أهل الحضارة من أبناء الزمن الحديث
أما الإيمان بالقوة المادية - قوة السيف والنار - فهو شوط تجاوزه الناس كذلك منذ
عهد بعيد
تجاوزوه منذ عرفوا كلمة الحق أو عرفوا كلمة العدل بين الأقوياء والضعفاء
وقل ما شئت في (الحق) أنه كلمة من الكلمات
وقل ما شئت في (العدل) أنه لفظ من الألفاظ
فمهما يقل القائلون في ذلك فالواقع الذي لا شك فيه أن الناس عرفوا كلمة (الحق)
بعد أن جهلوها
فلماذا كانت هذه المعرفة وكيف جاءت إلى الألسنة أو إلى الضمائر؟ ولماذا لم تظل
كما كانت مجهولة لا يفهم الناس منها هذا المعنى الذي يفهمونه الآن؟
أعن حاجة عرفوها أم عن غير حاجة إليها؟
إن كانوا قد عرفوها عن حاجة إليها فالويل لمن ينكرها ويقف في طريقها. وغير عجيب
إذن أن تحق الخيبة على الفاشيين لأنهم يعارضون التيار الذي يندفع إليه الإنسان بوحي
من طبائع الأشياء
أما أن الناس قد اخترعوا كلمة الحق وتشبثوا بها لغير حاجة إليها ولا لأنها تمثل شيئاً
قائماً في الحياة الإنسانية فهذا عجب لا يصدقه عقل عاقل. ولنا حين يزعمه الزاعمون
أن نسأل: ما بال أنصار القوة المادية يكتبون ويصنعون ما يصنعون وينفقون الملايين
فوق الملايين ليثبتوا أنهم على الحق وأن خصومهم هم المبطلون؟
إن وهماً من الأوهام التي لا حاجة إليها لن يستحق كل هذا العناء ولا بعض هذا العناء
ولقد كانت القوة المادية أقدم شيء عرف في هذه الدنيا، وكانت بين أيدي الناس
يستطيعون أن يعبدوها كما يشاءون وأن يؤمنوا بها كما يحبون، فلو كان في الإيمان بها
غنى عن غيرها لما تركها الناس ليتحولوا إلى كلمة جوفاء أو إلى خيال ليس له قوام
إن الذي يدين بها بعد أن عرف كلمة الحق لا يفهم معنى ما يقول
والفاشيون لا يفهمون معنى ما يقولون، بل لا يفهمون معنى ما يصنعون، سواء رجعت
من قبل إلى الرأي والبرهان أو رجعت الآن إلى الوقع والعيان
إنهم يقفون في وجه التيار
ومن وقف في وجه التيار أضاع الحق وأضاع القوة المادية معه، إذ ليس في الأرض
قوة مادية تقاوم التيار الذي تندفع به طبائع الأشياء.
ومن مبادئ السخف التي يبشر بها (الفلاسفة) الفاشيون أن الإخاء العالمي خرافة لا
يرجى لها تحقيق، وأن الحقيقة التي قامت ولن تزال قائمة في كل زمان هي سيادة
شعب على سائر الشعوب
والعجب أن سيادة شعب على سائر الشعوب هي الخرافة التي لم تصدق قط في زمن

مضى، ولن تصدق يوماً في زمن مقبل؛
والناس لا يملكهم واحد ... مهما علا في ملكه واستطال
كما قلنا في أعقاب الحرب الماضية متخذين العبرة منها ومن حوادث التاريخ التي تقدمتها. وأن العبرة بهذا كله لأولى أن تتخذ من حوادث الحرب الحاضرة والحوادث التي تليها، ولما تزل في عالم الغيب
فالعالم لم يحكمه المصريون كله، والرومان لم يغلبوا قرطاجة حتى تصدى لهم من الشرق من ينازعهم، ثم تصدى بعضهم لبعض فانقسموا على أنفسهم. وهكذا حدث لمن بعدهم حينما ظهرت في العالم قوة تنذر بالسيادة عليه
فالسيادة العالمية هي المذهب الذي شاخ ولم يثبت له وجود
والإخاء العالمي - أو على الأقل تمرد العالم على الخضوع لحكم واحد - هو المذهب الصادق الذي سبقت به البشائر وآذن في هذا العصر بمولود مرتقب
نعم إن الإخاء العالمي كلمة قديمة، ولكن الوحدة العالمية لم تصبح حقيقة من الحقائق الملموسة قبل هذا الجيل
ففي هذا الجيل الذي نحن فيه تقاربت أجزاء العالم حتى تسنى لمن في الشرق الأقصى أن يسمع من في أقصى المغرب بإدارة لولب
وفي هذا الجيل تم السفر من أطراف العالم إلى أطرافه في أقصر من الوقت الذي كان أبناء القطر الواحد يسافرون فيه من إقليم إلى إقليم
وفي هذا الجيل أوشك الناس أن يتعاملوا بعملة مشتركة وأن يعتمدوا على سوق واحدة أو
أسواق كأنها اجتمعت في سوق
وفي هذا الجيل أصبح الخطر من العدوان على أمة خطراً على الأمم كافة، يتبينه الغافلون عنه بعد فترة تحسب وبالشهور وقد تحسب بالأيام
فالوحدة العالمية الآن مولود مرتقب يستقبل الحياة ليدرج من الطفولة إلى الفتوة والذي شاخ وعفى عليه الزمان هو سيادة شعب على سائر الشعوب، أو هو استسلام العالم الحاكم واحد متفق عليه، كأننا ما كان الحاكمون
والفاشيون هم أصحاب أقدم كلام قيل ووجب أن يتبدل لأنه قد شاخ وهجره الناس والتفتوا إلى غيره وأوشكوا أن يحققوا ما التفتوا إليه
ولذلك فشلوا ويفشلون
وهذه هي عبرة الخاتمة التي ختمت بها دعوة موسليني ثم ختم بها حكمه، وأنها لتساوي في حساب الإنسانية ثمنها المجموع من الدماء والأرواح، إذا هي حرصت عليها وفزعت من التجربة فيها.

عباس محمود العقاد

الصيد في الأدب العربي

للدكتور عبد الوهاب عزام

أريد في هذا المقال التنبيه إلى موضوع من موضوعات أدبنا لا أعرف له نظير في الآداب الأخرى، موضوع يجمع بين أوصاف الطبيعة وأعمال الفروسية، وحركات الرياضة، ويعرضها صوراً متتابعه كأنها مناظر السماء. ذلكم الصيد كما وصفه شعراؤنا وكتابنا منذ عصور الجاهلية. وسأعرض في هذه الصفحات صورة منه مجملة

عرفت الأمم كلها الصيد في بداوتها وحضارتها يدعوهم إليه ضرورات العيش وحاجاته، ليأكلوا لحم الحيوان ويتخذوا جلده ألبسة وأدوات ويسخروه في منافعهم، ويدعوهم كذلك إليه اللهو والمتاع. والأمم فيه مختلفة اختلاف أراضيها واختلاف أطوارها في الحضارة، وله في تاريخ الأمم فصول طويلة لسنا في مقام بيانها وللفرس صلة الجوار والمخالطة بالأمة العربية؛ فقد عنى العرب بذكر ما أثر عن الفرس من رسوم الصيد وأخباره فوصلوه بالأدب العربي؛ فلا بأس أن نخصهم بكلمة قبل الإبانة عن موضوعنا:
قال الجاحظ: (وزعموا، وكذلك هو في كتبهم، أن ملوك فارس كانت لهجة بالصيد، إلا أن بهرام جور هو المشهور بذلك في العوام. . .
قالوا: وكان الملك منهم إذا أخذ عيرا أخدريا، فإذا وجده فتيا وسمه باسمه، وأرخ في وسمه يوم صيده وخلى سبيله. وكان كثيراً إذا ما صاده الملك الذي يقوم بعده سار فيه

(مثل تلك السيرة وخلى سبيله. فعرف آخرهم صنيع أولهم، وعرفوا مقادير أعمارها ولبهرام جور سيرة في الصيد ذائعة، وقد أضيف اسمه إلى حمار الوحش وكان كلفا بصيده. وهو بالفارسية (كور) فعرب إلى جور. وكان لسيرة بهرام في الصيد وما أثر عنه من العجائب أثر في الأدب الفارسي والتصوير، فكثيراً ما وصف الشعراء وصور المصورون بهرام في أحوال مختلفة من مطاردة الحمر الوحشية والغزلان. وإذا عرفنا أن الروايات الفارسية مجمعة على أن بهرام نشأ في الحيرة بين العرب وتأدب بآدابهم، وجدنا في سيرته صله أخرى تصل الصيد عند الفرس بالصيد عند العرب

للعرب في البوادي وفي البراري المتصلة بالمدن والقرى ولع بالصيد منذ عصور الجاهلية. وقد عنى شعراء الجاهلية بوصف الصيد، أدواته وحيوانه وحركاته. فأما أدواته فالقسى والسهام والشباك والحبائل وغيرها. وأما الصيد فكل دابة وطائر، ولكن معظم عنايتهم كانت مصروفة إلى الحيوان الكثير اللحم. فعنوا بحمر الوحش وبقره والغزال. وضربوا المثل بحمار الوحش فقالوا:

(كل الصيد في جوف الفرا)

ولسنا في حاجة إلى ذكر طرف مما وصفوا به الخيل أو القسى والسهام، فقد كانت حاجتهم إليها شديدة في الدفاع عن أنفسهم فوصفوها في مقامات مختلفة أوصافا ذائعة معروفة

وإنما أذكر من الحيوان الذي يصاد به، الكلب. وقد افتن العرب في تعليم الكلاب ووسمها، ووصفوها وصنفوها ونسبوها وسموها. قال الجاحظ: (ولكرامها وجوارحها وكواسبها وأحرارها وعتاقها أنساب قائمة، ودواوين مخلدة، وأعراق محفوظة، ومواليد محصاة، مثل كلب جذعان، وهو السلهب ابن البراق بن وثاب بن مظفر بن محارش. وقد ذكر العرب أسماءها وأنسابها). وقال في موضع آخر: (والكلاب أصناف لا يحيط بها إلا من أطال الكلام. وفي الجزء الثاني من كتاب الحيوان فصل طويل عنوانه: (صفة ما يستدل به على فراهة الكلاب، وشياتها وسياستها). وفي هذا وغيره مما نقل عن العرب دليل على عنايتهم بالصيد وكلابه عناية كبيرة. وقد أثبت الجاحظ في الجزء الثاني من الحيوان قصيدة لمزرد بن ضرار فيها أسماء الكلاب وأنسابها وأوصافها. وسيمر القارئ بنبذ في وصف الكلاب أثناء وصف الصيد

وقل أن نجد في الشعر الجاهلي وصف الصيد في قصائد خاصة به كالطرديات التي ذاعت في العصور الإسلامية؛ ولكن يذكر حين تذكر الفروسية والشجاعة، وحين يذكر الشباب ولهوه. وعجيب أن أكمل الصور في وصف الصيد جاءت استطراداً في وصف الإبل؛ يذكر الشاعر السفر ويصف ناقته فيشبهها بحيوان سريع قوي كحمار الوحش وثور الوحش، وأحياناً يشبهها بالغزال والنعامة. ولا يكتفي بهذا التشبيه حتى يصف هذا الحيوان القوي السريع وهو يعود فزعاً من الصيادين فيصف ما يقع بين الصيادين وكلابهم وبين الحمار أو الثور. وقد ألف شعراء الجاهلية هذا الوصف حتى توسلوا إليه بالصلات

الضعيفة وأطالوا فيه على غير ما ينتظر القارئ أو السامع

وأمرؤ القيس أكثر الجاهليين وصفاً للصيد استقلالاً غير استطراد في وصف الإبل. ولكنه يجمع بين وصف الصيد ووصف الحصان الذي يصيد عليه. ومن هذا قوله في المعلقة:

وقد أغتدي والطير في وكناتها ... بمنجرد قيد الأوابد هيكل

ويصف حصانه إلى أن يقول:

فعنَّ لنا سِرب كأن نعاجه ... عَذاري دَوار في الملاء المذّيل

فأدبرن كالجزع المفصَّل بينه ... بجيد مُعم في العشيرة مخُول

فألحقنا بالهاديات ودونه ... جَوا حرها في صَرّة لم تَزّيل

فعادى عداءٌ بين ثور ونعجة ... دراكا ولم يَنضِح بماء فيُغسل

وظل طهاة اللحم ما بين مُنضج ... صفيف شِواء أو قَدير مُعجَّل

يصف صيد بقر الوحش. والبقر الوحشي أشبه بالغنم منه بالبقر الأهلي؛ ولهذا سميت الأنثى نعجة. وقال امرؤ القيس: وعادى عداء بين ثور ونعجة. وقد شبه شرب البقر بعذارى غليها ملاء تجر ذيوله ويدرن حول صم؛ ثم شبهها حينما ارتاعت بالجزع المفصل

لاختلاف ألوانها. وقال أن الحصان لسرعته أدرك الهاديات أي السابقات منها وترك المتأخرات حيارى لها صياح فأدرك ثوراً فنعجة ولم يعرق. وعكف الطهاة على اللحم، منهم منم يشوي، ومنهم من يطبخ في قدر

وقد أجمل وصف الصيد في قصيدة أخرى إذ قال:

وقد أغتدي والطير في وكناتها ... لغيث من الوسمّى رائده خال

ومعظم الشعراء الآخرين يستطردون في وصف الناقة إلى تشبيهها ببقرة وحشية أو حمار في قوتها وسرعتها، ويصفون الحيوان المشبه به في حال ذعره من الصيادين حين لا يدخر قوة ولا إسراعاً للنجاة. ويجمع الشاعر أحياناً بين تشبيه الناقة بالحمار وتشبيهها بثور الوحش، وبصور حال كل منهما حين يروعه الصيادون كما فعل لبيد في المعلقة. وقد ألف الشعراء هذا الاستطراد حتى سار عليه أبو ذؤيب الهذلي وهو يرثي أولاده فقال إن الدهر لا يبقى على حدثانه ثور الوحش ولا حماره. واستطرد فوصف كيف انتهى الجلاد بين الحمار والصيادين بأن أصابه سهم أرداه، وكيف كان العراك بين الثور وكلاب الصيد فقتل

بعضها حتى أدركها صاحبها فرمى الثور بسهم قتله.

(للكلام صلة)

عبد الوهاب عزام

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

الوساطة بين الدكتور طه والأستاذ المازني - عناصر الهجوم - كلمة الدكتور طه - حل الألغاز - غمزات الدكتور طه - الدكتور طه في الأعمال الحكومية والأدبية - المازني ضحية الأدب، ولكنه لن يضيع - كلمه صريحة إلى الدكتور طه حسين

الوساطة بين الدكتور طه والأستاذ المازني

لم يعد القراء يلتفتون إلى ما يقع في الجرائد اليومية من المصاولات الأدبية، فقد صنعت أزمة الورق في صد الجرائد عن الآداب والفنون، وبهذا أصبح مجال الأدب مقصوراً على المجلات الأدبية، فمن الخير أن نحدث قراء الرسالة عما يفوتهم الاطلاع عليه، مما يقع من الصيال الأدبي فوق صفحات الجرائد اليومية من حين إلى حين وكلمة اليوم في شرح مناوشة عنيفة بين الدكتور طه والأستاذ المازني على صفحات جريدة البلاغ، وهي مناوشة تمثل التجني والتظالم على أعنف ما يكون بغي الرجال على الرجال. وسنقف من هذه المناوشة موقف القاضي العادل، فقد ساءنا أن يتقارض هذان الرجلان الظلم والعدوان بلا ترفق ولا استبقاء، بعد أن ظلا صديقين حيناً من الزمان

والذي يهمني من هذه الكلمة هو أولاً تسجيل حادثة أدبية لا ينبغي أن تضيع، وهو ثانياً إنصاف رجلين عزيزين على الأدب وقد بغى كلاهما على أخيه بتحامل وإسراف. وهو ثالثاً توضيح لألغاز ساقها الدكتور طه بك مع اعترافه بأن فهمها لا يتيسر لأكثر القراء وأصل القضية أن الأستاذ عزيز بك أباظة مدير البحيرة أصدر مجموعة شعرية سماها (أنات حائرة) مع تصدير بقلم الدكتور طه حسين. فلما بدا للأستاذ إبراهيم المازني أن يتحدث عن تلك المجموعة بدأ بالهجوم على صاحب التصدير، فغضب الدكتور طه وكتب رداً أراد به دفع العدوان بما هو أقسى من العدوان

ولأجل أن يدرك القراء حيثيات الحكم في هذه القضية أسوق إليهم كلمات الخصمين قبل الشروع في الحساب

قال الأستاذ المازني بعد التمهيد:

وتوكلت على الله فقرأت التصدير الذي كتبه الدكتور طه حسين بك فقلت لنفسي: لا) حول

ولا قوة إلا بالله! هذا طه حسين يخسره الأدب ولا تكسبه الحكومة، فما خلق لها بل للأدب. وإنه ليضيع نفسه في هذه المناصب التي تشغله وتستنفذ جهده ووقته، فإذا كتب جاء بماذا؟ جاء بمثل هذا الكلام الذي لا محصول وراءه، ولا أعرف له رأساً من ذنب. فلماذا لا يستقيل ويريح نفسه من هذا العناء الباطل ويتفرغ للأدب؟ ماذا يفتنه من هذا العرض الزائل والذي أهمل أو ترك أبقى؟ كيف يستطيع بالله أن يواظب على التحصيل وتغذية عقله ونفسه - وهو ما لا غنى بأديب عنه - وكيف يتسنى له التجويد

حين يكتب وهو مشغول في ليله ونهاره بهذا الذي لا آخر له من شؤون الوظيفة واللجان وما إليها. . . وهو يتولى أعمالاً كل واحد منها كاف للإرهاق: فمن جامعة فاروق إلى منصب المستشار الفني لوزارة المعارف إلى عشرات من اللجان يشارك فيها وتأبى له كرامته أن يكون صفراً، ولو اقتصر على الجامعة لكان خيراً، ولو نفض يده من هذا كله لكان أفضل)

عناصر الهجوم

وخلاصة هذه الكلمة:

1 - أن الدكتور طه خسره الأدب ولم تكسبه الحكومة، ومعنى ذلك أنه يتولى عملاً لم يخلق له. وسنرى كيف ثار الدكتور طه على هذه العبارة وعدها تحدياً لقدرته على الأعمال الحكومية

2 - وأن الدكتور يضيع نفسه في مناصب تشغله وتستنفذ جهده ووقته، فإذا كتب جاء بكلام لا محصول من ورائه ولا يعرف له رأس من ذنب

3 - وأن الأفضل للدكتور طه أن يستقيل ويريح نفسه من العناء الباطل (وهو عمله في الحكومة) ويتفرغ الأدب

4 - وأنه لا يمكن للدكتور طه أن يزود نفسه بالتحصيل، أو يتفرغ للتجويد حين يكتب وهو مشغول ليله ونهاره بأعمال كل واحد منها كاف للإرهاق.

كلمة الدكتور طه

وجه الدكتور طه كلمته إلى صاحب البلاغ ثم قال بعد التمهيد:

أؤكد للأستاذ المازني أني آسف أشد الأسف لأن الأستاذ عزيز أباظة لم يطلب إليه هو) كتابة هذا التصدير، إذن لكان له المحصول كل المحصول، ولكان له رأس كقمة الجبل وذنب كالذي خوف به المنجمون المعتصم حين هم بفتح عمورية. وآس أشد الأسف لأن الحكومة لم تكل إلى الأستاذ عملي في وزارة المعارف وفي جامعة فاروق، إذن لكسبته الحكومة والأدب جميعاً. والأستاذ المازني يعرف أن لأبي العلاء قصة مع الشريف المرتضى، وأظنه يأذن لي في أن أسرق من هذه القصة شيئاً، فالسرقة في الأدب مباحة، ولا سيما حين تكون في العلن لا في السر، وهي حينئذ أشبه بالسطو. فأنا أرجو أن يقرأ الأستاذ سورة الفلق، وأن يقرأ مطولة لبيد ومطولة طرفة وعينية سويد أبي كاهل التي مطلعها:

بسطت رابعة الحبل لنا ... فبسطنا الحبل منها ما اتسع

ورائية الأخطل التي مطلعها:

ألا يا اسلمي يا هند هند بني بدر ... وإن كان حيَّانا عِدا آخر الدهر

ولامية المتنبي التي مطلعها:

بقائي شاء ليس هُمُ ارتحالا=وحُسنَ الصبر زمُّوا لا الجمالا

وسيقول القراء أني ألغز بهذا الكلام، ولكني أعتذر إليهم، فإني لا أكتب لهم وإنما أكتب للأستاذ المازني. وأنا أسلك في ذلك طريقة الأستاذ نفسه؛ فمن المحقق أنهم لم يفهموا عنه ما قال أمس، لأنهم لم يقرءوا التصدير الذي لا محصول وراءه والذي لا رأس له ولا ذنب. . . وأحبب إلي بأن أستقيل وأفرغ للأدب، ولكني أود أن أستيقن قبل ذلك بأن الحكومة ستضع الأستاذ المازني مكاني لنرى أيكتب كلاماً كالذي أكتبه أم يكتب كلاماً خيراً منه. . . أما بعد فأنا ضامن للقراء إحدى الحسنيين: فإما أن يسكت الأستاذ المازني فيستريح من هذا السخف الذي نحن فيه، وإما أن يكتب الأستاذ المازني فيجدوا شيئاً يرفه عليهم من هذا الفيظ المهلك، ويقرءوا كلاماً له الرءوس كل الرءوس، والأذناب كل الأذناب)

حل الألغاز

ونسارع فنذكر أن الإشارة إلى سورة الفلق منصبة على آية (ومن شر حاسد إذا حسد) وأن الإشارة إلى مطولة لبيد تتجه إلى هذين البيتين:

فاقنعْ بما قَسم المليك فإنما ... قَسمَ الخلائقَ بيننا علاّمُها

وإذا الأمانة قسَّمت في معشر ... أوفى بأعظم حظنا قَسَّامُها

وأنه يريد من مطولة طرفة هذان البيتان:

فلو كنت وغلاً في الرجال لضرني ... عداوة ذي الأصحاب والمتوحد

ولكن نفى عني الأعاديَ جرأتي ... عليهم وإقدامي وصدقي ومحيدي

ومن عينية سويد أشار الدكتور طه إلى هذين البيتين:
رُبَّ من أنضجت غيظاً قلبه ... قد تمنَّى ليَ موتاً لم يُطَع
ويراني كاشجا في حلقهِ ... عَسِراً مخرجُه ما يُنتزَع
وأراد من رائية الأخطل هذين البيتين:
نَنِقُّ بلا شيء شيوخ محاربٍ ... وما خلقُها كانت تريش ولا تبري
ضفادع في ظلماء ليل تجاوبتْ ... فدلَّ عليها صوتُها حيةَ البحر
ومن لامية المتنبي أراد هذين البيتين:
أرى المتشاعرين غروا بذمي ... ومن ذا يحمل الداء العُضالا
ومن يكُ ذا فم مُرٍّ مريضٍ ... يجد مُرّاً به الماء الزلالا
وما أردت تبليغ هذه التعاريض إلى الأستاذ المازني، وإنما أردت منفعة القراء، والشر يتسم بالخير في بعض الأحايين!

غمزات الدكتور طه

1 - كان يستطيع أن يقول إنه (يستعير) قصة أبي العلاء مع الشريف، و (يستعير) هي اللفظة المطلوبة في هذا الموقع، ولكنه قال إنه (يسرق) ليندد بالأستاذ المازني. ولم يكتف بذلك، بل جعل سرقته علنية، وهي (حينئذ أشبه بالسطو) كما قال

2 - صور الأستاذ المازني بصورة الحاسد لمن كتب تصدير الديوان

3 - وصورة بصورة من يعجز عن عمل المستشار الفني بوزارة المعارف، ومن يعجز عن إدارة جامعة فاروق

الدكتور طه في الأعمال الحكومية والأدبية

لقد فصلنا الخصومة بين الرجلين بوضوح، ولم يبق إلا أن نكف شر الأستاذ المازني، لأننا نكره أن تختل الموازين في هذه البلاد

وإذا كان الأستاذ المازني هو البادئ بالظلم فأنا أبدأ بالدفاع عن الدكتور طه، والهجوم عليه ذو شعب: فهو تارة أديب أضاع نفسه بالأعمال الحكومية، وتارة موظف لا يحسن إدارة الأعمال، وتارة حائر لا يهتدي إلى ساحل الأمان

وأشهد أن الدكتور طه من أقدر الرجال على إدارة الأعمال الحكومية، فما تولى عملا أقبل عليه بهمة وقوة، ولا سما إلى مطلب إلا وصل إليه بأيسر أو أعسر مجهود. والدكتور طه مثال نادر من أمثلة البراعة في الشؤون الإدارية، وهو مفطور على سرعة التصرف، وأخطاؤه القليلة أو الكثيرة لا تقاس إلى صوابه في الابتكارات الديوانية

وما الذي يمنع من الحكم بأن الدكتور طه دفع عن رجال الأدب قالة من أسوأ القالات، فقد مرت أزمان والناس يتوهمون أن رجال الأدب لا يصلحون للأعمال الإدارية، وكان من أثر هذا التوهم أن لم نر لأحدهم مكانا في المناصب العالية من الوجهة الرسمية، فجاء نجاح الدكتور طه رداً حاسماً على أوهام أولئك المتوهمين

وكذلك يقال في تولي الدكتور طه إدارة جامعة فاروق، فذلك مغنم عظيم لرجال اللغة العربية، وكانت الحكومة لا تكل إلى أحد منهم إدارة مدرسة ابتدائية. وهل ننسى أن مدرسة دار العلوم ظلت آماداً طوالاً تحت نظارة رجال من غير أبنائها، مع أن فيهم كثيراً من الأكفاء؟

ويسرني أن تشهد البواكير بأن الدكتور طه سيفلح في إدارة جامعة فاروق، كما أفلح من قبل في إدارة كلية الآداب بجامعة فؤاد، وكما أفلح في أعماله بوزارة المعارف

أما قول الأستاذ المازني بأن شواغل الدكتور طه تصرفه عن تزويد عقله بالمطالعات والمراجعات فهو قول صحيح، ولكنه لا يؤذي الدكتور طه في شيء، لأن الدكتور طه قد اختار لنفسه أن يكون من رجال الدولة لا من رجال الأدب، وهو لن يزاحم أحداً من الباحثين، ولن يقول إنه أوحد الناس في جميع الفنون، فما يجوز لمن يكون في مثل حصافته أن يتناسى أن الأستاذية في الأدب توجب الانقطاع إلى الأدب، وتفرض الخلوة إلى النفس ساعات من كل يوم، وذلك لا يتيسر لمن تكون الأعمال الإدارية عناءه بالنهار وهمه بالليل.

المازني ضحية الأدب، ولكنه لن يضيع

من التقاليد الموروثة بمصر احترام الوظائف والموظفين، وقد كان الآباء في عهد

الفراعنة يوصون أبناءهم بطاعة الرؤساء، ويحضونهم على تنفيذ الأوامر بلا اعتراض، ليظفروا من مناصب الدولة بأكبر نصيب
وأنا لا أرى في هذا شيئاً من الذلة في طلب المجد، كما رأى بعض الناس، وإنما أراه شاهداً على أصالة المصريين من الوجهة النظامية، فطاعة المرءوس للرئيس يوجبها نظام الأعمال إذا حسنت النيات وزال معنى الخضوع الممقوت
- واحترام الوظيفة في مصر له أصل، فقد كانت الوظائف من أنصبة الأغنياء والأقوياء، وكان مفهوماً أن الرجل لا يظفر بوظيفة إلا إن كانت له عصبية تحميه من الكائدين، أو تعينه على تحقيق السيطرة في الإقليم الذي يشرف عليه بأي صورة من صور الإشراف
ونحن اليوم نخضع لتلك التقاليد خضوعاً يعترف به القلب وإن أنكره اللسان، فمن السهل أن يسأل سائل عن مكانه الأستاذ المازني في الدواوين الحكومية، وكان قبل ثلاثين سنة أستاذاً في مدرسة من كبريات المدارس الثانوية، ومن زملائه من وصل إلى مكانة تضيفه إلى المحسودين بين كبار الموظفين، فماذا صنع المازني بنفسه حتى تخلف هذا التخلف وحتى صار من حق أي إنسان أن يقول له: داعب هذا المنصب إن كنت تستطيع؟
حظ المازني يظهر واضحاً إن تذكرنا ما صار إليه ناصحه الأمين، وهو الأستاذ عبد الفتاح صبري وكيل المدرسة السعيدية، يوم كان المازني أستاذاً بالسعيدية، فقد خضع الأستاذ عبد الفتاح صبري للأنظمة الإدارية خضوعاً وصل به إلى أرفع منصب في وزارة المعارف، وثار المازني على الأنظمة الإدارية ثورة وصلت به إلى العيش من سنان القلم في الجرائد والمجلات
فما النتيجة وما الغاية في حياة هذا وذاك؟
مات عبد الفتاح باشا صبري ميتة الغريب، فلم تبكه وزارة المعارف، ولم يحزن عليه مخلوق، ولن يذكر بغير الملام إن تسامح معه التاريخ!
أما المازني فلن يموت أبداً، وهل يموت رجال الأقلام والآراء؟
المازني من أمجاد مصر الأدبية، وصفحة واحدة من أصغر كتاب ألفه المازني أبقى على
الزمن من جميع المناصب، والله عز شأنه أقسم بالقلم ولم يقسم بالجاه ولا بالمال
وهل كانت مصر ترضى أن يصير المازني إلى وظيفة تقبره كما قبرت الوظائف مئات من المفكرين بهذه البلاد؟
اقترحت مرة على صفحات الرسالة أن تقرر الدولة معاشاً الأستاذ المازني، بحجة أنه أدى للأدب خدمات لم يؤدها من تمتعوا بكرم الدولة باسم الأقدمية في الوظائف
وأنا في هذه اللحظة أسحب ذلك الاقتراح، فلن يجوع المازني وفي يده قلمه، ولن يشيخ قلم المازني ولو صار صاحبه في ضمور طيف الخيال.
كلمة صريحة إلى الدكتور طه حسين
ولكن ما الذي آذاك أيها الأستاذ الجليل من تلك الغمزة المازنية؟ ما الذي آذاك منها وهي حق في حق؟
أتريد أن نعفيك من النقد الأدبي؟
أتريد أن نتوهم أنك كنت معنا فطرت عنا؟
أيرضيك أن تتناسى اسمك في المناوشات الأدبية؟
إن كان هذا ما تريد فأنت وما تريد، ولكننا لن نحترم إرادتك إلا كارهين، لأننا نرفض تسليمك إلى الحكومة بأي ثمن، وسنجاهد إلى أن نستردك، فجهز نفسك لوصل حاضرك بماضيك، في خدمة الأدب الرفيع.
زكي مبارك
المسرح المصري - 4
والدرامة المنظومة
للأستاذ دريني خشبة
كان شوقي العظيم - عليه رحمة الله - لا يعجبنا!
وكنا نتهم شوقي بأنه كان يعيش معنا بجسمه، ومع شعراء الأجيال السابقة بروحه وفنه. . . فهو يردد أوزانهم ويقلد قصائدهم، ويتخذ مطالعهم، ويغزل في أول منظوماته

كما كانوا يغزلون، ويعارض الحصري والبوصيري وأبا تمام والبحتري
كنا نعيب شوقي لأنه كان يصنع هذا، وكنا نعيبه لأنه لم ينظم للمسرح، فلما سمع إلينا
ونظم المسرح أخذنا عليه المآخذ، وعددنا عليه الهفوات. . . والرجل العظيم عليه
رحمة الله يصبر على ذلك ويبتسم، فلا يضيق بالنقد، ولا ينقم على النقاد، بل يبطل
حجتهم بإخراج القطعة بعد القطعة، ونظم الغرة تلو الغرة، والنقاد الظالمون، لا غفر
الله لهم ولا سامحهم، وإن كنت منهم، يلجون في غيهم، ولا يعجبهم من شوقي العظيم
العجب، حتى أراحهم الله من شوقي، فنظروا حولهم، فإذا هم لم يستريحوا، وإذا هم
يشعرون بفدح الخسارة التي منى الأدب العربي بها، والتي لم يستطيع أن يعوضها هذا
الجيش العرمرم من الشعراء والشويعرين والمتشاعرين بمن فيهم من زيد ومن
عمرو، ومن فيهم من هذا الذي كنا، في نوبة من الحماسة، نفضله على شوقي، ونزيف
له أكاليل الغار، فلما مات شوقي، إذا إكليل الغار تمسخه الأقدار فيكون حزمة من
القش. . . وإذا نحن نعترف في ذهول وحزن بأن الشعر العربي - أو الأدب العربي - قد
أصيب بنكسة شديدة وارتكاس مؤلم، لأن النهضة التي بدأها شوقي وتركها وهي في
المهد، لم يهيأ لها الشاعر الذي يرعاها ويبلغ بها شأو الطفولة. . . ولا نقول الصبا ولا
نقول الشباب. . .
تلفتنا حولنا فرأينا الشعر العربي يعود إلى حدوده الضيقة التقليدية، ورأيناه لا يعدو
القصائد والمقطوعات والموشحات، ورأينا تلك البداية المباركة التي بدأها شوقي
تنطوي على نفسها فتصبح من المخلفات الأثرية في المسرح المصري، حتى أوشك
الممثلون الأفذاذ الذين أدوا الشوقيات الرائعة ينسون أدوارهم، وحتى أوشك الناس
ينسون تلك الشوقيات
ومع هذا فما زلنا نسمع من يجرؤ على التشدق بأنه أشعر الشعراء وسيد الأدباء، لا
لشيء
إلا لأن شعره يعجبه هو وإن لم يرق أحداً من الناس، فان سألته وهل حاولت ما حاول
شوقي؟ سألك وماذا حاول شوقي؟ شوقي المقلد. . . شوقي الرجعي. . . شوقي
الصدى. . . شوقي الذي لم تكن فيه روح الشعر وإن جاء بهرج النظم. إلى آخر تلك
المهاترات الأدبية التي لم نتورع من إهدائها إلى شاعرنا العظيم حتى بعد أن ترك لنا
الدنيا لنملأها نحن بالكمال الذي طالبناه به. . .
ولست أدري ماذا يصرف شعراؤنا - أصلح الله بالهم - عن النظم للمسرح، ومنهم
طائفة مثقفة واسعة الاطلاع عظيمة الدراية بالأدب الأوربي، اطلعت من غير شك على
درامات شكسبير وبن جونسون ومارلو وغيرهم من الشعراء المسرحيين، وعرفت ما
أفادته اللغة الإنجليزية من الدرامات المنظومة، وما فتح الله على أيديهم للشعر
الإنجليزي وغير الشعر الإنجليزي من هذا الفتح العظيم الذي كانت آيته ذلك الشعر
الحر الذي لا يعرف القافية ولا يتقيد بها، بل ينطلق من الروح أنغاماً سحرية مشرقة
ذات بهاء وذات لآلاء، دون أن تذهب بهجتها في هذا الاطراد الطويل الممل الذي تجلبه
القافية العربية
وقد يعترض معترض بأننا ندعو إلى شيء فرغ غيرنا منه، حينما ندعو شعراءنا إلى نظم
الدرامات للمسرح المصري. . . إذ ما حاجة هذا المسرح إلى الدرامات المنظومة في
عصر سار فيه الأدب الواقعي، وتحرر فيه التأليف المسرحي من القيود المادية التي
كانت تجعل أداءه بطيئاً وحواره مملولاً فيه كلفة وفيه تصنع. وهو اعتراض مردود. . .
ويرده أن الأدب المسرحي الذي ندعو إلى إدخاله في الأدب العربي يجب أن يدخل إلى
هذا الأدب بكل أنواعه التي عرفها الأدب الأوربي، ثم نحن ندعو إلى وجوب نهضة
الشعر العربي وتوسيع آفاقه. . . ولن تتسع هذه الآفاق ما دام الشعر العربي بعيداً عن
المسرح، إذ الدرامة المسرحية هي المجال الذي يتسع لأخيلة الفحول من الشعراء
فيفيضون فيها من آرائهم في الحياة وآرائهم في الفن وآرائهم في الجمال وآرائهم في
السلوك، ويبدعون ما شاءت لهم تلك الأخيلة من الصور التي يعالجون بها جراح
الإنسانية ويهذبون بها انحرافاتها. . . كل ذلك في الدرامة. . . هذه القطعة الحية
المتحركة فوق المسرح بأشخاصها الكثيرين، ذوي المشارب المختلفة والميول
المتباينة، وبمناظرها الرائعة التي يكسبها الشعر جوها الساحر الجميل الخلاب. . . نريد
إذن أن يجد شعراؤنا وأن يوسعوا آفاقهم، وأن يجعلوا للدرامة

المنظومة شطراً من جهودهم التي ينفقونها كلها في الهنات الهينات من قصائدهم وموشحاتهم التي شبعنا منها إلى حد التخمة. . ومعاذ الله أن يظن أحد أننا نعرض بأحد من شعرائنا أو من شعراء العالم العربي. . . فنحن إنما يتهم هؤلاء وهؤلاء بأنهم كسالى. . . وأننا حينما كنا ننقد شوقي ونهاجمه إنما كنا نتجنى على سيد شعرائنا غير مدافع، وكنا نغمط حقه ونظلمه. . . وإلا فأين من شعرائنا من استطاع أن يسمو إلى أفق شوقي أو أن يملأ هذا الفراغ الهائل الذي تركه وراءه؟

لابد إذن أن ينفض شعراؤنا غبار هذا الكسل، ولابد أن يحاولوا مثل الذي حاوله شوقي من قبل، والذي حاوله، ونرجو أن يستمر فيه، الشاعر الشاب الأستاذ محمود غنيم اليوم. فإن لم يفعلوا فلسوف يظل الشعر العربي جامداً في دائرته القديمة وهم بحمد الله لن يأتوا في حدود تلك الدائرة بعشر معشار ما أتاه الأولون من جاهليين ومخضرمين وإسلاميين وأمويين وعباسيين وأندلسيين. ونحن إن كان لنا أمل في أحد من شعرائنا المصريين أو الشعراء العرب عامة، فالشعراء الشباب هم مناط ذاك الأمل. وكم كنت أود أن أوثر الفريق الذي يجيد اللغات الأجنبية منهم على الفريق الآخر الذي لا يجيدها، لو لم يبرز الأستاذ غنيم في الفريق الثاني، فذهب بالفضل، واستحق الثناء، وجعلنا نتشوق إلى محاولاته التالية. . . أما شعراؤنا الذين يجيدون إحدى اللغات الأجنبية ويقعد بهم الكسل دون محاولة النظم المسرحي، ففي مقدمتهم الشاعر الرقيق النابغة الأستاذ علي محمود طه؛ ثم الأستاذ الشاعر المطبوع محمود الخفيف، ثم الأستاذان أحمد فتحي ومختار الوكيل. ثم الشعراء الجامعيون وشعراء المهاجر. . . إن هؤلاء هم المسئولون قبل غيرهم عن نهضة الشعر العربي وفتح الميدان المسرحي له على مصراعيه، لأنهم أعرف من غيرهم بماهية المسرح وما يستطيع أن يؤديه للغة والشعر من أمجاد، وذاك أنهم تأثروا بروح الغرب وأساليبه، تلك الروح العالية نلمسها في أشعارهم فنلمس فيها أثر برونتج وشلي وكيتس وبيرون ووردذورث ودي موسيه وليل وج. ب. روسو وليبران. . . فمتى يا ترى نلمس فيهم اثر بن جونسون وشكسبير وراسين وكورني؟ إنهم يعرفون من تاريخ الآداب الأوربية كيف ثار الشعراء الإنجليز على القوافي الشعرية وكيف أفاءت عليهم عرائس القرائح بنعمة الشعر الحر التي اهتدى إليها مارلو الإنجليزي، فأتى فيها بالأعاجيب، وفتح باب جنتها الفيحاء لشكسبير العظيم الذي ذلل قطوفها تذليلاً. . . فمتى يثورون في الشعر العربي مثل تلك الثورة التي لا يحسن أن يقوم بها غيرهم، لما تستلزمه من ذوق خاص أولاً، ووقوف على تاريخ الآداب الأوربية ثانياً، حتى يخطوا خطواتهم عن بصيرة وحسن دراية، مهتدين في ذلك بما تم من مثله في الآداب الأخرى التي يثقفونها

أما شباب شعرائنا الذين لا يجيدون إحدى اللغات الأوربية بل لا يعرفونها، فقد جنوا على أنفسهم وعلى ثقافتهم بإهمالهم تعلو إحدى تلك اللغات مع ما كانت تبذله لهم دار العلوم من العون والتشجيع. ولعل دار العلوم هي التي جنت عليهم في ذلك، لأنها جعلت تعلم اللغة الأجنبية اختيارياً ولم تفرضه على أبنائها فرضاً، ولو أنها قسرتهم على تقلمها لحمل أبناؤها اليوم عبء الثورة على تقاليد الشعر العربي العتيق، ولأتوا في ميدان النظم المسرحي بالأعاجيب. على أنني لا أدري ماذا يمنع شعراء دار العلوم من الإكباب على لغة أجنبية يدرسونها ويتثقفون آدابها. ولست أدري أيضاً ماذا يمنع هؤلاء الشعراء، في مقدمتهم الأساتذة محمود حسن إسماعيل ومحمد عبد الغني حسن واحمد مخيمر ومن إليهم من أن يحتذوا حذو الأستاذ غنيم في النظم المسرحي؟ وللأستاذ محمد عبد الغني حسن إلمام لا بأس به بالإنجليزية، فما له لا يساهم في النظم الدرامي بنصيب؟

إننا حين نحاول سلك الأدب المسرحي في الأدب العربي، لا بد لنا ن خلق حركة أدبية إبداعية لا يحسن أن ينهض بها غير شعرائنا الشباب. والأدب الإبداعي (الرومانتيكي) هو أدب الخيال والجمال والسحر والشعر والخلق والابتكار. . . هو الأدب الذي يلون الحياة ويمد في طرفيها ويزيدها علواً وسفلاً، ويجعلها أعمق وأوسع آفاقاً. . . إنه الأدب تتضافر فيه جهود الفنانين من شعراء وموسيقيين ومصورين ورسامين وصانعي ملابس. . . أنه أدب الألوان والعواطف والبرق والرعد والدموع والعواطف والأشجان. . . إنه الأدب الذي لا يجيده غير الشعراء الموهوبين الذين يستطيعون أن يخلقوا لنا دنيا أجمل من الدنيا التي نعيش فيها. . . دنيا ذات ألوان صارخة تتسع لأحلامنا التي نعجز

عن تحقيقها في عالم الواقع. . . دنيا الشعر والموسيقا والغناء. . . دنيا نتفيأ فيها ظلال الرحمة والمحبة والحنان كلما بهظتنا دنيا الشقية بالآلام والنكبات. . . دنيا نتنفس فيها صعداءنا هانئين سعداء، لا نخاف رهقاً ولا نخشى عنتاً ولا نفزع من شجو ولا نضيق فيها بأنفسنا كما نضيق بها في
دنيا الواقع
إن القصائد والموشحات وحدها لا تستطيع أن تصنع لنا من ذلك كله إلا لحظة عابرة ثم نتردى من جديد في هوة آلامنا. . . أما الدراما المنظومة الإبداعية فكفيلة بأن تخملنا إلى السموات ساعات وساعات، وكفيلة بأن تخفف من أعباء قلوبنا، وما تنوء أرواحنا به من ضيق. . . ما هذا؟ أكلما أراد القارئ العربي المسكين أن يتسلى بشيء من الدرامة الإبداعية اضطر اضطراراً إلى اصطحاب شيكسبير ورهطه إن كان يحسن الإنجليزية، أو راسين وكورني إن كان يجيد الفرنسية، أو سرفنتس ولوب دي فيجا إن كان ملماً بالإسبانيه، أو شيلر ولسنج إن كان يعرف الألمانية، أو يقعد حزيناً محسوراً إن كان لا يعرف لغة أجنبية؟ . . .
ألا إن هذا لهو أشنع الخزي في أدبنا العربي، وفي شعرنا العربي بوجه خاص. . . إننا لن نغتفر مطلقاً لأدبائنا الكتاب تقصيرهم في إمداد المسرح المصري بدرامات مصرية، وأننا لن نغتفر مطلقاً لشعرائنا الكهول تقصيرهم في إمداد هذا المسرح بدرامات منظومة تغني الأدب المسرحي وتمد الأدب العربي بثروة طائلة لا تعد لها تلك الثروة التي تشبه الفقر من القصائد والمطوعات والموشحات. . . إننا نتساءل فيم أنفق شعراؤنا الكهول أعمارهم؟ لقد أنفقوها في نظم القصائد والمقطوعات، والقصائد والمقطوعات فحسب. . . فلن تجد في دواوينهم التي تعد بالعشرات ملحمة تشجيك ولا قصة تصيبك ولا درامة تسليك، ولا تمثيلية، ولو فصل واحد، يوسع بها أحد هؤلاء الشعراء حدود الشعر العربي في عصرنا الذي اتسعت فيه حدود كل شيء. . . الحق أن حالة دواوين الشعر العربي محزنة جداً، وهي محزنة بنوع خاص في دواوين شعرائنا المعاصرين الذين عرفوا أوربا وعرفوا الثقافة الأوربية والأدب الأوربي. . . وإن مقارنة سريعة بين ديوان شاعر أوربي مثل بيرون أو روبرت بروننج وبين أي ديوان من دواوين شعرائنا، (فحلاً أو نصف فحل أو إمعة!) لتظهرك على هذا الفقر الشنيع في إنتاجنا الأدبي، وهو فقر يحسن الإنسان منه الخزي الشديد، فينصرف عن الشعر العربي والشعراء العرب وفي نفسه ما فيها من الحسرة والألم. . . فماذا في جميع دواويننا مما في ديوان بيرون مثلاً؟ إنك تقرأ في بيرون تلك الملاحم الطوال والمنظومات القصصية الرائعة، والتمثيليات الإبداعية الشائقة. . . إنك تقرأ دون جوان. . . تشيلد هارولد. . . بو. . . الجزيرة. . . الجياؤور. . . القرصان؛ ثم تمثيليات مارينو فالييرو، ورنر، قايين، مانفرد. . . إلى آخر تلك الروائع التي تكون ثروة بيرون الأدبية الهائلة، وإنتاجه الشعري العظيم. . . وكل من تلك الملاحم أو التمثيليات يصلح لأن يكون مجلداً ضخماً يزري وحده بأي ديوان من دواويننا. هذا عدا قصائده التي لا تعد. . . وبيرون مع ذاك مات شاباً كما مات شلي وكيتس، فلم تحل حياته القصيرة دون هذا الإنتاج البارع الغزير السامي. . . ومن الشعراء الإنجليز والفرنسيين والأسبان عشرات يفوقون بيرون غزارة إنتاج ويرتفعون إلى أفقه إن لم يفوقوه جودة. . . فمتى نفتح دواوين شعرائنا العرب فنباهي بها ولا يتولانا هذا الخزي؟ ومتى يتعاون شعراؤنا الكهول مع شعرائنا الشباب في رأب الصدع في شعرنا ولا يستعلون عليهم؟
دريني خشبة
مواكب الأعراس في عهد بني العباس
للأستاذ يوسف يعقوب مسكوني
من الحوادث التاريخية ما يبعث اللذة ويسلي في أوقات الفراغ. ونحن في درسنا للتاريخ نضيف إلى حياتنا اليومية ذكريات من الماضي تبعثنا إلى التأمل والمقايسة بين أمسنا وحاضرنا فيختار القارئ من هذه الصفحات ما تصبو إليه نفسه وما يسمو به عقله وما تنتعش به نفسه. وهذه صفحة من صفحات تاريخ الدولة العباسية التي شغلت العالم الشرقي والغربي قروناً كانت فيها أدوار عز وفخر. ولقد اخترنا لموضوعنا هذا ثلاث حفلات من أفخم الحفلات التي جرت في عهد بني العباس من أوائل أدواره وأوسطها وأواخرها فنقول: كانت أيام المأمون أيام عز وجاه ورغد ورخاء

وتفوق وانتصار دونها المؤرخون بما فيها من الحلل القشيبة التي رفلت بها الدولة العباسية واعتزت أيما اعتزاز، حيث كانت مناراً للعلوم وينبوعاً للثروة والمال. فبذخ الخلفاء والأمراء وأصحاب المناصب العالية. وتخرقوا بما يفوق وصفه في كل حال من الأحوال. فكانت الحفلات والولائم والاحتفالات ذات مظهر فيه كل البذخ والإسراف يفوق ما يقوم به ملوك الأطراف تعزيزاً لهيبة الخلافة وعنواناً لسلطانها وجبروتها. ومن هذا ما جرى في حفلة زواج المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل الذي كان وزيره آنذاك. وهانحن أولاء نسرد ما جرى في تلك الحفلة التاريخية التي فاقت الحفلات التي تقام عادة بين الملوك والأمراء. وقد جرت تلك الحفلة في منازل الحسن بن سهل السرخسي التي كانت بفم الصلح بالقرب من مدينة واسط. وفم الصلح اسم نهر كبير كان فوق واسط بينها وبين جبُّل، عليه عدة قرى، وفيه كانت دار الحسن بن سهل وزير المأمون، وفيه بنى المأمون ببوران، تزوجها المأمون لمكانة أبيها عنده، واسمها الحقيقي خديجة، وبوران لقبها. احتفل أبوها وعمل من الولائم والأفراح ما لم يعهد مثله في عصر من عصور الجاهلية والإسلام. فقد سافر المأمون وحاشيته ورجال دولته من القواد والكتاب والوجوه إلى فم الصلح فنثر الحسن بن سهل بنادق المسك على رؤوسهم فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار وصفات دواب وغير ذلك، فكانت البندقة إذا وقعت في يد الرجل فتحها فيقرأ ما في الرقعة، فإذا علم ما فيها مضى إلى الوكيل المرصد لذلك فيدفعها إليه ويتسلم ما فيها سواء كان ضيعة أو ملكا آخر أو فرساً أو جارية أو مملوكاً. ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك وبيض العنبر، وأنفق على المأمون وقواده وجميع أصحابه وسائر من كان معه من أجناده وأتباعه وكانوا خلقاً لا يحصى حتى على الجمالين والمكارية والملاحين وكل من ضمه عسكر. ولم يكن في المعسكر من يشتري شيئاً لنفسه ولا لدوابه. وذكر الطبري أن المأمون أقام عند الحسن تسعة عشر يوماً يعدُّ له في كل يوم ولجميع من معه ما يحتاج إليه. وكان مبلغ النفقة عليهم خمسين ألف ألف درهم. وكان رحيل المأمون نحو الحسن أبن سهل أي إلى فم الصلح لثمان خلون من شهر رمضان سنة عشر ومائتين. وفرش الحسن للمأمون حصيراً منسوجاً بالذهب؛ فلما وقف عليه نثرت على قدميه لآلئ كثيرة. فلما رأى تساقط اللآلئ على الحصير المنسوج بالذهب قال: قاتل الله أبا نواس كأنه شاهد هذه الحال حين قال في وصفه الخمر والحباب الذي يعلوها عند المزج:

كأن صغرى وكبرى من فواقعها ... حصباء درٍّ على أرض من الذهب

وقال الطبري أيضاً: دخل المأمون على بوران الليلة الثالثة من وصوله إلى فم الصلح، فلما جلس معها نثرت عليها جدتها ألف درة كانت في صينية ذهب، فأمر المأمون أن تجمع، وسألها عن عدد الدر كم؟ فقالت: ألف حبة؛ فوضعها في حجرها، وقال لها: هذه نحلتك وسلي حوائجك. فقالت لها جدتها: كلمي سيدك فقد أمرك. فسألته الرضا عن إبراهيم بن المهدي عمه، والسماح لأم جعفر، وهي الست زبيدة. فقال: قد فعلت. فألبستها أم جعفر البدلة اللؤلؤية؛ وأوقدوا في تلك الليلة شمعة عبر وزنها أربعون مناً في تور من ذهب. فأنكر المأمون ذلك عليهم وقال: هذا إسراف. وقد قالت الشعراء والخطباء في ذلك فأطنبوا. ومما يستظرف فيه قول محمد بن حازم الباهلي:

بارك الله للحسن ... ولبوران في الختن

يا ابن هرون قد ظفر ... ت ولكن ببنت مَنْ

فلما نمى هذا الشعر إلى المأمون، قال: والله ما ندري أخيراً أراد أم شراً؟ وقد أمر المأمون للحسن عند منصرفه بعشرة آلاف ألف درهم، وأقطعه فم الصلح، فجلس الحسن وفرق المال على قواده وأصحابه وحشمه. وقد كان الحسن كثير العطاء للشعراء وأنشده:

تقول خليلتي لما رأتني ... أشد مطيتي من بعد حل

أبعد الفضل ترتحل المطايا؟ ... فقلت نعم إلى الحسن بن سهل

والحكاية الثانية زواج الخليفة المقتدى بأمر الله بابنة السلطان ملكشاه السلجوقي، وهي من حوادث سنة ثمانين وأربعمائة، على ما رواه ابن الأثير، قال: في المحرم نقل جهاز ابنة السلطان ملكشاه إلى دار الخليفة على مائة وثلاثين جملاً مجللة بالديباج الرومي. وكان أكثر الأحمال الذهب والفضة، وثلاث عماريات، وعلى أربعة وسبعين بغلاً

مجللة بأنواع الديباج الملكي وأجراسها وقلائدها من الذهب والفضة، وكان على ستة منها اثنا عشر صندوقا من فضة، لا يقدر فيها من الجواهر والحلي، وبين يدي البغال ثلاث وثلاثون فرساً من الخيل الرائعة عليها مراكب الذهب مرصعة بأنواع الجوهر، ومهد عظيم كثير الذهب. وسار بين يدي الجهاز سعد الدولة كوهر آتين، والأمير برسق وغيرهما. ونثر أهل نهر معلى عليهم الدنانير والثياب. وكان السلطان قد خرج من بغداد متصيداً، ثم أرسل الخليفة الوزير أبا شجاع إلى تركان خاتون زوجة السلطان وبين يديه نحو ثلاثمائة موكبية، ومثلها مشاعل، ولم يبق في الحريم دكان إلا وقد أشعل فيها الشمعة والاثنتان وأكثر من ذلك. وأرسل الخليفة مع ظفر خادمه محفة لم ير مثلها حسناً. وقال الوزير لتركان خاتون: سيدنا ومولانا أمير المؤمنين يقول إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها. وقد أذن في نقل الوديعة إلى داره؛ فأجابت بالسمع والطاعة. وحضر نظام الملك فمن دونه من أعيان دولة السلطان، وكل منهم معه من الشمع والمشاعل الكثير. وجاء نساء الأمراء الكبار ومن دونهم، كل واحدة منهن منفردة في جماعتها وتجملها، وبين أيديهن الشموع الموكبيات والمشاعل يحمل ذلك جميعه الفرسان. ثم جاءت الخاتون ابنة السلطان بعد الجميع في محفة مجللة عليها من الذهب والجواهر أكثر شيء، وقد أحاط بالمحفة مائتا جارية من الأتراك بالمراكب العجيبة وسارت إلى دار الخلافة. وكانت ليلة مشهودة لم ير ببغداد مثلها. فلما كان الغد أحضر الخليفة أمراء السلطان لسماط أمر بعمله، حكي أن فيه أربعين مناً من السكر، وخلع عليهم كلهم وعلى كل من له ذكر في العسكر، وأرسل الخلع إلى الخاتون زوجة السلطان والى الخواتين، وعاد السلطان من الصيد بعد ذلك

والحكاية الثالثة وهي من أواخر عهد الدولة العباسية أي من حوادث سنة أربع وثلاثين وستمائة، ذكرها ابن الفوطي قال: في هذه السنة وصل الأمير عز الدين قيصر الظاهري

مخبراً بوصول ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل. وكان قد نفذ لإحضارها لتزف على زوجها مجاهد الدين أيبك المستنصري المعروف بالدويدار الصغير. فخرج إلى تلقيها بدر الظاهري المعروف بالشحنة - أي رئيس الشرطة - أحد خدم الخليفة وفي صحبته ثلاثون خادماً، والأمير بدر الدين سنقر جاء أمير اخور الخليفة وجماعة من المماليك والحاجب أبو جعفر أخو أستاذ الدار ومؤيد الدين محمد بن العلقمي فتلقاها بدر الشحنة في المزرفة وعاد والجماعة معه وانحدرت هي في شبارة حملت لها إلى هناك في جماعة من خدمها وجواريها وصعدت في باب البشرى ليلاً وقد أعد لها بغلة فركبت واجتازت دار الخلافة وخرجت من باب النوبي إلى دار زوجها مجاهد الدين بدرب الدواب وهي الدار المنسوبة إلى احمد بن القمي فنثر عليها خادم لزوجها ألف دينار عند دخولها الدار. وفي رابع جمادي الآخرة خلع الخليفة على مجاهد الدين بين يديه وقدم له مركوب بعدة كاملة فخرج وقبل حافره وركب من باب الأتراك ورفع وراءه أربعة عشر سيفاً إلى غير ذلك من الحراب والنشاب واشتهرت السيوف من باب دار الضرب وخرج معه جماعة من خدم الخليفة والحاجب أبو جعفر بن العلقمي أخو أستاذ الدار ومهتر الفراشين وحاجب ديوان الأبنية وغيرهم. وتوجه إلى داره فلما اجتاز بباب البدرية نثر عليه خادم من خدم الشرابي أربعة آلاف دينار. ولما اجتاز درب الدواب نثر عليه في عدة مواضع من دار الأمير جمال الدين قشتمر ودار ابنته زوجة الأمير نصرة الدين كنج أرسلان وكان وراءه الأعلام والطبول والكوسات. وفي عشية هذا اليوم نفذ له أحد عشر طبلاً للخلق وأحد عشر قصعة وزوج صنج برسم طبل النوبة في الصلوات الثلاث. وزفت عليه زوجته فاجتمعت له فرحتان فرح الأمارة وفرح العرس. ولم يبلغ أحد من أبناء جنسه مع حداثة سنه ما بلغ. ومن الغد عرضت عليه الهدايا من رقيق الترك والخدم والجيوش وأنواع الثياب والطيب والخيل وآلة الحرب وغير ذلك من جميع الزعماء وأرباب الدولة وخدم الخليفة وسائر المماليك؛ ثم الوزير والشرابي وأستاذ الدار والدويدار الكبير، ولم ينفذ له أحد شيئاً إلا وخلع على المنفذ على يده ثم ركب وبين يديه الأمراء والمماليك ورفع وراءه السلاح وقيدت بين يديه الخيول المجنونة وشهرت حوله السيوف وسعى الكيانية وبأيديهم الحراب والأطيار والجاووشية وبأيديهم الجوالكين الذهب والفضة وقصد دار الخلافة فخدم وعاد ثم ركب عشية هذا اليوم

وقصد دار الخليفة فخدم وخرج وقت العشاء الآخرة في الأضواء الشموع واستمر دخوله إلى دار الخليفة في كل يوم بكرة وعشية على هذا الوضع
(بغداد)

يوسف يعقوب مسكوني

تطهير العقائد وتحرير العقول

أساس الإصلاح الاجتماعي

للأستاذ محمود أبو رية

انبعث في السنين الأخيرة بين جوانب البلاد صيحات مختلفة تدعو كلها إلى الإصلاح الاجتماعي، وتسابق من ينشدون الخير لبلادهم فرادى وجماعات إلى المساهمة في ذلك الإصلاح. ولما كان فريق قد اتخذ لنفسه مذهباً خاصاً لا يشاركه فيه سواه ولم يذهب إليه بعد درس أو تمحيص، فأن طرق العلاج قد تعددت ومذاهبه قد تفرقت. وقد وجد أدعياء الإصلاح بين زحمة هذه الفوضى طرقاً ميسرة ليظهروا بين الناس أنفسهم وينالوا مآربهم فيقف الواحد منهم على رأس طريق يتخذه لنفسه بعد أن يفتلذ من جسم الأمة فلذة ليكون مرشداً لها وهذا هو كل همه فلا تجد له ولا لمن حوله من عمل بعد ذلك إلا دعاوى ينشرونها ومزاعم يبثونها

وهذه لطوائف هي التي تعرف بين الناس باسم الجمعيات، وما هي في الحقيقة إلا (فرق) قد زادت في تمزيق الأمة وتشتيت شملها بعد أن أصبح صدر البلاد ضيقاً حرجاً بتلك الفرق التي تعرف (بطرق الصوفية)

وإن قيام هذه الفرق المختلفة بيننا وما يدب بينها من عقارب الشنآن وما أصاب الأمة بوجودها من داء التفرق ومرض التشيع ليعيد إلينا ولا جرم عهد الفرق الإسلامية لتي ذر قرنها في صدر الإسلام فكانت من أسباب ضعفه وذهاب ريحه

على أنك لو بحثت عن عمل لهذه الفرق المستحدثة لما وجدت إلا صيحات عن بعض الذكريات الدينية ترسل بين الناس الفينة بعد الفينة ويحسبون أنها مجدية وهي لا غناء فيها

هذا هو كل عملها فلا تراها قد ظهرت من أدران الوثنيات ولا فكت عن القول أغلال الخرافات، ولا أصلحت من الناس ما غشيهم من شيء العادات، ولا حسرت عنهم ما غمرهم من أمواج المنكرات؛ بل أنك لترى عللنا الاجتماعية قد زادت واشتدت، وأمراضنا الاجتماعية قد عمت وانتشرت؛ حتى لقد أصبح جسم الاجتماع المصري بهذه الفرق - القديم منها والحديث - كمثل رجل ألحت على جسمه العلل وانتابته الأمراض فسعى لمداواته الطبيب النقريس والدعي الجاهل، هذا، يدس له ما يضره، وذاك يقدم له ما ينفعه؛

ووراء هذا وذاك أولياؤه وأقرباؤه يدخلون عليه من كل باب يحملون إليه من مختلف الهدايا ما يظنون أنه من دوائه، وما هو في الحقيقة إلا من بلائه، فلا يلبث هذا المسكين أن تشتد عليه الأدواء، وأن مصبح في حال لا يرجى له معها شفاء

مما لا ريب فيه أن جسم الأمة مريض بعلل شتى قد غيرت القرون عليها حتى أعضل أمرها، ولكن مما لا خلاف فيه كذلك أن لكل داء دواء يستطب به، على أن يتولاه بالعلاج طبيب نظامي يقوم عليه وحده، ولا يشاركه في تمريض المريض غيره

وإذا كنا ندعو بكلمتنا هذه إلى اتباع تلك الطريقة القويمة التي لا يؤخذ بأسباب أي إصلاح إلا باتباعها، فإنا نذكر قومنا بأن لكل إصلاح (أساساً ثابتاً) يقوم عليه، وأساس الإصلاح الاجتماعي - بل والديني - في بلادنا إنما يقوم على (تطهير العقائد من دنس الوثنيات، وفك العقول من أغلال الأوهام والخرافات)؛ وهذا الأساس لم نفتجره من عندنا، ولا هو ببدع جديد لنا، وإنما وضعه من قبلنا الأنبياء المرسلون والزعماء المصلحون. وبحسبك أن تعلم أنه لما قام رسول الله (ص) بدعوته جعل همه كله في القضاء على البدع والوثنيات التي تدسست إلى العقائد فأفسدتها، والأوهام والترهات التي غشت الأفهام فكبلتها، وقد جعل هذا الجهاد أساس دعوته فلم يأت للناس بشيء من التكاليف الشرعية ولا أمرهم بأداء فرض من الفروض الدينية، إلا بعد أن خلصت العقائد من لوثاتها، ونشطت العقول من أغلالها، وأصبحت الأمة كلها على دين واحد من التوحيد الخالص. وأنه صلوات الله عليه لم يفعل ذلك إلا لأن التوحيد الخالص هو كما قال الأستاذ الإمام: (كمال الإنسان، وأنه إذا سلمت العقائد من البدع تبعها سلامة

الأعمال من الخلل)
وإذا أنت رميت إلى تاريخ (لوثر) مصلح أوربا العظيم تجد نور هذه الحقيقة أمامك ساطعاً، إذ أنه بعد أن قام بدعوته وطهر المعتقدات مما كانت قد تلوثت بها، دخلت أوربا في طور جديد من الإصلاح ظل يؤتى ثمره حتى صارت على ما هي فيه آلات مدنية وحضارة وعزة وقوة. ولقد قال توماس كارليل في تاريخ لوثر في كتاب الأبطال:
إن على دعوته قد قامت دعائم الدستور الإنجليزي وبرلماناته والحرية الأمريكية واستقلالها والثورة الفرنسية ونتائجها
إن كثيرين ممن يتصدون للإصلاح (الكلامي) يستهينون بأمر البدع والخرافات، وبعض هؤلاء يجعل من إصلاحه أن تظل هذه العلل تنخر في عظام الأمة، لأنها (بزعمه) مما ينفع العامة. ولو هو تدبر الأمر بفكر الحكيم لعلم أنه ما أنهك جسم الأمة، ولا قضى على كل فضيلة فيها إلا تلك البدع والخرافات. ولقد أصاب السيد جمال الدين الأفغاني في قوله: (إن خرافة واحدة قد تقف بالعقل عن الحركة الفكرية وتدعوه بعد ذلك أن يحمل المثل على مثله فيسهل عليه قبول كل وهم وتصديق كل ظن، وهذا مما يوجب بعده عن الكمال، ويضرب له دون الحقائق ستاراً لا يخرق)
وإن للأستاذ الإمام محمد عبده لحكمة جليلة يجب على كل مصلح أن يتبعها ويسير على هداها وهي (إن نجاح هذه الأمة إنما يكون بحسن التربية، ولا سبيل إلى التربية فيها إلا بإصلاح معتقداتها وتصحيح ملكتها حتى تستقيم بذلك أعمالها وتصلح أحوالها)
ولشيخه السيد جمال الدين منهج في إصلاح الاجتماع وإسعاد الأمم جعل الأمر الأول منه (صفاء العقول من كدر الخرافات وصدأ الأوهام، فإن عقيدة وهمية لو تدنس بها العقل لقامت حجاباً كثيفاً يحول بينه وبين حقيقة الواقع، ويمنعه من كشف نفس الأمر.
وأول ركن يبنى عليه الدين الإسلامي (هو) صقل العقول بصقال التوحيد وتطهيرها من لوث الأوهام، فمن أهم أصول العقائد أن الله منفرد بتصريف الأكوان متوحد في خلق الفواعل والأفعال؛ وإن من الواجب طرح كل ظن في إنسان أو جماد علويا كان أو سفليا بأن له في الكون أثراً بنفع أو ضر أو إعطاء أو منع أو إعزاز أو إذلال)
ومن أجل ذلك كان أول عمل قام به السيد بمصر أن (وجه عنايته لحل عقل الأوهام عن قوائم العقول فنشطت لذلك ألباب واستضاءت بصائر)
ومن كان رحمه الله في جميع أوقات اجتماعيه مع الناس لا يسأم من الكلام فيما ينير العقل أو يطهر العقيدة أو يذهب بالنفس إلى معالي الأمور)
هذا هو أساس الإصلاح الذي يكون كل ما يبنى عليه قوى الأركان شديد البنيان، وكل إصلاح يقوم على غير هذا الأساس فإنما يكون مصيره ولا ريب الإخفاق والخيبة
وإنا نرسل اليوم هذه الصيحة من فوق منبر الرسالة لكي تبلغ المسئولين في بلاد الشرق كافة، فينهضوا جميعاً في حزم وقوة، وفي غير هوادة ولا لين، ليضعوا هذا الأساس بأيديهم ثم يقيموا عليه بعد ذلك ما يقيمون من إصلاح وما يبنون من أعمال
هذه هي صيحتي التي أبعثها إلى قومي. وأرجو أن أكون قد بلغت، وأن أكون قد ذكرتهم بما فيه الخير لهم، والذكرى تنفع المؤمنين
(المنصورة)
محمود أبو رية
أنات حائرة
للمدير الشاعر عزيز أباظه بك
للأستاذ محمد عبد الغني حسن
خطر لي موضوع هذا المقال وأنا أقرأ ديواناً من الشعر الحزين الرصين أهداه إلى الشاعر عزيز بك أباظة
وكثير من الناس لا يعرفون شيئاً عن قصة هذا الشاعر، ولا قصة ديوانه الجديد الذي أتحف به باب المرائي في الشعر العربي
أما الشاعر فقد سمعت عنه من بعض أفراد أسرته الكريمة فقلت في نفسي: قريب يحابى قريباً، ونسيب يزكي نسيباً؛ ولكنني لما قرأت ديوان، استصغرت ما سمعت من الأخبار
وأما قصة الديوان، فهي قصة الدموع والأحزان والهموم والآلام نظمها الشاعر في سلك وأهداها إلى من يجدون فيدموع غيرهم شفاء لغليلهم، وراحة لصدورهم

والديوان كله دموع ذرفها الشاعر على زوجته التي اختطفها الموت أنضر ما تكون شباباً. وكل بيت من الديوان يحمل ذكرى. وكل قصيدة تحمل أثراً.
وهذا شيء جديد في الأدب العربي؛ فما رأينا قبل اليوم - فيما نعلم - شاعراً عربياً اختص زوجته بديوان كامل من شعره يقدمه تذكاراً لأيام سعيدة وبشاشات من العيش مضت إلى غير رجعة
وأكثر المراثي في الأدب العربي هي من الرجال إلى الرجال؛ اللهم إلا مراثي الخنساء لأخويها صخر ومعاوية وأولادها الأربعة. فهي هنا الشاعرة الوحيدة التي تفردت بالبكاء حياتها.
ورثاء الرجال للنساء في الشعر العربي قليل، وأقل منه رثاء الرجال لزوجاتهم. ولعل ذلك محمول على المحافظة على صيانة المرأة وبعدها أن يكون أسمها مضغة في الأفواه، وسيرة على الألسنة.
وليس في ذلك مناقضة لورود المرأة في شعر الغزل؛ فإن موضوع الغزل ليست محرما للرجل وليست من أهله، ولا يعيب الرجل أن يتحدث الناس عنها. أما الزوجة المرثية، فهي لزوجها أهل وأم أبناء، فيجد من الحرج أن يذكرها في شعره حتى ولو كان ذلك في
مقام الرثاء وموضع البكاء. ودليلنا على ذلك أن الطغرائي أَنِفَ أن يذكر زوجته في معرض رثائها فعبر عنها أكثر من مرة بقوله (ستيرته)، والستيرة هي المرأة المستورة. وهذا الوصف يوحي بأن الشاعر قصد أن يجعل زوجته في ستر حتى على صفحات ديوانه المنشور
واشتهر من الأزواج الراثين لزوجاتهم مسلم بن الوليد. ويظهر أنه كان ينوي أن يعرض عن رثاء زوجته - على عادة الشعراء قبله - ولكن حادثاً معيناً أغراه برثائها وهاج أحزانه فسجلها في أبيات رائعة. ويلخص هذا الحادث في أن أصحابه لاحظوا عليه بعد دفنها شدة ألمه واستسلامه لأحزانه، فأرادوا لأن يحملوه على الشراب حتى يتسلى بالخمر عن مصابها فرد عليهم بقوله:

بكاء وكأس كيف يتفقان ... سبيلاهما في القلب مختلفان
دعاني وإفراط البكاء فأنني ... أرى اليوم فيه غير ما تريان
غدت والثرى أولى بها من وليها ... إلى منزل ناء بعينك دان
فلا حزن حتى تنزف العين ماءها ... وتعترف الأحشاء بالخفقان
وكيف بدفع اليأس والجد بعدها ... وسهماهما في القلب يعتلجان

ولابن الزيات الكاتب الشاعر وزير المعتصم والواثق العباسيين أبيات يرثي بها زوجته ويصور حال ولده منها وقد تركته طفلاً صغيراً، يقول فيها:

ألا من رأى الطفل المفارق أمه ... بُعيد الكرى عيناه تنسكبان
رأى كل أم وابنها غير أمه ... يبيتان تحت الليل ينتجيان
وبات وحيداً في الفراش تجنُّه ... بلابل قلب دائم الخفقان
فلا تلحياني إن بكيت فإنما ... أداوي بهذا الدمع ما تریاني

ومن الشعراء من يتخذ له جارية أو أكثر وفق ما كان مألوفاً في زمانهم وجارياً عليه عهدهم؛ فإذا ماتت جارية من هؤلاء وكانت عزيزة على الشاعر حبيبة إلى نفسه رثاها كما نرثي الزوجة، وقد يذرف عليها من ساخن عبراتهما يعبر عنه شعره. كما فعل أبو تمام في رثاء جارية له يقول فيها:

أصبت بخود سوف أغبر بعدها ... حليف أسى أبكى زمانها
عنان من اللذات قد كان في يدي ... فلما قضى الألف استردت عنانها
منحت الدُّمى هجري فلا محسناتها ... أود ولا يهوى فؤادي حسانها
يقولون هل يبكي الفتى لخريدة ... إذا ما أراد اعتاض عشراً مكانها
وهل يستعيض المرء من عشر كفه ... ولو صاغ من الحر اللجين بنانها؟

وأبو تمام هنا يؤمن بالفردية وعدم القابلية للتعويض، فقد يكون من الجواري من يزدن حسناً على جاريته المرثية، ولكنه لا يجد فيهن العوض منها لخصائص فيها ليست لواحدة منهن
والشريف الرضي يرثي (بعض أهله) بأبيات فيها أثر اللوعة والحزن الشديد؛ ولعل بعض أهله زوجة له، لأن العرب تعبر عن زوجة الرجل بأهله. قال الشريف:

ذكرتك ذكرة لا ذاهل ... ولا نازع قلبه والجنان
أعاود منك عداد السليم ... فيا دين قلبي ماذا يدان
ونابي الجوى أن أسر الجوى ... إذا ملئ القلب فاض اللسان
وما خير عين خبا نورها ... ويمني يد جذ منها البنان
فيا أثر الحب إني بقيت ... وقد بان ممن أحب العيان
وقالوا تسل بأترابها ... فأين الشباب وأين الزمان؟
والشريف صادق في البيت الأخير؛ فأين الشباب المسعف على اصطناع الحب من جديد؟ وأين الزمان المعين على ذلك بعد أن ضاع من العمر غير قليل؟
وأكثر الشعراء رثاء لزوجته في الأدب العربي (الطغرائي) فيه أكثر من خمس قصائد مختلفات في الوزن والقافية. وكلها تدل على شديد حرقته. ولعله بذلك مهد السبيل لمحمود سامي البارودي باشا الذي رثى زوجته بقصيدة تعد أطول ما رثيت به امرأة في الأدب. فقد بلغت أبياتها سبعة وستين بيتاً
وقصيدة البارودي هذه لا تمتاز من مراثي النساء بطولها فحسب، بل تمتاز بتعبيرها عن أحزان البارودي ونفسه المحطمة أصدق تعبير، فقد كان منفياً بجزيرة سرنديب يوم ورد إليه نعيها. ولكنه على عزيمته القوية لم يستطع احتمال الصدمة فيها فيقول:
أيد المنون قدحت أي زناد ... وأطرت أية شعلة بفؤادي
أوهنت عزمي وهو حملة فيلق ... وحطمت عودي وهو رمح طراد
ويقول:
يا دهر فيم فجعتني بحليلة ... كانت خلاصة عدتي وعتادي
إن كنتَ لم ترحم ضناي لبعدها ... أفلا رحمت من الأسى أولادي
ولكنه بعد أن يذيب قلبه حسرات عليها يعود فيرضى بقضاء الله الذي لا مرد منه ولا محيص عنه فيقول:
كل امرئ يوماً ملاق ربه ... والناس في الدّنيا على ميعاد
أما الطغرئي فكان على إكثاره من القصائد غير مرتفع إلى مستوى البارودي في مرثيته الخالدة. وإذا كان الطغرائي هو شاعر الشكوى من الزمان، فلم يستطع أن يكون بحق شاعر الرثاء. وأحسن أبياته في رثاء زوجته قوله:
إن ساغ بعدك لي ماء على ظمأ ... فلا تجرعت غير الصاب والصَّبِر
وإن نظرتُ من الدنيا إلى حسن ... مذ غبت عني فلا متعتُ بالنظَر
صحبتني والشباب الغض ثم مضى ... كما مضيت فما في العيش من وطر
سبقتماني ولو خيرت بعدكما ... لكنتُ أول لحاق على الأثر. . .
وقوله:
وا بؤس منفرد عمن يضاجعه ... مشرد النوم بين الأهل والمال
يزيد حر حشاه برد مضجعه ... ويملأ القلب شجواً ربعه الخالي
يبكي ويندب طول الليل أجمعه ... فلا يقر ولا يهدا على حال
هذه خواطر أملتها عليَّ قراءتي لديوان (أنات حائرة) الذي نظمه عزيز أباظة الشاعر لذكرى زوجته. ومن حق ناظمه الكريم - بعد تعزيتنا له - أن يفاخر بأن ديوانه الجديد هو أول ديوان في الشعر العربي يعمل برمته في رثاء زوجة.
محمد عبد الغني حسن
الله!. . .
للأستاذ أحمد الصافي النجفي
بلغت ما يصبو إليه الورى ... وغير ذا ما أتمناه
أرضيت بالشعر البرايا وما ... أرضاه إن لم يرضه الله
الله أستاذي وكل الذي ... خطَّ يراعي فهو أملاه
لا مبدع إلاَّه، لا ناقد ... سواه، ما يأباه آباه
أخجل من عرض قنوتي له ... وإن تكن بعض عطاياه
أبدلت فني بخشوعي فأن ... يُقبَل فذا ما أتوخاه
شوَّهتُ فنَّ الله إذ رمتُ أن ... أريد بالفن مزاياه
أحتقر الناس وإعجابهم ... ومن هُم؟ لا شيء إلاه
لولا تجلّيه على خلقه ... لقلت هم والوهم أشباه

الله نور الأرض نور السما ... ما أنا، ما العالم، لولاه؟
أعمى الورى من لا يرى نوره ... ألم يشاهد؟ أين عيناه؟
أعمته عيناه وأغفى على ... عمى فلم تَصدُقه رؤياه
تاه من النور وكم معشر ... إن تزد النور لهم تاهوا
كم تكذب العين بما تدعّي ... فأوضح العالم أخفاه
أراه في الكون بعين الحجى ... لا أشرك العين بمرآه
إذا ادعّى عقلك إنكاره ... فأنكر العقل ودعواه
معْظِمي كونيَ من فيضه ... مصغّري فهميَ إياه
عجبت من ساع إلى غيره ... والكلّ لفظ هو معناه
تألّه البعض شعوراً به ... فصاح في جبّتيَ الله
ولو رآه لهوى مثلما ... موسى هوى من طور سيناه
أعْرَف بالله امرؤ شاعرٌ ... يدرك في الكون خفاياه
آمنت بعد الكفر مستغفراً ... عن جهل عقلي وخطاياه
يأخذ مصنوع على صانع ... ما أحقر العقل وأغباه
وعدت للخالق أدعوه أن ... يزيد نوري يوم ألقاه
كهولتي بالله قد آمنت ... ضلَّ شبابي ودعاواه
فإن تجد ذا شيبة جاحداً ... فقل إلى الموت أحلناه
روح المعرّي فيَّ آمنت ... فأبصرتْ في الموت عيناه
عاشت بروحي روحه ترتقي ... فمذ سمتْ لاح لها الله
بدأت تلميذاً على عقله ... ثم اعتلى عقلي فأعلاه
أنضجت روح الشعر في روحه ... فاستيقظت في العقل رؤياه
واستيقظ العقل بما قد رأى ... واتحد الرائي ومرآه
وضلَّ أتباع المعّري إذ ... ظنّوه قد ظل على ما هو
خالوه من جمودهم جامداً ... لقد أساءوا لمزاياه
ما هو إلا فكرةٌ تعتلي ... حتى ترى في الكون أعلاه
أفكارنا أفكار قوم مضوا ... يتَّصل الأعلى بأدناه
مراحل الفكر بهذي الدنى ... مراحل العمر بدنياه
آخرة المرء كدنياه ... ومنتهى الفكر كمبداه
كانت بذوراً وغدت دوحة تثمر ما البذر خفاياه
ما نحن إلا فكرة لم تزل ... ترقى إلى ما قدّر الله
رسالة الغفران لم تغتفر ... للشعر كفراناً به فاهوا
وجئت في شعري مستغفراً ... عن المعري وخطاياه

أنة محزون

للدكتور محمد عبد المجيد القاضي

(بمناسبة مرور الأربعين على وفاة المغفور له نيازي باشا)

قوضت يد المنون بالأمس - ويد المنون قوية لا ترحم - ركناً شديداً من أركاننا له في طوايا القلوب مركزه المنيع، وبين حنايا الضلوع مكانه الرفيع

عدت المنون عليه رجلاً كامل الصحة، كامل الرجولة، كامل الخلق

وما زال حديثه العذب يرن في أذني، ودرره الغوالي تتردد إلى ذهني، وصورته الحبيبة ماثلة أمام عيني، وروحه القوية متغلغلة بين وجداني. لك الله أيها الوالد! فقد تركت في القلوب جرحاً لا يندمل، وفي النفس لوعة لا تخفف. لك الله أيها الوالد الكريم! فقد كنت لربك مخلصاً تقياً، ولوطنك باراً وفياً، ولأصحابك صديقاً ولياً، ولمرءوسك رحيماً رضياً، ولزملائك مكرماً حفياً! لك الله أيها الوالد! فهذه سيرتك عاطرة، والحياة بين الناس سير. وهذه ذكراك باقية والحياة على ممر الأيام ذكرى

ففي ذمت الله أيها الراحل الكريم! وفي جنات الخلد والفردوس مقرك ومقامك.

البريد الأدبي

لجنة لدرس حالة الكليات والمعاهد الأزهرية

أصدر حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر بتاريخ 26 يوليه سنة 1943 قراراً بتأليف لجنة لدرس حالة الكليات والمعاهد الأزهرية هذا نصه:

ظهر هذا العام وبعض الأعوام الماضية ضعف نتائج الامتحانات في الكليات والمعاهد) وذلك يستدعي بحث حالة الكليات والمعاهد من جميع نواحيها. لذلك قررنا تأليف لجنة من:

أ - حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ عبد المجيد سليم مفتي الديار المصرية رئيساً

ب - حضرات أصحاب الفضيلة الأساتذة:

1 - شيوخ الكليات الثلاث 2 - الشيخ إبراهيم الجبالي 3 - محمود الغمراوي 4 - الشيخ محمود شلتوت 5 - الشيخ حامد محيسن 6 - الشيخ عيسى منون 7 - الشيخ عبد العزيز مصطفى المراغي 8 - الشيخ عبد الحميد ناصف 9 - الدكتور محمد البهي قرقر

ومهمة هذه اللجنة المسائل الآتية:

1 - النظر في أسباب ضعف نتائج الامتحانات في الكليات والمعاهد

2 - النظر في المناهج والكتب في الكليات والمعاهد

3 - بيان طريق العلاج لهذه الحالة بما يحقق للأزهر دراسة مجدية تكفل الإحاطة بالعلوم وتحقق للطلاب ملكة البحث والتحصيل معتمدين على أنفسهم

4 - النظر في أقسام تخصص المادة ووضع النظم الكفيلة بتحقيق الغرض الذي من أجله أنشئت هذه الأقسام

وللجنة أن تدعو من تشاء من حضرات أصحاب الفضيلة شيوخ المعاهد لأخذ رأيهم عند الحاجة)

شيخ الجامع الأزهر

محمد مصطفى المراغي

ولاشك أن كل مخلص للأزهر يرجو لهذه اللجنة الموقرة التوفيق في عملها والوصول إلى ما يصلح شأن الأزهر وينقذه مما ألم به وشكا منه أهل الغيرة عليه، ويهيئ له - كما يقول

القرار - دراسة مجدية في كلياته ومعاهده وتخصصاته، ويحقق الغرض المرجو منه للدين والثقافة الإسلامية

ولا شك أيضاً أن الناس جميعاً في الأزهر وفي غير الأزهر سينظرون إلى هذه اللجنة الموقرة نظرة ملؤها اليقين والثقة في إخلاصها وصدق عزيمتها راجين أن تسرع بقدر الإمكان في أداء مهمتها. وإن لجنة تتألف من هؤلاء الأساتذة الأجلاء وعلى رأسها هذا الرجل المخلص الغيور على مصلحة العلم والدين لجديرة بما يعقده عليها الناس من الآمال، والله ولي التوفيق.

(. . .م)

وشاية

دكتورنا (المبارك)

لا أدري أي شيطان يحركني لأوقع بينك وبين أديب كبير تحبه أعنف الحب، وتعجب به أبلغ الإعجاب، ويخلع عليه قلمك الصوال أبلغ آيات الثناء

وأحب - قبل كل شيء - أن أطمئنك فأؤكد لك أني مثلك (لا أستسيغ مذهب المجلات التي ترى من البراعة أن تؤرث الخصومات بين رجال الأقلام ليتفرج القراء) وأني أيضاً لا أحب أن يختصم الأدباء فيما بينهم ليقدموا النداء لأهل الفضول. ولكني مع ذلك لا أتردد مطلقاً في أن أنقل إليك هذه الوشاية التي أزعم أنها تمسك من قريب أو بعيد في بهو (الملك داود)، وفي متوع الضحى من كل يوم ينتثر على الموائد الأنيقة المترفة فريق من صفوة الشباب المتنور الراقي، ينعمون ساعة بحديث الأدب والسياسة، ثم يتفرقون على غير ميعاد. ومن عادتي كلما رأيت الأستاذ الكبير إسعاف النشاشيبي بك أن أتسلل إليه برفق وهوادة، و (أطب) على مائدته بدون بلاغ أو استئذان. وسرعان ما ينطلق لساننا في التحدث عن الأدب والأدباء. وسرعان ما يجري في كلامنا أسماء المازني والعقاد وطه حسين والزيات وزكي مبارك

وأشهد أن الأستاذ النشاشيبي محب للدكتور مبارك معجب بأدبه ونشاطه، ولكن الشيء الذي يبلبل بالي ويحير لبي أن هذا الباحث اللغوي الجليل لا يذكر اسم زكي مبارك إلا مقروناً

بكلمة (الخبث)

أقول له. الدكتور مبارك شعلة نشاط يا سيدي. فيجيبني: أجل، أنا معك بأن (الخبيث)

زكي مبارك شعلة وهاجة من النشاط. فكنت أعجب لذلك وأذهب من توّي أفتش على معاجم اللغة لأطمئن على أن لفظة (الخبيث) ترادف لفظة الدكتور أو تدل على معنى يقاربها فلا أرجع من هذه المعاجم بطائل، ولا أرى فيها إلا ما يمزق الأحشاء ويفتت الأكباد

فما رأي سيدي الدكتور؟

هل يجوز أن يكون عندك تخريج لمعنى هذه الكلمة التي يطيب لعلامة فلسطين أن يلصقها أبداً باسمك؟

أما أنا فقد أقسمت أن لا أجلس إلى مائدة أستاذنا النشاشيبي في بهو الفندق حتى أنقل لك هذه الوشاية وأسمع رأيك في الموضوع. والسلام عليك من الصديق الجاد في حديثه إليك:

(القدس)

عبد القادر جنيدي

حاشية: يهم الدكتور مبارك أن أعلن أن الأستاذ النشاشيبي قد استبدل بالكوفية والعقال عمامة كبيرة ترف على رأسه تشبه عمامة السيد جمال الدين الأفغاني. ولعلي بهذا الخبر الطريف الذي أزفه للأندية الأدبية أكون قد قدمت للدكتور مبارك مادة غزيرة لجوابه المنتظر

إلى الأستاذ عبد الله الملحوق

ليست اسم كما تنسب إلى وقد تواضع أصحاب المذاهب على النسبة إلى المصدر فيقولون مثلاً:

1 - التصوّريون وكان يسميهم أبن رشد المشبهة فعدل المحدثون عنها لأنها اسم فاعل

2 - التجريبيون: أي أصحاب المذهب التجريبي ولم يقولوا المجربون بصيغة اسم الفاعل

3 - التجريديون: أي أصحاب المذهب التجريدي ولم يقولوا المجردون

4 - التغّيرون: أي أصحاب مذهب تعدد الأغراض ولم يقولوا المتغيرون أو المغيرون مثلاً

5 - التطوريون: أي أصحاب مذهب التطور ولم يقولوا المتطورون

6 - التشبيهيون: أي القائلون جروا على هذا حتى في غير المصادر، فيقولون:

1 - الإداريون أي الذين يقولون نحن ندري كل شيء:

2 - آخر تعبيرات أصحاب المذاهب، وإليك تحيتي

دريني خشبة

العدد 528 - بتاريخ: 16 - 08 - 1943

نهاية أستاذ. . .

مئات من المدرسين وآلاف من الطلاب يعرفون الأستاذ. أحمد عثمان المهدي مدرس الفرير المثابر خمسا وثلاثين سنة. ولكن معرفتي إياه رفيقاً في الدراسة، وزميلاً في التدريس، تجعلني أقدر من عرفوه جميعاً على حكاية مأساته، وكشف ما خفي من أسرار حياته ومماته.

عرفته سنتين طالباً في الأزهر يعني بتجويد الخط، ويحاكي (أبناء البلد) في لرواء والسمت. ومنى كان ربيب أسرة المهدي المترفة كان خليقاً أن ينشأ على حب الجمال في الزي والمنظر

وزميله سبع سنين مدرساً في كلية الفرير بالخرنفش يعلم العلوم العربية في فصولها المختلفة، وينسخ (للأخ بلاج) المفتش أصول (مؤلفاته) في النحو والبلاغة والأدب. وما كان أحذق المتنبئين ليستطيع حينئذ أن يتنبأ لهذه النفس الراضية والطبع المرح والثغر الضحوك واللسان الداعب، بهذه الكهولة الأليمة والعاقبة المحزنة. نعم كان المتفطن المستبصر يخشى أن تكون له في بعض الأزمان زوجة وأولاد؛ فقد كان يعيش عيش السمك في الماء، لا يكاد يعرف له مستقراً ولا غداً ولا غاية. كان يقضي فراغه كله في المقاهي بين زمرة الشباب المملق المتملق؛ وكان العرق التركي الذي فيه لا يزال يضرب عليه الشموخ والأبهة، فلا يسمح لأحد من الجلاس أن يدخل يده في جيبه. وكان فضلاً عن ذلك مخروق الكف والكيس فلا يمسكان على ما يكسب، ولا يبقيان على ما يملك. كان لا يسأله أحد إلا أعطاه، ولا يعرض عليه شيء إلا اشتراه. وكان أكثر ما

يشتريه لا يحتاج إليه، كأداة المطبخ وليس له بيت، أو حاجة المرأة وليست له زوجة. إنما كان مولعاً بمساومة الباعة الجوالين، ويسره أن يعلموا أنه خبير بالصنف فلا يغش، عليم بالثمن فلا يغبن. وقد فطن الخبثاء إلى هواه فكانوا يتغالبون له ويتشاكون منه، وهو يشتري ويشتري ثم يودع ما اشتراه صاحب القهوة ولا يطلبه!

وكان لحبه الخير والشهامة يتمدح بما فعل ما لم يفعل منهما. ولخياله الخصب في هذا الباب حوادث وأحاديث يكون هو فيها البطل المرموق. وكان يكفي أن تحسن الاستماع وتظهر الاقتناع لتسلبه الإرادة وتقوده إلى حيث تريد. وضعف إرادته إنما كان يظهر في نواحي المروءة والرحمة، أو في أمور المال والمعيشة. فكان لا بد له من قيم يدير ماله وينظم أمره. ولكمه مع ذلك كان يعيش أرغد العيش، لأنه كان يخلف ما يتلف. كان يكسب من الدروس الخصوصية لليهود أضعاف ما يأخذ على عمله اليومي في المدرسة. وكان من الجائز أن يقضي العمر في ظلال هذا العيش الغرير لولا أن وقع المحذور وتنبهت عيون الحوادث. تزوج المسكين!! وكانت زوجة لسوء حظه صورة مؤنثة منه. بل زادت عليه أنها من قوم فقراء يحبون الرفد والمعونة. وكانت كما شاء القضاء ولوداً، فلم يأت على زواجهما بضع سنين حتى كانا في بضعة أولاد. وتظاهر ضعف الزوجين وإسرافهما الشديد ونزاعهما المتصل على حياة هذه الأسرة البائسة فلم تنعم بهدوء ولم تظفر بتربية. وأصبح كدح الرجل قليلاً على تسعة أفواه لا تحسن غير الخضم والهضم؛ فكان يكد ويحتال ويتصرف ويقترض. ولكن الأمر كان فوق طاقته، ومن المحال أن يتعادل دخل المبذر وخرجه. والماء مهما زخر وارتفع لا يبقى إذا ما انتهى إلى بالوعة!

وتسابقت الأحداث إلى المسكين ففدحه الدين، وركبه الهم، وغاضت بشاشة وجهه، وذهبت أناقة هندامه. وقسا عليه الدهر ذات مساء فانتحر ابنه البكر تحت الترام وهو معه ينظر إلى أشلائه المبددة، ويستمع إلى أناته المرددة!

ثم جاءت هذه الحرب بما نعرف من بلاء وغلائها، وكانت عوارض الوهن والانحلال قد ظهرت على المعلم المكدود فاضطرب تفكيره وفتر نشاطه. وصعب على (الفرير) خدام الدين والعلم أن يمشوه عظماً كما نهشوه لحماً، فأخرجوه بعد أربع وثلاثين سنة قضاها معهم في جهاد العجمة واللكنة لا يدخر جهداً ولا يبالي مشقة. أخرجوه وكل ما في يده مائه وخمسون جنيهاً كافئوه بها على ما أفنى من صحته وشبابه. وكانت هذه المكافأة طعام أشهر معدودة كان في أصباحها وأمسائها يطرق الباب بعد الباب عسى أن يجد السبيل إلى رزقه الهارب، أو الوسيلة إلى عيشه المفقود. وتصام أكثر الأصدقاء فلم يستجيبوا لطرق الأنامل النحيلة على الأبواب الصقيلة. . . فباع الرجل فضول المتاع ثم باع حاجاته. وكادة الأسرة الشريدة تجوع وتعرى لولا أن قيض الله له صديقاً من ذوي الجاه والفضل فرشحه للتدريس في المدرسة الملكية بالمنصورة. ولهذه المدرسة شهرة بحب الجمع وكراهة القسمة، فرتبت له ثمانية جنيهات في الشهر. وحاول البائس المضطر أن يسد بهذا المرتب أجرة مسكنه ونفقة عياله، فاستحال ذلك عليه إلا أن يسكنوا نصف السكن، ويأكل بعض الأكل، ويخلصوا من عقابيل السرف القديم. فكان يقترض من المدرسة سبعة جنيهات في كل شهر على حساب الشهر المقبلة، حتى جاء شهر مارس الماضي وليس له مرتب العام كله غير خمسة جنيهات! نعم خمسة جنيهات هي كل ما تبقى لسبعة الأشهر الباقية! إذن ماذا يصنع؟ لم يبق في المنزل ما يباع، ولا في الناس من يعين، ولا في الغد ما يرجى!

وهاهو ذا بعد أن نيف على الخمسين في خدمة اللغة والأدب يجد نفسه على شفا الهاوية ممنوع الرزق مقطوع الرجاء لا منصب يظل ولا ثروة تغل ولا ولد يعول ولا عشيرة تؤوي ولا أمة تساعد!

وفي هوادي ليلة سواء من ليالي مارس انفرد به الهم الملازم في ركن منعزل من البيت النائم، وكان مستقبله القريب الداهم قد تمثل في ذهنه وبرز في عينيه حجاباً من الظلام الكثيف يتدّجى بالمخاوف واليأس، فلم يستطيع أن يتبين من خلاله غير صحيفة من البترول صبها عليه، وغير ثقاب من الكبريت أشعله فيه! فلما شاعت النار في جسده خرج يعدو إلى الشارع وهو يستغيث بأبنائه واحداً بعد واحد فما أصاخت أذن ولا تنبهت عين. وسقط المسكين صريعاً أمام كنيسة المارون في الحسينية، وكان الصراخ

الهالع قد أيقظ قسيسها فخرج يستطلع الخبر وانحنى القسيس على المحترق يتأمله، ورفع نظره إلى المنحنى يتبينه، فإذا كلاهما يعرف الآخر، وإذا القسيس تلميذ من تلاميذ الأستاذ القدماء!

- ماذا صنعت بنفسك يا شيخ عثمان؟

- تلك مشيئة الله!

ونقلت المحتضر عربة الإسعاف إلى المستشفى ليلفظ آخر أنفاسه حين تنفس صباح الجمعة. وأبطأت إجراءات النيابة والصحة حتى دخلت ليلة السبت. ولم يكن حاضر أمره غير ناظر المدرسة ووكيله. فاقترح الوكيل أن يبقى في المستشفى إلى الصباح ليشيعه زملاؤه وتلاميذه؛ وصمم الناظر أن يقبر في الليل، لأن النهار يقتضي قماشاً وفراشاً وقهوة!!

وشيعت في ظلام الليل وسكون الناس جنازة جندي باسل من جنود الأدب المجاهدين، وليس أمامه إلا الناظر والوكيل، وليس وراءه إلا أولاده وزوجته!

أحمد حسن الزيات

الصيد في الأدب العربي - 2

للدكتور عبد الوهاب عزام

يصف لبيد صيد بقرة وحشية تخلفت عن القطيع تطلب ولدها وقد أكلته الذئاب، ثم لجأت إلى شجرة مفردة في الرمال في ليلة مظلمة ماطرة. ولما أسفر الصبح شرعت تعدو حائرة، فظلت سبعة أيام حتى يئست من ولدها وقطيعها، فسمعت حس الإنس فخافت وترددت بها الحيرة بين العدو أمام وخلف. وأرسل الصيادون كلابهم فكانت معركة قتل فيها كلب وفرت البقرة. وهي أبيات جيدة لا يملك قارئها إلا الإشفاق والحزن لهذه البقرة وولدها.

وهذه أبيات للنابغة الذبياني يصف معركة بين الثور والكلاب، وهي تشبه في الصورة العامة أبيات لبيد:

كأنما الرحل منها فوق ذي جُدَد ... ذَبّ الرياد إلى الأشباح نظّار
مُطرَّد أفردت عنه حلائله ... من وحش وَجرة أو من وحش ذي قار
مجرَّس، وَحَدَ جأب أطاع له ... نبات غيث من الوسمى مِبكار
سَرته ما خلا لبانَه لَهق ... وفي القوائم مثل الوشى بالقار
بانت له ليلة شهباء تسفعه ... بحاصب ذات إشعان وإمطار
وبات ضيفاً لأرطاة وألجأه ... مع الظلام إليها وابل سار
حتى إذا ما انجلت ظلماء ليلته ... وأسفر الصبح عنه أي إسفار
أهوى له قانص يسعى بأكلبه ... عاري الأشاجع من قُنَّاص أنمار
محالف الصيد هبَّاش له لحِم ... ما إن عليه ثياب غير أطمار
بسعي بغُضف براها فهي طاوية ... طولُ ارتحال بها منه وتسيار
حتى إذا الثور بعد النقر أمكنه ... أشلى وأرسل غُضفاً كلها ضار
فكرَّ محمية من أن يفر كما ... كر المحامي حفاظاً خشية العار
فشك بالروق منه صدر أولها ... شك المشاعب أعشاراً بأعشار
ثم انثنى بعد للثاني فأقصده ... بذات ثغر بعيد القعر نعار
وأثبت الثالث الباقي بنافذة ... من باسل عالم بالطعن كرار
وظل في سبعة منها لحقن به ... يكرُّ بالروق فيها كرَّ أسوار
حتى إذا ما قضى منها لبانته ... وعاد فيها بإقبال وإدبار
انقض كالكوكب الدري منصلتاً ... يهوي ويخلط تقريباً بإحضار

لا يتسع المقال لتفصيل الصورة التي صورها النابغة وتفسير الألفاظ فحسبي أن أبين الصورة إجمالاً:

في الأدبيات الأربعة الأولى شبه الشاعر ناقته بثور وحشي، ووصف لون الثور في ظهره وقوائمه: ظهره أبيض وفي قوائمه خطوط سود، وبين أنه قوي سمين قد رعى نبات الوسمى، وأنه أفرد عن البقر فهو نفور قلق

وفي الأبيات الثلاثة التالية بين أن المطر والريح ألجأ الثور إلى شجرة من الأرطي فبقى عندها حتى الصباح

وفي الأبيات الأخرى وصف الصائد وكلابه وما وقع بين الثور والكلاب العشرة؛ قتل

الثور منها ثلاثة، ودفع السبعة التي لحقت به حتى:
انقض كالكوكب الدري متصلتا ... يهوى ويخلط تقريباً بإخصار
ثم أراد وصل الكلام بأوله فرجع إلى ذكر الناقة قائلاً:
فذاك شِبه قلوص إذ أضرَّ بها ... طول السُّري والسري من بعد أسفار
وينتهي الوصف بنجاة الحيوان لأن مقصد الشاعر أن يشبه ناقته به وهو يجد في الهرب، إلا أبا ذؤيب ومن نهج نهجه فهم يختمون المعركة بقتل الحيوان لأن قصدهم أن يبينوا أن حوادث الدهر تنال حتى هذا الحيوان الوحشي القوي السريع
وقد وصف أحبحة بن الجلاّح صيد الظباء والأرانب بالكلاب وأثبت الجاحظ قصيدته في كتاب الحيوان
في العصور الإسلامية
أباح الإسلام الصيد وأحل لحم الحيوان الذي يقتله السهم أو كلاب الصيد. وفي القرآن الكريم: (اليوم أحل لكم الطيبات، وما عَّلمتم من الجوارح مكلّبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم، واذكروا اسم الله عليه) واستمر العرب على ما ألفوا من سنن الصيد في الجاهلية؛ وزادوا ضروباً من السلاح ومن الحيوان الذي يستعينون به على الصيد. زادوا قوس البندق وغيرها، وعلموا الفهود كثيراً من الطير الجارحة. واحتفي
الأمراء الكبراء بالصيد وأعدوا له عدده من الرجال والحيوان والسلاح. وعنوا بتربية الحيوان وتضريته، ووضعت الكتب في هذا الفن الذي عرف باسم البيزرة أخذاً من كلمة (بازيار) الفارسية ومعناها القيم على البازي أو البزاة. ولكشاجم الشاعر كتاب المصايد والمطارد. وبالرجوع إلى هذه الكتب أو كتب الأدب الجامعة مثل نهاية الأرب يتبين عناية العرب بهذا الفن وولع الشعراء به
افتن الشعراء ثم الكتاب في وصف الصيد آلاته وحيوانه وحركاته ووصف المصايد. وقد استقل وصف الصيد في الأراجيز والقصائد التي عرفت بالطرديات فصار فناً أدبياً متميزاً.
ومن الشعراء المفتنين فيه أبو نواس. نظم فيه تسعاً وعشرين أرجوزة وأربع قصائد. وأبدع في وصف كلاب الصيد وطيره. قال الجاحظ في كتاب الحيوان عن أبي نواس:
وأنا كتبت لك في رجزه هذا الباب لأنه كان عالماً راوية. وكان قد لعب بالكلاب زماناً وعرف منها ما لا يعرفه الأعراب وذلك موجود في شعره، وصفات الكلاب مستقصاة في أراجيزه. هذا مع جودة الطبع وجودة السبك، والحذق بالصنعة، وإن تأملت شعره فضلته
(للكلام صلة)
عبد الوهاب عزام
عروس النيل
(رسالة مهداة إلى روح الأب العظيم عبد السلام مبارك)
للدكتور زكي مبارك
في هذه السنة تخلَّف النيل، وتخوف الناس عواقب الصدود من النهر الوفي المحبوب، فتذكرت ما وقع في أيام سيزوستريس، وتمنيت لو رجعنا إلى عهود الوثنية، فأهدينا إليه صبية، لينشرح فيعود!
وقبل أن أسوق الحديث عن عروس النيل أذكر أشياء من الحياة المصرية قبل إنشاء خزان أسوان، وهي حياة تختلف عن حياة اليوم كل الاختلاف
لم يكن النيل يغمر أرض مصر أكثر من شهرين، ثم ينحسر بعد أن يضيع منه في البحر ما يضيع، ولكنه مع ذلك كان يترك ثروة عظيمة من المياه الجوفية، المياه المخزونة في جوف الأرض، وكانت تلك المياه زاد المصريين إلى أن يعود النيل من جديد
ولهذه الأسباب كانت مصر أقدم أمة أجادت طي الآبار والسواقي، فكان في كل بيت بئر، وفي كل مزرعة ساقية، وكان في منازل المياسير ما يسمى بالصهاريج، وهي أحواض مسحورة تحفظ كميات عظيمة من الماء الزلال
والذين زاروا المعابد الفرعونية يذكرون أن بها آباراً في أكثر الجوانب، وكذلك كان الحال في العهد الإسلامي، فلا تزال في منزل السحيمي بالقاهرة ساقية، وإن طال على هجرها الزمان

وغيبة النيل شهوراً طوالاً من كل سنة لم تكن تؤذي المصريين بعد أن أجادوا على طي الآبار والسواقي، ولو شئت لقلت إن غيبة النيل كانت أداة من أدوات التحصين، فقد كانت المواصلات في العهود القديمة تعتمد على الملاحة، وكان من العسير على من يغزو مصر أن يتجه إلى الجنوب مع تعذر الملاحة في النيل، بسبب الجفاف أيام التحاريق، وخوفاً من عنف التيار أيام الفيضان. . . وهذا في نظري أهم الأسباب في ميل الفراعنة إلى أن تكون عواصمهم بالصعيد، فقد كان لهذا المعنى أمنع من نواصي الجبال

هل قرأتم في أي كتاب أن الفراعنة أجادوا تعبيد الطرق الزراعية؟

لقد تركوا هذا الجانب من النظام عامدين معتمدين، ليكون التوغل في بلادهم باباً من العناء

وبمناسبة الآبار أذكر ما شهدت منها بمعبد الكرنك، فقد كان المهندسون يثقبون الأحجار الكبيرة بنسبة معلومة، ثم يضعون حجراً فوق حجر، كما يوضع الطوق فوق الطوق، لصير الآبار في أمان من الاختلال

وكان للآبار في مصر منزلة شعرية تفوق المنزلة النفعية، فقد كان مفهوماً عند الجمهور أن لكل بئر ملائكة تختلف باختلاف المكان، فهذا البئر مسكون بأرواح لطاف، وذاك البئر مسكون بأرواح كثاف، وباختلاف الروح يختلف طعم الماء في الملوحة والعذوبة والكدر والصفاء

وكانت هذه العقيدة ملحوظة في تقدير السواقي من الوجهة الروحية، فلا خطر من نزول هذه الساقية لأنها مسكونة بأرواح خيرة، أما تلك الساقية فمسكونة بأرواح شقية، ألم تسمعوا أنها قتلت فلاناً حين تجاسر على يزولها بالليل؟

ومياه الآبار والسواقي باردة في الصيف وحارة في الشتاء، فما سبب هذه الظاهرة الغريبة؟

يقول العلم إن مياه الآبار والسواقي بعيدة عن التأثر بالأحوال الجوية، فهي لذلك باردة في الصيف وحارة في الشتاء، فهل كان هذا هو الرأي عند أهالي الريف؟

كان الرأي عندهم أن للأرض وجهاً آخر، وجهاً يعاني برد الشتاء حين نعاني حر الصيف، ويعاني حر الصيف حين نعاني برد الشتاء، وكان مفهوماً أن السيخ الذي يفجر العيون في الآبار والسواقي يخرق القبة القائمة بيننا وبين البحار التي تسقي الوجه الثاني من الأرض، وكان ذلك هو السر في أن يختلف الماء بالحرارة والبرودة باختلاف الجو هنا وهناك

هذه الأخيلة الطريفة كانت الزاد لأهل الريف منذ زمن وأزمان، والفلاح المصري شاعر بالفطرة والطبع، فما كانت الدنيا عنده إلا ميدان قتال بين الملائكة والشياطين

إن الأمم لا تعرف الأساطير إلا في عهود الفتوة، فإذا اكتهلت عرفت الحقائق، وسعادة الكهول بالحقائق لا تقاس إلى سعادة الفتيان بالأباطيل

كان أهل الريف سعداء بالجهل، لأنه طوف بهم في آفاق شعرية، فما فائدة العلم الذي يواجه أهله بحقائق أقسى من الجلاميد؟

وهل أسعد العلم كبار أهله حتى يسعد صغار الفلاحين؟

ما القيمة الصحيحة لأن نعرف أن الزهرة مجموعة جراثيم، وهي في نظر الجهل خد وهاج؟

أين من يردني إلى العهد الذي كنت فيه أجهل الجاهلين؟

ليت الحوادثَ باعتْني الذي أخذت ... مني بحلمي الذي أعطت وتجربي

عروس النيل

تضاربت الأقوال في الأسطورة الشعرية، أسطورة عروس النيل، وانتهى الأمر بوزارة المعارف إلى حذفها من الكتب المدرسية، لتصون الأبناء من السخرية بالأجداد. ولكني مع هذا أرى من الخير أن يعرف أبناؤنا جميع الأساطير، ليعرفوا حيرة الإنسانية بين الحقيقة والخيال

وسأسوق هذه الأسطورة كما رأيتها في كتاب مخطوط لمؤلف مجهول، ففيها طرافة فنية، وفيها لفتات جديرة بالتسجيل:

في العام الثالث من حكم رمسيس الثاني وهو عام 1327 قبل الميلاد تخلّف النيل، فلم تظهر طلائعه في شهر أبيب ولا في شهر مِسْريَ، وامتدّ به التخلف إلى شهر توت،

فجأر المصريون بالشكاية، وتجمهروا حول قصر الملك صارخين ضارعين
وماذا يصنع الملك؟ ماذا يصنع والشعب يطالبه بما لا يطيق؟ هل يصدّق الخرافة التي ذاعت في ذلك الوقت عن أسر النيل بأمر ملك الأحباش؟ وهل يستطيع ملك أن يأسر النيل. وهو ملك الملوك؟
إن النيل لا يقهره قاهر، إن أراد الوفاء، فما الذي صدّه عن الوفاء؟
ثم دعا الملك أقطاب السَّحرة ليرى ما عندهم في حل هذه المعضلة، فكان هذا الحوار الطريف:
الملك - ماذا ترون في تخلف النيل؟ أتظنون كما يظن الجمهور أنه في أسر ملك الأحباش، وأن من الواجب أن نجرد حملة لتأديب ذلك الطاغية؟
الساحر الأول - وماذا يملك عاهل الحبشة من أمر النيل؟
الساحر الثاني - هو يملك الخاتم السِّحري؟
الملك - وما ذلك الخاتم؟
الساحر الثالث - هو خرافة منقولة عن أساطير الأولين!
الساحر الثاني - أتكذبني يا زميلي في حضرة الملك؟
الساحر الأول - إن تفضل جلالة الملك فأنا أفضي إليه بالسر في تخلف النيل
الملك - من أجل هذا دعوناك
الساحر الأول - النيل عاشق غضبان
الساحر الثاني - النيل عاشق؟ ما سمعنا بمثل هذا الكلام قبل اليوم!
الساحر الأول - أتظن أن النيل يوحي العشق وهو يجهل العشق؟
الساحر الثاني - العشق يصدر عن أهل الذوق، والنيل بلا ذوق
الساحر الأول - وما برهانك على أن النيل بلا ذوق؟
الساحر الثاني - لأنه لا يستقيم في سيره أبداً، ولو كان من أصحاب الأذواق لعرف قيمة الطريق المستقيم، وهو كما نرى غاية في التخبط والاعوجاج
الساحر الرابع - لولا هيبة الملك لرميتك بالجهل
الملك - هيبة الملك لا تمنع من كلمة الحق
الساحر الرابع - إن زميلي يطالب النيل باستقامة الضعفاء وليس النيل بالضعيف
الملك - ماذا تريد أن تقول؟
الساحر الرابع - أريد أن أقول إن استقامة الأقوياء في ضمائرهم لا في ظواهرهم، واستقامة النيل تتمثل في ذلك الاعوجاج
الملك - إن كلامك يحتاج إلى توضيح
الساحر الرابع - لن أوضح كلامي لجلالة الملك، لأنه أقدر الملوك على فهم الرموز والتلاميح
الملك - أوضح لزميلك
الساحر الرابع - ما كان لي بزميل، وهو بين السحرة دخيل
الملك - دعوا هذه اللجاجة وارجعوا إلى الحديث عن العاشق الغضبان
الساحر الأول - إن النيل لا يأخذ زاده من العواطف
الملك - كيف تقول هذا والصبايا يتهادين إليه في الفجريات والعصريات، وقد سقط النَّصيف، وغفل الرقيب؟
الساحر الأول - هو ذلك يا جلالة الملك، ولكن الجمال المصري جمالٌ لئيم؟
الملك - ما هذا الذي تقول؟
الساحر الأول - المقام لا يسمح بالرياء، وكيف نرائي سيزوستريس وهو أصرح الملوك؟
الملك - هات ما عندك يا كبير السحرة، فقلبي مصغ إليك
الساحر الأول - أنا رأيت وما سمعت
الملك - وماذا رأيت؟
الساحر الأول - رأيت النيل هام بصبية. . .
الملك - ثم؟
الساحر الأول - ثم مد إليها ذراع الموج ليجذبها إليه
الملك - ثم ماذا؟

الساحر الأول - ثم نفرت الصبية ولاذت بالشط، فهو لذلك عاتب غضبان
الملك - العلم الذي ورثناه عن الكهنة يحصر الحياة في النبات والحيوان. فكيف يهيم النيل بصبية وهو ليس من الأحياء؟
الساحر الأول - إن الله جعل من الماء كل شيء حي، فكيف يكون الماء سبب الحياة إذا كان من الأموات؟
الملك - ومعنى هذا أن الماء يعشق؟
الساحر الأول - ويُعشَق
الملك - ومن عاشق الماء؟
الساحر الأول - تحدث عنه شاعرنا بنتاءور حين قال في الصهباء:
مقطَّبةٌ ما لم يزرها مزاجُها ... فإن زارها جاء التبسُّم والبِشرُ
فيا عجباً للدهر لم يُخلِ مُهجةً ... من العشق حتى الماء يعشقه الخمر
الملك - لن أكذب الكهنة في قولهم بأن الماء جماد
الساحر الأول - أنا أوافق مولاي على أن الماء جماد، ولكني أرجوه أن يتفضل فيتذكر أخطار الجمال المصري
الملك - وما أخطار ذلك الجمال؟
الساحر الأول - لو صوّب الجمال المصري ناره إلى هضاب الحبشة لأحالها إلى قطرات من الماء المبذول بغير حساب
الملك - وترى أن نداعب النيل بالجمال؟
الساحر الأول - أرى أن يكون للنيل في مصر هوى وميعاد، فما يعود حي إلى بلد إلا إن كانت له فيه أهواء ومواعيد
الملك - وعند النيل هذا الذوق؟
الساحر الأول - وعنده الحقد على أهل العقوق!
الملك - وماذا يقول الشعب إن أقررنا مبدأ الاعتراف بالعشق؟
الساحر الأول - سيقول الشعب إنه يعيش تحت راية العدل
الملك - والعشق عدل؟
الساحر الأول - العشق من نتائج العدل
الملك - أوضح ثم أوضح يا أعظم حكيم رآه سزوستريس
الساحر الأول - العشق يا مولاي هو انجذاب روح إلى، ولا صفاء بين عاشق ومعشوق إلا بحفظ الحقوق، ولو وجه العاشق إلى معشوقه كلمة تغض من جماله لكان الفراق إلى آخر الزمان
الملك - أهذا هو العدل عندك يا كبير السحرة؟
الساحر الأول - العدل هو مصدر الحب لجلالة الملك، ولولا قولك بأن شعبك خلق للسيادة على الأقطار الأفريقية والأسيوية لتخاذل الشعب عما أردت من الغزوات والفتوحات
الملك - الشعب يحبني؟
الساحر الأول - الشعب يحبك لأنك تحبه، وأهل مصر يقولون: (إن أحبتك حية فتطوق بها)، ولهذه اللفتة صلة بوجود الحيات حول تيجان الفراعين!
الملك - أنت ساحر، يا ساحر!
الساحر الأول - وعن لطف جلالة الملك أخذنا السحر والفتون
الملك - عنكم نأخذ الطرائف المعاني يا أدباء وادي النيل، وعنكم تلقى الروح فلاسفة اليونان
الساحر الأول - ماذا يرى جلالة الملك في اجتذاب العاشق الغضبان؟
الملك - آه ثم آه بلاد لا يستقيم فيها شيء بغير الحب والجمال
الساحر الأول - تلك طبيعة بلادك يا مولاي
الملك - وإذن؟
الساحر الأول - وإذن نترضى النيل بصبية مليحة لنروضه على الوفاء
الملك - صبية تغرق فتموت؟
الساحر الأول - إن من يصدق في حب النيل لا يغرق ولا يموت
الملك - وماذا تكون الحال إذا ترضينا النيل بصبية مليحة ثم أصر على الجفاء؟

الساحر الأول - نظرة واحدة من فتاة مصرية تزلزل رواسي الجبال
الملك - وأنا أرفض أن يكون الجمال المصري من أدوات الاستغلال
الساحر الأول - الصبية المنشودة لم تعانق غير أبيها، والنيل هو الأب الأول لجميع الأبناء بهذه البلاد
ثم نادى المنادي في اليوم التالي بأن النيل لن يعود إلا إن ضمن الظفر بعروس خمرية اللون، عروس عيونها عسلية، عروس تؤمن بأن الفناء في الواجب هو طريق الخلود
وبعد يومين تجمعت عرائس تفوق الإحصاء، فما يمكن أن تخلو مصر في أي وقت من عرائس جميلة تعد بالألوف وألوف الألوف. فوقف سيزوستريس وقفة الحيران، في تخير ما يشتهي العاشق الغضبان
ثم التفت فرأى صبية تلقي بنفسها في اليم. وما كاد يتبين هوية الصبية حتى رأى النيل يتناغى بالأمواج في كل مكان
من تلك الصبية؟ لم يستطع أن يعرف، بهذا كانت مصر أول من ابتكر فكرة الجندي المجهول
ومضى سيزوستريس إلى المعبد فترنم بصلوات على روح تلك المليحة السمراء، وسمع النيل صلواته فقال: الترحم لا يكون إلا على ميت، ولا يموت من يكرم النيل
وتسامع المصريون بأخبار سيزوستريس وهو رمسيس الثاني فأقاموا له في كل بلد عدداً من التماثيل، ودام ملكه ستين سنة أو تزيد بفضل عروس النيل
أما بعد فأنا لا ادعوا وزير الأشغال إلى استعطاف النيل بضحايا الجمال؛ وإنما ادعوا وزير المعارف دعوة فنية، ادعوه إلى إقامة تمثال سيزستريس في ميدان باب الحديد، وهو تمثال لم يجد بمثله الفن في شرق ولا غرب، وهو الآية الخالدة على أن مصر دار الفنون
وإذا قيل إن الحفاوة بتمثال سيزستريس تنافي الدعوة إلى الوحدة العربية فسيكون جوابي أنه يشهد بقدرة العرب على امتلاك بلاد الفراعين
متى أرى تمثال سيزستريس في ميدان باب الحديد؟
ومتى يرى كل قادم عظمة مصر في ذلك التمثال؟
ومتى نفهم أنه أولى بالحفاوة من المسلة المصرية بميدان الكونكورد في باريس؟
لن أنسى أبداً أن بلدي أفضل البلاد، وأنه المعلم الأول لجميع الشعوب
زكي مبارك
على هامش الخصومات الأدبية
أيها الأدباء أعصابكم!
للأستاذ دريني خشبة
الحكومة مسئولة عما شجر من الشر بين الأدباء. . .
ونحن نلقي تبعة هذا الشر على الحكومة لأنها مقصرة في حق الأدباء، فهي لم تدبر لهم مصيفاً جميلاً في رأس البر أو الإسكندرية كما دبرت لنفسها ذلك المصيف الجميل في بولكلي تختلف إليه كلما شاءت؛ وهي لم تبح لهم حمامات السباحة يغشونها بالمجان لتعينهم على حر القاهرة القائظ الذي ترك أدمغتهم تغلي وعرقهم يسيل؛ وهي لم تفتح لهم خزائنها ينتهبون منها ما يشاءون ويريغون منها ما يريغون؛ وهي لم تبح لهم قطراتها وسياراتها يجيئون بها ويروحون دون أن تكلفهم التنقل السهل الرخي إلا ملأ استمارة سفر لا ترهق جيوبهم ولا يثقل تحريرها على أقلامهم؛ وهي لم تخاطب الدولة الحليفة في شأن تلك الحدائق التي كانت تفرج كروبهم وتشرح صدورهم، وهي لم توزع عليهم الحلوى والمرطبات التي تختص بها نفسها في المواسم والأعياد وهم إليه ناظرون وإلى القليل منها يتلمظون. . .
الحكومة لم تصنع شيئاً من هذا. . . بل هي تؤثر نفسها بكل مناعم الدولة من دون الأدباء، وهي تتركهم لقيظ يوليو وأغسطس يشوي جلودهم ويذيب أعصابهم. . . ثم يتلاعب بأقلامهم فيشرعونها لمحاربة أنفسهم لأنهم لم يفطنوا لما صنعت الحكومة بهم فلم يطالبوها بشيء، ولم يصرخوا في آذانها كما صرخ الموظفون المنسيون، وكما صرخ رجال التعليم الإلزامي والمدرسون المنقولون من مجالس المديريات. . . وهم يخدعون أنفسهم حين تملأهم صاحبة الجلالة الصحافة غروراً وكبرياء، وحين تصور لهم أنهم ملوك، بل قياصرة غير خليق بهم أن يبثوا شكاة أو يظهروا أحداً على بلوى

لهذا خلا الأدباء إلى شياطينهم وفرغوا إلى أنفسهم. . . فهم منقسمون إلى معسكرين. . . معسكر الشباب ومعسكر الشيوخ. ومعسكر الشباب منقسم على نفسه لأن أجناده ثوريون، فإن لم يجدوا ما يثورون عليه ثاروا على أنفسهم، كالنار التي تأكل بعضها، إن لم تجد ما تأكله

ومعسكر الشيوخ منقسم على نفسه أيضاً، إلا أنه غير ثائر، لأن الغالبية من أجناده تعرف الرزانة وتؤثر النظام، إما للسن المتقدمة التي يتعبها الجلاد ولا تصبر على الوغى، وإما إيثاراً للعافية، واعترافاً بما فطرت عليه من ضعف

والحكومة مع ذاك تنظر إلى كل هذا لاهية ساهية، لا ترى أن تشغل الأدباء المسلطين على أنفسهم برحلة جميلة تدبرها لهم في مواقع العلمين أو بين أطلال ستالينجراد. . . ولا ترى، إن يسعها الترفيه عنهم بالمصيف والمرطبات وحمامات السباحة، أن تجندهم تجنيداً إجبارياً ليدرسوا لها مشكلات الأدب بعد الحرب، بما تشمله تلك المشكلات من مسائل اللغة والتعليم والكتابة والتأليف والزواج والطلاق والهجرة والحد من نشاط المهاجرين إلى مصر من شذاذ الأمم ولصوص البحار

الحكومة تنظر إلى الأدباء ساهية لاهية، لا ترى أن تشغلهم بشيء من جد الحياة أو من لهوها. والأدباء مسلطون على أنفسهم تشغلهم السفاسف، وتنتهب فراغهم الهنات الهينات، كأن هدير المدافع وقصف الطرابيد وأزيز الطائرات لا يصل إلى أسماعهم، وكأن الدنيا التي تجد في أوربا وفي المحيط الهادي تهزل في مصر، وكأننا فرغنا من علاج مشكلاتنا فلم يبق إلا أن نهدم أنفسنا!

فريق من أدباء الشباب برم ساخط ضائق بنفسه وبالدنيا لأن شيوخ الأدباء بارزون في الحياة المصرية وهم غير بارزين، ولأن القراء مقبلون على هؤلاء الشيوخ الأدباء ولا يقبلون على أولئك الشباب، فلا بد لهم إذن من أن يشبوها جذعة عليهم، ولا بد لهم إذن من أن يخلو الدنيا من أولئك الشيوخ الذين بنوا النهضة الأدبية والنهضة الفكرية في مصر وفي غير مصر من الأقطار العربية، ولا بد من أن يخلو لهم وجه الأرض في مصر وفي الشرق العربي يصولون وحدهم فيه ويجولون

ولكي يتم لهم ذلك فليس لهم بد من أن يكيلوا التهم لشيوخ الأدباء. فالعقاد عاجز ولا شأن له بالشعر، وطه حسين له كتب ركيكة محشوة بالأغاليط، والزيات يكتب بأسلوب معقد يعلو على أفهام القراء، وأحمد أمين رجل مصنف لا شأن له بالأدب ولا مذهب له في الكتابة. . . والمازني يلفق مقالاته من التفاهات. . . وعنان يسطو على جهود المؤرخين ويعزوها إلى نفسه، والجارم ينتهب معاني الشعراء وينظمها لنفسه ومع ذاك فهو يسفل بها ولا يعلو،

وهيكل مؤرخ عقيم لا يصبر على مرارة التمحيص، ثم هو داعية متحمس، والعلم ينافي الدعاوة وينافي التحمس. . . . . .

هكذا يقول أدباء الشباب، وهكذا يكتبون في صحفهم، ويتحدثون في مجالسهم، ويسمرون في نواديهم. والمدهش حقاً أنهم من كثرة ما يرددون هذا اللغو أخذوا يظنون أنه الحق بل أخذوا يعتقدون أنه الحق

أما الأدباء الشيوخ فيغمزون الشباب دائماً ويلمزونهم دائماً ولكنهم قلما يصرحون بشيء فيما يردون على به تلاميذهم البرمين الثائرين المتسخطين، وهم يلتزمون الصمت ويلوذون به لأن هؤلاء التلاميذ الخصوم لم يعودوا يعرفون التأدب والاحتشام في مخاطبة أساتذتهم أو في مقارعتهم، فهم لا يبالون أن يقولوا إن هؤلاء الشيوخ أصبحوا أصناماً للأدب في مصر يعكف القراء على عبادتهم، وأنهم لا يتركون للشباب من الأدباء متنفساً من الهواء، لا في مصر ولا في الشرق العربي، وأن لا مخرج لهم من هذا الضيق ولا منفذ من هذا الحرج إلا بتحطيم تلك الأصنام الطاغية العاتية. . . ليخلو لهم وجه الأرض فيبيضوا ويصفروا!

وهذا التعبير القاسي هو من أيسر ما يقولون قدحاً في الرجال الذين بنوا لنا نهضتنا الأدبية والفكرية. وهو دليل على أن المعركة بين الشيوخ والشباب قد انحرفت عما كنا نرجو من ورائها من خير

على أن واحداً أو اثنين من شيوخ الأدباء لم يصبروا على أن يبسط الشباب ألسنتهم على هذا النحو. وأحد هذين هو الأستاذ العقاد، فقد كتب في هذه المجلة كما كتب في غيرها يرد على هؤلاء الشباب فرجمهم رجماً موجعاً. . . وأحسب أن الصيف كان يفعل

أفاعيله في أعصاب الأستاذ الجليل فانحرف به القيظ عن الجادة، إذ راح يتهم هؤلاء الشباب بأنهم شيوعيون هدامون، وأنهم يحسدون شيوخ الأدباء الذين يغمرون السوق الأدبية بالكتب، والصحف والمجلات المحترمة بالمقالات. . .

وتهمة الشيوعية هنا تهمة باطلة لا أساس لها من الحق، وقد أرسلها الأستاذ إرسالاً لا تثبت فيه ولا روية، وأكبر الظن أنها صائرة إلى ما صارت إليه تهمة الإلحاد القديمة التي سمجت حتى قضت على نفسها القضاء المبرم. ونحن نتمنى أن ألا نتراشق بالتهم، وألا نبتدع فيها تلك الألوان المهلكة التي تنافي ثقافتنا وديننا وتضر نهضتنا وبلادنا. . . وقد قرأت في إحدى مجلات الشباب رداً على الأستاذ العقاد يشبه الهوس، فقد ترك الكاتب الشاب موضوع النقاش وتناول العقاد جملة وتفصيلاً، فنفى عنه أنه كاتب، ونفى عنه أنه مفكر، ونفى عنه أنه مؤلف،. . . ثم ضحك ممن يقولون عنه إنه شاعر! وكل هذا هو الهوس بعينه. . ولن ينفى كل هذا أن العقاد كاتب كبير جداً ومفكر خصب التفكير جداً، ومؤلف له كتب كثيرة جيدة جداً. ولن ينفى عنه أنه شاعر من أرق شعرائنا خيالاً وأخصبهم معاني وأدقهم تصوراً، وإن لم يحدث في الشعر العربي، على حد ما بينا في مقالنا السابق، ثورة أو حدثاً كثيراً ذا بال

وقرأت في المجلة نفسها إنذارات موجهة إلى طه حسين وأحمد أمين، وهي إنذارات تدل على عدم نضوج الأقلام التي سودتها، فهم ينذرون طه حسين بإظهار القراء على الأغلاط الواردة في كتابه الأيام (الجزء الثاني!) كما ينذرونه بتعقب أغلاطه في كتبه الأخرى، وهذه هي المهاترة التي لا تليق بنا لأننا لن نكسب شيئاً قط إذا هدمنا العقاد وطه حسين وأحمد أمين والزيات والمازني. . . وهذه الطائفة التي أقامت نهضتنا الفكرية والأدبية وعلمتنا وسبقتنا إلى الميدان. . . وقبل أن نحاول هدم هؤلاء جميعاً فواجبنا ألا نكون ولا نضع شيئاً. بل نهدم ولا نبالي ماذا يكون بعد الهدم. . . يجب أن نفكر طويلاً في خطتنا قبل تنفيذها. فكروا أيها الشباب فيمن يخلف العقاد قبل أن تهدموا العقاد، إن استطعتم إلى هدمه سبيلاً. فكروا في كاتب منكم يستطيع أن يتثقف بما تثقف به العقاد ويستطيع أن يكون عصامياً في ثقافاته. . . وفكروا قبل أن تهدموا طه حسين في الرجل الذي يستطيع أن يتزعم نهضة أدبية في أمة بأكملها فيسهر عليها ويشقى في سبيلها ويقامر من أجلها بسعادته وسعادة أهله كما صنع طه حسين. . . ولتكن لطه حسين عيوبه التي تشق المراثر كما تزعمون، ولكن للرجل ماضيه، وله حاضره أيضاً، وأنتم أنفسكم ثمرات ذلك الماضي فلا تتنكروا له، فإن رأيتم فيه اعوجاجاً فقوموه بالحسنى، وأمامكم ميدان البريء فخوضوه أبرياء واشتدوا فيه كما تشتهون

وأما محاولتكم هدم أحمد أمين فصغار لا يليق بكم أيضاً، فقد أصبح أحمد أمين إماماً من أئمة نهضتنا، وأستاذاً من أساتذة الجيل، أعجبكم هذا الكلام أو لم يعجبكم، ثم هو كان إماماً هادئاً متزناً رزيناً، فهل فكرتم في أحد منكم يستطيع أن يصنف ما صنف ويؤلف مثل الذي

ألف ويجاهد في سبيل النهضة الفكرية كالذي ناضل وجاهد؟

وأما الزيات الذي تزعمون أنه يبرقش ويزركش، ويتخذ (الكليشيهات) لأسلوبه فعذره أنكم لم تنضجوا بعد، ولم تدركوا من طلاوة البيان العربي ما أدرك. . . ذلك البيان الذي جدد الزيات شبابه وتزعم مدرسته وخلق لها مما كتب وما ترجم التلاميذ والحواريين. وهاهو ذا يكتب آياته في الدفاع عن البلاغة فينشئ لكم ما أنشأ سانت بيف وهازلت وأرنولد وغيرهم من زعماء النقد. على أن هذا الضيق الذي أحرج صدور بعضكم من الزيات ليس من صنعكم، فقد صنعه لكم - وا أسفاه - أحد شيوخ الأدباء، وهذا هو انشقاق الشيوخ على أنفسهم. . . ذلك الانشقاق الذي أفادكم في خصومتكم غير المبصرة، والذي أفاد نهضتنا الفكرية بقدر ما أضرها. وحسبنا هذه الإشارة اليوم!

وأظرف ما في معسكر الشيوخ من فتنة مكبوتة تلك النذر الضاحكة التي يلوكها الدكتور زكي مبارك، والتي لا تجد لها صدى قط على صفحات الجرائد. . . فزكي مبارك تجرئ على المازني جراءة لا حد لها، والمازني لائذ بأذيال الصمت. . . والمازني بهذا الصمت يمكر بزكي مبارك الذي لا ينال منه إلا صمت مناوشيه، ولا يريحه إلا أن يردوا عليه فيرد عليهم حتى يخيل لنا أن المعركة لن تنتهي. . . أما مع العقاد فلست أدري لماذا تقدم زكي مبارك ثم تأخر ثم تقدم ثم تأخر. . . هذاإن دل على شيء فهو

إنما يدل على شيء يشبه الإشفاق أو يشبه الخوف، أو يشبه حاله بين الإشفاق والخوف، فقد نادى زكي مبارك مرة بأعلى صوته فقال: أنا أكتب منك يا عقاد، وأنا أشعر منك يا عقاد، ومؤلفاتي لا تسمو إليها مؤلفاتك. . . ثم لم يلبث أن ختم صيحته بكلمات هن إلى الملاينة والاسترضاء. . . ثم عاد في كلمة أخرى فسأل بعض القراء ألا يوقعوا بينه وبين العقاد ليقعدوا هم ويتفرجوا! ولست أدري العلة في جراءة زكي مبارك على المازني وإشفاقه من العقاد على هذا النحو المكشوف؟ أفصح يا دكتور زكي. . . أفصح. . . أفصح ولا تحسبن أحداً قد صدقك حينما رفعت عقيرتك بأنك أشعر شعراء هذا الزمان. . . وإن كنا يسرنا جدّاً أن تكون كذلك. . . يا دكتور زكي: أنت لست أشعر أهل هذا الزمان ولا أكتب أهله. . . بل أنت أجرأ كاتب في الشرق العربي فما علة إشفاقك من العقاد؟

أما انشقاق معسكر أدباء الشباب فقد كان على أحره في الملحمة الأخيرة التي دارت عن

القضية التي لم أفهمها إلى اليوم على وجهها، وهي قضية (الأدب المهموس)، فقد نزغ شيطان الجدل بين الأديبين المتحاورين، إذ رمى أحدهما الآخر بما لا يليق أن يرمي به رجل رجلاً أبداً. . . وقد ألفيت تلك الغمزة غير اللائقة في أسلوب مكشوف لا يصعب فهمه على أحد. . . وقد جاء رد الأستاذ الأديب الآخر ردّاً مرناً مضحكاً، فلم يضيق بما رُمى به، بل أجازه، ثم علله تعليله العلمي اللبق الظريف، إلا أنه لم ينس أن يجرح فرماه بالسماجة والصفاقة في معرض الرد عليه بعدم استحباب أن يستشهد الأديب بكلامه من نظم أو نثر. ولو وقف الرد عند هذه الملاحظة لملك الأستاذ الدكتور (. . .) ناصية الحق، إلا أنه برهن على صدق نظريتنا المتعلقة بأعصاب الأدباء في الصيف، فرمى مناظره بالسماجة والصفاقة. . . ونحار نحن في التعليق على ما حدث: أي المتناظرين جار قبل أخيه عن القصد، وأيهما بدأ بالعدوان. . . ولعل الذي سب أخاه في كمال رجولته أظلم، ولعله هو الذي انحرف أولاً فسبب انحراف صاحبه، ثم زاد الطين بلة فسخر من كفايات زميله وهو ما لا يوافقه أحد عليه، وهو أيضاً ما نرجو أن نتعالى في جميع مناقشاتنا عنه. . .

ولا بد من كلمة هنا نوجهها إلى رؤساء تحرير مجلاتنا. . . والكلمة وجاء مخلص نأمل أن يحققوه، ونرجو أن يحققوه سريعاً وقبل أن يتصرم الصيف. وذلك ألا يسمحوا بنشر الفِقر الحارة والساخنة التي ترد في سياق المناظرات والتي تهبط إلى مستوى الشتائم وتخرج عن دائرة الأدب. . . ونحن بالطبع لا نعني بدائرة الأدب دائرة الأخلاق وبعد. . . فلست أدري لماذا لا يعالج الأدباء شباباً وشيوخاً أعصابهم؟ ولماذا لا يذكرون أن الحكومة تركتهم وشأنهم فلم تتخذ أي أجراء للترفيه عنهم ولم تدبر لهم مصيفاً ولم تبح لهم القطارات والسيارات التي تنقلهم ولو إلى شواطئ المنزلة والبرلس وإدكو ومريوط. . . وإن كان يسر الحكومة أن يشتغل الأدباء بأنفسهم عنها، فلتشغلهم هي عن نفسها بالمفيد المجدي. . . لتجندهم تجنيداً إجبارياً ليبحثوا لها كل ما يهمها البحث فيه من مسائل ما بعد الحرب، وليدرسوا لها مشكلات الأمية وإصلاح البرامج والبطالة ومحاربة الفقر وهبوط الميزانية إلى حالتها الطبيعية في السلم وإصلاح الكتابة العربية. . .

وبعد أيضاً. . . فهذا حديث من لغو الصيف، نرجو ألا نلغو بحديث مثله.

دريني خشبة

دراسات عن مقدمة ابن خلدون

للأستاذ أبي خلدون ساطع الحصري

(أخرج هذا الكتاب الفريد شيخ المربين الأستاذ أبو خلدون ساطع الحصري، وقدم له بهذه المقدمة الشارحة، فرأينا أن ننقلها إلى القراء ليتبينوا منها منطق الأستاذ في تعليل الأشياء، ومنهجه في تحرير هذا البحث.)

- 1 -

دراسات عن مقدمة ابن خلدون. . .

أسطر هذه الكلمات، وكأني أسمع همس معترض يعترض عليَّ، قائلاً:

دراسات عن مقدمة ابن خلدون؟. . . ولماذا اخترت هذا الموضوع المبتذل المعاد؟ إن مقدمة ابن خلدون منتشرة بين أيدي جميع المستنيرين من الناطقين بالضاد. وقد كتب

الدكتور طه حسين أطروحة عن (فلسفة ابن خلدون الاجتماعية) كما نشر الأستاذ عبد الله عنان. كتاباً عن (ابن خلدون، حياته وتراثه الفكري). . . وقد نشر عدد غير قليل من المفكرين والكتاب، عدداً لا بأس به من البحوث والفصول والمقالات عن ابن خلدون ومقدمة ابن خلدون، في مختلف الكتب والجرائد والمجلات. فلا نعدو والحقيقة إذا قلنا: ما من مفكر ولا مؤرخ عربي، حظي من كثرة الذكر وذيوع الصيت بما حظي به ابن خلدون. فما الفائدة من العودة إلى هذا الموضوع بعد جميع هذه الكتابات والنشرات؟. ألم يكن من الأجدر بك، ومن الأفق لمصلحة قرائك، أن تنتخب موضوعاً آخر أكثر جدة وطرفة من هذا الموضوع؟

غير إني لم أسلم بوجاهة مثل هذه الاعتراضات والملاحظات؛ لأنني أعتقد بأن الطرافة في الدراسات لا تأتي من جدة الموضوع وحده، بل قد تتولد من طرافة الطريقة والاتجاه أيضاً. . . وأنا، مع احترامي للكتب والمقالات والدراسات التي نشرت بالعربية عن ابن خلدون ومقدمة ابن خلدون، أرى أنها ظلت بعيدة عن استيفاء البحث في هذا الموضوع الخصب الهام من نواحيه المختلفة، فأعتقد بأن هناك حاجة ماسة إلى إكمال تلك الأبحاث والدراسات وإتمامها؛ كما أن هناك ضرورة قصوى لإعادة النظر واستئناف البحث في معظم بلك الدراسات، وبطرق وأساليب أخرى وفق وجهات نظر جديدة

ومما يظهر هذه الحاجة بجلاء أعظم، ويبرهن على هذه الضرورة بوضوح أتم، أن الأبحاث والدراسات المنشورة عن ابن خلدون باللغة العربية، قليلة جداً، بالنسبة إلى ما نشر عنه في اللغات الأخرى، ولا سيما في اللغات الأوربية. وهناك عدد غير قليل من الدراسات العلمية القيمة عن ابن خلدون وآرائه المختلفة، لم تنقل بعد إلى العربية

ومن الغريب أن أهم الدراسات التي كتبت بأقلام بعض الشبان العرب أيضاً. ظلت خارجة عن نطاق (المطبوعات العربية) إلى الآن؛ فقد نشر الدكتور كامل عياد - من الشام - أطروحة باللغة الألمانية، سنة 1930 عن (نظرية ابن خلدون في التاريخ والاجتماع)؛ كما نشر الدكتور صبحي المحمصاني - من بيروت - أطروحة باللغة الفرنسية، سنة 1932، عن (آراء ابن خلدون الاقتصادية). . . وكلتا الأطروحتين لم تترجم إلى العربية، بالرغم من مرور اثنتي عشر سنة على نشر الأولى، ومرور عشر سنوات على نشر الأخرى؛ فاستفادة مستنيري العرب من الأطروحة الأولى لا تزال موقوفة على معرفة الألمانية، كما أن الاستفادة من الثانية لا تزال تتطلب معرفة الفرنسية. . .

وإنني أعتقد، لذلك، كل الاعتقاد بأن الجيل المثقف الحاضر مقصر في أداء واجباته نحو هذا المفكر العربي العظيم تقصيراً كبيراً

إن هذا التقصير الكبير، لا يتجلى في (ضآلة الدراسات) فحسب، بل يظهر في (رداءة الطبعات) أيضاً: فإن جميع طبعات المقدمة التي صدرت عن مطابع القاهرة وبيروت وانتشرت في جميع أنحاء العالم العربي، مشوبة بنواقص كثيرة وأغلاط فادحة

ذلك لأن جميع هذا الطبعات منقولة عن طبعة بولاق التي قام بأعبائها الشيخ نصر الهوريني في القاهرة، قبل مدة تزيد على ثمانية عقود من السنين. والشيخ الهوريني كان بعيداً - بطبيعة ثقافته - عن إدراك المبادئ الأساسية التي يجب مراعاتها في نشر مثل هذه المؤلفات القديمة.

فجميع الطبعات الشرقية تكاد تكون خالية من الشروح والتعليقات: فإن الشروح القليلة المبعثرة فيها لو جمعت في محل واحد لما ملأت أكثر من ثلاث صفحات. زد على ذلك أن هذه الشروح قلما تخرج عن نطاق (الإيضاحات اللغوية) فإنها لا تستهدف - على الغالب - شيئاً غير ذكر معاني بعض الكلمات. هذا مع أن الترجمة التركية موشاة ببعض الإيضاحات المطولة؛ والترجمة الفرنسية مملوءة بمئات ومئات من الشروح والتعليقات التي تحوم حول المعلومات اللغوية والأدبية والجغرافية والتاريخية الضرورية لفهم أبحاث المقدمة حق الفهم

ومما يلفت الأنظار في هذا الصدد، أن الطبعات المتداولة مشوبة بعدد غير قليل من الأغلاط المطبعية التي تغير معنى العبارات تارة، وتجردها من كل معنى معقول تارةً أخرى، وتقلب معناها رأساً على عقب في كثير من الأحوال

مثلاً: إن بعض الطبعات مسخت كلمة (اليقين) إلى شكل (أينين) فابتدعت هذه العبارة

الغريبة: (قال كبيرهم أفلاطون إن الإلهيات لا يوصل فيها إلى أينين). كما أنها حرفت (الحقيقة المتعقلة) وجعلتها (الحقيقة المتعلقة)، واستبدلت بعبارة (يحلق فوقها) عبارة (يلحق فوقها). إنها مسخت (العلوم الآلية) مسخاً غريباً، حولها إلى (العلوم الإلهية)؛ وحرفت تركيب (سن بكره) وجعلته (بين نكرة) فجردته بذلك عن كل معنى معقول: كما حولت (عالم القردة) إلى (عالم القدرة)، فغيرت المعنى المقصود تغييراً هائلاً وقد تطفلت بعض الطبعات بزيادة أداة (إلا) في جملة نافية، فقلبت معناها رأساً على عقب؛ وبعكس ذلك قد حذفت كلمة (ليس) من عبارة أخرى، فجردتها من كل معنى مفهوم، كما أنها أسقطت عدة كلمات من بعض العبارات، من غير أن تنتبه إلى أن ذلك قد جعل العبارة عديمة المعنى

ومن الأمور الغريبة أن الطبعات المصرية والشامية ناقصة من حيث المتون والفصول أيضاً: فإذا قارنا إحدى هذه الطبعات بطبعة باريس التي تعهدها المستشرق (كاترمير) - في نفس السنة التي كان قد أتم فيها الشيخ نصر الهوريني طبعة بولاق في مصر - نجد أنه ينقص منها أحد عشر فصلاً كاملة من الفصول المهمة، كما ينقص منها عدد غير قليل من الأبحاث والفقرات من الفصول المختلفة. وإذا أحصينا مجموع صفحات هذه الفصول والفقرات الناقصة نجدها تزيد على الستين

ومن الغريب أن طبعات مقدمة ابن خلدون المنشورة في العالم العربي ظلت على هذه الحال من النقص المعيب منذ مدة تزيد على ثلاثة أرباع القرن. . . ومن الأغرب أن الأبحاث والدراسات المنشورة بالعربية عن مقدمة ابن خلدون لم تنتبه إلى هذا النقص فلم تعمل على تلافيه، ولم تلفت الأنظار إليه إلى الآن

هذا وإنني أرى أن هناك قضية هامة أخرى تستحق الملاحظة والعناية أكثر من جميع الأمور التي ذكرتها آنفاً:

إن الذين يطالعون مقدمة ابن خلدون يقرءونها عادة كما نقرأ الكتب الحديثة، وينتقدونها بوجه عام كما تنتقد المؤلفات العصرية. ومعظم الذين يكتبون عن المقدمة أيضاً ينحون هذا المنحى نفسه، ويميلون إلى وزن الآراء الواردة فيها بموازين المكتسبات العالمية الحالية، من غير أن يلتفتوا إلى القرون التي تفصل بيننا وبين تاريخ كتابه المقدمة المذكورة، في حين أن قيمة المؤلفات القديمة، ومنزلة المفكرين القدماء - في تاريخ العلوم والأفكار - لا يمكن أن تقدر على هذه الطريقة ذلك لأن كل عالم ومفكر يشترك - بوجه عام - مع معاصريه في معظم آرائهم، فيشاطرهم أكثر أخطائهم، ولا يمتاز عنهم إلا في (بعض الآراء) التي يوفق إلى ابتكارها، و (تعض المعلومات) التي يصل إلى اكتشافها

ولهذا السبب، نرى أن منزلة الباحث والمفكر في (تاريخ العلوم والأفكار) لا تتعين بملاحظة (جميع الآراء الصائبة والخاطئة) المنبثة في كتاباته ومؤلفاته المختلفة، بل بملاحظة (الآراء المبتكرة) التي يسمو بها على معاصريه، و (الحقائق الجديدة) التي يضيفها إلى المكتسبات الفكرية البشرية، و (الخدمات التي يقوم بها) بهذه الصورة، في سبيل تقدم الأفكار والعلوم. . . كل ذلك بقطع النظر عن الآراء الخاطئة التي يبقى فيها مشتركا مع معاصريه بطبيعة الحال

إن عدم ملاحظة هذا الدستور الأساسي في دراسة المفكرين والعلماء القدماء، يحول دون تقدير منزلتهم العلمية حق تقديرها. ومحاذير ذلك تكتسب خطورة خاصة عندما يعود الأمر إلى عظماء المفكرين الذين يكونون في منزلة ابن خلدون، والى أمهات المؤلفات التي تكون على شاكلة مقدمته المشهورة؛ لأن مقدمة ابن خلدون من المؤلفات الجامعة التي تتطرق إلى عدد كبير من المسائل والمواضيع. إنها تتناول بالبحث مسائل كثيرة ومتنوعة جداً، من الديانة إلى التجارة، من النبوة إلى الطبابة، من الرؤيا إلى التربية، من السياسة إلى النجامة، من أوزان الشعر إلى عمران المدن، من مبادئ الموسيقى إلى أساليب الحرب، من موارد الدولة إلى أصناف العلوم. وخلاصة القول أن كل ما له علاقة بالاجتماع الإنساني والعمران البشري يأخذ نصيباً من بحوث المقدمة. . . فلا ينظر من مؤلفها أن يكون مبتكراً ومصيباً في جميع المواضيع المتنوعة، بل لابد أن يكون ناقلاً لآراء معاصريه في معظم تلك المسائل والمواضيع

فإذا قرأ القارئ مقدمة ابن خلدون من غير أن يراعي هذا الدستور، فقد يعود بفكرة

خاطئة تماماً عنها وعن مؤلفها، لأنه قد يبقى تحت تأثير مختلف الأخطاء المنبثة في صحائف الكتاب؛ والفكرة السيئة التي تستولي على ذهنه من جراء ذلك قد تؤثر على محاكمته، فتحول دون التفاته إلى الآراء القيمة المنتشرة في سائر أقسام الكتاب

إن أصول البحوث العلمية تتطلب من كل باحث يقدم على مطالعة كتاب قديم أن يتأمل في كل موضوع من مواضيعه - وكل مسألة من مسائلة - على حده. وأن يعرف حق المعرفة بأن (خطورة الأخطاء) التي تلقى في الكتب القديمة، لا يجوز أن توزن بالموازين الفكرية العصرية، بل يجب أن تقدر بموازين تاريخية خاصة. ولا حاجة لبيان أن هذه الموازين الخاصة لا يمكن أن تتقرر إلا بتتبع (تطورات الفكر البشري) بوجه عام

هذا مبدأ هام يجب ألا نهمله أبداً عند ما نقرأ وندرس مقدمة ابن خلدون. يجب علينا ألا ننسى أنه من رجال القرن الرابع عشر للميلاد؛ كما يجب علينا أن نرجع إلى تاريخ العلوم والأفكار عندما نقرأ كل فصل من فصوله، ونتأمل كل رأي من آرائه، ونستعرض ما كان يقول به المفكرون في هذا الصدد في العصر الذي عاش فيه وفي العصور التي أتت بعده

إنني لم أقل بهذا المبدأ ولم أضع هذا الدستور تعصباً لابن خلدون؛ بل قلت بهذا المبدأ لأنني وجدته سائداً في تاريخ العلوم والعلماء؛ وسردت هذا الدستور لأنني رأيته رائد القوم على الدوم

وأقول بلا تردد: لولا ذلك، لما استطاع أحد من المفكرين والعلماء السالفين، أن يحتفظ بمكانته العلمية والفكرية في هذا العصر، بين تطور العلوم الهائل وتقدمها المستمر

هذا أرسطو الذي يعد أكبر المفكرين الذين عرفتهم البشرية، والذي يلقب لذلك (بالمعلم الأول). هذا أرسطو نفسه، قد وقع في أخطاء وأغلاط كثيرة وكبيرة جداً في مؤلفاته المختلفة؛ فإذا أراد أحدنا أن يحصيها ويجمعها، استطاع أن يؤلف منها مجلداً ضخماً

إن بعض هذه الأخطاء والأغلاط كانت جوهرية خطيرة تتعلق بأسس العلوم نفسها كان أرسطو يقول مثلاً - في ميدان علوم الطبيعة - بنظرية العناصر الأربعة، ويعتبر كلاً من الماء والهواء والتراب والنار عنصراً من عناصر الأشياء. . . ومن المعلوم أن علمي الفيزياء والكيمياء، قد قاما على إنكار هذه النظرية من أساسها

وكان يقول - في ساحة علم الحياة - بنظرية (التناسل التلقائي)، ويعتقد بأن الديدان والحشرات تتولد من تلقاء نفسها، من الطين والجيف. ومن المعلوم أن علم الحياة الحالي، قد برهن على بطلان هذه النظرية برهنة قاطعة

وكان أرسطو يقول - في ساحة الاجتماعيات - بضرورة الرق، ويعتقد بأن الاسترقاق من ضرورات الحياة الاجتماعية؛ وكان يعلل اعتقاده هذا، بقوله (إن بعض الناس خلقوا ليكونوا عبيداً)؛ حتى كان يرى أن (الغزو للحصول على العبيد) مشروع بقدر (الصيد لاقتناص الحيوانات). . . ومن المعلوم أن تطورات الحياة الاجتماعية سارت دائماً على أساس إنكار هذا الرأي بوجه حاسم بات

وزيادة على ذلك، فإن بعض الآراء التي قال بها أرسطو كانت من نوع السفسطات والمغالطات. فقد قال - مثلاً -: (إن الخط المستقيم لا يمكن أن يكون كاملاً، بوجه من الوجوه، لأن هذا الخط المستقيم إذا كان غير متناه كان غير كامل، إذ أن الكمال في الخط لا يتم إلا عندما يكون له شكل مرسوم بوضوح. وأما إذا كان الخط المستقيم المذكور متناهياً، فلا يكون كاملاً أيضاً؛ لأنه يبقى في هذه الحالة، ما هو خارج عنه، بطبيعة الأمر. . .) ومن الواضح أن كل ذلك من لغو الكلام، وهو يدل على المغالطة في البرهنة والبيان

فإذا كان أرسطو لا يزال يتمتع بمنزلة ممتازة ومكانة خارقة، في تاريخ العلوم والأفكار، فما ذلك إلا لأن التاريخ المذكور يراعي على الدوام المبدأ الذي ذكرته آنفاً

وما قلته عن أرسطو في هذا الصدد، يصح في غيره من العلماء والمفكرين أيضاً. فليس بين هؤلاء - من سقراط إلى كونت، ومن بقراط إلى فرويد - من يعد عظيما لأنه لم يخطئ في آرائه وكتاباته قط؛ بل إنهم يعدون من العظماء، على رغم الأخطاء

التي وقعوا فيها والأغلاط التي قالوا بها

ومما تجب ملاحظته في هذا الصدد، أن موقفنا - نحن الناطقين بالضاد - تجاه مقدمة ابن خلدون يختلف بطبيعته عن مواقفنا تجاه مؤلفات أمثاله من الغربيين. ذلك لأننا لا نطلع - عادة - على آراء القدماء من الغربيين إلا من خلال بعض المقتطفات والدراسات، فنتوهم بأن كل ما قاله هؤلاء وكتبوه كان على ذلك الطراز. مع أن تلك المقتطفات والدراسات، تستهدف - بوجه عام - إظهار منزلتهم العلمية، فلا تحتوي في حقيقة الأمر إلا على الجوهر الهام، والزبدة المنتقاة من آرائهم وكتاباتهم الأصلية. بينما نحن نطلع على ما قاله ابن خلدون من قراءة مقدمته مباشرة ونحيط علماً بكل ما جاء فيها من غث وسمين. . فالمقارنة التي تحدث في أذهان بهذه الصورة، بين ابن خلدون وبين أمثاله الغربيين، تكون بعيدة عن الحق والحقيقة، بطبيعة الأمر

إن مثلنا في مثل هذه المقارنات كمثل من يريد أن يقوم بمقارنة بين المناجم المختلفة، فيقدم على الموازنة بين الفلز الطبيعي الموجود في أحدها، وبين المعادن الصافية والجواهر اللماعة المستخرجة من غيرها. . . من غير أن ينتبه إلى أن تلك المعادن والجواهر أيضاً كانت ممزوجة ومخلوطة بمواد ترابية وحجرية خسيسة، وإنها لم تظهر بمظهرها الحالي إلا بعد تصفيتها من النفايات؛ كما أن الفلز الطبيعي الموجود في المنجم الأول أيضاً يحتوي على جوهر ثمين - قد يبهر الأبصار - مثل تلك الجواهر، بل أكثر منها، إذا ما عولج وصفى مثلها

من البديهي أن المقارنات يجب أن تجري تحت شروط متساوية: فعلينا إما أن نقارن الفلز الطبيعي بالفلز الطبيعي، وإما أن نقارن المعدن المستخرج والمصفى بالمعدن المستخرج والمصفى. أما مقارنة الفلز الطبيعي من منجم ما، بالمعدن المصفى المستحصل من منجم آخر، فما لا يتفق مع مقتضيات العقل والمنطق، بوجه من الوجوه

فيجب علينا أن نتجنب سلوك مثل هذه الطرق في دراسة ابن خلدون. يجوز لنا أن نقارن الآراء الثمينة المستخرجة منها بما استخرج من أمثالها. وأما المقارنة بين المقدمة بهيئتها المجموعة وبين الآراء القيمة المستخرجة من الكتب المماثلة لها، فما لا يجوز أبداً

إن المقالات التالية، ترمي قبل كل شيء إلى تطبيق هذا المبدأ في دراسة مقدمة ابن خلدون، وإظهار منزلة مؤلفها العظيم، على هذا الأساس القويم

(بيروت)

أبو خلدون

المشكلات

اللغة العربية - 1

للأستاذ محمد عرفة

لماذا أخفقنا في تعليمها؟ - كيف نعلمها؟

شعر رجال التربية والتعليم في مصر منذ زمن طويل بإخفاق المعاهد المصرية المختلفة في تعليم اللغة العربية، فهبوا يتعرفون أسباب هذا الإخفاق، ويعالجونه بالوسائل التي يرونها، ألفوا اللجان، وعقدوا المؤتمرات، وبحثوا البحوث المختلفة؛ فمرة يرون الإخفاق من صعوبة النحو فينصرفون إلى تسهيله، ومرة يرونه من كثرته فينصرفون إلى تقليله؛ ومرة يرون من قلته فينصرفون إلى تكثيره، ومرة يرونه من مدرس اللغة العربية فيعمدون إلى إصلاحه وحسن اختياره والعمل على توسيع ثقافته، ومرة يرى بعض الباحثين أن هذا الإخفاق إنما هو من آثار البعد ما بين العامية والعربية فيشير بالتقريب بينهما بأن تنزل كلتاهما عن بعض خصائصها لتقرب من الأخرى. وهذا معناه إعدام اللغتين واصطناع لغة لا هي بالعربية، ولا هي بالعامية، وليس هذا إصلاحا، وإنما هو خضوع للحالة الراهنة، وإقرار الخطأ، والعجز أمام اللحن والتحريف والاعتبارات الدينية والاجتماعية والتاريخية تقضي علينا بالاحتفاظ باللغة العربية كما هي تدب في عروقها دماء القوة والحياة

أما الاعتبارات الدينية فإنها لغة القرآن والسنة، ومنهما يأخذ المسلمون دينهم وعقائدهم وأخلاقهم وعباداتهم وأحكام معاملاتهم، وهم يحرصون على اللغة العربية

أشد الحرص، ليفهموا بها كتاب الله وحديث رسوله، ويبقى ذلك الينبوع الذي يستقون منه متدفقاً ثرارا، ويخشون أعظم الخشية أن يصبح غورا فيفقدوه وهم في مسيس الحاجة إليه

وهم لا يرضون أن تبيد اللغة العربية كما بادت أخواتها من اللغات السامية كالعبرانية، فيصبح القرآن لا يتلى ولا يفهم إلا في المساجد وعند أداء الشعائر، كما صارت العبرانية لا تتلى إلا في الصوامع والبيع

وأما الاعتبارات الاجتماعية فإن اللغة العربية الآن لغة عامة، وهي لغة الشمال أفريقية والجزء الغربي من آسيا، وسكانها يبلغون أكثر من ثمانين مليونا من الأنفس، إذ أن اللغة العربية لغة الكتابة في هذه الأقطار جميعها، ومنها تفرعت لهجاتهم، ولحرصهم على اللغة العربية دائما لا تبعد اللهجات عنها، وكذلك لا تبعد لهجات الأقطار بعضها عن بعض بعداً يجعل التفاهم بين أهلها متعذراً

وقد ربطت هذه اللغة بينهم برباط اجتماعي وثيق، وسهلت سبل التعارف والتآلف، فأصبح المصري مثلاً يسافر شرقا إلى الشام أو الحجاز أو العراق، ويسافر غرباً إلى ليبيا وطرابلس وتونس والجزائر، ويسافر جنوباً إلى بلاد السودان وما وراءها فيرى أهلاً بأهل وجيراناً بجيران، ويحل بين قوم يفهم عنهم ويفهمون عنه، ويألفهم ويألفونه، وكأنه لم يبرح بلده، ولم يفارق موطنه، ذلك بفضل اللغة العربية وما يسرت من تفاهم، وكذلك شأن السوري والعراقي والحجازي إذا حل بهذه الأقطار، وقد كان ذلك سبباً في زيادة التعاون وإحكام روابط الأخوة والحب بين شعوب الشرق العربي، وفتح طريقاً إلى الوحدة العربية التي ينشدها كل محب للشرق وللعرب، وستحقق إن شاء الله بفضل هذه اللغة

وقد أدى ذلك إلى سهولة التجارة وتبادلها بين هذه الأقطار كما أدى إلى تبادل الثقافة وسائر ألوان الإنتاج في العلم والمعرفة والتفكير، وصار المؤلف في مصر لا يؤلف لوطنه وحده، وإنما يؤلف لجميع هذه الأقطار، كما صار طابع الكتب وناشرها لا يطبع أو ينشر لمصر فحسب، وإنما يطبع لهذه الأقطار ولبلاد الهند والملايو وجاوه وسومطره وبلاد الصين، كذلك شأن المؤلفين والناشرين في هذه الأقطار، وذلك كله بفضل اللغة العربية

وأما الاعتبارات التاريخية فإن علوم آبائنا وأجدادنا وثقافتهم وتراثهم العقلي قد وضعت باللغة العربية، فنحن نحافظ عليها ما حافظنا على هذا التراث. وهذا هو أيضاً على النفر القليل الذين دعوا إلى العامية وإحلالها محل اللغة العربية

أتدرون ماذا نكون إذا نحن اتبعنا مشورة أولئك وهؤلاء ممن يشيرون علينا بأن نتنازل العربية عن بعض خصائصها لتقرب من العامية، أو أن نصطنع العامية بدل العربية؟ إننا بذلك نعمد إلى تلك الصلات التي بيننا وبين جيراننا الشرقيين فنقطعها فنصبح نتكلم بلغة لا يفهمونها ويتكلمون بلغة لا نفهمها

وإلى تلك الصلات التي بيننا وبين أسلافنا فنقطعها أيضاً ونصبح لا نتصل بعلومهم ولا ثقافتهم، لأنها باللغة العربية ونحن نصطنع العامية؛ ونكون قد سجنا أنفسنا في سجن العامية المظلم لا يفهمنا أحد ولا نفهم أحداً بعد أن كنا في ميادين العربية الفسيحة التي تمتد شرقاً وتضرب في بلاد الهند والصين، وتمتد غرباً وتضرب في سواحل المحيط الأطلسي، وتمتد جنوباً وتضرب في المحيط الهندي، وتمتد شمالاً وتضرب في آسيا الصغرى وبلاد الأناضول، وتمتد في الماضي وتضرب في عهود العباسيين والأمويين والخلفاء الراشدين وعصر البعثة المحمدية وما قبل البعثة من عصر العرب الأولين

ومرة يرى بعض الباحثين أن يقرب بين العربية والعامية بأن يؤثر كل لهجة عربية توافق العامية، فيؤثر اللغة التي تلزم الأسماء الخمسة الألف، لأن العامية تنهج في أسلوبها هذا النهج، ويؤثر اللغة التي تعرب جمع المذكر السالم إعراب حين، لأن العامية تفعل ذلك

وهذا لا يحل المشكلة، لأن العامية لا تلتزم نهجاً واحداً خاصاً في أسلوبها ولا تلتزم لغة من هذه اللغات. وأيضاً فكثير من العامية ليس له نظير في لهجة من اللهجات العربية ثم ماذا يفعلون؟ أيوجبون هذه اللغة ويخطئون ماعداها، أم يجوزونها ويخيرون بينها وبين اللغات الأخرى؟ فإن كان الأول أدى ذلك إلى أن المتعلم على هذه الطريقة

يخطئ القرآن وكلام رسول الله وكلام العرب إذا جاءت على غير هذه اللغة. وإن كان الثاني لم يعد ذلك تسهيلاً لأنه لم يفعل شيئاً سوى أن زاد في الطنبور نغمة، فبعد ن كان يعلم لغة واحدة في جمع المذكر السالم هي اللغة العامة القياسية أصبح يعلم اللغة العامة واللغات الأخرى القليلة

ثم هذا يضيع على المسلمين الغرض الذي يرمون إليه، ويحرصون عليه أشد الحرص، وهو الاحتفاظ بلغة القرآن ولهجته وطريق أدائه

والذين يدعون إلى تيسير قواعد النحو والصرف والبلاغة أقرب إلى الصواب؛ ونحن نؤمن كما يؤمنون بضرورة هذه الخطوة، وإن كنا نخالهم فيما ذهبوا إليه من قواعد كما بينا ذلك في حينه، ونرى من هذا كله أن المشكلة على ما هي عليه لم تحل ولم توشك أن تحل. وسنحاول إن شاء الله في الفصول الآتية أن نحل هذه المشكلة التي استعصى على الزمن حلها

محمد عرفة

عضو جماعة كبار العلماء

في استقلال القضاء

إلى حضرة صاحب المعالي المصلح الكبير الأستاذ محمد صبري أبي علم باشا تقديراً (لقانونه الفذ، وتحية لشخصه الكريم)

للأستاذ محمود الخفيف

بَشَّرْتَ باسْتِقْلاَلِهِ الأجْيالاَ ... وَجَعَلْتَهُ حَقًّا وَكانَ خَيالا
أَمَلٌ تَطلَّعَتِ البِلاَدُ لِيَوْمِهِ ... مُنْذُ احْتَوَى دُسْتُورُها الآمالا
ظمئت لَهُ مِصْرٌ وَطالَ أوَامُها ... حتَّى سَقَيْتَ بهِ العِطاشَ زلاَلا
عَجِبوا لِسَعْيِكَ إذْ بَلَغْتَ بِهِ المدى ... ولَطَالَما ألِفوا الوُعُودَ مِطالاِ
عَدوا لَهُ الأيَّامَ فَهيَ قَصِيرَةٌ ... لَكِنَّهُمْ وَجَدُوا خطاكَ طِوالا
وَتَلَقَّتَ التَّارِيخُ يَكْتُبُ صَفْحَةً ... غَرّاَء، جَلَّتْ شَاهِداً وَمِثالا
أُسُّ العَدَالَةِ أَنْتَ بَاني رُكْنِه ... فَابْلُغْ بِهِ هَامَ النُّجُوم كمالا
العَصْرُ تَظْمَأُ لِلْعَدَالَةِ رُوحُهُ ... لما رأى الطُّغْيانَ سَاءَ مآلا
هِيَ أَصْلُ كُلِّ حَضَارَةٍ وسكينَةٍ ... وَهِيَ الجمالُ لِمنْ أرادَ جَمَالا
مَا قِيمَةُ الدُّنيا وَمَا نِعَمُ الحَيَا ... ةِ إذا الطُّغَاةُ اسْتَعْبَدُوا الأعْزالا؟
وَلِمَ التَّفاوُتُ في سُلاَلَةِ آدَمٍ ... أَوَلَمْ يكونوا كُلُّهُمْ صَلْصَالاَ؟
العَدْلُ إنْ قَامَتْ عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ ... لَمْ تَلْقَ ذا خَتْلٍ وَلاَ رِئْبَالاَ
وَإذا تَنَكَّبَتِ العَدَالَةَ أُمَّةٌ ... فَقَدْ ارْتَضَتْ هَذِى الحَيَاةَ وَبَالا
يَحيا عَلَى الطُّغْيَانِ كُلُّ مُسَلَّطٍ ... فِيهَا وَيُنْشِبُ ظُفْرَهُ مُغْتالا
فإذا الرِّجَالُ بِهَا ضَوَارِي غَابَةٍ ... وإذا المَدَائِنُ أصْبَحَتْ أدْغالا
رُسُلُ العَدَالَةِ في البِلاَدِ قُضَاتُها ... أَعْلَى الرِّجَالِ مَهَابَةً وَجَلاَلاَ
بَذلوا لِمِصْرَ جُهُودَهُمْ مَوْصولَةً ... وَتَحَمَّلوا في حُبها الأثقَالا
تَاللهِ مَا وَهَنُوا ولا بَرِموا وَلاَ ... مَنُّوا ولا كانوا بِهَا بُخَّالا
لَمْ يَأْمَنُوا وَهُمْ القضَاةُ مُتَاجِرَا ... غِرًّا، يُدِلُّ بِبَأْسِهِ إدْلاَلا
أوْ يَأْمَنوا في الحقِّ صَوْلَةَ غاشِمٍ ... لمْ يَرْضَ إلاَّ مَا يَقُولُ جِدَالا
صَبَرُوا عَلَى الأعْنَاتِ صَبْرَ أَعِزَّةٍ ... وَلَوْ انَّهُمْ رُزِئوا بِهِ أشْكالا
أَحْرَى بِمَنْ يَحْمِي الحقوقَ قَضَاؤهُ ... أَلاَّ يَرَى عَنتاً وَلاَ إضلاَلاَ
وَبِمَنْ يُخيفُ الظالِمين عِقَابُهُ ... أَلاَّ يَخَافَ عُقوَبةً وَنكالاَ
وَبِمَنْ يَفُكُّ عَنِ السَّجِينِ قُيودَهُ ... أَلاَّ يَهَابَ شَكِيمَةً وَعِقَالاَ
وَبِمَنْ يُنِيرُ لَهُ السَّبِيلَ ضَمِيرُهُ ... ألاَّ يُزِيغَ لَهُ الهوى اسْتِدْلالا
وَبِمَنْ يُدِيرُ إلى المَصَاعِبِ بالَهُ ... أَلاَّ تَكِدَّ لَهُ الشَّوَاغِلُ بالا
قُلْ لِلْوَزِيرِ فَعَلتَ فِعْلَ مُؤَسِّسٍ ... كانَ الأصِيلَ العَبْقَرِيَّ فِعَالاَ
العَصْرُ لَمْ يَعْرِفْ لِفِعْلِكَ مُشْبِهاً ... وَتَقِلَّ، إنْ عَدُّوا لَكَ الأمْثَالا
فَضْلٌ يُضَافُ إلى مآثِرِ مَاجِدٍ ... ما زال يُولي قَوْمَهُ الأفْضَالا
لِلِه إذْ يَسْعَى وَيَدْأَبُ جَاهِداً ... مَا كانْ ذا مَنٍّ وَلاَ قَوَّالا
مُتَوَاضِعٌ حَتَّى لَيُخْفِى سَعْيَهُ ... وَتَرى الزَّمَانَ بِسَعْيِهِ مُخْتَالاَ
لَوْلاَ شوَاهِدُ لاَ تكونُ لِغَيْرِهِ ... نَسَبَ الرُّوَاةُ لِغَيْرِهِ الأفْعالا

وإذا الرِّجَالُ بَنَوْا حَقِيقَةَ مَجْدِهِمْ ... تَرَكُوا الكَلاَمَ وَأَنْطَقُوا الأعْمَالاَ
هَذَا الّذِي هَزَّ الوزَارَةَ باسمِهِ ... كَم جالَ أَيَّامَ الجِهَادِ وَصَالا
لبّى نِدَاءَ الْحقِّ في أَوْطَانِهِ ... لَمَّا دَعا سَعْدٌ بها الأَشْبَالاَ
عَرَفَ الزَّعِيمُ لَهُ كَرِيمَ خِلاَلِهِ ... فَرَأَى الْبَشاَشَةَ مِنْهُ وَالإِقْبَالا
فإِذَا نَظَرْتَ إِلَى الْعَرِينِ وَجَدْتَهُ ... وَرَأَيْتَ مِلْءَ إِهَابِهِ اسْتِبْسَالا
وَإِذَا الْحَماسَةُ أَنْطَقَتْهُ سَمِعْتَهُ ... في الْحقِّ أَرْوَعُ مَا يَكُونُ مَقَالا
الصّدْقُ وَالإِيمَانُ في نَبَرَاتِهِ ... وَلَقَدْ تَمَلّكَ سَمْعَكَ اسْتِهْلالا
وَمَضَى فَهَزَّكَ بالْبَيَانِ يَسُوقَهُ ... سِحْراً تَرَشَّفَهُ النُّفُوسُ حَلالا
مُتَدَفِقاً كالْمَوْجِ يَهْدُرُ تارَةً ... وَتَرَاهُ حِيناً هَادِئاً سَلْسَالا
نَبْعٌ تَفَجَّرَ مِنْ قَرَارَةِ نَفْسِهِ ... فأَرَاكَ أَوْصافاً لَهُ وَخِسلالا
نَبُه اسْمُ صَبْرِي الشَّبَابِ فِماَ ارْدَهَى ... يَوْمًا وَلا بَاهَى بِهِ وَاخْتَالا
وَاليَوْمَ تَرْمُقُ مِنْهُ بَدْراً كامِلاً ... قَدْ تَمَّ في أُفُقِ الْعَلاَءِ خِصَالا
سِمَةُ النُّبُوغِ عَلَى كَرِيمِ جَبِينِهِ ... مِنْ يَوْمِ أَنْ بَهَرَ الْعُيُونَ هِلالا
هَذَا خَلِيفَةُ سَعْدٍ انظُرْ هل تَرَى ... صَبْرِي لَدَيْهِ تَقَدَّمَ الأَبْطَالا
لا غَرْوَ إِنْ هُمْ قَدَّمُوهُ فَقَدْ رَأَوْا ... سَيْفاً تَناَهَى رَوْعَتً وَصِقاَلا
مَا فَلَّ طُولُ جِهَادِهِ عَزْمَا له ... يَوْمَا وَلا اطَّرَحَ الْجِهَادِ مَلالا
مِلْءُ الْقُلُوبِ رَزانَةً وَجَلالَةً ... وَحَمَاسَةً وَتَوَثُّباً وَنِضالا
قَدْ لازَمَ الصِّدِّيقَ في وَثَبَاتِهِ ... أَيَّامَ خَاضَ إِلى الْمُنَى الأَهْوَالا
مَا كانَ إِلا الْحُرَّ يَحْمَي عَزْمهُ ... في الحَادِثَاتِ وَقَدْ عَصَفْنَ سجَالا
لماَ أَدَارَ إِلى القَضَاءِ جُهُودَهُ ... نَسِى الكَلالَ فما يُحِسُّ كلالا
وَلَكَمْ تَحَمَّلَ غَيْرَ هَذا دَائِبَا ... من قَبْلُ أَعْبَاءِ وَكُنَّ ثِقَالا
مَدَّ الرَّئيسُ له يَمِينَ مُحَرِّرٍ ... بالأَمْسِ حَطَّمَ في الْحِمَى الأَغْلالا
نَصَرَ القَضَاءَ وَنَاصَرَ اسْتِقْلالَهُ ... مَنْ أَلْبَسَ الأَوْطَانَ الاسْتِقْلالا
الأَرْوَعُ الْمُسْتَبْسِلُ الْبَطَلُ الّذِي ... أَعْيَتْ كِبَارُ جُهُودِهِ الأَقوالا
مَاذَا أَقُولُ؟ وأَيْنَ من وَثَباتِهِ... شِعْرِي وَلَوْ بَلَغَ السَّمَاءَ وَطَالا
هَذَا الذي لاَقَى الخُطُوبَ بِبَأْسِهِ ... فإذا بِهَا قَدْ زُلْزِلَتْ زِلْزَالا
وَإذا بِهِ الجَبَلُ الأَشَمُّ وَحَوْلَهُ ... أَصْحَابُهُ وَقَفوا لَدَيه جَبالا
صَبْري إِلَيْكَ تَحِيَّةٌ مِنْ شَاعِرٍ ... أَمْلَي عَلَيْهِ وَفَاؤه ما قَالا
أَنَا مَنْ يُغَنِّي بالبُطُولَةِ شِعْرُهُ ... وَأَصُوغُ غَالَي دُرِّهِ إِجلالا
لازِلْتَ في سَمعِ الزَّمَان قَصِيدَةً ... غَنَّى بها الأَسْحَارَ والآصَالا
الخفيف
البريد الأدبي
1 - الشاعر ابن العرايش من هو؟؟
نشرت البرقيات الخاصة والعامة أسماء الفائزين الأول في مسابقة الشعر العربي التي نظمتها محطة الإذاعة اللاسلكية في لندن. واسم الفائز الأول في موضوع نهضة الشباب هو (ابن العريش)
وليس (ابن العريش) هذا اسماً، ولكنه كنية اتخذها الشاعر الحقيقي، أما اسمه الكامل فهو (نجيب ليَّان) من أهالي زحلة التي خلدها المرحوم شوقي الشاعر بقصيدته الفاتنة والأستاذ نجيب ليَّان يشتغل الآن منصب مدير قلم المطبوعات اللبناني؛ ولم أعثر له على ترجمة أو (لوحة أدبية فنية) في كتاب (الرسوم) الذي ألفه الأديب اللبناني المشهور إلياس أبو شبكة. فلعل الأستاذ (أبو شبكة) يصور لنا صديقه الشاعر نجيب ليَّان في صورة طريفة لمجلة الرسالة الغراء
2 - آباء العلاء
أنجبت المعرة شاعر الحكيم أبا العلاء المعري صاحب اللزوميات، وسقط الزند والفصول والغايات وغيرها
وهناك غير واحد من أهل المعرة سمي أبا العلاء، ومن هؤلاء من كان معاصراً لأبي العلاء المشهور ومنهم من تأخر به زمانه عنه؛ ومن (آباء العلاء) هؤلاء: أبو العلاء بن عبد الله ابن الحسن، أبو العلاء بن أبي الندي، أبو العلاء أحمد ابن أبي اليسر وأبو العلاء الحسن بن الحسين وأبو العلاء سعد ابن حماد. أما شاعرنا المشهور فاسمه أبو العلاء

أحمد بن عبد الله ابن سليمان التنوخي
رباعيات الخيام - 3
يعرف قراء الرسالة أن كثيراً من أدباء العرب ترجموا رباعيات الخيام إلى اللسان العربي؛ ومن هؤلاء المترجمين المحسنين على تفاوق في الإحسان، أحمد رامي وأحمد زكي وأبو شادي والبستاني وأحمد صافي النجفي. ولعل الأستاذ النجفي الآن على إخراج طبعة ثانية من ترجمته تكون أكثر دقة وأحسن إخراجاً. وقد نشرت مجلة (الصباح) الدمشقية الغراء -
وهي التي ننقل عنها هذا الخبر إلى قراء الرسالة - أن الشاعر النجفي قدم لطبعته الجديدة قطعتين من الشعر رداً على من أساءوا فهم فلسفة الخيام. قال لا فض فوه في أولاهما:
قد كنت من خمرة الخيام منتشياً ... وإنما خمرة الخيام إلهام
يظنه الجاهل المسكين منغمراً ... في الراح يطفو به في لجها الجام
فراح يدمن سكراً باسمه نفر ... كأنهم إذ تدار الكأس أنعام
ظننت ترجمة الخيام مأثرة ... أذابها لضعاف الرأي إجرام
إن كان هذا مآل الشعر في نفر ... لا كان شعر ولا خمر وخيام
خالوه من شعره في الخان منطرحاً ... وكم أساءت إلى الأشعار أفهام
ففتشوا عنه في الحانات وانصرفوا ... وكل ما عرفوه عنه أوهام
لله درك يا خيام في كلم ... يحييا بها الخالص بل يفني بها العام
وهذا أجمل دفاع شعري سمعناه - عن شاعر ظلمه الناس وشربوا الخمر باسمه، واحتموا في ظل رباعياته، وهو من ذلك الخمار وتلك العربدة براء.
محمد عبد الغني حسن
قضية تخسر!
ليست القضية التي انبرى الأستاذ سيد قطب للدفاع عنها بقضية خاسرة، ولكنها - مع الأسف - قد لقيت الخسران على يديه! وليس من عجب أن يجد الدكتور مندور منفذاً للطعن في رد الأستاذ سيد قطب، فإن الواقع أن هذا الرد لم يكن غرض صاحبه أن يدافع عن أباء مصر بقدر ما كان غرضه أن يعلن عن نفسه. والحق أنني ما قرأت كلام الأستاذ قطب حتى استوقفني فيه هذه الظاهرة، إذ قد فاته أن يوجه كل همه لنصرة قضيته، وإنما راح يحشد أقواله وأقوال الأستاذ العقاد، كأنما ليس في مصر غيرهما. وليست هذه هي المرة الأولى التي يسلك فيها الأستاذ قطب هذا المسلك، بل إن كل من قراء ديوانه: (الشاطئ المجهول) ليذكر جيداً كيف مهد الشاعر (سيد قطب) لديوانه بمقدمة نقدية بقلم الناقد (سيد قطب)، وكيف راح يثني على نفسه في هذه المقدمة بكلمات بعجب لها المرء عجباً يستنفد كل عجب!
أما الأستاذ العقاد الذي تصدى الأستاذ قطب للدفاع عنه فإن القصائد التي اختارها له ليست من أجود شعره، والحكم على العقاد بناء على قصيدة واحدة منها لا بد أن يكون حكماً جائراً. وفضلاً عن أن الأستاذ قطب كان سيئ الاختيار، فإنه يجب علينا أن نقرر أن الحكم على شعر العقاد إنما يكون بقراءة دواوينه كلها. لذلك أشير على الدكتور مندور بقراءة (وحي الأربعين) وخاصة القصائد الآتية: (الغزل الفلسفي) (المعاني الحية)، (ليلة البدر) فإن هذه القصائد تتضمن أشعاراً لا يمكن أن يقارن بها أي شعر من أشعار المهجر كله!
زكريا إبراهيم
العدد 529 - بتاريخ: 23 - 08 - 1943
من طرائف المفارقات في بلد المفارقات
للأستاذ عباس محمود العقاد
من طرائف ما يقال في بلد المفارقات كلمة كتبتها آنسة أديبة في (المصور) الأغر تقول فيها: (. . . سألني الأستاذ الكبير عباس العقاد عن رأيي في سارة فأجبته في صراحة أنه قد آن الأوان لتتحدث الأنثى عن الأنثى وتصور شعورها وتترجم عواطفها. فإن الرجل لا يعرف المرأة ولا يفهمها، ولذلك يصورها في كتابته مخلوقة أخرى غير التي نعرفها في نفوسنا ونحسها فينا. . .)
وطريف كل ما في هذه الكلمة التي تتمثل فيها شتى المفارقات في بلاد النقائض

والمفارقات!
فمن طرائفها قول الآنسة الأديبة أنني سألتها رأيها في سارة، وأنا لا أعرف أنها قرأتها وأن لها رأياً فيها
ولو عرفت أنها قرأتها وأن لها رأياً فيها لما فاتحتها بالسؤال عنها، لأن أصدقائي الكتاب والقراء كثيرون يعلمون ما لم تعلمه الآنسة الأديبة، وهو أنني لم أستبح لنفسي يوما أن أفاتح أحداً بالسؤال في موضوع كتاب ألفته أو قصيدة نظمتها، لأن المفاتحة بالسؤال
في هذا الصدد إما استجداء ثناء، وهو لا يحسن بالكاتب، وإما إحراج للمسؤول إذا اضطره السؤال إلى إبداء رأي لا يروق ولا يطيب وقعه في أذن السامع، وهو كذلك لا يحسن بالكاتب ولا بكائن من كان
ومن شاء إبداء رأي فله من وسائل الإبداء ما يغنيه عن هذا الحرج، وما يغني الكاتب عن سوقه إلى الكلام فيما ليس من قصده أن يفتتح الكلام فيه
والآنسة الأديبة صحفية على اتصال بالصحف اليومية والأسبوعية، فما رأيها في سؤال
قراء هذه الصحف عن قارئ فرد أو كاتب فرد شغلته في مجلس من المجالس باستفساره الرأي فيما أكتب أو ما أنظم!
فلماذا أسألها هي إذا كنت لا أسأل أحداً غيرها؟
أأسألها لأسمع منها الرد الذي لا يحمد من فتاة ولا فتى في خطاب رجل يكتب قبل أن تدرج من مهدها؟
أأسألها لأسمع منها أن هذا شأني وليس بشأنك، وأن الأمر يعنيني ولا يعنيك أنت ولا يعني أحداً من الرجال؟
وإذا نسيت الآنسة أن هذا جواب لا يحمد من فتاة ولا فتى، فما الذي ينسيني أنا أن أرد إليها ذاكرتها في أدب الخطاب؟
طريف هذا وأطرف منه رأيها الذي بنت عليه جوابها، وهو أن المرأة لا يكتب عنها غير المرأة، وأن الرجل لا يكتب عنه غير الرجل، وأن الطفل لا يكتب عنه غير الطفل على هذا القياس
فإذا كانت عندنا، كما يقول وضاع المسائل الحسابية، رواية مدارها على زوج وزوجة، وولد وبنت، وخادم وخادمة، وحصان في خدمة الأسرة، ودجاجة وديك في فناء الدار؛
فليس في وسع كاتب واحد إذن أن يؤلف هذه الرواية الشائعة بين الروايات، ولكننا بحاجة إلى رجل في سن الزوج، وامرأة في سن الزوجة، وولد في سن الإبن، وبنت في سن الابنة، وحصان ودجاجة وديك، للتعبير عن حقائق هذه الأحياء، ويبقى بعد ذلك أن يحتج الخادم والخادمة. . . لأن الزوج لا يغني عن الخادم وإن كان رجلاً، والزوجة لا تغني عن الخادمة وإن كانت امرأة، ولا يشعر السادة بشعور الخدم ولا الخدم بشعور السادة أليس كذلك؟
بلى كذلك وزيادة! وإن كنا لا ندري كيف يكون التأليف وأين يبدأ هذا وأين يتسلم من ذاك سلسلة السطور
الآنسة الأديبة لا تعلم الحقيقة فيجب أن تعلم الحقيقة كما خلقها الله وأقرها الواقع الذي لا حيلة لنا فيه
والحقيقة التي خلقها الله وأقرها الواقع الذي لا حيلة فيه أن المرأة لا تفهم من شئونها شيئاً إلا كان الرجل أفهم منها لهذا الشيء ولو كان من خاصة أعمالها وشواغلها
فالطهي من صناعات المرأة القديمة، ولكن أمهر الطهاة في الدنيا رجال وليسوا بنساء
والخياطة من صناعات المرأة القديمة ولكن المرأة لا تخيط ملابسها ولا تبتكر أزياءها كما يخيطها الرجل ويبتكرها، والتوليد من صناعات النساء ولكن المرأة نفسها تثق بالطبيب المولد ولا تثق بالطبيبة المولدة
والمرأة تبكي منذ خلقت ولا تزال تبكي إلى يوم الدين، وترثي الموتى منذ هلك ميت إلى أن يموت آخر الهالكين، ولكنها كما قلنا مرة لم تخلد بكلمة واحدة إلى جانب الكلمات التي خلد بها الباكون والراثون من الرجال، ولا استثناء في ذلك للخنساء وهي التي كانت تفاخر النساء بالبكاء!
ونأتي إلى القصة نفسها وهي موضوع التعقيب أو موضوع الزجر والتأنيب للرجال الفضوليين الذين يدخلون فيما لا يعنيهم من شئون المرأة
فمن الحقائق التي يجب أن تعلمها الآنسة الأديبة أن الكاتبات الروائيات لم يشتهرن

قط بخلق الشخوص النسائية الخالدة في عالم الكتابة، ويصدق هذا على السابقات من طراز ماري كوريلي وشارلوت برونتي كما يصدق على اللاحقات من طراز فيكي بوم وبيرل بك، بل يصدق في هذا المعنى أمر تستغربه الآنسة لو علمت به: وهو أن الرجال في روايات الكاتبات أصدق صورة من النساء، لأن المرأة على ما يظهر لا تحسن التعبير عن نفسها كما تحسن مراقبة الرجل والحكاية عنه، وإن لم تقصد التحليل والتصوير

ولست أنا القائل إن المرأة لم تفهم نفسها كما فهمتها من تصوير شكسبير لها، وإنه صور خمسا وعشرين صورة نسائية لا تختلط واحدة منها بالأخرى ولا توجد امرأة واحدة تحصيها في وجوهها وملامحها، ولكن الذي قال ذلك امرأة فاضلة هي أنا جمسن في كتابها بطلات شكسبير

ولم توجد بعد المرأة الفذة بين النساء، كما كان شكسبير الرجل الفذ بين الرجال تلك طرائف آنسة في حديث الذكر والأنثى

ولهذا الحديث طرائف أخرى في (رجل) كشفه الأستاذ السيد قطب وقال هو عن نفسه إنه يفخر بمشابهة المرأة تكوينها

هذا الرجل يقول لنا: (وأنا أحب أن يعلم الأستاذ قطب، وأن ينقل إلى الأستاذ الكبير العقاد، أن الحياة البشرية ليست من البساطة بحيث يظنان. . . وقديماً زعم اليونان أن الآلهة عند خلقها للبشر لم تخلق الرجل والمرأة دفعة واحدة بل خلقت أعضاء مختلفة ثم جمعت بين تلك الأعضاء لتسوي الرجل والمرأة، وهي لسوء الحظ أو حسنه لم تحرص على نقاء الرجل من عنصر المرأة أو نقاء المرأة من عنصر الرجل. ولهذه الخرافة الرمزية دلالتها

فليست هناك امرأة كاملة الأنوثة وليس هناك رجل كامل الرجولة. . .) إلى آخر ما قال هذا الرجل الذي كشفه السيد قطب جزاه الله

ومنتظرون نحن حتى يجشم هذا الرجل نفسه مشقة الرسالة التي بعث بها إلينا من طريق الأستاذ سيد قطب لينقلها إلينا. . .!

منتظرون تلك الرسالة منذ متى يا ترى؟

منتظروها منذ سبع عشرة سنة يوم كتبنا نقول: (لا بدع أن يكون الأمر كذلك وأن نجد حب تاجور أقرب إلى عطف الأنوثة ورحمة الأمومة. فإن فاصل الجنس ليس من المناعة والحسم بالمكان الذي يتوهمه أكثر الناس. وليس كل رجل رجلاً بحتاً ولا كل امرأة امرأة صميمة، وإنما تمتزج الصفات وتتفق المزايا ويكون في الرجل بعض الأنوثة كما يكون في المرأة بعض الرجولة، ولا أرى في تصور ذلك أظرف ولا أدنى إلى الصدق من الأسطورة التي يروونها عن اليونان ويمثلون بها كيف كانت صنعة الإنسان وكيف كان هذا الخلط بين خلق الرجال وخلق النساء. فقد زعموا أن الإله الموكل بهذه الصناعة دعي إلى وليمة الأرباب فقضي ليله يقصف ويلهو ويعاقر ويتماجن ثم عاد عند الصباح مخموراً دهشاً فألقي عمل النهار بين يديه لا مناص من إنجازه ولا حيلة في تأجيله، فأقبل على العواطف والجوارح يقذف ما اتفق له منها في الأهاب الذي يعرض له، ويرمي تارة بقلب رجل في أديم امرأة، وتارة أخرى بوجه امرأة على كتفي رجل، وهكذا حتى أتم عمله. . .)

إلى أن قلنا (وكأن (أوتو فيننجر) يقول ما تقوله هذه الخرافة حين شرح مذهبه في الحب، وقرر في كتابه الجنس والأخلاق أن لا ذكورة ولا أنوثة على الإطلاق، وإنما هي نسب تتألف وتتخالف على مقاديرها في كل إنسان، ولا عبرة فيها بظواهر الجوارح والأعضاء)

فالرسالة إذن قد وصلت إلينا راجعة إلى الوراء، وقد تعاد إلى مرسلها للاستغناء، ومعها ما يستحقه من الجزاء

والجزاء الذي يستحقه أنه الآن لم يحسن أدب اليونان ولا أدب الخطاب، وأنه لو تعلم هذه الخرافة كما تعلمها قراؤنا قبل سبع عشرة سنة لما لاكها في مقالة كما يلوكها الآن، ولأكل رزقه حلالاً بتعليم الأدب اليوناني الذي يعلمنا إياه في هذه الأيام، ويريد أن يعترف له بفضل فيه، وهو ينكر فضل السبق على ذويه بلد المفارقات، وهذا الرجل كتلك الآنسة من

هذه المفارقات. . .!
عباس محمود العقاد
الصيد في الأدب العربي - 3
للدكتور عبد الوهاب عزام
وفي ديوان أبي نواس سبع وعشرون أرجوزة في وصف الكلب، وهو تارة يصف خلقة الكلاب وطباعها، وتارة يصف سرعتها وعملها في الصيد. منها الأرجوزة:
أفعتُ كلباً جال في رباطه ... جَول مصاب فر من أسعاطه
عند طبيب خاف من سِياطه ... هجنا به وهاج من نشاطه
كالكوكب الدريّ في انخراطه ... عند تهاوي الشد وانبساطه
لما رأى العلهب في أقواطه ... سابحه ومرَّ في التباطه
كالبرق يذري المرو بالتقاطه ... مثل قليّ طار في أنفاطه الخ
فهو يشبه الكلب في نشاطه واضطرابه ومحاولة الإفلات من الرباط بمجنون يستعصي على طبيبه ويفر من دوائه ومن بطشه
ثم يشبهه في انقضاضه سريعاً بالكوكب ويقول إنه حين رأى التيس البري في قطعانه عدا فمرا معاً يسبحان عدوا، واستمر الكلب يضرب الأرض بيديه فيطير الحجارة الرقيقة كما تتطاير الفقاقيع عن السمن الذي يغلي على النار. وهو وصف عجيب دقيق
ولا يتسع المجال لإثبات الأرجوزة كلها والتمثيل بأبيات من الأراجيز الأخرى
ولأبي الطيب طرديات قليلة، منها أرجوزة يصف فيها كلباً يصطاد ولم يشهد الصيد ولكن أخبر به. وهو وصف إن فاته صدق المشاهدة فهو دليل على خبرة شعرائنا بالصيد وكلابه، ومعرفتهم بحركاته معرفة تيسر لهم الوصف بالغيب. قال واصفاً الكلب:
فحلَّ كلاّبي وثاق الأحبُل ... عن أشدق مسُوجَر مسَلسل
أقبَّ ساطٍ شرس شمردل ... مؤجْد الفِقرة رِخو المِفصَل
له إذا أدبرِ لحظُ المقبل ... كأنما ينظرِ من سَجَنجَل
يعدو إذا أحزن، عَدوَ المُسهل ... إذا تلا جاء المدى وقد تُلى
يُقر جلوس البدوي المصطلى ... بأربع مجدولة لم تُجدَل
يكاد في الوثب من التفتُّل ... يجمع بين متنه والكلكل
وبين أعلاه وبين الأسفل الخ
فانظر كيف يصف خلقه الكلب وحركته، وتأمل الغلو في قوله له إذا أدبر الخ فقد ادعى أن الكلب في سرعة حركاته مقبل مدبر معاً فكأن الرائي يراه ويرى صورته في مرآة فيرى شكلين أحدهما مدبر والآخر مقبل
وقد افتن الشعراء في وصف حيوانات الصيد الأخرى كالفهد وجوارح الطير من البازي والباشق واليؤيؤ والعقاب الخ. ومن هذا وصف العقاب في شعر أبي الفرج الببغاء:
ما كل ذات مخلب وناب ... من سائر الجارح والكلاب
بمدرك في الجد والطلاب ... أيسرَ ما يدرك بالعُقاب
شريفة الصبغة والأنساب ... تطير من جناحها في غاب
وتستر الأرض عن السحاب ... وتحجب الشمس بلا حجاب
يظل منها الجو في اغتراب ... مستوحشاً للطير كالمرتاب
ذكية تنظر من شهاب ... ذات جران واسع الجلباب
ومنكِب ضخم أثيث رابي ... ومَنسِر موثَّق النصاب
وراحتي ليث شرّي غلاَّب ... نيطت إلى براثن صلاب
مرهفة أمضى من الحراب ... وكل ما حلّق في الضباب
لملكها خاضعة الرقاب
وأبو الفتح كشاجم من أكثر الشعراء ولعاً بالصيد، وله فيه كتاب. ومن شعره في وصف الباشق، وهو ضرب من البزاة:
يسمو فيخفي في الهواء وينكفي ... عجلاً فينقض انقضاض البارق
وكأن جؤجؤه وريش جناحه ... خضبا بنقش يد الفتاة العاتق
وكأنما سكن الهوى أعضاءه ... فأعادهن نحول جسم العاشق
ذا مقله ذهبية في هامة ... محفوفة من ريشها بحدائق
ومخالب مثل الأهلّة طالما ... أدْمين كف البازيارِ الحاذق

وإذا انبرى نحو الطريدة خلته ... كالريح في الأسماع أو كالبارق
وإذا دعاه البازيار رأيته ... أدنى وأطوع من محب وامق
وإذا القطاة تخلفت من خوفه ... لم يعد أن يهوى بها من حالق
وللأرجاني قصيدة وصف فيها من حيوان الصيد الطير والفهود والكلاب. مطلعها:
ولما نضا الأفق برد الظلام ... ساروا إلى خيلهم باللجم
وهي قصيدة ممتعة
وللشعراء أساليب في وصف آلات الصيد والحيوانات التي تصاد لا يتسع المقال للتمثيل لها
وأبرع شعر الصيد ما وصف أفعال الصيد من الإحاطة بمواضيع الصيد وحشر الوحش إلى المضايق، ثم تسليط الحيوان والآلات عليها، والعلاقة بين الصائد والمصيد، وظفر الصائد بطلبته، ونحو هذا. وفي شعرنا من هذا الضرب صور عجيبة رائعة نعرض فيما يلي صوراً منها.
(للكلام بقية)
عبد الوهاب عزام
1 - حكاية الوفد الكسروي
لأستاذ جليل
أنا ما جزمت في عزو (الخبر) إلى ابن بكار بل سألت وفرضت: جئت ب (هل) الاستفهامية، و (إذا) الظرفية الشرطية فقلت: (هل صاحب ذلك الكتاب هو الصائغ المحسن) وقلت: (وإذا ثبت قول (السليماني) في ابن بكار فمن يضع الحديث النبوي يضع الحديث الأدبي) وأوردت حديث (العلانية) وتركت القضاء للوقت حتى يثبت أو ينفي. وفي هذا الأسلوب في النقد الإنصاف كله. وبنيت على الشك والفرض لأني لم أقف على (كتاب وفود النعمان على كسرى)، ولم أجد رواية صحيحة تهديني إلى الحق في أمر النسبة. وإذا عز اليقين ظننا. وليس ظن الناقدين والباحثين في العلم من الظنون التي ذمها (الكتاب)، ولم أقصد زراية على القاضي في كل ما خططت وليست صفاته الطيبة بمانعته أن يضع، فقد كان الوضع في الحديث والأخبار والأشعار شرعة القوم. وهنالك كثيرون من الواضعين هم أقضى من الزبير بن بكار وأتقى وأكبر وأشهر. وهذا بحث طويل أدعه اليوم فله زمان سيظهر فيه إن شاء الله
وقلت: هل ابن بكار صاحب كتاب وفود العرب على كسرى هو الصائغ. ولم أقل هل ابن الكلبي صاحب (كتاب الوفود) هو الواضع لأسباب:
1 - عبارة الخبر أقرب إلى زمان ابن بكار، وأسهل من عبارة ابن الكلبي
2 - وضوح التسمية
3 - تنسيق في الخبر جلبه الوقت وارتقاء التأليف فقد كاد يكون رواية تمثيلية، وقد أنشأ أديب عصري منه رواية
4 - لم أجد الخبر في كتاب (الأغاني) ولم يرو أبو الفرج منه شيئاً، ولم يشر إليه في مكان، والظن أن لو رآه في (كتاب الوفود) وكان فاته. وقد روى من دواهي ابن الكلبي ما روى
وأما عزو الخبر إلى ابن الكلبي أو أمثال ابن الكلبي فهذا من براعة كل واضع بعده فقد اشتهر الرجل في الأخبار والأسمار والأنساب، والعنعنة أول شرط لمن يضع. والرواة المتقدمون كثيرون فلكل صائغ أن يربط خبره بمن أحب. فأبو حيان التوحيدي حين اتكل
على الله وزخرف رسالة أبي بكر إلى علي (رضوان الله عليهما) أسندها إلى القاضي أبي حامد المروروزي يرويها عيسى بن دأب عن صالح بن كيسان، عن هشام بن عروة، عن أبيه عروة بن الزبير، عن أبي عبيدة بن الجراح
وهذا الإمام أبو بكر بن دريد ربط كثيراً من أساطيره المبثوثة في كتاب (الأمالي) لأبي علي القالي بابن الكلبي وربط طائفة منها بغيره. فمما عزاه إلى هشام هذا أسطورة ما وقع من المفاخر بين طريف بن العاصي الدوسي والحارث بن ذبيان عند بعض مقاول حمير، وأسطورة ما وقع بين سبيع بن الحارث وميثم بن مثوب من المخاصمة بمجلس مرثد الخبر وأسطورة حديث خنافر الحميري مع رئية شصار. وعزا أبو بكر غير ذلك من الأخبار إلى ابن الكلبي. ومما رواه عن العتبي عن أبيه (خبر غسان بن جهضم

مع ابنة عمه أم عقبة) وهو رواية ختمت حوادثها بالانتحار كما نشاهد في روايات غريبة تمثيلية
وأساطير ابن دريد في الأمالي كلها هو أبوها وأمها. وقد قلت ذات مرة للعلامة الأستاذ الكبير أحمد أمين بك: هذه الأخبار التي أنشأها ابن دريد ورواها أبو علي في أماليه مصنوعة
فقال (حفظه الله): الذنب ذنب الناس هو قدمها أساطير وهم أخذوها حقائق أو كما قال
وأنا أسأل في هذا المقام: هل أملى ابن دريد في مجلسه هذه الأخبار على القالي وغيره من تلاميذه أساطير مصنوعة معلناً ذلك كما أملى البديع الهمداني وابن الحريري مقاماتها فلما رواها أبو علي في كتابه تلقفها الناس أحاديث صحيحة، والتبس الأمر؟
وأما الصواغ العظيم ابن الكلبي فهذا مما قيل فيه:
وهشام ابن محمد بن السائب الكلبي أبو المنذر الإخباري النسابة العلامة روى عن أبيه أبي النضر الكلبي المفسر وعن مجاهد. وحدث عنه جماعة. قال أحمد بن حنبل: إنما كان صاحب نسب وسمر ما ظننت أن أحداً يحدث عنه، وقال الدارقطني وغيره: متروك، وقال ابن عساكر: رافضي ليس بثقة. ابن الكلبي عن أبيه عن أبي صالح عن ابن عباس: وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً قال: أسر إلى حفصة أن أبا بكر ولي الأمر من بعده وأن عمر واليه من بعد أبي بكر، فأخبرت بذلك عائشة رواه البلاذري في تاريخه. وهشام لا يوثق به وقيل: إن تصانيفه أزيد من مائة وخمسين مصنفاً، مات (سنة أربع ومائتين
وابن عبد ربه الذي نقل حكاية الوفد الكسروي مصدقها هو الذي روى خبري (وفود عبد المسيح على سطيح ووفود قريش على سيف بن ذي يزن) مؤمناً بهما، وهذان الخبران يوضحان حالهما، وينبئان بصدقهما. ويناديان أنهما قد سبقا في الصحة والتحقيق خبر وفود النعمان وإضامته (جماعته) التي أوفدها على شاهنشاه لتثرثر قدامه متنفحة. ومن روى غير هياب تينك الأسطورتين روى هادئ البال الأسطورة النعمانية الكسروية. وقد قلت من قبل في سطيح وصاحبه شق قولي، فليعاود من أراد تلاوته. وهذا مما جاء في قصة وفود قريش، وروايته محسبة كافية لا تسأل نقداً ولا تقييداً
ثم انتبه (سيف) إليهم انتباهة، فدعا بعبد المطلب من بينهم، فخلا به، وأدنى . . .) مجلسه، وقال. يا عبد المطلب، إني مفض إليك من سر علمي أمراً لو غيرك كان لم أبح به، ولكني رأيتك موضعه فأطلعتك عليه، فليكن مصوناً حتى يأذن الله فيه. . . إني أجد في العلم المخزون والكتاب المكنون الذي ادخرناه لأنفسنا. . . خبراً عظيماً. . . فيه شرف الحياة. . . للناس كافة ولرهطك عامة ولنفسك خاصة. قال عبد المطلب: ما هو؟ فداك أهل الوبر قال ابن ذي يزن: إذا ولد مولود بتهامة بين كتفيه شامة كانت له الإمامة إلى يوم القيامة. قال: أبيت اللعن. لولا إجلال الملك لسألته أن يزيدني في البشارة. قال: هذا حينه الذي يولد فيه أوقد ولد، يموت أبوه وأمه، ويكفله جده وعمه. . . والله باعثه جهاراً، وجاعل له منا أنصاراً،. . . يفتتح كرائم الأرض، ويضرب بهم الناس عن عرض، يخمد الأديان. . . ويكسر الأوثان، ويعبد الرحمان. قال فهل الملك يسرني بأن يوضح فيه بعض الإيضاح، قال: والبيت ذي الطنب والعلامات والنصب إنك يا عبد المطلب لجده من غير كذب قال عبد المطلب: أيها الملك، كان لي ابن كنت له محباً. . . فزوجته كريمة من كرائم قومه يقال لها آمنة بنت وهب. . . فجاءت بغلام بين كتفيه شامة، فيه كل ما ذكرت من علامة، مات أبوه وأمه، وكفلته أنا وعمه، قال ابن ذي يزن: إن الذي قلت لك كما قلت، فاحفظ ابنك، وأحذر عليه اليهود فإنهم له أعداء، ولن يجعل الله لهم عليه سبيلا. . .)
وسيد هذا الوجود ومعناه مستغن بالله وبكتاب الله عن تكهن المتكهنين، وصوغ الصواغين، وزخرفة محدثين
وسند ابن عبد ربه في هذا الخبر: (نعيم بن حماد قال: أخبرنا عبد الله بن المبارك عن سفيان الثوري. قال: قال ابن عباس)
وقد روى هذه الأحدوثة أبو الفرج في أخبار أمية ابن أبي الصلت وسند (كتاب عبد الأعلى بن حسان قال حدثنا الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس)، وحدث أبا الفرج به محمد ابن عمران بإسناد ليس يحفظ الاتصال بينه وبين الكلبي فيه كما قال

وأبو الفرج الأصبهاني صاحب كتاب الأغاني هو الذي أفاد أدباء العرب وكتابهم وشعراءهم، وشهر أمتنا وخلفاءها ورجالها برواياته المزخرفة. (لا سامحه الله)
(ن)

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

جاذبية الشواطئ المصرية - أعجوبة الأعاجيب

جاذبية الشواطئ المصرية

من الواضح أني لا أستطيع الإجابة عن جميع أسئلة القراء، ولو أني استطعت ذلك لتحولت مقالاتي إلى موضوعات يغلب عليها الضجيج، ومع ذلك فسأرد على الأستاذ أحمد فتحي القاضي، لأنه احتكم إلى الشريعة في وجوب رد التحية، ولأن الرد عليه يوضح مشكلة تحتاج إلى توضيح

والأستاذ غاضب على وما وقع مني في الدعوة إلى الاصطياف، ويقول إن كلامي في التغني بجاذبية الشواطئ لم يقع من أهل الصعيد موقع القبول، ويصرح بأنه كان ينتظر أن أكون من الثائرين على حياة الشواطئ، وقد صارت ملاعب للنساء العاريات، كما قال!

وأقول إني أحترم عواطف قرائي كل الاحترام، ولكن مذهبي في الأدب يأبى عليَّ أن أبحث عما يرضي قرائي، فالغاية عندي هي الصدق في التعبير عما يختلج في صدري، ويطمئن إليه قلبي، ولو كان فيه ما يغضب جميع القراء. . . ألم أقل لكم إني لست أسيراً للوطن ولا أجيراً للمجتمع؟

وماذا أصنع إذا كنت أومن بأن الشواطئ المصرية من أجمل ما خلق الله؟

وماذا أصنع وأنا أعتقد أن زيارة الشواطئ المصرية تزيد في قوة العقل والفكر والذوق؟

وهل يرضيني أن أفعل ما يفعل الشيخ أبو العيون وهو يتوهم أن زيارة الشواطئ تفسد الأخلاق؟ إن الشيخ أبو العيون يغرق في كوز ماء فكيف نسمع كلامه في البحر المحيط؟

هل تعرفون أن الشيخ أبو العيون لم ير الشواطئ مع أنه يعيش في الإسكندرية منذ سنين، ومع أنه أبو العيون؟

آن الوقت لأن نسمع هذا الرجل الطيب كلمة الحق. آن الوقت لأن ننهاه عن الغض من حياة الشواطئ وهي نعمة عظيمة منَّ بها المنعم الوهاب على أهل هذه البلاد

هذا الرجل الطيب يتكلم باسم الدين، فهل يستطيع أن يدلني لأي حكمة خلق الله تلك الشواطئ بذلك المهاد الجميل؟

هذا الرجل الطيب يعرف أن السباحة رياضة بدنية، وهو مع ذلك يعجز عن السباحة في الخيال

نفرض أن حياة الشواطئ تفتن بعض الناس، فهل يجب أن نقتلع الجذور من كل جمال يدعو إلى الفتون؟

ما رأيه في القمر وقد قيل إنه يهيج الصبوات؟

أنجرّد حملة لإسقاط القمر من أفق السماء؟

ما رأيه في الأزهار وقد قيل إن عطرها يوقظ الشهوات؟

أنجتث كل شجرة مزهرة لتنام عيون أبي العيون؟

الآذان تؤهل لسماع النمائم، فهل نصلم جميع الآذان؟

والجسم السليم يؤهل للمعاصي، فهل نحول الخلائق إلى مهازيل ومعاليل؟

كل نعمة تعرض صاحبها لمتاعب أخلاقية، فهل نطلب زوال النعم لتستقيم الأخلاق؟

إن أبا العيون الواعظ يحتاج إلى واعظ، فأنا أخشى أن يغضب الله عليه إن استمر على هذا الأسلوب، من الوعظ المقلوب

أفي الحق أن الشواطئ ليست إلا مباءة رجس وخلاعة ومجون؟

أهذا كل ما يتصور الباكون على الأخلاق بدموع التماسيح؟

أين إذاً الشعور بجلال الله وجمال الوجود عند زيارة الشواطئ؟

أنتم تدعوننا لزيارة المقابر لنتعظ، ونحن ندعوكم لزيارة الشواطئ لتهتدوا

ضميري لا يسمح بأن أرائي قرائي، فليسمعوا كلمة اللوم على غفلتهم عن الاصطياف،

وليسمعوا كلمة الصدق في دعوتهم إلى تنسم هواء البحر من حين إلى حين
أما الخوف من اللؤلؤ المنثور فوق الشواطئ فعلاجه سهل، وهل يصعب عليكم أن تدخلوا الشواطئ بلا عيون؟
عندكم الأقنعة الواقية، وقد وزعتها عليكم الدولة بالمجان منذ سنتين، فالبسوها عند زيارة الشواطئ، لتكونوا في أمان من سحر الجمال ولكن تلك الأقنعة فيها ثقوب تطل منها العيون، فماذا تصنعون؟
الرأي أن تظلوا في مراقدكم، وأن تتركوا هواء البحر ورمال الشواطئ لعقلاء الأجانب
ماذا يقول أحفادنا إذا قرءوا هذه الكلمة وعرفوا أن الاصطياف كان معضلة تختلف فيها الآراء؟
لو كانت الشواطئ المصرية بأيدٍ غير أيدينا لأصبحت فراديس تصبو إليها نجوم السماء، فما يمكن أن تكون في الدنيا شواطئ في سجاحة الشواطئ المصرية، ولا يمكن أن تنعم بلاد بمثل ما ينعم به أهل هذه البلاد من شواطئ تفوق الإحصاء
وماذا يرى الرائي في الشواطئ؟
قالوا إنه يرى أجساماً عارية
الآن فهمت وفهمت، فقد طال غرام الناس بالتحجب والرياء، لأن اعوجاجهم في ضمائرهم فرض عليهم أن يعيشوا في أسر الأثواب
الكلمة الصريحة لا تصدر إلا عن صاحب الرأي الصريح
والجسم العاري لا يتخايل به غير صاحب الجسم الجميل
والمصريون فكروا في التزود من جميع الثقافات، وأهملوا الثقافة الجسدية، فما الذي يمنع أن يكون في الشواطئ تذكير بما للجسد من حقوق؟
في رؤية اللاهين فوق رمال الشواطئ درسٌ ينفع من تركوا أجسادهم بلا تثقيف، وهو درس يحتاج إليه الشيخ أبو العيون
يجب أن نرى العراة فوق الشواطئ لنتذكر جنايتنا على أجسادنا بترك الرياضة البدنية!
هل تذكرون السيدة التي أثنت على القرار الخاص بتخصيص أحد الشواطئ لاستحمام النساء؟
هي سيدة لا تستطيع البروز بلباس البحر ولو كان جوازاً إلى دار الخلود!
أكتب هذا الكلام وأنا أعرف أن أناساً من خلق الله سيعترضون، كما اعترض المحامي الذي يراسلني من منفلوط؛ أكتب هذا الكلام وأنا أعرف أنه يصورني ظلماً بصورة الماجنين، مع أني صادق كل الصدق فيما أقول، فالشواطئ المصرية نعمة من نعم الله، وما يقع فيها من الشر لا يقاس إلى ما تسوق من منافع الخير الصحيح
لو شئت لعتبت على قرائي: فالشاعر أحمد العجمي يقول إني مجَّدت الإسكندرية أعظم التمجيد، فهل زار الإسكندرية ليراها بعيني؟ والمحامي أحمد القاضي آذاه كلامي عن الإسكندرية فهل زارها ليعرف حقيقة كلامي؟
زوروا الإسكندرية، وقفوا لحظات أو ساعات بمحطة الرمل
كان أبعد سفر عند أهل الصعيد هو زيارة طنطا في مولد السيد البدوي، فهل أستطيع نقل أهل الصعيد إلى زيارة أبي العباس المرسي؟
إن كانت الدعوة إلى الحياة خلاعة ومجوناً فأنا راض بأن أضاف إلى الخلعاء والماجنين.
. . وهل يؤذيني الظن الآثم، والجهل الطائش؟
أنا أدعو إلى الحياة. أنا أدعو كل مصري إلى تذوق الجمال بكل بقعة من بقاع هذا الوادي الجميل
في السماء رزقي، فما خوفي من أهل الزور والبهتان؟
أعجوبة الأعاجيب
هي أن تكتب كلمة يفهمها جمهور القراء على الوجه الصحيح
ثم تستغلق على محرر مجلة أسبوعية فيؤولها أسوأ تأويل، وتكون النتيجة أن يبني عليها أحكاماً أوهى من بيوت العنكبوت، وهو يتوهم أنه غاية في اللذوعية والذكاء
ولهذه الأعجوبة قصة قريبة، فقد كنت كتبت في رثاء تقلا باشا سطوراً أبرزت بها خصائصه الذاتية، الخصائص التي جعلت حياته قدوة لرجال الأعمال، وكان الروح الذي يسود تلك السطور يفيض بمعاني العدل والإنصاف والإجلال، وإن خلا من الندب

واللطم والصراخ، على نحو ما صنع المحرر لتلك المجلة الأسبوعية
كان الظن أن يفهم بعض خلق الله أني أرثي تقلا باشا في مجلة الرسالة، والرسالة تترجم من ترثيهم، فجوها يصلح للترجمة ولا يصلح للبكاء، وهل يحتاج تقلا باشا إلى من يبكيه؟ إنما يحتاج إلى مثل هذا الرجل إلى من يظهر الشمائل التي وصلت به إلى أن يكون في الطليعة بين رجال الصحافة في الشرق، وليس ذلك بالمجد الضئيل، حتى تكمله بالتوجع والتفجع والأنين
ولكن ذلك المحرر رأى بذهنه الثاقب أن كلمتي تحتمل التأويل، فانتهز الفرصة وتقرب إلى أقارب صاحب (الأهرام) بالشفقة المكذوبة والود المدخول، فزعم أني هجمت على ميت، ثم
تطاول فقال كلاماً يدل على أدبه الجميل
وأردت أن أصحح خطأه فكتبت كلمة تصحيح، ولكنه عاند عناداً يقبل ممن يكون في ملئ عقله فألقاها في سلة المهملات، لأني هددته بنشر ما اعترض عليه، عساني أجد الفرصة لتقويم بعض المحررين
وأحب أن أعرف ما هي الغاية من الإيقاع بين الناس؟
قلت لذلك المحرر: إن لي أصدقاء في جريدة الأهرام على رأسهم أنطون الجميل وكامل الشناوي وعوض جبريل، فكيف يسيغ ذهنك أني أستبيح إيذاء أولئك الأصدقاء في مناسبة لا يجوز فيها إيذاء الأعداء؟
وقلت لذلك المحرر: إني لا أهجم إلا على الأقوياء من الأحياء، فكيف أهجم على ميت لا أذكر أني عاديته لحظة من زمان؟
وقلت لذلك المحرر: إني رثيت تقلا باشا وأنا أتمثل ما عانى في حياته الصحفية، فما يجوز أن أقول فيه غير الجميل، وإن التبس كلامي عليك
وقلت لذلك المحرر: إن لتقلا باشا أقارب من أصدقائي في القاهرة وبيروت، وأنا أتحيز دائماً لأصدقائي، فليس من المعقول أن أوذيهم في مثل هذا المقام الحزين
وبرغم هذه الشروح أصر المحرر على إغفال كلمة التصحيح، فما الأخلاق عندكم يا محرري بعض المجلات الأسبوعية؟
ما الأخلاق عندكم وقد أهمل ذلك المحرر رجائي في أن لا يدس بيني وبين ناس محزونين؟ وما هذا الإفك في الإفساد بين الناس؟
أنا حاضر لمخاصمة جريدة الأهرام، ولكني أرفض أن يقال إني أخاصم صاحبها في غداة الموت، وليس لحي بقاء
وما قيمة التودد لجريدة الأهرام بمثل هذا الدس الممقوت؟
أيكون لجريدة الأهرام قوة سحرية تمنع العواقب المقدورة على الدساسين؟
القدرة الصحيحة هي قدرة الحق، فما شأنك يا كاتباً أفلس فلم يجد زاداً غير الوقيعة بين كرام الرجال؟ ما شأنك ولن تكون كاتباً ولو سودت وجهك بالمداد في ألوف من السنين؟
ما عتبي عليك، وقد نصحتك فلم تنتصح، بعد أن رأيت ما صنعت بنفسك، يوم صورت شعورك بأول غارة جوية؟
ما عتبي عليك، وقد خاب أملي فيك؟
لقد فكرت في أن أشرح لك العبارة التي عجزت عن وعيها فهمك، ولكني خفت أن تعجز عن فهمها بعد الشرح
وقد فكرت في النص على المجلة التي تتسع لأوهامك وأحلامك، ولكني ترفقت فلم أدل على مجلة كان زادها ولن يزال من عبث الأطفال
إن كلمتي في رثاء تقلا باشا كلمة حق، لأني رثيته باسم الحق، فما قيمة كلماتك في رثائه وأنت ترائيه في الحياة وبعد الممات لغايات؟
عفا الله عنك يا فلاناً بالمجلة الفلانية!
ونفعك الله بهذا الدرس البليغ!
زكي مبارك
الكأس المسمومة
للأستاذ سيد قطب
أقلاكِ أقلاكِ كالشيطان أقلاك ... أقلاك كالسم يسري جدّ فتّاكِ

أقلاك: إنك في نفسي وفي زمني ... وفي حياتي أفعى ذات أشواكِ
سمّمت عيشي وأحلامي وأخيلتي ... وأنت شيطانة في سمت أملاك
وعشتُ أرعاك في قلبي وأنت بلا ... قلبٍ يحس ويرعى كيف أرعاك
من أنت؟ ما أنت؟ إني حائر قلق ... أأنتِ أسطورة في سفْرِ أفّاكِ؟
أنسى الليالي التي قضيتُها قلقاً ... وأنتِ ساكنةٌ راضٍ مُحيّاك
أنسى الدموع التي أرسلتها غَدَقاً ... ولست لولا هواكِ المرُّ بالباكي
وكبريائي التي ما كنت أخفضها ... من قبلُ أو بعدُ في دنياي لولاك
أنسى. وأذكر أحلامي وأخيلتي ... كأنهن نجوم بين أحلاكِ
وكلهن نسيجُ الوهم في خلدي ... ولَسنَ غيرَ أحابيلٍ وأشواك
أقلاك؟ ليت! فإني لست أقلاك ... أهواك؟ ليت! فإني لست أهواك
أهوَى وأقَلي وأيامي موزعة ... بين الهوى والقِلي كالضاحك الباكي
هذا الرحيق وهذا السم قد مزجا ... ولست أرْوَى بكأسٍ غير ريّاك
هاتي ليَ السمَّ صرفاً لا يمازجه ... هذا الرحيقُ فإني لستُ بالشاكي
مللتُ كأسكِ لا ألتذّ نشوتها ... ولا أحطّمُها تحطيم سفّاك

الأدب والسينما

للأستاذ دريني خشبة

استدرك أحد كرام القراء فنشر في الرسالة تعليقاً على مقالي عن صحفنا الممتازة نفى فيه صلاحية السينما للأدب لانقطاع العلاقة بينهما في زعمه، وربما حدا به إلى هذا الرأي ما يظنه من أن الأدب إنما ينبغي أن يكون أسلوباً وتعبيراً كلامياً قبل أن يكون موضوعاً، وإن لم يصرح بهذا في الكلمة التي نشرتها الرسالة له. والعجيب أن يأخذ الكثيرون بوجهة النظر هذه في العلاقة بين الأدب والسينما، ولست أدري ماذا تكون الرواية السينمائية إن لم تكن أدباً يختلف في أدائه من الأدب المسرحي كما يختلف في أدائه أيضاً من أدب القصة. ومعظم المتأدبين العرب ممن لا يعرفون الآداب الأجنبية ينظرون إلى الأدب في هذه الحدود الضيقة التي لا تخرج به عن المقالة أو القصيدة أو العظة القصيرة أو الرسالة أو المقامة أو ما شابه ذلك مما تحويه كتب الأدب العربي، وقد مضت قرون طويلة قبل أن تدخل القصة في أدبنا، وإن تكن قد دخلته هذا الدخول المقدس عن طريق القرآن الكريم والأحاديث القدسية وعن طريق رواية أخبار المتقدمين، تلك الرواية التي هي إلى التاريخ أقرب منها إلى الأدب؛ فلما دخلت القصة في الأدب العربي عن طريق الترجمة في العصر العباسي بكتاب كليلة ودمنة، ثم بكتاب ألف ليلة فيما بعد، لم تحفل بها تلك الطبقة المثقفة التي كانت مشغولة بالعلوم الدينية ورواية أشعار العرب عن كل شيء والتي كانت بعد كل شيء غير العلوم الدينية ورواية أشعار العرب وكل ما يصح أن تؤيد به الكتاب والسنة من فلسفة أو أثر لغوي، عبثاً لا طائل وراءه ولا خير فيه، ولذلك فشا كتاب ألف ليلة بين العامة الجاهلة وانصرفت عنه الخاصة المستنيرة، كما حبس كليلة ودمنة على تأديب أبناء الملوك والخاصة من الوزراء، فلم ينشر في دائرة واسعة من طبقة الأدباء التي كان يحتمل أن تقلد ما فيه أو تنشى على غراره، وتولى أدباء من المصريين والمغاربة تأليف قصص على نهج ما جاء في ألف ليلة، فحشدوا لها أساطير الجن والسحر، وداعبوا بها الغرائز الجنسية، مما يفتتن به غير العامة، ويأنف من قراءته الخاصة، ثم ألفت الملاحم العربية والمصرية على نحو المبالغة والتهويل كان سبباً في استعلاء الخاصة عنها كذلك. وهكذا ظل أدب القصة غريباً على الأدب العربي حتى عصرنا الحديث الذي ترجمت فيه بعض الروائع من قصص العرب فأظهرتنا على الفرق الشاسع بين أدبنا والآداب الأوربية. . . أدبنا القليل الغور. . . أدبنا الممزق الذي لا تمسك أجزاءه وحدة، والآداب الأوربية العميقة المتماسكة، ثم كان أن أقبل بعض كتابنا على تأليف القصص فنجح منهم عدد غير قليل، وإن كانت القصة الطويلة التي تضارع القصة الأوربية لم تدخل في أدبنا بعد. . . على أن الرواية التمثيلية ظلت بمنأى عن الأدب العربي على الإطلاق، إلا ما حاوله بعض أدبائنا المجتهدين إبان نهضتنا التمثيلية من تلك الدرامات الفجة المسجوعة السمجة التي كانت تؤديها بعض فرقنا الإقليمية. ثم حاول بعض أدبائنا الجدد أن يغذوا المسرح المحلي بقطع من إنتاجهم، ولم يكادوا يفعلون حتى ثبط هممهم بخس مديري

الفرق لجهودهم وعدم تشجيع الحكومة لهم، ولأن الحركة المسرحية المنظمة التي من همها خدمة اجتماعنا وخدمة لغتنا وآدابنا لم تخلق بعد. فانصرف الأدباء عن التأليف المسرحي غير مأجورين ولا مشكورين، بل انصرفوا والحسرة تملأ نفوسهم، والغيظ يشق مرائرهم. وهذا كله هو الذي حفزنا إلى الدعوة للأدب المسرحي، والأهابة بكل من يستطيع مؤازرتنا أن يعضدنا في هذه الدعوة، وأن يضم جهوده إلى جهودنا، عسى أن تستيقظ وزارة المعارف وأن تنتبه وزارة الشئون، فتعلما أن النهضة المسرحية هي أساس كل نهضة اجتماعية، وأنها تخدم لغتنا وأدبنا وثقافتنا بما لا يستطيع أن يخدمها به شيء آخر. ولما كانت السينما اليوم أكثر انتشاراً في مدننا من المسارح، ولما كانت لهذا السبب أبعد خطراً في نفوس الجماهير منها وجب ألا تقل عنايتنا بها عن عنايتنا بالمسرح، ووجب أن نلفت أنظار الأدباء إلى الإنتاج السينمائي بقدر ما نلفتهم إلى الإنتاج المسرحي، لأن الغاية واحدة وإن اختلف الأداء، ولأن الأديب وحده هو الذي يستطيع أن يضطلع بتأليف القصة المحبوكة الشائقة التي هي المعين الأول للرواية السينمائية. تلك القصة التي يتولى إعدادها (عمل السيناريو منها) للسينما فنان آخر غير المؤلف، بحيث يكفيها تكييفاً لا يخرج بها عن الأصل قط وإن رتبها الترتيب السينمائي الذي لا بد منه لكمال هذه الصنعة، فالقصة السينمائية من الوجهة الموضوعية أدب محض، ثم هي أدب محض من حيث أسلوبها كذلك؛ وهي، وهم يشترطون أن يكون واضع السيناريو من القصة الأدبية أو الدرامة المسرحية للسينما أديباً واسع الاطلاع له إلمام تام بأساليب الكتابة وأساليب الحوار على السواء، كما ينبغي أن يكون قديراً في دراسة

الأشخاص متبحراً لذلك في علم النفس، بحيث يستطيع أن يفهم روح المؤلف الذي تعتبر القصة قطعة من نفسه ومرآة لفنه. ولذلك ترى القصة التي تعد للسينما عملاً أدبياً صرفاً من كل وجهه، بل هو عمل أدبي يصدر أولاً عن روح المؤلف، ثم يتعاون في إعداده واضع السيناريو ثم المخرج ثم المصور ثم هذا الجيش العرمرم من العمال والمهندسين الذين يحسن، بل يجب أن يكونوا ممن يتفهمون الأدب ويسيغونه لأنهم شركاء في إنضاج هذه الثمرة الأخيرة التي تعرض على الشاشة البيضاء، فإما أن تنجح كعمل أدبي وإما أن يقضى عليها بالفشل الذريع

فالمباعدة إذن بين الأدب وبين السينما وهم لا أصل له. ثم هو وهم أقصى عن التأليف للسينما كبار كتابنا وأحسن قصاصينا، وإلا فماذا كتب للسينما طه حسين ومحمود تيمور ولاشين ومحمود كامل ويوسف جوهر وتوفيق الحكيم، ومن إليهم من الأدباء الشباب والأدباء الكهول على السواء؟ لقد انصرف هؤلاء عن التأليف للسينما، فكانت النتيجة أن وكلت شركات الصور إلى مؤلفي الدرجة الثانية كتابة قصصهم، وكانت النتيجة أيضاً تلك الأشرطة المخزية بموضوعاتها وإخراجها وتهريجها. . . وغاب عن أئمة كتابنا أن أدب هذه الأشرطة هو الذي يمثل اليوم أدب القصة المصرية في الداخل والخارج أمام ملايين المتفرجين، وهو تمثيل يضع أدب القصة المصرية السينمائية في الوحل، وينشر ضدنا دعاوة سيئة بين شعوب شقيقة كانت تقدرنا أحسن التقدير فانتهت إلى الرثاء لنا إن لم تكن السخرية بنا. ومما يدعو إلى الأسف أن يضطر الإنسان إلى تسجيل انصراف طبقة كبيرة من المصريين المثقفين الممتازين عن شهود الروايات المصرية التي تعرض في دور السينما المختلفة. وذلك لما بلوه مراراً من انحطاط موضوعاتها وضعف تأليفها، وبعد الشقة بينها وبين الأفلام الأجنبية التي تغذوا سوق السينما المصرية وتنهب أموال المصريين نهباً تستحقه أحياناً ولا تستحق منه مليماً أحياناً كثيرة. . . والجيد من تلك الأفلام يفضح صناعة السينما في مصر بقدر ما يفضح المؤلفين المصريين. وهذا الجيد كثير جداً مع الأسف، وهو يعرض علينا ألواناً رائعة من الأدب الأمريكي والأدب والإنجليزي والأدب الفرنسي والأدب الروسي، ومن سائر الآداب العالمية التي اشتهرت بثروتها في القصص والدرامة بقدر ما اشتهر الأدب العربي في هذه الناحية، ذلك الفقر الذي عللناه في صدر هذا المقال،

والذي لا يريد كبار أدبائنا إنقاذنا منه وستر فضيحتنا فيه. . . ولست أدري لماذا لا يتصل كبار أدبائنا بالسينما والتأليف السينمائي؟ ولست أدري كذلك لماذا لا يتصل مديرو الشركات السينمائية بهؤلاء الكتاب الكبار ويغرونهم بالمال الوافر والثراء الجم والربح الكثير إذا هم كتبوا لهم قصصاً طويلة تمثل حياتنا وتصورنا التصوير الصادق الذي لا

يعرف الشعبذة ولا يدنو من التهريج ولا يفضحنا بين الأمم. إن شركات كثيرة في مصر تستطيع أن تسيل لعاب أحسن كتابنا بخمسمائة أو بألف من الجنيهات ثمناً لقصة يكتبها في شهر أو شهرين أو في ثلاثة أشهر. . . ومن قصصنا الجاهزة عدد كبير يصلح جداً للعرض السينمائي، وهو غني بموضوعاته، عظيم بأسلوبه، ثم هو بحالته الراهنة يصور من الحياة المصرية ألواناً مختلفة صادقة بحيث يزري بمئات من الروايات الأجنبية السمجة التي تضر تقاليدنا، وتفتك بأخلاقنا، وتشيع في نفوس شبابنا الرخاوة والطراوة والاستخذاء. يجب أن يدرك كل أديب مصري وطأة استعباد الأفلام الأجنبية لنا، ويجب أن يتعاون الأدباء مع الشركات في إنقاذنا من نير الأدباء الأجانب الذين يفرضون ثقافتهم وأفكارهم علينا، بكل ما في هذه الثقافة وتلك الأفكار من مزايا وأضرار، والذين ينسخون أدبنا القومي الناشئ بآدابهم الفتية الناضجة. . . إننا نحمي الصناعات المحلية الناشئة بزيادة المكوس، فلا أقل من أن نحمي إنتاجنا الأدبي بإغراء كبار الكتاب عندنا بالمساهمة في التأليف السينمائي، وإقناع الشركات المصرية بمضاعفة الأجور لهؤلاء الكتاب حتى يرفعوا مستوى القصة السينمائية ويجنبوها هذا الإسفاف الذي ينتهي إلى الرثاء والسخرية، وانصراف الطبقة المستنيرة عن شهود الروايات المصرية. . . على أن داعي الوطن واللغة والأدب كان ينبغي أن يقنع هؤلاء الكتاب وتلك الشركات بأن يسووا المسألة بينهم فيخدموا الوطن واللغة والأدب مخلصين، كما كان ينبغي أن ينظر إلى القضية من زاويتها الاقتصادية أيضاً، إذ أصبح من أشد الجهل أن تتعامى الدولة وتتعامى الأمة عن هذه الألوف الضخمة من الجنيهات التي تسلك سبيلها من جيوب المصريين إلى جيوب شركات السينما الأجنبية، تلك الألوف من الجنيهات التي كان ينبغي أن يكون لأدبائنا وشركاتنا كفل كبير منها إن لم يكن ينبغي أن يكون لهم معظمها. . . إن معظم دور السينما في القاهرة والإسكندرية وفي كثير من مدن الأقاليم هي دور أجنبية ونحن نشهد تلك الجموع الزاخرة من علية المصرين التي تتردد على تلك

الدور يومياً، وبالرجوع إلى دفاتر ضريبة الملاهي نعلم أن متوسط دخل إحدى دور السينما بالقاهرة يرتفع مرات كثيرة إلى خمسمائة جنيه مصري كل يوم أي إلى خمسة عشر ألفاً من الجنيهات شهرياً، وفي القاهرة أربع من دور السينما يقرب إيرادها اليومي من هذا المستوى، فإلى جيوب من تذهب هذه المبالغ الضخمة؟ إنها تذهب إلى جيوب الأجانب، وقل أن ينتفع المصريون منها إلا بأجور الخدم! فأي هوان ينزل بالقومية المصرية والكرامة الوطنية بعد هذا الهوان؟ هذا في الوقت الذي يتضور فيه كثير من أحسن أدبائنا جوعاً. . . وفي الوقت الذي يهدد فيه كبار الممثلين بهجر المسارح. . . من أجل أزمتهم المالية. . . ونحن لا ننكر أننا المسئولون قبل غيرنا عن هذه الكارثة، والمسئولية موزعة على الدولة والأدباء والشركات. . . فالدولة مقصرة لأنها تهمل المسرح المصري على النحو الذي بيناه في مقالاتنا الكثيرة السابقة، والأدباء مقصرون لأنهم لا يساهمون في التأليف القصصي والتأليف المسرحي، وهما دعامتا الإنتاج السينمائي، والأدباء الكبار يتركون للكتاب الصغار الذين لا يعرفون من فن القصة ولا فن الدرامة شيئاً مهمة إمداد السينما المصرية الناشئة بقصصهم المريضة الهزيلة، والشركات السينمائية مقصرة لأنها كانت تستطيع أن تغازل أدباءنا الكبار بشطر من أرباحها الوفيرة فينتجوا لها القصص الشائقة التي تضاعف مكاسبهم وترتفع بمستوى الشريط المصري الذي أصبح الشرق العربي كله يعتمد عليه في تغذية جماهيره بهذا اللون الحبيب من ألوان المتعة الذهنية

وأخشى ما أخشاه هو أن يكون أدبائنا الكبار أيضاً ينظرون إلى السينما كشيء لا تصله بأدبهم الرفيع صلة. . . تلك النظرة الفجة التي من أجلها كتبنا هذا المقال. . . وأخشى ما أخشاه هو أن يكون الحال كذلك، لأنهم جميعاً، إذا استثنينا الدكتور هيكل، لم يساهموا قط في نهضة السينما المصرية مع أن معظم الذين جربوا كتابة القصة من هؤلاء الكتاب قادرون على تغذية السينما بالروائع التي ترتفع كثيراً إلى أفق الرواية السينمائية الأجنبية، بل إن كثيراً من قصصهم التي انتهوا منها وقدموها للسوق الأدبية صالح للسينما المصرية، وهو إن قدم للسينما يرتفع بها ويستر هذا الخزي المؤلم الذي يشيع في الأشرطة المصرية بلا استثناء. . . وإنه لمن المضحك بل أنه لمن البله ألا

تخرج شركاتنا المصرية قصة لأحد من كبار أدبائنا أمثال المازني وطه حسين ومحمود تيمور ومحمود كامل ولاشين
وجوهر ومن إليهم، في حين أنها تنفق جهودها الكبيرة على هذه القصص الخائبة والروايات المخزية التعسة التي تؤذي الأبصار وتصدع الرؤوس وتحط من سمعة الأدب المصري في كل مكان تعرض فيه على أقل الناس بصراً بالنقد الأدبي ومعرفة بفن القصة أو الدرامة. . . لقد آن أن ننظر إلى هذه القضية من ناحية الكرامة القومية أولاً، ومن ناحيتها الاقتصادية ثانياً. . . وقبل هذا وذاك، ينبغي أن ننظر إليها من حيث علاقتها الوثيقة بالأدب وبالنهضة التمثيلية. . . فالأشرطة السينمائية أدب صرف، وهي المرآة الجديدة التي نطلع فيها على نقائصنا ومزايانا، كما تطلع فيها جميع الأمم على تلك النقائص وهذه المزايا. . . ثم هي تصح أن تكون كتباً مصورة ناطقة حية يرانا فيها أحفادنا بعد مئات السنين، فإما أن يقدروا جهودنا إذا رأوا شيئاً حسناً وإما أن يضحكوا على جدودهم هازئين مستسخرين، وأحسبهم لن يفعلوا غير ذلك إذا لم تصلهم عنا هذه الأفلام المخزية التي ألفها لنا ولهم أنصاف المتأدبين منا وأرباعهم ومن لا تصلهم بالفنون الأدبية صلة ما. . . أما علاقة السينما بالنهضة التمثيلية فلا يجحدها أحد. . .
وأقسم لو أن لنا ثقافة مسرحية غبر عليها روح طويل من الزمن، وأقسم لو أن لنا مسرحاً مصرياً محترماً يضارع في رقيه المسارح الأوربية أو المسرح الأمريكي. لكانت لنا نهضة سينمائية عالية كافية لأن تلفظ من ذاتها موضوعات تلك الأفلام المصرية التي أخرجت إلى الآن في غفلة من تأخرنا في هذا الميدان
ولا يفوتني قبل أن أختم هذه الكلمة في العلاقة بين الأدب والسينما أن أنوه بتاريخنا المليء الحافل بالأحداث الجسام، فقد آن لنا أن نخرجه مصوراً ناطقاً تشهده الجماهير فيثير فيها الكبرياء الوطني، وتطلع منه على ما لم تكن تعلم من مشاهد البطولة الوطنية وأمجاد العصور الخوالي، وما عمل الآباء والأجداد في سبيل مصر الخالدة من صنائع العزة وفعال العظمة. . . نحن إن صنعنا ذلك خلقنا عملاً أدبياً جليلاً لجميع كتابنا وأدينا لتاريخنا خدمة تخلد على وجه الزمان، ثم يسرنا لناشئتنا استذكار هذا التاريخ الطويل الذي نرهقهم بمذاكرته في بطون الكتب مع ما في هذه المذاكرة الصامتة التافهة البليدة من منافاة لروح التربية الحقة، وما تنتهي إليه من قلة الغناء. . . بعكس مشاهدة التاريخ المصور الناطق السينمائي الذي يلصق بالذاكرة، ويخلد فيها، وينمي في الطالب تلك الملكات التي يفتقر إليها
معظم الطلبة المصريين.
دريني خشبة
المشكلات
اللغة العربية - 2
للأستاذ محمد عرفة
لماذا أخفقنا في تعليمها؟ - كيف نعلمها؟
بينا في مقالنا السابق جهود رجال العلم والتربية في سبيل إصلاح تعليم اللغة العربية، تلك الجهود التي إن أخطئها التوفيق فلن يخطئها أن تكون حقيقة بالشكر وعرفان الجميل
إن هذه الجهود المختلفة دليل على عنايتهم باللغة العربية، وحرصهم عليها، ومعرفتهم بقدرها، ودليل على أنهم يحبون شباب هذه الأمة، ويودون أن يسهلوا عليهم ما صعب، ويقربوا إليهم ما بعد، وأن يسهروا ليناموا، وأن ينصبوا لهم ليجدوا السعادة والراحة وهذا وحده جهد مشكور، وصنيع غير مكفور، جدير بالإجلال والتعظيم، سواء أوفقوا فيما حاولوا أم لم يوفقوا.
ورب قائل يقول: لقد وضعت أن المعاهد في مصر أخفقت في تعليم اللغة العربية، وأخذتها مقدمة مسلمة، وكانت بحاجة إلى أن تقيم عليها الدليل، فلعلها لم تخفق في تعليم اللغة، ولعلها نجحت أعظم النجاح، ولعل ما هو مشهور بين رجال التعليم من أنها أخفقت في هذه المهمة - من القضايا التي اشتهرت لغرض من الأغراض، فإذا نقدت تبين خطؤها. فلسنا نسايرك حتى تقيم الدليل على هذا الإخفاق
وأقول إني أوافق هذا القائل أنه لابد من أن يقام الدليل على هذه المقدمة، ولا يصح أن تترك دون بيان

إن المرء يكون قد أتقن لغة ما إذا كان يتكلم ويقرأ ويكتب بهذه اللغة، جارياً على قواعدها، مراعياً قوانينها، لا يلحن فيها ولا يخطئ، وأن المدرسة تكون قد نجحت في تعليم اللغة إذا كان الذين تخرجوا فيها جميعهم أو أكثرهم على هذه الصفة، فهل من تخرجوا في مدارسنا كذلك!

أما الكلام باللغة العربية فلا تكاد تجد أحداً يتكلم بها، فالشعب كله يصطنع في التفاهم والتخاطب اللغة العامية، وليس من الناس من يصطنع اللغة العربية إلا في الندرة وعلى سبيل الشذوذ، حتى أن دروس اللغة العربية تلقى بالعامية، فقد دخلت العامية على العربية حجرات دروسها، وغزتها في معاقلها، وأخص الأماكن بها

ومن المضحك حقاً أن تجد مدرس النحو أو الصرف أو البلاغة أو مفسر النصوص العربية من شعر ونثر يلقي دروسه وقواعده بلغة عامية، لا يراعي ما يقول من قوانين، ولا يقوم لسانه بما يسرد من قواعد

فأما الكتابة والقراءة بها، فلا يقرأ باللغة الفصحى ولا يكتب إلا فئة قليلة، تمكنت من حفظ لسانها من الخطأ عند القراءة والكتابة، وجمهرة المتعلمين لم يصلوا إلى هذه المنزلة، فالشاب يتخرج في المدرسة، أو في المعهد، ولسانه لا يكاد يقيم جملة، أو يعرب كلاما، ولا يستطيع أن يعبر عن خلجات نفسه بأسلوب صحيح مستقيم

وإذا لم يكن هذا إخفاقا، فماذا يكون الإخفاق؟

وكما لم توفق مدارسنا في الغاية لم توفق في الوسيلة، أو قل أنها لم توفق في الغاية لأنها لم توفق في الوسيلة؛ فالوسيلة إلى تعلم اللغة هي دروسها، ولما تستطع مدارسنا أن تحببها إلى التلاميذ، فهم يأتون إليها متثاقلين، ويستمعون إليها كارهين، وهم يبغضونها بغضاً يملأ ما بين جوانحهم. فالنحو عندهم ثقيل بغيض، وكذلك الصرف، وعلم البيان الذي قال فيه بعض العلماء - أنه لا ثواب في تعلمه - يشير إلى أنه لا مشقة فيه على المتعلم، وهو يطلب لما فيه من لذة، فجزاؤه فيه، قد بغضته إليهم هذه المدارس أيضاً؛ وليس العيب في ذلك على الشباب، لأنهم يدرسون الهندسة والحساب والطبيعة في غير ضيق ولا حرج، بل يدرسونها في شغف ومحبه، إنما العيب على دروس اللغة العربية وحدها.

فلا عجب بعد ذلك إن لم ينتفعوا بهذه الدروس، لأن الانتفاع بالشيء على قدر المحبة له، والرغبة فيه

هذا شيء مخيف حقاً، له نتائجه الخطيرة، فإما أن نعمل على تسهيل الانتفاع باللغة العربية وتيسيرها على الدارسين والمتعلمين وتزيين علومها في قلوبهم، وإما أن نتحمل أمام التاريخ والأجيال عواقب هذا التفريط والإهمال، لأن الشيء البغيض المملول لا يعمر طويلاً، ولا يمكن أن يكره الناس عليه دائماً

وهناك أمر آخر ينتج من الخيبة في تعليم اللغة العربية، يخشاه رجال الاجتماع أعظم الخشية، ويشفقون منه أشد الإشفاق، وهي بقاء الحال على ما هي عليه في مصر، من اصطناع لغة للخطاب، وأخرى للكتاب، بينها وبين جمهور الشعب بون شاسع، وعقاب صعاب

وإنما كانوا يخشون، ويشفقون منه، لأن ذلك يؤدي إلى إطالة أمد جهل الأمة وتأخرها، لأن العلم والأدب قد كتبا بلغة لا يفهمها جمهور الشعب، وهي العربية، فلا سبيل إلى وصوله إليها

أما إذا نجحت المدرسة في تعليم العربية، وتكلم بها المتعلمون وهم مخالطون للشعب، فعلى مرور الزمن يسهل عليه فهم اللغة العربية ويتسرب إليه كثير من مفرداتها وتراكيبها، وربما علمها فصار لغة الخطاب، لغة الكتاب، وهذا كسب ليس بالقليل، فكل ما كتب من علوم وأخلاق وآداب يكون حينئذ في متناول جمهور الشعب، فيرقى إلى الذروة التي ينشدها له المصلحون

وهناك طائفة من رجال الاجتماع ترى أنه إذا خابت المدرسة في تعليم العربية، وخابت الأمة في اصطناعها ورفع لغة الحديث إلى اللغة التي تكتب بها العلوم والآداب، فلا مناص من كتابة العلوم والآداب باللغة التي تفهمها الأمة، لتنتفع بها، ولتبلغ الأمل المنشود، لأنه خير للأمة أن تخسر اللغة العربية وتكسب العلم الذي به نماء عقولها، والآداب التي بها تقويم أخلاقها، من أن تربح العربية وتخسر العلم والأدب

فأنتم ترون أن الأمر جد خطير، وأنه يعني حياة اللغة العربية أو موتها، ونجاح المتعلمين في تعلمها أو إخفاقهم، ورقي الأمة أو انحطاطها

لذلك يجب أن نعمل جاهدين، وأن نجهد مخلصين، حتى نعرف الأسباب في هذا الإخفاق، وأن نفعل الممكن وغير الممكن لنجعل تعليمها ناجحاً، ولنحبب درسها إلى التلاميذ، وبذلك نتقي هذه النتائج السيئة، ونوفر على الشباب وقته وجهوده ونحمي اللغة العربية من الضياع والموت

هذا ما دعا رجال العلم إلى معالجة هذه المشكلة

وهذا ما دعاني أيضاً إلى أن ألقي بدلوي في الدلا، وسأعرض بحثي على القارئين، أو أولي الأمر في مصر، ولعل هذه الدعوة تلقى ما أقدره لها من توفيق - إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله

محمد عرفة

عضو جماعة كبار العلماء

مقدمة ابن خلدون

للأستاذ محمود أبو ريه

كنا نسمر في إحدى الليالي مع الأستاذ الكبير صاحب الرسالة، فكان من حديثه الممتع الهادئ أن العلامة المحقق ساطع الحصري قد ألف كتاباً فريداً جعل موضوعه (دراسات عن مقدمة ابن خلدون) تلك التي لم تخرج القرائح العربية مثلها، وفي عبارات عذبة أنشأ الأستاذ الزيات يشيد بفضل هذا العمل الطريف. وقد أثار هذا الحديث المستوعب شوقنا إلى هذا الكتاب، وزاد هذا الشوق لما قرأناه اليوم مقدمته النفيسة في الرسالة

ولما كان العلامة الحصري قد حدثنا في كتابه (إن جميع طبعات المقدمة التي صدرت عن مطابع القاهرة وبيروت مشوبة بنواقص كثيرة وأغلاط فادحة - وإنها ناقصة - من حيث المتون والفصول معاً) فإني أنشر كلمة لها علاقة بما حقق هذا العالم الجليل وفيها نفع لمن أراد أن يقف على تاريخ هذه المقدمة

في صيف سنة 1923 قرأت بإحدى المجلات كلمة لأحمد تيمور باشا رحمه الله ذكر فيها أن كل طبعات مقدمة ابن خلدون لا تطابق الأصل الصحيح منها، وإنه يوجد بمكتبة زكي باشا نسخة خطية من هذه المقدمة صححها المؤلف بقلمه فسررت بهذا النبأ وتوجهت باستفهام إلى زكي باشا على جريدة المحروسة عما نشره تيمور باشا، وكان ذلك في 17 أغسطس سنة 1923 فأجاب رحمه الله ببضع مقالات على هذه الجريدة تكلم فيها عن طرف من تاريخ ابن خلدون ومقدمته. وأنا لا أعرض إلا لما قاله عن هذه المقدمة النفيسة، وفيه العلاج لما نحن بسبيل الكلام فيه اليوم.

ذكر رحمه الله أن هذه المقدمة الفريدة قد ظل أمرها مهملاً خمسة قرون كاملة، فقد تم تأليفها في سنة 775هـ، ولم تظهر إلا في سنة 1274هـ: سنة 1857م. وكان أول من عثر على هذا الكنز رجل نمساوي اسمه آسرلي، فقد وقف في دار كتب (ويانة) عاصمة النمسا على نسخة مخطوطة من هذه المقدمة، ونقل كثيراً من فصولها، وترجمها إلى اللغة الطليانية، ثم نشرها مع بعض ملاحظات وتعليقات في المجلة المعروفة باسم الخزانة الطليانية فكانت أبحاثه مدعاة لتنبيه علماء أوربة إلى العناية بهذا الأثر العربي الكريم (ولما جاء المسيو آسرلي إلى مصر قنصلاً لدولته لدى محمد علي باشا كان مما عمله أن حض

محمد علي باشا على الانتفاع بهذا الكتاب وطبعه فترجم إلى اللغة التركية ومطبع بمطبعة بولاق وكذلك طبع الأصل العربي منها

وفي الوقت الذي طبعت فيه المقدمة في مصر كان العلامة كتر مير الفرنساوي يطبعها في باريس وقد طبعت هذه المقدمة بالمطبعة الأميرية طبعة ثانية في سنة 1284هـ

وقد ذكر زكي باشا (إنه بعد ما تحقق وجود المسخ والبتر والتشويه والتحريف في جمع ما صدر من الطبعات العربية لمقدمة ابن خلدون آلى على نفسه أن يبحث عن نسخة خطية تكون وافية بالمرام حتى قيض الله له الظفر بها في خزانة المرحوم عاطف أفندي بالقسطنطينية). وهذه النسخة قد صححها ابن خلدون بقلمه، وذلك أنه لما عاد إلى القاهرة من عند تيمورلنك طاغية التتار رأى الناسخين قد شوهوا محاسن مقدمة

تاريخه، فضاقت نفسه وتناول نسخة من التي أصابها المسخ وأقبل عليها بنفسه وتولى تصحيحها بقلمه، وكان من هذا التصحيح أن حذف بعض الكلمات وطائفة من العبارات ووضع هوامش كثيرة بخطه. فإذا أعوزه المكان أضاف (طيارة) أي جزازة ويلصقها بين الصفحتين ويدل على موضعها دلالة ظاهرة واضحة، وقد انتقلت هذه النسخة من مصر إلى الآستانة على أثر سقوط مصر بين يدي السلطان سليم سنة 922هـ، وقد عثر عليها زكي باشا في سنة 1910 ولم يلبث أن أخذ صورتها الفوتوغرافية وبلغ ما أنفقه عليها ستين جنيهاً كاملة، وقد كتب على هذه المقدمة العبارة الآتية: (هذه صورة المقدمة من كتاب العبر في أخبار العجم والبربر، وهي علمية كلها كالديباجة بكتاب التاريخ قابلتها جهدي وصححتها، وليس يوجد في نسخها أصح منها وكتب مؤلفها عبد الرحمن ابن خلدون وفقه الله تعالى وعفا عنه)

ولما وقفت من زكي باشا على نبأ هذه المقدمة وكان الشرق جميعاً في حاجة إلى الصورة الصحيحة منها، رجعت إلى الأستاذ الكبير رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر، راغباً إليه أن تقوم اللجنة التي من أغراضها نشر الأسفار القديمة النافعة بطبع هذه المقدمة، وهي خير ما ينشر من ذخائرنا العربية، فجاءنا منها جواب مؤرخ 16 أغسطس سنة 1927 تقول فيه: إن اللجنة ستضع هذا الاقتراح موضع البحث. ولما خاب رجاءنا لدى اللجنة رجعنا إلى وزارة المعارف فطلبنا منها مراراً أن تعنى بنشر هذا الثر النفيس فتطبعه طبعة صحيحة، ولكنها أصمت آذانها، وغبرت السنون على هذه المقدمة وهي على تحريفاتها وأغلاطها

هذا ما رأينا نشره، ولعلنا اليوم - بعد أن رأينا من العلامة الحصري تلك العناية الفائقة بهذه المقدمة - نطمع في أن يزيد من فضله على العلم فيجمع بين النسخة المطبوعة بباريس وبين التي بالخزانة الزكية، وبعد المقابلة بينهما يخرج منهما نسخة صحيحة يتولاها بما تحتاج إليه من الشرح والتعليق

هل رجاءنا اليوم يتحقق لكي نظفر بما كنا نطالبه منذ عشرين سنة، وينتفع هذا الجيل المثقف بذلك الكنز الثمين، ثم ينهض فيؤدي واجبه نحو مؤلفه العظيم؟

(المنصورة)

محمود أبو رية

تصحيحات واجبة في الأدب والأخلاق

للأستاذ سيد قطب

في عدد الرسالة الماضي تعليقان على مناقشاتي مع الأستاذ مندور، لا يخفى على القراء ما فيهما من تحامل مكشوف يرتدي مسوح النقد الأدبي

والذي يعنيني هنا هو إثبات بعض التصحيحات الواجبة لأوهام ومواضعات خاصة، تجد لها صدى في نفوس العوام وأشباه العوام

يقول الأستاذ دريني خشبة في مقال بعنوان: (أعصابكم أيها الأدباء) ضمن حديثه عن (قضية الأدب المهموس): (نزغ شيطان الجدل بين الأديبين المتحاورين، إذ رمى أحدهما الآخر بما لا يليق أن يرمى به رجل رجلاً أبداً. . . ولعل الذي سب أخاه في كمال الرجولة أظلم)

هذه المسألة تحتاج إلى تصحيح؛ فأنا لم أكن في موقف سباب حين أشرت في حديثي إلى هذا الشأن، إنما كنت في معرض تعليل نفسي لظاهرة خاصة مطردة في فهم صاحبي للأدب والشخصيات؛ وكنت ألمح آفة نفسية خاصة تجنح به إلى إيثار لون من الأدب على لون، وشخصية أدبية على شخصية في رتابة واطراد

ومما لا شك فيه أن لبعض الآفات النفسية أثراً حاسما في الحكم على الأدب والأشخاص والحياة كلها؛ ولابد من تعليل هذا الأثر الخفي وكشفه للقراء ليأخذوا حذرهم من إنسان يقف نفسه موقف الناقد للفنون والرجال، وطبعه مئوف متأثر بآفته فيما يصدر من أحكام

ففهم هذا التعليل على أنه (سب) عامية في الذهن والنفس تحتاج إلى تصحيح. والخضوع لهذا الفهم والإحجام عن هذا التفسير تبعاً لذلك - عامية في معايير الأخلاق لا أخضع لها وفي نفسي بقية من الارتفاع فوق مستوى العوام

والأستاذ دريني هو و (الأديب زكريا إبراهيم) يأخذان علي شيئاً آخر هو الاستشهاد بقطعة من شعري بجانب قطع أخرى للعقاد، مشايعين في هذا الأستاذ مندور ولست أتردد في مجابهة هذا الوهم بأنني لا أحفله؛ لأنه نوع من عامية الذوق والتفكير. فأنا لم أكن في معرض تعداد وبيان لمزايا جميع الشعراء المصريين، وإنما كنت في معرض استشهاد على وجود لون خاص من ألوان الأدب في شعر المصريين، ووجوده بصورة خير من الصورة التي يحبها الأستاذ مندور. فإذا وجدت في شعر العقاد ما يصلح لإثبات الغرض فلن يقعدني التحرج الاصطلاحي السخيف عن الاستشهاد به لمجرد أنني (تلميذ) للعقاد. وإذا وجدت في شعر سيد قطب ما يصلح لإثبات هذا الغرض فلن يقعدني التواضع الاصطلاحي الكاذب عن الاستشهاد به لمجرد أنني سيد قطب! وهذا التواضع الكاذب وذلك التحرج السخيف نوعان من العامية في التفكير والأخلاق أرتفع بنفسي عنهما، لأنني لا أتلقى معاييري الفكرية والخلقية من العوام وأشباه العوام

وقد يحسن من باب (التصحيح الواجب) كشف الأسباب الصغيرة الخفية التي تحمل بعض الناس على أن يلبسوا هذا المسوح!

فأما الأستاذ (دريني خشبة) فلتحامله أسباب ظاهرة يعرفها قراء الرسالة، فيما شجر بيني وبينه من جدل على صفحاتها منذ أشهر، على أنه إنما يصدر في هذه المسألة عن الروح التي يصدر عنها فيما يقتحمه من مسائل النقد الأدبي كلها ولست أدري لم لا يعرف الناس أفضل مواهبهم فيستخدموها ويدعو ما لا يحسنون من الأمور؟ ولله في خلقه شؤون!

أما الأديب زكريا إبراهيم: فلست أعلم له أو عنه شيئاً سوى أنه يقول عني: (إنما راح يحشد أقواله وأقوال الأستاذ العقاد، كأنما ليس في مصر غيرهما). فقد كان يجب إذن أن أحشد أقوال الأديب (زكريا إبراهيم) هو الآخر!

وأنا أعترف لحضرته أنني مقصر في البحث، وسأسأل الإنس والجن عن شيء له ولأمثاله أحشده في بعض المناسبات! فإن لم أفعل، فهو كاسب على كل حال بمناقشته في هذا المقال!

سيد قطب

. . .الجريح

للأستاذ محمود عماد

تَوَلّى جريحاً مِنَ المعمعَهْ ... يُريقَ على دَمِهِ أَدْمُعَهْ
ويحنو بقلبٍ له موجَع ... على كبدٍ دونه موجَعه
ويُخفي بيُسراه موضعَه يُمنَى ... بها منه قد طاحت الموقعه
لقد غِشيَ الحربَ (كُلا) فضَيّ ... عَ (بَعضاً) وعاد يبعض معه
إلى أين يمضي بتلك البقايا ... وماذا انتوى اليومَ أن يَصنَعه؟
أَلِلطبِّ يُرجعُه (كاملاً) ... وهل يمكن الطبَّ أن يُرَجعه؟
أَلِلقبرِ والقبرُ رغمَ التأ ... هبِ لم يعتزمْ بعدُ أن يَبلعَه؟
لقد عزَّ حتى المماتُ عليه ... وضاق به كونُه عن سَعه
ومِن بعدِ لأيٍ هداه الوَحَى ... لِصومعةٍ، فإلى الصومعى!
إلى حيث يَهربُ مِن أمسهِ ... ويهجرُ في أسفٍ مدفه
ويَنْسى الذي كان فيما يكو ... ن ويَسحبُ فوق الحراك الدّعه
ويَسمعُ مِن (شِعره) أنّ (ذِكرا) ... يعوّضه بعدُ ما ضيَّعه
وأنّ على شاطئ (الخلدِ) بيتاً ... سيأخذ فيه غداً مضجعه
فأقْنِعه، أقنعه، يا شِعرَه ... إذا كان في الطوقِ أن تقنعه!!

محمود عماد

البريد الأدبي

لفظتان

اللفظتان هما (الفزاعة) فزاعة الزرع، و (التحويش) تحويش المال أو غيره. وقد ظننتا أنهما عاميتان، وإنما هما عربيتان صحيحتان

جاء في (أساس البلاغة) للأمام الزمخشري: (نصب خيالاً في مزرعته وهو الفزاعة،

وعن الشعبي: وجدت رجال هذا الزمان خيالات. . .)
ومثل الفزاعة والخيال (المجدار) قال الإمام التبريزي في (شرح ديوان الحماسة) في تفسير هذا البيت في باب مذمة النساء:
إصرميني يا خلقة المجدار ... وصليني بطول بعد المزار
المجدار شيء ينصب في المزارع للسباع والطير يقال لها (الفززاعة)
وقد وردت هذه اللفظة الأخيرة بالقاف والراء (القراعة) في الطبعة القديمة والطبعة الحديثة التي حققها العالم الأستاذ الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد. وإنما هي الفزاعة. فزع الله عن القلوب
وجاء في اللسان عن الأزهري صاحب تهذيب اللغة وفي القاموس والتاج: (حوش إذا جمع، والتحويش التجميع) فيقال لكل عامل في عمل ما: اقتصد أيها العامل في معيشتك، ووفر من عمالتك، وحوش، حوش؛ إن (المال سلاح المؤمن في هذا الزمان) كما قال الإمام سفيان الثوري ومن أمثال بغداد: المال، المال. وما سواه محال
ناقد
إلى الدكتور زكي مبارك
قالوا لي يا دكتور أنك تريد أن تهجم على (حسن القاياتي) الأديب الذي خلقته الظروف، ورفعته السياسة، وجاملته الأدباء بقدر ما لبيته القديم في النفوس. وألاعيب (مصطفى القاياتي) في السياسة. . . وأنت يا سيدي الدكتور قد آذيتني أعنف الإيذاء يوم نشرت مقالك عن السهرات الأدبية في رمضان في جريدة (البلاغ) حيث قلت: إن البيت (القاياتي) قد خلا من الرائد. وعاف مجلسه الأديب. ولم يبقى فيه إلا وجه السيد (حسن) أبقاه الله!
وهي غمزة أعرفها منك يا دكتور وأحتسبها عليك، وأجازيك عليها جزاء من أخلص للأدب، وامتزجت نفسه به طوال أربعين عاماً بين شاعر يدرسه، أو بحث شائق في اللغة يكتبه. . . ثم ماذا؟ ثم يكون حظه من ناشئة البيان منتكساً، وقلمه بين تلاميذه منكسراً، وأدبه بين الأدباء ضعيفاً. . . مما جعل الدكتور تحدثه نفسه بالهجوم عليه، والنيل منه!
لك الله يا دكتور مبارك! فلقد كنت أود أن تكون ألاعيبك بين ناشئة الأدب فتحملهم على احترامك بالشدة، وتروضهم على مطالعة أدبك بالعنف. . . خير لك من أن تهاجم رجلاً قد هاجم شوقي وحافظ في عنفوان أدبهما، وضخامة شخصيهما، وخلود اسميهما، دون أن يتطاولا عليه ما تطاولت، أو ينالا من شخصه ما نلت. . . إن اللغة العربية يا دكتور لم تجد لها حصناً منيعاً من سنوات عديدة إلا الدار (القاياتية)، ولن تجد من يذود عن حماها إلا القلم (القاياتي) العتيد؟! فسل نفسك يا دكتور يوم أن كنت صديقاً وراوية للسيد (مصطفى) أن (حسن القاياتي) لن تنال قلمه هذه الترهات، ولن تؤثر في نفسه هذه الصراعات العنيفة التي ترسلها دون أن تذكر الدار القاياتية، ومجدها القديم في اللغة، وحاضرها الجديد في البيان. . .؟! تذكر كل هذا يا دكتور. وقد أعددت لكتابك الفريد (النثر الفني) عشرين مقالاً أرجو أن يتسع صدر (الرسالة) فتنشر لي هذه المحاولات الجريئة في النقد، دون أن تجامل (محمد عبد السلام مبارك) علها تظهر للناس الكاتب الأول والشاعر الأول زكي مبارك؛ ولكن بعد أن أسمع منه على صفحات (الرسالة) الزهراء كلمة الحق. . . والحق أحق أن يتبع. . .؟!
(دار القاياتي)
حسن القاياتي
اللجنة التي يحتاج إليها الأزهر
ذكرت مجلة الرسالة الغراء في العدد (527) أن صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر، أصدر قراراً بتأليف لجنة لدرس حالة الكليات والمعاهد الأزهرية، ولجعل مهمتها بحث الأسباب التي أدت إلى ضعف نتائج الامتحانات في الكليات والمعاهد، وإني أرى أن هذه الأسباب واضحة لا تحتاج إلى بحث، وقد بينها المصلحون فيما كتبوا عن
إصلاح الأزهر، ولكن علاجها شائك يتهيبه من يعرفه، لأنها ترجع إلى كتب الدراسة التي قال الأستاذ الأكبر في مذكرته المعروفة إنه لا يوجد فيها روح العلم، ومتى كانت كتب الدراسة في المعاهد بهذه الحالة فكل فساد في المعاهد راجع إليها، ولكن الذي

يشارك الأستاذ الأكبر في نظره إلى تلك الكتب قليل جداً، ومن هنا كان علاجها شائكاً يتهيبه كل من يعرفه، ويحتاج كما قال الأستاذ الأكبر في تلك المذكرة إلى خطوة جريئة يقصد بها وجه الله تعالى، ولا يبالي بما تحدثه من ضجة وصريخ، فقد قرنت كل الإصلاحات العظيمة في العالم بمثل هذه الضجة

فاللجنة التي يحتاج إليها الأزهر هي اللجنة التي تكون مهمتها وضع كتب يوجد فيها روح العلم، وتفتح في علومنا باب الاجتهاد والتجديد، وتقضي على ما فيها من جمود، وهنالك يصلح كل شيء في الأزهر، ويقبل الطلاب برغبة على العلم، فتحسن نتائج الامتحانات، ويعود إلى الأزهر مجده العلمي.

(ص)

حول المسرح المصري والدرامة المنظومة

إلى الأستاذ دريني خشبة

أشكرك على أنني خطرت ببالك وأنت تحث شعراء الشباب على المشاركة في نظم الدرامة، وهي إشارة منك تدل على خلتين من خلال أهل الفضل في البحث: حسن تتبعك لما ينشر ويكتب؛ وحسن ظنك فيمن تراهم موضعاً لإحسان الظن

وكم كنت أود أن لا أقول بشكر ما أوليتني من حسن ظنك، وسمتني من رقيق عتبك إلا وفي يدي مسرحية من الشعر أهديها إليك جزاء ما أوليت المسرح المصري من جميل عنايتك؛ ولكنني راج أن تنظرني حتى يتهيأ من الإنتاج ما يحقق ظنك الحسن

ولقد فاتك - غير عامد - أن تذكر الشاعر العربي الحضرمي (الأستاذ علي أحمد باكثير)؛ فهو شاعر أصيل الطبع، متمكن من لغة شكسبير، وله مسرحيات: إخناتون ونفرتيتي، سلامة القس، وا إسلاماه، وقصر الهودج؛ وكلها شعر طليق أو مقيد من طراز رفيع

على أن هذه مسألة شخصية دعاني إليها أن أنصف شاعراً عربياً في معرض فتحته أنت بذكر الأشخاص وأخشى أن يتسع الباب عليك. . . أما مسألة المسائل فهي أن حبك للشعر العربي والمسرح العربي هو حب يحملنا على الاستجابة لفكرتك، والإعجاب بصدق دعوتك. والسلام.

محمد عبد الغني حسن

إلى الأستاذ دريني خشبة

كنت أيها الكاتب الفنان أطالع مقالك الممتع (المسرح المصري والدرامة المنظومة)، والشاعر (حسن القاياتي) في زهو بما بلغ نقدة المسرح من الرأي السديد والنظر الثاقب. . .

ولكنك أيها الكاتب قلت: إن المسرح قد خلا من التأليف المسرحية المنظومة بعد شوقي؟! ألم تقع عينك عند الوراقين على الرواية الضاحكة التي نظمها الشاعر (حسن القاياتي)؟ فجاءت تحفة للفن، ونجعة للرائد، وهدية قدمها صاحبها إلى مسرح الخيال المنشود؟

ولكنها لم تجد من يبعثها من مرقدها، ولم تمتد إليها يد النقاد حتى يقدرها الفن، ويرجع أصداءها الفنانون!

إن رواية (القاياتي) يا سيدي الكاتب مثلتها الفرق اللاعبة في داره الأنيقة (بالسكرية) في شهر رمضان من العام الماضي. وستمثلها الفرق الحبيبة في داره في شهر رمضان من هذا العام

فهلا! تتفضل أيها الكاتب الألمعي. فندعوك لمشاهدة عرضها على المسرح (القاياتي) المتواضع، فتبعثها كما بعثت روايات عديدة حرية أن تتوارى أمام هذه المسرحية الفذة. التي تمثل لوناً من ألوان الخلاعة في (بلاط المأمون) . .

لنا أن ندعوك، ولك تجيب. قبل أن تتحدى شعراء مصر النابهين.

علي فوده

مجمع فؤاد الأول للغة العربية

المسرح المصري

قرأت في العدد الأسبق من هذه المجلة الزهراء مقال الأستاذ دريني خشبة عن (المسرح المصري)، فعنت لي بعض آراء أثبتها في هذه العجالة

كان مقال الأستاذ منصباً على ناحية خاصة دار الكلام حولها ولف، وهي (كسل) شعرائنا

وعدم اهتمامهم بنظم المسرحيات الشعرية
صحيح إن الدرامة الشعرية لها هذا التأثير الذي تحدث عنه الأستاذ دريني، ولكن في أي البيئات والأحوال والظروف؟
عندنا الكثير من الشعراء الواقفين على أحدث التيارات الفكرية، ولكن أحدهم لم يفكر نظم مسرحية، فكل نتاجهم لا يخرج عن (القصائد والمقطوعات والموشحات) لماذا؟
لأن أغلبية الشعب - حتى المتنور منه - لا تتذوق مسرحية يتكلم أبطالها بالعربية الفصحى. . . فما بالك بالشعر؟
لنقل كلمة الحق. . . إن جمهورنا يؤثر الأدب الضحل والمسرحيات الفكاهية، على مسرحيات شكسبير وراسين وأضرابهم. وعند (الفرقة القومية) الخبر اليقين!
هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن لا تحتاج هذه المسرحيات المنظومة إلى ممثلين مثقفين يفهمون الشعر - ولا أقول يتذوقونه - ليؤدوا أدوارهم على أكمل وجه؟
فأين ممثلونا من هذا؟ وهم لا يعرفون إلا مبادئ القراءة والكتابة! ثم أين التشجيع المادي والأدبي الذي يغري الشعراء ويدفعهم إلى ميدان المسرح كما فعل غيرهم من شعراء الأمم الأخرى؟ أليست هذه صعوبات تصدهم عنه!
(ميت غمر)
كمال نشأت
ظبي وزير الصحة
أهدي إلى معالي وزير الصحة ظبي فشكر مهديه ورجا منه أن يترك حراً كما كان في (رعاية الله، فقلت في ذلك)
أكنت ترحم لو أنه أسد ... أم ضعفه شافع أم حسنه حكما
والضعف والحسن مرحومان من بطل ... يمشي إلى الأسد في آجامها قدُما
سحر لعينه أم حسن لمقلته ... أعاد عهد الهوى أم أشعل الضرما
أم خشية الله في عبد يراقبه ... والله يرحم من للخلق قد رحما
عبد الرؤوف جمعة
المفتش بالمعارف
العدد 530 - بتاريخ: 30 - 08 - 1943
عندما رأيت الله جهرة
للأستاذ دريني خشبة
تحدث إلى أحد أصدقائي قال:
كانت أربعون ليلة من ليالي سيناء فد مرت على قلبي المضطرب الممزق وأنا لا أنفك أحملق في ذلك الشبح المفزع. . . شبح ملك الموت عليه السلام! إذ هو يلم بالحجرة الرهيبة التي كنت أحبس فيها نفسي لأمرض أعز المخلوقات علي وأحب الناس إلى قلبي؛ وذلك أن الطبيب المعالج لم يأمن أحداً غيري على رعاية أوامره وتنفيذ إرشاداته، فانفردت بالمهمة دون إخوتي، واضطلعت بها وحدي، وإن كانت إحدى أخواتي تريحني ساعة من نهار فكنت أقضيها نائماً ذلك النوم المشرد الممتلئ بالأحلام وكنت دائم الصلاة لله أن ينقذ والدتي، وكنت أدهش أحياناً كيف لا يجيب دعائي. . . وكنت أعتب عليه، استغفره وأتوب إليه، كيف يقضي على هذا اللسان الذي طالما لهج بذكره، وقدس له، وحمده وأثنى عليه، بهذا الصمت الطويل المؤلم الذي كان يحاول أن يتشقق عنه كي يكلمنا، فما يستطيع غير الإيماءة النحيلة يوزعها علينا في جهد وفي عناء. . . الإيماءة التي تسبح في فيض من الدمع، وهي مع ذاك تبتسم لتخفف ما يعصف بأفئدتنا من وجد، وتهون علينا ما يذيبنا من تبريح
أجل. لا أخفي عليك يا صديقي أنني كنت أشتد في مناشدة الله الذي أستغفره وأتوب إليه؛ كيف يرضى بأن ينعقد هذا اللسان الذي طالما ترطب بذكره والتسبيح له، والذي قضى خمسين عاماً يؤدي الصلوات الخمس كأحسن ما يؤديها نبي، وكأحسن ما يقوم بها صديق؛ وهو مع ذاك يؤدي النوافل على اختلاف أنواعها، ويردد الأدعية والأوراد، ويتهجد ويعتكف ويصوم رمضان وغير رمضان، ويعف فلا ينطق بهجر، ويتورع فلا يتحرك بأذى، ويدعو لنا ولجميع الناس بالخير، ويرتل آي الذكر الحكيم أناء الليل وأطراف النهار. . . فكيف يصمت هذا اللسان الرحيم الكريم، وكيف يغلبه ذاك الشلل الخبيث فينوء بالكلمة الواحدة ويعجز عن لا ونعم، ومن حوله أحباؤه الأعزاء عليه

يكلمونه فلا يكلمهم، ويحاول أن يودعهم بكلمة واحدة فلا يستطيع إلى تلك الكلمة الواحدة من سبيل، وأنا مع ذاك أدعو الله وأتوسل إليه بماضي هذا اللسان أن يفك عقاله، وأن يحسن حاله، ثم يخشاني منه ما
يشبه الليل البهيم، والأشجان فتشيع ببرودة القبور في عروقي!
عجيب والله هذا الموقف من الأبالسة التي وقفت تترصد فؤادي، وتغري بالموبقات روحي، وتداعب إيماني فتهزه ذلك الهز العنيف القاسي!
ألم تعد في السموات رحمة؟ أهكذا تكون خاتمة ذاك اللسان الرطب الكريم؟ وأين إذن قدرة الله الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء؟ وماذا وراء هذا الوجود الذي يكظ ويزحم السموات، ويملأ الدنيا والآخرة بما نعجز عن تعليله فنهم عقولنا بالقصور، ونعترف ضعفاء مخذولين بوهن أفهامنا عن إدراكه والنفاذ إلى كنهه؟!
وهكذا كانت الأبالسة ترقص في رأسي المحزون، وتوسوس في قلبي المضطرب، وتهتف في أذني الحائرين. . . وكنت أحاول أن أصرفها عني فلا أستطيع، بل كنت أتهم نفسي وأنا أحاول ذلك بالنفاق، وأرميها بالرياء الديني المصطنع، وكان غروري يأبى لي أن أكون منافقاً أو مرائياً
وسمعت أعز الأمهات تعالج في صدرها شهقات وزفرات، فأسرعت إلى سريرها وبي أنها سكرة الموت، فأسندت الرأس الكريم إلى صدري، وتناولت كوباً من الماء به قطرات من الدواء فوضعتها قريباً من شفتيها. . . ولكنها لم تحس من الماء حسوة! بل نظرت إلي بعينين تترقرق فيهما دموع الحنان، فرحت أكلمها على عادتي كلاما كله ضحك يخنقه البكاء، وكله فكاهة تلبس أردية الحزن القاتمة!
لشد ما تخنقني عبراتي وأنا أحدثك بهذا أيها الصديق!
لقد حدث هذا منذ عشر سنوات، فلم أخط فيه حرفاً، ولم أحرك به لساني لمخلوق. . . ولولا أنك جادلتني في الله لآثرت أن أطوي عليه قلبي إلى الأبد. . .
لقد كانت الأبالسة تأخذ على مشاعري في تلك اللحظة، وكانت تجمع أدلتها ضد السماء في ثورة جارفة. . . وكان فؤادي يتمزق كلما ذكرت أن أعز الأمهات ستقضي دون أن تودعني بكلمة
بيد أنني سمعت كلاماً عنيفاً يتردد في صدرها، فلما أدنيت أذني من فمها، إذا هي تردد هذه الكلمة العظيمة الخالدة:
(الله! الله! الله!)
فلما استيقنتها أخذ العرق يتصبب من جسمي كله، وعرتني رجفة قوية لم أبلها من قبل. . . ثم ذكرت أبالستي. ولما أدرت وجهي من حولي، رأيتهم. . . رأيتهم رأي العين. . . كاسفي البال، شاحبي الوجوه، وقد أخذوا ينفذون من جدران الحجرة الصماء، وكان الضعفاء منهم يثبون من النوافذ المفتحة. . . حتى لم يبقى معنا منهم أحد قط!
لقد كانت هذه لحظة من لحظات الإيمان التي انتشلت روحي من ظلمات الأبالسة. . .
لقد كانت من أسعد اللحظات في حياتي!
لقد كانت بارقة الأمل التي بدت لي في تلك الصحراء المهلكة من الشك الذي ران على قلبي وتغلغل في أعماقي!
وقد زادها روعة وجمالاً وعظمة ذلك الصوت الناعم الباغم المصقول الذي أرسله المؤذن يشق هدأة الفجر:
سبحان الكريم الحليم الفتاح. . .
سبحان من شق الفجر فلاح. . .
لقد أفاقت أعز الأمهات من سكرة الموت عندما طرق سمعها ذلك النداء الحبيب الذي لبته هذه السنين الطوال، فكانت تتجافى عن المضجع الدافئ في الشتاء. . . شتاء شمال الدلتا القارس. . . كما كانت تتجافى عنه في الصيف، لتجيب دعوة ربها الكريم الفتاح، فتتوضأ بالماء الذي يشبه الثلج، ثم تلتفع بتلك (الغطفة) البيضاء الناصعة التي تجعلها في هيئة الملائكة، ثم تكبر، ثم تأخذ في صلاتها الهادئة الساكنة المطمئنة؛ حتى إذا سلمت أخذت تدعو ربها لنا جميعاً بالخير، ولزوجها الراحل بالرحمة!
يا ويح لي يا صديقي! لقد كنت أنام معها في ذلك المصلى نفسه في سرير مقابل سنين عدداً. . . وكنت أستيقظ على صلاتها ودعائها. . . وكان ابتهالها يصك أذني صكا. . . لكني كنت مع ذلك لا أتحلحل من مضجعي، ولا أتأثر قط بتلك الصلوات وهذه

الدعوات. . . بل طالما كنت أستهزئ بهذا السلطان الديني العجيب الذي يقتلع تلك العجوز من مضجعها في مثل ذاك البرد، لتتوضأ ولتصلي وتناجي ربها. . .
ما كان أبدع صوت المؤذن وما كان أرقه!
لقد كان صوته العذب يجلو الصدأ عن روحي الآثمة. . . تالله لقد كان صوت (الشيخ البكري) رحمه الله، هو صوت الله، أليست أرواحنا من روحه تبارك وتعالى!
ورفت ابتسامة حزينة على الثغر المحتضر!
ثم استطالت تلك الابتسامة، وأروتها دموع الموت التي كانت تؤجج في أضالعي جمرات الحزن. . . وكنت في أثناء ذلك أتكلم بكلام لا أذكره. وربما كنت أهذي ثم أسندت رأسها على الحشية، واستأذنتها في أن أدعو إخوتي، فأشارت برأسها أن لا! ففهمت أنها لا ترى إزعاجهم بما يعتريها الآن من حشرجة. . . ومن يدري. . . فربما آثرت أن تصعد روحها في غير ضجة. . . ومن يدري؟ فربما آثرت أن تنتشلني بهذه الخلوة المقدسة والسكينة السابغة مما كانت تعلم أنني أتردى فيه من ضلال وزلل، وفساد في معتقدي وخطل!
أليست كانت تلح على أن أهتدي فكنت أسخر منها
ألم أحل بينها وبين الحج إلى بيت الله بحجة أنني أحق بنفقة هذا الحج، وهو كان أملها ومتمناها؟!
ألم تكن قد فرغت من شئون الحياة كلها إلا من شأني؟
وكان جحودي يتعاظمها ويشق عليها، فكانت تلجأ إلى فطرتها السليمة البسيطة . . . التي لم تتلفها الفلسفات في الرد علي، فتربكني بهذا السؤال البسيط الذي تتخبط الفلسفات كلها في الإجابة عنه: ومن أوجدك وأوجد هذا العالم؟ ومن يسهر عليك وعليه؟ ألم تفكر قط في نفسك؟ ما هذه الجارحة الصغيرة - وتشير إلى موضع قلبي - التي تخفق بالحب وتجيش بالأمل وتفيض بالخير، والتي تربط الأسر وتخفر الذمم وتسمو بالإنسانية وتبني الملاجئ وتنشئ المستشفيات وتطعم الجائع وتنجد المضطر وتغيث الملهوف وتحرك الأيدي بالعطاء وتذيب الدموع في المحاجر، وتبسم فتبسم الحياة، وتعبس فتعبس الدنيا، وتبصر فيبصر السلام، وتعمى فيعمى العالم وتعمه نيران الحروب؟
أليس بحسبك يا بني أن تكون تلك الجارحة برهاناً على وجود هذا الإله القادر الذي تنكره وتماري فيه؟
ثم أنا. . . ثم أبوك يرحمه الله. . . ألم تفكر في صيرورتنا بعد الموت قط؟ ألا يعز عليك أن نموت فنصير إلى عدم فلا نلتقي أبداً؟! أليس أخلق أن تؤمن بما تقوله لنا السماء؟ أليس
أن نلتقي هناك. . . هناك. . . في تلك الجنة التي عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين؟ أليس أحجى أن نلتقي ثمة بين يدي اللطيف الحميد. . . الجنة التي لا موت فيها لهذا الموت، ولا فقر ولا مرض ولا جوع ولا شره ولا بوائق؟. . . الجنة الوارفة الظلال التي تلتقي فيها الأرواح السعيدة بعد هذا السفر الممل والغياب الطويل والنوم الهامد الخامد. . . الجنة الجميلة الخالدة التي لا تذبل فيها زهرة، ولا يظمأ فيها عصفور، ولا يحسد فيها فقير، ولا يعيش فيها بائس، ولا يشقى في رحابها يتيم، ولا يكنز المال فيها قارون، ولا يطالب فيها شيلوك برطل من لحم المدين، ولا يقتل فيها عباد الأصنام أنبياءهم الصالحين!
إن الله يا بني هو المثل الأعلى فلا يصوره لك ضلالك هولة أو غولاً أو وحشاً أو سعلاة. . . إن الذين يخافون الرحمن كما تخاف الجن والسعالي، ويخشونه كما يخشى القتلة والسفاكون، هم غير جديرين بعبادته، غير خليقين أن يعرفوه، غير أحرياء أن يهتدوا بنوره
إن الخوف من الجن والسعالي لا يعلم فضيلة، ولا يحض على خير، أما الخوف من الله فيرفع الإنسانية إلى مثله الأعلى. . . إلى الكمال الذي لا يعرف الغرائز الدنيا
احذر يا بني أن تحسب عقلك أوسع من الدنيا أو أكبر من الله! إن الجديد الذي يكتشفه بنو الدنيا من أسرارها كل يوم حريٌ أن يقتلع من نفسك الغرور، ومن روحك الكفر، ومن قلبك الضلالة
آمن بالله يا بني ولا تكن لي خزياً بين يديه يوم القيامة!

هكذا كانت تجادلني أعز الأمهات يا صديقي، وهكذا كانت تنصح لي. . . فلما رأيت الأبالسة تولي وتغور في الجدران والنوافذ، ولما رأيت الحجرة المباركة تخلو إلا مني ومن الأم المحتضرة، خيل لي أن كل نصائحها تتردد في مسمعي، وخيل لي أنني أراها ألف ألف مرة وهي قائمة تصلي في هدأة الفجر، وعليها (غطفتها) الناصعة، وخيل لي أنني أسمعها وهي تدعو الله لي ولأخوتي، ولزوجها الراحل

ثم سكت المؤذن الجليل لحظة، ثم نادى:

. . .الله أكبر. . . الله أكبر

فوالله يا أخي لقد سمعت قلبي الذي أخذته رجفة هائلة يردد ما أذن به الشيخ بكري عليه رحمة الله

والله يا أخي لقد تلفت حولي فتخيلت الملاك الكريم في أجمل صورة يستطيع أن يتخيلها فنان وهو باسط يديه، وقد رفت على فمه ابتسامة الإيمان التي سلحه بها ربه. . . الملاك الكريم النوراني الذي كنت أحسبه تنيناً هائلاً مفزعاً. . .

وانحنيت أقبل الجبين الذي ظل يقبل الأرض بين يدي الله خمسين عاماً، ولما رفعت رأسي، إذا نور له بهر شديد يملأ الحجرة المقدسة، وإذا يد كريمة تلمس صفحة فؤادي. وإذا المؤذن الجليل يملأ الدنيا بهذا النداء الرائع، يختم به أذانه . .

. . .الله أكبر. . . الله أكبر

فهلا آمنت؟! قلت: آمنت بنور السموات والأرض.

دريني خشبة

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

بين القاهرة وبغداد - في رياض الزمالك - سهرة روحية - لمحة وجدانية - طبائع الأرض المصرية والعراقية - بين سنترتس ولبنان - أشجاع وأغاريد - منظر طريف - ماذا دها القمر - فائدة لغوية وتاريخية - مروءة مصرية

بين القاهرة وبغداد

سنحت فرصة ثمينة، وما كنت أنتظر أن تسنح، فقد ألفنا بخل الأيام وشح الليالي، ورضنا النفس على اليأس من كرم الزمان

وتلك الفرصة هي لقاء الأستاذ طه الراوي في القاهرة بعد فراق طال ثم طال، وبعد شوق لا يصوره القلم ولو جال وصال

قال الأستاذ الراوي عند التلاقي: ماذا أصنع معك؟ وكيف أجازيك؟ أنت تعلن شوقك إلى إخوانك في مجلة الرسالة فيصل صوتك إلى الشرق والغرب، وأنا أضمر شوقي فلا يصل إليك منه قبس، ولو أني عبرت عما في نفسي لقلت إني لم أجد أحداً غيرك يفوقني في الوفاء

كذلك كان الحديث عند لقاء الأستاذ طه الراوي صديق مصر الحميم، والرجل الذي لا ينساه من يراه، ولو طال البعاد

تلاقينا وتسامرنا، وقال وقلت: أين الأستاذ الزيات ليتم أنس الحديث؟ فقد سأل الأستاذ الراوي مرات عن الأستاذ الزيات، وكان يشتهي أن يراه ليتحدث معه في شؤون من شواجر الأدب القديم والجديد، ورجاني أن أبلغه التحية إن لم يستطع رؤيته قبل الرجوع إلى بغداد.

في رياض الزمالك

عرفت من المفوضية العراقية أن الأستاذ الراوي يقيم بفندق الكنتننتال، فطلبته بالهتاف، فرد صوت محبوب هو صوت السيد خالد الشوربجي، فعجبت من هذه المصادفة الغريبة، وسألته عن الأستاذ الراوي فقال: تجده بكلية البنات في الزمالك، ثم قال: وين الأستاذ

الزيات؟ فقلت: تجده في كلية الزراعة على شاطئ بحر شبين!

مضيت في العصرية إلى الزمالك فكيف رأيت الزمالك؟

إني لمفتون بتلك البقعة التي يطوقها النيل من أربع جوانب، إني لمفتون بما فيها من قصور وبساتين، وإنها لروضه من أنظر الرياض

أين الشاعر الذي يصور جمال الزمالك؟

وأين الروح الذي يدرك معاني تلك الجزيرة الخضراء؟

لن ينقضي فتوني بتلك الروضة المهندمة بأروع وأظرف ما تجود به الفنون، فالزمالك ترى وكأنها صبت مرة واحدة في لحظة من لحظات الصفاء
لا تجد بيتاً يبني ولا بيتاً يهدم، ولا ترى إلا سبيكة مقدودة من ضمير الحسن الأصيل
هذه كلية البنات بشارع محمد أنيس، وهذا بابها العالي، فما أسعد بلداً يكون لبناته حظ التعلم في مثل هذا المكان البهيج!
وأخطو خطوة فأجد الأستاذ الراوي في انتظاري، وأجد معه الأستاذ عبد الجبار الجلبي، وأجد وجوهاً عراقية في سمرة النيل عند الوفاء
وأقول بعد التحية: جئت أدعوكم لزيارة سنتريس، فما يجوز لمن يزور مصر أن يغفل زيارة سنتريس
فيقول السيد عبد الجبار الجلبي وهو يبتسم: إن مثل من يزور مصر ولا يزور سنتريس مثل من حج ولم يعتمر، وقد يكون حاله حال من اعتمر ولم يحج، فلا بد من زيارة سنتريس
سهرة روحية
وبعد لحظات يتفرق الجمع، لأن لجمهور الحاضرين مآرب من رؤية القاهرة بالليل، وأنظر فأرى الأستاذ طه الراوي سيبقى بلا رفيق، فأقرر البقاء لمسامرته إلى أن يعود الرفاق
قلت: أيسمح سعادة الأستاذ أن يخرج فنرتاض على ضفاف النيل؟
فقال: أنت النيل، ثم أنشد قول المتنبي:
مِن عَبيدي إن عشت لي ألف كافو ... ر ولي من نداكَ ريفٌ ونيلُ
وانطلق فقص قصة المتنبي بعد أن رحل عن مصر، قصها بصورة خلابة كأنه كان رفيق المتنبي حين فارق مصر في ليلة عيد
وخلاصة القصة أن المتنبي كان يعلق آماله على (فاتك) وكان فاتك يريد السيطرة على الصعيد، فبث كافور ألوف العيون ليعرف من أحواله كل شيء، وكان المتنبي يعرف هذه الحقيقة، فكان يخرج بحجة الحرص على ترويض حصانه ليلقي فاتكاً في مكان مجهول، ثم هلك فاتك فلم يبق للمتنبي غير الرحيل، ولكن إلى أين؟
رحل إلى الكوفة، وهي وطنه، ولعله كان فيها من الفقراء، فأرسل إليه سيف الدولة هدية يستعين بها على العيش، فرد المتنبي بقصيدة منها هذا البيت:
مِن عَبيدي إن عشت لي ألف كافو - ر ولي من نداك ريفُ ونيلُ
ومضى الحديث في شجون مصرية وعراقية، فكان من ذلك دليل جديد على الثقة الموصولة بيني وبين هذا الرجل النبيل
- احكي، احكي
وماذا أحكي؟
أنا تعبت من الحكي، فاحكي أنت
- ميعاد الحكي في سنتريس
وخرجت أبحث عن سيارة بعد انتصاف الليل وأنا في نشوة روحية قليلة الأمثال رياض الزمالك وأحاديث الراوي في ليلة واحدة؟ تبارك من جعل هذه الحظوظ من نصيبي في أوقات قل فيها الظفر بأطايب الحياة.
لمحة وجدانية
وقفنا على جسر الرياح المنوفي بالقناطر الخيرية لحظات، فقلت للأستاذ الراوي: ما رأيك في أن ننزل فنقطع هذا النهر سابحين إلى أن نلقي الأستاذ الزيات؟
- إيش لون؟
- هذا النهر يسمى هنا بالرياح المنوفي، وبعد قنطرة النعناعية يسمى بحر سنتريس، وبعد قنطرة القرينين يسمى بحر شبين، ومنه تستقي مزارع الأستاذ الزيات
- أنتم تسقون من نهر واحد؟ الآن عرفت السر فيما بينكم من وفاق
- وهناك وشيجة ثانية
- ما هي؟
- هي ما يوجب العقل من تلطف الشركاء بعضهم مع بعض، فأنا أستطيع سد هذا النهر بنبابيت سنتريس
- ولا تخاف الحكومة؟

- الحكومة تركت هذا النهر في حراستنا، فنحن نملك من أمره كل شيء
- أنتم إذاً على استعداد لإساءة التصرف
ومع هذا لم نسيء التصرف، رعاية لمعنى واحد، هو البر بالصديق، ولو كان الزيات عدواً لعاملناه معاملة الأعداء، هذا مع العلم بأن الزيات صديق مضمون
- ما معنى هذه الكلمة الأخيرة؟
- إن لها معنى ومعاني، فالصديق المضمون هو الصديق الذي لا يخشى تغيره بأي حال، وإذن يجوز التحيف عليه باطمئنان، فيكون البر به غاية في الوفاء
- هذا معنى طريف، ولكنه يحتاج إلى بيان
- بيان ذلك أن من الأصدقاء من ينهاه قلبه وروحه عن مجازاة أصدقائه غدراً بغدر، وإيذاء بإيذاء. والصديق الذي يكون في مثل هذه الروحانية يلقى من أصدقائه متاعب ومضجرات؛ فالوفاء بعهده يعد أعجوبة في الحياة الأخلاقية، وأنا أطمع في الظفر بأكبر نصيب من مكارم الأخلاق
- نحن نسمع في مصر كلاماً جديداً
- ولكنه أقل من كلام العراق
- يعجبني تعصبك لأصدقائك، يا دكتور مبارك
- ولمن أتعصب إذا لم أتعصب لأصدقائي؟ لم يبق من الكرم غير حفظ العهد، وكل ما أخشاه أن يكون حظي من هذا المعنى أقل مما أريد. إن الهجوم على العدو لا يحتاج إلى عناء، لأنه ينبعث عن ثورة تعين على القتال، أما ملاطفة الصديق فتصدر عن عواطف رفيقة لا تساعد على الاستبسال
لو بذلنا في ملاطفة أصدقائنا معشار ما نبذل في محاربة أعدائنا لرضى الله عنا واصطفانا لأشرف الأعمال الأدب الحق هو أدبك في معاملة من لا تخاف أن يثور عليك
- وهذا أيضاً كلام جديد
- وهو أيضاً من وحي العراق
- طيب الله أنفاسك، يا دكتور مبارك!

طبائع الأرض المصرية والعراقية

في حديقة الدار في سنتريس بدت الطلمبة أمراً عجبا، فقد دهش الضيوف العراقيون من أن نستقي الماء بلا بئر، فقلت إن هذا يتيسر في العراق لو أردتموه. فقال الأستاذ طه الراوي: إن البئر في العراق تكون مياهه غاية في المرارة إن بعد عن الشط، لأن أرض العراق كثيرة الأملاح
عند ذلك تذكرت عبارة المسيو دي كومنين حين رأى الطلمبة في سنتريس، فقد قال إن هذا يمتنع في الأرض الفرنسية، وإن لم يذكر الأسباب
وعند ذلك فهمت كيف كانت بغداد مملوءة بالأنهار، وهي القنوات التي كانت تنقل الماء إلى المحلات المختلفة بدار السلام، فكل مجرى ماء اسمه نهر عند أهل العراق، ولو كان قناة لا يحتاج عبورها إلى أيسر مجهود، ومن هنا جاز أن نرى في كتب التاريخ أن البصرة كان فيها مئات أو ألوف من الأنهار الجاريات
لو سمعت كلام الأستاذ الراوي قبل أن أكتب مقالي عن (عروس النيل) لكان من الممكن أن أضيف إليه توضيحات، فليكن ما هنا تكميلاً لما هناك

بين سنتريس ولبنان

قال الأستاذ الراوي: للنسائم هنا مذاق لا نجد مثله في لبنان، فما الذي يمنع من أن تجعلوا بلدكم من بلاد الاصطياف؟
قلت: إن هواء سنتريس أتعب أهل سنتريس
- وكيف؟
- لأنه جعلها مراداً لأصحاب الأذواق، فهي الملتقى لأكثر سكان المنوفية، ومن أجل هذا عم فيها الغلاء

أسجاع وأغاريد

وعند تناول العشاء سمعنا طيوراً تسجع وتغرد بأنغام لا يسمع مثلها أهل العراق، فقال الأستاذ عبد الجبار الجلبي: ما هذه الطيور؟ فقال السيد عبد المجيد مبارك: هذه جماعة الكروان تصدح عند قدوم الليل
وتردد الأستاذ الجلبي في تصديق ما يسمع؛ فقال له الأستاذ الراوي: هذه بلابل تصدح

بأنغام أهل سنتريس!
منظر طريف
حين مررنا بحدائق القناطر الخيرية نبهت رفاقي إلى غابة أبي قردان، وقلت إنه طائر يصادق الفلاح، فيرافقه في الحرث والسقي، ليلتهم ما في الأرض من ديدان، ولهذا يحرم صيده بأمر وزارة الزراعة المصرية
قال الأستاذ الراوي: هذا اسم عربي، فالقراد يجمع على قردان كما يجمع الغلام على غلمان، ولعل هذا الطائر سمي بذلك لأنه يطهر الأرض من الحشرات
قلت: ومن العجيب أن يكون ملتقى هذه الطيور البيض في شجرة كريمة بأحد المنازل في سنتريس، وكأنها تقول:
من علمّ الورقاء أن محلكم ... حَرَمٌ وأنك موئلٌ للخائفِ
ماذا دها القمر؟
كانت طلعة القمر طلعة بهية، وكان لألاوه فوق بحر سنتريس غاية في البهاء، فماذا دهاه قبل أن نقترب من قليوب؟
قال السيد هاشم: القمر مخنوق
فوقفنا جميعاً وتطلعنا إلى وجه القمر فرأيناه في حال تشمت العذال!
حتى القمر تنال منه صروف الليالي؟!
وتسمع السيد عبد الجبار ما يقول أهل قيلوب ليوازن بين أقوالهم وأقوال أهل بغداد. . وتذكرت العبارة المصرية فقلت: (يا بنات الحور، سيبوا قمرنا ينور)
فقال: إن عبارة أهل بغداد (يا حوته يا منحوته، طلعي قمرنا العالي)
وأذن تكون بنات الحور هي التي تخنق القمر في مصر، وتكون الحوته المنحوته هي التي
تخنقه في العراق
قلت: القمر عندنا معشوق تحجزه الحوريات، وهو عندكم مأسور بأيدي الحوتات المنحوتات، عليهن اللعنات!
فقال السيد عبد الجبار: لقد راعني هدوء الطبيعة المصرية، ففي كل ماء تنق فيه الضفادع بقعقعة مزعجة، إلا ماء النيل
واستطرد الأستاذ الراوي فقال: أراد صوفي أن ينظر معشوقته من ثقب الباب فرآها عارية، ولكنه أنزعج حين رأى ضفائرها تحجب عنه جسدها الوهاج، فصرخ:
يا حوته يا منحوته طلعي قمرنا العالي
قلت: وما شئن الصوفي بالأجساد العارية؟
فأجاب: هل نسيت ما قررته في كتاب التصوف الإسلامي؟ ألم تقل أن الحب الحسي قنطرة إلى الحب الروحي؟ ألم تقل أن الصوفية تبنوا أشعار الماجنين فحولوها إلى خطرات وجدانية؟
فائدة لغوية
قال سعادة الأستاذ الراوي وقد شربنا القازوزة: إن العرب عرفوا القازوزة، فقلت القازوزة التي نشربها كلمة فرنسية أصلها هي في العربية؟ فقال: وردة في قول أحد الشعراء:
أفَني تلادي وما جّمعتُ من نَشَبِ ... قرعُ القوازيز أفواهُ الأباريق
فقلت: هي القوارير بالراء في المطبوعات المصرية، وهي أفصح لأنها كلمة قرآنية.
وبعد لحظة قال الأستاذ: المفرد قاقوزة، فقلت: إذن يكون الجمع قواقيز
وبعد العودة راجعت القاموس فوجدت قاقوزة وقازوزة بمعنى واحد وهو المشربة أو القدح أو الصغير من القوارير، وعلى ذلك يمكن أن يكون البيت روي روايتين
وفائدة تاريخية
قال الأستاذ الراوي: سمعت اليوم تعليلاً أعجبني في تسمية شارع الموسكي، فقد حدثني أحد الأفاضل أنه جاء من الكلمة الفرنسية كلمة عربية الأصل معناها المسجد، وسمي الشارع بذلك لأنه يوصل إلى المسجد الكبير وهو الجامع الأزهر
فقلت: الموسكي بفتح السين نسبة إلى موسك أحد أمراء مصر في الأيام الخوالي، وسكنت السين للتخفيف
فضحك الأستاذ الراوي وقال: إذن كان ذلك المحدث من (الأفاضل) بالقول لا بالفعل

مروءة مصرية
رجعنا إلى القاهرة والقمر مخنوق، والظلام يطمس المعالم بميدان باب الحديد، ولا بد من سيارة تنقل الضيوف إلى الزمالك
تاكسي، تاكسي، تاكسي -
هتفنا بهذه اللفظة أكثر من خمسين مرة، فما سمع سامع ولا أجاب مجيب
ونظرت فرأيت فتى يخترق الظلام ليستوقف سيارة فظننته خادماً يبحث لسيده عن واسطة، أداة النقل في لغة العراق، ثم ظهر أنه بائع متجول أراد أن يريحنا من هذا العناء
هل قدمنا لهذا البائع قرشاً أو نصف قرش؟
الجواب عند السيد عبد الجبار الجلبي فقد كان في الزاوية الثانية، ولعله نفحه بشيء، وإلا فأنا حاضر لمكافأته على ذلك الصنيع الجميل.
زكي مبارك
الأعراب
نحن الذين بلغوا الرسالة
لأستاذ جليل
إلى الأستاذ صاحب مجلة (آخر ساعة)
يا أخا العرب
لكاتبين محررين في مجلتك ولكتاب في مصر وغير مصر أن ينقذوا (الأعراب)، وأن ينعوا عليهم عيوباً فيهم بل أن يبالغوا في شتمهم أو هجوهم إذا اقتضت حال سبا
إن لهم أن يقولوا: (أإسلامية وجاهلية) حين يروننا مستمسكين بعادات خبيثة بدوية، وأقضية منكرة عرفية تظاهر (الظهير البربري. . .)
وإن لهم أن يقولوا: (أمصرية وعداوة للجندية) حين نسأل أولي الأمر أن نميز، أن نستثني من سائر الأمة في الأمر العمم كأننا ضمني أو زمني يلتمسون التزمين
وإن لهم أن يقولوا: متى تتحضرون أيها الأعراب، وقد تبدلت الدنيا، وتدخلون في دين الناس، وتسكنون بيت الحجر وتتركون بيت الشعر
إن لهم أن يقولوا الحق في كل وقت، وللحق يعنو الصغير ويعنو الكبير
ومن أقوالنا قِدْما: (اشتمني واصدق أيها الشاتم)، ولكن هل يجوز لكاتب عندك اسمه (إحسان) أن يقول في مقالته (حوادث وخواطر) - في الجزء (460) ص (10) في 25 يوليو (1943): (كل هذه المدنية التي شيدناها لم تعجب الزائر الكريم وإنما أعجبه الأهرام وأبو الهول، أعجبته قطعة من الصحراء أقيمت عليها أصنام وقفت حولها حمير وإبل وأعراب. . .)
إن هذا لشيء إد، إن هذا الأمر نكر لم تقتضه حال، ولا دعا إليه داع. فما الذي دفع الكاتب إلى هذه المقولة، وما كان ضره لو ترك (الأعراب) وخطبهم ولم يقرنهم وما سماها في قرن
يا أخا العرب
أنت تدري وكل الناس يدرون أن أجدادنا كانوا البعوث (الجيوش) التي قادها صاحب رسول الله أبو عبد الله (عمرو ابن العاص) العربي المصري (رضوان الله عليه) يوم بادر إلى مصر كيما يحررها ويهديها
قائد آبائنا عمرو ابن العاص هو سيدي، وهو سيد كل مصري يقول: (لا إله الله محمد رسول الله) وهو سيد كل مصري ينطق بالعربية
من حرر مصر؟ من هدى مصر؟
عمرو بن العاص صاحب محمد، خادم دين محمد
يا أخا العرب
إن الأعراب (حيا الله ربعك) إذا تحضروا وتعلموا وتثقفوا جاءت منهم ملائكة. ومن الأعراب في هذا العصر في هذا الوقت في مصر وفي العراق والشام والجزيرة وبلاد المغرب (تونس والجزائر والمغرب الأقصى) دكاترة في العلوم والفنون، وأساتذة كبار، وزعماء عظماء، ومرشحون للزعامة. . . من الطراز الأول
أدع الانتخاء والعنجهية الأعرابية وأقول العلماء والأدباء قديماً وحديثاً فينا، ووصية سيدنا عمر (رضوان الله عليه) بنا ووصفه إيانا. وأدع أبيات المتنبي في البائية، وأبيات المعري

في الرائية في تقريظنا لشهرتها. وأختم هذه الأسطر بكلام الله، وأبيات لأبي إسحق إبراهيم بن عثمان الفزي (رحمه الله) حتى تكون قولاً بقول، والبادئ أظلم، وقضاء الله في أمر الاعتداء هو القضاء: (. . . فمن اعتدى عليكم الآية) ولئن أساء (إحسان) - غير ناو أن يسيء - لقد أحسن (ابن عثمان)

قال الله:

(ومنَ الأعراب من يؤمنُ بالله واليوم الآخر، ويتّخذُ ما يُنفقُ قُرُباتٍ عند الله وصَلوات الرسول. ألا إنها قُربةٌ لهم، سيدخلُهم اللهُ في رحمته؛ إن اللهَ غفورٌ رحيم)

قال الشاعر:

يا ربعُ، فيك المها والأسد أحبابُ ... فقل لنا: أكناسٌ أنت أم غابُ؟
بين الكثيبين حيّ لَغوُهم أدبٌ ... محضٌ، وإيجازهم في القول إسهاب
خطّوا وأقلامهم خَطْية سُلُبٌ ... فهم عَلى الخيل أميّون كتّاب
أهل الإصابة إن قالوا، وإن سمعوا ... وللسماع كما للقول إعراب
غيرَ الهبيدِ وبَرْضِ البيد ما عرفوا ... والعز يعذب في أكوابه الصاب

صدق الله، ولم يكذب الشاعر. . .

ناقد

المشكلات

اللغة العربية - 3

للأستاذ محمد عرفة

لماذا أخفقنا في تعليمها؟ - كيف نعلمها؟

يتوقع القراء أنني سآتيهم في مشكلة اللغة العربية بحلول مطولة وآراء معقدة، تثقل على العامة ولا يستسيغها إلا الخاصة

وإنني سآتيهم بالجديد الذي لم يقرع أسماعهم، ولم يخطر لهم ببال

وأني أقول للقراء أن ما سأعرضه عليهم قسمان، الأول نقد الطريقة التي تسلكها المدارس في تعليم اللغة، والثاني نقد علوم اللغة من نحو وصرف وبلاغة، وإبطال الباطل من قواعدها، وإحلال الحق محله

فأما نقد أسلوب تعليم اللغة فإني أحب أن أطمئن القراء من جهته، فإن الحلول التي جئت بها سهلة لا غموض فيها، بسيطة لا تركيب فيها؛ وهكذا شأن الحقيقة تمتاز بالسهولة والبساطة، وقد أخذتها من العامة وأشباه العامة، أخذتها من الحائك إذ يعلم الحياكة، والحداد إذ يعلم الحدادة، والنجار إذ يعلم النجارة

وليس فيما جئت به في هذا الموضوع جدة، وإنما هو قول معاد مكرور، قاله علماء الشرق قديماً وعلماء الغرب حديثاً، حتى أنني ترددت في عرضة على الناس، ولكن يشفع لي في عرضة أن قومي لم يعلموا به كأنهم لا يعرفونه، فقلت لعلهم يحتاجون إلى الإقناع به، وإقامة الدليل عليه، وإدارة الكلام على البرهان والإقناع، ليوافق طبقات الناس، وكذلك فعلت

وأما نقد القواعد وبيان الباطل منها، وإحلال خير منها محلها. فهي مسائل فنية يصعب فهمها إلا على الدارسين، وهي جديدة قد نشأت عن الدرس الطويل، والتأمل والتنقيب في هذه العلوم، وفيها لذة ومتعة، فسيرى فيها القراء مصاولة العقول ومقارعة الآراء، وسيرون علوما كانت تحاط بهالة من التقديس تنهار وتهدم، وعلوما أخرى حلت محلها وأخذت مكانها، فبدت أعلى منها وأسمق، وما نهدم ما نهدم إلا عن بينة وحجة، وما نبني ما نبني إلا عن بينة وحجة. فما عدله الدليل فهو العدل الثقة، وما جرحه الدليل فهو المجرح

المدخول

فان كان ما جئت به حقاً فللقراء خيره وبركته، ولي ما كابدته من النصب والهم، وإن كان باطلاً فعلي تبعته وعاره، وخلاهم ذم

ربما لم تعن أمة في العالم بلغة ما كما عنيت الأمم الإسلامية باللغة العربية، وقد عظمت هذه العناية واتصلت وتلاحقت مدة ثلاثة عشر قرنا، فتوافر العلماء عليها في القديم يدرسونها من نواحيها المختلفة، درسوا مفرداتها وعرفوا التغيرات التي تلحق المفرد، والأوزان التي يكون عليها، وكيف تتصرف الكلمة في الماضي والمضارع والأمر واسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة الخ.، وعرفوا قواعد ذلك وسموه علم

الصرف، وعرفوا ما تدل عليه كل كلمة من معان، والشواهد التي يستشهد بها على هذه المعاني، ودونوا ذلك وسموه علم متن اللغة، ودرسوا نظمها وتراكيبها المختلفة، وما يفيده كل نظم وتركيب، ووضعوا قوانينه وسموه علم النحو. ودرسوا فضيلة الكلام، ووضعوا القواعد التي يحسن بها الكلام وسموها علم البلاغة. ودرسوا ما في لغة العرب من شعر ونثر وبينوا معانيه. ودرسوا أوزان الشعر وأعاريضه وقوافيه. وهلم جرا وضعوا كل ذلك في قوانين، ووضعوا هذه القوانين في كتب قد سطرت، وصحف قد نشرت، وكان كل جيل من الأجيال يزيد وينقص، ويغير ويبدل على حسب ما يتراءى له، ويضع الكتب الجمة والأسفار المختلفة، وكانوا يعكفون عليها يتدارسونها يعلمها كبيرهم صغيرهم، وعالمهم جاهلهم، وقد ورثنا نحن هذه العناية فدرسناها في جميع معاهد التعليم، فهي تدرس في وزارة المعارف، في الأقسام الابتدائية والثانوية وفي التعليم الأولي، وهي تدرس في المعاهد الدينية والأزهر في الأقسام الابتدائية والثانوية، وهي تدرس في كلية اللغة العربية من كليات الأزهر، وفي كليتي الآداب من جامعتي فؤاد وفاروق، وهي تدرس في دار العلوم ومدارس المعلمين والمعلمات، ونصيبها من الحصص في هذه المعاهد نصيب الأسد

عكفت مدارسنا على هذه القواعد التي استنبطها العلماء المتقدمون في النحو والصرف والبلاغة والعروض والقافية تدرسها وتضبط شوارد العربية على المتعلمين وكانت تقسم القواعد على سني الدراسة قسمة تراعي فيها الحكمة، فهي قليلة موجزة في

الأقسام الابتدائية، وكثيرة مطولة بعض الشيء في الأقسام الثانوية، وهي مطولة كل التطويل ومستوعبة كل الاستيعاب في المدارس العالية

إني لأعجب كيف تخفق مدارسنا وتخفق الأجيال قبلنا في تعليم هذه اللغة مع هذه العناية وهذا الجهد

أينجح الحائك في تعليم الحياكة؟ والبناء في تعليم البناء، والنجار في تعليم النجارة، وكل ذي صنعة في الدنيا في تعليم صنعته، ويخيب رجل العلم والتربية في تعليم اللغة العربية؟

أينجح تلاميذ الصناع جميعاً إلا قليلاً، ويخيب تلاميذ رجال العلم إلا قليلاً مع أن الأولين يبذلون أقل جهد ومشقه في تعليم الصناع ولا يعللون المسائل ولا يفلسفونها، ولا يعملون شيئاً إلا أن يأخذوا المتعلمين بأعمال كثيرة من صنعتهم ويمرنوهم ويكرروا ذلك، فإذا هم قد حذقوا الصنعة وأجادوها، ومع أن الآخرين يبذلون كل جهد ومشقة، ويذكرون علل العربية ويفلسفونها، ويطلعون تلاميذهم على دقائقها وخفاياها لعل مازحاً يمزح ويقول أن سر هذا الإخفاق في هذه العناية، وسر هذا النجاح في هذا الإهمال

وسنأخذ هذا المزاح جداً، ونرى أنه يشير إلى الطريق ونضع أن سر نجاح أولئك في طريقتهم وسر خيبة هؤلاء في طريقتهم

سر نجاح أولئك في المرانة والتكرار حتى يكسبوا الصنعة، وسر خيبة هؤلاء في الاعتماد على القواعد وترك الحفظ والمرانة والتكرار

ولو أخذ كل بطريقة الآخر لخاب الناجح، ونجح الخائب

لو علم الحائك تلميذه بطريق القواعد فحسب، وظل طول عمره يقول له شد الخيط طولاً واسلك فيها الخيوط عرضاً ليتكون منها سدى ولحمة ولم يأخذه بأعمال الحياكة الكثيرة وتكرارها والمرانة عليها، لخاب في التعليم ولم يكسبه الحياكة، ولو أخذ عالم العربية بطريق المرانة والتكرار والحفظ، فحفظ تلاميذه أساليب العربية البليغة، ومثلها الرائعة مما يعتاد في الخطاب، وأخذهم بالنسج على منوالها في الحديث والكتابة والخطابة لنجح في تعليمه

ولا عجب أن يكون هذا الصانع العامي أقرب إلى الحقيقة من هذا العالم المربي، لأن هذا

العامي يرجع إلى الواقع ويستملي منه وهذا العالم قد أغفل الواقع وقلد ما كان عليه الآباء والأجداد

هذا العامي يعلم أن قواعد الصنعة لا تعطي الصنعة، ولا يعطيها إلا تمرين المتعلم، وأخذه بنماذج كثيرة، وتكرير ذلك حتى يتقنها

وهذا العالم أغفل هذه الحقيقة وظن أن قواعد اللغة تكسب اللغة وأن قواعد البلاغة تكسب البلاغة فأخذ يبدأ فيها ويعيد، ويكرر ويكثر من التكرار، فأكسبهم ملكة في قواعد اللغة، ولم يكسبهم ملكة اللغة
سيهول هذا أقواماً ويرونه سخفاً من القول. وقياساً مع الفارق، ويقولون: إنك لم تعمل شيئاً سوى أن قست قياساً فقلت تعليم وتعليم، ولغة وصنعة، وكما أن الصنعة لا تكسب بالقواعد إنما تكسب بالعمل والتكرار كذلك لا تكسب اللغة العربية بالقواعد فحسب إنما تكسب بالعمل والتكرار والحفظ، والقياس لا يفيد اليقين، فطرق العلم مختلفة، فهذا يعلم من طريق، وذاك يعلم من طريق آخر، فالروائح تعلم بالشم، والطعوم تدرك بالذوق، والألوان تدرك بالبصر، فكما لا يصح أن يقال: إن الأحمر قد كان طريق العلم به البصر فيجب أن يكون الحامض طريق العلم به البصر كذلك لا يصح القياس الذي ذكرته، فلعل هناك فارقاً بين الصنعة واللغة يجعل أحكامهما مختلفة، فتكون الصنعة تكسب بالتكرار، وتكون اللغة تكسب بالقواعد، فالقياس لا يجدينا ولا ينفعنا، فلا بد أن تأتي بالبرهان لنصدق به، ولا نجد عنه معدي
وإني أعد القراء أن أجيء بالبرهان على أن اللغة كسائر الصنعات لا تكتسب بالقواعد، إنما تكسب بالحفظ والتكرار، وأن أدير الحديث على طرق إقناعية شتى حتى أفوز بإقناع أولي الأمر فنحل مشكلة من مشكلاتنا العديدة، لنفرغ لمشكلات أخرى.
محمد عرفة
طرائف:
عن الكتب والكتاب
للأستاذ محمد عبد الغني حسن
نسخ الكتب. تصحيح الكتب. سرقة الكتب. النار والمكتبات
موضوع المكتبة العربية - عامة أو خاصة - هو موضوع طريف سنعرض له بالتفصيل في العدد القادم من (الرسالة)
أما موضوع اليوم فهو توطئة للموضوع الذي اعتزمنا الكتابة فيه للأعداد المقبلة
ومن لوازم الكتب وجود عدد من (الناسخين) ومهمتهم أن ينسخوا من الكتاب الواحد نسخة أو أكثر على حسب رغبة المؤلف أو وفق مقتضيات الأمور
وأول ما عرف من هؤلاء الناسخين في الأدب العربي الجماعة الذين كتبوا المصاحف الأربعة بأمر الخليفة الثالث عثمان بن عفان؛ وهم زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث
أما كتاب الوحي فلم يكونوا نساخاً، بل كان الرسول يملي عليهم الآيات حين نزولها، وشرط النسخ أن يكون عن كتاب أو صحيفة مكتوبة
وليس النساخون مقصورين على الكتاب العربي وحده أو المكتبة العربية وحدها، فهناك نساخون في الكتب الأوربية وكان يطلق على هؤلاء النساخ كلمة الرهبان، لأن الرهبان والقسوس كانوا مختصين في العصور الوسطى بنسخ الكتب
وبهذه المناسبة كان عند النساخين من الرهبان قانون وضعه (تربتم) رئيس الكهنة في عصره يقول فيه: (يجب أن يقطع أحدكم الرق قطعاً، وآخر يصقلها، وآخر يسطرها، وآخر يبري الأقلام يملأ المحابر، وآخر يقرأ ويصحح كتابة الناسخ، وآخر يزخرف الكتابة بالمداد الأحمر وينقط الحروف، وآخر ينقشها، وآخر يلصق الورق ويحبك الكتب على ألواح من الخشب)
فأنت ترى من ذلك كله أن عملية نسخ الكتاب كانت عملاً منظماً توضع له القوانين وتقعد القواعد. وخاصة عند جامعي الكتب من أمراء أوربا في العصور الوسطى
ولهؤلاء النساخين - عرباً كانوا أو فرنجة - طرائف في النسخ. ولكنهم على كل حال كانوا آفة في الكتابة العربية. ونظرة واحدة في الشعر الوارد في كتاب (فوات الوفيات) لابن شاكر الكتبي تؤيد هذا الكلام، فهو شعر مختل مكسور مسخه الناسخ. وجاء الطابع الحديث فأبقاه - لسقم ذوقه - على اختلاله وكسره. وجاء الدكتور العالم أحمد عيسى بك فنقله في كتابه الجديد (معجم الأطباء) مختالاً مكسوراً. وليس ذلك من سبيل بحثنا اليوم، ولكننا سنفرد لتصحيح هذا المعجم الجليل مقالاً طويلاً في (الرسالة)
ومن عجب أن الكتب المنسوخة لم يقم لها مصححون يعنون بمراجعة أخطاء النسخ

وضبط الكتاب وتحقيقه؛ أما الكتب المطبوعة فقد قام عليها مصححون منذ عرف الكتاب العربي الطبعة العربية في مطلع القرن التاسع عشر؛ وعند صديقنا العالم الرواية الأستاذ محمود حسن زناتي أنباء كثيرة وطرائف عن هؤلاء المصححين؛ ولعله يتحف الأدباء قريباً بمقالاته في هذا الموضوع. وأشهر هؤلاء المصححين التماعاً في سماء الأدب الشيخ نصر الهوريني المتوفي سنة 1874م، كان هذا الشيخ عضواً في بعثة أرسلتها الحكومة المصرية إلى فرنسا؛ فلبث هناك مدة ثم عاد رئيساً للتصحيح بالمطبعة الأميرية؛ وله تعليقات لطيفة على هامش القاموس المحيط للفيروزبادي؛ كما أنه له كثيراً من المؤلفات أشهرها (المطالع النصرية للمطابع المصرية)

ومن المصححين المشهورين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الشيخ أحمد الميهي بن حسن عبد الصمد؛ وكان موظفاً بالمطبعة الوهبية التي أنشأها الفاضل مصطفى وهبي. وللشيخ الميهي فضل تصحيح كتاب (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) لابن أبي أصيبعة؛ وهو من المطبوعات النادرة الآن. وقد تم طبعه في سنة 1882م؛ ولم يطبع بعد تلك الطبعة إلى اليوم

ولم يكن عمل المصححين القيام على تصحيح الكتب المطبوعة فحسب؛ بل قام بعضهم بتنظيم الفهارس المختلفة للكتاب المطبوع كما صنع الشيخ البهي في كتاب طبقات الأطباء المذكور. فقد صنع فهرساً وافياً للأعلام، وآخر للبلاد والمواضع والأماكن والمياه والأنهار. وبلغت صفحات هذين الفهرسين وحدهما (121 صفحة)

وليس عمل الفهارس للكتب المطبوعة القديمة أو الحديثة عملاً هيناً يسيراً، ولكنه يقتضي دقة وبصراً من واضعه؛ واشتهر من منظمي الفهارس اليوم الأستاذ محمد شوقي أمين

الموظف بمجمع فؤاد الأول للغة العربية؛ فله فهرس منظم لكتاب البخلاء للجاحظ الذي طبعته وزارة المعارف العمومية بعناية الأستاذين أحمد العوامري بك وعلي الجارم بك، وله فهرس لكتاب الحلل السندسية في الآثار الأندلسية الذي يطبعه الأمير شكيب أرسلان

وللكتب - مطبوعة كانت أو مخطوطة - آفتان: السرقة والنيران. ولقد عرف اللصوص قيمة الكتب وخاصة بعد أن اعتنى أصحابها بتجليدها وتزيينها؛ فارتفعت أثمانها عند الأمراء والأثرياء واضطر هؤلاء إلى العناية بحفظها والقيام عليها وكانوا يكتبون على أولها عبارات تتضمن لعنة السارق والسخط عليه. وقد وجد على أحد الكتب هذا البيت من الشعر على لسان صاحب الكتاب:

إذا غرك الشيطان أن تجتري على ... كتابي فعقبى المجترين الفضائح

أما النيران فهي آفة الكتاب الكبرى وبليته. فلقد أحرقت مكتبة الأمير نصر الساماني على نفاستها. واتهم بعض ذوي الأغراض عمرو بن العاص بإحراق مكتبة الإسسكندرية وهي تهمة لا تستند إلى الحق. وأحرق التتار مكتبة بغداد وأغرقوا كثيراً منها في النهر سنة 656هـ، وكانت الكتب النفيسة في هذه الفتنة تباع بأوهى قيمة

ولما سقطت مدينة غرناطة في يد الأسبان أمر البطريق إيكزامينيس بإلقاء الكتب الإسلامية وخاصة العربية في النار. ونهب الأتراك في القرن العاشر ما وقع لهم من كتب المماليك وأضرموا النار فيها. ولا يغرب عن البال ما صنعه (كرمويل) في مكتبة اكسفورد فقد أمر بإحراقها وكانت أغنى المكتبات الأوربية في حينها

وهناك بلية ثالثة للكتب وهي العثة التي تعيث فيها وتطيل ملازمتها لها بالأخراق والثقب؛ واسمها بالإنجليزية: وقد أطلق الإنجليز على كل شخص يطيل ملازمة الكتب والتنقير فيها كلمة وهي كلمة يفتخر العلماء وأهل البحث بأنها من صفاتهم.

محمد عبد الغني حسن

الإسلام ومكافحة الأمية

للدكتور أحمد فؤاد الأهواني

القراءة والكتابة هما أقوم السبل للتحصيل والمعرفة. وجاء عمل النبي صلى الله عليه وسلم من افتداء أسرى بدر بتعليم عشرة من أبناء المسلمين إشارة حكيمة إلى فائدة الكتابة وأثرها في كسب المعرفة، وعلى الأخص القرآن الكريم، مما يؤدي إلى تثبيت الدين والعمل على انتشاره.

ثم اقتضى نظام العمران بعد انتشار الإسلام واستتباب أمره في البلاد المختلفة شرقاً

وغرباً، إلى ظهور الكتاتيب لتعليم الصبيان القرآن والكتابة والقراءة وبعض النحو والعربية. وتناول معلم الكتاب الأجر نظير انقطاعه لهذا العمل بعد أن كان التعليم في صدر الإسلام تطوعاً واحتساباً.

وظهور الكتاتيب الإسلامية أثر من آثار الإسلام اقتضته ضرورة الدين الجديد الذي يخاطب الناس كافة لا يقتصر على طبقة دون طبقة، ولا يفرق بين الأغنياء والفقراء، أو الأمراء والدهماء.

وكان الغرض الأول من التعليم دينياً خالصاً من شوائب الأهداف المادية التي تفسد على الناس أمورهم وتؤدي إلى الاضطراب والتنازع والفساد.

وقد سار الأمر في مكافحة الأمية مع الروح الأولى الإسلامية تلك الروح المتدفقة القوية، يصحبها العزم والإيثار والتطوع لتعليم الصغار والكبار. وليس في القرآن نص على إلزام التعليم ولم يوجب الحديث ذلك. جاء في الصحيح: (خيركم من تعلم القرآن وعلمه). وهو أقوى ما يؤثر عن الرسول بصدد التعلم والتعليم. وهذا الحديث يجعل من تعلم القرآن فضيلة ولا يرتفع بها إلى مرتبة الواجبات

وقد بحث أحد علماء المسلمين هذا الموضوع، أي مكافحة الأمية، إلى أن انتهى إلى القول بها. ذلك العالم هو أبو الحسن القابسي المتوفي سنة 403 هجرية، في كتابه (المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين). قال إن الوالد مكلف بتعليم ابنه القرآن والدين، وحيث أن الوالد مشغول بتحصيل المعاش، فلا بأس أن يحمل عنه معلم الكتاب مؤونة التعليم بالأجر. وإذا مات الوالد فليبعث بالصبي إلى الكتاب وصيه إن كان للصبي

مال؛ فإن لم يكن له مال فليبعث به أحد الأقربين أو المحسنين أو يدفع له حاكم البلد الأجر من بيت مال المسلمين.

والقابسي يتلمس جميع الوسائل المؤدية إلى تعليم الصبيان. إلى أن قال: (فإذا تهاون والد عن تعليم ولده في الكتاب بالأجر، لجهل وقبح ووضع حاله عن أهل القناعة والرضا)

فهذا فقيه في القرن الرابع الهجري ينادي بالتعليم الإلزامي، ويصور وسائله، ويضع شروط الجزاء للمتهاونين فيه!

والفرق بين الإلزام الذي يقول به وبين الإلزام في العصر الحاضر، هو أن الدولة هي التي تنفق على التعليم، وأن قوانينها تعاقب من يمتنع عن إرسال أبنائه بالحبس أو الغرامة، أما القابسي فيضع جزاء أدبياً هو التجهيل والتقبيح.

على أن نداء القابسي لم يتبدد، فقد وجد آذاناً صاغية من المحسنين والقادرين الذين حبسوا أموالهم على الكتاتيب ووقفوا لها الأوقاف، وبذلك ازدهرت حياة التعليم في القرنين الخامس والسادس.

فليذكر الذين يتأثرون خطى الغربيين ويأخذون بحضارتهم أن الإسلام نادى بالتعليم العام منذ ألف عام، في الوقت الذي كانت أوربا تعيش في التأخر والجهل

وليذكر الذين يعملون في مصر الآن على (مكافحة الأمية) تلك الصفحة المجيدة في حياة الإسلام، لعلها تفيد في رجع ما انقطع.

أحمد فؤاد الأهواني

مسرحية إخناتون

تأليف الأستاذ علي أحمد باكثير

للأستاذ لبيب السعيد

الأستاذ علي أحمد باكثير شاب حضرمي طوف في الشرق ما طوف، ثم استقر في مصر يخدم الأدب والعلم. وقد بلوناه حيناً شاعراً له طابعه. وها نحن أولاء نرى فيه كاتباً تمثيلياً وقصاصاً يبشر إنتاجه بأن سيكون له في المستقبل الداني شأن أي شأن.

ترينا هذه المسرحية إخناتون أميراً شاعري الروح، قضت زوجته (تادو) فكان حزنه عليها فوق الصبر، داعياً للإلحاد والكفر، ثم انثنى يتنكر لكل شيء، ويدرس الديانات والفلسفات مما أخاف كهنة آمون على سلطانهم أن يزول حين يؤتى الأمير الملك وتزوجه أمه من (نفرتيتي) موهمة إياه أنها (تادو) عادت إليها الحياة، ويصدق هو ذلك لاعتقاده بإمكانه، ويسعد بالزوجة الجديدة التي نسخ الحب فيها روح (تادو)، ثم يضحي الأمير من بعد ملكا رسولاً. ولكن الرسالة التي فهم أن من مبادئها السلام تجني على

الملك الذي يقتضي الحرب، فتنبعث الفتنة في كل مكان، ويكيد الكهان لإخناتون، ويمضي هو مع ذلك في إخلاصه للسلم والحب، فإذا فشل أخيراً وآده اليأس ألحد في ربه، ثم يدرك وشيكا أن التسامي الشعري غير الواقعية، وأن لا مناص من السيف وحطم الظلم بالعدل. ويثوب إليه إيمانه وهو يحتضر

تومئ هذه المسرحية في ثناياها إلى أن الجمال الباهر والحزن العميق يستطيعان أن يدقا الشعور ويهيئا النفس لتلقي الرسالات

ومن حسناتها اللامعة التفاتها الخاص إلى السيكولوجية: ومن مصاديق ذلك غيرة (نفرتيتي) من مجرد ذكرى ضرتها الميتة، وأحزان (مي) أم إخناتون على زوجها بعد مماته، وحنينها المؤثر إلى أيامه، وغيرتها من كنتها، وتغير إحساسها نحوها، وموازنتها بين طاعة ابنها الذي يشفق على قلبها وطاعة زوجها الفقيد طاعة الحب العمياء، وفزع الكاهن (سادو) من ذكر الثعابين حتى ليكاد من جبنه يحس دبيب الحية في عنقه. هذه وغيرها صور وحالات استمدت جمالها وقوتها من اعتمادها على السيكولوجية

ومن أبرع وألذ ما حوت المسرحية ذكريات الأمير عن (تادو) بعد فجيعته فيها، ما كان أمضها ذكريات! ولكن ما كان أعذبها!

ومما يظفر أيضاً من القارئ برضاه واهتمامه شخصية (أمنوفيس) أبي إخناتون، وما كان فيه من مجانة وطرب، وفلسفته الظريفة في تذوق الملاحة النسائية، وتخريجه الساخر لمعنى الوفاء للمرأة، ثم ما كان في حياة أخناتون مع زوجته (نفرتيتي) من تعاطف رائع وأنس وسعادة، ثم سذاجة (تاي) المربية المسرفة في إعجابها بزوجها، والتي تحزن لمرض (أخناتون) الأخير. ولكنها لا تتمالك إذ تراه يطالع اللانهاية في عيني نفرتيتي، أن تقول: آه. . . يا ليت (آي) يطالع في عيني شيئاً! وكذلك شجاعة القائد (حور محب) وإخلاصه، وبلاهة (سمنتارا) وحقارته!

ونزعة المؤلف في الأسلوب تظهر في المسرحية إذ تقرر أن الديانات قد يعوزها أن تحمي نفسها بالسيف، وإن الركون إلى السلام مفض لا ريب لفقد الممالك وسقوط الدين معاً

ورأي المؤلف في التناسخ طريف وجميل وليس فيه ما يتحرج منه

وبعد، فأود أن أصارح صديقي المؤلف أنه كان أولى به أن يدع الأمير (إخناتون) يحدثنا بنفسه عن الآلام التي كان يصطخب بها قلبه في أعماقه بدل أن يحدثنا بها كبير الكهنة حقاً لقد راقب كبير الكهنة الأمير من بعيد قرابة شهر بحيث يراه ولا يدري مكانه، فهو يتحدث عنه على ضوء ما شاهد؛ ولكن هذه المراقبة إن كفلت له الحديث الصادق عن مظاهر أحزان الأمير، فليست بكافلة له أيضاً الحديث المسموع عن حشاشته التي تسيل زفرات، وصبره الصامت الذي يكبت من حزنه الصارخ، ونسيانه يومه وحنينه إلى أمسه الماضي وتفكيره في غده الآتي ووراء غده، وعن هفو أضالعه. . . الخ

وأنا بعد أفهم أن الرسول هو بطبيعته وطوال حياته آخر من تعصف المصائب بإيمانهم، ولكن إخناتون الذي تدور المسرحية على كونه رسولاً، يسرف في الكفر: يكفر عند موت زوجته الأولى كفراً هائلاً، ثم يؤمن حتى يسعد بزوجته الجديدة، ثم يضطلع برسالته مخلصاً مطمئناً، فإذا أحس الفشل عاد كافراً يتشكك، ثم تخر صاعقة بقرب القصر فيزداد كفراً، وينسى رسالته في صميمها، فإذا استمع إلى كلام (حور محب) الذي يحاوره في براعة ولطف عاد مؤمناً، فاستغفر لذنبه، وذكر أنعم ربه. . .

وأشخاص الرواية هم إخناتون وأهله ورجال القصر والكهنة فأين ابن الوطن؟ أين هو يسمعنا آراءه تلقاء الدعوة الجديدة، ويرينا موقفه إزاء جهاد الرسول وكفاح الكهنة؟

بقى أن أقول إن الذوق العربي لا يستطيع غالباً أن يسيغ (النظم المرسل المنطلق) المصوغة فيه المسرحية لأنه لم يألفه. والذي أعتقده أن ما عمد إليه المؤلف من إرسال القافية في أغلب المسرحية وعدم المساواة في العدد بين تفعيلات الأبيات إخلال بالخواص الجوهرية للشعر العربي لا يحسن اللجوء إليه. والظن أن طريقة كتابة هذه المسرحية وهي على نسق طريقة شكسبير تحمل القارئ على بذل جهد خاص في القراءة كلما حرص على تفهم المعنى واستساغة النغم الشعري. وعندي أنه لو كتبت المسرحية كالنثر، بحيث تتصل الجمل دائماً حتى يستوفي المعنى، وبحيث تستعمل علامات الترقيم أدق وأوفى استعمال لكان ذلك أدنى ألا يجهد القارئ في الاستمتاع بما في الرواية من بيان ومعان

على أن الإنصاف يقتضينا أن ننوه بالمقدرة الممتازة التي أتاحت للمؤلف صوغ مسرحيته كلها من بحر واحد، فإن القارئ للمسرحيات الشعرية العربية التي سبقت (إخناتون) كان ينتقل فجأة من بحرٍ إلى بحر؛ فكان ذلك قاطعاً للذته ومزعجاً لخاطره ذلك ولأخي المؤلف الناجح شكر مصر القادرة وفاءه وشكر الأدب الذي ينوط به آمالاً كباراً

(المنصورة)

لبيب السعيد

نار. . . ونفس!!

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

ظَمِئَتْ نَارِي! وَللنَّار كما للنَّاسِ خَمْرٌ وَرحيقُ
ولها حَانٌ، وخمَّارٌ، وأقداحٌ، وإبْريقٌ عَتِيقُ
. . .ونداماها أسَى العُشَّاقِ، والأحزانُ، واسِّرُّ العميقُ
وَبكتْ نفْسي! وَللنَّفس دُموعٌ حَينَ تبْكي وَشهيقُ
ولها كالحَطَب المَشْبُوب أزٌّ في حشاهَا وحَريقُ
. . .ولها كالأفُقِ الْغَضبان إعصارٌ وَرعدٌ وبروقُ
فَسألْتُ النَّارَ: مَنْ أظْمَأ يَا نَارُ عَلَى قَلبي لَظاك؟
كيْفَ أسْقيكِ! وأيُّ الخمرِ تَرجُو مِنْ زماني شَفتاكِ؟
!ما بكأسِيْ غيرُ نارٍ كالَّتي تَحْمِلُ بلواهَا حَشاكِ
وَسَألتُ النَّفسَ: مَنْ عّلمَ دَمْعَ العَين يَجْري في حِمَاكِ؟
كيف أسْقيكَ مِن أن السُّلوانِ والسُّلوانُ مَعنًى مِن أساك؟
!مَا بكأسِي غيرُ دمْعٍ أتْرعَتْهُ مِنْ دَمِي يَوْماً يَدَاكِ
!قَالت النَّارُ: فَضحْتَ السِّرَّ، فَاصْمُتْ، لاَ تُحَدّثْ عَنْ لَهيبي
إنْ تكن نَارُكَ مِنْ نارِي فَلا تسْألْ عَن السرِّ الرّهيبِ
وارْكبِ الرِّيحَ، وَخلّ الجِنَّ يُسْرِ جْنَ لها طَيْرَ الغيُوبِ
,فإذا شَارَفْتَ عَذرَائي تُناديكِ عَلَى شَطِّ الغُرُوبِ
وَانْسَني في جَذْوةِ الأنفاسِ لاَ تزعجْ لَظى خمريْ وكُوبي
وَهفاً بالنَّفْسِ ماَ يَهفُو بِغُصْنٍ في يد الإعْصَارِ يُعْولْ
ثم قالت: كيْفَ عنْ دمعي ومنكَ الدَّمعُ يا حَيْرانُ تَسألْ؟
إنْ أكنْ فيكَ سَكنْتُ الجِسْمَ والجِسْمُ تُرابٌ يَتنَقّلْ؟
فأنَا طَيْرٌ بِعرشِ اللهِ لي عُشٌّ وبُسْتَانٌ وَجَدْوَلْ
إنمَا أبكي لِهذَا القَفَصِ الدَّاجي الكَئيب المُتَملْمِلْ
!لَمْ يَجد أيَّ عزاءٍ في وجُودِي، كيْف يغْدُو حِينَ أرْحَلْ؟

محمود حسن إسماعيل

كلمة تعزية

(إلى حضرة صاحب العزة عزيز بك أباظة مدير البحيرة
(شكراً على هدية ديوان (أنات حائرة

للأستاذ خليل شيبوب

ريعَ قلبي من هذه الأنَّاتَ ... تَتَلظَّى تَلظِّيَ الْجَمراتِ
نثرتها في الشعر لوعةُ شاكٍ ... فجرت في الدموع منتظمَاتِ
أكبَرَ العصرُ آيةَ الخير فيها ... نزلت مثلَ مُحْكَمِ الآيات
جَدَّدَتْ سُنَّةَ الوفاءِ وأحيت ... عُنْصُرَ البِرِّ والهدى والثبات
بعد ما قيل نحن في عصر لهوٍ ... حافلٍ بالمجون والشهوات
يا أليفاً يبكي فراق أليفٍ ... كلُّ بينٍ هَيْنٌ إزاء الممات
تلك شمس أنارت العمرَ لكن ... دهمتها مصارعُ النَيِّرات
راعها الخسفُ بالبدور مُلِحًّا ... وذبولُ الغصونِ والزهرات
فهوت من سمائها وقضت في ... موكبٍ من أشعةٍ غاربات
ذهبت بالشباب والطهر والحسنِ ... وخيرِ الزوجات والأمهات
بسماءِ الهدى وروض الأماني ... ونعيمِ الهوى ومعنى الحياة
فإذا إلفُها المحيَّرُ لا يملك ... من أمره سوى الأنات

مرسلاتٍ على الأسى والتأَسي ... في قوافٍ مفجوعةِ النغمات
نَدِيَتْ بالدموع فهي أَكاليلُ ... من الزهرِ بالأسى عَطِرَاتِ
والفؤادُ المكلومُ لا يُحسن التعبيرَ ... إلاَّ بساكبِ العبرات
حسبكَ اللهُ يا عزيزُ ورفقاً ... بشبابٍ نرجوهُ للنائبات
أَنتَ من ترتجي البلادُ إذا ما ... حَزَبتْها الأَحداثُ بالأزَمَاتِ
إِن من وَدَّعتكَ لم تمضِ حتى ... أَنبتَتْ بعدها كريمَ النبات
فَهيَ اليومَ حَيَّةٌ فيهم لا ... تأتلي من رَقَّافَةِ الذكريات
فَاتق الله فيهم وَتَقَّبلْ ... من محبيكَ أخلصَ التعزيات
خليل شيبوب
ذكرياتي. . .
للأديب مصطفى علي عبد الرحمن
يا ليالي النورِ في صَحْو الشَّبابْ
ما الذي أغرى بنا كأس العذابْ
فَشَربناها حنيناً ونوى
أتناسيتِ الذي ولّى وغَابْ
من نعيمٍ وفتونٍ وشراب
نتغنى كَيفما شاءَ الهوى
وعيون الدِهرعنا ... غافلاتُ
تُسكر الأرواحَ منا ... قُبلاتُ
وتشيع الأنسَ فينا ... صَبَوات
وكؤوسٌ كلما نادى بها الداعي تدورُ ... ومعانٍ من رحيق الخلد يرويها البشيرُ
كل هذا كان يا دنيا لَنا ... والليالي مثلما كُنَّا سُكارى
ما الذي أغراكَ يا دهري بنا ... فأحلتَ العُمر همَّا وادكارا
وتوارت بسمةٌ في شفتينا
وانطوى الْحُلم وولى من يدينا
يا حبيبي هل لأيامي الخوالي ... عودةٌ نحيي الذي ولّى وغابْ
منْ أمان باسمات وليالٍ ... كنَّ أحلى من جني الخمرِ المُذاب
فنغُنِي مثلما كُنا نغني
فوق أغصان الشبابِ المطمئن
بين صفوٍ ونعيمٍ وشراب
مصطفى علي عبد الرحمن
البريد الأدبي
إلى السيد حسن القاياتي
قرأت خطابك إلي فوجدته دون ما يحسن صدوره عنك، وإلا فكيف جاز لك التوهم بأني أقول فيك ما دونته بقلمك نقلاً عن أراجيف المرجفين؟
أنا أقول إنك أديب خلقته الظروف، وألاعيب مصطفى القاياتي في السياسة؟
هذا الكلام لا يقوله من يعرفك، كما أعرفك، وهو أيضاً كلام لا يقوله صديق في صديق، وأنت تعرف جيداً أني لا أقبل إيذاء أصدقائي بمثل ما نقل إليك، ولا بأيسر مما نقل إليك، فأقطع ألسنة الدساسين، واحفظ ما بيننا من العهود. احفظ أنت، أما أنا فكما عهدت، ولن أتحول ولن أخون
ثم تطلب إلى أن أسأل نفسي عن الصلات التي كانت بيني وبين الدار القاياتية، وأنا أوجه مثل هذا السؤال إليك، فما أظنكم عرفتم رجلاً أصدق مني، ولا أحسبك تنسى أنني أديت للشيخ مصطفى جميلاً يفوق الوصف ويفوق الجزاء، وهو جميل سجلته أنت بقلمك في مجلة الكشكول سنة 1924 بإمضاء (العقوق) يوم كان إيذاء الشيخ مصطفى من هواك
أينما أوفي لذكرى هذا الرجل: أنا أم أنت؟
لو نطق التاريخ الأدبي لقال إني لم أكن راوية يوم عرفت داركم، وإنما كنت أستاذاً يساعد على خدمة أدبية تعرفها الجامعة المصرية، يوم اختارت الشيخ القاياتي خلفاً للشيخ المهدي

وتقول إنك أعددت عشرين مقالاً في نقد كتاب (النثر الفني) وأنك ستنشرها في الرسالة إن ضمنت أنها لا تجاملني، وأنك تنتظر مني كلمة الحق
وأقول إن الرسالة لا تجامل أحداً، فقدم إليها في نقدي ما تريد. ثم أقول إن هذه الكلمة هي كلمة الحق، فانقضها إن كنت تطيق
وجاء في كلامك أن لي في الأدب ألاعيب وترهات، فمتى كان ذلك؟
أنا يا صديقي لا ألهو في الأدب ولا ألعب، فجد الأدب جد وهزله جد، ولا يصدر عن قلمي إلا ما يرضاه وجداني
أما بعد فهذا ما تقرأ لا ما تسمع، فخذ عني ما تقرأ ودع ما تسمع، فما أذكر أني حادثت أحداً بالقاهرة منذ شهور طوال، ولا أذكر أنك خطرت في بالي قبل أن تنقل إلى (الرسالة)
خصامك العنيف، يا أعز الخصماء
أنا ما أسأت إليك، وإنما أسأت أنت إلى نفسك بكسلك. ومع هذا تقول إن اللغة العربية لن تجد من يذود عن حماها غير قلمك، ونحن نعرف طاقتك في البيان
توكل على الله وانفض الغبار عن نفسك المكسال، فقد تصبح ولك مثلي ترهات وألاعيب. وليس من العسير جداً أن تكون في منزلة الكاتب الأول والشاعر الأول.
زكي مبارك
الشعر العربي في المهجر
قرأت رأي الأستاذ الظريفي في تعليل طابع الشعر في المهجر، وأقرب إلى المعقول هو رأي قديم لي سبق أن أبديته في مناسبات أدبية لأفراد الجالية اللبنانية بكوم حماده، وخلاصته أن هذا الأدب هو صراع عنيف بين عقليتين متباينتين: عقلية الشرق بما فيها من روحانية وسمو وتوكل، وعقلية مادية قاسية لا ترحم المتواني (خصوصاً في أمريكا الشمالية حيث ظهر معظم أدباء المهجر)، وكان نتيجة هذا الاصطدام الحنين إلى حياة الشرق بما فيها من دعة وبساطة، وهذا الحنين ظاهر في حياة أقطاب مدرسة المهجر، فكتابات جبران الإنجليزية والعربية تترجم عن ذلك بجلاء؛ وكأني به يريد أن (يمشرق) أمريكا قبل أن (يتأمرك) وهو وأبناء جلدته. وقد أقبل الأمريكان على فلسفته إقبالاً لا نظير له أصاب منه ثروة لا يحلم بها أديب من أدباء العالم. ومن دواعي عظمة هذا الرجل أن طبيباً عالماً من كبار أطباء إنجلترا وفيلسوفاً يشار إليه بالبنان هو هافولك إليس كان يستشهد بأقوال جبران في كتابه العظيم (سيكلوجية الحب) ويدعوه بالشاعر النبي، ومع هذا الجاه كان جبران يحن إلى الشرق بقلبه وروحه ويود لو أمضى بقية أيامه في وطنه بين أحضان الطبيعة. وقد فاوض ذوي الشأن في شراء دير ماري سركيس بلبنان ليكون مقامه ولكن المنية عاجلته وقد نقلت إليه رفاته
مثل ذلك ما فعله ميخائيل نعيمة فقد أصاب ثروة في أمريكا ولكنه آثر الدعة والبساطة فعاد إلى وطنه وعاش في صومعة في جبل صنين
ومنذ ربع قرن زار مصر فيلسوف الفريكة أمين الريحاني وقال في حفلة تكريمه قصيدته
المنثورة المشهورة: (أنا الشرق عندي فلسفات) وقد طلعت علينا وقتئذ مجلة السفور تندد بأدبه، ومع أنه نال حظاً وافراً في دوائر الأدب والنقد في أمريكا كان يفر إلى منسكه بالفريكة كلما بهظه ثقل مادية أمريكا
هذه ظاهرة جلية لا يمكن تعليلها إلا بما أبديت من رأي. وما أشبه أدباء المهجر بروسيا فقد أخذت من الغرب مدنيته، ولكنها ظلت شرقية بروحها. وكان نتيجة هذا الازدواج أن أخرجت كتاباً ملهمين أمثال تولستوي ودستفوسكي وتشيخوف تفيض كتاباتهم بالروحانية
(كوم حمادة - بحيرة)
كامل يوسف
عضو بالمعهد البريطاني للأبحاث الفلسفية بلندن
إلى الأستاذ قطب - 1
ألم تصدق إذن أن أعصاب الأدباء فائرة ثائرة؟ وهل عدوت الحق حين أشرت إليك تلك الإشارة اللطيفة الخفيفة فحملتك الحق فيما بدر منك في حق محاورك حين أضفته

إلى سيداتنا وحبات قلوبنا (النساء). ومع هذا فقد لمتكما معاً فيما تراشقتما به من ألفاظ السماجة أو الصفاقة والمهاترة والغمز واللمز، مما كانت أجلكما عن الوقوع فيه. . . لولا هذا الصيف الجائر الذي جعلك تقول في حبيبك وصيفك - دريني خشبة - إنه رجل عامي في ذهنه وفي نفسه. . . وفي معايير أخلاقه!! بارك الله لك يا شيخ سيد في ذهنك وفي نفسك وفي معاييرك الأخلاقية. . . وبارك الله لك في هذا اللسان الطويل العريض الذي سينعقد لمحاكمته جلسة في المكان الذي تعرف، ومن الأصدقاء المحترمين الذين تعرف وأعرف، ليقفوك - أو ليقفوني! - عند الحدود التي أنساك الصيف، كما أنسى الكثيرين من الأدباء، أشراطها

إلى شعراء الشباب الاماجد - 2

إلى أخواني المحترمين باكثير والقاياتي وفوده والعجمي، والى جميع شعراء الشباب الذين سهوت فلم أذكر أسماءهم في مقالي عن الدرامة المنظومة والمسرح أقدم اعتذاري. ولن ينقصني جهلي بمجهودهم فضلهم الأدبي الذي لا يجحد. وأشكر الأستاذ الفاضل محمد عبد الغني حسن تلك الالتفاتة الكريمة الذي تدل على سمو إدراكه الأدبي، والتي تجلت في إشارته إلى أخي الأستاذ باكثير ذلك الشاعر المجد المجاهد الذي تفضل فكتب إلي ليرأب ما انصدع من مقالي، ولسوف أفرغ لدرامة الأستاذ باكثير في فصل أو أكثر من فصل إن شاء الله. وسيرى المظلومون كيف تنصفهم الرسالة في القريب العاجل. أما الأستاذ فوده - ذلك الصديق العزيز - فأستعيذ بالله من (مقالبه!) ومع أني أقر بفضل شاعرنا القاياتي في المنظوم والمنثور فإني آسف إذ لم أسمع عن درامته شيئاً. وأعود فأقول إن جهلي بها لا ينقص من قيمتها، والقاياتي الشاعر، وعماد الشاعر، والناشر الشاعر والصيرفي الشاعر، والأسمر الشاعر، والعشرات من شعراء الإسكندرية والأقاليم، والمئات من شعراء الإلزاميين، ليس هؤلاء وهؤلاء في حاجة إلى الإشادة بذكرهم في مقال لم يقصد منه إلى الحصر ولكن قصد منه إلى التمثيل. . . وأوشكت هنا أيضاً أن يفوتني ذكر الشاعر السيد قطب فتسود معي وقعته أكثر مما اسودت، وهو الشاعر الذي أحب شعره جدا بمقدار ما أمقت نثره جداً. . . متى يا ترى ينهض هؤلاء الشعراء جميعاً بحمل أعباء نهضتنا الشعرية وتزويد هذه النهضة بالدرامات والملاحم؟

إلى أخي الأديب كمال نشأت - 3

يا أخي لقد ظلمت في كلمتك بيئتنا وظروفنا وأحوالنا وأغلبية شعبنا الذي لم تستثن منه الأقلية المتنورة. . . ولقد ظلمت أيضاً ممثلينا جميعاً فلم تستثني منهم أحداً حين رميتهم بالأمية الشنيعة. يا أخي لقد ألف شوقي رحمه الله دراماته فأقبل الشعب يجمع طبقاته على شهودها وسر منها وتقبلها أحسن القبول، والذين مثلوا تلك الدرامات أحياء غير أموات، وقد بلغوا بتمثيلها الذروة. ولم يكونوا يلحنون أبداً، ولم يكونوا يكسرون الشعر قط، ونحن حين ننكر عليهم تلك الإجادة نظلمهم ونبخسهم بطولتهم التي لو ظهرت في أمة أخرى لرفعتهم إلى عليين ولأقامت لهم التماثيل. . . يا أخي بحسبك ما يشقى به ممثلونا من شقاء مادي فلا تنكل بهم تنكيلاً أدبياً. . . يا أخي لا تنكر أن ممثلينا يوسف وهبي وأحمد علام وزكي طليمات وحسين رياض وفتوح نشاطي وأمينة رزق ونجيب الريحاني وعبد الفتاح القصري ومختار عثمان وفاطمة رشدي وأنور وجدي وغيرهم ممن تضيق تلك الكلمة عن إحصائهم. . . أولئك الممثلون الذين لا نعرف كيف نجزيهم وهم لا يقلون عبقرية عن أحسن الممثلين العالميين. لقد ذكرت في إحدى مقالاتي أن نسبة المتعلمين في إنجلترا في عصر إليزابيث لم تكن تزيد عنها في مصر اليوم، فلم يمنع هذا من ظهور شكسبير وبن جونسون وأضرابهما، ولم تمنع من ازدهار المسرح الإنجليزي الذي كانت كل دراماته شعرية في ذلك الحين. . . يا أخي لا تكن ظالماً وأوص من حولك بالإحسان إلى الممثلين

دريني خشبة

إلى الأستاذ. . .

إلى هذا المجهول العلم الذي تفضل فنشر بالرسالة (عدد 529) كلاماً على لساني موجهاً إلى الأستاذ دريني خشبة حول مقاله: (المسرح المصري والدرامة المنظومة)

أما آرائي في بحوث الأستاذ خشبة فأحسب أن ما بيني وبينه من أواصر الصداقة والود يجعلني أوثر مشافهته
وأما أن يتفضل كاتب كريم فيذيل كلاماً باسمي وعنواني لم أقله، ولم أحرره، فقد مضى زمن - وما يزال - وهذه البراعة المبرقعة حياء في خدمة الكرام الكاتبين، وما كانت يوماً بحاجة إلى عون سواها للتعبير عن رأي لصاحبها، أو فكرة لحاملها
وأتقبل بشكر وسرور هذه المداعبة الظريفة. والى اللقاء
(المجمع اللغوي)
علي فوده
بين الشيخ شاكر والسيد رشيد
ذكر الدكتور مبارك في كلمته التي نشرتها الرسالة بالعدد (523) عن روح الشيخ رشيد أن فضيلة الشيخ محمد شاكر (كتب) إلى الشيخ محمد عبده يدعوه إلى كف يده عن رعاية الشيخ رشيد رضا، فكان جواب الأستاذ الإمام: (كيف أرضى بإبعاد صاحب المنار وهو ترجمان أفكاري)
وقد ذهب الدكتور إلى أن الشيخ شاكر إنما فعل ذلك لخصومة بينه وبين السيد رشيد، ثم
أخذ يعلل هذه الخصومة ويبين ما كان عليه هذا الشيخ من العنف وشدة العداوة الخ
ولكن الأمر يرجع إلى غير ما ذهب إليه الدكتور. ذلك أن الخديو عباس كان قد غضب على السيد رشيد لأمور لا نطيل بذكرها، فكلف بطرس غالي باشا والشيخ شاكر لكي يسعيا لدى الأستاذ الإمام في أن يبعد هذا السيد عنه، فكان جوابه لبطرس باشا: (إذا كنت رجلاً ذا قيمة في الوجود فإنما ذلك بأخلاقي لا بوظيفة الإفتاء ولا بغيرها، وأي خلق يكون لي إذا تركت صحبة السيد رشيد لأجل الخديو؟ إن هذا الرجل متحد معي في العقيدة والفكرة والرأي الخ. وكان جوابه للشيخ شاكر تلك الكلمة المشهورة.
هذه هي الحقيقة نبينها للناس وما كان بين الشيخين الجليلين - شاكر ورشيد - إلا كل محبة وولاء. ورحم الله شيوخنا جميعاً
(المنصورة)
محمود أبو رية
تصحيح التصحيح!
متى كان الطعن في شخص الكاتب كافياً لهدم ما قال؟ أليس الأحرى بالأستاذ قطب أن ينصرف إلى الرد على الأقوال بدلاً من الطعن في الأشخاص؟ إن الأستاذ قطب يقول عن زكريا إبراهيم: إنه لا يعلم له أو عنه شيئاً، فهل نسى الأستاذ قول القائل: (لا تنظر إلى من قال، ولكن انظر إلى ما قال؟) ألا فليعلم حضرة الأديب الفاضل أنه ليس يضيرني أن لا يعرفني مثله، فأنا لا أحفل بمعرفة من هو عند نفسه أكبر من نفسه؛ ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه!
ولست أدري بعد ذلك هل من قواعد المدرسة الحديثة أن يعلن الإنسان عن نفسه على حساب الأدب، فيقول في جرأة غريبة إن في نثره (معاني كبيرة، وأحاسيس عميقة). . . إلى آخر تلك الصفاقة الغريبة التي تفيض بها أيضاً مقدمة ديوان (الشاطئ المجهول)؟! أما الجواب فهو عند الأخلاق الجديدة التي يضعها (لأول مرة) أستاذنا قطب، هادما فيها التواضع الاصطلاحي الكاذب!. . . والرد حاضر أيضاً: فإن التواضع الذي ندعوك إليه - يا سيدي - ليس معناه أن ينزل الإنسان عن مستواه، وإنما معناه أن ينزل إلى مستواه!
زكريا ابراهيم
العدد 531 - بتاريخ: 06 - 09 - 1943
ذبح الفقراء لا يحل مشكلة الفقر
للأستاذ عباس محمود العقاد
كتب الأديب (إحسان) في مجلة (آخر ساعة) يروي عني أنني قلت له: (. . . يكفي أن يتمتع الإنسان بحريته ليعيش سعيداً حتى لو كان فقيراً، وأن أي نظام أو أية محاولة ترمي إلى إزالة الفوارق الاقتصادية بين الطبقات إنما هي ترمي في أساسها إلى تقيد حرية الفرد. . .)
ثم سأل الأديب: (ولكن هل يملك الفقير حريته كما يقول الأستاذ العقاد؟ هل أستطيع

أنا مثلاً أن أسافر إلى الإسكندرية وألقي بجسدي المتعب على شاطئ البحر كما يفعل صديقي عادل صدقي نجل دولة صدقي باشا!. . . لا نستطيع، لأن حريتنا محدودة بجيوبنا. فالمفلس لا يملك حرية الخروج من منزله والجلوس على القهوة، والذي في جيبه نصف قرش لا يملك حرية إشباع بطنه. . .) الخ. الخ.

وفي نقل كلامي على هذه الصورة شيء من التحريف

لأنني لا أقول إن الحرية وحدها تكفي الإنسان وتغنيه عن الطعام، ولكني أقول إن المذهب السياسي أو الاجتماعي الذي يسلبنا الحرية يسلبنا أعز نعمة في الحياة الإنسانية، بل يسلبنا كرامة الإنسان ويستحق منا المقت والازدراء

وأنا لا أقول إن إزالة الفوارق الاقتصادية بين الطبقات ترمي إلى تقييد حرية الفرد، ولكني أقول إن تقييد الحرية الفردية لإزالة هذه الفوارق نقمة لا يرحب بها رجل كريم

وأنا أدافع عن الديمقراطية لأنها تؤمن بحرية الفرد وتصلح الناس إصلاح الأحرار المكلفين لا إصلاح العبيد المسخرين

ولكني أمقت المذاهب السياسية الأخرى لأنها تسلب الحرية الفردية ولا تحل المشكلة الاقتصادية، فتحرمنا الكرامة ولا تكفل لنا الطعام، وهذه هو الحرمان الذي لا عزاء فيه ولا موجب لاحتماله، والصبر عليه إلى زمن طويل

فالنازيون والفاشيون والشيوعيون يستغفلون الناس حين يقولون لهم إننا سلبناكم الحرية ولكننا أرحناكم من البطالة ودبرنا لكم الرزق بتدبير الأعمال، لأنهم في الواقع كاذبون فيما زعموه من تدبير الرزق وتدبير العمل، وإن كانوا صادقين جد الصدق فيما أعلنوه من سلب

الحرية وتسخير الكرامة الإنسانية

والنازيون اليوم يحتاجون إلى مليون عامل بل مليونين بل إلى ثلاثة ملايين لو وجدوهم من الألمان أو غير الألمان

يحتاجون إليهم ويبحثون عنهم ويغتصبونهم اغتصاباً من كل مكان حكموه أو سيطروا عليه

فهل نسمي حاجتهم هذه إلى العمال نجاحا في كفاح البطالة وتدبير الأرزاق؟

وهل هذا هو العمل الذي يريح الفقراء من أعباء الفقر ويتيح لهم الاصطياف على شواطئ الإسكندرية؟

فكفاح البطالة على هذا المنوال هو الكفاح الذي يستطيعه النازيون والشيوعيون والفاشيون، وهو الدواء الذي يربى في الشر والبلاء على عشرة أدواء

والنتيجة ماثلة أمامنا لا تذهب بنا إلى بعيد

فالحرب الحاضرة وما جلبته على الناس من الكرب والألم والضيق والغلاء هي ثروة العلاج الذي دبره النازيون والشيوعيون والفاشيون لمشكلة البطالة وأزمة الأرزاق

وقد استطاع النازيون وأمثالهم أن يديروا المصانع ويستخدموا الأيدي العاملة لأنهم أداروا المصانع جميعها على تحضير السلاح وأدوات القتال

فاستراح الشعب الألماني من مليون عامل عاطل بضع سنوات، ولكنه عرض للقتل خمسة أو ستة ملايين من أولئك الفقراء في سنة واحدة، وسيخرج من الميدان وفيه عشرة أضعاف العاطلين الذين كانوا فيه قبل دخوله، والى جانبهم عشرة أضعافهم من القتلى والمفقودين والمشوهين

أي حل هذه لمشكلة البطالة؟

أي علاج هذا الذي يريحك من مليون عاطل بخمسة مليون قتيل، ثم يصبح الشعب كله أو جله من العاطلين؟

وليست المسألة هنا مسألة النظام السياسي الذي يطلقون عليه اسم النازية أو اسم الشيوعية أو اسم الفاشية أو اسم العسكرية اليابانية، فإن النظم السياسية جميعاً تتساوى في هذه القدرة متى لجأت إلى تشغيل الأيدي في الذخيرة والسلاح، وإن الديمقراطية لأقدر من المذاهب الأخرى على تشغيل الأيدي جميعاً في إبان الحروب التي تساق إليها كما نرى الآن في كل

مكان رأي العين. فلا ينبغي إذن أن يقال إن تدبير الرزق بالإكثار من مصانع السلاح والذخيرة مزية من مزايا هذا النظام أو ذاك، فهي مزية ميسورة لكل من يختار هذا العلاج أو يندفع إليه، ولا يزال من المحقق بعد هذا كله أن الديمقراطية تفضل المذاهب

الأخرى من شتى نواحيها، لأنها تعترف بالحرية الإنسانية ولا تعجز عن علاج مشكلة البطالة على هذا المنوال حين تشاء
وبعد فأين هو النظام السياسي الذي يسمح لكل من شاء أن يسافر إلى الإسكندرية ويلقي بجسده المتعب على شاطئها؟
هب الفوارق الاقتصادية قد زالت كل الزوال ولم يبق في الأرض إلا أنداد متساوون في الثروة والقدرة على المتاع وأراد هؤلاء أن يذهبوا إلى الإسكندرية فكيف يذهبون؟
أيذهبون إليها بالبطاقات على حسب الدور؟ أي يذهبون إليها دفعة واحدة في أسبوع واحد؟ إنهم على كل حال مقيدون بالإمكان الذي لا سيطرة لهم عليه، ولو استراحوا من تفاوت المراتب واختلاف الأرزاق
يروي أبناء البلد قصة طريفة عن الكلب الرومي والكلب البلدي اللذين اصطحبا على الخير والشر وذهبا إلى سوق الجزارين يبغيان الرزق من وراء الأوضام والسواطير
ذهبا أولاً إلى سوق الروم فإذا الحواجز قائمة على الدكاكين وإذا هي لا تبيح مدخلها لإنسان ولا حيوان بغير حساب، وإذا العظام فيها توضع حيث تصان عن الخطف والاختلاس
وقال لهما صاحب الدكان (إكسو) فخرجوا محرومين جائعين، وطافا النهار على الدكاكين ولم يظفرا بغير إكسو التي يعقبها نذير الخطر، أو بالقليل من العظم المنبوذ الذي لا خير فيه
ثم أصبحا من الغداة على سوق أبناء البلد فلم يحجزهما حاجز عن اللحم والعظم ولم يلبثا هنيهة حتى أصابا الشبعة من اللحم والعظم بغير نصب، وسرهما أن يسمعا صاحب الدكان يقول لصبيه (ناوله) ويشير إلى الكلب الرومي الذي أوغل في داخل الدكان بغير مبالاة لاغتراره بقلة الحواجز والحراس، فحسبا أنها مناولة إكرام وضيافة تغنيهما عن التسلل والاختلاس، وانتظرا هذه المناولة انتظاراً غير طويل، لأن الكلب المسكين لم يشعر بعد ذلك إلا بضربة من الساطور أوشكت أن تقصم صلبه، وانطلق يعوي على غير هدى وهو
يقول لصاحبه الذي طفق يناديه ويستعيده: لا لا يا صديقي. . . (عشرة إكسو ولا واحد ناوله. . .)
والدجالون أعداء الديمقراطية قد لبثوا سنين عدة وهم يرفعون العقائر بحرب البطالة وهم يزعمون أنهم خلقوا عملاً لكل مستطيع لأنهم أداروا معظم المصانع على صنع الدبابات والمدافع والطائرات وأدوات الهلاك
وانظر أيها العالم الذاهل لقد هبط عدد العاطلين من ثلاثة ملاين إلى مليون!
وانظر مرة أخرى لقد هبط العدد من مليون إلى مئات قليلة من الألوف!
وانظر مرة أخرى لقد خلص الوطن من العاطلين أجمعين، وزاد على ذلك أن استدعى إليه الملايين من عمال الأجانب المسخرين
ثم أفاق العالم من ذهوله على أضعاف أولئك العاطلين مقتولين ومجروحين ومشوهين، ولن تنقضي مدة حتى تنجلي الهزيمة عن أضعاف أضعافهم من المساكين عالة على أوطانهم وعلى العالم كله عدة سنين
وهذه هي (المناولة) التي يحسنها الدجالون من أعداء الديمقراطية، ويسمونها علاجاً لمشكلة الأرزاق، وتسوية بين الطبقات، وليست هي من ذلك في كثير ولا قليل
خير من كل علاج كهذا العلاج أن يقوم المجتمع على تعاون الطبقات فيفرض المعونة على القادرين لينتفع بها الضعفاء حقاً مفروضاً لهم في رقاب الأمة أو الدولة، وأن يفتح للفقير باب السلم فيصعد عليه إلى الذروة حيثما استطاع، وأن يتسابق العاملون في ميدان الحياة كما يتسابق الأحرار ولا يستكينوا فيها كما يستكين العبيد
فالكرامة الإنسانية تأبى أن تحل مسألة الأرزاق كما حلتها مصالح السجون في العالم المتمدن بأسره: كل مسجون ينام وهو شبعان، وكل مسجون له عمل يحرك به يديه، وكل مسجون يكسو جسده ويأوي إلى سقف يظله ويعرض نفسه على طبيب ولكنه لا يحسد على هذا النصيب
والعقل الإنساني يأبى أن تحل مسألة الأرزاق بالإكثار من مصانع الذخيرة والسلاح، لأن علاج البطالة بالموت والخراب طب مجانين

إنما الكرامة والعقل أن نحفظ الحرية وأن نطلب الرزق مع الحرية، وأن نؤمن بأن أخطاء
الديمقراطية في تدبير مسألة الأرزاق أسلم من صواب مزعوم لا يثبت على التجربة برهة حتى يعصف بكل ما أفاد، إن صح أنه أفاد.
عباس محمود العقاد
الحديث ذو شجون
للدكتور زكي مبارك
- حياة الأديب - الصديق - قلدوا قلدوا - الشيخ المراغي
النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة
حياة الأديب
دعيت لإلقاء خطبة في تأبين المرحوم عبد الحميد الديب فأجبت، وكانت نيتي أن أقول رأيي علانيةً في الحياة التي يحياها مثل ذلك الأديب، لئلا يكون الإكثار من الثناء عليه إغراء لذلك اللون من الحياة القفراء
ثم رأيت الحفلة فوق ما كنت أنتظر، فقد اشترك فيها خطباء وشعراء من الطراز الجيد، وحضرها جمهور من أفاضل الناس، وتلى فيها خطاب أرسله وزير الشؤون الاجتماعية وخطاب أرسله وزير الأوقاف. وتلك مظاهرة أدبية تمنع ما أردت أن أقوله في نقد الحياة التي اختارها ذلك الشاعر المسكين
ولكن هذه المظاهرة بدت لي باعثاً جديداً على أن أقول ما نويت أن أقول، فقد تجسم التخوف من شيوع البوهيمية بين فريق من أدباء الجيل الجديد، وخفت أن تكون هذه المظاهرة دعوة إلى تحلل الأديب من واجبات الحياة في نظامها اللائق بأهل البيان وكذلك انطلقت فقلت: إن عبد الحميد الديب كان على جانب من الأدب والذكاء، ولكنه ظلم نفسه حين انخدع بالرأي المنحرف، وهو رأي من يتوهمون أن البؤس يذكي المواهب، ويزيد من يقظة العقول. وقد آمن بهذا الرأي إيماناً فرض عليه أن يجعل همه في الوصول إلى الظفر بلقب (شاعر البؤس)، وهو لقب لا يتمناه لنفسه إلا من حرم نعمة التوفيق. وماذا جنى عبد الحميد الديب من ذلك اللقب الطنان! كل ما جناه أن يعيش في رحمة المترحمين، ولا يحتاج إلى الترحم غير المساكين، وإذا كان الأدب لا يمتع أهله لغير المسكنة فعليه اللعنة إلى يوم الدين!
ثم قلت:
أين الشريعة التي توجب أن نذل أنفسنا في سبيل الأدب؟
وما قيمة الأدب إن لم يجعلنا أعزاء؟
وما هذه الخرافة التي تقول بأن من حق الأديب أن يعيش بلا مهنة تغنيه عن سؤال الناس؟
وكيف نهدي الناس إلى الخير ونحن نستهديهم المال؟
هل ننسى قول أبي العتاهية:
لو رأى الناس نبيًّا ... سائلاً ما وَصَلوهَ
إن الاحتياج إلى الناس بداية الانخذال، ولو كانوا من الأهل والجيران، فإن احتاج الأديب إلى معونة إخوانه وهو قادر على كسب الرزق بعرق الجبين فهو أديب زائف لا أديب صحيح
من واجب الأديب نحو أدبه أن يصونه عن إفضال المفضلين، لينطق بكلمة الحق في حرية وصراحة وإخلاص، وهذا لا يتيسر للأديب المحتاج إلى الإفضال
هل تذكرون ألقاب شعرائنا وعلمائنا في العصور الخوالي؟
كانت ألقابهم أنساباً إلى الحرف والصناعات، ففيهم الزجاج والقفال، والتمار والوقاد، والصبان والبنان والسراج والحداد والزيات واللبان، وكانت هذه الأنساب من أجمل التشاريف، وهي باقية على الزمان
وإذا كان التاريخ سجل أسماء تكسب أصحابها بالأدب فقد كان أولئك المتكسبون من حواشي الملوك. وقد اصطلح الناس بكل زمان ومكان على أن هبات الملوك تحيات لا معونات
وهل يتقدم ملك بتشجيع أديب إلا وهو يعرف أنه يضع جوهرة جديدة بين جواهر التاج؟
وما حظوظ الأدباء الذين ظفروا بهبات الخلفاء والملوك والأمراء؟ ما حظوظهم في

التاريخ؟
كانوا من الموجهين في الحيوات السياسية والأدبية والاجتماعية، وكان إليهم المرجع في تدبير شؤون الملك، وكانوا المتصرفين في شؤون السلم والحرب
فما هو حظ الأديب الذي ينتظر هبات من أدباء لا ملوك؟
أعاذكم الله من احتياج الزميل إلى الزميل!
إن قتل النفس أهون من الاحتياج إلى الأخ الشقيق، فكيف نستسيغ الاحتياج إلى الرفيق؟
وفي أدبائنا من يتوهم أن نظم أبيات في هذا الفلان أو ذلك العلان تمنحه الرزق، فإن صح توهمه فسيكون رزقه من الرزق الحرام لا الحلال
إن رزق الأديب من الذوق، واللمحة الواحدة من طلعة البدر قد تكون زاده الروحي إلى آخر الزمان
إن الأديب الحق ليس أسيراً للوطن ولا أجيراً للمجتمع، فكيف يكون أسيراً لفلان، أو أجيراً لعلان؟
وعبد الحميد الديب لم يقتل نفسه عامداً متعمداً، فأنتم خدعتموه وضللتموه، وفرضتم عليه أن يستغيث بمعروفكم يا أشحاء!
تقول العبارة المصرية (فلان يقتل المقتول ويمشي في جنازته) وأنتم القتلة لذلك المخلوق الذي وثق بكم، وأنتم حملة المصاحف أو القماقم بجنازته العجفاء، فما قيمة براعتكم في الرثاء!
إن دموعكم يا قاتليه لن تنجيكم من غضبتي عليكم
فاسمعوا هذه الكلمة، واعلموا أن بكاءكم في هذا الاحتفال سيمر بلا ثواب، وقد يكون مجلبة العقاب، لأنكم تزينون لسامعيكم حياة لا ترضونها لأنفسكم إلا مكرهين
ثم قلت: وماذا في خطاب وزير الشؤون الاجتماعية؟
إن فؤاد باشا سراج الدين يعد بأن سيضع نظاماً يقي الأدباء شر التشرد، وأنا باسمكم أعلن استقلال الأدب عن الحكومة، فما يجوز أن نطلب الاستقلال لبلادنا ونطلب الحماية لأقلامنا
إن تطوعت الدولة برعاية أديب أعجزه المرض عن طلب الرزق فذلك عمل يستأهل الثناء، ولكننا نرفض حمايتها لأديب يستطيع كسب القوت، ولو بالفأس والمحراث
نحن لا نطالب الدولة بشيء وإنما نطالب أنفسنا بكل شيء، فمن الواجب أن تكون لنا مشاركات في جميع الميادين، ومن الواجب أن نكون رجال أعمال، كالذي صنع شيخنا طلعت حرب، فقد حول ذوقه الأدبي إلى الاقتصاد. وبهذا استطاع أن ينظم أعظم قصيدة عرفتها اللغة العربية، وهي (بنك مصر) ثم أردف القصيدة بمقطوعات هي تلك الشركات
وإذا بدا لنا أن ننسحب من ساحات الثراء فليكن انسحابنا عن زهد لا عن يأس، ولنكن في فقرنا نساكاً لا عاجزين، فالنية التجرد عن الدنيا نية مقبولة، على شرط أن تكون من وحي التحليق لا وحي الإسفاف
إن الأمم القوية تستطيع تلوين الأنظمة السياسية بشتى الألوان، وتستطيع أن تبلغ صوتها
إلى آفاق الشرق والغرب، وتستطيع أن تعقد المعاهدات وتثير الحروب، ولكنها لا تستطيع خلق الأديب، لأن الأديب لا يخلقه غير فاطر السماء
الدنيا لنا، إن شئنا، فالمواهب الأدبية أعظم المواهب، ولو بذلنا في طلب الدنيا معشار ما نبذل في طلب الأدب لكنا أغنى الناس، فلتكف الدولة برها عنا، فنحن كأشجار الصحراء، لا نرجو غير ندى السماء
أيجود الله علينا بالأدب ويبخل بالرغيف؟
قولوا كلاماً غير هذا، فلن يتخلى الله عنا، وسنظل بفضله أغنى الأغنياء
الصديق
في هذه اللمحة صلصل الهتاف مؤذناً برحيل الأستاذ طه الراوي عن القاهرة بعد دقائق، فما الوسيلة لتوديع رجل كانت داره ولن تزال دار المصريين في بغداد؟
حين تقرر سفر الأستاذ صادق جوهر إلى العراق كان من الواجب أن أقابله أنا والدكتور عبد الوهاب عزام لندله على أصدقائنا هناك، وقد دللناه على رجلين: طه الراوي ورضا

الشبيبي، مع حفظ الحقوق لسائر من عرفناه من كرام الرجال بوطن دجلة والفرات وقد كان عجباً للناس أن يروني أذكر العراق بالخير في كل وقت، وفاتهم أن يعرفوا أن المصري حين يشرق لا يكون همه إلا معرفة الكنوز المجهولة من فضائل الشرق ونحن عرفنا العراق، فهل رأينا فيه غير الجميل؟ ولنفرض أن فريقاً ممن عاشوا في العراق عانوا بعض المتاعب، فمتى خلت الحياة مما يكدر الصفاء؟

وهل نجد السعادة كاملة في أي أرض حتى ننشدها كاملة في العراق؟

إذا عز علي أن أصافح الأستاذ طه الراوي وهو راجع إلى بغداد فلن يعز علي أن أخلق ألف فرصة وفرصة للحديث عما يتحلى به من شمائل وآداب

قلدوا قلدوا

كان الأستاذ عبد الجبار الجلبي قد صارحني بأنه غير راضٍ عن القاهرة، لأنها أصبحت صورة منقولة من المدائن الأوربية، وقد أجبت بأن مزية مصر هي سرعة النقل، وقد نقلت مصر فكرة الانتفاع بالسكك الحديدية قبل أن ينقلها الأتراك، مع أنها كانت في ذلك الوقت

ولاية تركية

وحين دخلنا سنتريس قال السيد عبد الجبار: إن مدخل سنتريس مدخل قرية أوربية لا قرية شرقية، فكيف انتقل التقليد إلى الريف؟

فأجاب الأستاذ الراوي: لقد حان الوقت لتبديد النصيحة السخيفة، نصيحة من يقول: لا تقلدوا مثل القرود، فكما كان القرد أذكى من الحيوان إلا لأنه يقلد كما يقلد الإنسان، وهل كان الحمار حماراً إلا لأنه يغفل عن التقليد؟ وهل أفلحت إنجلترا إلا بتقليدها ما يجد من الاختراعات الأوربية والأمريكية؟ قلدوا مثل القرود، ولا تغفلوا غفلة الحمير، فنحن نرى قرداً يعلو ظهر حمار، ولا نرى حماراً يعلو ظهر قرد

الشيخ المراغي

في محطة القاهرة رأينا شيخاً من بعد، فقال ضيوفي؛ من هذا الشيخ المهيب؟ فقلت: هو الشيخ المراغي، فتعالوا نسلم عليه، لتقولوا إنكم سلمتم على شيخ الأزهر الشريف وأسرعت فاستوقفت الشيخ ليسلم عليه ضيوفي، فقال الشيخ حين رآهم: هل جئتم للسؤال عن طبيب ليلى المريضة في العراق؟

فقال الأستاذ الراوي: يا سيدي، إن الناس (يقولون ليلى في العراق مريضةٌ) هم يقولون، يقولون

فهتفت: وأنا أيضاً أقول، وليلى تفهم ما أريد

وفي القطار قال الأستاذ الراوي: إن الأزهر لم ير مثل الشيخ المراغي منذ ثلاثمائة سنة. فقلت: وهل تنسى الشيخ محمد عبده؟ فأجاب: الشيخ محمد عبده شخصية دولية لا أزهرية، ولو كان الشيخ عبده في صبر الشيخ المراغي لأتى في إصلاح الأزهر بالأعاجيب. إن الشيخ عبده كان ثائراً، والثوار لا يسلمون من أذى الجهلاء، أما الشيخ المراغي فهادئ، وهدوء المصلحين يشبه هدوء الينابيع المطمورة في جوف الأرض، فهو يتحرك والناس يظنونه في سكون. ولقد قرأت له كلمات في تفسير بعض آيات القرآن تضعه في الصف الأول بين رجال الاجتهاد

قلت: والحكم بأن الأزهر لم ير مثل الشيخ المراغي منذ ثلاثمائة سنة فيه جور على أسلافه من الأكابر، وفيه جور على الذاتية المصرية، وسأدعو الأستاذ الأكبر إلى وضع كتاب

تسجل فيه المناقب الكريمة لمن تولوا مشيخة الأزهر الشريف

النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة

منذ أعوام أخرج الأستاذ إبراهيم مصطفى بحثاً طريفاً سماه (إحياء النحو) فرد عليه الأستاذ محمد عرفة بكتاب جيد سماه (النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة)، ومن ذلك البحث وهذا الكتاب ظفرنا بثروة أدبية تذكر بالجهود الكريمة للنحاة القدماء

وكان المنتظر أن يتشعب الجدل بين هذين الرجلين، وأن تثور حرب نحوية تنتهي بأن يكون للمصريين مذهب في النحو ينافس مذاهب البصريين والكوفيين والبغداديين ثم لاحت فرصة الجدل حول (تيسير النحو)، فظهرت أبحاث تبشر بطلائع جديدة في الدراسات النحوية، وتبعتها تعقيبات في الجرائد العراقية والسورية

ثم ماذا؟ ثم سكتت الأصوات، وانصرف المجادلون عن حومة الجدال، مع أن النحو لن

يحيا إلا إذا صيرناه من المشكلات العقلية، لنجذب إليه أنظار المتأدبين، ولننفض عنه غبار الخمول، فهل نرجو أن تثار معركة النحو من جديد؟

زكي مبارك

1 - نشأة الدرامة الإنجليزية

للأستاذ دريني خشبة

لا نرى بدا، ونحن ندعو إلى سلك الأدب المسرحي في الأدب العربي، من أن نضع موجزاً نافعاً عن نشأة الدرامة في كل من الممالك الأوربية بين أيدي أدبائنا الشباب الذين نعتمد عليهم في إحداث تلك الثورة في الأدب العربي، أولئك الشباب الذين لم يتيسر لهم تعلم لغة أجنبية ينفذون منها إلى الثقافات الأدبية الحديثة، أو الذين تعلموا إحدى تلك اللغات، ثم صرفتهم شواغلهم الكثيرة عن التفرغ لدراسة آدابها، وأدبها المسرحي بوجه خاص، وسنحاول في هذه الخلاصات أن نجعلها مشوقة مثيرة لحب الاستطلاع في نفوس القراء، بحيث نباعد بينها وبين الجفاء العلمي ما وسعنا إلى ذلك من سبيل. . . أما لماذا آثرنا أن نبدأ بنشأة الدرامة الإنجليزية فذلك لما لها من المنزلة التي لا تجحد بين زميلاتها من الدرامات العالمية؛ ثم لأنها في نظري على الأقل، توائم الكثير من مشاربنا في الحياة بما نتوخاه من الفضيلة، وتفيض به من الرجولة الكاملة، ولأنها في الجملة ذات أغراض عالمية، وأهداف أرفع

وقبل أن نخوض في تفاصيل نشوء الدرامة الإنجليزية، نرى أن نلم شعث هذا البحث الطويل المتشعب في عجالة قصيرة نستعين بها في ضبط الموضوع كله، وإليك هذه العجالة:

1 - نشأت الدرامة الإنجليزية في طورها الأول في ظل الكنيسة، وكانت تنقسم في ذاك الطور البدائي إلى قسمين، أو إلى نوعين: الأول، النوع الإنجيلي، أو السمعي، وكانت موضوعاته وشخصياته مستمدة من الإنجيل أو الكتاب المقدس بوجه عام. ويسمى هذا النوع بالإنجليزية: أما النوع الثاني فهو القديسي أو الكرامي. وموضوعاته وشخصياته مستمدة من حياة القديسين المسيحيين وكراماتهم ولذلك سماه الإنجليز

2 - أما الطور الثاني فهو الطور (النقابي)، وهو الذي كان يتولى جميع شئون التمثيل فيه أو من أصحاب الحرف المختلفة، وكانت معظم دراماتهم من النوع القديسي أو الكرامي

3 - ثم الطور الأخلاقي، وهو الذي ينسخ الدرامات الإنجيلية والقديسية ويحل محلها درامات أخلاقية أبطالها وموضوعاتها الفضائل والرذائل، لا زيد ولا عمرو، فيلبس رجل لباساً شنيع الهيئة ليمثل الشر، ويلبس رجل آخر لباساً جميلاً ليمثل الخير، وهلم جرا، ويدعي النقاد الإنجليز المسرحيون المحدثون أن المذهب التعبيري الذي قام في ألمانيا قبل الحرب الحاضرة إنما قام على أنقاض هذا الطور الأخلاقي من أطوار نشوء الدرامة الإنجليزية، وقد أشرنا إلى ذلك في كلامنا على المسرح الألماني، وسوف نعود إليه إن شاء الله في حينه. وقد نشأ إلى جانب الدرامات الأخلاقية أو ال كما يسمونها نوع مستقل فكاهي من قبيل (الفواصل) المضحكة التي تعمل في الحفلات عندنا، ولذلك فهم يسمونه: ولا بأس من الإشارة في هذه العجالة إلى أن النوع الأخلاقي إنما نبتت جذوره في النوع الإنجيلي، وذلك لأنه يمثل الجد والوقار والاحتشام الذي يقتضيه الدين ويلازم كل ما له علاقة بالكتاب المقدس. وأن نوع الفواصل إنما نبتت جذوره في النوع القديسي أو الكرامي، لأنه يمثل الهزل ويعنى بالتضحيك والسخرية

4 - أما الطور الرابع فهو طور المأساة العظيم الذي شق للأدب الإنجليزي طريقه إلى تسنم الذروة بين الآداب العالمية جمعاء

ويلاحظ في هذا التطور أنه يشبه إلى حد بعيد تطور الأدب المسرحي عند اليونان القدماء. . . ذلك الأدب الذي لخصناه لقراء الرسالة منذ ثلاث سنوات.

الطوران الأول والثاني

لما كانت أغلبية الشعب الإنجليزي أغلبية أمية لا تقرأ ولا تكتب، ولما كان كتاب هذه الأغلبية المقدس مكتوباً لها إما باليونانية أو اللاتينية، وذلك قبل أن يترجم إلى الإنجليزية، فقد كان رجال الدين يلقون الأمرين في تلقين الشعب مبادئ دينه، كما كان يتعذر تلقينهم قصص التوراة وقصص الإنجيل، مما لابد لكل شعب متدين أن يلم به، لما فيه من العبرة والموعظة الحسنة، ولما له من الأثر في غرس محبة الدين في القلوب

المؤمنة، والتغلغل به في سويداءاتها. . من أجل ذلك اضطر رجال الدين إلى استخدام التمثيل وسيلة فذة لبلوغ أربهم إلى ألباب الشعب والوصول في سرعة ويسر إلى تثقيفهم بثقافة كتبهم المقدسة فنجحوا في ذلك نجاحاً باهراً على الرغم من أن جميع الدرامات الإنجليزية التي كان يمثلها القسس أنفسهم في البيع والكنائس إنما كانت تمثل باللغة اللاتينية، تلك اللغة التي كان الشعب قليل الإلمام بها، حالة مسلمي الترك والهند والصين وجاوة اليوم باللغة العربية.

وكان القسس يحافظون بقدر المستطاع على حرفية الكتاب المقدس في التمثيل، وإن كانوا أحراراً في اختيار الملابس التي يرونها لائقة ووافية بالغرض. ولهذا لم تكن الدرامات الإنجليزية تصادف من النجاح وإقبال الشعب ما كانت تصادفه الدرامات القديسية أو الكرامية المستمدة من حياة القديسين وكراماتهم الخارقة، لما كانوا يتمتعون به من حرية في صوغ الحوار وتكييف الحوادث تكييفاً يسهل خلق الجو المسرحي، ويطلق العنان للمبالغة في الأداء لضمان السيطرة على ألباب الجماهير والضرب على أوتارهم الحساسة، ثم لما في الخوارق من عناصر الخيال والخروج على مألوف الحياة العادية مما يضمن نجاح ذلك النوع من التمثيليات بالقدر الذي لا يتفق للتمثيليات الإنجليزية. أما أمثلة الدرامات الإنجليزية فكثيرة. وهي تشمل كل ما جاء في الكتاب المقدس من قصص رائع معروف من الجميع

أما الدرامات القديسية فقد زاد في نجاحها وضاعف من إقبال الجماهير عليها أداؤها بلسان الشعب باللغة الأنجلوسكسونية. وكان ذلك لأول مرة إبان حكم الملك إدورد الثالث (1327 - 1377) أي في منتصف القرن الرابع عشر على وجه التقريب، وهو التاريخ الذي يعتبر بحق فجر النهضة التمثيلية في إنجلترا. وكان لهذه الدرامات مواسم تمثيلية تشبه ما كان عند اليونان منها. وكانت هذه المواسم هي الأعياد الدينية بوجه عام مثل: عيد الميلاد، وعيد الفصح أو عيد القيامة وأحد العنصرة أو ال وعيد الجسد أو القربان المقدس ولا غرو أنه كانت هناك مناسبات خاصة لتمثيل هذه الدرامات، فمن ذلك حفلات الزفاف واستقبال الملوك وقيام الحجاج إلى الأراضي المقدسة والمناسبات السياسية وتدشين البنايات الهامة. . . الخ. . .

ويمضي الزمن، ولشدة إقبال الناس على التمثيل، بحيث لم تعد هيئة الإكليروس كافية للقيام بتمثيل مئات الدرامات التي ظهرت بناء على قانون العرض والطلب، انتقل زمام التمثيل من أيدي القسس إلى أيدي رجال النقابات التي كانت تمثل الطوائف المختلفة للعمال. وهذا هو الطور الثاني الذي ازدهر فيه التمثيل الإنجليزي أيما الازدهار، وذلك لروح التنافس بين هذه النقابات، ولما كانت تلك الطوائف تنفقه من المال والجهد والعناية وتحري أصول الإخراج لتبلغ دراماتها القديسية حد الإتقان، ولما حدث بعد هذا من التنافس بين المدن الإنجليزية للوصول بتمثيلياتها إلى حد الكمال. فهذه لندن، وتلك دبلن، ثم يورك وشستر وكوفنتري ولانكاستر. . . وكل المدن الكبيرة وكثير من أمهات القرى الإنجليزية، تبذل من العناية والمال في ذلك ما كانت تبذله أثينا من مدن اليونان القديمة. بل ربما زادت عليها كثيراً.

وكانت كل نقابة تصنع مسرحاً متحركاً فوق عجلات أربع أو ست، مركب من طابقين يستعمل الممثلون السفلي منهما لتبديل الملابس ولعمل الدمام (المكياج) وتؤدي التمثيليات في الطابق العلوي. وكانت هذه العربة أو ال تطلى بألوان غريبة تلفت النظر، وكانوا يستعينون على تكوين المناظر بوسائل فجة، فكان السحاب مثلاً يرمز إليه بأقمشة داكنة أو بيضاء حسب المنظر المطلوب. فإذا كان المراد أن يبرز ملاك من بين السحب انفجرت سحابتان وبرز من بينهما تمثال خشبي لهذا الملاك؛ أما الشجر فكان يمثل بأشجار اصطناعية، وكذلك البيوت والمدن والقلاع والحصون. كما كان يرمز إلى الجحيم بوجه كبير مسخ، ذي أنف أحمر ضخم، وفم مهول تبرز منه أنياب مرعبة متحركة. أما العينان فكانتا كوتين كبيرتين في هذا الوجه، وكان يوضع خلفهما مشعلان فينفذ اللهب من الفجوتين فيضاعف في شناعة ذاك الوجه. وكانوا يستعينون ببرميل ضخم يطبلون داخله بآله لأحداث صوت الرعد، أما العواصف فكانوا يحدثونها بنفخ قرب كبار تشبه منفاخ الحدادين، ثم يسلطون الهواء المنبعث منها على أقمشة رقيقة فتوهم الأثر المنشود

وكانت الجياد تجر هذا المسرح من حي إلى حي، ومن ملتقى شارع كبير بشارع كبير آخر، ومن ميدان إلى ميدان. وفي كل من هذه (المواقف) تمثل رواية من تلك الروايات القديسية فيجتمع الناس، ويزاحم الشعب بالمناكب، ويتركون متاجرهم مدفوعين بعامل حب الاستطلاع، والتفرج بالمجان بهذه الفرج المليحة التي تنشر الهدى، وتسكب النور في ظلمات القلوب، وتفتح أبواب الجنة للضالين، على حد ما وصف أحد القسيسين تلك المسارح. وكان الجمهور لهذا السبب ينتظر أعياده ويرتقبها بصبر فارغ وتشوف عظيم، لينعم بشهود تلك الدرامات التي يلتمس فيها مثله. وكان التمثيل يبدأ قبيل العيد بأيام وينتهي بعيده بأيام أخرى، ولذلك فطالما كانت الأعياد الدينية تنقلب فتكون مواسم تمثيلية يتثقف بها الشعب ويتصل فيها بالقديسين والشهداء من أبطاله الدينين اتصالاً وثيقاً. وكانت النقابات تبتكر الوسائل الممكنة للحصول على المال الذي هو عصب كل مشروع يرجى نجاحه، فلما آنست من الناس هذا الإقبال على شهود دراماتها، لم تر ضيراً في أن تنتهز تلك الفرصة لتعرض مشروع (المزاد التمثيلي!) وكان ذلك في سنة 1417 فالحي الذي يعطي مزاداً أضخم من الحي الآخر هو الذي يفوز بتمثيل الروايات فيه، والمنزل الذي يهب النقابة مبلغاً أكبر هو الذي يسعد بوقوف المسرح المتنقل قريباً منه ليسهل على أهله التفرج والاستمتاع في هدوء وراحة وإدلال على الناس وقد وفقت النقابات إلى تنظيم العمل فيما بينها، وتقسيمه تقسيما لا يضر بكيانها، ذلك الأضرار الذي يسببه التنافس أحياناً مهما يكن تنافساً شريفاً مشروعاً. وكان يراعى في ذلك التقسيم أن تتناسب الدرامات ونوع المهنة التي تمثلها النقابة، ففي عيد الفصح تمثل نقابة الدباغين درامة (سقوط الشيطان) وتمثل نقابة تجار الأقمشة درامة (الخلق والسقوط) & في حين تمثل نقابة السقائين أو نقابة صيادي السمك درامة (طوفان نوح). وكانت بعض هذه الدرامات تنال من استحسان الجمهور ما يقتضي استمرار عرضها وتمثيلها مرات متتالية أياماً متوالية، فقد حدث أن استمر عرض رواية (أمور من قصة خلق العالم) ثمانية أيام متتالية، وذلك في عهد الملك هنري الرابع سنة 1409 في حي إسلنجتن بلندن. ولم تكن هناك أية عناية أو احتفال بالمناظر المسرحية المعروفة اليوم، في حين كانت العناية الفائقة قاصرة على الملابس، والأدوات التي لم يكن بد من استعمالها أثناء الأداء، فهنا كانت النقابات تنفق عن سعة، ففي رواية (يوم العدالة) مثلاً، وهي من أكثر الروايات في الممثلين عدداً، كان الممثلون الذين يؤدون دور (العاصين من أهل جهنم) يرتدون ملابس من الكتان صبغت بالأصفر والأسود والأحمر إشارة إلى الألوان السائدة في الجحيم. أما الممثلون الذين يؤدون دور (الأرواح السعيدة الناجية) فكانوا يرتدون ملابس بيضاً من الجلد الرقيق المدبوغ؛ وإذا تصورنا عدد أولئك الممثلين في مثل هذه الرواية، أدركنا المبلغ الضخم الذي كانت تصل إليه أثمان ملابسهم المصنوعة من تلك الجلود الغالية، وذلك بالإضافة إلى أجور الممثلين التي كانت تتراوح بين أربعة عشر بنسا وأربعة شلنات، وهي تسوي عشرة أضعافها بعملتنا الحاضرة. . .

ومن الروايات التي كان إخراجها يتكلف كثيراً من النفقات نوع تنكري يسمى الماسك ومنه النوع التنكري الإنجليزي المسمى والذي كان الممثلون يرتدون فيه أغلى أنواع الملابس وأشدها بريقاً ولمعاناً - وقد أتى هذا الطراز إلى إنجلترا من إيطاليا ثم انتشر في عصر الملك إدورد الثالث، ثم ألف فيه المسرحي الإنجليزي العظيم بن جونسون الروائع والغرر

ولعل أقدم الدرامات القديسية التي وصلتنا من هذه العصور هي تلك الدرامة المسماة (القديس نيقولا) والتي ألفها باللاتينية أديب إنجليزي من أدباء القرن الثاني عشر اسمه هيلاريوس وقد أهداها إلى كنيسة القديس المسمى باسم درامته. وملخصها: أن رجال الكنيسة في عيد هذا القديس يرفعون صورة القديس نيقولا من موضعها في الكنيسة، ثم يجلس في مكانها ممثل بارع يستطيع أن يضبط حركاته ويحبس أنفاسه بحيث يظن من يراه، بل يتأكد، أنه تمثال وضع هناك للقديس صاحب الكنيسة؛ وحينما تنتهي الصلاة وتعقبها تلك اللحظه من الصمت الرهيب، يقبل رجل كافر لا دين له من أغنياء المدينة، مختالاً في ملابسه الزاهية، حاملاً كيساً كبيراً فيه جواهره ونقوده، حتى إذا وصل إلى

حرم القديس ألقى حمله عند قدمي التمثال وسأله في تأدب واحتشام أن يحرسه له حتى يئوب من سفره. . . لكن لصوصاً يسرقون ثروة الرجل. . . ويعود الكافر فلا يجدها. . . ويجن جنونه لهذا السبب، ثم يتناول سوطاً فيلهب به كتفي القديس الذي ينزل من مقامه في تؤدة ووقار على الرغم من السياط التي تمزق جلده ويذهب نحو اللصوص فيخاطبهم ويعظمهم وما يزال بهم حتى يردوا كيس الرجل. . . ويعود القديس إلى مجلسه ويتربع عليه، فيخر الكافر نادماً. . . ويؤمن من فوره.

(يتبع)

دريني خشبة

المشكلات

اللغة العربية - 4

للأستاذ محمد عرفة

لماذا أخفقنا في تعليمها؟ - كيف نعلمها؟

في الأمثال العربية - قتلت أرض جاهلها، وقتلت أرضا عالمها - ومعنى ذلك أن من سلك أرضا وكان جاهلاً بطرقها ضل وهلك، ومن سلك أرضا وكان عالماً بمسالكها قطعها ونجا منها. وهذا لا يختص بالأرض والمسافر، بل يعم كل من يزاول أمراً من الأمور، فإن زاوله عالماً به تغلب عليه، وإن زاوله عن جهل خاب فيه

للعلم سلطانه القاهر، والتسلح به متسلح بسلاح الظفر، وللجهل عثراته الموبقة، والمتسلح به متسلح بسلاح مفلول. إن الأمم التي تحل مشاكلها مستضيئة بنور العلم تنجح فيما تحاول، وتتغلب على الصعاب التي تعترضها، والأمم التي لا تستهدي العلم ولا تستشيره في مشكلاتها، لا تكاد تحل لها مشكلة

وما الفرق بين الأمم المتحضرة والأقوام الهمج، إلا أن الأولى آمنت بالعلم وبسيطرته على الوجود، فسعت للكشف والمعرفة، وكلما علمت شيئاً استفادت منه في حياتها، وأن الثانية لا تؤمن هذا الإيمان بالعلم، ولا تعترف له بهذه القدرة، فهي تحل مشاكلها بما يأتيها به عفو الخاطر، فتعثر دائماً ويلج بها العثار

وخير علاج ما يكون مبنياً على طبائع الأشياء، فأول ما يبدأ به معرفة طبيعة الشيء، ثم يعالج على حسب هذه الطبيعة وبنور هذه المعرفة

وعلى هذا فخير ما يعمل لحل مشكلة اللغة العربية أن تعرف طبيعتها ومن أي جنس هي! وما خصائص هذا الجنس! وقد أدركت ذلك واقتنعت به، ونريد أن نقنع به القراء قضيتان إن آمنتم بهما سلمتم معنا بما نريد: إحداهما أن اللغة في المتكلمين بها ملكة. ثانيتهما أن الملكة لا تكتسب إلا بالتكرار لا بالقواعد فحسب

إذا استطعت أن أقيم الدليل على هاتين القضيتين وصدقتم بهما وجب أن تصدقوا أن اللغة لا تكتسب بالقواعد فحسب، بل بالتكرار والحفظ والمحادثة، وسأحاول ذلك فيما يأتي:

اللغة: أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم. والتعبير باللغة والفهم عنها يقتضي أمرين:

1 - السرعة؛ فكلما خطر بباله معنى خطر اللفظ الدال على مفرداته، وخطر التركيب الدال عليه في وحاء، وكلما سمع جمله فهم معاني ألفاظها وما يدل عليه التركيب

2 - الإجادة؛ وذلك بأن يكون جارياً على قوانين هذه اللغة لا يخطئ فيها، وذلك لا يكفي في أن تكون اللغة معلومة فحسب، بل لا بد أن تكون ملكة، أي حالة راسخة في النفس، لأنها إذا كانت معلومة علماً ساذجا ولم تصر ملكة، وأراد المتكلم التعبير عن معنى، فكر وروى في اللفظ الذي يدل على ذلك المعنى، واستعرض الألفاظ المخزونة في حافظته حتى يعثر به، ثم فكر فيما يعلمه من تراكيب هذه اللغة ليختار التركيب الذي يفيد ذلك المعنى، ووضع اللفظ في هذا التركيب، وأعطاه الأحوال المناسبة، وذلك يقتضي جهداً وزمناً، وربما ينقضي بياض النهار وسواد الليل في تعبيرين أو ثلاثة، ما دامت اللغة علماً ساذجا. أما إذا عمقت إلى أن صارت ملكة، فإنه إذا أراد التعبير عن معنى انثالت عليه الألفاظ، وانثالت عليه التراكيب دون جهد ومشقة، سريعاً لا يبطئ، مصيباً لا يخطئ

وقياس ذلك قياس العامل الذي يصف الحروف للطبع، فإنه إذا كان مبتدئا واقتصر على العلم بأمكنة الحروف، وأراد بعد هذا العلم الساذج أن يصف حروف كلمة اقتضاه ذلك

من التفكير والجهد والزمن ما ليس بالقليل، وربما انقضى اليوم ولم يصف إلا بضع كلمات
أما إذا تجاوز ذلك إلى أن صار ملكة، فإنك ترى يده تلقط الحروف من هنا ومن هنا، وفكره يسبق يده، ويده تسبق فكره، حتى يصف في الدقيقة عدة كلمات
وهذا شأن الملكات كلها تأتي بالشيء بعجلة وإتقانٍ، وتريك العجب العجاب، ترى الأمر الذي له أجزاء كثيرة ويحتاج إلى فكر في هذه الأجزاء يأتي به صاحب الملكة دون فكر كأنما هو ساحر يأتي بالخوارق
رآني صديق أمي، كان قد بدأ في تعلم القراءة والكتابة أقرأ فهالته السرعة والإصابة، فقال أتظنني أصدقك في أنك تقرأ من هذا الكتاب؟ لا، إنك تقرأ من حفظك. أمجنون أنا حتى أصدق أنك تقرأ ما لا تحفظ؟ أفي هذه السرعة تعلم ما هذا الحرف وما الذي يليه وهكذا وتعلم حالاته أمفتوح أم مضموم أم مكسور أم ساكن، وإن تركيب ذلك يكون كذا؟ وهبك عرفت هذه الكلمة فكيف تعرف صاحبتها بهذه السرعة، وكيف تجمع من الحروف كلمات
ومن الكلمات جملاً، منطلقاً كالسهم، مصيباً كالقضاء؟
وهذا تفكير سليم لو أغفلنا من حسابنا أمر الملكات، ولكن الملكات كائنات من كائنات هذا الوجود، ولها هذا الفعل الغريب، والسحر العجيب. إن النجار الذي اكتسب ملكة النجارة يأتي بأعمال أشد إتقاناً وأسرع ممن لم يكتسب ملكة النجارة. إنه يدق المسمار بالقدوم مائة مرة، فلا تخيب منها مرة، حتى أن صاحبه ليمسك له المسمار وهو يدق آمناً أن تفلت منه ضربة فتصيب يده، ومن لم تكن عنده ملكة النجارة يدق مائة مرة فلا تصيب رأس المسمار منها واحدة
وإن المرء ليعجب للحائك كيف يسلك الخيوط في الخيوط المشدودة بحركة سريعة وإتقان عجيب لا يدخل الخيط في غير موضعه المراد له، ولا يعقد ولا يقطع. وإن الملكة لتدخل في أغلب أعمالنا فتجعلها أعظم إتقاناً وأسرع، وتجعلنا نأتي من الأعمال ما نحتاج إلى آلاف السنين لنعمله لو لم تكن عندنا هذه الملكات. فبالملكات نكتب ونقرأ ونتكلم ونحسب ونعمل في الصناعات المختلفة من حياكة وخياطة ونجارة وحدادة وطباعة مع الإسراع والإجادة والإحسان
ولولا الملكات لما قمنا بهذه الأعمال وسواها إلا مع الخرق والإبطاء كما أريناك في صفاف الحروف الذي لم يكتسب ملكة في صنعته. وإن الزمان لأسرع من أن ينتظرنا، وحاج الحياة شديدة الإلحاح تتطلب السرعة والإجادة، وإن قوة المرء محدودة لا تفي للعمل بدون ملكة لأن ما كان من الأعمال كذلك يقتضي من المرء جهداً ومشقة وتفكيراً تستنفد من قوته ومن دمه وأعصابه ما هو بحاجة إليه
وإنها لحكمة من الله عظيمة أن يخلق فينا الملكات فتجعلنا نجيب مطالب الحياة المتعددة بأقل ما يكون من الزمن، وأيسر ما يكون من الجهد، وأسرع ما يكون من العمل، لاسيما حاجة التخاطب. فالله أرحم بعباده من أن يقف التخاطب على هذه الجهود المضنية، والمتاعب الشاقة، والتخاطب عمل دائم، لا تنقضي منه حاجة حتى تتجدد حاج، ولا يفرغ المرء من خطاب حتى يستأنف خطاباً آخر، ولا يفرغ من فهم خطاب إلا إلى فهم مخاطبات أخرى وهلم جرا. . .
لقد قلنا الآن ما يمكن قوله في أن اللغات في الناس ملكات يقتدرون بها على الإفهام والفهم،
وأظن أن القراء آمنوا بذلك لما أوردته من الأدلة
وقد بقى أن أقول في القضية الأخرى وهي أن الملكة لا تكتسب بقواعد وإنما تكتسب بالمزاولة والتكرار
إذا استقريت الملكات ولاحظت كيف تتكون علمت أن الملكات لا تكتسب إلا بالدأب والمرونة وتكرار العمل لا بالقوانين والعلم المجرد. لاحظ صناعة صف حروف الطباعة تجد أن العامل إنما يكتسبها بمزاولة صف الحروف والتقاط الحرف من مكانه المخصص له وتكرار ذلك حتى تكتسب الملكة، وليس يكسبها بالعلم المجرد بأن من أراد صف كلمة فليأخذ حروفها المتعددة من أماكنها المخصصة لها وهكذا فإذا أتم صفحة وضعها بين ضاغطتين لمنعها من الشتات والانفراط
لاحظ صناعة الموسيقى تجدها لا تكتسب بقوانينها الفنية فحسب، فلا تكتسب بقول

الأستاذ اضرب بالخنصر والبنصر والسبابة وشد الأوتار؛ إنه بذلك لا يكون عازفاً ولا موسيقياً إنما يكون موسيقياً إذا زاول هذا الضرب مراراً وتكراراً، فأكسب أصابعه المرونة والسرعة والاستجابة لما رسمه في وحاء، ثم أكسب نفسه وذوقه بذلك الملكة في الموسيقى وفنها الجميل

ولو مكثت طول عمرك تقول لمتعلم الحياكة شد الخيط طولاً وأدخل فيها الخيوط عرضاً ذاهباً يمنة وذاهباً يسرة لما تعلم بذلك شيئاً من الحياكة؛ إنما يتعلمها بمزاولة هذه الأعمال حتى تكتسب يده الخفة والمرونة

ولو رددت على متعلم السباحة قولك اركض برجلك اليمنى في الماء، واضرب بذراعيك، لما تعلم بذلك السباحة، ولو سبح متعمداً على هذه القواعد لأدركه الغرق ولذهب ضحية القواعد والقوانين

الآن علمنا أن اللغة في المتكلمين ملكة، وعلمنا أن الملكة لا تكتسب بالقواعد، إنما تكتسب بالمرانة والتكرار، فليلزمنا شئنا أو أبينا الإقرار بأن اللغة لا تكتسب بالقواعد، إنما تكتسب بالحفظ والتكرار وهو المطلوب الذي حاولنا إثباته

أرأيتم أنني كنت مصيباً حين قلت يجب أن نحل مشاكلنا بالعلم، ويجب أن نعرف طبيعة الشيء وخصائصه لنبني الحل على هذه الطبيعة؟

أرأيتم كيف كنا نعلم اللغة على غير طبيعتها، أرأيتم كيف كنا نمثل دوراً مخجلاً، فكنا كمن يطرق الحديد وهو بارد فيشقى ثم يشقى والحديد لا ينطرق معه ولا يلين، فيهزأ منه من يراه، ويضحك ملأ شدقيه، ويرى كيف يشقى الجهل بطبائع الأشياء صاحبه، ثم لا يحظى بطائل ولا كبير فائدة

اكثروا من المطالعة في كتب الأدب. احفظوا الكثير من أشعار العرب. احفظوا ما تقدرون عليه من الخطب. ارووا الأمثال السائرة، والنوادر البارعة، والرسائل البليغة، والمحاورات العذبة. اخلقوا في بيئتكم المدرسية جواً عربياً لا تتحاورون فيه إلا بالعربية، فإن لم يكن ذلك في جميع الدروس ففي دروس اللغة العربية لتقوموا بروايات تمثيلية تحفظون أدوارها، وتستظهرون محاوراتها؟ وليمثل كل منكم دوره باللهجة العربية والتوقيع الخطابي

لا تكتفوا بالعام الدراسي بحفظ مقطوعات مقطوعة أو مقطوعتين، ولا برسالة أو برسالتين، بل فلوا دواوين الأدب واختاروا واحفظوا وأسرفوا في الحفظ، وطالعوا وأسرفوا في المطالعة، واكتبوا الرسائل، وحبروا المقالات على نمط ما تحفظون وغرار ما تألفون

بذلك وبذلك وحده تحوزون ملكة اللغة، وتملكون زمام البيان.

محمد عرفة

تصويبات في الذخيرة

لأبن بسام، المجلد الثاني، طبع كلية الآداب

للأستاذ محمد عبد الغني حسن

أخي الدكتور عبد الوهاب عزام

كان من حظي أن أكتب عن (الذخيرة لأبن بسام) في مجلة المقتطف شهر يوليو سنة 1943 كتابة سمح بها المجال المحدود. وقد أثنيت فيما كتبت على جهدك وجهد إخوانك الذين قاموا بضبط هذا الكتاب النفيس وتحقيقه، ولقد وعدت أن أبعث إليك بكتاب خاص أصحح فيه بعض أخطاء في الطبع وقعت في الكتاب على الرغم مما بذلتم من الجهد المشكور. إلا أنني فهمت من مقال لكم بالرسالة أنك بعيد عن القاهرة إلى ثغر لا أعرف عنوانك فيه، فرأيت أن ألقاك على صفحات الرسالة لقاء عاماً لا يغضبك لأنني أعرف عن رحابة صدرك وسماحة خلقك وحبك للعلم ما لا ينزلك منازل الغاضبين من أهل الادعاء ولأنني لقيت قبلك الدكتور محمد مصطفى زيادة لقاء عاماً في العدد (522) بشأن تصويبات في (كتاب السلوك) فما غضب ولا سخط كما يفعل المغرورون، ولكنه سر وفرح وسعى إلي ليشكرني أمام الأستاذ أحمد الشايب وبعض الزملاء؛ فأكبرت علمه وتواضعه. ولا شك أنك ستهلل لهذا اللقاء لأنه يسرك أن يكون العمل الأدبي الذي أشرفت عليه أنت وإخوانك الكرام في (كتاب الذخيرة) عملاً يقرؤه الأدباء والمتأدبون فيرضون عنكم ويستزيدونكم لتخرجوا كنوز تراثنا العربي سليمة مما يشوهها أو ينتقص من جمالها

ولا أحب في هذا المقام أن أكون مذيعاً، أو تفهم أنت يا أخي أني مذيع لهفوات في الكتاب لم تقصدوا إليها؛ ولكن الله شاء - كما يقول محمد بك رشدي في كتابه فن القضاء - أن يحكم على الكتاب العربي ألا يكون سليما من أخطاء الطبع وألا يخلو من جدول للخطأ والصواب، وألا يسلم من قيام بعض القراء على تصحيحه مهما بذل فيه من جهد. وذلك شيء لا يكاد يوجد في الكتب الأجنبية التي تعرف عنها كثيراً، وتقرؤها كثيراً فلا تجد وضعت موضع ولا تجد نزلت منزل كما نجد في الكتاب العربي كلمة ميزاب وضعت موضع ميراث. . . ولا أزيدك!

ورد في صفحة 10 سطر 4 البيت الآتي:

أبا لك أن تُهاض علاك عهدٌ ... هشاميٌّ وجدٌّ هاشمي

وأبا لك هنا فعل ماضي يكتب بالياء لا الألف ومضارعه يأبى. أي أن الذي منع علاك هيض علاك علو شرف آبائك.

وفي ص 38 س 17 (أعطي الملك محبُّ) بشدة فضمة. والصواب بضمتين هكذا محبٌّ

وفي ص 39 س6 ذكرتم ابن فتُّوح بشدة على التاء. ولكن في ص 274 عدتم فذكرتموه ثلاث مرات بضمة على التاء من غير الشدة، فأيهما الصحيح؟

وفي ص 40 س 15:

لما رمته العيون ظالمةً ... وأَثَّرْتُ في جماله الحدق

والصواب: وأثرتْ بتاء التأنيث الساكنة لا بتاء المتكلم

وفي ص 43 هذا البيت الناقص:

فقلت لها ... يا قلبها أحديد أنت أم حجرُ؟ . . . . . .

ولم تكملوا هذا البيت الناقص على كثرة المراجع في مكتبة الجامعة وقد عجزت أنا والكثيرين من الأساتذة والأدباء عن إكماله. فلعل من قراء الرسالة من يكمله؛ وهو - كما جاء في الذخيرة - للمأمون الحارثي.

وفي ص 44 س13

قتلوا قرة عيني ... ومنْ أجلي قتلوه

ووضع السكون على من يكسر لبيت والصواب وضع فتحة على النون وجعل الهمزة في كلمة أجلي همزة وصل. ومثل ذلك ما حدث في ص 69 س4؛ فالشطر:

وخذ على الربق منْ أسبابه

صوابه: وخذ على الربق مِنَ أسبابه - يجعل همزة أسباب همزة وصل وفتح النون من كلمة من

وفي صفحة 77 س 2، ضبطتم الفعل مُت بضم الميم والأعلى كسرها كما في قراءة حفص (يا ليتني مِت قبل هذا)

وفي ص 133 س 10 (أن لم أُجد التأبينَ فأُجدْ البكاء والحنين، وأن لم أُحسن التملقَ والأطراء فأحسنْ الخلوص والدعاء)، ولم أجد منكم تعليقاً على الفاء هنا في جواب الشرط

فليس ذلك من مواضعها، وما الذي جزم الفعلين أجدْ وأُحسنْ؟

وفي ص 215 س 16

عَساكِ بحق عيساك ... مَريحة قلبيَ الشاكي

بفتح الميم من مريحة. والصواب ضمها لأنها اسم فاعل من الفعل أراح من الراحة

وفي ص 222 س1

فكم صافحتني في مُناها يد المنى ... وكم هب عَرَف اللهو من عَرَفاتها

والصواب مِناها بكسر الميم، وهو المكان المشهور في الحجاز بدليل كلمة عرفات في الشطر الثاني

وفي الصفحة نفسها س 12

ولي أمل أن يُسعِدَ السعد نلتُه ... ويَفهَم سرَّ النفس في رمزاتها

والضبط كله مختل وصوابه:

ولي أمل إنْ يُسْعِدِ السعدُ نلتُه ... ويُفْهَمُ سرُّ النفس في رمزاتها

لأن كلمة إن في الأول شرطية، فهو يقول إن ساعدني الحظ السعيد نلت أملي. والفعل يفهم مبني للمجهول وكلمة سر نائب فاعل، والمعنى أن سر النفس يفهم مما ترمز به.

أما تعليقكم على هامش الكتاب رقم - 5 - فلا معنى له.
وفي ص 230 س 10
دَوَيْنِ الكثيب الفرد قُضبٌ وكثبان
والصواب دُوَيْنَ بضم الدال وهي مصغر كلمة (دون)
وفي ص322 س11 هذا البيت
لم أر أن أكون من رواته ... إذ هو معدود في هناته
والبيت كما ترون مكسور في شطره الثاني، ولم أعرف صحته
وفي ص 328 س15 (ونورثها إذا مُتنا بنينا) والصواب مِتنا بكسر الميم كما تقدم
وفي ص 236 س10
لم يَحْك نائَلك السحابُ وإنما ... حُمَّتْ به فصبيبها الرخصاء
والصواب الرحضاء بالحاء المهملة والضاد المعجمة
وفي ص 338 س1
فان كسدت أعلاق علمي عليهم ... فلا غرو أن يكسد لدى النعم الشذر
والصواب إن يكسد لأنها إن الشرطية
وفي ص 386 س 13
أيها العائب العذا ... ر وذو الجهل عائبه
بتنوين اللام الأخيرة من كلمة الجهل، والصواب حذف التنوين
وفي ص 391 س 15 (فشبه تبرك مُثْلُوَّا). ولم أفهم معنى هذه الكلمة ولعلها مجلوا كما في الهامش
وفي ص 394 س15
أو تباكر صَيْدَ ألمها فابنُ حَجْرٍ=أو تبكّي الديار فابن خذام
وابن حجر هو امرؤ القيس الشاعر الجاهلي فهل هو بفتح من حجر كما ضبطتم؟ والياء في الفعل تبكي لا داعي لها لأن الفعل مجزوم عطفاً على ما قبله. والصواب كتابتها هكذا (أو تُبكِّ) ولا ينكسر البيت على هذا
وفي ص 402 س 18
قل لأبي يوسف المنتقى ... الفاضل الأوحد في عصره
وضبط الفاء من يوسف بالفتح خطأ، لأن البيت ينكسر على هذا الضبط، والواجب أن ينون هذا العلم (أي يصرف) ليستقيم الوزن، فالأبيات من بحر السريع كما لا يخفى
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته
محمد عبد الغني حسن
من تواريخ الأدباء الشعراء في الأدب الفرنسي
جان دولافونتين
(1621 - 1695)
بنو آدم كالنبت ... ونبت الأرض ألوان
فمنهم شجر الصند ... ل والكافور والبان
للأستاذ محمد حسني عبد الله
تمهيد لحياته العقلية بحياته العاطفية
كان لافونتين قد أربى على الستين من سني حياته عندما صادف ذات صباح الآنسة (بوليو) وهي في جلال ربيعها الخامس عشر. فإذا ملأ عينيه من جمال لها يموج فيه الطرف، ورواء وحسن يبهران الأبصار، عرته بهتة وذهل عن نفسه، فهام على وجهه على غير هدى حتى التوت به الطريق واستغلقت عليه معالمها. وما زالت به الهيمة وقصاراه ترديد صورتها إلى أن أطبق عليه المساء وهو بعد لا يشعر أنه قطع مسيرة يوم مذ صادفها من مطلع الشمس إلى مغربها. ولم يكن يومه شاقاً ولا عسيراً. فهو يوم للحسن ملكت دولته خيال الشاعر كما في أي يوم مضى من شبابه. فقد طالما تعود أن يتذوق الجمال وأن يمضي مع أحلامه وهو يصور روائعه لخياله غافلاً عن الوقت ومره، والطريق ومعالمها، والحياة وصخبها ما التذ بالسير والخيال. وإنما كان يومه غريباً فهو لم يضل سبيلاً قبله. فكم من أرض قطع وكم من حزن أجاز وبطن هبط وهو في مسابح الأحلام، وفي كل مرة كان أهدى إلى بيته من قطاة. ولكن هزة الجمال الفتى أضلت، هذه المرة، الستين عاماً التي ينوء منكباه بحملها فما عاد يعرف سبيل

الرواح حتى التقى بخادمه عند الطريق. فعاد به إلى وكره. فلم يك بعد هذا ليبرح فراشه أياماً ثلاثة وهو ما يزال متأثراً بالوجه الصبوح الذي أهلت عليه فتنته بما لم يعهده من قبل في سلطان الجمال. وهكذا ما زال شيخنا مع الستين شاب القلب فتى العواطف. ولهذا معناه فما استهللت بهذه الأقصوصة إلا لتبيان أخص ما في خلق هذا الأديب الشاعر. فقد أصبح سهلاً الآن أن نستوضح تقديره للجمال لدرجة الافتتان به مجرد الجمال، إلى جانب بوهيميته ويسر أخذه

للحياة من مجرد تصرفه حيال رؤيته للصبية ترفل في الحسن. فهو إذ رآها قنع بمرآها وبصيان صورتها في ذهنه وبالخلاص من هذا بلذة معنوية حرفة فلم يعمد إلى مجاذبتها الحديث وعقد أواصر المعرفة معها تمهيداً لحاجة مادية - فهذا أبعد ما يكون عن طبعه - فهو إذن معني بالجمال لذاته. كذلك إذ قنع بهذه الشحنة المعنوية لأحلامه، اندفع في السير على غير متجه، وخبط في الأرض خبط عشواء، وهذا يفسر جانب البوهيمية في سجاياه. ثم أمضى يومه كله معنياً بما عاين لوقته، يسرح في رياضه سائم الطرف والبال، فأضاع يومه حالماً وما أيسر تناول الحالمين للحياة. ولندع الآن يسرد بقية القصة بنفسه لعلنا ندرك في قوله مزيداً إذ فسر لصديق عاتبه، سر انحجازه عنه هذه الثلاثة أيام التي توارى فيها فقال:

(لِمَ لم تتقصى يا صديقي أسباب انحجازي عنك طيلة هذه الأيام الثلاثة فأفضي إليك بدخيلة نفسي؟. . . إذن لقلت لك بلا مواربة إنني وأنا المسن لم أملك دفعاً لإغراء صبية أغراني بالحلم فيها جبينها وربيعها الخامس عشر، وعيناها الزرقاوان، وطراوة بشرتها الوردية، وسحر قسماتها ولمحاتها الذكية. ثم لأقمتك بعد القول حكماً باسم الجمال)

إلى هذا الحد من قوله قد تشم رائحة الإعجاب البدني حرفاً ولكنه يعود فيجلو لنا الجانب الساحر الرقيق من طبعه:

(ولكن. . . لو أن هذا المخلوق الإلهي الصغير الذي عكر صفو راحتي وهدوء شيخوختي قد صادف نصفه الحقيق به، لكنت أنأى الناس عن الحقد عليه. بل لكان هناءة لعيني أن أراه وحبيباً من لذاته. . . ولو أنه هزأ ضاحكاً من إعجابي به لما اضطغنت عليه. . . وإلا فلم كان أمثالي من الشيوخ الوامقين. . . أليس لإضحاك الحسان من الصبايا؟)

وههنا ما يستلفت الأنظار. فلافونتين لا تستأثر بقلبه الأثرة التي هي العنصر الغالب في عاطفة المحب. فهو يتمنى لكاعب زلزلت عنده وقار الشيخوخة وألهبت فيه برد عاطفتها كل توفيق مع حب غيره يكون أصلح وأنسب لفتاها وأليق لصباها. ثم هو يسخر من نفسه في يسر ورخاوة وقلة اكتراث كمن يهزأ من امرئ لا تربطه به رابطة أو صلة. ويصرح بعاطفة كان أولى به كتمانها في سن تدعو تجاريبها وحنكتها إلى صيان ما بالنفس للنفس والتزام جانب الصمت والظهور بالمظهر اللائق بها من الاتزان والرزانة والتعقل. وهذا كله شيء يجعل فهمه ميسوراً لأول وهلة

فقد عاش أبداً، بوهيمياً، صريحاً، بواحاً بسره، ينكره الاستقرار وتجافيه العاطفة الراسخة رسوخ الرواسي - فركب الهوى وأعجب بمئات الحسان مثل هذا الإعجاب العارض. ولكنه لم يصادف أبداً هذا اللون العنيف من الحب الذي يقتصر فيه صاحبه على واحدة يكاد حبها يورده موارد البوار والتلف. فكان أبداً كالنحلة عسلها في كل زهرة، يرى هذه، فيعلق بها فؤاده يوماً أو يومين، يحلم خلالها أحلاماً هنية، ويرى تلك فينسى الأولى، وهو بين هذه وتلك في دولة الخيال في شاغل عن الصلة البدنية بالصلة الروحية، سعيد بصور الحسان تتوارد جملة على مخيلته. فكأن السعادة بذلك همه، وخلو البال من الأزمات المقضة للمضاجع شاغله، وكأنه من ذلك في عالمه الخاص يعد لرسالته الأدبية المتنوعة شحنة من الفكر المنطلق الحر في نأي عن حب فرد ملح يحصر مناطق الفؤاد الذكي ويحدها.

لافونتين في البحث عن لافونتين

وامرؤ لا يعرف قلبه وخياله الحد ليس من ريب في أن عقله كذلك لا يعرف الحد. فآفاق العاطفة المترامية تفسح للعقل في مدى واسع يحار فيه. لذلك جهد لافونتين في تعرف هويته العقلية. ولم يكتب لهذا السبب عن نفسه إلا متأخراً في الثامنة والثلاثين من عمره. فهو إذن قد صرف حقبة طويلة من عمره في درك الأشياء

وتفهمها والإلمام بحقائق الحياة عملياً. فمال مع كل ريح، بين جد ولهو، يعني بالجد، فيكيد ويحصل ويقرأ ويدرس منقباً باحثاً، ويعني باللهو فيحياه ويفهمه ويستمرئه. والتشوف بين هذا وذاك رائده، وحب الاستطلاع يعقد رويداً رويداً الصلة بينهما ويحكمها فلم يستمر تردد عقله بين أن يعيش للهو حريفا - وهذا شيء تدعو إليه طبيعة الحالة - فيغنم الحياة من لذتها المادية، وبين أن يعيش للعمل والجد فيغنمها من لذتهما المعنوية. وأستقر أخيراً - ولا متأخراً - على أن يمزج اللهو بالعمل وأن يجعل من شواغله مسرات ومن جهده يسرا

ولم يكن بد من مراحل يجوزها حتى يصل إلى هذه الغاية من ترك طبيعته على سجيتها وأخذها بالملاطفة واللين حتى أنتجت فيما يشبه اللعب مالا طاقة لكثير غيره على إخراج مثله للناس، وهم ألصق بالجد خالصاً، وألزم للتثقيل بمضايقة على النفس. فكانت أولى

المراحل عنده الاقتصار على تفهم ما يدور حواليه من أحداث الحياة وإعمال الفكر في ألوانها المتباينة، دون أي تفرقة منه بين هذه الأحداث وهذه الألوان تدور على مسرح الحياة وبينها تمثل على خشبة المسرح. فكأنها في عينيه وهي تأخذ مكانها من مجرى الحوادث ملهاة مسرحية تستتلي فصولها اهتمامه وتستتبع تفكيره. حتى إذا ما نال من أتحف العوارف وألطف المعارف، وأدرك ماهية الأشياء وجوامع الحكم، كانت ثم مرحلة أخرى تفتحت فيها لأحلامه دنيا ساحرة لا يطرقها غير من أمدته الطبيعة بموهبة فكرية وأعدته لرسالة سامية في هذه الدنيا: مثل مرئياته واستوعب ضروب المعاني التي مرت عليه. فإذا قرأ لمالرب ولأفلاطون ولباروك ولتاس ولبوكاس، وافته غاية المراحل تجرر أذيالها ألا وهي مرحلة الإنتاج - هذه المرحلة التي مزج فيها اللهو بالجد وقرن فيها التسلية بالعمل. وإنه ليقال أنه غدا شاعراً عندما قرأ لمالرب قصيدة تعهدها الليالي حتى حفظها عن ظهر قلب ومن ثم طفق ينشدها لكل من صادف من الأصدقاء

تيقظت إذن في لافونتين ميوله الأدبية بعد أن تذوق دنياه وأخذ للأدب عتاده من القراءات المختلفة. فشرع يبحث عن نفسه في هذه الميول. فتناول بادئ ذي بدئ (خصي تيرانس) بالتعديل والتهذيب. غير أن ذلك لم يكن إلا محاولة فاشلة إذ تراوح فيها بين الترجمة وتقليد غير محكمين ثم نظم ملحمة مثيولوجية تصويرية بذل في تأليفها من دهره ثلاثة أعوام، وفاضل فيها بين الهات الفلاحة والتصوير والعمارة والشعر إلا أنها ليست مما يعتز به الأدب كثيراً

واتجه بعد ذلك نحو (أبليه فجهد أن يقلد قصته (بسيشيه)، ولكنه تعمل فيها الأسلوب وتصنع فيها المرح الذي عرف فيما بعد في خرافاته في أكبر وضوح وسلامة وجمال فلم يكن طبيعياً مع ما تتطلبه القصة القديمة من الوقار والجلال، فإذا محاولته رواية حديثة في أردية إغريقية لم يكن همها الإضحاك فأضحكت ولكن في استخفاف وسخرية. ثم عهد إلى (أدونيس) شكسبير فتخذها موضوعاً لروايته بهذا الاسم. ولكن كل من قرأ أدونيس شكسبير فاستطعم صنوف الفكر التي تختال فيها واستلذ الألوان المضطرمة الحارة التي تمتزج بها لا ينبغي له أن يطالع (أدونيس) لافونتين

فالحق أن تصوير معالم البطولة الإغريقية وتبيان عبقريتها المستعصية وإظهار جلالها وجمالها، كلها أعمال ليست من عمله فرشاقته وظرفه ومرحه وخفته وملاحظته السريعة، كل هذه لا تحتمل عجم عود الشخصيات الإلهية وإبرازها في ملاحم طويلة مسهبة

طال إذن ما بحث لافونتين عن استعداده الأدبي فلم يعثر عليه في كل ما ردنا من أعماله وإنما عثر عليه بعد لأي في الخرافة فوجد في قصر نفسها ما يلائم مقدرته على النظم المحدود والمفردات السهلة. وصادف في موضوعاتها ما يوائم مرحه - مرح الروح الغالية - وظرفه وأحلامه. فالتقى فيها لافونتين بلافونتين

لافونتين والخرافة

ولكن لا تقذفن في روعك - مع ذلك - إن الخرافة عمل استحدثه لافونتين من مبتكره ومبتدعه. فقد سبقه إلى هذا الضرب من الأدب أيسوب الإغريقي، وفيدر اللاتيني، وكثير غيرهما من شعراء العصور الوسطى والقرن السادس عشر عند الفرنسة، فلم يزد على أن نسج على منوالهم ودرج على آثارهم وإنما أكثر لباقة وبراعة وإبداعاً مما جعل الأذهان تنصرف - إن ذكرت الخرافة - إلى أنه مبتدعها الفرد. وليست الخرافة إلا

قطعة شعرية مأخوذاً موضوعها من صميم الحياة في تصوير عابر سريع إلا أن أدوار البطولة فيها مسندة إلى الحيوان وإن قصد تطبيق حالته في القصة على حالة الإنسان في الواقع بالقياس والموازنة. وعلى الخرافة التي تستوفي شروطها أن تتضمن قصة أخلاقية. وفي مدها بهذا اللون الفني يتمايز كل هؤلاء الخرافيون فينبذهم أبو الخرافة لافونتين. فقد اهتم أيسوب وفيدر بجانب واحد من الخرافة فعنيا بالأخلاق وانصرفا عن الوقائع القصصية انصرافاً أفقدتهم خرافاتهم عنصرها الفني. كذلك شعراء العصور الوسطى والقرن السادس عشر انصرفوا عن الأخلاق وعنوا بالتفاصيل القصصية عناية سلبت الموضوع لبه وجوهره ومسخت طعمه ومعناه. ولكن لافونتين، شاعر القرن السابع عشر، ألف بين الموضوع والأخلاق تأليفاً حقيقياً بالإعجاب والإكبار إذ جعل من الخرافة ملهاة أشبه بمسرحية أخلاقية مترامية المعاني من مائة فصل في بضع أبيات من الشعر الرائع.

(البقية في العدد القادم)

محمد حسني عبد الله

بولاق

للأستاذ محمد رمزي بك

كتب المستر شارل جون هزويل الذي كان مديراً عاماً لمصلحة تنظيم القاهرة مقالة تحت عنوان القاهرة واتساع نطاقها وملاحظات عن تأثيرات نهر النيل وتغيراته وأرفق بها بعض الخريطات، ونشرها في منشورات الجمعية الجغرافية في المجلد الحادي عشر الصادر في ديسمبر 1922، وقام بترجمة هذه المقالة إلى اللغة العربية الأستاذ محمود عكوش، ونشرها هي وما معها من الخرائط في العدد السادس من مجلة الهندسة الصادرة في يونية 1923، وبالاطلاع على الخريطة رقم 2 الخاصة بتأثيرات نهر النيل وتغيراته تجاه القاهرة ظهر لي أن المستر هزويل اعتبر أن مدينة بولاق مصر كانت جزيرة في وسط النيل، وأنها كانت مشغولة بالمباني ومسكونة وقت أن كانت جزيرة. ولما كتب المسيو مارسيل كليرجيه كتابه في سنة 1934 سار على رأي المستر هزويل، واعتبر كذلك بولاق جزيرة، وأثبت ذلك على الخريطتين المواجهتين لصفحتي 27 و29 من الجزء الأول من كتاب القاهرة المذكور

وأقول أن كل ما تصوره كل من المستر هازويل والمسيو مارسيل لا أساس له من الصحة للأسباب الآتية، وهي:

أولاً: إنه لم يرد في المراجع الجغرافية ولا التاريخية القديمة أن بولاق كانت جزيرة، ولم يتكلم عليها أحد من أصحاب كتب الخطط بوصف أنها جزيرة، مثل جزيرة الروضة وجزيرة الفيل وجزيرة إروى وغيرها من الجزاير التي تكلم عنها المقريزي وغيره في كتبهم

ثانياً: اعتاد الكتاب السابقون أن يذكروا كل طرح يظهر في النيل أو على شاطئيه باسم جزيرة، سواء كان هذا الطرح منفصلاً في وسط النيل أو متصلاً بالشاطئ، ومع كل هذا فلم يذكر أحد من الكتاب أن بولاق كانت جزيرة

ثالثاً: لما تكلم المقريزي في خططه على بولاق (ص 130 ج 2) قال إن ساحل النيل كان بالمقس، وأن الماء قد انحسر حول سنة 570هـ عن جزيرة عرفت بجزيرة الفيل، وتقلص ماء النيل عن سور القاهرة الذي ينتهي إلى المقس، وصارت هناك رمال وجزائر ما من سنة إلا وهي تكثر حتى بقى ماء النيل لا يمر بها إلا أيام الزيادة فقط، وفي طول السنة ينبت فيها البوص والحلفاء وتنزل المماليك السلطانية لرمي النشاب في تلك التلال من الرمل. فلما كانت سنة 713هـ رغب الناس في العمارة لشغف السلطان الملك الناصر بها ومواظبته عليها، فأقبل الناس على الإنشاء والعمارة، وجد الأمراء والجند والكتاب والتجار والعامة في البناء، وصارت بولاق الدكرور يزرع فيها القصب والقلقاس على النيل حيث جامع الخطيري، وامتدت الدور على النيل وسكنوا ورغبوا في السكنى ببولاق من جامع الخطيري إلى جزيرة الفيل، وتفاخروا في إنشاء القصور الفاخرة هناك، وغرسوا من ورائها البساتين العظيمة

رابعاً: لما تكلم المقريزي في خططه عن جزيرة الفيل (ص 185 ج1) قال بين سطوره ما ذكره عن تلك الجزيرة: (وانحسر النيل عن جانب المقس الغربي وصار ما

هنالك رمالاً متصلة من بحريها بجزيرة الفيل المذكورة ومن قبليها بأراضي اللوق فافتتح الناس باب العمارة فعمروا في تلك الرمال المواضع التي تعرف اليوم ببولاق خارج المقس)

خامساً: ذكر ابن تغري بردي في كتاب النجوم الزاهرة (ص307 ج7) أنه في سنة 68هـ تربت جزيرة كبيرة ببحرِ النيل تجاه قرية بولاق واللوق وانقطع بسببها مجرى البحر ما بين قلعة المقس وساحل باب البحر والرملة وبين جزيرة الفيل وهو المار تحت منية السيرج، وانسد هذا البحر ونشف بالكلية، واتصل ما بين المقس وجزيرة الفيل بالمشي

سادساً: ليس من السهل إنشاء مدينة كبيرة مثل بولاق في جزيرة بعيدة عن ساحل المقس في حين أنه لم يكن بينها وبين ذلك الساحل كوبري أو جسر تسير عليه الناس والدواب بين ميدان باب الحديد وبين شاطئ النيل الحالي حيث كانت توجد بولاق القديمة على ذات الشاطئ

ومما ذكر يتضح أن بولاق لم تكن جزيرة في يوم من الأيام وإنما أنشئت على أرض ظهرت في مجرى النيل، وكانت تلك الأرض في بدء تكوينها في سنة 680هـ مكونة من الرمال الفساد اتصلت بحريها بجزيرة الفيل ومن قبليها بأرض اللوق، ثم صار النيل يطمي عليها تدريجياً فربت وارتفعت أرضها وصارت صالحة للزراعة والسكنى وفي سنة 713هـ أنشئ في نهايتها الغربية الواقعة على النيل بلدة بولاق في المنطقة الواقعة الآن حول جامع الخطيري كما هو مبين على خريطة القاهرة رسم الحملة الفرنسية في سنة 1800 بمقياس 160001

وبالاطلاع على خريطة مدينة القاهرة رسم سنة 1868 يتبين أن بولاق كانت لغاية تلك السنة بلدة صغيرة واقعة على النيل ولم تتجاوز مبانيها المنطقة التي تحد اليوم من الشمال بشارع السبتية، ومن الجنوب بشارع اصطبلات الطرق، ومن الشرق بشوارع سيدي العليمي وعلوة الحجاج وتل نصر ووابور النور، وكانت الأرض التي بين بولاق القديمة وبين شارع الملكة نازلي كلها أرضاً زراعية وبساتين، ولم يحدث فيها البناء إلا في زمن الخديوي إسماعيل، ومن ذلك الوقت أخذت بولاق تتسع في العمارة حتى اتصلت مبانيها بمدينة القاهرة، وأصبحت بولاق قسما إداريا من أقسام القاهرة

محمد رمزي

قبل براح الشباب

للأستاذ حسين الظريفي

غيرُ مستنكرٍ من الأيام ... ما لها من نقض ومن إبرام
سبقت حكمة الزمان سواها ... وإن استبهمت على الأفهام
لم يزل ينشئ الشباب ويبلى ... يا له من بانٍ ومن هدّام
إنما نحن في الحياة ضيوف ... لا يزادون حصةً من طعام
فاغتنم فرصة الشباب وبادر ... في ذراه إلى بلوغ المرام
كل يومٍ يمرّ، لم أقض فيه ... وطراً، لا يعدّ من أيامي
إنما العمرُ حاجةُ المرء تُقضى ... والذي بعد ذاك طيف منام
ربَّ مستمع بفضل صباه ... لم يكن آمناً من الأيام
ظل في صحة الصبا يتحامى ... ما وراء الصبا من الأسقام
وفراراً من القلي والتجنّي ... لم يكن بالمتيم المستهام
نظرات ضاق المجال عليها ... وهو رحب بغيرها مترام
لستُ ممن يبكي الشباب إذا ما ... ملك الشيب فيه كل زمام
قائلاً لو يعود يوماً شبابي ... ليرى ما للمشيب من آثام
أنا من يترك الصبا ليس فيه ... أمد لم يحلَّ بالأحلام
حاملاً كل ما له من حقوق ... قائماً بالحقوق خير قيام
وفؤادي من الهوى بمكانٍ ... لم تصله ملامة اللوَّام
أجد الغض من شبابي فيه ... ساحباً ذيله على الأيام

لي من ميعة الصبا يقظات ... كدن يذهبن فيه كالأحلام
ولقد راقْ شرحُ كل شبابٍ ... متسام بثغره البسام
فيه من كهرباءة ومضات ... دونها كل وامض من غمام
وتراه بالعبقرية يفري ... ما نبا عنه حدُّ كل حسام
وعليه روائع من معانٍ ... هنَّ إلهام كل ذي إلهام
شاعرٌ جاء من عيون القوافي ... بالتي لم تكن بذات نظام
قد تجافت وزن الخليل وعافت ... ما وراء الخليل من أحكام
كبرت أن تكون في اللفظ معنى ... ربَّ معنى من غير لفظ مقام
قد براها من مقلة وجبين ... وقوام يزري بكل قوام
وفؤاد ماضي العزيمة ثَبْتٍ ... لم يعود إلاّ على الإقدام
ودم من لظى أحرَّ إذا ما ... ثار للحق ثورة الضرغام
ميزة إثر ميزة تلو أخرى ... لم تُجابه بالنقص بعد التمام
أيها المزدهي بشرخ شباب ... في ثرى (مصر) أو (بدار السلام)
هذه فرصة الصبا فاغتنمها ... وارم ما أنت في شبابك رام
وابدُ في جانب الحمى أو حشاه ... مثل صدر المهند الصَّمصام
إنما يطلب الحمى أن يفدّى ... في عراك السيوف والأقلام
حسين الظريفي
البريد الأدبي
وما آفة الأخبار إلا رواتها
حضرة العلامة الأستاذ صاحب مجلة الرسالة المحترم
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد: فلا فريق في فندق (الملك داود) في بيت المقدس يجتمع في كل يوم فيبحث في شيء كما جاء في خبر في عنوان (وشاية) في رسالة 527 ص 639 ولم يكن حديث عن أحد من السادة الفضلاء المصريين الذين وردت أسمائهم في الخبر.
محمد إسعاف النشاشيبي
إلى الأستاذ العقاد - 1
كتبت كلاماً في مجلة (الصباح) حول بيت من الشعر قلت فيه: إن شاعرية العقاد الفذة ابتلعت هذا البيت بألفاظه ومعانيه من الأستاذ (علي طه) ولم أقرأ رداً على هذه الكلمة من قلم (العقاد) الجبار بل قرأت كلاماً أملاه ضمير ملوث على لسان صنيعة من صنائعه. . . فهلا تتفضل أيها العملاق فتنازل (حسن القاياتي) الكاتب المكسال كما قال (زكي مبارك) ليبين للناس في هذه الساحة الكبرى لهذه الخصومة: أي الفريقين أحق؟ فريق القاياتي. أم فريق العقاد. . . آمل. . . أن يسلك الناس طريق الحق ليرفع هذا القناع الأسود الذي احتجب من وراءه أدباء رفعتهم الأمة الجاهلة وغيرتهم من دون الرحمن. . . العقول السقيمة .!
إلى الدكتور زكي مبارك - 2
قرأت بإعجاب خطابك الأسيف الذي تواضعت (الرسالة) فنشرته لك، وهي بعد - تعرف القاياتي الذي لا يود أن يحاط اسمه بهذا السياج الباهت من الدعاية الكاذبة. ويقحم اسمه بين الأسماء الشاعرة
إن القلم القاياتي يا دكتور نسيج وحده تعرفه الأسواق الأدبية الحرة يوم يكون في مصر للقلم الكبير أسواق. . . تجزي المحسن وتلفظ المسيء
القاياتي أيها الناس نظم الشعر وكثير من أدبائنا الذين تطنطن الصحف بذكرهم اليوم أسماء
لا يحلو ترديدها إلا على ألسن اللوات في الحارة. والأتراب في القرية!!
القاياتي شاعر من شعراء المدرسة القديمة التي تلقى فيها الدكتور أول درس في اللغة وأخر درس في البيان
وليس يضير الشاعر أن يسلك به النشء هذا المسلك الذي لا يحمده الأدب. ولا تسيغه أثلات الأقلام
إن الأدب يا دكتور ليس كلاماً ترجعه الصحافة كل يوم ويطالعه النشء كل ساعة. وليست الصحف التي تملأها بالصحف التي تروق الذين نحب أن تكون واسطة عقدهم

(الأدب حساس) لا يزنه إلا الحس المرهف. ولا يفيد إلا المشاعر الحية. ولا يعرف النقد إلا الحساسية في الأدب
أخال فلاناً لا أراني الله شخصه. وقد زكته نقابة الصحافة في قاهرة الفاطمي بأنه أمي متسول. ثم يكون بعد اللتيا والتي من هيئة النقابة. وواحد الصحافة. وزعيم الأغلبية. لك الله يا بلد المعز. فقد جعلت دهماء الأدب يحكمون هذا الحكم الأعرج على جماعة الأدب في الشرق ويزنون الناس بغير ميزان فتخاطبهم صعاليك الصحافة وتجهلهم الأخلاق المريضة وليس بكثير على الدكتور مبارك أن يرميني بالكسل والكسل الهازئ حتى تنجح قضيته الخلابة ويروق منطقة الساخر
أجل أنا لا أريد أن أكثر يا دكتور. وفي كل يوم لي مقطوعة ستكون الشاهد لي يوم يحتاج الأدباء إلى شهود ترفعهم إلى درجات المجد وترقى بهم إلى السماء
إن ديواني يا (دكتور) يكلم الناس من أربعين عاماً. . . وأنت بعد ما تزال حدثاً تكلم الناس بلسان الحكائين وتحدثهم بمنطق الأطفال. ثم ماذا؟ ثم تكون لي ثروة شعرية تحت يدي تقع في مجلدات ضخمة غير ديواني الناشئ وباكورتي من نصف قرن. ثم هذه الكلمات العريضة التي اعترف بها البيان. وخلدتها الصحافة. وانتفع بها شيوخ الأدب. وكانت دروساً ألقيت في مدارس البيان. (القاياتي) يا دكتور مبارك لا يعجبه هذا الأسلوب الخادع. فهو أعرف بطوايا قلمك. وخفايا نفسك ولقد توكل على الله يا ولدي العزيز قبل أن يعرفك. وكان قلمه من بين الأقلام المتوكلة عليه سبحانه فانتفع ونفع وجاهد في سبيل الأدب وخدمة اللغة وسيجاهد إلى أن يقضي الله عليه بالفناء
والرسالة التي تقول عنها. أنها لا تجامل أحداً
أعتب عليها هذا العتب البريء - فأقول: أنها تجامل كثيراً أدباء عرفتهم الصحافة لهم - حاضر في الأدب يحاول الشباب أن يهدمه بالحق. وللحق - ولكنها تطوي رسائله طياً وفي هذا موت للشباب. وحياة للمصانعة الخاتلة ورب رسالة شابة خير من جهاد شيخ يتوكأ على عصا الشهرة ويمشي على سراج خافت ولقد صدق الله إذ يقول:
(تبت يداً أبي ولهب وتب، ما أغنى عنه ماله وما كسب، سيصلَى ناراً ذات لَهبٍ) . . .!!!
(دار القاياتي)
حسن القاياتي
عضو المجمع اللغوي
إلى الأستاذ دريني خشبة
يزعمون أن الحرب ليست شراً كلها. بل أن فيها للإنسانية خيرات وحسنات، وللمجتمع البشري (المأزوم) نفعاً وفائدة لحياته الاقتصادية والسياسية وحتى الصناعية والعمرانية. ولكن الأدب والفن. ما فائدتهما وعائدتهما منها؟؟ إن معركة حقيرة (بالنسبة للحرب الجارية) هي (حروب طروادة خلقت للأدب هرميروس وأتحفت الأجيال بالإلياذة) الباقية على الزمن. فهل تنجب هذه الحرب الطحون هرمير جديد يخلق لنا إلياذة جديدة خالدة كتلك؟ إن يكن هذا فإله الأدب والفن مستعد لمعانقة (مارس) إله الحرب اعترافاً بفضله وأياديه عنده. وإلا فهل ابتلى رحم الفن والأدب بالعقم والعقر؟ فإذا كان الأمر كذلك فلماذا؟ وإلى أي الأسباب يعزو ذلك الأستاذ؟ وهلا يرى معي أن الأدب الإنساني المادي الحاضر برقوده وجموده محتاج إلى مصل (إلياذة) جديدة تسكب في عروقه عناصر الانبعاث والفن والخلق؟
ذلك ما استفتي به الأستاذ الكبير وأطلب فيه إبداء رأيه وأدلاء حكمه على صفحات الرسالة.
(حلب)
كمال الحريري
العدد 532 - بتاريخ: 13 - 09 - 1943
إلى الأستاذ الزيات
آباؤنا وأمهاتنا وأبناؤنا
للدكتور زكي مبارك
بعد منتصف الليل من هذا المساء (29843) وسوس الهتاف
من جريدة الأهرام:
- ألو، ألو!

- خير، من المتكلم؟
- صالح البهنساوي، هل أزعجتك بالحديث في مثل هذا الوقت؟
- لم تزعجني، ويسرني أن أسمع صوتك، فما عندك من الأخبار؟
- عندنا خبر يقول: إن والدة الأستاذ الزيات ماتت، وأردنا أن نعرف منك مبلغ هذا الخبر من الصحة قبل أن ننشره في الوفيات
- لم أسمع هذا الخبر إلا منك، فلا موجب لنشره قبل التثبت ثم رجعت إلى نفسي أسأل عن مواساة الأصدقاء بعضهم لبعض، فقد كان يجب أن أكون أول من يعرف هذا الخبر إن كان صحيحاً، لأحضر دفن السيدة التي أنجبت هذا الصديق، ولأشترك في مواساته مع الأقربين
وحانت مني التفاتة إلى الماضي يوم ماتت أمي، فقد طلبت بإلحاح أن تراني قبل أن تموت، وكان أبي يسوف لأنه يعرف أني أؤدي أول امتحان في الجامعة المصرية، وكانت النتيجة أن تدفن وأنا غائب، وأن تبقى الحسرة على أن لم أحمل نعشها على كتفي
هل كان أبي يعرف أن توديع أمي في لحظاتها الأخيرة أحب إلي من جميع المغانم العلمية؟
لو أنه عرف لأعفاني من لوعة سأعاني نيرانها إلى آخر أيامي
وقد لطف الله بأمي فماتت قبل أن يموت أخي سيد بنحو سنتين، فلن تشهد فجيعة الدار في موت فتى لم ينتصر عليه قاهر غير الموت
دخلت على أخي سيد وهو في الحشرجة فنهض من فراشه ليقبل يدي، ثم أسلم روحه إلى بارئ الأرواح
وكانت الفجيعة الأخيرة هي موت أبي، ولكنها فجيعة نفعتني أجزل النفع، فقد هونت الدنيا
في نظري حين صورتها بالصورة الحقيقية، صورة الصحراء التي لا تضمن لسكانها من الضراغم غير الفناء
وهل تعزيت عن أبي وقد طال الفراق؟
أريد أن أخفف لوعتي فأذكر أنه عاش ما عاش وهو يعتقد أنني أوفى الأبناء: فما راجعته في كلمة، ولا رفضت له نصيحة، ولا استجزت المخالفة عن أمره في شأن من الشؤون
كنت ابناً بارا بأبيه، وكان بري بأبي يتمثل في صورة لم تخف عليه، فقد سمعت أنه تحدث بها إلى بعض الأصدقاء، وهي أني أخفي عنه همومي وأحزاني، فما بات ليلة وهو مغموم بسببي، ولا وصل إليه حزن من طريقي، ولا عرف أن الأبناء قد يكدرون حياة الآباء
والحق أني كنت أراعي معنى هو غاية في الخفاء، ومراعاة هذا المعنى كانت أعظم عمل أديته في حياتي، فما ذلك المعنى الدقيق؟
كانت الأقدار قضت بأن تمزق أملاك جدي كل ممزق، فلا يبقى منها غير أوشال، وكان أبي آخر العنقود، فلم تكن له مندوحة من أن يجاهد ليستبقي ومضات من الذهب المضاع
كان أعمامي جبابرة وكانوا قساةً وطغاة، وكانوا أيضاً منجبين، فلا يمشي الرجل منهم إلا وهو موصول الجناح بأبناء أشداء، فماذا يملك أبي في مقاومة أعمامي؟
لقد ناضلهم وحاربهم، واستطاع أن يستخلص بضعة فدادين يعيش من ريعها عيش الكفاف، إلى أن يجود الله بالغنى حين يشاء
وكانت دار أبي هي الدار التي مات فيه جدي، لأن جدتي كانت آخر زوجاته الغاليات، وفي تلك الدار نشأت، فماذا رأيت؟
كنا نستيقظ على زلزال يتمثل في سقوط إحدى القاعات، فيخف إلينا الجار الأقرب وهو عمي الشيخ سيد أحمد وبيده فانوس ومعه أبناؤه ليعاونوا على رفع الأنقاض
كانت أخطر فاجعة تهون على أبي ما دامت بعيدة عني
هل أستطيع تأدية واجب الوفاء لأبي، ولو نظمت في رثائه ألف قصيد؟
وفي إحدى العصريات دخلت الدار فوجدت أمي تخرج وهي مذعورة، فماذا وقع؟

كانت أمي رأت ثعباناً في أبراج الحمام فغزته بالنار ليختنق، فامتدت النار إلى سقوف الدار فحولتها إلى نيران
وفي لحظة أو لحظتين بدت شهامة أهل سنتريس
لقد تجمعوا من كل جانب رجالاً ونساءً ليخمدوا تلك النيران بالماء والتراب
وماذا يملك أولئك الأوفياء؟
لم يكن في بلدنا غير آبار معدودات، فكان من الصعب إخماد نيران لا يخمدها غير البحر المحيط، وكانت العاقبة أن يحترق البيت من جميع الجوانب وأن يمسي بلا سقوف، مع قسوة الشتاء
ونظر أبي فرآني بعافية، فحمد الله وأثنى عليه، ثم جلس على مسطبة المضيفة وهو في غاية من الاطمئنان
وفي أعقاب السهرة الجياشة بكلمات المواساة سمعنا ضجيجاً يخطر في البال في مثل تلك الحال، فما ذلك الضجيج؟
رأينا جماعة العيسوية تغزو دارنا بركائب محملة بأقوات تكفينا عشرة سنين، فوقف أبي وقال: إن باب الدار لم يحترق، وسأغلقه إن لم ترجعوا مشكورين
كان مقام أبي في تلك الليلة مقاماً رهيباً، فقد أتت النيران على جميع الأشياء، وتركتنا بلا قوت، وإن لم أذكر أني نمت في تلك الليلة بلا عشاء
ما الذي كان يمنع من أن يقبل أبي مواساة أعمامي؟
منعه الخوف من أن يمن عليه أخ أو صديق في الأيام المقبلات
كان أعمامي كراماً برغم ما أرادت الأقدار في تحيف ما ورثوا من الثراء العريض، ولكن أبي رفض معروف اخوة سيحاربهم أو سيحاربونه بعد يوم أو يومين
تمثلت لي متاعب أبي في حياته حين شببت عن الطوق، فقررت إعفاءه من التعب إلى آخر الأيام من حياته الغالية
أردت أن أكون لأبي ابناً وأخاً وصديقاً فكنت، وقد محوت عن صدر أبي تلك السطور السود، سطور الشقاء بالأهل والأقرباء
هل عرف أبي أن له أبناً تمتحنه الحياة؟
لقد أخفيت همومي عن أبي فكانت تصل إليه وهي أساطير، وكان لا يتوهم أن كيد الدنيا يصل إلى من يكون في مثل عنفواني
وأنا الرجل الذي عرفه أبي، فلتحاربني الدنيا الغادرة إن كانت تطيق
لم أنسى يوماً أن أبي تعب في شبابه حتى شبع من التعب، ولم أنسى لحظة أن تكدير كهولته بسببي قد يكون إثماً موبقاً يكدر ما أرجو لحياتي من صفاء، ولهذا المعنى حرصت على أن يراني باسماً في كل وقت، وأن يراني غنياً عن الناس في جميع الأحايين، وهل يفتقر المؤمن إلى الناس؟
لم تكن الدنيا سمحت بأن تخلو حياتي من متاعب، ومع هذا أخفيت عنه جميع آلامي، فلم يتصورني إلا رجلاً خلت حياته من المصاعب والأهوال
كان سلوكي مع أبي سلوكاً هو الصورة المنشودة لأدب النفس، ولعل الله يتفضل فيتقبل دعواته الطيبات وهو يعاني مرض الموت، فما مات أب راضياً عن ابنه كما مات أبي وهو راضٍ عني
وهنا أتذكر أشياء تعد من الغرائب، أشياء متصلة بحياة أمي، فما تلك الأشياء؟
كانت أمي تفرح بالمرض أشد الفرح، لأنها كانت تؤمن بأن دعاء المرضى دعاء مستجاب، فكانت تقضي لياليها الأليمة في دعاء الله بأن يجعلني من الموفقين. كانت تدعو الله وهي توقن أنه يسمع ويجيب، ولم يخطر في بالها أبداً شيء مما يخطر في بال أهل الارتياب
كانت أمي سيدة مؤمنة، وكان إيمانها موروثاً عن أمها وأبيها، وكانا زوجين قانتين لا يعرفان غير فاطر الأرض والسماء
ومع أن المألوف في كل أرض أن الأم لا تستريح كثيراً إلى زوجة ابنها، فقد كانت أمي تحبني في زوجتي، وتصفها بأجمل الأوصاف، وتخصها بكثير من الدعوات، بحيث عُدَّ سلوكها من أندر ما يقع في حياة النساء
وكذلك كان حال جدي لأمي، فقد كان حين يزور دارنا بعد صلاة العيد يبدأ بالسؤال عن زوجات أبي، سؤال الوفاء لا سؤال الرياء، ثم يدعو الله أن يديم عليهن نعمة العافية

والقبول
أما أمر أبي في تربيتي، فكان عجباً من العجب، كان لا يتناول طعاماً بدون أن أشاركه فيه، ولو كان طعاماً أعدته له إحدى الزوجات المحظيات
كنت أدخل الدار مع الليل، والشواء يفوح والنوم في جفوني، فآوي إلى مضجعي وأنا أرجو
أن يعفيني أبي من مشاركته في عشائه المرموق، ولكنه لم يكن يتناول طعاماً بدون حضوري ولو كان تحفة عروس
من الذي أوحى إلى أبي ما غاب عن كبار المربين؟
كان أهلي يقولون إن الطفل يحتاج إلى تأسيس، وكانوا يرون أن الطفل المؤسس يعيش في قوة إلى آماد طوال
ثم دارت الأيام واستقللت عن أبي كل الاستقلال، فقد أكرمه الله بالعيش إلى أن يراني رجلاً له أهل وأبناء وأملاك، ومع هذا كان يراني ضيفه حين أزور سنتريس، ويبالغ في الكرم فلا يتركني لحسن الفهم في رعاية ضيوفي، وإنما يتقدم فيكرمهم بأسلوبه الجميل، أسلوب الرجل المفطور على السخاء الفضفاض
ولن أنسى أنه كان يناجي المسيو دي كومنين مناجاة الرفيق للرفيق، مع أن لغة التفاهم غير موجودة بأي شكل، فكان من ذلك دليل على أن الألسنة أقل إفصاحاً من القلوب
كان لي أب وكانت لي أم، وأنا اليوم يتيم كهل، واليتيم الكهل أعرف باليُتم، كما قال أخونا الأستاذ محمد الهراوي، طيب الله ثراه!
أما بعد فأنا لا أوصي باجترار الأحزان، ولا أدعو إلى أن نطيل البكاء على آبائنا وأمهاتنا، فذلك يؤذيهم في عالم الأرواح وإنما هي لوعة نزجيها كارهين لا طائعين، وهي على قسوتها دون ما يجب في تسجيل الوفاء
ثم ماذا؟ ثم يكون الحديث عما نفقد من أبنائنا، وأنا ذقت مرارة الثكل مرات، إلى أن لطف الله فأعفاني من ذلك العناء وسيتفضل جل شأنه فيرحم جفوني من دموع الثاكلين، لأنه أرحم الراحمين
ومن واجبي نحو قرائي أن أدلهم على المذهب الذي سلكته في ذلك الجحيم:
حين ذقت الثكل أول مرة رأيت له طعماً متفرداً بين طعوم الأحزان، رأيته يقلقل أضراسي ويكاد ينقلها من مكان إلى مكان، ورأيت تعزية المعزين تزيد أحزاني، فقررت أن لا يقام للطفل الميت مأتم ولا عزاء، وقررت أن لا أسمع بكاء أمه عليه، وأن لا يذكر اسمه في البيت، وأن يمضي إلى من وهبه ثم استرده بلا عويل ولا صياح
كنت أقول: هو لنا عند الله، فلنتركه ذخيرة تنفعنا يوم الحساب، إن كنا مؤمنين والواقع أن هذه أعظم شجاعة بدت مني في حياتي، فالطفل لا يموت إلا بعد أن يتجلى تجلياً هو غاية في الفتون، فتكون حركاته وسكناته من الغرائب والعجائب، ويكون تحفة طريفة تحول البيت إلى فردوس من أجمل الفراديس، بحيث يقال في وصفه إنه كان أبن موت، وهذه عبارة مألوفة عند أهل الريف، وهي غاية في الصدق
وبقليل من التأمل نرى الطفل الذي يموت بعد سنة يكون استوفى من الحياة سنوات وسنوات، لأنه في عمره القصير يستوفي من حظوظ دنياه في المرح واللعب والابتهاج ما لا يستوفيه كبار المعمرين. وهنا تكون الفتنة الدامية، فذلك الطفل يعد أهله وعوداً لا تخطر في البال، فهو في إشاراته وعباراته يؤكد بأن سيكون أعظم العظماء في القديم والحديث
وفي أقصر من لمح البصر يختضره الموت، فتبقى له بوارق تذيب لفائف القلوب
ماذا أصنع والأطفال الذين ثكلتهم كانوا كذلك؟
قدرت أنهم عاشوا حتى شبعوا من العيش، والعيش تعب فليستريحوا آمنين
دفنت بيدي أطفالاً كانوا أعز علي من نفسي، ولكني لم أبك عليهم كما بكيت على أمي وأخي وأبي، لأنهم لا يطالبونني بالوفاء، فقد اختارهم الله إلى جواره قبل أن يعرفوا الفرق بين البر والعقوق
وما حاجة الأطفال إلى البكاء؟
ألا يكفي أن الله أنجاهم من مكاره العيش، في دنيا أتعبت الأنبياء؟
الدمع على الطفل الذاهب أغزر من الدمع على الكهل الذاهب، فما الذي فاتهم من

حظوظ البكاء؟
بهذه السياسة فرضت على زوجتي أن تنسى الأطفال الذين فقدناهم في مصر الجديدة وفي سنتريس، فاكتفت واكتفيت بالشياطين الذين عاشوا، وهم أبناء لم تمنعهم الشيطنة من أن يكونوا غاية في أدب النفس وصفاء الروح
إذا راعى الابن واجبه نحو أبيه، فما يضره إن نسي الواجب في معاملة جميع الناس؟
أنا لم أفعل خيراً في حياتي أفضل من الأدب في معاملة أبي وأمي، وقد جازاني الله فجعلني في عصمة من دسائس السفهاء
الحجر الأول في بناء الوطن هو الأسرة، وأبنائي لا يحبونني متفضلين، وإنما يرون رجلاً يدبر لهم منافع لن يحتاج إليها قبل أن يموت، ولو عاش عمر نوح. . . وهل أعيش إلى أن أنتفع بما أدبر لأبنائي؟
ليت أبنائي يتأدبون بأدبي!
أنا أرى أن حيوية الرجل فوق الحدود، والسر كله في طاعة الله، الطاعة التي يعرفها أصحاب العقول، الطاعة التي تتمثل في العمل الموصول بصدق وإخلاص
كونوا يا أبنائي مثل البحر، فهو قد يغضب في كل وقت، ولكن كل قطرة من قطراته تشتمل على حيوات عظيمات
واذكروا دائماً أني لم أنل رضا الله بالمجان، فقد نلت رضاه بكفاح يؤيد كرمه في صحة بنياني، وأنا بحمد الله غاية في صحة البنيان.
زكي مبارك
حكاية الوفد الكسروي - 2
لأستاذ جليل
من صائغ أسطورة (الوفد القرشي) التي وردت في العقد والأغاني؟
ابن عبد ربه يرويها عن نعيم بن حماد عن عبد الله بن المبارك عن سفيان الثوري عن ابن عباس. وأبو الفرج ينسخ الخبر من كتاب عبد الأعلى يحدثه الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. . .
ابن عبد ربه أقدم من أبي الفرج؛ فقد ولد سنة 246 وتوفي سنة 328 في ذلك الإقليم النائي. وصاحب الأغاني ولد سنة 284 وتوفي سنة 356. فقد يكون صاحب العقد وقف على مصنف أسبق مما وقف عليه أبو الفرج، وربما اطلع هذا على مؤلف أثبت وإن تأخر وقته. فهل صاغها نعيم أو صائغ عزاها إليه أو زخرفها الكلبي، وإن كان سجعها يبدو بغدادياً لا كوفياً، وهل لشبل الكلبي. . . أعني ابنه هشاما يد فيها، وهل أودعها كتاب وفوده؟
نقص الخزانة العربية اليوم يصدنا أن نجيب جواباً مضبوطاً. فلعل بقيات مما نجا من الزمان والتتر والصليبيين والأسبان محرقي كتبنا ومغرقيها - يظهر فيخرجنا من ظلمات حالكات نحن فيها
ولا ضرر - وقد عرفنا ذرواً من أخبار ابن الكلبي - أن نعرف شيئاً عن أبيه الكلبي. وهذا بعض ما جاء في (ميزان الاعتدال في نقد الرجال) ج3 ص 61:
قال الثوري: اتقوا الكلبي. فقيل: إنك تروي عنه. قال: أنا أعرف صدقه من كذبه. قال (يحيى بن يعلي عن أبيه: كنت أختلف إلى الكلبي أقرأ عليه القرآن فسمعته يقول: مرضت مرضة فنسيت ما كنت أحفظ؛ فأتيت آل. . . فتفلوا في فيّ فحفظت ما كنت نسيت. فقلت: لا والله لا أروي عنك بعد هذا شيئاً، فتركته. قال يزيد بن زريع: حدثنا الكلبي وكان سبئياً. قال الأعمش: اتق هذه السبئية، فإني أدركت الناس وإنما يسمونهم الكذابين. قال ابن حبان: كان الكلبي سبئياً من أولئك الذين يقولون: إن عليا لم يمت وإنه راجع إلى الدنيا ويملأها عدلاً كما ملئت جورا، وإن رأوا سحابة قالوا: أمير المؤمنين فيها. التبوذكي: سمعت الكلبي يقول: أنا سبئي. ابن معين: الكلبي ليس بثقة. وقال الجوزجاني: كذاب. وقال ابن حبان:
مذهبه في الدين ووضوح الكذب فيه أظهر من يحتاج إلى الإغراق في وصفه، يروي عن أبي صالح عن ابن عباس التفسير، وأبو صالح لم ير ابن عباس، ولا سمع الكلبي من أبي صالح إلا الحرف بعد الحرف، فلما احتيج إليه أخرجت له الأرض أفلاذ كبدها، لا يحل ذكره في الكتب، فكيف الاحتجاج به. . .)
قولي منذ (19) سنة (ولن يجوز العقل أن يقعد ابن الأكاسرة لاستماع ثرثرة كل مهذار

نفاج، ويفرغ لشهود عجرفة المتعجرف وعنجهيته) - لا يدل إلا على ما يدل عليه، وهو شرح حال اقتضاء المقام؛ ونقد رهط لغوا عن الصواب في الخطاب لا يعم فصائلهم وعشائرهم، دع عنك عمومه الجيل الذي أبدع (المبدع) منه تلك الأمة- والثرثرة والهذر والنفج في أقوال الوفد الكسروي ظاهرة. فهل يعقل أن يستقبل مثل كسرى بها وهو سلطان زمانه، وأقاليم في الجزيرة من أعماله، وأمثال النعمان من عماله. وقد تفطن الصباغ لشيء من ذلك فقول كسرى في ختام الأسطورة ما قوله، وقوله حين لغا أكثم بما لغا به: (ويحك يا أكثم، ما أحكمك وأوثق كلامك لولا وضعك كلامك في غير موضعه) وليست خطبة أكثم من إنشاء (الواضع) ولكنها أمثال قديمة متفرقة منسوب أكثرها إلى أكثم بن صيفي هذا، وقد ألف بينها من صاغ الخبر فما تجاوبت ولا تناسبت وأحب أن أقول اليوم: إن العربية الحقيقية بأن نستمسك بها ونتعصب لها هي التي ذكرت في (الرسالة) 221 ص1562 السنة 5:

(وإذا ذكرنا العربية فإنما نعني هذه العبقرية ذات التعاجيب المحمدية، وهذه القوة الخلقية، وهذه المقاصد القرآنية، وهذه الآداب الإلهية، وتلك الحضارة والمدنية. . . ليست العربية نسبة ولكنها جامعة تؤلف بين القلوب. . . فالعربي هو ذلك المتمدن المتحضر المهذب المثقف المتعلم العالم العزيز الأبي الناطق بلسان القرآن، وليس بعرب (خراب بادية غرتي بطونهم) ولا قراضيب في (الجزيرة) ولا مدلغفون .. .)

وقد دفع أدباء وعلماء من السلف إلى تفخيم العربية الجاهلية عصبية أو ولع بتعظيم قديم، ودعت إلى التنويه بها في هذا الزمان مقاصد خبيثة غريبة

إن العربانيين المنتمين إلى دور السياسة و (التضليل) يقولون متوهمين: كانت العرب في الجاهلية وكانت، وكان عندهم ما كان، فماذا عملت الإسلامية، وبأي شيء جاء محمد؟

(هم العدو، فاحذرهم، قاتلهم الله أنَّى يُؤفكون)

خبر الوفود

إن هذا الخبر لا أصل له، فلم يقل النعمان في وقت ما قال، ولم يرسل من ذكرته القصة، ولم تتحرك الألسنة قدام كسرى بشيء مما روي قط، ولم يشر إلى هذه الواقعة مؤرخ أو أديب في مصنف عرفناه أقل إشارة. وقد زخرفه مزخرفه كما صاغ الصواغون من قبله وكما صبغ الصباغون من بعده، وقد سيطرت عليه لغته ولغة وقته، فلم تشبه نثر الجاهليين وإن كنا لا نعرفه إذا لم يثبت من النثر القديم إلا القرآن كما ذكرت ذلك منذ (19) سنة، وإن كنا نجهل ذلك النثر فإننا نتصوره، ولا ريب في أن هناك نثراً بدوياً ونثراً حضرياً وقد نزل القرآن بالنثر الحضري لأنه إنما كان لكل جيل وزمان. ولم يشبه أسلوب الخبر أسلوب الإسلاميين، ولدينا من هذا القرن ما قد يطمئن إليه بعض الاطمئنان

إن صائغه أنشأه (مقامة) لفقها ونمقها، ولم يحتط، ولم يفكر في أن يحتاط، ولم ير حاجة إلى ذلك هو في منثور ينثره هو في (البلاغة) لا في تاريخ يحققه؛ على أن التاريخ هو ابن عم الأسطورة. وفي الخبر أشياء أدل على الوضع من أشياء، وهذه طائفة منها.

(ن)

نشأة الدرامة الإنجليزية - 2

للأستاذ دريني خشبة

يحتفظ الأدب الإنجليزي من الدرامات القديسية بأربع مجموعات تنسب إلى مدن مختلفة هي يورك ويكفيلد وكوفنتري وشستر؛ كما يحتفظ بدرامة واحدة من كل من نيوكاسل ودبلن وإيست أنجليا ونورفولك. وتختلف هذه الدرامات طولاً وقصراً وجودة ورداءة، ويتركب بعضها من ثمانمائة بيت من الشعر، في حين يتركب البعض الآخر من ثمانين بيتاً فقط؛ ويتألف بعضها من نظم ونثر، أو نظم فقط، أو نثر فقط، وفي بعضها أغان جميلة كما تحوى بعضها الأغاني الغثة. على أن أجمل هذه المجموعات كلها هي مجموعة يورك لتنوع موضوعاتها وجمال أسلوب الكثير من دراماتها، والحرية الظاهرة في تناول حياة القديسين بالتصوير الجريء وكثرة الحركة التي هي حياة التمثيليات جمعاء

أما أقدم درامة قديسية كتبت باللغة الإنجليزية فهي درامة (حرث جهنم) أو (إسلاف جهنم) من سلف الأرض أو أسلافها أي أعدها للزرع بالمسلفة، وهي آلة ذات شعب ولا

يعرف مؤلفها على وجه التحقيق. وقد ألفت في أواخر القرن الرابع عشر في عهد إدورد الثاني؛ وهي عبارة عن محاورات شائقة بين السيد المسيح عليه السلام وبين الشيطان عليه اللعنة تنتهي بهزيمة كبيرة الأبالسة، وتهليل البطاريق وتكبيرهم فرحاً بانتصار السيد المسيح واغتباطاً بإجاباته المفحمة

هذا، وقد كانت عناصر شتى تشترك في تأليف الدرامة، فمن ذلك الموضوع، وهو أهمها بالطبع، ثم الأسلوب، وكان يراعي فيه السهولة واليسر، نظماً أو نثراً؛ وذلك بعد أن فشلت الدرامات التي ألفها جون للي بأسلوبه الجزل وعبارته الفخمة. وجون للي هو مبتدع أسلوب اليوفوزم الرائع الأنيق المروأ في الأدب الإنجليزي. . . ثم الموسيقى والألحان والأغاني. . . بيد أن واحداً من هذه العناصر كلها يكاد يكون أهمها، لأنه يتفرد من بينها باهتمام الجماهير، إذا هو الذي يجذبهم لمشاهدة التمثيل، ثم هو بعد ذلك أقوى الأسباب في نجاح الدرامة أو سقوطها. . . ذلك العنصر هو عنصر الهزل والتضحيك & الذي لم تكن تخلو منه درامة قديسية قط. والعجيب الذي يلفت أنظارنا نحن الشرقيين خاصة جرأة رجال الدين والمؤلفين الدراميين على السواء في إشاعة هذا العنصر في تلك التمثيليات الدينية

التي تتناول الأنبياء والقديسين ورجال الدين عامة. . . حتى الملائكة. . . فهم قد هتكوا تلك الهالة المقدسة التي ينبغي أن تكلل رؤوس هذه الشخصيات المبجلة، وهم قد هتكوها إلى حد التحقير وتهوين الشأن والزراية بما كان من شأن الدين أن يتصونوا في تناوله. . . اسمع إلى هذا الحوار الذي نقتطفه لك من درامة (طوفان نوح) لترى إلى أي حد اجترأ المؤلف على شخصية هذا الرسول الكريم، أحد أولي العزم العظماء، من هداة البشرية الأولى. . . أنظر إلى هذا الحوار لتعجب كيف أجاز رجال الدين تمثيل هذا العبث بين يدي الشعب:

- نوح: أعدت الفلك، وقد آن لنا أن نبحر، فهلمي يا زوجتي الصالحة!

- زوجه نوح: ماذا؟ أركب في هذه السفينة وأترك تلك الأرض الراسخة؟ أوه! كلا، كلا. إنها لم تصنع من أجلي؛ ومع ذاك، فلدي ما يشغلني يا صاح، فإني ذاهبة لقضاء حاجات كثيرة تلزمنا من السوق اليوم

- نوح: والطوفان؟! ألا تخافين أن تغرقي؟

- الزوجة: آه! كلا. لا عليك. إن هذا لا يخيفني!

- نوح: لقد هطلت شآبيب المطر، وتفتحت أفواه السماء، ولست أرى أنها ستقلع، فتعالي وأركبي في الفلك معي!

- الزوجة: الفلك؟ ماذا تعني؟ ما هذا السر الذي أخفيته عني؟ لماذا لم تستشر زوجتك في أمره؟

- نوح: سر؟ ليس هناك سر قط! إنني لبثت أصنع هذه الفلك طيلة قرن بأكمله. ولقد شهدتني أصنعها طوال هذه المائة من السنين ألف ألف مرة بعينيك!

- الزوجة: حسن، بيد أنني لا أحفل كثيراً بالحياة في هذا المركب، إني سعيدة ههنا، ولست أستروح الحياة فوق الماء قط. . . ثم إني. . . لا أريد أن أصحبك!

- نوح: ولكن. . . إنك تغرقين، ما من ذلك بد، إن لم تفعلي!

- الزوجة: ولكنك أفسحت في مركبك المجال لخصومي والمتقولين علي من المؤمنين بك. . . وهم حفنة! على أنني أعجب كيف تغريني باصطحابك وترك كل هذا المجتمع، لأعاشر في فلكك الوحوش والطيور والزواحف؟! أف لك! إن إغرائك إياي ليغثي نفسي ويكرب صدري!

(وهنا تلكمه بقوة فوق أذنه)

- نوح: هدئي روعك أيتها الزوجة الصالحة. هدئي روعك! ولا يزال بها نوح حتى تستسلم وتركب آخر الأمر، ولكنها تثير الشغب في السفينة من أول الرحلة إلى آخرها، في مشاهد تضحيكية متصلة، لا نرى أنها كانت تتناسب مع الوقار اللازم للرسل فانظر كيف تلكم نوحاً زوجته في تلك الدرامة الجريئة، كما ساط اليهودي قديس الكنيسة في الدرامة التي لخصناها لك سابقاً. . . على أننا سوف نتناول هذا النوع من الدرامات الكوميك (التضحيكية) بالتفصيل من موضعه من الطور الثالث

الطور الثالث

& الدرامات الأخلاقية والفواصل

ذكرنا في الموجز الذي وضعناه في مستهل هذا البحث، في العدد السابق، أن الدرامات الأخلاقية نسخت بالاشتراك مع الفواصل، الدرامات القديسية وحلت محلها. وفي إيراد الكلام على هذا النحو شيء من المبالغة. وربما كان عذرنا في ذلك أن خلافا شديداً قام بين المؤرخين على أصل هذه الدرامات الأخلاقية، فمنهم، وهم الأكثرية، من يقولون إنها نشأت من الدرامات القديسية. ومنهم من يعارض هذا الرأي، وينفي أن تلك فرع من هذه، وعلى رأس هؤلاء الأستاذ مورلي من أساطين مؤرخي الأدب في العصر الحديث. على أنه لا مشاحة في أن الإنجيليات والقديسيات قد نشأت في الأمم اللاتينية عامة وانتقلت مع رسل الكنيسة من فرنسا إلى إنجلترا. أما الدرامات الأخلاقية فأكثر المؤرخين على أنها نشأت على أصول القديسيات، وأنها ثمرة من دوحتها الباسقة. وندع بعد هذا الناحية العلمية من مناقشة الفريقين المتناظرين، لأنها ليست من شأننا في هذا البحث. والدرامة الأخلاقية هي تلك الدرامة التي تعنى بالحقائق المجردة وفضائل ورذائل، فهي تجعلها أبطالاً وتتخذ منها شخصيتها وموضوعاتها، ويرجع هذا التجديد إلى أواخر القرن الرابع عشر حينما انتشر الشعر المجازي المشتمل على الكنايات والاستعارات المختلفة. وقد يكون لضيق الشعب بالدرامات القديسية أثر في هذا التحول، إذ أنه مل هذا النوع الواحد من التمثيليات الدينية التي أوشك أن يحفظها عن ظهر قلب لكثرة تكرارها، فأراد المؤلفون أن يتساموا بالدرامة فاقتحموا ميدان الأخلاق، لأنهم إنما كانوا ينشدون نشر الفضيلة - بعد تلقين دروس الدين - بما يقدمون للنظارة من هذه الدرامات. ولا غرو أن فرنسا كانت قد سبقت إنجلترا في ابتكار هذه الدرامة الأخلاقية، ولا يبعد أن تكون قد اقتبستها عنها كما اقتبست الإنجيليات من قبل: أما أن الدرامات الأخلاقية قد نسخت ما قبلها، فقد حدث ذلك بالتدريج فعلاً. فهم يذكرون أن آخر درامة قديسية قد مثلت في أواخر القرن السادس عشر. أو بالضبط سنة 1598 ثم ظلت الدرامات الأخلاقية تمثل بعد ذلك إلى أن ازدهر المسرح الإنجليزي بدرامات ماريو وشيكسبير وبن جونسون. ومن هذا يفهم أن القديسات واكبت الأخلاقيات زمناً طويلاً حتى تغلبت الأخيرة وحلت محلها. وقد كانت الرذيلة أقوى شخصيات الدرامة الأخلاقية. وكانت تحل دائماً محلاً هزلياً كما كانت الفضيلة توضع في مواضع الجد. فكان يمثل الرذيلة معتوه أو ضحكة أو أبله يجيد صوغ النكات والحركات التضحيكية، وكان يبدو دائماً وفي يده خنجر من الخشب، كما كانت ملابسه تثير الضحك الشديد. ولم تكن شيمة من الشيم إلا ولها موضع من درامة من هذه الأخلاقيات التي تكون فيها الشخصيات قسمة بين الفضائل والرذائل. فمقابل الطمع توجد القناعة، ومقابل الزنا يوجد العفاف، ومقابل الكذب يوجد الصدق، وضد الظلم العدالة وهكذا دواليك. وكان مقصوداً بتمثيل هذه الرذائل أن يحدث تباين مع الفضائل حتى لا يمل النظارة من كثرة الحض على التمسك بأهداب الفضيلة. ولهذا السبب كان وكد المؤلف أن يجعل شخصية رذيلة ما من الرذائل - كالجبن أو الشح مثلاً - مثيرة للضحك الذي يهز القلب ويفجر المشاعر، فإذا نال السامعون هذا النصيب من الترويح انتقل بهم المؤلف إلى شخصيات الفضائل الرزينة العاقلة - كالشجاعة والجود مثلاً - فجعلهما يردان على الجبن والشح في وقار وهون، ثم ينتقل إلى الرذائل ليعطي النظارة نصيباً من الضحك وهكذا حتى تنتهي الدرامة

وكانت الفترة التضحيكية المخصصة للرذائل تسمى فاصلاً - أو استراحة - وظل هذا هو النظام المعمول به في مزج الأخلاقيات بالفواصل حتى جاء جون هيوود (1506 - 1565) فألف في الفواصل خاصة، وبذلك أخذت تستقل الأخلاقيات وتكون نواة للملهاة

وقبل أن نتكلم عن الفواصل نلم إلمامة ختامية بالأخلاقيات لنعطي القارئ نماذج سريعة من أنواعها ليكون لنفسه صورة من النضال المتصل والجهاد الرائع الذي مهد للمسرح الإنجليزي العتيد في عصر شكسبير العظيم. فمن هذه الدرامات الأخلاقية ما كان دينياً بحتاً مثل درامة قلعة المثابرة من عهد هنري السادس، وموضوعها الحرب بين النوع الإنساني وزملائه الفضائل السبع الرئيسية، ضد الكبائر السبع بقيادة زعمائها الثلاثة: مندس وبليال وكارو الذين يحاصرون النوع الإنساني في قلعة المثابرة، ثم نجاة النوع الإنساني آخر أمر. ومن هذا القبيل درامة (كل إنسان) وقد كتبت قبل سنة 1531 وفيها يستدعي (كل إنسان) هذا أمام محكمة إلهية ليقدم حساباً على ما قدمت

يداه في الحياة الدنيا. . . وهنالك تخذله رفاقه (الزمالة والخفة والقوة والسرور والجمال) في حين لا يجد له نصيراً إلا حسناته التي تقدمه (إلى الاعتراف) الذي يبرئ ساحته

ومن تلك الدرامات أيضاً ما تلحظ فيه أثر حركة الإصلاح الديني والروح البروتستنتي الجديد، مثل درامة العرف الجديد أو درامة معركة الضمير. ومنها ما كان يتجه اتجاهاً علمياً يتمشى مع نور النهضة مثل درامة (العناصر الأربعة، وهي نضال بين العرفان وفضائله، والجهالة ومضارها؛ ونحوها درامة (الذكاء والعلم). ومنها ما كان سياسياً، مثل درامة (الفارس ألبيون) وهي تصور ذلك النضال الهائل بين الأشراف والعامة، والصدام الذي انتهى بالإصلاح الدستوري الكبير في بريطانيا. ونحوها درامة لوردات لندن الثلاثة وسيداتها الثلاث، وهي ملهاة لكاتب اسمه روبرت ولسن. وكان يحترف التمثيل. والسيدات هن المنفعة الخسيسة والحب والضمير. أما اللوردات فهم السياسة والأبهة والسرور (وأولئك هم سادة لندن) - ثم الكبرياء والطمع والظلم (وأولئك هم سادة أسبانيا) - ثم الرغبة والمسرة والولاء (وهؤلاء هم سادة لنكلن) وقد كتبت هذه الدرامة بعد تحطيم الأرمادة الأسبانية. وفيها تحقير شديد للأسبان وإشادة بالمجد الإنجليزي هذا، وقد ألف بعد هذه المرحلة درامات لا هي أخلاقية كلها ولا هي فواصل كلها، بل كانت (بين بين) إن جاز هذا التعبير

أما الكلام عن الفواصل فيحسن أن يستقل بفصل خاص لأهميته. ولأنه كان البذرة الأولى للملهاة الإنجليزية. وهو ما سنتناوله في الفصل المقبل.

دريني خشبة

المشكلات

اللغة العربية - 5

للأستاذ محمد عرفة

لماذا أخفقنا في تعليمها؟ - كيف نعلمها؟

ومن غريب الأمر أن الطريق الذي أشرنا بسلوكه، والذي أبان العلم أنه لا طريق إلى تعلم اللغات سواه، هو الطريق الذي هدت إليه الفطرة وسلكته في تعليم الولدان لغات آبائهم، وتعليم الأجيال لغة أممهم، فالفطرة اصطنعت في تعليم اللغات طريق الحفظ والتكرار، والمرانة والاعتياد

ينشئ الطفل فيسمع أبويه وأهليه يتكلمون بمواضعات خاصة فيحفظها وتتكرر على سمعه، ويعتادها لسانه فتصير ملكة، وبذلك يحذق لغة قومه

كأن الفطرة قد علمت أن اللغة في الإنسان ملكة، والملكة لا تكتسب إلا بالتكرار فاستعملت ذلك في تعليم أمم الأرض لغاتها، ولم تخطئ مرة واحدة فتلجأ إلى طريق القواعد والقوانين لأنها لا تكسب الملكات

أما نحن فجهلنا ذلك، وأخذنا نعلم اللغة بالقواعد والقوانين، ولم نلجأ إلى تعليمها بالحفظ والتكرار، فكانت الفطرة أقرب إلى الصواب، وأبعد عن الخطأ، وأثقب فكراً، وأسد نظراً، وكنا أقرب إلى الخطأ، وأبعد عن الصواب، وأعظم خرقا. وكانت الفطرة تعلم اللغة أثناء المعاملات اليومية من لعب وقضاء حاج، وبيع وشراء؛ أما نحن فقد أحطناها بالقوانين التي يفنى العمر ولا تفنى؛ فكانت مقتصدة أعظم الاقتصاد، وكنا مسرفين أشد الإسراف. كانت الفطرة تعلمها بالتدرج من الأسهل إلى الأصعب، ومن البسيط إلى المركب مراعية حال المتعلم، فتعطيه ما يناسبه ولا يجافي عقله. أما نحن فلم نراعي ذلك بل تعمدنا مضادته، فعلمنا القواعد التي هي فلسفة اللغة، تعلم بعد تعلمها، ومرتبتها في الوجود متأخرة عنها، فلم تظهر إلا بعد ظهور اللغة بأزمان. أقول علمنا القواعد قبل تعلم اللغة وجعلناها وسيلة إلى تعلمها، ولم نراع حال المتعلم فجئنا بأطفال الأقسام الابتدائية والتعليم الأولي، وأخذنا نعلمهم القواعد، ونعطيهم من العلم ما ينبو عن أذهانهم؛ فكانت جارية على مقتضى الحكمة، وكنا جارين على غير مقتضاها، أو على مقتضى شيء آخر، وكانت ميسرة كل التيسير، وكنا معسرين كل التعسير

وكانت تعلمها أثناء سرد الحوادث اليومية، وأخبار الجيران، والأهل والخلان، والمحادثات السارة والأخبار الممتعة. وتاريخ الناس وملحهم، وفي أثناء الأغاني والمدائح والمراثي. وكنا نعلمها في قواعد جافة خالية من كل ذلك، فكانت تعلمها مع المتعة والمسرة.

وكنا نعلمها مع الضيق والحرج. ولما راعت ذلك كله كانت ناجحة في تعليمها كل النجاح، ولما أهملنا ذلك كله كنا مخفقين كل الإخفاق

أراني فيما سبق قد أطلت المسافة في الاستدلال، وذكرت في البين أن اللغة ملكة، وأن الملكة لا تكتسب إلا بالتكرار، وكنت أستطيع أن أختصر الطريق، وأقول لننظر إلى الفطرة كيف تعلم اللغة، ولنحاكها فيما تفعل، ولنعمل كما تعمل

وإذا نظرنا هذا النظر وجدناها تعلم أبناءنا اللغة العامية بالتكرار والمحادثة، وكذلك كانت تعلم أطفال العرب لغة آبائهم. كانوا يسمعون في طفولتهم من آبائهم ومخالطيهم مفردات اللغة وأساليبها، والبليغ المأثور من بيانها، ويتكرر ذلك على أسماعهم، فيحاكونه ويقلدونه ويتكلمون على نهجه، فيكتسبون الملكة في اللغة بالسماع والتكرار والحفظ؛ فإذا الطفل الناشئ ولسانه البادئ جار على هذه اللغة لا يخطئ ولا يشذ، ولو حاول جهده أن يحيد عن الصواب لاستعصى ذلك على لسانه، ولوجد في ذلك مشقة وعنتا

إن محاكاة الفطرة في أعمالها داعية إلى النجاح والتوفيق، وكلما كان المرء أقرب إليها كان أقرب إلى الصواب، وأبعد عن الخطأ، ويكون خطؤه بقدر بعده عنها، ومجافاته لقوانينها

ومن سوء حظ المتعلمين أن ما في المدارس المصرية مما له تعلق بالطريقة الطبيعية قد أهمل ولم يعن به، وهو فيها صورة لا معنى، وشكل لا حقيقة؛ ففي المدارس المصرية حفظ ومطالعة، ولكن التلاميذ يهملون ذلك الثمد القليل الذي فرضته عليهم المدارس المصرية من المحفوظات، ولا يحفظون إلا النزر القليل ليقولوه أمام لجنة الامتحان الشفوي. وفيها مطالعة، ولكن يمر العام كله وهم لم يطالعوا إلا صفحات معدودة، وفي الكتب المقررة شواهد على النحو والصرف والبلاغة، ولكن التلاميذ لا يحفظون شاهداً، ولا يستظهرون مثلاً

وضعت يدي على خمسة تلاميذ اتفاقا دون اختيار، وكانوا من تلاميذ الثقافة، وكان علم البيان مقرراً عليهم وفيه كثير من الأمثلة والشواهد، وسألتهم واحداً واحداً عما حفظوه من شواهد البيان، فلم يكن منهم من يحفظ بيتاً واحداً، ومن المحزن أن الممتحنين لا يقيمون وزنا لذلك، وأن المدرسين لا يقيمون له وزنا أيضاً، فلا هؤلاء يحتمون عليهم حفظ الشواهد، ولا أولئك يرون المقصر في حفظها مقصراً في الامتحان

وهذا إهمال عظيم في الحفظ والتكرار، وهو وإن كان محزنا فان لهم العذر كل العذر فيه، لأنه ثبت في أذهان الجميع معلمين ومتعلمين أن المعول عليه إنما هو القاعدة، فإذا فهمت وحفظت فما عداها من حفظ الشاهد والمثل فضل، ولا يعلمون أن هذا الفضل هو الذي إذا عني بحفظه وتكراره رسم صورة ذهنية، يكتب الناشئ على مثالها، وينسج على منوالها

وقد علمتني التجربة أن ما يؤخذ من المحفوظات في المدارس لا يغني التلاميذ شيئاً، فمن الواجب أن يكلف التلاميذ أن يعكفوا على بعض دواوين الأدب، فيقرؤوها، أو يختاروا منها، ويجمعوا ما يختارون في كراسة ويحفظوه ويفهموا معناه، وتكون هذه الكراسة بيد التلميذ عند الامتحان شاهدة على جده وعمله، فيقدمها للمتحن فيرى أهي كافية أم غير كافية، ثم يمتحنه فيها من أولها ومن وسطها ومن آخرها ليعلم هل حفظ ما اختار

وقد علمتني التجربة أيضاً أن ما يؤخذ من المطالعة في العام الدراسي أمام المدرس لا يغني عن التلاميذ شيئاً، فمن الواجب أن يكلفوا بكتب يطالعونها أثناء العام الدراسي ويكتبون آراءهم فيها ويلخصون محتوياتها، وكذلك في العطلة، ويكون لهذا وذاك دخل في تقدير الدرجات

كل ما في الوجود يشهد لي أن اللغة إنما تكتسب بالحفظ والتكرار وأن القواعد لا تغني في اكتساب ملكة اللغة فتيلا

لعلك جلست إلى بعض الممثلين واستمعت إلى حديثه فرأيته يتكلم بالعربية لا يكاد يخطئ، وينحدر كالسيل، ويهدر كالرعد

ولعلك جلست إلى بطل من أبطال اللغة العربية يعرف قواعد النحو والصرف والبلاغة لا تكاد تخفى عليه منها خافية، فرأيته يتكلم بالعامية لا يكاد يقيم جملة، ولا يستطيع أن

يلين لسانه بالعربية، فعجبت كيف يملك الأول هذا القدر من العربية مع جهله، وكيف يقصر عنه
الثاني مع علمه
أتدري لم هذا؟ إن الأول زاول اللغة العربية عملاً، وحفظ أدواره في الروايات، وألقاها ومرن على ذلك فاكتسب ملكتها، فإن تكلم بعد صدر عن الملكة فأجاد؛ أما الثاني فعلم قواعد النحو والصرف والبلاغة، ولم يزاول اللغة حفظاً وعملاً، فلم يكتسب ملكتها فكان هذا القصور المعيب
أجلست مع بعض العامة الذين يكثرون من قراءة الجرائد والروايات فرأيته يقيم لسانه بالعربية أكثر من ذلك النحوي الذي جعل همه في القواعد والقوانين
ولعلك رأيت بعض من لا يعرفون علم العروض والقافية، ولا يعرفون البحور وأوزانها، ولا الخبن والطي، إذا سمع بيتاً مكسوراً أدرك عيبه بمجرد سماعه، وإذا سمع بيتاً صحيحاً أدرك صحته كذلك؛ ولعلك رأيت بعض من يعرفون هذه العلوم لا يهتدون لعيب البيت أو صحته إلا إذا أخذوا يتعرفون من أي بحر هو ويجرونه على أوزانه. إن ذلك لأن الأول تربى عنده مقياس ذهني لأوزان الشعر من كثرة قراءته وحفظه، فإذا سمع شعراً اختل عن هذه المقاييس أدرك ذلك بذوقه، والآخر لم ترب عنده هذه المقاييس بل شغل بقواعد الشعر عن حفظه وقراءته والقواعد لا تربي الملكة
أن كثيراً من علماء العروض لو حاولوا نظم بيت من الشعر أعجزهم؛ وإن كثيراً ممن لا يعرفون هذا العلم يأتي لهم الشعر طيعاً منقاداً - والسر ما قلناه وكررناه من أمر الملكة والتكرار
سلوا كل كاتب يحوك الوشى، وينفث السحر، وكل شاعر يقول الشعر، وينظم الدر، في مصر وفي بلاد الشرق، بماذا نلتم هذه المنزلة ووصلتم إلى هذه الدرجة من البيان يجيبوك بأنهم لم ينالوا هذه المنزلة إلا بالقراءة الكثيرة، والحفظ الكثير ومزاولة الكتابة والحديث
إن قوانين الوجود صارمة نافذة أبدية فمن سايرها وعمل على مقتضاها انتفع بها وسار على ضوئها إلى التوفيق، ومن جهلها لحقه الضرر بهذا الجهل، ومن أراد التخلص منها، وحاول أن يخضعها لإرادته عني نفسه فيما لا يطاوعه ولا يجد إليه سبيلاً
محمد عرفة
لافونتين
(1621 - 1695)
بنو آدم كالنبت ... ونبت الأرض ألوان
فمنهم شجر الصند ... ل والكافور والبان
للأستاذ محمد حسني عبد الله
(بقية ما نشر في العدد الماضي)
الخرافة وازدواج الشخصية عند لافونتين
ولقد عرف الشعراء والأقربون في هذا الشاعر، من تصرفاته وأحواله، إنساناً قليل الانتباه لمجرى الحوادث، قليل الاحتفال بوقائع الحياة، منصرفاً عن حركات الناس وسكناتهم، متشاغلاً عن حديثهم ولغوهم، شارد الفكر فيما لم يكن في مستطاعه الدلالة عليه إذا بدهه سائل بالسؤال عما يشغله ويذهب بلبه. فكان يبدو ساذجاً أشبه بأبله، من العصي عليه أن يصف لأحد مشافهة ما رأت عينه أو يعيد عليه ما وعت أذنه. فهو لم يكن يعني - فيما ظن خلصاؤه وبطانته - بشؤون الناس في شيء، عظم أم حقر - حتى ولا بشأنه؛ فكان همه في الحياة - كزعمهم - العيش فحسب؛ ومثله الأعلى - كحدسهم - الاستكانة للواقع والانصراف عن الجهاد والكفاح واستمراء للكسل مضافاً إليه قليلاً من الحب ليمد العيش بالنضارة والحلاوة كقليل الملح إذ يصلح الطعام ويجعل له طعما سائغاً
ولكن كل من قرأ دواوين خرافاته وبحث فيها تصويرها الجامع لألطف المعاني والأخيلة، الحافل بأدق الأحداث وأشدها، تطلباً لليقظة، عرف فيه كما قد عرف مؤرخو الآداب والناس عامة، يقظاً مرهف الحس، فطناً لكل ما ظن أنه غافل عنه
فللرجل إذن خلقان على طرفي نقيض: أحدهما واضح المعالم ظاهر للعيان ساخر من الحياة، غير عابئ بواجباتها حتى واجبات الأبوة والزوجية؛ والآخر خفي مستبطن، ولكنه

يقظ منتبه لكل ما يدور في ملعب الحياة. وثمة انسجام وتآلف بين هذين الخلقين ساق إلى تفادي أضرار هذا التباين بالتنفيس عن الجانب المستسر من خلقه في أدب الخرافة التي

كان إخراجها للناس برهاناً على ازدواج الشخصية عنده وجمعه لعجائب الأضداد خرافة لافونتين والناس

وكما أن إلياذة هوميروس وأوديسته هما سجل اليونان الحافل، وديوان أدبهم، المحدث في صدق عن معتقدهم، المصور في دقة لنظمهم، ومراسمهم خلال حقبة طويلة من تاريخهم القديم، فكذلك خرافات لافونتين - هوميروس الفرنسي - مرآة صادقة للحياة الاجتماعية في عصر من أحفل عصور التاريخ السياسي والأدبي عند الفرنسيين، ومعبر صريح عن الروح الغالية الساخرة العابثة الفطنة في القرن السابع عشر، إذ أراد فيها لافونتين بتصويره حاشية الأسد وجماعته من الحيوان، مجتمع معاصره لويس الرابع عشر نفسه، بلاطه وشعبه

وأما الصفات التي وزعها على الحيوان - كل بما يوائمه من صفة - كالكرم للأسد القوي، والحيلة للثعلب الماكر المستضعف، والغباء للحمار الأخرق، والطيش للأرنب المستهترة، والرياء للهر المتلون، والغرور للغراب المستغر، إلا صفات إنسانية محضة خبرها في أهل عصره وصادفها في مجتمعه فوصفه بطريقته الخاصة - الجادة إذ عبثت - متلطفاً بالمداراة والتأدب في نقد الناس إذا قدح، متحامياً الملق والتقرب من أي كان إذا مدح. فخلق بذلك عالماً في ظاهره غريب عن الإنسان، وهو في مستسره وكيد الصلة به. فتهيأت من ذلك للصغار فرصة الالتذاذ والتفكه بشؤون هذا العالم الحيواني العجيب والإفادة منه، وللكبار فرصة إعمال الذهن وكدح الخاطر في ربط الصلة بينهم وبين عالمهم واستخلاص الحقائق الواقعية التي أريد بها عصر لويس الرابع عشر خاصة ولكنها تصلح تصويراً أخلاقياً دقيقاً لكل عصره. وبهذا عدت الخرافات في مجموعها ملحمة فرنسا الكبرى فكانت تراثاً أدبياً إذا أضيف إلى الإلياذة والأوديسة والشهنامة وألف ليلة وليلة، أعز جانب الأدب العالمي.

هوميروس الفرنسي والأخلاق

ولكن يصعب على المنقب في هذه الخرافات أن يستخلص منها مذهباً أخلاقياً أو مبدأ مثالياً. فهوميروس الفرنسي قد قنع فيها بتصوير الحياة كما هي فأجملها في قصائد منظومة لا

تحسن حسناً ولا تقبح مرذولاً. وإنما هدفها رسم الأحوال المختلفة وتصوير العواطف البشرية، شرها وخيرها، إذ الأمر يتعلق بوصف الحياة لا بنقدها. فالقوة والضعف والغنى والفقر والشر والخير هذه كلها ألوان ليس للحياة منها بد. بل لا محيد للضعيف عن الخضوع للقوي، ولا مهرب للفقير من استعباد الغني، ولا حيلة للخير مع الشر فلافونتين إذن لا يختط قواعد أخلاقية تتبع، ولا يبين أغراضاً مثالية تراعى، إذ غرضه إزاحة الستار عن حقيقة الحياة الدنيا بغير أن يتطلع إلى خير منها. فإذا عرض للضعيف المغلوب فغالباً يجرده من معونة الغير ومن القدرة على الأخذ لنفسه. وإذا تكلم عن القوي المظفر حشد في ركابه الدنيا برجلها وخيلها، وهيأ له النصر المحتوم من طبيعة الأمور. وهو يؤيد ما قيل من أن (جوبيتير) مد على البسيطة خوانين: خوانا للمجدودين أصحاب الجاه والنفوذ والقوة قد صفت عليه ألوان شهية من الطعام والشراب، وخوانا للمخذولين الخاضعين، لا يليق إليه إلا بالفضالة والفتات. بل المسألة - فيما ترى - أدهى وأمر؛ فالصغار أنفسهم هم مأكول الكبار القادرين. وأيا ما كان الأمر فالامتثال والإذعان واجب الضعيف للقوي والمسود نحو السيد. وعلى الكلب ألا يجهل من يكون السبع الملك، وأي فضائل تلك التي خص بها دون المخلوقات، ومتى ينبغي توطين النفس على الرضاء بظلمه وحيفه

على أن الحياة كما هي لا بأس بها، والألم فيها على أي حال خير من الموت. فشعار لافونتين - مع هذا - الخضوع المطلق للواقع. وهذا شعار لا يرضي الأراديين وأصحاب الخطة في الحياة

وقد عاب عليه جان جاك روسو السخرية من الضعيف المغلوب. فبالإضحاك على حسابه يدعو إلى الإعجاب بالغالب المختال، ويحث على المظلمة والجور. وذكر أن حكمه وأمثاله ليست من النبل والبطولة في شيء. فكثيرها ينصح بقبول الحياة حتى

في أحط الأوضاع؛ ثم ينصح بأخذها بالملق والإذعان والدهاء. وما هذه إلا صفات الخاضع الذليل الذي لا يرجى نفعه
على أن الخرافات في الحق وإن سخرت كثيراً من الضعاف لا تخلو من الإشارة إلى الأخلاق. وكيف لا والسخرية نفسها سياط تحدو إلى التفطن والانتباه حذر الوقوع فيها يستوعبها من الغفلة والانخذال. وهل أدل على أن لافونتين قد قصد إلى الأخلاق والنصيحة من قوله هذا (ما أردت إلا الإفادة والإرضاء بهذه الصور الوهمية التي أقدمها للعالمين، فالحكاية لمجرد التسلية شيء يبدو لي تافهاً صغيراً)
كلمة ختامية
ولئن كان أروج الأمور - فيما يرى لافونتين - التسليم للأمر الواقع فان ذلك لا يعني عنده الغفلة عن المسرة واغتنام فرص الحياة. فهو - وهو أبيقوري المذهب - جد حريص على أن يهيب بالناس إلى الاستمتاع بمسرات العيش ما أسعفت الحيلة ومكنت الفرصة. فما للإنسان سوى عمر واحد، فإن هو بذل في هم وأحزان، إن كان وضع في الدنيا موضع كد وحرمان، فوالله قد عرى من دهره وحرم نعيم الرضاء بأية حال. فالمرء لا يعدم مع الفاقة والمعسرة والإذعان للسيد المقتدر، غبطة القناعة وسرور السلام. وهل استطعمت السباع التي خلفت وراءها ما فاض من مطعمها مذاقاً غير الذي ذاقته الثعالب في هذا المخلف؟ على أن الدنيا في واقع الأمر دار ضيافة، وليس من عرفان الصنيع في شيء أن تغادرها دون الشكر للمضيف أيا ما كان القرى الذي يتيسر لنا من حكم الأقدار
تلك وأشباهها أراء لم تكن إلا صدى لحياة لافونتين نفسها. فهو قد عاش قرير العين، رخي النفس، لا منفذ إلى قلبه للهم. وكانت له الضياع والعقار في أراضي (شاتوتيري حيث ولد ودرج وشب وعاش حتى الخامسة والثلاثين من عمره - فلم يعن بالإبقاء عليها تحرزاً من غير الدهر وصروف الزمن. فلما صار إلى الفقر نتيجة التبذير والإسراف، آواه بباريس (فوكيه) وزير مالية لويس الرابع عشر، فدوقة أورليان، فمدام دولا سابليير، فهيرفار من بعد، لم يمنعه ذلك من التسليم والرضا، ولم يتأسف على ما لم يعن التوفيق ببقائه؛ بل أطلق لهواه العنان وأخذ بأوفر سهم من لذة العيش قبل أن تولي أيامه وتنصرم مدته. إلا أنه عند دنو الأجل استشعر الندم على ما فرط منه. يتضح ذلك من هذه النبذة التي نختتم بها من كتاب له إلى صديقه الشاعر (موكروا ومن الإسراف يا أخي أن تخال صديقك لافونتين مريضاً بالوهم؛ فالذي لا ريب فيه أنه) لم يبقى من أجله إلا أيام معدودات، ولشد ما نالت من قواه العلة طوال عامين بتمامها، لم يشد أزره على شدتهما سوى نعمة اختلافه إلى المجمع اللغوي بين الوقت والوقت. ولكن
بالأمس وهو في طريق العودة منه، بغتة ضعف ظن أنه الموت على موعد. فأخذته الرعدة لا خشية الموت ولكن خوف الحاكم العادل، جلت قدرته. فأنت تعلم بأي وجه سيلاقي صديقك ربه. . .)
وتلك الندامة لعمري حسنة تسجل للافونتين.
محمد حسني عبد الله
أعداء النساء
للسيدة وداد سكاكيني
أمر من الرجل قد وقع، وقضاء قد حم على رأس المرأة. وكأن الدهر أبى منذ الأزل إلا أن يقطع أسباب المودة والصفاء بين الرجال والنساء، فسخر من غلاظ القلب والجسد من كاد لهن وتربص بهن، وزعم متلطفاً أنهن شر لا مفر منه ولا غناء عنه، فأساء الرجل إلى جنسه، والى من خلقت من نفسه؛ فكان كمن ضل وأضل. إذ كيف جاز في شرعة الحق والرجولة أن يخلق هذا الإنسان الجبار عداوة بين الجنسين، أو في دنيا مخلوقين بديعين؟ ومذ بدرت من الطبائع بوادر الخصومة والخلاف هب نفر من الرجال، وقد حسبوا أنهم يحسنون صنعاً، فتنادوا إلى ملاحاة النساء والغض من حسناتهن، ليقال إن العالم يشقى بشرهن ويعيا بأمرهن. وأخذ المتنادون والأشياع يهتفون في كل جريمة وقعت أو خصومة قامت: فتش عن المرأة. ثم غدا الناقمون مباهين بعداوة النساء، فروعت بنات حواء وفزعن إلى أخواتهن متسائلات: - من الشاهر سيفه الكاشر عن أنيابه، الناشر لمخالبه، يريد بنا الأذى وينوي لنا الردى. . .؟

فقلن هذا (أرثور) زائغ الفكر والشعور، رفع صوته في الغرب، فثارت به المرأة تتمنى جلده وتحطيمه. وذلك (التنوخي) الضرير نفث نقمته في أرجاء الشرق، فودت له النساء كل شقاء وفناء. وخلف من بعد هذين الناقمين خلف ورثوا عنهما المكايد والضغائن وصار إليهم بحورة الماكرين . . .

وبعد فما لامرأة اليوم حيلة بالأعداء الغابرين، فقد ماتوا وخلوا للمشايعين تراث العداوة لها؟ وكانت تحسب أنها استراحت من الأعداء، فإذا هم اليوم خصوم ألداء وحقدة أشداء، يتداولون بينهم ذلك التراث البغيض. من هؤلاء الخصوم في ديار العرب توفيق بن سليمان الذي جد في عداوته للمرأة فطعن عليها، ورماها بكل نقيصة في كتبه ومقالاته. واليوم ظهر في جنبه بوادي النيل عدو جديد. على أن أكثر هؤلاء الأعداء من الكاتبين والفلاسفة والكبراء، ما شاع ذكرهم ولا ذاع صيتهم إلا حين تهجموا على النساء بالمثالب والتسفيه، فإذا بمطاعنهم تدور وتحور، ويتردد صداها في كل مكان، وينبسط مداها مع الزمان، ويقبل على بضاعتهم الشامتون بالمرأة والغاضبون عليها، فيشترون من تلك البضاعة المزجاة

ويرتأون آراءهم الفائلة، وإذا بها ترن في المسامع وتطوف بالمجامع؛ فيهتف التاريخ بأسماء: شوبنهور ونيتشه والمعري وتوفيق الحكيم وغيرهم . . .

ومن عجب أن يجور هؤلاء الأعلام على النساء بما يخالف العرف وينافي الواقع، ليكتسبوا من هذه المناوأة والمكابرة شهرة جديدة وصيتاً بعيداً. وطالما جار الثالبون على أنفسهم فتعسفوا وتكفلوا وكان خبطهم خبط أعشى. أليس منا أمهاتهم وأخواتهم وخالاتهم وجداتهم، ولم لا أقول زوجاتهم وبناتهم؟ ثم أستغفر الله مما وزل به اللسان، فإن كفيف المعرة كف نفسه عن المرأة، ولعل له عذراً، فلو كان كحل عينيه بجمال الغيد ولم يكن دميما لاجتاحت قلبه واحدة من النساء غيرت معالم اللزوميات، فلم يطعن علينا فيها بالتائيات، ولما أدارها معنا وقيعة سجالا وحرباً عوانا؛ فإن في كل بيت منها لسيفاً وسنانا. ولقد بنى أبو العلاء صروح شعره على ذم المرأة وما دل عليها، وكان منها أو إليها، فالدنيا عنده أم دفر، وهو أبداً ينحت أثلتها ويبري عودها، معتقداً أن كل خطب فيها سببه المرأة؛ فهو هدام معطل، لو أوتي قوة شمشون وكان مسبل الشعور لدك بهن العالم وأقفر الوجود. ومن يدري فلعل شوبنهور أو نيتشه وسواهما من أعداء المرأة في الغرب والشرق إذ كرهوها وصفدوها، كانت وراء كل منهم امرأة أفسدت عليه نعيم الحياة، وسودت في عينيه بياض الدنيا؛ فحسب الغدر والكيد كله من شيم النساء. وإذا كان لهؤلاء الأعداء الغابرين معاذيرهم في الغضب على النساء وفي عهود كن مستضعفات، فأي عذر للناقمين منهن في عصرنا؟ وكأن هذه النقمة من أكابر الكاتبين في أيامنا خصومة بهم أو دلالة عليهم، فإذا ركد لهم صيت أو فتر من حولهم إعجاب هزوا لأنفسهم رياح الشهرة بمقال يرسلونه، أو رأي يقولونه، في شأن المرأة، فقذفوا بالباطل عليها، ودعوا الرجال إلى البطش بها، وعد الحقوق التي تطلبها ضرباً من الأوهام والأباطيل. من هؤلاء الأعداء المكابرين الكاتب المصري توفيق الحكيم الذي يجهر بعدائه للنساء في كل نهزة، ويسخر قلمه للسخر منهن ومن ثقافتهن. وما كان هذا منه إلا ألعوبة أدبية يلوح بها في وجوه الناس ليزيدهم لآثاره تقديراً وعليها إقبالاً. ولعلهم كانوا كذلك بادئ الرأي، أما وقد عرفوا أفانينه فإن توفيقاً أصبح لدى العارفين أديب تربص وانتهاز، فمنذ عهد قريب دعا قومه إلى تعدد الزوجات، وحين نشر الدكتور طه حسين كتابه الأخير (أحلام شهرزاد) ضاقت عين الحكيم عن تسريح

النظر في هذه الأحلام التي صور فيها الأديب العميد (شهرزاد) في رداء من الحصافة والذكاء. ولما رآها مرت أمامه شهرزاد التي صورها خليعة ماجنة. ومن قبل نشر الأستاذ توفيق الحكيم فصولاً عرى فيها المرأة من مواهب الفن فزعم أنها لا تحسن إنشاء القصص التمثيلية ولا تستطيع أن تكون موسيقية تبتكر الألحان، وقد فاته من أدبنا القديم براعة المغنيات في عصر بني العباس، وفي العصر الحاضر من أهل اللحون نساء في المشارق والمغارب. أما الروايات التمثيلية فعهد العرب بها جديد، ولننتظر فإن الزمان لم ينفد أمده، وما زال الإنسان حياً، فإن في مأتى الدهر نجوماً ستنجم يكون بينها مؤلفات للمسرح وموسيقيات. ومن أعجب العجب أن تسكن عداوة الحكيم للنساء أشهراً لتكون وحياً جديداً للأستاذ عباس محمود العقاد، فقد نشر هذا

الأديب العظيم مقالين زعم فيهما أن المرأة لا تجيد من الفنون غير فن الرواية، وكأن هذا الفن في نظره أهزولة هينة على كل كاتب، وقال إن المرأة ليست بشاعرة مبتكرة بل هي مقصرة ومكررة، لأن الشعر ابتكار واقتدار، وأنها لم تنبغ حتى فيما هو أقرب إليها وأحرى أن تتفوق به على الرجل وهو الرثاء، وإذا كانوا يضربون المثل بالخنساء فإنه ليس في ديوانها غير أبيات متفرقات في البكاء لا ترتقي إلى منزلة الشعر السيار، إذ كله تكرير لمعنى واحد، ولا يصح أن يقال إنه معنى من معاني القريحة والخيال. وقال العقاد أيضاً: إن التصوير كالتمثيل والمرأة فيه غير مبدعة. ولم تعرف نابغة فيه خلقت دوراً من محض خيالها وتفكيرها كما يتفق لنوابغ الممثلين من الرجال. وهكذا رأينا هذا الكاتب الكبير يجرد المرأة من مزايا الإبداع والإجادة حتى في صناعاتها الخاصة بها، كالطهي والوشي والزينة والخياطة؛ فزعم أن الرجل يبذها فيها وينافسها، ونحن نقول إن في عديد شاعرات الغرب قديماً وحديثاً، وفي شاعرات العرب اللواتي - روى شعرهن أبو تمام وأبو نواس، أو التي ينشرن القريض لغة الضاد أو بلغة الفرنسيين - ما ينقض رأي العقاد؛ وفي الأديبات المعاصرات من أحرزت جائزة نوبل التي ما أحسب الأستاذ العقاد يزهد فيها، وفي النساء ممثلات كساره برنارد وراشيل، ومصورات لا يحصى لهن تعداد، أليس فيما أشرت إليه حجة بالغة عليه؟ ونحن لم ننس بعد مرثيته لفقيدة الأدب في الشرق الآنسة (مي). فعداوة العقاد إذن كعداوة الحكيم وكلاهما أديب أعزب وعن النساء بمعزل، بل ما دار لدى الأول بين يديه في صحن داره كما يذكر

هو في كتابه (عالم السدود والقيود) غير خادمه الساذج، وما وقفت في مطبخه طاهية ولا جارية، بل لم تخطر في فناء بيته وحجراته امرأة يدعوها بأم أولاده، والحكيم يعيش مفرداً متجافياً عن المرأة، وقد آثر مرة ألفة حمار كما قال عن نفسه في كتابه (حمار الحكيم). ويثور بالمرأة أديب آخر يمزج مزاحاً فيه حلاوة وفيه مرارة هو الأستاذ المازني الذي يتندر على المرأة ويستهزئ بها في كثير من قصصه ومقالاته، حتى أن زوجته وبناته لا يسلمن من أهكوماته وزرايته. وأحسب هذه الضروب من الأدب العابث بالنساء أصبح لدى معشر من أدباء العصر أفكوهة الفن وطرفة التجديد، وما المرأة في هذا الزمان إلا مستيقظة من سبات، ناهضة من خمول وهوان، فعلام يحول أدباؤنا دون تحريرها ورقيها، ويباهون بالعداوة لها وبالزراية عليها، وكان الأولى لهم أن يعالجوا مشاكلها ويتفقدوها في مجتمعاتهم، ويجعلوا منها شريكاً في حياة كاملة طيبة، وما بال هؤلاء الأعداء - وما جادت الأيام بأندادهم إلا على هامات العصور - يسخرون أقلامهم للهدم والتحطيم، وقد شرفها الله فأقسم بها وما كان مدادها إلا ليشرق من سواده نور الحق والخير على بياض الأوراق؟ ليتهم سخروها لرعاية المرأة ورفعتها، ولسوف تأتي الأجيال القابلة فينظر أهلوها في آثار هؤلاء الناقمين على النساء، فيرون أن بعضهم كانوا لاهين مباهين بأدب لحمته وهم وخيال وسداه زهو وتحريف، ينتزعوه أحياناً من الأساطير ويرددونه في الأدب الحديث باسم الفن والتجديد لقوم حرام عليهم اللهو والهزل والدنيا جادة في اقتحام الأمجاد وبناء الأجيال، وهكذا نراهم غير جادين في آرائهم أو مخلصين لدعواهم، ولو كانوا يريدون بالنساء خيراً ونفعاً لأنشأوا لهن أدباً يبصرهن ويعصمهن ويجمع قواهن في قوة الرجال فما ينبغي أن يتخلفن عن مسايرتهم في ركب الحياة

يقول الراسخون في العلم والنافذون بأبصارهم إلى عالم الغيب: إن في حياة كل أديب امرأة كان لها تأثير في توجيهه ونبوغه، وهذا ما ردده توفيق الحكيم منذ سنتين: (فمن أفواهكم ندينكم) يا أعداء المرأة؛ لولا نساء أظلمت عليكم قلوبهن فلم تدخلوها لما كانت عداوتكم، وإذا دعوتم إلى تحقير المرأة والبطش بها فإن وراء دعوتكم تشفياً وانتقاماً، فقد يكون الدهر إبتلاكم بأهواء الحسان، أو بلوتم زيوف النساء فتجافيتم عن الخوالص الصحاح

ثم ابحثوا أيها المنصفون تاريخ السرائر والنفوس، فلن تجدوا منذ حواء واحدة من النساء قد

نصبت نفسها لعداوة الرجال، ولو بحثتم عن أعداء النساء منذ آدم لوجدتم فيهم الكثير، فخلوا عنكم أيها الأعداء، وحسبكم تسفيهاً للمرأة وتجريحاً، وعلام هذه البغيضة منكم والقطيعة، فما العمر مديداً حتى يحتمل فيه الكدر والخصام، ولا فيه صفاء يدوم

لإنسان.
(دمشق)
وداد سكاكيني
موكب الحسن. . .
مَوْكِبُ الْحُسْنِ تَهَادَى ... بْينَ أَرْجَاءِ الْحَياةِ
ضَاحِكَ الْإِشْراقِ طَلْقَ السِّ ... حْرِ وَضَّاحَ السِّمَاتِ
أَلْهَوَى رَنَّحَ عِطْفَيّ ... هِ بِسَكْرَي الْأُغْنِيَاتِ
وَالسَّنَا رَقْرَقَ مَسْرَا ... هُ كَأَمْوَاهِ الْقَنَاةِ
خُذْ مِنَ الْبَهْجَةِ يَا شَا ... عِرُ مَا شِئْتَ وَهَاتِ
هَذِهِ الْجَنَّاتُ مِلْء الْ ... عَيْنِ سِحْراً وَانْبِهَارَا
تَرْقُصُ الْأَغْصَانُ فِيهَا ... رَقْصَ أَعْطَافِ السُّكَارَى
وَنَسِيمُ اللَّيْلِ هَفْهَا ... فٌ كَأَنْفَاسِ الْعَذَارَى
وَالنَّدّى سِرُّ اللَّيَالِي ... قَبَّلَ الزَّهْرَ جِهَارَا
وَالدَّيَاجِيرُ مَحَارِي ... بُ سُكُونٍ لِلْحَيَارَى
وَرَأَيْتُ الْحُسْنَ كَالْحَيْ ... رَانِ يَغْدُو وَيَرُحُ
أَطْلَقَ الصَّبْوَةَ تَجْرِى ... خَلْفَهُ لاَ تَسْتَرِيحُ!!
وَالْهَوَى وَالْوَجْدُ في جَنْ ... بَيْهِ نَارٌ وَجُرُوحُ
وَالضُّحَى واللَيْلُ في كَفّ ... يْهِ أَسْرَارٌ تَبُوحُ
إِنَّ هَذّا الكَوْنَ جِسْمٌ ... وَالْهَوَى لِلْجِسْمِ رُوحُ
كُلّماَ أَبْصَرْتُ ذَاكَ الْ ... بَدْرِ فَتَّانَ الْمُحَيَّا
وَالرُّباَ وَالْبِيدَ وَاللَيْ ... لَ وَعُنْقُودَ الثُّرَيَّا
وَالنَّدَى والزَّهْرَ وَالْغِي ... دَ وَأَكْوَابَ الْحُمَيَّا
قُلْتُ هَيَّا عَانِقِينِي ... يَا مَجَالِي الْحُسْنِ هَيَّا
وَتَعَالَيْ نمتَلِكْ نَا ... صِيَةَ الدَّنْيَا سَوِيّا!!
إِنْ تَبَدَّي الْحُسْنُ شَتّى ... فَهْوَ في قَلبِي جَميعُ!
أَوْ تَعَرَّى فَلَكَمْ يُكْ... سَي به الْفَنُّ الرَّفِيعُ!
يَا تَقِيَّ الْقَلْبِ غُضَّ الطَّ ... رْفَ فَالْحُسْنُ خَلِيعُ!!
لاَتَسَلْنِي عَنْ شِتَاءِ النَّ ... فْسِ وَالدُّنْيَا رَبِيعُ
كَيْفَ أَشكُو الْجَدْبَ وَالاَمْ ... حَالَ وَالْوَادِي مَرِيعُ؟!
الدُّنَى مَجْلَي بَشَاشَا ... تٍ تَهَادَتْ في حُلاَهَا
وَالْبَرايَا فِتنٌ سَكْ ... رَى بِأَحْلاَمِ صِبَاهَا
تَعُبدُ الْحُسْنَ إِلهَا ... حُرَّةً وَفْقَ هَوَاهَا
وَإِذَا مَا صَاغَكَ اللَّ ... هُ شُعُوراً وَانْتِبَاهَا
أَحَرَامٌ أَنْ تَرَى في ... كُلِّ فَتَّانٍ إِلَهَا؟!
(كوم النور)
أحمد أحمد العجمي
من شعر الأطفال
1 - الطيار الصغير
أنا طيّارٌ صغيرُ ... لستُ أخشى ما يضيرُ
أنا في الجوّ أطيرُ ... فوق هامات الرياحْ. . .
أنا طيّارُ بلادي ... أنا عُنوانُ الجهادِ
إنْ دعتْ مصر تُنادي ... قمتُ أسعى للكفاحْ. . .
2 - البحار الصغير
أنا في الصبح أقومُ ... ثمَّ في البحر أعومُ
أنا بحارٌ عظيمُ ... كلُّ حبّ للحياةْ. . .
صاحبي النهرُ الجميلُ ... ليس لي عنه بديلُ
كلُّ ما فيه جليلُ ... مُثْبتٌ فضلَ الإلهْ. . .
3 - اخوتي الصغار
لي اخوةٌ صغارُ ... جميعهُمْ أبرارُ

أُحبُّهم من مهجتي ... كذاك همْ أحبّتي
إن غاب يوماً والدي ... أصبحتُ مثل القائد!
إن سرتُ يتْبعوني ... أوْ قلتُ يسمعوني
وهكذا الإخوانُ ... يضمّهم حنانُ. . .
(المنصورة)
علي متولي صلاح
البريد الأدبي
كلمة بريئة
الصلة بين الكاتب والقارئ. . . توثقها روابط المحبة والصدق والمعرفة والإخلاص. . . والكاتب الذي يعمل على إيجاد هذه الصلة بينه وبين قرائه كاتب فذ جدير بالاحترام. . . ولعل الأستاذ الجليل الدكتور زكي مبارك يعد الكاتب الاجتماعي الأول الذي يعني بهذه الصلة. . . فليس همه إنشاء الأدب المحض. . . يسكبه في أرواحنا فناً يأخذ بالمجامع بل همه المجتمع الذي يعيش فيه يبحث في مشكلاته. . . ويناقش في معضلاته. . . ويشارك القراء أبحاثهم ويناقشهم آراءهم في أدب جم. . . وتواضع كريم. هذا هو الدكتور زكي مبارك. ويبقى الأستاذ سيد قطب يريد أن يعرف رأي القراء فيه. . . ولعلي أتطوع لإبداء رأيي فيه. لا من ناحية قيمة كتاباته من الناحية الفنية الأدبية فهذا أتركه لأستاذة الأدب وجهابذة البيان. ولكن من ناحية أسلوبه في الخطاب والمناقشة مع الأدباء فهو مع الأستاذ مندور يعتمد على قلمه في سب الرجل والأخذ بخناقه ظلماً طاعناً في رجولته من أجل أدبه المهموس. والأدب شيء والرجولة شيء. . . والفن هو الفن. . . ومع ذلك فلم نر الدكتور مندور إلا ناقداً فنياً أعجب القراء بحثه وتعليله ونقدهوتحليله وشرحه وتأويله. . . ومعارك القلم عند القراء (عوامهم وخواصهم) لن تجدي فيها دعاية ولا حرب أعصاب أو حملة عمادها الشتيمة والسباب. لا بل القارئ يهمه الحجة والمنطق والأسباب. . . ثم ماذا؟ قرأنا مقال (أيها الأدباء أعصابكم) فإذا بنا ننتهي من المقال لنعيد قراءته. وقد لمسنا حسن التوجيه في أدب ولباقة. . . فإذا بالأستاذ قطب يهاجم الأستاذ دريني تحت عنوان غريب ما يصح صدوره من أديب: ثم قرأنا لنرى (تصحيحات) فإذا بنا نقرأ شيئاً ،(تصحيحات واجبة في الأدب والأخلاق) آخر. فهل التصحيحات معناها اتهام الأستاذ دريني بالتحامل. . . واتهام القراء بالعامية وأنه لا يتلقى معاييره الفكرية إلا من العوام وأشباههم. . . صحيح أن الأستاذ قطب تلميذ العقاد. وهل في هذا ما يغضب الأستاذ قطب. لا. الأستاذ قطب كاتب وأديب وشاعر وكل شيء. . . والقراء يحبونه أن يظل هكذا بينهم. . . وبقدر ما يحبونه يحبون آخرين. . . فإذا شاء أن يعارك فبقلمه لا بلسانه. وبعد نقول للأستاذ: (أيها الأديب أعصابك).
أحمد فهمي القاضي
المحامي
الأعراب
في العدد (530) في مجلتكم الغراء ورد اسمي في رسالة مفتوحة من (أستاذ جليل) إلى رئيس تحرير مجلة آخر ساعة يشكوني فيها إليه لبعض ما كتبته بإمضائي وقد فهمت مما كتبه الأستاذ الجليل - وقد فهمته بصعوبة لبلاغة اللغة التي كتب بها - أنه يتهمني بالتجني على إخواننا العرب لمجرد قولي في سياق مقال: (كل هذه المدنية التي شيدناها لم تعجب الزائر الكريم، وإنما أعجبته قطعة من الصحراء أقيمت عليها أصنام، وقف حولها حمير وإبل وأعراب). . .
هذه الكلمة الصغيرة أغضبت الأستاذ الجليل، واتهمني من أجلها بأني نسيت تاريخ العرب والنبي والإسلام، ومن حرر مصر ومن هدى مصر والقواد والخلفاء العظام. . . الخ! نسيت كل هذا لأني حاولت في مقالي أن أصف صورة واقعية يراها كل من يدفع ثلاثة قروش ثمناً لتذكرة ترام يحمله إلى الأهرام. . . صورة الإبل والحمير المعدة لنزهة السائحين ولهوهم ومن حولها أصحابها فعلاً من الأعراب، أو على الأقل من المتزيين بزي الأعراب، يلهثون وراء السائحين صائحين (بقشيش)!
وقولي: (أعراب) دون (ال) التعريف تعني أنني أقصد بعض الأعراب لا الأعراب كلهم أو على الأصح. . . لا أمة العرب كما فهم الأستاذ الجليل. . .

وفي كل أمة، سوى كانت عربية أم مصرية أم فرنسية، ينقسم الشعب إلى درجات وطبقات. فلو قلت أن في مصر ماسحي أحذية؛ فليس معنى ذلك أن الشعب المصري كله من ماسحي الأحذية. ولو قلت أن من الأعراب من يقف وراء الحمير والإبل؛ فليس معنى هذا أن كل العرب يقفون وراء الحمير والإبل

إن العرب أمة من الأمم. . . أمة لها مزاياها ولها عيوبها. ومن حقنا أن نذكر عيوبها بنفس الصراحة التي نذكر بها مزاياها

أمة لها تاريخ مجيد. . . ولكن التاريخ لم يعد يكفي لتقدير الأمم في هذا الجيل.

إحسان عبد القدوس

من رسائل الرافعي: وحي القرآن باللفظ، القراءات

وحي القرآن باللفظ أمر اختلفت فيه الفرق الإسلامية؛ فللأشعرية قول، وللمعتزلة، وللحنابلة مذهب. وثم فرق أخرى لها آراء مختلفة. ولا نطيل بذكر هذه الآراء فليرجع إليها في مظانها من يريد الوقوف عليها، وأنت لو تدبرتها كلها لألفيتها مما لا يسكن إليه العقل، ولا يطمئن به القلب. وقد فزعت إلى الرافعي وهو من أئمة البلاغة لعلي أجد عنده شيئاً يثلج الصدر، ولكنه على ما أتى من قول بليغ، فإن النفس لا يزال فيها من هذا الأمر شيء

ولعلنا نجد من أئمة الدين، أو من غيرهم من العلماء والمحققين، من يتولى بالبحث والتحقيق هذا الأمر الدقيق الذي يهم المسلمين جميعاً، حتى نصل فيه إلى مقطع تسكن إليه النفوس القلقة، وتستقر عنده العقول الحائرة

وهذا هو جواب الرافعي رحمه الله

يا أبا رية: السلام عليك، وبعد. فإنك سألتني مسائل دقيقة، تحتاج إلى الفكر وبسط الجواب وهذا ما لا قبل لي به فأنا مريض الدماغ حقيقة، ولكني أجيبك بما قل ودل

أما سؤالك فقد كثر الكلام في جوابه، والذي أراه أنا أن ألفاظ القرآن منزلة بحروفها ونسقها وإلا بطل الإعجاز، لأن الإعجاز لا يكون إنسانياً، وقد كان الوحي ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم فتعتريه حالة روحية وردت صفتها في البخاري وغيره، وبها ينزع من عالم الحس فتتجرد نفسه الشريفة، فيرى الملك ويسمعه ويأخذ عنه، ثم يفيق فيؤدي ما أوحى إليه بحروفه، وهي حالة كانت شديدة عليه ولذلك تسمى (برحاء الوحي)، وكان جسمه صلى الله عليه وسلم يثقل فيها جداً ويتصبب عرقاً، إلى آخر ما ورد في صفتها مما يدل على ما تلقى نفسه الشريفة في تجردها وما يلقى الجسم في هذا التجرد. ولا يمكن في مثل هذه الحالة أن يكون للإنسان وعي وفكر يؤلف به نسقاً في الكلام كما توهمت، لأن هذا التأليف من أفعال المخ، ولو أمكن أن تكون الألفاظ من عنده صلى الله عليه وسلم لظهر فيها أسلوبه قليلاً أو كثيراً؛ ولما كان في حاجة إلى نزول القرآن آية فآيتين إلى عشر، بل كان يحدث عنه المعنى الذي ينطبع في روحه جمله واحدة، وفوق ذلك فهذه حالة تستدعي وقوع التفاوت في أجزاء القرآن وهو غير واقع، وأظنك لم تقرأ الجزء الثاني من تاريخ آداب العرب ففيه كل شيء ما عدى كيفية نزول الوحي، لأني لم أتعرض لها إذ أردت أن يكون كتابي مقنعاً للمؤمن وغير المؤمن فجئت به من جهة العقل في كل فصوله. ومن أجل ما بينت لك جزم العلماء كلهم أنه لم ينزل شيء من القرآن مناماً، لأن النوم حالة يستوي فيها الناس لتجرد أرواحهم

أما اختلاف القراءات أحياناً في بعض الألفاظ فهو أدعى للإعجاب والإعجاز لا كما ظننت، لأن ملهم اللغة ومقسمها في ألسن العرب على اختلاف قبائلهم أنزل ألفاظ القرآن بطريقة يمكن لهذه الألسنة على تفاوت ما بينهما أن تتلوه. ومن المعلوم أن العربي يجمد على لغة واحدة وبعض العرب لا يستطيع أن ينطق غير لغته مطلقاً، كما ترى في الجزء الأول من التاريخ، فكانت القراءات لهذا السبب وكلها راجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وهو تلقاها كذلك عن جبريل عليه السلام، ما عدى القراءات الشاذة والضعيفة مما نبه عليها العلماء

أنزل الله القرآن لهداية العرب وإفحامهم به، فكان من الواجب أن تكون تلاوته متيسرة لهم على السواء، وهذا لا يتأتى إلا مع أوضاع في بعض الحروف، وهذه الأوضاع هي القراءات؛ فمن من العرب كان يستطيع أن يؤلف لكل هذه القبائل كلاماً واحداً ولا يعسر على ألسنة قبيلة من قبائلهم إلا أن يكون في الناس يومئذ إله لغوي. .

؟.
من هذا ترى أن القراءات هي معنى من معاني الإعجاز انتبه إليها العرب ولا يمكن أن يدركه غيرهم ممن جاءوا بعدهم، ولهذا لا أستحسن في رأيي أن يقرأ بها الناس اليوم على اختلافها، إذ لا حاجة إلى ذلك بعد أن اجتمعت الألسنة على لغة واحدة، وقد ظهرت للقراءات فائدة تحقق معنى الإعجاز فيها، وهي تسهيل على بعض أصحاب الألسنة المعوجة كالمغاربة ونحوهم. أما في مصر فلا حاجة إليها

هذا ما يحضرني وأظنني كتبت في الجزء الثاني في هذا المعنى ما فيه كفاية. أما صحتي فهي هي، ولي رغبة شديدة إلى الكتابة والعمل، ولكن الطبيب ينهاني عن ذلك، لأن الدماغ مريض، ولله الأمر أسأله تعالى أن يعيد علي عافيتي ويزدها. والسلام عليكم ورحمة الله.

(مصطفى)

(المنصورة)

محمود أبو رية

تنبيه وتنبيه

كنت قرأت في مقال للأستاذ المفضال محمد عبد الغني حسن (ع 526 من الرسالة) إشارته إلى قول الشاعر:

إذا كنت في حاجةٍ مرسلاً ... فأرسل حكيما ولا توصه

ثم نصه على أن ذلك من قول (شاعر إسلامي). وأحب أن أذكر هنا أن نسبة هذه القصيدة إلى قائلها أمر مختلف فيه، ولكن الأستاذ الجليل أحمد يوسف نجاتي ينسبها إلى (الزبير ابن عبد المطلب) عن الرسول عليه الصلوات في ترجمة طويلة كتبها عنه بالعدد الصادر في يناير عام 940م من صحيفة دار العلوم. فقد أورد الأستاذ القصيدة ثم قال:

(قد ينسب بعض الرواة شيئاً من هذه الأبيات إلى عبد الله ابن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، ولكن الثقاة ينسبون الأبيات كلها إلى الزبير بن عبد المطلب).

وأورد تأيداً لذلك ما جاء في جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري من تأكيد نسبة الأبيات إلى الزبير

فهذا أحد التنبيهين أتوجه به إلى الأستاذ النابغة محمد عبد الغني حسن. أما التنبيه الثاني فأخص به أستاذنا الجليل (نجاتي) فهو قد ذكر في مقاله - الذي أشرت إليه - عن الزبير أبياتاً للأخطل في وصف الخمر جاء فيها:

كمت ثلاثة أحوالٍ بطينتها ... حتى إذا صرحتْ من بعد تهدار

آلت إلى النصفَ من كلفاء أترعها ... علجٌ ولثمها بالجفن والغارِ

ثم قال: كمت جمع كميت وهو الأسود. وجمع على فعل لتوهم واحد له على وزن أفعل. ثم استطرد الأستاذ إلى تعليل تسمية الخمر كميتاً، وحدد صفة هذا اللون بين الألوان. وأقول إنه يبدو لي أن صحة الكلمة في البيت: كمت ثلاثة أحوالٍ. أي بالبناء للمجهول من الفعل (كم) بمعنى غطى وستر، فالشاعر يريد أن هذه الخمر غطيت بالطين في راقودها ثلاثة أعوام كوامل حتى صرحت وتكشف عنها زبدها. . . إلى آخر ما ينص عليه من معنى. هذا وللأستاذين منا عظيم التحية ووافر التقدير

(جرجا)

محمود عزت عرفه

دراسات عن مقدمة ابن خلدون

نعلن إلى الأدباء الأفاضل الذين طلبوا من إدارة الرسالة كتاب (دراسات عن مقدمة ابن خلدون) للعلامة الكبير الأستاذ ساطع الحصري، أن مؤلفه الفاضل لم يستطع إصداره إلى مصر ولا إلى غيرها من البلدان، لأن السلطات اللبنانية والسورية تحظر ذلك في الوقت الحاضر. وبهذه المناسبة نذكر أننا أخطأنا تقدير الثمن لهذا الكتاب القيم، فإنه يباع في لبنان وسورية بست ليرات سورية، وهي تساوي بالعملة المصرية ستين قرشاً، وهو مبلغ لا يزال ضئيلاً في جانب ما تكلفه الكتاب من الجهد في أعداده ونشره

العدد 533 - بتاريخ: 20 - 09 - 1943

واجب الكاتب المصري
للأستاذ عباس محمود العقاد
للدعوة إلى مذهب من المذاهب الاجتماعية أو السياسية طريقان:
أحدهما طريه صريح، وهو التنويه بفضائل المذهب الذي تدعوا إليه، وتجريد المذاهب التي تخالفه من أمثال هذه الفضائل
والطريق الثاني غير صريح، وهو الإكثار من ذكر العيوب التي يفهم القارئ أنك توجهها إلى نظام اجتماعي بعينه؛ ثم السكوت عن إسناد أمثال هذه العيوب إلى الأنظمة الأخرى، كأنها براء منها
فإذا كنت تعيش في ظل الديمقراطية وأكثرت من الكلام عن البطالة والجوع والمرض وغيرها من العيوب الاجتماعية، فقد يفهم القارئ من ذلك أنك تقدح في الديمقراطية ولا تمس غيرها بمثل ما تعيبه عليها
ويسري هذا الفهم إلى ذهن القارئ في الزمن الذي نعيش فيه خاصة، لأنه زمن الصراع بين المذاهب الاجتماعية والأمم التي تدين بكل منها، حتى جاز أن يقال إن نتيجة الحرب الحاضرة هي نتيجة الصراع بين هذه المذاهب على صورة من الصور، وأهمها الديمقراطية والشيوعية والنازية وزميلتها الفاشية كما هو معلوم
فالكاتب الذي ينقد العيوب الاجتماعية في النظام الديمقراطي يجب أن يشير إلى أمثالها في النظم الأخرى، إلا إذا كان من قصده أن يبشر بتلك النظم من طريق الإنحاء على العيوب الديمقراطية
والذين يذكرون البطالة ومتاعب الفقراء من كتابنا يجب عليهم أن يقرروا الحقيقة التي لا شك فيها إن كانوا يؤمنون بها، وهي أن المذاهب الأخرى لم تعالج هذه المشكلة علاجا أفضل من العلاج الذي تهتدي إليه الديمقراطية، ولا تزال تسعى إلى تحسينه، وإلا كان إلصاق هذه المشكلة بالديمقراطية وحدها مخالفاً للحقيقة ومخالفاً للقصد السليم
أما الحقيقة التي لا شك فيها، ولا حاجة بها إلى الإطالة في البيان، فهي أن النظم الاجتماعية الأخرى قد فشلت في علاج مشكلة البطالة والفقر، ولم توفق إلى علاج لها يضمن دوامه وتحمد عقباه
فالبلاد الألمانية مثلاً قل فيها عدد العاطلين قبل الحرب الحاضرة، واحتاجت إلى الأيدي العاملة من بلاد أجنبية
ولكن الفضل في ذلك لا يرجع إلى المذهب الاجتماعي الذي غلب على البلاد الألمانية وهو النازية، وإنما يرجع إلى تسخير الأيدي كلها في صنع السلاح والذخيرة، وتقسيم الشبان بين جنود يعملون في الجيش، وعمال يصنعون لهم أدوات القتال
والنازية عدو الشيوعية كما هو معلوم، وبين المذهبين من الخصومة مثل ما بين الأمتين الجرمانية والروسية، ولكن الروسيين قد استطاعوا في السنوات الأخيرة ما استطاعه الألمانيون من إقلال عدد العاطلين، ولا فضل في ذلك للمذهب الاجتماعي الذي يدينون به وهو الشيوعية، وإنما الفضل فيه للتجنيد وتحويل الكثير من المعامل إلى مصانع للذخيرة والسلاح
فاشتغال المصانع بالتسليح هو سبب القدرة على إقلال عدد العاطلين، سواء كانت البلاد التي تدير مصانعها لهذا الغرض شيوعية أو نازية، أو كائناً ما كان المذهب الاجتماعي الذي تدين به وتقيم الحكومة على أساسه
وليس بالديمقراطية من عجز عن هذه القدرة، ولا تقصير في هذا المضمار بل هي أقدر من النازية والشيوعية معاً على تشغيل الملايين في المصانع والمزارع حين تحتاج إلى المؤونة والسلاح
وعدد الصناع الذين يعملون اليوم في البلاد الديمقراطية يربي على عمال النازيين والشيوعيين مجتمعين
والأجور التي ينتفعون بها أفضل وأقوم من الأجور التي تصل إلى أيدي الصناع في البلاد الألمانية والروسية
فتدبير العمل عن طريق التسليح فضيلة لا يختص بها مذهب من المذاهب الاجتماعية على اختلافها
وليس هو حلاً صالحاً للمشكلة الاقتصادية التي تواجه الأمم في أيام السلم أو أيام

الاشتغال بالتعمير والبناء
بل هذا الحل الوبيل هو البلاء الذي يهون إلى جانبه بلاء البطالة وإن ترك بغير علاج
إذ ليس من حلول العقلاء أن تطعم العاطلين فترة من الزمن طعاماً فيه الغنى أو ليس
فيه غنى على الإطلاق ثم ترسلهم بعد ذلك إلى الذبح بالملايين من مختلف الميادين
وليس من حلول العقلاء أن تنكشف الحرب في البلاد المهزومة عن أضعاف من كانوا
بها من العاطلين وهم عاطلون وبهم من البلاء، فوق بلاء التعطيل، تشويه وتشريد وتنكيل
هذا دواء أهون منه الداء
هذا هو الجنون الذي يؤدي إليه سلب الحرية وتسخير الشعوب المغلولة كما تسخر الأنعام
وشفاء هذا الجنون أن تعالج الأمور على أساس التعاون بين الطبقات والتعاون بين الأمم والتعاون بين الحكومات
وهذا الذي تحاوله الديمقراطية وترجو أن تبلغ فيه بغيتها من التوفيق والنجاح
فإذا نجحت فذلك نجاح الإنسانية، وإذا فشلت فذلك فشل الإنسانية التي لم تتمخض
بعد عن مذهب أصلح من الديمقراطية لعلاج هذه المشكلات
لكن البوادر تدل على الخواتيم
والبوادر كما نشاهدها في برنامج (بيفردج) أو ما شاكله من البرامج أدعى إلى التفاؤل
من جميع هاتيك المواعيد الكاذبة التي تمنينا بها مذاهب التدمير والعداء، سواء قام
العداء بين الطبقات أو بين الأجناس البشرية من مختار في زعم أصحابه وغير مختار!
فالخطة الديمقراطية ترمي إلى تحصيل الضرائب الكافية من موارد الشركات
والأفراد، وإنفاق هذه الضرائب على معونة الشيخوخة ومعونة الطفولة ومعونة
العاطلين كلما قضت بعطلهم ضرورات المجتمع الذي يعيشون فيه
وهذه هي الخطة المثلى التي تجمع بين المطالب المأثورة في المذاهب الاجتماعية على تناقضها
فهي تقيم المجتمع على التعاون وتعفيه من أوضار الحقد والبغضاء بين هذه الطبقات
وهي تطلق الأيدي في التنافس والتسابق وترفع عن الناس وصمة الحجر الذي يتركهم
مسخرين مقيدين كنزلاء السجون أو نزلاء الملاجئ والمستشفيات
وهي في الواقع ترد كل شيء إلى الأمة كأنها تقرر مبدأ الملكية العامة من طريق غير
الطريق الذي يتوخاه الشيوعيون، لأن الأغنياء أصحاب الضياع والمصانع لا يبقى لهم من
ثمرات أملاكهم بعد الضرائب التي ترتقي إلى تسعة أعشار الدخل في بعض الأحيان إلا
نصيب كنصيب الموظف في شركة أو ضيعة يديرها لحساب مالكها الأصيل. ومزية هذه
الطريقة على الطريقة الشيوعية أنها تبقي في الأفراد عزيمة المنافسة والاستقلال
والطموح إلى الامتياز، وأنها مع ذلك ترد الثروة كلها إلى الأمة لتنفقها على سنة التعاون بين الطبقات
وتلك مزية الخطة الديمقراطية.
وفوق ذلك مزية الحرية وهي مناط الكرامة الإنسانية.
ومن الثرثرة الفارغة أن يصيح الصائحون كلما ذكرت لهم حرية الديمقراطية: نعم!
ولكن ماذا تغني الحرية مع الجوع؟ وماذا نصنع بالحرية والبطون خاوية؟
هذه ثرثرة فارغة يلفظ بها بعضهم حسنة نياتهم بريئة مقاصدهم، ويلفظ بها الآخرون
وهم يعلمون أنهم مكابرون وأنهم يخاطبون معدات الجهلاء ولا يخاطبون رؤوس العقلاء.
فمن الذي قال مثلاً إن الحرية لا تكون بغير جوع؟ ومن الذي قال إن الديمقراطية فرضت خواء البطون على جميع الأحرار؟
ومن الذي قال إن المذاهب الأخرى قد سلبت الحرية وحلت مشكلة الجوع؟
فالذي رأيناه أن المذاهب الأخرى حلت مشكلة الجوع بالموت والخراب، وأنها تخرج
من الموت والخراب إلى بطالة أخرى شر على الأمم من البطالة الأولى، ثم لا محيص
لها في نهاية المطاف من حل المشكلة على الخطة الوحيدة التي يضمن لها الدوام
وتؤمن بعدها العقبى، وهي خطة الديمقراطية كما نتمثلها الآن وكما يرجى لها من

التقدم بعد التجارب المنظورة
فالذين يقولون: ماذا تغني الحرية مع الجوع ينبغي أن يدلونا على المذهب الاجتماعي الذي سلب الحرية وأراح الناس من مشكلة الجوع؟
أما وهم لا يستطيعون ذلك فعليهم أن يذكروا هذه الحقيقة ولا يغفلوا عن التنبيه إليها، ما داموا لا يريدون الدعوة إلى بعض المذاهب من طريق التشهير بالعيوب وحصرها في النظام الاجتماعي الذي يعيشون فيه
إن الحرية مع الجوع لا خير فيها
وإن الشبع مع الاستعباد وزوال الكرامة الإنسانية كذلك لا خير فيه
وإنما الفارق بين القولين أن زوال الحرية في ظل الشيوعية والنازية محتوم، ولكن الجوع في ظل الديمقراطية ليس بمحتوم ولا هو من المبادئ التي تدخل فيها كما تدخل الاستهانة بحرية الفرد في صميم المبادئ الشيوعية والنازية
وهناك فارق غير هذا الفارق بين القولين: وهو أن الشبع غاية حيوانية، وأن كرامة الحرية غاية إنسانية، وكفى بالديمقراطية فضلاً أنها تخاطب الإنسان ولا تخاطب الحيوان، وأنها تعامله معاملة المكلف الرشيد ولا تعامله معاملة القاصر الذي تشرف عليه الحكومة وتخدعه عن كرامته بأحاديث الشبع والجوع، وهي لا تكفل له الشبع ولا تريحه من الجوع. . . بل تخاطب المعدات لأنها عاجزة عن خطاب العقول.
عباس محمود العقاد
الحديث ذو شجون
للدكتور زكي مبارك
إلى عمداء الكليات - عتاب لبناني - ترفق بنفسك يا صديقي
للتاريخ الأدبي -
إلى عمداء الكليات
هذه كلمة أسوقها برفق إلى عمداء الكليات بجامعة القاهرة وجامعة الإسكندرية، وأنا واثق بأن ما يرد فيها من المعاني قد دار بخواطر أولئك العمداء
سمعنا وقرأنا أن رجال الجامعة هنا وهناك يرون قبول الطلبة العرب بدون نظر إلى تفاوت الدرجات في شهادة الدراسة الثانوية، وهذا واقع بالفعل، وفيه دلالة صريحة على تشجيع التعليم العالي، وتقوية الروابط بين مصر وشقيقاتها في الشرق
فما الذي يمنع من أن ينتفع الشبان المصريون بذلك الامتياز اللطيف؟
أليس من العجيب أن تكون الجنسية المصرية عائقاً يمنع بعض الشبان من الانتفاع بما يتمتع به سائر زملائهم من الطلبة العرب؟
هل يجب على الشاب المصري أن يسارع فيتجنس بالجنسية العراقية أو السورية لينجو من تلك القيود؟
الشبان في مصر وفي سائر الأقطار العربية إخوة، فما الموجب لتمييز فريق على فريق؟
وكيف يجوز أن يكون من حق الشاب المصري أن يلتحق بأي جامعة أجنبية ولو كان آخر الناجحين في امتحان البكالوريا ولا يكون من حقه أن يلتحق بجامعة مصرية إلا إن كان في الرعيل الأول من الناجحين؟
وبأي حق يكون ترتيب النجاح في امتحان البكالوريا هو الفيصل في تقدير المواهب؟
يجب أن نعرف أن الشاب الذي يجوز امتحان البكالوريا بأي صورة معرض لتطورات كثيرة جداً، لأنه لا يزال في طور التكوين، فقد يتحول إلى جذوة من النشاط لم تمر به في مراحل التعليم الابتدائي والثانوي. ويجب أن نعرف أن تمكين الشاب من التعليم العالي قد يضع أمام عقله مسئوليات تنقله من حال إلى أحوال. ويجب ثم يجب أن يتذكر رجال الجامعة أن في التعليم العالي فرصاً كثيرة لإذكاء العقول، وهي فرص لا يجوز تضييعها على أي شاب، ولو شهدت درجاته بأنه كان في التعليم الثانوي من المتخلفين
لا يجوز أن ننسى أن البكالوريا المصرية أصعب من مثيلاتها في جميع البلاد، وفوز الشاب في هذه البكالوريا بأي صورة دليل على أن فيه خصائص عقلية تؤهله لاجتياز الصعب من باقي مراحل التثقيف
لم يبق إلا أن نتقي الله في أبنائنا فلا نؤاخذهم بتقصير لا ذنب لهم فيه، ويكفيهم فوزاً

أنهم زحزحوا عن نار الرسوب
قلت مرات إنه يجب حتماً أن تكون مرحلة التعليم الثانوي هي المرحلة النهائية في إعداد الشاب للحياة، وهي لم تصر كذلك إلى اليوم، فلنساعد أبناءنا على ما يطمحون إليه في التعليم العالي، ولنجد عليهم بما نجود به على إخوتهم الوافدين من أقطار الشرق
هل تصل هذه الكلمة إلى قلوب عمداء الكليات؟
عتاب لبناني
كان الأستاذ محمد عبد الغني حسن نشر في (الرسالة) كلمة دعا بها الأستاذ إلياس أبو شبكة إلى كتابة كلمة في التعريف بالشاعر نجيب إليان، فرد الأستاذ أبو شبكة في (الجمهور) رداً يتلخص في أنه مع إجلاله واحترامه للأستاذ الزيات لن يكتب كلمته للرسالة، لأنها كسائر المجلات المصرية لا تلتفت إلى الحركة الأدبية القائمة في لبنان وأقول إن هذه النغمة - كما يسميها الكاتب نفسه - نغمة جديرة بالسماع، وهي تتيح فرصة جديدة لتبديد شبهة قديمة تعبت أقلامنا في تبديدها عدداً من السنين، ثم ظلت حية لا يعتريها الموت، كأنها أفعى بسبعة رؤوس!
ثم أقول إن إغفال المجلات المصرية للحركة الأدبية في لبنان أو غير لبنان من أقطار اللغة العربية لا يرجع إلى نية صحيحة أو عليلة، وإنما هو فرع من الإغفال العام للحركة الأدبية في الديار المصرية. فجرائد مصر ومجلاتها تسكت عما يصدر في مصر نفسها من الآثار الأدبية والعلمية، بحيث يمكن القول بأن الحديث عن المؤلفات الجديدة لم يعد له في جرائدنا ومجلاتنا مكان
وقد صار هذا الإغفال في حكم القواعد المرعية، مع الأسف. ولم نجد من ينبه إلى أن له
عواقب في إخماد النشاط الأدبي في مصر، ولم نجد من يثور على هذا الشح في تشجيع من يبذلون قواهم في التأليف، مع أن الكلام عن المؤلفات الجديدة يعد باباً من توجيه الجيل الجديد إلى ما يجب أن يقرأ أو يتجنب من جديد المطبوعات
وأنا نفسي راعيت هذا الإغفال، فقررت أن أغفل إهداء مؤلفاتي إلى الجرائد والمجلات، لأني أكره إحراج زملاء ليس في نيتهم أن يلتفتوا إلى التأليف والمؤلفين، واكتفيت بالإعلان عن مؤلفاتي بالفلوس، إن احتاجت إلى إعلان
نقد الكتب قد انقرض في مصر. النقد الذي يبرز محاسنها قبل أن يبرز مساويها، النقد الذي يراعي فيه خلق صديق للمؤلف، أما النقد الأثيم فهو بحمد الله موجود!
وكان من عادتي فيما سلف أن ألتفت إلى المؤلفات الجديدة، فكنت أخصها بصفحات في جريدة البلاغ، ولكني لم أجز على تلك الجهود بغير الجحود، فإن أثنيت على المؤلف قيل تقريظ، وإن حاسبته قيل عدوان، وكانت النتيجة أن أعفي نفسي من عناء ليس له في مصر جزاء
وما جرى لي جرى مثله لكثير من النقاد، فانصرفوا عن نقد الكتب إلى غير معاد. وستظل الحال كذلك إلى أن نجد من الشجاعة ما ندوس به جميع الأهواء فنقول كلمة الحق في المؤلفات الجديرة بأن توضع في الميزان، غير مبالين بالقراء والمؤلفين
في هذه اللحظة تذكرت أني لا أقول كلاماً جديداً، فقد نشرت لي مجلة المكشوف في العدد الخاص بمصر مقالاً عما صار إليه النقد الأدبي في بلادنا، فاعذرونا إذا فرطنا في حقوقكم الأدبية، فقد فرطنا في حقوقنا الأدبية، وما ظلمك من ساواك بنفسه في الإجحاف!
وأنا بعد هذا أرجو أن يكون في هذه الكلمة مقنع لمن يتهمنا ظلماً بالتغاضي عن الحركات الأدبية في سائر البلاد العربية
ترفق بنفسك يا صديقي
رأى قراء الرسالة أن السيد حسن القاياتي عاداني من غير موجب للعداء، وساق إلي ألفاظاً لا تصدر عن صديق، مع أني لم أسئ إليه في سر ولا علانية. وكانت حجته أن ناساً حدثوه أني قلت فيه كيت وكيت، وهو يعرف أني أبالغ في إكرام أصدقائي، وأني لا أتعرض لأعدائي بكلمة مؤذية، إلا إن حاربتهم في الجهر لا في الخفاء
والآن، ماذا يريد السيد حسن القاياتي؟
أيريد أن أجزيه إثماً بإثم، وعدوانا بعدوان؟

أنا حاضر وفي يدي قلمي، ولكني لا أشترك في حرب يكون فيها الغالب أسوأ حالاً من المغلوب، فترفق بنفسك يا صديقي، واذكر عهوداً يذكرها كرام الرجال
تقول إنك كنت شاعراً كبيراً يوم كنت أنا طفلاً يلعب، فما قيمة هذه الحجة يا عضو المجمع اللغوي، كما ذيلت اسمك؟
هل كان يجب أن أسبقك إلى الدنيا لأسبقك إلى الأدب؟
وماذا أفدت أنت من سبقك اللطيف بحكم شهادة الميلاد؟
وماذا أفادت جهودك الشعرية في نصف قرن، وأنت الذي صرحت بأن باكورتك ظهرت قبل نصف قرن، يا عجوزاً سبقني إلى الوجود؟
اترك هذه الحجة الواهية، إن كنت تريد الحجاج
ثم ماذا؟ ثم طاب لك أن تتحداني وتتحدى الأستاذ العقاد بكلمتين جارحتين، وهذا ظلم منك، فالعقاد يملك في محاسبتك ما لا أملك، لأنه ليس لك بصديق، فهو لا يبالي تجريحك، ولا يؤذيه أن تبيت معصوب الجبين
أما أنا فأتردد ألف مرة قبل أن أصوب رمحي إلى صدرك، وقد يرضيني أن أسكت عنك، لأنجو من محاسبة الضمير على إيذاء الصديق
أتقول إنك أعظم مني؟ هو ذلك يا أخي!
أيؤذيك أن أكون أشهر منك؟ إن كان ذلك فأنا أخلع الشهرة عليك! خذ هذه الشهرة، خذها، فقد آذتني أعنف الإيذاء.
وما رأيك في الصديق الذي يجازف بصداقة دامت عشرين سنة أو تزيد؟
ما رأيك فيمن يشتم أخاه في مجلة مثل الرسالة وهو يعلم قيمة صوتها في الشرق؟
لقد ظهر السر في إخفاقك، وهو أنك رجل بلا قلب
إن كان لك بعد اليوم حياة أدبية فهي من صنع يدي، فأنا الذي أغضيتك على كسلك، وأنا الذي رفعت النقاب عن قلبك العقوق، ولن أتركك أو تصير أديباً يعتز بحاضره لا بماضيه، فما يعتز بالماضي غير الفانين
هل تذكر هذا الجميل؟ لقد سويت من قبلك ناساً فجحدوا جميلي وادعوا أنهم نظرائي، فكن أنت خاتم الأوفياء يا عقوق.
للتاريخ الأدبي
في سنة 1917 رفضت وزارة الحقانية أن يستمر الشيخ محمد الخضري بك والشيخ محمد المهدي بك في التدريس بالجامعة المصرية، وكانا أستاذين بمدرسة القضاء الشرعي، وهي يومئذ تحت إشراف وزارة الحقانية، فبحثت الجامعة عن أستاذ للتاريخ الإسلامي لا تسيطر عليه الحكومة، فظفرت بالأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار، وكان قريعاً للشيخ الخضري، فقد كانا في الأدب والتاريخ فرسي رهان
ولكن أين من يخلف الشيخ المهدي؟
ذلك سؤال وجهه الأستاذ محمد بك وجيه سكرتير الجامعة في ذلك العهد إلى الشيخ عبد الرحمن المحلاوي أستاذ الشريعة الإسلامية بقسم الحقوق، فدله على الشيخ مصطفى القاياتي، أحد أساتذة الأدب بالأزهر الشريف
وفي عصر يوم سمعت صوتاً يناديني وأنا في طريقي إلى الجامعة فالتفت فرأيت الشيخ مصطفى القاياتي، وانتحينا ناحية في قهوة بميدان الأزهار ليدور هذا الحديث:
- هل تهمك سمعة الأزهر؟
- تهمني جداً
- وتهمك سمعة الجامعة؟
- بلا ريب
- إذن يمكن أن أعتمد عليك إذا قبلت اقتراح الجامعة؟
تقترح أن أكون خلفاً للشيخ المهدي في تدريس الأدب العربي، وقد فكرت كثيراً فيمن أعتمد عليه في معاونتي فلم أجد غيرك
- هل أعطاك سكرتير الجامعة منهاج المحاضرات لهذه السنة الدراسية؟
- هذا هو
نظرت في المنهاج - وكان من وضع الشيخ المهدي - فوجدتني أقدر على إنجازه بلا عناء، فأشرت على الشيخ مصطفى بالقبول، فمضى وأمضى العقد في الحال

شذوذ غريب!
كان الشيخ مصطفى القاياتي من أخطب الخطباء في عصره، كان يخطب ساعة أو ساعتين بلا تلعثم ولا توقف ولا تحيس، وكان لا يلحن أبداً وهو يخطب، ومع هذا كانت الكتابة عسيرة عليه عسراً لا يطاق، فما كان يسهل عليه إنشاء مقال، ولا كان في مقدوره تحرير خطاب
والذي سمع الشيخ مصطفى خطيباً لا يصدق هذا القول، فقد كان خطيباً ثجاجاً، خطيباً عرفته منابر الحزب الوطني قبل أن تعرفه منابر الوفد المصري، فكيف يصعب عليه الإنشاء وكان في الأزهر معلم إنشاء؟
يرجع إلى أنه نشأ واعظاً وكان أهله من الواعظين، فقويت عنده ملكة الخطيب الفصيح، وضعفت عنده ملكة الكاتب البليغ
هل أنسى يوم أنابه الوفد المصري في تأبين الشهيد محمد فريد؟
لقد ألقى خطبة جميلة جداً، ألقاها مرتجلاً وهو يجهل أن جريدة اللواء المصري ستطالبه بالنص، لأن خطبته هي كلمة مندوب الوفد المصري في تأبين الرئيس الثاني للحزب الوطني
عند ذلك دعاني لقضاء لحظة في تحرير الخطبة، فأنشأتها في حدود ما قال، إلا عبارات تأباها السياسة الحزبية، ولكن مكر جريدة اللواء كان أعظم فأضافت إلى الخطبة كلمات قالها الخطيب ولم يسجلها نائب الخطيب!
وتمثل هذا الشذوذ في معرفة الشيخ القاياتي بتاريخ الأدب العربي، فقد كان برغم فصاحته الخطابية لا يفرق بين عصر وعصر، ولا يعرف الحدود بين مراحل التاريخ
كان الشيخ مصطفى ذكياً جداً، ولكنه كان قليل الاطلاع، فكان من الصعب أو من المستحيل أن يخلف الشيخ المهدي في تدريس الأدب العربي
أستاذ بالروح
لم يكد الشيخ مصطفى يطمئن إلى معاونتي حتى شعرت بأن واجبي أن أحفظ سمعة الأزهر والجامعة المصرية، فشرقت في تاريخ الأدب وغربت، وأعددت أربعين محاضرة لو
نشرت اليوم لكانت غاية في دقة البحث ونضارة البيان، وهي لا تزال في حيازة الأستاذ يوسف القاياتي، فمتى ينفض عنها غبار النسيان؟
والمهم أن أسجل أن حرصي على الصدق في أن تصان سمعة الشيخ مصطفى من لغو اللاغين فرضت علي أن أجعل محاضراته في قوة محاضرات الشيخ المهدي
وقد نجحت ونجحت، وكانت جهودي في تلك السنة ذخيرة باقية لحياتي الأدبية، فقد استقصيت فيها مراحل الأدب في القديم والحديث
وبفضل الشيخ مصطفى القاياتي كان لي تلاميذ بالجامعة المصرية سنة 1918 منهم الأستاذ حسن إبراهيم وأحمد البيلي وعبد الحميد العبادي وإبراهيم الجزيري
ثم ماذا؟ ثم كان زكي مبارك من تلاميذي، لأنه أدى امتحاناً أمام الشيخ مصطفى القاياتي في الدروس التي أعددتها بنفسي، فإن أنكر زكي مبارك انه تلميذي فسأفحمه بشهادة السيد حسن القاياتي، وهو رجل شهد ذلك التاريخ المجيد.
زكي مبارك
نشأة الدرامة الإنجليزية - 3
للأستاذ دريني خشبة
لم يفكر جون هيوود عندما ابتكر الفواصل المضحكة التي أشرنا إليها في الفصل السابق، في أن تكون فواصله جزءاً من صلب الدرامة الأخلاقية، إنما قصد أن تكون شيئاً مستقلاً كل ما يرمي إليه هو التضحيك والترفيه عن الناس بهذا السيل المتتابع من النكات الشائقة وطرافة الموضوع ولذع سخريته، ولهذا كان تمثيل فواصله قاصراً على الحفلات التكريمية أو أوقات الاستراحة في الحفلات العامة أو المآدب الكبيرة. وكان أول ظهور فواصله التمثيلية هذه، التي مهدت للملهاة الإنجليزية الكاملة، في العام الثاني عشر من حكم الملك هنري الثامن - 1521 - ومن أطرف تلك الفواصل فاصله المسمى (الباءات الأربع)، أو والذي نستطيع أن نسميه باسم (المغفلين الأربعة، وهم: المحتال والمسامح والعطار والبائع المتجول وخلاصة هذا الفاصل أن خلافاً يشجر بين المحتال والمسامح، إذ يدعي المحتال أنه طاف بأرجاء العالم وجال في جميع أصقاعه،

كما حج إلى بيت الله (في فلسطين طبعاً) عشرات المرات، ولذلك فهو يريد صاحبه على أن يقر له بسعة الاطلاع والتبحر في المشاهدة، وأنه بذلك قد هذب نفسه ورقق طبعه لكثرة ما خبر من أحوال العالم، وما تمرس به من تجاريب الحياة. بيد أن صاحبه يسخر منه ويغلو في الاستهزاء به، ويقول له إن من كان شأنه ما ذكر، كان ينبغي أن يعود أكثر اتزاناً، وأرجح عقلاً، وأوفر أدباً، وأقوى ضبطاً لنفسه، وأشد سيطرة على أعصابه. . . ويشتد الخلاف بينهما ويستفحل، حتى يوشكا أن يلتحما لولا أن يقبل عليهما العطار - المغفل الثالث -، فيرسل هو الآخر تهريجاته المضحكة، ويصرفهما عما كانا فيه من فخار وتعاظل ليزهي هو بنفسه، وليطلعهما على ما وهبه الله من مقدرة وافتنان في تركيب عقاقيره - ولاسيما السموم المهلكة التي تكثر من زبائن جهنم، وأنه أحسن مورد للمدائن وللقرى على السواء. ثم يقبل البائع المتجول - وهو المغفل الرابع - فيهرع إليه الثلاثة ليحسم النزاع المشتجر بينهم. . . لكنه يشيح عنهم ويشتغل بعرض سلعه وترتيبها، ثم يمضي وقت طويل ولا يمن الله على البائع المتململ بزبون واحد يجبر خاطره بشراء شيء من معروضاته الكثيرة فيشترك مع الثلاثة الآخرين في هرائهم مضطراً، ولكنه يرفض أول الأمر أن يقضي بينهم. . . لأن الله لم يكتب له هذا القدر العظيم من الذكاء وعبقري الفطن حتى يستطيع أن يفهم هذه المشكلات العويصة التي يختلفون عليها. . . يقول هذا بعد إذ يلاحظ أن ثلاثتهم مغفلون أغبياء؛ بيد أنه يتغابى هو الآخر، ويستدرجهم لكي يقص عليه كل منهم أكبر كذبة من أكاذيبه. . . وهنا تنشب ملحمة مضحكة من أروع الأكاذيب التي لا يتسع المقام هنا لاستيعابها جميعاً. وما يزال هذا شأنهم حتى يدعي المحتال (النخاع) أنه طاف بأطراف الدنيا، وعاشر الملايين من الناس في كل حدب وفي كل صوب، وأنه بلا من أمور النساء ما لم يتفق لأحد من قبل ولن يتفق لأحد من بعد، وأنه كثير الأصحاب جم الأصدقاء، وأن في صويحباته نصف مليون امرأة! نصف مليون فقط! - ليس فيهن من تدللت عليه يوماً ولا بدت منها أمارة من أمائر الغضب لأي سبب من الأسباب - ولما كانت هذه من غير شك أغلظ الأكاذيب وأفحشها فقد قضى البائع بالغلبة لهذا المحتال (النخاع!) - والدرامة من أولها إلى آخرها تفيض (بالفَشْر!) - وليغفر لنا القراء هذا التبذل في التعبير فنحن نكتب عن الملهاة الإنجليزية التي يعتبر (الفشر) أقوى أركانها. ثم هي مليئة بالنكات من النوع الهادئ الذي يفيض عن الطبع الإنجليزي البارد. وقد كتب هيوود قبل هذه الدرامة - أو الفاصل - فاصلين آخرين أقل منها مرتبة، وقد أدى للمسرح الإنجليزي أجل خدمة بفصله الأخلاقيات والفواصل أولاً، ثم بخروجه على تقليد الشخصيات المجازية ثانياً، واتخاذه أشخاص فواصله من الحياة مباشرة. ومما يؤسف له أن أحداً من الأدباء الإنجليز لم يقتف أثر هيوود في هذا المضمار. على أن أديباً آخر هو (نيقولا أودول ناظر مدرسة أيتون (1505 - 1556) - وكان من عادته تقديم درامة من الدرامات الكلاسيكية الرومانية في كل من حفلاته السنوية المدرسية، قد فاجأ المدعوين بملهاة من تأليفه سماها (رالف رويستر دويستر - كانت أول ملهاة منتظمة من فصول متفرقة شهدها المسرح الإنجليزي - والملهاة بعد ذلك لم تكن شيئاً مذكوراً ولم يكن لها قيمة من حيث الحبكة أو الموضوع أو اللغة إن لم تكن شيئاً غثاً تتقزز النفس منه وتغثي له. وقد نظمها من خمسة فصول وقسمها إلى مناظر وقصد بها إلى تصوير حياة الطبقة المتوسطة من سكان لندن في القرن السادس عشر. وأبطالها الثلاثة: أرمل تدعى كونستانس، ثم عاشقان يحاول كل منهما أن يفوز بها. أما أولهما وهو بطل الرواية فهو رالف رويستر دويستر ومعناه الولد الجعجاع الكثير التفاخر؛ وأما ثانيهما فيدعى جاون جودلك. والبطل هو أحد أولئك الأغرار المغفلين، أما خصمه فهو الحبيب المدلل المقرب. وتبلغ الملهاة ذروتها، حينما تجتمع الأرمل وصويحباتها ليقذفن إلى الشارع بالبطل المخبول وبأتباعه العرابيد، ثم تنتهي بصلح عام!

هذا وقد ألف جون ستل (1543 - 1608) ملهاته (إبرة الجدة جرتون ' على طراز ملهاة أودول، إلا أنه أشر بها كثيراً من روح الفكاهة الشعبية (البلدي!)، وأرسلها في لهجة عامية شديدة الغموض، حتى على الإنجليز المحدثين أنفسهم. وتتلخص الملهاة في أن الجدة جرتون كانت جالسة ترفو ثياب خادمها هودج، ثم ذهبت لقضاء أمر ما بداخل بيتها؛ فلما عادت والتمست الإبرة لم تجدها، فأخذت تسب الدنيا وتلعن الحياة وتسأل أهل الحارة عن إبرتها العزيزة المفقودة، ثم تلتقي بشحاذ أبله يدعى دكون

فيخبرها أن فلانة من أهل القرية قد سرقتها، فتصيح بها الجدة جرتون، وتقبل المتهمة وتدفع التهمة عن نفسها، لكن جرتون تشتط في صياحها فتصيح المرأة الأخرى وتجتمع نسوة القرية جميعاً ليشاركن في هذه الملحمة المضحكة، ويتراشقن (بأشلق!) العبارات، ثم تهدأ العاصفة حينما يعثر الخادم هودج بالإبرة مثبتة في مكانها من الرقعة التي كانت الجدة جرتون ترفوها

وقد امتدح الناقد الكبير هازلت روح الفكاهة في هذه الملهاة وإن لم يمتدح لغتها. . . (لأنها غذاء شعبي شهي ليس غريباً على الجمهور الإنجليزي، وفكاهة بريئة تصويرية لأمزجة متشاكلة. . . قد نظنها لأول وهلة شيئاً لا قيمة له، شيئاً تافهاً غير جدير بالاعتبار، لأنه ليس كما عندنا. . . ونحن إذا انتقدناها انتقاداً سطحياً هكذا، كنا متجنين على هذا التراث الأدبي البدائي، وكنا كمن يرفض قراءة كتاب قديم قيم لأنه به بعض الأخطاء الإملائية!!)

مما تمتاز به هذه الملهاة اشتمالها على إحدى الأغاني الإنجليزية التي يهتم بها الإنجليز إلى اليوم. ويرجع العارفون أن هذه الأغنية ليست من نظم ستل، بل إنه قد أخذها عن شاعر آخر لا يعرف اسمه. ومما امتاز به أيضاً هذه الأسماء الفكاهية التي يلجأ إليها المؤلفون الكوميديون اليوم لتزيد في كثرة (النكت) ولتزيد بالتالي في كثرة ضحك المتفرجين - فالبطلة جامر جرتون أي الجدة جرتون، وقد يلحظ القارئ العربي النكتة في كلمة جامر التي هي نوع ترخيم جدة كما يرخمون جد فيقولون جافر وهنا موضع تفكهة للإنجليز. وخادمتها تب أي عاهرة، وخادمها كوك أي ديك، وجارتها كات أي قطة، وخادمة هذه

الجدة دل أي عروسة أو لعبة، والدكتور رات أي فأر الخ. . .

المشاهد الموسيقية

أشرنا في فصل سابق إشارة خفيفة إلى الدرامة التنكرية التي هي مشاهد تنكرية أيضاً، ولكن من نوع مرح يؤدي في مشرق مرن ممتلئ بالبهجة والأبهة في بيوت العظماء والنبلاء والممتازين - وقد انتقلت هذه المشاهد الموسيقية، أو المشاهد التاريخية - إلى إنجلترا في إبان عصر الملك هنري الثامن من إيطاليا، وتؤدي فيها مشاهد درامية تاريخية راقصة أبطالها اللوردات وأزواجهم في شكل موكب موسيقي حافل أساسه الإنشاد والملبس الزخرفي البهيج خلال رقص توقيعي أو رقص مشترك. . . ومؤلف هذا اللون من المشاهد الذي ألحقناه بفصل الملهاة هو المهندس قبل الشاعر أو الأديب، وذلك لأنها درامة مشهدية (استعراضية) قبل أن تكون درامة شعرية أو درامة منثورة. فالمهندس أو المخرج هو عماد النجاح في هذه الدرامة التصويرية التي ترتكز على الجمال المنظور، وروعة توزيع الأضواء، والدقة في إبراز المشهد وسمو الذوق في اختيار الملابس، والتنظيم الآلي لصالة العرض قبل أن ترتكز على الموضوع أو الأناشيد، أو ما إلى ذلك من ألوان الأدب. . . إذ كل ذلك شيء ثانوي بالقياس إلى المؤثرات المحسة في المشهد الموسيقي. وقد ألف الأديب المسرحي الكبير والشاعر الفحل بن جونسون كثيراً من المشاهد الموسيقية التي ترك للمهندس المسرحي الخالد إنيجو جونس إخراجها الفني والآلي فبرع في ذلك وأبدع أيما إبداع. . . وقد ألف فيها كذلك الشاعران الكبيران بومونت وفلتشر أكثر مما ألف جونسون، وذلك باشتراكهما معاً في التأليف على نحو ما يصنع بعض أبطالنا الكوميديين اليوم. وقد استقل فلتشر بالناحية الدرامية، كما اختص بومونت بالأغاني والنظم. . . أما جونسون فقد كتب أربعين مشهداً، ثم جاء شاعر إنجلترا الكبير جون ملتون فكتب بعض المشاهد بأسلوبه المتفرد العالي، ثم هذب بعض مشاهد جونسون لتسلك من قلمه الرفيع الجبار في سجل الخلود

ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن هذه المشاهد الموسيقية - أو الاستعراضية - كانت فاتحة عظيمة للأوبرا والأوبريت في العصر الحديث، وأن البلاط الإنجليزي في القرنين السادس عشر والسابع عشر كان معرضاً حافلاً لهذه المشاهد الاستعراضية الراقصة، وأن القناطير

المقنطرة من الجنيهات الإنجليزية كانت تنفق بلا حساب على الموسيقيين المحترفين والمغنين ومهندسي المناظر والأضواء كي يبلغ إخراجها حد البهاء والكمال، وهذا هو الذي جعل الملكة إليزابث نفسها تشفق من هذا اللون من ألوان التسلية الملكية في

بلاطها فحظرت أداءه فيه (حتى لا تتعرض خزانة الدولة لتلك البالوعة من بالوعات الإسراف، وهذا العبء الفادح من أعباء البذخ)
وقد كان عرض المشهد يبتدأ بحوار غنائي أو كلامي تتلوه استعراضات راقصة فردية من الممثلين المحترفين، ثم يختار هؤلاء (زملاء الرقص) من بين النظارة، فيصير الرقص زوجياً، ثم يختلط الحابل بالنابل ويسود الهرج والمرج. . . وهنا موضع النشوة المنشودة من (الماسك) وهي تتم على أنغام الموسيقى وترجيع المغنين وتسجيع المنشدين. . . وكان على الشاعر أن يسبق المشهد أو يفتتحه بكلمة يلخص فيها الموضوع ويصف المناظر من حيث ما ترمز إليه من بيئة ووسط وجو، ثم يثني أطيب الثناء وأعطره على السادة الأشراف الذين تنازلوا فقبلوا الاشتراك في التمثيل، وهم من هم من أمراء البلاد وأعيانها وساداتها، والذين تفضلوا منهم بالمساهمة في نفقات الإخراج (وما أفدحها وأثقل أوزانها!) ثم يفرغ بعد ذلك إلى الثناء على معاونيه ومساعديه من مصورين وموسيقيين ومهندسي أضاءة ومغنين وراقصين. . . ثم يتقدم فيوزع كراسة (بروجراما) تحوي كل المعلومات عن منهاج الحفلة المفصل، وكان الحاضرون يحتفظون بها تذكاراً فخرياً يعرضونه في صالوناتهم، آية من آيات بهاء البلاط الملكي الإنجليزي ولألائه!
(يتبع)
دريني خشبة
المشكلات
اللغة العربية - 6
للأستاذ محمد عرفة
لماذا أخفقنا في تعليمها؟ - كيف نعلمها؟
لقد هال بعض علماء العربية ما يرونه من تعلم ولدان الأعراب لغتهم بالطريقة الطبيعية إذ يخرجون يتكلمون بها لا يخطئون ويعربون فلا يلحنون، ووازنوا بين هؤلاء الولدان وبين تلاميذهم الذين يعلمونهم على طريقة القواعد والقوانين، فرأوا البون شاسعاً، والفرق واضحاً: هذا يصيب ولا يخطئ، وهذا يخطئ ولا يكاد يصيب، إذا أخذ الأول بالخطأ لم يطاوعه لسانه، وتعذر عليه الخطأ كما يتعذر على الآخر الصواب. رأوا هذه المشاهدة، ووازنوا هذه الموازنة، فذهبوا إلى أن اللغة العربية للعرب ولأبنائهم بالطبيعة والفطرة، ولغيرهم بالتعليم، وشتان بين ما هو بالطبيعة وما هو بالتعلم والتكلف؛ ولن يبلغ المتكلف وإن بلغ الغاية شأو الطبعي الفطري
وهذا المذهب غير صحيح وإن كان أصحابه معذورين في الذهاب إليه
أما العذر فلأنهم يفنون أعمارهم في درس اللغة العربية وقوانينها وعللها وأسبابها، يبذلون طاقتهم ثم لا يجدونهم قد بلغوا ما يبلغه ذلك الغلام الذي ينشأ في البادية من إجادة اللغة وامتلاك ناصية الشعر والنثر
وأما أن هذا المذهب خطأ فيدل عليه أنه لو كانت اللغة العربية طبيعية في العرب لما تخلفت، لأن ما بالطبيعة والذات لا يتخلف. ونحن نحكم بالتخلف، فلو أخذت صبياناً من أبناء العرب وربيتهم في فارس أو الروم لخرجوا يتكلمون الفارسية أو الرومية، ولم يحسنوا شيئاً من العربية؛ وإذن فليست اللغة العربية في العرب وأبنائهم طبيعة وليست فيهم لذاتهم، ولو أخذت صبياناً من أبناء فارس وربيتهم في بادية العرب لخرجوا يتكلمون العربية ولم يعرفوا شيئاً من لغة فارس والروم. فالصحيح من القول إذن أن اللغة العربية في العرب وغيرهم بالتعليم والاكتساب؛ إلا أن الطريقين مختلفان، فالعرب يتعلمونها بالحفظ والاختلاط وتربية الملكة، والنحاة يتعلمونها بالقواعد والقوانين، ويهملون تربية
الملكة، فتكون الطريقة الأولى أجدى وأنفع، وتكون الطريقة الثانية أخيب وأقل جدوى ونحن ليس في استطاعتنا أن تكون البيئة العربية فنأتي بالطريقة الفطرية، ولكن في استطاعتنا أن نقارب، وأن نقلد الطريقة الفطرية فنحسن التقليد، ونكثر من الحفظ، ونعمل على تكوين ملكة اللغة بالعادة والدربة والتكرار
أيجمل برجال التعليم أن يخطئوا في تعليم الولدان اللغة العربية فيعلموا بالقواعد ما لا يعلم إلا بالتكرار والحفظ ثم يطالبونهم بكتابة مواضيع تكون جارية على أساليب اللغة، خالية من اللحن والغلط، فإن لم يستجيبوا لهم ونسبوا إليهم العجز والتقصير؟

كيف يكتبون كتابة جارية على أساليب العربية ولم تتكون في أذهانهم مقاييس ونماذج عربية يكتبون على مثالها؟ وكيف يتكلمون كلاماً جارياً على أساليب اللغة ولم تتكون في أذهانهم صور ذهنية تدعوهم للتكلم على منهاجها؟ وكيف نطالبهم بالسرعة والجودة في الكلام وتوفير الزمن والجهد وهم لم يكتسبوا ملكة اللغة التي بها يكون ذلك؟

الحق أنكم تستنبطون الماء من الحجر، وتطلبون في الماء جذوة نار. الحق أنكم تأتون الأمر من غير بابه، وتلجمون الفرس من الخلف. الحق أنكم إذ تلومون التلاميذ على خيبتهم في اللغة تلومون غير ملومين، وتأخذونهم بذنب أنتم علله، وبجريرة أنتم أسبابها. ولو أنصفتم للمتم الطريقة التي علمتموهم عليها، أو بالحرى لرجعتم باللوم على أنفسكم

يا قوم جربتم طريقة القواعد في تعلم اللغة العربية ألف مرة، وفي كل مرة تخفقون، وجربتها الأجيال قبلكم كذلك، فجربوا مرة واحدة طريق الحفظ والتكرار، وأنا كفيل لكم أن تحمدوا هذه التجربة، وألا تعدلوا بها غيرها، ولو بذل لكم ما يستطاع للعدول عنها إلى طريقتكم الأولى لم تفعلوا، لأنكم قد وجدتم في هذه الطريقة النجاح حين وجدتم في الأولى الإخفاق

ونحن نعلم في مدارسنا المصرية اللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية، كما تعلمها مدارس الجاليات الأجنبية، ولكن الشركات والبنوك والمحلات التجارية التي تصطنع هاتين اللغتين في الكتابة والخطابة تفضل أن تستخدم من تخرج في المدارس الأجنبية على أن تستخدم من تخرج في المدارس المصرية، لأن الأول يجيد اللغتين كتابة وحديثاً، والثاني أبانت التجربة أنه لا يجيدهما كأخيه. أتدرون لم ذلك؟ إن شؤم طريقة تعليم اللغة بالقواعد قد تعدى

إلى هاتين اللغتين، فمدارسنا المصرية تعلمهما على طريقة حفظ القواعد، أما المدارس الأجنبية فتعلمهما على الطريق الطبعي طريق الحفظ والتكرار والمحادثة حتى تثبتهما ملكتين راسختين في النفس فيجيد تلاميذها الكتابة والحديث بهما، ومن أين لتلاميذ المدارس المصرية أن يجيدوهما وهم إنما عرفوا القواعد ولم يجعلوهما ملكتين بالحديث والتكرار؟

ومن ذلك نعلم أن هذا الإخفاق لا يرجع إلى قصور في عقول التلاميذ المصريين ولا إلى كسل يستولي عليهم، وإنما يرجع إلى هذا الأسلوب العقيم. وهذا هو السر أيضاً في كثرة التلاميذ الذين يرسبون في هاتين اللغتين، فنحن الذين يجنون عليهم، ثم نحملهم جريرة عملنا، ونأخذهم بذنوبنا

سمعت أحد أبنائي يردد صيغاً من اللغة الإنجليزية ويقول هذا للمذكر وهذا للمؤنث وهذا للجمع

فقلت له: ماذا تفعل؟ قال: أحفظ درس القواعد. قلت له: ما هكذا يكون، ينبغي أن تأتي بجمل تامة من اللغة الإنجليزية في مخاطبة المذكر ومخاطبة المؤنث والجمع، وتفهم معناها وتكررها وتحفظها، وتتحدث بها حتى تكون ملكة، ثم تأخذ القاعدة منها إن شئت. هذا هو الأسلوب الفطري في تعلم اللغة؛ أما أن تأخذ اللغة من القاعدة فهذا ليس طريقاً طبيعياً. لقد كان يعجزنا ونحن تلاميذ أن نحفظ قواعد اللغة العربية، فكنا نستعين عليها باستنتاجها مما نحفظ ومما رسخ في أذهاننا، وصار ملكة فينا. مثلاً: إذا كنا لا ندري ما عمل كان وأخواتها، وما عمل إن وأخواتها، رجعنا إلى ما رسخ في نفوسنا، واستشرنا ملكاتنا ونطقنا بأمثلة نحفظها، فيها كان وإن، ونرى كيف تنطق بها ألسنتنا، كقوله تعالى: (كان الله غفوراً رحيما)، (وإن الله على كل شيء قدير). ونستنبط من ذلك أن كان ترفع الاسم وتنصب الخبر، وأن إن تنصب الاسم وترفع الخبر، وهذا تقريب لما أريد أن يكون في تعليم اللغات. أريد أن تثبت الأساليب والألفاظ بالحفظ والتكرار حتى تكون ملكة، ثم تستنتج منها القواعد، ولا أريد أن تحفظ القواعد لتعلم منها الأمثلة، فإن ذلك يجعلها ملكة إلا أن يلجأ إلى الحفظ والتكرار

ومن العجب أن تمكث هذه المدارس بين ظهرانينا هذا الدهر الطويل ونرى أسلوبها الناجح في تعليم اللغات، ونلمس نجاحه ولا نقتبس منها هذا الأسلوب! أيرى قوم طائفة تعمل عملاً

فتنجح، ويعملون هم هذا العمل فيخيبون، ولا تدعوهم أنفسهم لترك أسلوبهم واقتباس أسلوب الناجحين؟ وأعجب من هذا أن ترى هذه المدارس أسلوبنا الخائب، وتلمس خيبته فلا تنصحنا ولا ترشدنا إلى الطريق القويم في تعليم اللغات

أيستطيع أحد أن يرى ضالاً يمشي على غير الجادة تنكبه الأحجار وترديه الحفر، ولا يقيمه على الجادة؟

لست أدري أأرجع باللائمة علينا لعدم استفادتنا منهم، أم أرجع باللائمة عليهم لعدم إرشادنا؟ ولكن يظهر أن بين الجماعات منافسة كما بين الأفراد؛ فلا ترى جماعة جماعة ضالة وتهديها السبيل. فإن كان ذلك كذلك فقد أغناكم الله عن أجنبي يضن عليكم بالنصيحة. وهاكم النصيحة من رجل من أنفسكم محب لكم يود خيركم، ويحرص على نفعكم، ويعز عليه أن تضيع جهودكم، وأن تبدد أعماركم. وهو ناصح أمين؛ فهل أنتم منتصحون؟

محمد عرفة

عمر بن الفارض

للأستاذ يوسف يعقوب مسكوني

صفحة ناصعة من تاريخ الأدب العربي. صفحة ذات معان ومزايا متنوعة يقف السامع بازائها حائراً مبهوتاً كأنه يتسمع إلى ألحان من الموسيقى الإلهية، بل نغم ينبعث من أجواء علوية، كأنه الإلهام الذي يستولي على الدماغ ويمتزج بالفكر فيكون سحراً. تلك هي حال القليلين الذين يضن الدهر ولتاريخ علينا بهم لأنهم مثلوا عصوره. بهم تفيض علينا معاني النبوغ والعبقرية تلك المعجزة الإلهية؛ وهذا شأن العظمة التي يخلقها العظيم فيعظم عصره؛ وهكذا تنطوي عندئذ صفحة من صفحات التاريخ وسفر جليل من السفارة يكون رمزاً للحياة الماضية والحاضرة. وهذا ابن الفارض الشاعر الرقيق المفتون بالعزة الإلهية بشعره، العابد للجمال الرباني بمنظومه، فهو شاعر العاطفة الذي يثير ما في القلب من الأحزان والمآسي التي طبعتها صروف الأيام. يريك ابن الفارض ألواناً من شعره تلذ لك فتبحث عن الرقة والخيال وكل ما هو جميل في الكون من المبهجات. هو الشاعر المبدع الفيلسوف في وصف الحب والجمال. وهل من شيء سواهما أعز لدى المرء في الحياة الدنيا؟ لا أظن شاعراً من الشعراء المتأخرين ممن سلك مسلك ابن الفارض في شرح معنى الحب والجمال وما يجلبان على المرء من سوء المصير إذا ما عسر عليه وجدانهما أو فقد أحدهما. فهو الذي افتن في وصف الحبيب والحنين إليه إذا ما غاب، وفي وصف آلام المحب إذا ابتلى، وفي خضوع الإنسان للجمال جمال الحبيب الذي يخلب اللب ويذيب الأحشاء. كل هذه الأوصاف تعمق ابن الفارض في تحليلها وسبكها في قوالب شعرية يعجز القلم عن نعتها. وهانحن أولاء نأتي باليسير منها لضيق المقام. أما مختصر ترجمة فهو الإمام العارف بالله الشيخ أبو حفص أبو القاسم عمر ابن أبى الحسن ابن المرشد بن علي الحموي الأصل، المصري المولد والدار والوفاة، المعروف بابن الفارض. ومعنى الفارض أنه يكتب الفروض للنساء على الرجال، كما جاء في كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان. كانت ولادته بالقاهرة في الرابع من ذي القعدة من سنة 576هـ في عهد صلاح الدين الأيوبي، وله ديوان شعر لطيف وأسلوبه فيه طريف ظريف؛ وقد أبدع وأجاد بالمعاني والعبارات الرقيقة، وشع بشعره في الأفكار كالشمس في رائعة النهار، وكان رجلاً صالحاً كثير الخير

على قدم التجريد، وجاور مكة الشرفة زماناً، وكان رجلاً حسن الصحبة محمودة العشرة. وقد قيل عنه إنه ينظم الشعر أحياناً في النوم ومنه هذان البيتان:

وحياة أشواقي إلي ... ك وتربة الصبر الجميل

ما استحسنت عيني سوا ... ك ولا صبوت إلى خليل

وهو من أهل الطريقة الرامزة وهي طريقة العرفان بالله ولهذا كني بالعارف بالله وممن وصفه الكاتب المبدع المرحوم جبران خليل جبران بقوله: (وكانت روحه الظمآنة (كذا) تشرب من خمرة الروح فتسكر ثم تهيم سابحة مرفرفة في عالم المحسوسات حيث تطوف أحلام الشعراء وميول العشاق وأماني المتصوفين. ثم يفاجئها الصحو فتعود إلى عالم المرئيات لتدون ما رأته وسمعته بلغة جميلة مؤثرة). ثم يقول أيضاً: (إذا نظرنا إلى فنه المجرد وما وراء ذلك الفن من المظاهر النفسية وجدناه كاهنا في

هيكل الفكر المطلق أميراً في دولة الخيال الوسيع قائداً في جيش المتصوفين العظيم ذلك الجيش السائر بعزم بطيء نحو مدينة الحق. ثم يقول أخيراً كان يغمض عينيه عن الدنيا ليرى ما وراءها، ويغلق أذنيه عن ضجة الأرض ليسمع أغاني اللانهاية. هذا هو الفارض، روح نقية كأشعة الشمس وقلب متقد كالنار، وفكرة صافية كبحيرة بين الجبال، وفي شعره ما لم يحلم به الأولون ولم يبلغه المتأخرون) 1هـ. وتوفي بالقاهرة يوم الثلاثاء الثاني من جماد الأولى سنة 632هـ. ودفن في الغد حسب وصيته بالقرافة في سفح المقطم تحت المسجد المعروف بالفارض. وقد قال ابن بنته الشيخ علي في ذكره:

جز بالقرافة تحت ذيل العارض ... وقل السلام عليك يا ابن الفارض
أبرزت في نظم السلوك عجائباً ... وكشفت عن سر مصون غامض
وشربت من بحر المحبة والولا ... فرويت من بحر محيط فائض

وقال أبو الحسن الجزار:

لم يبق صيّب مزنة إلا وقد ... وجبت عليه زيارة ابن الفارض
لا غرو أن يسقي ثراه وقبره ... باق ليوم العرض تحت العارض

أما ديوان شعره فيحتوي على مقطوعات وقصائد منها الموجزة والمطولة، متينة النظم دقيقة الحس رقيقة الشعور. وقد طبع ديوانه مرات وشرحه في جزأين رشيد بن غالب معتمداً على شرحي الشيخ حسن البوريني والعلامة الشيخ عبد الغني النابلسي الدمشقي الصوفي. وبهامش الشرح كشف الوجوه الغر، لمعاني نظم الدر، وهو شرح تائية ابن الفارض الكبرى المشتهرة بنظم السلوك ومطلعها:

سقتني حميا الحب راحة مقلتي ... وكأسي محيا من عن الحسن جلت

ومنها أيضاً:

وكل الليالي ليلة القدر إن دنت ... كما كل أيام اللقا يوم جمعة

وعدد أبيات هذه القصيدة سبعمائة واثنان وستون بيتاً وتشغل جزءاً كبيراً من الديوان. ومطلع شرح الديوان: (الحمد لله الذي بفضله الفارض عمر بيوت الأدب، وحسن للطبع شرح معان فيها بلوغ الأدب. . . الخ). ويقول المؤلف في آخر الكتاب نقلاً عن شرح الشيخ عبد الغني النابلسي: (كان الفراغ منه عشية يوم الإثنين التاسع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وعشرين ومائة وألف من الهجرة). وقال مورخاً لتمام هذا الشرح.

ولابن الفارض الديوان لما ... حكى عقداً نظيماً جوهريا
عنيت بشرحه هذا إلى أن ... تكامل أرخوه الفارضيا

وطبع الكتاب بالمطبعة الخيرية بمصر سنة 1310هـ. بعناية مصححة محمد الأسيوطي.

أما منظوماته التي يفتتح بها ديوانه، وتدل على صناعة شعرية فائقة. فهذا مطلعها:

سائق الأظعان يطوي البيد طي ... منعما عرج على كثبان طي
وبذات الشيح عني إن مرر ... ت بحي من عريب الجزع حي
وتلطف واجر ذكرى عندهم ... علهم إن ينظروا عطفاً علي

ومنها:

هل سمعتم أو رأيتم أسداً ... صاده لحظ مهاة أو ظُبي

ومنها أيضاً:

أي ليالي الوصل هل من عودة ... ومن التعليل قول الصب أي
وبأي الطرق أرجو رجعها ... ربما أقضي ما أدري بأي
ذهب العمر ضياعا وانقضى ... باطلاً إذ لم أفز منكم بشيء

وهي طويلة. ولنأت الآن إلى مطلع قصيدة أخرى:

أرج النسيم سرى من الزوراء ... سحراً فأحيا ميت الأحياء
أهدى لنا أرواح نجد عرفه ... فالجو منه معنبر الأرجاء

وكذلك قصيدته التي يتغزل فيها بأراضي نجد لأنها موطن ليلاه فيقول:

أوميض برق بالأبيرق لاحا ... أم في ربى نجد أرى مصباحا؟
أم تلك ليلى العامرية أقبلت ... ليلاً فصيرت المساء صباحا

أما قصيدته في تحليل الحب وتعريفه فهي أشهر من نار على علم، وهي مضرب

الأمثال. وهذا مطلعها:
هو الحب فاسلم بالحشا ما الهوى سهل ... فما اختاره مضني به وله عقل
وعش خالياً فالحب راحته عناً ... وأوله سقم وآخره قتل
ومنها:
فإن شئت أن تحيا سعيداً فمت به ... شهيداً وإلا فالغرام له أهل
أما الخمرة فهو يصفها وصفاً نادراً، وهو لم يذقها على رأيي ورأي الكثيرين. فتراه يصفها أبدع مما وصف الحسن بن هانئ المعروف بأبي نواس. ومن ذلك قصيدته التي مطلعها:
شربنا على ذكر الحبيب مدامة ... سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم
لها البدر كأس وهي شمس يديرها ... هلال وكم يبدو إذا مزجت نجم
ولولا شذاها ما اهتديت لحانها ... ولولا سناها ما تصورها الوهم
ثم يقول:
يقولون لي صفها فأنت بوصفها ... خبير أجل عندي بأوصافها علم
صفاء ولا ماء ولطف ولا هوا ... ونور ولا نار وروح ولا جسم
وللشيخ علي سبط الناظم قصيدة مطولة نظمها تكملة لستة أبيات من نظم ابن الفارض. مطلعها:
نشرت في موكب العشاق أعلامي ... وكان قبلي يلي في الحب أعلامي
وسرت فيه ولم أبرح بدولته ... حتى وجدت ملوك العشق خدامي
وللسبط أيضاً قصيدة أخرى مطلعها:
أبرق بدا من جانب الغور لامع ... أم ارتفعت عن وجه ليلى البراقع
ولما تجلت للقلوب تزاحمت ... على حسنها للعاشقين مطامع
لطلعتها تعنو البدور ووجهها ... له تسجد الأقمار وهي طوالع
هذا هو ابن الفارض ذو الشعر الرقيق الفائق، وشاعر الحب والجمال الروحانيين. هذا هو المزين لعرش الحب العاقد أكاليل الجمال على رءوس الحواري والحسان في خيال الجنان. هذا هو المعزي لأصحاب القلوب الدامية الهائمة في بيد الطبيعة الجميلة. هذا هو المكفكف لدموع البائسات المخفقات في نيل عذوبة الحب الذي هو رمز الحياة والطبيعة، يسود القلوب ويتحكم في الأنفس الرفيعة. ليكن لنا ابن الفارض عبرة الدهر في ميدان الرقة والعطف. وليكن ابن الفارض صورة للحياة الجميلة التي نستعذبها ونستذيقها أبد العيش. فليطب هانئاً في مثواه ومرقده. ولينم نومه الهادئ العميق؛ فلن يصغي إلى أنين العاشقين، ولن يسمع زفير المتيمين

يوسف يعقوب مسكوني

الإسلام والفنون الجميلة - 1

للأستاذ محمد عبد العزيز مرزوق

يمتاز الإسلام بأنه أوجد لنفسه بنفسه فناً جميلاً كيفه بمبادئه، وبث فيه روحه، وغذاه بتعاليمه حتى استقام عوده، ونضجت شخصيته، وتجلت للعيان مميزاته. ولا شك أنه لبيان هذه الميزة ينبغي أن نقارن بين الإسلام وبين ما سبقه من الأديان من حيث موقف كل منها من الفنون الجميلة ثم نعقب على ذلك ببيان الطرق التي أتيح بها للإسلام أن يخلق فناً جميلاً إن اتفق مع الفنون السابقة عليه في بعض العناصر الزخرفية فقد اختلف عنها أشد الاختلاف في المبادئ الأساسية والاتجاهات التي سار فيها

فإذا عدنا إلى الوراء آلاف السنين لنشهد الإنسان وهو يتقلب في أطوار حياته المختلفة على ظهر البسيطة لوجدناه يكافح الوحوش ليعيش، ويحاربها ليوجد لنفسه بينها مكاناً أمينا يطمئن فيه على حياته، ولرأيناه ما كاد يلقي سلاحه، ويفرغ لنفسه بعض الشيء بعد هذا الجهاد المضني، ويأوي إلى كهفه ليستريح ويستقر به المقام في هذا المسكن الجديد، ويرضي فيه حاجات جسمه من مأكل ومشرب وملبس حتى يقوم إلى جدران هذا الكهف يزخرفها وإلى آلات صيده يجملها ويزينها

ولسنا هنا بصدد الفصل في سبب اشتغاله بهذه الفنون الجميلة، فليكن الدافع إليها فيض النشاط الحيوي فيه، أو لتكن الغريزة هي التي أوحت إليه أن يحاكي بالرسم ما يراه في محيطه، أو ليكن اعتقاده في أن رسم الحيوان يقيده أو تكرار رسمه يكثره،

أو رسمه وقد اخترق السم أحشائه يجعل صيده هيناً سهلاً عليه وهو الذي حمله على هذا العمل، أو لتكن هذه العوامل مجتمعة هي التي جعلته يشتغل بهذه الفنون فلن يغير هذا من الحقيقة شيئاً: ذلك أن الإنسان قد عرف الفنون الجميلة قبل التاريخ واستخدمها في حياته. لقد وجد نفسه ضعيفاً أمام قوى الطبيعة: أمام قوى تعمل من وراء ستار، رأى براكين ثائرة يتطاير منها الحمم فتصيبه في نفسه وفي ماله، وسمع رعوداً صاخبة تكاد تصم بزمجرتها أذنيه، وأحس برياح عاصفة تدفع به أمامها، وتلقي في طريقه بأعظم الأشجار وأضخمها، ولمح بروقاً خاطفة ترسل إليه بضوئها فتملؤه خوفاً ورعباً. هذه المظاهر المختلفة التي لا يعلم سرها جعلته يعتقد بوجود قوى عظيمة تأثر في كيانه دون أن يراها. لذلك فكر في استرضائها

على قدر ما سمح له به عقله المحدود فلجأ إلى الفن الجميل يستعين به على بلوغ مأربه فنحت التماثيل، وأقام الأنصاب ورسم الصور

وإذا كانت الفنون الجميلة من نحت وتصوير ونقش قد خدمت الإنسان قبل التاريخ في ديانته الساذجة البسيطة فقد خدمته أيضاً في العصور التاريخية، عندما تعقدت الأمور الدينية بعض التعقيد

فلقد اعتقد المصري القديم بعودة الروح بعد موت الجسم، ورأى لزاما عليه أن يحفظ ذلك الجسم، وأن يضعه بعد موته في محيط يشبه محيطه في الحياة الدنيا، حتى تطمئن الروح وتأنس بجسمها إذا ما عادت إليه، فاستعان بالفن الجميل على تحقيق هذه العقيدة، فزينت جدران القبور بنقوش تمثل حياة الميت، ونحتت له تماثيل تمثله في حياته لتحل فيها الروح إذا ما انحل الجسم أو أصابه عطب، وأودعت هذه التماثيل القبور مع الجثة، كما وضع معها أيضاً ما كان يستعمله الميت في حياته، وروعي في تشييد المدافن أن تكون منيعة لتحول بين هذه الأشياء وبين عبث العابثين؛ ولتظل كذلك في حرز أمين. وإذا كانت عقيدة البعث قد استفادت من فنون النقش والتصوير، فالدين المصري القديم بإلهته المختلفة ومعابده الكثيرة قد انتفع بهذه الفنون أيضاً إلى أبعد حد، فنحتت التماثيل العظيمة للآلهة، ونمقت جدران المعابد بالزخارف الرائعة، وطليت بالألوان الزاهية الجميلة

ولم يختلف الحال في بلاد اليونان القديمة عنه في مصر الفرعونية، إذ نجد أن الديانة اليونانية قد استعانت بفنون النحت والنقش والتصوير على إبراز فكرتها وتجسيم عقائدها، إذ ابتدعوا لأنفسهم آلهة تشرف على شئونهم، وترمز إلى مثلهم العليا، وتخيلوا هذه الآلهة على صورة الإنسان وأفرغوا جهدهم في نحت تماثيل لها كانت أجمل وأروع ما أخرجته يد البشر، خلدت ذكر اليونان على صفحة الزمن ونقشت أسماء آلهتهم في سجل القدر

وما كانت أمم الشرق القديمة من بابليين وأشوريين وحيثيين وغيرهم لتشذ عن مصر واليونان في هذا السبيل، بل استخدمت هي الأخرى الفن الجميل في عبادتها الوثنية واليهودية أول دين سماوي نادى بالوحدانية، جاء والوثنية هي الدين الشائع بين أمم الأرض جميعاً، والفنون الجميلة من حفر ونقش وتصوير ونحت هي عماد هذا الدين وقوامه، فلكي يخرج الناس من ظلام الوثنية إلى نور الوحدانية كان من الضروري أن يحول بينهم وبين هذه الفنون. وتشددت اليهودية في هذه الحيلولة ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً فحرمتها تحريماً صريحاً إذ جاء في التوراة في الأصحاح العشرين من سفر الخروج: (لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً، ولا صورة ما مما في السماء من فوق وما في الأرض من تحت، وما في الماء من تحت الأرض. لا تسجد لهن ولا تبعدهن لأني أنا الرب إلهك إله غيور) وقد قضى هذا النص على الفنون الجميلة عند اليهود قضاء مبرماً فلم تستخدمها كغيرها من الأديان التي سبقتها ولم تحاول أن تجندها لخدمتها. وإذا كانت الحضارة اليهودية قد بلغت أوجها في عهد داود وسليمان فتقدمت الصناعة ونهضت التجارة وازدانت فلسطين بما شيد في ذلك العهد من قصور ومعابد (ومحاريب وتماثيل وجفان كالجواب) أشار إليها القرآن الكريم في سورتي النمل وسبأ، كما أشارت إليها أيضاً كتب التاريخ، فقد استعان اليهود في ذلك بالأجانب من مصريين وفينقيين وآشوريين

على أن اليهود لم تنتشر، وبقيت الوثنية دين الكثرة من سكان العالم، وتأثر الرومان في ديانتهم الوثنية باليونان، وكما خدمت الفنون الجميلة الدين اليوناني القديم، كذلك

خدمت الدين الروماني
وظهر الدين المسيحي، واعتنق المسيحية كثير من بني إسرائيل ثم انتشرت في الإمبراطورية الرومانية بسرعة عظيمة بسبب نضوج الفكر الإنساني، وعدم ارتياحه إلى طقوس العبادة الوثنية. وقد قامت المسيحية تدعو إلى ترك الدنيا والتجرد منها والانقطاع إلى الآخرة والإقبال عليها. ولعل خير ما يترجم عن دعوتها هذه قول السيد المسيح في الإصحاح السادس من إنجيل متي (لا يقدر أحد أن يخدم سيدين، لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر، أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر. لا تقدرون أن تخدموا الله والمال، لذلك أقول لكم لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون، ولا لأجسادكم بما تلبسون.) ومثل هذه المبادئ ليس فيها ما يشجع على ازدهار الفنون الجميلة لأنها تنكر جمال هذه الدنيا وتطالب بكبت ما في الإنسان من ميول وغرائز، ولذلك لم تبتدع المسيحية فن جميلاً بل انتفعت بالفن القائم بين يديها، وما الفن المسيحي المعروف إلا فن وثني لبس رداء المسيحية، فهو فن مسيحي فقط باعتبار ما يؤديه من خدمات للدين المسيحي أو للمسيحيين لا باعتبار أنه يعبر عن فلسفة هذا الدين لأن فلسفة هذا الدين - كما رأينا - قوامها الزهد والتقشف
وكلاهما والفن الجميل على طرفي نقيض.
(يتبع)
محمد عبد العزيز مرزوق
الأمين المساعد بدار الآثار العربية
من آثار العراق
الجسر العباسي
للأستاذ ميخائيل عواد
1 - تصوير
إذا جولنا في أنحاء العراق شاهدنا عدداً لا يستهان به من الجسور المتنوعة الطراز، المتفاوتة الحجم، تعلو أنهاره ونهيراته، بينها القديم الأثري، وبينها الحديث المكين؛ كما أن التاريخ ينبئنا بوجود جسور قديمة شيدت في أشهر المدن العراقية المطلة على المياه، وغير أن يد الزمان قد عبثت بها فجعلتها أثراً بعد عين
وإلى القارئ هذا البحث في أحد الجسور القديمة في العراق، نعني به (الجسر العباسي) القائم بجوار بلدة زاخو في شمالي العراق
ولقد استقصينا عدداً من التصانيف العربية القديمة والحديثة، طائفة من كتب الرحالين والسياح الفرنج؛ أملاً في الوقف على ما ينير السبيل أمامنا في هذا الموضوع، غير أننا لم نعد من جميعها إلا بالنزر اليسير من العلم بأمر هذا الجسر. ولعل أهم ما وقفنا عليه ما دونه الرحالة الأثري (بروسر) في كتابه عن (المباني الأثرية في شمالي ما بين النهرين)
ولهذا الجسر أسماء عديدة أطلقها الناس عليه في ظروف ومناسبات مختلفة. من ذلك: الجسر العباسي، جسر العباسيات، جسر الخابور، جسر دلالي، جسر الإسكندر، جسر الحسنية
ويلاحظ القارئ أن اثنتين من هذه التسميات أطلقتها عليه بالنظر إلى موقعه: (فجسر الخابور) يشير إلى أنه يركب متن هذا النهير، كما أن (جسر الحسنية) يدل على أنه شيد عند بلدة الحسنية. أما سائر التسميات فقد أطلقت عليه بناء على ما شاع بين الأهلين هناك من الروايات والأساطير التي لا تدعمها الحقائق الراهنة ولا تؤيدها المستندات التاريخية
2 - موقعه
على نحو من ميل واحد شرقي بلدة زاخو ينتصب (الجسر العباسي) فوق نهير الخابور الذي ينبع من الجبال الممتدة في جنوبي أرمينية، ثم يسير متمعجاً بين ثنايا تلك الجبال حتى يصب في دجلة فوق قرية (فيشخابور) على نحو من 75 ميلاً شمالي الموصل؛ أي عند الحدود العراقية التركية. وهذا الخابور هو المعروف في المؤلفات العربية القديمة ب (خابور الحسنية) نسبة إلى البلدة المعروفة بهذا الاسم
وقد تطرق البحاثة المستشرق (لسترنج) في كتابه الموسوم ب (أراضي الخلافة العباسية) إلى ذكر هذا النهير وجسره فقال: (إن هذا النهير كان يخترقه جسر حجري لا

تزال بقاياه ماثلة للعيان قرب قرية حسن آغا التي ربما تمثل المدينة القديمة. إن الحسنية التي كان فيها جامع تصلى فيه الجمعة قد وصفه المقدسي بقوله إنه موقع ذو خطر)

ويبدو لنا من كلام (لسترنج) أن الأمر قد اختلط عليه بعض الشيء، فلم يفرق بين الجسر العباسي الذي نحن بصدده، وبين جسر آخر ما زالت بعض معالمه ظاهرة للعيان، كان فيما مضى يعلو الخابور ذاته، ويطلق عليه (جسر كيسته) بينه وبين جسر العباسي نحو من ثمانمائة متر

ولا يزال الجسر العباسي صالحاً بعض الصلاح لمرور السابلة من فوقه؛ وقد كان فيما مضى المسلك الوحيد الذي تسلكه القوافل حينما تقصد من الأنحاء الشمالية المختلفة؛

أما (جسر كيسته) فلا أثر لقناطره اليوم، لأن يد الدهر سطت عليها، وعملت على تقويضها حجراً بعد حجر، ولم تبق منها اليوم سوى ركائز قواعدها الحجرية المغروزة في الماء

صفته - 3

يبلغ طول الجسر العباسي 114 متراً، وعرضه 4 أمتار و70 سنتمتراً وهو يتقوم من خمس قناطر تتفاوت شكلا واتساعاً، فأكبرهن تكاد تعلو عرض الخابور بكامله هناك؛ إذ تبلغ فتحتها 16 متراً، وارتفاعها عن مستوى سطح ماء الخابور في أيام انتقاصه زهاء 15 متراً، ومن هنا تتجلى لنا عظم المصاعب التي تجشمها البناؤون أثناء تشيدهم هذه القنطرة الواسعة! ومن يلق نظرة على صورة هذا الجسر ير ريازة هذه القنطرة من الطراز المعروف ب (المسنم)

ثم يلي هذه القنطرة سعة، قنطرة ثانية فتحتها 11 متراً، على شكل يقرب من نصف الدائرة. أما الثلاث الباقيات ففتحاتهن أصغر من السابقة وهن على شكل أنصاف دوائر وطبيعي أن يؤدي هذا التفاوت في اتساع القناطر إلى ارتفاع وسط الجسر وانحدار جانبيه

حتى يتساوى وسطح الأرض عند حافتي مجرى النهر

ويلاحظ المرء أن ثلاثاً من هذه القناطر شيدت على يسار القنطرة الكبيرة - باعتبار مجرى النهر - وواحدة فقط على يمينها

شيد الجسر العباسي من حجارة مزلمة، مختلفة الحجم، قليلة الهندام؛ لكنها مرتبة بنظام، وقد تلاحكت بعضها ببعض بالملاط القوي

وقد يبدو هذا الجسر للناظر، لأول وهلة بسيط التركيب، ضعيف القوام، لكنه بالرغم من مظهره هذا، عاش قروناً طوالاً، وعارك فيضانات الخابور المتدفقة من أعالي الجبال المحيطة بتلك البقاع، ومياه الخابور ذات أمواج متلاطمة مزبدة، وهي في صراع دائم مع الصخور الصلبة التي تكون قعر النهر، وهذا ما يسبب تيارات ودوارات مائية سريعة تجعل الملاحة فيه كالمستحيلة

فوق هذه الأرض الصخرية القاسية شيد الجسر العباسي بقناطره الخمس ودعائمه الراسخة

وقد تطرقت العالمة الرحالة (جرترود بيل) إلى هذا الجسر في رحلتها المعروفة (من مراد إلى مراد)؛ لكنها قالت إنه يتألف من أربع قناطر، بينما هي في الواقع خمس كما أسلفنا.

4 - تشييده:

تضاربت الروايات في أمر تشيد هذا الجسر، وذهب الحدس والتخمين في ذلك كل مذهب، وما ذلك إلا لعدم وجود كتابة عليه تفصح عن زمن تشيده، أو نقوش تسعف الباحث في تقدير تاريخه، فضلاً عن صمت المؤلفات القديمة وعدم ذكرها له. ولأهالي تلك البقاع أسطورة يتداولونها فيما بينهم، ومنهم سرت إلى بعض كتب الرحلات الأجنبية. وخلاصتها أن هذا الجسر كان على ما يقولون قد سقط ثلاث مرات متتاليات عند محاولة تشيده حتى نفذ صبر البناءين وضاقوا ذرعاً بالأمر، فقال رئيسهم: يا قوم إن قائمته لن تقوم ما لم يضح في سبيله بدم بشري، على أن تكون ضحيته أول عابر طريق

وما هي إلا هنيهة وجيزة حتى أقبلت بنت عذراء اسمها (دلالي) فساقها القدر إلى أن تكون أول من يقع عليها القرار الذي أشار به رئيس البنائين، فاستيقت تلك الفتاة

قسراً وأدمجت في الحال ببناء الجسر وهي حية، وترك طرف ذراعها ذات السوار الذهبي بادياً للعيان، ولكن من تلك الفتاة يا ترى؟ إنها كانت ابنة رئيس البنائين نفسه. ولكن هل لذاك الرئيس
من محيص وقد سبق السيف العذل! وللأهالي القاطنين تلك البقعة أشعار وأغاني باللغة الكردية يتناقلونها صاغراً عن كابر ويتلونها في ذكر دلالي، وفي عظم الفاجعة التي حلت بها، وهذه الأشعار ذات لون أدبي خاص، وتعد من أجمل القطع الأدبية الشعبية
هذا ملخص الرواية الشائعة هناك رويناها دون أن نبدي رأياً فيها، لأن المراجع القديمة الموثوق بصحتها لا تساعدنا في هذا الشأن
وقد ذهب فريق من الكتبة المحدثين إلى أن تشييد هذا الجسر كان قد تم على أيدي الرومان؛ فإن هؤلاء القوم اجتازوا بشمالي العراق في المائة الرابعة قبل الميلاد وعبدوا مسالك عسكرية ومنها الجسور لتمر عليها جيوشهم الجرارة الذاهبة لمنازلة الفرس
من ذلك ما زعمه (هموتن) بقوله فيه إنه (جسر روماني فخم معقود فوق أحد روافد دجلة عند زاخو. . . وصار يعرف على مر الأزمان بجسر الإسكندر)؛ ثم ساق رواية دلالي المارة الذكر
ونحن نرى في هذا الرأي تساهلاً كبيراً؛ إذ يصعب صمود هذا الجسر مدة تزيد على الألفي سنة يقاوم فيها محن الزمان وتصرفات المياه
والذي انتهى إليه (بروسر) في درسه هذا الجسر أنه لا شيء يوثق به فيما يخص تشييده؛ ومع ذلك فقد ذهب إلى أنه شيد في المائة السابعة للهجرة (بين المائة الثانية عشرة والثالثة عشرة للميلاد)، وإنه بهذا الاعتبار من الآثار التاريخية الماثلة للعيان التي تعود إلى أواخر أيام الدولة العباسية.
(بغداد)
ميخائيل عواد
البريد الأدبي
رسالة المساجد والنهوض بها
أصدر صاحب المعالي الأستاذ عبد الحميد عبد الحق وزير الأوقاف القرار الآتي:
تشرف وزارة الأوقاف على آلاف المساجد المنبثة في الحواضر والمدن والقرى، وهي بذلك تحمل لواء الإرشاد والتهذيب الديني والاجتماعي
ورغبة منا في النهوض بها وبالقائمين على شئونها نهوضاً يلائم تطور الزمن وأحداثه، حتى تلاحق ركب الحضارة والمدنية، وتحتل مكانها الذي كانت تحتله في صدر الإسلام، يشرق منها نور المدنية الإسلامية، وتوطد بين جدرانها الألفة والمحبة بين المسلمين، وتنمي نوازع الخير والهداية وأسباب الكرامة الحقة في نفوس الشباب
ورغبة منا في الوقوف على أقوم السبل المحققة لهذه الغاية، سواء من الوجهة الدينية أو الثقافية أو الصحية أو العلمية، رأينا تأليف لجنة من حضرات أصحاب الفضيلة والعزة: مصطفى صبري أفندي شيخ إسلام تركيا سابقاً، والدكتور إبراهيم بيومي مدكور، ومحمد محمد الوكيل بك العضوين بمجلس الشيوخ، ومحمود لطيف بك عضو مجلس النواب، والدكتور عبد المجيد رمزي مدير الصحة الاجتماعية، وأمين عبد الحافظ بك مدير الشئون القروية، والأستاذ أحمد فهمي إبراهيم مدير قسم الهندسة بوزارة الأوقاف، والدكتور منصور فهمي بك مدير دار الكتب، والشيخ محمد البنا مدير إدارة الشئون الدينية برياسة مجلس الوزراء، ومحمد أحمد جاد المولى بك المفتش الأول للغة العربية، والشيخ عبد الوهاب خلاف الأستاذ بجامعة فؤاد الأول، والشيخ سيد زهران مدير قسم المساجد، والأستاذ عبد الحميد خضر، والدكتور إبراهيم اللبان المفتشين بوزارة المعارف
على أن تكون مهمة هذه اللجنة بحث ما يأتي:
1 - الوسائل التي تحبب الناس في الإقبال على بيوت الله وقضاء أوقات فراغهم فيها، وبحث العوامل التي أدت إلى انصراف فريق من الناس عن المساجد، ورسم أقوم السبل لعلاجها علاجاً ناجعاً

2 - وضع دستور للإرشاد في المساجد من دروس وخطب ومحاضرات، وتنسيقه بحيث يوائم الظروف والمناسبات والحوادث والبيئات
3 - طريقة اتصال وزارة الأوقاف بالوزارات الأخرى لتقف على ما لديها من مشروعات اجتماعية وثقافية وصحية واقتصادية وزراعية ووقائية ليكون وعاظ المساجد لسان الحركة الإصلاحية في جميع هذه الشئون
4 - المنهاج الذي يشيع الرغبة بين النساء في الإقبال على المساجد لتغذيتهن بالثقافة الدينية
5 - اختيار الطراز الذي يراعي عند إنشاء المساجد لتتوافر فيها وسائل الراحة والصحة والترغيب
6 - النظر في شئون مرافقها الصحية وإمكان تزويدها بالمغاسل والحمامات والمياه الساخنة، وإذا تيسر ذلك فهل تشرف عليها وزارة الأوقاف أو وزارة الصحة؟
وأملي أن تنتهي اللجنة من تقديم تقريرها في بحر شهر من تاريخه.

حول (ذبح الفقراء لا يحل مشكلة الفقر)

تفضل الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد في العدد الأخير من مجلة (الرسالة) الغراء ورد على بعض ما كتبته في صفحة (الأسبوع حوادث وخواطر) بمجلة آخر ساعة، وتفضل أيضاً وسمح لي في حديث معه بالرد على رده، واختار لي صفحات (الرسالة) ميداناً لهذا الرد

وخلاصة الموضوع الذي كتبت فيه هي (الفقر والحرية)، وهل يمكن أن يتمتع الفقير بحريته رغم فقره؟ وهل يمكن وضع نظام اقتصادي جديد غير النظام الحالي يقلل من عدد الفقراء ومن عدد الأغنياء؟

وقد سبق لي أن ناقشت شخصياً مع الأستاذ العقاد في هذا الموضوع، وكان في مناقشته لي قد فهمني فهماً خطأ، إذ ظن أني أدين بمبدأ سياسي معين، ولذلك خص الجزء الأكبر من رده على صفحات الرسالة لهدم المبادئ الحديثة كالنازية والشيوعية.

هذا في حين أني صرحت له مراراً، وهاأنا أعود إلى التصريح مرة أخرى، أني لا أدين بمبدأ معين، ولم أتقيد إلى اليوم بفكرة كاتب من الكتاب السياسيين العالميين، وعلى الأخص (كارل ماركس). فأنا لا زلت شاباً في الرابعة والعشرين من عمري جعل همه مشاهدة الواقع والبحث عن الحقيقة والفكرة التي تنطبق على هذا الواقع، سواء كانت في النازية أو

الشيوعية أو الديمقراطية، أو حتى في الفوضوية! فدعنا من كل هذه المبادئ وتعال إلى الواقع. أليس في البلد من يملك عشرة آلاف فدان، في حين أن فيه عشرة آلاف فقير لا يملكون ثمن رغيف وطبق من الفول المدمس؟

أليس في البلد من يملك عشر سيارات، في حين أن فيه عشرة آلاف يسيرون حفاة؟

أليس في البلد من يموت بالتخمة وضغط الدم، وفيه من يموت بالجوع وفقر الدم؟!

هذا هو الواقع، وهذا ما ناديت بإصلاحه، ولم أقل كيف يتم هذا الإصلاح، ولم أشر باتباع مبدأ من المبادئ التي أشار إليها الأستاذ العقاد

ولكن الأستاذ العقاد يقول أنه ديمقراطي يدين بالديمقراطية لأنها تصون الحرية الفردية. فلأكن مثله ديمقراطياً، ولنبحث سوياً بين النظم الديمقراطية المتبعة في مختلف الدول عن طريقة لإصلاح الواقع الذي تحدثت عنه

وأعتقد أننا لن نتعب طويلاً في هذا البحث. فالطريقة التي نطلبها متبعة فعلاً في إنجلترا زعيمة الأمم الديمقراطية

ففي إنجلترا الآن قربوا الفارق بين الغني والفقير، حتى أصبحا متساويين تقريباً. وذلك عن طريق فرض ضرائب مرتفعة على الأغنياء بلغت في بعض الأحيان 90 %؛ فالغني الذي يصل دخله اليومي إلى مائة جنيه (مثلاً) أصبح لا يملك من هذا المبلغ إلا جنيهاً واحداً يصل به إلى مرتبة الرجل العادي

قد يقول الأستاذ العقاد أن هذا ظرف استثنائي فرضته الحرب، وأن هذه الضرائب تستغل في تشغيل العاطلين - وهي أهم الطرق للقضاء على الفقر - ولكن تشغيلهم في المصانع الحربية، وهذا مالا يرضى به العقاد

ولكن لماذا لا يظل هذا النظام ثابتاً حتى بعد انتهاء الحرب؟ ولماذا لا تستغل هذه الضرائب في سبل أخرى غير إذكاء نار المذبحة الكبرى؟ لماذا لا تستغل في فتح

الطرق وإنشاء مصانع سلمية ورفع أجور العمال. . . الخ. من الوسائل الكثيرة التي فكروا فيها قبل الحرب وكان ينقصهم المال لتنفيذها؟
إذاً فهناك طريقة ديمقراطية للقضاء على الفارق الاقتصادي بين الطبقات، أو على الأقل لتخفيفه، وهي طريقة ترضي الأستاذ العقاد، لأنها لا تتصل بالنازية أو الشيوعية، لأنها
ديمقراطية، والديمقراطية لا تقيد حرية الفرد التي يدافع عنها أستاذي الكبير
فإذا وصلنا إلى هذا الحد واتفق رأيانا عند هذه النقطة. فلا داعي للحديث عن الحرية، ومدى ارتباطها بالفقر، وهو الموضوع الذي كان أساساً لهذه المقالات.
إحسان عبد القدوس
العدد 534 - بتاريخ: 27 - 09 - 1943
من وحي الفطر
يا دموع الفقراء. . .
للأستاذ دريني خشبة
وا رحمتاه لكم يا أحب خلق الله إلى الله!
ترى من من أفراد هذا الموكب الزاخر الذي حط عن كتفيه عبء رمضان يذكركم كما تذكركم السماء، ويمد إليكم يده بالقروش الجديدة الحمر قبل أن يمدها إلى أبنائه؟!
لقد عرف الأغنياء الصائمون فرحتهم صبيحة العيد المبارك، فهل عرفتم فرحتكم كما عرفوها. . . أم كنتم تنظرون إليهم ثم تقلبون نظراتكم في السماء. . . ثم تنتثر من عيونكم تلك الدموع التي لها حسابها عند الله
ألا ليت الأغنياء رحموكم إذ لم يذكروكم فلم يتيهوا بينكم بهذه الثياب التي لا يمكن أن تشتري إلا بأرباح الحرب، وما صنعته الحرب في خزائن الأغنياء من أعاجيب
عندي لكم رأي يا أحب الناس إلى. . .
كفكفوا هذه الدموع ولا تذروها في تلك المناسبة
من السهل أن نكون جميعاً نساكاً في مأساة عيدينا هذا العام. . .
وأول واجبات الناسك ألا يغبط ذليلاً بعيش أبداً
ومن واجباته كذلك أن يجعل نسكه فلسفة، فيقول مثلاً: لقد آثرت أن أكون ناسكاً لأنني لا أحتاج إلى شيء ولا أفتقر إلى أحد،. . .
إنني أريد أن أفرغ إلى الله ربي، وزخرف الحياة يشغلني عن الله ربي، فليست بي حاجة إلى هذا الزخرف الباطل الذي يصرفني عن تأملاتي!
ليس في هذا الذي أقول نسيان لنصيبي من هذه الدنيا، فحسبي أن يكون هذا النصيب جرعة من ماء وكسرةً من خبز الشعير وحبةً من ثاني الأبيضين الذي يسمونه الملح
ومن واجبات الناسك أن يكون سعيداً بأسماله البالية فلا يتبرم ولا يتسخط ولا يتهم السماء، حتى حينما يرى الأغنياء الذين لا يبالون هذه الأزمة الطاحنة، فهم يزهون في أثمن الثياب وأغلى الأفواف. . . إن من واجبه في تلك الحال أن يبتسم ابتسامته التقليدية الخالدة. . . ابتسامته الساخرة التي تستهزئ بالذهب وتستهزئ بالفضة وتستهزئ بالحرير المفتل. . .
الابتسامة العامرة العليمة التي تعرف إلى أين ينتهي هذا الذهب وماذا هي عاقبة الفضة والحرير المفتل. . . وعاقبة الدور والقصور، وحياة اللهو ومتاع الغرور
لنكن نساكاً وفلاسفة من هذا الطراز يا رفاق!
فإذا صدمتنا الحقيقة، وأعاد إلينا الواقع صوابنا، وذلك حينما يفاجئنا أطفالنا بمطاليبهم من لعب العيد وطرفه، فلنكن نحن لعبهم
لندعهم يصارعونا ويلاكمونا ويشدوا أذقاننا وأكمامنا. ماذا نخشى على هذه الأكمام يا رفاق؟ أليست كلها مزقا وأسمالا؟ إنهم مهما صنعوا فلن يزيدوها تمزيقاً، لأنهم ليسوا أقوى من الحرب ولا أفتك من الغلاء، ولا أطول باعاً من السنوات الأربع التي تصرمت في هذه الشدة، والتي لم تبق من أسمالنا لأولادنا شيئاً يمزقونه. . . ولا شيئاً يرتدونه، حين تكل حياتنا فيه، ولا ندري ماذا نلبس منه وماذا ندع!!
لنكن لعب أطفالنا في هذا العيد. . .
ليركبونا إذا كان لا بد لهم أن يركبوا شيئاً يعوضهم من عربات العيد التي ستكون وقفاً على أطفال الأغنياء، والذين فازوا بأرباح الحرب ومن إليهم من مختزني الشاي

والمسامير وأمواس الحلاقة والزيت (الفرنساوي!)
إن من واجب النساك أن يكونوا مطايا لأبنائهم ليحملوهم بعيداً عن موكب أبناء الأغنياء فيستريحوا من المقارنات والموازنات. . . ولا يقول قائلهم معترضاً على أبيه وعلى الله وعلى الناس. . . لماذا يا ترى يبخل علي أبي فلا يشتري لي مثل هذه الصفراء أو تلك الحمراء مما يرتدي هؤلاء الأبناء؟
وقد علمنا رمضان القناعة أيها الرفاق، وإن يكن قد أصاب الأغنياء ومن فازوا بأرباح الحرب بألوان من التخمة، وصنوف من البطنة، نسأل الله أن يعيا بمعالجتها نطس الأطباء. . .
فبحسبنا أن نقدم لأطفالنا أكلتين مكان ثلاث أكلات و (تعصيرتين) يحظى بها أبناء الأغنياء. . . فإذا شكا أطفالنا مسغبة فذكروهم بما كان في رمضان القريب من حال الفطور والسحور
رضي الله عنك يا ابن عفان، ما كان أقوى إيمانك بالله يوم نزلة للفقراء المؤمنين عن عيرك كلها من دون التجار. . . لأنك آثرت البيع لله، ليربحه، ويربيه عشرة أضعاف ومائة ضعف. . . إلى سبعمائة ضعف. . . ألا يذكرك أغنيائنا فيجعل الزكاة فطرهم والزكاة مالهم ضعفين أو ثلاثة أضعاف، في زمن زاد فيه ثمن الحياة خمسة أضعاف وعشرة أضعاف؟
أيها الرفاق الفقراء!
لموا شملكم، وأجمعوا قلوبكم، وارفعوها إلى السماء. . . إلى الله بارئكم. . . صلاة شاكية باكية. . . فيها الحزن الذي يشوبه الرضا، وفيها الأنين الذي يخالطه الإيمان. . . عسى ربكم أن يفرج كربكم ويصلح بالكم.
دريني خشبة
فوق جبل البارود
للدكتور زكي مبارك
طاف الشاعر بالشواطئ طوافاً طال حتى بلغ سبع ساعات، وكانت غايته من طول الطواف أن يرى جنية تفوق صاحبة الميعاد، ليستطيع التمرد عليها إن فكرت في التمرد عليه، ولكنه لم ير في الشواطئ ما يصيبه أو ينسيه، فقد كانت الجنية أقوى روح تخطرت فوق تلك الرمال
أيان يذهب الشاعر لو نفرت منه الجنية؟
لقد سحرته سحراً لا نجاة منه ولا خلاص، وصيرت السجن أحب إليه من الحرية، وفرضت عليه أن يفرح بنعمة الشقاء
أنه يذرع الشواطئ من الجنوب إلى الشمال، ومن الشمال إلى الجنوب، فلا يرى من ذلك الملك العريض، ملك الحسن الوهاج، غير ألماح مقبوسة من نيران الجنية، والجنيات خلقن من النار لا من الماء
سبع ساعات والشاعر في حيرة من أمره، في حيرة من بخل الطبيعة بأن تجود عليه بما يصيبه أو يسليه ليتمرد على الجنية لحظة من زمان
وكان الميعاد عند الغروب، في اللمحة التي تخلع فيها الشمس أثوابها الفضية لتستحم في البحر وتنام إلى الصباح
- ألا تخاف على الشمس من هذه العاقبة؟
- أية عاقبة يا محبوبتي؟
- عاقبة اغتراق الجمر في الماء
- لو كان الماء يطفئ الجمر في كل وقت لأطفأت دموعي نار قلبي
- ولك دموع وأنت أقسى من الجلمود؟
ومضينا فخلونا بمكان لا يهتدي إليه رقيب ولا عذول، وكانت الخلوة مزعجة إلى أبعد الحدود، فقد كان الغرض أن أستطيع حصر نار الجنية في مكان، وأن تستطيع الجنية حصر قلبي في مكان
- اجلس هنا لأجلس هناك
- جلست هنا فاجلسي هناك
- ولا تمد يدك ولا بصرك
- أنا أملك كف يدي ولا أملك غض بصري

- وكيف رضيت بهذه الخلوة يا شقية؟
- أردت أن أمتحن قدرتي على مقاومة الساحرين من أمثالك، فامتحن قدرتك على مقاومة الساحرات من مثيلاتي
ثم أسلمت الساحرة جفنيها إلى نوم عميق
كان قلب الجنية بكراً قبل أن أراها وتراني، فليس لها في الحب تاريخ، ولم يجر اسمها على ألسنة الماجنين، ولا أقلام العابثين، وإنما استهواها قلمي وشعري فأرادت أن ترى كيف يعيش الكتاب والشعراء
لابد مما ليس منه بد
لابد من احترام رغبة الجنية، وهي قد ألحت في أن (أقسم بشرف الحب لتنامن في أمان)
قال الشاعر: ونظرت فرأيتني مقهوراً على امتشاق القلم لأسجل ظاهرة روحية لم يعرفها من قبل أحد من المحبين
كنت ألتهمها بعيني والقلم في يدي، وكان نومها شبيهاً بنوم الفتنة، ونوم الفتنة مقدمة الهبوب
نامت الفتنة واستيقظ ضميري، فهممت بإلقائها من الشباك ولكن هذه الفتنة ستتعرض لمأثم إن رفعت عنها حمايتي في مثل هذا الليل
آه ثم آه!
أنا في هذه اللحظة أقيم فوق جبل من البارود، وشرارة واحدة تكفي لتحويلي إلى رماد تذروه الرياح، وأنا أبغض الفناء
واستيقظت الفتنة فرأتني في سياحة فارسها القلم وميدانها القرطاس
- ماذا تصنع؟
- أسجل خواطر وكلمات
- وماذا سجلت؟
- سجلت ما نصه بالحرف:
(هي لحظة جمعت أطراف النعيم في جميع الأقطار وفي جميع الأزمان، فما كان لها مثيل في تصوير عشاق النعيم في زمان أو مكان، لأنها فوق ما يجوز بخواطر أهل الخيال من طلاب المحال. . . هي لحظة فيما تعرف التعابير الدنيوية، ولكنها فيما تعرف الأرواح آباد أطول من عمر الخلود. . . هي لحظة لا يبالي من يعيشها معنى الحياة والموت، لأنه اجتاز بها آفاقاً لا يجتازها غير من تسامت قدرته على ضجيج الحياة وسكون الموت. . . في تلك اللحظة طاف القلب وطاف الروح بمعالم ومجاهل لا يدرك العقل منها غير أطياف. . . هي لحظة ولكنها العصارة الدامية من قلب الوجود، وأنا عشت تلك اللحظة فلتفعل الدنيا ما تشاء، وما الذي أبقيته للدنيا حتى تنتزعه من يدي؟ أنا نهبت من الدنيا جميع ما تملك، فلتقابلني إن استطاعت في ساحة القضاء)
قالت الجنية: أهذا هو المحصول لمثل هذه المغامرة العاتية؟
قلت: هذا ما يملك قلم يقيم صاحبه فوق جبل من البارود!
- ولكني لم أر جديداً في كلامك
- كيف وهو كلام لم يقله أحد من قبل؟
- أنت قلت مثله مرات ومرات، فكان مبتكراً أول مرة، ثم صار من المبتذلات
- وإذن؟
- وإذن تقول كلاماً غير هذا الكلام لأرضى عنك ونامت الجنية من جديد ولم تترك لي سميراً غير قلمي، فماذا أصنع؟
الخطر كل الخطر في عشق الموحيات من المليحات. هن يتوهمن أن العشق وسيلة لا غاية، ويرين أن ثمرة الحب ليست طفلاً يولد على نحو ما تكون ثمرات الحب في عالم الحيوان، وإنما الثمرة لمثل الحب الذي تسامينا إليه أن ينتج مواليد من كرائم المعاني، مواليد لا تتعرض للمرض ولا للموت
وكتبت وجه الجنية بصري إلى صوبت:
(لقد آذاني الحسن المجلوب بالطلاء، وهو حسن للموت فيه حيوية اللون، فغمرت محبوبتي في أثباج البحر لأرى قيمة ما تملك من جوهر الحسن الصحيح، والجمال

عندي يوزن بحيوية اللون، وهي حيوية تتموج فوق الصدر والخد والجبين، وقد تتموج فوق اليدين
بأسلوب لا يدرك مراميه غير فلاسفة الجمال. إن اللون قد يحتفظ بالصورة، ولكنه لا يحتفظ بالحيوية إلا أن سقاه ماء الشباب. وحيوية اللون هي سر السحر في العيون الزرق والخضر والسود، وهي أيضاً السبب في أن يكون بعض السمر أجمل من بعض البيض، لأن الأمر كله لحيوية اللون، والقول بأن البياض نصف الحسن قول عليل، فلا (قيمة لنوع اللون وإنما القيمة لحيوية اللون
ثم صوبت بصري مرة ثانية إلى وجه الجنية وقد هممت بأشياء، فهبت مذعورة وهي تقول:
- ماذا تريد؟
- أريد أن أقرأ عليك هذه الكلمات
فرحت الجنية بما سمعت، ثم استسلمت إلى الهجود، وتركتني وحدي
أنا أقيم فوق جبل من البارود، وشرارة واحدة تكفي لتحويلي إلى رماد تذروه الرياح
- أيتها الجنية، إسمعي!
- لن أسمع، وإن كنت سمعت
- وما نومك هذه الليلة تحت بصري؟
- لأعرف ما عندك من المعاني، فاكتب كلاماً يرضيني ثم هجعت الجنية في غيبوبة أبلغ من يقظة القلب الخفاق، ونهضت قبل الشروق، لتبلغ مأمنها قبل الشروق، بعد أن عرفت أن الإسكندرية لا تقل روحانية عن القاهرة، والمنصورة وأسيوط
لم تكن ليلتنا مما ينتظر في دنيا الحقائق أو دنيا الأباطيل، ولا جاز في أوهامها أو أحلامي أن تجري بيننا شؤون يفضحها نهار أو يسترها ليل، فقد شقيت بالجنية ما شقيت، ويئست منها ما يئست، ولم يبق لي أمل يفوق السماح بأن أعيش في عذاب. . وفي الحب سجون لا تدخل بدون استئذان!.
كيف ظفرت بالجنية؟
. . .أكان من هواها أن تزور المكان الذي نظمت فيه قصيدة
أي قصيدة؟ وهل نظمت بيتاً غاب عنه وحيها الجميل؟
إن حياتي في جميع مناحيها الروحية لا تعرف غير تلك الجنية، وأنا لا أرى الدنيا ولا أحبها إلا حين أتمثل روحها الشفاف وهو يناجيني برفق، أو يلاحيني بعنف، ونحن نذرع أودية الخيال
مضيت يوماً لرؤية النيل عند الطغيان ومعي صديق متبرم بمصر والمصريين، فقلت:
- هل تعرف يا صديقي كيف أرى مصر؟
- كيف تراها؟
- أراها في وجه الجنية التي نشأت فوق ضفاف النيل، ولولا الخوف من أن تتهمني بالجنون لقبلت كل وجه وكل شجرة وكل جدار بهذه البلاد
من أجل من؟
من أجل الجنية، فهي وحدها الدليل على أن مصر وطن الجمال
- الآن عرفت
- وماذا عرفت يا جهول؟
- عرفت كيف نجوت من التبرم بمصر والمصريين
- مصر وطن الجنية، والمصريون أعمامها وأخوالها، فأنا لها ولهم أوفى الأوفياء
- وما نصيبك من الجنية؟
- نصيبي أن تكون لي وحدي، وهي لي وحدي
- وهل تكون أجمل من الشمس؟
- جمال الشمس جمال مبذول، فليس له سحر ولا فتون أما جمال الجنية فهو جمال الزهرة المشرقة في ضمير البيداء، ولن تكون لغير من يدرك سرها الغريب
- وكيف اهتديت إلى هذا الجمال المجهول؟
- لقد اهتدى إلي قبل أن أهتدي إليه؟
- وكيف؟
- صنع معي بما تصنع السرحة لاجتذاب البلبل، فأورق وأزهر ليطيب فوق غنائي، فأنا

أبدعت ذلك الجمال
وهو أبدع شعرك -
وصيرني من أقطاب الوطنية، فما يحب الرجل وطنه إلا إن كان له فيه هوى وميعاد -
مضت أعوام وأعوام ولا أرى شمس مصر عند الشروق، وقد رأيتها عند توديع الجنية
ورأيت معها النخلات المتشوقة لنور الصباح
مضى الزمن الذي كان أبي يوقظني فيه لصلاة الصبح قبل طلوع الشمس
فهل نعرف كيف قضت الشريعة بصلاة الصبح قبل طلوع الشمس؟
شباب النهار في الشروق، وشباب الروح في الشروق، فاحذروا نومة الصبح، لأنها لا
تليق لغير النساء
لو رجعت الجنية لحدثتها بما نقلت عنها وهي تغرب عني مع الشروق، كما يذهب الحلم
الجميل مع الشروق
علمتني الجنية ما لم أكن أعلم، علمتني أن الحب جهاد، وأن الله لا يخذل المجاهدين
هل رأيت الجنية في داري بالإسكندرية؟ هل رأيتها هنالك؟ وهل كان هذا التناجي من
الحقائق لا من الأباطيل؟
قلبي يقول إني رأيتها وأنا لا أكذب قلبي، فإن لم أكن رأيتها فما هذا الذي أعاني من
لجاجة الواشين والرقباء؟
لم يروني معها جنباً إلى جنب، أو قلباً إلى قلب، وإنما رأوا بشاشة روحي وأنا عائد من
الإسكندرية فقدروا أني احترقت في كوثر الوصال
وروائح النعيم في أعطافي، ونيران الوجد في أحشائي، فأنا رأيت الجنية هناك، ثم
رأيتها هناك
رأيتها رأيتها، وشربت على وجهها كأس الصفاء، فليفرح روحي بما يزخرف خيالي، ولو
صرحت لتعرضت للشرارة التي تنسف جبل البارود
أنا ما رأيت الجنية ولا رأتني، وما كان حديثي عنها إلا ضرباً من تزاوير الخيال، فليطمئن
عذالي ورقبائي، وليعرفوا أن حديث الجنية بعض الذي زورت من الأحاديث
أنا قضيت ليلة مع الجنية بعد ليالٍ وليال، وهذا عطرها في قلبي، وهذا سحرها في
قلمي، فليصاولني سكان وادي عبقر، إن كانوا يطيقون
أتغضب يا ربي لأن أقول هذا القول؟ أنا أحكم بما أرى، وأنت لعدلك لا تطالبني بأن
أحكم بغير ما أرى، وهذه الجنية هي آيتك عندي على التفرد بالجمال
وفي سحرها قبس من سحرك، وبجمالها أتعرف إليك، فاجعل حبي لها كفارة عما
ساورني من العقوق
هي جبين الشمس، وأنت فاطر الشمس، فليكن حبي لها وثنائي عليها فنا من الحب
لك والثناء عليك.
زكي مبارك
حكاية الوفد الكسروي - 3
لأستاذ جليل
1 - قول منشئ الخبر حاجب بن زرارة التميمي هذا القول: (. . . إن العرب أمة قد
غلظت أكبادها، واستحصدت مرتها نحن وفودها إليك، وألسنتها لديك. . .)
وقد عني الصباغ بالأمة مصطلح وقته، وما نذهنه نحن في هذا العصر، ولم يقل عربي
جاهلي في زمن: نحن أمة. وإنما يعرف العربي عشيرته أو قبيلته أو ربعه أو حيه أو
مدينته أو يمنيته أو تهاميته أو ما ضارع ذلك. وإن كان في لغته من معاني الأمة
(الجماعة)، فلم يقلها كما لم يقل نحن جماعة العرب قاصداً جميع العرب وأحياءهم
وقبائلهم كافة. وما جاءت العرب أمة إلا من بعد أن ألفها (مؤلفها) وقرأت (سفر
التكوين. . .)
ويعز على العربي الصحيح أن يرى العرب قد ناكروا التأليف الدهر الأطول، وقرءوا
(الكتاب) ولم يعقلوه، ولو عقلوا لكانوا أمة أي أمة، ولعربت الدنيا وأحال أهلها
يا هؤلاء، سيروا في قومكم سيرة عمرية، وخلصوهم من البؤس والجهل والأمية،
وعلموا العربية، وعلموا القرآن، علموا القرآن تقبل إليكم وحدة عجيبة عربية
ابن على الصخر (لا كالبناء على الآجر والطين)
وللأمة في (كتاب) معان جمة، أكثرها الجماعة والدين أو الملة. قال تعالى (والأمة هنا

(هي الجماعة:
كنتم خير أُمة أُخرجت للناس، تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله.)
(ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم، منهم المؤمنون، وأكثرهم الفاسقون
فالأمة في الآية الكريمة (هم الذين هاجروا مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من مكة إلى المدينة، وخاصة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم) كما جاء في (جامع البيان) للطبري
والمهاجرون عرب وغير عرب كما هو معلوم، وقد كان فيهم سالم بن معقل الأصطخري ولو لم يستشهد في قتال عرب مرتدين لكان الخليفة الثالث. وسالم هذا مهاجر، وبدري، وأنصاري بالولاء، وشهيد (الله أكبر، الله أكبر!)، وكان يؤم في الطريق من هاجر معه من مكة، وفيهم عمر بن الخطاب (رضوان الله عليه)
فالآية لا تعني العرب إذ لم يكونوا عند نزولها قد أسلموا فضلاً عن أن يأمروا بمعروف وينهوا عن منكر، وقد ارتد جلهم حين أظلمت الدنيا بفقد رسول الله، وكادت مكة ترتد مع المرتدين؛ لكن أين المفر من الهدى والخير، وهناك (خير أمة أخرجت للناس) وفيها أبو بكر، فيها أبو بكر. وكان معد يكرب أحد رجال الوفد. . . ممن ارتد
ومن معاني الأمة (القرن) قال تعالى:
(وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيداً)
ومن معانيها الدين في قول النابغة:
حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ... وهل يأثمن ذو أمة وهو طائع
ومثل ذلك قول غيره:
وهل يستوي ذو أمة وكفور
والأمة هي النعمة في قول الأعشى ميمون بن قيس:
وللموت خير لمن ناله ... إذا المرء أمته لم تدم
2 - يقول النعمان لكسرى:
إن الله تعالى أعطاهم في أشعارهم ورونق كلامهم وحسنه ووزنه وقوافيه مع) معرفتهم بالأشياء وضربهم للأمثال وإبلاغهم في الصفات ما ليس لشيء من ألسنة (الأجناس
ذكر وزن الشعر ولم يبق إلا أن يذكر بحوره
الوزن لفظة محدثة وضعها الخليل فيما وضع لفن العروض، ولو سمع جاهلي: وزن الشعر لدهش وبهت. وقد جال الجوهري في أحياء العرب فلم يسمع هذا المصطلح. ولا يفهم العربي في الجاهلية من الوزن إلا الثقل والخفة في حقيقة أو مجاز، كقولهم: كلام موزون، وهو وزين الرأي أي رزينه كما في الأساس. وفي اللسان: هذا القول أوزن من هذا أي أقوى وأمكن. وفي جمهرة اللغة لابن دريد: الوزن أصله مثقال كل شيء وزنه، ثم كثر في كلامهم حتى قالوا فلان راجح الوزن إذا نسبوه إلى رجاحة الرأي وشدة العقل
وأما قول اللسان: وأوزان العرب ما بنت عليه أشعارها واحدها وزن ومثله قول التاج، وزاد هذا (وهو مجاز). فالكلام في المعجمين تفسير لما اصطلح عليه الخليل لا شرح لفظ ورد عن العرب في جاهليتها. ولا ريب في أن نابغة العرب لم يستعمل (الوزن) إلا مجازاً
والقافية من مصطلحات الخليل وإن وردت من قبل، ومعناها في أقوالهم هو غير ما أراده الصائغ وقوله النعمان. وقد اختلفوا في حدها (أعني القافية) على اثني عشر قولا. . .
ومن بديع ما يروى أن علم القافية (واضعه امرؤ القيس ابن ربيعة المعروف بالمهلهل خال امرئ القيس بن حجر الكندي) واللاغي بهذا القول قد سلب الخليل بن أحمد الفراهيدي حقه سلباً عجبا، وظلم عبقريته ظلما عبقرياً
واضع علم العروض والقوافي في العربية هو الخليل، ولن يضع من قدره شيئاً أنه علم أن عند الإغريق عروضاً، أو حدثه بذلك عالم باليونانية، أو أطلعه على باب من هذا الفن عند القوم. ففي (الغيث المسجم في شرح لامية العجم) للعلامة صلاح الدين الصفدي:
وذكر لي العلامة شمس الدين محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري أن الشعر) اليوناني له وزن مخصوص، ولليونان عروض لبحور الشعر. والتفاعيل عندهم تسمى

الأيدي والأرجل. قال: ولا يبعد أن يكون وصل إلى الخليل بن أحمد شيء من ذلك، فأعانه على إبراز العروض)

إن فضل الخليل في إبداعه عظيم - وإن صح ما ذكر ابن ساعد - ولن يصغره أقل تصغير منبه حقير نبهه فتفطن لما تفطن له، وأغرب ذلك الأغراب، وخاض في تلك البحور. . .

وقل في (علم العربية) ما قيل في غيره، فلن يضع من قدر الناحين الأولين أنهم علموا أن عند السريان واليونان قواعد للغاتهم، فنحوا في ترتيب قواعدنا نحوهم وإذا عرفنا واضع علم فن العروض، فإنا من واضعي النحو في لبس كبير. وأما قول ابن أبي الحديد في شرح النهج أن أحد كبار الصحابة (رضى الله عنهم أجمعين): (هو الذي ابتدعه وأنشأه وأملى على أبي الأسود الدؤلي جوامعه وأصوله، من جملتها: الكلام ثلاثة أشياء: اسم، وفعل، وحرف، ومن جملتها تقسيم الكلمة إلى معرفة ونكرة، وتقسيم وجوه الإعراب إلى الرفع والنصب والجر والجزم. وهذا يلحق بالمعجزات؛ لأن القوة البشرية لا تفي بهذا الحصر ولا تنهض بهذا الاستنباط)

قول ابن أبي الحديد هذا هو أملوحة من الأماليح، وأبو الحسنين (رضوان الله عليه وعلى ابنيه) كان معلم بطولة وأخلاق، وكان بانياً من بناة هذه الأمة، ولم يكن أستاذاً من أساتذة النحو. . .

أورد ابن النديم في (الفهرست) هذا الخبر بعد أن روى تلك الأسطورة المشهورة، وقد يكشف شيئاً من اللبس بعض الكشف:

وقال آخرون: رسم النحو نصر بن عاصم الدؤلي. ويقال: الليثي، قرأت بخط أبي عبد الله بن مقلة عن ثعلب أنه قال: روى ابن لهيعة عن أبي النضر قال: كان عبد الرحمن بن هرمز أول من وضع العربية، وكان أعلم الناس بأنساب قريش وأخبارها وأحد القراء)

نروي هذا الخبر إلى أن يتبين للباحثين الحق

ذكرني هذا البحث في العروض والنحو بمناظرة كانت بين العلامة الأستاذ الدكتور (بديع الزمان) وبين الأستاذ (أزهري المنصورة) في ذينك الفنين ووقت كونهما حيث تجادل بالأمس صاحب العزة العلامة الأستاذ الدكتور طه حسين بك وسيادة العلامة الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني (أعز الله دولة الأدب العربي بطول بقائهما) وقد أحببت أن أروي هنا آخر مقالة في تلك المناظرة، ولكن (الرسالة) تأبى إلا الغض الجديد، فأكتفي برواية المقدمة نموذجاً من العبارات الشديدات في المناظرات، وهي أقسى ما واجه به الأستاذ (أزهري المنصورة) خصمه العلامة الأستاذ الدكتور بديع الزمان قال ذلك (الأزهري):

جاء في تاريخ ابن الوردي

عزم قاضي الموصل أن يقول للسلطان في إخراج (قضيب البان) الوالي المشهور من الموصل في سره، قال القاضي: فرأيت قضيب البان مقبلا على هيئته المعروفة، فمشى خطوة فإذا هو على هيئة (كردي)، ثم مشى خطوة فإذا هو على هيئة (بدوي)، ثم مشى خطوة فإذا هو على هيئة (فقيه) بصورة غير الصورة المتقدمة، وقال لي: يا قاضي، هذه أربع صور رأيتهن، فمن هو قضيب البان منهن حتى تقول للسلطان في إخراجه؟ فلم أتمالك أن أكببت على يديه أقبلهما وأستغفر الله (. . .

الشاهد في هذه الحكاية أن الأستاذ (بديع الزمان) قد شاكل ولي الله (قضيب البان) فهو يبدو لنا مرة باريسياً، ويتجلى حيناً أزهرياً، وتراه في وقت عربياً، وتلقاه تارة باحثاً غربياً، وكأنه ما تسمى (بديع الزمان) إلا لكي يأتينا من بدائعه - ليبهرنا - بأشكال وألوان وقلما أبصرت عيناك من رجل ... إلا ومعناه إن فتشت في لقبه

فهو في الإعراب مع المعربين، وهو في اللحن مع اللاحنات، وهو في مبحث عند العربيات، وهو في حديث حدث غربيات - فقلبه وثاب. . . - وهيهات أن تخلص منه، لا علينا ولا لنا، هيهات

إن في (المنصورة) اليوم (لكريماً)، وإن في (المنصورة) اليوم (لكرماً) (ن)

نشأة المأساة الإنجليزية - 4
للأستاذ دريني خشبة

المأساة الإنجليزية كالمأساة اليونانية والمأساة اللاتينية هي أرقى ألوان الأدب الإنجليزي، وقد اعتمدت في نشأتها الأولى على مصدرين عظيمين، أولهما أهلي - أو إن شئت فقومي - والآخر خارجي. أما الأهلي فهو هذا الثبت التاريخي الحافل المسمى (المرآة لأولي الأمر) الذي بدأه توماس ساكفيل (أو لورد بكهرست 1532 - 1584) سنة 1557 وتوخى فيه سرد مآسي عظماء الإنجليز منذ الفتح النورماندي حتى نهاية القرن الرابع عشر. وقد قلد المؤلف ما جاء في أساطير اليونان من زيارة أحد أبطالها للدار الآخرة - أوهيدز - وذلك كما في أسطورة أرفيوس الموسيقي وأسطورة هرقل، وما جاء في إنيادة فرجيل ورؤيا دانتي حينما قاده دليله (سوء الطالع) إلى الجحيم ليجوب دركاتها دركة بعد دركة، وليسائل ثمة الذين كتب عليهم أن يكون مأواهم النار بعد الذي قدموا في دار الفناء من خير وشر. فهم يقصون عليه الويلات التي سودت صحائف حياتهم الدنيا، ويحدثونه أحاديث المصائب التي انصبت على رؤوسهم فيها. ولم يكتب ساكفيل غير مقدمة هذا السفر العظيم، وهي مقدمة سياسية رائعة، ثم كتب من مجموعة الأساطير الكبيرة التي بلغ عددها ثمانياً وعشرين، الأسطورة الأولى. . . أما الذي قام بهذا العمل الجليل فهو أديب يدعى ريتشارد بولدوين بمساعدة طائفة من الأدباء الآخرين عنوا عناية فائقة بمآسي عظماء حروب الوردتين. والظريف أن هذا الأثر الأدبي الخالد هو نفسه الذي أوحى - بعد تمامه - إلى ساكفيل والى زميله توماس نورتون موضوع أول مأساة تمثيلية إنجليزية بحتة، هي تمثيلة جوربودك أو فركس وبوركس. وجور بودك هذا هو أحد ملوك بريطانيا العظمى، وفيدنا هي زوجته، أما فركس وبوركس فهما ولداه اللذان قسم بينهما ملكه، فما لبثا أن تنازعا وقتل أحدهما (بوركس) الآخر، فتثور الملكة، وتقسم لتنتقمن لولدها من أخيه، وتنتهز لذلك فرصة سنحت لها إذ رأته نائماً يغط في سبات عميق، فتستل خنجرها وتغمده في صدره. . . ويثور ثائر الشعب حنقاً على الملك (جوربودك) وعلى الملكة فيقتلهما على السواء فهذه هي المأساة الإنجليزية الأولى، وقد نظمها مؤلفها في شعر رصين وعبارات مشرقة

قوية، وصباها في قالب أخاذ، كما يمتدحها الناقد الإنجليزي العظيم الشاب السير فيليب سدني في كتابه (الاعتذار عن الشعر)، وإن يكن رجال لمسرح الحديث لا يجعلون لها تلك القيمة التي أسبغها عليها هو. والمأساة موضوعة على نمط المآسي الإغريقية تقريباً، وهو هذا النمط الفذ الذي لا تبدو فيه أشخاص المأساة، وإنما تأتي بأخبارهم رسل يروون الوقائع واحدة بعد أخرى، فهي أشبه بتمثيلية قصصية يسردها علينا رسلها الأربعة - بعد شخصيات المأساة، كما كان الشاعر في المأساة اليونانية - ولا سيما قبل سوفوكلي - هو الذي يؤدي أدوار شخصياته كلها بمعاونة الخورس في الإنشاد فقط، أو في حكاية بعض الحوادث التي تمهد لما بعدها من وقائع الرواية وهكذا كانت المآسي التاريخية التي حفلت بها تلك (المرآة) مصدراً هاماً للشعراء الذين ألفوا للمسرح في نصف القرن السادس عشر الأخير على العموم، وفي ربعه الأخير خاصة

وقد كان المسرح الفرنسي نبراساً يضيء على البعد للمسرح الإنجليزي في هذا المضمار، لكن المسرح الإنجليزي مع ذاك احتفظ بالطابع الذي يميزه ويبقى له استقلاله، ذلك أنه آثر كمال الوحدة للمأساة، واتساق الحوادث التاريخية وترابطها، دون أن يأبه بما كان هم المسرح الفرنسي أن يأبه له، ألا وهو ذلك النقد اللاذع، والسخرية الحادة، والمظهر العام الذي ينبغي أن يكون براقا خلابا. هذا، وقد ظهرت درامات تاريخية أخرى كانت مادة خصبة فيما بعد، أمدت شكسبير بموضوعات شائقة لكثير من مآسيه؛ فمن ذلك درامة (عهد الملك جون المضطرب) التي اقتبس منها شكسبير مأساته (الملك جون)، كما اقتبس مأساته (الملك لير) عن درامة مماثلة اسمها (التاريخ الحقيقي للملك لير وبناته الثلاث: جونرل وراجان وكورديلا). وقد وجد الشعراء الإنجليز غير شكسبير مدداً لا ينتهي في تاريخ ملوكهم، فاتخذوا منه موضوعات لمآسيهم الجميلة المشجية. فهذا بيل يؤلف في حياة إدورد الأول؛ وذلك مارلو ينفح المسرح بمآسيه عن إدورد الثاني وإدورد الثالث؛ وذاك شكسبير يسلم

للخلود مآسيه عن رتشارد الثاني ولير وهنري الرابع وهنري الخامس وهنري السادس. . . الخ. ولم يقتصر الشعراء على مآسي الملوك، بل اتخذوا من الأحداث التاريخية نفسها التي وقعت في عصور هؤلاء الملوك موضوعات لطائفة طيبة من أروع مآسيهم كما صنع توماس هيوود في مأساته (إن لم تعرفني فأنت لم تعرف أحداً) التي اتخذ
موضوعها من حوادث عصري ماري تيودور وإليزابث. على أن نوعاً جديداً من المأساة الإنجليزية الأهلية ابتدع الشاعر توماس كيد في أواخر القرن السادس عشر وأطلق عليه المسرحيون (مأساة الدم) لكثرة ما يتخلل فصولها من الذعر والقتل والفتك والبكاء والجنون والانتحار، وما إلى ذلك من ألوان الفزع. وتوماس كيد متأثر في هذا اللون الذي ابتدعه في المأساة الإنجليزية بشاعر الرومان وفيلسوفهم الأشهر سنكا. وليس يعرف المؤرخون كثيراً من حياة كيد. وهم مختلفون في تاريخ ميلاده وفي تاريخ وفاته، وإن اتفقوا أنه قضى حياته كلها في النصف الثاني من القرن السادس عشر. ويقولون إنه شدا شيئاً من العلم في مدرسة (مرشانت تايلور) وإنه كان ثمة زميلا للشاعر الكبير سبنسر. على أن الذي لا مراء فيه هو أنه مؤلف المأساة المشهورة (المأساة الأسبانية)، أو (هيرونيمو مجنون ثانية) التي يقال إنها جزء ثان لجزء أول من مأساة مفقودة اسمها (هيرونيمو - أو جيرونيمو) والمأساة تبدأ بحوار بين شبح دون أندريا وبين وكيله إلى العالم الآخر، واسمه الانتقام وتنتهي بمذبحة عامة بين جميع أبطالها، مذبحة أشنع مما تنتهي به مأساة (هملت) لشكسبير. . ولكن مأساة دموية أخرى تسمى سليمان وبرسيدا لا تقل شناعة وتمزيقاً للأعصاب وتفجيراً للألم عن المأساة السابقة، بل تفوقها إلى الحد الذي لا تحتمله مشاعر القراء ولا تقوى عليه عواطفهم، ولهذا فنحن نضرب صفحاً حتى عن تلخيصها. وقد كتب أديب آخر يدعى هنري شتل مأساة دموية من طراز مآسي كيد اسمها هوفمان فساهم بها مع كيد في التمهيد لظهور المأساة الرومانتيكية (الإبداعية) في إنجلترا، وهي المأساة التي عفت على آثار الدرامات الدينية بنوعيها (الإنجليزية والقديسية) كما عفت على آثار الدرامة الأخلاقية أما الذي أنشأ هذه المأساة الإبداعية إنشاء، وسما بها إلى الذروة من الأدب المسرحي الإنجليزي فهو - خرستوفر مارلو الملقب بأبي المأساة الإنجليزية وصاحب الفضل الأكبر في (تكييف الذوق الإنجليزي العام) وتوجيهه على الوجهة الرومانتيكية الرفيعة التي أزهرت أيما إزهار فيما بعد. ويعود فضله إلى تلك العملية الاختزالية الواسعة التي قام بها في الدرامة المسرحية بوجه عام، فلقد وجد تراثاً مختلطاً من المسرحيات الكلاسيكية المشوهة التي ترتكز على الناحية الاستعراضية وتحفل بها قبل أن ترتكز على الموضوع المتماسك المتسق، والتي تعتمد على زيف المناظر وبهارجها وما يقحم خلالها من مواقف التهريج
المضحك إقحاماً، قبل أن تعتمد على جمال الأداء وتسلسله. فلما أخذ مارلو ينظم أولى دراماته رأى أن يهمل كل هذا الزبد ليذهب جفاء، وأن يقدم للمسرح سبيكة خالصة من كل تلك الشوائب التي وقع فيها أسلافه وأكثر معاصريه، فعمد إلى الشعر المرسل الذي لا يرتبط بقافية فعظم به مآسيه، وأتى فيه بالغرر والدرر، فلم يصدم الذوق العام بكلام لا هو شعر ولا هو نثر، ولم ينفر منه ذلك الذوق العام، بل أقبل عليه وانجذب إليه، وقدره قدره الذي هو له أهل؛ ولم تنفر منه اللغة ولا موسيقى النظم ولا أوزان الشعر، ولم يفر منه الجمهور ولا ثار به الممثلون، بل كانوا جميعاً أصدقاءه المؤتلفين معه، المعجبين به

لقد ترك مارلو للأدب الإنجليزي سبع تمثيليات شهد منها المسرح خمساً بين عامي 1586، 1593، أي في أقل من سبع سنوات. أما أولى دراماته فهي تامبورلين الأكبر (تيمورلنك) وقد صور فيها الفاتح الشرقي صورة شاعرية شائقة إذ جعله بطلاً مثالياً ينشد الجمال المحض، وهو ينشد هذا الجمال خلال مناظر الدم والرعب والتقتيل والفزع، وهو مع ذاك يذوب أسى ويلتهب وجداً حينما يصف مرض زوجته الملكة وشحوبها، ثم احتضارها، وهو يبلغ آية الآيات في السمو حينما ينعى هذه الزوجة (التي تعدل الدنيا بأسرها) إلى صديقه ملك فاس

لقد نظم مارلو درامته بالشعر المرسل، أي غير المقفى، فكانت أول تمثيلية ملكت زمام هذا الشعر للمسرح الإنجليزي. . . والمدهش أن مارلو فاجأ قومه بلون طريف

من ألوان الشعر هو عندهم مدهش اليوم أرقى هذه الألوان وأفتنها وأحبها إلى نفوس الإنجليز. . . وقد أطلق النقاد على شعر مارلو - في عصره بالطبع - لقب البيت العظيم أو ما نسميه نحن تجوزا القريض الفريد. ومع أن مارلو لم يكن يتجاوز الرابعة والعشرين إذ ذاك، فقد نجحت درامته نجاحاً عظماً، بموضوعها وبشعرها المفاجئ المجود، وباستغنائه عن تلك الزوائد المسرحية التي لا تربطها بصلب الرواية صلة وقد تجلت عبقرية مارلو بكل جبروتها في مأساته الخالدة (الدكتور فاوست)، أو كما سماها هو (تاريخ الدكتور فاوست المحزن). ولا شك في أنه ابتدع هذه المأساة بعد قراءته لترجمة مأساة حياة الدكتور جون فاوست عن الألمانية كما ابتدع مأساة تيمورلنك من ترجمة حياته عن الأسبانية بقلم الكاتب الأسباني بدرو مكسيا. وقد قرأ نابغة الألمان العظيم جوته مأساة

مارلو وأعجب بها غاية الإعجاب، وربما كانت هي التي أوحت إليه موضوع آيته العظيمة (فاوست)، بل إننا لنرجح أنه لم يكتبها إلا ليعارض بها مارلو، ففي الأسطورة الألمانية ترى مجرد اللذة، أو دافع السرور هو الذي يجعل فاوست بعد الشيطان بأن يلقي إليه زمامه إذا هو - أي الشيطان - استطاع أن يبعد الأحزان عن قلب فاوست، وأن يبلغه مشتهاه من لذائذ الحياة جميعاً. أما مارلو فقد جعل عقدة الرهان بين فاوست وبين الشيطان في أن يمنحه الشيطان السلطان المطلق والقدرة على كل شيء. . . فإذا أمكنه من هذا فله روحه وله نفسه، وله منه ما يشاء. أما جوته فقد أراد أن يجعل العقدة في هذا الرهان شيئاً آخر غير الذي رما إليه مارلو، وغير الذي رمت إليه الأسطورة الألمانية. لقد جعل عقدة هذا الرهان في أن يمنح الشيطان غريمه العلم المطلق بكل شيء، وفي سبيل هذا العلم أوقعه الشيطان في جميع الكبائر، فشرب الخمر وزنى وسرق ثم قتل. . . ومع ذاك فلم يؤته الشيطان من العلم شيئاً. . . يؤثر أن جوته صاح قائلاً عند فراغه من قراءة فاوست لمارلو: (ألا ما أعظم الفكرة!) وقد شهد سونبرن بما لتلك المأساة من التفرد بين جميع المآسي في جميع العصور؛ مع أن قارئ مارلو في فاوست يشعر في الصفحات الأولى للمأساة بخيبة شديدة، لأنه يجد تفاهة وسطحية تشبهان تفاهة الأطفال وسطحيتهم، ولا يكاد يفهم معنى لكل تلك الكهانات وألوان العرافة السخيفة التي يحشدها مارلو على نطاق واسع في مأساته. . . وسرعان ما يفطن القارئ إلى السبب فيكبر مارلو ويعلم أنه إنما قصد إلى حشد ذلك السخف كله ولم يأت به عبثاً. . . لقد أراد به تصوير سخفنا نحن. . . سخف الإنسانية. . . وإلا فلماذا يرتفع مارلو ارتفاعاً شاهقاً في آخر المأساة، وذلك عندما يصور هلاك فاوست، عندما تقبل عليه الشياطين من كل حدب فتحدق به وتطلب إليه وفاء الرهان

وقد خلت فاوست من العنصر النسائي

ومأساته الثالثة هي (يهودي مالطة) التي عرضها شكسبير بتاجر البندقية ولولا أن مارلو بالغ في تصوير بطله باراباس حتى جعله شخصاً خرافياً لبذ شكسبير في بطله شيلوك الذي لا يجافي الحقيقة في نفسيات المرابين. ومع ذلك فقد فضل سونبرن شخصية باراباس على شيلوك بالرغم من وجود هذا الفارق

أما مأساته الرابعة (إدورد الثاني) فتعتبر أكمل أعماله المسرحية، وإن افتقرت إلى العنصر الفكاهي الذي لابد منه لتخفيف فعل المأساة في نفوس النظارة

وتعتبر مأساته الخامسة (مجزرة باريس) أضعف مآسيه، وهي تصور النضال الهائل بين دوق دي جيز، وبين حزب الهوجونوت

وقد فتح مارلو جنة الشعر المرسل لشكسبير الذي أنبت فيها المعجزات، وقد وجدت في مخلفاته نسخة بخط مارلو لقصيدته الخالدة (هيرو وليانذر) ويؤثر أن شكسبير لم يكن يفضل عليها شيئاً من الشعر جميعاً. وقد نعرض لذلك في مقالاتنا عن الشعر المرسل والشعر الحر قريباً إن شاء الله.

دريني خشبة

مكتبات عربية

في الشرق والغرب

للأستاذ محمد عبد الغني حسن

المكتبة العربية قديمة في تاريخ الأمة العربية، ومتى وجد الكتاب وجدت المكتبة. فالمكتبة مجموعة من الكتب يضم بعضها إلى بعض، ويتكون من مجموعها ما يسمى (بيت الحكمة) في العصر العباسي، و (خزانة الكتب) في العصر الفاطمي، و (دار الكتب) أو (المكتبة) في العصر الحديث.

وفي العصر الأموي نجد ذكراً لخزائن الكتب التي أخرج منها الخليفة عمر بن عبد العزيز كناش هرون. ولعل تلك الخزائن هي النواة الأولى للمكتبة العربية الإسلامية اشتهرت بغداد في عصر نهضتها العلمية بدار كتب عظيمة يعرفها المؤرخون باسم (بيت الحكمة) ويسميها وزير المعارف علي باشا مبارك في كتابه (علم الدين) (دار الحكمة)، ويروي في هذا الكتاب الشائق كيفية استجلاب الكتب من خزائن الروم بعد امتناع ملك من إنفاذ ما اختاره المأمون من نفائسها. فأنفذ المأمون جماعة منهم: الحجاج بن مطر، والبطريق، ويوحنا بن ماسويه

وكانت تلك الدار أشبه بمباءة للعلم يجلس فيها المؤلفون والمترجمون والنساخون والمطالعون. وكان للفرس مشاركة طيبة في نهضة دار الحكمة المأمونية، كما كان خدمتها والمترددون عليها من الفرس وأكثرهم من الشعوبية الذين يكرهون العرب، مثل علان الشعوبي النسابة الذي ألف كتاباً في مثالب العرب وعسى أستاذنا الجليل إسعاف النشاشيبي يدلنا على نسخة من هذا الكتاب يغنينا عن مثالبه هو للعرب في مقالاته عن حكاية الوفود الكسروية التي يستكثرها على آبائه الأكرمين. . .!

ومن دور الكتب الشهيرة في الشرق مكتبة الأمير نوح ابن منصور الساماني صاحب خراسان وأمير بخارى. وكان الوزير أبو علي الشهير بابن سينا قد برع في علم الطب، فذكر عند الأمير نوح، وكان قد مرض فأحضره وعالجه حتى برئ واتصل به ودخل إلى دار كتبه، وكانت عديمة المثل، فيها من كل فن من الكتب المشهورة بأيدي الناس وغيرها ما لا يوجد في سواها ولا سمع باسمه. فظل ابن سينا فيها يكتب من علم الأوائل

اقتدى أهل الأندلس بالمشارقة في إنشاء دور الكتب. فأنشأ الحكم بن الناصر مكتبة حافلة جمع لها الكتب من نواحي العالم، وبذل في سبيل شرائها مالاً كثيراً. وكان يغري المؤلفين بالذهب ليشتري منهم مؤلفاتهم ويضمها إلى خزانته. فقد ذكروا أنه بذل لصاحب الأغاني ألف دينار من الذهب ليرسل إليه كتابه قبل أن يبعثه إلى الخليفة العباسي بالمشرق، كما ذكر المقري صاحب نفح الطيب كثيراً من أخبار الحكم في هذا السبيل، وفعل ابن خلدون مثله في الجزء الرابع من تاريخه

ولم تقل مصر والشام عن بقية بلاد المشرق وسائر بلاد المغرب في جمع الكتب وتنظيم المكتبات. فالعزيز الفاطمي ينشئ (خزانة الكتب)، ويجمع لها الكتب بمعونة وزيره يعقوب ابن كلس، ويجمع من الكتاب الواحد نسخاً عدة قد تبلغ المائة. وللمقريزي في الجزء الأول من خططه كلام كثير في هذه الخزانة

ولقد نكبت المكتبات العربية بالتتار والصليبيين في الشرق وبالفرنجة في المغرب. ويروي ابن الفوطي المؤرخ المعاصر لغارة التتار على بغداد كيف أحرقت الكتب وأغرقت وبيعت بأوهى قيمة

ويروي ابن الأثير كيف أحرقت المكتبة التي أنشأها سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة عندما دخل السلجوقيون بغداد سنة 447هـ

كما يذكر جيبون المؤرخ كيف أحرق الفرنجة مكتبة طرابلس الشام عندما فتحوها سنة 502 هـ. ويذكر مؤرخو المسلمين أن البطريق إيكزامينيس أمر بإلقاء الكتب العربية في النار عندما دخل الفرنج غرناطة في القرن الخامس عشر الميلادي. . .

وفي العصور المتأخرة نرى الأمم الغربية تتنافس في جمع الكتب العربية وترتيبها بحسب موضوعاتها، وتعين لتنظيمها المختصين من المستشرقين الذي درسوا فن تنظيم المكتبات على قواعد صحيحة. ومن الإنصاف للتاريخ والحق أن نقول إن فكرة العناية بإنشاء المكتبات العربية على وجه الخصوص والشرقية على وجه العموم ترجع إلى مدينة (روما)، فقد انتشرت بين أغنياء تلك المدينة التاريخية بدعة جمع الكتب الشرقية في العصور الوسطى. فصبح أثرياء الإيطاليين ينافس بعضهم بعضاً في الجمع، ويكاثر بعضهم بعضاً في الاقتناء لا رغبة منهم في العلم ولا حباً في المطالعة، ولكن ميلاً إلى التكاثر

والمباهاة كما يصنع المترفون من عشاق التحف وجامعي الألطاف ولو لم يعرفوا قيمتها أو يدركوا حقيقتها
أخذت فكرة جمع الكتب العربية تنمو في بلاد أوربا المختلفة، ومع مرور الزمن واتصال الشرق بالغرب، وحب الفريقين في الوقوف على تاريخ الشرق القديم وتتبع تطوره، وشغف هؤلاء بارتياد المجاهل الشرقية لأغراض سياسية أو لمآرب دينية - مع ذلك وغيره من العوامل تغيرت فكرة جمع الكتب الشرقية من مجرد المباهاة والتكاثر والتفاخر وتزيين القصور إلى فكرة الاطلاع والدرس والبحث والتنقيب والتنقير بما يتفق مع مصلحة الغربيين لا الشرقيين
فأنشئت دور كتب عربية عامة وألحقت بالمكاتب الأهلية العامة في العواصم الأوربية الكبرى كلندن وباريس وبرلين وفينا وروما ومدريد. وأخذت الولايات المتحدة في أمريكا - في مطلع هذا القرن - تهتم بالدراسات الشرقية وتنشئ بجانبها أقساماً للغات الشرقية في جامعاتها الكبرى. مثل جامعة شيكاغو التي تصدر مجلة:
ومثل جامعة كولومبيا التي تعنى بالدراسات العربية وتترجم أمهات التاريخ الإسلامي إلى الإنجليزية كما فعلت في كتاب فتوح البلدان للبلاذري الذي ترجمه الدكتور فيليب حتى السوري الأصل، والأستاذ الآن بجامعات الولايات المتحدة
ولقد زار بعض النابهين من أبناء البلاد العربية هذه المكتبات العربية في أوربا وتحدثوا عنها في كتبهم؛ كما فعل الشيخ رفاعة الطهطاوي في كتابه (تخليص الأبريز إلى تلخيص باريز) وكما فعل أحمد فارس الشدياق في كتابيه (الواسطة في أحوال مالطة) و (كشف المخبا عن فتون أوربا)، وهما من مطبوعات الجوائب بالآستانة، وكما فعل أمين فكري بك في كتابه الممتع المفيد (إرشاد الألبا إلى محاسن أوربا) المطبوع بالمقتطف سنة 1892
ولقد حدث الشيخ محمد محمود الشنقيطي: أنه لما أرسل من الآستانة إلى أوربا لمشاهدة دور الكتب (وجد فيها كثيراً من الكتب العربية القديمة العهد العظيمة النفع المعدومة الوجود في بلاد الشرق على العموم)
ولعلي باشا مبارك في كتابه علم الدين وصف شامل لمكتبة عربية خاصة في باريس ذكر
أسماء بعض ما فيها من نوادر الكتب في التفسير والحديث والتوحيد والفتاوي واللغة ووصف عناية صاحبها بترتيبها وتنسيقها وحسن استعماله لما فيها. إلا أن أمين فكري بك كان في كتابه السابق الذكر أكثر الرحالين من العرب عناية بالمكتبات العربية العامة في أوربا فهو يصف كل واحدة منها وصفاً دقيقاً، فيصف مداخلها ومخارجها ورفوفها وأنضادها، وعمالها والقائمين عليها، ونظام الاطلاع فيها، وينقد ما يراه موضوعاً للنقد كما يذكر مواضع الإحسان فيثني. ومن عجب أن المكتبة الأهلية في باريس على عهده - 1891م - لم تكن على الحال التي عليها اليوم. فهو يقول عن قسمها الشرقي (توجهنا إلى مأمور القسم وطلبنا منه فهرست الكتب العربية فلم نجد لها من سوء الحظ فهرستاً؛ بل أحضر لنا دفاتر متعددة كل واحد منها يحتوي قسم منه على شيء من الكتب العربية غير مرتبة ولا مبوبة فلم يتيسر وجود ما أردناه وحملنا ذلك على قلة طلب الكتب العربية فيها أو على أن طالبيها غيرنا أعرف منا بمظناتها) ويصف المكتبة العربية بالمتحف البريطاني بلندن فينتقد فهارسها غير المنظمة؛ كما يصف مكتبة ليدن بهولاندة ويذكر في كل واحدة من هذه المكتبات بعض ما فيها من نفائس الكتب والمخطوطات.
محمد عبد الغني حسن
الإسلام والفنون الجميلة - 2
للأستاذ محمد عبد العزيز مرزوق
رأينا مما تقدم أن الأديان السابقة على الإسلام إما استفادت من الفنون الجميلة في إيضاح عقائدها وتقريب مبادئها للأذهان، وإما أنكرت هذه الفنون وقضت عليها، أما الإسلام فموقفه منها يختلف جد الاختلاف عن هذين الموقفين: فهو لم يستخدم الفنون الجميلة في دعوته كما استخدمتها الوثنية والمسيحية، ولم ينكر هذه الفنون كما أنكرتها اليهودية، ولكنه تضمن توجيهات مختلفة كان لها أبعد الأثر في تكوين الفن الإسلامي بعضها إيجابي، وبعضها سلبي، وبعضها كانت بمثابة عوامل مساعدة على

رقي الفنون الإسلامية الجميلة ونضوجها. وسنبين فيما يلي هذه التوجيهات المتباينة لنرى كيف استطاع الإسلام بنواهيه وأوامره أن يخلق فناً جميلاً له روعته وبهاؤه ويتجلى لنا أثر التوجيهات الإيجابية في فنون الخط والزخرفة والعمارة. أما فن الخط فقد حظي من عناية المسلمين جميعاً بنصيب وفير، وكان للخطاطين عندهم مركز ممتاز لا نبالغ إذا قلنا أنه قد تسامى إلى مركز الملوك والأمراء إذ نزل هؤلاء إلى ميدان الخطاطين ينافسونهم في صنعتهم لا سعياً وراء الكسب المادي، ولكن رغبة في الحصول على الفخر الأدبي؛ فكانوا يكتبون بأيديهم نسخاً من القرآن الكريم يقدمونها للبقاع المقدسة. والذي أعطى للخط العربي هذه المكانة الممتازة هو اتصاله القوي بالقرآن كلام الله الذي نزل باللغة العربية على محمد صلوات الله عليه (وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً) فالخط هو وحده أداة كتابة هذا الوحي فضلاً عن أن الحق جل وعلا قد أضاف تعليمه إلى نفسه (اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم)، كما أنه سبحانه أقسم به (ن والقلم وما يسطرون). ومن هنا كان إقبال من اعتنقوا الإسلام على تعلم الخط العربي، ومن هنا وجدت صلة من أوثق الصلات ربطت العالم الإسلامي بعضه ببعض، إذ توحد شكل الكتابة، فصارت الهندية والإيرانية مثلاً تكتبان بالحروف العربية

هذا ولقد ظهر بظهور التصوف في الإسلام علم ينسب إلى الحروف العربية أسراراً خفية تمكن الإنسان من التأثير في المخلوقات بواسطة (الأسماء الحسنى والكلمات الإلهية الناشئة عن الحروف المحيطة بالأسرار في الأكوان)، كما يقول ابن خلدون في مقدمته. ولا يعنينا

من أمر هذا العلم إلا شيء واحد، هو أن هذه العقيدة قد دفعت بالمسلمين إلى تزيين ما أخرجته أيديهم من المصنوعات أو شيدوه من العمائر بالآيات القرآنية والعبارات الدينية، والصيغ المختلفة للمدح أو الدعاء، طلباً لما وراءها من الخير والبركة. ولقد كان لهذا أثر بعيد في فن الخط، إذ أصبح مضروباً مشتركا في جميع فروع الفن الإسلامي، وتحكمت المادة التي يكتب عليها في شكل الحروف، فظهرت لها صور مختلفة على الآثار المختلفة، وأصبحت على الحجر غيرها على الخشب، وعلى النسيج غيرها على الخزف. وفي الحق لقد كانت إجادة الفنان المسلم لفن الخط بوحي من الإسلام، ولم تتجل عبقريته الفنية في ناحية من نواحي الفن الجميل بقدر ما تجلت في هذه الناحية: خلق من تلك الحروف ذات الأشكال المتباينة والأوضاع المختلفة طرازاً زخرفياً تبدو فيه صور من الجمال شتى، بعضها يفيض بالقوة، وبعضها يفيض بالرقة والأناقة، أوحت إليه الحروف العربية برؤوسها وسيقانها وأقواسها ومداتها بعناصر زخرفية ما كاد يرسمها حتى بعثت فيه تلك اللذة البريئة التي يحس بها الفنان عندما يشاهد أثراً جميلاً، فاندفع في هذا التيار يبتكر الزخارف والنقوش، غير آبه بما تفرضه عليه أصول الخط من المستلزمات، ولا بما يسببه للقارئ - في بعض الأحيان - من الإعنات، بل كان همه أن يرضي الفن فحسب، فتارة يجعل الحروف متجمعة كأنها شجرة كثيفة الأغصان وطوراً يرسمها متباعدة، كأنما هي بستان انتثرت فيه الأزهار، وتارة يريك من التنوع الجميل بين الحروف القائمة والحروف المستديرة ما ينتزع منك الإعجاب انتزاعاً، ويرغمك على أن تقر له بالتفوق والنبوغ. ولشد ما كان يضحي على مذبح الفن بالكثير من قواعد الخط، ويتركنا نقاسي من الجهد شيئاً عظيما حتى نهتدي إلى ما يريد، وقد لا نهتدي.

(يتبع)

محمد عبد العزيز مرزوق

الأمين المساعد بدار الآثار العربية

كوبيرنيكوس

بمناسبة مرور أربعمائة سنة على وفاته

للأستاذ جودة شهوان

في الرابع والعشرين من مايو سنة 1543 سقطت إحدى الدعائم التي بنيت عليها النهضة الأوربية الحديثة بوفاة كوبيرنيكوس، ذلك العالم الذي جاهر بحقيقة كانت قد اختفت وراء حجب الدهر من زمن بعيد، تلك الحقيقة الهامة التي كان لها فضل جم على تقدم علوم العصر الحديث وأبحاثه، والتي نقلت العلم من حال إلى حال، وكانت

منارا وعماداً لأبحاث جمهرة من علماء العصر الحديث الذين جاءوا بعد كوبير نيكوس، والذين أشهرهم (كبلر) و (جاليلو) و (نيوتن) كما عملت تلك النظرية في إطلاق عقول الناس وأخيلتهم - التي كانت قد قيدتها خرافات العصر الوسيط - من قيودها لتستقبل عصر النهضة الذي أعقب وفاته. وقد عد (المستر دورانت) الكاتب الأمريكي والفيلسوف المشهور، هذا العالم (كوبير نيكوس) في مقال له بمجلة (أمريكان) أحد قادة البشرية العشرة في تاريخ العالم وهم: كنفوشيوس - أفلاطون - أرسطوطاليس - توماس أكونياس - كوبير نيكوس - فرانسيس بيكون - نيوتن - فلتير - كانت - داروين

كانت النظرية السائدة قبل ظهور كوبير نيكوس أن الأرض هي مركز الكون، وأن الشمس وبقية الكواكب تدور حولها. فلما جاء هذا العالم وجد بعد أبحاثه الطويلة أن اعتقادهم ذاك كان خطأ، وأن الشمس هي مركز الكون تدور حولها الأرض وبقية الكواكب. وقد سميت هذه النظرية (بنظرية كوبير نيوس أو النظرية الكوبيرنيكية) نسبة إليه؛ ذلك لأنها على يديه ولسببه نالت شهرتها وسيادتها المعلومتين

وقد فسر كوبير نيكوس أيضاً حدوث الليل والنهار بأنهما ناتجان عن حركة الأرض حول محورها، كما فسر حدوث الفصول بأنها نتيجة لدوران الأرض حول الشمس

ولنرجع الآن لسرد قصة حياته، وطرف من أعماله وآراءه التي جاءنا بها غير التي ذكرناها آنفاً؛ فنقول:

ولد هذا العالم البولندي الألماني في التاسع عشر من فبراير عام 1473 في مدينة ثورن الواقعة على الفستولا في بروسيا البولانديه، من أب سلافي من (كراكاو)، ومن أم ألمانية

اسمها (برباره وتز لرود) من عائلة غنية وذات مركز هام في الهيئة الاجتماعية. وقد تكلم كوبيرنكيوس اللغة الألمانية (لغة أمه)، غير أنه علم في البيت شيئاً من اللاتينية واليونانية مات أبوه وهو في السادسة عشرة من عمره فبقى مع أمه وعمه حتى سنة 1491 عندما أرسل إلى الجامعة (كراكاو)، حيث بقى ثلاث سنين تعلم أثناءها الرياضيات. وقد حصل أثناء دراسته تلك على مهارة في الرسم. وفي عام 495 سافر إلى إيطاليا حيث قضى بضع سنوات درس أثناءها القانون والفلك والأقرباذين في (بولونيا) و (بادوا). غير أن ميله كان إلى الرياضيات أشد

وبعد تبحره في الفلك ذهب إلى (روما) لزيارة صديقه (رجيومنثانوس) أشهر علماء الفلك، وأذيعهم اسماً حينذاك. وقد تلقاه ذلك الصديق باحتفاء لائق، وكان ذلك عام 1500؛ وهنالك بمساعدة صديقه المذكور، ولحسن أخلاقه انتخب أستاذاً للرياضيات. وقد قضى تلك السنة في روما ألقى أثناءها محاضرات في علم الفلك مختلفة. وقد شاهد في السادس من نوفمبر هذه السنة خسوف القمر في روما

ترك الأستاذ نيكولاوس روما عام 1505 بعد أن كان قد حصل على شهادة دكتور قبل ذلك بسنتين قاصداً بلده الأصلي (بروسيا)، وسكن في هيلبرغ كفلكي نعمه (مطران ارمرلند). وهنالك أخذ يتدخل في أمور الدين، وما زال كذلك حتى حصل على شهادة في القوانين الكنيسة وأصبح راهباً. ويقال إنه كان يقسم يومه العملي إلى أقسام ثلاثة: أما الأول فكان يصرفه في إتمام فروض وظيفته؛ والثاني يصرفه في منح النصائح الطبية لفقراء الناس. والثالث يصرفه في الدراسة والبحث

بعد أن رجع إلى بروسيا - كما قلنا - وكان في الخامسة والثلاثين من العمر بدأ في استخدام معرفته الرياضية ومشاهداته المختلفة العديدة، في سبيل إصلاح ما كان قد التصق بعقول القوم من نظريات فلكية، فكانت نتيجة ما حاول ظهور كتابه الأشهر الموسوم (بأفلاك الأجرام السماوية) (نورمبرغ 1543) وقد فرغ من عمل الكتاب المذكور عام 1530 غير أنه لم ينشره بل بقى متردداً خوفاً من أن يرمى بالهرطقة، وأن تكسد سوق كتابه لما احتواه من أفكار ونظريات في الفلك حديثة وغريبة، على قوم كانوا غارقين في لجج من الأضاليل والخرافات والاعتقادات. وبقى على حالته تلك اثنتي عشرة سنة، أزمع

عند انتهائها 1543 على طبعه ونشره. غير أن العلة كانت قد بدأت تنخر في جسمه، وتنغص عليه عيشه، فما زال يصاولها وتصاوله، ويغلبها وتغالبه، حتى ناداه ربه فلباه في الرابع والعشرين من مايو عام 1543. ولقد قدر للمؤلف أن يمس أول نسخة من كتابه المطبوع لأول مرة، قبيل مماته بسويعات.

يتألف كتابه المذكور من أجزاء ستة أهمها الأول. وأهم ما يحتويه هذا الجزء:
1 - إن الأرض كرية، كما أن الكون كري
2 - إن اليبس والماء يكونان كرة واحدة
3 - إن حركة جميع الأجرام السماوية منتظمة ودائرية
4 - إن الأرض تتحرك في مدار حول الشمس، كما أن لها حركة أخرى حول محورها
5 - إن الشمس مركز الكون، وأن القدماء مخطئون في اعتبار الأرض مركزاً له
6 - إنه لمن المحتمل أن يكون للأرض حركات عدة
7 - تنظيمه للكوكب ورسمه شكلا لنظامها يشبه الشكل الحديث
ولكوبيرنيكوس غير الكتاب المذكور كتب أخرى. فله كتاب في المثلثات، (وتنبرغ 1542)، نشره صديقه وتلميذه (راتكوس). وكتاب آخر وهو ترجمة رسائل الكاتب اللاتيني (ثيوفلكوس سيموكاثا). وقد كتب أيضاً سنة 1526 كتاباً آخر عن النقود. (نشر لأول مرة عام 1826). وله الآن كتابات خطية في مكتبة أبرشية (ارمرلند)
لقد اهتم كثير من كتاب الغرب بالكتابة عنه وأول من كتب عن حياته هو (جاسندي). ومن الكتاب الحديثين: (فون هلبر - 1873) و (بلكوفسكي). غير أن أكمل الكتب عن حياته وأعماله، وأحلها كتاب الدكتور ((براو) - جزءان - برلين 1883)
ولقد خلد ذكر هذا العالم الشهير، غير الكتابة عنه وعن أعماله، بنصب عدة تماثيل له في أماكن كثيرة من أوربا. أحدها في قصر (كسيمير) بمدينة (وارسو) صنعه (ثارولدسن) وأقيم هنالك عام 1830، وآخر صنعه (ثيك) ونصب في (ثورن) وكتب عليه:
,
,
وقد نصب له تمثال آخر في فناء جامعة (كراكاو) عام 1900

(فلسطين)

جودة شهوان

متى أراكم؟

- 1 -

تشوَّقكم قلبي وكيف لقاؤكم ... وما ذاك يا أحباب قلبي بالهَيْنِ
يضنّ على قلبي الزمان بقربكم ... وما البين إلاّ الموت، وبْل من البيْنِ
ألا هل أراكم؟ حسرة الشعر والهوى ... إذا متّ من شوق ولم تركمْ عيني
فيا من نأيتمْ، إن نُعيتُ إليكمُ ... فلا تعجبوا فالشوق موردني حَيْني
سلام على قلبي

- 2 -

ولي عندكم قلب غريب مطرَّحٌ ... لدي بابكم يمسي ويصبح في الكربِ
طليحٌ، إذا استنهضته كي أقبله ... تحامل، ثم ارتدَّ من ألم الحبِّ
سلامٌ عليه إذ يموت صبابةً ... وإذ أنتمُ لاهون عن قلبيَ الصبّ
فلا تسألوني عن بكائي فإنما ... بكائيَ يا أحباب قلبي على قلبي

(فلسطين)

دنانير

صلاة. . .

جَمَالُكِ تَرْنِيمْةُ الشَّاعِرِ ... وَدُنْياً مِنَ الأمَلِ اللنَّاضِرِ
وَفَجْرٌ مِنَ الْحُبِّ ضَاحِي الجَبِيْ ... نِ يَطُوْفُ بِمِحْرَابِهِ خَاطِرِي
وَسِرُّ مِنَ الغَيْبِ حَارَتْ لَديْ ... هِ قُلُوْبُ الوَرَى وَرُقَي السَّاحِرِ
وَعِطْرٌ مِنَ اللهِ طَافَتْ بِهِ ... رُؤَى الخُلْدِ في حُسْنِهَا الآسِرِ
وَحَقْلٌ مِنَ النُّوْرِ غَنَّتْ لَهُ ... عَذَارَاهُ لَحْنَ الهَوَى الطَّاهِرِ!
جَمَالُكِ رَمْزُ الصِّبَا وَالحَيَاةْ ... تُفَجِّرُ نَبْعَ اللَّيَالِي رُؤَاهْ
تَطُوْفُ القُلُوْبُ بِهِ مِثْلمَا ... يَطُوْفُ الهَوَى بِنَشِيْدِ الرعَاهْ!
وَتَعْيَا النُّفُوْسُ بِأسْرَارِهِ ... فَهَيْهَاتَ تُدْرِكُ مَا مُنْتَهَاهْ
تُقَدِّسُ فِيْهِ جَمَالَ الوُجُوْ ... دِ وَتَعْبُدُ فِيْهِ جَلاَلَ الإلَهْ!
جَمَالُكِ لَحْنٌ حَبِيْبُ الصَّدَى ... تَغَنَّى به الْحُبُّ لَمَّا شَدَا

وَأُفْقٌ مِنَ الفَنِّ سَامي الرُّسُوْ ... مِ بِدَيْعُ الجمَالِ رَحِيْبُ المَدَى
يَضُمُّ إِلَيهِ مَعَاني الصَّلاَ ... لِ وَيَطْوِي إِلَيْهِ مَعَاني الهُدَي
وَقَدْ يُلْهِمُ النَّفْسَ سِرَّ الْحَيَا ... ةِ كَمَا يُلْهِمُ النَّفْسَ سِرَّ الرَّدَى
سِوَى أَنَّهُ خَالِد كَالزَّمَا ... نِ يَعِيْشُ - عَلَى رَغْمِهِ - سَرْمَدَا
جَمَالُكِ حُلْمُ الصَّبَا النَّاعِمِ ... وَفَيْضٌ مِنَ الأَمَلِ البَاسِمِ
!وَوَحْيٌ مِنَ المَلأَ القُدُسِيِّ ... تَمَثَّل في غَفْوَةِ الْحَالِمِ
لَمَحْنَاهُ في سَبَحَات الخَيَا ... لِ وشِمْناهُ في لَوْحَةِ الرَّاسِمِ
وَرَفَّتْ عَلَيْهِ بَنَاتُ القر ... يض تُغَنِّي بِقِيْثَارِهَا النَّاغِمِ
!إِلَى أَنْ أَتَيْتِ به لِلْوُجُوْ ... دِ فَكُنْتِ به فِتْنَةَ العَالَمِ
(عاليه - لبنان)
فؤاد كامل
البريد الأدبي
وحي القرآن باللفظ
جاء في البريد الأدبي بعدد الرسالة الغراء رقم 532 مقال للأستاذ الشيخ محمود أبو رية انطوى على شك واضح في الحقيقة وحي القرآن الكريم، وموضوع الوحي وطريقته من القضايا التي فصلت فيها الأيام منذ عهد الرسالة المحمدية الشريفة، وموضوع خلق القرآن أو قدمه من المباحث التي توفر عليها علماء المسلمين في عهد المأمون والواثق والمعتصم، وما تركوا فيها ناحية تحتاج إلى توضيح أو استيفاء؛ وقد كفى الله المسلمين عواقب هذا الخلاف حتى أصبح العلماء والمتعلمون يقرءونه على أنه دراسة للعقلية الإسلامية، لا على أنه شاكون في أن القرآن معنى ولفظاً من عند الله
على أن سلف العلماء وأئمة الفرق الإسلامية لم يختلفوا - كما قال الأستاذ - على أن القرآن لفظاً ومعنى كلام الله، وإنما الخلاف بين الأشاعرة والمعتزلة على قدم اللفظ وحدوثه. والكل مجمعون على أن المعنى القديم لتعلقه بصفة الكلام الأزلي، ومعنى حدوث اللفظ على رأي المعتزلة ومن إليهم أن الله خلق اللفظ كما خلق السماء والأرض وأوحاه إلى الرسول الأمين عليه الصلاة والسلام
هذا هو الذي درسناه وفهمناه من آراء الفرق الإسلامية فإذا كان لدى الأستاذ نصوص تخالفه فليدل بها.
(الإسكندرية)
محمود البشبيشي
قسم القراءات بكلية اللغة العربية
إذا قدر للأزهر أن يصل يوم إلى الإصلاح المنشود، فإنه سيكون لمجلة الرسالة الغراء فضل وصوله إليه، لأنها المجلة الوحيدة التي تعنى به، ولا تضن بصفحاتها على من يكتب فيه. وسينشأ في هذه السنة قسم للقراءات بكلية اللغة العربي، وإنه لواجب أن تعنى هذه الكلية بفن القراءات، وأن تنهض به من تلك الطريقة التلقينية التي يأخذ بها الناشئون فيه، فتدرسه دراسة أخرى تليق بها، وتتناسب مع الدراسة التي تأخذ بها العلوم الأخرى
ولا شك أن هذا لا يتفق مع ما يراد الآن من فتح هذا القسم لكل من يحفظ القرآن الكريم، ولو لم تسبق له دراسة علمية تؤهله لدرس فن القراءات بالطريقة اللائقة بكلية اللغة العربية، كما لا يصح أن يجمع مثل هؤلاء الطلاب مع طلاب هذه الكلية، لأنهم يتفاوتون في ثقافتهم تفاوتاً بعيداً وأني أرى أن تؤلف لجنة تكون مهمتها وضع مناهج الدراسة اللائقة بهذا القسم، ليدرس فيه فن القراءات دراسة جامعية، ولا يكتفي فيه بتلك الطريقة التلقينية، وأرى أيضاً أن يقصر على حملة الشهادة الثانوية بالمعاهد الدينية، لتتفق ثقافة طلابه مع ثقافة إخوانهم بالكليات، ويمكنهم أن يقوموا بهذه الدراسة التي نطلبها لهذا الفن
(ص)
ظاهرة لغوية
قد يكون من الحديث المعاد أن نقول إن اللغة ليست ظاهرة تحكمية اعتسفها القوم اعتسافاً، بل هي ظاهرة اجتماعية ترد إلى طبيعة الأشياء. ولعل خير ما يبين لنا تساوق

اللفظ والمعنى، ما نص عليه قدماء أهل اللغة من (أن المشاركة في أكثر الحروف اشتقاق يدور عليه معنى المادة، فيتحد أصل معناها ويتغاير في بعض الوجوه). والأمثلة على صحة هذه الظاهرة كثيرة لا حصر لها، فنجتزئ بذكر الأمثلة التالية:

1 - ورد في التاج (تحت مادة ف ل ح): (قال شيخنا الفلح وما يشاركه كالفلق والفلد والفلذ ونحو ذلك يدل على الشق والفتح كما في الكشاف وصرح به الراغب وغيره)

2 - النبت والنبث والنبر والنبش والنبط والنبع والنبغ تدل كلها على ظهور شيء بعد خفائه. فالنبت يقال للبقل وغيره إذا نشأ وخرج من الأرض. والنبث يقال للبئر إذا نبشها المرء وأخرج ترابها. والنبر يقال للمغني إذا رفع صوته بعد خفض. والنبش يقال للمستور إذا أبرزه المرء، أو للكنز إذا كشف من الأرض واستخرج. والنبط يقال للماء إذا نبع (ومنه الاستنباط بمعنى الاستخراج). والنبع يقال للماء إذا خرج من العين، والنبغ أو النبوغ يقال للشيء إذا خرج وظهر. . .

3 - تدل الأفعال المبتدئة بالصاد والفاء على المعاني المختلفة للأصوات: فالفعل (صفد) يقال للأسير إذا أوثقته وقيدته بالحديد (ذي الصوت) والفعل (صفر) يدل على التصويت بالنفخ من الشفتين. والفعل (صفع) معناه الضرب باليد مع إحداث صوت. والفعل (صفق) معناه الضرب بالكفين بصوت مسموع، وهكذا. . .

4 - تدل الأفعال المبتدئة بالحرف خاء والحرف فاء على معاني الضعف والهمود. فالفعل (خفت) يدل على السكون (والموت فجأة في بعض الأحيان). والفعل (خفج) يقال للبعير إذا أصابه الخفج وهو ارتجاف في الرجلين. والفعل (خفش) معناه ضعف (ويستعمل على الخصوص لضعف البصر). والفعل (خفض) يقال للصوت إذا غض المرء وأخفاه. والفعل (خفع) يقال للمرء إذا أصابه دوار من جوع أو غيره فسقط والفعل (خفق) يقال للفؤاد أو الراية أو البرق إذا اضطرب، ويقال للنعل إذا صوتت، وهلم جرا.

أما النتيجة التي تقتادنا إليها هذه الظاهرة اللغوية فهي أن لكل حرف معنى خاصاً، وبكشف معاني الكلمات؛ لأن الكلمات إذا اتحدت في الحروف اتحدت في المعنى.

زكريا إبراهيم

استدراك

أورد الأستاذ خلدون الكناني في كتابه حسان بن ثابت الذي أخرجته مكتبة عرفة بدمشق - ص 48 - البيتين المشهورين في الرثاء:

كنت السواد لناظري ... فمعي عليك الناظر
من شاء بعدك فليمت ... فعليك كنت أحاذر

على أنهما من شعر حسان في رثاء الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد تبع في ذلك ما جاء في ديوان حسان، فإن هذين البيتين مذكوران فيه - ص165 - ولم يتكلم عليهما شارحه الأستاذ البرقوقي. ولكن ياقوت أوردهما في معجم الأدباء - ج1 ص 77 - في ترجمة إبراهيم الصولي قال: حدث علي بن الإسكافي قال كان لإبراهيم ابن قد يفع وترعرع وكان به معجباً فاعتل علة لم تطل حتى مات فرثاه مراثي كثيرة وجزع عليه جزعاً شديداً. ومن مراثيه فيه

كنت السواد لناظري ... فبكي عليك الناظر
من شاء بعدك فليمت ... فعليك كنت أحاذر

باستبدال كلمة فبكي بكلمة فعمى الواردة في نص الديوان وأوردهما ابن خلكان منسوبين إلى الصولي ج 1 ص 12 وأورد هذين البيتين الأستاذ محمد كرد علي في أمراء البيان ج 1 ص 265 في كلامه عن إبراهيم الصولي، ولكن لفظ البيت الأول في رواية الأستاذ كرد علي يختلف عنه في رواية المعجم.

أنت السواد لمقلة ... تبكي عليك وناظر؟
من شاء . . . . . .

وذكر أنهما لإبراهيم يرثي بهما ولداً له. ولعل هذا هو الصواب فإنهما بشعر الكتاب أشبه. وفي زهر الآداب ج3 ص214 قطعة لبعض الأعراب في الرثاء آخرها

وبعدك لا آسى لعظم رزية ... قضيت فهونت المصائب أجمعا

وعلق عليه مؤلف الزهر بقوله: ومعنى هذا البيت الأخير تداوله الناس نظماً ونثراً ثم

أورد رثاء أبي نواس للأمين وفيه:
وكنت عليه أحذر الموت وحده ... فلم يبق لي شيء عليه أحاذر
وأورد عدة قطع من النظم والنثر تدور حول هذا المعنى وليس فيها البيتان. وبعد فإن كتاب الأستاذ الكناني من خير البحوث التي أخرجت في دراسة شاعر الرسالة وسأتكلم عنه مسهباً في وقت آخر.
(دمشق)
رشدي عرفة
العدد 535 - بتاريخ: 04 - 10 - 1943
ومن أساليبهم
للأستاذ عباس محمود العقاد
أشرنا في مطلع مقالنا السابق إلى أساليب الشيوعيين في نشر مذهبهم على الطريقة الصريحة، وهي الإشادة بمحاسنه والقدح في نقائص النظم الأخرى، أو على الطريقة الخفية - غير الصريحة - وهي الإكثار من التهم والعيوب التي يلصقونها بالنظام القائم دون أن يشركوا الشيوعية في أمثال هذه التهم والعيوب
ونرى أننا نحن المصريين والشرقيين عامة بأشد الحاجة في الآونة الحاضرة إلى التنبيه بعد التنبيه إلى هذه الأساليب الخفية لأنها أضر من صراحتهم في التبشير بمذهبهم، ولأن الحيطة منها أقل، والحذر من عواقبها ضعيف مهمل لضعف المعرفة بمراميها ودروبها التي تتسلل منها
وجملة ما يقال في هذه الأساليب أنها تتلخص في تشجيع كل عامل من عوامل الهدم والانحلال في المجتمع الذي يحاربونه، وتحقير كل عامل من عوامل التماسك، والثبات في ذلك المجتمع، سواء تكلموا عن الأدب، أو عن الفن، أو عن السياسة، أو عن الأخلاق
ولهم في كل بلد من البلاد نغمة يخصونها بها ولا يزالون يرددونها، ولا يقرنونها بذكر الشيوعية الصريح حذراً من تنبيه الخواطر وإثارة الشكوك
ففي الأقطار العربية مثلاً هم أنصار الكتابة باللغة العامية حيثما وقعت المفاضلة بينها وبين اللغة الفصحى
لأن اللغة العامية توافق حملتهم على العقائد الدينية كلها، ومنها العقيدة الإسلامية التي هي قبل كل شيء عقيدة القرآن. ولأن اللغة العامية توافق دعوتهم إلى تغليب الطبقة العاملة التي يزعمون أنهم يهتمون بتعليمها، وهم يسجلون عليها الجهل والاكتفاء بلغة الجهلاء، ولأن اللغة العامية تقطع ما بين الحاضر والماضي، وهم يقرنون بين الماضي والنظم الاقتصادية التي يحاربونها
وإذا سألتهم في ذلك قالوا كما يقول أنصار العامية دائماً إن سواد الناس لا يفهمون الفصحى، وإن اللغة الحية هي اللغة التي يتكلم بها الناس كل يوم
وكل هذا خطأ ظاهر كما فصلنا القول فيه بما كتبناه عن الفصحى والعامية؛ لأن سواد الناس يجهلون المعاني العالية ولو كتبت باللغة التي يتكلمونها، كما يجهلون الرياضة والفلسفة ومباحث العلوم المختلفة. فالعقدة هنا هي عقدة المعاني وليست بعقدة الألفاظ. ومن السخف قولهم إن اللغة الحية هي لغة السوق والطريق، لأن اللغة الحية هي اللغة الخالدة التي تعيش مئات السنين، ولا تموت كل بضع سنوات كما تموت لغات الطرق والأسواق. ولا غنى للإنسانية عن هذه اللغة الخالدة ما دامت لها آداب مكتوب لها الخلود من جيل إلى جيل. وأسخف من دعواهم هذه قولهم إن الناس ينبغي أن يكتبوا كما يتكلمون كأنهم يريدون أن يلغوا الترجمة مثلاً، وهي تنقل إلينا كلام الروسيين والبولونيين، ونحن لا نتكلم لغة هؤلاء ولا هؤلاء، سواء بألفاظ الأسواق أو ألفاظ الجامعات
ذلك أسلوب من أساليبهم الخفية في الأدب، وهم هنا يشاركون المبشرين، ويشاركون المستعمرين، ويشاركون كل من يكره معالم القومية في بلاد الشرق، وهم كثيرون
أما الفن فهم لا يدينون بآراء الغلاة من المصورين والموسيقيين كأنها آراء الشيوعية والشيوعيين، ولكنهم يشجعون هذه الآراء في البلاد الديمقراطية، لأنها خروج على القواعد والأصول واندفاع مع الفوضى والاختلال، أو مع الهدم والانحلال، وهم أنصار كل عامل من عوامل الهدم بين الشعوب الديمقراطية

فلا يلزم - شيوعياً - أن يكون المصور من القائلين بالسريالزم و (الفيوشرزم) والكيوبزم وغيرها من المدارس التي تبطل قواعد التصوير كما عرفها أساتذة الفن في جميع العصور، ولكن هذه المدارس تعفي المصور من قواعد الرسم والتلوين والتشبيه، وأصول الإضاءة والتظليل، وترسله في عالم من الفوضى لا توجد فيها قاعدة يتفق عليها رأيان

وهذه الإباحة هي المقصودة لأنها تفضي إلى هدم القواعد والقوانين، وتزلزل أركان الفكر والذوق والاعتقاد في المجتمع الذي يقصدونه بالخلط والتخريب

ومن مضحكاتهم ومضحكات نظرائهم في هذا الباب أنهم يسمون إحدى مدارس الإباحة هذه بمدرسة (المستقلين)، وهي في حقيقتها رجوع إلى الهمجية التي تركناها منذ آلاف السنين. فإن صورهم وتماثيلهم لتشبه كل الشبه تلك الصور والتماثيل التي كشفت حديثاً في حفائر الكهوف من بلاد نيجيريا وبورنيو وجنوبي الهند، وسائر الأقطار التي كان يعمرها الإنسان الأول، ولا يزال فيها إلى اليوم من الهمج المتخلفين

والعجيب في أذواقهم أنهم إذا قصدوا محاكاة تلك الفنون الهمجية تحروا مشابهتها في الرديء النافر الممسوخ، ولم يتحروا قط مشابهتها في مواضع الحسن والإتقان؛ لأنهم منحرفون في تكوينهم انحرافا يظهر في الخلقة إن لم يظهر في الأخلاق والطباع

وعلى هذه الشاكلة مذهبهم في الموسيقى والشعر والتمثيل، ولكنهم يعتدلون بعض الاعتدال في التمثيل لأنهم يريدونه لنشر الدعوة، ويخشون أن يفتحوا أبواب المسارح على مقاعد خاوية إذا هم عمدوا إلى تلك (التقاليع) والتهويشات

ومن أساليبهم التي نص عليها كارل ماركس في منشوراته أن (يشوهوا سمعة كل رجل مسموع الكلمة بين الديمقراطيين)

ولا حرج عندهم أن يختلقوا الأكاذيب، وأن يعرضوا لشؤونه الخاصة، وأن يذموا أعماله أقبح الذم، ولو لم يكن عندهم دليل واحد على ما يذمونه منها

وإذا تكلموا عن الأدباء والشعراء الذين لا يؤمنون بالشيوعية عابوا عليهم أنهم حالمون وأنهم خياليون لأنهم لا يكتبون عن المسائل الاقتصادية ولا يقفون أقلامهم على أسعار الطعام واللباس وشئون الأموال والعمال

والأدباء الديمقراطيون لا يحرمون هذه الموضوعات، ولا يزال منهم من يعرض لها من الناحية الفنية التي هو أقدر على تصويرها، وإنما يعلم الأدباء الديمقراطيون أن في الدنيا علماً اسمه علم الاقتصاد، وعلماء اسمهم العلماء الاقتصاديون، وإن هؤلاء أولى بدرس المسائل التي يفهمونها ويفرغون لها ويستطيعون الحكم فيها، لأن الأدب لم يخلق لإلغاء علم الاقتصاد

ومن مضحكاتهم ومضحكات نظرائهم في هذا الباب أنهم يهدمون مذهبهم من أساسه بهذا الهراء الذي يلفظون به وهم لا يشعرون

لأنهم يستكثرون على العامل الفقير أن يقضي في اليوم ثماني ساعات في طلب الرغيف والكساء، وهم يفرضون على العمال وغير العمال ألا يكون لهم شاغل في ساعات العمل أو ساعات الفراغ إلا طلب الرغيف والكساء، فلا يبحث الفيلسوف إلا ليؤدي بحثه إلى الرغيف والكساء، ولا يحلم الشاعر إلا ليفسر حلمه بالرغيف والكساء، ولا يخترع المخترع إلا لينتفع باختراعه في الرغيف والكساء، ولا يخرج العامل من عمله اليومي ليقرأ أو

يستمتع بالفن إلا أن تكون هذه القراءة وهذا الاستمتاع حول الرغيف والكساء

ودون هذا وتحلق لحية كارل ماركس وكل لحية يطلقها أمثاله من أعداء الفنون وأعداء الحرية الإنسانية كأرفع ما تصبو إليه القرائح والأرواح

أما هدم المجتمع من ناحية الأخلاق فخلاصة أسلوبهم فيه أنهم لا يعرفون شيئاً يسمى جريمة خلقية

وقد عرضنا في كتابنا (عبقرية محمد) لمسألة الزواج والطلاق فقلنا بعد إثبات رأي نابليون: (. . . كذلك اعترف نابليون بالضرورات الزوجية في العصر الحديث. فكيف اعترف بها (لنين) في الثورة الكبرى بعد الثورة الفرنسية؟ حل مشكلة الزواج بحل رابطة الزواج؛ فلا رابطة بين الزوجين أوثق من رابطة الرفيقين في الفندق أو الطريق. وليس أعجب ممن جعل الزواج شريعة ملائكة إلا الذي جعله على هذا النحو شريعة عجماوات)

قلنا هذا فغضب بعض الأدعياء (أولاً) لأننا كتبنا عن محمد كتابة تعظيم وثناء، وغضبوا (ثانياً) لأننا ذكرنا (لنين) بغير ما ينبغي له عندهم من التعظيم والثناء
وقالوا فيما اتصل بنا أن الطلاق مكروه في روسيا الحديثة، وأن الزوجين المطلقين يعيشان بين الشيوعيين معيشة هوان واحتقار
والذي قال هذا لا يعقل ما قال
وإلا فلماذا يلوم الشيوعيون إذن تلك الآداب التي كرهت الطلاق أو قيدته ببعض القيود أو جعلته محلاً للمراجعة؟
وما هي إذن تلك الجرائم الخلقية التي يعترف بها قانون الشيوعيين ويفرض لها عقاباً يناسبها في الضرر والوخامة؟
إن الحكاية كلها تطاول لا أدب فيه، وكلام يقوله القائل وهو لا يعقل معنى ما يقول
ومما أراه أنا أن تنبيه الأذهان إلى مساوئ الدعوة الشيوعية أوجب واجب على الكاتب المصري في الآونة الحاضرة، لأنها تمس الكرامة الإنسانية كما تمسها الفاشية والنازية،
ولأن الشيوعية ليست مسألة أغنياء وفقراء، وإلا لكنت أحق الناس بالدعوة إلى الشيوعية أو بالسكوت عنها لبعدي عن الغنى اليوم وبعد اليوم، ولكنها مسألة الإنسان وكرامة الإنسان، وهل هو من المخلوقات التي تخاطب بلسان الروح أو من المخلوقات التي تخاطب بلسان
المعدة. وكفى دليلاً على فاقة الشيوعية في دواعي الكرامة أنها على احتقارها للوطنية لجأت إليها في الحرب الحاضرة لاستنهاض الهمم وشحذ العزائم، فسمتها (الحرب الوطنية) في المنشورات الرسمية. وما كان أغناها عن هذا التمسح بالوطنية لو كان في المذهب الكفاية لصد الأعداء عن البلاد.
عباس محمود العقاد
الحديث ذو شجون
للدكتور زكي مبارك
سبحان المنعم الوهاب - كن مع الله تر الله معك - سخافات الأغاني الشعبية
سبحان المنعم الوهاب
قلت لصديقي الأستاذ عبد الحفيظ خليفة: إن فاكهة المنجة توحي إلى آكلها بأن يقول الحمد الله، لأن حلاوتها حلاوة عبقرية، فهي دون العسل في الحلاوة، ولكن لها مذاقاً يفوق الشهد بمراحل طوال، ولذلك توحي إلى معاني من الشكران لا يوحيها أطيب طعام ولا أعذب شراب
فقال صديقي: عرضت فاكهة المنجة على أحد الناس فرفض أكلها بحجة أنه لا يستطيع شكر الله على طعمها اللذيذ. وكان أحد الصوفية حاضراً فصرخ: وهل تستطيع شكر الله على هذا الكوب من الماء؟
وعند هذه الكلمة سألت نفسي: كيف جاز أن يرخص الماء فلا تكون له تسعيرة في أعوام الحرب؟
ثم أجبت: كان ذلك لأن الماء هو أساس الحياة، فلا يعيش بدونه مخلوق، ومن أجل هذا منحه الله بسخاء، وهو الزاد الوحيد الذي يستوي الناس في الاحتياج إليه، كما يستوون في الاحتياج إلى النور والهواء
وأنا من قبل هذا الخاطر بأعوام فكرت في صعوبة انتفاع الأراضي الفرنسية بمياه الأنهار، لأنها كثيرة التفاوت في الارتفاع والانخفاض، ولا يمكن أن تعتمد على مياه الأنهار في صيف أو شتاء. وكان الجواب أن الله أمد تلك الأراضي بالأمطار الثجاجة بالنهار وبالليل، فهي في غنى عن الأنهار، ولو كانت في حلاوة نهر السين
وأنا أيضاً فكرت من قبل في استواء الأراضي المصرية، وهو استواء حرمها جمال التفاوت في الحزون والسهول، وكان الجواب أن الله جعلها كذلك ليقدر النيل على ريها بلا عناء
أمر الله في خلائقه أعجب من العجب، فله تدابير تعجز عن وعيها كبار العقول، وهو قد يجعل السعادة في الكوخ الحقير أضعاف ما يجعلها في القصر الكبير، ليقول بالتلميح لا بالتصريح إن أمره الأمر في تقدير السعادة والشقاء
ثم نظرت في حالي وأحوالي منذ ثلاثين سنة، فقد كان من أدبي أن أفرح علانية بطعام البيت، وكان فرحي فرحاً حقيقياً، لأن الطعام في تلك السنين كان غاية في نضارة

المنظر وحلاوة المذاق، بحيث صح عندي أن يد زوجتي هي وحدها اليد الصناع في تأليف الصنوف الطريفة من أطايب الطعام المحبوب
ولكن يوماً صائفاً جاء بما لا أريد، فقدم إلي طعام لا أشتهيه في أيام الصيف، وكانت النتيجة أن أهم بالاعتراض، وعلى من أعترض؟
إن زوجتي تحتمل غضبي، ولا يصعب عليها أن تترضاني، فهل ألومها على الذي اختارت من الطعام في ذلك اليوم الصائف؟
في أقصر من لمح البصر تيقظ قلبي، وأدركت أن الاعتراض على رزق الله بداية الانخذال، وأني لو جحدت الرزق في أي صورة لذهب إلى غير معاد
أقبلت على الطعام كارهاً لأتقي غضب الله وإيذاء زوجتي، فرأيته طعاماً شهياً لم أتذوق مثله من قبل، وكانت العاقبة أن أحمد الله من صميم الوجدان
إن نعم الله تواجهنا من كل جانب، ويكذب من يزعم أن الله يتخلى عمن يتوكلون عليه في النعماء والبأساء
الله لا يتخلى عنا إلا حين ننساه
وهل يتخلى الله عنا حين ننساه؟
إنه يتركنا لما نريد بأنفسنا، فيجب إلى من نعتمد عليهم أن يشغلونا عنه بالجاه والمال، تأديباً للانحراف عن طريق الرشاد؛ والعقاب الصارم هو أن تستغني عن الله وتحتاج إلى الناس
الديدان الجاهلات في أجواف الأحجار والثلوج أصدق إيماناً بالله من أشباه العلماء والشجرة اليتيمة في البادية القاسية ترى الله بأقوى مما تراه الأشجار المزودة بالأنهار الجارية
وهل حفظ تاريخ الملوك بقدر ما حفظ تاريخ الصوفية؟
إن الفاجرين الذين صدقوا في فجورهم كانت لهم مكانة في التاريخ القديم والحديث، فكيف يضيع من آمنوا بصاحب العزة والجبروت؟
كن مع الله تر الله معك
صديقي العزيز
هل تذكر حديثنا منذ أيام ونحن نقطع الطريق في وهج الظهيرة من وزارة المعارف إلى ميدان باب الحديد، مع أننا نملك اجتياز المسافة بسيارة لا تكلفنا غير دراهم معدودات؟
هل تذكر أني قلت لك إني أحب أن أرى نعم الله على عباده ليزداد إيماني؟
وماذا رأينا في ذلك الطريق؟
أنت لم تر شيئاً، لأنك كنت مشغولاً بمحادثتي في شؤون لا ينقلها سمعي إلى قلبي، وسيطول بلاؤك بتلك الشؤون، فهي لا تخرج عن منصبك وراتبك، ولا تزيد عن شكواك من نظام الترقيات والعلاوات، يا عبد الوظيفة ويا عبد التراب!
أما أنا فقد رأيت ورأيت، فهل تحب أن تعرف بعض ما رأيت؟
لقد اقتنعت بأن الله لم يجعل القاهرة مدينة البؤس، كما يقول بعض الناس، فمن السهل أن ترى العيون ألوفا من المنعمين بالثروة والعافية والجمال
في كل لحظة يقع النظر على وجه أصبح، ويقع القلب على روح لطيف
وفي كل خطوة ترى طلائع من طلاب الرزق الحلال، ترى عمالاً يكدحون ليعودوا إلى أهليهم في المساء وجيوبهم عامرة وأنفسهم في ابتهاج
وهل قامت تلك البنايات الشامخات إلا بسواعد أولئك الفتيان الضاحكين برغم شظف العيش وخشونة الثياب؟
إن منظر ذلك البواب سرني، فقد أسند رأسه إلى الباب وغفا غفوة مريحة لن تظفر بمثلها في سريرك، يا مشغولاً بحظك الفضفاض من دنياك
ومن العجب العجاب أن ترى رجلاً يقرأ في مصحف وهو على كيس أحد المخازن التجارية، كأنه لم يسمع أن بدعة العصر توجب نسيان المصاحف والأناجيل!
وفي الشارع رأينا جنوداً يحتضنون زجاجات البيرة، وبالقرب منهم رأينا عمالاً يحتضنون القلل القناوية، فأين السعداء من أولئك وهؤلاء؟
صاحب الزجاجة يبتلعها ابتلاعاً قبل أن يحل عليه أمر الحاكم العسكري بانتهاء الوقت المحدد للشراب، وصاحب القلة يمتص منها رشفة بعد رشفة وهو في أمان

هل رأيت ذلك الفتى؟
إنه غلام لم تظفر بمثله قصور الملوك في عصور الترف والطغيان، فكيف رضي أن يكون عاملاً فقيراً، وهو يستطيع بشبابه وجماله أن يكون زهرة بستان أحد الأغنياء؟
في مصر معنى اسمه الشرف، وهو معنى ظفرت منه مصر بأعظم نصيب
وهل رأيت تلك الفتاة؟
إنها ريحانة مطلولة، وهي تستطيع الاتجار بالقلوب لو أرادت، ولكنها لا تريد لأنها مصرية، والمصرية نموذج في التصون والعفاف، ويكذب من يزعم أن مخاطر الحرب غيرت أخلاق المصريات
نحن بنينا مدينة القاهرة بأخلاقنا قبل أن نبنيها بسواعدنا، والساعد المتين فرع عن الخلق المتين
إنك لا ترى جلال الله في أي مكان كما تراه في القاهرة، ولعلها أول مدينة ينتصر فيها الجد وينهزم الهزل
ألا ترى أن روح القاهرة ظل قهاراً برغم عوادي الحرب؟
والذي يعوزك يا صديقي هو أن تكون مصرياً مؤمناً بالله، لتنتصر على أوهامك، ولتكون من أعاظم الرجال
إنك تلومني على أن أظل بين أقلامي وأوراقي ساعات من كل يوم، فهل تعرف السبب فيما اخترت لنفسي؟
إني أؤدي زكاة العافية، وأنا أفهم كيف أراد الله أن يحميني من قضاء ليلة واحدة في سرير المرض، على طول ما شرقت وغربت في السنين العجاف
وأنت يا صديقي تنكر أن أضيع حظي ممن عرفت من أكابر الوزراء
وأقول إني أخشى أن يغضب الله علي إن اعتمدت على سواه
قال صاحبي: كن مع الدنيا لترتفع معك
فقلت: وأنا لا أنخفض ليرتفع أصحابي!
سخافات الأغاني الشعبية
تقدم محطة الإذاعة من يوم إلى يوم ومن ليلة إلى ليلة أشياء تسميها الأغاني الشعبية، وهي أغان يغلب عليها السخف، لأنها تحاول دائماً أن تجعل لغة الشعب المصري لغة بعض أبنائه من أهل الصعيد (!؟)
والخطأ ظاهر في هذه المحاولة، لأن اللغة العامية للشعب المصري هي لغة أهل القاهرة، كما أن اللغة العامية للشعب الفرنسي هي لغة أهل باريس
وقد كان للصعايدة لغة خاصة يوم كانوا لا يتصلون بالعاصمة إلا بعد سفر يطول حتى يحترم أسابيع وأسابيع، فكيف تكون لهم لغة خاصة بعد أن صارت المسافة بين القاهرة وأسيوط لا تزيد عن المسافة بين القاهرة ودمياط إلا بدقائق، والمسافة هنا وهناك يقطعها القطار في مدة أقصر مما بين باريس وليون؟
سمعت في مساء اليوم الثالث والعشرين من شهر أيلول مغنياً يقول:
(طال بعدك ولا ساجل عني)
و (ساجل) هي (سائل) فهل سمعتم في أي أرض عربية أن الهمزة تنطق جيماً إلا على ألسنة الجهلة من أصحاب الأغاني الشعبية في محطة الإذاعة المصرية؟
إن لغة الخرطوم هي لغة القاهرة بالضبط الصحيح، فهل ترون الخرطوم أقرب إلى القاهرة من أسيوط؟
اتقوا الله في مصر يا جماعة المتحذلقين من أنصار العامية، فما يقول (ساجل) وهو يريد (سائل) إلا سخيف بلغ سخفه حداً لا يطاق
(طال بعدك ولا ساجل عني)
ذلك ما هتف به مغنٍ في محطة الإذاعة ولي عليه شهود، فماذا يبتغي هذا الظريف؟
أيزعم أن الصعايدة يجعلون الهمزة جيماً، وذلك زعم سخيف؟
إن لغة المصريين ارتقت رقياً عظيماً، وصار في مقدور صغار العوام عندنا أن يفهموا ما تنشره أعظم المجلات الأدبية بأيسر مجهود
ولكن محطة الإذاعة لا تفهم هذا القول
وأين محطة الإذاعة؟ حدثوني فقد غاب عنوانها عني!

إن جاريت المطرب الذي فرحت به فهي محطة (القزاعة) بالقاف، ولن ألتفت إلى (سقالها) إن وجهت إلي (السؤال)
الأغاني الشعبية في محطة الإذاعة هي ردة سخيفة إلى عهود لا نحب أن تعود
إن كانت محطة الإذاعة تريد أن تكون محطة بهلوانية فهي وما تريد، على شرط أن تصرح بأن أغانيها الشعبية عبث أطفال
الجد هو دستور الحياة ولو كان في صورة الهزل، فجدي يا محطة الإذاعة لتكوني صوت الحق في هذه البلاد
زكي مبارك
مهمة تجديد الأدب العربي بين الشباب وبين الشيوخ
للأستاذ دريني خشبة
سألني بعض أصدقائي لماذا أومن بالشباب دون الشيوخ، ولماذا أرجو أن ينهضوا دونهم بعبء إنهاض الأدب العربي، وسد تلك الثغرات الشائنة فيه، تلك الثغرات التي تجعل مصر والشعوب العربية جمعاء تعيش في الماضي وتنجذب إليه أكثر مما تعيش في الحاضر وتتشوف إلى المستقبل. . .
وأريد أن أصحح لأصدقائي ما وقر في أذهانهم من أنني لا أومن بأدبائنا الشيوخ، إذ أنا، وقد جاوزت حد الأربعين، أكاد أنحاز إلى معسكرهم، منفتلاً من معسكر الشباب الذي يعز علي أن أفارقه، ويسرني أن أعيش فيه بقلبي ونشأتي وأفكاري وجهادي الأدبي المتواضع. . . أريد أن أصحح لأصدقائي هؤلاء ما وقر في أذهانهم من ذلك، إذ أنا أول من يجل أدبائنا الشيوخ، وأول من يعرف لهم حقهم الذي لا يماري في نهضتنا الفكرية والأدبية، وفي تبوء مصر تلك المنزلة الفريدة بين الأمم العربية. . . صحيح أنني أغضيت عن ذكر أحد من شعرائنا الشيوخ في سياق كلامي عن الدرامة المنظومة. . . وقد أغضيت كذلك عن ذكر أحد من الشعراء غير المصريين. . . أما لماذا أغضيت عن ذكر أحد من شعرائنا الشيوخ فليس سببه عدم الإيمان بهؤلاء الشعراء الإجلاء الأعزاء الذين سبقونا وعبدوا لنا الطريق وأبانوا معالم النهضة ووصلوا ماضي الأدب العربي بحاضره. . . إنما سببه تلك الروح الشؤمية السوداء المنتشرة في معسكر هؤلاء الشعراء الشيوخ. . . فأنت لا تكاد تتحدث إلى واحد منهم عن تخلف الأدب العربي على العموم والشعر العربي على الخصوص في مسايرة الآداب العالمية ومواكبة ما يجد فيها من مذاهب واتجاهات حتى يعبس وتحس بالضيق الذي يكربه، ويأخذ في الشكوى التي لا معنى لها من قلة التقدير في هذا البلد الذي قضى أن يعيش أدباؤه غرباء فيه. . . ثم يضرب لك الأمثال. . . فهذا العقاد لم يملك إلى اليوم قصراً ولم يقتن بعد ضيعة. وذاك المازني ما يزال يجالد بقلمه ويجاهد بدمه وبينه وبين شراء عزبة أو اقتناء أبعادية ما بين الأرض والسماوات. وهذا أحمد محرم لا تستحيي الدولة من أن تمن عليه بأنها رثت لحالته وأرادت أن تقدرها قدره فعينته أميناً لمكتبة دمنهور الإقليمية بهذا الراتب الضئيل النحيل القليل الهزيل من الجنيهات. ثم هذا
أحمد الكاشف الذي لا أرى أن أجرح كبرياءه - هكذا يقول محدثي - فأذكر لك كيف يعيش. . . ثم ذاك طاهر الجبلاوي الذي يسهر الليالي في نظم درامته (ديك الجن)، تلك الدرامة الشائقة التي تعجب بها وزارة المعارف، ويقرها تفتيش اللغة العربية، وتكتب عنه إدارة التمثيل التقارير الشافية الوافية. . . ماذا كان جزاءه وماذا كانت مكافأته؟ هل رأت درامته ضوء الشمس؟ هل نفذت إلى أنوار المسرح؟ هل أحس بها إنسان؟ لقد نامت فيمن نام من أهل الكهف يا سيدي. . . ثم هذا الشاعر النابغة (رشاد راضي) ناظم درامة (جميل وبثينة)، ماذا لقي من زمانه وماذا لقي زمانه منه؟ أشهد لو أنك قرأت تلك الدرامة أو شهدتها على خشبة المسرح لفضلتها ألف مرة على مجنون ليلى للمرحوم شوقي بك؟! وذاك الشاعر النابه علي أحمد باكثير. . . لقد سهر المسكين عاماً وعاماً ثم عاماً ثالثاً فنظم درامة السماء أو إخناتون ونفرتيتي، ودرامة إبراهيم باشا بطل مصر الأول، ودرامة كذا وكذا وكذا. . . وفكر في الذي تفكر فيه من استحداث الشعر المرسل والشعر الحر في الشعر العربي، وابتدع في ذلك وأبدع، فهل أحس أحد به؟ هاهي ذي درامته (السماء) مطبوعة، وقد قامر بطبعها إبان جنون أزمة غلاء الورق، فهل تدري كم نسخة بيعت؟ وهل سمعت أن المسرح المصري شهد تلك الدرامة الشائقة الفائقة؟

وعلى هذا النحو أراد الشيخ أن يأكلني ويشربني لينتزع مني إقراراً بالموافقة على وجهة نظره التي تفيض بالشؤم - أقصد التشاؤم؟! - والتي تصدر عن روح كئيبة سادرة لم تعرف كيف تستهزئ بهذا الذي يسميه صاحبها قلة تقدير أو سوء إنصاف يقضيان أن تنحل أوصال الأدب وتفتر أعصاب الأدباء فلا يكون ثمة نشاط ولا يكون هنالك إنتاج، لأن الحكومة قاتلها الله لا تبيح خزائنها لهؤلاء الأدباء، ولأن الأمة صنع الله لها لا توليهم رعايتها، ولأنهم يأمرون فلا يطاعون، وينشدون فلا يجدون سميعاً. . . ألا رحم الله شاعر المعرة الذي اعتذر لقاضي قضاة مصر، أن يعيش في دنيا من ذهب، مؤثراً عيش الكفاف الذي جعل منه شاعر العربية وفيلسوفها الأكبر. ورحم الله دستونفسكي وولتر سكوت وكارل ماركس، ومئات الأدباء والشعراء الذين كانوا يذوبون جوعاً في حين تتخم آدابهم وأشعارهم وأفكارهم أدمغة العالم. . . إننا ما سمعنا قط أن أحدهم اتخذ من مسغبته حجة للانصراف عن الأدب أو التقاعس عن قرض الشعر. . . لقد رجوت محدثي أن يبحث لي

عن شاعرنا الكبير عبد الرحمن شكري أين هو من عالم الشعر ودنيا الأدب. . . وهو والحمد لله - غير محسود ولا مغبوط - في سعة من الرزق، ولم يفرض عليه أن يجالد بقلمه أو يجاهد بدمه ليعيش. . . أين هو اليوم يا ترى؟ أين بلبله الصداح وشحروره المغني؟ أين قيثاره وأين نايه وأين موسيقاه؟ ثم رجوته أن يخبرني لماذا هجر المازني الشعر. . . فلما عجز عن الإجابة توليتها أنا فأكدت له أنه عز عليه ألا يستحدث جديداً في الشعر العربي، وهو أعرف الناس بما عليه الشعر الإنجليزي من سمو وثروة واتساع ويسر، فغثيت نفسه وضاقت بأوزان الشعر العربي التي لم تتجدد قط مدى ألفين من السنين، اللهم إلا قليلاً. . . ولو أن الأستاذ المازني احتفظ للشعر العربي بميزته الشخصية التي هي الترجمة لأفاده فائدة جليلة القدر. . . إلا أن الكسل قاتله الله صرفه عن ذلك أيضاً. . . أما العقاد العظيم فهو سيد شعراء المعاني غير مدافع، والذين زعموا أنه لا شأن له بالشعر هم قوم قليلو البصر بالشعر، بل ربما كان الأحسن ألا يكون لهم هم شأن بالشعر. . . ولو أن العقاد كان يعنى بديباجته وتجويد أسلوبه الشعري لخر أمامه أولئك النقاد جثياً. . . لقد كان لنا في العقاد أمل ضخم رددناه يوم أصدر ديوانه الضخم المشتمل على ملحمة (الشيطان)، وكنا ننتظر أن يغزو العقاد للشعر العربي ميادين جديدة في الملحمة والشعر القصصي والدرامة. . . إلا أن العقاد انصرف عن ذلك إلى القصائد والمقطوعات. ولسنا نبالي السبب الذي صرفه عن ذلك، إنما نبالي أنه أضاع أملنا فيه بعد إذ كان أملنا معقوداً به. . . على أننا لا نزال نعلل النفس بالأماني في العقاد، لأننا أعرف الناس بقدرته في الإنتاج وصبره على الكفاح الأدبي نحو المثل العليا. . . أما أحمد محرم فلسنا نعرف عن جهوده في النظم المثالي شيئاً بعد إسلاميته الرائعة الطويلة الجديرة بالإعجاب. ونحن نتوجه إليه بالرجاء أيضاً أن يستيقظ، إذ هو في نظرنا في مقدمة شعرائنا تجويداً وطول نفس وتفضيلاً لفخامة العبارة وإشراق الأسلوب. وبهذه المناسبة أذكر شاعرنا الجارم الشيخ. . . ذلك الشاعر الغزل الرقيق. . . ماذا صنع في دنياه غير تلك القصائد التي يوجد من أشباهها الشيء الكثير في الشعر العباسي والشعر الأندلسي. . . لعل المعاش الهانئ الذي يتمتع به الشيخ، بارك الله لنا فيه، أن يوفر له من الوقت ما يعينه على نظم ملحمة أو قصة وإن كنا نطمع أن ينظم ملاحم وقصصاً كثيرة. . .

وأما الشاعر الكاشف فليس لدينا ما نقوله فيه، ولا نملك إلا الدعاء له بحسن الحال ورغد العيش. . . وأما شكوى صديقنا الجبلاوي من تعطيل درامته (ديك الجن) وما كان لهذا التعطيل من نكسة أدبية في نفسه، فأنا لا أقر وجهة نظره وأنا بالرغم مما سقته في مقالاتي عن المسرح المصري من لوم الوزارة، لا أرى أن يتكل أدبائنا على العون الذي يحلمون به من الدولة، بل أرى أن يثور الأدباء على طريقة الإنتاج الأدبي القديم - أدب القصيدة والمقالة والمقطوعة - وإغراق السوق الأدبية بأدب القصة والدرامة - المنظومة والمنثورة - والملحمة والقصة المنظومة. . . ثم أنا زعيم للصديق الجبلاوي بأن اليوم الذي يستطيع الأدباء أن يدووا بأصواتهم في آذان الوزارة فتصيخ لهم وتستجيب لندائهم قريب لا ريب فيه، وإن لم تستجب الوزارة طوعاً فثمة وسائل لا حصر لها لإغرائها بالاستجابة. ويجب أن نستعد لهذا اليوم بأن نملأ أيدينا بهذه الألوان من الأدب التي يفتقر إليها الأدب العربي. . . وفرصة الأدباء وافية مؤاتية، فزعيمهم

وعميد الأدب العربي لن يملك إلا أن يمد يده لتلك الحركة بالعون والمساعدة، والعون والمساعدة إنما ينبغي أن ينحصرا أول الأمر في أن تطبع الدولة على نفقتها ثمرات قرائح أدبائها المجددين ثم مكافئتهم ولو في حدود (جهد المقل!). . . وقبل أن أفرغ من استعراض شعرائنا الشيوخ لا أرى بداً من التنويه بالأستاذ فريد أبى حديد وكيل دار الكتب الآن وناظم مقتل عثمان وغيرها وغيرها. . .، فلقد سألته مرة ماذا أعد لسوق الأدب، فتبسم ضاحكاً ثم قال مازحاً: (إن صواميله قد نعمت! وأن لا رجاء في عودتها للعمل!) وأنا أسأل الله أن تخشن هذه الصواميل ليعود دولاب أبى حديد إلى المساهمة في ثورة الأدب العربي من جديد

هذا هو موقفنا من شعرائنا الشيوخ صريحاً لا لبس فيه. . . أما شعراؤنا الشباب فهم بكل صراحة أملنا ومعقد رجائنا في مستقبل الشعر العربي. . . وقد بدأ كثيرون منهم يستجيبون لدعوتنا. . . وقد وصلتني (عينات) شائقة بالفعل تنبئ بتباشير نهضة رائعة. ولست أذيع سراً إذا بشرت القراء الأعزاء بأن صديقي الشاعر النابه الأستاذ محمود الخفيف قد فرغ بالفعل من نظم ملحمة باكية في مقتل الحسين رضي الله عنه. . . ولست أذيع سراً آخر إذا بشرتهم بما بشرني الأستاذ الخفيف من أن الشاعر المبدع علي محمود طه أوشك على الفراغ من نظم درامة رائعة سيفاجئ محبيه بها قريباً

ولا يفهم القراء من هذا الكلام الطويل أنني أقصر نهضة الأدب العربي على ميدان الشعر فحسب، فهنالك أدب القصة الطويلة الذي لم يستو على سوقه بعد، وأن ظهر عندنا كتاب مبدعون قدموا لنا أقاصيص رائعة تبشر بمستقبل باهر لهذا اللون الهام من ألوان الأدب. والظاهرة التي أحب أن أفتح عيون أدباء الشباب عليها وألفتهم إليها هي أن شيوخ الأدباء عندنا يملكون زمام هذا الميدان كله تقريباً، ولا سيما في القصة المتوسطة. . . فليلق شبابنا الأدباء بالهم إلى ذلك، وليتنبهوا له، ولتكن منهم فئة يعنون بأدب القصة الطويلة، حتى إذا آل إليهم زمام الأدب في المستقبل القريب كانت معهم مؤنه تكفي لبناء شهرتهم وتخليد ذكرهم. . . وليذكروا كذلك أن معظم روائع الأدب الغربي المترجمة هي من إنتاج الشيوخ دونهم، وعلى هذا، فينبغي عليهم أن يساهموا في الترجمة بنصيب

أما الأدباء غير المصريين فإلى مقال قريب إن شاء الله.

دريني خشبة

قصة دائرة المعارف الإسلامية

للأستاذ صلاح الدين المنجد

الأنسيكلوبيدية الفرنسية، معجم شامل للمعارف الإنسانية؛ أخرجته طائفة من علماء قرن الثامن عشر وفلاسفته وضمنوه ثمرة دراساتهم الطوال، فبدت فيه روح العصر وعاداته، وطرائق أهله في المساجلات والمهاترات

لم ينشأ عن دائرة المعارف هذه، بعث أدبي أو علمي، فقد كانت نتيجة لعوامل شتى، لا سبباً لها، وكانت ملتقى تيارات تتعارض ونظريات تتضارب، ويلاحظ الأستاذ (أوبيرتان في كتابه: (روح القرن الثامن عشر) أن هذه التيارات تنحصر في الأمور التالية

1 - الانطلاق: وكان مدلوله في لقرن السابع عشر استقلال الفكر، وشنشنة ضد الدين. وكان معناه في القرن الثامن عشر تظاهراً بالدعة مع الجحود والكفران

2 - الروح العلمي. فقد هيمنت روح العلم على نفر كبير من الناس، فأضحوا يتعلقون بالحادثات الواقعة. نابذين وراء ظهورهم ما وراء الطبيعة، ثائرين على السلطان. وكانوا يفتخرون بالتقدم العلمي الذي رأوه آنذاك، ويعتقدون أن الوقت قد حان لوضع أسس جدد، ومناهج واضحة تسلكها الأجيال القادمة.

3 - الرغبة في الاستقلال السياسي، فقد مال الناس إلى احتقار سلطان الملكية، والثور عليه، والسعي في تحطيمه، ليتقوى سلطان الشعب

4 - الميل إلى تقليد الأجنبي وخاصة إلى تقليد إنجلترا؛ فقد كان الفرنسيون يرون في كل ناحية من نواحي السياسة والعلم والدين والأدب فيها مثلاً سامياً جديراً بأن يقتفى أثره، وأن يقلد

فهذه الميول المختلفة. كانت مظاهر عالم جديد يريد أن يحيى. وكانت هذه البيئة تحس في نفسها قوة وجلداً؛ وترى أنها قادرة على تحطيم ما خلفه لها الآباء والأجداد، ولا بد للناس أن يعلموا ما خلفته الأجيال الخالية، وما بذلته من جهود في سبيل رقي

الإنسانية، ولابد لهم أن يدركوا كيف بدأ أجدادهم والى أية نقطة من طريق الإنسانية الطويل قد بلغوا. فدائرة المعارف كانت وسيلة إلى ذلك
ظهرت دائرة المعارف سنة 1745. فقد أذن لصاحب مكتبة آنئذ، أن ينقل إلى الفرنسية
دائرة معارف العلوم والفنون ' التي ألفها الإنجليزي فاستشار، ذاك الكتبي عدداً من العلماء. وكانت هذه الاستشارات لا تجدي شيئاً. فعهد عندئذ إلى (ديدرو بهذا العمل، وكان ذا فكر ثاقب محيط. فرأى أنه يستطيع توجيه ذاك الكتبي نحو فكرة قد تكون أكثر جدوى، وأقرب نفعاً؛ فلماذا ينقل إلى الفرنسية معجم ذلك الإنجليزي؟ أليس من الخير لبلاده أن يكتب المعارف الإنسانية بفكر فلسفي ويقدمها للناس؟ لا جرم أن ذلك يساعد على انتشار آرائه، وتبيان ما يذهب هو والفلاسفة إليه، ويكون وسيلة لجمع شتات فلاسفة عصره. وزين ديدرو للكتبي فكرته فقبل. وعندئذ اتصل بدالامبير ' وانعكفا على وضع نهج العمل
على أن نهج العمل واضح لا يحتاج إلى جهد وتفكر، إنما الذي يدعو إلى التفكير هو الحصول على المال. فالمعجم سيكون كبيراً. وهو يحتاج إلى نفقات قد تثقل عاتق الناشر. وعمدوا إلى اكتتاب بالاشتراك. وساعد على ذلك محافل الماسونيين في العالم كله، واهتمت السلطات العامة بهذا الأمر. وتدفقت الأموال على الناشر وصاحبيه. وابتدءوا يعملون
وفي سنة 1750 أخرج ديدرو المجلد الأول، وفيه المنهج الذي سيكون المعجم عليه، وتبيان ما سيتضمنه ويحويه. ومقاله لدالامبير سماها:
ولم يكد يظهر المجلد الأول حتى تهافت الناس على شرائه؛ ونال رواجاً كبيراً، وأبدى كثير من الكتاب والعلماء رغبتهم في مساعدة ديدرو ودالامبير
وظهر المجلد الثاني؛ وفيه طعن ديدرو على القديم طعناً موجعاً، وثار الناس على مقالة كتبها الأب دبراد محرر دائرة المعارف في الإلهيات. وهب رجال الدين يطعنون على هذا المعجم الذي يسوق إلى الإلحاد ويدفع إلى الكفر، واضطربت السلطة، واضطرت إلى مصادرة الجزأين. وكاد ديدرو أن يسجن في الباستيل، ولكن الناشر ما زال يسعى حتى أذن له مرة ثانية بإخراجها
وما كادت سنة 1757 تطلع على الناس حتى حدث ما لم يكن بالحسبان. فقد أثرت الأحداث السياسية في فرنسة فكانت مؤامرة داميان الذي طعن لويس الخامس عشر بطعنة موسى، وكان فشل روسباخ مما سبب يقظة الشعور الوطني والأخلاقي. ودعا إلى شن هجوم شديد على أولئك الفلاسفة المخربين الهدامين. ومما ساعد على ذلك مقالة عن (جنيف) كتبها دالامبير، وكتاب (الفكر الذي كتبه (هيلفيتيوس فازداد الطعن على دائرة
المعارف ورجالها، حتى اضطر الملك إلى إيقافها، ولكن الناشر استطاع بعون من مدام دبومبادور حظية الملك أن يصدرها. فصدرت وحمتها رجال الشرطة. وظلت تصدر حتى عام 1772 إذ انفض عن ديدرو، دالامبير وروسو، وبقي وحده
كانت دائرة المعارف كما ذكرت معجماً رتب على الحروف الهجائية. وكان يبحث في الرياضيات والطبيعيات والإلهيات. وكان مراسلوها يذكرون ما وصلت إليه الإنسانية في كل علم أو فن. ويلاحظ دوكرو في كتابه (رجال دائرة المعارف) أن ديدرو تنبأ بمستقبل الفنون الميكانيكية، فكتبه مقالات كثيرة عن كل صناعة وبين خططها وصورها
ولكن على رغم ذلك فإن دائرة المعارف ظلت خليطاً من أمور غامضة تارة ومضطربة أخرى. لا جرم أنه كان فيها الجيد، ولكن كان إلى جانبه الرذيل الرديء. وسر ذلك أن مباحثها كتبت بسرعة دون تأمل أو روية
على أن الذي يدهشني حقاً فيها تلك الروح المهيمنة عليها في كل صفحة من صفحاتها، بل في كل سطر من سطورها. فلقد استطاع ديدرو، بل وفق إلى انتقاء مراسليه من الفلاسفة الذين كان بينهم وبينه نسب في الفكر والمذهب. فإذا تصفحت دائرة المعارف بدا لك هذا الفكر الفلسفي الذي لا يؤمن بكل أمر خفي، ويسخر من كل أمر مطلق أو خارق، ولا يعتقد بما وراء الطبيعة، ويدعو إلى حرية الفكر والكلام والعمل وما كانوا يصرحون بذلك تصريحاً تاما، ولكنهم كانوا يدسون السم في الدسم،

ويحشون مقالاتهم أفكاراً تسوق إلى ما يريدون. وقد كان من أشد ما يدعون إليه أن يحاربوا المذاهب والآراء التقليدية الموروثة، وأن يسخروا منها فيصيبها التهديم ومهما كان من أمرها، فلقد كانت وسيلة لاجتماع رجال كبار. فقد كتب فيها: مونتسكيو . . .ورسو وفولتير، وكتب ديدرو ودالامبير ودجوكور وديبنتون ومارمو نتيل وغيرهم ويلاحظ روستان في كتابه (الفلاسفة والهيئة الاجتماعية في القرن الثامن عشر) أن مراسلي دائرة المعارف كانوا أشد حماسة من القائمين عليها. نرى ذلك عندما نقرأ مقالات كونديلاك تلميذ لوك، وهلفيتيوس الذي دعا إلى المادية أجرأ دعوة، وغيرهما

وما زالت دائرة المعارف تتستر، حتى ظهر جلياً ما تدعو إليه. وعندئذ تركها روسو، وراح يطعن عليها وينعتها بأنها آلة تهديم، ويعتذر لنفسه بأنها كتب فيها عن الموسيقى، وقد خفي عليه ما يريدون

ولكن طعن روسو، ومن قبله طعن رجال الدين لم يفيدا شيئاً، فقد انتشرت انتشاراً سريعاً، فقرأها البرجوازيون المثقفون، وقرأها بعض الكهنة، وأعجب بها المحامون. ولئن انفض عنها رجالها، ثم توقفت، فلقد غرست في العقول الشك، وساقت الناس إلى حدث اجتماعي عظيم هو الثورة الفرنسية.

(دمشق)

صلاح الدين المنجد

الإسلام والفنون الجميلة - 3

للأستاذ محمد عبد العزيز مرزوق

وكما أجاد المسلمون فن الخط، فقد بلغوا في الزخرفة شأواً بعيداً أقل ما يشهد به أن كلمة (الأرابسك) علم - في تاريخ الفن - على نوع معين من الزخرفة ابتدعه الفنان المسلم. حقاً إنه لم يبتكر وحدات زخرفية جديدة بل استعمل ما وجده بين يديه من مخلفات الفنون السابقة على الإسلام، إلا أنه لا سبيل إلى إنكار مقدرته في طريقة رسم هذه الوحدات الزخرفية وتوزيعها والتأليف بينها وتنسيقها تنسيقاً يجعلها تبدو كأنها اخترعت لأول مرة وما هي كذلك، ولكنه صهرها في بوتقته ومزجها بفلسفته وسلط عليها أشعة عبقريته فخرجت من بين يديه فناً جديداً لا يخفى عليك أصله ولكنك لا تستطيع أن تنكر عليه شخصيته القوية الواضحة

لم يخترع أشكالاً هندسية جديدة، ولكنه بالغ في تقسيمها وتحليلها، نراها تارة متشابكة، وأخرى متداخلة، وأحياناً متلاصقة وأحياناً متباعدة، حتى ليصح لنا أن نقول في اطمئنان إنه بعث في هذا النوع من الزخرف روحاً من لدنه فبدا في ثوب من الجمال قشيب لم يكن له قبل الإسلام

ولم يبتكر وحدات نباتية أو حيوانية بل رسم الأزهار والأشجار والأوراق والسيقان، والطيور والحيوان بعد أن حورها تحويراً كادت معه أن تفقد شخصيتها كوحدات نباتية أو حيوانية، ولكنها وإن بعدت عن الطبيعة فقد دلت على سعة خيال مبدعها وصفاء قريحته

ونفر من الفراغ، وكره أن يرى سطحاً عاطلاً من الزخرف فكرر الوحدات الزخرفية المذكورة تكراراً يمكن أن يستمر دون أن يقف عند حد

وهذه المظاهر الجديدة إتقان الزخرفة الهندسية، وتحوير العناصر النباتية والحيوانية، وتكرار الوحدات الزخرفية، والنفور من الفراغ، هي في الغالب نتيجة لبعض توجيهات في الدين الإسلامي: فقد كان التصوير - وسنتحدث عنه فيما بعد - أمراً غير مرغوب فيه عند كثير من المسلمين نظراً لما حام حول مزاولته من شك، فانصرف نشاط الفنانين إلى نواحي أخرى؛ ولعلهم كانوا متأثرين في بعض ما اتجهوا إليه بما روي في صحيح لبخاري (كتاب البيوع) عن سعيد بن أبي الحسن إذ يقول: (كنت عند ابن عباس رضي الله عنهما

إذ أتاه رجل فقال: يا ابن عباس، إني إنسان إنما معيشتي من صنعة يدي، وإني أصنع هذه التصاوير. فقال ابن عباس: لا أحدثك إلا ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول، سمعته يقول من صور صورة فإن الله معذبه حتى ينفخ فيها الروح وليس بنافخ فيها أبداً.

فربا الرجل ربوة واصفر وجهه؛ فقال ويحك إن أبيت إلا أن تصنع فعليك بهذا الشجر وكل شيء ليس فيه روح) فلا عجب إذا بلغت الزخارف الهندسية على يديهم ذروة الإجادة، وأصبحت الزخارف النباتية آية في الإبداع والإتقان وإن كانت بعيدة عن تمثيل الطبيعة تمثيلاً صحيحاً في معظم الأحيان، شأنها في ذلك شأن الزخارف الحيوانية التي ترخص في رسمها بعض الفنانين. على أن هذا البعد عن الطبيعة لم يكن نتيجة لضعف في الملاحظة أو نقص في المقدرة بل هو، في أغلب الظن، مقصود لذاته، ولعله ناشئ عن تلك العقيدة التي يؤمن بها كل مسلم أشد الإيمان: ذلك أن البقاء لله وحده، وأن العالم بمن فيه وما فيه مآله إلى الزوال (كل شيء هالك إلا وجهه) (كل من عليها فان، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام). وليس من اللائق وهذه العقيدة منقوشة في أذهان المسلمين جميعاً أن يخلد رجال الفن منهم بأعمالهم الفنية ما كتب الله عليه الفناء، لذلك نجدهم لم يعنوا بتصوير الشخصيات العظيمة في لوحات كبيرة أو تماثيل ضخمة تبقى على الدهر، أو تمثيل جمال الطبيعة بالنقل عنها نقلاً صحيحاً، بل يأخذون من عناصرها ما يرون، ويهذبون فيه ما شاءت لهم ميولهم ومواهبهم الفنية، ثم يكونون من هذه العناصر المهذبة زخرفة لا تمت إلى الطبيعة بصلة، قوامها أغصان نباتية متشابكة يتفرع بعضها من بعض، وأوراق أشجار مختلفة يخرج بعضها من بعض، وأزهار وفواكه تنبت من الأوراق أحياناً ومن الأغصان أحياناً أخرى، وهي في مجموعها تعطي منظراً ترتاح له العين ويسر به الفؤاد

ويعنى الفنان المسلم عناية واضحة بالتفاصيل الدقيقة، ويميل - بل ويسرف في هذا الميل أحياناً - إلى عدم ترك فراغ ملحوظ بين الوحدات الزخرفية، وربما كان مسوقاً إلى ذلك بفكرة كامنة في نفسه تجعله حريصاً على أن يخرج زخرفته بحيث لا يستقر النظر فيها على شيء معين يترك في الذهن صورة واضحة تحتل بؤرة الشعور. أما هذه الفكرة فهي رغبته في الحيلولة بين نفسه وبين الغرور الذي يملك الفنان أحياناً عند ما يتأمل في أثره الفني فيراه واضح المعالم والخطوط، ويدرك أنه استطاع أن يرسم بريشته ما يضاهي به

خلق الله. كما أنه أيضاً قد أمن - في نفس الوقت بطريقته هذه - استغراق الناظر لذلك الأثر الفني في جمال الأثر فينسى مبدع الكائنات وهو يتأمل فيما صنع الإنسان على أن هناك ظاهرة في الزخرفة الإسلامية تلفت النظر، تتجلى لنا في الوحدات الزخرفية التي نرى فيها طائراً ينبت من جناحيه وذيله أغصان تتصل بها أزهار، أو سمكة ينتهي ذيلها بفرع نباتي ويخرج من رأسها وجسمها أوراق أشجار، أو رأس آدمي مركب على جسم طائر ذيله عبارة عن غصن طويل ملتف على نفسه، أو قطعة من خشب على شكل قيثارة مثلاً يخرج من جانبيها الأيمن والأيسر رأسا حصانين في فم كل منهما لجام يتخلص من طبيعته هذه بالتدريج حتى يصبح فرعاً نباتياً تتصل به أغصان وأزهار، وينبت من أذن كل منهما فرع نباتي يدور حول نفسه أولاً ثم يتفرع إلى فروع عدة، أو غير ذلك من الوحدات الزخرفية التي يجمع فيها الفنان عناصر الطبيعة المختلفة من حيوان ونبات وجماد بحيث يخرج بعضها من بعض؛ وكأنه في عمله هذا يرى أن المخلوقات كلها سواء يستوي لديه الحيوان والإنسان والنبات والجماد باعتبار أنها لا تثبت على صورة واحدة بل تتغير من حالة إلى حالة وليس لها جميعاً إلا وجود زائل سائر إلى الفناء بينما الخالق وحده هو الحق الباقي الذي لا يعتوره تغير ولا يلحقه فناء. والغالب أن الفنان المسلم متأثر في اتجاه هذا بتلك الآية الكريمة التي نزلت في إبراهيم عليه السلام والتي تشير إلى أن الثبات وعدم التغير من صفات الحق وحده دون مخلوقاته التي من شأنها التغير. يقول جل شأنه: (فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين. فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال إن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين. فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر، فلما أفلت قال يا قوم أني بريء مما تشركون. أني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين).

(يتبع)

محمد عبد العزيز مرزوق
الأمين المساعد بدار الآثار العربية

الدين العام المصري
نشأته وتطوراته
للأستاذ أحمد صادق موسى

ليس الدين شراً كله كما أنه ليس خيراً كله، ولكنه لم يأخذ أية أمة مثلما أخذ في مصر طريقاً حافلاً بالحوادث، مليئاً بالاضطرابات، حتى أصبح تاريخه في مصر تاريخاً لفترة طويلة في حياتها السياسية والمالية، شهدت فيها البلاد ألواناً شتى من التدخل الأجنبي، وصوراً متعددة من التعسف، وضروباً كثيرة من التقلب والاضطراب. ولقد انتقل حكم مصر إلى سعيد باشا والبلاد لا تعرف طريقاً إلى القروض الأجنبية، حتى أحاط بالوالي الجديد بطانة من الفرنسيين وعلى رأسهم فردناند دلسيبس، فزينوا له فوائد الإصلاح ويسروا له سبل الاقتراض، فامتدت يد سعيد باشا إلى المصارف الأوربية للمرة الأولى، ثم إلى الأهالي، فاقترض عدة قروض كان منها الدين الثابت على المصارف الأجنبية ويقدر بمبلغ 3. 292. 800 ج. ك ومنها الدين السائر على الأهالي ويقدر بمبلغ 7. 867. 200 جنيهاً. فلما توفي سعيد باشا ترك البلاد وعليها دين يزيد على الأحد عشر مليوناً من الجنيهات

وتولى الخديو إسماعيل عرش مصر، وكان شاباً جريئاً طموحا، يفيض قلبه بالآمال، ويجيش صدره بأجمل ما يتمناه ملك يتفانى في خدمة بلاده، فأسرعت البطانة الأوربية وخاصة الفرنسية بالالتفاف حوله، كما التفت حول سلفه، تلتمس فيه نقط الضعف، فإذا بها، ويا لفخره. . . رغبته في الإصلاح وحبه للإنشاء. فراحت تزين له آفاق هذا المجال وتمده بالمال، فاندفع نحو الاقتراض مدفوعاً برغبته الصادقة في إصلاح حال مصر، وبحسن نواياه وثقته بمن حوله، وهم بطانة من الأجانب المرتزقة، أو المصريين الذين أعمى الطمع قلوبهم وأضل أفئدتهم، فصرفهم عن أن يخلصوا النصح لمولاهم، أو يتبصروا عواقب الأمور. . . وراحت القروض تتوالى على مر السنوات، وترتفع الأرقام في سرعة هائلة، فإذا الديون الثابتة تبلغ من سنة 1862 إلى سنة 1873 (أي مع دين سعيد باشا الثابت) 68. 497. 160 ج. ك. والديون السائرة 25 مليوناً من الجنيهات. وقد كان أكبر هذه القروض الثابتة قيمة قرض سنة 1873 بمبلغ 32 مليون جنيه إنجليزي، وكان سعر الفائدة

7 % ؛ على أنه إنصافا للحق لم تصل القيمة الاسمية من الديون الثابتة إلى الحكومة؛ إنما دخلها منها 47. 357. 461 ج. ك فقط، وضاع الفرق ما بين القيمتين الاسمية والحقيقية، ويقدر بمبلغ 21. 139. 699 في السمسرة والعمولة والمصروفات الأخرى، حتى سعر الفائدة 7 % كان لا يعمل به، بل كانت تتراوح الفائدة الحقيقية ما بين 12 % و26 %. وقد رهنت في مقابل هذه الملايين إيرادات بعض مديريات الوجهين القبلي والبحري، وإيرادات الجمارك والسكك الحديدية وجميع الثغور والعوائد المختلفة، وإيرادات أملاك الدائرة السنية، وكان يقدر الدخل في الجميع بنحو ستة ملايين من الجنيهات، وبهذا أصبح معظم إيرادات القطر رهناً لهذه الديون الأجنبية. ولم تزد الحالة إلا سوءا؛ فكان كل قرض يعقد يجلب معه الاضطراب الشديد والخلل السريع إلى المالية المصرية، حتى أقبل عام 1875 فإذا بالحكومة عاجزة عن تسديد فوائد هذه الديون ودفع الأقساط في مواعيدها، وقد استخدم إسماعيل صديق باشا (المفتش) وزير المالية يومئذ كل ما تفتق عنه ذهنه من أساليب شيطانية لابتزاز الأموال لتسديد الأقساط. ولما شعر الخديو بشدة وطأة الحال عرض على إنجلترا رغبته في أن تبعث إليه بمالي كبير يدرس الحالة المالية ويعاون الوزير المصري في إدارة شؤونها وعلاج أسباب اضطرابها، وجاء هذا الطلب في وقت كانت تطمع فيه كل من إنجلترا وفرنسا في بسط إشرافها المالي على البلاد بعد ما أصبها من سوء وانحلال ولذلك سرعان ما لبت إنجلترا رغبته وأرسلت (بعثة) يرأسها (ستيفن كيف) لبحث الحالة المالية، وقدم (كيف) مصر ووضع تقريراً مطولاً مستفيضاً عن الشؤون المالية استعرض فيه أسباب اضطرابها وخللها ودواعي عقد القروض وقدم مقترحات تتلخص في تسديد القروض القصيرة الأجال وتحويل الباقي من الديون الأخرى الطويلة الأجل إلى دين واحد قدره 75 مليون جنيه بفائدة سعرها 7 % يسدد في 50 سنة وأن تنشأ مصلحة مراقبة يعهد إليها تسلم متحصلات بعض أنواع الإيرادات؛ على أن لا تعقد الحكومة أي قرض جديد إلا بعد موافقتها عليه. غير أن الخديو إسماعيل أغضبه تقرير (كيف) فاتجه للمساعدة

الفرنسية؛ وما لبث أن قدم المالي الفرنسي الذي حضر إلى مصر لدراسة شئونها المالية، مشروعاً يقضي بإنشاء صندوق الدين. ورأت إنجلترا أن فرنسا تنافسها في الميدان فأرادت أن تحمل الخديو على قبول مقترحات كيف، ولجأت إلى مناورة برلمانية في عهد دزرائيلي ونشرت تقرير كيف عن حالة مصر المالية فأغضب ذلك الخديو كل الغضب وانحاز بكليته إلى المشروع الفرنسي وأصدر أمراً عالياً في 2 مايو 1876 يقضي بإنشاء صندوق الدين على أن يؤلف من أعضاء أجانب يعينهم الخديو بناء على ما تعرضه الدول التابع لها كل منهم. ويستلم الصندوق إيرادات بعض مديريات الوجهي البحري والقبلي المخصصة لخدمة الدين، وعوائد الدخولية في العاصمتين، وإيراد الجمارك في جميع الثغور، والسكك الحديدية وغير ذلك، وحظر على الحكومة تخفيض أموال الأطيان المخصصة للدين بغير موافقة الصندوق، كما تقرر أن تكون المحاكم المختلطة هي المختصة بالنظر في النزاع بين الصندوق والحكومة. وأعقب هذا صدور أمر عال آخر في 7 مايو يقضي بتحويل ديون الحكومة الثابتة والسائرة إلى دين واحد قدرة 91 مليون جنيه إنجليزي بفائدة 7 % ويسدد في 65 سنة، وأن يخصص لتسديده الإيرادات التي ذكرنا أبوابها وتقدر بمبلغ 6. 745. 256 ج. ك ثم رأى الخديو زيادة في حسن الإشراف والإدارة إنشاء مجلس المالية الأعلى، فأصدر أمراً بتشكيله في 11 مايو من تلك السنة. بيد أن تنافس الإنجليزي الفرنسي كان يزداد شدة فدعا هذا إلى اتفاق الدولتين على المطالبة بوضع نظام يكفل لهما دقة الإشراف المالي على مصر، وذلك بتعين مراقب إنجليزي للإيرادات، ومراقب فرنسي للمصروفات. وقد تم لهما ذلك بإنشاء المراقبة الثنائية في الأمر العالي في 18 نوفمبر سنة 1876 على أن توضع السكك الحديدية وميناء الإسكندرية تحت إدارة لجنة أوربية. وبهذا اتخذ التدخل الأجنبي ثاني صوره الرسمية بعد إنشاء صندوق الدين. غير أن توحيد الديون جميعها أثار احتجاجات حاملي السندات القصيرة الأجل وسندات الدائرة السنية فدارت مفاوضات أعقبها صدور أمر عال في 18 نوفمبر أيضاً يفصل ديون الدائرتين السنية والخاصة عن الدين الموحد وإصدار سندات ممتازة للمرة الأولى بمبلغ 17 مليون جنيه إنجليزي بفائدة 5 % وتخفيض الدين الموحد بذلك إلى 59 مليون ج. ك، ثم عقد في شهر يونيه 877 اتفاقاً خاصاً بديون الدائرتين السنية والخاصة وأصبحت قيمتها الرسمية 9. 512. 900 ج. ك - وعلى الرغم من هذا ازدادت الأحوال اضطراباً، فأشار وزير المالية على الخديو بتشكيل لجنة للتحقيق فصدر أمر عال بها في يناير سنة 1878 يقضي بتعيين لجنة التحقيق العليا التي كان يرأسها اسماً دليسبس، وفعلاً السير ريفرز ولسون، وذلك للبحث في أسباب الخلل ووضع المقترحات اللازمة لعلاج الاضطراب المالي والضيق الشديد. وفي أثناء قيام لجنة التحقيق بعملها تدخلت إنجلترا وفرنسا بطلب تعيين وزيرين أوربيين في الوزارة المصرية وتحديد المسئولية الوزارية. وقد تم لهما ذلك، فتولى السير ولسون وزارة المالية، والمسيو دي بلينر وزارة الأشغال في الوزارة المختلطة التي تألفت في عام 1878، وبهذا أصبح ولسون يشغل منصبين خطيرين. ولكن تأليف هذه الوزارة ما لبث أن قوبل بامتعاض شديد من الوطنيين. وكان هذا العمل جرحاً عميقاً للكرامة المصرية القومية، فاتجهت الأفكار كلها إلى التخلص منها. وكان الخديو أكثر الناس رغبة في ذلك فما لبث أن انتهز فرصة وضع تقرير لجنة التحقيق العليا التي ذكرت فيه أن الحكومة المصرية في حالة إفلاس، وأنه يجب تشكيل لجنة لتصفية الحالة المالية والديون، حتى أسقط الوزارة المختلطة وعين شريف باشا رئيساً للوزارة الوطنية البحتة، وقوبل هذا العمل الجريء من الخديو باحتجاجات شديدة من الوزيرين الأوربيين ودولتهما ولجنة التحقيق وغيرهم، ولكن ظل الخديو وشريف باشا على سياستهما الوطنية وإن كانا قد فاوضا الدول في إعادة المراقبة الثنائية مرة أخرى

وفي ذلك الحين عقد قرض الدومين مع بنك روتشيلد بمبلغ 8. 5 مليون ج. ك في 26 أكتوبر سنة 1878، ثم صدر بعد ذلك مرسوم بالتصفية في 22 إبريل سنة 1879، غير أن الدول لم تقبله واحتجت عليه. واستمر النزاع قائماً بين الخديو إسماعيل والدول الأوربية التي نشطت في تألبها عليه؛ وأقنعت الباب العالي بضرورة عزله للعمل على الإصلاح المالي؛ وخضع السلطان العثماني وأصدر فرمانا بهذا السؤل في 26 يونية سنة 1879. ويبدأ مع عصر الخديو توفيق عهد جديد تضافرت فيه جهود الدول على

العمل لتحقيق غرضين أولهما: البحث الجدي المنتج لتوطيد الحالة المالية المصرية، وثانيهما الوصول بالتنافس الإنجليزي الفرنسي إلى الاحتلال العسكري للبلاد ولقد سار الغرضان معاً فبدأت الحكومة المصرية بإصدار قانون التصفية العام في 17 يوليه سنة 1880 ويقضي بإصدار سندات جديدة من الدينين الموحد والممتاز، كما خفض سعر الفائدة في الدين الموحد إلى 4 %، وضمت أملاك الدائرتين السنية والخاصة إلى
الحكومة، وألغيت المقابلة على أن يسترد ما حصل منها على أقساط شهرية لمدة 50 عاما - وفي هذه السنة نشرت أول ميزانية رسمية للحكومة، ثم أدى الاتفاق الإنجليزي الفرنسي على احتلال البلاد احتلالاً مشتركاً إلى أن أسرعت إنجلترا بالاحتلال الفردي سنة 1882 متخذة من بعض الحوادث الداخلية، كالثورة العرابية وغيرها مبرراً لتنفيذ هذا الاحتلال السريع. وقد نتج عن هذا كله اضطراب مالي سياسي جديد، ورأت الحكومة أن تغطي عجز إيراداتها بعقد قرض جديد بضمان الدول، وقد تم لها هذا بالأمر العالي في 27 يوليه سنة 1885 الذي يقضي بإصدار سندات بقيمة 9. 424. 000 ج. ك. بفائدة 3 % وبضمان كل من إنجلترا وألمانيا والنمسا والمجر وفرنسا وإيطاليا وروسيا. وعقد الخديو توفيق ثم الخديو عباس فيما بعد ثلاثة قروض قيمها لا تزيد عن الخمسة ملايين من الجنيهات، كما حددها السلطان العثماني، وذلك لتسوية الحالة المالية. وبدأ الاستقرار المالي يدب بعد ذلك في الحياة المصرية، وعمل الإنجليز من جانبهم على التخلص من مشاركة فرنسا في الإشراف على الشئون المالية، فألغيت المراقبة العثمانية، واستبدلت بالمستشار المالي الإنجليزي. وكان من بوادر الاستقرار أن أخذت الحكومة في تكوين أموال احتياطية تحفظ في صندوق الدين، وأعقب ذلك تحويل الديون الممتازة والدائرة السنية والدومين إلى ديون جديدة بفوائد مخفضة. ولما كانت البلاد تحت السيادة العثمانية فقد لجأت تركيا إلى مصر لتكون ضامناً لها في القسط السنوي للقرض العثماني 4 % لسنة 1891، وذلك بتخصيص جزء من الجزية السنوية المستحقة لها لضمان القسط السنوي من هذا القرض الذي أصدره بنك روتشيلد بقيمة اسمية 6. 316. 920 ج. ك. وحدد له قسط سنوي قدره 273. 608 ج. م. ويستهلك في مدة 60 سنة تنتهي في سنة 1951؛ وفي سنة 1894 حدث تعهد مشابه حين قبل الخديو عباس الثاني أن تضمن مصر القسط في القرض العثماني 3. 5 % لسنة 1894، وكانت قيمته الاسمية 8. 212. 340 ج. ك.، ويستهلك في مدة 61 سنة تنتهي في سنة 1955، وحدد قسطه السنوي بمبلغ 321. 018 وقد ظلت مصر تدفع أقساط هذين القرضين العثمانيين باعتبارها خاضعة لسيادة التركية، حتى بعد أن رفعت عنها هذه السيادة في سنة 1914 إلى أن قرر مجلس النواب في سنة 1924 أن تتوقف مصر عن دفع هذه الأقساط التي لا مبرر لدفعها من زوال السيادة
التركية وإعلان الاستقلال، ولكن معاهدة لوزان التي نفذت في سنة 1924 قررت إعفاء تركيا من كل التزامات القروض العثمانية ورفع النزاع إلى المحاكم المختلطة التي قضت في إبريل سنة 1926 بإلزام الحكومة المصرية بالاستمرار في دفع هذه الأقساط حتى نهايتها
ولما كانت فرنسا تناوئ إنجلترا مناوأة شديدة بعد فشل الاحتلال المشترك لمصر وتندد بسياستها، فقد عملت إنجلترا على أن تسعى للاتفاق معها، وقد تم هذا في الاتفاق الإنجليزي الفرنسي سنة 1904 الذي أطلقت فيه يد إنجلترا في شئون مصر مقابل إطلاق يد فرنسا في شئون مراكش. وبعد ذلك الاتفاق صدر قانون جديد في 28 نوفمبر سنة 1904 يقضي بتنظيم الدين العام وباستمرار صندوق الدين في عمله حتى ينتهي تسديد هذه الديون، وأن لا تخفض ضرائب الأطيان إلى أقل من 4 مليون جنيه إلا بعد موافقة الدول، وحددت التواريخ لبدء استهلاك هذه الديون
ولقد تمكنت الحكومة بعد ذلك من التخلص من بعض ديونها فسددت دين الدائرة السنية حتى 15 أكتوبر سنة 1905 وكذلك دين الدومين حتى أول يونيه سنة 1913 وقد شاع الاستقرار في المالية المصرية وانبعث الاطمئنان إلى النفوس بعد التعديلات والإصلاحات المختلفة السابق ذكرها إجمالاً وقامت الحكومة المصرية بعد ذلك بإصدار أذونات الخزانة في سنة 1933 بمبلغ 3. 5 مليون جنيه مصري استهلكت على دفعتين

الأولى في سنة 1938 والثانية في سنة 1943، وكان الغرض من إصدارها تخفيف الأزمة الاقتصادية العالمية التي سببت هبوط أسعار المحاصيل الزراعية، ثم أصدرت بعد ذلك قرض القطن الأول في سنة 1941 بفائدة 4. 5 % وبمبلغ 17. 5 مليون جنيه مصري طرح منها للاكتتاب عشرة ملايين استهلك منها حتى الآن ستة ملايين، وأصدر بالباقي أذونات لمدة قصيرة. والثاني في سنة 1942 بفائدة 4 % وبمبلغ 12 مليون جنيه مصري طرح منها للاكتتاب مليونان من الجنيهات

هذا هو مجمل تطور الدين العام، ويضاف إليه ديون أخرى صغيرة استهلك بعضها والبعض الآخر في دور الاستهلاك

على أنه يجدر بنا ذكر العمل الجليل الذي قامت به الحكومة بإلغاء صندوق الدين في سنة 1940 بعد مفاوضات مع الدول ونقل كل اختصاصاته إلى الحكومة التي يتولى البنك الأهلي - نيابة عنها - القيام بخدمة هذه الديون، وقد صدر بعد هذا مرسومان ملكيان رقما 68 و71 لسنة 1940 بتنظيم الدين العام على هذا الأساس الجديد

ويتضح مما تقدم أن الباقي من الدين العام هو: الدين المضمون 3 % وقيمته الاسمية 9. 424. 000 ج. ك وقسطه السنوي 307. 125 ج. م والباقي منه 785. 400 ج. ك والدين الممتاز 3. 5 في المائة وقيمته الاسمية 31. 647. 000 ج. ك وقسطه السنوي 1. 045. 384 ج. م والباقي منه بعد الاستهلاك 30. 633. 980 ج. ك؛ والدين الموحد 4 في المائة وقيمته الاسمية 60. 958. 240 ج. ك وقسطه السنوي 2. 154. 768 ج. م والباقي منه بعد الاستهلاك 55. 250. 460 ج. ك؛ وجملة الباقي من هذه الديون الثلاثة 86. 669. 840 ج. ك وأما القرضان العثمانيان فجملة الباقي منهما معاً هو 5. 357. 180 ج. ك

وقد تقرر منذ سنوات مضت أن تدفع الكوبونات والسندات في هذه الديون بالعملة الورق الأسترلينية؛ وقد بلغت قيمة ما تدفعه مصر سنوياً من فوائد لهذه الديون مع قسط استهلاك الدين المضمون أكثر من أربعة ملايين من الجنيهات المصرية. ولا ريب أن المشروع الجديد باستهلاك بعض هذه الديون وتحويل البعض الآخر إلى دين داخلي أخف حملاً، عمل جليل يرفع عن كاهل البلاد عبئاً ثقيلاً باهظاً من بعض ملايين الجنيهات كما يرفع عنها ذكريات أليمة تردد صداها في تاريخ مصر الحديث.

أحمد صادق موسى

السامر الموحش

إلى الحبيب الذي أسا كلامي
وغنيته أعذب أنغامي
ونهل وعل من أحلامي
وعاطيته كأس أوهامي
فشربها ولم يذر بقيا
واليوم تناسته الدنيا
ولكن جرحي الغائر مات آسيه
وأنغامي لم تأنس إلى من تغنيه
وأحلامي لم تركن إلى من تساقيه
وأوهامي لم ترتح إلى من تعاطيه،
فهي تبعث الذكرى من بعيد والى بعيد
وأنا شقي بها، وإن شئت فقل سعيد

تَلَفْتُ لا شملي جميعٌ ولا الهوى ... قريبٌ ولا فرعُ الصِّبا عبقٌ نضْرُ
أَحِبَّايَ لو غيرُ الردى حال دونكم ... دنى البرُّ في عينَيَّ وانكشف البحر
بأسماعكم وقْرٌ وقد رُحْتُ شاكياً ... وحاشا ففي سمع الثرى وحده الوقر
تناسيتكم الدنيا وحالة عهودُها ... كأن لم يرنِّحْ عِطْفَها بكم الفخر
أنَزِّهُ آلامي عن الدمع والأسى ... فيؤْنمها مني الطلاقة والبشْرُ
وأضحك سخراً بالوجودِ ورحمةً ... وفي كبدي جُرْحٌ وفي أضلعي جمْر
يغالي بدنياه وَيجلو فتونها ... ودنياه في عينَيَّ موحشةٌ قفرُ
وما حاجتي للنورِ والنورُ كامن ... بنفسي لا ظلٌّ عليه ولا سِتْرُ

وما حاجتي للأفق ضَحْيانَ مشرقً ... ونفسي الضحى والأفق والشمس والبدر
وما حاجتي للكائنات بأسْرها ... وفي نفسيَ الدنيا وفي نفسيَ الدهر
أُهَدْهِدُ من أحزانها كلما وَنَتْ ... ويُسْلِسُ بصد المَرْى للحالب الدَّر
إذا رَكدتْ بعد الهبوب فانَّها ... لكالبحر من أخلاقه المدُّ والجزر
ويا سامر الأحباب مالك موحشاً ... معاذ الهوى بل أنت يؤنسك الذكر
أَدِيْمُكَ مِنْ حَبَّ القُلوبِ تمزّقَتْ ... عليه فَسَالَ الشوقُ وَالحب والطُّهرُ
إذا ظمِئَتْ في قطعها البيدَ نَسْمَةٌ ... أَلَمْتْ به وهناً فَرَنَّحها السُّكْرُ
فياً للصَّبَا العجلى إذا عبِرَتْ به ... تأَنَّتْ كما يَرْتاحُ في الواحَة السَّفْرُ
تمنَّيْتُ إجلالاً لَهُ وَمَحَبَّةً ... لَوَ أنَّ حَصَاهُ أنْجُمُ الفَلَكِ الزُّهْرُ
وأجزَعُ إنْ مَّرتْ به الريحُ زعزعاً ... وأسْرَفَ حتَّى جاوز الحاجةَ القَطْرُ
فليْتَ الربيعَ الطَّلْقَ ساقاهُ كأسَهُ ... مَدى الدَّهْرِ لا بَرْدُ عليهِ ولا حَرٌ
ويا سامِرَ الأحبابِ طيفُ ولا كرىً ... وسُكْرٌ ولا راحٌ وَرَيَّا ولا زَهْرُ
كلانا على ما كَلّفَ النفس من رِضَى ... أضَرَّ به نأيُ الأحِبَّةِ والهَجْرُ
تَطُوفُ بِكَ الأحلامُ نشوى كعدِها ... وينطف من أفيائِكَ الحب والعِطْرُ
ويضحكُ لي وجْهُ نَدِيٌّ مُنَوَّرُ ... كأنْ لم يغيَّبْ من طلاقَتِه القَبْرُ
وَحَيّا. . . كأن لم يَطوِهِ عَنّي الرَّدى ... فَهلْ بُعِثَ الأمواتُ أم ردَّه السِّحْرُ
قُلِمُّ به الذكرى فَيَحْيَا كَبَارِقٍ ... طَواهُ الدُّجى عني ليُطْلِعُه الفجْرُ
وَيْبعَثُه حُبِّيْ وفي كُلِّ خافِقٍ ... صَحِيح الهوى بَعْثُ الأحِبّةِ والنَّشْرُ
فَيا قَلْبُ فيك الرَّاحِلون وإن نأوا ... وفيك الندامى والرياحِيْنُ والْخَمْرُ
خَلَعْتَ على الموتى حَيَاةً قويَّةً ... وطَالعَهُمْ مِنْكَ القِيَامَةُ والْحَشْرُ
(سوريا - اللاذقية)
أحمد سليمان الأحمد
البريد الأدبي
الإبهام والغموض في التصوف
يذكرني مقال ابن الفارض المنشور بالرسالة ببحث جريء لي لم ير النور بعد، لأن بعض الأذهان لم تتهيأ لقبوله، وصلت فيه إلى أن التصوف نتيجة اختلاف في النفسية الجنسية للفرد. وقد اهتديت إلى هذه النتيجة من مقارنة نفسية فجر الشباب حيث فورة الجنس على أشدها وما يصحبها من حالة نفسية لا تفرق عن التصوف إلا في كونها عابرة غير مستقرة، ففي هذه الطور من التطور البشري يشعر الإنسان أنه جزء من الكون، وكل ما في الكون يردد صداه في نفسه التي تتسع لقبول ما في الكون من إنسان وحيوان وأفلاك، ويمتاز تفكير هذا الدور بالإبهام والغموض والإيثار كالتصوف تماماً
وقد وجدت في تاريخ ابن الفارض مادة دسمة لتدعيم بحثي، فقد روى أن أحدهم استأذن في شرح قصيدته (نظم السلوك) فسأله عن مقدار الشرح فقال: إنه سيقع في مجلدين. فضحك ابن الفارض وقال: (لو أردت لكتبت مجلدين لكل بيت فيها) وروى أيضاً أن محيي الدين بن عربي بعث إليه في شرح هذه القصيدة فرد عليه الشاعر: (كتابك المسمى بالفتوحات شرح لها) والكتاب المشار إليه يقع في 3300 صفحة من الحجم الكبير
ففي هذا القول نجد معنى الإبهام والغموض، فإن أفكار المتصوفين ليست واضحة في جوهرها، وإن الشروح المقصودة هي تخريج لمعان لم تتبلور، ونحن نعلم أن ميزة الفكر البشري هي الوضوح وسهولة التأدية، ونجد حتى في الحيوانات العجم من تحسن التفاهم مع بعضها تفاهما عجيباً فاضت لوصفه مؤلفات علماء الطبيعة، ولولا سهولة الأداء التي امتاز بها الذهن البشري لما ترقى الإنسان وصعد إلى درجات الرقي التي وصل إليها
وقد أدعو أن هذا الغموض مقصود لحفظ أسرارهم، والذي وصلت إليه هو أنه نقص في التعبير من علل نفسانية
أما عن إقحام الحب وما يتبعه من معان وصور في رياضتهم فهذا هو الجانب المحرج الذي أشرت إليه في أول هذه الكلمة؛ ومجال هذا البحث في الصحف الطبية. وفي

رأيي أنه هو الباعث الأول على الغموض والإبهام
كامل يوسف
عضو معهد الأبحاث الفلسفية البريطاني بلندن
1 - مؤتمر الأدباء الشباب في البلاد العربية
إن أدبنا العربي اليوم، يمشي بخطوات سريعة، ولكن أكثر الأدباء لا يستهدفون غاية، فكل يسير على هواه. وإن هناك أموراً شتى يجب البحث فيها، ومشكلات معدودات ينبغي حلها. ولابد من هدف يسعى إليه الأدباء لتكون هناك وحدة أدبية عربية فيها توافق وانسجام، تدفع بالأدب العربي الوليد خطوات ومسافات. ويعود نفعها على أبناء البلاد العربية بالخير والوئام. وإني أقترح أن يعقد مؤتمر للأدباء في عيد الأضحى يدعى إليه أدباء الأقطار العربية كلها، يكون في القاهرة أو دمشق أو بغداد. فيعرف الأدباء بعضهم بعضاً، ويتحادثون فيما ينقصنا، وفيما يشوه أدبنا، وفيما نحن بحاجة إليه هذا نداء لأرباب القلم والصحف الأدبية لعلهم أن يرحبوا به ويسعوا إلى تحقيقه. ويتبادلوا الآراء فيه.
2 - إلى الأستاذ دريني خشبة
قلت في مقالك الطريف عن نشأة الدرامة الإنجليزية (العدد 531) إن الدرامة قسمان، النوع الأول: الإنجيلي أو السمعي (؟) وهو يسمى والنوع الثاني القديسي أو الكرامي واسمه
وفي ترجمة هذين الحرفين، من التجوز، الكثير، وفي هذه الكلمات (القديسي، الكرامي، إنجيلي) من البشاعة ما يجعلها نافرة، لا يرضى عنها من أبدع في نقل أساطير الإغريق، والإبداع الكبير
فكلمة التي تقابل الفرنسية، كانت تطلق في القرون الوسطى على المسرحيات ذات الموضوع الديني أعني: وكانوا يدخلون فيها الإله والقديسين والملائكة والشياطين. فترجمتها بالإنجلية، أي غير صحيحة، لأن الإنجيلية نسبة إلى الإنجيل وهذا غير ال فإذا قلنا: الدرامة ذات الموضوع الديني، أو الدينية (تحاشياً من إنجيلي وسمعي) لكان أولى ولو ترجمت بالخوارق، لكان أجلى وأصح فنقول درامة الخوارق لأن القديسي نسبة إلى قديس أي ومعنى الخوارق التي تخرق قوانين الطبيعة. فهي في الإنجليزية: وفي الفرنسية
هذا ولك شكري على دعوتك إلى الأدب المسرحي. وإعجابي بإنتاجك ,
(دمشق)
صلاح الدين المنجد
المذاهب السياسية المعاصرة
لماذا أخص هذا الكتاب من سلسلة (اقرأ) الثمينة بالكتابة ولم أفعل ذلك من قبل، مع ما للكثير من كتب هذه السلسلة من القيمة الأدبية التي لا تنكر؟ هل ذلك لأن الأستاذ أدهم هو صديقي وزميلي؟ إن كان هذا فالأستاذ عبد الرحمن صدقي هو من أعز أصدقائي علي وأحبهم إلى نفسي، ومع ذاك فأنا لم أكتب عن كتابه كلمة، مع ما كان يستحقه كتابه من ثناء وإطراء ونقد. . . الحقيقة إذن هي أنني لم أقرأ في السنوات الأخيرة في مصر كتابا مركزا صغير الحجم كبير القيمة تشتد حاجة القراء العرب إليه مثل هذا الكتاب. . . إنه خلاصة لمائة كتاب على الأقل من مئات الكتب التي أعرف أن صديقي أدهم يقرأها ويضمها ويجيد استيعابها ونقل لبابها لقرائه الكثيرين المعجبين به. . . إنه ليس من هذه الكتب التي يؤثرها القارئ العجل الذي لا صبر له على المذاهب السياسية ونظرياتها العميقة التي تصدع الرأس وتكد الذهن وتحتاج إلى الصبر وطول الأناة: إن كتيب الأستاذ أدهم هو استعراض جميل لهذا الموكب الحافل من أفكار الإنسانية التي تنشد الضوابط وتتوق إلى المثل، وهو وكتاب الأستاذ فؤاد صروف (وعاءان ملئا علماً وتفكيرا) كما كان يعبر الأقدمون. . . لقد جهدت أن أتلقف بعض المؤاخذات لأجعل منها مادة لنقد الكتاب فلم أوفق إلا إلى الأخطاء المطبعية وإلا إلى بعض التعبيرات التي كانت في حاجة إلى المراجعة والتهذيب. . . على أنني أقترح على صديقي أدهم أن يعود إلى كتابه القيم فيضم إليه فصولا عن تاريخ نشأة تلك المذاهب وتراجم لزعمائها ورجال الفكر الذين ألهموا هؤلاء الزعماء مناهجهم وكانوا سبباً في قيام تلك الحركات الفعالة التي غيرت وجه التاريخ وانحرفت أو لم تنحرف

بموكب الإنسانية. . . إن الكتاب إذا صدر على هذا النحو كان الأول من نوعه في المكتبة العربية. . . على أنه على حالته الراهنة هو الأول من نوعه في المكتبة العربية كذلك. . .

ثم ماذا عندي غير التهنئات بعد هذه الكلمة المقتضبة؟

دريني خشبة

العدد 536 - بتاريخ: 11 - 10 - 1943

الأعياد اليومية والأعياد الموسمية

للدكتور زكي مبارك

خطبة سجلها في إذاعة القاهرة لتلقى في إذاعة فلسطين، أما بقية الكلام فملاحظات كتبت عن أحاديث العيد

أيها السادة:

أقدم إليكم أصدق التحيات، راجياً أن يصل صوتي إلى أسماعكم وأنتم بخير وعافية، وآملاً أن تعيشوا إلى أمثال هذا العيد في رغد وطمأنينة وصفاء

أما بعد فلكل منا أعياد يومية، وأعياد موسمية، فما الفرق بين هذه الأعياد وتلك الأعياد؟

الأعياد الموسمية أعياد شرعها الأنبياء ليوقظوا روح السرور في الناس، عساهم يلتفتون إلى موكب الحياة من حين إلى حين

هل تعرفون السر فيما قضت به الشريعة الإسلامية من جعل الصوم حراماً في يوم العيد؟

كان ذلك لأن الرسول خاف على أمته أن تتنسك تنسك الأموات فلا تفرح ولا تبتهج في أي يوم، ولو كان يوم العيد

هل تعرفون السر في أن يقول القرآن: (خذوا زينتكم عند كل مسجد)؟ إنه يدعوكم إلى لقاء الله في الصلوات وأنتم في أجمل ما تملكون من الثياب، لتفهموا أن الله يحب أن يراكم في نضارة النعيم لا في قساوة الشقاء

إن الأعياد الموسمية توحي بالسرور الشامل حين تصور الناس وقد احتشدوا للفرح والابتهاج، وحين تدعو كل فرد إلى التجمل، وحين تدعو كل بيت إلى إعداد الأطايب من الطعام والشراب، فمن تلك المظاهر المتجمعة يسري روح المرح في الجماهير، وتشعر النفوس بمعاني البشر والأنس، وتلتفت القلوب إلى حظوظها المنسية في دنيا السعادة والهناء

ولعل زكاة الفطر لم تشرع إلا لهذا الغرض، فالمراد منها أن تثور موجة من البر والإحسان، موجة رحيمة تقضي بأن يجد الفقراء والمساكين ما يغنيهم عن التفكير في هموم العيش أيام العيد

تصوروا كيف تكون الحال لو أدى الموسرون جميعاً زكاة الفطر بإخلاص

تصوروا كيف يعم الفرح في مثل هذه الحال، فيفرح الغني بالتوفيق إلى أداء الواجب، ويفرح الفقير بأن يجد جاراً يواسيه باسم الشرع لا باسم الإفضال، فما كانت الزكاة إفضالاً وإنما هي واجب مفروض لا ينتظر صاحبه من الناس أي ثناء

في هذه الحال يكون الفقراء ضيوف الله في أيام العيد، لا ضيوف الموسرين من الجيران، ومع هذا تذيع القالة الجميلة فترتفع أقدار المزكين، وتزيدهم إيماناً بأن المعروف لا يذهب بين الله والناس

ومن مزايا الأعياد الموسمية أنها تذكر بحقوق ودية ينساها الأهل والأقارب في أكثر الأحايين، فما في كل يوم نسأل عن أقربائنا وأصدقائنا، ولا في كل أسبوع ولا في كل شهر أو كل شهرين، ولكننا نشعر بوجوب السؤال عنهم في أيام العيد، لنجازيهم لطفاً بلطف ووفاءً بوفاء

والأعياد الموسمية تقهرنا قهراً على تحية من يئسوا من التحية، لأنهم ذهبوا إلى العالم البعيد، عالم الموت، ولم تبق فرصة لتحيتهم غير فرصة العيد

أتدركون معنى الجمال الروحي في أن يكون أول من نحييهم في ليلة العيد هم الأموات؟

تلك التفاتة معنوية لها قيمة عظيمة، والوفاء الحق هو الوفاء لمن لا يملك الجزاء

أيها السادة:

إن فضائل الأعياد الموسمية أوضح من أن تحتاج إلى شرح، فتفضلوا بسماع كلمة وجيزة عن الأعياد اليومية، الأعياد التي تواجهنا في كل يوم، لو عرفنا كيف نروض النفس على إدراك الخفايا من نعم المنعم الوهاب، وهي نعم تتجدد في كل لحظة، فنحن بها كل يوم في عيد

تشرق الشمس والعافية في بدنك، والزاد في دارك، فيومك يوم عيد

تغرب الشمس وحولك أهلك، والنوم يداعب جفونك، فليلتك ليلة عيد

قد تطوف بك أحزان تثير دموعك وهذا يقع من وقت إلى وقت، ولكنه شاهد على أنك في عيد، فالدموع في عيون الباكين أدوية ربانية تصنع في طب العيون ما يعجز عنه أطباء العيون، والأحزان في صدور المكروبين مراهم روحية تصنع ما يصنع المرهم الواقي في

شفاء الجرح البليغ

هل تعرف حكمة الله في الألم؟

إن الألم نعمة نفيسة، فهو بشير العافية، لأنه ينبه إلى المرض، والتنبه للمرض يدعو إلى العلاج وهو باب الشفاء

والآفة الخطيرة هي انعدام الإحساس بالآلام، فإن تألمت فعرف أنك في حيوية، وتذكر حكمة الله في الألم، لتعرف أنك في عيد

الحزن علامة قوة لا علامة ضعف، لأنه يشهد بإدراكنا لقيمة ما نفقد، ولا نكون كذلك إلا ونحن أصحاء، فإن حزنت فاعرف أنك بعافية وأنك في عيد

وكيف تكون العاقبة لو عشنا بلا أحزان وبلا دموع؟

إن الأحزان والدموع كانت ولن تزال من أنصبة الموهوبين والحزن العظيم لا يكون إلا من نصيب الرجل العظيم، ولو كان البكاء عيباً لنزه الله الأنبياء عن البكاء، فلم يبك يعقوب على يوسف ولم يبك محمد على إبراهيم، فإن بكيت فاعلم أنك بخير وأنك في عيد

إن كنت غنياً فتذكر أن الغنى من النعم السوابغ، فأنت كل يوم في عيد

وإن كنت فقيراً، فما عيدك؟ وهل تكون للفقراء أعياد يومية؟

افتح قلبك واسمع هذا الدرس:

الفقراء في كل زمان وفي كل مكان هم عماد المدنية، فبجهودهم تقام الصروح والشوامخ، وبأيدهم تحفر الأنهار، وتزرع الحقول، وتنشأ البساتين، فإن كنت من هؤلاء فمن حقك أن ترى أنك كل يوم في عيد

خزان أسوان من صنع يدك، كما كان برج بابل من صنع يدك، وكما كان سور الصين من صنع يدك، وما قام في الدنيا بناء وأنت غائب، يا فقيراً يعمل ليجد القوت، فأنت بجهادك مصدر العيد لمن ينعمون بالعيد، ولو عقلت لأدركت أنك كل لحظة في عيد

ولنفرض أنك كناس يكنس الشوارع ويملأ عينيه ورئتيه بالتراب في كل يوم، حتى يوم العيد، فهل تعرف نعمة الله عليك؟

تذكر أن الغبار يقذي العيون ولكنه ولا يقذي عينيك، لأن الله يحميك، وتذكر أن الغبار يقد يورث مرض السل، ومع هذا لم نسمع أن كناساً مات بالسل، فما يرضى الله بالمرض لمن

يحاربون المرض، كما تحاربه بالمكنسة يا حضرة الكناس، فأنت كل يوم في عيد

أيها السادة

في ظلال هذا الفهم لنعم الله ندرك أننا كل يوم بعافية، وأننا كل يوم في عيد، وأننا مسئولون في كل لحظة عن إعلان السرور بما يجود به المنعم الوهاب

الطفل يطالب أهله بحلة جديدة في العيد، لأنه لا يعرف غير الجديد، فما حاجتنا إلى حلل من القطن أو الصوف أو الحرير ونحن في حلل من العافية للجهاد في سبيل الرزق الحلال

أنا لا أرى الله خص بالشقاء جيلاً من الناس

البصير في نعمة لأنه يرى محاسن الوجود

والضرير في نعمة لأنه لا يرى مساوئ الوجود

والأصم المحروم من لطائف الأنغام صانه الله عن سماع المرذول من الاغتياب

نحن جميعاً في رعاية الله، فنحن كل يوم في عيد

لقد غلا كل شيء في أعوام الحرب، إلا الماء، لأنه أنفس موجود، والله يجود بالنفيس قبل أن يجود بالخسيس، وليس في نعم الله خسيس
أيها السادة
إن الأعياد الموسمية أعياد العوام، أما الأعياد اليومية فهي أعياد الخواص، وأنا أدعوكم إلى التأمل في نعم الله عليكم لتكونوا كل يوم في عيد
نعم الله لا تعرف شعبان ولا رمضان ولا تلتفت إلى المواقيت.
نعم الله تساق مع الأنفاس فليس لها رسوم ولا حدود، والسعادة من نصيب من يؤمن بأن الله منعم ومتفضل في جميع الأحوال
ولكن هذه الغاية لا تبدو بوضوح في كل وقت، لأن قلوبنا معرضة لغشاوات من الجهل والغرض والطمع والإسفاف
نحن نبات ظهر فوق الأرض، وأغصاننا مع هذا أطول من جذورنا، لأننا مجذوبون إلى السماء لا إلى الأرض، فماذا تريد بنا يا فاطر السماء؟
نحن منك وإليك، ولن ننحط في أي حال، فما ينحط من يؤمن بك ولو عاش في ظلمات الأدغال
سمعنا وقرأنا أن عندك نعيما وسعيراً، فلمن أعددت نعيمك وسعيرك؟
نحن لا نطالب بأن نكون من أهل رحمتك، فلسنا لذلك بأهل، وإنما نرجو أن تجعلنا من أهل عذابك، لنثق بالصلاحية لأن تضع أعمالنا في الميزان
العيد هو يومنا عندك، ولو في أسوأ الفروض، فمن السعادة أن نقف بين يديك مسئولين
والعيد الأعظم هو أن توقظ ضمائرنا في كل وقت لنعاني ألف حساب قبل يوم الحساب
لا عيد ولا جديد إلا إن رجونا رحمتك وخشينا عذابك، فامنح قلوبنا نعمة الخوف منك والاعتماد عليك لنشعر بأننا كل يوم في عيد
السماء في عيدك، والأرض في عيدك، والشمس في عيدك والقمر في عيدك، والنجوم في عيدك، وأنت العيد لما نجهل من المواجيد، فأنت في غضبك ورضاك عيدٌ وألف عيد، فهل تسمح يا إلهي بأن نكون بفضلك كل يوم في عيد؟
أحاديث العيد
لم نقل مع المتنبي: (عيدٌ بأية حال عدت يا عيد) فقد وصل ونحن بعافية، فلله الحمد وعليه الثناء، أدام الله علينا وعلى قرائنا نعمة الشعور بكرمه الموصول
1 - في يوم العيد وصل خطاب من الأستاذ حافظ محمود يقول فيه إن هجوم السيد حسن القاياتي مدسوس عليه، وأنه لم يخط بقلمه حرفا مما دار حوله الجدال في الأسابيع الماضية، ويدعوني إلى كتابة كلمة ترضية يطيب بها قلب ذلك الصديق
وأقول إن المعلومات التي تضمنتها الخطابات المنشورة باسم الأستاذ القاياتي معلومات مريبة لأنها متصلة بشؤون لا يعرفها سواه، فإن لم يكن هو الكاتب فلن ينكر أنه مصدر المكتوب، وبهذا يقع عليه شيء من المسئولية
ثم أقول إنه كان يستطيع تكذيب ما نشر باسمه لأول مرة فينحسم الخلاف قبل أن يطول، ولكنه سكت نحو خمسة أسابيع، ثم بدأ في التشكي من العدوان عليه، وهذا من أغرب ما يقع في معاملات الناس
وأنا مع هذا أعتذر للصديق عما بدر مني في مساجلته، وأعلن أني أعتز بصداقته كل الاعتزاز، وأني لن أسمع فيه كلاما ولو نشر بنفسه في مغاضبتي ألف خطاب
وهنا أذكر مذهبي في معاملة رجال الأدب ورجال السياسة، وهو مذهب يستحق التنويه ويصلح للاقتداء، فما ذلك المذهب؟
خلاصة هذا المذهب أني لا أتكلم عن أهل الأدب والسياسة بما يشبه النقد في أي مجلس، لأن الكلام عرضة للتزيد والتحريف، وإنما أكتفي بما يخطه قلمي في الجرائد والمجلات، إن طاب لي أن أناوش أحد الرجال
وأذكر أيضاً أني أعيش في عزلة بعد الرجوع من عملي إلى بيتي، فما يحتاج إلى غشيان الأندية غير من يعيشون بمنجاة من متاعب الواجبات، وأنا أحمد الله الذي تفضل فأكثر من أعبائي في حياتي، بحيث لا أجد فرصة لمسامرة المعارف والأصدقاء، فمن زعم أنه رآني وأني حدثته عن فلان أو علان بيكيت أوكيت فهو من الكاذبين

من عادتي أن أزور قصر جلالة الملك في يوم العيد لأتشرف بتقييد اسمي، ولأرى - 2
من كبار الرجال من لا يتسع الوقت لرؤيتهم في غير ذلك الجناب
وقد تأخرت قليلا في هذه المرة فلم أصادف غير الدكتور هيكل باشا والأستاذ فؤاد
باشا سراج الدين، مع حفظ الحق لبقية من رأيت هنالك من رجال الأدب والبيان
وضاعت الفرصة في لقاء النقراشي باشا، ولو رأيته لاعتذرت عن ضياع حظي من
زيارة داره في رمضان، مع أنه من جيراني بمصر الجديدة، ومع أن زواره يتزودون
بأكرم زاد من أطايب الأحاديث، بفضل المجلس الذي ينعقد بداره في أمسية رمضان،
كما كان الحال في أكثر البيوت قبل الزمن الجديد، زمن السهر في الأندية والقهوات
كان يجب أن أزور أهلي وأقربائي في سنتريس، ولكني رجعت غضبان، غضبان من - 3
شؤون لا تغضب إلا من يكون في مثل حالي من حب البر وبغض العقوق
وقضى الزحام باليأس من الظفر بمكان في إحدى السيارات، فتفضل صديق بتوصيلي
إلى القناطر الخيرية لأركب القطار من هناك، ولكن القطار تحرك قبل وصولي بدقائق،
ولا بد من الانتظار نحو ثلاث ساعات، فماذا أصنع؟
وقفت على قنطرة الرياح التوفيقي مع الواقفين وهم عشرات أو مئات في انتظار
السيارات، فماذا أصنع؟
فكرت في مروءة أصحاب السيارات الخصوصية، وقد يكون فيهم من يعرفني، فكنت
أقول كلما مرت سيارة خصوصية: (خذوني معكم) ولكن أين من يسمع؟
واستمعت سيارة لندائي، وبدت منها يد لطيفة كأنها الغرام في ليلة عيد، فمضيت
وركبت وأنا لا أصدق أنني وصلت!
ولكن أين صاحب السيارة؟
لقد نزل للبحث عني، ثم تاه في غمار تلك الخلائق، فهتفت صاحبة المعصم تعال تعال
فالدكتور وصل!
وبعد التحيات المعروفة في مثل هذه الظروف مضت السيارة وأنا لا ألتفت إلى الوجه
الذي يشع نوره بمثل ما تشع الشمس عند الأصيل، وهل يليق بي أن ألتفت إلى وجه
سيدة قد تكون زوجة هذا الرفيق؟
- حيها يا دكتور بكلمة
- ومن أحي؟
- هذه نور
- أي نور؟
- نور الهدى بطلة (فلم جوهرة)
وألتفت فإذا فتاة لطيفة في لون الصهباء، لم يشعشع وجهها بطلاء، فعرفت كيف كان
العرب يصفون المرأة الجميلة بأنها صفراء
هل رأيتم جمال الاصفرار في حيوية اللون؟
ودار الحديث حول التمثيل والممثلين فقلت: إحرصي يا بنيتي على الانتفاع بعبقرية
الأستاذ يوسف وهبي، فهو أعظم فنان في هذا الزمان
قال صاحب السيارة: أهذا رأيك في الأستاذ يوسف وهبي؟
قلت: هو رأيي
قال: وتسمح بتدوينه في مجلة الرسالة؟
قلت: وفي جميع المجلات، وسأخصك بحديث
قال: أرجوك أن تغفل اسمي، لأسباب لا أملك عرضها عليك وصلنا إلى القاهرة
لنفترق، ولأبحث عن الأسباب التي توجب أن أغفل اسم ذلك الصديق، فما تلك
الأسباب؟
كانت هنالك وليمة عيدية في (عزبة الصباح)، وكان في الوليمة فنانون وفنانات، وكانت
في العودة من نصيب سيارة هذا الرفيق (نور الهدى)
وعرفت بعد لأي أن مجلة الرسالة أثيرة عند زوجة صاحب السيارة، وأنها قد تغضب
عليه إن عرفت من حديثي بمجلة الرسالة أنه رأى (نور الهدى) في يوم عيد
سأكتم اسمك يا صديقي، لئلا تثور زوجتك، فلن أقول أنك صاحب جريدة يومية، ولن
أقول أنك كاتب من الطراز الأول، ولن أقول إنك المثال في هندمة الأسلوب،
والأساليب تهندم كما تهندم الثياب

إن زوجتك لن تعرفك من حديثي، لأني أكره النميمة، فنم بعافية، وإن ارتابت زوجتك في بشاشة وجهك فحدثها أنك طوفت بسيارتك في شوارع (مصر الجديدة) يوم العيد إن التلاميذ يخفون عن آبائهم خطابات نظار المدارس، فأخف عن زوجتك هذا العدد من مجلة الرسالة، وقل أنه ضاع في البريد، بسبب ازدحام الرسائل في أيام العيد، أحياكم الله إلى ألف عيد!

زكي مبارك

حكاية الوفد الكسروي - 4

لأستاذ جليل

3 - يقول النعمان لكسرى:

فأما عزها - يعني العرب - ومنعتها فإنها لم تزل مجاورة لآبائك الذين دوخوا . . .) (. . .البلاد، ووطدوا الملك، وقادوا الجند لم يطمع فيهم طامع، ولم ينلهم نائل وهذا قول لا يقوله عامل لمعلمه، ولا وال لموليه. وكيف يلغو بمثله وجند كسرى في بلاده وفي اليمن يجوس خلالها، والدرفس يخفق فوق الرؤوس

إنما كان النعمان شرطيا عند كسرى يصد المدلغفين والقراضيب عن اجتياز التخوم. كان أمير (الحيرة) لا ملك (الجزيرة) يدعو - آمرا - هذا من اليمن وذاك من نجد وذلك من تهامة وغيرهم من غيرها فيبادرون إليه، ويمثلون بين يديه، ويقول: قد سمعت من كسرى كيت وكيت ففدوا عليه (فإذا دخلتم نطق كل رجل بما حضره ليعلم أن العرب على غير ما ظن أو حدثته نفسه)

لم يكن النعمان هناك - كما زوقه المزوق المنمق. ولما غضب عليه كسرى - والسبب الحق للغضب مجهول - ضاقت عليه الأرض، ولم ينفعه أو ينجده مثرثر من جماعة (الوفد) (وأقبل يطوف على قبائل العرب ليس أحد منهم يقبله) (وأراد طيئا على أن يدخلوه الجبلين ويمنعوه فأبوا ذلك عليه، وقالوا له: لولا صهرك لقاتلناك، فإنه لا حاجة لنا إلى معاداة كسرى، ولا طاقة لنا به) (غير أن بني رواحة بن قطيعة بن عبس قالوا: إن شئت قاتلنا معك، لمنة كانت له عندهم، قال ما أحب أن أهلككم، فإنه لا طاقة لكم بكسرى)، ثم (أتى هانئ بن مسعود فاستودعه ماله وأهله وألف شكة، ويقال: أربعة آلاف شكة، والشكة السلاح كله) وهذا قول أبي الفرج في الأغاني. والطبري في تاريخه يقول: (والمقلل يقول: كانت (400) درع، والمكثر يقول: كانت (800)) ومضى إلى سيده كسرى (فلما بلغ كسرى أنه بالباب بعث إليه فقيده وبعث به إلى سجن كان له بخانقين فلم يزل فيه حتى وقع الطاعون هناك فمات فيه)، وقيل (بل مات في ساباط في حبسه) وقيل (ألقاه تحت أرجل الفيلة حتى مات)، وقيل (لم يزل محبوساً مدة طويلة، وإنما مات بعد ذلك بحنين قبيل الإسلام) (فلما قتل كسرى النعمان استعمل إياس بن قبيصة الطائي على الحيرة وما كان عليه النعمان) قال أبو الفرج: (وغضبت له (أي للنعمان) العرب حينئذ، وكان قتله سبب وقعة ذي قار)

والعرب لم تغضب لمصير هذا الأمير المسكين، ولم يكن قتله سبب تلك الوقعة، وإنما سببها - إن ثبتت - (أن كسرى بعث إلى إياس: أين تركة النعمان؟ قال: قد أحرزها في بكر ابن وائل. فأمر كسرى إياسا أن يضم ما كان للنعمان، ويبعث به إليه، فبعث إياس إلى هانئ أن أرسل إلي ما استودعك النعمان من الدروع وغيرها، فأبى هانئ أن يسلم خفارته، فلما منعها غضب كسرى، وأظهر أنه يستأصل بكر ابن وائل، وعنده يومئذ النعمان بن زرعة التغلبي، وهو يحب هلاك بكر بن وائل فقال لكسرى:

يا خير الملوك، أدلك على غرة بكر؟

قال: نعم

قال: أمهلها حتى تقيظ، فإنهم لو قد قاظوا تساقطوا على ماء لهم يقال له: (ذو قار) تساقط الفراش في النار، فأخذتهم كيف شئت، وأنا أكفيكهم. فترجموا له قوله (تساقطوا تساقط الفراش في النار) فأقرهم

وبعث إلى هانئ وجماعته جنوداً عربيين وجنوداً فارسيين، وكانت تلك الوقعة، إن كانت وقد عزوا إلى رسول الله (صلوات الله وسلامه عليه) هذا القول: (هذا يوم (أو ذلك يوم) انتصفت فيه العرب من العجم، وبي نصروا. أو اليوم انتصفت العرب من العجم) وهم الإخباريون وغير الإخباريين يصوغون كما يحبون ويشتهون

في الأغاني: كانت وقعة ذي قار بعد وقعة بدر بأشهر، ورسول الله بالمدينة. فلما بلغه ذلك قال: هذا يوم الخ

وهنا شيء يقال: إذا كانت التركة (السابق ذكرها) كما أحصوا (400) درع أو (800) درع فنحن بين أمرين: إما أن يكون الراوون قد رأوا ما رووا في المنام، وكثيراً ما بنيت أشياء بل ديانات على المنامات - وقصة قسطنطين مشهورة - وإما أن يكون كسرى قد جن جنوناً كبيراً حتى يبعث تلك الجيوش وينفق المال الكثير للاستيلاء على حقير.

قلت من قبل: إن السبب الحق لغضب كسرى على عامله النعمان مجهول، ولكن صائغاً بارعاً (لله دره) صاغ لنا خبراً طريفاً غريباً في سبب الغضب، طرافته وغرابته تدعوان

إلى روايته:

كانت لملوك العجم صفة من النساء مكتوبة عندهم، فكانوا يبعثون في تلك الأرضين) بتلك الصفة، فإذا وجدت حملت إلى الملك، غير أنهم لم يكونوا يطلبونها في أرض العرب، ولا يظنونها عندهم، ثم إنه بدا للملك في طلب تلك الصفة، وأمر فكتب بها إلى النواحي، ودخل إليه زيد بن عدي وهو في ذلك القول، فخاطب فيما دخل إليه فيه، ثم قال: إني رأيت الملك قد كتب في نسوة يطلبن له وقرأت الصفة، وقد كنت بآل المنذر عارفاً، وعند عبدك النعمان من بناته وأخواته وبنات عمه وأهله أكثر من عشرين امرأة على هذه الصفة. . . فابعثني وابعث معي رجلاً من ثقاتك يفهم العربية حتى أبلغ ما تحبه. . . فبعث معه رجلاً جلداً فهماً فخرج به زيد. . . حتى بلغ الحيرة، فلما دخل عليه (على النعمان). . . قال: إنه (يعني الملك) قد احتاج إلى نساء لنفسه وولده وأهل بيته، وأراد كرامتك بصهره، فبعث إليك فقال: ما هؤلاء النسوة؟

. . .فقال: هذه صفتهن قد جئنا بها

معتدلة الخلق، نقية اللون والثغر، بيضاء قمراء وطفاء كحلاء دعجاء حوراء عيناء قنواء) شماء برجاء زجاء، أسيلة الخد، شهية المقبل، جثلة الشعر، عظيمة الهامة، بعيدة مهوى القرط، عيطاء، عريضة الصدر، كاعب الثدي، ضخمة مشاش المنكب والعضد، حسنة المعصم، لطيفة الكف، سبطة البنان، ضامرة البطن، خميصة الخصر، غرثى الوشاح، رداح الإقبال، رابية الكفل، لفاء الفخذين، ريا الروادف، ضخمة المأكمتين، مفعمة الساق، مشبعة الخلخال، لطيفة الكعب والقدم، قطوف المشي، مكسال الضحى، بضة المتجرد، سموعاً للسيد، ليست بخنساء ولا سفعاء، رقيقة الأنف، غريزة النفس، لم تغذ في بؤس، حيية رزينة، حليمة ركينة، كريمة الخال، تقتصر على نسب أبيها دون فصيلتها، تستغني بفصيلتها دون جماع قبيلتها، قد أحكمتها الأمور في الأدب، فرأيها رأي أهل الشرف، وعملها عمل أهل الحاجة، صناع الكفين، قطيع اللسان رهوة الصوت ساكنته، تزين الولي، وتشين العدو، إن أردتها اشتهت، وإن تركتها انتهت، تحملق عيناها، وتحمر وجنتاها، وتذبذب شفتاها، وتبادرك الوثبة إذا قمت، ولا تجلس إلا بأمرك (إذا جلست

فقرأ زيد هذه الصفة على النعمان، فشقت عليه، وقال لزيد والرسول يسمع: أما . . . في

مها السواد وعين فارس ما يبلغ به كسرى حاجته؟

فقال الرسول لزيد بالفارسية: ما المها والعين؟

فقال له بالفارسية: (كاوان) أي البقر. فأمسك الرسول، وقال زيد للنعمان: إنما أراد الملك كرامتك، ولو علم أن هذا يشق عليك لم يكتب إليك به. ثم كتب (النعمان) إلى كسرى: إن الذي طلب الملك ليس عندي. . . فلما رجعا إلى كسرى. . . قال للرسول: وما قال؟

فقال الرسول: أيها الملك، إنه قال: أما كان في بقر السواد وفارس ما يكفيه حتى يطلب ما عندنا. فعرف الغضب في وجهه، ووقع في قلبه منه ما وقع؛ لكنه لم يزد على أن قال: رب عبد قد أراد ما هو أشد من هذا ثم صار أمره إلى التباب. وشاع هذا الكلام حتى بلغ النعمان، وسكت كسرى أشهراً على ذلك، وجعل النعمان يستعد ويتوقع حتى أتاه كتابه أن أقبل، فإن للملك حاجة إليك. فانطلق حين أتاه كتابه، فحمل سلاحه وما قوى عليه ثم لحق بجبل طي .(. . .

وقد روى ما نقلناه مختصرين أبو الفرج في (أغانيه) في أخبار عدي بن زيد ورواه ابن

جرير الطبري في (تاريخ الأمم والملوك) خبراً تاريخاً لا ريب عنده فيه. وهذه الأسطورة النعمانية مثل الأسطورة البراقية، أحدوثة أخت البراق القائلة أو المقولة: (ليت للبراق عيناً فترى) القصيدة المثيرة المشهورة
(ن)

نشأة المسرح الإنجليزي - 5

(معلومات طريفة كثيرة عن نشأة هذا المسرح)

للأستاذ دريني خشبة

أشرنا في الفصل الأول من هذه الفصول عن نشأة الدرامة الإنجليزية إلى المسرح المتحرك (المتنقل) أو ال ونتكلم في هذا الفصل عن نشأة الفرق التمثيلية، ثم عن المسارح البدائية وأول ما عرفت إنجلترا منها. وقد قدمنا أن رجال الكنيسة هم الذين اضطلعوا أول الأمر بتمثيل الروايات الإنجيلية والدرامات القديسية، وأنهم أصحاب الفضل في تربية الذوق المسرحي وطبعه في وعي الجماهير حتى انتقل زمام التمثيل من أيديهم إلى أيدي رجال النقابات وما قامت به تلك النقابات من مجهود مشكور في تشجيع المؤلفين والممثلين المحترفين، ثم نوهنا بما كان لرجال البلاط الإنجليزي والأمراء والنبلاء وأعيان البلاد من فضل في الأخذ بيد هذا الفن الناشئ ومد رجاله بما يفتقرون إليه من المال الذي لا ينجح مشروع بدونه. ولقد نشأ الاحتراف في المسرح الإنجليزي من ناحيتين، الأولى هي ناحية صبيان الكنائس الذين كان يتألف منهم الخورس أو المنشدون - وقد عنى بتدريب هؤلاء الصبيان على التمثيل منذ نعومة أظفارهم لكي يتفرغوا لأداء الأدوار التمثيلية في مختلف الروايات خصوصاً بعد أن أصبح إقبال الجماهير على مشاهدة التمثيل إقبالاً رائعاً، وما حدث نتيجة لهذا الإقبال من استغلال التمثيل استغلالاً اقتصادياً كانت أول موارده تلك المزادات التي أشرنا إليها سالفاً، والتي كانت تدر على النقابات الأرباح الطائلة. من هنا رؤى انقطاع هؤلاء الصبيان لهذه الحرفة الجديدة التي جمعت بين شرف العمل وشرف الكسب مع صلتها المتينة بالأدب الإنجليزي الذي كان وما يزال نوط العزة على صدر كل أديب في إنجلترا. أما الناحية الثانية التي نشأ عنها الاحتراف فهي تلك النقابات التي تكلمنا عنها آنفاً. هذا، وقد تألفت بعد ذلك جماعات من أولئك المحترفين كانت باكورة (الفرق التمثيلية) في إنجلترا، وكانت كل جماعة تتمتع برعاية أحد النبلاء حتى لا تقع تحت طائلة قانون (المتشردين!) وذلك لكثرة تقلبهم في البلاد، وتنقلهم من قرية إلى أخرى، ولأن الحكومة الإنجليزية لم تكن قد اعترفت بعد اعترافاً رسمياً بهذه الحرفة الجديدة، فكان أفراد الفرقة من هذه الفرق يجيئون ويروحون تحت اسم: (خدم فلان من اللوردات أو الدوقات أو
رجال البلاط!) حتى يكونوا بنجوة من معاكسات رجال الإدارة (!) ومشاكستهم، فهذه فرقة (خدم الأيرل أوف ليستر)، وتلك فرقة (خدم البلاط الملكي)، وهذه فرقة (خدم دوق أوف سومرست)، وهكذا. . . والحقيقة أنه لم تكن ثمة أية علاقة بين هذا الدوق أو ذاك الأيرل، وبين الفرقة التي انتحلت لنفسها رعايته انتحالاً. ولقد كان المسرح الأول الذي تؤدي فيه الدرامة، هو إما بهو من أبهاء البلاط وإما رواق من أروقة قصور الأمراء أو النبلاء أو عظماء الشعب، فإن لم يوجد هذا أو ذاك ففي بهو من أبهاء الفنادق، أو في أحد أروقة جامعتي أوكسفورد وكمبردج. على أن أبهاء الفنادق كانت أحفل الجميع بالتمثيل المنتظم المستديم - في جميع أيام الأعياد بالطبع - لأنها لم تكن أبنية خاصة كقصور الملوك أو الأمراء مثلاً، ولذا كانت أقرب إلى الارتياد الحر وأيسر إلى أفراد الشعب من غيرها. وكانت فنادق المدينة تبنى كلها في موضع واحد منها حول ميدان، أو ساحة كبيرة تنتظر فيها العربات والدواب، وما إلى ذلك من وسائل النقل والحمل؛ فكانت شرفة الفندق الأوسط تستعمل مسرحاً، ويقف النظارة من أفراد الشعب في الساحة أو الباحة أو الميدان. أما السفر من نزال الفنادق فكانوا أسعد حالاً؛ إذ كانوا يجلسون في عظمة وإدلال وأبهة في شرفات غرفهم فوق الأرائك والكراسي الفخمة، حيث يطوف عليهم الخدم بالأطايب والأشربات. ولم تكن المناظر المسرحية قد عرفت بعد، بل كانت تحل محلها (سبورة)! يكتب عليها بالخط الكبير اسم المنظر الذي يجب أن يتوهمه النظارة توهما، فيكتب مثلاً: (هذه قلعة جلوم!) أو (هنا غابة آردن!) وهكذا. . .

أما كيف أنشئ المسرح الأول فلذلك سبب عجيب مضحك في آن معاً. . . ويجب قبل إيراده الرجوع قليلاً إلى التاريخ الاجتماعي لإنجلترا، وإلى هذه العصور التي كانت (مسز جراندي!) رمز الحفاظ والتمسك بأهداب التقليد والآداب المرعية تتحكم في المجتمع البريطاني تحكما جباراً لا يسهل الفكاك منه. . . ويجب كذلك أن ننذكر ذلك الروح الطهرى الذي كان يسود الحياة في المدن الإنجليزية عامة، ولندن - أم القرى! - على وجه الخصوص. . . ذلك الروح المتزمت الرجعي الذي كان يضيف التمثيل إلى شعبذات المهرجين ومساخر الحواة وأكلة الثعابين ومروضي الوحوش ومراقصي الدببة والقرود ومصارعي الثيران، ومن إلى هؤلاء جميعاً من سائر البهاليل (!!). . . هذا الروح الطهري

هو الذي دفع محافظ لندن إلى محاربة التمثيل والممثلين بالقوانين. . . فأصدر تشريعاً صارما يخطر على رجال النقابات والفرق التمثيلية غشيان أبهاء الفنادق إلا بتصريح خاص - قلما كانوا يحصلون منه على هذا التصريح - كما حضر عليهم التمثيل في الميادين والطرقات العامة أو المتنزهات التي ما جعلت في زعمه إلا للراحة والترفيه عن الشعب اللاغب المتعب من عناء العمل؛ وكذلك حضر عليهم التمثيل مطلقاً أيام الآحاد. . . ولم يشأ رجال الفرق أن يشاغبوا جبروت هذا التشريع التعسفي، بل آثروا السلامة، وانتقلوا بقضهم وقضيضهم إلى الضفة الجنوبية من نهر التيمس، حيث لا سلطان لهذا المحافظ الجاهل ولا لتشريعه الخانق عليهم. وهناك استأجر جيمس بربيدج قطعة من الأرض في بلاك فرايرز لمدة إحدى وعشرين سنة وأقام عليها (تركيبة!) من الخشب سنة 1576 أطلق عليها اسم (التياترو) فكان هذا أول المسارح الإنجليزية التي مهدت لأعظم مسارح العالم

ثم أنشئ قريباً من هذا المسرح فيما بعد مسرح الكرتين (الستار الذي اشتغل به الشاعر الكبير بن جونسون ممثلاً بسيطاً في صدر شبابه. ولم يكن الكرتين يتمتع بالسمعة الطيبة التي كان يتمتع بها المسرح الآخر، بل كانت العلية تصد عنه وتعتبر الذهاب إليه نقيصة أدبية. . . والظاهر أ، هـ لم يكن يعرض إلا الدرامات الثانوية (روايات الدرجة الثالثة!)، وذلك بالرغم من أنه أخرج درامة شيكسبير الخالدة (روميو وجولييت) سنة 1596. وكانت أجرة الدخول في هذا المسرح بنساً واحداً يضاف إليه بنس آخر لمن أراد كرسياً في الأبهاء أو فوق المسرح

ومن المسارح الأخرى التي أقيمت بعد هذين المسرحين الروز (الوردة) والسوان (البجعة)، قريباً من السوان كان يوجد ملعب البير جاردن حيث كان الناس يستمتعون بمشاهدة مروضي الوحوش، وتقاتل هذه الوحوش نفسها ضد بعضها. . . أما مسرح السوان فكان يمتاز من مسرح الجلوب العظيم (الذي سيلي وصفه) بما كان فيه من مسرح إيضافي لتمثيل الروايات التي من طراز (هملت)، وحجرة نوم للروايات الت يمن طراز عطيل حيث تنام ديدمونه، وكان به شرفة لتمثيل روميو وجولييت، كما استعملت فيه الستار لأول مرة لقسمة المسرح وذلك لتبديل المناظر. وكان يحتوي غرفة للممثلين خاصة تتصل

بالخشبة بباب فلا يراهم النظارة حين ينتهون من أداء أدوارهم - ومن الظريف أن حجرة الممثلين هذه كانت بأعلى التياترو!، وكان لها سلم لولبي لكي لا يشغل حيزاً كبيراً، كما كانت إلى جانبها حجرة المؤذنين الذين يدقون الطبول إيذاناً ببدء التمثيل. وكان الصوان كبيراً جداً بحيث يتسع لثلاثة آلاف من المتفرجين!

ونعود إلى المسرح الأول - التياترو فنذكر أنه لما رفض صاحب الأرض تجديد عقد الإيجار، اضطر بربيدج إلى فك أخشاب مسرحه ونقلها مع جميع أدواته الأخرى إلى الشاطئ الآخر من النهر، في سوثوارك حيث أنشأ مسرح الجلب العظيم سنة 1598 - وكان عمر شيكسبير إذ ذاك أربعا وثلاثين سنة بينما كان عمره عند إنشاء المسرح الأول اثنتي عشرة سنة فقط

أما هذا المسرح الثاني (الجلوب)، فقد كان من خارجه سداسي الأضلاع، أما من الداخل فكان مستديراً، ولم يكن مسقوفا إلا من فوق أبهائه التي كانت تذكر بأبهاء الفنادق، وكانت هذه مغطاة بنوع من القش المعروف عندنا بالسمار، وهو الذي تصنع منه الحصر؛ أما البت - أي خشبة المسرح، فقد كان موضعها في الوسط على ارتفاع أربعة أقدام، ولم تكن حولها مقاعد من نظارة الذين كان شيكسبير يسميهم وكان

عليهم أن يقفوا طول وقت التمثيل - أما نظارة الأبهاء (البناوير والألواج) فقد كانت لهم مقاعد خشبية، كما كانت توجد مثل هذه المقاعد أيضاً فوق خشبة المسرح نفسها، وكان فرق ما بين الواقفين والجالسين هو أن يدفع هؤلاء ستة بنسات أكثر على أن يسمح لهم بشرب الجعة (البيرة) والتدخين بالغلايين. وكانت هذه الطبقة المنتفخة الممتازة تسمى طبقة ال وكان منها عدد من الشباب الظريف المثقف يجلس هناك مجلس الصحافي المسرحي، لينقد المناظر والإخراج وأداء الممثلين في فترات الاستراحة بين الفصول. وكان التمثيل يبدأ عادة حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر، وكانت تسبقه ثلاث دقات تنبيهية بالطبلة النحاسية (الترمبيته) وكانت البرامج تطبع بالمداد الأحمر إذا كانت التمثيلية مأساة، وإلا فبالمداد العادي. ولم تكن هناك أية مناظر في أول الأمر. ولم تكن ثمة أية عناية بالتوزيع الضوئي. وكانت السبورة أو لوحة الإعلانات تقوم مقام المناظر بكتابة أسمائها عليها كما ذكرنا. ولشارلز لامب في ذلك تسجيل أدبي رائع من شعره الظريف. وكانت الأدوار النسائية تسند إلى ولدان من ذوي الجمال في الجسم والوجه والصوت. وكان لكل فرقة بهلول (بلياتشو!) يشعبذ في فترات الراحة بين الفصول، فكان أحياناً يغني أو يشهر ببعض الشخصيات التي يثير التشهير بها كثيراً من الضحك بين النظارة، كما كان يعلق بأسلوب فكه على أهم حوادث اليوم. فإذا انتهى الممثلون من آخر فصول الدرامة اجتمع كل أفراد الفرقة في ركن من أركان المسرح، ثم ركعوا تحية للملك والملكة، وهو ما يشبه السلام الملكي اليوم. . .

هذا، وقد بدئ باستعمال المناظر المتحركة بعد النهضة الإصلاحية، وكان الفضل في استعمالها لسير وليم دافنانت وكذلك حل النساء محل الولدان في تمثيل الأدوار النسائية سنة 1661. ذاك وقد كان لكل مسرح من المسارح الإنجليزية علامة مسجلة؛ فعلامة الجلوب صورة للبطل اليوناني الخرافي الجبار هرقل حاملاً بيديه المريدتين كرة أرضية، وكان على مقربة من الجلوب مسرح البلاك فرايرز، وكان شكسبير يؤلف دراماته لهذين المسرحين خاصة، كما كان يساهم في التمثيل وفي الأرباح على السواء. وقد كان الجلوب هو المسرح الصيفي، أما الآخر فكان مسرح لندن الشتوي العتيد، وبذلك امتاز عن الجلوب الذي كانت المسارح الأخرى تنافسه منافسة شديدة، ولا سيما مسرح الفورشون (الحظ) الذي أنشئ سنة 1599 لمنافسة شكسبير. وكانت كل هذه المسارح الصيفية ما عدا الفورشون قائمة وسط مستنقعات كبيرة، وكان المتفرجون يصلون إليها فوق جسر طويل. وقد حدث في سنة 1613 أن شب حريق كبير التهم المسرح العتيد كله، ولم يلبث صاحبه أن جدده في السنة التالية. وقد انتهز الفرصة فاستبدل بالخشب الملاط، وبقش السار الإردواز، واصطنع خشبة المسرح من ألواح السنديان، كما خص الممثلين بغرفة كبيرة خلفية يستجمون فيها، وزاد في عدد الأبهاء (البناوير) فجعلها ثلاثة صفوف بدل صف واحد. وقد كلفه المسرح الجديد ثمانين وثمانمائة من الجنيهات قيمتها الآن ثمانية آلاف. ذاك وقد كثر عدد المسارح في أواخر عهد الملكة اليزابث داخل لندن نفسها، فكان ثمة مسرح الكوك بت أو الفونكسن ومسرح الردبول. . الخ. وقد أحصيت هذه المسارح فكانت أحد عشر مسرحاً. على أن المنافسة الشديدة الحق كانت بين اثنين منها فقط، وهما: الجلوب وكانت تحت رعاية اللورد تشمبرلن، والفرشون وكان تحت رعاية اللورد أدميرال؛ وكانا كلاهما يتمتعان برعاية الملك المباشرة. وكان من هذه المسارح ما هو خاص وما هو عام. وكانت الهيئة التي تشرف على المسارح الخاصة، مثل الكوك بت والسالسبري والبلاك فرايرز، هيئة منتقاة يراعى في اختيارها شرائط لا داعي لذكرها هنا. وكانت المسارح الخاصة على العموم أصغر بكثير من المسارح العامة كالجلوب والفرشون والردبول، كما كانت مسقوفة دائماً ليستمر التمثيل فيها طول العام، بعكس المسارح العامة التي كانت مكشوفة الوسط لاتساعها، ولم يكن يستمر التمثيل بها غير أشهر الصيف، من ثلاثة أشهر إلى خمسة. أما في الشتاء، وهو سبعة أشهر تقريباً، فقد كان الضباب الكثيف يحول دون التمثيل فيها، خصوصاً والمشاعل لم تكن قد استعملت بعد. وقد اقتبست المسارح الإنجليزية في أوائل القرن السابع عشر وسائل المسرح الفرنسي الآلي في إخراج المناظر المختلفة. وكانت وسائل فجة غير رائعة، وكانت تستعمل في إبراز الغابات أو القصور أو المدن، كما أخذت عن المسرح اليوناني القديم طريقة

الستار الأسود في أقصى المسرح إذا كانت التمثيلية مأساة. . . على أن هذا النقص في الإخراج كانت تستره مكتبة المسرح، إذ كان لكل مسرح مكتبة محترمة تتألف من أصول الدرامات التي يقوم بعرضها، ثم من مئات من أمهات الكتب التاريخية والمسرحية والأدبية، ولم تكن المكتبة حبساً على الممثلين، بل كان الشعب ينال منها نصيباً لا بأس به من الاطلاع. وقد تضاعفت هذه المكتبات بعد نشاط الطباعة وتقدم وسائلها الحديثة، وصار المؤلفون المسرحيون يعنون بطبع دراماتهم والوقوف على طبعها بأنفسهم. ولم يكن أحسن مسارح لندن يشتري من أحسن هؤلاء المؤلفين حق تمثيل إحدى دراماته بأكثر من ثمانية جنيهات (تساوي الآن ثمانين!)، وكان أصحاب الفرق يستغلون المؤلفين استغلالا دنيئاً، فكان المؤلف الفقير يقترض من مدير إحدى الفرق مبالغ تافهة على أن يقدم بها درامة أو درامتين، فإن عجز عن السداد دخل الربا بين الطرفين، وظل المؤلف مستعبداً إلى الأبد. على أن عدداً قليلاً من المؤلفين استطاع أن يقف من هؤلاء المديرين موقفاً حازما، إذ استطاعوا أن تكون لهم حصتهم في ميزانية المسرح، وعلى رأس هؤلاء مارلو وبن جونسون شكسبير وكان النساء محرومات من غشيان المسارح بادئ الأمر، فلما خفت وطأة المسز جراندي، أخذن في الاختلاف إليه حتى أصبحن عنصراً هاما فيه. . . ممثلات ونظارة!

(يتبع)

دريني خشبة

المشكلات

اللغة العربية - 7

للأستاذ محمد عرفة

لماذا أخفقنا في تعليمها؟ - كيف نعلمها؟

لقد استغللنا ما استنبطناه من علم يتعلق بتعليم اللغة في تعليم اللغة العربية وفي تعليم اللغة الإنكليزية وفي تعليم اللغة الفرنسية وأصبح في استطاعتنا أن نتقي الإخفاق في تعليم اللغة الإنجليزية والفرنسية، وأن نتقي هذا الرسوب الذي يمني به تلاميذنا في آخر كل عام دراسي في هاتين اللغتين والذي يبلغ في بعض السنين 78 % ووهبنا للتلاميذ أعماراً بقدر الأعوام التي وقيناهم فيها الرسوب والتي كانوا يرسبون فيها لولا أخذهم بهذا المنهج الجديد، ونفينا عنهم وعن أهاليهم ذلك الحزن الذي كان يستولي عليهم في آخر كل عام دراسي بهذا الرسوب. ووفرنا على أهاليهم تلك الأموال التي كانوا ينفقونها في إعادة الأعوام التي رسبوا فيها. ومن ذلك يعلم أن الباب الواحد من العلم إذا استغله أهلوه كان عظيم البركة جليل النفع، وربما كان أجدى على الأمة والأفراد من كثير من الخيرات المادية

ولسنا نستغل هذا الباب من العلم في تعليم اللغات فحسب بل سنستغله في كثير من مشكلاتنا الأخلاقية والاجتماعية والسياسية فيرى كيف يعظم نفعه، وتجل بركته، وكيف يجلب من الخير مالا يدركه الوهم، ولا يحصيه العد

وهذا وأمثاله هو الذي جعلني أومن بالعلم وأعظمه وأجله، وأرى أنه ما من خير للأفراد والأمم إلا وهو مصدره، وما من شر يصيب الأفراد والأمم إلا وللجهل يد فيه ظهرت أو خفيت

لعل قائلاً يقول: إنك آمنت بالملكة في كسب اللغة العربية إيماناً لا تزعزعه الشكوك، وظننت أنها تفيد في كسب العربية كما تفيد في كسب اللغة الإنجليزية والفرنسية، ولم تفطن إلى ما بين اللغة العربية وسائر اللغات من فارق

إن اللغة العربية كثيرة الأحكام، متشعبة الفروع، فلا تستقل الملكة بضبط هذه الأحكام الكثيرة، ولا يضبطها إلا العلم المفصل بالقواعد والقوانين، وسأضرب مثلاً (لا) العاملة عمل إن، فإن شرط عملها هذا العمل

1 - أن تكون نافية

2 - وأن يكون المنفي الجنس

3 - أن يكون نفيه نصاً

4 - ألا يدخل عليها جار

5 - أن يكون اسمها نكرة

6 - أن يكون متصلاً بها

أن يكون خبرها نكرة - فإن كانت غير نافية رفع ما بعدها، وإن كانت لنفي الوحدة عملت عمل ليس نحو لا رجل قائماً بل رجلان، وإن دخل عليها الخافض خفض ما بعدها نحو جئت بلا زاد، وإن كان الاسم معرفة أو منفصلاً منها أهملت نحو لا الدار دار ولا الجيران جيران، ونحو لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون

هذه أحكام كثيرة ولا يسعف بها إلا معرفة القواعد، فأما الملكة فلا تستطيع الاهتداء إلى هذه التفاصيل

ونحن نقول لهذا القائل إنك أسأت الظن إذ ظننت أن الملكة لا تهتدي إلى الفروق الخفية والمداخل المتشعبة، أنها أهدى من القطا، وإن الإنسان يطمئن إليها في الهداية إلى ما يشتجر من الأحكام. إنها تهدي المرء إلى الصواب الجاري على القواعد وإن لم يعرف القواعد. أنظر إلى الهمزات في علم الرسم كيف يكتب المرء يئد على ياء، ويأمن على ألف، ويؤمن على واو، تهديه ملكته التي اكتسبها بالمرانة والتكرار وإن لم يعلم القاعدة أو لم يستحضرها

وكذلك الألفات ما يكتب منها ألفاً وما يكتب منها ياء، فيكتب المرء رمى بالياء ودعا بالألف كأن في منطقة اللاشعور فينا عالماً يعلم أن رمى أصلها الياء فتكتب ياء، ودعا أصلها الواو فتكتب ألفاً، ويكتب أغزى بالياء كأن عالماً فينا يعلم أنها وإن كان أصلها الواو إلا أنه لما قيل فيها أغزيته كتبت ياء

يعجب المرء كيف تهدي الملكة إلى الحق كأنما تستملي من قواعد مكتوبة، وتمتاز الملكة

عن القواعد بالسرعة التي لا يبلغها الرجوع إلى القواعد. ولقد بلغ من اهتداء الملكة أنها تكتب المطرد على حسب القاعدة، والشاذ على ما قيل من شذوذ، فهي تكتب داود بواو واحدة، وتكتب بعمرو بواو بعدها، وتكتب مائة بألف زائدة وإن لم تكن في هجائها

فإذا كانت هداية الملكة ما ذكرنا في الكتابة فلا عجب أن تهدي مثل هذه الهداية في الكلام

قال أبو الفتح عثمان بن جني م392 في كتابه الخصائص: سألت الشجري يوما فقلت له: يا أبا عبد الله! كيف تقول: ضربت أخاك، فقال: كذاك. فقلت أفتقول ضربت أخوك؟ قال لا أقول أخوك أبداً. قلت: فكيف تقول ضربني أخوك؟ فقال: كذاك. فقلت ألست زعمت أنك لا تقول أخوك أبداً؟ فقال: إيش ذا؟ اختلفت جهتا الكلام. نقل أبو الفتح هذه الحكاية في باب عنوانه أن العرب قد أرادت من العلل والأغراض ما نسبناه إليها وحملناه عليها. واستدل بها على أن العرب كانت تعرف قواعد النحو والصرف، ورأى أن ما قاله الأعرابي نظير قول النحاة: صار المفعول فاعلاً

وليس ما ذهب إليه ابن جني من الاستنتاج صحيحاً، فهذا العربي لم يكن يرجع إلى القواعد، وإنما كان يرجع إلى ملكته يستشيرها ويستهديها فنبت ملكته عن ضربت أخوك، ولم تنب عن ضربني أخوك، كما تنبو ملكة الكاتب عن كتابة الهمزة في يئد بالواو وفي يؤمن بالياء، وإن لم يعرف القاعدة ولم يستشرها

لعلنا بذلك قد طمأنا الذين يشفقون على اللغة من أن يكلوها إلى الملكة، ويرون أن الملكة لا تكفي هادية، لأن مذاهب العربية مختلطة متشعبة قريب بعضها من بعض، لا يفرق بينها إلا العقل الواعي والعلم البصير. وقدمنا من الأدلة ما يدل على أنهم إذا وكلوها إلى الملكة فقد وكلوها إلى حفيظ أمين

فليتأمل هؤلاء الذين يصدون - أو سيصدون - عن طريقتنا فيما نحاول، أننا نحاول كسباً جديداً للغة العربية، فبدل أن نقتصر على علم قواعدها تكون لنا ملكة وهيئة راسخة من هيئات نفوسنا وجزءاً من كياننا، وتكون هذه الملكة دعامة لفهم اللغة وتذوقها، ولفهم قواعدها وأصولها دون جهد أو عناء

ليعلم هؤلاء الذين يحبون النحو والصرف وقواعد البلاغة، أننا نحب النحو والصرف وقواعد البلاغة أكثر منهم حين ندعو إلى تعليم اللغة بأسلوب يكون ملكة اللغة في نفوس

أحمد أبو زيد

ومنذ أسبوعين حدثني الدكتور طه حسين بك أنه سيعنى بشعرك عناية خاصة بعد رجوعه من لبنان، وأعتذر بكثرة مشاغله التعليمية التي حالت من دون جوابه السريع.

وكل ما أرجو ألا تغيب عن قراء (الرسالة) الذين طال شوقهم إليك
عبد القادر جنيدي
تصويب
وقعت أخطاء مطبعية في مقال (أعداء النساء) المنشور بالعدد (532) من الرسالة
الغراء تصويبها فيما يأتي:
بَحَوْرَة - وصوابها: حبل الجورة
خصومة بهم - (خصوصة بهم
مما، وزل - (مما فرط من قول وزل
أو التي ينشرن - (أو اللاتي
العدد 537 - بتاريخ: 18 - 10 - 1943
وهل يشكو من يستطيع القول بأن له تلاميذ هم الدرة الغالية في تاج الوجود؟
زكي مبارك
العدد 538 - بتاريخ: 25 - 10 - 1943